الفهرس

قالوا ...

- رجل يعمل خير من عشرة آلاف يقولون (جوته)
- يمكننا أن نأخذ بالمسالمة ما لا يمكن أن نأخذه بالقوة . (والتر سكوت)
- إن الفلسفة : ما صعدت بصاحبها إلى عنان السماء . (شكسبير)
- الدنيا مسرح والناس ممثلون . (شكسبير)
- يجب ألا تدنو من الجمال والنبوغ كثيراً إذا أردت ألا تكون عبداً لأحدهما . (جوته)
- لولا الموت لكان أقل الناس عقلاً أكثرهم سعادة . (مزنى)
- إهانة الشرف لا يمحوها الاستغفار . (شكسبير)
- ليس فى السماء ما هو أرق من قلب المرأة حين تدخله الرحمة . (مارتن لوثر)
- الجهل لعنة من الله والمعرفة جناح تطير به إلى السماء . (شكسبير)
- نستطيع جميعاً أن نفعل بعض الخير ... إذا أردنا . (ديكنز)
- حياتنا أحلام تنتهى برقاد الموت . (شكسبير)
- أعظم الأسباب لدفع إساءة المسىء عنك هو أن تنسى إساءته . (لورد تنيسون)
- إن الشىء المفزع حقاً ليس الموت .. إنما هو الحياة التى لا تصحبها آمال . (تولستوى)
- العتاب يلسع كالنحلة ، ولكنه لا يعطى عسلاً . (توكر)
- لا يمكن للإنسان أن يكون فيلسوفاً ومعدته فارغة . (اليوت)
- المرأة الجميلة جوهرة ، والمرأة العاقلة كنز . (مارتن لوثر)
- يقولون إن الطمع رذيلة ، أما أنا فأقول إن المرأة أرذل من الطمع بكثير . (برنارد شو)

جمع : نبيل محمد

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٢٨ — الاثنين ٢٩ من ربيع الأول سنة ١٣٧٠ — ٨ من يناير سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

مستقبل الصين

صياد

خرجت الصين من صراع الحرب العالمية الثانية ، وهى إحدى الدول الخمس العظمى التى لها العضوية الدائمة فى مجلس الأمن ، والتى لها حق « الفيتو » ، أى حق الاعتراض على قرارات المجلس وتعطيلها . ولم تكن قوة الصين العسكرية هى السبب فى حصولها على هذه المكانة الملحوظة ، بل كانت هناك عوامل وأسباب أخرى ليس هنا مجال الحديث عنها .

كانت الصين أضعف زميلاتها جميعاً يوم أن خرجت من الحرب ، ولكن مقوماتها كدولة وإمكانياتها المختلفة كانت مما ينظر إليه بعين الاعتبار ؛ ثم جرت الأمور بسرعة واستطاعت الصين فى فترة وجيزة أن تظهر كقوة حربية يحسب حسابها . وليس يبعد أن تسترد الصين مكانتها التاريخية الممتازة قبل نهاية القرن العشرين ، فتصبح ولها فى الشرق الأقصى الزعامة والنفوذ . وليس هناك ما يحول دون وصولها إلى هذه الغاية إلا ما عرف عنها من اضطراب الأحوال الداخلية منذ بداية هذا القرن . فلو استقرت الحال وتوقفت الحروب الأهلية لاستطاعت الصين أن تلعب دوراً خطيراً فى السياسة العالمية ، ذلك لأن لها كل المميزات التى تجعل من دولة ما قوة سياسية ثابتة الأركان .

وتكون الدولة مثالية لو توافرت لها المساحة الواسعة ، والحدود الطبيعية المنيعة ، وسهولة الاتصال بالخارج ، والمظاهر الطبوغرافية التى لا تعرقل الاستغلال ، والثروة المعدنية الكافية ، والمناخ الصالح للسكنى وللإنتاج الزراعى ، والأيدى العاملة الموفورة ؛ هذا كله فضلا عن الوضع الجغرافى المناسب .

هذه العوامل وإن اختلفت فى أهميتها النسبية إلا أن لكل منها دوراً يلعبه فى شئون الدولة الداخلية ، أو فى علاقاتها الخارجية ، ولعل أهم هذه العوامل جميعاً هى الوضع الجغرافى والموارد الاقتصادية ، ثم القوى البشرية ، فكلها لها آثارها فى استراتيجية السلام والحرب معاً ، وهى عوامل تؤثر فى السياسة القومية سواء بطريق مباشر أو غير مباشر .

وقليل من الدول هى التى تكاملت فيها هذه العوامل أو قربت من التكامل ؛ والصين من هذا القليل ، فهى دولة تبلغ مساحتها نحو أربعة ملايين وربع مليون من الأميال المربعة ، أى أكثر من مساحة القارة الأوروبية كلها ، ولو لم تكن الصين بهذه الضخامة فى المساحة لما استطاعت أن تقف للغزو اليابانى ، إذ أن المساحة الواسعة

تساعد على الدفاع « العميق » ، أى الدفاع باستدراج القوى الغازية لتتعمق فى داخل البلاد ، وبذلك تطول خطوط إمداداتها ويصعب عليها حماية هذه الخطوط . وتشارك الروسيا الصين فى هذه الميزة الفريدة وقد أفادت منها قديماً فى حروبها مع نابليون ، وأفادت منها أخيراً فى حربها ضد هتلر . ولو أننا أسقطنا من حسابنا « الصين الخارجية » ، أى منغوليا وسنكيانج والتبت ، فإن الصين الأصلية تظل دولة شاسعة المساحة تصل مساحتها إلى مليونين من الأميال المربعة . ومع أن المساحة الواسعة ليست دائماً مرادفة للكفاية الذاتية ، إلا أن الصين كانت حسنة الحظ من هذه الناحية ، فوجدت فى بيئاتها المتعددة ، الأنواع المختلفة من الموارد الاقتصادية . غير أن اتساع الأراضى لم يخل من جانب سيء ، إذ ترتبط به مشاكل المواصلات والربط بين السكان المختلفين فى الدولة المترامية الأطراف .

ولقد أدت عزلة الصين النسبية قديماً إلى خلق ثقافة موحدة إلى حد ما ، ولكن هذه الثقافة لا يزال ينقصها الكثير من مظاهر التجانس ، وهذا يرجع فى المقام الأول إلى الفروق البيئية الواسعة ، ثم إلى صعوبة الاتصال بين هذه البيئات ، ولا بد من العمل على تحسين وسائل المواصلات حتى تتكامل الصين وحدتها الثقافية .

وفى غير الصين نجد أن معظم مشاكل الدولة السياسية مما يرتبط بحدودها بشكل ما ، كما هى الحال فى وسط أوربا وشرقها ، ولكن الصين تتمتع بحدود طبيعية ممتازة ، واضحة المعالم ؛ فيفصلها عن الهند سلاسل من الجبال عالية ، ويفصلها عن أراضى الاتحاد السوفييتى صحراء جوبى الجدبة . ولا تضعف هذه الحدود إلا فى الشمال الشرقى ، حيث تبرز الأراضى المنشورية على شكل قطاع فى أراضى الاتحاد السوفييتى فى المنطقة بين بحيرة بيكال وفلاديفستك .

والصين ساحل طويل يمتد لمسافة أربعة آلاف ميل أى نحو ٣٠ ٪ من طول حدودها البرية والبحرية معاً ، وهو ساحل وإن يكن قليل الفجوات الصالحة لقيام الموانى ، وخاصة فى الأجزاء الشمالية منه ، إلا أنه لم يخل من موانى ممتازة . والصين تاريخ مذكور فى الحركات البحرية القديمة حيث كانت مراكبهم فى القرن الأول الميلادى تصل حتى جزيرة سيلان . ولكن مع هذا ظلت العقلية البرية هى المتغلبة على الصين فى كل العصور ، خصوصاً وهناك عوامل جغرافية تجعل توجيهها البحرى أمراً ليس سهلاً ولا ميسوراً ، إذ تمتد على طول سواحل الصين مجموعات من الجزر تتحكم فى المياه الإقليمية للسواحل الصينية كجزر الفليبين فى الجنوب الشرقى وجزيرة فرموزا التى تتحكم فى ساحل فوكين ثم جزر « ريوكيو » « لتشو » وقد كانت من الممتلكات الصينية ثم آلت إلى اليابان فى أواخر القرن التاسع عشر ، كذلك تحول شبه جزيرة كوريا والولايات البحرية من الاتحاد السوفييتى دون الاتصال ببحر اليابان . ومن ثم فلكى تكون الصين دولة بحرية قوية لابد لها من السيطرة على هذه الخطوط الخارجية من خطوط الحماية والدفاع .

والصين بلاد جبلية فى جزء كبير من أراضيها . ولمثل هذا المظهر من مظاهر السطح أهميته من الناحية العسكرية ، وقد أفادت الصين منه كثيراً أثناء الحرب الصينية اليابانية فكانت مظاهر السطح المتضرس مما يعوق حركات الغزو . ولكن هـذا المظهر من ناحية أخرى يعطل قوى الإنتاج الداخلية ، ويضعف من الاقتصاد القومى فى ناحيتيه الرعوية والزراعية .

ومناخ الصين من طراز يلائم النشاط البشرى ويشجع عليه ؛ فهى ليست شديدة الحرارة فى الصيف ، ومعظمها مما لا تشتد برودته فى الشتاء ، وهو مناخ يصلح لإنتاج كثير من الغلات الزراعية ؛ ومن ثم كانت بلاد الصين من أقاليم الغنى والوفرة ، لولا أنها مزدحمة السكان إلى حد يلتهم كل ما ينتجه الفلاح الصينى المثابر من غلات .

ولا تزال الصين معدودة من البلاد الزراعية ، ولكن لها من مواردها المعدنية ما يجعل من السهل تصنيعها لو وجهت هذا الاتجاه . فهى وإن تكن فقيرة فى زيت البترول ، إلا أنها غنية بالفحم غنى فائقاً ، ومعادنها وإن تكن قليلة فى كميتها ، إلا أنها كثيرة التنوع ، وهى على العموم مما يكفى قيام الصناعة ، وليس هناك ما يحول دون أن تصبح الصين شبيهة بغرب أوربا أو بالولايات المتحدة الأمريكية .

وثروة الصين من الأيدى العاملة ثروة هائلة ، حتى إنها تحتل أغنى جهات العالم من هذه الناحية ، ولكن هذه الثروة تنقصها الروح الصناعية ، غير أن خلق مثل هذا الروح أمر ليس مستحيلا . ومن قبل خلقت هذه الروح فى

العرب ووحدة البحر الأبيض (*)

— ١ —

ترجمة الأستاذ محمد عبد الحليم محمود

إن الحالة الحاضرة للسياسة العالمية سوف تبدو دوراً شائقاً من أدوار تاريخ إنسانيتنا الشقية إذا لقيت من بين المؤرخين من ينظر إليها في جرأة نظرة الباحث المجرد من الميول، كما لو كان يدرس عصراً من عصور التاريخ القديم.

لقد كانت سنة ١٩١٤ خاتمة مرحلة عظيمة من مراحل التاريخ. وها نحن الآن نشاهد الاضطرابات التي تؤذن ببداية مرحلة جديدة، بل نشارك — آسفين — في هذه الاضطرابات؛ فالعالم كله مجال لها، والتاريخ لم يشهد أزمة كأزمتنا الحاضرة منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية، ومنذ الأزمة التي أعقبت عهد النهضة الأوربية المجيد.

فهل نستطيع بعد ذلك أن نقول إن تلك الأحداث الخطيرة قد وجدت في عصرنا الحاضر رجالاً يستطيعون الوقوف في وجه الأزمة القوية؟.. فأما فيما يتعلق بالمستقبل، فعلينا أن نكون متفائلين، وأن نأمل منه خيراً. وأما فيما يتعلق بالماضي، فإني قد شهدت شخصياً خلال السنين الأخيرة بعض الاجتماعات والمؤتمرات الدولية كان الغرض منها تقرير مصير الملايين من بني الإنسان، والحق أقول: لقد هيئ لي في تلك المناسبات — واسمحوا لي أن أستشهد بالشعر العربي — أن « السياسة » كانت تقول للحكمة هذا البيت الرائع الذي أنشده الشاعر العربي صاحبته:

« وكثير لديّ منك القليل ... »

فيجب إذاً على الكتاب جميعاً أن لا يخونوا الحقيقة، وأن يساهموا بكل تجاربهم، وبكل قواهم الفكرية، في إقامة عدالة جديدة وسط سلام جديد، على أنقاض الأزمة التاريخية التي تعذب إنسانيتنا المجهدة، وفي أعقاب الشقاء الذي جلبه ذلك التطاحن الأليم.

وإني هنا أنتقل بالبحث خلال الزمان والمكان لأدرس أشياء تتعلق بالقرون الوسطى. لكن الواقع أننا في قرننا

(*) بحث قدمه الأستاذ إنريكو شيرولى إلى مركز دراسات السياسة الخارجية بباريس، في ٨ يوليو سنة ١٩٥٠، وسننشر ترجمته هنا تباعاً نظراً لأهميته.

اليابان، وكان ذلك أساس نهضتها الحديثة، وليس ببعيد أن تبذل الصين الجديدة جهدها في هذا المضمار، خصوصاً وأن أمامها الكثير من الأعمال الضخمة، كبناء الطرق وضبط الأنهار وتحسين الإنتاج الزراعي والتوسع في الميدان الصناعي. وستجد الصين في ملايينها العديدة معيناً لا ينضب يمدها بالقوى البشرية اللازمة لكل أعمال الإنشاء والتعمير.

وليس موقع الصين في الدرجة الأولى فيما يتصل بالتجارة الدولية، ولكنه موقع ممتاز بالنسبة إلى الأسواق التجارية الواسعة المحيطة بها، إذ لا يوجد في الإقليم الواسع الممتد بين الهند وأستراليا وسيبريا السوفيتية دولة تستطيع أن تنافس الصين سوى اليابان، وهي وإن تكن قد سبقت الصين في نهضتها، إلا أنها خرجت مضعضعة من الحرب ولا تزال أمريكا تحول دون استعادتها لمركزها.

ولقد حدثت تغيرات واضحة في تجارة الصين الخارجية، فبعد أن كانت دولة تعمل على أن تكفي نفسها بنفسها حتى إن التجار لم يكن لديهم ما يمكن أن يزودوا به الصين من البضائع مقابل ما يأخذونه منها من الشاي والحرير، أصبحت الصين سوقاً نافقة للمنسوجات القطنية وتجارة الغزل والكيروسين والسكر والكبريت والأرز وكثير من المصنوعات. غير أن الصين في الفترة بين الحربين عملت على أن تنسج لنفسها الكثير مما تلبس، وعلى أن تزود مصانعها بالكثير مما تحتاج، ونظراً لرخص الأيدي العاملة وجدت هذه المصنوعات سوقها في جهات جنوب شرق آسيا، واستطاعت أن تنافس المنتجات اليابانية منافسة ناجحة.

هذه هي العوامل التي تجعلنا نؤمن بأن الصين دولة لها مستقبل باهر لو أحسن توجيهها، وتمكنت من استغلال الفرص الكثيرة السانحة أمامها. وأيا كان نوع الحكومة المسيطرة عليها، فسوف تلعب الصين في يوم ما دوراً ربما كان خطيراً.

محمد محمود الصياد

العشرين ، قرن الذرة ، فى حاجة إلى تعلم الكثير من أجدادنا الذين عاشوا فى ذلك العصر البعيد. وأسارع إلى القول بأنى لا أدعوكم إلى بعض المناظر الخيالية من حياة هذه القرون ، ولكنى سوف آخذ أساساً لبحثى الواقعى حالة تاريخية مماثلة لحالتنا الحاضرة ، قد تكون مفتاحاً لفهم بعض جوانب المسائل التى تهمنا فى حياتنا اليوم ، والتى نريد — فى شىء من الغرور — أن نصل إلى تفسير وحل لها ...

• • •

فى ذلك العصر ، كان يقوم على ضفاف البحر الأبيض المتوسط عالمان متقابلان متنافسان.

فهل انعدمت الصلة انعداماً كلياً بين حضارتى هذين العالمين ، الغربى والإسلامى ، المتطاحنين فى ميادين السياسة والدين والنظم الاجتماعية ؟.. وهل قام قط بين الشرق العربى والغرب المسيحى فى العصر الوسيط حاجز منيع ، ولا أقول ستار حديدى ؟..

إن بعض الأفكار الشائعة يصعب على الناس التخلص منها ، بل قد قدر لها فى بعض الأحيان أن تبعث من جديد ، برغم أن العلم قد نسخها وقضى عليها منذ أزمنة طويلة ؛ ولقد تحدث أقوام ، وما زالوا يتحدثون ، عن لون من النفور العميق فرّق بين العالمين المتنافسين ، ومَنَعَ التأثيرات الفكرية والتبادلَ الثقافى الخصبَ. ولكننا نستطيع اليوم أن نؤكد — على العكس من ذلك — وجودَ تيارات للتبادل الأدبى والعلمى والفنى بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى فى العصر الوسيط ؛ وأن هذا التبادل ساهم مساهمة أصيلة فى تطور الحضارة الأوربية.

وكلنا نعلم الأثر الذى كان للفلسفة العربية ، ولا سيما فلسفتى ابن سينا وابن رشد ، فى الحركة الفكرية الغربية.

ولكن من ناحية أخرى ، يجب أن لا نقع فى الخطأ العكسى ، وهو أن نتخيل أن الفلسفة العربية جاءت وكأنها إنقاذ إلهىّ تدارك أولئك الغربيين المتأخرين ؛ فقد كان الفكر الأوربى قد مهّدَ لتطوره بعمل طويل متصل ، وكان قد فتح لنفسه بمجهوده الخاص طرقاً كثيرة مختلفة للتقدم. ولن أذكر فى هذا المقام سوى التيار الفكرى الأوغسطينى وأسماء جان سكوت ، وأوريجانس وسانت أنسلم الأوسنى ، وبطرس أبلار. أى أن الفلسفة العربية لم تلق فى الغرب حالة من الخمول الفكرى أو انعدام روح البحث العلمى ؛ ومن الأوهام الشائعة القول بأن العصور الوسطى كانت تمتاز على الأخص بالتمسك بالقديم ورفض البحث فى الموضوعات الجديدة ...

لكن الذى لا شك فيه هو أن ظهور فلسفة أرسطو فى الغرب عن طريق شراح العرب وفلاسفتهم كان الأساس الأول للثورة الفكرية فى هذا العصر. ونحن نعلم اليوم أن المفكرين المعاصرين لهذا التأثير العربى قد قابلوه بكل ترحيب ، ومنهم رجال من أمثال جيوم دوفرنى ، وروجر بيكون.

كان الفكر العربى إذاً يتسرب إلى أوساط الطبقات الحاكمة فى مستهل القرن الثالث عشر ، كما كان يتسرب إلى المدارس والجامعات فى ممالك الغرب المختلفة. فنحن نجده فى بلاط أمراء باليرمو ، وفى جامعة السوربون ، وفى بولونيا ، وفى أوكسفورد ، وهو يصل إلى هذه الأوساط على شكل قوة فعالة ، ويمتد أثره خلال قرنين من الزمان حتى عصر النهضة ، أو عصر الصراع بين أنصار الفلسفة القديمة وأنصار ابن رشد فى « بادوا » فى القرن الخامس عشر.

وقد أثبتت بعض الأبحاث الأخيرة التى ألفت فى موضوع نهاية العالم وأحوال يوم القيامة كما ترد عند المسلمين والنصارى وفى المقارنة بينها — وهو موضوع شائك من الناحية الدينية — أن أهل أوربا من قراء الفلسفة الجديدة فى أوكسفورد وباريس ، كانوا يفسرون الآراء الإسلامية عن الحياة الأخرى ، على نحو يُظْهِر التناقض بين آراء فلاسفة العرب والتصورات الشائعة فى معتقدات العامة من المسلمين. فكان يقال فى الغرب إن جنة ابن سينا أو ابن رشد ليست هى مجموع اللذات المادية التى يطلق عليها العامة اسماً شاملاً هو « جنة محمد ». وقد ذهب بعض المفكرين أمثال جيوم دوفرنى — مطران باريس — إلى إظهار شىء من الجوانب الحسنة فى النبى محمد نفسه ، ورجحوا أن الخرافات التى أطلقت عنه قد دُسَّت عليه فى المخطوطات بسبب الإهمال أو الجهل. كما أننا نجد فى بداية القرن الثالث عشر فيلسوفاً ، يُظَنُّ أنه من أصل صقلى ، يتحدث عن محمد بإخلاص ويضع اسمه إلى جانب اسمى المسيح وموسى.

فهل بعد هذا يتحدثون عن الحواجز المنيعة وعن حالة النفور بين العالمين ، الشرق والغرب ؟.. إن الحالة على العكس من ذلك ، حالة تأثير متبادل قوى خطير ...

ومن ناحية أخرى قد أثبتت الأبحاث الحديثة كيف أن المعلومات التي كانت تصل إلى الغرب ، عن طريق إسبانيا خاصة ، فيما يتعلق بالأفكار الإسلامية عن الحياة الأخرى ، كانت تنتشر انتشاراً عظيماً ، بل كانت تترجم أحياناً إلى لغات عديدة . وكذلك كان الحال مثلاً مع كتاب « معراج محمد » الذي وجدناه في اللغات الأسبانية (القشتالية) والفرنسية واللاتينية ، ومع الجزء الرابع من الكتاب المسمى *Le Gentil* لرايموندوس لوليوس (وجدناه في اللغات الكتلانية واللاتينية والأسبانية ، وفي اللغة الفرنسية تحت عنوان جديد هو « شريعة المسلم ») ، ومع كتاب « القوانين والشريعة عند المسلمين » لجيليوم الطرابلسي (باللغتين الفرنسية واللاتينية) ، ومع غيرها من الكتب ...

إن الأفكار التي تضمنتها هذه المؤلفات فيما يتعلق بالجنة والنار عند المسلمين ، وبمعراج النبي محمد (ص) إلى السماء ، قد تسربت حتى إقليم توسكانيا في إيطاليا حيث عاش الشاعر دانتي ، فأثرت في عبقريته ، وفي تصوره الشاعري للكوميديا الإلهية ، سواء كان هذا التأثير مباشراً أو غير مباشر .

والكلام عن الشعر يدفعنا إلى الكلام عن مجموعة أخرى من المسائل تتعلق بالأدب والفن .

ولنتحدث أولاً في ميدان الشعر الغنائي *Lyrique* : فمنذ عصر الشاعر جيوم دى بواتييه إلى نهاية القرن الثاني عشر نلاحظ أن هذا الضرب من الشعر يزدهر في إقليم البروفانس الجنوبي الغربي من فرنسا ، ويفيض منها على العالم الغربي كله . وليس الحال هنا حال موجة من موجات الأدب الشعبي البحت ، بل هو على الأرجح حال فن رفيع ، كامل المقومات ، نشأ في بيئة مصقولة الإحساس مُدَرَّبة العاطفة .

فهل تكوّن هـذا الضرب من الأدب الزاهي تكوناً ذاتياً في الحقول والرياض التي تحف بضفاف نهر الدورانس ؟.. إن أبحاث خوليان ريبرا قد أثبتت منذ سنة ١٩١٢ أن أوزان الشعر البروفانسي قد تأثرت تأثراً مباشراً بالشعر العربي الأندلسي . وبهمنا أن نلاحظ أن الشعر الغنائي العربي الأندلسي الذي نتحدث عنه كان موجوداً في محيط شعبي خارج عن محيط الأدب التقليدي الفصيح .

فالتطور من الزجل الأندلسي إلى مُقطَّعات أهل البروفانس قد تم إذاً عن طريق العامة من الشعب ، لا عن طريق التأثير بين أديبين راقيين فنيين . وإذا نحن خرجنا من دائرة الوزن والنغم ، فإنه يصعب علينا — على الأقل بعد أبحاث منندث بيدال وبيكل وهنرى بيرس وغيرهم — أن نرفض مبدأ استقلال الأدب الغنائي عند أهل البروفانس — في فكرته وبيئته — عن الأفكار والبيئات المشابهة لها في قصور إسبانيا ، ثم في بلاط أمراء صقلية والشرق اللاتيني ، حيث اختلط العرب والغربيون برغم تنافسهم .

وليس أدل على ذلك الاختلاط من تلك اللوحة التي نجدها في مخطوط « أغاني القديسة مريم » بمانتا ماريا الذي صنفه الملك ألفونس — حكيم قشتالة — والتي تمثل راوية مسيحيا وشاعراً عربيا ؛ بينما نجد من ناحية أخرى لوحة في مخطوط لبير ديبولى ، تصور ملك صقلية ، رجار النورماندى ، على سرير الموت ، وإلى جانبه عالم من علماء الفلك العرب مع طبيب حكيم ، عربي الأصل هو الآخر .

(للبحث بقية)

ترجمة
محمد عبد الحليم محمود

خاطـــــرة

للدكتور أحمد أمين بك

قرأت بالأمس عزم الحكومة المصرية تعيين بعض الراهبات ممرضات في المستشفيات الحكومية بحجة أنهن يتقن فن التمريض ، وهـذا صحيح ، ولكنهن أيضاً يتقن فن التبشير ، وقديماً اتخذ المبشرون طريقتين للتبشير : فتح المدارس ، وبناء المستشفيات وملأها بالراهبات الممرضات ، يرمون بذلك أنهم من طريق الثقافة يستطيعون أن يبثوا السموم في الأذهان ، ومن طريق التمريض يستطيعون نشر التبشير ، ويكفي في نشره هذه الملابس البيضاء ، والقبعة البيضاء ، والصلبان المعلقة في الأعناق ! فإذا انضمت هذه كلها إلى جودة التمريض أحدثت جودة التبشير !! والراهبة كما نعلم راهبة أولاً ، وممرضة ثانياً ، لا كما نتوهم إنسانية أولاً وممرضة ثانياً ! فهي تعنى بالنصارى أكثر مما تعنى بالمسلمين ، ولا تترك وسيلة من وسائل التبشير إلا فعلتها ! إما سراً وإما جهراً ، وإما عن طريق مباشر أو غير مباشر ، فهي لا تمرض إلا إذا أملت النجاح في التبشير . وقد دخل كثير من المسلمين في هذه المستشفيات على دينهم ، ثم خرجوا شاكين أو ملحدين أو نصارى .

وتقرير رئيس التبشير دائماً يذكر مقدار نجاح هؤلاء الراهبات في تنصير من أسلم ، وإحصاء عددهم . وكثيراً ما يعرض المريض للموت ، وليس من اللائق أن تحضر وفاته هذه الراهبة فتوعز إليه في اللحظة الأخيرة ما ترى ، ويكون آخر من ينظر إليه : الراهبة في ثيابها الرهبانية ، ووشم الصليب على ذراعها ، وموضع الصليب بين صدرها ونحرها ، وتمتمتها عند الوفاة بكلمات لاتينية نصرانية ، أو بعبارة إنجيلية . وليس يسمح مستشفى مسيحي أو أوربي أن يتخذ من المسلمات ممرضات ، كما لا تسمح جماعات التبشير أن تتخذ حتى من الخدم مسلمين . ويروى المؤرخون أن أبا موسى الأشعري اتخذ كاتباً له نصرانياً ، فكتب إليه عمر : أن اعزل هذا النصراني ، فراجعه أبو موسى ، فراجعه عمر بقوله : « مات النصراني والسلام » . وإنا لفي زمن نرحب فيه باستخدام النصراني للمسلم والمسلم للنصراني ، ولكن لا نرحب بمن يتخذ النصرانية شعاراً له يعلنها في كل خطوة من خطواته ومظهر من مظاهره . ليتجردن من ثيابهن الرهبانية وصفتهن التبشيرية ، ونحن نرحب بهن وبمهارتهن في فنهن ! وناحيـة أخرى اقتصادية ، وهي أنه بتعيين الراهبة ممرضة قد أغلقنا الباب أمام مصرية لتشغل هذا المنصب وتقوم بهذا العبء ، وتتمرن على التمريض ، مع أنهن أعلم بلغة المريض ، وأفهم لنفسيته . ولكن ماذا نفعل وقد بلي المسلمون بمركب النقص حتى اعتقدوا : أن كل أجنبي وأجنبية خير من كل مصري ومصرية حتى الراهبات ، وفن التمريض . وإن المسلمين الذين ثاروا على الشيخ محمد عبده في فتواه بجواز لبس القبعة ، كيف يسكتون على إيواء من يلبس القبعة ورداء الرهبانية والصلبان المسيحية ؟ ولقد شهدت مرة حفلة الجامعة الأمريكية ، وشاهدت طالباً تعلم فيها ، وأتم دروسها حتى كان من المقرر أن توزع عليه الشهادة في هذا الحفل ، فاستطاع أن يجهر بهذه الكلية وما إليه من وسائل التبشير السرية مما أخجل الجامعة ، ولم تخرج من نقصها إلا بحرمان الطالب من الدرجة . اللهم إن هذا منكر لا يرضيك . ومن عجيب الأمر أنهم يمنون علينا بأن نفقة كل راهبة سوف لا تتجاوز ١٦٧ جنيهاً ، مع أنه مبلغ يكفي لفتح بيوت ثلاث أسر مصرية تتضور من الجوع .

أحمد أمين

استيحاء الأدب القديم

للأستاذ عبد الفتاح الديدي

موضوع خطر ببالي منذ زمن بعيد ! وكان ينبغي له القرار في أذهان الناس إبان مراحل التطور الأدبي في العصر الحاضر من غير أن يرشدهم إليه دليل وبغير أن ينفتح لهم أبوابه فاتح . وكل الظواهر الحالية في أدبنا العربي إنما تسوقنا سوقاً إلى ارتياد هذه الفكرة ! وكان ينبغي لها أن تموج وتنتشر قبل أن يلفت أنظارنا إليها قلم كاتب من الكتاب . ويمكن القول إن موضوع هذا المقال ليس غريباً على مشاعر القراء ، وإن كانوا سيجدون عند وضعه بصورة تقريرية منحى جديداً من تصور الأدب واستثماره .

فنحن نلاحظ أننا ما زلنا نتحدث — منذ انبثت الحياة في أكنافنا — عن حركات البعث والإحياء لآدابنا القديمة . ولم نشأ أن نتخلى حتى اليوم — بل حتى الساعة — عن الكتابة في هذا الموضوع والدعوة إلى تجديد آدابنا الموروثة بصورة تجعلها دائماً نصب أعيننا ، وتسهل علينا مهمة الاطلاع عليها والتأثر بها . أستغفر الله .. فإن بعض أصحاب هذه الدعوة لا يريدون الاعتراف بغير تلك الآداب الموروثة ولا يميلون إلى إقرار لون من الأدب المحدث يجانب تلك الثروة المثرية في الأوراق الصفراء . ويغالي بعضهم في ذلك مغالاة ظاهرة ويكتفي بعضهم بالإلحاح في المطالبة بنشر ذلك الأدب القديم لوضعه في حياتنا الحاضرة بمقام الفن الخالد والحارس الأكبر . ولا أريد هاهنا أن أقطع على الباحثين في هذا الموضوع أحلامهم ، ولا أميل إلى تسفيه شيء من أفكارهم الخاصة بمسألة البعث والإحياء . فهذا نوع من الاتجاه المحسوس في أغلب الآثار الحالية ، ويعتبر واحداً من التيارات الهامة في الفكر الحديث . ولا ينبغي من أجل ذلك كله أن نسيء إلى أصحابه ما دام حسن النية متوافراً وما دامت الرغبة الصادقة موجودة .

وأنا شخصياً من الذين يقفون في صف هذا التيار القديم ، وأحب شيء إلى نفسي هو ارتياد آفاق الأدب العربي في صوره المختلفة للتذكر والاقتباس والعبرة جميعاً . فلست ممن يهزأون بالعاملين على تعزيز الأدب القديم ، ومع ذلك أجد في نفسي رغبة شديدة من أجل أن ألفت أنظارهم إلى شيء هام أغفلوه بقدر ما اندمجوا في الموضوع ، وسهوا عنه بقدر ما التفتوا إلى حواشي المشكلة . إذ أن السبيل إلى إحياء الأدب العربي القديم وبعثه لا يقتصر السير فيه على القائمين بنشر مؤلفات الأقدمين وطبعها . وفي رأيي أنه من العبث المكشوف أن نقصر جهودنا بأكملها على عمليات التحقيق المتصلة حتى تخرج طبعة منقحة من كتاب عباسي أو أموي .. ثم نزعم بعد هذا أننا قد أدينا شيئاً كثيراً نحو الأدب القديم . فذلك لا يعني إطلاقاً أننا قد غذينا ثقافاتنا الحاضرة بشيء من تراث الأقدمين ولا يبرهن على أننا قد استطعنا تطبيع أدبنا المعاصر بالروح التقليدية ، ولا يدل على أننا أصحاب عهد ومروءة بالنسبة إلى آبائنا السابقين . لأن هذه الكتب تطبع وتنشر بقدر محدود ، ولا تحدث أدنى أثر في عقولنا وأذواقنا ، ولا تكاد تصل لغير الأيدي الفارغة التي تحب الاقتناء والتزيين أكثر مما تحب القراءة والانتفاع ، وهؤلاء ليسوا من الموجهين لدفة الكتابة ولا يعدون بين أصحاب الفكرة السائرة والاتجاه الساري . وأستطيع — وأنا مطمئن — أن أتهم كل مشتغل بالآثار العربية القديمة على سبيل التحقيق والنشر بهذه الطريقة ، وكل غيور على إذاعتها والدعاية لها بتكوينها الثابت ... أستطيع أن أتهمه بأنه لا يعمل من أجل الثقافة في حد ذاتها ، ولا يخدم العلم والمعرفة من حيث هو علم أو معرفة . وبقدر ما تكون مكاسب المشتغلين بالآداب القديمة وطبع مؤلفاتها تكون جريمتهم .

وذلك لأنه لا معنى على الإطلاق لأن أستمر في أعمال غير ذات مفعول من ناحية الثقافة أو الذوق أو الروح من أجل الكسب المادي الخاص . ويكون هذا العمل مفهوماً إذا جاء من جانب الحكومات التي تبغي إحياء تراث أجدادها وحفظ آثار رجالها السابقين ... أما أن يأتي من جانب الأفراد الذين لا يفيدون إنساناً بنتاجهم ، ولا يغذون موهبة بثمراتهم ، ولا يتركون على اتجاهات الفكر طابعاً ملحوظاً من وراء عملهم ، فليس ذلك بالأمر الطبيعي .

ونخلص من هذا كله إلى أن غيرة هؤلاء الباحثين على الآثار الأدبية القديمة مصطنعة ، وإلى أن دعاياتهم ملفقة ، وإلى أن دفاعهم مغرض . فهم يريدون أن يظهروا أمام الملأ بمظهر الثائر على الأوضاع الجديدة ، وأن يأخذوا في عقول الناس مكانة الإنسان الذي يحافظ على دينه وتراث أجداده . فهم يكسبون الهيبة والاحترام وحسن السمعة ثم يستفيدون — فوق ذلك — فوائد أخرى يعدها الله ! أما الأدب الخالص فلن تعود عليه أعمالهم بأية فائدة ، ولن تكون من ورائه جدوى ، لأننا مازلنا نعاني من إقبال الناس على الكتب الحديثة السهلة المفهومة ، فما بالك بالمؤلفات القديمة التي تقتضي سعة في الفهم ومطاوعة في النفس ورغبة في المتعة والتذوق .

وبطبيعة الحال لايهمنا في هذا المجال أن نتناول أغراض الناشرين للكتب القديمة بالمؤاخذة والنقد ، ولا يعنينا — بحال من الأحوال — أن نسيء إلى أشخاصهم كما قدمنا ، وإنما يهمنا ويعنينا حقاً أن نرفع من أذهان الناس فكرة خاطئة ! وهذه الفكرة الخاطئة تتلخص في أن عملية الطبع والإذاعة لما تركه المؤلفون السابقون لا تؤدي إلى شيء إطلاقاً مما يأمل فيه طائفة النقاد ويرجون تحقيقه . فكلمة « إحياء أو بعث » كلمة فارغة خالية من المضمون مادمنا نعني الإنفاق على الكتب القديمة بالمال والجهد . بل اعتدت بعض الأيام عدم الثقة في أي مشروع يحمل هدفه إحياء ما خبا نوره من مظاهر الحضارة وبث ما اندثر مجده بين معالم الحياة . ونحن جميعاً لا نقل غيرة على التراث القديم منهم ولا ينقصنا الحماس الذي تبذله في هذا الباب ... ولكن ماذا نعمل وأمامنا حقائق ملموسة لا تقبل شكاً ولا إنكاراً ، ومن ذا الذي يستطيع أن يزعم عن كتاب من كتب الأقدمين ، أنه قد قرأه ألف إنسان من المصريين المحدثين ؟ ومن ذا يقول إن جمهرة من قراء العربية قد استطاعوا أن يمضوا في التأثر بالأدب القديم على نحو ما هم متأثرون الآن بكتاب لواحد من مشاهير الكتاب في مصر أو في أوربا اليوم ؟

ومن هذا يظهر أن النشر الأدبي لا يؤدي إلى شيء في حياتنا الثقافية ما دمنا بعيدين عن الجو القديم ، وما دامت الاستفادة محدودة حتى مع الإقبال والاستعمال ! وكان طبيعياً جداً أن نصرف عن هذه الدعوة وأن نغفل ذلك المضمار ، ولكننا — فيما يبدو — آثرنا التعامي ولم نكتف بالإشارة إلى قيمة النشر والطبع للمؤلفات القديمة في حياتنا الأدبية ، بل أردنا أن نوقف حركة التأثر والاستفادة من آداب الغرب كيما نفسح مجالاً لهذه الكتب فتعم وتطغى على سواها من ألوان النتاج العقلي ، وليتنا فطنا إلى جانب هذه الحركات التعميرية في الأدب التقليدي لفكرة واحدة كفيلة بأن تضع الأمور في نصابها وأن تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! ولو قد تنبهنا إليها لاستطعنا أن نعفي أنفسنا من كل مجهود بذلناه في سبيل الدعاية الزائفة ! أعني أنه لو استطعنا أن نقيم إلى جانب هذا العمل عملاً آخر وأمكننا إيجاد تيار ثان يمشي جنباً لجنب مع هذا التيار لخلصنا من العيب وبرئنا من المذمة وحمينا أنفسنا من ظنون الناس .

فأنا أقف معهم في صف واحد ، وأنادي بنفس الفكرة ... ولكن بطريقتي الخاصة ... أنا أدعو إلى العناية بالقديم ، وأحب شيء إلى نفسي هو أن نبعث الفكر والأدب السلفيين مجسمين في عقول أبنائنا وهواة الفن عندنا ، وأجمل أمنية نحملها هي أن يكون لنا بيان رائق مصفى من الشوائب العامية التي تفسد علينا ألسنتنا ، وأن تزول الحواجز التي تقطع علينا تاريخنا وتفسد علينا أصولنا

ونجعلنا كالتائهين بين آداب العالم بغير خط نحتمي به من عواصف النقد والمؤاخذة . إن أهم شيء في تكوين أدب من الآداب هو وجود تاريخه ، واستعادة ماضيه ، وامتثال أصوله ، وبروز عناصره ، فهذه هي الدعامة الأصيلة ، وهي وحدها سبيل إقامة بنيان لأدب كامل مهما كانت صفات الماضي ، ومهما كانت شيات القديم .

أما عن كيفية الاستفادة من الأدب السالف ، وعن طريقة تجسيمه حياً في عقولنا ، فلا يكون ذلك بعين الخطة التي اتبعها أصحابنا أولاء ، أعني أنه ليس السبيل إلى تذكير الناس بآدابهم القديمة هو ما يسمونه بالبعث والإحياء في الأدب الحديث ؛ وإنما سبيل ذلك شيء آخر هو ما أسميه باستيحاء الأدب القديم . فبهذه الوسيلة الجديدة يمكننا استيعاب أدب القدامى ، وارتياد آفاق السلف بغير أن نحدث بأنفسنا مضرة ، وبغير أن نحجز أدبنا المعاصر في حدود ضيقة ، وبدون أن نوقف نشاطنا في الابتكار والتجديد والخلق ...

وقد يختلط الأمر على ذهن القارئ فأسارع إلى توضيح بسيط لكلمة استيحاء هذه ، فهي مشتقة من الوحي ؛ وجاء في القاموس المحيط أنه الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام ، وأن الفعل منه استوحى بمعنى حرك واستفهم ، وقد تكون عملية التحريك والاستفهام التي يقوم بها كاتب العصر الحاضر بالنسبة إلى الأدب القديم كافية لتبيين وجهة نظري في الموضوع ، ولكني أوثر مع ذلك أن أشرح فعل الاستيحاء على أنسب صورة تمثل رأيي الخاص . فالاستيحاء بالنسبة إلى الأدب القديم يعني بطبيعة الحال إيجاد صلة تجاوب فيما بين الأدب المعاصر والفن السلفي ، ثم يعني ذلك مباشرة فعل الكاتب من أجل استلهام الفن السلفي واستنطاق صوره ، واقتطاع لمحات منه واختطاف الأجزاء الموحية فيه من أجل التفنن في نظم أسلوب جديد ؛ أو بعبارة أخرى يقوم الكاتب في عملية الاستيحاء هذه باقتطاع ما يصلح من الأدب القديم ليكون نواة لعمل جيد كل البعد عن الحرفية والتبات .

فهاهنا في عملية الاستيحاء نخالف تيار الأدب القديم ونفسد عليه سلطانه ولا نسمح له بالسيطرة على أعمالنا وخطواتنا في سبيل الأدب الذي نسعى إلى تشييد أركانه . ولكننا نسمح له في الوقت نفسه بأن يظهر وينتشر ، وبأن يتم في كلامنا وفي أقلامنا ، وبأن يظل حياً في أدمغتنا وأذواقنا بالشروط التي نفرضها نحن ، وليس بالشروط الخاصة به أو بالمطالب التي يستدعيها منا . ففي عملية الاستيحاء نتحكم بالأدب القديم ولا يتحكم بنا ، ونوجهه نحن ونستغله في وجوه الفن التي نراه صالحاً لها وفي المناحي التي تقصر دونها أساليب المحدثين .

ونحن أحرار بعد ذلك في نوع الاستفادة وفي أوجه القبول ؛ فإما أن نحاول أخذ المشاهد الخالدة فيه جملة ، أو نحاول تصريفها وتحويرها ، أو نسعى من أجل استدعاء فصول موحدة منها . فهذا من شأنه أن يوجد خيطاً قوياً متيناً بيننا وبين الأدب القديم ، ولعله أن يكون أقوى وأنفع من أي محاولة أخرى في سبيل إشعارنا بماضينا الأدبي وتاريخنا الفني .

ودعاني إلى المضي في هذا الاتجاه أني أومن في قرارة نفسي بأنه لا يوجد أدب خالص صالح لكل زمان ومكان ، ولا أعتقد بأن الكاتب يؤلف شيئاً خالداً أبد الدهر . فالحياة في تطور وارتقاء أو في تدهور وانتكاس حسب الظروف الخاصة بالإقليم الذي تظهر فيه ؛ والأديب إنما يعبر عما يختلج به كيانه في أسلوب ملائم للجو الذي يحيط به والظروف القائمة حوله . ويستحيل أن يكون الكاتب من أي نوع قادراً على الخروج عما يتطلبه مظهر العيش من حوله . والخلود في الأدب لا يأتي من أن الكاتب قد استطاع أن يخرج من حدود الإقليمية التي يعيش فيها ، وإنما يأتي من أنه استطاع على الرغم من هذه الحدود أن يؤلف ويكتب بهذا الأسلوب وأن ينفض عن كيانه آثار عصره ، وأن ينقل إليك ملامح بيئته ، وأن يصب في قلبك مشاعر الأمم القديمة ، وأن يضيف إلى ذلك معالم الأجيال المتقدمة ؛ كل هذا يجعل من الكاتب فناناً خالداً ، ويخول له الحق في أن يكون حقاً مشاعاً بين أبناء الإنسانية جميعاً ، بحكم ما فيهم من رغبة في المشاركة الشعورية ، وبحكم ما في طبيعتهم من نزوع إلى مشابهة الغير .

فليس الأدب بالياً لأنه يخرج عن نطاق الفردية المتمثلة في أبناء الأمة التي ينتمي إليها الكاتب ، وإنما هو كذلك تبعاً لهذه الصورة الواضحة التي تنقل إليك معالم الناس في غير المحيط الذي تتطلع إليه بحكم وجودك الخاص .

وإذا ألقينا نظرة باحثة على أدبنا القديم وجدناه بالغاً غاية المحدودية ، على خلاف ما يزعمه المتشدقون خطأً بمجد العرب في أدبهم الخالد على مر الزمان . فالأدب العربي القديم لا يمثل إلا جزءاً جامداً في حياة الإقليم العربي ، ويصعب عليك أن تفصل الأدب القديم عن حياة الأعراب قبل الإسلام وبعده . وأبلغ من الإيمان بقولي هذا إلى حد الرغبة في الزعم بأن الأدب العربي القديم كان عنصراً هاماً من عناصر الحياة الاجتماعية ذاتها إبان الخلفاء العباسيين وعند قيام النزاع القبلي بين أعراب البادية في الجاهلية . فالأدب الذي يبلغ هذه الدرجة من الالتباس في الحياة الاجتماعية والاشتراك فيها ، والذي تقوم وظيفة صاحبه عن ضرورة في الطائفة التي يُنتسب إليها ، والذي يستخدمه الناس على هذا النحو ، لا يمكن إلا أن يكون وليد الحياة الجارية من حوله ويصعب اعتباره من غير تقدير للظروف القائمة والأحوال الماثلة . وبذلك يكون التجاوب بين البيئة وبين الأدب مفروضاً قبل كل شيء في نظريات النقد خاصة .

فإذا سلمنا بهذا القول كنا ملزمين بتحديد الإقليمية البادية في الأدب القديم ، وكنا ملزمين في الوقت نفسه بالتخلي عن الصبغة الواضحة في نفوسنا عندما نتحدث عن آبائنا الروحيين من أبناء العراق والشام وفارس والحجاز . بل أستطيع القول إن نسبة الخلود والتعالي عن حياة الإقليم المحدودة إلى أدب العرب القدماء هي خرافة لا أساس لها من الصحة . لأن كل فن طابق مطالب الحياة المادية عندهم كان له المقام الأول ، وتمتع صاحبه بالحظوة لدى الرؤساء ، وكل فن تنافر مع المطالب الدنيوية لم يقدر له أي نصيب من النجاح .

فإذا كان هذا كله صحيحاً كان من الضروري علينا ألا نحاول نقل التراث القديم كما هو ، وإنما كان من الضروري أن نلتفت أولاً إلى حكمة الانتقاء من ذلك التراث والإقبال عليه بشيء من الحزم أو بكثير من الحزم إذا اقتضى الأمر . وأجمل شيء هو أن نحاول استيحاء الأدب القديم ، أي أن نقبل عليه دارسين ممعنين في الدرس ، باحثين مغرقين في البحث ، ثم نصدر في بعض إنتاجنا عن تأثر بذلك كله .

أعني أن يحاول الواحد من الأدباء أن ينتج شيئاً فيه أثر من خمريات أبي نواس ، وليست هي الخمريات نفسها ، وفيه أثر من حكمة أبي تمام ، ولكنها ليست هي ذات الحكمة التمامية ، وفيه صبغة من روح الجاحظ ، وإن لم تكن عين كلامه ، وفيه مسحة من فلسفة أبي العلاء ، وإن لم تكن تحوي شيئاً من مضمونها الصريح . نريد الكاتب الذي يستوحي الأدب القديم فيخرج علينا بملاحم من بيئة الجاهليين وروايات من أقاصيص السلف وبأشعار على نمط ما كان يُحكى في المجالس والندوات . نريد تصويراً صناعياً للبيئات السابقة ، ونريد أسلوباً محدثاً في رواية الوقائع على نحو ما جرت ، حتى يوفق بين أعمال القدماء وأذواق المعاصرين . وأعتقد أن محاولات جريئة من هذا النوع قد حصلت في أدبنا الحديث ، ولكنها لم تكن واضحة النهج بادية الخطة . وليعتبر هؤلاء جميعاً بحق هذا مقدمة النهج إذا كان المقصود به هو نفس ما أدعو إليه . فأقاصيص ألف ليلة كما يرويها عبد الرحمن الجيبي ، والقصص الشعرية التي ينظمها الأستاذ الشاعر عزيز أباظة ، والملاحم التي يضعها أحمد با كثير هي محاولات في هذا المضمار تمتاز بالسعي من أجل إبراز التراث القديم . ولا يعني هذا بطبيعة الحال أنها أعمال موفقة ، إذ يقتضي الحكم بالتوفيق أو بغير التوفيق أصولاً منظمة ومقاييس موضوعة في نفس النحي . ولكنها تتسم بهذا الطابع الذي أنادي بالأخذ به ، وتهدف إلى عين الغاية من هذا المقال ، ولو لم يشأ لها أصحابها أن تكون كذلك .

لو أخذ العاملون للتراث القديم بما أوجّه فكرهم إليه بهذا المقال لاستطاع الأدب الحديث أن يجمع بين دفتيه كل مطالب القراءة في العصر الحاضر ، وأن يستوفي مناحي الضعف والعجز فيه ، وأن يرضي ميول الكثيرين ممن يتطلبون التنويع والابتكار في إنتاج الأعمال الأدبية . وفي الوقت نفسه سيكون هذا العمل من جانبنا بمثابة عناية جدية وتصفية فعلية للتراث التقليدي القديم .

عبد الفتاح الدجاني

الشاعر الرمادى متنبي الغرب

للأستاذ جمال الدين الرمادى

لتطمئن قلوب القراء الكرام وتهدأ نفوسهم وتستقر عواطفهم ، فلست بالشاعر الرمادى ، وليس أبى بالشاعر الرمادى كذلك ، وإن كنا شعراء فيامضى من الأزمان . إنما أعنى بالشاعر الرمادى شاعراً آخر كان معاصراً لأبى الطيب المتنبى ، وأطلق عليه متنبى الغرب . وقد قيل (فتح الشعر بكندة وختم بكندة ، ويعنون امرأ القيس والمتنبى والرمادى هذا) . وكان مقلا ضيق العيش فيا يقولون : ونسب إليه بعضهم أشعاراً فى دولة الخلافة أوغرت صدر الخليفة عليه فسجنه زماناً طويلا ، ونظم فى السجن عدة قصائد استعطف بها الخليفة فلم يعطف عليه ولم يرق له فطارت نفسه شعاعاً وانسكبت روحه فى شعر يستدر مذارف الدموع ويقطع نياط القلوب ...

وكنت قد كتبت فصلا عن هـذا الشاعر فى جريدة المصرى منذ مدة ، فوصلتنى رسائل كثيرة من أدباء كثيرين ، يريدون أن يعرفوا شيئاً عنه يروى غلتهم وينقع صداهم ، ويؤثرون أن أكتب هذا الفصل فى إحدى المجلات الثقافية التى أكتب فيها ، فأحببت بدورى أن أوثر بهذا الفصل مجلة الثقافة القراء .

وقد جاء فى مطمح الأنفس ومسرح التأنس « طبعة القسطنطينية » أن الشاعر الرمادى شاعر مفلق ، افترع له باب الصناعة المغلق ، ووضح له برقها المؤتلق ، وسال بها طبعه كالماء المتدفق ، فاجمع على تفضيله المختلف والمتفق ، فتارة يحزن وتارة يسهل ، وفى كلتيهما بالبديع يحل وينهل ، فاشتهر عند الخاصة والعامة بانطباعه فى الفريقين ، وإبداعه فى الطريقين ، وكان هو وأبو الطيب متعاصرين ، وعلى الصناعة متغايرين ، وكلاهما من كندة ، وما منهما إلا من اقتدح فى الإحساس وما قصر فى إحساس ، ولا جاز بينهما فصل أبان ...

وتقول دائرة المعارف الإسلامية : إن اسمه الكامل هو أبو عمر الرمادى وليس بأبى عمرو ، وهو شاعر الأندلس ، ومات فى القرن الخامس حوالى عام ٤٠٣ هـ . ومنشأ الرمادى إما يكون قد جاء من الرمادة وهى مدينة فى الأندلس ، وربما نسب إلى الرماد لأنه كان يتاجر فى الرماد ، وإما لأن العرب كانت تكنى بقولها (كثير الرماد) عن الكرم والجود .

ولقد قضى الرمادى حياته فى مدينة قرطبة ، اللهم إلا بضعة شهور قضاها منفياً فى سراجوسه ، وتأثرت حياته بعوامل ثلاثة : أولها اتصاله بأبى على القالى مؤلف الأمالى ، والخطيب أبى الحسن المشتق واتصاله بمحبوبته خولة . وقد رحل أبو على القالى من الشرق إلى الأندلس فى عهد الخليفة الناصر ، فحظى منه الرمادى بندوة جميلة كما حظى منه الناصر بأدب جم وحس مرهف وطبع مصقول ، وقرأ معه كتاب النوادر الذى كثيراً ما يتعرض لفقه اللغة وغير فقه اللغة من علوم العربية .

وقد درس الرمادى كذلك على يد عالم أندلسى هو أبو بكر يحيى الكفيف . وقد عاش الرمادى مدة طويلة من حياته فى قرطبة ، وكانت قرطبة كما جاء فى نفح الطيب من أشهر مدن الأندلس ، أعادها الله للإسلام وبها الجامع المشهور والقنطرة المعروفة بالجسر ، وكانت فى الدولة المروانية قبة الإسلام ومجتمع أعلام الأنام . بها استقر سرير الخلافة المروانية وفيها تمخضت القبائل المدنية واليمانية ، وإليها كانت الرحلة فى الرواية وهى من الأندلس بمثابة الرأس من الجسد ، ونهرها من أحسن الأنهار ، مكتنف بديباج المروج مطرز بالأزهار ، تصدح فى جنباته الأطيار وتنعر النواعير ويبسم النوار .

وفى وسط هذه البيئة الجميلة عاش الشاعر الرمادى فترة طويلة من عمره ، فأثرت فى نفسه كل تأثير ، وكان بطبعه يحب المرح واللذة ، اسمعه يقول :

أدر الكأس يا نصير وهات
إن هذا النهار من حسناتى
بأبى غرة نرى الشخص فيها
فى صفاء أصفى من المرآة
تبصر الناس حولها فى ازدحام
كازدحام الحجيج فى عرفات
هاتها يا نصير إنا اجتمعنا
بقلوب فى الدين مختلفات
فإذا ما انقضت ديانة ذا اليو
م اعتمدنا مواضع الصلوات
لو مضى الوقت دون راح وقصف
لعددنا هذا من السيئات

وهكذا كان الشاعر الرمادى فى هذه الأبيات شاعر اللذة والبهجة ، ورجلا من أتباع المذهب الأبيقورى لا يعنى إلا بلذته العاجلة وسعادته الوقتية ، وقد كان هذا طبع أبى نواس الشاعر المعروف ، كما كان هذا طبع كثير من الشعراء فى أوربا وأمريكا فى العصور القديمة حتى العصر الحديث ... وقد كان هذا طبع شعراء الخمر كذلك ، وقد قال الجاحظ فى حلية الكميت ص ١٤ : (إن النبيذ إذا تمشى فى عظامك ودب فى أجرامك منحك الصدق الحسن ، وسد عنك باب الغم ، وحسم عنك خاطر الهم) .

وقال الكاتب الصينى لن يوتنج Lin Yutang : إن الخمر أكثر مساهمة فى الأدب من أى شىء آخر ، وتساعد على الثقة بوجود القوة الخالقة فيه ، وتعاون الشاعر على الخلق والإبداع .

ولست أكتب هذا لأتحمس للخمر أو لشعراء الخمر ، إنما أكتب هذا لتستطيع أن تستشف شيئاً من نفسية هؤلاء الشعراء الذين يؤثرون اللذة العاجلة وتؤثر الخمر فى نفوسهم تأثيراً كبيراً ، ولك بعد هذا أن تقتنع بما أقول ، ولك بعد هذا ألا تقتنع بما أقول ، إنما هو القول أرسله إرسالا ، والرأى أبديه إبداء ...

وكان الشاعر الرمادى متيما يحب فتاة تسمى خولة ، أزجى إليها كثيراً من نفثات قلبه وخلجات شعره ، فأرهف حبها حسه ، وصقل وجدانه وشعوره ونظره وتفكيره ؟ اسمعه يقول :

أوما لتقبيل البساط خنوعا
فوضعت خدى فى التراب خضوعا
ماكان مذهبه الخنوع لعبده
إلا زيادة قلبه تقطيعا
قولوا لمن أخذ الفؤاد مصفدا
يمنن على برده مصدوعا
العبد قد يعصى وأحلف أننى
ماكنت إلا سامعاً ومطيعا
مولاى يحيى فى حياة كاسمه
وأنا أموت صبابة وولوعا
لا تنكروا غيث الدموع فكل ما
ينحل من جسمى يكون دموعا !

أو اسمعه يتأوه حباً ، ويتحرق لوعة وشوقاً ، ويتصبب دمعاً ودماً :

فى أى جارحة أصون معذبى
سلمت من التعذيب والتنكيل
إن قلت فى عينى فثم مدامعى
أو قلت فى قلبى فثم غليلى
لكن جعلت له المسامع مسكناً
وحجبته عن عذل كل عذول
وثلاث شيبات نزلن بمفرقى
فظننت أن نزولهن رحيلى
طلعت ثلاث فى طلوع ثلاثة
واش ووجه مراقب وثقيل
فعدانى من صبوتى فتش ذلا
ت فقد صحت بذلة المعذول

وقال يعتب على صاحبته لرغبتها فى أن يعتب على الدهر :

تكلفنى أن أعتب الدهر إنهـــا
لجاهلة من لى بإعتاب محنق !؟

وقالت تظن الدهر يجمع بيننـــا
فقلت لهـــا من لى بظن محقق

ولكننى فيما زجرت بعقلـــى
زجرت اجتماع الشمل بعد التفرق

أباكيـــة يوماً ولم يأن وقتـــه
سينفد قبل اليوم دمعـــك فارفقى

بل اسمعه وهو يقول فى محبوب فؤاده عندما اعتقل وسجن لأسباب سياسية فيما يقول الرواة ، بعد ما أدرك الفتنة غاض لجتها وأقام فرقاً من هيجانها شرقاً بأشجانها ، ولحقته فيها فاقة نهكته ، وبعدت عنه الإقامة حتى أهلكته ...

بدر بدا يحمـــل شمســـاً بدت
وحدهـــا فى الحسن من حـــده

تغـــرب فى فيـــه ولكنها
من بعـــد ذا تطلع فى خـــده

أو اسمعه يقول :

حبيبك ممن ألف الحب قلبـــه
ويلذع قلبى حرقة دونهـــا الجمر

هـــلال وفى غير السماء طـــلوعه
ورئم ولكن ليس مـــسكه القفر

تأملت عينيـــه تخـــامرنى السكر
ولا شك فى أن العيـــون هى الخمر

أناطقـــه كيما يقول وإنمـــا
أناطقه عمـــداً لينتثر الدر

أنا عبـــده وهو المليك كما اسمه
فلى منه شطر كامل وله الشـــطر

وهكذا كان الشاعر الرمادى أسير الحب ، وقد قيل إن سبب سجنه هو تعلقه بحب خولة . ويروى بعض الرواة فى ذلك قصـــة أشبه بقصة ابن زيدون وحبه لولادة وسجنه فى سبيلها .

وقد قال الشاعر الرمادى الشعر فى الصـــيد والطرد كذلك كما فعل أبو نواس كقوله :

حتى إذا صدنا الوحوش فـــلم تدع
منهن غـــير معـــالم وطـــلول

قامت قوائمـــه لنا بطعامنـــا
غضـــاً وقام العرف بالمنـــديل

وأذكر أنى قرأت معنى شبيهاً بهذا المعنى عند بعض شعراء الشرق ، وإن شئت التحديد فقل إن الخليفة عبد الملك قال لجلسائه يوماً : أى المناديل أفضل ؟ فقال قائل : مناديل مصر كأنها غرقئ البيض . (وهى القشرة الرقيقة الملتصقة ببياضها) ، وقال آخر : مناديل اليمن كأنها نور الربيع ؟ فقال : بل مناديل عبدة بن الطبيب :

لـــما نزلنا نصبنا ظل أخبيـــة
وفار للقوم باللحم المراجيـــل

ثمت قمنـــا إلى جرد مســـومة
أعرافهن لأيدينـــا منـــاديل

وقد قال الرمادى الشعر فى المدح كذلك ، ولكنه كان صريحاً لا يعرف المداجاة والمواربة . وقد حكى صاحب نفح الطيب قصة الشاعر الرمادى مع الخليفة المنصور ؛ فقد قال له يوماً : كيف ترى حالك معى ؟ فقال : فوق قدرى ودون قدرك ؛ فأطرق المنصور كالغضبان ، فانسل الرمادى وخرج وقد ندم على ما بدر منه ، وجعل يقول أخطأت ، لا والله ما يفلح مع الملوك من يعاملهم بالحق . ما كان ضرنى لو قلت إنى بلغت السماء ، وتمنطقت بالجوزاء ، وأنشد :

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة
لنفسى إلا قد قضيت قضاءهـــا

فلما خرج كان فى المجلس من يحسده على مكانه من المنصور ، فوجـــد فرصة للحديث وقال : وهذا الصنف صنف زور وهذيان لا يشكرون نعمة ، كلاب من غلب ، وأصحاب من أخصب ، وأعداء من أجدب ، وحسبك منهم أن يقول الله جل جلاله فيهم « والشـــعراء يتبعهم الغاوون » .

فرفع المنصور رأســـه وكان محباً لأهل الأدب والشعر

(البقية على صفحة ٣٠)

إيمــــان ...

للشاعر فيكتور هوجو

انظر إلى الصياد فى ظلال الغاب يسرح بفكره فى بحر الخيال ، فتتمثل له الأشجار أشباحاً من العذارى ترقص فوق الأديم المخضر .

وانظر إلى الجندى قبيل المعركة يتأمل صروف الأقدار ويسترجع ذكرياته الجميلة ، ناسياً أن مصير الملك رهن قيامه أو قعوده .

وانظر إلى الراعى يسير بقطيعه منتظراً فى صبر وهدوء ساعة الغروب حيث تشتعل قبة السماء الخالدة بأزاهير من اللهب معلقة فى الفضاء .

ثم انظر إلى بنات حواء يجرين خلال الرياض ، وينثرن أغانيهن وأحلامهن بين عيدان القمح الذهبية .

وإلى الشاعر يسير منحنياً مغمض العين بين الزهور ، باحثاً عن الأفكار .

وإلى الملاح وسط البحار يحلم باليابسة ويذكر بين العواصف الهوج قريته الآمنة المطمئنة بأشجارها الباسقة ودورها العامرة .

وإلى الأم الرءوم تحنو على وليدها وتهدهده ، وتشكر لله أن منحها ذلك الكنز الذى لا يقدر بثمن ، كنز الأمومة ...

* * *

انظر إلى كل هؤلاء ، تجدهم ، فى بؤسهم ونعيمهم ، فى شقائهم وسعادتهم ، فى أتراحهم وأفراحهم ، يحملون على جبينهم كلمة تتألق ، بينا يخفون فى جوانحهم معنى ينبض بالحياة .

وإن الكلمة المتألقة المرسومة على الجبين لتختلف حسب الأفراد والشخصيات .

فقد تكون هى « المجد » ، وقد تكون « السعادة » ، وقد تكون « العفة » ، وقد تكون شيئاً غير ذلك ...

لكن المعنى الذى ينبض بالحياة بين الجوانح سيظل واحداً لا يتغير بالنسبة لبنى الإنسان ما دام بنو الإنسان .

فهو دائماً أبداً يئن أو يتغنى فى الأعماق ، لأنه المعنى الأسمى الذى منه تتولد جميع المعانى فى جميع لغات الأرض ، كما تنبت الغصون من أصل الدوحة المتفرعة الكريمة .

ولأنه المعنى الذى يحرك كل عاطفة فى الكيان ، ويقدر على طرد الحزن من أدق جبين .

فهو يسطع مع أشعة الشمس المشرقة ، ويبرق مع المصابيح المتألقة وسط الظلمات ، وينبعث دافقاً حيًّا فى قلوب البؤساء . وهو يختلط بحفيف الأشجار وغناء الحمائم وضحكات الأطفال وسكون الموت بجوار القبر . وهو يبعث خلال الغاب براعم الأوراق وهمسات النسيم وهفيف أجنحة الطير .

وهو يفطر قلوب الجبابرة على الرحمة ، وينتزع البسمات من ثغور الحسان الفاتنات .

إنه أصل الروض والماء ، وسحر الطيور وعطر الزهور .

إنه نشيد الأمواج ، وسر المحيط ...

* * *

إنه فى لغة السماء : « الإيمان » .

وفى لغة الإنسان : « الحب » ...

* * *

تلخيص

(م ٠ ع ٠ م)

من أشعار طاغور

— ١ —

لم يعد هنالك أمل ... لم يعد ينتابك شيء من الخوف
ليست هنالك كلمة ... أو همسة ... أو صيحة
ليس هنالك بيت ... وليس هناك مرقد للراحة
لم يعد هناك إلا جناحاك
وهذه السماء الخالية من الطرقات
أيها الطائر ... يا طائري العزيز ... استمع إليّ
لا تضمُّ جناحيك

— ٢ —

تعالي كما أنت ...
ولا تضيعي وقتك في زينتك
لا تعبئي إن تهدل شعرك المضفّر
أو رأيت الفرق فيه بعض الاعوجاج
أو تهدلت بعض شرائط ثوبك
تعالي كما أنت ... ولا تضيعي وقتك في زينتك

• • •

تعالي ... بخطوات سريعة فوق الأعشاب
ولا تعبئي إن أذهب الندى القطر من قدميك
أو تراخت أنغام الأجراس في أرجلك
أو سقط من سلسلتك الدر واللآلىء
تعالي كما أنت ، ولا تأبهي لكل هذا
تعالي بخطوات سريعة فوق الأعشاب

• • •

هل ترين الغيوم قد ملأت السماء ؟
وأسراب الطيور تطير بعيداً فوق ضفاف النهر
والرياح تهب على الأراضي القاحلة في غير انتظام
والأغنام تجري إلى مساكنها في القرية باضطراب
وهل ترين الغيوم قد ملأت السماء ؟

• • •

تحاولين إيقاد مصباح زينتك ... ولكن بدون جدوى
لقد اضطرب اللهب ... وذهب وسط الرياح
من الذي يستطيع أن يعلم إن كانت جفونك قد مسها الدُّخَان ؟
فعيناك أشد سواداً من السحب الممطرة
بدون جدوى تحاولين إيقاد مصباح زينتك

• • •

تعالي كما أنت ... ولا تضيعي وقتك في زينتك
ماذا يهم إن لم تكوني أتممت جمع باقتك المستديرة
أو يكون سوارك لم يتم صنعه
فالسماء قد ملأتها الغيوم ... وتأخر الوقت
تعالي كما أنت ...
ولا تضيعي الوقت في زينتك ..

— ٣ —

هناك ... بعيداً ... بين المروج
أرى غايتي وآمالي ...
وها هو الطريق المؤدي إليها
لكم أراه جميلاً كذلك
إنه جزء من غايتي وآمالي
لأنه سيجعلني أصل يوماً ما إلى هذه المروج الرائعة

ترجمة
حافظ أحمد أمين

الطب عند المصريين القدامى

— ٢ —

للأستاذ أحمد بدران

السحر والطب :

لقد كان للسحر أثر هام فى حياة قدماء المصريين الاجتماعية والدينية ، فهو لم يؤثر فى علاقات الأحياء بعضهم ببعض فحسب ، بل أثر فى علاقاتهم بالأموات والآلهة كذلك . وكان السحر عند المصريين وسيلة محققة لإدراك حاجاتهم ورغباتهم ، وبالاختصار كل شىء تقصر حياتهم اليومية العادية عن إدراكه . وكان السحر يستخدم فى أغراض جمة ، ولكن أكثر ما كان يوجه إليه نشاط الساحر هو الوقاية من الأمراض والإصابات المختلفة وشفاؤها ، وعلاج لدغات الحيوانات السامة وعضها ، وغير ذلك من المصائب والحوادث السيئة التى تصادف الفرد . ولقد كانت الأغراض الطبية أكثر ما كان يستخدم فيه السحر ؛ وجل ما وصل إلينا من المعلومات عن ذلك عن الطريقة التى كان يتبعها من يمارسون هذا الفن . ونرى فكرة « الحلول » ظاهرة واضحة فيما وصل إلينا من الفنون السحرية ؛ وكثيراً ما يذكر صراحة أو ضمناً أن المرض ناشىء من وجود العفريت نفسه فى جسم المريض ، ولكن كثيراً ما يذكر أن الآلام سببها بعض السموم مما نفثه الشيطان فى جسمه . وكانت أسهل الوسائل لعلاج المريض فى هذه الأحوال هى ترديد رقية يؤمر فيها عفريت المرض أمراً عاجلاً بالخروج لساعته ، أو يؤمر السم بالخروج من جسم المريض . وهذه الرقى المختلفة الطول والشمول مملوءة بإشارات إلى الآلهة وتحوى قطعاً من الخرافات فى غاية الإمتاع . وتحوى بعض الرقى تهديدات وتعاويذ فى غاية الجرأة . وكان حسب الساحر فى أبسط الحالات أن يتلو بعض كلمات شفوية ، إلا أنه كان فى معظم الرقى يقوم إلى جانب الكلمات المقولة ببعض الطقوس كحركات اليد أو استخدام تمائم وغيرها من الأشياء . وقد أحسن الدكتور إلن جاردنر حين أطلق على هذين القسمين من فن السحرة اسمى الطقوس الكلامية والطقوس اليدوية على التوالى . ومن المألوف فى المتون السحرية الطبية أن نجد نبذة فى نهاية المراسم الكلامية ترشد إلى طريقة عمل المراسم اليدوية المرافقة لها . وكثيراً ما تتخذ المراسم اليدوية صورة تلاوة الكلمات على دمية من الخشب أو الطين ، أو على مسبحة أو حبل ذى عقد ، أو قطعة من القماش تعلوها كتابة ، أو على تميمة ، أو قطعة من حجر ، أو نحو ذلك ؛ وكانت العادة أن توضع هذه الأشياء التى أصبحت بذلك مسحورة على جسم المريض أو تتصل به . وفى حالات المرض والجرح كثيراً ما كانت المراسم اليدوية هى تلاوة المراسم الكلامية على مزيج من المواد تعطى بعد ذلك المريض لابتلاعها أو استعمالها من الظاهر ، وبهذه الطريقة يصبح الدواء فعالاً .

ونجد بين محتويات أوراق البردى الطبية المملوءة بتركيبات العقاقير ، بعض الرقى السحرية ، الغرض منها أن تجعل التركيبات التى تتلوها قوية . وهذه الرقى هى المراسم الشفوية التى تختص بها كل مجموعة من التركيبات ، ويؤلف تحضيرها وطريقة استعمالها المراسم اليدوية المقابلة لهذه المراسم الشفوية . وتحوى كثير من الجرعات المذكورة فى هذه الأوراق على مركبات سامة أو كريهة يقصد بها من غير شك ألا يطيقها الروح الذى يحل فى جسم المريض ، فلا يجد إزاءها الشجاعة على إطالة المكث فيه .

ومن خصائص السحرة فى كل الأزمان أن يكون لقوسهم أكثر من وتر واحد — حتى إذا أخفق علاج نجح آخر ، إذ لا بد أن تبقى مكانتهم وشهرتهم بأى ثمن . ولهذا نجد فى أوراق البردى الطبية عدة تركيبات للمرض الواحد ، ونجد فى المتون السحرية رقى عدة لكل نوع من أنواع المرض والمصائب ، وتحوى بعض هذه التركيبات عقاقير ذات فائدة حقة . وهذه التركيبات التى تفى حقاً بغرضها هى التى تبقى بعد أن تعفو آثار زميلاتها غير المفيدة . ومن ثم يزداد اعتماد الناس تدريجياً على العقاقير نفسها (أى على أعمال السحرة اليدوية) ويقل اعتمادهم على الرقى الملفوظة ، أى على مراسم الساحر الكلامية . ويصبح الأشخاص الذين يحتاج إليهم أشد الحاجة فى حالات المرض هم أعرف الناس بالعقاقير

وأمهرهم في تحضيرها والعلاج بها . وبذلك لا يبقى هؤلاء سحرة فحسب بل يصبحون أطباء ، وبهذه الطريقة نما الطب من فنون السحر . على أنه يجب ألا نفرض أن انفصال الطب من السحر قد قلل من شأن السحر أو محاه من الوجود . ذلك أن من النادر في تاريخ التجارب الإنسانية أن يحل الجديد محل القديم كله . ولقد أبقى الأطباء الأول على السحر سنداً لهم وملجأ عند الحاجة ، وبقيت الطرق السحرية تستعمل مع وسائل العلاج الجديدة جنباً إلى جنب ، كما تدل على ذلك بوضوح أوراق البردي الطبية الباقية من عهود الفراعنة . وفضلاً عن هذا فإن وجود برديات من عهد البطالمة وبعده مكتوبة بالخط الديموطيقي المصري وباللغة القبطية واليونانية ، يدل على أن ممارسة السحر لشفاء الأمراض كان عملاً منتشراً حتى بعد أن عرف الناس فائدة الطب العلمي الذي يرجع الفضل فيه إلى الإغريق . وكان للسحر سلطان قوي في القرون الأولى من العصر المسيحي وفي خلال العصور الوسطى ، ودام سلطانه في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، ولم يقض عليه نهائياً إلى الآن حتى بين الشعوب المتمدينة ، فقد بقي الساحر وغاية ما في الأمر أن العمل الذي يضطلع به قد تغير بتغير الأزمان ، فأصبح قارئ الكف أو مهرجاً أو دجالاً أو ممثلا عن أدوية مبتكرة لا يعلم سرها إلا هو . ذلك أن الساحر القديم عندما أصبح طبيباً برغم أنفه عز عليه أن يتخلى عن غموض مهنته ، وكثيراً ما أخفى طريقته الجديدة في العلاج تحت قناع من الأسرار الخفية . وقد سار على سنته طوال العصور خلفاؤه من بعده .

وإن تعدد التركيبات الطبية لمرض الواحد لهو في حد ذاته اعتراف صريح بأن هذه التركيبات إنما تمليها طرق تعسفية غير علمية ؛ والمعنى الذي يستفاد من وصف أدوية مختلفة لكل داء من الأدواء أنه إذا أخفق أحدها جاز أن يجرب الآخر ، ولذلك يمكن تلخيص الطريقة التي يطلب اتباعها في البرديات الطبية في العبارة الآتية :

« جرب أ أو ب أو جـ » لكننا نتبين طريقة أرقى من هذه حين نقرأ طرق العلاج التي تحتويها بردية تشستر التي تقول : استعمل أ ثم ب ثم جـ ، أعني أن التركيبات المذكورة لكل حالة تستعمل كلها بالتتابع ولا يختار المعالج تركيباً منها حسب إرادته ، ومن أجل هذا وضعت هذه الوثيقة في المجموعة رقم ١ التي جئنا على وصفها من قبل .

التشريح ووظائف الأعضاء :

لقد كان لعادة تحنيط الموتى في مصر ، وهي التي كانت تتطلب إزالة الأحشاء والعمل فيها أثر كبير في نمو الطب ، رغم أن التحنيط لم يكن يقوم به أطباء ، بل كان في البداية من الشعائر الدينية . واستفاد المصريون أكبر فائدة من التحنيط ، إذ عرفوا منه مظهر الأعضاء الداخلية وطبيعتها وموضعها منسوبة إلى بعضها — ولم تكن تلك الفرصة لتتاح لكل الناس الذين كانوا يدفنون موتاهم أو يحرقونهم ، كما عرفوا منه أيضاً خواص الأملاح والراتنجات الحافظة التي استخدموها لهذا الغرض ، وقد أتاحت لهم هذه الأعمال لأول مرة فرصاً للمشاهدة في التشريح المقارن ، لأنها مكنت ممارسيها من ملاحظة التماثل بين أحشاء الجسم الإنساني وبين أحشاء الحيوانات ، وكانوا قد ألفوا من زمن طويل مشاهدة أحشاء الحيوانات في أثناء تقطيعها لطعامهم أو تقديمها قرابين لآلهتهم .

ومما يستحق الذكر أن العلامات الهيروغليفية المختلفة التي تمثل بعض أجزاء الجسم — وخاصة الأجزاء الداخلية — صور لأعضاء ثدييات وليست لأعضاء بني الإنسان ، وهذا يدل على أن علم المصريين بتشريح الثدييات كان أسبق من علمهم بتشريح الإنسان ، كما يدل على أنهم لاحظوا التطابق بين الاثنين ، إذ وضعوا رسوماً لأعضاء الحيوانات واستخدموها دون تغيير في صورتها للإشارة إلى الأعضاء المماثلة لها في جسم الإنسان .

وفي وسع الإنسان أن يدرك مقدار ما يعرفه شعب من الشعوب عن موضوع من بغنى لغته بتعبيراته أو فقرها في هذه التعبيرات ؛ وفي اللغة الهيروغليفية القديمة أكثر من ألف تعبير تشريحي ، وهذه الحقيقة وحدها كافية للدلالة على أن المصريين استطاعوا أن يميزوا عدداً كبيراً من الأعضاء والأجزاء العضوية ، ووضعوا لها أسماء من عندهم ، ولو صادفها شعب أكثر من المصريين الأقدمين بداءة أو أقل منهم عقلاً لضمها كلها بعضها إلى بعض أو لعجز عن مشاهدتها . على أن المصريين إذا كانوا قد وضعوا أسماء دقيقة دقة لا بأس بها للأجزاء الكبيرة من الجسم ، فإنهم

قد أخفقوا في إدراك الفرق بين الأعصاب والعضلات ، والشرايين والأوردة ، فعبروا عن هذه كلها بلفظ واحد ، ويبدو أنهم كانوا يعتقدون أنها كلها أجزاء مختلفة من جهاز واحد تتفرع حباله وتتشعب ، وتكون شبكة منتشرة في كل أجزاء الجسم ؛ ولذلك نجد اللفظ المستعمل للدلالة على الأوعية الدموية التي تتصل بالقلب هو نفس اللفظ المستعمل للعضلات في تركيبات الأدوية التي توصف لتصلب المفاصل والآلام الروماتزمية ؛ وليس في وسعنا أن نفهم أيها هو المقصود من اللفظ إلا بالرجوع إلى سياق الكلام .

أما من حيث علم وظائف الأعضاء ، فإن أهم وثيقة لدينا فقرة طويلة في بردية إيبرز تبحث في القلب وأوعيته ، وهذه الفقرة مبهمة غامضة مشوشة عسيرة الفهم جداً ، وفي النسخة اليونانية منها الواردة في بردية برلين من الخطأ في النقل ومن الأغلاط الكتابية ما يجعلها عديمة النفع ، وهناك صورة ثالثة في بردية ادوين اسمث ولكنها تتكون من قطع صغيرة ممزقة لا يمكن الانتفاع بها قط ؛ ولا شك في أن المصريين كانوا يشعرون بصعوبة فهم هذه القطعة ، ولذلك أدخلوا عليها عدداً من الحواشي لشرح معاني بعض عباراتها ؛ وربما ساعدت هذه الحواشي المصريين في أيام الأسرة الثامنة عشرة ، أما بالنسبة لنا نحن فإنها لا تنقص من صعوبة فهمها بل تزيدها .

وعنوان القطعة هو « بداية علم الطب أن تعرف حركات القلب وأن تعرف القلب . إن هناك أوعية متصلة به ممتدة إلى كل عضو في الجسم » ويتلو ذلك تعليق شرحي يقول : إننا إذا وضعنا الأصابع على منطقة القلب وعلى الرأس والأطراف تبينا عمل القلب بوساطة الأوعية الموصلة إلى كل عضو ، أعني يمكن الشعور بالنبض في مختلف أجزاء الجسم بوساطة الأوعية المتفرعة من القلب . وليس هناك أية إشارة تدل على علمهم بدورة الدم (وإن كان بعض الكتاب استنتجوا ذلك من النص) بل ولا أي ذكر للدم ، وكل ما عرفوه اتفاق النبض مع ضربات القلب نفسه . وكان المصريون بالضرورة يعدون القلب أهم عضو في الجسم ، وكانوا يعتقدون أنه موضع الذكاء والعواطف كلها ، ولا يعلقون أية أهمية على المخ ، وكانوا يرون أن وجوده في الجسم عظيم الخطر ، فلم يكونوا يزيلونه عند التحنيط ، بل كانوا يعنون كل العناية بأن يتركوه هو وأوعيته الكبرى في موضعه من الصدر وإن أزالوا كل الأحشاء الأخرى . ويأخذ النص بعد هذه المقدمة في تعداد الأوعية التي تتصل بكل جزء من أجزاء الجسم ويذكر ما تنقله إليها ثم يتكلم عن القلب في حالات عدة .

وليس في وسعنا أن نستنبط نظاماً فسيولوجياً من هذه القطعة الغامضة المبهمة وإن كانت هناك حقيقتان تظهران منها بوضوح تام ، إحداهما هي أهمية القلب من حيث هو مركز الجهاز الوعائي ، والأخرى هي أن الأوعية لا تختص بالدم وحده ، بل هي أيضاً لطريق الهواء والماء والمخاط والسائل المنوي وغيرها من الإفرازات .

ولا ريب أن هذا الاستنتاج الخاطئ* قد نشأ من الحالة التي تشاهد عليها الأوعية عندما كان المحنطون يفحصونها عقب الوفاة ، ولا يمكن أن يكون منشؤها بحث حالة الأوعية نفسها وهي تؤدي وظيفتها في الجسم الحي . وكان المعتقد أيضاً أن الأذنين ليستا عضوي السمع فحسب ، بل هما أيضاً جزء من الجهاز الرئوي ، فقد ذكر أن نفس الحياة يدخل من الأذن اليمنى ونفس الموت من اليسرى . وبعد هذا الخليط المشوش من الأقوال الذي يملأ صفحات عدة من البردية ، ومعظمه خاطئ* ، تبقى نواة من مشاهدات صحيحة صادقة ، توحي بأنه في الأزمان المبكرة جداً كانت تبذل محاولات جدية لفهم تركيب الجسم ووظائف أعضائه وأثر الإصابات فيها . فقد لاحظوا مثلاً أن المخ مغطى بغشاء (اقرأ هذا في بردية أدوين اسمث) وأن كلا نصفيه مجعد وأن إصابة المخ تفقده السيطرة على أجزاء مختلفة من الجسم كتوتر عضلات الوجه ، إلى غير ذلك من الظواهر ؛ كما لوحظ أن إصابة العمود الفقري تسبب الإنعاظ والقذف غير الاختياري ، وقد تسبب تطبل البطن ، وأن هناك إصابات يمكن شفاؤها شفاء أكيداً ، وأخرى يشك في شفائها ، وثالثة لا أمل في شفائها على الإطلاق .

وهناك فقر في بردية إيبرز تبحث في أمراض المعدة ، وأخرى في بردية كاهون تبحث في اضطرابات الرحم وغيرها من أمراض النساء ، وهي تتميز بأنها تصف أعراض المرض وتشخصه ، في حين أن كل المراجع الطبية الأخرى تقريباً تفترض أن التشخيص معروف وتكتفي بوصف العلاج . وهذه الفقرات السالفة الذكر هي والجزء الخاص من بردية إيبرز منقولة من غير شك عن مصدر آخر يختلف كل الاختلاف عن المصدر الذي أخذت عنه معظم الكتابات الطبية وكلاهما تنتمي إلى نوع من الوثائق أطلقنا عليه من قبل اسم « المجموعة الأولى » .

أحمد بدوى

مسرح المجتمع

تأليف توفيق الحكيم

٧٨٠ صفحة من القطع الكبير — ١٩٥٠ — مكتبة الآداب

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

عرفت توفيق الحكيم ثلاثة أنواع من المعرفة: الأولى روحية أو أدبية بما قرأت له؛ فأعجبت بهذا اللون من الأدب الذي يعرضه. وسنحت الفرصة أن ألتقى به في مكانه المختار الذي كان يختلف إليه بشارع قصر النيل فعرفت شخصه وهيأته. ثم كانت المعرفة الثالثة في هذه السنوات الأخيرة بندوة الثقافة. رأيت فيه صديقاً بارعاً يأخذ بألباب المجلس ويعد زهرة أدبية رشيقة لها طابعها الفريد في جملة الحاضرين.

والتقيت به قبل صدور كتابه الأخير فأخبرني أنه سوف يصدر قريباً، ويود أن يهدى إلىّ نسخة منه، لأنى أهديت إليه كثيراً من مؤلفاتى، ولم يهد إلىّ بعد شيئاً. وانتظرت تحقيق هذا الوعد، ولكن الشواغل صرفتنى عن الوفاء بالزيارة، ولم تعد صحتى تسمح بالتخلص من الدار والاختلاف إلى الأصدقاء. وقد أكون قد تحرجت من لقائه. ولكن يشاء القدر أن أزور الناشر يوماً، فإذا هو يهدى إلىّ نسخة «مجلدة» من كتاب «مسرح المجتمع» لتوفيق الحكيم. فقلت فى نفسى: هذا قضاء محتوم، وفضل من الله عميم.

وانصرفت بالكتاب، وهو ضخم الحجم لأنه يحوى بين دفتيه ثمانمائة صفحة من الورق الجيد، وهو لهذا السبب يلفت النظر. وصادفت جار أحد أقربائى قبيل العودة إلى دارى، فسألتنى فى الطريق: ما هذا الذى تحمل؟ قلت لها: هذه تمثيليات توفيق الحكيم، ولعلك قرأت بعضها فى الصحف. قالت: لا والله لم أقرأ له شيئاً، إذ ليس عندى فراغ من الوقت. قلت لها: هاهو الكتاب انظرى فيه، فهذا فن جديد طريف. وما إن شرعت تقرأ التمثيلية الأولى «بين يوم وليلة» حتى استغرقت استغراقاً كاملاً فى القراءة، وانصرفت عن التعليق والترحيب. فلما فرغت من قراءتها، استأذنتها فى اصطحاب الكتاب بضعة أيام ريثما أكتب عنه، ثم أعيدها إليه لتتزود من هذا الفن

تنبيه

تقصد مجلة «الثقافة» من وراء نقد الكتب التى تنشرها خدمة المؤلفين والقراء: الأولين بتنبيههم إلى أخطاء وقعوا فيها من سهو أو عن نقص، والآخرين بتوجيههم إلى طرق التأليف الصحيح والفن الصحيح، وتلك هى مهمة النقد النزيه كما تفهمها هذه المجلة.

ولكنا علمنا أن بعضهم يحاول استغلال هذه التوجيهات البريئة للإضرار بحضرات المؤلفين ونقص أقدارهم مدفوعين بدوافع شخصية خالصة. ونحن نستنكر هذا الأسلوب فى تجريح الناس والإضرار بهم، ونؤكد لحضرات من عنى هذا بمؤلفاتهم أننا نحترم أشخاصهم وأعمالهم الفكرية مهما كانت وأياً كانت، وعقيدتنا التى لا تتغير هى أن من يؤلف ويخطئ خير ممن لا يؤلف، ويعتقد أنه بذلك فى مأمن من النقد. نريد أن نقول إن الأول له فضل الإقدام، وفضل المحاولة، وفضل السعى فى إفادة الناس، ومن ثم فهو جدير بالشكر والتقدير.

إننا نستنكر أعمال هذا النفر، ونعلن براءة «الثقافة» منها، وندعو كل من يلجأ إلى هذا السبيل أن يربأ بنفسه وقلمه بدلاً من محاولة الاستفادة من أخطاء الناس على هذا الأسلوب الرخيص.

«الثقافة»

الذي أحببت به واشتاقت له .

قالت السيدة التي اطلعت على تمثيلية توفيق الحكيم لأول مرة ، ولم تتأثر في حكمها برأي سابق ، أو هوى ، أو معرفة بأصول الأدب وأسرار النقد : « والله إن هذا الكاتب ليصف الواقع وصفاً صادقاً ، كأنه يحكي ما يجول في أنفسنا » . وهذه شهادة « محايد » على أدب الحكيم . وقديماً قيل : لم كان المتنبي أشعر الشعراء ؟ فقال أحدهم : لأنه يحكي خواطر الناس .

ومغزى تمثيلية « بين يوم وليلة » ما يتصف به الكثيرون من النفاق والتلون وطلب المنافع تقرباً من ذوي السلطان ، فإذا ولى السلطان عنهم أشاح الناس عنهم بوجوههم ، وتنكروا لهم . هي قصة مدير مكتب أحد الوزراء ، انصرف عن الوزير عند استقالة الوزارة وبسط فيه لسانه ، واستعد لاستقبال الوزير الجديد ، ولكن الله خيب ظنه فعاد الوزير القديم . وسرعان ما انقلب مدير المكتب فلبس ثوب النفاق ، وذهب إلى بيت الوزير يعرض عليه الأوراق ، بعد أن أرسل خطاباته مع الساعي . فانظر إلى الحوار بين الوزير ومدير مكتبه ، وكيف يمعن المدير في الكذب .

الوزير : أهلاً بمدير مكتبنا المخلص (بنبرة تهكم)

مدير المكتب : دائماً يا معالي الوزير

الوزير : طبعاً ... دائماً وفي كل وقت ، حتى بعد الاستقالة .

مدير المكتب : هل عند معاليك شك في إخلاصي ؟

الوزير : (متهكماً) أبداً ... حاشا لله ! وهل هناك إخلاص أشد من أن تدخل بيتي بعد استقالتي وتودعني ذلك الوداع المؤثر ... دون أن تخاف أو تهرب .

مدير المكتب : أودع معاليك ؟ لماذا ؟ ... لا يا معالي الوزير ... إني لم أرد أن أجيئك مودعاً ، لأني كنت عميق الإيمان بك وبعودتك في الوزارة الجديدة ... الخ .

• • •

يقول توفيق الحكيم في مقدمة الكتاب : « إن التمثيلية ذات الفصل الواحد كان لها فضل في تصوير المجتمع في أوضاعه العديدة المختلفة . . . فقد استخدمها لهذه الغاية موليير ودي موسيه وماريفو وتشيخوف . . . إلخ . فالعمل على إقرارها أيضاً في الأدب العربي لمما يمكن لهذا الأدب العربي في أساليب أدائه ، وينوع له في وسائل تعبيره ... »

أقول : التمثيلية التي تصور المجتمع قديمة ، وهي على التحديد يونانية ، وقد مرت بدورين : الأول يمثله أرستوفان ، ولا نود أن نعرض لخصائص فنه . والدور الثاني يمثله ميناندر وفيلمون ، وتسمى « كوميديا العادات أو الأخلاق » . وكان ذلك بعد وقوع أثينا في أيدي المقدونيين ، وابتعاد المسرح عن السياسة ، والانصراف إلى تصوير الأخلاق والعادات . وكانت تمثيليات ميناندر هي النموذج الذي احتذى بلوتوس وتيرنس في روما مثاله بعد ذلك . جملة القول أن أصول التمثيليات يونانية ثم انحدر إلى الآداب الحديثة بعد أن تطور في أسلوبه وموضوعه وطريقته بما يلائم كل عصر ويتفق مع مزاج كل شعب .

والتمثيلية دخيلة على الأدب العربي ، ولم ينقلها العرب في عصر الترجمة مع ما نقلوا من فلسفة اليونان وعلومها ، ولذلك كان توفيق الحكيم صادقاً في قوله إنه يريد أن يعمل على إقرار هذا الضرب من الأدب في لساننا . ولن يستقر هذا اللون الجديد إلا إذا تعدد الأدباء الذين يؤلفون بهذه الطريقة ، وإلا إذا مثلت هذه المسرحيات على المسرح حتى تصبح قطعة من الحياة ويتلقاها الجمهور متحركة ناطقة تدب الروح في أوصالها . ولكن المسرح المصري مع الأسف الشديد لا يزال طارئاً على الحضارة الشرقية لم يلق التأييد من الجمهور والذيوع والانتشار .

• • •

ومع ذلك فلا يوجد عندنا في مصر بل في الشرق العربي كله ، إلا توفيق واحد ، هو توفيق الحكيم . وهذا دليل الأصالة ، وآية على صدق الفن وشخصية الفنان ، ونحن لا نود أن يظهر أديب أو أدباء يقلدون توفيق الحكيم ، لأن المحاكاة مفسدة للفن الحق ، وحتى لو شاء أحد أن يحاكي أسلوب الحكيم وطريقته ما استطاع إلى ذلك سبيلا ! وعلة ذلك أن التمثيلية كل لا يتجزأ ، في موضوعها وفكرتها وطريقة عرضها وأسلوب حوارها ، وهذه الوحدة الفنية تصدر قبل كل شيء من الأديب وتنبع من وحي نفسه . وقيل إن عين الأديب أو الفنان نافذة يطل منها على ميدان الحقيقة ،

ومعنى توفيق ترى المجتمع المصرى من زاوية خاصة على خلاف ما تراه أعين الناس . المقرأه من الغريب أن تقع العين على الظواهر الاجتماعية فلا تلتفت إليها ، ولا تحركها ، فإذا بالفنان يرى فى هذه الظواهر ما لا يراه غيره ، وذلك لطول ألفتهم لها .

والمفتاح الذى نعرف به سر فن توفيق الحكيم هو طريقة إدراكه للظواهر الخلقية والاجتماعية ، وهذه الطريقة هى المفارقة أو المقابلة بين الشخصيات بحيث يجمع بينها تباين شديد وتقابل عظيم تلحظ معه الفرق بينهما ؟ وقد عمد إلى هذه الطريقة فى عودة الروح ، وفى بعض تمثيلياته المنشورة فى هذا الكتاب ؛ فى تمثيلية « لو عاد الشباب » تجده يجيد شيخاً بلغ الثمانين عاد شاباً فى الخامسة والعشرين ، وهنا موضع التقابل والمفارقة ، فالشخص هو هو ، ولكنه أصبح يتحدث بعقل شيخ مجرب عرك الحياة . . ولكن قلبه عاد شاباً ، وكذلك جسمه .

ويستتبع هذا التقابل فى الشخصية الواحدة أو الشخصيات المختلفة ، أن يبث فيها الحياة ، ويجرى على لسانها الحوار ، وهذه براعة أو هبة أصبحت عند توفيق الحكيم بمنزلة الطبع لطول ممارسته هذا الضرب من الكتابة ، حتى أصبح يجرى قلمه سهلاً يسيراً ، لا افتعال فيه ، ولا تحس معه بغرابة .

وننتقل إلى سر ثالث يمتاز به فن الحكيم ، هو عنصر المفاجأة المستمر من أول التمثيلية إلى آخرها ، فقد درجنا فى الأدب العربى أن نقرأ الأقاصيص أو الحكايات الغربية التى تبدأ بداية منطقية تطابق الواقع المألوف فى الحياة ، فتحس وأنت تقرأ « الحكاية » أنك تعرف نهايتها ، وتستطيع أن تتنبأ بما سوف يقصه عليك القصاص ، ولكنك لا تستطيع إذا جئت تقرأ تمثيلية من تمثيليات الحكيم ، أن تعرف ما ذا يأتى بعد ذلك ، ولا كيف تتطور الحوادث ، ولا كيف يجيب المسئول ، وهــذه هى العلة فى اللذة التى تحسها عند قراءة تمثيلياته ، والشوق الذى يدفعك إلى الاستمرار فى القراءة دون انقطاع .

ونشأ عن هذا كله أمن التقابل الغريب بين الشخصيات والتصارع بينها واختلافها فى سلوكها وحدبثها عن المألوف المتعارف عنصر جديد هو عنصر الفكاهة ، ولذلك كانت هذه التمثيليات أقرب إلى الكوميديا اليونانية التى حدثتك عنها فى أول هذا الكلام . فى تمثيلية (بين يوم وليلة) يذهب خطيب ابنة الوزير إلى بيته بعد أن فتح الخطاب الذى كان أرسله يطالب فيه تحديد موعد الزواج ، وغير هذا الموعد حين علم بسقوط الوزارة ، فلما عاد الوزير إلى الوزارة ذهب يحتال فى أخذ الخطاب ، وكانت الخطيبة كلبها « بوبى » ففهم الخطيب يريد انتهاز هذه الفرصة للخروج ، فقال له الوزير : إنها تنادى « بوبى » فقال الخطيب : وما فى ذلك ؟ أنا « بوبى » .

وسر آخر فى فن الحكيم أنه ينفذ إلى صميم الروح المصرية فى استعمال العبارات حتى الدارجة منها ، وفى معرفة الأخلاق والتقاليد ، وفى الوقوع على النكتة البارعة ، وفى معرفة اللغة التى تطابق كل شخصية ويليق أن يتحدث بها ، مما يجعلك تحس بواقعية هذا الفن وعدم افتعاله ، وأنه قريب من قلبك .

وبعد فإنا نود أن نرى بعض التمثيليات على مسرح الأوبرا قريباً لأن هذا مكانها .

أحمد فؤاد الأهوانى

دار الطـــراز

لابن سناء الملك

نشر وتحقيق الدكتور جودة الركابي

— ١ —

للدكتور شوقي ضيف

من الجهود التي تذكر بالحمد والثناء في هذه الأيام ما يقوم به شباب البلاد العربية من نشر النصوص القديمة نشراً علمياً . وقد كنا إلى عهد قريب منصرفين عن هذا النشر ، وكان ما ينشر لا يقوم عليه سوى الوراقين ومن يشبهونهم ، وقلما وقف باحث محقق على نشر كتاب . أما الآن فقد أخذت المكتبة العربية تزود بطرائف ثمينة من النصوص والكتب القديمة يخرجها طائفة من الشباب حبسوا أنفسهم لهذه الغاية .

وليس من ريب في أنه ينبغي أن نستقبل كل أثر جديد ينشر نشراً علمياً بالشكر والتبجيل لصاحبه ، فلا يعلم إلا الله مدى ما يلقى من عناء في سبيل إخراجه وتحقيق نصوصه ، فقد يبيت ليلة بل ليالي ساهراً يحاول أن يصحح كلمة وأن يعيدها إلى صورتها الحقيقية التي شوهها النساخ للنسخة القديمة أو طمستها الأيام . ومهما حاولنا أن نثني على ناشر من هذا الطراز فلن نوفيه حقه من الثناء على الجهد الذي اضطلع به .

من أجل هذا كله أقبلت على دار الطراز أقرؤه وأنا أرمق الدكتور جودة الركابي بالإعجاب ، إذ استطاع أن يخرج هذا الأثر النفيس من الظلمات إلى النور ، فاستحضر نسختي لندن والقاهرة وقابل بينهما مقابلة أدته أو أدتنا إلى ظهور دار الطراز الذي كنا لا نزال نرجو ظهوره ، لما له من خطر ، فإن ابن سناء الملك حاول فيه أن يدرس الموشحات درساً علمياً دقيقاً ، فألفه واختار فيه أربعاً وثلاثين موشحة للأندلسيين أو كما يسميهم المغاربة ، وأضاف إليها خمساً وثلاثين من تأليفه تطبيقاً عليها ، وقدم لذلك بمقدمة جيدة عن الوشح وحده وأنواعه من حيث الأقفال أو المراكز والغصون ، ومن حيث الأبيات أو الأدوار والسموط وعرض للموزون منه وغير الموزون في استقصاء وذكاء .

والكتاب لهذا أثر خطير حقاً من آثار الأندلس ومصر جميعاً ، فهو مؤلف في القرن السادس للهجرة وفي عصر مبكر من عصور الموشحات وظهورها بمصر . وقد احتوى في الوقت نفسه على مجموعة من الموشحات الأندلسية في عصر ابن سناء الملك وقبل عصره . ونسب ابن سناء الملك في مقدمته خمسة عشر موشحاً من الموشحات الأندلسية إلى أصحابها وهم عبادة القزاز المشهور بمدح المعتصم بن صمادح في النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة ، والأعمى التطيلي المتوفى عام ٥٢٥ هـ وأبو بكر يحيى بن بقي المتوفى سنة ٥٤٠ هـ

ودراسة حياة هؤلاء الثلاثة الذين داروا في مقدمة دار الطراز ضرورية لفهم موشحاتهم التي استشهد بها ابن سناء الملك ومعرفة الأعلام التي ذكرت فيها . والمتتبع في التراجم المختصرة التي ألحقها الدكتور جودة بالكتاب تعريفه بعبادة بن ماء السماء ، ظناً منه أنه عبادة الذي يذكره ابن سناء ، وقد ساق في تعريفه بعبادة بن ماء السماء أن المؤرخين اختلفوا في سنة وفاته أهي سنة ٤١٩ أو هي سنة ٤٢١ هـ ، وموشحات عبادة التي أشار إليها ابن سناء تمدح إحداها وهي ذات الرقم ٢١ المعتصم بن صمادح الذي ولد — كما في المغرب لابن سعيد — سنة ٤٢٩ هـ وحكم المرية منذ سنة ٤٤٣ هـ حتى توفي سنة ٤٨٤ هـ ، وقد ورثها عن أبيه ، فيتحتم أن يكون عبادة دار الطراز غير عبادة بن ماء السماء ، فقد توفي قبل ولادة المعتصم بن صمادح . وهو عبادة القزاز أشهر وشاح في عصر ملوك الطوائف كما يقول ابن خلدون ، وقد قالوا عنه إنه شاعر المعتصم بن صمادح ونسب إليه الموشح رقم ١٨ في دار الطراز ، وهي التي يقول فيها :

بدرُ تمّ شمسُ ضحى غصنُ نقا مِسكُ شمّ

وإذاً فلا شك أن عبادة الذي دار اسمه في مقدمة دار الطراز هو عبادة القزاز لا عبادة بن ماء السماء . ومما يتصل أيضاً بالأعلام المترجمة في الكتاب ما جاء عن بني القاسم الذين يمدحهم أبو بكر يحيى بن بقي ؛ فقد عرّف بهم الدكتور جودة على هذا النحو : « هم الأمراء الفضلاء

أصحاب البونت من نسل عبد الملك بن قطن الذى تولى الأندلس بعد استشهاد عبد الرحمن الغافقى ، وهو من قريش الظواهر كالفهريين . ومن ملوكهم عبد الله بن القاسم الملقب بنظام الدولة حكم حتى سنة ٤٣٣ ، وأحمد بن محمد عضد الدولة حكم حتى سنة ٤٤١ ، وعبد الله بن محمد جناح الدولة حكم حتى سنة ٤٨٥ هـ ، وقد زالت دولتهم مدهجوم المرابطين .

ويتحتم أن يكون هؤلاء الأمراء ليسوا هم الذين مدحهم ابن بقى فى موشحاته ، لسبب بسيط ، وهو أنه لم يكن من شعراء عصر ملوك الطوائف الذى انتهى سنة ٤٨٥ هـ ، وإنما هو من شعراء عصر الملثمين ؛ فقد توفى سنة ٥٤٠ . وفى رواية ثانية أنه توفى سنة ٥٤٥ هـ . ومعنى ذلك أنه عاش ستين سنة بعد انتهاء دولة بنى القاسم على فرض أنه لحق دولتهم !

والحقيقة أن بنى القاسم الذين يمدحهم ابن بقى هم قضاة سَلاً ، وهى بلدة بأقصى المغرب على المحيط ، وكانوا ممدحين لشعراء الأندلس ، فكانوا يقصدونهم وينالون منهم الجوائز السنية ، وقد تخصص بهم ابن بقى ويقول ابن سعيد فى رايات المبرزين إن له فيهم موشحات مشهورة منها قوله :

أما ترى أحمدْ   فى مجده العالى   لا يُلحَقُ
أطلعه الغربُ   فأرنا مثله   يا مَشْرِقُ

وهى نص الموشحة رقم ١٧ فى دار الطراز ، وفيها ما يدل دلالة واضحة على أنه يريد بنى القاسم قضاة سَلاً إذ يقول :

يا أيها الحائرْ   هل لك فى مَذْهبِ   مُسْهِلِ   الدَّلاَ
يَمِّمْ بنى القاسم   واقصد من المغرب   إلى   سَلاَ
واستمط رواسم   تختال بالركب   وَسْطَ الفَلاَ

ويقول فى بيت أو دور آخر من نفس الموشحة :

أدعوه بالقاضى   وأمل يقضى   عليه   لى

فبنو القاسم الذين يمدحهم من سلا وهم قضاة ، وقد أشار إلى ذلك أيضاً المقرى فى نفح الطيب ص٤٣٣ من الجزء الثانى .

التفتُّ بجانب هذه الأعلام الواردة فى القسم الأندلسى من دار الطراز إلى الأعلام الواردة فى القسم المصرى ، وهى الموشحات التى ألفها ابن سناء الملك معارضة للموشحات الأندلسية ، وقد رأيت الدكتور جوده يعرف بالقاضى الفاضل الذى مدحه المؤلف فى بعض موشحاته ، ولم يحاول أن يعرف بالأفضل أبى الحسن على الذى ورد ذكره فى الموشحتين رقم ٩ و ١٦ من موشحات ابن سناء الملك ، وهو الأفضل نور الدين على بن صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى ملك مصر بعد وفاة أخيه العزيز فى المحرم سنة ٥٩٥ هـ واستمر بها حتى ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ ، إذ أخرجه منها عمه العادل وتملكها وظل عليها حتى سنة ٦١٥ بينما أعطى الأفضل ميافارقين .

وإنما استطردنا إلى ذلك لأننا نريد أن نتخذ من ذكر الأفضل نور الدين أبى الحسن على بن صلاح الدين فى موشحات ابن سناء الملك مفتاحاً لمعرفة التاريخ — ولو بالتقريب — الذى ألف فيه دار الطراز ، فقد جاء فى الموشحة رقم ١٦ :

وملت العليا   وزال ما كانا   من كل بؤسْ
وجدت لى محيا   وجدت سلطانا   يحيى النفوس
أشرقت الدنيا   بوجه مولانا   بعد العبوس
ومالها مالك   ومالها سامك   غير على
الملك العادل   والصائم القائم   الأفضل
الله قد أرسل   منه لنا أوراه   يحيى الهدى
يسعه بالأفضل   من رعيا حله   بحر الندى
عدوه يجهل   لأن من يشناه   من العِدَى
بسيفه هالك   ورمحه سالك   فى البطل
وبأسه قاصم   وذكره هازم   للجحفل
ملك هو البحر   جار على الأموال   منه السماح
وإنه البدر   يجلو دجى الأحوال   مثل الصباح
تشبيع الدهر   فيه إلى أن قال   قولاً صراح

فالأفضل فى هذه الموشحة لابن سناء الملك التى أودعها دار الطراز كان سلطان مصر وملكها ؛ وإذاً فقد أصبح من المحقق أن دار الطراز لم يؤلف قبل سنة ٥٩٥ هـ وإذا عرفنا أن العادل كان خصماً للأفضل وأنه أخرجه من مصر وأبعده إلى ميافارقين ، تبادر إلى ذهننا تواً أن ابن سناء الملك لم يؤلف هذا الكتاب أو الديوان فى عهد العادل ، وخاصة أنه كان متصلاً به وموظفاً فى دواوينه ، وإنما ألفه فى عهد الأفضل أى بين المحرم سنة ٥٩٥ وربيع الآخر الذى خرج فيه من مصر سنة ٥٩٦ هـ ، ولو أنه ألف الكتاب فى عهد العادل لحذف هذه الموشحة ، وأختها رقم ٩ أو على الأقل كان يضع بجانبها موشحات أخرى فى العادل وابنه الكامل ، ومعروف أن ابن سناء الملك توفى سنة ٦٠٨ هـ .

ونعود بعد أن عرفنا تاريخ تأليف الكتاب إلى الموشحات الأندلسية ، فقد مرّ بنا أن ابن سناء الملك نسب خمس عشرة منها إلى عبادة والتطيلى وأبى بكر يحيى بن بقى ، أما عبادة فنسب إليه الموشحات أرقام ٩ و ٢١ و ٢٣ ، وأما التطيلى

فتنسب إليه الموشحات رقم ١ و ٣٠ و ٣٢ و ٣٤ ، وأما ابن بقى فتنسب إليه الموشحات أرقام ١٩و٢٠و٢٢و٢٦و٢٧و٢٨ و٢٩و٣٣ ، وبذلك ظلت تسع عشرة موشحة مجهولة النسب .

ولا أعرف لماذا حاولت التعرف على أصحابها ، لعل حب الاستطلاع هو الذى دفعنى إلى ذلك ، وخاصة أن الأمر نفيس ، وقد ازداد فى هذه الأيام الإحساس بالأدب الأندلسى شعره ونثره بين الباحثين ؛ لذلك رأيتنى أتعقب ابن سناء الملك محاولا أن أنسب ما لم ينسبه من الموشحات إلى أصحابه ، فرجعت إلى ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته عن الموشحات وما كتبه ابن سعيد فى كتابه المغرب (النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية) فوجدت ابن خلدون ينسب الموشحة رقم ١٨ لعبادة القزاز كما مر آنفاً ، وأيضاً فإنه نسب الموشحة رقم ٣ إلى حاتم بن سعيد المتوفى سنة ٥٩٣ هـ كما يقول صاحب نفح الطيب ، وكذلك نسب الموشحة رقم ١٧ لابن بقى ، ونسبها له أيضاً ابن سعيد فى كتابه رايات المبرزين ، وانفرد فى المغرب بنسبة الموشحة رقم ٢٥ لأبى بكر محمد بن عبد الملك ابن زهر وهى الموشحة التى يفتتحها بقوله :

أيها الساقى إليك المشتكى   قد دعوناك وإن لم تسمع

وقد نسبها إليه أيضا ياقوت فى ترجمته له بكتابه معجم الأدباء . وليس هذا كل ما مدنا به ابن سعيد ، فقد وجدته فى (المغرب) ينسب الموشحتين رقم ١١ ، ١٢ إلى ابن اللبانة شاعر المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية الذى اشتهر بوفائه له بعد خلعه سنة ٤٨٤ هـ .

وبذلك تصبح ست موشحات أخرى من دار الطراز معروفة النسب ، وتبقى ثلاث عشرة مجهولة ، وقد أخذت أقيم مراصد عليها من حياة هؤلاء الذين سميناهم ومن تعرضوا لهم فى موشحاتهم ، فوجدت الموشحة رقم ١٥ تنتهى بمدح المعتصم بن صمادح ، فأضفتها إلى موشحات عبادة التى نسبها ابن سناء الملك إليه ، كما وجدت الموشحة رقم ١٠ تمدح يحيى بن على بن القاسم ممدوح ابن بقى فأضفتها إلى موشحاته ، وأيضاً وجدت الموشحة رقم ٨ تمدح المعتمد بن عباد فأضفتها إلى ابن اللبانة شاعره . ولما قرأت الموشحة رقم ٣١ وجدت صاحبها يقول :

يالموزنيين سادة الأمم   أثبت فى ساحة العلا قدمى
هم نجوم الجوزاء والحلل   جلوا لما يضربون بالمثل

وفى الأصل الحورتين ، ولكنه تحريف عن الموزنيين ، وقد رجعت إلى ديوان الأعمى التطيلى (النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية) فوجدته يمدح أبا القاسم الموزنى كثيراً ، فأصلحت النص على هذا الأساس ورجحت أن تكون هذه الموشحة للتطيلى فى أبى القاسم ، وهو فى ديوانه كما عرض له عرض للأسرة كلها . وعلى هذا النحو أمكننى أن أنسب أربعاً أخرى من الموشحات لأصحابها ، ورجعت أقرأ فى الموشحات ، فوجدت فى الموشحة رقم ١٤ هذه القطعة ، أو هذا الدور

أنا من صد ابن صدين   أبى الوليد
كقميص حز فى الحسين   فى الوريد
ولقد فى عقد تسعين   ولا محيد
والكلاب ذات عكين   عما تريد

وقد وقفت عند كلمة ابن صدين هذه كثيراً ورجعت إلى فهرس نفح الطيب وإلى كتاب المغرب لعلى أقع على من سمى بهذا الاسم ، فلم أوفق . وتبادر إلى ذهنى أن الكلمة محرفة ، ووجدت الأعمى التطيلى يمدح ابن حمدين كثيراً ، فقلت فى نفسى لعل ابن صدين محرفة عن ابن حمدين ، وإذا صح ذلك كانت هذه الموشحة من موشحات الأعمى التطيلى . وقد وقفت أيضاً إزاء الموشحة رقم ١٣ إذ رأيتها تدور حول الغزل بغلام يسمى أحمد ، إذ يقول صاحبها فى بعض أدوارها :

الحسن موقوف   عليك يا أحمد
والأمر مصروف   إليك يا أمجد
عبدك مشغوف   فيك ومستعبد
أمتك تميف

ورجعت أرصد ابن بقى وزملاءه وما جاء لهم من أشعار فى النفح والقلائد والمغرب ، فوجدت ابن اللبانة يعرف بغزله فى غلام يسمى أحمد ، فرجحت أن تكون هذه الموشحة له . وعلى هذا النحو وجدت الموشحة رقم ٦ يتغزل صاحبها بمن يسمى أبا العلاء ، إذ يقول فى بعض أدوارها :

مولاى أبا العلاء   ولى لو شئت مقال
وما أكى بالآباء   إلا لرعى الجمال
هل بعد وشك التنائى   قطيعة أو وصال

والموشحة تدور على الغزل بأبى العلاء ، والجزء الثانى من الدور يدل على أن الشاعر كنى صاحبه بأبى العلاء كناية مجتلبة ، فيغلب على الظن أن يكون اسمه علياً ، ووجدت

١ - كوميديا (البخيل)

للأستاذ عبد الفتاح البارودي

قبل كل شيء، أحب أن أتحدث عن تقليد جديد ابتدعته فرقة المسرح المصري الحديث ، ومؤداه تقديم نشرات مطبوعة قبيل حفلات التمثيل ، الغرض منها إعطاء المشاهدين فكرة وافية إلى حد غير قليل عن موضوعات الروايات ومؤلفيها واتجاهاتهم الفنية . فهذا التقليد في غاية السداد .

ولا أدل على ذلك من هذه النشرة الخاصة بكوميديا البخيل التي قدمتها خلال عرضها على مسرح الأوبرا منذ قريب .

ففيها تعريف بمؤلفها موليير العظيم وكيف يعتبر في مقدمة مؤلفي الكوميديا . وفيها تنويه بموضوعها وكيف يعتبر صالحاً في كل زمان ومكان .. وشخصياتها وكيف تجري الحياة فيهم بين أقوال وأفعال .. وبطلها (البخيل هارباجون) وكيف يعتبر نموذجاً إنسانياً .. ونكاتها وكيف تجري في غير افتعال ... الخ .

ثم في كلمة أخرى للدكتور وهيب كامل — وأنتهز هذه الفرصة لتهنئته بسلامة العودة من أوربا بعد غيبة طويلة — إشارة موجزة إلى مدى حب موليير لفن التمثيل وأثر ذلك في حياته .. وإلى مزايا مسرحياته وأهدافها ومعالم شخصياتها .. وإلى قيمة نثره الذي قيل عنه بحق إنه خاصٌ بالعبارات الشعرية ، وخاصة في المواقف التي تحتدم فيها العواطف ويستعر لهيبها .. وإلى أثره في اللغة الفرنسية ... الخ .

ثم في كلمة ثالثة للأستاذ زكي طليمات لمحات عن سر روعة مسرحيات موليير ومقدار حذقه وأسباب خلود آثاره في الأدب وفي المسرح وفي تاريخ النفس البشرية .

وهذا كله ليس بالأمر الهين .

ولكن يظهر — برغم ذلك — أن هذه النشرة أعدت على عجل ، بحيث كان من الميسور أن تكون أكثر استيفاء للموضوع وأكثر تحقيقاً للفائدة المرجوة منها .

فمثلاً فهمنا منها أن موليير ترجم الملحمة الفلسفية للشاعر لوكريتيوس ، وقرأ أطرافاً من فلسفة أرسطو ، وشارك في النشاط الفكري في عصره ، حتى إنه كان يدافع عن مذهب ديكارت ... دون أن نعرف ممن هؤلاء ، وهل كان — أو لم يكن — لهم أثر في كوميدياته ؟ ولماذا ؟ وإلى أي حد ؟...

كذلك فهمنا أن موليير مؤلف كوميدي ، ولكنا لم نعرف إن كان قد ألف أو لم يؤلف تراجيديات مثلاً ، وما تعليل هذا أو ذاك ؟..

كذلك فهمنا أنه لم يكن يتردد في اقتباس موضوعاته

ابن زهر يتغزل في موشحة له رواها ياقوت بمن يسمى علياً ، فرجحت أن تكون هذه الموشحة له ، كما رجحت أن تكون له أيضاً الموشحة رقم ٤ ففيها ذكر المنصور وكان كثير المديح المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، وكان محظوظاً عنده لا يكاد يفارقه .

وقد بقيت بعد هذه المحاولات الموشحات رقم ٢ ، ٧ ، ١٠ ، ١٦ ، ٢٤ لا أستطيع أن أفصل فيها بيقين ولا بترجيح . والحق أن هذه كلها محاولات رأيت أن أعرضها على الدكتور جودة الركابي ، وإني لأثني على عمله .

(يتبع) شوقي ضيف

من مسرحيات الأقدمين ، وقد نكون فهمنا أيضاً أن لكوميديا البخيل مصدراً قديماً ، ولكن ما هو ؟ ومن مؤلفه السابق ؟.

وإذاً فقد كان من الممكن أن تفيدنا هذه النشرة بأكثر مما أفادتنا به .

فأولاً كان من الممكن أن تعطينا فكرة موجزة عن (لوكريتيوس وأرسطو وديكارت) . وربما يقال إن أرسطو وديكارت لا يكاد يجهلهما أحد . وأنا إذ أسلم بهذا افتراضاً — افتراضاً فقط — أعتقد أن كثيرين حتى من المثقفين لا يعرفون شيئاً كثيراً عن لوكريتيوس Lucretius ، بل إن المعاجم الكلاسيكية ذاتها تدلنا على أنه شاعر فلسفى رومانى عاش بين عامى ٩٤ ، ٥٥ قبل الميلاد ، ولكن سيرته من السير التى لا نعرفها كل المعرفة . وعلى العموم فإن هذه النشرة إنما قصد بها أوساط الناس ، ولو قد قصد بها المثقفون العارفون المتخصصون لما كان فيما جاء بها كله جدوى لهم . وإذاً فقد كان الأجدى أن تشرح بعض محتوياتها شرحاً أوفى .

وثانياً كان من الممكن واللازم أن يعرف الجمهور مصدر كوميديا البخيل ليعرفوا مثلاً التغير الذى أحدثه موليير وأسبابه . وليس من الصعب على أذهان الناس أن يقال إن مصدرها هى كوميديا الشاعر اللاتينى بلوتس Plautus المسماة (القِدْر Aulularia) ، وهذه بدورها مأخوذة عن (ميناندر) . وملخصها أن بخيلاً يدعى (إكليو) وجد قدراً مملوءة بالنقود مدفونة فى بيته ، فظل حريصاً عليها وحريصاً فى نفس الوقت على التظاهر بالفقر . وازداد هذا الحرص لدرجة أورثته الرعب ، وكان له بنت فاتنة تدعى (فيدريا) يشترك فى حبها فتى يدعى (ليكونيدس) وعمه ، ويدعى (ميجادوراس) . وتقدم كلاهما إلى البخيل يطلب زواج ابنته ، ولكنه — ظناً منه فى طمع أحدهما فى نقوده — يأخذ (القدر) من البيت ويخفيها فى عدة أمكنة ، مكاناً بعد آخر ، فيراه ذات مرة عبد من عبيد ليكونيدس الذى سرعان ما يستولى عليها أول الأمر ، ثم يعيدها إلى إكليو البخيل فيفرح بذلك فرحاً شديداً .

ونهاية الكوميديا مفقودة ، ولكن الراجح والواضح أن إكليو يوافق على زواج ابنته من ليكونيدس الشاب .

هذه هى الكوميديا التى اقتبسها موليير وخلقها خلقاً جديداً . ومن الحقائق التى ينبغى أن نذكرها أنه لم يكن بدعاً بين معاصريه فى الاقتباس عن الرومان أو الإغريق ؛ فقد كان الجيل كله مولعاً باحتذاء الأقدمين ، وكان نجاح المسرحى متوقفاً على مدى خضوعه لنظريات نقاد النهضة الإيطالية ، ومدى محاكاة الإغريق من أمثال سوفوكل ويوربيديز فى التراجيديا ، والرومان من أمثال بلوتس وتيرنس فى الكوميديا . وإنما تميز موليير لأنه استطاع أن يستفيد من الأقدمين ، ومن النوع الشعبى المعروف بالـ Farce ، ومن النوع الإيطالى المعروف بالكوميديا المرتجلة ، وأن يبتدع من ذلك كله طرازه المعروف به .

على أن أهم ما كنت أود أن يذكر فى هذه النشرة خصائص المسرح الفرنسى فى القرن السابع عشر من حيث جمهوره وبناؤه ومواضعاته ؛ فإن كوميديات موليير مهما تكن صالحة لكل زمان ومكان ، إلا أنه لم يكتبها قبل كل شىء إلا لجمهوره وعصره .

وربما كان إغفال شرح هذا هو السبب فى دهشة بعض جمهورنا وحيرتهم وتساؤلهم عن أسباب مخاطبة بعض الممثلين سراً لأنفسهم على حدة خلال بعض المشاهد ، أو عن توجههم بالخطاب إلى الجمهور ، أو عن طول بعض المونولوجات مما لا وجود له الآن فى المسرحيات الحديثة ... فلو أن أحداً شرح لهم اصطلاحات المسرح فى ذلك العصر كالانتحائية A side والمناجاة Soliloquy لما كان هناك محل لدهشة أو تساؤل .

* * *

وكيفما كان الأمر فكل ما أبتغيه أن تزداد عناية فرقة المسرح المصرى الحديث بهذه النشرات المسرحية ، وأن يعم هذا التقليد الذى ابتدعته بين سائر الفرق التمثيلية ، فإن هذا عمل يفيدنا على الأقل من ناحيتين :

الناحية الأولى — كما أسلفنا — تنوير أذهان المتفرجين وتهيئتهم لمزيد من الفهم والتذوق .

والناحية الثانية تعجيز أدعياء النقد والأدب الذين كانوا يضحكون على أذقان الناس بالنقد السطحى الذى يدور حول (تلخيص الموضوع) ، ثم بعض قشور يختطفونها من هنا ومن هناك . فإن هذه النشرات تغنى عنهم .

ولئن كان تنوير أذهان الجمهور شيئاً هاماً ، فإن اختفاء غير العارفين عامل من عوامل ذلك التنوير وعاملة لا يستهان بها فى تدعيم الفن ، وكلا الأمرين لازم للنهوض بالمسرح .

عبد الفتاح البارودى

مصر فى عصر الإخشيديين

تأليف : الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف

نشر : جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٥٠

وهـذه الرسالة التى حازت بها المؤلفة درجة الدكتوراه بتقدير « ممتاز » من كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، والتى طبعتها الجامعة المذكورة على نفقتها تكريماً وتقديراً لصاحبتها الفاضلة .

والكتاب مرجع واف دقيق وسجل ضخم حافل لتلك الفترة من تاريخ مصر التى لا تتجاوز ثلث قرن ! ويقع فى ٤٢٠ صفحة من القطع الكبير . وهو مقسم إلى أحد عشر باباً وخاتمة طويلة ، وقد بدأت المؤلفة كتابها ببحث مفصل فى تاريخ فترة الانتقال الواقعة بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الإخشيدية ، ثم تناولت بالحديث أسرة الإخشيد ، وعلاقتها بالدولة العباسية ، وبلاط الإخشيديين ، ونظام الأداة الحكومية فى عهدهم ، والمجتمع المصرى على أيامهم ، ثم الآثار والفنون ، والعلماء والأدباء ، والسياسة الداخلية ، وأخيراً العلاقات الخارجية .

والكتاب مزود بعدد كبير من اللوحات والرسوم ، كما أنه ينتهى بثبت واف للمراجع وبكشاف لأسماء الأعلام .

ولا شك أن المراجع العديدة التى رجعت إليها المؤلفة ما بين مطبوع ومخطوط ، والجهد الشاق الواضح فى إخراج هذا الكتاب ، وما توج به هذا كله من تقدير أكبر جامعة مصرية ، لمما يضع الكتاب فى مقدمة الكتب العربية التى تبحث فى التاريخ الإسلامى بحثاً علمياً دقيقاً على أساس منهجى سليم .

الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى

تأليف : الأستاذ حافظ أحمد حمدى

نشر : دار الفكر العربى سنة ١٩٥٠

يتناول هذا الكتاب دراسة فترة دقيقة من الفترات التى مرت بالعالم الإسلامى . ويقع فى نحو مائتى صفحة تشتمل على خمسة أبواب ، تحدث فيها المؤلف عن حالة الخلافة العباسية قبيل أيام السلجوقيين وبعدها ، وأثر النفوذ الفارسى ثم النفوذ التركى فى ضعف خلافة بنى العباس ، وعن النزاع الأسرى الذى ساد البيت السلجوقى ، وعن الإسماعيلية ومدى انتشارها فى ذلك العهد ، ثم عن دول الأتابكة التى قامت نتيجة لضعف السلجوقيين ، وأخيراً عن حالة مصر والشام قبيل الغزو المغولى .

والكتاب فوق هذا مزود بمجموعة وافية من اللوحات والخرائط والجداول . وهذا الكتاب بالإضافة إلى كتاب الأستاذ حافظ الأول « الدولة الخوارزمية والمغول » وهو موضوع رسالته التى نال بها درجة الماجستير ، يثبتان تقدم المؤلف فى ميدان التاريخ الإسلامى ويسدان نقصاً فى المكتبة العربية .

المغازى الأولى ومؤلفوها

تأليف : جوزيف هوروفتس

ترجمة الأستاذ حسين نصار

نشر : مكتبة مصطفى الحلبى سنة ١٩٥٠

وعنوان الكتاب فى الأصل الانجليزى هو :

(Early Biographies of the Prophet and their Authers)

وقد نهج المؤلف فى كتابه نهجاً علمياً جديداً فى التأليف العربى ، هو الترجمة لمن كتب فى السيرة النبوية من التابعين خلال الكتابة عن الغزوات أو (المغازى) التى اتسع التأريخ لها فشمل حياة النبى (ص) كلها .

والجهد الشديد واضح فى ترجمة هذا الكتاب ؛ فإن المترجم لم يقف عند حد نقل ما كتبه المؤلف إلى اللغة العربية ، وإنما تعقبه فى المواضع التى يعتقد أنه اشتط فيها ، وعلق على آرائه بكل دقة ، وأورد آراء غيره من العلماء ، ثم ترك للقارئ استخلاص الرأى الذى يراه . ولذا حفل الكتاب بكثير من الحواشى والتعليقات السديدة الرائعة .

كما أن المترجم استدرك ما أخذه على المؤلف من ندرة استشهاده ، فأضاف إلى الكتاب ضمائم عديدة ، هى عبارة عن أمثلة تبين أساليب أصحاب المغازى فى كتاباتهم ؛ وكذلك ألحق بالكتاب — على صغره — ثبتاً بالمراجع وكشافاً بأسماء الأعلام .

ويقع الكتاب كله فى ١٩٠ صفحة من القطع الصغير .

أحمد حسين الصاوى

من بريد الثقافة

أزمة الشعر :

جاءتنا رسالة من الشاعر محمد عثمان محمد تعقيباً على مقال الأستاذ ثابت طعمة فرمان في العدد ٦٢٤ من الثقافة عن أزمة الشعر ، ونحن نقتطف منها الفقرات التالية :

« كان إميل زولا ، على ما رُوِيَ ، يكره الشعر ... ويرجع سبب ذلك إلى أن صدمة نفسية اعترته في شبابه ، أيام كان يعمل بإحدى دور النشر الكبرى في باريس ... فقد جاء إلى الدار ذات يوم الشاعر الفرنسي المعروف ألفريد دي موسيه ، وفي يده ديوان شعر مخطوط يريد نشره . فإذا صاحب الدار يقول للشاعر : إذا جئتني يا صاحبي بديوان شعر فثق أنه مرفوض ، أما إذا جئت برواية فثق أني أرحب بنشرها !.. ومنذ ذلك الحين أخذ إميل زولا يتفرغ لكتابة الرواية ... وطلق الشعر طلاقاً لا رجعة فيه .

« ... وكثير من شعرائنا المجيدين في العصر الحديث تحولوا من النظم إلى النثر حين اضطرتهم الحاجة وضرورات العيش ، لأنهم وجدوا في النثر الباب مفتوحاً على مصراعيه للمال والشهرة ... ووجدوه في النظم مغلقاً في وجوههم .

« فهل طغيان المادية سبب من أسباب احتضار الشعر في العصر الحديث ؟ وهل تراكم الهموم وشواغل العيش وجسامة المسئوليات سبب في كساده ؟ .

« ... ومن الملاحظ أن الناس في هذا العصر انصرفوا من القراءات الدسمة العميقة إلى المطالعات السهلة العابرة ... »

والموضوع موضوع عام خطير ... والإنسان لا يدري هل يلقى تبعة هذه الأزمة على الشعراء أم على القراء أم عليهما معاً ؟... والثقافة ترحب بآراء قرائها في هذا الميدان ...

إلى الأستاذ محمد عبد الغني حسن :

(١) أورد صاحب الوزارة بيت سحيم :

إذا شق برد شق بالبرد برقع

دواليك حتى كلنا غير لابس

هكذا :

إذا شق برة شق بالبرد .. مثله

البيت .

وهذه الرواية عندي جد مقبولة .. لأن مثل هذه العادة الماجنة .. لا تترك البراقع تحجب نضارة الوجوه فتفوت اللذة وتضعف المتعة وتحد من شرة المجون ... وما أراهم إلا يشققون الثياب لتكشف ما حجب عن الأبصار من مفاتن الأجسام .

الشاعر الرمادى متنبي الغرب

(بقية المنشور على صفحة ١٠)

وقد اسود وجهه وظهر فيه الغضب المفرط ثم قال : ما بال أقوام يشيرون في شيء لم يستشاروا فيه ، ويستخفون الأدب بالحكم فيما لا يدرون ، ومن رأى الناس له فضلاً عليهم حسدوه . وإني ما أطرقت من كلام الرمادى إنكاراً عليه ، بل رأيت كلاماً يجل عن الأقدار الجليلة ، وتعجبت من تهديه له بسرعة واستنباط ، على قلة من الإحسان الغامر ما لا يستنبطه غيره ، والله لو حكته في بيوت الأموال لرأيت أنها لا ترجح ما تكلم به مثقل ذرة ، وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام في شخص قبل أن يؤخذ معه فيه . وأمر المنصور أن يرد الشاعر الرمادى ، وقال له : أعد علي كلامك فارتاع ، فقال له : الأمر على خلاف ، فسكن ، وأعاد ما تكلم به ، فقال المنصور :

بلغنا أن النعمان بن المنذر حشا فم النابغة بالدر لكلام استملحه منه ، وقد أمرنا لك بما لا يقصر عن ذلك ، ما هو أنوه وأحسن عائدة ، وكتب له بمال وخلع وموضع يتعيش منه . وقال المنصور وهو يقلب كفاً على كف : « والعجب من قوم يقولون الابتعاد من الشعراء أولى من الاقتراب ، نعم ذلك لمن ليس له مفاخر يريد تخليدها ، ولا أياد يرغب في نشرها ، فأين الذين قيل فيهم :

على مكثريهم رزق من يعتريهم

وعند المقلين السماحة والبذل

وهذه القصة إن دلت على شيء ، فإنما تدل على حب المنصور للشاعر الرمادى وإعجابه به ورضاه عنه ، وبذله الأموال في سبيل الترفيه عنه .

ولم ينشر ديوان الشاعر الرمادى ، وأغلب الظن أنه الآن في برلين ، وقد نشره أحد المستشرقين . أما كتابه « كتاب الطير » فقد كتبه في سجنه ، وله فيه لامية مشهورة في الصيد . وقد أطلق عليه متنبي الغرب ولكنه في الواقع شاعر من طراز ابن زيدون ، ولا سيما عند تصويره لحبه لحرقة معمودة فؤاده ، أو تصويره لآلامه وأتراحه في سجن الزهرة .

جمال الدين الرمادى

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

(ب) وقد أورد أيضاً صاحب الوساطة قوله :

فما زال يردى طيبا من ثيابها
إلى الحول حتى أنهج البرد باليـا

هكذا ..

فما زال يردى طيباً من ردائهـا
إلى الحول البيت

ويذكرنى هـنا بعيب النقاد الكثير فى مثل هذا المعنى .. إذ يقول فى أردان عزة التى تطلع بالشذا ..

وما روضة بالحزن طيبة الثرى
يمج النـدا جوفاتها وعرارهـا
بأطيب من أردان عزة موهنـا
وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها

فقصر عن قول أمير شعراء الجاهلية امرىء القيس ، إذ يقول :

ألم تر أنى كلـما جئت طارقـا
وجدت بها طيـباً وإن لم تطيب

فقال امرؤ القيس : وجدت بها طيباً وإن لم تطيب .. وكثير .. جعل طيب عرفها مستمداً من البخور المتصاعد من المندل المحترق ..

كيلانى حسن سند

مسجد أبى الحجاج :

نشرت مجلتكم فى عدد المولد النبوى الممتاز شرحاً لصورة الغلاف ، وهى صورة مسجد أبى الحجاج قالت فيه : إنه يقوم فى أسوان على جانب معبد الكرنك بناه المصريون الذين تحولوا إلى الإسلام من حجارة المعبد الوثنى القديم .

والحقيقة أن هذا المسجد يقوم فى الأقصر لا أسوان ، وعلى جانب من معبد الأقصر لا معبد الكرنك .

وهذا الجانب الذى يقوم عليه المسجد كان قد اتخذه الرومان كنيسة يقيمون فيها شعائر الدين المسيحى ، ولكنها أهملت بمضى الزمن ..

ويقال إن هذه الكنيسة كانت لها خادمة تسمى (طاورا) اعتنقت الإسلام بعد أن أخذت أصول الدين من سيدى يوسف أبى الحجاج الذى كان قد عابر فى ذلك الوقت من العراق إلى الأقصر .

ولهذه السيدة قبر فى مسجد أبى الحجاج .

وقد كانت مصلحة الآثار تريد أن تهدم هذا المسجد لأنه يحجب جزءا مهماً من الآثار الفرعونية ، وقد بنت الحكومة فعلا مسجداً آخر على أحدث طراز ليعلل إليه الفروع ، ولكنه لم ينقل إلى الآن ، بل ما زال ذلك المسجد الجديد مقفلا منذ ثلاث سنوات ..

وإنى أرى أن يظل جامع أبى الحجاج كما هو ، ويكتفى بإزالة الأتربة التى تكتنفه ، والتى تخفيه لتظهر أعمدة المعبد والآثار الأخرى ، ويظل الجامع قائماً على المعبد ، على أن يبنى درج يصل الجامع بالشارع القريب له ...

وهـذا الجامع — كما أشارت الثقافة — رمز قوى جميل يدل على أن الإسـلام دك الوثنية وقام فوق أديان وعبادات ... شامخ الرأس عالى الأنف مشرق الهامة ..

ولقد وفقت مجلتكم فى اختيارها هذا الرمز الجميل عنوانا لعدد المولد النبوى الشريف .

إبراهيم حماد

وقد وصلتنا رسائل أخرى فى نفس المعنى من الأساتذة : عبد اللطيف القوصى سكرتير مدرسة إسنا الأميرية ، وأنور عبد السلام ، وضياء بكلية الشريعة ، وحمى إبراهيم الزميلى بالجيزة ...

والثقافة تشكر قراءها الكرام على عنايتهم بالموضوع ، وهى تعتذر عن هذا السهو ...

مطبوعات :

جاءتنا فى بريد الثقافة المطبوعات التالية :

- مجلة العصبة ، وهى مجلة أدبية فنيـة تصدرها جماعة العصبة الأندلسية بمدينة سان باولو بالمهجر .
- العدد الخامس من مجلة علاج النفس الشهرية .
- أعداد سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر من مجلة المقتطف . والعددان الأولان مجلد واحد يحوى بحثاً للأستاذ جمال الدين محمد موسى ، عنوانه « الماء الثقيل » ! وهذا الكتاب كان قد نال جائزة الموضوعات المبتكرة فى العلوم فى المسابقة الثقافية التى نظمتها وزارة المعارف سنة ١٩٤٨ .
- عدد ديسمبر سنة ١٩٥٠ من مجلة الأديب اللبنانية .
- كذلك وصلتنا بعض نشرات لإدارة الصحافة المصرية باللغتين الإنجليزية والفرنسـية ... ونحب أن ننبه الإدارة الكريمة إلى أنهـا يجب أن توزع نشراتها فى الدوائر الأجنبية قبل غيرها ، ولا تعنى فقط بالأوساط المصرية ...
- وأتتنا باقتظام نشرات هيئة اليونسكو باللغة الإنجليزية ، وهى تطبع فى باريس .

من بريد الثقافة :

هذا البـاب قد خصصته الثقافة لعرض آراء القراء وملاحظاتهم ، ويشرف عليـه الأستاذ محمد عبد الحليم محمود .

الثقافة

العـــدد ٦٢٩
١٥ من يناير ١٩٥١

مجلة أسبوعيـة للآداب والعلـوم والفنون
تصدرها لجنـة التأليف والترجمـة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

من بريد الثقافة

تعليق على قائمة الكتب العربية

... ولقد سمح لي بإبداء ملاحظة ، فإني أقول إن الاختيار نفسه قد جاء حسب اطلاع المختارين على ما يظهر ، إذ أنهم قد اختاروا لمعالي الدكتور طه حسين باشا أربعة كتب ، ليس فيها شيء من الروايات التي وضعها أو ترجمها ، مع أني أرى أن تلك الروايات ، ولا سيما « دعاء الكروان » هي آية من آيات الدكتور ... ففيها وصف لمصر ... وفيها درس خلق تتزود به كل فتاة ... وهو قد خلق من أبطال قصته نماذج عالية من ناحية الخلق والشرف ...

وكذلك الحال مع معالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا ؛ فقد اختاروا له « حياة محمد » ، وإني أرى أن كتاب « الصديق أبو بكر » قد يفوق الأول في وضعه وقوته وبلاغته ، والكشف عن مناحي عظمة ذلك الخليفة ، الذي حفظ الإسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، بشيء كثير من المخاطرة ، وقوة العزيمة .

... وقد يكون الحال كذلك مع أستاذي الدكتور أحمد أمين بك نفسه ؛ فإن « ضحى الإسلام » مقدم على « فجر الإسلام » في نظري لاستيفائه كل أبواب البحث والتحقيق ، وعدم تركه بحوثاً في الباب لغيره ، كما فعل في « فجر الإسلام » ، الذي اعتمد على زميله في استيفائه ، مما جعله يركز البحث ويحده ، حتى يتولى زميلاه التوسيع والاستيفاء .

ويظهر أن الكتب اختيرت لمؤلفين مصريين فقط ، ولذلك أهمل كثير من الكتب لغير المصريين ، حتى التي طبعت وألفت في مصر ، مثل « أشهر مشاهير الإسلام » لرفيق بك العظم ، و « حاضر العالم الإسلامي » للأمير شكيب أرسلان ، و « الوحي المحمدي » للسيد محمد رشيد رضا ، ولنا دليل على منزلة هذه الكتب ، وهو سعة انتشارها ، وإعادة طبعها مرات كثيرة في مدة وجيزة .

محيي الدين رضا

مطبوعات

وصلتنا المطبوعات التالية :

- العدد رقم ٢٠ (شهر ديسمبر) من مجلة التعاون التي تصدرها الاتحادات التعاونية في مصر .
- مجلة الأوزاع التي تصدر مرتين في الشهر ببيروت .
- مجلة موديكا التي تصدرها مفوضية الجمهورية الأندونيسية بالقاهرة .
- نشرة صوت الهند ، وهي مجلة نصف شهرية يصدرها مكتب استعلامات الهند بالقاهرة .
- مجموعة أعداد من مجلة الحج ، التي تصدر شهرياً بمدينة مكة المكرمة .
- الأعداد الخمسة الأخيرة (من يوليه إلى نوفمبر سنة ١٩٥٠) من السجل الثقافي الإسباني الذي تنشره إدارة العلاقات الثقافية الإسبانية .
- المجلد الثامن من دائرة المعارف الإسلامية التي يصدرها باللغة العربية الأساتذة أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس ، ويراجعها الدكتور محمد مهدي علام .
- مجلة البصائر التي تصدر بالجزائر .
- نشرة رسالة الباكستان ، وهي نشرة نصف شهرية تصدر عن قسم الصحافة والاستعلامات بسفارة الباكستان بالقاهرة .

الثقـــافة

في ثوبهـــا الجديد

أنيقـة رقيقـة رشيقـه
كأنهـا البرعم في الحديقـه
بدت لنـا في رقة الصديقـه
وتارة في زينـة العتيقـه
طائرة في جـوها طليقـه
تلك هي « الثقافة » العريقـه
بمجـدها واسمها خارقـه
وللقلوب والنهى شائقـه
سمت وراء الفن والحقيقة
تجددت بثوبها وثيقـه !!

أنور أحمد العيسى

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | الإدارة | محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٢٩ | الاثنين ٧ من ربيع الثانى سنة ١٣٧٠ — ١٥ من يناير سنة ١٩٥١ | السنة الثانية عشرة

حب السلامة

للدكتور حسين مؤنس

أعلنت الصحف منذ أيام أن مؤتمر الكومنولث قرر أن يوكل أمر الدفاع عن الشرق الأوسط إلى أستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقية ، ومر الناس على هذا الخبر كراماً معجلين لم يلقوا به إلا لحظات قصاراً ، ثم استطردوا إلى أخبارهم التى تهمهم من تنقلات الإداريين وأنباء من يعرفون من الناس خصوماً وأصدقاء ..

ولم يفكر أحد منهم لحظة فى أن هذا الخبر الذى قرأه الناس فى غير اكتراث حاسبين أنه لا يمسهم من قريب أو بعيد ، إنما يمس مصايرهم فى الصميم ، بل يقرر مصاير بلادهم أرادوا أم لم يريدوا ، لأن ما يتقرر اليوم فى هذا المؤتمر سيبلغ من غد إلى حكومات الحلفاء وقيادة جيوشهم ، وعليه يقيمون خططهم للحرب المقبلة ، وعلى أساسه يتحدد مصير كل دولة من دول الشرق الأوسط أثناء الصراع الحاسم المقبل ..

فإذا أقرت قيادات الحلفاء هذه الخطة بدأت من الآن فى تنفيذها ، فوضعت تلك الدول التى ستقوم بالدفاع عن الشرق الأوسط فى المكان الأول من الأهمية : ستقدم لها المعاونات والقروض والأسلحة والذخائر ، وستعطى لها الحرية الكاملة فى إنفاذ من تريد من جنودها ورجالها إلى هذه المنطقة التى سيقومون بالدفاع عنها .

كل هذا ونحن ، أهل الشرق الأوسط ، بعيدون عن الميدان لا نشترك فى خطة ، ولا نساهم فى أمر ذى بال ، وسيرتب الحلفاء وأصدقاؤهم خططهم على هذا الأساس ، وسننتبه إلى خطورة الأمر بعد أن ينتهى كل شىء ، وبعد أن يكون قد تقرر نهائياً ، وبصورة لا تقبل التغيير ، أن دورنا الوحيد فى هذه الحرب سيكون دور صاحب الأرض العاجز عن أى شىء ، والذى يتولى الأقوياء القادرون الدفاع عنه وعن أرضه ، فى مقابل الخضوع لهم والسير فى ركابهم ...

ونحن فى أثناء ذلك نفكر فى أمر أنفسنا ومصيرنا ، لم نعرف بعد إذا كنا « سنقبل » حمل نصيب من الدفاع عن بلادنا ، أو سندع الأمر إلى المستبدين بالشئون العسكرية فى الشرق الأوسط كله ، ولم نعرف بعد إذا كنا « سنقبل » الاشتراك مع الإنجليز فى هذا الدفاع أو سنتركهم يقومون به وحدهم ، بل نحن لم نعرف بعد — إذا رأينا ضرورة هذا الاشتراك — إذا كنا سنقوم به على أساس

معاهدة ١٩٣٦ ، أو على أساس جديد لم تتفق عليه بعد ، وأصحابنا المتفائلون لا يزالون يصممون على أن نقوم نحن بهذا الأمر منفردين بأنفسنا لا يعاوننا الغير إلا بتقديم السلاح والعتاد ..

وفي أثناء ذلك كله تقترب الحرب يوماً بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة ، وأصحاب الأمر في لندن وواشنطون وموسكو يعملون وكأنهم في حرب فعلاً ! جنودهم يتقاتلون في الشرق الأقصى الآن ، وسفنهم تمضي بالعتاد والجنود إلى المواضع التي ينبغي أن يكونوا فيها يوم ينفخ في الصور وتقوم القائمة ..

وليس إلى الشك سبيل في أن المدبرين أمورنا يعرفون ذلك كله ، بل يعرفون أكثر منه ، لأنهم بطبيعة مراكزهم ومسئولياتهم أعرف بحقائق الأمور منا ... يعلمونه ويدعون الأمور تمضي على علاتها ، حتى إذا كانت الحرب كسبنا منها ذلك المكسب الرخيص الذي وفقنا إليه في كل حرب ماضية ، وهو المحافظة على بلادنا خارج الميدان ، وتجنيب فلذات أكبادنا ويلات الحروب ، وعندما تنتهي الحرب سيقومون يهنئ بعضهم بعضاً بهذا التوفيق الإلهي العظيم ...

● ● ●

ولو أننا نظرنا إلى تاريخنا خلال بضعة القرون الماضية لرأينا أن هذه كانت خطتنا دواماً ، فلم يكن المصري العادي هماً خلال القرون الماضية إلا تجنب ويلات الحروب والابتعاد عن الميدان ، ولم يحرص أهل الشام خلال المعارك الحاسمة التي غيرت مصاير بلادهم إلا على النجاة بأنفسهم من ويلات المعارك ، فبينما كانت المعركة دائرة بين العرب الناهضين والإمبراطورية البيزنطية وقف أهل دمشق وبيت المقدس وعسقلان وأنطاكية والإسكندرية يتفرجون من بعيد ، ثم أسلموا بلادهم للغالب ودخلوا في طاعته ومشوا في ركابه ، وعندما ثارت نيران الحروب الصليبية حرصوا على أن يعتبروا المعركة أمراً بعيداً عنهم ، وتركوا الأكراد والمماليك والأتراك يحاربون الصليبيين ، وانتهت المعركة بفوز الطوائف الأولى ، ودخل أهل الشرق الأوسط في طاعتهم ومشوا في ركابهم طائعين مختارين ، وعندما احتدمت المعركة بين الفرس والأتراك على مصاير العالم الإسلامي لم يحرك أهل مصر أو الشام ساكناً ، ثم دخلوا في طاعة التركي المنتصر ومشوا في ركابه ..

وفي كل حالة من هذه الحالات أدركنا بعد فوات الفرصة أننا ضيعناها ، وأننا لو لم نحرص هذا الحرص الشديد على جلودنا لكان حالنا أحسن ، وأننا لو لم نجتهد هذا الاجتهاد في تجنيب أنفسنا ويلات الحروب لما ساسنا التركي هذا العسف الشديد ، بل تبينا أننا لو نهضنا في هذه الفترات الحاسمة وانتضينا السلاح وتعرضنا لمكاره الحروب لما استبد بنا عثمان بنا هذا الاستبداد ، بل لكسبنا حريتنا الموموقة منذ مئات السنين ...

ولكننا تعودنا ذلك ومضينا عليه ، تعودنا أن نهرب من الميادين ساعة الجد والضرب والطعن وأن نطلب بطن الأرض أثناء المعارك ، فإذا انتهت وصرنا في ركاب المنتصر قمنا نشكو ونبكي دون أن يسمع لشكاتنا أحد ، بل عجبنا لإعراض أهل الدنيا عنا وانصرافهم عن شكوانا ، لأننا لم نتعلم بعد أن الدنيا غلاب والغنيمة لمن ظفر ، ولم نتنبه بعد إلى أننا جعلنا أنفسنا جزءاً من الغنيمة بمحض اختيارنا ! وما دمنا قد اخترنا هذا الوضع فلا سبيل إلى تغييره ، ولا سبيل إلى طلب الرفق من الناس ! ونحن ، في واقع الأمر ، أقسى على أنفسنا من ألد أعدائنا .

أجل ، ونسينا أيضاً أن اشتراكنا في الحروب ، ولو على أساس غير واضح ، أحسن بكثير من عدم الاشتراك فيها أصلاً ، فقد اشترك محمد علي في حروب الدولة العثمانية وهو يعرف أن الدولة لن تبر له بشيء مما وعدت ، ولكنه كان رجلاً مكافحاً ذكياً يستشعر لذة الكفاح ويجد فيه الطريق الوحيد لإثبات الشخصية وتوكيد الحقوق ، فقد قام يفتح الحجاز لحساب الدولة العثمانية ، ثم اشترك في حروب اليونان ، وانتهز الفرصة ليقوي نفسه وبلاده وليقيم جيشه العظيم ، ويجعل منه آلة كبرى لإقرار السلام في العالم الإسلامي ؛ فلما فرغ من الحرب وكسب النصر نظر أعداؤه وحاسدوه من رجال الدولة العثمانية فإذا هو عماد الدولة وركنها الحصين .

ووقع احترامه في قلوب الناس أجمعين ؛ فأسرع إليه الفرنسيون يخطبون وده وأقبل الإنجليز يدرسون خططهم

بعـــــد مولد النبي

للدكتور محمد مصطفى زيادة

حفظت الشهادتين ووعيت ما فيهما من وضوح وانطباق على سنن الكون ، وذلك قبل بلوغي من العمر خمس سنين ، لأن وضوح الشهادتين ، وانطباقهما على سنن الكون كفيل بحفظهما ودخولهما إلى العقل الناشئ في سهولة ويسر . وأعتقد أنه ليس بين أصول الديانات الكتابية — وغير الكتابية — ما هو أدخل إلى العقل ، وأرسخ في القلب ، وأقدر على البقاء في قرارة النفس ، من عقيدة الشهادتين ، لما فيهما من قوة وروح ورفعة في المعنى ، فضلاً عن الوضوح والانطباق على سنن الكون .

ثم تعلمت أن الإسلام بني على خمس ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً . هكذا لقنت قواعد الإسلام ، وقمت بما استطعت القيام به في طفولتي ، من تشهد حميد ، وصلاة خالصة ، وصوم على قدر الطاقة ، عملاً بنصيحة أبي وأمي ، واحتراماً لإشفاقهما على صحتي في سن الصغر ؛ وتركت ما لم أقدر على تأديته حتى أكبر وأقدر على حسن الأداء . غير أني ظللت مدة لا أفقه المقصود بعبارة حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، وسألت أمي أن تشرح لي معنى السبيل ، فذكرت لي ما يتطلبه الذهاب إلى الحجاز للحج من سفر شاق بالبر ثم سفر أشق بالبحر ، ثم سفر هو الأشق بالبر مرة أخرى في طريق غير ذي زرع أو ماء أو ساقية . لكن العبارة ازدادت غموضاً على بشرح أمي ، لأني لم أعرف وقتذاك من وسائل التنقل في الأسفار البعيدة سوى القطار الذي يجري على سكة حديدية مثبتة في الأرض بأوتاد من حديد ، ولم أستطع أن أتصور وسيلة للسفر غير ذلك ، ولم أفهم عن البحر سوى أنه ماء ملح زاخر صاخب الأمواج ، ولم أدر من خبر السفن والجواري المائية سوى المعدية الصغيرة التي تنقل الراغبين في الانتقال من أهل قريتي إلى القرية المقابلة عبر ترعة من ترع النيل ، يسميها الناس البحر حتى العصر الحاضر ؛ هاتان القريتان كانتا كل دنياي وكل مداي . ولما لم أدرك ثمة وسيلة للسفر في البحر سوى القطار ، وقفت حائراً في أمر السكة الحديدية التي ينبغي أن تكون مثبتة على وجه الماء مثلما هي مثبتة على وجه الأرض ،

على أساس هذه القوة العظيمة الجديدة التي أنشأها في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وفي أثناء ذلك قفزت مصر مئات الخطوات إلى الأمام وعرف شعبها طعم الحرية وذاق لذة النصر والظفر ، وبدأت رياح العزة تهب على الوادي وأهله من جديد ... وفي هذا المجد نعيش نحن حتى اليوم .

ترى ماذا كان يحدث لو أن محمد علي اعتذر من أول الأمر عن المشاركة في هذه الحروب ؟ ترى أي مصير كانت مصر تصير إليه لو أن الرجل آثر السلامة وفضل تجنيب نفسه وبلاده ويلات الحروب ؟ أظن أن الجواب عن هذين السؤالين أوضح من أن نتفق في تفصيله وقت القارئ العزيز .

* * *

لم ينكبنا الله بشيء هو أضر بنا من رغبتنا في تجنب ويلات الحروب ، ولم يرزأنا الله بشيء هو أنكى وأقسى من حب السلامة والطمع في الكسب والغنم من غير تضحية أو مجهود ، ثم ، جعلنا أعشاشنا غنيمة للغالبين ومطايا للمنتصرين ، فكانت النتيجة أننا لم ننج حتى بجلودنا ، وسل هذه الجلود عما أصابها من طلب السلامة ، وسل نفوسنا عما أصابها من الذل والهوان نتيجة لحب الهرب والسعي إلى مجرد العيش من أي سبيل .

أجل . قاتل الله السلامة وكتب لبلادنا أن تدخل نيران الحروب ولو مرة واحدة لتكسب — على الأقل — عزة المحارب المنهزم ! الذي قاتل وناضل وضحى وأخطأه التوفيق ... ولكنه فاز بكرامة المحارب الغالب ! . صبحي يونس

وخشيت أن يضحك أهلي مني إذا سألت منهم أحداً أن يبين لي سر جريان القطار على سكة حديدية وسط البحار اللجية المائجة، وفوق الأمواه النائمة الهادرة. وآثرت الجهل والصمت على السخرية مني والضحك. كما عقدت النية على ترك الحج مهما استطعت إليه سبيلاً حتى لا ألقي بنفسي إلى تهلكة. انحلت العقدة حين سمعت بالسفن البخارية الكبيرة دون أن أراها، وأخذت من ثم أعلل النفس بالآمال في الحج وغير الحج من الأسفار، وكل ذلك ولما أبلغ من العمر إلا سبع سنين.

ثم تعلمت شيئاً من التاريخ، فبدأت بسيرة خاتم الأنبياء والرسل، محمد صلى الله عليه وسلم، وحفظت أخبار مولده في ليلة مباركة من ليالي شهر ربيع الأول سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ميلادية، كما حفظت أخبار ما حدث تلك الليلة المنوّرة، من تصدّع إيوان كسرى، وتساقط الشهب من السماء، وتكسّر الأصنام في الكعبة، وإخماد نار فارس، وغيض وادي السماوة، وظهور النور — ما بين المشرق والمغرب — لآمنة أم رسول الله. ولما امتلأت حباً وإعجاباً وفخراً بالنبي الذي اهتزت الأرض بميلاده إلى ذلك الحد، وزلزلت الثوابت بقدمه إلى تلك الدرجة، وزاد في حبي وإعجابي وفخري خبر المعجزات الكثيرة التي وقعت للنبي في حياته، ومن المعجزات التي صار بها النبي في نظري بطل الأبطال الأولين والآخرين، وإنه لكذلك عليه السلام أبد الآبدين.

غير أني لم أجد في طفولتي، أو في طفولة غيري من الأجيال اللاحقة بي تقليداً أو شبه تقليد لتلك المعجزات، مع ما لها من إثارة للإعجاب والهيبة في نفس الطفل، وفضلاً عما فيها من نقش العقيدة وتثبيت الإيمان في قلب الناشئ؟! بل إن جميع ما أذكر من أخبار الموالد النبوية في مصر لا يعدو مواكب الخيل، وحلقات الذكر، وموائد الحلوى من السكر، مما ليس فيه للأطفال فائدة أو مشاركة، عدا ما تجتذبه الحلوى إلى بائعها ومشتريها وآكلها من أصناف الذباب وألوان التراب الناقلة للأمراض الوبيئة.

لكن ما للأطفال وهذا الموضوع، وما العلاقة بين الأطفال وعيد ميلاد النبي؟ العلاقة هي أن ذلك العيد لا يكون إلا عيداً للأطفال والناشئة، ولا يجب أن يكون غيره من الأعياد إلا للأطفال والناشئة، لأن السن البالغ العاقل، والسن البالغة العاقلة، لا يحتاج كلاهما للأعياد الدينية وغير الدينية إلا للذكرى والترويح عن النفس والترفيه عن الغير. أما الأطفال، فالأعياد وسيلة من وسائل تعليمهم، ليكونوا مواطنين صالحين مخلصين لدينهم ومحيطهم. وأدركت أوربا المسيحية تلك الحقيقة، فجعلت من عيد الميلاد للمسيح على وجه التخصيص عيداً تدخل به إلى نفوس الأطفال عناصر الدين، وليس فيما تعنى به أوربا المسيحية من تقليد لحياة المسيح شيء من التهريج، كما أنه ليس المقصود باللعبات التي يتلقاها الأطفال في ذلك العيد مجرد التلهية والسرور، بل إن غرضها الحقيقي هو تثبيت العقيدة وترسيخها في أفئدتهم عن طريق حتى يبعث السرور. ولما كان الأطفال عماد الأجيال، والدين أهم ركن في بناء العقول السليمة، فما لنا لا نعمد إلى معجزات النبي لنجعل منها وسيلة لتثبيت العقيدة وترسيخها في أطفالنا، عن طريق تدخل السرور إلى قلوبهم، كما يفعل الأوربيون فنعمل لعبة من إيوان كسرى إذا مُسّت انهارت أجزاؤها، أو لعبة من أصنام الكعبة إذا شُدّت بخيط تكسرت، أو لعبة من نار فارس إذا نُفخ فيها انطفأت، وهكذا. وما لنا لا نعمل من أمثال تلك اللعبات هدايا لأطفالنا في مولد النبي تخليداً للنبي، وإبرازاً لمقامه بين النبيين؟ وما لنا نقتصر في ذلك العيد العظيم على قراءة السيرة النبوية في عبارات شعرية رائعة لا تتغير عاماً بعد عام، وفي حفلات صامتة واجمة ترى الناس فيها كأن على رؤوسهم الطير، أو كأن بهم حزناً أسيفاً، وهم أبعد ما يكونون من جو المأتم، لأنهم في حفل لإحياء ميلاد النبي الذي أخرج بهديه وشخصيته الجبارة ملايين الناس من الظلمات إلى النور.

ولقد شاءت المقادير أن أذهب إلى انجلترا في طلب العلم، وذلك منذ أكثر من ربع قرن مضى، فشهدت عيد ميلاد المسيح عند الإنجليز عاماً بعد عام، وهو في ليلة الخامس والعشرين من شهر ديسمبر، والشتاء على أشده من البرد، وموعده لا يتحول عن ذلك الفصل لثبات الشهور المسيحية الشمسية عند فصولها، ولما ثبت طقوس ذلك العيد على نمط واحد لا يتغير من الأطعمة وأنواعها

والملابس وأمثالها . ويكون الناس في ذلك الفصل من السنة في أكثر أيامهم نشاطاً وانصرافاً إلى أعمالهم ، بالمزارع والمصانع والدكاكين والمدارس والجامعات . فإذا أقبل أسبوع ذلك العيد انصرفوا إلى التمتع به وإدخال السرور إلى قلوب أطفالهم في نشاط وفرح واغتباط ؛ فإذا كنتَ بينهم وقتذاك ، وسرتَ في شوارع المدينة ساعة الغروب رأيت المحال التجارية مزدانة بالأنوار الكهربائية على كل لون ، ورأيت الناس يدخلون تلك المحال بصحبة أطفالهم من بنات وبنين ، ليشتروا لهم ما يختارونه من الألعاب المسلية اللاهية . ولا ينسى الأب أن يأخذ ابنته أو ابنه ليشهد قصة ميلاد المسيح منشورة في بعض المحال ، وليرى ما يسميه الإنجليز سانتا كلوز (SANTA CLAUS) أو ما يسميه الفرنسيون (بابا نويل) (PAPA NOEL) ، وهو شخص من الخشب مهندم باسم ، يلبس معطفاً أحمر مفرّى الأطراف ، وعلى رأسه قلنسوة حمراء مفراة ، وتزين وجهه لحية بيضاء ناصعة البياض ، وعلى ظهره كيس ضخم ، إشارة إلى الهدايا التي سوف يحملها هذا الشخص الخرافي إلى منازل الناس والأطفال نيام . ثم إذا تركتَ شوارع المدينة وأويت إلى بيتك ، وجلست لتستريح من عناء النهار ، لا تلبث أن تسمع أطفالا يغنون بالباب أغاني عيد الميلاد ، على ضوء مصابيح من الورق مثل مصابيح المهرجان . فإذا كنت ممن يحبون الغناء خرجت أو خرج صاحب البيت أو صاحبته لإعطاء الأطفال بنساً أو بنسين ، وهو ما يقابل القرش المصري ، حتى إذا كانت ليلة عيد الميلاد ، وكانت بالبيت الذي تسكنه بنات أو بنون صغار رأيت كلا من أولئك يربط إلى رجل سريره كيساً أو جورباً قبل النوم ، ليضع فيه الشخص الخشبي سانتا كلوز ما يشاء من الهدايا في جنح الليل . والحقيقة أن الأمهات والآباء هم الذين يضعون تلك الهدايا ، ولكن الأطفال يحبون أن يعتقدوا أن سانتا كلوز هو الذي هبط عليهم بهداياه ؛ ولست أذكر منظراً أحلى وأجمل من منظر أطفال البيوت التي سكنتها ، وهم يتفقدون نصيبهم من الهدايا صباح عيد الميلاد في إنجلترا .

ثم مرت السنون ، وشاءت المقادير ما شاءت لي مرة أخرى ، إذ كلفتني جامعة الأزهر الشريف بتدريس السيرة النبوية بإحدى كلياتها ، وكنت وقتذاك في مستهل حرفي بالتدريس الجامعي ، ولم أكد أعرف من حياة محمد ما يعطي كفؤاً للمحاضرة فيها وتدريسها لطلاب معظمهم أكبر مني سناً ، وكلهم راسخ في العلوم الدينية ، من تفسير وفقه وأصول ومعلومات بتاريخ القرآن . ولذا لم أكد أسمع بتكليفي حتى عزمت على طلب الإعفاء من ذلك التكليف الخطير ، ولكني نزلت على رغبة شيخ الأزهر وقتذاك ، واستعنت على قصوري بالدراسة الدائبة آناء الليل وأطراف النهار . فكنت ألقي في الصباح ثمرة كدي في الليل ، حتى إذا انتهيت من تدريس السيرة ، وحمدت التوفيق ، نبهني أحد الطلبة إلى أني لم أتعرض للمعجزات النبوية في قليل أو كثير ، وقصد بذلك فيما يبدو أن يحرجني ويرميني ببعض القصور . فأجبت — أو أجابت دراستي الدائبة — بأنه لا حاجة بالمؤرخ إلى المعجزات النبوية ليدل بها طلاب الأزهر على نبوة محمد ، وعبقرية محمد ، وعظمة محمد . ومن كانت به حاجة إلى المعجزات فليدرس بلاد العرب وأحوالها قبل الإسلام وبعده ، وليتأمل حياة محمد وسياسته وأعماله ، فإن فيهما ما يكفي من المعجزات الناطقة الدالة لمن أراد الدليل . ولم تكن هذه العبارة مجرد إجابة طائشة زائفة أردت بها التخلص من سؤال محرج أو عويص ، بل كانت إجابة المقتنع عن طريق الدرس والإمعان ، إذ الواقع أني أصبحت بعد تدريسي للسيرة النبوية بالأزهر الشريف مقتنعاً ومؤمناً بأن الحوادث التاريخية على عهد النبي هي معجزة المعجزات .

ولو شك قارئ أو قارئة فيما أقول ، أو شاء قارئ أو قارئة التماس الدليل على صحة ما قدمت ، فليدرس خطة النبي ضد مكة ، أو فليقرأ وليدرس السياسة الخارجية للنبي نحو الدول المجاورة ، أو فليقرأ وليدرس حياة عمر ابن الخطاب ، أو خالد بن الوليد ، أو عمرو بن العاص ، قبل الإسلام وبعده ، وما القارئ والقارئة بحاجة إلى كل ذلك أو بعضه ، إذ تتضح المعجزة الكبرى في المقارنة بين بلاد العرب القابعة في صحرائها سنة مولد النبي ، وبينها بعد مائة عام من تاريخ مولده الكريم ، حين أصبحت بلاد العرب نواة لإمبراطورية لا تكاد تغرب عنها الشمس . هل تريدون أكبر من ذلك معجزة للنبي ودين الإسلام ؟

محمد مصطفى زيادة

١ - على بن هذيل
الأديب الأندلسى المجهـــول

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

من يقرأ الجزء الثالث من كتاب « نفح الطيب » يجد فيه على يسر — ترجمة وافية بعض الوفاء لشيخ من شيوخ لسان الدين بن الخطيب الوزير الأديب الأندلسى المشهور ... وهذا الشيخ هو الشاعر الكاتب البليغ أبو زكريا يحيى ابن هذيل . وقد ترجم له تلميذه ابن الخطيب فى كتابه « الإحاطة » الذى طبع منه فى مصر جزء قليل ، ولا يزال هذا الكتاب الجليل القدر ينتظر من أدباء العرب والمسلمين من يقدمه إليهم ، وينفض الغبار عنه ؛ فيخدم بذلك تاريخ الأدب الأندلسى وتاريخ أعلام المسلمين أجل الخدمات .

ويحيى بن هذيل هـذا من رجال الأندلس فى القرن الثامن الهجرى ؛ وقد اشتغل إلى جانب الأدب والشعر بالفلسفة ، وتكلم فيما تكلم فيه الفلاسفة ، حتى اتهم بما يتهم به الفلاسفة عادة . وكان على رأس متهميه القاضى أبو الحسن الذى أرسل إلى لسان الدين بن الخطيب كتاباً طويلاً يعظه فيه ، ويقول له بعد مسائل فقهية ودينية كثيرة (وما حملنى على تبيين ما بينته الآن لكم فى المسألة — مسألة الرقى — إلا إرادة الخير التام لجهتكم ، والطمع فى إصلاح باطنكم وظاهركم . فإنى أخاف عليكم من الإفصاح بالطعن فى الشريعة ، ورمى علمائها بالمنقصة ، على عادتكم وعادة المستخف « ابن هذيل » شيخكم ، منكر علم الجزئيات ...) .

و « ابن هذيل » هـذا الذى يتهمه القاضى أبو الحسن بالاستخفاف ورميه بعد ذلك بالإلحاد ، هو غير « ابن هذيل » الأديب المؤلف الأندلسى فى القرن الثامن الهجرى أيضاً . والذى يشترك مع يحيى ابن هذيل فى هذه الكنية المصدرة بلفظة « ابن » ، والذى طبع له فى مصر كتاب « عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة » منذ سنوات ، والذى ألف كتاباً فى الفروسية والسلاح سنتحدث عنه عما قليل . واسمه الكامل على بن عبد الرحمن بن هذيل ، وهو موضوع الترجمة والحديث فى هذا المقال .

وليس لهذا المؤلف — الذى سنتحدث عما قليل عن مؤلفاته — ترجمة فيما بين أيدينا من كتب التراجم الأندلسية ، فلم يذكره « المقرى » فى كتابه الضخم « نفح الطيب » . ولم يرد ذكره فى القسم الذى طبع من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » للوزير لسان الدين بن الخطيب .

وعلى كثرة التراجم التى تزدحم بها كتابا النفح والإحاطة لم تقع العين على اسم هـذا المؤلف الأديب الموافق الذى يشترك فى الاسم مع الأديب الحكيم المتفلسف « أبى زكريا يحيى بن هذيل » الذى كان من أشهر علماء الأندلس فى القرن الثامن من الهجرة . وقد تعاصر الرجلان وعاشا فى مدينة غرناطة عاصمة دولة بنى نصر أو بنى الأحمر ، وهى الدولة التى كان على أخريات عهدها نهاية المأساة الإسلامية فى الأندلس .

وقد يكون لابن هذيل هذا ترجمة فى الجزء المخطوط من كتاب « الإحاطة » ، أو فى « التاج المحلى » أو فى « وفيات ابن الخطيب ، القسطنطينى » أو فى غيرها من كتب التراجم الأندلسية الضائعة أو التى لم تصل إلينا لأنها لا تزال مطمورة فى بعض خزائن الغرب أو خزائن أسبانيا المسيحية .

على أن ابن هذيل قد جنبنا بعض العناء ، حين ذكر فى

مقدمة كتابه « حلية الفرسان وشعار الشجعان »[1] اسم سلطان بني الأحمر الذي عاش المؤلف في عصره ، والذي ألف له كتاب الفروسية هذا إشادة بجهاده وتخليداً لذكره ورفعه إليه ، حتى تكون الوشيجة أتم بين موضوع الكتاب وبين الملك الذي أهدي إليه وقدم بين يديه ! ومن هذه المقدمة عرفنا عصر المؤلف على التحديد ، وعرفنا اسم الملك الذي عاصره من ملوك دولة بني الأحمر ، وإن كنا لم نعرف شيئاً عن حياة هذا الأديب المؤلف ، ولا عن مشاركته للحياة الأدبية في ذلك العصر ، ولا عن سيرته التي يسرنا أن يقفنا عليها متفضل ممن وقع لهم شيء من سيرته فيما لم يصل إلينا من الكتب الأندلسية التي ليست في أطراف أيدينا .

ولقد كنا سنظل نضرب في بيداء من حياة هذا الأديب الأندلسي حتى فيما يتصل بشيوخه الذين تلقى العلم عنهم وهو أيسر ما يعرف عن أديب في زمان كان يهتم الأدباء فيه بذكر مشيختهم وأساتذتهم ، وكاد الأمل في هذا يفلت من أيدينا لولا أن المؤلف في صفحة ٦٩ من المخطوطة المصورة من كتابه « حلية الفرسان » يروي شعراً في الرماح وينسبه إلى : (شيخنا القاضي الشريف أبي القاسم الحسني) ، فمن هو ذلك القاضي الشريف الذي تتلمذ عليه ابن هذيل ؟ .

هنا نجد كتب « نفح الطيب » و « الإحاطة » و « اللمحة البدرية في الدولة النصرية » تسعفنا بتراجم مفصلة عن هذا الشريف الحسني الذي كان قاضي الجماعة في عهد السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل ، وفي عهد أبيه السلطان يوسف بن اسماعيل من قبله ، وكان هذا الشريف الحسني من مفاخر الدولة النصرية — دولة بني الأحمر — كما يقول لسان الدين ابن الخطيب ، وكان من أهل مدينة « سبتة » بالمغرب ، ثم نزح إلى غرناطة عاصمة ملك بني نصر أو بني الأحمر ، فلقي في رحابهم سعة وقبولا ، واشتهر بالعلم والفقه والفضل والتحرج ، وتخرج على يديه كثيرون من علماء الأندلس من أمثال الفقيه « محمد بن علي بن الصباغ العقيلي » و « الإمام أبي إسحق الشاطبي » و « الوزير الشاعر الكاتب أبي عبد الله بن زمرك الذي رثاه — أي رثى أستاذه — بقصيدة مشهورة مطلعها :

أغرى ســـراة الحي بالإطراق

نبــأ أصم مســـامع الآفاق

وقد أوردها صاحب « نفح الطيب » كاملة في الجزء الثالث . .

على أن أشهر تلاميذ القاضي الشريف الحسني « لسان الدين بن الخطيب » أديب الأندلس ووزيرها المشهور ، وقد ترجم لأستاذه في الجزء الثاني من كتابه الذي لم يتم طبعه : « الإحاطة في أخبار غرناطة » ، والترجمة في صفحة ١٣٩ من هذا الكتاب .

في هذه البيئة الحافلة بهؤلاء العلماء والأدباء وغيرهم عاش علي بن عبد الرحمن بن هذيل ، وفي هذا الجو الذي أنجب ابن الخطيب ، وابن زمرك ، والشاطبي ، ظهر أديبنا « ابن هذيل » ، وأسهم في الحركة الأدبية في الأندلس ببضعة من الكتب .

ويذكر صاحب « معجم المطبوعات العربية والمعربة » أن لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل من الكتب كتاب : « البغية والنيل » وكتاب « تذكرة من اتقى » وكتاب « عين الأدب والسياسة » الذي سنقف أمامه وقفة قصيرة بعد سطور .

ويذكر المستشرق الألماني الكبير « بروكلمان » أن لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل كتباً أخرى هي : « مقالات الأدباء ومناظرات النجباء » في ملحق المتحف البريطاني تحت رقم ١١٤٤ ، وكتاب « الفوائد المسطرة في علم البيطرة » الذي طبع في مدريد سنة ١٩٣٥ .

أما كتاب « عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة » ، فقد طبع لأول مرة في مصر سنة ١٣٠٣ هـ سنة ١٨٨٥ م بمطبعة الاعتماد ، ولا ندري على أية مخطوطة

---

(١) أتمت دار المعارف للطباعة والنشر طبع هذا الكتاب في سلسلة (ذخائر العرب) التي تصدرها . وقد حققه وعلق عليه وضبط ألفاظه وصنع له فهارس وافية الأستاذ محمد عبد الغني حسن كاتب هذا المقال .

اعتمدت هذه الطبعة الأولى للكتاب ! وقد طبع مرة ثانية على هامش كتاب « غرر الخصائص الواضحة » للأديب المصرى جمال الدين الوطواط ، وهو ممن عاشوا فى القرن السابع الهجرى وبضعة عشر عاما من القرن الثامن ٦٣٢ — ٧١٨ هـ ، وهذه الطبعة فى المطبعة الأدبية المصرية سنة ١٣١٨ هـ — سنة ١٩٠٠ م ، وآخر طبعة لهذا الكتاب هى التى ظهرت فى سنة ١٩٣٨ بمطبعة مصطفى البابى الحلبى وهذه الطبعات — فى مجموعها — مملوءة بالأخطاء والتحريف والتصحيف ، وينقصها كثير من التحقيق والنشر العلمى الصحيح .

أما كتاب « تذكرة من اتقى » فيظهر أنه مفقود من عالم الوجود ، ولم يذكره « بروكلمان » فيما ذكر من كتب ابن هذيل . ولكننا نرى هذا المؤلف الأندلسى المجهول يشير إلى كتابه هذا فى فصل من فصول كتابه : (عين الأدب والسياسة) ، فيقول : (ومن المنقول فى تأليفنا — تذكرة من اتقى) ، ثم يشير غير مرة إلى كتابه : (مقالات الأدباء) ، فيقول فى كتابه (عين الأدب والسياسة) : « ومن المنقول فى تأليفنا — مقالات الأدباء » .

أنظر صفحة ١٦٥ من طبعة مصطفى الحلبى الثانية .

ولا بأس هنا من أن أشير فى إيجاز إلى طريقة ابن هذيل فى التأليف ، ولا نجد أبلغ فى التعريف بها من كلامه هو نفسه ، فهو يقول فى مقدمة كتابه (عين الأدب والسياسة) : « والذى عليه فى التأليف المدار ، هو حسن الانتقاء ، والاختيار مع الترتيب والتبويب ، والتهذيب والتقريب ... وفضيلة هذا التأليف هى فى جمع ما افترق ، مما تناسب واتسق ، واختيار عيون ، وترتيب فنون ، من أحاديث نبوية ، ومكارم أدبية ، وحكم باهرة ، وأبيات نادرة ، وأمثال شاردة ، وأخبار واردة » .

وقد اتبع ابن هذيل هذا النهج فى كتابه « تحفة الأنفس ، وشعار سكان أهل الأندلس » ، الذى يطبع اليوم القسم الثانى منه بتحقيق كاتب هذا المقال بعنوان : « حلية الفرسان ، وشعار الشجعان » . فقد رتب ابن هذيل موضوعات الخيل ، والسيوف ، والرماح ، والقسى ، والنبال والدروع ، والترسة ، وجمع ما ورد فى كل منها من الآيات القرآنية والأحاديث والأخبار والأشعار ، بل جمع ما فيها من الأسماء والصفات والشيات من كتب اللغة والأدب . وبهذا أثبَتَ القديم وقدمه فى ثوب جديد ، عملا بقول ابن فارس صاحب « مجمل اللغة » الذى ينقل عنه ابن هذيل قوله : (لو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ، ولذهب أدب غزير) .

(البكلام بقية) محمد عبد الغنى حسن

خاطـــــرة

للدكتور أحمد أمين بك

— ١٩ —

روت بعض الصحف أمس أن عالماً أوربياً كاد يخترع آلة كالراديو تروي لنا حوادث الماضي ، وذلك بناء على نظرية صحيحة ، وهي أن المادة لا تنعدم ، وأن ما كان في الوجود انبعثت منه ذرات ظلت سابحة في السكون إلى اليوم ، وهذا هو ما عبر عنه القرآن بالرقيب العتيد ، وربما كان مدار الصعوبة أن الأحداث تتداخل ؛ فالذرات القديمة التي انبعثت من أشياء قديمة قد تتداخل في أعمال جديدة كالذي قال أبو العلاء :

خفف الوطء ما أظن أديم الـ
أرض إلا من هذه الأجساد

فكيف يفرز القديم من الجديد ؟ وهذا هو الاعتراض الذي ورد على فكرة حشر الأجساد ، قالوا : إن الجسم قد يتولد من بقايا أجسام سابقة ؛ فالجسم إذا مات أكله الدود ، والدود تأكله الحشرات ، والحشرات يأكلها النبات أو الطيور ، والطيور والنبات يأكلها الإنسان .

فإذا استطاع هذا العالم أن يفرز القديم من الجديد كان قد خدم التاريخ خدمة لا تقدر ؛ فإننا نستطيع أن نعرف من الحوادث ما هو صحيح وما هو مزيف ، ومن الحادثة الواحدة ما كان منها حقاً وما أضيف إليها من الباطل ، فنستطيع أن نعرض حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله لنعرف حقيقة حياتهم وما قاموا به من أفعال وما نطقوا به من أقوال ، وإذ ذاك يتبين ما زاده الوضاعون .

ولكن بجانب ذلك يظهر لنا فضائح كثيرة قام بها عظماء كانت من الخير كتمانها ؛ فكم من عظماء زوروا الأحداث التاريخية ونسبوا لأنفسهم ما قام به غيرهم ، وكم من عظماء أتوا بأعمال مشينة وظلت في كتمان ، وظلوا مع كتمانها في رفعة وعلو شأن ؛ فإذا كشفت هذه الأعمال أضرت هؤلاء العظماء ، وقللت من عظمتهم .

وهكذا سنستطيع أن نكشف الحقائق ونتبين الحق من الباطل ، وما هو إلا أن نضغط على زر من أزرار الراديو قاصدين إلى القرن السادس بعد الميلاد فتتجلى لنا أعمال محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم نحرك الإبرة إلى عهد الميلاد فتتجلى لنا حياة عيسى عليه السلام وكيف رفعه الله إليه ، وكيف كذب الذين قالوا إنهم قتلوه أو صلبوه ، ثم نحرك الإبرة إلى الوراء أيضاً فنشهد أعمال موسى وما كان منه مع فرعون في مصر ، ومع قومه في التيه إلى آخر ما قام به من أعمال ، ثم نحرك الإبرة إلى الوراء فنشهد نوحاً والطوفان ، وكيف نبع الماء ، وكيف سار الفلك ، إلى آخر ما هنالك ، وبعد ذلك نحرك الإبرة أيضاً قليلاً فنشهد آدم وحواء وحياتهما وصراعهما . ويدير الفنان فيشهد كيف أسست مباني المصريين القدماء ، ومن أي شيء كانت ألوانهم التي اتخذوها في صورهم ، وكيف كان التحنيط عندهم ، وكيف كان الفن في عهد محمد والأنبياء قبله ، وهكذا يشهد كل فنان تاريخ فنه من شعر وموسيقى ونحت وغير ذلك .

وفي كل مسألة من المسائل التي اختلف الناس عليها من فرق مختلفة ومذاهب مختلفة ونظريات مختلفة ، فسيكشف لنا هذا الراديو عما فيها كلها من حق وباطل .

هذا بعض ما خطر لي عند ما قرأت هذا النبأ ، وإذا تم للمخترع ذلك قلب الدنيا رأساً على عقب ، وإذا كان الراديو اليوم يستطيع أن ينقل إلينا الحاضر من أقصى الأرض ، فسينقل إلينا هذا الشيء الجديد الماضي بحذافيره وخيره وشره .

أحمد أمين

ذكرى مرور السنة على الدكتور مشرفة باشا

للدكتور عطية مصطفى مشرفة

في مثل هذا اليوم السادس عشر من شهر يناير من العام الماضي ، نكس العلم رايته ، إذ لقي ربه المغفور له علي مصطفى مشرفة باشا ، بعد أن أدى رسالته على أكمل وجه . مات بغتة بموت الفجاءة وهو موشك أن يتهيأ لحضور حفلة البرلمان ، وبذلك استرد الله وديعته الغالية ، وطوى الدهر أحد العلماء العالميين الذين خدموا العلم والعلماء ، فصعدت روح ذلك العالم الكبير الفذ إلى بارئها ، ولكل أجل كتاب . كان قبساً من نور منحته السماء للأرض ، ثم استردته ، بعد أن خلف للعلم والأدب أبدع ما أنتجت العقول البشرية على مر العصور ، من تراث مازال يبهر الألباب ويلق المزيد من التقدير والإجلال . كان منهلاً عذباً فراتاً للثقافة فنضب ماؤها ، وكان سجلاً جامعاً شاملاً للعلم والأدب فطويت صحائفه ، وكتاباً محيطاً زاخراً للبحث العلمي الفريد ، فانطوى عليه غلافه ، ومصباحاً منيراً خبا شعاعه ، وخسرت مصر بوفاته عالماً من خيرة العلماء ، لا في مصر وحدها ، بل في العالم كله ، كما خسرت فيه نشاطه الجم الوفير ، وغيرته على العلم ، وسعة اطلاعه ، وقدرته الفذة ، وكلها صفات استحق من أجلها أكبر التقدير ، وأعظم الإعجاب .

انطفأ نور ذلك العقل الجبار ، وخبت قوة تلك النفس الملهمة ، وهمد ذلك الجسد ، فخسرت مصر عبقرية من ألمع العبقريات لا يجود بها الزمن إلا في القليل ، وفقدت البلاد بوفاته عالماً مجاهداً ، عرفت له المحافل العلمية في مصر والخارج أياديه البيضاء على العلم والتعليم ، وانطوت بذلك صفحة حافلة بالكفاح الطويل والعزيمة التي لا تهزم ، بل طويت صفحة من صفحات العلم ، بل فقدت البلاد عقلاً راجحاً وقلباً واعياً وشخصية ممتازة تغري بالمحبة والمهابة ، وحياة حافلة بمواقف الشجاعة والكرامة .

لقد أشادت الدوائر العلمية العالمية بذكره كعالم دولي له



المغفور له حضرة صاحب السعادة الدكتور علي مصطفى مشرفة باشا
ولد في ١١ يوليه سنة ١٨٩٨ ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى
في ١٦ يناير سنة ١٩٥٠

مكانته المرموقة بين رواد العلم السابقين ، ولا سيما في أبحاثه القيمة عن الطاقة الذرية ، ونوهت تلك الدوائر بأن وفاته خسارة للعالم .

ولعل المصريين لا يزالون يذكرون أحاديثه التي حمل فيها لواء الدعوة للإسراع باتخاذ أسباب الوقاية من أخطار القنبلة الذرية ، وأحاديثه الأخرى العلمية الفريدة ، وأبحاثه المهمة في نظرية الكم ، وكيف أنه كان معنياً بالمسائل العلمية والرياضية ، مشجعاً للمشتغلين بها ، وأنه صاحب الفضل في إنشاء الكثير من الجمعيات العلمية المصرية . وكيف أنه رحمه الله خلق بمصر روحاً علمية جامعية لخلق علماء مصريين ، وكيف سعى لتبسيط المعارف ونشر الكتب العلمية المبسطة .

والفقيد — طيب الله ثراه — آراء في الرياضة البحتة ،

وفى الطبيعة النظرية ، يعتد بها كثير من العلماء فى مصر والخارج ، حتى إن العالم الإنجليزى الكبير جيمس جينز فى كتابه (الكون الغامض) عرض لنظرية الفقيد العزيز فى تفسير الإشعاع الضوئى الصادر عن الشمس .

وجدير بالذكر أن الأيام حققت صدق نبوءة الفقيد الوقى سنة ١٩٣٩ ، بأن النتائج التى انتهى إليها العالمان الكبيران هاهن وشتروسمان فى شطر الذرة ، كانت أعظم كشف عالمى .

ويكفى للدلالة على مكانته الرفيعة بين مصاف العلماء فى الدنيا أنه كان أحد الباحثين القلائل فى الذرة ، ومن العلماء القلائل الذين يفهمون النظرية النسبية وأسرار الذرة ، حتى إن السير أوين رتشارد سون البحاثة الكبير فى العلوم الرياضية قال عقب موته : « إن الفقيد كان بلا شك من أعظم علماء الطبيعة الرياضيين البارزين فى العالم ، وإن وفاته فى هذه السن المبكرة جاءت خسارة لا تقدر للعلم ، لا فى مصر وحدها ، بل فى جميع أنحاء العالم أيضاً » .

وبعد ، فنرى أن فى هذه الذكرى حافزاً على استنهاض الهمم وإحراز قصب السبق فى ميدان النبوغ فى العلم ! فقد كان — طيب الله ثراه — يدين بمبدأ العلم للعلم ، والعمل للواجب ، وعلى هذا عاش طول حياته مجاهداً للعلم ، مخلصاً لواجبه .

كان الفقيد العزيز فى كل مراحل دراساته مثار الإعجاب والتقدير ، اشترك فى كثير من المؤتمرات العالمية العلمية ، فكانت آراؤه وأبحاثه فى هذه المؤتمرات مفخرة لمصر وللعالم العربى ؛ ولهذا ظفر بتقدير الهيئات العلمية فى الخارج قبل الداخل ، واختير عضواً فخرياً فى جمعيات علمية عدة ، ومما هو جدير بالذكر أن جامعة برنستون ، وهى من جامعات أمريكا التى تتمتع بمكانة ممتازة ، والتى لا يقبل فيها إلا طلبة الدراسات العليا ، والتى لا تستقدم إليها إلا فحول الأساتذة من مختلف الدول ، مثل أينشتين وبرونتج مستشار ألمانيا السابق ، قد طلبت إليه أن يحضر إليها على نفقتها كأستاذ زائر لما له من أبحاث علمية مبتكرة ، وفى هذا ما فيه من التشريف لمصر ، لأنه دل بحق على أنه خير عنوان لمصر على نهضتها العلمية ، وأن مصر العظيمة تنجب العظماء ، ومع كل هذه المكانة العالمية الكبيرة التى نالها الفقيد — نضر الله وجهه — فإنه كان عند خلق العلماء ، جم التواضع ، شديد الإيمان بالله ، يهب كل عنايته للعلم والواجب ، حتى قضى شهيدهما .

وقف حياته على العلم حتى وقف فى صف كبار العلماء من جيله فى الدول الكبرى ، وأحرق أعصابه ، وألهب حواسه ، ليرقى الأبحاث العلمية بمصر ، وبذل جهده فى تثقيف العقول ، وتنوير الأذهان ، وتنشئة الجيل ، وأوجد مدرسة يسودها الضمير والخلق الطيب والبحث العلمى الصحيح . وبذلك نقش اسمه بحروف من نور فى سفر الخلود .

أخى لقد أحييت ذكرك بما ساهمت فى النهضة العلمية ، وبما نفعت الشرق والغرب من مؤلفات ، وأعليت قدرك بما امتزت به من صفات أخلت الطريق أمامك ، وأفسحت لك من مناصب الدولة حتى بلغت أرقاها ، وأنت فى سن الشباب . ما ضاقت مروءتك فى ضيق أو سعة ، ولا اختلت بشاشتك فى مرض أو صحة ، فتعلقت بك القلوب ، وكنت محل تقدير وحب فى النفوس .

وقد لقيت فى حياتك ما يلقاه دائماً كل عبقرى عظيم ، لقيت الخصومة والحقد ، فلما قضيت زالت غشاوة الأحقاد ، وتقشعت سحب الأوهام ، وظهرت شمس الحقيقة ، فأزالت غشاوة الأحقاد ، فعرف لك الناس قدرك ، وما زال سنا مجدك يشع من الشعلة التى ومضت ، وعلا وضحا فلفت الأنظار إليك ، وشغل الناس بك حيًّا وميتًا ، ولقد كنت مثلاً أعلى فى الوقار والاتزان والاستقامة ، دائباً على قول الحق والصدق ، عزوفاً عن السفاسف والصغائر ، متنزهاً عن كل ما يخل بالمروءة وكرم الأخلاق ، كنت — طيب الله ثراك — عظيم النفس ، مرهف الحس ، عفيفاً أبياً كريماً ، وفيا شجاعاً ، تقياً ، وبذلك فقد المصريون بفقدك رجلاً فرداً عزاؤا لا يستهان بها فى وقت تحتاج فيه البلاد إلى كل كفاية ورأى وتفكير ... ولئن مت فستظل حيًّا بآثارك الخالدة ، لأن اسمك من الأسماء التى لن تموت ، بل سيظل اسمك حيًّا فى خواطر المصريين جميعاً ، فى هذا الجيل والأجيال التى تليه ، وسيبقى تراثك النبيل ، ثابتاً كالطود ، يحمل مشعل العلم نوراً إلى العقول والأفكار ...
والله نسأل لك جزاء العاملين .. ولآلك الصبر الجميل .

دكتور
عطية مصطفى مشرفة

قنابل ذرية نجمية

للأستاذ جمال الدين محمد موسى

إن التاريخ سيسطر في سجل البشرية ، أن سا كن هذا الكوكب قد تم له صنع قنبلة فائقة القوة في القرن العشرين ... وأن أول انفجار مروع من صنع الإنسان قد تم في السادس من أغسطس سنة ١٩٤٥ حين ألقت الطائرات التابعة للجيش الأمريكي على قاعدة الجيش الياباني في هيروشيما قنبلة تفوق في قوتها عشرين ألف طن من أشد أنواع الديناميت فتكا : هي القنبلة الذرية . .

وقد لا يدري القارىء أن الطبيعة عرفت هذه القنابل الذرية من زمن جد بعيد ، ولكنها كانت من نوع يختلف عن ذلك الذي صنعناه فوق سطح كوكبنا ... كانت قنابل ذرية نجمية ...

وقصة تلك القنابل الذرية التي عرفتها الطبيعة ، أو في كلمات أخرى ، قصة انفجار النجوم ، هي قصة قديمة معروفة لعلماء الفلك . وسأحاول أن أسرد على القارىء فيما يلي طرفاً منها :

ليس انفجار نجم بالشيء الجديد ، فإن عشرات من النجوم تنفجر في كل عام فتزيد درجة لمعانها عشرة آلاف مرة ، ومع ذلك فإن معظمها يكون عادة باهتاً قبل الانفجار إلى حد بعيد ، وحتى في أقصى درجات لمعانها لا يمكن للعين العارية أن تراها ...

ولكن إذا انفجر نجم مرتين في جيل واحد ، فذلك حدث عظيم يثير علماء الفلك ، لأنه يعطيهم معلومات علمية فائقة عن مثل ذلك النجم .

ففي سنة ١٨٦٦ لمع فجأة في المجمع النجمي « التاج الشمالي » نجم جديد « نوفا » ولكنه في الحقيقة لم يكن نجماً جديداً ، وإنما جزء من نجم منفجر في هـذا المجمع ، وقد أطلق عليه الفلكيون « ت . النجم المتغير » .

وفي تلك السنة كان التصوير في بداية عهده ، فلم يكن في الإمكان الحصول على صور النجوم . ولكن العلماء تتبعوا منذ ذلك الحين تغيرات هذا النجم ودرسوا خصائصه ، وبعضها محير غريب لا يجدون له تفسيراً ، فإن وجدوا التفسير فإنه قد يمدهم بكثير من المعلومات عن ظاهرة « النوفا » .

ويعلم الفلكيون قليلاً عن حالة النجم التي تسبق تلك الظاهرة « Pre-nova » فإن هناك عدداً هائلاً من النجوم حتى إنه من المتعذر أن يأملوا في تتبع نجم ودراسته دراسة خاصة على اعتقاد أنه سينفجر يوماً ما ... فالنجم لا يعطي أية إشارة عن قرب انفجاره ....!! .

وإن انفجار النوفا لهو انفجار ساحر جذاب ، فازدياد لمعان النجم مدهش إلى حد بعيد — تماماً — كما ترى حشرة من تلك الحشرات التي تضيء بالليل ، والتي يسمونها بالحباحب ؛ وقد لمعت فجأة كمصباح كهربائي باهر الضوء...!!

وإن الطاقة التي تنتشر في هذا الانفجار فائقة في مقدارها ، فقنبلة واحدة لكي تطلق مثل هذه الطاقة ، يجب أن تكون في حجم الكرة الأرضية تقريباً ..!! .

فهناك في داخل النجم يطلق فجأة سراح طاقة هائلة تشق طريقها إلى السطح لكي تنتشر في الفضاء ، فيتمدد النجم كأنه فقاعة من الصابون ويشتد لمعانه ، وأخيراً تنفجر الطبقات الخارجية وتنطلق إلى مسافات نائية ، وتبدو على بعد وهي تنحدر في الفضاء كأنها مجاميع من النجوم في أغشية من ضباب ... ويعود النجم تدريجياً إلى حالة لمعانه الأولى ...

ويظهر أن درجة حرارة النوفا في حالته النهائية أعلى بكثير منها في حالته الأولى ، فقد أثبتت المشاهدات أن

الغازات الممتدة حول النجم قد تستمر درجة حرارتها مليون درجة ستيغراد لمدة سنين بعد الانفجار ... !! .

ويعتقد بعض علماء الفلك أن ظاهرة النوفا ترجع إلى فقدان النجم لقوته ، وأن الطاقة المطلق سراحها في الانفجار تنجت عن تضاغط داخلي ! ويرون أن النوفا هو طور من أطوار النجم ، وأن الانفجار آخر دور من أدوار شبابه يركن بعدها النجم إلى حياة الهرم والشيخوخة .. !! .

ولا شك أن الانفجار الثاني للنجم المتغير T. Coronae يعطي ، بهذه النظرية ، ويبين أن هذه الظاهرة ترجع إلى ضعف تركيبي في النجم . وهذه النتيجة تهبنا الشجاعة والأمل ، لأنها تجعل الفرصة في انفجار الشمس ضئيلة جداً .. وإن تاريخ الشمس الطويل لهو تاريخ مطمئن مهدئ لروع البشرية ! ففي خلال تلك الأجيال الطويلة التي تزيد عن بليون سنة لم يحدث أن ضاعفت الشمس أو أنقصت إلى النصف ما ينطلق منها من الطاقة ... وإن تلك التغيرات العادية في الشمس مثل البقع الشمسية (الكلف) ونافورات الغاز التي تدفع في الفضاء ، لا تدل على أن الشمس ستنفجر انفجاراً تاماً كما يعتقد بعض العلماء ! ولعل هناك (صمامات أمن) تنظم انطلاق الطاقة في النجم وتمنع حدوث كارثة تهلك الإنسانية ... !!

ويعتقد العلماء أن « ت . النجم المتغير » كان له قبيل الانفجار جو بارد منتفخ إلى حد كبير ، يحوط قلباً دقيقاً شديد الحرارة ... ففي خلال الانفجار اندفع هذا الغاز المحيط مع مواد أخرى بعيداً في الفضاء ... وهنا فإن النجم « القلب الدقيق » هو في الحقيقة أصغر بكثير بعد الانفجار منه في حالته الأولى ، ولكن ليس هناك فقدان مفاجئ للقوة ...

ويحتمل أن النجم ينفجر بشكل نافورات من اللهب خلال فتحات صغيرة ، وليس من السطح بأجمعه .. ولشدة الحرارة في الأجزاء الداخلية من هذه النافورات فإن الضوء يبدو بلون بنفسجي واضح ، كما أن الإشعاع فوق البنفسجي يكون شديداً قاتماً .. ويتغير اللون خلال نافورة اللهب من البنفسجي إلى الأزرق إلى الأبيض الباهر ، وقد يبين على الجوانب الخارجية لون أحمر وردي حيث الحرارة على أقلها .

ولا يبدو أن انفجار النوفا حدث فريد في حياة النجم ، وفي أغلب الأحيان نجد النجم يستعيد نشاطه ، وقد يعد العدة لانفجار آخر في المستقبل القريب ، أو البعيد ، وإن عدة آلاف من السنين ليست إلا زمناً قصيراً في تاريخ حياة النجم .. !!

وإن أعظم نوفا في التاريخ هي التي حصلت في نجم « تيكو » [نسبة إلى العالم الفلكي تيكو] الذي فاق في لمعانه جميع الأجرام السماوية ما عدا الكوكب المتألق الزهرة في سنة ١٥٧٢ . ولم يكن لدى العلماء حينئذ تلسكوبات ، ولا ندري أي نجم من عديد النجوم الباهتة القريبة منا هو الذي شاهده الفلكي تيكو .

وقد كان ذلك الانفجار هائلاً إلى حد كبير ، حتى إن علماء الفلك يسمونه « سوبر نوفا » وهي ظاهرة شديدة الندرة حقاً ... ولا يبعد أن ذلك الانفجار قد دمر النجم تدميراً تاماً ، ولكن الفلكيين لا يزالون يلاحظونه على أمل أن يروه مرة أخرى ... !!

وقد يكون مصدر الطاقة لهذه الانفجارات الهائلة نوعاً من التفاعل النووي ، يختلف عما — ولكنه ليس أقل مما — في القنبلة الذرية ..

ويبدو أن انطلاق الطاقة الذرية في النجوم العادية يسير في نظام خاص ، ولكن في النوفا يظهر أن العمليات التي يطلق فيها سراح الطاقة تخرج من يد الطبيعة المنظمة ، فتشيع الفوضى وتحدث الانفجارات الهائلة ..

وإن الملاحظة والدراسات النظرية لهذه القنابل الذرية النجمية مهمة لتقدم العلم ... لمعرفة طبيعة الغازات في درجات الحرارة المرتفعة ، والأدوار التي تسلكها الانفجارات الهائلة ، والحالات التي تسببها ، قد تفيد في مشكلة القوة الذرية .. إنها ستساعدنا لاشك في فهم تركيب النجم ..

وما دام هناك على ظهر هذه الأرض إنسان يمكنه أن يتأمل ، وأن يتصور وأن يفكر .. ما دام هناك ذلك المخلوق الذي يستجيب لنداء المجهول ويستهويه البحث عما تكنه الطبيعة في أعماقها من أسرار خافية ومغاليق مبهمة ، فسيوالي العلم اكتشافاته يوماً بعد يوم ، وستزداد كثافة تلك الأضواء التي تشعها المعرفة في آفاقنا من مصابيحها العتيد .. !! .

جمال الدين محمد موسى

مقطوعات لطاغور

- ١ -

إن الأمير سيمر ببابنا يا أماه ، فكيف ألتفت إلى عملي هذا الصباح ؟ .

أريني بأي وسيلة أنظم شعري وبأي ثوب الذي ألبسه ..

لماذا تنظرين إليّ هكذا مشدوهة يا أماه ؟ .

إني أعلم جيداً أنه لن ينظر إليّ في نافذتي ..

وأنه سيمر فيختفي في لمح البصر ..

ولن يخلف وراءه إلا نهنهات الناي الشاجية إليّ من بعد ..

ولكن الأمير سيمر ببابنا يا أماه ..

وسألبس أجمل الثياب لهذه اللحظة ..

إن الأمير قد مر ببابنا يا أماه ..

وقد بان ضوء الشمس من عربته ..

فنزعت القناع ورميته عن وجهي ..

وألقيت بالعقد الذي يطوق عنقي في طريقه .

لماذا تنظرين إليّ هكذا مشدوهة يا أماه ؟

إني أعلم جيداً أنه لم يلتقط العقد .

وأنه تحطم تحت عجلاته ..

تاركاً على التراب أثره الأحمر ..

فلم يدر أحد لمن ألقيت الهدية ..

ولكن الأمير قد مر ببابنا يا أماه ..

وطوحت في طريقه بالحلية التي تزين صدري .

***

- ٢ -

الخادم : رحمة بي أيتها المليكة !

الملكة : لقد انتهى الاجتماع وانصرف الخدم .. فما بالك تأتي في هذه الساعة المتأخرة ؟

الخادم : عندما ينصرف الآخرون يحين وقتي .. وقد قدمت لأسألك : ماذا بقي لخادمك الأخير أن يفعل ؟

الملكة : ماذا تنتظر مني بعد أن فات الوقت ؟

الخادم : إجعلي مني بستانياً لحديقة أزهارك .

الملكة : ما هذه الحماقة التي تقول ؟

الخادم : سأترك كل ما عملت فيه من قبل .. وسأرمي بالسيوف والحراب في التراب .. لا ترسليني إلى البلاد البعيدة ، ولا تطلبي مني غزواً جديداً .. بل اجعلي مني بستانياً لحديقة أزهارك .

الملكة : فما هي واجباتك ؟

الخادم : أن أخدم أيامك الشاغرة ..

وأنش الممر الذي تسيرين فيه في الصباح ..

فتحيي قدميك عند كل خطوة ..

أزهار تهافت على الموت

سأجعل لك مقعداً تتأرجحين به تحت الأغصان ..

وستزاحم أشعة القمر خلال الأوراق

لتقبل رداءك ..

سأملأ بالزيت المعطر مصباحك الذي يحترق بجوار سريرك ..

وسأزين بالصندل مقعدك في أشكال جميلة

الملكة : فماذا تطلب جزاء هذا كله ؟

الخادم : أن أمسك بيديك الصغيرتين كما أمسك بأزهار اللوتس

وأن أزين معصمك بإكليل من الزهر

وأغرق قدميك في عصير الفاكهة الأحمر ..

وأزيح عنهما ما تراكم من التراب

الملكة : بوركت صلواتك أيها الخادم

سأجعل منك بستانياً لحديقة أزهاري

صبحي أحمد أيوب

الذئب (*)

قصيدة رمزية ، لألفريد دى ﭬينى

كانت قطع السحاب تجرى حول القمر المخضوب بلون الدم كما يجرى الدخان حول ألسنة اللهب فى الحريق .

وكانت الغابة يكسوها ظلام دامس رهيب . وكنا نحن نمشى فى صمت خلال الأعشاب الرطبة الطويلة ...

وفجأة ، لاحظنا تحت سيقان بعض الأشجار آثار مخالب الذئاب التى كنا نتتبعها . عندئذ لبثنا منتظرين فى سكون .

لقد كانت الغابة وكان السهل يطويهما الهدوء ، فلم نسمع سوى بعض الدوارات الهوائية فوق الأبراج العالية تحركها الريح المترفعة عن الأرض ، فترسل نحيبها الخافت فى الفضاء ...

وكانت الأشجار وهى مائلة على جوانب الصخور تبدو مسترسلة فى نوم عميق حالم ..

ونظر صياد هرم محنك إلى الآثار ، وتفحصها ملياً ، ثم همس لنا : إنها تنبىء عن ذئبين كبيرين وصغارهما .

فأخرج كل منا خنجر الصيد ، وأخفى بندقيته خوف لمعانها الفاضح ، وسرنا متمهلين صامتين ...

وبعد لحظات رأيت ثلاثة من الجماعة يتوقفون عن السير ، وبحثت عن السبب فى ذلك ، فشاهدت خلال الغصون عينين تتألقان كأن فيهما ناراً موقدة ؛ ووقع بصرى على أشباح أربعة صغيرة تتراقص بين أشعة القمر وسط الأعشاب الكثيفة ، تماماً كما تتراقص كلاب الصيد فرحاً بعودة صاحبها المحبوب ، ولكن أولاد الذئب كانت تمرح فى هدوء ، وصمت لأنها تعلم جيداً أن أعداءها من بنى الإنسان لا يؤمن جانبهم مهما بعدت الشقة . وكان الذئب الكبير واقفاً ، وعلى مقربة منه ترقد رفيقته متكئة إلى جذع شجرة ضخمة ..

ورآنا هذا الحيوان المتوحش ، فتقدم خطوة إلى الأمام وقبع على الأرض ضارباً بمخالبه المعوجة فى الأديم ... لقد عرف أنه لا بد هالك ، ما دام الإنسان قد فاجأه فى مأمنه وقطع عليه مسالكه كلها ...

والتفت حوله كلابنا ، فانتفض فى قوة ، وضرب بفكيه الحديديين حول عنق أكثر هاتيك الكلاب جراءة ... ولم يدعه ، برغم رصاص البنادق الغزير وبرغم طعنات الخناجر الحادة ، إلا حينما أتى على حياته ... وعندئذ تركه ، ثم نظر إلينا . وإنها نظرة لن أنساها ما حييت ...

لقد كانت الخناجر مغروسة فى بطنه حتى آخر نصالها ، وكانت أفواه البنادق تحيط به فى دائرة رهيبة ...

ولكنه ظل ينظر إلينا فى ثبات ، وهو يلعق الدم المتفجر من جراحه .. ثم رقد فى هدوء ، وأغمض عينيه الواسعتين .

ومات دون أن يرسل من صدره الجريح أنة واحدة تعبر عن آلامه ...

• • •

وأسندت رأسى إلى فوهة سلاحى ، وسرحت بفكرى فى بيداء الخيال ... ولم أستطع أن أحمل نفسى على مطاردة أولاد الذئب وأمها التى ما كانت لتتردد فى مشاركة صاحبها محنته الأخيرة ، لولا أن عليها إنقاذ صغارها ، وتدريبها على تحمل الشدائد ، وتعليمها كيف تتجنب بنى الإنسان ، فلا تخضع لسلطانهم مثلما خضعت الحيوانات الأليفة التى أصبحت عبدة ذليلة بعد أن كانت تملك وحدها السهل والغاب والجبل...

• • •

قلت لنفسى : وا أسفاه !.. إنى برغم ذلك الاسم الطنان : « الإنسان » ، أحتقر بنى جنسى ، هؤلاء الضعفاء !..

وأنت أيها الذئب المتوحش تعلم خيراً منهم كيف تترك الحياة بكل ما فيها من آلام ومحن .

إنك تعلم قيمة الحياة ، وإن الصمت أعظم فضيلة فيها ، وكل ما عداه ضعف دنىء ... لقد فهمتك أيها الذئب المترحل . ولقد نفذت نظرتك الأخيرة إلى أعماق قلبى ...

لقد كانت تلك النظرة القوية تقول :

— روض نفسك حتى تصل بها إلى طبيعة الصبر الأبى المترفع ، تلك الطبيعة التى نشأت أنا عليها لأنى نشأت فى الغاب ... إن الأنين ، والبكاء ، والتذلل ، كل ذلك خور فى النفس وجبن ... فعليك أولاً أن تؤدى رسالتك الطويلة الشاقة حيثما شاءت لك الأقدار أن تعيش ... ثم عليك ، بعد ذلك ، أن تتألم وأن تموت ، مثلى ، فى صمت ...

تلخيص محمد عبد الحليم محمود

(*) La Mort du Loup. Par A. de Vigny

الإشارات الإلهيـــة

لأبى حيان التوحيدى

تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى

للأستاذ السيد أحمد صقر

- ١ -

كنت أظن أنى سأقرأ هذا الكتاب القيم فى يسر لا يشوبه عسر ، وسهولة لا تمازجها صعوبة من تحريف أو تصحيف يفسد علىّ اللذة الصافية التى أجدها فى قراءة كتب أبى حيان التوحيدى ، أحب الأدباء القدماء إلى قلبى ، وأعظمهم مكانة فى نفسى . وكان مردّ هذا الظن أن ناشره أستاذ جامعى مشهور ، وفيلسوف جم النشاط ، غزير الإنتاج يعرف أمشاجاً من لغات شتى ، فإذا نشر كان نشره علمياً مثالياً . وكنت أظن أيضاً أن الدكتور « عبد الرحمن بدوى » سيقدم للكتاب بمقدمة رائعة ، قوامها المنطق السليم والبحث العميق ، والاستنتاج الدقيق ، والرأى الصائب المؤيد بالأدلة الناصعة ، والبراهين الساطعة ، ويكون رائده فيها الحق المجرد ، والإنصاف الخالص وقصده الأول بيان قيمة الكتاب وشرح فكرته ، وكشف حقيقته حتى يكون القارئ على بصيرة منه قبل شروعه فى قراءته . كنت أظن هذا وذاك ، ولكن شيئاً من ذلك كله لم يتحقق ، فقد لقيت فيه مشقة بالغة ، وضقت ذرعا بالأخطاء المنكرة التى تموج بها صحائفه ، وعفت الشروح الغريبة التى تحيل المعنى وتفسد الفكرة ، وتناقض قصد المؤلف ، وتملأ نفس القارئ بالعجب المضحك ، ولكنه ضحك كالبكاء ، كما قال أبو الطيب .

وهناك أمر آخر له خطره وقدره ولا مناص من ذكره ، وهو أنى أشك فى كمال نص الكتاب ! ولست أعنى النقص الواقع فى أصله ، ولكنى أعنى نقص المطبوع عن المخطوط ، والذى حملنى على هذا الشك أنى قرأت صفحتين نشر صورتهما الدكتور فى صدر الكتاب ، وقارنت بين ما جاء فيهما وبين ما جاء فى هذه الطبعة فألفيت فى كل صفحة منهما نقصاً ملحوظاً . جاء فى ص ٢١٤ المطبوعة « ... أو ليت من حطنى عن درجات المخدومين رقانى إلى مقامات الخدم ، أو ليت من حظر علىّ البسط عنده ، لم يحظر علىّ التبصبص له » ، وإذا قرأنا هذا الكلام فى ص (٨٩ — ١) المصورة وجدناه هكذا « أو ليت من حطنى عن درجات المخدومين رقانى إلى مقامات الخدم . أو ليت من حرمنى روح المخصوصين كفانى من لواذع السَّدَم والندم ، أو ليت من نبذنى وراء كل شىء مَنَّ علىّ بشىء ، أو ليت من حظر علىّ التبسط عنده لم يحظر على التبصبص له » .

فأنت ترى أن الدكتور لم يكن أميناً فى نقل النص ، وليس ذلك من باب السهو الذى يقع عادة فى النقل ، فإن ذلك يمكن أن يقال فى غير صفحة اختارها الناشر للتصوير اختياراً ، وطبيعى أنه لا يختارها إلا بعد المراجعة الدقيقة . ولبيان معنى السَّدَم ننقل ما ذكره ابن منظور فى لسان العرب ١٥/١٧٥ قال : « قلما يفرد السدم من الندم ، والسادم : المتغير العقل من الهم ، أو الحزين الذى لا يطيق ذهاباً ولا مجيئاً » .

وجاء فى صفحة ٩٣ المطبوعة « وفيك رغب الزاهدين الشاكين . ورحمتك نرجو محتاجين مفتقرين ومن ربوبيتك نُنفَّر واجدين مُرجَّين ، وبصحبتك نفتخر بهجين وفرحين ، يا هذا ارحم غربتى فى هذه اللغة العمياء ، وبين هذه الدهماء الغبراء ، وتعجب من بدائى فى هذه الفلاة الغبراء ، بين الأرض والسماء ، فلا أحد يجيب مساعداً أو معيناً » ، وإذا رجعنا إلى ص (٤٠ ب) المصورة وقرأنا هذا الكلام هناك تملكتنا الدهشة ؛ لأن الدكتور الناشر لم يحسن قراءة بعض الألفاظ ، ففى النص المخطوط « واجدين مُرجين » لا « مُرجَّين » كما قرأها وكتبها الدكتور ،

ومن الغريب حقاً أن ناسخ الكتاب قد وضع تحت حاء « مرحين » حاء صغيرة لئلا يقرأها قارئ خاء أو جيا ، ولكن الدكتور لم يفطن لهذا التمييز الواضح . وفي النص المخطوط أيضاً « الدهاء العسراء » لا « الغبراء » كما قرأها الدكتور وكتبها ، وفيها أيضاً « وتعجب من تداني » لا من « بداني » وقد وهم الدكتور فظن نقطة نون « من » نقطة لنون « تداني » التي قرأها باء . ولو نظر لقول أبي حيان بعدها « فلا أحد يجيب مساعداً » لفهم المعنى وقرأها صحيحة « تداني » لا « بداني » ؛ فإن الإجابة تناسب الأولى وتباين الثانية .

وجاء في صفحة ٩٣ المطبوعة نفسها « أين العقول الحصيفة أين القرائح الصافية » . وإذا رجعنا إلى هذا الكلام في الصورة ص (٤١ — ا) وجدناه هكذا « أين العقول الحصيفة ، أين الأذان الصاغية ، أين الألباب الناقية ، أين القرائح الصافية » . فأنت ترى من المقارنة بين هاتين الصفحتين أن الدكتور لم يكن أميناً في نقل النص ، وأنه لم يحسن قراءة الكلمات الواضحة في المخطوطة . وإذا كان ذلك قد وقع في صفحتين متجاورتين فما بالك بسائر صفحات الكتاب !

ومن أجل ذلك كله أقول — والأسف يملأ جوانحي — إن الدكتور عبد الرحمن بدوي قد أفسد هذا الكتاب بنشره له على تلك الصورة الخاطئة ؛ وأساء إلى نفسه وإلى أبي حيان إساءة بالغة مؤلمة ، قل أن يوجد لها نظير أو شبيه في ميدان النشر .

وإن خالج القارئ شيء من الشك ، أو ساوره خاطر من الإنكار ، فإني أسارع وأضع أمامه أمثلة متنوعة لأوهام الدكتور تستنفد عجبه ، وتقنعه بأني لزمت جادة الحق والقصد فيما قلته عنه ووصفته به .

١ — ص ٢٧ : يقول أبو حيان مخاطباً أحبابه : « فارعوا ذمام خدمتي لكم ، وحافظوا على ما تحملت فيكم ، فقد شربت العلقم في هواكم ، وداريت العدى تحملاً لكم ، ولزمت الصمت حتى نسيت الكلام ، واعتزلت حتى قيل هو من الوحش ، وغضضت الطرف حتى قيل من العميان » .

قال الدكتور عبد الرحمن بدوي في شرحه : « الكلام هنا يعني علم الكلام ، والقرينة في قوله : اعتزلت ، أي صرت من أهل الاعتزال أو المعتزلة ، واعتزلت بعدها يعني توحدت وانفردت » !! .

هذا شرح مضحك حقاً ؛ فإن أبا حيان لم يرد بالكلام إلا معناه المعروف للعامة والخاصة ، ولست أدري كيف فهم الدكتور أن أبا حيان نسي علم الكلام لما لزم الصمت ، وما العلاقة العجيبة بين هذا الصمت وعلم الكلام ؟ وكيف تكون « اعتزلت » بمعنى توحدت وانفردت قرينة على أن المراد بالكلام علم الكلام ، وما الصلة بين التوحد والانفراد وبين مذهب الاعتزال ؟ لست أدري . ولعل هناك صلة فلسفية لا يدركها إلا عقل فيلسوف .

٢ — ص ١٥٨ : يقول أبو حيان « هذا ذَرْو من الحديث من هذا المقام الذي وصل إليه بعض الكرام ، ثم وراء ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت » أخطأ الدكتور في شرحه كلمة ذرو خطأ غريباً عجيباً إذ يقول : « ذرو : من ذرا يذروا : أطار وأذهب » !! .

والصواب : « ذرو من الحديث : أي طرف منه . جاء في اللسان ١٨ / ٣١٣ « ذرو من قول : أي طرف منه لم يتكامل » .

٣ — ص ٢٣٦ : « نعم يا سيدي ، حدثني إن الحديث من القَرى » .

أخطأ الدكتور في ضبط كلمة « القرى » ونقطها وشرحها وقال : « القرى كتفى ، يقال : هو يفرى الفرى : أي يأتي بالعجب في عمله » .

والصواب : « إن الحديث من القِرَى » وهو تعبير مشهور متداول في كتب الأدب ، قال الشاعر :

لحافي لحاف الضيف والبرد برده
ولم يلهني عنه غزال مُقَنَّعُ
أحدثه إن الحديث من القرى
وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

راجع حماسة أبي تمام ٤ / ٢٤٤ ، وقال آخر :

ورب نضو طرق الحي سُرى صادف زاداً وحديثاً ما اشتهى
إن الحديث جانب من القرى

وأظن أن قرى الأضياف بين لا يحتاج إلى شرح نظري !.

٤ — ص ١٤٦ : « فقد جمدت العيون فما تدمع ،

وتكبرت القلوب فما تخشع ، وكلبت البطون فما تشبع » .

قال الدكتور « كلب كفرح : أصابته شدة وضيق » !!

وهـذا خطأ طريف ، والصواب « كلبت البطون : أى ضَرِيت على كثرة الأكل وتعودته ، جاء فى اللسان ٢ / ٢١٨ « وكلِب الكلب واستكلب : ضرى وتعود أكل الناس ، فأخذه لذلك سعار وداء شبيه بالجنون ، وقيل : الكلَب : جنون الكلاب ، وفى الصحاح : الكلَب : شبيه بالجنون ، ولم يخص الكلاب » .

٥ — ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ يقول أبو حيان فى الحديث عن قصر العمر : « فما لبثنا فى هذه البلدة الوبيئة ، والدنية الحرجة إلا ... كحلم النائم فى الليل ، أو كظل قد أخذ فى النقصان ، أو كالنَّقَابة من مول ، أو كتوهم من النفس ، أو كلمح البصر أو هو أقرب » .

قال الدكتور « النقابة بفتح النون : مصدر نقب على القوم ، من بابى علم وكرم : صار نقيباً عليهم ، أو النقابة بالكسر : الاسم ، وبالفتح المصدر » !!

ويبدو أن الدكتور لم يحسن قراءة الكلمة فى المخطوطة ، فأخطأ فى نقطها وشكلها وشرحها خطأ بعد بها عن المعنى . والصواب : « أو كالتِفاتَةٍ من مول » فإن قصر الالتفاتة من الذاهب المولى الملتفت إلى ما وراءه هو المناسب للمح البصر وما قبله من تشبيهات ، وأما قصر مدة نقابة النقيب فشىء غير معروف ولا معنى له ، ولست أدرى كيف استساغ الدكتور قرنها بحلم النائم ولمح البصر فى مضمار التشبيه .

٦ — ص ٣٠١ : « وإن شكا جزروه ، وإن بخل مقتوه ، وإن صرّح طردوه ، وإن كنى عاندوه ، وإن ساعد استثقلوه ، وإن نافر استحملوه » .

قال الدكتور : « استحمله نفسه : حمّله حوائجه وأموره ، وسأله أن يحمل ، واستحمل قوى على الحمل وأطاقه » .

ولو كان الدكتور يعرف معنى « المنافرة » فى لغة العرب وأنها المفاخرة والمحاكمة فى الحسب ، لعلم أن الصواب « وإن نافر استخملوه » بالخاء لا بالحاء ، أى عدوه خامل النسب والحسب لا يصلح للمنافرة .

٧ — ص ١٧٣ : « فلهذا وأمثاله أثرت فى هذا الجزء الكلام فى الأخلاق وتهذيبها ، فإنك بذلك تصفو بعد التهذيب ، ثم ليس بعد الصفو إلا ما إذا بدا من الحق بادية وانك وجمّلك ، وأطلعك على الغيب وأشهدك » .

قال الدكتور « الوانك : الواكن ، ونك فى قومه تمكن فيهم ، ووكن الطائر بيضه وعليه يكنه : حضنه » .

وهذا خبط وخلط مرده إلى أن الدكتور لم يفطن إلى ذلك التحريف الساذج فى الكلمة التى شرحها ، والصواب « زانك وجمّلك » لا « وانك وجمّلك » ثم ما معنى هذا الذى كتبه فى الشرح .

٨ — ص ١٥٢ « لقد رأيت خلقاً كثيراً ، وعرفت صغيراً وكبيراً ، فما رأيت أخفى منك على نفسك ، ولا عرفت أوهى منك فى طلب أنسك ، أما آن لك أن تقلع عن هذا الإضرار ، أما وجب عليك أن تستحى من مخالفة الله فى الجهار والسرار ؟ » ، قال الدكتور : « الأيس : القهر ، يقصد : لبس أضعف منك فى طلب ما تقهر به الناس ، وتسمو به عليهم » ! .

لم يقصد أبو حيان هذا المعنى ، ومحال أن يقصده فى هذا المقام ، ولم يقل كلمة « أيسك » ، وإنما قال : « ولا عرفت أوهى منك فى طلب أنسك » ومن العجيب أنه كرر هـذا المعنى فى الصفحة نفسها حيث يقول : « وما أغفلك عن حظك فى عاقبتك ، إن أنت إلا بلاء على نفسك ، وحجاب بين روحك وأنسك » .

ويديهى أن كلمة « الإضرار » بالضاد محرفة عن « الإصرار » بالصاد ، ولكن الدكتور لم يفطن إلى هذا التحريف البسيط ، بل لعله أحدثه .

٩ — ص ٣ و ٤ « فيا جافى الطبع ، ويا قاسى القلب ، ويا سيء الاختيار ، كيف يطمع الطامع فى رشدك ، وهذا نظرك لنفسك ؟ أشهد أنك غبين الرأى مسلوب التوفيق ، على أنه قد بقى من شمسك شفى ، فإن تداركت بقيتك رجوت لك أن تسلو عن فائتك » .

قال الدكتور « شفيت الشمس شفى : غربت » ! ..

وهذا خطأ ؛ فإن معنى « شفى » هنا : قليل ، جاء فى اللسان ١٩/١٦٧ « وما بقى من الشمس والقمر إلا شفى ، أى قليل » .

١٠ — ص ٤ : يقول أبو حيان بعد الكلام السابق « وإن جنحت إلى التوانى ، وذهبت فى آفاق الأمانى ، لم ترث

من حالك إلا حسرة ، ولم تضغ بفمك إلا جمرة ، يا هذا خفض أسى عما ساءك طلابه :

« ما كل شائم بارق يسقاه »

حسب الدكتور أن هذا النص نثر كله ، وليس فيه من الشعر إلا الشطر الذى أفرده فى سطر وحده . وليس الأمر كما حسب ؛ فإن آخر نثر أبى حيان كلمة « يا هذا » ، وما بعدها بيت من الشعر تمثل به وهو :

خفض أسى عما شآك طلابه
ما كلُّ شائم بارق يسقاه

فساءك محرفة عن « شآك » ، والبيت للبحترى كما ديوانه ٢ / ٣٢٣ وقبله :

والشىء تمنعه يكون بفوته
أجدى من الشىء الذى تعطاه

١١ — ص ٢٠ يقول أبو حيان : « إلى متى نقول بأفواهنا ما ليس فى قلوبنا ، إلى متى ندعى الصدق والكذب شعارنا ودثارنا ، إلى متى نتمادى فى الغواية وقد فنى العمر بليلنا ونهارنا ، إلى متى نتناقش بذكره وزنانيرنا فى أوساطنا ، إلى متى نخلد إلى الدنيا وقد دنا منها رحيلنا ؟ » .

قال الدكتور فى شرح الزنانير : « جمع زنار ، كناية عن الخضوع لله » !! .

وهذا شرح غريب حقاً ، وبعده عن الصواب كبعد الأرض عن السماء ، ولكنا نمضى مع صاحبه لنعلم مقدار فهمه لكلام أبى حيان . لقد فهم أن أبا حيان يريد أن يقول إلى متى نتبارى فى إظهار ذكر الله ، ونحن خاضعون له كل الخضوع ، ويالله من فهم يسىء إلى الدكتور وإلى أبى حيان معاً . من قال لك يا دكتور إن لبس المسلمين الزنانير فى أوساطهم كناية عن خضوعهم لله ، وهم لم يلبسوه فى أى عصر ولا مصر ، ولعلك تعلم أنهم قد فرضوا لبسه أيام عزتهم وصولتهم ، على المجوس واليهود والنصارى ليكون سمة لهم ، وعلامة تدل عليهم أينما كانوا وحيثما حلوا . ولو صح ما افترضته من ذلك لكان أبو حيان مخرفاً يهرف بما لا يعرف ، ويخبط فى قوله خبط الله الجاهلين ، الذين يقولون القول يدفع أوله آخره ، وينقض آخره أوله ، ولكن أبا حيان رجل عاقل يكتب ما يكتب عن بينة وبصيرة ، فهو يقول : « إلى متى نتناقض بذكره وزنانيرنا فى أوساطنا » ، أى إلى متى نكذب الله والناس عن أنفسنا فنظهر خلاف ما نبطن ، ونتبارى فى إظهار ذكره بألسنتنا لندل على إسلامنا ، بينما نعمل أعمال غير المسلمين من المسيحيين الذين يلبسون الزنانير .

وهذا هو المعنى الصحيح الذى قصده أبو حيان من ذلك التعبير . وأما أن يكون « لبس الزنانير كناية عن الخضوع لله » فشىء لا نعرفه ، ولا نسيغه ، ولا نرتضيه ، وإن عرفه الدكتور عبد الرحمن بدوى وساغه وارتضاه ، وما توفيق إلا بالله .

السيد أحمد صقر

قصة الحضارة الفارسية

تأليف ول ديورانت

وترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى

— ٢ —

ذكرنا فى العدد الماضى أنواع الأخطاء التى لاحظناها فى الترجمة العربية لهذا الكتاب الجليل ، وفى هذا العدد نذكر أمثلة لكل نوع منها . ونحب أن نؤكد للقراء أن ما سنذكره هنا لايعدو أن يكون مجرد أمثلة . أما إذا أردنا أن نحصى الأخطاء كلها إحصاء كاملاً ، فإن صفحات هذه المجلة تضيق بهذا الإحصاء .

(١) أخطاء فى الفهم أدت إلى أخطاء فى الترجمة ، وإلى عكس المعنى الذى يقصد إليه المؤلف فى بعض الأحيان .

١ — جاء فى ص ٥ من الترجمة العربية قول المترجم إن كسوف الشمس « جعل جماعة من القواد المعارضين يحسون بالرهبة والخوف أمام هذا النذير الذى أنذرتهم به السموات » .

وهذه ترجمة خاطئة للعبارة الإنجليزية :

The opposing leaders frightened by this apparent warning from the skies.

وسبب الخطأ أن المترجم فهم عبارة opposing leaders بأنها «قواد معارضون» . وأضاف إليها من عنده لفظ جماعة فزادها خطأ على خطئها ، وحقيقة المعنى أن قائدى الجيشين المتقاتلين قد ارتاعا لهذا النذير ...

٢ — وقال المترجم فى ص ٦ إن الميديين علموا الفرس جملة أخرى من القوانين الشبيهة بقوانين الإمبراطوريات المتأخرة التى يمكن وصفها جميعاً بما ورد فى عبارة دانيال .

وهذه العبارة ترجمة خاطئة أدى إليها سوء فهم عبارة : The later empire الإنجليزية ، ومعناها الإمبراطورية (الفارسية) فى عهدها المتأخر لا الإمبراطوريات المتأخرة .

ص ١٩ هذه الملابس تضمن لهم ما يشاءون من دفء فى الشتاء أو طراوة فى وقت الصيف . وهذه الجملة هى ترجمة العبارة الإنجليزية : kept the population warm in winter and hot in summer . ولست أعرف ما يريده المترجم بلفظ طراوة ، ولكنه أيا كان ما يريده منه ليس ترجمة لكلمة hot الإنجليزية .

ص ٢٣ : وخرج أكزرسيس على رأس جزء من أسطوله ، يريد أن يطوف حول إفريقيا ، ولكنه لم يلبث بعد اجتيازه أعمدة هرقل أن عاد فاشلاً تعلو وجنتيه حمرة الخجل والعار . وهذه ترجمة خاطئة للجملة الإنجليزية :

when Xerxes royally commanded part of his naval forces to circumnavigate Africa, it turned back in disgrace

وقد فهم الأستاذ المترجم من لفظ commanded أنه هو الذى سار على رأس الأسطول ، ولكنه هنا بمعنى أمر ، ولم يقل المؤلف إنه هو الذى عاد تعلو وجنتيه حمرة الخجل والعار ، بل قال إن الأسطول نفسه أو جزأه قد عاد مجللاً بالعار . والغريب هنا أن المؤلف يذكر بصريح العبارة أن مرجعه الذى أخذ عنه هذا القول ، هو تاريخ كيمبردج القديم ، ويحدد الموضع بالضبط ، ولو رجع المترجم إليه لوجد فيه اسم القائد الذى سار على رأس الأسطول ، ولعرف أن (أكزرسيس كما يسميه هو دون تحر عن اسمه الحقيق) لم يبرح بلاده ، لأن شواغل الملك لم تكن تسمح له بأن يطوف بأسطوله حول إفريقية ، وتلك رحلة لا تتم فى شهور بل تحتاج إلى سنين .

ص ٣٤ : وكان الأرمن يمدونه بـ ٣٠٫٠٠٠ دجاجة ! فهل يعرف القارئ الأصل الإنجليزى الذى ترجمه الأستاذ بكلمة دجاجة ؟ إنه foals أى الأمهار ، ولم يخطر ببال الأستاذ المترجم أن من الغريب أن تؤدى الجزية دجاجاً .

وشبيه بهذا ترجمته لفظ lead بالفضة فى أكثر من موضع فى الكتاب .

ص ٣٧ : قال الأستاذ المترجم فى الكلام على أصل زردشت حكيم الفرس أو نبيهم : وكانت الفكرة التى أوحت به إلهية محضة جعلت ملاكاً الحارس يتسرب إلى نبات اسمه

و الهوما » الخ .. ولو فكر الأستاذ المترجم قليلاً ، لأدرك أن هذا الكلام لا يؤدي معنى ، ولراجع نفسه وبحث عن معنى ألفاظه ، لعله يكتب كلاماً ذا معنى ، والجملة ترجمة للعبارة الإنجليزية : His conception was divine: his guardian angel entered into an haoma plant.

وليس معنى Conception في هذه الجملة هو فكرة كما فهم المؤلف ، بل معناها الحمل . وما معنى أن الفكرة جعلت ملاك الحارس يتسرب إلى نبات الهوما . لا يا سيدي . إن المعنى هو : ولقد حملت به أمه حملاً إلهياً . وقد فسر المؤلف نفسه هذا الحمل الإلهي بعد أن وضع بعد العبارة السابقة هذه العلامة : التي تدل على أن ما بعدها تفسير لما قبلها ؟ فقال إن ملاك الحارس الخ ..

ص ٣٩ : وربما أحس دارا ... أنه دين قمين بأن يوحي بعناصر الخير في نفوس شعبه ، ويبذور القسوة في شعاب حكومته .. وكل ما قاله المؤلف بعد هذا هو : Perhaps Darius I saw in it a faith that would inspire his people and strengthen his gvoernment.

وإذا سلمنا بأن معنى inspire هو أنه يوحي بعناصر الخير في النفوس ، فهل يمكن أن يكون معنى strengthen أنه يبذر بذور القسوة في شعاب الحكومة ؟

ص ٤٠ : وهي في مجموعها أقل مما جاء في الإنجيل ، والإنجيل هنا ترجمة لفظ Bible . والغريب أن المترجم نفسه قد ترجم لفظ Bible بالكتاب المقدس في الصفحة السابقة ، ثم عاد في هذه الصفحة وفي غيرها فترجمه بلفظ الإنجيل .

ص ٤٤ : والمذهب الذي جاء به زردشت قريب الشبه جداً بمذهب التوحيد ، وقد أدخلوا عليه فكرة أهرمن والأرواح الشريرة ، ولكنه ظل مذهباً لا يعترف إلا بإله واحد كما يعترض في المسيحية رغم اشتمالها أيضاً على فكرة إبليس والملائكة والشياطين .

والترجمة هنا مضطربة ، وإذا غضضنا النظر عما فيها من ركاكة بل أخطاء ، تختلف عما أراده المؤلف كل الاختلاف فهو يقول :

As this system of belief came from Zarathustra it bordered upon monotheism. Even with the intrusion of Ahriman and the evil spirits it remained as monotheistic as Christianity was to be with its satan, its devils and its angels.

ومعناها أن هذه العقيدة بالصورة التي جاء بها زردشت أو حين جاء بها زردشت قريبة جداً من عقيدة التوحيد ، ولقد بقيت حتى بعد أن حشر فيها أهرمن والأرواح الخبيثة لا تقل وحدانية عن المسيحية التي جاءت بعدها بإبليسها وشياطينها وملائكتها . ألا ما أكبر الفرق بين هذا وبين ما قاله المترجم !.

ص ٥٨ : قال الأستاذ المترجم « ولم تكن تعاليم زردشت تشجع العذارى والعزاب على كثرة الزواج » ، وهذا كلام لا معنى له ! فكيف تشجع تعاليم زردشت أو لا تشجع العذارى والعزاب على كثرة الزواج ؟ ولو أن في الأصل الإنجليزي غموضاً لما جاز حتى في هذه الحال أن يبقى المترجم على مثل هذا القول في ترجمته ، بل لكان خليقاً به أن يدرك لأول وهلة أنه لم يفهم المعنى الإنجليزي على حقيقته ، وليس إدراك هذا المعنى بحاجة إلى كثير من التفكير ؟ فالمؤلف يقول : Virgins and bachelors were not encouraged by the code . ومعنى هذه العبارة أن قانون زردشت لم يكن يشجع الفتيات على أن يبقين عذارى ، ولا الرجال على أن يبقوا بلا زواج .

ص ٥٩ : وكان الكلب دون سائر الحيوانات يعتبر جزءاً متمماً للأسرة . وهذه ترجمة للجملة الإنجليزية الآتية : The animal — above all others the dog — was an integral part of the family.

ومعناها أن الحيوان — وخاصة الكلب — كان جزءاً لا يتجزأ من الأسرة .

ص ٦٨ : وعلى مقربة من هذا المكان ... تجثم مقبرة قورش في جلالها الذي يمثل لنا حال الفن منذ أربعة وعشرين قرناً سالفة . ويراد بهذه العبارة أن تكون ترجمة للجملة الانجليزية : Near-by on the plain, is the tomb showing the wear of twenty four centuries.

وقد فهم الدكتور إبراهيم أن معنى عبارة Showing the wear تدل على حال الفن . ولكن المعنى الوحيد الذي يمكن فهمه منها ، هو أنه يظهر عليه أثر البلى الذي حل به في خلال الأربعة والعشرين قرناً التي مرت منذ إنشائه إلى الآن .

ص ٦٨ : يقوم على مساحة منبسطة :

قصة مارتن أروسمث

للكاتب الأمريكي سنكلير لويس

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

هو أول أمريكي منح جائزة « نوبل للآداب » وذلك عام ١٩٣٠ ، تخرج في جامعة (ييل) ، ونال درجته العلمية عام ١٩٠٧ .

وقضى سنين في الأسفار والرحلات ، وهو يبعث بمقالاته إلى أصحاب الصحف ، ويكتب إلى أصحاب دور النشر .

وقد جعل المسرح قبلته في السنين الأخيرة ، فأصبح ممثلاً ومدير مسرح ، وهو عضو في الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب .

وقد تقرر منحه جائزة (بوليتزر) ، ولكنه رفض قبولها ، (وبوليتزر هذا كان صحافياً أمريكياً من أصل مجري ، أنشأ مدرسة للصحافة ، وأعد جائزة تمنح سنوياً للمتفوقين في علوم الصحافة وآدابها) .

وقصة « أروسمث » التي نحن بصددها أراد بها مؤلفها أن يسخر من الطبيب الذي يتخذ من مهنته سلماً إلى الفائدة المادية وإلى الثراء السريع ، وكذلك إلى الشهرة وذيوع الصيت .

وبطل القصة شاب من طلبة الطب كان مشغوفاً بالعلم لذات العلم ، مخالفاً في ذلك زملاءه الطلبة الذين كانوا يتساءلون : أي المكانين أكثر دراً للكسب والثراء : المدينة الكبيرة ، أم القرية الصغيرة ؟ والذين كانوا يتجادلون : أي الطريقين أصلح : سبيل اللهو والعبث ، أم سبيل الجد واتباع أوامر الدين واجتناب نواهيه ؟ .

وأسرّ (أروسمث) لفتاة مليحة من زميلاته اسمها « مادلين فوكس » أنه يظن بنفسه أنه سوف يصبح طبيباً في سفينة من السفن ، ذلك لأنه بالعمل في السفن لن يضيع وقته في محاولة اجتذاب عملاء زميله الطبيب الذي يعمل في سفينة أخرى .

ولكن زميله الجراح الشاب لا يتردد في القول أنه يرى أن أول واجب له في هذه الدنيا ، إنما هو السعي إلى الكسب المادي ما استطاع إلى هذا الكسب سبيلا .

واتفق لأروسمث أن عمل مع رئيس له من الأطباء كان يرى أن أوجب واجب على من أراد بلوغ قمة النجاح هو أن يحدث في الدنيا التي حوله دوياً كلما انتقل من مكان إلى مكان .

وقالت لصاحبنا زوجته (ليورا) : إن فرضاً عليه أن يعمل في اليوم ثمانياً وعشرين ساعة ، ثم إذا بقيت له بعد ذلك بقية من فراغ ، فعليه أن يقضيها في عمله ...

هذه ترجمة عبارة rising upon a terraced base

وليس يصعب على أي إنسان أن يترجم هذه العبارة بقوله : يقوم على قاعدة مدرجة .

ص ٧٧ : « ولن تستطيع سجلات روما مهما فعلت أن تنافس سجلات إيران فيما اشتملت عليه من حوادث القتل الدامية ووقائع الغدر الثابتة إلا بعد أيام تيبريوس » .

وإذا ضربنا صفحاً عما في هذه الجملة من سجع متكلف وزيادات لا وجود لها في الأصل الإنجليزي ، بقي أن هذه العبارة لا تؤدي المعنى الذي يريده المؤلف ؛ فهو يريد أن يقول إننا لا نرى ما يضارع أعمال التقتيل وسفك الدماء التي تطالعنا بها سجلات ملوك الفرس إلا في تاريخ روما بعد تيبريوس .

وهذه هي الجملة الإنجليزية التي قصد المترجم ترجمتها :

Only the records of Rome after Tiberius rival in bloodiness the royal annals of Persia.

ص ٧٩ : وقد أحضروا إليه قواد الفرس وأمراءهم فوجدهم عازفين عن الحرب والقتال .

وهذه هي الترجمة العربية للجملة الإنجليزية الآتية :

The Persian leaders brought their concubines with them and had no amibition for war.

فما هي العلاقة بين قول المترجم : وقد أحضروا إليه قواد الفرس وأمراءهم ، وبين العبارة الإنجليزية التي تبدأ بها الجملة ، ومعناها أن قواد الفرس قد صحبوا معهم سراريهم .

هذه كلها أغلاط من نوع واحد ، هو الفهم الخاطئ للأصل الإنجليزي ، مع أن الكثير منها سهل لا يحتاج إلى جهد كبير ، ولقد كان القليل من العناية كفيلاً بأن يجعل الأستاذ المترجم يتحاشى بعضه إن لم يكن كله . أما الأنواع الأخرى من الأغلاط ، وهي أخطاء الحقائق التاريخية وأسماء الأعلام والأمانة في النقل والأسلوب ، فوعدنا بها العدد الآتي إن شاء الله .

(قارئ)

وحدث ذات مرة أن كشف فى عالم « البكتريا » كشفاً له قيمته ، ولكن كان قد سبقه إلى التقدم من هذا الكشف واحد من أعضاء معهد (باستور) ، فلق (أروسمث) من رئيس العمل الذى يعمل فيه التحقير والازدراء ، وقال له : وددت لو أنك بادرت قبل ستة أشهر بنشر مذكراتك عن هذا الكشف قبل أن تستولى من عالمه ...

ولكن (أروسمث) على الرغم مما لقيه من قلة الكسب المادى كان يحس بالدهشة كلما قام بتجربة من تجاربه ، لا يبغى من وراء ذلك إلا الحقيقة العلمية وحدها ! وقد قال مرة لواحد من أصحابه : علينا أن نثابر فى تجاربنا سنتين أو ثلاثاً ، وقد نخفق آخر الأمر ، وقد ننجح ...

قال الكاتب :

يبدأ أول خيط من خيوط قصة (مارتن أروسمث) فى غرفة حقيرة ، فى مدينة صغيرة من المدن الوسطى ، وكان الطبيب (فيكرسون) صاحب هذه الغرفة رجلاً قذراً ، وكان فوق ذلك سكيراً .

ولكنه على الرغم من ذلك قد احتوت غرفته — على ما بها من أثاث مبعثر — ما يشبه المفاتيح السحرية التى تقتحم بها أبواب الخاطرات . ففيها نسخة خطية ممزقة من كتاب التشريح (لجراى) ، وفيها هيكل عظمى تبرز من بين فكيه سن ذهبية .

وكان (مارتن) وهو يومئذ فى الرابعة عشرة من عمره ، قد أقام نفسه مساعداً للدكتور ، وكان يتلقى من التعليم ذلك القدر الذى يجود به عليه عقل أستاذه المظلم .

ثم لحق الموت بأبوى (مارتن) وتركا وصية يوصيان فيها بأن يتلقى ولدهما تعليمه فى جامعة (ونيماك) ثم فى مدرسة الطب .

وكان « أروسمث الصغير » ينظر بعين الازدراء إلى إخوانه من طلبة الطب ، وهو يعيب عليهم نظرتهم إلى تلك المهنة الشريفة نظرة تجارية رخيصة ، وهو ذلك الفتى الذى لا يرضى بما دون المثل العليا ، وهو الذى قد باعد ما بينه وبين أساتذته بمعارضته لآرائهم ، ومناقشته لهم فى كل ما يبدون من آراء .

وكان صديقه الأوحد أستاذاً اسمه « جوتليب » وهو من الذين لا يؤمنون إلا بالعلم الذى لا تشوبه شائبة ، وكان هذا الأستاذ يرى أن الفتى (مارتن) قد أوتى موهبة علمية قد تبلغ حد النبوغ ، وأحس (مارتن) أن ميدانه هو دراسة « علم الجراثيم » .

ولقى (مارتن) فتاة جميلة يشع من حولها السرور ، وتشيع فيمن حولها الأنس والبهجة ، وقد أعجزت العجز كله أن تفهم كنه صاحبها هذا الذى يطلب الطب ، والذى يعتبره سراً من الأسرار المقدسة .

وقد حاولت الفتاة طوال السنة الإعدادية أن تجعل منه ذلك الزوج الذى رسمته لنفسها فى مخيلتها ، ولولا إحدى المصادفات السعيدة لكان النجاح حليفها .

وحدث ذات يوم أن أرسل الدكتور (جوتليب) الفتى (مارتن) إلى المستشفى العمومى ، مستشفى (زنيث) يطلب معاونة من إحدى طالبات قسم التمريض ، وكانت هذه — ساعتئذ — تمسح أرض المستشفى عقاباً لها على هفوة ارتكبتها ! فلما تقدم إليها الفتى لقيته لقاء جافياً ، وكان اسم هذه الفتاة (ليورا توزر) ، وكانت دار أهلها فى مدينة (داكوتا) وكانت هى فتاة فيها ملاحة ، وفيها عزوف عن الدنيا ، وفيها بلادة ، وفيها خشونة الريفيات .

ولم تمض إلا بضعة أسابيع حتى ألفى (مارتن) نفسه وله خطيبتان فى وقت معاً ، ودعاهما ذات يوم — والرعب يملؤه — إلى لقاء يجمع بينهما .

ولشد ما ذعرت (مادلين) عندما عرفت تفاصيل الموقف ! فتركت مكانها ومضت لسبيلها ، أما الأخرى (ليورا) فقد لبثت فى مكانها لا تبرحه .

وجاءت السنة التالية فكانت جحيماً على (مارتن) فقد دعيت (ليورا) إلى بيت أهلها فى (هويت سيلفانيا) فأصبح (مارتن) وقد أزعجته الوحدة ، وأضناه العمل الشاق ، وأمضه الأرق المزعج ، وأضر به السكر . ثم قامت جفوة بينه وبين أستاذه (جوتليب) فغادر المدرسة ، وسار فترة هائماً على وجهه ، ثم سار ليلتقى (ليورا) .

وكان قوم (ليورا) ممن يظنون بالناس الظنون ، ومن أصحاب تقاليد لا يبغون عنها حولاً . فلما هرب (مارتن) و « ليورا » وتزوجا ذعر القوم واضطربوا ، ثم توعدوهما بالأذى إن لم تبق معهم ريثما يتم زوجها تعليمه .

فلما سافر أضناه الشوق والحنين ، وكتب إليهم يطلب أن تلحق زوجته به . ولما أتم دراسته جاء يعمل فى (هويت سيلفانيا) فصنع لافتة ، وعلقها فوق باب كوخ حقير ، وأحبه القرويون حيناً ، وضحكوا منه أحياناً . وأخذوا بنصيحته تارة ، وهزئوا بنصيحته تارة أخرى . وشاع فى الناس الخبر أنه كان من الرجعيين ! فقد حدث بعد أن لبث

فى تلك القرية سنة كاملة أن كشف عن حالة من حالات الجدرى ، فلما خاف أن ينتشر الوباء ، حاول إقناع أهل القرية بالتحصن ضد الوباء بالقاح الواقى ، ولكن الوباء لم يلبث أن زالت آثاره ؛ فهزىء الناس به . ثم خرج من القرية مودّعاً بسخرية القوم وضحكاتهم .

وفى رحلة له إلى مدينة (مينا بوليس) عرف رجلاً من الصارعين هو (جوستاف سوندبلوس) وهو عملاق سرح من أهل « السويد » اشتهر بين الناس بإنسانيته ، وحبه الخمر ، ومحاربته للأوبئة .

وفى ذلك الحين كان وليه الحميم ، وصديقه القديم ، قد عرفت الفضيحة الطريق إليه ، وذلك يوم حاول إدخال طرق الإصلاح العلمى فى جامعة (وناك) وقعد على أثر ذلك كرسيه ، فأقفر جيبه ، وتولاه الجنون ، وظل يبحث بغير جدوى عن عمل يعمله . وأخيراً لقى عملاً فى شركة تصنع الأدوية المجهزة ، ولكنهم لما عرضوا للبيع فى السوق دواء كان جهزه بعد دراسة دامت اثنتى عشرة سنة لقى دواؤه الإخفاق ، ولقى هو الطرد من عمله .

وكانت الخطوة التالية لدى (أروسمث) أن استقر فى مدينة (نوتيلوس) وهى مدينة كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان .

وعمل (أروسمث) مساعداً للدكتور (ألموس بكربو) المدير العام للصحة هناك . وكان هذا المدير يحمل حملته على الأمراض كما يحمل رجل السياسة حملته على خصومه فى السياسة ؛ فكان يخطب الناس ، ويؤلف الأغانى الخفيفة ، ويكتب النداءات ، وكان محبوباً بين الناس غاية الحب .

ويوم سافر هذا المدير إلى مؤتمر من المؤتمرات أصبح (مارتن) مديراً مكانه . فلم يره الناس خطيباً كصاحبه ، ولكنهم رأوه يطارد الفيران والقمل . ثم أكرهه ذوو السلطان فى المدينة أن يعتزل الخدمة ، وذلك بتنقيص راتبه إلى الحد الذى لا يستطيع به أن يقيم أوده .

وجاءه ذات يوم خطاب من (جوتليب) يخبره فيه أن عملاً ينتظره فى معهد (ماك جرك) فأوحت (ليورا) بالقبول .

وكان هذا المعهد فردوساً أرضياً ؛ فكل شىء فيه كان رائعاً حقاً . وهناك استطاع أن يعمل مستقلاً ، وهناك عرف طبيباً يعمل مثل عمله اسمه (ويكيت) ، وكان هذا رجلاً يحب العلم ، ويكره الهذر والسخف .

وظل (مارتن) مكبّاً على أبحاثه إلى أن علم — مصادفة — بعد شهور أن كائناً من كائنات البكتيريا قد أدركه الفناء لغير ما سبب ظاهر ؛ فظل يبحث ويفكر حتى أصابه انهيار عصبى من أثر الإجهاد ، ولكنه كشف آخر الأمر عما سماه (قاتل البكتيريا) .

وحدث بعد ذلك أن انتشر وباء الطاعون الدملى فى جزيرة من الجزر فأرسل (مارتن) لمحاربة الوباء بنظرياته الجديدة ومصله الذى اخترعه . وصحبته (ليورا) فى رحلته ، ونصحه الناصحون بأن يبقى بعض الناس فى تلك الجزيرة بغير حقن ، وذلك ليراقب سير المرض ، وليعرف الأثر الذى يحدثه المصل فيمن يعالجون به .

واستفحل الوباء ، وكان السكان الأصليون يموتون من الذعر كما يموت الذباب ، وكذلك كان الأمريكيون .

ومات واحد من زملاء (مارتن) بين ذراعيه ، وضرب الوباء ضربته فأصاب (ليورا) فماتت مغتربة ، نائية عن أهلها وديارها .

وظل (مارتن) يحمل حيناً من الدهر والألم يكاد يذهب بعقله أو يقتله ، وظل زمناً بعد ذلك يعيش على « السوائل » وعلى حساب أعصابه .

ثم خفت وطأة المرض ، وقد أفاد المصل فى الحد من حدته . وعاد « مارتن » إلى أمريكا بغير صاحب أو خليل ، ولكنه كسب الشهرة وذيوع الصيت .

ثم تزوج من (جويس لانيون) ولكنه لم ينس (ليورا) على ما يصاحبه الجديدة من فتنة وجمال .

وظل صاحبنا بعد ذلك حيناً من الدهر وهو قانع بأن يكون واحداً من قوم امرأته ، ولكنه سرعان ما مل المقام ، وسرعان ما أصابه القلق ، وأدركه الشقاء .

ثم وُلد له ولد فلم يُلق بالا إلى مولده ، ولم يفرح به كما يفرح الناس بكل مولود جديد .

ولذلك فقد عاد آخر الأمر إلى حبيبه الأول وهو (البحث العلمى) ، وأعد وزميل له من أحد الأكواخ معملاً للأبحاث ، وطفق صاحبنا يعمل فى ذلك المكان الموحش ، وهو قانع بجهازاته ، وأنابيبه ...

(من الإنجليزية)　　　　مبارك ابراهيم

الجـــــزاء

للأستاذ طاهر شريف

كان الليل يخيم على ربوع القرية ، وكان « الشيخ على » يسير بخطى متئدة متجهاً فى طريقه إلى كوخه ، وكان الشيخ ضعيف النظر ، يعتمد على عصا عجراء فى يده ولحيته البيضاء مسترسلة على صدره ، وقد تلألأ وجهه النحيف بذلك النور الساطع الذى يتلألأ دائماً فى وجوه القرويين الأتقياء .

وما كاد يمد عصاه أمامه يتلمس الطريق ويتحسس موضع قدميه حتى صادفت جسماً حتى عليه كتبه ، فملك الرعب عليه شعوره واستولى الذعر على قلبه وهم أن يصيح ... ولكن « حمدان » ذلك الغلام المراهق كان قد أضناه السير من الجنوب إلى الشمال ، حتى تشققت قدماه وعرقت ثيابه وعضه الجوع ، فنام مجهداً بجانب ذلك الجدار من الطريق ، قد استيقظ من غفوته على أثر تلك الحركة ، فهم منتصباً فى شىء من الذعر وفرك عينيه بكلتا يديه . وقال للشيخ بعد أن اطمأن إليه : لا تخف ياسيدى ..

قال الشيخ متوداً ، وكان العرق يتصبب من جبينه : من أنت ؟ إنسى أم جنى ؟.

— لا .. لا .. أنا .. إنسى .. أنا حمدان .

— حمدان .. من حمدان ؟.

— شخص غريب عن تلك القرية .

— وما الذى أتى بك إلى هنا ؟ وهم أن يضربه بعصاه ، فأجهش حمدان بالبكاء وانتحب ، وقال فى صوت حزين متهدج حينما صدمته الحقيقة وتذكر أبويه الرحيمين اللذين ضن عليهما الزمان بغيره بعد أن أديا رسالتهما فى الحياة أو كادا يؤديانها ، لولا أن صرخ الشيطان فى أذنيه فاستجاب لندائه وراح يطوى الأرض على غير هدى ومن غير دليل ، فلقد حدثته نفسه ، ولشد ما تحدث به نفس المراهق إليه وهو فى سن لم ينضج بعد فيها عقله ولم يكتمل فيها تفكيره ، قال : إنى هارب من أبوى . وأراد أن يسترسل فى الحديث ، والألم يحز فى نفسه ، ولكن الشيخ كان قد قطع عليه حديثه وعرض عليه أن يصحبه إلى كوخه ، فسار « حمدان » بجواره راضياً مغتبطاً وهو يقول فى نفسه : الحمد لله إذ وجدت فى تلك القرية النائية من سيطعمنى ويأوينى فى ليلتى هذه . ثم جلس الشيخ على فراشه وأجلس حمدان إلى جانبه وربت على كتفه براحة يده فى حنان وإشفاق ، وقال :

— من أى جهة أنت يا حمدان ؟.

— من الصعيد .

— من الصعيد ؟.

— أجل .. من الصعيد .

— ولأى سبب تركت أبويك وأتيت إلى تلك القرية ؟ فأطرق حمدان وبرق الدمع فى عينيه الدامعتين ولم يجب ، فهز الشيخ رأسه وأومأ إيماءة غير قصيرة ثم تمتم ، وكان حينما تمتم إنما قد اعتزم فى نفسه أمراً ، وهتف بزوجته وأوصاها بـ « حمدان » خيراً قائلاً لها : أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا .

فلما انبلج الصبح ودبت الحياة فى القرية صحب الشيخ معه حمدان إلى حقله . ثم أخذ يدربه على العمل به — وكان التوفيق حليفه — فأصبح على جانب عظيم من الدراية بفلاحة الحقل وما يطلبه من حرث وبذر وشق قنوات وتحويل مياه وما إلى جانب ذلك من رعى الماشية وحلب البقر ، وكان مقدم حمدان على الشيخ مقدماً مباركاً ، فعم الخير ، وجادت الأرض بغلاتها الوفيرة وكثرت الثمار وتوالدت الماشية ، فانتعشت حالة الشيخ المادية .

وكان « حمدان » على حداثة سنه ممتلئاً قوة ونشاطاً وعزيمة وذكاء ، كما كان يشعر فى قرارة نفسه « والأمر ما » أنه وحده المسئول من تحويل هذا الحقل إلى جنة فيحاء وروضة غناء تحفها الأشجار والنخيل وتتوسطها الأزاهير

والرياحين ، فراح يعمل في الحقل بكل ما أوتي من قوة وحكمة ويشرف عليه بكل أمانة وإخلاص ، فكان ذلك مما جعل أهل القرية يهمسون في أنفسهم ويتحدثون في كل مكان عن « حمدان » ذلك الغلام الذي اقترب عن دياره وأوطانه وفر هارباً من بين أحضان أبويه اللذين باتا على أحر من الجمر ، فلا يغمض لهما جفن ولا ينقطع لهما سؤال ولا يكف لهما لسان عن الهتاف بذكراه . فلقد ثكلته أمه على غير موعد منه ، فكف بصرها واحدودب ظهرها وراحت تندب حظها بين جاراتها وأقامت له مأتماً صامتاً بين جنباتها .

كل هـذا وحمدان يمزح ويمرح بين أحضان الطبيعة الحنون ، كأنما قد نبت في هذه البقعة بين أشجارها ونخيلها ولم ير بقعة سواها ، ففيها غذاؤه وشرابه وفيها سعادته وهناؤه ، فيها « قمر » ابنة الشيخ تلك الفتاة الريفية الساذجة الجميلة التي منحتها الطبيعة بسخاء ما تصبو إليه كل فتاة عذراء ، فهي كالجنة الناعمة وسط الصحراء الجرداء ، هي الوديعة الهادئة التي لا تعرف سبيلاً إلى الصخب والضوضاء ، هي محط آمال « حمدان » وشريان حياته وينبوع سعادته وهنائه وسر بقائه ووفائه .

وكانت « قمر » لا تقل من « حمدان » شوقاً وحنيناً وكان يكفيها بادئ الأمر أن تلقى عليه نظرة أو تداعبه بكلمة عند ما كان يحضر في الصباح فتفتح له باب الحظيرة التي كانت تقع خلف الكوخ ليسرح منها للتقية إلى الحقل ، أما الآن وقد كبر معهما قلباهما فكان لا يحلو لهما الجلوس ولا تحلو لهما المناجاة إلا تحت هـذه الشجرة « شجرة الصفصاف » الوارفة التي كان قد غرسها حمدان على حافة الغدير بيده وكان هذا المكان موضع نجواهما وبث أشواقهما حينما كانت تقسو الطبيعة عليهما .

وكثيراً ما كانت « قمر » تتردد على الحقل في الأيام الأخيرة إما على سبيل المعاونة أو حمل طعام الغداء .

وفي ظهيرة يوم كان حره قائظاً والشمس تتوسط السماء فتلفح الوجوه بحرارتها المستعرة والماء يغلي في بطن الأرض ، كان « حمدان » يعمل بعوله بين شجيرات القطن فضربته الشمس بحرارتها القاسية فألقته على الأرض مغمى عليه ، وكانت « قمر » تعد الغداء على مقربة منه ، فصرخت صرخة دوّى لها الحقل وما حوله ، فهرول الجيران إلى مصدر ذلك الصوت ، وكان أبوها في مقدمة من حضر ، فاقترب من « حمدان » وأخذ يعمل على إسعافه حتى أفاق .. ثم حمله على ظهر دابته وذهب به إلى كوخه وأجلسه على فراشه كما أجلس « قمر » إلى جانبه ووقف الشيخ أمامهما برهة يحملق بعينيه في سقف الكوخ ، كأنما يتذكر شيئاً .

إنها صور الماضي تتجمع ثم تنساب في خاطره فيلمع بريقها في عينيه — ثم صور الماضي — يوم أن استضاف « حمدان » ووقف على حاله ، حيث تمتم واعتزم في نفسه أمراً ... ثم لوح بيده في الفضاء ، وكانت زوجته واقفة على مقربة منه ، فانطلقت الزغاريد من كل مكان وأقبلت الجيران تهنئ أم قمر .

هذا ما كان قد اعتزمه الشيخ حين تمتم وبجانب كوخه كوخ صغير يضم حمدان وقمر في حياة زوجية كلها إخلاص ووفاء وسعادة وهناء ، ثم أقبل الشيخ يبارك العروسين ، ويدعو لهما بالرفاء والبنين .

وأخيراً جلس الشيخ إلى حمدان ، وكانت جلسة أماطت اللثام عما يكنه الوالد الرحيم لولده البار وأخذ يد حمدان بين يديه وضغط عليها في رفق وحنان وهو يقول له في صوت هادئ رزين ينم عن صوت رجل ناهز السبعين من عمره : أي بني — لقد قدمت علينا غلاماً طائشاً والآن وقد أصبحت رجلاً كاملاً ، فلك زوجة صالحة وثروة طائلة ، ولقد رزقني الله مالاً وفيراً مدة إقامتك بيننا ، وما أظن ذلك إلا بسر وفائك وإخلاصك وأمانتك وشرفك وإقدامك وشجاعتك ، وقد وهبت جل ما أملك عليك وعلى ابنتي قمر ؛ ولكن على شرط — على شرط أن تبقى بيننا ولا تبرح أرضنا وإلا فأنا في حل من هذا — وانصرف الشيخ .

بيد أن ما ذكره الشيخ لم يغير من عزيمة حمدان ، ولم يغير من أمره شيئاً ، بل ولم يداخله الغرور بذلك ، فهو وقد أصبح ذلك الرجل المفتول الساعدين ، الذي كسب سعادته من شقائه وزوجته من دمه وأعصابه ، وما هذه الثروة إلا بعد كده وحرمانه ، فلقد كان حريصاً على مواصلة عمله في الحقل ، فهو بداية نعيمه ونهاية سعادته .

مسرح

نظرات فى كوميديا البخيل

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

عند ما قدمت فرقة المسرح المصرى الحديث هذه الكوميديا كان من الملحوظ جداً أن ضحك الناس يزداد فى مشاهد معينة بالذات . وهاهى بعض نماذج من هذه المشاهد نوجزها ، ثم نحاول فهم بواعث الضحك فيها :

فى الفصل الأول نجد أن البخيل (أرباجون) يريد أن يزوج ابنته (إليليز) من رجل جمع إلى العقل الراجح وفرة المال ، وفضلاً عن هذا ، بل أهم من هذا عنده ، أن هذا الرجل قد أخذ على نفسه عهداً ألا يطالبها بمهر . ويحدث أن ترفض (إليليز) لأنها تهوى (فالير) ويهواها ، ولا يجد البخيل من يحتكم إليه فى هذا الإشكال سوى عاشق ابنته . ويجرى هذا فى منظرين :

فى المنظر السادس حيث تناقش البنت أباها :

— عفواً يا أبت . لا أريد أن أتزوج .

— وأنا أريد أن تتزوجى يا ابنتى المحبوبة .

— أسألك العفو يا أبت .

— أسألك العفو يا ابنتى .

— هذا لن يكون أبداً يا أبت .

— بل سيكون يا ابنتى .

وفى المنظر السابع حيث يحتكم (أرباجون) إلى (فالير) :

— لا تنس أن الرجل قد أخذ العهد على نفسه ألا يطالبها بمهر .

— لا يطالبها بمهر ؟ ليس للقول مجال إذاً .

— ... ... إنه زواج بلا مهر .

— أصبت ، فى الزواج بلا مهر فصل الخطاب ... ...

— إنه زواج بلا مهر .

فراقها لوالديها كما عز عليها إفلات هذه الثروة من بين يديهما ؛ ولكن زوجى الذى وقفت عليه سعادتى وولهى سر بقائى .. لا .. لا أستطيع البعد عنهما ، ثم أقبلت على زوجها وأخذت تعاونه على حزم أمتعتهما وجمع مالهما ، وإذا باب الكوخ يدق فى عنف فقطع ذلك عليهما عملهما ، وأرهفا السمع وقلباهما يخفقان ...

ثم تقدم حمدان إلى الباب وفتحه فى شىء من الحذر ، ولكن سرعان ما فتح الباب على مصراعيه وهتف بزوجته قمر ... أقبلى ... إنهما أبواى ... قد أتيا مع أبويك ... ! فقد من الله علينا وحفظ لنا ثروتنا وكفانا ما نحن فيه ... فلما سمعت الأم صوت ولدها حمدان استقامت قامتها وارتد إليها بصرها — ورفع أبويه — وخروا لله ساجدين ... !

طاهر شريف

وكان « حمدان » يقضى نهاره مع الشيخ فى حقله ، وبعد الغروب يبدأ ليله مع زوجته بعد أن يتناولا طعام العشاء الذى كانت ترسل به أم قمر إليهما كل ليلة .

وكانت حياة حمدان مع قمر حياة صافية زاهية لا تشوبها أية شائبة ، حياة ريفية ساذجة قوامها الدعة والبساطة ، وظاهرها الطهر والبراءة . فلقد أحيا فى ظلال أوراقها الوارفة وأغصانها المتشابكة طفلاً ظريفاً كان موضع حدب جده ورعايته وظلاً لأبيه لا يفارقه ، حرك فى قلب حمدان ذكريات وعواطف — ذكرى الطفولة وعاطفة الأبوة — تنازعهما اللذة وما ستئول إليه من الثروة ، وكانت الحقيقة قاسية على القلب مبلبلة للعقل حينما ألقى عليها نظرة عابرة ، ولكن بعد أن أمعن النظر وحكم القلب أسر إلى زوجته لما كان يعهده فيها من الإخلاص والطاعة ، فكبر عليها

— حقاً أن هذا قول لا يحتمل الجدل … …

— إن الزواج بلا مهر .

— صدقت … …

• • •

وفى الفصل الثانى نجد أن (أرباجون) يسأل (فروزين) ، وهى امرأة ذات مكر ودهاء ، عما وراءها من الأخبار . وهو كما تعلم شيخ قبيح ، ويصبو إلى فتاة حسناء (ماريان) فى مقتبل العمر . ويدور الحوار :

— ما أصدق دلالة وجهك على حسن صحتك .

— من ؟ أنا ؟!

— ما رأيتك أبداً صافى البشرة متين البنية مثلك الآن … إنى لأرى أناساً فى الخامسة والعشرين ، وإذا هم أكبر منك سناً .

— ومع هذا يا فروزين فقد بلغت الستين .

— وما تكون الستون فى الأعمار ؟ إنما أنت الآن تبدأ ربيع الحياة .

— … … ولكن هناك يا فروزين ما يقلق بالى . فإن الفتاة كما تعلمين فى مقتبل العمر ، ولا يميل الشباب عادة إلا إلى الشباب .

— إنك لا شك جاهل حقيقة أمرها . إنها تكره الشبان جميعاً أشد الكره ، ولا تحب إلا من أثقلت كواهلهم السنون .

— هى ؟! .

— نعم هى . وكم أود لو تسمعها وهى تتحدث فى هذا الموضوع . ولقد حدث منذ شهور أن أبدت رفض التزوج ممن كاشفها بأنه فى السادسة والخمسين ، ولم يكن قد وضع منظاره على عينيه ساعة أن هَمّ بإمضاء عقد الزواج !! .

• • •

وفى الفصل الثالث نجد (أرباجون) يسأل طاهيَهُ وحوذيَّهُ (المعلم جاك) عما يقوله الناس عنه :

— ألك أن تخبرنى ماذا يقول الناس عنى ؟ .

— نعم يا مولاى إن كان لا يغضبك ما تسمع .

— كلا لن أغضب أبداً . بل يسرنى أن أسمع ما يقوله الناس عنى .

— … … إنى أقول لك فى صراحة إن الناس يسخرون منك فى كل مكان ، وهم يرموننا بلواذع التهكم فيك ، ولا يستخفهم الطرب لشىء قدر ما يستخفهم لرؤيتك لابساً سراويلك المتدلية ، وأن يقصوا القصص عن إمساكك وبخلك . . … .

— إنك أحمق خسيس وضيع وقح (ويضربه) .

— أرأيت ؟ أما وقع فى نفسى أنك ستضربنى ؟ إنك لم تصدقنى إذ قلت إنك ستغضب إن صارحتك بالحقيقة .

• • •

ويطول بنا الحديث لو حاولنا مجرد الإشارة إلى المواضع الكثيرة الباعثة على الضحك ، وأقصد الضحك الإنسانى . والكوميديا مترجمة ، ومن السهل الرجوع إليها . إنما المهم هو فهم بواعث هذا الضحك فيها والتنويه بالفارق الجسيم بينها وبين بواعث الضحك فى كوميدياتنا التى تضحكنا ضحكا مملاً سطحياً (بالتريقة) والتنكيت واختراع الأحداث المفتعلة الساذجة ، واصطناع الجناس اللفظى . فلو أننا فهمنا هذا لفهمنا أن الضحك — كما هو الحال فى الكوميديات الممتازة — دلالة اجتماعية وأثراً اجتماعياً ، وأن الضحك يعبر قبل كل شىء عن عدم تلاؤمه مع المجتمع ، وأن لذة الضحك ليست لذة تافهة ، بل لا بد — كما يقول برجسون — من أن تكون ذات فكرة خفية ، ومحملة بقيم إنسانية واجتماعية وعقلية . بل إن فى كوميديا البخيل هذه مشاهد تدعو إلى الأسى . فمثلاً فى مشهد (الدين والمرابى) نجد أن (كليانت) ابن (أرباجون) يدفعه شح أبيه إلى طلب الاقتراض من أحد المرابين عن طريق أحد السماسرة ، ويرتضى كل شروطه . وما إن يرتب السمسار أمر تقابلهما حتى يجد (كليانت) أن المرابى هو أبوه (أرباجون) ذاته . يقول (لورنس بيسون Laurence Bisson) فى هذا الصدد : « ولولا أن براعة موليير لم تدع لعاطفة الأبوة مكاناً ولا مجالاً فى هذا المشهد ، لكنا إزاء مشهد تراجيدى » .

من هنا أعنى فرقة المسرح المصرى الحديث لتقديم هذه الكوميديا الممتازة مرتين خلال موسمها الأول واعتزامها تقديم كوميديا (المريض الوهمى) لموليير أيضاً فى موسمها المقبل ؛ ولو كانت بيدى الأمر لفرضت عليها تقديم كل

كوميدياته؟ ذلك لأننا لو جمعنا كل القواعد التي استنبطها فلاسفة النفس الإنسانية واهتدوا إليها على أسس ومناهج علمية لوجدنا — فيما يتصل بالضحك — أن موليير أحد القلائل الذين حققوا في كوميدياتهم أسباب الضحك الإنساني العميق النافع. الضحك الذي يعرفنا آفاتنا ويدخلنا إلى صميم عيوبنا. الضحك الذي يقتص من انحرافنا وشذوذنا. الضحك الذي يعالج ما فينا من ذهول، أو عناد، أو آلية، أو نقص في المرونة. وفي النماذج التي أسلفناها أمثلة من هذا. فموليير يضحكنا من البخيل بحيلة في غاية البساطة والهدوء والوضوح، فيظهره لنا مولعاً باكتناز المال، ومولعاً في نفس الوقت بغادة فاتنة لا تتناسب معه في شيء! ومن هذا وذاك يكون التناقض الدراماتيكي. وبمثل هذه البساطة البارعة يظهر لنا ما في البخيل من ذهول وآلية وعناد. فهو لفرط ذهوله يجهل الحقائق التي يراها الناس فيه. وهو لفرط آليته يتحرك في خطوط واحدة تجتمع كلها في موضع واحد، وتوجه تفكيره دوافع تلتقي كلها في نفس الموضع. وهو لفرط عناده يصر على النظر إلى الحياة من زاوية فردية منحرفة ... وهكذا.

وليس معنى هذا أن موليير كان يضع في ذهنه (قواعد) ويقيم إنتاجه على دعائمها بحيث لا يحيد عنها. فالحق أنه — على الرغم مما يقال عن ثقافته ودراسته — كان يستلهم البيئة ويعتمد على الممارسة ويخضع نفسه وفنه لمتطلبات الأداء المسرحي أكثر مما كان يعتمد على المحصول الدرسي.

ولقد سبق — في القرن الماضي — أن اتهمه بعض الرومانسيين هو وأنداده من عباقرة القرن السابع عشر في فرنسا، بأنهم كانوا خاضعين خضوعاً مطلقاً لقواعد (بوالو) التي جمعها في كتابه (Art Poetique)، لكن التحقيق التاريخي دل على أن هذا الكتاب قد كتب بعد أن ألف هؤلاء الكلاسيكيون الخالدون كثيراً من روائعهم.

وكيفما كان الأمر فما أردت من هذا كله إلا أن أوجه نظر نقادنا الأفاضل إلى ضرورة انتهاز هذه الفرصة التي هيأتها (فرقة المسرح المصري الحديث) وتدبر هذه الروائع والإكثار من شرحها وتفسيرها، لعل مؤلفينا يستطيعون الاستفادة منها.

عبد الفتاح البارودي

قالوا ...

• المؤمن بشيء من الأشياء، وإن كان سحراً، خير ممن لا يؤمن بشيء، ولا يرجو معاداً. (ابن المقفع)

• لن يكون الإيمان إيماناً حقاً إلا إذا اقترن بالعمل. (أناتول فرانس)

• الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفعك.

• المرء بين أحد أمرين: إما أن يؤمن بكل ما أنزل، أو أن ينكر كله جملة، ولا وسط بين المنزلتين. وأنا أفضل أن أومن بكل شيء خوفاً من أن أجد نفسي مضطراً لإنكار كل شيء. (كامو)

• المؤمنون المتحمسون لا تجد في نفوسهم عاطفة الحب كما نفهمها نحن، فتلك العاطفة قد تسامت لديهم نحو الله. (كامو)

• خلق الله الملائكة بدون شهوة وبعقل، وخلق الحيوان بدون عقل وبشهوة، وخلق الإنسان بعقل وبشهوة: فإن انتصرت شهوته على عقله كان حيواناً، وإن انتصر عقله على شهوته كان ملاكاً. (حكيم)

• لاشيء يجعلنا عظماء غير عمل عظيم. (دي موسيه)

• التعليم ألزم الضروريات للناس بعد الخبز. (دانتون)

• إننا نسمي هؤلاء الذين تختلف عقليتهم عن عقليتنا (خطرين). ونسمي هؤلاء الذين لا يدينون بما ندين به من أخلاق (لا أخلاقيين). وما الشاكون في عرفنا إلا هؤلاء الذين لا يؤمنون بما نؤمن به من أوهام، ولكننا لا نشفق على أنفسنا ولا نجتهد في البحث عما يؤمنون به من عقائد طيبة ويدينون به من أخلاق حميدة. (أ. فرانس)

• التقدير أغنى من الشهرة، ومحبة الناس أغنى من السلطان، والشرف أغنى من المجد. (شامفورت)

• الحياة الإنسانية لا تمنح الإنسان أمنيته دون جهد. والقوى الطبيعية المختلفة تعترض الإرادة الإنسانية. فعلينا أن نذللها بالعمل. وبالعمل وحده نستطيع أن نحقق ثمرات الحياة وأن نصل إلى الأماني. (س. اكسيري)

جمعها: (م. ع. م)

الثقافة

العـدد ٦٣٠
٢٢ من يناير ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

من بريد الثقافة

حول « قصة الحضارة الفارسية »

نشرت مجلة الثقافة بعددها الرقم ٦٢٧ الصادر في أول يناير سنة ١٩٥١ مقالا تنقدت فيه كتاباً ترجمته من الإنجليزية ونشرته في سنة ١٩٤٧ بعنوان « قصة الحضارة الفارسية » ، وقد استتر كاتب المقال وراء كلمة « قارئ » ، وأخذ يجرحني في قول معسول ولفظ بديع كل ما شاء أن يجرحني إياه من سم قاتل فظيع ... وكأنما أراد الإيجاز والإعجاز فجمل عيوب الترجمة أقساما ، أسمى كل قسم منها باسمه ، دون أن يورد الأمثلة التي تؤيد دعواه ، أو يسوق البراهين التي تسند قضاياه ... وكأنما شاء أيضاً أن يوهم قراءه بأنه صادق واثق ، فوعد في نهاية المقال بأنه سيتبع مقاله بمقال لاحق يفصل فيه عيوب الكتاب التي أجملها تفصيلا أوفى ، وأنه سيضرب من الأمثلة ما فيه الكفاية للتدليل على ما ذهب إليه .

... وقد انتظرت أسبوعاً حتى صدر اليوم العدد ٦٢٨ من الثقافة ، فلم أجد فيه المقال الموعود ، ولا التفصيل المنشود ، ووجدت في مكانه إعلاناً صريحاً من إدارة الثقافة تستنكر فيه محاولات بعض الذين استغلوا باب النقد فيها « للإضرار بحضرات المؤلفين وتنقص أقدارهم مدفوعين بدوافع شخصية خالصة » .

فهل لي أن أفهم من امتناع المجلة عن نشر البقية الباقية من مقال حضرة « القارئ » العجيب » ؟ أنها اعتبرتني في عداد هؤلاء الضحايا من الكتاب الذين ابتلوا بانتقاص القدر وضياع الأجر ومهاترات أصحاب النفوس السقيمة المريضة ؟

دكتور

إبراهيم أمين الشواربي

الثقافة :

لعل الأستاذ الدكتور الشواربي يرى معنا الآن أنه تسرع في كتابة خطابه ؟ فقد أورد « قارئ » في العدد الماضي من الشواهد ما يؤيد دعواه ، ونحب أن ننتهز هذه الفرصة لنؤكد للأستاذ الدكتور أن « الثقافة » حينما تنشر هذه المقالات تريد أولا وقبل كل شيء أن تخدم حضرات المؤلفين ؟ فلكل كتاب — أيا كان — مواضع نقص لا يظهرها المدح الخالص أو الإطراء المتصل ، وإنما يظهرها النقد الصحيح الذي يبين المحاسن والمساوئ . ونحن نأسف أشد الأسف لأن المؤلفين يفرون أشد النفور من كل تعرض لأخطائهم ، ويحسبون ذلك اعتداء على أشخاصهم ، مع أن أشخاصهم محل كل تقدير من هذه الصحيفة وقرائها . إننا نود أن يتفضل الدكتور الشواربي الآن بالرد على مواضع النقد ، وأن ينظر إلى الأمر موضوعياً لا ذاتياً لتتحقق الفائدة .

مطبوعات

وصلتنا في بريد الثقافة المطبوعات التالية :

- الصحيفة الزراعية الشهرية .
- مجلة « موديكا » الأندونيسية .
- جريدة « المؤتمر » الأسبوعية (من الخرطوم) .
- مجلة « الحديث » الشهرية لصاحبها ومحررها سامي الكيالي (حلب) .
- مجلة « الشرق والغرب » ، العدد الأول ، السنة الأولى ، (بيروت) .
- مجلة « الأنواع » لصاحبها صدر الدين شرف الدين (بيروت) .
- مجلة « الخلاصة » ، وهي مجلة العشيرة المحمدية (عدد خاص بذكرى المولد النبوي الشريف) .
- مجلة « المنهج » — صحيفة إسلامية — (مكة المكرمة) .
- المجلد الثالث من السنة العاشرة من مجلة « العلوم » التي تصدرها جمعية المعلمين .
- كتاب « نظم الحرب في الإسلام » ، لمؤلفه الأستاذ جمال الدين عياد — مكتبة الخانجي بمصر — وسوف نتكلم عنه في عدد قريب من الثقافة إن شاء الله ...
- الفهرس الجديد للمطبوعات العربية والمصريات الطبية بمأمورية المعارف العمومية .

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | الإدارة | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | | محمد عبد الواحد خلوف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٣٠ — الاثنين ١٤ من ربيع الثاني سنة ١٣٧٠ — ٢٢ من يناير سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

الهند والدول العظمى

للدكتور محمد محمود الصياد

تلعب الهند في هذه الأيام دوراً له خطره في السياسة الدولية . فقد كانت من أسبق الدول إلى الاعتراف بالصين الشيوعية ، ولم تكتف بذلك ، بل راحت تدعو غيرها من الدول أن تحذو حذوها . وكانت هي الدولة التي تبرعت بوساطتها في النزاع القائم بين أمريكا والصين بشأن مشاكل الشرق الأقصى . ثم كانت إحدى الدول التي وضعت مشروع تسوية المشكلة الكورية ، ولا زالت تلح في ضرورة تسويتها بالطرق السلمية .

وتتطلع أنظار العالم في هذه الفترة الحرجة من تاريخ البشرية إلى جمهورية الهند الناشئة ، وإلى الجهود الجبارة التي تبذلها في سبيل قضية السلام . وإذا قرر العالم أن ينجو من الكارثة التي تهدده ، فلا يتردى في الهوة السحيقة التي يقف على شفا جرف هار منها ، فسيظل يذكر للهند ما بذلت من مسعى في سبيل إنقاذه وما أخلصت من جهد للاحتفاظ بحضارته ومدنيته .

ومع كل هذا فليست الهند واحدة من الدول التي اصطلح على تسميتها « سياسياً » بالدول العظمى والتي تتمتع — على الأقل من ناحية الشكل ، إن لم يكن من الناحية الواقعية — بما لا تتمتع به دول العالم السبعون . فلكل من هذه الدول العظمى — وعددها خمس — العضوية الدائمة في مجلس الأمن . ولكل منها حق « الفيتو » لا على قرارات المجلس الخاصة بأنواع النزاع السياسي بين الدول الأعضاء فحسب ، بل فيما يختص أيضاً بقرارات قبول الدول في هيئة الأمم المتحدة أو طردها منها . ثم إن لها فوق هذا وذاك السيطرة على أعمال هيئة الأمم فيما يتعلق بأبحاث الطاقة الذرية وغيرها من وسائل التسلح ، ولها وحدها حق إدخال التعديلات على ميثاق هيئة الأمم نفسه .

هذه الدول الخمس هي بريطانيا وفرنسا والروسيا وأمريكا والصين ، وبمجهودها وضع ميثاق هيئة الأمم المتحدة في نهاية الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٤٥ ، وكانت ثلاث من هذه الدول المنتصرة قد لعبت دوراً خطيراً في تلك الحرب الضروس ، ومن ثم فقد أعطوا لأنفسهم كل هذه الحقوق التي أشرنا إليها ، والتي قوبلت في مؤتمر سان فرنسسكو بمعارضة قوية من جانب الدول الصغيرة ، وعلى رأسها استراليا بزعامة الدكتور إيفات Evatt ، وكان وزير خارجيتها حينذاك ، ولكن هذه المعارضة لم تأت بنتيجة ؛ فقد كان مفهوماً أن هذه الدول — أو على الأقل الروسيا وأمريكا وبريطانيا — لن تشترك في أي منظمة عالمية ما لم يكن لها امتيازات خاصة فيها .

وفي أول اجتماع للجمعية العمومية لهيئة الأمم أدلى الدكتور « زوليتا آنجل » Dr. Zuleta Angel مندوب كولمبيا بتصريح جاء فيه : « نحن معشر الأمم الصغيرة قد تنازلنا عن بعض سيادتنا القومية في سبيل قيام هذه الهيئة » .

ولكن كان هناك أسباب تدعو إلى الأمل في أن الأغلبية العددية مهما كانت ضعيفة من الناحية السياسية الواقعية إلا أنها قد تستطيع في وقت ما أن تنتقص شيئاً من الحقوق والامتيازات الممنوحة للدول العظمى . وقد حاول ذلك فعلاً تسع وثلاثون دولة من الدول الأعضاء ، وخاصة فيما يتعلق بحق « الفيتو » . ولكن لما كان إلغاء هذا الحق بأغلبية الأصوات يتحكم فيه حق « الفيتو » نفسه ، فقد كان مقضياً على المحاولة بالفشل ، واقتصر أمل أولئك الذين سعوا إلى إلغائه على الحد من استخدامه حتى لا يكون عقبة في سبيل ما تهدف إليه الهيئة من غايات ، وقد نجحوا في حالة أو حالتين ، ولكن الفيتو ما زال سيفاً مسلطاً على رقبة الهيئة .

وهنا نتساءل : ما هي الاعتبارات التي توافرت في هذه الدول الخمس ، ولم تتوافر في غيرها حتى تكون لها مثل هذه السيطرة على هيئة الأمم ومجلس أمنها ؟ ربما كان الأمر واضحاً فيما يختص بأمريكا والروسيا وبريطانيا ، فهي التي حملت معظم أعباء الحرب ، وهي دول لها من اتساع رقعتها ووفرة مواردها ومكانتها السياسية ما قد يؤهلها لاحتلال هذه المكانة الممتازة . ولكن اعتبار فرنسا والصين بين هذه الدول أمر لا يتفق مع الحقيقة والواقع ؛ فليس لإحداهما ما يمكن أن يرتفع بها إلى مصاف الدول الثلاث الأخرى .

وربما كان العامل الأساسي في الارتفاع بفرنسا إلى هذا المستوى هو الأمل في أن تسترد قوتها مرة أخرى كما حدث في سنة ١٨٧٠ ، وأن تستعيد مركزها بسرعة على مسرح السياسة العالمية . ولكن فات هؤلاء المؤملين أن فرنسا سنة ١٩٤٥ غير فرنسا سنة ١٨٧٠ ، وفاتهم أن الوعي الدولي لم يعد كما كان في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ... حقاً أن فرنسا هي أوسع هذه الدول جميعاً مساحة مستعمرات ، ولكن الاستعمار لم يعد يصلح أساساً لحكم الشعوب ، ولا بد لهذه الممتلكات من أن تحصل على استقلالها ، خصوصاً وأن الروابط بينها وبين فرنسا روابط ضعيفة برغم كل المحاولات التي بذلت في سبيل تقويتها وتدعيمها .

أما الصين فلم يكن لماضيها السياسي ولا لحاضرها دخل في وضعها بين الدول العظمى ، بل كان السبب الأول هو قوتها العددية ، إذ يسكنها نحو خمس سكان العالم . وهي بهذه الملايين العديدة تستطيع أن تكون قوة يعمل لها حساب .. ثم أمر آخر له أهميته ، وهو عدم الرغبة في جعل الدول العظمى مقصورة على العناصر البيضاء وحدها ؛ فقد أدرك الذين وضعوا ميثاق هيئة الأمم الأخطار التي يمكن أن تترتب على قصر الامتيازات على الدول البيضاء فقط في هذا النظام الجديد .

وإذاً فالصين كفرنسا لم تصبح دولة عظمى لأنها تلعب دوراً خطيراً في السياسة العالمية وفي توجيه هذه السياسة ؛ وإذا كان الأمر أمر مساحة واسعة وملايين عديدة ، فليست الهند بأقل من الصين في هذه الناحية ، فهي حتى بعد انقسامها إلى الجمهورية الهندية والباكستان لا تزال شاسعة المساحة زاخرة بالسكان . وهي أيضاً ليست من الدول البيضاء ، ومن ثم فهي لا تختلف عن الصين في قدرتها على تمثيل العناصر غير البيضاء في هيئة عالمية كهيئة الأمم .

لا نستطيع أن ننكر ما بذله مندوبو الصين في هيئة الأمم منذ سنة ١٩٤٥ في سبيل الدفاع عن قضايا الشعوب غير البيضاء ، وخاصة تلك التي لم تحصل على استقلالها التام بعد — وما عهدنا بموقفهم من قضية وادي النيل ببعيد — ويمكن أن نتوقع أن الصين مهما كان وضعها السياسي في المستقبل لن تغير هذه السياسة . وسواء حكم الصين ماوتسي تونج أم استعاد تشانج كاي تشك مركزه ، فستظل روح السياسة الصينية كما هي لا تتغير .

ولكن من ينكر أن الهند لا تستطيع أن تؤدي نفس المهمة ، وأن تدافع عن جيرانها من الدول الصغيرة ، خصوصاً وأن كل هذه الدول تثق فيها وترضى زعامتها ؟ ولعل خير دليل على هذه الثقة مؤتمر دلهي الذي عقد لمعالجة مشكلة أندونيسيا ؛ فقد تجلت فيه الثقة الكاملة التي تكنها الدول المجتمعة المؤتمر في جمهورية الهند . ثم إن الهند لا تفتأ تدافع عن الشعوب المهضومة كلما وجدت إلى الدفاع سبيلاً ، وهذا هو ما ينتظر من دولة لاقت الأمرين من الاستعمار ، وجاهدت جهاد المستميت حتى ظفرت بالاستقلال ، ولا يقدر حقيقة الاستعمار إلا من قاسى ويلاته وشرب من علقمه وصابه .

دعوة إلى الســــلام

للدكتور أحمد أمين بك

جاءنا من نيويورك بأمريكا الخطاب التالي والنشرة الآتية ، فأحببنا أن ننشرها لنشرك القراء في مضمونهما .

نيويورك في ١٩٥٠/١٠/١١
عزيزي أمين بك

أنشعر أنه ينبغي علينا أن نتنحى جانباً ، وألا نفعل شيئاً بينما العالم يساق إلى هوة الحرب ؟ وهل مسئولية ذلك تقع علينا أم على قادتنا ؟

إذا كانت الحرب من صنع الإنسان ، فبوسع الإنسان أن يكف عن صنعها ، ولن نعجز حتى نظن بأنفسنا العجز . وحقل هذا صدقاً أننا نستطيع منع الحرب أو إلغاءها إذا نحن آمنا بقدرتنا على ذلك ، ونحن جماعة تعمل على أساس هذا الإيمان ، لنا ثقة في أنفسنا وقادتنا وإلهنا ، ونؤمن بوجود طريق لحل مشاكلنا خير من الحروب وأنسب .

نؤمن بأن الله قد دبر نظاماً لنا أفراداً وجماعات ، وأن لكل مشكلة حلاً ، سواء أكانت المشكلة شخصية أم وطنية أم دولية . فالذين يخلقون الحرب يستخدمون كل وسيلة ممكنة لإحداث الارتباك ، وإثارة الخوف والبغضاء . أما نحن فنعرف أن الله قد دبر خطته لصالح الجميع وأن بوسعنا بناء عالم أفضل من عالمنا ، فلو أن عدداً كافياً من الناس قد جعلوا الحب محور حديثهم وعملهم لأمكن لميزان القوة أن يتحول من البغض إلى الحب ، ومن الخوف إلى الإيمان ، فنحن موقنون أن هدى الله سيمكن لنا من بلوغ التفاهم والحكمة اللازمين لتحرير البشر من تلك الحروب التي تعاوده ، فنحن لذلك نكافح لنصيب الطمأنينة في حياتنا ذاتها ، فنطالع يومياً (خطة الله) وندرسها ، لا نبغي بذلك خير أنفسنا وأسرنا فحسب ، بل نبغي كذلك خير مجتمعنا وخير العالم .

ولقد بعثنا بالخطاب الرفق والنشرة إلى السكرتير العام تريجفي لي والرئيس ترومان والرفيق ستالين والباندت نهرو والرفيق يوسف مالك والمستر وارن أوستن ، ونرجو أن يحققوا خطة الله وأن يجلبوا السلام ، لا الهدنة المسلحة لعالم يترقب .

فصون السلام واجبك وواجبي ، وإن كثيراً من الناس فيما نعتقد ليدركون ذلك ، ويودون لو عاونوا على تحقيقه ، فما

وربما اعترض معترض على هذا بأن الهند ليس لها من القوى الطبيعية والخبرة السياسية والمسئولية الدولية ما يمكن أن يؤهلها لمميزات الدولة العظمى ؛ ولكن هذه الاعتراضات جميعاً يمكن أن يرد عليها برد واحد ، وهو أن الهند في كل هذه النواحي تمتاز عن الصين الحالية وعن صين المستقبل لزمن غير قصير .

إذا كان الأمر على هذا الوضوح فهل ننتظر من الهند أن تطالب في القريب بأن يكون لها مقعد دائم في مجلس الأمن ؟ نشك كثيراً في أن تسير الأمور على هذه البساطة . ولكن لو استمرت تصريحات الباندت نهرو وغيره من زعماء الهند في الشهور الأخيرة أساساً للسياسة الهندية ، فإن الهند ستصبح زعيمة المعسكر العالمي الذي يناظر الدول العظمى الخمس . وستضيق الدول الصغيرة حتماً في يوم ما باستخدام هيئة الأمم كوسيلة للدعاية للدول العظمى وكميدان لتنافس هذه الدول . وحينئذ ستلعب الهند دورها في الدعوة إلى تعديل ميثاق الهيئة .

إن الهند تحتل مركزاً ممتازاً بين الدول الأعضاء في هيئة الأمم ولكنه « امتياز » غير رسمي ؛ وإن الهند دوراً خطيراً تلعبه الآن في السياسة الدولية ، وليس من شك في أن نجاحها كان يتضاعف لو اعترف بعظمتها الواقعية ، خصوصاً وأنها تمثل عنصر توازن بين الكتلتين الشرقية والغربية ، وتمثل الأولى الروسيا والصين الجديدة ، وتمثل الأخرى أمريكا وبريطانيا . ولعل الهند هي الدولة الكبرى الوحيدة التي تتمتع باحترام الجميع .

محمد محمود الصياد

وغضب وغل . ويهبني الشجاعة والإيمان لأنجز ما أحس أن عليّ إنجازه من الأعمال . وأنا حين أنسق مع خطة الله أتحرر من الجشع وثورة النفس وكل دنس من الأفكار والفعال . فأقصر عن حسد غيري لما يصيب من خير . ولا أقيس به نفسي ، وبذا لا تنقطع الأسباب بيني وبين الله مانح كل الطيبات .

ما أكثر آلاء الله عليّ . إنها لتزيد كثيراً على ما أحظى به منها الآن . فليزد الله من طاقتي على أن أوهب وأن أهب . فما أستطيع أن أهب حتى أوهب ، ولا أستطيع أن أهب ما لم أوهب . وآلاء الله دائماً عاجلة بالسلام والاتساق والمسرة . فما فكل ما يغمرني سلاماً واتساقاً ولا يضير سواي هو نعمة من الله عليّ فهو حق . وفي اعتقادي أن من حقي أن أحمل ما أحس أني مطالب بحمله . فإذا اتسقت مع ما هو لي حقاً ، تعاونت كل الأشياء لصالح الجميع .

وأومن أني إذا عجزت عن عمل ما أريد ، فمبعث ذلك أن الله قد أغلق باباً ليفتح باباً غيره خيراً منه وأفسح . فإذا لم أر الباب وهو أمامي وهو مني قيد خطوة ، فذلك لأني لم أر هدى الله ولم أسمعه ولم أطعه . وحينذاك يصطنع الله الصعاب ويبدي لي مظاهر الفشل . وقد يعينني ذلك على أن أواجه نفسي وأن أهتدي إلى الإلهام والقدرة على رؤية الباب الصحيح .

والهدف الحقيقي لحياتي هو الاهتداء إلى الله في باطن عقلي وقلبي وأن أعين إخوتي في البشرية . ولسوف أكون أقرب شبهاً بحبه ونوره وحياته ما ألحت على صلتي بالله (الأب) فاللهم أوزعني أن أشكر دائماً تلك الجلائل التي لا تحصى لحبك وتناسقك وجمالك وهدايتك التي لا تخطئني أبداً . وأحمد إلى الله كل تجربة تعينني على إخضاع إرادتي لإرادة الله ، وتزيدني إليه قرباً . فلن يتحقق ما رسم لحياتي حتى يتلاشى وجودي إدراكا لوجوده الأعظم .

(الثقافة) ما أحب إلينا أن نرى جمهرة من قادة العالم يدعون إلى السلام ، فالسلام بغيتنا ، وما أكره الحرب على كل مسلم . وديننا اسمه الإسلام ، مشتق من السلام ، والقرآن يخاطب محمداً صلى الله عليه وسلم : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » بل إذا قامت الحرب ، دعى المحاربون أن يحصروها في أضيق حد ممكن . وألا يتعرضوا لزرع زرع ، ولا راهب بتعبد ، ولا طفل في المهد ، ولا نحو ذلك .

أما الحرب اليوم . فلا ترحم كبيراً ولا صغيراً ، ولا زرعاً ولا ضرعاً ، ولا تمر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم . ولم يجرب العالم بعد القنبلة الذرية واستعمالها على نطاق واسع ، ليدرك تمام الإدراك ويلاتها ، ومن قديم والخيرون من قادة العالم يدعون إلى السلم وإبطال الحرب ، ولكن تذهب دعوتهم أدراج الرياح . فلعل الخلف يدرك ما لا يدرك السلف ، ولعل اشتداد الحروب واشتداد ويلاتها بعد العدة لإنهائها ، فالمثل العربي يقول : اشتدي أزمة تنفرجي ! وقد رحبنا كل الترحيب بهذه النشرة المرسلة مع الخطاب ؛ فالقارىء الذي يقرؤها ، يقرؤها كأنها صادرة من شخص عمر قلبه الإسلام ، وليس فيها ما يشعر بنصرانيتها ، إلا التعبير بالأب بدل الله ، فلو وضع مكانها الله لاستساغها المسلم كل الاستساغة . وليس في المسلمين والنصارى جميعاً من يود الحرب إلا فرقاً أربعاً : (١) تجار لا ضمير لهم ، لا يودون من العالم إلا الربح الشخصي ، يخزنون السلع الرخيصة ويودون الحرب ليبيعوها غالية ؛ وأمامهم مثلهم الأعلى وهو أغنياء الحرب ، الذين اغتنوا من لحوم الناس بعد فقر ونعموا بعد بؤس . (٢) صانعو الأسلحة والمواد المتفجرة الذين يودون الحرب لتصريف بضائعهم بأغلى الأثمان وهم يخسرون تمام الخسران إذا ساد السلم . (٣) قادة الحرب الذين قد اشتراهم صانعو الأسلحة ، كل بما يشترى به ، فمنهم من يشترى بامرأة ، ومنهم من يشترى بقمار ، ومنهم من يشترى بمديح فاسدة ، والكل سواء . (٤) فرقة الشيطان ، التي تريد الشر بالعالم ولا يسرها أن يسوده السلام ، وأن يعيش آمناً مطمئناً ، فهي كما قال القرآن : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إني بريء منك ، إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين » . أما سواد الناس فلا يودون الحرب بحال من الأحوال . وكيف يود الحرب أسرة تعرض عائلها أو أبناءها للموت ؟ إنهم بلا شك يفضلون السلم بأي ثمن . وكيف يستسيغ الحرب قادة إذا رجعوا إلى أنفسهم رأوا أن كلا من الغالب والمغلوب خاسر ، وأن خسارة نفس واحدة في الحرب لا يساويها أي مكسب ! ولكنهم ركبوا عقولهم ، واستكبروا استكباراً . ولكن ، لعل فيما كان في الحربين الماضيتين ، وحرب كوريا عبرة لمن لم يعتبر ، والسلام .

أحمد أمين

المقــــــرى

للأستاذ على أدهم

المراجع المعروفة فى تاريخ الأندلس وأدبها وسائر ألوان حضارتها وجوانب ثقافتها قليلة نادرة ، ولا خلاف فيما أرجح أن من أقوى أسباب ذلك فقدان الكثير من الكتب الأندلسية القديمة والمؤلفات النفيسة خلال النكبات المترادفة التى أصابت المسلمين حين إجلائهم من تلك البلاد ، وقد جهد المتعصبون من الإسبانيين فى التعفية على آثار الإسلام فى بلادهم وإزالة معالم حضارته ، وكان تحريق الكتب أو إضاعتها فى الأنهر فى مقدمة تلك الأعمال النزقة المقيتة الضارة بالعلم وحياة الفكر ، ومن دواعى الأسف أن الطغاة المستبدين والحمقى المتعصبين كثيراً ما يتورطون فى هذه الخطة ويجترحون هذا الإثم حتى فى أوقات الاستنارة وفى ظلال الحضارة .

ومن أوفى تلك المراجع المعروفة فى تاريخ الأندلس ومختلف أخبارها وأحوالها — إن لم يكن أوفاها قاطبة — كتاب العلامة المؤرخ أبى العباس أحمد بن محمد المقرى ؛ فهو أحفلها بتاريخ الأندلس ، وأجمعها لأحوالها الأدبية والسياسية والاقتصادية وأخبار رجالها الأعلام وشعرائها الفحول وكتابها المبرزين وأشعارهم الرائعة الرائقة ورسائلهم البليغة الممتعة ونوادرهم الطريفة وأجوبتهم المسكتة وسائر براعاتهم وعبقرياتهم .

ولم يكن هذا الرجل الفاضل المفتون بالأندلس وأخبارها والمعجب بحضارتها ورجالاتها أندلسى الأصل أو النشأة ، ولم ير الأندلس رأى العين ؛ فقد كان المسلمون فى عصره قد غلبوا على أمرهم فى الأندلس ، وأخرجوا منها ، وطردت البقية الباقية منهم ، أو ماتت وفنيت فى الكثرة الأندلسية الغالبة ، وتقلص ظلهم عنها تقلصاً تاماً ، ولكن المقرى ظل مع ذلك شديد التعلق بأخبار الأندلس ، دائم الاطلاع على تاريخها وأدبها وعلومها ، مثابراً على استقصاء تلك الأخبار وجمع شتى المعلومات وطلبها فى مظانها الأصيلة ومراجعها الأمينة الموثوق بها .

وقد ولد المقرى فى تلمسان ببلاد الجزائر ونشأ بها ، وحفظ القرآن وقرأ وحصل بها على عمه أبى عثمان سعيد بن أحمد المقرى مفتى تلمسان ، وكان عالماً فاضلاً وفقيهاً متمكناً ، وكان المقرى يقول عن بلده تلمسان إنها بلدة عظيمة من أحاسن بلاد المغرب ، وإنها فى يد العثمانيين ، وهى الحد المضروب بين سلطانهم وسلطان المغرب .

والمقرى نسبة إلى قرية من قرى تلمسان ، وإليها نسبة آبائه ، ويقول السيو ليفى بروفنسال المستشرق المعروف فى دائرة المعارف الإسلامية : إن المقرى قد ولد سنة ١٠٠٠ هجرية ، ولم يذكر بالبنان المرجع الذى اعتمد عليه فى ذلك ، وقد خلت المراجع التى تصفحتها واستكثرتها من ذكر سنة ميلاده ؛ ومهما يكن من الأمر ، فإنى أشك فى صحة هذا التاريخ ، وأرجح أن المقرى قد ولد قبل ذلك بعشر سنوات على الأقل ، والمقرى نفسه يقول فى نفح الطيب عند ذكر تلمسان : « هى مدينتنا علقت بها التمائم ، وبها ولدت أنا وأبى وجدى وجد جدى ، وقرأت بها ونشأت إلى أن رحلت عنها فى زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف ، ثم رجعت إليها عام عشرة وألف ، ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف إلى أن ارتحلت عنها إلى المشرق فى أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف » ، وواضح من هذا النص أنه رحل عن تلمسان فى « زمن الشبيبة » ؛ فإذا كان قد ولد سنة ١٠٠٠ ، فإن عمره حين رحيله عن تلمسان لم يكن يتجاوز التاسعة ، وأظن أن الإنسان لا يقول عن نفسه وهو فى التاسعة « إنه فى زمن الشبيبة » ؛ وقد توفى المقرى سنة ١٠٤١ هجرية ، وقد كان المقرى بلا أدنى خلاف رجلاً ممتازاً ، ناشط الهمة ، ناهض العزم ، جيد التحصيل ، متوفراً على الدرس ، ولكن إنتاجه الغزير ، وتواليفه الجمة ، ليست عمل رجل لم يعش فى الدنيا سوى واحد وأربعين عاماً ، وبخاصة إذا علمنا أن الرجل لم يكن منقطعاً الانقطاع كله

للتأليف ، وكان له من أعمال وظيفته وأسفاره ورحلاته ما يستنزف وقته ويستأثر بجانب من جهده .

ولما عاود المقرى الرجوع إلى فاس استقر بها ، ثم ولي الإمامة والخطابة ، وفي أواخر سنة ١٠٢٧ اعتزم الارتحال إلى الشرق تاركاً المنصب والأهل والوطن ، قاصداً حج البيت الحرام ، والظاهر أن الظروف السياسية المضطربة هي التي استوجبت هذا الرحيل ، وقد أنشد صاحب مراكش متمثلاً قول الحضرمي :

يحق لمثلي مقامي وحالي لمثلي الرحيلا

فأجابه صاحب مراكش بقوله :

لا أوحش الله منك قوماً
تعودوا منك الجميلا

وركب البحر إلى مصر ، والظاهر أن الرحلة كانت شاقة مخيفة ، عانت سفينته فيها أهوال البحر وشدائده ، وقد وصف هذه الرحلة في عبارات رائعة قوية ، يقول منها : « لما ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السَّحْر والنحر ، شاهدنا من أهواله وتوالي أحواله ما لا يعبر عنه ، ولا يبلغ له كنه ؛ فكم استقبلتنا أمواجه بوجوه بواسر ، وطارت إلينا من شراعه عقبان كواسر ، قد أزعجها أكف الريح من وكرها لما نبت اللجج من سكرها ، فلم تبق شيئاً من قوتها ومكرها ، فسمعنا للجبال صفيراً ، وللرياح دوياً عظيماً وزفيراً ، وتيقنا أنا لا نجد من ذلك إلا فضل الله مجيراً وخفيراً ، وأيسنا من الحياة ، لصوت العواصف والمياه » ، وهو يسترسل على هذا النمط في وصف قسوة البحر وسطوته وما ألم بركاب السفينة من الفزع والفرق حتى قضى الله بنجاتهم وسلموا من الخطر ، وزار القاهرة ، ثم تابع رحلته إلى الحجاز في أواخر سنة ١٠٢٨ ، وطاف بالأماكن المقدسة ، وعاد إلى مصر بعد الحج ، وتزوج بها من السادة الوفائية ، ولم يلق في مصر على ما يظهر ما كان يؤمل من الحفاوة والتقدير والعطف والتشجيع ، وقد عبر عن ألمه المر الوجيع في قوله :

تركت رسوم عزي في بلادي
وصرت بمصر منسي الرسوم

ورضت النفس بالتجريد زهداً
وقلت لها عن العلياء صومي
ولي عزم كحد السيف ماض
ولكن الليالي من خصومي

ثم زار بيت المقدس سنة تسع وعشرين وألف ، وكرر منها الذهاب إلى مكة ، ووفد على طيبة سبع مرات ، وأملى بها دروساً عديدة ، ورحل من مصر إلى بيت المقدس في سنة ١٠٣٧ ، وألقى بعض الدروس في المسجد الأقصى ، ثم غادرها بعد بضعة أسابيع إلى دمشق فأعجب بها ، وأنزلته القادرة عند قدومه إليها في مكان لا يليق به ، فأرسل إليه الشاعر الأديب أحمد بن شاهين مفتاح مدرسة الجقمقية وكتب مع المفتاح هذه الأبيات :

كنف المقرى شيخي مقرى
وإليه من الزمان مفرى
كنف مثل صدره في اتساع
وعلوم كالبحر في ضمن بحر
أي بدر قد أطلع الدهر منه
ملأ الشرق نوره أي بدر
أحمد سيدي وشيخي وذخري
وحبي وذاك أشرف فخري
لو بغير الأقدام يسعى مشوق
جئته هائماً على وجه شكري

فأجابه المقرى بأبيات يقول في مطلعها :

أي نظم في حسنه حار فكري
وتحلى بدره صدر ذكري

وراقت المقرى دمشق فاستوطنها أياماً ، وأملى صحيح البخاري في الجامع الأموي ، ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين إلى دمشق ما اتفق له من الحظوة وإقبال الناس ، وجرت بينه وبين أدبائها وعلمائها مطارحات شتى ، وكان أكثر أدبائها إقبالاً عليه وتعظيماً له الأديب أحمد بن شاهين القبرسي الأصل ، وقد تركت هذه الزيارة في نفسه أجمل الأثر وأطيبه ، فعقد في كتابه نفح الطيب فصلاً يتعلق بالشام وأهلها وأورد في مدحها أشعاراً ، ومن شعره في حقها قوله :

محاسن الشام جلّت عن أن تقاس بحد
لولا حمى الشرع قلنا ولم نقف عند حد
كأنها معجزات مقرونة بالتحدي

وتغنى بجمال دمشق ومحاسنها في أبيات كثيرة ومقطوعات متعددة ، ثم عاد إلى مصر من هذه الرحلة الموفقة ، وسافر إلى دمشق مرة أخرى فلقى من الإكرام والحفاوة ما لقيه في المرة الأولى ، ودخل مصر ، واستقر بها مدة يسيرة ، ثم طلق زوجته الوفائية وأراد العودة إلى دمشق ، فأدركته الوفاة في سنة إحدى وأربعين وألف ودفن بمقبرة المجاورين .

وقد ذكر لنا المقرى في المقدمة الضافية التي صدر بها كتابه القيم « نفح الطيب » سبب تأليف هذا الكتاب ، ويتبين منها أنه في خلال إقامته بدمشق كان كثيراً ما يتجاذب أخبار أعلام الأدب مع أدباء دمشق ، وكان ينجر الكلام إلى ذكر البلاد الأندلسية فيورد المقرى بدائع بلغائها ، ويذكر من كلام وزيرها الشهير لسان الدين بن الخطيب ما تقتضيه المناسبة ، ويكشف لهم عن تصرفه في فنون البلاغة وقدرته الفائقة في النثر والنظم والتأليف ، فلما تكرر ذلك غير مرة على أسماعهم لهجوا بذكر لسان الدين دون غيره ، وعلق بقلوبهم ، واعترفوا ببراعته ، واستحسنوا كلامه ، وطلب منه صديقه الأديب الشاعر أحمد بن شاهين أن يتصدى للتعريف بابن الخطيب في مؤلف خاص يعرب عن أحواله وبدائعه ، وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه ، ويذكر مفاخره ومآثره وماله من النظم والنثر والمؤلفات الفائقة الرائعة التي ألفها ؛ وقد استهول المقرى الإقدام على ذلك في بادئ الأمر ، وكان من أسباب إحجامه عدم توفر الكتب اللازمة للقيام بهذا العمل ، إذ كان قد خلف أكثر كتبه بالمغرب وغلبته الهموم والأحزان على خواطره ، ولكن صديقه الشاهيني لم يجعل له فسحة ولا مندوحة ، ولم يقبل منه عذراً ، وكرر عليه الإلحاح حتى عزم على الاستجابة لرجائه ، والنزول على حكمه ، لما كان لهذا الصديق الوفي الحفي من مكانة في نفسه ، وقد وعده بالشروع في الطلب ومباشرة التنفيذ عند الوصول إلى القاهرة ، وخرج من دمشق إلى مصر ، وشرع بعد الاستقرار بها في التأليف ، وكتب نبذة من الكتاب ، وتوقف بعد ذلك عن المضي في إتمام الكتاب ، فوافته رسالة من صاحبه الشاهيني يستنجزه وعده ، ويحضه على إتمامه ، فأثر في نفسه هذا الاهتمام ، وحفزه على استئناف العمل ، ومتابعة التأليف ، وأجد نشاطه ، لجمع من مقيدات أخبار لسان الدين حتى استوفاها ، وخطر له بعد ذلك أن يذكر جانباً من أخبار الأندلس ، ومفاخرها الباسقة ، ومآثر أهلها ومزاياهم وخصائصهم ، وشجعه على ذلك أنه كان معنياً بأخبار الأندلسيين أثناء وجوده في المغرب ، وجمع طائفة كبيرة منها ولم يستصحب معه منها سوى النزر اليسير ، ومن ذلك النزر اليسير أتحف قراء العربية بهذه الموسوعة القيمة النادرة ؛ والظاهر أن الطريقة التي اتبعها في تأليف كتابه كانت طريقته التي يؤثرها بعد التفكير والتروية ، فهو يجعل المترجم له نواة يجمع حولها الأخبار الجمة ، والمعلومات المستفيضة ، ويتخذها محوراً يدير حوله الموضوع ويؤلف بين شوارده ، ويضم متناثره ؛ فهو يحاول أن يفهم الرجل من طريق فهم عصره ، واستقصاء معارف زمنه ، والإحاطة بالظروف التاريخية التي مهدت له السبيل ، واستفتحت له المغلق ، وقربت له البعيد ، وقد جرى على هذا الأسلوب في كتابه المعروف المسمى « أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض » واتخذ من القاضي عياض نواة لحشد المعلومات التاريخية والأدبية ، ولم يكتف بأخبار عصره ومصره ، بل استوعب أخبار الأجيال السابقة لجيله .

وقد قسم كتابه « نفح الطيب » قسمين ، كل منهما مستقل بموضوعه ؛ فالقسم الأول يتناول أخبار الأندلس ، وفيه ثمانية أبواب ، الباب الأول في وصف جزيرة الأندلس ، وحسن هوائها ، واعتدال مزاجها ووفور خيرها ، واشتمالها على كثير من المنافع والمحاسن ، وذكر بعض مآثرها المجلوة الصور ، وتعداد كثير مما لها من البلدان والكور ، والباب الثاني في إلقاء بلاد الأندلس للمسلمين بالقياد ، وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد ، والباب الثالث في سرد بعض ما كان للدين في الأندلس من العز والقهر للعدو وأعمال أهلها في الجهاد ، والباب الرابع في ذكر قرطبة مقر الخلافة الأموية وجامعها ذي البدائع الباهرة ، والإشارة إلى الزهراء الناصرة والعامرية ووصف جملة من متنزهات

تلك الأقطار ومصانعها ، والباب الخامس في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد الشرق ومدح جماعة من أولئك الأعلام ذوي الألباب الراجحة ، وذكر ما اقتضته المناسبة من كلامهم ، والباب السادس في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل الشرق والتعريف بهم ، والباب السابع في نبذة مما امتاز به أهل الأندلس من توقد الأذهان وجملة من أجوبتهم الدالة على لوذعيتهم وألمعيتهم ، والباب الثامن في ذكر تغلب العدو على الجزيرة بعد صرفه وجوه الكيد إليها وتفريقه بين ملوكها ورؤسائها بمكره حتى تم استيلاؤه عليها واستغاثة من بها بالنظم والنثر بأهل ذلك العصر من سائر الأقطار .

أما القسم الثاني ، فهو خاص بالتعريف بلسان الدين ابن الخطيب ، وذكر أنبائه وما يناسبه من ذكر العلماء الذين اقتضى ذكرهم الاستطراد وشجون الحديث ، وفيه أيضاً من الأبواب ثمانية ؛ فالباب الأول في ذكر أولية لسان الدين وذكر أسلافه ، والباب الثاني في بيان نشأته وترقيه ووزارته وسعادته ومساعدة الدهر له ، ثم قلبه له ظهر المجن ، وما لقي من إحن الحاسدين والكائدين ، وذكر قصوره وأمواله وغير ذلك من أحواله إلى وفاته ، والباب الثالث في ذكر مشايخه ، والباب الرابع في ذكر مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إليه ، وثناء غير واحد من أهل عصره عليه ، والباب الخامس في إيراد جملة من نثره ونظمه وما يتصل بذلك من أزجاله وموشحاته ، والباب السادس في مصنفاته في الفنون ومؤلفاته ، ما كمل منها ، أو ما عاقه الموت عن إتمامه ، والباب السابع في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه والمقتبسين من أنواره ، والباب الثامن في ذكر أولاده المقتفين آثاره الجيدة ووصيته لهم وما يتبع ذلك من المناسبات .

وكان اسم الكتاب أولاً « عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب » ، فلما ألحق به أخبار الأندلس وأفاض فيها جعل اسمه « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » .

وهذا الكتاب الحافل من خير الوثائق الأدبية وأنفس المصادر في تاريخ الأندلس بوجه خاص ، وفيه مجموعة هائلة من المعلومات التاريخية والجغرافية والاجتماعية والأدبية منقولة من كتب مختلفة أكثرها مفقود الآن ، وهذا مما يجعل لكتاب نفح الطيب قيمة لا تقدر ، ويضعه في طليعة المراجع الأولى لتاريخ إسبانيا الإسلامية من أيام الفتح إلى آخر أيام استردادها ، وفي تاريخ الحقبة الأخيرة هو المرجع الوحيد !

ومؤلف نفح الطيب علاوة على صبره في الجمع وقدرته على التنسيق والتأليف شاعر مجيد قد لا يرتفع شعره إلى مستوى شعر كبار الشعراء ، ولكنه لا ينزل كذلك إلى ما يسمى بشعر العلماء المعروف بالغثاثة والركاكة والجفاف ، والذي يبدو فيه ضعف الخيال ونضوب الإحساس ! وفي شعر المقرى سلاسة وليونة ، وعذوبة ومائية ، وعليه مسحة من جمال الفن ، وهو يدل على نفس حساسة ، وشعور مرهف ، ويمتاز نثره بإشراق الديباجة ، ومتانة المبنى ، والقدرة على التصرف في استعمال اللفظ ، وهو أقرب في نثره إلى طريقة الأندلسيين منه إلى طريقة المشارقة ! ومكانته الأدبية لا تقوم على نفح الطيب وحده ، فمؤلفاته الأخرى كثيرة ، لأن الرجل كان متعدد الجوانب دائم التحصيل ، وهو من الكتاب القليلين الذين دانوا قراء اللغة العربية بكثرة ما كتبوا وألفوا وبذلوا من الجهد .

علي أدهم

العرب ووحدة البحر الأبيض (*)

— ٢ —

...ثم إن شعر الملاحم فى العصور الوسطى ، وهو يعتبر من أرفع مظاهر الأدب ، ظل يتخذ من حروب أهل الغرب مع العرب موضوعاته المفضلة منذ أن ألفت ملحمة «رولاند» Chanson De Roland (وهى أقدم الملاحم الفرنسية) إلى أن نظمت قصيدة « السيد » El poema de mio Cid الإسبانية المشهورة .

والشاعر فى سرده لوقائع هذه الحروب لم يستطع ، برغم اتساع خياله ، أن يتجنب الإشارة إلى عادات المسلمين وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية . وقد يكون كلامه فى هذا المجال غامضاً فى بعض الأحيان ، ولكنه فى الغالب يبلغ حداً لا بأس به من الدقة والوضوح .

وهناك مسألة أخرى يهمنا بحثها : وهى مسألة وجود آثار شرقية فى تكوين موضوعات القصائد الحماسية من الشعر الغربى ...

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن مجموعة من الموضوعات ذات الأصل العربى الأكيد قد تسربت فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى إلى الشعر الحماسى فى أوربا الغربية ، وتغلغلت إلى الأوساط الأدبية فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا .

لكنا نلاحظ أن التأثير هنا لم يكن من جانب الأدب العربى الفصيح ، بل كان الفضل فيه للأدب الشعبى شكلا وموضوعاً .

فقصص وقائع الفرسان ومغامرات الأمراء — التى كانت أصل الخرافات الغربية الخاصة بصلاح الدين — تختلط بالأساطير التى تنشد فى الأسواق حيث يلتقى الحابل بالنابل ، والمسيحى بالمسلم ، خلال أيام السلم أو الهدنة بين الطرفين المتحاربين . كذلك الأساطير الرائعة التى كانت تحكى فى بعض البلاد المجاورة لإسبانيا أو فى الشرق اللاتينى ، نراها تمتزج بغراميات المعتمد بن عباد فى أشبيلية وبمغامرات السندباد البحرى فى بحار الهند ، أو بأحاديث الخليفة الحكم فى قرطبة .

وإننا لنقرأ أيضاً فى ملحمة جاليران دى بريتانى « Galeran de Bretagne » عن أميرة شابة فرض عليها معلموها فى البلاط حفظ الأغانى العربية إلى جانب القصائد الفرنسية .

وفى الشرق اللاتينى نجد ملحمة عنوانها (قصة المساكين) — Chanson des Chétifs — ألفها شاعر من التروبادور الفرنسيين عاش فى سوريا . وهى تصور أوضح تصوير التأثير المتبادل بين العالم المسيحى والعالم العربى ، فأبطالها جماعة من الفرسان الصليبيين أسرهم أمير عربى ، واستعان بهم فى محاربة السلطان ! وقد رجعوا بعد مغامرات متعددة إلى معسكر قومهم .

وقصة القائد عمانويل « Stratege Emanuel » — وهى فصل من ملحمة إغريقية — تدور حول موضوع مماثل ، أثاره ما كان قائماً بين بيزنطة والعرب من حروب ! وتلك الحروب ، كما نرى ، لم تكن لتحول دون تسرب التأثيرات الأدبية من معسكر إلى آخر ، برغم العداوة بين القوتين المتنافستين ...

* * *

ولننظر الآن إلى جانب آخر من موضوعنا ، جانب المسيحيين من أهل الشرق :

لقد تكونت فى فرنسا ، فى القرن الثانى عشر ، مجموعة من الحكايات تدور حول معجزات السيدة العذراء ، وكان للآداب الإسبانية والإيطالية أثر كبير فى تكوينها ... ورأى بعض الباحثين فى العصر الحديث فأثبتوا أن تلك المجموعة من الحكايات قد انتقلت إلى البلاد السورية التى فتحها الصليبيون ، فترجمت من الفرنسية إلى العربية فى بداية القرن الثالث عشر .

وهكذا دخلت الأحاديث المقبلة من فرنسا وإسبانيا

(*) بحث قدمه الأستاذ إنريكو شيرولى إلى مركز الدراسات السياسية الخارجية بباريس فى ٨ يونيو سنة ١٩٥٠ .

وإيطاليا في آداب المسيحيين العرب من أهل سوريا وفلسطين ومصر ... ووصلت أخيراً حتى بلاد الحبشة البعيدة ! فنحن نجد أن قصص حجاج شارتر وشنت يافب وروما قد ترجمت إلى لغة الأحباش في عهد النجاشي داوت الأول Dawit 1er

وكان هناك تيار آخر للتأثير من الشرق المسيحي إلى الغرب . فمن المعروف اليوم أن أيقونة السيدة العذراء التي كانت محفوظة في صيدانية (وهي مكان دير قريب من دمشق) قد نقلها فرسان المعبد — Templiers — الصليبيون إلى أوربا . وهؤلاء الفرسان كانوا يرافقون وفود الحجاج في سوريا ، ويحرسونهم من قطاع الطرق ، وكانوا يؤمنون بأن لأيقونة عذراء صيدانية معجزات عظيمة . فأذاعوا أساطيرها العربية الأصل بين أهل أوربا ، وترجمت تلك الروايات إلى اللاتينية والفرنسية والإيطالية وغيرها من اللغات ! ونلاحظ أن في هذه الترجمات حكايات كثيرة عن حجاج مسلمين أتوا الدير يتوسلون بأيقونته فأنقذتهم مما كانوا يشكون منه ، مثال ذلك ما يروى عن السلطان المسلم الأعمى الذي ارتد إليه بصره بفضل الزيت المقدس المأخوذ من هذا الدير ، وقد وضعت هذه القصة في قصيدة باللغة الفرنسية .

من هذا نستطيع أن نقرر أن الحال فيما يتعلق بالمسيحيين العرب وعلاقتهم بالغرب ، كان حال تأثير متبادل قوي ، مثلهم في ذلك مثل العرب المسلمين تماماً ...

• • •

والتبادل بين الغرب والشرق لم يقتصر فقط على نطاق الأدب . فإن أعظم أثر بقي لنا من آثار فن الرسم العربي في القرون الوسطى نجده في زخارف « كنيسة القصر Capella Palatina » بمدينة « بلرم » .

وقد دُرست هذه الزخارف ونشرت أخيراً . وهي ذات أهمية جوهرية بالنسبة لتاريخ فن الرسم .

إنها تعرض لنا ، ضمن ما تعرض ، مجموعة من صور الحياة في قصور مختلف الأمراء ، ومن بينهم أحد الأمراء الشرقيين . وقد ثبت أن موضوعات هذه المجموعة ترجع إلى أصل فارسي . ولكننا لا نعدم أن نجد بين رسومات بلرم صوراً ذات طابع واقعي أوحت بها مظاهر الحياة المحلية : مثال ذلك كثرة لاعبي العود بين سمار الأمراء ؛ وتلك خاصة صريحة لملك العصر في هذه البلاد .

وتدعونا عوامل قوية إلى الاعتقاد بأن زخارف بلرم قد صنعها فنانون من المسلمين جاءوا من مقاطعة الرها « Edesse » بآسيا الصغرى .

ومجموعة الصور ذات الأصل الفارسي ، التي ذكرناها ، تبين لنا في جلاء ، كيف كانت العلاقات بين العالمين العربي والغربي : فهذه الصور التي توجد في كنيسة ملوك بالرم من النورمنديين « Normands » ، تمثل حياة أمراء الشرق الترفيه الناعمين ، وقد أوحى بها التفكير والخيال الشرقيان ، اللذان انتقلا من طريق صقلية إلى إيطاليا ثم إلى أوربا كلها . .

• • •

وأريد أن أنبه القارئ إلى خطأ قد يقع فيه بعد قراءة هذا الحديث : وهو أن يعتقد أن الناس قد عاشوا في هذا العصر وفي هذه المناطق التي نتحدث عنها ، في حالة من التسامح الديني العام ، وأن الصراع والتنافس في المسائل الدينية والفكرية قد أصبحا محض ذكريات .

لا ! .. لم تكن الحال كذلك .

فقد وُجد هناك صراع قوي متواصل ؛ ولكن ذلك الصراع لم يحل دون تنقل الأفكار والفنون والعلوم — وبعبارة أخرى : الثقافات الإنسانية — خلال الحدود من معسكر إلى آخر ؛ فنهل كل فريق من الموارد القوية الخصبة التي جعلت من التنافس بين قوتين متقابلتين عاملاً عظيم الأثر من عوامل تقدم الحضارة الإنسانية وارتقائها . .

وبمثل هذا المعنى ، وهو أسمى المعاني على الإطلاق ، نستطيع أن نقول إن الازدهار الرائع للحضارة الغربية ، بين القرن الثاني عشر والقرن الرابع عشر ، كان نتيجة للوحدة الثقافية بين شعوب البحر الأبيض المتوسط .

فهذه الوحدة تظهر واضحة ، حتى أثناء الحروب التي كانت المسيحية تصارع فيها الإسلام ، بل هي قد استفادت أحياناً من هذه الحروب .

فوراء أفق الوقائع والمعارك الدامية كان تعاون بني الإنسان يجري نشيطاً يمهد للمستقبل ...

وإن أوربا الغربية ، بعد أن تلقت من الشرق كل تلك الأشياء التي حملت على السير بها قدماً ، قد استطاعت بفضل المجهود الطويل الشاق الذي بذلته أجيال من المفكرين والفنانين ، أن ترفع حضارة الإنسانية بضع درجات نحو الكمال ..

(للبحث بقية) ترجمة

محمد عبد الحليم محمود

الصراط المستقيم

« اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم
غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » (من سورة الفاتحة)

للاستاذ محمد خليفة التونسي

لقد آن للإنسانية أن تغير الطريق الخاطئ الذي سارت فيه منذ خلقها الله حتى اليوم ، وتتخذ طريقاً آخر غيره .

إن التناحر على كنوز الوجود الخارج عن الإنسان ، وإضاعة الأعمار سدى في هذا التناحر هو الطريق الذي سار فيه الناس إلا قليلاً منذ كان آدم حتى اليوم ! فما ظفرت الإنسانية بمغنم من المغانم إلا بعد أن ضحت من قواها وفضائلها ثمناً لهذا المغنم التافه ما يكافئه ألف ألف مرة .

وذلك هو السفه في شر صوره ، والإجرام في شر صوره .

وكأيِّن من دماء سفكنا ، وأرواح أزهقنا ، وصلات فرقنا ، وأحقاد غرسنا ، وآلام حملنا وحمّلنا ، من أجل مغنم يسير غنمناه وقلما انتفعنا به ، ولو راجعنا أنفسنا متدبرين ، وقدرنا ما غنمنا حق قدره — لما وجدناه حقيقاً بقطرة عرق واحدة يرشح بها الجسم في الكد من أجله .

قيمة كل امرئ ما يملك ، ولا يملك المرء إلا نفسه ، ولا غنى له إلا بما في نفسه .

إنما أفقر الفقراء امرؤ خسر نفسه ، ولو ملك السموات والأرض .

وأغنى الأغنياء إنسان كانت له نفس عظيمة فكسبها ، ولو صُفِرت يداه مما يسد جوعته .

لقد آن الأوان للتبشير بدين جديد ، والسير في طريق جديد .

آن أن يُبشر بين القطعان البشرية الضائعة الدنية في طريقها الخاطئ بأن الدين الصحيح هو أن يؤمن كل إنسان بذاته ، وأن الطريق الصحيح هو أن يعمل كل إنسان على تحقيق ذاته .

فإن بواعث الإيمان إذا جاشت في نفس الإنسان جاشت معها كل بواعث الشعور وبواعث الفكر وبواعث الحركة وسائر بواعث الحياة ، وأحس الإنسان بالصلات التي تربطه بأسرته وقومه وبني جنسه السابقين واللاحقين من البشر ، وبما حوله من عوالم ، وبما وراء هذه العوالم من أسرار خفية سرمدية .

ومن أحس بهذه الصلات من طريق الإيمان أحس بكل حقوقه عليها ، وكل واجباتها عليه ، بل أحس بأن كل واجب حقٌ ، وكل حق واجبٌ ، لأن مصدر الحقوق والواجبات نفسه هو لا شيء خارج عنه ، فإذا أدى واجباً لم يحس فيه بمعنى التسخير والإكراه ، بل أحس فيه لذة اللعب ومتعة الرياضة لفضائله .

فالطريق الصحيح هو أن يعمل الإنسان على تحقيق ذاته .

والطريق الصحيح هو « الأنانية الكاملة » .

والآفة كل الآفة أننا لسنا « أنانيين » ، والدواء أنجع الدواء أن نكون مسرفين كل الإسراف في « الأنانية » .

الإنسان فرد في أسرة ، والأسرة وحدة في المجتمع البشري ماضيه ومستقبله ، والصلات بيننا وبين هذا الكوكب الذي نعيش عليه صلات قائمة وثيقة ، لا سبيل إلى إنكارها ، ولا مهرب منها حتى بالموت ، والصلات بين هذا الكوكب والمجموعة الشمسية قائمة وثيقة لو ضعفت قليلا لتمزق كوكبنا شر ممزق ، والكون كله منظمة واحدة ، يرتبط فيها كل كوكب بكل كوكب ، ومن وراء ذلك كله القوى القاهرة المهيمنة على هذه المنظمة من الأزل إلى الأبد .

وما في الوجود ظاهره وخافيه قوة إلا في الإنسان ملكة

معدة لاستجابة آثارها استجابة قوية أو ضعيفة على قدر احتمال الإنسان وطاقته وحاجته، من حيث هو كائن قائم بذاته، ومن حيث هو كائن على صلات وثيقة بغيره من الكائنات في هذا الوجود «وفي أنفسكم أفلا تبصرون».

خطأ من الوجهة النظرية أن يحصر الإنسان همومه في ذاته مبتوراً عن كل من حوله وما حوله، لأنه من حيث الواقع غير مبتور عن غيره من الكائنات، وهو لو أراد أن يبتر نفسه منها لاستحال عليه ذلك، وكما قال المعري:

وهل يأبق الإنسان من ملك ربه
فيخرج من أرض له وسماء

ولو استطاع ذلك المحال لخسر نفسه حين يخسره الكون، إذ أن قوامه متوقف على مكانه من هذا الكون.

فالأنانية التي تحصر همومها في ذاتها وتغلق ما بينها وبين غيرها أنانية بتراء عقيمة، وموقفها من الوجهة النظرية خطأ، لأنها تنكر أموراً واقعة لا فكاك لها منها بحال من الأحوال حتى من حيث التوهم بله الأمر الواقع.

وهذا الخطأ من الوجهة النظرية تقابله الخطيئة من الوجهة الخلقية! فالأنانية التي تتصرف حيال الكون كأنه شيء خارج عنها معاد لها، ولا تحس نحوه بالألفة والولاء، ولا ترى له واجباً عليها يقابل حقها عليه، ولا صلة لها به إلا باحتجانه وضمه إليها وإدخاله فيها وتسخيره لمصلحتها، وهي محتجزة عنه — هذه الأنانية أنانية بتراء عقيمة، وهي تجني بهذا الانطواء على نفسها قبل أن تجني على غيرها، لأن قوتها على هذا النحو ضئيلة إلى جانب قوى الكون، وتصرفاتها مخالفة لنواميس الكون، وهي خليقة أن تتحطم عند أول صدام حقيقي بينها وبين غيرها.

وهي مهما تبلغ من القوة لن تستطيع احتجان الكون وإدخاله في فلكها، وتسخيره لمصلحتها وحدها في انطوائها على ذاتها، وهي بذلك تخسر نفسها، ويخسرها الكون، فتصرفها على هذا النحو ضرب من الانتحار من ناحية وعدوان على غيرها من ناحية أخرى.

هذه الأنانية البتراء إذاً خطأ من الوجهة النظرية خطيئة من الوجهة الخلقية، وهي فوق ذلك أنانية ناقصة تافهة عقيمة، لأنها معطلة الإدراك للواقع ومعطلة الإحساس بالواجب، فلا خير فيها لنفسها، ولا خير فيها لغيرها.

والأنانية التي نقصدها وندعو إليها هي الأنانية الكاملة المدركة للواقع، الشاعرة بالواجب.

وما دام الإنسان كائناً بين كائنات متصلة به أوثق الاتصال، ولا كينونة له ولا تحقيق لذاته إلا بالصلات الوثيقة التي تربطه بغيره من الكائنات. فكل تفكير من أجله يُهمل فيه حساب هذه الصلات، يعد خطأ من الوجهة النظرية، ويعد خطيئة من الوجهة الخلقية.

والأنانية الكاملة وهي تعي نفسها تدرك هذه الصلات بينها وبين غيرها من الكائنات وتشعر بكل واجباتها، ولا يتحقق وعيها ذاتها منفصلاً عن هذا الإدراك وهذا الشعور، فلا تحس بغيرها كأنه منفصل عنها، فتعمل على التسلط عليه وتسخيره، بل تحس به على أنها عضو في بنيته الحية، وأن مصلحتها مرتبطة بمصلحته، وأن كل أذى يصيبه يصيبها معه، ومن ثم تشعر له بالألفة والأنس والولاء، وتعاشره معاشرة الآباء والإخوة والأزواج، وتمنحه حبها وتبذل له قواها في فرح وأريحية، وإذا أسفت فلن تأسف إلا على أنها لم تعط مزيداً من الحب والقوة تبذله له كما يقتضيها الواجب الذي تشعر به أقوى الشعور.

وهذان النوعان من الأنانية لا يتفقان إلا في الاسم، وهما بعد ذلك نقيضان يختلفان كل الاختلاف.

وقد يتقارب الوصفان جداً وموصوفاهما متباعدان

والأنانية الكاملة لا تتحقق إلا عن طريق الإيمان بالله، ولن تجيش كل البواعث الحيوية التي طمرها الله في السرائر الإنسانية حتى تستجيشها بواعث الإيمان، ولن تستجيش بواعث الإيمان إلا عقيدة ذات تكاليف تزلزل السريرة زلزالها، فتخرج أثقالها، وتحدث أخبارها.

ويومئذ تؤمن بنفسها وتؤمن خلال هذا الإيمان بالوجود كله عن وعي أو عن غير وعي، لأنها من الوجود، بل هي الوجود، ويومئذ لا يكون همها إلا أن تعبد ذاتها، فتستصغر كل كنوز الأرض والسماء، وتترفع ان تشغلها عن عبادتها ذاتها أي متعة أخرى من متع الحياة إلا ما به قوام بدنها في أضيق الحدود وعلى أبسط صورة.

في القرآن الكريم: «والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر».

(البقية على صفحة ٢٠)

من شـــعر بودلير

بودلير ، الشاعر الفرنسي المعروف ، يعتبر المنبع الذي منه نشأت أغلب المذاهب الشعرية في الغرب في العصر الحديث ، وعلى الأخص المذهب الرمزي منها .

فبالرغم من أن هذا الشاعر ينتمي إلى المدرسة الرومانتيكية من ناحية عنايته بالفن والشكل ، إلا أنه يقترب من المدرسة الواقعية بسبب كرهه للمبالغة في وصف العواطف والتصورات .

إنه لا يحاول رسم اضطرابات الهواجس ومناظر الحياة الخارجية؛ بل هو يبحث أولا في أعماق النفس عن الحياة الداخلية بصورتها الغامضة وتخيلاتها المتلاحقة .

وهو لا يصف هذه الأشياء ، وإنما يحاول إثارتها في نفس القارئ باستخدام الألفاظ والتعبيرات ذات القيم الرمزية القوية .

وفيما يلي نماذج من أشعاره تعبر عن بعض ميوله واتجاهاته ، ترجمها لنا الأستاذان مختص مينا و م . ع . م .

١ — دعوة إلى الرحيل

يا صغيرتي وشقيقة روحي
هل فكرتِ في الرحيل
إلى حيث نحيا معاً
ونعشق ونموت ؟..
في البلد الذي يشبهك في طبيعته :
حيث الشمس المبللة ،
والسماء الملبدة
تشوق عقلي ،
كما تشوقني عينك الغادرة
خلال دمعك الساري . .
فهناك كل شيء روعة وفتنة ...
سحر وجمال ... ورغبة !..

٢ — سمو . .

فوق البحيرات والوديان ، فوق الجبال والغابات والسحب والبحار ...
وراء الشمس وأجواز الفضاء ،
وراء حدود العوالم والنجوم ...
تتحرك أنت ، يا عقلي ، في خفة ،
وتشق بمرح أعماق اللانهائية ، في لذة غريبة قوية ،
كأنك السباح البارع ، تطرب نفسه لخوض المياه الباردة ...
تسامى ، أي عقلي ، بعيداً عن هذه الأجواء الدنيا ، الفاسدة الميتة ...
وتطهر في الأجواء العليا ...
وانهل من النار الصافية التي تملأ الفضاء النقي
كأنها خمر إلهية غير مدنسة .
ما أسعد الذي يستطيع أن ينطلق بجناح خفاق قوي ،
نحو حقول الضياء والصفاء ،
نحو الآفاق الواسعة الممتدة وراء الأشجان والآلام ...
تلك الآلام التي تثقل بثقلها الحياة الغامضة .
وما أسعد الذي تسمو أفكاره حرة طليقة ، كالطيور ، في كل صباح ،
نحو عالم السماوات ...
والذي يحلق بفكره فوق الحياة ،
ويفهم دون عناء
لغة الزهور والأشياء الصامتة !..

٣ — دواء . .

أيتها الروح الصماء القاسية ،
أيتها الهرة المحبوبة ذات الدلال ،
هلا جئت بجوار قلبي ؟!..
كم تتوق أصابعي المرتجفة
إلى أن تعبث في ثنايا شعرك المسدل ...
أريد أن أدفن رأسي المتوجع
في ثنايا ردائك الدقيق يغطي صدرك ،
وأن أستنشق
مثل الزهرة الذابلة
رائحة حبي الفقيد ...
إني لا أجد نحيبي وشجني ،
فالنسيان الرائع يقطن في ثغرك ،
ودوائي من قبلاتك يفيض !..

من شعر طاغور

— ١ —

عندما انطفأ المصباح إلى جانب السرير ..
أيقظتني طيور الصباح الباكرة ..
جلست إلى نافذتي المفتوحة ..
وعلى شعري المسترسل إكليل من الزهر ..
وجاء مسافر صغير يمشي في الطريق ..
وقد أحاط به ضباب الصباح الأحمر ..
وعلى رقبته سلسلة من اللؤلؤ ..
وقد سقطت أشعة الشمس على تاجه ..
ورأيته يقف عند بابي وهو يصرخ بي بشغف :
أين هي ؟
ولكن الخجل منعني من أن أجيب :
إنني هي أيها المسافر الصغير .. إنني هي ..
وجاء الشفق . وكان المصباح ما زال مطفأ .
وكنت أنظم شعري بتراخ .
فرأيت المسافر الصغير قادماً في عربته ..
وقد أحاطت به عظمة الشمس الغاربة .
وكانت أحصنته يسيل الزبد على أفواهها ..
وعلى ملابسه التراب ..
ورأيته يترجل عند بابي ويسألني في صوت متعب :
أين هي ؟
ولكن الخجل منعني من أن أجيب :
إنني هي أيها المسافر المتعب . إنني هي ..
وكانت ليلة من إبريل .. وكان المصباح يحترق في غرفتي .
وجاءت نسمة من الجنوب تلطف الجو ..
وصوت الببغاء النائم يأتي من قفصه ..
وكان ثوبي ذا لون كلون رقبة الطاووس ..
وعباءتي في خضرة الحشيش الصغير ..
وجلست على الارض بجوار النافذة ..
أرقب الشارع المهجور ..
وبالرغم من الظلام الدامس ظللت أردد ..
إنني هي أيها المسافر اليائس .. إنني هي .

— ٢ —

عندما طلع الصباح رميت بشبكتي في البحر ..
فأخرجت من أعماقه ما له أسحر جمال وأعجب منظر ..
أشياء تلمع كالابتسامة ، وأشياء تلمع كالدموع ..
وأشياء لها حمرة وجه العروس ..
فعدت إلى منزلي حاملاً ما اصطدته ..
فوجدت حبيبتي تعبث في الحديقة بالزهر ..
وترددت لحظة ، ثم وضعت حملي عند قدميها ..
ووقفت ساكتاً ..
فنظرت إلى ما أحضرته ، ثم قالت :
ما هذا العجب الذي أتيت به ؟..
وما عساني أن أصنع بمثل هذه الأشياء ؟
فأحنيت رأسي خجلاً وبدأت أفكر :
إنني لم أجاهد لأحصل على هذا ..
ولم أشتره من السوق ..
إنها ليست بالهدية المناسبة ..
وعندما أقدم الليل ..
رميت بكل ما جئت به في الطريق ..
وفي الصباح أقدم السائحون ..
فالتقطوا ما رميت به ..
وحملوه إلى بلادهم البعيدة ..

صبحي أحمد أمين

---

٤ — تجاوب . . .

الطبيعة معبد ، به أعمدة حية ترسل أحياناً كلمات غامضة ...
والإنسان يمر فيه بين غابات من الرموز تنظر إليه بعين أليفة ...
والروائح والألوان والأصوات تتجاوب ، كالأصداء الطويلة تختلط من بعيد في وحدة مظلمة عميقة ، فسيحة كأنها الليل ، أو كأنها الضياء ...

هناك روائح رطبة منعشة كبشرة الوليد ، هادئة كأنغام العود ، خضراء كلون المراعي ...
وهناك روائح فاسدة ، زاخرة ، منتصرة ، تنتشر انتشار الأشياء اللانهائية ...
مثلها العنبر والمسك واللبان والبخور ...
وهذه الروائح تتغنى بانفعالات النفس والحواس ...

أمير الجيوش بدر الجمالى

كان طبيعياً أن يستعين أولو الأمر فى الدولة الإسلامية برجال من غير العرب على تصريف شئون الدولة العامة ، لأن الإسلام تغلغل بين شعوب كثيرة غير عربية ، وهى بعد شعوب عريقة فى الحضارة غنية برجالها وبكفايات أبنائها ، بينما كان العرب حديثى عهد بنظم الحكم والإدارة التى مارستها تلك الشعوب قروناً طويلة . والإسلام مع ذلك دين سمح لا يفرق بين الأجناس ، إذ قضت تعاليمه على ماوقر فى نفوس العرب من نعرة قبلية كاذبة وعصبية جاهلية ذميمة ! وتتمثل هذه التعاليم فى قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وفى قول رسوله الكريم : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . هذا إلى أن الرسول قد ضرب بنفسه أروع مثل فى تطبيقه لهذه التعاليم حين قرب إليه سلمان الفارسى وبلالاً الحبشى واستعان بهما على كثير من أمور المسلمين .

غير أن الاستعانة بالعناصر غير العربية كانت محفوفة بالخطر دائماً ، فنحن نعرف كيف استفحل أمر البرامكة الفرس فى العصر العباسى الأول حتى قضى الرشيد عليهم ، وكيف استشرى خطر الترك فى العصر العباسى الثانى حتى أصبح الخلفاء فى أيديهم كالدمى يعينونهم ويعزلونهم ويسملون أعينهم ويقتلونهم كيفما شاءوا . وكان ذلك راجعاً فى الواقع إلى إيثار الخلفاء للراحة والدعة وتسليمهم مقاليد الأمور لوزرائهم الأجانب ، وكان هؤلاء فى العادة أذكياء نشيطين يحسنون استغلال الظروف فيزيدون من ثرواتهم ويجمعون حولهم الأعوان ويشددون قبضتهم على زمام السلطة شيئاً فشيئاً ، ويصحو الخليفة الغافل آخر الأمر فيجد نفسه مسلوب السلطان ضعيف النفوذ قليل الأعوان ! وتدخل الدولة بذلك فى عهد جديد قوامه حكم دكتاتورى مطلق يتمتع به القواد والوزراء ، وتنازع دموى لا ينقطع للوصول إلى ذلك الحكم ، مما يؤدى بالدولة سريعاً إلى التفكك والانهيار .

ولكن لا يسعنا مع هذا إلا أن نعترف أن كثيراً من الوزراء الأجانب فى الدول العربية كانوا أقوياء الشخصية ممتازى الكفاية مخلصين فى القيام بما عهد إليهم من جسيم المهام ، وكانت مناصب هؤلاء الوزراء الكبار تورث كما تورث العروش ، غير أنه كان يخلفهم فى العادة خلف ضعاف مستهترون يضيعون ثمار جهود آبائهم ويعجزون عن الاحتفاظ بمكانتهم ، ويقوضون ما شيدوا لدولهم من صروح المجد .

وبدر الجمالى — موضوع هذا المقال — كان من أولئك الوزراء الذين خلدوا ذكرهم فى التاريخ ، فهو أرمينى وزر لخليفة عربى ، هو المستنصر بالله الفاطمى ، فأدى مهمته خير أداء . ولكن سير الحوادث اقتضى أن يكون مقدمه إلى مصر حداً فاصلاً بين عهدين : عهد قوة الدولة وتمركز السلطة حول شخص الخليفة الفاطمى ، وعهد ضعف الدولة وتمركز السلطة حول شخص الوزير ، مما حدا بالمؤرخين إلى أن يقسموا فترة الحكم الفاطمى فى مصر إلى عصرين : أول وثان ، وهذا الأخير هو ما أطلق عليه « عصر الوزراء العظام » ..

وبدر الجمالى هو أبو النجم بدر بن عبد الله الأرمينى الأصل ؛ اشتراه فى بلاد الشام وهو غلام الأمير جمال الدولة ابن عمار ، فتربى عنده ونشأ فى كنفه ، ولذا سمى بالجمالى نسبة إليه ؛ ويصفه ابن منجب الصيرفى فى كتابه « الإشارة إلى من نال الوزارة » ، فيقول : « كان عزوف النفس ، شديد البطش عالى الهمة ، عظيم الهيبة مخوف السطوة » وقد ساعدته هذه الصفات على الانخراط فى سلك وظائف الدولة وعلى أن يرقى فى هذه الوظائف حتى ولى إمارة دمشق للخليفة المستنصر الفاطمى سنة ٤٥٥ هـ ، ولكن شدته أثارت ضده الجند والأهالى جميعاً ، فاضطر إلى الخروج من المدينة فى العام التالى لولايته عليها ؛ ولكنه لم يلبث أن عاد والياً عليها وعلى الشام كله عام ٤٥٨ هـ ، وما لبثت دمشق

أن ثارت عليه مرة ثانية بعد أربعة أعوام ، فانسحب إلى عكا ، وكان على رأس الثوار فى هذه المرة عدو بدر العنيد الشريف أبو طاهر حيدرة بن الحسن الحسينى الذى كان عالماً محدثاً عظيم المكانة بين الناس ؛ وكانت هذه الثورة الثانية أعنف من سابقتها وأشد ضراماً ، فتخرب من جرائها قصر الإمارة والجامع الأموى ونهبت خزائن بدر نفسه ، فاضطر إلى الخروج من دمشق بعد إذ أفلت زمامها من يده ؛ ولكن ذلك الأرمنى الصعب المراس لم يلبث أن عاد إلى دمشق فى العام التالى وانتقم من غريمه حيدرة انتقاماً بالغ القسوة ، فقتله ثم سلخ جلده ، وقيل إنه سلخه حياً[1] . وهذا عمل لا يستطيع التاريخ أن يغتفره لبدر بسهولة .

أنفق بدر بعد ذلك الأعوام القليلة التى سبقت استدعاء المستنصر له إلى مصر عام ٤٦٦ هـ فى حروب مع بعض أمراء الترك الذين كانوا لا ينفكون يغيرون على أملاك الدولة الفاطمية فى الشام محاولين أن يقتطعوا أطرافها ليضموها إلى دويلاتهم التى كانت خاضعة اسمياً لسلطان الخليفة العباسى ؛ وفى تلك الأثناء أفلح بدر فى أن يكون لنفسه حرساً كبيراً من بنى جلدته الأرمن وكذلك جيشاً خاصاً يدين له جنوده بالطاعة العمياء .

ويحسن بنا قبل الحديث عن بدر فى مصر أن نتحدث عن حالها قبل مقدمه إليها ؛ كان على رأس الدولة الفاطمية فى ذلك الوقت المستنصر بالله خامس الخلفاء الفاطميين فى مصر وأطولهم عهداً ، فقد خلف أباه الظاهر وهو فى السابعة من عمره عام ٤٢٧ هـ ، وظل متربعاً على عرش الخلافة حتى توفى عام ٤٨٧ هـ ، وهو فى السابعة والستين . ويمكن أن نقسم هذه الأعوام الستين التى احتل فيها المستنصر العرش إلى فترات ثلاث :

١ — فترة الرخاء المستنصرى (من ٤٢٧ إلى ٤٤١ هـ) :

وفيها فاقت القاهرة غيرها من مدن العالم الإسلامى فى الفخامة والعمران ، وعمت البلاد بالهدوء الشامل والأمن المستتب . وقد وصف الرحالة الفارسى ناصر خسرو الذى زار مصر ما بين سنتى ٤٣٩ و ٤٤١ حالة البلاد فى ذلك الوقت فقال : إن الخليفة كان محبوباً من الشعب ، وإن أحداً لم يكن يخشى سلبا أو تعدياً فى ظل حكومته ، وإن تجار الجواهر والصيارفة لم يكونوا يحفلون بإغلاق حوانيتهم ، إذ لا يخشون عليها من اللصوص . وقد كان لهذا أثره العميق فى نفس الرحالة الفارسى الذى أرجع الفضل فيما رآه من رخاء وأمن إلى سياسة الفاطميين وبالتالى إلى مذهبهم ، فترك مذهبه السنى واعتنق المذهب الإسماعيلى الشيعى . وعندما عاد إلى وطنه أصبح من أخلص دعاة الإسماعيلية حتى اضطهده السلاجقة السنيون .

٢ — فترة الحكم اليازورى (من ٤٤٢ إلى ٤٥٠ هـ) :

لم تلبث مصر بعد زيارة ناصر خسرو لها بقليل أن حلت بها أيام سيئة ، إذ استقلت بلاد المغرب عن الدولة الفاطمية ، وتلتها بلاد اليمن . وهددت المجاعة مصر وكاد يعصف بها تنازع العناصر المتألبة المتعادية ، لولا أن قيض الله للبلاد رجلاً استطاع أن يجنب البلاد ويلات المجاعة وما يتبعها من الأوبئة والفوضى والجرائم . ذلك هو أبو محمد الحسن اليازورى الذى كان مديراً لخاصة والدة الخليفة ، إذ عهد إليه المستنصر بالوزارة عام ٤٤٢ هـ . قبض اليازورى على زمام السلطة تسع سنوات استولى فيها على مخازن الغلال ، وأمكنه بحكمته وحسن تصريفه للأمور أن يبعد الخطر عن مصر خلال هذه المدة ؛ ولكن المستنصر قبض عليه عام ٤٥٠ هـ بتهمة مراسلته لطغرلبك السلجوقى ودعوته إياه لغزو مصر ، وأبعده إلى تنيس مع زوجته وأولاده حيث قتل . وليس هناك ما يثبت صحة هذه التهمة ، ولعل الأمر لم يعدُ وشاية من وشايات القصور ، وما كان أكثرها فى تلك الأيام .

٣ — فترة الفوضى والتدهور (من ٤٥٠ إلى ٤٦٥ هـ)

بدأ الفساد والاضطراب يدبان فى مصر بعد مقتل اليازورى ، فتعاقب على كرسى الوزارة فى تسع سنوات أربعون وزيراً ، وكانت السلطة الفعلية بيد الجنود التركية الذين طردوا الجنود السودانية أنصار أم الخليفة إلى الصعيد . وهناك قام هؤلاء بكثير من أعمال العنف والفوضى ، كما اكتسح بعضهم الدلتا حتى وصلوا إلى الاسكندرية فاستقروا بها .

ومما زاد الطين بلة انخفاض مياه النيل سبع سنوات متتاليات (من عام ٤٥٧ إلى عام ٤٦٤ هـ) فأجدبت الأرض

(١) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، الجزء الثانى .

وعزت الأقوات حتى أكل الناس القطط والكلاب والجيف، بل بلغ بهم سوء الحال أن أكل بعضهم بعضا. ويطيل المؤرخون في وصف الحالة الأليمة التي عانتها مصر في تلك السنوات العجاف التي أطلقوا عليها اسم «الشدة العظمى». انتهز الأتراك هذه الفرصة وعاثوا في البلاد فساداً، فأتلفوا قصور الخلفاء الجميلة، ونهبوا المجموعات الفنية التي لا تقوّم، كما أغاروا على المكتبات النفيسة وبددوا ثرواتها العلمية التي أنفق الخلفاء الفاطميون في جمعها الكثير من الجهد والمال. وكان طبيعياً أن يحل الطاعون بعد ذلك بالبلاد، فأخذ يحصد الأرواح حصداً، ولم ينج من منجله الرهيب دار.

ومس الضر الخليفة نفسه، فباع أثاث قصوره وتحفه الغالية وملابسه الثمينة وحليه التي لا تقدر بمال، ثم أصبح مديناً بحياته لبنت أحد الفقهاء، إذ كانت تجري عليه رغيفين في كل يوم. أما نساء القصر فقد هربن من الوباء إلى بغداد، عاصمة الخلافة العباسية السنية!.

ازداد نفوذ ناصر الدولة بن حمدان زعيم الجند الأتراك حتى اضطر الخليفة إلى أن يسلمه إدارة شئون البلاد، فلم يزده ذلك إلا طغياناً، وبدأ بأن حذف اسم الخليفة من خطبة المساجد في الوجه البحري، وهدد بوضع مصر تحت سيادة بغداد، بعد أن كان البساسيري أحد قواد العباسيين قد هدد بغداد نفسها بوضعها تحت سيادة القاهرة عام ٤٥٠ هـ، فما أعجب دورة القدر!.

انتهت أيام الشدة العظمى ففاض النيل وغلّت الأرض غلة وفيرة عام ٤٦٥ هـ، فتنفست البلاد الصعداء، وبدأت تفيق من ذلك الكابوس المخيف. انتهز المستنصر الفرصة ليتخلص من ابن حمدان بعد أن ضاق به ذرعاً، فأوعز بقتله إلى قائد تركي آخر هو الدكز، ونجح هذا في مهمته فقتل ابن حمدان وبعث برأسه إلى الخليفة(1). ولكن لم تلبث الفوضى أن عمت البلاد مرة ثانية من جراء مفاسد الجند الأتراك وعلى رأسهم الدكز نفسه، وكذلك بسبب سوء إدارة الوزير ابن أبي كدينة، فلم يجد الخليفة المسكين بداً من الاستعانة بذلك الرجل الحازم القدير بدر الجمالي فأسرع عام ٤٦٦ هـ باستدعائه من الشام.

(البحث بقية)

أ. ع. ص

(١) الكامل لابن الأثير، الجزء العاشر.

الصراط المستقيم

بقية المنشور على صفحة ١٥

«ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها».

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون. ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون. لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون».

وشر الكفر هو خسران النفس كما أشار القرآن في آية أخرى، ولولا ذلك لم يكن في الكفر شر.

كما أن عقوبة نسيان الله نسيان النفس كما أشار القرآن هنا، وليس وراء ذلك عقوبة.

إن الأنانية الكاملة هي تِرياق هذه الشرور التي تضج منها الإنسانية، وتكاد تمسخ معناها مسخاً.

والأنانيات الكاملة تختلف في مزاياها ونزعاتها كل الاختلاف، ولكنها لا تختلف على كنوز الدنيا أيما اختلاف.

وهي مع اختلافها في مزاياها ونزعاتها بحكم فطرتها السليمة تتكامل وتتجه نحو هدف واحد، وتعمل في طريق واحد كما تؤدي الأنغام الموسيقية المختلفة الصادرة من آلات مختلفة بأيدي عازفين مختلفين لحناً موسيقياً واحداً.

والخلاف هنا كالخلاف هناك أمر لازم مستحب، لأن نقصان نغمة واحدة مخل بأداء اللحن، منفر للأسماع، ونقصان أنانية كاملة واحدة حد للامتياز الإنساني عن النمو والتحرر والتنوع، لأنه ما دام نامياً متحرراً فهو على حسب ناموسه الفطري لا بد أن يتنوع، فالتنوع أو التميز نتيجة لازمة للنمو والتحرر.

والأنانية الكاملة مشغولة بعبادة نفسها واستخراج كنوزها وتقديمها منحة للوجود عن كل ما هو خارج عنها أو هي ذاهلة بتحقيق ذاتها عما عداها، ولا يعنيها أن تأخذ بل أن تعطي، لأنها غنية بنفسها لا فقيرة، ولذة الغنى أن يعطي، وحاجة الفقير أن يأخذ. وهي لإحساسها بغناها وإحساسها بواجبها معاً في وقت واحد تعطي مكرهة كمختارة أو مختارة كمكرهة، لأن تحقيق الذات لا يتم إلا بالإعطاء، إنما الغنى غنى النفس، ولا غنى للنفس إلا بمواهبها العاملة.

وإنما الفقرُ فقر النفس ، ولا فقر للنفس إلا بخلائها من المواهب الذاتية ، أو بتعطلها من العمل .

ولا تتحقق الذات إلا بأمرين : أحدهما إيمان تطمئن به إلى مكانها في الوجود ، وتشعرها بالصلات الوثيقة التي تربطها به فتأنس إليه ، وتشعر فيه بالألفة والولاء له ، وفي ذلك إشعار لها بواجباتها نحو نفسها ونحو الوجود ، وإنعاث لها على القيام بواجباتها نحو نفسها ونحوه ، وكبح لها عن عمل ما يتنافى مع هذا الولاء . الواجب الذي تشعر به نابعا من داخلها وليس مفروضا عليها من خارجها ، ولا قيمة لكسب إنساني صحيح أو زائف إلا بإشعار صاحبه بالثقة بنفسه ، سواء أملك علماً أم أدبا أم جاها أم مالا أم أولادا أم نحو ذلك .

وثانيهما عمل مناسب لمواهبها تتمرس بتجاربه حتى تنضج وتستوى وتتسع طاقة وسعها استعدادا صحيحا . لأن التمرس بالتجارب ومزاولة الأعمال سبيل لا مفر منه لتفتح المواهب وتوطيدها ومعرفة نوعها واتجاهها وتمييز ما يصلح لها وما لا يصلح من الأعمال ، والوقوف على ما يجدر به وما لا يجدر من أوجه النشاط .

ركنا الحياة الصحيحة إذاً هما هذان الأمران : الإيمان والعمل الصالح .

فإذا فقدت الحياة أحد هذين الركنين كانت حياة مختلة ، وإذا فقدتهما فقدت كل قيمتها وأثرها .

وأيما حياة إنسانية اجتمع لها هذان الركنان فهي حياة طيبة أيا كان دينها ومذهبها وعملها وزمنها . في القرآن الكريم : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » (البقرة ٦٢)

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة ، وندخلهم ظلا ظليلا » (النساء ٥٧)

« الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » (الرعد ٢٩)

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (النحل ٩٧)

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا » (الكهف ١٠٧—١٠٨)

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » (مريم ٩٦)

« فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون » (الأنبياء ٩٤)

« ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ، إنه لا يحب الكافرين » (الروم ٤٥)

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك هم خير البرية » (البينة ٧)

« ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا يخاف ظلما ولا هضما » (طه ١١٢)

ولا امتياز للإنسان على غيره من الكائنات بالعقل لمجرد التعقل ، بل باستعداده لهذه الحياة الطيبة التي توافر لها هذان الركنان الإيمان والعمل الصالح ، وما كلفه الله هذه الحياة إلا وقد هيأ له بواعثها وعدتها ، وهذا ما لم يتحه كائن إلا الإنسان .

« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا »

إن المعلم الحق هو الذي يكشف لنا مكامن الثروة في نفوسنا .

وإن الهادي الحق هو الذي يثير قوى الهداية فينا .

وما كان عمل المصلحين أكرم من كشف الثروة النفسية ، وإثارة قوى الهداية في السريرة من طريق الإيمان والعمل الصالح .

ومن هذا الطريق تكمل الأنانية ، والأنانية الكاملة لذتها فيما تعطى من حب وفرح ، وهي لا ترجو ثواباً ولا تخاف عقابا ، لأن جنتها منطوية في ذاتها ، ونارها في الشرود عن ذاتها ، وليس لها وراء ذلك جنة ترغب ولا نار ترهب .

وتلك ذروة الأنانية ، وسبيلها هو الصراط المستقيم .

محمد خليفة التونسي

من مطالعات الكتب

للأستاذ الدمرداش محمد بك

قرأت في الأيام الأخيرة كتاباً بعنوان : « الصيد في غابات السودان » لمؤلفه الأستاذ جاد الله طانيوس عضو نادي الصيد الملكي المصري ، والكتاب مطبوع في القاهرة سنة ١٩٤٠ على نفقة النادي المذكور . والأستاذ جاد الله من أهالي إدفو ، وعمل موظفاً في حكومة السودان ، وولع منذ حداثته بالصيد والقنص ، ودفع به حب الصيد إلى اختراق غابات المنطقة الاستوائية وأدغالها ، وأحراج شرق السودان وغربه ، بصيد الوحوش الكاسرة والغزال والزراف والطيور وغيرها من حيوانات هذه المناطق .

وهو يروي في كتابه ما وقع له من أحداث ومخاطر ومغامرات في أثناء تجواله في هذه الأرجاء لإشباع هوايته هذه مدة تزيد على ثلث قرن ، من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩٤٠ .

وقد رأيت أن أنقل لقراء الثقافة بعض ما احتواه الكتاب من مشاهد ونوادر وموعظة لطرافة الموضوع .

يقول المؤلف في مقدمة الكتاب : في الغاب علم وحكمة ، وموعظة وعبرة ، وفيه حب ووفاء ، وهجر وجفاء ، وفيه كل ما في الحضر من مشاعر وإحساسات ...

... وتوفرت لدىّ صور عدة من صور الحياة فيه ، وشاهدت من طبائع حيوانه وخصائص نباته ما حسبت في إذاعته نفعاً للراغبين فيه وشفاء لنفوس المتطلعين وإثارة لرغبات الهواة ، وفتحاً لباب سدته في زماننا سرعة الحياة ... إلى أن يقول : لقد آنس في نفسي ما كنت أراه في الرجال من أهلي من ميل لحمل السلاح ورغبة في إصابة الرمي ؛ فتشوقت أن أكون مثلهم ، واتخذت سبيل الصيد غرضاً فأصبحت وأنا في أجيد الرماية والإصابة ، وكنت أتشوق إلى الغابات الكثيفة ذات الأدغال والكهوف ، وأحلم بذلك اليوم السعيد الذي يجيء فيه القدر فيه صراعاً عنيفاً بيني وبين وحوش الغاب ، ولكم تمنيت أن أقف وجهاً لوجه أمام سيد الوحوش لأتبين بنفسي مبلغ ما يرويه الناس عن هيبته وقوته ومن جبروته وعزته ، حتى حققت الأيام هذا الحلم السعيد وأتيحت لي فرصة من أندر الفرص ، إذ كان أول بلائي في هذا الميدان موقعة من المواقع الرائعة التي لا يزال أهل السودان يتحدثون بذكرها ، تلك هي الموقعة التي صرعت فيها الأسد المشهور (أبا الدبيس) — ثم يحكي المؤلف قصة صيده لهذا الأسد بإسهاب ووصف مثير رائع . نقتطف منه ما يأتي مع بعض التصرف :

كنت ببلدة القضارف بالسودان الشرقي وسمعت حديث الناس عن هذا الأسد ، ورأيت مبلغ رعبهم منه لضراوته وقوته وشدة ولعه بافتراس الناس ؛ فسعيت إليه لألقاه في عرينه ، وكان ركبنا مؤلفاً مني ومن خادمي ومن الدليل ، وكان مع كل منا السلاح الذي يناسبه ؛ فحملت أنا بندقية عيار ٤١٠ مليمتر بخزنة ، وحمل الدليل بندقية ذات الخرطوش ، وحمل خادمي سيفه ، وقابلنا في الطريق رعاة الأغنام الذين يكثرون على نهر عطبرة ؛ فاشترينا منهم خروفاً ... الشمس الآن في الطفل ترسل أشعتها الفاترة على الكون ، وقد انقطع ما بيننا وبين التفكير في العودة ... وفي هذه اللحظة جلجل في الجو صوت دوي مرعب ينذر بشر وبيل . لقد كانت زأرة هائلة حقاً ، زلزلت لها الأرض زلزالها ، وتناثرت الرمال تحت حوافر الدواب التي تحملنا ، وارتعدت فرائص الخادم والدليل . وتقيدت المطايا في مواقعها رعباً ، ولم نستطع لها إناخة إلا بعد جهد عنيف ...

لقد أحس الأسد باقترابنا فحذرنا من هتك حرمته .. ومرت الحوادث سراعاً ، بعضها يهيج خلاب ، وأكثرها سوط عذاب ، يذيب القلوب هولاً ... وضعت خرطوشتين في بندقية الخرطوش وسلمتها للدليل ، وأمرته أنه متى صار الأسد قريباً جداً منا فليطلق العيارين دفعة واحدة في وجهه ليعمي عينيه ، وتخيرنا الموقعة مكاناً مناسباً ، وربطت

الحروف في كتلة من الحطب ليكون بمثابة الطعم فيمسك . ثم اتخذت مجلسي في قطعة من الأرض رملية مستطيلة . وأجلست الدليل ومعه البندقية خلفي لجهة اليمين على بعد أربع ياردات . وأجلست الخادم بسيفه خلفي لجهة الشمال على بعد أربع ياردات كذلك . ثم صوبت بندقيتي إلى الحروف حتى أزن اتجاه الطلقة . ولما اطمأننت إلى إحكام هذا الترتيب جلست أنتظر ... كل ما في السكون من تفاصيل يكتنف هذه الدقائق من الزمن : هذا البدر في السماء يريد أن يكون شاهدنا في هذه الليلة . وأغصان الأشجار تلفنا في أستار ظلالها . وهذا النسيم الرخي الرقيق يداعب السكالكات بحنانه . ثم هذا صخب الوادي وضجيجه ! فهل يضج خطوات منا تقوم معركة عنيفة تدور رحاها في نهر عطبرة بين عدد من أفراس البحر ! فتسمع لعراكها شهيقاً وزفيراً . وحمحمة وصهيلاً . ويتطاير رشاش الماء خلال نضالها حتى ليصل إلينا في مكمننا .

وهذا صوت فهد خرج من الغابة قادماً ليشرب ، وتلك أصوات الضباع تتحامى الماء . ونقيق الضفادع في الضحل من الماء . وهذا هو الأسد يمشي ويبدأ مدلاً بقوته تياهاً بعظمته . وهذا دوي زئيره تهتز له القيعان والربى . ويحاول كل حي فيها هرباً ... هذا وذلك إلى أصوات الصدى ترددها الغابة في كل مكان فترتد إلينا مضاعفة مكبرة . فكأن الغابة قد صارت كتلة هائلة من الصوت لا تعي فيها إلا دوياً ... لقد أحسست وأنا في مكمني بين هذه العوالم أنني أحط من البعوضة شأناً وأدنى من الذبابة قدراً . فكدت أنسى نفسي وأنسى ما أنا مقدم عليه لولا أن نبهني (أبو الشيبس) إلى مكانه مني . فتزعت على صوت زأرات ثلاث أطاحت رشد زميلي . وإذا به لا يبعد عنا أكثر من مائة ياردة . ومشى الأسد يعد الخطا متبختراً كأن زميلاي يتمثلان استسلاماً لقضاء الله فيهما وتسليماً للموت الذي لا مفر منه . أما أنا فقد أعددت نفسي وتهيأت للقاء حتى إذا ما وصل الأسد إلى الحروف رفع بمخلبه بها الطمأنينة تحت من طريقه مجدلاً . فأطلقت عندئذ عليه البندقية فدوى صوت الطلق في الغابة ودوى معه زئير الغضب والألم من الأسد ... فنظرت فإذا به في ثورة الغضب قد انتفخت أوداجه فبدا جسمه شبحاً هائلاً وهجم علي هجوم النمر الجبار ... فأطلقت عليه رصاصة أخرى أصابته ولكنه استمر في هجومه وثورة غضبه لولا أن بادرته برصاصة ثالثة كسرت ذراعه اليمنى . ولم يكن بيني وبينه في هذه اللحظة أكثر من مترين . عند ذلك دب اليأس في قلب مقوى عنانه ، وارتد يجر ذيول الخيبة والفشل . وهو يئن من شدة الألم ، ووقع الهزيمة . ثم توارى في ظلام الأشجار وظلالها فودعته واعداً إياه باللقاء في الصباح . أما زميلاي فقد أصابهما من الرعدة ما خبل عقلهما . فالدليل ضغط على تلك البندقية قبل أن يرفع زنادها فلذلك لم تخرج ولا طلقة . أما الخادم فقد تصور أنني اشتبكت مع الأسد بالأيدي فأراد أن يضرب الأسد بسيفه ونسي أن السيف في غمده فأفلت السيف من يده وأصاب رجلي ووقع في الأرض . وكان من فضل الله علي أنه لم يخرج سيفه من غمده ... تم كل هذا في سرعة البرق . ولعل المعركة لم تدم أكثر من دقيقتين لم يفارقني أثناءها إيماني بالله وثقتي بقضائه وقدره . لذلك لم أحس شيئاً غير عادي . وسارت الأمور في الطريق التي قدرتها ... ولما أسفر الصبح لذي عينين عدنا نداب للوصول إلى غايتنا . فتتبعت أثر (أبي الشيبس) ورأيت دماءه قد رسمت خطوطاً حمراء غير منتظمة فوق الرمال في الغابة وآثاراً قادتنا إلى عرينه ... ودخلت العرين فانحنيت ومشيت أحبو على يدي ورجلي في مجرى ضيق . يطعنني الشوك والحسك من فوقي فلم أبال بطعنهما حتى قطعت نحو تسعين ياردة في خط مستقيم ، ثم انحنى بي المجرى لجهة الشرق وهناك وجدت الأسد ملقى في كوخ أقامته الطبيعة من أغصان الأشجار وبنائها على حافة نهر عطبرة يطل عليه من فوق جرف عال يشرف منه الأسد على كل ما يمر به من وحش وطير وإنسان ... ووقفت على فتحة الكوخ . وكانت أشعة الشمس تتلمس طريقها بين الأغصان المدلاة من شرفة الكوخ فتستقر على لبدة الأسد الذي كان قد رقد على بطنه ووضع رأسه فوق يديه وهو ينازع سكرات الموت . ويرتقب المجهول فتأملت حالتينا ملياً ، ثم فكرت في أن أعزيه من حالة فصفرت له صفير الغزال فلوى الأسد عنقه إلي بتثاقل ونظر إلي بعينين كلهما ألم وشكوى . فأشفقت عليه أيما إشفاق وأرحته من هذا الألم

(البقية في الصفحة التالية)

قصة الحضارة

الجزء الثانى — الشرق الأدنى

تأليف ول ديورانت

ترجمة محمد بدران . ٥٠٢ صفحة ١٩٥٠

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

حدثتك عن الجزء الأول من قصة الحضارة الذى نقله صديقنا الدكتور زكى نجيب محمود ، ولعلك تذكر أنه يتعلق بوجه الإجمال بنشء الحضارة وكيف نشأت فى صورتها الأولى ، نعنى ظهور اللغة والكتابة والفن والتفكير والدين وما إلى ذلك من مقومات الحضارة .

ثم وعدتك أن أحدثك عن الأجزاء التالية عند ظهورها ، والحق لقد أنجز الترجمان نقل الثانى والثالث والرابع من هذه القصة التى وقع اختيار الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية على نقلها ، وقامت لجنة التأليف بطبعها ونشرها ، فأصابت الإدارة الاختيار ، وأحسنت اللجنة النشر والطبع ، وأجاد الناقلان الترجمة .

وأحسب أنى فى غير حاجة أن أقدم لك الأستاذ محمد بدران مترجم هذا الجزء الثانى ، فهو من أئمة النقلة فى العصر الحاضر ، وأكبر الظن أنك قد قرأت له الكثير مما توفر على ترجمته إلى اللغة العربية فى شتى فنون التاريخ والسياسة والأدب والاجتماع . وقد أكسبته طول صحبته للكتب دماثة خلق ورقة طبع وعفة لسان وحسن بيان .

* * *

يحدثنا هذا الجزء عن حضارة ستة شعوب هم : السومريون ، والمصريون ، والبابليون ، والأشوريون ، واليهود ، والفرس . ويحدثنا كذلك عن خليط من الأمم كالحيثيين والأرمن والفينيقيين وغيرهم .

وهو لا يعرض التاريخ السياسى لهذه الدول التى قامت فى القديم ثم بادت واختفى ذكرها ، ولكنه يقص قصة حضارتهم . وقد فصّل القول فى الأصول الحضارية للمجتمعات فى الجزء الأول الذى نقله الدكتور زكى نجيب محمود . وهو يقسم هذه الأصول أربعة أقسام ، أو يردها إلى عناصر أربعة : العناصر الاقتصادية والسياسية والخلقية والعقلية . فيتحدث فى العناصر الاقتصادية عن أسس الصناعة والتنظيم الصناعى ، وفى العناصر السياسية عن أصول الحكومة

المعش بطلقة أصابته فى جنبه اليسرى فخر صريعاً ... ثم عدت إلى معسكرنا ، وفى منتصف الليل ونحن فى سبات عميق صحونا على صوت زئير مرعب ملأ الأرجاء دوياً ، وإذا باللبوة تبحث عن أسدها وتناديه وتتجه بندائها صوب الجهات الأربع ، ولما لم يردّ عليها توقعت شراً نزل به ، فأسرعت إلى العرين فى لهفة وجزع ، ولم تلبث لهفتها أن انقلبت عويلاً ونواحاً ملأ الغابة حزناً وأسى . ولست أكتمك أيها القارئ شعورى فإن عاطفة الإشفاق عليها والرثاء لمصابها أثارت فى قلبى الندم على ما جنينا به ...

وبعد أن تتبع المؤلف آثر اللبوة فى الغابة قتلها هى الأخرى ... ثم يقول : على أن الذى أرجو الإشارة إليه أنك إذ تقرأ كتابى هذا لا تقع عينك فيه إلا على وقائع ثابتة ليس للخيال فيها مجال ولا للابتكار فيها أثر .

الدمرداش محمد

والدولة والقانون والأسرة ، وفي العناصر الخلقية عن الزواج والآداب الاجتماعية والدين ومصادره ومظاهره ومعبوداته ، وفي العقلية عن الآداب والعلوم والفنون .

وفي ضوء هذه الأصول أو هذه الخطة ، نجد تفصيل القول في حضارة السومريين التي بدأ بها الجزء الثاني من كتابه؛ ولست أدري لماذا آثر المؤلف البدء بالسومريين الذين سكنوا الجزء الأدنى من الدجلة والفرات عند الخليج الفارسي ، وبدولة عيلام التي تقع في إيران من جهة نهر الدجلة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مصر . والسبب في ذلك اعتقاده أن حضارة السومريين أقدم من حضارة المصريين القدماء ، وترجيحه آراء بعض العلماء على رأي إليوت سميث الذي يذهب إلى أن حضارة سومر قد انتقلت إليها من مصر ، ويؤيده برستد في ذلك ، ويضيف إلى ذلك أن « العجلات الفخارية » من ابتكار المصريين . أما أدلة العلماء الآخرين الذين يرجعون قدم الحضارة السومرية مثل ده مرجان وعيل فيذهبون إلى أن الكتابة التصويرية التي كان المصريون يستخدمونها قبل عصر الأسر الحاكمة قد انتقلت إلى مصر من بلاد السومريين . وكذلك صناعة النحاس ، والهندسة المعمارية ، والأواني الفخارية ، وتماثيل بعض الآلهة ، وغير ذلك مما « لا يخطئ الإنسان في أنها من أصل أسيوي » ص ٤٤ .

ثم أضاف المؤلف بعد ذلك فقال : « ولا غضاضة على مصر في أن تعترف بالسبق لبلاد سومر . ذلك أنه مهما تكن الأصول التي استمدتها مصر من أرض دجلة والفرات ، فإن هذه الأصول سرعان ما نمت وأينعت وأثمرت حضارة مصرية خالصة فذة ، هي بلا ريب من أغنى الثقافات المعروفة في التاريخ وأعلاها شأناً وأعظمها قوة » ص ٤٥ .

أقول ليس الأمر أمر غضاضة أو تفاخر ، ولكننا ننظر إلى نشأة الحضارة نظراً علمياً مجرداً من شوائب الهوى والعصبية للوطن أو الجنس . فمن العسير أن نحكم حكماً جازماً بسبق حضارة على أخرى لمجرد التشابه في المظاهر الحضارية ، وله أن تقول إن أي واحدة من الدولتين أسبق أو أقدم ، وله أن تقول إن إحداهما أخذت عن الأخرى ، ما دامت الأدلة لا ترتفع إلى مرتبة اليقين . ومع ذلك فإني أحسب أن المؤلف لم يطلع على نتائج الاكتشافات التي قام بإعلانها مصطفى عامر بك عن حفرياته في المعادي ، وعن حفرياته في عين شمس ، لأن هذه الأخيرة لم تعلن إلا هذا العام فقط ، كما قرأنا في الصحف . وعندي أن هذه الاكتشافات إذا أخذت سبيلها إلى أنظار العلماء ومراجعهم سوف تكون عاملاً مرجحاً في الفصل في قضية أي الحضارتين أقدم ، المصرية أم السومرية ، وعندئذ تكون الكلمة كلة العلم والحق ، ولا غضاضة على الغربيين أن يعترفوا بعد ذلك بأن مصر كانت مهد الحضارات ومعلم الشعوب ، وواضعة أساس كثير من العلوم والفنون .

وقد استقى المؤلف معلوماته التي ذكرها عن الحضارة المصرية ، عن علماء الآثار المصرية الذين كتبوا في ذلك ، وآراؤهم متضاربة ، وبعضها قديمة تنسخها الدراسات الحديثة ، ولهذا السبب يجد القارئ المصري المطلع على تاريخ بلاده القديمة شيئاً من الخطأ في الأحكام العامة التي يصدرها المؤلف ؛ نضرب على سبيل المثال قوله عند التعليم : « وقد وصلت إلينا كراسات من عهد الدولة الحديثة ، وفيها إصلاح المدرسين لأخطاء التلاميذ تزين هوامشها . وهذه الأخطاء تبلغ من الكثرة حداً يجد فيه تلميذ اليوم كثيراً من السلوى . وكان الإملاء ونقل النصوص أهم طرق التعليم ، وكانت هذه الدروس تكتب على الشقف أو على رقائق من حجر الجير . وكان أكثر ما يعلم هو الموضوعات التجارية ، وذلك لأن المصريين كانوا أول الأقوام النفعيين وأعظمهم استمساكاً

بالنظرية النفعية ..... »

والذي أعرفه ، بقدر اطلاعي المتواضع في تاريخ مصر القديمة ، أن علومهم وفنونهم وآدابهم نشأت عن الزراعة لا عن التجارة وأن الحضارة المصرية وما تحويه من دين وعلم وفن وأدب إنما اتخذت مظهرها في الزمن القديم ، بل إلى العصر الحاضر ، من اشتغال معظم أهلها بالزراعة وفلاحة الأرض ، ولو كان المصريون تجاراً لاصطبغت حضارتهم صبغة أخرى تختلف تمام الاختلاف عن هذا اللون الذي نعرفه . بل المشهور أن التجار هم الشعوب المجاورة كالفينيقيين أو أهل جزر البحر الأبيض وغيرهم مما نشاهده حتى اليوم . وقد نشأ الحساب والهندسة في مصر لمساحة الأراضي الزراعية والاشتغال بضبط مياه النيل وتوزيع المحاصيل . فلذلك كان من

الغريب أن يوصف المصريون بالمذهب النفعي ، أو النظرة النفعية ؛ والأرجح أنهم تقلبوا في مذهبين فلسفيين : الواقعي والمثالي ، وذلك مشاهد من فنونهم ، فهي مثالية تعبر عن مثل عليا دينية يؤمنون بها أشد الإيمان ، وتبتعد عن محاكاة الطبيعة ، وذلك في أغلب عصورهم ، أو قل إنها رمزية ، ثم أصبح الفن واقعياً حين حاول التخلص من سلطان الدين والتقاليد ، وآثر محاكاة الطبيعة .

ويقول المؤلف ص١٢٩ عن الهياكل المصرية القديمة : « ولعل في هذه الصروح إفراطا في الأعمدة وتقاربها بعضها من بعض لاتقاء حر الشمس اللافح ، ولعل فيها بعداً عن التناسب هو من خصائص الشرق الأقصى ، وافتقارا إلى الوحدة ، وهياما محميا بالضخامة كهيام أهل هذه الأيام » نقول : هذا الحكم على فن بناء المعابد يجانب الصواب ويدل على جهل بالأصول التي اعتمد عليها المهندسون في البناء . فقد كان المصريون أبرع الناس في معرفة أثر الطبيعة في نفسية الإنسان ، ودرسوا نظام الضوء وتوزيعه ، وأقاموا المعبد بحيث تبدد الضوء تبديداً خاصاً يبعث في النفس الرهبة والروعة والجلال ، فلا يملك رواد المعابد إلا الخضوع والانقياد .

وقد تنبه المترجم الفاضل لتحامل المؤلف على مصر الحديثة حين قال : « واليوم يوجد مكان يسمى مصر ، ولكن المصريين ليسوا سادته ؛ فلقد حطمتهم الفتوح من زمن بعيد ، واندمجوا عن طريق اللغة والزواج في الفاتحين العرب » قال المترجم في تعليقه : « آثرنا أن ننقل هذا الجزء كما كتبه المؤلف حرصاً منا على الأمانة في النقل ، وإن كنا لا نوافقه على الكثير منه ، ورغبة في أن يعرف المصريون كل ما يقال عنهم ، حقاً كان ذلك أو باطلا ... » إلى آخر تعليق الناقل .

وبعد ، فلا تغض هذه الملاحظات من قيمة الكتاب ، ولكل مؤلف رأيه الذي يعتقد أنه الصواب . وقد طال بنا الحديث عن مصر ، حتى لا يتسع المكان للحديث عن بابل وأشور واليهود .

وهناك بعض ملاحظات يسيرة عن الترجمة . في ص١٤٨ ، عند الكلام عن صلة الفن بالدين ، قال المؤلف : « لقد كان الدين يقدم للفنانين الحوافز والأفكار ، ويوحي إليهم بروائع فنهم ، ولكنه فرض عليهم من العرف والقيود ما شده إلى الكنيسة بأقوى الروابط » . وقول المؤلف « الكنيسة » خطأ ، لأن هذا البناء خاص بالمسيحيين ، وكان يحسن أن ينبه المترجم عليه في الهامش ، أو يستبدل المعبد بها .

وفي ص ١١٩ ، عند الكلام عن الإله تحوت ، إله الحكمة : « وكان اليونان يعظمون تحوت ، ويسمونه هرمز » . نقول وقد عرف العرب هذا الإله ، ولكنهم رسموه بالسين فقالوا : « هرمس » ، وهذا هو المشهور . قال القفطي في (أخبار الحكماء) : « اختلف الحكماء في مولده ونشأته وعمن أخذ العلم قبل النبوة ، فقالت فرقة : ولد بمصر ، وسموه بهرمس الهرامسة ، ومولده منف . وقالوا : هو باليونانية « إرميس » ، وعرب بهرمس ، ومعنى إرميس عطارد ... » .

أحمد فؤاد الأهواني

مكتبة الثقافة

للأستاذ أحمد حسين الصاوي

أدب وتاريخ واجتماع : للدكتور محمد صبري بك — مطبعة مصر سنة ١٩٥٠ في ٥١٢ صفحة كبيرة

يأسى المثقف كثير أحيان يستعرض حياتنا الأدبية الحاضرة ويرى ما آلت إليه ، فإن تلك الشعلة الفكرية المقدسة التي كانت قبساً من نهضتنا الشاملة منذ ثلاثين عاماً ، والتي ازدهرت وتلألأت وبهرت ، قد هبت عليها أعاصير هوجاء أضعفت من جذوتها وأخمدت من سناها . ذلك أن الأدب قد رزئ باختطاف نفر من أعز أعلامه ، انتزعهم من أبراجهم انتزاعاً إغراء فعال التأثير سيئ الأثر ، وما بالك بإغراء السياسة والصحافة ، القوة والمال ، الحكم والغنى ؟

كان لنا نشاط أدبي خصب ، وكانت لنا صفحات أدبية سيارة تصطرع فيها الأفكار ، وتتلاحم الأقلام ، وتزداد بهذا وذاك جميعاً ثروتنا الأدبية ويطرد نماؤها . ثم مضت تلك الأيام ، واختفت صفحاتها وجفت أقلامها ، من أصحابها من أغرى ، ومنهم من أغرى به ، ومنهم من قبع مكرهاً راضياً من الغنيمة بالسكوت والصبر . ولا يستطيع المنصف أن يلقي مسئولية هذه الحال على الأدباء أنفسهم ، فلا شك أن للأحداث والهزات التي مرت بمصر في عهدها الأخير ، والتطور الملحوظ في مقاييس حياتنا وأوضاعها ومقوماتها ، لا شك أن لهذا كله يرجع السبب الأكبر في انصراف الأدباء من الإنتاج الأدبي إلى اعتلاء المناصب الكبرى في الدولة ، أو إلى العمل الصحفي المربح .

والدكتور صبري بك (السوربوني) من أعلام تلك الأيام الزاهرة ، طالما كانت له في ميادين الفكر جولات وصولات ، وطالما شغل الأذهان وأثار الجدل بمقالاته وبحوثه المتعددة في الأدب والاجتماع والتاريخ . وها هو يحن إلى ذلك العهد فيخرج لنا كتابه هذا القسم ، حافلا كالحديقة الغناء بأطيب الثمار والأزهار . نعم لا شك أنه يحن إلى ذلك العهد ويذكر أيامه الحوالي ، فالجزء الأول من جزءي هذا الكتاب سبق نشره عام ١٩٢٧ وكان بدوره مجموعة مقالات وأبحاث نشرت من قبل في الصحف .

أما الجزء الثاني فينتظم فصولا شائقة متنوعة سبق نشر بعضها في الصحف (منذ عام ١٩١٣ حتى عام ١٩٥٠) ولم يسبق نشر البعض الآخر ، وإن كانت جميعاً لم يضمها من قبل كتاب .

وكنا نرجو ألا يكتفي الكاتب الفاضل بنشر تلك الأبحاث والمقالات القديمة على حالها ، إذ لا شك أن ما تزود به من ثقافة واسعة ، وما أنضجته التجارب السنية من محصوله الفكري ، وما جد من أفكار وآراء خلال السنوات الطويلة التي انقضت منذ كتابة هذه الفصول ، لا شك أن هذا كله كفيل بتعديل بعض آرائه القديمة ، وتطعيم البعض الآخر .

ومهما يكن من أمر ، فيمكننا القول مطمئنين أن قارئ العربية يحق له أن يفخر إذ تضم مكتبته مثل هذا الكتاب ، ففيه فائدة محققة ، وفيه متعة خالصة .

إلى راحلة : قصة للأستاذ يوسف السباعي — مكتبة الخانجي سنة ١٩٥٠ في ٤٣٤ صفحة كبيرة

الأدب العربي فقير في القصة بوجه عام ، وفي القصة الطويلة (Roman) بوجه خاص ، وقد بذلت بعض المحاولات لتعويض هذا النقص في فجر نهضتنا الأدبية المعاصرة ،

ولكنها كانت محاولات قليلة ضئيلة ، كما كانت منجمة غير متصلة الحلقات .

وقد ازدهرت القصة المصرية القصيرة في الأعوام الأخيرة وثبتت أقدامها في الميدان الأدبي ، بما حفلت به من إنتاج دسم يمتاز بالأصالة والجدة والتنوع . غير أن براعم القصة المصرية الطويلة التي تفتحت في هذا الحقل الخصب مازالت قليلة ، يتعهدها بضعة من رواد القصة الشبان الذين سجلت لهم القصة القصيرة من قبل نجاحاً كبيراً .

والأستاذ يوسف السباعي أحد هؤلاء الرواد . وهو قصاص ناجح ، ولكنه يثير في الحكم عليه مشاكل بين قرائه ، بل إنه يثير هذه المشاكل في نفس القارئ الواحد ؛ إذ تلازمه دائماً في قصصه صفة غالبة هي الجرأة في التجديد ، دون ما تقيد بما تواضع عليه النقاد ، تجديد في تعبيراته وفي تصويره ، ولكنه كما قلت تجديد جريء يثير المشاكل ، يوافق عليه المؤلف بحماس بعض القراء ، ويخالفه عليه — وبحماس أيضاً — بعضهم الآخر ؛ ويقبله القارئ الواحد حيناً ، ويرفضه حيناً آخر . ولعل تلك الجرأة راجعة إلى حياة الكاتب العسكرية وما تطبعه هذه الحياة في النفس من صفات .

وقصته التي نقدمها اليوم هي أول قصصه الطويلة ، كتبها في صورة مذكرات لامرأة على وشك الرحيل ... عن عالمنا . وأوضح ما يميز هذه القصة صدقها وحرارتها . فكل ما فيها من حوادث وصور وأحاسيس ينبض بالحياة ، ولا يجهد الفكر في تصور أشخاصها ومسرحها ، لأننا نحن أولئك الأشخاص ولأن حياتنا هي ذلك المسرح . والأستاذ يوسف في قصته هذه كاتب صريح يضع النقط على الحروف ويلقي الضوء على دخائل النفس البشرية في تحليل رائع ، بل في تشريح دقيق .

غير أن هناك عيبا يتفرع على جرأته التي أسلفنا الإشارة إليها ونأخذه عليه ، وهو اندفاعه — أحيانا — في السياق والسرد اندفاعاً عنيفاً ، وتوثبه بين الحوادث والأوصاف توثبا خطرا ؛ فهو ينتقل فجأة وبسرعة من بيت شعر جاهلي إلى مثل عامي ، ومن رقة الخيال إلى غلظة الواقع ، تماما كما يندفع ويتوثب بحصانه (الجامح) الفارس يوسف السباعي !

ولكننا مع ذلك نستطيع القول في ثقة ، وباعتزاز ، إنها قصة ناجحة .

الصراع النفسي : للدكتور أبو مدين الشافعي — لجنة البيان العربي سنة ١٩٥١ في ٨٣ صفحة صغيرة

الإنسان نصفان ، ظهر أحدهما وخفي الآخر ، فأما الجسم واتخذ جرما ، وخفيت النفس وعزت فهما . لكل قوانين حياته ومقاييس بحثه ، وكلاهما مؤثر في صاحبه متأثر به .

وقد شغلت النفس الخفية المفكرين منذ القدم ، وفطن بعضهم إلى أهمية دراستها فاهتموا بها ؛ وأغفل ذلك الأكثرون فكفروا بها . وسجل التاريخ لرواد النفس كفاحهم الرائع حتى شهد القرن الأخير نصرهم واحتلالهم لمكانهم بين علماء الانسانية وأساة البشرية . ثم انتصر علم النفس وبرز بهامته إلى جانب العلوم الأخرى . وأصبحت له — مثلها — جوانبه العلمية والتطبيقية ، واعترف المجتمع بأطباء النفس كأطباء الجسد .

والدكتور أبو مدين الشافعي عالم وطبيب نفسي ، له نشاطه في ميادين الترجمة والتأليف والتجريب . وكتابه الذي نقدمه اليوم أحد كتبه المؤلفة . ويبحث الكاتب فيه ذلك التطاحن الباطني والنزاع الداخلي بين عوامل النفس المختلفة ، مما يظهر في صور كثيرة ، من تبرم وضيق ، أو اختلال في بعض الوظائف الجسمية وبعض مواقف التجاوب الاجتماعي . وقد قصد من ذلك إلى إلقاء الضوء على تلك الصلة الدقيقة بين العوامل النفسية والجسمية والاجتماعية ، مما يساعد على حل كثير من مشكلات النفس وعللها .

ويمتاز الكتاب بالتبسيط وتقريب الحقائق النفسية إلى ذهن القارئ ، فهو من هذه الناحية قد حقق الغرض منه . غير أن الموضوع كان يتطلب من المؤلف — لتتم الفائدة — أن يطيل في كتابه ، فلا يوجز في عرضه ذلك الإيجاز الملحوظ الذي نعتقد أنه أتعب نفسه فيه كثيرا . وليس الإيجاز من مستلزمات التبسيط في جميع الحالات ، بل قد يعكس من آثره في أحيان كثيرة .

أحمد صبحي الصادق

مسرح

مسرح الجامعة — الموسم المسرحي الأول — شجرة الدر

الأستاذ عبد الفتاح البارودى

مسرح الجامعة :

حفل أسبوع العيد الفضى لجامعة فؤاد الأول بشتى مظاهر نشاطها الفنى والأدبى ، لكنى مع هذا تفقدت — بلا جدوى — أوجه نشاطها الفنى بصفة عامة والمسرحى بصفة خاصة ، وخشيت أن تكون نظرة جامعتنا العتيدة إلى المسرح شبيهة بنظرة أوساط الناس إليه كوسيلة من وسائل التسلية والمتعة لا أكثر .

والحق أنى كثيراً ما كنت أسمع عن حفلات تمثيلية يقيمها بعض خريجى وطلبة كلية الآداب ويقدمون فيها بعض الروائع الشكسبيرية ، وإذاً فلِمَ لَمْ يشتركوا فى تلك الاحتفالات التاريخية التى دعى إليها عدد وفير من العلماء والأدباء وقادة الفكر من مختلف الأقطار ، وهم بلا ريب ممن يدركون حق الإدراك قيمة المسرح كأدب وفن وأداة ثقافية ؟! .

أرانى بعد هذا فى حاجة إلى المطالبة بإنشاء مسرح جامعى ليتسنى لجامعاتنا النهوض بما ينبغى أن تنهض به فى سبيل توطيد هذا الفن فى بلادنا أسوة بما فعلته وتفعله جامعات الأمم المتحضرة ؟! .

إن المسرح الأوربى لم يكن ليصل إلى ما وصل إليه الآن ، لولا الكلاسيكيون — أى المدرسيون — الذين احتفظوا بالأوضاع الفنية الإغريقية جيلاً بعد آخر على مر العصور إلى أن استثمرها مؤلفو عصر النهضة ، ثم مؤلفو المسرح الحديث من بعدهم .

فنحن نجد مثلاً أن الراهبة Hrotswitha قد كتبت فى القرن العاشر بعض تمثيليات إن تكن دينية فى مغزاها ، إلا أنها متأثرة بالشاعر اللاتينى Terence من حيث القوالب الفنية .

ونجد أيضاً أن الكتاب (الإنسانيين Humanists) ، وهم مدرسيون أيضاً قد حاولوا محاولات كثيرة لترجمة أو محاكاة النماذج الإغريقية والرومانية وفهم قواعد بنائها ، وأمعنوا فى الفصل بين أنواعها وتمييز كل نوع منها حتى استقرت فى القرن السادس عشر فى أوضاع معينة ومحددة أشهرها :

١ — الكوميديا Regular Comedy .

٢ — التراجيديا Regular Tragedy .

٣ — التراجيكوميك Tragi-comic .

٤ — التاريخية Chronicle Histories .

وغالى بعضهم فحرم اختلاط نوع بآخر أو التصرف الشكلى أو الموضوعى على أى نحو ، ولكن المتحررين منهم أتاحوا لأنفسهم شيئاً من الحرية ، حتى لقد عمدوا إلى إخفاء (الكورس chorus) القديم واستبدلوا به رموزاً خرساء مقتبسة من نماذج إيطالية ، وبهذا مهدوا لتطور الدراما عقب ذلك مباشرة تطوراً كبيراً .

أما المدرسيون الجامعيون University Wits فى انجلترا وقتئذ فآثارهم أشهر من أن ينوه بها ، وحسبنا أن نعلم أنهم هم الذين هيأوا المادة والشكل والمثال لشكسبير ذاته :

فمن (بيل Peele) تعلم كيف يمزج روح الفكاهة بالواقع .

ومن (مارلو Marlowe) تعلم كيف تتولد النشوة من الإحساس بالعظمة التى تصاحب شخصية البطل وتفصح عن نبله الجوهرى

وعن (كيد Kyd) تعلم كيف يصور الصراع الداخلى فى البطل كما هو الحال فى شخصية هملت

وعن (ليلى Lyly) تعلم كيف يخلط العالم النموذجى بالعالم الواقعى كما هو الحال فى رواية As you Like it ... الخ .

هذه كلها إشارات إلى بعض فضل الفرنسيين على المسرح .

وإذا أراك — مرة أخرى — فى حاجة إلى المطالبة بإنشاء مسرح جامعى ؟

الموسم المسرحى الأول :

منذ أسبوعين انتهى الموسم المسرحى الأول . وأعتقد أن هذه هى خير فرصة لمراجعة إنتاجنا الفنى لندرك — على الأقل — مواطن الضعف ونعمل على تلافيها .

ويجدر بنا قبل كل شىء أن نذكر أن من أهم أحداث هذا الموسم ميلاد فرقة مسرحية جديدة ، هى فرقة المسرح المصرى الحديث . ومهما يكن رأى النقاد فى هذه الفرقة ، فما أظن أن أحداً يستطيع نكران ما أحدثته من أثر فى المسرح المصرى .

لقد كان جل اعتمادنا فى فرقة واحدة تعتمد بدورها اعتماداً كبيراً على اجتذاب رضاء الجمهور وتملق عواطفه ، ولذلك ظلت تضطرب بين تقديم روايات غير ذات قيمة فنية كبيرة ، وبين تقديم مسرحيات لها قيمتها دون منهاج معين .

ومن جهة أخرى كان معهد التمثيل الذى استرد وجوده منذ خمسة أعوام يخرج طوائف من النقاد والممثلين المثقفين المتخصصين ، ثم لا يجدون لهم متنفساً يحققون فيه عملياً ما تلقنوه نظرياً .

من أجل هذا وذاك ومن أجل الظروف التى لابست حياة المسرح المصرى فى أعوامه الأخيرة ، فكر ولاة الأمور فى تطعيمه بشباب جديد ودم جديد وثقافة جديدة فكانت فرقة المسرح المصرى الحديث .

ولكن إلى أى حد وفقت وما مدى النجاح الذى أصابته فى تحقيق ما وجدت من أجله ؟

إنى وإن كنت قد تحدثت قبل ذلك عن الروايتين اللتين قدمتهما إلا أنى أرى أن خير ما يوضح هذا هو أن نقارن بين حالة مسرحنا قبل وبعد وجودها . والرأى للنقاد الأفاضل . أما أنا فأوثر الانتظار حتى ينتهى موسمها التالى الذى سيبدأ فى أول فبراير القادم بمسرح الأزبكية .

وأعود الآن إلى الحديث عما قدمته الفرقة المصرية ، فأحمد لها مضاعفة نشاطها ومثابرتها ، ولكنى برغم هذا أصارحها — والصراحة هنا واجبة — بأنها لم تستثمر مقوماتها الخاصة بها بالقدر الذى كنت أريده لها والذى طالما كتبت عنه من قبل . فقد كنت أرجو أن تختط خطة تتناسب مع عناصرها وتنهج نهجاً (شعبيا) يغاير نهج شقيقتها ، أى أن تقدم مثلا رواياتها باللغة العامية وتدور موضوعاتها حول معان ذات صلة بوجدانيات الجمهور .

أما وقد آثرت تقديم رواية تاريخية يدور الحوار فيها بالشعر المنظوم الفخم ، ثم رواية مترجمة عن الفرنسية من تأليف كاتبة عصرية ، ثم رواية مقتبسة ، وكلتاهما من طراز لا يتناسب مطلقا مع الجمهور ، ثم روايات مثلتها قبل ذلك مرارا فى الأعوام الماضية ... فليس لى إلا أن أعاود نصحها بأن تستثمر مقوماتها الخاصة بها الموقوفة عليها .

ومع هذا أحب أن أبصرها بالمآخذ التى لاحظتها على رواياتها بادئاً بأولاها وأكثرها رواجاً (شجرة الدر) .

شجرة الدر :

من الصعب أن تقيس أية رواية مصرية بالأقيسة الفنية الدقيقة ، ولكن هذا لا يمنعنى من القول بأن هذه الرواية صدمتنى أكثر من مرة :

صدمتنى منذ استهلالها بعراف يتنبأ بمصير شخصياتها وبتحقق بعد ذلك هذا التنبؤ . إننا نريد أن ننتشل الشرق من هذه الغيبية التى تحول بينه وبين الوعى بالحياة ، ذلك الوعى الذى أنهض أوربا من كبوتها .

وصدمتنى فى بنائها الفنى بسبب استخدامها الميكروفون فى اختصار الحوادث . فالمعروف فنياً أن المسرح وسائله الخاصة به المميزة له من غيره فى هذا الصدد . وربما كان من أهم هذه الوسائل (ستار المقدمة) الذى يمكن المسرحى للناس ، بواسطة إسداله ثم رفعه ، أن يعبر ما يشاء من الفترات الزمنية بالغة ما بلغت من الطول .

يا قــوم ...

سلوا السنين العجاف العشر : هل تركت ... من الرجاء لنا إلا .. أمانينا ؟
صارت تحياتنا .. شكوى نرددها ... مصرحين بها .. حيناً ... وكاتمينا !
لم تبق فاكهة .. ليست محرمة ! ... واللحم .. أصبح ذكرى في أوانينا !
والفول .. كالغول والعنقاء — ليس يرى ... إلا خيالاً .. بعيداً .. لا يدانينا !
والعجل — كالعجل — كدنا أن نقدسه ... من بعد أن «تلج» الفقر الكوانينا !
يا رب : عفوك عنا .. إنها محن ... ولج في العدل كانينا وماتينا !
أنزل علينا من التموين مائدة ... تبقى لأولنا — عيداً .. وثانينا !
وابعث لنا بعصا أخرى لتلقف ما ... ألقى اليهود علينا من ثعابينا !
يا رب ... واشبعهمو للمال الذي جمعوا ... رباً ، وسحقاً ، وقطعاً من حوانينا !

•••

يا قوم : حتى متى نسعى لهلكتنا ... وتجعل الهدم فيما شاد بانينا ؟
حتى متى نتمادى في تفرقنا ... ونستعيد عدانا من تفانينا ؟
هلا صنعنا غداة الحرب ما صنعوا ... فلم نعش هكذا أشباه فانينا ؟
أنحن نحنو على أعدائنا كرماً ... لكن على أهلنا لسنا بحانينا ؟
الله في مصر يا أبناءها ، فلقد ... صرنا بها مسخة في عين شانينا !
أهكذا نستظل الدهر أجمعه ... حزباً بنجم ، وأحزاباً بعانينا ؟
أليس في كل ما قد كان مزدجر ... أليس شيء من البلوى بشافينا ؟
يا ليتها لم تلدنا أمنا .. أبداً ... أو .. ليتنا — كلنا — كنا مجانينا !

(شهاب)

وصدمتني في حوارها الخطابي وشعرها الملئ بالحكم مثل :

نحن النار إن عزنا حسمها
فنحن الطعام لها والوقود
فيا خفة الدهر كم تؤذين
التي وكم تكرمين الجبان
الحلم إن يوضع محل القنا
تعذر الأمر على المصلح

وصدمتني في قلة عنايتها بالحركة المسرحية . ولا أقصد بها تحركات الممثلين على خشبة المسرح ، وإنما أقصد ما اشتملت عليه من حكايات تحكى دون إبراز ما يجب أن يبرزه المسرح من (فعل ورد فعل) .

وأخيراً صدمتني حيلة المؤلف الفاضل في صياغتها الفنية . فقد عمد — كما يعمد كبار المؤلفين — إلى (مسرحة) التاريخ ولكن بطريقة غير عميقة . وأظن أني في غنى عن ضرب الأمثال .

ولي عودة إلى سائر الروايات .

عبد الفتاح البارودي

الثقافة

العـــدد ٦٣١
٢٩ من يناير ١٩٥١

مجلة أسبوعيــة للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

من بريد الثقافة

رد على نقد

... فقد اطلعت في العدد الماضي من الثقافة الغراء على نقد الجزء الثاني من كتاب «قصة الحضارة» تفضل به الأستاذ الكبير.

وإني لأشكر له ما تفضل علي به من تشجيع، كما أشكر له أكثر من هذا ملاحظاته على الترجمة. وقد أخذ على الأستاذ الفاضل كتابة هرمز بالزاي بدل السين، كما أخذ على ترجمة Church بكنيسة؛ فأما الأولى فقد اتبعت نطق الكلمة في الأصل اليوناني، وقد كان مؤلف الكتاب حريصاً على إبراز هذا النطق؛ فكتبه هكذا بين قوسين بعد الاسم (Hur—mez) وقد جريت في كل الأسماء التي وردت في الكتاب على أن أكتبها كما ينطق بها أهلها، مستعيناً على هذا بنطقها الذي يحرص المؤلف على الدوام بإيضاحه. وأعتقد أن الأستاذ الفاضل يوافقني على أن هذه وجهة نظر لها قيمتها وإن خالفت الهجاء الوارد في الكتب العربية. وأما ترجمتي لفظ Church بكنيسة فهو أيضاً اتباع لما جرى على أقلام الكتاب الأفرنج من استعمال لفظ كنيسة بمعنى الدين؛ فهم يقولون الكنيسة والدولة ويقصدون السلطتين الدينية والسياسية سواء أكان ذلك في البلاد المسيحية أم غير المسيحية. ولا ضرر في رأيي من مجاراتهم في هذا.

وأكرر شكري للأستاذ الناقد ولمجلة الثقافة.

محمد بدران

مطبوعات

وصلتنا في بريد الثقافة هذا الأسبوع المطبوعات التالية:

كتب:

كتاب «إنباه الرواة على أنباه النحاة»، تأليف الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، الجزء الأول، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم — وكتاب «ديوان سحيم عبد بني الحسحاس»، بتحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمني رئيس قسم اللغة العربية بجامعة عليكرة بالهند — وقد قامت دار الكتب المصرية بطبع ونشر هذين الكتابين، وهما معروضان للبيع إيوبياً. وثمن النسخة من الأول ٢٥٠ مليماً للأفراد و ٢٠٠ مليم لباعة الكتب، وثمن النسخة من الثاني ٥٠ مليماً للأفراد.

مجلات:

علاج النفس — المؤتمر (الفيوم) — النيل (السودان) — الألواح (بيروت) — صوت الهند — ينشتج (مجلة إسلامية أندونيسية) — مجموعة أعداد من ملحق صحيفة العالم العربي الأسبوعي (بغداد).

نشرات:

صورة مطبوعة من العريضة التي قدمها مؤتمر العالم الإسلامي إلى هيئة الأمم بعد أن وقع عليها حوالي مليون من المسلمين، وهي تتحدث عن مطالب المسلمين فيما يختص بمشكلة كشمير — نشرة من الحزب الوطني الديموقراطي بالعراق تشتمل على منهج الحزب ونظامه الداخلي وخطاب رئيسه في المؤتمر العام الرابع — نشرة الإذاعة العربية من محطة لندن — نشرة من المكتبة الفلسفية بنيويورك من مطبوعاتها في سنة ١٩٥٠.

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | الإدارة | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | | محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٣١ — الاثنين ٢١ من ربيع الثانى سنة ١٣٧٠ — ٢٩ من ينـاير سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

الصـــــين الشيوعية

— ١ —

للدكتور محمد محمود الصياد

منذ عهد غير بعيد خلصت الصـين « لماوتسى تونج » الزعيم الشيوعى ، واضطرت حكومة « تشيانج كاى تشك » إلى الالتجاء لجزيرة فرموزا فى انتظار ما يمكن أن تتمخض عنه أحداث المستقبل ، وما أكثر ما تتابع الأحداث فى الصين ، وما أكثر ما تختلف فتبنى نظاماً أو تهدم آخر .

ولقد سارع فريق من الدول فيه بريطانيا وفيه الهند إلى الاعتراف بالوضع الجديد فى الصين ، وضنّ فريق آخر على الصين « الحمراء » بمثل هـذا الاعتراف ، وأصر على أن حكومة فرموزا لا تزال تمثل الصين جميعاً ، وإن كانت تعيش بعيداً عن الأم الكبرى الواسـعة الأرجاء . وكانت أمريكا على رأس هذا الفريق ، واستطاعت بنفوذها فى دوائر « ليك سكسس » أن تحول بين الصين الجديدة وهيئة الأمم المتحدة حتى الآن ، وأن تحتفظ لمندوبى حكومة فرموزا بحق تمثيل الصين فى هيئة الأمم وما يتفرع عنها من مجالس ولجان .

ولعل من الأنسب قبل أن نناقش موقف الولايات المتحدة ، وهل هى على حق أم على باطل ؟ وقبل أن نحكم على الصين هل « احمرت » فعلاً وهى البلاد الصفراء ، أم أن حمرتها ليست سوى حمرة سطحية لن تلبث أن تزول ؟ وقبل أن نستخلص نتائج نبنى عليها المستقبل السياسى للصين وكيف سيتشكل ؟ لعل من الأنسب قبل هذا كله أن نستعرض قصة الشيوعية فى الصين ، وأن نتتبع الأدوار التى وصلت بتلك البلاد العريقة فى مدنيتها إلى حالتها الراهنة ؛ فإن فى فصول تلك القصة مواقف وأحداثاً تلقى ضوءاً واضحاً على ما يمكن أن تنتهى به الرواية .

لنرجع إلى الوراء أربعين عاماً ، حينما انتهى حكم أسرة مانشو فى سـنة ١٩١١ ، وأصبحت الصين جمهورية نتيجة للكفاح الذى قام به أبو الصين الحديثة « صن يات صن » Sun yat sen الذى لم يتولّ رآسة الجمهورية كما كان منتظراً ، بل تولاها لسوء الحظ زعيم وصولى هو « يوان شيه كاى » Yuan shih kai .

هدف « يوان » إلى خدمة مصالحه الشخصية بدلاً من أن يخدم مصالح الوطن فى عهده الجديد ، وعمل على استعادة المظاهر الإمبراطورية ، حتى لأوشك أن يكون هو الإمبراطور ، وتنكر للمبادئ التى قام عليها حزب الكومنتانج Kuomintang بزعامة صن يات صن ، والتى تهدف إلى خلق دولة ديموقراطية برجوازية على النظام الأوربى . وترتب على هذا كله أن قامت الثورة من جديد ، وكان هذا هو بداية الحرب الأهلية التى استمرت فى الصين وما تلته بعد ، وساعد على انتشار الثورة ضعف الحكومة المركزية ، وقوة حكام الأقاليم وهم شبه مستقلين ، ولكل منهم جيش خاص يعمل

بأمره وتحت قيادته ، وكلهم من هواة الحرب أو محترفيها .

وفي وسط هذا الاضطراب الشامل توفي يوان في يونيه سنة ١٩١٦ ، وكانت وفاته فرصة لأن يتنازع الحكام في الأقاليم على السلطة والنفوذ ، وكان أكثرهم جاهاً ثلاثة هم : « وو بي فو » Wu -Pei -Fu حاكم تشيلي « وتشانج تسولن » Chang Tso Lin حاكم منشوريا ثم فنج يوهسيانج Fang Yu-hsiang حاكم شانسي ، وكلهم من حكام الشمال . وبينما كان هؤلاء على تنازعهم حتى إن « فنج » اتجه إلى موسكو واتجه تشيانج إلى طوكيو ، كان حزب الكومنتانج بزعامة صن يات صن في الجنوب يعمل من مقره في « كانتون » على توحيد الصين على أساس المبادئ التي قام عليها . وقد انتخب صن فعلاً رئيساً للجمهورية في سنة ١٩٢١ ، ولكنه صادف كثيراً من المصاعب سببها حكام الأقاليم ، مما اضطره إلى الاستعانة بالخارج ، وكان هذا الخارج هو روسيا التي كانت قد تحولت إلى الشيوعية ؛ فوجد منها العون الكامل والمساعدة الشاملة .

وفي سبتمبر سنة ١٩٢٣ أرسلت موسكو « ميخائيل بورودين » Boro-din ليكون مستشاراً لحزب الكومنتانج وكان هذا فاتحة تعاون روسي صيني استمر مدة أربعة أعوام أرسلت روسيا فيها بعثات عسكرية لتنظيم الجيش الوطني الجديد في الصين ، كما أعيد تنظيم حزب الكومنتانج على أسس تشبه إلى حد كبير الأسس التي يقوم عليها الحزب الشيوعي في روسيا . حتى لقد صرح للشيوعيين الصينيين بالانضمام إليه . ومن ثم بدأ النزاع الداخلي في حزب الكومنتانج الذي أصبح يضم عناصر برجوازية ديموقراطية ، وعناصر يسارية متطرفة ، ولقد انتهى هذا النزاع بكارثة سوف نفصل الحديث عنها فيما بعد .

وبعد وفاة صن يات صن في إبريل سنة ١٩٢٤ استطاع تشيانج كاي تشك أن يستولي على السلطة بمساعدة بورودين بعد فترة من القلاقل والاضطرابات ، وبدأ حملة من الجنوب تهدف إلى غزو الشمال لخلق « صين موحدة » ، وقد استطاعت هذه العناصر الجنوبية أن تستولي في سنة ١٩٢٧ على حوض يانج تسي ومنطقة شنغهاي ، ولكن التعاون بين تشيانج وبورودين لم يستمر طويلاً ، وأخذ كل منهما يعمل لخدمة مصالح خاصة حتى اضطر بورودين أن يعود إلى روسيا في النهاية بعد أن فشل في منع تشيانج من اضطهاد الشيوعيين ومحاولة تطهير حزب الكومنتانج من عناصرهم ، كذلك اضطر تشيانج من جهة أخرى أن يعتزل المسرح بعد أن تألب عليه كثير من عناصر حزبه لانحرافه عن الأهداف الأساسية للحزب وتزعمت هذا الفريق الثائر مدام صن يات صن — وهي شقيقة زوجته — ولكن اعتزال تشيانج لم يدم طويلاً إذ عاد إلى الميدان في أوائل سنة ١٩٢٨ وتمكن من إقامة دكتاتورية فردية في نانكين ، واستمر في اضطهاد الشيوعيين بل وأغلق القنصليات السوفيتية ووجه الجيش الوطني لغزو (بيبنج) وكان يحكمها (تشانج تسولن) حاكم منشوريا الذي اضطر أمام هجوم الجيش الوطني وعملاً بنصيحة اليابان إلى التراجع إلى « مكودن » ، ولكن قنبلة انفجرت في طريقه فقضت عليه ، وخلفه ابنه Chang Such-Lia « تشانج سويه ليانج » وخضعت بيبنج للجيوش الوطنية ، وظهرت الصين كأنها قد توحدت تحت حكم الكومنتانج بزعامة تشيانج كاي تشك الذي اتخذ عاصمته في نانكين .

كانت هذه الوحدة مظهرية فقط ، فقد عملت حكومة الكومنتانج على تسريح الجيوش الإقليمية والانتقاص من سلطة حكام الأقاليم ، ولكن كل جهودها في هذا السبيل ذهبت أدراج الرياح ، وترتب على هذا فترة من الفوضى والاضطراب حتى لقد تزعزع مركز حكومة نانكين ولم تأت سنة ١٩٣٠ حتى كانت الفوضى قد انقلبت إلى حرب أهلية واسعة النطاق ، يقف فيها تشيانج كاي تشك في ناحية ويقف حكام الشمال بزعامة « فنج » و « ين » في ناحية أخرى . وتعاون « شانج سويه ليانج » مع تشيانج كاي تشك في القضاء على فنج وين ، ولكن شانج سويه ليانج لم يستمر بالصدور على المسرح إلا لفترة قصيرة ، إذ استطاعت اليابان أن تحتل منشوريا التي كان يحكمها في سنة ١٩٣١ وأن تنشيء فيها دولة حديثة هي منشوكو في سنة ١٩٣٢ . وكان هذا هو بداية النزاع الصيني الياباني الذي كان له أثر كبير في تعطيل وحدة البلاد ؛ ومع أن الصين نجحت في المقاومة السلبية لليابان فقاطعت تجارتها وكانت من قبل سوقاً رائجة لهذه التجارة ، إلا أنها لم تستطع أن تقف أمام جحافل اليابان القوية . وكان اهتمام تشيانج كاي تشك بالاحتفاظ بكرسي الحكم أكثر من اهتمامه بمقاومة الغزو

خاطـــــرة

— ٢٠ —

صحت الطفولة ... يعجب من أن الفلاّح المصري يقتل روحه في ساحة إذا اعتدى على ماله أو على زرعه ، ولكنْ لا يقتلها أبداً إذا اعتدى العمدة أو الضابط أو المأمور أو المدير على حريته . ورأيته يتعجب من سرّ هذا ، ولكنْ يظهر أن السبب واضحٌ ؛ وهو أن الإنسان البدائي أو شبه البدائي يبحث أولاً عن غذائه وما يرتبط بغذائه ، ثم يبحث بعد ذلك عن المعاني : كالحرية والمساواة ، وحتى هذا في الإنسان المتمدين اليوم ، فإنه إذا جلس على مائدة وكان جائعاً ، أهمه الخبز أولاً أكثر مما تهمه طاقة الزهر ، فإذا شبع تغزل في الزهر ! وقد ذكر علماء الجمال ، أن الشعور بالجمال والحاجة إليه إنما يأتيان بعد استيفاء ضروريات الحياة . فلنوفر للفلاح ضرورياته ، ثم نطالبه بتقدير معنوياته ! أليس الشعراء الجاهليون لم يهمهم في جمال المرأة إلا ماديتها ، فقال قائلهم :

يغشاه أكرمها التميم صالحها   بجلالة فأدقها وأجلها

فلما شبعوا التفتوا إلى خفة الروح ، والتفت بشار فقال :

وحديثها السحر الحلال لو انه ... إلى آخره .

وقال الآخر : « وأسماك الهوى كثرة الأكل » !.

فلمَ نلوم الفلاح على قانون طبيعيّ يخضع له كل إنسان ؟.

والسلام !.

أحمد أمين

اليابان ، وفي سبيل هذه الغاية استأنف العلاقات السياسية مع الاتحاد السوفيتي ، ولكن عهد التعاون السوفيتي مع الكومنتانج كان قد انتهى إلى لا عودة . وكان موقف تشيانج السلبي تجاه الغزو الياباني سبباً لقيام المظاهرات الواسعة تنادي بإعلان الحرب على طوكيو في ربيع سنة ١٩٣٦ ، وبلغت هذه الحركة ذروتها حينما آزرها بعض حكام الجنوب ، ولكن ذهب تشيانج تدخل في المشكلة حلها من طريق الرشوة وبذل المال .

ولم يمض وقت طويل حتى اختطف تشيانج كاى تشك عند زيارته « سيان فو » في مقاطعة شنسي ! اختطفه حليفه القديم شانج سويه ليانج في ديسمبر سنة ١٩٣٦ ، ولم يخل سبيله ويطلق سراحه إلا حين تعهد بأن يوقف الحرب ضد الصين الحمراء ، وأن يعمل على تكوين جبهة متحدة تناوئ اليابان ، وأن يتعاون مع حكام الأقاليم في سبيل تحقيق هذه الغاية . وخشيت اليابان من هذه الاتجاهات الجديدة في السياسة الصينية ، وخشيت أن تؤدي في النهاية إلى وحدة الصين ، الأمر الذي لا يسر اليابان ، ولذلك سارعت بشنّ هجوم جديد على الصين في يوليه سنة ١٩٣٧ ، واستمرت هذه الحرب حتى أصبحت فيما بعد جزءاً من الحرب العالمية الثانية .

ومع أن الحرب أصابت الصين بخسائر جسيمة في الأرواح والأموال إلا أنها لم تخل من جانب طيب له قيمته وخطره ، فقد كانت سبباً في تعاون جديد بين الكومنتانج والشيوعيين ، واستطاعت الصين أن تؤلف جيشاً شعبياً متحداً ! هذا فضلاً عن تأثيرها في نمو التعاون الصناعي ، وتقدم الزراعة في الأجزاء الداخلية من الصين .

وبالرغم من أن اليابان قد استولت على المدن الساحلية وتمت لها السيطرة على معظم جهات حوض اليانج تسي ، فلم تتمكن من التوغل كثيراً في الداخل واستفادت الصين من ظروفها الجغرافية المختلفة فلجأت إلى خطة « الدفاع العميق » التي أشرنا إليها في مقال سابق ، ومن ثم استطاع تشيانج كاى تشك بتعاونه مع الشيوعيين أن يحتفظ بالجزء الأكبر من الأراضي الصينية وأن يقيم حكومة في تشونجكنج Chung king استطاعت أن تقف طويلاً أمام الغزو الياباني حتى انتهت الحرب العالمية وهزمت اليابان ، وخرجت الصين وهي معتبرة إحدى الدول العظمى الخمس التي لها الزعامة في هيئة الأمم وفي تقرير مصير العالم .

ولكن ظاهر المسألة كان يختلف كثيراً عما يجري وراء الستار ! وكانت بذرة الخلاف بين الكومنتانج والشيوعيين لا تزال موجودة ، ولكن أخر نموها وترعرعها التعاون الذي فرضته ظروف الحرب الصينية واليابانية ، إلا أنها لم تلبث حتى نبتت وأسرع نموها فتطورت سياسة الصين تطوراً جديداً وأخذت الأحوال فيها تتجه وجهة أخرى انتهت بسيادة الشيوعيين وقضائهم على نظام تشيانج كاى تشك . وسنفصل هذا التطور وخطواته في مقال تال ، إذ أن فهم هذه الخطوات يعتبر الأساس الأول لفهم الأوضاع الراهنة في الصين .

محمد محمود الصياد

سلـــــــة المهملات

للآنسة الزهرة

أين سلة نفاياتك ؟.

احملها — مشكوراً — على حبل ذراعك ، لأن ختام السنة ، هو الوسم الذى يحتم على كل منا ، القيام بعملية التنظيف الدقيق ، فى بيت حياتنا ، وتعهد قناطره ، ومخازنه ، ومخادعه ، وأركانه التى طال إغفالنا عن تعهدها .

ولعمرى ! كم تتجمع الأتربة والنفايات هناك !.

وإنك لتعلم ، أن النفايات والأتربة لا قيمة لها .. ومن أجل هذا كله نكون فى أمس حاجة إلى إعداد سلة للنفايات والجزازات .

إنك تحنى ضلوعك على تلك الإساءة البالغة ، التى صدرت نحوك من فلان ، منذ شهور عدة .. فهيا بادر إلى إلقائها فى قرارة سلة المهملات ، ودع الماضيات تمضى .. وهب أن الصديق الذى خالصته الود ، كان أمراً جافياً تقلق النفس ، فما عليك إلا أن تنسى ما نالك منه ، والبدار ، البدار إلى ملاقاته بهشاشة . ابسم له وأنت تحييه فى مطلع العام الجديد الأزف ، واحتفل له فى تهنئتك به ، أصدق تمنياتك بأن يجعل الله أيامه كلها صفواً ، وغبطة ورخاء .

واعلم أن مثل هذا الموقف الكريم ، كفيل بأن يحدث فى نفسه العجائب ، ويجرى المعجزات — أما ما يتم لك من جرائه فسيدع دونه الوصف !!.

رُوِىَ : أن زنجياً مسناً حكيماً قال مرة : « إن غالبية الناس ، يتمنون أن تكون حافظتهم قوية . أما أنا فأتمنى أن تكون لى ناسية قوية . أتوجه إلى إلهى الصالح لينعم علىّ بها !! » .

وقد قرأت لشاعر غربى مجهول ، قصيدة فى هذا المعنى أترجمها على النحو الآتى :

اللهم أعنا لكى ننسى جميع الإساءات الماضية ، وساعدنا لكيلا نعود نفكر فى الآلام الفادحة التى ضيقت الاحتمال .

لقد اعترف المسيء بعدوانه ، تائباً منيباً .

وقد صفحنا عنه .

فساعدنا لكى نوفر على ذواتنا الذكريات الموجعة

فتزداد بالنسيان — حياتنا ثروة

لأننا نصفح ونسامح

وقد قال مزارع مسن : « إننا لن نفيد شيئاً إن كنا ندفن الفأس ، ونترك مقبضها بارزاً فوق الأرض ، بحيث تصدم أقدامنا كلما مررنا بها » .

ويقول معاوية : « من عفا ساد ، ومن حَلُمَ عَظُمْ ، ومن تجاوز استمال إليه القلوب » .

وعليه ينبغى أن نلق كل إحنة وضغينة فى سلة المهملات ، فى هذا الموسم البهيج ، الذى يوشك أن يطالعنا بالعام الجديد ، لكى يمكن إحراقها مع سائر النفايات .

هذا ولنذكر أن سلة المهملات خير مكان للمواجع الصغيرة ، والمزعجات الطفيفة ، التى تحملها لنا حياتنا اليومية ، وهى حين تأتينا فرادى لا تساوى شيئاً يذكر . لكن الويل لنا منها حين تتجمع وتتراكم .

وأكبر الاعتقاد أن الناس الذين آلمونا وجرحونا لم يقصدوا ذلك فعلاً فى غالب الأحيان ، بل إن الذى صدر منهم ، إنما كان نتيجة عدم التروية . أو لا نجرى نحن معهم فى مثل هذا المنان ، ونشاركهم فى كثير من أشباهه ، دون أن نقف مرة ، لنقدر كيف يكون وقع أقوالنا ، أو كيف يبدو تصرفنا فى نظر الآخرين وسمعهم .

أو لا يجدر بنا حين نطرح هذه الإساءات الزلقة ، أن نوجب على أنفسنا بذل كل مجهود فى جميع الحالات لكى نقول أرق الأقوال ونعامل الغير على ألطف وجه ممكن « ومن المكارم عفو المقتدر وجُود المفتقر » .

هذا وأين سلة مهملاتك ؟ هيا قربها منك وضع فى أبعد أغوارها تلك القطعة الفتارة من التربة القاطعة التى تنهش قرينتنا وتمزق فروتها ، وترميها بالفاجرات ، وتمضغ لحمها وتقطع عرضها .. سارع وتخلص منها فى الحال ولا تتوان .

واعلم أن ذكر الناس داء قاطع فتاك . والنبيل لا يذكر

الناس بما يكرهون ، والقباب النمام القداح كالنار الآكلة ، يلتهم الصالح والطالح ، كما تحرق النار البُرَّ والصافة .

وقد قال أعرابي لرجل يقع في الناس : « قد استدللت على عيوبك بكثرة ذكرك لعيوب الناس ، لأن الطالب لها يطلبه بقدر ما فيه منها » ولا تنس أن الشاعر العربي قد قال :

من نمّ في الناس لم تؤمن عقاربه
على الصديق ولم تؤمن أفاعيه
الويل للعهد منه كيف ينقضه
والويل للود منه كيف يفنيه
كالسيل بالليل لا يدرى به أحد
من أين جاء ولا من أين يأتيه

وتقول الكاتبة المعروفة « مارجوري ولسن » : أعرف سيدة فاتنة ، ذات ميزات وخواص آسرة — ولعلك تعرف مثيلات لها — ويعجب بها النساء والرجال على السواء ، ولكنهم يخشون جانبها ، لأن من أبرز عاداتها ، التفوه بكلمة سيئة عن كل شخص يذكر في محضرها ، وقد تركت هذه العادة أثرها الواضح على علاقاتها بالناس ، وقد كنتُ أنا شخصياً مولعة بها ، متربة بمباحها ، وقد مرّ حين ، قبل أن أدركت أني لا ألتهف على لقياها ، وأني قلما كنت أذكرها أو أفتقدها ، وقد قلت مرة لصديقة حميمة لكلتينا : ما هي أخبار الفاتنة الآنسة « ألين بلانك » ترى . هل تزوجت ، ورحلت إلى القارة الأوربية ؟ فأجابت الصديقة : بالعكس ، إنها لا تزال عانساً ، إن الرجال يرهبونها ، أو لعلهم يتفزعون من لسانها الذي تبسطه في سير الناس ، وهي لا تزال تعيش في هذه المدينة ، ولا أكتمك أن الجميع قد رموا بهذه الساعة ، التي تأخذهم بلسانها ، وما تبرح تنبه على فرطاتهم ، وتتحت ألمثهم ، وهي والحق يقال ، لا تعرب مودة إلا أفسدتها ، ولا عداوة إلا جددتها ، ولا جماعة إلا بددتها ، حقاً أن أسوأ الناس حالاً ، من لا يثق بأحد لسوء ظنه ، ولا يثق به أحد لسوء أثره . ومن يصنع الشر لغيره يصنعه لنفسه .

وتابعت الصديقة كلامها فقالت :

« إنك لتذكرين يا عزيزتي كيف هاجمت حمة أفضل سيدة في مجتمعنا ، ولن يمكننا بحال من الأحوال أن تنجو من مثالب هذه الفتاة حالما تغيب الواحدة منا عن ناظريها ، ولذا لا نجد بداً من الانقباض عنها ... » .

* * *

تقوم في بعض أطراف المدينة كومة عالية من التراب ، الذي خلفته أنقاض العمارات التي أمرت مصلحة التنظيم بإزالتها . وعلى ذروة تلك الكومة عُلقت لوحة كتبت عليها هذه الكلمات : « انتزاع هذا التراب مباح بالمجان » . وما أدق الدلالة التي تبوح بها هذه الكلمات . أوليست أوضار الحياة أرخص من التراب ؟ وهل لها ثمن . إن أي فرد يستطيع أن يستخرج منها بالحفر والنبش ما يشاء . ولئن كان لا يتكلف لها نفقة في أول الأمر ، ولكن لا بد له من أن يضطلع بشيء من التكاليف فيما بعد ... فإن أفضل الأشياء في الحياة هي التي تتكلف شيئاً في سبيل الحصول عليها والاحتفاظ بها وادخارها . وزيادة على ذلك فإن الذي يتصدى لمعالجة مثل هذه الكومة لا بد أن يلوث يديه بأوضارها وثيابه بأقذارها ... فلتذهب إذاً صنوف الثرثرة والاغتياب والنميمة والنم والقيل والقال إلى سلة المهملات حين نعكف على تنظيف بيت حياتنا في مطلع السنة الجديدة .

ولنلق في تلك السلة ألوان السخط والتبرم والتظلم . إنك تشعر بأن وظيفتك لا تستوعب تلك الترضية الوافية ؟ إنك لا تحصل على الإنصاف الواجب ؟ إنك مطالب بالكدح الباهظ والسعي المرهق المتواصل ؟ إن الراتب الذي تتقاضاه لا يتناسب مع المجهودات التي تبذلها . ولكن ما هو موقف مخدومك بإزاء الخدمة التي تؤديها ؟ هل معك كفاية وغناء ومضاء ونفاذ لها ؟ وهل تستنفد في واجبك وسعك ، وتصرف فيه عنايتك وتحاول إنجازه جهد استطاعتك ؟ هل تشع أضواء البشر من حولك ليطّرد في محيطك ماء الرضى والأريحية ؟ هل تهتز للفروض الملقاة عليك وتسترسل إليها بروح طيب ؟ وهل أنت على جمام من نفسك ونشاط من عزمك لمواصلتها . أما أنت دائم التكره لها والتسخط منها والاستكثاف حملها ؟ إن غالبية العمال الذين يختضنون مثل هذه الأحاسيس ، يتقاضون فوق ما يستحقون من الأجر ، لو كشفت حقيقة أمرهم للعيان .

وإذا كنت طالباً فاحرص على أن تضع في سلة المهملات الفكرة التي تهيب بك إلى الاقتصار على الاستذكار الذي يتيح لك النجاح في الامتحانات المدرسية ، ودرجات

البقية على الصفحة التالية

الانتقال في اختبارات الفترات. واعلم أن مثل هذه الفكرة الخاطئة، تفضي بك إلى مهواة الألم والندم والسدم والعدم.

إن الطلبة المتفوقين ينالون درجات الشرف، لأنهم يكتسبونها بالعمل والجد والاجتهاد. وإذا لم تكدح وتمعن في الدرس وتوغل في البحث وتتقصى في التدقيق والتحقيق، فلن تستطيع أن تنتظر الحصول على درجات أكثر من تلك التي تنقذك بجهد من الرسوب. وثق أنه لن يوجد في معاهد العلم قاطبة، ذلك الأستاذ الذي لا يسعده أن يمنح درجات التفوق لتلاميذه لو وجد إلى ذلك السبيل الحق المشروع.

وكذلك ضع في سلة المهملات كل محاولة لمخادعة العميد ومراوغته، وتمويه الباطل عليه، وتشبيه وجود الرشد أمام ناظريه، وحذار أن تفتل منه في الذروة والغارب لتعدل به عن جادة الحزم في إحقاق الحق.

وكذلك احرص على نبذ كل خاطرة تغريك بأن الله تعالى ليس ضرورياً في حياتك اليومية. واعلم أنك معه تستطيع النجاح والفوز والفلاح، وبدونه لا يمكنك أن تصيب غير الفشل والخيبة والخذلان.

وكيفما تكن وأينما تكن وكيفما يكن العمل الذي تقوم به فاعمل على أن تحله تعالى محل الإكبار حين تشمر لتنظيم بيت حياتك وإعداده لسنة جديدة. تضرع إليه أن يأتي ويمكث معك في ذلك البيت. اسأله أن يعينك على الاستفادة بأكبر قسط من الحياة. منذ بداية هذا اليوم الذي يشرق عليك بهذه السنة. وهو جل شأنه ولي التوفيق.

الزهرة

بحث في الحب

— ٢ —

للأستاذ جمال الدين الرمادي

وقد صورت دائرة المعارف الأمريكية، كما صورت دائرة المعارف البريطانية منزلة المرأة؛ فقالت الأولى: إن القبائل الأمريكية الشمالية خاملة إلى أبعد حد في عملها، حتى إن الحب لا يوائم إلا النساء، ومن شأن الأهل أن يزوجوا الشبان أيتامهم، وإن كان اعتراف العريس لعروسه بالحب جريمة لا تغتفر، وفي «جيانا» لا يصرح الزوج لزوجته أن تأكل معه، بل تعمل على خدمته أثناء طعامه، وتقدم إليه الماء ليغسل يديه بعده، وفي منطقة البحر الكريبي وجزائره ليس من حق المرأة أن يشاهدها الرجل وهي تأكل! وفي جميع البيئات الهمجية بوجه عام تحمل المرأة الأثقال، بينما يتقدمها الرجل في الأمام لا يحمل شيئاً إلا سلاحه! وفي روسيا وسيبيريا كانت هنالك شرذمة من الأثرياء إلى عهد قريب يتصرفون في زوجاتهم كما يريدون، كأنهن عبيد لهم، وليس من شك في أن الغريزة الجنسية هي التي حطت بالنساء إلى هذا الحد، ولا سيما في أعين الرجال، ومنذ فجر التاريخ كان الرجل في المجتمع الهمجي يبتاع المرأة كما يبتاع الماشية ولم يكن للحب وجود في مجتمعهم على الإطلاق.

وليس من شك في أن الجمال مقرون بالرغبة النوعية هو المؤثر الذي يؤثر على الرجل ليختار امرأة على امرأة أو يفضل حسناء على حسناء، وليس من شك أيضاً في أن المرأة تفضل القوة والرشاقة في الرجل لأنهما من علائم الجمال.

ولم يكن يعرف الإنسان الأول الزواج كما نعرفه اليوم، وقد راقب كثير من علماء الأحياء الحيوان والطير؛ فاتضح لهم أن بعضها يعيش معيشة الأزواج، حتى إن الدكتور إيلس Ellis. H. صرح في كتابه: «دراسات في سيكولوجية الجنس» أن الزواج الحقيقي الصحيح لا يوجد إلا بين الطيور. وكان الإنسان الأول لا يزور امرأته إلا بين الحين والحين، ويتركها بمفردها على مدار السنة، وكان اهتمام الأخ بأبناء أخته أكثر من اهتمام الزوج نفسه بهؤلاء الأبناء. وقد تعددت أنواع الزواج من زواج بالفوضى إلى زواج بالأسر إلى زواج بالشراء. وكان زواج الأسر معروفاً عند الصقالبة القدماء حتى مستهل القرن التاسع عشر. وقد أخذ الزواج في منشئه طابعاً بسيطاً لا أثر للطقوس الدينية فيه، ولا سيما في جزائر الأقيانوس الباسفيكي بجزائر ساموى

وهواى ونيوزيلندة الجديدة . وقد أقبل سكان هواى على الزواج بعدما كان معظمهم لا يتزوجون إطلاقاً . وفى جزائر كارولين يختار الفتى عروسه ويأتى بها إلى بيت أبيه ، فتفرك أنها ظهرها بزيت النارجيل وتضع إكليلاً على رأسها ، فيكون ذلك بمثابة عقد شرعى . وأهالى جزيرة جلبرت شديدو الغيرة على نسائهم ، حتى إذا كلم رجل امرأة لا يسلم من يد زوجها .

ومن عادات الزواج فى أواسط إفريقيا حيث تجرى الطبيعة الإنسانية على السجية والسليقة ، يذهب الخاطبون من قبل أهل الخطيب إلى بيت الفتاة ليروها ، فإذا رأتهم أقبل وفد آخر ومعه الهدايا ! فإذا قبل والد الفتاة والفتاة تأهب الجميع لولائم العرس ، وإذا رفض الوالد ولم ترفض الفتاة جاء وفد ثالث ومعه الخطيب نفسه أو والد الخطيب وأعوانه وأتباعه ! فيضطر الوالد إلى تزويج ابنته لينى لها زوجها بيتاً عالياً مواجهاً لبيت أبيه . والرجل الذى يتزوج هنالك بامرأة يحق له أن يتزوج بكل أخواتها اللواتى هن أصغر منها إذا شاء ، وعلى كل حال لا يجوز لأحد أن يتزوج بواحدة منهن إلا برضى من تزوج بأختها الكبرى . وفى بعض القبائل الأخرى ينتشر الزواج الجماعى فى موسم من مواسم السنة كالمصريين القدماء . وعند بعض الأجناس يكون للزوجة الحق فى الزواج من آخر إذا زادت رحلته على عشرين يوماً ! وكانت الأمم الآرية كما يقول فوستل دى كولونى تعتبر العزوبة إثماً ، وكان الرومان يعتقدون أنها ضرورة خلقية وواجب عام . وقد أخذت فكرة الزواج تتطور ، حتى أصبح الزواج واجباً مقدساً .

وليس من شك فى أن الجمال مقرون بالرغبة النوعية ، هو المؤثر الذى يؤثر على الرجل ليختار امرأة على أخرى أو يفضل حسناء على حسناء ! وليس من شك أيضاً فى أن المرأة تفضل القوة والرشاقة فى الرجل لأنهما من علائم الجمال .

وقد عرف بوفير Buffier الجمال فقال : إنه هذه الصورة المتفقة الخاصة التى هى أعم من الصور الأخرى فى الأنواع .. وقد تكلمت دائرة المعارف البريطانية عن مقاييس الجمال التى هى من أسباب الحب ، فتكلمت عن شكل الخدود ونوع الأنوف ولون الوجوه ! ومما قالته عن تفضيل الألوان : إن الأوربى بحكم العادة يحب فتاة بيضاء ، على العكس من الرجل الحبشى الذى يحب فتاة سوداء . فالعادة والعرف هما اللذان يؤثران فى اختيار الجمال وإن لم يكونا من أسباب الجمال بل من أسباب التعلق بالجمال . والرجل القوى الباسل ترشحه الطبيعة ليكون مناضلا ، والمرأة الرقيقة الوادعة تحتاج إلى الحماية ، ومن ثم لم تر رجلا يقدر امرأة لقوتها الحيوانية أو لشجاعتها الشخصية ، بل إن المرأة نفسها تحتقر الرجل الذى يؤثر هذه الخصال ! فالرجل بطبيعته قد خلق ليحكم ، والمرأة بطبيعتها قد خلقت لتطيع ! ولهذا كانت المرأة أوسع من الرجل خيالا وأرق منه حساسية ، ولكن هنالك فرقا واسعاً بين الرجل والمرأة ! وملاحظة قيمة بينهما لا يمكن إغفالها ، وهى أن رقة المرأة مكملة لقوة الرجل ، ونعومة المرأة متممة لخشونة الرجل . ولكن الرجل مع هذا الامتياز فى الحب وانتقاء الحبيب ، لأن المرأة انطوائية أكثر من الرجل على نفسها وحيية لا تجرؤ على الصراحة فى الحب إلا لماما .

وقد قالت دائرة المعارف البريطانية كذلك : إن الحب ينشأ بعد التقدير والإعجاب ، ولكنها عادت فتساءلت وسألت القراء معها عن رأيهم فى الحب الذى ينشأ من أول نظرة كما يقولون بدون أدنى تقدير ، بل قل بتقدير مفاجىء وسريع وسريع جداً لسلوك المرأة ؟ !

وقد أجابت دائرة المعارف البريطانية نفسها على هذا السؤال فقالت : إن الإعجاب ينشأ على قوانين علم الفراسة ، إلى جانب أن هنالك فى الذهن أفكاراً سابقة عن الجمال تتركز فى الحال على هذا الوجه الحبيب وتنطبق عليه ، وهذه الأفكار تأتى إلى الذهن من طريق التجربة وبمرور الزمن .

وقد عقدت دائرة المعارف البريطانية بعد ذلك مقارنة بين قدرة الرجل على الحب وقدرة المرأة على الحب فقالت : إن من حق الرجل أن يتغزل ، بينما من حق المرأة أن يتغزل بها ! وعليها أن تقبل أو أن ترفض أو أن تتقدم أو تدبر . ولعل أفضل خصلة تتحلى بها الأنثى التواضع ، فالطبيعة قد حمت الأنثى بها لتحميها من الدعوات الكاذبة قبل الزواج ولكن

تكون وثاقاً متينا فى الحب الزوجى المتبادل .

ولا أدرى كيف تبيح دائرة المعارف لنفسها التحدث بمثل هذا الحديث الذى لا نرى أثره فى هذا العصر الحاضر الذى تتحلى المرأة فيه بالكبر والخيلاء ...

ولكن مثال الجمال على حد قول الدائرة هو أن تكون المرأة جميلة اللامع حلوة القسمات ، وأن تكون رقيقة وادعة متواضعة ، فكل هذه الصفات تنتزع فى الحال التقدير منا ، ولكن هذه الصفات إذا ما امتزجت بجمال فتان يصبح التقدير والرغبة فى الحال حبا وعاطفة متأججة .

وقد كان الإغريق يطوفون بيوت أحبائهم ويطوقون أبوابها بالأزهار والنوار والورود ، وعندما لا يحظى حبهم بالنجاح فإنهم يتفننون فى أساليب إثارته وأفانين تحريكه فى قلوب أحبائهم ، فكانوا يصنعون التعاويذ والرقى ويعجنون الدقيق بأنواع من الزيتون ظانين أن هذا يثير الحب ... وكانوا يطحنون الدقيق ويحرقون الزهور ويذيبون الشموع ويصنعون أحجية من ريش بعض الطيور وعظام الأفاعى وبعض الأسماك ابتغاء الحب ؛ ولكن الحب بدون سحر لايمكن التخلص منه ولايمكن الشفاء منه ؛ فأبو لو نفسه قد صرح بأنه لا يجد دواء ، له اللهم إلا الحبيب !! ....

وإلى جانب هذا نصح بعض المحبين بالاغتسال من بعض الأنهار المقدسة ابتغاء الخلاص من الحب .

وقد تكلمت دائرة المعارف البريطانية عن الحب فى الطب ولم تتعمق فى الحديث عنه ، بل صرحت بتلك المبادىء الأولية المعروفة والظواهر الجلية المألوفة ، كاتساع العيون واضطراب الخفقان وكثرة الزفرات وشحوب الوجه وظلام العيون فى بعض الأحيان وذهاب النوم وفقدان الشهية وإتيان الرؤية وانتشار البلاء .

وقالت دائرة المعارف البريطانية : إن الحبيب أو العاشق برغم هذا كله كان يطوق دار حبيبته بالأزهار ويقدم لها قلائد النوار كأنها إلهة من الآلهة .

ولم تشر دائرة المعارف البريطانية إلى ألوان الحب الأخرى ، ولعل أحسنها حب الله ومراحله ومدارجه ، وإن كانت المعاجم الإنجليزية الكبيرة قد تحدثت عنها كقاموس سير مورى Sir Moury .

ولكن يجب أن نذكر تلك الآية الكريمة المقتبسة من الإنجيل (الله المجد) ؛ فهذه الآية تعد دستوراً للدين المسيحى ، ومن ثم كان من الواجب على المسيحى أن يحب الناس جميعاً ابتغاء حب الله ومرضاته . وهذه الآية الكريمة تتلى بين الحين والحين فى الكنائس والأديرة ، وتحتوى برغم صغرها على معانٍ رقيقة وأغراض سامية واتجاهات نبيلة .

أما فى الدين الإسلامى ، فقد تبحر بعض الصوفية فى الحب الإلهى وتعددت طرائقه وسبله ، وظهر فى أفق التصوف الإسلامى أعلام كبار يشار إليهم بالبنان ؛ وقد جاء فى الأثر عن رسول الله : « رحم الله امرأ أحب فعف فمات شهيداً ... »

ولسنا الآن فى صدد تحقيق هذا القول وبيان نصيبه من الصحة أو الخطأ ، ومن الصواب أو الخطل ، ولكننا مع هذا نقول : إن الدين الإسلامى فى جوهره محبة وإخاء ووفاء ، ويروون أن داود كان يقول :

اللهم إنى أسألك حبك وحب من يحبك والعمل الذى يبلغنى حبك . اللهم اجعل حبك أحب إلىّ من نفسى ومن أهلى ومن الماء البارد .

وقد جاء هذا المعنى فى الدين الإسلامى حيث قال الله تعالى فى كتابه الكريم : (يحبهم ويحبونه) ، وقال كذلك : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) ، وقد قال أحد الصوفية :

المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ، والمحبة استهلاك فى لذة ، والمعرفة شهود فى حيرة وفناء فى هيبة ؛ وقد روى عن رسول الله أنه دعا إلى الحب والتصوف فى قوله : (من أحب الله فليحبنى ، ومن أحبنى فليحب أصحابى ، ومن أحب أصحابى فليحب القرآن ، ومن أحب القرآن فليحب المساجد ...)

جمال الدين الرمادى

العرب ووحدة البحر الأبيض المتوسط (*)

— ٣ —

ولننطلق الآن من نطاق تاريخ العصور الوسطى ، لننظر فى دوائر السياسة العالمية فى عصرنا الراهن .

من ذلك التاريخ المجيد ، الذى لخصته لكم فيما سبق ، نخلص إلى نتيجتين جديرتين ، فى نظرى ، بالتأمل والتقدير :

النتيجة الأولى :

هى أن وظيفة العرب وثقافتهم من النواحى التى بحثناها فى هذا المقال ، كان لها من الأثر فى حوض البحر الأبيض المتوسط ما يجعلنا نعتبرها عاملاً قوياً من عوامل تاريخ الغرب الثقافى . فعقلية الرجل الأوربى قد بنيت على أساس من الثقافة العربية ، تماماً مثلما تشبعت عقلية الرجل العربى بثقافة الإغريق فى العصر القديم وبثقافة الغربيين فى العصر الحديث .

هناك إذاً تراث مشترك بين هذين العالمين المتقابلين . وهذا التراث قد تكوّن خلال حقبة طويلة من تاريخ الحضارة ، وكان ثمرة عمل متصل شاق من الجانبين . وهو ، بما أعطى من نتائج خصبة عظيمة ، قد مهد لمستقبل من التفاهم والتعاون يستند إلى أساس قوى مشترك بين كلتا ضفتى البحر الأبيض المتوسط ...

النتيجة الثانية :

هى أن أمجاد تاريخ العرب وثقافتهم يجب أن لا يعتبرها الغربيون مسألة ثانوية فى موضوع علاقاتهم السياسية الحالية مع دول الشرق . فالوحدة الثقافية والعربية الإسلامية كانت أساس الحركات السياسية العربية فى القرن العشرين ، وما زالت عاملاً مهماً يدفع البلاد الشرقية إلى الاتحاد والتكتل فيما بينها ؛ ونحن نشهد اليوم الكثير من هذه الأدوار السياسية . والشعوب العربية مزهوّة — وهى على حق فى ذلك — بتاريخها المجيد الذى ينجلى لنا ويتضح يوماً بعد يوم ...

ولا شىء يدلنا على أثر مثل هذه الأفكار أكثر من النتائج العظيمة التى حصلت عليها فى الشرق تلك الحركة الثقافية التى قامت بها المدرسة الإسبانية للدراسات العربية : فالعلماء الإسبان من أمثال كوديرا وآسين بالاثيوس وجونثالز بالنثيا وسنندز بيدال وجارثيا جوميث ، قد كشفوا للناس عن قيمة العلاقات التاريخية التى كانت بين إسبانيا والشرق ، وجعلوا من انتصارات إسبانيا الإسلامية فى ميادين الثقافة والفن مجال فخر للشعب الإسبانى فى العصر الحديث . وإن أثر شبه الجزيرة الايبرية فى تطور الحضارة العربية لجدير حقاً بالتقدير والتعظيم ...

والإيطاليون من ناحيتهم يقدرون أيضاً حق قدرها الثقافات العربية التى انحدرت إليهم من صقلية خلال ثلاثة قرون متوالية ، منذ عهد ملوك النورمانديين إلى حكم الملك فردريك الثانى .

وحديثنا فى هذا المقام لا يعنى الماضى وحسب .

فعلى أساس من التقدير والتعاون ، بين دول ذات تاريخ مجيد وتراث مشترك ، يجب أن تقوم علاقات دائمة بين أوربا الغربية والشرق الأدنى ، لكى تستقر الأمور ويستتب السلام .

وإنى أعلم جيداً أنه لايوجد بيننا أحد يجب أن يتهم بقصر النظر وعدم فهم حقيقة هذه المثل كل ، كما أعلم كذلك أن أحداً منا لا يستحق هذه التهمة .

وعلى هذا أقول إنه يتحتم علينا ، فى أعمالنا وتصريحاتنا ، أن نعترف اعترافاً جلياً بأن أهل الغرب ليسوا أصحاب الكلمة العليا فى الشرق ، وأن ليس من حقهم التصرف فيه كيفما شاءوا ؛ بل هم أصدقاء تدفعهم المصلحة المشتركة إلى التعاون مع الشرقيين لتنمية ميراث موحد من الحضارة ، خلفته الأجيال السالفة من الأجداد على ضفاف البحر الأبيض المتوسط ...

فلنتتبع باهتمام تلك الجهود التى تقوم بها دول الشرق الأدنى فى سبيل المحافظة على استقلالها فى هذا الجو المضطرب الذى يميز عصرنا الحاضر .

بل علينا أن نقوم بعمل إيجابى مثمر فى هذا المجال ؛ ودول أوربا الغربية يجب أن تتخذ حيال البلاد الشرقية المستقلة سياسة من التعاون الصحيح تكفل بقاء هذا

(البقية على الصفحة التالية)

(*) بحث قدمه الأستاذ إنريكو شيرولى إلى مركز الدراسات السياسية الخارجية بباريس فى ٨ يونيو سنة ١٩٥٠ .

النقـــد الأدبى

عنـــدهم وعندنا

للدكتور محمد غلاب

يتحدث الناس كثيراً فى هذه الآونة عن أزمة الكتب فى مصر ، ويشفقون من أن تجتاح البيئات المثقفة تلك الفكرة الخطرة التى بدأت تغزو عقول الشباب المصرى ، وهى أن الكتب قد نزلت للشاشة البيضاء عن مرتبة الضرورة التى لا محيص عنها ، وانتقلت إلى مرتبة الكماليات التى يمكن الاستغناء عنها فى أكثر الأحوال . ولكن لا يَدُرْ بخلدك أيها القارىء أن هذه الأزمة ناشئة من قلة الإنتاج الأدبى ، أو ناجمة عن الإضمحلال العلمى ، وإنما هى ناشئة — على العكس — من وفرة ذلك الإنتاج وغمر السوق بالمؤلفات الخفيفة السريعة التى تحول موجة الغلاء الحاضرة دون استيعابها .

ولو أن السواد الأعظم من القراء كانوا فى حالة من الرغد والنعيم تمكنهم من شراء أكثرية هذا الإنتاج غثه وسمينه لفعلوا ، على أمل أن يجدوا فى كل أربعة مؤلفات أو خمسة واحداً يخرجون منه ظافرين بفائدة تزيد معارفهم أو تنمى ثقافاتهم . أما والحالة المالية فى الشعب على ما هى عليه الآن ؛ فإن أكثر الشباب يتردد فى أن يخاطر بشىء من المال فى سبيل كتب غير محققة النفع ، بل قد لا تستحق الوقت الذى صرف فى مطالعتها . وإذا وازن الشباب بين هذه المؤلفات المجهولة بالنسبة إليه ، وبين روايات الشاشة البيضاء ، أيقن بأن هذه الأخيرة إن فقدت الفائدة ، فإنها مشتملة على التسلية على أقل تقدير . ولا جرم أن هذه الحالة الأسيفة ستنتهى بصرف الشعب عن الكتب شيئاً فشيئاً حتى تهوى الامة فى حضيض السطحية والجهل من جديد .

ولو أن لدينا حركة نقد دقيق نزيه ذى سلطان مطاع يلجأ إليه ذلك الشباب الحائر المتردد فى الحكم على ما يقرأ وما ينبذ حكماً عادلاً لا يقصد به سوى وجه الحق والثقافة والوطنية ؛ وإذاً ، فمن حق هذا الشباب البرىء ، بل من حق جميع

الاستقلال بقاء حياً حقيقياً فى مختلف الميادين : فهناك أخطار جسيمة تهددنا فى الشرق الأدنى إذا جارت إحدى الدول الغربية على استقلال بلدانه .... وحالة العالم اليوم من الاضطراب بحيث لا تسمح لأحد أن يساهم فى خلق أزمة جديدة بين ربوع هذا الجزء الحساس من الكرة الأرضية ...

ولكن هذه السياسة القائمة على أساس من الصداقة بين الغرب والشرق ، يجب أن تستند أيضاً إلى عامل مهم من الجانب الغربى : ألا وهو أن تؤمن الدول الأوربية كل الإيمان بأن سياسة التعاون — التى رسمت لكم خطوطها الرئيسية — ينبغى أن تكون عامة ، وشاملة لجميع البلاد دون استثناء ، فى فكرتها ومبادئها ، وفى تفاصيلها إن أمكن ...

فمن الغرور أن نتجاهل تلك الحقيقة القديمة التى تقول بوحدة السلام فى العالم كله .

وإنها الحقيقة تتمثل لنا فى أغلب الحوادث التى نشهدها اليوم ...

ولن توجد قط على سطح الأرض منطقة منعزلة تمام الانعزال يستطيع الإنسان فيها أن يعتبر نفسه خارجاً عن القيود التى تربط أبناء البشرية جميعاً برباط التعاون والتكاتف ...

... أما أنا ، فلست من علماء السياسة ، بل لست أريد أن أكون من علمائها ... ولكنى أعتقد صادقاً أنه لا توجد هناك سياسة عظيمة مالم تكن مستندة إلى مثل أعلى عظيم ...

فليعمل ساستنا على أن يخلقوا بين شفتى البحر الأبيض المتوسط روحاً من التعاون القوى يضم تحت رايته الشعوب كلها ، سواء كانت ذات أصل رومانى قديم أو عربى مجيد ...

فى هذا التعاون قد وضعنا آمالنا فى مستقبل الحضارة الإنسانية ...

(تم البحث)

ترجمة
احمد عبد الحليم محمود

القراء المتوسطين على كبار الكتاب الذين منحتهم السماء نعمة النقد الحازم الفاصل بين الجمال والدمامة أن يرشدوهم إلى الأول، ويحذروهم من الثاني. أستغفر الله. بل أن يقوموا بإثارة قلوبهم وإشفاف نفوسهم بكل نافع، ويحاربهم من عبث العابثين، وخطر الجرآء والمتطفلين.

بيد أن هذه المهمة الجدية الشاقة لا تتيسر إلا لمن توافرت لديه شروط خمسة، وهي: غزارة الثقافة، واتزان المنطق، والقدرة على اكتناه النفوس، والدراية الاجتماعية، والنزاهة الخلقية؛ وذلك لأن النقاد الحقيقيين هم الذين يعشرون في الأمة حب الحقيقة والحاجة إلى الضبط، ويشعرونها بمنزلة الصراحة. وهم الذين يكوّنون الذوق الأدبي لمعاصريهم، ويحددون معاني الموضوعات، ويعيّنون مرتبة كل منها بالنسبة إلى غيره. وهم الذين يدفعون القراء إلى مطالعة الكتب، قديمها وحديثها، ويعودونهم على الحكم الشخصي الذي قد ينتهي إلى تخليد الكتاب العبقريين، وكشف القناع عن وجوه أولئك الأدعياء الذين رفعتهم ظروف خاصة إلى منزلة هم غير جديرين بها، وفرضتهم على الشباب فرضاً قسرياً، وهم كثيرون في كل بلد وفي كل عصر.

من أجل هذا كله كان النقاد في أوربا ذوي أثر بارز في الحياة الأدبية والفنية في بلادهم، وكانت أسماؤهم في طليعة الخالدين بين معاصريهم. وهاك مثلاً من أمثلة القرن السابع عشر، وهو «بوالو» ذلك الناقد الفرنسي المدقق النزيه الحايد الذي لم يكن يخشى في الحق لومة لائم، ولا يعرف في النقد مجاملة ولا مداهنة، والذي كان يقسو على الأصدقاء قسوته على الأعداء، والذي بلغت به شجاعته النادرة المثال إلى حد أن لويس الرابع عشر ملك فرنسا العظيم سأله يوماً عن رأيه في قطعة شعرية كان الملك قد أنشأها، وكانت ضعيفة، فأجابه قائلاً: «مولاي، لا مستحيل على جلالتكم، إذ أردتم أن تصنعوا شعراً رديئاً، وقد نجحتم».

وقصارى القول أن بوالو كان ذا سلطان قاهر لا يغالب، إلى حد حمل مؤرخي الحركة الأدبية على مبايعته في حياته والإقرار له بعد وفاته بالزعامة التي لا تنازع في النقد! ولقد دفعت شجاعة أولئك المؤرخين إلى إعلان أنه هو مؤسس الذوق الفني الأدبي في أوربا كلها في العصر الحديث.

والآن هاك نماذج من أسلوبه في النقد، وقد أردنا أن نصوغ ترجمتها في قوالب مسجوعة لتقترب من أصلها الشعري بعض الاقتراب.

قال يصف الحالة الاجتماعية في باريس، ويبدو أنها كانت في ذلك العهد تشبه حالتنا الراهنة شبهاً قوياً:

«أي إنسان مهما كان مزاجه هادئاً وطباعه رزينة، لا يمتلئ صدره بالأحقاد الظاهرة والدفينة، من المظهر البشع الذي اتخذته الأخلاق في هذه المدينة، حيث نشاهد الشرف والثروة في حرب طاحنة أبدية، والعلم الحزين قد هجرته العقول الفتية، والفن الوحيد الناجح هو فن اللصوصية».

وقال في ذم نوعي الشعر المفرط والمفرط، أي المغرق في التعمل، والممعن في الرخص والإسفاف ما يلي:

«لا يكاد معنى شعرك يتخلف عن الفهم ويتلكأ في مطاوعته، حتى يبتدئ عقلي في الحال بالتخلي عن متابعته، ويكون مستعداً للتخلص من خطبك العابثة التي لا تنتهي، إذ هو لا يتابع مؤلفاً يبتغي البحث دائماً عن معانيه، وهناك عقول تلق أفكارها الغلفة، مرتبكة دائماً بسحب كثيفة قاتمة، إلى حد أن ضوء العقل لا ينير منها الأرجاء، وإذاً، فينبغي أن تتم التفكير قبل الشروع في الإنشاء، وأخيراً تجنب في الموضوع والصياغة كل تعلّق وإسفاف، إذا أردت أن تفوز بحكم المستقبل الذي لا يعرف سوى الإنصاف، والذي لا يجاري الحاضر في خداعه وانخداعه، ولا يتنزل إلى مجاملته واصطناعه».

ومن قوله في هجاء الكتاب الذين يحسبون أن صواب الفكرة يغنيهم عن إتقان الأسلوب، ويعفيهم من صحة العبارة ما موجزه:

«يجب أن تكون اللغة مبجلة في جميع كتاباتك، بل مقدسة حتى في ساعات إفراطك ومغالاتك، إذ لو أشبهت منتجات الكاتب وحي السماء، ولكنه إلى اللغة قد أساء، لكان رغم كل شيء في طليعة الكتاب الأردياء... إذ أن الشعر الأكثر امتلاء بأنبل الأفكار، لا يمكن أن يروق العقل ما دام السمع قد جرحه العثار».

ومن قوله في ذم النفاق والزيف ما يأتي:

«لا شيء أشد دمامة من الزيف والمراآة، وهما دائماً عدلان تافهان محرومان علائم الحياة، ولكن الطبيعة دائماً حقيقية، ولذا لا يلبث المرء أن ينفعل بمناظرها المؤثرة

القوية ... أجل أنا أحب القلم الحر الذي يعدو على صورته الذاتية ، ويتفرج من فطرته الحقيقية . ولكن الفضيلة وحدها هي التي لا يضيرها الجلاء ، كما أن الرذيلة وهي دائماً قائمة تنعطف نحو الظلام ، ولكي تظهر تحت الأضواء ، يجب أن تتزمل بالرياء » .

وقال في تصوير المؤلف الذي يحمل عليه الحاسدون المغرضون في غير حق ولا إنصاف ، فتنقلب الآية ضدهم ، إذ تحفزه حملتهم إلى الوثوب والإتقان ، فيسطع اسمه وتتلألأ شهرته :

« لا تدهش إذا كان الحسد الشيه بنار السموم ، ملاحقاً باسمك صداه المسموم ، متعقباً إياك دون أي وازع من ضمير ، فما كيا ضدك سلاح التشنيع والتشهير ، فإن هذا كما في جميع الأشياء ، نشاهد ساطعاً حكمة السماء ، وهي التي تقتادنا أجمع الفتيان ، وتهدينا دائماً إلى سبيل الرشاد ، تنفذ إرادتها القوية شأنها في كل واد ، إذ أن الممدوح يغفى للواهب في نوع من الركود ، ولكن العبقري إذا أثاره الحسود ، فإنه يضطره بنضاله غير المقصود ، إلى إتقان فنه وسلوك وسائل الصعود ، وهكذا كلما أراد إضعاف قوته وإزالة مراتبه ، ساهم في إتقانها بالعمل على إبراز مواهبه » .

ومن قوله في الحملة على الكتاب الذين يروجون الرذيلة أو يتملقون الغرائز الجنسية ما يأتي :

« لا ينبغي أن أرواحكم وأخلاقكم المرسومة في مؤلفاتكم ، تقدم منكم إلا أنبل صوركم وأكمل صفاتكم ، فأنا لا أستطيع أن أحترم أولئك المؤلفين الخطرين الأخلاق ، الذين يفرون في مؤلفاتهم من الشرف فرار الجندي من حومة القتال ، ويخونون الفضيلة على صفحاتهم الآثمة ، ويزينون الرذيلة في أعين قرائهم بتلك المرأة المجرمة ..... وإذاً ، فاكلفوا بالفضيلة وغذوا بها النفوس بصورة عالية ، وإلا كان عبثاً أن يتبع الكتاب المواهب السامية ، وإذا لم يطهروا أرواحهم من شرورهم وعيوبهم ، انعكست على منتجاتهم وضاعة قلوبهم » .

وقال في هجو الكتاب الذين تنقلب أحقادهم على تراهتهم أو تتنادم أهواؤهم إلى الدس للأبرياء لكي يرتضعوا أو يتقمروا على حساب الحق :

« فروا فروا من هذه الأحقاد المهينة ، التي هي من خصائص النفوس السكينة . أما الكاتب الرفيع فلا يجب عدوانها ، لأنها لا تلحق بجوانها ، إلا عن انحط إلى مستواها ، ويجب ألا نهوى إلى هذه المؤامرات الوضيعة ، وألا نصعد من طريق الدسائس القبيحة الشنيعة ، واعملوا المجد ولا يكن الربح الدنيء الشيم ، أبداً غاية الكاتب العظيم » .

ولقد قال له يوماً أحد محدثيه : إن هذه الصراحة في الهجاء قد أسخطت عليك أكثر معاصريك . فأجابه قائلاً :

« هل يريدون أن يكونوا مضحكين دون أن أجرؤ على الابتسام ، وأن أتفرد بالصمت حين يجب الكلام ؟ وماذا أنتج شعري من الأضرار والشرور ، حتى يتسلح ضدي من المؤلفين كل هذا الجيش الساخط الموتور ؟ إني فضلاً عن أني لم أضرهم قد أظهرتهم ، ومن المحتمل أنه لولا هذا الشعر الذي به قد شهرتهم ، لبقيت مواهبهم من المطمورات ، إذ من كان يعرف لولاي أن كوتان[1] قد ألقى بعض العظات ؟ » . قال محدثه : وهل كان من الضروري ذكر الأسماء ، ومهاجمة الشخصيات بهذا القدر من الجلاء ؟ . قال : ليست هذه الملاحظة بنت اليوم . بل قد وجه إلى الكثيرون مثلها وأكثر اللوم ، فقال بعضهم إنه مخطيء إذ ماذا هو بذكر الأسماء ؟ وكيف يهجو شابيلان[2] وهو خير لا يستحق الهجاء ، فهل بتصويبي سهام النقد إلى منتجاته ، أصب قطرات السم الخطر على حياته ؟ كلا ، لأن ملهمتي الفطنة الخبيرة ، تعرف كيف تميز بين الرجل الشريف وشخصيته الشاعرة » .

ومن قوله في وصف الذين جهلوا أقدارهم ، وافتتنوا بذواتهم ، وحسبوا أن لهم مواهب تبيح لهم التحكك بالتأليف في العلم والأدب ما يأتي :

« ثم إن من خصائص الجهل المركب الغرور والافتتان بالذات ، وإن صاحبه منعطف إلى الإعجاب بنفسه في جميع الأوقات ، وإن أولئك النفر يكلفون بالكتابة على أي نسق من الأنساق ، وهذا هو جنونهم الجدير بالإشفاق » .

وأخيراً قال في وصف عداته وتزاهة قلمه ما يلي :

---

(١) كوتان هو قسيس ، وكان حيناً يلقي ، عظات دينية ضعيفة ، وأحياناً يصنع شعراً أضعف في الغزل والتشبيب ، وقد وجه إليه « بوالو » و « موليير » ألذع سهام النقد ، فتفاً من ذلك أن عرفه الناس .

(٢) شابيلان هو مؤلف عادي ، وكان من أشهر أعضاء المجمع اللغوي ، ولكن إنتاجه كان من النوع الخفيف ، وقد بلغ من مهاجمة بوالو إياه أن قال عنه النقاد : إنه كان إحدى ضحاياه

«أتدرى لماذا راقت مؤلفاتى الأمراء والسعداء؟ لأن الخير والشر قد قدرا فيها بعدالة لا تعرف الأهواء، ولأن من المستحيل على الكتاب الأدعياء، أن يظفروا منها بمراتب الأذكياء، بل هم لا ينالون فيها أدنى ثناء، ولأن قلبى وهو لنقل الرشد النير، يأبى أن يحدث القارئ بغير ما يختلج فى الضمير، إذ لا أثر للجمال فى غير الحقيقة، وهى وحدها المحبوبة الفاتنة الرشيقة».

على أن النقد فى عهد هذا العبقرى الممتاز — على الرغم من نجاحه فى إعلاء الأذواق وتقويم الأساليب — لم يكن بعد قد ظفر بالمكانة الهامة التى وصل إليها فى القرن التاسع عشر حين غزا الكتب والصحف والمجلات، ولم يكن قد تحدد على النهج الفنى الذى هو عليه الآن، ولا ظهر فى هذه الصور التى تجلى فيها فى هذا الزمان. ولكن الذى لا سبيل إلى الشك فيه هو أننا نشاهد أن جميع الذين اشتغلوا به فى أوربا بعد «بوالو» وبرزوا فيه قد امتازوا بالشجاعة والشرف وسمو الأخلاق، وحب الحقيقة، وحسن الذوق، وبعد النظر، وسعة الاطلاع، ووفرة الذكاء، وتلك هى المميزات التى لا يوجد بدونها نقد سديد يكتب له الخلود.

ومن أبرز أفذاذ هؤلاء النقاد الفنيين المتأخرين وأكثرهم خطراً، وأبعدهم أثراً، وأخلدهم على الزمن، هو «سانت بوف» الذى لم يدخر أى وسع فى سبيل المعرفة، ولم يترك أى طريق معبد أو وعر ينتهى إلى الفن إلا سلكه، ولم يدع باباً من أبواب التحقيق إلا ولجه، ولا نهجاً من أنهاج التحليل إلا انتهجه، فقد كان ينيب عنه من يشخصون له الصور والمستندات من دور الكتب النائية، ويندب من يستمعون المناقشات فى الندوات ويشهدون التمثيليات فى المسارح ليقيدوا ما سمعوه، ويسجلوا ما شهدوه، ويعودوا به إليه فيتناوله بعبقريته، ويسلط عليه أدوات استنباطه الأمين الذى لا يضل، ويرسل إليه أشعة حدسه الصادق الذى لا يخيب.

ومما يزيد فى إعجابنا بهذا الناقد الموهوب أنه كان فى طليعة الذين سلكوا بالنقد الأدبى هذا المسلك الذى هو عليه الآن، والذين وضعوا له المنهج الفنى الجدى المؤسس على دعائم متينة، بعد أن كان فى الماضى يحاكى قواعد القدماء، أو يعتمد على عقلية الناقدين، وأنه كان فى مقدمة الذين ساروا به نحو الكمال، إذ هو الذى وضع قاعدة أنه لا يمكن فهم المنتجات الأدبية بدون الإحاطة بحياة مؤلفيها، وبالمؤثرات التى ساهمت فى تكوين نفوسهم وعقولهم ومشكلاتهم، كالعوامل السياسية والاجتماعية والدينية والفلسفية، وهو فى هذا يقول:

«إنى أستطيع أن أتذوق كتاباً من الكتب، ولكنه من العسير على أن أحكم على هذا الكتاب دون الدراية التامة بمؤلفه، إذ أنى أقرر — مطمئناً إلى رأيى — أنه كما تكون الشجرة تكون الثمرة، كما أنى موقن بأن الدراسة الأدبية تتأدى حتماً إلى الدراسة الخلقية ... وفى الحق ما دام أن الناقد لا يستطيع أن يوجه — ولو إلى نفسه — عدداً من الأسئلة عن المؤلف ويحيط بالإجابة عليها، فإنه يظل غير موقن بفهمه إياه، ولو كانت هذه الأسئلة تبدو له أبعد ما تكون عن موضوعات مؤلفاته، بل عن طبيعتها».

ومن نماذج تلك الأسئلة ما يلى:

«ما رأى المؤلف فى الدين؟ — ما هو شعوره نحو مناظر الطبيعة؟ — ما هو سلوكه بإزاء المرأة؟ — ما هو موقفه من فتنة المال؟ — هل هو غنى أو فقير؟ — ما هو منهجه تجاه المجتمع؟ — ما هى حياته اليومية؟ — ما هى رذائله أو نواحى الضعف فيه؟ وما إلى ذلك.

ومما لا شك فيه أنه لا يمكن استبعاد أى سؤال من هذه الأسئلة، بل لا بد من وضوح أجوبتها لدى الناقد قبل شروعه فى النقد ليتيسر له فهم المؤلف الذى هو ضرورى للحكم على الكتاب، ولا يمكن أن يشذ من هذه القاعدة إلا كتب الرياضة البحتة، أما المؤلفات الأدبية فمن طبيعتها أن تتسم بكل سمات المؤلف».

من هنا يتبين أن «سانت بوف» يعتبر أن النقد الصادر من غير ذوى الإحاطة بصفات المؤلف نوع من أنواع الجهل بأساليب النقد وقواعده، بل بفن القراءة نفسه، وهو لهذا يعرف الناقد الفنان المحقق المثمر فيقول:

«إنه هو الرجل الذى يعرف كيف يقرأ، ويعلم الآخرين كيف يقرءون ...

(يتبع)

محمد غلاب

الســـلوى

القواتير

قال الفيلسوف للمرأة الحزينة التي أتته باكية شاكية : ألا تعرفين يا سيدتي أن ملكة الإنجليز ابنة هنري الرابع قد تحملت من المصائب أكثر مما تحملت أنت ؟ إذ طردت من مملكتها ، فهامت وسط البحار تكاد تهلكها العواصف ، ثم شاهدت سكين المقصلة وهي تهوي على عنق زوجها الملك ؟…

فقالت السيدة : إني أرثي لحالها … ولم تنفك تندب حظها وتبكي .

قال الفيلسوف : تذكري يا سيدتي قصة ماري ستيوارت التي أحبت موسيقياً جميلاً رقيق الصوت فنكبت في حبها بسبب غيرة زوجها ، ثم اقتيدت إلى المشنقة بسبب أطماع أختها …

أجابت المرأة : إنها قسوة ليس لها من مثيل !..

وواصلت النحيب .

قال : إذاً فلأقص عليك ما جرى لأميرة عظيمة تلقت عن الفلسفة . كان لتلك الأميرة عشيق ، شأنها في ذلك شأن سائر الأميرات العظيمات . وفاجأها أبوها ذات ليلة في مخدعها مع عشيقها ، فاضطربت الفتاة وقفزت من نافذة حجرتها فكسرت ساقها ، أما الفتى فقد قتل شر قتلة . ولقد قابلت الأميرة بعد ذلك في سجنها فلم تكن تحدثني إلا عن مصائبها .

قالت المرأة : لماذا إذاً لا تريد أن أتحدث أنا في مصائبي ؟..

فأجاب الفيلسوف : لأنه يجب أن لا تفكري فيها . فلا يليق بك أن تنتحبي وتيأسي وأنت ترين أشجان كل هاتيك السيدات العظيمات …

• • •

ولم يصبح صباح اليوم التالي إلا وقد مات للفيلسوف ابنه الوحيد . فكان حزنه عليه عظيماً . وكادت الفجيعة أن تودي بحياته هو الآخر .

وعلمت السيدة بالخبر ، فبعثت إليه بورقة قد دونت فيها أسماء جميع الملوك الذين فقدوا أولادهم . وتناولها الفيلسوف ، وقرأها ، فوجدها في غاية الدقة ، ولكنه لم تزده إلا حزناً …

• • •

وبعد مضي ثلاثة أشهر على هذه الأحداث ، تلاقى الفيلسوف والسيدة . فكانت دهشة كل منهما عظيمة ، إذ رأى صاحبه لا تبدو عليه دلائل الحزن واليأس ، بل على النقيض من ذلك يطفح وجهه مرحاً واستبشاراً …

وعرفا بفطنتهما السبب في هذا التغير ؛ فأقاما للزمان تمثالاً جميلاً ، ونقشا على قاعدته هاتين الكلمتين : « إلى السلو » !..

تلخيص

(م ٠ ع ٠ م)



شيء يسترعي النظر في الربيع

للشاعر فيكتور هيجو

عند صباحي شهقات نحيب ، دفعت الباب .

• • •

كان الأطفال يجهشون بالبكاء ، وأمهم قد فارقت الحياة .
وكان كل شيء في هذا الوضع المفجع يهول النظر .
فوق الحصير كانت تلك الجثة الكريهة !
النار مطفأة ، والقش يتطاير من أعلى السقف .
والصغار الأربعة يحدقون كالشيوخ
وكان الضباب يرى من خلال النوافذ
وكانت ابتسامة بشعة تلوح على شفاه الميتة ،
والبنت الكبرى التي لم تتعد السنوات العشر تبدو كأنها
تقول : انظروا إلى الظلمة التي هبط علينا بها القدر !

• • •

وها هي قصة هذا البيت :
تحت صفحة السماء المشرقة
كانت تعيش امرأة نقية السريرة ، ذكية ، نشطة
والله الذي يرعاها من العلى بنظرة رحيمة
جعلها سعيدة مغتبطة متواضعة .
ولها زوج عامل .
ثم مرّت بهما الكوليرا .. فخطفت الزوج .
وغدت الأرملة بيؤسها وأطفالها الأربعة
مكبة على العمل بهمة وعزم كالرجل .
إنها مدبرة قادرة ، يقظة مقتّرة !
وهي لا تشكو ولا تتذمر .
إنها ترفو الجوارب العتيقة ، وتنسج المفارش الرقيقة .
تخيط وتغزل وتقضي الليالي دءوبا
لكي تطعم أطفالها . فهي أم عفة رءوم ...
وفي ذات يوم شوهدت في بيتها ميتة من الجوع !!.

• • •

أجل . الأحراش مليئة بالمنازل ،
والطارق الثقيلة تدق على وهج الكور ،
والحفلات التنكرية تزخر بها المدينة ،
والجميع يعيش ، فالتجار يحسبون مبالغهم الموفورة .
وكركرة العجلات تتعالى ، وقهقهات الرجال تتعالى !
ومن خلال غوغاء هذا المرح ، وبهرة الضجيج ،
وشعشعة الأنوار ،
كانت المرأة وحيدة في عقر كوخها ،
حيث نشط الجوع وتسلل للداخل بخطواته المروعة
هزيلاً شرساً ، فيا له من شبح مفزع .
فانثال عليها بدون جلبة ، وقيدها من الحلقوم
وقضى عليها في الحال .

• • •

يا إلهي ! الطعام كثير على الأرض
فهو في أطراف النباتات وفي العشب والفواكه ، والسنابل
المتدفقة .
وبينا يعيش الجميع تحت رحمتك يارب
فتهتدي النحلة لتورّيقة الكافور الشذية
ويعطي الغدير شراباً رويّاً للعصافير ،
ويغذي القبر الغربان والنسور ،
والطبيعة في أعماقها الذهبية تهيء
لابن آوى والجرذان أطيب الغذاء ،
يموت الإنسان ! أوّاه ! الجوع هو الجريمة العامة ،
إنه الانتحار الأعظم الذي يخرج من ظلماتنا ،
إلهي ! لم هذا اليتيم في أسماله الممزقة !
وهو يتمتم : إني جائع ! أليس الطفل كالعصفور ؟
إذاً لماذا يفتقر المهد إلى ما يتمتع به عش الطيور ؟!.

(بغداد) ضياء الشماع

رسالة إلى صديق

للأستاذ حافظ أحمد أمين

هل تذكر يا صديق حين زارك طبيبك الخاص منذ أربعة أشهر ، وشرحت له نوع مرضك ؟ هل تذكر حين شرحت له كيف أصبحت عصبي المزاج لا تقوى أعصابك على احتمال شيء ، بل وشرحت له أيضاً كيف بدأت تختلق الأسباب لتثور وتصيح في وجوه من حولك . لقد شرحت له كيف أصبحت لا تستعمل إلا ألفاظ الضجر والشكوى في كل مكان وزمان .

لقد نصحك طبيبك الخاص بالراحة من كثرة الإرهاق ، وأشار عليك بالقيام برحلة صغيرة تغير فيها نوع حياتك ، ونصحك بأن تزيد من ساعات نومك ، وتطيل من أوقات راحتك ، وبأن تنسى متاعبك ومشاغلك .

ولما أتعبك طبيبك بأقواله هذه ، قمت بالرحلة وأنقصت من ساعات العمل ، وأحسست بالراحة تسري إليك ، وشعرت بالمتعة والبهجة تملأ نفسك ، واعتقدت أنك نلت الهدوء الروحي وحصلت على أسباب السعادة . ولكن شعورك هذا لم يستمر إلا بضعة أيام عاودك بعدها القلق والألم ، فحاولت أن تأخذ إجازة طويلة ، وتخلد إلى الراحة التامة ، وأكثرت من نزهاتك ورحلاتك ، وأخذت تجوب الشواطئ والمزارع ورجعت إلى أهلك رجلاً جديداً يشعر بالبهجة والانشراح ، ولكن لم يستمر هذا أيضاً أكثر من أسبوع آخر ضاقت بعده نفسك بالحياة ، وبدأت تستأنف هياجك وثورتك ، وأخذت تستعيد قلقك ومتاعبك .

وهكذا عجز طبيبك مرة أخرى عن جلب الهدوء لروحك ولم ينجح في أن يمدك بالراحة النفسية التي تبحث عنها ، وهكذا بدأت تبحث عن طبيب آخر يمدك بعلاج آخر .

دعنا يا صديق من هؤلاء الأطباء الذين تبحث عنهم ، إنه لا يوجد في هذا العالم طبيب يستطيع أن يشفيك من هذا المرض الخبيث غير نفسك ، فاجعل من نفسك طبيبك الخاص ، ولتحاول أن تفهم نفسك فهماً صحيحاً .

حاول أن تفهم جيداً لماذا تثور ، واسأل نفسك دائماً : « ما هو السبب الحقيقي لثورتي ؟ » . حاول أن تفكر كثيراً وتبحث عن أصل غضبك ، لا تكتف بما هو ظاهر ، فإنه في الأغلب أن تكون الأسباب بعيدة كل البعد عما هو ظاهر لك وعما تعتقده السبب الأساسي . لا تعلل بكثرة أعمالك أو رقة أعصابك ، أو بفساد معدتك ، أو بشدة الجو وازدياد رطوبته ، حاول أن تدخل في أعماق نفسك ، وتسترجع الماضي الطويل بآلامه وأفراحه لتعلم كيف نشأ أصل هذا الداء الخبيث .

إن علاجك الوحيد يا صديق هو أن تعلم أنك لا تستطيع الهرب من المتاعب ، لسبب واحد ، هو أنك لا تستطيع الهرب من نفسك .

لقد نصحك البعض بأن تشترك في بعض الألعاب المسلية ، أو في بعض الحفلات اللطيفة ، أو قراءة كتاب خفيف . كل هذا تستطيع أن تقوم به في سهولة ويسر ، وكل سيساعدك بعض الوقت في نسيان غضبك وثورتك ، ولكن ليس هذا إلا علاجاً مؤقتاً ، وسرعان ما ترجع حالتك كما كانت من قبل .

إنك لا تريد إلا الهرب ، تريد الهرب من كل شيء ... تريد الهرب من نفسك ولا تدري إلى أين . هذا هو سر شقائك وآلامك .

إن كان لي أن أنصحك فنصيحتي هي أن تترك نفسك تتألم . لا تخف من الألم ، فالخوف هو العدو اللدود لنفسك . إن الخوف من مواجهة الألم معناه الهرب من الحقيقة ، فإن بعض الألم يغسلك وينقي نفسك ، ويرشدك إلى طريق السعادة .

إن كان لي أن أنصحك فنصيحتي هي أن تواجه ألمك وتفكر فيه بشجاعة وقوة ، ستجد صعوبة في بادئ الأمر ، ولكنك ستفهم من نفسك كل شيء ، وستعرف مطالبك الحقيقية ، ستصبح قوياً شجاعاً ، وستتلاشى في النهاية متاعبك في الحياة .

النشيد الأخير ...

صيراميس يا مبعث آمالي وأحلامي
طويت الأمل المجروع في غفوة آلامي
وأمسيت أرتب الساعة الصفراء في جامي
فما أبقى لي اليأس سوى أغوار آثامي
وغير الدمع الباكي ومثوى قلبي الدامي
فعودي منية النفس قتلت العمر في كأسي
لأحلم بين هالات شقيق[1] فرحة الأمس

صيراميس يا سؤلي ودنيا أملي الأوحد
أطل : بين عينيك هواي الطهر قد عربد
ورق بين آفاق سنى كالحب أو أخلد
أكانت نشوة اللقيا خيالاً لا يني يفقد !
بثاركِ وتلك النظرة الغراء هل تجحد !
نسيت العهد أم خنت! ومات الحب! بل أنت
صحت العاذل اللاحي يناديك فلبيت

صيراميس من أنت ! وماذا فيك من معنى !
أرب هبط الأرض وصاغ الطهر والحسنا !
ترى أم أنت آماد من التقديس لا تفنى !
على رسلك أهواك وإني أرجف من ظنا
صيراميس إلطف عذاب الخافق المضنى :
له من شوقه دنيا تذيع النوح والشكوى
ولي من ومض عينيك ضباب الحلم والذكرى

صيراميس يوم الملتقى يختال من قلبي !
دماً يصرع في عينيك : من الدفق الصب !
صيراميس لو تدرين ما ألقاه في حبي !
صلاة الخافق المجنون أشلاء على جدبي
وهذي شقوة الروح بقاياها لحة القرب
فعودي منية النفس قتلت العمر في كأسي
لأحلم بين هالات شقيق فرحة الأمس .

(بغداد) أكرم الناصري

(١) الشقيق : الأفيون .

لا شيء غير نفسك يصحبك ليل نهار ، ولن تستطيع أن تطرد نفسك من نفسك ، فلتقوها تمدك بالسعادة التي تطلبها ، ولتجعلها رحبة غنية حتى تطيب لك السكنى داخلها .

إذا بحثت عن السعادة فابحث أولاً عن القوة ، تلك القوة التي تستطيع بها أن تحتفظ بما تحصل عليه من سعادة ، وأن تبعد كل ما يأتي إليك من شقاء .

ولا أقصد بالقوة تلك التي تأتينا من الخارج ، عن طريق الثروة والمال ، أو عن طريق النفوذ والسلطان ؛ فالقوة التي تأتينا من الخارج ليست ملكنا ، وكل فوز يأتي عن طريقها هو فوز مؤقت يزول بزوالها ، وإنما القوة التي أقصدها هي القوة المستمدة من داخل النفس ، القوة التي لا تأتي وتذهب ، ولا تعلو وتهبط ، إنما هي قوة ثابتة تمد النفس دائماً بالسعادة المستمرة والسلام الأبدي .

إن طمأنينة النفس وهدوءها لا يتأتيان إلا إذا قام المرء بعمل نافع للمجتمع ، أو أدى خدمة للغير أثناء الخوض في معمعة الحياة ، وسعادة الإنسان وإمكانه إدراك كنه نفسه لن يتأتيا بغير تضحية النفس في سبيل الغير .

أحب الناس وعش لهم ، شاركهم في مسراتهم وأحزانهم ، واعمل دائماً لتوفير الحياة السعيدة لهم ، واشترك معهم في همومهم وآلامهم . لا تنسحب من الجماعة ، ولا تعتزل بين كتبك ، أو مع أمثالك من المنطوين ، بل أكثر من زيارة أصدقائك ومن التعرف بهم ، وتقبل المسئولية بصدر رحب ، ولا تحاول التقليل من شأن الغير وبخسه حقه ، ولا تبحث عن عيوب أصدقائك وأخطائهم ، ولكن تغاض عن هفوات الغير وتقبلها قبولاً حسناً .

حافظ أحمد أمين

على الشاطئ *

يا شاطئ النيل .. يا محراب أسراري   ها قد أتيتك ملتاعاً بأفكاري
كالطير .. إن أخفقت أجناحه قصصٌ   من الصدى .. راح يبغى ماله الجاري
كالريح .. إن زمجرت في الجو صاخبة   هبت حواليك .. في رفق وتيار
أفكاري السود في روحي – يلاحقني   منها التحير .. مشبوباً ... بأسراري
فلست أدري أأوهام تطاردني ؟   أم ذي حقائق قد مرت بأطواري ؟
أم سورة عربدت في النفس غاضبة ؟   أم ذي هواجس . من فني وأشعاري ؟
أم نفثة من خبيث الجن – تدفعني ؟   نحو الشكوك – فأحيا .. عبد أوزاري
قد جئت – يا نيل – أستجلي غوامضها   فهل تبدد دياجي التائه – الساري ؟
لي في روابيك سلوان وتعزية :   وفي مغانيك قد سطرت أخباري
أعلل النفس بالذكرى أرددها   فيخشع القلب في تيه – وإكبار
بالأمس قد سرت في نور الهدى مرحاً   واليوم أمشي – على جمر من النار
أين المباهج والأيام تجمعنا   في صفوها الحلو لم تمزج – بأكدار ؟
في أمسيات من الأفراح باسمة   كأنها بيننا – آمال أبكار
يُظل الحمام علينا من قداسته   طهراً فيندى الشباب في أعطاف أغواري
تضاحك الحب أحياناً – فيضحكنا   كأنه موجة في قلب تيار
نلهو على زورق الدنيا وأيكتها   وتنتشي روحنا – في ظل أشجار
تلوح أحلامنا في النيل – راقصة   كرعشة البرق في آفاق أسحار
تطوف بالقلب نجوانا فتطربه !   كأنها .. حوله – أنغام قيثار
تسري الصبابة في نفسي ترنّحها   كأنها خمرة في جوف خمار
سطا الزمان على شمل يبدده   بين الظلام كليث كاسر ضاري
وخلف القلب أشلاء ممزقة   مثل التهارع لم تنعم بأعمار
سرعان ما حطم الآمال فانتثرت   كدمية هشمتها – كف جبار
يُدمي يديّ بأشواك مدببة   وكنت أملأها قبلاً ... بأزهار
كم عشش البشر أوكاري ينغمها   أيام يمرح حسي بين أوكاري
واليوم إذ صار من أهواله مغترباً   ولّت نضارتها في مبتسر هاري
أضحى نعيب غراب البين يزعجها   من بعد ما قطع الهجران أوتاري

محمد أحمد سالم

تطور الزراعة فى الشرق الأوسط

تأليف الدكتور كين

ترجمة السيد أمين نظيف — ومراجعة الأمير مصطفى الشهابى

نشرته الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية — القاهرة سنة ١٩٥٠

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

هذا كتاب كان من حقه أن يقدم إلى الناس منذ ظهر من أشهر ؛ وكان من حق الزراعيين أن يقولوا لنا رأيهم فيه ، لأنه يمس موضوعاً حيوياً بالنسبة إلى بلاد تعتمد فى أغلب حياتها على الزراعة ، ولأنه يتناول موضوع الزراعة فى الشرق الأوسط تناولا صريحاً دقيقاً . ولأن مؤلفه « الدكتور كين » عالم زراعى من أشهر علماء الإنجليز ، ندبته حكومته فى خلال الحرب العالمية الثانية ، ليقف من كثب على أساليب الزراعة فى الشرق الأوسط ، وليدخل فى صميم الحياة الزراعيـة فى بلاده ، مستعيناً على الخبرة والاطلاع والاستئناس بالرأى ، وهى أمور مكنتها له مهمته الرسمية .

ولم يكن الدكتور « كين » وحـده هو الذى قام بعبء البعثة الزراعية لبلدان الشرق الأوسط ، فقد ساعده جماعة من المختصين فيما يتصل بالزراعـة ، من حيث التربة والمياه والتعليم الريفى والحيوان الزراعى وأبحاث الألبان ومنتجاتها وكل ماله صلة بهذا الموضوع الحيوى الخطير .

وعلى الرغم من أن مهمة البعثـة كانت لخدمة أغراض الحلفاء فى خلال حرب سخّروا لها كل قواتهم ومواردهم وجندوا لها كل وسائل علمهم ؛ فإن قيمة هذا التقرير الذى قدمته البعثة بقيت محتفظة بطابع النفعة الدائمة لقضايا ما بعد الحرب . فلم تزل قيمة هذه الدراسات الثمينة بزوال الحرب ، ولم تكن مهمتها محدودة بزمن تصلّ فيـه السيوف وتدمدم القنابل ... ولـكنها احتفظت بصبغة علمية دقيقـة جعلتها عظيمة الجدوى حتى فيما بعد الحروب . مما حدا بولاة الأمور فى انجلترة والولايات المتحـدة إلى جعلها فى متناول الجمهور هناك ، وذلك بطبعها فى كتاب مسـتقل .

وظهر الـكتاب فى طبعته الإنجليزية يحمل اهتمام القوم بأمثال هذه الأبحاث التى يرجى من ورائها خير كثير للمعاونة على التقدم الزراعى فى بلاد لا تزال متخلفة عن ركب الحياة الصحيحة ، ولا يزال فيها من معوقات التقدم والتحسن ما أشار إليه واضعو التقرير فى صراحة ، وعالجوه فى فطنة تدل على فهم دقيق لمسائل الشرق الأوسط ، سواء أكانت زراعية أم غير زراعية .

وقد أدركت الإدارة الثقافية لجامعـة الدول العربية القيمة العلمية والنفعة الصحيحة من وراء هـذا الـكتاب ، ورأت — يحدوها دافع من دوافع الإصلاح — أن بقاء هذا الـكتاب فى لغته الأصلية يحرم كثيراً من رجال الشرق العربى التمتع بمزاياه والاستفادة من مقترحاته ، ويجعل وجه النفعة منـه محظورا على قوم هم أولى الناس بالانتفاع به والاستفادة منه . فقررت الإدارة الثقافية ترجمته إلى اللغة العربية فيما تخرجه إلى الناس من ثمرات الفـكر الأوربى . واختارت لهذا العبء رجلا من أفاضل السوريين علما وأدبا ومعرفة بالزراعة ، هو الأمير مصطفى الشهابى ، فاعتذر من هذا العمل لأنه لا يعرف من اللغة الإنجليزية إلا مبادئها ...

ولكنها لم تعفه من مصير الكتاب وألقت عليه عبء اختيار مترجم يثق به ، كما ألقت عليه عبء الإشراف على الترجمة ، حتى يخرج الكتاب في قالب عربي لا يخرجه عن المعنى الذي قصده المؤلف ، ولا يضيع شيئاً من معالمه .

وقام السيد أمين نظيف — مدير الزراعة في وزارة الزراعة السورية — بترجمة الكتاب ، وقام الأمير مصطفى الشهابي بالمراجعة والإشراف ... مع اعترافه بأنه لا يعرف من اللغة الإنجليزية — وهي اللغة التي ترجم عنها الكتاب — إلا مبادئها ..! ولعل ذلك هو الذي حمل الأمير الشهابي على أن يجيز لنفسه أن يتصرف في الكتاب قليلا ، وأن يركب ذلك مضطرا كما يقول ، حتى يتم (وضع الترجمة في قالب يجوز تسميته بقالب عربي) . والذي نعرفه أن وضع أي كتاب أو أي نص في قالب يجوز تسميته بقالب عربي لا يبيح للمترجم أن يتصرف ، وخاصة في الكتب العلمية وفي التقارير الموضوعية ! ولو جاز ذلك في قصة أو رواية لما جاز في كتاب علمي تقريري .

وأنا لا أعرف أصل الكتاب الإنجليزي ولم أطلع عليه حتى أحكم على مدى تصرف الأمير الشهابي في النص — كما يعترف هو نفسه في الكلمة التي قدم بها الكتاب . ولكنني أرجو مخلصا أن لا يكون ذلك على حساب الحقائق العلمية في هذا الكتاب . وإذا لم يكن من التصرف مناص أفما كان أولى أن يُترك الأصل كما هو ، ثم يحال كل تصرف أو تعليق أو تفسير إلى هامش الكتاب ، كما فعل الأمير في جمهرة من الصفحات ؟

ولعل الفصل الخاص بعمليات الإصلاح الزراعي في بلدان الشرق الأوسط ، هو من وجهة نظري — على الأقل — أكثر فصول الكتاب أهمية للقارئ المهتم بالزراعة . فهناك من العوامل الاجتماعية ما يزيد مشكلة الزراعة في الشرق العربي تعقيدا . ولا يخفى التقرير أن يذكر في صراحة أن مستوى التغذية دنىء ، على حين أن عدد السكان يتزايد بسرعة ، ولا سيما في مصر المكتظة بالسكان . فاجتماع عامل ازدياد السكان السريع ، وعامل النظام الزراعي الذي قصاراه ضمان مستوى غذائي دنىء ، ينذر بوقوع كارثة مضاعفة ، لأن مستوى العيش الذي هو في الأساس منخفض انخفاضا خطيرا سيزداد تدنيًا ، ولأن العاملين في الأرض سيمعنون في استغلالها ، للحصول على غلات أغزر ، وسيحتفظون بعدد أكبر من الحيوانات ضمن الأصول الزراعية القديمة ، وهكذا ستزداد حال الأرض سوءا .

ولا يؤمن واضعو التقرير — وعلى رأسهم الدكتور كين (Dr. B. A. Keen) — بأن الإصلاح الزراعي في بلاد الشرق الأوسط يمكن أن يأتي من داخل البلاد . فإن التطور في عدد من بلاد الشرق الأوسط هو في دور يعوزه رأس المال والخبرة ، والرجال المتصفون بالصفات التي يتطلبها مثل هذا التطور في هذه الأيام . وكل ذلك يجب أن يأتي من خارج البلاد إجمالاً ... ولا يجوز — في نظر أصحاب التقرير — الثائرة على الوضع الحاضر ، وهو أن تترك إلى المصادفات قضية تدارك هذه المساعدات ، بل يجب جعلها تابعة للمراقبة ولنظام معين .

ويرى واضعو التقرير أن إشاعة الثقافة الزراعية الصحيحة في جمهور الفلاحين وملاك الأراضي كفيل بإيجاد انقلاب زراعي شامل ينقذ الزراعة في بلدان الشرق الأوسط من وهدتها .

فتنمية الشعور بالتبعة والمسئولية في كبار الملاك تجاه أرضهم وتجاه فلاحيهم الذين يكدحون فيها ، وغرس حب الإصلاح في الفلاحين المشتغلين بالمزارعة ، والمالكين لمساحات صغيرة من الأرض ، وإيجاد طريقة صالحة لتعليم أبناء الريف ، وتحبيب البيئة الريفية إليهم بمختلف الطرق ، وإعداد معلمين لمدارس الريف وموظفين ذوي كفاية وخبرة لوزارات الزراعة ، كل ذلك كفيل بأن يعين أكبر العون على إحداث تطور زراعي سريع .

* * *

ولم يغفل التقرير في تفصيله كثيراً من المسائل المتصلة بالزراعة ، سواء أكانت هذه المسائل تقوم على تربة الحقل نفسه ، أو تقوم قريباً أو بعيداً منها ... فتجويد الماشية وتحسين سلالاتها وتكثيرها ومعالجة أمراضها ، مما يحتاج إليه قطر زراعي لا يستغني عن الماشية في كثير من أغراض

الزراعة وفي كثير من الصناعات الزراعية . والتربة في بلاد الشرق الأوسط تحتاج إلى دراسة عاجلة على يد المختصين بالأتربة ، وبالتفاعلات الكيمياوية والطبيعية المتعلقة بالري . ونظام الري — عند أصحاب التقرير — لم يعد مشروعاً هندسياً صرفاً يعنى بأحسن الوسائل إلى ضبط الماء وتصريفها إلى البقاع المختصة . وإنما لابد من مشاركة خبراء التربة لرجال مشروعات الري ، حتى لا تنقلب منفعة الماء إلى مضرة للأرض .

ويوصي التقرير في النهاية بإنشاء « معهد مركزي للتطور الزراعي » بغية إعلام الأعمال التي تقوم بها أقطار الشرق الأوسط منفردة . وفي استطاعة هذا المعهد المركزي — كما يقول التقرير — أن يخدم الشرق الأوسط في جملته ، ويسهل في الوقت نفسه الاستفادة — إلى أبعد الحدود — من الأشخاص المدربين ، ومن الوسائل الفنية الحديثة .

* * *

ويبدو لقارئ هذا الكتاب — وهو يرى ازدحامه بألوان من الثقافة الزراعية ومن قضايا بلاد الشرق العربي خاصة — أن المترجم قد بذل فيه من الجهد ما يؤكده لنا تلك الكلمة التي زكى بها الأمير الشهابي ترجمة السيد أمين نظيف . وهي تزكية لا تمنعنا أن ننسى أيضاً فضل الأمير الشهابي نفسه في تعليقاته الكثيرة ، وتصحيحاته اللغوية ، وفوائده الطريفة التي نعرفها عنه في « معجمه الزراعي » الجليل ، وفي أبحاثه المتفرقة هنا وهناك .

ولا شك أن إمداد الأمير الشهابي لدائرة معارفنا الزراعية بهذه الألفاظ العربية الفصاح مما يعين على جعل العربية لغة علم لا تضيق بمصطلحات العلوم والفنون ، ولا تقل عن أخواتها من لغات العالم .

« فالتحويل » : لفظة يستعملها الأمير لزرع الأرض حولاً وتبويرها حولاً للتستريح .

« والعِذْيُ » : الزرع لا يسقى غير المطر .

« والسَّقِيّ ، والسقوي » : الزرع الذي يسقى بإحدى طرائق الإسقاء .

« ومُعبِلات الأشجار » : هي التي تسقط أوراقها في الشتاء .

« والطشوج » : كلة قديمة كانت تستعمل في العراق في مقابل « الكورة » ، أو ما يسمى بالمنطقة الزراعية .

« والبَسَفْ » : من الحجارة هو ترجمة لفظة Basalte

« والمَرْوُ » : من الحجارة هو ترجمة لفظة Quartz

« والطَّلْق » : من الحجارة هو ترجمة لفظة Mica

وهكذا يمضي الأمير الشهابي في استعمال ألفاظ صحاح فصاح ؛ فيحيي بذلك الاستعمال كثيراً من الكلمات التي ظلت محجوبة في معاجم اللغة زماناً طويلاً .

* * *

على أن ذلك الجهد الذي بذله المترجم والمراجع لم يخلُ من هفوات لا تنقص من قدره بقدر ما تدل على وجود النقص في جبلة البشر ... فلفظة « الوادي » تجمع في هذا الكتاب على « وديان » . والذي نعرفه من كتب اللغة أن جمع الوادي : « أوداء » ، و « أودية » ، و « أوداة » ، و « أوداية » .

وفي صفحة ١٣٧ يستعمل المترجم الفعل « يعيق » بمعنى يمنع . والصواب أن يكون « يعوق » مثل قال يقول ، أو يعوّق مثل علّم يعلّم . أما الفعل « أعاق » والمصدر منه « إعاقة » فمن أخطاء المولدين .

وفي هامش صفحة ١٤ أن « العذي » جمع أعذاء . وهذا عكس المراد ؛ فإن العذي جمعه أعذاء . فالعذي مفرد ، والأعذاء جمع .

ولماذا يستعمل الأمير الجليل لفظة « مُلّاك » بصيغة الإفراد والمبالغة ، بدلاً من « مالك » التي تجمع على « مالكين » جمع مذكر سالماً ، وتجمع على « مُلّاك » بضم الميم جمع تكسير ؟ وأيهما أسهل طريقاً : المالكون الأرضَ كما نقول ، أم المُلّاك كون الأرض كما يكتبها الأمير الجليل ؟ .

ومهما يكن من أمر ، فإن الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، والسيد أمين نظيف ، والأمير مصطفى الشهابي ، مشكورون أجزل الشكر على إخراج هذا الكتاب الحيوي الثمين .

محمد عبد الغني حسن

السجل الثقافي الجديد لعام ١٩٤٩

للدكتور جمال الدين الشيال

ظهر منذ أسابيع السجل الثقافي الثاني لسنة ١٩٤٩ ، وقد أعجبنا منه أول ما أعجبنا المقدمة التي كتبها أستاذنا الدكتور محمد عوض محمد بك المدير العام للثقافة ، فهو يعترف فيها بما شاب السجل الأول من قصور ، وهو يشكر للناقدين نقدهم وتوجيهاتهم ، ويصرح أن القائمين على السجل قد بذلوا الجهد كل الجهد لاستكمال النقص ، وأنهم أعادوا النظر في جميع الأبواب فأكملوا البعض وعدلوا البعض الآخر ، كما أنهم أضافوا إلى السجل الثاني أبواباً جديدة رأوا أنها من مكملات التسجيل الثقافي ولوازمه . وأهم التغيرات التي أحدثت في السجل الثاني — إلى جانب استكمال النقص في الأبواب المختلفة — هو التغيير الذي أصاب باب الكتب ، فهذا الباب في السجل الأول كان أبعد ما يكون عن تحقيق الهدف الذي يرمي إلى تحقيقه ، ولكنه في وضعه الحالي قد قرب كثيراً من النموذج الذي نحب أن يكون عليه . فقد عدل القائمون على السجل عن النظام الجدولي القديم إلى نظام التعريف بكل كتاب ، بذكر نبذة قصيرة عنه تعطي القارئ فكرة سريعة عن الكتاب وموضوعه ومؤلفه أو مترجمه أو ناشره ، وعن عدد الأجزاء والصفحات ودور النشر والطبعات المختلفة . وهو جهد قيم يتفق والطريقة العلمية الصحيحة لوضع أمثال هذا السجل .

والسجل مع عنايته الفائقة — في طبعته هذه — بباب الكتب ، فإنه عني كذلك عناية كبيرة بميادين النشاط الثقافي الأخرى ، فإنه لم يترك منها شاردة أو واردة إلا أحصاها ، فهو يتكون من أربعة عشر باباً ، خص كل ميدان من ميادين الثقافة باب منها ، فأنت تجد فيها تسجيلاً وإحصاء للكتب التي أخرجتها المطابع بعد تصنيفها إلى كتب مؤلفة وكتب مترجمة ، ولدور الكتب العامة والخاصة ، ولدور النشر وجهودها ، والصحف والمجلات عربية وغير عربية ، والمحاضرات في العلوم والفنون المختلفة ، والأحاديث الإذاعة وتمثيلياتها ، والهيئات الثقافية والعلمية والفنية ، والمؤتمرات التي اشتركت مصر فيها بأنواعها المختلفة ، والتعاون الثقافي ، والمهرجانات والمسابقات العلمية ، والمتاحف الأثرية والفنية والعلمية ، والحفائر الأثرية ، والمعارض ، ثم المسرح والسينما .

فالسجل عمل ضخم دون شك ، والجهود التي بذلت في إعداده وتبويبه وترتيبه والإشراف على طبعه وإخراجه جهود قيمة تستحق كل ثناء وتقدير ! ولكنه مع هذا لم يخل من هنات نرى من واجبنا التنبيه إليها ليعمل القائمون على السجل على تداركها في الطبعات القادمة إن شاء الله ! ونحن بهذا إنما نستجيب للدعوة الكريمة التي دعاها الأستاذ الدكتور محمد عوض بك في مقدمته حين أعلن أن الإدارة الثقافية قد أفادت الكثير من نقد الناقدين للسجل الأول ، وحين صرح أنه يرحب بكل نقد أو ملاحظة جديدة .

قسم السجل الكتب إلى مؤلفة ومترجمة ، ثم أحصى في باب الكتب المؤلفة كل كتاب غير مترجم سواء أكان مؤلفاً في سنة ١٩٤٩ أو قبل ذلك بقرون ، فكتب : البيان والتبيين للجاحظ ، وديوان عامر بن الطفيل ، وشروح سقط الزند ، ومقاتل الطالبيين للأصفهاني ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي لا شك أنها كتب مؤلفة ، ولكنها لم تؤلف قطعاً في سنة ١٩٤٩ ، فمن الخطأ أن تحصى ضمن الكتب التي ألفت في هذه السنة ، وكان من الواجب أن يفرد باب خاص لإحصاء المخطوطات القديمة التي تنشر في كل سنة ، وفي هذا الباب تذكر الكتب التي ذكرناها وأمثالها ، وبهذا يقدم السجل إحصاء ناجحاً لميدان من أهم ميادين النشاط الثقافي ، وهو ميدان النشر العلمي وبعث التراث القديم ، فالجهد الذي يبذل في النشر يختلف اختلافاً كبيراً عن الجهد الذي يبذل في التأليف أو الترجمة ، والأثر الذي يتركه إحياء التراث العلمي القديم يختلف كذلك عن الأثر الذي تتركه الكتب المؤلفة أو المترجمة .

وأصحاب السجل قد أحصوا عدد الكتب المؤلفة والمترجمة في جدول خاص ختموا به باب الكتب ، فذكروا أن عدد الكتب المؤلفة في عام ١٩٤٩ هي ٥١٥ كتاباً ، وهم قد أحصوا من بينها — دون شك — أمثال الكتب القديمة المنشورة التي ذكرناها ، فهل يعتبر هذا الإحصاء الرقمي إحصاء صحيحاً من الناحية العلمية ؟ أعتقد أن سجل العام القادم سيشهد تغييراً جديداً في باب الكتب ، فيكون فيه فصل للمخطوطات المنشورة ، وفصل للكتب المؤلفة ، وفصل للكتب المترجمة .

ذكرنا أن من محاسن هذا السجل التعريف بكل كتاب في سطور قليلة ، غير أننا نلاحظ أن التعريف بالكتب لا يسير على وتيرة واحدة ! فالكثير من الكتب قد عرف بها وبمؤلفيها وموضوعاتها وطبعاتها وعدد أجزائها وصفحاتها .. الخ ، والبعض قد قصر في التعريف بها تقصيراً تاماً ، فذكر مثلاً في ص ٢٣ : « كتاب فرسان القادسية لأحمد إبراهيم الشريف » ، وفي ص ٢٣ : « كتاب النجوم الزاهرة (عاشر) لابن تغرى بردى » ، وفي ص ٢٦ : « شرتل لمصطفى عزمى ، سيرة محسن عربى معاصر » ! وإذا كانت إدارة التسجيل الثقافي قد عجزت عن الحصول على كتاب فرسان القادسية أو كتاب شرتل للتعريف بهما ، فما أظنها كانت عاجزة عن الحصول على الجزء العاشر من كتاب النجوم الزاهرة ، فهو من مطبوعات دار الكتب المصرية ، والتعريف بمحتويات هذا الجزء ضروري ليعلم القارئ أي عصر يبحث هذا الجزء ، فالكتاب كبير ويؤرخ في أجزائه الكثيرة لمصر منذ الفتح العربي إلى أواخر القرن التاسع الهجري .

كذلك لاحظت أن القائمين على السجل كانوا يلجأون — للتعريف بالكتاب — إلى النظر في مقدمته ، وهذه طريقة لا بأس بها ، ولكن يبدو لي أن هذه النظرة إلى المقدمة كانت في بعض الأحيان نظرة سريعة السرعة كلها ، تخطف كلمة من أول الصفحة وكلمة من آخرها وتكون منهما التعريف ، لهذا جاء التعريف ببعض الكتب مضللاً ، وأضرب هنا مثلاً واحداً ؛ قيل للتعريف بكتاب « المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي » للدكتور محمد مصطفى زيادة ، إنه « بحث مقارن بين مؤرخي ذلك القرن من المصريين ومعاصريهم من الأوربيين للتدليل على قيمة ما ساهمت به مصر في التراث الثقافي » ، والحقيقة أن هذه الفقرة لم تشغل إلا سطوراً قليلة من إحدى صفحات المقدمة ، أما الكتاب كله فموضوعه التأريخ لمؤرخي مصر في القرن الخامس عشر .

— من بين الكتب المؤلفة كتب ألفت بلغات أجنبية كالإنجليزية والفرنسية ، وقد وضعت والكتب المؤلفة باللغة العربية في قائمة واحدة ، والأفضل أن يفرد لها فصل خاص تقديراً لها على الجهد في التأليف بلغة أجنبية .

— في باب الكتب المترجمة ذكرت عناوين بعضها بلغاتها الأصلية ، وكذلك أسماء المؤلفين ، ولم تذكر هذه العناوين والأسماء أمام البعض الآخر ، ومن الواجب تعميم القاعدة ، وذكر العنوان الأصلي واسم المؤلف أمام كل كتاب مترجم

— عنى السجل بإحصاء المكتبات في مصر ، ومع هذا فاته الإشارة إلى عدد كبير من المكتبات الهامة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : المكتبة الخاصة لحضرة صاحب الجلالة الملك ، ومكتبة معهد دمياط الديني ، ومكتبة معهد الاسكندرية الديني ، ومكتبة معهد طنطا الديني ، وهذه المكتبات الثلاث الأخيرة من الواجب التعريف بها ، فإن بكل منها عدداً من المخطوطات النادرة الهامة التي هي في الواقع بعض التراث الذي خلفته الحياة العلمية الدينية النشيطة التي كانت تضج بها هذه المدن الثلاث في العصور الوسطى ! ومن المكتبات التي أغفل السجل الإشارة إليها رغم أهميتها : مكتبات الأديرة المختلفة — وخاصة في طور سينا ووادي النطرون والصعيد — ، ومكتبة دار البطركية بالقاهرة والاسكندرية ، ومكتبة بطركية الروم الأرثوذكس بالاسكندرية ، ومكتبة جامع الشيخ بالاسكندرية ، كما يحسن الإشارة إلى أن بكل مدرسة ثانوية أو ابتدائية مكتبة خاصة مع التنويه بأهمها وأكبرها .

— أشير في باب الجمعيات العلمية وفي باب المتاحف إلى أن الكثير من هذه الجمعيات والمتاحف تضم إليها مكتبات ضخمة هامة ، وكان الواجب أن تحصى هذه المكتبات ويعرف بها في باب المكتبات ليكون إحصاء المكتبات وافياً جامعاً مانعاً ، وللدلالة على قيمة هذه المكتبات يكفي أن نذكر منها على سبيل المثال ، مكتبات : الجمعية الجغرافية الملكية ، والجمعية الملكية للدراسات التاريخية ، والمجمع العلمي المصري (ومكتبته من أقدم وأعظم المكتبات فهي تضم ٣٨٧٨٣ كتابا) ، والمتحف اليوناني الروماني بالاسكندرية ، والمتحف الحربي بالقاهرة ، والمتحف القبطي ومتحف فؤاد الأول الزراعي .. الخ .. الخ

— باب الصحف والمجلات يحتاج إلى عناية كبرى لإعادة ترتيبه وتصنيفه وإكمال ما به من نقص ، فالمجلات العلمية مثلا يجب أن يفرد لها باب خاص ، فقد أهملت في هذا السجل إهمالا تاماً مع كثرتها وأهميتها ، ويكفي أن نشير إلى مجلات : الجمعية الجغرافية الملكية ، والمجمع المصري العلمي ، والجمعية الملكية للدراسات التاريخية ، وجمعية محبي الآثار القبطية ، وكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وجامعة فاروق الأول والمعهد الفرنسي للآثار بالقاهرة ، والجمعية الأثرية بالإسكندرية ، وكراسات التاريخ المصري .. الخ

— وأمنية أخيرة نرجو لو عمل السجل على تحقيقها ، فإن لها خطورتها كمصدر من مصادر الإنتاج الفكري ، وتلك هي الرسائل الجامعية العلمية التي تجاز لدرجتي الماجستير والدكتوراه في كل عام ، فحبذا لو خصص فصل لإحصائها وذكر نبذ قصيرة عنها .

وبعد فإن المولود لا يولد كاملا ، ولكنه يحبو ثم يخطو ثم ينمو إلى أن يصلب عوده ويشتد ساعده ، وما قصدنا بهذه الملاحظات أن نغمط السجل حقه أو القائمين عليه فضلهم ، ولكنا قصدنا المساهمة في إنماء السجل والوصول به إلى المثل الذي تهدف وتهدف إدارة الثقافة إلى الوصول إليه ؟

دكتور

جمال الدين الشيال

قـالــوا

• العقل هو الساوي الوحيدة للإنسان في حياته ، وهو دواؤه الأول . وإذا كان التفكير أحياناً مصدر شقاء ، فهو بعد ذلك نبع الشفاء .

(شاتوبريان)

• الإنسان هيكل متألم ... وهو أدق المخلوقات في هذا العالم الواسع .

(أناتول فرانس)

• الظفر بالحزم ، والحزم بإجالة الرأي ، والرأي بتحصين الأسرار .

(ابن المقفع)

• أحب ، إذاً فأنا حي ... لا أحب ، إذاً فأنا ميت !..

(أناتول فرانس)

• البطل هو الرجل الذي يعرف كيف يموت في المكان والوقت المناسبين .

(نيتشه)

• يبدو لي أن الاحتراس من خيانة الأصدقاء عمل قبيح ... بل هو أقبح من خيانة الأصدقاء نفسها !..

(لاروشفوكولد)

• الضحك سلاح هائل في هذه الحياة لمن يعرف كيف يستعمله .

(أناتول فرانس)

• كن قنوعاً تجد نفسك غنياً ، وكن شجاعاً تجد نفسك قوياً .

(مثل غربي)

• الكذب قد يستعمل كما يستعمل الدواء . ولكن استخدامه يجب أن تترك للطبيب الخبير بوضع الدواء في موضع الداء .

(حكيم)

• وعلى العاقل إذا اشتبه في أمرين فلم يدر أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيتجنبه .

(ابن المقفع)

جمعها : (م . . .)

القلب الحائر

للأستاذ عصمت نجيب

دوى الطلق الناري قريباً، وسمعنا صوتاً مألوفاً يهتف: لقد انتهيت! ومن وسط الظلام كان أبي يلتقط أنفاسه الأخيرة، وسمعته يقول: إنه صادق.. لا ريب.. القاتل..

والتف الناس حول الجثة، وأخذت أمي تولول، وأنا أقف جامدة صامتة كأن شيئاً لم يحدث لأبي، وقلت من بين أسناني: أبي! لن يأخذ بثأرك أحد سواي... وأقسم على ذلك!.

والتفتت أمي في جزعها ترى في دهشة ابنتها التي ستأخذ بالثأر وقالت: أنت!.

قلت: نعم، ولن يثأر له أحد سواي؟ إياك أن تحدثي بشيء مما قال.

ومضت الأيام وأفلت المجرم من عقاب القانون، ولكنه لم يكن ليفلت من انتقامي، وتركته يهنأ بأمل النجاة حتى يكون انتقامي أروع. وإني أنسى لا أنسى اللحظة التي فتحت فيها الباب لأرى صادقاً أمامي... قاتل أبي... أي شعور بالكراهية تدفق في عروقي، وكاد يوحي إليّ أن أفترسه افتراساً، ولكني انتظرت ودعوته للدخول... لقد كان صادق شريكاً لأبي في تجارته..

ولم أصدق أذني عندما سمعته يعرض على أمي الزواج مني قائلاً: إنه أقسم لأبي أن يكون عائلاً لأسرته بعد وفاته.

وأمهلته أمي لحظات وجاءت تحدثني في الأمر العجيب، ولا بد أنها دهشت أشد الدهشة إذ بادرتها بالموافقة.

قالت: ولكنك...

قلت: نعم، أعرف... وهذا جزء من خطتي.

وعندما انصرف قلت لها: الطمع سيكون هنا سبيلاً إلى الحصول على ماله... فليس له أقارب.

وبعد أيام وجدت نفسي، وقد أصبحت زوجة غريمي. وعندما ضمنا بيت واحد، وجدته شاباً قوياً قسيم الوجه... وتذكرت أن خطاباً كثيرين تهافتوا على طلب يدي؟ فرفض أبي لفرط حبه لي ولخوفه من أن أقع في حبائل رجل شرير، ورأيت نفسي الآن زوجة لرجل لم أعرف من هو أشر منه... وكانت تمتلئ نفسي غضبة...

وفي الليلة الأولى صارحته بأني أقسمت أن أبقى عذراء حتى يمضي عام على وفاة أبي...

ودهشت إذ رأيته يجيبني في حنان عجيب: إني أقدر شعورك أيتها الحبيبة مدركة، وأحترم عهدك! فخذي راحتك مني، ولنعش أخوين يحب كل منهما الآخر، فليس لي في الدنيا سواك!.

وعندما آويت إلى الفراش أخذت أفكر فيما قال، إنه من ماكر خبيث، أيريد أن يأسرني بعطفه. أيظن أني أنخدع بسهولة؟ إن حسن معاملته تكفير عن جرمه الشنيع...

وأخذت الأيام تمر وأنا قلقة حائرة، أي ميتة أختارها له؟ إني أملك مسدس أبي! فهل أقتله وأستريح؟ سيكتشفون الجريمة. هل أدس له السم؟ هل أخنقه؟ هل أكتم أنفاسه...

وبمرور الأيام، شعرت بالحب الذي يكنه لي، وبالعطف والحنان اللذين يحيطني به، بينما أجازيه عن ذلك بالكراهية الملتهبة التي تملأ أحناء نفسي، وأخذت أتساءل: هل حبه هذا صادر عن عاطفة نبيلة؟ أم أنه صادر عن شعور بتأنيب الضمير؟ وأخذت أقنع نفسي أن هذا الحب إنما هو طريقة يكفر بها عن جرمه.. وأخذت أردد هذا الخاطر في نفسي.. ولكن صوتاً ظهر على مر الأيام كان يسخر من هذه الفكرة. أخذت أفكر في مصدر هذا الشعور ببراءة صادق؟ فاكتشفت أنه صادر عن قلبي الملئ بالكراهية.

ولم أصدق أن الكراهية العنيفة يمكن أن تنقلب إلى عطف — ولماذا أخفي — إلى حب. لقد حدثت المعجزة... لقد بدأ قلبي يحن ويلين، وبدأت أشعر أن هذا الشاب الذي يحوطني بكافة أنواع الرعاية، والذي أقابله بالكراهية إنما هو شخص نبيل... ربما قتل أبي في ساعة من الغضب!

وعندما لاح لي هذا الخاطر، ورأيت أبي مطروحاً على الأرض قتيلاً... اشتعلت تلك النار التي كادت أن تخبو بحب صادق...

وأخذ صادق يحدثني عن حياته الصبية، كيف بدأ حياته

يتيماً شريداً ، وكيف شعر بالشقاء والتعاسة منذ طفولته ، وكيف كانت حياته سلسلة من الجهاد ضد الطبيعة وضد الجوع والحرمان ... حتى قيض الله له عملاً كسب من ورائه بعض المال اشترك به في التجارة مع أبي ...

ثم بدأ يحدثني عن أبي الذي أراد أن ينال ثلث الأرباح وصادق الثلث ، قائلاً : إنه يعول أسرة ... وكيف شعر صادق أنه محروم حتى من ثمرة كده ، وأن اللحظة التي يشعر فيها بأنه سيجازى خيراً عن جهاده طوال حياته لم تأت بعد ...

وشعرت بالعطف الشديد عليه ... إنه زوجي ، إنه يشعر الآن أن الأيام تعوضه عن التعاسة والحرمان ، إذ زوجني ... كيف أقضى على حياته في هذه اللحظة ... سيكون هذا أفظع انتقام في الوجود ، فهل هو جدير به .. ربما كان له بعض العذر ، لقد قاسى كثيراً ! لقد أراد أبي أن يظلمه ...

وفي حيرتي هذه العظيمة أخذت أبكي ... كيف أقتله وهو يحبني هذا الحب ... كيف أتخلص من القسم الذي أخذته على نفسي في ساعة لم أكن فيها في وعيي ! هل من العدل أن أحرم من الحياة شاباً في مثل فتوته وجماله .. وقلبه الكبير ! إن الأيام تكشف لي عن نبله ... رحماك يا إلهي ! لماذا ولدت في بلد يدين بالثأر ، ويعيش على الدماء ... لماذا لم أمت قبل أن يأتي اليوم الذي أقتل فيه حبيبي ...

لقد دعوته حبيبي لأن هذا الشعور الجديد طغى على كياني وعبثاً حاولت إخفاءه .

وكان الصباح يبدو مظلماً ، إذ أسهر في التفكير في أمري وتعاستي ! جفاني النوم فبت أتقلب على فراش من الشوك ... ويسألني صادق في حنان عما بي فأقول : لا شيء يا صادق ، إنما أنا أرقة ... فيسألني أن أتناول شيئاً من دواء فأشكره وأعده بالنوم . ثم يطول ليلي ...

بل إني فكرت أن أضمه إلى صدري المضطرب وأبوح له بكل ما يعذبني ، وأسأله أن يهرب وليقتلني أهلي ، ولكن حياتي لن تعذبه عند أهلي ... فكرت في الهرب سوياً إلى بلد بعيد .. خارج مصر ، ولكن سيف الثأر المسلط سيكون وراءنا أينما حللنا ...

وزارتني أمي ، وبدا عليها الغضب لعدم تنفيذ قسمي بعد ، فأخذت أؤكد لها أني أنتظر الوقت المناسب .

قالت : إني أدرى بضعف النساء ، فإن أبطأت بعد اليوم قتلته بيدي أو قتله عمك الذي لولا قسمك لاستراح منه منذ زمن ، لقد اعترفت له بالأمر .

وهالني حديثها وأخذ كلامها يطن في أذني طوال النهار ، وفي المساء أويت إلى فراشي ، وقد وضعت المسدس تحت الوسادة وانتظرت في قلق حتى نام زوجي بعد أن طبع على جبيني قبلة المساء التي شعرت عندها بتيار كهربائي في جسدي ....

ودوى في أذني صوت أبي ... إنه صادق ... القاتل ، وسمعت أمي تقول : إني أدرى بضعف النساء ... وبدا لي أبي جثة هامدة ، ورأيت عمي يأخذ طريقه إلينا ... وامتلأت عيني بالدماء ، وأذني بالصياح ، ولم أدر إلا وقد سحبت المسدس وأغمضت عيني ذاهلة ودوى الصوت الرهيب وأطلقت صرخة مدوية ، ولم أعد أشعر بشيء ...

هذا ياسيدي المحامي هو كل ما حدث ، وسأعترف بأني قاتلة زوجي ... فلاخير في الحياة من بعده ... إني أتعس امرأة على وجه الأرض ...

وربت المحامي على كتفها وهو يقول : ألم تعلمي ما حدث بالأمس ؟

قالت : ماذا ؟

قال : لقد حكم بالإعدام على شقي معروف ، فاعترف أنه هو الذي قتل أباك ، وأنه إنما فعل فعلته انتقاماً منه لعدم تزويجه منك !

وشحب وجهها وتهالكت على مقعد قريب ، وقالت تحدث نفسها : لقد كان بريئاً ! وكان يحبني حبا خالصاً ...

وسارت بها الأحلام بعيداً ، وأخذت تبتسم واستيقظت فجأة تسأل المحامي : وأين زوجي الآن ... لا بد أنه ينتظرني ! فيغشى بصره ، فتصيح فيه : أين هو ؟ أين أخذتموه ؟

إنه زوجي وسأحبه ... سأهب له حياتي كلها ...

ويتناول الرجل يدها محاولا تهدئتها فتنتزع يدها وتصيح : ابتعد عني أيها النذل : لقد قتلت زوجي لتظفر بي ها ها ، أنا أعرف حيلك الوضيعة ... ولكني لست لأحد إلا لصادق .. إنه سيأتي ويأخذني بعيداً ، ثم سيأتي .. سيأتي .. ها ها ها ...

ويبتعد المحامي ، وتنهمر من عينيه الدموع ؟

عصمت نيب

مكتبة الثقافة

للأستاذ أحمد حسين الصاوي

الإمبراطورية البيزنطية: تأليف نورمان بينز، وترجمة الدكتور حسين مؤنس والأستاذ محمود يوسف زايد — لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٥٠ — في ٤٢٠ صفحة

يخطئ أولئك الذين يدرسون تاريخ الأمم والحضارات المختلفة باعتبارها وحدات مستقلة قائمة بذاتها دون أن يهتموا بالبحث في التفاعل الحضاري وعوامل التأثر والتأثير بين هذه الوحدات. وأخص من هؤلاء دارسي التاريخ الإسلامي الذين ينظرون إليه من زاوية واحدة ضيقة، وهي أنه صورة لحضارة متميزة نبتت في شبه الجزيرة العربية القاحلة الجرداء، وخرجت منها فانتشرت فيما حولها من الأقطار.

إن الإسلام قد تأثر تأثراً بعيداً بكل من الحضارتين الفارسية والبيزنطية، بل ومقومات هاتين الحضارتين ومناهجهما وصورها المختلفة؛ كما أثر بدوره في الأقطار الفارسية والبيزنطية التي غزاها. وأنتج هذا التفاعل الحي آثاره ومظاهره في الحياة الإسلامية.

والكتاب الذي نقدمه اليوم يساعد على السير في هذا الاتجاه السليم. وهو أول حلقة من سلسلة كتب في تاريخ العصور الوسطى تصدرها لجنة التأليف بإشراف الأستاذ الكبير الدكتور محمد مصطفى زيادة. وقد نهج المترجمان نهجاً علمياً ممتازاً في التعريب، فلم يكتفيا بترجمة الكتاب ترجمة دقيقة وافية غنية بالشرح والتعليق، بل عززا هذا العمل العلمي الجليل وأكملا الغرض الذي استهدفاه منه بأن أضافا إلى الكتاب ثلاثة ملاحق. وأول هذه الملاحق ترجمة لفصلين من كتاب المؤرخ الكبير شارل ديل المسمى (بيزنطة، عظمتها واضمحلالها) وهما: تكوين الإمبراطورية الشرقية، و: من أوج القوة إلى سقوطها.

والملحق الثاني ترجمة لفصل «بيزنطة والإسلام» الذي كتبه الأستاذ فازيليف ضمن كتاب «بيزنطة: مدخل إلى الحضارة الرومانية الشرقية»، وهو كتاب كبير اشترك فيه جماعة من كبار الأساتذة المختصين في التاريخ البيزنطي.

أما ثالث الملاحق فهو ثبت بأسماء أباطرة الدولة البيزنطية نقلاً عن كتاب «الحضارة البيزنطية» لستيفن رونسيمان.

وبذلك أصبح الكتاب شاملاً لكل ما يحتاج إليه القارئ من معلومات وحقائق عن تاريخ بيزنطة وحضارتها وعلاقتها بالإسلام. وهو بهذه المثابة أول كتاب في العربية — ترجمة أو تأليفاً — يعرض لهذا الموضوع، كما أنه يحدد الخطوط الأولى التي تعين الباحث في التاريخ الإسلامي على انتهاج الطريق الصحيح.

•••

دراسات في الاجتماع: للأستاذ عبد الفتاح إبراهيم — مطبعة الرابطة ببغداد عام ١٩٥٠ — في ٣٢٦ صفحة

بدأنا ندرك في السنوات الأخيرة أهمية الدراسات الاجتماعية وحاجتنا إليها لننتشل مجتمعاتنا المتخلفة من ركب الحضارة من وهدتها ونجنبها المزالق الخطرة والهزات العنيفة. فأنشأنا وزارة الشئون الاجتماعية، وافتتحنا مختلف المعاهد للدراسات والأبحاث الاجتماعية.

بيد أن المكتبة العربية تخلو مع الأسف من كتب ذات قيمة في علم الاجتماع وما يتفرع عنه ويتصل به من علوم، رغم الحاجة الشديدة التي يحسها القائمون على هذا الاتجاه الاجتماعي الجديد إلى مثل تلك الكتب.

البقية على الصفحة التالية

مسرح

موسم الفرق الأجنبية — مسرح حديقة الأزبكية

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

موسم الفرق الأجنبية :

قرأت معظم ما كتبه نقادنا الأفاضل عن الفرق الأجنبية التى وفدت على دار الأوبرا الملكية هذا الموسم ، وحمدت لهم ترحيبهم بها وتكريمهم لها ، وتحدثهم عن أنبائها فى شىء من التفصيل ، ولكنى كنت أرجو أن يزيدونا من غزير علمهم بما ينفع جمهورنا ، ويخصب فنوننا ، ويثير التفكير فينا .

صحيح أنهم تفضلوا بتعريفنا أن فرقة الممثلة الفرنسية (مدام فيرا كورين) قد نجحت نجاحاً باهراً فى تمثيل مسرحيات فيدر وأندروماك لراسين ، والبارزيه لهنرى بك والنزوة لألفريد دى موسيه ، وأن هذه المسرحيات من أروع ما كتبه القلم الفرنسى ، ولكنهم لم يتفضلوا بتعريفنا سر هذه الروعة ، ولا خصائص ومميزات هذه المسرحيات ومؤلفيها ، لا سيما وأن لكل منهم اتجاهات معينة .

إن كلاً من راسين الكلاسيكى وهنرى بك الواقعى ودى موسيه الرومانسى ، يمثل — أصدق تمثيل — مذهباً من أهم المذاهب التى عرفها الأدب الفرنسى منذ القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر ؛ وخليق بنا أن نتعرف إلى هذه المذاهب ، وأسباب وظروف وجودها ، ثم تطورها أو تغيرها ، وأن نتخذ من هذه المسرحيات تطبيقات لذلك كله فى فرصة كهذه قد لا تتكرر على هذا النحو .

وهذا الكتاب قيم حقاً ، نستطيع القول دون أدنى تردد أنه أول كتاب فى علم الاجتماع باللغة العربية . وقد فصل المؤلف الكلام فيه عن موضوع العلم وأساليبه وتاريخه ونشأته ؛ ثم تناول المجتمع ومقوماته ، ومظاهر التطور الاجتماعى فتحدث فيها وأفاض ، حديث الملم بأطراف الموضوع ، المطلع على ما كتب فيه من أبحاث ، المدقق فى عرضه وبسطه . هذا إلى ما يتميز به المؤلف من عقلية منهجية وأمانة علمية جديرتين بخالص التقدير .

وقد صدر المؤلف لكتابه بمقدمة تعتبر درساً لصغار العقول من الكتاب الذين يحسبون أنفسهم قد بلغوا القمة فيما يكتبون ، ولا يقبلون من ثم نقداً ولا توجيهاً . إننا نحيى فى المؤلف الفاضل تلك الروح العالية التى أملت عليه فى مقدمته « أن التوفيق جانبنى فى محاولتى الأولى التى عرضت بها الموضوعات عينها فى كتاب (مقدمة فى الاجتماع) ... وأستطيع أن أقول إننى بذلت ما وسعنى بذله من جهد فى سبيل تيسير موضوعات هذه الدراسة وتجنب ما غشيها فى (المقدمة) من الغموض والاقتضاب » .

إن هذا الكتاب — على ما ذكرنا — ليس سوى مقدمة لما يجب أن يكتب فى علم الاجتماع والدراسات الاجتماعية ، فلا بد من اتخاذ موضوعاته رءوساً لمسائل جديدة يفصل فيها الكلام وتناقش مختلف الآراء .

ونلاحظ إلى ذلك أن الكتاب قد تناثرت فيه هنا وهناك بعض الأخطاء اللغوية وغيرها من الهنات التى كان يمكن أن يتحاشاها المؤلف . وعلى أى حال ، فإن هذا لا يقلل من قيمة الكتاب بحال .

أحمد صبحى الصاوى

كذلك أنبأنا نقادنا الأفاضل أن أنواع الرقص الهندي مثلاً، هي البهاراتاناتيام والكاتاكالي والمانيبوري والكاتاك، وأنها تختلف عن أنواع الرقص عندنا، وتسمو عليها سمواً كبيراً، ولكنهم لم يدلونا على الأسباب الحقيقية لهذا الاختلاف وهذا السمو، ولا عن إمكان إبداع أو محاكاة أو نقل أو اقتباس ما قد يلائمنا منها.

وحتى عندما شرحوا لنا هذه الأنواع الممتازة لم يزيدوا — إلا قليلاً — عما جاء في النشرات والإعلانات التي أذاعها القائمون على أمر تلك الفرق. وهذا القليل الذي زادوه لم يكن من الدقة والتحقيق بحيث يقبل بغير مراجعة.

فثلاً قالوا ما ملخصه: إن الرقص المسمى (كتاكالي) هو رقص «المأساة» أي قصص المآسي مترجمة إلى لغة الرقص، وأنه يقدم تراث الهند في قصص راقصة كما تقدم المسرحيات الإغريقية تراث الإغريق. وقالوا إن «الدراما» الهندية قد اقترنت منذ نشأتها بالموسيقى والغناء والرقص، فهي مسرح قائم بذاته، له ما للمسرح من قواعد تشابه الأوبرا.

وأظن أن لي العذر إن فهمت من هذا وذاك أن الهند كاليونان قد عرفت فن المسرح معرفة صحيحة. فهل لي الحق بعد ذلك في أن أسأل: وأين المسارح الهندية الآن وماذا صارت إليه وما قدرها الفني إذا قيست بالمسرح الأوربي وهو — كما نعلم — وليد أو حفيد المسرح الإغريقي؟ وإذا كان المسرح الهندي قد اندثر أو انحرف فما السبب؟!

إني أشك في أن الهند قد عرفت الفن المسرحي الصحيح إطلاقاً، بالرغم من أن الفنان الكبير توفيق الحكيم قد قال لي منذ نحو عامين إن الهند مسرحاً وإنه بصدد استيحاء مؤلف هندي قديم على نحو ما استوحى سوفوكليس الإغريقي في (الملك أوديب).

وليت نقادنا يدلون برأيهم في هذه المشكلة.

مسرح حديقة الأزبكية:

لا يكاد يعرض كاتب غربي لأسباب ازدهار أو انحطاط الفن المسرحي في عصر من العصور إلا ويتحدث عن بناء دور التمثيل كسبب من مسببات ذلك الازدهار أو الانحطاط؛ فمثلاً دور المسارح الانجليزية في القرن التاسع عشر كانت من مسببات انحطاط المسرحية الانجليزية وقتئذ. كذلك من مسببات انحطاط المسرحية الرومانية دور مسارحهم التي غلب عليها طابع الأناقة والترف والتشكيل الهندسي؛ فمثلا كان الصالونات والقاصير التي كانت تقرأ فيها تراجيديات الشاعر اللاتيني سنيكا Seneca أثر في تحديدها بالحدود التي جعلتها أنسب للقراءة منها للتمثيل الحي؛ ومن ثم أطلقوا عليها: (Closet Plays). وقد يكون بناء دور التمثيل نتيجة لطبيعة المسرحيات، والمهم هو التدليل على تلازم شكل البناء مع كيفية التأليف وتوائمهما حتى ليؤكد (Alardyce - Nicoll) أن المسرحية الحديثة ما كانت لتزدهر لولا فهم هذه العلاقة بحيث أمكن تشييد المسارح الراهنة على النحو الذي أتاح للمحدثين حرية التعبير وهيأ لهم متطلبات الأداء.

أقول هذا بمناسبة بداية موسمنا المسرحي الجديد على مسرح الأزبكية لأؤكد للمسئولين أن هذا المسرح — أو بالأحرى هذا المبنى — فقير في إمكانياته الفنية، وأنه إذا كان يصلح مثلا لفرقة (شكوكو) فلا يصلح مطلقا لفرقة المسرح المصري الحديث التي تلتزم منهاجاً فنياً وثقافياً معيناً.

ولست أشك في أنها تحاول تعويض هذا النقص معتمدة على عناصرها الفنية وتقدير الجمهور لظروفها؛ ولكن أليس من حقها أن نهيء لها المجال الحيوي الذي تعمل فيه!

لئن كان من المتعذر الآن تشييد دار مناسبة لها خاصة بها في يوم وليلة، فلا أقل من أن نلاحظ ذلك مستقبلا، ولو بتخصيص (دار الأوبرا) لها كخطوة أولى، إذ أن هذه الدار أيضاً ليست مستوفاة تماماً من حيث الاستعدادات الفنية.

وشيء خير من لا شيء؟

عبد الفتاح البارودي

الثقافة

العدد ٦٣٢
٥ من فبراير ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

من بريد الثقافة

حول «الموسم المسرحي الأول»

... جاء في كلمتكم من «الموسم المسرحي الأول» أن معهد التمثيل — بعد أن استقر وجوده منذ خمسة أعوام — قام بتخريج طوائف من النقاد والممثلين المتخصصين، لم يجدوا لهم متنفساً يحققون فيه عملياً ما تلقوه نظرياً، حتى فكر ولاة الأمور — لظروف خاصة — في تطعيم المسرح بشباب جديد ودم جديد وثقافة جديدة، فكانت فرقة المسرح المصري الحديث.

وأود — بهذه المناسبة — أن أشير إلى أنه في الوقت الذي اتسع فيه صدر فرقة المسرح الحديث — على حداثتها — لجميع خريجي قسم التمثيل، فقد ضاقت جميع الوزارات والإدارات الحكومية عن استيعاب خريجي قسم النقد رغم ضآلة عددهم. وقد كان من الممكن — بل ومن المعقول — استغلال ثقافتهم الفنية في الوظائف اللائقة لهم كالإذاعة أو الرقابة السينمائية أو إدارة المطبوعات أو مصلحة الدعاية والإرشاد الاجتماعي ... أو ... أو ... ومن المحاولات التي بذلت لاستغلال هؤلاء الخريجين استغلالاً صحيحاً ما حاولته مراقبة النشاط الاجتماعي بوزارة المعارف، إذ كتبت إلى الوزارة طالبة الموافقة على تعيين عدد من هؤلاء في بعض وظائفها الفنية، وقد قطعت المكاتبات شوطاً بعيداً حتى وصلت إلى قلم المستخدمين بتلك الوزارة فرقدت رقدة طويلة لم تصح منها بعد، ويبدو أنه ستنقضي عدة سنين حتى يفكر أولو الأمر في إيقاظها.

ولا أدري لماذا لا تستغل هذه الفئة المثقفة ثقافة فنية صحيحة بشهادة الجميع؟ أو ليس هؤلاء أحق بالوظائف الفنية في الدولة من غيرهم؟ وهل يجوز أن تفتح المعاهد فيقبل عليها صفوة شبابنا يجاهدون ويجدون وعند تخرجهم لا يستغلون الاستغلال المقصود من إنشاء تلك المعاهد؟ أخيراً. على من تقع اللوم؟ أعلى عميد هذا المعهد الذي قصر اهتمامه على خريجي قسم التمثيل دون النقد؟ أم على المسئولين في وزارة المعارف الذين تناسوا عما هو بين أيديهم؟.

إننا إذ نهيب بمعالي وزير المعارف، وهو الوزير الناقد الفنان الذي يعرف من هذا المعهد الشيء الكثير — إذ نهيب بمعاليه أن يهتم بأمر هذه الفئة المغبونة، نحب أن نذكر أنهم يطلبون التقدير المعنوي فقط، ومع ذلك فهم قليلو الأمل — فماذا يكون الحال لو طالبوا بالتقدير المادي الذي يمنح لغير المختصين بغير حساب؟.

أحمد محمود يوسف

على هامش الثقافة:

بشة

انتظر رجل كفيف البصر في محطات الأزهار حيث محطة أتوبيس ٤ (وزارة الزراعة) و٢ (جيزة) و ج (جيزة)، ولما وصل أتوبيس ج (جيزة). قال الكفيف للسائق سائلاً مستعجباً متلهفاً: «وزارة الزراعة؟» فأجابه السائق على الفور ساخراً (لا. عمياء).

فنزل من القلب شيئاً حسرة وألماً وطويت صدري على كشحي، وبكت عيني إلى نفسي، ثم ناجيتها إن كان الأول عمى في بصره فالثاني عمى في بصيرته، والعمى درجات، البصر أيسرها وأدناها والبصيرة أشقاها وأقساها، وكأني بهذا السائق سليل الأشقى المذكور في سورة (والشمس وضحاها).

(الأورمان)

الدكتور محمد ناجي

مصر وأبو شادي

خرج أبو شادي مهاجراً من مصر إلى أمريكا بعد أن ترك خلفه تراثاً ضخماً وتلاميذ كثيرين ممن نهجوا نهجه واتبعوا طريقه فنبذوا القديم البالي واحتضنوا الجديد القشيب ... وكان يعتقد .. أن مصر ستحزن طويلاً ويبرح بها الحزن على هجران كنارها الغريد الذي غنى شريفة الناصرة يوقع على أوتار قلبه أجمل الألحان ويعتصر من أعماق نفسه لها أعذب الأشعار. ويتغنى العالم أروع الأنغام التي سجل فيها أمجادها التليدة والطارفة ...

ولكنها وهي بلد عربي — شأنها شأن شقيقها العراق الذي شق به الناصري الشاعر كما شق من قبله الزهاوي والرصافي — قد نسيته أو تناسته حتى اتهمه بعض أحداث الأدباء بمروقه عن وطنيته وانسلاخه عن مصريته والتجائه إلى أمريكا البلد الذي آواه ... ولو فعل هذا لم يكن غريباً. لأن مصر التي قال فيها حافظ:

فيا أنت مصر دار الأديب   وما أنت بالبلد الطيب

قد تنكرت له وهو الذي تغنى لها ما وسعه الغناء .. ولكن أبا شادي الوفي لم يتنكر لأمه مصر ولم ينس فضلها عليه، بل هو دائب في دار غربته ينشد القصيدة تلو القصيدة يحنّ فيها إلى مصر ومغانيها ويبكي على بلاد العروبة وما نكبت به ...

وقد نشر في مجلة المقتطف قصيدة ألقاها في حفلة تكريمه يقول فيها معاتباً مصر:

تركت مصر وقلبي لوعة وأسى
لجنة ضيعت في نوم جنان
عاث اليرابيع فيها وهو في شغل
عنها بأضغاث أحلام وهذيان

(البقية على صفحة ٣١)

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز	الإدارة	رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك		محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٣٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٣٢ الاثنين ٢٨ من ربيع الثاني سنة ١٣٧٠ — ٥ من فبراير سنة ١٩٥١ السنة الثالثة عشرة

في السياسة الدولية :

كوريا بين نارين

للدكتور عبد الحميد البطريق

كان من سوء حظ شعب كوريا أن وقع فريسة بين عدوين ، يطمع كل منهما في نصيب الآخر ، فأصبحت « بلاد الصبح الهادئ » — وذلك هو معنى كوريا بلغة أهلها — ميداناً تتنازعه سياستان في قسوة وعنف ، فأصبح كل شيء غير هادئ في بلاد الصبح الهادئ .

ولكي نفهم الموقف على حقيقته ، يجدر بنا أن نعود إلى تاريخ كوريا الحديث ، فقد كانت كوريا تحت سيادة الصين من القرن السادس عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر ، حيث قامت ثورة شعبية ضد تدفق الأجانب عليها ، ولا سيما اليابانيين منهم ، لأن عدداً كبيراً من تجارهم ورجال الأعمال منهم أخذوا يدخلون إلى كوريا بكثرة ضايقت الشعب الكوري وزاحمته في أرزاقهم وأعمالهم ، فقام في ثورة عنيفة عصفت بعدد كبير من الأجانب ، ونال اليابانيين النصيب الأوفى من القتل والسلب والنهب ، ورفعت حكومة اليابان احتجاجها الصارخ إلى حكومة الصين صاحبة السيادة على كوريا ، ولكن الصين أصمت أذنها عن سماع ذلك الاحتجاج ولم تفعل شيئاً لترضية الحكومة اليابانية بحجة أن في كوريا حكومة وطنية مستقلة في شئونها الداخلية . وانتهزت اليابان الفرصة فأرسلت قوة يابانية إلى كوريا لحماية مصالحها ومصالح رعاياها ، وكان ذلك في نهاية عام ١٨٩٤ .

وفي مستهل العام التالي قامت الحرب الصينية اليابانية ، وهزمت الصين هزيمة كان من نتائجها أن تخلت الصين عن سيادتها على كوريا ، واضطرت كوريا أن تفتح أبوابها وموانيها للتجارة اليابانية . وقد خيل إلى اليابان أن الجو قد خلا لها ، ولكنها وجدت عدواً آخر يحاول الاقتراب من كوريا ، فقد كانت روسيا تعمل جاهدة لنشر نفوذها في الشرق الأقصى ، وبدأت تمد أنفها نحو كوريا ، فأسرعت اليابان في عام ١٩٠٤ باحتلال كوريا .

وشعرت روسيا بأنها أصبحت مهددة في أراضيها الأسيوية باقتراب اليابان منها ، وصارت الحرب بين البلدين لامفر منها ، وانتصرت اليابان على روسيا في عام ١٩٠٥ ، واضطرت إلى توقيع معاهدة بورتسموث التي اعترفت فيها بمركز اليابان الخاص في كوريا ، وخلا الجو لليابان فأعلنت ضم كوريا نهائياً إلى الإمبراطورية اليابانية في عام ١٩١٠ ، وظلت

كذلك حتى قامت الحرب الكبرى الثانية .

وظل اسم كوريا مجهولاً لمعظم شعوب العالم ، ولكن دولاً كبرى ثلاثاً ظلت ترمقها بعين الطمع والحذر ، وهي الصين وروسيا والولايات المتحدة ، وفجأة سمعنا اسم كوريا يتردد خلال هذه الحرب عندما اجتمع المستر تشرشل والرئيس روزفلت وشيانج كاي تشك في مؤتمر القاهرة في ديسمبر سنة ١٩٤٣ وأصدروا تصريحاً جاء فيه : « ... وقد عزمت الدول الثلاث الكبرى — نظراً لما تعلمه مما تعانيه كوريا من استبداد وعبودية — أن تعمل على أن تتمتع كوريا في الوقت المناسب بالحرية والاستقلال » . ولم يكن هذا التصريح سوى تعبير عن اتجاه تلك الدول التي كانت إذ ذاك في حرب مع اليابان ، ثم أكدت هذا الاتجاه مرة أخرى في تصريح بوتسدام (يوليه سنة ١٩٤٥) الذي نص على وجوب تنفيذ ما جاء في تصريح القاهرة .

وفي فبراير سنة ١٩٤٥ ، أي قبل أن ينعقد مؤتمر بوتسدام ، اجتمع المستر تشرشل والرئيس روزفلت والمارشال ستالين في يالتا ، حيث وافق ستالين على أن يعلن الاتحاد السوفييتي الحرب على اليابان بعد أن تتم هزيمة ألمانيا نهائياً وتنتهي الحرب في الأراضي الأوربية ؛ ومع أن الاتحاد السوفييتي لم يعلن الحرب على اليابان إلا في ٨ أغسطس سنة ١٩٤٥ أي بعد يومين من إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما ، فقد تدفقت الجيوش الروسية على كوريا فاحتلت الجزء الشمالي منها حتى خط عرض ٣٨ ، وأسرعت الولايات المتحدة بإرسال قواتها لاحتلال كوريا الجنوبية بناء على اتفاق بين الطرفين . ولم يكن ساسة الولايات المتحدة ولا رجالها العسكريون يقدرون ما سوف يترتب على هذا التقسيم من نتائج خطيرة ، بل كانوا يظنون أن هذا الفصل بين المنطقتين ضرورة حربية مؤقتة ، وأن روسيا لن تسدل ستارها الحديدي بين الشمال والجنوب .

وقد حاول وزراء الخارجية الذين اجتمعوا في مؤتمر موسكو في ديسمبر سنة ١٩٤٥ أن يصلوا إلى اتفاق فيما بينهم على إيجاد حل للمشكلة الكورية بإنشاء حكومة وطنية ديمقراطية لكوريا جميعها ، وقرر المؤتمر تكوين لجنة روسية أمريكية تكون مهمتها الاتصال بالأحزاب الديمقراطية المختلفة في المنطقتين لتعاون في سبيل إنشاء تلك الحكومة . وقد جاء في البيان الذي أصدره مؤتمر موسكو أن مهمة اللجنة أن تتعاون مع المنظمات الديمقراطية الوطنية تحت إشراف دول الوصاية على العمل للوصول بكوريا إلى استقلالها الوطني ، وأن تستمر وصاية الدول الأربع — أي روسيا والولايات المتحدة والصين والمملكة المتحدة — على كوريا مدة خمس سنوات .

وكانت فكرة الوصاية مثار اعتراض من جميع الأحزاب في كوريا ، شمالها وجنوبها ، لأنها تتعارض مع أماني الوطنيين الكوريين وتؤخر الاستقلال الذي وعدتهم به الدول الكبرى قبل تسليم اليابان ، إلا أن الحزب الشيوعي في كوريا قد غير رأيه بعد ذلك وقبل نظام الوصاية وسرعان ما ثار الخلاف بين دولتي الاحتلال ، فقد اجتمعت اللجنة الروسية الأمريكية المشتركة في مارس سنة ١٩٤٦ ، ثم انفضت في مايو دون أن تصل إلى أية نتيجة ، بل إنها فشلت أيضاً في « الاتصال بالأحزاب الديموقراطية والمنظمات الاشتراكية » التي كان المفروض أن تتعاون معها ، فقد كان من رأي السلطات الأمريكية أن تستشير جميع الأحزاب والمنظمات الكورية ، وأما الاتحاد السوفييتي فقد عارض في استشارة الأحزاب التي لم تؤيد اتفاقية موسكو ، والتي كونت جبهة تناهض فكرة الوصاية ، ورأت الولايات المتحدة أنها لو وافقت على نظرية الروس لكان عمل اللجنة المشتركة مقصوراً على استشارة أقلية ضئيلة أغلبها من الشيوعيين ، ثم ثارت في الجو خلافات جديدة على طريقة تكوين الحكومة الوطنية الكورية ، فقد اقترحت الولايات المتحدة إجراء انتخابات عامة في كل من المنطقتين ، ثم تتكون الحكومة الوطنية على النظم الديموقراطية الغربية على أساس نتيجة تلك الانتخابات . أما الاتحاد السوفييتي فقد رأى تأسيس جمعية وطنية تمثل شعب كوريا ، على أن يكون عدد نواب كوريا الشمالية مساوياً لعدد النواب الجنوبيين وأن يمثل نواب تلك الجمعية الأحزاب والمنظمات التي أيدت اتفاقية موسكو .

وفي أغسطس سنة ١٩٤٧ كان واضحاً للعيان ، أن هوة الخلاف بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي أصبحت

سحيقة بحيث عجزت اللجنة المشتركة عن إنجاز مهمتها ، فاقترحت الولايات المتحدة أن تعرض المسألة من جديد على الأعضاء الذين وقعوا اتفاقية موسكو . ووافقت الصين وانجلترا على ذلك الاقتراح ، ورفض الاتحاد السوفييتي بحجة أن اللجنة الروسية الأمريكية لا تزال قائمة وأنها تستطيع أن تصل إلى حل يرضى الجميع . فانتهزت الولايات المتحدة تلك الفرصة وقررت عرض مشكلة كوريا على الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة . لأنها تضمن بذلك أن تتحكم في مسألة كوريا عن طريق تلك الهيئة . وكان طبيعياً أن تعارض روسيا في هذا العرض . ولما قررت هيئة الأمم أن تناقش مسألة كوريا . اقترح مندوب الاتحاد السوفييتي أن تستدعى الجمعية العمومية نواباً من الكوريين يمثلون منطقتى الاحتلال لسماع أقوالهم وعرض مطالب بلادهم . ولكن أغلبية الأعضاء في الجمعية العمومية لهيئة الأمم هزمت الاقتراح الروسى على أساس أن المسألة التى ستعرض على الهيئة هى طريقة انتخاب نواب كوريا . وعند ذلك أعلنت روسيا ومؤيدوها — وكانت يوغوسلافيا من بينهم في ذلك الوقت — أنهم لا يستطيعون الاشتراك في أية مناقشات دون حضور مندوبى كوريا وأنهم لن يصوتوا على أى قرار يتخذ في هذا الشأن . ولكن الجمعية مضت في مناقشاتها وقررت في غياب أعضاء الكتلة الشيوعية تكوين لجنة مؤقتة من بعض أعضاء هيئة الأمم للعمل على تأسيس حكومة وطنية كورية عن طريق إجراء انتخابات عامة . ثم تمهد السبيل لانسحاب قوات الاحتلال من السلطتين الروسية والأمريكية وتكوين الحكومة الوطنية الجديدة . وانتخبت الجمعية أعضاء لجنة هيئة الأمم من ممثلى أستراليا وكندا وسلفادور والصين وفرنسا والهند والفليبين وسوريا وجمهورية أوكرانيا السوفييتية . ولكن أوكرانيا رفضت رفضاً باتاً أن تشترك كعضو في تلك اللجنة .

كان واضحاً كل الوضوح أن نشاط تلك اللجنة لن يتعدى كوريا الجنوبية . ومع ذلك لم تكن مهمتها هناك سهلة ميسورة ، إذ أن سلوك السلطات الأمريكية في كوريا الجنوبية أثار تذمر الرأى العام ودل على عكس التصريحات التى صدرت في مؤتمر القاهرة سنة ١٩٤٣ ومؤتمر بوتسدام سنة ١٩٤٥ . فإن الحكومة العسكرية الأمريكية التى تأسست في سيول لم تحاول استرضاء الزعماء الوطنيين في كوريا ولم تعين أكبر عدد ممكن من الموظفين الكوريين المخلصين لوطنهم في وظائف الحكومة ، بل ظلت السلطات الأمريكية تستعين بالموظفين الذين تعاونوا من قبل مع اليابانيين ، ثم انقلبوا فجأة يؤيدون الاحتلال الأمريكى .

ووضعت تلك السلطات ثقتها في الدكتور (سنجمان رى) وهو أحد زعماء كوريا الذين تزعموا الحركة الوطنية ضد اليابان سنة ١٩١٩ ، وذلك عندما أراد الشعب الكورى أن يلفت أنظار ساسة الدول الكبرى الذين كانوا يجتمعون إذ ذاك في مؤتمر الصلح بباريس ، إلى أن هناك في الشرق الأقصى شعباً مهيض الجناح قد ضمته إلى امبراطوريتها دولة عاتية لا تريد أن تستجيب لندائه ، وفشلت ثورة سنة ١٩١٩ واضطر سنجمان رى أن يفر إلى الولايات المتحدة ، وظل هناك حتى سلمت اليابان إلى الحلفاء ، فطار إلى بلاده تجد يد المساعدة للأمريكيين الذين أكرموه في بلادهم قرابة ثلاثين عاماً ...

لقد كان سنجمان رى ، بعد نفيه من بلاده وإقامته في الولايات المتحدة ، يعمل دائباً لرفع صوت الشعب الكورى ضد عسف اليابانيين . وكان شباب كوريا يعتبرونه رمز أمانيهم في العالم الخارجى . ولشد ما كانت دهشتهم عندما وصل الزعيم الشيخ إلى بلاده بعد ذلك الغياب الطويل ، ولم يحاول أن يتصل بالمنظمات الوطنية ويتعرف رأى الأحزاب السياسية . بل استمر متحالفاً مع السلطات الأمريكية ، مخيب آمال مواطنيه الذين كانوا يظنونه رجل الساعة ، ومبعوث العناية الإلهية لتوحيد كوريا واستقلالها استقلالاً تاماً . وهكذا أدى سلوك (رى) وعدم إقامة حالة الرأى العام في بلاده إلى إثارة البغضاء والعدوان بين الجنوب والشمال . وانتهز الأمريكان والروس الفرصة فوضعوا كوريا بين شقى الرحى . وأصبحت مشكلة كوريا مسألة دولية تمس التوازن الدولى ، وكان الشعب الكورى هو الضحية .

عبد الحميد البطريق

خاطـــــرة

للدكتور أحمد أمين بك

— ٢١ —

يظهر أن التأقلم قانون طبيعي في كل الأشياء جمادها ونباتها وحيوانها ؛ فإذا أنت صببت ماء حاراً على ماء بارد، حارا واضطربا، حتى يتأقلما فيأخذ الحار من البارد بعض برودته، ويأخذ البارد من الحار بعض حرارته.

وإذا أنت نقلت نباتاً من نباتات البلاد الحارة إلى أرض معتدلة الجو حار كذلك واضطرب، واحتاج إلى مدة حتى يتأقلم ويعدل نفسه وفق الجو الجديد، والحيوان المتوحش الذي يعيش في الصحراء يحتاج إلى مدة طويلة حتى يتأقلم فيستأنس.

والإنسان كذلك يعيش في وسط غير وسطه الأول فيحار ويضطرب حتى يعدل نفسه وفق الوسط الجديد، وما فرحه بالمولود الجديد وحزنه على الولد الفقيد إلا مظهر من هذا التأقلم، لقد عاش وفكره غير مشغول بالولد حتى إذا رزق الولد احتاج إلى زمن يتأقلم فيه حتى يواجه حياة الآباء. وفي الحالة الثانية عاش على فكرة الولد، فإذا زال حزن، لأنه غيّر ما اعتاده غذاءً فكره، واحتاج إلى زمن حتى يتأقلم فيعتاد فقدان الولد.

وكذلك الشأن في الأمم، تحتاج الأمة البدوية إلى زمن تتأقلم فيه حتى تتحضر. وقد احتاجت الأمة الإسلامية إلى زمن طويل حتى هضمت المدنية الحديثة وألفتها، والأمة التي انحطت في حاجة إلى زمن طويل يجهد فيه المصلحون حتى تصلح. وهذا هو السر في ثورة الشباب وجمود الشيوخ ؛ فالشباب لجدته يتقبل الأفكار الحديثة، والشيوخ لما مرنوا عليه من أفكار يرفضونها، وهكذا في حال انتقال الإنسان من عاطفة إلى عاطفة، من حزن إلى فرح، ومن فرح إلى حزن، ومن رغبة إلى رهبة، ومن رهبة إلى رغبة، وربما كان مما يساعد على سرعة التأقلم مساعدة الجو الجديد ليناسب الشيء القديم ؛ فأنت إذا نقلت شجرة مانجو من الهند الحارة، فإنه يساعد على تأقلمها أن تحيطها بجو حار من جنس جوها ؛ فإذا أنت عرضتها لجو شديد البرودة لم تعطها فرصة التأقلم فماتت. وإذا أردت إصلاح أمة فلا تصلحها طفرة، فإنها إذ ذاك يخشى عليها من الضرر، ولكن أصلحها تدريجاً وبخطوات متعاقبة، كلما خطت خطوة أتبعتها بأخرى ؛ ولذلك كان في العادة الإصلاح بالتدريج خيراً من الإصلاح بالثورة.

وربما استحسنوا من أجل ذلك أن يتزوج الغضوب بحليمة، والمرح برزينة، والمسرف بالمقترة وهكذا، لأن هذه الخصال المتناقضة إذا تأقلمت اعتدلت، فيأخذ الغضوب من حلم الحليمة، والمرح من رزانة الرزينة وهكذا.

والطبيعة لا تعرف الطفرة ؛ فبعد الظلام الحالك يكون نور الفجر الكاذب والفجر الصادق حتى يكتمل النهار.

ومن الصعب عند مقابلة الشمس بالظل أن تقول إن هذا ظل بحت أو شمس صرفة، فهناك خط بين الظل والشمس، وبين الشتاء والصيف ربيع وخريف يعدان للانتقال. والسلام.

أحمد أمين

مشكلة خطـــيرة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

لك أيها القارئ الكريم أن تعجب مني — فأنا أعجب من نفسي — إذ أنني بعد طول صمت أعود إلى الثقافة الغراء، فأحدث قراءها عن مشكلة ! ولو كانت من تلك المشكلات التي تعود الناس أن يتحدثوا فيها لقل مقدار العجب أو زال كله ، فقد يباح لإنسان أن يخوض فيما يخوض فيه الناس ، والمشكلات في هذه الأيام كثيرة بعضها يتصل بالمجتمع المصري وحده وبعضها يتصل بالمجتمع العالمي ، ومنها ما يتصل بسياسة الدول أو ما ينذر بالويل لأجيال المستقبل ، وقد تناولها الكتاب — كما يقولون — بحثاً ، وإن لم يقتلوها فصلاً فهي لا تزال قائمة ، وأغلب الظن أنها لن تزال باقية على رغم القتل الشديد الذي يصيبها من أقلام الباحثين ، ولكن المشكلة التي أحب أن أتحدث فيها تحمل في طياتها بعض دواعي الخجل ، ولا يخلو التعرض لها من أن يصيبه نصيب من وزرها ، إذ هي تتصل بالحشيش والأفيون وما إليهما من آلات قتل الأفراد وإنامة الشعوب وليس يخلو التحدث في مثل هذه الأشياء من الشعور بالخجل ، ولكن ما حيلتي وقد أصبح للحشيش والأفيون في مصر مشكلة ؟ فليس يخفى على أحد أننا — معاشر أهل مصر — نستقبل في هذه السنوات الأخيرة هجوماً شنيعاً يهدد كياننا ومستقبل حياتنا ، فلا يكاد يمر يوم بغير أن نقرأ على صفحات الجرائد السيارة أنباء ضبط مقادير عظيمة من تلك السموم القطيعة وهي في طريقها إلى البلاد بعد أن تمكن المهربون من إدخالها عبر الحدود .

وأقل تأمل في ثنايا هذه الأنباء يدلنا على أن ثمة حركة عنيفة يديرها المهربون ومن وراءهم من الأفراد والجماعات والدول المعادية لإدخال هذه السموم إلى البلاد وإيصالها في أمن وسلام إلى الألوف الكثيرة أو للملايين التي أغريت بها وتبذل المال الوفير في سبيل الحصول عليها ؟ وما من شك في أن مقاومة رجال مصلحة الحدود والسواحل جديرة بالشكر والإعجاب ، فإن القصص التي تحكى أحياناً عن طرقهم في الاحتيال على اصطياد المهربين تدل على مقدار ما عندهم من ذكاء وإخلاص وشجاعة .

ولكن مما لا شك فيه كذلك أن رجال هاتين المصلحتين لا يستطيعون بحال من الأحوال أن يقولوا إنهم يحولون بين المهربين جميعاً وبين بلوغ غاياتهم ، وما كان لهم أن يقولوا ذلك ، لأن أصحاب الكيف يصلون إلى شراء ما يشاءون من مخدراتهم متى شاءوا من تجار معروفين عندهم ، ولا ينام أحدهم في ليلة مهموماً لأنه عجز عن شراء ما يحب من ذلك .

وأغلب ظني أن المقادير التي يضبطها حراس الحدود ليست سوى جزء يسير من السيول الكثيرة التي تنساب إلى البلاد عبر الصحراء الفسيحة أو الشواطئ الممتدة على مئات الأميال .

فالبلاد بحمد الله الذي لا يحمد على المكروه سواه تمتص في كيانها مقادير عظيمة من السموم القاتلة التي تفتك بحيوية الأفراد وتقضي على كرامتهم ورجولتهم ، وتنزل بهم إلى أحط حالات الضعف والاستسلام . حدثني غير واحد ممن يعرفون أسرار تلك المكيفات أن أصحابها يهيمون مع خيالهم في عوالم الأحلام ، فلا يزالون في هيامهم حتى يفقدوا الاتصال بالحياة ويكون أقصى ما يتطلعون إليه أن يفوزوا مرة بعد مرة بلذاذات الحياة الخيالية الوسنى ، ويقول الخبراء بهذه المكيفات كذلك إنها تمتص عصارة الحياة والرجولة في رفق وهوادة فإذا الشاب القوي يعود كهلاً فانياً فاتر الهمة بعد سنوات قلائل ، ولعل هذا هو السر الذي يجعل إدخال هذه السموم إلى البلاد من الوسائل التي يتخذها الأعداء للضرب في ظهورنا في وقت السلم يرجون بذلك أن يضيعوا

على الشعب رجولته وفتوته ويعجزوه عن المقاومة إذا أرادوا أن يشنوا عليه حرباً .

وليس هـذا الذى نقوله مجرد استنتاج عقلى ولا هو مجرد افتراض منطقى ، فإن الصحف تحدثنا عن الجهود الكبيرة التى تبذلها إسرائيل مثلا فى سبيل تهريب المخدرات إلى مصر ، إما مباشرة عن طريق الصحراء ، وإما بطريق غير مباشر عن طريق البلاد الأخرى ؛ ولست ألوم إسرائيل على هذه المحاولات الدنيئة لأنى لا ألوم دولة كارهة معتدية على كثيرة من الكبائر يدفعها الاعتداء على ارتكابها ، بل إنى لست أخص باللوم إسرائيل ، وأكاد ألتمس الأعذار لها فهى دولة معادية وفى حالة تشبه حالة الحرب ، وليس فى الحرب موضع لعتاب ، فالدول المتحاربة قد تلجأ إلى أخس الوسائل وأفظع الأساليب فى حربها ، وهى تبث الميكروب إلى الشعوب الوادعة لتفشى بينها الأمراض ، وهى لا تعبأ بمبدأ من مبادئ الخلق ، ولا تقيم وزناً لمعنى من المعانى الإنسانية فى إشباع عداوتها ، ولكن إسرائيل ليست هى الدولة الوحيدة التى تعمل على إفساد سلامة الشعب المصرى بهذه الوسيلة الدنيئة ، فإن من الدول الأخرى (الصديقة) أو من الدول الأخرى (الشقيقة) ما لا يقل عن إسرائيل فى إفساد سلامتنا ؛ فإنتاج الحشيش والأفيون مباح فى بلاد كثيرة لا حاجة بنا إلى ذكرها ، وهى تعلم أن هذه السلع تصدر إلى مصر ، وهى تعمل بغير شك على تسهيل مهمة المصدرين ، لأنها تعد هذه السموم من منتجات بلادها ، ويسرها بغير شك أن يكون استهلاكها فى غير أرضها .

فجمل القول أننا أمام مشكلة تجمع فى طياتها مشاكل عدة بين اجتماعية واقتصادية وسياسية وخلقية .

ومما يزيد المشكلة شناعة ويكاد يبلغ بها حد السخرية من حكمتنا أن هذه المخدرات تباع بثقلها ذهباً أو بأكثر من ثقلها ذهباً ، ومعنى هذا أننا ندفع من ثروتنا القومية مبالغ باهظة لكى نؤدى ثمن الحشيش والأفيون الذى يهرب إلينا ، فنحن نرسل إلى إسرائيل وغيرها من البلاد بغير أن نحس مقادير عظيمة من قوتنا وعملتنا وصحتنا وأرزاقنا ، ولا نتقاضى لها أثماناً سوى هذه الطرود الترابية اللون التى ترسل إلينا .

ألم نسأل أنفسنا يوماً عن السر فى انحطاط ثمن عملتنا فى بعض البلاد المجاورة مع أننا لا نحتاج إلى نقدها مثل حاجتها إلى نقدنا ؟ ولو سألنا أنفسنا هذا السؤال لما تعذر الجواب علينا ، فإن نقدنا يهرب إلى تلك البلاد نظير ما يهرب الحشيش إلى بلادنا ، وذلك يؤدى إلى انحطاط قيمته فيها نسبياً ، ويمكن تجار تلك البلاد من شراء ما يشاءون من خيراتنا . . .

فما ظن القراء الكرام فيمن يبذل ما عنده من طيبات الرزق ، ومن خيرات المطعم والملبس ، ولا ينال لذلك ثمناً غير أطنان من السموم التى تقضى على الجسم والعقل ؟ لا أحسب أحداً يظن بمثل هذا غير السفه والغفلة .

ولكن ماذا نجدينا من كل هـذا القول ؟ لقد أردت بهذا كله أن أفتح أبواباً من الجدل فى معالجة هذه المشكلة الخطيرة . فكيف السبيل إلى منع المخدرات من دخول البلاد ؟ ولو كانت الحراسة أو الرقابة عند الحدود والشواطئ مجدية ، لما كان هناك موضع للشكوى . ولكن الحراسة والرقابة ظلت قائمة على الحدود والشواطئ منذ عشرات السنين ، ومع ذلك لم يمتنع ورود المكيفات فى يوم من الأيام ، بل إن الحراسة والرقابة تكاد تتناسب تناسباً طردياً فيما يظهر مع مقدار ما يتسرب إلى البلاد منها . فالمخدرات لم توجد فى البلاد فى وقت من الأوقات بالمقدار الذى توجد به اليوم مع شدة اليقظة ، ومع الجهود الجبارة التى يبذلها الحراس فى مقاومة التهريب .

فأين الحل إذاً ؟ هلم أيها السادة فلنفكر معاً .

ماذا يحدث لو وفرنا على أنفسنا كل الجهد فى مقاومة التهريب ، وأعلنا أن الحشيش مباح وأن الأفيون حلال ، وأن المخدرات تحت تصرف من أراد من أصحاب الكيوف بغير حذر ولا خوف ؟ لا تعجل على أيها القارئ الكريم قائلاً : معاذ الله ! ما كان لنا أن نبيح الحرام ولا أن نرضى عن الفساد ، فما أريد بهذا المقترح إلا أن أقاوم زراعة الحشيش والأفيون ، وأن أضرب المهربين الضربة القاضية . فلو أبيح دخول هذه المخدرات لصار ثمنها أقل من ثمن

الحلاوة الطحينية ، ولكان هذا داعياً إلى تقليل حاملة الهربين ، ثم تقليل حاملة الزراع الذين يعميهم الربح عن نداء الإنسانية . فالزارع إذا علم أنه سيبيع رطل الحشيش بعشرة قروش مثلاً ، لم يجد من نفسه داعياً إلى زراعته ، والتمس لنفسه رزقاً آخر من باب حلال ؛ فيزرع بدلاً منه زيتوناً ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا .

تقول أيها القارىء الكريم إن هذا المقترح لا يعجبك على الرغم من مزاياه . فلنمض إذاً إلى حل آخر . لنرفع الأمر إلى هيئة الأمم فتشكو الدول التي لا ضمير لها ، لأنها تبيح زراعة السموم الفتاكة وتتغاضى عن مهربيها أو تشجعهم تشجيعاً . ولكني أظنك أيها القارىء الكريم غير راض عن هذا الحل أيضاً ؛ فإن هيئة الأمم في شغل عن مثل ذلك الأمر بما هي فيه من هم في سبيل الدفاع عن مصالح الأمم الكبرى وإعداد العدة لإشعال حرب ثالثة . فلنمض إذاً إلى حل ثالث : فماذا يكون لو شددنا العقوبة على المهربين وتجار المخدرات والذين يتعاطونها جميعاً وجعلنا تلك العقوبة الإعدام ؟ أليس من يهرب المخدر يعمل على قتل أنفس بريئة وإفساد أرض طيبة ؟ أليس تاجر المخدرات شريكا له في جنايته الكبرى ؟ أليس الذين يتعاطون هذه المخدرات جميعاً شركاء في الجريمة بأنهم يحرضون التاجر والمهرب على جنايتهم ؟ أراك أيها القارىء متردداً كأنك تقول في نفسك : إن عقوبة الإعدام عقوبة كريهة ، وإن الدول تريد أن تتخلص منها رأفة بالقتلة والسفاكين ، وإن الرأي العام الأوربي والغربي يسيء الظن بالعقوبات التي تحمل طابعاً إصلاحياً . وكأني بك تقول في نفسك : « ولماذا لا تعاقب الذين يتجرون في الخمر كذلك ، ولا الذين يتجرعون منها الصناديق المصندقة ؟ » . إذاً فلنمض إلى حل آخر يكون أقل صرامة من هذا . فما قولك في أن نحكم على المهربين والتجار الذين يجلبون هذه السموم بالسجن إلى أجل غير مسمى ، ولا نخرجهم من الاعتقال إلا بعد أن يجربوا كل ما يضبط معهم من الحشيش والأفيون .

إننا نطمئن بهذه الطريقة إلى نتائج محققة وفوائد مؤكدة .

فإنهم سيبقون في السجن أمداً طويلاً ، ولن يكون السجن شاقاً عليهم ؛ لأنهم سيسبحون في عوالم الخيال التي ترفه عنهم ، وأغلب الظن أنهم لن يحسوا جدران السجن التي حولهم . فإذا ما قضوا المدة الكافية لشرب كل ما جاءوا به من المخدرات كانت أجسامهم قد سلت ، ونفوسهم قد اختلت ، وعقولهم قد اضمحلت ، ولن يستطيعوا بعد ذلك إلا أن يبحثوا عن حفرة في الأرض يتوارون فيها .

ونتيجة أخرى أيها القارىء الكريم ، وهي أن هؤلاء إذا خرجوا من السجن ورآهم الناس ، كانوا عبرة لمن تحدثهم أنفسهم بشرب الحشيش وأمثاله ؛ فإن وجوههم المصفرة ونفوسهم الخائرة وأنفاسهم المقطوعة ، تجعل كل من له ذرة من العقل يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

أليس هذا حلاً موفقاً سعيداً ؟ لست أدري ، ولكني قد فتحت باباً للحديث ، ولعل غيري يهتدي إلى العلاج الناجع لهذا الداء الضال ، أو هذه المشكلة الكبرى .

محمد فريد أبو حديد

٢ - على بن هـــــذيل

الأديب الأندلسى المجهول

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

كنا بحثنا فى القسم الأول من هذه الترجمة لذلك الأديب المؤلف المغمور أنه ألف كتاباً بعنوان : « تحفة الأنفس ، وشعار سكان الأندلس » . وهو فى قسمين : القسم الأول فى الجهاد عامة ، والقسم الثانى فى الخيل والسلاح . وهذا القسم الثانى من الكتاب يتفق تمام الاتفاق مع مخطوطة أندلسية بعنوان : « حلية الفرسان وشعار الشجعان » ، لم يذكر عليها اسم مؤلفها ، وقد عثر عليها قبل سنة ١٩٢٢ المسيو « لويس مرسييه » (Louis Mercier) قنصل فرنسة فى المغرب عند المسيو « م . س . بيارنى » (M. S. Biarnay) مدير مصلحة التلغراف الشريفية بحكومة المغرب .

وقد وقعت للأستاذ (M. Nehlil) مدير المدرسة العليا للغة العربية وآدابها فى مدينة « رباط » نسخة من كتاب ابن هذيل المعروف « بتحفة الأنفس » ، فتبين للأستاذ مرسييه عن طريق المقابلة بين مخطوط ومخطوط أن « حلية الفرسان وشعار الشجعان » المجهول اسم مؤلفها هى بعينها القسم الثانى من كتاب « تحفة الأنفس » لعلى ابن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسى . ومن هنا جزم الأستاذ لويس مرسييه بأن مخطوطة « حلية الفرسان » هى لعلى بن هذيل ، ولا سيما أن « الحلية » أحدث نسخاً من « التحفة » .

على أن الأستاذ لويس مرسييه لم يكتف فى الكشف من هذه المخطوطة ببلوغ هذا الحد ؛ بل ذهب بنفسه إلى مكتبة الإسكوريال فى مدينة مدريد ، وراجع ما عنده من النسختين على مخطوطة الإسكوريال ، واقتنع بأن « حلية الفرسان وشعار الشجعان » هى لصاحبنا ابن هذيل الأندلسى . ومن هنا أبقى عليها اسمها الذى وجده على مخطوطة مسيو « بيارنى » ، ونشرها بطريقة « الفوتوتيب » المصورة بخط ناسخها الأصلى ، ثم أضاف إليها ست عشرة صفحة من التصويبات التى أفادها عن نسخة الإسكوريال .

ويقول ابن هذيل فى مقدمة « حلية الفرسان » : (إن من أعظم الفوائد قدراً ، وأشرف المعالى ذكراً ، أن يرفع فن من العلم نبيل ، إلى مقام ملك جليل ، فذلك هو الذى أوجب على العبد تأليف هذا الكتاب وتلخيصه ، وتهذيبه وتمحيصه ، فهو يشتمل على جلاد وكفاح ، وخيل وسلاح) .

ويقول فى موضع آخر من المقدمة : (ومولانا — نصره الله — ملك الدنيا الذى وقع عليه الإجماع والإصفاق ، والتأم الاتفاق ، وتحدث بسيرته الجميلة الرفاق ، فتشوقت إليه الشام والعراق ؛ واليُمْنُ مكتنف بسلطانه ، والظفر مبتسم من سنانه ، والنجح عاقد لوائه ، والمجد نسيج ردائه . . جعل الله سبحانه شعاره الجهاد ، وشيمته سلوك سبيل الرشاد ، وعادت به جزيرة الأندلس فى حرز من نزعات الفتن ، وحفظ من لزبات الإحن) .

ومن هذا الكلام فى المقدمة نعرف أن تأليف كتاب « حلية الفرسان » فى الخيل والفروسية والسلاح وعدة الحرب كان استجابة لدواعى الجهاد ، وتلبية لنداء الكفاح والغزو فى ذلك العصر .

والحق أن بلاد الأندلس فى ذلك العصر الذى عاش فيه ابن هذيل — أعنى القرن الثامن الهجرى — قد تعرضت لأحداث جسام طيلة ذلك القرن كله .. ففى عهد السلطان « يوسف أبى الحجاج الأول » كثرت غزوات النصارى

لبلاد المسلمين فى الأندلس ، وكانت وطأتهم شديدة عليهم ، مما جعل السلطان الأندلسى يستنجد بالسلطان « أبى الحسن » ملك المغرب . ولكن المسلمين — على أى حال — لم يسكتوا على غزوات أعدائهم ، وظل الصراع بين الجبهتين إلى أواخر القرن الثامن الهجرى ، حتى انتهى فى أواخر القرن التاسع الهجرى إلى ذلك المصير المشئوم ، والأجل المحتوم الذى كان متوقعاً لبلاد الأندلس .

ومن هنا لا نعجب إذا رأينا أديبنا « ابن هذيل » يستجيب لظروف العصر ، ويصيخ لدواعى النصر ، فيكون أديباً عملياً واقعياً ، لا خيالياً ، ويتخذ من الأدب دعوة الجهاد فى سبيل الله والوطن ... ويضرب فى أسفار اللغة والشعر والأدب والتاريخ .. كما يضرب فى أسفار الفروسية من قبله ، فيجمع من ذلك كله مادة كافية لتحميس تلك النفوس العربية المجاهدة ، وتبصيرها بمجد الشجاعة والحرب عند العرب ، وإمدادها بألوان من المعارف الجليلة حول الخيل ، والفروسية ، والسيوف ، والرماح ، والدروع ، والقسى ، والسهام . ثم نراه يصف لنا كيفية استعمال هذه الآلات ، وكيفية الضرب بالسيف والطعن بالرمح ، وهيئة الركوب على الخيل — سواء أكان ذلك على السرج أم على العرى — ثم نراه فوق ذلك يحبب إلى الناس الشجاعة عن طريق تذكيرهم بأوامر الله المتصلة بالجهاد ، وإعداد المستطاع من القوة .. وبأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اقتناء الخيل ، وتقلد السيوف ، واتخاذ الدروع ! وبأشعار العرب فى العزة التى تصونها السيوف ، ولا تخيفها المنايا والحتوف .

والسلطان أبو عبد الله محمد الذى أهدى إليه كتاب « حلية الفرسان » تولى ملك دولة « بنى الأحمر » سنة ٧٩٧ هـ بعد موت أبيه السلطان يوسف ، الذى قيل إنه قتل مسموماً وكان أكبر وزرائه الوزير « ابن زمرك » الكاتب الشاعر الأديب ، الذى كان وزيراً لجده « محمد المشهور بلقب الغنى بالله » . وقد حارب هذا السلطان مملكة قشتالة الإسبانية المسيحية التى كانت مطامعها فى الفردوس الإسلامى المفقود لا تقف عند حد . فقد نقض ملكها « هنرى الثالث » العهد بينه وبين السلطان أبى عبد الله محمد ، فاضطر هذا إلى غزو ولاية « المرب » الإسبانية والاستيلاء على حصن « أيامونت » . واستمرت المعارك بين الفريقين حيناً من الدهر .

وقد ذكر « معجم سركيس » أن السلطان الذى ألف « ابن هذيل » كتاب التحفة بإشارته هو السلطان « محمد الخامس بن يوسف بن إسماعيل بن نصر أحد ملوك غرناطة الذى ملك سنة ٧٥٠ هـ إلى سنة ٧٦٤ هـ » .

وهذا كلام يحتاج إلى التصحيح من جهتين : فإن السلطان محمد بن يوسف بن اسماعيل قد تولى السلطنة سنة ٧٥٥ هـ ، لا سنة ٧٥٠ هـ .

وليس هو الذى عمل كتاب « التحفة » بإشارته ولا أهدى من المؤلف إليه ... فقد كان متقدماً على السلطان محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف بن اسماعيل ... وبينهما اثنتان وأربعون سنة ... ودليلنا على ذلك هو كلام « ابن هذيل » نفسه فى مقدمة كتابه . فالسلطان الذى قدم إليه كتاب « التحفة » أو « الحلية » هو الحادى عشر من ملوك الدولة النصرية ، على حين أن السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل الذى يذكره صاحب « معجم المطبوعات العربية » هو الثامن فى ملوك هذه الدولة . وقد دخلت الشبهة من اتفاق الاسمين ، على بعد ما بين العهدين ...

ويعترف « ابن هذيل » فى مقدمة كتابه « الحلية » بأنه جمع الكتاب من جملة تواليف ، وانتقاه من أكثر من تصنيف ... وذكر طرفاً من هذه المصنفات التى جمع منها مادة الكتاب . وما كان له أن يصنع غير هذا فى كتاب يعتمد على كتب اللغة من ناحية ، وعلى المأثور من شعر العرب من ناحية أخرى . ولم ألاحظ أن عبارة « ابن هذيل » وحده تتفق مع عبارات الكتب الأخرى التى نقل منها وأخذ عنها ... بل لاحظت فى أثناء المقابلة بين المراجع الأدبية واللغوية أن أساليبها جميعاً تكاد تتفق فى الخبر الواحد ، أو فى التعريف اللغوى ... ففى « باب الخيل » مثلاً من كتاب « حلية الفرسان » لابن هذيل نجد الحكاية الواحدة بعبارة واحدة تقريباً فى « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، و « العقد الفريد » لابن عبد ربه الأندلسى ، و « كتاب الخيل » لأبى عبيدة ، و « أنساب الخيل » لابن

الكلبي المعروف بابن السائب ... وهي مراجع قديمة .. ثم لا تلبث أن نجدها بعباراتها الأولى تقريباً في مراجع أحدث من التي ذكرنا قبلا مثل كتاب « فضل الخيل » للإمام شرف الدين الدمياطي المصري المتوفى سنة ٧٠٥ هـ ، و « نهاية الأرب » للنويري المتوفى سنة ٧٣٣ هـ . ثم لا تلبث أن نجدها عند ابن هذيل في القرن الثامن الهجري ... ثم نجدها من جديد بعد ذلك في كتاب « رشحات المداد ، فيما يتعلق بالصافنات الجياد » للإمام محمد البخشي الحلبي المتوفى سنة ١٠٩٨ . ومن ذلك كله نعرف أن ابن هذيل لم يجر فيما صنع على غير ما جرى عليه العلماء والأدباء قبله وبعده ... وليس يعيب الكتاب أن يكون جمعاً لما تفرق في عدة من الكتب على غرار التصنيف العربي ... وخاصة في عصور الجمع . على أن مما يشفع لابن هذيل في هذا أنه لم ينفرد وحده بشيء في هذا السبيل .. وأنه — فوق ذلك — أشار في المقدمة إلى جمعه للكتاب ... بل زاد فذكر بعض المصادر التي جمع منها . ومن سوء الحظ أن تكون أغلب مصادره التي ذكرها في المقدمة مخطوطة لم تطبع ، أو مفقودة لم يعثر عليها . ومن هذه المصادر « يقظة الناعس ، لتدريب المجاهد الفارس » وكتاب « تهذيب الإمعان ، في الشجاعة والشجعان » و « راحة القلوب والأرواح ، في الخيل والسلاح » و « رسالة الفرس » وغيرها .

ويمتاز علي بن عبد الرحمن بن هذيل في كتابه « حلية الفرسان » أنه استطاع أن يتحدث عن الخيل وعدة الحرب كلها في كتاب واحد .. فلم يجعل كتابه في الخيل وحدها كما فعل « أبو عبيدة » في كتابه المطبوع بحيدر أباد الدكن وكما فعل الإمام شرف الدين الدمياطي في كتابه المطبوع بسورية . ولم يجعله في أنساب الخيل العربية وحدها كما فعل ابن السائب في كتابه الذي أخرجته دار الكتب المصرية بتحقيق المرحوم أحمد زكي باشا ، ولم يجعله في السلاح وحده .. وإنما جعله مزيجاً من ذلك كله . ولم يتعرض للناحية الفقهية والأحكام الشرعية في سقوط الزكاة في الخيل ، وفي أحكام السباق عليها والمراهنة بها ؛ لأن غرض الجهاد والفروسية كان الغالب عليه في أثناء تأليفه الكتاب ..

أما اللغة ... وأعني المادة اللغوية لأعضاء الخيل وألوانها وشياتها وصفات العتق والجودة فيها ، وأسماء أجزاء السيف والرمح والدرع والترس فقد أطال فيها ابن هذيل حتى كاد يكون كتابه معجما لغوياً في هذه الناحية ، ولا شك عندي أنه استعان بكتاب « أدب الكاتب » لابن قتيبة ، و « فقه اللغة » للثعالبي ... فقد وجدت في أثناء تحقيق الكتاب أن كثيراً من عباراته في بعض المواطن تتفق وعبارات هذين الكتابين ....

ومزية أخرى عند ابن هذيل الأندلسي في كتابه « حلية الفرسان وشعار الشجعان » . فإنه لم يكتف بوصف أدوات القتال .. بل كثيراً ما نراه يصف طريقة العمل بها ، وكيفية إدارتها والتعلم بها .. كما فعل في تعلم الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمي بالقوس الإفرنجية التي كانت مستعملة في بلاد الأندلس بدلا من القوس العربية التي كانت تستعمل في الشرق ... ولعل هذه القوس الإفرنجية لم توصف في كتاب مما بين أيدينا كما وصفت في « الحلية » لابن هذيل ، وكثير من أجزاء القوس الإفرنجية وأسمائها مما لا عهد لنا به في الكتب التي تتحدث عن السلاح العربي وأدوات القتال ؛ وفي هذه الناحية بالذات يذكر لنا ابن هذيل الأندلسي أشياء مما لم يذكره المشارقة ، ويذكر لنا في أسماء الخشب الذي تتخذ منه القسي ، والحديد الذي تصنع منه السهام ما لم يذكر في كتب أهل الشرق .. فشجر « النبع » المعروف عند العرب والمذكور في المعاجم العربية كلها كان يسمى في الأندلس العربية للسلفة باسم « الطخش » ، وهي لفظة محرفة عن اللاتينية « Taxus » وشجر « الزبوج » و « الشبر » مما تتخذ منه القسي الأندلسية ، وهما مما ليس في أيدينا من الكتب والمعاجم .

ونرى ابن هذيل — فوق ذلك — حين يستشهد بالشعر لا يكتفي بالمشهور المتداول من شعر المشارقة ... بل يروي — بالطبع — لشعراء من الأندلس ليست أشعارهم متداولة لدينا ... كشيخه القاضي الشريف أبي القاسم الحسني ، وكابن الزقاق البلنسي — لا البلقيني كما في جورجي زيدان — الذي نجحنا في الحصول على ترجمة موجزة له من كتاب « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلي ، وهو — أعني ابن الزقاق — من شعراء أواخر القرن الخامس والربع الأول من القرن السادس الهجري .

بل نرى ابن هذيل — فوق هذا — ينسب الشعر

أمير الجيوش بدر الجمالى

(تتمـــة)

للأستاذ أحمد حسين الصاوى

اشترط بدر على الخليفة قبل قدومه إلى مصر أن يحضر معه من الشام جنده الموالين له ، لأنه لا يرغب فى الاستعانة بأحد من جنود مصر ، فلم يسع الخليفة إلا القبول . وعلى هذا أبحر بدر من عكا عام ٤٦٦ هـ (ديسمبر عام ١٠٧٣م) غير عابئ بأخطار رحلة بحرية كهذه فى الشتاء حيث تشتد الأعاصير فى البحر المتوسط فوصل إلى تنيس فى أربعة أيام ، ثم رسا عند دمياط . وكان لقدوم بدر وهو شيخ جاوز الستين من عمره على هذا النحو الخاص فعل السحر فى نفس المستنصر لجمع أطراف شجاعته وقبض على القائد التركى الدكز رأس الفتنة وزعيم الجند الأتراك المخربين .

وصل بدر إلى القاهرة بعد أن أقام أياماً فى دمياط فاستقبله الأتراك بحفاوة غير عالمين بالغرض الذى قدم من أجله . وفى صباح اليوم التالى مثل ضباط بدر أمامه ، وقد حمل كل منهم رأس أحد كبار الأتراك أو غيرهم من عناصر الفوضى ، وكان فى مقدمة القتلى زعيما الفتنة القائد الدكز والوزير ابن أبى كدينة . وهكذا تخلصت المدينة من الفوضى والاستبداد العسكرى فى ليلة واحدة . وكان سرور الخليفة عظيماً فخلع على بدر ومنحه لقب « أمير الجيوش » كما سلمه مقاليد السلطة ، فصار إليه الإشراف على كل شئون الدولة بما فى ذلك الأمور الروحية التى تمس جوهر المبادئ الشيعية إذ أصبح « قاضى القضاة » و « داعى الدعاة » ، وزيد فى ألقابه « كافل قضاة المسلمين » و « داعى دعاة المؤمنين »[1] .

(١) النجوم الزاهرة .

كان بدر رغم شيخوخته شعلة لا تخمد من النشاط ، فقضى بمصر الأعوام العشرين الأخيرة من حياته ، فكانت حافلة بأعماله الكبيرة الهامة فى الداخل والخارج . ونلخص هذه الأعمال فيما يلى :

أولاً : بعد أن قضى على الفتنة فى القاهرة أخذ يعيد الأمن إلى نصابه فى الأقاليم ، فانتزع الشرقية من عرب لواته الذين كانوا قد احتلوها وعاثوا فيها فساداً ، وقتل شيوخهم وأخذ منهم أموالاً جمة ؛ ثم توجه إلى غربى الدلتا فأخضع عرب قيس وسليم ولزاتة ، واستولى على الإسكندرية من الثائرين عنوة بعد أن حاصرها أياماً ، وزحف بعد ذلك إلى الصعيد حيث كان العرب والسودانيون يعيثون فساداً فضرب على أيديهم بقسوة . هدأت الأحوال بعد هذه البداية القاسية من بدر ، وبدأ المصريون تحت حكمه الحازم العادل يتمتعون بأمن وطمأنينة لم يعهدوها منذ سنين .

ثانياً : فى عام ٤٦٩ هـ اجتمع بمدينة طوخ الطلباء من صعيد مصر جماعة كبيرة من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة لقتال أمير الجيوش بدر ، فسار إليهم حتى قرب منهم ، ثم بيتهم ليلاً بأن دق الطبول بقوة وأكثر من إشعال النيران ، وصاح جنده كلهم صيحة واحدة وهم يهجمون على أعدائهم فقتل أكثرهم وغرق من فر منهم بحيث لم ينج إلا عدد قليل ، فغنمت أموالهم وحملت للمستنصر .

ولم يلبث بدر أن سار إلى أسوان لقتال كنز الدولة

المجهول القائل إلى قائله . كالأبيات الرائية التى قالها محمد بن مسلم يمدح رجلا بالشجاعة ويقول فيها : —

يلقى السيوف بوجهـــه وبنحره
ويقيم هامتـــه مقام المغفر
ويقول للطرف : اصطبر لشبا القنا
فهدمت ركن المجد إن لم تعقر

فهى فى « ديوان المعانى » لأبى هلال العسكرى منسوبة « لبعض الإسلاميين » . . ! وفى كتاب « الأمالى » للقالى منسوبة لغير قائل … ولكن صاحبنا ابن هذيل ينسبها ويردها إلى صاحبها محمد بن مسلم .

رحم الله هذا الأديب الأندلسى الذى حاولنا أن نكشف بعض القناع عنه . ولعل الزمان — الذى لا ينسى — كفيل بأن ينزع عن مؤلفنا الأندلسى كل القناع …

محمد عبد الغنى حسن

محمد الذي كان قد تغلب عليها فقاتله وقتله وشتت شمل جنوده ، وكانت هذه آخر الوقائع التي قضت على كل آثار الفتن الداخلية بمصر .

ثالثاً : انتهز السلاجقة فرصة انشغال بدر بإعادة الأقاليم المصرية إلى سلطة الخليفة المستنصر ، واستولوا على دمشق في نهاية عام ٤٦٨ بواسطة جيش يقوده أتسيز . وفي العام التالي سار أتسيز لغزو مصر بعد أن أغراه بذلك ابن يلدكوز التركي الذي كان قد فر من مصر حين دخلها بدر .

استولى أتسيز في طريقه على غزة والعريش ، فاستعد بدر لملاقاته وأعد في نفس الوقت سفناً لنقل الخليفة الفاطمي وحاشيته إلى الإسكندرية إذا ساءت الأحوال . ويقول ستانلي لينبول معلقاً على ذلك في كتابه (تاريخ مصر في العصور الوسطى) إن أتسيز لو كان مؤيداً كما ينبغي من ناحية الشرق لتحققت مخاوف بدر ، ولزالت الدولة الشيعية على يد السلجوقيين قبل الوقت الذي زالت فيه فعلاً بقرن من الزمان . والواقع أن لينبول كان مبالغاً في تصويره الموقف لأن ما حققته الحوادث من شجاعة بدر وشدة مراسه وكفاءته الحربية الممتازة كان كفيلا بترجيح كفته ، هذا إلى أنه لم يكن بين أمراء الأتراك في الشرق من التعاون واتحاد الغايات والأهداف ما يسمح بتأييد أتسيز في حملته الشخصية المغرضة . ومهما يكن من أمر فقد التقى الفريقان قرب القاهرة ، وكان جيش بدر يحوى غير جنده النظاميين عدداً كبيراً من العرب والمصريين المتطوعين فبلغ عدده بذلك نحو ثلاثين ألف جندي ، فدارت الدائرة على الجيش السلجوقي وفر أتسيز إلى الشام مدحوراً بعد أن قتل عدد كبير من جيشه وعلى رأسهم أخوه ، كما قطعت يدا أخيه الآخر ، وبذلك أنقذ أمير الجيوش مصر من شر مستطير .

رابعاً : بذل بدر جهوداً كثيرة لإعادة ما استولى عليه السلاجقة من بلاد الشام إلى حظيرة الدولة الفاطمية ، ولكنه للأسف لم يوفق إلا إلى نتائج طفيفة . فقد أرسل عام ٤٧٠ هـ حملة إلى دمشق بقيادة نصير الدولة ولكنها فشلت في الاستيلاء عليها فرجعت بعد أن حاصرتها بضعة أيام ؛ وكذلك فشلت الحملة الثانية التي أرسلها بدر عام ٤٧٢ هـ والحملة الثالثة التي أرسلها عام ٤٧٨ هـ إذ صمد لهما تاج الدولة تتش صاحب دمشق وردهما على أعقابهما . والمرجح أن سبب فشل هذه الحملات هو اضطرار بدر إلى الاحتفاظ بالجزء الأكبر من جيشه في مصر احتياطاً لما عسى أن يفاجأ به من أحداث .

غير أن حملات أمير الجيوش إلى بلاد الشام قد أصابت بعد ذلك شيئاً من النجاح ، إذ فتح قائده نصير الدولة عام ٤٨٢ صور وصيداء وجبيل وعكا ، كما قبض على جماعة من أصحاب تتش واستولى على كثير من ذخائره . ولم يلبث منير الدولة والى صور أن خرج على طاعة المستنصر ، فسير إليه بدر عام ٤٨٦ هـ جيشاً دخل المدينة دون مقاومة ، إذ كان الأهالي قد أنكروا على الوالي عصيانه ونادوا بشعار المستنصر وأمير الجيوش ؛ ثم أسر منير الدولة وجماعته وسيقوا إلى مصر حيث قتلوا ، وفرض بدر على مدينة صور غرامة مقدارها ستون ألف دينار[1] . ونلاحظ في هذا الحادث مرة أخرى قسوة بدر وشدته اللتين لازمتاه طيلة حياته .

خامساً : لم تحل هذه الأعمال الحربية وما تطلبته من الجهد بين بدر والإصلاح الداخلي ، بل إنها على العكس أعانته على ذلك ؛ فقد كان بدر يستخدم ما يستولى عليه من أموال أعدائه في إصلاح مرافق الحياة في مصر . وإلى جانب هذا نجد أن الضرب على أيدى العابثين في الأقاليم المصرية المختلفة قد أعاد الهدوء إليها فاطمأنت نفوس الفلاحين وخاصة أن أمير الجيوش أطلق لهم الخراج ثلاث سنين ، وعمر الريف فرخصت الأسعار ورجعت إلى ما كانت عليه قبل أيام الشدة العظمى .

وقد أجمعت المصادر كلها على انشراح حكم أمير الجيوش وزاد دخل مصر من الضرائب في أيامه من نحو مليونى دينار إلى نحو ثلاثة ملايين ، أي أن إيراد الحكومة من الضرائب قد زاد بنسبة خمسين في المائة عما كان عليه دون أن تفرض ضرائب جديدة .

أما منشآت بدر فأشهرها ثلاثة :

١ — حصن القاهرة بسور ثان وجدد بناء الأبواب الثلاثة الكبرى وهي باب زويلة وباب الفتوح وباب النصر ، وجعل هذه الأبواب داخل السور الجديد ، فأخذت طابعها الخاص الذي ما زالت تحتفظ به إلى اليوم . وتعمل إدارة

(١) الكامل لابن الأثير : الجزء العاشر

حفظ الآثار العربية الآن — مشكورة — على إزالة ما حولها من المبانى المتهالكة وإصلاح ما تهدم من السور، وإعادة شيء من الرونق إلى ذلك السور الأثرى البديع ...

ويقول ليبول في كتابه « تاريخ مصر في العصور الوسطى » إن الذى جدد بناء الأبواب ثلاثة إخوة من مهندسى أديسا التى كانت تمت إلى ذلك بمواطنى بدر من الأرمن. ولعل الطراز البيزنطى الذى تتميز به هذه الأبواب يرجح هذا القول، فقد كانت أديسا في تلك الأيام معقلاً أمامياً للروم ضد خلفاء المسلمين، ولا ريب أن مهندسيها كانوا متأثرين إلى حد بعيد بالفن البيزنطى.

٢ — بنى مسجد العطارين بالإسكندرية؛ ولذلك قصة صغيرة، فقد ثار الأوحد بن أمير الجيوش على أبيه عام ٤٧٧ وتحصن مع أتباعه بالإسكندرية، فسار إليه أبوه وهزمه وانتقم منه أفظع انتقام، فقيل إنه دفنه حياً، وقيل أغرقه، وقيل جوعه حتى مات. ثم بنى بدر هذا المسجد قبل عودته إلى القاهرة.

٣ — بنى مشهداً فوق تل المقطم شرقى القاهرة، وما زال هذا المكان يعرف بالجيوشى نسبة إلى أمير الجيوش ...

ونذكر بهذه المناسبة أن بالقاهرة المعزية حياً من أهم أحيائها يحمل اليوم اسم بدر الجمالى، وهو حى الجمالية المعروف، كما أن بهذا الحى شارعاً يحمل اسم بدر هو شارع أمير الجيوش الذى تعرفه العامة باسم (مرجوش).

توفى بدر عام ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) بعد أن حكم مصر نيفاً وعشرين عاماً، وكان قبل وفاته قد عهد بالوزارة إلى ابنه الأفضل شاهنشاه، وهذه أول مرة نسمع فيها عن ولاية العهد للوزراء في مصر الإسلامية، ولم يلبث المستنصر أن لحق ببدر بعد أشهر قلائل، فاستغل الأفضل سلطته المطلقة التى ورثها عن أبيه وحال دون تولية نزار أكبر أبناء المستنصر عرش الخلافة وولى بدلا منه أخاه المستعلى، وكان هذا صغير السن فحجر عليه الأفضل وأصبح هو مطلق التصرف في شئون الدولة.

ومن هذا العرض تتضح أهمية بدر الجمالى في تاريخ مصر الفاطمية، فقد استقدمه الخليفة المستنصر في وقت خيل للناس فيه أن دولة الفاطميين ستعصف بها الاضطراب والفوضى، ولكن بدراً كان عند حسن الظن به، إذ مد يده القوية إلى الدولة فأنهضها من كبوتها، وأقالها من عثرتها، وطفق يصلح من شأنها ويهدئ من روعها، فاطمأنت إلى قيادته الحازمة وحكمه العادل، وأخذت تستعيد شيئاً فشيئاً ما كانت تتمتع به من عظمة وسؤدد، وما كانت ترتع فيه من أمن وطمأنينة، فكان حضوره إلى مصر بدءاً لمرحلة جديدة بالنسبة للدولة، إذ حفظ عليها وحدتها وأنقذها من الانهيار.

ولعل من أعجب ما نلاحظه في سيرة بدر الجمالى أن ما أخذه عليه الكثيرون من قسوته وشدته كان هو نفسه أهم عامل في نجاحه في مهمته رغم كبر سنه، لأن الدول في مثل حالة الدولة الفاطمية وقتئذ لا بد لها من مستبد عادل، وقد وجدته مصر الفاطمية في شخص ذلك الأرمينى العظيم بدر الجمالى.

وكان بدر شيعياً متطرفاً، نقش لعن الصحابة على الجدران، وأعاد رسوم الشيعة إلى الأذان والصلاة. وأكبر الظن أن هذا التطرف في اعتناق مذهب الدولة جعله يتفانى في خدمتها.

كان حكم بدر مرحلة حاسمة من مراحل الدولة الفاطمية اندثرت بها عهد نفوذ الخلفاء، واستقبلت عهد نفوذ الوزراء، أو كما سماه المؤرخون « عهد الوزراء العظام ». وقد تتابع على عرش الخلافة بعد وفاة المستنصر ستة خلفاء حكموا أقل من قرن، ولم يكن لواحد منهم شيء من النفوذ على الإطلاق، بل كانت كل السلطة في تلك الحقبة مركزة في أيدى الوزراء من أمثال الأفضل والأكمل وبهرام ورضوان وابن السلار، وكان كرسى الوزارة مجالاً لمنازعات دموية لا تنقطع، مما أذى الدولة وأدى بها سريعاً إلى الانحلال، حتى إن آخر أولئك الوزراء العظام وهو صلاح الدين يوسف بن أيوب لم يجد أدنى مقاومة حين قضى على الخلافة الفاطمية في الأيام الأخيرة من خلافة العاضد، فعادت مصر وأملاكها بذلك إلى أحضان الخلافة العباسية السنية مرة أخرى.

أحمد حسين الصاوى

من قصص موباسان

.. والتفتت العانس العجوز إليها بعينيها اللتين احمرتا من البكاء .. ولكن العاشقين لم يعيراها أي التفات .. وفجأة لاحظ الشاب أن حذاء حبيبته الرقيق مبلل ، فقلق عليها أشد القلق وسألها باهتمام :

« أمستيقنة أنت أن قدميك الصغيرتين العزيزتين لا تشعران بالبرد ؟ » .

وفجأة ارتعشت أصابع العمة العجوز بشدة وأخفت وجهها بين يديها وبدأت في البكاء بمرارة ..

والتفت إليها العاشقان ذاهلين ، وركعت جان إلى جانبها وهي تقول : « ماذا حدث ؟ ماذا حدث يا عمتي ؟ » .

وأخيراً تمتمت المرأة المسكينة ، وقد اضطرب جسمها من التعاسة والعبرات تخنقها :

« إنه سؤاله ، هو ما أثارني .. ألا .. ألا .. ألا تشعر قدماك الصغيرتان العزيزتان بالبرد ؟ لم يقل لي أحد مثل هذه الأشياء .. أبداً .. أبداً .. » .

ودهشت جان وشعرت برغبة في الضحك ، إذ لم تتصور عاشقاً يقول مثل هذا لعمتها .. وأدار الشاب وجهه ليخفي تهكمه ..

.. وبدأت جان تقرأ خطابات (حياة !!) كتبها أجدادها المتوفون .. لقد كانت كلها مملوءة بآلاف من الأمور التافهة وحوادث اليوم العادية التي هي تافهة كل التفاهة بالنسبة لمن لم يتصل بهم : « لقد أصيب والدي بالأنفلونزا » . « لقد حرقت هورتنس الخادمة إصبعها » . « ماتت القطة كروكيرا » . « قطعوا شجرة الصنوبر التي على يمين سور الحديقة » . « فقدت والدتي حليتها وهي عائدة من الكنيسة وهي تعتقد أن شخصاً سرقها » .

وذاب قلب جان وهي تقرأ هذه الفقرات ، وخيل إليها أنها في حلم .. ونظرت إلى جثمان أمها الميتة الراقد على السرير ، ثم بدأت تقرأ بصوت مرتفع — وكأنها تقرأ لأمها لتواسيها — خطابات أمها السرية .

ولاح لها أن الجثة سرت لما تسمع ..

وكانت جان كلما قرأت خطاباً تلقيه إلى جانب السرير ، وفكرت في أن تضع الخطابات في نعش أمها مع الجثة ، كما يضع المرء الأزهار .. وحلت ربطة أخرى وبدأت تقرأ :

« إني لا أستطيع الحياة بدون قبلاتك .. إني أحبك إلى حد الجنون » ..

ثم لا شيء بعد ذلك .. ولا اسم .

ولم تفهم جان وقلبت الورقة فوجدتها معنونة لأمها ..

وفتحت خطاباً آخر : « تعالي الليلة عندما يخرج ، فسيكون لدينا ساعة .. إني أعبدك » .

وفي آخر : « لقد قضيت ليلة فظيعة .. أريدك فلا أجدك .. لقد كان جسمك بين ذراعيّ ، وثغرك تحت شفتي ، وعيناك تحت عيني .. وفجأة جن جنوني من الغضب ، إذ أفكر أنه ربما كنتِ في هذه اللحظة ترقدين بجواره هو وأنه يملكك » .

وكانت جان من الاضطراب بحيث لم تفهم ..

ما معنى هذا ؟ لمن ومن كتبتْ هذه الخطابات ؟ .

ومضت تقرأ ... وهي تجد في كل خطاب غرامي موعداً أو اعترافاً أو تحذيراً .. وفي نهايته دائماً حتى كانت : « وفوق كل شيء أحرقي الخطاب » .

وأخيراً فتحت ورقة عادية كتب فيها قبول دعوة عشاء بنفس الخط الذي كتبت به الخطابات السابقة ، وهي بإمضاء « بول ديتيار » .. وهو الرجل الذي كان يدعوه أبوها « صديقي المسكين بول » . والذي كانت زوجته أعز صديقات أمها ..

وأفاقت جان إلى الحقيقة .. لقد كان بول عشيق أمها .. زوجة صديقه .. وبدأت تفقد رأسها ، فأطاحت فجأة وبحركة عصبية بالخطابات الفظيعة وكأنها تطيح بحشرة سامة تصعد على جسمها ..

(من قصة « حياة ») — صبحي أحمد أيوب

من شعر ڤيكتور هوجو

١ — أرواح الرجال :

نشأت وفى نفسى حب كائنات السماء المجنحة ...

وإذا كنت غض الإهاب اعتدت أن أصعد إلى عشش الطيور لأستل منها صغارها .

وكنت أعنى بها وأصنع لها أقفاصاً من الغاب .

فإذا كبرت وتم فتحت لها أبواب الأقفاص ...

ولكنها كثيراً ما كانت ترفض أن تطير لتذهب طليقة إلى وطنها الأول فى الغاب .

وفى فترة من فترات الحياة نشأت بينى وبين إحدى الحمائم البيض صداقة قوية أثيرة ...

فتعلمت منها كيف أسوس أرواح الرجال !..

* * *

٢ — الموت :

لقد رأيت الموت فى هذا الحقل الذى يسمونه الأرض ...

كان يسير بخطى سريعة ، وهو يحصد بنى الإنسان فى غير ما جهد أو ملل ...

كان يبدو لى كالهيكل العظمى الهائل يحمل ظلاماً رهيباً ، فتتراجع الكائنات وتهتز من فرط قوته .

وكان الملوك فى قمة سطوتهم تزلزلهم فأسه المشئومة التى تقلب العروش إلى مقاصل مفزعة ، وتمحق الذهب والفضة ، وتحول الزهور إلى تراب .

وكأنى بإحدى الأمهات وقد سلب منها وليدها تصيح يائسة :

— رباه لِمَ أعطيتنى هذا الكنز الغالى لتأخذه منى ثانية ؟!..

لقد رأيت الدموع والدماء تغرق البسيطة عقب مرور الهيكل المخيف .

وسمعت صفير الريح الباردة تقلب طيات الأكفان ، وتدفع بالإنسان المغلوب تحت الفأس المخيفة التى أذلته ...

ولكنى شاهدت ، بعد ذلك كله ، ملاكاً ناصع البياض باسم الوجه ، يحمل بين يديه الطاهرتين أكاليل من أرواح كل أولئك الأموات !..

* * *

٣ — الشاعر :

الشاعر يعمل فى أيام الشقاء ليمهد السبيل أمام أجيال السعادة ... إنه رجل الخيال ، يعيش على الأرض ، لكنه يحلق بفكره فى السماء ...

إنه النبى فى كل زمان يهز فوق الإنسانية مشعل النور الذى يضىء به المستقبل .

فهو يعلم حقيقة التاريخ وسرّ البشر .

وأحلامه كلها حب لإخوته من بنى الإنسان ، وهى انعكاسات لظلال المستقبل ...

إن الناس يهزأون به ، ولكنه لا يأبه لسخريتهم .

يكفيه أنه يفكر ، وإن كان غيره لا يفكر ...

بل هو يتألم لمشهد الطيش الذى يدفع الشعب إلى اضطهاد أمثاله من الشعراء !..

* * *

٤ — من أجل المعوزين :

أعط أيها الغنى مما أعطاك الله للفقير والمعدم .

فالإحسان ثوابه فى الآخرة مثل ثواب الصلاة أو يزيد .

وإن الله يلعن من يرد عن مائدته السائل واليتيم .

أعط أيها الغنى من مالك للمحرومين .

فسوف يعطيك الله بدلاً من المال قوة فى سواعد أولادك ، ورحمة فى قلوب بناتك ، وثمراً فى أطراف زرعك ..

(البقية على الصفحة التالية)

الموت فى الأدب العربى

للأستاذ جمال الدين الرمادى

لما يمت الأدب العربى ، وهيهات له أن يموت . بل إنه يتقدم شيئاً فشيئاً نحو الحياة والحياة النشيطة الموفورة ، إننا أريد أن أبحث فى هذا المقال ، كيف تناول الشعراء الموت ، وكيف وقفوا حيال هذه الظاهرة الطبيعية التى لا بد أن تدرك كل حى . وليس من شك فى أن شعراء العرب قد استمدوا جل أفكارهم من البيئات المختلفة السائدة فى جزيرتهم وفى الأقاليم المتاخمة لها . وإن من يتصفح الشعر الجاهلى يجد لبعض الشعراء خواطر فى الحياة وخطرات فى الموت ، ولكنها لا تتبع نظرية من النظريات ولا تسير وفق فلسفة من الفلسفات ، بيد أنها برغم هذا كله تضم كثيراً من الحكمة وفيها كثير من الصواب كقول عدى بن زيد من شعراء الجاهلية :

أهـــل الديار من قوم نوح

ثم عـــاد من بعـــدهم وثمود

بينا هم على الأســـرة والأ

ماط أفضت إلى التراب الخدود

ثم لم ينقض الحـــديث ولكن

بعـــد ذا الوعد كله والوعيد

وأطبـــاء بعـــدهم لحقـــوهم

ضـــل عنهم سعوطهم واللدود

وصحيح أضحى يعـــود مريضاً

وهو أدنى للموت ممن يعـــودُ !

ومن أمثلة الشعر الجاهلى كذلك ما قاله عبدة الصغار من أمية بن الصلت الشاعر الجاهلى الذى قال عنه الرسول الكريم : آمن شعره وكفر قلبه . فقد ذكر أن أمية بن الصلت أغمى عليه طويلاً عند وفاته ، ثم أفاق ورفع رأسه إلى سقف البيت وقال : لبيكما . لبيكما ، هاأنذا لديكما ، لا عشيرتى تحمينى ، ولا مالى يفدينى . ثم أغمى عليه طويلاً وقال :

كل عيش وإن تطاول دهراً

صـــائر مرة إلى أن يزولا

ليتنى كنت قبـــل ما قد بدا لى

فى رؤوس الجبال أرعى الوعولا

ولما جاء الدين الإسلامى تناول كتابه العزيز الموت بين ثناياه ؛ فقال عز وجل : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) وقال تعالى : (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وقال أيضاً : (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) ، وقد جاء فى التوراة كثير من الآيات التى تدعو إلى الزهد وذم الدنيا واستحقار الحياة مثل هذه الآية : (لعلك يا إسرائيل إذا أنت خرجت من البرية فدخلت الأرض المقدسة أرض بنى آبائك إبراهيم وإسحاق فإنها تجيش براً وشعيراً ولبناً وعسلاً ، فورثت بيوتاً بناها غيرك ، وعصرت كروماً غرسها غيرك ؛ فأكلت وشربت وتعمت بشحم لباب القمح ضربت بيدك إلى صدرك ورمحت كما ترمح الدابة برجليها وقلت : بقدرتى وقوتى وبأسى ورثت هذه الأرض وغلبت عليها ونسيت نعمتى عليك) .

إن الإحسان يريح الضمير ويحيى فى النفس جمال العاطفة .

وأنت سوف تترك هذه الدنيا يوماً فلا يبقى لك من شئ سوى ما أحسنت به إلى غيرك .

كن براً بالمساكين يحبك الله ، ويحبك الناس ، حتى الأشقياء منهم ...

وسوف يقول الفقير عنك : « إنه رجل رحيم » .

وينظر المعدم إلى صورتك فلا يحسدك على غناك ...

سوف يسود الهناء أسرتك .

ويدعو لك المستضعفون فى صلاتهم ...

وما أعظم شفاعة المستضعفين فى الآخرة !..

المخلص

محمد عبد الحليم

وقد تناول الشعراء الإسلاميون الموت في شعرهم وذموا الدنيا، وطلبوا التهجد والتعبد والورع والتقى وتصوف نفر من المسلمين، ونظروا إلى الحياة نظرة استخفاف واستهجان كما ظهر نفر من الشعراء الزهاد كأبي العتاهية. ولعل هذا النفر من القوم تمثل بقول عبد الله بن مسعود (الدنيا كلها هموم، فما كان منها من سرور فهو ربح) وقد تناول شاعر عربي الحياة والموت في بيتين فقال:

تراع لذكر الموت ساعة ذكره
وتعترض الدنيا فنلهو ونلعب
ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها
وما كنت منه فهو شيء محبب

وقيل إن محمد بن كعب دخل على عمر بن عبد العزيز فحدق النظر إليه، فقال له عمر: ما تنظر يا محمد؟ قال: أنظر إلى ما ابيض من شعرك ونحل من جسمك وتغير من لونك. فقال: أما والله لو رأيتني في القبر، وقد سالت حدقتاي على وجنتي وسال منخراي صديداً ودوداً لكنت أشد نكرة.

عندما تناول أبو العلاء المعري الموت في شعره كانت له نظرة خاصة فيه، فهو يعتقد أن الحياة لون من السخف الذي لا طائل تحته، ويعتقد أن كل ذي روح ينبغي أن يعيش، لحرم على نفسه أ كل كل ذي روح. وقد ضم ديوانه «لزوم ما لا يلزم» كثيراً من آرائه في الحياة، فما الدنيا في نظره إلا ميتة وما الناس حوالها إلا كلاب نوابح! غير أن الخاسر من يأ كل منها كثيراً، والمكتسب من لا يأ كل منها شيئاً، والدنيا دار لا ينبغي للعقلاء أن يبكوا على غيابها، فما الظافرون بعزها ويسارها إلا قريبو الحال من خيابها، فقال أبو العلاء:

إنّ حزناً في ساعة الموت أضعا
ف سرور في ساعة الميلاد
خلق الناس للبقاء فضلت
أمة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعما
ل إلى دار شقوة أو رشاد
ضجعة الموت رقدة يستريح الـ
جسم فيها والعيش مثل السهاد!

وإذا مات الإنسان لم يحفل بجسمه أبو العلاء، ولم يرض تكريمه، بل يرى أن يوارى في التراب أو أن يفعل به أي شيء، فإنه لا يحس ولا يتألم، وقد ضمن هذا المعنى في قوله:

تكرم أوصال الفتى بعد موته
وهن إذا طال الزمان هباء

وقد ذكر معالي الدكتور طه حسين باشا في كتابه تجديد ذكرى أبي العلاء، هذه الملاحظة، كما أضاف إليها أن أبا العلاء استحسن غير مرة تحريق الهند موتاهم وأحبه فقال:

والنار أطيب من كافور ميتنا
غباً وأذهب للنكراء والريح!

وهكذا زخر الأدب العربي بشعر الموت وكثر الرثاء في الشعر، وقد قيل إن الرثاء أجود شعر العرب، لأنه أصدق عاطفة ولأنهم يقولونه وقلوبهم مفجوعة.

وقد ذكر ابن رشيق في كتاب (العمدة) ص ١١٨ أنه ليس هنالك فرق بين الرثاء والمدح إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت، مثل كان أو عدمنا به كيت وكيت أو ما يشا كل هذا، ليعلم أنه ميت، وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكاً أو رئيساً كبيراً كما قال النابغة في حصن بن حذيفة:

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم
وكيف بحصن والجبال جنوح
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل
نجوم السماء والأديم صحيح!

وأبو تمام من المجيدين في الرثاء، ومثله عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن، وهو أشد في هذا من حبيب وله فيه طريق انفرد به. ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في الرثاء بالملوك الأعزة والأمم السالفة والوعول الممتنعة في قلل الجبال، والأسود الخادرة في الغياض وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها، وذلك في أشعارهم كثير موجود لا يكاد

يخلو منه شعر . أما المحدثون فهم إلى غير هذه الطريقة أميل ، وربما أتوا بالجديد إلى جانب أخذهم بالتقليد ، ومن أفضل الرثاء في نظر ابن رشيق قول حسين بن مطير يرثي معن ابن زائدة :

فيا قبر معن كنت أول حفرة
من الأرض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده
وقد كان منه البر والبحر مترعاً
فتى عيش في معروفه بعد موته
كما كان بعد السيل مجراه مترعاً !

هذا وقد مزج كثير من الشعراء الحب بالموت على النحو الذي يفعله شعراء الفرنجة حيث تزخر بعض دواوينهم بهذا الموضوع كفن مستقل قائم بذاته ! ومن هذا الضرب في أدب البلاد الانجليزي قصيدة الشاعر يوليوس ميكل قاعة كمنر Cumnor Hall التي يصور فيها علاقة أمي روبزات بالشريف لستر ويصور فيها كيف أنه آثر المليكة اليزابث عليها بدافع من الطموح في المجد والرغبة في السيادة وكيف عجل الموت حياتها بعد ذلك . وكان ممن تناول الحب والموت في الأدب العربي الشاعر الغزلي الرقيق جميل بثينة الذي قال في إحدى قصائده :

أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى
ببثنة في أدنى حياتي ولا حشري
وجاور إذا ما مت بيني وبينها
فياحبذا موتي إذا جاورت قبري
عدمتك من حب أما منك راحة
وما بك عني من توان ولا فتر !

كما تناول جميل بثينة الحب والموت في أبيات أخرى :

من حبها أتمنى أن يلاقيني
من نحو بلدتها ناع فينعاها
كيما أقول فراق لا لقاء له
وتضمر النفس يأساً ثم تسلاها
ولو تموت لراعتني وقلت ألا
يابؤس للموت ليت الموت أبقاها

وقال ابن رشيق : ومن جيد ما رثي به النساء وأشجاه وأشده تأثيراً في القلب وإثارة للحزن قول محمد بن عبدالملك الزيات في أم ولده :

ألا من رأى الطفل المفارق أمه
بعيد الكرى عيناه تبتدران
رأى كل أم وابنها غير أمه
يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تحثه
بلابل قلب دائم الخفقان

هذا وقد ذكر صاحب العقد الفريد أنه كان لعلي الطائي جارية يقال لها (وصف) وكانت أديبة شاعرة باعها العلي في مصر بأربعة آلاف دينار ، ودخل عليها فقالت له : بعتني ياعلي ؟ قال : نعم . قالت : والله لو ملكت منك مثل ما تملك مني ما بعتك بالدنيا وما فيها !. فرد الدنانير واستقال صاحبه ، ثم أصيب بها إلى ثمانية أيام فرثاها أبلغ رثاء ، وبكاها أشد بكاء !.

ياموت كيف سلبتني وصفاً
قدمتها وتركتني خلفا
هلا ذهبت بنا معاً فلقد
ظفرت يداك فسمتني خسفاً !

وهكذا تناول الشعراء الموت في الأدب العربي وكان ذكرهم للموت صادقاً خالصاً كما كان ذكرهم للموت مستمداً من الدين الإسلامي حيث جاء في الحديث المرفوع (الموت راحة) كما قال بعض السلف ما من مؤمن إلا والموت خير له من الحياة ، لأنه إن كان محسناً فالله يقول (ما عند الله خير للأبرار) ، وإن كان مسيئاً فإنه تعالى يقول (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً) (المحاسن والأضداد للجاحظ ص ٢٥٤) اللهم إلا شعراء قلائل صبغوا بمذهب خاص كأبي العلاء المعري ، ويعد شعر الرثاء في الأدب العربي من أهم الأبواب التي ذكرها المصنفون والنقاد كأبي تمام في ديوان الحماسة ، وقد مزج بعض الشعراء الحب بالموت على النحو الذي يلجأ إليه شعراء الفرنجة ، فكان هذا اللون من أحب ألوان الشعر إلى النفوس وأوقع ألوان الشعر في القلوب !! ...

جمال الدين الرمادي

الإشارات الإلهية

لأبي حيـــان التوحيدي

بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي

للأستاذ السيد أحمد صقر

— ٢ —

١٢ — ص ٢ يقول أبو حيان : « يا هـذا إن كنت ثاكلاً فَنُحْ على ما أصبت به ، وإن كنت مكروباً بالسر فَبُحْ » .

أخطأ الدكتور في ضبط هاتين الكلمتين كما أخطأ في شرح المعنى ، إذ يقول : « أي ألقِ علىّ مُصابك » !!!

والصواب « فنُحْ على ما أصبت به » ، ويؤيده قول أبي حيان في ص ١١٣ : « وُنحْ على نفسك نوح الثكول » .

وهذا هو البيان الصريح ، واللفظ الصحيح كما قال أبو حيان في ص ٢٩٤ : فمن أخطأه فليقرأ تمام كلامه في الصفحة نفسها ، فإنه يقول : « فأطِلْ البكاء ، وأجِدْ اللطم ، وتجرّع مرارة الكأس ، المترعة بالحسرة واليأس . وليت البكاء نفعك ! وليت النوح أجدى عليك ! وليت الحسرة أفادتك ! وليت الندامة نفعتك ! هيهات ! فتّ فوتاً لا درك بعده ، وبِدْتَ بيوداً لا عود معه ، والعثرة غير مقالة ، والمحنة غير مزالة ، والحال غير محالة ... »

١٣ — ص ٤ تمثل أبو حيان ببيت ، ولم ينسبه ، وهو :

وما هــو كائن وإن اســتطلنا
إليه النَّهْيَ يوشك أن يكونا

وعلق عليه الدكتور بقوله : « استطلنا النهي : النهي أي الوصول والبلوغ ، واستطلنا أي وجدناه طويلاً ، أي وجدنا الوصول إليه عزيزاً » .

وهذا شرح خاطئ لكلمة محرفة لم ينطق بها الشاعر ، والصواب « وإن استطلنا إليه النهج » لا « النهي » كما جاء في ديوان البحتري ٢/٣٠١ ، والنهج : الطريق .

١٤ — ص ٩ ، ١٠ يحدثنا أبو حيان أنه انتهى إلى حال لم يشهد فيها إلا النعمة ، ولم يحس إلا بالمقة والكرامة « وذلك أني رأيت الفؤاد محشواً بالمعرفة ، واللسان لهجاً بالذكر ، والإشارة ناطقة بالتوحيد ، والقلب مترعاً بالإيمان ، والسر مطمئناً بالوعد ، والأذن صاغية إلى النداء ، والجبهة ناعية بالنجاء ، الراسخ على الوفاء ، فهل بعد سُدّة النعم والكرامات ، وبعد هذه الآثار والعلامات ، وبعد هذه السمات والأمارات ، وبعد هذه المرامات والمقامات ، ما يهتدي إليه اقتراح بشر ، أو يكون لأحد من الخلق عنه خبر أو أثر ؟ » .

شرح الدكتور الوعد بقوله : « أي الوعد بعدم البوح بالسر » ، وهذا خطأ ! فليس في سياق الكلام ما يدل على أن أبا حيان أخذ على نفسه العهد والميثاق ألا يفشي « السر » المزعوم ، ولست أدري من أين جاء الدكتور بهذا « السر » ، ولا على أي وجه فهمه ؟ وكلام أبي حيان واضح لا لبس فيه ، فهو يقول : « والسر مطمئناً بالوعد » ، أي أن ضميره مطمئن بوعد الله الحق الذي وعد به عباده .

ولا معنى لقول أبي حيان « والجبهة ناعية بالنجاء الراسخ على الوفاء » كما نقل الدكتور ، والصواب « والجبهة ناغية » بالغين لا بالعين ، إذ لا معنى للنعي هنا .

وقال الدكتور في شرح قول أبي حيان « فهل بعد سُدّة النعم والكرامات » : « السدة ظلة فوق الباب ، ويقصد : سبوغ النعم والكرامات » .

وهذا خطأ فإنا نعهد أبا حيان كاتباً بصيراً ، فكيف يأتي بلفظ « السدة » في هذا المقام ويقصد منها معنى السبوغ ؟ إنه لو فعل ذلك لاتخذناه دليلاً على أنه لا يعرف أسرار العربية ، بل ولا بسائط التعبير . ولكنه — ولله الحمد — لم يقل ذلك اللفظ ، ولم يدر له بخلد ، وإنما قال : « فهل بعد هذه النعم والكرامات » ، وكذلك جاء في أصل الكتاب المخطوط واضحاً جلياً ، ولعل الدكتور لم ترق في نظره كلمة « هذه » ، فوضع بدلها « سدة » ، وفلسف شرحها بما رأيت !

١٥ — ص ١٢ يقول أبو حيان : ولعمرى إن التصاقب بين الشخصين والتماس بين المتشاكلين يوجبان ذلك ويحدوان عليه ، ولكن مع كل خطرة خيال ، ومع كل نظرة وبال ، ولكلٍّ أشمالٍ حال ، ولكل مقام مقال » . حرف الدكتور الكلمة وشرحها بقوله : « جدا عليه : أعطاه الجدوى ، أي العطاء » .

وهذا شرح يفسد المعنى فساداً كبيراً ، والصواب « ويحدوان عليه » بالحاء لا بالجيم ، كما جاء في المخطوطة ، ولعل الدكتور لم يتبين لكلمة « يحدوان » معنى يناسب المقام فجعلها « يجدوان » بالجيم ، وشرحها بما رأيت . ومعنى « يحدوان » : يبعثان ، جاء في لسان العرب ١٨/١٨٤ : « وفي حديث الدعاء : تحدوني عليها خلّة واحدة ، أي تبعثني وتسوقني عليها خصلة واحدة ، وهو من حدو الإبل ؛ فإنه من أكبر الأشياء على سوقها وبعثها » .

وقال الدكتور في شرحه لقول أبي حيان : « ولكل أشمال حال ، ولكل مقام مقال » : « الأشمال والأسمال : الأثواب البالية . والمعنى لكل حال لبوس » !!!

وهذا المعنى الذي ذهب إليه الدكتور خطأ صراح ، ولم يقل به أحد غيره . والصواب : « ولكل إنسان حال »

١٦ — ص ١٢ ورد هذا البيت :

ويؤنسُني وعدٌ كورد بقيعةٍ
متى رُمْتُه كلّفتُ بيداء بلقعا

والصواب « ويُؤْيسني » وقال الدكتور في شرح « كورد » : « الورد : الإشراف على الماء دخله أو لم يدخله » !!!

وهذا خطأ يفسد التشبيه ، والصواب ما جاء في لسان العرب ٤ ، ٤٧١ « الورد : الماء الذي يورد » .

١٧ — ص ١٣ « فأبى معك عند إشكال فصل عندك أن أقول :

طربتُ ولم أطرَبْ وتمتُ ولم أنم
ولم تدر ما ألقَ ولكنني أدْرِي

ضبط الدكتور « تاء » طربت وتمت بالضم وهو خطأ يحيل المعنى ، والصواب : « طربتَ وتمتَ » بفتح التاء ، فيهما كما جاء في المخطوطة .

١٨ — ص ١٤ « وإذا قيل هذا أوان الرَّوح والفرح حَمَّ هناك الويل والجَرَح ، فهلم ياسيدي إلى شجو قد أُمِرَّتْ علينا كأسه ... وغالب ظني ياسيدي أنك لمساعدي على هذا الشجو تؤثر أثراً يخف به ما بنا » .

أما قوله : « وإذا قيل هذا أوان الروح والفرح حَمَّ هناك الويل والجَرَح » ففيه عدة تحريفات أحدثها الدكتور ، وقد شرح الكلمة الأخيرة بعد أن حرفها فقال : « جَرَح جَرَحا محركة : أصابته جراحة » .

وهذا خطأ وإذا رجعنا إلى هذا النص في النسخة الخطية تبينت لنا التحريفات التي أحدثها الدكتور فيه . جاء في المخطوطة : « وإذا قيل هذا أوان الرَّوح والفرَح جثم هناك الويل والحرج » .

وندع القارىء البحث عن السر في هذه التحريفات ، ونمضي لطيتنا فنقول :

ضبط الدكتور قول أبي حيان « ولا بال إلا وقد كُشف بالقنوط » بضم السين ، والصواب « كَشف » بفتح السين .

وقد أخطأ أيضاً في ضبط قوله : « فهلم ياسيدي إلى شجو قد أُمِرّت علينا كأسه » حيث ضبط « أُمِرّت » بضم الهمزة وكسر الميم ، والصواب « أَمَرّت » بفتح الهمزة والميم ، من المرارة كما يتطلبه المعنى وقوله : « وإنك لمساعدي » خطأ ، صوابه « بمساعدي » كما جاء في الأصل المخطوط .

١٩ — ص ١٥ : « والله أسأل أن يزيدك من مواهبه الصافية ما تصير به فرداً ، ويوردك من شرائعه الصافية ما تزداد به ريا » .

والصواب « من مواهبه الضافية » بالضاد لا بالصاد . والصواب كذلك « ما تزداد به ريًّا » بالياء المشددة

لا بالياء، كما أوردها الدكتور وشرحها حيث يقول : « الربا بالكسر الفضل » !!.

ص ١٥ يقول أبو حيان : « أما ترى هذا التهادى، والتمايل فى هذه المعانى التى تلقطها من ناحية العقل بعد انتشارها على بساط الأنس ... » .

والصواب كما جاء فى المخطوطة « تلقطها ... بعد انتشارها ... » .

٢٠ — ص ٢٢ « فلا العلم باختلاف الأحوال نافع ، ولا الجهل به ضار ، بل ربما ضر العلم ، وربما نفع الجهل ، وربما نيل بالخبط ، وربما فات بالتأنى ، وربما بعد الدانى وربما قرب النائى ... » .

قال الدكتور ، وما أغرب ما قال ! « نبل : لقط النبل ، ثم دفعها إلى الرامى ليرمى بها من جديد . والخبط : النبل يرمى بها . والمعنى أنه ربما يختلط النبل بالنبل ، أى يساوى الماء بالماء نفسه » !! ...

ماذا أقول فى نقد هذا الشرح العجاب ؟ أقول إن مثل هذا الفهم هو الذى شحذ عزم أبى حيان على حرق كتبه بالنار وغسلها بالماء ، وجعله يقول لمن لامه على صنيعه : « فشق على أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضى إذا نظروا فيها ... وإن عيانى منهم فى الحياة هو الذى حقق ظنى بهم بعد الممات » .

رحمك الله يا أبا حيان ، فقد كنت ترى الغيب من وراء حجاب ، وجاء بعدك من يصحف عليك صحيح كلامك ويخبط فى فهم معناه خبط عشواء ، بل ولا يحسن قراءته .

جاء فى النسخة المخطوطة : « وربما نِيل بالخبط ، وربما فات بالتأنى ... » ، أى وربما خبط الإنسان فى ابتغاء مراده خبط عشواء فناله ، وربما تأنى لنيله أشد التأنى ففاته ولم يدركه .

ومن أعجب العجب أن ناسخ الكتاب قد احتاط ، ووضع كسرة ظاهرة تحت نون « نِيل » حتى لا يخطئ فى قراءتها إنسان ... وصدق أبو حيان فى ظنه الذى تمثله فيمن نراهم بين ظهرانينا ممن نالوا بالخبط درجات العلماء .

٢٠ — ص ٢٥ : يقول أبو حيان إنه كتب إلى أحباب قلبه من « شوق يصهر الضلوع إليكم ، وبال متحرك عند تمنى عطفكم ، وليل يتباطأ فى مراعاة طيفكم ، ونهار منصب فى توقع لطفكم » .

ولا معنى لقوله : « وليل يتباطأ فى مراعاة طيفكم » والصواب « وليل يتناهى » أى أنه يقضى ليله كله فى مراعاة الطيف .

٢٠ — ص ٢٦ : « وسقيا للرسائل التى كانت تجرى بيننا وبينكم ، ثم ورعياً للوسائل التى كانت تتردد عندنا وعندكم ، والوشاة على خيبتها فى الظفر بتأذيكم » قال الدكتور فى تعليقه : « فى الأصل بناويكم ، أو صوابه : بناديكم » .

ولا معنى هنا لظفر الوشاة « بتأذيكم » أو « بناديكم » وبديهى أن صواب الأصل « والوشاة على خيبتها فى الظفر بنا وبكم » .

٢١ — ص ٢٧ : « فيا أحبابى ارحمونى فى أوصابى ، ودبروا أمابى ، فإنى لتُمسابى » !.

قال الدكتور فى تعليقه : « كذا فى الأصل ، ولعل صوابه : لتُمشى . من أشاء لأمر الله : خضع ، والمعنى أنه ينقاد لهم » !.

وهذا غير صحيح ! فإن الكلمة لم ترد فى الأصل هكذا كما زعم الدكتور ، وإنما وردت صحيحة واضحة « فإنى لمابى » وهو تعبير صحيح فصيح يرد كثيراً فى كتب الأدب ، وقد استعمله مجنون ليلى حيث يقول :

يقــول أناس على مجنون عامر
يروم ســلواً قلت إنى لمــابيا

كما استعمله أبو النصر الطبرى كاتب الحسن بن زيد العلوى حيث يقول فى رثائه :

وسائل عنه قبيل بت لمـــا به
فقلت الندى لاشك بات لمـــا به
وكأنما شن الزمان على الورى
يقـــاه أو هـــابه فبـــدا به

٢٢ — ص ٣٠ : « فأنا التشرق القرور ، والتحرق الصرور ، والقاصد المحبوب ، والرائد المكذوب » .

شرح الدكتور الجملة الأولى بقوله : « التشرق : القاعد فى موضع القعود فى الشمس بالشتاء ، والقرور الصائب بالقر بالضم أى البرد » .

وشرح الجملة الثانية بقوله : « والصرور : الممنوع ،

والمحجوب عن نوال المطلوب أو ما يتحرّق إليه » !!.

وهذا خطأ ، والصواب أن يقال فى شرح « التحرق » المحروق ، جاء فى اللسان ١١ / ٣٢٥ « تحرّق بالنار واحترق » و « الصرور : من الصر ، وهو شدة البرد ، وهذا هو المعنى الصحيح الذى أراد إليه أبو حيان ، وتتم به المقابلة التى أرادها بين « المشرق » و « المتحرق » وبين « المقرور » و « المصرور » .

٢٣ — ص ٣٥ : يخاطب أبو حيان الإنسان المبدَع بالقدرة الإلهية المحفوف بالنعم المتلكية ، ويطلب إليه أن يتأمل مواقع آياته فيه ، ويستنطق شواهد آثاره عليه ويقول له : « انظر بأى فضل خصك ... وأى ملك قلدك ، وأى مشرب صفّى لك ، وبأى لطف جاشك ، وبأى شىء سكّر جاشك ، وبأى صنع أزال استيحاشك .. ولأى أمر أعاشك » ثم يشرح أبو حيان ما ذكره ، فيقول : « قلدك ملكا هو نهاية آمالك ، وصفّى لك مشرباً متى كرعت منه لم تظمأ بعده ، وجاشك بلطف هو الذى جعلك مغبوطاً فى حالك ، وسكّر جاشك بشىء هو الذى أنالك مرادك . وأزال استيحاشك بصنع أدركت به كل آمالك ... » .

ومن العجيب حقاً أن يقول الدكتور فى شرح قول أبى حيان « وبأى لطف جاشك ، وبأى شىء سكر جاشك » : « جاشك هنا بمعنى اصطادك ، وسكّره بتشديد الكاف — تسكيراً : أى خنقه . والجأش : نفس الإنسان » !!

وأى عجب أعجب وأغرب من أن يقول أبو حيان للإنسان الذى يذكره بنعم الله عليه : أنظر كيف خصّك بالفضل فاصطادك وخنق نفسك « بشىء هو الذى أنالك مرادك » !!.

وصواب قول أبى حيان « وبأى شىء سكن جاشك » و« سكن جاشك بشىء هو الذى أنالك مرادك » .

ولا ريب فى أن « سكون النفس » من أنعم الله الخليقة بالتدبر ، الجديرة بالتأمل . وأما « اصطياد النفس وخنقها » فمصيبة كبرى ، ولعل فى حشره بين أنعم الله التى حف بها عباده سراً فلسفياً دقيقاً ، يدق على أفهامنا ، ويقصر عنه مداركنا وعقولنا ، وفوق كل ذى علم عليم .

(للبقية) السيد أحمد صقر

دار الطراز لابن سناء الملك

نشر وتحقيق الدكتور جودة الركابي

الدكتور شوقي ضيف

— ٢ —

والحق في هذه النشرة الطريفة لدار الطراز الطريقة التي اتبعت في وضع الأقفال والأبيات أو المراكز والأدوار، فإنها لم تجر على منهج واحد. وكنت أوثر أن توضع الأقفال دائماً في سطر واحد، وأن تليها أجزاء الأبيات وكل جزء منها يحتل سطراً، سواء المفرد والمركب. ومن الإنصاف للدكتور جودة أن نقول إن القدماء لم يخضعوا في كتابة الموشحات لمنهج معين، فتارة يضعون القفل في سطر وتارة يضعونه في سطرين أو أكثر. ولكني أرى الأخذ بالطريقة الأولى حتى تتضح صورة الموشحة في رأى العين حينما تقع عليها. وفي أحوال كثيرة نجد القدماء أو الساقين يخالفون بين مداد الأقفال والأبيات، فيكتبون القفل مثلاً باللون الأحمر والبيت باللون الأسود، وكان من الممكن أن يستغل الدكتور جودة الطباعة الحديثة وحروفها فيكتب القفل رقعة مثلاً والبيت نسخاً، لتتضح صورة الموشحة اتضاحاً تاماً.

وقد عجبت حين وجدت هذا العنوان « الموشح المختلف الأقفال » ونظرت في الموشح فإذا هو يجرى كما في الصحيفة رقم ٩ على هذا النحو :

بأبي علـــق بالنفس تعلق

هويت هلالاً في الحسن فريداً أغار الغزالا ألحاظاً وجيدا

وتاه جمالاً لم يبغ مزيداً بدر بلالا في حسن اعتدال

زانه رشق والقد رشيق

وتتوالى الأقفال مكونة من جزءين على هذه الشاكلة، كما تتوالى الأبيات مكونة من أربعة أجزاء مركبة. ولم يشر ابن سناء الملك في مقدمته إلى أن الأبيات تتكون من أربعة أجزاء، بل أشار إلى أنها أكثر ما تكون ثلاثة أجزاء ونصف. وأشار أيضاً حين تحدث عن هذا الموشح المختلف الأقفال إلى أن قفله الأول مكون من جزءين وبقية الأقفال مكونة من ثلاثة أجزاء. ومعنى ذلك أن هذه الموشحة ينبغي أن تكتب هكذا :

بـــأبي علـــق بالنفس علـــق

هويت هلالاً في الحسن فريدا

أغـــار الغزالا ألحاظاً وجيدا

وتاه جمـــالاً لم يبغ مزيدا

بدر بـــلالا

في حسن اعتدال زانـــه رشـــق والقد رشـــيق

وهكذا حتى تتضح فكرة اختلاف الأقفال من جهة، وحتى تأخذ الأبيات شكلاً يوضح تكوينها من جهة ثانية. وكما وقفت عند هذا الموشح وقفت عند آخر موشحات الكتاب وهو موشح مكفّر لابن سناء الملك تتكون أقفاله من أربعة أجزاء، ولكني وجدت قفله الأخير يتكون من جزءين فقط على هذا النحو :

جاع المُسْتبكن وصاح يا مق تمشا

ومن يرجع إلى ص ٨٨ من الكتاب أو في الديوان يجد بقية هذا القفل الذى استعاره ابن سناء الملك ليجعله ختام هذا الموشح المكفر وهو قوله هناك :

مُشْتَبِرى لا ينام من نحق حشا

جاع المسبكن وصاح يا مق تمشا

وكنت أوثر أن يكمل القفل ما دام ابن سناء قد جاء به كاملاً في موشحة أخرى من موشحات الكتاب، وأكبر الظن أن هذا الجزء سقط من نسختى دار الطراز اللتين اعتمد عليهما الدكتور جودة، ونحن لا نشك في أنه عانى كثيراً في إخراج الكتاب والديوان على هذه الصورة. والحق أنه من أصعب الأمور وأشدها التوفر على نشر كتاب قديم لم يترك المؤلف فيه نسخة، أو بعبارة أدق لم تصلنا نسخه،

فإذا تعددت النسخ تعدداً ، وكان منها نسخ قديمة العهد كان العمل محتملاً .

ويظهر أن النسختين اللتين اعتمد عليهما الدكتور جودة ليستا قديمتين ، وليستا أيضاً كاملتين من حيث ضبط الموشحات ، وقد حل الناشر كثيراً من صعوباتهما . وإنه لينبغي أن يسود بين الباحثين والناشرين أن نشر كتاب إنما يعطينا فيه الناشر رأيه في قراءة الكلمات بعد التحري والبحث والاجتهاد الفني ، وأن من حق من يطلعون بعده على عمله أن يضيفوا آراء جديدة ، فهذا كله يخدم فكرة الناشر ، ويجعل عمله أدنى إلى الكمال .

ولا يضير أي ناشر أن يخرج عليه ناقد بقراءة بعض العبارات في الكتاب الذي نشره قراءة جديدة ، لأن هذا نفسه إنما هو نوع من الاجتهاد ، ومحاولة — مهما تكن — فهي محدودة بالقياس إلى المحاولة الكبيرة التي قام بها الناشر في إخراج الكتاب .

من أجل ذلك رأيتني أحاول نفس المحاولة ، لعلي أضيف شيئاً إلى ما صنعه الدكتور جودة ، فقد أخذت أمعن في قراءة الموشحات ، وأقف طويلاً عند بعض أجزائها من الأدوار والأقفال محاولاً أن أقرأها قراءة جديدة ، وكان الموشح رقم ٦ من الموشحات الأندلسية أول موشح استرعى نظري ، فقد رأيت فيه هذا الدور :

مولايَ أبا العــلا ولي لو شئتُ مقالُ
وما أكنى بالإباء إلا لرعي الجـلال
هل بعد وشك النتاء قطيعة أو وصال

وفي رأيي أن « شئت » ينبغي أن تكون مفتوحة التاء وأن قول صاحب الموشحة « وما أكنى بالإباء » تحريف أو لعله خطأ مطبعي ، لأنه يعتذر عن كنايته بأبي العلاء فلا بد أن تكون العبارة « وما أكنى بالآباء » ، وكذلك كلمة النتاء في الجزء الثالث من الدور محرفة عن كلمة « التنائي » . وقد وقفت عند الدور التالي في نفس الموشحة إذ يجري على هذا النمط :

تعرضاً للوصـــول طفت بتلك الربوع
طوافاً غير حلال خمارى فيها دموعي
فتنٌ عن الدلال وراسل عن الخضوع

وصاحب الموشحة في كل أدوارها يوحد بين آخر الفقر والأجزاء في الدور ، فلا بد أن تكون كلمة « الوصول » محرفة عن كلمة « الوصال » ، وقد أثبت الدكتور جوده كلمة « خمارى » في الجزء الثاني وأشار في الهامش إلى أن الكلمة في نسخة القاهرة « جمارى » وأعتقد أن هذا هو الصحيح فهو المناسب للطواف ، أما كلمة خمارى فتحريف وقد جاء في القفل الأول من الموشح رقم ٨ من الموشحات الأندلسية :

في عيون الصبا رَمْيُ المرارى
من شغف بالحبّ

وشكلت كلمة رمى هكذا بفتح فسكون ، وأكبر الظن أنها « رَمَى المرارى » بفتح الراء والميم ، فهي فعل لا اسم ، ولعل هذا خطأ مطبعي ، وما أكثر ما تخطئ المطبعة العربية ، ونستمر في هذا الموشح الثامن حتى نقرأ هذا الدور أو البيت .

وطير مُحسِنٍ زَلّ ينزلى عند الغروب
حول شُبّاك الحيل يلقط حبات القلوب
ما حل حتى رحل فكان من شدو الكئيب

وكلمة شُبّاك هناك ليست النافذة ، وإنما هي جمع شبكة يريد بها حبالة الصائد وما ينثر حولها من حَب ، حتى ينزل الطير بريده فتعلق رجله بخيوطها ، فهي إذاً (شِبَاك)

وفي الموشح رقم ١٤ من الموشحات الأندلسية نجد هذا الدور :

ماحوى محاسنَ الصغر إلا غزالْ
معرّق الخدين من قهر عمٌ وخال
نسبة الثالث القمر والـــزلالْ
فأنا أهواه الفخر والجمال

وأظن كلمة (معرّق) محرفة ، فهي (معرق) بضم فسكون فكسر ، وتقرأ في الموشح رقم ١٨ من الموشحات الأندلسية هذا القفل :

في هلالْ لو يُجتلى جلَّ عن الناعت
وزلال لو بذلا برّأ الفانت

وآخر القفل محرف عن (بَرّد الفانت) فيما يبدو لي ، وفي نفس الموشحة :

قائـــل أهنٌ دمَا من قد غدا ملحدا

وضبطت كلمة (ملحدا) بكسر الحاء ، وقد تكون هذه غلطة مطبعية ، فهي ملحدا بفتح الحاء من اللحد لا من الإلحاد ، حتى تتلاءم مع ما قبلها ، ونجد هذا الضرب في الوشح رقم ٣٣ من الموشحات الأندلسية :

هل تحسن المدائح   من كل مادح
إلا على الجحاجح   بنى صمادح
فإنهم مصابح   على سوائح

والتحريف ظاهر في كلمة سوائح ، فهي سوابح لا سوائح ، يريد أن يمدحهم بالشجاعة . ونقرأ هذا القفل في الموشحة رقم ٢٨ من الموشحات الأندلسية :

أنسيتني معشري وأوطاني   وجدتُ تخيّل بكل هتان
منسكب أرواني

وأكبر الظن أن كلمة (وجدت) خطأ مطبعي ، فهي (وجُدْت) من الجود لا وجدتُ من الوجود . وفي الوشح رقم ٣٠ :

مالي والحسن   عهد من الحب   لا يخلق
إن قلت بي جُنة   فأين ما ألقاه   وأفرق

وشكل (جنة) على هذا النحو لعله خطأ مطبعي فهي جِنة بكسر الجيم أي جنون ، أما جنة فهي كل ما ستر ووقى ومعناها لا يراد هنا ، وفي الوشح الأخير من الموشحات الأندلسية هذا الضرب :

كيف السبيلُ   إلى اختلاس التلاقي
جاش الغليل   فالنفس بين التراقي
أين العذول   من لوعتي واشتياقي

وأظنها (جاش الغليل) ولعل نقطة الغين سقطت أثناء الطبع . وفي الوشح الخامس من موشحات ابن سناء الملك نقرأ هذا القفل :

نم نم أنت تسوى   خراج مصر مع العراق
لا تجرى الخلق والبرايا   من غير سوق ولا اتفاق

وكلمة (لا تجرى) غير واضحة هنا ، وقد أثبت الدكتور جودة في الهامش أن النسختين اتفقتا على كتابة الكلمة هكذا (لا تجر) وفي رأينا أنها صحيحة غير أنها محتاجة إلى همزة توضع فوق الألف فتصبح (لأتجر) .

ونقرأ هذا القفل الأخير في الوشح رقم ١٦ وهو في مدح الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين أثناء تملكه مصر إذ يقول الشاعر :

ما أنا بالفارك   ولست بالتارك   ولا على
وليس بالسالم   وليس بالنائم   الأزلي

وكلمة الأزلي لا معنى لها ، وهي تحريف لكلمة (الأولى) . وفي الوشح رقم ٢٥ من موشحات ابن سناء الملك نقرأ هذا القفل :

ياناا المليحة غالبه   ياناا لقلبي سالبه
شكتني لمّتها   وقالت ذا الكلام   البيض في الظلام
فقطع شغفي   وخرق حلقي   وخرق حرقي
وما أصبح لي ما تمدد شوم   فتتعدى على هذا الشوم

وفي رأيي أن أول القفل ينبغي أن يكون هكذا (يانا يانا المليحة غالبه ... يانا يانا لقلبي سالبه) وكلمة (يانا) لا تزال تستعمل في العامية المصرية ، وهي تقال في حالات الفزع والتألم والتحسر . وفي الوشح رقم ٣٦ نقرأ هذا القفل :

وياسهر فلا تذر   ويا كتائبي مهما
أمرت فافعل لا تخف   على عقابي إثما

وكلمة « ويا كتائبي » معطوفة على « وياسهر » وهي تلك « ويا اكتئابي » بالباء لا بالياء .

وأنا لا أشك في أن أكثر هذه الأغلاط أغلاط مطبعية وإنما أشرت إليها حتى يتداركها الدكتور جودة في الطبعة الثانية . وقد كنت أوثر أن يضبط الكلمات أكثر مما صنع ، وأن يشكل أجزاء الأقفال والأبيات شكلا تاما . وأيضاً فإني كنت أحب أن يبحث في وزن الموشحات بحثاً عاما ، وأن يظهرنا في هذه الموشحات التي أوردها ابن سناء أو نظمها ، على ما يجرى على أوزان شعر العرب وما لا وزن له فيها ، ثم يوضح لنا الأوزان الأندلسية الجديدة وما جاء به ابن سناء أو أضافه إليها .

ومهما يكن فنحن نهنئ الدكتور جودة الركابي بما اضطلع به من نشر هذا الأثر النفيس الذي كان له الفضل الأول في تذليل صعوباته وحل مشكلاته ، وبعثه والعود به إلى مسارح الحياة الأدبية ؟

شوقي ضيف

صديقان

قصة للكاتب موباسان

للأستاذ محمد عبد الحليم محمود

بلغ الحصار أشده حول باريس الجائعة المحتضرة . وقلّت العصافير فوق السطوح ، ودالت دولة الجرذان فى المجارى ، فقد أصبح كل شىء صالحاً لأن يؤكل .

وهذا هو السيد موريسو ، الساعاتى الكسول ، وقد وضع يده فى جيب سرواله ، وأخفى تحت سترته بطناً خاوياً ، وسار عابساً بين المتنزهات فى صبيحة يوم مشرق من أيام يناير . هـذا هو يقف بغتة أمام عابر سبيل آخر عرف فيه صديقاً : إنه السيد سوفاج ، زميله فى الصيد على شاطىء السين .

فقبل الحرب ، فى فجر كل أحد ، كان موريسو يحمل خيزرانة الصيد وعلبة الطعم ويستقل قطاراً إلى فردوسه المحبوب : إلى جزيرة مارانت . فلا يكاد يصل إليها حتى يستغرق فى الصيد ، ولا يفكر فى الرجوع إلا حين يقبل الليل .

وفى صبيحة كل أحد كان يلقى هناك رجلاً بَدِيناً مرحاً بَدِيناً يدعى سوفاج ، وكان هو الآخر مولعاً بالصيد . وكثيراً ما كان الرجلان يجلسان جنباً إلى جنب ، ويقضيان اليوم بأكمله ، وقد أمسك كل منهما بخيزرانته ، وترك رجليه تتأرجحان فوق تيار النهر . فلا عجب أن نراهما قد ارتبطا بصداقة قوية متينة .

كانا لا يتحدثان إلا قليلاً . ولكن التفاهم ساد بينهما على الدوام ، فمشاعرهما وإحساساتهما كانت متجانسة تغنيهما عن كل كلام .

فإذا أقبل الربيع ، وحلت الساعة العاشرة صباحاً ، وأرسلت الشمس الفتية أشعتها القوية ، فأقامت تلك الغمامة الخفيفة الجارية مع الماء ، وصبّت فى ظهر الصيادين حرارة لذيذة تبشر بالفصل الجديد ، عندئذ يقول موريسو لصاحبه : « ما أحلاها من حرارة !.. » .

وإذا أقبل الخريف ، ومالت الشمس وراء الأفق فصبغت بالدماء زرقة السماء ، وأرسلت على الماء أطياف السحب الملتهبة ، وجعلت من النهر صفحة حمراء قانية ، ومن الأفق شعلة وهاجة قوية ، ومن الأشجار هياكل ذهبية براقة ، عندئذ يصيح السيد سوفاج : « ياله من منظر خلاب !.. » .

ولا حاجة لهما فى المزيد لتفاهما وتوادا ، ويقدر كل منهما صاحبه .

* * *

التقى الصديقان القديمان ، فتصافحا فى حرارة وتأثر ، وسارا جنباً إلى جنب ، لا تنطق أساريرهما إلا عن الحزن والقنوط ، فما أوسع الهوة بين لقاء أمس ولقاء اليوم !..

وغشيا حانة صغيرة من تلك التى تبيع الخمر الرخيصة ، ثم خرجا منها نشوانين مضطربين كمن ملأ بالخمر بطناً خاوياً من الطعام . وكان الجو صحواً ، والنسيم الواني يداعب وجهى صاحبينا . قال سوفاج ، وقد تعاون الجو مع الخمر فى التأثير عليه : ماذا لو ذهبنا ؟...

— إلى أين ؟.

— إلى الصيد .

— ولكن أين ؟.

— فى جزيرتنا . إن طلائع جنودنا تعسكر بالقرب منها والقائد من أصدقائى ، فلا شك أنه سوف يسمح لنا بالمرور...

وتملكت موريسو رغبة قوية قاهرة ، فقال فى رعشة خفيفة : لأذهبن معك ...

واقترة ليأخذ كل منهما معداته ...

ولم تمض ساعتان حتى كانا مستغرقين في الصيد أمام جزيرة مارنت .

وكان الصيد موفقاً ، والأسماك تتسابق إلى السناريتين في نهم عجيب .

وأحس الصيادان بسعادة لا توصف ! وإنها من سعادة تلك التي يحس بها المرء حين يعود إلى هوايته المحبوبة بعد أن حرم منها خلال شهور طويلة !..

ولكن من المرتفعات أتاهما دوى هائل .... دوى هز الأرض كأنه صادر من أعماقها . إنه دوى مدافع البروسيين يرمون باريس بقذائفهم المشئومة ، فيهدمون دياراً كانت عامرة ، ويقضون على حياة كانت حافلة ، ويقوضون صروح آمال وأفراح وأحلام بريئة طاهرة ، ويشقون في قلوب عذارى وفي قلوب زوجات وفي قلوب أمهات أنهاراً من الآلام والأحزان والأوجاع ...

قال سوفاج : إنها الحياة .

فأجابه زميله عابساً : بل قل إنه الموت !..

ولكنهما ، فجأة ، أحسا بدبيب خلفهما ، فالتفتا مذعورين ، وإذ ذاك شاهدا أربعة جنود ... أربعة جنود فارعى الطول مدججين بالأسلحة .. أربعة من البروسيين .

وفي ثوان معدودات ربطت أيدي الصيادين ، ورمى بهما في قعر قارب صغير ، وحملا إلى مسافة غير بعيدة ، حيث وجدا كوخاً تحتله فرقة من البروسيين .

سألهما قائد الفرقة ، وكان ضخم الجثة غزير اللحية : كيف حالكما ؟ ترى هل كان الصيد موفقاً ؟ وعندئذ أتاه جندي يحمل الكيس الذي كان يحوى كل ما صاداه . فأردف قائلاً :

هيه ! إنه لشيء كثير ... ولكنا الآن بصدد موضوع آخر ، فأنصتا إلىّ ولا تخافا شيئاً : لا شك لدىّ في أنكما عينان من عيون الأعداء ، اتخذتما الصيد ستاراً لأغراضكما . والآن وقد وقعتما في يدي فمصيركما الإعدام ، إنها الحرب ... ولكنكما خرجتما من حدود المدافع الأمامية ، فلا بد إذاً وأن تعرفا كلمة السر اللازمة للإياب . فما هي تلك الكلمة ؟ أخبراني بها ، وأنا كفيل بإطلاق سراحكما .

فسكت الصديقان ، وقد وقفا جنباً إلى جنب تعلو وجهيهما صفرة ، وترتعش أيديهما حركة عصبية . قال الضابط : لن يدرى أحد بالأمر . سوف ترجعان والسر خاف في صدريكما . أما إن رفضتما فهو الموت الزؤام . عليكما بالاختيار حالاً ...

فلبثا على حالهما لا يحركان ساكناً ولا ينطقان حرفاً .

قال البروسي مشيراً إلى النهر في هدوء : فكرا قليلاً ... بعد خمس دقائق تكونان في أعماق هذا النهر ... بعد خمس دقائق !.. أليس لكما أسرة تعولانها ؟..

فلم يجبه إلا دوى المدافع فوق المرتفعات .

وجاء رهط من الجنود ، ووقفوا أمام الأسيرين متأبطين بنادقهم .

وصاح الضابط : إني أمنحكما دقيقة واحدة لا غير للتفكير ... هيا أسرعا ...

ثم قام فجأة ، واقترب من مريسو ، وجذبه من ذراعيه وابتعد به مكاناً قصياً ، وقال له في صوت خافت : ألا تخبرني بكلمة السر ؟ لن يعرف صديقك ، سوف أتظاهر بأني أعطف عليك وأشفق ... فلم يجب مريسو .

عندئذ رجع البروسي إلى سوفاج ، وعرض عليه الأمر كما عرضه على صاحبه ، ولكن سوفاج لم يحر جواباً ...

وراح الضابط يكلم جنوده ، فارتفعت فوهات البنادق إلى صدري الرجلين .

وفي هذه اللحظة صادفت عين مريسو كيس السمك الملقى أمامه ، وكان يبرق تحت أشعة الشمس الوهاجة ، فانتاب الصياد ضعف فجائي ، وترقرقت على خده دمعة كبيرة ، وقال : وداعاً سوفاج !..

فأجابه سوفاج : وداعاً ...

وتصافحا ، وقد تملكتهما رعدة قوية قاهرة من أخمص القدم إلى أم الرأس .

ودوت طلقات البنادق ...

وهوى الصديقان ...

وتفرق الجنود ، ثم عادوا بحبال وأحجار ربطوا بها الجثتين ، ثم ألقوا بهما إلى النهر ... واضطرب الماء ، وعلت الأمواج قليلاً ، ثم هدأت ، وعادت إلى سابق عهدها ...

— تلخيص —
محمد عبد الحليم محمود

ألحان !!..

حائرٌ ... مابين يأسٍ مستبدٍ ورجاء
كلما حاولت نسيان عذابي وشقائي
لم أجد إلا غناء الحب .. والحب بلائي
فإذا غنيت لا أعرف لحني من بكائي ...

•••

كل لحنٍ لفظه بِشرٌ .. ومعناه حزينْ
صاغه القلب مليئاً بالدموع والحنين
وغناه بصوتٍ مستكينٍ لا يبين ..
غير أن الحس منه يملأ الكون شجون ...

•••

عندما أرسل من مزماره تلك الأغاني
أسكر الدنيا بسحر من معانيه الحسانِ
فتغنى الطير في الروض .. وفي كل مكان ..
وتغنى الناس في أحلامهم كل الأماني

•••

فترى أوتار قلبي ترسل اللحن شجيًا
كلما مس جماداً صار بالنشوة حيا
فانظر البحر تراه راقص الموج نديا
ونسيم الروض أضحى عاطر الرَّوْح ذكيا

•••

ذلك اللحن وهذا الحزن فيه كلُّ فني
إنه لحنُ غرامٍ ملك الأعصاب مني
وسقاني لذة الآلام كي يَعذُب لحني
فإذا غنيت جاء الكون من لحني يُغني ..؟؟

•••

قد عشقت الحسن حتى صار في قلبي مثاله
عرشه فكري وفي أضلاعي الحرّى خياله
فخيالي عبقٌ منه وفي ذهني جماله ..
وتراه بعد هذا القرب قد عزّ مناله

•••

عجباً للحسن يغريني بمعسول الغناء
فإذا مارسته ولّى وغالى في التنائي
وإذا ناديته راحَ ولم يسمع ندائي
فأنا اليائس منه .. غير أني ذو رجاء ..!

•••

صديقي عندما أدعوك نفسي .. وفؤادي
واعذريني عندما أشكوك من هذا البعاد
واعلمي أنك رمزٌ للهوى بين العباد ..
فإذا أفنيت نفسي فالهوى لحني .. وزادي ..

•••

فاقتلي يأسي وآلامي .. وأبقي لي حياتي
وابعثي آمالي الغرقى من هذا الممات
طال ليلي .. وعذابي وتوالت زفراتي
فاسمعي أغنيتي .. فهي دعائي وصلاتي ..

أحمد محمد صقر

ذكريات إلى الأبد ...!

كأسٌ .. وكأسٌ .. ولست أنسى
يا ساقي الراح .. ضقت نفسا
أرى عذاب الهوى .. دوياً
ومُترعات الكؤوس .. همسا
فأجد الخمر ... أو أرقها
وشوقٌ لي في القبور رمسا
ولا تقل لي : « هنا دواك »
فقد لمست الفناء لمسا !
وما المنايا ...؟ وفي حياتي
أشدُّ من هولها وأقسى !!

محمد محمود مصطفى

من بريد الثقافة

(بقية المنشور على صفحة ٢)

إذا أفق — يا لتعيسة — كذبت
فلم تدب بجهوده — ليقظان
بذلت عمرى لأرفاهــا وأوقظه
فكان سقمى وتعذيبى وحرمانى
فدى لها — لو أباحت — كل ما ملكت
نفسى وما وهبت من حبها الجانى

وهكذا يأبى على أبى شادى وفاؤه العربى العريق إلا أن يفديها بكل ما ملكت نفسه من عز وجاه . ثم نراه ينتقل فى هذه القصيدة ليرسل أدمعه الحرى على فلسطين الشقية البائسة . فيقول :

أنسيت موجع أنراحى وقد عرت
تلك الأنوف الشمخا — الرشيطان
يا ليت لى حظ حكام فأقــدم
فالموت والقتل للأحرار سيان

لله درك يا أبا شادى العظيم — إن مصر التى تركتها مغاضباً لتتمنى أن يعود إلى ثراها ابنها البار بها ليوقع لها ألحان الخلود ... وليكتب لها قصيدة العودة بعد هذه السنوات الطويلة التى قضاها بعيداً عنها فى رحاب أمريكا بلد الحديد والنار ... إن الشباب فى مصر ... ليتطلع إليك فى لهفة المتخبط فى ديجور الحياة ينشد الهادى الذى يهديه الطريق ... بعد أن أفقرت مصر بعدك من الشعر الوثاب المجنح الذى أحييته أنت زماناً ، وكانت (أبولو) تحلق به . فهل ستعود وفى يدك مصابيح الرجاء .. لتعود لواء الشعر ، كما كنت سالفاً ... ليتك تستجيب لدعوة شاعر ضعيف فتعود .

يوسف حسن سند

تحيــــة من نجد

الأستاذ الكبير رئيس تحرير مجلة الثقافة الغراء ...

تحية يعبق أريجها بشذى البيت العتيق أزفها إليكم جزاء ما عملتم وتعملون لبث الأدب بين أوساط المجتمع العربى الحر .

منذ شدوت الأدب كان فأخذى — فى مسالكه الفرعية على — مجلتان مصريتان أخذتا بيدى وبأيدى شباب بلادى إلى الحسن المقبول من شتى البحوث والمقالات ، تلكم المجلتان هما : الثقافة والرسالة ، ولكل منهما عندنا شيعة ومؤيدون .

أما الثقافة فإنا نعى فيها هــذا التشجيع الأدبى الشيق ، فكم أسدت إلى شباب الشعراء وكتاب الشباب من يد بيضاء هى فى الظاهر إلى الأشخاص بيناً هى — فى الحقيقة — مسداة إلى أعماق المجتمع والأجيال القادمة ، وكم قرأنا على هذا من الدلائل !

وهى كذلك تطالعنا بالممتع المفيد فى أبوابها ، فلا شك من قد نرى وما أوردت من التراجم والمعلومات عن طائفة من علماء الغرب وأدباء الشرق — إنا نكبر منها هذا العمل ونستزيدها منه .

هذا وإنى لواثق — أيها الأستاذ الجليل — أن بلادنا ستعود إلى ماضيها المجيد أيام كان من أبنائها : الفرزدق وجرير وعمر بن أبى ربيعة وجميل ، وقبل ذلك : امرؤ القيس وأضرابه ، ولكى يكون لنا هــذا لا بد من العمل ومن معضد يوجهنا إليه ومن أحق بهــذا من مصر — يارعاها الله — لقد أخذت على عاتقها أن تنقذنا من وهدة الجهل وظلماته ، وها هى بسبيل ذلك تواصل العمل فى كل حقل من حقول بلادنا .

(نجد — عنيزة) عبد الله الصالح القالع

مطبـــوعات

وصلتنا فى بريد الثقافة هذا الأسبوع المطبوعات التالية :

- مجلة « رسالة المغرب » ، التى تصدر بمدينة رباط ، العدد ٩٢ — السنة العاشرة .
- مجلة « البصائر » ، العدد ١٣٦ — السنة الرابعة ، وهى مجلة أسبوعية تصدر بالجزائر .
- « المؤتمر » ، جريدة سياسية أدبية أسبوعية تصدر بالفيوم ، العدد ٦٤٠ — السنة الخامسة عشرة .
- نشرة الإذاعة العربية من محطة لندن — برنامج الإذاعة العربية من محطة باريس — نشرة أنباء اليونسكو .
- « النذير » ، مجلة شباب سيدنا محمد ، وهى تصدر فى أول ومنتصف كل شهر عربى بالقاهرة .
- مجلة الهدى النبوى التى تصدرها فى كل شهر عربى جماعة أنصار السنة المحمدية .
- الصحيفة الزراعية الشهرية ، عدد ديسمبر سنة ١٩٥٠ ، وفهرسا المجلدين ٧ و ٨ من تلك الصحيفة .
- مجموعة أعداد من النشرة التى تصدرها إدارة الصحافة بوزارة الخارجية باللغتين الفرنسية والإنجليزية .
- مجلة السينما الثقافية ، وهى مجلة جامعية تصدرها جماعة السينما بجامعة فؤاد الأول بإشراف الدكتور راشد البراوى .

الثقافة

العدد ٦٣٣
١٢ من فبراير ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليما

قالوا

* من ملك استأثر .
* لا يعاب المرء بتأخير حقه وإنما يعاب من أخذ ما ليس له .
* لو رأى العبد الأجل ومصيره لأبغض الأمل وغروره .
(علي بن أبي طالب)
* تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً . (الجاحظ)
* بلوت أمتي بالسيف والكرم فكان الكرم فيها أنجع .
(الخليفة المأمون)
* ليست السعادة في قناعة الجهل ، بل في قناعة العلم .
(أبو شادي)
* علم الفتى في غير موضعه جهل . (القيرواني)
* إن الدموع هي السلاح الوحيد الذي تدافع به المرأة عن نفسها . (المنفلوطي)
* الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن .
(عمر بن الخطاب)
* إن الله ليعجب من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل .
(ابن الأثير)
* إن أهل مصر كغيرهم من سكان كل صقع وقطر ، يقبلون اليد التي لا يستطيعون بترها حتى تمكنهم الفرصة من بترها ، ثم إن الناس في كل زمان ومكان عبيد المال وعبيد الإحسان . (عبد اللطيف حمزة)
* الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر .
(علي بن أبي طالب)

جمعها : محمد شريف البقلي

إنما الروح نفحة من إلهي ...

[إلى مجلة الثقافة خاصة]

جُزت بالنهر في ظلال الوادي
فإذا الماء خفقةٌ من فؤادي
هو يجري إلى مكانٍ بعيدٍ
من قديم الأدهار والآمادِ
قطرةٌ إثر قطرةٍ إثر أخرى
كاتصال الآزال بالآباد
فإلى أين أيها النهر تجري
ومتى تستقر بعد الجهاد

• • •

ودخلت الرياض ذات صباح
فإذا الزهر فتنة الأنظار
هو ينمو مع الربيع وزهو
ثم يسري مع النسيم الساري
زهرةٌ إثر زهرةٍ إثر أخرى
كتوالي الآصال والأسحار
فإلى أين أيها الزهر تسري
بين طي الدجى ونشر النهار !

• • •

قطرات الأنهار تأتي وتمضي
مثل جسم يطوي الحياة ويشقى
زهرات الرياض كالجسم تزهو
ثم تذوي ولا تعود فتبقى
إنما الروح نفحة من إلهي
تتبقى وإن ذوت تتنقى
إن روحي من قطرة الماء أصفى
إن روحي من زهرة الروض أبقى !

(بيروت) حليم دموس

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٣٣ — الاثنين ٦ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٠ — ١٢ من فبراير سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

شرق وغرب

للدكتور حسين مؤنس

من الواضح جداً أن هناك شرقاً وغرباً ، وأن هناك فارقاً بيّناً محسوساً بين كل ما هو شرقي وكل ما هو غربي : الرجل الشرقي يختلف عن الرجل الغربي ، والمرأة الشرقية خلاف المرأة الغربية ، والحضارة الغربية شيء يختلف عن الحضارة الشرقية جملة وتفصيلاً ، وقد تختلف الفوارق بين هذين العالمين ظهوراً وخفاء ، وقد ينكرها من يحسب أن إنكارها يدخل في دعوى السلام ، والأخوّة بين البشر ؛ وقد يهوّن من شأنها اختلاط الأمم وتداخل الوشائج بينها في هذه العصور الحديثة ، ولكنها قائمة مدركة يشعر بها الشرقيون والغربيون ، ولا يستطيع تجاهلها أشد الناس إيماناً بالإنسانية الشاملة ؛ إنها باقية محسوسة تعمل عملها في سكون حيناً وفي صخب حيناً ...

وربما كان الغربيون أشد إحساساً منا بهذه الناحية ؛ فما من كتاب غربي في التاريخ العام تقرؤه ، وما من وصف رحلة إلى بلاد الشرق تقع عليها عينك ، وما من صحيفة غربية تتحدث عما تسميه مشاكل الشرق ، بل ما من رجل غربي تجلس إليه إلا أحسست بأنه يشعر شعوراً مستمراً بأنه غربي ، وبأن هناك فروقاً لا يمكن إنكارها بينه وبينك ، أنت الشرقي ، وقد يحاول أن يتظاهر بأنه لا يشعر بها ، أو قد يجتهد في التهوين من شأنها ، ولكنك — مهما كان الأمر — تدرك تماماً أنها قائمة ، وأنها تقوم كالحائل بينك وبينه ، وأنك تشعر بها من ناحيتك كما يشعر هو بها من ناحيته .

وليس من الضروري أن يصحب هذا الإحساس شعور بأنه أفضل ، أو أعلى مرتبة ، وليس من الضروري كذلك أن يجعلنا نشعر أننا خير أو أرقى منهم ، وإنما المهم أن الفارق قائم ، وأنه محسوس به من الجانبين .

وقد كان جهدنا منذ مطالع العصر الحديث منصرفاً في الشرق والغرب نحو إزالة هذه الفوارق بين العالمين ، فتظاهر الغرب بأنه يفتح ذراعيه لنا مرحباً ، وسعينا نحن إليه في همة حيناً وفتور حيناً حتى أحسسنا في بعض الأحيان أننا انتقلنا من الشرق إلى الغرب ، أو أننا على الأقل أزلنا الحوائل والموانع ، فلم يعد هناك شرق وغرب ، بل عالم واحد ، وخيل إلينا أن كل ما يصلح للغربيين إنما يصلح لنا ، فأخذنا من قواعد السياسة ونظم المجتمع ومعاني الحياة ما قدرنا عليه : أخذنا نظم الدولة ، وقواعد التربية ، ومواد القانون ، ومظاهر تنظيم المدن ، وأشراط الصحة العامة ، وسبل المواصلات وأساليب التفكير ، وأقبلنا على لغات الغرب

ندرسها ونتعمقها حتى بدت بعض نواح من بلادنا فى « مظهر » غربى ، وأسرف بعضنا فى التفاؤل فزعم لنفسه ولغيره أن الخبر أيضاً صار غربياً ، ولكننا تنبهنا بعد طول العناء إلى أننا لا زلنا شرقيين فى الصميم ، وأن عرق الشرق ينبض فى نفوسنا ويردنا إلى أصلنا على رغم محاولاتنا : فالمدرسة المصرية الحديثة على رغم ما بذل من جهود فى سبيل النهوض بها تكشفت آخر الأمر عن الكتاب القديم فى روحها وطريقة التعليم فيها ، وإدارات الدولة الحديثة ليست آخر الأمر إلا دواوين الشرق القديمة . وإنك لتشعر إذا أقبلت على مكتب مدير مصرى كأنك فى دار الوزير العباسى على بن عيسى الذى كان ينقل أوراق الدولة وملفاتها إلى بيته ويكدسها فى غرفته ، ويجلس بينها وبين يديه كاتبه أو كتابه ، ويدخل الناس جماعات جماعات ، يتحدثون إليه ويساعدونه وهو يملى ويوقع ويقرر ويصادر أموال الناس ، أو يمنح أصدقاءه ومادحيه آلاف الدراهم أو الدنانير ! لا زال المدير المصرى الحديث هو الكاتب العباسى القديم رغم المكتب الحديث وآلة التليفون والبذلة الأوربية والرطانة الأفرنجية ، ولا زال العمل يجرى بين يديه بنفس البطء القديم والإهمال القديم والاستهتار القديم ، لا زال العمل يجرى من ساعة لساعة : لا يُعمل اليوم إلا ما تمس إليه الحاجة القصوى ، ولا يُهتم بأمر إلا إذا لم يكن من إنجازه مهرب ، ولا زالت الفوضى تضرب بجرانها على كل شىء : تدخل غرف الملفات فتجدها أكداساً فوق بعض ، ولا بد لك من ساعات حتى تعثر على ما تريد ! مع أنها إنما وجدت لتيسير البحث ، ولا زالت الأرقام والبيانات شيئاً ثانوياً يعطى على وجه التقريب لا على وجه التحديد ، ولا زالت ساعات العمل كما كانت فى الماضى : يتهادى الناس إلى مكاتبهم على هينة ويعملون فى راحة ، وينصرفون دون أن يفكروا فيما صنعوا وما لم يصنعوا ، لا يخيفهم تأخر ولا ترهبهم مسئولية ، لأن النفوس مازالت شرقية ، والقلوب ما زالت راقدة مع القرون الخوالى ، والزمان يمضى متمهلاً لا يعرف العجلة ، والعجلة من الندامة كما يقولون .

فإذا تخطيت الظاهر ومضيت تبحث فى الأعماق ، وجدت الشرق راقداً على حاله ، وسواء أكنت فى مصر أم فى الشام أم فى بلاد العرب فالحال واحد ، ولكننا فى الهم شرق كما يقول شوقى : مجتمع فقير تعيس لا يظفر الإنسان فيه بما يُسعد ، وأسر مهدمة متهاوية كثيرة العيال قليلة الوارد ، تعيش فى بيوت لا أثر للنعمة فيها ، وتسكن مدناً هى أقرب إلى القرى ، وقرى هى أقرب إلى الخرائب ، لا تعرف الماء المصفى ولا تدرك ما هو الطعام النظيف ، أيامهم متشابهة ولياليهم تنقضى فى ظلام ، لا يسيرون مع الزمن ، وإنما تمضى بهم الأيام كما تريد ، لا يشعرون بالحاضر لأنه فى حسابهم ماض تلكأ فى طريقه ، ولا يشعرون بالمستقبل ، لأن الغد بيد الله والتطلع إليه لا يجدى ... وإنه ليس مجرد مصادفة أنك تجد الزمان فى نحو اللغات السامية ينقسم إلى ماض ومضارع فحسب . أما المستقبل فمضارع تضيف إليه السين أو سوف ، وهما فى إحساس الشرق حرفان يوحيان إلى النفس معنى التشكك وعدم اليقين ..

وبعيداً عن هذا العالم الشرقى السابح فى الأزل السرمدى تجد العالم الغربى يعيش على الأرض : يفكر أهله فى كل شىء تفكيراً طويلاً ، ويحسبون لكل شىء حساباً عسيراً ، لا ينامون الليل إلا إذا اطمأنوا إلى الغد ، ولا يدعون شيئاً يمكن عمله إلا عملوه ، درسوا الأرض وما عليها ، والبحار وما فيها ، وصعدوا فى السماوات حتى كادوا يدركون القمر ، ومضوا فى كل ميدان من ميادين النشاط البشرى أشواطاً لا نكاد ندركها لبعد مداها ، وقد يحاول بعضنا أن يقلل من أهمية هذه الأشواط التى قطعها الغرب ، فيزعم أنها كلها فى نواحى الماديات ! وهذه مغالطة ظاهرة ، فقد بلغ الغرب فى ميادين الروحيات أبعد من مدانا بكثير ، حتى الفلسفة والتصوف والتفكير الخالص ، وصلوا فيها إلى أضعاف ما وصلنا ؛ وأين فلسفتنا كلها من فلسفة رجل واحد مثل كانت ، وأين ما وصلنا إليه فى العصور الوسطى فى ميادين

التصوف مما وصلوا إليه هم في نفس الميادين ! لقد قسموا التصوف إلى علوم ومذاهب ودراسات ، في حين لم نزد نحن فيه على اعتباره ميداناً للشطحات والخيالات والفتوحات الربانية .

ولو أنك أردت أن توجز الفروق بين العالمين الشرقي والغربي في عبارة بسيطة ، لقلت إنه اختلاف في السرعة واختلاف في نوع العمل وطريقته ..

فأما من ناحية السرعة فلا خلاف في أن الأوربي يجري مع الزمن ، في حين أننا نستمهله ونبطىء حتى نتركه يجري ، ونحن لا نستطيع مجاراته في هذه السرعة ، لأنها ترتبط آخر الأمر بالمزاج والطبع . إن مزاج الغربي فياض بالحيوية ، لا يطيق الراحة ولا يستسيغها ، وقد ترى هذا في طبعه بتأثير البيئة الجغرافية التي نشأ فيها ، وأنت إذا نظرت إلى أوربي يعمل للاحظت الفرق بوضوح . فهو يعمل لأن العمل في طبعه والسكون لا يوافق هذا الطبع ، بخلاف الشرقي تماماً ، فالعمل يؤذي طبعه ويؤلمه ، ومن ثم فهو لا يعمل إلا تحت الضغط والحاجة الماسة .

وأما من ناحية نوع العمل فقد تعود الأوربي أن يتقن كل شيء ؛ إذا بنى كوخاً فلا بد أن يكون محكماً لا ينفذ فيه الماء، ولا ينهار تحت الثلج المتساقط ، وإذا سعى لرزقه فلا بد أن يحصل مقداراً ضخماً من القوت حتى يستطيع أن يعيش . أما الشرقي فرجل هين لين ، جوه رقيق وأرضه خصبة تنتج بأقل مجهود ، ومن ثم فهو لم يجد نفسه مضطراً إلى إرهاق نفسه ، ولم يدرك الفرق بين العمل المتقن وغير المتقن . فأي كوخ يبنيه من البوص يكفيه ، وأي طعام يدرأ عنه خطر الموت من الجوع ، ومن هنا فهو لا يدرك معنى العمل المتقن وأهميته كما يدركهما الغربي ، فكان عمله لذلك دائماً غير متقن أو مضبوط ، وكان نوع عمله أقل قيمة من نوع عمل الغربي . وقد كنت أتحدث ذات مرة مع مدير أوربي يشرف على مشروع ضخم في مصر، فقال لي إن نوع العمل الذي ينتجه العامل الأوربي يعادل خمسة أضعاف نوع عمل المصري ، أي أن عاملاً أوربياً ينهض بما ينهض به خمسة من الشرقيين ، وأثبت لي ذلك بالإحصائيات .

وأينما وجهت نظرك وجدت الفروق قائمة بين الجانبين : فروق في النظرة إلى الحياة والطاقة العملية والخصائص عامة . فأما من حيث النظرة إلى الحياة فالشرقي ينظر إليها على أنها شيء خارج عن طاقته وأنه خاضع لما تمليه عليه ، مُسيَّر في تيارها ، في حين أن الغربي يشعر أنه سيد الحياة ولا يستريح إلا إذا سيطر عليها وأمسك زمامها بيده ؛ ومن ثم فهو لا يدع المقادير تتصرف فيه إلا بالقدر الذي يخرج عن طاقته ، ولا يستسلم للقدر إلا مرغماً ؛ في حين أن الشرقي يستسلم له في لذة . وأما من حيث الطاقة العملية فالغربي صبور طويل الاحتمال ، لا يزال يحاول الأمر مرة بعد مرة حتى ينقاد له ، وإذا عول على أمر فلا بد أن يبلغه أو يهلك دونه ، وكلما أوغل الغربي في الغربية ظهرت فيه هذه الخاصة بصورة أقوى ، فعند الغربيين من أهل الشمال تستوي الحياة وإدراك الأماني ، ويستوي الموت والفشل ، ومن ثم فهم أسرع الناس إلى الانتحار ، لا عن خور ويأس ، بل لأن الحياة لا معنى لها في نظرهم إلا بما يتحقق خلالها من آمال .

هناك إذاً شرق وغرب ، هناك رجل شرقي ورجل غربي ، لا تستطيع أن تجد الفواصل بينهما في تحديدات الجغرافية أو فلسفات الفلاسفة ، وإنما تعرفها حينما تدرس طبائع الناس ، وتنتهي من بحثك إلى ما انتهيتُ إليه في هذه الأسطر . ولست أريد أن أقول إن الشرقي أفضل من الغربي أو إن الغربي أفضل من الشرقي ، فهذا موضوع آخر ، وإنما الذي أريد أن أقوله هو أن هناك نوعاً من البشر يسكن الشرق ونوعاً آخر منهم يسكن الغرب ؛ ولن تستطيع مهما فعلت أن تحيل نوعاً إلى نوع إلا إذا كنت ممن لا يزالون ينظرون إلى الدنيا نظرة كيميائي القرون الوسطى إلى صنعته ، فقد قضى مئات السنين يظن أنه مستطيع تحويل النحاس إلى ذهب ، وعبرت به الأدهار ، والنحاس لا يزال نحاساً .

حسين مؤنس

مقومات الشعر الانجليزى الحديث

— ١ —

للدكتور رشاد رشدى

من الحقائق المعروفة أن الأدب الإنجليزى فى القرن العشرين أغنى بالشعراء المبدعين منه فى أى فترة سابقة فى تاريخه منذ أوائل القرن السابع عشر ، على أن الكثيرين من الناس يعرضون عن قراءة الشعر الحديث والاقبال عليه متعللين فى ذلك بأمرين : غموضه وبعده عن روح الشعر ؛ فلذلك يجدر بنا قبل أن نتعرض لمميزات الشعر الحديث أن نحاول شرح الأسباب التى يبدو هذا الشعر من أجلها غامضاً أو غير شاعرى فى مجموعه .

فالغموض الذى يراه الكثيرون من الشعراء فى الشعر الحديث يرجع إلى صعوبته ، ولكن الصعوبة قد تعنى فى الأثر الفنى قدراً كبيراً من الجد أو من الجمال ، ولذلك فنحن قد نفقد الشىء الكثير لو سمحنا لأنفسنا بالانحراف عنه نتيجة لصعوبته ، والقصيدة التى تبدو غامضة فى أول الأمر قد تثبت لنا — بعد أن نوالى محاولة فهمها — مليئة بكنوز تصبح ملكاً لنا طوال الحياة بمجرد أن ندركها ؛ ومن الوسائل الشائعة الآن بين الشعراء والنقاد على حد سواء للتغلب على ما قد يبدو لبعض الشعراء من صعوبة فى الشعر الحديث التوصية بقراءته بصوت مرتفع ، بهذا أوصى كبار الشعراء أمثال Lenard Manley Hopkins و W. B. Keats و T.S. Eliot ولكن حتى أصحاب المدرسة المعارضة الذين يعتقدون أن بعض معانى الشعر قد تضيع بين أنغامه ، حتى هؤلاء يرون أن القصيدة الصعبة عندما تقرأ بصوت مرتفع تتكشف عن وحدة متصلة متناسقة بعد أن كانت تبدو كمجموعة من الألفاظ والعبارات المتراصة التى لا صلة بينها ؛ بهذا تقول الشاعرة المعاصرة Laura Ridign وهى التى تعارض دائماً فى وجوب قراءة الشعر بصوت مرتفع ، ولكن سواء قرأنا الشعر الحديث بصوت مرتفع أو بغير صوت على الإطلاق ، فإنه من المحقق أن هذه الصعوبة التى قد تبدو لنا فى أول الأمر ، ستتلاشى بعد حين عندما نعتاد قراءته ، فنحن نعلم أن السرعة التى نقرأ بها كاتباً جديداً علينا تزداد بل قد تتضاعف بعد قراءتنا للمائة صفحة الأولى منه ، إذ نصبح أكثر ألفة به ومعرفة بأسلوبه ، ولست أعنى بالأسلوب هنا مجرد طريقته فى صياغة عباراته وانتقاء ألفاظه ، بل الشكل أو الـ pattern الذى تنتظم فيه أفكاره وألفاظه معاً والذى يتكرر ويتكرر حتى يصبح مألوفاً لدى القارىء ومميزاً للكاتب ، والشعر الحديث يتميز أكثر ما يتميز بطابع أو pattern خاص يختلف عن الطابع الذى اتخذه الشعر فى أى عصر مضى ، وقد يبدو هذا أمراً مألوفاً لأن كل عصر له طابعه الخاص كما نعلم حتى إن بعض الجامعات الإنجليزية وعلى رأسها جامعة اكسفورد تمتحن الطلاب فى الشعر بأن تعرض عليهم مقطوعات شعرية لشعراء من عصور مختلفة تخفى أسماءهم وتطلب من الطلبة أن ينسبوا كل مقطوعة إلى عصرها ؛ شعر كل عصر إذاً له طابعه الذى يميزه — ولكن شعر العصر الحديث يختلف فى طابعه اختلافاً بيناً قوياً عن كل ما سبقه ، كما سنحاول أن نبين فيما بعد ، ولذلك كان من الصعب على القارىء الذى لم يعود نفسه على هذا الشعر تعويداً كافياً أن يتذوقه أو يفهمه لأول وهلة ، ولذلك أيضاً كان أكثر المعاصرين تحاملاً على الشعر الحديث هم أقلهم دراية به ؛ والواقع أن الشعر الحديث فن لا يكشف عن نفسه إلا لمن تعلم قراءته ، الأمر الذى يتطلب من الجهد والمهارة قدراً لا يقل كثيراً عما تتطلبه كتابة هذا الشعر . أذكر أنى قصدت مرة إلى بائع كتب شيخ على مقربة من المتحف البريطانى فى لندن أبتغى شراء مجموعات من الشعر الحديث فلما عرفته برغبتى ، نظر إلى متفحصاً وقال : ولا أحسبك واجداً الكثير مما تبتغى على أرفف مكتبتى ، ولكن عندى من كتب الشعر ما يوازى الواحد منها كل الشعراء المعاصرين معاً . قلت باسماً : مثل ؟ قال : كيتس أو حتى

شلل . قلت : كلاهما عظيم ، ولكني أبتغي شعراً حديثاً . قال : « إذا كنت طالباً تدرس فما أحسب هذا الهراء الحديث جديراً بالدراسة ، وإذا كنت تبغي المتعة الفكرية فلن يصيبك إلا صداع الرأس من شعرنا الحديث ، إن هؤلاء الذين يسمون أنفسهم شعراء اليوم لا يدركون ما هو الشعر ، بل ولا يدركون حتى ما يقولون » . قلت : مثل ؟ قال مردداً : « مثل ما ذا تعني » قلت : « أعني مثل من من شعراء اليوم ؟ » ، فقال ملوحاً بيده : « إنه — إنهم جميعاً سواء — أنظن أني أكلف نفسي عناء تذكر أسمائهم أو حتى قراءة سخافات ما يكتبون ؟ لا يا بني — إني شاعر نفسي — وساعة أقضيها مع وردزورث أو كيتس لهي أجدى عليّ من كل هؤلاء » .

وصاحب المكتبة الشيخ هذا هو مثال التحامل الذي جاء نتيجة لعدم الرغبة في التعرف إلى الشعر الحديث أو الاعتراف به لأن تراث الماضي قد تمكن من نفسه إلى درجة أصبحت تخاف معها كل ما هو جديد فتصد عنه لأنها دائماً تقيسه لا بمقاييسه الذاتية الخاصة به بل بمقاييس غيره ؛ والواقع أننا لكي نستمتع بقصيدة ما ، يجب أن نكون دائماً على استعداد لأن نتقبلها كما تأتينا بعقول خالصة لا تقيم الحواجز الصناعية في سبيلها ، بل تسلم نفسها إليها ترحب بهذه الذات الجديدة التي ترغب في التعرف إليها ومصاحبتها ، بل وفي الامتزاج بها ؛ ومن أجمل ما أذكر بهذه المناسبة قصيدة الشاعر المعاصر (تشارلز مادج Charles Madje) يتحدث فيها عن الانطلاق الشعوري الذي يحس به القارئ عندما يقرأ القصيدة فلا يتمشى معها فحسب ، بل ويعدو بأقصى سرعته فيلحق بها هنا وهناك ، وفي كل مكان يبدأ جريه معها ويقف حيث تقف وينطلق حيث تنطلق لا ينفصل عنها لحظة ، فهو دائم الحركة لأنها هي أيضاً دائمة الحركة ، وهو بذلك يجعلها تصبح جزءاً من ذاته إن أراد .

أما عن تعلل بعض القراء لعدم الفهم عن الشعر الحديث بأنه بعيد عن روح الشعر في مجموعه ، فهذا يرجع إلى أن موضوع الشعر قد اتسع في العصر الحديث — فكل ما في الحياة يصلح مادة للشعر — المقهى في ساعة الغداء ، وامرأة يراها الشاعر في محط الترام ، وحجرته التي يقطنها في الطابق الخامس أو السادس في عمارة مزدحمة من عمارات لندن ، وخطاب أتاه من صديق له ، ورحلة له فاشلة مع صديقته .

ولعل التنوع المطلق في الموضوعات التي يعالجها الشعر الإنجليزي اليوم هو أكبر مميز لهذا الشعر — فقد تميزت الفترات السابقة في تاريخ الشعر الإنجليزي ، كل منها بصبغة غالبة في انتقاء الموضوعات الشاعرية . أما الآن فإن الشاعر يستمتع بحرية مطلقة في اختيار موضوعاته ، وقد جاءت هذه الحرية المطلقة كنتيجة لاتساع الآفاق المادية والروحية اتساعاً لم تشهده الحضارة الأوروبية من قبل — بعد تقدم العلوم الطبيعية وما أتت به من مخترعات ، وبعد نشأة علم النفس ، وبعد قيام الحربين العالميتين الأخيرتين ، وما سببت كل منهما من اضطراب دهني بعيد المدى ؛ أضف إلى ذلك عاملاً آخر كان له أثره الملحوظ ، وأعني به انهيار الفلسفة المادية التي كان يدين بها القرن التاسع عشر ، وما كانت تقوم عليه هذه الفلسفة من إيمان لا يتزعزع بالتقدم — وهي فلسفة كان من شأنها أن توجه التفكير وجهة واحدة ، وتفرض بذلك شيئاً غير قليل من القيود على الخيال — وهي القيود التي لم يستطع حتى الشعراء أنفسهم أن يتخلصوا منها . فانهيار هذه الفلسفة بقيودها قد فتح للذهن آفاقاً جديدة ، وأضفى على الحياة الفكرية حرية لم تعهدها من قبل ، وأطلق خيال الشعراء إطلاقاً لم يكن متيسراً على الأقل في إبان القرن التاسع عشر ؛ فتنوعت المواضيع التي يعالجونها تنوعاً كبيراً ، حتى أصبحت تشمل كل ما يمكن أن يقال أو يكتب ، أو حتى ما يمر بالذهن مروراً سريعاً .

وقد اقترن هذا التنوع في مواضيع الشعر بتنوع مماثل في لغته ؛ فتحررت في كثير من الأحيان من الوزن والقافية وانتشر ما يسمونه Vers libre أو الشعر الحر — على أن أميز ما تمتاز به لغة الشعر الآن — هو في رأيي — الأثر الذي تركته نظريات علم النفس الحديثة فيها ، مثلما تركت في الأسلوب الأدبي عامة . فالشعر الحديث — كالرواية الحديثة — يهتم بما يسمونه في علم النفس (اللحظة السيكولوجية) . فهو ينكر وجود الشخصية ، ويعتبر الحياة سلسلة من اللحظات المنفصلة التي لا يربط بينها شيء — لكل منها ظروفها الخاصة بها ، ولا علاقة بينها إلا كونها قطرات في مجرى الشعور ؛ ولما كان الشعر الحديث يحاول في كثير من الأحيان أن يصور هذه اللحظات السيكولوجية التي تتكون منها الحياة ، كانت لغته تبدو مجرد عدة ألفاظ متراصة

البقية على الصفحة التالية

الإســــــكندرية

فى القرن التاسع الهجرى (١٥ م)

الدكتور جمال الدين الشيال

فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، وفى سنة ٧٦٧ (١٣٥٦) على وجه التحديد — أغار بطرس الأول لوزنيان ملك قبرص فى أسطول ضخم على مدينة الإسكندرية ، واستطاع هـذا الملك أن ينزل بجنوده إلى البر وأن يقتحم أبواب المدينة ويدخلها بعد مقاومة ضئيلة ، ولم يستطع حاكم المدينة — لأسباب كثيرة لا داعى لشرحها هنا — أن يصمد لمقاومة الفارسة ففر إلى دمنهور ، وفر معه من استطاع النجاة بنفسه من الجند والأهلين ، ودخل الصليبيون المدينة فقتلوا معظم من بها وأسروا الباقين وخربوا المدينة تخريباً تاماً وهدموا دورها وقصورها وفنادقها ومتاجرها ، ونقلوا هذا كله إلى سفنهم ، ولم ينقذ المدينة إلا اختلاف دب بين رجال الحملة فقرروا مغادرة الإسكندرية والعودة إلى جزيرتهم بعد أن قضوا بالمدينة أربعة أيام لم ينوا فى خلالها من التخريب والتدمير والنهب والسلب .

ويبدو أن هذه الوقعة كانت بالغة الأثر فى المدينة وأحوالها وتاريخها فيما بعد ، يؤكد هذه الحقيقة المؤرخ المعروف تقى الدين المقريزى فى قوله : « فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث ، ومنها اختلت

بعضها إلى جانب البعض ليس بينها صلة واضحة ، لأن إحساسات الشاعر نفسه آتية على هذا الشكل ! فهو يريد أن يصورها كما تمثلت له .

إذا أضفنا إلى هذا وجود كثير من الألفاظ المتعلقة بالآلة والصناعة وغيرها من مظاهر الحياة الحديثة فى لغة الشعر استطعنا أن ندرك شيئاً من الأسباب التى تدعو بعض القراء إلى اتهامه بالبعد عن روح الشعر — فالموضوعات قد تنوعت حتى شملت كل شىء — نوع اللحم الذى تناوله الشاعر فى العشاء وجوارب المرأة التى رآها فى قطار تحت الأرض فى الصباح . واللغة — فى تأثرها بآراء علم النفس — تبدو متفككة — بل ممزقة لا روى فيها ولا انتظام — وهى كذلك تستخدم من الألفاظ الشىء الكثير مما يستعمل فى الصنع أو العمل ، والأمثلة على ذلك كثيرة أكتفى بأن أسوق منها

iron implements' magnetic apparatius Eranes', the shriek of brakes', 'peering Dr. Les tungs-style needles, 'hypodermic syringes.'

ليس غريبا إذاً أن يتساءل بعض القراء اليوم — وسط كل هذا التنوع — ووسط كل هذا الجديد غير المألوف فى لغة الشعر وموضوعه — أين شعر الطبيعة الذى كان يكتبه (وردزورث) ؟ وأين شعر الحب الذى كان يكتبه شلى ؟ وأين بيرون وأين كيتس — وأخيراً وأين شعراء اليوم من هؤلاء العباقرة ؟ والواقع أن هذه الرغبة فى الموازنة خاطئة — فلكل عصر فنه الذى ينتجه كما تنتج الشجرة ثمرها ، لا يفرض عليه أو يأتيه من الخارج ، بل هو خلق حى عضوى — يأتى من الداخل — تعبيراً صادقاً عن مجموع التيارات والخبرات العامة التى يتكون منها العصر — ولكن ليس معنى هذا أن الصلة بين الشعر الحديث وما خلفته العصور الماضية من تراث شاعرى قد انقطعت ؛ فنحن لا نستطيع أن نقول بهذا أكثر مما نستطيع أن نقول بأنه لا علاقة بين القرن العشرين مثلا وما سبقه من قرون فى تاريخ البشرية أو حضارتها — فإنه برغم تنوع موضوعات الشعر الحديث واختلاف الكثير منها عما سبق فإن العواطف الأساسية ، أو على الأصح القوة العاطفية التى تكمن وراء الشعر مازالت تربط بين الجديد والقديم وإن كانت قد اتخذت فى أكثر الأحيان مظاهر جديدة مختلفة عما سبق .

(البحث بقية)

رشاد رشدى

أحوالها واتضع أهلها وقلت أموالهم وزالت نعمهم » .

وساعد على تأخر المدينة فى القرن التاسع — وهو آخر قرن حكم فيه المماليك مصر — أن هذا القرن لم يشهد من السلاطين العظاء المصلحين إلا عدداً قليلاً جداً ، لهذا نلاحظ أن عناية هؤلاء السلاطين بالإسكندرية كانت قليلة ، فلم يزرها أو يلحظها بعنايته إلا ثلاثة منهم ؛ أولهم الناصر فرج ابن برقوق ، وقد زارها فى سنة ٨١٤ (١٤١١) فأوكب بها موكباً حافلاً ، « وحُملت القبة والطير على رأسه ، ومما وقع له أنه لما شق من مدينة الإسكندرية وقف له بعض تجار المغاربة بقصة يشكو فيها من جور القبّاض ، فلما قرأ تلك القصة رسم بإبطال ما كان يؤخذ منهم من المكوس المحدثة ، وكُتب لهم بذلك مرسوم شريف ، فارتفعت الأصوات بالدعاء » .

وفى سنة ٨٢٦ (١٤٢٢) عنى الأشرف برسباى بإعادة حفر الخليج الناصرى الذى كان يمد المدينة بالماء الحلو ، وكانت قد طمرته الرمال وتعطلت السفن عن السير فيه .

وفى أواخر القرن التاسع ، فى سنة ٨٨٢ (١٤٧٧) عنى السلطان الأشرف قايتباى بالإسكندرية عناية خاصة ، فزارها فى تلك السنة ، واحتفلت المدينة بمقدمه احتفالاً عظيماً ، وقد وصف هذه الزيارة المؤرخ المصرى ابن إياس ، فذكر أن السلطان « شق المدينة فى الموكب الحافل ، وكان له يوم مشهود ، ثم إن بعض تجار الفرنج نثر على رأسه ألف بندق ذهب ، فتزاحمت عليه المماليك يلتقطون ذلك الذهب من الأرض ، فكاد السلطان أن يسقط عن ظهر فرسه من شدة ازدحام الناس حتى أدركه الأمير تمراز وبيده عصا ، فضرب الناس حتى خلص السلطان ، ومشى واستمر فى ذلك حتى خرج من باب البحر الذى هناك ، فنزل بالمخيم الذى نصب له على ساحل البحر الملح .. » .

وأهم ما ورد فى وصف ابن إياس بعد ذلك أن المنار القديم كان قد ناله ما نال المدينة نفسها من إهمال ، فتهدمت أركانه ، وتشعث بنيانه تماماً ، فأمر الأشرف قايتباى فى قدمته هذه أن يُبنى مكانه برج جديد هو ما عرف فيما بعد ببرج قايتباى ، ثم طابية قايتباى ، التى لا تزال قائمة حتى اليوم ؛ قال ابن إياس إعلاما لوصفه : « ثم إنه توجه نحو المنار القديم الذى كان بثغر الإسكندرية ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برج ، فبنى به برجا عظيما وهو الموجود الآن » .

وبعد سنتين من هذه الزيارة تم بناء هذا البرج ، فرحل قايتباى إلى الإسكندرية لمشاهدته ومشاهدة برج آخر بناه فى رشيد ، وقد روى أخبار هذه الزيارة أيضاً ابن إياس ؛ قال : « وكان سفر السلطان إلى الإسكندرية فى هذه المرة لأجل البرج الذى أنشأه هناك ، وقد انتهى العمل فيه ، فتوجه إليه ليرى هيئته .. ثم توجه إلى رشيد وكشف عن البرج الذى أنشأه هناك بها ، ثم كشف عن البرج الذى أنشأه بثغر الإسكندرية مكان المنار القديم ، فجاء من محاسن الزمان ومن أعظم الأبنية وأجمل الآثار الحسنة » ، ثم استطرد بعد هذا فوصف هذا البرج فى شىء من التفصيل ؛ قال : « وقيل إن صفة بنيان هذا البرج أن دهليزه عقد على قناطر فى البحر الملح من الساحل حتى ينتهى إلى البرج ، وأنشأ بهذا البرج مقعداً مطلاً على البحر ينظر منه من مسيرة يوم إلى المراكب وهى داخلة إلى المينا ، وجعل بهذا البرج جامعاً بخطبة ، وطاحوناً ، وفرناً ، وحواصل ، وشحنها بالسلاح ، وجعل حول هذا البرج مكاحل معمرة بالمدافع ليلاً ونهاراً ، لئلا تطرق الإفرنج الثغر على حين غفلة ، وجعل بها جماعة من المجاهدين قاطنين به دائماً ، وأجرى عليه الجوامك والرواتب فى كل شهر ، وجعل شاداً من خواصه وهو باش عليهم ... وقيل إن السلطان صرف على بناء هذا البرج زيادة عن المائة ألف دينار ، وأوقف عليه الأوقاف الجليلة ، وجاء من أحسن الآثار ... » .

ورغم هذه العناية التى بذلها قايتباى لتحصين المدينة ، ورغم هذه الأموال التى صرفها لبناء هذا البرج فإنه لم يلحظ هو ومن تبعه من السلاطين شئون المدينة العمرانية والاقتصادية بعناية مماثلة ، فظلت أحوالها فى تقهقر وأمورها فى تأخر .

وفى صحوة الموت ، والدولة المملوكية فى مصر توشك أن تنهار ، أدرك السلطان الغورى ما للإسكندرية من خطورة وأهمية فى الدفاع عن مصر ، وخاصة أن خطراً

جديداً كان يلوح في الأفق وقتئذ ، وهو خطر الدولة الإسلامية الفتية الناشئة ، دولة الأتراك العثمانيين .

وبدأ الغوري في أوائل سنة ٩١٦ (١٥١٠) يفكر في الذهاب إلى الإسكندرية للإشراف على أبراجها وحصونها وإصلاح ما فسد منها ، غير أن الوقت كان وقت فيضان النيل والسفر براً إلى الإسكندرية عسير ، فسافر بالنيابة عنه أحد أمرائه ، ولبث الغوري ينتظر حتى ينتهي موسم الفيضان ، وهو لا ينى عن التفكير في الإعداد لهذه الرحلة ، ومما اتخذه في هذا الشأن أن ذهب في تاسع عشر شعبان سنة ٩١٦ إلى المطرية ، « وكان المعلم حسن بن الصياد المهندس خط له بالجبس في الأرض صفة مدينة ثغر الإسكندرية وعدد أبراجها وأبوابها ، وهيئة سورها ، والمنار الذي كان بها ، وقدر عرضها وطولها ، فنزل السلطان بسبب ذلك حتى تأملها وتفرج عليها ، ثم عاد إلى القلعة من يومه » .

وفي ذي القعدة من نفس السنة رحل الغوري إلى الإسكندرية فكشف أحوالها وحصونها ، ولم يلبث بها إلا أياماً قليلة ، ثم عاد إلى القاهرة .

وفي سنة ٩٢٠ (يناير ١٥١٥) زار الغوري الإسكندرية للمرة الثانية ، فدخلها في الخامس عشر من ذي القعدة ، وقد وصف هذه الزيارة في تفصيل المؤرخ المعاصر ابن إياس ووصفه ينطق في أكثر من مكان بأن المدينة كانت قد وصلت في تأخرها وخرابها إلى الحضيض ، فهو يقول : « فلما شق (أي الغوري) المدينة زينت له زينة فشروية ، وكان ثغر الإسكندرية يومئذ في غاية التزحل والخراب » ، ويقول في موضع آخر : « ولم يكن بثغر الإسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار ، لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فإنهم صاروا يأخذوا من التجار العُشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها إلى الخراب ، حتى قيل : طُلب الخبز بها فلم يوجد ، ولا الأكل ، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح ! وكانت الإسكندرية من أجل مدائن الدنيا » .

ولم يمكث الغوري بالإسكندرية في هذه المرة غير يومين وليلتين ، ولم يفعل في خلالها غير أن « توجه إلى البرج الذي أنشأه الأشرف قايتباي ، فطلع في البرج هو والأمراء ، وأرموا قدامه في ذلك اليوم بالمكاحل والمنجنيق ، ثم توجه من هناك وكشف على الأبراج التي (كذا) بثغر الإسكندرية وعرض ما فيها من السلاح والمكاحل .

وكانت الأمور تتعقد في سرعة غريبة بين مصر والدولة العثمانية ، والعلاقات بينهما تسير من سيء إلى أسوأ ؛ ففي شعبان سنة ٩٢١ (١٥١٥) عاد إلى مصر رسول كان قد أرسله الغوري إلى ملك التتار ، وأخبر أنه لما مر ببلاد ابن عثمان « أرسل قبض عليه ، وأخذ ما كان معه من الهدية التي كان أرسلها السلطان إلى ملك التتار ، وحصل له من ابن عثمان غاية البهدلة ، وهم بشنقه غير ما مرة حتى شفع فيه بعض وزراء ابن عثمان » ، وأخبر هذا الرسول أيضاً عن ابن عثمان « أموراً شنيعة قالها في حق السلطان وعسكر مصر ، وأنه جهز مراكب كثيرة نحو أربعمائة مركب في البحر تجيء ثغر الإسكندرية ودمياط ، وفرق من عسكره تجيء على البلاد الحلبية » .

وفزع السلطان لهذه الأخبار فزعاً شديداً ، ورحل إلى الإسكندرية في زيارة سريعة أخيرة في الثاني من شهر رمضان سنة ٩٢١ (أكتوبر ١٥١٥) فتفقد أحوال أبراج الإسكندرية ورشيد ، « وأشيع أنه شرع في بناء سور برشيد على شاطيء البحر الملح ، فأرسل عدة بنائين وحجارين بسبب ذلك » .

وكانت هذه آخر زيارة زارها سلطان مملوكي لمدينة الإسكندرية ، ووافى الخطر بأسرع مما كان يتوقع الغوري ، وأقبلت جيوش العثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول في سنة ١٥١٧ ، فاستولت على الشام ، ثم مصر .

وغدت مصر منذ تلك السنة ولاية عثمانية ، ولم تتقدم أحوال الإسكندرية في العصر العثماني كثيراً ولا قليلاً ، بل لعل أحوالها قد ساءت عما كانت عليه ، وظلت على هذه الحال حتى تداركتها ، بل وتداركت مصر جميعاً ، عناية منشيء مصر الحديثة محمد علي الكبير ، فبث فيها الحياة من جديد ، وغدت منذ عصره — كما كانت — عاصمة مصر الثانية ، وعروس البحر الأبيض المتوسط وأولى موانيه .

دكتور

جمال الدين الشيال

من مطالعات الكتب

للأستاذ الدمرداش محمد بك

فى العدد ٦٣٠ من الثقافة لخصت للقراء بعض ما ورد فى كتاب « الصيد فى غابات السودان » لمؤلفه الأستاذ جاد الله طانيوس خاصاً بصيد الأسد . وفى هذا العدد ألخص للقراء بعض ما ورد فى الكتاب المذكور خاصاً باعتقادات سكان الغابات الاستوائية وخرافاتهم ؛ وذلك فيما له علاقة بموضوع الكتاب .

عروق الأشجار :

يقول المؤلف : إن لعروق الأشجار شأناً أى شأن فى اعتقاد الذين يسكنون الغابات ؛ فهم يزعمون أن فى بعض العروق قوة عجيبة تنفع الإنسان أو تضره ، ويسرفون فى هذا الاعتقاد إلى حد بعيد ، فيتخذون من عروق بعض الأشجار ترياقاً لسم العقرب والأفاعى ، وتمائم لإبعاد الأذى أو جلبه ، وعروقاً لإبطال السحر ، وعروقاً لاقتناص الحيوان ، أو لمعالجة بعض الأمراض وهكذا .

ثم يقول المؤلف : ولكن الذى يدعو إلى الدهشة حقاً أنى جربت مرة عرق الأثر فى صيد الأفيال ... نظرت إلى آثار قطيع من الأفيال ، ثم انتقيت أكبر أثر فيها وطمسته بالعرق كما يفعلون ، ثم تتبعت الأثر فإذا بفيل ضخم انقطع من القطيع وبقى فى مكانه كأنما هو على موعد منى ... ولست أدرى ! فلعل هذا من طريق المصادفة .

ثم يروى المؤلف القصة الآتية : كنت مرة فى جبل اللادو فى مديرية منجلا ، ونزلت ضيفاً على أحد الكجور (هو الرئيس الدينى للطوائف الوثنية هناك) ، وقد أهديت إليه بعض الهدايا التى يرغب فيها أهل هذه البلاد كالخرز والحديد والسكر والشاى والمناديل الحمراء ، فأكبر هديتى وأكرمنى ، واعترافاً بفضلى أراد أن يكافئنى فقال : إذا رأيت وحيد القرن يسير وحده فى الغابة ، وكان ذكراً كبير السن فاتبع أثره حتى تراه واقفاً عند شجرة يحفر جذورها ويأكل عروقها ... ثم خذ بعض هذه العروق واطبخها فى الماء كما تطبخون الشاى واشرب مغليها ، فإنها تجدد القوة وتعيد للشيخ شبابه . فشكرت الكجور على هذه النصيحة ومضيت هازئاً بهذه الخرافة .

ولكن الأستاذ جاد الله يحس فيما بعد بالتقصير فيما عمل ويأسف على أنه لم يجمع عدداً من هذه العروق ويعرضها على الإخصائيين لفحصها وتحليلها ، فربما وجدوا فيها ما ينفع الناس .

الثعبان المقدس :

يقول المؤلف :

زرت ذات يوم أحد مشايخ الزنوج فى بلدة بور بإقليم بحر الغزال ، فأنزلنى فى الواق — وهو عبارة عن فناء مستطيل مسقوف تبيت فيه الأبقار ليلاً لكى تكون فى مأمن من الأمطار والوحوش المفترسة — ثم أمر أتباعى أن يضعوا سريرى السفرى بقرب الكجور — والكجور فى اعتقاد الوثنيين بهذا الإقليم هو الروح المقدسة المتقمصة فى جسم ثعبان ، وهو صاحب السلطة الروحية الذى يجلب الخير ويمنع الشر — والشيخ لا يعنى من إنزالى فى الواق — حيث تبيت المواشى التى يبجلونها وبقرب الكجور (الثعبان) إلا المبالغة فى إكرامى والوصول بى إلى أرفع درجات الاحترام .

دخلت هذا الواق واجماً مضطرباً بالغ فى تحيق ، وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث إذ بأولاده يقدمون اللبن والزبدة للثعبان ويلاعبونه كأنه قط أليف ، والثعبان يلاعبهم كذلك من غير أن يمسهم بضرر ، مع أنه من النوع الناشر شديد السم ... فبهت عندما رأيت هذا المنظر وسألت الشيخ : أيفهم الكجور لغتك ؟ — قال : ويعلم الغيب .

وفى أثناء ذلك كان الثعبان يرفع رأسه ويمد لسانه ويلحس ما علق فى فمه من آثار الزبدة .

فقلت للشيخ مرة أخرى : هل يمكنك أن تكلمه لكي يخرج الآن ثم يأتينا في الصباح ؟

فقال : طبعاً — ووقف يتحدث بلغته ثم أشار إلى السماء ؛ فما كان من الثعبان إلا أن انسحب وخرج من الوادي .

فتعجبت من ذلك وقلت له : بماذا حدثته ؟ فقال : التمست منه الخروج الآن ، ثم العودة عند ما تكون الشمس في المكان الذي أشرت إليه في السماء — ولشد ما دهشت عندما رأيت الثعبان قد عاد في الموعد المحدد — وقد دفعني حب الاستطلاع إلى الوقوف على مدى عقيدتهم في هذا الثعبان ، فاستدرجت الشيخ في الحديث عنه ، حتى عرفت منه أنهم يرجون منه الخير ويستعطفونه لرد المكروه . ثم استمر في الحديث معي حتى قال : وإذا صاهرت أسرة أسرة أخرى ورحل العريس لزيارة عروسه وأسرتها لحق به الثعبان إلى دارها مهما بعدت منفرداً بدون مرشد ، ويتخطى أثناء رحلته الأنهار والخيران ؛ فإذا ما رأوه تهللوا بقدومه واحتفلوا به وأكرموه ، فيمكث معهم ما يشاء من الوقت ؛ وعندما يريد العودة إلى مقره يحضرون ثوراً ويسيرونه أمامهم وهم يهللون ويرقصون ، وعند وصولهم إلى الوادي يذبحون الثور فتضرب النقارة ، ويقيمون الأفراح وتقدم المريسة للضيوف ، ويشرب الثعبان من دم الثور المذبوح ويستمر الحال على هذا المنوال من ثلاثة إلى سبعة أيام .

السبر :

ويقول المؤلف : يمارس شيوخ قبيلة البارية الوثنية طقوساً دينية غريبة ، ومن هذه الطقوس ما يسمى (السبر) وهو تميمة تمنح لطالب الصيد وتعد عندهم من الأسرار التي لا تكشف لكل صياد ، وقد أدلوا لي بها بعد أن عدوني من المقربين إليهم تقديراً لحسن معاملتي لهم ، وذلك بعد أن أقمت بينهم مدة طويلة ....

ذهبت مرة إلى الكجور (الرئيس الديني) وتقدمت له برجاء إعطائي السبر لصيد الفيل ، فقلت له : أنا زول (إنسان) مسكين ودابر (طالب منك) تديني (تعطيني) فيلا أو اثنين من غابتك — ثم قدمت له هدية من الخرز والسكر والشاي ومنديل أحمر — عند ذلك دعا الكجور ستة من رجال القبيلة المعمرين فجلسوا حوله في شبه دائرة وفي يد كل منهم قطعة رفيعة من فروع الشجر الأخضر طولها نحو عشرة سنتمترات — ثم قال لهم : الأفندي هنا مسكين ودابر فيل أو فيلين بتاع غابتنا . وبعد صمت قصير أرسل الكجور هذه الدعوات :

« يا الله بتاع الغابة بتاعنا . يا الله بتاع ابهاتنا (آبائنا) . يا الله بتاع الأفيال . يا الله بتاع تراب بلدنا . يا الله بتاع المطر . يا الله بتاع البحر . الأفندي مسكين ورا لي ووصل لغابة عندنا ، أعطوه فيل أو فيلين من الأفيال ، فتشوا عن الأفيال الكبيرة في الغابات واطردوها إلى غابتنا . » ثم صمت الكجور نحو خمس دقائق وقال بلهجة التوكيد :

« الفيل وصل . الأفندي قابله . الأفندي ضربه بالرصاص . الفيل وقع مات » .

قال الكجور ذلك وكأنه يصور حالة واقعة — وفي هذه اللحظة كسر الرجال الستة فرع الشجرة الذي بيد كل منهم ورموها دفعة واحدة على الأرض ثم صاحوا جميعاً "هرّاء . هرّاء . هرّاء" (أي آمين) — وبعد ذلك سار الكجور إليّ مهنئاً لأنه اعتقد أني قد نلت مرامي .

ثم يقول المؤلف : والغريب أنه لم يمض أكثر من ثلاثة أيام بعد منحي هذه التميمة حتى وجدت توفيقاً عظيماً في صيد الأفيال .

الدمرداش محمد

استدراك

في إعلان (مصلحة السكك) رقم ٧٤٦٣ المنشور بالعدد الماضي أنه تقبل العطاءات بمجلس السوبس الهندي حتى ظهر يوم ٢٠ فبراير سنة ١٩٥١ .

والصحيح أنه تقبل العطاءات حتى ظهر يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥١ .

حديث في الصحافة

للأستاذ جمال الدين الرمادي

يعد الكاتب الصحفي الإنجليزي ويكهام ستيد Wickham steed من أعلام الصحافة في العصر الحديث، وقد عمل في الصحافة مدة طويلة وقام بنصيب مشكور في خدمة صاحبة الجلالة فخبرها خبرة واسعة ووصل في ميدانها إلى غاية بعيدة حيث أشرف على تحرير جريدة التيمس الإنجليزية فترة طويلة من الزمان، ودام عمله في الصحافة زهاء خمسين عاما قضاها الاحتراف وأتقنه وخبر التحرير وأحسنه وعرف كيف يلج المجتمعات ويحضر المحاضرات، وقد ألف ويكهام ستيد كتابين في الصحافة سمى الأولى The press كما سمى الكتاب الثاني Journalism وله غير هذين الكتابين كتب أخرى ومقالات وخطرات جمة في الصحف وقد لجأ ويكهام ستيد إلى الصحفي الكبير ى. ت. ستد W. T. Stead يسأله النصح في ميدان الصحافة فقال ستد لستيد (كل ما يحضرك في الكتابة فأسرع ودونه وبعد أن تدونه تصور أنك سوف ترسله بالبرق وأنت في بلدك في انجلترا إلى أستراليا على نفقتك الخاصة بحيث تكلفك الكلمة الواحدة شلنا. وعلى هذا ينبغي أن تحذف ما لا فائدة منه ولا غناء فيه، وستجد في النهاية أنك حذفت كثيراً وأبقيت قليلا. ولكن هذا القليل ما ينبغي أن ترسله إلى صحيفتك).

هذه هي نصيحة رجل صحفي قديم من أساطين الصحافة أرخ حياته فردريك وايت «Fredric Whyte» في مجلدين لويكهام ستيد. فالصحافة إذاً لا تقبل المراوغة ولا المداورة ولا تحتمل الإسهاب ولا الإطناب ولا ترغب في دوران الجمل المديدة حول معنى واحد، إنما تريد الصحافة شيئاً سهلا يسيرا قصيراً يقبله القارئ في سهولة ويسر دون أن يكلف نفسه عناء القراءة ودون أن يكلف كاتبه عناء الكتابة كذلك فيستريح ويريح.

وقد بين ويكهام ستيد مهمة الصحافة في جمع الأخبار التي تهم الرأي العام وإعلانها وتفسيرها. وهذه المهمة مفيدة قيمة ما في هذا شك وفيها كثير من المسئولية، ولكن فيها أيضا كثيراً من الشرف والفخار. فمنذ فجر التاريخ ومنذ مستهل الحياة في هذه المعمورة ولا نستطيع أن نعين بالتحديد ذلك الوقت، قامت الأخبار بدور حيوي كبير في حياة الإنسان بل وفي حياة الحيوان أيضا. فمجرد التقاء الحيوانات للخطر ما هو إلا (إخبار) بذلك. وكذلك الحال في المجتمعات المتحضرة. فالحكام يحاولون أن يستشفوا الأخبار الوثيقة والبيانات الصحيحة عن الشئون المؤثرة في مصلحتهم، ولذلك وجد السفراء كما وجد المنادون على الأخبار أو الجارون لتبليغها كما وجدت المراكب السريعة لنقل الأخبار ووجد من يحملون الأخبار والرسائل على ظهور الدواب. ووجد المتنبئون والعيون والجواسيس. ولذلك قالوا في الأمثال (أن تنذر قبل وقوع الخطر هو أن تستعد قبل حدوثه) فمعنى الأخبار أن تعطى تحذيرات أو تبليغات للشعب بين الحين والحين عن الأحداث التي وقعت أو الأحداث التي قد تقع ودورة هذه الأنباء بين أفراد الشعب خدمة اجتماعية لها قيمتها ولها خطرها.

فالصحافة إذاً صورة حديثة من الخدمة الاجتماعية قد نهضت وانتعشت بفضل الطباعة ولم تلبث أن ازدادت نهوضا وانتعاشاً وامتلأت حياة ونشاطا بفضل الانتقال من المرحلة البدائية إلى المرحلة الميكانيكية. فأمكن بذلك أن تجمع الأخبار وأن توضع في إطارات معدنية وأن تنشر على الناس بكميات كبيرة.

ولم تكن للصحافة في منشئها إلا حرية محدودة حتى وضعت الدساتير السياسية وحررت الطبقة الثالثة أو السلطة الثالثة بتعبير آخر. وأطلقت على الصحافة السلطة الرابعة. ومن ثمة أخذت الصحافة تزدهر وتنتعش، وكان بعض الصحفيين يخرجون دوريات تناقش المصلحة العامة كما تناقش

شئون الشعب ، ولكن لم تكن فى انجلترا صحافة مستقلة كاملة إلا فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، وأسست بعض المطابع التى ساهم فى تكوينها كثير من المواطنين ، كما أنشئت جريدة التيمس « The Times » فى سنة ١٧٨٥ تحت اسم (الديلى يونيفرسال رجستر) Daily universal register ، وقد أسسها طابع يسمى جون والتر « John Walter » حتى تؤكد للناس قيمة فن الطباعة الحديث ، وتثبت الصلة الوثيقة والوشيجة القوية بين تقدم فن الطباعة والخبرة الصحفية .

وطفقت الصحافة تنمو وتزدهر منذ أن أصبحت معرفة الأخبار عملاً قانونياً خاصاً ، وكان من الطبيعى أن تحاول الحكومات أن تسيطر أو أن تحد من سلطة الصحافة سواء بفرض رقابة شديدة عليها أو بفرض عقوبات أو غرامات رادعة ، ولا سيما عندما خاضت الصحف فى المسائل السياسية والشئون الدبلوماسية ، فكان من اللازم الحرص فى هذه المسائل والحيطة فى تناول هذه الشئون ، ولا تزال الصحافة حتى اليوم معرضة لكثير من القيود ، ومن أمثلة ذلك قانون تسوىء السمعة والقذف والتشهير Law of libel .

ولذلك كان كثير من الصحفيين مقيدين فى تقدمهم وتعليقهم على الأنباء ، فيفرضون بذلك رقابة من أنفسهم على أنفسهم ويتخذون الحيطة فى نشر الأخبار .

ويعتبرون هذه الحيطة واجباً مفروضاً عليهم لا مفر منه ولا محيص عنه ، وقد صرحت بذلك جريدة نيويورك تيمس الأمريكية الأولى فى مبدئها (كل الأخبار الجديرة بالطبع) . فللمجتمعات الديموقراطية الحق فى وقت السلم فى معرفة كل ما يمس مصلحتها العامة . وما حرية الصحافة أو بمعنى آخر غياب القيود الرسمية على استقلال الصحفيين فى الظروف العادية إلا منحة لاستتباب السلام الاجتماعى ، أما فى وقت الحرب حيث تنتشر الأخبار المثيرة الخطيرة وحيث يمكن للخبر الكاذب أن يهدد كيان أمة بأجمعها ، وجب أن تفرض رقابة رسمية على الصحف لأن هذه الرقابة لا يمكن الاستغناء عنها فى مثل هذه الأونة الحرجة .

ولكن تحت تأثير أى الظروف والأحوال يستغل الصحفيون هذه التجارة ؟ أما إذا كانت الصحافة مهنة فما هى المؤهلات التى تطلب من الصحفيين ؟ وما هو الشىء الذى يؤهلهم أن تطبع أخبارهم وتباع أفكارهم ؟ وبأى الدرجات العقلية والمثل الأخلاقية يتحلى الصحفيون قبل أن يسيطروا على روح الاستطلاع فى الشعب ؟ فالصحفيون لا يجتازون امتحانات مهنية والصحفيون قد لا يكونون حاصلين على دبلومات أو درجات علمية ، وقد لا تزيد ثقافة بعضهم عن ثقافة فنان صغير ، فمن أين أتتهم هذه السلطة ، وكيف حصلوا على هذا المركز وهذه المكانة العظيمة ؟ .

المفروض أن الصحفيين ينبغى أن يكونوا أصحاب (أقلام مستعدة) ready pens للكتابة فى أى موضوع من الموضوعات بغض النظر عن الموضوعات التى لا يعلمون عنها إلا النزر القليل والقدر الضئيل ، فهنالك أخبار صادقة وهنالك أخبار كاذبة ، وهنالك موضوعات يضطر الصحفى إلى الخوض فيها تكون مما يمس نفسه ويستهوى قلبه .

ولكن كثيراً من الصحفيين يخطئون فى نصح المبتدئين بالدخول فى ميدان الصحافة والمضى فى سبيلها .

ويرى ويكهام ستيد عكس هؤلاء جميعاً ، فبعض الشباب يسألونه عن كيفية الدخول فى ميدان الصحافة وعن كيفية اتخاذ الصحافة كمستقبل لهم ، فيلقى ويكهام ستيد بالماء البارد على مطامحهم الحارة ، ويضعهم فى امتحان عسير حتى يخلص عقولهم مما بها من آمال كاذبة وأحلام براقة ...

فبعض الهواة يرون — وبدون سبب معقول مقبول — أن للصحفيين قدرة أدبية ، ولكنهم فى الواقع يبعدون عن الحقيقة كثيراً ، ولا يعرفون أن الإنسان قد يكتب عبارات صحيحة سليمة من الأخطاء ، ولكنه يكون غير صالح للصحافة ؛ بينما يرى الآخرون أن لديهم أفكاراً كثيرة يرغبون فى نشرها ، ولكنهم لا يعرفون أن الصحافة تعتمد على الجانب التجارى كذلك وأن بعض الأفكار قد لا تجد عند جمهور القراء بيعاً ولا شراء ، وقد تجذب الهواة الآخرين المرتبات

الضخمة والأجور المرتفعة التي يحصل عليها الصحفيون الناجحون ؛ ولكنهم لا يدرون ما وراء هذه المرتبات وهذه الأجور .

ولكن أكثر طلاب الصحافة يتمنون أن يدخلوا في ميدانها كقاعدة عامة ، وأن يقفوا بجوار عجلة الطباعة ، وأن يشاركوا بأيديهم في تكييف الفكر للأمة .

وقد يكون من حق هؤلاء جميعاً أن يأملوا وأن يستلهموا آمالهم من الصحافة ، ولكن رد ويكهام ستيد الصحفي المجرب الخبير يكون عليهم : كلا ! . إلا إذا كنت مستعداً أن تخاطر وأن تكابد الفقر ابتغاء وجه الصحافة ، وتفضل ذلك العمل على أن تكسب رزقك من عمل مريح في أي مكان من الأمكنة ...

إنه بالرغم من وجود مدارس للصحافة ومعاهد لتمرين الصحفيين فإن الصحفيين يولدون ولا يصنعون ، وقد تمر سنوات كثيرة على شاب تعلم طرق الصحافة والكتابة الصحفية الفنية (النظرية) حتى يعلم أنه ينقصه الاستعداد الشخصي والميل الحقيقي الذي بدونه تكون حياة الصحفي حقيرة كحياة الكاتب .

ليس كل من يعمل في صحيفة صحفياً . فالجريدة تضم كتبة ككتبة البنوك كما تضم مستخدمين وأطباء ومحامين ورجال الأعمال . وهؤلاء جميعاً لا تتقمصهم الجريدة في وقت من الأوقات ، ولكنها دائماً تتقمص الصحفيين . فهؤلاء الصحفيون لا يمكن أن تستكفي بهم صحيفة من الصحف ؛ إنهم رجال ونساء ، عقول ذكية وأفكار نيرة وعزيمة ماضية للبحث والتنقيب في أرجاء المعمورة أملاً في الوصول إلى ذلك اليوم الذي ينشرون فيه آراءهم ويبثون فيه معتقداتهم في عقول الآخرين . وعندما يذكر ويكهام ستيد الصحفيين يعني ما يقول بهذه الكلمة ؛ غير أن الصحفيين للوهو بين الحق في معرفة التفاصيل الدقيقة والصعوبات الكثيرة في عملهم والعقبات التي تحول بين الجوانب المثالية والنواحي المادية ، تلك العقبات التي تصرف الصحفيين عن تدوين خبرتهم ، فرأيهم في الصحافة عظيم غير أنهم يحسون بالثغرة الواسعة التي تفصل الجوانب النظرية عن العملية والمثالية عن الحقيقية ، وهم يعتقدون في قرارة نفوسهم أنهم لا يستطيعون تقرير كون الصحافة صناعة أو عملا أو مهنة حرة أو وزارة . فالتجربة قد علمت الصحفيين أن الصحافة قد تكون هذا كله أو بعض هذا كله . والصحفيون لا يستطيعون أن يضعوا تعريفاً جامعاً مانعاً للصحافة وإن كانوا يعرفون أن الصحافة تتكون من جمع الأخبار وطباعة ونشر أخبار الحوادث يوماً بعد يوم بتعليق أو بدون تعليق وبوجهة نظر أو بدون وجهة نظر .

والصحفيون يعرفون أن الصحافة تحمل فيه كثير من المسئولية ، لأن الأخبار ينبغي أن تكون صحيحة ، كما أن التعليق ينبغي أن يكون أميناً . وعندما تطبع وتنشر الأخبار ينبغي أن تباع ؛ غير أن الجمهور قد لا يحب الأخبار السيئة أو الآراء التي لا طعم لها . فإنتاج الصحف ومنتجو الصحف يعتمدون على ذوق الشعب ؛ ولكن كيف يؤهلون لذلك وإلى أي مدى يخدعون أنفسهم ويخدعون ثقتهم ليجعلوا أخبارهم وآراءهم توافق ذوق الجماهير ؟ وهل نلومهم في هذه الحال كما نلوم التاجر الذي يطفف في ميزانه ، والصانع الذي يزيف في صناعته ؟ ...

وهذه الأمثلة تساعد على بيان المبدأ السائد أو الذي ينبغي أن يسود في الفن الصحفي ؛ فالأمانة الصحفية ثقة اجتماعية ضرورية قد وضعت كاتفاق مع الشعب حتى تكون الأخبار صادقة ، ويكون هؤلاء الذين يقدمون الأخبار للبيع صادقين في تعليقاتهم ؛ وهذه الثقة المتبادلة نفسها توجد بين الأطباء والمرضى ، غير أن الأطباء يسيرون وفق نظام وقانون مهني دقيق . كما أنهم مضطرون إلى الحصول على مؤهلات طبية ؛ بينما الصحافة (مهنة حرة) تخضع لقليل من القيود الخارجة في قوانين البلاد .

جمال الدين الرمادي

بجوار الموت

فصل من مسرحية

للكاتب البلجيكي « مارلينك »

[الجد الأعمى ، والأب ، والعم ، والبنات الثلاث ، في الحجرة المجاورة لرقد الأم المحتضرة ...]

الجد : ما هذا الذي أسمعه ؟ .

إحدى البنات : إنه المصباح يختلج يا جداه .

الجد : يبدو لي أنه مصباح مضطرب ، مضطرب جداً .

البنت : إنها الريح الباردة تهزه .

العم : لكن النوافذ مقفلة ، وليست هنا ريح باردة ...

البنت : أظن المصباح أوشك أن ينطفئ .

الأب : أجل ، لقد نفد زيته .

البنت : لقد انطفأ تماماً الآن ...

(صمت)

الأب : إننا لا نستطيع أن نمكث هكذا في الظلام .

العم : ولم لا ؟ .

(صمت)

الأب : إن في غرفة زوجتي نوراً .

العم : سوف نقتبس منه حينما يأتي الطبيب .

الأب : الواقع أننا لسنا في ظلمة مطبقة ؛ فبعض الضوء الخارجي ينفذ إلى حجرتنا هذه .

الجد : وهل خارج البيت ضوء ؟ .

الأب : الضوء خارج البيت أكثر من الضوء داخله .

العم : إني أفضل الحديث في الظلام .

الأب : وأنا أيضاً ...

(صمت)

الجد : كأني بساعة الحائط تضطرب في دقاتها .

إحدى البنات : إنك تسمع دقات الساعة لأننا قد توقفنا عن الحديث يا جداه .

الجد : ولماذا لا تتحدثون ؟ .

العم : وفيم كنا نتكلم يا ترى ؟ .. إنك لست رزيناً اليوم يا رجل .

الجد : هل الظلام شديد في الغرفة ؟ .

العم : بل الضوء ضعيف جداً ...

(صمت)

الجد : إني لست مرتاحاً إلى هذا الجو . افتحي النافذة قليلاً يا ابنتي .

الأب : أجل ، افتحيها ؛ فنحن في حاجة إلى الهواء .

(إحدى البنات تفتح الشباك)

العم : أعتقد أن اجتماعنا هاهنا قد طال ...

الجد : هل النافذة مفتوحة ؟ .

البنت : إنها مفتوحة يا جداه .

الجد : عجباً ! لكأنها لم تفتح ... فلست أسمع ضوضاء الخارج .

البنت : ذلك لأنه ليست في الخارج أية حركة يا جداه .

الأب : هذا السكون المطبق عجيب .

البنت : لو مرّ ملاك بيننا الآن لسمعناه !..

(صمت)

الجد : في أي ساعة من الليل نحن الآن ؟ .

إحدى البنات : لقد قاربنا منتصف الليل .

(يقوم العم ، ويذرع الغرفة ، جيئة وذهاباً ، في ضيق)

الجد : من الذي يمشي في الغرفة هكذا ؟ .

العم : لا تخف . إني أحس بالرغبة في التحرك ... ولكني سوف أجلس ... فلست أرى موضع قدمي ..

(صمت)

الجد : وددت لو كنت في مكان آخر غير هذا .

إحدى البنات : وأين تحب أن تكون يا جداه ؟ .

(البقية على صفحة ٣٠)

من قصص موباسان

... لقد حاول بحق أن يبعد عن نفسه شعوره بالراحة والهدوء ، وظل يكرر لنفسه : « أمي .. أمي المسكينة الميتة » . وحاول أن يبكي على أمه حتى يرتاح ضميره ، ولكنه لم يجد القدرة على البكاء ، ووجد أن الأفكار الحزينة التي أبكته منذ هنيهة قد فارقته ..

وعندما وصل المقهى شعر برغبة جامحة في أن يخبر أحداً بالمصيبة التي حلت به حتى يستدر الشفقة ويلفت الأنظار إليه .. ودفع الباب وقد بدا الحزن على وجهه واتجه إلى البار حيث كان يجلس صاحب المقهى ..

وحاول أن يبعث آناً في الحاضرين وتمنى أن يقوم إليه الجميع بأيد ممتدة ويقولون له : « ما الخبر ؟ ماذا ألم بك ؟ » ولكن أحداً لم يلاحظ وجهه الحزين فأسند مرفقيه على البار وأخفى وجهه بين كفيه وتمتم : « يا إلهي ! يا إلهي ! » .

فالتفت إليه صاحب المقهى وقال : هل أنت مريض يا مسيو كارافان ؟ .

فأجاب : كلا يا صاحبي .. ولكن أمي ماتت منذ لحظة .

فصاح الأول : « آه » . وجاء شخص يطلب قدحاً من البيرة ، فذهب إليه تاركاً كارافان ينشد أحداً يواسيه .

وكان لاعبو « الدومينو » ما زالوا جالسين على المائدة نفسها التي كانوا يشغلونها قبل العشاء ، وقد شُغِلوا باللعب عن أي شيء آخر .. فذهب إليهم كارافان ليواسوه ، ولكنهم لم يلحظوه .. فقرر أن يتكلم :

— لقد أصابتني كارثة فظيعة منذ قليل .

فرفع الثلاثة رؤوسهم قليلاً في نفس الوقت دون أن يحولوا أعينهم عن الحجارة التي يمسكونها بين أصابعهم .

— ماذا تقول ؟ .

— لقد ماتت والدتي منذ لحظات ..

— أوه ! يا للشيطان !

هكذا أجاب واحد منهم بعدم اهتمام ، وقد تكلف الحزن .. أما الآخر ، فإنه لما لم يجد ما يقوله صفر بفمه صفيراً حزيناً ليواسي صاحبه .. أما الثالث ، فقد عاد ثانية إلى اللعب وهو يقول في نفسه : « أهذا هو كل شيء ؟ » .

(من قصة « مسألة عائلية »)

● ● ●

... ولم يكن باستطاعة أحد أن يصرف هذا الكلب الأعمى عن النباح .. وهو بالنهار يسكت كالحجارة ؛ فشعوره بأنه أعمى يمنعه من النباح والضجيج ، بينما يتحرك الجميع هنا وهناك .. أما إذا أتى الليل ، فهو لا يكف إطلاقاً عن إزعاج الناس ، وكأنما لا يجرؤ على الحركة والحياة إلا بالليل حين يصبح الجميع عمياناً .

(من قصة « حياة »)

● ● ●

... ووقع نظرها فجأة على ساعتها القديمة ، وكان البندول ما زال يرقص من اليسار إلى اليمين ، ومن اليمين إلى اليسار ، بحركته التي لا تنقطع وسرعته المعتادة ... وشعرت جان بعاطفة قوية تتملكها ، وكادت الدموع تقفز إلى عينيها بسبب هذه الآلة الميكانيكية الصغيرة التي تبدو لها حية ، والتي تشير لها إلى الوقت وتدق كالقلب النابض ..

إنها لم تشعر بهذه العاطفة القوية عندما قبلت أباها وأمها .. وشعرت بها نحو الساعة .. فيا لغموض القلب البشري الذي لا يدرك معناه عقل ! .

(من قصة « حياة »)

ترجمة

صبحي أحمد أمين

عالم المستقبل

للأستاذ محمد عبد الحليم محمود

قد يكون من الطريف ، في أوائل هذا العام الذي به تبدأ المرحلة الثانية من قرننا العشرين ، أن نتأمل في المستقبل لنحدس ما سوف يطرأ على الكرة الأرضية وعلى أهلها من تغيرات ذات بال . ولكن ألا يكون أكثر طرافة أن نرجع بذاكرتنا نصف قرن إلى الوراء لننظر في أفكار وآمال أهل القرن التاسع عشر ، عندما كان القرن العشرون لا يزال في طيات المستقبل ؟..

في هذا الزمن البعيد كان يعيش عالم فرنسي ، يدعى « برتولو » اشتهر بأبحاثه واكتشافاته في محيط الكيمياء . وهو هنا يحدثنا عما يعتقد أن سوف يكون عليه العالم في سنة ٢٠٠٠ ميلادية . ولعل القراء يجدون في نظراته شيئاً من الخيال الخصب ؛ ولكنه في الواقع لا يرمي بالقول جزافاً ، بل هو يعتمد أولاً على الحقائق العلمية والاستنتاجات المنطقية التي لا غبار عليها ...

• • •

لقد تحدث الناس كثيراً عن حالة المجتمع البشري في المستقبل . وأريد بدوري أن أتخيل هذه الحالة ماذا تكون في سنة ٢٠٠٠ .

في هذا الزمن المستقبل لن يكون في العالم زراع أو رعاة ، ولن تكون هناك مزارع أو مراع . فالكيمياء ومكتشفاتها سوف تبيد مشكلة الفلاحة والرعي ؛ كما تقضي على مشكلة الناجم والمناجم ...

لقد رأينا في أيامنا هذه القوة المحركة الإنسانية تحل محلها القوة البخارية التي نحصل عليها بواسطة إحراق الفحم ... ولكن الفحم ، فضلاً عن أن القوة الناتجة عنه غير كافية ، نلاحظ أنه في تناقص مستمر ؛ ويجب علينا أن نهيء ما يسد مكانه من مواد .

والأمر لا يحتاج إلى كثير تفكير : فأمامنا الشمس ، علينا أن نستخدم طاقتها ، وأمامنا الأرض في مقدورنا الانتفاع من حرارتها الجوفية .

وإن التقدم المستمر في العلوم يدفعنا إلى أن نأمل خيراً من مثل هذه المنابع للقوى التي لا تنفد .

فما علينا مثلاً ، إذا أردنا أن نأسر حرارة الأرض الجوفية ، إلا أن نحفر آباراً يبلغ عمقها خمسة آلاف من الأمتار . وهذا العمل لا يخرج عن إمكانيات الهندسة في العصر الحالي ؛ وبه نتمكن من الحصول على الحرارة : أصل كل حياة ومبعث كل صناعة .

وإذا أوصلنا الماء إلى أعماق هذه الآبار الحارة ، ينتج عن ذلك ضغط يكفي لتسيير جميع محركات العالم ؛ كما ينتج ماء نقي مطهر خال من العفونة والميكروب .

وسوف نستفيد من هذا المشروع قوة كهربائية عظيمة تتجدد باستمرار ... ومن القوى الحرارية والكهربائية نحصل على القوة الكيميائية التي تجعل صناعة المنتجات اللازمة للحياة ميسورة إلى حد بعيد وقليلة النفقات في كل وقت ومكان ...

وفي هذا حل موفق للمشكلة الاقتصادية الكبرى التي تشغل ذهن كل إنسان : مشكلة المواد الغذائية .

فنحن في اليوم الذي تتوفر لنا فيه القوة الكيميائية بثمن بخس ، نستطيع أن ننتج الغذاء من عناصره الأولية ؛ فنستعمل الكربون الناتج عن حامض الكربونيك ، والهيدروجين المستخرج من الماء ، والأزوت المستخلص من الجو .

وحينئذ يقوم الإنسان ، في نطاق واسع وبوسائل كاملة ، بالعمليات التي تقوم بها النباتات مستعينة بالقوى الطبيعية ...

وسوف يأتي الزمن الذي فيه نرى الأسرة تضع على مائدة الطعام قطع الأزوت المجمدة ، ومقادير المواد الدهنية المركزة ، وقوالب المواد السكرية ، إلى جانب زجاجات صغيرة للتوابل والحريفات التي توافق مزاج الأشخاص ...

هذه المواد سوف تنتجها المعامل بكميات غير محدودة وبثمن بسيط ، دون أن تؤثر على الصناعة تلك العوامل ذات العواقب الوخيمة على الزراعة مثل تقلبات الجو والديدان والطفيليات ؛ كما أن الغذاء المصنوع بهذه الطريقة سوف يكون بمنجاة من الميكروبات ، وهي عدو الإنسان اللدود .

دواوين القبـــائل

للمستشرق جولد تسيهر

ترجمة الأستاذ حسين نصار

نشر المستشرق الكبير الأستاذ جولد تسيهر هذا المقال القيم في مجلة الجمعية الأسيوية الملكية في إبريل عام ١٨٩٧، بعد طبع «ديوان الهذليين» للمرة الأولى. ويسرني أن أنقله إلى العربية، بمناسبة إخراج دار الكتب المصرية لهذا الديوان حديثاً.

يجب أن نعتبر «ديوان الهذليين» التراث الوحيد الذي بقي لنا من لون أدبي عظيم، كان من الثمرات التي آتتها جهود اللغويين العرب في محاولاتهم الأولى لجمع الشعر العربي القديم.

والحق أن تاريخ الأدب العربي، الذي يجب أن يرضى بتدوين أسماء كثير من الثمار الضائعة التي كدّ العلم والجَلَد في سبيل إظهارها حين يؤرخ لعصوره القديمة، ليس لديه إلا هذه الهمة أيضاً، حين يشرع في وصف جهود الباحثين من اللغويين في ميدان الشعر القديم.

وقد نجح القدامى من العلماء في توجيه أكبر عنايتهم لجمع دواوين القبائل، مع حفظهم وتجميعهم للقصائد المُعلَم، التي حازت شهرة تعترف بها جميع أرجاء بلاد العرب، مع اعتبارها أسمى ما أنتجته قرائح فحولهم، بغض النظر عن القبيلة التي ظهر فيها الشاعر. وكان عمل هؤلاء اللغويين جمع مآثر كل قبيلة، وتدوينها كتابة. فوجهوا عنايتهم إلى القصائد الباقية في ذاكرة القبائل من شعرائها، والتي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بذكريات هذه القبائل التاريخية. ولم يتطلب هــذا العمل منهم التطواف في الصحراء بين الخيام، على الدوام. بل كثيراً ما أتاهم سكان هذه الفلوات أنفسهم، أو مهدوا لهم لاستحضارهم، وهم في مدنهم، يتمتعون بالراحة والسعة، وسدوا حاجتهم إلى المعلومات من معارف هؤلاء الأعراب الواسعة، وذكرياتهم الغنية. وقد نقل إسحاق الموصلي، وكان دائم الاشتغال بجمع الأخبار القديمة، عن دعوة أحد الأشراف للغداء، لأنه

في هذا الزمن المستقبل سوف تحدث الكيمياء في العالم انقلاباً قوياً لا يستطيع أحد أن يقيس الآن مداه.

سوف تقضي على المزارع والكروم، وعلى المراعي المملوءة بمختلف الأنعام.

سوف تكسب الإنسان طبيعة الهدوء، وشمائل الفضيلة، لأنه لن يعتمد في إقامة حياته على إفناء حياة خلائق أخرى.

سوف تمحى الفروق بين المناطق الخصبة من الأرض والمناطق الفقيرة التربة. بل ربما أصبحت الصحارى الرملية مأوى الإنسان المفضل؛ لأنها في الواقع أكثر ملاءمة لصحته من تلك البقاع المتربة القذرة وتلك المستنقعات العفنة التي نتخذها الآن مجالاً لنشاطنا الزراعي.

ولكن هذه السيطرة الكاملة للقوى الكيميائية على النشاط البشري لن يكون لها أثر سيء على معاني الجمال والفن والسعادة في أعماق الإنسان:

فالأرض حقاً سوف تتجرد من مزارعها وحقولها الجميلة؛ ولكنها سوف تكتسي بعد ذلك بالخمائل الوارفة والزهور اليانعة والأعشاب الخضراء؛ سوف تنقلب، عقب جهاد لن يطول، إلى روضة طبيعية فيحاء ترويها المياه الباطنية في التربة، ويعيش الإنسان بين جنباتها في رخاء وسعادة، خلال عصر البشرية الذهبي...

لكن ذلك لا يعني أنه سوف يعيش في خمول وانحلال أخلاق. بل إن العمل سيكون من عناصر السعادة. ولقد قيل في كتاب الحكمة المقدس: «من زاد في العلم زاد في العمل». وفي هذا العصر الذهبي سوف يعمل الإنسان أكثر من ذي قبل وفي إخلاص تام؛ لأنه سوف ينعم بثمار عمله؛ وفي ذلك ما يدفعه إلى السعي بإنتاجه نحو الكمال، سواء كان فكرياً أو جمالياً أو أخلاقياً... وكل إنسان يعمل فهو إنسان خيّر، لأن العمل منبع الفضيلة...

محمد عبد الحليم محمود

كان فى ذلك الوقت يجالس أعرابيا ، ويكتب ما يسمعه منه . وقد ذكر ابن النديم كثيراً من الأعراب ، الذين أفاد العلماء منهم ، فى فصله الذى خصصه للنحويين فى « الفهرست » .

وهكذا وجّه علماء القرن الثانى الهجرة غالب دراساتهم مع العرب الخلّص إلى جمع الذكريات الشعرية للقبائل المختلفة ، بالإضافة إلى أبحاثهم اللغوية الخالصة . فظهرت « دواوين القبائل » التى تدين بوجودها لهذه الجهود التى وصفناها . وليس من الغريب أن تتعرض هذه المجموعات للانتحال والزيادة الزائفة ، على يد رجال قادرين من أمثال « خلف الأحمر » . فالاستحسان والتشجيع اللذان قابلت بهما الدوائر الرسمية فى العهد الأموى هذا النوع من الدراسة — وهو أمر تصوره لنا الأخبار الأدبية الباقية — يجعلنا نعتقد أن البوادر الأولى من هذه الدفاتر ، إذا صحنا لأنفسنا بإطلاق هذا الاسم عليها ، كانت تسير فى طريق التقدم . ومهما يكن من أمر ، فإنه قد رُوى عن حماد الراوية ، فى خبر أطلعنا عليه فلهوزن ، أنه تأهب لمقابلة الخليفة الوليد ، بالنظر فى « كتابى قريش وثقيف » ، لأنه كان يعتقد أن الخليفة سائله عن أشعار القبائل التى هو على صلة بها . ولا بد أن « كتاب بنى تميم » ، الذى وجهتُ الأنظار إليه فى مناسبة سابقة ، قديم جداً . ومع ذلك ، فإن هذه العبارة من شعر بشر ، التى يُذكر فيها هذا الكتاب ، إذا كانت تشير حقيقة إلى مجموعة مدونة عن مآثر بنى تميم وأشعارها ، تجعل نسبة البيت إلى بشر ابن أبى خازم واهية الأساس . فليس من المحتمل — بل من المستحيل — أن توجد مثل هذه المجموعة فى عصر مبكر كهذا العصر الذى عاش فيه بشر .

وقد رَقّت هذه الجهود فى الجيل التالى رقيا كبيراً . إذ ساهمت دراسات علماء العصر العباسى اللغوية فى النهضة العامة للعلوم ، واستمر اللغويون فى جمع دواوين القبائل ، على أساس المحاولات الأولى فى العصر السابق .

وهناك كتاب يسمى « كتاب أشعار القبائل » ، كان « يحتوى على عدة قبائل » منسوب إلى خالد بن كلثوم ، ويبدو أن هذا العالم كان يعيش فى العصر الأموى . وجُمعت مآثر بنى أسد من رواية أسدىّ ، هو محمد بن عبد الملك الفقعسى (الذى عاش إلى عصر هارون الرشيد) ، وظهرت فى « كتاب مآثر بنى أسد وأشعارها » . ولعل أبا عبيدة (المتوفى حوالى ٢٠٧ — ٢١٠ هـ) اتبع نفس الطريق فى كتبه عن « غطفان ، والأوس ، والخزرج ، وبنى مازن » .

وهناك كتاب آخر لا نعرف مؤلفه هو « كتاب بنى تميم من مازن » . وذكر الدارقطنى (المتوفى ٣٨٥) كتاباً عتيقاً « جمع فيه (المؤلف) أخبار بنى ضبة ، وأخبار شعرائهم » . وحكم أبو القاسم الآمدى (المتوفى ٣٧٠) فى كتابه « المؤتلف والمختلف » فى نسبة بعض الأبيات إلى أبى الغول الطهوى أو إلى أبى الغول النهشلى ، وأقام حكمه على أنه لأبى الغول الطهوى « فى هذا حديث وخبر فى كتاب طُهية ... ولم أر له ذكراً فى كتاب نهشل » . ويشير الآمدى أيضاً إلى « كتاب بنى القين بن الجسر » . ولا نستطيع أن نعلم يقيناً زمن جمع هذه الكتب ، من العبارات التى تدين لها بمعرفتنا لوجودها . بل نحن لا نعرف مؤلفيها أيضاً . وينسب « الفهرست » مجموعة لشعراء ضبة ونهشل إلى السكرى ؛ ولكن ليس من المحتمل أن يطلق على كتاب من قلم هذا المؤلف عبارة « الكتاب العتيق » بعد قرن واحد من ظهوره . والواضح أنه ينبغى علينا أن نفهم من هذه العبارة أنهم يريدون كتاباً آخر ، أقدم من كتاب السكرى وأقل قيمة ، فنقحه السكرى وأكمله ، كما فعل هذا اللغوى الدقيق فى ديوان الهذليين ، ودواوين الشعراء الآخرين . ومهما يكن من أمر ، فإننا نرى أنه كان فى استطاعة لغويى القرن الرابع الهجرى الرجوع إلى دواوين القبائل ، كلما أشكل عليهم أمر عند أحد الشعراء . وقد فعل ذلك أبو حاتم السجستانى (المتوفى حوالى ٢٥٠ — ٢٥٢) ليعرف القراءة الصحيحة لبعض الألفاظ غير الواضحة فى الشعر : أعنى ، أنه نظر هذه الأبيات فى ديوان القبيلة التى ينتمى إليها الشاعر الذى أشكلت ألفاظه .

وأخيرا ، ظهرت أمام الباحثين آثار رجل ، يبدو أنه القمة التى وصلت إليها حركة جمع دواوين القبائل ، ذلك هو أبو عمرو الشيبانى (المتوفى حوالى ٢٠٥ — ٢١٠ هـ) . فيقال إنه جمع دواوين أكثر من ثمانين قبيلة . وقد اعتمدتْ على دراساته جميع آثار هذا اللون من الدراسة التى ألفت بعده ، و « أخذ عنه دواوين أشعار القبائل كلها » وروى أنه رجع إلى جميع ما كتبه المؤلفون قبله . ولم يصل إلى يد العلامة عبد القادر بن عمر البغدادى (القرن الحادى عشر)

الذى كان يعيش منذ ثلاثمائة سنة فقط ، غير أجزاء وحيدة من هذه الكتب ، وكان تحت تصرفه مكتبة كاملة من عيون الكتب ، يرجع إليها فى تأليف كتابه « خزانة الأدب » ، ذلك الكتاب الذى يجمع أنواع المعارف ؛ وقد ضاع قسط كبير من هذه المكتبة الآن . ولذلك استطاع عبد القادر أن يأخذ شواهد من شعر أفنون التغلبى ، من كتاب « أشعار تغلب » لأبى عمرو . ويقول أيضا فى أثناء كلامه عن شاعر آخر ، إنه كان يرجع إلى مجموعة أخرى لأشعار « محارب ابن خصفة بن قيس عيلان [لنفس المؤلف] ، وهو عندى فى نسخة قديمة تاريخ كتابتها فى صفر سنة إحدى وتسعين ومائتين ، وكاتبها أبو عبد الله الحسين بن أحمد الفزارى ، قال : نقلتها من نسخة أبى الحسين [صوابه أبى الحسن] الطوسى [الملقب « براوية القبائل » أيضا] ، وقد عرضت على ابن الأعرابى » .

بل السكرى نفسه (المتوفى ٢٧١) لم يشتغل بإعادة جمع دواوين الشعراء القدماء وحدهم ، بل بإخراج مجموعة كبيرة من دواوين القبائل أيضا . ولم يبق من هذه المجموعة غير جزء كبير من « ديوان الهذليين » ، الذى يدين كثيرا للمشاق التى تكبدها هذا اللغوى فى سبيله . ولكن العلماء فى ذلك الوقت أخذوا يهتمون بمجموعات من المختارات من ذلك الأدب الفسيح ، بدلاً من الدواوين الكاملة للقبائل . وقد أخلت دواوينه القبلية هذه ، وخاصة المرتبة على المواضيع صورتها عند أبى تمام (المتوفى ٢٣١) فى مجموعته للحماسة ومختارات أشعار القبائل » . ولكننا لم تصل إلينا هذه المجموعات التى أكثر مؤلف خزانة الأدب من الرجوع إليها فى شواهده الشعرية .

وشرعت دواوين القبائل تختفى إلى المؤخرة ، مع اختفاء الاهتمام بالحياة القبلية فى الصحراء . ولم يعد معظم ما تحفظه القبائل من شعرائها ، وترويه للمؤرخين المتشوقين ، يثير من الاهتمام إلا قليلا ، وكان هذا الاهتمام القليل مركزا فى دائرة ضيقة من أعضاء القبائل المحترمة ، فى غالب الأحيان . ولم يكن جميع ما تحفظه القبائل من شعرائها من القوة والكمال الشعريين بحيث يرضى الذوق العام ، الذى لا يتحيز لأشخاص معينين . ولذلك أخذ مؤلفو المجموعات الشعرية ينتقون القصائد القديمة التى حازت شهرة عامة بين الجماعات الكبيرة . أو يختارون ما يبدو لهم أنه أهل لأن يصبح تراثا مشتركا للمجتمع العربى كله ، أو لأن تعتبره الجماعات العظيمة عيونا شعرية ، بغض النظر عن مصدره القبلى ، لشهرته ، أو لما يرتبط به من أمور تاريخية فى الأصل . ولعل قسطا كبيرا من « المفضليات » نفسها ليس إلا مختارات تشمل أجمل قصائد دواوين القبائل المختلفة . بل يحكى أن أبا عمرو الشيبانى « أخذ عن المفضل الضبى دواوين العرب ، وسمعها منه » . ويجب أن توضع مثل هذه المجموعات ، التى يجمع فيها المختار من أشعار كل قبيلة والمختار من دواوين الفحول ، فى مقدمة الأسباب التى أدت بهم إلا إهمال دواوين القبائل — وأخيرا إلى نسيانها نسيانا تاما . ولم ينج من هذا المصير سوى مجموعة واحدة لما أحاطها به رواة الشعر من عناية ، وربما كان ذلك لأن روعتها الشعرية سمت بها إلى مرتبة أعلى من المستوى العام لدواوين القبائل . تلك المجموعة هى « ديوان الهذليين » . وترينا هذه المجموعة ، فيما ترينا ، أن دواوين القبائل لم تشمل شعراء العصر الجاهلى وحده ، بل امتدت إلى العصر الأموى ، أعنى : امتدت إلى العصر الذى أخذ فيه هذا النوع من النشاط الأدبى لجمع أشعار القبائل ، فى التقدم . ومع انحطاط هذا اللون من الأدب نسيت أسماء الشعراء ، التى كانت تدوى وتجلجل فى قبائلها زمنا من الأزمان . واختفت مؤلفات كانت فى يوم من الأيام موضع الإعجاب فى مضارب البدو ، الذين كانوا يفخرون كل الفخر بأعمال رجال عشيرتهم ، ويكثر الاقتباس من هذه المجموعات فى كتب النوادر ، تلك الكتب التى وصلت إلينا دون أن تصل الأصول التى استقت منها . وإننا لنرى أحيانا فى نوادر أبى زيد الأنصارى ، المطبوع فى بيروت منذ سنتين مضتا ، أسماء شعراء غير معروفين ، لم نرها فى غيرها من المراجع ، هؤلاء الشعراء ، وشعرهم ، مأخوذون من دواوين القبائل .

ونحن لا نعرف شيئا آخر عن دواوين القبائل التى كان يجمعها كبار اللغويين فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ، والتى كانت لا تزال توجد نوادر منها منذ ثلاثمائة سنة مضت ، فى نسخ وحيدة نادرة . ولو حصلنا على هذه النسخ لقدمت لنا أكبر العون فى إكمال معارفنا عن الحياة الداخلية للقبائل العربية المختلفة . ولكن يبدو أنها اختفت اختفاء نهائيا ، مثلها فى ذلك مثل كثير من عيون الأدب العربى القديم الأخرى . ولن تظهرها إلى الضوء ، ثانية من أعماق الظلمات فى بعض مكتبات الشرق ، سوى لفتة مفاجئة من حسن الحظ ، مثل تلك التى يصادفها بعض أدباء اليوم وعلمائه هواة الأدب .

صبحى نصار

الحلم ... (THE DREAM)

للكاتب الأمريكي إرسكن كولدويل

ترجمة الأستاذ مبارك ابراهيم

ظلّ (هاري) ست سنوات أو سبعاً يحدثني حديث رؤيا رآها في المنام ، فلم ألق إلى الأمر بالاً ، ذلك لأنّ الناس كلهم إلا قليلاً يرون رؤى في المنام ، ومن هذه الرؤى ما هو سارّ مبهج ، ومنها ما هو مُغمّ محزن ، ولكني — من جهة أخرى — ما كنت أظن أبداً أنّ حياة الناس تنقلب رأساً على عقب لرؤيا رأوها في المنام .

وأنا إذا رأيت رؤيا ظللت أذكرها يوماً أو يومين ، ثم لا أذكرها بعد ذلك أبداً . ولكن (هاري) ظل تلك السنين الطوال يرى تلك الرؤيا مرّة في كل شهر ، وكأنها تجري على سُنّة من سنن الكون ، فهي هي ، لا تتغير صورها ولا تتبدّل حوادثها ، وشخوص الرؤيا شخصان لا يختلفان أبداً في المظهر والملبس ، أحدهما (هاري) ، والأخرى فتاة في ميعة الصبا ومقتبل الشباب .

وذهب (هاري) في الشتاء الماضي إلى طبيب من أطباء الأمراض العقلية يقصّ عليه قصة الرؤيا ، ويستشيره في أمره ، وهو واثق أنه سيلقى على يديه الشفاء ؛ وقال (هاري) للطبيب إنه يرى هذا الحلم مرّة في كل شهر ؛ فقال الطبيب : ليس هذا بأمر ذي بال ، ونصح له بأن ينسى الحلم ولا يذكره ...

وقد يكون هذا القول من الطبيب وسيلة من وسائل العلاج على طريقته ، ولكن (هاري) أصبح بعدئذ لا يؤمن بطب هذا الطبيب ، وكان مما أخذه على الطبيب أنه قال له إن تكرار حلم من الأحلام شيء مستحيل ، وكيف يصدق هذا القول وهو يرى رؤياه تتكرر بلا تبديل ولا تغيير ...

وفي شهر يونيو الماضي من عامنا هذا رأيت (هاري) لأول مرّة في هذه السنة ، وكان عهده برؤياه التي يراها في المنام كل شهر جد قريب ، فحدثني حديثها ولم يخرم منه حرفاً ، فكان حديثه لا يختلف عن حديثه في العام الذي سلف .

وكنا يومئذ في مرسى القوارب ، وكان (هاري) يدهن قاربه بدهان أخضر ، وكنت — وهو يقص قصة حلمه — أجلس في ظل شجرة في مكان قريب ، فلما قاربت قصة الحلم على الانتهاء ، رأيت (الفرشاة) تجري بالدهان في سرعة متزايدة ، ولما بلغ نهاية الحلم زادت حركة (الفرشاة) إسراعاً ، حتى لقد استحال بقاء الدهان فوق شعراتها ، وإذا هو يقول : أتم العمل بدلاً مني ! وإذا عيناه تصبحان وكأنهما جمرتان ، وإذا يداه ترتعشان .

وبينا أنا أحاول غمس (الفرشاة) في إناء الدهان رأيت صاحبي وقد اختفى بين الشجر خلف مرسى القوارب ولم أره في يومي ذلك أبداً .

وأهمني أمر (هاري) أكثر من قبل ، وبدا لي أنه في حاجة إلى علاج ، وما ظننت أبداً أنه سوف يفقد عقله ، وكذلك هو ما كان يظن هذا الظن ، فقد كان دائماً يحمل محمل العقلاء ، وكان كلانا ينظر إلى هذا الحلم نظرة إلى حالة عارضة سوف تذهب وتزول .

وكلانا يعرف صاحبه منذ عشر سنين ، وكنا نجيء وأهلنا معنا نقضي موسم الصيف في مدينة (مين) ، وكنا ننصب خيامنا فوق شاطئ البحيرة ، وكنا نتلاقى كل يوم ، وكنا نصطاد السمك معاً ، وننزل الماء لنستحم كل يوم ثلاث مرّات ، وكنا نذهب مرة في الأسبوع لنرقص في المراقص ،

وكثيراً ما ذهبنا إلى المدينة لنشهد روايات السينما .

وكنا نحدثنا حديث (الرؤيا) قال (هارى) إن الحالة باقية على سوئها ، وإن السوء آت من قبل تكرار الحدوث ، لا من قبل الرؤيا فى ذاتها ، فهى — على أية حال تجىء — رؤيا تبعث فى النفس الفرح ، ووضوح الحلم كوضوح حوادثه لا تغشاه غاشية من الخفاء ، وقال (هارى) لا شىء من حوادث الحلم قد تحقق ، ولكن قرب حوادثه من حقائق الحياة هو الذى يزعجه ويقض مضجعه ، فقد سار مرة — وهو فى عالم الرؤيا — فى الغابات ، والوقت ليل والقمر قد بسط نوره ، واتخذ هو طريقه فوق جسر من الخشب يعلو نهراً من الأنهار ، فسمع شخصاً يناديه فى صوت ندى ، فلما التفت إلى ناحية الصوت رأى فتاة تناهز الثامنة عشرة من عمرها ، وقد وقفت أمامه ، وقد أضفى القمر عليها من نوره غلالة رقيقة ، ودار بينهما الحوار الآتى :

هو : ماذا تريدين ؟

هى : إنى أنتظر هارى !

— وما اسمك وأين تقيمين ؟

— لا جواب .... !

— إنى أنا (هارى) !

— إذاً فأنا عائدة أدراجى .

— دعينى أصاحبك ، فإن كنت حقاً تريدين (هارى) فإنى مرافقك .

— كلا ! ... فالواجب يقتضينى أن أعود بمفردى .

وقال (هارى) إنه جرى وراءها وكاد فى مطاردته أن يقتل نفسه ، وكان كلما أسرع الخطى يثبت المسافة بينها وبينه لا تزيد ولا تنقص حتى إذا قطعا — وهما يتسابقان — ثلاثة أميال ، استيقظ من نومه بغتة ، وغادر سريره ، وقد حاول بعد ذلك أن يعود إليه نومه ليمسك بعنان الرؤيا ، فإذا هو لا يبلغ بغيته بل يظل يقظان حتى الصباح .

ثم جاءنى ذات يوم ليقول لى إنه رأى الرؤيا المعتادة ، وحدثنى حديثها مرة أخرى فكان حديثه لا يختلف عن المرات السابقة .

ثم قال لى شيئاً آخر ، ذلك أن الرؤيا تعاوده أحياناً وهو يقظان ، وهو ما سماه حلم اليقظة ، وهى مع ذلك لا تختلف عن رؤيا الليل ، فقد يكون سائقاً سيارته فى طريق الريف ، وهو فى أتم يقظته يصفر أو يغنى ، وإذا هو يرى بغتة تلك الفتاة واقفة فى الطريق ، وإذا هو يهم بأن يمسك بها ، يراها تجرى فى الطريق الذى يقصد إليه .

وكثيراً ما وقف سيارته وترجل ، ثم جرى فى الغابات ينشد ضالته ، وهو يعرف أن ذلك منه فرط جنون ، ولكنه يقول : إن جاذباً قوياً يجذبه فيجرى وراءها ، واستطرد يقول : سوف أفقد عقلى إذا لم يختف شبحها عن ناظرى ، وإنى لن أبرأ حتى أمسك بها أو أجدها فى مكان ما ! وسواء تكرر حدوث الحلم أو بطل حدوثه فإنى لا أستطيع نسيانها ، وقد قال الطبيب إن هذه الرؤيا لن تحدث أثراً سيئاً ، ولكنى الآن قد جاوزت هذا الطور ، فإن دام هذا الحال سنة أخرى فقدت عقلى ، وإنى لأظن أنه لا يزال فى الوقت بقية لكى أطيب نفسى فأبرأ ! ذلك لأنى فى الشتاء الماضى ، وفى الربيع الذى أعقبه — وكنت بين أهلى وعشيرتى — قد عشت فى صحبة فتية وفتيات ، أدعى وأدعو ، وأرقص وألهو ، وأسير سيرة العقلاء ، حتى إذا عاودتنى الرؤيا يئست من أمرى ، وخاب منى الرجاء .

قلت مازحاً : قد تكون رأيت يوماً ما فتاة تشبهها فأصبحت أمنيتك ومشتهاك . ولكنه أبى أن يجعل رؤياه موضوع مزاح ، بل كان الجد والكد ، وكأنه يتحدث عن شعيرة من الشعائر المقدسة .

وكان يقول : ليس فى الدنيا فتاة تشبهها ، ولن تستطيع فتاة أن تكون على مثالها ولو حرصت ! فليس فى الأصوات صوت أحلى من صوتها ، وليس فى موسيقى النغم نغمة أعذب جرساً من نغماتها .

— مع التسليم بهذا فإنى لو كنت مكانك لحاولت أن أجد فتاة أخرى تحل محلها ، وقد لا تعود الرؤيا بعد ذلك مرة أخرى .

وما إن سمع (هارى) هذا القول منى حتى غادر المكان دون أن يجيب على قولى ، وقد دلت نظراته على أنه يظن بى عدم القدرة على الفهم .

ولما لقيته بعد شهر وأعاد علىّ حديثه المعاد رثيت لحاله ، ونصحته بأن يستشير الأطباء ، فلا بد أن فيهم من يقدر على شفائه ، فأجابنى إنه أصبح لا يطلب البرء ، بل إنه يريد أن لا تنقطع الرؤيا ، ذلك لأنه سوف يسعى سعيه ليجد تلك

الفتاة ، وقص عليّ أنه رأى في الليلة الفائتة لافتة مثبتة في شجرة ، وقد وضعها واضعها منذ أيام قليلة ! فهي لافتة حديثة الدهان ، حديثة الكتابة ، وقد رسم عليها سهم وكتب عليها بحروف كبيرة (البحيرة المفقودة — ٢٠ ميلاً) .

— وما معنى هذا ؟ .

— معنى هذا أنى سأجد فتاتى فى (البحيرة المفقودة) وهو المكان الذى تعيش فيه .

— وكيف عرفت أنها تعيش هناك ؟ وإنى لأظنك تمزح .

— بل إنى جادّ فيما أقول . ذلك لأن اللافتة تنبئ أن تلك البحيرة تبعد عن الجسر عشرين ميلاً . و (البحيرة المفقودة) بينها وبين مدينة (رابحل) عشرون ميلاً ، وقد لا أجدها فى أول يوم إذا بلغت البحيرة ، ولكنى لا بد ملاقيها قبل أن أعود .

— قد يكون هناك أكثر من بحيرة قد تسمت باسم البحيرة المفقودة ، وقد تكون البحيرة التى تعنيها فى الجانب الآخر من القارة كلها .

— لست أعرف على وجه التحقيق مكان ذلك الجسر ، ولكن هذا لا يقدم فى الأمر ولا يؤخر ! فإنى أستطيع أن أبدأ رحلتى من مدينة (رابحل) أو من أية ناحية أخرى ، ثم أطوف حول أرجاء البحيرة ، وأسأل فى كل نادٍ عن تلك الفتاة ، وقد يستغرق الطواف أسبوعاً ، ولكنى قد أفاجأ بلقائها فى أول محلة أحلّ بها .

فلما سمعت هـذا القول منه كنت أرى رأيه وأحس إحساسه على الرغم منى ، فإن وصفه للافتة التى فوق الشجرة وتفسيره الرؤيا قد كاد يقنعنى أن الفتاة هى جد موجودة ، وعلى هذا فقد عقدت العزم على أن أصحبه فى سفره ، ولذلك فقد سألته : ومتى أنت مرتحل ؟ قال : إنى مرتحل غداة غد ، ولكنى — مع الأسف — لا أستطيع أن أصحبك ، وإنى أصارحك القول أنى متخذها زوجة لى إذا لقيتها ، وهذا هو الأمل الذى ظل يراودنى سبع سنوات كاملة .

قلت لا أظنك تعنى أن تقول إنك لا بد واجد فتاة تشبه فتاة أحلامك .

وكان جوابه على هذا القول أن أخرج من جيبه خاتمين ثم وضعهما فى كفه لكى أراهما ، وكان أحدهما من الألماس ، وكان الثانى خاتم الزواج ، وقال : لقد ظل هذان الخاتمان معى سنتين كاملتين ، وما استطعت يوماً أن أريكهما ، إذ كنت أخشى أن تضحك منى ، ولكنى اليوم وقد وثقت من لقائها فإنى لا أرى ما يمنع أن تراهما .

— ولكنك لم تجدها بعد ؟ .

فظل صاحبنا لحظة لا ينطق ، ونظر إلىّ نظر الرتاب ، ثم قال : إذا كنت لا تصدقنى فماذا يمنعك من أن تراهننى على أنى لا بد ملاقيها ؟ .

وما إن سمعت هذا القول منه حتى تبدل شكى يقيناً ، بل لقد خيل إلى أنى أنظر إليها وأراها جالسة هناك فى الغابة ، فى خيمة شدت أوتادها على شاطئ تلك البحيرة ، وهى تنتظر مجىء صاحبها (هارى) ...

قال : هل تراهنى ؟ .

قلت : كلا ! فإنى مصدقك ! ...

(من الإنجليزية) مبارك ابراهيم

مسرح

مسألتان فى مقال — المسرح بعد نصف قرن — مع فرقة المسرح المصرى الحديث

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

مسألتان فى مقال :

جاء فى مقال الباحث الفاضل الدكتور الاهوانى بالعدد ٦٢٨ من (مسرح المجتمع) ما نصه : « والتمثيلية دخيلة على الأدب العربى ولم ينقلها العرب فى عصر الترجمة مع ما نقلوا من فلسفة اليونان وعلومها ، ولذلك كان توفيق الحكيم صادقاً فى قوله إنه يريد أن يعمل على إقرار هذا الضرب من الأدب فى لساننا ، ولن يستقر هذا اللون الجديد إلا إذا تعدد الأدباء الذين يؤلفون بهذه الطريقة ، وإلا إذا مثلت هذه المسرحيات على المسرح حتى تصبح قطعة من الحياة ... ولكن المسرح المصرى مع الأسف لا يزال طارئاً على الحضارة الشرقية لم يلق التأييد من الجمهور » .

وهذا كلام جميل ومفيد ، لكنه يتطلب مزيداً من البحث لتتم الفائدة المرجوة منه . فالقول بأن التمثيلية دخيلة على الأدب العربى قول صحيح لا خلاف عليه ، وإنما ينبغى أن يستتبع ذلك أن نتساءل : ولماذا لم ينقلها العرب فيما نقلوا عن الإغريق ؟.

ويتصل بذلك ، القول بأن المسرح لا يزال طارئاً على الحضارة الشرقية ؟ فهو أيضاً قول صحيح ، ولكنه يستلزم الإبانة عن الأسباب والعلل .

تلك هى المسألة الأولى التى أعتقد أننا فى حاجة إلى تفسيرها إذا كنا حقاً نريد أن نعمل على إقرار هذا الضرب من الأدب فى لساننا قبل كل شىء . ولقد سبق لى أن تناولت هذا الموضوع أكثر من مرة ، وحاولت معرفة رأى نقادنا وباحثينا فيه دون جدوى . فهل أطمع فى أن أعرف رأى الدكتور الأهوانى ؟!.

أما المسألة الثانية فيثيرها ما جاء فى نفس المقال : (وننتقل إلى سر ثالث يمتاز به فن الحكيم ، هو عنصر المفاجأة من أول التمثيلية إلى آخرها . فقد درجنا فى الأدب العربى أن نقرأ الأقاصيص ؟ فنحس وأنت تقرأ « الحكاية » أنك تعرف نهايتها ، ولكنك لا تستطيع إذا بدأت تقرأ تمثيلية من تمثيليات الحكيم أن تعرف ماذا يأتى بعد ذلك ولا كيف تتطور الحوادث ولا كيف يجيب المسئول ، وهذه هى العلة فى اللذة التى نحسها عند قراءة تمثيلياته والشوق الذى يدفعك إلى الاستمرار فى القراءة دون انقطاع ..) .

فهل معنى ذلك أن عنصر المفاجأة المستمر يعتبر من مميزات التأليف المسرحى بحيث لا يبلغ درجة الامتياز بدونه ؟ فما الرأى إذاً فى المسرحيات الإغريقية التى لا تعرف المفاجأة ولا التشويق بذلك المعنى ، وهى مع هذا أروع ما عرفه الفكر البشرى فى تاريخ المسرح ؟.

إنى لا أبتغى من وراء ذلك كله أكثر من أن أحض على تنوير الجمهور بمثل هذه المسائل الدقيقة ؟ إذ أن فى إثارة التفكير حولها ما يعينهم — وإيانا — على فهم هذا الفن العريق فهماً صحيحاً .

المسرح بعد نصف قرن :

انتهز بعض نقادنا فرصة بداية هذا العام — وتصادف أن كانت أيضاً بداية النصف الثانى من هذا القرن — فأخذوا يدبجون المقالات المطولة عن مستقبل الفنون ، ويتنبأون بمصايرها ، وكان من أعجب ما أجمعوا عليه أن المسرح سيزول عام ٢٠٠٠ وستحل محله السينما .

قد يكونون غير جادين كل الجد ؟ إذ اعتادوا دائماً محاولة إشباع القراء (بالطرائف واللطائف) لكن الأسلوب التأكيدى الذى اصطنعوه والبراهين — المنطقية — التى استندوا إليها ، وسهولة انطلاقها على أوساط الناس .. كل هذا يدفعنى إلى مراجعتهم على الأقل .

وقبل كل شيء أحب أن أذكرهم بأن هذا التكهن ليس من ابتداعهم ، وإنما نقله بعضهم عن مجلات أمريكية لا هم لها سوى الدعاية للسينما ، وسمعه البعض الآخر من (المستر هولوواى) حينما جاهر به في محاضرة عامة ألقاها في العام الماضي ، وخلاصتها أن المسرح سيفقد مكانته بسرعة ليفسح الطريق للسينما .

والواقع أن المسرح — ككل فن — تمر به فترات من الانحطاط ، ولكن الحكم بزواله نهائياً رجم بالغيب ينبغي أن يقابل بحذر شديد .

ولست أدرى لماذا نتبع المجلات الأمريكية ونصدق (المستر هولوواى) ولا نصدق من يقولون بغير رأيه وعكس رأيه من أعلام الأدب والنقد في أوربا ، مثل (دبهاميل) و (نيكول) و (بريستلى) .

فدبهاميل مثلاً يقول : إن السينما ليست من الفن في شيء .

ونيكول يعجب ممن يفاضلون بينها وبين المسرح . وعنده أنها مفاضلة مستحيلة إلا إذا جازت المفاضلة بين المصور والرسام والنحات والموسيقى .

وبريستلى يقرر العودة إلى المسرح والتأليف المسرحى ويعتبر قصصه التى لم تكتب للمسرح عملاً تافهاً ما كان ينبغى أن يضيع فيه ما أضاعه من سنوات .

ولا جدال فى أن خصائص الحضارة الحديثة ومقوماتها التى تأثرت بأساليب العصر الميكانيكية قد أصبحت تختلف بصفة عامة عنها فى العصور السالفة ذات الطابع المادى ، وكل هذا على حساب الفن والفنون بقدر ما ، ولكن ليس معنى ذلك أن الحياة كلها أصبحت خاضعة خضوعاً مطلقاً لتلك الأساليب ، فما زال الإنسان إنساناً ، وما تزال له مميزات نفسية وذهنية ، ولو قد جارينا الرأى القائل بانتهاء عهد المسرح لعدم تناسبه مع آلية العصر الحديث لأمكن كذلك أن نتكهن بأن فنون الرسم والتلوين والتصوير ستقضى عليها الفوتوغرافيا ، وفنون الأدب ستطيح بها نظريات الجبر وجداول اللوغاريتمات . إلى غير ذلك مما يخيفنا على مستقبل الإنسان إذ أن فى طغيان الماديات على المعنويات اندحاراً للقيم الإنسانية .

إنى أرجح أن فى تكهن المتكهنين من نقاد الغرب بسوء مصير المسرح تحذيراً لعشاقه ، ودعوة ضمنية إلى إصلاحه ...

وكنت أوثر أن تكون تكهنات كتابنا ونقادنا من هذا القبيل ولو تشجيعاً للقائمين على أمر المسرح المصرى الذين بذلوا فى الموسم الحالى جهداً منقطع النظير .

ولكن ما الحيلة ونقادنا « محظوظون » من طراز عجيب فهم لا يريدون أن يصدقوا أن الصحافة ثقافة وليست مجرد طرافة وإطافة ! ...

مع فرقة المسرح الحديث :

تفضل الأستاذ زكى طليمات بدعوتى لحضور حفلة الشاى التى أقامها فى فندق سميراميس منذ أسبوعين تكريماً للصحافة التى أولت فرقته الناشئة عنايتها من جهة ، وعناسبة موسمها بمسرح حديقة الأزبكية من جهة أخرى ، وقد لبى الدعوة جمع كبير من قادة الفكر والمعنيين بشئون الفن عامة والمسرح خاصة ، ثم تعاقب الخطباء ، فكان من أبرز ما قاله فكرى أباظه باشا أنه يأخذ على مؤلفينا قلة عنايتهم بمشكلات العصر الحاضر ، وكان من أبرز ما قاله معالى صلاح الدين بك أنه يجبذ — على طول الخط — تخفيض ثمن شهود المسرحيات حتى تكون فى متناول كل الطبقات ، كما يحبذ مضاعفة الإعانة المالية للفرق التمثيلية ، ثم كان من أبرز ما قاله الأستاذ زكى طليمات أنه يرحب بالقدح مثلما يرحب بالمدح ما دامت لهذا أو ذاك مسوغاته .

وكان من الملحوظ إجماع الحاضرين على مطالبة مؤلفينا بالاهتمام بحياتنا ومشكلاتنا الاجتماعية والقومية بدلاً من الاهتمام بالأحداث التاريخية ، وهذه فى الحق مسألة دقيقة أرجو أن أعود إلى مناقشتها .

وبعد لحسب الأستاذ زكى طليمات أن أتاح لى مشاهدة فندق سميراميس — من الداخل — والتمتع بمباهجه حيناً من الدهر كنت فيه شيئاً مذكوراً .

عبد الفتاح البارودى

مكتبة الثقافة

للأستاذ أحمد حسين الصاوي

الفلسفة الشرقية : تأليف الدكتور محمد غلاب — مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٠ — في ٣٠٦ صفحة كبيرة

يختلف المشتغلون بالفلسفة وتتشعب آراؤهم في تعريف التفكير الشرقي القديم ، فيرفض البعض منهم أن يعتبره فلسفة ، محتجاً بأنه كان يستمد آراءه ومذاهبه من التعاليم الدينية . ويطلق البعض الآخر على ذلك التفكير كلمة « فلسفة » بكل ما لها من معنى ودلالة ؛ وحجتهم أن هذا الاستمداد من الدين لم يحل دون إطلاق كلمة « فلسفة » على ما أنتجه مفكرو العصور الوسطى في أوربا من مذاهب وآراء ترتكز في كثير من أصولها على الدين والحياة الروحية .

والدكتور غلاب — في كتابه الذي نقدمه اليوم — يعتنق الرأي الثاني ، ويدافع عنه بحماس الشرقي وغيرته مع عدم الانحراف عن المنهج العلمي الصحيح ، ثم ينتهي به إلى نتيجته المنطقية ، وهي سابقية العقلية الشرقية على العقلية الإغريقية في إضاءة شعلة التفلسف والتفكير في الكون ومشاكله .

وللكتاب مقدمة وافية عرض فيها المؤلف الآراء المختلفة التي تناولت هذه المسألة وتفرعت عنها عرضاً علمياً ، وناقشها مناقشة منطقية ، مرجحاً رأيه في الشرق وفلسفته ؛ ثم أتبع المقدمة بستة فصول أرّخ فيها الفلسفات المصرية والهندية والفارسية والصينية والكلدانية والعبرية .

وقد فصل المؤلف الكلام في كل من هذه الفلسفات فشرحها وقسّمها ، ورتب أصولها ومناهجها ، وناقش مختلف الآراء فيها .

ويستطيع قارئ هذا الكتاب أن يلمس في يسر مدى ما أنفق فيه المؤلف من جهد مشكور ، ويقدر بذلك ما أداه للمكتبة العربية من خدمة جليلة .

ولنا بعد ذلك على الكتاب ملاحظة شكلية لا نعتقد مطلقاً أنها تقلل من قيمته ، وهي أن المؤلف يكتفي — أحياناً — في تعريب أسماء الأعلام بكتابتها كما تنطق في الفرنسية تماماً ، دون الرجوع إلى أصلها اللغوي الذي نقلت عنه إلى الفرنسية ، ودون ما تقيد بما تواضع عليه كتاب العربية من قبله من معرّبات تلك الأسماء . وقد أدى هذا بالمؤلف الفاضل إلى نوع من الاعتساف وعدم الدقة في تعريب بعض الألفاظ .

• • •

نظم الحرب في الإسلام : تأليف الأستاذ جمال الدين عياد — مكتبة الخانجي سنة ١٩٥٠ — في ١٣٠ صفحة كبيرة

كانت الحربان العالميتان اللتان تميز بهما النصف المنقضي من هذا القرن من أعنف التجارب التي مر بها الجنس البشري في تاريخه الطويل ؛ فقد اكتوى بآلامهما المحارب والمسالم على السواء ، وتجرع غصصهما المدني الآمن في بيته قبل الجندي المحارب في الميدان . ورأى العالم في هاتين الحربين كيف تمتهن المبادئ الإنسانية وتلغى قيود الشرف ومواثيقه ، وكيف يفتن الإنسان ويجهد عقله الجبار في اختراع كل جديد من آلات التقتيل والتدمير ، ووسائل الإبادة والإفناء . وها نحن ما نفتأ نردد حديث حرب ثالثة ، تنطلق فيها من عقالها تلك القوة الباطشة العمياء التي كانت حبيسة الذرة ، فتهدد كياننا وتراثنا الحضاري تهديداً خطيراً .

لا ريب أن هذه الحقائق وأشباهها قد طافت بذهن الأستاذ عياد قبل أن يخرج علينا بهذا الكتاب الذي يمثل الحلقة الثانية من سلسلة كتبه عن حكومة الرسول .

حاسة السمع

للاستاذ عبد البارى نعمت

لا إخالك إلا قد سمعت وسمعت مراراً كثيرة أناساً يتحدثون حول الأذن ، ويذكرون أن لها طبلة ، ولا إخالك إلا ظاناً ظنهم ومعتقداً معتقدهم ، أن هذه الطبلة لو خرقت لأصبح صاحبها أصم . ولكن عليك أن تعلم أن ليس لهذا الظن نصيب من الصحة ! فكثير من الناس قد خرقت طبلات آذانهم ، ومع ذلك لم يصبحوا صماً ، وكل ما حدث أنهم لم يعودوا يسمعون جيداً كما كانوا يسمعون من قبل .

وإنك لتعلم جيداً شكل الأذن من الخارج ، وما هي مصنوعة منه من مادة غضروفية يكسوها الجلد ، ما عدا طرفها الأسفل فهو لحمى ، وكذلك تعلم بوجود تجويف صغير بوسط هذه الأذن يبدو معتماً كجحر الأرنب ، إنه للممر الذي يسلكه الصوت في طريقه إلى مركز السمع ، وما هو إلا أنبوبة يبلغ طولها نحو بوصة .

وإذا حاولنا إلقاء نظرة على هذا التجويف العجيب الشأن ، فأول ما يصادفنا فيه ويقع نظرنا عليه منه ، تلك اللزوجة الشديدة التي تفرزها غدد كثيرة وتعمل عمل ورق صيد الذباب ، تصيد الغبار والحشرات التي قد تقتحم هذا الممر أحياناً وتمنعها من التغلغل فيه .

وإذا تيسر لنا التقدم قليلاً في داخل هذا الممر بعد المنطقة الشمعية اللزجة ، ولم تمنعنا هذه المادة وتعوق تقدمنا ، فإننا لا نلبث أن نجد جداراً يسد الطريق دوننا ! ذلك هو « طبلة الأذن » وقد أتى على الناس حين من الدهر ساد فيهم الاعتقاد بأن الطبلة هي مركز السمع ، ولكنها ليست كذلك قطعاً ، بدليل أن صاحبها رغم خرقها يستطيع السمع بقدر لا بأس به .

ولكن ماذا يوجد في الجانب الآخر من الطبلة ؟.

توجد عظيمات صغيرات ثلاث ، هن أغرب عظام الجسد كلها ، وقد أطلقت عليها أسماء لاتينية هي أسماء أشياء شبيهات بها ! فأطلق على أولاها كلمة (Incus) أي عظم السندان ، وأطلقت على الثانية كلمة (Malleus) بمعنى المطرقة ، وسميت الأخيرة بكلمة (Stapes) أي العظم الركابي لقرب الشبه بينها وبين ركاب السرج ، وتتصل هذه العظيمات الثلاث بعضها ببعض كما تتصل حلقات السلسلة ، ويتصل أحد طرفي هذه السلسلة بداخل الطبلة ، في حين تتصل نهايتها بالطرف الآخر من تجويف الأذن ، فكأنها تمتد من الطبلة حتى نهاية هذا التجويف .

وما هي وظيفة هذه السلسلة من العظام الدقيقة ؟.

إنها في الحقيقة من أعجب الوسائل لخفض الصوت ومنع وصوله مرتفعاً بشكل مزعج ! فالصوت يجعل طبلة الأذن تهتز كما تهتز نوافذ الدور من أثر صوت الرعد القاصف ، بيد أن اهتزازات طبلة الأذن متكررة ومزعجة ما لم تقلل هذه العظام من شدتها وتعمل على خفضها ، ومثل هذه العظام في ذلك مثل مسند القدم في البيانو ! فوضع القدم عليه يخفض من صوته كثيراً ! ومن العسير أن تفهم جيداً

ويتضمن الكتاب عدة مباحث توضح نظم الحرب في الإسلام ، تلك النظم التي فسرها وطبقها وضرب لها الأمثال محمد رسول الله في الأعوام الثمانية التي أرسى فيها قواعد حكومته الإسلامية الناشئة بيثرب .

ونلحظ في الكتاب إيمان المؤلف العميق وفكرته الإسلامية الواضحة ، إلى جانب ما يمتاز به من اجتهاد في استقراء الأحداث والنصوص واستنباط القواعد والأحكام ، ودقة في الإلمام بأطراف موضوعه وعرضه عرضاً مبسطاً واضحاً .

أحمد صبحي الصادق

تحمل هذه العظام ، ولكننا لو شبهناها بزمبرك العربة المركب بأسفلها لقرب الفهم إلينا كثيراً ، لأن هذا الزمبرك يحفظ راكبي العربة من الإحساس بعطبات الطريق ، وما قد تؤدى إليه من ارتجاج العربة وتأرجحها مما يزعج ركابها ، وكذلك تفعل عظام الأذن ، إذ تمنع عن صاحبها اهتزازات الطبلة العنيفة المزعجة .

والجزء من الأذن الذى يحوى المادة الشمعية يطلق عليه اسم « الأذن الخارجية » وهى تشمل الجزء الممتد من الخارج حتى الطبلة ، وتوجد بعد الطبلة مباشرة حجرة صغيرة تحوى عظام الأذن المتقدم ذكرها ، ويطلق على هذه الحجرة اسم « الأذن الوسطى » وبجانب ما تحويه هذه الأذن من العظام تحوى أيضاً شيئاً بالغ الدهشة ، إذ تخرج من أسفلها أنبوبة تمتد حتى تصل إلى الحلق من الخلف .

وإذا أجريت التجربة الآتية علمت شيئاً لم تكن تعلمه من قبل . اقفل أنفك ثم انفخه بأكبر قوة ممكنة ، فإنك لا تلبث أن تسمع نوعاً من الصوت المكدود وما هو بالصوت ، فهو أقرب ما يكون إلى الشعور منه إلى الصوت ، وعندما ترغب فى التخلص من هذا الشعور الغريب ابلع الهواء (ريقك) فإنه يذهب تواً ؛ ويتلخص ما تفعله وأنت تجرى هذه التجربة فى أنك تملأ الأنبوبتين المتصلتين بحلقك وبكل من أذنيك المتوسطتين بالهواء ، وعندما تبلع الهواء فإنك بذلك تعاود فتح هاتين الأنبوبتين فيخرج الهواء منهما ، والآن تستطيع أن تعلل كيف يعتريك الصمم عندما يصيب البرد أنفك ؛ فإن البرد يسد هاتين الأنبوبتين وقد يصل إلى داخلهما فيصيب الأذنين ويلحق بهما الالتهاب فيعتريك مرض شديد ، وقد يضطر الطبيب المعالج إلى عمل فتحة بطبلة الأذن لكى يهبك الشفاء ، وسوف لا تصاب بالصمم من جراء ذلك ، ولكنك سوف لا تستطيع السمع جيداً كما كنت تستطيعه من قبل .

ومركز السمع ليس فى الحجرة الصغيرة التى تحوى العظام ، كما أن عدسة العين ليست هى جزؤها المرئى ، بل يقع مركز السمع بعد الطبلة الداخلية المصنوعة من العظم ، فى حين صنعت الطبلة الخارجية من الجلد ، والطبلة العظمية فتحتان يغطيهما جلد رقيق ، وإحدى هاتين الفتحتين بيضاوية الشكل والأخرى مستديرة ، والعظمة الصغيرة الشبيهة بركاب السرج تناسب الفتحة البيضاوية تماماً وتثبت عليها ، فى حين أن الفتحة المستديرة طليقة لا يثبت عليها شىء .

ويمتلىء مركز السمع فى الأذن بالماء ، وهو ذو شكل غاية فى الشذوذ ، إذ يشبه أحد طرفيه محارة القوقعة ويشبه طرفه الآخر ثلاث عقد متجاورة صنعت من العظم وتمتلىء بالماء ، وإذا ما ضغطت العظمة الشبيهة بركاب السرج على الثقب المثبتة عليه اندفع الماء متحركاً بداخل مركز السمع وتبع ذلك انتفاخ الغشاء الجلدى الرقيق المغطى لثقب الطبلة المستدير ، وما من صوت إلا ويجعل الطبلة الخارجية تتحرك ، وما تتحرك هذه الطبلة حتى تتحرك العظمات الصغيرة أيضاً ، وتضغط إحداهن وهى الشبيهة بركاب السرج على الماء ضغطاً خفيفاً ، ومن هذا نعلم أن الضغط المسبب لحركة الماء فى داخل مركز السمع هو الذى يجعلنا نسمع لأنه يثير الشعر النامى بجدران مركز السمع فى وسط الماء ، وإن الأثر الذى يحدث عند تحريك أوتار القيثارة كالأثر الذى يحدث عندما تحرك الشعيرات السالفة بمركز السمع .

وفضلاً عن أن عقد الطبلة العظمية تساعدنا على السمع فهى تحفظ توازننا ، وإذا كسرت إحداهن لسبب من الأسباب فإن صاحبها يترنح فى مشيته كما يترنح المخمور من أثر الخمر ، ولسنا بمستطيعين تعليل ذلك إنما هى الحقيقة بعينها .

واعلم رغم كل شىء أن مخك هو الذى يجعلك تسمع ، إذ تتصل كل أذن بالمخ رأساً بواسطة سلك برقى (الأعصاب السمعية) كما تتصل به كل عين . ولو قطع هذا السلك أصبت بالصمم ولو كنت سليم الأذنين .

واعلم كذلك أن من وقر الأذن أى صممها أنواعاً كثيرة ، وأخفها ما نشأ عن وجود قدر كبير من الشمع بتجويفها ، وعلاج ذلك متيسر وشفاؤه مضمون لو غسلت الأذن جيداً وأزيل منها القدر الزائد من الشمع ؛ وكذلك تصاب الأذن بالصمم إذا اعترى جزءها المتوسط مرض ، وغالبا ما يشفى هذا النوع من الصمم إذا لم يهمل علاجه ، ولكن إذا وصل المرض إلى مركز السمع حيث يوجد الماء ، فإن الصمم الناشىء من ذلك لا يرجى شفاؤه ، وكذلك إذا أصيب الجزء من المخ الذى يساعد على السمع بإحدى العلل فإن صاحبه يصبح ذا أذن صماء طالما بقى على قيد الحياة .

عبد البارى نعمت

بجوار الموت

(بقية المنشور على صفحة ١٦)

الجد : لا أدرى ... فى حجرة أخرى ... فى أى مكان آخر .

الأب : وأين نذهب نحن ؟ .

العم : لا حاجة بنا إلى هذا السؤال ...

(صمت)

الجد : ماذا أسمع ؟..

إحدى البنات : لا شىء ... ربما كان حفيف الأوراق الساقطة على الشرفة .

الجد : اقفلى النافذة ، فأنا أشعر بالبرد .

(البنت تغلق النافذة وتعود لتجلس)

الجد : وماذا أسمع الآن ؟ .

البنت : لا أدرى يا جداه ...

الجد : إننى خائف يا فتاتى !..

(وهنا تنفذ أشعة القمر خلال الشباك ، وتدق الساعة منتصف الليل ... وبعد آخر دقة يسمع صوت خافت كذلك الذى يحدث عندما ينهض إنسان من جلسته فى سرعة ...)

الجد : من الذى قام من بيننا ؟ .

الأب : لم يقم أحد .

العم : الضوء ... الضوء !..

(يسمع بكاء طفل رضيع)

الأب : أنصتوا ... إنه الطفل الرضيع ...

العم : فلنذهب لنرى ما هناك .

إحدى البنات : الضوء ... الضوء ! ...

[يفتح باب مرقد الأم ، ويتدفق منه الضوء ، وتظهر الراهبة التى كانت تمرضها ، فتحنى رأسها فى صمت ، وتشير إشارة الصليب ، علامة الموت ... فيفهم الأب والعم والبنات الثلاث أن الأم قد انتهى أجلها ... ويسرعون إليها ... ويبقى الجد الأعمى وحده متخبطاً حول المائدة ، وهو يصيح ...]

الجد : أين تذهبون ؟.. أين أنتم ؟!. لقد تركونى وحدى !.. تركونى وحدى فى الظلام !..

— المخلص —

م٠ع٠م٠

إذاعة الهند العربية

تنظم مسابقة لأحسن تمثيلية

تقيم إذاعة الهند العربية مسابقة لاختيار أحسن تمثيلية عربية للإذاعة من محطة دلهى .

ويشترط أن تكون التمثيليات المقدمة للدخول فى هذه المسابقة ذات فكرة أصلية غير مقتبسة وغير مترجمة ، ومكتوبة باللغة العربية الفصحى ، ولا يزيد الوقت المخصص لإذاعتها عن نصف ساعة ، ولا يقل عن ربع ساعة ، ولا يزيد عدد الأصوات المشتركة فيها عن خمسة رجال وسيدتين .

وترسل التمثيليات إلى مكتب مراقب إذاعات الهند بميدان سليمان باشا رقم ١ ، فى موعد لا يتجاوز يوم ٢٨ فبراير ١٩٥١ ، على أن تكون مكتوبة على الآلة الكاتبة ، أو بخط اليد الواضح على صفحة واحدة من الورقة .

وتتولى لجنة تنتخبها إذاعة الهند فى القاهرة فحص ما يصل إليها من تمثيليات وقرارها نهائى .

وستمنح الجوائز التالية الثالية للفائزين :

٢٥ جنيهاً مصرياً للفائز الأول .

٢٠ جنيهاً « للفائز الثانى والثالث .

١٥ جنيهاً « للفائز الرابع والخامس .

ويعتبر منح الجوائز تنازلاً من جانب المؤلف عن كافة حقوقه فى التمثيلية لصالح إذاعات الهند .

وستقبل إذاعة الهند عدداً من المسرحيات التى لا تحصل على جائزة ، لإذاعتها من محطة دلهى مقابل أجر تدفعه للمؤلف .

الثقافة

العــدد ٦٣٤
١٩ من فبراير ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

من بريد الثقافة

رد على نقـــد

إلى حضرة الأديب الألمعي السيد محمد عبد الغني حسن :

أبثكم من دمشق خالص التحيات ، وأرجو أن تظلوا موفقين دائماً فيما تدبجه يراعتكم من بحوث أدبية شيقة ، وثقوا بأني أقرؤها منذ سنين في مجلات القطر المصري الشقيق ، وأني من المعجبين بها .

ولقد طالعت اليوم في « الثقافة » نقدكم لكتاب « تطور الزراعة في الشرق الأوسط » ، فراقني تلخيصكم لبعض مواضيعه تلخيصاً حسناً ، على حين أنه كتاب علمي قلما يستسيغ الأدباء تلاوة أشباهه من الكتب ، وقلما يقدمون على الخوض في أعماقها الجافة .

ويهمني إطلاعكم على أن السيد أمين نظيف مترجم الكتاب هو أحد تلاميذي القدماء ، وأنه يتقن الانكليزية فضلاً عن تضلعه بالعلوم الزراعية ، وبناء على توصيتي له ترجم الكتاب ترجمة دقيقة لا شك فيها ، ولكن لما كانت معرفته بالمصطلحات الزراعية ضعيفة (كمعظم مهندسي الزراعة في البلاد العربية أو كجميعهم) عمدت إلى الترجمة فأعدت إنشادها كلها ، وحرصت كل الحرص على أن لا أبدل شيئاً من المعاني ، وأن لا أضيف إليها شيئاً من عندي . فليس لي إذاً رأي خاص إلا في الهامش ، ولذلك يمكن القول بأن الترجمة مضبوطة ولكنها ليست ترجمة حرفية كما يقولون .

وهذا هو تفسير قولي بأني تصرفت تصرفاً قليلاً ، فالتصرف القليل الاضطراري إنما كان بالإنشاء لا بالمعاني ولا بتبديل مواقع الجمل .

وبعد لقد كتبت إليكم هذه الرسالة لكي أشكر لكم التنبيه على أن (الوادي) لا تجمع على وديان ، وأن الإعاقة لم ترد في الأمهات من معجماتنا ، وأني إذ قلت : العدي والبخس جمع أعداء وبخوس) كان يجب أن أقول : العدي والبخس (وجمعهما أعداء ، وبخوس) أو (ج . أعداء وبخوس) اجتزاء لكي لا يفهم القارئ خلاف ما أردته ! وجل من لا عيب فيه .

ومني إليكم أطيب التحيات والله يحفظكم والسلام .

(دمشق)　　　الأمير مصطفى الشهابي

من أســـئلة القراء

يسأل القارئ الشاعر أنور الناصري (بغداد — العراق) عن مصير قصيدته (النشيد الأخير) ، ولعله يتصفح العدد رقم ٦٣١ من (الثقافة) فيجد قصيدته العصماء في الصفحة رقم ١٩ منه .

مطبـــوعات

وصلتنا في (بريد الثقافة) هذا الأسبوع المطبوعات التالية :

- مجلة (رسالة المغرب) الأدبية ، العدد ٩٣ ، السنة العاشرة ، وهي تصدر بمدينة الرباط — جريدة (الأسبوع) العدد ٢٤٠ ، السنة السادسة .
- مجلة (الكتاب) الشهرية الأدبية ، السنة السادسة ، الجزء الثاني ، المجلد العاشر ، فبراير ١٩٥١ تصدرها دار المعارف بمصر .
- مجلة (يقتنج) Bint ng الأندونيسية .
- العدد ٤٠ من نشرة صوت الهند — نشرة أنباء اليونيسكو — برنامج الإذاعة العربية من محطة لندن — نشرة المكتب الثقافي المصري باللغة الإنجليزية التي تصدر في لندن (عدد ٥١) .
- مجلة (الهدي النبوي) التي تصدرها جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر ، العدد ٥ ، المجلد ١٥ ، جمادى الأولى سنة ١٣٧٠ هـ .
- نشرة (انجلترا اليوم) Britain to Day ، عدد يناير ١٩٥١ ، وهو عدد خاص بالكاتب الكبير برناردشو ، وفيها صور عدة لهذا الراحل العظيم كرجل وفني وأديب صاحب مدرسة فذة .
- النشرة السنوية للمطابع الجامعية بباريس .

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتيــــاز
الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٣٤ | الاثنين ١٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٠ — ١٩ من فبراير سنة ١٩٥١ | السنة الثالثة عشرة

مستـــــــقبل العرب

للدكتور حسين مؤنس

الدوائر السياسية فى بلاد العرب مشغولة بأمر المستقبل : كل دولة تفكر فى أمر غدها وتدرس الأوضاع السياسية العامة لتعرف أى طريق تسلك ، ولتقرر من الآن الموقف الذى ستتخذه إذا وقعت الحرب فى الغد أو بعد الغد ، والجامعة العربية تنظر فى موقف العرب جملة ، وتدرس علاقاتهم بهذه الدولة أو تلك لتوجه سياسة العرب جميعاً وجهة عربية . مجالس تجتمع وتنفض ، ولجان تنعقد وتنثر ، وتقارير تكتب وتقرأ وتدرس ، وبيانات تعطى أو تطوى ، وخطابات تلقى وتذاع ، وتصريحات تتفرق ذات اليمين وذات الشمال ..

وفيما بين ذلك كله تكتب صحف العرب فى الموضوع ، فلا تفتح صحيفة إلا قرأت فيها أن العرب ينبغى لهم أن يصنعوا كيت وكيت ويفعلوا كذا وكذا ، والصحفيون يهرعون إلى الكبار والزعماء وأولى الحل والعقد يستفتون ويسألون ويستجوبون ، وفى كل يوم تظهر الصحف حاملة ثروة ضخمة من الكلام والآراء ..

وما نتيجة ذلك كله ؟ لا شىء ...

لم تقرر دولة عربية موقفها فى شىء من الوضوح ، ولم تتخذ واحدة منها موقفاً تستطيع تحديده ، ولم توفق الجامعة العربية إلى توجيه العرب وجهة واحدة ، كل شىء يجرى وحى الساعة والمصادفات : فى مسألة كوريا وقف العرب مواقف متعددة ، وفى مسألة الصين خرج العراق ولبنان عن إجماع العرب .

وأحب أن أريح القارئ من عناء هذا الموضوع وأؤكد من الآن أن العرب لن يتخذوا قراراً لا فرادى ولا جماعة ، ولن تحدد دولة منهم موقفها ، وإنما ستجئ الحرب وستجد كل دولة نفسها فى مكان ما حسب ما تمليه الظروف وحسب ما تقرره الدول الكبرى ، بالضبط كما حدث أمس وأول أمس ، وكما جرى فى تاريخ العرب الطويل ..

ولست أقول هذا الكلام رجماً بالغيب ولا شقشقة كتابة ، وإنما أقوله بناء على حقيقة مقررة من حقائق النفس العربية والشرقية عامة ، وهى أن الإحساس بالمستقبل غير موجود فى هذه النفس ، ولفظ الغد لا يعنى فى حسابها شيئاً ، إنما الشرقى رجل يعيش من يوم ليوم يشغله أبسط حاجات يومه عن أكبر حاجات غده ، ويشغله طعام الساعة عن مثوبة الساعة التى تليها ..

ولكى أوضح هذه الحقيقة أقول إن الإحساس بالمستقبل ملكة خاصة توجد مركبة فى نفوس بعض أجناس البشر

ولا توجد عند غيرها ، وتربى وتنمو عند بعضها ولا تنمو عند بعضها الآخر . والمراد بها تلك الإحساس الغريزى العميق الذى يحفز الإنسان على التفكير فى أمر الغد والاهتمام بشئونه والتدبير له . وهى ملكة نلاحظها عند الغربيين فرادى وجماعات . نجدها فى دأب الرجال على العمل وحرصهم على الادخار والتدبير . وتفكيرهم المستمر فى مسائل الغد وحاجاته . إن الواحد منهم لن يطمئن له جنب فى الليل إلا إذا اطمأن على مصيره فى غده . وإذا عمل عملاً نظر فيه إلى الغدوات المقبلة ، فيؤديه متقناً مستوفياً صالحاً كافياً لأيام كثيرة ؛ فعند الألمان مثلاً لا ينام الرجل إلا إذا ادخر شيئاً ، ولو بضعة ملاليم . وعند البروسيين منهم تقليد يرعونه ، هو أن الوساد لا يكون وساداً إلا إذا كان تحته « بالشيء » وهى عملة فى قيمة المليمين ..

أما إحساس المستقبل فى الجماعات الغربية فتراه ظاهراً ماثلاً فى الاهتمام بتقرير أمور الحكم والمال على أسس ثابتة ، والحرص على إعداد العدة الحربية الكافية لحماية أرض الوطن فى كل مناسبة ، والاجتهاد فى إقامة المنشآت العامة كالطرق والقناطر وخطوط سكك الحديد ومؤسسات التعليم والعلاج وما إلى ذلك ..

وهذا الاهتمام كله يرجع فى أصله إلى طبع ركب فى نفوس الغربيين مع الزمن . فهؤلاء أقوام نشأوا فى بلاد باردة لا يطمئن الإنسان فيها إلا إذا بذل جهداً عظيماً ، ولا ينال رزقه إلا بعد كد وتعب . وتتغطى الأرض بالثلج شهوراً طويلة من السنة ويتوقف الزرع والضرع ؛ فإذا لم يكن الرجل قد دبر لنفسه معاشه خلال هذه الأشهر الطويلة هلك . وقد هلكت بالفعل منهم أجيال وأجيال ، هلكت واندثرت ولم يبق إلا المدبرون اليقظون الذين لا تغفل لهم عين ولا يستقر لهم جنب ، إلا إذا ضمنوا الغد قبل أن يضمنوا اليوم . وإلا إذا عرف الواحد منهم أن عنده من الطعام ما يرد عنه غائلة الموت جوعاً أثناء أشهر الشتاء الطويلة .

ثم إن الطبيعة هناك بخيلة بخيرها ، فالأرض صخرية عاتية لا تفلح إلا بعد جهد طويل ، وكلما أقبل الشتاء وهبط الثلج تحجرت من جديد ، وكان على صاحبها أن يبدأ العمل كله مرة أخرى . أى أنه لا يعيش فيها إلا الشديد الأيد المكافح الثابر الذى يعرف بالبديهة أن الحياة كفاح وتعب ، فإذا لم يعوّل الإنسان على التعب والكفاح فلا حياة له ولا وجود . وقد عملت الطبيعة عملها فى أجيالهم بانتظام ، فأهلكت الضعفاء والهملين والعاجزين ، ولم تُبق إلا القوى الصالح للبقاء حقاً . وكل أوربى تراه إنما هو بقية عشرة هلك منهم تسعة فى الكفاح الطويل ، فهو واحد بعشرة ، ورث عن الهالكين تجاربهم وتركزت فيه ثمرات كفاحهم ، واستقرت فى نفسه عبر مصارعهم .

من هنا نبتت فى قلب الغربى عواطف الغد وعصب الإحساس به ، وأصبح الواحد منهم يعيش بعيون مفتحة واسعة إلى الغد ، وأصبح المستقبل فى ذاته إحساساً غريزياً مركباً فى طبعه .

أما نحن فقد نشأنا فى بيئات رخوة لينة تجود بخيرها بأقل مجهود ، أو بيئات جافية قاحلة ليس فيها من الخير شيء تجود به ، وكلا البيئتين لا تدفعان الإنسان على التفكير فى الغد أو الإحساس به . فأما صاحب البيئة الرخوة فهو فى أمن من الغد ، مطمئن إلى أن الله يدبر له رزقه كما يدبر طلوع الشمس ، وأما الثانى فيائس من المستقبل والحاضر والزمان كله ، يعوّل فى حياته على ما يصيبه فى ساعته ، فإن وجد طعاماً أكل وإلا طوى نفسه على الجوع كما تفعل القطا والضباب فى الصحراء .

وعندنا قصة لطيفة تمثل نظرة الشرقى للمستقبل أصدق تمثيل : قصة شائعة يعرفها كل الناس ، تتواتر على شفاه الشارقة على أنها جماع فلسفة الحياة ، ويرويها الغربيون عنا على أنها جماع الحكمة عن سر البقاء ، هى قصة ذلك الإسكاف الذى أتاه رجل بنعل يخصفه ، فنادى زوجه وسألها : هل بقى لدينا شيء ؟ فقالت : « لدينا ما يكفى اليوم وغداً » ! فنظر الإسكاف إلى الرجل وقال له : « إذاً تأتينى بعد غد » ثم استلقى على الأرض وأرسل بصره يتأمل جمال السماء .

وتاريخنا الماضى كله صور متعددة الألوان لهذه القصة ، فقد تعودنا على أن ننظر ليومنا فحسب ، وعلى ألا نترامى بأبصارنا إلى ما وراء ما يبدو ماثلاً لأعيننا .

ولا يختبر موقف الشرقى من المستقبل مهما تهدده

الأخطار ، فقد تجد الدولة الإسلامية نفسها وجهاً لوجه أمام عدو لا يُخفي مطامعه ولا يستتر خطره ، ويتحرك العدو للهجوم عليها وينوش أطرافها ، فلا يعمد أهل الدولة إلى تدبير أمر الغد أو النظر في إنقاذ أنفسهم ، بل يكون همهم ما يشغلهم أيام السلم والرخاء ، فقد كان المغول على أسابيع من بغداد ، وكان رجال الدولة العباسية يعرفون تمام المعرفة أن هولاكو سائر إليهم ، وكتب إليهم الرجل نفسه يؤكد ذلك ، وأخذت جيوش التتر تقترب يوماً بعد يوم ، فهل تحسب أن رجال الدولة فكروا في أن يعدوا للأمر عدته ويوحدوا كلمتهم ولو لبضعة أسابيع حتى يزول الخطر ! ... بالطبع لا ، إنما انصرفوا إلى التدبيرات والمشاحنات ، ووجدها بعضهم فرصة ليثأر من أنداد له أساءوا إليه بالأمس ، وبلغ الأمر ببعضهم أن فرق معظم الجيش ، ولم يكن للخليفة هم إلا أن يحافظ على أمواله ...

ثم سقطت بغداد وأهلك التتار أهل بغداد ولم يبقوا على واحد من المتخاصمين . ونحن نقرأ هذه الأخبار ونعجب لأولئك الناس الذين شغلتهم تفاهات اليوم عن متاعب الغد ، ونعجب من أنهم كانوا يحسون الكارثة القادمة ويعرفون أن مصيرهم كلهم إلى الهلاك فيها ، ومع هذا لم يصرفهم ذلك العلم عن الاسترسال فيما كان يشغلهم من قبل من سفاسف ومخاذلات ، ولكن لا محل للعجب . لأن أولئك الناس كانوا يعيشون في يومهم وحسب ! لا ينبض في نفوسهم عرق المستقبل ، لأنه غير موجود ! ومن ثم فقد سار بهم الزمن إلى الكارثة وهم لا يكادون يفعلون شيئاً .

ومثل ذلك حدث عندما نزل الصليبيون الشام وأنشأوا لأنفسهم دولاً في بلاد المسلمين ، وقسموا أنفسهم جماعات يجتاح كل منها ما يليه ، أتظن أن أهل هذه البلاد تنبهوا إلى المصير الأسود الذي كانوا يسيرون إليه ؟ بالطبع لا ، ظل أصحاب الموصل يكيدون لأصحاب دمشق ، وأهل مصر يدبرون على أهل الشام ، بل يحالفون العدو عليهم ، وعندما ظهر عماد الدين زنكي واجتهد في توحيد صفوف المسلمين لم يكن لدمشق هم إلا أن تناوئه وتدبر عليه ، وتحالف النصارى ، مما تجده معروضاً أحسن عرض في حياة « أسامة بن منقذ » ، ولم يزل أمر المسلمين على ذلك والعدو يذلهم ويسقيهم الصاب حتى رزقنا الله بصلاح الدين ، فأرغمهم على الوحدة واستولى على بلاد المناوئين بحد السيف ، وما كانوا ينظرون إليه إلا على أنه عدو لهم ، مع أنه كان يسعى لما فيه صلاح أنفسهم .

ومأساة الأندلس الكبرى مرجعها إلى انعدام ذلك الإحساس ؛ فقد كان من الجلي الواضح لكل إنسان في الأندلس أن النصارى لن يهدأ لهم بال إلا إذا استولوا على بلاد المسلمين كلها وأزالوا دينهم ولغتهم ، وكانت الأخبار تتوالى عليهم بسقوط المعاقل وذل المسلمين وهوان الإسلام وتحول المساجد الجامعة إلى كنائس . أتظن أن ذلك حفز أمراء الأندلس على السعي في الوحدة والنظر للغد ؟ بالطبع لا ، إنما كان همهم مكايدة بعضهم البعض : ابن عباد في إشبيلية يكيد لابن الأفطس في بطليوس ، وذو النون في طليطلة يدبر لابن هود في سرقسطة ، بل يستسيغ الواحد منهم أن يؤدي الجزية للنصارى ، ولا يستسيغ أن يأتلف مع جاره المسلم . وأخذت المعاقل تهوى واحداً في إثر آخر ، فلم يتعظ الناجون ، بل سدروا في غيهم حتى ضاعت الأرض كلها ، ولم يبق إلا جنوب شبه الجزيرة يشترك في الدفاع عنه بنو الأحمر وبنو مرين ، فما زالوا يتخاصمون ويتدابرون حتى ابتلعهم الطوفان .

وعسى من يقول : كان هذا في الماضي ، أما اليوم فقد أفاق العرب واستيقظوا ! وذلك وهم شديد ، فلا زلنا كما كنا لا نفكر إلى أبعد من أنوفنا ؛ وأحداث السنوات الماضية تنطق بأجلى بيان ، وذلك لأن المسألة هنا مسألة طبع وتكوين ، وليست مسألة يقظة أو غفلة ، ولن تستطيع مهما فعلت أن تغير طبائع الناس ..

أحب أن تعرف كيف يكون موقف أممنا إذا جد الجد ووقعت الكارثة ؟ إذاً فسل أولئك الذين وهبهم الله إحساس الغد والاهتمام بأمره ، سل أولئك المقيمين في لندن وموسكو وواشنطن ، هؤلاء هم الذين يعرفون . أما نحن ، فهمنا يوم ، يوم مما يعدون أو مما لا يعدون ، يوم والسلام .

حسين مؤنس

قصة الكتب الإضافية

للدكتور أحمد أمين بك

ما كنت آبه للنقد الذي وجهه الأستاذ سعيد العريان وزملاؤه ، لولا أنهم أمعنوا في النقد وبالغوا فنالوا من شرفي ، ونشروا ذلك في جريدة الأهرام والكتلة والنداء والبلاغ . فأحببت أن أشرح القصة كما أعلمها .

شرفني معالي وزير المعارف الدكتور السنهوري باشا برياسة لجنة تنظر في كل ما يتعلق بترقية اللغة العربية . وكان من أعضائها المفتشان الأولان للغة العربية : الأستاذ محمد علي مصطفى والأستاذ سليمان منصور ، والأستاذ إبراهيم مصطفى بك عميد دار العلوم ، والدكتور القوصي عميد معهد التربية ، والمرحوم علي بك الجارم . وكان ذلك بمكافأة لا تتجاوز ستة جنيهات في الشهر لم تقرها وزارة المالية إلا بعد أكثر من سنة ، ومع ذلك مضينا في عملنا .

وكان أول عمل قمنا به دراسة اللغة العربية في المدارس بفروعها المختلفة ، من مطالعة وقواعد وأدب وبلاغة . واستعنا في ذلك بالخبيرين والخبيرات من مصريين وأجانب . ومكثنا في ذلك نحو سنتين . ووضعنا تقريراً مفصلاً رفعناه إلى معالي الوزير . وكان التقرير محل إعجاب رجال الوزارة وأساساً للمؤتمر الثقافي الأول للجامعة العربية الذي عقد في لبنان ، وكان هذا التقرير أيضاً أساس وضع منهج لمراحل التعليم المختلفة من رياض أطفال وابتدائي وثانوي .

وعهد إلى هذه اللجنة على هامش عملها النظر في الكتب الإضافية المقررة في المدارس الثانوية ، وكان الغرض من هذه الكتب غرضاً نبيلاً يرمي إلى هدفين : تشجيع المؤلفين المصريين على التأليف في الأدب ، وتشجيع الطلبة على قراءة الكتب الأدبية . وقامت اللجنة بهذه المهمة ؛ فكانت تقرأ الكتب قراءة عميقة وتختار أحسنها ، وقد تعمد إلى أن تقترح على المؤلف تغيير كلمة أو تعديل صحيفة أو فصل في الكتاب ليتناسب مع الطلاب . ولم تخطئ في ذلك خطأة واحدة — لا كما حدث بعد ، من تقرير كتاب للأستاذ محمود بك تيمور لطالبات المدارس الثانوية ، وقد اعتذر تيمور بك لأن الكتاب لا يتناسب مع الطالبات ، لأنه يمثل فتاة فتانة في شارع عماد الدين .

وقد راقبت اللجنة الله في عملها ؛ فلم تقصد إلا إلى مصلحة الطلبة واستفادتهم من الأساليب المختلفة لشيوخ الأدب في العصر الحديث ، فلم تنظر إلى حزبية ما ، فاختارت لزعيم حزب الأحرار الدكتور حسين هيكل باشا ولبعض التابعين من الوفديين أمثال الدكتور طه حسين باشا ولبعض النبغاء من السعديين كالأستاذ عباس محمود العقاد ولمن ليس لهم لون حزبي ، كالمرحوم الجارم بك والأستاذ تيمور بك . والمتوفين رحمهم الله ، مثل شوقي بك وحافظ إبراهيم بك ومصطفى لطفي المنفلوطي . وساعدت أشهر الناشرين جميعاً أمثال مكتبة المعارف ومكتبة النهضة ولجنة التأليف والترجمة والنشر ومكتبة الآداب وغيرهم ممن لا يزالون يترحمون على هذه اللجنة إلى اليوم . ولم تسمح لأي مكتبة أن تحتكر توريد الكتب كدار المعارف سواء كان مطبوعاً عندها أو لا .

وقد اقترح كاتب هذه السطور على اللجنة في أول جلسة من كل سنة ، ألا يختار كتاب لرئيس اللجنة ولا أحد من أعضائها كما هو مدون في محاضر الجلسات المودعة في الوزارة ، فأبى ذلك المرحوم علي الجارم بك بحجة أن ليس من العدل حرمان مؤلف جيد لأنه عضو في اللجنة ، والأستاذ إبراهيم مصطفى بك بحجة أن رائد اللجنة اختيار أحسن الكتب بقطع النظر عن كون المؤلف عضواً في اللجنة أم لا . وكان حضرات الأعضاء يبدون آراءهم بكل شجاعة . فقد اقترح مثلاً بعض الأعضاء جزءاً من فيض الخاطر ، ولكن الأستاذ

محمد علي مصطفى عارض في ذلك بكل قوة ، لأن الكتاب مجموعة مقالات لا وحدة بينها ، وعارضه بعض الأعضاء في ذلك ، ووافقه رئيس اللجنة ولم يقرر الكتاب . وهذا هو السبب في أن اللجنة لم تختر وحي الرسالة للأستاذ أحمد حسن الزيات ، ولا كتاب وحي القلم للأستاذ الرافعي ، مع إلحاح معالي الأستاذ علي أيوب بعد هذا في ذلك .

وقد اعترض الأستاذ سعيد العريان على اختيار كتاب زعماء الإصلاح ، واعتقد أنه ظفر بحجة قوية مع أنها مسألة عرضية . فالانتقاد الجوهري إنما يكون موجهاً إلى الكتاب نفسه وقيمته . والكتاب بحمد الله قد حاز رضا كل الطلبة وقرأه الطلبة وأعضاء أسرهم ، ورضي عنه المدرسون بشهادة تقارير المدرسين المحفوظة بالوزارة . واقترح سعادة عمر باشا على وزارتي المعارف والخارجية ترجمة هذا الكتاب ؛ لأنه سيكون أكبر دعاية لمصر ، فلما لم تجيبا طلبه اشتغل هو وبعض المصريين المقيمين في لندن بترجمته وقد كاد يتم . واتفق سعادته مع دار من دور النشر الانجليزية لنشره . فهل كل هذا يصرف النظر عنه ويتعرض لمسألة عرضية بحتة ، وهي أن الكتاب صدر في سبتمبر وقرر قبل صدوره ؟ والحق في هذه المسألة أن الكتاب صدر مقالات متتابعة في مجلة الثقافة قبل ذلك بنحو سنتين ، واطلع عليه أعضاء اللجنة وغيرهم وأعجبوا به . وقد صادف أن الأستاذ محمد علي مصطفى لم يكن قد اطلع على هذه المقالات وأبى أن يقره حتى يطلع عليه ؛ فأحضرت له ملازم مطبوعة من الكتاب فقرأه وأقره في الجلسة التالية . وليس بصحيح أن أحداً من الأعضاء قرر الكتاب قبل ظهوره . ويطنطن الأستاذ بكثرة الربح ، لأن وزارة المعارف اشترت منه نحو ٣٠ ألف نسخة . والحق أنها اشترت نحو هذا العدد لطلاب سنتين متتاليتين ، وفي السنة الأولى اشترت الوزارة الكتاب بثمانية وعشرين قرشاً للنسخة الواحدة ، وكان يباع في الأسواق بأربعين قرشاً . وفي السنة الثانية جمعت لجنة تمثل فيها وزارة المعارف والمطبعة الأميرية ودار الكتب ، وقررت أن تشترى الكتب المقررة بثمن ورقها وطبعها وزيادة عشرين في المائة ربحاً للمؤلف والناشر ، وعلى ذلك قررت اللجنة أن يكون ثمن الكتاب ٢٤ قرشاً . واعترض على ذلك الدكتور طه حسين في كتابه الأيام ولم يقبل هذا التقدير ، والأستاذ العقاد في كتابه عبقرية عمر ، والأستاذ توفيق الحكيم في كتابه يوميات نائب في الأرياف ؛ فرفع الربح إلى ٣٥ ٪ . وعرض الأستاذ الدمرداش بك محمد على مؤلف زعماء الإصلاح أن يعامل كتابه بزيادة ٣٥ ٪ كهؤلاء المؤلفين ؛ فأبى لأنه عضو في اللجنة ولا يحب أن يسمع أية كلمة تنال من شرفه . وباع الكتاب للوزارة بأربعة وعشرين قرشاً لا غير . وكان ربحه في السنة الأولى بعد ثمن الورق والطبع ٢٨٠ جنيهاً ، وفي السنة الثانية ٢٤٠ جنيهاً ، فهل يستكثر الأستاذ على أديب أن يربح ٥٢٠ جنيهاً في سنتين ، مع أنه قد يربح بائعو السجائر أكثر من هذا ، وقد يربح حتى بائع الخنازير أضعاف هذا المبلغ . ولكن كما يقول المثل العامي : اللقمة في يد اليتيم عجب . وهل يستكثر حضرته ذلك ولا يستكثر ربحاً من كتاب له .

ولما ولي وزارة المعارف معالي علي أيوب بك اضطهد اللجنة ، وقرر من غير أخذ رأيها كتاباً للأستاذ أحمد الصاوي ووحي الرسالة للأستاذ أحمد الزيات ؛ فاعترضت اللجنة على أنه لم يؤخذ رأيها وطلبت الكتابين لتقرأهما حتى إذا كانا صالحين قررت في أية سنتين يطالع الكتاب ؛ فلم يرض معالي الوزير بذلك وقال : كيف تفرض اللجنة رأيها على الوزير . وأمر بإجراء تحقيق مع مدير التوريدات ، إذ طلبت اللجنة منه الكتب فأرسلها . ولما كثر الاحتكاك بين اللجنة والوزير واستكثر عليها أن تعقد مرة في الإسكندرية لوجود أكثر الأعضاء بها ، قدم رئيس اللجنة استقالته منها وتضامن معه حضرات الأعضاء في الاستقالة .

ثم أسدل الستار على هذه المأساة .

فهل يرى الأستاذ العريان في هذا ما يشرف الرئيس أم ما يجرح شرفه ؟

أحمد أمين

خواطر عن الحياة والموت والخلود

للأستاذ على أدهم

جرى الإنسان أشواطاً بعيدة وأمعن فى الإصعاد والتحليق ليتمثل الخلود، ويرسم حدوده، ويحيط بأطرافه، ويستدنى بعيده، ويروض عصيه، ويثبته ويؤيده، ويعززه ويوطده، ويستنجد به فى لقاء الحادثات، ومواجهة الخطوب، والتمرس بالشدائد، ولكن هذا الجهد الضخم المبذول، وهذا القدر الهائل من التفكير الملح والتطلع اللاهف، وهذه الآمال المترامية المتسامية لا تدل بحال على التأكد والاطمئنان ورسوخ الثقة واستحكامها، ولا تنم على الانتهاء إلى نتيجة يحسن الوقوف عندها، والاستراحة فى أفيائها، وإنما يدل على رغبة فى مغالبة الشك ومحاولة زحزحته عن مواقعه وإجلائه عن مناطقه، وإنه لمجهود ضخم رائع قدمه الإنسان لتسويغ معتقد عزيز عليه أثير فى نفسه.

وسجل تجارب الإنسان المؤكدة لا يشمل حقيقة الخلود، ولسنا نملك من الناحية الفكرية الخالصة برهاناً قاطعاً ولا دليلاً جامعاً مانعاً على صحته، وكل تفسير لهذه الفكرة أو هذه الأمنية يحاول أن يفيد من ينابيعها العاطفية وقيمتها الأخلاقية؛ فهى فكرة لا يفرضها على العقل الإدراك الحسى، أو المنطق الفكرى، ولكن يمنها الأمل من أسداف الخفاء وظلمات المجهول.

وإذا التمسنا لها الدليل الفكرى والاقتناع العقلى عدنا وأيدينا صفرات، وجعابنا خاليات، ونفوسنا متلهفات حائرات، ورددنا قول المتنبى:

ومن تفكر فى الدنيا ومهجته
أقامه الفكر بين العجز والتعب

ومن بواعث الألم ودواعى الأسف أن يكون هذا موقفنا؛ ولا نزاع فى أن من يقدم لنا الدليل الذى لا ينقض على ذلك سيحمل إلى الإنسانية أنباء سارة، وبشارات عظيمة، وسيكون أحق بالسوار ممن وعدهم به المتنبى إذا بشروه بابن العميد كما روى لنا فى قوله:

منت السوار لأى كف بشرت
بابن العميد وأى عبد كبرا

ولكن قصارى الإنسان فى ذلك — إذا كان لا يريد أن يخدع نفسه ولا أن يخدع الناس، وإذا كان يحترم عقله وعقول الناس — أن يشارك الناس فى جهلهم، ويقاسمهم حيرتهم، ويعطف على آمالهم وتطلعاتهم، ولا يقف منهم موقف الساخر المتهاتف، أو المزهو المتعالى بعلمه ومعرفته؛ فقد يكون إيمانهم العاطفى أصدق من شكوكه، وأبقى على الزمن من مزاعمه وتفكيراته وفلسفاته وادعاءاته.

وفكرة الخلود تمس آمال الإنسانية مساً رفيقاً وتشغل أمانيها وأحلامها، وتملأ أخيلتها وأوهامها، وقد يبرر هذه العقيدة الواغلة فى النفس شدة شعورنا بالحاجة إليها، واستجابتنا لها، وتقديرنا لمسكناتها وآثارها الحسان؛ فكلنا نتطلع إلى الخلود، ونروغ البقاء، ونحرص على الحياة، ونود لها الدوام والنماء، وما أصدق قول أبى الطيب:

وإذا الشيخ قال أف فما مل
حياة، وإنما الضعف ملا

والرغبة فى الخلود معناها أن يمتد تاريخ حياة الإنسان إلى ما وراء هذه الحادثة الجليلة الرائعة العجيبة الغريبة التى نسميها «الموت»، وهى حادثة غريبة حقاً، لأن نفوسنا لا يمكن أن تألفها وتعتادها، ومهما عرف الإنسان أن لكل أجل كتاباً، وأن الموت حتم فى رقاب العباد؛ فإن غرابة الموت ولغزه وخفاءه وسره لا يبرح مخيلتنا، ولا يغيب عن بالنا، ومن بدائع أبى تمام فى رثاء أحد أصدقائه قوله: «أصمّ بك الناعى وإن كان أسمعا».

والواقع أن نعى أى إنسان مهما هان قدره يُصِمّ وإن كان يسمع، لأن الموت يخلع على كل من يلاق رهبته ويعليه أشطان المنون جلالاً، ويجعلنا نكبر قدومه على هذه التجربة، ومعاناته هذه المحنة، وكثيراً ما تنسى فى غمرة

هذا الذهول وغشية هذه الدهشة والتعجب ما كان بيننا وبين الفقيد من الإحن والحزازات والخلافات والعداوات .

ولكن هل الخير أن تنتهى حياة الإنسان بهذا الحادث الصادع الفاجع ، ويطوى بموته كل ما بيننا وبينه ، وتندثر آثاره ، وتضيع معالم أخباره ، أو الأحسن والأفضل أن ينتقل بعد هذا الحادث إلى مرحلة جديدة يظل محتفظاً فيها بذاتيته ، وملامح شخصيته ، وتتوالى فيها جهوده ، وتتابع أعماله ، وتتجدد تجاربه ومشاهداته ، وتتسع آفاقه ؟.

بعض المفكرين الأحرار الأطباء الذين لم يرهبوا مواجهة الحقائق على مرارتها ودمامتها نبذوا التفكير فى هذه المسألة ، ونفضوا أيديهم منها ، ووجدوا فى اليأس إحدى الراحتين ، ورأوا أن التفكير فى الموت عبث لا طائل تحته ولا غناء فيه ، لأن التفكير فى الموت ونحن أحياء فى رأيهم سخف وعجز ، وحينما يمضى بنا الموت نكون قد أمنا لقاءه ، وامتنع علينا التفكير فيه ، وواضح أن الفكرة الكامنة وراء ذلك أن يكون تفكير الإنسان ابن ساعته ، وربيب حالته الراهنة ، ولكن هذا اللون من ألوان المادية الكثيفة أو البهيمية إذا لم نتأدب فى التعبير أو نتأنق فى الوصف مما لا تسيغه طباع الكثير من الآدميين ! ومن أمارات الإنسانية فيما أرى أن يعيش الإنسان فى الأبعاد الثلاثة : الماضى والحاضر والمستقبل .

ومن دواعى التفكير فى الموت خوفنا الحرمان من المستقبل وإغلاق أبوابه فى وجوهنا ، والأمل فى حياة مقبلة معناه الخلاص من أوهاق هذا الخوف ، وكل آمال الإنسان ومطالبه وغاياته ومآربه مرتبطة بالمستقبل ، متعلقة به ، متوقفة عليه ، ومحافظتنا على قوانا وملكاتنا وقدراتنا واستعدادنا ، وخوفنا أن تخذلنا قوتنا ونعجز عن النهوض بأعبائنا معناها الخوف من الموت ، وأينما توجد إرادة ماضية وعزيمة قوية ملية ، فهناك أمل لم يتحقق بعد ، وعمل فى طريق الإنجاز ، وغاية نسعى فى سبيلها ، ولو كانت اهتمامات الإنسان تقف عند حد وتنتهى عند غاية لما خشى الإنسان زوال الحياة ، ولما تطلع إلى الخلود ، وحرص على البقاء ، ولكن الإنسان فى الحياة كلما تحقق له أمل انبعثت له آمال ، وكلما نال مطلباً تجددت مطالبه ، ومن ثم كان طلب امتداد الأجل تابعاً لاتساع رقعة الأمل ، وآفاق الحياة فى اتساع دائم ، وكلما طالعنا أفقاً امتدت أمامنا آفاق ، واستطالت مراحل ومسافات ، فلا غرابة أن يجد الإنسان المتجدد الآمال والمطالب ، فى الموت زائراً مشنوء الطلعة ، كريه المحضر ، يعترض جهوده وأعماله ويعجله عن القيام بواجباته ومواصلة جهوده ؟ والرجل البعيد الآمال الكثير الاهتمامات المتشعب النواحى ، لا يرحب بالموت ، ولا يريد مبارحة الميدان ما دام يعيش لغاية ، ويسعى لمطلب ، ويود أن يحقق هدفاً ، وإذا نظرنا فى ضوء هذه الآمال المتوثبة والمطالب المتكاثرة وجدنا أن العدم والزوال والفناء هو الحادث الجلل ، ولذا ينفر منه ويأباه ، ويقول مع الشريف الرضى :

لو كان يدفع ذا المنــون بقــوة
لتكسرت عصب وراء لوائى

ولقد قال الفيلسوف الفرنسى رينوفييه وهو فى الثامنة بعد الثمانين من عمره : « سأترك الدنيا قبل أن أقول كلمتى النهائية ، والإنسان دائماً يموت قبل أن يتم عمله ، وهذا هو أشد أحزان الحياة إثارة للشجن » ، ولقد أبدى هذا الفيلسوف الكبير أسفه هذا بعد أن ملأ المجلدات بأفكاره وآرائه وبعد حياة خصبة حافلة .

وفى فقدنا للأعزاء علينا والذين ارتبطت حياتنا بحياتهم نستشعر ألم الفقد ، وجسامة الخسارة ، ونستنجد بصبرنا ورجولتنا ، ونهيب بالحلم والرزانة والثبات لتواجه الكارثة ونتجلد ونتجمل ، وقد يكفكف مرور الأيام دموعنا ، ويداوى جوى نفوسنا ، فتلتئم جراحاتنا ، وتقل حدة ما نعانيه من الألم ، والأمل الوحيد الذى يلطف من وقع هذا الحزن ولا يخل بوفائنا لذكرى العزيزة الغالية ، هو غلبة الاعتقاد بالخلود ، وبأننا سنلتقى مع الأعزاء الذين فجعنا بهم ورزئنا فيهم فى عالم الخلد والبقاء .

ولكن لنسائل عقولنا وتفكيراتنا قبل أن نستخبر عواطفنا وقلوبنا : هل من مصلحة من مضى بهم الموت وتركوا مسرح الحياة أن يعودوا من جديد إلى المسرح ويستأنفوا تمثيل رواية الحياة ؟ أظن أن الإجابة عن هذا السؤال متوقفة على اعتقادنا فى الحياة ذاتها ، وطريقة تقديرنا لها وحسبانها خيراً أو شراً ، فإذا كانت الحياة عذبة المساغ حلوة

الجتنى جديرة فى نظرنا بالحرص عليها واستدامتها فإن من الخير بقاءها أو العودة إليها، وإذا كان الخير مصاحباً للحياة فإن فقدانها مما يبعث على الأسى، وبقاءها مما يبعث على الغبطة والرضا، ومن ثم روعة شعر الرثاء الذى يكشف عن مأساة هذا الفقد ويتحدث عن مدى ما فقدت الإنسانية من كرم الخلال وبواسق الأفعال بموت المرثى! والواقع أننا إذا نظرنا إلى حياة أى إنسان نظرة عامة شاملة وجدنا أنها ثمرة نماء متتابع، وتطور شاق، فالإنسان مجموع عادات وميول تكونت فى بطء من الوراثة والتجربة والبيئة، وهى ظروف لا تتكرر، ومن ثم فإن كل إنسان نسيج وحده، وفريد عصره، وصورة من الحياة طريفة، ولون من ألوان الوجود فذ لا نظير له! ومهما جهدنا فى الاحتفاظ بذكراه وجمع شوارد أخباره وسيره فإننا لا نستبقى إلا صورة شاحبة، وصدى تذهب به ريح الزمن، وستضعف ذكراه رويداً رويداً حتى تندثر معالمها ويعفى الزمن على آثارها! وقد تبقى أفكار الإنسان حيناً من الزمن، وتتخلف عنه، وتؤثر تأثيرها، ولكن سرعان ما يدركها الفناء، وتنسخها أفكار أخرى! ومهما طال بقاء الأفكار فإنها لا تسد مسد الرجال، ولا تغنى عن رهافة ذوقهم، ودقة إحساسهم وتدفق عواطفهم، وحرارة إيمانهم! وليس الإنسان فى جوهره مجموعة من الأعمال، أو حزمة من الآراء والأفكار، وإنما هو شخصية فذة نادرة قبل كل شىء، وفقد الرجال الممتازين خسارة لا تعوض، وفراغ لا يملأ، كما أن سقوط السرحة الفارعة مأساة لأنها ثمرة ناضجة لتطور بعيد وأعجوبة رائعة من أعاجيب الطبيعة! وكثيراً ما تستبين لنا مأساة الحياة فى تأملنا كيف انقض البناء الشمخر فى لحظات قلائل بعد أن تعبت الأجيال المتوالية فى رفع بنائه، وتوطيد أركانه! فإذا كانت الحياة بركة وخيراً فالخسارة هنا واضحة لا خفاء بها، وإذا كانت الحياة شقاء وعذاباً وشراً ووبالاً ففى هذا السقوط والانهيار متعة وراحة. ولكن الموت ليس فى أغلب الأحيان المهرب العادى من الشر، ولا يلوذ به إلا من غم عليه أمره، وضاقت به وجوه الحيل، فقد تغلب فى الأمم بتحرى علله وأسبابه، وقد تقهر الصعاب باستنهاض العزمة، والرغبة فى الموت لا تنشأ إلا فى آثار اليأس الشامل الذى لا يلتمع فى ظلامه ضوء، ولا بصيص من الرجاء، وفى العدم عزاء لمن باتت حياته مخاوف وآلاماً، ومكاره وخطوباً، وعقبات متتابعة، وعثرات لا تستقال، أو لمن تعطل تفكيره، ووهنت قوته، وفقد تذوق الحياة فقداناً تاماً، وأصبح منقطع الرجاء، لا هو حى فيرجى ولا هو ميت فيبكى، والإنسان يموت قبل أن يحين حينه إذا خذلته قوته، وفارقته بشاشة العيش، وجافته فتوته.

وربما وجد بعض الناس فى حكمة الموت وسيلة من وسائل إزالة غير الصالح للبقاء، وتجديداً لأشواط السباق فى ميادين الحياة! فحينما يمضى الشيوخ والكهول ينتقل الزمام إلى أيد أنضر شباباً، وأوفر إقداماً، وأشد أيداً، وتقدم الحياة رهن بهذا الضرب من ضروب التجديد وهذا اللون من ألوان البعث. ولكننا بشىء يسير من التأمل يمكن أن نرى أن الحياة محتاجة إلى إقدام الشباب وحكمة الشيوخ، والحياة الصالحة الحقة تفيد من المحافظة والتجديد وتستغل الشيب والشباب، وبقاء العنصرين لازم لاستكمال وجوه التقدم، واستيفاء أسبابه.

ولا نزاع فى أن هناك قوماً قساة غلاظ الأكباد، شأنهم الإساءة، وديدنهم الإجرام والاستمتاع بتعذيب الغير وإيلامهم، وقد نرى فى موت هؤلاء رحمة بضحاياهم، وخلاصاً من الأذى والشر والإساءة والإجرام، والذى لا يصنع خيراً، ولا يحسن صنعاً قد يكون من الخير أن تنبذه الحياة وترفضه، وتتنى كيانه، وتمحو رسمه وطلعته. ولكن الشر الذى جلبه والجرائم التى ارتكبها والإساءات التى تورط فيها ستظل قائمة ماثلة، وضحاياه ما زالون يعانون سوء آثاره وسوابق إساءاته، فما تتطلبه النفوس أن يمد له فى الحياة، ويبسط له فى العمر، ويظفر بالخلود، ليصحح أخطاءه، ويقوم اعوجاج نفسه، ويترضى من أساء إليهم، أو يلقى العقوبة الرادعة، والحساب العسير الصارم الذى يرد على النفوس ثقتها بالعدالة، وحسن ظنها بالأيام! فالرغبة فى امتداد الحياة والحرص على الخلود ومطاولة البقاء متصلة بأمل الإنسان فى نفسه وفى الإنسانية وفى الحياة عامة، ولا يمكن أن تكون شيئاً مؤكداً كالحقائق العلمية،

نهضتنا الثقافية

في مفترق الطرق

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

مما فطنت إليه الفلسفة في العصر الحديث أن الوجود كله في حركة مستمرة ، وفي تطور دائم ؛ فكل شيء فيه ، كبر أو صغر ، لا يكف لحظة واحدة عن التحرك ، وقد تكون حركته ظاهرة للعيان ، وقد تخفى فيبدو ثابتاً جامداً على الرغم من أن الحركة الهائلة تدب في كل جزء من جزئياته .

والحركة المتطورة تشمل الكائنات الحية كما تشمل الأشياء ، وتتغلغل إلى المعنويات كما تتناول الماديات ، فكل ما في الوجود لا يبقى لحظة على حال ، ولا يقر له أبداً قرار . والتطور العام لا يقع على غير هدى ، ولكنه يسير على نظام أميط اليوم عنه اللثام ، ويخضع لنواميس كشف العلم عن كنهها .

ولا تعنى هذه العجالة مما تقدم إلا بما يطرأ على النهضات الأدبية من تطور ، فكل نهضة أدبية تسير في ركب التطور العام ، وهي وإن بدت ذات كيان مستقل ، مرتبطة وثيق الارتباط بنهضة مجتمعها الفكرية العامة . وقد يحسبها المتعجلون في الحكم ظاهرة لا تعليل لظهورها ، ولكنها متلونة وفق الظروف التي طرأت على مجتمعها ، مسايرة له في تبدله وتطوره . وهي لا تزدهر وتتألق على يد عباقرة من الأدباء طلعوا على مجتمعهم كما تطلع النبات ، لا يدرى أحد من أين طلعت ، وكيف انبثقت ، ولكن هؤلاء العباقرة يظهرون حين تتهيأ الظروف لظهورهم . ومن الخطأ أن نظنهم شواذ خرجوا على غير غرار مجتمعهم ، إذ هم في الواقع طلائع المجتمع المتساوق إلى قمة نهضته .

ومن خصائص التطور الفكري أن كل حلقة منه غير منفصلة عما سبقها أو ما يلحق بها من حلقات ، فهي وليدة الحلقة السابقة عليها ، وهي أساس الحلقة التالية لها ؛ فالتطور الفكري أشبه بالبناء يقوم كل حجر فيه على حجر بترتيب

والنظريات الرياضية ، وإنما هي أمل يرفرف فوق مخاوفنا وأحزاننا سواء كان مصدره إرادة حيوية مستولية علينا ، أو تفاؤل بالمزاج والطبيعة لاصق بنا ، أو يقين وعقيدة تعمر قلوبنا ، وتوحى الثقة والاطمئنان إلى نفوسنا ؛ وأكبر ظني أننا كلنا نستعذب تلك الكلمة التي كان يرددها الكاتب الفرنسي الحكيم سيبناكور صاحب رسائل أوبرمان ، وهي قوله : « أيتها الأبدية كوني أنت ملاذي » .

ولكن قد يقال إن هذا الإيمان يسلب الإنسان فرصة لقاء الموت بنبل وشجاعة ، وإذا كان الموت مجرد انتقال من حياة إلى حياة أخرى فماذا يكون مصير الشجاعة والتضحية بالنفس ؟ والرد على ذلك في رأيي هو أن الحياة الثانية مسألة يقين وعقيدة وليست مسألة منطق وبرهان ، ولن يكون الموت إلا فقداً محسوساً ، وسيظل الإنسان يخشاه ويحذره ، ولا يمكن العاقل أن يقلل من أهميته ، أو ينتقص من روعته ، ولا يزال لقاؤه معياراً للأخلاق ، ومحكا لقوة النفوس ؛ فالاعتقاد بحياة أخرى قد يهون من أمر الموت ، ولكنه لا يزيدنا عليه جرأة ، ولا يمحو ماله في نفوسنا من خشية ورهبة ؛ وهو وإن كان يبقى الأمل ، ولكنه مع ذلك لا يغني عن الحاجة إلى التجلد والثبات . ومما يروى عن الزاهد الورع المشهور سفيان الثوري أنه جزع عند الموت فقيل له : « يا أبا عبد الله ما هذا الجزع ؟ أليس تذهب إلى من عبدته وفررت بدينك إليه ؟ » فقال : « ويحكم إني أسلك طريقاً لم أعرفه وأقدم على رب لم أره » . والثوري يمثل في هذا الموقف الإنسانية برمتها .

حسن أدهم

ونظام ، وهو لايرتفع ويكتمل إلا برصف طبقة من أحجاره فوق طبقة ، فلا تنحرف واحدة منها عن غيرها ، ولا تقف طبقة منها معلقة فى الهواء .

على أن النهضات الفكرية قد تتعرض لأعاصير تهب عليها فتعرقل سيرها وقتاً ما ، أو تخرجها إلى حين عن خط سيرها ، أو تصيبها بنكسة قد تطول أزماناً ، وقد تقصر فلا تلبث أن تنقشع ، ولكن ذلك لايؤثر فى تطور الإنسانية العام .

ولكن هذه النظريات التى تقررها لا تتكشف ، وتنفض عنها اللبس إلا إذا أنزلناها إلى مجال التطبيق ، فالواقع هو المحك الذى يرينا الجوهر من الزبد . وستتخذ نهضتنا الثقافية الحديثة موضوعاً للتطبيق ، وسنحاول فهم اتجاهاتها على ضوء تلك النظريات .

لاحت تباشير النهضة الأدبية المصرية الحديثة خلال النصف الثانى من القرن المنصرم . وقد ساعدت على بعثها ظروف لا يتسع المقام لشرح تفاصيلها ، ولكننا نلمع إليها فنقول : إن غزو الفرنسيين لمصر فى مستهل القرن الماضى ، ثم تولى محمد على باشا حكم مصر عقب ذلك ، وعمله على وصل حبل الحركة الفكرية التى غرس الفرنسيون بذورها أثناء حملتهم ، ساعدا على تغيير الحالتين الاقتصادية والاجتماعية ، وتهيئة ظروف جديدة صالحة لتطور العقلية المصرية حينذاك تطوراً سريعاً لم يلبث أن أثمر ، وأسفر كما قلنا عن النهضة الأدبية التى انبثق فجرها بعد ذلك بنصف قرن .

وعلى الرغم من قيام نهضتنا الأدبية على أساس ما اقتبسه محمد على باشا ومن تلاه من حكام مصر ، من أساليب العيش الأوروبية ، مما أدى إلى تحور فى العقلية المصرية ، فإن الأدباء الذين ظهروا إبان تلك النهضة لم يستطيعوا أن ينبتّوا عن ماضيهم ، فقد ظلت جذور أدبهم متشبثة بالأدب العربى القديم . وعلى الرغم من توفيقهم فى التعبير عن خوالج مجتمعهم وتصوير مشكلاته وآماله ، فإنهم لم يوفقوا توفيقاً ملحوظاً فى التخلص من قيود الأساليب القديمة .

وقد ظلت النهضة الأدبية تتطور وتتخلص شيئاً فشيئاً من ربقة الأساليب العتيقة ، وتسترد بعض حريتها فى التعبير عن خوالجها بأساليب أقل تعقيداً ، وأكثر أصالة وجدة ، ولكنها ظلت مع ذلك عربية صميمة فى اتجاهات تفكيرها وذوقها الفنى . وكنا نود أن نضرب الأمثال توضيحاً لما نقول وتأييداً ، لولا ضيق المقام ، وعلمنا بأن الأمر فى غير حاجة إلى توضيح وتأييد .

ولكن تمادينا فى اقتباس أساليب الحياة الأجنبية ، وإحاطة أنفسنا بمظاهرها ، أخذ يحوّر لون أدبنا وينقله من طور إلى طور . فلم تعد أعمالنا الأدبية فى الأيام الأخيرة صورة صادقة لمجتمعنا الذى ظلت أكثريته شرقية بحتة ، ولم تعد تتأثر بخوالج تلك الأكثرية وتؤثر فيها . ولكنها اتجهت إلى الأدب الأوربى ، تنقل منه ، أو تحتذيه أو تحاكيه . ومما مكّن لهذا الانتقال الحاد من حال إلى حال ، فرض تعليم اللغة الإنجليزية على تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية ، وتبصيرهم ببعض التحف الأدبية لتلك اللغة ، فاستزاد الموهوبون من تلك الألوان الجديدة ، وظلوا يغترفون منها . ثم جاء جيل الأدباء الجديد ملماً بالآداب الأوربية ، متأثراً بها ، مستخفاً بتراث أدبه القديم ، متخذاً من ألوان الأدب الجديدة مثالاً يحتذيه ، ومن أساتذة ذلك الأدب أئمة يهتدى بهم .

بدأت نهضتنا الحديثة إذاً محلية ، وثيقة الارتباط بالأدب العربى القديم ، ثم تلا ذلك جيل من الأدباء المخضرمين ، أخذوا يشرئبون بعد أن نهلوا من معين الأدب العربى ، إلى الأدب الغربى ، فجاء أدبهم وسطاً بين الأدبين ، أو حلقة تطور طبيعى من حال إلى حال . هؤلاء هم شيوخ أدبائنا المعاصرين .

أما أدباء الشباب فقد أولوا تراث الأدب العربى ظهورهم ، وأرادوا أن يصلوا إلى الجديد وثبة واحدة ، فانحرفوا بذلك عن طريق التطور الطبيعى ، ومادت الأرض تحت أقدامهم فتعذر عليهم أن يأتوا بالجديد المرتجى . لقد

بهرهم الأدب الغربي ، فسخر في نظرهم أدب قومهم ، وحاولوا أن يقطعوا صلتهم به ، ويصوغوا أدباً على غرار اللون الأجنبي الذي بهرهم ، ولما كان قطع الصلة بالماضي يخالف سنة التطور ، فقد عجزوا عن أن يأتوا لنا بأدب مصري أصيل ، يعبر عن خوالج مصر ويعكس صورتها ، ولم يستطيعوا إلا أن يأتوا بصور مشوهة ، هي تقليد غير موفق لما أعجبوا به .

وليس معنى هذا أننا لا نرى التطلع إلى الجديد ، أو أننا نرى التشبث بالقديم والوقوف عنده ، فإن ذلك يخالف أيضاً سنة التطور ، ولسنا نجد بين النهضات الأدبية في الأمم المختلفة نهضة واحدة لم تتأثر بغيرها ولم تقتبس منها ، ولكن ذلك التأثر وذلك الاقتباس لا يفيدان الفائدة المرجوة إلا إذا وقفا عند الحد الذي لا يطغيان فيه على كيان الأدب الذي يستعين بهما ، ولا يزحزحانه عن طريق تطوره الطبيعي .

وقد ترتب على طغيان سيل الأدب الأجنبي الجديد الذي أحال أدبنا المعاصر إلى أدب احتذاء ومحاكاة ، أن تخاذل أصحاب الملكات الأصيلة من أدبائنا ، وتواروا عن العيان . ذلك لأن أدبهم الطبيعي السليم لم يستطع أن يثبت لذلك السيل الجديد ، ويرقى إلى مستوى آيات الأدب الأوربي الذي قطع الشطر الأكبر من مراحل تطوره ، وكاد يصل إلى ذروته ، ولذلك صار هذا العصر جديراً أن يسمى بحق عصر التقليد .

فالأدب الذي حصّل قسطاً من الثقافة الأوربية يشعر بعجزه عن مطاولة الأدب الدخيل الممتاز ، ولا يجد بداً حين يمسك بالقلم من الاقتباس منه أو محاكاته . والأديب الذي اقتصر على دراسة الأدب العربي عاد في حسرة يأسه وعجزه عن إبداع أدب يلائم عصره إلى تراثه القديم يغترف منه أو يقتبس ... ونظرة سريعة إلى مئات الكتب التي صدرت في السنوات العشر الأخيرة كفيلة بدعم وجهة نظرنا هذه .

نخلص من هنا إلى أن التطور الأدبي في مصر انحرف انحرافاً جانبياً حاداً بعد أن قطع شوطاً في الطريق الطبيعي ، فخرج بذلك عن خط سيره ، وتعلق بلون جديد أجنبي من الأدب لا يمت إليه بصلة طبيعية ، وقد ضل بذلك سواء السبيل ، وعجز عن إبداع أدب مصري أصيل يصل إلى مستوى الأدب الأجنبي الذي يتطلع إليه ، ولا يرجع عجزه إلى عيب طبيعي فيه ، أو إلى ميزات ذاتية يتحلى بها أدباء أوربا ، أو إلى صفات تنفرد بها قرائحهم ، ولكنه يرجع إلى أن الأدب الأوربي سار قدماً في مراحل طبيعية للتطور ، واستفاد من خبرة بعد خبرة ، وتجويد إثر تجويد ، حتى وصل إلى القمة السامقة التي وصل إليها .

وإذا كان طموح أدبائنا الشباب قد حملهم على أن يقفزوا قفزة خاطفة في سبيل التقدم ، فاختل توازنهم ، وترنحوا وسقطوا في الطريق ، فليس معنى هذا أن قضي الأمر ، وضاع أدبنا كل الضياع ، فلا خير فيه ولا رجاء . فإن سنة التطور لن تلبث أن تعيد الأمور إلى نصابها ، وتصل ما كاد ينقطع من حبل نهضتنا ، وتثبت أقدام من ترنحوا والتوت أقدامهم تحتهم .

سيجتاز أدباؤنا الشباب مرحلة التقليد حين يتزودون من الأدب الأوربي بالقدر الذي يوسع أفق تفكيرهم ، ويثقفهم تثقيفاً يمكنهم من الشعور بذاتهم واسترداد استقلالهم ؛ فإذا ما هضموا ألوان ذلك الأدب اكتملت لهم شخصية مستقلة ، وحين تكتمل تلك الشخصية ينتهي عهد التقليد ويبدأ عهد التجديد ؛ ويستحيل أن يتم ذلك طفرة واحدة .

سيعبر الأدباء حينئذ بأسلوبهم الخاص عن خوالجهم ، وستكون كتابات الصادقين الممتازين منهم صوراً صادقة ممتازة لآلام أمتهم وآمالها ، لأن الذي اكتملت شخصيته لا يقلد .

سيتصل عندئذ ما انفصل من حبل التطور ، وسيشعر أدباؤنا بما حولهم ، فيعيشون في حاضرهم ويعبرون عنه ، ويتصلون بماضيهم ليزدادوا علماً بالحاضر ، ويسيرون قدماً وفق سنة التطور .

محمد مفيد الشوباشي

القيم الخالدة فى حضارة الإسلام (*)

تلخيص محمد عبد الحليم محمود

١ — تمهيد :

لكل حضارة أو دولة فى التاريخ ، بل لكل جنس أو مجتمع بشرى ، « شخصية » متميزة بخواصها وصفاتها اللازمة . ومثل هذه « الشخصيات » تحمل إلينا قيماً إنسانية جامعة ، ورسالات خالدة فى مقدور البشر جميعاً أن ينهلوا من معينها ...

وقيمة الأمة الإسلامية ليست فقط فى أثرها التاريخى : وهو تصفية تركة العالم القديم ، وقلب نظم الحكم على شفاف البحر المتوسط ، ونقل الحضارة الإغريقية ، والنهوض بفلسفة العصر الوسيط ، والتأثير على العلوم والآداب الأوربية ...

فتلك الأمة ، فى صميم تركيبها ، تشتمل على تعاليم ونظم ما زالت إلى يومنا هـذا حية قوية ، بل قد كتب لها الخلود .

وحضارة الإسلام لا تحتقر الأمور الدنيوية ، لكنها تعتمد أيضاً على الروحية وترمى إلى مثل أعلى رفيع . فهى تجمع بين الدين والمدنية . وهى لذلك بعيدة من النفعية ومن الرهبانية على حد سواء ...

ورسالة الإسلام تطرق مسائل متنوعة خطيرة : فهى قد جاءتنا بدروس قلة فى ميـدان الحرية الفردية وعلاقة الفرد بالمجتمع ونظام الطبقات ، وفى العدل والمساواة بين القوى والضعيف ، والتسامح حتى خلال شدائد الحروب ، وفى الزهد وسط مغريات الحضر ، والكرامة والإباء عند الفقر والعوز ... وهى فوق ذلك تعلم الفرد كيف يكون السمو والطهارة فى العبادة ، وتبث فى نفسـه الإيمان بأن لا قيمة لشىء إذا قيس بـ « المطلق » ، وأن لا وجود لشىء إلا بمشاركته فى هذا « المطلق » ...

● ● ●

٢ — فى الحرية :

حينما يهتف المؤمن بقلبـه ، وليس فقط بلسانه : « الله أكبر » ، فهو يهتف بالحرية الصحيحة الفعلية .

وعبد الله ، أى عبد « المطلق » ، لا يمكن أن يكون عبداً لكائن آخر . وبمقدار تفانيه فى عبادة الله تكون حريته بالنسبة للغير .

والملك الصالح ، عند المسلمين ، ظل الله على الأرض . فالطاعة له مفروضة ما دام صالحاً يحكم بالعدل . ولكنه ، إذا خرج عن حدود الشريعة ، يصبح ظالماً . والله « مالك الملك » لا يحب الظالمين . والشاعر الفارسى سعدى يعلن أن « صرخة المظلوم قادرة على زلزلة الأرض ، وأن الأمير يتولى السلطة ليحمى شعبه لا ليفرض إرادته عليه ، وأن الراعى للرعية ، وليست الرعية للراعى » .

وهذا المبدأ الرفيع ليس فقط منبعاً للحرية الحقة ، بل إن منه تتفرع مبادئ الإخاء والمساواة .

فالإسلام قد سوى بين بنى الإنسان فى إنسانيتهم ، وآخى بين الرجال من كل الطبقات وحقق احترام الأفراد بعضهم لبعض مهما اختلفت أحوالهم وتباينت ألوان معيشتهم .

وبفضل عبادة الناس للإله المطلق أصبحوا مجتمعاً واحداً مترابطاً ، لا أفراداً يتفرقون شيعاً حسب الأهواء والعادات والنظم المختلفة .

ليس إذاً للفرد أن يفرض رأيه على أفراد آخرين . وليس لأمة أن تسيطر على أمم غيرها . وليس لجنس أن يتحكم فى غيره من الأجناس : الكل سواسية أمام الله الذى خلق الإنسان « على صورته » ، وجعل من البشر « أهله » .

(*) بحث المستشرق الفرنسى إميـل درمنجهم «Emile Dermenghem» فى مجـلة كيه دى سود Cahiers du Sud ، العدد الخاص بالإسلام ، ونحن ننشر ترجمته هنا تباعاً نظراً لأهميته .

فلا عجب أن يكتسب الإنسان من هذا التشابه ومن هذه القرابة الرفيعة قيمة سامية فى شخصيته وكرامة ذاتية تحول بينه وبين الخضوع لمكائن من كان ...

* * *

٣ — فى العدل والرحمة :

إن القرآن أو الحديث يعلمان المؤمن كيف يكون العدل ، وكيف تكون الرحمة ؟ فالله سبحانه يقول فى كتابه المنزل :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »

— ٤١ ، ٣٤ —

وفى العصر الحديث جاء ألدوس هكسلى Aldous Huxley يقرر فى كتابه « الغاية والوسيلة » أن : القوة لا تنتج رقياً حقيقياً إلا إذا أتبعها الإنسان ... بالعدل ، والرحمة ، والنية الحسنة ...

والقرآن الكريم يزخر بالآيات التى تحث على العدل والرحمة . ففيه نجد هذه الآية الرائعة :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »

— ٥ — ١١ —

كما نجد هذه النصيحة الغالية :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً »

— ٤ ، ١٣٤ —

ثم إن هذا الكتاب يعلم العبد التواضع وتجنب الغرور . أنظر مثلا إلى قوله :

« ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » — ٣٧ ، ٣٩ —

وبنو الإنسان كلهم أمة واحدة ، وهم فى الأصل من طينة متشابهة . فما أحوجنا فى عصرنا الحاضر ، الذى تتصارع فيه الأجناس ، إلى تذكر هذا المبدأ الرفيع للمساواة والإخاء فى العدل والرحمة :

« وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » .

— ٦ ، ٩٨ —

« هو الذى خلقكم من نفس واحدة ... » .

— ٧ ، ١٨٩ —

ونخلص من هذا إلى أن كثرة الشعوب فى الإنسانية توجب الاتحاد لا التفرق ، وأن اختلاف أفراد البشرية يدعو إلى الائتلاف والانسجام لا إلى التنافر والتحزب :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

— ٤٩ ، ١٣ —

وإذا كان الرب يلوم هؤلاء الذين ...

« ... فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون » . — ٣٠ ، ٣١ —

فهو أيضاً يلوم الذين يفرقون بين الأجناس ، ويقرر أن الأبيض والأسود والعربى والعجمى سواء فى إنسانيتهم :

« ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين » .

— ٣٠ ، ٢١ —

وإن أروع نصح يمكن أن يسدى لإنسان لهو هذا الذى نجده فى سورة المائدة :

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

— ٥ ، ٥٣ —

والأحاديث الكثيرة تفسر هذه الآيات وتوضحها للعباد ، فهى تؤكد أن خير عمل للإنسان بعد الإيمان بالله هو أن يرحم أخاه فى الإنسانية ؛ وأن من أراد رحمة الله فليرحم غيره من الخلائق ، والرحمة الحقة هى التى تشمل الكائنات كلها بما فيها الدواب .

(البقية على الصفحة التالية)

التلميذ في لغة العرب

للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار

ما حقيقة كلمة التلميذ ؟ أهي من العربي الفصيح أو المعرب أو الدخيل أو المولد أو لغة السواد ؟

عند ما تلقيت هذا السؤال من عديد من الإخوان والأساتيذ اضطررت إلى البحث والمراجعة رجاء أن يكون الجواب وافياً سديداً ، ورجعت إلى ما تحت يدي من كتب ومعاجم مخطوطة أو مطبوعة وأضابير منقولة ، وعثرت على جملة نسختها من رسالة خطية وجدتها بالمدينة المنورة بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الله الحسيني ألفها الشيخ عبد القادر بن عمر بن بايزيد البغدادي ، وهذه الرسالة ألفت في بحث كلمة التلميذ .

ومما جاء في الرسالة قول مؤلفها الفاضل : « لم أجد هذه الكلمة مذكورة في كتب اللغة المتداولة كالجمهرة لابن دريد والصحاح للجوهري والعباب للصاغاني والمحكم لابن سيده وغيرها إلا في لسان العرب ، فإنه أورد في مادة « تلمذ » ؛ وقال : التلاميذ : الخدم والأتباع واحدهم تلميذ . اهـ .

والحقيقة أن كلمة « تلميذ » وردت في هذه المعاجم وكتب اللغة المتداولة في مادة « تلمذ » أو مادة « تلم » .

والتدليل ، نرجع إلى لسان العرب الذي استثناه البغدادي من المعاجم التي ذكر أسماء بعضها ونراجعه فإذا هو يذكر « التلميذ » في غير مادة « تلمذ » ، وهاك البرهان :

جاء في الجزء الرابع عشر من لسان العرب صفحة ٣٣٣ ما أنقله بنصه : والتِّلام بالفتح : التلاميذ التي يصفع فيها مخلوف وأنشد :

كالتلاميذ بأيدي التلام

قال : يريد بالتلاميذ الحلاج ؛ قال أبو منصور : أما الرواة فقد رووا هذا البيت للطرماح يصف بقرة :

تتقي الشمس بمدرية ... كالحماليج بأيدي التلامي

وقال : التِّلام ، اسم أعجمي ويراد به الصاغة ؛ وقيل : غلمان الصاغة ، يقال : هو بالكسر يقرأ بإثبات الياء في القافية ، ورواه بعضهم : بأيدي التِّلام ، فمن رواه « التلامي » بفتح التاء وإثبات الياء أراد التلاميذ ، يعني تلاميذ الصاغة قال : هكذا رواه أبو عمرو ؛ وقال : حذف الذال من آخرها كقول الآخر :

لها أشارير من لحم تتمره

من الثعالي ووخز من أرانيها

أراد من الثعالب ومن أرانبها ، ومن رواه بأيدي التلام بكسر التاء فإن أبا سعيد قال : التِّلْم : الغلام ، وقال : وكل غلام تِلْم ، تلميذاً كان أو غير تلميذ ، والجميع التِّلام ،

فما أجد هذه التعاليم السامية من «مبادئ» نيتشه (Nietzsche) ، أو مكيافيل (Machiavel) ، أو أنصار نظرية « إرادة القوة » ! ...

إن تعاليم الإسلام لا تمجد عمل من يسعى إلى السيطرة والنفوذ ، وتهزأ من هؤلاء الذين يظلمون الخلق ، فلا يرون أنهم بذلك إنما يظلمون أنفسهم ! ...

ومن الأحاديث المشهورة :

« لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » .

فالله قد أرسل « رحمته » إلى البشرية كلها ، والناس جميعاً في هذه الرحمة سواسية « كأسنان المشط » .

« خلقت الجنة لمن أطاعني ولو كان عبداً حبشياً ، وخلقت النار لمن عصاني ولو كان شريفاً قرشياً » .

ويروى أن رجلاً قال يوماً لبلال المؤذن : « يا ابن السوداء » ، فلامه الرسول قائلاً : « إن هذه لنزعة جاهلية » .

ولقد قال محمد : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، فقيل له : « يا رسول الله ، هذا ننصره مظلوماً ، فكيف ننصره ظالماً ؟ » ، قال : « ترده من الظلم » .

(يتبع) الخميس

محمد عبد الحليم محمود

ابن الأعرابي : الثِّلام الصاغة . والثِّلام : الأكرة ؛ قال أبو منصور : قال الليث : إن بعضهم قال : التلاميذ الحماليج التي ينفخ فيها : قال هذا باطل ما قاله أحد . والحماليج . قال : شمر : هي منافخ الصاغة الحديدية الطوال ، واحدها حملوج شبه الطرماح قرن البقرة الوحشية بها .

الجوهري : التلامي . التلاميذ سقطت منه الذال ؛ قال ابن بري ، وقد جاء التلام بفتح التاء في شعر غيلان بن سلمة الثقفي :

وســربال مضاعفـــة دلاص
قد أحرز شـكها صنع الثِّلام

وروى الثِّلام جمع تَلِم وهم الصاغة . اهـ .

أما الصاغاني فقد ذكر في معجمه « التكملة والذيل والصلة »[1] شيئاً مما في لسان العرب ، ولكنه لم يذكر التلميذ في العباب لأنه تُوفي — رحمه الله — عندما وصل إلى مادة « بكم » ولم يصل إلى مادة « تلم » ، حيث يذكر فيها التلميذ ، ولو مد في عمره واتسع من تأليف العباب لذكر ما أشار إليه في التكملة ، وقد رثاه أحد الأدباء مشيراً إلى انتهاء الصاغاني إلى مادة بكم فقال :

إن الصـغاني الذي حاز العـلوم والحكم
كان قصـارى أمره أن انتهى إلى بـكم

وكذلك الجوهري في صحاحه فقد ذكر في صفحة ٢٦٦ من الجزء الثاني : « التِّلام ، بفتح التاء : التلاميذ سقطت منه الذال » .

وابن دريد لم يغفل هذه الكلمة بل ذكرها في ص٣٨ من الجزء الثاني من كتابه « الجمهرة » بمادة ت ل م وقال : « التلام معروف معرب . وهو زعموا التلميذ »

والواقع أن البغدادي — رحمه الله — عندما ذكر أنه لم يجد « التلميذ » في كتب اللغة والمعاجم المتداولة كان غير مصيب ما فيها ، وكان متسرعاً ، ودليلنا ما ذكرناه وما سنذكره . والذي حمله على ذلك أنه راجع التلميذ في مادة تلمذ فلم يجد إلا في اللسان تلك الكلمة القصيرة . ولو رجع إلى مادة تلم لوجد بغيته .

(١) راجع النسخة الخطية الموجودة من هذا المعجم العظيم النادر في مكتبة عارف حكمة بالمدينة ص ١٠٢٣ ورقة ٤٢ قسم اللغة ، وهي أصح وأوفى وأكمل من أي نسخة أخرى ، وقد بدأنا في نسخه لنشره بعد تحقيقه .

وسنذكر بعض كتب اللغة والمعاجم القديمة والحديثة التي ذكرت هذا اللفظ ثم نبدي رأينا في هذه الكلمة .

جاء في مجمل اللغة لابن فارس في صفحة ١٠٦ من الجزء الأول : « الثِّلام : التلاميذ سقطت الذال . والتلام : غلمان الصاغة ولا واحد لهم .

وجاء لابن فارس أيضاً في معجم مقاييس اللغة صفحة ٣٥٣ من الجزء الأول : « تلم : التاء واللام والميم ليس بأصل . ولا فيه كلام صحيح ولا فصيح . قال ابن دريد في التلام إنه التلاميذ وأنشد :

كالحماليج بأيدي التلام

وفي الكتاب المنسوب الى الخليل : والتلم شق الكراب بلغة أهل اليمن . وذكر في التلام نحواً من كلام ابن دريد . وما في ذلك شيء يعول عليه . وذلك أن التلميذ ليس من كلام العرب » .

وذكر الزبيدي في « تاج العروس » بصفحة ٢١٣ من الجزء الثامن : قال أبو سعيد : التلم (بالكسر التلام) تلميذاً كان أو غير تلميذ (و) قيل هو (الأكار . و) قيل (الصائغ) عن ابن الاعرابي (أو) هو الحملوج وهو (منفخه الطويل ، ج تلام) بالكسر أيضاً (و) التلام (كسحاب التلاميذ) التي ينفخ فيها محذوف . أي (حذف داله) قال : كالتلاميذ بأيدي التلام ، يروى بالكسر ، ويروى بأيد التلامي بالفتح وإثبات الياء ، وعلى الأخير أراد التلاميذ . يعني تلاميذ الصاغة . هكذا رواه أبو عمرو وقال حذف الذال من آخرها » .

وجاء في التهذيب للأزهري[1] : قال الليث : إن بعضهم قال : التلاميذ الحماليج التي ينفخ فيها . قال : وهذا باطل ما قاله أحد . والحماليج قال شمر هي منافخ الصاغة » .

وذكر الجواليقي في صفحة ٩٩ من كتابه « المعرب » « التلام : أعجمي معرب . قيل هم الصاغة وقيل : غلمان

(١) تهذيب اللغة للامام الأزهري مخطوط بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة صفحاته ١٨٠٠ في مجلدين ضخمين ورقة ٤١ قسم اللغة . وهي أصح نسخة من التهذيب وأكملها . وقد بدأت في أسباب نشره بعد تحقيقه .

الصاغة وقيل هم التلامذة » الخ .

وجاء فى شفاء الغليل للخفاجى صفحة ٥٢ : « تلام : غلام الصاغة معرب أو أصله التلاميذ » .

وجاء فى كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى بيت لبيد بن أبى ربيعة البكرى الصحابى :

فلــاء يجلــو متونهن كما
يجلو التلاميــذ لؤلؤا قشبا

وقال بعد إنشاده الأبيات : التلاميذ : غلمان الصاغة .

وجاء التلاميذ فى شعر لأمية بن أبى الصلت وهو شاعر أدرك النبى صلى الله عليه وسلم :

فالأرض معقلنـــا وكانت أمنا
فيها مقامتنـــا وفيها نولد
وبها تلاميــذ على قذفاتها
حبسوا قياماً فالفرائص ترعــد

وقال شارح ديوانه : التلاميذ : الخدم . يعنى الملائكة (١)
وقال لبيد : —

قضى وأصعــد واستبد إقامة
بأولى قوى فتبـــل ومتلد

وجاء فى القرطين لابن مطرف الكنانى أو كتاب مشكل القرآن وغريبه لابن قتيبة : « التلام : أراد التلاميذ غلمان الصاغة » .

وورد فى الجزء الثانى من مغنى اللبيب بالباب الخامس صفحة ١١٩ : « حكى لى عن بعض مشائخ الإقراء أعرب لتلميذ له » الخ .

وقال شارحه إبراهيم بن الملا الحلبى : التلميــذ : القارىء على الشيخ .

وفى المقامة الأولى للحريرى : فوجدته محاذيا لتلميذ على خبز سميذ الخ .

قال شارحه الشريشى : التلميذ متعلم الصناعة . والتلميذ : الخادم والجمع التلاميذ وأنشد بيت لبيد :

(١) المخطوط بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الله بالمدينة المنورة قسم الرسائل .

وبها تلاميـــذ على قذفاتها
حبسوا قياماً والفرائص ترعد

وقال البغدادى فى رسالته المخطوطة : إن تاءه أصلية ، ووزن تفعيل قليل . وإن له فعلاً متصرفاً . وهو تلمذه كدحرجه بمعنى خدمه ؛ يتلمذه كيدحرجه ؛ وتلمذة وتلماذا ؛ كدحرجة ودحراجا ، فهو متلمذ كمدحرج بمعنى خادم . وذلك متلمذ أى جعل خادماً . وإطلاق التلميذ على المتعلم صنعة أو قراءة ، لأنه فى الغالب يخدم أستاذه ...

وجاء فى الحاشية على صدر الشريعة لأخى جلبى : التلميذ هو الشخص الذى يسلم نفسه لمعلم يعلمه صنعة ، سواء كانت علما أو غيره . فيخدمه حتى يتعلمها منه .

وذكر سعيد الشرتونى فى الجزء الأول من أقرب الموارد صفحة ٧٩ : التلميذ المتعلم أو الخادم الخ . ج تلاميذ » .

وجاء فى البستان لعبد الله البستانى صفحة ٢٤٣ من الجزء الأول : « التلميذ : الخادم ومن يسلم نفسه لمعلم يتعلم منه صنعة أو علما . ج تلاميذ وتلامذة » .

وجاء فى محيط المحيط لبطرس البستانى صفحة ١٧٠ من الجزء الأول : « تلمذ لفلان تلمذة وتتلمذ تتلمذا صار تلميذاً له . وفلاناً اتخذه له تلميذا . التلميذ والتلميذ : المتعلم أو طالب العلم ، والتابع ، ومن أقام فى مدرسة يقصد التعلم »

وجاء فى محيط المحيط (أيضا) : « التلام أصله التلاميذ فرخم بحذف الياء والذال وجرى الإعراب على الميم »

وجاء فى المخصص ج ١٢ ص ٢٥٧ : « والتلام : الصاغة ، الواحد تلم والتلام والحلاج : منافخ الصاغة » .

وفى المحكم مثل ما فى المخصص .

وذكر صاحب القاموس فى الجزء الرابع ص ٨٣ : « التلم محركة مشق الكراب فى الأرض أو كل أخدود فى الأرض ج أتلام . وبالكسر التلام والأكار والصائغ أو منفخه الطويل ، ج تلام كسحاب : التلاميذ حذف ذاله ، ولم يذكر الجوهرى غيرها » .

فكلمة التلميذ وردت فى المعاجم التى زعم البغدادى أنها لم ترد فيها . ووردت فى كتب اللغة والمعاجم المتداولة ، ولكن ما حقيقتها ؟

إن ابن فارس يقطع بأنها غير عربية في معجم مقاييس اللغة ويقول : « إن التاء واللام والميم ليست بأصل . ولم يرد فيه كلام صحيح ولا فصيح » . والجواليقي يقطع بعجمتها ويشاركه الخفاجي في شفاء الغليل .

ويذهب بطرس البستاني إلى أن التلميذ مشتق من « لمد » واللمد كما جاء في لسان العرب صفحة ٣٩٨ من الجزء الرابع : « ما أحمله اللبث » . وروى أبو عمرو : اللمد التواضع بالمال وزاد القاموس : الملمدان : الذليل . والتلميذ يتواضع ويذل لمعلمه ، وورد التلميذ بالذال في محيط المحيط ، وعلى هذا فيمكن أن يكون لمد الثلاثي أصل تلمذ .

إلا أن الصحيح عندنا أن التلميذ ليس عربيا أصيلا بل هو معرب ، لأن اللغويين من العرب كابن دريد وابن فارس والجواليقي وغيرهم يذكرون ذلك .

ويذكر بطرس البستاني : « وهو في العبرانية تلميد . وفي السريانية : تلميذا » .

وجاء في تفسير « الألفاظ الدخيلة » للقس طوبيا العنيسي اللبناني : تلميذ : عبراني معناه متعلم . وهو مشتق من « لمد » أي علم . ومنه : التلمود : أي كتاب سنن اليهود وتعاليمهم .

ونستدل من هذا أن التلميذ مأخوذ من العبرية أو السريانية ، وأظن أنه من العبرية للتقارب الذي نشهده بين اللغتين : العربية والعبرية .

وأول ما استعمل التلميذ في اللغة العربية أريد به معنى الخادم ومتعلم الصنعة وغير ذلك ، ثم تدرج حتى أصبح معناه من يطلب العلم ، وأصبح اليوم مطلقاً على من يطلب العلم من الصغار ، وأما من يطلب العلم من الكبار كتلاميذ الجامعة فلا يطلق عليهم تلاميذ بل طلبة ، وليس هذا بأصل في اللغة ! ولكنه اصطلاح جعل للتفريق بين تلاميذ الجامعة وغير الجامعة .

ولكن مادامت اللغة العربية استعملت التلميذ منذ الجاهلية ، فلا بأس من عده معربا ، بل هو معرب قطعا .

ونخلص من كل ما قدمناه إلى أن استعمال كلمة التلميذ كانت قبل عصر النبوة وما تزال حتى يومنا هذا أقوى مما كانت وأسير وأعرف . ومن الممكن عد هذه الكلمة مما اتفقت فيه لغتان وأكثر .

وعلى أي حال فلفظ التلميذ يعد عربيا غير أصيل لأنه من الألفاظ المعربة الموروثة منذ الجاهلية ، وهو مثل آلاف الألفاظ المعربة[1] التي تعد من لغة العرب . وقد استعملها أصحاب اللغة الأصلاء ، وكبار اللغويين ، كما أبنا ذلك في كلمتنا هذه والله الموفق .

(مكة المكرمة)   أحمد عبد الغفور عطار

(١) الألفاظ المعربة في العصور التي يحتج بها لا تبلغ الآلاف ، وكلمة التلميذ مستعملة منذ الجاهلية ، وهي من تلك الكلمات المعربة الموروثة ، وقلنا : آلاف الألفاظ بقصد ما عرب حتى القرن الثالث الهجري .

شيء من هنات الأدب العربي

للدكتور محمد غلاب

لاريب أن في جميع آداب العالم هنات تنمو وتتضاءل تبعاً لنهوض أو ركود الأمم التي تتجلى صورها الاجتماعية والخلقية في مرايا هذه الآداب . ومن ثم كان اتساع ثغرات النقص وضيقها في آداب الأمم آية ناصعة على رقيها أو انحطاطها ، وهذا يقتضي من الصفوة المثقفة في كل أمة أن تنفض عن فوائدها الخاصة من حين إلى حين لكي تتفرغ لأدب أمتها فتجيل النظر في مناحيه المختلفة لتضع يدها على موطن الضعف منه حتى إذا تم لها ذلك بادرت بالمساهمة الفعالة في إنقاذه مما هو معرض للهوى فيه من انحراف أو اعتلال ؟ ونحن إذا نظرنا إلى الأدب العربي بهذه العين الناقدة المجردة من غواشي التحيز وعلائق العصبية ألفينا أن به كثيراً من الهنات التي لا ينبغي الإغضاء عنها بحال والتي إذا أغفلناها لعامل من عوامل الأنانية الفردية تجسمت واستفحل أمرها وزادت في اتساع الهوة بين هذا الأدب وغيره من الآداب الحية الأخرى التي يتباهى بها أربابها . وفي طليعة هذه الهنات التي تشوه جمال الأدب العربي : شعره ونثره في نظر النزهاء من النقاد المحدثين ، هنة إغفاله الصور النسائية الخلابة ! ثم قد يبدو لدى النظرة العاجلة أن في هذا شيئاً من التجني على الأدب العربي ، فيتساءل قائلاً : كيف يمكن أن يرمى هذا الأدب بخلوه من الصور النسوية ؟ أفليست المرأة فريدة عقده وقطب رحاه ، ومحور كوكبه وبيت قصيده ؟ أو ليس الأدب العربي من أقصاه إلى أدناه زاخراً فياضاً بذكر الغانية وجمالها ودلالها وسحرها وفتنتها وسلطانها على النفوس ، وبقدرتها على هصر القلوب ، إلى غير ذلك مما لا يتسع المجال لسرده ؟ ولكننا بدورنا نجيبه قائلين : على رسلك أيها الناقد المتعجل ، فذكر المرأة على هذا النحو لا يشرف ولا يستوجب الدفاع ، لأنه لا يعدو كونه تصويراً للرغبات المادية ، ورسماً للذائذ الحسية ، وبالتالي هو أنانية بغيضة وأثرة مقيتة ، اللهم إلا أن تكون المرأة العربية دمية فاتنة لا روح فيها ولا تفكير ؟

ثم إن رشاقة الأساليب وأناقة العبارات التي صيغ فيها هذا الغزل قد لا تجارى في أي أدب آخر في إلهاب الأخيلة وشحذ القرائح وإصعاد الفن إلى أعلى آواجه ، ولكن عيبها الأساسي هو أن معانيها قد انحصرت في عبادة الصور الظاهرية وأهملت الجوانب الروحانية والنواحي العقلية في المرأة . ولهذا يشعر المرء العصري عندما يتمعن في الأدب العربي أن فيه ثغرة واسعة ، لا سيما إذا كان قد اطلع على الآداب الأخرى فرأى فيها المثل النسائية العليا التي تنحني لها الرءوس إكباراً وإجلالاً . ومنذا الذي لا تملأ نفسه إعجابا في الأدب الإغريقي مثلاً صورة أنتيجونا ، تلك الفتاة التي بلغت من الوفاء حد القداسة فكرست شبابها لقيادة والدها المكفوف ثم عرضت بحياتها في سبيل دفن شقيقها رغم سلطان الملك الجبار ؟ وكذلك إليكترا مثال الحنان الأخوي التي وقفت زهرة عمرها على حماية شقيقها والسهر على حياته المنكودة ، وهيكوبا ، ونيوبيه اللتان تفطر آلامهما الأموية القلوب وتفتت الأكباد . وخلاصة القول أننا إذا تعقبنا الآداب الأجنبية ألفينا فيها صوراً فاتنة خلابة للابنة البارة ، والأخت المخلصة ، والأم العطوف ، والزوج الوفية ، وليس علينا إلا أن نلقي نظرة سريعة على مؤلفات : لامارتين ، وتيودور دي بانفيل ، ورينان ، وأناتول فرانس وغيرهم لنرى فيها الأمهات والأخوات المثاليات اللواتي يحببن إلينا الأدب الأوربي ، ويدفعننا إلى النهوض بالأدب العربي عن طريق سد الثغرة التي لا نزال نشعر بها كلما وازنا بينه وبين غيره من الآداب ، إذ لا نكاد ننتهي من مطالعة تلك الروايات الأوربية حتى نحس بأنه قد أحدقت بنفوسنا دائرة حزينة ورهيبة شديدة التأثير مؤلفة من صور بطلات هذه الروايات اللواتي ليس فيهن غالباً ما يروق سوى جمالهن المعنوي ، وأنها قد محت من أخيلتنا تلك الصور المتلألئة التي كان الأدب العربي قد رسمها على صفحات قلوبنا

نقد

الإشارات الإلهيـــة

لأبي حيـــان التوحيدي

بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي

— ٣ —

للأستاذ السيد أحمد صقر

٢٤ — ص ٣٨ يقول أبو حيان : « وهذه نصيحة قد كررتها لك وعليك ، وأردت بها البخوع فيك ، والمبخوع منك ... » .

وعلق عليها الدكتور بقوله : « بخع لي بالحق بخوعاً : انقاد ، بخع بالحق من باب علم : بخاعة وبخوعاً : إذا أقر إقرار مذعن بالغ جهده في الإذعان به » .

وهذا خطأ ، والصواب « وأردت بها النُّجوعَ فيك » جاء في اللسان ١٠/٢٢٥ « ونجع فيه القول والخطاب والوعظ : عمل فيه ودخل وأثر » .

٢٥ — ص ٤٥ يقول أبو حيان لمن يخاطبه : « ... عليك الجهد في إيقاظك إن كنت نائماً ، وعليك الجهد في التيقظ وإن كنت حالماً . وعلى ذلك فلولا أن الله قد أراد بنا خيراً الخير ومرّضنا الرشد ما أنطقني الله بحرف ، ولا وفقك لاستماع حرف » .

وقال الدكتور في تعليقه : « في الأصل : علي » ، وهذا دليل على أنه لم يفهم كلام أبي حيان ، ولو قد فهمه لما غيّر الأصل الصحيح الذي يستقيم به نظم الكلام ، وبدّله بالخطأ البين الذي يفسد المعنى ، والصواب « عليّ الجهد في إيقاظك إن كنت نائماً ، وعليك الجهد في التيقظ إن كنت حالماً » .

٢٦ — ص ٥٥ « اللهم كثر غفلتنا فينا ، وطال تفطنا علينا ، واشتد ضعفنا بنا ، ونادى منادي العز بذلّنا ، ودكّ دليل الحتك على فضائحنا » .

والصواب « وذكّ دليل » بالذال لا بالدال .

٢٧ — ص ٥٨ « وقلت فما حيلة من إن أدنيته أبليته ، وإن أقصيته جليته ، وإن غرّبته حليته » .

والصواب « وإن عرّبته » بالعين لا بالغين .

٢٨ — ص ٦٠ أنشد أبو حيان بيتين ولم ينسبهما ، وهما :

بخيلاته النادرات الشبيهات بالدمى والأوثان .

إيه يا أوفيليا(١) ، وأنت يا جيسيكا(٢) ، وأنت يا أناَّلا(٣) ، وأنت يا هاريت دي موريسو(٤) ، وأنت يا أليت(٥) ، وأنت ياجيد(٦) ماذا لحكن غير جمالكن المعنوي ! ألستن أنتن اللواتي تذكرننا بقول الشاعر على لسان بطلته : « إني أنا الثلاثة الحارس وعروس الشعر والعذراء » .

ومنذا الذي يفي من المرأة أكثر من أن تكون ملاكاً حارساً في حياته المادية ، وعروس شعر ملهمة في حياته الأدبية ، وعذراء طاهرة في حياته الخلقية ؟ ثم منذا الذي لا يجد ثمرة في الأدب العربي حين يهمل هذا كله ويستعيض عنه برسم الطرف الكحيل ، والخد الأسيل ، والردف الثقيل ، وما إلى ذلك من الصور المادية التي تعطف نحو الغرائز الدنيا ؟

الدكتور

محمد غلاب

(١ — ٦) الأولى هي إحدى بطلات شكسبير — والثانية إحدى بطلات كورني ، والثالثة إحدى بطلات شاتوبريان ، والرابعة إحدى بطلات بلزاك ، والخامسة إحدى بطلات أوكتاف فوييه ، والسادسة إحدى بطلات شارلوت برونتيه .

خلّ جنبيك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من هذا الكلام

والصواب « بداء الصمت خير لك من داء الكلام » كما في عيون الأخبار ٢/١٧٧ ، وقد ذكر ابن قتيبة أنهما لأبي نواس .

٢٩ — ص ٦٢ « يا هذا كم تعذيبي وتأذيبي ، وتمحيقي من مصالح شئوني ... أرسل حبالي واطلب مني ما أملك ولا تشق عليّ ، فلست من حجر ولا من حديد » .

وقف الدكتور أمام هذه العبارة حائراً بائراً ، يدير الفكر ويعمل العقل لعله يهتدي لوجه الصواب في قراءتها فلم يستطع إلى ذلك سبيلاً ، فتركها على حالها وعلق عليها بقوله : « كذا ولعلها حسابي » !!!.

ولست أدرى أيّ معنى يكون لقول أبي حيان : أرسل حسابي واطلب مني ما أملك ! وهل كان يخاطب بقالاً أو جزاراً حتى يطلب منه أن يرسل إليه حسابه ، وحتى لو كان ذلك لما صح ذلك الفهم العجيب ، ولما استقام مع قوله « واطلب مني ما أملك » ، إن أبا حيان يخاطب إنساناً كان يجاذبه في البيان ويجاذبه إلى الطارق والإلهيات وما في حوزتها ويجري في جملتها ، فرغب إليه ألا يشق عليه ويطلب منه ما يطلق من البحث عن آفات الأعمال ووساوس الضمير ، وفلتات الجوارح ، ولذلك قال له : « أرسل خناقي » والخناق : الحبل الذي يخنق به كما في اللسان ١١/٣٨٠ ، ومعنى أرسل : أي خلّ وأطلق .

٣٠ — ص ٦٩ يقول أبو حيان : « التبس الجهر بالكتمان ، وامتزج الخبر بالعيان ، واشتبه العدم بالكيان ، واختلطت الكرامة بالهوان ، واعتاق الفقدان بالوجدان ، وغار البيان في البيان لحل البيان .. فلا جيد إلا وهو عاطل بعد التحلي ، ولا حق إلا وهو باطل بعد التجلي » .

والصواب : « فتجلّ البيان » بالجيم لا بالحاء .

والصواب أيضاً « فلا جيدٌ إلا وهو عاطل بعد التحلي » يقال : جيد عاطل : أي ليس عليه حلي من قلائد وغيرها .

٣١ — ص ٨١ يقول أبو حيان : « أما سمعت القائل حين قال :

بم التعلل لا أهل ولا زمن
ولا نديم ولا كأس ولا سكن

هذا وصف رجل لحقته الغربة ، فتمنى أهلاً يأنس بهم ووطناً يأوي إليه ، ونديماً يحل عقد سره معه ، وكأساً ينتشي منها ، وسكناً يتوادع عنده » .

ومن المدهش حقاً ألا يفطن الدكتور لذلك التناقض البين بين رواية البيت المحرفة وبين شرح أبي حيان للرواية الصحيحة : « ولا وطن » .

ولست أدرى كيف فهم أن قول أبي حيان « فتمنى أهلاً يأنس بهم ووطناً يأوي إليه » شرح لقول المتنبي : « بم التعلل لا أهل ولا زمن » ؟ ولعل الزمن هو الوطن في منطق الفلسفة ولغتها .

٣٢ — ص ٨٨ ، ٨٩ أنشد أبو حيان قصيدة مفعمة بالشكوى من الناس يقول فيها قائلها :

ويعلون من أرخى لهم من عنانه
بسوط ويستخذون للمرء ذي الشذا
فقد ترك الوعظ اللبيب لأنه
إذا هُدّ قول المرء خطوه قد تحذى
وما يصنع العين العليم بشحذه
إذا لم يجد في جانب السيف مشحذا

ضبط الدكتور كلمة « هُدّ » بضم الهاء ، لأنه وجدها مضبوطة كذلك في المخطوطة ، وقد أخطأ في هذا الضبط خطأ كبيراً كما أخطأ في الشرح ، إذ يقول : « الهدّ : القطع » !!!

والبيت بهذا الضبط وهذا الشرح ضرب من الهذيان .

والصواب : « إذا هَذّ » بفتح الهاء ، جاء في لسان العرب ٥/٥٤ : « يقال : هو يهذ القرآن هذّاً ، ويهذ الحديث هذاً : أي يسرده » .

وقد وجد الدكتور قول الشاعر « وما يصنع العين » مرسوماً في المخطوطة هكذا ، فظنه صحيحاً فأبقاه على حاله مع أنه لا معنى له ، والصواب : « وما يصنع القين العليم بشحذه » ، والقين : الحداد .

٣٣ — ص ١٣٦ يقول أبو حيان : « وارع حتى

التوحيد فإنه مجود بالعبث الزيوف ، وتيقن بأن راعى هذا الحمى إذا سمن لم يهزل ، وإذا روى لم يعطش ، وإذا اكتسى لم يعر ، وإذا استطال لم يَخْشع ، وإذا أومأ لم يَحَوَّر » .

وقال الدكتور فى شرحه : « حوَّر فلاناً . صيره أعور » !!...

وهذا خطأ عجيب ، والصواب : « وإذا أومأ لم يَحُوَّر » أى لم ينصرف عن حاجته التى أومأ إليها ، بل تقضى له ، ويصيب طلبه منها ، ورد فى اللسان ٦/٢٩٨ « عوّرته عن الأمر : صرفته عنه . والأعور الذى قد عوِّر ولم تقض حاجته ، ولم يصب ما طلب ، وليس من عَوَر العين » .

والصواب كذلك « لم يَخشَع » بفتح الخاء لا بضمها كما ضبطها الدكتور ؛ لأن الفعل معتل بالألف وقد حذفت لدخول الجازم ، وبقيت الفتحة دليلاً عليها .

٣٤ — ص ١٤٤ « بل سلام على لحظ كان يتعشى به العاير ، ويتجدد بنوره الدائر » .

والصواب : « يتعشى به العاثر » .

٣٥ — ص ١٤٦ شكا أبو حيان شكاة مريرة فالقيها : « أخلق الدين ، وعمت الفحشاء ، وأفسد العفاء ، وفشا الجهل » ، ثم قال : « ياهذا إنما تتنفس بهذه الكلمات كما يتنفس المعلوق » .

وعلق عليها الدكتور بقوله : « إما أن يكون من علق — من باب نصر — فلاناً بالعصا : أى ضربه ، ويكون المعنى هو المضروب ، وإما — وهذا هو الأرجح هنا — من قولهم فرس معلوق الذكر : حديث عهد بالنزاء » ! .

وأذر التعليق على هذا الشرح المضحك المبكى لصديق الفاضل الأستاذ أنور المعداوى .

٣٦ — ص ١٥٧ يقول أبو حيان : « دع هذا أيضاً فإنه ألدغ من جمرة الغضى » .

وقال الدكتور فى شرحه : « الجمر من حرّ القيظ أشده ، ونار الغضى — والغضى شجر معروف — أجود الوقود عند العرب » .

ومن الغريب حقاً أن العبارة قد وردت فى المخطوطة صحيحة واضحة « ألدغ من جمر الغضى » ، ولست أدرك السر فى صنيع الناشر المحقق .

٣٧ — ص ١٥٧ « ثم اجتهد بعد ذلك أن تستيقظ بين النيام ، وتنام بين المستيقظين ، فإن استيقاظك بين النيام يعرفك نفسك ، ونومك بين المستيقظين يرفيك لحظك » .

قال الدكتور فى تعليقه على كلمة « يرفيك » : « يمكن أن تقرأ : يرتهك ، وهو تحريف لعل أصله : يرهنك ، بدليل قوله قبل يعرفك » .

ومن الغريب كذلك أن الكلمة قد وردت فى المخطوطة صحيحة « ونومك بين المستيقظين يرتهك لحظك » ، وقد قال أبو حيان فى ص ١٦٧ : « وما فى نيل لذة منقطعة يبقى عارها ويرتهنك وزرها » ، ومعنى يرتهنك : يحبسك .

٣٨ — ص ١٥٩ « فما الحيلة لمن كلف ذلك ، أعنى كلف ما لا يطاق ، وحرّم بضائع الحس قبول ذلك ، وحقق الحقائق وسهل الطرائق شاهد على صادق دعواى فيك ، كما هو شاهد لك فى خصائص ما وهب لك ، لأنك بلا كاف التشبيه ، ولا هاء الكناية فرد فى تفردك ، واحد فى توحدك » .

وقد أخطأ الدكتور فى ضبط « وحرّم » بفتح الحاء وتشديد الراء مع فتحها . وصواب ضبطها الذى يستقيم به نظم المعنى « وحُرِم » بضم الحاء وكسر الراء .

ولست أدرى أى معنى لهاء « الكناية » ولا على أى وجه فهمها الدكتور ، والصواب « ولاهاء الكناية » وقد ذكر أبو حيان فى الإمتاع والمؤانسة أنه قال للوزير : « يؤذن لى فى كاف المخاطبة ، وتاء المواجهة حتى أتخلص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض » وأن الوزير أذن له فى ذلك وقال له : « ... ولو كان فى الكناية بالهاء رفعة وجلالة قدر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحق بذلك ومقدماً فيه » .

٣٨ — ص ١٦٠ : « ولاحت بوارق التى قست نحوها نواظر الافتقار ، وتبوأت صور المعنى فتقطعت عليها أكباد الأحرار ، وأذعنت النفس الإبامة على مداجتها تروم حيلة الشافى إليه ... » .

قال الدكتور فى شرحه : « الإبامة : الإقامة ، يقصد استمرت النفس فى دهشتها » .

وهذا خطأ والصواب « النفس الأبّاءة » أى الكبيرة

الإباء ، وهو الامتناع .

٣٩ — ص ١٧٦ : « إذا ساعدك الوقت بخوادع اللذات خلف توابع التبعات ، وإذا سرفك منظر من مناظر الكون فتكبر عليه بزينة الصون » .

قال الدكتور : « سرفه : جعله يخطئ ويجهل » .

وهـذا خطأ والصواب كما في اللسان ١١/ ٤٩ « الشَّرَف : الهيج بالشيء » .

٤٠ — ص ١٩٦ :

يا ساكن الدنيـا أمْ رَ زهرة الله
تيـا على الأيام كيف تصيـر
بل ما بدا لك أن تنال من الغنى ؟
إن أنت لم تقنـع فأنت فقيـر

وقد فهم الدكتور أن « بل » للإضراب ، و « ما » استفهامية ، ووضع علامة الاستفهام في آخر الجملة ، وذلك كله خطأ ، والصواب : « نل » بالنون ، و « ما » موصولة كما هو بديهي .

٤١ — ص ١٩٧ يقول أبو حيان : « أطال الله — أيها الشيخ — بقاءك ، ولا غبطة في البقاء ، وأدام صفاءك ، وكلَّ العيش في الصفا ، وأجلك في تناول الحق من معاونه » ...

قال الدكتور في تعليقه على « وكل العيش في الصفا » : « إما أن تكون ممدودة ، وحينئذ يكون : (كل العيش) منصوبة بالفعل (أدام) ، أو تكون مقصورة ، جمع صفاة أي الحجر الصلد الضخم ، وحينئذ تكون : (كل العيش) مرفوعة على الاستئناف لأنها مبتدأ ، ويكون المعنى هو : كل العيش في خشونة وقسوة وصلابة وشقاء » !!

أما عبارة أبي حيان « وكل العيش في الصفا » فيتعين أن تكون الصفاء ، فيها بالمد لا غير كما يقتضيه سياق المعنى والسجع ، وأما شرح الدكتور فهو خلط وخبط وجرأة بالغة على اللغة وقواعدها وعلى ما لا يعلم ، وأي جرأة أعظم من أن يقول في قول أبي حيان :

« وأدام صفاءك وكل العيش في الصفاء » إن « كل » هنا منصوبة بالفعل « أدام » من قال لك ذلك يا دكتور ، ومن علمك هـذا ، وفي أي كتاب وجدت ذلك ؟ أفتنا بالجواب فإن بنا لهفة عارمة إلى ذلك النحو الفلسفي الجديد .

وأي خبط أعجب وأغرب من قول الدكتور : « أو تكون الصفا » مقصورة ، جمع صفاة ، أي الحجر الصلد الضخم ، وتحديده لمعنى الجملة بقوله : « ويكون المعنى هو : كل العيش في خشونة وقسوة وصلابة وشقاء » .

حقاً أن هذا شيء عجاب !

٤٢ — ص ٢٠٠ « عـدد أبو حيان آفاته وشرح علتـه وقال « ... وتدلني على نفسي باسم التمام وأنا عين النقصان ، وجرأتي على الدعوى بفقد البرهان ، وتكردي في القول مع ضعفي وتقصيري في العمل ، وإطالتي الهذيان على غير وزن ولا تحـذير ، فإذا أنصفت فأنا ... الصلف الذليل ، والطالب النيل ، والوارد المُلى ... والتوءم المعنى ، والحاوى بلا جبير ، والمالك بلا فتيل ولا نقير » والصواب « والوارد الحلأ » أي الممنوع من ورود الماء . جاء في اللسان ١/ ٥٢ : وحلأ الإبل والماشية عن الماء تحلئاً وتحلئة : طردها أو حبسها عن الورود ومنعها أن ترده ... وفي الحديث : يرد عليَّ يوم القيامة رهط فيحلأون عن الحوض ، أي يصدون عنه ويمنعون من وروده » .

ولا معنى لقوله « والحاوى بلا جبير » ، والصواب : « والحادى بلا جبر » ، وعلاقة الحادى بالعـير معقولة معروفة ، وأما علاقة الحاوى به فلا يعرفها إلا الناثر العليم ...

٤٣ — ص ٢٠١ يقول أبو حيان : « ... ولن تسكن حُرَق الحرمان حتى يتمكن من برد الوجدان ، ولن تنقطع سلسلة الهدمان حتى يدرك الثأر من الزمان ، وهذا حديث لا يكون ولا كان » .

ومعنى « سلسلة الهدمان » هنا لا يكون ولا كان ، كما قال أبو حيان ، والصواب : « سلسلة الهذيان » ، والهذيان : كلام غير معقول مثل كلام البرسم والمعتوه ، كما جاء في اللسان ٢٠/ ٢٣٦ .

(للمقال بقية)

السيد أحمد صقر

نوادر المخطوطات

نشر وتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

الدكتور شوقي ضيف

سبق أن قدمنا إلى قراء الثقافة الأستاذ عبد السلام هارون وما يضطلع به من جهد في نشر مكتبة الجاحظ، وغيرها من ذخائر الكتب العربية النفيسة، وقد أتم أخيراً الجزء الرابع من كتاب البيان والتبيين، وألحقه بفهارس مختلفة تذلل الفائدة منه أمام الباحثين.

ولا نتحدث اليوم عن ذلك، إنما نتحدث عن سلسلة جديدة من عمله رأى أن يزود بها المكتبة العربية الحديثة، وهي سلسلة لا تقوم على نشر الكتب والمجلدات الضخمة، وإنما تقوم على نشر الرسائل الصغيرة الطريفة التي تعبر عن فكرة جديدة أو بحث محدود.

وهذه خطوة موفقة، فإن كثيراً من الرسائل المخطوطة التي لما تنشر قد تحوي من الفائدة العلمية ما لا تحويه دفتا كتاب ضخم، إذ الرسالة الصغيرة في العادة هي التي تظهر بالآراء الجديدة للمؤلف، فإن لم تظهر بآراء جديدة ظفرت بموضوع معين يحيط المؤلف بحدوده وأقطاره.

وقد عبر الأستاذ عبد السلام هارون عن ذلك في مقدمته لهذه النوادر، إذ قال مصوراً قيمتها ومبيناً لمنهجه فيها: « رأيت أن همة الناشرين المحققين تتجه في أغلب ما تتجه إلى المخطوطات ذات الشهرة الظاهرة، وإلى ما جلّ مقداره من كتب السلف، مغفلين في أكثر الأمر هذه الرسائل الصغيرة، وقديماً كان الناس كذلك، إنما يروقهم ما يملأ أبصارهم، وما يروعهم بجسامته وعظمه، ورب أسد مزر في أثواب رجل نحيف، فصح مني العزم على أن أكشف عن طائفة من هذه الكتب الصغيرة غطاءها، وأقدم منها إلى جمهرة الباحثين مادة نادرة، وأن أجعل هذا في مجموعات متتالية متسلسلة الأرقام والصفحات، وسيتكون من كل أربع مجموعات مجلد يقع في نحو خمسمائة صفحة، تنتهي بفهرس عام لما فيها من هذه الرسائل.

وهذه المجموعة الأولى تحوي أربع رسائل مهمة، هي: الرسالة المصرية لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي المتوفى سنة ٥٢٨ هـ، وكتاب المردفات من قريش لأبي الحسن علي بن محمد المدائني المتوفى سنة ٢٢٥ هـ، وكتاب مَن نُسب إلى أمه من الشعراء صنعة محمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥ هـ، وتحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه لمجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزابادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ.

وكل رسالة من هذه الرسائل لها طرافتها، فالرسالة الأولى كتبت في أوائل القرن السادس للهجرة، كتبها أبو الصلت عقب زيارته لمصر، ويقول ابن سعيد في المغرب إنه كان قد خرج من أشبيلية فصحب بالمهدية ملوكها الصنهاجيين وتوجه في رسالة إلى مصر فسجن بالقاهرة في خزانة البنود، وكان فيها خزائن من أصناف الكتب، فأقام بها نحو عشرين سنة، ثم خرج منها، وقد برع في علوم كثيرة من حديثة وقديمة، وصنف كتاب الحديقة على منزع كتاب اليتيمة في فضلاء عصره، وصنف الرسالة المصرية، وإنما حبسه المصريون لأن صاحبه الذي أرسله وهو يحيى ابن تميم بن المعز بن باديس كان قد قطع هو وأبوه اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة واستقلا عن مصر، فلم يكرم المصريون رسوله بل حبسوه إهانة له وازدراء عليه.

والرسالة في مقدمتها تشهد بأن أبا الصلت ألفها ليحيى ابن تميم بعد رجوعه إلى حضرته من مصر، وقد وصف له فيها الديار المصرية وموقعها في المعمورة ومجرى النيل فيها، ثم أردف ذلك بنُبَذ صوّر فيها جمال ربوعها ومغانيها، وأحوال أهلها وأجناسهم وأخلاقهم وسيرهم وعاداتهم وما يتصل بهم أو ببلادهم من الآثار العجيبة كالهرمين، ومن ألوان المعرفة كالطب والتنجيم! وعجب من جهل بعض

الأطباء في مصر كما عجب من ولوع بعض المصريين بأحكام النجوم وكثرة استخدامهم لها ، وقص في ذلك طرفاً من النوادر ، ثم تحدث عمن لقبه من الظرفاء والشعراء .

وأظن في ذلك ما يوضح أهمية هذه الرسالة ، فإن بها أخباراً طريفة عن الأحوال الاجتماعية والعلمية والأدبية بمصر أوائل القرن السادس للهجرة ، وقد أشاد بها السابقون واستقوا منها كثيراً في مؤلفاتهم على نحو ما صنع ياقوت في معجم الأدباء والعماد الأصبهاني في الخريدة وابن عماد في قوانين الدواوين والقفطي في أخبار العلماء وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء وابن سعيد في المغرب والمقريزي في الخطط والأدفوي في الطالع السعيد والسيوطي في حسن المحاضرة والمقري في نفح الطيب .

وعلق الأستاذ عبد السلام هارون على هذه الرسالة بتعليقات بديعة كشف فيها عن مواضع الغموض وقابل بين نصوصها ونصوص الكتب التي نقلت عنها ، وأصلحها في غير موضع ! ومن الحق أن نقول إن النسخة التيمورية التي نشر عنها هذه الرسالة مشوهة غاية التشويه محرف فيها كثير من الكلم والجمل ، وقد استطاع أن يصلحها جميعاً ويعيدها صورتها الأولى إلا ثلاثة مواطن استعصى فيها النص على الإصلاح بسبب أنه غير كامل أو أنه حرف تحريفاً تاماً ، وتصادف أني كنت أرجع ، إلى الخريدة في قسمها الخاص بصقلية ، وإذا أول هذا القسم ينقله العماد عن الرسالة المصرية لأبي الصلت فيعرض لموطنين من هذه المواطن الثلاثة ، فأتمما فيهما من نقص وأصلح ما بهما من تحريف .

ففي ص ٣٢ من المجموعة نجد الرسالة تجرى هكذا : « وقد تعاور الشعراء ... الشعاع على صبح ... » ووضعت النقط لتدل على أن الكلام في الأصل ناقص ، والعبارة في الخريدة : « وقد تعاور الشعراء وصف وقوع الشعاع على صفحات الماء » ، وتلتقي في أعلى ص ٣٣ ببيتين محرفين تحريفاً تاماً ، وأشار إلى ذلك الأستاذ عبد السلام هارون وأنشدهما العماد في الخريدة على هذا النحو :

بشاطئ نهرٍ كأن الزجاج
وصفوَ اللجين به ذوِّبا

إذا جمشته الصَّبا بالضحى
توهمته زردا مذهبا

وبذلك يستقيم موطنان من المواطن الثلاثة ، ويظل موطن ورد في ص ١٩ حيث نجد بيتين غير مكتملين ، وأكبر الظن أنهما للصنوبري ، وديوانه غير موجود تحت أيدينا ، ولا أشك في أنهما سينكشفان لحضرة الأستاذ الناشر أثناء بحثه وتنقيره الدائبين في الكتب والدواوين ، وقد جاء في هذه الصفحة نفسها أي ص ١٩ بيت لتميم بن المعز في وصف النيل وهو قوله :

فكأنما أمواجه تخرّق
وكأنما داراته سُررُ

وأنا أحفظ له رواية ثانية لعلها هي الأصح والأضبط ، إذ تجرى على هذه الصورة :

فكأنما أمواجه عُكَن
وكأنما داراته سُررُ

والعكن : الطيات حول السرة ، وجاء في آخر هذه الرسالة اسم شاعر مصري هكذا : أبو إسحق إبراهيم بن الأشعث ، وفي الخريدة : إبراهيم بن شعيب ، وكذلك أيضاً في حسن المحاضرة و مسالك الأبصار .

وإني لأثنى على ما بذله الأستاذ عبد السلام هارون في تحقيق هذه الرسالة وأقامه ما فيها من عِوَجٍ وأمْتٍ ، ولولا خبرته النادرة في تحقيق النصوص ما استطاع أن يخرجها في الصورة التي انتهت إليها ! وكما بذل جهوداً مشكورة في هذه الرسالة بذل كذلك جهوداً تشكر له في الرسائل الثلاث الأخرى ، فقد حقق رسالة المردفات من قريش للمدائني تحقيقاً بديعاً ، والمردفات هن اللائي خلف عليهن أزواج مختلفون ، وفي كتاب المحبر لابن حبيب فصل في هذا الموضوع ، ولكنه أعم ، إذ يتعرض للمردفات من قريش وغيرهن ، وفيه أيضاً زيادات خاصة بالقرشيات ، وفيه أيضاً بعض مغايرات في الحديث عن المردفات اللائي اشترك فيهن مع المدائني ، تارة في أسماء الأزواج وتارة في تعيين بعض أسمائهن ، غير أن ابن حبيب يكتفي بذكر اسم السيدة ومن تزوجها ، ولا يأتي بشيء من أخبارها وأشعارها إلا قليلاً ، أما رسالة المدائني التي نشرها الأستاذ عبد السلام هارون

أدب الشعب

للأستاذ كمال منصور

يعد المستشرق الألماني ليتمان أقدم الأساتذة الأجانب الذين شاركوا في التدريس بالجامعة المصرية عند إنشائها ، وأنه عندما بدأ تخصصه في اللهجات عكف على دراسة الفولكلور المصرية ، كان هذا منذ أكثر من خمسين سنة رأينا فيها أحد الأساتذة الأجانب يعترف بأدب الشعب ، وينفق جانباً كبيراً من وقته في دراسته . أما نحن فقد كنا إلى عهد قريب ، ولعلنا لا نزال ، ندرس الأدب على أنه صورة لغوية بيانية لا أكثر ولا أقل . وفهم المثقفون أن هذا الأدب ليس سوى مجموعة منتخبة أو غير منتخبة من الشعر والنثر ، يوزع هذا وذاك على العصور مقسمة على أساس الدول الحاكمة أو القائمة وأدى هذا بطبيعة الحال إلى انحصار الأدب في بيئات الحاكمين والمحسوبين عليهم ، وكانت الأغراض التي يدور عليها الشعر والنثر تتصل بهؤلاء الحكام مديحاً أو رثاء أو هجاء لخصومهم ، أو صرفاً للعامة عما يراد بهم أو يدبر لهم في الخفاء ، أو دعاية مبهرجة كاذبة تصور الأشخاص والأشياء على ما يريد السادة وذوو السلطان .

وظلت أوساط المثقفين مقتنعة بأن هذا هو الأدب ولا أدب غيره ، مطمئنة إلى تلك الظواهر الصناعية التي تشيع فيه ، والتي قد تفتق الحواس بزخرفها وضبابها ، ونسوا أن الدعامة الأولى في الأدب تقوم على صدق التعبير ؛ تعبير الأمة عن آلامها وآمالها القومية أو الوطنية أو الاجتماعية .

وإن ادعاء الدعيين بانحصار الأدب على لهجة بذاتها توصف وحدها بالفصاحة ، هو بمثابة الحكم بالسجن على هذا الفن الجميل ، وما ينبغي له من طلاقة وحرية ، ومن ثم فإن للأمة المصرية أو الشعب المصري أدباً رفيعاً صادقاً ، يفيض بالأحاسيس والمشاعر ، ويعبر في قوة وحرارة عن فلسفة هذا الشعب في الحياة ورأيه في الوجود ، ويبين في جرأة وإقدام عن مذهبه في الحكومة والحكام .

وقد استطاع هذا الأدب الشعبي أن يحيا ، وأن يتطور وأن يتخذ سبيله ، حتى تسلل إلى أوساط المثقفين ، فالتفت إليه فريق وإن كانوا قلة ، وأقبل على تذوقه والإنشاء فيه طائفة من أصحاب المواهب والعبقريات ، أرسلوا أغانيهم وأزجالهم إلى كل نفس وكل مكان ، بل إن عدداً من الذين كانوا يكتبون باللهجة الفصحى أخذ يحاول الكتابة بلهجة الشعب ، حضرية كانت أو ريفية أو بدوية ، وأعانهم على النجاح والتوفيق تلك الوسائط التي حطمت الحواجز بين الطبقات ، وتجاوزت الحدود الزمانية والمكانية ، ونعني بها الإذاعة والسينما وما يصاحبهما من تسجيل الصوت والصورة .

فتعطينا في أحوال كثيرة صورة واضحة عن السيدة التي يتحدث عنها ، ومن هنا تأتي أهميتها وتأتي امتيازها على الفصل الذي عقده ابن حبيب في كتابه .

وتتبع هذه الرسالة رسالة من نسب إلى أمه من الشعراء لابن حبيب ، ورسالة تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه للفيروزابادي ، وهما رسالتان مهمتان جداً لمن يبحث في الشعر القديم والأدب العربي على وجه العموم ، إذ تكشفان حقيقة كثير من الأسماء مثل اسم ابن الزِّبَعْرَى ، وقيس بن الحُدادية وابن الدُّمَيْنة وابن الطَّثَرية وعمرو ابن الإطنابة ممن نسب إلى أمه ؛ ومثل إسحق بن راهويه ، وأحمد بن تيميّة وسويد بن كراع وعبد الله بن أُبَيّ بن سلول ومحمد بن شرف القيرواني ومحمد بن القوطيّة ومحمد بن ماجه والمقداد بن الأسود ويونس بن حبيب ممن نسب إلى غير أبيه .

وإننا لنرحب بهذه المجموعة النادرة ونثني على ما أدى فيها حضرة الناشر من تعب وعناء تعودناهما من قبلُ في كل ما يحاول من نشر وتحقيق .

شوقي ضيف

ولعله من المؤسف أن معاهدنا التي تقوم على دراسة الأدب ، ظلت تشايع النظر القديم ، فتؤثر أدب الحكام ومن إليهم ، ولا تكاد تلتفت إلا إلى المحسنات اللغوية في اللفظ والمعنى ، وتجهل أو تتجاهل تراث الشعب المصري الذي ظل يتغنى فيه آلاف السنين . أما الأوربيون ، فقد عكفوا على هذا التراث الشعبي المصري ، فجمعوا مخطوطاته المتفرقة في المكتبات العامة والخاصة ، واستخلصوا من الحفاظ كثيراً من آثاره غير المدونة . ولكنا يجب أن نصف بعض المجدين من المصريين وهم قلة ضئيلة جداً ، فقد احتفلوا بالأدب الشعبي ، فأصدر الأستاذ مصطفى الصباحي والأستاذ حسين مظلوم كتابهما في « أدب الشعب » تحدثا فيه عن هذا الأدب ، وعرضا لبعض رجاله ومنشئيه ، وأصدر الأستاذ مصطفى عبد اللطيف كتاباً خاصاً بأبي زيد الهلالي ، كما نشر كتاب الأمثال العامية للمغفور له أحمد تيمور باشا . أما الجامعة أو الجامعات المصرية فقد سدت النوافذ دون هذا الأدب زمناً طويلاً ، وظل الأساتذة والطلاب فيها يشغلون أنفسهم بنقائض جرير والفرزدق والأخطل وما فيها من المهاترة والسباب والقول الفحش الموغل في الشخصيات والأعراض ، ويتفرجون على الخصومة حول أبي تمام والبحتري والمتنبي ، وشذت عن هذه الجامعية التقليدية آحاد ، هم الدكتورة سهير القلماوي برسالتها القيمة في قصص ألف ليلة وليلة ، والدكتور فؤاد حسنين الذي احتفل بقصصنا الشعبي ، واعترف بأن للأدب الشعبي مسرحاً — وإن يكن بدائياً — يتمثل في خيال الظل ، وتتبع هذا الأدب المسرحي الشعبي ، ودرس نوابغ المؤلفين فيه . أما ثالث الثلاثة فهو الدكتور عبد الحميد يونس الذي عكف على هذا الأدب وتخصص فيه ، وتقدم إلى الجامعة برسالته الأولى لنيل درجة الماجستير في القصة الشعبية المعروفة بسيرة الظاهر بيبرس ، وتابع دراسته في الملحمة الشعبية المستفيضة الشهرة الخاصة بسيرة بني هلال ونال بها درجة الدكتوراه .

وبعد ، فمن حقنا أن نتساءل : ألم يحن الوقت بعد لنعرف أن الأدب والحياة شيء واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر ؟ وأن يذكر الجميع أن الديمقراطية السليمة المنشودة ينبغي أن تقوم على أساس من التربية الوطنية أو القومية ، وأن هذه التربية لا يمكن أن تؤدي وظيفتها في معرفة الحقوق والواجبات إلا إذا اعترفنا بأن الشعب مشاعر وعواطف قد سجلها في أدبه ، وأبان عنها في أقاصيصه وأغانيه .

آخر أوبرات فردي :

يحتفل العالم أجمع بذكرى مرور خمسين عاماً على وفاة الموسيقي العظيم فردي ، ذلك الفنان الذي أخرج ستا وعشرين أوبرا سكب فيها عصارة حياة مليئة بالكفاح والعرق والدموع ، ولقد كانت آخر هذه الأوبرات التي وضعها الموسيقي الخالد هي أوبرا فالستاف التي أخرجت في ميلانو عام ١٨٩٣ ، ولقد كانت هذه الأوبرا عملاً عظيماً جديراً بأن ينسب إلى أستاذ عبقري في الثمانين من عمره ، وقد اقترح عليه صديقه الحميم « بواتو » موضوع هذه الأوبرا ، وما زال يستحثه حتى أتمه بإخراجها ، وقد أحيطت هذه الأوبرا في أول عرض لها بدعاية واسعة رغم أن (فردي) لم يكن يمقت شيئاً قدر مقته الدعاية ، وبعد أن عرضت هذه الأوبرا في ميلانو انتقل عرضها إلى ألمانيا ، فكان نصيبها من النجاح في هذه الأخيرة أكثر من نجاحها في إيطاليا نفسها ، ثم عرضت في انجلترا فلقيت نجاحاً شعبياً كبيراً ، ذلك لأنها تلائم الشعب الإنجليزي ، لا من حيث موضوعها فحسب ، بل لما فيها من تعاون أفراد الفريق في عمل جماعي يحقق غاية واحدة ، فليس فيها بطولة فردية لمغن بعينه أو مغنية بعينها ، وهذا العمل الجماعي لا يلائم الروح الإيطالية ؛ فالشعب الإيطالي يميل إلى تمجيد الفردية ؛ وفالستاف ليست مجرد أوبرا ناجحة فحسب ، ولكنها في نظر النقاد منبع متعة للمستمعين ، ومصدر وحي للموسيقيين ، بل إنهم اعتبروها تطلعاً نحو مستقبل جديد ، وجعلتهم يؤمنون بأن « الأوبرا كوميك » لم تمت ، ولا يمكن لها أن تموت .

بعد أن انتهى « فردي » من هذه الأوبرا الخالدة التي ختم بها حياته الفنية ، ركن إلى الدعة والهدوء ، وأخذت الأعوام الأخيرة من حياته تسرع في إفناء نفسها ، حتى طواه الموت في السابع والعشرين من يناير عام ١٩٠١ تاركاً وراءه هذا العمل الضخم يقص للأجيال حياة عبقري ولدته إيطاليا ، ليبث رسالته ، وينشر سحره ، في كل أنحاء الوجود .

كمال منصور

براعة استهلال – مريض الوهم – ممثلة الموسم

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

براعة استهلال :

استهلت فرقة المسرح المصرى الحديث برنامجها الثانى استهلالاً بارعاً بمسرح حديقة الأزبكية منذ أسبوعين بتقديم روايتين ، إحداهما من فصل واحد ، وهى (الجلف) من تأليف الفنان المسرحى الروسى « تشيكوف » ، وتعريب الأستاذ زكى طليمات ، والأخرى من ثلاثة فصول ، وهى (مريض الوهم) من تأليف الفنان المسرحى الفرنسى « موليير » ، وتعريب الأستاذ إدوار ميخائيل ، وكلتاهما من إخراج الفنان المسرحى المصرى « طليمات » .

وقبل أن أتحدث عنهما أحب أن ألوم هذه الفرقة التى تفهم وظيفة المسرح حق الفهم لتقديمها هاتين الروايتين فى حفلة واحدة ! فإنه على الرغم من أن تمثيلهما معاً قد استغرق وقتاً مناسباً ، أى زهاء ثلاث ساعات ، إلا أنى كنت أوثر أن تمثل كل رواية على حدة . ذلك لأنها ظلمت تشيكوف بتمثيل رواية موليير بعد روايته . وبديهى أنى لا أقصد بذلك أن أحدهما أفضل من الآخر ، فلا تجوز المفاضلة بين إمامين من أئمة المسرح عاش كل منهما فى ظروف وبيئة وحقبة معينة ، والتزم كل منهما طرائق وأساليب معينة ، وصنع كل منهما تاريخه الخاص بما استوفى واستنفد من ممكنات عبقريته ، وبما استلهم واستخدم من موحيات حياته ... وإنما أقصد أن لكل مسرحية – لا سيما إذا كانت من طراز ممتاز – نشوة ينبغى أن يستمتع بها المتفرج أطول وقت ممكن استمتاعاً ذهنياً ونفسياً .. والنشوة التى أحدثتها رواية (الجلف) سرعان ما ضاعت أو ضاع معظمها بتقديم رواية (مريض الوهم) بعدها مباشرة .

على أنى أنظر بجمهور هذه الفرقة إذا لم أتمحل لها شيئاً من العذر فى هذا ، إذ أن بعض جمهورنا – فيما يبدو – يريد أن يتقاضى ثمن (التذكرة) على ضآلته « شغل » ثلاث ساعات !!.

مريض الوهم :

سأتحدث عن رواية موليير قبل رواية تشيكوف ، لأنى فرح بتحقيق رغبتى التى أبديتها فى كلمة سابقة عندما تحدثت عن رواية البخيل ، إذ قلت ما معناه أنه لو كان بيدى الأمر لفرضت على هذه الفرقة تمثيل كل روايات موليير .

ولست أزعم أن تمثيل (مريض الوهم) لم يكن إلا تلبية لتلك الرغبة ، وإنما لا شك فى أنه مما يفرح الناقد الذى يعيش فى بيئة مليئة بالنقائص والمآخذ والعيوب وذاهلة – مع هذا – عنها ، وبين قوم يحسبون أنهم على جانب كبير من سرعة الخاطر وخفة الظل وبراعة النكتة ، وهم – علم الله – أبرياء من هذا كله ، لا شك فى أنه مما يفرح مثل هذا الناقد أن يشهد فى بيئته وبين قومه مثل هذه الرواية ليرى كيف تعالج مثل تلك النقائص والمآخذ والعيوب ، وكيف تجمع مثل تلك المزايا – سرعة الخاطر وخفة الظل وبراعة النكتة .. الخ – فى عبقرى حقيق ، وكيف يفيد بها الإنسانية .

لقد أرانا فى (البخيل) كيف يسخر من البخل ، وينفذ الناقد من وراء ذلك إلى حقيقة أهدافه ، أو أهداف عبقريته من تحليل النفس البشرية واستظهار بواطنها والوقوف على عيوبها ، ومن تصوير دقيق للمجتمع البشرى والتنقيب عما فيه من شرور ، وبهذا وذاك يمكن مكافحة

ما ينتاب النفس من أضرار ، وما يحيق بالمجتمع من معوقات تقدمه .

والآن يرينا مثل هذا في (مريض الوهم) فيسخر من محترفي الطب ، ومن الموهومين بالمرض ، ولكن هل هذه السخرية هي غرضه الذي ابتغاه ؟ .

هو يصور غفلة الطبيب (ديافواروس) وغباءه وضيق أفقه ، إذ يعنى بالشكل دون الجوهر ، ويُحِلّ الوسيلة محل الغاية ، حتى ليخيل إليه أن المرضى إنما وجدوا من أجل الأطباء ، وأن الأطباء إنما وجدوا لأن وجودهم — في ذاته — ضرورة ، وليس من المهم أن يعالجوا مرضاهم ، بل إنهم — كما قال — ليسوا مجبرين على معالجة مرضى ما إلا « حسب الأصول » !!.

وهو يصور غفلة الموهوم بالمرض (أرجان) وغباءه وضيق أفقه ، إذ يهدده أحد أدعياء الطب (بيرجون) بكل أنواع الأمراض لا بشرح أعراضها وأسبابها ومسبباتها واحتمالاتها ، وإنما بإلقاء حشد من أسماء لا مدلول لها في تكرار آلي ، وفي كل مرة ينهض (أرجان) ، ثم يجلس كالآلة التي لا إرادة لها ، ثم لا نسمع منه خلال ذلك سوى صيحة واحدة تتكرر بغير انقطاع .

وإذاً فهو يتخذ من السخرية بمحترف الطب والموهوم بالمرض — على الرغم من ضيقه بهما فعلاً نتيجة لتجاربه الخاصة — وسيلة للسخرية مما في الناس والمجتمع من ادعاء واجتراء ونفاق ، ومن ضعف وتخاذل ووهم ، ومما في الحياة من تكرار وآلية وشكلية ، سخرية خليقة بانتشالنا من سوءاتنا ونقائصنا ، أو مكافحتها على الأقل لو عرفنا كيف نفطن إلى مدلولاتها .

هذه المعاني والعبر وما إليها استطاعت فرقة المسرح الحديث أن تمثلها لنا تمثيلاً أعاننا إلى حد كبير على فهمها واستيعابها ، وبقي أن نعمل على الاستفادة منها . ويطول بي الحديث لو أردت الإفاضة في شرح ما بذله هؤلاء الممثلون الناشئون من جهد وما أبدوه من استعدادات موهوبة ومكتسبة . غير أن بعضهم كان يغلب تفكيره على صيحته ، ويظهر أن هذا لم يكن إلا احتفالاً منهم بقيمة ما يقومون بتمثيله .

وأغلب الظن أن هذا لا يمنع من أن أنوه بإخلاصهم جميعاً ، فإذا قلت إن (عدلي كاسب) قد بذل أقصى ما يستطيعه من جهد في الأداء بالرغم من صعوبة دوره فليس معنى هذا أني أميز القائم بدور البطل على غيره . وربما كان من أعجب الأمور في هذه الفرقة ، أن أفرادها يضفون أهمية على أدوارهم ، بعد أن كان الملحوظ في الممثل المصري أنه يستمد أهميته من أهمية الدور الذي يلعبه . ولقد تجلى ذلك في الأدوار التي قام بها (صلاح سرحان والجزيري والسبع وسعيد أبو بكر) بنجاح على الرغم من قصرها . بل إن (كمال يس) لم يمكث على خشبة المسرح أكثر من دقائق ؛ ومع هذا أعطى لدوره متطلباته . وكان (عبد الغني قمر) موفقاً في إكساب شخصيته طابعاً معيناً Type غير أنه التزم هذا الطابع التزاماً صارماً .

ممثلات الموسم :

من حق الزميلات ممثلات الفرقة أن أرد لهن اعتبارهن . فقد سبق أن رميتهن بالضعف — باستثناء واحدة أو اثنتين — وطالبتهن بمزيد من العناية وتقدير المسئولية . والآن بعد أن أظهرن حسن بلائهن في (مريض الوهم) يسعدني أن أشد على أيديهن مهنئاً ومبشراً بمستقبل فني كبير . لقد أملت حوادث هذه الرواية أن يستأثرن بالموقف أكثر من مرة ؛ فما كان أروعهن إذ يملأنه بالحياة والحركة . ولقد أملت الحوادث أيضاً أن يستغرق دور إحداهن (سناء جميل) طول الرواية تقريباً متنقلة بين شتى المشاهد مفردة الشخصية حيناً ، ومزدوجتها حيناً آخر ؛ فكانت في كل ذلك بارعة الحركة ، معبرة اللفتة ، موفورة الفهم جيدة التصرف .

ولست أدري إلى أي حد أنصفها حين أطلق عليها « ممثلة الموسم » وكل رجائي ألا يدفعها هذا النجاح إلى شيء من الغرور .

عبد الفتاح البارودي

أيها الليـــل ...

للآنسة إلهام يوسف

إلى عاشقة الليل .. الشاعرة .. العراقية ..
نازك الملائكة .. إلى ذلك القلب النابض
بالحياة ، والضوء .. رغم ظلام الليل ...

أيهـا الليـل وقد أمعنت في الظلمة حولي
ورأيت أشباحاً على الدرب الطويـل
تمشي في شعاب العمر من ظلٍّ .. لظلّ
أنت .. لو تدري .. لأصغيت لأنغامي وقولي
أنت .. لو تدري .. لما غنيت بالأحزان أهلي

أيها الليـل .. وقد عدت بأطياف الحوابي
عدت بالأحلام .. أحلام أمانيّ .. الكوابي
عدت بالأشواق .. أشواق إلى خير الروابي
حيث .. أمسي .. بين أهلي .. بين قومي .. وصحابي
آه .. لو تدري .. فقد أذويت ـ يا ليل ـ شبابي

ها أنا .. يا ليل .. والريح حواليّ .. تصيح
قصةً .. حيرى نغنيها على الدرب الجريح
نغمةٌ .. تدوي ... وأشواقٌ .. وأشعارٌ تنوح
كان لي أرضٌ .. بها قد كنت أغدو .. وأروح
فإذا بي عدت .. يا ليل .. ولي قلبٌ جريح

أيها الليل .. وفي بغداد .. لي .. أختٌ تحنّ
ولدى بيروت أخرى هي من شوقٍ تئن
فمتى تجمعنا الأيام .. والدهر يَمُنّ
ومتى .. ألف متى .. واحسرتا .. راحت تطن
لم يجب ليلٌ ... ولكن حمّل الأجواء حزن

فتهاويت .. وفي عينيّ لمح الألمِ
وحواليّ ركامٌ من سواد الظلَمِ
أين أمسي ؟ .. ضاع أمسي وتلاشى حُلُمي
كل شيء قد تهاوى عن عيوني .. ولمي
فاكتم .. الأحزانَ والأشواقَ واصمت .. قلمي

(غزة) إلهام يوسف

مرج البحرين يلتقيان

أعجبتني ثم ولت مدبرة
ظبية من ريم هذا الزمان
أعجبتني ثم عادت نافرة
ليت شعري كيف أعطيها الأمان
لم يطق العتاب حتى تفترى
لا ولا بالظفر والناب أصول
من بني الإنسان إلا أنني
أرتجي في الحب مرعى الأصول
لا تخاف ربة الخال إذاً
نحن كالبحرين خُلقنا للقاء
إن تلاقينا فموج فوق موج
من صفاء ورضاءٍ وهناء
ائتلاف النفس بالنفس عسير
وامتزاج الروح بالأخرى يسير
غير أن الظن إثمٌ ماحق
كم أطاح الظن من قلب قرير
هكذا الدنيا على مر الزمان
ائتلاف فاختلاف فهوان
والذي يشغل هذا كله
في شعاب القلب حب ا هوان

الأديب المجهول

الثقافة

العـــدد ٦٣٥	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون	الثمن ٢٠ مليما
٢٦ من فبراير ١٩٥١	تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	

قالوا

• نعم ، نحن معشر النساء من أكثر خلق الله ثرثرة ، ولكننا لا نبوح بنصف الذي نعرفه .

(ليدي استور)

• أومن أعظم الإيمان بالحظ ؛ فعلى قدر ما يزداد اجتهادي في عملي يزداد حظي . (أمرسون)

• كثيراً ما يكون اطمئنان الضمير حسنة من حسنات ضعف الذاكرة .

• لم ألق في حياتي رجلاً عظيماً لم يكن ينطلق دائماً على سجيته في وداعة وبساطة ، أما التصنع والتظاهر فهما من خصال الرجل الذي لا يثق بنفسه . (شارل دوز)

• إنك لا تستطيع أن تمنع طيور الأسى من أن تحلق فوق رأسك ، ولكنك تستطيع أن تمنعها من أن تعشش في شعرك . (مثل صيني)

• السكوت أبلغ تعبير عن الاحتقار . (برنارد شو)

• إذا سادت التقوى على القلب ساد الجمال في الطباع والأخلاق ، وإذا ساد الجمال في الطباع والأخلاق سادت الألفة في البيت ، وإذا سادت الألفة في البيت ساد النظام في الشعب ، وإذا ساد النظام في الشعب ساد السلام في الأرض .

(مثل صيني)

• إذا كان الأفاق غبياً سمي سافلاً .

• إذا اجتمع الأغنياء للعناية بشئون الفقراء سمي ذلك إحساناً . أما إذا اجتمع الفقراء للاهتمام بشئون الأغنياء فإن ذلك يسمى فوضوية . (بول ريشار)

• ما أعجب هذه الدنيا ! إذا لزمت الصمت عدك الناس جاهلاً ، وإذا فتحت شفتيك بالقول لم يبق عندهم شك في ذلك .

• بعض الناس يسرع إلى تصديق كل شيء عنك ما دام الذي يسمعه هو أسوأ شيء . (فيو لترتون)

جمعها : عصمت نجيب

تهويمة الوحيد !

وحدي ؟! بلا خل هنا وأنا أنا ؟ ومن أنا ؟
وهل أعيش ؟ وما الحياة ؟ وما الأماني والمنى ؟
خدعت نفسي ؟ أم خدعت ؟ أم خدعنا كلنا ؟
تطوى الليالي لا تعود ... وهي تطوي سرنا
بالأمس كنت ... فأين راح الأمس ؟ في جوف الفنا
كذا يضيع العمر ! فلنأسف لماضي عمرنا
ولنبتهج في يومنا فغداً سيضحى أمسنا
تجري بنا هذي الحياة سريعة تجري بنا
وتسوقنا حتى نوارى في التراب .. ونسجنا
ماذا سنكسب الحياة ونجتني من عيشنا ؟
لو أنها تمضي الهوينا !... علنا .. ما علنا
تجري سريعاً مثلما تمضي بطيئاً موهنا
في عالم التعب الذي قد مدعنه علنا
ناس سيأتون الحياة ليشربوها مثلنا
يأتونها ليخلفوها بعد حين إثرنا
قد نلتقي يوماً لنذكر أمسنا من يومنا
في جنة الخلد التي وقفت علينا وحدنا
بل في قرارات الجحيم معذب من بيننا
• • •
يارب ... هل ضاق الفضاء ؟ ! فنلتقي جمعاً هنا
نحيا ... ونحيا في صفاء بعضنا مع بعضنا
من مسه سوء ثوابه كأن قد مسنا
ومن اجتنى خيراً حبوناه هنيئاً ما اجتنى
يارب هلا من سنى النور العظيم خلقتنا ؟
أرواحنا ! حقاً من النور الطهور جبوتنا
لكن مزجت النور بالطين الوضيع ... فضرنا
ما ذنبنا ... والقيد في أعناقنا ؟ ما ذنبنا ؟
والشر مهما نجتنبه مركب في طبعنا
ونقاد إذ نقوى ... ونرتكب الآثام ... برغمنا
وبودنا ... ماذا تراه أن يكون بودنا
وبودنا أن نوسع الدنيا تقى وتدينا
نرجو الحياة بريئة من كل أوشاب الدنا
نرجو الحياة هنيئة بالخير تجري حولنا
نرجو النفوس طهورة فتحبنا ونحبنا
هذا رجاء الشاعرين ... فمن يحققه لنا ؟ !

عز الدين اسماعيل

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٣٥ | الاثنين ٢٠ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٠ — ٢٦ من فبراير سنة ١٩٥١ | السنة الثالثة عشرة

في السياسة الدولية :

الجامعة العربية في مهب الرياح

للدكتور عبد الحميد البطريق

مرت بالجامعة العربية أزمات وأحداث ، تعرضت أثناءها لخطر التصدع والانحلال ، لولا أن أدركت رجالها عناية الله وحرارة الإيمان . ولو درى العرب أن جامعتهم أصبحت نُهْبَة في حلق الصهيونية والاستعمار ، لتحالفوا وتآلفوا ، ولعضوا على جامعتهم بالنواجذ ، ونحوا نزعاتهم الشخصية ، وتعاونوا على البر بها وتقوى الله في وحدتها .

إن الرياح تهب على بناء الجامعة من كل جانب ، فهي تواجه امتحاناً عصيباً لقوتها وعزمها ويقظتها ووحدة رأيها ، وها نحن نرى معظم الصحف والمجلات الأوربية والأمريكية تحمل عليها ، وتحاول الانتقاص من قدرها ، وتتهم الدول العربية بأنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها حتى ولو أعطيت السلاح في يدها ، وتعيّرنا أننا نجتمع في الجامعة وقلوبنا شتى ، وأن بالجامعة محورين متعارضين ، يتربص كل منهما للآخر ، ويعلم الله أن الاستعمار هو الذي يلعب دوره الخطير في هذه الأيام ليهدم الجامعة العربية على رءوس أصحابها حتى لا تكون وحدة .

لقد كانت الجامعة العربية في نظر انجلترا والولايات المتحدة حصن الشرق العربي ضد العدوان السوفييتي ، وكان ذلك عندما أهابت تركيا بهما ألا يتركا ظهرها مكشوفاً أو ضعيفاً ، واقترحت أن تعمل الدولتان على تقوية ظهرها في الشرق الأوسط ، ولما كانت الدول العربية هي ذلك الظهر المنشود ، كان لابد من تشجيع التكتل العربي في صورة من الصور ، فهللت تلك الدول جميعها للجامعة وكبّرت ، ولم يكن إذ ذاك في الإمكان أبدع مما كان . ثم سمعنا أن الكتلة الشرقية بدورها ترحب بالجامعة وترجو على يديها الخير والبركة .

لقد سئمت الدول العربية تلك الدعايات التي ترد إليها تارة من الشرق وتارة من الغرب ، فهي تدرك تماماً أن الجانبين يخطبان ودها قبيل كل حرب ، حتى إذا انتهت أدارت تلك الدول الكبرى ظهرها للعرب ، وضربت بوعودها عرض الحائط ، وخلقت لهم المتاعب في بلادهم ، ولن ينسى العرب آخر هدية اشترك في تقديمها لهم دول الكتلتين الغربية والشرقية معاً ، وكانت الهدية — والعياذ بالله — هي دولة إسرائيل ، ووجد العرب أنفسهم يحاربون

الشرق والغرب في أرض فلسطين .

ثم تلقت إسرائيل الغوث والعون من كل جانب ، حتى من تركيا التي تربطها بالعرب علاقة روحية قديمة . وسكت العرب على مضض ولم يقولوا لتركيا « حتى أنت يا بروتس » !.

وقد ذكرت الصحف هذا الأسبوع أن وزير الخارجية التركية الجديد « السيد فؤاد كوبرولو » ينوى زيارة العواصم العربية لكي يتفاهم على أربعة موضوعات هي :

أولا : إزالة سوء التفاهم الذي حدث بين تركيا والبلاد العربية بعد أن اعترفت تركيا بإسرائيل وأنشأت معها علاقات اقتصادية .

ثانياً : التفاهم على الموقف الذي سيقفه العرب إذا هاجم الاتحاد السوفييتي تركيا .

ثالثاً : بحث فكرة تأليف حلف الشرق الأوسط يضم بعض دول المنطقة الشرقية من البحر الأبيض .

رابعاً : تنظيم المشاورات السياسية والعسكرية بين دول الشرق في حالة الطوارئ .

ولست أشك في أن الدول العربية جميعها سترحب أكبر الترحيب بزيارة وزير الخارجية التركية لتعبر له عن عواطفها الودية نحو الدولة الإسلامية الكبرى . ولكنها سوف تعتب على تركيا في شخص معاليه ، ذلك الموقف العجيب الذي وقفته تركيا بإزاء كارثة فلسطين ، إذ اعترفت بدولة إسرائيل قبل أن تعترف بها دول أوربية وغير أوربية لا تربطنا بها وشائج القربى وعلاقات المودة الروحية القديمة ، بل إنها سمحت لها منذ صيف عام ١٩٤٩ بإيفاد قنصل صهيوني إلى استنبول ليشرف على حركة اليهود الراغبين في الهجرة إلى إسرائيل . وقد كان هذا القنصل بالذات من دعاة الحركة الصهيونية ومنظميها وهو « دكتور أليشار » الذي استطاع في مدى شهرين أن يرسل من تركيا وحدها حوالى ثلاثين ألف يهودي من الشباب الأقوياء ، في الوقت الذي كانت فيه الدول العربية في حالة حرب مع إسرائيل .

إن الدول العربية على استعداد أن تنسى إساءة كل من أساء إليها على شرط أن يعيد هؤلاء النظر في موقفهم بإزائها ، وألا يحرموها من تسليح جيوشها على أحدث النظم والأساليب ، وألا يفرضوا على سبعين مليوناً من العرب صلحاً شائناً مع حفنة من اليهود طردوا وشردوا مليوناً من العرب لا يجدون المأوى ولا يستطيعون العودة إلى أملاكهم وأوطانهم .

لقد أنفقت الولايات المتحدة ملايين الدولارات لإعادة تسليح تركيا والنهوض بجيشها إلى مستوى الجيوش الحديثة ؛ وها هي ترى الآن أن معنوية تركيا يزعزعها أن بابها الخلفي مخلخل غير محصن . وهي في الوقت نفسه تأبى أن تدع لأصحاب هذا الباب أن يصلحوه ويقيموه بأنفسهم ، حتى لا يتعارض هذا الإصلاح وهذا التحصين مع الطفلة المدللة إسرائيل . وهي سياسة لن تجديهم فتيلاً ، لأن العرب لن يسمحوا للغرب أن يرابط في ديارهم لحراسة بابهم .

إن إسرائيل ، التي يريدون فرضها على العالم العربي دولة لها أطماع سجلتها في كتب مؤلفيها والخرائط التي رسموها لها ، إلى جانب أنها دولة لا يؤمن جانبها في يوم من الأيام ؛ والأمثلة على ذلك واضحة كل الوضوح في نقضها عهودها ومكرها السيء بأهل فلسطين . وقد كانت تلك الدولة إبان انشائها كما مع العرب طفلة يدعيها ثلاثة آباء ، هم : العم سام ، والسيد جون بول ، والرفيق ستالين ، فلما شبت عن الطوق أنكرت أباها الأخير وأدارت له ظهرها — وقد لا يطول ذلك — وانضمت الآن صراحة إلى المعسكر الغربي بعد أن ضحكت على ذقن الروس في أول الأمر وأوهمتهم أنها رسول الشيوعية في الشرق الأوسط . وصدقتها روسيا وأوحت إلى دول أوربا الشرقية التي تدور في فلكها — وخاصة تشكوسلوفاكيا — أن تمد الصهيونيين بالأسلحة والذخائر ، ولم يكن ذلك حباً في سواد عيون اليهود ، ولكنها ظنت — وبعض الظن إثم — أن إسرائيل ستصبح مخلب الروس في الشرق . ولا أدرى كيف فات القوم أن إسرائيل لا تستطيع أن تعيش بين أعدائها العرب على مواردها الخاصة ؟ فهي دولة طفيلية ، ترضع ثدى الإنجليز تارة ، وثدى الأمريكان تارة أخرى ، ولن تصل إلى دور الفطام إلا إذا صالحها العرب ، لكي ترضع دماءهم . وهيهات !.

إن المستعمرين من أنصار الصهيونية يحاولون الآن التهجم على الجامعة العربية التي باركوها من قبل عندما كان وجودها يخدم أغراضهم . فلما لمسوا في أغلبية أعضائها

استقلالاً في الرأي ، واحتفاظاً بالكرامة ، أخذ دعاتهم يحاولون الحط من شأنها وخلق الشقاق بين أعضائها ، وحيا كل المؤامرات لهدمها ؛ وأستطيع أن أورد لذلك مثالين اثنين يوضحان أغراض تلك الحملة كل الوضوح ، أحدهما فرنسي شهير هو الدكتور موريس موبال الذي زار الشرق الاوسط ويراسل عدة صحف فرنسية وأمريكية ، نشر في مجلة World Affairs وحمل فيه حملة شعواء على مصر خاصة ودول الجامعة العربية عامة ، ونادى بأن تعمل الدول على حل الجامعة العربية حتى تجد مصر نفسها في عزلة ، لأن سياسة خلق كتلتين متعارضتين في الجامعة العربية لم تجد حتى الآن فتيلاً ؛ ويقترح موبال — نفع الله به إسرائيل — أن تعمل الدول الغربية على إيجاد توازن حربي بين إسرائيل والأردن بتقوية السلاح الجوى الإسرائيلي والسلاح البرى الأردني ؛ وبذلك — في نظر الكاتب ! — تضرب الدول الغربية عصفورين بحجر واحد ، إذ تصبح تحت تصرفها قوة برية أردنية وقوة جوية إسرائيلية يمكن الانتفاع بهما عند الضرورة ، وفي الوقت نفسه لا تستطيع إحداهما أن تعتدى على الأخرى ، فإسرائيل لا تستطيع غزو الأردن دون أن يكون لديها جيش برى متفوق على جيش الأردن ، ولا تستطيع الأردن أن تمس إسرائيل التي تتفوق عليها في السلاح الجوى !.

والمثال الثاني الذي نورده آسفين ، تلك المقالات المتتابعة التي ينشرها أحد زعماء حزب العمال في انجلترا ، وهو المستر كروسمان ، الذي نصب نفسه للدفاع عن إسرائيل ومهاجمة الدول العربية ، ومحاولة إقناع الرأى العام البريطاني ألا حليف لهم في الشرق سوى إسرائيل ، وهو يعلم أن أغلبية الرأى العام البريطاني لا تميل إلى الصهيونية التي أودت بحياة عدد كبير من الإنجليز في فلسطين ، ولكن كروسمان بعث لهم أنباء زيارته لتل أبيب في الشهر الماضي ببرقية نشرتها جريدة سنداى بكتوريال ، قال فيها : « إن الرجال والنساء الذين ظلوا هنا يستنكرون الاستعمار البريطاني مدى سنوات ويصفونه بأنه أصل « جميع الشرور » أصبحوا يشعرون الآن بأن الكومنولث البريطاني حليف مأمون الجانب يستطاع الركون إليه أكثر من الولايات المتحدة الحمقاء — هكذا قال — التي لا يمكن التكهن باتجاهاتها » . وأخيراً قال كروسمان عضو مجلس النواب البريطاني وأحد زعماء العمال : « إنه حدث عندما وصل السير نوكس وزير بريطانيا المفوض إلى إسرائيل منذ عامين أن قيل له أن يتجنب السير في الشوارع في تل أبيب مخافة أن يحصبه الناس بالحجارة . أما اليوم فقد أصبح أحب الرجال الدبلوماسيين إلى نفوس أبناء الشعب الإسرائيلي » .

وقد نشر كروسمان مقالاً آخر في صحيفة (نيوستيتسمان) حث فيه على ضرورة الإسراع بإبرام معاهدة صلح بين الأردن وإسرائيل ، واستطرد قائلاً : « إننا لا نملك من غير هذه المعاهدة أساساً ثابتاً يمكن أن نقيم عليه سياستنا في هذه المنطقة ؛ وريثما تبرم هذه المعاهدة فإننا نرى صديقتينا الوحيدتين تعتزان الواحدة بالأخرى » .

وسيعرف المستر كروسمان والدكتور موبال وغيرهما من دعاة التفرقة بين العرب ، أن الجامعة العربية ستقف في مهب تلك الرياح صامدة ثابتة ، وأولى لهما فأولى أن يحثا الدول الديموقراطية على أن تعيد النظر في سياستها نحو العرب ؛ فالشرق العربي القوى بإيمانه ، الثابت على عهوده ، المدافع عن نفسه بنفسه ، خير لهم وأبقى ، من أن يعملوا على إضعافه وتحطيمه . والله من ورائهم محيط .

عبد المجيد البطريق

الحيـــاة

في الشعـــر العربي

الشاعر محمد عبد الغني حسن

قرأت في « الثقافة » الغراء مقالاً عن (الموت في الأدب العربي) للأستاذ جمال الدين الرمادي ، فما دريت أي باعث حملني على الكتابة في (الحياة في الشعر العربي) لعلها دعوة الحياة أهابت بي أن أدع الأكفان لأبحث في أثواب الحياة ، ولعلها تداعي المعاني التي ذكرتني بالضد حين يذكر ضده ، فذكرتني بالحياة حين ذكر أمامها الموت ؛ أو لعلها حاجة ملحة في النفس قامت لترى كيف رأى شعراؤنا الحياة ، وكيف تصوروها ، وكيف استجابوا لدواعيها بما يتفق مع تصورهم لفكرتها .

وأيا ما كان الباعث الذي دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع ، فلا أزعم أني أحطت بأقوال شعرائنا جميعاً في الحياة ، ولا أدعي أني ألممت بكل شاعر عربي عالج موضوع الحياة في شعره ، ولكن الذي أجزم به أني عشت مع جماعة من شعراء الأدب العربي ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، فعرفت في الحياة رأيهم واستطلعت طلعهم ، وهأنذا أعرضه على القراء الكرام ، فإن من ألذ الساعات أن تقضي مع الشعراء بعض الوقت لتعرف — بعد جولة قصيرة معهم — كيف كانت الحياة في نظرهم ؟ وكيف وصفوها عن خبرة وإحساس وتجربة ذاتية ، وهل ضاقوا بها فما وسعوها ؟ وهي التي تتسع لكل شيء وكل حي .

وأول ما نلاحظه عند كثير من شعرائنا هو تلك النظرة المشتملة على غير قليل من السأم والتعب والملل من الحياة ، حتى هؤلاء الشعراء الذين أتوا الزمان في شبيبته . فهذا الشاعر (زهير بن أبي سلمى) الجاهلي يسأم الحياة ، أو يسأم على الأصح طول الحياة ؛ فيقول :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين عاماً لا أبالك يسأم

وواضح أن السأم هنا من طول الحياة وطول العيش الذي قد يضر بالمرء حتى تفنى بشاشته ، ويبقى له بعد حلو العيش مُرُّه ... وتسوؤه الأيام حتى لا يعود يرى فيها شيئاً يسره ؛ كما يقول شاعر جاهلي آخر ... ولم يكن (زهير) هو الوحيد بين الشعراء الذين سئموا طول الحياة ؛ فهذا (لبيد) الجاهلي يقول :

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس : كيف لبيد ؟

ولعل فكرة الموت أو حادث الموت الذي لا شك فيه ، هو الذي صغّر من شأن الحياة عند الشعراء ، لأن هذه الفترة التي يحيون فيها — طالت أم قصرت — ستنتهي إلى رقدة أبدية وضجعة يستريح الجسم فيها بعد عيش كان مثل السُّهاد ... ولهذا نرى الذين يكرهون الحياة يدخلون إلى هذه الكراهية من باب الموت الكريه الذي تعافه النفوس ، ولكنها لا تجد منه مفراً ، فهذا أبو نواس يقول في القرن الثاني من الهجرة :

وما المرء إلا هالك وابن هالك
وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن « الدنيا » لبيب تكشفت
له عن عدو في ثياب صديق

ويظهر أن هذه الفكرة أعجبت الشاعر ابن الرومي ، فأخذها وصاغها في أبيات من البحر والقافية نفسها قائلاً :

وما تعدم « الدنيا » الدنية أهلها
شواظ حريق أو دخان حريق
يجرع فيها هالك فقد هالكٍ
فيشجى فريق منهم بفريق
فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها
قراراً ، فما دنياك غير طريق

ووصف ابن الرومى الحياة الدنيا بالدنية يذكرنا بقول الشاعر :

يا طالب الدنيــا الدنيــة إنها
دار الردى وقرارة الأكدار
دار متى ما أضحكت فى يومهــا
أبكت غداً تباً لهــا من دار !

وتَفَشّى ابن الرومى لصفة القرار عن الدنيا يذكرنا بقول « التهامى الشاعر » :

حكم المنيــة فى البــرية جارى
ما هــذه الدنيــا بدار قرار

***

ولعلنا لا نصادف فى الشعر العربى كراهية للحياة ، وسخطاً عليها ، وضيقاً بها ، كما نجد عند « أبى العلاء المعرى» فهو يؤكد لنا متاعبها . ويبدى عجبه ممن يرغب فى الزيادة فى العمر بقوله :

تعب كلهــا الحيــاة فما أعـ
جب إلا من راغب فى ازدياد

وإذا كانت فرحة الميلاد تبشرنا باستقبال الحياة ، فإن الموت الكريه يزيد على الفرحة بالحياة ، ومن هنا كان الحزن فى ساعة الموت أضعاف السرور فى ساعة الميلاد :

إن حزناً فى ساعــة الموت أضعا
ف سرور فى ساعــة الميــلاد

ولهذه الفجعة الأليمة ، فجعة الموت ، يرى أبو العلاء المعرى أن الدعاء له بالحياة دعاء عليه ، ولو كان الأمر له ما بقى فى الحياة باختياره ؛ ولعل هذه الأمنية بالتخلص من الحياة هى فرار من تعبها من ناحيــة ، أو تشوق لما وراء الموت من ناحية أخرى . ولكنه على كل حال يرى الرغبة فى الحياة جهلا ، كما يرى فقد الحياة حظاً فى قوله :

رغبنا فى الحيــاة لفرط جهل
وفقــد حياتنا حــظ رغيب

وكثيراً ما كان يتمنى أبو العــلاء المعرى الموت ؛ فإذا قرأنا الشاعر قوله :

ألا مــوت يبــاع فأشتريه
فهــذا العيش ما لا خــير فيه

ذكرنا المعرى قوله :

من باعنى بحياتى ميتــة سرحاً
بايعته ، وأهان الله من ندما !!

فهو غير آسف على هذه الصفقة ، بل لقد همت نفسه بالتخلص من الحياة لو أنه أمن التبعة واطمأن إلى المصير ..! فتراه يقول نثراً فى كتابه : « الفصول والغايات » (لو أمنت التبعة ، لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب ، حتى أخلص من ضنك الحياة ، ولكن أرهب غوائل السبيل) .

وهذه الرهبــة التى منعت أبا العلاء المعرى من تنفيذ الرغبة ، هى التى قال عنها شاعر النيل « حافظ إبراهيم » :

سلام على الدنيا ســلام مودع
رأى فى ظلام القبر أنساً ومغنما
أضرت به الأولى فهام بأختهــا
فإن ساءت الأخرى فويلاه منهما !!

فغوائل السبيل عند المعرى ، وسوء الآخرة والمصير عند حافظ إبراهيم هى التى منعت الشاعرين من الإقدام على التخلص من الحياة ...

ولم يكن حافظ إبراهيم وحده فى شعراء عصرنا هو الذى تمنى الموت وهمّ به فراراً من الحياة . فهذا الشاعر «عبد الرحمن شكرى» — أطال الله عمره فى ظل العافية — يجن بالعيش طوراً ثم يبغضه طوراً ، فلا يجد له منقذاً من تلك الحيرة النفسية إلا فقدان الحياة ، فيقول :

ما من مجير على هذا الملال سوى
موت يبعــد بين النفس والعلل
لو كان لى حيلة ألقى بها ملَلى
من الحياة لما قصرت فى الحيل ..

وقد قال « شكرى » هــذا الشعر من سبعة وثلاثين عاماً ، ولا يزال إلى اليوم بحمد الله يتمتع بالحياة التى كان يشكو منها ! ولعل السر فى ذلك أن عبد الرحمن شكرى فى الفترة التى برم بها بالحياة ، وفى الديوان نفسه الذى نشر فيه حيرته بين اليأس والأمل ، عاد فى قصيدة أخرى بعنوان « الإيمان بالحياة » يقول :

لى فى « الحياة » اعتقاد لا فناء له
الكون يملؤه والفكر يوضح لى

لا ترجموا بيأس فى مقالكم
فاليأس أقبح ما يزرى على الرجل
أعاظم الناس فى اللأواء كم صبروا
إن العظيم عظيم الصبر والأمل ..

وأغلب الظن عندى أن اليأس من « الحياة » موجة تصاب بها بعض النفوس ، أو بعض العصور ، كما تهب موجة من الحر أو موجة من البرد فلا يسلم كثيرون من أذاها . ولقد هبت هذه الموجة اليائسة المشوم من « الحياة » فى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فنرى أن شاعراً من المجدودين ، وهو « إسماعيل باشا صبرى » ، يكتب لنا « وصفة » تريحنا إن سئمنا من الحياة ! ويصف لنا راحة القبر بأنها عودة الإنسان الغريب سالماً إلى التراب ..

ويقول فى ذلك :

إن سئمت « الحياة » فارجع إلى الأر
ض تنم آمنـاً من الأوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأم
التى خلفتك للأتعاب
لا تخف ! فالمات ليس بماح
منك إلا ما تشتكى من عذاب
وحياة المرء اغتراب ... فإن ما
ت فقـد عاد سالماً للتراب ...

وإذا كنا نجد فى تمنى الشاعر حافظ إبراهيم للموت ما يسوغه من سوء عيشه ، وحطه بعد خروجه أو إخراجه من وظيفته فى الجيش ، وضيقه بالحياة ، فكيف نستسيغ من الشاعر صبرى الذى لم يبخل عليه الوجود بالجدة فى الرزق أن يقول مثل الكلام ؟؟

على أن ضيق الرزق وسوء الحظ ونكد الطالع فى الحياة لا يحمل المنكودين على أن يضيقوا بها ويتخلصوا منها ! فما هى إلا ساعات من الشدة تجىء ، ثم تذهب ، وعاصفة تمر ثم تنجلى ! فإن « الحياة » فى ذاتها أجل قدراً من أن تقاس بلقمة من الزاد أو جرعة من الماء ! ولهذا نجد الشاعر الأديب المترجم النابغة الدكتور « نوبس صابونجى » — فى أخريات القرن العشرين — يثير كوامن الحس فيه أن يلجأ طبيب إنجليزى إلى الانتحار على ظهر باخرة سنة ١٨٩٣ ، فيتخذ من هذه

الحادثة موضوعاً للرد على من تهون « الحياة » عندهم إلى هذا الحد قائلا :

من الناس من يشنو « الحياة » ويشتكى
من الدهر عيشـاً لا يطيب نعيمه
إذا ضاق عقل المرء ضاقت حياته
وأفقده ما كان ليس يقيمـه
يرى الشوك فى أرض وغفله وردها
ويزعم أن الكون طرا غريمه ..
فلو كان يدرى ما « الحياة » وقدرها
لطاب له العمر الرقيق نسيمه ..

● ● ●

والحق أنه ليس هناك ما يسوغ التبرم بالحياة ؛ فإنها جميلة فى ذاتها ؛ ولكننا نقيسها دائماً بمقاييس أغراضنا ، وننظر إليها بمنظار مصالحنا . فالحياة لا تختلف فى ذاتها ، ولكن عيوننا هى التى تختلف ! فإذا نظرت إلى الحياة خلال اليأس رأيت يأساً ، وإذا نظرت إليها خلال السواد رأيت سواداً ، مع أن المرئى واحد فى الحالتين ... ولعل شاعراً عربياً لم يوفق إلى التعبير عن ذلك كما وفق المرحوم الشاعر « خليل شيبوب » الذى فقدناه من أيام ...

فهو يقول من قصيدة بعنوان (النور والحياة) :

أحب الضحى وأحب المساء
وأهوى الظلام ، وأهوى الضياء
ووقتا ترفرف روحى فيه
بنازعى من بقائى البقاء ...
معانى (الحياة) كأوقاتها
فما سُرَّ سَرَّ ! وما سِىء ساء
وإن (الحياة) لتغشى كذلك
طوراً ظلاماً ، وطوراً ضياء
وما اختلفت غير أن عيونا تراها
شقاء ، وعين تراها هناء
وما النور إلا (الحياة) فهذا
رآه صباحاً ... وذاك مساء

واختلاف الأنظار إلى مرائى الحياة ، هو عينه اختلاف أحوال النفس إلى مرائى الكون ... ذلك الاختلاف الذى

عبر عنه الشاعر (سيد قطب) بقوله :

فهى النفس حين تصفو تراها
خلعت صفوها على الأكوان
وهى النفس حين تضجر يبدو
كل ضوء أمامها كالدخان ...

على أن الشاعر (جميل صدقى الزهاوى) قد رأى أن :

الموت يهزأ بالحياة والقبر يعبث بالرفات

ورأى أن (الحياة) خليقة بالذم ، لأنها (لم تخل يوماً من أذاة) ، ومع ذلك فهى لا تخلو من بعض المتاع ، والسعيد من اغتنم لذاتها قبل الفوات :

ليس الحياة سوى وغى
قد طبّقت كلّ الجهات
حرب تأجج نارها
والقائدون من الدعاة
ما فاز بالظفر امرؤ
فى الحرب إلا بالثبات
متّع حياتك واغتنم
لذاتها قبل الفوات

وإذا كان (الشاعر الزهاوى) قد رأى (الحياة) ساحة حرب وميدان وغى يزدحم بالدعاة من القواد ، فإن الشاعر (عباس محمود العقاد) يراها بحراً يجيش بالماضى والآتى ، والإنسان يسبح فى هذا البحر منذ مولده سابحة تدنيه مما يخشاه ويتحاشاه ، فتراه يقول من قصيدة بعنوان (البحر والحياة) :

يابحر : أذكرتنى بحر (الحياة) وما
يجيش ما بين ماضيه وآتيه
والمرء يسبح فيه منذ مولده
تسبحاً يقرّبه مما يحاشيه
وكم تمر به الخيرات مُعجلة
فكأن حادى المنايا فى تمنيه

والعقاد فوق ذلك يرى — فى أبيات أخرى — أن الحياة لا تكون حياة إلا بما فيها من نعيم وشقاء ، ولولا ذلك ما كانت سائغة ولا استحقت أن تسمى حياة ، ولعله يرد فى تهكم ساخر مرير على الذين يبطرون دائماً بالحياة ، فلا يعجبهم منها العجب ، فيقول :

قالوا : (الحياة) قشورٌ قلنا فأين الصميمُ ؟
قالوا : شقاء ! فقلنا نعمْ ! فأين النعيم ؟
إن الحياة حياة ففارقوا أو أقيموا ..!

ولعل شاعراً عربياً لم يفلسف الحياة كما فلسفها الشاعر (أحمد شوقى) ، فهى التى تحل بالجسم المادى للإنسان أو الحيوان فلا يطول بهما العمر ولا يمتد البقاء ، وهى التى لا تحل بالحجر الصلد أو الحديد الصلب فلا يدركهما الفناء ، ولا يلحق بهما البلى ! ولقد سلم « أبو الهول » من الحياة فطال عمره ، ولو أنها لبسته كما لبست الفراعنة الذين صنعوه وأقاموا لَبَلِى كما بلوا :

أبا الهول ماذا وراء البقاء
إذا ما تطاول غير الضجر ؟
عجبت للقمانَ فى حرصه
على لبد والنسور الأخر
وشكوى لبيد لطول (الحياة)
ولو لم تطل لتشكى القِصر
ولو وُجدتَ فيك يا ابن الصفاة
لحقتَ بصانعك المقتدر
فإن الحياة تفل الحديد
إذا لبسته وتُبلى الحجر

وقد رأى « شوقى » الحياة فى صور كثيرة ، فهى طوراً الحب ، كما فى قوله :

الحياة الحب ، والحبُّ الحياه
هى من سرحتها سرّ النواه

وهى طوراً مطبوعة من السم حين خانت امرأة زوجها فدست له السم :

طبعت من السم الحياة : طعامها
وشرابها ، وهواؤها المتنشق
والناس بين بطيئه وزعافه
لا يعلمون بأى سمها سقوا ...

وهى طوراً دقائق وثوان كما تدق بذلك ضربات القلب :

دقات قلب المرء قائلة له
إن الحياة دقائق وثوانى

البقية على الصفحة التالية

حدث في مدريد

للدكتور عبد العزيز عبد المجيد

قدمنا مدريد . وما كنا نظن أننا سنبقى فيها مدة طويلة . فنحن من قبل متأخران يومين عن الموعد الذى حددناه لأنفسنا في برنامج الرحلة . وصاحبي أغراه شمالي أسبانيا كل الإغراء . وهو قد وجد في بُرْغُش من الآثار القوطية ما أغراه وطغى على وقته . وهو قد وجد في شقوبيه (سيجوفيا) من الآثار الرومانية ما أغراه وطغى على وقته . وصاحبي يريد أن يرى أكثر ما يمكن من الآثار وفنون العمار . وهو لا يدع معبداً أو قصراً ، أو قلعة أو جسراً ، أو حماماً أثرياً أو ديراً ، إلا حاول زيارته . ولعل لتخصصه في اللغتين اللاتينية والإغريقية علاقة بهذا الميل الشديد عنده إلى دراسة الآثار والعمار . ولقد وجد في شمالي أسبانيا ثروة عظيمة من العمائر التي تمثل مختلف الطرز : الروماني والإغريقي والقوطي والبيزنطي والحديث . ولقد تأثرت بميله هذا كثيراً ، وتعلقت كثيراً . وصرت أقرأ فيما نزور من الآثار معاني كنت عنها غافلاً ، وأرى فيها تاريخاً حافلاً ، وأحس أن قروناً من الفنون والعلوم والسلطان والحضارة قد اختزنت في هذه الآثار الباقية ..

أما أسبانيا نفسها فقد دفعني إلى زيارتها حافزان : أولهما أنى رغبت في أن أرى بعيني تلك المدن والأراضي التي عاش فيها العرب قروناً ؛ أعلوا فيها مجداً ، وخلقوا حضارة ، وخلقوا أدباً وفناً . وكنت حريصاً على أن أرى أرض أندلس وما بقي فيها ، مما قرأته في كتب التاريخ والأدب عن حضارة العرب . وثانيهما أنى أجد في نفسي ميلاً قوياً إلى دراسة الحياة البشرية الاجتماعية في بيئتها ، وإلى رؤية الظواهر الاجتماعية الناتجة عن تفاعل جهود الإنسان من ناحية ، والعوامل الاقتصادية والسياسية من ناحية أخرى . وكنت من قبل قد زرت غربي أوربا . وفي أسبانيا تجربة سياسية اجتماعية جديرة بالمشاهدة . وأسبانيا

وهي طوراً جادة غير هازلة ، والناس حولها لاعبون ، وتجرب في الأحياء ولا يعلمون ، مثل الأرانب تحت مبضع العلماء المجربين .. :

فيا ويحهم ! هل أحسوا (الحياة)
لقـــد لعبـــوا وهي لم تلعب
تجـــرب فيهم وما يعلمون
كتجـــربة الطب في الأرنب ..
سقتهم بسم جرى في الأصـــول
وروّى الفـــروع ولم ينضب ..

ولكنها على الرغم من ذلك كله محبوبة لدينا ، لا نريد مفارقتها ، ولا نود زوالها ..

حيـــاة ما نريد لهـــا زيالاً
ودنيـــا لا نود لهـــا انتقالاً

•••

هذه هي الحياة كما فهمها شعراؤنا ، وكما تصوروها ، أما سر الحياة نفسه ، وكيف جاءت إلى الأرض فدبت فيها وحركت كائناتها ؟ فذلك هو اللغز المحير الذي نحاول حله فيقف بنا العجز عن بلوغ ما نريد ، وذلك هو السؤال المحير الذي يعبر عنه الشاعر « محمود غنيم » بقوله :

صاح إن (الحياة) لغز إذا ما
زدته بحثـــاً زادك إبهـــاما
ليت شـــعري ماذا تكون أحسّا
أم خيالاً ؟ ويقظةٌ أم منـــاماً ؟
أم طريقـــاً إلى الفناء قصـــيراً
قد ركبنـــا لطيـــه الأياما ؟
حدثينا كيف ابتدأتِ على الأر
ض وحركتِ هذه الأجراما ؟
وأرينـــا متى ظهرتِ عليهـــا
وإلامَ البقـــاء فيهـــا إلاما ؟

الحق أنها أسئلة لا نجد لها الجواب إلا عند علام الغيوب ...

محمد عبد الغني حسن

بلاد ربطتنا بها في الماضي روابط قوية ، وكانت في طليعة البلاد الأوربية في ميدان الكشف والاستعمار . وهي تشبه بلادنا في أنها زراعية . ولها صلات سياسية بالعرب في شمال إفريقيا . أسبانيا هذه ظلت مجهولة لنا في مصر : لغتها وآدابها ، فنونها وموسيقاها ، نظمها السياسية والاقتصادية .

ثم كنت أحسب يوماً أو يومين كافيين لرؤية مدريد . ولكن كيف يجوز لنا أن نغادر مدريد دون أن نرى مدينتي الإسكوريال وطليطلة . إن الوصول إلى هاتين المدينتين من العاصمة سهل ميسور . وشهرة الإسكوريال العالمية تجعلنا لا نفرط في زيارتها . وأنا حريص على أن أرى طليطلة ، تلك التي اجتمع فيها القائدان المنتصران : موسى بن نصير وطارق بن زياد سنة ٩٣ هـ (٧١٥) ، طليطلة التي نسجت حول خزائن أموالها وثروتها كثير من القصص العربية والخرافات ، طليطلة التي وصف العرب جمال كرومها وبساتينها ووديانها ، والتي امتنعت على الغزاة ، والتي ثار فيها البربر مرات كثيرة على الخلفاء الأمويين ، والتي صارت عاصمة لمملكة بني ذي النون حقبة[1] من الزمن .

كان لا بد إذاً من زيارتها وزيارة الإسكوريال .

أمضينا في طليطلة يوماً من الأيام الأربعة التي زرنا فيها مدريد . والمدينة في الجنوب الغربي من العاصمة على بعد ستين ميلاً ، قطعناها في أكثر من ساعتين ونصف بالقطار . هبطنا إلى محطة طليطلة فرأينا أجمل بناء عربي حديث في أسبانيا . جدرانها مغطاة بالفسيفساء الملون ، وسقفها مزخرف بالأشكال الهندسية المتناسقة ، ما بين مفضض ومذهب ، وأبوابها أقواس وأقبية على عمد من الحجر المجصص . ومشينا إلى المدينة حتى وصلنا نهر تاجه Tajo الذي يدور حول ثلثيها ، وهناك وقفنا قليلاً نتأمل القنطرة العتيقة التي لا تزال محتفظة باسمها العربي Alcantara ، والتي كان للعرب يد في بنائها وترميمها . ورفعت رأسي إلى تلك المدينة المطلة من علٍ ، الرابضة على الهضبة الصخرية التي تعلو عن سطح البحر ألفي قدم ، فعرفت السر في مناعتها واستعصائها على الغزاة . وصعدت وصاحبي درجات تعد بالمئات حتى وصلنا إليها ، وانطلقنا في حاراتها وأزقتها وشوارعها القديمة ، وأشهد أني شعرت كأني في بلد عربي ! دمشق أو القاهرة المعزية ، وبيوتها — حتى الحديث منها — ذوات طراز عربي ، فالبيت بوابة كبيرة بمطرقة ، وخلف البوابة بهو صغير يؤدي إلى صحن الدار ، الذي تحيط به الحجرات وتطل عليه من الأدوار العليا . وفي الصحن حديقة بها أشجار النخيل ، وعلى جوانبه مقاعد كالدكك المعروفة في مصر ، وفي وسط الحديقة نافورة ينبعث منها الماء رقيقاً صافياً ، يبلل أوراق الشجر ويلطف الجو الحار ، وأسوار المدينة — بالرغم من ترميمها — لا تزال محتفظة بأجزاء من العهد العربي .

وقادنا دليلنا — وكان شاباً مصرياً يدرس العمارة في المدينة — إلى آثارها فشاهدنا من الكنائس ما كان مساجد ، ورأينا مسجداً صغيراً لا يزال محتفظاً به رمزاً للعهد الإسلامي البائد ، ورأينا معبداً يهودياً وإن لم يكن بالمدينة يهودي واحد ، وهناك من قمة أحد الأبراج نظرت إلى الوديان الفسيحة راقدة متطامنة ، تناوبتها أجيال ودول ، فذكرت أن الأرض لله يورثها من يشاء .

وهبطنا وسرنا إلى محطة القطار ثم عدنا كما أتينا ، عدنا وفي ذهني يتردد البيت :

أما الديار فإنها كديارهم
وأرى نساء الحي غير نسائي

كان اليوم التالي من نصيب الاسكوريال . والاسكوريال مدينة صغيرة تبعد عن العاصمة بنحو ثلاثين ميلاً . ولكن الوصول إليها بقطار أسباني يستغرق أكثر من ساعة ونصف ، هكذا القطارات هناك بطيئة . وفي الاسكوريال شاهدنا مجداً قديماً كان عامراً زاخراً بالحياة والحركة ، وأبهة الملك ، فصار صامتاً مهجوراً إلا من الزائرين . شاهدنا قصر الملك فيليب الثاني وقد صار متحفاً يضم أبدع الصور وأجمل التحف الملكية ، كما هي الحال في قصور فرساي . وشاهدنا مقبرة ملوك أسبانيا وملكاتها ، وهم هناك رقود صمتت أصواتهم ،

(١) سقطت طليطلة في يد الغزاة المسيحيين سنة ٤٧٢ هـ (١٠٨٠ م) .

وانطوى سلطانهم وأصبحوا مشهداً لكل زائر ، وكانوا في حياتهم لا يصل إليهم الزائر إلا بعد اختراق الأبواب والحجاب . وشاهدنا ديراً من الخارج لم يسمح لنا بدخوله صيانة لحرمته الدينية ، وإبقاء على هدوء سكانه من الرهبان وعزلتهم عن الحياة . وزرنا المكتبة الشهيرة ورأينا نماذج من المخطوطات القديمة الجميلة ، العربية والعبرية واللاتينية والإغريقية . والمكتبة وحدها كنز يحتاج زائره إلى شهور لاستعراض نفائسه .

قلت لصاحبي وقد عدنا إلى مدريد : وماذا نحن في غد فاعلان ؟ قال : إلى متحف البرادو في الصباح ، وإلى مصارعة الثيران في العصر .

والبرادو هو لوفر أسبانيا ؛ جمع من الصور الفنية ما أبدعته أيدي الرسامين والمصورين في أوربا . ذهبنا إليه وجلنا في أنحائه عابرين غير متمهلين . وهل يكفي صباح إلا لنظرة العابرة ؟ إنه متحف يحتاج إلى أسابيع .

وكانت حلبة مصارعة الثيران قد امتلأت بالمتفرجين عند ما دخلنا . وسقط الثور الأول صريعاً . وعلا صياح النظارة وحماسهم وهتافهم . ثم هوى الثور الثاني ، ثم الثالث ، ثم الرابع . وفي كل دور يعيد المصارعون أساليب الهجوم والدفاع التي اتخذوها في الأدوار السابقة ، ويعيد النظارة هتافهم وحماسهم . وكان صاحبي متأثراً متقززاً ، يهمهم ويتمتم قائلاً : وحشية ! فظاعة ! أي انتصار يهتف له هذا الجمهور المجنون ؟ أهذه مدنية القرن العشرين ؟ وألح صاحبي علي في الخروج ؛ فخرجنا قبل أن يصرع الثوران الباقيان .

كان لا بد أن نعود إلى النزل لنحزم أمتعتنا قبل السفر في الفجر . وانتظرنا العشاء المتأخر كالعادة ، وربة البيت تقول : صبراً ستتعشون الليلة قبل الساعة العاشرة . وفي إسبانيا يتعشى الناس في الهزيع الثاني من الليل . واستلقى صاحبي على فراشه ومدد رجليه ، وقال فجأة : ما رأيك في حياة الناس في إسبانيا ؟ قلت : إني معجب بالنظام والنظافة واحترام الناس للقانون . ولقد رأيت من كرم الشعب وحرصه على مساعدة الأجنبي فوق ما كنت أتوقع . وهم يبدون مستوري الحال من الناحية الاقتصادية . أتذكر كيف كنا نذهب عمداً إلى الأحياء الفقيرة فلا نرى فيها جوعاً ولا حفاء ولا تسولاً . إن هذا أقصى ما يمكن أن تصل إليه بلاد زراعية سكانها نحو من خمسة وأربعين مليوناً . قال : وإذاً توافق على النظام الدكتاتوري القائم ، وترى فيه خيراً للبلاد . قلت : إنك تخوض في السياسة وقد اتفقنا على ألا نجعلها موضع حديثنا . فأنت إنجليزي محافظ وأنا مصري وطني فكيف نتفق ؟ قال : إننا لا نتكلم في سياستنا القومية ، وهذا موضوع لا يمس وطنك أو وطني . فاذكر رأيك بصراحة . قلت : إني أعتقد أن كل نظام دكتاتوري يخنق الحرية التي هي أثمن شيء في حياة الشعوب ، والنظام هنا ... فقاطعني بقوله : يظهر أنك ما زلت مخدوعاً بهذه الألفاظ المغرية المطاطة: الديمقراطية ، الحرية ، العدالة الاجتماعية ... ألا تعرف أن النظم السياسية كالمواد الكيمياوية ، تارة هي السم ، وتارة هي الدواء ، وأنها يجب ألا توصف إلا بعد تشخيص المرض ؟ ألا تعرف أن الديمقراطية في الشعوب المتأخرة أسوأ من الدكتاتورية في الشعوب المتحضرة ؟ ألا ترى أن الدكتاتور العادل النزيه كالطبيب الماهر يعالج مريضه في حزم وحكمة ، وأن الديمقراطية في الأسرة الجاهلة مفسدة للأخلاق ، مضيعة للمال ، مدعاة للتكتل والنفاق ؟ ألا ترى أن ترك مقاليد الحكم للشعب الجاهل مدعاة للفوضى ؟ ألم تقرأ في جمهورية أفلاطون ماذا يحدث للمدينة الفاضلة إذا خضع سراة القوم وساد جهالهم ؟ قلت : على رسلك . لقد صرت الليلة محاضراً لبقاً . إنك من أبناء الديمقراطية ، فكيف يسوغ لك أن تروج للدكتاتورية هكذا .. إن الحكم على نجاح أي نظام من نظم الحكم يحتاج إلى إلمام بنواح كثيرة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فلماذا تستعجل الليلة الرأي النهائي ؟ قال صاحبي : تعال إذاً نبدأ ناحية ثقافية ..

وصاحت ربة البيت : العشاء العشاء ! فهب صاحبي من مضجعه وانصرفت أيضاً معه .

(مانشستر) عبد العزيز عبد المجيد

لُبابُ الحياة

للأستاذ محمد خليفة التونسي

ليست حياة الحي ظرف زمان ولا ظرف مكان ، بل تحقيق ذات ، وإبلاغ رسالة من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ...

الحياة إيمان بالنفس والوجود لا يتطرق إليه الشك ، وحبٌّ لما كان وما سيكون لا يشوبه فتور ، وانفجار كل القوى الكامنة في البنية كي تنطلق في عملها الذى خلقت له دون توقف ولو لم تكن الغاية ظاهرة حتى تبلغ أجلها فيدركها الفناء أو تُرَد إلى مخرجها من الوجود ، ثم تنفجر ثانية على نحو جديد ، وهكذا دواليك إلى أبد الآبدين .

والإيمان وظيفة الذات ، والصلة التي تربطها بسائر الوجود ، والحافظ لها من التهافت ، وهو منبع الحب الغامر ، ومطلق القوى وموجهها حيث ينبغي الاتجاه .

فمن فقد الإيمان فقد خسر نفسه ، وانبتّ ما بينه وبين الوجود ، وذلك هو الخسران المبين .

ومن فقد الثقة بنفسه وبالوجود عن طريق الإيمان الصحيح لم يجد بدا من الانتحار أو تلمس الثقة عن طريق الإيمان الزائف ؛ فيبحث عن نفسه الضائعة فيما هو خارج عنه لا في سريرته ، ويحاول أن يقتني ويتملك ما يؤمنه مخاوفه أو يلهيه عن أشجانه ، ويؤسس لنفسه سلطاناً خارج مملكة نفسه لأنه خاب في التسلط على هذه المملكة التي خلقت له وحده ، ويعمل على التحكم في الناس ، لأنه عاجز عن التماس القوة في الهيمنة على نفسه ، ويحتجن الثراء في يده من الناس لشدة إحساسه بلعنة الفقر والخواء في خزائن سريرته ، وهو في كل ذلك يهيم على وجهه كالمجنون لا يفلت من خيبة حتى يقع في خيبة .

وما مثلُه إلا مثل من ألحّت عليه المخاوف والأشجان ، فألف السكر وأدمن عليه ، فهو يعب الشراب الحاد حتى يغيب عن وعيه كي ينسى مخاوفه وأشجانه ، فهو ما كف على الخمر دائماً كي ينقع غلته ويُطفئ ظمأه ، فلا يزيده شربها إلا إحساساً باحتراق كبده واضطرام جوفه دون أن يؤمن ذلك من خوف ، أو يزيل عنه شجنا ، أو يُبرِد له لوعة ، وهو لا يحب أن يفيق لأن الإفاقة تثير لواعج همومه ، وتشعل السعير في أحشائه ، فهو يتداوى من الشقاء بالشقاء ، وهو من دائه ودوائه في حلقة مفرغة .

وهذه هي الحال المسيطرة على نفوس أكثر الناس ، يندفعون من أجل طمأنة أنفسهم والانذهال عن آلامهم إلى طلب المال أو السلطان أو الجاه أو الألقاب أو النساء ، ويرتكبون في سبيل ذلك من الحماقات ، ويسومون نفوسهم ألواناً من الذل ، ويقترفون من الآثام ما لا تعد الحظوة بكل ما يحصلون عليه بل الحظوة بكل ما يريدون أن يحصلوا عليه إلا شيئاً تافهاً حقيراً إلى جانبه .

ثم يطلبون الثقة بأنفسهم في التملك والتسلط ، ويغفلون عن أن الثقة بالنفس لا يمكن أن تتحقق للإنسان مهما كثرت ممتلكاته وامتد سلطانه ، وإنما مناطها القلب المطمئن بالإيمان ، فما لم يكن القلب مؤمناً فلا ثقة بشيء ، ولا كفاية في شيء ، وإذا توفر الإيمان فلا حاجة بالإنسان إلى الأمن ولا السعادة ، لانذهال الإنسان عن كل ما يهدده بتحقيق ذاته ، ولأن أمنه وسعادته منوطان بتحقيق ذاته لا بما حوله .

إن خزائن النفس الإنسانية تعج بالقناطير المقنطرة من نفيس المعادن والأحجار الكريمة ، فما حاجته إلى فلذة من الحديد صدئة متآكلة ، أو حصاة من الطين قذرة تافهة يضمها إلى تلك الخزائن ؟

وما لهذه الخزائن تبقى مطمورة في ظلمات النفس لا يراها الإنسان ولا ينفق منها شيئاً ، ولا يزال يحس بالفقر والضعة والعجز حتى يموت ، فتدفن معه في التراب إلى غير رجعة ، دون أن ينتفع أو ينفع غيره بشيء منها ؟ « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ؟

إن أهون عمل يدوى ساعة يكفل للإنسان حاجات بدنه يوماً كاملاً ، فما استغراق الإنسان يومه كله طوال

عمره في الكدح من أجل حاجات بدنه ، وما مغالاته في هذه الحاجات واستزادته من مشاغله . على حين أن غذاءه ونعيمه لا يتوقف على أكثر من ضغث من نبات الأرض ، وغرفة من مائها ، وخرقة تستر ما ينبغي ستره ، وبضعة أشبار من الأرض يسكن إليها كلما احتاج إلى السكون ، ثم انصراف تام إلى ما في نفسه من قوى كامنة يثيرها ويهذبها ويستثمر بها جمال حياته وجمال الطبيعة والوجود كله داخله وخارجه عن طريق التجربة العملية والتأمل الذاتي ، ثم يبذل من هذه القوى لمن يحتاج إليها من الأحياء .

ولا بد من التجربة العملية لأن الاقتصار على التأمل الذاتي يزج بالمرء في آفاق لا صلة بينها وبينه ، ويستنفد طاقته فيما لا فائدة عليه منه ؛ ويحول بينه وبين معرفة نفسه وحدوده ، فلا يلبث أن ينداح وتتبعثر قواه ، ويحتاله ذلك عن التقدم ، ويكون مثله مثل النهر الذي فقد شواطئه فتفيض مياهه على جانبيه ، وتتبدد في قفار لا تحفظ ماء ولا تنبت نباتا .

بيد أن الاقتصار على التجربة العملية دون التأمل الذاتي من شأنه أن يصيب قوى الإنسان بالبلد والجمود والانحصار في اتجاه قد لا يكون خير الاتجاهات ولا أنسبها له ، فقد لا يتيح هذا الاتجاه النشاط لكل القوى ، والبروز لكل الاستعدادات ، وقد يتيح النشاط لأدنى القوى لا أعظمها ، والبروز لأصغر الاستعدادات دون أكبرها .

وليلاحظ أن وعي الإنسان مع تعدد ملكاته واختلافها وحدة حية ، وأن تعطل النشاط في جانب منها قد يعطل جانبا آخر عاملا ، أو يحد من قدرته على العمل ، فخير أعمال الإنسان ما استجاش فيه ملكاته جميعها : كل ملكة على حسب طاقتها ، وما أتاح لاستعداداته جميعها أن تبرز : كل استعداد على حسب طاقته .

فمحاولة تحقيق الذات من طريق التأمل الصوفي البحت حسب محاولة خيالية عقيمة .

ومحاولة تحقيقها من طريق العمل الكادح دون تفهم الوسائل والغايات والقوى محاولة حيوانية عقيمة .

فللتأمل الذاتي أخطاره ، ولا منجى من هذه الأخطار إلا معاناة التجارب العملية .

وللتجارب العملية جناياتها على الذات ، ولا أمان للذات من شرها إلا بالتأمل الذاتي .

والإنسان وهو ماض في تحقيق ذاته شاعر بها مدرك لها لا يأبه بما في أيدي الناس ، لأنه غني أو مهموم بما عنده غافل عما في أيدي الناس . وما حاجته إلى ما عندهم ولديه من الثراء أو الشاغل ما يكفيه ويكفي عشرة مثله ولو عاش وعاشوا أضعاف أعمارهم المحدودة .

ومن أجل هذا دعوتنا إلى الأنانية الكاملة ، وانصراف كل إنسان إلى تحقيق ذاته ؛ فما الحياة ظرف مكان ولا ظرف زمان ، بل ذات تتحقق ، فمن لم يحقق ذاته لم يحي ولو ملك الوجود كله ملكا سرمديا من أبد الآباد إلى أزل الآزال .

ليست هذه الدعوة دعوة إلى حياة الغاب ، ولا هي نكسة إلى الهمجية وحنين إلى الوحشية ، ولا هي دعوة إلى الزهد والتقشف والقناعة والتفاهة .

إنما هي دعوة إلى الحياة الصحيحة كما يجب أن تكون وكما أراد الله لها أن تكون حين جعل آدم في الأرض خليفة ووكل إليه وإلى ذريته عمرانها .

إننا ندعو إلى إطلاق القوى المغلولة في السرائر الإنسانية لا إلى غلها ، وتفتيح الشهوات والأطماع فيها لا إلى إغلاقها ونبش الكنوز المطمورة لا إلى دفنها .

لينطلق كل إنسان بكل ما فيه من قوة ، وليطمع ما وسعه الطمع ، وليجاهد ما استطاع الجهاد ، وليرض شهوات نفسه ما أمكنه رضاها ، فإن ذاته لا تتحقق إلا بتكشف كل قوة فيه ، وتسخيرها فيما خلقت له .

إن للبدن حقه ، وله حاجاته ، ولا بد له من أداء هذا الحق وسد هذه الحاجات ، وإلا فنى أو اختل وجر الفساد على كل ما أنيط به من قوى الروح .

ولكن تدليل البدن ، والاستزادة له من الحاجات التي لا تدعو إليها طبيعته ضرورة ، وإطلاق الحرية له كي يستبد كل الاستبداد ، ويبسط سلطانه على كل حياة الإنسان — هو ذروة الهمجية ، بل هو الحيوانية في أحط صورها .

ليكن كل إنسان أنانيا بأوسع معاني الأنانية ، ولن يكون أنانيا حقا إلا إذا انكشفت منه كل العناصر التي تتركب منها « أنا » فيه ، وليس بدنه إلا أدنى هذه العناصر وأضعفها قوة وشهوة وطاقة .

والتزام كل إنسان هذا النهج هو الذي يكفل له صيانة

فضائله ، وهو مؤد حتما إلى اتساع الاختلاف بين فضائل كل إنسان ومن عداه ، ولكنه مؤد حتما كذلك وبسبب ذلك إلى التقريب بين كل إنسان ومن عداه ، وتقليل الخلافات بينه وبينه على أعراض الدنيا ، لأن كل إنسان سيرى أن مجال نشاطه هو نفسه ، وأن ما يطمع فيه إنما هو في يديه لا في أيدي الناس ، وأن حقوقه وواجباته مستمدة من نفسه لا من شرائع الناس .

قبل المسيح كان اليهود يترقبون « ملكوت الله » في حادث من الحوادث الكونية الكبرى أو الصغرى ، فلما جاءهم وبشرهم بملكوت الله وتردد ذكره إياه في أحاديثه وخطبه سئل عنه وعن موعده ، فبشرهم بأنه « لا يأتي على موعد منتظر ، ولا يقولون هاهو ذا هنا أو هاهو ذلك هناك ، لأن ملكوت الله فيكم » .

وأخبرهم أن سريرة الإنسان مناط الخير والحق والفضيلة والقوة « وماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه وماذا يعطي الإنسان فداء نفسه ؟ » .

وإن سريرة الإنسان مناط حياته « فليست حياته من أمواله » و « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة من كلمات الله » .

وإن السريرة هي مناط الإيمان ، وليس مناطه القراءات والقيام بشعائر العبادة وظواهر الأعمال فكان قوله لهم : « نقوا الكأس من داخلها لكي يكون ظاهرها نقياً » .

ولما سأله سائل عن عظمى الوصايا العشر في الناموس قال له : « تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ، هذه هي الوصية الأولى والعظمى . والثانية مثلها : تحب قريبك كنفسك . بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء » .

فلا صادق إلا ما نبع من السريرة ، وكل ما لم ينبع منها فهو زيف وخداع .

وقد وبخهم إذ رأى منهم تهافتاً على طلب المال وتحصيل وسائل المعاش ، ونسب ذلك إلى عدم الثقة بالله ! والشك لا منشأ له إلا فساد السريرة ونقص ملكاتها . « لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض أحدهما ويحب الآخر ، وإما أن يلازم أحدهما ويترك الآخر . إنكم لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون . أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ؟ تأملوا طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع في مخازن ، وأبوكم السماوي يقوتها . ألستم أنتم أحرى بالتفضيل عليها ؟ من منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة ؟ ولماذا تهتمون باللباس ؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو وهي لا تتعب ولا تغزل ؟ ولكن أقول لكم : إنه حتى سليمان في كل مجده لم يكن يلبس كواحدة منها ؟ فإذا كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غداً في التنور يلبسه الله هكذا . أفليس الأحرى أن يلبسكم أيضاً يا قليلي الإيمان ؟ فلا تهتموا قائلين : ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس ؟ فكل هذه الأشياء تبحث عنها الأمم ، لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها . لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره ، وهذه كلها تزاد لكم . فلا تهتموا للغد ، لأن الغد يهتم بما لنفسه ، ويكفي اليوم شره » .

وصدقت الآية الكريمة : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » . والآية : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » .

و « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا . قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » . و « إذا سألك عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان » وصدق الأثر الكريم : « حفت النار بالشهوات ، وحفت الجنة بالمكاره » .

فإذا ما عرفت نفسك وملكتها وغنيت بها ، فحذار أن يتملكك شيطان الغرور بفضل الله ، فتدعي كما ادعى ذلك المجنون القديم الحلاج ، وتتألق كما تألق ، وتهذي كما هذى : « ما في الجبة إلا الله » فالمؤمن لا يعرف الادعاء ، وقلبه لا يحسن النفاق ، ولسانه لا يهذي بالأهواء ، وإلا كان القتل جزاءك كما كان جزاءه ، وإنه لأهل له .

حقق ذاتك . ولكن أنت .

محمد خليفة التونسي

من حكم «طاغور»

- من يحصر الوردة يرى الأشواك .
- قوة الله الهائلة في النسمة الرقيقة لا في العاصفة .
- ذلك المشغول بعمل الخير لا يجد وقتاً كي يكون خيّراً .
- أطلق الصباح وقتما تريد ، فسوف أعرف الظلام وسأحبه .
- نافورة الموت تحرك مياه الحياة .
- الدمع يخجل نفسي لأني أستجديه سراً .
- تصبح السحب القاتمة أزهار السماء ، عندما يقبّلها الضياء .
- تحب الدنيا الرجل عندما يبتسم وتخافه عندما يضحك .
- الرجل أقل درجة من الحيوان عندما يكون حيواناً .
- يزهو الدخان على السماء والرماد على الأرض بأنهما أخوان للنار .
- لقد غنيت أغاني اليوم ، فدعني في المساء أحمل المصباح خلال الطريق العاصف .
- يتدفق نهر الصدق خلال قنوات من الأخطاء . .
- أصبحت الحياة أغنى بالحب الذي قد ضاع .
- تبدو الحقيقة كأنها جاءت بكلمتها الأخيرة ، والكلمة الأخيرة تلد الكلمة التي تليها .
- الراحة من حركة الحياة هي في الحركة نفسها .
- تهمس قطرة الطل للياسمين : « احتفظي في قلبك إلى الأبد » فيتنهد الياسمين : « رحمة بي » : ثم يسقط على الأرض .
- الرجال قساة ، لكن الرجل رحيم .
- قالت الزهرة للشمس « كيف أغنيك وأمجد أمامك ؟ » أجابت الشمس « بسكونك وثباتك » .

- تتحول الورقة إلى زهرة عندما تحب .
وتتحول الزهرة إلى ثمرة عندما تقدس .
- إذا أوصدت بابك لكل الأخطاء ، فإن الصدق سيحجب عنك .
- الحلم زوجة يجب أن تتكلم ، والنوم زوج يقاسي ولكن في سكون .
- لا تهن صديقك بأن تمنحه أفضالاً من جيبك .
- الجذور هي الفروع في الأرض ، والفروع هي الجذور في الهواء .
- تمر الأفكار في عقلي كأسراب من البط في السماء ، أسمع صوت أجنحتها .
- الأشياء الصغيرة هي التي أتركها خلفي لمن أحبهم ، والأشياء العظيمة هي التي أتركها لكل إنسان .
- إنني كالطريق في المساء ، أسمع وقع أقدام الذكريات في سكون .
- يدمي العقل البالغ كما تدمي اليد بسكينها الحاد .
- الراحة ملك للعمل كالجفن ملك للعين .
- السمكة ساكنة في الماء .
والحيوان ذو جلبة على الأرض .
والطائر يغرد في الهواء .
لكن الرجل ، فيه سكون البحر ، وجلبة الأرض ، وموسيقى الهواء .
- الحياة أعطيت لنا ونحن نكتسبها بأن نعطيها .
- يبحث العشب عن الكثرة في الأرض ، وتبحث الشجرة عن الوحدة في السماء .

(ترجمة)

رفيق صعوب الدرب

روح جميلة

للشاعر الإنجليزي شيلي

خيال قوة خفية يسبح بيننا كشعاع القمر
يخترق الحجب وينفذ في كل قلب
كنسيم الصيف ينتقل من زهرة إلى زهرة
أو كالموسيقى العذبة يتردد صداها في ليل بديع
يكسبه الغموض جمالاً فوق جمال .

* * *

روح الجمال ، أين أنت ؟
لماذا تركين عالمنا لقسوة الظلمة وبوحشه السكون ؟
لماذا يصير الشيء الجميل إلى الذبول ... ويلق الخوف
على بهاء العالم ذلك الجو الحزين ؟
لماذا يحب الإنسان ويكره ... يتملكه الرجاء ويعصف
به القنوط ؟

* * *

السر يظل كما هو والشك والصمت يسودان العالم ...
نورك أنت وحدك يضيء كالشمس تحمل الضباب يتلاشى
من فوق الجبال
أو كالموسيقى تحملها نسمات الليل
أو كشعاع القمر يسطع فوق جدول رقراق
نورك أنت وحدك هو الجمال والصفاء في الحياة الصاخبة .

* * *

والأمل يذهب ويجيء في لحظات معدودات
وأنت أيتها القوة الخفية ، يارسول العواطف
أنت الأمل في أعين المحبين
أنت لروح الإنسان الغذاء ، لا ترحلى عنا ، حتى لا تكون
الحياة كالقبر .

* * *

لقد مشيت خلال الأطلال والكهوف والغابات
تضيئها النجوم بخطى خائفة تلهمنى ذكرى الماضى البعيد
وجلست أتأمل معنى الحياة ...
وفجأة وقع على ظلك فهزتنى النشوة القوية .

* * *

فأقسمت أن أهب نفسى لك ولقويك ... ألم أوف القسم ؟
بقلب واجف ودموع منهمرة أسترجع ذكريات
الساعات الخوالى ...
ساعات مضت لم يشرق فيها وجهى بالفرح إلا حينما تذكرتك
أيتها القوة الخفية إنك لتهبيننى ما تعجز الألفاظ عن بيانه !

* * *

يسود الخريف انسجام وتشرق سماؤه بطلاوة لا يعرفها
الصيف
كأن هذا الانسجام وهذه الطلاوة لا يمكن أن تكون ...
بل كأنها لم تكن ...
أيتها القوة الخفية
امنحى حياتى أنا عابدك في السكينة والهدوء
لقد أسرتنى محاسنك فخشيت نفسى
وأحببت جميع الناس !

(تلخيص)

نبيل محمد بدر

فى ذكرى مصطفى كامل

للأستاذ أحمد حسين الصاوى

فى صبيحة الحادى عشر من فبراير عام ١٩٠٨ صدرت « اللواء » مجللة بالسواد ، تنعى إلى المصريين زعيمهم الشاب مصطفى كامل ، فوجفت منهم القلوب وغصت الحلوق وانفجرت الدموع . ورأى العالم ما أذهله ، رأى مصر تهرع بجميع طبقاتها وطوائفها ، بشيبها وشبابها ، رجالها ونسائها ، إلى تشييع جثمان زعيمها الراحل الذى لم يتجاوز الرابعة والثلاثين .

لم تكن حياة مصطفى كامل طويلة ، ولكنها كانت عريضة عميقة ، كأعرض وأعمق ما تكون الحياة . ثم ألمّ مصطفى بمصر كما يلم الضيف — أو قل الطيف — العابر . ولكنه بث فيها من روحه قبساً مقدساً أيقظها من سباتها ، وأضاء لها طريق نهضتها ؛ فاندفعت فيه تحطم قيود الاستعمار ، وتبعث مجدها القديم . حقاً أننا تعثرنا مراراً ، وكبونا كثيراً ، وتخبطنا أحياناً ؛ ولكننا لم ننحرف قط ، بل نسير دائماً فى نفس الطريق ، ونهدف إلى عين الأهداف ، أن نجلو الغاصب المحتل ، وأن تتبوأ مصر المكانة الجديرة بتاريخها ومقوماتها وإمكانياتها .

كان مصطفى كامل بلا جدال أكبر علم ، وكانت دعوته أبرز ظاهرة ، فى تاريخ الحركة القومية لمصر الحديثة .

وتبدأ الحلقة الأولى من هذا التاريخ بالحملة الفرنسية ، وتنتظم تلك الأحداث القومية التى كانت نتيجة مباشرة لاحتكاك المصريين بالغزاة الجدد ، والتى بدأت بحركات المقاومة لهم ، ثم انتهت بالحدث الديموقراطى الخطير ، حين تولى محمد على عرش مصر بإرادة الشعب ممثلاً فى زعمائه ، وعلى رأسهم السيد عمر مكرم . وقد بدأت مصر بذلك عهداً جديداً يتسم بالإصلاح الشامل والتقدم السريع والنزعة الاستقلالية .

أما الحلقة الثانية فتتميز بقدوم جمال الدين الأفغانى إلى مصر ، وانتشار آرائه الحرة وتعاليمه التقدمية بين الشباب الواعى . وقد آتت هذه الآراء والتعاليم ثمارها فى حركة عرابى الشعبية التى بدأت سلمية دستورية ، وانتهت — للأسف — بالاحتلال البريطانى البغيض .

ويمر التاريخ القومى بفترة خمود وسكون مدى ربع قرن ، ثم تبدأ حلقته الثالثة بالصيحة المدوية التى أطلقها فى وجه الاحتلال زعيم مصر الشاب مصطفى كامل ، والتى رددتها من بعده مصر بأسرها ، وكانت دستور حركتنا المباركة الشاملة عام ١٩١٩ ، حيث تبدأ حلقة جديدة فى تاريخنا القومى .

تبلورت فى مصطفى كامل صلابة عمر مكرم ، ومثالية جمال الدين ، وشعبية عرابى ، فكان طرازاً فريداً بين الزعماء . ظهر — كالأنبياء — فى أحلك الأوقات وأعقد الظروف ، فالاحتلال البريطانى جاثم خانق ، والباب العالى ينتهز الفرص ليؤكد تبعية مصر له ، والأجانب يرتعون فى البلاد ويمتصون دماءها دون رقيب أو حسيب ، تحميهم امتيازاتهم وقنصلياتهم وامتيازاتهم . والشعب مكمم الأفواه مخمد الأنفاس ، والقادة بين مستسلم للأمر الواقع فى ذل بغيض ، وبين مسلم ضعيف الإيمان يدعو إلى مصادقة المحتل والاستفادة منه ، علّ ذلك يعيد لنا حقنا المسلوب .

وفى هذا المعترك قام مصطفى كامل ينادى بالدعوة الجديدة ، دعوة الوطنية المتطرفة الناضجة ، التى لم يفسدها يأس ولم يشبها تخاذل . وظل ساهراً على دعوته ، منافحاً عنها بمصر وأوربا ، حتى استشهد فى سبيلها . وهكذا تعلمنا من مصطفى كامل دروس الوطنية الحقة ، والنضال العنيف ، والكفاح الذى لا يخمد ، والتطرف الذى لا يعرف التواء أو انحرافاً . وها نحن بعد ما مر بنا من تجارب لا تزيدنا الأحداث إلا إيماناً بفكرته وتمسكاً بمبادئه .

لم يقف مصطفى كامل بالوطنية عند حد الأفق السياسى

القيم الخالدة فى حضارة الإسلام (*)

تلخيص محمد عبد الحليم محمود

٤ — فى الحرب :

... وإن نظم الحرب نفسها ، فى تعاليم الإسلام ، لتخضع للقيم الإنسانية وتمثل العدل والشرف ، فالمفروض أن الحرب « جهاد » مقدس فى سبيل الدين الحق .

وبهذا التسامى عن الأغراض الدنيئة وضع الإسلام حداً لفوضى الحرب وآثامها ، وفتوحات العرب الأولى تمتاز بجو من الرحمة والإنصاف ، يختلف كل الاختلاف عن أجواء الحروب الأخرى فى العصور القديمة والحديثة .

والنبى محمد ، فى القرن السابع الميلادى ، كان يعلم القبائل العربية البدائية كيف تكون الحرب الصحيحة ، فيلقى عليهم بنصائح لم تسمعها قط من قائد قبله ، فهو يوصيهم بتجنب السرقة أو الغش ، والمحافظة على حياة الأطفال والنساء والشيوخ ، وبالإنصاف حتى بين الأعداء ، وبعدم تخريب البيوت أو نهب الحقول أو قطع النخيل ! ...

والخليفة الأول أبو بكر الصديق يأمر جنده باحترام العهود والوفاء للمواثيق التى يعطونها للأعداء ! ...

إن هذه التعاليم الرفيعة جديرة حقاً بالإعجاب ، وخاصة إذا علمنا كيف كانت الحرب بين بلدان الغرب المسيحى فى ذلك العصر : فنحن نرى ملكاً مثل داجوبير Dagobert (الذى اشتهر بالطيبة والعدل) يرتكب فى حروبه أشنع

(*) بحث المستشرق الفرنسى إميل درمنجهيم «Emile Dermenghem» كتبه فى مجلة كيه دى سود Cahiers du Sud ، العدد الخاص بالإسلام ، ونحن نقصر ترجمته هنا تباعاً نظراً لأهميته .

الضيق ، بل كانت الوطنية عنده بعثاً وإصلاحاً وبناء ، وحركة عامة تشمل النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية . فهو أول من جعل لحركة مصر الوطنية أنصاراً من أكبر الشخصيات فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وانجلترا ، مثل جوليت آدم ودلونكل وكير هاردى وغيرهم . وهو الذى جعل من « اللواء » مدرسة للصحافة والوطنية ، تخلد فيها كثير من كبار كتابنا ، كما أوفد بعضهم إلى أوربا لإتقان فنون الصحافة والدعاية . ولا ننسى لمصطفى كامل وقفته الخالدة من مذبحة دنشواى وتأليبه الرأى العام الأوربى على الإنجليز ، مما اضطرهم إلى عزل كرومر والعفو عمن بقى فى السجن من متهمى ذلك الحادث المشئوم .

إن الكثيرين منا لا يعلمون أن مصطفى كامل هو الذى وضع الحجر الأساسى فى بناء الجامعة المصرية الأهلية . فقد علم — رحمه الله — أن المصريين قرروا أن يقيموا له حفلاً فى سبتمبر عام ١٩٠٦ عند عودته من أوربا . وكان قد سافر لينظم حملته الناجحة ضد الأنجليز عقب حادثة دنشواى ، فأرسل إلى صديقه محمد فريد يقول : « ... إنى لا أستطيع أن أقبل ثناء لا أستحقه ، أو إكراماً لم أفعل شيئاً ليوجه إلىّ ، ولا يمكننى أن أرضى بأن يكون الشعور الوطنى مدعاة لأن يكافأ الرجل عليه ، وهو لا يكون رجلاً إلا به . بخير هدية أقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز وللأمة المصرية المحبوبة المجيدة ، هى أن تقوم اللجنة التى ألفت بدعوة الأمة كلها ، وطرق باب كل مصرى ، لتأسيس جامعة أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء ، وتهب الوطن الرجال الأشداء الذين يزيدون عدد خدامه الصادقين . هذه هى الهدية الوحيدة التى يليق بالوطنيين الصادقين إهداؤها لمصر والمصريين » . وكان أن استجابت الأمة واللجنة لدعوته وجمع المال وأنشئت الجامعة .

ما أجدرنا فى ذكرى هذا الزعيم العظيم ، أن نتمثل بقولته المشهورة : « لا معنى للحياة مع اليأس . ولا معنى لليأس مع الحياة » .

أحمد حسين الصادق

الجرائم ، ومن أمثلة قسوته الغريبة أنه عقب إحدى المعارك التى انتصر فيها ، غرس سيفه فى الأرض ، وأمر بقتل جميع أفراد الدولة المنهزمة الذين يزيد طولهم عن طول هـذا السيف المشئوم ! ...

والقرآن فى تعاليمه لا يمنع المؤمنين من استخدام القوة إذا كان الغرض منها دفع ظلم أو إصلاح أمر معوج ، أو تمكين الناس من عبادة الله :

« إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ● أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ● الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

(٢٢ ، ٤٠ — ٤٢)

ودعوة الناس إلى الجهاد تكثر فى القرآن ، ولكنها محدودة بقواعد وقوانين صارمة واضحة :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

(٢ ، ١٨٦)

والسلم هو الحالة الطبيعية للإنسانية ، بل هو خير الحالات . أما الحرب فشر وبلاء : « والحرب مشئوم » كما يقول المثل المعروف ، ومن أثار الحرب لغير سبب وجيه كان ظالماً ، والبادىء بالقتال أظلم .

وليست الحرب فى الحقيقة إلا جهاداً بسيطاً ، إنها « الجهاد الأصغر » أما « الجهاد الأكبر » فهو « جهاد النفس » ، ذلك الجهاد المقدس العنيف الذى يقوم به الإنسان مسلحاً بسيف العزيمة لمقاومة أنانية النفس الأمارة بالسوء ، والسيطرة على الرغبات الدنيئة والسمو بالروح نحو أرفع مراتب الكمال .

فما أبعد الشوط الذى قطعه الإسلام للوصول بالإنسانية إلى غاياتها الصحيحة ، وما أبعد الفرق بين تعاليمه الرحيمة المثالية وتعاليم موسى القاسية الدامية فى العهد القديم .

(Deuter ، ٢٠ ، ١٠ ، ٠٠٠)

● ● ●

٥ — شيخ الجبل :

لن يجد الباحث من بين مفكرى الإسلام من بنى مذهباً له فى السياسة والحكم على دعامة غير العقل السليم والعدل .

فالفارابى مثلاً ، فى كتابه « المدينة الفاضلة » ، يعرض صوراً ساخرة لمدينة « الجهل » التى تعتمد حكومتها على القوة والظلم ويستنكر نظمها الفاسدة .

ونظام الملك نفسه ، برغم أننا لا نستطيع إدخاله فى زمرة أصحاب الضمائر الحساسة من الحكام ، يتحدث عن الحكومة الصالحة فيجعل من أركانها العدل وتجنب الإسراف .

وابن خلدون فى المغرب وأبو الفضل فى الشرق لا تختلف آراؤهما كثيراً عن رأى الفارابى فى الحكومة الصالحة ...

ولم يشذ عن هذا الاتجاه العام للمسلمين سوى حسن الصباح ، شيخ الجبل الملحد الذى عاش بين مرتفعات علموت ، وقد لعب بعقله الطمع والغرور ...

فقد كان يعتقد أن « ليس فى الوجود حقيقة ما ، وأن كل عمل يستطيع أن يقوم به الإنسان فهو مباح له حلال » .

وأسس هذا الشيخ جماعة الحشاشين . وهى أول وآخر فرقة فى الإسلام نادى أصحابها بأفكار تخرج عن مثل العدل والإخاء والرحمة ... كما أنها تشبه إلى حد بعيد تلك المدارس الحديثة التى نادى بها فى الغرب بعض المفكرين من المصابين بنقص عقلى غريب ...

التلخيص

محمد عبد الحليم محمود

(للبحث بقية)

طوق الحمامة لابن حزم

حققه الأستاذ حسن كامل الصيرفي ، وقدّم له الأستاذ ابراهيم الابياري ، القاهرة ١٩٥٠

للأستاذ صلاح الدين المنجد

هذا كتاب من نوادر الكتب العربية وأ كثرها شأناً ، أما موضوعه فلطيف ممتع ، وأما مؤلفه فعظيم جليل ، وقد كان المستشرق پتروف Petrof الأستاذ في جامعة بطرسبرغ قد نشر هذا الكتاب عام ١٩١٤ م . حققه عن نسخة وحيدة وجدها في خزانة جامعة ليدن ، وقدّم له بمقدمة مفيدة عن ابن حزم والحب ، وهي مقدمة لم ينظر إليها الأستاذ سعيد الأفغاني يوم أصدر كتابه عن ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابة ، فلذلك جاء ما كتبه عن ابن حزم والحب قليل العمق ضيق الحدود . ثم طُبع هذا الكتاب طبعة ثانية بدمشق ، إذ نشرته مكتبة عرفة ، وقدّم له الأستاذ الجليل محمد البزم ، وقد حاول الناشر تصحيح ما فات المستشرق تصحيحه ، على أنه كان أميناً ، إذ ذكر أنه نشر الكتاب على طبعة المستشرق ، بل إنه نقل فقرات من مقدمة الأستاذ پتروف تتعلق بالمؤلف والكتاب جعلها في صدر الكتاب .

فلا شك أن پتروف كان له فضل السبق في إخراج هذه الجوهرة الغالية وعرضها على الناس ، وكان له فضل السبق أيضاً في تصحيح الكتاب على قدر ما استطاع .

واليوم تطلع علينا طبعة ثالثة لهذا الكتاب ، وقد كان الكتاب جديراً بطبعة جديدة ، لأن طبعة ليدن نادرة ، وقد يصعب اقتناؤها ، وطبعة دمشق نفدت أو كادت تنفد ، لذلك فإن إحياء الكتاب بطبعه عمل يشكر عليه من فكر فيه .

إلا أن كتاباً كهذا له شأنه وخطره ، كان ينبغي أن يُعنى به عناية كبرى . فلقد نشرته مكتبة مصطفى محمد بتحقيق الأديب الشاعر الأستاذ الصيرفي ، وقدّم له الأستاذ الأبياري ، والأستاذان معروفان ، ويبدو أن هذه الطبعة الجديدة هي طبعة تجارية لا علمية ، وعلى هذا يبقى الفضل لپتروف أيضاً .

وما دمت قد ذكرت أن هذه الطبعة تجارية ، فليس لي أن أطلب من الأستاذ الصيرفي ما يطلب من ناشر الكتاب على نهج علمي بحت ، ولكني لا أستطيع إلا أن أسأل الأستاذ عن الأصل الذي نشر الكتاب عنه ، أهو الأصل الموجود في ليدن ؟ وإذا كان ذلك كذلك أفلا يكون من تمام الأمانة الإشارة إليه ، وذكر الجهود التي بذلها ناشره ؟ إنه من الصعب جداً أن نعيد طبع كتاب طبعه غيرنا وبذل فيه جهداً ، ثم نتناساه أو نتجاهله وننكر أن يكون قد سبقنا إلى طبعه .

ولقد وجدت تصحيحات مأخوذة عن طبعة دمشق ، أفيكون الأستاذ الصيرفي قد أخذها عن طبعة دمشق حقاً ، فلم يشر إلى ذلك ، أم أنه اهتدى إليها وحده ؟

وقد يلام الأستاذ الأبياري على تشجيع نشرات بنهج كهذا ، وهو الذي ينشر تراث الأقدمين نشراً علمياً ، ولو أن الكتاب كان غير طوق الحمامة لما ساق القوم إليه أحد .

وقد جاء في مقدمة الأستاذ الأبياري أمور تحتاج إلى توضيح وتصحيح ؛ فلقد قال : « ... فهو من أرومة مشرقية أول نازح منها إلى الأندلس (خلف) ، ولم تكن لغة التي في غرب الأندلس والتي اتخذها الآباء موطنهم مقام خلف الأول فيما نظن ، ولا تسعفنا المصادر بشيء مجمل أو مفصل عن تلك الأيام في حياة الجد النازح ، ولا نكاد نلمس من تنشئة ابن حزم وأبيه أبي عمر أحمد أن الأسرة

(البقية على الصفحة التالية)

العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة

للأستاذ عاطف أمين وصفى

يعرض الفيلسوف الفرنسى إميل بوترو فى هذا الكتاب (العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة) ، مشكلة هامة ، هى مشكلة العلم والدين : هل هما مستقلان تمام الاستقلال ؟ أم لا بد من احتكاكهما وتصارعهما ؟ وهل سيتغلب أحدهما على الآخر فى هذا الصراع ؟ هذه هى المشكلة ، عرضها عرضاً تاريخياً ، فبين آراء المفكرين ، ويرى أنه يوجد اتجاهين اتجهت فيهما تلك الآراء : ١ — اتجاه طبيعى ، وفيه يؤكد أصحابه أهمية العلم ويرون الثقة به . ٢ — اتجاه روحى ، وأصحابه يضعون الدين فى المكان الأول . وبعد أن عرض بوترو هذه الآراء ، أتى بنظريته فى خاتمة الكتاب ، وسأحاول تلخيص ما جاء فى هذا الكتاب القيم .

فى المقدمة ، يتكلم بوترو عن العلم والدين قبل العصر الحديث ، فعند اليونان قديماً نجد الفلسفة والدين ، لعدم وجود علم فى ذلك الوقت ، ويرى أن الفلسفة نشأت من الدين ، الذى كان مجموعة من الأساطير والخرافات . أما فى العصر الوسيط فنجد المسيحية التى جاءت بأفكار سامية حديثة عن الله ، والتعاون الإنسانى ، وفى عصر النهضة ظهر العلم ، الذى يفسر ظواهر الطبيعة بربط بعضها ببعض ، ولقد بين ديكارت فى ذلك العصر ، علاقة العلم بالدين ، بأن فرض مبدأ الاستقلال المتبادل بين الاثنين .

فى الجزء الأول ، يعرض للاتجاه الطبيعى ، الذى اتجهت فيه نظريات بعض المفكرين فى العصر الحديث ، أولهم أوجست كونت ، الذى يبدأ بالعلم الوضعى ، وهذا العلم يعتمد على الواقع ومنه يصل إلى النتائج ، والفلسفة عند كونت هى فلسفة وضعية ، وظيفتها تحقيق الوحدة العقلية ، بأن تعمل على جعل المنهج الوضعى ، هو المنهج المتبع لفهم جميع

كانت على إرث من علم وآخر من نباهة ... »

أما ظن الأستاذ الأيلرى ، فلا يستند إلى دليل . أما المصادر فقد تحدثت بأمور مجملة عن حياة آباء ابن حزم وأجداده . وهى مصادر عربية ليست عربية ؟ وما أدرى إن كان الأستاذ الأيلرى قصد بالمصادر العربية منها أم الغربية والعربية معاً . فلقد فصّل دوزى Dozy فى كتابه : « تاريخ مسلمى الأندلس »[1] Histoire des Musulmans d'Espagne طرفاً من سيرة أجداده ، وذكر كيف كان حزم نفسه نصرانياً ثم أسلم ، ودوزى يجعل لنصرانية أحد أجداد ابن حزم شأناً ، ويرى فيها سبباً من أسباب نبوغه وجرأته . فى حين يجعل الأستاذ الأيلرى أصله الفارسى البعيد سبباً فى نفسه الحر الجرئ ... وهذا أمر جدير ببحث أكثر سعة . وكذلك نجد من الأخبار عنهم فى كتاب « أسبانية الإسلامية » للأستاذ ليفى بروفنسال وفى مقالات آسين بلاسيوس عن ابن حزم .

وأمر آخر ورد فى مقدمة الأستاذ الأيلرى قوله : إن الدكتور طه حسين بك عقد مقالاً قابس فيه بين ابن حزم وبين « ستندال الإيطالى » ، وإن المقال نشر فى الكتاب المصرى (المجلد الثانى العدد الخامس) . ولقد عجبت أن يكون الدكتور طه قال : إن ستندال كان إيطالياً ، فرجعت إلى مقال الدكتور طه حسين فوجدته يقول بعد أن يذكر ابن حزم : « ... وأما ثانيهما فهو ستندال الفرنسى » ص ٥ ، والأغلب أن هؤلاء وأولئك قد تشابهوا على الأستاذ الايلرى .

ولعل الأستاذين الصيرفى والأيلرى يريان معى أنه آن لنا أن نبدأ بالابتعاد عن النشرات التجارية ، وبجعل هذا التراث لعبة فى أيدى الوراقين ، وأنه آن لنا أن ننشر تراثنا بدقة وعناية وتمحيص ، لأن الخير كله لن يكون إلا فى هذه الطريق .

(دمشق) صموع العرب الحبب

(١) طبع طبعة جديدة مزيدة ومنقحة بعناية المستشرق الأستاذ ليفى بروفنسال ، بليدن عام ١٩٣٢ .

الظواهر طبيعية واجتماعية . وبعد الفلسفة يأتي الدين ، وهو وضعي أيضاً ، هو دين الإنسانية ، الذي يقوم على مبدأ الحب ، وهنا يتدرج من حب الفرد للفرد ، إلى حب الأسرة ، إلى حب الوطن ، ثم حب الإنسانية ، والدين يسير من المحسوس إلى المحسوس ، والوجود الأعظم هو الإنسانية أي مجموع الأفراد ، ويقول بأعياد تقيد فيها ذكرى العظماء الذين خدموا الإنسانية .

وبعد هذا يأتي هربرت سبنسر ، الذي يقول بوجود « مجهول » في أعماق وأصل جميع الأشياء ، حتى العلم والدين ، فهما متحدان لأن لهما أصلاً واحداً وهو هذا المجهول . وفي هذا الاتجاه الطبيعي ، يدخل هيكل القائل بمذهب الوحدة التطورية ، فيرى أن الإنسان ليست له حاجات نظرية فقط ، وإلا لاكتفى بالعلم ، ولكن له حاجات عملية أيضاً ، فهو عاطفة وقلب بجانب أنه عقل ، ولذلك يجب أن يعيش العلم مع الدين في سلام ، ولكن ما الواسطة التي تربطهما ؟ يرى هيكل أن الرابطة هي اتحاد الغاية لكونهما غايته الخير . ثم يعرض بوترو بعد ذلك لمذهب علم النفس ، ومذهب علم الاجتماع في تفسير الدين ، والاثنان متفقان في إدخال الدين في العلم ، ولذلك يصبح هناك علم الأديان لا الدين ، وذلك إما بدراسة الشعور والحالة النفسية للمتدين عن طريق الملاحظة الخارجية والداخلية ، وهذا هو علم النفس ، وإما عن طريق الملاحظة الموضوعية للظواهر الاجتماعية كما يفعل علم الاجتماع ، الذي يرى أن الظواهر الدينية ، تنشأ من طبيعة الاجتماع الإنساني ، فهي ناشئة من المجتمع . يرى بوترو أنه لا يمكن إدخال الدين في العلم بهذه السهولة ، بل إن الناس متدينون ما دام العلم عاجزاً عن حل مشاكل الدين . هذا هو الاتجاه الطبيعي .

في الفصل الثاني ، الاتجاه الروحي ، وفيه نرى ريتشل الذي يقول بالثنائية المتطرفة ، أي أن الدين له ميدانه الروحي الذي لابد من أن يتطهر من كل شيء يتصل بالعلم أو الفلسفة أو الميتافيزيقا ، والعلم ميدانه المادة ، فكلاهما منفصل تماماً عن الآخر .

بعد ذلك يتكلم بوترو عن نظرية الدين القائم على حدود العلم ، وهي أن بعض المفكرين يرون عجز العلم عن حل كل المشاكل ، وأن العلم مهما تقدم فهو محدود ، ولذلك لا بد من الرجوع إلى ما يسد هذا الفراغ ، وهنا عن طريق الدين بروحانيته ، واعتماده على القلب والعاطفة ، وبإيمانه العميق يحل جميع المشاكل .

بعد هذا يتكلم بوترو عن البراجماتزم ، وهي تلك النزعة التي تهتم بالناحية العملية ، وترى أن العلم هو العمل ، وفلسفة العمل ترى أن الدين والعلم متحدان حيث إنهما يتولدان من العمل ، بل إن الاثنين لا يمكن تصورهما إلا إذا رأينا الناحية العملية منهما .

بعد هذا يتكلم بوترو عن وليم جيمس ، الذي يقول بالتجربة الدينية . يرى وليم جيمس أن التجربة العلمية ليست هي كل شيء ، بل هناك تجربة أعمق وأعظم ، هي التجربة الدينية وهي تجربة حسية ، شخصية تماماً . ولتلك التجربة ناحيتان أساسيتان : ١ — قلق من الألم والشر ، ٢ — شعور بالنجاة من الألم والشر بفضل قوة عليا . وهذه التجربة تجعلنا نشعر بأننا نشارك بالوجود الأعلى ونتصل به . والناحية الدينية أغنى بكثير من الناحية العلمية في الحياة الإنسانية .

وإلى هنا ينتهي الفصل الثاني ، وبعد ذلك تأتي خاتمة الكتاب ، وفيها يميز بوترو بين الروح العلمية والروح الدينية ، فيرى أن الروح العلمية هي عبارة عن ملاحظة حسية وقيام بتجارب ، للوصول إلى قوانين عامة ، فهي تعتمد على الحس . أما الروح الدينية فهي غير ذلك ، هي الإيمان ، وذلك الإيمان لا يعتمد على الحس ، إنما يعتمد على القلب والعقل ، وتتكون الروح الدينية من ثلاثة عناصر : ١ — الإيمان ، ٢ — موضوع هذا الإيمان ، ٣ — حب هذا الموضوع ومحاولة الوصول إليه ، ولذلك يميز بوترو بين العلم والدين بأن كلاً له مميزاته الخاصة ، ولا يمكن اندماج أحدهما في الآخر .

ولكن ما رأيه في المشكلة ؟ يرى بوترو أن العلم والدين هما أساس الحياة الإنسانية ، وهما في صراع مهما يختلفان قوة وحيوية وخصباً ، أعظم مما لكل منهما على حدة ، وهما في هذا الصراع الأزلي لن يصلا إلى اتحاد ، لأن كليهما متميز عن الآخر ، ولن يستطيع أحدهما القضاء على الآخر ، ولكن يمكن أن يتحد العلم والدين من ناحية الغاية ، بأن يتجه الاثنان متوازيين وليسا مندمجين في شيء واحد ، إلى غاية واحدة يلتقيان فيها ، تلك الغاية هي خير الإنسانية ، والعلم والدين لا بد من وجودهما ما دامت الإنسانية . هذا هو رأي بوترو ، وبهذا ينتهي هذا الكتاب القيم .

عاطف أمين وصفي

قصص

السلحفاة الملونة

للأستاذ جلال أحمد أمين

تراجع الطفل الصغير بكرسيه إلى الوراء وقد سئم اللعب التي تتراكم أمامه ، وأخذ يفكر في جدّ شديد ، في دور آخر يلعبه .

واندفع الطفل بكرسيه إلى الأمام فجأة حتى استقر به على الأرض ، وأمسك بسلحفاة ملونة يستطيع أن يدفعها فتسير بمهل على العجلات إلى نهاية الغرفة . وصاح الطفل في وجهها : من أنا ؟.

وحملقت فيه السلحفاة ، وجعلها تقول له في خضوع :

— أنت يا سيدى رجل عظيم ، ولتستطيع أن تسير بسرعة عجيبة ..

وابتسم الطفل معجباً بذكائها ووضعها إلى جانبه ، وتناول من الأرض قطاراً كثير العربات يستطيع أن يضعه على قضبانه ويدفعه فيصل إلى نهاية الغرفة في لمح البصر .

صاح الطفل : من أنا ؟.

وحملق فيه القطار ، وجعله يقول في هدوء :

— أنت يا سيدى رجل عظيم ، ولكنك تسير في بطء شديد ..

ولم تبد على وجه الطفل إلا علامات الجد والاهتمام ووضع القطار إلى جانبه .

وسارع الطفل إلى درج صغير فأخرج منه اللعب الزجاجية التي أهدتها إليه أمه منذ أيام .

وعاد الطفل إلى كرسيه وأمسك بالفارس الزجاجي في يده وصاح به :

— من أنا أيها الفارس ؟.

وحملق فيه الفارس طويلاً وجعله الطفل يقول في كبرياء :

— أنت يا سيدى وديع حقاً ، لطيف كما تقول لك أمك ، ولكنك شديد الضعف إلى جانبي ..

ووضعه الطفل إلى جانبه وأخرج الدبابة الزجاجية الصغيرة .

— فمن أنا إذاً أيتها الدبابة ؟.

وارتبكت الدبابة وقالت مترددة : وكيف أعلم يا سيدى .. ولكنك .. قوى .. قوى بلا شك ..

وابتسم الطفل ، وجرى إلى أمه وصاح بها دون أن تراه :

— لقد عرفت حقيقتى يا أماه !.

والتفتت إليه أمه فرأت بيده الدبابة الزجاجية .

— أما زلت في لعبتك الحمقاء تقضى وقتك كله ؟.

— نعم يا أماه ، ولكنني عرفت حقيقتى أخيراً ..

وابتسمت الأم في إشفاق وقالت له :

— حقاً أنك طفل ذكى ، ولكن .. حسناً .. ما هى حقيقتك إذاً ؟.

وأسرع الطفل يجيب دون أن ينظر إلى أمه :

— عظيم ، سريع ، بطيء ، ضعيف ، قوى جداً يا أماه .

وهمت الأم أن تقول شيئاً ولكنها عادت فقالت :

— حسناً يا عزيزى ، من قال لك هذا ؟

فأسرع الطفل وأجاب ناظراً إلى أمه كأنها تشك في قوله :

— السلحفاة قالته ، والقطار أيضاً ..

عاد وجه الأم إلى عبوسه والتفتت إلى عملها وهى تقول :

— حسناً ، لا شك أنك طفل ذكى ، ولكن ... لا يمكن أن تكون يا عزيزى قوياً وضعيفاً ، ولا بطيئاً سريعاً معاً ، لا تحزن لما أقوله ، ولكنك يا عزيزى تسمع أشياء من خيالك .. إن عقلك هو الذى يقول هذا وليست السلحفاة أو القطار .. حسناً .. اذهب الآن إلى لعبك والعب بها ولا تسألها شيئاً ، لن تعرف شيئاً إلا إذا لعبت بها ..

•••

أمسية الخريف

للكاتب الروسي الكبير إيفان بونين

ترجمة : حسن فتحي خليل

مكث معنا في الريف خلال شهر يونيو من ذلك العام ، وكنا نعامله دائماً كأنه أحد أفراد الأسرة ؛ فقد كان والده المرحوم صديقاً وجاراً لوالدي . وفي اليوم الخامس عشر من يونيو قتل الأرشيدوق فرديناند في سيراجيفو ، ولم تصلنا الجرائد من مكتب البريد إلا في اليوم السادس عشر . وخرج والدي من حجرة مكتبه وفي يده جريدة موسكو المسائية ، ودخل علينا غرفة الطعام حيث كنا ما زلنا أنا ووالدتي جالستين إلى مائدة الشاي .

وصاح والدي : « إنها الحرب ! فقد قتل الأرشيدوق النمسوي في سيراجيفو .. وهذا معناه الحرب ! » .

وتقاطر الزوار على منزلنا في ذلك المساء لمناسبة عيد ميلاد والدي ، وبعد العشاء أعلنت خطبتنا .

ولكن حدث في التاسع عشر من يوليو أن أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا . وفي سبتمبر جاء ليقضي معنا أربعاً وعشرين ساعة فحسب ، وليودعنا قبل أن يذهب إلى ميدان القتال . وكان الجميع يعتقدون حينئذ أن الحرب سرعان ما ستنتهي ، ولهذا أجل زواجنا إلى الربيع التالي . وهكذا كان ذلك المساء هو ليلة افتراقنا . وبعد العشاء كان والدي ينظر إلى النوافذ ، وقد غشي زجاجها الضباب ، ثم قال :

— يا له من خريف بارد مبكر عجيب ! .

وكنا نجلس أنا و (هو) في ذلك المساء في هدوء ، نتبادل من آن إلى آخر جملاً كانت تافهة ونحن نكتم مشاعرنا في صعوبة ، فقمت ومسحت زجاج النافذة بمنديل بعد ملاحظة والدي ، وكانت النجوم الباردة الصافية تلمع أضواؤها في الحديقة .

وكان أبي يدخن وقد اضطجع في مقعده وهو يدمن النظر في المصباح المشتعل الموضوع فوق المائدة ، بينما كانت والدتي تضع عويناتها وتخيط كيساً صغيراً من الحرير .

وكنا نحس جميعاً أن الجو يبدو ثقيلاً ، حتى قال والدي

وتمالك الطفل نفسه حتى خرج من الحجرة وأقفل الباب ، وما كاد يرى نفسه وحيداً حتى سالت دموعه ..

ما الذي يمنع من أن تكون قوياً وضعيفاً وطيباً ومسرعاً في وقت واحد ! ولم لا يسأل أمه ؟ ولم يكتفِ باللعب بها ؟ وكيف تكذب عليه سلحفاته وهو الذي يحبها ، ولا شك عنده في أنها تحبه أيضاً ؟ وكيف يكون هذا كله من صنع خياله ؟

وتوقف الطفل برهة وأخرج منديله وجفف دموعه ، وكأنما قد قرر شيئاً حازماً ، وجرى إلى حجرته وأمسك بسلحفاته وصاح بها في قسوة :

— تكلمي .. هل صحيح ما قالته أمي ؟ ألست قوياً وعظيماً ؟ تكلمي أيتها الحمقاء ! وظلت السلحفاة تحملق في وجهه ولا تبدي حراكاً ..

ولم يملك الطفل نفسه فأمسكها وقذف بها إلى نهاية الحجرة دون أن يدفعها برفق كعادته أو ينتظر ليرى كيف تسير ..

وصعق الطفل عندما رآها تتحطم أمام عينيه ، وجرى إليها بلهفة وأمسك بها وأخذ يتحسس أجزاءها وهو لا يصدق ما فعلت يداه بالسلحفاة الملونة ..

وتساقطت الدموع من عينيه مرة أخرى ، وضم أجزاء السلحفاة إلى صدره في حنان ..

بتول أحمد أمين

أخيراً : هل ما زلت ترغب فى السفر صباحاً ولا تود أن تبقى معنا حتى بعد الغداء ؟ .

فأجابه هو : نعم .. إذا تمكنت فى الصباح .. وإنى لشديد الأسف لذلك ، ولكنى مضطر لأنى لم أرتب حاجاتى بعد .

فزفر والدى وقال : حسناً .. كما ترغب يا عزيزى ، وعلى هذا فإن الوقت قد حان لى ولزوجتى لأن نذهب إلى فراشنا .. وسنراك صباح الغد .

فوقفت والدتى ورسمت علامة الصليب على ولدها فى المستقبل ، فانحنى على يدها ، ثم على يد أبى .. وبقينا وحدنا .

جلسنا طويلاً فى غرفة الطعام ، فتناولت بعض أوراق اللعب وحاولت أن أتسلى بها ، وقام هو يذرع الحجرة من ركن إلى آخر .. ثم قال : إذا وافقت خرجنا نتمشى قليلاً . فشعرت بالألم يحز فى صدرى ، ثم قلت : حسناً .

وخرجنا إلى الردهة فوضع معطفه وبدأنا نتذاكر بضعة أبيات شعرية قديمة فى وصف الخريف والعاطف والقمر الطالع كأنه ألسنة النار المتصاعدة .

وجعلنا نذكر أيام أسلافنا الجميلة ... وإذا أنا أصيح : « يا إلهى ... يا إلهى ... » فسألنى : ماذا حدث ... ؟

قلت : لا شىء يا عزيزى ... ولكنى أشعر بالحزن والألم ... فإنى أحبك ... أحبك كثيراً .

وخرجنا إلى الشرفة ومنها إلى الحديقة ، وبدا كل شىء مظلماً فى بادئ الأمر حتى إنى تعلقت بكم معطفه ، ورويداً بدأت الأغصان تنجلى عن السماء المنيرة ، وقد انتثرت فى صفحتها النجوم المتلألئة ، فتوقف ثم استدار ينظر إلى المنزل وقال :

— أنظرى كيف تبدو النوافذ وهى مضيئة .. إنه الخريف حقاً ... لن أنسى ما حييت هذه الأمسية ...

واستدرت بدورى لأرى ما يشير إليه فطوقنى بذراعيه ورفعت إليه وجهى فقبلنى ثم حدق فىّ وقال : بالله عليك ... هلا تشعرين بالبرد ؟ .. فالهواء شديد البرودة ، وصمت قليلا . ثم قال : هل إذا قتلونى لن تنسينى حقاً بعد وقت قصير ؟ ، وكنت أفكر : ماذا يحدث لو قتلوه حقاً ؟ وكيف يمكن أن أنساه أبداً ؟ هل ستكون النهاية أن تزيح ذكرى كل شىء ؟ ثم أسرعت أجيبه وأنا أخاف من نفسى وأفكارى : لا تتفوه بمثل هذه الأشياء ، فلن يمكننى العيش بدونك . فتمهل قليلا ثم قال : حسناً إذا قتلونى فإنى سأنتظرك هناك ، يجب أن تعيشى طيباً وتتمتعى بالحياة على الأرض .. ثم تعودى إلىّ .

فاندفعت فى بكاء مر ...

وسافر فى الصباح الباكر ، وقد أهدته والدتى ذلك الكيس الصغير الذى كانت تخيطه فى المساء السابق ، وكان يحتوى على أيقونة ذهبية كان يلبسها والدها وجدها فى الحروب السابقة ، كما رسمنا عليه علامة الصليب جميعا ونحن نرتجف اضطرابا ، ووقفنا نتابعه بأعيننا ، تخالجنا تلك الحالة التى تشعر بها حين تفارق عزيزاً لديك لمدة طويلة ، حين تشعر باختلاف بينك وبين ذلك الصباح المشرق الضاحك وحولك قطرات الندى ترصع العشب فى كل مكان .

وبعد أن انتظرنا قليلاً عدنا إلى داخل المنزل وكنت أذرع الغرف ويداى متشابكتان خلف ظهرى لا أدرى ماذا أفعل بنفسى ، هل أنفجر فى البكاء أو بتعالى صوتى بالغناء ...

ولقد قتل — ويالها من كلمة غريبة — بعد شهر واحد ! ...

وانقضى ثلاثون عاما منذ ذلك الوقت ، وكم مرت بى من أحداث خلال تلك الحقبة الطويلة التى لو أمعنت النظر فيها لوجدتها سنوات طويلة حقاً مفعمة بالذكريات التى لا يمكن للعقل أو القلب أن يستوعبها كلها .. والتى يطلق عليها فى مجموعها كلمة الماضى ...

فى ربيع عام ١٩١٨ بعد أن توفى كل من والدى

والحق كنت أقيم في موسكو في الطبقة السفلى من منزل امرأة تتاجر في السوق ، وكانت دائماً تحاول أن تمازحني فتقول : كيف تسير أعمالك ياصاحبة السمو ؟ .

وكنت أعمل في التجارة بدوري فأبيع الجنود تلك الأشياء القليلة الباقية لي .. بعض الخواتم الزائدة عن حاجتي أو صليباً صغيراً أو بعض الملابس التي أكلتها العثة ..

ولقد حدث حين كنت أبيع بعض حاجاتي في ركن من أركان السوق أن قابلت شخصاً نادر الوجود ، ضابطاً سابقاً متوسط العمر ذا عقلية نبيلة . ولقد تزوجته بعدئذ وسافرنا في إربل معاً إلى إيكاترينودار واستغرقت الرحلة حوالي أسبوعين ، وسافر معنا ابن أخته وهو شاب في السابعة عشرة ، كان يحاول الانضمام إلى جيش المتطوعين .

وكنت أرتدي ملابس الفلاحات ، بينما كان زوجي يرتدي سترة ممزقة للقوزاق ، وقد ترك لحيته الرمادية مشعثة . وقضينا أكثر من عامين في تلك القرية على ضفاف نهر الدون . وذات شتاء وخلال عاصفة هوجاء ، سافرنا بحراً من نوفوروسسك إلى تركيا مع عدد وافر من اللاجئين . ومات زوجي خلال تلك الرحلة البحرية بالتيفوس . ولم يبق لي بعد ذلك سوى ثلاثة أشخاص . ابن أخت زوجي وزوجته الصغيرة وابنته ، وكانت في الشهر السابع من عمرها . ولكن سرعان ما غادرني ابن الأخت وزوجه بعد وقت قصير ليلحقا بجيش رانجل وقد تركا ابنتهما لدي . واختفيا منذ ذلك اليوم ولم أعد أسمع عنهما بعدئذ . ولكني تابعت حياتي في استانبول مدة طويلة وأنا أكدح في طلب الرزق بما يكفل العيش لي وللطفلة الصغيرة . وجلت بعدها — كغيري ممن هم على شاكلتي حينئذ — من مكان إلى آخر .. بلغاريا ، صربيا ، تشيكوسلوفاكيا ، بلجيكا ، باريس ، نيس ، وتمت الطفلة منذ زمن بعيد . وحين استقرت في باريس غدت نموذجاً للفتاة الفرنسية وعثرت على عمل في محل للحلوى قريباً من المادلين ، وكانت مهمتها هي وضع العلب بأصابعها الرشيقة وأظفارها المطلاة في أغلفة من ورق الحرير ثم تربطها برباط مذهب .

ولكني مازلت أقيم في نيس بما يرزقني به الله .. وهكذا .. عشت بعد مماته بالرغم من أني قلت يوماً إنه لا يمكنني العيش بدونه .

ولكني حين أذكر كل ما مر بي منذ ذلك الوقت أسائل نفسي غالباً : ما هي الأيام التي عشتها حقاً في حياتي ؟ فأجدني أجيب نفسي قائلة : لا شيء .. سوى تلك الأمسية الوحيدة في الخريف البارد . ولكني أعود فأتساءل : هل كانت تلك الأمسية حقيقة واقعة ؟ . وسرعان ما أجيب أن : نعم . لقد كانت كذلك .. وهي كل شيء .. كل ما عشته حقيقة في حياتي ، أما ما عداها من الأيام فهي أضغاث أحلام .

ولكني أعتقد اعتقاداً جازماً أنه مازال ينتظرني في مكان ما ، وهو يحمل لي نفس العاطفة والحب اللذين كان يحتفظ لي بهما في تلك الأمسية وتردد في نفسي صدى كلماته : « يجب أن تعيشي وتبتهجي على الأرض .. ثم تعودي إلي ... » .

ولقد عشت وعدت .. وسأعود إليه سريعاً .

حسن قسي خليل

مسرحيـــة الجلف

للأستاذ عبد الفتاح البارودي

تعتبر هـذه المسرحية التي افتتحت بها فرقة المسرح المصري الحديث موسمها بمسرح الأزبكيـة مـن أنسب المسرحيات لنهاجها ولجمهورنا باعتبارها من روائع المؤلفات المسرحية العالمية . ولأن مضمونها يهدف إلى الوعي بالحياة والواقع وإيقاظ النفوس الغافلة الخاملة ، ومكافحة الإغراق في التخيل ، والإمعان في التوهم ، والإيمان بالأشباح وما إليها ...

(مدام بوبوف) سيدة يموت زوجها ، وهي لما تزل شابة فاتنة ، فتأبى إلا أن تسيطر عليها عاطفتها دون عقلها ، وتسرف في حدادها ، فلا تبرح دارها ولا تستقبل زوارها ، وترهق خادمها الهرم (لوكا) نفسه دون جدوى في تذكيرها بنضارتها وتبصيرها بخطر اعتزالها ! وعبثاً يحاول « إقناعها » بأن الدنيا حولها فياضة بالبهجة ، وأن الحداد على زوجها طول العمر لن يردّه إلى الحياة ثانية ... وفجأة يقتحم الدار (سمير نوف) ، وهو ضابط متقاعد في العقد الرابع من عمره ، ودائن لفقيدها ، جاء يطالبها بسداد الدين بلا إمهال ، إذ أنه هو الآخر مدين ومطالب كذلك بالسداد ، وإلا بيعت أملاكه في المزاد . وتضطر عليها إجابة طلبه ، فيستقر أمرهما على المبارزة ، ولكنهما لا يتبارزان ، بل يتعانقان ! ...

لقد عالج تشيكوف في هذه المسرحية حقيقة نفسية حية .

ولكن أين في مضمونها ما زعمناه من وعي بالحياة والواقع ؟! .

لكي نتبين ذلك يجب أن نعلم أن البيئة الغربية والروسية كلها كانت — إلى منتصف القرن الماضي — راسخة في رومانتيكية خائرة تباينت أسبابها ومظاهرها ونتائجها من حيث التفاصيل ، ولكنها في مجموعها تجلت في هروب الشعوب من الواقع الذي لم تستطع ملامسته إلى الأحلام والأوهام التي طاب لها العيش فيها أو التعلق بها .

وكما كان الأدب أكبر معبر ومصور لهذه الحالة ، كذلك كان أكبر منقذ لها منها . والمسرحي النرويجي إبسن Ibsen هو أول منقذي تلك البيئة من رومانتيكيتها ، لأنه أول من عبر لها عن الواقع والحياة وطالبها بالوعي بهما ، وإحلال الفكر محل التخيل ، واليقظة محل الذهول ، والعقل محل العاطفة . ونتج عن ذلك ما نتج من نزوع الأمم نحو التحرر والمجتمع نحو العدالة والمرأة نحو المساواة بالرجل .

ويجمع النقاد على أن تشيكوف — وإن يكن من أتباع إبسن في مذهبه الواقعي — إلا أنه كان من النبوغ والأصالة بحيث جاوز الحد الذي بلغه أستاذه من ناحية النضج الفكري الذي نهجه فيما عرض له من موضوعات .

من هذه الزاوية ينبغي أن ننظر إلى مسرحيتنا .

فموضوعها ليس مجرد عرض لقضية نفسية ، وإنما جاءت معالجة تلك القضايا في مسرح تشيكوف تمشياً مع مذهبه الذي يوجه الفكر نحو التشبث من الخفايا والاهتمام بالحقائق .

وبطلتها (بوبوف) ليست مجرد امرأة يهزمها الحزن وتهزها الفجيعة فتستسلم إلى اليأس ، وإنما هي كذلك نموذج يتجلى فيه أثر الرومانتيكيـة في التشبث بالذكرى الموهومة والغفلة عن الحقيقة . وليس أكثر غفلة من حسناء تترهب وهي موقنة أن ترهبها هذا ليس إلا إخلاصاً ، وسرعان ما تكشف لها المصادفة عن غباوة من تخلص له .

وبطلها (سمير نوف) ليس مجرد « جلف » يجهل كيفية معاملة الجنس اللطيف بالحسنى ، وإنما هو نموذج الرجل الذي تحبط به الظروف القاسية فلا يوقفه شيء عن التوسل

إلى ما يشتهيه منها بكل وسيلة ، حتى ولو أدى ذلك إلى تعكير صفو امرأة أو تحديها بالمبارزة .

وبطلها الثالث (لوكا) ليس مجرد خادم ينحني للسادة ، وإنما هو أيضاً « إنسان » كأي إنسان له أن يبصر سيدته بأخطائها ، وله أن ينهر الضيف الثقيل ، وإن اقتضت المعالجة المسرحية — واحترام العقل والواقع أيضاً — أن يكون هذا وذاك بلهجة تنم عن شخصية الناطق بها .

وأقول عن هذا « بطلها الثالث » عمداً لأن مسرحيات الواقعيين لا تعترف ببطولة فرد ، وإنما كل فرد في المسرحية ككل فرد في الحياة له وفيه من الإمكانيات ما قد يساويه بأي فرد آخر .

من أجل ذلك لا نجد في هذه الرواية بطلاً شاذ البطولة خارق الفعال ، بل لا نجد أحداثاً ذات عقدة وحبكة بالمعنى المسرحي المفهوم ، وإنما نجد قطعة من الحياة العادية ذات حوادث محتملة الوقوع . وليس معنى هذا أن المسرحية بلا صراع وإلا فقدت اعتبارها الفني ؛ فالبطلة تصارع في نفسها أهواءها وشهواتها المكبوتة ، وتصارع مغريات الحياة حولها ، ومن هنا تزداد غيظاً يوماً بعد يوم . والبطل يصارع في نفسه خشية الفضيحة والخيبة في الحصول على ماله ، وهو الشيء الوحيد الذي يكفل له الاحتفاظ بكيانه وكرامته وأملاكه ؛ ومن هنا تزداد غيظاً كلما تبين له تبدد رجائه في استرداده . وبينهما أو بالأحرى بين انفعاله وانفعالها يدور الصراع الدراماتيكي الرهيب العميق .

ولا تقل أهمية الخادم عنهما في هذا الصراع ؛ فقد خلق منه المؤلف العظيم أضخم مساعد على تجلية شخصيتي البطلين . فهو في غمرة حزن البطلة يذكرها بمباهج الحياة ، وهو في فورة ثورة البطل يبدو ضعيفاً هزيلاً ليذكرنا بالفارق الجسيم بين الضعف والقوة ، حتى إذا ما هدأ البطل زال منه هو بعض ضعفه ليتجلى ما توخاه المؤلف من تصوير أسباب هذا الهدوء .

وهكذا تمكن تشيكوف من إدارة الصراع دراماتيكيا ، ذلك الصراع الذي أخذ يتطور في ظاهره من ضيق إلى سخط إلى غضب وحقد ، وفي باطنه من مواجهة نفسية إلى اختبار إلى حب واعتناق .

هذه هي الرواية التي استطاعت فرقة المسرح الحديث إخراجها وتمثيلها على أحسن ما يكون الإخراج والتمثيل في مسرح الحديقة الأزبكية . فنحن نعلم صعوبة إخراج روايات الفصل الواحد ، إذ تختلف المعاني وتتطور والمنظر واحد ، لا حيلة في تغيير شيء منه سوى الإضاءة . وهنا وضح حذق المخرج وبلاغته في التعبير بإحياء الصبغة النفسية وإحكام الحركة المسرحية . وليس هذا بالأمر اليسير في رواية هادئة الطابع والمشاهد ، خفية المعاني والأهداف . على أني برغم هذا أطالب الأستاذ زكي طليمات بشرح مذهبه في الإخراج في إحدى النشرات التي يصدرها . أقول ذلك بمناسبة ما كتبه الأستاذ عباس خضر في (الرسالة) الغراء منذ أسبوعين بصدد إخراج هذه الرواية ونصه : « ... ولكني لاحظت أشياء صغيرة في منظر مسرحية الجلف ... فهناك إطار مرآة محيط بغير مرآة ، ومع ذلك فقد كان البطلان ينظران فيه .. وقد أمسكت السيدة بحبل معلق بجدار الغرفة لتستدعي الخادم ، والمفروض أن الحبل متصل بجرس في الداخل ، ولكن لم يسمع أي صوت لهذا الجرس » فلو قد شرح المخرج طريقته الإيحائية لعلم الناقد الفاضل علة ذلك ، وأنه من الميسور أن يملأ المسرح بعشرات المرايا وأن تسمع عشرات الأجراس ، ولكنه المذهب الإيحائي الذي يؤثر الرمز والإيحاء .

كيفما كان الأمر فما من شك في أن هذه الفرقة قد بذلت أضخم جهد في إعطاء الناس ما أراد تشيكوف أن يعطيه . مصداق ذلك أني سمعت كثيرين يتساءلون عن أسباب تسمية هذه الرواية (فكاهية ساخرة) بينما هي داعية إلى الضحك من أبطالها والرثاء لهم في نفس الوقت . ومعنى ذلك أنهم فطنوا — إلى حد كبير — إلى تذوق إنتاج تشيكوف وإدراك ميزته الكبرى وهي قدرته على مزج الأسى بالضحك والإشفاق بالسخرية . ومعنى ذلك أيضاً أن المخرج نجح في إبراز معاني المؤلف وتجسيدها للناس نابضة بالحياة والحركة .

ولا جدال في أن للممثلين فضلا لا ينكر في هذا النجاح ، والحق أني أعجبت (بمحمد السبع) الذي قام بدور البطل واستغرق بقاؤه على المسرح معظم الوقت ، وانفرد بالجمهور فترة بعيدة أخرى ، ومع هذا بدا (قائما) لطبيعة دوره وملأ

(البقية على الصفحة التالية)

البريد الأدبي

إلى الأستاذ أحمد أمين بك

... وبعد فقد أتممت قراءة الجزء السادس من العقد وقلبي مفعم بالشكر لما قمتم به من الخدمة للأدب العربي .

وليسمح لي الأستاذ بأن أكتب إليه بما ظهر لي من الأخطاء الجغرافية في صلب الكتاب وما يجب أن يعلق على بعض النصوص الواردة فيه .

فقد ورد في ج ٤ ص ٤٠٤ فالتقوا بالجازر (بالجيم) وصحيحها بالخازر (بالخاء) كما في الطبري في حوادث سنة ٦٦ وكذا في ياقوت .

وفي ج ٦ ص ١٤٨ رطب مشان . والصحيح رطب المشان كما في ص ٢٩٧ وكذا في ياقوت .

وفي صفحة ٢٥٣ ورد كلمة الافشاذ التي لم تذكرها المعاجم البلدانية ، والذي أراه أنها أشقار وغيره ، وإن لم تذكرها المعاجم أيضاً إلا أنها موجودة في فارس كما قيل لي .

وفي صفحة ٣٦٨ ذكر قول لابن مسعود في الشراب حتى كثرت الروايات به عنه وشهرت وأذيعت ، واتبعه عليه عامة التابعين من الكوفيين وجعلوه أعظم حججهم ، وقال في ذلك شاعرهم :

من ذا يحرم ماء المزن خالطه
في جوف خابية ماء العناقيد
إني لأكره تشديد الرواة لنا
فيه ويعجبني قول ابن مسعود

دون أن تشيروا إلى ابن مسعود المقصود في الشراب وشربه عند أهل الكوفة . والحقيقة أن ابن مسعود هذا كما في أسد الغابة ج ٣ ص ٩٥ هو عامر بن مسعود بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح القرشي الجمحي الذي ولي الكوفة بعد موت يزيد بن معاوية باتفاق من أهلها عليه ، ولما وليهم خطبهم فقال في الخطبة : إن لكل قوم أشربة ولذات فاطلبوها في مظانها ، وعليكم بما يحل ويحمد واكسروا شرابكم بالماء . فقال شاعر :

من ذا يحرم ماء المزن خالطه
في قعر خابية ماء العناقيد
إني لأكره تشديد الرواة لنا
فيها ويعجبني قول ابن مسعود

المسرح دون أن يلحظ عليه افتعال أو ارتباك . وعلى الرغم من صعوبة دور البطلة فقد حاولت (ملك الجمل) أن تؤديه وإن كنت أظن أنها تستطيع أن تكون أروع مما كانت . أما (أحمد الجزيري) الذي مثل دور الخادم فقد كان همزة الوصل بين البطل والبطلة ، وأعتقد أن هذا الممثل ذخيرة من ذخائر الكوميديا في مستقبل المسرح المصري . فهو مع اشتراكه في كل روايات الفرقة واضطلاعه دائماً بدور كوميدي إلا أنه لم يتكرر ، وهذا دليل على أنه كوميدي مطبوع .

بقيت ملاحظة أريد أن أوجه النظر إليها ، وملخصها أن المشهد الختامي — وفيه مغزى الرواية — كان يمكن أن يكون أقوى مما شاهدناه . ولعل لضعف الكومبارس أثراً في ذلك ، ولكن المسئولية واقعة على الفرقة كلها .

عبد الفتاح البارودي

ثم يقول المؤلف : وكثير من الناس يظنون أنه أراد ابن مسعود صاحب النبي صلى الله عليه وسلم . الخ .

وفي صفحة ٢٣٧ ورد ما يأتي : قالوا : كانت في أبي عمرو ضرار بن عمرو ثلاثة من الخصال : كان كوفياً معتزلاً ، وكان من بني عبدالله بن غطفان ويرى رأي الشعوبية . ومحال أن يكون عربي شعوبياً ، ومات وهو ابن سبعين سنة . وهي عبارة مغلوطة وناقصة . وقد راجعت ما وقع بيدي من الطبعات لهذا الكتاب فوجدت العبارات واحدة متفقة على ما فيها من الغلط والنقص . ولكني أرغب أن تشيروا إلى ما ورد في جمهرة ابن حزم في صفحة ٢٣٧ حول أبي عمرو هذا حيث يقول : ومنهم (أي من بني غطفان) ضرار بن عمرو المتكلم أحد شيوخ المعتزلة ، وكانت فيه ثلاثة أعاجيب : كان معتزلاً كوفيا ، وكان عربياً شعوبياً ، وزوج ابنته من علج أسلم وكان يختلف إليه ، ومات وله تسعون سنة بالمعاقل .

وأختم كتابي هذا بتكرار الشكر لكم ودمتم سيدي .

المخلص

عبد الرزاق الحصان

(الثقافة) جاءنا هذا النقد من الأستاذ الحصان فرحبنا به وأمرنا بنشره ، لأنه يصحح ما وقعنا فيه من أخطاء ، ويجب أن تكون حرية القول مكفولة للجميع ، وإذا كنا نغضب إذا حيل بيننا وبين أن نغضب فغيرنا يحق له أن يغضب إذا لم يعط حقه في حرية النقد ، وقد كان هذا دأبنا منذ مارسنا الأدب ، فقد نقدني الدكتور زكي مبارك في مقالي « جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي » ولم أغضب منه إلا حين تعدى الفكرة إلى خلقي وشرفي ، وهذا ما لا يحق لناقد .

ونقد مرة الأستاذ عبد الوهاب حمودة كتابي « فجر الإسلام » فما عهد إلي اختيار مدرس لكلية الآداب اخترته ولم يؤثر في نقده .

ونقد الأستاذان العقاد والمرحوم المازني المرحوم شوقي بك نقداً مراً ، فكانا عاملين في تهذيب شعره وتجديده . وكان أول باكورة ظهرت للدكتور طه حسين مقالاته الشديدة في نقد المرحوم مصطفى لطفي المنفلوطي .

أفبعد هذا كله يحق للمقود — كالذي نسمع — أن يغضب ، لأنا نشرنا نقد كتابه ، ورجونا وألححنا في الرجاء أن نتبع الناقد من نقده ، ونغلق هذا الباب — لقد نقد ناقد كتاب « سيرة القاهرة » ، فكان من نتيجة ذلك جمع هذا الكتاب المغلوط من السوق وطبعه طبعة جديدة صحيحة .

وسمعنا أن أستاذاً كلم آخر في التليفون : هل قرأت مقالة الثقافة في نقد « الإشارات الإلهية » ؟ فلما قال له نعم . قال : إذاً ، افتح عينك حتى لا تنشر ما تؤاخذ عليه . وحبذا هذه كلها من فوائد .

لذلك سنسير على بركة الله في فتح هذا الباب ولو غضب الغاضبون ، وضاق به المنقودون .

أحمد أمين

نفـــديك ...

يا مشرقاً وضياء الشمس يغمره … لا زلت تمزج إشراقاً بإشراق

نفديك كيف تبيت الروح ظامئة … والنبع عندك ، نبع الحسن يا ساقي

بل في جمالك أنهارٌ مطهرةٌ … من كل عذب على الظمآن دفّاق

يا قاتلي إن قلبي مذ ظفرت به … أمسى خلايا صبابات وأشواق

قد لامني فيك أقوام وما علموا … أنّي الملاك بآداب وأخلاق

نزّهت نفسي من الفحشاء في زمن … أهلوه معشر مُجّان وفُسّاق

قالوا ... وأرجف أقوامٌ وما علموا … أنّ العفاف رداء فاز به أصلاقي

يا سامح الله منهم رغم ما اقترفوا … إني عليهم لذو عطف وإشفاق

(الخرطوم) جعفر حامد البشير

الثقافة

العـــدد ٦٣٦
٥ من مارس ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليما

ميثـــاق

إليك يامن كتبت لى تقول : « ستصبح حياتنا ذكرى .. والذكرى شجرة يستظل بها من ألم الفراق .. »

أيصبح حق الحب فى لوحة الذكرى … وتطمره الأيام فى الهوة الكبرى ؟
ويبـدو مع النسيان أطـلال حبنا … طلالاً — كما أبقيت من قصة سطرا ؟
وندعن للأقدار تُصـدر .. حكمها … علينا . ونرضى حكمها بيننا — قهرا
وما حكمها إلا الفـراق .. وإنه … لصهر نفسى إذ تغـوه به صهرا
فترمى بنا فى الكون — يوماً — بمعزل … وتضرب فيـما بيننا حاجزاً وعرا
فنحيا بلا لقيا — بعيدين .. فى الدنا … وكنت أرى يومـاً تغيب به دهرا
وكنـا ولا شىءٌ — إذا قام بيننا … يحولُ .. ولا واشٍ نطيع له أمرا
ونمضى عن الأحلام عن جنة الرؤى … عن الغُدوة الخضراء للغدوة الأخرى
وكم قد غرسـنا بالخيال .. حدائقا … تُظلُّ .. وأنشأنا بأوهامنا قصرا
ونصبح صُفر الراحتين من الهوى … فلا نبصر الأشواق إذ تبعث الشِّعرا
ولا فرحة عنـد اللقاء .. رحيمة … تذيب لهيب الشوق أو تثلج الصدرا
ولا رعشة عنـد الوداع .. تُروعنا … وتُرسل من أعماقنا الأدمع .. الحرَّى
وتحرمنا الأيام من صرح حبـنا … وتسدل فوق الصرح من ليلها سِترا
على الرغم من طول الفراق فإننى … سأحفظ فى قلبى لك الحب والصبرا
سواء نكثت العهد أم كنتَ حافظاً … لعهـدى فإنى لا أبيت لك الغدرا
وأرسل أصـدائى إليـك ملاحماً … مرنَّحة الألحان منغومة سكْرى
هو الحب ما دمنا .. يدوم وإن نمت … سنحيا على التـاريخ إجابة الذكرى

(القاهرة)

كيلانى حسن سند

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٣٦ — الاثنين ٢٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٠ — ٥ من مارس سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

أندريه جيــــــد

للأستاذ عبد القادر السماحي

توفي الكاتب الفرنسي المعروف « أندريه جيــد » André Gide في الأسبوع الماضي بعد أن جاوز الثمانين . ولقد قيل الكثير فيه . ولكن أصدق ما قيل هو ما ذكره عن نفسه في يومياته التي نشرها في حياته ؛ وكأنه أراد أن يقيم منها تمثالاً له يتأمله المعاصرون والأجيال القادمة .

وعندما قرأت هذه « اليوميات » Journal استوقفتني جملة واحدة قصيرة ، خيل إليّ أنها المفتاح الصحيح لشخصية الكاتب الكبير ، إذ قال :

« لست غير طفل صغير يلهو ، يزدوج به قس بروتستانتي يدخل السأم عليه » .

ولقد ظل هذا الطفل وهذا القس ، أي الجسد والروح ، يتصارعان في أعماق نفسه . فاستسلم إلى لذات حسية تناهض كل المبادئ الخلقية ، كما أنه أخضع ذاته لمطالب روحية لا تقنع ولا ترضى . فكان الاستمتاع الذي يصل إلى حد الجنون ، والطهر الذي يبلغ مبلغ القداسة ، يتناوبانه كل منهما بدوره . ولقد كان يحلم بصهرهما ومزجهما سوياً ، فيجمع في ذاته بين الوثنية الإغريقية وتنسك العصور الوسطى . وقاسى « جيد » كثيراً من ذلك الصراع المرير بين أرموزد وأهرمان ، أي بين الخير والشر .

لقد قال بودلير : « إنه يوجد في كل لحظة لدى كل امرئ نزعتان تسيران جنباً إلى جنب : الواحدة نحو الله ، والأخرى نحو الشيطان » .

وكانت تلك إحدى الأفكار المحببة إلى فيكتور هوجو . ولقد أعجب « جيد » بهذا الخاطر وحاول أن يصل بينه وبين خاطر لدستوفسكي حيث قال عن نفسه : « في مقدوري دائماً أن أحس بالرغبة في الإتيان بعمل الخير ، وأشعر في ذلك بالسرور . وإلى جانب ذلك ، أحس أيضاً بالرغبة في القيام بعمل الشر ، وأحس في ذلك أيضاً بالرضى » .

ومن هنا ندرك الأصل فيما ردده الكتاب عن تقمص « جيد » صوراً مختلفة ، وقدرته الهائلة على التحول والتطور والتجدد ، مما يحمل على الاعتقاد في تناسخ الأرواح .

وفي قصته « المزيفون » Les Faux-Monnayeurs نجد هذه الفقرة :

« لست أعرف ماذا ينبغي أن تكون حقيقتي فيه . فهو لا يبقى على حال ... إن كيانه يتفكك ثم يتألف من جديد في غير انقطاع . ويخيل للمرء أنه أمسك به ... ولكنه لا يلقى أمامه غير « بروتيه » الذي يستطيع أن يتخذ ما يطيب له من أشكال ... » .

ولعل إحدى هاتين النزعتين كانت السبب في اعتناقه الشيوعية التي كان يعتقد أنها الصورة الجديدة للجنّة . وقد اشتط في الأمر حتى أصبح يضع تعاليم ماركس فوق تعاليم الإنجيل . وكتب يقول :

« لقد روضت نفسي منذ وقت طويل على أن لا أعتنق عقيدة لا تلبث أن تنهار أمام امتحاني لها في حرية . ولكن من هذا الامتحان نفسه نبتت عقيدتي الجديدة التي لا يدخل فيها شيء من « الصوفية » ... كل ما هنالك أن كياني بأكمله أصبح ينزع نحو هدف ، نحو أمنية ... وإذا قضت الضرورة بأن أضحي بحياتي من أجل نجاح الاتحاد السوفييتي ، فإني لن أتردد في أن أهبها في الحال ... إنني أكتب هذا وأنا في تمام الهدوء ، وبكل ما لدي من صدق وإخلاص » .

وكان في ذلك التشيع يعتقد أنه يعتنق نظرية أخلاقية أو عقيدة دينية ، وغاب عنه أن الماركسية لا تؤلف « مذهباً روحياً » ، وإنما تقدم « نظاماً مادياً » ... ولا بد أن خيبة أمله كانت تامة وشاملة حينما زار روسيا حيث كان يأمل أن يجد شيئاً مماثلاً لجنّة عدن ، أو لما تخيله شعراء العصر القديم من جزر خرافية ، تفيض بالسعادة الخالصة والنعيم الأبدي ، فلم يجد غير جهود آلية تخضع لنظام مستبد ، ولم يكد يعود من هناك حتى أنكر الشيوعية ونبذها .

وكان « جيد » يجنح إلى « إدهاش » القارئ وإثارة قلقه واستياءه ، وبلبلة خاطره . ولم يكن يعمل أبداً على تملقه ، وقد اجترأ على كل ما يحمل له المجتمع البورجوازي من احترام وتقديس : الأسرة والدين والمبادئ الأخلاقية والجنس ... فكتب يقول : « أيتها الأسر ، إني أمقتك ! » وذلك بالرغم من أنه أنشأ أسرة ، ورضي بأن يتحمل بعض المسئوليات فيها . وكان يفخر بأنه لا يعبأ بما يقوله الناس عنه ، ويحرض الشباب من ذوي الأنانية والثراء على التمرد على « حكم الشيوخ » Gérontocratie والتحرر من ذلك السجن . وقيل إنه في عام ١٩٤٠ حاول أن ينشر فكرة ذات أثر سيئ ، بأن يحبب إلى الشبان الفرار من الجندية .

وصفوة القول أنه كان وفياً لما جاء في كتابه « الغذاء الأرضي » Les Nourritures Terrestres الذي رأى فيه النقاد دعوة إلى التحلل من قيود المجتمع ، والثورة على كل التقاليد الموضوعة ، والالتزامات التي تفرضها الحياة المشتركة ، وكانت نتيجة ذلك في رأي بعض النقاد أنه لم يقدم عملاً أدبياً إيجابياً يهدف إلى البناء ، ولم يؤلف كتاباً واحداً من تلك الكتب التي تشعل النفس حماساً ، والتي تكوّن أثراً خالداً تنعكس فيه صورة حياة تجمع بين السمو والعظمة ...

ومن السهل أن ندرك مقدار ما تعرض له « جيد » من نقد مُرّ . فكتب عنه أندريه روفير يصفه بأنه « وجه عليه ابتسامة زائفة » وشبهه في موضع آخر بميفوستوفوليس الشيطان .

وهبّ « جيد » يدافع عن نفسه ، ويبرر وجهة نظره . ومن ذلك ما كتبه يقول :

« إني أدين بالكثير إلى أصدقائي . ولكن يبدو لي أني مدين بأكثر من ذلك لأعدائي . فإن الإنسان الصادق هو الذي يصحو تحت الوخز ، أكثر مما يفعل تحت التدليل ، فإن هذا يسوقك إلى النوم ، كما قال بليك Blake من قبل . أما ذلك فإنه يذهب عنك الاسترخاء والتخدير . وأخيراً ، إذا كان قد خالجني الشك في نفسي ، فرأيت في الإطراء أمارة حب من الآخرين ، أكثر مما هو شهادة بعلو قدري ، فإن إصرار البعض على النيل مني والحط من قيمة أفكاري جعلني بعد ذلك أستنتج خطورة تلك الأفكار وأهميتها . وإني لم أكن أعرف في أول الأمر أني مخيف بهذا القدر . ولكن حيث إنهم يقاومونني ، إذاً لا بد أن أكون كذلك . »

ومهما قيل في أندريه جيد ، فإن الإنسان لا يملك إلا أن يعجب بثورته التي أرى فيها لوناً من التمرد على كل ما هو مبتذل وتافه وصغير ومألوف . وهو في ذلك يقترب بعض الشيء من فلوبير الذي اعترف بأنه بقي يحتفظ بمجلد رسائله (أي رسائل فلوبير) تحت وسادته بدلاً من الكتاب المقدس طيلة خمس سنوات .

عبد القادر السحامي

فن الأسلوب فى أدب طه حسين باشا

للأستاذ جمال الدين الرمادى

كان الناقد المعروف بوفون يعتقد أن الأسلوب هو الرجل ، وأننا عندما ندرس كاتباً من الكتاب ينبغى لنا أن ندرس أسلوبه لنتبين مقومات شخصيته ، ومكونات عقليته . وقد اعتبر بعض النقاد فى أوربا كالناقد الإنجليزى جنج ميزات الأسلوب ثلاثة : القوة والجمال والوضوح ، ونحن إذا ما أردنا أن نطبق هذا القول على أدب معالى الدكتور طه حسين باشا ، قلنا إنه ابتغاء القوة فى الأسلوب ، يختار ألفاظه اختياراً ، وينتقى عباراته انتقاء ، ونجد فى أسلوبه أحياناً بعض تلك الألفاظ التى كان يستعملها الجاحظ ، ولها جرس قوى ونغم عنيف ؛ إلى جانب أنه يبتدع كثيراً من الألفاظ فى اللغة العربية ، فيضفى على الأسلوب العربى لوناً جديداً لا عهد له به . وكما أن الجاحظ يعتمد على التلوين اللفظى والتلوين الصوتى ، فكذلك يفعل معالى الدكتور طه حسين باشا ، ففى أسلوبه تلوين لفظى وتلوين صوتى ، وفى أسلوبه إيقاع وحلاوة ، ورقة وطلاوة ، وفى أسلوبه تجمل ببعض أنواع البديع ، فكل جملة تعادل أختها ، وكل عبارة تعادل سابقتها ولاحقتها . وليس من شك فى أن هذا كله يضفى على الأسلوب قوة ، وعلى الأخص عندما يكون الإيقاع الموسيقى عنيفاً ، وتكون الألفاظ المنتقاة قوية الجرس . ولكى يكفل معالى الدكتور طه حسين باشا القوة فى الأسلوب نجده ، سواء شعر بذلك أم لم يشعر ، يلجأ إلى التكرار وإلى الاستطراد ، وإلى الترادف بين الألفاظ والجمل فى بعض الأحيان . وقد قال الحكماء قديماً : إن الكلام إذا تكرر تقرر ، وعد علماء التفسير تكرار القرآن من بلاغته . وليس من شك فى أن أقل مطلع يعلم نزوع القرآن إلى التكرار فى بعض سوره ، ويدرك أثر هذا التكرار فى التهديد والوعيد للكفار ...

فالدكتور طه حسين باشا ابتغاء القوة فى الأسلوب ، يلجأ إلى القوة فى العبارة ، والقوة فى العبارة تأتى من ناحية التخيل والكناية والاستعارة ، وكل ما يفتح أمام القارىء آفاق التفكير والتخيل ، كما أنه يلجأ إلى قوة التركيب فيقدر مواضع التقديم أو التأخير ، ويعرف مقام الإسهاب أو الإيجاز ، فيبعث اليقظة فى العقول الجامدة ، والحرارة فى النفوس الخامدة ، ويهب الأفكار حياة أقوى من حياتها الطبيعية لتكون ممتعة مؤثرة ...

وإذا انتقلنا إلى الجمال فى أسلوب الدكتور طه حسين باشا وهو الميزة الثانية من ميزات الأسلوب فى نظر النقاد الغربيين ، رأينا أن مصدر الجمال الأول هو الصدق ؛ فطه حسين باشا صادق فى أسلوبه إلى أبعد حدود الصدق ، أمين فى حديثه إلى أبعد حدود الأمانة ، لا يعرف المداجاة ولا المواراة ، ولا يعرف الالتواء ، ولا الاعوجاج ، ولهذا عرف الدكتور طه باشا بذلك الصدق وتلك الصراحة فى أوربا والعالم العربى ؛ ولعل كتاب الأيام يعد أكبر دليل ، وأقرب مثل على ذلك ؛ فقد وصف فيه حياته وصفاً دقيقاً عميقاً صريحاً كله صدق وكله حق ، وكله يدعو إلى الرضى ويبعث على الإعجاب . وقد استطاع الدكتور أسرته بأعز كتبه ؛ لأنه يشعر بأن كتبه ليست إلا خلاصة نفسه ، ونتاج عقله ، وفيض قلبه ، الذى لا تشوبه شائبة ، ولا يحركه غرض ، ولا يؤثر فيه طمع . اسمعه يقول لابنته فى الجزء الأول من كتاب الأيام : « إنك لساذجة سليمة القلب ، طيبة النفس ، أنت فى التاسعة من عمرك ، فى هذه السن التى يعجب فيها الأطفال بآبائهم وأمهاتهم ويتخذونهم مثلا عليا فى الحياة ... فإذا سألتنى كيف انتهى أبوك إلى حيث هو الآن ، وانتقل من تلك الحال إلى هذه الحال ، فلست أستطيع أن أجيبك . إنما هنالك شخص آخر هو الذى يستطيع هذا الجواب . فسليه ينبئك . أعرفته ، انظرى إليه ... هو هذا الملك

النائم الذي يحنو على سريرك ... لقد حنا بالحق هذا الملك على أبيك ؟ فبدله من البؤس نعيماً ، ومن اليأس أملاً ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة ، وصفوا ... » .

وفي جزء آخر من كتاب الأيام ، نجد الدكتور طه حسين باشا يوجه الخطاب إلى ابنه في أسلوب عذب رقيق . اسمعه يقول : « ها أنت ذا يا بني تهجر وطنك ومدينتك ودارك ، وتفارق أهلك وأصدقاءك ، وتعبر البحر في سنك هذه الصغيرة ، لتطلب العلم وحيداً في باريس ؟ فدعني أعد إليك هذا الحديث ، فلعلك ترتاح إليه بين حين وحين إذا أجهدك درسك ، ووجدت في اللاتينية أو اليونانية مشقة أو عناء ، وتذكر شخصاً طالما ارتاح إلى قربك منه ، ووجد في جدك وهزلك لذة لا تعدلها لذة ، ومتاعاً لا يعدله متاع » .

فطه حسين باشا عندما يوجه خطابه إلى ابنته أو ابنه يسكب نفسه كلها في هذا الخطاب ، وماذا يقول الإنسان إلى أهله سوى الصدق والنصح ، وماذا يحلو الإنسان إلى أهله سوى الواقع الذي لا يعرف زخرفة ولا بهرجة ، ولا يعرف تزويقاً ولا تنميقاً ؟! .

ولم يوجه معالي الدكتور إهداء كتبه إلى ابنه أو ابنته فحسب ، بل وجهه إلى من يفضلها وجد ابنه وابنته . وجهه إلى زوجه التي جعلت حياته نوراً بعد ظلمة ، وأنساً بعد وحشة ، ونعمة بعد نقمة ، وصدر كتابه (مع المتنبي) بقوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ... » ثم عرج على زوجه الكريمة فقال : صدق الله أيتها الزوج الكريمة وتمت كلمته ؟ ففي ظل هذه المودة كتبت هذا السفر العظيم ، وفي ذرى هذه المحبة أمليت هذه الفصول ... » .

فالدكتور طه حسين باشا إذاً يستودع كتبه كل ما يستطيع من صدق وحق ، وأمانة وإخلاص في سبيل الدرس ، وتعمق واستقصاء في سبيل البحث ، وآية هذا أنه بعد أن يتعب نفسه ، ويجهد جسمه وعقله ، يهدي أعز إنتاجه إلى أسرته ، ولا يهدي الكاتب إلى أهله وذويه إلا الخير الذي يعرف أنه خير ، وإن شئت فقل الخير كل الخير ، وإلا الصدق الذي يعرف أنه صدق ، وإن شئت فقل الصدق الذي ليس سواه صدق . وليس من شك في أن مثل هذا الصنيع يكمل الجمال للأسلوب .

شيء آخر يهب الجمال لأسلوب الدكتور طه حسين باشا ، ألا وهو ذلك اللون من السخرية المريرة التي تحز في أعماق النفوس حزاً ، وذلك المدح الذي يجرره بما يشبه الذم ، وذلك الهجوم إلى ضرب أمثلة من الشعر كأن تصد هند وتجلو عن خد وترنو كالنفس الرئد وما إلى ذلك في ميدان السياسة والتمثل بأبيات لجميل بثينة أو كثير عزة أو بأبيات المتنبي تضفي على الموضوع السياسي الجاف الإشراق والحياة والرقة والجمال ...

والدكتور طه حسين باشا رائع التصوير إلى أبعد حد ، يحسن وصف الطبيعة وتصوير المناظر الطبيعية ، وإن من يقرأ كتابه (من بعيد) يجد وصفاً جميلاً للبحر والسفر والمسافرين ، كما أن من يقرأ كتابه (أحلام شهرزاد) يجد وصفاً أخاذاً للزورق الجميل وهو ينساب في رقة فوق الثبج لا تماثلها رقة ، وفي جمال لا يعدله جمال . ومن يقرأ كتاب (دعاء الكروان) يستمتع بوصفه للمروج والغدران ، وبصوت الكروان الحلو الجميل الذي يشق بنغمه الحنون الفضاء العريض ، والطبيعة بين اليقظة والنوم ، والكرى قد ألم بمعاقد الأجفان . وقد حوت رسالته الأخيرة من أوربا إلى جريدة الأهرام الغراء ، كثيراً من التصاوير الجميلة للطبيعة ، كقوله في الهدوء الشامل ... « بحر هادئ ، وريح ساكنة ، وجو معتدل ، يترقرق فيه ضوء رقيق ، ونسيم رقيق ، وعبير البحر الذي لا تدري أبسيط هو أم مركب ، أساذج هو أم معقد ، ولكنه يشيع في النفس راحة ، وفي القلب روحاً ، وفي الجسم نشاطاً ... » .

كما أن الدكتور طه باشا يحسن تصوير النفس ، والصراع الذي يحتدم بين الضلوع ، والحيرة التي تضطرب بين النفوس ، وله قدرة عجيبة على الوصول إلى الأعماق الإنسانية ، وله سلطان عظيم في التأثير على العواطف البشرية . اسمعه يقول في (المعذبون في الأرض) : « وما أكثر الليالي التي لم يكن قاسم ينهض فيها للصبح ، يقعد به الرجاء ، وتثقل عليه العلة ، فيستقر في مكانه مثبتاً ، لا يأتي حركة ، ولا ينطق بكلمة ، وفي نفسه ما فيها من حسرة وألم ، إن استطاعت نفسه أن

يحس حسرة أو ألماً ، وربما كلف نفسه فوق ما يطيق ، وحمل جسمه أكثر مما يحتمل ، ونهض وهو لا يقدر على النهوض ، وسعى وهو لا يقدر على السعى ، وبلغ النهر فوجده كرعاً بالقياس إلى غيره ، بخيلا بالقياس إليه ... » .

فى هذه الفقرة الجميلة يصور طه حسين البؤس تصويراً دقيقاً ، ويعبر عن آلام الصياد المسكين الذى تمضه العلة ، ويستأثر به المرض عن السعى فى سبيل رزقه . والواقع أن الأديب الكبير قد بلغ شأواً كبيراً فى هـذا المضمار ، فإنى لم أقرأ فى حياتى أديباً مصرياً يحسن وصف البؤس والفقر كطه حسين ، ولم أقرأ فى حياتى كاتباً مصرياً يصل إلى أعماق القلب ، ويستدر مدارف الدمع كطه حسين ! وأكبر الظن أن كثيراً من القراء يوافقوننى على ما أذهب إليه من قول وما أسوقه من زعم . وقد أتت البراعة فى هذا الباب إلى طه حسين لأنه نفسه ذاق ضروباً شتى من الآلام ، وتعرض لألوان عدة من البؤس ، وقاسى صنوفاً كثيرة من العذاب . وعاش فترة طويلة من حياته نهباً للأحزان والأشجان .

فطه حسين باشا إذاً يعبر فى كتاباته عن خلاصة تجاربه ومشاهداته واستقراءاته وقراءاته ! ومن هنا جاء الصدق الفنى فى التعبير الذى يؤدى إلى الجمال فى الأسلوب . وطه حسين باشا بعد هذا كله وقبل هذا كله يؤمن بكل ما يكتب ، ويؤمن برسالة الأدب والأديب . مثله فى ذلك كمثل الشاعر الفرنسى فيكتور هيجو الذى كان يدافع عن الأدب دفاعاً حاراً ، وصور البؤساء فى كتبه تصويراً استهوى أنظار العالم كله ، وأثر فى قلوب الناس جميعاً ، فقال : «ينادى كثير من الناس فى هذه الأيام ولا سيما المضاربون ورجال القانون بأن الأدب قد أدبر زمانه ، وكأن هؤلاء القوم يقولون إن الورد لن ينبت بعد ، وإن الربيع قد صعد آخر أنفاسه ، وإن الشمس قد كفت عن الشروق ، وإنك تجول فى مروج الأرض فلا تصادف فراشة طائرة ، وإن القمر لا يظهر له ضياء ، وإن البلبل لا يغرد ، وإن النسر لا يحلق فى الفضاء ، وإن الجبال قد اندكت ، وخلا وجه الأرض من الكواكب الحسان . . . لكأن هؤلاء القوم يقولون إنه لا أحد يبكى بعد اليوم على قبر ، ولا أم تحب وليدها ، وإن أنوار السماء قد خمدت ، وإن قلب الإنسان قد مات ... » .

فدفاع طه حسين باشا عن الأدب والأديب فى كتابه (أديب) لا يقل فى خطورته ولا روعته عن دفاع هيجو

السمة الثالثة فى أسلوب طه حسين باشا هى الوضوح : فللدكتور قدرة عجيبة على تبسيط الفلسفات فى أسلوبه وعرض المذاهب السياسية والاتجاهات الاجتماعية فى كتاباته دون أن يشعر القارئ بذلك أو يتعثر القارئ بذلك ، وعلى ثغره ابتسامة عريضة ، هى ابتسامة الرضى عن ذلك الكاتب الذى بلغت قدرته حد الإعجاز .

وقد ضمن كتابه (جنة الشوك) كثيراً من النظرات فى الحياة والأحياء والخطرات فى الحياة والموت فى أسلوب حوارى جميل .

هذا وقد يعمد الدكتور طه باشا إلى الغموض فى مستهل بعض كتاباته ، ولكنه لا يلجأ إلى الغموض إلا على سبيل الخروج منه إلى الوضوح ، كما هو الحال فى قصة (الحب اليائس) التى عرض فى بدايتها حواراً بين قسيس وراهبة ، لا يفهم القارئ منه شيئاً ولكنه لم يلبث أن قال : «وأنا أرجو لك أيها القارئ أن تكون جلداً صبوراً وأن تمضى فى القراءة شيئاً ؛ فلعلك تفهم عاقبة هذه الألغاز والرموز . والحق أنى لم أكن لألغز ولا أوثر الرمز والإيماء ولا لأقدم فى أول هـذا الفصل ما حقه أن يكون فى آخره ، ولكن الكتاب المحدثين يذهبون هذا المذهب حين يريدون أن يقصوا عليك أقصوصة لها حظ من قيمة أو نصيب من طرافة . . . » . فهو قد يعمد إلى الغموض ، عنده وليس له من سبب إلى الوضوح والتأثير فى نفس القارئ ، كما أن تكرار طه حسين واستطراده يجلو كثيراً من الغموض ويكشف كثيراً من المبهم ، ويوضح الفكرة توضيحاً تاماً ويجلوها جلاء مبيناً ، إلى جانب أن ألفاظه السهلة وعرضه المنسجم يضفى على أسلوبه كثيراً من الماء والرونق كما كان يقول الأقدمون ... !!

جمال الدين الرمادى

من الأدب التشيكوسلوفاكى

« الجـــزيرة »

للأستاذ على أدهم

الأخوان كارل كابك وجوزيف كابك علمان من أعلام الأدب التشيكوسلوفاكى الحديث ، وقد عرفا بسعة الخيال ، والقدرة على النقد الاجتماعى النافذ ، والسخرية الصحية ، وكانا يشتركان معاً فى أعمالهما الأدبية مثل الأخوين الألمانيين جاكوب جرم ووليام جرم ، ومثل الأخوين إدمون دى جونكور وجيل دى جونكور فى الأدب الفرنسى ، ومثل الشاعرين المعروفين فى تاريخ الأدب العربى باسم الخالديين وهما أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم ، وفيهما يقول الثعالبى : « هما ساحران يغربان بما يجيبان ، ويبدعان فيما يصنعان ، وكان ما يجمعهما من أخوة الأدب مثل ما ينظمهما من أخوة النسب ، فهما فى الموافقة والمساعدة يحييان بروح واحدة ، ويشتركان فى قرض الشعر وينفردان ولا يكادان فى الحضر والسفر يفترقان » ، وهى ظاهرة نادرة لا تتكرر كثيراً ، وعهدنا بالإخوة يختلفون فى الملكات والمواهب والأخلاق والنوازع ، وقد يصل هذا الاختلاف والتباين فى بعض الأحوال إلى التناقض الشديد ، فيكون بين الإخوة الخيّر والشرير ، والنابه والخامل ، والراجح العقل والطائش السخيف ، وقد كان كارل صديقاً حميماً للزعيم مازاريك رئيس الجمهورية التشيكوسلوفاكية السابق المعروف ، وقد توفى كارل فى سنة ١٩٣٩ حزيناً موجع القلب لما فعله النازيون ببلاده ، وقد اشترك الأخوان فى كتابة هذه القصة الرمزية التى أقدمها باعتبارها لوناً من ألوان الأدب الغربى الحديث :

فى سالف الزمن كان يعيش فى لشبونة دوم لوز دى فاريا الذى ركب البحر فيما بعد ليرى الدنيا ، ولما أصبح يعرف أكثرها قضى نحبه فى أقصى جزيرة يمكن أن يتصورها الخيال ، وحينما كان يعيش فى لشبونة كان رجلاً راجح العقل له قيمته وخطره ، وكان يعيش معيشة أضرابه من الرجال ناجحاً فى عمله دون أن يقيم العقبات فى طريق غيره من الناس ، شاقاً لنفسه الطريق الذى يرضى كبرياءه واعتداده بنفسه ، ولكنه سئم على توالى الأيام حتى هذا اللون من ألوان الحياة ، وثقلت عليه وطأته ، فباع كل ما يملك وأبحر على أول سفينة صادفته .

وسارت به السفينة إلى قادس ، ومنها إلى بالرمو والقسطنطينية وبيروت وفلسطين ومصر ، وطافت حول شبه جزيرة العرب حتى وصلت إلى سيلان ، وأمعنت السفينة فى السير فخلفت شبه جزيرة الملايو وجزيرة جاوا ، ولما خلصت إلى البحر المكشوف اتجهت إلى الجنوب الشرقى ، وفى بعض الأحايين كان يلتق ركابها ببعض مواطنيهم عائدين إلى بلادهم ، وكان هؤلاء العائدون يبكون سروراً حينما يسمعون أنباء وطنهم ، وشاهد دوم لوز فى جميع هذه الأنحاء الكثير من الغرائب والمدهشات التى لا تكاد تصدق ، حتى جرى فى وهمه أنه نسى كل شىء ما خلاها ، وبينما كانت السفينة تنساب فى البحر المكشوف هبت عليهم عاصفة وأخذت الأمواج تتلاعب بالسفينة وتتقاذفها على غير هدى ، وظلت العاصفة ثلاثة أيام وهى تزداد شدة وعنفاً دون أن تهدأ ثورتها أو تخف حدتها ، وفى الليلة الثالثة اصطدمت السفينة بسلسلة من الصخور المرجانية وغرقت ، وفى الضجة الصارخة المفزعة شعر دوم لوز بأنه قد رفع عالياً ثم هبط ثانية ، ورمته الموجة على رَمَث وهو فاقد الوعى ، ولما ثابت إليه نفسه وجد أن النهار قد انتصف ، وأنه وحيد فى عزلة فوق رمث من الأخشاب المتكسرة يمخر بحر ساجٍ ، وفى تلك اللحظة شعر لأول مرة فى حياته بفرحة الحياة ، وظل رمثه طافياً على سطح الماء حتى المساء ، واستمر طوال الليل والنهار التالى ، ولم يلمح فيه أثراً للأرض ، وأخذت المياه فى تفكيك أجزاء الرمث فصار يتساقط دراكاً قطعة فقطعة ،

وعبثاً حاول دوم لوز استبقاء أجزائه متماسكة بعزق من ثيابه ، وفى النهاية لم يبق من الرمث سوى ثلاث قوائم هزيلة ، وبلغ منه الإعياء مبلغاً ونالت منه فكرة العزلة التى أصبح فيها كل منال ، وودع دوم لوز حينذاك الحياة وطأطأ رأسه لإرادة الله .

وفى فجر اليوم الثالث وجد أن الأمواج قد أخذت تحمله إلى جزيرة عجيبة الشأن ، وبدت له الجزيرة متنامية فى الماء من هنا ومن هناك بشجيراتها الخضر وأدغالها الجميلة ، واستطاع أخيراً أن يخطو إلى الشاطئ الذى كان مغطى بالملح والزبد ، وفى تلك اللحظة خرج من بين الأدغال لفيف من المتوحشين فصاح بهم دوم لوز صيحة غاضبة ثائرة لأنه خافهم ، ثم ركع للصلاة وارتمى على الأرض القريبة من الشاطئ واستغرق فى النوم .

وأيقظه الجوع قبل الغروب ، وكانت الرمال حوله ملأى بآثار أقدام عريضة عارية ، وسُر دوم لوز أن يرى المتوحشين يتحلقون حوله وينظرون إليه فى دهشة وتعجب دون أن ينالوه بأذى ، ومشى باحثاً عما يسد به رمقه ويقيم أوده ، ولكن الظلام ألقى بردته ، وبينما كان يدور حول إحدى الصخور أبصر جمعاً حاشداً من المتوحشين وقد جلسوا فى حلقة يتناولون عشاءهم ، ورأى فى الحلقة رجالاً ونساء وأطفالاً ، ولكنه وقف بعيداً عنهم ، محجماً عن الدنو منهم كالشحاذ الغريب ، وقامت امرأة منهم شابة فى مقتبل العمر وحملت إليه فاكهة فى طبق من القش ، فأقبل لوز على الطعام فى نهم وأكل بشراهة الموز والتين والمشمش والجوز وغيرها من الفواكه واللحم المجفف فى الشمس والخبز الجيد الذى يختلف طعمه عن خبز وطنه ، ولما تملأ من الطعام شعر بالارتياح يسرى فى أوصاله وشكر الفتاة لما أتحفته به من الألطاف وأثنى على خبزها ، وأكبر برها وكرمها بصوت عال ، وشكر الآخرين كذلك لإكرامهم له وعطفهم عليه ، وبينما كان يتكلم استفاضت شعاب نفسه بعرفان الجميل فتفجرت على لسانه ألفاظ لم يكن يهتدى إليها من قبل ، وجلست المرأة الوطنية أمامه ضاحكة مستبشرة .

وظن دوم لوز أن من الواجب عليه أن يجيد ما قاله لتتمكن من فهمه ، فأعاد شكرها بحرارة وحماسة كأنما كان يصلى ويبتهل ، وفى أثناء ذلك انصرف سائر القوم إلى الغابة ، وخاف دوم لوز أن يظل وحيداً منفرداً بسروره وفرحته فى مثل هذا المكان المنعزل ، ولكى يستبقى الفتاة بقربه أخذ يحدثها عن نفسه وذكر لها أصله وفصله ، وكيف غرقت السفينة وما لاقى من الأهوال وعانى من الكروب ، فى البحار الطاحنة العباب المتلاطمة القوارب ، ولاحظ دوم لوز أنها قد أخذتها سنة من النوم وافترشت وجنتها الغبراء ، فقام من مجلسه واتخذ مكاناً على كثب منها ، وجال ببصره فى النجوم ثم أخذ ينصت إلى هدير البحر حتى أدركه الإعياء ومال به النوم .

وحينما استيقظ من النوم فى الصباح أخذ يبحث عن المرأة ، ولكنها كانت قد ذهبت وكانت آثار جسمها باقية على الرمل كاملة مستوفاة سمهرية هيفاء كالغصن الرطيب ، وحينما خطا لوز إلى المكان الذى خلا منها كانت حرارة الشمس قد أدفأته ، وأخذ يطوف بشواطئ الجزيرة ليعرف شكلها ، وفى بعض الأحيان كان يقوده الطريق إلى الغابات أو خلال الأدغال ، وأحياناً كان يدور حول مستنقع أو يتسلق صخرة ، وقابل مراراً بعض المتوحشين ، ولكنه أصبح لا يخشاهم ، وكانت زرقة البحر أشد منها فى أى مكان آخر فى الدنيا ، وكان لأزهارها ونباتاتها بهجة وبهاء قد اختصا به ، وظل طوال النهار يجوس خلال الجزيرة ، ويتملى جمال أجمل جزيرة رأتها عيناه ، وبدا له أن المتوحشين فى هذه الجزيرة أجمل من المتوحشين فى غيرها من الجزر ، وفى اليوم التالى تابع بحثه حتى أتم الطواف بالجزيرة التى باركها الله بالينابيع والعيون والأزهار ، والتى كانت هادئة ذلك الهدوء الذى تخيل أنه كان يرفرف على جنة عدن ؟ وفى المساء عاد إلى المكان الذى خطا فيه إلى الشاطئ ، وهناك وجد المرأة جالسة منفردة تضفر شعرها ، وكانت بقايا الرمث الذى حمله إلى الشاطئ ملقاة عند قدميها ، وقد ألجتها أمواج البحر الذى لا يمكن اجتيازه ، ومن ثم لم يكن هناك سبيل إلى مبارحة هذه الجزيرة ، وجلس دوم لوز على مقربة من المرأة ، وأخذ يرسل رائد الطرف إلى الأمواج التى كانت تستأثر بأفكاره وراقبها موجة بعد موجة ، ولما توالى

إقبال مئات الأمواج إلى الشاطئ، وارتدادها عنه استفاض في قلبه حزن لا نهاية له، وأخذت شكواه تنصب انصباباً، وتذكر كيف طاف بالجزيرة يومين وعرف مداها فلم يجد فيها مدينة ولا ثغراً ولا ميناء ولا شبيهاً له من الناس، وكيف غرق جميع رفقائه في البحر وتركوه وحيداً فوق هذه الجزيرة التي لا يرجى له منها أوبة، وكيف أنه سيظل منفرداً بين هؤلاء المتوحشين الذين يتكلمون لغة لا يفهم ألفاظها ولا معانيها، وندب حظه، وظلت المرأة الجالسة على الرمل ترعيه سمعها حتى أطبق النوم جفنيها على صوت هذه الشكوى المتكرر الرتيب، وأمسك دوم لورز عن الكلام وتنفس في هدوء وارتياح.

وفي الصباح جلسا معاً فوق صخرة عالية في البحر، وأخذ ينظر إلى الأفق، وفكر دوم لورز في حياته جميعها، وتذكر جمال لشبونة وروعتها وفخامتها، وحوادثه الغرامية وأسفاره وكل ما رآه في الدنيا، وأطبق عينيه لكي يرى في داخل نفسه هذه الصور الجميلة جميعها، ولكن حينما فتح عينيه رأى المرأة جالسة على عقبيها أمامه، ناظرة أمامها نظرة مائلة كليلة، فبدت له لطيفة القد، صغيرة النهدين، دقيقة الساقين، سمراء مشرقة.

وكان كثيراً ما يجلس على هذه الصخرة يرقب السفن، وكان يرى الشمس صاعدة من البحر، ويراها وهي تغرب فيه، وألف ذلك كله وتعوده، وأخذ يستمرئ عذوبة الجزيرة، وبدت له جزيرة الحب، وفي بعض الأحيان كان المتوحشون يقصدونه، وقد كان له عندهم منزلة مرعية، وحينما كانوا يلتفون حوله كانوا يظهرون كأنهم الإوز السمين، وكانوا جميعاً موشومين، وكان بعضهم طاعناً في السن، وقد تعهدوه بالطعام، وشملوه برعايتهم؛ ولما جاءت الأمطار ذهب دوم لورز إلى كوخ المرأة، وأقام فيه معها، وهكذا عاش بين المتوحشين عارياً من الثياب مثلهم، ولكنه كان يحتقرهم فلم يحاول أن يتعلم كلمة واحدة من لغتهم، ولم يعرف الاسم الذي كانوا يطلقونه على الجزيرة التي عاش بها ولا الاسم الذي يسمون به السقف الذي أظله وحماه، ولا اسم المرأة التي كانت الشخص الوحيد المرافق له

وحينما كان يأوي إلى الكوخ ليلاً كان يجد عشاءه قد أعد وفراشه مهيئاً، ويحظى بعناق المرأة السمراء الرقيق؛ وبالرغم من أنه كان لا يكاد يدخلها في عداد الآدميين، بل يراها أقرب إلى الحيوانات، فإنه كان يحدثها بلغته، وكان يكفيه منها الإصغاء، وهكذا كان يفضي إليها بشتى الخواطر التي تجول في نفسه، ويحدثها عن داره في لشبونة، ويروي لها تفصيلات أسفاره، وفي بادئ الأمر كان يضايقه ويغثه أن المرأة لم تكن تفهم ألفاظه ولا تتبين مضامين كلامه، ولكن على مر الأيام ألف هذا، وظل يكرر على سمعها هذه الأحاديث بنفس الألفاظ ولهجة الحديث، وبعد ذلك كان يضمها بين ذراعيه باعتبارها زوجة له.

وتتابعت الأيام، وأصبح وصفه للرحلات مختصراً موجزاً وأقل تماسكاً، وغابت عن ذاكرته حوادث كثيرة حتى كأنها لم تحدث، وكان يقضي أياماً برمتها مستلقياً في فراشه دون أن ينطق ببنت شفة، ويفكر في نفسه، وألف ما حوله فكان يجلس على الصخرة ساعات دون أن يفكر في ارتقاب السفن.

ومرت بضع سنوات، ونسي دوم لورز العودة إلى بلاده، ونسي لغته، وأصبح عقله قاصراً كحديثه، وعندما يقبل الليل كان يعود إلى الكوخ، ولكنه لم يعرف عن المرأة أكثر مما علم عند أول يوم قدم فيه الجزيرة.

وفي أحد أيام الصيف بينما كان يتجول في صميم الغابة استولى عليه قلق مفاجئ فانطلق إلى الأرض البراح، وهناك أبصر سفينة حسنة البناء قد ألقت مراسيها، تجري إلى الشاطئ، واعتلى صخرته، فاستطاع أن يرى جماعة من البحارة وضباطهم، واختبأ خلف صخرة متكئاً مثل المتوحشين واستمع إلى أحاديثهم، ومس حديثهم شيئاً في ذاكرته، وأدرك أن هؤلاء الغرباء يتحدثون بلغة وطنه، فهب واقفاً وقد عقد العزم على أن يحادثهم ولكنه لم يستطع سوى الصراخ، فراع ذلك الغرباء، فأعاد الصراخ ثانية، فوجهوا إليه غدّاراتهم، فانحلت عقدة لسانه، وناداهم قائلاً: «الرحمة يا سادة!» فانطلقت منهم صيحات السرور، وهرعوا إليه، ولكن دوم لورز شعر بأنه لا بد له من الهرب

مثل المستوحشين ، ولكن ذلك لم يمنعهم من اللحاق به ، وأخذ المسالك عليه ، وعانقوه جميعهم ، وانهالوا عليه بالأسئلة ، ولكنه وقف بينهم عارياً وقد امتلأت نفسه رعباً وتاق إلى الفرار .

فقال له أحد الضباط : « لا تخف وتذكر أنك رجل » والتفت إلى أصحابه قائلاً : « أحضروا له لحماً ونبيذاً فهو يبدو هزيلاً يائساً » واسترسل في التحدث إليه قائلاً : « تقدم واجلس معنا ، وتبسط ، وأرسل نفسك على سجيتها حتى تعاودك ألفة الحديث وتترك الصيحات التي يمكن أن تكون أحاديث القردة » ، وأعطوا دوم لورنز نبيذاً عذب المذاق ولحماً مشوطاً ونوعاً من الكعك ، فجلس بينهم كأنه في حلم وأكل وشعر بأن ذاكرته تعود إليه .

وأكل الآخرون وشربوا ، وتجاذبوا أطراف الحديث مسرورين لأنهم وجدوا أحد مواطنيهم ، ولما أكل لورنز امتلأت نفسه بشعور تقدير الجميل العذب كذلك الشعور الذي أفعم نفسه في ذلك اليوم الذي أطعمته فيه المرأة ، وزاد في سروره سماعه لغة بلاده الجميلة وأن يحظى بصحبة إخوانه البشر الذين يتحدثون إليه كما يتحدثون إلى أخ لهم ، وعادت الألفاظ تجرى على لسانه ، وشكرهم ما وسعه الشكر .

وقال له الضابط المتقدم في السن : « استرح قليلاً ، وحدثنا بعد ذلك من أنت وكيف جئت إلى هنا ، وسنعود إليك موهبة الكلام ، لأن أعظم ما يملك الإنسان هو أنه يستطيع الكلام ، وأن ينقل إلى غيره ما حدث له ويعبر لهم عن مشاعره » .

وبينما كان الضابط يتحدث بمثل هذا الحديث بدأ شاب من البحارة يغني أغنية محبوبة ، وكانت الأغنية عن رجل يجوب البحار وحبيبته تتوسل إلى البحر والرياح والسماوات وتناشدها أن ترد إليها حبيبها ، وكانت الأغنية تعبر عن شوقها وحزنها بأرق لفظ يمكن تصوره . ولما أتم البحار أغنيته انبرى الآخرون يتغنون بألفاظ مثل أغنيته ، أو ينشدون أشعاراً من نوعها ، ويتنافسون في التعبير عن الحزن والأسى ، فتغنوا أغانى الاشتياق إلى الحبيبة ، وأغانى السفن المسافرة إلى الأقطار النائية ، والبحر الهائم المتغير ؛ وأخيراً أخذوا جميعاً يتحدثون عن بلادهم وعن الذين خلفوهم وراءهم ، فبكى دوم لورنز وقد بلغ به السرور حد الألم حينما فكر فيما قاساه وأنه الآن يستطيع أن يفهم موسيقى الشعر المستعذبة بعد أن كان قد نسى لغته ، وقد بكى لأن ذلك كله كان مثل الحلم ، وقد خشى اليقظة منه .

وأخيراً وقف الضابط وقال : « لنلق نظرة على هذه الجزيرة التي كشفنا وجودها ، وسنعود جميعاً قبل غروب الشمس ونبحر ، وسنبدأ رحلة العودة هذه الليلة بعناية الله » ثم وجه الحديث إلى لورنز قائلاً : « إذا كنت تملك شيئاً في هذا المكان وتحب أن تحمله معك من قبيل الذكرى فأحضره وانتظر عودتنا عند غروب الشمس » .

وانتثر عقد البحارة على الشاطئ ، وتوجه دوم لورنز إلى كوخ المرأة ، وكان كلما دنا منه تريث في السير وتردد ، وأخذ يفكر في أحسن الطرق التي يستطيع أن يسلكها ليخبرها أنه لابد له من الارتحال وتركها ، وجلس على حجر في الطريق وعرف أنه لا يستطيع أن ينصرف ويرحل دون أن يزجى إليها الشكر وقد عاشرها مدة عشر سنوات ، وتذكر ما قدمته له ، وكيف أطعمته وخدمته بعملها وبجسدها ، فذهب إلى الكوخ وجلس قريباً منها ، وتكلم في سرعة وخفة ، وأسهب في الحديث كأنه أدرك أنه من اللازم إقناعها ، وذكر لها أنهم جاءوا يبحثون عنه ، وأن هناك أحوالاً محرجة تقتضى ذهابه ، واخترع الكثير من الأعذار . ثم ضمها بين ذراعيه وشكرها لكل ما قامت به نحوه ، ووعدها وعداً مقدساً بالعودة السريعة إلى الجزيرة . ولما قضى وقتاً طويلاً في الحديث أدرك أنها كانت تستمع إليه دون أن تعي ما يقول ، وأغضبه ذلك فأخذ يكرر حججه مؤكداً ومؤيداً ودق الأرض برجله من الضيق ونفاد الصبر ، وخطر له فجأة أن البحارة ربما يكونون قد شرعوا في العودة بدونه فجرى إلى الشاطئ وهو في منتصف ذكر حججه .

ولكن لم يكن أحد منهم قد عاد بعد ، فجلس ينتظر ، وأخذت تشغل باله فكرة أن المرأة لم تفهم على الوجه الصحيح ما ذكره لها عن حلول ميعاد سفره ، وأقلقه ذلك وأزعجه حتى لم يستطع له احتمالاً ، فقام وعاد أدراجه لكي يبين لها حقيقة الأمر ، ولكنه عندما وصل إلى الكوخ أخذ ينظر من أحد شقوقه ليرى ماذا تفعل دون أن يدخل بنفسه ،

فرأى أنها قد جمعت حشائش غضة وأعدت له منها فراش الليلة القادمة ، وأنها كانت تهيء له وجبة من الفاكهة ، ولاحظ أنها هي نفسها كانت تقنع بتناول الأنواع الأقل جودة وتختار له أحسن الأنواع ، ثم جلست كالتمثال بلا حراك تنتظر أوبته ، فشعر دوم لورز حينذاك أنه من غير شك يجب عليه أن يأكل الفواكه التي جمعتها له ويستلقي على الفراش ويضع حداً لانتظارها قبل رحيله .

وفي خلال ذلك كانت الشمس تجنح للغروب ، وكان البحارة قد تجمعوا على الشاطىء قبل رحيلهم ، ولم يكن ينقصهم سوى دوم لورز ، فأخذوا ينادونه : « أيها السيد ! أيها السيد ! » ولما لم يحضر انطلقوا إلى طرف الغابة وبحثوا عنه ، ومر اثنان منهم على مقربة منه وهم ينادونه بغير انقطاع ، ولكنه اختبأ في الأدغال ، وكان قلبه ينبض نبضاً شديداً خشية أن يهتدوا إلى مكانه ، وأخيراً انقطع نداؤهم وأقبل الليل ، وسمع صوت مجاديفهم وهم يحولون السفينة ويرثون الرجل الذي افتقدوه بصوت مسموع ، وساد الصمت ، وزحف دوم لورز من الأدغال وعاد إلى الكوخ ، ووجد المرأة جالسة صابرة بغير حراك ، فأكل دوم لورز الفاكهة ، واستلقى على الفراش المضوع الرائحة العطرة ، وضم إلى صدره من كانت ترقب عودته .

وأقبل الفجر ولم ينم دوم لورز ، وكان ينظر من باب الكوخ إلى البحر الذي كان يستطيع أن يراه من خلال فرجة في الشجر ، ورأى السفينة الراحلة على مسافة بعيدة ، ونظر إلى المرأة الراقدة إلى جانبه فلم يرها حسناء كما كانت من قبل ، وإنما رآها قبيحة فظيعة كريهة بغيضة ، وأخذت الدموع تتساقط على صدرها قطرة فقطرة بينما كان دوم لورز يستعيد في همساته — لكي لا تسمعه — جميع الألفاظ الرائعة والأشعار البارعة التي تصف ألم الشوق والرغبات التي لم تتحقق .

واختفت السفينة تحت الأفق ، وبقي دوم لورز في الجزيرة ، ولكن منذ هذا اليوم وطوال السنوات التي عاشها بعد ذلك لم يفه بكلمة واحدة .

علي أدهم

الملاح الذى لم يعد

إلى الشاعر الراحل على محمود طه

وقفت والأصيل شاق الوشاح
والخضم الرهيب دامى الجراح
ثار الموج لا ترى من سفين   سابح عبره ولا من جناح
غير ناى محطم وبقايا   ذكريات على شفاه الملاح
جثن للشط حالمات روان   يترقبن عودة الملاح

• • •

وقفت والحنين باد عليها   والسؤال الحزين فى مقلتيها
تسأل الغانيات أين فتاها   أين ملاحها الأثير لديها
لم تعد تلمح الشراع بعيداً   يتدانى مع الرياح إليها
كيف ولى وكان منها قريباً   لم تزل خمره على شفتيها

• • •

يا سماء ارفعى القناع الرهيبا
واهدئى يا رياح حتى يؤوبا
فعلى الشط لهفة وحنين
للذى داعبت رؤاه القلوبا
شاعر الحب والجمال إذا ما
صدح الناى بالضفاف طروبا
فإذا النيل روعته الليالى
كان فى موكب الكفاح لهيبا

• • •

غير أن للسماء ألقى الرداء
فإذا الشط يستحيل بكاء
لم يعد شاعر الضفاف إليه
ذاك ميعاده فأين تناءى
ما هدير العباب إلا لأمر
ضاق عن ستره الخضم وناءا
يا بنات الروج عدن حزانى
شاعر الحب : قد أحب السماءا

عبد العليم محمد القبانى

كيف تكون سعيداً

للأستاذ محمود محمود

لا مراء في أننا جميعاً ننشد السعادة في هذه الحياة ، لا يختلف في ذلك رجل الشارع عن الفيلسوف . بل إن من الفلاسفة من يقول بأن كل حركة يتحركها المرء وكل نشاط له ، إنما يهدف من ورائه إلى غرض واحد : وذلك هو إدخال السرور إلى النفس ، والمتعة إلى القلب ، والانشراح إلى الصدر . وفي ذلك تكون السعادة . ولا يترتب على ذلك حتماً أن يكون الإنسان أنانياً محباً لذاته . لأن أولئك الذين يؤثرون غيرهم على أنفسهم لا يفعلون ذلك إلا لأنهم يستمدون من إدخال السرور على قلوب غيرهم متعة أكبر من التي يستمدون من البحث عن السرور لأنفسهم . ولا يغرنك رجل يستشهد عامداً في ميدان القتال ، فذلك رجل يؤثر أن يحتمل عذاب يوم في جحيم الدنيا لكي ينجو من عذاب أبدي مقيم في الحياة الآخرة . أي أن الخير — بعبارة أخرى — الذي ينجم عن إنكار الذات ، إن هو إلا وسيلة من وسائل التأمين والضمان ، يبذل الراغب فيهما حياته في هذه الدار لكي ينال بها سعادة أبدية في الدار الآخرة .

ويرى الفيلسوف الإنجليزي جون ستيوارت مل ، أن العمل على توفير أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الناس ينبغي أن يكون هدف الجماعة وواجب الفرد . وليست الفضيلة عنده إلا ذلك الضرب من السلوك الذي يؤدي إلى هذا الغرض .

وهذا كلام في جملته مقبول معقول ، غير أنه لا يذهب بنا بعيداً في فهم السعادة : ما هي ، وكيف السبيل إلى تحقيقها ؟.

للسعادة تعريفات متنوعة . ويرى أرسطو أنها تنحصر في التوسط والاعتدال . خذ من كل شيء بقسط يسير ، ولا تجعل سبيلك التمادي تكن سعيداً . وجه اهتمامك نحو كل ناحية من نواحي طبيعتك البشرية ، وامنح لعقلك وبدنك وروحك بحرية الحركة والتصرف ، ولا تحرم من هذه الحرية جانباً من تلك الجوانب في سبيل الآخر . اعمل ونم ، وكل ، واشرب ، وخشن ، وغازل ، واغضب أحياناً — لا دائماً — وأمتع حواسك ، واعبد ربك ، ولكن لا تجعل حياتك كلها عبادة ! وعاون جارك ، ولكن لا تؤثره على نفسك ! وأمتع قلبك بما يسره كلما أتيحت لك الفرصة ، ولكن لا تسترسل في الإمتاع إلى حد التشبع ! واعتنق ما شئت من مذاهب ، على ألا تضحي بنفسك في سبيل أي منها . وتناول من كل ما يلذ لك مذاقه ، ولكن لا تبلغ بنفسك حد الشره ، وإلا كان مآلك ما آل إليه الشيطان حينما عصى ربه وأكل من الشجرة الحرام . كن كذلك تكن سعيداً .

ونصيحة أرسطو هذه قد تصلح للرجل بعد الأربعين ، ولكنها لا تصلح للشباب الذين تشتعل نفوسهم حماسة وعقولهم ثورة .

ويرى آخرون أن السعادة هي أن تفعل ما فعل أسلافنا من قبل ، لأننا مسوقون إلى ذلك برغبة غريزية في دمائنا . فإن أنت خرجت إلى الصيد ، واشتركت في القتال ، وفلحت الأرض ، وأسهمت مع غيرك في الطرب والغناء ، وقربت النساء ، وركبت البحر ، وخلوت إلى نفسك مع الطبيعة أحياناً ، ولم تبتعد كثيراً من أحضان الطبيعة . إن أنت فعلت ذلك كنت سعيداً .

ومن رأي برنارد شو أن سر السعادة هو ألا تعطي لنفسك فراغاً من الوقت يمكنك من التفكير في نفسك : هل أنت بائس أم هل أنت سعيد ؟ ومن ثم فإن شو ينصح بأن تكون الحياة مليئة بالأعمال ، وأن يفرض كل امرئ على نفسه عدداً كبيراً من الواجبات . ولكنه يرى — مع ذلك — في إحدى مسرحياته وأن السعادة إحساس داخلي» أو طبيعة في بعض الأفراد ، يخص الله بها نفراً من الناس دون الآخرين . فإذا لم تولد هذه الطبيعة مع الفرد فقد ينفق العمر كله باحثاً عما يجلب له السعادة ، ولكن بغير جدوى .

هذه السعادة التي تنبع من داخل النفس ولا تأتي إليها من الخارج أشبه ما تكون بسعادة الزاهد أو الناسك ، تقوم على قمة الحرمان ، وتتعلق بالروح ، وتمونها متعة الحواس ورفاهية الجسد . وهي تتوقف على القدرة على الاستغناء . ولكن ثم يستغني الإنسان ؟

هذا سؤال لم يمكن لأصحاب هذا المذهب أن يتفقوا على الإجابة عنه .

ولقد عرف الإنسان كيف يصنع الآلة ، وكيف يحلق في السماء ويغوص في الماء ، وحلل كل مادة إلى عناصرها الأساسية . ولكن لم يستطع — برغم هذا كله — أن يبين لنفسه مقومات السعادة ، أو أن يحللها إلى عناصرها ، وهي أعظم خير في الوجود . وما برحت سراً غامضاً لم يدرك كنهه الإنسان .

غير أنا إن كنا نعجز عن الظفر بالسعادة ، فإننا لا نعجز على الأقل عن إدراك بعض الأسباب التي تقف عقبة في سبيل تحقيقها . فالسعادة مطلبوها ، وسبيلها ملتوية غير مستقيمة ، ولا تنال بمقدار ما يبذل المرء في سبيل نيلها من جهد ، بل لقد يبحث عنها الراغب فيها ملحاً فتفلت ولا تتحقق له .

والسعادة لا تنال عنوة ولا تشترى بالمال . فكم من رجل ثري يجوب أقطار الأرض باحثاً عن طمأنينة الخاطر وراحة البال فلا يجد إليهما سبيلاً . وما أيسر أن يظفر بهما العامل البسيط أو الفلاح الساذج وهو في عقر داره . إنك لو بحثت عن السعادة راوغتك وحاولت أن تفر منك . وأما لو ألقيت بنفسك جسماً وروحاً في عملك وانهمكت فيه ، وكرست حياتك لخدمة قضية أنت بها شديد الإيمان ، وارتفعت بنفسك عن حمأة الأنانية والغرور وإرضاء الشهوات ، وخرجت عن نطاق نفسك إلى نطاق أفسح منه مجالاً . أما لو كنت كذلك لأدركتك السعادة وراحة البال .

وقد قرأت كتاباً عنوانه « علم السعادة » ألفه الدكتور دبرون ، وهو طبيب عالم ، يؤمن به الفيلسوف الإنجليزي المعاصر جود ويعرض آراءه في كثير من الثقة وشدة اليقين ، ويرى أن نصيحة الدكتور دبرون لتحقيق السعادة ثمينة غالية ، ولا يعيبها إلا أن الإنسان لا يميل بطبعه إلى اتباع الخير والحق . فلقد عرف الناس من قديم ما هو خير لهم ، وإنما المشكلة التي تواجهنا هي : كيف نجعلهم يفعلون ما هو خير لهم . وقلما قرأن الدكتور دبرون — كغيره ممن كتبوا في السعادة — لم يرشدنا بعد إلى سبيلها الصحيح .

ومن طريف ما جاء في كتابه أن الرجل أحب إلى قلب زوجته إن كان له أصدقاء كثيرون يستطيع أن يلتقي بهم ويجالسهم في المقهى أو النادي بين الحين والحين . وأنه خير للمرأة إذا غضبت أن تنفس عن نفسها بالصياح ، فإنها بذلك تخفف من حدة عواطفها وتهدئ من ثورتها . وإن الهم يرجع إلى التأمل الباطني ، فلو أنك لم تفكر في نفسك ما أصابك هم . وأسوأ ما في الهم أنك كثيراً ما تحمله لأنك تعلم من نفسك أنك حمال الهموم . « وإذاً فليتخل كل منا طوال حياته عن عادة التأمل الباطني وتحليل النفس . » وذلك بأن تسلط ذهنك على أمور أخرى غير نفسك . « ارسم خطة يومك في مستهل النهار ، وحاول جاهداً طيلة يومك أن تلزم هذه الخطة » . و « عندما تهب من نومك وتنهض من فراشك توجه إلى مرآتك تواً ، وأرغم نفسك على تحية الصورة التي تطالعك في المرآة — وهي نفسك — بابتسامة مشرقة ... ولست أنكر أنك لا تستطيع أن تكون سعيداً عندما تريد ، غير أنك — على كل حال — تستطيع أن تتكلف السعادة ... »

وفي مكان آخر من الكتاب ينصح دبرون القارئ ، لكي يخلص من الهم الذي يجثم على نفسه أحياناً ، أن يصارح نفسه جهراً وبصوت مبتهج بأنه يعرف — لحسن حظه — سبب الهم ، وأنه يعرف كذلك سبيل التغلب عليه . »

إن علمنا بالسعادة ما يزال ضئيلا محدوداً ، وهو أشد ضآلة مما نبغي . وليس بوسع المرء أن يظفر بالسعادة عندما يحس الحاجة إليها . وكثيراً ما يكون الثمن الذي يقدمه لها أغلى من السعادة التي يشتريها به . فقد تثور الرغبة في صدر الإنسان ، فيعمل على تحقيقها . ولكنه سرعان ما يدرك أنها سراب خداع عندما تتحقق له ، فلا يحس سعادة ولا يشعر بهناء العيش .

وليس من شك في أننا لم نستطع أن نتبين حتى الآن سبيل السعادة فنسلكه ، ولم يهد الله حتى اليوم فيلسوفاً يعرف طريقها فيهدينا إليه .

محمود محمود

التـــــوازن

للأستاذ حافظ أحمد أمين

من أهم ما يمتاز به الملاح ورجل البحر عن الفلاح والصانع أن الأول يملك غريزة طبيعية لا يملكها الآخران ، وهي غريزة التوازن ، اكتسبها الملاح من قوانين البحر وتياراته واتجاه رياحه ومدى هياجه أو هدوئه ، فهو يتطلع إلى معرفة كل هذا ثم يوجه الشراع ويكيفه تكييفاً يضمن به السير في هدوء وطمأنينة ، ليصل بسلام إلى مكانه المرسوم ...

والفرق بين الملاح والفلاح هو الفرق بين الأمم البحرية والأمم غير البحرية ؛ فالأمم البحرية — كانجلترا مثلاً — تعرف نوع الصعوبات والاضطرابات التي ينتظر مواجهتها ، ثم تحاول تكييف نفسها لتمر هذه الصعوبات بسلام ، من غير صدمات أو كوارث ؛ فعندما رأت انجلترا ما فعلته الثورات الفرنسية من مصائب وويلات دعمت نظامها البرلماني ، وحين رأت روسيا الشيوعية تقضي على الرأسمالية قضاء تاماً ، فرضت الضرائب الكبيرة ، واتجهت نحو الاشتراكية اتجاهاً عظيماً .

وتمتاز انجلترا في سياستها الداخلية والخارجية بمحافظتها على التوازن . فالتوازن عماد حياتها وأساس حروبها ومعاهداتها ، فإن حاربت نابليون وحالفت ألمانيا ضد فرنسا فإنها ترمي بذلك إلى إزالة خطر كبير يهدد التوازن الدولي ، وإن حاربت هتلر وحالفت فرنسا ضد ألمانيا فغرضها القضاء على قوة تهدد التوازن الجديد ، ولا يعنيها إن كانت تحارب بلاداً دكتاتورية أو ديموقراطية ، ولا يهمها إن حالفت بلاداً شيوعية أو رأسمالية ، وإنما كل ما ترمي إليه حفظ التوازن وعدم الإخلال به .

والتوازن الدولي عبارة عن معادلة رياضية يضعها رجال السياسة والاقتصاد بمعاهداتهم وقوانينهم واتفاقاتهم ، فإن اختلت هذه المعادلة بأن زادت قيمة أحد طرفيها على الأخرى نشأت الاضطرابات وظهر القلق ، وحاولت الشعوب معالجتها بالاتفاق إن أمكن ، وبالحرب إن لم يكن منها بد ، حتى يرجع التوازن إلى ما كان ، وتمر الأحداث الجديدة في هدوء .

وليس التوازن مطلوباً فقط بين الدول ، وإنما هو مطلوب أيضاً في الدولة الواحدة بين الأحزاب المختلفة ، والهيئات المتباينة ، وهو مطلوب أيضاً في البيت بين أفراد العائلة الواحدة ، فعلى كل فرد معرفة واجباته وحقوقه بالنسبة لمن حوله ، ثم يحاول أن يبني حياته وعلاقاته بالناس على أساس من التوازن والاستقرار ، فإن حدث أمر يهدد هذا التوازن سارع باستخدام عقله ليكيف هذه الأحداث الجديدة ، ويوجهها اتجاهاً سليماً ، حتى تمر العاصفة بسلام ، ولا بأس إن ضحى بشيء من راحته وماله ليدعم بهما هذا التوازن الجديد ، فكل ما يقدمه المرء راجع إليه لا محالة .

والغريب في الأمر أن الانجليز قد نبغوا في تدعيم التوازن والاستقرار في منازلهم كما دعموه من قبل بين أحزابهم وبين حلفائهم من الدول ، فالمنزل الانجليزي مثل أعلى للبيت المريح ، المملوء بالصفاء والسعادة ، والعائلة الإنجليزية أشبه شيء بالأصدقاء جمعتهم رابطة المصلحة المشتركة ، فلا انفعالات ولا منازعات ، وإنما ضبط للنفس ، وكبح للعواطف ، فإن جد أمر وتطلب وضعاً جديداً رأينا الرزانة في التفكير ، والحكمة في التدبير ، واستقر الأمر على وضع آخر مشمول بالتوازن الجديد .

والطبيعة نفسها خاضعة لقانون التوازن ؛ فالجسم إذا اختل توازنه فسرعان ما تفرز الغدد ما يعيد إليه التوازن ، وكذلك الشأن في الهواء ، إذ يقال إن في الجو منطقة معتدلة الحرارة ، فإذا جاء الشتاء شديداً جاء الحر شديداً ليعيد توازن هذه المنطقة .

وأعتقد أن أهم ما ينقص بلادنا هو هذا الروح من موازنة الأمور حتى نتلافى المشادات العنيفة ، والمنازعات التي تحدث كل يوم في البيت المصري ، وفي الشارع والترام ، بين الأحزاب والهيئات ، وبين مصر وغيرها من الدول ؛ فهذا الاضطراب يؤخر تقدمنا ويعوق مواصلة سيرنا نحو هدفنا ، ولن نصل إلى ما نأمله من الخير والاستقرار إلا إذا استقبلنا الأحداث بهدوء وثبات ، ورسمنا سياسة قوية بعد بحث دقيق ودراسة مستفيضة ، ثم كيفنا أعمالنا وفق ما يجد من أحداث حتى تمر العواصف في هدوء وسلام .

حافظ أحمد أمين

رأيان فى المعرفة

« ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ... »
(قرآن كريم)

١ — رأى الفيلسوف فولتير :

لاقيت فى رحلة من رحلاتى برهمياً شيخاً حكيماً ، قد بلغ من العلم شأواً بعيداً . وكان غنياً لا يحتاج إلى شىء ، فلا يضطر إلى تملق أحد . وكان يدبر شئون بيته فيحسن التدبير زوجات ثلاث فى غاية الجمال . فإذا ما مل البرهمى مداعبة زوجاته ، فرغ إلى الفلسفة والتأمل .

وكانت تعيش بجوار بيته الأنيق المحاط بالحدائق الغناء عجوز هندية تقية متعبدة ، ولكنها حمقاء فقيرة .

قال البرهمى يوماً : وددت لو أن أمى لم تلدنى .

فلما سألته عن سر تلك الرغبة العجيبة أجابنى : لقد قضيت أربعين سنة فى طلب العلم ، فذهبت تلك السنون سدى ، ولى كثير من التلاميذ يتلقون عنى العلم مع أنى لا أعلم شيئاً ، وبلغ من سأمى تلك الحال وخجلى منها أن غدت حياتى لا تطاق . لقد ولدت ، وعشت ، والزمن يمر بى ، ولا أدرى ما الزمن . وإنى أرى نفسى بين خلودين كما يقول فلاسفتنا ، ولكنى أجهل كل الجهل ماهية الخلود . وفكرى لا ينفك يعمل ، بيد أنى لم أصل أبداً إلى إدراك كيفية عمله ، بل لا أعلم إن كان التفكير مجرد عملية بسيطة مثل عمليات المشى والأكل والهضم ، أم هو شىء آخر . ولا أدرى إن كنت أباشر عملية التفكير برأسى مثلما أباشر عملية الأخذ بيدى أم لا . ولا يقتصر جهلى على سر التفكير ، بل يتعداه إلى أسرار الحركات التى تصدر عنى . إنى لا أدرى لم وجدت ، ويرهقنى الناس كل يوم بمثل ذلك السؤال ، ويتحتم علىّ أن أجيب ، وليس لدى شىء حكيم أجيب به ، فأطيل معهم الحديث وأخرج منه ثائراً على نفسى خجلاً منها !.
ولشد ما يكون ضيقى وحرجى حينما يسألنى أحدهم عما إذا كان فيشنو هو خالق براهما ، وعما إذا كان الاثنان خالدين ! والله شهيد على أن لا علم لى بهذا ، ويظهر ذلك جلياً فى حديثى . يقولون لى : « علمنا كيف يحل الشر بالأرض فيغرقها » . وعلمى ، إن أردت الصراحة ، لا يفوق علمهم . وقد أقول لهم أحياناً إن كل شىء على ما يرام ، فيشك فى قولى التجار المفلسون وجرحى الحرب ، وأشك أنا أيضاً فيه ، فأرجع إلى بيتى وقد أثقل كاهلى الجهل والفضول . وأقرأ كتب المتقدمين ، فلا تزيدنى إلا ضلالاً . وأحدث زملائى بهمومى ، فيشير على بعضهم بالتمتع بالدنيا والاستخفاف بالناس جميعاً ، ويدعى آخرون أنهم على علم ، ولكنهم يغرقون حتى آذانهم فى السفسطات والأحاديث غير المجدية ... كل شىء يعمل على تقوية شعورى الأليم . وقد أوشكت مراراً على الوقوع فى هوة اليأس ، لأنى تأملت جهودى وكدى ، ثم استعرضت النتائج التى وصلت إليها ، فإذا بى صفر اليدين ، لا أعلم من أين أتيت ، وإلى أين أسير ، وما أنا الآن ، وكيف أكون فى غدى !..

فأشفقت لحال ذلك الرجل الطيب الحكيم التعس ، وأيقنت أنه كلما ازدادت أنوار عقله ازداد بلاؤه وشقاؤه .

والتقيت فى اليوم ذاته بتلك العجوز التى تعيش بجوار بيت البرهمى ، فسألتها عما إذا كانت قد تألمت يوماً لجهلها بكيفية تركيب روحها . فلم تفهم حتى السؤال ، إذ لم يكن

قد دار بخلدها في يوم من الأيام أدق مشكلة من المشاكل التي تنغص على البرهمي عيشه . كانت تؤمن في إخلاص بفيشنو وتحولاته . وكانت تعتقد ، إن نالت قليلاً من ماء نهر الكنج المقدس لتغتسل به ، أنها أسعد الناس .

وكان أن رجعتُ إلى فيلسوفنا ، فقلت له : ألا يخجلك شقاؤك ، وبجوار بيتك إنسانة كالآلة لا تفكر في شيء ، ولكنها تعيش عيشة لحمتها وسداها السعادة ؟.

قال : صدقتَ ؛ فلطالما فكرت أني أكون سعيداً لو كان لي من الحماقة مثل ما لجارتي . ولكني لن أرضى أبداً بمثل تلك السعادة ...

وكان لتلك الجواب أعظم الوقع في نفسي . فتدبرته ، ثم تدبرت حالي ، فوجدت أني أنا أيضاً لن أرضى بالسعادة إن كان ثمنها التجرد من العقل .

وعرضت المشكلة على كثير من الفلاسفة ، فكانوا ينفرون نفوري من مثل تلك السعادة .

ولكني قلت في نفسي : هناك ، رغم هذا ، تناقض شديد في تفكيرنا : ماذا نُريد ؟.. نُريد السعادة ... فماذا يضيرنا إذاً أن نكون حمقى أو أذكياء ما دمنا سعداء ؟.. والأعجب أن الذين يوقنون راضين عن أنفسهم ، إنما هم على ثقة من رضائهم ؛ أما الذين يفكرون ويستعملون المنطق فهم دائماً في شك من صحة منطقهم . ومن الجلي أنه يجب علينا تفضيل الحماقة على المنطق لأن هذا الأخير كفيل لنا بالشقاء ...

ولقد شاطرني الجميع آرائي هذه ... ولكني لم أجد أحداً يرضى بالحماقة في سبيل السعادة . فاستنتجت أنا ، نحن معشر البشر ، وإن كنا نقدر السعادة ، فإننا أعظم تقديراً للمنطق . ولكن بعد التفكر والتدبر ، بدا لي أن تفضيل العقل على السعادة إنما هو ضرب من الحماقة . فكيف السبيل إلى تفسير ذلك التناقض ؟.. في الميدان متسع للكلام الكثير !..

* * *

٢ — رأي أناتول فرانس :

إن الجهل هو الشرط الأساسي ، لا للسعادة في الحياة فحسب ، بل للحياة نفسها !..

ولو أحطنا علماً بكل شيء ، لما احتملنا الحياة ساعة من نهار ...

وما الشعور الذي يجعل الحياة في أعيننا حلوة لذيذة ، أو على الأقل محتملة مقبولة ، إلا وليد أكاذيب وربيب أوهام .

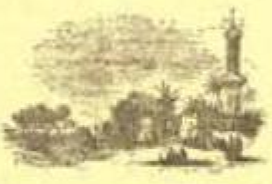
ولو أن إنساناً أحاط بالحقيقة كلها ، الحقيقة المطلقة ، كما يحيط بها الله ، ثم أرسلها داوية بين جنبات البسيطة ، لانهار الكون لساعته وتبدد فأصبح أثراً بعد عين .

إن الحقيقة الإلهية مثلها كمثل اليوم الآخر :

إذا بدت صيرت العالم هباء منثوراً !..

(تلخيص)

محمد عبد الحليم محمود



الحياة العقلية فى الإمبراطورية العثمانية وفى مصر

فى القرن التاسع عشر

للكاتب الألمانى (كارل بروكلمان)

— ١ —

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

قال الكاتب :

أثبتت نفوس الشعب التركى فى القرن التاسع عشر — وقد كانت تستمسك بالتقاليد — أنها تستعصى على مؤثرات المدنية الغربية ، وذلك فى الجانب الثقافى أكثر منه فى الجانبين السياسى والحربى .

وأول ما بدا من ترخص فى نفوس ذلك الشعب ، وميل إلى ما يجىء به العصر الجديد ، هو إنشاء صحيفة يومية هى صحيفة (تقويم وقائع) . وكان ذلك عام ١٨٣١ ، وسرعان ما تبعتها صحف أخرى تميل إلى ناحية الأدب ، مثل صحيفة « ترجمان أحوال » (١٨٦٠) و « تصوير أفكار » (١٨٦٢) .

وقد جاءت فترة الإصلاح المعروف « بالتنظيمات » بتبديل فى نظام التعليم . فبينا كانت المدارس الأولية لا وجود لها مطلقاً — إذا استثنينا تلك المدارس التى تقوم بتحفيظ القرآن — وبينا كان التعليم العالى لا يتلقاه المرء إلا فى المدارس الدينية ، بينا الأمور تجرى هذا المجرى إذا بإدارة تنشأ خصيصاً لتأليف الكتب المدرسية للمدارس الأولية .

وفى عام ١٨٦١ فتحت أول مدرسة راقية لتعليم البنات .

وفى عام ١٨٦٩ أنشئت جامعة ، ولكن عاصفة من القوى الرجعية قد عصفت بها بعد عامين من إنشائها ، ولم يكتب البقاء إلا لاثنتين من كليات تلك الجامعة هما : المعهد الطبى ، ومدرسة الحقوق .

وإلى أواسط القرن التاسع عشر كان « العثمانيون » مستمسكين بالأدب الفارسى متناً وأسلوباً .

وفى فترة إصلاح النظم التعليمية كان جماعة من الشباب الموهوبين قد أرسلوا إلى باريس للتعلم والدرس ، وكان من بينهم « إبراهيم شيناسى » الذى أكبّ أول أمره على دراسة الأدب الفرنسى ، وبعد أن عاش خمس سنوات فى باريس حيث قيل إنه اشترك فى ثورة عام ١٨٤٨ ، عاد إلى بلاده فعين فى ديوان المعارف ، ولكنه غادره بعد قليل ليعمل فى أول صحيفة غير حكومية ، هى صحيفة « ترجمان أحوال » التى أسست عام ١٨٦٠ .

وفى عام ١٨٦٢ أسس هو صحيفة « تصوير أفكار » التى لم تزعزعها الأعاصير السياسية حتى جاء « مصطفى كمال » فعطلها عام ١٩٢٥ .

وقد أدى « شيناسى » للغة التركية خدمات جليلة ؛ وذلك أثناء قيامه بنشاطه الصحفى . فقد خلص تلك اللغة من شوائب التفاخر والتعاظم ، وعاد بها إلى الأبنية البسيطة التى يتخذها الشعب فى تركيب كلامه .

وفى عام ١٨٥٩ نشر « شيناسى » أول ترجمة تركية لمختارات من النثر والشعر الفرنسى ، ونشر إلى جانبها الأصل الفرنسى لكل صحيفة (وكان مجموع الصحائف إحدى عشرة فى كلتا الاثنتين) .

وقد أبانت تلك الصحائف للمثقفين من الترك أن الأفكار التى يعرفونها عند المعرفة فى لغتها الأصلية يمكن أن يعبر عنها بلسان قومهم ، ثم كانت تلك الصحائف البداية لأدب زاهر من الترجمات .

أما ملكته الشعرية فلم تكن بالملكة القوية . وكان يقيد نفسه بالأسلوب القديم . ولكنه مع ذلك كان أول من قدم للترك ملهاةً صغيرة سماها « زواج الشاعر » وهى ملهاة عالج فيها مشكلة مكانة المرأة ومنزلتها . وهى المشكلة التى طال البحث فيها منذ ذلك الحين .

وقد وجدت محاولات « شيناسى » أرضاً خصبة . فقد كان الإحساس عاماً بأن الأدب القديم قد ولى زمانه . فتحول المؤلفون من الشباب إلى ناحية التجديد . ودأب « ضياء

باشا » على نفقة الأمة . وذلك فيما ترجمه عن « روسو » و« موليير » .

ولكن أكبر تلاميذ شيناسي شأناً كان « نامق كمال » الذي وكل إليه إدارة صحيفته في عام ١٨٦٤ يوم سافر هو إلى باريس .

وقد أدرك « نامق كمال » أن ليس يكفي أن يصطنع القوم الآراء الفرنسية . بل إنه من الواجب أن تعالج الموضوعات الوطنية . وذلك ليبدو أثرها في الشعب . ولكن النشاط السياسي قد وقف حجر عثرة في سبيل الأدب . ذلك أنه لما انضم « نامق كمال » إلى جماعة « تركيا الفتاة » التي أنشأها « ضياء » كان لزاماً عليه أن يهرب معه إلى لندن عام ١٨٦٦ . ولم يستطع العودة إلى بلاده إلا عام ١٨٧١ بعد وفاة الصدر الأعظم « عالي باشا » .

وفي أثناء أعوام الشغب في أواخر حكم السلطان عبد العزيز . وقد كان البلقان كله يغلي كالبركان ، خرج « نامق كمال » على الناس بدرامته « أرض الجدود » أو « سلسترا » .

وهي الدرامة التي مجد فيها استبسال تلك القلعة في صد هجمات الروس . وكان ظهور تلك الرواية عام ١٨٧٤ ، ولأول مرة جعل الترك يألفون نظرية « أرض الجدود » مستقلة عن شخص السلطان .

وقد أثارت الرواية عواصف من الحماس الوطني ، حتى لقد ملأت قلوب الحكام بالرعب ، ولذلك فقد منع تمثيلها بعد أن مُثلت مرتين ، ثم نفي الشاعر إلى جزيرة قبرص .

وكذلك كان « عبد الحميد » أقل قدرة على احتمال انتقاداته وسلوكه الوطني ، وميله بخاصة إلى ناحية الشعب ، فأبقاه — وكأنه نفاه نفياً تكريمياً — بعيداً دائماً عن العاصمة ، وأخيراً بعث به والياً (متصرفاً) على جزيرة « ساقس » .

ولكن مؤلفاته قد أبقت على آرائه وساعدت مساعدة كبرى على بلوغ نهضة جماعة تركيا الفتاة هدفها ومرماها .

والمثل العليا التي كان لزاماً على « نامق كمال » أن يضحي بها في سبيل أهدافه السياسية ، قد حققها تلميذه « عبد الحق حامد » الذي أتيح له أن يخدم بلاده كرجل من رجال السياسة في باريس ولندن وبروكسل ، كما أتيح له بعد سقوط الامبراطورية القديمة أن يفرح ويبتهج بقيام الحكومة الوطنية ، حتى أدركته المنية في الثاني عشر من أبريل عام ١٩٣٧ ، وقد بلغ السادسة والثمانين من عمره .

وقد فتحت رواياته وشعره الغنائي آفاقاً جديدة للأدب التركي ، وهي الروايات والقصائد التي تأثرت إلى حد كبير بالأدب الكلاسيكي الفرنسي وبشكسبير .

ومع ذلك فلم يكن هناك تقصير في بذل الجهود لتوجيه الأدب التركي وجهات شعبية خالصة .

أما النثر التركي الذي لم يخالطه زيف ، والذي تفرّد بالبقاء بين طبقات الشعب على الرغم من تجاهل الطبقات المثقفة له وتأبيهم بجانبهم عنه ، فقد كان يقوم على خدمته أولئك القصاص الشعبيون (المداحون) ، وذلك بأقاصيصهم المستمدة من حياة الشعب اليومية ، وقد قام « أحمد مدحت » بإدماج هذا اللون من الأقاصيص في بنية الأدب ، إذ كان لديه ثروة من الالتفاتات الدقيقة المستمدة من حقائق الحياة ، وقد بثها في ثنايا « قصصه المسلية » . وإن كان قد استعان إلى حد كبير بمواد من الأدب الفرنسي ...

وفي كتابه « عام في استانبول » أدخل « محمد توفيق » في الأدب التركي لوناً من ألوان الرضا والقناعة . فقد وصف فيه الحياة الساذجة للشعب الذي كان يوماً ما مقيماً في العاصمة ، فجاء بوصف أحاديث النساء المرحات في ليالي الشتاء الطويلة ، كما وصف تهريج المهرجين في القهوات ، ونزه المتنزهين على شاطئ القرن الذهبي .

أما حسين رحمي فقد عمق النظر في حياة الشعب أكثر من صاحبه ، وهو مدين بتعليمه الذي رفعه إلى منصب مدير المخطوطات بمصلحة الأموال غير المقررة ، لمدارس استانبول الحديثة . وهو لم يتعلم اللغة الفرنسية أبداً ، وهو كواحد من أبناء الشعب قد أغرم بصفة خاصة بتمجيد الفلاح الأناضولي الذي لم تعلق به ريبة ، ولم يمسسه ضعف ، وهو أمل البلاد ورجاؤها . وقد صوّر الشعب على حقيقته ، ولم يتردد — في سبيل العلم — في أن يختلط بالشعب اختلاطاً تاماً .

وهو وسابقوه في تشاؤمهم يقلدون الغرب تقليداً وجدانياً . وإن يكونوا قد استمدوا جذور هذا التشاؤم من الظروف المحيطة بهم . وهي لذلك ثابتة الأصول .

أما في ميدان الشعر الغنائي فقد حرر القوم نفوسهم من أغلال الكلاسيكية . فأدخل « محمود أكرم » الأغاني

(البقية على الصفحة التالية)

مقومات الشعر الانجليزى الحديث

— ٢ —

للدكتور رشاد رشدى

ما أحسب أحداً من الناس يستطيع أن ينكر أن الشاعر فى أى زمان ليس نتاج عصره فحسب ، بل وكل ما سبقه من عصور وكل ما انحدر إليه من تقاليد ، شاعرية على الأقل .

فالشعر الحديث ليس كله (كالأرض الخراب) أعنى Waste land للشاعر (ت . س . اليوت) وهو لا يتعدى النزعات الثلاث العامة التى سنتحدث عنها بعد قليل ، فهو كما سبق أن ذكرت ، متنوع الموضوعات ، متنوع الصياغة ، رغم ما يتميز به من نزعات عامة . ووسط هذا التنوع تصعب الإجابة على السؤال الذى يسأله أكثر الناس وهو :

ما الذى يجعل الشعر الحديث حديثاً ؟ ! وهؤلاء الذين يعتقدون أن فى استطاعتهم تعريف الشعر الحديث هم فى الواقع ضمن المغترين له أكثر مما هم ضمن المعجبين به .

فإذا كان من السهل علينا أن نهتدى إلى صفة نصف بها ما نحب ، فإنه من الأسهل دائماً أن نصم ما نكره بوصمة أو أكثر من وصمة ، وكلنا نعرف أننا إذا أحببنا شعر شاعر معين اشتد ميلنا إلى أن نرى فيه من الصفات ما يؤهله لأن يكون صوتاً معبراً عن روح عصره ، أو مرآة صادقة لأغلب تيارات العصر أو آلة فى أيدى قوى عبقرية مجهولة تعبر بها عن اتجاهات العصر إن لم تهادَ فنقول إنها توجه تيارات العصر نفسه . أما إذا لم يعجبنا شعره فما أسرعنا إلى أن ننسب ما يبدو لنا فيه من معايب إلى شذوذه أو اصطناعه

الشعبية الوطنية فى نطاق الأدب . وقد أعلى من قدرها بإلباسها ثوب الرواية والقصة الشعرية .

وقد بلغ الشاعر « محمد أمين » — وكان أبوه سماكا — الذروة فى الشعر الغنائى الشعبى . وقد أعانت قصائده على إنجاح حركة « تركيا الفتاة » .

وقد صاحب هذا الطموح الوطنى غيرة باللغة على نقاء اللغة . وقد أوفى على الغاية فى هذه الناحية « سامى فراشيرى » .

وبعد أن نبذت الأساليب القديمة التى تقوم على الصنعة وتحميل الكلمات فوق ما تحتمل . وبعد أن حل محل تلك الأساليب لهجة الشعب الساذجة . بذلت محاولات لتنقية مفردات اللغة مما خالطها من حصى الكلمات الأجنبية : العربية منها والفارسية . تلك الكلمات التى كانت تكتم فى الأدب القديم أنفاس الكلمات التركية وتزدريها .

وقد نشر « أحمد جودت » (المتوفى عام ١٨٨٠) وصاحب الجريدة « إقدام » ذات المكانة المرموقة ، أصل الكتاب الذى ألفه « نفى » . وهو الكتاب الذى أشاد فيه مؤلفه باللغة التركية على حساب النيل من اللغة العربية .

وذلك فى بلاط التيموريين فى « هرات » .

وفى الحق أن هناك محاولات قد بذلت حيناً ما لإحلال الكلمات التركية التى طال زمان هجرها محل الكلمات الأجنبية التى سبق لها التوطن . وقد نجحت مساعى أولئك المحاولين المدققين على الرغم مما انتاب محاولاتهم من مبالغة ومغالاة .

ولما أوشك حكم عبد الحميد على النهاية كان على الأدب أن يكافح ليجتاز أقسى المصاعب . وإذ كان عبد الحميد يخاف جماعة تركيا الفتاة كخصوم لحكمه الاستبدادى ، فقد كان من أسهل الأمور لدى بطانته — كما أسرف فى اعتزال العالم وهو قابع فى قصر يلدز — أن يثيروا الشكوك حول كل نهضة تقدمية سليمة القصد يقوم بها شعبه ، حتى إن أوجه نشاط أولئك القائمين بالنهضة قد شلت برقابة قد جاوزت كل حدٍّ فى التعسف . حتى لقد بلغ من شدة تعسفها أن منعت من الظهور ترجمة تاريخ حياة « وليم تل » (البطل السويسرى) ، وحتى لقد بلغ من تعسفها أيضاً أنها لم تكن تطيق استعمال كلمة « الوطن » .

(من الانجليزية)

بارك إبراهيم

أو عدم كفايته . والعقل لا يستطيع أن يعرف الشعر الحديث إلا تعريفاً جزئياً فحسب ، فنحن لا يمكننا أن نفسره بما يحاول الشعراء صنعه بعقولهم الواعية ، لأننا لن نجد شاعرين يحاولان صنع الشيء الواحد ؛ والأهم من هذا أن وعي الشعراء بالغرض لا يمثل إلا ناحية واحدة من نواحي الخلق الفني ؛ ونحن أيضاً لا نستطيع أن نفسر الشعر الحديث كما يعلم كل قارىء له ملمّ به ، باللغة أو الصور أو بحور الشعر التي يستعملها الشعراء ، فليس كل الشعر الحديث يكتب بما نسميه الـ Vers libre أو (الشعر الحر). وليس كل الشعراء بل ولا أكثرهم يستخدمون الألفاظ أو يستعيرون الصور التي تقتصر على الحضارة المدنية الصناعية الآلية ، وليس كل الشعراء يشتركون في نفس المذاهب السياسية أو الدينية ، بل إن أكثر ما يكتبون لا يعبر عن رأي سياسي معين أو عن عقيدة دينية على الإطلاق ، ولكن رغم كل هذا ؛ فإن من يقرأ الشعر الحديث يحس بأن هناك صلة ما تربط بين هؤلاء الشعراء كبيرهم وصغيرهم وبأنهم يشتركون في شيء ما ، وأن هذا الشيء أكبر وأهم وأعمق وأشمل من طريقة الصياغة أو أسلوب التعبير أو الصور التي يستعيرونها مما حولهم في الحياة المعاصرة أو الحديثة .

وليس هذا الشيء الذي يجمع بين الشعراء مجرد عامل الزمن فـ Gerard Manely Hopkins وهو شاعر حديث وملهم أجيال الشعراء الحديثين أثر جيد المدى ، ينتسب زمنيا إلى العصر الفيكتوري ، فقد مات في سنة ١٨٨٩ ، و W. Yeats وهو أيضاً شاعر حديث أثر في أجيال ثلاثة على الأقل من الشعراء ، بلغ أكثر من نصف عمره المديد في القرن الماضي وكان قبل نهاية القرن شاعراً معترفاً به وكان عند وفاته في سنة ١٩٣٩ أكبر من أكبر الشعراء المعاصرين له ، فما هو إذاً هذا الشيء الذي يجمع بين Hopkins الفيكتوري و Yeats الذي كان شاعراً معروفاً قبل أن يولد كثير من الشعراء المعاصرين أمثال لوى ماكنيس Lewis McNeice و و . هـ . أودن W.H. Anden واستيفن سبندر Stephen Spender وديلان توماس Dylan Thomas و سيسيل داى لويس Cecil Day Lewis وغيرهم ، إن أي تعريف لهذا الرابط الذي يربط بين هؤلاء ، وبينهم وغيرهم من الشعراء الحديثين ، لا بد وأن يكون خاطئاً أو ناقصا ، لأن أي تعريف للشعر الحديث لا بد وأن يتطلب تعريفاً للحياة الحديثة في مجموعها ، فلأجل أن نفهم الشاعر الحديث فهما كاملا يجب أن نفهم أنفسنا أولا ، يجب في الواقع أن نصل إلى درجة من وعي الذات لم تتمكن البشرية للآن من بلوغها ، فما هو إذاً هذا الشيء ، الذي يجعل الشعر الحديث حديثاً والذي لا يستطيع العقل وحده إدراكه أو تعريفه ؟

هو هذه الحساسية المعينة « the Sensibility » — « le Sensibilité » التي يشترك فيها الشعراء الحديثون ، وهي ليست مجرد نزعة أو اتجاه أو وجهة نظر أو موقف معين من الحياة ، فهي أهمّ من كل هذه مجتمعة وأعمق وأدق ، لأنها كم وكيفية تجاوبهم مع العصر وما سبقه من عصور تاريخياً وشاعرياً ، لا كأفراد عاديين ، بل كشعراء أولاً وأخيراً ، وإن شئت فلكل عصر من عصور الشعر ، — إن جاز أن للشعر عصوره — حساسيته التي تميزه عن غيره ، والتي قد يبسطها بعض الناس خطأً فيسمونها بالرومانتيكية أو الكلاسيكية أو الواقعية أو السريالية أو غير ذلك من الأسماء العديدة التي يسهل على عامة النقاد أن يسموا بها الحقب المختلفة في تاريخ الفن ؛ ولكن الحساسية التي تنتج فناً معيناً في وقت معين هي أعمق وأدق من أن تخضع لهذه التسميات ، فهي كما قلت كم وكيفية تجاوب الفنان مع عصره وما سبقه من عصور تاريخية وفنية ، وهي قد تأخذ وقتاً طويلاً لتتكون وتبرز ، ثم لتتلاشى وتموت فتحلّ محلها حساسية أخرى ؛ وحساسية العصر لا تبدأ في أول القرن وقد لا تنتهي بانتهائه ، فالفن لا يؤرخ بأزمانه ولكن بحساسياته التي تصيب الفنّان والفرد العادي على حد سواء والتي لا تصطنع ولا تتعمد ، بل تحدث — تكون — ثم تذهب ، ولذلك كان من الخطأ أو من قلة الإدراك أن ينعى أحد من الناس على الشعر الانجليزي الحديث خلوه من شعر الطبيعة مثلاً ؛ فالدليل على أن الحساسية الحديثة لا تتقبل هذا الشعر هو انعدام وجوده ، بل إن قارىء الشعر الحديث لا يتوقع وجود هذا الشعر فيما يقرأ ، وحتى لو فرض أن وجد ، فإنه من المشكوك فيه أن الحساسية الجديدة ستستسيغه

أمرٌ واحد مؤكد — على أي حال — وهو أن هذه الحساسية الجديدة لا تنتجه ، كما لم تنتج الحساسية التي ميّزت

عصرنا مثلاً شعراً كالذى ينظمه (أودن) أو (ماكنيس) أو (اليوت) اليوم ، فما هو جوهر هذه الحساسية الحديثة وما هى مقوماتها ؟ يستطيع من يقرأ الشعر الحديث أن يتبين خطوطاً ثلاثة عريضة يشترك فيها أغلب الشعراء ، بل قد تتضح فى الشاعر الواحد فى أكثر الأحيان ، وهذه الخطوط هى ما أسميها : التمرد على حياة الآلة ، والرجوع إلى حياة الروح ، والقدرية . وسأعالج كلا منها على حدة مستشهداً على قيامها وبروزها فى غير عناء ودون كثير تخير أو انتقاء ، لأن الأمثلة تصادفك أينما قصدت ؛ ولنبدأ بأولها ، وهو التمرد على حياة الآلة .

التمرد على حياة الآلة :

فالانقلاب الصناعى الذى عم انجلترا فى أوائل القرن الماضى قد أدى بالتدريج إلى إحلال الآلة محل الإنسان فى كثير من الأعمال ، كاصطبغ الحياة نفسها بصبغة آلية ، إذ أصبح الإنسان خادماً للآلة بدل أن كان سيدها ، وتضاءل تبعاً لذلك إحساسه بفرديته وكيانه كإنسان ، لأن حياته أصبحت لا تعدو أن تكون موقفاً أو أوضاعاً لا يمكن أن تقربه إلى ذهن القارئ بأكثر من أن نصفه بأنه موقف التفرج ؛ وقد أدرك الشعراء هذا فراحوا يصورونه فى شعرهم ينبهون إليه ويحملون عليه ، وكان من أوائل قادة هذه الحملة الشاعر (دافيد هربرت لورنس) الذى يحمل فى قصيدة له بعنوان (العمل) على نظام العمل فى ظل الآلة ويقارن بينه وبين الخلق الإنسانى ، يشبه الثانى بشجرة أثناء عملية الازدهار ، ويبين الطريق التى يجب أن تسلكها البشرية لتنقذ نفسها من الجمود والتفكك الذى أصابها ، فهو يعتقد أن لا قيمة للعمل إن لم يتملك الإنسان كله كما يتملكه اللعب ، فإن لم يفعل ذلك فلا قيمة له ، ويجب على المرء أن لا يفعله . ويشبه (لورنس) الرجل عندما يبدأ عمله بالشجرة فى الربيع ، فهو حى يعيش فيه ولا يعمله فحسب ، فعندما يغزل الهنود خيوط الصوف الطويلة ليصوغوا منها ملابسهم بأصابعهم السمراء الدقيقة وعيونهم السوداء الواسعة ونفوسهم الهادئة مشغولة يبدون للشاعر — كأشجار دقيقة أثناء عملية الازدهار تنتج كساء من الزهر الأبيض هو القماش الذى يغزلونه ، يرتدونه كما تكتسى الشجرة بأوراقها ؛ كذلك الحال مع البيوت والسفن وغيرها من حاجيات الحياة ، يستطيع الإنسان أن ينتجها كما يصوغ القوقع صدفته وكما يصنع الطير عشه وكما تثمر الشجرة زهورها وفاكهتها ، تخلقها خلقاً ولا تصنعها فحسب . ولكن لأجل أن يكتسى الرجل رداءه الذى يشبه أوراق الشجرة فى حياكته لأنه ناجم عنه ونتاج لحياته ، ولأجل أن يعيش فى بيته الذى صاغته يداه كما يصوغ النحل خلاياه ، يعتقد الشاعر أن لابد للإنسان أن يحطم الآلة التى اتخذها من دون الله إلاهه .

ومن مظاهر الحياة الآلية أنها تشغلنا عن الحياة نفسها فى بساطتها وجمالها الطبيعى ؛ فنحن قد شغلنا بالمادة والسعى إلى الحصول عليها ، فلم يعد لدينا من الوقت ما نتأمل فيه أنفسنا أو الطبيعة ، حتى وقت الفراغ نفسه أصبح عديم المعنى والفائدة ، نقضيه فى متع آلية كما نقضى بقية العمر ، وهذا ما يوضحه الشاعر (وليم هنرى دافيز) فى قصيدة قصيرة مشهورة بعنوان (وقت الفراغ) يبدى فيها تبرمه بالحياة وقد ملئت بالشغل حتى لم يعد لدينا من الوقت ما يسمح بالنظر والتأمل :

فلا وقت نقف فيه تحت الأغصان
ونحملق طويلاً كما تفعل الماشية والبقر
لا وقت لنرى فى وضح النهار
الجداول المليئة بالنجوم — كسماء الليل
لا وقت نتأمل فيه وجه ذات الجمال
أو نرقب رقصة قدميها الدقيقتين
أو نلمح شفتيها
تكمل عليهما الابتسامة
التى بدأت فى عينيها .
ما أتعس هذه الحياة
مليئة بالشغل
حتى لم يعد لدينا
من الوقت ما يسمح بالنظر والتأمل .
(البقية)

رشاد رشدى

نقـــد

فى موكب الشمس

الجزء الثانى فى تاريخ مصر الفرعونية من آخر الضحى إلى أول الأصيل

بقلم الدكتور أحمد بدوى

للدكتور شوقى ضيف

هـذه هى الحلقة الثانيـة من حلقات التاريخ المصرى القديم الذى اختار له مؤرخنا الدكتور أحمد بدوى اسم « فى موكب الشمس » . وكتابة التاريخ تأخذ شكلين أو منهجين ، منهج موضوعى يعمد فيه المؤرخ إلى ذكر الحقائق لا يعدو صورتها الخارجية التى انطبعت فى الوثائق والنصوص ، ومنهج ذاتى يعمد فيـه المؤرخ إلى وصف الحقائق التاريخية وانطباعها فى عقله وخياله .

ولكل من المنهجين محبذوه ومستحسنوه بين المؤرخين ، فإذا كان الأول يمتاز بالكشف عن حياة أمة من الأمم كشفاً لا عوج فيه ولا اضطراب ، فإن الثانى يضيف إلى ذلك خطوطاً تساعد المعاصرين من الأمة على معرفة هـذه الحياة لأنهم يرونها من خلال عواطف الكاتب وأفكاره وما قد يندفع فيه من إشادة بهذه الحياة .

ونحن فى نهضتنا نحتاج فيها إلى أن نعلم كثيراً من ألوان العلم الإنسانى ، وأيضاً فإننا فى حاجة إلى أن نعلم أنفسنا وأن نؤمن بها إيماناً نستمده من حاضرنا تارة ومن ماضينا تارة ثانية ، وكلنا نعرف أن مصر سبقت الأمم القديمة إلى الحضارة وأنها تشارك فى التراث الحضارى مشاركة كان لها مداها البعيد فى تاريخ الإنسانية الحافل .

ومن المعاد أن تحدث فى سبق مصر وتفوق العلم القديم بين يديها ، يأخذ كما يأخذ التلاميذ عن أستاذهم الحصيف ...

فتاريخنا القديم موضع فخار كل مصرى ، ولا شك أننا كنا إلى أمد غير بعيد ننتظر من يكتب لنا هـذا التاريخ كتابة مفصلة تشعر الأبناء بعز الآباء ومجدهم وتدفعهم إلى أن يسلكوا نفس الدروب القديمة التى سلكها آباؤهم ، لا فى السياسة فحسب ، بل فى المدنية والحضارة وإسعاد الناس .

وكل من يقرأ هـذا الجزء الثانى من موكب الشمس الذى يؤرخ به مؤلفه لمصر القديمة من الأسرة السابعة إلى الأسرة العشرين ، يجده منذ السطور الأولى يحاول ألا يكتب تاريخ مصر حينئذ وحده ، وإنما يحاول قبل كل شىء أن يصور انطباعاته فى نفسه من خلال إيمانه بوطنه وتفكيره العميق فى مستقبله .

وهذه الناحيـة فى كتابة التاريخ تتجلى عند الدكتور أحمد بدوى فى أروع صورة ، ويكاد يخيل للإنسان أنه يكتب التاريخ القديم ، لا لأنه متخصص فيه ولا لأنه درس على أساتذته العالميين فى ألمانيا ، ولا لأنه قرأ واستوعب كل مصادره الممكنة ، وإنما لأنه يريد أن يبث عواطفه القومية وأفكاره وآراءه خلال ما يدبج ويسطر .

والكتابة على هـذا النحو تجعل التاريخ شيئاً سائغاً لا يمله أحد ، فضلاً عن المتخصصين ، إذ يصبح وكأنه معرض للقديم والحديث ، لتاريخ الأجداد وتاريخنا ، وإن الدكتور بدوى ليجد فكره إلى الآراء الغربية الجديدة وإلى الدعوة الإسلامية فيمزج هذا كله بتاريخ مصر القديمة ويرجع إلى التوراة وغير التوراة .

وهـذا كله يُعرَض فى أسلوب أدبى يستمد من القرآن الكريم وآيه ومن ألفاظ جزلة ليس فيها نبو ولا إسفاف ، وإنما فيها العذوبة والانطلاق والإحساس بأن

الكتابة ضرب من الحرية ، فالمؤرخ هنا ينطلق انطلاق النيل حين يفيض لا يعوقه عائق ولا يقف في سبيله شيء .

ونستطيع أن نجمل وصف هذا الجزء من موكب الشمس بأنه تاريخنا القومي في هذه الحقبة كتب في أسلوب ناصع واضح يتوهج فيه الفكر وتتوهج فيه العاطفة وتتوهج فيه الأماني القومية ...

ولا نرتاب في أننا محتاجون دائماً إلى من يكتبون لنا تاريخنا بهذه الصورة النارية إن صح هذا التعبير ، لا التاريخ القديم فحسب ، بل أيضاً التاريخ الماضي كله في عصور مصر المختلفة من إسلامية وغير إسلامية .

ومع ذلك فإن لنا ملاحظات نرى أن نشير إليها ، فإن الدكتور بدوي حين ذهب هذا المذهب القومي في كتابته التاريخية غلا فيه غلواً شديداً ، حتى بدا بعض جوانب هذا الجزء وكأنه خطب حماسية . وفي رأينا أن هذا النزوع في كتابة التاريخ ينبغي أن يسوده طابع الاعتدال حتى لا تضيع قيمة الجهد العلمي الذي يضطلع المؤرخ به في عمله التاريخي . وإنما نذهب هذا المذهب لأن الناظر في ظاهر هذا الكتاب ، وخاصة إذا كان من أصحاب النزوع التاريخي الآخر وهو النزوع الموضوعي ، يضيق حتماً بهذا الجانب الخطابي ويرى فيه شيئاً يشبه الغشاوة يحول بين بصره ورؤية الحقائق التاريخية ، فإنها تظهر غير مصفاة ، بل متلفعة بهذا الكساء القومي . وكأن الدكتور بدوي قد أحس أن تاريخ بلاده يكتب في لغة علمية موضوعية جافة لا تهدي أبناء وطنه إلى طريق الرشاد ، فآلى على نفسه أن يصوغ لهم تاريخ بلادهم في صورة قومية فذة ، أذاع فيها أمانيه نحو بلاده وآراءه فيما ينبغي أن تكون عليه سياستها الحديثة مقارنة إلى سياستها القديمة .

وهذه خطوة ثانية وراء خطوة أولى يحسن أن يقف عندها المؤرخ القومي ، وهي تصوير القديم بصورة حقيقية يمثل فيها المجد الغابر ويومئ بواسطة هذه التجلية وما يجمع بين أيدي أبناء الوطن من أمثلة عليا في السياسة والإصلاح — أو في بلوغهم — بكل ما يريد وما ينشد .

وليس هذا ما نلاحظه وحده ، فنحن نلاحظ أيضاً أن الدكتور بدوي توسع في المقارنة بين أخناتون صاحب الدعوة الجديدة إلى عبادة الشمس وبين رسول الله « صلى الله عليه وسلم » . وأظن أن هذه المقارنة لا تقوم على أسس واضحة .

ونحن نلاحظ هنا ما لاحظناه في فكرة القومية التي يكتب الدكتور بدوي من خلالها ، نقصد أننا نلاحظ شيئاً من الغلو . فهذا أخناتون يهاجر في سبيل دعوته من العاصمة القديمة إلى العاصمة الجديدة ، وها هو يتبعه المستضعفون على نحو ما هاجر رسول الله من مكة إلى المدينة وعلى نحو ما كان يتبعه من الفقراء المعدمين . وتساق هوامش كثيرة لبيان هذه المقارنة . وفي رأينا أنه كان ينبغي ألا يزج المؤلف بما يزج به في كتابه من أطراف هذه المقارنة ، إذ لا داعي مطلقاً لأن نقارن ونتوسع في مقارنتنا بين أخناتون والأديان السماوية ، فضلاً عن الإسلام وصاحب رسالته الكبرى وإن تشابهت بعض الظروف وبعض الحوادث .

ومن هذا الباب نفسه ما كتبه الدكتور بدوي في هوامش الكتاب تعليقاً على ذلك النشيد الذي ألفه شاعر معاصر لحركة أخناتون مؤمن بها . وقد ترجمه إلى العربية ترجمة رائعة ، إلا أنه حاول أن يعلق عليه بمقارنات بين بعض أبياته وبعض آي القرآن الكريم ، وفقر من التوراة في سفر التكوين ، وذهب ينادي بأن الدين الذي اعتنقه أخناتون لم يكن يريد به صاحبه أن يسود في مصر وحدها ، بل كان يريد أن يسود في العالم كله ، فهو دين الناس كافة ! .

ومثل هذه المقارنات وما ينطوي فيها من آراء لا تفيد التاريخ المصري القديم من حيث هو تاريخ ، بل لعلها توقع القارئ في مشاكل لا داعي لها كمشكلة التنزيه التي أثارها المؤلف والتي تعب فيها المنزلة وغير المنزلة .

والحق أن العقل الذي يؤلف هذه السلسلة في تاريخ مصر القديمة مثلة (في موكب الشمس) عقل غني ، وهو عقل لا يقف ما يزال يفيد من كل ما يقرؤه . وهو عقل متسع لا يبلور ولا يركز وإنما يوسع ويبسط . وهو في الوقت نفسه عقل أديب يقتدر على الصياغة الجميلة ، وإن كنا نؤثر أيضاً ألا يكثر من الأخيلة والصور . وإننا لنهنئه بهذا الجهد العلمي الممتاز كما نهنئ أجدادنا وأبناءهم بظهور هذا المؤرخ الذي أخذ على عاتقه أن ينهض بكتابة تاريخهم كتابة أدبية يتحول فيها التاريخ في بعض جوانبه إلى ما يشبه المستور والتصريح .

شوقي ضيف

المسرح بين الاقتباس والترجمة

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

أخيراً قدمت فرقة المسرح الحديث رواية (فى خدمة الملكة) مقتبسة من القصة المعروفة باسم (الفرسان الثلاثة). وقبل أن أتحدث عن هذه الرواية أحب أن أتحدث عن الاقتباس فى ذاته، إذ أن بعض كتابنا يرونه الوسيلة الأولى لإغناء ثقافتنا وإنعاش مسرحنا وسد الفراغ الناجم من قلة الروايات المصرية المؤلفة الصالحة للتمثيل.

ولا ريب فى أن من يضطلعون بهذا الأمر، يستحقون أعظم الثناء لما يبذلون من جهد وما يهدفون إليه من غرض، غير أنى أخشى أن يكون فى اتجاههم هذا — من الناحية الفنية — خطورة ضارة بمستقبل المسرح المصرى لسبب يسير جداً، هو أن من أهم شروط المسرحية الصحيحة أن تستمد حياتها، بل وجودها ذاته من البيئة التى تعيش فيها. وربما يكون من غير الممكن دائماً توفر هذا الشرط فى المسرحيات المقتبسة.

صحيح أن بعض المقتبسين يحاولون التوفيق — بمهارة لا تنكر — بين أمانة الاقتباس وأمانة القياس على البيئة المصرية، أو مراعاة اختيار الموضوعات التى تدور حول حقائق إنسانية عامة، إلا أن هذا جميعه — فيما أرجح — لا يكفى لإيجاد المسرحية المثلى التى تعبر تعبيراً فنياً من جميع الوجوه عن حياتنا. ومجرد دوران الموضوع حول حقيقة إنسانية عامة لا يعنى صلاحيته لكل مسرح صلاحية مطلقة فى كل زمان ومكان؛ فإن لكل أمة فى كل عصر على حدة فهماً خاصاً، وتكييفاً خاصاً، وتناولاً خاصاً للحقائق الخالصة.

ثم إن تجربة الاقتباس — فى رأى كثيرين — ليست تجربة جديدة مجهولة النتائج حتى يجوز تركها لعوامل التطور، وإرجاء الحكم عليها بعد التمرس بها فترة كافية. فقد سبق الرومان مثلاً أن اقتبسوا بعض مسرحياتهم من التراث الإغريقى العظيم؛ فلم يؤد ذلك إلا إلى الإخفاق وانصراف الشعب عن المسرح إلى الملاهى والمراقص ذات الاسكتشات الهزلية العابثة. كذلك سبق للإنجليز فى القرن الثامن عشر أن اقتبسوا من بعض المسرحيات الكلاسيكية؛ فأدى ذلك أيضاً إلى نفس النتيجة أى الإخفاق، وسميت مسرحياتهم Pseudo Classic دلالة على ما اتسمت به من جمود ومجافاة لأذواق الجمهور ... الخ.

وقد يقال إن هناك محاولات ناجحة فى النقل عن موضوعات قديمة، مثل موضوع (أوديب)، ولست أزعم أن الذين حاولوا هذه المحاولات قد أخفقوا، ولكنى أزعم أن الاستيحاء شىء والاقتباس شىء آخر. وأن نجاح من نجحوا فى هذا الصدد، إنما يرجع إلى تناولهم الموضوعات القديمة تناولاً فنياً جديداً فى كل شىء، وخاضعاً لفلسفتهم هم فى الحياة لا فلسفة المنقول عنهم. فالنقل الفنى على هذا النحو ليس اقتباساً، بل هو تجديد وابتداع وخلق جديد. ومع هذا فإن بعض النقاد المحدثين يضعون هذا النوع من المسرحيات فى المرتبة الثانية بالنسبة للمسرحيات التى تتصل بالواقع ومشكلاته اليومية اتصالاً مباشراً كمعظم مسرحيات برنارد شو.

ولكن ما العمل ومسرحياتنا المصرية المؤلفة ليست كلها ذات قيمة فنية كبرى؟.

أعتقد أننا ينبغى أن نبدأ قبل كل شىء بترجمة المسرحيات الأوروبية الممتازة بلا أدنى تعديل. وما أظن أن فى هذا أى ضير علينا ولا على مؤلفينا ولا على مزاجنا الفنى. فالمعرفة

فى ذاتها سيادة . وأوربا التى ندعو إلى الأخذ عنها قد أخذت من قبل — وما تزال — عن الثقافة الإغريقية وغيرها . وحديثاً ترجمت انجلترا مسرحيات إبسن النرويجى ؛ فعرفت بذلك أصول ومقومات المسرح الواقعى ، وكان هذا من أسباب نهضتها المسرحية والاجتماعية الحديثة . وإنه ولو أن انجلترا كانت متهيئة للاتجاه الواقعى وقتئذ من تلقاء نفسها وبحكم ظروفها ، بل لقد نحا RobertSon مثلاً نحواً واقعياً فى كوميدياته ، وكتب كوميديا (Society) قبل ترجمة مسرحيات إبسن إلى الإنجليزية ؛ بل قبل أن يبشر بعبقريته السير (إدمون جوس) بنحو ثمانى سنوات ، إلا أن (روبرتسون) هذا لم يكن يتناول مشكلات المجتمع بالتغلغل فى أعماقها والبحث عن أسبابها وعللها كما فعل إبسن ، وإنما كان يصور مظاهر الحياة السطحية ، وكان — بوصفه معبراً عن الفيكتوريين — يدعو إلى توطيد النظام القائم دون معالجة مساوئه . ولعل فصل الخطاب فى هذا الموضوع ما يقوله أحد كبار النقاد : « لقد كان من الواضح أن الظروف كانت مهيأة لظهور طراز أدبى جديد ، ولم يكن فى انجلترا — فيما يبدو — من أوتى القدرة على ابتداع مصطلحات فنية تتلاءم مع المواضعات الجديدة . كان من الممكن فقط التكهن بضرورة مجىء من سيملأ هذا الفراغ ، وقد جاء هذا الفنان المرتقب من شمال أوربا ، وهو (هنريك إبسن) الذى قدر له أن يكون القوة العظمى فى إحياء المسرح الحديث » .

وواضح أن مجيئه لم يكن إلا عن طريق ترجمة آثاره الفنية ، وكذلك أخذت فرنسا وأوربا كلها عنه .

المهم أننا مادمنا نعرف شدة حاجتنا إلى الفن المسرحى فلا بأس من أن نتكئ على الغربيين الممتازين فى إخلاص وتواضع وصبر بترجمة مسرحياتهم ومحاولة هضمها وتمثلها حتى نتابع خطاهم إلى المرحلة التى وصلوا إليها .

وربما يكون الاعتراض الوحيد على هذا أن الآداب عامة والمسرحية منها خاصة مرتبطة بحياة الشعوب التى صدرت عنها ارتباطاً يصعب معه تعمق غيرهم فى فهمها وهضمها ، وترجمتها ترجمة تحتفظ بروعتها ، وهذا صحيح إلى حد بعيد ، وليس من المعقول أن ندعو المصريين جميعاً إلى حذق اللغات الأجنبية ، بل إلى العيش مدة كافية فى أوربا ، لكى يتسنى لهم أن يتذوقوا حياتها فيتذوقوا آدابها ومسرحياتها ؛ غير أن الذى يعوضنا أن فى الثقافة الرفيعة رياضة عقلية هى الهدف الأول لكل تربية صحيحة ، كما أنها عميقة الفهم لكل ما يمس الإنسان ، وأن الأدب المسرحى لا يكون ممتازاً إلا إذا توافر فيه العنصر الكونى Universality من جهة ، وكان إنسانى الصبغة من جهة أخرى .

وكذلك مسرحيات أوربا التى ندعو إلى ترجمتها ، بشرط أن نعمل أقصى ما يستطاع عمله لفهمها فهماً صحيحاً عميقاً ، فـكل فهم صحيح عميق هو — كما يقول دبهاميل — علك المفهوم .

من أجل ذلك كله أرى أن فرقة المسرح الحديث وفقت فى تقديم ما قدمته من مترجمات « موليير » أكثر مما وفقت فى تقديم مسرحيتها الأخيرة المقتبسة .

عبد الفتاح البارودى

عشاق فى المنـــــفى

تمثيل : إنجريد برجمان ، وجوزيف كوتن (سينما راديو)

للأستاذ نجيب عزب

مهمة النقد :

كل عمل إنسانى لا بد وأن يصدر عن فكرة ، وهذه الفكرة قائمة توجه الإنسان سواء كان واعياً لها ، مدركا لماهيتها ، أو كانت فكرة اجتماعية سائدة متعارفاً عليها يتبعها الفرد فى غير ما وعى(1) . وإذا كانت هذه الحقيقة مقررة عليها طبيعة الأشياء وواقع الحياة ، فلا بد أن نخلص بالنتيجة الآتية : وهى أن العمل الفنى — مهما تجرد — فلا بد أن يكون له موضوع ، وتكون له فكرة تتضح وتظهر ، أو تكمن وتستتر وفقاً لدرجة وعى صانع العمل الفنى .

وإذ كان الموضوع وما ينطوى عليه من فكرة هو جزء من العمل الفنى ، بل هو جوهره ، فإن مهمة النقد تتركز بادىء الأمر فى الغوص وراء هـذا المضمون ، وفى البحث عن الجوهر الفكرى الكامن فى طياته ، ثم إبرازه وتعميقه بالمناقشة . ولا يخرج هذا عن كونه بحثاً موضوعياً صرفاً . ثم تتركز النهاية بالبحث عن الشكل الذى اتخذته الفكرة أو المضمون ، وعما إذا كان هذا الشكل متناسقاً متوافقاً مع الموضوع ، معبراً عنه . ثم تقدير درجة هذا الجمال الفنى التعبيرى ... وموضوع النهاية هـذا تتداخل فيه العوامل الذاتية والمزاج الخاص .

والنقد الذى ينحو هذا النحو الموضوعى يصبح قوة بنائية فعالة فى نشر المعرفة ، إذ يشارك العمل الفنى فى مضمونه الفكرى ، ويتعاون معه ويوجهه ، فيخرج النقد بذلك عن الاتجاه الذى يكتفى فيه بالجانب الشكلى ، ويقتصر على الناحية الذاتية الخاصة ، مما يصبح معه مجرد مجموعة آراء تقديرية بحتة ، تنقصها صفة التحديد واليقين . لذلك تجىء تعبيرات هـذا النقد غامضة مجردة . ومرد غموضها أنها تعكس أحاسيس ذاتية خاصة بالناقد ، لا يشارك فيها القارىء — ولهذا قصدنا أن نحدد معنى النقد وماهيته ، لتوجد الأساس المشترك بيننا وبين القارىء .

قصة الفيلم :

لكى نبحث عن الجوهر الفكرى للقصة لا بد أن نعرض وقائعها . وهى تبدأ بأن « سايس الخيل » فى أحد القصور الإقطاعية القديمة يهيم بحب سيدته الأرستقراطية ، وهو حب صامت لا يجرؤ على الظهور وتحدى الأوضاع الطبقية . ولكن العاشق ينفجر على حين فجأة صائحاً :

— هذا يقتلنى ! .

فتقرر الفتاة الأرستقراطية الزواج به . ويطاردهما شقيق الفتاة فتقتله . ويتحمل الزوج وزر جريمتها فيزعم أنه هو القاتل مضحياً بنفسه . ثم « تصدره » انجلترا مع غيره من المجرمين إلى استراليا ليتاح لها أن تستورد فيما بعد المواد الخامة . أو « بلغة السياسيين لتعمل على تموين استراليا وتعميرها » . وتتبعه الزوجة المرفهة خاوية الجيب معذبة الضمير . ولا يلبث الزوج أن يثرى وتفرج عنه الدولة تحت ضغط الحاجة إلى التعمير على ألا يعود إلى الجريمة ، وتعيش

(1) إن ما قررناه آنفاً لا يعرض للجدل الفلسفى حول مصدر الفكرة ، أهو ماديات الحياة أو مثالياتها .

معه الزوجة في قصر ريفي منعزل وقد فر منهما المجتمع .. وتفاجأ إذ تراها على الشاطئ تسلك مسلكاً غريباً يستثير فضول المشاهد ، ثم يتضح أنها مدمنة على الشراب . وأن مديرة المنزل التي تطمع في اجتذاب الزوج هي التي تدفعها إلى الخمر ، وتعمل على إخفائها برأس قتيل من الوطنيين ... ولا يمضي وقت حتى يحل صديق قديم من الوطن يأخذ على عاتقه مهمة علاج الزوجة . فيقدمها إلى المجتمع ويراقصها ، وهنا تثور غيرة الزوج بتحريض الخادم ، فيطرد الصديق ، بل تنطلق رصاصة من مسدس الزوج فتصيبه ... وفجأة تكتشف الزوجة أمر الخادم فتطردها . وتنسب إلى الزوج جريمة الاعتداء على الصديق ، وتتحرك جريمته القديمة ، فتعترف الزوجة بحقيقة ما كان تنقذه . ولكن الزوج يكذب هذا الاعتراف ويعود إلى التضحية بنفسه ... ثم يأتي الصديق اتهام الزوج الذي يخرج عنه ، ولا تتحرك جريمته القديمة ، ولا يتأيد اعتراف الزوجة ، ويعيشان من جديد وقد أدركا الطمأنينة وراحة البال .

جوهر القصة هو الفردية :

وليس ثمة شك أن هذا الحشد الهائل من الحوادث والمفاجآت قد استغرق فكر القارئ . وإذا كان من واجبنا — طبقاً للخط الذي رسمناه — أن نتقصى الفكرة الثورية في زحمة هذه الحوادث ، فقد تكون تضحية الزوج . على أن هذه الفكرة بمثابة قديمة لا تحتاج إلى هذا الجهد الفني والمال الطائل لإثباتها . والدعوة إلى التضحية وتكريم معناها هي دعوة إلى فكرة مجردة لا تتحدد إلا وفقاً لمضمونها ... وموضوعها هنا مجرد علاقة حب شخصية بحتة ! أي علاقة فردية خاصة ... ونحن لا ننكر طبيعة الأشياء ، فإننا نقول بوجود الفردية ، ولكننا ننكر الفردية العارية المنطوية على ذاتها . لأن الفرد اللائذ بفرديته إنما يعيش مع الأفراد في المجتمع ، ويشبع معهم في علاقات اجتماعية ، وهذه العلاقات الاجتماعية حقيقة مقررة تقع في تلازم غير منفصل عن الجانب الفردي الخاص . واقتصار القصة على الجانب الفردي قصور أي قصور ...

انعدام الجانب التحليلي :

هذا القصور عن الجانب الاجتماعي هو ما حل بالقصة ، وهوى بها إلى مجرد مغامرات فردية ، انعدم فيها الجانب التحليلي ... لقد صور الفلم عاشق الفن في عزلة تامة عن المجتمع . وكان ممكناً أن يتناول تحليل هذه العزلة ، أهي نقمة المجتمع على المجرم السابق ، أو أن صحيفة السوابق الصفراء تطارده كما في قصة البؤساء . ولكن القصة تجيب بأن التعرض لماضي الشخص غير لائق في مجتمع قد صدرته أفعالها من فالش مجرميها ! .

وكان ممكناً أيضاً أن تتناول القصة موضوع الزواج غير المتكافئ ، وأثر الفوارق الطبقية كتفسير لنقمة المجتمع على العاشقين ... ولكن القصة تفاجئك بأنه مجتمع جديد مكون من قوم لم يحترموا التقاليد ! .

الإثارة الشعورية :

وإذا ما أغفلت القصة الجانب الاجتماعي التحليلي — أي الناحية الفكرية العقلية — وتحللت إلى مجرد مغامرات فردية ، فإن الإثارة الشعورية تصبح طابع القصة . فهي تصور لك عاشقة الفن كالأحدوثة تمضي كالشبح حتى تستثير الاهتمام والفضول ، وإذا الأمر لا يعدو كونها مدمنة على شرب الخمر ! وأن مديرة المنزل تخيفها برأس قتيل !! ..

خطورة هذا الاتجاه :

وبغض النظر عن التفاهة والسذاجة اللتين تمج بهما مغامرات القصة ، فقد رأينا أن في مضمونها الذي أوضحناه اتجاهاً عاماً يعصف بالعمل الأدبي والفني ، وهو اتجاه خطير لأنه يجرد العمل الفني من الجوهر الفكري ، ويحيله إلى عملية فنية شكلية مجردة . ولهذا ينعزل الفن عن واقع الحياة في تصور يقصيه عن الموضوعية ، ويحشره في الدائرة الفردية الذاتية المنعزلة .. ويتحول في إثارته المشاعر إلى مجرد ملهاة وترويح عن النفس . لا فرق بينه وبين وحي الكأس والحلم المخدر .

نجيب عزب

من بريد الثقافة

مشكلة غير خطـــيرة !...

كتب الأستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد بك في عدد (الثقافة) رقم (٦٣٢) عن (مشكلة خطيرة) وضع أساس البحث فيها وجال بقلمه جولة أثبت فيها عدة حلول لها، وانتهى إلى حل أخير ارتاحت إليه نفسه ودعا إلى الأخذ به ... وبعد ذلك قبل الباحثين أن يبحثوا عن حلول ...

ولا شك أن الأستاذ قد تناول المشكلة (الخطيرة) مازحاً ... ولست أمزح حين أقرر هذا ، فالدليل لدى ، وهو بين يدى سأقدمه للقراء في السطور التالية مناقشاً حلوله :

والحل الأول الذى تبادر على قلمه إعلان إباحة (الحشيش والأفيون) زراعة واستصداراً وتعاطياً ، إذ لو تم ذلك لصار ثمنهما (أقل من ثمن الحلاوة الطحينية) ... !! ثم يعرض حضرته عن هذا الحل لأنه لا يعجب القارئ ، وكفى .. ! ونحب أن نقول إن هذا الرأى وإن كان يخفض من القيمة الثمنية للمخدر فإنه لن يؤدى حتما إلى التقليل من انتشاره فضلاً عن اختفائه ، بل النتيجة العكسية ألزم ، وأقرب ، فمساحات زراعته تتسع ، ورغم ذلك فلن يبور ، فإن هذا الشعب النهم الذى يلوكه إنما يلوكه عن طيب خاطر ، وما يبذله فيه من ثمن إنما يبذله عن نفس راضية ، وكم يسره أن يدفع في القطعة ذات الجنيه خمسين قرشاً أو أقل ، وكم يسره أيضاً أن يجد الحرية التى تبيح له تعاطيه في كل وقت ، ولن تكون المشكلة حينئذ للزارع والبائع والمهرب ، وإنما لقوة الشاب وعقل الشيخ وحكمة الكهل ... !

إن المدمن ليرضى بالقطعة صغيرة ضئيلة بحكم الحظر المفروض وحكم ندرته ، فإذا أبحنا زراعته وبيعه وجد الفرصة سانحة ليلوك منه ما يشاء بأبخس ثمن ، وحينئذ يتقدم التهريب المجرم ليجرب ذلك الذى أقامت له الحكومة وزناً وسنت له قانوناً ثم عجزت عن منع انتشاره ! وما دام يحوقه والسم كثير ، والثمن رخيص ، والمال حاضر ، ولم يبق ... ذلك إلا أن نفرح لاستقبال الرقدة التى لا يقظة تعقبها ، والانحطاط الذى لا رقى يتلوه ، والإدمان الذى لا توبة تمحوه ! ...

والحل الثانى : أن نرفع الأمر (إلى هيئة الأمم فنشكو الدول التى لا ضمير لها ...) ولكنه يعرض عنه أيضاً لأن (هيئة الأمم في شغل عن مثل ذلك الأمر بما هى فيه من هم في سبيل الدفاع عن مصالح الأمم الكبرى) ، وكنت أحب ألا يعرض عنه لهذا السبب فحسب ، بل لأنه سيضطر إلى أن يشكو بعض الدول الشقيقة التى تربطنا بها أكثر من علاقة وأكثر من ضمان ، والتى لم تشأ أن تمنع تدفق الملايين على جيوب كبرائها وملاكها بمنعها لحركة التهريب ، تلك صلة القربى والرحم ، تلك الصلة التى لا نريد بها عقوقاً حين نرفع الأمر إلى هيئة الأمم ، والتى نكسب من ورائها الكثير ! نكسب هذا (الانسجام) الذى يرفه به عن نفسه فقيرنا التعوس حين يأنس إليه أمثاله من المكدودين التعساء يجذبون أنفاس الحشيش لينسى كل لذعة السوط ، وصفعة الكف ، وركلة القدم ! نكسب — بل قد كسبنا — هذه الدماء التى ساعدتنا على صونها ولم تتركها تهدر في عنفوان السيل ، وتنبثق في جبروت الينبوع على أرض الأعداء والأصدقاء . لا ... لا ... يا سيدى الفاضل ... أنسيت صلتنا بالشقيقات الرفيقات ... !

وهناك الحل الثالث : تشديد العقوبة على المهربين والتجار والمدمنين وجعلها الإعدام ، ويعرض عنه أيضاً لأن عقوبة الإعدام (عقوبة كريهة) لا لأنه لو فعل لكان عليه أن يعدم عشرة ملايين على الأقل ... ! ونحب أن نتساءل : لم أجهد الأستاذ نفسه في سرد هذه الأسباب المرفوضة لما رأى هو ولما رأى غيره ... ؟ ولم لم يقصد إلى حله الأخير دون أن يشق على نفسه وقته ... ؟

أما ذلك الحل الأخير فهو الحكم (على المهربين والتجار الذين يجلبون هذه السموم بالسجن إلى أجل غير مسمى ، ولا نخرجهم من الاعتقال إلا بعد أن يجربوا كل ما يضبط معهم من الحشيش والأفيون) ، وتعقيبنا على هذا أن نفعه أكثر من ضرره ، فالذين يضبطون قلة ، وسجنهم مدة طويلة يتيح لهم فرصة طويلة يعيشون خلالها طاعمين كاسين

(منسجمين) خالية أذهانهم، دافئة أحلامهم، قريرة عيونهم، وماذا يرجون بعد من لذائذ العيش وطيباته .. ؟ فإن كان يعني حضرته أن يتابعوا التدخين دون انقطاع فما معنى قوله (فإنهم سيبقون في السجن أمداً طويلاً) ؟ ...

أما هذا الفقير الذي يهش للسم ويبش فإنه سيجد في دار السجن خير بديل من داره، وطعاماً خيراً من طعامه وشراباً نظيفاً خيراً من شرابه، وفراشاً — لا أقول خيراً من فراشه، فما للبائسين فراش ! ورعى الله الحكومة فلكأنها كانت تنظر إلى هذا الحل بعين التفكير حين أخرجت الشبان الجامعي، إذ لا شك أنه سيعول أمر هؤلاء الذين يقضون عطلاتهم بين الجدران والكوى والسقوف.

هذه هي الحلول التي ارتآها الكاتب الفاضل، فهل بقي شك بعد بخاص حضرات القراء في أنه تناول الموضوع مازحاً غير جاد ؟ وهل لحضرات المفتشين أن يؤمنوا معي بأن المشكلة غير خطيرة، لسبب بسيط هو أن باعثها لم يكن سوى المزاح ...

وأما هذه السموم فدعوها ... دعوها فهي من حق الشعب ... من حق هؤلاء العبيد الذين يجدون فيها المعين الوحيد على استساغة ذل النفس، وكد الفأس ... دعوها ولا تمنعوها، فإن فعلتم فقد منحتم الحساسية للأعصاب الباردة والنشاط للعواطف الخامدة، والحياة للجذوات الخامدة، ويومها (سيحس) الكل ! وويل (للبعض) إن أحس الكل ...

أحمد قاسم أحمد

إلى الأستاذ علي أدهم

قرأت ثقافة هذا الأسبوع فقفيت في مقال الأستاذ علي أدهم (خواطر عن الحياة والموت والخلود) هذه الفقرة: « وإنما هي أمل يرفرف فوق مخاوفنا وأحزاننا سواء كان مصدره إرادة حيوية مستولية علينا أو تفاؤل بالمزاج والطبيعة لاصق بنا أو يقين وعقيدة ... ».

فهل تفاؤل ويقين وعقيدة معطوفة على أمل أو معطوفة على إرادة ؟ إذا كان العطف على الأولى فإننا في حاجة إلى جواب لجملة (سواء كان مصدره إرادة ...). وإذاً فأرى المعنى مستقيماً هكذا. (... سواء كان مصدره إرادةً حيوية مستولية علينا أو تفاؤلاً بالمزاج والطبيعة لاصقاً بنا أو يقيناً وعقيدة ...)

مصطفى إسماعيل الجزائري

بين الفنان والجمهور

الأستاذ عبد الفتاح البارودي

ألاحظ أن الجمهور الذي يقبل على الروايات التي تقدمها فرقة المسرح المصري الحديث معظمه من شباب الجامعات الذين لم القدرة على تذوق فنها الرفيع، وأنهم يُطرون مديرها ومخرجها حضرة الأستاذ زكي طليمات ويثنون على ممثليها ثناء عاطراً ..

وإني لأتساءل: هل جمهور هذه الفرقة يشكافأ وجمهور موليير الذي كان يفخر به حيث قال رداً على نقاده الذين كانوا يقررون أنه لا يأبه للقواعد: « إنكم مضحكون بقواعدكم التي تدهش الجهلاء، وتوقرون بها أسماعنا في كل يوم — أليست القاعدة الكبرى أم القواعد أن يرضى الناس عن عملك ؟ » أي أنه كان يتخذ جمهور النظارة مقياساً صحيحاً للحكم على المسرحية.

أما الأستاذان زكي طليمات وعباس محمود العقاد فهما لا يأخذان بحكم الجمهور — فقد سئل الأستاذ العقاد: لماذا لا تنزل إلى مستوى الجمهور ؟ فقال: ولماذا لا يصعد الجمهور إلى ... — وهو رد له وجاهته. فإن الفنان أو الكاتب عندما يؤلف أو يخلق أثره الفني لا يدخل في حسابه رضاء الجمهور أو سخطه، وإنما هو يعلو بفنه وحسب. ولكن الفن صلة بين الفنان وبين جمهور النظارة أو القراء أو المستمعين — فالصلة بين الفنان وجمهوره هي البشارة الأولى لنجاحه.

ورأيي أن التقدير المؤسس على الفهم والتذوق الصحيح هو الذي يسر له الفنان ويبتهج له، وإن كل أديب أو فنان يهمه أن يكون لأدبه ولفنه صدى في نفس جمهور يقدره حيث يجب التقدير. وقد سأل الأستاذ محمود تيمور بك الحاضرين في ندوة مجلة « الفن » عن آخر رواياته في نفس الجمهور، أي أنه يعلق أهمية عليه.

محمد عبد الوهاب صقر

الثقافة

العـدد ٦٣٧
١٢ من مارس ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

قـالـوا

- أغنى الناس الرجل المقتصد ، وأفقر الناس البخيل .
(شاطور)

- تاريخ البشر يتلخص في كلمات ثلاث : ولد ، فشقى ، فمات !..
(أ . فرانس)

- لو لم يكن الإنسان غارقاً في الرذيلة لما وجد راحته الكبرى في نقد رذائل غيره من بني البشر .
(لاروشفوكولد)

- أتريد أن تنجو من نقد النقاد ؟ إذاً فكن لنفسك ناقداً قاسياً . والجاهل من يعجب دائماً بعمله .
(بوالو)

- الحياة النشيطة القوية ، المفعمة بالآلام الكثيرة والأفراح ، هي الوحيدة التي تستحق أن يحياها إنسان .
(س . ا . كيبرى)

- العالم كتاب إذا ماخطونا فيه خطوة قلبنا صفحة . ومن لم يقرأ سوى صفحة واحدة فهو لا يدري شيئاً !.
(لامارتين)

- أعظم الأفكار والأعمال إنما يوحى بها القلب .
(فوفنارج)

- يحصل الشك للإنسان في ذات الله وهو في حال الصحة فإذا مرض مرضاً قاسياً ، ترك عشيقته ونادى القسيس .
(لابرويير)

- إني من أعظم المؤمنين بالحظ ، فقد أدركت أنني كلما اجتهدت ، زاد نصيبي منه .
(ج . بيك)

- الصدق سهل على كل أحمق . ولكن الكذب المحكم يحتاج إلى ذكاء ، لايقدر عليه أغلب الذين يصدقون في قولهم .
(بتلر)

- الشعراء أقل الناس عقلاً ، وأقبحهم شكلاً ، وأجدرهم بالاحتقار !..
(مونتسكيو)

- الشعر هو ذلك الفن الذي يخلق من المعاني الواضحة أشياء أخرى غامضة مغلقة على أفهام أغلب الناس .
(لاموت)

جمعها : محمد عبد الحليم محمود

مطبـــوعات

وصلتنا في بريد الثقافة هذا الأسبوع المطبوعات التالية :

كتب :

التجريد في الفن ، للدكتور محمود البسيوني ، المدرس بمعهد التربية العالي للمعلمين — كنوز الأجداد ، تأليف الأستاذ محمد كرد علي — أمراضنا ومشاكلنا ، تأليف إحسان تمر — في أصول النحو ، للأستاذ سعيد الأفغاني .

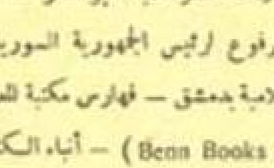
مجلات :

النذير — أنجلترا اليوم — التعاون — علاج النفس — الأسبوع — البصائر — الميزان — المؤتمر — الشرق والغرب — النيل .

نشرات :

برامج الإذاعة العربية من محطات باريس ولندن — صوت الهند — أنباء إسبانيا — نشرة المكتب الثقافي المصري بإنجلترا — نشرة أنباء اليونسكو — صورة من الكتاب المرفوع لرئيس الجمهورية السورية من جمعية الهداية الإسلامية بدمشق — فهارس مكتبة المعهد البريطاني ومكتبة بن (Benn Books) — أنباء الكتب الإنجليزية لشهر فبراير .

(م . . .)



الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٣٧ — الاثنين ٤ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠ — ١٢ من مارس سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

سلطان مراكش

للدكتور أحمد أمين بك

فرنسا أول دولة تثور للمطالبة بحقوق الإنسان ، وتقتل مليكها لأنه وقف في سبيلها . وفرنسا التي تدعي أنها رمز الحرية والمساواة والإخاء ، وفرنسا التي انهزمت أمام الألمان في حروبها هزيمة منكرة وذاقت مرارة الاستعباد ، وفرنسا التي طردت من سوريا ولبنان ، فرنسا هذه تريد أن تقاوم مركب نقصها بالاستعلاء على مراكش المسالمة ، فتعتدي على حقوق سلطانها ، وتريد أن تذله بكافة الوسائل : فتعزل وزراءه ، وتحاصره ، وتمنعه من صلاة الجمعة ، ومن اتصاله برجاله ، وتقذف القنابل على فاس ومساجدها ومستشفياتها ، فتقتل الأهالي الساكنين الوادعين ، وتعامل المغرب كله في القرن العشرين معاملة فظيعة شنيعة ، تحت سمع هيئة الأمم وبصرها ، فتكون بذلك مستعمرة أسوأ من انجلترا في الهند وإيطاليا في طرابلس وهولندا في أندونيسيا ؛ والعالم الإسلامي يرى هذا كله فيسكت ويخنع ، وكلما ازداد خنوعاً ازدادت فرنسا طغياناً ، كحمار الجاحظ إذ رأى صاحبه يحمّل حملاً عليه ثقيلاً . فقال الجاحظ: لو تمنّع هذا ما حُمّل عليه ! إن بيد المسلمين أن تذل فرنسا كما أذلتهم . وهذا برنامج إذلالها :

أولاً : أن يرفض حاملو نياشينها من المصريين حملها ويعلنوا ردها إليها مستكبرين شامخين .

ثانياً : أن تُغلق كلُّ دولة إسلامية المدارس الفرنسية وتحرّم على المصريين الدخول فيها ، وتفرض ضريبة كبرى على من يتعلمون فيها كما فعل العراق .

ثالثاً : أن تغلق المعاهد الفرنسية ولا تمدها بأية إعانة ؛ كالمعهد الفرنسي بالقاهرة ، والمعهد الفرنسي في دمشق .

رابعاً : أن تقاطع تجارتها وكل معاملة مالية معها ، حتى تحسّ بسوء عملها وجريمة يدها .

خامساً : أن تقيم تمثالاً للجنرال جوان وتطالبه بالتنكيل بالمغاربة أكثر مما فعل ؛ لأن المسلمين اعتادوا ألا يستيقظوا من نومهم إلا بالمدافع والقنابل .

سادساً : ألا يحضر المسلمون دعوات الفرنسيين وحفلاتهم إلا إذا كانت هذه فرصة للتشهير بالفرنسيين في أعمالهم وجرائمهم .

سابعاً : أن يخجل الذين يتشدقون بالفرنسية من أن يستعملوا هذه اللغة في مخاطباتهم لأنها لغة متوحشين ، أسوأ من لغة البرابرة والهمج ؛ وأن يخجل المسلمون والمسلمات من أن يتباهوا بالملابس الفرنسية و « الموضة » الفرنسية

السمو بالنفس

لا تَمَلَّنَّ منك نفساً أبيه
وترفَّع عن النفوس الدنيّه

لا تُجارِ الدهماء ، واسمُ سمواً
فهو ما استطعت بين الرعيه

السموَّ السموَّ في كل شيء
لا تلذَّ بالسرى ولذ بالسريه

لا تكن ميت الضمير وضيعاً
ولتكن نفسك القوية حيه

إن تمت ماجلاً بعزة نفس
لك أجدى من الحياة الشقيه

إنما العيب أن تعيش ذليلاً
لا تلذَّ بالحضيض لا بالعليه

إنما العيب أن تعيش على الغير —
من الناس لاجئاً «بتكيه»

إنما العيب أن تموت بنفس
منك آمالها الكبار ضحيه

إنما العيب كله أن تكون
ميت النفس ميتة أبديه

ليس عيباً على امرئٍ دائباً كان —
تداعت آماله الذهبيه

إنما العيب في الجبلة انقياد
واذلال النفوس غير الأبيه

محمد عثمان محمد

لأنها شعار الوحشية وليست شعار المدنية .

وهناك طرق كثيرة غير ذلك يهدي إليها التفكير ؛ ولعل الجامعة العربية تنشد ولو مرة واحدة ، فنرى في اجتماعها القادم لفرنسا العين الحمراء ، وتلق عليها درساً يتعظ به سائر المستعمرين ...

ليتصور القارئ قلب الوضع ؛ فيفرض أن أمة مسلمة عدت على أمة مسيحية ونكلت بها هذا التنكيل ؛ فماذا كان يكون الحال ؟ لقد كانت الأمم النصرانية تقوم قومة واحدة وتنادي بالويل والثبور ، وتصد المعتدي وترميه بالعصبية والوحشية ، ولكن اعتداء أمة نصرانية كفرنسا على أمة مسلمة كمراكش يقابل بالإغضاء والصمت ، كأن لم يحدث شيء ، وجولة قصيرة من فرنسا ثم يسدل الستار ، كأن لم يكن شيء . وتاريخ فرنسا في المغرب سلسلة من هذه الأعمال الوحشية من جانبها ، وإغضاء تام من جانب الأوربيين والأمريكيين .

لقد طالما أباحوا الحشيش والأفيون ، ومنعوا الكتب والمجلات التي تفتح العقل وتحيي الشعور ، وطالما كتبنا في ذلك من قبل .

لقد سمعت اليوم صراخاً يدوي في عنان السماء من حناجر طلبة الجامعة ؛ فقلت لهم : وماذا يغني الصراخ بين حجرات الجامعة ؟ اخرجوا إلى السفارات الأجنبية ، وإلى سفارة فرنسا على الخصوص فأسمعوها صراخكم — إن العمل هو الذي يؤثر ، لا القول وحده .

تعدو الكلاب على من لا ذئاب له
وتتقي صولة المستأسد الضاري

تهاجمنا صحف فرنسا إن رفعنا أصواتنا ؛ فهي تعنف المظلوم ولا تعنف الظالم ، وتقول للصارخ لم صرخت ولا تقول للقاتل لم قتلت ؛ ليتق الله الكتاب فليهبوا أقلامهم لنصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم ، ومقابلة الشدة بالشدة والحزم بالحزم .

أيصنع هذا في سلطان مراكش في القرن العشرين ولما يجف حبر كتاب حقوق الإنسان الذي أخرجته هيئة الأمم ، ومن قريب أخرج كثير من كتاب الفرنسيين الكتب العديدة في الحرية والإخاء والمساواة . إنا لنقرأ غير ما يفعلون ، ونرى عكس ما يقولون ، والله بصير بما يعملون .

أحمد أمين

عبد العـــــزيز فهمى

مات عبد العزيز باشا فهمى ، وأقل ما يوصف به أنه رجل بكل ما للكلمة من معان : عزة نفس ومروءة وشجاعة ونجدة .

لست أتعرض لمقدرته القانونية الهائلة ، فرجال القضاء أقدر منى على ذلك ، ولكنى أعرفه لغوياً فى المجمع اللغوى ، له الذوق العالى والنظر الصائب ، يقول فيحسن ما يقول ، ويستشهد على ما يقول إما بآية قرآنية أو ببيت من المعلقات ، أو بنحو ذلك من شعر قديم . ويأبى على نفسه أن يحضر المجمع قبل أن يقرأ محضر الجلسة ويصححه ، ويقرأ جدول الأعمال القادمة ، ويكوّن فيها رأياً ، وهو حر تام الحرية فيما يعرض . تعرّض للنقد اللاذع فيما اقترحه من كتابة الحروف العربية بالحروف اللاتينية ؛ فلم يأبه لنقد الناقدين وعيب العائبين ، واستمر فى تأييد رأيه بالحجج والرد على مخالفيه حتى كان له من ذلك كتاب قيم .

وأخيراً رأى رأياً فى تعدد الزوجات ووجوب الاقتصار على زوجة واحدة ، وخالف فى ذلك كل من سبقه . ونشره فى مجلة الثقافة فى شجاعة .

وله فصول عديدة فى الكرم وعفة النفس وحياة الضمير ؛ وقد أبى رحمه الله أن يبقى فى المجمع بعد أن أعجزه المرض فاستقال . فلما رفض استقالته اعتزازاً به أبى على نفسه أن يأخذ مليماً واحداً من مكافأة المجمع ، وكان يدعونى كل شهر إلى منزله ويسلمنى المبلغ لأتصرف فيه فى أى وجه من وجوه الخير ، وظل على هذه الحال إلى أن مات رحمه الله .

وأعرف له صديقاً ثرياً عثر به الدهر ، فزاره يوماً وترك تحت مخدته ظرفاً فيه شيك بمبلغ خمسمائة جنيه من غير أن يقول له شيئاً يجرح شعوره . إلى كثير من أمثال ذلك .

وكان لو شاء للمال لملك من آلاف الأفدنة ، ولكنه زهد فيه ولم يترك إلا أربعين فداناً فى بلده . هذا إلى حسن حديث ، وذاكرة قوية تحفظ الحوادث فى ساعتها ويومها وزمنها . ولما انغمس فى السياسة برّز فيها كما برز فى القضاء ، واحتمل ويلاتها بثبات ، فقد كان أحد رجال الوفد الذين سافروا مع سعد باشا إلى باريس ؛ فلما اختلف عدلى وسعد رأى حقاً أو باطلاً أن الحق فى جانب عدلى ، فأعلن فى صراحة انضمامه إليه وخروجه على سعد ، وهو يعلم ما يجره ذلك عليه من تألب الناس وغضب الجماهير ، فلم يأبه بكل ذلك وقال رأيه فى شجاعة ، واحتمل من الجماهير الإهانات المتوالية ، فكان يكتفى بأن يقول : أنا عبد العزيز فهمى .

وكان يرى أن الدستور المصرى أوسع من جسم المصريين فصرّح فى شجاعة أنه ثوب فضفاض ، ووضع دستوراً يعتقد أنه يناسبه ولم يأبه بكل اعتراض ، ووقف أمام حسن باشا نشأت ، وهو من هو فى عزه وسلطانه وصاح به على صفحات الأهرام بمقاله المشهور المعنون « حنانيك يا نشأت » . ولما أقيم احتفال القضاء الوطنى رمى بخطبته أول قنبلة على القضاء المختلط ، ثم تتابع الناس بعد ذلك حتى أزاحوه عن مصر .

وكم له من مواقف فى الجمعية التشريعية والبرلمان ، يحفظها له التاريخ فى زهو وإعجاب ، وحتى فى المسائل الدينية كان حراً شجاعاً . ركبت معه سيارته مرة فى طريقنا إلى مصر الجديدة ، فقلت إنى متعجب من جرأتك الدينية فى مثل هذه السن ، ثم أدركت غلطتى ؛ فقال : إنى سألقى الله وأنا راض ؛ فإذا حاسبنى قلت له إنك منحتنى عقلاً وضميراً وقد تصرفت حسب عقلى وضميرى لم أحد عنهما ؛ فلست مسئولاً عما يصدر منى وفق تعاليمهما . فعلمت أنه ماض حتى فى المسائل الدينية واعتذرت له عن كلمتى .

وكان وفياً لا يعلم بمرض صديق حتى يعوده ولا بموت أحد يعرفه إلا عزاه ، ولا خبر حدث لصديق له إلا هنأه ؛ وأذكر أنه مات له زميل من زملائه ، فذهب إلى بيته وفى يده ظرف به مائتا جنيه ، وطلب من أهله أن يستعينوا بها فى حوائجهم ، وما زال يذهب إليهم كل يوم جمعة يسألهم عن مطالبهم حتى أعياه المرض ؛ ولما علم بمرضى فى الإسكندرية وكان هو نفسه مريضاً انتدب أحد الموظفين فى المجمع

(البقية على الصفحة التالية)

نجـــــم غرب

... وخرجت مصر بالأمس تودعه ، لم يبق فيها شيخ ولا شاب إلا أحس بلوعة الوداع ، فهو ثالث ثلاثة صرخوا في وجه المحتل أن اخرج من مصر ، ورد للمصريين حريتهم ، فتزلزلت الأرض من تحت قدميه ، واندلع بركان الثورة الفائر . وطأطأ المحتل رأسه لهذه الحمم الوطنية ، فنكص على عقبيه وأسلس وسلم .

ولم يعد الفلاح في حقله والصانع في مصنعه والتاجر في متجره ، كل هؤلاء لم يعودوا يعيشون غرباء في أرض الآباء والأجداد ، فقد كتبوا بدمائهم حق حريتهم فيها ، وحق وجودهم عليها وقطافهم ثمارها . ولم تنفع المحتل مدافعه أمام هذه القلوب المؤمنة ، بل أخذت هذه القلوب تستعذب الموت وتسترخصه ، بل تطلبه وتؤمله ، فإما حياة مع عيشة كريمة ، وإما الموت الزؤام .

وتحقق للمصريين الميثاق الكريم ، ورأوا رأي العين أن ليس هناك ما يستطيع أن يحول بينهم وبينه ، وأخذوا ينعمون بما يملكون : الفلاح بحصيد أرضه ، والصانع بعمل يده ، والتاجر بثمرة تجارته . وأتما الجامعة ، وأتيح لثالث الثلاثة أن يرى على أرض مصر جامعات أربعاً .

وعاد إلينا الخير والبركة في كل مناحي الحياة ، فلم تعد البقرة تدر للمحتل ، وأخرجت الأرض حبها وبقلها ، وآتت أكلها ، وطعم المصريون ونموا ، وفقهوا وعلموا ، وتحلى جوهرهم بألوان المعرفة والثقافة .

وهكذا انبثت أشعة الشعل الثلاث : سعد زغلول ، وعلي شعراوي ، وعبد العزيز فهمي ، في كل كوخ وكل قصر وكل عقل وكل قلب ، ولبث نداء ربها شعلتان وبقيت الثالثة تضيء ، متوهجة في ساحات الفقه والقانون ، ومعاهد اللغة والأدب ، فقد ترجم عبد العزيز فهمي إلى اللغة العربية مدونة جوستنيان في الفقه الروماني ، ونادى بصعوبة الكتابة بحروفنا العربية وضرورة الكتابة بالحروف اللاتينية ، وألف في ذلك بحثاً طريفاً يعبر عن توقد ذهنه وبهجة فكره .

وكان مشغولاً دائماً بمصر حفياً بالحركة العقلية والأدبية بها ، يهتم بكل جديد يصدر ، ويؤرقه أن يقرأ كتاباً لم يستوعب صاحبه المادة التي ينبغي أن يعدها ، فإذا قرأ كتاباً ممتازاً أرسل إلى صاحبه يشكر له عمله وإحسانه . ولم أر شخصاً يقرأ في سرعة كما يقرأ ، فما تقع عينه على صفحة حتى يحصي أفكارها عداً . يقرأ الصفحات في ثوان ، ويناقش آراءها رأياً رأياً في يقظة وحدة عقل ونشاط ذهن ، لعله يصلح خطأ أو يرم ثغرة أو يسدد فكرة .

وكل من سعد بحديثه يعرف أنه كان عناية إلهية لمصر الحديثة ، وهي عناية كانت تريد أن ترسم لها المثل الأعلى في السياسة والفكر . وكان كل يوم يدفع إلى الأمام في سبيل الثروة العقلية واللغوية وتشجيع المؤلفات الأدبية ، وكأنما أرصد عبد العزيز فهمي نفسه لينقل إلى مصر وقلوب أهل مصر دم الحرية والفكر الحديث . وما زال ينقل ذلك في كتاباته وأحاديثه بكل ما أوتي من حول وقوة ، وكأنه يخشى أن تجف الأرض وأن تجدب العقول وأن تصوح الأزهار ...

فبوركت هذه اليد ، وبورك هذا الجثمان الطاهر ، وسلام عليه يوم ولد لمصر ويوم مات . وفي ذمة الله ، وفي سجل الخالدين .

شوقي ضيف

وطلب منه أن يذهب إلى الإسكندرية ليلقى عطفه وعنايته في الشفاء .

وما زال وهو في سرير مرضه الذي مات فيه يقرأ ما يهدى إليه من كتب ، ويطلب من أصحابها إليه ويناقشه في وجوه الصواب والخطأ ، ويبين له رأيه في صراحة ، كما يوالي قراءة محاضر جلسات المجمع ويتتبعها ويسايرها . فإن قلنا إن مصر مدينة له فيما وصلت إليه في حسن سمعة القضاء وفي مركزها السياسي ، وفي مقامها — لم نكن بعيدين عن الصواب ...

رحمه الله رحمة واسعة كفاء ما قدمه لأمته .

أحمد أمين

آلبـــــوم معرضي

عن حقوق الإنســـان

للأستاذ ساطع الحصري

إن آخر المؤلفات التي نشرتها « منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة » المعروفة باسم « اليونسكو » هو الألبوم المعرضي عن حقوق الإنسان .

لقد أتمت مديرية اليونسكو طبع هذا الألبوم في ١٠ ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩٥٠ ، ووزعته على مختلف أقطار العالم ؛ مشفوعاً ببطاقة ترجو بها عدم نشر شيء عنه قبل ١٥ فبراير (شباط) ١٩٥١ ، وذلك — على ما يظهر — لكي يضمن وصوله إلى جميع الجهات ، فيكتب عنه في جميع البلاد في وقت واحد تقريباً .

ولما كان الموعد المحدد بالبطاقة قد حل الآن ؛ رأيت أن أكتب هذه الكلمة إتماماً لما كنت كتبته عن المنظمة المذكورة قبلاً (مجلة الثقافة ٢٧ مايو سنة ١٩٤٨) .

* * *

يتألف الألبوم من ١٤٣ لوحة في حجم كبير (٣٢×٤٨) إن ١١٠ من هذه الألواح معدة للعرض على الجدران ، وأما الـ ٣٣ الباقية منها فتتضمن الشروح المتعلقة بالألواح المذكورة مطبوعة بحروف كبيرة ، وقد قسمت كل لوحة من هذه الألواح إلى ثلاثة أقسام أفقية ينفصل بعضها عن بعض بسهولة كبيرة ، لكي يوضع كل واحد منها تحت اللوحة التي تخصه عند العرض على الجدران .

والصور المطبوعة على الألواح كثيرة ومتنوعة ، والغرض منها هو بيان التقدم الذي أحرزه البشر في سبيل تقرير « حقوق الإنسان المختلفة » منذ أقدم العصور الحجرية والمعجمية .

صور الرجال الذين خدموا تقرير حقوق الإنسان بكتاباتهم أو بأعمالهم ، صور الوثائق المتعلقة بتقرير مختلف حقوق الإنسان في مختلف أدوار التاريخ ، صور تقارب بين الأحوال التي كانت سائدة قبل تقرير كل حق من الحقوق ، وبين الأحوال التي صارت تسود بعد تقرير ذلك الحق .

وقد كتب المدير العام لليونسكو — جيمس توريز بوده — مقدمة وجيزة وبليغة استهلها بالكلمات التالية :

إن بيان حقوق الإنسان الذي صدر في ١٠ ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩٤٨ ... يتضمن منهج عمل لكل إنسان ؛ لأن :

« كل فقرة من فقراته تدعو إلى بذل الجهود ، وكل سطر من سطوره يصدر حكماً على التواكل ، وكل عبارة من عباراته يستنكر جزءاً من ماضينا الفردي أو القومي ، وكل كلمة من كلماته تحملنا على التأمل والتدبر في أحوالنا الحاضرة ... » .

وبناء على كل ما ذكرته آنفاً : نستطيع أن نقول إن فكرة الألبوم المعرضي كانت طريفة ومفيدة جداً ، وهي تستحق بهذا الاعتبار التقدير والاستحسان .

* * *

هذا كان انطباعي الأول عن الألبوم عندما انتهيت من إلقاء نظرة عجلى عليه بغية تكوين فكرة عامة عنه .

ولكن ... عندما أخذت أتعمق في درسه مع إمعان النظر في كل لوحة من لوحاته المتتالية ، والتأمل التام في كل كتابة من كتاباته التفسيرية ... صدمت ببعض الصور وبعض الكتابات التي عدلت آثار هذه الانطباعات الأولى ...

إن أولى الصدمات أتتني من اللوحة الحادية والعشرين ، لأن هذه اللوحة تحمل عنواناً مثيراً : « حقوق الإنسان في

خطر » ، وتبدأ بالعبارة التالية :

« هذه كانت فتوحات البشر في ميادين حقوق الإنسان عندما استولى هتلر على الحكم في ألمانيا ... » .

إن هذا العنوان ، وهذه العبارة ، والعبارات التي تليها ... أثارت في ذهني سلسلة طويلة من الأسئلة الانتقادية وأعادت إلى ذاكرتي ما كنت كتبته عن المزالق والمنحدرات التي تكتنف طريق اليونسكو من جراء تبعيتها إلى هيئة سياسية ، لا تعبأ كثيراً — بالحق والحقيقة — بحكم طبيعتها الأساسية .

هل كانت حقوق الإنسان في حرز حريز من الأمان ، قبل أن يتولى هتلر الحكم في ألمانيا .

أظن أنه ليس في استطاعة أي مفكر منصف أن يرد على هذا السؤال بالإيجاب إلا إذا اعتبر « عالم المستعمرات » خارجاً عن الكرة الأرضية ، و « أهالي المستعمرات » خارجين عن نطاق شمول مفهوم الإنسان .

وذلك لأنه لا يمكن لأحد أن ينكر الحقيقة التالية بوجه من الوجوه .

أن حقوق الإنسان كانت مهضومة ومهدرة في المستعمرات قبل أن يتولى هتلر الحكم في ألمانيا .

صحيح أن هتلر تعدى على مبادئ حقوق الإنسان في هولاندا ، وظلم الهولانديين بالاستيلاء على بلادهم ، ولكن الهولانديين أنفسهم ، أما كانوا يتعدون على حقوق الإنسان في أندونيسيا ، قبل قيام الحكم الهتلري ، أما كانوا يظلمون الأندونيسيين منذ مدة طويلة ؟ ثم ألم يعودوا إلى سيرتهم الأولى ، واستأنفوا نشاطهم في ظلم سكان تلك البلاد عقب تخلصهم من احتلال الألمان ؟ .

صحيح أن هتلر تعدى على مبادئ حقوق الإنسان في فرنسا ، وظلم الفرنسيين بالاستيلاء على عاصمتهم ، واحتلال بلادهم ، ولكن ... هؤلاء الفرنسيين أنفسهم هل كانوا يراعون مبادئ حقوق الإنسان في مستعمراتهم الكثيرة ؟ أما كانوا يتعدون على الدوام على حقوق الإنسان في جميع تلك المستعمرات قبل ظهور هتلر بمدة طويلة ؟ ثم ، ألم يستأنفوا هذا التعدي فيسترسلوا في الظلم والعدوان في مختلف البلاد التي كانوا يحتلونها ويستعمرونها ؟ ... من الجزائر وسوريا إلى الشرق الأقصى عقب تحرر بلادهم من احتلال النازيين ...

فكيف يسوغ لجنة علمية أن تغض النظر عن كل ما كان يجري وما زال يجري في المستعمرات فتقول : إن حقوق الإنسان تعرضت إلى خطر ، عندما تولى هتلر الحكم في ألمانيا .

أنا من الذين يعتقدون أن نظام الاستعمار لن يدوم طويلاً ، وأنه سيزول من الأرض كما زال قبلاً نظام الاسترقاق ، لا أدري متى ، ولا أقطع بعد كم من الفظائع والضحايا ؛ ولكني لا أشك في أن هذا النظام سينتقل إلى أغوار التاريخ ، في مستقبل ليس ببعيد بعداً كبيراً .

وإذا قامت عندئذ — أي بعد ما تجتاز البشرية هذه المرحلة الهامة من التقدم — هيئة علمية ، وأرادت أن تؤلف ألبومات جديدة عن حقوق الإنسان — أسوة بما فعلته منظمة اليونسكو الآن — فسترى من الضروري أن تخصص عدداً غير قليل من ألواحها وصورها إلى عرض واستعراض فظائع المستعمرين في مختلف المستعمرات .

وأنا لا أشك في أن المؤرخين المدققين والمفكرين المحايدين الذين سيبحثون عندئذ إذا ما لاحظوا ما كتبته اليونسكو على هتلر في الألبوم الذي نشرته أخيراً ... سيعلقون على ذلك قائلين :

« إن هتلر عمل في أوربا ما كان يعمله الأوربيون في مستعمراتهم » .

« إنه عامل الأوربيين كما كانوا هم يعاملون سكان المستعمرات » .

وعلى كل حال أنا أعتقد أن اليونسكو تباعدت عن جادة الحق والحقيقة ، وانحرفت عن مناحي البحث العلمي بربطها قضية حقوق الإنسان بقضية النازية بالأسلوب الذي التزمته في ترتيب الألبوم المعرضي عن حقوق الإنسان .

* * *

عندما واصلت تقليب لوحات الألبوم — بعد اللوحة التي تكلمت عنها — توقفت عند اللوحة ٤٦ أيضاً لأني وجدت في هذه اللوحة صورة شمسية لم أفهم شيئاً عن دلالتها

ومغزاها في الوهلة الأولى ، صورة تشبه إلى حد كبير الصور التي تقتطع من الأفلام السينمائية ، وتعرض في مداخل دور السينما للإعلان عن الأفلام والدعاية لها : عربة زبالة يدفعها رجل ، اختفى وجهه وراء جندي واقف بجانبه . وهناك جندي أو شرطي يبتسم ، وفي الجهة الثانية في الشارع رجل وشرطي يتكلمان ...

ما معنى هذه الصورة ؟ ما هو محلها بين الصور المتعلقة بحقوق الإنسان ؟ إني لم أفهم ذلك ، إلا بعد مراجعة ألواح الشروح ، إذ وجدت هناك الشرح العائد إلى هذه الصورة :

« يهودي ، يجبره النازيون على نقل الزبالة » .

إذاً أن غاية مؤلفي الألبوم من طبع هذه الصورة ، كانت إظهار ضرب من ضروب التعدي على حقوق الإنسان

ولكن يجدر بنا أن نسأل هؤلاء : هل هذا النوع من التعدي مما يختص به النازيون دون غيرهم ؟ وهل أن المتعدى عليهم في أمثال هذه المعاملات ، هم اليهود وحدهم ؟ .

إني عرفت الكثيرين من رجال العرب الذين قضوا شطراً من حياتهم في المعتقلات ، وكان بينهم ساسة وصحفيون ومحاميون وأطباء ومعلمون ، وكان بينهم من عرف المعتقلات الفرنسية ومن عرف المعتقلات الإنجليزية ومن عرف المعتقلات الأمريكية . وكلهم كانوا يجبرون على تكنيس المحلات ، وحمل الزبالة ، بل على نقل القاذورات . وقد صادفت أحدهم هذه الأيام وعرضت عليه الصورة المطبوعة في ألبوم اليونسكو ؟ وسمعته يقول ، ضاحكا ومستغرباً : « ياليتنا كنا نحظى بمثل هذه العربة . لأننا كنا نضطر إلى نقل الزبالة والقاذورات في السطول بأيدينا ... » .

إني أدعو رجال اليونسكو إلى القيام بتحقيق بسيط في هذا الشأن ، وأقترح عليهم أن يوجهوا بعض الأسئلة إلى مديري المعتقلات في مختلف الدول الأوربية ، ليستعلموا منهم عن الطريقة التي كانوا يتبعونها في أمر تنظيف المعتقلات ونقل زبالاتها وقاذوراتها . فإنهم لو فعلوا ذلك لعلموا العلم اليقين ، بأن إكراه المعتقلين على حمل الزبالة ونقل القاذورات لهو من الأمور المعتادة في جميع المعتقلات ، الديمقراطية وغير الديمقراطية منها على حد سواء .

ولذلك أسأل مصنفي الألبوم — من رجال اليونسكو — لماذا ، لماذا خصوا بالذكر النازيين واليهود وحدهم في مثل هذه الأمور العامة ؟ .

إني أظن أن التوصل إلى جواب هذا السؤال ، لا يحتاج إلى بحث طويل :

ذلك لأن معظم موظفي اليونسكو من اليهود ، وهؤلاء ينتهزون كل الفرص لدس قضاياهم في كل شيء ، وفي كل محل ، لاستدرار عطف العالم على ملتهم . والجو السياسي الذي يحيط بمنظمة اليونسكو من كل جانب ، جو يفسح مجالاً واسعاً ، لمثل هذه الدعايات السياسية ... مع الأسف الشديد .

* * *

إني كنت قلت في أولى المقالات التي كتبتها عن اليونسكو ما يلي : « كان يجب علينا أن لا نربط مقدراتها بمقدرات هيئة سياسية مثل هيئة الأمم الحالية لأن هذه الهيئة السياسية محكومة بطبيعتها لأن تكون مسرحاً تتنافس وتتخاصم وتتقاتل عليه الأطماع الدولية بشتى الصور ، وتتوالى عليه مشاهد المخادعات السياسية بأبشع الأشكال ، وتختنق خلالها أصوات الحق والحقيقة بأفظع الأساليب . فكان على الهيئة التي أخذت على عاتقها مهمة خدمة السلام عن طريق التربية والعلم والثقافة أن تقدر هذه الحقيقة حق قدرها ، وأن تتباعد عن هذا المسرح السياسي كل الابتعاد » ...

كما كنت قلت في خاتمة المقالة المذكورة ما يلي :

« أختم كلامي بدعوة مدير اليونسكو إلى التدبر في أمثال هذه الأمور والتبصر في عواقب هذه الاتجاهات ... والسعي وراء تبعيد أعمال التربية والعلم والثقافة عن نطاق تأثير الأطماع والمخادعات السياسية » .

ألا يحق لي أن أكرر هذه الكلمات الآن بشدة أعظم من ذي قبل بعد أن كشفت النقاب عن الأغراض السياسية التي لعبت دورها ، حتى في الألبوم المعرض و الذي طبعته منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة عن حقوق الإنسان » .

ساطع الحصري

أزمة الأدب في مصر

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

يزداد ذوو البصيرة في الأمم المتحضرة اقتناعاً بما للخاصة أدبائهم الثقافية من أثر فعال في مضمار تقدمهم الحضاري، ويبدو ذلك الاقتناع واضحاً من خلال ما تنشره صحفهم من الاستنجاد بأهل الرأي واستنهاضهم لدعم نهضة بلادهم الفكرية ... ومن تزايد عدد المعارض التي تقام لكتبهم؛ فالصحف اليومية وغير اليومية في فرنسا وإيطاليا تعود بين حين وحين إلى شن حملات، قد تطول أسبوعاً أو أكثر، على ما تسميه كساد السوق الثقافية، فهي تطلع على الرأي العام في كل طبعة من طبعاتها بذلك العنوان الضخم (أزمة الكتاب الفرنسي) أو (محنة الكتاب الإيطالي) وتدبج المقالات الضافية عن أهمية ما تصدره المطابع من كتب ثقافية، ولا تجد صعوبة في إقناع قرائها بأن تلك الكتب هي أثمن ذخر يملكونه. وقد أخذت سائر الصحف الأوربية تحذو حذو الصحف الفرنسية والإيطالية، وترقب حركة نشر الكتب والمجلات الثقافية، وتشرك قراءها في ذلك بما تنشره من إحصاءات سنوية تدل على ما يعتور سوق الإنتاج الثقافي من كساد أو رواج، وتحاول بكل ما تملك من قوة الإقناع أن تحمل الرأي العام على زيادة الاهتمام بكتب بلاده.

أما اهتمام حكومات تلك البلاد وهيئاتها الثقافية بهذا الأمر كبير الخطر، فيبدو في معارض الكتب الرسمية وغير الرسمية مما تقيمه في بلادها وخارج بلادها، وتعلن عنه أضخم إعلان، وفي المباريات الثقافية الكبرى التي يتسابق كبار الأدباء والعلماء والفنانين إلى مضمارها ...

هذا وغيره يحدث في البلاد المتحضرة التي قد لا تحتاج كتبها وآياتها الفنية إلى هذه الوسائل لتبلغ ما تصبو إليه من رواج ... أما في مصر التي تحاول النهوض واللحاق بغيرها من الأمم المتحضرة، فيكاد اهتمام أهلها بنهضتها الأدبية والفنية ينعدم، رغم حاجتها إلى تعويض ما فاتها أيام ركودها الماضي الطويل، وتخلفها عن الركب الحضاري الذي أوغل في التقدم.

أخذ أولو القدرة والسلطان يمدون يد العون في العهد الأخير إلى النوادي الرياضية والاجتماعية والخيرية، بل امتدت رعايتهم إلى بعض جمعيات تستهدف المنفعة العامة من طريق تنمية موارد البلاد، أو توطيد صحتها العقلية بين الأجانب؛ ولا اعتراض على ذلك فإنه قمين بالاحتفال والإعجاب ... ولكن الذي كنا نتمناه أن تمتد تلك الرعاية فتشمل نهضتنا الثقافية الناشئة المفتقرة إلى ما تتوكأ عليه.

ويبدو لنا أن كل واحد من أهل الفكر في مصر يدرك أثر النهضات الثقافية في دعم النهضات الحضارية الكبرى والإفساح لها في مجال الارتقاء والنماء، بل إن هناك من ذهب فهمه إلى أبعد من ذلك فلم يفته أن تقدم الإنسانية وليد التأثير المتبادل، ورد الفعل المتوالي بين تقدمها الثقافي وتقدمها المادي، وقد أصبح المثقفون حتى تلاميذ المدارس يعلمون أن نهضة كل أمة تقاس في سجل التاريخ بازدهار آدابها وفنونها وعلومها، وأن عصر نهضتنا الثقافية الكبرى هو عصرها الذهبي، وهو الذي يتوج من تولوا أمرها خلاله بأكاليل المجد، فقيمة الثقافة العامة إذاً لم تعد خافية، ولكن إيماننا بها لم يتأصل ووعينا لخطورة شأنها لم يكتمل، أو لعل طريقها الشاق وطول عهد إثمارها صرفنا عنها إلى توخي ألوان أخرى من النجاح أدنى قيمة وأهون وسيلة.

ولذلك أهملها كبراؤنا حين أفاقوا وحاولوا أن يؤدوا بعض واجبهم فيعاضدوا مختلف نواحي النشاط المثمر في مصر ...

وفي السنوات الأخيرة تنبهت وزارة المعارف إلى ضرورة الاهتمام بنهضتنا الثقافية، وتهيئة الظروف الصالحة لنمائها، فأنشأت إدارة الثقافة العامة لتضطلع بهذه المهمة الخطيرة، وسنعنى بناحية واحدة من نواحي نشاط هذه الإدارة، وهي ناحية تشجيع التأليف، فهي التي تتصل بموضوع هذا المقال، وهي التي تنال من اهتمام الكتاب والقراء أوفر نصيب ...

تصطدم هـذه الإدارة الثقافية بعقبتين ، أولاهما طبيعية يصطدم بها كل عمل جديد تعوزه تجارب سابقة يهتدى بهديها ، ويبنى على أساسها . أما العقبة الثانية فهى انعزال تلك الإدارة عن المدارس نتيجة لتنازع الاختصاص ... ويدرك القائمون على أمرها ألا نجاح لهم فى عملهم إلا بتذليل هاتين العقبتين .

ومما لا مراء فيه أن التأليف ينشط فى العصر الحديث وينمو على قدر إقبال القراء عليـه . وشكوى المؤلفين فى مصر تنحصر فى كساد سوق الكتب الثقافية ، فلو راجت تلك الكتب عنـدنا رواجاً مربحاً ، وأتيح للمؤلفين أن يتفرغوا للكتابة دون أن يضطروا إلى مزاولة أعمال أخرى فى سبيل الرزق ، تستنفد جل وقتهم ، وترهق فكرهم وأعصابهم ، لكان فى ذلك أى تمهيد لنهضة فكرية حقة . وقد كثر الخوض فى ذلك الموضوع ، وتعددت فيه الاقتراحات وبسطت الحلول ... وفى زعمنا ألا حل له قريب المجنى إلا فى الاهتمام الجـدى بحث تلاميذ المدارس على قراءة الكتب الثقافية ، وغرس حب الاطلاع فى نفوسهم منذ الصغر . وقد قيل : إن الذى لا يتعود القراءة ، ولا يتذوق لذة الاطلاع حتى سن المراهقة فإنه لن يتعودها ولن يتذوقها بعد ذلك أبداً ! وأحسب أن الإدارة العامة للثقافة قمينة بأن تناط هذه المهمة بها ما دامت هى المعنية بالنشاط الثقافى ، ورفع مستوى التأليف . ويكفى لذلك تكليفها بالإشراف على مكتبات المدارس وحركة الاطلاع بها ...

وقد يبدو هذا الحل سهلاً ميسوراً . فترغيب التلاميذ فى الاطلاع المتواصـل لا يلبث أن يخلق لنا جيلا مشغوفاً بالقراءة ، حرياً بتحقيق الآمال ، ومن ثم تروج سوق التأليف ، وتتيسر الظروف التى تعين على ظهور كبار الكتاب . ولكن الأمر أكثر تعقيداً مما يبدو لأول وهلة ، فإن استثارة اهتمام المدرسين به على كثرة مشاغلهم ، وثقل أعبائهم ، ليست قريبة المنال . ثم إن المدرسين لا يستطيعون تحقيق الغاية المرجوة فى هـذا الميدان وحدهم ، حتى ولو بذلوا فى سبيل تحقيقها قصارى جهدهم ، إذ لا بد لتوفيقهم فى تلك السبيل من الظفر بعون أهل الطلبة ، ولا بد من إقناع هؤلاء بأن تثقيف أبنائهم ثقافة عامة لا يقل أهمية عن تحصيل العلوم المدرسية ، والفوز بالشهادات العلمية أياً كانت درجاتها . فالطالب الذى يعنى بتوسيع معلوماته العامة وتعميقها يتزود للنجاح فى حياته بما لا تغنى عنه مناهج تعليم مدرسته أو جامعته ! ولا يغنى بذل النصح للطالب ، إذ لا بد لأهله ، فضلا عن ترغيبه فى الاطلاع ، من تعويده على اقتناء الكتب الثقافية ، وتخصيص مبلغ لتلك الغاية يعينه على توفير مكتبة خاصة به .

على أنه إذا أمكن تذليل هذه الصعاب جملة لا تهدأ من الدعاية ، فستواجهنا حينذاك المشكلة الرئيسية ، وهى الظفر بالكتب التى تزود التلاميذ بالثقافة المنشودة ، وتحبب إليهم التنمى فى القراءة والاطلاع . فأين مثل هذه الكتب ؟ نحن لا نحب أن نغمط حق أحد ، فلا شك أن فى مصر كتاباً يفخر بهم الشرق ، ولكنهم لا يتجاوزون عدد أصابع اليد ، وكتبهم لا تسد الفراغ الذى نعانيه . ثم إن أكثرها لا يصلح للغاية التى نتوخاها . وهذا ما يجعل مشكلتنا أشبه بالحلقة المفرغة ، أو بمسألة الدجاجة والبيضة وأيهما كان أسبق إلى الوجود . فقد قلنا فى أول هذا المقال إن التأليف لا يزدهر إلا فى بيئة تقبل على القراءة . ونحن نرى هنا أنه لا إقبال على القراءة إلا إذا ازدهر التأليف ، فكيف الخروج من هذا المشكل ؟ .

أحسب ألا مخرج منه إلا أن نولى وجوهنا شطر الثقافة الغربية ، والأدب العربى القديم ، فنقتبس منهما ما يحقق بغيتنا . وقد يعترض بأن هذا القول لا يأتى بجديد ، فبين أيدى الطلبة فيض من الكتب المنقولة عن الغرب ، أو المختارة من أدبنا القـديم . ولذلك لا بد من أن نزيد رأينا تبياناً .

إننا لم نأت فيما كتبناه بآراء مبتكرة ، ولكننا حاولنا أن نستفيد من خبرة الأمم التى مرت بمثل المرحلة التى نمر اليوم بها ... لقد أدركت تلك الأمم أن الآداب والعلوم والفنون لا تزدهر إلا بالإفساح لها فى مجال التقدم ، وأن الكشف عن أروع آفاق الفكر للتلاميذ خير وسيلة لتحقيق ذلك الأدب . ولذلك عادوا إلى روائع كتبهم يصوغونها من جديد فى صيغ متنوعة تناسب كل منها مرحلة من مراحل أعمار التلاميـذ ، وحرصوا على صبها فى قوالب تجتذبهم

(البقية على الصفحة التالية)

بمناسبة كتاب « إلى ولدي » لأحمد بك أمين*:

١ - رسائل الآباء إلى الأبناء

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

وقع لي كتاب « إلى ولدي » للأستاذ أحمد بك أمين، وهو سلسلة من المقالات نشرت في مجلة الهلال خلال العام المنصرم تحت عنوان (رسالة إلى ولدي)، فأتمها الكاتب الكبير وجمعها مضمومة بين دفتي كتاب، واختار لهذا الكتاب عنواناً وجيز اللفظ رحيب المعنى، وتركه بين أيدي القراء، لينال حقه من الجزاء.

وقد ذكرني هذا الكتاب بكتاب سبقه في عالم التأليف العربي، ومن إنتاج هذا القرن العشرين بعنوان « من والد إلى ولده » للمرحوم أحمد — لا محمد — حافظ عوض بك، كما ذكر خطأً في مقدمة كتاب أحمد بك أمين.

فالكتابان في اللغة العربية لا ثالث لهما، والكاتبان رحم الله أولهما وبارك في عمر ثانيهما، قد التقيا على غاية واحدة في ظروف بنوية تكاد تكون واحدة... أما الغاية فهي أن يزود كل منهما ولده بما يراه أقوم سبيل إلى تنشئته تنشئة صالحة، على أساس من الخلق والمعرفة.

وأما الظروف البنوية فقد قضت أن يكون لحافظ بك عوض ولد في الجامعة الأمريكية ببيروت، حين لم تكن لمصر جامعة تفي برغبات المتطلعين من أهلها إلى المعرفة، وشاء حب الوالد لولده أن يزوده برسائل لم يكن يقدر لها أنها ستنشر على الناس كتاباً بعد ذلك؛ وشاء بر الولد بوالده أن يضن بهذه الرسائل الخاصة، وأن يجمع اللاحقة منها إلى السابقة، وأن يؤلف منها كتاباً، وأن يقدم الولد بنفسه هذا الكتاب إلى القراء، فيتلقفه الآباء والأبناء بحرارة، ويتقبلونه قبولا حسناً، ويجدون فيه لوناً جديداً من التأليف المستقل لم يعرفوه في لغتهم، ولم يعهدوه إلا في رسائل متفرقة في كتب الأدب سنعود إليها عما قليل...

ويشجع هذا النجاح صاحب الرسائل — حافظ عوض بك — فيطبعها هو هذه المرة طبعة ثانية، ويقدمها هو بنفسه إلى القراء بدلاً من تقديم ولده لها في طبعتها

(*) نشرته مكتبة الآداب بالجماميز في ١٩٠ صفحة من القطع المتوسط

وتأسرهم فلا يستطيعون التحول عنها. وقد لقيت الكتب التي تصلح للشباب أكبر قسط من عنايتهم، لأن شخصية الإنسان تتكون في تلك السن. ولذلك يجب أن نقف عند تلك الكتب، وأن ندرسها، ونترجمها إلى العربية ما يناسب شبابنا. وكلمة « يناسب » تحتاج أيضاً إلى شرح. فالكتاب المناسب في زعمنا ليس هو الذي يرضي ذوق القارئ صياغة فحسب، ولكنه لا بد أن يطرق مواضيع تهمه، ويتعرض لشا كل تعنيه أو تشبه مشا كله، ويعبر عن خوالج من نوع خوالجه. فإذا لم يكتمل كل ذلك للكتاب، فإن القارئ لا يمكن أن يتعلق به التعلق المرجو حتى ولو أعجب به أو رضي عنه.

ولذلك كان اختيار كتب مترجمة أو مقتطفة من الأدب العربي لتزويد مكتبات التلاميذ والطلاب بها أمراً ليس بالهين. فهو يحتاج إلى سعة اطلاع، وإلمام بنفسية التلاميذ، وإدراك لاتجاهاتهم الفكرية وتطورها. وهذا ما لا يتوافر لفرد أيا كانت كفايته. ولذلك وجب تكوين لجنة من كبار أدباء مصر وعلمائها للاضطلاع بهذه المهمة التي نحسبها حجر الزاوية في نهضة مصر الحديثة.

محمد مفيد الشوباشي

الأولى ؛ ويسأل الله أن ينتفع بهذه الرسائل كل ناشئ ويافع من أبناء هذا الوطن العزيز .

كما قضت الظروف على الأستاذ أحمد بك أمين أن يكون له ولد يتزود من التعليم الجامعي في انجلترة ، وأن تطلب مجلة « الهلال » إلى الوالد الكبير أن يكتب سلسلة من المقالات بعنوان رسالة إلى ولدي ؛ فيستحضر الوالد ولده في ذهنه عند كتابة هذه الرسائل لمجلة « الهلال » .

وهنا يبدو أول مفترق للطريق بين المرحوم أحمد حافظ عوض وبين أحمد بك أمين ، فالأول كتب الرسائل فعلاً إلى ولده المتغرب في سبيل العلم وخص بها ولده ، ولم يستحضره في ذهنه حين كان يكتب ، وإنما كان الابن حاضراً .. والثاني كتب الرسائل إلى ولده على مرأى ومسمع من الناس ، ولعل الناس قرأوها في مجلة الهلال قبل أن يقرأها الابن في انجلترة ، ولعل الأب لم يخص ولده بهذه المنشورات رسالة رسالة ، وإنما اكتفى بأن يطلع الابن عليها منشورة في المجلة ...

ويبدو ثاني الفروق بين الكتابين الوحيدين ، والعلمين الفردين في الأدب العربي كله ، أن رسائل الوالد الأول — أعني المرحوم أحمد حافظ عوض بك — قد نشرها الابن في كتاب قدمه هو بنفسه ضناً بنصائح والده . وأما رسائل الوالد الثاني — أعني أستاذنا أحمد بك أمين — فقد جمعها الأب بنفسه وقدمها بنفسه ، مؤملا أن ينتفع بها الجيل الحاضر كما انتفع بها ابنه ...

ولم يزعم أحمد أمين أنه ابن بجدة هذا الفن من فنون الكتابة ؛ ولم يدع أنه سار أولاً في طريق لم يسر فيها أحد سواه ، ولكنه أشار إشارة سريعة إلى نصيحة لقمان لابنه وهو يعظه ، وإلى نصائح الخلفاء والملوك لأولياء عهودهم ، وإلى نصائح ولاة الأمور لعمالهم ، كرسالة عمر في القضاء ، وعهد علي بن أبي طالب إلى الأشتر النخعي ، وإلى نصائح حافظ عوض إلى ولده ، فآثر — كما يقول — أن يجري عرامه مراعياً اختلاف البيئة واختلاف العصر ، فلكل عصر نصائحه ، ولكل جيل أسلوبه .

وهذه المراعاة لفروق الزمان وملابسات العصور هي الشيء الجديد في كتاب « إلى ولدي » لأحمد أمين . ولولا ذلك ما عدا الكتاب أن يكون تقليداً للقدماء ، وترديداً للأول من الآراء .

وقد بدت لي فروق الزمان بين رسائل حافظ عوض ، ورسائل أحمد أمين — وهو زمان لا يزيد على ثلاثين عاماً فقط ! — بموقف الابنين صاحبي الاختصاص في موضوع الرسائل ... وهي فروق على ضآلتها ترينا الفرق بين عهد وعهد ، وبين مهد ومهد ... فولد حافظ عوض يحرص على رسائل والده ، ويضم أشتاتها ، ويجمعها في كتاب ، ويكتب هو مقدمته إلى القراء ... وولد أحمد أمين « يعارض في رسائل والده ، بدعوى أن النصائح ليست كبيرة الفائدة ، وإنما أكبر فائدة للبيئة والوراثة » . ويخالف الوالد ولده في ذلك قائلا : « إذا كان للبيئة كل الأثر ، فالنصائح الأبوية بعض البيئة » .

فانظر — رعاك الله — أي فرق بين زمانين ، وأي خلاف بين عهدين ... ففي الربع الأول من القرن العشرين كانت البنوة ضناً بأفكار الأبوة وطاعة وامتثالا ، وفي النصف الثاني صارت البنوة تحرراً في الفكر ومناقشة وجدالا !

على أننا — نحن الآباء — لن نضيق بهذه الحرية ، فمن ضاق بها فإنه يريد أن يقسر أبناءه على زمانه هو ، لا على زمانهم ، وفي ذلك ما فيه من مخالفة طبائع الأمور ، ومجاراة العصور ... والفعل لم يضق أستاذنا أحمد أمين بك بمخالفة ولده له في الرأي ، بل اتسع صدره له كما عهدناه دائماً واسع الصدر بالحياة ، فإذا هو ينشر رسالة ابنه إليه في الكتاب ، وإذا بنا نقرأ في رسالة الابن لأبيه كلاماً لو سمعه الناس قبل زماننا هذا لاسترجعوا الله ! واستعاذوا بالله أن يكون في الأبناء من يوجه الكلام إلى أبيه قائلا : « وكل ما أرجوه أن تستمع إليّ في رسائلي هذه كما استمعت إليك من قبل في رسائلك وتوجيهاتك ... وأن تفتح قلبك لكلماتي كما فتحت قلبي لكلماتك ، وكما يجب على الحكام أن يفتحوا قلوبهم لكلمات الشعوب حتى تتلاشى الدكتاتوريات البغيضة ويصبح للشعب حرية الكلام والتعبير عن رأيه » .

ثم نجد الابن لا يبلغ من الكلام هذا المبلغ حتى يتحدث إلى أبيه عن التجارب التي يجب أن يجربها الشاب بنفسه ،

حتى لا يكون العلم بها عن سماع فلا ينفع ! وإنما يكون عن خبرة فيؤثر ويردع . ويقول لوالده : « ليترك الآباء أبناءهم يجربون ويخطئون ، فهذا مما يقوى شخصيتهم ويزيدهم ثقة بأنفسهم ، ويجعلهم جديرين بتحمل المسئولية الملقاة على أعناقهم » ...

وهذا كلام فيه من البريق ما يخدع ، وفوقه من الطلاء ما يغر ... ولعل الابن النجيب قد نظر فيه إلى قول أبى فراس الحمدانى :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشرّ من الناس يقع فيه

وأشد ما يُخشى هنا أن تكون التجربة من القسوة بحيث لا ينفعها تدارك ، ولا يغنى معها تعلم ، فلا تساوى الدرس الأليم الذى كانت من أجله .

وهنا — بالطبع — لم يسكت الوالد الحكيم — أحمد أمين — عن هذا النطق الجديد منطق أبناء النصف الثانى من القرن العشرين ... ! فرد على ابنه ذاكراً من واقع الحياة أحداثاً لقوم قريبين منه ومنا ، ساقتهم الخطوة الأولى إلى الثانية ، ودفعتهم الزلة السابقة إلى الزلة التالية .

وكم كنت أود أن أعرف رد الابن على أبيه فى هذه الرسالة بالذات ، ولكن الراوية سكت عن الرواية ! ولعله سكوت الرجوع إلى الحق والهداية ...

وهنا فقط أدركت السر فى حرص أحمد أمين على أن ينشر رسائله إلى ولده بنفسه ، وأن يقدمها بنفسه ، وأن لا يدع لولده الكريم سبيلاً إلى التصرف فيها ! وقد أكون مخطئاً فى هذا الإدراك الذى لم يبلغه يقينى ، ولكن وصل إليه حدسى وتخمينى ... فقد يضيق كثير من أبناء هذا الزمان بأمثال هذه الرسائل ، وقد يشوهون جمالها بعرضها على المحكّ ، وتعريضها للمناقشة والشكّ ! ولكن أبناء الزمان الماضى — نضر الله أيامه — كانوا يقدمون أمثال هذه الرسائل ، ولا يرون فيها وجه خصوصية بهم ، وإنما يرون تعميمها حتى يعم النفع ويتم القصد . ومن هنا ضنّ أحمد أمين نفسه بهذه الرسائل ، فاستودعها الزمان ، لكى يكون فيها ذكرى لكل من له قلب وأذنان .

وبمناسبة هذا (الزمان الخالد) أذكر أنه لم يشكّ فى كتاب « إلى ولدى » من اتهام أحمد أمين له ، كما يتهمه الناس جميعاً . فلم يرد الأستاذ الكبير على أن يكون واحداً من الساخطين على « الزمان » ! مع أنه لا ذنب عليه ، ولا عيب فيه ! فالذنب واقع علينا والعيب فينا . وما للزمان بذلك يدان ...

نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيب سوانا

يقول الأستاذ أحمد أمين فى إحدى رسائله إلى ولده : « ودلتنى التجارب على أن عنصر الدين فى الحياة من أهم أسباب السعادة ، ولكنى أصدقك أنه لم يعجبنى موقف زماننا من الدين . ولا موقف زمانك ، فقد كان الدين فى زماننا متزمتاً لا سماحة فيه ، متشدداً لا لين فيه ، مغلقاً لا عقل فيه ! والدين فى زمانكم متضائل لا حياة فيه ، منسى لا ذكر له ، موضوع على الرف لا يؤبه به » . وظلم من القاضى العادل أحمد أمين أن يتهم الزمان بهذا الاتهام ، وينسى — أو يخشى — أن يتهم أهل الزمان . فلم يكن الدين متزمتاً فى زمان ، ولكن تزمت رجاله ... ولم يكن الدين منسياً فى عصرنا هذا ولكن نسيه أصحابه وآله ...

هذه رسائل خطيرة لأنها تثير قضايا اجتماعية ونفسية كثيرة ! ولعلها تعبر فى اتجاهها عن مفترق جيلين ، وملتقى ثقافتين ، ومتنازع تيارين . فالأب هنا — أعنى أحمد أمين — قديم محافظ ككل الآباء ! والابن هنا جديد متحرر ككل الأبناء ... ولكن أحمد أمين يلائم بين القديم والجديد ! ويمزج بين حكمة الشيخ وعبث الوليد ... وهذا هو سر انتفاع ابنه بها ، كما يقول فى مقدمته ، نفع الله بها كل قارئ من أبنائنا الذين هم أكبادنا تمشى على الأرض .

بقيت لى كلمة ... وهو أن مؤرخنا الأدبى الكبير الدكتور أحمد أمين لم يكن بحاجة فى المقدمة إلى ذكر نصائح الخلفاء والسلاطين للعمال والولاة . فتلك باب غير باب نصائح الآباء للأبناء ، وهو ما سنذكره — إن شاء الله — فى عدد تال .

محمد عبد الغنى حسن

الحياة العقلية فى الإمبراطورية العثمانية وفى مصر

فى القرن التاسع عشر

للكاتب الألمانى (كارل بروكلمان)

— ٢ —

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

من أجل ذلك كان الأدب التركى فى تلك السنين يعتمد على دعامة من الشعر الفرنسى المعاصر ، متخذاً كلمة « الفن للفن » رمزاً له وشعاراً . ولم تثمر تلك الفترة غير أحاسيس سداها ولحمتها التشاؤم الوبيل .

وقد التف معظم ذلك الأدب حول صحيفة « ثروت فنون » وهى الصحيفة التى نشرت روايتى « خالد ضياء » وهما : الأزرق والأسود و « الحب المحرّم » . وهما الروايتان اللتان أقامتا — على الرغم من أسلوبهما الذى تنقصه الأصالة — أول الأسس الصحيحة لهذا اللون من الأدب بين الأتراك .

وتبعه فى هذا « أحمد حكمت » الذى استرعى انتباه القراء بقصصه القصيرة التى كانت تدور بصفة عامة حول دنيا الجنيات .

وقد فكت ثورة تركيا الفتاة عن الأدب — فور قيامها — أغلالَ الرقابة وأصفادها . ولم يبق على ولائه لمثل العصر السالف إلا شعراء قليلون . ومنهم الشاعر الفنان « أحمد هاشم » .

وقد ناقش كتّاب الترك العثمانيين فى نشر الآراء الجديدة وإذاعتها كتّابٌ من التتار فرُّوا من روسيا القيصرية . وقد تزعم هذه الحركة « ضيا جوك ألب » الذى اعتبره الخلفاء مصدر خطر عليهم ، ثم نفوه إلى مالطة بعد احتلال استانبول .

وقد ألهب هذا الشاعر نفوس الشباب بقصائده الرمزية وبدروسه فى الجامعة التى أنشئت فى سنى الحرب العالمية . وكذلك بمحاضراته . وغرس فى نفوسهم مثله الوطنى الأعلى الذى عبرت عنه الكاتبة « خالدة أديب » أدق تعبير بروايتها « طوران » .

ولم تقوض الكارثة التى حلّت بالبلاد فى أعقاب الحرب بنيان هذه النهضة ، بل إن هذه النهضة قد لقيت بعثاً جديداً قوياً على أيدى الحكومة الوطنية .

وبينما قد أحدث الاتصال بالمدنية الأوربية فى تركيا ذاتها انقلاباً تاماً فى الحياة الأدبية . فإن المثل العليا القديمة ظلت باقية دهراً أطول فى الممالك العربية ، على الرغم من أن تلك الممالك قد خضعت من قبل للنفوذ الأوربى فى مكابدة وصبر ، أكثر مما كابدت وصبرت تركيا ، ولم يبدأ انهيار تلك المثل العليا فى البلاد العربية إلا تدريجاً ، وذلك فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى .

وقد أعاق انفصال مصر سياسياً عن الإمبراطورية العثمانية ، وهى الإمبراطورية التى ظلت الأمم العربية — ماعدا بلاد شمال إفريقيا — خاضعة لها ، أعاق هذا الانفصال توحيد نهضة الأدب العربى وتقدّمه .

وقد قوى هذه الإعاقة فقدان الأهداف القومية التى تجمع بين المسلمين وبين المسيحيين الأكثر نشاطاً واجتهاداً .

وفى سوريا قام المارونيون — وقد كانت غالبيتهم فى خدمة الإرساليات المسيحية التى قامت بتأسيس الكلية الأمريكية فى بيروت ، ومنافستها كلية « سان جوزيف » اليسوعية — قاموا ينافس بعضهم بعضاً فى إحياء الأدب العربى القديم وإعادته خالصاً نقياً .

وكان هذا الإحياء في عمومه ، وكانت تلك الإعادة في مجملها ، من عمل « ناصيف اليازجي » (المتوفى عام ١٨٧٩ في بيروت) وهو الذي كان في قصائده يهتدي بهدى المتنبي . كما كان في مقاماته يقتفي آثار الحريري .

وقام من بعدهم « مارون النقاش » (المتوفى في بيروت عام ١٨٧١) فحاول أن يخلق لقومه « دراما » عربية على غرار الدراما الغربية . ولكن محاولته كانت عقيما . ولم يجد من يقفو أثره .

وقد أعاقت رقابة المطبوعات التركية نهضة الصحافة في سوريا بنفس الصرامة التي كانت تلاقيها صحافة تركيا في « استانبول » . واستتبع هذا أن كثيراً من الصحفيين السوريين النابهين فضلوا أن ينزحوا إلى مصر للاقامة بها . ولا سيما أن السلطات البريطانية كانت قد أتاحت للصحافة قسطاً أوفر من الحرية .

أما الأدب العربي في سوريا زمان « عبد الحميد » فقد كان يمثله « النبهاني » الذي كان رئيس المحكمة الشرعية في بيروت . والذي كان صديقاً لأبي الهدى إمام السلطان .

وقد أبدى « النبهاني » هذا نشاطاً خصباً ذا ثمر في نشر الأدب العربي على الطريقة الإسلامية القديمة معارضاً بذلك غزو أوربا المسيحية .

أما في مصر فقد وقف المسلمون أول أمرهم وحدهم كحملة لواء الأدب العربي .

أما القبط فقد دخلوا الميدان بعد الحرب العالمية الأولى وتحت الظروف السياسية الحديثة . وقد أنتجت عناية « محمد علي » واهتمامه بالحضارة الأوروبية كتباً مترجمة لا يحصيها العد ؛ وفضلاً عن الكتب العلمية والفنية التي كانت مرغوبة في أول الأمر . فإن الروايات الفرنسية المترجمة قد ظهرت بكثرة . وهي روايات ترجمت في الأعم الأغلب دون مراعاة الاختيار .

وقد طالما سيطرت هذه الروايات على ذوق الجماهير . وقد طالما وقفت حائلاً دون تتبع الصناعات القومية . ثم قامت بعدئذ محاولة منفردة لم تجد من يقلدها . وهي ترجمة سليمان البستاني السوري للالياذة في مقطعات ذات قوافٍ متخالفة . تشعر القارئ بجو الملاحم . ولكنها لم تستطع أن تقترب إلى الجمهور العربي إلا قليلاً .

أما في الشعر فقد اشتهر تقليد زعماء الأدب في عهد العباسيين . وذلك على لسان وزير الحربية « سامي البارودي » الذي نفاه البريطانيون إلى جزيرة سيلان بعد الثورة العرابية . والذي لم يستطع العودة إلى وطنه إلا وقد أدركته الشيخوخة ، وقد بثّ أحزانه — وهو في منفاه — في قصائد مؤثرة ذات أصالة .

وينتسب « محمود سامي » إلى أصل تركي . وكذلك كان يجري الدم الأجنبي ممتزجاً بالدم العربي في عروق شاعر البلاط الخديوي « أحمد شوقي » الذي كفّر عن كلمة طائشة كتبها إلى سيده أثناء الحرب العظمى بأن نفاه الإنجليز إلى إسبانيا . وقد كان « أحمد شوقي » في أدبه لا يحيد قيد أنملة عن الأنماط القديمة . ولم يتخذ لأدبه مسالك جديدة إلا في الفترة التي أعقبت الحرب .

أما في النثر القصصي فقد سيطر جورجي زيدان السوري على الموقف برواياته التاريخية العديدة التي تحدث فيها عن الماضي الإسلامي . وتلك الروايات ، وإن تكن ليست عميقة الغور ، فقد ملكت عقول قرائها بما فيها من بيانات تصويرية في أسلوب سهل . وبذلك مهد الطريق لازدهار هذا النوع من الأدب في فترة ما بعد الحرب .

وقد حاول « زيدان » بعد ذلك أن يجعل قراء العربية يألفون النتائج التي وصلت إليها بحوث الأوربيين في التاريخ والاجتماع .

وفي مصر كانت الدراما تمشي في تقدمها مشياً وئيداً ؛ وذلك لفقدان النماذج التي يمكن احتذاؤها .

وعلى الرغم من المجهود التي بذلت لتمصير التراجيديا الكلاسيكية الفرنسية . فإن النجاح الحقيقي لم تظفر به إلا الروايات الفرنسية الخفيفة .

وقد رجع عثمان جلال (١٨٣٩ — ١٨٩٨) إلى كوميديات « موليير » على أمل أن يجعل تلك الكوميديات مستساغة لدى قومه . وذلك بتطبيق ما جاء بها على البيئة المصرية تطبيقاً موفقاً بمهارة . وقد لجأ هو إلى التجديد الجريء باستعماله اللهجة الشعبية بدلاً من اللغة الكلاسيكية

التي لا تزال تسيطر على المسرح سيطرة تامة . ولكنه لم يظفر إلا بالقليل من النجاح . حتى إن رواياته لم تمثل إلا عام ١٩١٢ ولم تلبث أن اختفت من المسرح مرة أخرى .

وقد ظهر في صحافة مصر الفنية في ماذاتها أسلوب جديد من النثر استعان به سياسيو مصر الذين ظهروا إبان الحكم البريطاني كوسيلة ناجحة من وسائل دعايتهم .

ونذكر من بين هؤلاء « قاسم أمين » (المتوفى سنة ١٩٠٨) وهو الذي أثار كتاباه « تحرير المرأة » (١٨٩٩) « والمرأة الجديدة » (١٩٠١) موضوع البحث في مسائل المرأة في سائر أنحاء العالم الإسلامي .

وحدث بعد ذلك أن سارت تركيا قدماً بحلولها العملية في مسألة المرأة . وتبعها في ذلك قوم مصر — بعد تردد في أول الأمر — ولكن سرعان ما بلغ النجاح المدى .

ومع ذلك فالحياة الدينية في مصر كانت ولا تزال يسيطر عليها الإسلام . وهذا يرجع بصفة خاصة إلى نفوذ رجل فارسي اسمه « جمال الدين » الذي فضل — لأسباب سياسية — أن يسمي نفسه الأفغاني نسبة إلى البلاد التي قضى شبابه فيها .

وفي عام ١٨٧٠ عند ما كان حتماً عليه أن يغادر وطنه المختار بعد موت نصيره وحاميه « الأمير دست محمد » ذهب « جمال الدين » أول أمره إلى استانبول . وهناك تقبلته الحكومة ودوائر الأدب بقبول حسن . إذ كان قد سبقه صيته كأديب ذي شأن ، ولو أنه لم يؤلف أي كتاب .

وقد تأثرت دوائر الأدب تأثراً بالغاً بما ألقاه من خطب ومحاضرات في الجامعة التي كانت قد أنشئت حديثاً .

وعلى الرغم من ذلك فقد نجح شيخ الإسلام في اتهامه بحرية الفكر ثم في نفيه من البلاد . فرحل يومئذ إلى القاهرة حيث لقي صدوراً رحبة . وفي القاهرة استطاع أن يعمل حراً — دون أن يكون له اتصال بالرجال الرسميين — حتى قامت الثورة العرابية . وقد بث في الشباب المصري الأمل في إمكان التحرر من السيادة الأوربية . وذلك إذا أشربت عقولهم ثقافة الغرب وعلومه . وذلك بقصد الدفاع عن الإسلام كدين غير رجعي .

وقد نفي « جمال الدين » إلى الهند بعد الاحتلال البريطاني . ولكنه استطاع عام ١٨٨٣ أن يذهب إلى باريس حيث أصدر هو وتلميذه « محمد عبده » صحيفة « العروة الوثقى » الأسبوعية . وكانت صحيفة قوية النفوذ على الرغم من عمرها القصير .

وفي عام ١٨٨٥ عاد تلميذه « محمد عبده » إلى بيروت أولاً ، ثم في عام ١٨٨٨ إلى وطنه مصر حيث استقبله قومه وهم يحيونه تحية رسول جاء لتحريرهم . وبدأ حياته الرسمية كقاض في المحاكم الوطنية . ثم عين مفتياً للديار المصرية عام ١٨٩٩ . وظل إلى حين وفاته (في الحادي عشر من يوليو عام ١٩٠٥) معنياً بإصلاح القوانين . كما ظل عاكفاً على إلقاء الدروس في الجامعة الأزهرية الموقرة . والشيخ محمد عبده هو موجد الحركة الحديثة في الإسلام . والقصد منها الرجوع إلى آراء صاحب الشريعة ، وإظهار ما بتلك الآراء من عناصر البقاء .

ولا تزال آراء الشيخ مسيطرة على الحياة الدينية في مصر إلى يومنا هذا ...

(من الانجليزية) مبارك إبراهيم

شعورك بالنقص ليس عقدة

ترجمة الأديب حسين أحمد أمين

أقبلت عليّ منذ أيام سيدة في مقتبل العمر وقالت : إن بي عقدة نقص تملكتني منذ ثلاثة وعشرين عاماً ولم أستطع حتى الآن أن أتغلب عليها .

هذه الجملة تُرينا إلى أي حد بلغ التخبط بصدد المبادئ الأولية لعلم النفس . لقد تعلم الناس كلماتها ولم يتقنوا معرفة ما تدل عليه .

وعندما سألتها : ما الذي جعلها تظن أن بها عقدة ؟ أجابتني بأن صديقها هو الذي أخبرها بذلك لما رأى من سكوتها في المجتمعات واستماعها إلى الحديث دون أن يكون لديها أية رغبة في الظهور والمناقشة .

وقد صدقت قول صديقها بأن لديها عقدة وأحزنها ذلك كثيراً .

وقد علمت منها أنها فتاة مجدة قد خطت لنفسها أقوم وأرشد طريق .

وهي هادئة الطباع محبوبة من كل من يتعرف بها .

وهي في الواقع لديها بعض الشعور بالنقص ، وإلا فما السبب في أنها حزنت عند ما كاشفها صديقها برأيه ؟

هذا الشعور ليس عقدة وليس بالصعب معالجته .. إنما هو يعني أن بالفرد قابلية وحساسية للنقد تكونت منذ طفولته وهي تحتاج إلى بعض الرعاية لكي يمهد لها النضج .

فقد نجد ببعض الأطفال ميلاً إلى الاعتقاد بأنهم أخطئوا في كل عمل يقومون به .. هذا الميل يدفعهم في المستقبل إلى تجنب المجتمعات والشعور بالخجل والارتباك وقلة الابتكار ويسيطر على أصواتهم نغمة خاضعة مستكينة .

فإذا ما عرف المريض أصل هذا الشعور استطاع أن يستأصله إذا ما قرر لنفسه أنه لا بد أن يكون جذاباً في حديثه محبوباً سعيداً في المجتمع .

والشعور بالنقص إذا تزايد هدد المرء بنقصان الدائرة التي يعيش فيها وابتعاده تدريجياً عن الحياة .. ويبدو أن خير علاج لهذا الشعور هو في الحب والتوافق .. فإذا ما وجد الإنسان أن هناك من يحبه أكبر الحب ويعظمه أكبر التعظيم زاد في نفسه تقديره لذاته وتلاشى شعوره بالنقص .. ومتى تم ذلك كان باستطاعته أن ينمي بنفسه قواه الداخلية الحقيقية التي كاد يقضي عليها حسده للناس واعتقاده بتفوقهم عليه .

غير أن المرء إذا كرر لنفسه : « من المستحيل أن يحبني أحد » قل احتمال أن يحبه أحد ... فعليه أن يعتقد أن به قوة وعناصر تمكنه إن أراد من أن يجعل نفسه محبوباً من الناس .. عليه أن يكرر لنفسه « سأحاول » بدلاً من «مستحيل» وباستطاعة هذه الجهود أن تنمو إذا ما شجعت بالمدح والرضاء .

فماذا عن عقدة النقص إذاً ؟ وكيف تختلف عن الشعور بالنقص ؟

العقدة هي كما في تعريفات العلماء — لاشعورية .. فقد يلاحظها الشخص في الآخرين ، ولكنه لن يلاحظها في نفسه

العقدة تتجمع حول مظهر من شخصية الإنسان ، حول مجموعة من الأفكار تختص بالشخص وبمثله الأعلى .. هذه الأفكار تدفعه إلى ما يجب أن يقصد ويجري وراءه ، والشخص يحاربها ويقمعها في نفسه .

هذه القضية نستطيع تلخيصها فيما يلي :

« لنتظاهر بأن هذا ليس كذلك » ولنحول النظر عن

كتاب الشـــــتاء

A Book of The Winter

للأستاذ جمال الدين الرمادى

... أخرجت الدكتورة إدث سيتول Edith Sitwell منذ أيام قلائل جداً فى لندن كتاباً سمته « كتاب الشتاء » وقد صورت فيه مباهج الشتاء ومسراته وأشجانه وأتراحه ، وعرضت ابتهاجه وابتئاسه فى معارض جميلة من الشعر الحلو الرصين ، واستهلت الدكتورة إدث كتابها ببعض الأشعار التى قيلت فى اللغة اليابانية والصينية فى الشتاء ، وترجمها زميلها آرثر ويلى Arthur Waley من هذه اللغات وكتبت منذ آلاف السنين . والأشعار إن دلت على شىء فإنما تدل على ما قاله أحدهم مبيناً أثر الثلج « هل دخلت كنوز الثلج » ؟ .

ويجمع الكتاب إلى جانب هذا بعض الأشعار التى كتبها لورد هربرت شربورى Herbert of Cherbruy وقصيدة لهنرى كينج وأغنية لوايت Wyatt ووصف بعض المناطق الشمالية لرجال متقدمين .

ولا أظن أن أحداً يقرأ هذا الكتاب الذى تقدمه الدكتورة إدث إلا ويشعر برعدة تصيبه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، وببرودة أطرافه وارتجافها وبشوق لجوج ورغبة ملحة إلى الدفء ، فقد استطاعت الدكتورة إدث Edith أن تجمع أشعاراً صادقة التصوير قوية التأثير إلى أبعد حد عن الشتاء ، فيها عن الورد بيرون وبليك ، وفيها عن فلتشر وهيريك ، وفيها عن مالارميه وبودلير ، وفيها عن مارو ومارفل . ففى أشعار الدكتورة إدث إذاً : الإنجليزى ، والفرنسى ، والكلاسيكى ، والرومانتيكى ، وفى أشعار الدكتورة إدث الروعة والرقة والجمال بعد ذلك جميعاً .

ومن يذكر الشتاء فى بلاد الغرب ، يذكر ليلة عيد الميلاد Christmas day التى تأتى فى إبان الشتاء ، وتصور أفراح

الأشياء التى لا نريد أن نراها » .

والشخص المصاب بعقدة النقص لابد أنه تعرض فى طفولته لاضطرابات وتهديدات ، تماماً كما فى حالة الشخص المصاب بالشعور بالنقص .. غير أن رد الفعل فى الحالتين مختلف :

ففى الحالة الأولى يدفع المريض شعوره القوى بذاته إلى رفض تصديق الصورة التى رسمها له أبوه وإخوته وأخواته عنه . وهذا قد يكون له فى نفسه أثر حسن ، إلا إذا احتد هذا الشعور فانقلب إلى شك ثم إلى اتهام لنفسه فيتساءل : « ربما كانوا هم على صواب وربما كنت أنا حقاً لا شىء » .

وباستطاعتنا أن نشاهد رجلاً ذا عقدة نقص فنسمع له صوتاً كله قوة وثقة ، ونرى له أفعالاً توحى بالسلطة والنفوذ .. والحق أن كل هذه المظاهر أساسها شىء واحد ، هو أنه يريد أن ينفس عن نفسه وأن يلقى بالحمل الذى يثقل روحه .

هذا السلوك هو محاولة للتعويض عما ينقص الشخص .. هو خداع لنفسه قد تطرف إلى الطرف المضاد .

ومن خصائص عقد النقص أن صاحبها هو أكثر الناس شعوراً بها فى غيره وأقل الناس شعوراً بها فى نفسه .

فمن المحتمل إذاً أن يكون الرجل الذى أخبر السيدة بأنه لابد لديها عقدة نقص يعانى دون أن يعلم نفس هذه الحالة ولكنه لن يعترف بها أبداً ..

صبحى أحمد أمين

الغربيين وسامحهم ، وغبطة الغربيين وحبورهم ، وانطلاقهم من تقاليد الأيام المألوفة التي تحد حريتهم حداً وتغل حركتهم غلاً ، وتدفعهم إلى وقار مصطنع ، أو شبه مصطنع ، وإلى هدوء متكلف ، أو شبه متكلف . وقد خصصت الدكتورة إدث الكريسماس ، أو عيد الميلاد في هذا الكتاب ، عشر قصائد ومقطوعات لشعراء معروفين أو مغمورين ، ولكن شعرهم عذب رقيق .

ومن يذكر الشتاء في بلاد الغرب يذكر البرد القارس والزمهرير الشديد ، والريح العاتية ، والجليد المتراكم ، والبَرَد المتساقط ، ويذكر بعد هذا خلوة في كنف بيت من البيوت ، أو في حمى كوخ من الأكواخ ، والقوم قد التفوا حول نار يستدفئون بها ، ويستمتعون بلفحها ، ويتجاذبون أطراف الحديث ، ويتسامرون بالقصص والأساطير أو يتغنون بأعذب الأغاريد ، أو يتطارحون أجمل أبيات القريض . وقد جمعت الدكتورة إدث في هذا الباب قصائد حلوة تستهوي النفوس وتطرب القلوب .

والشتاء في الغرب كذلك مناط بعض الهيبة والجلال إن لم تكن الهيبة كلها والجلال كله ، وزعم كثير من الشعراء ، وأرباب الفن والخيال أنه مثوى الأرواح ، ومأوى الشياطين ، وملجأ الجن ، سواء الصديقة للناس ، أم العدوة للبشر . وقد شاءت الدكتورة إدث أن تذكر في كتابها بعض أشعار الشعراء في هذا الباب وذكرت فيه ذلك الحوار الخالد بين روميو ومركتيو عن الجن في مسرحية روميو وجوليت لوليم شكسبير . وكأن الدكتورة إدث تسائل فيما بينها وبين نفسها : « ترى من لا يعلم من أمر الجن شيئاً وهم يحيطون بنا كظواهر الطبيعة ، يحيطون بنا كالشمس والقمر دون أن تكون معهم ملائكة ... والأرواح لا بد أن تكون على حد تعبير روبرت برتون Robert Burton .

وبعد ما انتهت مسز إدث من سرد الأشعار في هذا الباب لهذا بين ثنايا الشعر ، الجليد يوشك أن يذوب والبرد يوشك أن يزول والربع يوشك أن تهدأ والربيع يوشك أن يطل على الدنيا باسم الثغر مشرق الوجه ناضر الوجنات ...

وقد يسائل القارئ بعد هذا كله : أراك قد شوقتنا إلى كتاب الشتاء شوقاً ، ودفعتنا إلى الكلف به دفعاً ، فهل لك أن تذكر لنا بعضاً منه أو نخبة من أشعاره ؟ ولكن ليصدقني القارئ الكريم بأني مهما فعلت ذلك وقمت بترجمة بعض ما ذكرته الدكتورة إدث سيتول ، فإن حديثي لن يشفي غليلاً ، ولن ينقع صدى ، ولن يثير في النفس مثل ما أثاره كتاب الدكتورة إدث في النفوس من إعجاب وتقدير ...

استمع إلى قطعة صينية من وحي الشتاء للإمبراطور « دوتي » :

لقد خفت صوت قميصها الحريري ...
وعلى الافريز الحاوي تكدس التراب ..
والحجرة الخاوية باردة ...
ولا تزال الأوراق المتساقطة مجتمعة على الأبواب
تنتظر عودة السيدة المحبوبة ...
فمتى أستطيع أن أريح قلبي المحطم ؟!

وقد نقلت لنا الدكتورة إدث شعراً عن الشاعر الإنجليزي « جون دريدن » أمير الشعراء ، وهو يقول : « والآن قد بدأ الزمان يزداد بياضاً ويجري رفيقاً في أوقات هادئة » ونقلت عن الشاعر الميتافيزيقي جون دن JohnD onne صاحب المدرسة الميتافيزيقية في الشعر ، التي أدخلت أصول الميتافيزيقا في أغراض الشعر المختلفة حتى الغزل ، وهو يقول : « أواه ! أواه ! ... يا صديق ، فإن حبيبي قد انزلق وقد رأيته فوق جبال الألب البيضاء وحيداً ... » .

واستمع إلى الشاعر الرقيق وليم بليك William Blake :

لقد سرت ذات يوم متأرجح ...
فسألت الثلج الرقيق أن يعيش معي ...

فتلطف وذاب فى أوج عمره ...

فمد الشتاء هذا الصنيع جريمة منكرة ..!

واستمع إلى الشاعر الرومانتيكى لورد بيرون يهتف من أعماقه :

إننا لن نذهب بعد ذلك نتجول ...
حتى فترة متأخرة من الليل
مع أن القلب لا يزال عاشقاً
والقمر لا يزال يتألق فى سمائه ...
لأن السيف يجب أن يستقر فى غمده ...
والروح يجب أن تكمن فى الصدور ...
والقلب يجب أن يسكن ليتنفس
والحب نفسه يجب أن يستريح
ورغم أن الليل قد خلق للهوى
والنهار يعود على وجه السرعة ...
فإننا لن نذهب بعد ذلك نتجول
حتى فترة متأخرة من الليل ...!!

قلت إن الدكتورة إدث سيتول Edith Sitwell قد جمعت فى كتابها شعراً عن الجن والأرواح ، وقد ضرب الشاعر الإنجليزى بن جونسون Ben Jonson مثلاً على ذلك ، فقال فى مقطوعة من مقطوعاته :

لقد شهدت روحك جنية
وترامت فوقك النجوم ...
فيما قمر من ضوء ...
فى ظهر من الليل
حتى طغت النيران على الظلام
وأدتك لحظة الحظ
بينا يتبع الطفل ذو الهم بجوارك
أو يعدو أمامك فى الطريق ...
حتى يتشقشق طير الصباح ...
ويغمرك الحظ السعيد ...!!

وقد جمعت الدكتورة إدث إلى جانب روائع الأدب الإنجليزى بعض روائع الأدب الفرنسى للشاعر الفرنسى مالارميه من أتباع المدرسة الرمزية المعروفة فى الأدب الفرنسى . استمع إلى الشاعر الفرنسى كليمنت مارو Clement Marot وهو يقول لصديقته آن :

إن (آن) تقذفنى بكرات الثلج لاهية
إنى لأشعر بها باردة بدون شك
ولكنك لم تعلمت بالتجربة والمران
أن لا بد لى من أن أتشكك
إن الثلج لا يجد مكاناً فى قلبى
لا أشعر به مطلقاً يا آن ، إن أملى
أن تستقبلى قليلاً النار التى أشعر بها
ولكن لا يكون هذا بماء ولا بثلج ولا ببرد
ولكن بأن تشعرى بنار مماثلة لنارى !.

واستمع إلى ستيفان مالارميه Stephane Mallarmé وهو يقول :

البكور والحياة واليوم الجميل ...
قد طوتنى بأجنحتها السكرى ...
وهذه البحيرة الصلبة تحت الجليد ...

ملأى بالثلج لا يخلو من الانعكاس عليها تيه ...!

يصدقنى القراء الأعزاء ، وتصدقنى القارئات العزيزات بأنى لم أقرأ فى شتاء من الأشتية ، ولم أقرأ فى صيف من الصيوف ، ولم أقرأ فى ربيع ولا خريف كتاباً كهذا الكتاب العذب الجميل الذى قرأته للدكتورة إدث سيتول فى هذا الشتاء ، وتنهدت كثيراً حين وجدت أدبنا العربى يهتم بالشتاء إلى جانب اهتمامه بالربيع ؛ فقد ذكر الثعالبى فى يتيمة الدهر مجموعة لا بأس بها من الأشعار فى الشتاء ، وفى وصف الثلج والبرد والبرد ، مما يدفع الأدب العربى من حيز الإقليمية فى الأدب والعبودية للون معين من المناخ الحار إلى حيز عالمى أوسع أفقاً وأرحب مجالاً وميداناً .

جمال الدين الرمادى

نقد

الإشارات الإلهية

لأبي حيان التوحيدي

بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى

— ٤ —

للأستاذ السيد أحمد صقر

٤٤ — ص ١٢١ أنشد أبو حيان قصيدة ، يقول فيها قائلها :

إذا اعترتك فاقة فارحل برفق جَمَلك
وارغب إلى الله ونِطْ بما لديه جَمَلك

وقد حسب الدكتور الناشر أن البيت مدوّر ، وليس الأمر كما حسب ، فإن آخر الشطر الأول كلمة « ونط » ، وقد أخطأ أيضاً في ضبط نون هذه الكلمة بالكسر ، والصواب « ونُط » بضم النون ، والرواية الصحيحة « ونط بما لديه أملك » كما جاء في الأمالي ٢/٢٣١ ، وصواب البيت الأول « فارحل برفق جَمَلك » بالجيم ، كما جاء في أصل الكتاب المخطوط ، ولا تحسبن أن نقطة الجيم قد سقطت أثناء النقل أو الطبع سهواً كما يقع عادة في بعض الأحايين ، فإن الدكتور قد حذفها قاصداً متعمداً ، لأنه يرى أن « الحمل » هو الذى يرحل عليه الإنسان ، وهو الذى يحمله الإنسان على عاتقه وعضى لطيته ولو كان ليلاً أليل ! وإن ارتبت في هذا الكلام أو ظننت بعقل الظنون فانظر في النص الآتى :

٤٥ — ص ٢٩٥ يقول أبو حيان : « الحازم — أخذ الله بيدك — من شمّر واتخذ الليل حِمْلاً وعَبَر ، وعرفان الفتور في الهم مؤد إلى التلف ، والتقصير في حيازة الحظ من أسباب الحرمان » .

هكذا ضبط الدكتور « حِمْلاً » بكسر الحاء وسكون الميم ، وهو خطأ مدهش حقاً يحيل المعنى ويجعله أعجوبة الأعاجيب في الدنيا ، ولست أدرى ولا مخترع القنبلة الذرية يدرى ، كيف يشمر الحازم عن ساعديه ، ويتخذ الليل حِملاً محمولاً ، ولست أدرى كذلك كيف يحمل الحازم الليل ، أيحمله على كتفه ، أم على ظهره ، أم على أم رأسه ؟ ليتني كنت مصوراً صناع اليد ، إذاً لأتحفت القراء بلوحة فنية رائعة في وسطها صورة رجل يحمل الليل على رأسه ، وفي حاشيتها صورة طائفة من الفلاسفة ينظرون إليها ، وقد ارتسمت على وجوههم الدهشة ، لأن تلك الحقيقة لم تطف بذهن أحد منهم .

إن صواب العبارة : « الحازم — أيدك الله — من شمّر واتخذ الليل جَمَلاً » ، وهو تعبير مشهور جرى به المثل من قديم الزمان ، جاء في لسان العرب ١٣/١٣١ : « وفي المثل : اتخذ الليل جَمَلاً ، يضرب لمن يعمل عمله من قراءة أو صلاة أو غير ذلك ... يقال للرجل إذا سرى ليلته جمعاء أو أحياها بصلاة أو غيرها من العبادات : اتخذ الليل جملاً كأنه ركبه ولم ينم فيه » .

والصواب أيضاً : « وعَرَف أن الفتور إلخ » لا « وعرفان الفتور » ، كما وهم فيها الدكتور .

٤٦ — ص ٩٨ يقول أبو حيان : « ... واستفدتَ من ذلك نوعاً من التوحيد لا تجده في قاصِ الملة وحاكم الجهة ومتوسط الخصومة » .

لم يفهم الدكتور معنى كلمة « قاص » فعلق عليها بقوله « كذا ، ويمكن أن يكون أصله « قاضى » بدليل قوله : حاكم ، متوسط الخصومة » .

والكلمة التى حسبها الدكتور محرفة صحيحة فصيحة ترد كثيراً في كتب التراجم ، وقد ذكر الكندى في كتاب « الولاة والقضاة » أن سُليم بن عتر التجيبي ولى القضاء

من قبل معاوية سنة أربعين » وكان قبل القضاء قاصاً لهما ، وهو أول من قصّ بمصر .

٤٧ — ص ١٠١ : « يا هذا صارف نفسك في أغاليطها وفي خواطرها ، فإن لم تقدر ، ففي نياتها وعزماتها ... فإن لم تقدر فأ كَثِرْ نائحة تنوح عليك ، فإنك في الأحياء ميت كما كان غيرك في الأموات حياً » .

ولا معنى لقوله : « فأ كثِرْ » هنا ، والصواب فأ كْرِ ، ويكون معنى الجملة إذاً يا دكتور : فأجّر نائحة تنوح عليك !!! .

٤٨ — ص ١٠١ يقول أبو حيان : « إلهنا ، زاغت الأبصار حين سرحت نحوك ، ولرمت خاشعة حين رامتك ، وطارت الألباب حين لحت عنك ، وانكفأت على أعقابها فَرِقَةً منك » .

ولا معنى للفرقة هنا ، والصواب « فَرِقَةً » أي خائفة فزعة .

٤٩ — ص ١١٤ يقول أبو حيان : « فأنا عند العيان قائم مع البُهْت ، وعند الخبر واقف مع التهمة ، ومع النصيحة متمسك بالاستغشاش ، إن قلت قلت متحيراً ، وإن سكت سكت متحيراً ، وإن نظرت نظرت متحيراً ، وإن أغضيت أغضيت متندماً ، وإن سكت سكت مبهوراً ، وإن تحركت تحركت متشوّراً » .

قال الدكتور في شرح الكلمة الأولى : « البهت ، والبهتان : الكذب والافتراء » .

وهذا خطأ والصواب في شرحها كما جاء في اللسان ٢/٣١٧ « البهت الانقطاع والحيرة » .

وقال في شرح قوله : « وإن تحركت تحركت متشوراً » ! « وتشور : فعل فعلا يستحيا منه » قال ذلك لأنه لم يفهم أن الكلمة محرفة ، ونظر في اللسان فوجد فيه « الشّوار فرج المرأة والرجل ، ومنه قيل شَوَّر به كأنه أبدى عورته ، وشوّر به فعل به فعلا يُسْتَحيا منه » ومعاذ الذوق أن يقصد أبو حيان هذا المعنى الفاحش في معرض حديثه (عن الله والحياة مع الله) إن أبا حيان لم يقصد ذلك ولم يقل « متشوّراً » وإنما قال « متسوراً » بالسين لا بالشين من سار يسور : إذا وثب وثب المعربد ، قال الأخطل :

وشارب مربح بالكأس نادمني لا بالحصور ولا فيها بسوّار

٥٠ — ص ١٨٢ « أيها العالم المتناخ ! كم تلقذ وربك بين يديك ؟ أيها العامل المكدود كم تفتر ؛ وقد أحبط رؤياك عملك عليك » .

والصواب « كم تتلدد » بدالين مهملتين لا بذالين معجمتين ، جاء في اللسان ٤/٣٩٥ « وتلدد . تلفت يميناً وشمالا ، وتحير متبلداً ، مأخوذ من لديدي العنق ، وهما صفحتاه » ولست أدري كيف استساغ الدكتور تلقذ العالم المتناخ .

والصواب أيضاً « وقد أحبط رياؤك عملك عليك » .

٥١ ص ١٨٥ « وخذ منهما ما أنا عنويه ومدفوع إليه ، فإن دق عليك فيه لفظ أو نبا عنه تحصيل ، فسامح ، فالقليل أحر من ذلك ، والعذر أظهر مما هناك » والصواب « فالقليل » بالغين .

٥٢ ص ٢٠٢ : « أفمن يقبل هذا معرفة ، ويشتمل عليه يقيناً كيف يجر على الحشاء نفسه ؟ أم كيف يملك الظالم عرضه ؟ » .

قال الدكتور « الحشاء : الربع الأسود من البرد ، والحشاء ، وهو الأقرب هنا : الجهاد من الأرض ، والجهاد كسحاب : الأرض الصلبة لا نبات بها » !!

والصواب « على الخشناء » وقد استعملها أبو حيان في ص ٣٣٨ حيث يقول : « ارجع إلى ثقة النفس في السراء والضراء ، وإلى مقة الأنس في الليان والخشناء ... » وشرحها الدكتور هناك بقوله « الخشناء : الأمر الخشن » .

٥٣ ص ٣٠٤ يقول أبو حيان في معرض حديثه عن الوجد والذكر : « فأما الوجد فيرتفع عن تجديده بنظم حرف ... بلفظ ، وما وصف لك الذكر بغرائبه ، والوجد بغواليه ، وما يدور عليهما بغواليه وجواديه ، وأنت إلى أن تذوق حلاوة ركوعك وسجودك بصدق النية ، وطهارة الطوية ، أحوج ، وبما عاد عليك من ذلك أبهى وأبهج » .

والصواب كما جاء في المخطوطة « فيرتفع عن تحديده » بالحاء لا بالجيم .

وقال الدكتور في شرحه : « الحالب : ما يُدِر ويعطي ، والجادب : الماحل » !!

وهذا شرح مضحك حقاً يدل على أن كاتبه لم يفهم من

كلام إلى حيان خيئاً . ولست أدرى كيف يكون الوجد الإلهى ماحلاً ؟ وهو ذكر مستغرق للصفات كلها بالمحو ، وصوت من حضرة الحق بمباشرة ربانية كما يقول أبو حيان .

ومن المؤلم حقاً أن العبارة قد وردت فى المخطوطة صحيحة واضحة « وما يدور عليهما بحوالبه وجواذبه » وغاية ما فى الأمر أن ناسخ الكتاب لم يضع تحت جيم « جواذبه » نقطة .

فجاء الأستاذ بدوره وحذف نقطة جيم الكلمة الأولى لتصير العبارة « بحوالبه وحوادبه » وليدلنا بشرحه الضاحك على أن الوجد ينقسم إلى قسمين : أحدهما ما حل ، والثانى بحر وحظى ...

٥٤ ص ٢١٧ « وإن أنت لم تنفض عن هذه الزهرة الحائلة ، ووكلت بها طرفك ، وقصرت عليها سمعك ، وجعلتها همك ، ووهبت لها سرك وجهرك ، جعلوك حطب جهنم ، وحينئذ لا أبعد الله غيرك »

قال الدكتور فى شرحه : « الغبر هنا محركة : التراب ، ولعل هذا كناية عن الشخص نفسه أو أثره ، يعنى لا أبعد الله شخصك » !!!

وهذا شرح غريب بالغ الغرابة ؛ لأنه يناقض قصد المؤلف . والصواب « جعلوك حطب جهنم ، وحينئذ لا أبعد الله غيرك » ولا غبار فى ذلك ولا كناية ...

٥٥ ص ٢١٧ يقول أبو حيان فى مناجاته لربه : « إلهنا ! نحن عبيدك ، متصرفون على إرادتك متقلبون بين مشيئتك وحكمك ، مترددون بين قدرتك وحكمتك ، آملون روادف عطفك ورحمتك ، معترفون بسوابغ نعمتك وإحسانك ، خائفون من عواقب سطوتك ونقمتك ، فقلب يا إلهنا رجاءنا على يأسنا ، وغيب خوفنا فى إيناء أمننا » .

والصواب كما جاء فى الأصل المخطوط : « فغلّب يا إلهنا رجاءنا على يأسنا ، وغيب خوفنا فى أثناء أمننا » . وقد كانت الأمانة العلمية توجب على الناشر الأمين أن ينبه القارىء على أنه قد غير فى النص وبدل ، ليعلم هل بدل خطأ بصواب أم بدل صواباً بخطأ كما هنا .

٦٠ ص ٢٤١ :

ليس عند المحب طوف الصل وقوفا بالجمع والوجدان

بل عنده أن يتوارى بحاله ... ويرفع إلى حنينه كبده المحترقة بحبه ، ويعرض عليه ما أثر فيه من عتبه ، ويسأله الإقالة مما استمر به من خطبه » .

خالف الدكتور المخطوطة فى الكلمة الأولى فأخطأ والصواب « والوجدان » وقد وضع الناسخ حاء صغيرة تحت حاء الكلمة

وتبع المخطوطة فى الكلمة الثانية فأخطأ أيضا ، ولم يفطن لفساد المعنى واستحالته ؛ ولست أدرى كيف فهم أن المحبوب يرفع كبده إلى حنينه ؟ ولا كيف تحترق تلك الكبد المرفوعة بحب هذا الحنين ؟ ولا كيف يحب الحنين على المحبوب ؟

والصواب « ويرفع إلى حبيبه كبده المحترقة بحبه » وغنى عن البيان أن الضمير فى « بحبه » و « عتبه » يرجع إلى « حبيبه » .

٦١ ص ٢٤٢ « فبالله إلا صدقتنى إذا خاطبْتُ ، وشفيتنى إذا كاتبت ، وأجبت علىّ إذا عاتبت ، وقصدت نصحى إذا قاربت ، وآثرت نجاتى إذا باعدت ، وطلبت فى الجملة إنشالى فقد ا كتنفتنى الوحشة ، وبلت كبدى بندى قولك فقد ذبحتنى العطشة » .

وعلق الدكتور على هذه الكلمة بقوله « فى الأصل : انسالى ، ولم نهتد إلى وجهه الدقيق ، فأصلحناه كما ترى بمعنى انتشالى ، أى إنقاذى » .

والذى يرجع إلى الأصل الخطى عليه يجد العبارة واضحة صحيحة : وطلبت فى الجملة أنسا لى فقد ا كتنفتنى الوحشة »

ويطيب لى هنا أن أترنم بقول الدكتور فى مقدمته لمنطق أرسطو ص ٦٥ : « ولكم رأينا فى مقارنتنا لبعض النصوص التى نشرها هؤلاء « الناشرون » المزعومون بالأصول المخطوطة التى نشروا عنها أن ما ادعوه « تحريفا » لم يكن فى الواقع إلا « سوء قراءة » من عيوبهم وعقولهم ، ولهذا فلسنا نتردد فى اتهام أولئك بالعجز عن فهم النصوص وقراءتها . ومع هذا نراهم يصيحون ملء أشداقهم ، وتصف ألسنتهم الكذب ؛ أن هذا هو المنهج العلمى الصحيح » .

أجل يطيب لى أن أترنم بهذا القول الصادق ، وأعتقد أن القارىء سيترنم به مثلى ...

(البحث بقية) السيد أحمد صقر

المصباح المحطم

في معبد الفن والإلهام غنّى "مُشْسٍ" شاعرٌ
بالوجد ، بالأوهام ، بالآلام ، مشبوبَ الخواطر
الليل يشدو حوله ، والليل مجنونٌ الثائر
لحنَ السعادة والتعاسة والنضارة والذبول

. كان مصباحٌ عليل
سكرانُ مضطربٌ ... جميل

بات الدجى سكران مختبلٌ السالك لا يُفيق
متخاذل الخطوات لا يرى السبيل إلى الشروق
كالفيلسوف الذاهل الحيران في فكر عميق !
وأنا ومصباحي — كرهبان — بنجوانا نبوح

روح تعانق سِرّ روح
وصَبابةٌ لا تستريح ! !

والريحُ — بالزرع — تصفر في عواء مستطيلٌ
فكأنما ضاقَ الفضاء بها فضجّت بالعويل
واهتزت الأكوان همهمةً ورعباً لا يزول
وتهافتَ الشجر الضعيفُ وضاع ترنيم الحفيف

ما أبشعَ العصفَ العنيفَ ؟
لم يرحم الشجر الضعيف !

والكوخ منـدلع الأنين تأججت فيه الشجون
يبكي فلا يدري أساه سوى حزين أو طعين
أو بائس رحمت محياه كما بات القرون ... !
من يرحم الشيخَ المحطم أو يهدهد ذا القلام ؟

العدل ضيّعه الأنام !
بالسوءَ الدنيا ... حرام !

والعاشق المهجور أمسى من شجاه في سعير
والهجر مختلاق تحكم في القلوب بلا ضمير
يشق السعيد ولا يبالي بالنهاية والمصير
الظلم بإحلاق مقهورٌ إلى دنيا الفناء

فاصنع بقومك ما تشاء
ثم انتظر سوء الجزاء

صورٌ من الآلام والآمال والفنّ الرفيع !
تسري مع الليل المقدس في ابتسام أو دموع
وأنا ومصباحي نُراقب حالتيها في خشوع
لكن مصباحي تحطم لَبْدَةً ... فأتى السوادْ

لجّيت موصول الحداد
متعذّباً في كل واد ! !

قد ضعتَ يا مصباح ليت العمر مني كان ضاع
لم يبق لي إلاك يا أمي حناناً ... والشعاع
لحذى صغيرك فوق صدرك وابكي فيه الشعاع
المهر طاردَه ... فضمّيه من الدهر الرهيب

ولتحرسيه من الخطوب
بالعطف كوباً بعد كوب

محمد سعود مصطفى

مكتبة الثقافة

الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية : للدكتور إبراهيم أحمد العدوى — مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥١ فى ٢٢٠ صفحة

لا نستطيع تقديم هذا الكتاب دون أن نشير إلى كتاب « الإمبراطورية البيزنطية » الذى سبق وقدمناه على صفحات هذا الباب فى العدد (٦٣١) من « الثقافة » وهو أول حلقة من سلسلة كتب فى تاريخ العصور الوسطى تخرجها لجنة التأليف والترجمة والنشر تحت إشراف أستاذنا الكبير الدكتور محمد مصطفى زيادة بك .

لقد بين الدكتور زيادة بك فى تقديمه لهذا الكتاب أهمية دراسة التاريخ البيزنطى فى إقامة دعائم التاريخ الإسلامى على أساس سليم من الفهم الصحيح ، وحدد خطوط المنهج الذى ينبغى على الدارسين أن يتبعوه ، ثم أبدى رغبة علمية صادقة فى أن يعمل العاملون على الإضافة إلى تلك السلسلة ترجمة وتأليفا بما يوضح « ما غلب عليه الغموض — أو الجهل — فى صفحات التاريخ الإسلامى الذى هو جزء من التاريخ الإنسانى العام » .

وهاهو الدكتور العدوى أحد تلاميذ زيادة بك الممتازين يستجيب لدعوته العلمية الجليلة فى سرعة ونشاط وصمت ، فيخرج لنا كتابه هذا — بتصدير أستاذه — حافلا بالدراسات الشائقة والأبحاث المفصلة عن علاقة البيزنطيين بالمسلمين .

ويبدأ الكتاب ببحث يلقى الضوء على صلة الإمبراطورية البيزنطية بالعرب قبل الإسلام ، ثم يتلوه أربعة فصول تتناول كل مظاهر الاحتكاك التاريخى والتجاوب الحضارى وعوامل الجذب والدفع بين بيزنطة والإسلام .

ومما يذكر للمؤلف ، تلك اللاحق التى ذيل بها كتابه متضمنة مقتبسات مما كتبه المؤلفون المسلمون القدامى متصلا بموضوع كتابه ؛ ثم ذلك الثبت الذى حوى أسماء الأباطرة البيزنطيين ومعاصريهم من الخلفاء المسلمين ، وأهم الأحداث التى عاصروها .

إننا نحيى المؤلف الشاب على مجهوده ، وإن كنا نخشى أن تكون حماسته قد حالت — أحيانا — بينه وبين ما ينبغى أن يتوافر للباحثين من الدقة والأناة فى تركيز عناصر الموضوع وتمثيلها . ومهما يكن من أمر فإنه يحق لنا أن نحتفى بمثل هذه الكتب التى ينظر كاتبوها إلى التاريخ الإسلامى من زاويته الصحيحة ، ويدرسونه دراسة مجدية .

* * *

الصلات بين العرب والصين : تأليف الأستاذ بدر الدين حى الصينى — مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٠ — فى ٢٣٠ صفحة كبيرة

وهذا كتاب آخر يعين بدوره على النهوض بدراسة التاريخ الإسلامى ، إذ يتناول — كسابقه — جانبا هاما من جوانب الاتصال والتشابك بين الأمة الإسلامية الناشئة ومن عاصرها من الأمم ذات الحضارات التليدة . ولكن هذا الكتاب يختلف عن سابقه فى عدة أمور ، لعل أهمها أن كاتبه صينى استضافته مصر طالبا بأزهرها المجيد ؛ فكان اتصاله بهذا المركز العالمى للثقافة الإسلامية مما ساعد على توجيهه إلى البحث فى موضوع الصلات بين المسلمين والصين ؛ كما أنه استطاع بهذه المثابة أن يطلع على كثير من المصادر باللغة الصينية ، فضلا عما استعان به من المراجع الفارسية والأردية التى أعانه على قراءتها دراسته بإحدى

فى خدمة الملكة – الاذاعة وأعلام الموسيقى

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

فى خدمة الملكة :

إن اختلاف مع فرقة المسرح الحديث بصدد إيثارها تقديم هذه الرواية المقتبسة على ما لديها من روائع الترجمات التى أثبتت تجاربها القليلة الماضية توفيقها فيها ، لا يمنعنى من التنويه بما بذله الأستاذ المقتبس (إسماعيل رسلان) من جهد فى وضعها فى إطار مسرحى مناسب .

وربما كان أهم ما وفق فيه أنه أبرز مضمونها إبرازاً واضحاً ، ولو أن الموضوع واضح بذاته لا خفاء فيه ولا غموض ، بحيث يسهل القول بأن عمل المقتبس لم يكد يزيد عن تقطيع ما وقع عليه اختياره من صلب القصة إلى فصول ومشاهد ، إذ احتفظ بحوادثها وحتى بشخصياتها كما رسمها دوماس الكبير نفسه ، ولكننا مع هذا لا ننكر أنه أدار الحوار بمهارة وراعى اختيار عبارات تجمع بين السهولة والإبانة ، وتجنب المونولوجات الطويلة . . إلى غير ذلك من الأمور التى تدل على حسن استعداده وتطلعنا فى طلب المزيد من إنتاجه بشرط أن يترجم أو يؤلف دون أن يقتبس .

وإذا كان تعدد شخصيات هذه الرواية قد شغل معظم أفراد الفرقة ومجموعة كبيرة من طلبة معهد التمثيل العالى بالاشتراك فى تمثيلها ، فإن هـذا قد أتاح لهم فرصة التدليل على ما فيهم من مواهب واستعدادات مطمئنة ، وحسبنا أن أحد الطلبة (سعد قردش) قد قام بأداء دور الكاردينال ريشيليو — وهو دور رئيسى — بحيث لم نلحظ فارقاً بينه وبين أفراد الفرقة الأصليين .

كذلك استطاع المخرج الفاضل أن يعوضنا عن ضعف الموضوع بقوة الإخراج ، ومن ثم تجلت حسنات النهج الإيحائى الذى ينهجه ، وقدرته على التعبير الممتاز ، كما تجلى الفارق الكبير بين خصائصه وخصائص الإخراج الواقعى الذى يتشبث به من عداه من مخرجينا الأفاضل ! ولست أزرى بالمذهب الواقعى غير أن هذا لا يمنع من القول بأنه مذهب اندثر بانتهاء القرن الماضى ، فأصبح لا يجارى التطور ولا يساير تقدم القيم الفنية .

جامعات الهند الإسلامية قبل قدومه إلى مصر . هـذا إلى ما استعان به من كتب التاريخ العربية القديمة ، والمؤلفات الإنجليزية والفرنسية التى تناولت هذا الموضوع .

وقد بدأ المؤلف كتابه باستعراض الصلات بين العرب والصين قبل الإسلام ، ثم تتبعها حتى بدأت طلائع الدولة الإسلامية الجديدة تفتح فى مستهل القرن الثامن الميلادى أطراف الصين وتنشر فى مدنها الإسلام . وتناول بعد هذا النواحى المختلفة للعلاقات بين الشعبين والصين راجعاً بها إلى أصولها مستقرئاً مظاهرها ، ومستخلصاً من ذلك كثيراً من الآراء والنتائج .

إن هذا الكتاب لم يستوعب كل ما كان المؤلف يود كتابته ، فهو قد أتم كتابته منذ عشرة أعوام . ولكنه لم يتمكن لظروفه الخاصة من السفر إلى الصين لاستكمال بحثه فى المكتبات القديمة ببكين وغيرها من مراكز الصين الثقافية . فإذا ضربنا صفحاً عن هذا ، وعن بعض عيوب التبويب والتقسيم — التى اعترف بها المؤلف فى مقدمته — ، وإذا التمسنا للمؤلف (الصينى) العذر فى صعوبة انقياد اللغة العربية لقلمه ، إذا فعلنا هـذا نستطيع أن نتقبل الكتاب بقبول حسن ، وأن نحمد للمؤلف مجهوده الكبير .

أ . ع . ص

ولولا النهج الإيحائى لما استطاع الأستاذ زكى طليمات — مثلاً — إحياء مشهد (قصر اللوفر) بثلاث لوحات مصورة تلخص خصائص النمط الزخرفى الذى يتفق وعصر الرواية وروحها ، فى حين أن باقى أجزاء المسرح كلها من الأستار التى لا تلفت النظر ، ولو قد نهج فى إخراجه نهجاً واقعياً للأخشبة المسرح بما كان يزدحم به قصر اللوفر من أثاث ، ومع هذا لم يكن ليصل بهذه الواقعية إلى ما وصل إليه بإيحائيته من تأثير ، إذ أن أحداً من المتفرجين لا يمكن أن ينتزع نفسه من مكانه بمسرح الأزبكية وزمانه فى عام ١٩٥١ ليصدق أنه فى قصر اللوفر وأنه فى عصر لويس الثالث عشر حيث جرت أحداث الرواية ، أو حتى فى القرن التاسع عشر حيث عاش مؤلفها .

تلك هى ميزة الإيحائية . يشير الجزء فيها إلى الكل ، ويدل البعض منها على المجموع فى وحدة فنية تامة وبلا غموض أو إبهام أو إجهاد لمخيلة الشاهدين . ويحسبى أنها تساير فى ذلك طبيعة المسرح باعتباره رمزاً فنياً إلى الحياة ، وليس هو الحياة ذاتها وبحذافيرها . وتلك هى كذلك ، وعلى هذا النحو ميزة مخرجنا الفاضل التى صيرته عدواً لدوداً للواقعية .

وبودى لو أتحدث عن كل ممثل وممثلة .. لكن كثرتهم تحول دون الإسهاب ، فلنجتزئ بشخصية (دارتانيان) تلك الشخصية الموحية بمواجهة الحياة بشجاعة وحيوية وعنف ؟ فقد أدى (صلاح سرحان) تمثيلها كأفضل ما يكون الأداء ، وإن مشهد المبارزة وحده ليدل على حسن اختياره لهذا الدور ، كما يدل على أن تدريب طلبة المعهد على المبارزة كمادة أساسية فى مناهجه لم يكن عبثاً .

الإذاعة وأعلام الموسيقى :

سأحاول أن أخصص جانباً من هذا الباب لنقد الإذاعة من حيث كونها أداة ثقافية رفيعة . وغنى عن البيان أنى سأتوخى التقويم والبناء فى إخلاص وصراحة وبلا ادعاء أو تطاول .

ولئن بدأت بالحديث عن الأحاديث والبرامج الموسيقية فما ذلك إلا لشعورى بضحولة ثقافتنا الموسيقية وإيمانى بأن الإذاعة هى أولى وسائل معالجة هذا النقص .

وأحب قبل كل شىء أن أقرر أن (إذاعتنا) تبذل جهداً كبيراً فى هذا الصدد ولهذه الغاية ، وتذيع شتى الأحاديث والبرامج ، ولكننا نبتغى منها مزيداً من الجهد ، وأهم من هذا مزيداً من تقدير طبيعة الإذاعة ووظيفتها لتستغل أقصى ما يمكن استغلاله من إمكانياتها . فقد قرأت مثلا فى مجلتها منذ قريب — وهى سجلها الذى تسجل فيه أهم ما تذيعه — مقالاً عن الثقافة الموسيقية حوى «معلومات» عن تشايكوفسكى وشوبان وبيتهوفن وروسينى .. وحشد مجموعة ضخمة من أسماء السيمفونيات والفالس والباليه .. كل هذا فى حوالى ثلاثمائة كلمة !! ترى ما جدوى ذلك ؟ وكيف يتسنى لنا الاستفادة من هذه المعلومات على هذا النحو المقتضب ! ولنضرب مثلا مما جاء فيه بنصه (الشرزو Scherzo جزء سريع يشبه المنويتو فى المقطوعة التى تكون غالباً سوناتا أو سيمفونية ، بدأ بيتهوفن فى إدخاله فى الموسيقى ثم جعل منه شوبان قطعاً موسيقية لها طابع الجد ...) ترى كم من الناس يستفيدون من هذه العبارة لو سمعوها مائة مرة !! إن يكن المقصود بإذاعتها مجرد التعريف بها كما كتب قائلها فليطب نفساً . وإن يكن المقصود تثقيف المتخصصين فى الموسيقى فإن هذه أبجديات بالنسبة لهم . أما إن كان المقصود حقا إفادة أوساط الناس فأقل ما ينبغى عمله أن تخصص فترة مناسبة لإذاعة كل موضوع على حدة بشىء من الشرح والتفصيل .

من أجل ذلك أعتقد أن (الإذاعة) وفقت فى تقديم برنامجيها عن (فردى) و (روسينى) وأهنئ مخرجهما الأستاذ يوسف الحطاب وكل من اشترك فيهما تأليفاً وتمثيلا لأنهم جميعاً قد اشتركوا فى تعريف جمهورنا بهذين العبقريين وتقريب موسيقاهما إلى أذهانهم وأفئدتهم فى أسلوب مشوق مفيد . وأشهد أنى — وقد درست طرفاً من الموسيقى بالسماع والاطلاع والشرح من متخصصين — قد استفدت من هذين البرنامجين ، ولذا أرجو أن تعمل الإذاعة على تقديم أمثالها .

عبد الفتاح البارودى

طريق الغروب (Sunset Boulevard)

للأستاذ أحمد حسين الصاوي

تعب النقاد وكلت أقلامهم في التنبيه إلى سوء حالة السينما المصرية وانحطاط مستواها . وأصبح من المقرر المعروف أن السينما المصرية — بعد ربع قرن من الإنتاج المتواصل — ما زالت تخلو من القصة الجيدة والإخراج النظيف والتمثيل الصحيح . ومع ذلك فما زال السادة السينمائيون هنا يصرون على أن تكون أفلامهم مزيجاً متشابهاً مملاً من الرقص الخليع والغناء السخيف والقصة التافهة ، وما زالوا يفهمون السينما على أنها تملق لذلك الأفق الضيق من الفكر والغريزة الذي يخلف أدنى طبقات الشعب . وما زال هؤلاء السادة لا يفهمون إذا ما قلنا لهم إن السينما عند من يقدرونها رسالة إنسانية رفيعة ، وإنها أداة فعالة حاسمة لتثقيف الجماعات وتوجيهها ، وإنها لما لها من أهمية حيوية تلي الصحافة وتكاد تعدلها قد أطلق عليها اسم « السلطة الخامسة » .

سقت هذه المقدمة كرهاً ! فالمرء لا يكاد يرى فيلماً أجنبياً ممتازاً ، ولا يكاد يفرغ للحديث عنه ، ولا يكاد يستعيد في ذاكرته روعته وعوامل اكتماله الفني ، لا يكاد المرء يفعل ذلك حتى يهوى به تفكيره إلى الحضيض — أو الحضيض — فيذكر حال السينما المصرية ويأسى .

عذراً أيها القارئ الكريم ، فلأنتقل بك بعد هذا إلى موضوع المقال ، فأعرض عليك صورة لأحد الأفلام الأميركية الممتازة التي عرضت أخيراً بالقاهرة .

إن عنوان الفيلم قد أخذ من اسم الطريق — أو الأحرى الحي — الذي كان مسرح قصته . وتتناول هذه القصة مشكلتين من أهم مشاكل البيئات الفنية بوجه عام ، وذلك الطريق الكبير الذي يبلغ طوله أكثر من عشرين ميلاً بوجه خاص .

أما المشكلة الأولى فهي فنية خالصة ، وتدور حول الصراع الأبدي بين قديم الفن وجديده . إن هذا الصراع ينتهي دائماً بفوز ما هو جديد وسحقه لما هو قديم ، ولكنه لا ينتهي أبداً بيأس هذا القديم وتسليمه ، وإنما يصطدم منه بمقاومة عنيفة .

وأما المشكلة الثانية فتتفرع على سابقتها ، وهي تلك الأجواء النفسية المعقدة التي يعيش فيها الفنانون القدامى ، أولئك الذين يرفضون إحناء الرءوس لتيار الجيل الجديد .

ولكي ندرك مدى تعلق هاتين المشكلتين بطريق « سنست بولفار » ينبغي أن نعلم أن هذا الطريق وما يتفرع فيه من شوارع ينتظم بيوت ما يزيد على مائة نجم من نجوم السينما السابقين والمخضرمين والمحدثين ، فمن الفريق الأول نجد هارولد لويد وماري بيكفورد ، ومن الفريق الثاني نجد شارلي شابلن وليونيل باريمور ، ومن الفريق الأخير نجد معظم نجوم اليوم مثل جريجوري بك وداني كاي . ومن هنا كانت الصلة الوثيقة بين « سنست بولفار » وبين ما تعالجه القصة من مشكلات .

إذا علمنا هذا نستطيع أن نقدر التوفيق الذي أحرزه المخرج (بيلي وايلدر) في اختيار بطلة الفيلم (جلوريا سوانسون) ، فهي ممثلة مخضرمة عاصرت السينما في عهدها الصامت وكانت نجمة مرموقة ، ثم طغت السينما الناطقة ، فلم تعد جلوريا ممثلة كبيرة ، ولكنها ناضلت واستطاعت أن تثبت وتنجح في مجاراة التيار الجديد إلى حد بعيد ، وهذا النضال هو كما قلت إحدى المشكلتين اللتين يعالجهما الفيلم .

ثم إن جلوريا كانت في يوم ما غادة جميلة يتسابق الرجال إلى خطب ودها ، ولكنها الآن قد تعدت الخمسين من عمرها ،

ومن ثم أصبحت من أكثر ممثلات هوليوود عناية بالمحافظة على جمالها ، أو على الأصح ما بقى لها من هذا الجمال ، إبقاء عليه من الضياع وتشبثاً بأبوة زائلة ، وهذا بعينه هو الجانب النفسى المعقد الذى تتناول هذه القصة مشكلته .

● ● ●

نورما دسموند (جلوريا سوانسون) ممثلة قديمة ، احتلت مكانة رفيعة فى عهد السينما الصامتة ، ثم ما لبث النسيان أن طواها فى غمار العهد الجديد للسينما الناطقة ، بكل ما حفل به هذا العهد من تجديد فى كل مقومات الفيلم من أداء وإخراج وتصوير .

انطوت الممثلة القديمة على نفسها واعتزلت عالم الأضواء فى قصرها الكبير القبض السكائن بالطريق العتيد (Sunset Bld.) ، وعاشت نورما فى الماضى ، وأبت عليها كبرياؤها أن تعترف بمرور الزمن وتغير القيم ، تتسلى بالاستماع إلى الأرغن ومشاهدة أفلامها القديمة على شاشة عرض خاصة بقصرها ، وتحيط نفسها بصورها القديمة عندما كانت معبودة الجماهير ، ولا يتزعزع اعتقادها بأنها ما زالت جميلة مرموقة ، وقد تجسم لديها شعور الفنان القديم المهجور بأنه ما زال عظيما قادراً على العودة إلى جمهوره الذى ما فتىء يذكره ويتحرق شوقاً إلى استعادة أيامه ، وإن ما يسمونه تجديداً فى الأداء الفنى ليس إلا عبثاً وهراء .

وأعانت نورما على تهيئة هذا الجو المنحرف لحياتها خادمان مخلصان : زوتها الضخمة ، وخادمها ماكس (أريك فون اشتروهيم) ، وما كس هذا يمثل كلباً آدمياً كبيراً ، فهو وفى صامت ذليل ، يحب سيدته بلا هدف ، ويفنى فى خدمتها بلا غرض ، وكان ما كس مخرجاً أيام السينما الصامتة ، كما كان زوج نورما الأول ، ثم ما لبث أن اعتزل معها الحياة الصاخبة ، وعاش خادماً لها يؤنسها فى وحدتها ويردد صدى أحلامها وأخيلتها المريضة ، بل ويغذى هذه الأحلام والأخيلة ، فهو يرسل لها خطابات توهمها بأن هناك معجبين يذكرونها ويحبونها ويطلبون صورها وتوقيعها كما كانوا يفعلون فى الماضى . وهو يقوم بكل شئونها ، فيعزف لها على الأرغن ويدير آلة العرض السينمائية ، ثم .. يساعدها — إلى جانب مالها — على إشباع رغباتها الحسية التى تعيد إليها شبابها ، فيحفظ عليها أزواجها وعشاقها الكثيرين من الشبان ، ويعمل جهده على أن يبقيهم فى أحضانها أطول مدة ممكنة ! ألست معى أيها القارىء فى أنه كلب آدمى كبير !

ويسيطر على نورما فى هذا الجو الغريب خاطر علا عليها أقطار نفسها ، فقد بدأت تكتب للسينما قصة الراقصة الخالدة (سالومى) ، تلك الأميرة الأسطورية الجبارة .

وتعد نورما نفسها للقيام بدور البطولة فى هذه القصة دور سالومى ذاتها .

وشع القدر فى طريق نورما قصصياً شاباً (وليم هولدن) يمثل الحياة الأمريكية الحديثة الصاخبة أصدق تمثيل ، فهو ينجح مرة ويفشل مرات ، ولكنه يثابر ويكافح ويعيش أفاقاً تركبه الديون ويطارده الدائنون . وتجد نورما فى هذا الشاب بغيتها ، فهو قصاص يحترف الكتابة للسينما فيستطيع بهذه الثابة أن يعينها على الفراغ من إنتاج قصتها . وهو فوق هذا شاب ولا صعوبة فى اجتذابه مادام فقيراً مدينا ، وما دام هناك ما كس الكلب الأمين .

وهنا تضىء جوانب القصة بهذه الشرارات الفنية الرائعة المنبعثة من الاحتكاك والصراع بين العوامل الإنسانية والفنية المتقابلة ، ويستطيع المشاهد أن يرى فى ذلك الضوء دقائق ما تعرض له القصة من مشاكل ، وما تحلل من اتجاهات .

وهكذا يتضح لنا جلاء ما تمتاز به هذه القصة من ظاهرة التقابل ، وما تؤدى إليه هذه الظاهرة من صراع اتقن المخرج والممثلون فى إبرازه بدقة تدعو إلى الإعجاب .

هى كهلة ثرية ، وهو شاب فقير . هى صورة لماض غابر وهو صورة لحاضر حى .

هى حالمة واهمة ، وهو واقعى عملى . ثم هى تقوم بدورها على طريقتها التقليدية القديمة ، وهو يقوم به كما يفعل جيله من المحدثين .

وتمضى حوادث القصة فى تصوير هذا الصراع ، فيقيم الشاب المشوق فى القصر الكبير ، ويرفل فى نعم عاشقته الكهلة ، ويأخذ فى تقديم قصتها السخيفة . ولكنه لا يستسلم لهذا الوضع ، بل يثور مرة ومرات ، وتحتدم فى نفسه شتى الانفعالات ، حتى ينتصر شبابه فى النهاية ، فيحطم أحلام عاشقته ويبصرها بالواقع الأليم . ثم يركل هذه الحياة الملوثة

القبضة بقدمه ، ويقرر العودة إلى حياته الأولى ، شريداً أفاقاً مكافحاً مرحاً ... شاباً . غير أن نورما لا تنهزم بسهولة . إنها نجمة كبيرة ، لا بل إنها سالومى العظيمة ، فلا يكاد الشاب يخطو خارجاً من قصرها بلا رجعة حتى ترديه قتيلا . وكان المسدس الذى قتلته به قد أعدته لانتحارها إذا هجرها ! . لقد حققت نورما أحلامها بضع رصاصات ، إذ بدأت عقب مقتله تندمج فى دور سالومى فعلاً ، فهى لا ترى فى رجال الشرطة والصحافة الذين احتشدوا حولها سوى رجال الاستوديو الذين يخرجون فيلمها العظيم ، ولا ترى فى آلات التصوير التى صوبت نحوها من كل ناحية شيئاً غير عادى ، فهى تسلط الأضواء وتسجل مشاهد الفيلم . ويخلص لها كلبها الأمين ماكس فى جنونها ، فيندمج هو الآخر معها فى (إخراج) فيلمها ، حتى لا تقسر على الخروج من قصرها إلى حيث تلقى مصيرها ، فتمضى فى التمثيل ، وتنزل الدرج الكبير فى وشاح سالومى ، وبكل عظمتها وجلالها وروعتها .

إن من أجمل ما يمتاز به هذا الفيلم الرائع ، ذلك الإطار الواقعى السليم الذى أحاطه به المخرج . فالتى قامت بدور نورما ممثلة السينما الصامتة ، هى فعلاً ممثلة مخضرمة . وأصدقاء نورما الذين يظهرون معها فى الفيلم هم فعلا من الممثلين القدامى الذين هجروا الشاشة منذ سنوات عديدة ، مثل بستر كيتون وهيدى هوبر . وسيسيل دى ميل الذى كانت نورما تود أن يخرج لها سالومى ، هو بنفسه المخرج الكبير المعروف .

وأعتقد أنك لا تعجب أيها القارئ الكريم ، إذا علمت أن الصحف قد طالعتنا — بعد كتابة هذا المقال — ببرقية من هوليوود جاء فيها أن فيلم (طريق الغروب) قد نال جائزة أحسن الأفلام لعام ١٩٥٠ ، وأن المخرج (بيلى وايلدر) قد نال فى هذا الفيلم جائزة أحسن مخرج لنفس العام .

ترى ، هل نحلم أن نرى أبناؤنا — لا نحن — فيلماً مصرياً من هذا الطراز ؟ .

أحمد حسين الصادق

الثقافة

العدد ٦٣٨ ١٩ من مارس ١٩٥١	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	الثمن ٢٠ مليماً

قصائد ثلاث لجان موسكاتيلي (*)

جان موسكاتيلي شاعر مصري ولكنه يكتب أشعاره بالفرنسية ، لأنه تربى تربية فرنسية خالصة : ولد في مصر ودرس في المدارس الفرنسية ، ونبغ في الأدب الفرنسي ، ونال جائزة أدبية كبيرة من باريس ، وشعره من الطراز الحديث الذي يقرب من الرمزية أو السوريالية . وإلى القارئ نماذج ثلاثة من شعره .

الإشارة الحمراء :

أيها الفم المتقد ،
المحدق بنظراته في عيني ،
وكأنه إشارة المرور الحمراء
يُعلن الخطر الداهم ...
أيها الثغر ذو الحمرة المتوهجة ،
الملئ بالشهوة والرغبات ...
سوف أهبط إليك في قوة !
ولن أحاول تخفيف صبوتي الجامحة ،
التي تدفعني إليك ،
إليك أنت أيها الثغر الرطب الدفئ .
وإن كنت أخشى أن تتحطم إرادتي
أمام طريقك المغلق ،
طريقك أنت أيها الفم المشئوم ،
الذي يحدق في عيني ،
ويأمرني قائلاً :
قف !! ...

سيبيل (*) :

لا حاجة بي إلى حركة هذه الأرض الدائرة !
فأنت تهدين إلىّ الفصول ، التي ينعقد بردها وحرها حولك ...
فرائحة الربيع المزدهر الريان
تتسامى من حديثك واعترافاتك ...
والصيف يتقد في سنابل شعرك المعقود ...
والخريف قد علق ثماره الذهبية في ثنايا ثديك الناضج ...
وبشرتك ، هذه البشرة الناصعة ،
التي تبدو ناعمة ، ولكن إلى حين ،
إنها الشتاء بكسوه الجليد ! ...

الأهرام :

أيتها الخطوط القوية ، القائمة أبداً وسط الفضاء والزمان !
أيتها العمائر ذات الجلال ، التي أفنى بناتها في سبيلها الجهود والأعمار ...
إنك لتمثل خير دليل على ضرورة النظام وتساميه في ميدان العمل ...
أنت أثر من آثار عصور العجائب .
ووجهك الصبوح يشرف على هذا العالم الذي سادت فيه روح الفوضى ...
وأنت ، وسط هذا الليل البهيم ،
الشاهد الأوحد على وجود النظام الأعلى والمهندس الأعظم ...

ترجمة

محمد عبد الحليم محمود

(*) "Jean Moscatelli"

(*) إلهة الفصول عند القدماء "Cybelle"

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | الإدارة | محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٣٨ | الاثنين ١١ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠ — ١٩ من مارس سنة ١٩٥١ | السنة الثالثة عشرة

أخطاء أمريكا فى الصين

للدكتور محمد محمود الصياد

لا تزال أمريكا مصرة على موقفها من الصين الشيوعية ، تأبى أن تعترف بها وأن تسمح لمندوبها بأن يحلوا محل مندوبى « صن تشيانج كاى شك » فى مجلس الأمن أو غيره من دوائر هيئة الأمم المتحدة . وتأبى إلا أن تعد الصين دولة معتدية فى كوريا ، وتحاول أن تحمل دول العالم الأخرى على أن تذهب هذا المذهب ، وليست هذه المظاهر جميعاً سوى حلقة من حلقات سياسة فاشلة بدأتها أمريكا فى الصين منذ سنوات . فما تبين خطؤها أبت أن تتراجع ؛ وكأنما أصبح المبدأ الذى تأخذ به هو « أن الاستمرار فى الخطأ خير من الاعتراف به » .

فلقد أدى قيام الحرب الصينية اليابانية فى سنة ١٩٣٧ إلى أن يتعاون حزب الكومنتانج مع الشيوعيين فى جبهة تقاوم العدو المشترك . ولقد استطاع الحزب الشيوعى منذ ذلك التاريخ ، وتحت زعامة تشوان لى Chou En-Lai وماوتستنج Mao Tse-tung أن يقوى نفوذه ، وأن يزيد عدد أتباعه من مئات الآلاف من فلاحى الشمال إلى أكثر من ١٥٠ مليوناً ، وأن يرتفع بقواته المسلحة من مائة ألف إلى جيش نظامى يربو على المليون ؛ هذا فضلاً عن مليونى جندى من المتطوعين . ولم تكن هذه المعجزة نتيجة لمساعدة سوفيتية كما يزعم الكثيرون وكما تدعى أمريكا ؛ بل كانت ترجع أولاً وأخيراً إلى حقيقة واحدة ، هى أن الشيوعيين ظهروا — رغم كل أخطائهم — فى نظر الجماهير الصينية من الفلاحين والعمال ، بل ورجال الأعمال أنفسهم ، بأنهم الأمل الوحيد الذى يمكن أن يخلص البلاد من طغيان الكومنتانج وسلطته الاستبدادية ونظامه الإقطاعى .

ولم يكن برنامج الشيوعيين الاقتصادى برنامجاً شيوعياً بالمعنى المعروف ، بل ولم يكن برنامجاً اشتراكياً . كل ما فى الأمر أنه كان حركة إصلاحية تهدف إلى الحد من الملكيات الكبيرة ، حتى يمكن خلق طبقة من صغار الملاك ، وإلى تخفيض الإيجارات الزراعية ، ومنع الرشوة واستغلال النفوذ ، والعدالة فى فرض الضرائب وجبايتها . كما كان يرمى إلى محو الأمية وتيسير وسائل العلم ، وتشجيع الحركة التعاونية وتقويتها ، والرقى بالفلاح إلى مستوى آدمى ؛ فقد كانت حالة الفلاح فى الصين ولا تزال مما يدعو إلى الرثاء .

ولم يستطع الغزاة اليابانيون طول مدة الحرب أن يفتوا من عضد الشيوعيين أو أن يقللوا من رغبة قواتهم فى المقاومة ، ولكنها استطاعت أن تعزل بينهم وبين قوات الكومنتانج فى سنة ١٩٤٢ . ولما كانت القوات الأخيرة

لا تزال ولو اسمياً صاحبة المقام الأول فى الصين ، فقد عملت أمريكا وبريطانيا بكل السبل على الاحتفاظ بها حتى تظل حكومة تشونجكنج مشتركة فى الحرب ولو بصفة صورية .

ولم تقصر واشنطن ولندن فيما بذلتا من مساعدة حربية ، ولكن الخبراء بشئون الصين كانوا يعلمون تمام العلم أن حركة الإصلاح الداخلى هى الأساس الوحيد لأى مجهود حربى يراد له أن يثمر وأن يؤدى الغاية المقصودة منه ؛ ولقد نبه إلى هذا الإلتفات جوزيف ستلويل حينما عين فى ربيع سنة ١٩٤٢ مستشاراً عسكرياً لشيانج كاى شك ، وهاله ما رأى من شيوع الفوضى والرشوة واضطراب الأحوال الداخلية . ولكن خطب مدام شيانج كاى شك فى زيارتها لأمريكا فى فبراير سنة ١٩٤٣ كانت أبلغ من آراء ستلويل ونصائحه ؛ فأصغت لها أمريكا وهى تتحدث عن الديمقراطية والحرية والعدالة ، ويعلم الله والصينيون أن حكم زوجها كان قد خلا تماماً من هذه المبادئ .

وحدثت الأزمة المحتومة فى خريف سنة ١٩٤٤ . ففى صيف ذلك العام أخذت القوات اليابانية تتدفق على الصين الجنوبية ، وتحتل المراكز الأمامية للقوة الجوية الأمريكية الرابعة عشرة ، وكان فى استطاعتها الاستيلاء على تشنجكنج لو أن الاستيلاء عليها يتناسب مع أى مجهود يبذل فى سبيله . ورأى « ستلويل » أن لا أمل يرتجى إلا بإعادة تنظيم الجيش وإصلاح الإدارة والاستجابة لرغبات الشعب . وأوفد الرئيس روزفلت البحر جنرال « باترك هورلى » و « دونالد نلسن » لإقناع شيانج كاى شك بأن يكون ستلويل رئيس أركان حرب كل الجيوش الصينية ، وأن يتعاون مع الشيوعيين فى حكومة قومية تقف أمام الغزو اليابانى . وفشلت البعثة فى مهمتها ، لأن شيانج كاى شك رأى فى طلباتها انتقاصاً لسيادته وتقليل سلطانه ، ولم يكتف بالرفض ، بل طالب بسحب « ستلويل » .

وارتكب الرئيس روزفلت غلطة خطيرة ، كان من نتائجها قيام الحرب الأهلية فى الصين ، وكان من نتائجها أن أخذت أمريكا تقود العالم إلى حرب عالمية ثالثة . وهى نتائج كان الرئيس روزفلت يضحى كل شيء فى سبيل تلافيها ... قبل روزفلت إعفاء ستلويل من مهمته فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، وأغلب الظن أن هذا كان ضد رغبته الأصلية . وخلف ستلويل البحر جنرال « ألبرت ودماير » ولم تكن لديه النزعة الإصلاحية التى كانت لسلفه ، واحتج على ذلك السفير الأمريكى فى الصين فاستقال فى ٢٧ نوفمبر . واقترح الشيوعيون تأليف حكومة قومية فرفض شيانج كاى شك وآزره السفير الأمريكى الجديد المستر « هورلى » . وكانت النتيجة أن أخذت المساعدات الحربية الأمريكية تقل بالنسبة للشيوعيين ، وتزداد بالنسبة لشيانج كاى شك الذى راح يختزنها ليستعملها ضد الشيوعيين فيما بعد .

وحينما سقطت اليابان لاح شبح الحرب الأهلية فى الصين ، وطار هورلى السفير الأمريكى إلى « ينان » مركز قيادة الشيوعيين وعاد « بماوتسى تنج » إلى « تشنجكنج » وانقضى الصيف فى المفاوضات ، وكان فى استطاعة الولايات المتحدة التى كانت قد أقنعت تشنجكنج بقبول اتفاق « يالتا » أن تضغط على الطرفين المتفاوضين فى سبيل الاتفاق وذلك عن طريق واحد بسيط ، وهو منع المساعدة عن شيانج كاى شك . الذى استغل كل المساعدات فى سبيل القضاء على خصومه من الشيوعيين . ولكن الولايات المتحدة بدلا من أن تفعل هذا أخذت تتعاون صراحة مع الكومنتانج ضد الشيوعيين .

ومن الجانب الآخر لم تقدم الروسيا مساعدة مباشرة للشيوعيين . كل ما عملته هو أن فككت معظم المصانع اليابانية فى منشوريا وحملت أجزاءها ثم سحبت جيوشها فى ابريل سنة ١٩٤٦ ، ولم تترك إلا بعض الحاميات فى دارين وبورت آرثر ، وتركت البلاد فى ظروف أعطت الشيوعيين فرصة احتلال معظم منشوريا والاستيلاء على كثير من مخلفات الجيوش اليابانية ومعداتها الحربية . وفى نفس الوقت استقال هورلى من منصبه متهماً وزارة الخارجية الأمريكية بتهم ليس هنا مجال سردها .

وعين الرئيس ترومان الجنرال « جورج مارشال »

مبعوثاً خاصاً إلى الصين ، وأعلن فى ١٥ ديسمبر ١٩٤٥ أن الولايات المتحدة ترغب فى أن تجد الصين فى نظام ديمقراطى ، وترغب عن التدخل فى شئونها الداخلية ، وأنها مستعدة لمد الصين بالمساعدة وفقاً لقانون الإعارة والتأجير لو قامت فيها حكومة وطنية موحدة مستقرة ؛ ونجح مارشال فى عقد هدنة بين الكومنتانج والشيوعيين فى ١٠ يناير ١٩٤٦ ، ووعد شيانج كاى شك بإصلاح ملكية الأراضى وبوضع خطة لحكومة قومية ووضع دستور ديمقراطى ؛ ولكن لم تمض شهور حتى نقضت الهدنة وعادت المناوشات من جديد ، وراح كل فريق يحمل الآخر مسئولية ذلك . ولما كان شيانج كاى شك ومستشاروه على ثقة من مساعدة الولايات المتحدة لم يروا ما يدعو إلى مهادنة الشيوعيين ، وأعلنوها حرباً شاملة ، لا على الشيوعيين وحدهم بل وعلى الديموقراطيين بصفة عامة ، وقتل البرفسور « لى كونج بو » Li-Kung-po والبرفسور ون يو تو Wen yu-tu ، وهما من زعماء الكتلة الديموقراطية التى كانت الحزب السياسى الحر الوحيد فى الصين . وأعلنت « مدام صن يات صن » فى أسى بالغ أن الصين فى طريقها إلى الدمار ، وأن المساعدة الأمريكية لشيانج كاى شك معناها الحرب الأهلية المحققة .

وفى أغسطس سنة ١٩٤٦ صرح الجنرال مارشال أن الاتفاق بين الكومنتانج والشيوعيين أمر مستحيل ، وبعد بضعة أسابيع اتفق على أن يحول إلى حكومة شيانج كاى شك ما قيمته ألف مليون دولار من معدات الحرب الأمريكية فى الصين والمحيط الهادى الغربى . وكان عجيباً فعلاً أن تقوم أمريكا بهذا ، وهى تدعى الوساطة فى سبيل السلام فى الصين .

وبدا لشيانج كاى شك أن الأمر قد استقر له ، خصوصاً بعد معاهدة الصداقة ، والمعاهدة التجارية اللتين عقدهما مع الولايات المتحدة . فدعا إلى جمعية وطنية فى نانكين ، ولكن الشيوعيين والرابطة الديموقراطية قاطعوها ، ووضعت دستوراً لم يقبله الشيوعيون ، واشتد النزاع ، واتسعت الحرب الداخلية ، وتوالت مساعدات أمريكا لشيانج كاى شك ؛ وحينما اقترح « مولوتوف » فى مؤتمر موسكو فى مارس سنة ١٩٤٦ أن تجتمع الثلاثة الكبار لمناقشة المسألة الصينية ، رفض مارشال هذا الاقتراح ، ولم تمض فترة حتى استولت قوات الكومنتانج على ينان عاصمة الشيوعيين لفترة غير قصيرة ؛ كذلك استطاعت مزودة بالعتاد الأمريكى أن تستولى على كل جهات شانتونج وتصل إلى منشوريا ، ولكن استطاع الشيوعيون فى أواخر سنة ١٩٤٧ استرداد شانتونج وامتدت سيطرتهم على معظم الجهات فى شمال نهر اليانجتسى وعبروا النهر فى أكثر من موضع .

وكان نظام شيانج كاى شك كنظام آل بربون ، لم يتعلم شيئاً ولم ينس شيئاً ، فاستمرت الفوضى والانهيار وسوء الإدارة ، حتى إنه حينما احتجت فرموزا المحررة على هذه الأحوال السيئة قتلت من عشرات قوات شيانج كاى شك الكثير ، ولم تأت سنة ١٩٤٨ حتى كانت المسألة الصينية شأنها شأن المسائل العالمية الكبرى الأخرى ، موضع خلاف بين موسكو وواشنطن ، ولم يتدخل « الكرملين » تدخلاً سافراً فى شئون الصين الشيوعية ، ولم يكن رجاله فى حاجة إلى ذلك ، فإن معظم الإمدادات التى بعثت بها أمريكا إلى الكومنتانج كانت قد آلت إلى الشيوعيين عن طريق غنائم الحرب ، أو عن طريق شرائها ورشوة المتصرفين فيها من قواد شيانج كاى شك . فليس عجيباً إذاً أن تدور الأمور بسرعة ، وأن يخلص للشيوعيين كل الصين ، وأن تنحصر قوات شيانج كاى شك فى جزيرة فرموزا .

ولقد كان فى استطاعة أمريكا بعد كل هذه الأخطاء أن تصحح مركزها فتعترف بالصين الشيوعية ؛ خصوصاً وهى تعلم أن الشيوعية فى الصين غيرها فى روسيا ، وأن « ماوتسى تونج » ليس دمية يحركها الكرملين .. إنها لو فعلت ذلك لخلقت « تيتو » آخر فى الشرق الأقصى ، وكان هذا أجدى عليها وعلى العالم . وحالت دون التوسع الروسى من غير أن تسفك قطرة واحدة من الدم ... ولكنها هى أمريكا .

محمد أحمد الصياد

النُّباهي وتاريخه لقضاة الأندلس

للأستاذ علي أدهم

الكتب الخاصة بتراجم الكتاب والشعراء والأدباء ، وطبقاتهم وسير رجال الحكم والسياسة ، وأبطال الميادين ، والوقائع والفتوح كثيرة موفورة في الأدب العربي ، ولكن الكتب الموقوفة على حياة حماة العدالة وسدنة القانون والشريعة قليلة نادرة ! ومن هذه الكتب كتاب « تاريخ قضاة الأندلس » لأبي الحسن النباهي المالقي الأندلسي ، وقد سماه كتاب « المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » . والظاهر أن الكتب مثل الناس ، منها ما يواتيه الحظ ، ويصادفه التوفيق ، فيظفر بالمكانة المرموقة ويحظى بالشهرة البعيدة ، ومنها ما يتخلى عنه الحظ ويخطئه التوفيق ، فيظل مهملاً في زوايا الخمول مطرحاً في مدارج النسيان ، وقد تشتهر بعض الكتب وتتم الرواج والذيوع لا لميزة ظاهرة ، أو أصالة غير منكورة ، أو طرافة في موضوعها بادية ملحوظة ، وإنما لأنها تستجيب لحالة نفسية أو عقلية طارئة ! وكتاب النباهي عن قضاة الأندلس والمغرب من الكتب القيمة التي ظلمها الحظ وجار عليها ، فقد ظل حيناً طويلاً من الزمن مجهول الشأن غامض القدر ، لا يعرفه أحد ، ولا يسمع به حتى المتقرون عن الكتب والباحثون عن الأصول والمخطوطات . وفي هذا حاله ومصيره حتى قدر له من المستشرق المعروف الأستاذ ليفي بروفنسال من يقيل عثرته ، وينهضه من كبوته ، ويبدد عنه أغشية الخفاء ، ويجلو حجب الظلام ، ويشرف على طبعه وبعثه إلى الحياة ! وهو يقول في تصديره : « أنشر في هذا السفر أثراً لم يطبع إلى اليوم ، وهو وثيقة عظيمة الخطر عن تاريخ القضاة بالمغرب الإسلامي في العصر الوسيط ، فتاريخ تصنيفه المتأخر مكّن مؤلفه من الإحاطة بمدة طويلة من الزمن تمتد من الفتح العربي إلى القرن الثامن الهجري ، غير أن هذا الكتاب رغم اتساع الموضوع الذي تناوله بقي مجهولاً إلى يومنا هذا ، ولا يوجد عنوانه حسب ما أعلم في أحد المؤلفات التي أحصت الكتب المتعلقة بالأدب العربي ، فلم يذكره حاجي خليفة ولا بروكلمان ، وعبثاً يبحث المرء عن أثر له في مكاتب أوربا والشرق التي نشرت فهارسها ! وسبب ذلك ولا شك أن الناس لم يتناقلوا منه نسخاً ، وقد جلب عدد قليل منها في آخر القرون الوسطى من مملكة غرناطة الصغيرة إلى مدن المغرب الأقصى ، وهناك ساعدني الحظ فاكتشفت منه نسختين خطيتين لهما من الصحة ما كفى لإغرائي بالعمل على نشر الكتاب » .

فهذا الكتاب إذاً كان مغموراً مجهولاً الجهل كله كما يقول ناشره الأستاذ بروفنسال ، ولكن الغريب مع ذلك أن مؤلفه القاضي النباهي كان رجلاً معروفاً مذكوراً بارز الشخصية بين معاصريه ، موصوفاً بسعة العلم ، وثقوب الفهم ، ونباهة المحتد ! فهو من أسرة استقرت منذ أجيال عديدة بمدينة من أزهى مدن الأندلس الساحلية ، وهي مدينة مالقة ، وقد ولد بها في عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، وعمّر طويلاً ، ففي عام اثنين وتسعين وسبعمائة كما يروي لنا المقري في كتاب « أزهار الرياض » كان لا يزال حياً يرزق ، وهو يقول عنه : « القاضي النباهي هو قاضي الجماعة بغرناطة الإمام العالم العلامة ، كان رحمه الله من أكابر المشهورين بها ممن له الفصاحة والبلاغة والجلالة إلى الاتصاف بالعلم والمعرفة والتفنن في العلوم معقولها ومنقولها » .

وقد نشأ النباهي بمالقة ودرس بها على شيوخ مقصودين ثم رحل عنها إلى غرناطة لاستكمال ثقافته الأدبية والفقهية ثم غادرها لما ولي القضاء بمدينتين صغيرتين وعاد للاستقرار بها نهائياً عندما عين كاتباً بالديوان في بلاط ملك غرناطة ، ولم يمض إلا قليل حتى قلده سلطان غرناطة قضاء الجماعة بها ، وهي وظيفة تعادل قاضي القضاة في البلاد الإسلامية الأخرى .

وقد عاصر النباهي المؤرخ المغربي الكبير العلامة ابن خلدون ، واتصل به وسمع منه ونقل عنه ، وتأكدت العلاقات وتوثقت الروابط بينه وبين معاصره الوزير الشاعر الكاتب الكبير لسان الدين بن الخطيب ، وتبادلا الرسائل

وتقارضا المدح والثناء ، حتى غام بينهما الأفق ، وأظلم الجو ، ووقعت النبوة ، وعمل كل منهما على تشويه سمعة الآخر ، وهدم مكانته ، وإزالته من طريقه ، وقد اتهم ابن الخطيب في عقيدته ، ورمي بالزندقة ، وقد انتهت الدسائس التي حيكت حوله بسقوطه ونكبته وقتله عام ستة وسبعين وسبعمائة . والمعروف أن القاضي النباهي كان ضالعاً في اتهام ابن الخطيب شديد النقد لسلوكه ومواقفه ، ولست واثقاً من أننا نملك من البينات والمعلومات والوثائق ما يساعدنا على الفصل في قضية الخلاف الشديد الذي ثار بين القاضي النباهي والوزير لسان الدين وانتهى بهذه النهاية الفاجعة ! وقد كان المقري من أشد الناس إعجاباً بلسان الدين ، وأعظمهم تقديراً لأدبه وعلمه ، وربما يكون هذا الإعجاب الشديد هو الذي حمله على أن يقف من هذا الخلاف في صف صاحبه ابن الخطيب ، كما تنم عليه لهجته حينما يعرض في النواحي المختلفة من كتاب « نفح الطيب » لهذا الخلاف ، فهو يقول مثلاً حينما يتحدث عن نشأة ابن الخطيب : « ومن أعدائه الذين باينوه بعد أن كانوا يسعون في مرضاته سعي العبيد ، القاضي أبو الحسن بن الحسن النباهي ، فكم قبّل يده ، ثم جاهره بعد انتقال الحال ، وجدّ في أمره مع ابن زَمْرَك حتى قتل لسان الدين ، وانقضت دولته ، فسبحان من لا يتحول ملكه ولا يبيد » . ولست أدري هل كان القاضي النباهي من هؤلاء السعاة الأشرار الذين يحكمون الكيد ويجيدون الدس ، حتى يجهزوا على فريستهم ، أو أنه وجد عن صدق اعتقاد في أقوال لسان الدين وكتاباته ما يستوجب الاتهام ويسوّغ الرمي بالكفر والإلحاد ، وفي سلوكه وتصرفاته ما يثير الريبة ، ويدعو إلى ترك المسالمة والمهادنة والإمعان في الخصومة والمحاربة ! ومهما يكن من الأمر فإن لسان الدين نفسه قد أثنى على النباهي في كتاب الإحاطة وغالى بقيمته ؛ فقال في ترجمة السلطان ابن الأحمر : « ثم قدّم للقضاء الفقيه الحسيب أبا الحسن ، وهو عين الأعيان بمالقة ، المخصوص برسم النيابة والقيام بالعقد والحل ، فسدد وقارب وحمل الكلّ ، وأحسن مصاحبة الخطبة والخطة وأكرم الشيخة مع النزاهة ، ولم يقف في حسن التأتي عند غاية ، فاتفق على رجاحته ولم يقف في النصح عند غاية » ، ومن وصفه له حينما ولي القضاء قوله : « طاهر النشأة وقورها ، محمود السجية مشكورها ، متحلياً بالسكينة ، حالاً من النزاهة بالمكانة الأمينة ، ساحباً أذيال الصون ، بعيداً عن الاتصاف بالفساد من لدن الكون » ، ولما تغير ما بينهما حمل عليه لسان الدين حملات شعواء ، وأوسعه هجواً وسخرية ، وعيره بقصر قامته ولقبه بالجُعَيْسُوس ، ومعناها القصير ، ولم يكتف بذلك بل ألف رسالة خاصة في هجائه سماها « خلع الرسن في وصف القاضي أبي الحسن » ، ولعلها من قبيل هذه المهاترات التي تدل على عقلية كتابنا قبل أن تنال من مكانة الذين تقال فيهم وتساق إليهم .

ومن أقوال النباهي في مقدمة كتابه : « هذا كتاب أرسم فيه بحول الله نبذاً من الكلام في خطة القضاء ، وسير بعض من سلف من القضاة أو بلغ رتبة الاجتهاد ، وفيمن يجوز له التقليد ومن لا يجوز ، وصفات المفتي الذي ينبغي قبول قوله ، والاقتداء به لمن ذهب إلى مذهبه . والجاري بالفتاوى على منهج السداد ، وهل يجوز للمفتي قبول الهدية من المستفتي أم هي في حقه من ضروب الرشاء المحرمة على الجميع ، ولست أجهل أن هذا الغرض قد سبق له غيري ، وصنف في معناه أناس قبلي ، لكني رأيت أن أعيد منه الآن ما أعيده على جهة التذكرة لنفسي ، والتنبيه لمن هو مثلي . وحاصل ما أريد إثباته من ذلك في هذا الكتاب يرجع إلى أربعة أبواب » . هذا ما يقوله المؤلف في المقدمة ، والظاهر أنه لم يكتب إلا جزءاً واحداً من كتابه ، فهو يشير في المقدمة إلى أن الكتاب سيشمل أربعة أبواب ، ولا نجد منها سوى بابين متفاوتين في الطول غاية التفاوت ، فالباب الأول يبحث في القضاء عامة ، وفي المسائل التي تتعلق به ، وهو لا يستغرق سوى صفحات قلائل من الكتاب ، والباب الثاني مجموعة تراجم قضاة أكثرهم من الأندلس وبعضهم من أهل المغرب ، وهذا الجزء له أهمية بالغة . فهو يزودنا بحقائق تاريخية قيمة . ويمدنا بمعلومات نفيسة عن الكثيرين من رجال الأندلس والمغرب ، ولعل الأهم من ذلك كله هو أنه يكشف لنا صفحة باهرة من تقدير الأندلسيين خاصة والمسلمين عامة لمكانة القانون وقداسة القضاء ، ومؤلف الكتاب نفسه يقول في الباب الأول من كتابه « خطة القضاء في نفسها عند الكافة من أسنى الخطط ،

فإن الله تعالى قد رفع درجة الحكام ، وجعل إليهم تصريف أمور الأنام ، يحكمون في الدماء والأبضاع والأموال والحلال والحرام ، وتلك خطة الأنبياء ومن بعدهم من الخلفاء ، فلا شرف في الدنيا بعد الخلافة أشرف من القضاء ! ولأجل منيف قدره في الأقدار وسمو خطره في الأخطار اشترط العلماء في متوليه من شروط الصحة والكمال ما تقرر في كتبهم . واستبعد حصول مجموعه الأئمة المقتدى بهم ، فقد نقل عن مالك بن أنس أنه كان يقول في الخصال التي لا يصلح القضاء إلا بها « لا أراها تجتمع اليوم في أحد ، فإذا اجتمع منها في الرجل خصلتان العلم والورع قدّم » .

ويرى المؤلف أن من تقلد الحكم بين الخلق والنظر في شيء من أمورهم فهو أحوج الناس إلى نور العقل وإلى التحلي بالتذكير والتيقظ والتفطن ، ومن لم تكن فيه هذه الصفات ليس له أن يلي القضاء ، فلا ينبغي أن يستقضى إلا ذكي فطن فهيم متأن غير عجول ! ولما قال عمر ابن عبد العزيز : « لا يصلح للقضاء إلا القوي على أمر الناس المستخف بسخطهم وملامتهم في حق الله ، العالم بأنه مهما اقترب من سخط الناس وملامتهم في الحق والعدل والقصد استفاد بذلك غنماً ربيحاً من رضوان الله » .

وواضح من ذلك تقدير رجالات الأمة الإسلامية للقضاء وعلو شأنه في نفوسهم . وقد لاحظت أثناء اطلاعي على تراجم مشاهير القضاة في كتاب النباهي أن الكثيرين من العلماء والفقهاء كانوا يتجنبون الاضطلاع بمهمة القضاء ما وسعهم الجهد ، ويفرون من احتمال تبعتها الثقيلة فراراً ، وذلك لتقديرهم جلالة خطرها ، وحاجتها إلى الكثير من الصفات العالية ، والعلم الجم ، والدراية الواسعة ، وكانوا لتواضعهم وفرط محاسبتهم لأنفسهم وإكبارهم شأن القضاء يرون أنهم غير أهل للقيام بأعباء هذا المنصب العالي وتقلد تلك الخطة الشريفة ، وكان الاعتقاد السائد أنه لا ينبغي أن يتقدم للقضاء إلا من وثق بنفسه أو تعين له وأجبره الإمام العدل عليه ، وللإمام العدل إجبار من يصلح للقضاء على قبوله ، وله أن يمتنع عنه إلا إذا تحقق أنه لا يصلح في تلك الناحية للقضاء سواه ، فلا يحل له الامتناع ! ويفرض عليه في هذه الحالة قبول القضاء فرضاً . ومن أقوال عمر بن الحسين : ما أدركت قاضياً استقضى بالمدينة إلا رأيت كآبة القضاء وكراهيته في وجهه . ويروى في الصحيح عن أبي ذر « قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال : « يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدّى الذي عليه فيها » .

لخطورة القضاء كانت تجعل الكثيرين من الفضلاء الأتقياء ذوي الضمائر الحية يفرون من بلائه ويزورّون عنه ، وقد سجن بعض الأئمة بسبب امتناعهم عن قبول القضاء ، منهم الإمام أبو حنيفة ، فقد دعاه ابن هبيرة للقضاء فأبى فحبسه وضربه أياماً كل يوم عشرة أسواط وهو متماد على تأبيه حتى تركه . ونقل عن عثمان بن عفان أنه قال لعبد الله بن عمر بن الخطاب « اقض بين الناس » فقال « لا أقضي بين رجلين ما بقيت » وقال له عثمان « لتفعلن » فقال « لا أفعل » قال « فإن أباك كان يقضي » فقال « كان أبي أعلم مني وأتقى » .

وممن عرض عليه القضاء من فقهاء الأندلس فأبى من قبوله « إبراهيم بن محمد بن باز » ، فقد دعاه إليه الأمير محمد بن عبد الرحمن لقصة رفعت من قدره عنده فأباه ، فأرسل إليه بذلك أحد رجاله المقربين منه فامتنع عليه ولم يجد فيه حيلة ، فأعاد إليه رسوله يقول : « إذا لم تقبل قضاءنا فاحضر مجلسنا وكن أحد الداخلين علينا الذين نشاورهم في أمورنا ونسمع منهم في رعيتنا » ، فلما استمع إلى رسالته قال له : « إن ألح عليّ الأمير في هذا ومثله خرجت والله بنفسي من بلده ، قال وله ! » ، فأعرض عنه الأمير عند ذلك .

وقد كان أمير الأندلس عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل من أشد أمراء الأندلس هيبةً وأعظمهم صولة ، فلما استشار أصحابه في قاض يوليه على قرطبة ذكر له ولده هشام المصعب بن عمران ، فأمر بالإرسال إليه ، فلما قدمَ المصعب أدخله على نفسه بحضرة ولده هشام وخاصة أصحابه ، وعرض عليه القضاء فأبى من قبوله ، وذكر أعذاراً تعوقه عنه ، فرده الأمير وحمله على العزيمة ، وأصرّ مصعب على الإباية البتة ، فغضب الأمير وأطال الإطراق ، ولكنه استطاع أن يكبح جماح غضبه وتمتمه ، وقال للمصعب : « اذهب عليك لعنة الله ، وعلى الذين أشاروا بك » .

وممن عرض عليه القضاء فأباه محمد بن عبد السلام

الحشنى فقد نفر منه نفوراً شديداً ، فحاول الأمير الأندلسى محمد بن عبد الرحمن أن يرغمه على قبوله بالتهديد والوعيد فكتب إليه : « إن من عاصانا فقد أحلّ بنفسه ودمه » ، فلما قرئت له هذه الرسالة نزع قلنسوته عن رأسه ومد عنقه وجعل يقول : « أبيت كما أبت السموات والأرض إباية إشفاق لا إباية نفاق » .

ولا نزاع فى أن هذا الزهد فى تولى القضاء من أصدق الأدلة على يقظة الضمير والتشدد فى محاسبة النفس عند أمثال هؤلاء العلماء الأماثل ، ولكنه قد يكون من بعض الوجوه نوعاً من الفضائل السلبية ، وربما كان أدخل فى الزهد وأدل على الإحساس بالعدالة وتقديرها ، وأقرب إلى الفضائل الإيجابية قبول الاضطلاع بمهمة القضاء ثم مواجهة القاضى للأمراء الأقوياء والحكام ذوى السطوة والمكانة العالية والجاه العريض ، وإشعارهم بقوة القانون وإخضاعهم لسلطان العدالة ؛ ومن أمثال ذلك موقف القاضى عمر بن شريف البحصى من الأمير عبد الرحمن الأول فى قضية حبيب القرشى ؛ وذلك أن حبيباً هذا دخل على الأمير عبد الرحمن فشكا إليه القاضى ، وذكر له أنه يريد أن يسجل عليه فى ضيعة قيم فيها وادعى عليه الاغتصاب لها ، ولاذ بالأمير من إسراع القاضى إلى الحكم عليه من غير تثبت ، فأرسل الأمير إليه ، وكلمه فى حبيب ونهاه عن العجلة عليه ، فخرج ابن شريف من يومه وعمل بضد ما أراد الأمير ، وأنفذ الحكم ، وبلغ الخبر حبيباً فدخل إلى الأمير متغيظاً متبرماً ، فذكر له ما عمله القاضى ، ووصفه بالاستخفاف بأمره والنقض له وأغراه به ، فغضب الأمير على القاضى واستحضره فقال له : « من أمرك على أن تنفذ حكماً ، وقد أمرتك بتأخيره والإناءة فيه ؟ » ، فقال له القاضى : « قدّمنى عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فإنما بعثه الله بالحق ليقضى به على القريب والبعيد ، والشريف والدنى ، وأنت أيها الأمير ما الذى حملك على أن تتحامل لبعض رعيتك على بعض ، وأنت تجد مندوحة بأن ترضى من مالك من تمنى به وتعد الحق لأجله ؟ » ، فقال له الأمير : « جزاك الله يابن شريف خيراً ! » ، ويقول النباهى عن هذا القاضى الفاضل : « كان من زهده وورعه إذا شغل عن القضاء يوماً واحداً لم يأخذ لذلك اليوم أجراً » .

ومن هذه المواقف الرائعة موقف القاضى محمد بن بشير مع الأمير الحكم حين رفض شهادة الحكم ، فذهب إلى الحكم أحد رجاله وقال له : « ذهب سلطاننا وأزيل بهاؤنا ، أيجترئ هذا القاضى على رد شهادتك ، والله تعالى قد استخلفك على خلقه وجعل الأمر فى دمائهم وأموالهم إليك ؛ هذا ما لا ينبغى أن تحتمله » وجعل يغريه بالقاضى ويحرضه على الإيقاع به ، ولكن الأمير كان رجلاً عاقلاً حازماً مقدراً لتبعاته ، فأجاب وكيله : « القاضى رجل صالح لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وقد فعل الذى يجب عليه ، ولست أعارض القاضى فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المسلمين فى قبض يد مثله » . ولما عوتب القاضى قال لمن عاتبه : « يا عاجز ! ألا تعلم أنه لابد من الإعذار فى الشهادات ؟ فمن كان يجترئ على الدفع فى شهادة الأمير لو قبلتها ؟ وإن لم أعذر بخست المشهود عليه بعض حقه ! » .

والشىء الجميل هو أن هؤلاء الأمراء الكبار الأعلام أنفسهم كانوا يؤمنون بالعدالة ، فكان الأمير الحكم يقول : « إنا معشر بنى مروان لا تأخذنا فى الله لومة لائم ، وما نرى الله رفع ملكنا ، وجمع بهذه الجزيرة فلّنا ، وأعلى فيها ذكرنا ، إلا بإقامة حدوده ، وإعزاز دينه ، مع مجانبة الأهواء المضلة » .

والواقع أن احترام العدالة ، وإكبار شأن القانون ، والتزام الحدود ، هى مساك الدول ، وأساس الحضارة الحقة ، وأعز مطالب الإنسانية . وفى كتاب تاريخ القضاة للنباهى الكثير من أمثال هذه الأخبار الحسان والمواقف المشرفة .

حاشية : — اطلعت على ملاحظة الأديب « مصطفى اسماعيل الجداوى » على الفقرة السابق ورودها فى مقالى « خواطر عن الحياة والموت والخلود » وتساؤل ويقين وعقيدة معطوفة على إرادة ، وهى جملة مكتفية بذاتها كما يقول الاقتصاديون ، فليست فى حاجة إلى جواب كما يحتم الأديب الفاضل ، وقواعد النحو والمنطق لا تفرض عليها هذا الجواب ، وأعيذ الأديب أن يكون ممن يحيون صحيح القول ، أو من الذين يختمون الفرص للتفيهق والتعالم ، وهو مع ذلك له مطلق الحرية فى أن يفهم الجملة على الوجه الذى يرضيه ، ويقرأها على الصورة التى تلائمه .

على أدهم

ديوان خليـــــل مطران

نشرت (الثقافة) في العام الماضي رسالةً للأستاذ وديع فلسطين ضمَّنها إحدى مراثي مطران التي لم تظهر في ديوانه وقد حسبها آخر ما نظمه مطران . أما ما أعلمه — روايةً عن الأديبة الشهيرة الأميرة نجلا أبي اللمع معلوف — فهو أنه اتفق وجود السيدة أرجيبي (عقيلة السيد نجيب حداد القنصل الفخري للبنان في كاراكس عاصمة فنزويلا) مع أختها (بنت المرحوم الدكتور باسيلا) في الفندق أو المصح الذي كان يقيم فيه مطران بأواخر أيامه في حلوان ، فتلطَّف عليها بقصيدة جميلة كتبها بخطه لعلها آخر ما نظمه شاعر العربية الكبير ، وهذه القصيدة — على ما حدثتني الأميرة نجلا — مودعةٌ الآن لدى السيد نجيب ، وبوسع اللجنة المنوط بها إخراج (ديوان الخليل) أن تحصل عليها وتضمها إلى المجموعة التي سينتظمها الجزء الخامس من ديوانه .

وقد حرمني اغترابي السحيقُ شرفَ المساهمة في جمع آثار مطران المبعثرة وبينها شعره الوطنيّ الثائريّ الذي كنا نسمعه من فمه ولا أجد له الآن أثراً في ديوانه ، وهذا مثلُ ما أصاب شعر حافظ ابراهيم الذي قلما دوَّن شعره غير المطبوع .

ولا غروَ إذا اهتمَّ المصريون خاصة لآثار هذين الشاعرين الجهيرين ، فقد كان حافظ لسان مصر الناطق الذي لا يعرف المساومة في مبادئه ولا ينظم لمجرد التسلية ولا التهليل والتصفيق

وكان مطران من أبر من أظلتهم سماء مصر بها ، عاش فيها زهاء نصف قرن مسانداً حركتها الوطنية في جميع مراحلها ، وكان ناظم أول نشيد وطني لها ، والزعيم الأول للمدرسة الابتداعية في الشعر العربي الحديث التي تفرعت عنها مدارس أخرى في مصر وخارجها فيما بعد على ما دونه النقاد البصيرون والمؤرخون المثقفون . ومن أهم المراجع في ذلك البحث الشائق الذي أخرجته (دار المقتطف) للمستعرب التركي الدكتور اسماعيل أدهم ، وهو جديرٌ بأن يعاد طبعه مع الإضافات اللائقة ، ولعل في مقدمة الأكفاء للإشراف على مثل هذا العمل الأستاذ وديع فلسطين الذي عُرف ببراعة نقده وتمتع بصحبة مطران في سنيه الأخيرة ، أو الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي صاحب كتاب (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) وهو مرجع هام محترم غني عن التعريف ، وكذلك شمائل مؤلفه الفاضل .

وفي بعدي آلاف الأميال عن مصر لا يمكنني أن أشيرَ إيماءاً إلاَّ إلى جمع قصائد تناولتها من أستاذي مطران ، بعضها فُقِدَ مني ولم أهتد إليه ، كرده على قصيدتي التوديعية المنشورة بمجلة (الهلال) — عدد يوليه سنة ١٩١٤ — وكنت حينئذ مقيماً بإنجلترا ، وقد جاء في مطلعها :

عرفتُ شعرك شعر الخلد من صغري
فكنت أحفظــه حفظي القرآن
والآن بنتُ وقد أبعدتَ عن نظري
فلمَ أشكو تبـــاريحي لظمآن

ومنها ما فقد أصله مني ونشر في صحيفة لم أهتد إليها مثل قصيدته (عالم وعالم) التي استهلها بقوله :

يا بن أخي بشرتني مرةً ... بلقيّ الصبت ولم تحضُر
ما دمت في خير وفي صحة ... فانس الذي تنساه أو فاذكر

ومنها :

تحكي (سهيلاً) قطرة من دم ... وتكتمُ الذرةُ (المشترى)
كلاهما في نوعــه عالمٌ ... أدقه يدهش كالأكبر !

وهــذه الأبيات مذكورة مع ردي على القصيدة في ديواني الأول (أنداء الفجر) وفيه أيضاً قصيدة من مطران رداً على أخرى مني بعنوان « لوعة الخريف » وهي ترجع إلى سنة ١٩١٠ ، كما به تحية منه لتلك الديوان ، وهما منقولتان عن خطه في الطبعة الثانية من الديوان الصادرة سنة ١٩٣٤ ، وبين ما تلقيته من مطران عدا هذه القصائد تحيةٌ وتزكيـةٌ أثر عودتي إلى مصر من انجلترا وترشيح الوفد المصري إيايَ للبرلمان الأول ، وليس عندي النص الكامل من هذه القصيدة ، وربما وجد لدى الأستاذ الأديب حسن الجداوي المحامي الذي اقتبس منها في تقديمه لبعض دواويني .

هذا ما يحضرني ذكره لبعض ما يحضني في الفائت من شعر مطران ، أو لما أعرفه عن أشعاره المنسية ، ومنها ما لا يمكن نشره — حتى لو اهتدى إليه — في الظروف السياسية الحاضرة .

(نيويورك) أحمد زكي أبو شادي

من نظم الحكم فى مصر الإسلامية :

نظام الوزارة فى العصر الفاطمى

للدكتور جمال الدين الشيال

ظلت مصر منذ الفتح العربى ولاية تابعة للخلافة ، وفى منتصف القرن الثالث الهجرى حاول ابن طولون المحاولة الأولى للاستقلال بمصر ، وفى عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية اتخذ بعض حكام مصر الوزراء لأول مرة ، فكان أبو بكر محمد بن رستم الماذرائى وزيراً لخمارويه ، وكان أبو الفضل جعفر بن الفرات وزيراً لكافور الاخشيدى .

ولفظ الوزارة كما يقول ابن خلدون : « يدل على مطلق الإعانة ، فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة ، وهى المعاونة ، أو من الوزر وهو الثقل » .

وتنقسم الوزارة فى العالم الإسلامى — ومنه مصر — إلى : وزارة تنفيذ وفيها يقوم الوزير بتنفيذ أوامر الخليفة ؛ ووزارة تفويض وفيها يكون الخليفة مغلوباً على أمره ، والأمور كلها بيد الوزير .

وقد كانت الوزارة فى القرن الأول من الحكم الفاطمى فى مصر وزارة تنفيذ ، كما كانت فى القرن الثانى وزارة تفويض .

وأول من اتخذ وزيراً من الخلفاء الفاطميين هو العزيز بالله ، وكان وزيره هو يعقوب بن كلس ، وذلك « لأن الإمام المعز لدين الله — عليه السلام — كان يباشر التدبير بنفسه ، ولا يعوّل فيه على غيره » .

ولم يلقب بلقب الوزير فى عهدى العزيز والحاكم إلا يعقوب بن كلس ، وإنما كانت تطلق على وزارة هذين العهدين لفظ « وساطة » أو « سفارة » ، يقول المقريزى : « فلما مات ابن كلس لم يستوزر العزيز بالله بعده أحداً ، وإنما كان رجل يلى الوساطة والسفارة ، فاستقر فى ذلك جماعة كثيرة بقية أيام العزيز وسائر أيام ابنه أبى على منصور الحاكم بأمر الله ، ثم ولى الوزارة أحمد بن على الجرجرائى فى أيام الظاهر ... وما زال الوزراء من بعده واحداً بعد واحد وهم أرباب أقلام حتى قدم أمير الجيوش بدر الجمالى » .

وكان وزراء العهد الأول من الحكم الفاطمى — كما يتضح من النص السابق — من أرباب الأقلام . أما وزراء العهد الثانى — أى من وزارة بدر الجمالى إلى وزارة صلاح الدين — فكانوا جميعاً من أرباب السيوف ، أى من رجال الجيش .

وكان زى الوزير من أرباب الأقلام : « المناديل الطبقيات بالأحناك تحت حلوقهم ، والثياب القصار التى يقال لها الدراريع ، وهى مشقوقة أمام وجهه إلى قريب من رأس الفؤاد بأزرار وعرى ، « ومنهم من تكون أزراره من ذهب مشبك ، ومنهم من أزراره من لؤلؤ ، وهذه علامة الوزارة » . »

وكانت تحمل للوزير الدواة المحلاة بالذهب من خزانة الخليفة ، ويقف بين يديه الحجاب ، كما كان أمره نافذاً فى أرباب السيوف وأرباب الأقلام .

وكان آخر وزير من أرباب الأقلام هو الوزير ابن المغربى ، ثم ولى الوزارة من بعده أول وزير من أرباب السيوف ، وهو الوزير بدر الجمالى ، وأصبحت الوزارة منذ عهده وزارة تفويض ، وأنشئ له سجل خاص بهذا التفويض جاء فيه :

« وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره ، فباشر ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك ، مدبراً للبلاد ، ومصلحاً للفساد ، ومدمراً لأهل العناد » ؛ وأصبحت الأمور كلها مردودة إليه ، والاتصال بينه وبين الخليفة اتصالا مباشراً ، وجعل له تعيين قاضى القضاة وداعى الدعاة ، وخلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق ، وزيد له فى الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقوّر ، وهو زى قاضى القضاة ...

ولقب بألقاب كثيرة ، منها : كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ؛ وأهم هذه الألقاب : السيد الأجل أمير الجيوش ، وهو اللقب الذى توارثه من بعده وزراء التفويض من أرباب السيوف فى العهد الثانى من الحكم الفاطمى ...

ولم يحدث أن ولى الوزارة ابن بعد أبيه فى العهد الأول ، وإنما حدث هذا فى العهد الثانى ، فولى الوزارة بعد بدر الجمالى ابنه شاهنشاه ، فوزر للمستنصر ثم المستعلى ، وفى عهد هذا الخليفة الأخير لقب شاهنشاه بالأفضل ، وأضيف هذا اللقب للوزراء من بعده ...

ومنذ عهد الخليفة الحافظ لقب الوزير بلقب «الملك» ، وأول من لقب به رضوان بن ولخشى ، فقيل له : « السيد الأجل الملك الأفضل » ، وذلك فى سنة ٥٣٠ ، ولقب به من أتى بعده من الوزراء ، فقيل للصالح طلائع بن رزيك « الملك المنصور » ، ولقب ابنه رُزِّيك بن طلائع « بالملك العادل » ، ولقب شاور « بالملك المنصور » ، ولقب صلاح الدين — وهو آخر وزراء الدولة — « بالملك الناصر » وظل يحمل هذا اللقب حتى آخر حياته ، بل لقد أصبح هذا اللقب تقليداً يتبع طول عهدى الدولتين الأيوبية والمملوكية ، وإنما للسلاطين لا للوزراء .

وخير ما تدل عليه هذه الألقاب أن الوزير فى العهد الثانى من الحكم الفاطمى أصبح هو كل شىء فى الدولة ، فقد أصبح السيد الأجل ، ثم أمير الجيوش ، ثم الأفضل ، ثم الملك . يقول المقريزى : « وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر إلى آخر الدولة هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد ، وإليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية ، وهو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية » .

وكان من زى الوزير فى العهد الثانى الذؤابة المرخاة والطيلسان المقور ، وهو زى قاضى القضاة ، كما كان يتقلد السيف ، وذلك « إشارة إلى أنه كبير أرباب السيوف والأقلام » .

وكان مقرر الوزير فى العصر الفاطمى ثلاثة آلاف دينار فى الشهر ، منها ألف وخمسمائة دينار كراتب ، وألف دينار لنيابته فى العلامة ، وخمسمائة دينار رواتب لمائة غلام برسم مجلسه وخدمته ، لكل غلام منهم خمسة دنانير فى الشهر ؛ كما كانت تدر عليه إقطاعاته نحو خمسين ألف دينار فى السنة .

ولم يكن يسمح لأحد بالجلوس فى حضرة الخليفة إلا للوزير ، فكان يجلس على يمين الخليفة ، وتطرح له مخدة تشريفاً ، كذلك كانت له مرتبة خاصة معدة لجلوسه عند باب قاعة الذهب من القصر الكبير .

وفى العهد الثانى من حكم الفاطميين بُنيت فى القاهرة دار خاصة للوزير سميت دار الوزارة الكبرى ، قيل إن الذى بناها هو أمير الجيوش بدر الجمالى ، وقيل إنما بناها ابنه الأفضل شاهنشاه — وهو الأرجح ؛ وكانت هذه الدار تشتمل على عدة قاعات ومساكن وبستان ، وكان فيها عشرون مقسماً الماء الذى يجرى فى بركها ومطابخها ، وكان يحيط بها سور من الحجارة . يقول المقريزى : « وما زال وزراء الدولة الفاطمية أرباب السيوف من عهد الأفضل ابن أمير الجيوش يسكنون بدار الوزارة هذه إلى أن زالت الدولة ، فاستقر بها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب » ، وظلت هذه الدار مقراً لسلاطين بنى أيوب حتى عهد الملك الكامل محمد فنقل مقر الحكم إلى قلعة الجبل .

وقد كان لسياسة التسامح الدينى — التى امتازت بها الدولة الفاطمية — أثرها فى اختيار بعض الوزراء أو الوسطاء من المسيحيين واليهود ، فممن تولى الوزارة أو الوساطة من المسيحيين : زرعة بن نسطوروس ، وأخوه صاعد بن عيسى بن نسطوروس — فى خلافة الحاكم بأمر الله — وأبو سعد منصور فى خلافة المستنصر ؛ وممن تولاها من اليهود : يعقوب بن كلس — فى خلافة العزيز — وأبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى ، وابن أبى سعد إبراهيم بن سهل التسترى — فى خلافة المستنصر — غير أن هؤلاء جميعاً لم يلوا الوزارة وهم على دينهم ، بل أسلموا قبيل توليها .

جمال الدين الشيال

مقومات الشعر الانجليزى الحديث

— ٣ —

الدكتور رشاد رشدى

حياة المادة التى جلبتها الآلة قد قتلت فى الإنسان إحساسه بكيانه وفرديته ، فأصبح (عجلة فى آلة ــ شيئاً ذا وجه واحد) كما يقول الشاعر المعاصر (لوى ما كينس) فى قصيدة له بعنوان (صلاة من لم يولد بعد) وهى شكوى حارة من الحياة العصرية ، يصور الشاعر فيها كيف استحال الإنسان فى عصر الآلة إلى شىء ، مسلوب الإرادة مشتت الكيان ، قد تجمدت آدميته فأصبح كالصخر وتحللت شخصيته فأضحى كالماء ينسكب بين الراحتين ، إذ يقول :

لم أولد بعد — فاستمع إلىّ
لا تدع الخفاش أو الفأر أو القاقم
أو الغول يدنو منى
لم أولد بعد — فواسنى وطمئنى
فإنى أخاف الجنس البشرى — وأخشى
أن يحيطنى بحوائط عالية
وبمخدرات قوية يخدرنى — وبأكاذيب محكمة يضللنى
وفوق الباسطات يصلبنى ، وفى بحور من الدم يغسلنى .
لم أولد بعد — فزودنى
بالماء يروينى وبالعشب ينمو لى
وبالشجر يكلمنى
وبالسماء تغنى لى .
وبالطيور
وبنور
أبيض اللون فى رأسى
يقودنى ويهدينى .
لم أولد بعد — فاغفر لى
الذنوب التى سيرتكبها العالم فى
وكلامى عند ما يتحدث منى
وأفكارى عند ما تتم على
وخياناتى التى سيرتكبها خونة لا أعرفهم
وحياتى التى سيقتلونها بيدى — وموتى
عند ما يحيوننى أحيا كما يرغبون .
لم أولد بعد — فدربنى
على الأدوار التى يجب أن ألعبها والأقوال التى أقولها
عند ما يعنفنى الشيوخ ويتحكم الموظفون فى
وتكشر الجبال فى وجهى ويضحك المحبون منى
وتدعونى الأمواج البيضاء للدناءة ، والصحراء الساخرة للفنــاء
وعند ما يرفض السائل عطيتى — وعند ما يلعننى أبنــائى .
لم أولد بعد — فاستمع إلى
لا تدع الرجل الوحشى أو المتأله
يدنو منى
لم أولد بعد — فاملأنى
بالقوة ضد من سيحاولون تجميد آدميتى
وإحالتى إلى إنسان ميكانيكى
إلى عجلة فى آلة — إلى شىء
ذى وجه واحد — إلى جماد
وضد كل من سيحاولون تشتيت كيانى
فيعبثون بى كما تعبث الريح بالزغب
تنقله فى طيش من مكان إلى مكان
أو ينسكبوننى
كما ينسكب الماء فيما بين الراحتين
لا — لا تدعهم إلى صخر يحيلوننى
أو كالماء يريقوننى
وإلا فاقتلنى

● ● ●

وفى الوقت الذى نرى فيه الشاعر (ماكيفى) يستعطف العالم على لسان جنين بجوار رحمة بإنسانيته وكيانه الفردى ضدّ حياة الآلة ، نجد شاعراً آخر هو (توماس ستون إليوت) وهو بلا منازع أول شعراء العصر الحديث لا فى انجلترا وحدها ، بل فى العالم الأوربى كله ، يصور الإنسان العصرى كأعجوبة متحركة ، قد ملىء منه الرأس بالهشيم ، فهو تائه فى دنيا غريبة لا يعرف له وجهة ، لأنه قد فقد معنى الحياة بعد أن صار آلة مجردة من الحساسية ، فعشى بصره واستحالت حياته إلى مجموعة من الأصنام الصخرية التى يتعبدها ويعيش فى ظلها — كما يقول فى قصيدته المشهورة (الرجال الجوف) التى نقتبس منها الأبيات التالية :

نحن الرجال الجوف
حشينا حشواً
يتساند بعضنا على البعض
وقد ملئت منا الرؤوس بالهشيم
فواحسرتاه لأصواتنا الجافة
عند ما تتهامس
فهى هادئة لا معنى لها
كحفيف الريح على الزجاج
أو كوقع أقدام الجرذان
على الزجاج المتكسّر
فى حجرة بالية مهجورة
مظهر ولا شكل
ظلّ ولا لون
قوة مشلولة
حركة ولا سير

* * *

هذه هى الأرض الميتة
هذه هى أرض الأشواك الصابة
هنا تقام الصور من الأحجار
وهنا تمتدّ لها
يد الميت المتضرعة
تحت بريق النجم الخافت
نعم — هذه هى الدنيا
فى عالم الموت الآخر
فعند ما نصحو فى وحشتنا
وفى الساعة التى نهتزّ فيها حناناً وشوقاً
لا تستطيع شفاهنا
وهى ترغب فى القبل
إلا أن تصوغ الصلوات للحجر المتكسر

* * *

لا وجود للعيون هنا
لا — لا عيون هنا
فى هذا الوادى الملىء بالنجوم الخابية
فى هذا الوادى الأجوف
فى هذا الفك المتكسر لأرضنا الضائعة
وفى هذا الملتقى الأخير
نتحسس الطريق معاً
نتحاشى الكلام
متجمعين على هذه الضفة للنهر الثائر
لا نبصر — لا أمل فينا ولا رجاء .

* * *

قوة مشلولة
حركة ولا سير .

لقد أجدبت الحياة فى نظر الشاعر (إليوت) بعد أن أحالتها الآلة إلى قفر تقطعت فيه أوصال العيش — عالم من الظلال والأشباح يخيم عليه الخوف والسكآبة — كل كائن فيه لا يعدو أن يكون ظلاً لغيره من الكائنات ، لأنه قد أضاع شخصيته وفقد ما كان يصل بينه وبين الحياة ، فالنبع قد نضب لأن الحياة قد استحالت إلى آلة — إلى جماد فلم تعد تزهر أو تثمر — وهكذا أصبحت حياة الإنسان العصرى كما يقول (إليوت) فى قصيدته المعروفة (بالأرض الخراب) :

أين هى الجذور المتأصلة
أو الغصون المتفرعة
فى هذا الصخر المتهالك
يا بنى الإنسان ؟
لا تستطيع الإجابة لأنك لا تعرف
إلا كومة من الصور المتكسرة
تحرق بأشعة الشمس
يوماً بعد يوم — حيث الشجرة الميتة
لا تستطيع أن تمنحك الظل

أو الصخر الجاف لا يستطيع
أن يزوّدك بالماء .
ولكن هناك شيء من الظل
تحت هذا الصخر الأحمر —
تعال حيث ظل الصخر الأحمر
أريك شيئاً يختلف عن
ظلك في الصباح يسير خلفك
أو ظلك في المساء ينهض لقيالك
سأريك الخوف في حفنة من التراب .
لا ماء هنا . بل الصخر فقط
الصخر ولا ماء، والطريق الرملي
الطريق المتعرج فوق الجبال
التي هي جبال من الصخر بلا ماء
لو كان هنا ماء لتوقفنا وشربنا
ولكن بين الصخــور لا يستطيع المرء أن
يقف ليشرب
والعرق جاف والأقدام تغوص في الرمل
لو كان هناك ماء بين الصخور
ولكن لا — بل لا يستطيع المرء أن يقف أو يرقد
أو يجلس
بل لا وجود للسكينة بين الجبال
ولكن رعد عاقر لا يلد مطراً
بل لا وجود للعزلة بين الجبال .
ولكن وجوه حمراء قاسية
تظهر وتحنق خلف أبواب
بيوت الطين المتشققة ...
لو كان هناك ماء
ولا صخر
أو لو كان هناك صخر
ولكن معه أيضاً ماء
ماء —
نبع —
غدير بين الصخر
أو حتى صوت الماء فقط
صوت الماء فوق الصخر
حيث يغني الطير على الشجر
يتساقط قطرة بعد قطرة
قطرة — قطرة — قطرة ...
ولكن لا — لا ماء هنا .

وتشبيه الحياة بعد أن جعلتها الآلة وجردتها من الروح — تشبيهها بالصخر كما أحسب القارئ قد لحظ من بعض الأشعار التي استشهدت بها الآن، هو من التشبيهات الشائعة، لا في شعر إليوت فحسب، بل في شعر كثير من غيره من المعاصرين، وهذا أمر له دلالته. لأن شيوعه بين الشعراء لم يأت من طريق المصادفة، وإنما جاء صدى لإحساسهم بجفاف الحياة الحديثة في ظل الآلة التي أحالتها إلى جمود لا روح به، ولكن فيه صلابة وقسوة تؤدي بالتدريج إلى إماتة الحس في الإنسان. خذ مثلاً الشاعر (وليم تزر) يصور تحلل الروح البشرية على صخر الحياة الحديثة المقفر يسقط فوقه الحس فيبلى كما يبلى الحجر بفعل الماء، إذ يقول في قصيدة قصيرة بعنوان (كما يتآكل الصخر):

كالصخر تتآكل روح الإنسان
تتآكل وتتفتت مع الزمن .
الحس يسقط على سطح بالٍ
جرسٌ بعد جرس
كقطرات الندى تنهم
أو قطرات الأمطار ترتسم
أو الريح تهب وتصفر
في كل طريق أو منعرج .
نائحة — كالأحجار — قاتمة
بالية بفعل الماء .
أبلاها الليل وأبلاها النهار
وحيدة مهجورة
كالصخر تتآكل روح الإنسان
تتآكل وتتفتت مع الزمن
دون أن يسمع لتآكلها صوت
أعلى من صوت المطر
يتساقط على النهر
جرس بعد جرس .
تذبل وتنطوي كما
يذبل الزهر .

(للبحث بقية)

رشاد رشدي

مقطوعة لطاجور

لم يمض اليوم بعد ، ولم ينته العمل على ضفاف النهر ...
خشيت أن يكون وقتي قد ضاع ، وآخر قرش لي قد فقد ..
كلا .. يا أخي .. لم أزل أملك شيئاً ..
إن القدر لم يسلبني كل شيء ..

•••

باع الناس واشتروا ومضوا ..
وأدى الجميع أعمالهم وانصرفوا ..
وآن لي أن أعود ..
ولكنك أيها الحارس .. أجل .. هل تطلب أجرك ؟
لا تخف ، إني مازلت أملك شيئاً ..
إن القدر لم يسلبني كل شيء ..

•••

هدأت الريح قليلاً ، وأنبأني ذلك بعاصفة ..
وانخفضت السحب وتكاثفت في الغرب ، ولا يبشر ذلك بخير ..
والماء ينتظر الريح ليندفع ، وأسرعت لأعبر النهر قبل أن يبتلعني الظلام ..
أيها الملاح .. أجل .. هل تريد أجرك ؟
أجل يا أخي .. إني مازلت أملك شيئاً
إن القدر لم يسلبني كل شيء ..

•••

وإلى جانب الطريق جلس السائل تحت الشجرة ..
بالتماس ، نظر إلى وجهي بأمل وخوف ..
ظنني ثرياً أعود بكسب يومي ..
أجل يا أخي ، مازلت أملك شيئاً ..
إن القدر لم يسلبني كل شيء ..

•••

وأظلمت ليلتي ، وخيمت على طريق الوحشة
ورق الضوء ، من فراشات بين الأوراق ..
من ذلك الذي يمشي بخطوات ثابتة ساكنة ؟
آه .. إني أعرفه .. أنت تريد أن تسرق مني ما ربحته .
لن أخيب ظنك بي ..
لأني مازلت أملك شيئاً ..
والقدر لم يسلبني كل شيء ..

•••

وفي منتصف الليل بلغت بيتي ، وكانت يداي فارغتين .
إنك تنتظرني بالباب ، ساكنة تنظر نظرات قلقة
وقد ذهب النوم من عينيك ..
وكالطائر الخائف ، جريت إلى صدري في حب ولهفة .
آه .. يا إلهي .. إني مازلت أملك شيئاً كثيراً ..
إن القدر لم يسلبني كل شيء ..

ترجمة
مجول أحمد أبيب



من كتابات الدكتور أحمد أمين بك

● إن المعاني لا تنعدم كما أن المادة لا تنعدم .

● عليكم بالعلم ، فإذا أردتم أن تعلموا وتستفيدوا فانسلخوا من كثير من عاداتكم القديمة وأخلاقكم الوخيمة ، واهتدوا بنور العلم في طريق حياتكم التي تسيرون فيها .

● المريض لا يشعر بمرضه إلا إذا ذاق طعم العافية .

● ليس بالناس يعرف الحق ، ولكن بالحق يعرف الناس .

● الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث يجدها .

● إن العدل والحرية هما ركنا الدولة .

● النفس الحساسة الفنانة تختزن حتى حفيف أوراق الأشجار وهفهفة الأغصان ودبيب النمال وحلاوة البسمات ، وأدق مجالي الجمال والقبح ، ثم تعرف كيف تستخدم ذلك في فنها متى آن أوانه .

● الغضب يبعث الغضب ، والصوت العالي يبعث في الرد عليه الصوتَ العالي .

● شدة الضغط تولد الانفجار ، والقسوة تفتق الحيلة ، وتوالي الاضطهاد يولد البغضاء .

● المستبد عدو الحق وعدو الحرية وقاتلها .

● إن الظالم إذا رأى المظلوم قوياً لم يجرؤ على ظلمه .

● ما من مستبد سياسي إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك فيها الله أو تربطه برباط مع الله ، ولا أقل من أن يتخذ بطانة من أهل الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله !!.

● الحاكم المستبد يخاف رعيته كما تخافه رعيته ، بل خوفه منهم أشد ، لأنه يخافهم عن علم ، وهم يخافونه عن جهل .

● من دلائل تغلغل الاستبداد في الأمة استكناه لغتها ، فإن كثرت فيها ألفاظ التعظيم وعبارات الخضوع ، كاللغة الفارسية ، دلت على تاريخها القديم في الاستبداد ، وإن قلت — كالعربية قبل امتزاجها بغيرها — دلت على الحرية .

● أخوف ما يخافه المستبد من العلم ، العلم الذي يعلم أن الحرية أفضل من الحياة ، والشرف أعز من المنصب والمال ، والحقوق وكيف تحفظ ، والظلم وكيف يرفع ، والإنسانية وقيمتها ، والعبودية وضررها .

● الوزير في الحكومة الاستبدادية وزير المستبد الأعظم لا وزير الأمة ، وكذلك من تحته من أعوانه .

● الاستبداد يقتل المجد ويحيي التمجد !!.

● لا ينبغي أن يتساوى العالم الذي أنفق زهرة حياته في تحصيل العلم النافع ، أو الصانع الماهر في صنعة مفيدة ، وذلك الجاهل الخامل النائم في ظل الحائط ، ولكن العدالة تقضي أن يأخذ الراقي بيد المتخلف والغني بيد الفقير ، فيقربه من منزلته ويقاربه في معيشته .

● الإنسان في ظل الاستبداد لا ينعم بلذة العزة والشمم والرجولة ، فلا يذوق إلا اللذة البهيمية لأنه لا يعرف غيرها .

● الاستبداد يلعب بالأخلاق ، فيجعل من الفضائل رذائل ، ومن الرذائل فضائل ؛ فيسمي النصح فضولاً ، والشهامة تهوراً ، والحمية طيشاً ، والإنسانية حمقاً ، والرحمة مرضاً ، كما يسمي النفاق سياسة ، والتحايل كياسة ، والدناءة لطفاً ، والنذالة دماثة وظرفاً .

● الاستبداد يفقد الناس ثقة بعضهم ببعض ، ويحل الخوف محل الثقة ؛ فيقل التعاون بين الأفراد والتعاون حياة الأمم .

● التربية تنمية الاستعداد جسماً ونفساً وعقلاً ، وهي قادرة أن تبلغ بالإنسان أعلى حد من الرقي لو صلحت .

● في الحكومة العادلة يعيش الإنسان حراً نشيطاً ، يسره النجاح ولا تقبضه الخيبة ، وفي الحكومة المستبدة يعيش خاملاً خامداً ضائع القصد حائراً .

● الأسير المعذب يسلي نفسه بالسعادة الأخروية ، ويبعد عن فكره أن الدنيا عنوان الآخرة .

● من العادة أن يلجأ الضعيف إلى التصوف كما يلجأ فاقد المجد إلى الكِبْر ، وقليل المال إلى التظاهر بزينة اللباس والأثاث .

جمعها : محمد قنديل البقلي

چـــان آنوى

للأستاذ عبد القادر السحامى

توجد فى دار الأوبرا فى الوقت الحاضر فرقة فرنسية للتمثيل المسرحى ، وقد بدأت موسمها بمسرحية « المسافر بلا متاع » لجان آنوى Jean Anouilh الذى سبق أن شاهدنا له فى مصر مسرحية « موعد سانليس » والتحفة الرائعة « آنتيجون » .

وچان آنوى من أكبر الكتاب المسرحيين فى فرنسا ، ولذلك فإنه لما يملأ النفس سروراً وغبطة ، أن يمسك الإنسان بالقلم ليكتب عنه شيئاً ...

إن چان آنوى كاتب مثالى ، ولذلك فإننا نجد شخصياته تجاهد دائماً فى سبيل ما لا وجود له ، ومن هنا تلك النشوة التى نحسها ، فنحن جميعاً — أو جلنا — نجاهد فى سبيل ما لا سبيل إلى الفوز به .

وآنوى لا يصور فى مسرحياته « أهواء » إنسانية ، وإنما يحلل « أحوالاً » إنسانية تنطوى على كثير من الخطايا ، وكثير من الحماقات ، وكثير من القبائح ؛ فالحياة لديه كريهة ودميمة ، كما أنها — بكل ما يحف بها من مساخر ومهازل ومباذل ، وما يكتنفها من آراء خاطئة ، وتقاليد واهية ، وأوهام مخزية — لا جدوى منها ولا طائل فيها . وبالرغم من كل ما يبديه الرجال من تعاظم وشموخ يدعوان إلى الإشفاق ، وكل ما يصدر عنهم من حركات وتصرفات القصد منها هو التفاخر والمباهاة ، فإنهم جميعاً خائبون ، وليس فى حياتهم غير السأم والبرم .

ذلك هو ما تحسه جيداً الليدى هيرف[1] التى — بالرغم من حياتها الاجتماعية الزاخرة — تقول : « لست غير هيكل عتيق يحس بالسأم والضيق . لقد ظفرت بكل ما يجوز لامرأة أن تتمناه ، سواء فى ذلك ما كان معقولاً وما كان غير معقول : المال والجاه والعشاق . والآن وقد تقدمت بى السن ، أجد نفسى ملتفة حول عظامى ، فى الوحدة التى كنت أحس بها عندما كنت صبية صغيرة تُعاقَب بالوقوف ووجهها إلى الحائط ، ومما يبدو لى أكثر خطورة أنى أصبحت أدرك أنه فيما بين تلك الطفلة الصغيرة وهذه السيدة الطاعنة ، لم يكن هناك غير وحدة كتلك ، وإنما هى وحدة أشد تعاسة ، وذلك بالرغم من كل ما كان يحيط بها من ضجيج » .

ولكن ألا يوجد وسط هذا الظلام الحالك بصيص من نور ؟ بلى ، فلدينا فوق هذه الأرض التى لا نحس فيها غير الآلام وخيبة الآمال ، عزاء فى الحب . وتقول الليدى هيرف أيضاً : « إن صغيرتى چوليت سوف تفوز بالخلاص لأنها عاطفية وساذجة ، وتلك نعمة لا تظفر بها كل النساء »

الحب وحده هو طريق الخلاص من تلك الحماة وذلك الفساد .

« إن كل الرجال كاذبون متقلبون مراؤون ثرثارون منافقون متغطرسون شهوانيون أو أنذال جبناء أذلاء ، وكل النساء غادرات ماكرات مغرورات متطفلات فاسدات . وما العالم غير بالوعة لا قرار لها ، حيث تدب وتتلوى فقمات ممسوخة الخلقة فوق تلال من الوحل ، ولكن يوجد فى العالم شىء مقدس وسام ، هو اتحاد هذين المخلوقين الناقصين البشعين[1] » .

ولكن أى لون من الحب ذلك ؟ ... إنه لدى آنوى مزيج من الخيال العاطفى والطموح الفنى والنزوع الدينى .. وهو حافز إلى شىء آخر أكثر سمواً وأعظم خلوداً ... كما أنه درع واقية فى الصراع البشرى ... فإن أبطال آنوى لا ينفكون يتصارعون مع الحياة ... الحياة القاسية الشريرة ، وإنه ينبغى ، لكى يستطيعوا أن يصمدوا فى ذلك الصراع ، أن يكونوا أزواجاً أزواجاً ، يربط الحب بين كل زوج منهم ويشد الواحد أزر الآخر . والمأساة لدى آنوى

---

(١) مسرحية « مرقص اللصوص » Le Bal des Voleurs

(١) مسرحية « أوريدس »

القيم الخالدة فى حضارة الإسلام (*)

تلخيص محمد عبد الحليم محمود

٦ — فى الزهد والفقر :

تتجه أمم العالم فى عصرنا الحديث نحو التوسع فى الميادين الصناعية . والتوسع فى الصناعات أمر ضرورى إذا أردنا أن نكفل عيش الملايين من بنى البشر ؛ لكن الحكومات والأفراد الذين يسيطرون على الإنتاج الصناعى لم يجعلوا هدفهم الأول سد حاجات الإنسان اللازمة ... بل جعلوا جهدهم فى خلق حاجات أخرى كمالية له يربحون من ورائها المال الوفير ؛ وهم لا يعلمون ، أو لا يريدون أن يعلموا ، النتائج الهدامة لهذا الاتجاه الخاطئ .

وإن حضارة تعتمد قبل كل شىء على القيم الروحية للإنسان لا يمكن أن يجرفها هذا التيار المادى البحت .. بل قد يكون إهمال جانب الإنتاج المادى هو عيبها العكسى .

ولقد وفق الإسلام بين الاتجاهين المتقابلين ، المادى والروحى .

لقد قال الرسول :

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وفى القرآن الكريم نجد هذه الآية :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » . (٢٨ ، ٧٧)

(*) بحث المستشرق الفرنسى اميل درمنجيم «Emile Dermenghem» كتبه فى مجلة كييه دى سود Cahiers du Sud ، العدد الخاص بالإسلام ، ونحن ننشر ترجمته هنا تباعاً نظراً لأهميته .

هى فى أن كل عاشق وعاشقة من هؤلاء يقفان وحدهما فى وجه العالم ، ولكن العقبات التى تعترضهما وتحول دون الخاتمة السعيدة ليست خارجية — فإن القصة فى تلك الحال لن تعدو أن تكون قصة مغامرات — وإنما هى تكمن فى نفسيهما وفى حياتهما وفى ماضيهما . ومأساتهما ليست فى أن المجتمع هو الذى يعمل على قهر حبهما ... كلا ، وإنما هى فى أن ذلك الحب يحمل فى ذاته أس عيبه الذى يقرضه وينهشه ...

ومن تلك العيوب والحوائل ، الدنس الذى يلحق بالجسد ، فتجد آمامها — إحدى شخصيات آنوى — تدلى بهذا الاعتراف المحزن ، فتقول : « لقد كان لى عشاق ، ولكنى لم أعرف الحب » ... أو الذكرى ، فما يفصل بين أوريديس وأورفيه هى تلك الذكرى العظيمة ... ذكرى يدى الرجل اللتين مستا جسدها ...

« فإن كل الصور الدنسة تبقى قائمة الواحدة إلى جانب الأخرى ، وكذلك كل الناس ، حتى أولئك الذين أحببنا عقتهم ، حتى أولئك الذين هربنا منهم »[1] .... « وأنت واثق أن كل الكلمات التى قيلت من غير أن نعيها ، والتى لم نستطع أن نستردها ، لازالت فى أفواهنا .. حين نتكلم ؟[2] » إذاً لن يكون الإنسان وحيداً ، وكل ذلك باق حوله ... ولن يصبح مخلصا حتى إذا كان يبغى ذلك ، ويعمل له بكل ما لديه من قوة ... وإذا كانت كل الكلمات تبقى هناك ، وكذلك كل الضحكات الدنسة ، وإذا كانت الأيدى التى مست الجسد لا زالت لاصقة به ، إذاً لا يمكن لامرأة أن تعدو امرأة أخرى ! » .

وفى « موعد سنليس » يخلع جورج من نفسه شخصا جديدا لكى يتقدم إلى إزابيل الطاهرة . ولكن حياته الماضية تلاحقه وتزعجه . وفى مأساة « المسافر بلا متاع » — التى شاهدناها هذا العام — يكتشف جاستون الذى أصيب بفقدان الذاكرة شيئاً فشيئا ، ماضيه البشع الذى عاد يلاحقه وبعضه ، فلا يجد وسيلة لأن يحتق نفسه منه إلا بأن يأباه ويرفضه .

عبد القادر السماحى

(١) أوريديس

وكان محمد عليه السلام كثيراً ما يقول لأصحابه إنه يخشى عليهم الغنى والإسراف . ويقول الله تعالى فى كتابه :

« كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفّون أجوركم يوم القيامة ؛ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

(سورة آل عمران ، آية ١٨٣)

ويقول : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ... أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . (١١ ، ١٨ — ١٩)

والقرآن يلوم الناس على حبهم الغنى والجاه ، ويدعوهم إلى القناعة ، ويسخر من طمع أهل المدينة المنورة ، إذ يقول :

« ... تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم » . (٨ ، ٦٨)

والأحاديث الكثيرة تكرر وتؤكد أن الغنى لا خير فيه إلا إذا أريد به الجهاد فى سبيل الله أو الإنفاق على المحتاجين ؛ وأن المال لا يطهره شىء سوى الصدقة ، وأن الفقير حقه فى الجنة مثل حق الغنى أو يزيد ، وأن عباد الدينار لا بد هالكون .

والزكاة — وهى ركن من أركان الإسلام الخمسة — نظام طيب للتعاون ومساعدة بنى الإنسان بعضهم لبعض ... فالإسلام يفرض للفقير حقاً معلوماً فى مال الغنى ...

والله واهب الأرزاق لا يحب من الإنسان أن يجعل كل همه السعى وراء المال . وإن هذا ليذكرنا بتعاليم القديس بولس الذى كان يعتبر البخل نوعاً من الإشراك بالله (Ephes, 5,5) .

ورغم ذلك لا نستطيع أن نقول إن المسلمين جميعاً كانوا بمنأى عن الطمع أو حب المال . فمن بين المجاهدين فى صدر الإسلام كثيرون ممن كان هدفهم الأول السعى وراء الغنيمة .

ولكن الرسول يعلن صراحة أن المجاهد الحق هو ذلك الذى يتجرد من جميع الأطماع والأغراض ، فلا يسعى وراء مال أو امرأة أو غير هذا من أعراض الدنيا الزائلة .

وكان عليه السلام يقول :

« اللهم أمتنى مسكيناً وأحينى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين » .

وقد نلاحظ بين طبقات الشعوب الإسلامية نزعة إلى الاعتقاد بأن الغنى والجاه مظهر من مظاهر رضا الإله ونتيجة منطقية للإخلاص والعمل الصالح ، بل برهان عليهما ... ولكن الآيات والأحاديث التى ذكرنا طرفاً منها تنفى هذه الفكرة نفياً صريحاً ...

● ● ●

وتدفقت خيرات آسيا وإفريقيا على شبه جزيرة العرب نتيجة الفتوحات التى قام بها المسلمون . فتطورت معيشة الناس وغدوا فى حالة من الترف تختلف كل الاختلاف عن حياتهم البسيطة الأولى : فما أعظم الفرق بين حياة الخلفاء والأمراء المنعمين وبين حياة رسول الله الذى لم يكن يشبع قط من خبز الشعير أو التمر واللبن ، والذى كان يكنس داره بيده ويخيط ملابسه ويصلح نعله ، أو حياة رجل مثل على ابن أبى طالب الذى اضطر فى اليوم المحدد لزواجه من بنت الرسول إلى أن يذهب إلى الجبل ليحتطب كى يستطيع أن يحصل على نفقات العرس ! ..

● ● ●

وفى عصر العباسيين ، وهو العصر الذى بلغ فيه الترف أقصاه عند العرب ، نرى الزهاد والمتصوفين يحاولون — بتقشفهم وتباعدهم عن الدنيا — أن يقاوموا ذلك التيار الجارف الذى دفع بالمسلمين إلى النعم والخمول ...

ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمة « فقير » تطلق على كل متصوف أو زاهد . وبتعبير آخر : على كل رجل يعمل لآخرته قبل أن يعمل لدنياه ... وهذا أمر له دلالته الواضحة ...

(البحث بقية) تلخيص
محمد عبد الحليم محمود

المساجد أصدق رمز لروح الإسلام

للدكتور محمد غلاب

إذا كان علماء التاريخ قد أجمعوا على أن الآثار المشيدة أصدق من الأخبار المقيدة ، وأن نقوش الأحجار مقدمة على سطور الأسفار ، وإذا كان من المتفق عليه أيضاً أن العمارة تساير الفكر البشري جنباً إلى جنب في كل تطوراته وتغيراته من جمود وحركة وركود ونشاط ، وهبوط ورفعة ، وأنها هي التي تحدد أغلب الأفكار العامة ، وأكثر الرموز الدينية ، وترسم المراتب الاجتماعية للأمم في صورها البارزة الخالدة على صفحات تلك الكتب الكبرى ، أي المشيدات العظمى ، وإذا كان الجنس البشري إلى عهد استكشاف الطابع لم يجد مستودعاً يحفظ فيه أسرار تاريخه ، ونتائج مجهوداته ، أوثق ولا أثبت من المباني الصخرية . ولا ريب أنه محق في هذا لأنه يود أن يحتفظ بمظاهره الاجتماعية ، ومنتجاته الفكرية ، وجهوده السياسية ، وتقاليده الدينية ، ويريد أن هذه الجهود كلها تبقى وتتضافر على التأثير في العصور القادمة كما أثرت في عصورها التي نشأت فيها ، وتلك أمنية لا يظفر بها إلا إذا أثبت كل ذلك في قرار مكين من الصوان ، ليقاوم أحداث الزمان . ولما كان عود من الثقاب كافياً للقضاء على أعظم كتاب ، وكانت محاولة هدم أبنية الآثار في حاجة إلى ثورة سياسية ، أو إلى وثبة اجتماعية أو ظاهرة طبيعية ، لم يكن هناك بد من الجزم بأن الآثار هي خير حافظ للأفكار والأخبار .

ولما كانت الأديان هي الدعامات الأساسية للمدنيات ، فقد كان من الطبيعي أن تكون المعابد هي أبدع الكتب الصخرية التي نشأت لدى الإنسانية ، إذ أن عليها تبدو مظاهر النفوس الوثابة التي اعتنقتها ، والقلوب النقية التي آمنت بها ، والقوى الهائلة التي تكاتفت على حمايتها ورفع شأنها ، والعقليات التي افتنت في تطورها وخلودها ، ومن ثم لم تظهر عبقريات الفن الإبداعي ، ولم تبد مراميه الاجتماعية ، ولم تتكشف أهدافه الإنسانية كما تكشفت في المساجد ؛ ففي صورها الناطقة بالبساطة والديموقراطية الحقة ، لا الزائفة المؤسسة على الدعاية الكاذبة ، يتضح الإسلام على حقيقته ، ولكي نفهم لغة هذه الأحجار التي شيدت بها المساجد ينبغي أن نوازن بين المعابد المصرية القديمة وبين تلك المساجد التي جعلت من القاهرة مقر الأفكار الإسلامية ، ولا نكاد نفعل حتى يلفتنا ذلك التعارض الجسيم الذي نشاهده بين النوعين والذي لا يسعنا تجاهله إلا أن نتبين الأدوار المختلفة التي مثلها التطور الاجتماعي على مسرح تاريخ وادي النيل في عصوره الأثرية والإسلامية ؛ فأنت لا تكاد تضع قدمك في المعابد الأثرية حتى يبهر عينيك ويهول عقلك ما تشاهده فيها من عظمة ومتانة وطغيان ، كأنه يتحدى الزمان ويعاند الأيام ، ولا تودعك أن تتأمل فيما على جدرانها من صور ولوحات ورسوم ، حتى يملك عليك أحاسيسك ما تراه ماثلاً أمامك من احتفاظ تلك الرسوم بالعناصر البدائية والنماذج التقليدية وتفاصيل الطقوس الدينية ، والعادات القومية وما إلى ذلك من الشئون الاجتماعية ، وهي في كل هذا تحاول أن تخضع جميع صور الإنسان والطبيعة لقواعد رمزية مفهومة حيناً وغامضة أحياناً ؛ وكل ما يتعدى حدود هذه القواعد يخرج عن إطار التقوى ، ويهوي في حضيض الزندقة أو الإلحاد ؛ وبالإجمال كل ما في هذه المعابد ناطق بسلطان الدين المستبد وحكمه المطلق ، وطغيانه الذي لا يعرف هوادة ولا لين[ا]ً .

كما أن تلك الرموز الغامضة تشير إلى اشتمال ذلك الدين على أسرار هائلة ، وخفايا مرعبة ، ودخائل رهيبة ، لا يباح معرفتها للشعب ، ولا يجرؤ على الإحاطة بكنهها غير الكهنة المختارين . ومعنى هذا أن تلك المعابد تشعر رائيها للوهلة الأولى بالغموض والتعقد والرهبة والطغيان ، وبأنها ملك للكهنة وحدهم ، وليس للأمة فيها أدنى وجود ، أو هي تقذف في نفسه بأنه أمام كتاب مغلق لا يباح تصفحه إلا لطبقة واحدة محظوظة ، وهي طبقة رجال الدين .

أما الحالة في المساجد فهي مغايرة للأولى تمام المغايرة ؛ إذ لا يكاد الناظر يتطلع إليها حتى يسحر عينيه ما تشتمل عليه من عظمة المظهر وبساطة الخطوط الرئيسية في الهيكل العام ، ويفتن قلبه ما تحتويه من ثراء في الحلى ، وتنوع في الزخرفة . وليست العظمة هنا ناشئة عن الغموض ، أو منبعثة عن الرهبة المطلقة الحزينة ، كما هي الحال في المعابد الوثنية ، وإنما هي ناشئة من منظر المآذن المنتصبة في عزة واستقامة تمثلان الفضائل الرئيسية للإسلام ، والمتجهة نحو السماء غاضة الطرف عن الأرض ومن عليها ، تشبه القلب الموحد العامر بالإيمان الذي لا يتجه إلا إلى من بيده الملك غير مكترث بأولئك الذين لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم يرده الله له لما استطاعوا ، ولا آبه لهؤلاء الذين لو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يرده الله له لما استطاعوا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

وإذا انصرفنا عن المظاهر الخارجية ودخلنا تلك المساجد ألفيناها غاية البساطة والقناعة والتواضع ، وأحسسنا بأنها للجميع ، لا فرق فيها بين كبير وصغير ، وثرى وفقير ، وشعرنا بأن جميع الفوارق والاعتبارات قد انهارت فجأة عند تخطى هذه العتبات الفاصلة بين أباطيل المجتمع وحقائق الإيمان ، وما ذلك إلا لأن الإسلام هو دين السماحة والتسامح ، والديموقراطية الحقة ، والحرية الصحيحة ، والتواضع النقى ، والتسوية أمام القانون ، والأخوة في الله ، ولم لا ؟ أليس هو الذي يقول في كتابه : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ويهتف نبيه بأن « الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى » .

وإذا كان الأمير يشعر بأنه يتساوى مع الصعلوك خمس مرات في كل يوم وليلة ، حين يركعان ويسجدان في صف واحد جنباً إلى جنب ، وجبهة إلى جبهة ، أفلا تكون المساجد الإسلامية في هذه الحالة خير مصنع يصوغ الديموقراطية في أحسن صورها ، وأبهى رسومها ، وأعظم مدرسة تهذب النفوس وتزيل منها آثار العنجهية الكاذبة ، وتعودها على التواضع ولين الجانب ووداعة الأخلاق ؟ .

ومما تمتاز به المساجد كذلك أنها تمثل الروح التطورية التي أمر بها الإسلام حين أعلن صلاحيته لكل زمان ومكان ، فهى ناطقة بالحركة والتنوع ، والجدة والتقدم والابتكار . وقصارى القول : أن الفنيين الذين شادوا تلك المساجد قد استطاعوا — بمواهبهم أو بفضل المشرفين عليهم — أن ينجحوا نجاحاً تاماً في جعل ظواهرها ودواخلها لوحة صادقة تمثل المسلم الحق في عزته واستقامته واتجاهه إلى ربه وتسامحه وتواضعه وبساطته وديموقراطيته وحبه للحرية والحركة والتقدم والتجديد .

ثم إن المسجد هو موضع السجود في أى مكان بلا قيد ولا شرط ، وكان من الممكن أن يكون أى متسع من الأرض الطاهرة مسجداً يحقق البساطة أكثر مما تحققه هذه المشيدات المزخرفة ، ولكن لما كان هناك من المعانى الاجتماعية ما برهن الزمان على أن الإسلام يرمى بها في جميع نواحيه فقد اقتضت حكمة المهيمنين على الشئون الإسلامية تدوين هذه المعانى في تلك الكتب الفنية الرائعة ، وهى كتب المآذن والقباب والسقف والحوائط والمنابر والمحاريب التى تشهد بأكرم الخلال وأنبل الخصال ، وتسجل أروع أنواع العظمة وأسمى مظاهر الجلال .

الدكتور
أحمد فكرى

المجاهد الأول لوحدة وادى النيل

للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف

فى تاريخنا الحديث كثير من الأبطال المجاهدين الذين بذلوا أرواحهم بذل السماح فى سبيل وطنهم، وكافحوا كفاح الأبرار نضالا عن حقوق أمتهم، ثم طويت مواقفهم الرائعة فى مطاوى الإهمال والإغفال، فلم يذكرهم ذاكر، ولم يقف على أثرهم باحث، وإنهم لخليقون بكل إجلال وتمجيد، وهذا البطل الشهيد أحمد العوام واحد من هؤلاء الأبطال، فمن هو أحمد العوام؟.

لم تحدثنا المصادر التاريخية بشىء عن النشأة الأولى لأحمد العوام وطبيعة الحياة التى كان يحياها، وكل ما ذكره التاريخ عنه فى هذا أنه كان من أبناء الإسكندرية، وكان مثقفاً بشىء من الثقافة الدينية متجملاً بالتقوى والاستقامة. وكان يجيد بعض اللغات الأجنبية وله اقتدار على الخطابة وحسن التعبير، فلما قامت الثورة العرابية، ووضحت نيات الإنجليز وأطماعهم فى استعمار مصر، واستضعفت الدولة العثمانية أمام هذه الأطماع الخطيرة على مصر وعلى الدولة العثمانية معاً، دفعت الغيرة الوطنية والدينية بأحمد العوام كما دفعت بكثيرين من أمثاله إلى مناصرة العرابيين، وإلى المغامرة فى ميدان تلك الثورة الوطنية الطاهرة التى لم تكن فى الحق تنشد إلا صالح مصر وصالح المصريين.

وكانت الإسكندرية الخط الأول فى ميدان الثورة، ومنها انطلقت الشرارة الأولى. وقد اتخذها الوطنيون مجالا لدعوتهم ولنشاطهم منذ البداية، وجعلها عبد الله النديم ميداناً لخطاباته فى استفزاز العواطف الوطنية وإثارة الحمية الدينية، وألف فيها جمعية من الشبان المتحمسين المتكلمين، فكانوا يتنقلون فى المحافل والجامع يخطبون ويتحدثون إلى الناس فى حقوق الوطن وواجبات الجهاد فى سبيله والدفاع عنه أمام الخطر الماثل على وطنهم وعلى دينهم، وكان أحمد العوام فى هذا الرعيل، يخطب فى المحافل والمساجد والطرقات، ويتنقل بين الناس واعظاً بحقوق الوطن، وداعياً إلى الجهاد، ولكن الأقدار جاءت بما ليس فى الحسبان، فانتهت الثورة بخيبة الأمل، وسيطر الإنجليز على مقاليد الأمور فى مصر، وجرت محاكمة العرابيين وأعوانهم، وقبض على أعضاء جمعية شبان الإسكندرية، ومنهم من حكم عليه بالإعدام، ومنهم من حكم عليه بالنفى خارج البلاد، وكان أن انتهى المطاف بأحمد العوام إلى الإقامة فى السودان، ولا ندرى هل أبعد محكوماً عليه بالنفى، أم هو الذى آثر السلامة بالهرب والفرار إلى هناك.

وكانت إقامة أحمد العوام فى السودان بداية حياته فى الجهاد الصحيح، فقد انتقل من ثورة إلى ثورة، انتقل من ميدان الثورة العرابية التى اشتعلت فى بداية الشوط إلى ميدان الثورة المهدية التى كانت لا تزال فى بداية الضرام والاحتدام، وكان الإنجليز قد جعلوا من السودان هدفاً لأطماعهم بعد أن استقرت أقدامهم فى مصر، وكانوا يريدون أن يجعلوا من الثورة المهدية تكأة للوصول إلى تحقيق هذه الأطماع وشطر وادى النيل، كما اتخذوا من الثورة العرابية فى مصر سبيلا إلى هذا؛ ولهذا انتدبوا غردون باشا وزودوه بالخطط والتعليمات للعمل على إخلاء السودان من الجيش المصرى والموظفين المصريين، ولإحباط الثورة المهدية بكل وسائل الترضية وتعليل السودانيين بالأمانى والآمال، حتى يخلص السودان فى النهاية للإنجليز وحدهم؛ وقد أخذ غردون يجاهد لهذه الغاية ويبذل كل ما فى وسعه لبلوغها، فأرسل إلى المهدى بأنه عينه سلطانا على دارفور وكردوفان، وأخرج الجنود المصريين من الخرطوم، وألف فيها مجلساً من السودانيين لحكم البلاد، وأذاع فى أبناء السودان بأنه أعفاهم من الضرائب وأباح تجارة الرقيق، وجمع دفاتر المالية وأحرقها تحت أعينهم ليظهر بمظهر الصادق فى وعوده أمامهم.

وما كانت هذه الرواية التمثيلية التى قام بها غردون باشا فى حاجة إلى شىء كثير من الذكاء، لإدراك ما تخفى وراءها

من الأغراض الاستعمارية والأطماع الإنجليزية . وما كان في استطاعة رجل مثل أحمد العوام أن يغض عن هذه الأغراض والأطماع ، وهو الذي لا يزال قلبه عامراً بالغيرة الوطنية ، والثورة على أغراض الإنجليز ومطامعهم ، وفي نفسه ما فيها مما جلبه الإنجليز على مصر وصنعوه بالعرابيين في حركتهم الوطنية ، فنهض يكشف للناس الحقيقة في سياسة ونجت وتدبيراته ويبصرهم بحقيقة الأطماع البريطانية في السودان ، ويهيب بهم للوقوف أمام هذه الأطماع قبل أن تلتهم وادي النيل لقمة سائغة ! واستجاب أبناء الوادي لهذه الدعوى الصريحة الجريئة ، والتفت جموعهم من حوله ، حتى بلغ أتباعه وأنصاره أكثر من عشرين ألفاً وكلهم يلتهب غيرة وحماسة ! كما أخذ ينصره في دعوته كثير من رجال الجيش والأعيان وأصحاب النفوذ وقناصل الدول الأجنبية الذين كانوا يتوجسون الشر في نيات الإنجليز وأساليبهم . وأراد العوام أن يسير في دعوته على وضع منظم ، فألف من أنصاره جمعية سماها « الجمعية الوطنية » على غرار جمعية شبان الإسكندرية والحزب الوطني الأول الذي وضع مبادئ الثورة العرابية في مصر ! ولم يقتصر في مجال دعوته على الخطابة في المحافل والحديث إلى الأهالي ، ولكنه أنشأ نشرة أسبوعية وأخذ يكتب فيها المقالات الحماسية الملتهبة في الكشف عن نيات الإنجليز وأغراضهم التي يمهد ونجت لتحقيقها بأساليبه وتدبيراته ، والحض على مقاومة هذه الأغراض وإحباطها .

وكان لأحمد العوام في دعوته رأي واضح ، وخطة يدعو إلى تحقيقها والتعلق بها لقطع الطريق على الإنجليز في أطماعهم ! فكان يعتبر وادي النيل ميداناً ممتداً للمعركة مع الإنجليز ، وإذا كان الإنجليز قد كسبوا المعركة الأولى في مصر ، فإن من الواجب أن يكون خط الدفاع الثاني في السودان ، وكان يرى أن الإنجليز لن يخرجوا من مصر كما يزعمون ، وأن إخراجهم ليس بالأمر السهل ! بل إن استيلاءهم على السودان رهن بإحباط الثورة المهدية ، ولهذا أخذ ينادي بتقوية الروابط بين شطري الوادي ، ويهيب بالدولة العثمانية القوامة على تلك البلاد أن تبادر فترسل بقوات كبيرة من جنودها فتعسكر في الخرطوم ، كما كان يهيب بمناصرة الثورة المهدية ، ويدعو أبناء وادي النيل إلى الالتفاف حولها ، حتى لا يكون مصيرها مصير الثورة العرابية ، ومصير السودان مصير مصر ، وتتم الكلمة والسلطة للإنجليز على وادي النيل من أقصاه إلى أقصاه .

وقوي نفوذ أحمد العوام في دعوته ، وقوي بأس الجمعية الوطنية وازداد أتباعها وأنصارها عدداً وبأساً ، فكان هذا مما أزعج ونجت ، وأثار في نفسه الخشية والتوجس من خطر هذه الجمعية . وأراد الداهية الإنجليزي أن يتذرع بأساليبه وحيله في القضاء على الجمعية ودعوتها بالتفريق بين أعضائها وإفساد ما بينهم بالمال ، فاستدعى إليه رأس الدعوة أحمد العوام وتلطف معه وأبدى إعجابه به ، ثم عرض عليه أن يكون معه ، ومنحه فعلاً الرتبة الثانية ، وعينه سكرتيراً له ، وقدر له ستين جنيهاً مرتباً شهرياً . ولكن كم كانت خيبة أمله إذ رفض أحمد العوام الرتبة والراتب ، والجاه والمنصب ، وتقدم إليه قائلاً : « حقاً يا سيدي أني رجل فقير ، ولكني لا أقصد غير سعادة مواطني سكان وادي النيل ، وإني قانع بالفقر مع بلوغ هذه الأمنية » . على أن أحمد العوام لم يكتف بهذا ، بل لقد عاد من حضرة ونجت وسجل كل ما جرى بينهما من الحديث وأذاعه في النشرة الأسبوعية التي كان يصدرها . فكان هذا مما ألهب نفوس أتباعه من جهة ، وأضجر ونجت من جهة أخرى .

ولم يكن من الطبيعي أن يستسلم ونجت وأن يغضي عن هذا الخطر الذي يهدد خططه وسياسته بالإحباط أو الفشل ، ولا بد أنه استنفد كل ما عنده من الحيل لعله أن يطوي أحمد العوام ويقصيه عن طريقه ، ولكنه وجد نفسه أمام خصم عنيد ، لم يجد الحيلة في اقتناصه ، ولا التعب في إغرائه ، ولا المنصب في كبح جماحه ، وإنما يكون الخطر على أصحاب الدعوات من التكالب على المال ، والعشق لجاه المناصب ، وما فيها من فتنة الرتب والمظاهر ، فإذا ما احتقر صاحب الدعوة هذا كله ، فهو القوة التي لا تزحزحها قوة ، وهو الصخرة التي لا تنال منها سهام الكيد والوقيعة ، وإذاً كان لا بد أن يسارع ونجت إلى تقليم أظفار هذا الخطر وتحطيم نابه ، فأمر بأحمد العوام رأس هذه الدعوة فقتل ! وبهذا طويت صفحة ذلك البطل العظيم ، وطوي جهاده الصادق لإنقاذ وطنه في مطاوي الإهمال والإغفال ، وذهب في الجنود المجهولين ، فما في أبناء وادي النيل من يذكره أو يعرفه .

محمد فهمي عبد اللطيف

مكتبة الثقافة

للأستاذ أحمد حسين الصاوى

اللغة « Le Langage » : تأليف الأستاذ جوزيف فندريس — تعريب الأستاذ عبد الحميد الدواخلي والدكتور محمد القصاص — مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥١ فى ٤٢٠ صفحة كبيرة

إن مشكلة اللغة العربية ، التى نحسها جميعاً ونلمس آثارها ، ينبغى أن تحتل المكان الأول فى ميدان البحث والتفكير حتى نستطيع أن نرقى بها إلى مستوى غيرها من اللغات . فنحن لا نشتط فى التعبير إذا قلنا إن لغتنا لا يمكن أن تكون بوضعها الحالى لغة علمية على الإطلاق ، ونحن لا نخدع أنفسنا إذا اعترفنا بأن لغتنا جامدة أو كالجامدة ، وأنها تخلفت عن ركب التطور الذى سار فيه غيرها من اللغات . ومما يدعو إلى الدهشة والأسى حقاً أن العربية ما زالت تعيش على تراث الجاهلية وصدر الإسلام إلى حد كبير ، وما زالت قواعدها تقاس بأقيسة المدارس النحوية القديمة من بصرية وكوفية وغيرها .

إن اللغة مظهر فعال متصل للحياة الإنسانية . وليس هناك أبلغ فى الدلالة على قصور اللغة العربية وبعدها عن أن تكون كذلك ، مما نراه من الفروق الشاسعة بينها وبين (اللغات) المحلية التى يتحدث بها الناس ويتبادلون أفكارهم ويعبرون عن مطالبهم فى مختلف بلاد العربية . ولولا أن العربية هى لغة الإسلام وتراثه الدينى المدون من قرآن وحديث وغير ذلك ، لأودى بها هذا الجمود الذى يطبعها منذ أجيال طويلة .

والكتاب الذى نقدمه لقرائنا اليوم ينتهج منهجاً جديداً فى البحوث اللغوية ، لا شك أنه لو طبق على لغتنا العربية لأفادها فائدة محققة . وهو يمثل الجزء الثالث من مجموعة « تطور البشرية L'Evolution de l'Humanité » التى أشرف على إخراجها منذ أكثر من ربع قرن الأستاذ هنرى بر Henri Berr وهو الذى صدر الكتاب بمقالة علمية رائعة ، ومؤلف الكتاب هو الأستاذ جوزيف فندريس (J. Vendryes) الأستاذ بجامعة باريس ، وعضو الجمعية اللغوية هناك ؛ وقد تناول فى كتابه اللغة من حيث هى مركب معقد يمس فروعاً من المعرفة مختلفة ، وتعنى بها طوائف متفرقة من العلماء ، فهى فعل فسيولوجى من حيث إنها تخضع عدداً من أعضاء الجسم الإنسانى إلى العمل ، وهى فعل نفسانى من حيث إنها تستلزم نشاطاً إرادياً للعقل ، وهى فعل اجتماعى من حيث إنها استجابة لحاجة الاتصال بين بنى الإنسان — ثم هى فى نهاية الأمر حقيقة تاريخية لا مراء فيها .

والكتاب مقسم إلى ستة فصول تتناول الأصوات ، والنحو ، والمفردات ، وتكوّن اللغات ، والكتابة ، وتقدم اللغة . ولا شك أن المعربين الفاضلين قد أصابا فى اختيار هذا الكتاب لنقله إلى قراء العربية .

ونحن إذ نحيى فيهما نشاطهما ونقدر مجهودهما فى خدمة العلم واللغة ، نأخذ عليهما عدم تعريفهما بالكتاب ومؤلفه ، وأهميته كجزء من سلسلة علمية ضخمة تعريفاً كافياً فى مقدمتهما الوجيزة ، كما نلاحظ أن بعض عبارات الكتاب قد ترجمت ترجمة سطحية (ضيقة) يحدث بها عن معناها الواضح فى أصلها الفرنسى ، مما أدى إلى صعوبة فهمها ، بل وتعذره فى كثير من الأحيان . ولا ريب أن هذا راجع — كما قال المعربان — إلى ما صادفاه من عنت شديد فى تعريب الكتاب ، لما يحفل به من مصطلحات وتعريفات غير مألوفة فى العربية .

ونرجو أن يكون هذا الكتاب بداية صالحة تحفز الهمم على إنتاج متواصل من التأليف والترجمة فى نفس الموضوع ، علّ هذا يساعد على بحث مشكلة اللغة العربية ، ومن ثم على النهوض بها إلى مصاف اللغات الحية المتقدمة .

أحمد حسين الصاوى

القــاتلان

من صور الحياة :

للأستاذ طاهر شريف

كان اليوم من أيام الشتاء الممطر . وكان «أحمد افندى» ناظر عزبة على باشا شجر مدعوا مع «فهيم افندى» كاتب العزبة لتناول طعام العشاء على مائدة الشيخ موسى أبو نورج عمدة القرية المجاورة لتلك العزبة .

وكان «أحمد افندى» رجلا غليظ القلب خشن الطبع يتطاير الشرر من عينيه عند ما يغضب لأتفه الأشياء . تعلو وجهه سمة المجرمين العتاة ... ودار بينهما الحديث فى الطريق ... !

— كم سنة مضت عليك فى هذه العزبة يافهيم افندى ؟

— ما بين الخمس سنوات والست ياحضرة الناظر .

— ألم يلفت نظرك شىء فى هذه العزبة ؟

— من أى ناحية ؟

— من ناحية «خضرة» ابنة الشيخ زعزوع خولى العزبة .

— إنى أراها كل يوم صباح مساء : أراها فى الصباح وهى مارة أمام مكتب العزبة فى طريقها إلى الحقل ترفل فى أسمالها المستطيلة الفضفاضة وعلى رأسها صرة صغيرة عقدت فيها غداءها وغداء والدها الشيخ زعزوع . كما أراها عند الغروب وهى آيبة إلى العزبة تحمل تحت إبطها حزمة صغيرة من البرسيم وأمامها جمع من النعاج والخراف . فصاح أحمد افندى بصوته الأجش فى وجه صاحبه — وكان قد نفد صبره — يالك من شخص أحمق . إنى لم أطلب إليك نعتها وإنما أطلب رأيك فيها ! ثم اقترب منه ومال عليه وهو يقول فى نغمة عاطفية . . . ألم تر معى أنها مثيرة للعواطف ملهبة للقلوب ؟ إنها فتاة ريفية حسناء . فتنبه فهيم افندى لما يريده أحمد افندى منه . ثم قال ...

— لقد رأيتها مرة واحدة ياحضرة الناظر . مرة واحدة رأيتها جالسة تحت شجرة التوت مع «عبد المعطى افندى» معاون العزبة . عبد المعطى افندى ذو الفم التقيل . فبرقت عيناه واختلجت شفتاه وبلع لعابه وهم أن يقول شيئا ولكنه أمسك — واسترسل مع فهيم افندى فى الحديث ..... !

— وما رأيك فيها يافهيم افندى ؟

— رأيى أنها بنت عابثة .. عابثة جداً ... !

— وكيف ؟

— كنت ذات يوم فى طريقى إلى قيد أسماء الشغالة بزراعة القمح ؛ فاسترعى انتباهى ما كاد يفقدنى صوابى ، فلقد رأيتهما جالسين تحت شجرة التوت التى تقع خلف ماكينة الرى وفى ذروة أكوام التبن حتى كدت أمر عليهما دون أن أشعر بهما لولا همسات خليعة كانت تنبعث من نحوهما ، فاضطرنى إلى توجيه نظرى إليهما خلسة . وغالب الظن أنهما قد شعرا بى ورأيانى .

— وماذا رأيت يافهيم افندى ؟

— رأيت العجب العجاب . ها . ها . ها . رأيت خضرة فى ثوب أنيق مطرز بالخرز الملون جالسة بجوار عبد المعطى افندى وقد طوق خصرها بذراعيه بينما كانت يدها الصغيرة تداعب شعره الأصفر الرجل بالزيت مثل شعر السيدات

فجثم جسم أحمد افندى وصاح : ياله من شخص خائن . أتيت به هنا وهو هارب من وجه العدالة ورجال المباحث يطاردونه بعد أن ثبتت عليه جناية قتل «إلياس باشا» صاحب مصنع الزجاج الكبير بحى الشرابية . لقد أتيت به هنا ونصبته فى هذا المنصب رغم أنف الباشا ، فلقد كان غير راض عنه لخلاعته وميوعته لولا كثرة رجائى لدى الباشا

وشدة إلحاحي عليه — أنبعد هذا يخونني ذلك الوغد ويطمئن في قلبي ويعمل على سلب « خضرة » مني بعد هذه العشرة الطويلة « له الويل كل الويل » وكان الغيظ يتفجر من عينيه والعصبية تتقزز به من فوق ظهر دابته . فاختل توازنه ، فسقط على الأرض المبللة بالمطر فتلوثت ثيابه ، فنزل فهيم افندى من على ظهر دابته وأخذ بيد صاحبه وأعاده ثانياً إلى حيث كان بعد أن أصلح معه ملابسه وأزال من عليها ما قد لحقها من الطين ، وهو لا يزال يلهث ولسانه لا يفتر عن السب واللعن والتوعد لغريمه عبد المعطى افندى .

غير أن فهيم افندى لاحظ حينما انكشفت ثياب أحمد افندى عن جسمه تشويها بإحدى ساقيه — كأثر لضرب الرصاص — وهم أن يسأله عن سبب هذا التشويه ، ولكن الطريق كان قد انتهى بهما إلى منزل العمدة — فكف عن السؤال .

واستقبلهما العمدة بشاشة وترحاب ، وأخذ بيد أحمد أفندى وأجلسه بجانبه في صدر « المندرة » الفسيحة المعدة لضيوفه الأعزاء ، وبعد أن فرغوا من تناول الطعام وشرب القهوة وتدخين لفافات التبغ خلا الشيخ عويس بأحمد أفندى في ركن من أركان حديقة المنزل المتواضعة حيث وضعت دكة من الخشب فرشت عليها قطعة من الحصير الملون ثم أخذ يحدثه باهتمام .

إن المركز أرسل إلى هذا الأسبوع إشارة « تليفونية » فحواها — بما أن عبد المعطى حشيش الهارب من وجه العدالة يقيم في عزبة على باشا شعير التابعة لعموديتكم فألقوا القبض عليه ورحلوه إلى المركز في حراسة رجال الأمن .

— وما العمل بحضرة العمدة ؟

— العمل : واجبي يحتم على أن أقبض عليه وأسلمه إلى المركز ، ولذا دعوتك اليوم لأتحدث إليك على انفراد وأطلعك على دفتر الأحوال .

— أرجو بحضرة العمدة أن تتريث قليلا ، ولا تسرع في تنفيذ هذا الموضوع حتى لاتكون زيارتي لك موضع اشتباه .

— وكيف أتريث ، وهذه أوامر سعادة المأمور ؟

— الحل بسيط ، بسيط جدا ، وما أكثر من حاول العمد عندما يشاءون ... فلق وسعهم أن يشعلوا النار في بيت ليقيموا السعادة في بيت آخر . و « وأنت سيد العارفين » أرسل إشارة إلى المركز . تقول فيها إن عبد المعطى المطلوب القبض عليه رحل من هذه العزبة منذ شهر ولم نعرف له محل إقامة .

وكان أحمد افندى إذ ذاك يريد أن ينتقم لنفسه بنفسه من عبد المعطى افندى غريمه في « خضرة » ويحفر له قبره بيده قبل أن يزج به بين جدران السجون أو يصلب في حبل المشنقة ، وفي كلا هذين الأمرين يرى أحمد افندى مصير نفسه كمصير صاحبه عبد المعطى افندى — وكثيراً ما هدد بذلك من ناحية صاحبه — فكلاهما يعرف مواطن إجرام الآخر وخبايا سره .

ثم تركه العمدة واتجه ناحية فهيم افندى حيث كان ، وجلس بجانبه بعض الوقت يتبادلان بعض الحديث حتى تدرج بهم إلى حادثة مقتل « إلهامي باشا » وكان العمدة يجهل تفصيل هذه القصة ، فلما وقف عليها أطرق . ثم رفع رأسه واستأذن من فهيم افندى وسار ناحية « التليفون » .

وكان أحمد افندى أعرق من صاحبه في الإجرام ، فهو لذلك يخشى مصادمته والوقوف في طريقه بأي شيء يمسه ، لاخوفا منه ، بل إبقاء منه على حياته وحفظا لسره الذى كان لايعلمه سواه ، فمعرفة أحمد افندى بصاحبه عبد المعطى افندى سبقت له الأحداث وأوشكت أن توقع به المصائب ، وهو إن نسى لا ينسى يوم أن تستر عبد المعطى افندى عليه في اغتيال صراف ناحية السنبلاوين ولاذ بالفرار بعد أن استولى على حقيبته وما فيها مما حصله من الأموال الأميرية ، وكان الصراف آنذاك أعزل من السلاح ، اللهم إلا الخفير الذى كان في حراسته قد أطلق عياراً من « بندقيته » فأصابه إصابة طفيفة في ساقه لم تقعده عن السير بل أفقدته علبة التبغ المعدنية المنقوش عليها اسمه أثناء فراره ، فخزن لذلك ، كما أسر لصاحبه عبد المعطى افندى عن موضع الحقيبة ، وقيدت الجناية ضد مجهول وحفظت لعدم ثبوت الأدلة الكافية .

وكانت العزبة — عزبة على باشا شعير — فهرج ومرج عندما أقبل عليها أحمد افندى وفهيم افندى آخر النهار من شياختهما ، فهؤلاء رجال الشرطة يحاصرونها من الخارج ورجال النيابة وهيئة التحقيق يتخذون مكانهم من مكتب

العزبة ! بينما أخذ الطبيب الشرعي يفحص «خضرة» ويحلل دمها ودم الجنين الذي أجهضته ، وعلى مقربة منهم عبد المعطي مكبلاً بالحديد .

استولى الذعر على أحمد افندي عندما وقع نظره على هذا المنظر الرهيب ، وأراد أن يفر من هذا المأزق الحرج ، ولكن عبثاً حاول ، فلقد طلب عبد المعطي افندي إلى رجال النيابة وهيئة التحقيق القبض على صاحبه لأمور سيبديها إليهم فيما بعد ، حيث كانت عقيدته أن أحمد افندي هو الذي نصب له هذا الشرك ، وتحركت في نفسه غريزة الانتقام . بيد أن اسم أحمد افندي لم يذكر في قائمة الاتهام المقدمة إلى النيابة من « الشيخ زعزوع والد خضرة » وأنه لم يتهم فيها أحداً سوى عبد المعطي افندي الذي سطا على شرف ابنته ، ولوث شرفه بين أهل العزبة . في حين أن النيابة لم تر مانعاً من القبض عليه حتى يتم التحقيق ، لعل في ذلك ما ينير الطريق أمام المحققين .

ثم بدأت هيئة التحقيق فاعترفت خضرة بعلاقتها مع عبد المعطي افندي ... !

— وفي أي مكان كنتما تجتمعان ؟

— بين ماكينة الري وأكوام التبن « تحت شجرة التوت »

— وهل كنت راضية عن هذا ؟

— لا

— وكيف توصل عبد المعطي إليك ؟

— كثيراً ما كان يعدني بالزواج منه ويغريني به ، وفي ذات يوم ونحن في خلوتنا قدم إليّ قدحاً من الشاي فشربته ولم أدر ماذا حصل إلا بعد أن أفقت من غيبوبتي .

— أما أطلعت والديك على ما حصل في حينه ؟

— لا

— ولماذا ؟

— لأني خفت من العقاب كما خشيت فضيحتي بين أهل العزبة .

ثم واجهت هيئة التحقيق عبد المعطي افندي بما نسب إليه — فأنكر — فاستدعت هيئة التحقيق بعض أهل العزبة لعلهم يميطون اللثام عن الحقيقة ، وكان في مقدمتهم فهيم افندي ، فوجهت إليه هيئة التحقيق سؤالها :

— ما هي معلوماتك عن اتصال عبد المعطي بـ «خضرة» ؟

— ليست لدي معلومات عن هذا الموضوع أكثر من أني كنت ماراً ذات يوم بجوار ماكينة الري على غير قصد ، فاسترعى انتباهي همسات خفيفة تنبعث من هذا المكان فاسترقت النظر ، وإذا عبد المعطي افندي و « خضرة » في حالة تدعو إلى الشك والريبة !!

وكان الطبيب الشرعي إذ ذاك قد انتهى من فحصه وكتابة تقريره بإدانة عبد المعطي ؛ كما كان قد حضر الشيخ عويس عمدة القرية المجاورة لتأدية شهادته ضد عبد المعطي قاتل « إمام باشا » . وعند ذاك تجمعت الأدلة ضده فأمرت هيئة التحقيق بترحيله إلى السجن ، وفك أسر أحمد افندي ، وإذا عبد المعطي يهتف : « لا تفكوا أسره فهو صاحب علبة التبغ المعدنية المنقوش عليها اسمه ، والحقيبة بأوراقها في بئر ماكينة المياه المهجورة — لا تفكوا أسره فهو قاتل الصراف » .

طاهر شريف

طفولة...

أطفولتي لا تجزعي   من صوتي المتقطع
فلقد ظللت أجرّ أذ   يالي وأسكب أدمعي
في مهرجان الحب لا   حسناء ذات البرقع
حتى زرعت المنا   هل في الدجى المترعرع
فتلفتت عيني لنا   ئلي ولا نجم معي
أو ما رأيت الليل قد   مرّ على جواد مسرع
ورمى القيدُ قيده   ومشى بنور المطلع
الفجر طفل ما يزا   ل على ذراع المرضع
وملوّحاً في مهده   لمسافر ومودّع
فادفن دموعك يا أسى   في رمسه المتضوّع
وانفض شحوبك من غبا   ر ظلامها المتجمّع
وازرع لهذا الفجر زنـ   بقة بهذا البلقع
لا لا تقل كم حاصدٍ   يجني ولما يزرع
إن الحياة غبار كل مسافر لم يرجع
اليأس في جنباتها   أمل طويل الأذرع
كسفينة ألقت بظـ   ل شراعها المتصدّع
هي في السماء بموضع   هي في الصباح بموضع
وعلى الرمال على الرما   ل ملوّحات الأشرع

• • •

قلت اسمعي يا روح أنـ   جمي التي لم تطلع
هذا النشيد يضجّ في   شفقٍ قبيل المصرع
حرٌّ «وحلمك» في دمـ   ـمي وإن لم يسجع
لا بد أن يشدو وإن   قد أسكتوه بأضلعي
العالم الشادي بنا   ديه بأول مقطع
هو ذا يزيح السحب عن   شمس الفضاء الأروع
ويلفّ تحت جناحه   شرك الرياح الأربع

معين توفيق بسيسو

تقية

عذراً إذا لم أبنْ عمّا أدين به
فإنّ ألف جحيم في انتظار دمي
إني لأكتم أسراري على ضجر
فما التقيّة من طبعي ولا شيمي
سايرت قومي فيما يؤمنون به
ضناً بنفسي فلا تعتب ولا تلم
وَوَرِثْتُ كرهاً بما دانوا به حذراً
من الشقاء بلا غنم لمغتنم
من ذا يؤيدني لو رُحتُ مقتحماً
ومن سيجديه ـ لو حطمت ـ مقتحمي
لو كان يجدي ويلق من يعززه
إذاً لهانت بنفسي أثقل النقم
وكان حسبي غنماً أن هديت بي
قومي السبيل الذي ضلوه من قدم
فما أسفت على الدنيا وفتنتها
ولا ندمت عليها أيما ندم
لكنني مؤمن أن دعوتي ودمي
سيمضيان سدى في حالك الظلم
فلا تلمني إذا خالفت معتقدي
فسورة الجوع تغري الأسد بالرمم
وهي الضرورات تطلبنا وتحفزنا
كالصخر في وجه سيل عارم عرم

محمد خليفة التونسي

موسم الفرقة المصرية – الدعاية والاذاعة

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

موسم الفرقة المصرية :

بدأ موسم (الفرقة المصرية) الثانى متميزاً بعودة الأستاذ يوسف وهبى بك إليها مديراً فنياً .

وإنى أرحب بهذه العودة بشرط ألا يحاول الجمع بين التأليف والتمثيل والإخراج ، وبشرط أن يسير على البرنامج الذى قيل إنه سيسير عليه ، ومؤداه أن يقدم للجمهور أفضل ما يستطاع تقديمه من روايات يمكن أن تساعد على خلق الشغف بالفن المسرحى فى أنفسهم ، وتمس وجداناتهم وتعالج مشكلاتهم ... الخ .

وما كان لى أن أشترط هذين الشرطين لولا اتعاظى بالسوابق . فليست هذه أول مرة يعود فيها إلى هذه الفرقة ، وليست هذه أول مرة يعلن فيها مثل هذا البرنامج ، ولكنه فى كل مرة يعود إلى تقديم روايات غير ذات قيمة فنية .

وأنا أكتب هذا قبل أن أشاهد روايته الأولى (الخيانة العظمى) — كأن يترك المترجمات الممتازة ومؤلفات توفيق الحكيم ومحمود تيمور ومن إليهما ، ويقدم روايات عامية فى لغتها وأسلوبها ، وفى بنائها وحوارها ، وفى موضوعها ومضمونها وأهدافها جميعاً .

فلئن كانت حجته فى ذلك — لو حاول التفكير فيه فى هذا الموسم — أنه يترك المترجمات لفرقة المسرح المصرى الحديث لتناسبها مع طبيعة تكوينها ، والغرض الذى من أجله أنشئت ، فماذا يمنع والحالة هذه من اختيار أفضل المؤلفات بقدر الإمكان ؟!.

ولئن كانت حجته فى ذلك — فى كل المواسم السابقة — أنه يتوخى النزول إلى مستوى الجماهير ليخاطبها بلغتها ثم يرفعها معه بعد ذلك ؛ فهذا بالذات هو ما أريد دفعه بقوة .

وقبل كل شىء أحب أن أوضح حقيقتين :

الحقيقة الأولى أن الروايات المؤلفة التى أوثر تقديمها ليست كل ما نطمع فى تقديمه ، وإنما تفضل غيرها أفضلية نسبية .

والحقيقة الثانية أنى إذ أهاجم الروايات العامية فى مبناها ومعناها لا أبتغى من وراء ذلك مهاجمة مؤلفيها ، بل لا أبتغى من وراء ذلك كله إلا وجه الفن ، وعلى اعتبار أن الانحطاط الفنى — إن صح هذا التعبير — لا يخزينا بقدر ما يخزينا التستر عليه .

أما تعمد النزول إلى مستوى الجمهور فى الفن بصفة عامة فالحق أنه إذا كان الغرض من ذلك تقريب الأوضاع الفنية إلى أذهانهم ، فلا ريب فى أن هذا غرض يضحّى من أجله ، ولا ريب أيضاً فى أن المستوى العام للجماهير ليس فى حالة يغبط عليها ، ولكن هناك أمر ينبغى أن يوضع موضع التقدير الصحيح ، وهو أن فى تخفيض مستوى الإنتاج الفنى تخفيضاً للقيم الفنية فى جوهرها ، من شأنه أن يباعد بين هذه الجماهير وبين التذوق السليم ، ويحاجز بين الفنانين وبين الابتداع والتجويد والخلق .

لقد آن أن نفهم أن التجربة الفنية لا تحتمل مطلقا الصعود أو الهبوط بها ، وطالما أن الفنان متشبع بأى تجربة تمرس بها وفكرة التعبير عنها واضحة لديه ومهضومة ، فإن طريقة التعبير تصبح عندئذ سائغة ميسورة حسب مهارته فى اصطناع الأدوات واستخدام الوسائل .

وربما كان من الملاحظ أن بعض الفنانين يرون الاتجاه إلى شىء من المحسنات للإغراء مثلا ... فإذا لم يكن من ذلك بد فلا بأس به ولا بأس عليهم بشرط أن لا يطغى ذلك على

جوهر الإنتاج . لا في الفكرة ولا في الأسلوب ولا في أي حد من الحدود الفنية ، أي بشرط أن لا يكون الإغراء لمجرد الإغراء .

الدعاية والوزارة :

من أنباء (الإذاعة) أن لجنة " برامج الدعاية الإذاعية لمصر في الخارج قد تكونت وعقدت أول اجتماع لها منذ أسابيع وبحثت الخطوط الرئيسية للسياسة العامة التي يجرى عليها العمل في إعداد البرامج التي ترسلها إدارة العلاقات الخارجية إلى محطات الدول المختلفة لإذاعتها بلغات بلادهم ، كما عنيت بأن تضع للمناسبات القومية برامج خاصة ، وأقرت الميزانية المقررة للسنة الأولى وقدرها ١٢ ألف جنيه .....

وأظن أنه مما يسعد كل مصرى أن يكون مصير قرارات هذه اللجنة غير مصير قرارات بعض اللجان « الرسمية » التى تظل حبرا على ورق حتى يزول الحبر ويهلك الورق .

فإذا أمكن أن نضمن ذلك وجب أن نطالب بضمان أشياء أخرى .

فكلنا نعلم أن أموالا كثيرة تنفق في سبيل الدعاية لبلادنا ، ورغم هذا لا تزال نظرة الأجانب إلينا بصفة عامة أقرب ما تكون إلى نظراتهم السابقة قبل أن تنفق هذه الأموال .

حيث هذا أننا وإن كنا قد أدركنا خطورة الدعاية وضرورتها وجدواها إلا أننا لم ندرك بعد كيفيتها على وجه يحقق الأغراض الصحيحة المبتغاة منها . وحسبنا أن بعضنا لا يزال يظن أن الدعاية مدافعة و (مفاوحة) ولو بغير الحق أو بتسويغ ما لا يمكن تسويغه أو بالتماس البراهين الشكلية والجدل السوفسطائى .

وإنه ليخيل إلىّ أن أول برنامج من تلك البرامج الإذاعية — لو كانت على هذا النحو — سيتضمن الإشادة بماضينا وبتراث أجدادنا وبكل ما هو شرقى لأنه شرقى وبكل ما هو مصرى أيا كان ، وسيفرض على السامعين « أحكاماً » لعلها لا تستقيم كلها وعقاقيرها إذا قيست بأقيسة فكرية لا دخل للعاطفة فيها ، وهى بالطبع ستقاس فى الخارج بهذه الأقيسة .

ثم إننا لا نحسن دائما اختيار من يناط بهم مثل هذه المهمة . فكثيراً ما يكون للأغراض الشخصية أو الهوية ونحوها دخل في هذا الاختيار .

وبديهى أنه لا سبيل إلى ملافاة ذلك كله ، إلا إذا أدركنا أن من أهم نقائصنا تشبثنا بعدم الاعتراف بالنقائص أحياناً ، وأدركنا أيضاً أنه أليق بنا وأكرم لنا وأفعل فى عقول غيرنا أن نصارحهم بأننا وقفنا على عيوبنا وسنصلح — جادين — من أمرنا ، وأدركنا كذلك كيف نضع الكفاية والدراية والخبرة والثقافة والتخصص فوق كل اعتبار .

وإلا ... ضاعت علينا الـ ١٢ ألف جنيه سدى إلى أن نقتطع من أقواتنا ١٢ ألف جنيه أخرى لنضيعها !!

عبد الفتاح البارودى

الثقافة

العـدد ٦٣٩
٢٦ من مارس ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

قالوا

الأشياء في ذاتها ليست كبيرة ولا صغيرة ، وما الفكرة التي عندنا عن سعة العالم إلا فكرة جزئية لا ترتكز على أساس منطقي ، ولو صغر العالم فجأة فأصبح في حجم البندقة ، مع احتفاظ كل شيء فيه بنسبته ، لما شعرنا قط بهذا التغير ، فالنجم القطبي سيظل معنا داخل البندقة ، وستظل أشعته الضوئية كما كانت تقطع طريقها في نصف قرن أو يزيد لتصل إلى أرضنا التي تستحيل إلى شيء يقل حجمه عن حجم الذرة ، ولكنها لن تنفك تشع بنفس الكآبة من السماء والنجوم التي نراها في يومنا هذا . (د . أ . فرانس)

سمعت هذا الحديث بين صديقين :

ا — لقد كذبتُ على صاحبتي .

ب — ولمَ ؟

ا — لأني قلت فيها أشياء لا يصح أن تقال .

ب — لسوف أصلحها ؛ فماذا قلت فيها ؟

ا — قلت إنها تغالي في زينتها .

ب — الأمر ميسور ، ثم ماذا ؟

ا — قلت إنها قبيحة الشكل ! ...

ب — دعني ، فليس لهذا من دواء ! ...

(شامفور)

إن التعود على البؤس شر من البؤس نفسه ، وإن التعود على الذل شر من الذل نفسه . (كامو)

إن حب الحياة يزداد كثيراً لدى الإنسان إذا ما انهالت عليه المصائب . (كامو)

إذا تأملت في تاريخ أمة من الأمم ، وجدت أنها تمر بعصور طويلة من الحروب والفوضى والخراب لكي تحصل على بضع سنين فقط من الأمن والطمأنينة .

(برتون)

كلمة الحرية ، أو تعلمون ، كلمة جوفاء ، لا معنى لها إطلاقاً ، فليس هناك أبداً مخلوقات حرة بمعنى الكلمة ، وليس بنو البشر إلا آلات مسيرة حسب نظام الطبيعة العام ، ونظام التعليم وتسلسل الحوادث . (ديدرو)

جمعها : م . ع . م .

من برامج الإذاعة الثقافية والفنية

(من الأحد ٢٥ / ٣ / ٥١ إلى الجمعة ٣٠ / ٣ / ٥١)

اليوم	الساعة	
الأحد	٤٥ ر ٩ مساء	قصة مصرية : للأستاذ صلاح ذهني
	١٥ ر ١٠ مساء	جوهان براغ : (برنامج موسيقي)
الاثنين	٣٠ ر ١٠ صباحاً	قصة : للأستاذ أمين غراب
	١٠ مساء	حديث (في المكتبة العربية الحديثة) : محمد شفيق غربال بك
الثلاثاء	٧ مساء	حديث (النظم الاجتماعية في الإسلام) : للأستاذ محمد خلف الله
الأربعاء	١٥ ر ٩ مساء	حديث (اجتماعيات) : لسكرى أباظه باشا
الخميس	٤٠ ر ٧ مساء	« عذاري الليل » : إخراج الأستاذ يوسف الحطاب
	١٥ ر ٩ مساء	حديث (الربيع في الأدب الإنجليزي) : الأستاذ جمال الدين الرمادي
الجمعة	٣٠ ر ٩ مساء	حديث الجمعة : للدكتور محمد عوض محمد بك

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | الإدارة | محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٣٩ | الاثنين ١٨ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠ — ٢٦ من مارس سنة ١٩٥١ | السنة الثالثة عشرة

مأساة البترول الإيراني

للدكتور محمد محمود الصياد

خطت إيران في الأيام الأخيرة خطوة جريئة ، كان لها أثرها الضخم في دوائر المال والسياسة والاقتصاد العالمية ، فقد وافق برلمانها بمجلسيه على قرار يقضي بتأميم صناعة البترول في كل جهات إيران . وجاء هذا القرار تلبية لرغبة وطنية قوية ، كان يحول دون تلبيتها وجود الجنرال « رازم آره » على رأس الحكومة . حتى إذا ما اغتيل سارعت لجنة الشئون البترولية في البرلمان إلى الموافقة على سياسة التأميم ، ولما يمض على مقتل « رازم آره » أكثر من يوم واحد ، وكانت اللجنة قد مضى على تشكيلها وقت غير قصير ، وكانت قد تلقت الموضوع الكلفة بدراسته بحثاً وتمحيصاً ، ولكنها لم تجرؤ على إعلان موافقتها على التأميم في حياة « رازم آره » ، لأنه كان من أشد معارضي هذه السياسة . وكان يرى أن إيران ليست في المركز الذي يسمح لها بانتهاج مثل هذه الخطة ؛ فهي في حاجة إلى كل ما يتعلق بصناعة البترول وليس لديها شيء من مستلزمات هذه الصناعة المعقدة ... ليس لديها المال ، وليس لديها المعدات ، وهي لا تزال فقيرة في الخبرة والخبراء .

ولم يكن قتل « رازم آره » وما تبعه من المبادرة بتأميم البترول سوى نهاية فصل من مأساة متعددة الفصول ، بدأ تمثيلها على المسرح الإيراني منذ مطلع هذا القرن ، وما زالت المسرحية لم تتم فصولها . ولقد وقف الشعب الإيراني من الفصول الأولى موقف المتفرج ، وربما كان بين أفراده من سر من الرواية وصفق لها . فقد كان هذا النوع من التمثيل جديداً على إيران ، ولم يكن وعي الشعب قد بلغ الحد الذي يساعده على التكهن بما يمكن أن يتلو الافتتاحية من فصول .

كان هذا في سنة ١٩٠١ حينما استطاع وليام نوكس دارسي William Knox D'Arcy أن يحصل على امتياز لمدة ستين عاماً للبحث عن البترول في مساحة تبلغ نحو نصف مليون ميل مربع في غرب وجنوب إيران ، أي نحو أربعة أخماس مساحة إيران كلها . وكان هذا لقاء مبلغ زهيد

دفع الشاه ، ولم يتجاوز العشرين ألفاً من الجنيهات ، على أن تحصل الحكومة الإيرانية (الفارسية) على حصة سنوية قدرها ١٦ ٪ من صافى أرباح أى شركة أو شركات قد تتكون بقصد تنفيذ شروط الامتياز .

بدأت أعمال التنقيب واستمرت تتعثر سنوات ، لأن المنقبين عن البترول لم يكونوا موفقين فى اختيار الجهة التى بدأوا أعمالهم منها ، ولكن لم تمض أعوام ستة حتى تدفق النبع الأسود من أول بئر إيرانية للبترول . وترتب على هذا أن تألفت شركة البترول الإنجليزية الفارسية (الإيرانية) فى أبريل سنة ١٩٠٩ برأس مال قدره مليونان من الجنيهات ، ومع أن رأس المال كان إنجليزياً خالصاً ، إلا أن لفظ « فارسية » أضيف إلى اسم الشركة ، وهكذا تفعل دائماً شركات الاحتكار ، وعندنا من الأمثلة الشيء الكثير .

وسارت الشركة فى استغلالها سيراً بطيئاً ، فلم تصبح ذات أثر فى سوق البترول العالمية إلا فى سنة ١٩١٢ ، ثم قامت الحرب العالمية الأولى وبدأ البترول يلعب دوره فى المعركة ، ورأت الحكومة البريطانية أن تضمن مورداً ثابتاً من البترول ؛ فساهمت فى شركة البترول الإنجليزية الإيرانية بنصف رأس مالها ، ولقد لقى هذا الاتجاه كثيراً من المعارضة فى أول الأمر ، ولكن الأغلبية البرلمانية أقرته فى مجلس العموم ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الشركة وثيقة الصلة بالحكومة البريطانية ، وأصبح لمأساة البترول الإيرانى وضعاً جديداً ؛ فلم تعد مسألة اقتصادية محضة بين الحكومة الإيرانية وشركة من شركات الامتياز ، بل أصبحت مسألة سياسية أيضاً ، وأصبح أى خلاف يحدث بين الحكومة الإيرانية والشركة خلافاً تمثل فيه بريطانيا طرفاً ثالثاً ، أى أنه يصبح خلافاً دولياً لا خلافاً محلياً .

استمر إنتاج الشركة يتزايد حتى لقد بلغ ٤٦ مليون برميل فى سنة ١٩٣٠ ، وكانت إيران قد بدأت تفهم بعض الجوانب الخفية للمأساة التى تمثل على مسرحها ، وتكشف لها أن اتفاقية سنة ١٩٠١ أصبحت عتيقة ولم تعد صالحة ؛ فبدأت منذ سنة ١٩٢٨ تطالب بزيادة اشتراكها فى الامتياز ، ولكن الشركة رفضت أن تعدل شروطه بما يتفق مع وجهة نظر الحكومة الإيرانية . وفى سنة ١٩٣١ استؤنفت المفاوضات على نطاق ضيق يهدف إلى تنظيم الطريقة التى يتم بها حساب أرباح الشركة حتى تضمن الحكومة حصيلتها الحقيقية كاملة غير منقوصة ، وكان هذا مطلباً عادلاً لم تجد الشركة أى مبرر لرفضه فقبلت الاتفاق ، ولكنها من جهة أخرى تلاعبت بطرقها الخاصة ؛ فإذا بحصيلة الحكومة تنخفض فى سنة ١٩٣٢ إلى ثلث مليون جنيه بعد أن كانت ١ر٤ مليون جنيه فى سنة ١٩٢٩ .

وكان الكيل قد طفح فلم تجد حكومة إيران أمامها إلا أن تنذر الشركة بإلغاء عقد الامتياز ؛ فهى حكومة مسئولة لا يمكن أن تقف مكتوفة اليدين أمام إهدار المصالح الإيرانية ، ولكنها مع هذا لا ترى مانعاً من أن تمنح الشركة امتيازاً جديداً بشروط جديدة لو أن الشركة قدمت من الضمانات ما يكفى لصيانة مصالح البلاد . وردت الشركة منكرة على الحكومة حقها فى إلغاء عقد الامتياز ، ولكن إيران لم تعبأ بهذا الرد واستمرت فى خطتها ، وشجعها على ذلك اضطراب الموقف الدولى والأزمة الاقتصادية العالمية ، وهنا بدأت الحكومة البريطانية تتدخل بحكم ملكيتها لنصف أسهم الشركة ؛ فأرسلت مذكرة شديدة اللهجة تحذر فيها إيران من خرق الاتفاقات المعقودة بينها وبين الشركة ، ولم تلق إيران بالاً إلى هذا الإنذار المجحف شأنه شأن الإنذارات البريطانية جميعاً ، بل ردت بمذكرة أكثر عنفاً وأشد لهجة .

وعرفت انجلترا أن إيران الحديثة غير إيران أواخر القرن التاسع عشر ؛ فأرسلت مذكرة تهدد فيها برفع الأمر إلى محكمة العدل الدولية إذا لم تسحب الحكومة الإيرانية قرارها بإلغاء امتياز الشركة خلال أسبوع من وصول

المذكرة ، ودفعت إيران بعدم اختصاص محكمة العدل ، وصرحت فى ردها بأنها ستحمل القضية كلها إلى عصبة الأمم ولم تتردد فى ذلك طويلاً ، فعينت العصبة المرحوم مسيو بنش حكماً بين الطرفين المتنازعين ، وقد استطاع السياسى التشيكوسلوفاكى أن يصل بالطرفين إلى اتفاق فى مارس سنة ١٩٣٣ ، كان أهم بنوده أن حددت مساحة الامتياز بمائة ألف ميل مربع أى أنه هبط بها إلى ٢٠٪ من مساحتها الأصلية ، وترك الشركة اختيار الأراضى فى حدود هذه المساحة ، كما قرر أن تكون حصة الحكومة على أساس الإنتاج ، فتأخذ أربعة شلنات على كل طن يستخرج من الزيت الخام ، وكانت حصتها من قبل نسبة من صافى الأرباح — وهو أمر كثيراً ما كانت الشركة تتلاعب فيه — على شرط ألا تقل حصة الحكومة عن ثلاثة أرباع مليون جنيه فى السنة ، وكانت مدة هذا الامتياز الجديد ستين عاماً تنتهى فى سنة ١٩٩٣ .

أدى هذا النظام إلى أن توسع الشركة فى أعمالها حتى وصل إنتاجها فى سنة ١٩٣٩ إلى ٧٨ مليون برميل . ثم تضاعف فى سنوات الحرب فأربى على ١٤٠ مليون برميل ، وهو زيت من النوع الممتاز ، إذ تزيد نسبة البنزين فيه على ٥٥٪ كما أن اقتصاديات تعدينه طيبة مشجعة ؛ فموقع الحقول الجغرافى ملائم والأيدى العاملة الرخيصة متوفرة .

ويستخرج معظم البترول الإيرانى من منطقة الخليج الفارسى وأهم حقوله فى « مسجد سليمان » و « هفتكل » أقدم الحقول استغلالاً وفى « جاش ساران » و « أغاجارى » و « بازاون » ويكرر الزيت الخام المستخرج فى معامل عبادان الواقعة على شط العرب وهى أكبر معامل التكرير فى العالم إذ تبلغ طاقتها الانتاجية نحو ٢٠ مليون طن فى السنة ، ومنها يحمل البترول المكرر إلى جهات العالم المختلفة ، تحمله الناقلات إلى دول الغرب أو إلى الدول الصديقة لها كأستراليا أو الهند .

وفى الفترة الأولى من الحرب العالمية الثانية زاد النفوذ الألمانى فى إيران وخشى الحلفاء أن تتطور الأمور بأسرع مما يتوقعون فسارعوا باحتلال إيران . احتل البريطانيون نصفها الجنوبى واحتل الروس النصف الشمالى ، ولكن الدولتين تعهدتا ومعهما الولايات المتحدة فى مؤتمر طهران فى ديسمبر سنة ١٩٤٣ بضمان استقلال إيران والجلاء عن أراضيها بمجرد زوال الضرورات الحربية التى دعت إلى الاحتلال .

وأظهرت الحرب أهمية إيران كمورد للبترول . فأخذت روسيا تتنكر لمبادئها الاشتراكية وبدأت تسلك مسلك الدول الاستعمارية ، فنزلت إلى الميدان تسعى للحصول على امتيازات خاصة بالبترول ، ورفضت إيران فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ بحجة أن الجيوش الأجنبية لا تزال تحتل البلاد ، ومن ثم فالرأى العام غير معد لقبول فكرة منح امتيازات بترولية جديدة . وسخطت الروسيا خصوصاً وهى تعرف أن انجلترا وأمريكا كانتا من وراء هذا الرفض ، وكان هذا مثار أزمة دولية أنذرت بقيام حرب عالمية ثالثة خصوصاً بعد قيام ثورة أذربيجان تعضدها الحكومة الروسية . واستمرت حالة القلق هذه لمدة سنة ونصف تقريباً ، ولم ينهها إلا اتفاق السيد قوام السلطنة مع موسكو فى إبريل سنة ١٩٤٦ الذى يقتضاه جلت الجيوش الروسية من إيران . وحلت مشكلة أذربيجان مقابل منح امتياز لشركة روسية إيرانية تقوم بالتنقيب عن البترول واستغلاله فى شمال إيران لمدة خمسين سنة تؤول بعدها آثار الشركة ومعداتها إلى الحكومة الإيرانية . ولسنا فى مجال مناقشة تفاصيل هذا الامتياز الجديد ، إلا أنه على أى حال كان أحسن كثيراً من الامتياز الممنوح للشركة الإنجليزية وكان أكثر صيانة للمصالح الإيرانية .

وكان الوعى القومى قد تنبه ورأى الأحداث العالمية من حوله وكلها تدعوه إلى أن يعمل على استرداد ثروته السليبة ، فكانت حركة المناداة بتأميم موارد البترول ونجحت الحركة ، وكان لها صداها فى الدول العظمى الثلاث بريطانيا وأمريكا والروسيا ؛ وموعدنا مقال آخر نتحدث فيه عن مستقبل التأميم وإلى أى مدى يمكن أن ينجح فى إيران وعن موقف الدول التى يعنيها أمر البترول فى إيران بخاصة وفى الشرق الأوسط بعامة .

محمد محمود الصياد

مسـنـد أحمد

للدكتور أحمد أمين بك

اشتهر الإمام أحمد بن حنبل في مذهبه بمذهب ابن حنبل ، وهو عنوان يوحي بالتشدد والتزمت ، وربما كان هذا ظلماً من الناس ، وربما كان أوسع من غيره وأسهل ، كما اشتهر في تأليفه في الحديث بمسند أحمد ، وفي تعذيبه على يد المأمون والواثق بمحنة أحمد ، لقوله بعدم خلق القرآن كما يدعى المعتزلة . وربما كان محقاً في ذلك ، لأنه ربما كان باباً يدخل منه المغرضون لعدم تقديس القرآن ، وإلا فليس يعقول أن أحمد على فضله وعقله يقول : إن ما بين جلدتي المصحف قديم ، بالمعنى الواضح الذي يفهمه الناس . وعلى كل حال موضوعنا اليوم هو أحمد المحدث ؛ فقد جمع كتابه المسند في عدد كبير من الأجزاء ، طبع قبل اليوم في مصر في ستة أجزاء ، وقام الأستاذ الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر بطبعه طبعة جديدة أنيقة ، قد تقع في أكثر من ثلاثين جزءاً . تليها عدة أجزاء للفهارس المتنوعة التي تسهل الانتفاع به .

ويمتاز مسند أحمد بجمعه أحاديث كل صحابي بجانب بعضها ، فالأحاديث التي رواها عمر ، والأحاديث التي رواها أبو بكر ، والأحاديث التي رواها أبو هريرة ، كل واحدة منها مجموعة مع بعضها . كما امتاز بالإكثار من الحديث كثرة تفوق ما جمعه البخاري ومسلم ، وإن لم تبلغ صحتها صحتهما . فقد نص الأستاذ الناشر على بعض أحاديث ضعيفة فيه .

ومهما قال المتقولون في عدم الاعتماد على الحديث لعثورهم على بعض منه مأخوذ من الفرس أو اليونان أو الرومان ، فإنها لا تخلو من أنها حكمة وخلاصة تجربة ، والحكمة كما في الحديث ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها . وأياً ما كان فالموضوع قليل بالنسبة للصحيح ، كالشعرة البيضاء في الجسم الأسود أو السوداء في الجسم الأبيض . وعليه الاعتماد في شرح أعمال الرسول وحركاته وسكناته وأحواله ، وفيه مقدار غير قليل في تفسير القرآن إما مباشرة وإما بالواسطة ، وفيه من معالم التاريخ ما لا بد منه لتوضيح الوقائع ، وتوضيح الحياة الاجتماعية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين .

ويقف الباحثون أو المنكرون موقفاً خاطئاً ؛ فهم يطالبون بالدليل على الصحة بينما هم في غيرها يطالبون بالدليل على الخطأ ، فكان ينبغي أن يكون منهجهم واحداً ، لا ينكرون إلا ما قام البرهان على خطئه سنداً أو متناً . ولم يأل العلماء القدماء جهداً — والحق يقال — في فحص الأحاديث ، واستنبطوا لذلك علماً دقيقاً كاملاً .

وقد وضع الأستاذ أحمد شاكر رقماً مسلسلاً لكل حديث توطئة لعمل فهرس أو فهارس للألفاظ والمعاني والموضوعات وغيرها ، والتعليق على كل حديث بالصحة أو الضعف . وتقريب المنال للباحثين والمحدثين . وهو عمل لا يستطاع القيام به إلا بعد ممارسة طويلة للحديث وكتبه ، وصبر دائب في بحث كل حديث ومركزه من القوة أو الضعف ، وربطه بكتب الأحاديث الأخرى . أطال الله بقاء الأستاذ حتى يتم الكتاب على هذا النحو الجميل . ولعل تسهيل الانتفاع به أكبر باعث لهؤلاء المتقولين أن يعيدوا نظرهم في الحديث وقيمته ، ومقدار ما يستفاد منه من علم جم ، وأدب غزير ومعارف متنوعة .

أحمد أمين

من قصص جحا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

قيل — والعهدة على الراوى — إن جحا لم يكن على وفاق مع قاضى المدينة . ولكى نعرف مقدار الخطر الذى كان يتهدد جحا المسكين يجمل بنا أن نستبعد من أذهاننا كل ما هو معروف لنا فى هذه الأيام من القوانين . واحترامها . ومن القضاة وتمسكهم بتطبيق تلك القوانين فمن الواجب علينا أن نحمد الله حمداً كثيراً . وأن نشكره ألف شكر على أننا نعيش فى ظل قضاء يحكم على مقتضى قوانين معلومة . وأننا إذا أردنا أن نتقاضى كان لنا أن نقيم من رجال القانون محامين يدافعون عنا أو يطالبون بحقوقنا بالنيابة عنا . فندعهم أمام القضاة وجهاً لوجه يتناقشون ويتحاورون حتى يظهر الحق أخيراً مثل نور الفجر أبلج واضحاً ...

وعلينا أن نستشعر الرحمة والعطف على جحا المسكين الذى كان يعيش فى عصر غير عصرنا هذا عندما كان قاضى المدينة يسيطر بإرادته المطلقة ويحكم بما يراه هو لا ما يراه القانون . وأقل تأمل فى حال جحا المسكين يدلنا على أن حياته فى المدينة لم تكن آمنة ولا هادئة بحال من الأحوال . ولسنا ندرى علة ذلك الخلاف ولا نجد فى سجلات المدينة ما يهدينا إلى السر الذى حمل رجلاً مثل جحا على أن يستوجب غضب القاضى عليه ، فمن المعلوم للجميع أن جحا كان رجلاً لين الجانب سهل العريكة لا يحرص على مادة هذه الحياة الدنيا ، ولم تكن له فى المدينة مصالح مادية تغرى به أو توغر الصدور حنقاً عليه ! كان لا يملك من الدنيا إلا داره الفقيرة التى كانت تشبه الصحراء الفسيحة . وكان يحرص عليها لأن اتساع مساحتها يحفظ عليه ماء وجهه . ويجعله يرضى من نفسه بعض الرضا ، لأن سعة الدار كانت تسمح له أن يعد نفسه من الأعيان . وكان لا يملك بعد ذلك إلا ثوره وحماره . فأما الثور فكان يدور بالساقية فيعلو نعيرها حتى تبلغ آذان الجيران فيحسبون أنها تخرج ماء زلالاً يروى الأرض ، وينبت البقل ، ويخرج الزهر ، مع أنها لم تكن تخرج من الماء شيئاً .

وأما حماره فكان له بمثابة الصديق يتمثل به فى الصبر على المكاره والولاء التام والإخلاص لمن لا يستحق الإخلاص .

هذا كل ما لجحا فى المدينة ، وإنه ليبدو عجيباً أن يكون مثل هذا الرجل موضعاً لغضب أو كراهة ، ولا سيما كراهة قاضى المدينة ، وهو من هو فى مجده وثرائه وسطوته .

ومهما يكن من أمر فإن المعروف أن جحا لم يكن على وفاق مع ذلك القاضى المخيف ولم يستطع أن يعرف السبب الذى أثاره عليه .

وقد حاول مراراً أن يسترضيه ، وأن يقيم له الحجة الدامغة على أنه لا يكن له بغضاً ولا حقداً . وأنه لا يعرف سبباً يدعو لعداوته إذ أنه لا ينافسه فى شىء مما يحرص القاضى عليه . وحلف له مرة بالله العظيم أنه لا يتطلع إلى وظيفة القضاء التى يتمتع بخيراتها ، ولكن القاضى بقى سادراً فى جموده لا يحرك ساكناً ويضمر له فى قلبه الحفيظة . ولو كان الأمر لم يتعد الكراهة والحفيظة والجمود لما كان فيه ما يدعو إلى خوف ، فإن جحا كان معروفاً عند الجميع بأنه لا يبالى المحبة ولا الكراهة . كان معروفاً عنه أنه يقول ما يرد على خاطره ، ويرى أن ذلك من حقه أو هو من واجبه ، وكان فى ذلك لا يصدر عن عداوة ولا كراهية لأحد ، بل كان يقول ما يعتقد أنه الحق لأنه لو لم يجهر به لبقى الحق فى جوفه يغص ويقطع حتى يكاد يزهق نفسه . فكان عذره واضحاً فى أنه كان يحب أن يجهر بما يراه الحق دائماً ، ولكنه كان مع ذلك لا يغضب من أن يقول الناس ما عندهم من

رأى وإن كان مخالفاً لرأيه . فإذا بدا له أن الناس لا يقولون الحق حاول أن يصرف الأمر كله بكلمة ضاحكة تسري عنه بغير أن تؤذي أحداً ؛ فمثل هذا الرجل جدير بأن يكون من أبعد الناس عن أن يحتفل بمحبة أحد أو كراهته .

ومحبة الناس أو كراهتهم لا تكون ذات قيمة إلا لأنها تجلب خيراً أو تمنع الخير ، ولم يكن جحا ممن يحرصون على الاستزادة من الخيرات التي تقيد الناس بأغلالها وتذل الأعناق بأحمالها .

فالظاهر والله أعلم أن القاضي لم يكن ممن يرضون من الناس بمثل هذا الموقف السلبي ؛ فكان يعد جحا ثائراً عليه ، خارجاً على إرادته متحدياً لسلطانه .

وكان من سوء حظ جحا أن المدينة كانت في ذلك العصر داخلة في دولة تيمور لنك وهو طاغية من طواغيت الدنيا ، من هؤلاء الذين لم يذكر التاريخ أشد منهم قسوة ، ولا أجرأ منهم على الظلم .

وقد رفع إلى تيمور أن بالمدينة رجلاً اسمه جحا يكثر من الكلام وينطق بأقوال فارغة يزعم أنها الحق ، ويخرج إلى الأسواق فيسمع السوقة ألفاظ الحرية والعدل والدين والرحمة ، ويسمع الضعفاء أنهم أقوياء ، ويأمر الخائفين أن يجهروا بما عندهم من إنكار لطغيان الطغاة . وكان القاضي عند تيمور في ليلة من الليالي ، فسأله تيمور عن جحا .

وتظاهر القاضي بأنه لا يعرفه ، فأمره تيمور أن يبحث عنه وأن يؤاخذه وأن يؤدبه ، وإذا احتاج تأديبه إلى التعزير فليشدد عقوبته .

ولست أريد أن أطيل في سرد تفاصيل القصة المحزنة التي أعقبت هذا . فجملة القول أن جحا أصبح في المدينة شقياً معذباً مضطهداً مطارداً ، حتى رأى ألا مخرج له من شقائه إلا بأن يفر من المدينة .

وفيما هو خارج من المدينة على حماره المسكين ، لقيه القاضي خارجاً من الدار ، وكانت داره الأنيقة على مشارف المدينة ، يمر بها كل داخل إليها وكل خارج منها . ولسنا ندري هل كان ذلك اللقاء اتفاقاً ومصادفة ، أم كان متعمداً مقصوداً . ومهما يكن من الأمر ، فقد بادره القاضي قائلاً وهو يبتسم ابتسامة صفراء :

— إلى أين يا جحا ؟.

فقال : أنت هذا تراني على الطريق .

فقال القاضي : ولم هذا الهروب ؟.

فأجاب في بساطة : إن كان خروجي هرباً ؛ فذلك هروب من الظلم ، فقد ظلمتني .

فضحك القاضي ضحكة طويلة وقال : ألا تترك دعابتك ؟.

فقال جحا : أيها المسكين !

فقال القاضي ماضياً في ضحكه : أنا مسكين ؟.

فقال جحا : ومن أكثر مسكنة من الظالم أيها الرجل ؟.

فوالله لو فهمت قولي ، لاستبدلت بالضحك البكاء . أرأيت لو وضع الطبيب سماً للمريض الذي ائتمنه على حياته بدل أن يضع له الدواء طمعاً في رشوة أخذها ؟ أرأيت لو نزعت الأم ثديها من فم طفلها وقذفت به في موقد النار ، ثم قومت فاغمة ذراعيها لشريكها في الجريمة ؟ أرأيت لو أحرق لص بيدر القمح بعد أن يسرق منه كيلتين ؟ أرأيت لو أغرق العبد الأجير سفينة بمن عليها ليجمع ما يطفو على وجه الماء بعد غرقها من خسيس المتاع ؟ إن هؤلاء جميعاً يظلمون ظلماً شنيعاً لا يختلف عن ظلمك أنت . ولست أجد لكم جميعاً سبة أشنع من أن أقول لكم : أيها الظلمة !.

ومضى جحا في سبيله لا ينظر إلى ورائه ، فلم يسمع نداء القاضي بصوته المرتجف المتخاذل ، ولم ير وجهه الصفر الذي هرب منه الدم . ورفع القاضي يده إلى عينه يمسح دمعة غيظ جالت فيها .

وكان جحا وهو يحض حماره على الإسراع في السير يتمتم قائلاً :

— لست أنا الذي أهرب منك أيتها المدينة البائسة . إنك أنت وقاضيك وطاغيتك الذين تهربون مني .

محمد فريد أبو حديد

نهضتنا الثقـــافية

وعلاقتها بنهضتنا العامة

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

يرى بعض المعنيين بنهضتنا الفكرية أن آدابنا قطعت في مضمار التقدم شوطاً لم يقطعه سواها من سائر فروع المعرفة، وأنها لذلك لم تعد في حاجة إلى رعاية ومؤازرة ... هؤلاء يحلمون بأحلام ذهبية بعيدة عن الواقع، بل مناقضة له. فالأدب عندنا ما زال في ذيل نهضتنا الحديثة، وليس في ذلك خروج عن المألوف، لأن رقي الفكر يترتب على رقي الحياة المادية وفق نظام التفاعل الذي سيأتي شرحه بعد. والأدب وليد السمو الفكري، وتجويده يتطلب مواهب لا تنضج النضج المنشود إلا بعد خبرة أجيال وأجيال. يؤثر الأدب والفكر كل منهما في الآخر خلالها تأثيراً متبادلاً متوالياً. أما تحصيل ألوان العلوم والمعارف الأخرى فلا يشق على طلابها مثلما يشق الأدب الجيد الأغوار، المتنوع الألوان، المترامي الأطراف.

ويرى آخرون أن الأمور تجري عندنا في مجراها الطبيعي، فنهضة مصر الأدبية ملائمة لها، جديرة بها. والذي يطلب من الأدب أن يسمو إلى مكانة لم تسم حالة البلاد إلى مثلها يطلب شططا ... لأنه يطلب أمراً غير طبيعي. ونحن نحسب أن أصحاب هذا الرأي أدركوا الصواب من ناحية، وأخطأوه من ناحية أخرى. فما لا شك فيه أن أدبنا وليد ظروفنا وملابساتنا، وأنه لم يرق إلا بالقدر الذي سمحت به هذه الظروف والملابسات. أما القول بأن الذي يطلب تغيير هذا الوضع يطلب شططا، فيرد عليه أصحاب المذهب الثالث ...

هؤلاء يرون أن على الناس أن يحاولوا السيطرة على الظروف والملابسات المحيطة بهم، ويعملوا على تحويرها تحويراً يلائمهم ويساعدهم على سرعة التقدم والارتقاء. ونحسب أن الإشارة إلى بعض المذاهب الفلسفية المتصلة بهذا البحث قبل الاسترسال فيه قد تنير بعض جوانبه الغامضة.

رأى ديكارت ومن تلاه من طلائع فلاسفة العصر الحديث أن الناس خاضعون كل الخضوع لأحكام الحياة المحيطة بهم. فالوجود قائم على أصول ثابتة، سائر وفق نظم ونواميس لا تتبدل. والإنسان عاجز عن أن يغير قتيلاً من تلك الأصول والنظم والنواميس، ولذلك تراه يتكيف وفق أحكامها، ويبذل جهده ليلائم بين حوائجه ومقتضياتها. وقد عرف مذهب هؤلاء الفلاسفة بالمذهب الآلي، أو «الميكانيكي» لأنه يقول بأن الوجود يجري كما تجري الآلة على وتيرة واحدة.

ثم جاء بعد ذلك الفلاسفة الفرديون، أو المثاليون كما يسميهم الشراح، وقالوا بأن الوجود لا يسير إلا بإرادة العباقرة من الرجال، فهؤلاء هم الذين يغيرون التاريخ وفق رغائبهم، وهم الذين يرفعون الأمم ويخفضونها وفق أهوائهم! وليس التاريخ العام إلا مجموعة سير أولئك العظماء، وليست الحضارات إلا من خلق عبقرياتهم. وقد تمكن الناس بفضلهم من التحكم في الطبيعة، والسيطرة على عناصرها الجامحة، وتسخيرها في سبيل منافعهم ومصالحهم ...

وقد آذن هذان المذهبان الفلسفيان بظهور المذهب الصحيح الحديث الذي استخلص من سابقيه ما تضمنا من صواب، وصقله وصفّاه مما علق به من زيف! وخلاصة ما قال به هذا المذهب أن الناس من ناحية وما يحيط بهم من مقومات حياتهم المادية والاجتماعية من ناحية أخرى، يتفاعل كل منهما مع الآخر تفاعلاً متبادلاً! فالناس يشيدون منازلهم، ويصنعون ما يحتاجون إليه من متاع، وينشئون مؤسساتهم الأدبية والفنية والعلمية، فإذا كل هذا يقتضي بطوره حالة جديدة لأولئك الناس ويخلق لهم عقلية جديدة، ويبث فيهم آراء مستحدثة، ويكشف عن آفاق فكرية غير مطروقة، وإذا هم ينتقلون إلى طور جديد، ويصبحون

أقدر على تحسين ما ينتجون وينشئون ، ثم يتأثرون بما أخذوا ينتجون وينشئون ، وهكذا تدور الحياة ويحدث التقدم .

ونحسب أن هذا المذهب يزداد وضوحاً إذا ما توسعنا في تطبيقه العملي ؛ ولعل المقارنة بين قطان المدن وقطان الريف ، أو بين الشعوب المتحضرة قبل اختراع الآلة الميكانيكية وبعد اختراعها يسرت علينا مهمة الشرح أي تيسير .

يختلف سكان المدن عن سكان الريف الذين لا عهد لهم بالمدن في آرائهم ومعتقداتهم وأذواقهم ، ولا نحسب أحداً يرى أن هذا الاختلاف محل خلاف ؛ ولم تتكون عقلية سكان المدن هذا التكون الخاص إلا بتأثير المشاهد المادية والظواهر الاجتماعية المحيطة بأصحابها ؛ ومن أهم تلك المشاهد والظواهر الدور وما اشتملت عليه من رياش ، والحافل والمسارح والمعارض والمنتديات والمتنزهات والطرق المرصوفة ومركبات النقل ووسائل الراحة والمتعة ، بل والملابس والمآكل والمشارب ، ولم يتم تشييد المدن الكبيرة التي نراها اليوم ، لأن جماعة من أهل الفكر خطر لهم قبل عصر ازدهار المدن أن يشيدوها فوضعوا تصميمها على النحو الذي نراه الآن ، ولكن مقومات المدن الحديثة لم تتوافر وتكتمل إلا بعد تطور طويل الأمد وقع فيه التأثير المتبادل بينها وبين قطانها على النحو الذي ذكرناه .

أما الذي كان له أخطر الأثر في تشييد المدن الحديثة ، وتسديد الخطى في الاتجاهات الفكرية العصرية فهو اختراع الآلة الميكانيكية . فهذه الآلة مكنت من إنتاج البضائع بالجملة ، وأسفر ذلك عن ظهور الطبقة المتوسطة التي استطاعت أن تنزع النفوذ والسلطان من الأشراف بعد أن تمت لها السيطرة على الإنتاج . ولم يلبث إنتاجها المطرد النماء ، وطرق توزيعه ، وما ترتب على ذلك من تغير في الأوضاع الاقتصادية ، أن مهد السبيل لظهور معتقدات ومثل فكرية جديدة ملائمة لهذه الطبقة ، وأخذت المعتقدات والمثل التي كانت سائدة في عهد الأشراف تتقلص وتتبدد . وعلى ذلك تكون الآلة الميكانيكية التي أبدعها الناس هي التي أبدعت لهم اتجاهاتهم الفكرية الحديثة ، ووجهات نظرهم الجديدة .

ولكن هل حدث الانقلاب الآلي ، وازدهار الإنتاج ونماء المدن على نحو ما نرى دفعة واحدة بغير تمهيد وبغير تطور ؟ هل طلع على الكون أيام عصور الإقطاع عباقرة تكشف لهم الغيب ، وهبط عليهم الوحي ، فرأوا كما سبق القول أن حضارة المدن ستدفع بالإنسانية قدماً في سبيل الرقي ، فعملوا على تشييد هذه المدن الحديثة وأتموا ذلك بين يوم وليلة !.. أو أنهم عملوا على تشييد المصانع ، وقلب النظام الاقتصادي الإقطاعي بين عشية وضحاها ؟!.. إن شيئاً من هذا لم يحدث ، ولكن الذي حدث هو تطور سار الهوينا ابتداء من العصر الحجري حين اهتدى الإنسان إلى صنع ما احتاج إليه آنذاك من أدوات بدائية ، ثم تأثر بما صنع ونما فكره قليلاً ، واكتسب شيئاً من الخبرة ، وازداد قوة ملاحظة وفطنة ، وصار أقدر على تحسين مصنوعاته ، وإذا قيل إن المران سبيل التجويد والإتقان ، فسبب ذلك أن الإنسان يتأثر بما ينتج ويزداد به خبرة وفطنة ، فيجيء إنتاجه الجديد خيراً من سابقه . ثم يتدرج في صناعته مستفيداً من تجويده متدرجاً في سبيل الإتقان تدرجاً لا غنى عنه ، لأنه لا يستطيع أن يصل إلى الإجادة طفرة واحدة . وهكذا ظل الناس منذ العصر الحجري يخترعون من أنواع الإنتاج ما هم في حاجة إليه ، ويتأثرون به ثم يؤثرون فيه ، ويستفيدون منه ويفيدونه حتى وصلت حضارتهم إلى ما وصلت إليه اليوم .

هذه هي وسيلة التطور العام الذي يسمو بإنتاج الناس وعقليتهم على التوالي . وفي ركابه تتطور علوم الناس وآدابهم وفنونهم ومثلهم ومعتقداتهم وقوانينهم وقواعد أخلاقهم ، وأوجه نشاطهم الفكري كافة . وكل فرع من فروع هذه المعارف لا يتفاعل مع ما يحيط به من ظروف وملابسات فحسب ، ولكنه يتفاعل كذلك مع باقي تلك الفروع ، ثم يتأثر معها باتجاه التطور العام . وإذا كان الكاتب يتأثر بقرائه ويؤثر فيهم ، فإنه وقراءه يتأثرون بمجتمعهم ويؤثرون فيه ، وهؤلاء جميعاً يتأثرون بالتطور العام ويؤثرون فيه ، كبر هذا التأثير أو صغر ، وطال به الزمن أو قصر . فكل فرع يدور في فلكه ، والأفرع كافة تدور في محيط الفلك العام ، متأثرة به ومؤثرة فيه .

وإذا حاولنا أن ندرس نهضتنا الحديثة على ضوء ما قدمنا ، فلا بد من أن نعود إلى الوراء ، ونفحص حالتنا قبل انبثاق بشائر تلك النهضة . لقد عاشت مصر على الزراعة منقطعة الصلة بأوربا ونهضتنا الحديثة حتى فتحها الفرنسيون . وقد

تحدثنا عن الصناعة وأثرها فى تقدم الأمم . أما الزراعة فليس لها تأثير من هذا القبيل ، لأنها تجرى عاماً بعد عام على وتيرة واحدة ، فلا تفيد المشتغلين بها خبرة ترفع من مستواهم الفكرى . والزرع ينمو ببطء ، فيصيب القائمين عليه بالجمود . ثم إن الزراعة لا تتطلب إنشاء المدن الكبيرة التى يتكاثف فيها عدد السكان فيهيء تكاثفهم سبيل إنشاء المؤسسات التى تحدثنا عنها ، ويحدث التفاعل الذى ذكرناه بين أولئك السكان وما يحيط بهم من مقومات حياتهم المادية والمعنوية . .

وعلى هذا ظلت مصر تعانى الركود الذى تبثه وأيده وقوعها فى أيدى الغزاة الشرقيين الذين اتخذوا منها مخزناً يمدهم بالغلة والمال ، وظلت حالها هكذا حتى دخلها الفرنسيون ، فأيقظت مدافع نابليون شعب مصر من سباته ، وحملته على التطلع إلى الغرب وحضارته التى أكسبته هذه القوة . .

وجاء محمد على باشا فوجد الجو مهيأ للنهوض بالبلاد اقتصادياً وفكرياً ، فدرج كما درج من ولوا حكم البلاد من بعده على اقتباس علوم أوربا وأساليب العيش فيها كما هو معلوم ، وأخذت النهضة تدب فى أوصال البلاد .

أنشئت المصانع لأغراض مدنية وعسكرية ، وشيدت الجسور ، ورصفت الشوارع ، وأقيمت المدارس العالية على غرار ما هو قائم فى أوربا ، وأخذ الناس يغيرون أساليب عيشهم ، وقد تناول التغيير حتى الزى العسكرى والمدنى ، ثم طفق يسرع فى خطاه ابتداء من عهد إسماعيل باشا ، ولكن ذلك التغيير المادى والمعنوى لم يؤثر فى العقلية المصرية وينهض بها نهضة أدبية إلا قبيل الثورة العرابية ، وكانت الثمرة الأولى لليقظة الفكرية إدراك الشعب لحقوقه وتمسكه بها ، واستفاضة شعوره بالكرامة الشخصية والعزة القومية ؛ وحين أراد حملة الأقلام من شعراء وكتاب أن يعبروا عن مشاعرهم الجديدة لم يجدوا مجالاً للمران على التعبير إلا فى محيط الأدب العربى الإسلامى ، وسرعان ما اتصلت نهضتنا الأدبية بنهضات العرب الأدبية فى العصور السالفة ، وسار التطور فى طريق طبيعى ممهد ، لأن نهضة مصر المادية لم تكن قد أثرت حينذاك فى العقلية المصرية تأثيراً كيفياً عميقاً يقطع صلتها التاريخية بالعقلية العربية .

ولكن دخول الانجليز مصر ، وما أعقب ذلك من توسع فى الأخذ بمقومات المدنية الغربية والاطلاع على العلوم والفنون والآداب الأجنبية ، ثم وقوع الحربين العالميتين ، وانتعاش اقتصاد البلاد بسببهما ، دفع حركة التطور دفعة قوية إلى الأمام ، وزاد من تطلع المصريين إلى الغرب ، أملاً فى الخلاص من ربقة القديم واللحاق بالركب الحضارى العام .

والذى يستخلص مما تقدم أننا بدأنا نأخذ منذ مستهل القرن الماضى بأسباب الحضارة الأوربية ، واستعنا أول الأمر بالأجانب لتشييد صرح نهضتنا ، ثم طفقنا نتعلم علومهم ونستفيد من خبرتهم حتى استطعنا أن نقطع بعض شوطهم ؛ ولكن مظاهر نهضتنا أسبق فى التقدم على حقيقة مقدرتنا التى لم تنضج ، لأن نضجها يتطلب طول عهد التفاعل الذى ذكرنا الحديث عنه ، هذا إلى أن صناعتنا لم تبلغ من الاتساع والشمول بعض القدر الضرورى لازدهار النهضات الكبرى .

ولعل القارئ يذكر ما قلنا عن الفرق بين تأثير الصناعة وتأثير الزراعة فى تقدم الأمم . أما نهضتنا الحديثة فطفرة لم تسر فى طريق التدرج والتطور الطبيعى . وليس معنى هذا أننا أخطأنا فى النهج الذى نهجناه ، وأنه كان أولى بنا أن نتمهل فى تقدمنا ونتريث ، ولكن مقصدنا مما نقول أن نبين أسباب عدم نضجنا إلى الآن .

وما دامت عقليتنا لم تستطع أن تجارى نهضتنا المادية فى سرعة رقيها ، فمن الطبيعى أن تظل نهضتنا الثقافية فى مستوى عقليتنا . ومن شواهد تخلف النشاط العلمى والفنى والأدبى عندنا ، أننا إذا ما استثنينا أفذاذنا الذين لا يقاس عليهم ، نجد أن تقدمنا المهنى سابق على تقدمنا الفكرى والفنى . ففى محيط الطب نجد الإقبال على التطبيب دون البحوث الطبية . وفى القانون نجد الإقبال على المحاماة والقضاء دون البحوث والشروح . والإقبال فى الهندسة على فن البناء دون التوسع والتمكن من فنون التصميم والزخرفة . . . وهكذا نجد حال سائر فروع المعرفة . . . ولعلنا نرى أصل ذلك فى إقبال تلاميذ المدارس على تحصيل دروس البرامج دون الكتب الثقافية المقررة . . . إننا نعمل ولكننا لم نحصّل بعد فوائد تجاربنا ، لأن ذلك يحتاج إلى مندوحة من الوقت حتى يسفر التفاعل عن الانصهار المرجو .

وليس معنى هذا أن ننفض يدنا مما يقع لنا . وثق بجيل

(البقية على الصفحة التالية)

كيف تُحسِن الكتابة

الأستاذ محمود محمود

الغرض من الكتابة أن تعبر عن فكرة تحس ضرورة التعبير عنها . أو بعبارة أخرى : هو أن تنقل معنى من ذهنك إلى ذهن القارئ . وهو عمل كان ينبغي أن يكون سهل الأداء ، غير أنه — في واقع الأمر — شاق عسير عند أكثر الناس . فهم يحسبون أن الكتابة حرفة فنية رفيعة ، لا يمارسها إلا أولئك الذين أدركوا سرها وحذقوا وسائلها . وهم يتوهمون ذلك في تأليف الكتب أو تدبيج المقالات والبحوث على الأقل . وقد لا يتوهمونه عند تحرير الخطابات . فهي تختلف عن الكتب والمقالات في طبيعتها . لأن الخطاب إن هو إلا حديث على الورق مسطور ، ولذا فهو لا يدخل في باب الكتابة الفنية التي تكتنفها الأسرار والغموض .

ويقول الفيلسوف الإنجليزي المعاصر جود إنه كان أستاذاً في إحدى الجامعات ، وكان يكلف طلبته أن يكتبوا له مقالاً كل أسبوعين . وكان يجد مشقة كبرى في الحصول على هذه المقالات ؛ إذ كان الطلبة ينتحلون مختلف المعاذير للتخلص من تقديمها . ففكر جود في وسيلة يحتال بها على طلبته لكي يكتبوا له . طلب إليهم أن يحرروا له خطاباً لا مقالاً ، وطلب إليهم أن يذكروا في الخطاب شيئاً عن رأيهم في المحاضرات التي تلقى عليهم وفي الطلبة زملائهم ، وشيئاً عن رأيهم في موضوع المقال الذي كلفهم الكتابة فيه آخر مرة — وهنا مكر بهم أستاذهم جود مكراً شديداً ، لأنه ساقهم إلى الكتابة في الموضوع بطريق غير مباشرة . وكانت لهذه التجربة نتيجة تدعو إلى العجب حقاً . فقد أكب كل منهم على رسالة يحررها ، وجاء تعبيرهم قوياً جميلاً . وظفر منهم أستاذهم في يسر وسهولة بما ألح عليهم في طلبه في مقال فلم يظفر به .

ويقول جود : إن هذه التجربة أقنعته بما كان يشك فيه من قبل ، وهو أن كل حديث عن الأسلوب والصياغة والقدرة على التعبير كتابة ليس إلا دجلاً يقصد به الأدباء أن يوهموا القراء أن الكتابة فن رفيع لا يستطيعه إلا رجل عبقري موهوب . ذلك لأنهم يكسبون عيشهم بهذا التهويش والادعاء . ولا يشك جود في أن الرجل العادي لو أمسك بالقلم وعبر تعبيراً مباشراً بسيطاً لأجاد الكتابة في أسلوب جميل .

غير أن الرجل العادي لا يفعل ذلك . فإن أراد أن يكتب للصحف ، وظن أنه لا بد له من التعبير بما يسميه الأسلوب الأدبي ، تصور أنه لا يبلغ بغيته إلا إن استخدم لفظتين أو ثلاثاً في موضع تكفي للتعبير فيه لفظة واحدة ، فتراه يقول مثلاً : « أرض الكنانة » بدلاً من « مصر » و « عاصمة المعز » بدلاً من « القاهرة » . ومنشأ هذه الفكرة الخاطئة ، هو الاعتقاد بأن الغرض من الكتابة يختلف عن الغرض من الحديث . وأن مهمة الكلمة في الحديث هي مجرد إيصال المعنى من ذهن المتكلم إلى ذهن السامع . أما مهمة الكلمة المكتوبة فهي إحداث ما يسمونه التأثير الأدبي . وترجع هذه العقيدة الخاطئة إلى سببين :

تقدمنا على كاهل الزمن . بل على ذوي السلطان منا أن يبذلوا ما وسعهم من جهد لتنشيط حركة التطور . عليهم أن يؤيدوا الصناعة ويعمموها حتى تتحول مصر إلى بلد صناعي وأن يشجعوا أوجه نشاطنا العلمي والأدبي والفني ، ويضعوا لذلك المشاريع ويباشروا تنفيذها حتى يتم التفاعل بين التقدمين الصناعي والفكري ، فتزداد سرعة تقدم كل منهما . وأن يغرسوا في النشء حب الاطلاع ، ويفتحوا لهم أبواب المتاحف والمعارض والمسارح والمكتبات العامة ، حتى تنتعش الكتابة ، ويقع التفاعل بين الكتاب وقرائهم ... كل ذلك يجب أن يتم ، بل يجب أن نبدأ فنبحث كيف يتم على وجه علمي منظم .

محمد منير الشرباصي

أما أولهما فهو السم الذي ينفثه من يتصدون للكتابة في الصحف السيارة ، فهم يحبون إثارة الخواطر ، سواء كان من الحوادث ما يثير أو ما لا يثير . فقد تكون هناك حرب عالمية كبرى ، وقد يكون العالم في سلام . غير أن الصحافي لا يقف هذا الموقف ، ولا يعطي لنفسه الخيار . فهو يرى أن من واجبه أن يصدر صحيفة خلابة مثيرة ، سواء كان هناك ما يخلب اللب أو لم يكن . فإن كانت الحوادث خلواً مما يسلي أو يثير ، تلاعب باللفظ يؤدي به ما أبت الحوادث أن تؤديه .

ومن ثم كان من أهم سمات الأسلوب الصحافي الإطناب والمبالغة . ومن وسائل تحقيق هذه المبالغة المنشودة استخدام ألفاظ أخاذة لا يتوقعها القارئ . فتراه ينعت « اللص » — مثلاً — بأنه « زعيم عصابة كبرى » . فالصحافي لا يؤدي مهمته ولا يخدم مهنته إلا إذا استخدم الألفاظ الرنانة والتعبيرات ذات الطنين . وهي عبارات فضفاضة لا تتلاءم وأهمية الحادث . ولا تعبر بإخلاص عما يجيش في صدر الكاتب نفسه .

فلو أن كاتباً صحافياً أراد — كما ذكر جوازوردي في كتابه « التعبير » — أن يقول « جلس القط على الحصير » وليس لديه أكثر من ذلك ، غير أن بالصحيفة نصف عمود لا بد من ملئه ، فلا مناص للكاتب من أن يحمّل هذه العبارة اليسيرة عبئاً ثقيلاً من الفصاحة وأن يشحنها بالعاطفة الكاذبة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . فيقول مثلاً : « استلقى الحيوان بجسمه القطقط الرشيق ، وماء بذلك الصوت المألوف الذي عرف به جنسه منذ الأزل ، وعبر بموائه عن الطمأنينة ورضا النفس . استلقى بس (اسم القط) على بساط سندسي فيه أبهة الشرق وعجائب ألف ليلة وليلة » . وإذا لم يكن الكاتب ماهراً فشل في محاولته ، وجاء أسلوبه مثيراً للسخرية لا للعواطف .

ألا إن هذا إسفاف في التعبير ، وجريمة في حق الأدب وأساليبه التي ينبغي أن يكون جمالها في بساطتها . وما دمنا لا نهدف إلى التأثير الصحافي ؛ فيجب علينا أن نعاهد أنفسنا على أن نعبر عما نريد التعبير عنه وحسب ، لا نزيد ولا ننقص ، ولا نستخدم من اللفظ إلا ما يؤدي إلى الغرض ، وأن نقتصد في الكلمات ما استطعنا .

وهناك سبب آخر غير الصحافة ، يحدو الكتاب إلى الاعتقاد بأن أسلوب الكتابة يختلف عن أسلوب الكلام ، وأن الكتابة كما ينبغي لها أن تكون — حديثاً مسطوراً على الورق . ذلك أن كثيراً من المؤلفين يحبون أن يبالغوا في أهمية صناعتهم فيزعمون أن الكتابة فن — كفن الموسيقى أو فن التصوير . وما دامت الكتابة فناً فلا بد أن تكون لها أصول ، ولا بد أن تُنتقى لها ألفاظ خاصة ، ولا بد أن يكون لعبارة الكاتب جرس ورنين — وهذا هو ما يسمونه « الأسلوب » . ولا تكون للكتابة أية قيمة إذا لم تتميز بهذا « الأسلوب » .

والاعتقاد في أن الأسلوب له قيمة مستقلة عن المعنى الذي يحمله كان سائداً حتى عهد قريب جداً ، فكان الكاتب يهتم بطريقة الأداء أكثر من اهتمامه بما يؤدي ، ولم تدرك كثرة الأدباء خطأ هذا الزعم إلا حديثاً جداً .

ويقول صمويل بتلر الكاتب الإنجليزي في هذا الصدد : « لم أعرف كاتباً حاول التأنق في أسلوبه ، وأخرج لنا بعد ذلك ما يستحق القراءة ... إنني حينما أكتب لا أفكر إن كان لي أسلوب أو ليس لي ، ولو فكرت لكان ذلك على حسابي وحساب القراء ... مع أني أحاول أن يكون خط يدي جميلاً مقروءاً » .

« يجب أن يكون أسلوب الرجل كردائه لا يتألق ولا يخطف البصر ، وإنما يجب أن يكون الشعور صادقاً والفكرة واضحة ، ويكفي الكاتب بعد ذلك قليل من قواعد النحو والصرف . فالفكرة الجميلة هي الأسلوب الجميل .

إن شو وكنراد وهدسن من الكتاب الإنجليز المحدثين لم يتفوقوا لبراعتهم في الأسلوب ، وإنما بشّر شو بالاشتراكية ، وقص لنا كنراد القصص عن حياة الملاحين ، وأطلعنا هدسن على عجائب الطبيعة ، وجاءهم جمال الأسلوب من تلقاء نفسه .

ويقول شو : « إن الأسلوب الأصيل حقاً لا يطلب لذاته . قوة الفكر هي قوة الأسلوب . ومن لا رأي له لا أسلوب له ، ولن يكون له . ولا يمنع ذلك من أن يكون الرأي خاطئاً » .

ولست أنكر أن للألفاظ جمالاً ونغماً . وقد يتحد الرجلان في قوة الشعور ووضوح الفكرة إزاء موضوع واحد ، ومع ذلك نرى أحدهما يعبر عن نفسه بإخلاص ويكون لتعبيره تأثير وقدرة على الإقناع ، بينما نجد الآخر فاتراً ضعيف التأثير . أو ليس من واجبنا أن نلتمس تلك الصفة التي تضفي على الألفاظ جمالاً ، وأن نتحاشى تلك التي تجعل الكلام بارداً لا روح فيه ؟ :

لا شك في أن من الكلمات ما يثير الشعور ، ومنها ما لا يثيره . ولا مراء في أن لبعض الألفاظ سحراً وموسيقى وجمالاً لا يتوفر لبعضها الآخر ، ولكني لا أنصح الكاتب بالبحث عن مثل هذه الألفاظ بحثاً متكلفاً ، ولو أنه قبل لفرت منه وشق عليه أن يهتدي إلى مظانها . إن موسيقى اللفظ وجماله صفتان لهما قدرهما في الكتابة ، ولكنهما يأتيان من تلقائهما ، ولو أنك عبرت عما في نفسك بوضوح وبساطة وتفاديت التكلف والتقليد ، لانطبع ما تكتب بطابع شخصيتك . فإن كانت الفكرة جميلة والرأي مبتكراً ما خفي ذلك على القراء .

وكما أن المرء ليس بوسعه أن يجعل شخصيته محببة إلى النفوس إذا لم تكن بطبعها كذلك ، فكذلك يستحيل عليك أن تجعل أسلوبك خاتماً جميلاً ، أو جميلاً بزوقه . إن الرجل الذي يفكر في ذاته وفي الأثر الذي يتركه شخصه في الآخرين لا ينجح إلا في إظهار التكلف والشعور بالقلق ، وكذلك الكاتب الذي يفكر في أسلوبه وفي الأثر الذي يحدثه في قرائه ، لا يجيء ما يكتب إلا ممزوجاً بعيداً جداً عن الطبيعة .

وينصح جود الكاتب الناشئ لكي يعوّد نفسه ألا يهدف إلى ما يسمونه التأثير الأدبي أن يحتفظ لنفسه بمذكرات يومية . لأن المذكرات اليومية تدون عادة بقصد ألا يطلع عليها أحد غير مؤلفها ، والكاتب لا يحب أن يحدث تأثيراً في نفسه ، ولذا تراه في مذكراته اليومية صادقاً طبيعياً ، والمذكرات قيمتها لأنها تعبير عن النفس صادق ، وتدريب على الأسلوب الصحيح ، وهي وحدها تنفرد بين ضروب الإنتاج الأدبي بأنها لا تكتب إلا لأن مؤلفها يحس الرغبة في تدوينها .

ويقول هازلت أحد كتاب النثر الإنجليزي المرموقين في القرن التاسع عشر : « إذا أردت أن تكتب لغة إنجليزية صادقة مألوفة أصيلة فاكتب كأنك تتحدث حديثاً عادياً ، وليكن حديثك بسيطاً قوياً واضحاً . ولا تجعل سبيلك التكلف أو التأثير الخطابي » . ثم يقول وهو يوازن بين الألفاظ العادية والألفاظ الثمينة : « والكلمات كالعملة لا يكسبها قيمة إلا تداولها » .

ويقول ناقد النقد الإنجليزي شرط الكتابة الجيدة « أن يكون الكاتب دقيق الملاحظة ، واضح الفكر ، وأن يختار الألفاظ الصحيحة ، وأن يكون مجدداً ، موجزاً ، أصيلاً ، ما وسعه ذلك . وفوق هذا كله ينبغي له ألا يخشى أن يكون طبيعياً » .

وليست هناك — بعد هذا كله — قاعدة ذهبية للكتابة الجيدة ، كما أنه ليست هناك قاعدة ذهبية للحياة الطيبة . الكتابة تعبير عن الشخص ، وما هو غذاء لجسمك سم لغيرك . وما يكون سبباً للإجادة عند شخص ما ، قد يكون شيئاً لا ينفع فيها الآخر ، والكاتب العظيم قد يخرق جميع القواعد ويبقى مع ذلك عظيماً .

محمود محمود

هل يمكنك مواجهة حقائق الحياة ؟

ترجمة حسين أحمد أمين

إن استعدادك وقدرتك على مواجهة حقائق الحياة لها أكبر الأثر فى سعادتك ونجاحك ، سواء فى وظيفتك أو فى حياتك العائلية .

والاختبار التالى سيبين لك درجة واقعيتك ، فاقرأ كل سؤال باهتمام وأجب عليه بعد تفكير « بنعم » أو « لا » .

١ — عندما تجد نفسك مجبراً على أداء عدة أشياء ، هل تبدأ بأصعبها ؟ .

٢ — هل تعتقد أن الرجال أذكى بكثير من النساء ؟ .

٣ — هل تفضل دفع الحساب فوراً على فتح حساب يدفع فيما بعد ؟ .

٤ — هل تعتقد أن الناس جميعاً ذوو ضمير ؟ .

٥ — هل تعيد عدّ نقودك عند تسلم ماهيتك وعند سحب مبلغ من البنك وعند شراء حاجاتك ؟ .

٦ — هل تعتقد أنك إذا عشت من جديد فترة من حياتك أن تصرفك فيها سيكون أحسن من تصرفك السابق ؟

٧ — هل تعامل الناس على أنهم أمناء شرفاء جديرون بالثقة ؟ .

٨ — هل تشترى بعض الأشياء أحياناً بناء على نزوة عابرة ؟ .

٩ — هل تعتقد أن الحب الذى يدوم طويلاً مصدره الصداقة لا الجمال ؟ .

١٠ — هل تظن أن صوتك فى الانتخابات المحلية والعامة غير مجد ؟ .

١١ — هل تعتقد أن الخبرة فى الحياة أهم وأصدق من التعليم ؟ .

١٢ — هل تظن أن سلوك الناس منبعه المنطق أكثر من العاطفة ؟ .

١٣ — فى حالة الطوارئ كما إذا اشتعلت النار فى منزلك أو أصابك المرض ، هل تعرف أى رقم تطلبه فى التليفون ؟ .

١٤ — هل تعتقد أن الرجل يجب أن يكبر زوجته بثلاثة أعوام أو أكثر ؟ .

١٥ — هل تعتقد أن دافع الناس فى سلوكهم هو الأنانية المحضة ؟ .

١٦ — هل تعتقد أن بالإمكان تجنب الحرب ؟ .

١٧ — هل تعتقد أن الاقتصاد فى النفقات يؤدى إلى التوفير المنتظم ؟ .

١٨ — هل تظن أن الحب والعاطفة يبقيان كما هما حتى ولو صدر عن الطرف الآخر الإغضاء والإهمال ؟ .

١٩ — هل تعتقد فى معظم حوادث الشجار والخلاف أن الخطأ صادر من الطرفين ؟ .

٢٠ — هل تهرب دائماً من المواقف الحرجة والظروف الكئيبة ؟ .

* * *

الجواب الصحيح عن السؤال ذى الرقم الفردى هو نعم ، والجواب الصحيح عن السؤال ذى الرقم الزوجى هو لا ، لا أظن أنه من الممكن أن يجيب شخص عن كل الأسئلة بالإجابة الصحيحة .. فإذا كنت مصيباً فى كل الأجوبة فأنت واقعى إلى حد البرود والقسوة ، وأعتقد أنك لا تطيق الأشخاص العاطفيين .

إذا أجبت على ١٦ أو ١٨ سؤالاً بالإجابة الصحيحة فأنت واقعى ... فإذا أجبت على ١٣ أو ١٤ سؤالاً بالإجابة الصحيحة فأنت متوسط . ولكنك إذا أجبت على ١١ سؤالاً أو أقل بالإجابة الصحيحة فربما كان حكمك بوجهه هواك وعاطفتك ، وستصادف المتاعب فى اتصالك بالناس وحل المشاكل .

حسين أحمد أمين

حلم أفلاطون

أقصوصة لفولتير

كان « أفلاطون » كثير الأحلام ! ولكنه لم ينفرد وحده بتلك الميزة ، فسائر الناس يحلمون .

وقد رأى أفلاطون يوماً أن الطبيعة الإنسانية فى العصور الخوالى كانت مزدوجة . فلما طغى الإنسان وأذنب ، نزل عليه عقاب الآلهة فجعل منه الذكر والأنثى .

وبرهن على أنه لا يوجد إلا خمسة كواكب وصل فيها الكمال إلى منتهاه ، لأنه — رياضياً — لا يوجد إلا خمسة أشكال كاملة .

وليست « جمهوريته » إلا حلماً من أحلامه الكبرى .

وقد رأى أيضاً أن النوم ينشأ عن السهر ، وأن السهر ينشأ من النوم ، وأن الإنسان لابد فاقد بصره إذا تأمل الخسوف فى غير حوض مملوء بالماء .

لقد كانت الأحلام يومئذ تضفى على صاحبها صيتاً وشهرة !..

وهاك أحد أحلامه ، وليس بأقلها تشويقاً وطرافة :

رأى ، فيما يرى النائم ، أن الإله « دِ مْيورْجُس » العظيم ، المهندس الخالد ، خلق الكواكب وثبتها فى الفضاء اللانهائى ؛ ثم أراد أن يمتحن أتباعه من الجن الذين شاهدوا أعماله ، فأعطى لكل منهم قطعة صغيرة من المادة وكلفه بتنسيقها وتنظيم أطرافها ، وكأنه « فِيدْيَاس » أو « زُوكْسِيس » ، المثالان الشهيران ، إذ يكلفان تلاميذهما صنع التماثيل واللوحات ؛ هذا إذا استطعنا أن نشبه جلائل الأمور بصغائرها .

وكانت قطرة الوحل التى تدعى بالأرض من نصيب الجنى « دِ مُجُرْجُن » . فلما سواها على الوجه الذى نراه اليوم ، ادعى أنه صنع آية فنية لا مثيل لها ، واعتقد أن أسلحة الغيرة لن تجد إليه من سبيل ، فانتظر الثناء والمديح حتى من زملائه صناع الكواكب الأخرى . فإذا هم يقابلونه بالنقد اللاذع والاستهزاء ، وهو حائر لا يدرى سر حملتهم عليه .

قال له أحدهم ، وكان ظريفاً لاذع السخرية :

— حقاً ، لقد قمت بعملك خير قيام : شطرت كوكبك شطرين ، وفصلت بينهما بمحيط واسع كى تتعذر بينهما سبل الاتصال . لذلك سوف يموت الناس برداً فوق القطبين ، ويهلكون من شدة الحر فوق خط الاستواء .

« ثم إنك كنت حذراً حكيماً فى تدبيرك ، فبسطت الصحارى الرملية الواسعة هنا وهناك ليهلك فيها المارة جوعاً وعطشاً .

« إنى لجد معجب بِدَواجِنِك وخرافك وأبقارك ؛ ولكنى ، إن أردت الصراحة ، لا أستسيغ ثعابينك وحشراتك . ثم لا أنكر ما لِبَصَلِكَ وخضراواتك من قيمة ، ولكنى لا أرى فى شِرْكِ النباتات السامة فوق سطح الأرض إلا أنك أردت موت سكانها . وأنت من جانب آخر قد منحت من أنواع القردة ثلاثين نوعاً ، ومن أنواع الكلاب ما يفوق هذا العدد ؛ أما بنو الإنسان فلم تُصَنِّف منهم إلا أربعة أجناس أو خمسة . حقيقة أنك منحت ذلك الحيوان الأخير شيئاً تُسميه بالمنطق ، ولكنه فى الواقع منطق جد مضحك ، بل هو منطق يقترب كثيراً من الجنون . ويبدو لى أنك لا تعير تلك الدابة الإنسانية شيئاً من الأهمية ؛ إذ سلطت عليها عدداً عديداً من الأعداء ،

ولم تهبها من وسائل الدفاع إلا القليل ؟ ووقفت عليها الأمراض الكثيرة ، ولم تعطها من الدواء إلا النزر اليسير ؟ وبثثت فيها كل تلك العواطف المتأججة ، ولم تلهمها من الحكمة إلا الضئيل . وأنت ، فيما يبدو لى ، لا تبغى لها بقاء على ظهر البسيطة . فإننا إذا طرحنا جانباً ما نسجت حولها من مهالك وأخطار رأينا أنك أحكمت التدبير والتنسيق ، فجعلت من الأرض مجالاً للأوبئة الفتاكة التى تودى بحياة السكان كل سنة وتنغص العيش على تسعة الأعشار الباقية ، ولم تكتف بذلك ، بل زدت عليه أن جعلت نصف الناجين لا يشغلهم شاغل إلا المحاكم والقضايا ، بينما النصف الثانى فى شقاق وقتال دائمين .

« ولسوف يدينون لك حقاً بالكثير ! ولقد صنعت ، ولا شك ، آية فنية لا تضارع ! .. » .

فاحمرت وجنتا ديمورجن ، وأحس أن فى عمله نقصاً مادياً ونقصاً معنوياً . ولكنه أصر على أن الخير فى كوكبه يفوق الشر بمراحل ، فقال :

— من السهل الميسور أن تنتقد كل عمل . ولكن هل تعتقدون حقاً أنه من السهل الميسور كذلك أن تصنع حيواناً حكيماً لا يخرج عن حدود الحكمة ، وحراً لا يبتذل حريته ؟ وهل تتخيلون أنه يمكننا ، وعلينا استنبات آلاف الأشجار ، أن نمنع نمو بعض الحشائش الطفيلية السامة ؟ ثم هل ترون أنه فى استطاعتنا ، ولدينا كمية محدودة من الماء والرمل والطين والنار ، أن لا نمدد الصحارى أو نبسط البحار ؟ .

« لقد فرغت أنت ، سيدى الفيلسوف الساخر ، من تنسيق كوكب المريخ . فلننظر كيف تمت بمهمتك ، وكيف سويت الشريطين الطويلين ، ثم كيف نظمت لياليك التى يختفى فيها القمر ، ولننظر إذا لم يكن من بين من خلقت حمقى ومجانين ومرضى » .

وتأمل الجن أحوال كوكب المريخ فوقعوا على الساخر المتظرف باللوم والتقريع . ولم ينج صاحب زحل الحكيم كذلك من مراجعتهم . أما إخوانه ، أرباب المشترى وعطارد والزهرة ، فقد عانوا نقداً مريراً .

وراح كل جنى يؤلف الكتب الضخمة والرسائل فى نقد تلك الكواكب ، وتفرق الجن شيعاً يسخرون من بعضهم ، وينظمون قصائد الهجاء ، ويشددون بعيوب منافسيهم .

واشتد النزاع ، وعلى مرجل الفتنة ! وأخيراً قام إليهم الإله ديمورجس الخالد ، فأسكتهم جميعاً ثم خطب فيهم قائلاً :

« لقد صنعتم ، فيما صنعتم ، خيراً وشراً ، لأنكم جميعاً لم تبلغوا درجة الكمال برغم ذكائكم العظيم . ولسوف تدوم أعمالكم بضع مئات الآلاف من السنين فقط . وإذا ما انقضى أجلها ، فسوف تصنعون خيراً منها ، إذ تكونون على حظ أوفر من التجربة . ولكن ليس لغيرى أن يصنع أشياء كاملة خالدة ، فتلك مقصورة علىّ وحدى » .

* * *

هذا هو ما كان يلقيه أفلاطون على أتباعه .

فلما انتهى من حديثه قال له أحدهم :

« ثم استيقظت من نومك ! .. » .

تلخيص

محمد عبد الحليم محمود

٢ - رسائل الآباء إلى الأبناء

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

قلنا إن المرحوم أحمد حافظ عوض أرسل نصائحه الأبوية إلى ولده المغترب فى بيروت طلباً للعلم ، كما استحضر أحمد أمين بك فى ذهنه ولده المغترب فى انجلترة طلباً للعلم ليزوده برسائل الوالد إلى الولد ؛ وهذه النصائح إلى الابن الغريب تذكرنا بتلك النصيحة التى أرسلها الشاعر الأديب ابن سعيد إلى ولده « على » الرحالة المؤرخ الأندلسى المشهور ...

وإذا كنا نعرف أحمد حافظ عوض ، وأحمد أمين ، لأنهما من أعلام زماننا هذا ، فلا بأس أن نقف وقفة قصيرة مع « على بن سعيد » الذى كان من علماء الأندلس فى القرن السابع الهجرى ، وقد رحل عنها إلى الشرق ، وجاء هنا إلى مصر وأقام بالقاهرة ، وهو الرحالة الذى برم بالقاهرة برماً شديداً ، وضاق بمصر وأهلها فى العصر المملوكى الأول ، ولاحظ التواء دروبها وكثرة الغبار بها مما يكرب النفس ، ويزهق الحس ، حتى قال فيها هذين البيتين :

يقولون سافر إلى القاهره
ومالى بها راحة ظاهره
زحام وضيق وكرب وما
تثير بها أرجل سائره ...

إلا أنه مع ذلك قد سجل بعض محاسن القاهرة ، كبركة الفيل التى يقول فيها :

أنظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت
بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هى والأبصار ترمقها
كواكب قد أداروها على القمر

أما أبوه موسى بن سعيد فكان ممن رحلوا إلى الشرق أيضاً ، وكان شاعراً أديباً كبيراً ، فلما أراد ولده « على » النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة كتب له أبوه وصية شعرية ، ثم أردفها برسالة نثرية تعد من أبلغ ما كتب الآباء إلى الأبناء ، وفى النصيحة الشعرية من حنان الأبوة وإشفاقها ما تعبر عنه هذه الأبيات :

أودعك الرحمن فى غربتك
مرتقباً رحماه فى أوبتك
وما اختيارى كان طوع النوى
لكننى أجرى على بغيتك
فلا تطل حبل النوى إننى
والله أشتاق إلى طلعتك
من كان مفتوناً بأبنائه
فإننى أمعنت فى فتنتك
فاختصر التوديع أخذاً فما
لى ناظر يقوى على فرقتك

وفيها من تقدير النصيحة وكونها خلاصة التجارب ما تعبر عنه الأبيات :

واجعل وصاتى نصب عين ولا
تبرح مدى الأيام من فكرتك
خلاصة العمر التى حنكت
فى ساعة زفتت إلى فطنتك
فللتجارب أمور إذا
طالعتها تشحذ من غفلتك
فلا تنم عن وعيها ساعة
فإنها عون إلى يقظتك

وفيها من آداب السلوك وقواعد السير فى الحياة ومخالطة الجماعات ما تدل عليه هذه الأبيات :

وانطق بحيث العى مستقبح
واصمت بحيث الخير فى سكتتك

ولا تكن تحقر ذا رتبة فإنه أنفع في غربتك
والرزايا وثبة ما لها إلا الذي تذخر من عدتك
ولا تقل : أشكر لي وحدتي
فقد تعادى الذل في وحدتك
والزم الأحوال وزناً ، ولا
ترجع إلى ما قام في شهوتك ...

ولم يكتف الوالد الشاعر بقصيدة من شعره تربو على الأربعين بيتاً ، بل التجأ في وصاته الحكيمة إلى أقوال من الشعراء الآخرين لعلها تخف على الحفظ وتعلق بالقلب ... فيستعير قول الشاعر الأول :

يزين الغريب إذا ما اغترب ثلاث فمنهن حسن الأدب
وثانية حسن أخلاقه وثالثة إجتناب الريب

ثم يقترض قول الشاعر الآخر :

يعد رفيع القوم من كان عاقلاً
وإن لم يكن في قومه بحسيب
إذا حل أرضاً عاش فيها بعقله
وما عاقل في بلدة بغريب

ثم يقترض هذا البيت الذي يعده يتيمة الدهر ، وسلم الكرم والصبر :

ولو أن أوطان الديار تنبت بكم لسكنتم الأخلاق والآدابا

ثم ينتقل به بعد ذلك إلى نصائح من النثر أودعها حكمته وتجربته ، فينصحه بتجنب الساخطين دائماً ، المتبرمين دائماً ، الذين أحالهم الضعف والعجز إلى الوقوع في الناس قائلاً :

« ولا يفسد خاطرك من جعل يذم الزمان وأهله ، ويقول : ما بقي في الدنيا كريم ولا فاضل ، ولا مكان يرتاح فيه ، فإن الذين تراهم على هذه الصفة أكثر ما يكونون ممن صحبه الحرمان ، واستحقت طلعته الهوان ، وأبرموا على الناس بالسؤال فمقتوهم ، وعجزوا عن طلب الأمور من وجوهها ، فاستراحوا إلى الوقوع في الناس وإقامة الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم ، وتعذر أمورهم ... »

على أننا لو عدنا القهقرى إلى العصر الجاهلي لوجدنا نصائح الآباء إلى الأبناء لم يخل منها شعرهم ، فهذا خطيبهم وحكيمهم « ذو الأصبع العدواني » تحركه الوفاة ، فلا يدع ساعة الاحتضار تمر من غير أن يوجه إلى ابنه « أسيد »

نصيحة تعد دستوراً موجزاً للنجاح في الحياة ، والسيادة فيها ، فيقول بعد كلام : « ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك » .

فإذا أقبلنا على عصر صدر الإسلام وجدنا أجلاء الصحابة رضي الله عنهم يكتبون إلى أبنائهم ناصحين ، فهذا الخليفة عمر بن الخطاب يخرج ابنه عبد الله في غيبة يغيبها ، وغربة سفرة يغتربها ، فيكتب إليه : « أما بعد : فإن من اتقى الله وقاه ، ومن اتكل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى عمارة قلبك ، وجلاء بصرك ، فإنه لا عمل لمن لا نية له ، ولا خير لمن لا خشية له ، ولا جديد لمن لا خلق له » .

وهذا الخليفة الرابع الإمام علي بن أبي طالب يكتب إلى ولده الحسن عليهما السلام رسالة نصحية ، فيها روح الإمام وزهده في الدنيا ، ورغبته فيما عند الله وخشيته منه ! يقول فيها : « واحفظ وصيتي ولا تذهب عنك صفحاً ، فلا خير في علم لا ينفع » ، وهو هنا كشكل والد ناصح يأمر ولده بحفظ الوصية ، كما صنع « ابن سعيد » في قوله :

واجعل وصاتي نصب عينيك ولا
تبرح مدى الأيام من فكرتك

ثم يقول له بعد ذلك : « فبع دنياك بآخرتك ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، ودع القول فيما لا تعرف ، والأمر فيما لا تكلف ، ... وخض الغمرات للحق ، ولا تأخذك في الله لومة لائم » .

ثم نراه — عليه السلام — لا يخص واحداً من أبنائه بوصية ، فيكتب إلى ابنه محمد بن الحنفية رسالة حكمية يضع له فيها من دساتير الأخلاق ما يرتفع بالنفوس إلى أعلى القامات ، فيقول له مثلاً : « وأمسك عليك لسانك ، فإن تلافيك ما فرط من صمتك أيسر عليك من إدراك ما فات من منطقك ، واحفظ ما في الوعاء بشد الوكاء ، وحسن التدبير مع الاقتصاد أبقى لك من الكثير مع الفساد ، والحرفة — أي الضيق — مع العفة خير من الغنى مع الفجور » .

• • •

فإذا أقبلنا على العصر الأموي رأينا اثنين من رجاله ينصحان ابنيهما نصائح لم يضيعها تاريخ الأدب ولم يغفلها

مؤرخوه . فهذا « خالد بن صفوان بن عبد الله المنقرى » ، وكان جليساً لعمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ، ينصح ابنه بأقوال منها : « كن أحسن ما تكون فى الظاهر حالاً ، أقل ما تكون فى الباطن مآلا ، ودع من أعمال السر ما لا يصلح لك فى العلانيـة » . وهو هنا فى هذه الحكمة الأخيرة يوصيه بأن يجعل ضميره رقيباً عليـه فى خلوته ، وسلطاناً عليـه فى وحدته . فيستحى أن يصنع فى السر ما يخشى منه العلانية ، وتلك أسمى أنواع الرقابة الخلقية . كما كان شاعرنا الغزل العفيف يستحى حبيبته فى غيبتها ، فلا يلوث حبه لها بحب آخر ، كأن رقيباً منها يراقبه من وراء الغيب :

وإنى لأستحييك حتى كأننى على بظهر الغيب منك رقيب

وهـذا « المهلب بن أبى صفرة » ، وهو من هو فى قتال الخوارج ، يكتب إلى أبنائه رسالة فى النصح يقول فيها : « يا بنى ! تباذلوا تحابوا ، وإن بنى الأم يختلفون فكيف بنو العلات ؟ إن البر ينسأ فى الأجل ، ويزيد فى العدد ، وإن القطيعة تورث القلة ، وتعقب النار بعد الذل ، واتقوا زلة اللسان ، فإن الرجل تزل رجله فينتعش ، ويزل لسانه فيهلك » . وهذه الحكمة الأخيرة هى نثر للبيت الشعرى المعروف :

يمـوت الفتى من عثرة بلسـانه
وليس يموت المرء من عثرة الرجـل

* * *

فإذا أقبلنا على العصر العباسى رأينا « عبد الملك ابن صالح بن على بن عبد الله بن عباس » ، وهو من العباسيين فى مقام القيادة والسيادة ، ينصح ابنه فى رسالة أبوية جليلة يقول فيها : « احلم ! فإن من حلم ساد ، ومن تفهم ازداد ، والق أهل الخير ! فإن لقاءهم عمارة للقلوب ، والصبر على المكروه يعصم القلب ، والمزاح يورث الضغائن ، وحسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الإسراف ، والاقتصاد يثمر القليل ، والإسراف يبير الكثير .. والعفة مع الحرفة خير من الغنى مع الفجور » ...

ونلاحظ هنا أن الحكمة الأخيرة فى هـذا النص قد جاءت بألفاظها فى رسالة الإمام على بن أبى طالب إلى ولده محمد بن الحنفية عليهما السلام .

* * *

وإذا كان الأستاذ أحمد أمين قد أشار فى كلمة من مقدمة كتابه إلى نصيحة « لقمان » لابنه التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم ، فإن نص هذه الرسالة الأبوية الحكيمة قد ذكرته كتب الأدب والأخبار بطرق مختلفة . على أن بين أيدينا نصاً لهذه الرسالة ذكره صاحب « العقد الفريد » وهى على وجازتها تثير فى النفس أسئلة كثيرة عن شخصية لقمان ولغة رسالته ، أكانت العربية أم كانت أختاً من أخواتها السامية ، وعن كيفية وصول هـذه الرسالة إلى الأدب العربى .

وأغلب ما قرأناه من رسائل الآباء إلى الأبناء فى الأدب العربى مكتوب بلغة النثر العالية التى قصد كاتبوها إلى التأنق فيها ، وكانت تتبع روح كل عصر وطريقته فى الكتابة ، فلم تخل من سجع فى عصور السجع ، ولم تخل من ترسل فى عصر الترسل ، كرسائل الأحمدين : أحمد حافظ عوض ، وأحمد أمين . أما النصائح الأبوية الشعرية فلعل وصية « ابن سعيد » لولده « على » لم تكن ، أو لم يقدر لها أن تكون ، وحيدة فى الأدب العربى ؛ فإن وصية « عبد الله فكرى باشا » الشعرية أولى أن يشار إليها فى هـذا المقام ، وهى تلك الوصية التى يقول منها الوالد الشاعر لولده :

إذا نام غر فى دجى الليل فاسهر
وقم للمعـالى والعـوالى وشمر
وخل أحاديث الأمانى ، فإنهـا
عـلالة نفس العـاجز المتحير

وتزيد أبياتها على العشرين بيتاً .

* * *

وبعد ، فهذه خطرات ومذاكرات ومراجعات أثارتها فى نفسى قراءة كتاب « إلى ولدى » للدكتور أحمد بك أمين ، جعـل الله من أولاده جميعاً قرة عين له ، وأمتع الأدب دائماً بإنتاجه الخصيب .

محمد عبد الغنى حسن

مقومات الشعر الانجليزى الحديث

— ٤ —

للدكتور رشاد رشدى

العودة إلى حياة الروح :

كان من الطبيعى أن يحاول الشعراء إيجاد مخرج من هذه الآلية التى اصطبغت بها الحياة الحديثة ، ولما كانت حياة الآلة لا تعدو فى الواقع أن تكون حياة المادة ، نرى الشعراء الانجليز فى العصر الحديث يدعون إلى حياة الروح ، إلى العودة إلى الإيمان الذى فقدته أوربا الحديثة بعد أن اتضح أن الآلة أو المادة لم تجلب إلا الجمود والشقاء ، وبعد أن كانت الآلة إلهاً يقدسه عصر بأكمله من الناس والكتاب ، ويعرضون فى هذا الدين الجديد عن الحياة الروحية ، نجدهم الآن يعودون إلى حياة الروح ، كأنها المخرج الوحيد من حياة المادة ، لذلك نرى جنباً إلى جنب مع الثورة على حياة الآلة ، نزوعاً قوياً إلى الدين يبلغ أحياناً حد التصوف ! فيسعى الشاعر إلى إيجاد قيم روحية للحياة أو بعث القيم الروحية القديمة التى تنطوى عليها الأديان .

وقد نجد النزعتين معاً فى وقت واحد فى قصيدة واحدة كما فى قصيدة الشاعر (توماس ستيرن إليوت) المسماة : (الرجال الجوف) ، إذ بعد أن يعرض فيها لتفاهة الحياة الحديثة وجدبها وآليتها ، يختم قصيدته بصلاة للخالق يقول فيها :

بين الفكرة والحقيقة
وبين العزم والفعل
يقوم الظل —
لأن الملك يا إلهى ملكك —
وبين التصميم والخلق
وبين العاطفة — فى القلب
وصداها فى القلب الآخر
يقوم الظل
لأن الحياة طويلة الغاية
وبين الرغبة وبلوغها
وبين القدرة والخلق
وبين الروح والجسم
يقوم الظل
لأن الملك يا إلهى ملكك .

• • •

والالتجاء إلى الخالق بين شعراء هذا العصر أمر شائع مألوف ، إذ يرون فيه إذكاء الحس وقوة الروح ، لتساعدها فى عراكها مع المادة وتعينها فى التغلب عليها ، وكثيراً ما يذكر الشاعر الله وما يدين له به شاكراً ممتناً ، كما يفعل الشاعر المعاصر لوى ما كينس فى قصيدته قصيرة بعنوان : (الدائن)

إذ يقول :

الهدوء الذى يأتى مع نسمات الصيف الرقيقة
لن يشبع دينى نحو الله
لأنى أرى أصبعه فى كل ما حولى .
قد ينبه الحس منى حيناً بالسكينة
وحيناً بالجلبة وأحياناً بالأحلام
وأحياناً بالأوهام —
حتى يبتعد الله عنى ويغلق الباب .
ولكنى الآن أجلس إلى جانب النار
فى وهجها الدافئ المسترسل —
فما أجمل الإحساس بالسلام والسكينة
ولكن حتى هذا لا يمكن أن يشبع
ما أدين به لله
لأن روحه تنتشر فى كل ما أراه —
فوقى وتحتى وجانبى وفى كل مكان
اليوم وأمس وغداً وفى كل زمان

• • •

ويغوى هذه الرغبة أو النزعة الدينية إدراك الكاتب لحقيقة الدائمة . وهى أن المدنية الصناعية الحديثة رغم ما جلبت من خير مادى للإنسان ومعرفة وعلم ، فهى قد أبعدت بينه وبين كنه الحياة ، وأبهمت معناها ، وطمست إدراكه الروحى ، خلقته أشق مما كان قبل عيشها ، فهى لم تزد حكمته ولم توسع مدى إنسانيته ، بل شغلته عن نفسه ؛ فأضاع الحياة فى العيش ، وأضاع العلم فى كل ما جمع من شتى المعارف ، واتسعت الشقة بينه وبين الخالق ، كما يقول الشاعر (توماس ستيرن إليوت) فى قصيدة نقتبس منها الأبيات التالية :

النسر يحلق فى أجواز الفضاء،
والصياد مع كلابه يتبع فريسته
آه لحركة النجوم التى لا تقف
آه لتتابع الفصول الذى لا يخطئ
وآه لدنيا الربيع والخريف
والميلاد والموت
لحياة الفكرة والفعل
مبتكرات لا حدّ لها وتجارب تلو تجارب
وكل هذا يجلو لنا العلم بالحركة ولكن لا بالسكون
والعلم بالكلام ولكن لا بالصمت
والعلم بالكلمات ولكن الجهل بالكلمة المقدّسة .
كل علمنا يقربنا من جهلنا
وكل جهلنا يقربنا من الموت
من الموت يقربنا لا من الله
فأين الحياة التى فقدناها فى معيشتنا
وأين الحكمة التى فقدناها فى علمنا
وأين العلم الذى فقدناه فى معرفتنا ؟
عشرون قرناً من الحركة الدائمة
تبعدنا عن الله وتقربنا من التراب .

• • •

وفى أغلب الأحيان تجد هذه النزعة الدينية تتخذ شكلاً رمزياً قريب الشبه بالتصوف فلا يذكر اسم الخالق ، ولكن يوحى به ، ويعبر الشاعر أو الكاتب عن رغبته فى الاتصال الروحى بغيره من الكائنات ، أو بالكائن الأعظم ، وعن فرحته وانتشائه لهذه الصلة الروحية التى تربط بينه وبين الكون ، وهى فرحة صوفية كتلك التى نحسها فى القصيدة التالية للشاعر (دافيد هربرت لورنس) بعنوان (أغنية الرجل الذى أدرك المعنى) وفيها يصور غبطة قوية استولت على نفسه وأطبقت على فؤاده ، فهو يريد أن يستسلم لها ، بل وأن يهب لها نفسه ، لأنها ستصل بينه وبين الكائن الأعظم ؛ فيقول :

لا — لست أنا ، بل هى الريح التى تهب داخل
الريح الرقيقة التى توجه الزمان توجيها جديداً .
لو كنت فقط أدعها تحملنى وتنقلنى —
لو كانت تستطيع أن تنقلنى —
وأجمل من كل هذا . لو كنت أستسلم وأدعها تستعيرنى —
أدع الريح الرقيقة الجميلة تستعيرنى وتأخذنى ، معها فى تجوالها —
خلال عالم الفوضى هذا .
لو كنت فقط حاداً — صلباً — ولو حدتنى الريح
إذاً لانشق الصخر ولحدثت المعجزة .
آه للجمال الذى يطوى عليه صدرى ولكنه نفسى
أود لو أكون نبعاً صافياً — منهلاً رقراقاً
لا يسمع له صوت أو همس .
ما هذا الدق ؟
ما هذا الدق على الباب فى الليل ؟
من يريد بنا سوءاً ؟
لا . لا . إنهم الملائكة الثلاثة
افتح الباب لهم — افتح الباب .

• • •

على أن النزعة الحديثة إلى العودة لحياة الروح قد اتخذت خلاف المظهرين اللذين أشرت إليهما ، وهما الرجوع إلى الدين والتصوف ، مظهراً ثالثاً ، هو الإشادة صراحة بقيمة الروح ، وإعلان وجودها والإيمان بهذا الوجود إيماناً لا يقبل الشك كما يتبين فى القصيدة التالية للشاعر (جورج وليم رسّل) وعنوانها (الخلود) ، يؤكد الشاعر وجود الروح وأننا لن ننال الخلود إلا إذا أكتوينا بنيرانها ، فيقول :

يجب أن نتلاشى كالدخان أو نعيش فى نار الروح
لأننا لا نستطيع أكثر مما يستطيع الدخان العودة
إلى اللهب — أن نبقى
إذا تحولت أفكارنا إلى أحلام وإرادتنا إلى شهوة
بل نتلاشى كالدخان رغم أن النار قد تسترسل فى الاحتراق .

أضواء جمة عديدة تتألق فى سماء حياتنا
بينها الروح بكل تأكيد ومنها تستمد الخلود .
وفى نار الروح نحيا — وإلا فإننا نسلك
سبلاً مختلفة — عديدة — طويلة أو قصيرة
ولكنها جميعاً تؤدى إلى الفناء .

• • •

ولكن كيف نحتفظ بحياة الروح — أو كيف تتلف روح الإنسان إذاً ما دامت قد خلقت معه وما دام كيانها لا شك فيه ؟ القصيدة التالية للشاعر (توماس ستيرنز إليوت) تشرح لنا ما يصيب الروح من تلف فى أنظمة الحياة الآلية الحديثة وكيف أن الإنسان يقتلها بيده : —

من يد الخالق تنطلق الروح فى بساطتها
إلى عالم كله حركة وأضواء متغيرة .
من لون باهت إلى قاتم — ومن جاف
إلى رطب ، ومن بارد إلى دافئ —
تتحرك بين القاعد والناهض
تقف لحظة وتسقط أخرى —
تحتضن الدمى أو تقدم وجهها للتقبيل
تتقدم فى جرأة — وتخشى الخطر فى سرعة
فتتراجع إلى حيث الذراع الممدودة أو اليد المنبسطة
بها رغبة إلى الاطمئنان —
هائمة — جذلة لمرأى شجرة عيد الميلاد البراقة
تفرح بالريح — وبالشمس وبالبحر
تتأمل ما ترسمه أشعة الشمس على الأرض من صور
تخلط ما بين الحقيقة والخيال .
يسرها أن تلعب الورق وتتمثل نفسها ملكاً أو ملكة
وأن تستمع لما صنع الجن والحوارى ولما يروى الخدم
ولكنها تنمو — ومع نموها يثقل الحب الذى
تحمله — ويبدأ يضايقها ويحيرها
يوماً بعد يوم
وأسبوعاً بعد أسبوع
يضايقها ويحيرها
ما تتلقى من أوامر
وأن هذا لازم وذلك جائز
وما ترغب فيه وما يجب أن تمتنع عنه
وهكذا مع ألم العيش ومخدر الأحلام
تتضاءل الروح فى مقعدها
إلى جانب النافذة — خلف دائرة المعارف البريطانية
وهكذا تخرج الروح من يد الزمن
مضطربة — أنانية — مشوهة — عرجاء
لا تستطيع السير قدماً أو الرجوع إلى حيث كانت —
تخشى الحقيقة الدافئة والخير المنبسط
تنكر الحياة —
ظلاً لنفسها — وشبحاً من أشباح
الظلام الذى يخيم عليها
غير مخلفة وراءها إذا ذهبت
سوى بضع أوراق مبعثرة فى حجرة متربة

• • •

ولكن رغم تلف الروح وإمكان اختفائها فإن الشعر الحديث لا يؤمن بموتها ؛ فهى حية رغم أننا قد نقتلها بما نكبلها من أغلال ونحيط بها من قيود مادية تعمل على إضعافها ، ولكن نارها لا تخبو وكيانها لا ينطمس ، كما يتغنى الشاعر (وليم جمز زرز) فى قصيدة قصيرة بعنوان (فكرة) يقول فيها :

أليس غريباً أن يموت الرجال
قبل أن تموت أجسامهم ؟
وأن تختفى أرواح النساء من عيونهن ؟
غريب — ولكنه الواقع —
أين ذهبت — وماذا كانت
تلك الومضات التى صيغت من نور
أدق وأرق من ذلك الذى
يتراءى خلف الجسد الشفاف الناعم
أو العيون البراقة
إنها النار التى لا تموت
مهما أخمدت
فكيانها لا ينطمس
لأنها تعكس بريقها
كما تفعل الشمس على
القمر الميت البارد

(للبحث بقية)

مختار مشرف

من مطالعات الكتب

للأستاذ الدمرداش محمد بك

عثرت من عهد قريب وأنا أبحث في أكداس الكتب المحشودة حشداً بإحدى المكتبات على كتاب صغير عنوانه: «منظر أوربا العجيب، وملخص رحلات نجيب» لمؤلفه نجيب حسين الجندي — والكتاب مطبوع بالقاهرة سنة ١٩١١.

والذي لفت نظري في هذا الكتاب أمران: الأمر الأول أن مؤلفه من سكان القرى بالريف المصري؛ فقريته طنامل بمديرية الدقهلية — ولم يكن سكان الريف في ذلك العهد ممن يهتمون بالرحلة خارج القطر — والأمر الثاني أن المؤلف قام برحلاته هذه ولم تتجاوز سنه العشرين من عمره، وهذا أمر كان نادر الحصول بالنسبة لشباب ذلك الجيل. والذي زاد في إعجابي أيضاً أن المؤلف — كما يقول في مقدمة كتابه — لم يكن على قسط يذكر من الثقافة؛ فوفاة والده في سنة ١٨٩٧ اضطرته إلى الانقطاع عن المدرسة وهو لا يزال حدثاً، وإلى الإقامة في بلده طنامل لإدارة أملاكه.

ثم يقول المؤلف إنه لما كان بطبعه محباً للاطلاع خامرته فكرة السفر والرحلة لاستكمال ما فاته من أسباب العلم والمعرفة، وكانت باكورة أسفاره الارتحال إلى الأستانة في سنة ١٩٠٤، ويتبين من مقدمة الكتاب أن الذي هداه إلى هذا الاختيار نزعة دينية في نفسه وأخرى جنسية، «فالأستانة العلية — كما يقول — دار الخلافة العظمى، ومقر عرش آل عثمان العظام، وعاصمة الممالك العثمانية التي من ضمنها مصر». ثم يشير المؤلف إلى نزعته الأخرى عندما يقول: «إنه ولد من أبوين وفد آباؤهما على مصر من بلاد الأناضول، وكانوا من الضباط الترك الذين اشتغلوا بالجيش المصري».

وقد رأى المؤلف بعد أن زار تركيا وأوربا أن يجمع مشاهداته في هذه البلاد في كتاب، وهو هذا الكتاب الذي نحن بصدده، وقد جعله هدية زهيدة لأبناء وطنه الأعزاء...

ومع أن المؤلف محدود الثقافة؛ فإن وصفه لمشاهداته وتصرفاته في دار الغربة يدل على فهم سليم، ودقة في التعبير، وخيال خصب.

يقول المؤلف في وصف سفره: ركبت الباخرة من ثغر الإسكندرية يوم أول أغسطس بعد توديع الآل والأصدقاء، ولما كانت تلك هي أولى رحلاتي إلى بلاد أجهلها ولا أعلم إلا القليل من عاداتها، وكانت سني لم تتجاوز العشرين؛ فما سرت قاصداً الباخرة حتى شعرت بضيق بالصدر ووحشة، وكأني كنت قادماً على شيء هائل كما يصوره الوهم لمن لم يسعده الحظ على اختراق البحار، وكانت نفسي تحدثني عن العدول عن السفر، ولكن وجود بعض الأقارب والأصدقاء بصحبتي جعلني أتشجع، ولا أظهر نفسي أمامهم بمظهر الخائف الوجل... فلما تحركت الباخرة وسارت باسم الله مجراها، وقفت أنظر إلى الإسكندرية التي كانت تغيب عن نظري قليلاً قليلاً حتى توارت عنا بعد أن اخترقنا البوغاز وابتعدنا عنها بضعة أميال، وعندها شعرت بالوحشة والغربة... وقضيت ليلتي وعيناي لم يساورهما النوم، بل ظلتا مفتوحتين إلى الصباح... وصعدت إلى ظهر الباخرة، واستلقيت على ذلك المقعد المستطيل؛ فعرفني أحد الأروام من أصحاب الفنادق بالمنصورة، وجاء يحدثني وقد أذهب عني الوحشة... وصرت أنظر إلى ماء البحر الضارب إلى الزرقة وإلى السماء الصافية، والنسيم العليل، فعاودتني قوتي وصرت أتأمل في قوة الله جلّ وعلا خالق السموات والأرض، وكيف أوجد العالم، وجعل من الأرض يابسة وماء تسير فيه البواخر حاملة خلقه من بني الإنسان.

وبعد أن عرّجت به السفينة على ثغر بيريه باليونان، وثغر أزمير بالأناضول تصل به إلى مدخل الدردنيل، وكان وقت الفجر والركاب نيام... «فنهضنا وصعدنا إلى ظهر الباخرة ونظرنا إلى ذلك الضيق العجيب، الذي أكسبته الطبيعة منعة وقوة لأن طريقه متعرجة؛ فبينما تسير الباخرة في بحيرة تحيط بها الجبال من كل الجهات؛ إذ تظهر أمامك

فتحة يقوم على جانبها جبلان عاليان يكادان يلتطمان والحصون بأسفلهما، فتمر السفينة إلى مضيق، وهكذا من بحيرة إلى مضيق ومن مضيق إلى بحيرة .. وأخيراً دخلنا بحر مرمرة، وكانت تظهر أمامنا جبال الروملي وبعض هضاب آسيا حتى وصلنا إلى استفانو وصرنا بحذاء جزائر الأمراء، وظهرت لنا الآستانة بمظهرها البديع، وقد أكسبتها مساجدها القائمة فوق ربواتها العالية بمناراتها المتعددة، منظراً يكل عن وصفه الواصفون، والباخرة سائرة إلى أواسط المدينة؛ لأن مبانى المدينة الشاهقة كائنة على هضاب الأناضول والروملى، فتظهر كأنها ملتفة حول مرسى البواخر ... ثم نزلنا من الباخرة إلى رصيف الجمرك حيث مكثنا ما يزيد على ساعتين، قضينا أكثرها مع عمال الباسبورتات فى سؤال وجواب، حتى تضايقنا كثيراً، خصوصاً من تلك الأسئلة الثقيلة المختصة بكيفية حضورنا ... ثم أقلتنا عربة من الجمرك إلى الفندق الذى اختاره لنا صاحبنا الصايغ المصرى الذى تعرفنا به على ظهر السفينة ... ولما دخلنا الفندق وجدناه كثير الشبه بالفنادق الكائنة بالحى الحسينى بمصر، ولكنه يزيد عنها فى النظافة ويطابقها فى النظام حيث توجد فى أسفله قهوة عمومية يؤمها الناس من جميع الأجناس، وبالأعلى توجد الغرف المعدة للنوم كل غرفة بها ثلاثة أو أربعة من الأسرة، ولما قاصدين الصعود إلى غرفنا فلاحظنا وجود كثير من الأحذية بأسفل المدرج، وما كدنا نعلوه حتى أقبل خادم الفندق يشير إلينا بتغيير أحذيتنا بأخرى من الخشب (القباقيب) الموضوعة أسفل المدرج قبل صعودنا إلى الغرف فصدعنا لأمره، وخلعنا أحذيتنا ونحن نخشى ضياعها بين تلك الألوف من الأحذية الملقاة هناك ... فاشمأزت نفسى من حالة الفندق ونظامه لأنى لم أتعود النوم إلا فى غرفة خاصة بى، وعولت أن لا أقيم به إلا ريثما أجد الفندق المناسب ... وتذكرت أنى سمعت وأنا بمصر بوجود حى راق بالآستانة يدعى (بك أوغلى) ... وفى الصباح نزلت إلى الشارع واستفهمت من أول رجل صادفته عن الطريق الموصل إلى (بك أوغلى) فدلنى إليه ... ووصلنا إلى جسر (غلطه)، وعندما أردنا اجتياز الجسر، وجدنا بأوله بعض الحراس الذين يجبون من كل راجل يمر فوق الجسر عشر بارات، ومن كل عربة مائة بارة، ويستثنى من ذلك العرب الذين يلبسون أزياءهم العربية والعلماء وحفظة القرآن وتلامذة المدارس ورجال الجندية ... ثم وصلنا محطة (بك أوغلى) ومنها إلى حى بيرا، وسرنا هناك فى شوارع فخمة كل مبانيها من الطراز الأوربى، وبها الفنادق العظيمة والميادين الواسعة الجميلة ... ونزلنا بأحد الفنادق بحى بيرا وتعرفنا به بأحد العرب الذين قدموا من مكة منذ سنتين، واستوطنوا الآستانة هرباً من اضطهاد عون الرفيق باشا شريف مكة له، ويدعى الشيخ عبد القادر كردى.

وبعد الفندق استأجر المؤلف غرفة فى منزل بحى (شيشلى)، وكانت نوافذ غرفته تشرف على أجمل أحياء الآستانة، وعلى مياه البوسفور وجبال الأناضول، وبعد أن استقر بالمؤلف المقام وطابت له الحياة بمنزله الجديد، أخذ فى التفرج على معالم المدينة ومزاراتها ومساجدها ومتاحفها وقصورها وأسواقها وجزائر الأمراء والبوسفور، ووصف كل ذلك فى كتابه وصفاً شائقاً مسهباً.

وطالت إقامة المؤلف بالآستانة وتغلغل فى حياتها، وعرف الكثير عن حياة الناس بها، وزار بصحبة الشيخ كردى الباب العالى ودوائر المابين ورجالات العرب فى قصورهم واستمع إلى أحاديثهم وأخبارهم — يقول المؤلف: وأشار علىّ صاحبى الشيخ كردى بزيارة الشريف حسين (الملك حسين فيما بعد) فقصدنا منزله بحى (بيوك دره)، وهو كائن على ربوة عالية تحيط به حديقة أشجارها تلاوين فناناً مصرية ... واستقبلنا أنجاله الكرام بلطفهم المعهود، وجلسنا معهم بغرف السلاملك التى كانت مكتظة بالعرب والترك ... ثم دعينا إلى الغرف فوجدت بها موائد الطعام أشبه بما يوجد فى الأفراح والولائم المصرية وكانت كثيرة.

يقول المؤلف: ولاحظت أثناء مرورى بديوان الباقية (نظارة الأشغال) كثرة وجود المستخدمين بها الذين لم يكن لديهم عمل يعملونه، وقد أخبرنى أحد هؤلاء الموظفين بأن له عدة أشهر لم يقم بأداء عمل، بل يحضر فى الصباح ليقيم أمام منضدته التى يتركها عند انصراف الدواوين ولم تتحرك عليها يده بجرة قلم، ولما سألت عن السبب، قال إن المحسوبية وكثرة الانتساب إلى المقربين جعلت الدواوين أقرب إلى التكايا من نظارات الحكومة.

ثم اقرأ المؤلف وصفه لحفلة السلاملك (صلاة الجمعة)

(البقية على الصفحة التالية)

موكب الربيع

صاحبي .. موكب الربيع قد اختا
ل طروباً على الربى وتثنى
وتعرى الجمال يهتك أسرا
راً ، ويبدى من الفتون فنا
وصحت من رقادها بهجة الكو
ن تعانق الجبال رقة معنى
وشدا الطير للضياء يحيي
ه ، ويلقى على المزاهر لحنا
غازل الزهر في الصباح ، وولى
في الضحى باسماً يداعب غصنا
ورنا يسأل الأصيل .. لم اصفر
كمت من لاعج الشوق مضنى ؟؟

• • •

أتى الروض بالحسان ، وقدتهـ
ـن دلالاً في غدوة ورواح
خطرت على الأرائك يلثمـ
ـن مناهن في نسيم الصباح
قد وهبن الحنان ، والنظرة السكـ
ـرى ، وريق الصبا لزهر الأقاح
كم تفيض الخدود بالحسن .. منها
سال نور الحيـاة فوق البطاح
قد أذبن الورود لثماً ، فشعت
حمرة الورد في الشفاه الملاح
وسكبن الأنغـام تسرى مع الفجـ
ـر حنيناً على أكف الرياح

• • •

صـاحبي .. هاهو الربيع ، فهيا
نتملى بالرؤى .. بسحر الغوانى
إملأ الكأس ، واسقنى خمرة الحب
وناغ الجمال في كل آن
داعب الناى ، وابعث اللحن يشجى
بين تلك الخفاق صنع الزمان
واطرح الهم ضاحكاً ، وغنى
في ظلال الربيع أشهى الأمانى
لا تدع بهجة تمر من العمـ
ـر هباء .. في ظلمة الأحزان
عش مع اللهو ، والملذات ، واغنم
ساعة الفرح قبل فوت الأوان

محمد أحمد سالم

وكانت من أجمل حفلات الآستانة في ذلك العهد وأروعها فيقول : ثم ذهبت والشيخ كردى إلى دائرة الحلج على باشا كبير المابين ... حيث أوقفنا مع بعض السائحين قريباً من محل خروج السلطان ، وكانت الجند قد اصطفت على الجانبين من الباب الذى يخرج منه السلطان إلى المسجد . وكانت الجنود تحضر بموسيقاها وبأزيائها المختلفة مدججين بالأسلحة المختلفـة الأجناس ، ووقفت الفرسان بموسيقاها مصطفة جهة الميدان ومن خلفها عربات المتفرجين ... وكان الجند المحتشد في تلك الساحة يزيد على الثلاثين ألفاً ... ثم فتحت البوابة الكبرى لسراى يلدز ، وخرج منها السلطان في مركبته لابساً ملابس بيضاء ، وأمامه السر عسكر رضا باشا بملابسه الرسمية ، وحول المركبة الأمراء والوزراء ، وكبار رجال المابين يسيرون على الأقدام ... فنادى الجند دفعة واحدة بالسلام العسكرى (بادشاهمز چوق يشا) وبعدها سكت الجمع كأن على رءوسهم الطير ، فلم تكن تسمع إلا صوت المؤذن قائلاً : (الله أكبر) ... وعندما توسط الموكب الطريق نادى الجند بالسلام العسكرى مرة أخرى ، وكذلك عندما وصل السلطان باب المسجد ... فكان منظراً رهيباً يلقى الهيبة في القلوب ، وأى منظر أرهب من هذا : ثلاثون ألفاً من الجنود شاكى السلاح ينادون في نفس واحد بالسلام العسكرى ، حتى إن أصواتهم باجتماعها تشبه قصف الرعد ، والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة بملابسهم المزركشة ونياشينهم المرصعة ، يسيرون على الأقدام حول مركبة يجلس بها رجل نحيف الجسم ، شاحب الوجه ، مطرق الرأس ، ذو لحية كساها الشيب ، لا يلتفت يمنة أو يسرة إلا قليلاً ، وأمامه ناظر الحربية ، الرجل الممتلئ الجسم ، الكبير الرأس ، والغليظ الساعدين ، يضع يديه فوق بعضهما على صدره تأدباً وخشوعاً لمولاه ... وبعد انتهاء الصلاة عاد الموكب بالنظام السابق ، ثم عاد المؤلف إلى مصر في نهاية شهر سبتمبر من نفس السنة ليعاود رحلته إلى تركيا وأوربا في السنة التالية .

الدمرداش محمد

كتب قرأتها :

فى موكب الشمس

عرض ونقد

للأستاذ حبيب الزحلاوى

تعود بعض علماء التاريخ ، وأكثر كتاب الفلسفة ، عدم الانطلاق مع سجيتهم فى وداعة وبساطة عندما يخاطبون الناس ، إن فى الصحف أو فى كتبهم ومؤلفاتهم ، وألفنا سماع المؤرخين يسردون وقائع التاريخ سرداً رتيباً جافاً ، كما ألف كتاب الفلسفة الإبهام والغموض ظناً منهم أن لغة العلم إذا قربت من الوضوح والطلاوة جردت عن سمت العلم وجلال الفلسفة .

تمثلت صورة كتاب التاريخ والفلسفة فى هذا العصر ، فخلت حين وقعت على كتاب « فى موكب الشمس » ووقفت حيران أمام هذا الكتاب الضخم فى التاريخ القديم ، وصفحاته تناهز الألف صفحة من القطع الكبير ، أأهمله كما أهملت قراءة مؤلفات من نوعه ، أو أوثره باهتمامى كما أوثر مؤلفه بحبى وإعجابى ؟.

الدكتور أحمد بدوى مؤلف هذا الكتاب ، عالم متخصص فى التاريخ القديم ، إلا أنه مطبوع على حب الأدب ، ومناكفة الأدباء ، ومجادلتهم فى أدبهم ومناقشتهم فى فنهم ، وإن أحلى ما يحلو له الظهور عليهم بفصاحته ، ووافر حفظه للشعر القديم ، والحديث ، وطلاقة لسانه ، وجلده على المكايدة والمغايظة ، هل أقف من هذا الصديق الشاكس موقف الجاهل المتهيب ، أو أقرأ كتابه وأتوسل بأوهن خيوط العنكبوت لنقده ، ومحاسبته كما يحاسبنا هو وينشد النكير علينا بكرديناليته وطيلسانها تارة ، ولسانه الحديد وبسمته الأكثر حدة تارة أخرى ؟.

استشهدت أولاً . ثم حوقلت ، وبسملت ، وتوكلت ، وأخذت فى قراءة مقدمة الكتاب ، وهى لا تزيد عن ثلاثين صفحة ، فلم أعجب لهذا الإسهاب ، لأن كتاباً ضخماً كهذا يستأهل مقدمة ضخمة ، ثم تابعت القراءة ، ولكنى ما كدت أقطع ساعة من الزمان حتى رأيتنى مضطراً إلى العودة إلى الجزء الأول الذى كنت أهملته ، وما عتمت أن عدت إلى إتمام قراءة الجزء الثانى بكامل متونه وحواشيه .

ليست العبرة فى الليالى الطوال التى صرفتها مكباً على القراءة ، بل العبرة فى الجاذبية التى اجتذبنى المؤلف بها ، وفى التحايل البارع الذى تحايل به علىّ وفى طريقة العرض الأخاذة ، وفى البيان الفصيح ، والأسلوب الواضح العذب ، وفى الخروج على المألوف فى سرد أحداث التاريخ ، وفى التشويق أيضاً .

بهذه الخصائص التى لم أر لها ضريباً فى كتاب التاريخ ، قديمه وحديثه ، استطاع الدكتور أحمد بدوى أن يسقينى من خمرة التاريخ القديم فأنتشى مما كنت أتوهم أنه المسكر غير المستساغ ، وبهذه القدرة على الانطلاق مع سجية الرجل العالم الوديع البسيط ، استطاع أن يلقننى دروساً فى تاريخ من خلقوا التاريخ ، ويطلعنى على سير أسرات فيها النبى، صاحب الدعوة ، والملك المطلق يستمد سلطانه من نزواته وشطحاته ، ومن قوته واعتزازه بسطوته وجبروته ، وأخبار مفصلة للكهنة أصحاب السلطان الدينى ، ولكل ذى صفات بارزة فى خدمة الملك والدولة ، وفيها الجميل

الجامع ، والفصل الواضح للحروب المجوسية والدفاعية ، والحفلات التأديبية ، وإخماد الثورات وغير ذلك من ضروب الكفاح التي لا قيمة لحياة ملك بدونها ، وفيها أيضاً أوصاف بارعة للفنون الفرعونية الباقية على الزمن ، من مسلات وتماثيل وأنصاب ، وفيها تحديد لقبورهم ومحتوياتها من تعاويذ وزوارق وسرر ووسائد ونعال وأثاث وغذاء ، مهيأة لاستقبال العالم الآخر ، وفيها تقرير لموقف مصر من جيرانها في حوض البحر المتوسط ، وشروح وتفصيلات وبينة لمعتقدات بدأت طفلة مع تخيلات الإنسان البدائي وتوهماته ، وقد سايرته في تطوره الاجتماعي وتقدمه الفكري حتى أدرك الوحدانية ، لقد استطاع الدكتور أحمد بدوي بلباقته الأدبية ، وأسلوبه الشائق أولاً ، ثم بعلمه وأصالته في التاريخ المصري القديم ثانياً ، أن يقدم القارئ هذا الزاد الشهي ، وأن يغريه لا بتذوق هذا الغذاء الدسم ، بل بالتهامه التهاماً ، لأنه لا محيد لطالب المعرفة عن الاغتراف من زاد أجداد الإنسانية الأوائل ، وهذا لعمري ضرب من التشويق والتحبيب ، ووسيلة إلى تفتيح الذهن ، وتنبيه الوعي .

هي ذي كلمة حق أقولها في متون هذا الكتاب الذي كنت أقرأ فصوله وكأني أقرأ فصولاً من رواية من صميم الحياة ، محكمة الحبك ، مسلسلة الوقائع ، كثيرة المفاجآت والحوادث ، تنبض الحياة في كل إنسان يلعب دوره فيها .

•••

قلت في معرض الكلام من صديقي الدكتور أحمد بدوي إنه محب للمغالطة ، جلد على المكابدة وأقول الآن إني لم ألمح فيه رغم لجاجته في المكابدة — طبيعة الغضب كما لحتها ولمستها في كتابه هذا ، وكان بودي أن أنزهه عنها لأنها أبعد ما تكون عن طبيعة العلماء .

لقد غضب الدكتور بدوي في مواقف عدة من هذا الكتاب : من أجل فرية افتراها أحد علماء الآثار الغربيين على « أخناتون » إذ قال فيه « إنه كان يحب أخاه وإنه كان متورطاً معه في علاقة جنسية » .

ليس المستغرب في الدكتور بدوي أنه فند الفرية ، وذكر مصدرها ، وأقام الأدلة العلمية والفنية على أنها محض افتراء وتلفيق ، وأن المفترى ومن نقل الفرية عنه لم يلتفتوا جيداً إلى شخصية « اخناتون » المفترى عليه ، لا من حيث إنه ملك من ملوك مصر ، بل من حيث هو نبي ، وصاحب دعوة إلى الخروج على ديانات موروثة ، وصاحب دين جديد ، رفع مناره ونشر لواءه ، وكيف علم تلك الأمة التي ألفت الاصباع والاستكانة والتي صاغرة وراء ملوكها ، بأن الفراعنة ما هم إلا بشر ، وأن رب فرعون ورب كل بشر ليس هو الشمس ، ولا الحيوان ، ولا المخلوقات الأخرى التي عبدوها ، إنما ربهم ورب فرعون هو الواحد الأحد الذي لا شريك له .

وليس المستغرب من المؤلف أنه لم يكتف بدفع تلك الفرية بالدليل والبرهان ، وقد كانا قويين دامغين ، بل المستغرب هو اندفاعه مع الغضب ، وخروجه على آية الله بقوله وجادلهم بالتي هي أحسن ، ورواحه يرهف شفار الظبا ، ويتنضى سنان القلم ، ينقض بكيل الطعنات الداميات إلى عالم مصري مسكين ، يقول المؤلف عنه إنه « الأستاذ الكبير الدكتور سليم بك حسن » الذي نقل الفرية عن علماء الغرب المغرضين « ليقرأها الناس من أبناء هذا الوطن فيرون كيف كان ملوكهم يتورطون مع إخوتهم في أقبح عادة عرفها تاريخ الناس » .

لا شك أن الفرية شنيعة ، وأنه كان من الواجب على الدكتور سليم بك حسن أن يتنبه إلى غرض الغربيين من اختلاقها واللف حولها ، أما ولم يتنبه ونقلها في كتابه على علاتها ، فقد صار من حق الدكتور بدوي أن ينبهه وأن يرده إلى محجة الحق والصواب ، لا بالعصا والسنان ، بل بالإقناع والدليل .

إذا كان لوم الدكتور سليم بك حسن حقاً ، فكذلك من حقنا أن نعاتب الدكتور بدوي لسكوته عن العالم « ركس انجلباك » وهو أول من تندر بهذه الفرية ، الذي دعاه روح الدعابة إلى إثارة الشكوك في حياة « اخناتون » حينما رأى صوره المنقوشة في الحجر خارجة عن مألوف

ماعرف الناس من صور الفراعنة ، فتوهم فيه الشذوذ ، ولسكوته أيضا عن العالم الأثرى الأستاذ « نيوبرى » الذى راح يتلمس فى آثار عصر « اخناتون » مايمكن أن يبنى عليه رأى طريف فى شذوذ هذا الفرعون ، خصوصا عندما ينشر بحثاً فى هـذا الموضوع فى مجلة منتشرة بين علماء « الاجيبتولوجى » وكان الواجب أن لايسكت عن هذين العالمين . وأن يدحض أقوالهما بالحجة ، وأن يدفع الفرية بالبرهان ، وأن ينشر الدفع فى ذات المجلة التى نشرت الفرية ، وبذلك يكون الدكتور بدوى استأصل الداء واجتثه من أصوله وأطلع العلماء على الحقيقة ، أما إطلاق اللسان فى مؤرخ غير محقق إنما هو محض كلام تحول بحكم الغضب عن قصده وأصبح كلاما أقرب مايكون من لغة الصحافة ومتعلق التحزبين فى وقتنا الحاضر . اسمع مايقول الدكتور بدوى بالنص :

« أى والله ، كل ذلك قد ذكره أستاذنا المصرى الكبير سليم بك حسن ، ناسياً أو متناسياً تقاليد مصر الدينية والسياسية والاجتماعية . كيف فاته كل ذلك وهو القارىء الدارس المتعصب لوطنه وقوميته ، وهو كما أعرف من صميم الريف ومن أبناء الشعب الذين خلقهم ربهم من تراب هذا الوطن وصورهم من طينه ورواهم من ماء نيله » ، « هل نسى أستاذنا الجليل أنه يتحدث عن ملك » ثم يقول : « إنه يحزننى أن تشيع تلك الفرية فى كتب العلماء والمؤرخين ، ويحزننى أكثر من ذلك أن ينقلها ويسجلها قلم مصرى لتنشر على الملأ من أبناء مصر الذين يعيشون على تراث الفراعنة ، (كذا) وأن يكون فرعون وهو مليك الناس وإمامهم وخليفة الله على الأرض (كذا) صاحب هذا الإثم المنكر ... » .

أقف قليلا ، لا لأنقل نص ما قاله المؤلف قياً إلى زعماء الإصلاح من أنبياء وأصحاب رسالات سماوية منذ أقدم عصور التاريخ حتى عصرنا الحاضر من صنوف الاضطهاد والتعذيب والتشريد ، بالنسبة لما لقيه اخناتون النبى ، لأنى أريد أن أتخطى هـذا الفصل على عجل لأدفع المقارنة جيداً بين أصحاب رسالات صمدوا للاحداث حتى غلبوها ، ونشروا رسالتهم حتى انتصروا ، وبين اخناتون ذلك النبى المختلق « الذى أخذ يخفف من مظاهر التعصب لمذهبه ورده ، دفعاً لثورة الكهان ولأن دعوته لم تلق من النجاح ما كان ينتظر لها » — أقف لا لأسأل المؤلف بل لأتساءل : هل رمى الدكتور بدوى إلى جعل حديث فرية هذا الاخناتون كحديث الإفك ، أو أنه حملها أكثر مما تحمل بغية الافتداء (؟) والتفاصح فى دحضها كما دحض الله حديث الإفك بالآية الكريمة ؟

أفهم أن تلك الفرية الشنيعة تجرح كرامة الملك فى رجولته وتخض من شرفه ، ولكنى لا أفهم كيف ولماذا تجرح كرامة الوطن ، ثم ما هى العلاقة بين أفعال الملك الخاصة وبين « كرامة الوطن المصرى كله » ؟

كم فى قصور الملوك ، فى كل عصر ومصر ، فى الغرب وفى الشرق ، من شبهات واقترافات ذكر بعضها التاريخ بتفصيل ووضوح ، وغمغم البعض الآخر غمغمة أشعلت فضول القارىء وحفزت خياله إلى الوهم والتلفيق . فلم يغض ذلك من شرف الرعية ولم يجرح كرامة الوطن كله .

القصة مكذوبة لأنها قامت فى الأصل على التندر والدعابة ، وإن ما ينتج عن الباطل فهو باطل ، وذلك — ما دام التاريخ حديث الانسانية وقصتها فيجب علينا كما يقول المؤلف « أن نصور فيه الكذب ، والخداع ، والنفاق ، والمكر ، والرياء » ويقول أيضاً : « وبعد فإنه حرى أن يكون المؤرخ شديد الشك ، سيء الظن فى كل ما يتناول من قضايا التاريخ » بل إنى لأعهد للمؤرخ أن يقلب الشر إلى خير فى كثير من تلك الأخبار والقضايا » .

وإنى لأسأل صديقى الدكتور بدوى : هل هو يدعونا إلى أن نصور فى كتابه وهو من صميم التاريخ « الكذب والخداع والنفاق والمكر والرياء » ، وهل هو سالك سبيل قلب الوقائع الشريرة إلى خير لأن التاريخ هو « حديث الإنسانية وقصتها » ؟ .

حكاية أخرى رواها المؤلف عن علاقة الملكة حتشبسوت بخادمها ، وأن تلك العلاقة كانت مشوبة بالشبهات ،

وأن ذلك الخادم كان صنو الملكة وخليلها كما يقول المؤرخون، ولكن المؤلف — بدافع من التعصب في هذه المرة لا بدافع من الغضب — يحاول تسويغ العلاقة كما يحاول دحضها؛ فيقول مسوغاً: « إني لأعذرهم — أي المؤرخين — في ذلك لأن حتشبسوت وخادمها لم يخرجا عن كونهما رجلاً وامرأة، يجوز عليهما كل ما يجوز على كافة المخلوقات من ذكر وأنثى». ويقول داحضاً: «ولو أملك اليوم من الأدلة والشواهد ما يعين على تبرئة ساحة الملكة لما ترددت في ذلك»، «لأني أكره لحياة الملوك والحاكمين أن يصورها التاريخ على هذا النحو المريب الذي يربط حياة الحكومين ومصائرهم بالعلاقات الجنسية».

ثم حكاية ثالثة خلاصتها أن الحكومة المصرية كلفت المؤلف أن يسطر مذكرة بتاريخ العلاقة بين مصر والسودان بقصد الانتفاع بها في مجلس الأمن، وقد لبى المؤلف الطلب وقد انتفع الوفد الحكومي بتلك المذكرة، ثم عاد الدكتور فاعتذر في كتابه — خدمة للعلم وحرصاً على الصدق — مما سطره في تلك المذكرة التي توسل بها الحاكم في تأييد حق لمصر، وحجته في ذلك أنه لا يريد أن يثبت لمصر حق المستعمر في السودان !!.

ما أكثر ما في هذا الكتاب من معلومات ومفارقات تستوقف القارئ وتستدعي انتباهه. بل ما أكثر ما في صدر مؤلفه من معارف جمة، وأفكار مختمرة، وآراء صائبة تلمع تهافته على الإغداق في عطائها، والسخاء في منحها، والتعجل في بثها، وهكذا بينا هو يحدثنا في التاريخ وإذا به ينتقل بنا إلى موضوع حب الناس للحياة الدنيا وتعلقهم بها، وخوفهم من الآخرة فيقول:

«تلك حقيقة لا مفر منها، فالحياة خير من الموت، وهي على ما فيها من شر، خير ألف مرة ومرة من الموت. بل لا سبيل مطلقاً إلى المفاضلة بينهما، فنحن نعرف إلى شر الحياة خيرها أيضا، على حين لا ندري عما وراء الموت خيراً ولا شراً، ولكنه قضاء الطبيعة لا مرد له، وقد جعل الموت آخر كل حي».

ويقول ينشد في قدماء المصريين: « ... فأنا أشعر — وأجرى على الله — أن الله قد أحب ذلك الشعب وأكرمه، ولو كان قد كرهه إذاً لأنسى الناس ذكره ومحا من الأرض أثره، فذكره حي خالد، وآثاره من أوتاد هذه الأرض».

ويصف مصر محنة يماثل مصرنا الحالي فيقول: «وأصبحت الأمور في حال من الفوضى، أقل ما يقال فيها أنها جرت على البلاد ... جزاء ما قدم زعماؤها من أسباب الخلاف بين يدي الأيام، وهكذا منطق الزمان وقضاؤه في مصير الأمم حين يقع الخلاف بين زعمائها، وحينما تضطرب في نفوسهم شهوة الحكم فتعمي قلوبهم وأبصارهم عن الحق الواقع، وتصرفهم عن كل خير ...

وكذلك وصف مقارن بين « وحدة عربية » وجهود مصرية تحت أيام حكم الفراعنة بوحدة طوت مصر وفلسطين والشام وبلاد النهرين وأقاليم النوبة والسودان وواحات الصحراء الليبية تحت راية واحدة، وبين « جامعة الدول العربية » القائمة، وقد ختم الكلام عنها بقوله:

« وبعد فإني أرجو أن تكون « جامعة الدول العربية » قد شبعت من قراراتها وأسفارها، ومؤتمراتها وجلساتها، وحفلاتها وولائمها، وأن يكون زعماؤها قد اقتنعوا بأنهم مغرورون، وأنهم قد يكونون قد ملوا سياسة الكلام بعد أن ملتها الدنيا، وضحكت منها الأيام، وسخرت منها الحوادث، وأن تكون الجامعة قد عرفت قيمة شعوبها، وقدر نفسها، وفكرت في أن الأوان قد آن للتحفز إلى سياسة العمل المنتج، وأنها قد زعمت كثيراً، وتكلمت كثيراً، وأن القول إذا لم يتبعه العمل ذهب مع الريح ».

وبعد فهذا كتاب حافل، كما رأيت، بصنوف من التاريخ، والأدب، والسياسة، والاجتماع، يخاطب مؤلفه القراء تارة بأسلوب تقريري وتارة بأسلوب أدبي، ومرة بأسلوب الخطابة والوعظ، ومرة أخرى بأسلوب النقد واللمز، وهو في الحقيقة ليس كتاب تاريخ وحسب، بل هو كنانة غنية وسعت بعض علوم وفنون ضاق بها صدر المؤلف فدونها في الحواشي والتعليقات بوضوح وقوة وجمال.

حبيب الزحلاوي

الثقافة

العدد ٦٤٠ — ٢ من أبريل ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

صفحة

في الحرب والسلم

● ما الحرب إلا أعمال بربرية منظمة ، وهي من بقايا الهمجية مهما اختلفت مظاهرها وأشكالها .

(نابليون)

● عندما يركع الجنود لإطلاق النار في أثناء المعركة فإنهم يفعلون ذلك كما لو كانوا يطلبون المغفرة من الله قبل قتل أعدائهم .

(فولتير)

● الحرب عبء ثقيل وأكثر منه العبودية الصماء .

(فوفنارج)

● عند تجريد السيف تصمت القوانين .

(شيشرون)

● الحرب كلها شرور ومساوئ ، ومشاكل البشرية يمكن أن تحل حول مائدة غداء .

(فورد)

● السلم جوهرة ثمينة في نظري ، حتى لأود النزول عن أي شيء للحصول عليها ... اللهم ما عدا الحق .

(فردريك شيلر)

● الحروب توقظ الشعوب .

(لورد واتون)

● من يؤمن بالسلام فمثله الأعلى المحبة ، ومن يؤمن بالحرب فمثله الأعلى النضال .

(هويتمان)

● لا تقاس عظمة الدول اليوم بقدرتها على إشعال نيران الحرب ، بل بقدرتها على منع إشعالها .

(آن أوهار)

● إن تحقيق السلم بدون نزع السلاح خيال ، وتحقيق نزع السلاح بدون القضاء على الرأسمالية الاستعمارية أكثر خيالاً .

(آنشتين)

ترجمة

أمين محمود الصياد

مطبوعات

مجلات :

● رسالة المغرب ، رباط بمراكش .

● الأسبوع ، العدد ٢٤٥ السنة السادسة .

● البصائر ، مدينة الجزائر بالمغرب .

● مجلة شباب سيدنا محمد ، بالقاهرة .

● مجلة انجلترا اليوم Britain To day ، عدد مارس سنة ١٩٥١ .

● المؤتمر تصدر أسبوعياً بالفيوم .

● علاج النفس ، العدد الثامن ، مارس سنة ١٩٥١ .

نشرات :

● أنباء اليونسكو ، باللغة الإنجليزية ، عدد رقم ٤٠ .

● برامج الإذاعة العربية من محطة لندن ومحطة باريس .

● نداء إلى شعوب الشرق العربي من الأستاذ محمد الطويل (اللاذقية) بمناسبة الأحداث الجارية في مراكش .

● أنباء إسبانية ، عدد مارس سنة ١٩٥١ .

فهارس :

فهرس المكتبة الفلسفية « بنيويورك » أنباء الكتب الإنجليزية لشهر مارس — فهرس مكتبة شركة الكتاب الأمريكي بنيويورك — فهرس كتب « فابر » Faber لسنة ١٩٥١م .

(م . . .)

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك
رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك
الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٤٠ — الاثنين ٢٥ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠ — ٢ من أبريل سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

المفاوضـــــات

يحكى أن ملكاً من ملوك الأقدمين ، أعلن فى مملكته عن قصة ليس لها آخر ، وكل من تقدم بقصة وفرغت يضرب عنقه ، فتقدم كثيرون وضربت أعناقهم ، ثم تقدم رجل فحُذّر وأنذر ؛ فصمم بعد التحذير والإنذار ، وحكى وقال : كانت أهراء من القمح كثيرة مملوءة ، وقد فتحوا فى جانب من جوانبها كُوّةً لتجديد الهواء . ثم إن عصفوراً دخل من الكوة إلى داخل الأهراء ، وأخذ حبة وخرج ، ثم دخل العصفور وأخذ حبة وخرج ، ثم دخل العصفور وأخذ حبة وخرج ، وهكذا ظل يكرر هذه العبارة مئات من المرات حتى ملّ الملك وسئم من العبارة ؛ فقال القاص : وما ذنبي والقمح كثير والعصفور لا يأخذ إلا حبة واحدة كل مرة ، فدعني أقص عليك حتى يفرغ العصفور من أخذ الغلال ، وما زال يكرر هذه الجملة حتى ضج الملك من التكرار ، وآمن بأن القصة حقيقة لا تنتهي .

وهكذا شأن المفاوضات ، فهي أيضاً قصة لا تنتهي من عهد المفاوضات مع الفرنسيين إلى اليوم ، تتقدم خطوة وترجع خطوة ، وتبعث الأمل مرة ، وتبعث اليأس مرة أخرى ، ويعالجها وزير ثم تنتهي مدته ، فيعالجها وزير آخر ، ولا يعالجها إلا بعد أن يدرسها . وتتخذ شكل محادثات ثم تنقلب إلى مفاوضات ، وتكون مرة فى القاهرة ومرة فى أمريكا ومرة فى انجلترا ، ويحضر سفير مصر فى لندن ثم يعود ، ثم يحضر ثم يعود ، ولا ندرى فيم حضر ولا فيم عاد . ويجتمع معالى وزير الخارجية برجال الصحف ثم لا يقول شيئاً ، والزمن دائماً فى خدمة الإنجليز ؛ فقد كان حزب العمال الذى يريد المفاوضة قوياً ثم ضعف . وكان بيفن ملماً بالموضوع كله ثم تخلى عن وزارة الخارجية مخلفاً وزيراً جديداً يحتاج إلى أن يدرس المسألة من جديد . وكانت الشيوعية ضعيفة ثم انتشرت ، وكانت الحرب بعيدة ثم قربت . ونحن العقلاء لا نستطيع أن نفهم ذلك ، جلسة واحدة عندنا أو جلستان على الأكثر تكفى لأن يقال لا أو نعم . ولكن السياسة منطق آخر وأسلوب آخر ، فهي تطاول وتطاول وتطاول ، حتى تتفوق صبر أيوب . ومن المؤسف أن نقف من هذه المفاوضات موقف الذليل المستجدى ، لا صاحب الحق الآبى ، ولو وقفنا الموقف الثانى ما مُسِحَتْ بنا الأرض . ومن عاج لعمل فرنسا فى مراكش مرة ، ينبغى أن يهيج ألف مرة لما فعلته انجلترا فى المفاوضات . ولئن كانت هذه المطاولة يقصد منها إعداد الرأى العام هنا وهناك لقبولها ، فإن الأيام على العكس من ذلك تفسد الشعور ، وتبعد النجاح . والخير ألف مرة أن يبت فى المفاوضات سريعاً من أن تطول إلى ما لا نهاية .

أحمد أمين

إلى من يلزم من رجال السياسة والحرب :

حرب العقـــارب

للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

لست أقصد بالعقارب هذه الحشرات الضئيلة التي يمكن أن يدوسها الإنسان بحذائه ، أو يفحصها بقطعة من حجر فيحطمها ويكسر شوكتها ، ويريق سمها في التراب ويتخلص منها في سهولة ، وإنما أقصد العقارب الآدمية التي تكمن وراء دهائها وحيلتها وتتحين الفرص لإفراغ سمها في ضحيتها الغافلة .

أقصد العدو الماكر الذي يخشى أنه أضعف من أن يلتقي من يناصبه العداء وجهاً لوجه ، إما لأنه أقل منه قوة فيخشى الهزيمة إذا تعرض له تعرضاً سافراً ، وإما لأنه قد فقد الشجاعة ولم يجد من جنانه ثباتاً يسنده في النزال فيخشى أن يخونه قلبه عند أول اصطدام فيفر سريعاً من الميدان المكشوف .

وإنه لمن سوء حظ الإنسانية ، ومما يهدد باضمحلالها وشيكا ، أن العقارب الآدمية قد كثرت وتناسلت حتى صارت أمماً بعد أن كانت الأمم لا توجد إلا بفتوتها وشهامتها وفضائل أخلاقها .

حقاً أن الإنسانية قد أخذت تتدهور تدهوراً سريعاً منذ تدخلت العقارب في شئونها ، وأصبحت سياسة الشعوب ومصايرها منوطة بالسموم التي تنفثها إبرتها إذا انطلقت وهي مستخفية في كومة من الأقذار ، أو في شق حقير من الصخر .

كانت الشعوب منذ بدء الخليقة تتنازع البقاء ، وتتحارب وتتقاتل ، وكانت الحروب تنجلي دائماً عن بقاء الأقوى والأعظم شجاعة ، والأكثر صبراً وثباتاً عند الاصطدام .

ولعل هذا هو السر فيما صارت إليه الإنسانية من تقدم مطرد ، فالحروب على قسوتها وفظاعتها وكثرة ضحاياها لم تخل من فائدة عامة للإنسانية ، لأنها كانت تزيل الشعوب الحقيرة من الميدان ، وتجعل السيادة للشعوب الجديرة بالسيادة حقاً . وأما اليوم فقد صارت الشجاعة والفتوة وفضائل الأخلاق من عوامل الهزيمة لا الانتصار ، فالشعوب التي تتصف بأعلى الصفات الإنسانية مهددة بالانقراض ، لأن شجاعتها وفتوتها تجعلانها تقدم على المكافحة السافرة في الميادين الشريفة ، وتجعلانها كذلك تحتقر أن تنزل إلى وسيلة العقارب في دفاعها ، أو في هجومها ، وهي بذلك تغرر بنفسها تغريراً قد يوردها موارد الفناء .

ولست أقصد بهذا الحديث مجرد إظهار الأسف على ما يهدد الإنسانية عامة ؛ وإن كان هذا مما يدعو إلى الأسف حقاً ، بل أقصد أن أنبه أهلي وقومي من أهل هذه البلاد خاصة ؛ فإنه يخيل إلي أنهم يعيشون في أخطر مرحلة من تاريخ حياتهم القومية ، ويخيل إلي أنهم في هذه المرحلة يتعرضون إلى حملة منظمة تشنها عليهم أمة من هذه العقارب الإنسانية ، على حين أراهم لاهين عن الخطر المحيط بهم ، ولا يكادون يدركون إلى أي مدى يبلغ بهم ذلك الخطر .

وقد تحدثت في حديث سابق عن مشكلة الحشيش ، وتهريبه إلى البلاد ، وعن قعودنا عن مقاومة هذا الهجوم العنيف الذي تدل كل الحوادث على أنه آت من قبل إسرائيل . ولم أكن في ذلك الحديث مازحاً أو متفكهاً ، كما ظن بعض حضرات الفضلاء ممن قرأوا كلمتي ، فلو اطلع هؤلاء على ما يخالجني من الآلام وأنا أكتب لما ظنوا بي المزاح أو الفكاهة ، وإذا كان في قولي ما يشبه الضحك فقديماً كان الضحك من صنوف البكاء . وإذا كان البعض يحسبون أني هازل فها أنذا أصيح مرة أخرى في جد ، إن مشكلة الحشيش وتهريبه إلى البلاد تتم عن خطة مدبرة في الخفاء ، قد أحكمها واضعها وبالغ في الاحتياط فيها ، وإن واجب شعب مصر وحكومتها أن يهبوا هبة صحيحة قوية لرد عادية العدو وإحباط مسعاه وإفساد احتياله . أصيح مرة أخرى قائلاً : إن مقاومة تهريب الحشيش إلى البلاد لا تزيد على محاولة

ساذجة بدائية ، وإن الأمر جد محتاج فى معالجته إلى أشد الجد مرارة ، وإن العدو يمد إلينا إبرته المسمومة من خلال الشق الذى يختبئ فيه ؟ فعلينا أن نتلمس الوسيلة الفعالة لتحطيم إبرته إذا لم نستطع الآن أن ندوسه بالنعل فنحطمه كله .

إن هذا العدو يندس إلينا مستعيناً علينا بأنفسنا ؟ فمنا من يهرب الحشيش ، ومنا من يتجر به ، ومنا من يشتريه ، وكل من هؤلاء لا يقل عن مرتبة موالاة العدو والتواطؤ معه على إهلاكنا ، ونقض أساس حياتنا . وهل لكل هؤلاء الذين يجنون العدو علينا إلا أن نعاملهم معاملة الأعداء ؟ فلا نترفق بهم ولا نصف جرائمهم إلا بوصفها الطبيعى — وصف الخيانة العظمى ؟ ...

هذا هو قولى الذى سبق لى قوله ، فإذا لم يكن واضحاً فهأنذا قد أوضحته غير مازح ولا ضاحك ، بل حانق غاضب ، ولعله فى هذه المرة يكون أقرب إلى الجد والقصد .

ولكن مشكلة الحشيش على ما فيها من خطورة تتضاءل أمام مشكلة أخرى أحس بها وحس الكثيرون غيرى بها ، وهى لا تحتمل فى الحديث مزاحاً ولا ضحكاً .

ألا نذكر نحن معاشر أهل مصر ما كان منذ سنوات عندما اندلعت نيران الكوليرا فى البلاد ؟ ألا نذكر عند ذلك أنه قد قبض على بعض الجناة من العبيد الذين يسخرهم عدونا لإنفاذ خططه الماكرة فى الغدر بنا ؟ ألا نذكر يوم جئ باثنين من مسخرى إسرائيل وفى أيديهم الأنابيب المسمومة التى تحتوى على ميكروب الكوليرا ، وهم يلقون بما فيها فى موارد المياه المصرية ؟

لا أظن أن هذا الحادث قد بعد عنا مدة كافية للنسيان ، وما أسرع ما ننسى نحن معاشر أهل مصر . فإذا كنا لم ننس هذا الحادث بعد فهل استرعى أنظارنا فى هذه الأيام أن بعض الأمراض العجيبة قد أخذ يتسرب إلى البلاد بعد أن كنا لا نعرفها ولا نكاد نسمع عنها ؟ ألم يعجب إخواننا الأطباء من مثل هذه الأمراض الجديدة كيف أتت ، ولم يحملهم التعجب يوماً على أن يضحوا ببعض وقتهم لتتبعها والتشاور معاً فيما قد يكون منبعها الأول الذى بدأت تنبث منه ؟ إذا لم يكونوا قد فعلوا فإنى أدعوهم أن يفعلوا ، فإن العقارب تستخفى على مقربة منا وتمد إلينا إبرتها المسمومة وهى آمنة فى شقها بين الصخور .

وليس هذا الذى أقوله مجرد تخمين أو رجم بالغيب ، فإن هذه العقارب المستخفية على مقربة منا قد بلغت من المكر وقوة الحيلة فى غايتها الحقيرة مبلغاً تعرفه بلاد العالم جميعاً ، فإن من علماء هذه العقارب الآدمية من يرجع إليهم الفضل — أو يقول آخر من يعود عليهم العار — فى ابتكار الوسائل العلمية التى تمهد لإبادة المدنية الإنسانية . وحرب الميكروبات هى إحدى الثمرات المقززة التى برع هؤلاء العقارب العلماء فى خلقها .

ولكى نفتح العيون على فداحة الخطر الماثل فى هذه المشكلة الثانية ننقل إلى القراء فقرة من برقية قرأها الجميع بغير شك فى الصحف اليومية ونعيدها هنا لتقع الأعين عليها مرة أخرى .

قال عالم أمريكى لقومه : إن الأعداء يستطيعون أن يشنوا عليهم حرب ميكروبات فظيعة بغير أن يتعرضوا لأى خطر . ففى الإمكان بسهولة أن يحصلوا على الميكروبات الوبائية ، وفى وسع أى عالم أن يزرع الميكروبات فى مطبخ داره ، ومن السهل على المخربين الأعداء أن يطلقوا هذه الميكروبات فى أنابيب المياه ومعامل الألبان وأجهزة التهوية ، بل إن فى إمكانهم أن ينشروا الميكروبات فى الهواء إذا استخدموا رشاشات السوائل المبيدة للحشرات .

ويستطيع الأعداء أن يستخدموا هذا السلاح الرهيب لعرقلة حركة التعبئة العامة كأن يطلقوا الميكروبات على مراكز القيادة العسكرية . وفى حالة نشوب الحرب يستطيع المخربون أن يطلقوا الميكروبات على المدنيين والقوات المسلحة .

فهل آن لنا فى مصر أن نغير قليلا من نظرتنا نحو مشاكل الحرب والسلم ، وأن نحتاط لأنفسنا باتخاذ الوسائل التى تتطلبها الظروف الحاضرة التى غيرت معالم الحروب والسلم جميعاً ؟ هل لنا بأن نعرف أن حرب العقارب لا تكون مثل الحروب التى عرفها العالم من قديم ، وأنها تحتاج إلى شيء آخر فوق القنابل والمدافع والطائرات والدبابات ؟ هل آن لنا أن نعرف أننا اليوم فى حاجة إلى عيون متيقظة تتبين بها حركة العقارب فى الظلام ، وإلى نعال متينة نستطيع أن ندوسها بها فنحطمها بغير أن تصل إبرها إلى أجسامنا ؟

محمد فريد أبو حديد

حيـــــاة عاصفة

للأستاذ على أدهم

من الناس من ينظر إلى الدنيا فى ضوء مثل أعلى يشغله أو فى ظل فكرة سامية يحلم بها ، وتلهمه الرؤى الرائعة ، والصور البديعة ؛ فيصبح لا يطيق ما يرى فى الواقع من نقص وعيب ، ويسوؤه ما فى الحياة من إثم ومنكر ، وظلم فادح ، وتجبر وطغيان وفساد وفوضى وضعة وسفالة ، ويحز ذلك فى نفسه ويؤرق ليله ، ويقض مضجعه ، ويأخذ عليه مسالك تفكيره ؛ فإذا كان من تجول بنفسه أمثال هذه الأفكار وتضطرب بها أمثال هذه المشاعر رجلاً عالى الهمة بعيد الشأو صارم الإرادة استولت عليه رغبة حافزة فى مقاومة الضلالات الفاشية ومحاربتها والقضاء عليها ، وتحقيق ما يتراءى له من وجوه الخير والإصلاح ، ومثل هذه الرغبة النبيلة كانت هى الدافع فى الماضى إلى تصور الجمهوريات الصالحة العادلة ، والمدن السامية الفاضلة ، وكانت هى باعث الثورات والانقلابات والحركات والاضطرابات التى كثيراً ما باءت بالإخفاق ، وابتلى القائمون بها بأشد ضروب البلاء ؛ ومثل هذه الرغبة فى العصر الحديث كانت هى التى تثير رواد المذاهب الاشتراكية ودعاة الفوضوية والسنديكالية وما إلى ذلك من المذاهب السياسية والاجتماعية التى تهدف إلى إبراء المجتمع من أسقامه وتصحيح أخطائه وإزالة عيوبه وترميمه وسد ثغراته .

والكثرة الغالبة من الناس يقبلون اليسير ، ويرضون بالدون ، وتشغلهم صغائر الحياة وهمومها الحقيرة عن تأمل الأحوال التى يعيشون فيها ، ومراقبة الاتجاهات السائدة فى المجتمع الذى يحتويهم ، ولا تتراءى آمالهم إلى أبعد مما يتطلبه حاضرهم الضيق المحدود . والواقع أننا لا نعدو الحق إذا قلنا إن حياتهم تشبه حياة السوائم من وجوه عدة ؛ وبعض هؤلاء الناس قد يحدوهم الطموح الشخصى إلى شق الصفوف ومقارعة الأقران ، واكتساح العقبات القائمة فى سبيلهم حتى يصلوا إلى صفوف العلية ، ولكن القليلين من أمثال هؤلاء من يعمل على إشراك الجماعات فى المزايا أو المنافع التى يريدها لنفسه ، ويحاول أن يقصرها عليها ، وقلة قليلة نادرة من الناس هم الذين يسعون للخير العام والإصلاح الشامل دون أن يفكروا فى علاقة ذلك بمصلحتهم الخاصة أو سعادتهم الفردية ، وفى العهود الغابرة كثيراً ما أخفق أمثال هؤلاء الأفراد النوادر فى إثارة الاهتمام بقضيتهم ، لأن الجهل والفقر كانا أكبر عقبة فى سبيلهم ، وإيقاظ الأمل فى نفوس الجهلة والفقراء كان من المسائل الشاقة التى تكاد تبعث على اليأس .

أما فى العصر الحديث فإن انتشار التعليم على مدى واسع جعل مهمة هؤلاء الأفراد الأفذاذ أجدى وأبعد أثراً ونسبياً أقل خطراً .

وتتشابه الاشتراكية والفوضوية فى أنهما يلوحان للعالم الذى نعيش فيه بمثل أعلى وصورة مثلى ، وأمثال هذه الصور السامية كانت من وحى مفكرين مثاليين قضوا حياتهم فى عزلة وتفكير وتأمل ، ولكن جماعات العمال الكادحين قبلوا هذه الصور الجميلة ، وتعلقوا بها ، وعملوا على تحقيقها ؛ وقد رزقت الاشتراكية الذيوع والانتشار ، واكتسبت الكثير من الأنصار والأعوان ، أما الفوضوية فلم تلق انتشاراً واسعاً إلا حينما أخذت صورة السينديكالية النقابية ...

والاشتراكية والفوضوية فى صورتهما الحديثة قد تأثرتا بمجهود رجلين بارزين ممتازين ، وهما كارل ماركس وباكونين ، وقد عاش هذان الرجلان فى جهاد متواصل وكفاح مرير ، فماركس من بعض الوجوه يمكن أن يعتبر موجد الاشتراكية الحديثة ، لأنه أفرغها فى القالب الذى عرفت به ، وأعطاها الصورة العلمية ، وأيدها بالشواهد المستمدة من التاريخ والفلسفة والاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع .

وباكونين هو بحق إمام الفوضوية الحديثة التي قد حركتها وأوقد شعلتها ، ولكن باكونين لم يكن لها ماركس في سعة الاطلاع ، وغزارة المعلومات ، والقدرة على تنظيم الأفكار وتحديدها ، وإجادة التأليف ، وربما كان أقدر زعماء الفوضوية على ذلك هو الأمير كروبتكين الفوضوي المعروف .

وقد ولد ميشيل باكونين في سنة ١٨١٤ من أسرة روسية أرستقراطية ، وكان والده من رجال السلك السياسي ، وكان أبوه حين مولده قد اعتزل الخدمة وأقام في ضيعة له في ناحية تيفر ، وقد أراد أن يربي لابنه حياة وظيفية محترمة في الجيش القيصري ، ولكن الفتى الناشئ باكونين كان ثائراً مطبوعاً ، وقد حمل علم الثورة أول ما حمل في داخل منزل أسرته ، وتحدى سلطة أبيه ، وكانت حياته العائلية الباكرة حافلة بالأحداث الثورية ، وكان يحرض إخوته على الثورة وشق عصا الطاعة ، ولم يكن أبوه من الآباء الطغاة المستبدين ، وإنما كان رجلاً ذكي الفؤاد مستنيراً سهلاً متسامحاً مع أولاده ، وقد استهدف مع ذلك كله لحملات هذا الابن المتمرد ، ولم يكن باكونين مع ذلك يجهل الجوانب الصالحة في أخلاق أبيه ، فقد كتب إليه من رسالة : « لقد كنت معلمنا ، وقد أيقظت في نفوسنا الشعور بالخير والجمال وحب الطبيعة ، وبثثت في أفئدتنا هذا الحب الذي ما زال يربط بين قلوبنا إخوة وأخوات برباط وثيق ، ولولاك لكنا قد أصبحنا قوماً عاديين تافهين ، وقد أشعلت في قلوبنا شرارة حب الحق المقدسة وأحييت فينا الشعور بالاستقلال المترفع والحرية الشامخة ، وقد فعلت ذلك لأنك تحبنا ولأننا متعلقون بك مؤثرون لك » .

وقد أحسن أبوه تنشئة أولاده بوجه عام ، وكانت طفولتهم سعيدة هادئة ، وألحق باكونين بمدرسة المدفعية بطرسبرج ، وأقبل على دروسه الحربية بحماسة وجلد ، وشاهد إخماد الثورة البولندية في سنة ١٨٣٠ ، فأثر في نفسه منظر بولندة الثائرة المرهوبة تأثيراً عميقاً قوّى في نفسه كراهة الظلم والطغيان ، وضاق بعد ذلك بحياة الجندية ، وترك خدمة الحكومة القيصرية ، وأقبل على دراسة الفلسفة وأعجب بفلسفة هيجل ، وكانت حينذاك هي الفلسفة السائدة في الأندية الفكرية والبيئات المثقفة ؛ ثم غادر روسيا وذهب إلى ألمانيا ليدرس فلسفة هيجل في منبتها القوي ، وقد ترك روسيا وهو من رعايا القيصر المخلصين ، ولكن سرعان ما وقع تحت تأثير الشبان الهيجليين ، ومال إلى آرائهم الثائرة لأنها صادفت هوى في نفسه ، ثم ساوره الشك في بعض آراء هيجل ونظرياته ، ولم يستطع قبول قول هيجل إن الواقع هو المعقول والمعقول هو الواقع ، ثم ترك برلين إلى درسدن واتصل بأرنولد رج ، وكان رج يحاول أن يفسر فلسفة هيجل تفسيراً يلائم الاتجاهات الحرة ، وكان من المؤمنين بقوة تأثير الأفكار في عالم السياسة والاجتماع ، وفي ذلك الوقت أصبح باكونين من الذين يدينون بالمبادئ الثورية ، ونشر مقالاً في المجلة التي كان يصدرها رج وردت فيه إحدى كلماته المأثورة وهي : « إن الرغبة في الهدم هي في نفس الوقت رغبة خالقة » . وقد اتخذ خصومه الناقدون عليه هذه الكلمة وسيلة لتصويره في صورة الرجل الثائر المتعطش الذي يريد العنف للعنف ؛ وهو في الواقع لم يكن كذلك ، وإنما كان يرى أن بناء الجديد يستلزم قبل ذلك هدم القديم ، ولم يكن باكونين ميالاً إلى الشدة والعنف بطبيعته ، والثورات العنيفة في رأيه ضرورة غير سارة ، ومن أقواله في ذلك : « الثورات الدامية في الأغلب ضرورة لازمة ، وذلك بفضل الغباء البشري ، ولكنها دائماً شر ، بل هي شر منكر وكارثة كبيرة ، وهي ليست كذلك بالقياس إلى ضحاياها ، وإنما بالقياس إلى سلامة الغرض الذي قامت من أجله الثورة واستيفائه » .

واستهدف بعد ذلك لعداوة حكومة سكسونيا ، فارتحل إلى سويسرة ، والتقى بها جماعة من الاشتراكيين الألمان ، وثقلت عليه وطأة الحكومة السويسرية ، وطالبت الحكومة الروسية بعودته ، فانتقل إلى باريس ، وظل هنالك من سنة ١٨٤٣ إلى سنة ١٨٤٧ ، وكانت هذه السنوات من السنوات الحاسمة في تكوين أفكاره وبناء فلسفته ؛ وقد عرف في هذه الفترة الزعيم برودون وقد أثر في نفسه تأثيراً بالغاً ، والتقى بالزعيمين الاشتراكيين الكبيرين ماركس وإنجلز ، وقد نشبت بينه وبينهما معركة حامية ظلت معقودة الغبار إلى حين وفاته ؛ وقد ذكر لنا باكونين ملخص علاقته بكارل ماركس فقال :

وكان ماركس يسبقني كثيراً في طريق التقدم ، كما ظل حتى اليوم ليس أسبق مني في سبيل التقدم فحسب ، وإنما كذلك أغزر مني علماً إلى درجة تبطل معها الموازنة ؛ كنت حينذاك لا أعرف شيئاً في الاقتصاد السياسي ، ولم أكن قد تخلصت بعد من التجريدات الميتافيزيقية ، ولم تكن اشتراكيتي سوى اشتراكية غريزية . وكان هو بالرغم من أنه أصغر مني سناً قد سبقني إلى الإلحاد وأصبح ماديا متمكناً واشتراكياً له وزنه وخطره ، وفي ذلك الوقت وضع هو أساس مذهبه الحالي ، وكنا نتلاقى من الحين إلى الحين ، لأني كنت أحترمه كثيراً لعلمه وإخلاصه الشديد لمذهبه (بالرغم من أن هذا الإخلاص كان مشوباً بالغرور الشخصي) وكنت أسعى باهتمام لاستماع حديثه . وكان حديثه دائماً نافعاً بارعاً حينما كان لا توجهه الكراهة الحقيرة . ومما يستوجب الأسف أن ذلك كان كثيراً ما يحدث ، ولكن لم تكن هناك علاقة ودية صريحة بيننا . وكان مزاجانا لا يطيقان ذلك . وكان هو يصفني بأني مثالي عاطفي ، وقد كان محقاً في ذلك ، وكنت أنا أصفه بأنه رجل مغرور ماكر خائن ، وكنت كذلك محقاً في ذلك »

ولم يستطع باكونين أن يقيم في أي مكان كان حيناً من الزمن دون أن يتعرض لمعاداة السلطات الحاكمة ؛ ففي نوفمبر سنة ١٨٤٧ نفي من فرنسا استجابة لطلب الفوضية الروسية . وكان ذلك لأنه ألقى خطبة مدح فيها ثورة البولنديين في سنة ١٨٣٠ . وأرادت الفوضية أن تكيد له وتبالغ في تشويه سمعته ، وهدم مكانته ، وتزود خصومه بسلاح حاد في محاربته ، فأذاعت تلك الإشاعة التي لم يكن لها أدنى نصيب من الحقيقة ، وهي أن باكونين كان عيناً للحكومة الروسية . ولكنه أصبح غير مرغوب فيه لأنه تجاوز حدوده ؛ والتجأ باكونين إلى بروكسل ، ولقي هناك ماركس ، وازداد ما بينهما تباعداً ؛ وحدثت بعد ذلك ثورة سنة ١٨٤٨ فعاد باكونين إلى باريس ، ومنها ذهب إلى ألمانيا ، وأصبح عضواً في المؤتمر السلافي الذي عقد في براج وحاول هناك أن يحدث ثورة سلافية ، وفي آخر سنة ١٨٤٨ أذاع بياناً دعا فيه السلافيين إلى الانضمام إلى غيرهم من الثائرين للقضاء على الحكومات الملكية الثلاث المستبدات ، وهي حكومة روسيا وحكومة النمسا وحكومة بروسيا . واغتنم كارل ماركس الفرصة فهاجم باكونين قائلاً إن حركة الاستقلال في بوهيميا غير مجدية لأن السلافيين لا مستقبل لهم ، وبخاصة في الجهات التي يخضعون فيها لحكم الألمان أو لحكم النمساويين ، وقد اتهم باكونين ماركس بأنه متأثر في ذلك بنزعة القومية الألمانية . واتهمه ماركس بتشبعه بالنزعة السلافية . والاتهام من الطرفين كان له ما يسوغه .

وقبل قيام هذا الخلاف بين هذين الزعيمين نشبت بينهما معركة أخطر شأناً ، فقد نشرت الجريدة التي كان يصدرها ماركس أن في حوزة الكاتبة القديرة جورج سند أوراقاً ومستندات تثبت أن باكونين يعمل جاسوساً للحكومة الروسية ، وأنه أحد المسئولين عما وقع قريباً في بولندة من الاعتقالات ، وقد أنكر باكونين هذه التهمة ، وأرسلت جورج ساند إلى الجريدة تنفي المسألة وتؤكد أنها باطلة من أساسها . ونشر ماركس ردها ، وهدأت حدة الخلاف بعض الهدوء ، ولكن منذ إثارة هذه التهمة لم يصف الجو بين الزعيمين اللذين لم يتلاقيا بعد ذلك إلا في سنة ١٨٦٤ .

وفي أثناء ذلك كانت الاتجاهات الرجعية تستعيد مكانتها وتسترد قوتها ، وفي سنة ١٨٤٩ قامت ثورة في درسدن ، وأصبح الثائرون مسيطرين على المدينة . وكان باكونين هو المشرف على المدافع ومقاومة الجيوش البروسية المهاجمة المدينة ، وغلبت المدينة على أمرها ، وقبض على باكونين وهو يحاول الفرار . وبدأ يعرف السجون والمعتقلات في بلاد كثيرة ومواطن شتى . وقد حكم عليه بالإعدام في ١٤ يناير سنة ١٨٥٠ . وبعد خمسة أشهر استبدل بحكم الإعدام الأشغال الشاقة ، وسلم للحكومة النمساوية التي أرادت أن يكون لها حظ معاقبته وتأديبه . وحكم عليه النمساويون في دورهم بالإعدام في شهر مايو سنة ١٨٥١ ، واستبدل كذلك بحكم الإعدام الأشغال الشاقة للمرة الثانية . ولقي في السجون النمساوية معاملة قاسية ، فقد وضعت الأغلال في يديه ورجليه ، وكانت الحكومات كما يظهر تستشعر المتعة في تعذيب هذا الرجل والتنكيل به ، فبعد أن شفت الحكومة النمساوية غليلها منه طلبته الحكومة الروسية من حكومة النمسا ، ووافقت على ذلك الحكومة النمساوية ، وأسلمته لها ، فأرسل إلى حصن بطرس وبولس ثم أرسل بعد ذلك إلى شليسبرج ، وهناك

اصطلحت عليه العلل والأمراض فتساقطت أسنانه وهزل جسمه ، ولكن هذه الآلام المبرحة لم تنل من عزمه ، ولم تقدح في عقيدته ، ولم تغير من آرائه ، وقد خرج من هذه المحنة وهو أقوى ما يكون إيماناً بمذهبه . وقد صدر أمر بالعفو عن الكثيرين من المسجونين عقب موت القيصر نقولا ، ولكن القيصر الجديد — الإسكندر الثاني — أبى أن يشمل العفو هذا الثائر العنيد ، ولما مثلت والدته بين يدي القيصر تلتمس العفو عن ولدها قال لها القيصر : « اعلمي أيتها السيدة أن ابنك لن ينال حريته ما دام حياً » ، ومهما يكن من الأمر فإنه أرسل في سنة ١٨٥٧ — بعد أن ظل معتقلاً ثمانية أعوام — إلى سيبريا ، وهناك استطاع الهرب في سنة ١٨٦١ إلى بلاد اليابان ، وانتقل من بلاد اليابان إلى أمريكا ومنها إلى لندن . وقد تجرع باكونين مرارة السجن والاعتقال لكراهته الشديدة للحكومات ، ولم تنجح الحكومات المختلفة التي عاقبته وأذاقته العذاب ، في حمله على حب فكرة الحكومة والإشادة بها ، ومنذ عودته إلى لندن أوقف حياته على إذاعة روح التمرد والعصيان على الحكومات ، وعاش حيناً في إيطاليا حيث أوجد جماعة « الأخوة الدولية » أو « اتحاد الثائرين الاشتراكيين » ، وقد قاومت هذه الجماعة نزعة القومية التي كان يزعمها الزعيم الإيطالي العظيم متزيني ، وانتقل باكونين من إيطاليا إلى سويسرة ، وهناك كان من الساعين في إيجاد « اتحاد الاشتراكية الديمقراطية الدولي » وكان هذا الاتحاد يرمي إلى إلغاء نظام الطبقات وتحقيق المساواة بين الأفراد من الرجال والنساء ، وإبطال الملكية الخاصة .

وفي سنة ١٨٦٤ نشأ في لندن اتحاد العمال الدولي ، ووضع كارل ماركس برنامجه ، وأبى باكونين الانضمام إليه لاعتقاده أنه سيلقى الإخفاق ، ولكنه — على خلاف ما قدر — انتشر بسرعة تسترعي النظر ، وأصبح قوة هائلة في إذاعة الأفكار الاشتراكية ، وقد استطاع ماركس أن يضمه إلى صفه ، وأدرك باكونين في أثناء ذلك أهمية هذا الاتحاد ، فصمم على الانضمام إليه ، ودخل معه في هذا الاتحاد عدد كبير من أتباعه في فرنسا وسويسرة وإسبانيا وإيطاليا . وفي سنة ١٨٦٩ عقد الاتحاد مؤتمره الرابع ، وظهر في هذا المؤتمر تياران متعارضان ؛ فالأعضاء الألمان والإنجليز أيدوا كارل ماركس في رأيه عن الدولة بعد إلغاء الملكية الخاصة ، وناصروا فكرته في إيجاد أحزاب للعمال في الأقطار المختلفة واستعمال النظام الديمقراطي لانتخاب أعضاء يمثلون العمال في المجالس النيابية . أما الأمم اللاتينية فقد أيد أعضاؤها باكونين في مقاومته لفكرة الحكومة ، وكذلك في الاستعانة بأداة الحكم النيابي ، واشتدت الخصومة بين الطرفين ، واستمرت الحرب بينهما ، وتبادل الفريقان التهم والشتائم ، وعاود الماركسيون اتهام باكونين بالجاسوسية للحكومة الروسية بعد أن لقي الرجل منها ما لقي ، وشغل باكونين بإثارة ثورة في روسيا خاصة بتوزيع الأرض ، وصرفه ذلك عن الالتفات إلى الصراع القائم في المؤتمر الدولي . ولما نشبت الحرب البروسية الفرنسية انضم باكونين إلى جانب فرنسا وبخاصة بعد سقوط نابليون الثالث ، وحاول أن يستنهض عزيمة الناس ويحرضهم على الثورة ، ولكنه لم ينجح ، واتهمته الحكومة الفرنسية بأنه جاسوس لبروسيا ، ولم يستطع الفرار إلى سويسرة إلا بصعوبة ، وازداد الخلاف بينه وبين الماركسيين حدة ، وقد كان باكونين يعتقد أن تزايد قوة ألمانيا خطر على الحرية لا يستهان به ، وكان يكره الألمان كراهة شديدة ، وكانت كراهته لبسمارك وكارل ماركس من الأسباب الباعثة على إشعال هذه الكراهة ، وقد تأثر المذهب الفوضوي بهذه الكراهة ، فإلى اليوم يكاد يكون مقصوراً على الأمم اللاتينية ، وقد اقترن على الدوام بكراهة ألمانيا .

وعقد المؤتمر الدولي العام في لاهاي سنة ١٨٧٢ ، وزعم أنصار باكونين أن اللجنة العامة اختارت عقد المؤتمر في هذا المكان لعدم تمكين باكونين من حضوره لما بينه وبين الحكومتين الفرنسية والألمانية من خلاف ، وهزم أنصاره في هذا المؤتمر ، وقضى المؤتمر بطرده موجهاً إليه طائفة من التهم من بينها تهمة السرقة بالإكراه . وقد زود ماركس المؤتمر بالمستندات الموجهة لذلك تشفياً من خصمه باكونين وحرصاً على إبعاده من المؤتمر ليخلو له الجو .

وكانت صحة باكونين حينذاك قد اعتلت اعتلالاً شديداً وتمكن منه المرض فعاش في عزلة حتى وفاته في سنة ١٨٧٦ .

(البقية على الصفحة التالية)

جامعة نيودلهى تكرم روح طاغور

للأستاذ جمال الدين الرمادى

حملت أسلاك البرق منذ أيام نبأ احتفال الجامعة فى نيودلهى بذكرى مولد الشاعر البنغالى العالمى رابندرانات طاغور ، وقد أقيم الاحتفال فى اجتماع دولى شهده نحو ألفى شخص ، وقامت على تنظيمه جمعية طاغور بدلهى ، وقد رأس الاحتفال السيد ديواكار نائب وزير الاستعلامات والإذاعة فى حكومة الهند ، وألقى مسيو دانيل السفير الفرنسى بالهند بحثاً طريفاً عن الشاعر العالمى . وأحب بهذه المناسبة أن أكتب فى هذا الفصل شيئاً عن حياة وشعر وفلسفة رابندرانات طاغور ، ذلكم الشاعر الذى طبقت شهرته الآفاق ...

ولد طاغور فى مدينة كلكتا فى سنة ١٨٦١ ، وهو أصغر إخوة سبعة من أبيه مارشارشى راندرانات Marshurshi Devendranath ، وكان أبوه أميراً كبيراً فاعتبر بذلك طاغور من سلالة الأمراء .

وكان طاغور من بيت أسرة برهمية ، وبرهما اسم الله عز وجل فى اللغة السنسكريتية الهندية ، لا كما كان يظنه فولتير اسم مؤسس ديانة البراهمة ، وبرهما عند البراهمة الإله الموجود بذاته لا تدركه الحواس ويدركه العقل ، وهو مصدر الكائنات كلها ، لا حد له ، وهو الأصل الأزلى المستقل الذى يستمد العالم وجوده منه ، وكانت كلمة برهما فى الأزمنة القديمة تعنى الصلاة التى تصحب القربان ، ولا يظهر أنها كانت شيئاً آخر ، وتقول دائرة معارف القرن العشرين إن عدد البراهمة فى آسيا يقارب الثلاثمائة مليون نسمة ، يبلغ كل عام منهم خلق كبير ، وقد قرروا فيما بعد بينهم أن تستقل كل طائفة عن الأخرى . وألا تصاهر طائفة الأخرى . ولكن الأنجليز يعملون على هدم هذه الحواجز ! ولهذه الديانة كتب كثيرة ، منها الفيدا والدرميانا وقانون مانو وكتاب البورانا ... الخ ...

وقد نشأ طاغور على الديانة البرهمية ، ولكنه أصبح صاحب نزعة فلسفية خاصة بعد ذلك . اسمعه يناجى ربه :

هذى صلاتى إليك يارباه ...

أنزع هذا البخل من قلبى واجتثه من جذوره . .

وامنحنى القوة حتى أصبر على الأتراح والأفراح ...

امنحنى القوة حتى أجعل حبى مقروناً بالنفاق ...

امنحنى القوة حتى لا أحتقر الفقير أو أخضع للقوة الطاغية ...

امنحنى القوة حتى أسمو بروحى فوق توافه الحياة .

امنحنى القوة حتى أهيم بحبك وأبقى رهن مشيئتك !

وهكذا يأخذ طاغور يناجى ربه فى ضراعة وخشوع ، وما العالم فى مظهره الفنى سوى ملعب يمرح فيه المبدع الأسمى ، ويتلهى بالخلق والتكوين ، وإن الله يترامى فى أبهى شىء ، يترامى فى النور والبستان والوجه الجميل ، كما يترامى فى أتفه شىء ...

هذا وقد رحل طاغور إلى انجلترا سنة ١٨٧٧ ليواصل دراسة القانون ، وكان محافظاً على ردائه الشعبى التقليدى ، وقد حاول أن يحصل على شهادة « البتروكليشن » لأنه

وهكذا عاش باكونين حياة عاصفة ثائرة متحدياً كل سلطة دون أن يفكر فى سلامته الشخصية ! وبالرغم من التهم الوضيعة التى وجهت إليه فإن تأثيره فى نفوس أنصاره كان قوياً ، وتختلف مؤلفاته ورسائله عن مؤلفات ماركس اختلافاً جوهرياً ! فكان يغلب عليها النزعة الفلسفية ، والاتجاه التجريدى ، ولم يكن يملك مقدرة ماركس على التبسط فى الشرح والاستقصاء ، وتنسيق المعلومات ، وتدعيم النظريات ، وتبدو فى كتاباته آثار فوضى حياته واضطرابها ، ولهذا لم يستطع أن يستوفى فيها بيان مذهبه وتصور أهدافه ، وقد قام بهذه المهمة بعده الزعيم الفوضوى الروسى الأمير كروبتكين .

على أدهم

لم يكن طالباً متفانياً ؛ كان أبوه دائماً في ترحال ، وكانت أمه تتركه لدى الخدم ، ومن هؤلاء الخدم تلقى طاغور صورة مضحكة محاومة بالشر ؛ فقد سمع منهم : (لم يكن نظام الملكية في تاريخ الهند نظاماً سعيداً) ، وقد انعكست معظم أفراح الصبا على حياته عندما شب وترعرع ، وكان وردزورث Words Worth يأبى أن يتعلم إلا ما يروقه فكتب أغنية في الواجب . .

وأخرج طاغور سنة ١٩١٠ مسرحيته التي ترجمت بعبارة « ملك القاعة المظلمة » ، ومثلت هذه المسرحية في البنغال ، كما مثلت على مسارح ألمانيا وباريس ، ولكنها لم تفز بنجاح كما هو الحال في الهند ؛ ولعل ذلك يرجع إلى أنه ظن أن نجاح الأدب يكفل نجاح المسرح ، ولكن الجمهور البنغالي غير الجمهور الأوربي ، أضف إلى ذلك أن الرمزية عند طاغور قد لا يسهل فهمها في بعض الأحيان .

وقد ألف طاغور غير ذلك كتباً ومسرحيات عدة ، وأشعاراً مبتدعة ، وله روايتا مجلة الربيع والنصيحة ، وهما تمثيليتان ، وله (كاتا وكاتاني) ، وله أغاني كبير والطيور العاشقة والبيت والعالم والسادهانا التي قال فيها : « كل من أعطيته رايتك أعطيته القوة التي تعينه على النهوض بها ؛ فأنت تعطيه الحب ليقوى على مجهود خدمتك ، وإني أشتاق من أعماق قلبي أن أنجو من الألم بالألم ، وليس اشتياقي أن أبلغ الخلاص باجتناب الألم الذي هو هدية من يديك » .

وربح طاغور سنة ١٩١٣ جائزة نوبل وقدرها ٨٠٠٠ جنيه ، ولقب بلقب سير ، وقد حاز الجائزة على كتابه قرابين الأغاني ، وقد ترجم في انجلترا وأمريكا وفرنسا وروسيا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وهولندا ، وكتب طاغور كذلك (البستاني) فقالت عنها الديلي نيوز : (إن أسفار البستاني تفوق حتى الأحسن والأفضل من قرابين الأغاني رقة وإبداعاً) .

وقالت الديلي ميل : (هذه الأشعار أزهار أبهى من طلعة الشمس ، وما ندري كيف عنيت الترجمة بروعتها الأصل ، ولكنها تجلت لنا في الغاية القصوى من الجمال الرائع) وقالت جريدة الأبزرفر (Observer) (هذا الشاعر يتناول التوافه المألوفة في أمور الناس ويصوغها دررا تتألق في السماء بجلال الحب والحياة) .

وقد أثر طاغور في الأدب كما أثر فرجيل ودانتي وشوسر وملتن ، ولقد هيأ الشعر البنغالي أن يزدهر في ضوء الشمس وأنفاس الهواء ، بل أن يأخذ طريقه في الحياة .

وقد قرأ طاغور كثيرا من الأدب الأوربي وتأثر به ، وعندما كان صغيرا كان أستاذه يعاقبه بحبسه في حجرته حتى يترجم قطعة من الشعر ، فلا غرو أن يصبح شاعرا مفلقا بل دكتورا في الآداب في جامعة أكسفورد سنة ١٩٤٠ .

وقد كان طاغور مرهف الإحساس تميل الوجدان إلى حد بعيد ، فكتب روائع خالدة في شعر الغزل ، يقول في إحداها :

يا حياة حياتي سأعمل دائما أبدا في صيانة جسمي نقيا لأن أطرافك الجليلة تلامس كل عضو من أعضائي .

سأعمل دائما أبدا في إقصاء فكري عن الضلال ، لأنك الحق الذي أهاج نيران العلم في عقلي ...

سأعمل دائما أبداً في دفع كل خبث عن فؤادي وكل نصوح يسرى في زهر غرامي ، لأن مثواك في أعماق قلبي .

وحين يغيب عني محياك يفقد قلبي الهدوء والراحة ويصبح محلي نضيا متواصلا في بحر رحيب .

واليوم أشرق الصيف على نافذتي بهمزه ولمزه وتسارعت النحلات يغازلن أزاهير الرياض .

هي الساعة المواتية ! دعني ! أجلس في هدوء حيالك وجهاً لوجه ! دعني أغني ! في غمرة هذا السكون الرهيب !

وهكذا كان غزل طاغور شعراً روحانياً يرفعنا فوق آلة الحياة وينأى عن الشهوة العارمة والرغبة الجامحة ، ومثل هذا في أكثر شعره .

وقد أسس طاغور مدرسة (شانتي نكتان) أي دار السلام ، فالله هو السلام التام والصلاح التام وهو الفريد الوحيد وهو سلوة النفس وفرحة القلب وسلامة الروح . والله في رأيه ليس هو ذلك الشيء الذي يخطف الجسد فحسب ، ولكنه يطهر القلب لأنه يمس الروح ، والأرض ليست ذلك الشيء الذي يمسك الجسم فحسب ولكنها شيء يسر الخاطر . وصلتها بنا فوق الصلة الجسمية لأنها كائن حي .

هذا في الفلسفة . أما في الشعر ، فقد ظهر أثر الشاعر إبسن في المدرسة البنغالية ، وهنالك عدة مشابه بين طاغور

(البقية على الصفحة التالية)

الأسكندرية كسبت حربين

للأستاذ عبد الرحمن الغمراوى

قام ميناء الأسكندرية الباسل بدور هام عظيم فى الحربين .. الكبرى والأخيرة ! فكان كالىء السفن على اختلاف أنواعها وجنسياتها .. والفضل له فى كسب الحربين .. ولو أغلق هذا الميناء فى وجه الفيض الدافق من بواخر الحلفاء .. ناقلات حربية .. وقطع بحرية .. لما كان هذا الطوفان من الجنود والبحارة والطيارين والعتاد الحربى والمؤونة الوافية ..

نعود إلى عام ١٩١٤ حيث اندلعت نار الحرب الأولى وامتدت إلى مصر حيث كانت هذه الآلة الحربية الهائلة تصل إلى الميناء وزحمه ، وتملأ أرجاءه بالضجة التى لا تنقطع من صلصلة جنازير « مخاطيف » الجبال العائمة ، وتلاطم الأمواج أثناء اندفاع زوارق البخار .. وجلبة العمال والجنود وحركة التفريغ والشحن ودوى صفارات القطارات التى تطغى على كل ما عداها ...

وزداد الضغط على الحلفاء فتتدفق الجنود إلى مصر ، ويعج ميناء الأسكندرية بهم ، وتمتلىء مخازن الجمارك والأرصفة بأكداس العتاد الحربى ، وتصل جنود متفقة من انجلترا للتدريب هنا ... فى مصر ! ... وهم من شباب جامعات هؤلاء البريطانيين الذين كانت لهم هذه الحرب ... حرب حياة أو موت ... ومن الغريب أن أولئك الجنود الطلبة كانوا يجهلون تاريخ وجغرافية مصر ! ... ظنوا أن الأسكندرية ليست ثغر مصر الأول ، وأن شعب مصر يلبس الجلود ، ويضع الريش فوق رأسه ! ... ولكن عندما عرفوا الحقيقة وعدوا بأن يكونوا أبواق دعاية لمصر بعد الحرب ، وعندما ينتهى بهم المطاف إلى بلادهم ... عرفوا أن المصريين شعب متمدين مثلهم ، وليس من زنوج أفريقيا ... وقد فعلوا ...

واشتد أتون الحرب واستمر أوارها ، ومالت كفة الحلفاء إلى ناحية النصر ، وانتصروا وأعلنت الهدنة ... كان مساء مشهوداً لا ينسى . أفقدت الفرحة جنود الانجليز عقولهم ، ونسى الاستراليون هزيمتهم أمام الأتراك فى الدردنيل ! ...

طغت الفرحة على كل شىء ، حتى لقد كانوا وهم يصيحون « Peace » لا يتورعون عن التعدى على الأهالى وخطف

فى مأساة الملك والملكة وبين بيت الدمية A doll's house ولكننا لا يمكن أن نجزم بتأثر طاغور بإبسن ، ويعد الدكتور ادوارد تومبسون الأستاذ بجامعة اكسفورد هذه المسرحية من أروع مسرحيات طاغور .

هذا وقد زار طاغور مصر وألقى فيها بعض المحاضرات كمحاضرته فى مسرح الحمراء بالأسكندرية وحديقة الأزبكية بالقاهرة ! بل إنه زار اليابان كذلك وألقى عدة محاضرات عن القومية والوطنية ، كان لها أثر كبير فى تحريك النفوس ، ولكن المرض لم يمهله ففاضت روحه إلى ربها بعد ما أزجى صلاته إليه كعادته دائما :

اللهم ارهف مشاعرى وامزجها بعالمك هذا تحية لك وإجلالاً .

كغيم تموز المحمل بالأمطار ، وسحابه المثقلة بالماء حتى أخفض لك هامتى تحية وإجلالاً .

حتى تأتلف كل نغمات حتى لحناً واحداً يتلاشى فى الصمت الرهيب تحية وإجلالاً .

كسرب من الحمائم ألح عليه الشوق وبرحه الحنين ، فآب إلى وكناته الجبلية ولم تذوق عينه طعم الكرى . لأرحلن بحياتى إلى مقرها الأبدى تحية لك وإجلالاً ...

وهكذا رحل طاغور إلى مقره الأبدى واسترق أنفاسه الأخيرة ، وذهب ذلك العقل الذى أثت أسافله فى الهند ، فكان يجوب مع شرائح الشباب ، وبطولة الرجال والنساء ، ولكن عبقريته كانت تمتد بفروعها وأفنانها إلى كل زمان وإلى كل مكان ... !! .

جمال الدين الرمادى

أغطية رءوسهم ... ولكن الاسكندريين الشجعان ... والشجعان دائماً ... كانوا يقابلون التحدى بمثله ، ولو أنهم كانوا يعرفون ما هو الخطر الذى يتعرضون له !.. ولكن لم تقع سوى حوادث فردية ، راح ضحيتها بعض البواسل الساكين .. كل هذا فى سبيل أولئك الحلفاء الذين غمرهم هذا الميناء المصرى ... بل ميناء مصر الأول ... بما هيأ لهم من وسائل ضخمة هائلة .. وقد اعترفوا بهذا .. ولكن سرعان ما غطى استعمارهم على الوفاء !...

ودارت عجلة الأيام .. مر ربع قرن .. وأعلنت الحرب الثانية ... وجاء دور الاسكندرية مرة أخرى ... الميناء الباسل العظيم ... ذى المركز الفريد الذى جعله فى الذروة العليا ... كان مركزه قد ازداد أهمية ... وكان فى الساعة وترامى أطرافه ما هيأ للحلفاء قاعدة حربية ممتازة لا يمكن أن تتوفر لميناء آخر فى البحر الأبيض ، وهنا يجدر بنا أن نعطى وصفاً مختصراً عن هذا المرفأ التاريخى ...

يقع هـذا الميناء فى الجهة الشمالية الغربية من ثغر الاسكندرية علاوة على مرفأ الميناء الشرقى الذى استعمل لخدما الحاجة البحرية البريطانيـة ... وهو ميناء هادىء يحجز الأمواج عنه ذلك الحاجز الضخم الممتد من مشارف قصر رأس التين العامر لمسافة كافيـة لدفع الأمواج عنه والقضاء على ثورتها ...

وأرصفته ومراسيه تبـدأ من تجويف قصر الملك العامر الفخم .. وهذا التجويف عبارة عن جون كبير لحد ما ، يمتد لأكثر من كيلو مترين تنتشر فى مياهه الزوارق وسفن الشراع ، وتقوم على شاطئه الذى يكون ثلاثة أرباع دائرة نوادى السباحة والتجديف (وهذه استبعدت من هذه المنطقة بأمر ملكى سوى نادى اليخت الملكى) ويطلق على هذه المنطقة اسم الملاحة .. ومن ثم تبـدأ ورشة المحروسة وهى شركة البوستة الخديوية التى يملكها رجل الأعمال الفذ الليوتنر عبود باشا .. وبناء مدرسة رأس التين (وقد هدم الآن) الذى عمر منذ عهد ساكن الجنان محمد على العظيم وتخرج فيه ملايين الطلبة الذين منهم كبار رجال الدولة .. ثم منطقة مصلحة الموانى والمنائر ، ويطلق عليها إسم «الترسانة» وهو الاسم القديم لها منذ كان لمصر أسطول عظيم ... ولم يبق من دور الصناعة التى كانت ترسانةمصر سوى ورشة متواضعة تديرها مصلحة الموانى والمنائر !...

ولهذه المنطقة باب يسمى باب الترسانة يتصل بأول حى « أبو وردة » يقوم على جانبيه مبنى مصلحة الحجر الصحى « الكورنتينا » ومبنى مصلحة الموانى والمنائر .. وأمامه من الداخل ساحة عظيمة تتصل غرباً بالبحر وفى نهايتها كشك خشبى بديع أنشأه ساكن الجنان الخديوى اسماعيل ...

ثم تبدأ الأرصفة بنمرة ١ ثم ٢ ، وفى نهاية هذا الرصيف الأخير حوض محمد على باشا الذى كان فى العهد القديم حوضاً جافاً ذا مدرجات لإصلاح قطع الأسطول المصرى الصغيرة ، وقد كشف الإنجليز عنه بعد أن نزحوا مياهه وأعدوه لغرض نفسه .. ولكن لم تكد البحرية البريطانية تنتهى من إعداده حتى انتهت الحرب فاستغنى عنه !. ثم رصيف ٣ ، ٤ وهذان يطلق عليهما اسم رصيف الترانسى ، وتقابل الأبواب ٤و٥و٦ وترسو عليه زوارق البوليس البخارية وقوارب النزهة . ثم تتوالى الأرصفة حتى نمرة ٨٤ والأبواب حتى باب ٥٤ والمخازن حتى ٤٧ عدا المخازن الملحقة الغير منمرة ، ومستودعات شركة الإيداع ومستودعات وفناطيس شركات البترول والسماد .

ومحيط الميناء المعظم . وهو محيط دائرة غير كامل من ناحية مدخل البوغاز يمتد إلى ما يقرب من عشرة أميال ، علاوة على الأرصفة الداخلة العديدة وما بينها من مساحات مترامية من الأرض الفضاء والمخازن والمنشآت وأرصفة الفحم الهائلة ..

وقد كانت السلطات العسكرية البريطانية (برية وبحرية) تشغل هـذه الأرصفة والمخازن وتستغلها لأقصى حد ... حتى إنها استولت على ثلاثة أرباعها وكدست عتادها الحربى فيها وعليها .. وهذه كانت كالينبوع الذى لا ينضب .. توزع مادته المتدفقة إلى ميادين الحرب المختلفة بالأيدى المصرية من مهندسين ورادرين ومخزنجية وكتبة ومتعهدين وعمارة وحمالين وسواقين السيارات وحراس بنسبة ثمانية مصريين إلى واحد من الإنجليز أو رعايا الإنجليز!! .

وكانت قطع الأسطول البريطانى منتشرة فى الميناء الداخلى والخارجى مربوطة إلى الشمندورات .. تاركة الأرصفة لعشرات

بواخر النقل الحاملة من مختلف الجنسيات التي تتألف منها مجموعة الحلفاء .. وهـذه البواخر لعبت دوراً عظيماً تحت نظام القوافل .. وكانت هدفاً دائماً لطائرات الألمان والطليان كل ليلة . ولـكن لا تلبث في الصباح أن تجتمع عليها الأيدي المصرية الصلبة والأذرع المفتولة وتظل تعمل في شجاعة وصبر في تفريغها ونقلها إلى المخازن وإلى داخلية القطر .. وهكذا العتاد الحربي يبقى في المستودعات حتى ينطلق مرة أخرى إلى حومة الميادين !. جهود جبارة ساهم فيها المصريون بأكثر من ثلاثة أرباع دون كلل أو ملل !. جهود لولم تقدم لارتبك الحلفاء. وما دارت عجلة الإمدادات والتموين بمثل السرعة والبراعة والدقة والبسالة التي كسبت الحرب ..

وكان الميناء بطبيعة مركزه الهدف الهدف الذي حملت طائرات الأعداء على سحقه .. ولـكن جنود المدفعية المصرية البواسل فوتوا عليها هـذا الغرض !. فظلت المعجلة دائرة تدافع عنها قنابلنا وضحى الشعب الإسكندري والميناء الباسل دون تردد حتى تم كسب الحرب !.

لقد كان ميناء الإسكندرية عنوان فخار لنا نعتز به على الأيام ، لأنه هو الميناء الذي كسب حربين .. وكان جنود المدفعية المصرية رمز الصبر والبطولة ، لأنهم ثابروا وقاوموا وأجادوا فكانوا فخر الوطن ... أما شعب الإسكندرية قبل كل من تظلهم سماء مصر .. فكان الباســل دائماً .. وهو نفس الشعب الذي ساهم بجدوده في نصر صلاح الدين عام ١١٧٤ على الفرنج .. والقليلون غير أهل الإسكندرية من يعرفون كم كانت غارات الألمان والطليان المتوحشين قاسية شديدة على الثغر الجميل الباسل الرابض الصامد .. فقد كانت الغارة الواحدة تظل مستعرة الأوار أكثر من ست ساعات في بعض الليالي المقمرة .. ولـكنها كانت تقابل أحسن استقبال من جنود المدفعية المصرية البواسل .. فلم يمكنوا القراصنة الطائرين من إصابة منشآت الميناء !. وكانت تنتهي الحال بهم إلى عدم إصابة الهدف أو إلقاء القنابل خبط عشواء على الأحياء الآمنة فتفتك بالمدنيين المسالمين العزل من السلاح ..

ويكشف ضوء الصباح عن مخازي الوحشية والفشل العسكري الذي سبق وصمة عار لاصقة بأولئك الذين يدعون المدنية وهي منهم براء .. ويعم السخط ويصبح هذا الفشل .. بل هذا الإجرام الفاشل موضع سخرية أهل الثغر كما كان موضع سخطهم وحقدهم .. وقد قال الـكثيرون إنه كان في مقدور الألمان والطليان أن يخربوا المواصلات ويصيبوا البلاد في مرافقها الحيوية لولا أنهم كانوا مشغولي الحركة تقريباً أمام موقف مصر ، لأنها لم تعلن الحرب رعياً على المحور .. وما كتفوا بهذه الغارات على الأهداف العسكرية الإنجليزية في الميناء، وكوم الناضورة ومبنى التلغراف الإنجليزي فاختلف قياس الأهداف بنصف ستين تقريباً فكانت الإصابات لأنما كي تبعد عن الهدف الواحد بمقدار خمسين متراً أو مائة .. مثل تكية القروزة .. وكان المقصود حوض الانجليز المولم ... وحارة اليهود وباب الجير ، وكان المقصود كوم الناضورة التي بالانجليز ومدفعيـة الإنجليز .. ومبنى دائرة راغب باشا وكان المقصود مبنى التلغراف الإنجليزي .. وهكذا ...

وهزأ الميناء الباسل بكل عدوان الألمـان المسلح وقابله بصبر وشجاعة .. وظل يدافع ويناضل شامخ الأنف مرتفع الرأس حتى خرج من المعمعة منتصراً ظافراً .. بعد أن فوت على الأعداء سحقه .. وبعد أن نجا بفضل بسالة حكومتنا من معدات النسف التي أعدها الإنجليز له والألمان على أبواب الأسكندرية .. هـذه الألغام التي أزيلت فور طلب رفعة رئيس الحكومة الحازم ..

وهكذا أنقذت الأسكندرية وأنقـذ الميناء العظيم الذي كسب حربين بدفاعه المجيد .. والذي ظل يدفع عنه جبروت الطغاة بضروب من البسالة والصبر .. لقد خرج البلد مطعون الفؤاد دامي الجراح بما فقد من أرواح . ولـكن الميناء خرج ظافراً منتصراً ... وانتصاره هذا دين في أعناق الحلفاء .. بل الإنجليز .. وقد اعترفوا به .. ولـكن .. ما أكثر نكران الجميل ونكث العهود وعـدم الوفاء عند هؤلاء الذين أخلفوا وعودهم قرابة سبعين مرة !! .

عبد الرحمن الفزاري

جي دي موباسان

ولد هنري رينيه ألبير جي دي موباسان في قصر من قصور القرن السادس عشر ، هو قصر « دي ميرومنيل » بالقرب من دييب في اليوم الخامس من أغسطس سنة ١٨٥٠ وكان أبوه « جستاف » من سلالة النورمانديين .

تعلم موباسان في إيفتو وروان ، ثم اشتغل ككاتب في وزارة البحرية في باريس ، وكان في عمله خاملاً غير كفء ، مما أسخط عليه رؤساءه ؛ فترك العمل سنة ١٨٧٠ ، واشترك في الحرب السبعينية كجندي صغير .

وعندما رجع من الحرب سنة ١٨٧١ شغل منصباً كبيراً في وزارة المعارف ، ولكن ميوله نحو الأدب بدأت تظهر في هذه الفترة ، وكانت أمه (واسمها العذرى مدموازيل لور ليبواتفان) صديقة حميمة لجوستاف فلوبير فعرفته به ؛ وبدأ فلوبير يلاحظ عناصر الأديب العظيم مختبئة وراء عقلية جي دي موباسان ، وشجع فلوبير موباسان على أن يبدأ في الكتابة ، وقدم موباسان إليه بعض القصائد والقصص ، ولكنها لم تعجب فلوبير ؛ فوضع نظاماً قاسياً لتلميذه وتعهده بإشرافه ونصائحه وتوجيهه في الأدب .

وفي عام ١٨٨٠ وجد موباسان نفسه فجأة ، وقد أصبح من كبار الكتاب الفرنسيين ، وذلك عندما نشر كتابين : أحدهما مجموعة من القصائد ذات نزعة إلى الرواية ومهارة وجرأة في التعبير ، وقد كادت تؤدي هذه الجرأة وتخطيه حدود الأخلاق إلى أن يصدر القضاء حكماً عليه ، وكانت هذه الضجة التي ثارت حول الكتاب سبباً في سعة انتشاره .

أما الكتاب الآخر الذي نال به الشهرة فهو « مسائيات ميدان » ، وقد ألحق بآخره قصة قصيرة قرظها إميل زولا وبول ألكسيس .

وبدأ موباسان يغرق الجمهور بمؤلفاته واستمر عشر سنوات متواصلة ينتج فيها بهمة لا مثيل لها وسرعة فائقة ؛ ففي سنة ١٨٨١ صدرت قصته « منزل مدام تليير » وفي سنة ١٨٨٣ ظهرت « مدموازيل فيفي » ثم جاء كتابه « حياة » ومجموعة من أجمل القصص القصيرة « أقاصيص من لايكاس » فلفت هذان الكتابان أنظار الجمهور إليه وتعلق به .

وسافر موباسان من بلد إلى بلد وجمع مغامراته ومشاهداته في البلاد في كتاب « الشمس » سنة ١٨٨٤ ، وفي نفس السنة أصدر مجموعات من القصص القصيرة لاقت أكبر نجاح ، وقد سمى كل مجموعة باسم قصة فيها ؛ فظهر له « أخوات روندولي » و « مس هارييت » و « ضوء القمر » ، ثم ظهرت قصة طويلة له « إيفيت » .

وأعظم قصصه وأرفعها شأناً في الأدب هي « حياة » ثم « الصديق الجميل » سنة ١٨٨٥ ثم « مونت أوريون » سنة ١٧٧٨ ثم « بيير وجان » سنة ١٨٨٧ ، ثم « قوى كالموت » سنة ١٨٨٩ ثم « قلبنا » سنة ١٨٩٠ .

وقد جمعت هذه المؤلفات التي أصدرها في عشر سنوات ، فظهرت في أكثر من ثلاثين مجلداً .

ولكن الحياة المرهقة التي عاشها ، وعمله الذي لم ينقطع عشر سنوات كان لهما أشد التأثير عليه ، فانهارت أعصابه تماماً قبيل عام ١٨٩١ ، وبدأت تنتابه تخيلات وهواجس ؛ فيرى مالا يُرى ، وحاول أن يتخلص من هذه الأطياف التي تزوره ، فقام برحلة في يخت في البحر الأبيض ، ولكنها لم تجده نفعاً ، ونصحه الأطباء بأن يستشفي في كان وإكس ليبان حتى يسترجع هدوءه وطمأنينة نفسه .

وفي كان بدأ جنونه يظهر في شكل مروع ، وفي اليوم السادس من يناير سنة ١٨٩٢ حاول أن يقتل نفسه بأن يقطع رقبته فلم ينجح ، وحاول أن يقتل نفسه بالرصاص ففشل ، ثم نقلوه إلى باريس بصعوبة بعد أن وضعوه في زكيبة وأودعوه مستشفى الأمراض العقلية .

وقضى في المستشفى حياة مؤلمة حتى مات في ٦ يوليه سنة ١٨٩٣ . وظهرت بعد وفاته ثلاثة كتب له .. اثنان مكونان من قصص قصيرة ، والثالث مجموعة رسائل .

كان موباسان ضخم البنية هوائياً متقلب العواطف ، وكان نادراً على الصداقة ، غير أنه كان يخرق دون تردد التقاليد الاجتماعية ، وقد كان وهو في ذروة مجده كارهاً للناس يرتاب فيهم ولا يأبه لهم ، وقد يستطاع أن يستشف من بعض مؤلفاته دلائل الجنون التي كانت كامنة فيه ، وخاصة قصته « الهورلا » التي هي في الواقع وصف دقيق للحالة التي انتابته في أواخر أيامه .

حبيب أحمد أمين

هنا يتكلمون الفرنسية ...

للعالم اللغوى الفرنسى ألبير دوزا

ترجمة الأستاذ مبارك ابراهيم

إن ما تسيطر عليه اللغة الفرنسية من بلاد العالم أو تملكه بوضع اليد، يتجاوز حدود فرنسا السياسية؛ فنى بلجيكا يتكلم اللغة الفرنسية ثلاثة ملايين ونصف مليون، وهم سكان « والونيا »، وفى سويسرا يتكلمها تسعمائة ألف.

وفى خارج حدود القارة الأوربية لا يقتصر التكلم بالفرنسية على سكان المستعمرات الفرنسية، بل يتعداها إلى بعض الممتلكات الفرنسية السابقة. فنى كندا يبلغ عدد المتكلمين بها ثلاثة ملايين، ثم تتلوها «هايتى» (أو الجمهورية السوداء) وفيها من الناطقين بالفرنسية مليون.

ويدور الحديث بالفرنسية فى الجزيرة الأفريقية « Mauritius » وهى اليوم من أملاك الإنجليز. وإن كانت المحاولات تبذل لتحل الإنجليزية محلها فى تلك الجزيرة.

وفى الولايات المتحدة الأمريكية اختفت اللغة الفرنسية من حوض المسيسبى فى منتصف القرن التاسع عشر. ولكن فى « لويزيانا » لا تزال الفرنسية تجاهد فى سبيل البقاء.

ودراسة مسألة انتشار اللغة الفرنسية عبر البحار لم تبدأ إلا منذ قليل، فقد طبع فى « كندا » قاموس للهجات العامية الفرنسية. وهو يهدينا إلى أن استعمار الفرنسيين لكندا قد بدأ فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر.

وكان المهاجرون الأولون قد جاءت كثرتهم من القسم الغربى من فرنسا. وهذا ما يفسر لنا ما نراه فى لغة « كندا » الفرنسية من كلمات عفى عليها الدهر فى فرنسا، ومن اصطلاحات أهل الريف الفرنسى وتعبيراتهم.

وللزنوج بإفريقيا الذين يتكلمون الفرنسية لهجة خاصة هى مزيج من الفرنسية ومن اللهجات الأصلية لأولئك الأقوام ولا تزال اللهجات التى كانت سائدة فى فرنسا إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر سائدة فى « هايتى » وفى جزيرتى « موريشيوس » « ومدغشقر ».

والمتتبع دراسة اللغة الفرنسية فى تلك الجزر يرى اختلافا فى مخارج الحروف كحذف حرف الراء، وكوضع بعض الحروف الساكنة مكان بعض، كما يرى تبسيطا فى نحو اللغة. وكما يرى اصطباغ مفردات اللغة بالصبغة المحلية.

والفرنسية التى يتكلمها الأقوام الوطنيون فى المستعمرات الفرنسية فى إفريقيا وفى الهند الصينية قد أسس بنيانها على لهجات المستعمرين (بالكسر) وإن كان التحسن قد أدخل عليها بفضل المدارس المنشأة هناك. وبفضل هجرة من هاجر من قوم تلك البلاد إلى فرنسا.

والمهاجرون من الفرنسيين إلى خارج فرنسا منتشرون انتشار قلة لا انتشار كثرة. فهم فى الولايات المتحدة الأمريكية ١٥٠٫٠٠٠، وهم فى الأرجنتين ١٠٠٫٠٠٠، وهم فى بريطانيا العظمى ٢٠٫٠٠٠. ويقل عددهم عن ذلك فى أسبانيا، وفى المقاطعات الألمانية بسويسرا.

وهذه الجاليات، والكثرة من أفرادها متعلمون، تعمل على نشر اللغة الفرنسية وعلى جعل الأقوام الذين ينزلون بينهم يتذوقون الثقافة الفرنسية.

وهجرة الفرنسيين إلى خارج بلادهم قد بدأت منذ زمن بعيد؛ فالغزو النورمندى لانجلترا قد حمل اللغة الفرنسية معه عبر الخليج، وذلك فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى. وجعل من الفرنسية اللغة الرسمية. واللغة التى تتكلمها طبقة الأستقراطيين فى بلاد الإنجليز. ولم تستطع اللغة الإنجليزية أن تتغلب عليها أو تمحوها قبل القرن الرابع عشر.

وكذلك غزت اللغة الفرنسية منذ زمن مديد أقساما من البلاد الألمانية ومن البلاد البلجيكية.

ونحن نرى في القرن الثالث عشر الكاتب الإيطالي « برونيتو لاتيني » يكتب بالفرنسية كما نرى من بعده واحداً من بني جنسه يكتب بها وهو الرحالة « ماركو بولو » .

وقد أدت الحروب الصليبية إلى إنتشار النفوذ الفرنسي في الشرق الأدنى . فقد ظلت أسرة فرنسية تحكم القسطنطينية نصف قرن من الزمان (١٢٠٤ — ١٢٦١) وحكمت أسرة فرنسية أخرى البلاد السورية قرنين كاملين . كما حكمت أسرة ثالثة جزيرة قبرص ثلاثة قرون .

وفي إيطاليا تولت الحكم في نابولي وفي قسم من جزيرة صقلية أسرة نورماندية من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر . بينما شمال إيطاليا كانت تحكمه أسرة « بيدمونت » وقد جاءت من « سافوى » واتخذت اللغة الفرنسية لغتها الوطنية .

وكان لحرب المائة سنة (وهي مجموعة الحروب الطويلة التي ظلت ناشبة بين فرنسا وانجلترا والتي بدأت في عهد ادوارد الثالث عام ١٣٣٧ وانتهت في عهد هنري السادس عام ١٤٥٣) وما أدت إليه من انحطاط في الأدب ، الأثر كل الأثر في تقلص ظل اللغة الفرنسية في كل مكان من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر .

ولكن اللغة الفرنسية بدأت مرة أخرى تسترد مكانتها العظمى . وبلغت الأوج قبيل الثورة الفرنسية . وذلك يوم أنشأت أكاديمية « برلين » مسابقة موضوعها : « الأسباب التي دعت إلى تعميم اللغة الفرنسية في العالم » .

ومن عظماء الأجانب الذين اتخذوا اللغة الفرنسية لغة لأقلامهم : الفيلسوف الألماني « لبنيز » (١٦٤٦—١٧١٦) والأمير شارل جوزيف دي لين (١٧٣٥ — ١٨١٤) وكان قائداً بلجيكيا خدم في النمسا ، كما كان كاتباً ذكياً . والراهب جاليانى ، وكان أديباً كما كان عالماً من علماء الاقتصاد (١٧٢٨ — ١٧٨٧) ثم « فريدريك الأكبر » ملك بروسيا (١٧١٢—١٧٨٦) وهو غني عن التعريف .

وقد قضت اللغة الفرنسية فترة من الاضمحلال في أعقاب الثورة الفرنسية ، ولكنها بقيت أثناء القرن التاسع عشر اللغة الثانية للأرستقراطيين في ممالك أوربا الوسطى وفي الروسيا وإيطاليا وحتى في تركيا . وكان للإرساليات الدينية الفرنسية فضل نشر اللغة الفرنسية ومد رواقها في بلاد كثيرة .

ثم جاءت الحرب العظمى . وحطمت ثلاث امبراطوريات ، كما أودت بكثير من الممالك الصغرى . وخربت ديار قوم أرستوقراطيين . فكان لكل هذا أثره في زعزعة سلطان اللغة الفرنسية .

وقد أعان على هذا ما أعقب تلك الحرب من نهضة الأمم والشعوب وغيرتهم — بدافع الوطنية — على لسان قومهم .

ولكن يقابل هذا من جهة أخرى عناية الأمم الأنجلوسكسونية وأمم الشرق الأدنى بدراسة الفرنسية .

وكثيرون من الكتاب الأجانب يستعملون اليوم ، أو كانوا يستعملون ، اللغة الفرنسية في كتاباتهم ، ومنهم « موريس مترلنك » الكاتب البلجيكي ، ومنهم « دانونزيو » الكاتب والشاعر الإيطالي ، ومنهم الكاتب الروماني « بانايت استراتي » والكاتبتان « أنا دي نواي » والآنسة « ماكاريسكو » ، ومنهم الكاتب اليوناني « جان موریاس » والكاتب الأمريكي « ستيوارت ميريل » .

وفي القرن السابع عشر حلت اللغة الفرنسية مكان اللاتينية كلغة المعاهدات الدولية في أوربا ، وأول المعاهدات التي كتبت بتلك اللغة معاهدة « راستات » عام ١٧٤٠ .

وبعد قرنين ، أي في عام ١٩١٩ كان على الفرنسيين أن يرضوا لغتهم أن تشاركها اللغة الإنجليزية ، وذلك في معاهدة « فرساي » .

وقد بدت اليوم حاجة الأقوام إلى الاتفاق على لغة عالمية واحدة .

وبينما اللغات المصطنعة التي سبق أن خلقها الناس قد فشلت في تأدية الأغراض التي أنشئت لها ، فإن تدويل اللغات الكبرى قد بدأ يكسب المعركة سواء في المدى الجغرافي أو الاجتماعي .

ولا تزال اللغة الفرنسية إلى اليوم تحتفظ بالمقام الثاني في الأوساط الأرستقراطية والدبلوماسية .

ويبدو أن النية سوف تتجه إلى الاتفاق على لغة واحدة لكل غرض من الأغراض . فتكون الإنجليزية اللغة الرسمية للاقتصاديات ، وتكون الألمانية اللغة الرسمية للمسائل الكيمائية ، والفرنسية للرياضيات ، والإيطالية لمسائل الموسيقى .

واللغة الفرنسية وإن كانت لا تطمع أن تكون لها الزعامة والصدارة ، وهو ما يبدو اليوم مستحيلاً ، فإنها سوف تحتفظ دائماً بالمقام الراجح ...

(عن الإنجليزية) مبارك ابراهيم

ماذا نعرف عن السودان

للأستاذ السيد المحروق

«إن المتأمل في خريطة وادي النيل يأخذه العجب للشبه القائم بينه وبين شجرة النخيل الباسقة ؛ فأرض الدلتا بخصبها وخضرتها تنتشر عند قمة الوادي كما ينتشر جريد النخل وسعفه في رشاقة نادرة . وقد يلتوي الجذع إذ ينحني النيل انحناءة واسعة حينما يجري في أرض السودان . ولكن الشبه يعود دقيقاً كاملاً جنوب الخرطوم ، ثم تبدأ جذور الشجرة تتوغل في عمق . وليس هناك صورة أصدق من هذه الصورة لذلك الرباط الوثيق ، رباط التعاطف بين مصر والمديريات الجنوبية ، فالماء وهو حياة الدلتا يهبط متدفقاً في مجرى النيل كما تتدفق العصارة في ساق الشجرة لتؤتي ثمرها رطباً جنياً — وإذا كانت منفعة مصر واضحة جلية فهي ليست وقفاً عليها وحدها — ذلك لأن الرباط بين مصر والسودان مزايا متبادلة ، فالسودان بحكم الطبيعة والعوامل الجغرافية جزء من مصر ، وليست حاجة السودان لمصر أقل شأناً من هذا كي يتسنى له التقدم والنهوض ، إذ لا خير في الجذور الطيبة إذا فصلت الساق التي لا يتهيأ مظهر الحياة إلا بها » .

ذلكم ما قاله ونستون تشرشل السياسي المخضرم في كتابه حرب النهر .

والسودان يشغل نحوا من مليون ميل مربع من الأراضي الشاسعة تقع بين خطي العرض ٥ و ٢٢ وهذه المساحة التي تتمم وادي النيل يوجد بها من السكان ما يقرب من عشرة ملايين نسمة أو يزيد ، ويجب أن نذكر أنه لم يعمل إحصاء رسمي في السودان حتى الآن على غرار الإحصاءات الحقيقية التي تجري في البلاد الأخرى مما كان سبباً في اختلاف الآراء في حقيقة عدد سكان هذا الجزء من وادي النيل .

ولقد كانت الطبيعة خيرة منذ القدم على السودان إذ حبته بعوامل لم نجد مثلها في كثير من البلدان الأخرى ؛ فالأرض خصبة خصباً فريداً في نوعه ، والنيل يجري في أرجائها ، والأمطار تهطل مدراراً في كثير من أنحائها وعلى اختلاف فصول السنة ؛ لذلك كانت الزراعة العنصر الأول الذي تقوم عليه ثروة البلاد .

وأهم ما تجدر الإشارة إليه مشروع الجزيرة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض وتبلغ مساحته خمسة ملايين فدان تقريباً يزرع منها حالياً ما يقرب من الـ ٨٠٠٠٠٠ فدان تمد بحاذاة النيل الأزرق ، ويستغل منها في زراعة القطن ٣٠٠٠٠٠ فدان سنوياً تقريباً . ويعد ذكر مشروع الجزيرة الذي يمتد على هيئة مثلث من الأراضي الخصبة رأسه عند الخرطوم وضلعاه النيل الأزرق والنيل الأبيض ، وقاعدته تمتد بين كوستي وسنار — يجب ألا ننسى أن النقابة الزراعية السودانية Sudun Plantation Syndicate هي التي قامت باستغلاله وزراعته منذ زمن بعيد ، وليس أدل على اهتمام الإنجليز بهذا المشروع نظراً لما يدره عليهم من خير ، من أنه في سنة ١٩٣٠ انتاب هذه النقابة إعصار مالي كاد يودي بها لولا أن قام رجال من الإنجليز للعمل على توفير المال اللازم لها ؛ ومما يؤسف له أن مصر لم تفطن إلى أهمية هذا المشروع فتبادر إلى المساهمة فيه برءوس أموالها ، وكان من جراء ذلك أن استعادت هذه النقابة نشاطها مرة أخرى وعملت على تدعيم الاستعمار الاقتصادي في السودان برءوس أموال انكليزية بحتة ؛ وقد تقرر في سنة ١٩٤٤ أن تصفي هذه النقابة أعمالها على أن يتم ذلك نهائياً في سنة ١٩٥٠ ، وذلك بعد أن أظهر السودانيون تذمرهم من هذه النقابة وقيام حركة فكرية حديثة ترمي إلى مهاجمة هذه النقابة . وسنعود لمشروع الجزيرة ببحث خاص نظراً لأهميته .

يخطئ من يظن أن أرض الجزيرة لا يماثلها في الخصب أراض أخرى في السودان ، فهنالك مناطق كثيرة تشابهها في الخصب وجودة التربة كالمنطقة الواقعة بين النيل الأزرق ونهر عطبرة وغيرها من المناطق المبعثرة في أرجاء البلاد . ومما هو جدير بالذكر أن تلك المنطقة الواقعة بين النيل الأزرق ونهر عطبرة لم تولها الإدارة هناك اهتماماً كي تستغل استغلالا زراعيا بالمعنى الصحيح ؛ ولعل العامل الأول في ذلك هو

قصة سان ميشيل

للأستاذ أحمد بدران

لم ينل كتاب في العصر الحديث من سعة الانتشار مثل ما نال كتاب « قصة سان ميشيل » الذي وضعه الدكتور أكسيل مونتيه ، فمنذ صدور هذا الكتاب في عام ١٩٢٩ باللغة الإنجليزية بلغت طبعاته إلى اليوم خمساً وسبعين طبعة ، وترجم إلى ثلاثين لغة حية ، وبيعت من طبعته التي ظهرت في عام ١٩٤٩ نسخ أكثر مما بيع من الطبعة الأولى .

ولقد قابله النقاد بحفاوة منقطعة النظير ، وتقدير فاق كل الحدود . فقال أرنولد بنت : « هذا كتاب يتيح لكل إنسان بغيته » ، وقالت جريدة الديلي نيوز : « إن في هذا الكتاب مادة كافية لأن يستقي منها كتاب القصة القصيرة إلى آخر أيام حياتهم » .

وقد ولد مؤلف الكتاب في السويد ، ثم درس الطب في باريس حيث مارس مهنته وأصبح طبيب الطبقة الراقية المفضل ، ثم رحل إلى إيطاليا واشتغل بالطب هناك ، ثم أصبح طبيب الأسرة المالكة في السويد ، وقضى آخر أيامه بإنجلترا .

ما هو موضوع « قصة سان ميشيل » ؟ سؤال من الصعب الإجابة عليه ، حتى إن المؤلف نفسه يقول : « لقد وجد النقاد صعوبة في محاولتهم تصنيف قصة سان ميشيل وأنا لا يدهشني ذلك ! بعضهم وصفه بأنه تاريخ حياتي ، وبعضهم وصفه بأنه مذكرات طبيب . ولكني أعتقد أن الكتاب ليس هذا ولا ذاك . فمن المؤكد أنني لست بحاجة

حرص إدارة السودان على أن تترك الأمور تجري على ما هي عليه الآن دون أن تلفت الأنظار إلى أهمية المناطق من الناحية الزراعية والاقتصادية إلى أن يتقرر نهائيا الوضع السياسي للسودان .

من كل ذلك يتبين أن الزراعة هي عماد الثروة ؛ وأهم الحاصلات الزراعية هو القطن الذي يزرع في مناطق أخرى غير الجزيرة كمنطقة خور الجاش وخور بركة وطوكر ، كما أن من أهم الحاصلات الصمغ العربي والسمسم والأذرة والفاصوليا واللوبيا . ويصدر السودان الجزء الأكبر من القطن إلى انجلترا ، أما الحاصلات الأخرى فإن السودانيين يولون بها وجوههم شطر مصر وغيرها من البلاد العربية الأخرى . أما الثروة الحيوانية فيصدر جزء كبير منها إلى مصر .

وبالسودان صناعات بدائية كصناعة الحصير واللحوم المجففة وبعض المصنوعات الجلدية وسن الفيل وريش النعام .

أما من الناحية الاجتماعية فقد حكم الإنجليز السودان أكثر من ٥٠ عاما ومع ذلك لا تزال الحياة بدائية في كثير من الأرجاء والمناطق . مما جعل البلاد متأخرة عن السير في

ركب الحضارة . ولقد عملت إدارة السودان على شطر البلاد شطرين : السودان الشمالي والسودان الجنوبي ؛ بل أكثر من هذا فإنها عملت على وجود مناطق في الجنوب حرام على السودانيين من أهل الشمال زيارتها أو الدخول فيها ، وما أكثر التعلات والأسباب التي يبررون بها تصرفهم هذا ؛ فهم يقولون إن أهل الجنوب لا يزالون على الفطرة وليس من الصواب أو الرأي أن يتصلوا بأهليهم وذويهم في الشمال . وفي الحقيقة أن أهل الجنوب لم يرضوا بما وصفتهم به هذه الإدارة وأظهروا كما أظهر أهل الشمال سواء بسواء امتعاضهم من ذلك وعملوا جاهدين على أن يحطموا هذه الأغلال التي تلتف حول أعناقهم . ومنذ عهد قريب اشترك أهل الجنوب فيما يسمى بالجمعية التشريعية بالخرطوم وأصبح لهم صوت فيها يعبرون به عن آرائهم ويدافعون عن مصالحهم ، وهم يبدون آراءهم في حرية وصراحة ، لا ينافقون ولا يداهنون ولا يتأثرون في ذلك برهبة سلطان أو حسب أو جاه .

السيد المحروقي

إلى أن أملأ خمسمائة صفحة بقصة حياتى ، حتى لو لم أغفل منها عامداً نواحيها الحزينة المؤثرة .

«وكل ما أستطيع قوله ، أنى لم أقصد وضع كتاب عن نفسى ، بل إن الأمر عكس ذلك تماماً . لقد حرصت طوال الوقت على أن أنحى شخصى جانباً ، فإذا ما استحال الكتاب بعد هذا تاريخاً لحياتى ؛ فلا بد أن أبسط طريقة يتبعها الشخص إذا ما أراد أن يكتب عن نفسه : هى أن يحاول جاهداً أن يفكر فى شخص آخر ؛ أما أن هذا الكتاب مذكرات طبيب ؛ فإنه أبعد عن الواقع ، فإن بساطته وصراحته تبعده عن أن يستأهل هذا الوصف . إن الطبيب كأى إنسان الحق فى أن يسخر من نفسه بين الآن والآن ، وربما حق له أن يسخر من زملائه لو كانت لديه الجرأة على احتمال نتائج هذه السخرية ؛ لكنه لا يجوز له أن يسخر من مرضاه ، كما لا يجوز له أن يبكى من أجلهم ؛ فإن من يرق لمرضاه لا يصلح أن يكون طبيباً ، وإلى جانب ذلك فإن الطبيب الشيخ يجب أن يتردد كثيراً قبل أن يجلس إلى كرسى وثير ليكتب مذكراته ، خير له أن يحتفظ لنفسه بتجاربه عن الحياة والموت . فيترك الموتى فى سلام ، ويدع الأحياء فيما هم سادرون فيه من خداع ! » .

وأيا كان الوصف الذى يجب أن نصف به هذا الكتاب ، فإنه كتاب يضع أمام أعيننا صوراً حية ، مجلوة رائعة ، كتبها أكسيل مونتيه الذى وهب إلى جانب البصيرة النافذة والنظرة المتغلغلة فى أعماق النفس البشرية ، حسن الأداء وفصاحة البيان . إنه يتحدث عن أيام كان يطلب العلم فى باريس فيقول :

« الحى اللاتينى . حجرة طالب فى فندق المستقبل .. أكوام من الكتب فى كل مكان على المائدة والمقاعد وعلى الأرض . وهناك على الجدار صورة شاحبة لجزيرة كابرى . الصباح فى ردهات مستشفى السالبتريير والأوتيل ديه ولاريبق ، أتنقل من سرير إلى سرير لأطالع الفصل تلو الفصل فى كتاب الألم الإنسانى الذى كتب بالدم والدموع ، وبعد الظهر فى قاعات التشريح ومدرجات مدرسة الطب أو معامل مؤسسة باستير أتطلع فى المجهر بعيون دهشة إلى ذلك العالم غير المنظور ، إلى تلك الكائنات التافهة فى الصغر التى تسيطر على حياة الإنسان وموته ، وفى المساء أجاهد فى صبر لفهم الحقائق المتعبة والعلامات الخالدة للاضطراب والمرض جمعها ورتبها المشاهدون من كل أرض .

وتعلمت أن أدرك دقائق تلك الآلة الضخمة : الجسم الإنسانى ، وذلك العمل المنتظم الدقيق لمجلاتها وتروسها فى الصحة وما ينتابها من اضطراب فى المرض ثم توقفها بالموت .

وعرفت الآن سر تلك الآلام التى تصيب المرضى ، وتشدهم إلى أسرتهم فلا يستطيعون فكاكا ، واستطعت أن أستخدم الأسلحة الجراحية الحادة ، أقاتل بها ذلك العدو الرهيب الذى يجول فى الأنحاء فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار ، يندفع أحياناً مسرعاً إلى القاعة يصرع ذات اليمين وذات الشمال ، يصرع الشيخ والشاب فى غضب أعمى كأنه المجنون يشدد قبضته على رقبة أحد ضحاياه فى بطء ، ويرفع الضمادة عن جرح نازف فى آخر حتى يمتص آخر قطرة من دمه . وأحياناً يأتى فى خطوات مسترقة ، صامتاً هادئاً فيغمض جفنى فتى يتألم بلمسة حنون ، فإذا هو قد استغرق فى نوم أبدى وهو يبتسم .

لا أشعر فى كثير من الأحيان بقدومه ، ولكن الأطفال الصغار الذين يأوون إلى صدور أمهاتهم هم الذين يحسون بقربه فيستيقظون من غفلتهم صارخين فى هلع حين يمر بهم .

فى أول الأمر عندما كنت أقف لا حول لى ولا قوة على جانب السرير ، ويقف هو منتصراً على الجانب الآخر ، لم أكن ألحظه . كانت الحياة هى كل شىء عندى فى ذلك الحين ، وكنت أعرف أن مهمتى تنتهى حين تبدأ مهمته ، فلم أكن أستطيع إلا أن أدير وجهى عنه وأنا محنق لأنى هزمت ، ولكنى بدأت أخيراً آلفه وأرقبه فى اهتمام ، وأتوق إلى أن أعرفه وأفهمه . بدأت أدرك أن له نصيبه من العمل

كما أن لي نصيبي وأن له مهمة يؤديها كما أن لي مهمة . وأننا زملاء قبل كل شيء ، وأنه إذا ما انتهى صراع الحياة بفوزه ، فمن الخير أن ننظر إلى بعضنا مواجهة دون خوف وأن نصبح صديقين ... وبعد ذلك جاء وقت كنت أعتبره صديقي الأوحد . كنت أنتظره بشغف بل وأحبه . على أنه لم يبد عليه أنه اهتم بي قط ! لو استطعت أن أقرأ في وجهه العابس لعلمت كل شيء ، ولملأت تلك الثغرات الناقصة في معلوماتي الضئيلة عن آلام البشرية . هو وحده الذي قرأ الفصل الأخير الذي ينقص كتبي الطبية . حيث تجد شرح كل معضلة وحل كل مشكلة وجواب كل سؤال واضحاً ... »

وفي فصل آخر يتحدث الكاتب عن ممارسته الطب في باريس وما لاقى من صعاب فيقول : « شارع فيلييه . الدكتور مونتيه . من الثانية إلى الثالثة . جرس الباب يدق باستمرار ، والرسائل تستدعيني لحالات مستعجلة بالليل والنهار ، والتليفون ذلك السلاح المبث في أيدي النساء العاطلات . غرفة الاستشارة تمتلىء بالمرضى من كل نوع ووصف ... معظمهم من مرضى الأعصاب ، وأغلب هؤلاء من الجنس الناعم .... كثيرون منهم مرضى حقيقة ، مرضا خطيرا . كنت أصغي في حذق إلى ما يقولون ، وأفحصهم بكل ما أملك من دقة وعناية ، واثقا أني أستطيع أن أجد وسيلة لمساعدتهم . هذه الحالات لا أجد ميلا إلى الحديث عنها الآن وربما فعلت ذلك يوما ... لكن إلى جانب هؤلاء كثيرون ليسوا مرضى على الإطلاق إلا بالوهم ، كانوا يقصون قصة طويلة ويتحدثون عن جداتهم وعماتهم وأعمامهم أو يخرجون من جيوبهم ورقة صغيرة يقرأون منها فيضا من الأعراض والشكوى (مرض الورقة الصغيرة كما كان يدعوه شاركو) وكان هذا جديدا على أنا الذي لم أتعود العمل خارج المستشفيات حيث لا وقت لهذا الهذر السخيف ... ولكني عندما ازددت معرفة بالطبائع البشرية تعلمت أن أمنح هؤلاء معاملة أفضل . على أننا لم نكن على وفاق قط . كانوا يحزنون عندما أقول لهم إن مظهرهم يوحي بالصحة وإن وجوههم تفيض بالحيوية ، ولكنهم يفرحون جدا إذا ما أضفت أن لسانهم فيه بعض القذارة . وكنت أشخص معظم هذه الحالات على أنها إفراط في الطعام ، الافراط في تناول الفطائر والحلوى بالنهار والعشاء الدسم بالليل .... وربما كان هذا أقرب تشخيص من الحقيقة ، ولكنه لم يلق نجاحا ، فما من أحد كان يقبله . كانوا يحبون تشخيص .. التهاب الزائدة الدودية .. فتحولت إليه تدريجيا ، كانوا يشكون من الزائدة الدودية التي في عقولهم لا في بطونهم ، وعالجت عدداً كبيرا من هذه الحالات بنجاح . ولكن لما ذاعت الأنباء بأن الجراحين الأمريكيين قد بدأوا حملة لإزالة الزائدة الدودية في كل إنسان في الولايات المتحدة ، بدأت حالات الزائدة تهبط بطريقة تنذر بالخطر . كانت السيدات الأنيقات يصحن : « يزيلون الزائدة ؟ ... زائدتي ؟ ! » . وكن يتعلقن بها تعلق الأم بوليدها فكيف يعشن بدونها . وكان الأطباء يقولون : « يزيلون الزائدة ؟ ! » وهم ينظرون إلى كتف مرضاهم ويضيفون « لم نسمع قبل بمثل هذا ... لم ؟ أليس هناك شيء في هذه الزوائد ... نحن نفحصهم مرتين كل أسبوع ونعرف ذلك ... لا بد من محاربة هذا الرأي بكل قوة ! » .

وبدا أن .. التهاب الزائدة الدودية .. في النزع الأخير ، وأنه يجب اكتشاف مرض آخر يلبي طلب الجماهير ... وسرعان ما أجهدت العقول وصك* في السوق مرض جديد ، التهاب القولون ! » هذه شكوى لطيفة ، ثم هي بعيدة عن متناول مبضع الجراح ... وهي دائما تحت أمر من يطلبها وتوافق مزاج كل إنسان ... »

وهكذا يمضي المؤلف العظيم يعرض علينا صورا رائعة ، تمتاز بالحياة والوضوح في أسلوب سلس جذاب ، صوراً للحياة في إيطاليا وفي السويد ، ثم في تلك الجزيرة الصغيرة حيث اشترى منزلا يقضي فيه أخريات أيامه .

ما أشد تلهف قراء العربية على ترجمة لهذا الكتاب العظيم .

أحمد بدران

إنباه الرواة على أنباه النحاة

لجمال الدين القفطي

نشر وتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم

للدكتور شوقي ضيف

هذا الكتاب الذي عني بتحقيقه ونشره الأستاذ الفاضل محمد أبو الفضل إبراهيم أحد الأعمال القيمة التي تضطلع دار الكتب المصرية بإخراجها للباحثين .

والكتاب كما يدل عنوانه معجم للنحاة منذ أبي الأسود الدؤلي إلى عصر المؤلف في القرن السابع إذ توفي كما نعرف عام ٦٤٦ هـ . والقفطي عالم مصري ، أو بعبارة أدق أديب مصري ، ولد بقفط إحدى بلدان الصعيد ، وانتقل مع أبيه إلى القاهرة ، ورآه وهو في خدمة القاضي الفاضل ، واختلف أثناء ذلك إلى علماء القاهرة والإسكندرية ، حتى إذا اختار السلطان عثمان بن صلاح الدين أباه والياً على بيت المقدس رحل معه هناك ، وظل يختلف إلى العلم والعلماء . ودار الزمن دورته ، وولي مصر العادل واتخذ ابن شكر وزيره ، وكان مغاضباً لأبيه ، فخرج من ولايته خائفاً وتبعه ابنه إلى حلب حيث أمضى بقية حياته مشرفاً على الديوان تارة ووزيراً أو متصرفاً عن الوزارة تارة . وهو في الحالين جميعاً موضع التكريم والتبجيل .

وإذا لاحظنا أن العادل ولي مصر سنة ٥٩٦ هـ كان معنى ذلك أن جمال الدين القفطي قضى في حلب نحو خمسين عاماً في حياة هادئة ونعمة شاملة . فأتاح له ذلك أن يتوفر على الثقافة العربية بجميع فروعها ، وأن لا يكتفي بذلك بل يصبح مشاركاً فيها ، فقد عدّ له كتاب التراجم أكثر من خمسة وعشرين كتاباً في فنون مختلفة ، ولقيه ياقوت وأشاد به في كتابه معجم الأدباء إشادة بالغة ، إذ يقول : « اجتمعت بخدمته في حلب ، فوجدته جمّ الفضل كثير النبل عظيم القدر سمح الكف طلق الوجه حلو البشاشة ، وكنت ألازم منزله ويحضر أهل الفضل وأرباب العلم فما رأيت أحداً فاتحه في فن من فنون العلم كالنحو واللغة والفقه والحديث وعلم القرآن والأصول والمنطق والرياضة والنجوم والهندسة ، والتاريخ والجرح والتعديل ، وجميع فنون العلم على الإطلاق ، إلا قام به أحسن قيام وانتظم في وسط عقدهم أحسن انتظام » .

وهذه شهادة قيمة ترفع من شأن القفطي بين معاصريه وتنضم إليها ضميمة أخرى أو شهادة ثانية من ابن شاكر في كتابه فوات الوفيات إذ يقول : « جمع من الكتب ما لا يوصف وقُصِدَ بها من الآفاق . وكان لا يحب من الدنيا سواها ، ولم تكن له دار ولا زوجة . وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب ، وكانت تساوي خمسين ألف دينار » فنحن إذاً إزاء شخصية ممتازة وهبت نفسها وكل ما تملك للكتب وتلك لذة لا تعدلها لذة ، إذ تحوي لذة الاقتناء والتملك من جهة ، كما تحوي اللذة العقلية والروحية . وإذا كان في عصرنا من يشتهرون بجمع الطوابع أو بجمع بعض التحف كالسجاجيد أو بعض الطرف الفنية كالصور ، فإن القفطي كان يجد لذة عقله وروحه وعينه في الكتاب ، وعرف فيه معاصروه ذلك فبادروا يهدونه نادرها وأبدعها خطوطاً وتجليداً .

وروى الرواة أنه حصل على نسخة من كتاب الأنساب للسمعاني بخط يده وتصادف أن كان بها نقص فحاول الحصول على ما يسد هذا النقص ورجع إلى مظان النسخة فعثر على أوراق منها وافتقد أوراقاً أخرى قيل له إن فلانساً استعملها قوالب للقلانس فضاعت ! فاشتد أسفه واحتجب في بيته ، وظل جمع من أصدقائه يزورونه تعزية له ، كأنما فقد حبيباً . ولا شك في أن هذه القصة تدل على مدى حبه للكتاب

السليم من الخطأ ومعرفة قيمة الكتاب أو بعبارة أدق قيمة النسخة التي يكتبها المؤلف من كتابه.

فما يصطلح عليه الناشرون الآن من تقديم نسخة المؤلف على بقية النسخ كان القفطي يعرفه تمام المعرفة، وكان يحرص عليه حرصاً بالغاً، لا للنشر والتحقيق بل للقراءة والفائدة. وقد ذكر ياقوت له كتاباً يسمى «نهزة الخاطر ونزهة الناظر في أحاسن ما نقل من ظهور الكتب». وهذه ناحية هي الأخرى يعرفها من يعملون بأصول النشر الحديث إذ توصف نسخ الكتاب المنشور، وإذا كان على ظهر الكتاب أو على ظهر الورقة الأولى منه تملكات أو قراءات أو نحو ذلك ذكره الناشر. ويقول الأستاذ المحقق لهذا الجزء الأول من إنباه الرواة في مقدمته له: «ونجده في كتابه (الإنباه) كثيراً ما يفخر بأنه اقتنى كتاباً بخط مؤلف معروف أو ناسخ مشهور أو عثر على نسخة فريدة من كتاب لا توجد عند سواه».

وليست هذه هي الملاحظة الطريفة الوحيدة التي يضعها الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم بين يدي من يحاول الإفادة من الكتاب، فقد ضمن مقدمته له معلومات طريفة عن جمال الدين وعصره وأسرته وثقافته وحياته، حتى إذا فرغ من ذلك ذهب يتحدث عن الكتاب الذي ينشره، مشيراً إلى مصدرين أساسيين، اعتمد عليهما القفطي في صنع هذا الكتاب وهما: ١ — الكتب المؤلفة قبله التي يستقي منها وقد أحصاها كذا!، ٢ — ومعارفه التي استمدها من معاصريه أو وقعت تحت بصره.

ومعنى ذلك أنه حاول أن يدرس الكتاب، وأن يتعرف على منابعه ومظان نصوصه، سواء أشار القفطي إلى ذلك صراحة أو لم يشر. ولفت النظر بجانب ذلك إلى أن الكتاب وإن كان قد وضع على أساس حروف المعجم إلا أنه ينقصه الترتيب الدقيق، وليس ذلك فحسب، بل إن بعض التراجم كرر بأسماء مختلفة.

غير أني وقفت عند قوله: «ويظهر أنه تقلبت على الكتاب أسماء مختلفة، فإن المؤلف يسميه في كتابه أخبار الحكماء ص ١١٣ باسم (أخبار النحاة) وكذلك سماه ياقوت في معجم الأدباء وصرح بالنقل عنه، والأدفوي في الطالع السعيد ص ١٩٥، وذكره السيوطي في البغية وحسن المحاضرة وصاحب الفلاكة باسم (تاريخ النحاة). وذكره ياقوت مرة أخرى في ترجمة القفطي باسم (أخبار النحويين) وكذلك سماه ابن شاكر في الفوات وعيون التواريخ. ثم استقر أخيراً باسم (إنباه الرواة على أنباه النحاة) كما هو على ظهر المجلد الأول من النسخة المصورة عن مكتبة (طوب قبوسراي) والمجلد الثاني من النسخة المصورة عن مكتبة (فيض الله)، وكما نص عليه ابن مكتوم في التلخيص وهو أيضاً يوافق ما في الطالع السعيد ص ٢٣٨».

وفي رأيي أن الكتاب ليس له أسماء مختلفة تقلبت عليه، وإنما هذه اختصارات من كتاب التراجم، بدليل أن صاحب الطالع السعيد سماه باسمه مرة، ومرة أخرى باسم (أخبار النحاة). والاسم الثاني ليس اسماً حقيقياً، وإنما هو اختصار وتخلص من الاسم الطويل المسجوع الذي اختاره القفطي. فعبارة الأستاذ أبو الفضل: «تقلبت عليه أسماء مختلفة» تحتاج شيئاً من التعديل أو الإضافة بحيث تصبح مثلاً «تقلبت عليه أسماء مختلفة في كتب التراجم». أما الكتاب نفسه، فما دام لم يعثر منه إلا على نسختين وجد عليهما اسمه فإنه يكون صاحب اسم واحد حتى الآن، وحتى يعثر على نسخ أخرى تضع أحد الأسماء التي ذكرتها كتب التراجم، فيكون قد تقلبت عليه أسماء مختلفة.

ونحن إذا تركنا هذه المقدمة الطريفة التي قدم بها حضرة الأستاذ الناشر للكتاب وذهبنا نقلب صفحاته ونستعرض تراجمه، وجدنا جهداً حقاً، فكل ترجمة تعرض على كتب التراجم جميعاً الموجودة في دار الكتب المصرية ما طبع منها وما لم يطبع، وتذكر الصفحات، فمثلاً في ترجمة أحمد ابن محمد الخارزنجي نجد في الهامش تعليقاً على اسمه بما يلي: «ترجمته في الأنساب ١٨٤ ا وبغية الوعاة ١٦٩ وتلخيص ابن مكتوم ١٨ وروضات الجنات ٦١ وسلم الوصول ١٤٣، وطبقات ابن قاضي شهبة ١/٢٤٧ واللباب ١/٣٣٥ ومعجم الأدباء ٤/٣٠٣». وهكذا يخيل إلى الإنسان في كثير من الأحوال كأنما تحول الناشر إلى ما يشبه الآلة الدقيقة لرصد ترجمة من يسميهم القفطي في جميع المظان.

وهذا لا شك عمل يشكر له، ولم يكتف به، فقد حاول أيضاً التعريف بأسماء الأعلام الأخرى الواردة في التراجم، وكأنه يحرص على أن يكون عمله تاماً من حيث تحقيق

الأعلام والتعريف بها ، فإذا تركها إلى النصوص نفسها بذل جهده في ضبطها وتصحيحها محاولاً أن يضع عليها مراصد من الكتب التي نقل عنها القفطي أو من كتب أخرى اشتركت معه في نفس الترجمة ، مستخدماً أثناء ذلك ذوقه وفهمه .

وإنه لينبغي أن يتقرر أن الناشر حين يخرج كتاباً ليس معنى ذلك أنه يسد الأبواب على قراءة نصوص الكتاب بالصور التي أخرجها فيه ، إنما يخرج قراءته ، ويترك للعلماء والباحثين أن يلاحظوا ما يشاءون على قراءته ، وأن يستدركوا بعض ما فاته ، ونحن مهما أثنينا على جهد محقق أو ناشر فلن نوفيه حقه وسهره الليالي الطوال في إصلاح كلمة أو كلمات ، وصدق الجاحظ حين يقول في الجزء الأول من كتاب الحيوان : « ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفاً أو كلمة ساقطة فيكون إنشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعاني أيسر عليه من إتمام ذلك النقص حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام ، فكيف يطيق ذلك المعارض المستأجر ، والحكيم نفسه قد أعجزه هذا الباب » .

وإذا كان تصحيح الكتاب يشق على مؤلفه نفسه كما يقول الجاحظ ، فما أعظم المشقة على الناشر الحديث حين يصير إليه كتاب أو نسخ من كتاب تداولتها الأيدي المفسدة والأقلام المصحّفة ، ولهذا كان ينبغي لمن ينشر كتاباً ألا يحاول ذلك من نسخة مغلوطة قد تعاقبت على نساخ ساقطين ، فإن ذلك يدخل الخلل ابتداء على عمله ، وإن نجا من بعض السقطات والأغلاط فقلما ينجو من الأخرى .

والأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ينشر إنباه الرواة عن نسخة تجمع كل الأجزاء ، وأخرى ناقصة ، واعتمد الأولى أصلاً لنشره بسبب كمالها ، وهي نسخة تعد جيدة ، وإن كان ذلك لم يعفه من تعقبها وإصلاحها في غير موضع ، مشيراً إلى ذلك كلما تعقب أو صحح ؛ وسأضرب بعض أمثلة لقراءات ذهب إليها في ترجمة واحدة هي ترجمة أبي الأسود الدؤلي أولى تراجم الكتاب ، ومن الممكن أن يرى فيها بعض القراء أو الباحثين وجوهاً أخرى من القراءات ، وهذا لا ينال جهده بحال .

فمثلاً نجد القفطي يتحدث عن ابن النديم ، وأنه رأى عند رجل كتباً بخطوط قديمة وينقل عنه قوله : « إلا أن الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملاً دَرَّسَها وأحرفها » ، وعلق في الهامش على كلمة (أحرفها) فقال : من قولهم : أحرفت ناقتي إذا أهزلتها ، والمراد : غيَّرها ، وفي رأيي أن صحة الكلمة (أخرمها) أي جعل فيها خروماً ، والخروم في الكتب معروفة ، وهذا طبعاً ليس أكثر من ترجيح ، ومثل ذلك هذا البيت يقوله أبو الأسود في شخص يريد به السوء ثم يرجع عن ذلك :

فـكَّر قليلاً ثم صدَّ وقد نَثَتْ
على كرهــه أنيــابه وأنامـــله

ومعنى كلمة (نثت) كما في الهامش : أظهرت ودلت ، وورأيها أن الأصل كان : نَبَتَت ، وفي رأيي أن الأصل صحيح أو على الأقل يمكن توجيهه فلا داعي لتغييره ، فالأصل عدم التغيير ما دام التوجيه ممكناً . وتمسك الأستاذ الفاضل برواية الأصل لهذا البيت :

ومن لبس النعـــال ومن حذاها
ومن قرأ المثـــاني والمُبِينـــا

هكذا (والمبينا) مع أن رواية الأغاني ومقاتل الطالبيين كما ذكر في الهامش (والمئينا) أي السور الكريمة ذوات المئات من الآيات . ومن ذلك أيضاً أن أبا الأسود أصابه الفالج وكان معروفاً بتشيعه لآل علي ، فزاره عبيد الله بن زياد صاحب البيت الأموي وحاكم العراق فقال له : « لو وجدتك صحيحاً لاستعملتك ! فقال (أبو الأسود) إن كنت تريد الأمانة والعناء فعندي وإن أردت الراهنة فليس عندي » ، وفي رأيي أن كلمة الراهنة حرفت فيها الراء عن الدال فهي الداهنة .

وبعد فهذه أمثلة أردت بها أن أدل على أن الكتاب المنشور نشرة محققة كهذا الكتاب تبقى فيــه دائماً باستمرار عدة مواطن من حق القارئ أن يقف عندها وأن يقرأها قراءة أخرى أو يؤثر أصلها ، وذلك لا يمس بحال الجهد العظيم الذي يبذله ناشر في كتاب عكف عليه مدة طويلة من الزمن يبحث ويحقق ويدرس ويقارن ، وإننا لنرحب بهذا الجزء الأول من إنباه الرواة ، ونأمل أن نقرأ أجزاءه الأخرى في أوقات قريبــة متعاقبة ، حتى تتم الفائدة منه ، وحتى يحظى به الباحثون كاملاً على هذا النحو من العناء والتحقيق .

شوقي ضيف

مكتبة الثقافة

للأستاذ أحمد حسين الصاوي

فى أصول النحو : للأستاذ سعيد الأفغانى — مطبعة الجامعة السورية سنة ١٩٥١ — فى ١٩٠ صفحة كبيرة .

كان كتاب « اللغة » الذى قدمناه لقراء « الثقافة » فى الأسبوع الماضى خطوة طيبة فى طريق النهوض باللغة العربية ودراستها على أساس قويم ، وها هى الجامعة السورية الناشئة تخرج علينا بهذا الكتاب كخطوة أخرى فى عين الاتجاه ، وإن كان يتناول الموضوع من جانب آخر .

ومؤلف الكتاب غنى عن التعريف ، بآثاره العلمية العديدة فى حقلى النشر والتأليف ، وبمقالاته وأبحاثه الطيبة التى يذكرها قراء الصحف الأدبية فى مصر والشام ، ولكنه الآن أستاذ فى كلية الآداب بدمشق ، وهو يؤلف لنا كتابه هذا بصفته تلك ! فيضمنه منهاج النحو والصرف الذى يقوم بتدريسه لطلاب (شهادة علوم اللغة العربية) بكلية الآداب السورية ، وقد قسم هذا المنهاج إلى أربعة أبواب تناولت : الاحتجاج ، والقياس ، والاشتقاق ، والخلاف ، وهى الأركان الرئيسية التى ترتكز عليها دراسة النحو العربى .

وطريقة معالجة المؤلف لهذه الموضوعات طريقة علمية منهجية ، فهو يقدم لكل باب بلمحة تاريخية ، ثم يفصل الكلام فيه ، ويكثر من إيراد الشواهد ، ثم يستخلص الأحكام العامة بعد الموازنة بين مختلف الآراء ، وهو لا يكتفى بهذا ، بل يطعم هذه الدراسة الشائقة بآرائه هو فيما ينبغى عمله للأخذ بيد اللغة العربية والارتقاء بدراسة نحوها وتيسير قواعدها ، كما أنه لا ينسى الإشادة بجهود القلة من المحدثين ذوى الآراء الصائبة فى هذا الصدد ، كأستاذنا الجليل أحمد أمين بك ، والعلامة إسرائيل ولفنسون .

يرى الأستاذ الأفغانى أن لغتنا « لا تزال غنية بإمكاناتها تنتظر إقدام القادمين من الواقفين على مزاياها وأسرارها ، بعد أن طال بلاؤها من إحجام المحجمين أحقاباً طوالاً » ، وأن لها « غنى وافراً وطبيعة مسعفة يحمدها عليهما كثير من اللغات ، فهى كنز يتطلب من يكتشفه ويحسن استخدامه والإفادة منه » .

وهو لهذا يجتهد فى إبراز ما يأخذه على الأقدمين ، وينادى بإعادة النظر فى بناء القواعد العربية على أساس تحديد الهدف من هذه القواعد ، ثم وضع أخصر المناهج وأوضحها وأسرعها فى إبلاغنا إياه ، وبذلك يمكننا أن نأمل فى استجابة اللغة العربية لكل المطالب الحضارية فى حياتنا المادية والوجدانية .

ولا شك أننا بعد ذلك سوف نهدر « ركاماً ضخماً من قواعد وتفريعات واستثناءات بنيت على شاهد مجهول أو لغة محرفة أو ضرورة شعرية ، ونهدر إزاءه مقداراً ضئيلاً لا يعتد به من خلاف اللهجات » وبهذا « تكون القواعد أقرب إلى روح العربية من القواعد القديمة التى أفقدها انسجامها حشر النحاة فيها ما هب ودب مما لا يرجع إلى نظام ولا يجمعه نسق .

إن آراء المؤلف التى بسطها فى ثنايا كتابه تتلخص فى إمكان النهوض باللغة العربية (من داخلها) لمرونتها وغناها ثم إمكانياتنا الحاضرة من مادية وأدبية وعلمية ، كل هذا كفيل بتحقيق الهدف المنشود وكاف للوصول إليه ، ولا شك أن كل مشتغل باللغة العربية وعلومها ، بل كل مثقف تصبو نفسه إلى (إحياء) العربية ، لا شك أن هؤلاء جميعاً يوافقون الأستاذ الأفغانى على ما رآه ، وإن كان منهم من سوف لا يقنع به ، ويهفو إلى المزيد من الأبحاث والآراء التى تعين على الارتفاع باللغة العربية إلى المستوى اللائق بها .

أحمد حسين الصاوى

لمحات من محاضرات

للأستاذ كامل السوافيري

ملاحظات على الدورة الخامسة لهيئة الأمم المتحدة

هذا هو عنوان المحاضرة التي ألقاها الدكتور محمود عزمي في دار الاتحاد الثقافي المصري مساء الثلاثاء ٢٧ فبراير ، وقد قدمه إلى المستمعين حضرة صاحب العزة الأستاذ الدكتور محمد عوض محمد بك رئيس الاتحاد .

ابتدأ المحاضر محاضرته بمقدمة أبان فيها أن وصف دورة من دورات الأمم المتحدة يحتاج إلى مجلدات فكيف بالدورة الخامسة ، التي تعتبر أطول دورة من الناحية الزمنية ، ومن ناحية خطورة الموضوعات التي بحث فيها ، ومن ناحية كثرة عدد المتكلمين وإسهابهم ، واتساع الزمن لهم . فالأسبوع الأول خطب فيه أربعة وأربعون خطيباً ، من بينهم خمسة وعشرون وزراء خارجية وغير خارجية ومدة كل خطيب خمس وخمسون دقيقة ، كما تضمن جدول أعمالها خمسة وسبعين بنداً ، وانتقل الدكتور بعد هذه المقدمة إلى ملاحظاته فحصرها في ست :

تضمنت الأولى بروز حرب الدعاية الكلامية بين المعسكرين الشرقي والغربي ؛ فالملاحظ لما حدث يجد أن كل فريق يتهم خصمه بالسعي لإشعال الحروب وتهديد السلام وأنه هو الذي يعمل على استتباب الأمن ونشر ألوية الطمأنينة

وتضمنت الثانية بروز الأدب السياسي التهكمي ، في هذه الحرب الكلامية الحادة ، وقد حفلت الدورة بهذا النوع من الأدب ، وكان بطلها الذي لا يجارى هو وزير خارجية روسيا الرفيق فيشنسكي .

وتضمنت الثالثة محاولة أمريكا فرض إرادتها على مندوبي الدول ، وقد بدت هذه المحاولة في عدة نواح وميادين ، إذ بثت الولايات المتحدة رجالها في جميع الأماكن لإعطاء الرأي وأخذ الموافقة عليه لكسب الرأي العام ، ومن المؤسف أنه قد كتب لهذه المحاولة النجاح في بعض الأحيان .

وتضمنت الرابعة طغيان المسائل السياسية على ما عداها ، حيث تكتظ الأماكن أثناء انعقاد اللجنة السياسية ومجلس الأمن اكتظاظاً شديداً ، لا برجال الهيئة وحدهم ، بل بالجماهير التي تهرع من كل فج ، وكثيراً ما تكهرب جو المناقشات ، وارتفعت حرارة الحماس .

أما الناحية الخامسة فقد تضمنت أن طغيان المسائل السياسية على غيرها ، قد كان عاملا قوياً دفع الأمريكيين إلى الاهتمام الزائد بالمناورات السياسية ، وقد أصابت هذه المناورات نجاحا اعتبر كسباً لجانب أمريكا .

وفي الناحية السادسة اتضح أن الأمريكيين في ليك ساكسس يطبقون مبادئ العمل في المصانع على العمل في الهيئة ؛ فهم يريدون من وفود الدول العمل المتواصل والسرعة الفائقة التي لا تعرف الروية والتفكير ؛ وقد ضج المندوبون بالشكوى من عناء العمل ، وصرح معظمهم طالباً اجتماع الهيئة المرة المقبلة في بلد آخر من بلدان أوربا لا في أمريكا .

وبعد أن مر المحاضر على المسائل التي نوقشت في الدورة مراً سريعاً عرج على موقف مصر من هذه الأحداث ، فأوضح أن مصر استندت في هذه الدورة إلى مبادئ ثلاثة ، العدالة في ذاتها ، والمساواة في السيادة ، والاحتفاظ بالكرامة ، وقال : إن هذا الموقف كان قد أدهش مندوبي الدول ، ولو استطاعت مبادئ مصر أن تكثر من جانب دول أخرى لاستطاعت هذه الدول أن تقف سداً منيعاً بين الكتلتين الكبيرتين لإبعاد الحرب وسيادة السلام .

شوقي في ربوع الشام :

تحت هذا العنوان ألقى الأستاذ عادل الغضبان الشاعر ورئيس تحرير مجلة الكتاب محاضرة في نادي لبنان مساء الأربعاء ٢٨ فبراير .

وقد قدمته إلى المستمعين الآنسة زاهية قدورة رئيسة رابطة الطلبة اللبنانيين في القاهرة بكلمة وجيزة أعلنت فيها افتتاح الموسم الثقافي للرابطة . ووسط عاصفة من التصفيق نهض المحاضر مستهلا حديثه بإزجاء الشكر للرابطة والشباب

العربي الطامح للمجد . وانتقل بعد ذلك إلى موضوع المحاضرة ذاكراً أن شوقي قد لبي نداء ربه منذ تسعة عشر عاماً ، وأنه شغل الناس بشعره حياً وميتاً ، إذ ما فتئ النقاد والباحثون يتناولون شعره بالبحث والدرس ، وهو في هذا يشبه المتنبي واهتمام الناس به إذ يقول :

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

ثم أبان المحاضر أن جوانب شعر شوقي متعددة ونواحيه مختلفة ، حيث حلق في كل أفق وغرد في كل روض ، فهز أوتار القلوب ، وأثار لواعج الوجدان ؛ وأخذ يقدم الأمثلة ويعرض الشواهد من شعر شوقي في وصف الأهرام وأبي الهول ودار النيابة وعمر المختار .

وتطرق بعد ذلك إلى مصدر الإلهام في شعر شوقي في الشام ، فرده إلى ثلاثة عوامل :

الأول حب الشاعر للقطر الشامي بحدوده الجغرافية ومبادلة القطر له حباً بحب ووفاء بوفاء ؛ فما من مرة زار الشاعر الشام إلا احتفت به احتفاءها بالأمراء ، ولولا تلك المحبة ما خفت وفودها لمبايعته بإمارة الشعر مما سجله شاعر النيل في قصيدته التي يقول فيها :

أمير القوافي قد أتيت مبايعا
وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

الثاني أن جمال الطبيعة في بلاد الشام حري بأن يلهم القرائح .

الثالث أن تلك العاطفة المتبادلة كانت عاطفة تفاعلت عناصرها نتيجة توثق الصلات بين مصر والشام ، وازدياد الروابط ، فالعلاقات قامت بين البلدين أيام الفراعنة والفينيقيين ، وكانت تجارية ثم تحولت إلى ثقافية على مر الزمن ، حيث أينعت ثمارها في العصور الأخيرة .

وأوضح المحاضر أن شوقي كان في شعره في الشام شامياً يحس بإحساس أهل البلاد ، ويدين بدينهم ، وينطق بلسانهم ، وقد أبدع المحاضر عندما أخذ يصف جمال الطبيعة في الشام من جبال شم وأودية خصبة ، وسهول منبسطة وغدران صافية ورياض فيح وينابيع خفت أكبادها الصخور فانحدرت إلى الأودية ، ومناظر كواعب ، وكروم وبساتين .

كل ذلك جعل شوقي يتنقل في ربوع الشام من عجب إلى عجب ، ومن سحر إلى سحر ، فوصف دمشق :

آمنت بالله واستثنيت جنته
دمشق روح وجنات وريحان

وبيروت وزحلة وردى ، ثم أبان المتحدث كيف أمض الأسى الشاعر حين حصدت مدافع الفرنسيين أرواح الشاميين في ثورتهم الاستقلالية فأرسل فيهم قافيته المشهورة التي مطلعها :

سلام من صبا بردى أرق
ودمع لا يكفكف يا دمشق

وختم المحاضر كلمه موضحاً أن شوقي وصف كل جزء في الشام وصفاً دقيقاً يدل على إحاطته بالبلاد ومعرفتها المعرفة التامة .

ولم يكد يغادر المنصة حتى نهض الطالب اللبناني أنور بكري بكلية الآداب فألقى كلمة شكر فيها المحاضر والحاضرين وتوجه لزملائه الشباب طالباً منهم تحمل العبء الذي يفرضه الواجب العلمي والوطني ، خاتماً كلمته بهذه الأبيات :

وإني لمشتاق إلى صوت نهضة
لها في ربوع الشرقين زعازع
أشاهد فيها العرب قوماً أعزة
يزفون نحو المجد والشمل جامع
لهم في رحاب الأرض جيش منظم
وفي صهوات البحر شم دوارع
وفي الماء حيتان وفي الجو أنسر
وفي القلب إزماع وفي النفس وازع

وقد تجلت في هذه الحفلة ظاهرة تستحق التسجيل ، هي أنها اجتذبت عدداً كبيراً من الآنسات والسيدات المثقفات ، وإنه لرائع جداً أن يجتذب الأدب اهتمام سيداتنا فيعرنه بعض ما يستحق من عناية .

أمل السرائري

التمثـــال

مَن يعلم التمثـال زهر شبابي
ويسوق في دربي قطيع ذئاب
ويبيح للجـلاد كل شـعاعة
عـذراء قد جبلت وراء حجاب
فبريقها والحب حـول ظلالها
طفـلٌ يضيء بلؤلؤي وثيابي
من تلك الظلمات يشرب داؤه
نهري ويحـرق بالسراب ترابي
يأوى إليَّ بليـله فأصبته
لهبٌ يحرق في الظـلام كتابي
ويصيح بالنـاس الذين مشوا على
آثار نـيراني إلى أحـطابي
ردّوه عن وجه الشموع فما مشى
بالنـور، لكن باللظى الالهاب
فأصيح يا جرس الخرائب حرة
قدمي، ونجم في السماء شبابي
ما كنت والإنسان وأجمل زهرة
فاحت بجـدول عمري المنساب
إلا الذي لثم الحيـاة بقلبـه
وبه الحيـاة شرارة في غاب

* * *

تصحو الفراشة في اللظى وتظل في
حلم اللظى رغم الردى المرتاب
ولقد تخلّف في الرماد لها شذى
يتنفس اللهب الطريع الخـابي
وأنا أطير وفي جناحي جمرة
نفخت على الأشـواك والأعشاب
واستوطنتني حرة لم يغـرها
حطب العبيد ولا شذى الأرباب

معين توفيق بسيسو

صدى مراكش

روّعوا الحـق بأرض الشهداء
واسجنوه في تصـاريف القضاء
واقتـلوه إن رأى مِدفعكم
أنّ نسفَ الحقِّ لِلقـلِ خِفاء
ويح قوم طالمـا قد جُـرّعوا
غُصّةَ الذلِّ وما زالوا ظِماء
أمة تخشى من الحـرب وما
بَرِحت بعـد جنينا في الخفاء
خُلّقت في الخـوف من أرحامها
فمحت الفجرُ من قبل النداء!
أمة السـوء التي قد شرّعت
منجلَ الظلمِ على أرض النقاء
يا رجـال الحـقِّ يا فتيته
ليس كالحـق يقيم الأوفيـاء
أنتمو أهـلٌ له فاستبسلوا
دونه ما دام في الروح دَمـاء
ليس للحق نصيرٌ إن غفا
صاحب عنـه ولا يغني السماء
أوقدوا الأوطانَ من نار الدِما
كالجحيم، مُوقَدٌ فيه الهواء!
حان وقت البعث فيكم فارفضوا
عنكمُ الأكفانَ مبدولي الدماء
لا تضيعوا العمر في اللهو فما
يلعب الدهر بغـير الضعفـاء
أرخِصوا القلب وعِيشُوا وحدةً
تركز الحـق جهاداً لا رجاء
لم يعـد للسـلم فيكم رمقٌ
بعـد ما داس العرينَ اللؤماء
أوقدوا من شـعلة الحق الرفي
بجـحيم الروح العليـا فداء
فحيـاة المـرء ما أهـونها
في إسـار الذلّ تشقى بالعواء

محمد مصطفى

الإذاعة ورسالتها الموسيقية – مسرح بريستلي – مع الإذاعة البريطانية

للأستاذ عبد الفتاح البارودي

الإذاعة ورسالتها الموسيقية :

من عجب أننا بدأنا نسمع من بعض النقاد لغطاً حول جدوى الفرق الموسيقية التي أنشأتها الإذاعة أخيراً ، وذلك بسبب اهتمامها بعزف مقطوعات غربية أكثر من اهتمامها بعزف مقطوعات شرقية . والحق أني لا أريد أن أثير القضية التي يثيرها كل من يعرض المفاضلة بين هذه وتلك ، بقدر ما أريد أن أبرهن على أن إنشاء هذه الفرق ، إنما هو إجراء أملته الضرورة والأخذ بأساليب الارتقاء .

لقد كان للإذاعة فرق فردية مقيدة بالوقت الضيق المحدد لكل منها ، كما كان من الملحوظ فيها — بطبيعة تكوينها — عدم ارتباط أفرادها بعضهم ببعض ؛ فأصبح لها الآن فرق يتوفر فيها الارتباط ، وهو شرط أساسي لتحسين الإنتاج في مثل هذه الأعمال الفنية التي تنهض بها المجموعات ، إذ أصبحت مكونة على النحو الآتي :

أولاً : الأوركسترا : وقوامها مجموعة من حوالي خمسين عازفاً ، يمكن أن تنقسم إلى مجموعتين عند الاقتضاء ، أي عند أداء البرامج السريعة أو الموسيقى الخفيفة .

ثانياً : الفرقة الشرقية : وقوامها مجموعة من ثلاثين عازفاً .

وكانت الفرق القديمة مكونة من عازفين ، لا يجيدون سوى العزف على الآلات الشرقية ، بينما اشتملت الفرق الجديدة عناصرها من الأجانب الذين لا نظير لهم عندنا ، كالعازفين على (الكنتجات الأوائل) والبيانو ... الخ .

وكان يدير تلك الفرق « رؤساء تخوت » ؛ فأصبح يدير هذه الفرق مديرون خبيرون بهذا العمل بحكم دراساتهم وثقافتهم الأوربية ، فالأساتذة عبد الحليم علي ومحمود عبد الرحمن ومحمد حسن الشجاعي لإدارة الأوركسترا ، والأستاذان إبراهيم حجاج وعزيز صادق لإدارة الفرقة الشرقية .

وكانت الفرق القديمة تقدم ألواناً محدودة من الموسيقى ؛ فصارت الفرق الحديثة تقدم ألواناً مختلفة من الموسيقى « المدروسة » سواء أكانت مصرية أو شرقية ، أو من مؤلفات الغربيين أو من المؤلفات المصرية الحديثة .

فإذا صح أنها تعنى بتقديم مقطوعات غربية أكثر من غيرها ؛ فهل تلام على ذلك ؟ في حين أنها — بهذا — تعمل على نشر الثقافة الموسيقية بين الجماهير ، وتعويدهم استساغة ألوانها المختلفة !؟ لقد آن أن ندرك أن الموسيقى الغربية ليست غريبة كل الغرابة ، أو متنافرة كل التنافر مع آذان جمهورنا ... أو على الأقل ينبغي أن نعالج هذه الآذان حتى لا تظل كذلك . وصحيح أن لكل موسيقى شخصيتها ، ولكنها تتحد جميعاً في أسس واحدة من ناحية التعبير الإنساني ، وتصوير مختلف حالات النفس ومختلف ألوان الطبيعة .

إن أقل ما يقال في هذا الإجراء الذي قامت به الإذاعة أنه يستحق التأييد والعناية . فقد كان من المخجل أن تنفرد دون سائر الأمم المتحضرة بافتقارنا إلى فرق إذاعية تعنى بالفن الموسيقي عناية كاملة . ولا ريب في أن العمل الناضج الذي تهيئه الدراسة وتمحصه الخبرة والتخصص لا يجوز أن يقارن بالعمل الارتجالي على أي نحو من الأنحاء .

مسرح بريستلي :

« ... شاهدت مسرحية (في إحدى الضواحي) وقرأت في النشرة التي قدمتها فرقة المسرح الحديث عنها ، أن أهمية مؤلفها بريستلي ، هي أنه صاحب مدرسة في التأليف المسرحي

يتلاعب فيها بالزمن ؟ فيجعل الفصل الأول مثلاً يدور في حياة اليوم ، ثم يرجع في الفصل الثاني أكثر من عشرين قرناً ، ثم يعود مرة أخرى إلى أيامنا هذه ... ولكني لم أستطع ملاحظة ذلك في هذه المسرحية ، كما أني لم أستطع فهمها . فهل يرجع ذلك إلى خطأ في الترجمة أم إلى غرابة الموضوع ؟ وما هو مذهب هذا المؤلف العجيب ؟... » .

كتب لي أكثر من واحد بهذا المعنى . والحق أن الناس معذورون إذا اختلفوا في فهم هذه المسرحية . فكاتبها هو أحد المحدثين الذين لا يستطاع تفسير مسرحياتهم ولا تحديد مذهبهم بسهولة . وكبار مؤرخي المسرح أنفسهم يضعونه حيناً بين التعبيريين Expressionists ، وحيناً آخر بين التأثريين Impressionists وحيناً ثالثاً بين طوائف المعاصرين الذين لم يخضعوا بعد للتبويب .

ولعلنا نحاول إدراك مراميه إذا عرفنا أن المسرح الأوربي الحديث بعدما سادته « الواقعية » و « الطبيعة » قد انتابه رد فعل في فترات مختلفة ، فأخذ أحياناً يلوذ بالخيال وبالشعر . غير أن الشعر — في رأي أغلبية النقاد — ما برح الأداة الصحيحة للأدب التخيلي . ولكن في نفس الوقت وكنتيجة لرد فعل آخر ضد النثر الواقعي الخالص حدثت محاولات للوصول إلى لغة تظل نثرية وتكون في الوقت ذاته أكثر تأثيراً وأرفع مستوى . وهذا هو — كما يقول نيكول — ما وفق إليه التعبيريون في ألمانيا ، فاصطنعوا لغة نثرية مستقاة ومركزة وصارت (الشخصيات) عندهم أنماطاً يمثل كل منها جمعاً من الناس . وإذ يستلزم هذا تركيز عدة آحاد في شخصية دراماتيكية واحدة ، فقد حاول المؤلفون ضغط كلامهم في عبارات مركزة ومبينة معاً . واتبع الألمانيين بعض المؤلفين الإنجليز وإن لم يغلوا مبالغتهم في هذا الصدد .

ويعتبر بريستلي Priestley من خير هؤلاء . والمعروف أنه بدأ حياته الأدبية كاتب قصة ومقالة . فلما بلغ كتابة (المسرحية) تجلت فيه ميزة التلاعب بالزمن . ولكنها لم تكن واسعة المدى في مسرحياته الأولى ومنها هذه المسرحية ، إذ أن خصائصه لم تكن قد تبلورت بوضوح تام في هذه المرحلة . ثم انتقل إلى مرحلة أخرى حاول فيها إيجاد التعبير الدراماتيكي للتصورات الزمانية والمكانية ، كما حاول التعبير عن الانفعالات النفسانية تعبيراً موضوعياً مما أوضح الفرق بجميا بينه وبين الواقعيين ، واستطاع بهذا كله أن يهيء للمسرح الإنجليزي آفاقاً جديدة وإن كان بهذا قد زحزحه بعض الشيء عن مواضعاته الوطيدة .

ولسبب ما — لعله الشعور بصعوبة هذا النوع من المسرحيات — تحول خلال الحرب الأخيرة إلى لون آخر من ألوان التخيل أدى إلى وضعه بين التأثريين أو الانطباعيين .

وبعد ... فقد كان خليقاً بفرقة المسرح الحديث أن تشرح للناس مسرحيته التي قدمتها لهم لتعينهم على فهمها وتذوقها .

مع الإذاعة البريطانية :

في ١٧ مارس من كل عام يحتفل الإيرلنديون بعيد القديس باتريك . وقد اشتركت محطة الإذاعة البريطانية في احتفال هذا العام بثلاثة برامج خاصة بهذه المناسبة :

البرنامج الأول تمثيلية هزلية موضوعها أن الضابط (كونور) يولع بفتاة حسناء ويطلب يدها من والدها القاضي (كريديوس) فيرفض لأنه يأبى إلا أن يزوجها رجل من رجال القانون . ويحتال العاشق بمختلف الحيل دون جدوى ، وأخيراً يتحالف مع أحد الأطباء لإيهام القاضي بأنه أصيب بسم خطير لا يشفيه منه سوى طبيب ألماني مشهور . ويتنكر الضابط في زي هذا الطبيب الألماني ويساوم القاضي على شفائه بشرط أن يتزوج من ابنته ...

والبرنامج الثاني كونشرتو موسيقى إيرلندية تقليدية .

والبرنامج الثالث حفلة راقصة وموسيقى وأغان حديثة .

برامج كلها بهجة ومتعة وإيناس . وهكذا يحتفلون بأعيادهم . ترى متى نحتفل بأعيادنا على هذا النحو الفني البهيج ؟!

عبد الفتاح البارودي

الثقافة

العـدد ٦٤١ ٩ من أبريل ١٩٥١	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	الثمن ٢٠ مليما

صفحة

قالـــوا

سمعت هذا الحديث بين صديقين :

ا — يدعى فلان أن الحكمة تقضى أن آخذ حذرى من سائر الناس .

ب — فماذا فعلت ؟

ا — اتبعت نصيحته ... وكان هو بالذات أول من طبقتها عليه ! ... (شامفور)

— ليس من خلة هى للغنى مدح إلا وهى للفقير عيب :

فإن كان شجاعاً سمى أهوَجَ !
وإن كان حليماً سمى ضعيفاً !
وإن كان لسناً سمى مهذاراً !
وإن كان جواداً سمى مفسداً !
وإن كان وقوراً سمى بليداً !
وإن كان صموتاً سمى عيياً !

(ابن المقفع)

— الإنسان مشاوف بالحديث عن نفسه : إنه إذا لم يجد سبيلاً إلى التمدح بفضائله فهو يأخذ فى الحديث عن نقائصه ، مفضلاً ذلك على السكوت ! ...

(حكيم)

— الفضائل الإنسانية غرضها الأول المنفعة ؛ فهى تنتهى إليها وتصب فيها ، كما تنتهى الأنهار إلى المحيط وتصب فيه ... (لاروشفوكولد)

— ليس فى الدنيا من رجل سعيد إلا هذا الذى يريد أن يعتقد أنه سعيد . (مثل عربى)

— لا يستطيع الإنسان أن يمنح كل سائل حاجته ، ولكنه يستطيع دائماً أن يمنحه الكلمة الطيبة ، وهذا خير إحسان ... (رولان)

— إن السكين الطويلة الضخمة لا تدل على الطباخ الماهر ... وإن « الترزية » قد صنعوا لنا بمهارتهم الكثير من الأسماء والوجهاء ! ... (مثل هولندى)

جمعها : م . ع . م .

مطبـــوعات

وصلتنا فى بريد الثقافة الأسبوعى المطبوعات التالية :

كتب :

● مواكب الذكريات ، وهو ديوان الشاعر الحجازى الموهوب الأستاذ حسن عبد الله القرشى ، وقد قدّم له الأستاذان أحمد حسن الزيات وأحمد رامى ، وهو مطبوع بمطبعة الرسالة سنة ١٩٥١ .

● أزهار شائكة ، تأليف الأستاذ ابراهيم حق محمد ، وهو من منشورات أهل الكهف سنة ١٩٥٠ .

● حلقة الدراسات الاجتماعيـة ، وهو مجموعة البحوث والمحاضرات والتقارير التى أذيعت فى اجتماع حلقة الدراسات بقصر اليونسكو بمدينة بيروت سنة ١٩٤٩ .

مجلات :

الحديث ، مجلة شهرية تبحث فى الأدب والتاريخ والاجتماع — مجلة شباب سيدنا محمد — مجلة التعاون — رسالة المغرب — الأوقات البغدادية — الأسبوع — المؤتمر — مجلة الحج الشهرية التى تصدر بمكة المكرمة .

نشرات :

أنباء إسبانية — فهرس Temple Press Books لسنة ١٩٥١ — برامج الإذاعة من محطتى لندن وباريس — منشورات جمعية الهداية الإسلامية بدمشق .

(م . ن . ن)

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٤١ — الاثنين ٣ من رجب سنة ١٣٧٠ — ٩ من أبريل سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

إيران تؤمم بترولها ...

للدكتور محمد محمود الصياد

في الأسبوع الثاني من شهر مارس رفع الستار عن فصل جديد من مأساة « البترول في الشرق الأوسط » ، وكانت بطلة هذا الفصل إيران التي أجمع برلمانها بمجلسيه على تأميم البترول في كل أراضيها ، وأعجب المتفرجون بالبطلة ؛ فقد أجادت دورها أمام « الأسد البريطاني » ، وهو ممثل له شهرته وخطره ، وله من القدرة على التمثيل ما يستطيع به أن يخلق من المأساة مسلاة يضج لها المتفرجون بالضحك ، حتى إذا ما انفض السامر وعادوا إلى تدبر ما شاهدوه ملك عليهم الأسى كل جهاتهم إلا من كان له مع الممثل هوى ، أو تربطه به منفعة .

ولسنا في حاجة إلى أن نتناول صدى هذا الفصل الجديد في نفوس المتفرجين جميعاً ، وكيف قابله فريق منه بالرضى والاطمئنان ، وهو معجب بالبطلة ، والدور الذي تمثله ، متلهف إلى الفصول التالية من المأساة ليرى كيف تنتهي ، وكيف يكون الختام ؛ بينما قابله فريق آخر بالقلق والسخط وهو ناقم على البطلة ما يسببه نقضاً للمواثيق وخرقاً للاتفاقيات ، ولكنه هو أيضاً ليس بأقل لهفة إلى معرفة النهاية ، وكيف تسير إليها الأمور .

حسبنا هنا أن نتناول اثنين من المتفرجين يحتلان الصف الاول من المسرح ويتتبعان فصول الرواية في شغف أقرب إلى الفضول ، حتى يتسنى لنا بعد ذلك أن نتناول البطلة وصاحبها ، وأن نعلق في إيجاز على دور كل منهما في المأساة .

أما المتفرج الأول فهو الولايات المتحدة الأمريكية ، وتربطها بالممثل الأول قرابة وصداقة ، وقد شهدت الرواية دون أن تبدي سخطاً أو رضى ، وما كان لها أن تسخط أو ترضى ، وهي دولة تفكر دائماً بعقلية التاجر وصاحب المصنع ، والدور الذي تشهده لا يتصل بمصالحها اتصالاً مباشراً ؛ فما شأنها إذاً وإبداء الآراء ؟! ... إنها تعطف على انجلترا بحكم الصداقة والقرابة ، ولكن موقف إيران لن يضر المصالح الأمريكية في شيء ؛ فلتكتف إذاً بالعطف والإشفاق ، ومن يدري ! ربما أفادت من الوضع الجديد ! .

إن لأمريكا حقاً امتيازات بترولية في الجزيرة العربية

السعودية ، ولكنها لا تخشى من امتداد عدوى التأميم إلى هذه الجهات ؛ فهي تعرف عن ثقة أن ظروف المملكة السعودية السياسية والاقتصادية لا تساعدها الآن على سلوك هذا المسلك ، وستبقى كذلك زمناً غير قصير ...

ولقد طالما تنافست أمريكا انجلترا حول بترول الشرق الأوسط ، وقد شهدت الفترة بين الحربين كثيراً من مظاهر هذه المنافسة ، حتى استطاعت أمريكا ومن ورائها الدولار أن تزحف بنفوذها خلال الحرب العالمية الثانية إلى حقول الشرق الأوسط ؛ فحصلت في سنة ١٩٤٢ على ما كان لشركة البترول الإيرانية الانجليزية من نصيب في شركة البترول العراقية ، ومن ثم أصبح لمجموعة « استاندرد أويل » الأمريكية ٢٥ر٧١٪ من أسهم شركة بترول العراق ، هذا بالإضافة إلى ٢٥٪ من أسهم شركة البصرة للبترول .

وكانت إيران هي البلد الوحيد في الشرق الأوسط الذي عجزت الولايات المتحدة عن أن يكون لها صلة بإنتاج البترول فيه ، ولذا فليس بمستغرب لو رحبت أمريكا بالوضع الجديد للبترول الإيراني ؛ فقد زال منافسها الخطير ، وهو انجلترا ، ثم إن إيران قد لا ترى مانعاً من الاستعانة برأس المال الأمريكي أو بالخبرة الأمريكية في « صناعتها المؤممة » ، ثم بعد هذا وذاك ستكون سوق البترول الإيراني حرة يستطيع أن يحصل منها من يدفع الثمن الأعلى على كل ما يريد ، ولا تستطيع انجلترا أن تنافس أمريكا في هذا المضمار .

أما الروسيا فقد سرها دون شك أن تشهد احتضار شركة البترول الإنجليزية الإيرانية ، وأن ترى ظل النفوذ البريطاني يتقلص في إيران ، ونستطيع أن نجزم بأن يد روسيا كانت من وراء حركة التأميم ؛ فقد أوضح الرفيق « سادشيكوف » سفيرها في طهران للجنرال « رازم آراه » عقب تأليف حكومته مباشرة أن روسيا لا تستطيع أن تغمض عينيها عن المساعدات التي تقدمها إيران لعداة الحرب من الإنجليز والأمريكان ما دامت تزود هؤلاء المستعمرين بما يحتاجون إليه من البترول ، وهدد السفير بأن روسيا وإن لم تكن لديها نية عدائية نحو إيران إلا أنها ستضطر إذا استمرت إيران على التعاون مع أعداء الاتحاد السوفيتي إلى إعادة النظر في سياسة حسن الجوار بين البلدين واتخاذ ما يلزم للمحافظة على حقوقها .

ولقد كانت الروسيا ترمى دائماً إلى إبعاد النفوذ الأجنبي عن إيران حتى يخلو لها الجو ؛ وليس هذا بالاتجاه الحديث في السياسة الروسية ، بل إنه طابع قديم فيها . ويظهر حرصها على هذا الاتجاه في الاتفاق الذي عقدته مع إيران في سنة ١٩٢١ وتنازلت بمقتضاه عن الامتيازات التي كانت لها على عهد القيصرية ، ولكن بشرط أن تتعهد إيران بعدم التنازل عن هذه الامتيازات لأي دولة أجنبية على الإطلاق . وهذا دليل على حرص روسيا على الاحتفاظ بإيران الشمالية المتاخمة لها خالية من أي نفوذ أجنبي .

ولقد سعت روسيا في مفاوضاتها مع السيد قوام السلطنة في سنة ١٩٤٦ إلى أن يكون لها امتياز البترول في هذا الجزء الشمالي من البلاد وأن تؤلف شركة إيرانية سوفيتية لغرض التنقيب عن البترول واستخراجه ، ولكن البرلمان الإيراني لم يوافق على مشروع الاتفاقية التي انتهت إليها المفاوضات ؛ وهكذا ظلت روسيا محرومة من البترول الإيراني ، رغم أنها أقرب الدول العظمى إلى موارد هذا البترول . ومن ثم فإن الوضع الجديد سيتيح للروسيا فرصة الحصول على حاجاتها من البترول ، على الأقل من السوق الإيراني الذي لن يتحكم فيه إلا قانون العرض والطلب ؛ هذا إذا لم تنتهز فرصة الفراغ الذي ستخلقه تصفية الشركة الإنجليزية الإيرانية فتبسط سيطرتها على هذا المورد الحيوي من موارد إيران .

أما انجلترا فقد أغضبتها حركة التأميم أيما إغضاب ، وعجيب منها أن تغضب وعلى رأسها حكومة تهدف سياستها إلى تأميم كثير من الموارد في انجلترا ، فقد أممت السكك الحديدية وأممت أهم صناعتين في الجزر البريطانية ، وهما صناعة الفحم وصناعة الحديد ، مع العلم بأن هذه الصناعات جميعاً كانت تملكها رءوس أموال وطنية ، على العكس من الحالة في إيران التي كانت تدير صناعتها الأولى رءوس أموال أجنبية دخيلة . وكان أولى بانجلترا بدلاً من أن تغضب اليوم أن تسعى من زمن إلى عقد اتفاقية عادلة تضمن لها موارد البترول ولكن

تصون في الوقت نفسه حقوق إيران ومصالحها .

ويرجع غضب انجلترا إلى أكثر من سبب ... غضبت لأن البترول الإيراني فضلاً عن كمياته الهائلة التي تبلغ ٢٤٪ من الإنتاج العالمي له أهمية خاصة بالنسبة لكيان الأمبراطورية البريطانية من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، إذ عليه تعتمد البحرية البريطانية إلى حد كبير ؛ وهذا هو الذي حدا بالحكومة الإنجليزية من قبل إلى أن يكون لها نصيب كبير في شركة البترول الإنجليزية الإيرانية ، وضياع البترول الإيراني من يدها فيه تهديد مباشر للبحرية التي هي قوام الإمبراطورية كلها .

وغضبت لضياع هيبتها ، وخشيت أن يقتدي بإيران غيرها من دول الشرق الأوسط فتؤمم كثيراً من مرافقها ، وفي هذا ضربة قاضية على رءوس الأموال البريطانية ومصالح انجلترا الاقتصادية ؛ ولا نعرف ماذا يكون الموقف لو تشجعت مصر فأممت قناة السويس وتشجع العراق فأمم آبار الزيت ؟!

ثم إن انجلترا تخشى أن يؤدي الوضع الجديد إلى إطلاق يد الروسيا في البترول الإيراني ، وموارده لا تقوم بحاجيات الروسيا فحسب ، بل إنها تزيد على حاجتها إذا شنت حرباً طويلة الأمد ، ومن ثم فإن في تأميم البترول وزوال النفوذ الإنجليزي من مناطقه خطورة بالغة من النواحي السياسية والحربية والاقتصادية .

وتتمنى انجلترا لو أن في استطاعتها أن تبعث بقواتها إلى الأراضي الإيرانية لحماية الشركة التي تساهم فيها حكومتها ، ولكنها لن تستطيع أن تفعل ذلك إلا إذا اشتبكت في حرب مع الروسيا ، إذ أن المعاهدة الإيرانية الروسية المعقودة في سنة ١٩٢١ تقضي بأن تتحرك القوات الروسية إلى داخل إيران إذا ما حاولت دولة ثالثة غزو إيران .

ويرى المسئولون في بريطانيا أن اتفاقية امتياز البترول المعقودة مع شركة البترول الانجليزية الإيرانية ستظل سارية المفعول حتى ينتهي أجلها في سنة ١٩٩٣ ، وأنه من الناحية القانونية لا يمكن لإيران أن تتخذ قراراً من جانب واحد بإلغاء الامتياز ، وقد أرسلت الحكومة الإنجليزية مذكرة بهذا المعنى ، فلم تثن البرلمان الإيراني عن الموافقة على سياسة التأميم ، كما لم تهتم إيران بتهديد بريطانيا برفع الأمر إلى محكمة العدل الدولية .

وترى إيران أنها أمة حرة ذات سيادة وأن لها حق التصرف الكامل في حماية مواردها القومية وأن اتفاقية قديمة مجحفة لا يمكن أن تستمر أساساً للعلاقات بين الطرفين ما دامت مناقضة لإرادة الأمة مهدرة لحقوقها . ولعل إيران على حق فيما ذهبت إليه إذ كان نفوذ الشركة من القوة بحيث كانت تلعب دوراً خطيراً في سياسة البلاد الداخلية وقيام الحكومات وإسقاطها ، الأمر الذي جعل إيران تحيا في السنوات الأخيرة حياة كلها قلق واضطراب .

وهنا نتساءل : هل تستطيع إيران وليس لديها رأس المال ولا تتوفر فيها الخبرة الفنية — هل تستطيع أن تنفذ خطتها بنجاح ؟! الجواب على ذلك : نعم ... ذلك لأن رأس المال والخبرة يمكن استعارتهما من الخارج ، بل ويمكن أن تستمر الشركة القائمة الآن في إدارة آبار البترول ولكن لحساب الحكومة الإيرانية ، وخير لبريطانيا أن تفعل ذلك حتى لا تترك الباب مفتوحاً أمام الروسيا التي صرح سفيرها في حديثه مع « رازم آره » أن بلده تدرك « دقة الأحوال الاقتصادية في إيران كما تقدر أهمية الدور الذي يلعبه البترول في ميزانها الاقتصادي ، فإذا رأت إيران تأميم هذه الصناعة — وهي خطوة ستحقق الكثير من أهدافها السياسية — وفقدت تبعاً لذلك ما تلقاه من معونة الخبراء البريطانيين ، فإن الروسيا مستعدة لمدها بالخبراء والعتاد الصناعي اللازم الفني في إنتاج البترول بعد تأميمه » .

لقد كان من بين الدوافع إلى سياسة التأميم والإسراع في تنفيذها رغبة إيران في إغلاق الباب في وجه أي طلب يتقدم به الاتحاد السوفييتي للحصول على امتيازات التنقيب على البترول في إيران ، فهل تدرك بريطانيا هذا الدافع فتقبل الأمر الواقع ، وتحاول أن تخلق جواً من المودة والتفاهم بينها وبين إيران ، وأن تقوم العلاقات بينهما على أساس من التعاون الصحيح ؟.. إن في ذلك مصلحة للطرفين ، بل ومصلحة للديموقراطيات جميعاً .

محمد محمود الصياد

آدابنا وفنـــوننا

فى المـــيزان

للأستاذ محمد مفيد الشوباشى

اعتادت الآذان فى مصر أن تسمع عبارات السخط والنقد تجرى على كل لسان . فيندر أن تجد إنساناً يبدى لك ارتياحاً إلى شىء مما يقع تحت بصره ، أو تصل أنباؤه إلى أذنه . ويغالى المتشائمون فيزعمون أن داءنا المزمن يزداد استفحالاً ، وأن تدهورنا مطرد ، وألا رجاء فى إصلاح . بل إنك لتسمع من بعض هؤلاء من يقول لك إن المصريين عيوباً خصوا بها دون سائر الناس ، وإن هذه العيوب متأصلة متمكنة لا يرجى لها شفاء . فلا عجب إذا لم يلحقوا فى مضمار التقدم ما بلغه غيرهم من الشعوب المتحضرة ...

وأبلغ حجة تدحض قول هؤلاء المتشائمين هى تشاؤمهم نفسه . فالشعب الذى يشعر بعيوبه ، ويمتعض منها ، ويثور عليها ، شعب حى يتوخى التقدم ، ويتوثب إلى الإصـلاح . أما الشعب الموغل فى التأخر ، المستفحل الداء ، فهو الذى يغفل عن عيوبه أو يستهين بها ، ويرضى بالواقع ويطمئن إليه . وما سخط شعبنا إلا بشير يقظته ، ودليل على أنه يهم بأن يلحق بركب الحضارة .

ومن الخطأ الشائع القول بأن هناك عيوباً أصيلة يصاب بها شعب دون شعب ، ويرزح تحت عبئها أبد الدهر ، ويعجز عن الفوز بالبرء منها مهما حاول وجاهد فى تلك السبيل . فالباحث الملم بتطور الأمم ، المتخذ من مجرى التاريخ أساساً يبنى عليه بحوثه ، لا يلبث أن يهتدى إلى الحقيقة التى تدحض ذلك الزعم . فما من شعب خُص بعيوب رمته بها الأقدار ، وفرضت عليه الوقوع فى ربقتها ما بقى له وجود . فكل شعب من شعوب الأرض لا يبقى طوال الدهر على حال واحدة . فهو كـكل ظواهر الوجود متغير متطور سواء أبطأ تغيره أم أسرع ، وهو متأثر بالظروف المحيطة به ومؤثر فيها . وتتوقف سرعة تطوره على ما تتيحه له ظروفه من احتمالات سهلة التحقيق أو عسيرة . وكثيراً ما طرأ على الشعب الذى خطا فى سبيل التقدم خطوات ، ظروف تعوق تقدمه أو تصيبه بنكسة ، ولكنه لا يلبث أن يعاود نشاطه على أثر تغير تلك الظروف .

ولا يجدر بالرجل المستنير فى هـذا العصر الذى ازدهر فيه العلم أن يلقى بأحكامه على عواهنها . فهو إذا أراد أن يشخص داء شعب من الشعوب مثلاً ، فلا بد له أن يسأل نفسه أسئلة عدة .. لا بد أن يسأل عن كنه الداء ، ويفحصه حتى يصل إلى أغواره ، ويسأل : أهو قديم أم حديث ؟ وهل هناك شعوب أخرى مصابة به أو أصيبت به فى عصر من عصورها ؟ ثم يجىء السؤال عن أسباب الداء ، وعن الظروف والأحوال التى أدت إلى استفحاله أو ساعدت على اضمحلاله ، وهل تختلف تلك الأسباب والظروف والملابسات باختلاف الأمم أو تتشابه ... مثل هذه الأسئلة ، والبحث فى ثنايا التاريخ عن أجوبتها الصحيحة ، لا بد أن ينتهى بالباحث إلى لباب الحقيقة الكامنة وراء الظواهر الخادعة . وما هذه الحقيقة إلا ما سبق قوله من أن كل ما فى الوجود دائم التحرك والتبدل ، وأن ذلك يقع نتيجة لتفاعله مع ما حوله .

ولا يعنينا فى هذا المقال من المآخذ التى لا يزال يأخذها المصريون على مواطنيهم ، أو يأخذونها بعبارة أصح على أنفسهم ، إلا ما يتعلق منها بالآداب والفنون ؛ فلا يكاد يتعرض متحدث لنهضتنا الأدبية والفنيـة حتى تراه يبالغ فى تجريحها ، والنيل منها . فآدابنا فى نظر كثرتنا مزيفة ضحلة فردية ، وفنوننا أتفه من أن تسمى فنوناً ، فهى أقرب إلى عبث الأطفال من عمل الرجال . ولا مراء فى أن مثل هذا النقـد يدل رغم قسوته على تطلعنا إلى السمو بآدابنا وفنوننا فوق مستواها الحاضر ، وهذا كما قلنا بشير يقظة فكرية توشك أن تؤتى ثمرتها .

وقمين بنا قبل تمحيص هذا النقد أن نفرق بين ما يتعلق منه بالآداب وما يتعلق بالفنون حتى يقع قولنا واضح المعالم .

وقد تحدثنا في مقال سابق عن الظروف التي حالت دون نهوض آدابنا إلى المستوى المرجو . وسنقصر اليوم حديثنا في هذا الصدد ، على الظروف التي حالت دون انطلاق آدابنا من دائرة الفردية الضيقة إلى فسحة الوجود .

يقصد أولئك النقاد بالفردية التي يشيرون إليها أن الكاتب الموسوم بها ينحصر حين يمسك بقلمه في ذاته ، فلا يفكر إلا فيها ، ولا يعبر إلا عن خوالج نفسه ، وعن رغباته وآماله وآلامه الخاصة دون ما اهتمام بما يشغل مجتمعه أو بني جنسه من خوالج ورغبات وآمال . وعلى ذلك يتسم إنتاجه الأدبي بالأثرة البغيضة ، ويلازم دائرة شخصه الضيقة المحدودة ، ولا يفيد منه القراء إلا أن يزداد كل منهم استغراقاً في ذاته ، وانطواء على نفسه . ويكون الفرق بين قيمة مثل ذلك الإنتاج وبين قيمة الأعمال الأدبية الموضوعية لدى التقدير كالفرق بين قيمة الفرد في ذاته ، وقيمة المجتمع في عمومه .

ونحن نقول مع القائلين بأن ألوان آدابنا من شعر وقصة وسيرة ونقد ، مطبوعة على الأغلب بطابع الفردية . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تأثرنا من الآداب الغربية بما تميز منها بذلك الطابع . فقد طغى الأدب الفردي على سائر ألوان الأدب في أوربا منذ قيام نهضتها الصناعية الكبرى . ثم صادف هوى من نفوسنا فاحتذيناه دون الأدب الموضوعي الواقعي ! وجدير بنا أن نشير إلى الأسباب التي أفسحت له في مجال الذيوع هنا وهناك .

من المعلوم أن نهضة أوربا الصناعية إبان العصر الحديث أسفرت عن تقلص نفوذ الأشراف ، وتبدد سلطانهم ، وظهور الطبقة المتوسطة ، وحلولها محلهم ، وتمتعها بأوفر مما تمتعوا به من جاه ومال . ولم يعد النفوذ والسلطان والجاه والمال وقفاً على أفراد معينين يتوارثونه ، ولكنه أصبح في متناول كل من يسعى إليه ، ويوفق في الحصول عليه . وقد عبرت الفلسفة حينذاك عن طابع عصرها ، فجاءت بنظرية الانتخاب الطبيعي ، وتنازع البقاء وبقاء الأصلح . ولم يعد الفرد يفكر في ذلك المعترك الجديد إلا في التكيل بمزاحمه لإصابة هدفه . فتملكته الأثرة ، وكبلته الفردية . ولما كان أدباء ذلك العهد من أبناء تلك الطبقة المتوسطة فقد جاء أدبهم كذلك معبراً عن فرديتهم ، متغنياً بالحرية التي انتزعوها من يد الأشراف ، مشرئباً إلى السعادة التي يحلمون بها ، معبراً عما يمتعون به أنفسهم من متع الحياة وملذاتها .

ولا يغيبن عن القارئ أن نهضتنا الحديثة قائمة على الصناعية بعد اندثار عهد المماليك ، على أن صناعيتنا ما زالت محصورة في دائرة نهضتنا المحدودة ، وهي ما زالت تحاول أن تحاكي صناعية الغرب . ولكن أين نحن من أولئك الذين جابوا المحيطات ، وفتحوا الأمصار ، وهيمنوا على موارد العالم الاقتصادية ، وفرضوا سيادتهم على الشطر الأكبر من أصقاع المعمورة ... إن تلك الصناعية العرمة الجبارة استطاعت أن تخلق من أبنائها أدباء ذاتيين وضعوا للعالم أدباً في مثل قوتها . أما أدبنا الفردي فقد جاء على غرار صناعيتنا التي تحاول كما قلنا تقليد جبابرة الغرب . فهو لا يزال يحبو ، وهو لا يزال في طور المحاكاة . إننا ننقل عن الغربيين نتائج نهضتهم دون أن نمر بمراحل التطور التي مروا بها ، فلم نفد المران والخبرة والتجربة التي أفادوها ، ولا بد من مرور الوقت الذي يكفي لاكتساب ما اكتسبوا حتى نحاذيهم في نهضتهم . فلا أساس إذاً لما يزعمه الزاعمون وما تلوكه ألسنة المتشائمين من أن داء المصريين أصيل مزمن ، وأنهم بدعة بين الشعوب ، فما نحن إلا شعب يتوق إلى الأسمى فيضيق ذرعاً بالواقع .

على أن سورة الفردية أخذت تفتر في الزمن الحاضر ، وازداد الشعور في الشرق والغرب بأهمية المصالح العامة ، والتيقن من أن التعاون أجدى على الفرد نفسه من محاولة تفرده بالنعم ، حدا بالحكومات إلى الأخذ في كل تقنين جديد بمبدأ حماية المجموع من استغلال الأفراد ، وحث الناس على التعاون ، وإحاطة الجمعيات التعاونية برعايتها وتشجيعها . ولن يحل التعاون الجماعي المثمر محل التنافس الفردي المخرب حتى ينفسح المجال لنهوض الأمم نهضة حقة ، وتتحول الآداب والفنون من جانب الفردية إلى جانب الموضوعية ، ويكون ذلك إذاً تحول عهدها الذهبي .

وقبل الانتقال إلى الشطر الآخر من المقال تجب الإشارة إلى وجوب التمييز بين الأدب الموضوعي البدائي ، وبين الأدب الموضوعي الحي الجدير بالاحتفال . فرجال الأدب والفن الموهوبون هم الذين يشعرون قبل غيرهم بكل تحول جديد في ميول الرأي العام ومعتقداته ، ويلمحون اتجاهاته الخافية على الغافلين ، ويتأثرون بها ويعبرون عنها ... وحين يتم هذا يتم التجاوب بين النهضة الفكرية وبين النهضة الأدبية

شعراء اللهيب

أو الحريق فى الشـــعر العربى

للأستاذ الشاعر محمد عبد الغنى حسن

بلغت من قراءتى فى التاريخ الإنجليزى عند ازدهار الفنون والآداب فى القرن السابع عشر ، وأمعنت فى القراءة حتى انتهى بى المطاف إلى الحريق العظيم الذى وقع فى لندن سنة ١٦٦٦ ، فبلغ من الروعة مبلغاً أصبح الناس يؤرخون به أحداثهم ، كما كان الناس قديماً يؤرخون بالطوفان ! فيقولون : حدث هذا الحادث قبل الحريق بكذا من السنين ، أو وقع هـذا الحادث بعد الحريق بكيت من السنين ...

ووقفت برهة من الزمان أمام هذا الحريق الهائل الذى أشاع كثيراً من معالم العاصمة الإنجليزية فى القرن السابع عشر ، وأخذت أسائل نفسى : هل صوَّر شاعر انجليزى معاصر هـذا الحريق صورة شعرية ترى جذاتها على مرّ السنين ؟ ... وهل لمست هـذه النيران المتأججة مواطن الحس والشعور من قلب شاعر انجليزى ، فاشتعلت فى قلبه واشتعلت فى جوارحه قصيدة تحفظها كتب الأدب ، كما حفظ لنا الأدب العربى جمع قصائد من شعر اللهيب سنتحدث عنها وعن أصحابها عما قليل ؟ ...

ورحتُ أسائل شعراء ذلك العصر فى انجلترة ممن عاصروا الحريق العظيم وعاشوا وقت حدوثه ، ورحتُ أتتبع أشعارهم فى مظانها وفى غير مظانها — فى دواوينهم تارة ، وفى كتب الأدب تارة ، وفى المجموعات الشعرية مرة ثالثة — فلم يسعفنى البحث بقصيدة واحدة لشاعر واحد من أمثال :

والفنية ، ويتاح بذلك لكل منهما التقدم المنشود .

أما فنوننا فلا تزال دون مرتبة آدابنا ، ولعل ذلك يرجع إلى أنها تتفاعل على الأغلب مع جمهرة شعبنا التى لم تتأثر بنهضتنا الحديثة تأثر الطبقة المتوسطة التى أخذت تهتم بالأدب وتمده بالكتاب والقراء . وقد قال الساخطون عليها إنها منقطعة الصلة بالحياة ، فإنك إذا سمعت من الآثار الفنية الأوربية مقطوعة غنائية ، أو لحناً أو سمفونية موسيقية ، أو شاهدت لوحة أو تمثالاً ، فإن أول ما يروعك منها حيوية دفاقة لا تلبث أن تدب فى أوصالك ، فتنفض عنك تراخيك ، وتصلك بالحياة ، وتنفث فيك حرارتها وقوتها . أما المستمع لآثارنا الفنية ، أو الناظر إليها ، فإنه لا يشعر قط بشيء من هذا ، بل إنه يلقى عكس هذا . فإن فنوننا تنفث التراخى والخمول فى نفس اليقظ المتحمس ، وتقطع صلته بالحياة ، وتنقله إلى عالم الأوهام والأباطيل . ففنوننا تجفف نبع الوجود ، وتعطل حركة الحياة ، وتمرض النفوس . ولا يتعلق بها هواتها إلا ليأسهم من واقع حياتهم المريرة . فهم يتوسلون بها الهروب من واقع حياتهم إلى عالم الأحلام المريضة ، وكان أولى بها أن تنفث فيهم الحمـية ، وتدفعهم إلى العمل على تحسين واقع حياتهم ...

ولـكننا نقول رغم اعتراض الساخطين إن فنوننا تأثرت هى كذلك بنهضتنا الحديثـة . وإذا كان قسطها من التأثر أضأل من قسط غيرها لظروفها الخاصة ، فإنها تحاول أن تستعيض اليوم بعض ما فاتها . ولا شك أن مجانيـة التعليم ستحدث أثرها فى تنشيط تقدم فنوننا وآدابنا .

ولا شك كذلك أن معاهد الفنون المختلفة ستحدث من ناحية أخرى أثرها فى تنشيط حركة التفاعل والتجاوب بين هواة الفن وبين الفنانين الذين يتدرجون فى مدارج الرقى .

إن نهضة الفنون والآداب متصلة أوثق الاتصال بالنهضة العامة ، وإذا تأخر أى فرع من فروع الثقافة عن غيره فإنه لن يلبث أن يلحق به بعد أن يقع التأثير المتبادل بينه وبين غيره . وكل ما نرجو أن يدرك من يهمهم الأمر أهمية التقدم الثقافى فى دعم نهضتنا العامة فيبذلوا الجهد الجدىّ فى سبيل تنشيط تقدمه .

محمد مفيد الشوباشى

« كولى » Cowley و « دريدن » Dryden و « مارفيل » Marvell و « ملتون » Milton و « سدلى » Sedley و « هنرى ڤوجان » H. Vaughan و « أدموند والر » E. Waller وغيرهم .

ولم أجد — قدر جهدى وعلمى — صوتاً من أصوات هؤلاء الشعراء ارتفع بالشكوى من الحريق ، أو تردد بالحث على التبرع للمنكوبين ، أو انطلق بوصف مشهد يثير فى النفس كوامن الحس ... بل وجدت أن « ملتون » غارق فى « فردوسه المفقود » أو « فردوسه المعاد » ... ! وأن « كولى » مشغول بقيثارته التى يوقع عليها أناشيد الغرام التى يحاول أن يضمد بها جراح قلبه المحطم ... ! وأن « والر » معنىّ — أو مُعنَّى — بعقد موازنة بين جمال الوردة وجمال حبيبته ...

وهنا تركت « حريق لندن » جانباً ، وودعت الأدب الانجليزى لحظات ، وانتقلت إلى الأدب العربى لأستعرض فيه « شعراء اللهيب » على خلال العصور .

* * *

ولعل أول حريق سجله الشعر العربى هو ذلك الحريق الذى أصيبت به بغداد فى ذلك الصراع الهائل الذى حدث بين الأمين والمأمون سنة ١٩٧ هـ ، ففى تلك السنة حاصرت جيوش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين مدينة بغداد التى كانت ترابط فيها جيوش أخيه الأمين ، ولما شددت جيوش المأمون الحصار على المدينة اضطر الأمين إلى أن يصدر أوامره بإحراقها ؛ فرميت بالنفط والنيران حتى أخذتها ألسنة اللهيب من كل ناحية .

وكان منظر العاصمة الإسلامية المحترقة مشهداً يثير النفوس ، فاستجاب لهذه الإثارة الشاعر إسحق بن حسان المعروف (بالخريمى) ، وكان من الموالى ؛ فنظم قصيدة طويلة تبلغ بضعة وثلاثين ومائة بيت من جيد الشعر ، يصف فيها حوادث الفتنة فى العاصمة ، ولكنه لم ينس أن يبدأ القصيدة بذكر محاسن بغداد وجناتها وقصورها ، وقد أصبحت داراً للملك رست قواعده وقرّت منابره ، ثم لم يلبث الزمان وهو ذو غِيَرٍ ونُوَبٍ أن يبدلها من السّعد نحساً ، ومن الخصب قفراً :

يا هل رأيت الجنان زاهرةً
يروق عينَ البصير زاهرها
وهل رأيت القصور شارعةً
تكنُّ مثل الدمى مقاصرها
وهل رأيت القرى التى غرس الأمـ
ـلاك مخضرّةً دساكرها
فإنها أصبحت خلايا من الـ
إنسان قد دُمّرت محاجرها
قفراً خلاء تعوى الكلاب بها
ينكر منها الرسومَ داثرها
وأصبح البؤس ما يفارقها
إلفاً لها والسرورُ هاجرها

* * *

وقد روعت نار بغداد أمن الآمنين من أهلها ؛ فخرج النساء الحرائر فى هيئة مروعة مفزعة ، وقد بدت خلاخيلهن وبرز من الستور منهن ، وانتثرت غدائر كل سيدة نؤوم الضحى ، فهبت ، وقد أفزعتها النار ، وأذهلها اللهيب ، تلتمس النجاة ، وتسأل عن طريق الخلاص ، والنار من خلفها تباكرها وتبادرها فلا تجد مناصاً منها :

والنفط والنار فى طرائقها
وهاياً للدخان عامرها
والنهب تغدو به الرجال وقد
أبدت خلاخيلها حرائرها
معصوصبات وسط الأزقة قد
أبرزها للعيون ساترها
كلُّ رقود الضحى مخبأة
لم تبد فى أهلها محاجرها
بيضة خدرٍ مكنونة برزت
للناس منشورةً غدائرها
تعثر فى ثوبها وتعجلها
كبة خيل زيمت حوافرها

تسأل : أين الطريق ... والمهـــة
والنـــار من خلفها تبـــادرها

وقد ذكر الطبرى المؤرخ القصيدة كاملة فى كتابه ؛ إلا أن اسم الشاعر فيه « الحزبى » بالزاى المعجمة ، كما ورد اسمه « الجرمى » فى تاريخ الكامل لابن الأثير : وكلاهما تحريف ، وصوابه « الحرمى » كما ذكر فى كتاب « تاريخ بغداد » ج ٦ ص ٣٢٦ ، وفى « زهر الآداب » وفى « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ، وكان مولى ابن مُخرِّيم الذى يقال لأبيه : خُرَيم الناعم .

وفى القرن السابع الهجرى ، وقبل العام الذى سقطت فيه بغداد فى يد التتار بعامين حدث حريق هائل فى مدينة الرسول عليه السلام ، وشب حريق هائل فى المسجد النبوى والحجرة النبوية ، واحترق المنبر الذى بقى أثراً مباركاً من عهد النبى عليه السلام ، ولعل ذلك الحريق كان إرهاصاً بما سيحدث فى الخلافة من صدع كبير على يد التتار . ولم يقف الشعر العربى صامتاً أمام هذه الظاهرة العجيبة التى أنذرت المسلمين ببلاء عظيم ، فقط بلغ من شدة النار فى أرباض المدينة أنها كانت تذيب الصخر ؛ ولعلها كانت بركاناً تفجر فى أرض الحجاز ، فقد وقعت النار مصحوبة بزلزال عنيف وكانت الحمم تتصاعد والنار تخرج كالجبل العظيم ؛ وأيقن الناس أنهم هالكون لا محالة ، فخرجوا من منازلهم ، وأعتق الأمراء مماليكهم وعبيدهم ... فقال فى ذلك أحد شعراء العصر ، ولم يذكر المؤرخ « ابن كثير » اسمه :

بحر من النار تجرى فوقه سفن
من الهضاب لها فى الأرض إرساء
كأنما فوقه الأجبـــال طافيــة
موج عليه لفرط البهج ؟ وعثاء
ترمى لها شرراً كالقصر طائشــة
كأنهـــا ديمـــة تصب هطـــلاء
تنشق منها قلوب الصخر إن زفرت
رعباً ، وترعد مثل السعف ؟ أضواء
منها تكاثف فى الجو الدخان إلى
أن عادت الشمس منه وهى دهماء

• • •

ولقد شهدت مصر فى أخريات العصر الفاطمى ، وفى الثلث الأخير من القرن السادس الهجرى حريقاً هائلاً فى مصر العتيقة والفسطاط ، التهم بيوتهما التهاماً ، ولم يبق فيهما على شىء ولم يذر ؛ وذلك حين أمر « شاور » بإحراق الفسطاط خشية أن يستولى عليها الصليبيون المتقدمون بالزحف نحو القاهرة من جهة بلبيس ، وظلت النار مشتعلة فى المدينة المريقة أربعة وخمسين يوماً ... ولكننا لم نقع على شعر يصور لنا تلك المأساة المروعة التى نكبت بها مصر عمداً على يد أحد زعمائها المتلقبين المتنازعين ... ولعل مؤرخاً أو أديباً يتفضل علينا بهدايتنا إلى مصدر نجد فيه مشاركة شعرية — لأحد الشعراء المصريين — فى ذلك الحادث المروع .

ولعل الحريق الذى نكبت به بلدة « ميت غمر » من أعمال مديرية الدقهلية فى أول مايو سنة ١٩٠٢ قد أكسب الأدب العربى قصيدة من أجود ما نظم من الشعر فى العصر الحديث ... فقد شبت النار فى تلك المدينة الصغيرة الجميلة على نحو لم تألفه البلاد فى الحرائق التى شبت فى العام نفسه فى قرى المززية ، وأشليم ، ومحلة زياد ، ونكلا العنب ، والقنايات ، وظهر شريب ، والسنبلاوين ، ومسرس القيانة ، وعنابر بولاق . لقد بلغت خسائر ميت غمر ٥٤٨ منزلاً ، ومائة حانوت ، ومائة جريح ، وستين شهيداً ...

وهنا وجدنا الشاعر حافظ إبراهيم يصور لنا هذا الحريق تصويراً يلمس مواطن الرحمة فى القلوب ، ويدق فى الوصف حتى يخرج لنا لوحة شعرية قد لا تقل فى الصدق عن لوحات المصورين . ولقد شهد حافظ إبراهيم حريق ميت غمر بعينه ، فقد كان مع لجنة إعانة المنكوبين التى كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده على رأسها . ولهذا لم تكن أوصاف حافظ إبراهيم للحريق من الذاكرة والمخيلة — كما صنع هو بعينه مثلاً فى زلزال مسينا ، أو كما صنع شوقى فى زلازل اليابان ... ولكنه كان وصفاً لواقع المرئى بعينه .

ومن منا لا يذكر قصيدة حافظ التى يقول فيها :

سائلوا الليـــل عنهمو والنهارا
كيف باتت نساؤهم والعذارى(١)
كيف أمسى رضيعهم فقــد الأمّ
وكيف اصطلى مع القـــوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جــدار
يتــداعى ، وأســقف تتجاوى

* * *

أكلت دورهم فلما اســتقلت
لم تغــادر صــغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عــراة
حــذر الموت يطلبون الفرارا
يلبسون الظــلام حتى إذا ما
أقبــل الصبح يلبسون النهارا
حــلة لا تقيهم الــبرد والحرّ
ولا عنهمـــو ترد الغبــارا ...

ولكن حافظاً لم يطل نفســه فى الوصف ولم يتعمق التصوير كما صنع « الخريمى » فى حريق بغداد .. فقد مضى ذلك الشاعر الأعجمى المستعرب يصف فى تفصيل دقيق تلك الجنان المهملة ، والأسواق المعطلة ، والقصور الخربة ، والدور المنهوبة ، والحرائر الشعث الضفائر ، المنشورات الغــدائر .

وإذا كان الحديث عن النفس قليلاً ، فإن المقام يقتضينا هنا أن لا نغفل الإشارة إلى حريقين وصفهما فى ديوان « من نبع الحياة » ، أحدهما حريق قرية « ميت معاند »(٢) من أعمال الدقهلية ، والثانى حريق بلدة « الراهبين(٣) » من أعمال الغربية . وهى إشارة لم يكن منها بد فى معرض الحديث عن شعر اللهيب فى الأدب العربى .

ومن الحرائق البعيدة عن محيط الوطن العربى حريقان كان لهما أثر فى الإنتاج الشعرى العربى فى العصور الحديثة . ففى ١٨٩٧ أقام جماعة من فضليات النساء فى باريس سوقاً للإحسان يبعن فيها بعض السلع الرخيصة بأثمان عالية لتوجه حصيلتها إلى جهات البر والخير ، كما تفعل جمعيات الإحسان فى زماننا هذا .. وفى الرابع عشر من شهر مايو — بينما كانت السوق غاصة بالناس — اشتعلت النار من تأثير بعض الأحماض الكيميائية التى كانت تستعمل فى معرض للسينما أقيم فى وسط السوق ، وامتدت النار فى الحظائر الخشبية كأنها تقد فى هشيم ، وأصبحت السوق أثراً بعد عين ، ولم يبق منها إلا رماد تذروه الرياح ، ومات فى هذا الحادث ١٤٦ نفساً واحترق كثيرون . وهنا نجد الشاعر الرقيق « نجيب الحداد » يصور هــذه الفجيعة فى قصيدة همزية تسيل رقة ، كما عودنا ذلك الشاعر فى أغلب قصائده(١) . ولقــد كان ذلك الحادث فى نفسه مثيراً للحزن والجزع ، ولكن الشاعر يجعل من مصاب باريس مصاباً للدنيا جميعاً فهى أم المدن وبنت التمدن ... ولهذا لم يكن عجيباً أن يشترك القريب والغريب فى الحزن على مصاب باريس :

أى خطب أصاب باريس أمّ الـ
ـمدْن بنتَ التمــدن الزهراء
جلة أكمدت ضحـــاياها وقد خصّـ
ـت بنيهـــا وعمت الغرباء ..
ليس بدعٌ فى خطب باريسَ أن تشـ
ـمــل آثارُ حزنه الدنيـاء
هى قلب الدنيـــا أصيب بسهم
فأصــابت آلامُه الأعضــاء

وعجب الشاعر من هــذه الأقدار التى حكمت على المحسنين والمشتركين فى سوق الإحسان أن يصلوا ناراً حامية .. فهل كانت تلك النار جزاء لهم ؟ أم كانت تطهيراً لذنوبهم ؟ أم هو الدهر من عادته أن يسىء إلى أهل الإحسان ؟

مَنْ رأى قبلها جحيما يؤدى
لنعيم أبنــاءه الشهــداء ؟
أو رأى محسناً يجود على النا
س فيلقىَ نار الحريق جزاء ؟

---

(١) تراجع القصيدة كاملة فى ديوان حافظ طبعة ١٩٣٧ ج ١ ص ٢٥٠ .
(٢ ، ٣) ديوان من نبع الحياة — طبع دار المعارف ص ١٣٠ ، ١٣٧ .

(١) ديوان تذكار الصبا طبع سنة ١٩٥٠ ص ٢٠ .

أتُرى كان ذاك مُستطهَر مَن ما
توا فيمحو عن النفوس الخطاء ؟
أم هو الدهر لا يزال مسيئاً
لكريم ، ومُكرِماً من أساء ؟

ولقد سلك الشاعر نجيب الحداد مسلك الحريري البغدادي حين وصف النعيم أولاً ثم أعقبه بوصف الجحيم .. فوجوه الباريسيات المشرقات بالسنا وبإشراقة الجيل ، والرافلات في الرياش يزهين به قد غدون رغماً سوداً . والكائنات البشرية كانوا ناساً قبل الحريق فصرن بعد النار والرماد إلى هباء منثور ...

أوجُهٌ يشرق السنا من مُحيّا
ها فتزداد بالجمال سناء
رحن يزهون بالرياش فما أمسين إلا كوالحاً سوداء
كُنّ ناساً ، فصرن ناراً فأصبحـ
ـن رماداً بها ، فصرن هباء

أما الحريق الآخر فهو حريق قصر «جراغان» في تركيا الذي شب في سنة ١٩١٠ ، وهو قصر بناه السلطان مراد الخامس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ثم شاء الله أن يسجن فيه بعد عزله من السلطنة وتولية عبد الحميد بعده . وهنا نجد الشاعر « ولي الدين يكن » يصف ذلك الحريق ويصوره ، ثم ينتهز الفرصة فيبكي على « الحرية » التي كان الشاعر من أشد دعاتها في عصر السلطان عبد الحميد ، ومن أكثر الذين أوذوا في سبيلها[1] :

يا منزل الأحرار إذ ملكوا
يبكي عليك « مراد » الحرُّ
يبكي عليك وإن أوى جدثاً
وعلاه بعد سقوطك الصخر
هذي الطلول .. فأين تنتحب الأطـ
ـيار فيك ويضحك الزهر ؟
ما ثمّ خيمت الأسود ولا كانت تسير ظباؤك العفر

وإذا كان الشاعر « نجيب الحداد » قد جعل الدنيا تبكي على مصاب باريس فإن الشاعر « ولي الدين يكن » يجعل الزمان والدهر ينتحبان على قصر جراغان ، والنجوم باكية ، والشمسَ كاسفة ، والبحر عاجزاً عن إطفاء الحريق في لحظات رهيبة ، لا تنفع فيها البيض ولا تغني السمر ... وقد غشى الدخان الكثيف آيات القصر فطواها في سواد قلبه .. ومحيت تلك السطور الرائعة التي كانت ديواناً حافلاً بالبدائع .

لما اشتعل بك اللهيب ضحى
وبدا خلال دخانك الجمر
وقف الزمان عليك منتحباً
وأقام ينتدب حسنك الدهر
والزُّهر قدما كنّ حاسدة
لما أصبت بكت لك الزُّهر
الشمس أختك ثَمّ كاسفة
لبس الخسوف شقيقك البدر
أو ما رآك البحر ملتهباً
بل لو رآك لجاءك البحر
فيجيش للنيران غاربُه
ويبل حرَّك ماؤه الغمر

●●●

وعلا الدخان ذراك فاختبأت
في جنحه آياتك الغـُـر
فكأنها صور محركة وكأنه من دونها ستر ..
قد كنت ديواناً قصائده
تلك البدائع فامحى الشعر
سالت سطورك من صحائفها
فغدت وما بصحيفة سطر ..

وإذا انتقلنا إلى التشبيه في أبيات الشعر السابقة لاحظنا أن الشاعر ولي الدين يكن قد استفاد من اختراع الصور المتحركة « السينما » فشبه آيات القصر المحترق بالصور ، وشبه الدخان الذي يعلوها بالستار الذي يسدل على لوح الناظر .

هذه نظرة بعض شعرائنا إلى الحرائق التاريخية الكبرى ، وهذه مواقفهم منها ؛ ولعل شيئاً فاتنا ولم يصل إلى قاصر علمنا ، ولكن أجمل العذر أننا هنا لسنا في مقام الحصر ولا في معرض الإحصاء ...

محمد عبد الغني حسن

---

(١) ديوان ولي الدين يكن مطبعة المقتطف سنة ١٩٢٤ ص ٥٧ .

الصائب السوى سهل غير ممتنع

للآنسة الزهرة

كان مستحكم الخلقة ، ضليعاً ، وثيق التركيب ، فتياً ملتف الأعضاء ، سبط القوام ، وضّاح المحيا ، حسن العينين والضحك ، وكان قد سُرّح من الخدمة العسكرية ، بعد أن لبى داعى الحمى الذى اكتنفه قناؤه ، على أكمل وجه ممكن فى الحرب العالمية الثانية ، واستأنف سيرته الأولى حال عودته ، وشرع يهيء معدات زفافه إلى الفتاة التى خطبها لنفسه ، قبل مضيه إلى الميدان .

وذهب ذات يوم إلى بيتها ليحدد موعد حفلة العرس ، وفيما كانا يتشاوران فى أمرها ، أقبلت صديقة عوان فتوجها إليها برجائهما لكى تنضب لحياتهما الزوجيـة الآزفة رأياً مكيناً ، وبحث ثلاثتهم بملأة طائفة من الشئون الهامة ، ثم أفضى بهم الحـديث إلى بعض المسائل العامة ، وأصاخت الصديقة الناصحة إليهما وردت على الأسئلة التى وجهها إليها الشاب فى عناية بالغة ؟ ثم ابتدرته قائلة : « خبرنى كيف قضيت فى الجيش هذا الزمن المديد وظعنت إلى ما وراء البحار عن الأوطان ، ولم تتعلم التدخين ، ولم تتعود معاقرة الكأس ؟ إنى لا أشك أبداً فى أن مقاومة هذه العادة قد كلفتك عسراً » .

وكان جوابه بليغاً جمع فيه حلال السحر إلى جلال الحكمة — فتدفق بحره كالجواهر ، كلاماً ينبغى أن نحفظه فى خزائن واعيتنا ، ونخبؤه فى أوعية قلوبنا ، ومستودع ذخائرنا المعنوية ، لكى نتحلى بها على الدوام — فقد قال : « سأفضى إليك ياسيدتى بالحقيقة الناصعة التى تجاهر بأن الأمر إذا كان سوياً صائباً فلا بد أن يسلس لنا مطلبه ويدنى مناله ويلين أعطافه ويستسلم إلينا بأعنته فى غير إعنات !! .

حقاً لقد كان صدوقاً صحيح النبأ .

سمعت شابين يتحدثان عن الخدمة الاجتماعية ، فقال أحدهما : لست أستطيع أن أخبرك عما يبدو لى السعى فى سبيل التقويم والإنارة والإصلاح الاجتماعى ، وعند ما آمل لو أنك جعلت ذلك غاية حياتك ومنتجع خواطرك ، ومهوى فؤادك ، وإنى لأعرف أنك ستجد حينئذ فرحاً لا يقدر ومُتعاً لا يوصف .

فقال رفيقه : إنى أروّى فى هـذا كله ، ولـكن الاستجابة له تعنى الحرمان من مناعم كثيرة ومباهج عدة . وأنا فى الواقع أحصى التكاليف التى توجهها هذه الخدمة الاجتماعية !!

فسأله صديقه قائلاً : أما جلست مرة لتحصى التكاليف التى تفرضها عليك الأثرة والرغبـة فى أن تعيش لذاتك ؟ هيا يا أخى وكن كمن قال فيه شاعرنا المبدع :

فتى عاهد الرحمن فى بذل جهده

فليس تراه الدهر إلا على العهد

فتى قصُرت آمـــاله عن فعـــاله

وليس على الحر الكريم سوى الجَهْدِ

أوَلم يأتك حـديث الشاعر الغربى الذى قال : « لا تحص التكاليف إن أردت أن تفوز بالهدف ، إن كنوز العالم لا تساوى شيئاً بالقياس إلى مواهب النفس البذول . فإن أردت أن تكتسب المعركة ، جاهد فى شجاعة ولا تضع نصب عينيك التاج الذى سيزين مفرقك ! بل ارفع بصرك إلى ربك الذى تسامى الآن فى البروز إلى ميدانه مع أنصاره وحماة شريعته . إن أكاليل الغار تنتظر الكماة المجاهدين ، حتى يذهب الزمان بآخر فرد فى السلالة البشرية ، فاصبر إلى يوم الوقت المعلوم ، وإياك أن تهرب من الكفاح ، بل كن خضل اليدين بالمعروف ، سبط الكفين بالغوث فى سبيل التسامى بالمجتمع عن معاثر الوجـود ؟ فهم منطق حقوقك ، وبادر إلى اصطناع الرجال . الرجال ، وأودع قلوب الناس محبة آبدة للخالق والمخلوق ، وكن حديثاً حسناً يبقى به حميد ذكرك وكريم منالك وشرف آثارك ، واجه عدو سيدك وربك ، وليزودك الله التقوى ، وليستخلف فيك الخير حيثما كنت « وإنما توفّون أجوركم يوم القيامة ، فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

روى أن الهيئة الإدارية لجماعة من أنصار الفضيلة ، انعقدت ذات مساء فى عاصمة مملكة صغيرة من ممالك أوربا الوسطى ، وانبرى شاب جرىء أثناء انعقاد الجلسة ، ليستأذن فى الذهاب إلى قرية مجاورة ، فأنذروه بالمشاق والاضطهادات التى سيلقاها هناك . إلا إنه قال : « لا بد لى من الذهاب بأية حال ، ومن فتح له باب الخير أفلا ينتهزه ، فإنه لا يدرى متى يُغلق عنه ..

ليس فى كل ساعة وأوان تتهيأ صنائع الإحسان
فإذا أمكنتك تقدمت فيها حذراً من تعذر الإمكان

ومضى ونجح فى بيع عشرين نبذة ، وتوزيع كثير من النشرات الصغيرة ، التى تذيع رسالة الفضيلة ! ولما تأهب للرجوع إلى بيته فى المساء ، ترصد له جمع الأجلاف الأغبياء ، خارج القرية وضربوه وركلوه ، وعذبوه وهشموا أسنانه ، وكسروا ساقه ورضّوا ذراعه وفلقوا رأسه وتركوه فاقداً صوابه .. وحسبوا أنه قد فارق الحياة .. ثم أقبل رجل محسن لينقله من مكان الحادث ، ولما وجد بقية من الحرارة فى جسمه ، سارع إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة ونقله إلى أقرب مستشفى . ولما سمع أعضاء الجماعة بما أصابه ، بادر نفر منهم إلى زيارته .

وقال أحدهم : إن ذلك المسكين المقدام لم يكن يقوى على تحريك شفتيه ، بل الظاهر أن أقل اختلاجة من جفنيه ، كانت تسومه جهداً بالغاً ، ولكنك لو قفنا قرب سريره ، لا نحير ضيفاً أو كلاماً ، فأشار إلى رئيس الجماعة ، لكى يدنو منه قليلاً ، وحين انحنى عليه ، همس الجريح المدنف قائلا : أخبر الرفاق أنى جد سعيد . وحاول أن يبتسم ..

ولكن نُرى مشرقاً وجهه ليرغم فى بدنه من رُغم

ويذكر الذين شاهدوا تلك الابتسامة أنهم لم يروا طيلة حياتهم ما يضارعها فى إشراقها وعذوبتها . ويسترسل محدثنا فيقول : « ترى كم من الناس يستطيع فى مثل هذا الموقف الوجع أن يقول : إنى جد سعيد » !! .

إن معضلات الحياة ومشكلاتها ، تباغتنا وتطبق علينا وتلاحقنا . ولا بد لكل منا أن يجد فيها الكرامة والهوان .

لم ينجُ من خيرها أو شرها أحد
فاذكر شوائبها إن كنت من أحد
خاضت بك الحالة الحمقاء غمرتها فتلك أمواجها ترميك بالزبد

بيد أن هذا المبدأ القويم بعينه ، يهيب بنا فى تلك الغمرات الثائرة قائلاً : إذا أبرم أمر بالسداد والصواب ، صار عناؤه راحة ، ووعره ذلولاً ، وصعبه سهلاً غير ممتنع .

● ● ●

كان أحد الصبيان يجد برحاً بارحاً ، فى حل مسألة حسابية ، وبعد محاولات كثيرة من جانبه ، طلبت منه المعلمة أن ينتقل من مكانه ، وخفت إليه وجلست عند النافذة قرب المعاونة . وأخذا يتنقلان خطوة خطوة فى طريق حل تلك المسألة المعقدة . وسطعت ابتسامة متألقة على وجه الصبى ، حين وصل إلى الجواب الصحيح فى تلك المسألة وهتف قائلاً : « إنها جدُّ سهلة يا أستاذة ، حين نرتادين لها وجوه الحل الصائب » . ولما قفلت المعلمة راجعة إلى منصتها ، راحت تفكر هى الأخرى فى مسألة تكلفها خطة شديدة ، إذ تطالبها بأمر لا تريد أداءه ، وإن كانت توقن أنه حق واجب قويم . وكأنها قد عادت تلميذة من جديد ، وكأن المعلم الأعظم جلّ جلاله يسير إلى جانبها ويسألها فى حنان : « هل أحصيت المواعيد الإلهية ؟ وهل جمعت آحادها ؟ هل نسيت أنها كريمة العهد تتبع عدتها بالإنجاز ، حيث تقول : « يعطيك الرب نعمة وقوتى فى الضعف تكمل » . فأجابت قائلة فى تهيب : « لا يا سيدى ، إنى لم أحصها » .

وسألها ثانية : « وهل طرحت من حياتك الأنانية والأثرة والكبرياء والغيرة والحسد والسعاية ؟ » .

وجاء اعترافها ثانية يقول فى ألم : « لا ، فقد نسيت » .

فسألها مرة ثالثة : « وهل قسمت قلبك وحياتك ومواهبك ومقتنياتك لتقدميها لله ، ولتجودى بها على إخوانك وأخواتك فى الإنسانية » ! .

فصرخت قائلة : « إنى لم أعمل شيئاً من ذلك مع الأسف ، فقد احتفظت بكل شىء لذاتى ، كى أنفذ الخطة التى أوثرها ولا أريد سواها ، مع أن هذه الخطة يجب ألا تؤلف جزءاً من الحياة الموفورة التى أسبغتها علىّ يا خالق » .

وترقرق ماء البشر فى وجهها ، لأنها وجدت الحل الصحيح لرموز مشكلتها ، فجلت غامضها وأماطت حجابها ، وفكت معضلها وأوضحت مناهجها ، وهتفت بملء صوتها : « أجل إن مشكلتى سهلة حين يقتدح حلها زناد الصواب الحق والسداد الأكيد .

الزهرة

رجـــــل البوليس
وكيف يراه الشعب

للأستاذ حافظ أحمد أمين

كثيراً ما نسمع الناس يستعملون في تخويف الأطفال وإجبارهم على إتيان عمل من الأعمال يأبونه ، تسمعهم يهددون بإحضار « العسكري » إن استمر الطفل في بكائه ، وباستدعاء البوليس إن أبى الطفل شرب الدواء .

وأقف عند هذه العادة القائمة بيننا أفكر في أسباب هذا الخوف المتأصل من رجل البوليس ، فأصل إلى ثلاثة أسباب :

رجعت إلى عمل رجل البوليس وواجباته فرأيتها تتلخص في أنه حارس لأموال الشعب وحريته وحياته ، وتأملت هذا الشعب فإذا أكثره فقير معدم ، ليس لديه من الأموال ما يحتاج معه إلى غيره لحمايته ، ثم هو مستعبد ذليل ، لا يملك الحرية التي يخاف عليها من الضياع ، ثم هو ضعيف الثقة بنفسه ، يبيع نفسه وكرامته وحياته بأرخص من سعرها ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإن رجل البوليس لا يحمي شيئاً للشعب ، لأن الشعب لا يملك شيئاً .

فإن أدى رجل البوليس شيئاً فإنما هو حراسة هذه الطبقة التي تتمتع بكل هذه الأشياء : الأموال والحريات والأرواح . ولما كانت ثروة البلاد من نتاج الشعب العامل الفقير ، فهي ثروة مسروقة من أصحاب الحق في الاستمتاع بها ، وعلى ذلك فرجل البوليس لا يحمي في الواقع إلا طبقة من اللصوص ، سرقت أموال طبقة أخرى يعد رجل البوليس منها أولاً وأخيراً ، ولكنه يخون طبقته هذه لقاء لقيمات من الخبز ، ما كان أشرفه لو أنه نالها من طريق آخر .

والسبب الثاني في هذا النفور ، أن رجل البوليس يلقى دائماً من رؤسائه كل غبن وإذلال ، فهو يشعر بالظلم والتبرم في كل وقت ، وينوء بأحمال ثقيلة من الضغط والاستعباد ، وهو يتجه بأحماله التي ألقاها عليه من هم في حاجة إليهم ، ليلقيها على من هم في حاجة إليه — ولو صورياً . وهو يجد في ذلك تعويضاً وراحة يفرج بهما عن همومه ، فيصب جام غضبه على الضعفاء ، وينكل بصغار النفوس الذين يقعون في قبضة يده ، ومن هنا نظر إليه الشعب كعدو لحرياتهم لا كحارس لها .

والسبب الثالث هو اعتقاد الشعب بأن رجل البوليس لا يمثل إلا الحكومة ، والحكومة في نظره أفراد يستنزفون دمه ويعتمدون على ما تأتي به المزارع من دخل كبير ، والشعب لا يفقد بذلك حقه من المال فحسب ، وإنما يفقد حريته أيضاً ، ويعيش — بفضل رجل البوليس — في ظل قوانين لا يفقه أكثرها ويغضب عليها .

وقد أفكر في علاج لهذه الحال فأجد أن أساسها قوي يصعب علينا هدمه ، فإذا أردنا أن نعالج نفور الشعب من رجل البوليس في حمايته ، رأينا أن سبب ذلك هو أن الشعب لا يملك ما يطلب حمايته ، وإذا بنا نطلب منح الشعب حقوقه .

وإذا أردنا أن نعالج ما يعامل به رجل البوليس الشعب من عنف وتنكيل ، رأينا أن سبب ذلك ما يلاقيه هو من غبن وإذلال من رؤسائه ، وإذا بنا نطالب بالعدل والديمقراطية .

وإذا أردنا أن نعالج نظرة الشعب إلى الحكومة ، رأينا أنفسنا نجري وراء معالجة الحكومة .

وكثيراً ما يسأم الإنسان الحديث في الفساد الأكبر ، ويسأم الغضب الشديد ، فيجري وراء الفساد الأصغر ، والسخط الوادع المستكين .

حافظ أحمد أمين

يَبَابِك والفقـــراء

أقصوصة لفولتير

رحلتُ إلى مدينة «بنارس» التي تقع على شاطئ نهر «الجَنْج» ، والتي كانت فيما مضى موطن طائفة البراهمة . فأقمت بها ردحاً من الزمن حاولت فيه أن أدرس شئونها وعاداتها وفلسفاتها . وكنت أجيد اللغة الهندية ، فكنت أنصت إلى كل ما يقال وأمعن النظر في كل ما يرى .

وكنت أنزل ضيفاً على صديق ومراسل «كمتري» ، وهو أكرم من رأيت خلقاً وطباعاً . وهو يدين بالبرهمية . أما أنا ، وما أعظم فخري بذلك ، فأدين بالإسلام . غير أنه لم ينشأ بيننا أبداً نزاع فيما يتعلق بمحمد أو براهما . وكان كل منا يتوضأ في ناحية تبعاً لشعائر دينه . على أننا كنا نشرب من كأس واحدة ، ونأكل الأرز في إناء واحد ، وكأننا أخوين لا فرق بينهما .

ذهبت يوماً بصحبته إلى معبد «جاغانا» ؛ فرأيت جماعات من الفقراء ، بعضهم ينتمي إلى طائفة «الجاجيس» أي الفقراء التأمليين ، والبعض الآخر يتبع مذهب «الجيمنوزوفيست» القدامى ، ولهم كانوا يعطون لغة علية ، هي لغة أول جيل من البراهمة ؛ ولهم في تلك اللغة كتاب يسمونه «الهانوستكري» ، وهو بلا منازع أعرق الكتب الهندية ، ولا تستثنى منها كتاب «زند أفستا» .

ومررت بفقير يقرأ في ذلك الكتاب ، فصاح بي :

— ويلك يا كافر ! لقد أنسيتني عدد الحروف المتحركة التي كنت أحصيها في الكتاب . ومن أجل ذلك سوف تمر روحي بجسد أرنب بدلاً من أن تمر بجسد ببغاء كما كنت أمني نفسي به .

فنحته «روبية» لأسليه عن بلواه . ومررت بعض خطوات أخرى ، ولكنني لسوء طالعي عطست ، فنبهت عطسي فقيراً كان في حالة من الذهول التأملي شديدة ، فقال مشدوهاً :

— أين أنا ؟ يالها من سقطة مروعة ! إنني لم أعد أرى طرف أنفي ، وقد توارى النور الإلهي !...

فقلت له :

— إن كنت أنا السبب في أن بصيرتك تصل أخيراً إلى ما بعد طرف أنفك ، فهاك روبية أرجو أن تصلح ما أفسدته ، وترجع إلى نورك الإلهي .

فلما تخلصت بتلك الطريقة السلبية من هاتين المشكلتين ، مررت على الجيمنوزوفست الآخرين ؛ فكان منهم من أتاني بمسامير صغيرة جميلة الصنع لأغرزها في ذراعي وفخذي تقديساً لبرهما ، فاشتريت منهم مساميرهم واستعملتها في تثبيت البسط في بيتي . وكان منهم أيضاً من يرقصون على أيديهم ، ويسيرون على الحبال ، ويمشون على رجل واحدة ؛ كما كان منهم من يحملون برادع الحمير ، ومن يجرون السلاسل الحديدية الثقيلة ، ويلبسون على رءوسهم أحمالاً من الحطب .

وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا جميعاً كرام الخلق وفي غاية من الأدب .

● ● ●

وقادني صديق عمري إلى صومعة أحد البراهمة المشاهير يدعى «يا بابك» . وكان عارياً كيوم ولدته أمه ، يحمل في عنقه سلسلة ثقيلة يربو وزنها على ستين رطلاً . وكان يجلس على مقعد جهز بالمسامير الحادة التي تنغرز في عجزه ، فلا يشعر بها وكأنه جالس على فراش من حرير .

وكان له صيت ذائع بين نساء البلد . فهو مرشدهن

ونبهين ، تستشيره العائلات ، ولا يقدم أحد على عمل قبل استطلاع رأيه .

ونستطيع أن نقول أخيراً دون مبالغة إنه كان يتمتع بسمعة طيبة واسعة .

وقد استمعت إلى ما دار بينه وبين عمرى من حديث طويل ، وننقله فى السطور التالية :

قال عمرى :

— أترى ، يا أبت ، أنه سوف يُسمح لى أن أدخل دار برهما بعد مرورى بالتحولات السبع ؟ .

قال :

— هذا يتوقف على سلوكك وكيفية معيشتك .

قال :

— إنى أحاول دائماً أن أكون مواطناً صالحاً ، وأباً صالحاً ، وزوجاً صالحاً ، وصديقاً صالحاً ؛ أقرض المال إلى الأغنياء دون ربا ، وأتصدق على الفقراء ، وأقيم الوفاق بين جيرانى .

قال البرهمى :

— وهل تغرز المسامير أحياناً فى إليتيك ؟ .

قال :

— أبداً ، يا أبت ، لم أقدم على هذا .

فقال الفقير :

— إنى لجد آسف على ذلك ، فلن تذهب إلا إلى السماء التاسعة عشرة ؛ وحقاً أنه أمر يؤسف له .

قال عمرى :

— أنعم به من نصيب ! وما يضيرنى إن استقرت روحى فى السماء التاسعة عشرة أو العشرين ما دمت قد أديت ما فرض علىّ فى الحج ، ثم قبلت فى الدار الآخرة ، وأى السماوات تصبو إليها أنت ، سيدى بنابك ، بمساميرك وسلاسلك ؟ .

قال :

— السماء الخامسة والثلاثين .

فقال عمرى ضجراً :

— ما أعظم ضلالك إذ تدعى أنك سوف تكون أرفع منى مكانة ؛ فليس هذا إلا طمعاً منك وغروراً . إنك تستنكر من يبحثون عن المجد فى دنياها ، فكيف تبحث أنت عنه فى الآخرة ؟ ولم تدعى أنك سوف تكون أحسن منى حالاً ؟ اعلم ، سيدى ، أنى أتصدق فى عشرة أيام بما تربو قيمته على ثمن كل ما تغرزه فى فخذيك من مسامير فى عشرة أعوام . وماذا يجنى برهما من قعودك طول النهار عارياً تحمل السلاسل فى عنقك ؟ حقاً ، إنها لخدمة جليلة للوطن ! إن تقديرى لفلاح أو بستانى يعمل بفأسه لأعظم ألف مرة من تقديرى لسائر أمثالك الذين يثقبون أنوفهم ويصلون بالدع الخير مغالاة فى كرامة النفس ...

قال صاحبى هذا ، ثم لان جانبه وهدأت ثورته ، وتودد إلى البرهمى وحاوره ، فأقنعه بأن يضرب بالسلاسل والمسامير عرض الحائط ، ويأتى معه فيحيا فى بيته حياة كريمة شريفة . وأتاه الخدم فغسلوه وطيبوه وألبسوه حلة تكسو جسده العارى . وعاش زهاء خمسة عشر يوماً عيشة طيبة حكيمة ، فاعترف أنه أصبح أحسن حالاً من ذى قبل . ولكن مكانته كانت قد تضعضعت بين الشعب ، وكفت النساء عن استشارته والاسترشاد بأقواله .

فهجر عمرى وعاد إلى مساميره وسلاسله فى سبيل استرداد مكانته ومجده السابقين .

تلخيص

أحمد عبد الحليم محمود

القمر فى الشعر العربى

للأستاذ جمال الدين الرمادى

أطلق العرب على القمر أسماء كثيرة : فهو تارة يسمى بالواضح وتارة يسمى بالزبرقان ، وتارة يسمى بالباهر وتارة يسمى بالزمهرير ، كقوله تعالى (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً) .

ومنذ فجر الشعر العربى تناول الشعراء فى شعرهم القمر بكثير من الأوصاف ، وكثير من التشابيه والتصاوير ، وقد أذكت البيئة الصحراوية شاعرية الشعراء ! فصحراء تمتد امتداد البصر حيث يلتقى خط الرمال الصفراء مع خط السماء الزرقاء ، وقمر ساطع يتألق فى السماء ، ويسكب أكواب النور على الأرض فى وحشة وسكون وروعة وفتون . وقد كان القمر أنيس السارى والدليل الحائر الذى طال به السفر وأدركه الكثير من وعثاء الطريق .

وقد ضرب العرب الأمثال بالقمر ، فقال قائلهم : أسبع من قمر الشتاء ، وإذا حاولت أن تعرف لماذا كان قمر الشتاء ضائماً أدركت أن قمر الشتاء لا يجلس فيه لكثرة الغيوم والمطر . وقال قائلهم أيضاً : إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر . وإذا حاولت أن تعرف السر فى ذلك أدركت أن القمر يرقب الناس من علبائه فى خيرهم وشرهم ، ولكنه لا يستطيع أن يعين الشرير على شره كما لا يعين الخير على خيره . وقال قائلهم كذلك : أضوأ من القمر وأتم من البدر . وأكبر الظن أنك لست فى حاجة إلى محاولة معرفة سر هذا المثل لأن وضوحه يغنى عن كل بيان ....

وقد كانت أوصاف الشعراء الجاهليين للقمر مستمدة من البيئة الجاهلية ؛ فهو أنيس الدليل السارى ، وهو سمار السامرين والركب الخب فى الصحراء ، ولم تتعقد وتتطور أوصاف الشعراء الجاهليين للقمر مثل هذا التعقد والتطور الذى نجده فى الأدب الأندلسى مثلا كقول الشاعر :

كأن الهلال نون لجين غرقت فى صحيفة سوداء

وكقول الآخر :

ولاح لنا الهلال كشطر طوق على لبات زرقاء اللباس

وكقول عبد الله بن على الكاتب :

كشف البدر وجهه لتمام فوجوه النجوم مستترات

وكأن البدر التمام عروس وكأن النجوم متنقبات

وهكذا تعددت صور الشعراء للقمر . والذى نلاحظه أن نظرة الشاعر إلى القمر تختلف من فرد إلى آخر . فبينما نجد شاعراً يغرم برؤية الهلال ويتفنن فى تصويره كابن المعتز الذى يراه كزورق من فضة أثقلته حمولة من عنبر ، نجد عبد الله الكاتب يغرم برؤية البدر الكامل فيعبر فى بيتين من الشعر عن منظره الخلاب وسحره الأخاذ فى نفسه .

وقد تفنن ابن المعتز فى وصف القمر كل التفنن وأحبه حباً جماً ، مثله فى هذا الحب كالشاعر الإنجليزى جون كيتس John Keats الذى اعتبره بعض النقاد فى أوربا عاشقاً للقمر لكثرة ما نظم فيه من شعر ، ولكنى فى الواقع أقول هذا القول فى كثير من التحفظ ، فلابن المعتز منهج خاص فى طراز الشعر ولكيتس منهج خاص فى أسلوب الشعر ولم يلتقيا ولا يمكن أن يلتقيا .

ومن المعانى الغريبة التى صاغها يحيى بن هذيل فى وصف القمر هذا المعنى :

والثريا دنت من البدر حتى خلتها دارعا يدير محيا

أما فى باب الغزل فقد تفنن الشعراء العرب فى وصف محبوباتهم بالقمر وسحره ، بل إن بعضهم لم يرقه هذا الوصف ولم يسترح إلى هذا التصوير ، كأبى على تميم بن معد صاحب مصر :

شبهتها بالبدر فاستضحكت وقابلت قولى بالنكر

وسفهت قولى وقالت متى سمجت حتى صرت كالبدر

والبدر لا يرنو بعين كما أرنو ولا يبسم عن ثغر

ولا يميط المرط عن ناهد ولا يشد العقد فى نحر

من قاس بالبدر صفاتى فلا زال أسيراً فى يدى هجرى

وكقول أبى إسحاق الصابى :

ما أنس لا أنس ليلة الأحد والبدر ضيفى وأمره بيدى

قبلت منه فما مجاجته تجمع بين المدام والشهد

كأن مجرى سواكه برد وريقه ذوب ذلك البرد

وعندى أن أبيات أبى إسحاق الصابى هذه من أروع

ما كتب من الغزل ، لا لبراعة الشاعر في الاستعارة ولا لروعة الشاعر في النظم ! ولكن لأنه صور لنا تصويراً بديعا بهجته في ليلة الأحد ، مثلما يصور الشعراء المحدثون هذه البهجة على شفاف السين أو على شفاف التيمز أو في بلاد العم سام .

أبيات الصافي هذه عالية رائعة ، لولا أن بعض ألفاظها تردها إلى الشعر العربي والبيئة العربية رداً سريعا كلفظة السواك التي كان يعتز بها العربي .

وشعر ابن خفاجة الأندلسي القمري شأنه كثيرة مستملحة ، وكان في بعض الأحيان يمهد لذلك تمهيداً أو يحيط الصورة بهالة من الأجواء الخاصة ، مثله في ذلك كمثل المصور الذي يعرف مواطن الظلال ومواضع النور ، فوصف ابن خفاجة السري في ظلمة الليل الحالك وما يواجه ذلك السري من رهبة في النفوس وهلع في القلوب وما يلاقيه الساري في الصحراء من حيوان مفترس ، وما يأنس إليه من قمر ينسكب عليه نوره . اسمعه يقول :

ومفازة لا نجم في ظلمائها   يسري ولا فلك بها دوار
قد لفني فيها الظلام وطاف بي   ذئب يلم مع الصبح زوار
والليل يقصر خطوه وإنما   طالت لياليَّ الركب وهي قصار
أدهم بمن طرف الجزع مفرق   فيه ومن خط الهلال عذار

ومن الأوزان الرقيقة والمعاني الطريفة في الشعر الأندلسي قول ابن زيدون :

ســق أيتك مالي   بِراحتي وعـــناني
ما البدر شف ســناه   على رقيق السحاب
إلا كوجهك لـــما   أضاء تحت النقاب !

وإذا كان شعراء الأندلس قد برعوا في وصف القمر وافتنوا في عرض صوره ولوحاته كل التفنن ، فإن بعض شعراء الشرق قد استخلصوا من القمر الحكمة واستمدوا منه الموعظة البالغة والرأي السديد كقول الشاعر :

المرء مثل هلال حين تبصره   يبدو ضعيفا ضئيلا ثم يتسق
يزيد حتى إذا ما تم أعقبه   كر الجديدين نقصا ثم ينمحق

وكقول أبي تمام الطائي :

لهفي على تلك الشواهد فيهما   لو أخرت حتى تكون شمائلا
إن الهلال إذا رأيت نموه   أيقنت أن سيكون بدراً كاملا

كان القمر في الأدب العربي إذاً ولا يزال مصدراً من مصادر الجمال ومبعثاً من مباعث الروعة والفتنة في الأدب . فالشعراء إما يستوحون منه شاعريتهم فيصفونه وصفا جميلا ، وإما يشبهون به عرائس أحلامهم وملهمات قريضهم ويتلاعبون بالمعاني تلاعبا ، ويتضاربون بالأفكار تضاربا ، وإما يستوحون منه الحكمة والموعظة الحسنة ؛ ولكن بعض الشعراء لم يكفه هذا كله ، بل لجأ إلى شيء يناقض هذا كله ، فهجا البدر هجاء مرا ، وقد ذكروا أن أعرابياً رأى رجلا يرقب الهلال ، فقال له : ما ترقب فيه وفيه عيوب لو كانت في الحمار لرد بها ؟ فقال : ماهي ؟ فقال : إنه يهدم العمر ويقرب الأجل ، ويحل الدين ويقرض الكتان ويشحب اللون ويفسد اللحم ويفضح الطارق ويدل السارق . ومن عيوبه أن الإنسان لو نام في ضوئه حدث في بدنه نوع من الاسترخاء والكسل ويهيج عليه الزكام والصداع .

وقد ضمن الشاعر ابن الرومي قصيدة من قصائده هجاء القمر فقال :

لو أراد الأديب أن يهجو البد   ر رماه بالخطة الشنعاء
قال يا بدر أنت تغدر بالسا   ري وتُزري بزورة الحسناء
كلف في شحوب وجهك باد   كان كافوق وجنة برصاء
يعتريك المحاق ثم يغطي   ك شبيه القلامة الحجناء
وبك النقصان في آخر الشهـ   ر فيمحوك من أديم السماء !

لم يسلم حتى القمر من الهجاء في الأدب ، ولكن لعل هذا الهجاء تطمئن إليه نفوس كثيرة وترجع إليه أبحاث كثيرة أيضاً ، ولكني مع هذا لا أطمئن إليه ولا آنس به ، إنما أطمئن وآنس إلى قول الشاعر حين يقول :

وبدر دجى يمشي به غصن رطب
دنا نوره لكن تناوله صعب
إذا ما بدا أغرى به كل ناظر
كأن قلوب الناس في حبه قلب !

فأيهما خير ، المدح أم الهجاء ، الحب أم البغض ، المودة أم الكراهة ، بزوغ القمر أم أفول القمر ، انسكاب الضوء أم احتباس الضوء ، حسناوات يخطرن فيملأن القلب حباً وولها ، ناضرات الوجوه ، ساحرات العيون ، أم قبيحات يملأن القلب غماً وبؤساً ويأساً ، أم فناء وعدم مريع ليس فيه هذا ولا ذاك ؟! من يدري !! .

جمال الدين الرمادي

مقومات الشعر الإنجليزي الحديث

— ٥ —

الدكتور رشاد رشدي

الجبرية :

جنباً إلى جنب مع هذا الإيمان بالروح والحنين إلى الحياة الروحية نجد اتجاهاً آخر لا يقل في قوته وأثره في الشعر الحديث عن هذا الاتجاه — وأعني به الإيمان بالجبرية — فإن حياة الآلة قد سلبت الإنسان العصري إرادته فأصبح مسيراً ، ثم جاءت الحرب العالمية الأولى وتبعتها الحرب العالمية الثانية ؛ فقوّت هذا الإيمان بأن هناك قوة تسيطر على حياتنا لا قبل لنا بمعرفتها أو التغلب عليها ، حتى إنك كثيراً ما تجد الأوربي المعاصر يعيش ليومه فقط ؛ فهو لا يعرف ما قد يجيء به الغد بعد أن عطّلت الحياة الآلية إرادته ، وبعد أن جرعته الحرب ويلات جمة ، وبعد أن فقد إيمانه بالآلة ؛ فأصبح يرى نفسه كالريشة في مهب الريح يسير في عالم مليء بالمتناقضات لا يعرف له وجهة معينة ، ولا يدرك لحياته نهاية واضحة تنتهي إليها ؛ كان من الطبيعي إذاً وقد أدرك الإنسان العصري أنه مسلوب الإرادة أن تظهر نزعة الإيمان بالجبرية في الشعر ، وأن تتخذ أشكالاً مختلفة ، أهمها ثلاثة : وأول هذه الأشكال هو نتيجة مباشرة للتبرم بحياة الآلة ؛ فما دامت الحياة الحديثة قد انقلبت إلى آلة كبيرة ليس الإنسان إلا جزءاً منها ، فكيف يستطيع الإنسان أن يبقي على إرادته فيها ، وهو ليس إلا عجلة من عجلات الآلة الكبيرة تتحرك فيتحرك معها لأنه لا كيان له بدونها ، كما أن المسمار الصغير في الساعة ينعدم عمله لو فصل عنها ؛ فعنصر الجبرية إذاً نجده أول ما نجده في طبيعة الحياة نفسها ، وهذا ما يصوره كثيرون من الشعراء ، نذكر منهم على سبيل المثال الشاعر المعاصر (جون لمان) الذي يوضح عنصر الجبرية في الحياة الحديثة في قصيدة قصيرة له بعنوان هذه الآلة يقول فيها :

هذه الآلة العجيبة قد رُكِّبت تركيباً بسيطاً
حتى لا يحار فيها الطفل أو الأبله أو الغبيّ ..
فليس هناك مجال للخطأ — كل ما عليك أن
تضغط الزر —
فتتحرك كل عجلة فيها وتحرك العجلة التي وراءها
وتدور الآلة كلها ومع دورانها يُطحن كل شيء حتى
يُطحن في سرعة ويطحن ويفقد الوعي ويموت .
هذه الآلة العجيبة ليست في الواقع
إلا الدنيا الحديثة بأقسامها وشعوبها العديدة .
رُكّبت تركيباً بسيطاً حتى إنك
ما عليك إلا أن تمسها بأصبعك
فتبدأ الجيوش تدميرها —
ومع أننا جميعاً منها ومع أننا جميعاً
ندرك أن أحد الناس سيضغط الزر
عاجلاً أو آجلاً —
فإننا لا نتحرك — بل نقف ونحملق
لا نقوى إلا على أن ننتظر الموت .

• • •

ثم — هي الآلة الحديثة تسيطر على حياة الإنسان مع أنها من صنعه ، لا نستطيع أن نصم الأذن عن صوتها الذي يشبهه الشاعر (مايكل روبرتس) بالعويل ، يلاحقنا حيث كنا يحتلنا دون أن نقوى على دفعه عنا ، فلنستمع إليه كيف يصوّر تحكم الآلة في حياة الإنسان إذ يقول في مقطوعة له :

لو كانت هذه صرخة طير أو عويل سفينة تنتحب
لو كانت أنة ألم حاد أو شهقة نفس تنقضي .
ولكنها تضج وليس في نباحها رنة للحب أو للألم
تتبعك وتدركك في أقصى الأماكن وأبعدها

يعلو صوتها على صوت المريض نفسه وهو يتلوى ألماً
وهى ليست صرخة الحدأة
ولا بكاء الوليد المتألم
ولا نداء الموت فى القلب
ولكنها قعقعة الآلة تدوى
فيخفت إلى جانبها هدير الشلال
هى صرخة وليدنا وصنع أيدينا
تصم الأذن وتقتل الحس منا
ومع ذلك فماذا
نستطيع أن نعمل ؟
إننا لا نقوى حتى
على صم الأذن عن
عويلهـــا
لحظة واحدة

وبينا تتمثل الجبرية لبعض الشعراء فى آلية الحياة الحديثة فهى جزء لا ينفصل عنها — كما أسلفت — يجدها البعض الآخر فى الإنسان ذاته ، فهو قد صيغ بحيث لا يستطيع أن يتحكم فى نفسه ، لا لأن هناك قوى خارجية تؤثر فيه ، بل لأن الجبرية كامنة فى نفسه فهى جزء منه لا ينفصل عنه ؛ والسبب فى نشوء هذا الاعتقاد يرجع إلى انتشار مذهبين من مذاهب علم النفس ، أولهما يقول بأن الإنسان ينقسم إلى قسمين : العقل الواعى وهو ما نفكر به وفيه الإرادة ، والقسم الثانى هو العقل الباطن وهو ما يظهر لنا فى الأحلام ، به قوى خفية موروثة وغريزية تؤثر فى حياة الفرد دون أن يكون له حكم عليها أو معرفة بها ؛ والصراع بين العقلين الواعى والباطن هو الذى يسيطر فى الواقع على حياة الإنسان ويسيرها رغم رقابة العقل الواعى له — أى رغم إرادة الإنسان نفسه — وعلى ذلك فالإنسان مجبر لا مخير وعنصر الجبر كامن فى نفسه . أما المذهب النفسانى الثانى الذى يدعو إلى نفس الدعوة بأن الإنسان مسير بطبيعة تكوينه ، فهو مذهب السلوكيين الذين يقولون بأن أفعال الفرد وعواطفه ليست فى الواقع إلا أفعالاً انعكاسية ، كما يسيل لعاب الكلب الجائع لمنظر الطعام لا دخل للإرادة أو للعاطفة فى ذلك ، فلا وجود للروح أو للإرادة فى الإنسان ، وليست حياته فى مجموعها إلا حلقات من الأفعال الانعكاسية يستجيب فيها الجسد لمطالب الغريزة والبيئة استجابة آلية محضة ، فكيف يمكن للإنسان وهــذا تكوينه أن تكون له إرادة ما ، والجسد هو صاحب الأمر الأول والأخير فى كل شىء .

هــذه هى مأساة الوجود عند كثيرين من الشعراء والكتاب المحدثين ، وعلى رأسهم (ألدس هكسلى) الذى يرى أن روح الإنسان إنما هى عرض من أعراض الجسد لا حكم له عليها ولا إرادة ؛ فى حين يرى البعض الآخر أن وجود قوى خفية فى داخل الإنسان تسيّره وتتحكم فيه رغم عقله وإرادته ، وهى التى يسميها العلم العقل الباطن — هو الآخر مأساة ؛ فنحن لا نستطيع الهرب من هــذه القوى الكامنة فى النفس المسيطرة عليها ، وأكثر من هذا أننا لا نستطيع أن نعرفها وإن كنا نطلق عليها اسم النفس ، وكلما أمعنا النظر فيها بغية أن نعرفها ازداد يأسنا ولم نجن فى النهاية إلا الإخفاق ، هكذا يصور الشاعر المعاصر (لوى ما كنيس) النفس وعنصر الجبرية الكامن بها فى قصيدة بعنوان (الساحرة) يقول فيها :

مظهرها كالزجاج أو الماء الراكد
ولكنه يثلج القلب حيث سرنا
أقوى أثراً من مظهر الجسد أو الشعر العارى .
آه من ذلك اليأس الذى يولده بريقها الخلاب .
هى النفس تحيط بنا وتسيرنا .
نطيل النظر فى ذلك الجمال المجدب
الذى هو صورة القلب نفسه وفكره
فآه من المعنى الذى يستحوذ علينا —
نهرب بعيداً إلى حيث الوحش فى الغاب
ولكن الفكر لا يتوقف لحظة واحدة —
فى الحقول الشاسعة أو على الشواطىء المقفرة
يعلو صوتها ويرتفع على صوت الطير أو الموج
ويبحث عنا وبالطبع يجدنا
بالطبع — لأنه ليس إلا صدانا .
تشجع إذاً ياصاحبى وانظر فى مرآتك
واعلم أن هذا الخيال الذى لا يمكن أن تلمسه

ليس إلا خيال معشوقتك — ليس إلا أنت

• • •

وما دامت إرادة الإنسان مسلوبة أمام قوى النفس الداخلية التي لا يمكنه التغلب عليها فإن إحساسه بعجزه أمامها لا بد وأن يكون شديداً يصاحبه شعور قوي باليأس وبتفاهة شأنه، فهو يرتكب نفس الخطأ أكثر من مرة ويعرف أنه خطأ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يصد نفسه عن ارتكابه، لأن عقله الواعي لا إرادة له على نفسه الداخلية وهي التي تسيره أولاً وأخيراً — مرارة هذا العجز أمام قوى النفس الكامنة قاسية أليمة يصورها الشاعر المعاصر (أودن) في قصيدة طويلة يخاطب فيها صديقته يائساً ويقول:

لا — يا حبيبتي — لا داعي للصراخ
أو الغضب أو البكاء.
لا — ولا أريد حبك أو قبلاتك أيضاً
جهزي لي الشاي — وأعطيني شيئاً
أتدثر به..
وها أنا وها أنت
ولكن أي معنى في هذا
وماذا نستطيع أن نفعل —

• • •

منذ وقت طويل قلت لأمي
إني سأذهب أبحث عن بيت
خير من بيتها —
وقد كتبَتْ ولكني لم أجب خطابها
ولم أجد أيضاً بيتاً
أفضل من بيتها
وها أنا وها أنت
ولكن أي معنى في هذا
وماذا نستطيع أن نفعل

• • •

لا — لست بحاجة إلى الحرية
ضعها في أي مكان
فإذا تعبت الحياة كان
السفر إلى ويلز أو غيرها
عبثاً لا معنى له —
وها أنا وها أنت —
ولكن أي معنى في هذا —
وماذا نستطيع أن نفعل.

• • •

في عروقي أحس رغبة
وفي رأسي ذكرى
وعندما أستلقي على الأرض
وأبكي تصيح بي نفسي:
(لقد فعلت هذا مراراً من قبل)
وها أنا وها أنت
ولكن أي معنى في هذا
وماذا نستطيع أن نفعل

• • •

كنت أعرف طيراً اعتاد أن يزور
هذا الشاطئ
ولكني أعلم أنه لن يأتي بعد الآن —
وأعلم أني قد سافرت كل
هذه المسافة
لأثبت لنفسي أن لا أرض هنا
ولا ماء ولا حب
وها أنا وها أنت
ولكن أي معنى في هذا
وماذا نستطيع أن نفعل

رأينا إلى الآن أن إرادة الإنسان مقيدة، لأن الجبرية جزء داخلي من حياته — فهي إما عنصر من عناصر الحياة الآلية الحديثة كما يرى الفريق الأول — أو أنها في ذات الإنسان نفسه وتكوينه كما يرى الفريق الثاني؛ ولكن هناك فريق ثالث من الكتاب يرى أن الإنسان مجبر لا مخير لأن هناك قوة خارجة عن كنهه تتحكم فيه وتسيطر على حياته، فهو مهما سعى أو كافح لا يستطيع أن يتخلص من هذه القوة — أو في قول آخر — من قضائه وقدره وما كتب له؛ وهذا الاعتقاد بوجود قوى خارجية مسيطرة على حياة البشر تعبث بها، أتى كنتيجة للحرب وغيرها من آلام المدنية الصناعية الحديثة، وخاصة بعد أن فقد الفرد إيمانه بالله أولاً

ثم بالآلة ثانياً ، فهو يريد أن يستمتع بيومه فقط لأنه لا يدرى ما قد يأتى به الغد — وهو يعلم أن لا سلطان له على الغد لأنه مسلوب الإرادة أمام هذه القوى الخارجية — وهو لذلك متشكك لا يؤمن إلا باللحظة القائمة فحسب ، كما يخاطب الشاعر (أودن) حبيبته فى إحدى قصائده فيقول :

دع اليقين والوفاء
يمضى ويتلاشى
كذبذبات ناقوس يدق
ودع العلماء والمجانين
يصيحون صيحاتهم السقيمة الضجرة
فكل درهم من الثمن
وكل ما يتنبأ به الورق
من أيام مقبلة أخشاها
كل هذا سيؤدى فى أوانه
ولكن هذه الليلة يجب أن تكون كاملة
فلا تضيع فيها همسة أو فكرة
أو قبلة أو نظرة
ضع رأسك النائم يا حبيبتى
فوق ذراعى
ودع الزمن وحمى العيش
تبلى الجمال وتذيبه
ودع القبر يثبت أن
الإنسان عرض زائل
من أعراض الحياة —
ولكن بين ذراعى إلى مطلع الفجر
نامى يا حبيبتى —
فانية كباقى البشر — مذنبة
ولكن بالنسبة إلىّ كل
ما هو جميل
والجمال كله .

* * *

والإيمان بوجود القوى التى تسير الإنسان كيفما تشاء لا يؤدى إلى التشكك والرغبة فى الاستمتاع باللحظة الراهنة فحسب ، بل وإلى اليأس والجزع الشديد من وجود قضاء أعمى لا نعرفه — صامت رهيب محيط ومطبق بالحياة فتجزع منه النفس ولا تعرف أين تلجأ — ويعبر عن هذا الجزع الشاعر (چيمس ستيفنس) فى أقصودة يقول فيها :

استمع دائماً فى الظلام لجلبة وضوضاء
هى ضوضاء السكون وجلبة العمى
ضوضاء السكون وجلبة العمى
تخيفنى
فأتصلب فى مكانى كالشجرة
إنها تخيفنى
تصلبنى فى مكانى كالشجرة
هذه الضوضاء
لأنها أعلى وأشد من
قصف الرعد
ولأنها عمياء
ولأن صوتها أعلى
من قصف الرعد
فإن هذه القوة الخفية
تخيف نفسى وتمزق قلبى .

* * *

ويعبر عن الشعور بالعجز أمام هذه القوى والخوف منها شاعر آخر هو (ألفريد ادوارد هاوسمان) يرى أن الإنسان لو فكر فى كيانه وما هو عليه لملأ الجزع فؤاده ، إذ يقول فى مقطوعة قصيرة له :

أيمكن أن يظل الإنسان نشوان ثملا
إلى الأبد ؟؟
بالخمر والهوى والحرب
جذلاً إذا ما صحا فى الصباح
آمنا إذا ما رقد فى المساء !
لا . فالإنسان يصحو أحياناً
ويفكر أحياناً
وإذا تفكر الإنسان
فماذا يستطيع أن يفعل
إلا أن يمسك قلبه بيديه
وجلا وجزعا .

رشاد رشدى

تين

للدكتور محمد غلاب

ألمعنا في الكلمة السالفة إلى أن النقاد الموهوبين هم الذين ينشئون الذوق الأدبي المتين السليم لدى شعوبهم ، وأن هذا الذوق هو أحد العوامل الأساسية التي يعتمد عليها الزمن في إصدار حكمه بتخليد المنتجات الأدبية ، وليس ذلك فحسب ، بل إن التطورات الاجتماعية والسياسية كثيراً ما ترمي الأمم بثورات تقلب فيها كيان كل شيء ، وتجتاح منها الأخلاق والتقاليد ، وإذ ذاك لا يبقى لها كحصن منيع يقيها شر هذا الانهيار سوى ذلك الذوق الأدبي السليم الذي كونه لديها النقد القوي البريء ، ولنسق لك على صحة ما نقول هذا المثال الذي صادفناه ضمن أمثلة عديدة التقينا بها أثناء مطالعاتنا تاريخ الآداب الأوربية الحديثة . ومجمله أنه عندما طغى الأدب الفرنسي في النصف الأخير من القرن الثامن عشر على جميع ما عداه من الآداب الأوربية لسموه عليها ، وجرفها تياره بحالة عنيفة كادت تفقدها قوميتها ، وتودي بشخصيتها ، هب في ألمانيا ذلك الناقد الممتاز « ليسنج Lessing » ، وصمم على تحرير الأدب الألماني من نير الأدب الفرنسي الذي كان قد بسط سلطانه على الإنتاج الأوربي كله منذ القرن السابع عشر ؛ وعلى أثر هذا الشعور في نفسه بدأت حملته الفلسفية الجامحة التي اشتعل أوارها زهاء ثلاثين سنة ، انتهت بأن مزقت سهامها الحادة أستار العبودية الأجنبية ، ولم تقنع بهذا الدور السلبي الهدام ، وإنما أسست في مواضع تلك الأطلال صروحاً قومية متينة وأبراجاً وطنية شاهقة . وهكذا كان لهذا الناقد القوي الشكيمة فضل السبق في حمل مواطنيه على نبذ الضعف والخور والاتباع ، وفي إنقاذهم من ذلك الانحلال الاجتماعي الذي كانوا قد هووا في حضيضه عندما اقتنعوا بأن أدبهم لا يمكن أن يكون إلا خاضعاً تابعاً لغيره ، وأنه عاجز عن الاحتفاظ بكيانه واستقلاله بمزاياه المميزة له عما سواه . ولهذا كان من أبرز المبادئ التي دعا إليها « ليسنج » مبدأ العودة بجميع نواحي الإنتاج الأدبية إلى المنابع القومية الأصيلة ، وكان ذلك عاملاً أساسياً في تخليد منتجات « جوت » و « شيلر » .

على أنه ينبغي لنا أن نشير هنا إلى أن النقد في القرنين — السابع عشر والثامن عشر — مهما كان سلطانه على الحياة الثقافية ، ومهما كانت قدرته على تحويل دفة الشئون الأدبية — لم يكن له منهج واضح ، ولا برنامج محدد ، وإنما كان أمراً ثانوياً يتخذه كبار الكتاب الممتازين كوسيلة مرتجلة لبسط آرائهم وتصوير أذواقهم وأذواق بيئاتهم بإزاء منتجات أسلافهم ومعاصريهم . ومن أبرز هؤلاء الكتاب « جوت » و « مدام دي ستال » و « شاتوبريان » .

ومهما يكن من شيء ، فإن الذي لا ريب فيه هو أن النقد الفني لم يقف على قدميه ، ولم يعلن وجوده ككيان قائم بذاته ذي قواعد محددة ، وقوانين معينة ، إلا منذ بدأ « سانت بوف » بأن يضع له تلك الأسس الفنية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كما أشرنا إلى ذلك في بحث مضى .

أما وقد تحدثنا في الفصل السالف عن « سانت بوف » وأشرنا إليه هنا كواضع للحجر الأساسي في بناء النقد الأدبي الحديث على قواعده المنطقية الصحيحة ، فقد وجب علينا أن نقف هنيهة بناقد آخر ليس أقل منه شأناً ، ولا أهون منزلة إن لم يفقه في تنظيم المناهج النقدية وإيصالها إلى ما بلغته من مراتب الكمال ، بل قد قيل إنه هو الذي منح النقد ذلك التحديد العلمي الذي كان مجهولاً في ساحته حتى ذلك الحين ، هذا الناقد هو « إيبوليت تين Hippolyte Taine » الذي حسبنا أن نقول عنه إنه طبع عصره بطابعه الخاص ، ولا غرو فإن الأغلبية الساحقة من شباب أوربا المثقف كانت معجبة به ، حريصة على محاكاته ، لأنه كان مؤرخاً وناقداً وفيلسوفاً ، ولقد كان مؤمناً بالمذهب الواقعي الذي أسسه ..

« أجوست كونت » إعانا جعله أشد أنصاره حماسة وأعظمهم تلألؤاً وسطوعاً ، بل إن صفوة النقديين في ذلك العهد ظلت تعتبره زعيم هذا المذهب فيما بين سنتي ١٨٦٠ و ١٨٧٠ . ولا ريب أن الفضل في ذلك الانتصار الوقتي الذي أحرزه المذهب الواقعي في تلك الحقبة يرجع إلى « تين » أكثر مما يرجع إلى « أجوست كونت » . ولقد بلغ به يقينه بمبادئه ، وإيمانه بوجوب تطبيقها في كل ما يعرض له من شئون حداً جعل معاصريه النزهاء المحايدين يجزمون بأنه كان مترجماً أميناً لروح جيله كله .

كان « تين » مشتغلا بالتعليم ، ولكن شجاعته وصراحته وجرأته في الحق قد تضافرت على خلق المصاعب والعقبات في طريقه ، فلم يسعه إلا أن يترك منصبه في التعليم غير آسف عليه .

ومن أبرز القواعد التي وضعها ابتكاراً في النقد قاعدة الجزم بإمكان تعليل الظواهر الأدبية والفنية بعلل ثابتة ، على نحو ما يفعل العلماء الطبيعيون بإزاء الكائنات الحية ووظائف الأعضاء ، فعنده لا يكفي ربط الكتاب بمؤلفه كما رأى « سانت بوف » وإنما هو يرى فوق ذلك أن من الضروري الذي لا محيص عنه كشف الطابع الخاص المميز لكل واحد من المؤلفين عما عداه ، والذي يدعوه « تين » بالخاصية الأساسية ، وهذه الخاصية عند أديبنا الناقد هي المفتاح الأوحد الذي به تفتح مغالق عبقرية المؤلف ، ويمكن أن تعلل هذه الخاصية بالمؤثرات الثلاثة ، وهي : الأرومة والبيئة والزمن . فأما الأرومة فهي الاستعدادات الوراثية التي يتلقاها الفرد عن جنسه العنصري ؛ وأما البيئة ، فهي الدائرة التي تحدق بالفرد منذ نعومة أظفاره وتفرض عليه آثارها فرضاً ، وهي نوعان : مادي ، وهو : المناخ والمناظر ، ويدعى بالبيئة الطبيعية . وأدبي ، وهو : النظام السياسي والحالة الأدبية العامة ، ويدعى بالبيئة الاجتماعية . وأما الزمن فهو مجموعة التأثيرات المعنوية التي خلفها الماضي في الحاضر ، ونخص بالذكر منها آثار النتاجات النقدية في المؤلفات الجديدة .

على أنه ينبغي أن نعلن هنا أن « تين » كان مذهبياً أكثر من المألوف ، وقد انتهت به هذه المغالاة إلى تقرير أنه متى ظفر الناقد بالوقوف على هذه المؤثرات الثلاثة ، فقد فاز بكشف عبقرية الكاتب ، بينما أنه لا يجوز البتة أن تغفل أن وراء هذه العوامل الثلاثة — مع واقعيتها — سراً غامضاً يدق عن التحليل والتعليل ، وهو العنصر الفذ المستقل في العبقرية . ولقد اعترض على « تين » في هذا الرأي بأن « لافونتين » الذي كتب عنه هو بحوثاً قيمة لم يشبهه في بيئته ولا في عصره ، ولا في بني جلدته أحد فيما برع فيه وتفرد به .

ومهما يكن من شيء ، فإن « تين » مجدد مبتكر في الأسس الجوهرية للنقد ، إذ كيف يجرؤ أي ناقد بعده على تجاهل آثار : الأرومة والبيئة والزمن ، إذا أراد أن يكون جاداً في نقده ، بانياً لمجده .

ومن النتائج البارزة التي نجمت عن مذهب « تين » في النقد ما صرح به ناقد آخر ممتاز معاصر له ، وهو : « إميل فاجيه » ، ونحن نجمله فيما يلي :

« ينبغي منذ الآن وضع تمييز واضح بين تاريخ الأدب والنقد الأدبي ... فمؤرخ الأدب يجب أن يكون محايداً بقدر الإمكان ، أي يجب عليه أن يقدم المعلومات بصورة موضوعية ثابتة ، ولا يسمح لنفسه أن يبدي شعوره الشخصي نحو هذا المؤلف أو ذاك ، وإنما يتحتم عليه أن يقتصر على بسط أحاسيس معاصريه نحو من يؤرخ لهم من المؤلفين ، كما أنه ينبغي أن يحدد الروح العامة لكل عصر يؤرخه معتمداً في تحديده على التاريخ العام ، ويجب عليه ألا يسرد إلا أحداثاً وصلات بين تلك الأحداث ، وظواهر وروابط بين تلك الظواهر لا أكثر ولا أقل . وليس عليه أن ينبئ القارئ بما يحكم وكيف يحكم ، ولا بما يشعر وكيف يشعر ! ومعنى هذا كله أن عمل الناقد الأدبي يبتدئ من نقطة انتهاء مؤرخ الأدب ، أو قل إن الناقد يعمل في آفاق أخرى تختلف تماماً عن أفق المؤرخ ، أي أنه يطلب إليه إبداء رأيه الشخصي في المؤلف أو في الكتاب سواء كان هذا الرأي مؤسساً على مبادئ ثابتة أو ناشئاً من انفعالات خاصة ! وقصارى القول أن المطلوب من الناقد ليس لوحة للبلد الذي مر به ، وإنما هو شعور كذلك الشعور الذي يتدفق إلى نفس السائح عندما يحل بذلك البلد » .

ولا جرم أن هذا النهج قد حمل « إميل فاجيه » على أن يستنبط أن الاطلاع على تاريخ الأدب يجب أن يسبق مطالعة هذا الأدب فضلاً عن رأي الناقد فيه ، وإذاً فإن

قـــــرأت

للأستاذ كمال منصور

تأويلات مختلفة لنشيد الإنشاد :

تناول الباحثون والنقاد نشيد الإنشاد ، الذي قيل إنه لسليمان الحكيم ، بالدراسات المستفيضة ، والأبحاث المتعمقة ، واختلفت آراؤهم فيه ، وتعددت مذاهبهم ، وقد أول هؤلاء الباحثون النشيد تأويلات مختلفة نستطيع أن نركزها في اتجاهات ثلاثة : أنحاء أو تأويل صوفي ، وتأويل رمزي ، وتأويل واقعي . ونقطة البدء التي تقوم عليها هذه التأويلات الثلاثة ترتكز على الفكرة القائلة بأن سليمان يتزوج بنت فرعون مصر ، أو يتزوج فتاة شابة إسرائيلية هي (شوليث) ، فالفكرة الأولى وهي أن سليمان قد تزوج أو أحب بنت فرعون ، كانت مقبولة حتى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم ما لبثت أن طغت عليها الفكرة الثانية عند بدء القرن التاسع عشر ، وهي فكرة زواجه أو حبه للراعية (شوليث) .

وأول هذه التأويلات التي أشرنا إليها ، وهو التأويل الصوفي ، إنما يرجع إلى (أوريجينيه) الذي كتب تعليقاً على نشيد الإنشاد خطأ ، فيه أحد رجال الكنيسة واسمه (تيودور) وقد انضم إلى تأويل (أوريجينيه) هذا بعض الشرقيين وكثير من الغربيين . أما التأويل الرمزي وهو تأويل ديني ، فله أساسه في (التلمود) ، ذلك التأويل الذي يفسر المحبوب بأنه الله وأن المخطوبة هي شعب بني إسرائيل ، وقد فصل هذا التأويل تفصيلا طويلا بالتعليقات عند ترجمة الأناجيل ، هذه الترجمة التي ترى في النشيد تاريخاً رمزياً للشعب الإسرائيلي منذ بداية الخليقة حتى مجيء المسيح ، وقد غالى اليهود في قيمة النشيد إلى الدرجة التي أعطوه فيها صفة قانونية ، وإلى الدرجة التي استغلوا فيها هذا التأويل الرمزي في التشريع بطرق خاصة ، حتى أصبح بذلك محط انتباههم الفكري الذي بنوا عليه كل آمالهم . أما المسيحيون فإنهم قد بدلوا تفسيرات اليهود شيئاً ما ، فقد نظروا إلى نشيد الإنشاد على أنه حب المسيح للكنيسة ، وحب الكنيسة للمسيح ، وقالوا إن

هذا النظام هو وحده الذي يكفل لنا أحكاماً مؤسسة على التأمل والتدبر . أما أولئك الذين يقفزون إلى مطالعة النقد قبل الإحاطة بالنصوص المنقودة ، وقبل الاطلاع على كلة التاريخ في مؤلف تلك النصوص ، فليست طريقتهم سوى لون من ألوان الخمول العقلي وسطحية الثقافة ، ومحا كاة الفكرة العامة التي تفرض على الجماهير في غير دقة ولا منهج احترام هذا الكاتب واحتقار ذاك ، ولو كان هذا الفرض مؤسساً على الأخطاء ، أو على الأهواء ! ومن آيات ذلك ما نقرؤه في الصحف حيناً بعد حين عن مذهب الوجودية الذي صار الآن بدعة العصر التي يتشدق بها عدد غير قليل من أنصاف المثقفين بعد أن أكرهوا أذهانهم إكراهاً على استظهار بعض كلمات التقطوها أو اختطفوها من هنا ومن هناك عن هذا المذهب ، واكتفوا بعثرات غير منسجمة قذفت بها أقلام الناقدين من بعيد أو من قريب ، ثم جعلوا يتباهون بالحديث عن مذهب الوجودية ، بل باستطاعة شرح نظرياته ، وحل معضلاته ، ولكن — ولا مفر لنا هنا من لكن — مثلنا الذي قرأ من هؤلاء المتفيهقين كتاباً لـ « سارتر » وكون له منه فكرة شخصية !! ...

على أنه لا يفوتنا قبل أن نختم هذه الكلمة أن نصرح بأن انعطاف الحركة الأدبية صوب الناحية التجارية بعض الشيء ، وما نجم عن ذلك من وفرة المنتجات الخفيفة ، ومن تجاوز أثمانها طاقة ذوي الدخل المحدود .

كل ذلك يبيح لجماهير القراء الاعتماد على آراء النقاد الحقيقيين فيما ينبغي أن يقتصروا عليه من المؤلفات العصرية . أما الصفوة فيتحتم عليها أن تسلك النهج الذي ذكرناه آنفا ...

وأخيراً نخشى أن يكون النقد في مصر بالصورة التي هو عليها الآن لا يرشد الجماهير إلى الغذاء العقلي النقي النافع ، ولا يوجه الصفوة إلى مناهج الفهم ، أو يرسم لهم نماذج التحليل التي لا مندوحة عنها في إصدار الأحكام .

(للحديث بقية)

الدكتور

محمد محبوب

(شوليت) هى الكنيسة ، وإن الراعى هو المسيح الذى تختبره زوجها ومؤسسها الأول ، وراحوا يثبتون رأيهم هذا ويدللون عليه من نص النشيد نفسه وعباراته ؛ فمثلاً نجد شوليت تقول : « أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم ... » فقد قال المسيحيون : إن السواد هنا يرمز إلى حقبات الاضطهاد التى مرت بها الكنيسة ، وبخاصة فى عصر : (دقلديانس) و (نيرون) ، ورغم هذا الاضطهاد فقد احتفظت بالإيمان ، ولذلك فهى سوداء وجميلة .

وأما التأويل الثالث وهو آخر هذه التأويلات ، فهو التأويل الواقعى ، ويرجع هذا التأويل الواقعى أو الحرفى إلى (تيودور موبثيوس) فى القرن الرابع الميلادى ؛ ذلك العالم الذى وقف بجرأة فى وجه كل تأويل مسيحى ، والذى قال بزواج سليمان من بنت فرعون . ثم يأتى القرن الثالث عشر فيأتى أحد العلماء اليهود الفرنسيين ، ويكتب تعليقاً على النشيد يذكر فيه بكل بساطة أن النشيد لم يكن سوى حب بريء بين راع وراعية . أما (كاستيليو) وهو من علماء القرن السادس عشر فإنه من المدرسة التى تعتنق التأويل الواقعى أيضاً ، حيث يسمى نشيد الإنشاد زواج سليمان من محبوبته شوليت ، ثم يأتى (هويستون) فى القرن الثامن عشر ، وهو وإن قال إن النشيد غزل ، وخال من المعنى ، ووثنى ، إلا أنه يعترف بأن سليمان هو واضعه . وأما المدرسة الألمانية التى يمثلها (ميكايليس) فى القرن الثامن عشر فإنها ترى أن النشيد ليس إلا حباً شريفاً بريئاً ، وتلقى نظريتهم هذه فيما بعد من يدافع عنها بشيء من التعديل ، من أمثال (هردر) وغيرهم ، هذه النظرية التى تقول إن النشيد يتغنى بانتصار حب مخلص بسيط على إغراءات العظمة والملك ، والذى يغرى هنا هو سليمان الحكيم ، وموضوع إغرائه (شوليت) التى لا عهد لها بالعظمة والروعة اللتين وضعها فيهما الملك ، ولذلك صارت تتحسر على الرعى الذى كانت تحبه والذى فصلت عنه بدون إرادتها . أما فى فرنسا فإننا نجد العلماء الذين درسوا النشيد دراسة عميقة أقل بكثير من ألمانيا ، والبلاد البروتستانتية ، حيث يكون الإنجيل كتاباً للمطالعة اليومية ، فأولوا كما أرادوا ؛ ولكن رغم هذا فإن العالم الفرنسى (رينان) فى القرن التاسع عشر ، قد نشر كتاباً عن نشيد الإنشاد فيه دراسة قوية لهذا النشيد ، وفى هذه الدراسة يقول (رينان) إن النشيد ليس صوفياً ، ولا دينياً ، بل هو أخلاق ، لأنه انتصار الحب الصادق المخلص الذى يفضل الفقر على الخزى والعار ؛ فسليمان لم يكن لتحبه شوليت ، إنما كانت تحب الراعى الشاب الذى يأتى إليها فى النهاية ليخلصها ويجيدها معه إلى قريتهما التى كانا يرعيان بين سهولها .

أذكريني :

من روائع شاعر الهند الكبير « طاغور » مقطوعة عنوانها « أذكريني » نظمها على لسان طفل يودع أمه أثناء رحيله ، والقصيدة قطعة خالدة من الأدب الإنساني الرفيع :

حان وقت الرحيل يا أماه .. وها أنذا ذاهب ..
وعندما تمدين يدك فى حلكة الليل تتلمسين طفلك
فى فراشه سأقول لك : الطفل ليس هنا ..
أنا ذاهب يا أماه ...
سأغدو نفحة نسيم ناعمة أقبلك وأبتسم ...
وسأكون خرير الماء عندما تستحمين ... أحنو على
صدرك مرات ومرات ...
وفى الليل العاصف عندما يبلل المطر أوراق الشجر
سأنقل إليك همساتى ... وسأمزج ضحكاتى بالبرق
وهو يتلألأ من خلال حجرتك المفتحة النوافذ
وإذا لم يعقد الكرى جفنيك وظللت مسهدة
تفكرين ...
فى طفلك حتى السحر ... فسوف أشدو لك
مع النجوم قائلاً : نامى يا أماه ... نامى ...
ومن خلال أشعة القمر الباردة سأتسلل إلى مخدعك
وأستريح على صدرك وأنت غارقة فى النوم
وعندما تستيقظين ، وتتلفتين حولك فزعة سوف
أمرق كومضة خاطفة ... وأدفن نفسى فى الظلام
وفى عيد (بوجا) الأكبر عندما يقبل الأطفال
ويمرحون ...
حول المنزل ، سأذوب فى ترتيلات المزامير ، وأخفق
فى أعماق قلبك طوال النهار ...
وسوف تأتى عمتى المحبوبة تحمل هدايا بوجا ...
وسوف ...
تسأل عنى ... وسوف تردين عليها يا أماه بنغمة
مترقرقة ...
إنه فى حنايا قلبى ... إنه فى دمائى ... إنه فى روحى

كمال منصور

مكتبة الثقافة

للأستاذ أحمد حسين الصاوى

مذكرات فى السياسة المصرية : للدكتور محمد حسين هيكل باشا

مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥١
فى ٤٤٠ صفحة كبيرة

ما أحوجنا نحن أبناء هذا الجيل إلى قراءة المذكرات السياسية التى يكتبها زعماؤنا الشيوخ ، فهى التى سوف تلقى الضوء على خفايا الأحداث السياسية وخباياها ، ومن ثم تعيننا على دراسة تاريخنا المعاصر دراسة مجدية . إن الذى سامتنا الشيوخ كثيراً عما ينبغى أن يدون ليبعث إلى أبناء هذا الجيل والأجيال القادمة حوادث الماضى القريب مكتملة الحلقات مترابطة الفقار نابضة بالحياة ، وبذلك يستطيعون أن يفيدوا من الأحداث ويرسموا على هداها منهجهم لخدمة الوطن وإعلاء شأنه .

وجميل من الدكتور هيكل باشا وهو علم من أعلام السياسة المصرية أن يخرج على المصريين بهذا الكتاب الذى يمثل الجزء الأول من مذكراته السياسية ، متضمنا تأريخ الحوادث التى مرت بمصر فى ربع القرن الواقع بين عام ١٩١٢ وعام ١٩٣٧ . وقد تناول الكتاب الجانب السياسى وحده دون غيره من جوانب الحياة المصرية فى تلك الحقبة ، كما أنه خص من هذا الجانب ما شهده أو شارك فيه الكاتب بنصيب . وبهذا أغفل ما لم يكن له فيه أثر ، وما لم يجتل حقيقة أمره .

ولا مراء فى أن الفترة التى تؤرخ لها هذه المذكرات من الفترات التاريخية الدقيقة فى حياة مصر الخالدة ، فهى فترة البعث المصرى الجديد ، ذلك البعث الشعبى الواعى الذى كان ثمرة للأحداث التى تتابعت على مصر مدى قرن من الزمان ، منذ احتلتها جيوش بونابرت فى مطلع القرن التاسع عشر . لقد حفلت هذه الأحداث بكثير من المآسى ، كما حفلت بكثير من الثورات والحركات الناهضة الدافعة ؛ وكان لهذا وذاك جميعا نفس الأثر فى إيقاظ الشعب ودفعه نحو تحطيم تلك القيود التى تحول بينه وبين تحقيق حياة حرة كريمة تليق بتراثه العظيم وإمكانياته العديدة .

إننا لا نزال نعيش فى هذا الطور من البعث الذى انبثق فى مطلع هذا القرن . ولكن للأسف لا تزال حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ويطبعها التقليد والارتجال فى كثير من نواحيها . وهذا طابع لا دوام له ، بل لابد من أن ينقضى عهده ، وأن تحل محله سياسة ثابتة مستمدة من التجارب التى نكسبها من عهد التقليد والارتجال نفسه »

إن قارئ هذا الكتاب سوف يجد هنا وهناك بعض الفجوات ، وربما اعتقد فى بعض الأحيان أن الكاتب يدافع عن وجهة النظر السياسية التى ناصرها فى مختلف أطوار حياته .

ولكن لا شك أن هيكل باشا ، وهو السياسى الأديب الذى مارس الكتابة والتأريخ طويلا ، وامتاز فيهما بالصراحة وحرية الرأى ، لا شك أنه قد بذل جهداً كبيرا فى إبراز هذه المذكرات فى إطار من الوضوح والدقة يحقق الغرض من كتابتها أكمل تحقيق .

وحبذا لو حذا حذوه أقرانه من شيوخ السياسة حتى يكتمل كيان تاريخنا المعاصر ، وحتى نستفيد من تجاربهم فنتقى الخطأ ونحتذى الصواب .

أحمد حسين الصاوى

قصص

نور يضيء في الظلام

للأستاذ عصمت نجيب

كان الليل حالك السواد والسكون مخيماً على السكون عندما سعى عواد في طريقه إلى صيد جديد ... إن البيت منعزل وقد تركه ساكنوه الأثرياء، ولن يأخذ منه سوى بضع دقائق، ويكون قد استولى على ما تركوه ... وكان الهواء بارداً في الهزيع الأخير من الليل ...

وفجأة شق أجواز الفضاء صوت قوي ينادي: «الله أكبر»، وارتعد عواد ... لقد سمع الصوت كثيراً، واستمر في عمله لا يلوي على شيء، ولكن النغمة اخترقت قلبه ... كانت نغمة علوية فيها عذوبة الإيمان واطمئنان الروح، وأرهف السمع. إن الصدى يتردد داخل نفسه، لم يكن الأذان غير الأذان، ولا الصوت غير الصوت، ولكن روحاً جديدة ملأت الجو، وقوة غير منظورة لمست من قلب عواد وتراً حساساً؛ فامتلأت نفسه بالخشوع ... وأخذ يتأمل نفسه فتى شريداً يلتحف السماء، ويعيش على الفتات، ثم شاباً ضائعاً، أسلم نفسه للشيطان منذ تعرف إلى أعوانه في السرقة ...

ثم رجلاً قوي الشكيمة رئيساً لعصابة خطيرة تريد الانتقام من المجتمع الذي أسلمهم إلى هذا المصير ...

ورأى نفسه مطارداً في كل أدوار حياته، من القانون والبوليس ... ولكن شيئاً جديداً بدأ يطارده مع هؤلاء ... نفسه؟ نفسه التي استيقظت فجأة من سباتها، وأرهف السمع: «حي على الصلاة ... حي على الفلاح» ما أجمل هذا الصوت، وما أنبله ... الفلاح ... العمل، لماذا لم يعمل عملاً شريفاً يحفظ عليه نفسه وحياته من المطاردة والتشريد اللذين يلقاهما ... لماذا لم يؤسس لنفسه أسرة كما يفعل كل الناس، حتى أصبح منبوذاً من الجميع، لا ترضى عائلة شريفة أن تزوجه من ابنتها. وانقطع الصوت فجأة كما ابتدأ فجأة، وترك وراءه أثراً عميقاً في نفس عواد ...

ونظر إلى السماء، ورأى ثغرة بين السحب يتدفق منها نور الفجر، ورأى في هذه الثغرة نور الله الذي يتدفق على اليائسين من سكان الأرض ... ورأى نفسه أحق الناس برحمة الله ... وسمع صوتاً يهمس في أذنه: أن لا يأس من رحمته ... وأنه واسع المغفرة ...

وانتفض لا من البرد، بل من الخوف ... مم يخاف؟ هل يستطيع أن يذهب إلى بلدة بعيدة ويبدأ حياة شريفة .. ومن يرضى به؟ سيطارده القانون وسيعيش خائفاً إلى الأبد ...! إنه مجرم يطلبه القانون ...

وسمع صوتاً في داخله قوياً: سلم نفسك!.

أسلم نفسي؟ وأعيش بين جدران السجن ... هذا يرضيك يا إلهي ... ورد عليه الصوت: نعم! إن الله يقبل توبتك، سيكون الحكم عليك بسيطاً ... ثم تخرج من السجن شخصاً جديداً ... مبتدءاً حياتك شريفاً تكسب بعرق جبينك، لا تطاردك الأشباح، ولا يعكر عليك حياتك خوف أو تأنيب ... اذهب وسلم نفسك ... اذهب وسلم نفسك ...

نعم ... يا لها من فكرة جميلة حلوة ... أن يبدأ حياته بعد أن يكفر عن جرائمه ... ويتزوج وتصبح له أسرة ... وأولاد ... وأخذ يجري في الطرقات المقفرة ... في الطريق إلى البوليس، وسمع صوتاً وراءه فلم يبال ... سيسلم نفسه ... هذه هي الفكرة الوحيدة التوبة ...

ودوى طلق ناري وسقط ... وجاء رجل البوليس ونظر وجهه وكاد يصيح: المجرم ... ولكن هالة نور سماوي قد توج جبينه!.

عصمت نجيب

الخيــــانة العظمى

هذا هو اسم الرواية التي استهل بها يوسف وهبي بك موسمه الجديد مع الفرقة المصرية بمسرح حديقة الأزبكية . وإني لأوثر أن أحاسبه على الأسس التي وضعها هو حيث يقول في النشرة التي قدمها خلال التمثيل : « ولقد صحت عزائمنا على النهوض بالمسرح المصري مهما كلفنا هــذا من جهد ومن تضحيات ، متكاتفين متضامنين جميعاً ، وهدفنا الأول نيل ثقة النظارة ، وإرضاء ضمائرنا » ، فقد كان من أفظع ما يتهم به دائماً أنه (أولاً) فردي النزعة يستبد به حب ذاته ، وأنه (ثانياً) يضحى بالفن في سبيل إرضاء الرغبات السطحية واستدرار التصفيق من عامة الجماهير .

وليس أحب لي كناقد يقدره كممثل من أن أراه بريئاً مما اتهم به ، غير أني بعد ما شاهدت روايته الأولى أحب أن أصارحه بأنه لو استمر على هذا المنوال لما كان في حاضره ومستقبله سوى صورة مكررة من ماضيه ! فضلاً عن أنه جمع — كعادته — بين التأليف والإخراج والتمثيل ، فقد وضع — كعادته أيضاً — بضع عشرة صورة له في أوضاع مختلفة بالغة الضخامة خارج المسرح وعند مدخله ، وحول شباك التذاكر ، في حين لم يظفر « زملاؤه » بأ كثر من صورة واحدة صغيرة في ركن من السور الخارجي ! علاوة على ذلك فقد أسند إلى نفسه دور البطولة وهو دور يستنفد « جل » وقت العرض ! فإذا فرضنا أنه — وهو المؤلف والمخرج — لم يتعمد ذلك ، وإنما هي ضرورة أدت إليها طبيعة الدور نفسه ، فما الرأي في أن (الستار) لم يسدل مرة واحدة إلا عليه هو دون غيره في كل مشاهد الرواية بلا استثناء ؟ ! .

الحق أني لا أتوجس من هذه « الفردية » إلا من حيث أثرها على الفرقة كلها كمجموعة ينبغي أن يسودها ما يسود كل هيئة فنية من روح تعاونية .

هذا عن التهمة الأولى .

أما عن التهمة الثانية فالأمر يتطلب النظر في موضوع الرواية وكيفية معالجته :

صاحبان اشتغلا بالجد والمثابرة خلال الحرب الماضية أن يشتركا معاً في إنشاء (مسبك معادن) إن يكن متواضعاً في مظهره إلا أنه حفزهما إلى طلب المزيد ، فحاولا الاشتراك في صفقات ومناقصات ومزايدات مختلفة ، ولكنهما اصطدما بحقيقة مرة مؤداها أن الربح من هذه الأعمال لا يكون إلا بمساومات تتعارض مع الشرف والضمير ، وهنا يختلفان : أحدهما يؤثر الاستكانة والانسحاب ، والآخر (عوض الله افندي) يبهره بريق المال فيؤثر التخلي عن شرفه وضميره ، وينساق بإغراء سمسار يهودي نحو الغش والرشوة ، ولا يزال يعقد صفقة بعد صفقة حتى يبيع أسلحة تالفة للجيش المصري تكون سبباً في ثرائه ثراء فاحشاً من جهة ، وفي استشهاد مئات من الضباط والجنود من جهة أخرى وتفاقم الشائعات ، ويأتي إليه ولده الضابط — فقد كان له ولدان أحدهما ضابط والآخر صيدلي — ليتثبت من الحقيقة وينبئه بالعار الذي لحقه من جراء استشهاد زملائه غدراً بسبب فساد الأسلحة ، ويواجهه بذلك فينكر ، ويترتب على هذا أن يحاول — أي الضابط — التدليل على طهارة ذمة أبيه بتجربة إحدى القنابل التي باعها للجيش فيموت ضحيتها ، إذ ذاك يستيقظ ضمير (عوض الله افندي) فيقتل السمسار ، ثم يسترضي أسرته التي كانت قد قاطعته ، ويتعلل بأنه إنما أجرم ليسعدها ، وأخيراً ينتحر .

وواضح أن موضوع هذه الرواية يدور حول أحداث قد تكون شبيهة بأحداث أثارت اهتمام الناس أخيراً ، ولكنها — من الوجهة الفنية — أحداث غير مسرحية لأن المسرح — كما يقول هكسلي — لا يتناول غير الحقائق الكبرى ، ولا يعنى بالمناسبات العابرة بالغة ما بلغت جسامتها وخطورتها .

وصحيح أن بعض مؤلفي المسرح في أوربا يتجاوزون عن ذلك ، ويتخذون من مثل هذه الأمور مادة لمسرحياتهم ، غير أنهم يراعون دائماً إخضاعها للأوضاع المسرحية الفنية .

أما فى هذه الرواية فالملحوظ جداً أنها مجرد عرض حوارى لمفاضلات مذهبية وأخلاقية بقصد الوعظ ، والمسرح ليس مجالا للوعظ السافر على النحو الذى اصطنعه مؤلفنا ، بما بثه من تعبيرات دينية وآيات قرآنية ، ومونولوجات مثيرة من الناحية الوطنية ، وديولوجات مفعمة بألفاظ الشرف والضمير والمثل العليا .

فكيف مع هذا كله يريد أن يدرأ عن نفسه تهمة التضحية بالفن فى سبيل إرضاء النزعات السطحية واستدرار التصفيق من العامة ؟!

وكيف نصدق أنه قد صحت عزيمته على « النهوض » بالمسرح ، فى حين أنه فى هذه الرواية قد أعاد العامية إلى الحوار ، وأعاد الواقعية إلى الإخراج ، وأعاد الرومانسية إلى الأداء ، وأعاد (الكبوشة) إلى قواعدها فوق المسرح ؟!

ثم ملاحظة أخرى وأخيرة :

لقد عرضت دور السينما عندنا منذ عامين فيلماً أمريكيا عنوانه (الكل أبنائى All are my Sons) وموجز موضوعه أن صانعين استطاعا بالجد والمثابرة خلال الحرب الماضية أن يشتركا فى إنشاء (مصنع للسلندرات) وزين لهما الجشع أن يصنعا سلندرات تالفة ، وأن يحاولا توريدها للجيش بمساعدة بعض السماسرة المرتشين ، واختلفا عند التنفيذ . فأما أولهما فآثر التريث ، وأما الآخر (المستر جو Joe) فتمارض واعتكف فى داره ، ولكنه فى نفس الوقت اتصل بالمصنع تليفونياً وأمر بإتمام الصفقة ، واستولى على نصيبه من أرباحها . فلما افتضح الأمر وقدم الشريكان للمحاكمة أثبت (جو) أنه كان مريضاً فثبتت التهمة على زميله وسجن بسببها . والعجيب أنه كان للمستر (جو) هذا ولدان ، والأعجب أن أحدهما « ضابط » استشهد فى ميدان القتال . أما الثانى فقد أولع ببنت شريك أبيه ... وحدث أن تعالت الشائعات حول فساد السلندرات ، فتوجه إلى السجين ، وعرف تفاصيل الأمر وواجه بها أباه فأنكر . وسرعان ما تعثر فتاته على خطاب من أخيه إلى أبيه يتهمه فيه بالعار الذى لحقه من جراء استشهاد زملائه غدراً بسبب تلف السلندرات التى باعها للجيش ! وعندئذ يضطر الأب (جو) إلى الاعتراف ، ويتعلل بأنه إنما أجرم ليسعد أسرته ثم يتوجه إلى حجرته وينتحر فيها !!

أتراني أكون سيء الظن إذا ظننت أن يوسف وهبي بك قد شاهد هذا الفيلم ، ولعله تأثر به تأثراً تلقائياً !! أنا على ثقة من أن اسم (المستر جو) يغاير اسم (عوض الله أفندى) وأن (مسبك المعادن) يغاير (مصنع السلندرات) وأن الفيلم السينمائى لم يتحدث عن حرب فلسطين ولم يتضمن آيات قرآنية ، ومن ثم لا يستطيع أى مكابر أن يزعم أن مؤلفنا قد « اقتبس » فكرة روايته من ذلك الفيلم ، وكل ما فى الأمر مجرد توارد خواطر .

فهل يمكن أن أعنى — دفعاً لكل ظن — ألا يتكرر « توارد الخواطر » هذا ؟!

عبد الفتاح البارودى

الثقافة

العدد ٦٤٢
١٦ من إبريل ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

حلم الربيع

أى حلم ترف فيه الأماني
أطلقته الفردوس في الأكوان ؟
أجتلى في ضياء جوهره السا
حر دنيا بشائر وأغاني
أسمع العشب في المساء يناغي
وارف الدوح في هوى وحنان
وأجيب الطيور ، وهي تغني
كل معنى من بهجة وأمان
وأحيي النسيم ، ما هب إلا
جاذبته سواعد الأغصان
كم سرى يحمل الحياة إليها
فتولى بأطيب الشكران ؟
وروى للصباح أسرار حب
أرّجتها مباسم الأقحوان ؟
وعذارى الورود في الشوك تغري
بدلال الهوى عذارى الغواني ؟
ما على الورد لو أغار العذارى
بشذاه ، فجدن بالرعان ؟

• • •

إيه يا شعر ، والخيال طروب
كيف حلم البنفسج الوسنان
مهرجان الربيع شدو ولهو
وهو رمز الجلال في المهرّجان
رقص الدوح للطيور الشوادي
وهو يرنو بأعين الفنان
زاد رواه في الخمائل طيباً
أنه زفها بغير امتنان
أهو في معبد الجمال نبيّ
يعبد الله ، في دعاء الحنان ؟

• • •

هزة أسعدت خيالي فيها
آية من ربيع كل زمان
هي في العمر ساعة أطلقتني
في سناها روحاً بلا جثمان
أيها الحلم إنني آدمي
لا أطيل المقام بين الجنان !
إن يكن ما رأيت حقاً ، فدعني
أبك للظلم في بني الإنسان !

(الزقازيق) عبد الحليم داود

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | الإدارة | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | | محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٣ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٤٢ | الاثنين ١٠ من رجب سنة ١٣٧٠ — ١٦ من أبريل سنة ١٩٥١ | السنة الثالثة عشرة

العــــرب وماضيهم

للدكتور حسين مؤنس

يستطيع الإنسان أن يصدر حكمه على الحضارة الإسلامية وهو آمن ، فقد نشأت فى تربة صالحة لنمو الحضارات ، وتطورت فى بيئات سبق أن قامت فيها حضارات أخرى وأزهرت ، وتعاون على بنائها شعوب متحضرة ذوات تجارب طويلة وآثار محمودة فى كل ناحية من نواحى النشاط البشرى ، فورثت — أو كانت تستطيع أن ترث — من هذه الحضارات أحسن ما فيها ، وكانت تستطيع كذلك أن تفيد من ملكات الشعوب الكثيرة التى دخلت فى الإسلام أو بقيت على دينها فى ذمة دولته ، ثم إن القدر أتاح لها فسحة طويلة من الزمان لم يسمح لغيرها بمثلها ، فلم يتهددها منذ القرن الهجرى الأول إلى نهاية القرن السابع خطر خارجى دائم ، ووجد القائمون على أمورها بين أيديهم من أدوات العمل وعناصر التقدم وفسحة الزمان وانبساط المكان ما لم يوفق إليه الرومان قبلهم ، ولكن دولتهم أخذت تذوى من تلقاء نفسها ، وبفعل عوامل داخلية صرفة من زمن مبكر جداً ، فأخذت الدولة تنهار ونظامها يفسد من مطالع القرن الهجرى الثانى ، وانحدرت الحضارة بعد ذلك قرنين آخرين ، ثم يبس عودها ووقف نموها ؛ ثم ماتت فى أواخر القرن الهجرى السادس ، ولم ينفع فيها بعد ذلك علاج ، وظلت على مواتها حتى أيقظتها حضارة جديدة غريبة عنها هى حضارة الغرب ، فقامت من جديد تتطلع وتتعثر ولا يدرى أحد إلى أين ينتهى بها المصير .

ولو أن هذه الحضارة الإسلامية ابتليت بكوارث متوالية كهذه التى ابتليت بها حضارة اليونان من حرب طاحنة طويلة مع الفرس استنفدت قواها قروناً طويلة ، ثم من غلبة المقدونيين البدو الأجلاف ، مما أضعف شخصيتها وحولها عن طريقها ، ثم من سيادة الرومان التى امتصت دماءها ، لو أن مثل ذلك حدث للدولة الإسلامية لاستطعنا أن نرد إليه بعض أسباب جفاف حضارتها وزوالها ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وإنما جفت من تلقاء نفسها كنبات سقيم غير مؤهل للحياة ، لأسباب داخلة فى تركيبه وطبيعته ؛ ومن واجبنا أن ننظر فى هذه الأسباب حتى نستطيع أن نعرف ماضينا على حقيقته دون أوهام أو عواطف تضر أكثر مما تنفع .

وأحب أن ألفت نظر القارئ إلى بضع حقائق هامة تتصل بتاريخ الإسلام ، حقائق تكشف لنا عن الكثير من

أسراره التي كانت آخر الأمر سبب جفاف حضارته ووقوفها عن التقدم والنمو .

لنلاحظ أولاً أن الدولة الإسلامية بلغت أوجها من حيث النظام والقوة الحقيقية في عهد عمر بن الخطاب ، وما تلا عهد عمر من تاريخ دولة الإسلام إن هو إلا اضمحلال مستمر ، فقد حوّل عمر الإسلام من دين فحسب إلى دين ودولة ، واستطاع أن يستخرج من القواعد التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم للجماعة الإسلامية في « المدينة » قواعد كثيرة استطاع تطبيقها على نطاق أوسع بمهارة خارقة ، وعرف كيف يستخرج من العرب خير ما كانت تضمه نفسه من خصال ، واجتهد بعقليته القرشية الخالصة حتى حول « الأمة الإسلامية » إلى دولة عربية ، واستبعد بفطرته العربية كل العناصر غير العربية في بناء دولته ، ووضع بيده حداً فاصلاً بين كل ما هو عربي وكل ما هو غير عربي ؛ فاعتبر الشعوب المفتوحة كلها مرتبة دون العرب ، وأصر على أن يبقى العرب عرباً خُلّصاً في الدم وأسلوب الحياة ، وحرم عليهم الزراعة والاشتغال بالحرف ، لأنها ليست من طبائع العرب ، والعربي في عرفه لم يخلق إلا ليكون جندياً أو حاكماً ، حتى من بقي من العرب في الحجاز قرر له نصيبه من فيء الفتوح ، وأرغم العرب الفاتحين على إرسال الخُمس من الغنائم والخراج ليوزع على العرب غير الفاتحين ، حتى يظلوا سادة على حساب أمم كان بعضها قد دخل الإسلام ولكنها ليست عربية ، وحتى في طريقة توزيع هذا الخمس لجأ إلى أساس عربي صرف يقوم على نسبة القرابة من سيد العرب ، وألغى نظام قسم الفيء الذي جرى عليه أبو بكر ، لأن هذا النظام ليس عربياً بل إسلامياً ، فهو يقسم الناس طبقات بحسب الأسبقية في دخول الإسلام ، ومن هذه العناصر العربية الخالصة بنى عمر دولته العربية ، فجاءت منسجمة مع نفسها في كل ناحية ، وكان هذا الانسجام سبب قوتها الهائلة التي مكنت لها من سيادة الشرق الأدنى والحوض الشرقي للبحر الأبيض في أمد وجيز .

ثم جاءت الدولة الأموية فنقلت الدولة العربية إلى الشام ، وانتقل قلب الدولة من جزيرة العرب إلى شواطئ البحر الأبيض ... واجتذبها هذا البحر بما له من سحر تاريخي قديم ، وتناثرت قبائل العرب واستقرت في الشام ومصر ، ثم اندفعت مساحلة شاطئ هذا البحر حتى وصلت المحيط الأطلسي من ناحية ، والقسطنطينية من ناحية أخرى . ثم اجتذبتها شواطئ البحر الأبيض من جديد ، فعبرت إلى الأندلس ومضت إلى الشمال صعداً حتى تهالكت قواها في سهول غالة ، وعلى هذه المساحات الشاسعة تناثرت قبائل العرب ، وأرادت أن تبقى في مواطنها الجديدة سيدة على غيرها على المبدأ العمري ، وخدعها النصر السريع عن حقيقة ما كان يحيط بها من ظروف جديدة ، ولم تلق بالاً إلى الشعوب الكثيرة التي كانت صدمة الفتح قد أذهلتها عن نفسها ؛ فحسبت أن الأمر للعرب إلى يوم يبعثون ، وأقبلت على خيرات الولايات في عطش ونهم ، وتسرى كل عربي بمن استطاع الحصول عليه من نساء أهل هذه الولايات ، ومضوا يزجون فراغ السيادة بتسلية الجاهليين التي كان حماس الفتوح قد صرفهم عنها ، وهي حروب العصبيات ؛ فأخذت هذه الحروب تستهلك جماعاتهم وحملت دماء السبايا محلها في أجيالهم ، وأخذ سادتهم في القلب والأطراف يعيشون عيشة غير عربية ، وزال شيئاً فشيئاً ذلك الانسجام الذي كان سر قوة الدولة أول الأمر ، ورأت الشعوب المفتوحة سادتها من العرب يهبطون رويداً رويداً من سماء سيادتهم العالية ويفقدون هيبتهم ؛ فنهضوا يحاربونهم في الأندلس والمغرب وخراسان ، وانتبه الطامعون في السيادة من العرب إلى ذلك ؛ فخطوا الخطوة القاصمة التي أزالت دولة العرب : شجعوا غير العرب على طلب السيادة وعهدت جماعة منهم إلى رجل خراساني في القضاء على سيادة العرب وتم لهم ذلك ، وانتقلوا بالدولة من شواطئ البحر الأبيض نحو قلب آسيا ، وحولوا وجهة الدولة كلها وجهة أسيوية : تربعوا على عرشهم في بغداد غير بعيد من عاصمة الأكاسرة وعهدوا إلى الفرس والخراسانيين في بناء دولتهم الجديدة ، واستيقظ كسرى من سباته وتربع على عرش دولة الإسلام في ثياب إسلامية وضاعت عبرة التجارب العمرية ، وأهملت الدولة الأسيوية الجديدة ما بَعُدَ عنها من ممتلكاتها غير الأسيوية ؛ فضاع الأندلس على عهد المنصور ، والمغرب على

عهد الرشيد ، وانقلبت الدولة ومضت تبتغي تراث الأسيويين وتستخرج منه نظمها في حكم الناس وتوجيه المجتمع ، ولم يعد يربط الدولة الجديدة بالأصل العربي الإسلامي إلا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أما ما عدا ذلك من مقومات سياستها وأساليبها في الحكم ونظرتها إلى الحياة فمخلفات حضارات أسيوية بالية نضب معين الحياة من كيانها منذ زمن بعيد فلم يكن لها والحالة هذه من محيص عن اليبس والجفاف .

وفي خلال هذه الفترة كلها كان التطور الطبيعي المعقول للنظم الإسلامية العربية الأصيلة قد توقف تماماً ؛ فقد أتى الإسلام بقواعد جديدة غاية في السلامة لبناء المجتمعات وسياسة الدول : ألغى فوارق الأجناس وجعل الحكم حقاً للأصلح من المسلمين كافة ، وضمن لغير المسلمين حرياتهم وسلامتهم في كنف دولته ، وأطلق العقل من عقاله وأباح للناس حرية التفكير ، وجعل الحاكم مسئولاً أمام رعيته عن تصرفاته ، وضمن للضعفاء من النساء واليتامى والعاجزين عن الكسب حقوقهم في المجتمع ، وحض الناس على العمل والكسب واجتلاب النعم والتمتع بها في حدود معقولة ؛ وكان الرسول الكريم قد وضع أسساً جديدة جداً لنظام الدولة أخذ معظمها من نص القرآن وابتكر بعضها الآخر بملكته الهادية وزكانته السياسية وإدراكه التام الدائم للواقع ؛ وفي مدرسة الرسول تخرج عمر سياسياً واقعياً لا يهتم إلا بالواقع وعلى أساسه يتخذ قراراته ، وتلك هي الميزة الكبرى للنظم الإسلامية على ما سبقها من النظم ؛ إنها ترتب شئون البشر على أساس الطبيعة البشرية بنقائصها ومحاسنها ولا تفرض على البشر إلا ما تطيقه قواهم وطباعهم ، وتجتهد اجتهاداً عظيماً في أن تطابق بين مظهرها وحقيقتها ؛ فعمر مثلاً كان يشعر دائماً أنه يحكم شعباً عربياً ، فظل يعيش عربياً بسيطاً حتى يتحقق التطابق بين مظهره وحقيقة دولته ؛ وكان ذلك في الواقع سر قوته ونجاحه . وكان التطابق تاماً بين قواعد الإسلام وحقيقة الأمر في الدولة ، في حين أن أكاسرة الفرس كانوا يجلسون على عروش من الذهب بينما رعاياهم يعيشون في الرغام ، فكان عدم التطابق هذا من أهم الأسباب في ضياع دولتهم .

وكانت دولة الإسلام قد خرجت إلى الناس بهذا المبدأ الجديد : مبدأ التطابق التام بين مظهر الدولة وحقيقتها ، بين الحاكم والمحكوم ، مبدأ الاتصال المباشر بين الأول والثاني .

وضع الرسول هذا المبدأ في دولته الصغيرة في المدينة وسار عليه عمر ، وظهرت الدولة الإسلامية بفلسفة جديدة في الحكم كانت حرية بأن تنقل البشر من فلسفات الحكم القديمة التي كانت تقوم على حكم الناس بالوهم والبطش والقهر ، وهذه هي الناحية التي فاتت الأمويين والعباسيين من بعدهم ؛ فرجعوا بالحكم وسياسة الدول إلى أساليب الدول الأسيوية القديمة فاتسعت الهوة بين الحاكم والمحكوم رويداً ، وبعد الفارق بين المظهر والواقع شيئاً فشيئاً ، وفي هذه الهوة وذلك الفارق ضاعت الميزة الأولى للدولة الإسلامية وسر طرافتها وأساس قوتها ، ولم تعد في واقع الأمر غير دولة أسيوية قوية الروح والطابع والأساليب ، وهذا ما عنيته بقولي : إن الدولة الإسلامية بلغت أوجها الأصيل الحقيقي على عهد عمر ، وما تلا ذلك لم يكن إلا انهياراً متصلاً من ذلك الأوج وارتداداً سريعاً إلى تجارب أسيوية ثبت فشلها من زمن بعيد .

ونلاحظ ثانياً أن التاريخ الإسلامي لا يكون كلاً متصلا ، وأننا إذ ندرسه لا نجد أنفسنا أمام عصور متوالية يرتبط سابقها بلاحقها بروابط طبيعية تطورية حقيقية ، وإنما نحن أمام عصور متوالية منفصل كل منها عن الآخر كل الانفصال ؛ فالعصر الأموي يختلف من كل ناحية عن العصر الراشدي ، يختلف في نظام الحكم وهيئة المجتمع وتكوينه ومثله العليا واتجاه الحكم وأهدافه . وعندما ينتقل الأمر إلى العباسيين يتغير ذلك كله . ويبدأ عصر جديد من كل ناحية أيضاً . « فالخليفة » العباسي ليس هو « الخليفة » الأموي ، ونظم الحكم العباسية تختلف في روحها تماما عن نظم الحكم الأموية . والمجتمع البغدادي غير المجتمع الأموي ، والمثل العليا للناس في العصر الأول ليست هي المثل العليا لهم في العصر الثاني ، حتى « الشعب » اختلف في نوعه وتكوينه . وهذه الاختلافات كلها لم تأت عن تطور طبيعي أو انتقال تاريخي نستطيع تعليله ، وإنما هي انتقالات فجائية حاسمة تضع حداً لكل ما مضى وتبدأ عهداً جديداً تماما . ولو أنك أردت أن تدرس العصر العباسي دون أن تلم بالعصر الأموي لاستطعت ،

لأنك فى الواقع أمام دولة جديدة أصلا . وهـذا الاتجاه التاريخى الغريب هو الذى يجعل مهمة مؤرخ الإسلام أعسر من مهمة من يؤرخ العصور الوسطى الأوربية مثلا ؛ فهناك دول كثيرة متوالية وأنظمة كثيرة يتجه كل منها اتجاها خاصا ، ولـكن الأساس العام للحكم واحد وهو يتطور باستمرار تطورا متصلا له غاية واضحة : خذ عقود الاقطاع من القرن السادس الميلادى إلى الثانى عشر ، تجدها تتطور باستمرار فى الصيغ والحدود ، ولـكنها جميعا واحدة فى الروح والاتجاه والأغراض . خذ تاريخ دولة الـكنيسة ، تجد نفسك أمام تطور طبيعى يبدأ من أساطير إنشاء يوحنا بن حمدان المعروف بالرسول بطرس لـكنيسة روما ، ويصل تدريجيا إلى دولة البابوية المنظمة القوية فى عهد جريجورى السابع . وخذ نشأة المدن وتتبع تطورها ، تجد نفسك أمام تاريخ متصل منطقى ، وهكذا بينما تتعاقب الدول وتختلف الظواهر العامة وتجرى تطورات أخرى داخلية تربط العصر بالعصر والناس بالناس ، وتجعل التاريخ الأوربى أشبه بنهر متصل المجرى ، قد تختلف المناظر القائمة على شاطئيه ، وقد تعترضه الشلالات والجنادل ، ولـكن الماء واحد واتجاهه واحد ، ومصبه كذلك واحد مهما اختلفت المنابع وموارد الماء .

وربما كان مرد تلك الظاهرة التاريخية الغريبة إلى أن الدولة الإسلامية انتقلت أوائل العصر العباسى من شواطىء البحر الأبيض إلى آسيا ، وأصبحت دولة أسيوية الروح والطابع والاتجاه ، والعقليـة الأسيوية عقلية جامدة غير تطورية ، لا تعرف التدرج . والتغير فيها لا يتم إلا عن طريق الانقلاب أو الانفجار ، وكل شىء تبدعه العقلية الأسيوية يبقى كما ظهر أول مرة ، وإذا أردت مثالاً ملموساً لذلك فخذ اللغة العربية ، فنحن نكتب اليوم بلغة امرىء القيس ، ونستعمل الألفاظ فى نفس المعانى التى استعملها فيها مع أن بيننا وبينه ستة عشر قرناً ؛ ولا يعزى هذا إلى إصرار الناس على المحافظة على لغة القرآن ، فكل لغات آسيا على هذا الطراز ، والصينيون اليوم يكتبون لغة كونفوشيوس .

ولو أنك تتبعت تاريخ المسلمين لرأيت أن هذه الظاهرة تنطبق على كل عصر من عصوره ؛ ومن العبث أن تبحث عن الروابط والخطوط العامة التى تربط عصراً بسابقه أو بلاحقه ، لأن العصر فى تاريخ المسلمين إذا انقضى انمحت آثاره كلها وبدأ الناس حياتهم من جديد .

ونحن اليوم حينما نحاول إحياء تراث أجيال المسلمين السالفة إنما نحاول أن نصطنع ظاهرة غير طبيعية ، ونحاول أن نصوغ تاريخنا صياغة أوربية ؛ فبينما يشعر الإنجليزى المعاصر أنه متصل تمام الاتصال بأجياله السابقة ، ويعرف أنه يستمتع إلى اليوم بالماجنا كارتا والهابياس كوربس ، نشعر نحن شعوراً صادقاً بأنه ليست هناك رابطة حقيقيـة تربطنا إلى بنى أمية أو بنى العباس .

ومن هنا فمن الطبيعى أن يكون العرب أقل الناس تأثراً بماضيهم وارتباطاً به ، لأن كل جيل من أجيالهم الماضية اختفى من التاريخ حاملاً معه كل تراثه تاركاً الميدان لجيل آخر يبدأ كل شىء من جديد . ولا أشك أن أى عراقى أو شامى أو مصرى إذا بحث عن الصلات التى تربطه بالأجيال العربية السابقة لم يجد فى الواقع شيئاً ؛ وإذا كان يشعر اليوم بالحنين إلى الماضى فهذا شعور مصطنع أخذه عن الحضارة الأوربية الجديدة ؛ وقد تنبه ابن خلدون إلى ذلك وتصور التاريخ أجيالاً لا يرتبط إلا كل أربعة منها بعضها ببعض ، ثم يزول الأمر كله ويبدأ عهد جديد .

وربما بدا ذلك الرأى غريبا لأولئك الذين يذهبون إلى أن الشرق عالم التقاليد الرعية والمحافظة على تراث الأجداد ؛ والواقع أن الشرقيين أقل الناس حرصا على التقاليد ورعيا لحقوق الأجداد وتراثهم . أما ما تراه من استمساك الجماعات الأسيوية بالقديم فمجرد جمود ، منشؤه عجز العقلية الأسيوية عن التطور وميل الإنسان الشرقى نفسه إلى التراخى والخمول .

إن للعرب ماضيا . هـذا صحيح . ولـكنه ماض ميت لا يؤثر فى الحاضر ولا يسيّره ، ومحاولتنا الحالية إحياء هذا الماضى محاولة مصطنعة فاشلة ... ماض منقطع ليس فيه استمرار أو اتصال ، ماض لا تستطيع أن تستخرج منه عبرة أو قوة دافعة ؛ لأن قواه قليلة قصيرة الجذور كحشائش الربيع تتلاشى تماما فى الخريف .

وهذا الرأى الذى أبديته يصل ما بين فلسفة الزمان عند الشرقيين وفلسفة التاريخ عندهم ؛ وقد بينت رأيى فى الموضوع الأول فى مقال سابق ؛ وهذا الحديث يتصل به تمام الاتصال : كلاهما صورة لعقلية الشرق .

حسين مؤنس

ياقوت الحموى

للأستاذ على أدهم

فى مطالع القرن السابع الهجرى بدأت تظهر فى أقاصى الشرق قوة جديدة ، وهى الدولة المغولية التى أسسها هذا البناء البارع القدير والهدام المتلف المبير ، الذى عرفه التاريخ باسم جنكيز خان ، وسرعان ما استرعت هذه الدولة الناشئة أنظار الدول المجاورة لها ، وأثارت اهتمامها ، وأنذرتها بالخطر الذى يترقبها ، وتوقع البلاء الذى يتهددها ، وكانت تفصل هذه الدولة المرهوبة الجانب عن أقرب الدول الإسلامية منها دولة الخطا ، ولكن الدولة الناشئة عمدت إلى إخضاع دولة الخطا وضمها إلى رقعتها الآخذة فى الاتساع ، وبذلك أصبحت حدودها متاخمة لحدود الدولة الإسلامية التى كانت قريبة منها ، وهى الدولة الخوارزمية ، وكان لا بد من تصادم هاتين القوتين ؛ فقد كانت الأسباب الداعية إلى ذلك متوافرة من الناحيتين ، وفى سنة ٦١٦ هجرية أخذت جموع المغول الحاشدة وجيوشهم الجرارة تكتسح الدولة الخوارزمية المترامية الأطراف ، وعجزت جيوش علاء الدين شاه خوارزم عن دفع هذه الغارات الشعواء ، وورد هذا السيل العرم المغرق الجارف ، وكان هجوم المغول على هذه الدولة الإسلامية التعسة المرزأة عنيفاً غاية العنف ، قاسياً نهاية القسوة ؛ فاستباحوا أهلها ، وأوسعوهم تقتيلاً وتعذيباً ومثلوا بهم أفظع تمثيل ، وهدموا المدن العامرة ، وخربوا العواصم المزدهرة ، وأسرف المغول فى سوم الناس الهوان وإتيان المنكرات ، حتى قال عميد مؤرخى الإسلام فى هذه الفترة عن هذا الهجوم المغولى ، إنه الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، مؤكداً أن التواريخ لم تتضمن ما يقارب هذه الكارثة أو ما يدانيها ، وقد أتم جنكيز خان إخضاع الدولة الخوارزمية فى مدى أربع سنوات ، ففى سنة ٦٢٠ عاد أدراجه ، وعبر نهر سيحون متوجهاً إلى منغوليا .

وقبل أن تتجمع هذه العاصفة المدمرة بعامين كان يجلس فى أحد أسواق دمشق رجل قد شارف الأربعين من عمره ، وهى السن التى يبدأ الإنسان يشعر فيها بأثر الكهولة ، فيحلم بعد الجهل ، ويعتدل بعد الإسراف على نفسه ، وتهدأ سورته ، ويقل جماحه ؛ ولكن صاحبنا هذا الجالس فى السوق كان على فضله وغزارة علمه وسعة معرفته لا يخلو من بعض الحمق والطيش وحدة الطبع وجفوة الخلق ، وكان قد أكثر من الاطلاع على كتب الخوارج ، وتأثر بآرائهم ، وجاراهم فى تعصبهم المعيب على الإمام الرضى والمثل النادر فى نبالة المنزع وسمو الأخلاق على بن أبى طالب ، فجرت مناظرة بينه وبين أحد المعجبين بالوصى ، وحمى وطيس الجدل بينهما ؛ ففقد صاحبنا توازنه ، واندفع يذكر علياً بما لا يسوغ ، ولا يليق بمقامه الرفيع ، ومكانته فى النفوس ؛ فأثار ذلك غضب الناس حتى هموا بقتله ، ووجد صعوبة كبيرة فى النجاة بحياته ، والخروج من دمشق ، والهرب من الوالى الذى جد فى طلبه ليعاقبه على ما بدر منه .

وقد خرج من دمشق مستتراً متخفياً خائفاً مرعوباً ، حتى وصل إلى حلب ، ولم تطل إقامته بها ، وخرج منها إلى الموصل ثم انتقل إلى إربل ، وسار منها إلى خراسان .

كان اسم هذا الرجل ياقوت ، وكان يلقب بشهاب الدين وقد نشأ نشأة غير عادية ، فهو رومى الجنس ، وقد أسر من بلاده وهو صغير ، وحرم عطف والديه وعانى قسوة النخاسة ، وقد ابتاعه ببغداد رجل تاجر اسمه عسكر بن أبى نصر ، وكان هذا التاجر لا يحسن الخط ، ولا يعرف شيئاً سوى التجارة ، وكان مقيما ببغداد ، وقد تزوج بها ورزق عدة من الأولاد ، وقد أراد هذا التاجر أن ينتفع بهذا الغلام الرومى فى ضبط تجارته ، وقيد حساباته ، وإمساك دفاتره ، ولما كبر ياقوت شدا شيئاً من النحو واللغة ، واستعان به مولاه فى أسفاره ، وشغله بها فى متاجره ، فكثر تردده إلى كيش وعمان وسائر نواحى الخليج الفارسى ، وكان يعود من هذه الأنحاء إلى الشام ؛ ونرى من ذلك أن هذا الرجل بدأ يدرس الجغرافيا منذ نشأته دراسة عملية كان لها أثر بعيد فى حياته واتجاهات تفكيره ، ثم وقع خلاف بينه وبين

مولاه ربما كان سببه ما في طباعه من حدة وما خلفته طفولته القاسية في نفسه من مرارة وألم وعقد نفسية والتواءات جنسية ؛ وكان ياقوت حينذاك في أوائل الشباب وريعان الفتوة، فاشتغل بالنسخ بالأجرة، وأفاد من مطالعة الكتب، وأمعن في الدرس والبحث والاستقصاء معتمداً على نفسه ؛ فلا نعرف له مدرسة انتسب إليها سوى مدرسة الحياة، ولا نعرف له شيخاً تخرج عليه سوى نسخ الكتب وقراءتها والاشتغال فيها، وعاد مولاه فأسبغ عليه عطفه وقرّبه منه، وأعطاه شيئاً وأرسله إلى كيش، ولما عاد من هذه السفرة كان مولاه قد فارق الحياة، فأعطى أولاد مولاه وزوجته ما أرضاهم به، واحتفظ لنفسه ببقية جعلها رأس مال له، وسافر بها وهو يشتغل بالتجارة، وقد جعل الكتب جانباً من تجارته، وكان في أثناء ذلك مكباً على الاطلاع مواليا البحث مثابراً على التحصيل والدرس، وتقلّبت على عينه الدنيا، وطوّحت به طوائح الزمن، حتى رأيناه في سوق دمشق يناظر ويجادل ويهفو في حومة المناقشة تلك الهفوة التي كلفته الكثير، وأرغمته على الارتحال إلى خراسان دون أن يعرج على بغداد، لأن المناظر له بدمشق كان بغدادياً، وخشي ياقوت أن يذاع عنه ببغداد ما صدر منه بدمشق فيحدث ما لا تحمد عقباه.

ولما انتهى إلى خراسان أخذ يتنقل في بلادها مشتغلا بالتجارة، دائباً في مراجعة الكتب وجمع المعلومات وتحصيل الفوائد، واستوطن مدينة مرو حينا من الزمن، ثم انتقل منها إلى مدينة نسا، ومضى منها إلى خوارزم، وكانت في أثناء ذلك الأمور قد تعقدت في أقاصي الشرق، وساءت العلاقات بين الدولة الخوارزمية ودولة المغول، وشرع المغول في هجومهم العنيف وعدوانهم الشديد، وصادف قدومه إلى خوارزم اقتراب الجيوش المغولية منها، وتراجع الخوارزميين، فانهزم ياقوت بنفسه، ولقي في طريقه من المتاعب والأهوال ما يكل عنه الشرح، ولا يبلغه الوصف، ووصل بعد هذه الرحلة الشاقة المحفوفة بالأخطار إلى الموصل، وقد تقطعت به الأسباب، وأعوزه دنيء المأكل وخشن الثياب كما يقول عنه ابن خلكان ؛ وقد وصف لنا هذه الرحلة الشقية في رسالة أدبية ممتازة، كان كتبها وهو

في الموصل إلى أبي الحسن القفطي مؤلف كتاب « إنباه الرواة على أنباه النحاة » وغيره من الكتب القيمة، وهو يتحدث في هذه الرسالة عن إقامته بمرو الشاهجان، ويقول : « إنه وجد بها من كتب العلوم والآداب وصحائف أولي الأفهام والألباب ما شغله عن الأهل والوطن، وأذهله عن كل خل صفي وسكن، وإنه ظفر منها بضالته المنشودة، وبغية نفسه المفقودة. فأقبل عليها إقبال النهم الحريص، وقابلها بقلب لا يزمع عنها محيص، فجعل يرتع في حدائقها، ويستمتع بحسن خلقها وخلائقها، ويسرح طرفه في طرفها، ويتفقد بمبسوطها ومنتفها ». ويذكر في هذه الرسالة أنه كان ينوي أن يقيم في خراسان بقية عمره لولا ما حدث بها من الخراب وأصابها من المحن والأرزاء، ويصفها بقوله : « وكانت بلاداً مونقة الأرجاء، رائقة الأنحاء، ذات رياض أريضة، وأهوية صحيحة مريضة، قد تغنت أطيارها، وطاب روح نسيمها، فصح مزاج إقليمها ». ويسترسل في وصفها وصفاً شعرياً يقول في ختامه : « وجملة أمرها أنها كانت أنموذج الجنة بلا مين، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، قد اشتملت عليها المكارم، وارجحنت في أرجائها الخيرات الفائضة العالم ». ثم يصف أهلها بكرم الأخلاق، ونبل الطباع، ويقول عنهم : « أطفالهم رجال، وشبابهم أبطال، ومشايخهم أبدال، شواهد مناقبهم باهرة، ودلائل مجدهم ظاهرة ». ثم يصف الكارثة التي حلت بهم من جراء اجتياح الجيوش المغولية لبلادهم بقوله : « أصبحت تلك القصور كالمحو من السطور، وأمست تلك الأوطان، مأوى للأصداء والغربان، يتجاوب في نواحيها البوم، ويتناوح في أرجائها الريح السموم، ويستوحش فيها الأنيس، ويرق لمصابها إبليس ».

ويصف أثر هذه الكارثة في نفسه فيقول : « فإنا لله وإنا إليه راجعون، من حادثة تقصم الظهر، وتهدم العمر، وتوهي الجلد، وتضاعف الكمد، وتشيب الوليد، وتنخب لب الجليد، وتسود القلب، وتذهل اللب » ويصف تقهقره على عقبه كما يقول : « تقهقر المملوك بقلب واجب، ودمع ساكب، ولب عازب، وحلم غائب، فتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل، بعد مقاساة أخطار، وابتلاء واصطبار، وتمحيص الأوزار، وإشراف غير مرة على البوار،

والتبار ، لأنه مر بين سيوف مسلولة ، وعساكر مغلولة ، ونظام عقود محلولة ، ودماء مسكوبة مطلولة ، وجملة الأمر أنه لولا فسحة فى الأجل ، لعز أن يقال سلم البائس أو وصل »

وهو فى ختام هذه الرسالة البليغة يستنجد بالقفطى ويرجوه أن يفيئه ظل رعايته ، ويأخذ بضبعه فى شدته ومحنته ، ويصرح بأنه « قد ضعفت قواه عن درك الآمال ، وعجز عن معاركة الزمان والزوال ؛ إذ ضمت البسيطة إخوانه ، وحجب الجديدان أقرانه ، ونزل الشيب بعذاره وضعفت قوى أوطاره » .

وقد أقام ياقوت فى الموصل مدة مديدة ، ثم انتقل منها إلى سنجار ، وارتحل من سنجار إلى حلب ، وأقام بظاهرها . ويروى لنا القفطى أن ياقوتاً لما وصل إلى حلب دخل عليه فى حالة يشق منظرها ، وقال له : « إنى قد ألقيت عصاى ببابك ، وختمت أملى بجناب جنابك » ، ويذكر لنا القفطى أنه أكرم وفادته وعطف على قصته ، وجشمها احتمال ما ذكره عن طيشه وأخلاقه الحلقية وأغراضه التعصبية ، وقد ترجم ياقوت للقفطى فى معجمه وأثنى عليه ثناء مستطاباً ، وقدره تقديراً جميلاً . أما القفطى فقد كتب عنه فى كتاب إنباه الرواة كتابة الزارى المستخف والنم الممّن ، ونال من علم ياقوت وأخلاقه . ولست أدرى أكان ذلك منه تحرياً للحق وإنصافاً للتاريخ ، أم كان ذلك منه بدافع المنافسة الأدبية ، وما تجره من مجافاة الإنصاف وانتقاص الأقدار . وقد سافر ياقوت من حلب إلى مصر فى تجارته المعهودة ، ثم عاد إلى حلب وأقام بها حتى وافته منيته فى سنة ٦٢٦ .

والعجيب فى أمر هذا الرجل الذى عاش هذه العيشة القلقة المضطربة أنه ترك طائفة من الكتب القيمة بينها كتابان يعدان من أنفس الكتب فى المكتبة العربية ، وهما كتاب معجم الأدباء الذى سماه ياقوت « إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء » وكتاب « معجم البلدان » .

وقد جمع فى كتاب معجم الأدباء ما وقع له من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والإخباريين والمؤرخين والوراقين والكتاب المعروفين وأصحاب الرسائل ، وكل من صنف فى الأدب تصنيفاً ، أو ألف فيه تأليفاً ، وذكر فى مقدمة الكتاب أنه آثر الاختصار وتوخى الإيجاز ، ولم يأل جهداً فى إثبات الوفيات ، وتبيين المواليد والأوقات ، وذكر تصانيف الذين ترجم لهم ، ومستحسن أخبارهم ، وبعض المختار من شعرهم والمستجاد من نثرهم ، ولم يذكر الأسانيد إلا فيما ندر ، لأنه قصد صغر الحجم ، وكبر النفع ، وقد أثبت مع ذلك مواضع أخذه ومواطن نقله ، وهو يحاول أن يسوغ عمله فيقول فى المقدمة : « هذه أخبار قوم أخذ عنهم علم القرآن المجيد والحديث المفيد ، وبصناعتهم تنال الإمارة ، وببضاعتهم يستقيم أمر السلطان والوزارة ، وبعلمهم يتم الإسلام ، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام » وهو فى الجملة مرجع من المراجع الهامة لدارسى التاريخ والأدب .

وقد أفادته أسفاره ورحلاته فى إيران وبلاد العرب وآسيا الصغرى ومصر والشام وبلاد ما وراء النهر وخراسان ، ومكنته من جمع المواد اللازمة لكتابه الآخر القيم النادر ، وهو كتاب « معجم البلدان » . وقد ذكر لنا فى المقدمة التى قدم بها لهذا الكتاب النفيس ، الباعث على تأليفه ، وهو اختلاف الناس فى ضبط أسماء البلدان والأمكنة والبقاع ، وألقى فى روعه افتقار العالم إلى كتاب فى هذا الشأن يرجع إليه ويعتمد عليه ، وقد آنس من نفسه القدرة على الاضطلاع بهذه المهمة الشاقة ؛ والظاهر أنه بدأ التأهب للقيام بهذا العمل فى سنة ٦١٥ وهو بمدينة مرو الشاهجان ، وذكر فى المقدمة أنه اعتمد فى تأليف كتابه وجمع مواده على ما دونه كبار الجغرافيين من السلفيين أمثال ابن خرداذبه والبلخى والأصطخرى وابن حوقل والبكرى ودواوين العرب والمُحْدَثين ، وتواريخ أهل الأدب والمُحَدِّثين ، وما تلقاه من أفواه الرواة وتفاريق الكتب ، وما شاهده بنفسه فى أسفاره وتطوافه ، ورتبه على حروف المعجم ، ولقد روى ياقوت فى معجمه بعض الخرافات الشائعة فى عصره .

وقد اعتذر عن ذلك فى مقدمة معجمه فقال : « ولقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول لبعدها عن العادات المألوفة ، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة ، وأنا مرتاب بها متبرئ إلى قارئها من صحتها ، لأنى كتبتها حرصاً على إحراز الفوائد ؛ فإن كانت حقاً فقد أخذنا فيها بنصيب المصيب ، وإن كانت باطلاً فلنا فى الحق شرك ونصيب ، فأنا صادق فى إيرادها كما أوردتها » ، فهو قد أورد ما سمع كما وعاه ؛

(البقية على الصفحة التالية)

٢٢ - خاطـــــرة

للدكتور أحمد أمين بك

قدمت لصديق لى العشرات من وجوه البر التى تستحق كل ثناء وتقدير منه ، وآخر الأمر جاءنى يوماً يقترض مبلغاً ليس معى ، فاعتذرت له ، فقاطعنى ، وذهب موقفى الأخير بكل مواقفى السابقة .

شكوت ذلك لصديق لى ، فقال : إن هذا شأن الناس جميعاً فى كل العصور ! فقد ربيت ابنى ولم أكتف بتعليمه التعليم الثانوى فعلمته التعليم العالى ، ولم أكتف بذلك فأرسلته إلى فرنسا ، وكلفنى أربعة فدادين بعتها فى الإنفاق على تعليمه ، وأخيراً طلب منى مبلغاً من المال للقيام بمشروع له ، فأطلعته على حالى واعتذرت له ، فقاطعنى وعقّنى ! وليس هـذا فقط ، بل إن الموظف يحسن فى وظيفته أيما إحسان ، وتمر عليه السنون وهو يجيد يؤدى عمله كأحسن ما يكون ؛ فلا توضع فى ملفه أية شهادة بعمله الخيّر ، ثم يزل مرة زلة فتنسى جميع حسناته ولا تحصى عليه إلا زلته الأخيرة ، فيؤدب ويعاقب ، ورئيس الوزارة تصدر على يده عظائم الأعمال ويشكره البرلمان أيما شكر ، ثم يخطئ مرة فيصوت البرلمان ضده ، وإذا هو يخرج من الوزارة أسوأ خروج ! ألا ترى الرجل يتعبد السنين ذوات العدد فلا يسمع عنه إلا خير ، ثم يشاهد مرة مفطراً فى رمضان فينسى الناس حسناته كلها ، ويؤاخذونه على إفطاره فى رمضان مرة من غير أن يسألوه عن عذره فى ذلك ، فلعله مريض أو لعله على سفر أو لعله ولعله . ولكن الناس لا يرحمون ، وكان الواجب أن يكونوا فى أحكامهم خاضعين لقوانين الرياضة فى عمليات الجمع والطرح ! فمن زادت حسناته على سيئاته كرّموه ، ومن زادت سيئاته على حسناته أهانوه .

والعكس صحيح أيضاً ، فقد يكون الرجل عيّياً لا يحسن الخطابة ثم يجيدها يوماً فيصفق له تصفيقاً حاداً ، ويخطب آخر خطباً جيدة بلسان طلق ، ثم يحصر مرة فيرمى بالعىّ والبهر ! وكذلك الشأن فى كل أديب يؤلف أحسن التآليف ، أو يكتب أحسن المقالات ، أو يقول أرق القصائد ، ثم لا يحكم إلا على عمله الأخير ! فما أصدق المتنبى إذ يقول :

« يا سلام على الناس من ظلم الناس »

أحمد أمين

فهو راوية أحاديث ، والعهدة فيها على من روى عنهم تلك الأحاديث ، والكذاب هو الذى يضع الأحاديث ويخترعها اختراعاً ! وقد استغرق تأليف هذا المعجم سنوات واقتضاه جهداً ناصباً ، وكان يود مضاعفة حجمه وزيادة فوائده ، ولكنه كان قد تطاولت به السن وأحس أن الاستيعاب شىء لا يفى به طول العمر ! فاكتفى بما جمعه « والعين طامحة ، والهمة إلى طلب الازدياد جامحة » ، وهو ينهى من اطلع على كتابه عن اختصاره ، لأن المختصر لكتاب فى رأيه كمن أقدم على خلق سوى فقطع أطرافه ، فتركه أشل اليدين ، أبتر الرجلين ، أعمى العينين ، أصم الأذنين ، وقد أهدى كتابه إلى خزانة القفطى لأنه كما يقول : « رد عنه صرف الدهر والمحن ، وأصبح من كنفه فى حرز حريز » .

وقد روى له صاحب الوفيات بعض أبيات من الشعر فى غلام تركى ، ولكن شعره على قلته لم يكن من الشعر الجيد المطبوع ! وياقوت جامع بارع ، يقظ الناقدة ، واسع الاطلاع ، كثير التحصيل ، ولكنه ليس من أصحاب النظرات الكاشفة والأفكار العميقة والخواطر الملهمة ، وهو فى طليعة جامعى المعارف والمعلومات ، وناظمى أشتات الفوائد والفرائد ، ومن أقدرهم على ترتيبها وتنظيمها ، وتيسير الاستفادة منها ، وسيظل اسمه مذكوراً مشكوراً ما بقى الأدب العربى .

على أدهم

١ - النسيم عند الشعراء

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

لم أجد فيما قرأت من الشعر العربى ظاهرة من ظواهر الطبيعة شغلت الشعراء بها ، فأكثروا القول فيها ، كما فعل النسيم والريح . ولقد افتن الشعراء فى النسيم افتناناً وولدوا فيه من المعانى العميقة والمستملحة ، ما كاد يستنفد كل معنى يصح أن يقال فى كل مجال ... واستهلكوا فى شعر الغزل والصبابة كل معنى يتصل بالنسائم والرياح ، حتى لم يدعوا لمن يأتى بعدهم فضلة من تغريد ، أو زيادة لمستزيد . وأداروا المعانى فى النسيم بينهم على وجوه شتى من القول ، حتى لم يختلف شاعر عن شاعر فى هذا الباب إلا بحسن الأسلوب ولطف المدخل إلى الموضوع ، ولم يتميز قول من قول فى النسيم والريح إلا بما يمتاز به القائل من حسن السبك ، ورقة الحبك ، ولطافة الصوغ . وكثرت المعانى فى النسيم حين يتصل بموضوع الحب ، وعلاقات القلب ، فوصفوا هبوبه من الشمال أو الجنوب ، وذكروا أنفاسه الطوال التى تطول بها الأسمار ، وحملوه رسائلهم إلى الأحباب بدل أن يحملها كتاب .. ووصفوا طيب عرفه ، ونفحات مسكه ، وأطايب نشره ؛ واتخذوه دليلا على مواطن الأحباب ، لأن ريحه تنم على مكان المحبوب ؛ ولاءموا بين ابتلال النسيم ودموع المحب ، كأن الريح مرت على عين المغرم الموله ، والعاشق الدنف ، فابتلت مما حملت من الدموع ؛ وذكروا ما فى النسيم من زيادة الوجد بالمحب ، لأنه حين يهب يهيج الأشواق ، ويثير أنفس العشاق .. وذكروا — من ناحية أخرى — ما فيه من خاصية الشفاء من الأدواء ؛ فهو عليل المحبوب ، ولكنه يشفى مراض القلوب ؛ ووصفوا الأشواق الحارة التى يحملها النسيم إلى الأحباب ، وعجبوا منه كيف لا يحترق من مسها ، ولا يتقد من لسها ... وناشدوه وهو يكاد يحترق بما يحمل من الشوق أن يرفق بالحبيب ويتلطف به فلا يؤذيه ولا يصليه ... ولم يغفلوا أن يستمعوا إلى المناجاة بين الأغصان والنسائم ، وأن يسيئوا الظن بهذه المناجيات التى قد تذاع فيها أسرار المحبين ، وتهتك أستار العاشقين ...

وإذا كانت الكثرة الكاثرة من الشعراء قد ذكروا النسيم والريح فى مقام الغزل ومعرض الحب ، فإن هناك بعضاً من الشعراء نظروا إلى النسيم والريح من ناحية كونهما ظاهرة طبيعية ، فلم يزيدوا على أن يصفوا هبوبها كما يصف شعراء الطبيعة ما يرتاحون إليه من مظاهر الكون ، ولم يروا فى النسيم أكثر من شئ يهب على سطوح المياه ووجوه الغدران فيموجها بهذه الأمواج أو التموجات التى تبدو كالدروع الفولاذية المصقولة . ولم نجد شاعراً واحداً خرج على المألوف من تشبيه تموجات المياه التى يحدثها النسيم بالدروع أو الجواشن الصقيلة . فهذا « أبو فراس الحمدانى » يصف الرياح وقد موجت سطح بركة بقوله :

انظر إلى زهر الربيع والماء فى بركه البديع
وإذا الرياح جرت عليـ ـه فى الذهاب وفى الرجوع
نثرت على بيض الصحا ئف بيننا حلق الدروع ..

وهـذا « البحترى » يقول من قصيدته فى وصف بركة الخليفة « المتوكل » : —

إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا
مثل الجواشن مصقولا حواشيها

وهذا « الشاعر الأرّجانى » يصف النسيم الذى يكسو مناكب الغُدْران بالدروع بقوله :

ما للنسيم ولى وليس هبوبه
فى سحرة عن أن يشوق بوان
أعطى القنا أيدى الرياض نهزها
وكسا الدروع مناكب الغدران
فكأنه يوم الهياج محرش يسعى لكى يتصادم الزحفان

فالنسيم هنا فى نظر « الأرجانى » لم يَعْدُ أن يكون

مثيراً للحرب ، ومنفراً للقتال والزحف ، وما هذه الدروع التي يخلعها بشموخ البناء على التدبير إلا أدوات القتال يعد بها المتحاربين ..

•••

ولمهاب الرياح والنسيم أهمية عند الشعراء ، لأنها تأتيهم من جهات أحبابهم ، وعلى هذا تطيب كل نسمة أو ريح تجيء من ناحية المحبوب مهما كان مهبها ! فإذا أحب بعض الشعراء نسيم الشمال لرقتها وطيبها وابتلالها واعتلالها ، فإن الشاعر « بشار بن برد » يحب ريح الجنوب لأنها تحمل له في هبوبها طيب حبيبته « عبدة » فيقول :

هوى صاحبي ريح الشمال إذا جرت
وأشفى لقلبي أن تهب جنوبُ
وما ذاك إلا أنها حين تنتهي
تناهي ، وفيها من « عبدة » طيب

ولكننا نجد الشاعر « البارودي » يصف أيام الربيع ، فيذكر ريح الشمال وهي تهب فتنبه القماري الواسنة في ساعة الفجر بقوله :

لقد نسمت ريح الشمال فنبهت
عيون القماري وهي في سنة الفجر

وظاهر أن الشاعر « بشار » لم يعنه من ريح الجنوب إلا كونها آتية من عند حبيبته تحمل له طيب رياها ... وإلا فإن هذه الريح غير محبوبة في الشعر العربي ، وغير مقبولة في بلاد العرب ، لأنها ريح ثقيلة ، ترخي الأبدان ، وتورث الكسل ، وتحدث ثقلاً في الأسماع ، وغشاوة في الأبصار ، وتكديراً في الهواء ، وسخونة في الماء ، ولكنها مع ذلك كله كانت حبيبة إلى نفس « بشار » لأنها تنتهي إليه حين تنتهي ، وفيها من « عبدة » طيب حبيب ...

وهذا الطيب في النسيم والريح لم يدعه الشعراء من غير أن يستغلوه في معانيهم ! فهذا الشاعر « البحتري » يشبه طيب النسيم بأنفاس الأحباب حين تتحرك ناعمة طيبة فيقول :

ورقَّ نسيم الريح حتى كأنه
يجيء بأنفاس الأحبة نعما ...

وهذا « الشريف الرضي » يعرف أن الريح الطيبة العرف جاءت من ناحية « الغور » — وهي بلد الحبيبة — بما حملته من نفحاتها ، بقوله :

هبت لنا من رياح الغور رائحة
بعد الرقاد عرفناها برياك

وهذا « الطغرائي » الشاعر وصاحب قصيدة « لامية العجم المشهورة » يعلل طيب نشر الريح لأنها هبت من جهة « نجد » تحمل أخبارها وأخبار ساكنيها بقوله :

وما طاب نَشْرُ الريح إلا وعندها
أخابير من نجد ومن ساكني نجد

وهذا الشاعر الرقيق « عبد الله بن الدمينة » يذكر أن ريح الجنوب أخذت تطيب لأنها جرت على طيب الحبيب — كما رأينا في بيت « بشار » السابق — فيقول :

وقد جعلت ريا الجنوب إذا جرت
على طيبها تندى لنا وتطيب

ثم يكرر هذا المعنى في قصيدة أخرى فيقول :

وكأنّ ريّا من خزامى خالطت
ريحانَ روض قرارةٍ موبولا
ريّا « أميمة » كلما أهدى لنا
نسم الرياح من الجنوب أصيلا

وهذا الشاعر « أغلب بن شعيب » من شعراء اليتيمة يذكر لنا أن طيب النسيم مكسوب من طيب ريّا الحبيب ، فيقول في الشطر الثاني من البيت الآتي :

فأعار الكئوس توريد خديـ
ـه وطيب النسيم من رياه

وبهذه النفحات الطيبة استطاع الشعراء المحبون في الأدب العربي أن يسألوا النسيم والرياح عن مواطن أحبابهم ، واستطاعوا أن يعرفوا بهذه الأطياب الشذية أين خيّم أحبابهم ، وأين رحلوا عن أماكنهم ... فهذا الشاعر الرقيق « ابن زيدون » يسأل :

أما في نسيم الريح عَرف معرِّف
لنا ، هل لذات الوقف بالجزع موقف؟

وهذا الشاعر يحيى بن هذيل الأندلسي يخبرنا بأنه عرف من عرف النسيم أين متجه الراحلين من أحبابه وأين مقامهم بعد ظعنهم فيقول :

عرفت بعرف الريح أين تيمموا
وأين استقل الظاعنون وخيموا ..!

ولعل النسيم وهو يحمل نفحات الأحباء إلى محبيهم كان من ناحية أخرى يشي — عن غير قصد — بهؤلاء الأحباب ، ويدل العذال والرقباء والحاسدين على أماكنهم ، ويعالن الدنيا بأسرارهم . فإذا كان الليل أمين الشعراء العشاق على أسرارهم ، فإن النسيم الذي يسري فيه يهتك هذه الأسرار التي يطويها الظلام في لفائفه السود ... ثم يهتكها هذا النسيم بسبب هذه النفحات التي يحملها من عند الحبيب .. وهنا لا يسكت الشعراء عن تسجيل هذا المعنى . فنرى « الطغرائي » يقول :

والليل يكتم سري والصبا كلف
بنشر ما كاد تطويه يد الظلم

ونرى « الشريف الرضي » يقول :

يشي بنا الطيب أحياناً ، وآونة
يضيئنا البرق مجتازاً على أضم

• • •

ولقد أجمع الشعراء على وصف النسيم بالرقة ، كما أطبقت الدنيا جميعاً على وصفه بالرقة .. ولكن الشعراء وجدوا لهذه الرقة مسالك من القول ، ومداخل من التعليل ... فهذا الشاعر « ابن زيدون » يخبرنا بأن النسيم العليل قد رق هبوبه ، ولو اكتفى من ذلك بهذا الوصف لما كان غير واحد من عامة الناس يصف الوصف العادي الذي تحسه كل نفس عادية حين تقرر أن اليوم عاصف مثلاً ، أو الليل طويل أو النسيم رقيق عليل ... ولكن « ابن زيدون » يعلل رقة النسيم بأنه أشفق على شاعرنا من الحب فاعتل له ... وإذا كان البديعيون يسمون هذا الضرب من الكلام حسن تعليل ، ويعدونه من ضروب الصناعة في الكلام ، فإن ابن زيدون قد أضاف إلى حسن الصنعة كثيراً من لطف الطبع حين قال :

وللنسيم اعتلال في أصائله   كأنه رق لي فاعتل إشفاقا ..

وإذا كانت رقة النسيم هي منتهى ما بلغته الرقة حين تشبه به الأخلاق ولين الجانب ، فإن شاعراً قد زاد على رقة النسيم رقة الخد الأسيل . فجعل النسيم حين يمر على خد الحبيب رقيقاً يمر على أرق منه ... وهذا الشاعر هو ابن يونس المنجم من شعراء « اليتيمة » فلله ما أرقه حين يقول :

يجرى النسيم على غلالة خده
وأرق منه ما يمر عليه

وابتلال النسيم واعتلاله هما من الأوصاف الدائرة عليه ، حتى لا يكاد يخلو وصف ريح أو نسيم من كلمتي « عليل » و « بليل » .. وإذا كنا نجد الشاعر « محمود سامي البارودي باشا » يتساءل عن هذا النسيم المبتل الغلائل ، البليل الأذيال ، ويعجب من أين جاءه البلل ! ألعله مر على جداول دموعه فابتل بماء العيون ؟ ويعبر عن ذلك بقوله :

ما للنسيم بليلة أذياله   أتراه مر على جداول أدمعي ؟

فإننا نجد الشاعر الخليفة المقتول « عبد الله بن المعتز » يتقبل ظاهرة البلل هذه على أنها شيء طبيعي يبشر بالمطر لكثرة ما يحمله النسيم أو تحمله الريح من أبخرة الماء ! ويتهلل وجهه بشراً لهذا النسيم البليل الذي يؤذن بالغيث ، فأصبحت أوجه الأرض تنتظره ، وتتشوق إلى لقائه كما ينتظر المحب وجه الرسول حاملاً رد الأحباب إلى الأحباب :

ونسيم يبشر الأرض بالقطـ
ـر كذيل الغلالة المبلول
ووجوه البلاد تنتظر الغيـ
ـث انتظار المحب رد الرسول

• • •

ولقد تحمد القوة في كثير من مواطن الحياة ، إلا النسيم والريح ، فإن أطيبهما أرقهما ، وأحسنهما أضعفهما . فالريح القوية ثقيلة الهبوب ، غير مطاقة المرور ، شديدة الوطأة حتى على الأشجار تقتلعها والأغصان تقصفها ، ولا يسلم منها في عصفها وقصفها إلا العشب الصغير والكلأ الحقير . ولم تفت هذه اللفتة الشاعر « أبا تمام » حين قال :

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت
عيدان نجد ، ولم يعبأن بالرتم

أما النسيم الضعيف فهو حبيب إلى أنفس الشعراء ، لأنه لا يثور حين يمر ، ولأنه لا يؤذي ولا يضر ... وقد مدحه « إسحق الموصلي » بقوله :

(البقية على الصفحة التالية)

٢ – ماذا تعرف عن السودان

مشروع الجــــزيرة

للأستاذ السيد المحروق

تعتبر منطقة الجزيرة التي تبلغ مساحتها ٥ ملايين من الأفدنة تقريباً، والممتدة على شكل مثلث رأسه في الخرطوم وضلعاه النيل الأزرق والنيل الأبيض، وقاعدته تمتد من كوستى إلى سنار، تعتبر هذه المنطقة قلب السودان النابض؛ فالحياة فيها خصبة غنية، وهي تكاد تكون المنطقة الوحيدة التي يولي السكان وجوههم شطرها؛ ذلك لأنها تعد مخزن الإنتاج الزراعي في السودان — والذي يتتبع الحوادث الطبيعية من عام إلى آخر، يجد أن السودان كثيراً ما تعدو عليه الطبيعة، وكثيراً ما تهبط السيول فتجتاح الحرث والنسل، وتترك الأرض وما عليها هشيماً تذروه الرياح، عند ذلك تتطلع الأنظار إلى مخازن الجزيرة تمدها بما تحتاج إليه من زرع وثمار.

كان السير جارستون مستشار وزارة الأشغال المصرية هو الذي أشار إلى أنه من اليسير أن تروى أرض الجزيرة صناعياً، ثم أكد قوله هذا في مذكرة قدمها في سنة ١٩٠٤ إلى قنصل بريطانيا في مصر اللورد كرومر في ذلك الوقت؛ ومن ذلك التاريخ بدأت حكومة السودان تولي هذا الأمر عنايتها؛ فما وافت سنة ١٩١٢ حتى كان قد تم مسح جزء كبير من أرض الجزيرة، وأنشئ الخط الحديدي بين الخرطوم وسنار، وبذلك تم الارتباط بين أطراف الجزيرة من الشمال إلى الجنوب، وفي الوقت نفسه كان العمل يسير بجد ونشاط لإنشاء محطات الطلمبات للاستفادة بها في تجربة زراعة القطن الذي يعتبر محصول الجزيرة الرئيسي. وقد عهدت الحكومة بهذه التجارب إلى النقابة الزراعية بالسودان، بما لها من خبرة وتجربة في زراعة القطن من قبل في زيداب شمال الخرطوم. ولقد نجحت هذه التجارب في أرض الجزيرة نجاحاً حسناً. ويجب أن نشير إلى أنه مع أن أرض الجزيرة ملك للأهالي من السودانيين، إلا أن الحكومة رأت أن تسند إلى هذه النقابة أمر استغلالها بإيجار قدره عشرة قروش للفدان في السنة، بدعوى أن الزارع السوداني لم تتوافر لديه الخبرة الزراعية ولا المال اللازم الذي يعينه على زراعة الأرض وفلاحتها، فانتهى الأمر بالاتفاق بين حكومة السودان والنقابة على أن تتولى الأولى شق القنوات الكبرى في المناطق التي تزرع فيها القطن، وتقوم النقابة بإدارة المشروع وشق الترع الصغيرة التي تلزم للري، وأن يعمل الزارعون في الأرض بعد أن تقدم

يا حبــــذا ريح الجنوب إذا جرت
في الصبح وهي ضعيفة الأنفــــاس
قد حملت بَرْدَ الندى وتحملت
عَبَقاً من الجثجاث، والبسباس

والجثجاث والبسباس نبتان طيبا الرائحة.

• • •

وإذا كان في النسيم العليل خاصية إنامة الصاحي حين يداعب عينيه فيداعبهما الكرى، فإن فيه فوق ذلك خاصية أخرى وهي إفاقة المخمور، وإخراجه إلى عالم الشعور... ولم يفت الشاعر «الوأواء الدمشقي» أن يذكر هاتين الخاصيتين في بيتين من الشعر يقول فيهما:

سقى الله ليــــلاً طاب إذ زار طيفه
فأفنيته حتى الصــــباح عناقا
بطيب نسيم منه يستجلب الكرى
ولو رقــــد المخمور فيــــه أفاقا

كما لم يفت الشاعر «ابن وكيع» من شعراء «اليتيمة» أن يشير إلى الخاصية الثانية بقوله:

تلق القــــلوب منــــه قبولا
كتلق المخمور بَرْدَ النســــيم

(للحديث بقية) محمد عبد الغني حسن

النقابة بالأموال التي يحتاجون إليها ، على أن يقسم المحصول بنسبة ٤٠ ٪ منه للمزارع ، ٣٥ ٪ منه للحكومة ، ٢٥ ٪ منه للنقابة .

في سنة ١٩١٣ اتجه التفكير إلى إنشاء خزان سنار على أثر مالوحظ من نجاح المشروع وتقدمه — وقد كانت الفرصة سانحة لمصر كي تساهم في هذا العمل الحيوي ، إلا أنها أبت أن تضمن القرض الذي تتطلبه إقامة هذا الخزان وقدره ثلاثة ملايين من الجنيهات ؛ فسارعت الحكومة الإنجليزية إلى ضمانه ، وبدئ في بناء الخزان في سنة ١٩١٤ ، إلا أن الحرب الكبرى ما كادت تشتعل نارها حتى أوقف العمل فيه .

وجدير بالذكر أن عدم مساهمة مصر في هذا العمل أضاع عليها فوائد كثيرة ، أهمها تدعيم حجتها بأن مصر والسودان طرفا جسم واحد يتمم أحدهما الآخر ، كما أضاع عليها حق الإشراف الفعلي على تصريف مياه النيل ، بل أكثر من هذا فإنه قد قيل إن حكومة السودان كانت ترحب في ذلك الوقت بأن يساهم المصريون في استغلال أراضي الجزيرة وأن يأخذوا بنصيب في هذا المشروع .

لم يكن قيام الحرب العالمية الأولى سبباً يمنع من استمرار النقابة الزراعية في القيام بتجارب عديدة ؛ فبدأت في سنة ١٩١٤ بإنشاء طلمبات قرى ، أهمها في بركات ومنطقة الحوش ووادي النو ، وبذلك استطاعت أن تروى مساحة من الأراضي بواسطة هذه الطلمبات تبلغ ٥٥٫٠٠٠ فدان تقريباً ، كلها صالحة لزراعة القطن — وجدير بالذكر أن استغلال الأرض كان قائماً على قاعدة الدورة الثلاثية ، أي زراعة الثلث قطناً والثلث ذرة ولوبيا ، والثلث الباقي يترك بوراً .

أسلفنا أن قيام الحرب كان سبباً في عدم الاستمرار في إنشاء الخزان ، فلما كادت تضع أوزارها حتى سار العمل فيه على قدم وساق ، وفي الوقت نفسه تم إنشاء كثير من الترع والقنوات ، فلما وافت سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٦ حتى كان قد انتهى العمل منه وأصبح يتسع لحجز ٨٠٠ مليون متر مكعب من الماء يمكن أن تروى ٥٠٠٫٠٠٠ فدان ؛ وبذلك زيدت المساحة المزروعة قطناً حتى أصبحت ثمانين ألف فدان .

وفي سنة ١٩٣٠ حينما تدهورت أسعار القطن واجتاحت العالم الأزمة الاقتصادية المعروفة هبت على النقابة أعاصير مالية جعلتها تتطلع إلى العون من كل من يستطيع أن يمدها بالمال والعتاد اللازم للاستمرار في استغلال المشروع ؛ وبذلك هيأت الظروف مرة أخرى الفرصة لمصر لتأخذ بنصيب في هذا العمل الحيوي ، إلا أنها أعرضت عنه وشغلت بأحداثها السياسية الداخلية في ذلك الوقت ، فيممت النقابة وجهها شطر انجلترا تطلب منها العون ، فسارع القوم هناك إلى وضع الأموال اللازمة تحت تصرف النقابة ، فاستطاعت أن تسير بالمشروع قدماً وبنجاح تام .

ولقد ساعدت الظروف المختلفة بعد ذلك على تدعيم أعمال هذه النقابة مما أدى إلى زيادة الأراضي المزروعة والممتدة محاذية للنيل الأزرق حتى بلغت هذه المساحة في السنين الأخيرة ما يقرب من ٨٠٠ ألف فدان أو تزيد .

ويضم مشروع الجزيرة مزرعة خاصة للمباحث الفنية الزراعية قائمة على مساحة قدرها ٣٥٠ فداناً بالقرب من وادي مدني عاصمة مديرية النيل الأزرق ؛ وتعتبر هذه المزرعة من أحسن حقول التجارب في العالم ، إذ تضم نخبة من العلماء الإخصائيين في الزراعة مع توافر الاستعداد الفني الخاص بأبحاث التجارب والأجهزة والتراكيب العلمية الحديثة .

ويوجد بالمشروع محلجان للقطن أحدهما في مارنجان والآخر في قرشي ، كما يضم تفاتيش رئيسية وأخرى فرعية ، تبدأ من سنار وتنتهي عند ود الترابي ، وأهم هذه التفاتيش هي الريحة — كاب الجداد — سابع دليب — الحاج عبد الله — أبو عشر السلفية — البساتين — وتشرف النقابة على أرض الجزيرة بإدارة منظمة مقرها بركات .

وفي سنة ١٩٤٤ تقرر أن تصفي النقابة عملها على أن تنتهي من ذلك في سنة ١٩٥٠ .

ويزرع في السودان القطن المعروف بالسكلاريدس ، وتتراوح غلة الفدان منه من ٣ — ٥ قناطير ، ويغل مشروع الجزيرة من هذا النوع كميات كبيرة كثيراً ما تضيق عن جنيها الأيدي العاملة ، فتلجأ الحكومة إلى تعطيل الدراسة بمدارسها وتكوين فرق من التلاميذ للقيام بجني القطن يشرف عليهم المدرسون والأساتذة .

السيد المحروقي

صــــلاة ..

ربي !.. وهل للقلب غيرك مفزع ؟
أو للسان ســواك باب يُقرع ؟!
سأظل أهتف .. بل وأصرخ ماجـ
ـبت ! ؛ لفرط إيماني بأنك تسمع !
قلبي يؤكد لي بأنك سامعٌ ..
وإذا سكتُّ مضى يئنّ ؛ فأضرع !
وإذا شككت ؛ بكى !.. وأسرع نبضه
فأتوب من شكي إليــك وأرجع

● ● ●

ربي !.. ؛ فما هذا الغموض ؟! وحَيْرةٌ
أن لا أرى في (واقعي) ما يُقنع !!
أنا لست باللحـــاح يا ربي !.. بل الـ
ـلحاح عقــلي : ساغب لا يشبع !
ورثت من شكوى الشـــقاء .. وإنما
قلبي هو الشـــاكي الشقي الوجع !!
غشّاه ما غشاه !.. وا كرباه !! قد
خـــارت قواه !! فليتـــه يتقطع !!
هو علة البلوى !.. وأصل الداء والشـ
ـكوى !.. وحيرتي !! فماذا أصنع ؟!
أشكيه يا ربي !.. ؛ لأرضى عنه !.. أو
فانزعه ! ، لا انطمت عليه الأضلع !!
قلب .. يؤازره لسان ناطــق
وكلاهما مـــنكر لا يقنـــع ..!
لولاهما ماضقت بالدنيــا ..! ولا
ضاقت على نفسي الرحاب الأربع !
ورأيت هذا الكون محضَ الشر ، في
محضٍ من الأوهـــام ليست تنفع !
هي كالسراب يَغيمُ .. متجدداً
أبداً .. وغــلة ظامئٍ لا ينقع !!
عمري تبخّر خلفها صديان كالـ
ـمحموم ألهث !.. والوتين مقطّع !

● ● ●

لله قلبي !.. كيف لم يهلك أسًى ؟!
يا ويحــه من فرط ما يتــوجع !!
دَبِّرْلي يا ربي ! ؛ فقد ضاع الرشا
د !.. ولم يعد لي في الهداية مطمع !
ظمآن محترق !.. ويا هيهات أن
أروى وبالقطران كأسي مترع !
خلّصني يا ربي !.. تعبت !! تعبت من
موتي البطيء !.. وها أنا لك أضرع !
خذني إليــك ! ؛ ففي سمائك موضعي
إذ ليس لي في رحب أرضك موضع !
ضاقت — على سعة — عليّ ! ؛ كأنها
لي خاتم ضـــنكٌ شكاه الإصبع !
أبداً أنا المخنــوق !.. في الحلقوم رو
حي !.. لا تقر بسجنها ، أو تطلع !!
خـــذها وخلصني !! إلهي ضجّ صو
تي في الدعاء ، وأنت مصغٍ تسمع !!
هلا استجبت إذاً ؟!! حنانك لا تذرا
خذني ! ؛ فرشدي في هواك مُضيّع !

عمر عبد العزيز الأقصري

مقطوعات لتاجور

لا يبقى إلى الأبد شيء ، يا أخى ، ولا يدوم شيء طويلا ..
تذكر ذلك دائماً ، وابتهج ..
ليست حياتنا ذلك الحمل الوحيد القديم ..
ليست رحلتنا بالرحلة الفريدة الطويلة ..
الشاعر لا يستطيع أن ينشد الأغنية الخالدة وحده ..
تذبل الزهرة وتفنى ، ولا يبكى عليها طويلاً ذلك الذى
حلّى بها صدره ..
يا أخى .. تذكر ذلك دائماً ، وابتهج ..

• • •

قطفت زهرتك .. أيها العالم ..
ضممتها إلى صدرى ، وآلمنى شوكها ..
عندما شحب وجه النهار وأظلم ..
رأيت الزهرة قد ذبلت ..
ولكن بقى ألمها ..
ستأتى إليك زهور أخرى .. أيها العالم ..
فى عطر ورونق ..
ولكن مضى وقت جنى الزهور ..
وفى الليل المظلم لا تكون زهرتى معى ..
ولكن يبقى ألمها ..

• • •

من أنت أيها القارىء ، تقرأ شعرى منذ مائة عام ؟
لا أملك أن أبعث إليك بزهرة واحدة من زهور الربيع ..
أو بشعاع ذهبى ضئيل ، من خلف السحاب ..
افتح نافذتك وانظر ..
واجمع من حديقتك المليئة بالزهور ..
ذكريات عطرة لزهور بعيدة ..
لمائة عام مضت ..
وفى بهجة قلبك وفرحته ، ربما شعرت بالبهجة
التى مست قلبك فى صباح يوم من أيام الربيع ..
تبعث إليك صوتها الفرح من خلال مائة عام ..

• • •

قال الرجل المقدم على الزهد ، وقد كاد يبلغ الليل منتصفه :
« الآن آن لى أن أترك بيتى وأبحث عن الله ..
آه .. من ذلك الذى أمسك بى طول هذا الوقت ..
فى هذه الأباطيل .. »
همس الله : « إنه أنا » ولكن الرجل صُمّت أذناه ..
كانت زوجه نائمة فى سلام على طرف الفراش ..
ونام إلى صدرها طفل ..
قال الرجل : « من هؤلاء الذين خدعونى طول هذا
الوقت ؟ »
قال الصوت ثانية : « إنهم الله » ولكنه لم يسمعه .
بكى الطفل فى حلمه والتصق بأمه ..
صاح الله : « قف أيها الأحمق ، لا تترك بيتك .. »
ولكن الرجل لم يسمع ..
تنهد الله وشكا : « لِمَ يهيم عبدى على وجهه باحثاً عنى ،
ويتركنى ؟ »

• • •

يمسكون بى ، يريدون أن يملكوا حبى ..
هؤلاء الذين يحبوننى فى هذا العالم ..
ولكنه هو حبك الذى فاق كل حب ..
فتركنى حراً ..
يخشون أن أنساهم فلا يدعوننى وحدى ..
وتمضى الأيام واحداً تلو الآخر ..
ولا أراك ..
ولو لم أنادك فى صلواتى ..
ولو لم أحفظك فى قلبى ..
فسيظل حبك ينتظر حبى ..

ترجمة
ميعوض أحمد أبيه

عبيد بن الأبرص

لسير تشارلس ليال

ترجمة الأستاذ حسين نصار

عاصر عَبِيد بن الأبرص الأسدى حُجرا ، أمير كِندة ، الذى حكم أبوه قبائل أسد وغطفان ، وكنانة ، فى أواخر القرن الخامس أو الربع الأول من القرن السادس ، حين امتدت سلطته على القبائل العربية الشمالية . ويذكر المؤرخون البيزنطيون غارات شنها (فيما يبدو) حجر وأخوه مَعْدِى كَرِب (الذى تقول الروايات إنه وُلِّىَ على قبائل قيس أو هوازن) على الحدود الرومانية عام ٤٩٧ و ٥٠١ م . وربما كان هذان التاريخان وقت انقسام القبائل بين أبناء الحارث على وجه التقريب . ويسمى المؤرخون البيزنطيون هذين الأميرين أوجاروس وباديكاريموس .

وكان من أبناء حجر امرؤ القيس الشاعر المشهور ، الذى يجمع النقاد على أنه أعظم شاعر فى العصور القديمة وصلت إلينا قصائده . وقصائد امرئ القيس الباقية كثيرة بالنسبة لما بقى من غيره من شعراء عصره ؛ وتدل المواضع المذكورة فى قصائده الطويلة التى لا يذكر فيها حروبه وطوافه ، على أنه ألفها فى شبابه وهو مقيم مع أبيه فى أرض أسد . ولذلك ، نظن أن حكم حجر استمر عدة سنين وإن استحال علينا تقدير مدته .

وطُرِد الحارث الكندى ، الذى يظهر أنه مد سلطانه إلى الحيرة على الفرات ، عاصمة اللخميين ، على يد خصمه المنذر بن ماء السماء المشهور ، الذى يعرفه المؤرخون الإغريق باسم « ألمُنْدارس أو سا كيكاس » أو « زا كيكس » ، وكان يهدد الحدود الرومانية من عام ٥٠٦ إلى ٥٥٤ . ويدعى البيزنطيون أن المنذر قتل الحارث عام ٥٢٩ ، ولكن هذا الادعاء مشكوك فيه ، إذ تتفق الروايات العربية على أنه توفى ، فى موضع يسمى مُشَلان من أرض كلب ، وهو فى الصيد فى زمن ربما كان متأخرا قليلا على ٥٢٩ . ويبدو أن الإمارات التى ولى عليها أبناؤه فى شمال بلاد العرب أخذت تنحل من سلطتهم ، بعد موته ، مهما كان تاريخه . وانتهى ملك حجر على بنى أسد بقتله الفجائى على أيديهم . ويروى « كتاب الأغانى » ما لا يقل عن أربع روايات مختلفة عن هذا الحادث .

١ — أولاها رواها هشام بن الكلبى (المتوفى ٢٠٤) عن أبيه محمد (المتوفى ١٤٦) الذى قال إنه سمعها من ابن الكاهن الأسدى : « أن حجراً كان فى بنى أسد ، وكانت له عليهم إتاوة فى كل سنة مؤقتة ؛ فغَبَرَ ذلك دهراً . ثم ثم بعث إليهم جابيه الذى كان يجبيهم ، فمنعوه ذلك — وحُجر يومئذ بتهامة — وضربوا رُسُله وضرجوهم ضرجا شديداً قبيحا . فبلغ ذلك حُجرا ؛ فسار إليهم بجند من ربيعة وجند من جند أخيه من قيس وكنانة ، فأتاهم وأخذ سَرَاتهم ، وجعل يَقتلهم بالعصا — فسُمُّوا « عَبِيد العصا » — وأباح الأموال ، وصَيَّرهم إلى تهامة ، وآلى بالله ألا يساكنوه فى بلد أبدا ، وحبس منهم عمرو بن مسعود ابن كندة بن فَزارة الأسدى وكان سيدا ، وعبيد بن الأبرص الشاعر ، فسارت بنو أسد ثلاثا . ثم إن عبيد بن الأبرص قام فقال : أيها الملك اسمع مقالتى :

يا عين فابكى ما بنى   أسد فهم أهل الندامه

... القصيدة :

فرَقَّ لهم حجر حين سمع قوله ، فبعث فى أثرهم فأقبلوا ، حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم ، وهو عوف بن ربيعة ... فقال لبنى أسد : يا عِبادى ! قالوا : لبيك ربنا . قال : من الملك الأصهب ، الغلاب غير المغلَّب ، فى الإبل كأنها الرَّبْرب ، لا يعلق رأسه الصخب ، هذا دمه ينثعب ، وهذا غدا أول من يسلب . قالوا : مَن هو يا ربنا ؟ قال : لولا أن تجيش نفسٌ جاشية ، لأخبرتكم أنه حجر

ناحية . فركبوا كل صعب وذلول ؛ فما أشرق لهم النهار حتى
أتوا على عسكر حجر فهجموا على قبته . وكان حجابه من
بنى الحارث بن سعد يقال لهم بنو خدّان بن خنثر ، منهم معاوية
ابن الحارث وشبيب ورقية ومالك وحبيب ، وكان حجر قد
أعتق آباءهم من القتل . فلما نظروا إلى القوم يريدون قتله
خيموا عليه ليمنعوه ويجيروه . فأقبل عليهم علباء بن الحارث
الكاهلى ، وكان حجر قد قتل أباه ، فطعنه من خللهم
فأصاب نساه فقتله . فلما قتلوه قالت بنو أسد : يامعشر كنانة
وقيس ، أنتم إخواننا وبنو عمنا ، والرجل بعيد النسب منا
ومنكم ، وقد رأيتم ما كان يصنع بكم هو وقومه . فانتهبوهم
فشدوا على هجائنه فمزقوها ولفوه فى ريطة بيضاء وطرحوه
على ظهر الطريق . فلما رأته قيس وكنانة انتهبوا أسلابه ،
ووثب عمرو بن مسعود فضم عياله وقال : أنا لهم جار .

قال ابن الكلبى : « وعدة قبائل من بنى أسد يدّعون
قتل حجر ويقولون : إن علباء كان الساعى فى قتله وصاحب
المشورة ولم يقتله هو » .

٢ — الثانية عن أبى عمرو الشيبانى (المتوفى ٢٠٥)
قال : « بل كان حجر لما خاف من بنى أسد استجار عوير
ابن شجنة أحد بنى عطارد بن كعب بن سعد بن زيد مناة
بن تميم لبنته هند بنت حجر وعياله . وقال لبنى أسد لما
كثروه : أما إذا كان هذا شأنكم فإنى مرتحل عنكم ومخليكم
وشأنكم . فواعدوه على ذلك . ومال على خالد بن خدان
أحد بنى سعد بن ثعلبة ، فأدركه علباء بن الحارث أحد بنى
كاهل فقال : ياخالد اقتل صاحبك لا يفلت فيعرّنا وإياك
بشر ، فامتنع خالد . ومر علباء بقصدة رمح مكسور
فيها سنانها ، فطعن بها فى خاصرة حجر وهو غافل فقتله .
ففى ذلك يقول الأسدى :

وقصدة علباء بن قيس بن كاهل
منية حجر فى جوار ابن خدان »

٣ — الرواية الثالثة عن الهيثم بن عدى (المتوفى
سنة ٢٠٦) ، قال : إن حجراً لما استجار عوير بن شجنة
لبنيه وقطينه تحول عنهم فأقام فى قومه مدة ، وجمع لبنى
أسد جمعاً عظيماً من قومه ، وأقبل مُدلاً بمن معه من
الجنود ؛ فتآمرت بنو أسد بينها ، وقالوا : والله لئن قهركم
هذا ليحكمن عليكم حكم الصبى ! فما خير عيش يكون بعد
قهر ، وأنتم بحمد الله أشدّ العرب ! فموتوا كراماً . فساروا
إلى حجر ، وقد ارتحل نحوهم فلقوه فاقتتلوا قتالاً شديداً ،
وكان صاحب أمرهم علباء بن الحارث ؛ فحمل على حجر
فطعنه فقتله ، وانهزمت كندة وفيهم يومئذ امرؤ القيس ؛
فهرب على فرس له شقراء ، وأعجزهم ، وأسروا من أهل بيته
رجالاً وقتلوا وملئوا أيديهم من الغنائم ، وأخذوا جوارى
حجر ونساءه وما كان معه من شىء فاقتسموه بينهم » .

٤ — الرواية الرابعة عن يعقوب بن السكيت (المتوفى
سنة ٢٤٤) عن خالد الكلابى (كلاب بطن من عامر
بن صعصعة) قال : « وكان سبب قتل حجر أنه كان وفد إلى
أبيه الحارث بن عمرو فى مرضه الذى مات فيه وأقام عنده
حتى هلك ، ثم أقبل راجعاً إلى بنى أسد ، وقد كان أغار
عليهم فى النساء وأساء ولايتهم ، وكان يقدّم بعض ثقله أمامه
ويهيأ نزله ، ثم يجىء وقد هيئ له من ذلك ما يعجبه فينزل ،
ويقدّم مثل ذلك إلى ما بين يديه من المنازل فيضرب له فى
المنزلة الأخرى ؛ فلما دنا من بلاد بنى أسد وقد بلغهم موت
أبيه طمعوا فيه ؛ فلما أظلهم وضربت قبابه اجتمعت بنو أسد
إلى نوفل بن ربيعة بن خدان ؛ فقال : يابنى أسد من يتلقى
هذا الرجل منكم فيقتطعه ؛ فإنى قد أجمعت على الفتك به ؟
فقال له القوم : ما لذلك أحد غيرك ؛ فخرج نوفل فى خيله
حتى أغار على الثقل فقتل من وجد فيه ، وساق الثقل
وأصاب جاريتين قينتين لحجر ، ثم أقبل حتى أتى قومه ،
فلما رأوا ما قد حدث وأتاهم به عرفوا أن حجراً يقاتلهم
وأنه لا بدّ من القتال ؛ فحشد الناس لذلك ، وبلغ حجراً
أمرهم ، فأقبل نحوهم ؛ فلما غشيهم ناهضوه القتال وهم بين
أبرقين من الرمل فى بلادهم يدعيان اليوم أبرقى حجر ؛ فلم يلبثوا
حجراً أن هزموا أصحابه وأسروه فحبسوه ، وتشاور القوم
فى قتله ؛ فقال لهم كاهن من كهنتهم بعد أن حبسوه ليروا

فيه رأيهم : أى قوم ! لا تعجلوا بقتل الرجل حتى أزجر لكم ؛ فانصرف عن القوم لينظر لهم فى قتله ؛ فلما رأى ذلك علباء خشى أن يتوا كلوا فى قتله ؛ فدعا غلاماً من بنى كاهل وكان ابن أخته ، وكان حجر قتل أباه زوج أخت علباء ، فقال : يابنى ، أعندك خير فتثأر بأبيك وتنال شرف الدهر ، وإن قومك لن يقتلوك ؟ ! فلم يزل بالغلام حتى حربه ، ودفع إليه حديدة وقد شحذها ، وقال : ادخل عليه مع قومك ثم اطعنه فى مقتله . فعمد الغلام إلى الحديدة فخبأها ثم دخل على حجر فى قبته التى حبس فيها ؛ فلما رأى الغلام غفلة وثب عليه فقتله ؛ فوثب القوم على الغلام ، فقالت بنو كاهل : ثأرنا وفى أيدينا فقال الغلام : إنما ثأرت بأبى . فخلوا عنه » .

وتتفق الرواية الثالثة من هذه الروايات الأربع مع أقوال عبيد فى ديوانه (المطبوع فى ليدن) . انظر القصيدة ٢ البيت ٢٧ والقصيدة ٤ الأبيات ٦ — ٢٠ والقصيدة ٧ (كلها) ، والقصيدة ١٧ الأبيات ١٢ — ١٨ ، والقصيدة ٢٦ الأبيات ١١ — ١٣ الفقرة ١ ، ولا تتفق هذه المقطوعات جميعها مع الروايتين الثانية والرابعة .

أما الرواية الأولى ، فتوافقها القصيدة ٢٩ التى يشك فى صحتها ؛ ولكن هذه القصيدة توحى للمرء بأنها نظمت فى عصر متأخر عن عصر عبيد (انظر ذكر « القيامة » فى البيت ١١) . ولا يستطيع الإنسان أن يبعد عن خاطره الشك فى أنها من نظم أحد أعداء بنى أسد تعصباً لليمن (موطن كندة) ضد معد (أصل أسد) . وكثيراً ما تعزى هذه التحولات إلى ابن الكلبى ، خاصة فى الأخبار المتعلقة بالقبائل اليمنية وعرب الشمال : مثل الأشعار المنحولة التى نسبها إليه مؤلف « الأغانى » عن الخصومة بين عامر بن الطفيل ويزيد بن عبد المدان من بلحارث ؛ والأبيات التى يقال إنه نظمها ليحط من شأن دريد بن الصمة ، أحد أبطال هوازن ، ويرفع بلحارث .

بعد موت حجر ، وقع عبء الأخذ بثأره على ابنه الأصغر امرىء القيس ؛ ويذكر كتاب « الأغانى » وصفاً مطولا لما تكبده فى هذا السبيل . فقد طوف بين القبائل ، حتى استحق اللقب الذى عرف به فى الأخبار العربية « الملك الضليل » ، بحثاً عمن يساعده على الأخذ بثأره ، الذى لم تخاصمه فيه القبائل العربية وحدها ، بل المنذر ملك الحيرة الذى كان يبسط سلطانه شيئاً فشيئاً على بلاد العرب الشمالية ، وأخيراً اضطر فى ثورة يأسه إلى الالتجاء لقيصر ، فتبعه — كما تقول الأخبار — رسول من أسد ، يسمى الطماح ، استطاع أن يفسد قيصر عليه ، حين أخبره بوجود مؤامرة بين امرىء القيس وابنته عليه . ويقال إن قيصر أرسل لامرئ القيس (الذى أعطاه قوة لمساعدته فى قتال بنى أسد وشرع فى الرجوع إلى بلاد العرب) حلة مسمومة مثل حلة نيشوس فى الأساطير القديمة . وعندما ارتداها ، تساقط لحمه ، ومات جنوبى أنقرة ، ولذلك سمى « ذا القروح » ، وقد ذكر هذا الاسم الفرزدق الشاعر فى القرن الأول من الإسلام . ولا نعرف بالتحديد تاريخ وفاة امرئ القيس ، ولكن من المحتمل أن يكون توفى شاباً ، فيما بين عامى ٥٣٠ و ٥٤٠ ، كما يظن الأستاذ نولدكه ، وكان الإمبراطور فى ذلك العهد جستنيان الأول . ونعرف من المؤرخين البيزنطيين تواريخ عدة حوادث وقعت فى عهد الملكين العربيين المعاصرين ، الحارث الأعرج الغسانى (٥٢٩ — ٥٦٩) ، والمنذر الحيرى (٥٠٦ — ٥٥٤) ، اللذين تعاقبا على السيطرة على الحدود الشمالية تحت رعاية الرومان والفرس ؛ أما حوادث داخل شبه الجزيرة فليس لدينا مصدر لأخبارها غير الأخبار القبلية ، القامضة الشطرية ، المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقصائد التى ألفها الشعراء القبليون ، وجمعها الأدباء فى أواخر العصر الأموى وأوائل العباسى ، بعد ظهور الإسلام بوقت غير قصير . ولما كان هؤلاء الباحثون لا يعرفون المدونات البيزنطية ، ولم يكن أمامهم غير هذه الأخبار المأثورة ، فإنهم استنبطوا منها تاريخاً لا يتفق مع الحقائق المثبتة فى المدونات المذكورة .

(البحث بقية)

حسين نصار

العشق عند العرب

للأستاذ كمال منصور

حفل العرب بالعشق فشغفهم وملك عليهم مشاعرهم ، فراحوا يؤلفون فيه المؤلفات ، ويصنفون له التصانيف ، حتى إن عظام القوم وعلية الناس منهم ، وخلفاءهم وأمراءهم ، قد أعطوا تلك العاطفة قدراً كبيراً من العناية ؛ فأشفقوا على المحبين ، ومدوا إليهم يد المساعدة ، وتتبعوا أحوالهم ، وأرصدوا أخبارهم ؛ فالأصمعي يروى عن عمر بن الخطاب أنه قال : « لو أدركت عفراء وعروة لجمعت بينهما » ، وجاء في روضة المحبين أن أبا بكر الصديق بعث إلى مولى إحدى الجوارى العاشقات فاشتراها منه ، وبعث بها إلى حبيبها وقال : هؤلاء فتن الرجال ، وكم قد مات بهن من كريم ، وعطب عليهن من سليم ، وترى النبي عليه السلام يقول : « من عشق فعف فمات دخل الجنة » ، ويقول كذلك : « إن الله ليعجب من شاب لا صبوة له » ، وفي كتاب امتزاج النفوس للتميمي أن معاوية بن أبي سفيان اشترى جارية من البحرين ، فأعجب بها إعجاباً شديداً ، فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها :

وفارقته كالغصن يهتز في الثرى
طريراً وسيماً بعد ما طر شاربه

فسألها ، فقالت : هو ابن عمي ، فردها إليه وفي قلبه منها ، وتجد عمر بن عبد العزيز يصل بين القلوب المتحابة عندما يتصل به خبر أحد العشاق الذين لا تساعدهم أحوالهم على الاجتماع بحبيباتهم ؛ ومن جميع هذا تتضح لنا منزلة هذه العاطفة السامية في نفوس العرب جميعاً .

العشق في اللغة :

العشق في اللغة فرط الحب ، أو هو عجب المحب بالمحبوب . يقال عشقه يعشقه عشقاً وتعشقه ، والأصل الحسي لمادة العشق يرجع إلى شجرة تسمى العشقة تذبل إذا قطعت ، فسمي العشق بها لأنه يدل على الذبول من حيث إن العاشق يذبل من شدة الهوى ، وفي لسان العرب : أن العشقة شجرة تخضر ثم تدق وتصفر ، وقال الفراء : العشق نبت لزج ؛ فسمي به العشق الذي يكون بالإنسان للزوجه ولصوقه بالقلب .

ماهية العشق :

اختلف الناس في تعريف العشق وتحديده ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى : فابن حزم يذهب إلى أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع ، أما صاحب ديوان الصبابة فيقول : إنه طمع يتولد في القلب ، ويتحرك وينمو ، ثم يتربى وتجتمع إليه مواد من الحرص ، وكلما قوى زاد صاحبه في الاهتياج واللجاج ، وقال الأصمعي : إنه شيء يستغرق القلب في محاسن المحبوب ويشغله عن مساويه ، وقال بعض العرب : إن العشق شدة ميل النفس إلى صورة تلائم طبعها ؛ فإذا قوى فكرها فيه تصورت حصولها ، وتمنت ذلك فيتجدد من شدة الفكر مرض ؛ وقد حظى العشق بقسط كبير من تعاريف الفلاسفة ؛ فقد عرفه أرسطو بأنه جهل عارض صادف قلباً فارغاً ، وقال أفلاطون : العشق غريزة متولدة من وسواس الطمع وأشباح التخيل ، وقال ديوجانس : العشق سوء اختيار صادف نفساً فارغة ، وعرفه أفلاطون كذلك بأنه حركة النفس الفارغة بغير فكرة ، وعرفه ابن سينا بأنه مرض وسواسي يشبه الماليخوليا ، يجلبه المرء إلى نفسه بتسليط فكرته على استحسان بعض الصور والشمائل ، وعرفه أرسطو تعريفاً آخر ؛ فقال : العشق عمى العاشق عن عيوب المعشوق ، وهذا التعريف الأخير لأرسطو موجود في قول الرسول عليه السلام : « حبك الشيء يعمي ويصم » وفي قول الشاعر :

فلست براء عيب ذى الود كله
ولا بعض ما فيه إذا كنت راضياً
وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدى المساويا

هل العشق اضطراري أم اختياري :

وكما اختلفوا في تعريف العشق ، اختلفوا كذلك في هل

هو اضطرارى أم اختيارى ؟ فن مقدمة الذين قالوا إنه اختيارى ابن سينا ، وقد لمسنا هذا من تعريفه له . فهو يعرفه بأنه مرض وسواسى يجلبه المرء إلى نفسه بتسليط فكرته على استحسان بعض الصور والتماثيل ، فابن سينا يذهب إلى أن الإنسان هو الذى اختار ذلك لنفسه بمحض إرادته ، فهو الذى سلط فكرته ، وأعمل تفكيره ، حتى جلبه إلى نفسه ، وقيل إن العشق فى أول مراحله وأطواره يكون اختيارياً ، ثم يزداد وترتفع درجاته فيصبح اضطرارياً ، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر :

العشق أول ما يكون مجانة   فإذا تمكن صار شغلا شاغلا

وشبهوا انتقال العشق من حالة الاختيار إلى حالة الاضطرار بالسكر مع شرب الخمر ، فإن تعاطى السكر اختيارى ، ولكن ما يتولد عنه من السكر اضطرارى ، ولما كان السبب باختياره لم يقبلوا له الأعذار فيما ينجم عنه بغير اختياره . أما الذين ذهبوا إلى أن العشق اضطرارى فهم يقولون إن وقوعه بأهله ليس برضاهم ولا بحرصهم عليه ، ولكنه وقع بهم كما تقع العلل والأمراض لا بإرادة المرء فيها ، وهم لذلك يعذرون العشاق ولا يوجهون لهم لوماً فى جميع أقوالهم وأفعالهم . قال بعض بنى عذرة وقد قال له بعض العرب : ما لأحدكم يموت عشقاً فى هوى امرأة يألفها . إنما ذلك ضعف نفس ، ورقة وخور تجدونه فيكم يابنى عذرة . فقال العذرى : أما والله لو رأيتم الحواجب الزج فوق النواظر الدعج تحتها المباسم الفلج لاتخذتموها اللات والعزى . وقال المدائنى : لام رجل رجلا من أهل الهوى فقال : لو كان للذى هوى اختيار لاختار ألا يهوى ، ولكن لا اختيار لذى هوى . ونحن نرجح الرأى الثانى على الرأى الأول ، وهو القائل بأن العشق اضطرارى لأن العشق نوع من العذاب ، والعاقل لا يختار العذاب لنفسه ، فهو يأتيه من حيث لا يدرى :

يلوموننى فى حب ليلى كأنما   يرون الهوى شيئاً تمنيته عمدا

ألا إنما الحب الذى صدع الحشا
قضاء من الرحمن يبلو به العبدا

مراتب العشق وأطواره :

الهوى أول مراتب العشق وهو أن تميل النفس إلى نفس أخرى وتهفو إليها ، ثم العلاقة وهى الحب اللازم للقلب ، وهى اسم لمبادئ المحبة أخذت من علق أى أحب ، ثم الكلف وهو شدة الحب والاستغراق فيه ، وهو راجع إلى الكلفة وهى المشقة ، يقال كلفه تكليفاً إذا أمره بما يشق عليه ، فكأن الحبيب يكلف المحب ما لا يطيق . ثم الشغف وهو كذلك شدة العشق . وهو مأخوذ من الشغاف وهو غلاف القلب ، فيقال أصاب حبه شغاف قلبها ، قال تعالى : « شغفها حباً .. » . ثم الجوى وهو الهوى الباطن والحرقة وشدة الوجد . ثم التتيم وهو أن يستعبد العشق الإنسان ويستبد به ، ثم التبتل والتدله : أما التبتل فهو أن يسقمه الهوى ليصبح هزيلاً ، وأما التدله أو الدله فهو احتراق القلب بنار الحب وذهاب العقل من الهوى . ثم الهيام وهو أن يذهب على وجهه لا يدرى لنفسه مستقرا لغلبة الهوى عليه ، وتمكنه فى قلبه ، ثم الصبابة وهى رقة الشوق وحرارته ، ثم الوجد وهو العشق الذى يتبعه الحزن ، وكذلك الشجو والشجن ، فهما العشق الذى يتبعه ويلازمه الكرب والهم . ثم الاستكانة وهى الخضوع أو الشوق الذى ينزع النفس من البدن إلى لقاء الحب . ثم الشوق وهو رغبة القلب فى رؤية المحبوب واللهفة إلى لقائه . ثم الحنين وهو شوق ممزوج برقة وكلف ، ثم التبارح وهى الشدائد التى يقاسيها العاشق ، يقال برح به الحب إذا أصاب منه البرح . ثم الشجن وهو الحاجة حيث كانت ، وطبيعى أن حاجة المحب أشد إلى محبوبه . ثم الوصب وهو ألم الحب ومرضه . ثم الأرق والسهد وهما شدة السهر ، وهما من لوازم المحبة . ثم الوله وهو ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد ، ثم الدنف وهو شدة العشق مع صفرة تعلو الوجه . ثم الغرام وهو ولع واشتغال بالحب فهو العشق اللازم ، يقال رجل مغرم بالحب قد لزمه الحب . ثم الخلة وهى توحيد المحبة ، فالخليل هو الذى يوحد حبه لمحبوبه . ثم الود وهو خالص الحب وألطفه وأرقه . تلك هى مراتب العشق وأطواره وأسماؤه ، وهى كما ذكرنا متعددة متنوعة ، يدل كل منها على حالة خاصة من العشق تزداد وتنقص وفقاً لمرحلتها ، وكلها جميعاً تلتقى عند نقطة واحدة وهدف واحد هو استغراق المحب فى محبوبه واشتغاله به .

(البحث بقية)   كمال منصور

أصل كلمة «تلميذ»

للأب مرمرجي الدومنكي

اطلعت في هذه الأيام وأنا نزيل مصر المحروسة، في مجلة «الثقافة» الغراء (عدد ٦٣٤ ص ١٦ وما يليها) على مقال لغوي قيم عنوانه «التلميذ في لغة العرب»، قد دبجته براعة الأستاذ عبد الغفور عطار. وإذ كنت من معالجي تأصيل الألفاظ، وقد بحثت عن أصل هذه المفردة في تضاعيف تعدي لرسالة «الألفاظ السريانية في المعاجم العربية» لواضعها البطريرك أغرام رحوم، المقيم في حمص سورية، ذاك النقد الرزمع أن ينشر في تأليف لي جديد عنوانه «معجميات عربية — سامية» ينتهي طبعه قريباً في مطبعة المرسلين اللبنانيين (جونية — لبنان)، رأيتُ من المناسب زيادةً في الفائدة انتهاز الفرصة لتلخيص رأيي في أصل هذه اللفظة الواردة في اللغة العربية، منذ الأحقاب القديمة، وقد زعم بعض الأقدمين والمعاصرين أنها غير عربية، ودخيلة إما من السريانية، وإما من العبريّة، على أنها في نظري ساميّة، لورودها في سائر ألسن بني سام، وتأصيلها على ضوء الثنائية، والألسنية السامية، يثبت أن نجارها الأول من العربية نفسها، التي لها الفضل الصميم، والتفوّق السامي على سائر أخواتها، لغناها بالرساس البدائية. وقبل تبيان ذلك بالتنسيق والتعليل، نسرد مختلف صور المادة ومعانيها الاصلية والفعلية في هذه الألسنة، لتكون مجالاً للتحقيق.

في السريانية: «لْمَدْ»: جمع، ضمّ، أضاف — «تَلْمِيذْ»: هذّب، علّم، أرشد — «تَلْمِيذَا»: طالب علم، متعلّم — في الأرمية «تَلْمِيذَا»: طالب علم — في النبطية: «تَرْمِيذَا» (بالراء بدل اللام): تلميذ — في العبرية: «لاَمَدْ»: ضرب بالسياط، عاقب، روّض — «مَلْمَدْ»: مهماز يضرب به للترويض، خاصةً الحيوانات — «تَلْمُودْ»: تعليم، نظرية — «تَلْمِيذْ»: متعلّم، دارس — في الحبشية: «لَمَدَ»: تعوّد، آلف، واظب — «لَمُوْدْ»: متعوّد، أليف — «إلمَاد»: عادة، طبع — «تِلْمِيذْ»: طالب علم، دارس — في الأكدية: «لَمَادُو»: تعلّم، عرف — «لَمَادُوتُو»: تعلُّم، عرفان — «مُلَمِّدُو»: معلّم، أستاذ — «تَلْمِيذُو»: دارس، طالب علم — في العربية: «لَمَدَ»: تواضع له بالذل — «لَمَّدَه»: لدّمه (القلب) — «تلمّذَ له، وتلمذه»: صار له تلميذاً، تخرّج عليه — «التلميذ»: المتعلّم العلم، أو المهنة.

تنسيق وتعليل

١ — الرسّ الثنائي مبدأ التطوّر المعنوي، في هذه المادة، هو «لَدْ» العربي، الدال على الشدّة، ولا سيما في الخصومة. ويشبه في الدلالة «لتْ، ولَطْ».

٢ — من الثنائي «لَدْ»، اشتق الثلاثي «لَدَمَ» بزيادة الميم تذييلاً. ومعناه: ضرب بكلتا اليدين، ومثله: «لثم ولطَم».

٣ — في العربية أيضاً قد قلب «لدَمَ» إلى «لَمَدَ» منذ العصور القديمة. وذلك مؤيّد بالفعل العبري «لاَمَدْ» الذي فحواه الوضعي: ضرب بالسوط للإخضاع والتذليل، وخاصةً الحيوانات، قصد ترويضها وكسر شوكتها بالمهماز المسمى في العبرية «مَلْمَدْ».

٤ — من هذا الترويض الذي يتم بتكرار العمل، نشأ مدلول التعوّد والتطبع، والتآلف، وبهذا المفهوم ورد «لاَمَدْ» في العبرية، و «لَمَدَ» في الحبشية.

٥ — من الترويض البدني والتعوّد، انتقل المعنى إلى الترويض الأدبي، أي التهذيب، والتثقيف والتعليم والإرشاد. من ذلك منطوق «لَمَادو» في الأكدية، أي تعليم، و «مُلَمِّدُو»: معلّم.

٦ — في السريانية: تنوّع الفعل بناء، فجاء «تَلْمَدْ»

(البقية على الصفحة التالية)

نقد

المنطق الوضعي

للدكتور زكي نجيب محمود

٥٣٢ صحيفة من القطع الكبير — مكتبة الأنجلو المصرية — مارس ١٩٥١

للدكتور شوقي ضيف

هذا كتاب لا أشك في أننا كنا في أشد الحاجة إليه، فقد أخذ تفكيرنا ينمو ويتطور، وأصبحنا نحاول أن نحقق لأنفسنا حياة عقلية راقية. ولما كان المنطق هو ميزان الوعي الفكري في الأمم، منه يبتدئ البحث وفيه تتركز الغاية العقلية، فهو المعيار الدقيق لصورة الفكر، كان من الضروري أن تعنى به كل أمة ناهضة. ولقد نشط أرسطو قديماً في وضعه، وإحكام قواعده وموازينه، ثم جاءت أوربا الحديثة فتنكرت في كثير من هذه القواعد والموازين، إذ وجدتها جوفاء فارغة، لا تكاد تهدي إلى الصواب العلمي، بل قد تضلل العالم في غابات ميتافيزيقية لا يستطيع الخروج من أدغالها.

وكان بيكن أول من نفخ في هذا البوق، بل قل كان أول من أعد لهذه النهضة في العلوم التجريبية التي تعيش عليها أوربا اليوم، والتي تميزها تميزاً واضحاً من أوربا السابقة في العصور الوسطى والقديمة. وكان أهم ما لاحظه بيكن ومن جاءوا بعده على منطق أرسطو الذي كان يحكم العالم والعلماء حكماً صارماً، أنه يقود إلى الخطأ العلمي، أو قل الخطأ في القواعد العلمية، إذ يؤمن صاحبه ومن

على وزن «تَفْعِيل». ومدلوله: هذَّب، علَّم، أرشد. وورد في العبرية «تَلْمُود»: تعليم، نظرية. ومنه الكلمة الجاري البحث في تحقيقها، والواردة في كل اللغات السامية، وهي: «تَلْمِيذَا» في السريانية و «تَرْمِيذَا» في المندائية، و «تلميذا» في الآرامية، و «تَلْمِيدُو» في الأكدية، و «تلميذ» في العربية، و «تَلْمِيدْ» في العبرية والحبشية.

٧ — أما «لَمَدْ» السرياني الذي رأينا أعلاه، أنه يعني: «جمع، ضمّ، أضاف»، فهل أرى هو، كما يدّعي بعضهم، أصل كلة «تلميذ» من العبر. والحق يقال، أن نجد لحمة أو علاقة معنوية بين هذا الفعل وهذا الاسم. إن المعاجم السريانية تورد «تَلْمِيذَا» في مادة «لْمَدْ» إلا معجم القرداحي. فإنه يفرق بينهما بوضعه «تلميذا» في المادة المبتدئة بالتاء، و «لمد» في المادة التي فاؤها لام. فذلك يعني أنه لا يفترض اشتقاق الاسم «تَلْمِيذَا» من الفعل «لْمَدْ». وهذا، في نظرنا، عين الصواب، لأن «لْمَدْ» بمعنى «جمع، ضمّ» صادر من الثنائي «لَمْ» بزيادة الدال تذييلاً. أما «تلميذا» فهو وارد في الساميات بأجمعها، واشتقاقه طبيعي من الثنائي «لَدْ» المتوسع في الثلاثي «لدم» المقلوب إلى «لَمَدَ». والدال، خاصة في العبرية من باب الوضع، على الضرب والترويض، وفي العربية على التواضع والذل، ومن باب المجاز على التهذيب، والتعليم، والتدريس، والتلقين، في العلم، والمهنة.

فالناجم من هذا البحث، ومن كثير من أمثاله، أن المقارنة الألسنية السامية إذا طُبّقت على الساميات بأسرها تزيل التنافر والتضارب، وتثبت المنطقية في الاشتقاق اللازم بدؤه من «الرس الثنائي»، والعائد بالنفع الجزيل على المعجمية السامية عموماً، وعلى المعجمية العربية خصوصاً.

الأب مرمرجي الدومنكي
عضو المجمع العلمي العربي السوري
وأحد أساتذة المعهد الأثري
في القدس الشريف

يعتنقه بمسلمات كثيرة ، يستمد منها فى آرائه وأحكامه .

وانظر فى القياس مثلاً ، أليس يتركب من قضيتين تسميان مقدمتين ، ثم نتيجة ؟ وإذا تأملت فى القضيتين الأوليين وجدت أن أرسطو يسلم بهما تسليماً ، ثم يخلص إلى النتيجة ، كأن المقدمتين من الضرورى أن تكونا صادقتين .

ولعل هذا ما جعل الاستدلال عند أرسطو استدلالاً استنباطياً ، يقوم على « بديهيات » و « لا معرّفات » لا تشفع ببرهان ولا ما يشبه البرهان . وهذه كلها مخالفات صريحة لقواعد العلم التجريبى الذى لا يؤمن بغير المشاهَد ولا يحتكم إلا إلى الواقع .

ومن هنا ارتاب العقل الأوربى الحديث فى كل ما جاء به أرسطو ، وأخذ يناقش قوانين منطقه ، ويعرضها على العلم وأساليبه الحديثة . وقد فزع العلماء والفلاسفة حين انتهوا إلى أن المنطق الأرسططاليسى لا يصلح للعقل الحديث . قد يصلح للعقل الميتافيزيقى أو العقل الرياضى اللذين يستمدان من مسلمات ، ولكنه لا يصلح للعقل العلمى التجريبى الذى لا يؤمن بغير الواقع ، والذى لا يعتمد على استدلالات استنباطية ، ولا على أفكار عقلية خالصة .

وبذهنية العقل الحديث أخذوا يفحصون كل مخلفات أرسطو المنطقية ، ووضع بيكن الأورغانون الجديد ، وناقش فى حدة طريقة أرسطو فى الاستقراء ، ورأى أنه لا يمكن البرهنة على أى قانون بعدد من الأمثلة المؤيدة ؛ فلا بد أن نرجع للأمثلة السالبة ، ولا بد أن ننظم الشواهد التى نجمعها للاستقراء تنظيماً جديداً .

ولم يكتف العقل الحديث ببحث النتائج الكبيرة التى وصل إليها أرسطو فى القياس والاستدلال ، بل أخذ ينظر فى جميع الشعب والفروع التى أدته إلى نتائجه ؛ فبحث فى الحدود والقضايا أبحاثاً مطولة . وكتاب المنطق الوضعى للدكتور زكى نجيب محمود هو معرض حافل لهذا البحث وما يتشقق منه ويتفرع عليه .

ومهما أثنينا على جهده فى هذا الكتاب فلن نوفيه حقه ، إذ استطاع أن يجمع فيه كل الآراء المنطقية الحديثة ، وأن يصوغها فى العربية صياغة الحاذق الماهر . وليس هذا فحسب ، بل لقد سوّى كتابه ليخدم ذهننا الحديث ، وليتناوله من الوهاد الأرسططاليسية التى قد يتردى فيها ، ويرفعه إلى قمم الفكر الغربى الذى لا يؤمن بمقدسات سوى العلم التجريبى .

واستمع إليه يقول فى مقدمة الكتاب : « أنا مؤمن بالعلم كافر بهذا اللغو الذى لا يجدى على أصحابه ولا على الناس شيئاً ؛ وعندى أن الأمة تأخذ بنصيب من المدنية يكثر أو يقل بمقدار ما تأخذ بنصيب من العلم ومنهجه ؛ فإن كان نتاج العاطفة من فن وأدب وما إليهما قد صاحب المدنية الإنسانية فى كل أدوارها فلأنه علامة تدل على وجودها أكثر منه عاملاً من عوامل إيجادها .

« ولما كان المذهب الوضعى بصفة عامة — والوضعى المنطقى الجديد بصفة خاصة — هو أقرب المذاهب الفكرية مسايرة للروح العلمى كما يفهمه العلماء الذين يخلقون لنا أسباب الحضارة فى معاملهم ، فقد أخذت به أخذ الواثق بصدق دعواه ، وطفقت أنظر بمنظاره إلى شتى الدراسات ، فأمحو منها لنفسى ما تقتضينى مبادئ المذهب أن أمحوه » .

وعلى هذا الأساس انطلق الدكتور زكى نجيب محمود يمحو الميتافيزيقا أو يحاول ، لعله يستطيع أن يقيم فى عقول شبابنا دعائم التفكير العلمى الوضعى .

وقد بدأ منذ السطور الأولى فى الكتاب يقسم القضية فى المنطق قسمين : قضية تركيبية ، وقضية تحليلية : أما أولاهما فهى التى تعطينا علماً جديداً ، كأن نقول مثلاً : إن الضوء يسير بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية . وأما الثانية فلا تعطينا شيئاً لأنها تكتفى بتكرار عناصر الموضوع كقولنا مثلاً : إن الأرامل كن متزوجات ؛ فالتعبير بكلمة « كن متزوجات » لا يضيف علماً جديداً ، إذ لو طلب إلينا أن نعرف الأرملة لقلنا إنها التى كانت متزوجة ؛ فنحن لم نقل شيئاً ، غير أننا ذكرنا الحقيقة ثانية بكلمة مساوية لها .

فالقضية التحليلية تحصيل حاصل ، إذ تصف الشيء بما يساويه . ويضع الدكتور زكي في حقائب هذه القضية كل قضايا الرياضة لسبب بسيط ، وهو أنها تتركب من معادلات ، والمعادلات تقوم على تقرير التساوي بين صيغتين .

أما القضية التركيبية فتفيد علماً جديداً ، إذ تنبئنا بأخبار لا نعرفها . ويضع الدكتور زكي في حقائب هذه القضية كل قضايا العلوم الطبيعية التي تقوم على الاستقراء ، لا على الاستنباط من الفكر الخالص ، كما هو الشأن في القضايا الرياضية .

ويقف الدكتور زكي مع العلوم الطبيعية أو قل مع العلم التجريبي في كل جوانب بحثه ، ويثبت دائماً أنه هو العلم الذي يستطيع الإنسان أن يسلم به . أما غيره من العلم ، فلكل أن يقول فيه كما يريد ، ولكل أن يذهب فيه المذهب الذي يستطيع أن يستنبطه ، وإنه ليرفض أشد الرفض أن نسمي الأبحاث الإنسانية علوماً ، لأن القضية في رأيه لا بد أن تخضع للتحقيق بالمشاهدة وإجراء التجارب ، وإلا وجب حذفها من ثبت العلوم . واستمع إليه يقول ص ٤٥٤ : « إنه لا غرابة أن تتقدم العلوم الطبيعية بخطوات الجبابرة وتظل العلوم الإنسانية راكدة أو كالراكدة ، لأن الأمر فيها لا يزال (كلاماً في كلام) ولا سبيل هناك إلى تأييد أو تفنيد ما يقوله المتكلم من هؤلاء إلا بكلام آخر » . وفي مثل هذه الحال لا نعرف الحقيقة ولا نصل إلى قطع في شيء ، ويضرب مثلاً بطريقة الاستبطان في علم النفس ، تلك الطريقة التي تدور على ما يجري في بواطن النفوس ، ويقول إن القضايا في هذه الطريقة تخرج من نطاق القضايا العلمية خروجاً تاماً ، لأننا لا نستطيع التحقيق منها بمشاهدة ، ولا بتجربة ظاهرة .

ولم يحاول الدكتور زكي أن يهدم العلوم الإنسانية وحدها ، بل حاول أيضاً أن يهدم الميتافيزيقا كما قلنا هدماً ، لأنها في رأيه تتحدث عن معان كلية ، ليست بذات أفراد في هذا العالم : عالم الأشياء الجزئية ، فهي تتحدث إذاً عن كلمات فارغة ، ليست ذات حصيلة معينة . يقول ص ٤٠٠ :

« والذي نحب أن نعيده ونكرره حتى يرسخ في الأذهان ، ولن نمل من إعادته وتكراره — هو أن الكلام الذي يحتوي على لفظة دالة على فئة فارغة يتساوى فيه النفي والإثبات . ولما كانت القضايا الميتافيزيقية كلها تحدثنا عن فئات فارغة — ذلك بحكم تعريف الميتافيزيقا نفسه ، لأنها أقوال تتحدث عما لا وجود له في الطبيعة — فإن كل قضية ميتافيزيقية يتساوى فيها الإيجاب والسلب ، ومن ثم نستطيع أن نرى العبث الذي لا طائل وراءه في المناقشات الميتافيزيقية »

والدكتور زكي محق في هذا الكلام حين يقيس الميتافيزيقا بقياس العلوم التجريبية ، فمن حقه أن يذهب إلى أن كلماتها كلية وأنها فارغة ، بمعنى أنها لا تخضع للتجربة والمشاهدة ، ولكن ليس معنى هذا في رأينا أننا نستطيع أن نهدم قضاياها ولا أن نرفضها لأنها ليست ذات رصيد مشاهَد ، محقق في الحس الظاهر ، تَتَحقَّقُ قضايا العلوم الطبيعية أو العلوم التجريبية .

فلنفسح لكل قضايا عقلية ميادين نشاطها ، ولنبق لكل منها على ميادينها . لنبق للعلوم الرياضية ميادينها ، ولنبق للعلوم الإنسانية ميادينها ، ولنبق للميتافيزيقا ميادينها ، ولنقر بجانب ذلك ميادين العلوم الطبيعية ، وإذا كان للأخيرة رصيد مشاهد في الحس ، فللأخرى رصيد ليس مشاهداً ، ولكنه يقترب على درجات مختلفة من مناطق المشاهدة ، وهي مشاهدة ذهنية أحياناً كما في الرياضة والعلوم الإنسانية ، وروحية كما في الميتافيزيقا .

ومهما يكن فنحن نرحب بهذا الكتاب الجديد الذي وهي مناقشات الفكر الأوربي الحديث للمنطق القديم ، وما جدد فيه ووضع في قضاياه واستدلالاته ، بل قل ما هدم منه وأقام من هذا المنطق الوضعي الذي يعجب به الدكتور زكي نجيب محمود ، والذي يؤمن مخلصاً بضرورة نقله في نفوس شبابنا حتى يصطبغوا باللون الوضعي في تفكيرهم ، وتكون نظرتهم إلى الأشياء نظرة علمية فاحصة ، أو قل نظرة علمية وضعية تدفع إلى نهضة العلم التجريبي بيننا كما نهض في أوربا الحديثة .

شوقي ضيف

بنـــــــك مصر

شركة مساهمة

تقرير مجلس الإدارة عن سنة ١٩٥٠
ألقاه الدكتور حافظ عفيفى باشا
على الجمعيـــة العامة العادية للمساهمين المنعقدة بدار البنك
يوم الخميس ٢٩ مارس سنة ١٩٥١

عقدت الجمعية العامة العادية للمساهمين فى بنك مصر مساء أمس اجتماعها السنوى بدار البنك . وقد ألقى صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفى باشا الخطبة التالية التى تتضمن تقرير مجلس الإدارة عن سنة ١٩١٥ .

حضرات المساهمين :

كانت الأحوال الاقتصادية فى العالم طوال النصف الأول من العام تبشر باستقرار نسبى يسمح بإصلاح ما سببته الحرب الأخيرة من أضرار . فقد زاد الإنتاج العالمى زيادة كبيرة ، ونشطت الصادرات نشاطاً ملحوظاً ، حتى فاضت موارد غرب أوربا وغيرها بالذهب والدولار مما سمح بالبدء فى وقف المساعدات التى قضى بها مشروع « مارشال » ، بالنسبة لبريطانيا ، قبل نهاية مدته المقررة .

ولكن سرعان ما تغيرت هذه الحال وانقلبت رأساً على عقب بسبب قيام الحرب فى كوريا . وقد تمنى محبو السلام فى العالم انتهاء هذه الحرب فى مدة وجيزة أو حصرها فى ميدانها الضيق . ولكن ما لبثت حتى جرت إلى تدخل أمريكا فدول هيئة الأمم المتحدة ثم إلى تدخل الصين فيها . فساد القلق وعدم الاستقرار . وخيف أن تتسع رقعة هذه الحرب ، فأخذت دول كتلتى الشرق والغرب تتسابق فى زيادة برنامج التسلح زيادة كبيرة ، كان من أولى نتائجه أن استأثر هذا البرنامج بمقادير وافية من المواد الأولية الأساسية التى كانت لازمة للإنتاج المدنى . فحرمت صناعات كثيرة من هذه المواد ، التى زاد ثمنها فى كثير من الأحيان زيادة فاحشة ، واستتبع ذلك أن قلت منتجات هذه الصناعات وتضاعفت أثمانها ، مما جعل الغلاء شديد الوطأة ، وزاد شعور المستهلك صاحب الإيراد المحدود بالمرارة لعدم قدرته على استيفاء حاجياته بأثمان محتملة .

ولقد حاولت بعض الدول علاج هذه المشكلة قبل أن تتفاقم . بل إن بعض الحكومات قد تعاونت على ذلك فعلاً باتفاقيات دولية تهدف إلى زيادة إنتاج المواد الأولية الأساسية ، وتنظيم تسعيرها ، وتوزيعها بين البلاد المختلفة . ولكن ماذا يفيد مثل هذه الاتفاقيات إذا لم يتبعها فى الحال العمل على كبح جماح التضخم ، وما ينشأ عنه من اطراد الارتفاع فى الأسعار والأجور ، والعودة فى الوقت نفسه إلى اتباع نظام لتوزيع حصص من هذه المواد تسد حاجة الهيئات والأفراد ، بأثمان محتملة ، حتى لا يستأثر الموسر بجميع مطالبه مهما غلا ثمنها فتضحى بذلك مصلحة المعسر الذى لا يستطيع الحصول على حاجياته الضرورية .

ومثل هذه الحالة تستدعى دائماً من الحكومات والأفراد وجوب الاقتصاد التام فى النفقات إلى القدر الضرورى .

وبهذه الإجراءات يمكن تخفيف حدة هذا الغلاء الذى عم جميع أنحاء العالم . فقد جربت جميع الحكومات فى الحرب

الماضية نظام تحديد الأثمان وحـدها ، فلم تفلح . كما جربت حكومات أخرى نظام التسعير المصحوب بنظام التوزيع ، ونفذته تنفيذاً دقيقاً ، فنجحت نجاحاً محسوساً .

وما لم تتم تسوية صادقة حاسمة بين كتلتى الشرق والغرب فتقف برامج التسليح عند حد ، وتتوافر احتياجات الزراعة والصناعة من مواد خام ومصنوعة لتزيد من إنتاجها إلى الحد الذى يكفى حاجات الناس جميعا — فإننا نخشى معقبات هـذه الحالة — إذا استمرت — من قلة الإنتاج ، واطراد التضخم ، وما يحمله كل ذلك من صعاب يضل معها كل علاج .

وتعانى مصر ما تعانيه غـيرها من البلاد نظراً لارتباط مصالحنا المالية والاقتصادية ارتباطا وثيقا بالاقتصاد العالمى ، فنحن نشكو من الغلاء كما يشكو غيرنا . وقد بينا باختصار ، من أسبابه ووسائل علاجه ، ما يمكن الاسترشاد به إذا أردنا علاج هذه الحالة فى بلادنا علاجا ناجعا .

وقد ارتأت حكومتنا تخفيف حالة الغلاء فى مصر فأصدرت أمراً عسكريا فى فبراير سـنة ١٩٥٠ يفرض على المؤسسات الأهلية زيادة علاوة الغلاء . وأبقت على ثمن الخبز دون زيادة . واستولت على بعض رتب القطن التى تلزم لاستهلاك مصانع الغزل والنسيج معاونة على وضع حد لأسعار المنسوجات الشعبية . وألغت الرسوم الجمركية على بعض أصناف من المواد الغذائية وزادت فى الوقت نفسه رسوم بعض المواد ذات الاستهلاك العادى كالدخان وبعض المواد الأخرى .

ولا نشك فى أن هـذه الإجراءات التى قامت بها الحـكومة قد خففت بعض المتاعب عن طبقة كبيرة من أهل البلاد . ولـكنها ليست بالعلاج الشافى لما نشكو منه مع أنها كبدت الحكومة تضحيات مالية كبيرة ، ونحن نسائل أنفسنا : ألم يكن من الممكن والمفيد ، فى تخفيف الغلاء ، تشجيع زراعة الحبوب برفع أثمانها وجعلها متمشية مع الأسعار العالمية ، فنشترى القمح والذرة فى مصر من المزارع المصرى بالثمن الذى نشترى به ، مثلا ، القمح والذرة من الخارج ؟ إننا نعتقد أنه إذا فعلت الحـكومة ذلك لزاد محصول القمح ومحصول الذرة فى مصر إلى حد كبير . وانتفع بهذه الأثمان جمهور الزراع . وحفظنا جزءاً لا يستهان به من أموالنا داخل البلاد

بالرغم من زيادة المساحة المزروعة من القطن فى مصر هذا العام فقد أصاب المحصول عجز بسبب الآفات وعدم ملاءمة الجو ، إلا أن الموسم كان مجزيا نظراً لارتفاع الأسعار ارتفاعا كبيراً نتيجة لنقص المحصول العالمى والزيادة فى الاستهلاك .

وقد أتاح هذا الموسم للزراع والتجار أن يفيدوا من ارتفاع الأسعار .

ويجب أن لا يغرب عن بال زراعنا — وسط هذا الرواج — ضرورة تدبير شئونهم بسداد ديون المدينين منهم واستغلال ما يفيض عن حاجتهم فى أعمال منتجة تزيد من إيراداتهم . وأن يحذروا مفاجآت المستقبل ، فأسعار القطن تخضع لعوامل عالمية وأخرى محلية يجب دائماً أن يحسب لها حساب .

وقد رأت الحـكومة أن تفيد أيضا من ارتفاع أسعار القطن فضاعفت فى شهر يناير ١٩٥١ رسم الصادر ، واحتملت السوق هذا الإجراء .

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى ما انتاب سوق القطن من مآخذ كان لها وقع سيء . وقد تدخلت الحـكومة فى الأمر تدخلا كان مثار نقاش طويل . وكل ما نرجوه أن تظل سوقنا محتفظة بسمعتها وبالثقة فيها وأن تتجنب دائما المغامرات التى تضر ولا تجدى نفعا .

أما ميزاننا التجارى فقد سجل فى سنة ١٩٥٠ عجزاً كبيرا ، فإن وارداتنا — حسب الإحصاءات التى أمكن الحصول عليها — قد بلغت ٢١٢ مليون جنيه بينما بلغت الصادرات ١٨٥ مليون جنيه وفى ذلك عجز يقرب من ٣٧ مليون جنيه مقابل عجز قدره ٤٠ مليون جنيه فى العام الماضى و ٣٠ مليون جنيه فى العام الذى قبله أى أن ظاهرة العجز قد تكررت على التوالى رغم ارتفاع أسعار القطن — كما قدمنا — ارتفاعا كبيراً .

إن موازنة الميزان التجارى ضرورة لا غنى عنها ، إلا أن الظروف الحاضرة قد تبرر التوسع فى الاستيراد بشرط أن

يكون مقصوراً على الضروري من المواد الإنتاجية كالماكينات والخامات وبعض السلع اللازمة لزيادة الإنتاج الزراعي والصناعي وألا يتناول الكثير من أدوات الزينة والترف التي نستوردها الآن . فنحن نتساءل :

هل من الضروري أن نشجع استيراد تلك المقادير الكبيرة من أرقى وأغلى أنواع السيارات ، حتى ازدحمت بها طرقات القاهرة والإسكندرية والمدن الأخرى بصورة جعلت تنظيم المرور في هذه البلاد صعباً عسيراً ؟ .

وهل من الضروري أن نستورد تلك الكميات من الخضراوات والأغذية المحفوظة مع أن في استطاعتنا أن نصدر منها غير قليل في الأوقات الملائمة ، إذا نحن اهتممنا بزراعة الجيد منها ، ونظمنا تسويقها ، وأعددنا لها برنامجاً محكماً للتصدير ؟ .

ويسرنا أن نذكر هنا أن تسوية أرصدتنا الاسترلينية ، التي تمت أخيراً ، تعتبر في الظروف الحاضرة تسوية مرضية ، وقد أسفرت عن الأسس الآتية :

فقد اتفق على أن يفرج عن ١٥٠ مليون جنيه من أرصدة مصر الاسترلينية وفقاً للمقادير المتفق عليها ؛ فيتم الافراج عن ٢٥ مليون جنيه استرليني بمجرد التوقيع على الاتفاق ، ومن ذلك ١٤ مليون جنيه ستحول إلى دولارات ، وسيفرج بعد ذلك عن ١٠ ملايين جنيه كل سنة لمدة تسع سنوات ابتداء من أول يناير سنة ١٩٥٢ ، كما سيفرج بالإضافة إلى ذلك عن خمسة ملايين جنيه كل سنة اعتباراً من أول يناير سنة ١٩٥١ ، وذلك في حدود ٣٥ مليون جنيه كما هبطت جملة الأرصدة الباقية في الحساب رقم ١ عن ٤٥ مليون جنيه ، وستسهل حكومة المملكة المتحدة توريد المنتجات البترولية — باستثناء زيوت التشحيم — لمصر مقابل الدفع بالاسترليني من الحساب رقم ١ في حدود ١١ مليون جنيه كل سنة لتسليم الموانئ المصرية لمدة عشر سنوات تبتدئ من سنة ١٩٥١ ...

كما قد اتفق على أن ينظر في سداد الباقي من الأرصدة وقدره ثمانون مليون جنيه دون تخفيض قبل نهاية مدة هذا الاتفاق في سنة ١٩٦١ .

قد عدل موعد ميزانية الدولة إفساحاً لوقت فحصها أمام البرلمان فتقرر أن تكون عن المدة من أول يوليو إلى آخر يونيه من كل عام .

وأنشئت ميزانية انتقال لمدة أربعة شهور تنتهي في يونيه سنة ١٩٥١ قدر ربطها مبدئياً على أساس ثلث ربط الميزانية السابقة مع ضغط المصروفات وعدم الالتجاء إلى الاحتياطي .

وقد استعانت الحكومة على موازنة هذه الميزانية بما فرضته من تعديلات في فئات الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، وذلك بزيادة رسم الصادر على القطن ، وجعل أساس ضريبة الأطيان القيمة الإيجارية بالكامل خلاف زيادة الضرائب على إيرادات الأموال المنقولة والأرباح والأرباح التجارية والصناعية من ١٢٪ إلى ١٤٪ ، وهي الزيادة التي تقررت في سبتمبر سنة ١٩٥٠ ، وسرى مفعولها ابتداء من أول يناير سنة ١٩٥٠ ، وكذلك خلاف الضرائب الجديدة التي فرضت لحساب بلدية القاهرة بنسبة ١٠٪ من كل من ضريبة الأرباح التجارية والصناعية وإيرادات الأموال المنقولة .

هذا إلى مشروعات أخرى تعدها الحكومة أيضاً لزيادة رسوم الدمغة ، وضريبة التركات ، والضريبة التصاعدية على الدخل .

ولا اعتراض لنا من ناحية المبدأ على هذه الزيادات إذا روعي حساب الجميع على قدم المساواة ؛ فلا يقع كل العبء على الفريق الذي يوفي دائماً بالتزاماته ، ويتمتع بما يشبه الإعفاءات ، فريق لا يوفي بكل ما عليه ، كما لا يمكن الاعتراض من ناحية أخرى إذا كانت الضرائب المستحقة السداد قد تم تحصيلها جميعاً ولم يبق هناك متأخرات .

إننا نعتقد أن الممول المصري سواء كان غنياً أو فقيراً ، يتقبل كل ضريبة عن طيب خاطر ، إذا تأكد حساً ومعنى أن أمواله تستعمل حقاً في الأعمال المنتجة التي يفيد منها كثرة أهل البلاد .

إننا نردد فى كل عام أن عدد سكان البلاد يتزايد باطراد لا مثيل لها فى بلد آخر ، بينما لا تجارى مواردنا هذا الاطراد ، ونشير فى كل مرة أيضا إلى أن استمرار هذه الحالة يهددنا فى المستقبل بشتى الأخطار .

ونحن نلاحظ أن الوقت يمر سراعا وأن من الخير أن نبدأ دون إبطاء فى تنفيذ مشروعات الإصلاح فى شتى النواحى ، حتى نتمكن من زيادة إنتاجنا الزراعى والصناعى واستغلال جميع منابع ثروتنا الأهلية . وأن نعنى بنشر التعليم الفنى بين طبقات الشعب المختلفة فنفتح بذلك أبوابا جديدة لا تزال مغلقة أمام شبابنا المتعلمين الذين يزداد عددهم كل عام ، ونتيح لعمال الزراعة والصناعة الفرصة التى تمكنهم من زيادة أجورهم ورفع مستوى معيشتهم .

هذا ويسرنا كل السرور أن أقر البرلمان مشروع الحكومة بتحويل البنك الأهلى إلى بنك مركزى . فإن حاجتنا إلى وجود هذه الأداة كانت ماسة منذ زمن طويل . وهى الآن أشد ضرورة بسبب وجودنا فى الوقت الحاضر خارج المنطقة الاسترلينية وقد ظهر ذلك بوضوح فى مبدأ موسم القطن عندما احتاج الحال إلى توفير جميع وسائل التمويل اللازمة .

صحيح قد أبديت بعض اعتراضات وملاحظات على بعض تفاصيل هذا المشروع ولكن التجربة وحدها هى التى تهدى إلى مواضع التنقيح والتعديل إذا اقتضت المصلحة ذلك فى المستقبل .

وكل ما نرجوه حرصاً على مصلحة الاقتصاد القومى أن يعجل بتنفيذه على أن يبرأ من كل تدخل لا يجعله الأداة الفعالة التى تصبو إليها البلاد لعلاج ما نشكوه فى نواحى النقد والائتمان والاستثمار .

كذلك يجب أن نشير إلى المشروع الذى قدمته الحكومة أيضاً إلى البرلمان لتنظيم مهنة المحاسبة فى مصر ، وقد أحسنت الحكومة بذلك نظراً لما لهذه المهنة من أثر كبير فى حياتنا الاقتصادية ، لا سيما وأن النهضة التى تجتازها البلاد فى شتى نواحيها ، تتطلب ترقية مستوى هذه المهنة وتوفير كل الأسباب لارتفاع شأنها ارتفاعاً يليق بما لها من أهمية بالغة .

الميزانيـــة

من الاطلاع على الميزانية المعروضة على حضراتكم يظهر لأول وهلة زيادة رصيد الأموال الحاضرة فى باب « النقود بالصندوق وفى البنوك ولدى المراسلين » عما كان عليه فى الميزانية السابقة . وليس معنى ذلك أن نشاط أعمال مصرفكم قد قل ، بل إن مرجع ذلك يعود إلى ظروف موسم القطن التى اقتضت هذا العام توفير ما يلزم من الأموال لحركة التصدير التى زاد نشاطها فى نهاية العام الماضى وبداية العام الحالى مع ما صاحب هذه الحركة من ارتفاع فى أثمان القطن أدى إلى زيادة طلبات العملاء ، هذا فضلاً عما نراه من أن الظروف الدولية الحاضرة تستدعى الاحتفاظ بقدر من الاستقرار .

ويسرنا أن ننهى إليكم أن مصرفكم قد ساهم بنصيب ملحوظ فى تمويل المحصول هذا العام لا سيما فى وقت كانت فيه موارد بعض المصارف المحلية تحد من مواجهة طلبات عملائها فى هذا الصدد بسبب الظروف السياسية الحاضرة وما يتبعها من قيود على النقد .

كذلك تلاحظون أيضاً انكماش قيمة رصيد « محفظة الأوراق المالية » عما كان عليه فى الميزانية السابقة والسبب فى ذلك هو ما اقتضاه التدبير الذى أشرنا إليه .

أما باب « الأملاك والأثاث » فقد زاد هذا العام نتيجة لإنشاء ثلاث عمارات جديدة لفروع البنك فى الزقازيق وشبين الكوم وملوى وكذلك إنشاء ثلاث شون جديدة فى الزقازيق والسنبلاوين وطهطا وذلك تمشيا مع سياسة البنك فى توفير الأماكن اللائقة لنشاطه فى الأقاليم .

هذا وعلى الرغم من ازدياد المصروفات العمومية وخاصة فى أبواب الأجور والمرتبات فقد أتى نشاط العمل بإيراد كفل هذه الزيادة وسمح بأرباح صافية بلغت ٧٨٧٦٦٠ جنيهاً مقابل ٧٨٢٥٤٨ جنيهاً فى العام الماضى .

ومما يتميز به هذا العام أن وفق مجلس الإدارة إلى إنهاء الخلاف الذى كان بيننا وبين مصلحة الضرائب بخصوص الضرائب على الأرباح الاستثنائية .. فقد تمت تسوية ودية سدد بمقتضاها ما استحق من تلك الضرائب حتى سنة ١٩٤٥ كما اتفق على تطبيق نفس الأسس التى تمت بها هذه التسوية للسنوات من ١٩٤٦ إلى ١٩٤٩ .

الذئب ...

طريق في الليل تسترجع
خطى السجين وقد أقلعوا
ولا أثر غير هـذا الدخان
وحفنة جمر به تدمع
وبعض الفئوس وبعض القيود
وبعض دم لم يزل يسطع
فلم خلفوني سجين الظلال
ولي في الثرى مثلهم موضع
أما تركوا لي « أخاً واحداً »
على شفق نهره أروع
تقطع « فأسي » في ليله
وفي ظلمة « فأسه » تقطع
وتطلع « أنجمه » في دمي   وفي دمه « أنجمي » تطلع

وأرضعه « تنفسي » في يدي
وفي يده « تنفسي » أرضع
وأروي له « حلماً » في الطريق
فتأتي « أحلامه » تسمع
وحين تموج زهور الصباح
لنا جرس واحد يقرع
ولكنهم ذهبوا كلهم
ولا ذاهب منهم يرجع
وسوف يقولون ذئب غزاه
وتسدل في الأعين الأدمع
ويطلع نوري بوحل السماء   أخ كنت في ليله أطلع
ولا أثر غير « نهر الصباح »
و « زورق طفل » به يدفع
وكل الفئوس وكل القيود
وكل الدماء التي تسطع

معين توفيق بسيسو

وبهذه المناسبة لا يسعنا إلا أن ننوه بالروح الطيبة التي أبدتها الحكومة إبان مفاوضات هذه التسوية التي دلت على ما لمؤسساتكم القومية من تقدير لدى أولي الأمر ومن مقام ملحوظ في الاقتصاد الأهلي .

قـــرارات

الجمعية العمومية العادية لمساهمي « بنك مصر »

المنعقدة بدار البنك

في يوم الخميس ٢٩ مارس سنة ١٩٥١ قررت الجمعية العمومية بالإجماع ما يأتي :

أولاً : التصديق على تقرير مجلس الإدارة وعلى الميزانية والحسابات للسنة المنتهية في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٠ وإخلاء طرف أعضاء مجلس الإدارة من كل ما يتعلق بإدارتهم في السنة المذكورة ..

ثانياً : الموافقة على توزيع الأرباح كاقتراح مجلس الإدارة وصرف مبلغ خمسة وثمانين قرشاً عن كل سهم — بدون استقطاع ضرائب — مقابل تقديم الكوبون رقم ٣٨ مصحوباً بالسهم إلى بنك مصر أو أحد فروعه ابتداء من يوم الأربعاء ٤ إبريل سنة ١٩٥١ .

ثالثاً : اعتماد تعيين حضرة صاحب السعادة أحمد محمد عبود باشا وحضرة صاحب العزة محمد رشدي بك عضوين بمجلس الإدارة .

رابعاً : إعادة انتخاب حضرات أعضاء مجلس الإدارة الذين انتهت مدة عضويتهم وهم حضرات أصحاب الرفعة والسعادة والعزة دكتور حافظ عفيفي باشا . عبد المقصود أحمد باشا . خليل علي الجزار بك . علي ماهر باشا . مراد وهبة باشا .

خامساً : إعادة تعيين مكتب الخبراء « هيوات وبرجسون ونيوك » مراقبين للحسابات لسنة ١٩٥١ وتفويض مجلس الإدارة في تحديد أتعابه .

الثقافة

العــدد ٦٤٣ ٢٣ من إبريل ١٩٥١	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	الثمن ٢٠ مليماً

من تعاليم جمال الدين الأفغاني

● كيف يصح لعاقل أن يعتبر الزواج جناية ، وبه بقاء النوع واستكمال حكمة العمران ؟ .

● الحقائق لا تزول بالأوهام .

● من سفه الرأى أن يعتقد الرجل أفضليته على الغير بالعمر والشيب فقط .

● الفخر بالقول المجرد يبطله الجد بالعمل .

● لا يؤمن بربوبية القوة إلا شبح الضعف .

● الأكفاء فى العصر لا يكونون على الغالب أصدقاء .

● تطويل المقدمات دليل على سقم النتائج .

● من رهب الملوك لغير جريرة فهو الصعلوك .

● صاحب الحاجة إذا لم ينطق بحاجته أولى بالخرس .

● ألف قول لا يساوى فى الميزان عملاً واحداً .

● بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة .

● القبة الجوفاء لا ترجع إلا الصدى .

● شر الأزمنة أن يتبجح الجاهل ويسكت العاقل .

● الأديب فى الشرق يموت حياً ويحيا ميتاً .

● قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام .

● القوى من الشجر لا يعجل بالثمر .

● اللغة العربية وسعها البدو فى البرارى والقفار وضيقها الحضر فى المدن والأمصار .

● العلم قد يكون فى الأحداث ولكن التجارب لا تكون إلا فى الشيوخ .

● إن الشرقيين تصرفوا فى أملاكهم وأراضيهم وبلادهم تصرف السفيه المبذر ، ثم قضى عليهم أن يكون الحاكم لهم هو الغرب ، والغرب — فى الحقيقة — ليس من مصلحته إصلاح سيرة الشرق ، ولا منعه من السفه ، بل من أمانيه أن يتمادى الشرق فى غيه وإسرافه ليطول عهد الحجر عليه .

جمعها : محمد شريل البقلى

مطبـــوعات

كتب

أخرجت لجنة التأليف كتاب « الهوامل والشوامل » لأبى حيان التوحيدى وابن مسكويه ، وشرعت فى طبع كتابى « البصائر والذخائر » و « المقابسات » لأبى حيان ، واعتمدت فى الكتاب الأول على نسخة دار الكتب ونسخة كمبردج ، والجزء العاشر على مخطوط بالإدارة الثقافية ، واعتمدت فى الكتاب الثانى على النسخة المطبوعة ، ونسخة فوتوغرافيـة من ليدن .

كما اعتزمت اللجنة طبع كتاب شرح المرزوقى على ديوان الحماسة .

وفقها الله للتمام ...

أحمد أمين

مجلات :

● المقتطف ، عدد فبراير سنة ١٩٥١ .

● الهدى النبوى ، مجلة إسلامية تصدرها جماعة أنصار السنة المحمدية ، العدد السابع من المجلد ١٥ .

● مجلة التعاون ، لسان حال الحركة التعاونيـة بمصر ، تصدرها الاتحادات التعاونيـة ، العدد الثالث ، السنة العشرون .

● علاج النفس ، العدد التاسع ، إبريل سنة ١٩٥١ .

● الصحيفة الزراعية الشهرية ، تصدرها مصلحة الثقافة الزراعية بوزارة الزراعة ، فبراير سنة ١٩٥١ .

● المؤتمر — الأسبوع — ميديكا — رسالة المغرب — البصائر ...

نشرات :

● نشرات قسم الصحافة بوزارة الخارجية المصرية .

● برامج الإذاعة من محطتى لندن وباريس .

● أنباء هيئة اليونسكو .

● أنباء إسبانية .

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك
الإدارة
رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلوف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٤٣ — الاثنين ١٧ من رجب سنة ١٣٧٠ — ٢٣ من أبريل سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

العامل الأساسي فى انهيار دول المسلمين

للدكتور حسين مؤنس

كان ابن خلدون حاذق النظر حينا وضع قانونه المعروف فى أعمار الدول ، ودل برأيه هذا على علم تام بتاريخ الدول الإسلامية ، وقدرة نادرة على الإحاطة والشمول واستخراج « العبر » من تواريخ البشر وتجارب الأمم ، ولكن هذه الحصافة لم تلازمه عندما أراد تعليل انتقال الدول من دور لدور ؛ فاصطنع المنطق الصرف ، وشَبَّهَ الأمم بالكائنات الحية التى تنتقل فى أعمارها من طور إلى طور وفقاً لنظام بيولوجى معروف ؛ فكما ينتقل الكائن الحى من توفز الشباب إلى ثبات الرجولة ، ومن ثبات الرجولة إلى حكمة الكهولة ، ومن حكمة الكهولة إلى تضعضع الشيب ؛ فكذلك الدول تنتقل من طور البداوة والتوفز والاندفاع والفتوح إلى طور إنشاء الدولات ثم تثبيتها ثم تضعضعها بتأثير عوامل الترف والرخاوة التى تصاحب الاستقرار والرخاء والتمدن .

أقام ابن خلدون نظريته تلك على أساس منطق صرف لا يعتمد على نظر صحيح فى حقيقة العوامل الداخلية التى كانت تعمل بنشاط فى كيان دول الإسلام ، ومجرد تعليله الانهيار بشيوع الترف بين أهل الدول الإسلامية يدل على قلة عنايته بدراسة الأحوال العامة للمجتمع الإسلامى وعلاقة الأحوال بالتطور التاريخى ؛ فالواقع أن ما نسميه تَرَفاً لم يمس إلا الطبقات العليا من أهل الدولة ؛ لم يمس إلا الخلفاء والوزراء والسروات ، أما بقية المسلمين فلم ير الترف لهم باب ، وإنما كانت حياتهم شظفاً متصلاً وجهاداً عنيفاً فى سبيل العيش ، بل لعل العربى العادى كان أكثر راحة وأرخى بالاً مما أصبح عليه فى العصور الإسلامية ؛ فقد كان يمرح فى الجاهلية فى بلهنية متصلة وفراغ رحب من الزمان والمكان ، فلما دخل فى عصور الإسلام وقامت من فوقه الدول عرف الضرائب والجبايات ، وفُرضت عليه البعوث فَقَلَّ شعوره بالراحة ورَق النفس ؛ ومن ثم فنحن لا نستطيع القول بأن عصور الإسلام قد نقلته من شدة إلى رخاء ، ومن حاجة إلى كفاية ، ومن ثم فلا معنى للقول بأن العنصر العربى قد ضعف بسبب ما جَدّ عليه من أسباب الرخاء وألوان المتاع التى تضعف النفس وتذهب بالصلابة وتضعف عوامل الاندفاع والترقب فى نفوس البشر ، ونخطئ إذا حسبنا أن العرب الذين انتقلوا من جزيرتهم إلى الأمصار ، وجدوا فى مواطنهم الجديدة عيشاً سهلاً رخياً

بأنهم دون تعب ، لأن الواقع أن الذى استمتع بذلك كان نفراً قليلا من سادتهم . أما الباقون فلم يكن لهم سبيل إلى العيش إلا عن طريق معاناة الحرب أو الزراعة واتخاذ الحرف وما إليها من وسائل المكاسب والأرزاق .

بيد أن هنالك لوناً من « الترف » جد على حياة الناس جميعاً بعد دخولهم الإسلام ، هو « النساء » ، ولم ينظر ابن خلدون أو غيره من المؤرخين إلى هذا العامل الجديد على أنه لون من ألوان الترف إلا فى الحالات التى أسرف الناس فيها إسرافاً زائداً ؛ فزواج الرجل بأربع نسوة فى نظر ابن خلدون مسألة عادية لا تدخل فى باب الإسراف ، وتسريه باثنتين أو ثلاث إلى جانبهن أمر طبيعى فى نظره كذلك . أما ما يعتبره إسرافاً خطراً مؤدياً إلى الفساد فاقتناء العشرات والمئات واتخاذ الحريم والاستغراق فيما يتصل بحياة الحريم من الشراب والغناء وما يصحب ذلك من انصراف عن أمور الدنيا ومشاكل الدولات . لم يعتبر المؤرخون الإسلاميون تعدد النساء فى البيت الإسلامى ترفاً يؤدى إلى الفساد ، لمجرد أنه كان حالة شرعية ، ومن ثم فلا معنى للنظر إليه كعلة من علل الضعف والانهيار ، وهذه الحالة لا تستوقف النظر إلا إذا خرج بها صاحبها عن المألوف ، فأسرف فى الاستمتاع بنسائه وجواريه ، أما أثر تعدد النساء فى الأسرة وكيانها ، وأما تحلل روابط الأخوة بين الأبناء لصدورهم عن أمهات مختلفات ، وأما انصراف الرجال عن شئون أبنائهم وعجزهم عن تربيتهم بسبب كثرة النساء والأولاد أيضاً وثقل المسئوليات المادية التى يحملها الرجال نتيجة لذلك ، وأما فساد نفوس النساء وهوان أمرهن بسبب كثرتهن تحت سقف واحد وتزاحمهن على رجل واحد ، وأما خروج المرأة من المجتمع الإسلامى كعضو نافع عامل بسبب عدم الأمان الذى كانت تشعر به باستمرار نتيجة لتحكم الرجال فى الطلاق غير مقيدين إلا بقيود مالية قليلة جداً ، أما ذلك كله وغيره كثير فلم يلتفت إليه مؤرخ قديم ولا محدث ، لأن القديم كان يعتبره حالة طبيعية للبشر ، وأما الحديث فيعوزه صدق العلم بحقائق تاريخ المسلمين ، وتعوزه الشجاعة كذلك فى أحيان كثيرة .

وينبغى أن نشير فى معرض الكلام على هذا الموضوع إلى أن « الإنسان » هو مصدر التاريخ وصانعه ، وأن أسباب كل ما نراه من صعود الدولات وهبوطها كامنة فى نفوس من أقاموا هذه الحضارة أو هبطوا بها ، لأن العوامل الخارجة عن الإنسان لا تؤثر إلا على الأجيال الطويلة والآماد المتراخية ، حتى الأعداء الخارجيون لا يستطيعون إزالة دولة من الدول إلا إذا كان أهلها مستعدين للزوال ، والباحث فى التاريخ ينبغى أن يوجه همه إلى الإنسان نفسه وما يجرى فى داخله من التطورات ؛ لأن الدول تسقط — أول ما تسقط — فى قلوب الرجال .

وأجيال البشر لا تضعف أو تنحط وتفقد قواها بمجرد مرور الزمان . وتشبيه الأمم بجسم الإنسان تشبيه خاطىء ، فأعضاء الجسد تضعف لأنها لا تتغير ، أما أعضاء الأمم فتتغير وتتبدل ، كما هلك جيل جد جيل ، فليس فى تطور الأمم شباب أو كهولة أو شيخوخة ، وكل جيل جديد شاب فى ذاته ، فإذا كانت الأمم تضعف وتتلاشى فلعوامل أخرى غير الهرم والشيخوخة وغير ذلك من الفلسفات التى لا تقوم على نظر صحيح .

وثمة حقيقة أخرى ينبغى أن نلم بها قبل أن نبحث فى علة انهيار دول المسلمين ، وهى أن كيان الإنسان لا يضعف ولا يتغير ما دام جارياً فى حياته على الأسلوب الطبيعى الذى هيأه له تكوينه ، وكيان الإنسان مهيأ ليحتمل نصاباً معيناً ، سواء فى غذائه أو علاقاته الجنسية ، فإذا أسرف فى الطعام أو هبط به عن النصاب المقرر ، أو إذا أسرف فى علاقاته الجنسية أو أوقف عملها تماما تأثر كيانه وتعرض للتلف ؛ ومن ثم كان الغذاء والعامل الجنسى أبعد أثراً فى تاريخ البشر ودولهم من تلك القوانين الخاطئة التى فرضها فلاسفة التاريخ دون نظر صحيح إلى حقيقة الطبع البشرى الذى هو أساس التاريخ ومادته الخامة .

والإسلام عندما أباح للمسلم الزواج بأربع والتسرى بملك اليمين إنما رمى من وراء ذلك إلى إيجاد توازن معقول للمجموعة الإسلامية ؛ فهو قد فرض على المسلمين الجهاد فى سبيل الدين ، ووضع على عواتقهم مهمة إدخال شعوب الأرض فى هذا الدين ، ثم كلفهم بالقيام على صيانة المجتمع من الفساد ، وهذه كلها أمور تتطلب منهم جهداً متصلا ، وتعرضهم للموت ، فتنقص أعدادهم باستمرار ، بينما أعداد النساء لا تنقص ، فلا بد والحالة هذه من أن يتحمل الرجل أكثر من امرأة حتى لا يغص المجتمع بأعداد كثيرة من نساء بلا رجال ، فهو إذا كان قد أباح للرجال الزواج بأكثر

من واحدة فعل شريطة أن يقيموا على الجهاد والوفاء بمطالب الدولة . ولكن المسلمين على عهدهم أقبلوا على الرخص دون أداء مطالبها ، وجعلوا المسألة استمتاعاً خالصاً ، واجتهد الفقهاء فى إفهامهم أن الله قد شرع ذلك لمجرد التفريج عن الرجال وتيسير الاستمتاع لهم ، كأنما هم وحدهم من دون النساء عباد الله . فالرجل أن يطلق ويتزوج مثنى وثلاث على هواه ، وليس للمرأة إلا أن تتمتع بنصيبها من الرجال ، وكان ينبغى أن تتوقف إباحة تعدد الزواج إذا توقفت الفتوح ، لأنها علاج لما ينشأ عن الحروب والغزوات ، وقد أتى الضرر من استرسال المسلمين فيها لمجرد الاستمتاع .

كانت النتيجة الأولى لهذا الاسترسال فى مسائل الزواج والطلاق أن أصبحت المرأة فى وضع عسير جداً فى المجتمع الإسلامى : أصبحت تعيش فى بيتها مهددة بالطلاق والتسريح بإحسان أو بغير إحسان ، فالأمران فى النهاية واحد بالنسبة للمرأة — وغدت لا تحس أن لها بيتاً ، لأن الرجل يستطيع أن ينفيها منه فى غمضة عين ، ولأن الرجل يستطيع أن يأتى بأخرى وثالثة ورابعة ، ففقدت الشعور بالأمان الذى لا يستطيع إنسان العمل بدونه ، وتوقفت عن القيام بواجبها الأول وهو تربية الأولاد ورعايتهم . واستعمل الرجل حقه إلى أقصى حد ، وأذلها بهذا الحق وأهانها وأفقدها سيادتها ، فلم تعد تصلح للقيام على أبنائها وتربيتهم : وكيف تربى غيرها وهى مخلوق ذليل مسكين يهينه الرجل ويطرده من بيته ويحقره أمام أبنائه ؟ وكيف تشعر بقيمة فى نفسها وهى ترى الرجل يشترى من هى أجمل منها ببضعة دنانير ؟ وكيف يحترم الولد أمه ، وهو يعرف أنها مشتراة من السوق .

ثم ، كيف تكون الأسرة أسرة صالحة وتحت سقفها امرأتان أو أكثر يتنازعن رجلا واحداً ويدبرن عليه وعلى أنفسهن ؟ وكيف يقوم الرجل بحقوق أبنائه وهو يراهم يزيدون فى العدد يوماً بعد يوم وإيراده قليل لا يزيد ؟ كيف يتسع المجال مع هذا كله لنمو العواطف الكريمة بين أفراد الأسرة ؟ لقد تعودت المرأة أن تنظر إلى بيتها على أنه سجن ، وإلى زوجها على أنه جلاد ، وتعود الرجل أن ينظر إلى بيته على أنه مأوى يقضى فيه ساعات الليل ، فإذا طلع النهار هرب من متاعبه ومسئولياته . وضاق البيت بالأطفال فخرجوا إلى الطرقات وتربوا فى ترابها ، وضاعت الأسرة التى هى نواة المجتمع ؛ وعلى أنقاض أسر مهدمة متفككة مضطربة قام المجتمع الإسلامى — فى كل ناحية — على أسس واهية مضطربة ، وحيل بين الأولاد وبين التربية ، فنشأوا كما تريد لهم المقادير ، ومع الفقر لكثرة الأولاد .

هذه الحال تنطبق على الكبير والصغير فى المجتمع الإسلامى : كانت بلاء عاماً شقى به الناس أجمعين . وفى كتابات الجاحظ مئات الأمثلة التى تدلنا على الفقر الجسيم الذى نشأ عن هذا الوضع ؛ والمؤرخ الذى يبحث عن العلل الحقيقية للأشياء يضع يده على هذه الحقيقة ويقدر أنها السبب الأول للاضمحلال ، لا مجرد تداول الأجيال أو شيوع الترف ، ولو بحثنا عن « الترف » فى المجتمع الإسلامى لما وجدنا منه إلا مظاهر قليلة جداً تتجلى فى بيوت الأغنياء . أما بقية المجتمع فقد كان فقيراً معدماً ، ولا ترف مع الفقر الذى ساد المجتمعات الإسلامية كلها ، نتيجة لإسراف الرجال فى استعمال حقهم فى الزواج والطلاق ، وتعديد الزوجات وما نتج عن ذلك من كثرة الأولاد وثقل المسئوليات . والمجتمع الإسلامى هو المجتمع الوحيد فى التاريخ الذى أراد أن ينهض دون أن تكون فيه « أسرة » ، فكان لهذا مجتمعاً غير طبيعى ، ولم يكن له محيص عن التفكك والانهيار .

وثمة ناحية أخرى لا تقل عن هذه أهمية ، وهى إقبال حكام المسلمين وأصحاب الثروة فيهم على شراء الجوارى ، فكانت بيوتهم غاصة بأصنافهن من كل جنس ولون ، وكان الصبى إذا أدرك البلوغ لم يجد ما يحول بينه وبين الاستمتاع بمن فى البيت من الجوارى ، فكان الأمير إذا بلغ السن انطلق على النساء لا يحجزه عقل ، وأسرف فى هذا إسرافاً شديداً ، حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين أو الثلاثين كان قد استنفد نشاطه واستفرغ قواه الحيوية وضعف كيانه وهزل وذبل ، وبدت عليه علائم الشيخوخة وهو بعد فى سن الشباب ، فخمدت قواه وقلت همته وتضعضع جسده نتيجة للخروج فى هذه الناحية عن نصاب طبيعى مقدر ، وعلى هذه الحال كان أولئك الرجال يتناولون أمور الدولة ويحاولون تصريفها ، وتستطيع أن تتصور كيف يديرون وكيف يتصرفون ! لقد خلف لنا الصولى فى « أوراقه » صوراً لحياة أميرين أصبحا فيما بعد خليفتين هما الراضى والمتقى ،

(البقية على الصفحة التالية)

٢٢ - خاطـــرة

للدكتور أحمد أمين بك

بَنيتُ عُشّاً للطيور فوق سطح بيتي ، وحشدتُ فيه من جميع الأصناف ، بطّاً وإوزاً وديكة رومية ودجاجاً بلدياً ، وحلا لي من حين لآخر أن أصعد إليها وأشاهد منظرها . فرأيت الديك الرومي لا يأكل من حب في الأرض ويترفع عن ذلك ، وكيف له بعظمته أن يتنزل إلى هذا الحد ؟ إنما يأكل يوم يقدَّم إليه على يد صبي أو صبية .

وأبلغت أن فرخه الصغير إذا خرج من البيضة لابد أن يُطعم دقيقاً معجوناً بالزبدة أو السمن حتى يتم نموه ، أما الدجاج البلدي فيفضل أن يأكل من الحب ينثر في الأرض ولا بأس أن يكون قذراً ، بل ربما استحسن القذر وآثره على النظيف ، ويفضل العيش مُتتربا على العيش مُنبسطاً .

فقلت في نفسي : هكذا الأمم : يأتي الأجانب إلينا لا يأكلون إلا نظيفاً ولا يأكلون إلا جيد الطعام — وقلت : لعل قومي كانوا يأكلون كما يأكل الديك الرومي ، ولا يأكلون كما يأكل الدجاج البلدي ، ولا يأكلون من فتات الأجانب . ولعلهم يترفعون عن ذلك كله ويرقون إلى درجة الأجانب ، فهم أحق بذلك منهم ، لأن البلاد بلادهم والخير خيرهم ، فما لهم يرضَوْن بالدون وبالقليل ، ولا يرضى الأجانب إلا بالحسن وبالجليل .

تلك أمور مرتبطة بعزة النفس وضعتها ، وعلو الهمة وسقوطها ، وقد عملت عوامل كثيرة في ذل نفوسهم وضعف همتهم ؛ فكم أتى عليهم من ظلم الحكام ، وكم خطب فيهم الخطباء يوم الجُمَع ليرضوا بالقليل في الدنيا ويكتفوا بالأمل في الأخرى ، وما المانع أن يتمتعوا بالدنيا والأخرى معاً ؛ كالذي حُدّثت أن رجلاً كان يغشى الأماكن القذرة ويقول إنه على مذهب مالك ، فقال له رجل : لم لا تكون مالكياً ونظيفاً !!

ورأى الجاحظ مرة حماراً يُحمَّل عليه الحمل الثقيل ، فقال : لو كمل عقله ما حُمّل عليه . إنما الشعر بالشأن ، وطلب الرفعة بالتعالي . ومن أشعر نفسه الرفعة ترفع ، ومن رضي بالدون تدنَّى .

وهذا كان أول درس من عش الطيور تعلمته ، وكم فيه من دروس .

أحمد أمين

تضع أيدينا على سر الفساد والخول اللذين سادا القصر الخليفي كله نتيجة لهذا الإسراف . وبين أيدينا مذكرات أمير مسلم آخر هو عبد الله آخر أمراء بني زيري الغرناطيين ، يقص الأمير في سطورها كيف أقبل على النساء في سن باكرة وكيف أجهده ذلك وأضعف قواه وأطلعه جياناً متخوفاً ، وصور لنا كيف كان يعيش في جو خانق تسوده المؤامرات والمتاعب ، ويحكي لنا كيف أهلكت النساء والخمر جده وكيف فقد أبوه حياته في مؤامرات الحريم ! وهذه كلها صور تعرفنا بالسبب الحقيقي لفساد أمور الدول الإسلامية .

وكيف بالله تطالب رجلاً يقضي شبابه مقبلاً على النساء لياليه كلها وبعض النهار ، أن يكون صاحب الشعر بحظ النفس لديه من الهمة والاستعداد ما يمكنه من مواجهة المصاعب وحل المشكلات ! أليس بالغريب في هذه الحالة أن نجد معظم أمراء المسلمين وخلفائهم قصار الأعمار ، لأن استنزاف قوى الجسد في سنوات الحياة الأولى يسرع بالرجال إلى الموت ؟ وما من خليفة مسلم لدينا شيء صالح من المعلومات عن حياته إلا نجده مريضاً بأكثر من داء عضال ، وكل ذلك ناتج عن نضوب موارد الحياة في الأجساد ، والأجساد كما قلنا أصاب معين ؛ فإذا أنت أسرفت عليها في ناحية دب إليها الفساد ، وإذا دب الفساد في الأجساد هبطت الهمم وأسرع الانحطاط العام .

لقد سار التاريخ الإسلامي سيراً غير طبيعي ، لأن حياة الناس أنفسهم كانت غير طبيعية ، وتداولت قيادته شعوب بعد شعوب : العرب فالفرس فالترك فالسلاجقة فالمماليك فالأتراك العثمانيون ، وكلما دخل شعب منها رحابه وحمل رايته وسار بها قليلاً سقط صريع هذا الداء العضال ، وانحط وخرج من الميدان ، وحل محله غيره ليسقط بعد قليل ، لا لعلة الحرم وقانون الأجيال ، بل لانعدام الأسرة ، وهوان النساء ، والإسراف على الأجساد .

حسين مؤنس

فن الكتابة

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

تعتمد الكتابة على ركنين أساسيين : المعنى والأسلوب . وقد شاء بعض النقاد أن يفاضلوا بين قيمة كل منهما ، وراح فريق منهم يشيد بأهمية الأسلوب ، ويقصر عليه الفضل أجمع في حسن الكتابة . وراح فريق آخر يهوّن من أمره ، ويضفي ذلك الفضل على المعنى من دونه ...

ويبني الفريق الأول رأيه على أن الكتابة تعبير ، أو هي حسن تعبير ؛ فالمعاني شائعة بين الناس مطروقة ، والكاتب يغترف من معينها الشائع ، وهو لا يتميز بما يختار منها . ولكنه يتميز بطريقة أدائها ؛ أي يتميز بالأسلوب الذي ينفرد به . وقد أخذ الجاحظ بهذا الرأي ، فزعم أن المعاني تجري على ألسنة السوقة ، ولا تشرف إلى بحسن التعبير عنها ؛ وتمادى العرب في الاعتداد بسبك الكلام حتى زعم بعضهم أنه كفيل بتجميل المعنى الشائه ، وتشويه المعنى الجميل ، وطمس معالم الحقيقة ...

« ويحسن السبك قد ينفي الزغل »

ولعل تبرزهم في فن الشعر يرجع إلى تلك العناية الفائقة بالأسلوب . فما الشعر إلا تجميل للأسلوب بزخارف الوزن والقافية والنغم .

ويرى الفريق الأول من أدباء الغرب أن مشكلة الأسلوب والمعنى هي مشكلة القالب والمضمون ، أو الشكل والموضوع . فغاية الفن عندهم هي الشكل لا الموضوع . وقيمة العمل الفني تقاس بإتقان الشكل لا بسمو الموضوع . فقد يجيء الفنان بأتفه موضوع ويصوغه في قالب فني رائع ، فإذا هو يتحف العالم بتحفة فنية رائعة وقد يخطئه التوفيق في التعبير عن أروع موضوع ، فإذا إنتاجه يبعد عن جادة الفن السليم . ولعل أوسكار وايلد كان أشد الكتاب احتفالا بالشكل واستخفافا بالمعنى ؛ فمن عباراته المأثورة : « حسن المظهر خير من طيب المخبر » ومنها : « ليس هناك كتاب حسن وكتاب سيء ، ولكن هناك كتاب حسن السبك وآخر سيء السبك » .

أما مذهب الفريق الثاني فهو نقيض المذهب الأول ، وأصحابه لا يقيمون وزناً إلا للموضوع أو المعنى . فهم يرون أن الأسلوب مطية المعنى ، وأنه يتبع المعنى سموا وانحطاطا ؛ فالموضوع الجليل يضفي من جلاله على الشكل الذي صيغ فيه ، وهو يضفي عليه كذلك من جماله إذا كان جميلاً . وهم يرون أن الموضوع هو الجوهر ، أما الشكل فهو العرض ، ولا يجوز أن يصرفنا العرض عن الجوهر . وقد قال أحد النقاد الإنجليز في هذا المعنى : « إذا قارنا كتابة شكسبير بكتابة أدباء عصره ، وجدناها تختلف عنها في خلوها من فخامة الديباجة ، وطنطنة العبارة ، مما كان مألوفاً حينذاك . لقد استطاع شكسبير أن يحيل اللغة العادية شبه الدارجة إلى لغة حية فصيحة غنية بما أضفاه عليها من ألوان معانيه وظلالها » وقال دانتي عن نفسه : « لم تستطع كلة أن ترغمني على ما لم أرد قوله ، في حين أني طالما أرغمت الكلمات على قول ما لم ترده » . ومن الآراء المأثورة أن الكاتب الذي يستطيع السيطرة على الفكرة يستطيع كذلك السيطرة على الكلمة التي تبرز تلك الفكرة على أدق وجه وأوضحه ...

نشأ عن تصادم هذين المذهبين المتناقضين مذهب ثالث حاول أن يحد من تطرفهما . وقد بناه أصحابه على أن لكل من الشكل والموضوع خطره في العمل الفني ، وأن الاحتفال بهما ضروري لنجاح الفنان ، فالعناية باختيار اللفظ في الكتابة ضرورية كالعناية باختيار الموضوع . وليس معنى هذا أن يحرص الكاتب على اختيار اللفظ الضخم والموضوع الفخم ، ولكن معناه أن يحرص على التوفيق بينهما ، فيختار من كل منهما ما يناسب الآخر . ولعل الناقد لوول كان أكثر أنصار هذا المذهب توفيقاً في شرحه ، إذ قال : « ولا يرجع سر قوة الكتابة إلى سبك الجمل ، وتنسيق الفعل

والفاعل ، واسم الفاعل واسم المفعول . ولكن يرجع إلى إيمان الكاتب بفكرته ، وقدرته على إبراز ذلك الإيمان في كل ناحية من نواحي جمله . وعندما يغترف التعبير من الفكر ، لا من انفعال غير واع ناشئ عن حاجة وقتية ، ينحدر القول حاراً دفاقاً . وقد اتجه الظن فيما مضى إلى أن العذوبة الخارقة التي تفرد بها رنين ناقوس « وستمنستر » ترجع إلى أنه صب من الفضة الخالصة . ولكن اتضح فيما بعد أن هذا الظن لا يستند إلى أساس ، وأن عذوبة رنين ذلك الناقوس ناشئة من دقة خلط المعادن المختلفة التي صنع منها ، وإلى توفيق صانعه في مراعاة النسبة بين حجمه وسمكه .

وما يصح قوله عن ناقوس « وستمنستر » يصح كذلك عن أسلوب الكتابة . فعبقرية الكاتب أو الشاعر لا تكتفي بالاهتداء إلى الكلمة التي تعبر عن المعنى ، ولكنها توازن بين كل كلمة وما يليها ، وبين أجزاء الجملة ، وارتباط بعضها ببعض ، وبين اللفظ والمعنى . وإلا فقد الأسلوب الجمال الفني ولو صب من فضة خالصة ... إن التفكير الصافي لا بد أن يسفر لدى التعبير عن أسلوب صاف . ولكن يجدر بنا ألا نغفل عن حقيقة واضحة ، وهي أن تمكن الكاتب من الأداء يترتب كذلك على التمكن من وسيلته ، وهي اللغة . ولذلك بلغ فن الكتابة أرقى مستوى في العهود التي اقتربت فيها لغة الكتابة من لغة الكلام كل الاقتراب ... »

ولا شك أن الكتابة ما زالت تعاني في مصر غير قليل من قيود الأسلوب العربي القديم ؛ فهي بشعرها ونثرها لا تحظى على الأغلب بالتقدير المرموق إلا إذا جرت على نسق ما كتب العرب الأقدمون ؛ وقد ضاق بعض كتابنا بذلك ، فانقلبوا من النقيض إلى النقيض ، وتطرفوا في حملتهم على الأسلوب حتى أنكروا عليه كل قيمة ؛ ومن بين ما قرأت في هذا الصدد مقال للأستاذ محمود محمود نشرته له مجلة الثقافة في أحد أعدادها الأخيرة . وأحسب أن كل حريص على تقدم الأدب عندنا يتمنى حلول اليوم الذي تتحرر فيه الكتابة من بقايا قيودها القديمة ، ولكننا لا نستطيع مع ذلك أن نتفق مع كاتب المقال على إخراج الكتابة من دائرة الفنون ، والتسليم برأي جود وغيره من الكتاب الذين أشهدهم .

نحن لا نستطيع أن نقول مع جود : « إن كل حديث عن الأسلوب والصياغة والقدرة على التعبير كتابة ليس إلا دجلاً يقصد به الأدباء أن يوهموا القراء أن الكتابة فن رفيع لا يستطيعه إلا رجل عبقري موهوب ، ذلك لأنهم يكسبون عيشهم بذلك التهويش والادعاء ... » ، لا .. ولا أن نقول مع بتلر : « إني حين أكتب لا أفكر إن كان لي أسلوب أو ليس لي ، ولو فكرت لكان ذلك على حسابي وحساب القراء » .

إن مثل هذا الأمر لا يحسم بمثل هذه السهولة ، فلا بد لكشف الحقيقة من امتحانه على ضوء تطوره التاريخي ...

إن تاريخ الفنون هو تاريخ صراعها في سبيل التحرر من ربقة قوالبها .

ولكن ليس معنى هذا أنها تحاول الانطلاق إلى غير هدى حتى تغرق في خضم من الفوضى ؛ فهي تحاول أن تستبدل بقوالبها العتيقة الضيقة قوالب أنسب لنواحيها ، وأصدق تعبيراً وأبلغ تأثيراً .

وكان من الطبيعي أن ترسف إبان نشأتها الأولى في قيود من الأوضاع البدائية ، لأن التجديد كما قلنا في مقال سابق وليد التجربة والخبرة والمرانة ، وهو يسير في عهوده الأولى سير السلحفاة ، ثم يسرع في السير بعد أن يتجاوز الفكر مرحلة نموه البدائية الطويلة الأمد .

إن الإنسان لا يزال ينتج ، كما قلنا ليسد حاجاته المادية والمعنوية ، وهو يفيد مما أنتج ويزداد به خبرة ، ويصبح أقدر على إنتاج ما هو خير منه ؛ فإذا أنتج ما هو خير منه اكتسب من وراء إنتاجه الجديد خبرة وقدرة جديدتين ، وصار أقدر على تحسين إنتاجه ، وهكذا يظل تحسن الإنتاج وازدياد القدرة يتسلقان متلاحقين مدارج التقدم ؛ وإذا صدقت هذه النظرية في مجال الإنتاج الصناعي ، فإنها تصدق كذلك في مجال الإنتاج الفني والأدبي .

والفنان كغيره من المنتجين لا يزداد خبرة وقدرة بإنتاجه فحسب ، ولكنه يزداد تمكناً منهما كذلك بالإفادة من إنتاج جيله مضافاً إليه ما أنتجه السلف .

فهو يرث فنون من سبقوه ، ثم يورثها لمن يخلفونه

(البقية على صفحة ٢٣)

حركة القواميس والمعاجم فى مصر

فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

للأستاذ جمال الدين الشيال

كانت الصلات العلميـة بين مصر والغرب — طول العهد المملوكى العثمانى — مقطوعة مبتوتة ، فلم يكن فى مصر معهد واحد تدرس فيه أية لغة من اللغات الأوروبية ، ولم يكن فى مصر من له معرفة بإحدى هـذه اللغات ، أو يتحدث بها غير أفراد الجاليات الأجنبية ، وقد كانوا يعيشون فى عزلة وفى أحياء خاصـة بهم حيث تقوم متاجرهم ومساكنهم .

وقد كانت الحكومة منذ عصر المماليك حتى مجىء الحملة الفرنسية تحتفظ دائماً بوظيفة تقليدية هى وظيفة « الترجمان » وكانت « خدمته الوقوف فى كل ديوان لأجل تعريف الكلام بكل لسان » ، وقد ظل هذا التقليد معمولاً به حتى أوائل عصر محمد على ؛ فتولى هذا المنصب بوغوص بك ، ثم لقب فيما بعـد بناظر الخارجية ، وتولى إدارة ديوان التجارة ، والأمور الخارجية ، أو بالمصطلح التركى المصرى : « أمور، افرنجية وتجارة، مصرية ديوانى » .

فلما وفدت الحملة الفرنسية على مصر عانت ما عانت من مشكلة الترجمة[1] واستعانت على حلها بطائفة من السوريين وبعض من حضروا معها من المستشرقين .

وقد كانت ترجمة هؤلاء اجتهادية غير دقيقة ؛ فقد كانت تنقصهم القواميس التى تجمع بين مفردات اللغتين الفرنسـية والعربية . وقد ذكر الجبرتى أنه رأى فى مكتبة للمعهد العلمى عند زيارته لها كتباً « مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها ، بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت » ، ولـكن هذا النص عام لم يفصل أنواع اللغات التى كانت تتناولها هذه القواميس ، وهل كان من بينها ما يجمع بين اللغة العربيـة وأى لغة أوربية أخرى ؟ .

(1) انظر كتابنا « تاريخ الترجمة فى مصر فى عهـد الحملة الفرنسية » .

كذلك ذكر الأب لويس شيخو خطأ أن مطبعة الحملة طبعت فيما طبعت فى مصر معجماً فرنسياً عربياً .

وبدأت الحملة قبل رحيلها تعد بعض الشبان الأقباط لتعلم اللغة الفرنسية ؛ فلما عادت الحملة إلى فرنسا خرج معها بعض هؤلاء الشبان ، وقد نبغ منهم بعـد سنوات اليوس بقطر الذى وضع فى فرنسا أول قاموس فرنسى عربى ، وأشرف على طبعه فى باريس سنة ١٨٢٩ بعد وفاته المستشرق كوسان دى برسيفال .

وكانت حركة الاستعمار فى أوربا فى ذلك الوقت نشيطة ، والتنافس بين الدول الأوربية على أشده ، وصحب هذا التنافس تنافس آخر لدراسة أحوال الشرق — مطمح الأنظار — ولغاته وتاريخه وجغرافيته وعاداته ، وأنشئت فى دول أوربا المختلفة الجماعات والجـلات الأسيوية ، ومدارس اللغات الشرقية ، وأنتجت هذه الحركة نتاجاً وافراً من دراسات قيمة ، كان من بينها قواميس كثيرة تجمع بين اللغات الشرقية الثلاث — العربية والفارسية والتركيـة — وبين اللغات الأوربية المختلفة .

فلما بدأت حركة الترجمة فى عصر محمد على حوالى سنة ١٨٢٠ ، وكانت متجهة فى أول الأمر إلى النقل عن اللغة الإيطاليـة ظهرت الحاجة إلى قاموس يجمع بين مفردات اللغتين العربية والإيطالية ، وكلف بوضعه الأب روفاييل زاخور راهبة . فلما أنشئت المطبعة فى أواخر سنة ١٨٢١ ، كان ثانى أو ثالث كتاب طبع بها هو « قاموس إيطاليانى وعربى » و « يتضمن بالاختصار كل الألفاظ الجارى بها العادة ، والألزم لتعليم الـكلام ، والفهومية (كذا) اللغتين على الصحيح ، وقد يقسم إلى قسمين : القسم الأول فى القاموس المرتب على حسب المعتاد ، وبموجب ترتيب حروف الهجا ، والقسم الثانى ويتضمن مجموع مختصر من أسماء وأفعال من الأشد إلزام وأكثر فائدة لدرس اللغتين » .

وقد وضح المؤلف الأغراض التي دفعته إلى وضع هذا القاموس في مقدمته ، فقال : « ... فقد اضطررت من قبل وظيفة التعليم ، وسهولة درك معنى الألفاظ بهذه اللغة ، والتفهيم على التلامذة الدارسين ، وعلى من يتندب لترجمة الكتب من المتفقهين ، لأن (كذا) أؤلف قاموساً ترجماناً وجيزاً ، مقتطفاً عزيزاً ، يشتمل على كل ما يحتاج الأمر إليه ، وما كان المعول عليه ، وذلك في اللغتين الإيطاليانية والعربية ، مما في الترجمة من الألفاظ الضرورية ... » ، وقد طبع هذا القاموس في بولاق سنة ١٢٣٨ (١٨٢٢) .

وقد كانت الترجمة في عصر محمد علي واسعة الآفاق ، فشملت النقل عن كل اللغات — شرقية وغربية — ، ولهذا لم تلبث مطبعة بولاق أن أخرجت بعد خمس سنوات (١٢٤٢ — ١٨٢٦) قاموساً فارسياً تركياً من وضع خيرت افندي سكرتير ديوان محمد علي (ديوان أفنديسي) ، ثم قامت المطبعة على إخراج عدد من القواميس التركية والفارسية والعربية ، وكلها فيما عدا « تحفه ٔ خيرت » مما سبق وضعها وطبعها في الآستانة .

ففي سنة ١٢٤٥ (١٨٣٠) طبع في بولاق « تحفه ٔ وهبي » وهو قاموس فارسي تركي سبق أن طبع في الآستانة سنة ١٢١٣ (١٧٩٨) .

وبعد سنة واحدة (١٢٤٦ — ١٨٣١) طبع موجز من القاموس السابق بعنوان « نخبه ٔ وهبي » وأضيفت إليه الألفاظ العربية فأصبح قاموساً فارسياً تركياً عربياً .

وفي سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) طبع قاموس فارسي تركي صغير عنوانه « سبحه ٔ صبيان » ، وكان قد طبع في الآستانة سنة ١٢١٧ (١٨٠٢) .

وفي سنة ١٢٥٠ (١٨٣٥) طبعت الترجمة التركية مع المتن العربي لقاموس الفيروزابادي تحت عنوان « الأوقيانوس البسيط في ترجمة القاموس المحيط » ، وكان قد ترجم وطبع في الآستانة سنة ١٨١٤ — ١٨١٧ .

وفي سنة ١٢٥١ (١٨٣٦) طبع « برهان قاطع » وهو قاموس فارسي تركي ، وضع المتن الفارسي ابن خلف ، وترجمه إلى التركية أحمد أمين افندي ، وكان قد طبع في الآستانة سنة ١٢١٤ (١٧٩٩) .

وفي سنة ١٢٥٣ (١٨٣٨) طبع « الترجمان » وهو مجلد صغير به مفردات عربية وتركية .

وفي سنة ١٢٥٥ طبع « تحفه ٔ خيرت » وهو قاموس تركي عربي فارسي صغير تأليف خيرت افندي ، وضع لاستعمال تلاميذ المدارس .

هذه هي قواميس « اللغات الثلاث » كما كانت تسمى ، وقد أدت مهمتها ، فسهلت للقائمين بالترجمة عن إحدى هذه اللغات إلى الأخرى عملهم .

وحوالي سنة ١٨٢٥ تحول محمد علي بوجهه عن إيطاليا إلى فرنسا ، فاستدعى الفرنسيين إلى مصر ، وفي سنة ١٨٢٧ أنشئت مدرسة الطب المصرية ، وبدأت تتغلب على مشكلة اختلاف اللغات بالمترجمين وبترجمة الكتب الفرنسية إلى العربية ، وفي سنة ١٨٢٦ أرسلت أكبر بعثة إلى فرنسا ، وفي سنة ١٨٣٢ عاد معظم أعضاء هذه البعثة ، وبدأوا يشاركون في حركة الترجمة عن الفرنسية إلى العربية ، وهنا ظهرت الحاجة الماسة إلى قاموس بل قواميس عقبة مختلفة اللغتين .

أحس هذه الحاجة قبل غيره كبير مترجمي العصر رفاعة رافع الطهطاوي ، وأحسها وهو في فرنسا يتخصص في الترجمة ، ويترجم في مختلف الفنون والعلوم ، وأغلب ظني أنه لم يوفق هناك إلا إلى قاموس بقطر ، فقد ظهرت طبعته الأولى في باريس بعد وصوله بثلاث سنوات ، وقبل عودته إلى مصر بسنتين ؛ فلما عاد إلى وطنه ، وبدأ يراجع بعض الكتب التي ترجمها في باريس وبعدها للطبع أحس هذا النقص مرة ثانية ، وأحس به إحساساً قوياً ، وعبر عن شعوره هذا في أول كتاب طبع له ، وهو كتاب « المعادن النافعة » الذي طبع في بولاق بعد عودته ، في سنة ١٢٤٨ ، فقد قال في مقدمته : « وقد فسرت مفرداته على حسب ما ظهر لي بالفحص التام ، وما تعاصى منها حفظت لفظه ورسمته كما يمكن كتابته به ، وربما أدخلت بعض تفسيرات لطيفة ، والعذر لي إذا زل قدم ترجمتي في بعض التفاسير ، لأن اللغة الفرنساوية لم يفض ختامها إلى الآن بقاموس شافٍ مترجم » .

ويبدو أن رفاعة كان قد عبر عن شعوره هذا لإبرهيم باشا عند مقابلته له أول وصوله إلى الإسكندرية عائداً من باريس ، فبادر إبراهيم باشا وكلفه بوضع هذا القاموس ، فقد أشار رفاعة في هامش الكتاب السالف أمام الجملة السابقة

إلى هذا الأمر، فقال: «وقد أمرني سعادة ولي النعم أفندينا إبراهيم باشا بترجمة قاموس، وعين لي حضرة عثمان بك (يقصد عثمان باشا نور الدين) قاموس أكاديمية، ولكن عاق عنه عوايق ... منها أشغال أبي زعبل، ومنها أنه يحتاج إلى وضع المترجم في كتب خانة، ويحتاج أيضاً إلى أن يكون معي مساعد فرنساوي، بل هذا الشغل هو شغل نحو عشرة أنفار، حتى يكون مستوفياً ومستوعباً للألفاظ الاصطلاحية».

أمام هذه العقبات لم تنفذ الفكرة، ولكنها ظلت تشغل تفكير رفاعة؛ فلما قدم كتابه الثاني «قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر» إلى المطبعة في السنة التالية (١٣٤٩) بدأ يحتال على تنفيذ الفكرة، ورأى أن يضع للكتاب في أوله قاموساً صغيراً لشرح ما ورد به من ألفاظ غريبة، ودعا غيره من المترجمين أن ينهجوا نهجه؛ فيلحق كل منهم بكل كتاب يترجمه قاموساً شبيهاً بقاموسه، حتى إذا مضى بعض الوقت كان لمصر من جهودهم قاموس على كبير «مشتمل على سائر غريب الألفاظ المستحدثة التي ليس لها مرادف أو مقابل في لغة العرب أو الترك»؛ وهذا نص تقدمته للقاموس وشرحه للفكرة، قال: «شرح الكلمات الغريبة التي توجد في كتاب قلائد المفاخر .. مرتبة على حروف المعجم، مضبوطة على حسب الإمكان، ومفسرة على الوجه الأتم، سواء كانت أسماء بلدان أو أشخاص أو أشياء؛ ولما كانت هذه الألفاظ في الأغلب أعجمية، فلم ترتب إلى الآن في كتب اللغة العربية، وكان يتوقف فهم هذا الكتاب عليها عربناها بأسهل ما يمكن التلفظ به فيها على وجه التقريب، حتى إنه يمكن أن تصير على مر الأيام دخيلة في لغتنا، كغيرها من الألفاظ المعربة عن الفارسية واليونانية؛ ولو صنع المترجمون نظير ذلك في كل كتاب ترجم في دولة أفندينا ولي النعم الأكرم، لانتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجاء، ونظمها في قاموس مشتمل على سائر الألفاظ المستحدثة التي ليس لها مرادف أو مقابل في لغة العرب أو الترك؛ فإن هذا مما يفيد التسهيل على الطلاب، وبه تحصل الإعانة على فهم كل علم أو كتاب».

وقد كانت طريقة رفاعة في هذا القاموس أن يكتب اللفظ بحروف عربية مراعياً طريقة نطقه باللغة الفرنسية، ثم ينص على كيفية نطق هذا اللفظ بالطريقة العربية القديمة، ثم يشرح معنى اللفظ بجملة أو بجمل تكثر أو تقل حسب الظروف، وفيما يلي أمثلة من هذا القاموس:

١ — أبرزيلة = بسكون الموحدة وكسر الراء بعدها مثناة تحتية، فزاي مكسورة، فلام، فتاء تأنيث، ويقال أيضاً «ابرزيلة» و«ابرزيل» بفتح الراء = اسم لسلطنة كبيرة في القطر الشرقي من أمريكة الجنوبية، محكومة بجيلة من بلاد «البرتوغال»، وحاكمها يلقب «امبراطور» يعني سلطاناً أو قيصراً، وأهلها المتأصلون بها غير الإفرنج أكثرهم قبائل أرباب شرور وجبر وتوحش عظيم، حتى إن منهم من يأكل لحم الآدميين، خصوصاً لحم العدو الذي يقبضون عليه في الحرب.

٢ — أوبرا، أوبرة = بضم الهمزة، وكسر الباء الفارسية التي تقرأ بين الفاء والباء، فراء مفتوحة = هي أجل «سبكتا كلاث» فرنسا (راجع سبكتا كل)، وتطلق على نوع مخصوص من الأشعار ... الخ.

وفي نفس الوقت الذي كان يفكر فيه رفاعة في وضع قاموس، ثم يحتال على وضعه هذا الاحتيال، كان موظف آخر اسمه «سيربوس افندي» قد تقدم إلى محمد علي بقاموس شامل للغات الخمس (ولعله يقصد اللغات الثلاث الشرقية واللغتين الأوربيتين الشائعتي الاستعمال وهما الفرنسية والإيطالية)، ووافق محمد علي على طبعه؛ فقد قرر مجلس الجهادية في ٢٥ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) «بناء على التماس سيربوس افندي المترجم طبع الكتاب المشتمل على اصطلاحات اللغات الخمس السابق صدور أمر سعادة افندينا ولي النعم بطبعه بعد ترجمته وإصلاحه، بشرط أن يقوم المترجم بمباشرة طبعه، وأن يذهب بذاته لمراجعة تصحيحه بالمطبعة، ويكون بمعيته رجل خبير باللغات الثلاث».

وقد رجعت إلى جميع القوائم التي أحصت الكتب المطبوعة في بولاق في عصر محمد علي فلم أجد بها إشارة إلى هذا القاموس، كذلك راجعت فهارس دور الكتب المختلفة فلم أجد له فيها ذكراً، فلعله لم يطبع.

أما رفاعة فلم ينس مشروعه، بل حافظ على تنفيذه في معظم الكتب التي ترجمها وطبعت بعد ذلك، ففي سنة ١٢٤٩ طبع كتاب «مبادئ الهندسة» وفي أوله «معجم يتضمن

بين المثـــــالية والواقعية

للأستاذ عبد القادر السماحى

كم من الأشخاص تسوقهم نزعة خفية لديهم إلى العيش فى ضباب الأحلام وغمار الأوهام ! ... وكم من الناس يسخرون من أمثال هؤلاء ، ويزعمون بأنهم لا يدعون للأحلام سبيلاً إليهم ، ولا يجعلون لها مكاناً فى حياتهم ! وهم فى ذلك مخطئون أكبر الخطأ ؛ لا لأن الحياة من غيرها تبدو كئيبة موحشة فحسب ، ولا لأنه لا جناح علينا ، فى هروبنا بين الفينة والفينة ، من الواقع الذى يهبطنا ويثقل علينا فحسب . وإنما كذلك — وهذا هو المهم — لأن الحياة من غيرها تصبح راكدة آسنة ، ومجدبة ممحلة .

فكم من القصائد واللوحات والسيمفونيات تمخضت عنها هذه « الشطحات » ! وكم من الفكر العلمية والكشوف تمت إثر حلم ! فعندما رأى نيوتن التفاحة تسقط إلى الأرض ، أخذ يحلم بقانون عام لم يلبث أن أصبح « قانون الجاذبية » . وعندما تحدث كولومبوس عن أرض خلف المحيط كان مثالياً حالماً ، ولكن هذا الخاطر الخيالى الذى ملك عليه تفكيره دفعه إلى القيام بسياحته المحفوفة بالأخطار عبر البحار التى لم يرتدها من قبله بشر .

وكم من حركات الإصلاح التاريخية ومعارك الحرية بدأت فى حلم ، حيث أدار رجل من الرجال عينيه من « الواقع » إلى « المثالى » ، وطمح ببصره من الأشياء « كما هى » إلى الأشياء « كما يجب أن تكون » !.

فعندما شهد إبراهام لنكولن فى أيام شبابه بيع نسوة من الخلاسيات فى تجارة الرقيق ، تأثر تأثراً شديداً جعله يلتفت إلى رفاقه قائلاً : « لو أن فرصة لاحت لى لكى أطعن هذا الشىء ، فسوف أطعنه فى شدة وقسوة ! » .

فهو كان يحلم بيوم الحرية للعبيد . ولكنه عاش حلمه ، لحسم عن البشرية تلك المعرة .

وعندما رأى طه حسين الكثرة من مواطنيه محرومين

بيان بعض كلمات هندسية ، وتفسير ألفاظ اصطلاحية ينتفع به الطلاب ، وتكمل به فائدة الكتاب » .

وفى سنة ١٢٥٠ طبع كتاب « التعريبات الشافية لمريد الجغرافيا » ، وفى نهايته « جدول الألفاظ الاصطلاحية المستعملة فى الجغرافيا بأنواعها ، مرتباً على حروف المعجم لتسهيل هذا الفن على الطالب » .

فلما أنشئت مدرسة الألسن ، وبدأ تلاميذها وخريجوها يترجمون أخذوا أستاذهم رفاعة بطريقته ؛ فظهرت معظم كتبهم وفى آخرها ملاحق مرتبة ترتيباً أبجدياً لشرح الأعلام والألفاظ الاصطلاحية الواردة فى تلك الكتب ؛ فهذا خليفة افندى محمود قد ألحق بكتابه « إتحاف ملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوربا » جدولاً « لشرح الكلمات الغريبة » فى ٤٧ صفحة .

وهذا حسن افندى قاسم قد خصص ٢١ صفحة من كتابه « تاريخ ملوك فرنسا » لذكر « معجم البلدان والأماكن الخفية فى هذا الكتاب التى تحتاج للذكر ، وأما الأماكن الشهيرة فتطلب من كتب الجغرافيا . وقد قلد فيه أستاذه رفاعة تقليداً صادقاً . غير أن قاسم بدأ يجدد فى الطريقة ، فقصر المعجم السابق ذكره على أسماء البلدان ، ثم ألحقه بمعجم آخر لأسماء الأعلام ، أو « معجم الرجال الموجودين فى هذا الكتاب » على حد تعبيره .

غير أننا نأخذ على هذه المعاجم أو القواميس الصغيرة كلها أنها أهملت ذكر الألفاظ والمصطلحات بالحروف اللاتينية إلى جانب الحروف العربية . ولو أن المترجمين فعلوا هذا لأعفوا أنفسهم من الإطالة فى ذكر طريقة النطق بالأسلوب القديم .

(للبحث بقية) جمال الدين الشيال

من الظلم — والجهل مظهر آخر من مظاهر الرق — أخذ يحلم برد نعمته عليهم . وأصبح هذا الحلم الذي طوى جوانحه عليه كالشاعر شعره والموسيقى لحنه ، يكوّن خيطاً في نسيج حياته ، يضفي عليها لوناً نبيلاً ، ويخلع عليها مسحة إنسانية . حتى إذا ولي الأمر ، أعلن مجانية التعليم ، وحق كل مواطن في أخذ حظه منه .

* * *

فالأحلام والتخيلات نافعة مجدية عندما تكون وسيلة إلى العمل وحافزاً عليه . وهي ضارة مؤذية عندما تكون « بديلاً » من العمل وعائقاً عنه . إذ تصبح لدى الحالم بمثابة الثدي الصناعي الذي كان يضرمه كتلهاة وهو طفل ، فيستغني بالصورة الكاذبة عن الأصل ، أي بظل الشيء عن الشيء ، أي بما هو « خيالي » عما هو « حقيقي » .

* * *

فإذا تأملنا محيط حياتنا ومجتمعنا ، استرعى نظرنا ما نلاحظه من طلاق بين المثالية والواقعية فيهما ، وهالنا عمق الهوة بين عالم الخيال وعالم الحقيقة ، واتساع الثغرة بين ما هو نظري وما هو عملي ، بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي . فنحن نجد إما أفقاً ضيقاً وتفكيراً محدوداً ليس فيه مسحة من الخيال أو الشاعرية ، وإما أحلاماً عقيمة كأنها أرملة عاقر ، لا يخرج منها نبت ولا زرع .

ويبدو لنا أثر ذلك فيما نقاسي من عقم في ميادين الابتكار والخلق ، وفي قلة ما لدينا من أدب وفن ، وفي ندرة ما عندنا من رسل الإصلاح الاجتماعي ، وفي خلو تاريخنا من الرحالة والمستكشفين والمغامرين ، أولئك الذين يعتمدون في نجاحهم على الجرأة والإقدام والعمل والمثابرة .

فكثير من شبابنا يتمنون الحصول على الثروة والمجد والشهرة . ولكنهم يحلمون بها وهم قعود في أماكنهم ، حيث يرون أنفسهم وقد ظفروا بها ، ودانت لهم الأرض وما عليها . ولكن الشاب الانجليزي سيسيل رودس ، عندما أخذ يحلم بالثروة ، أعد وصيته وهو في سن الرابعة والعشرين ، ثم هاجر إلى جنوب أفريقيا ، وأنشأ يجمع الملايين التي كان قد أوصى بها قبل أن يحصل عليها ، حيث وهبها للجامعات في بلاده . كما أنه خلف اسماً خالداً ، أطلق على « روديسيا » .

* * *

وليس من شك في أن المثالية والواقعية أكثر تقارباً وتآلفاً لدى الشعب الانجليزي أو الأمريكي منها لدى الشعب الهندي أو الصيني مثلاً . ولسنا نجد هذا الفرق واضحاً في سلوكهم فحسب ، وإنما هو أكثر عمقاً وتأصلاً . فنجده ظاهراً بين فلسفة الغرب الوضعية Positivism التي تنكر كل تفكير ميتافيزيقي وكل اعتقاد في خوارق الطبيعة ، والتي تبني العلم على تأمل الحقائق المادية المحسوسة الملموسة ، وبين الفلسفة البوذية مثلاً ، حيث نجد مذهب « النيرفانا » أي « الإطفاء » أو « الإخماد » ، وهي فلسفة العدم annihilation التي تحض على الخروج من الحياة ، والنكول عن العمل وبذل الجهد ، والانطواء والانقباض ، والتخلي عن كل مطمح ومطمع في سبيل التخلص من وطأة الشهوات وسطوة الأهواء .

فإذا تركنا الفلسفة إلى الفن وجدنا نفس الفرق بين الفن الغربي الذي انحدر من الفن الإغريقي ، والذي بإبرازه الناحية التشريحية ، واهتمامه بمظهر الحياة والطبيعة ، وعنايته بما يسمى « البعد الثالث » ، يبدو أقرب إلى الواقعية ، وبين الفن الشرقي بمثاليته ورمزيته ، ومن ذلك الفن العربي الذي نجده خلواً من التصوير والنحت ، أي من مظهري الواقع والحياة ، والذي يتمثل في « الأرابسك » بخطوطها التي تلتوي ثم تستوي ، وتتلاقى ثم تتباعد في تعقيد لا نهاية له ، فتبدو بأشكالها الهندسية الجامدة الباردة ، التي لا تمثل طبيعة حية أو طبيعة صامتة ، أبعد ما تكون عن الواقع والحياة والعاطفة . فهي ضرب من أحلام اليقظة العقيمة التي تتغذى على نفسها ، وتدور حول ذاتها .

* * *

ينبغي لنا إذاً أن نعمل ما وسعنا الأمر على رد التوازن في حياتنا ومجتمعنا بين المثالية والواقعية . فلا نلغي الخيال والحلم منها ، كما لا نسير بأقدامنا على الأرض ورؤوسنا في السحاب ، فنتعثر ونرتطم .

كما ينبغي العمل على تنشئة جيل جديد يكون أقل انطواء على النفس وانقباضاً عن الحياة ، جيل تتسم ثقافته بطابع عملي إلى جانب النظري ، جيل يعرف كيف يردف القول بالعمل ، فلا تتألف حياته من أحلام اليقظة ، ولا تترجم آماله وأمانيه إلى أشكال من « الأرابسك » .

عبد القادر السماحي

العلم الأوربي بمصر

بقلم المستشرق الإيطالي فرانشيسكو جابرييلي

أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة روما

[نشرت بمجلة إيطالية خاصة بشئون الثقافة والحياة الدرسية ، ونقلها إلى العربية المستشرق الإيطالي أومبرتو ريزيتانو بجامعتي روما وإبراهيم باشا الكبير بالقاهرة]

تحتفل مصر بعد سنوات قلائل بالعيد الألفي لجامعة الأزهر الشريف التي أسست عندما كانت أوربا لا تزال في أواخر القرن العاشر للميلاد ، ولقد احتفلت مصر منذ بضعة أسابيع — وعلى وجه التحديد أثناء عيدي الميلاد ورأس السنة في جو يشبه جو الربيع — بيوبيل أولى جامعاتها الحديثة التي أنشئت في أوائل هذا القرن بفضل جهود ساكن الجنان المغفور له الملك فؤاد الأول عندما كان لا يزال حينذاك أميراً ، ولقد افتتحها جلالته في صورتها النهائية بعد أن اعتلى العرش في سنة ١٩٢٥ . وكانت مصر إذ ذاك تخطو خطواتها الأولى في سبيل الحصول على استقلالها المغصوب وحريتها المنشودة بعد أن خفت وطأة السيطرة البريطانية إلى حد ما ، الأمر الذي كان بسبب أزمة متهكة لابد منها للبدء في حياة البلاد الدستورية والدولية .

أما اليوم وقد تلاشت أو كادت تتلاشى هذه السيطرة نهائياً ، (لأن مصر لا تزال تكافح في سبيل إزالة البقية الباقية من هذه السيطرة في منطقة قناة السويس) ، فقد اشتد ساعد مصر في إبان الحرب العالمية الثانية وارتفع شأنها ، مما أدى إلى نمو الجامعة المصرية الأولى ، فأصبحت مدينة جامعية عظيمة ذات مبان شامخة حديثة ، ومتنزهات شاسعة بالجيزة على مرأى من الأهرام الخالدة . ولقد شاهد مئات من المدعوين من أساتذة جامعات العالم الذين استضافتهم الحكومة المصرية بسخائها المألوف الحفلة التذكارية بالقاعة الكبرى بجامعة فؤاد التي شرفها بحضوره حضرة صاحب الجلالة عاهل مصر فاروق الأول نجل مؤسس تلك الجامعة المصرية ، وقد ألقى بهذه المناسبة حضرة صاحب المعالي الدكتور طه حسين باشا وزير المعارف المصرية والعلامة المعروف وباعث الثقافة في مصر — خطاباً جليلاً قدم فيه للمستمعين بأسلوبه الرائع ونثره العربي الجزل تقريراً عن نشاط ربع قرن من الزمان يتلخص فيما يأتي :

إتمام جامعة فؤاد الأول وتقويتها ، ثم إنشاء جامعة فاروق بالاسكندرية ، وإبراهيم باشا الكبير بالقاهرة ، ومحمد علي بأسيوط ، كما أشار معاليه إلى ازدياد عدد الطلبة الجامعيين ازدياداً مستمراً ، وإلى اكتمال هيئة التدريس الجامعي في الوقت الحاضر بجميع الكليات ؛ فإن هناك إلى جانب الأساتذة الأوربيين عدداً كبيراً من الأساتذة الوطنيين الأكفاء في استخدام العلمي ، وإلى وجود عدد من المعاهد العلمية القديمة والحديثة إلى جانب هذه الجامعات ، من أمثال الجمعية الجغرافية المصرية الغراء التي احتفلت في تلك الفترة نفسها بيوبيلها الماسي ، وكذلك معهد الصحراء الذي أنشىء لبحث ودراسة تلك المنطقة الجرداء التي يجري بين جانبيها الشريط الأخضر الذي يمر بوسطه نهر النيل ، دراسة زراعية وجيولوجية وطبيعية ، وكان الذي فكر في إنشائه هو المغفور له الملك فؤاد الأول نفسه . أما نجله الفاروق العظيم ، فإنه هو الذي أخرج فكرة والده إلى حيز

التنفيذ وافتتحه فى إبان الاحتفال بيوبيل الجامعة المصرية .

هـذا ولقد استقبل الضيوف والطلبة تقديم الدكتوراه الفخرية من الجامعة المصرية لبعض علماء أوربا الأجلاء (ومن بينهم سعادة مدير جامعة روما الأستاذ چوزيبى كاردينالى) بالتصفيق المتواصل والهتاف الكبير ؛ وكان ذلك كله يدل دلالة قاطعة على ما يدين به العلم المصرى الحديث لعلمه الغربيين . ولقد جاء فى كلمة الوزير الجليل ذكر من انتقل من المستشرقين إلى دار البقاء ، ومن بينهم الأساتذة الإيطاليون داڤيد سانتيلانا وإيناتزيو جويدى ، وكارلو ألفونسو نالينو الذين عاونوا الشرقيين معاونة صادقة على دراسة تاريخ مدنية بلادهم .

ولقد توالت فى الأيام الأخرى الحفلات المختلفة : العيد اليوبيل الماسى للجمعية الجغرافية وافتتاح معهد الصحراء الذى أقيم بمناسبته احتفال شائق فى الهواء الطلق فى سرادق نُصب إلى جانب مقر هذه المؤسسة الحديثة القائمة على هامش الصحراء التى كانت ريحها المنعشة تحمل إلينا تحيات التربة .

هذا وقد أقيمت عقب هذه الاحتفالات العظيمة عدة ولائم وحفلات ساهرة ، كما نظمت عدة رحلات نيلية ونزهات إلى أهرام الجيزة وزيارات متعددة لآثار القاهرة ومعالمها ، كانت أهمها زيارة الجامع الأزهر الذى فتح أبوابه على مصاريعها للعلم الدولى ، وبهذه المناسبة لبس الضيوف العلماء الأخفاف فوق أحذيتهم عندما تخطوا عتبته وساروا فى صحنه متجهين نحو إيوان ذلك البناء الشامخ الذى نستطيع أن نطلق عليه اسم « حصن الإسلام المنيع » والذى بدت عليه علامات التجديد على الأقل فى مظاهره الخارجية ، حتى لقد همس البعض بأن حلقات الطلبة الأزهريين الذين جلسوا القرفصاء وأنصتوا إلى شيخهم للدرس الجالس فوق مقعده ماهى إلا منظر مصطنع قصد به إكرام الضيوف وإرضاؤهم ، رغماً من أنه كان فى الماضى القريب منظراً من المناظر العادية المألوفة .

ولقد كانت فى هذا المكان إلى جانب المآذن المبنية على الطراز المملوكى مبان حديثة ، كما كانت قاعات الدرس كلها جديدة كل الجدة ، مما يدل دلالة واضحة على ما يبذله ذلك المعهد العريق من جهد لكى يساير الزمن ، ولكى يلائم هذا العصر ؛ على أن هذه المبانى الحديثة كانت تبدو شيئاً غريباً فى قلب مدينة القاهرة القديمة حيث تحلق جماعات الصقور فوق خرائب أكل الدهر عليها وشرب ، وتطل على مناظر بائسة مؤثرة ومثيرة ، هى مناظر بهاء سابق قد ذهبت به السنون ، هى مشاهدة تشبه كل الشبه ما قرأناه فى مشاهد ألف ليلة وليلة .

ولقد مر بصحن ذلك الجامع العريق وجلس القرفصاء فوق حصيره منذ نصف قرن صبى ضرير وصل إلى ذلك المعهد من الريف ملفوفاً فى جلبابه كئيباً فى صمته الذى كان سببه الوحدة والانفراد والبعد عن حنان أم له . ولم يكن ذلك الصبى الشاحب الأعمى أيام العيد اليوبيل إلا معالى وزير المعارف المصرية الذى أمر وأشرف على إقامة هـذه الحفلات الباهرة ، والذى أجمع العلماء الدوليون الذين حضروا هذه الاحتفالات على تكريمه . وفى الحق أنه كان يبدو أن مصر القديمة ومصر المقبلة تلتقيان التقاء رمزياً فى شخص ذلك الرجل الذى انتقل من دراسة علوم الأزهر التى هى علوم النقل إلى علوم العقل الأوربية التى بلغ فيها بفضل عبقريته وعزيمته أوج الفن والحكمة . ولكن شيئاً من الحزن كان يعكر صفو الضيوف الغربيين ، وانشراح صدورهم آنئذ ؛ فإن ذلك الرجل بل بنى وطنه ، قد وثقوا بنا فى يوم من الأيام عندما تسلموا من أيدينا الشعلة حتى يوقدوا شعلتهم الزيتية الحالية ؛ فماذا نستطيع الآن أن نقدم لهم فضلاً عن ذلك ؟ هل نقدم لهم ضرباً من ضروب الهدم والتخريب كامل التجهيز أو منظراً من مناظر جنون منتحر ، وعالم لم تره مثله أربعون قرناً من أعلى الأهرام ؟ « فلك الويل يا أوربا العجوز » ، ولتبدد ريح الصحراء هذه الخواطر الحزينة ! .

ابنة المثّــال

أسطورة قديمة

كان يعيش في مدينة طيبة ، في عصر الأمير العظيم سترع ، مثّال فقير يقضي معظم أيامه في المحاجر القريبة يدق بإزميله في الصخر العنيد كي يخرج منه تماثيله الجميلة ... كان حقاً فناناً بارعاً . بيد أن الآلهة لم ترزقه من نعمها سوى ابنة وحيدة تملأ كوخه الحقير بسحر جمالها ... وكان قانعاً بأخلاف الرزق التي يحصل عليها من بيع تماثيله .

وفي يوم من أيام الربيع البهيجة شاءت الآلهة أن تجمع في حفل شعبي بين ابنة المثال هذه ، وبين ابن الأمير سترع . فرآها ورآته ، وأحبها وأحبته ، وكان بينهما حديث ، وكان بينهما لقاء ...

وتمله الفتى في حب الفتاة ، وأراد أن يتزوجها ...

ولكن من أين لابنة المثال الفقير أن ترقى إلى مرتبة الأشراف أنصاف الآلهة ؟ أو كيف لابن الأمير صاحب المدينة أن ينزل إلى مرتبة الفقراء من شعبه ؟..

إزاء هذا لم يجد الحبيبان إلا الصبر يتذرعان به في انتظار قضاء الآلهة العادل ...

* * *

وذاع أمر حبهما في المدينة ، وتناقله الناس حتى بلغوا به مسامع الأمير سترع . فلم يكد يسمع بالخبر حتى أرسل في طلب المثال الفقير .

وظن المثال أن الأمير إنما يستدعيه ليرى بعض ما يصنعه من تحف ، فانتقى أجمل ما عنده من تماثيل وحملها معه إلى قصر سترع ...

وشاهد الأمير التحف ، فأعجب بما يتجلى فيها من براعة صناعة وجمال فن . وتحدث إلى صاحبها زمناً ، فعرف فيه طيبة القلب وسماحة الخلق . لذلك صارحه قائلاً :

— أيها الرجل ، إن ابني قد أحب فتاتك . وإني قد فكرت أولاً في التخلص منها ومنك بالقتل لأضع حداً لهذا الأمر . ولكني بعد ما رأيت من إبداع فنك ، وكرم خلقك ، مال قلبي إليك . لذلك سوف أسمح لابني بالزواج من ابنتك . ولكن على شريطة أن تصنع أنت تمثالاً لي يكون في روعته ودقة صنعه أبدع ما أخرجت يدا فنان . وإني بعد مشاهدة تحفك الفنية لعلى يقين من أنك تستطيع أن تقوم بهذا . ولكن يجب أن تتذكر القانون الذي سنه أمراء أسرتي ، وهو يقضي بقتل كل مثال يصنع لنا تحفة خالدة — كما لا أشك في أنك ستفعل — وذلك خوفاً من أن نرى أميراً آخر في إحدى المقاطعات يجتذب إلى بلاطه هذا الفنان بالمال والعطايا ، فينافسنا في فخامة التماثيل وجمالها . فتفكر إذاً في الموضوع جيداً . وإذا راقتك الصفقة فاصنع التمثال تخلد به اسمك واسمي وتقيم سعادة ابنتك وابني !

* * *

... في المحاجر العريقة ، وتحت الشمس المحرقة ، أخذ المثال يدق بإزميله في الصخر العنيد . إنه يعمل بهمة لا يعتريها كلال . همة الفنان يدفعه الإلهام الجميل ، فينشط إلى فنه يستمد منه القوة والحياة ...

إن العرق يتصبب غزيراً على جبينه ، وإن الشمس من ورائه تهبط في الأفق رويداً رويداً . ولكن يديه لا تتوقفان عن العمل في هذا التمثال الذي سوف يجلب لابنته السعادة ، ويجلب له هو الموت ...

وأظلمت الدنيا ، والتمثال على وشك أن يتم . فلم يعد بلازمه غير سويعات معدودة يقضيها الفنان في مسحه وتجميله .

عندئذ توقف الرجل عن العمل ، واتكأ على صخرة كبيرة بجانبه ، وراح يسرح بفكره فى بيداء الخيال ...

إنه يفكر فى ابنته ، وفى زواجها الذى أوشك أن يتم ، وفى سعادتها المستقبلة ...

... وفجأة مرقت فى رأسه فكرة كأنها السهم القاتل ، فكرة خفق لها قلبه أسىً ولوعةً ؛ إنه لم يخبر ابنته بأمر الشرط الذى كان بينه وبين الأمير ، ولكنها لا بد قد علمت به من حديثها مع الناس ومع حبيبها ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف رضيت أن تضحى بأبيها فى سبيل حبيبها ؟ ! ...

يا لها من فكرة رهيبة ! .

لا .. لا .. إنها لا تعلم ، ولو علمت لمنعت أباها عن المضى فى عمله ... ولكن الشك ظل ينازع قلب الرجل ويفعل فيه فعل السم الزعاف ، فعاد إلى بيته يائساً كسير الفؤاد ! ...

واستقبلته الفتاة كعادتها مستبشرة ، وسألته فى شىء من اللهفة : ألم تنته بعد يا أبت من تمثالك الأخير ؟ ...

فرماها بنظرة ملؤها الشك والأسى ، ومضى إلى حجرته مسرعاً ...

● ● ●

منذ ذلك اليوم والفنان لا يقرب من تمثال الأمير ؛ لقد تركه وقبع فى عقر داره يفكر ويتحسر ... لقد رضى بالموت فى سبيل سعادة ابنته ، حينما كان يعتقد أنها هى لا ترضى له بالموت ولو فى سبيل حبها . أما اليوم فهو يراها تجحد تضحيته وتهزأ بآلامه ؛ فلا تستقبله إلا بالضحكات ، وكأنها تقول له ساخرة :

— إنك تعمل من أجلى ، وإنك سوف تموت من أجلى ، ولكن شيئاً من ذلك لا يهمنى ، ما دمت سأحظى بفتاى ! ...

ومضت الأيام بطيئة متثاقلة ، وبدأت الفتاة تتساءل عما حدا بأبيها إلى التكاسل والاعتكاف . إنها لم تكن تعلم أن زواجها سوف يكون سبباً فى موته ... ولم تستطع أن تسأله عن سرّ قعوده عن العمل ، لأنها كانت كلما أشارت له فى حديثها عن موضوع قلقها عبس وازور عنها فى قنوط...

وفى ذات ليلة لقيت الفتاة صاحبها ابن الأمير ، وحكت له حال أبيها .

فقال لها فى عطف : مسكين أبوك . إنه يموت فى سبيل إسعادنا ...

قالت مستغربة : وكيف ذلك ؟ ! ...

فقص عليها فى اقتضاب ما كان من شرط بين الأمير والمثال .

وعندئذ بكت الفتاة بكاء مراً ... أهكذا يضحى أبوها بحياته الغالية من أجلها ، وهى عن أحزانه لاهية ولتضحيته ناكرة ؟ ! .

.. وأسرعت إلى البيت . وقالت لأبيها فى صوت متهدج : يا أبت إنى قد عرفت سرّ آلامك . أهكذا تخفى عنى تضحيتك . وتحسبنى غير أهل لتقديرها ؟ يا أبت إنى لا أريد أن أتزوج ابن الأمير . بل أفضل عندى أن أشقى فى حبى لتعيش أنت حياتك العزيزة . يا أبت أرجو أن تهدم التمثال الذى بدأته للأمير ...

عندئذ برقت أسارير الفنان فى ابتسامة غريبة ...
وعانق فتاته طويلا ...

● ● ●

وفى اليوم التالى كان التمثال المطلوب قد تمّ صنعه ، وأرسل إلى قصر الأمير صاحب المدينة ...

تلخيص
محمد عبد الحليم محمود

ابن العـــديم

للدكتور أحمد أمين بك

ظاهرتان كبيرتان حدثتا في هذه الأيام : تسابق العلماء في الأقطار العربية على نشر المخطوطات القديمة واستلابهم من المستشرقين حركة النشر ، فقل أن نجد الآن نشراً لمستشرق . والظاهرة الثانية خروج النشر ، نشر الكتب ، من أيدي التجار الأميين إلى أيدي العلماء المثقفين . وتبع ذلك إجادة المنشور وإصلاح منهج النشر ؛ فقد أصبح النشر منهجاً علمياً يقتضي الناشر أن يعرفه وأن يتقنه .

نقول هذا بصدد ما رأينا في العراق من نشر المجمع العلمي ببغداد قسم الترجمة الخاص بالعراق ، وما رأينا من نشاط السوريين في نشر الكتب العظيمة نشراً علمياً ، كنشرهم علي بن الجهم والوأواء الدمشقي وتائية عامر البصري وفضائل الشام ، إلى غير ذلك من الكتب . ونشر مصر الإشارات الإلهية والهوامل والشوامل وما أخرجته دار الكتب المصرية ، وأخذ القدسي في نشر المعي ، وأخذ آخرين في نشر القسم الخاص بمصر من الترجمة ، إلى غير ذلك . وهي حركة مباركة نرجو أن تتسع وتجود على مر الزمان .

نقول هذا بمناسبة إخراج الدكتور سامي الدهان الجزء الأول من تاريخ حلب لكمال الدين بن العديم نشراً علمياً محققاً . وقد قدم له الناشر بترجمة مفصلة لابن العديم وشرح النسخ التي اعتمد عليها . وقد ذكر أنه سمي بابن العديم لكلمة كهذه وردت في شعره . وهناك احتمالات أخرى لهذه التسمية ، فربما كان هذا الاسم من قبيل الفكاهة ، إذ كان ابن العديم غنياً ظاهر الغنى ، كما سموا الديغ سليماً والأسود أبيض ونحو ذلك . وربما كان السبب أنهم لقبوه بعديم النظير ثم اختصروا هـذا الاسم كما فعلوا بالأستاذ اختصاراً من أستاذ الدار ، لأن ماروى عن فضل هذا الرجل وجاهه وعظمته يستحق هذا اللقب . وربما كان السبب أيضاً أن هذا اللقب أطلق على جد من أجداده كان فقيراً معدماً ، ثم توقل هذا اللقب والتصق به ولو زال السبب .

على كل حال قد ظفرنا بهذا الجزء الأول من تاريخ ابن العديم لحلب ورجالها ، وخاصة سيف الدولة ابن حمدان والروماسيين ، ونرجو أن تتاح لنا الفرصة لنظفر بالأجزاء الباقية وبقية مؤلفاته ؛ فللأستاذ الدهان الشكر على ما نشر وللمعهد الفرنسي أيضاً بدمشق الشكر على عنايته بهذا النشر ، كما نشكر المجمع العلمي على ما نشر من كتب ، ونستزيده الهمة في الإخراج ؛ فإن التراث العربي كبير جداً ينتظر النشر ، وكل كتاب عظيم ينشر يلقي ضوءاً على تاريخ المسلمين وحضارتهم ، والله يوفقهم .

أحمد أمين

زبدة الحلب من تاريخ حلب

لابن العديم

الجزء الأول ، ٣٦٥ صفحة من القطع الكبير ، نشر وتحقيق الدكتور سامى الدهان

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

المؤلف حلبي ، والناشر حلبي ، والكتاب عن مدينة حلب .

وفى ذلك يقول الناشر فى المقدمة : « وما نريد من وراء هذا العمل إلا خدمة الوطن والأمة والتاريخ ؛ فنؤدى زكاة العلم ، ونرد إلى حلب فضل ما أسدت حلب إلينا ، ونقوم لها بما وجب علينا » ، وهـذا ضرب من الوفاء محمود ، ولعل حب الوطن هو الذى دفع الدكتور سامى الدهان إلى العناية بتاريخ البلد الذى نشأ فيه ؛ فإذا بلغ الحب مرتبة الهوى حث الهمم ودفع إلى التفانى والفناء .

وحلب ، ولا ريب ، مدينة عظيمة ، وتقع عظمتها فى تاريخها ، إذ كانت لتوسطها بين الشرق والغرب مركزاً للتجارة ، وسوقاً للأدب ، وذخراً للحضارة ، وكانت التجارة ولا تزال مصدر خيرها ، وأصل شرها كذلك ، إذ طمع فيها الغزاة فى كل عصر ، وفتك بأهلها الجند ؛ فوضعوا السيف فى رقاب الرجال ، وسبوا الأطفال والنساء ، وهدموا السور وخربوا القصور ، ولكن موقعها الفريد كان يدفع الملوك والأمراء إلى إعادة بنائها وتجديد عمارتها ؛ فترجع إليها مكانتها من المال والعلم والسلطان .

حكى لى أديب شاعر حلبي الأرومة قال : أغلب سكان حلب تجار ، يستقبلون الوافدين عليهم من الشرق والغرب ، وفى بيت كل واحد منهم مكتبة عامرة ؛ فإذا فرغ التاجر من عمله تزود من الكتب علماً وأدباً .

وكان جد هذه الأسرة — نعنى ابن العديم — تاجراً استوطن حلب فى القرن الثالث ، وشغل أولاده فيما بعد مناصب القضاء والإمامة والتحديث .

وكانت هذه هى حال ابن العديم من العلم والأدب ، لقى فى حلب ياقوتاً الحموى صاحب معجم الأدباء ، وابن خلكان صاحب الوفيات ، وجمال الدين القفطى صاحب أخبار الحكماء .

وجاء ابن العديم إلى مصر سنة ستمائة وأربع وأربعين فى سفارة فاجتمع بالعلماء والشعراء ، ولم تقتصر سفارته على مصر ، بل ذهب رسولاً من الملك الناصر صاحب الشام إلى الخليفة المستعصم ، وقدم إلى مصر مرة أخرى سنة ٦٥٧ رسولاً من صاحب دمشق يستنجد المصريين على قتال التتار حين اقترب قدومهم إلى الشام ، وجاوز هولاكو الفرات ، واقترب من مدينة حلب . وبعد أن هزم قطز هولاكو فى « عين جالوت » سنة ٦٥٨ ، وأجلى التتار عن الشام ، عاد ابن العديم إلى حلب ، ولكنه شهد فيها الخراب والدمار والوحشة ، فعاد إلى القاهرة حيث توفى سنة ٦٦٠ ؛ قال الناشر : « ودفن من يومه بسفح المقطم » ، وسمعت أن قبره فى الجبل مع ابن الفارض ، ولم أتحقق من ذلك .

ولابن العديم كتاب كبير فى تاريخ حلب اسمه « بغية الطلب » ينوى الدكتور سامى نشره قريباً ، وقد رتبه المؤلف على الحروف ، ثم اختصره ونهج فيه نهجاً آخر ، إذ بدأ بذكر اسم حلب واختلاف الروايات فى ذلك ، ثم عرض لتاريخها أيام اليونان والرومان على وجه الإيجاز ، ثم ذكر الفتح الإسلامى وولاتها فى عصر الخلفاء الراشدين ، وتحدث عنها أيام الأمويين والعباسيين ، وفى عهد الطولونيين ، والأخشيديين ، وسار على هذا النهج إلى تمام التاريخ بعصره . . .

وقد سماه الزبدة كناية عن الخلاصة ، ودلالة على أن هذه الخلاصة ثمينة أو حبيبة ، لما بين الزبدة والحلب من تناسب . وعندنا أن اختيار ابن العديم الزبدة ووقوعه على هذا اللفظ لم يكن عفو الخاطر ، إذ كان يحب الطيب من الطعام ، وله من جملة مؤلفاته « الوصلة إلى الحبيب في وصف الطيبات والطيب » ، يبحث فيه عن « الشهوة والمأكل والمشرب والطيب والمسك والعنبر ، وعمل الأدوية ، وصانع طبيخ السفرجل والتفاح والدجاج ... » ومن هذا الكتاب عدة نسخ خطية .

وليست مكانة الزبدة في منزلة مؤلفها فقط ، بل لأن الكتاب يروي أخباراً ويحقق آثاراً لانجدها في كتاب آخر ، فهو يذكر مشاهداته الخاصة ، وبذلك يكون التاريخ حياً ماثلاً ناطقاً .

مثال ذلك عندما تحدث عن عزيز الدولة أبي الشجاع فاتك ، وكان والي حلب من قبل المصريين ، وهو الذي مدحه المتنبي في قصيدة له ، قال : « وعزيز الدولة هذا هو الذي جدد القصر تحت قلعة حلب ، وتناهى في عمارته ... وهو الذي أمر بعمارة القناديل الفضة للمسجد الجامع ، وهي باقية إلى الآن ، واسمه عليها » ، يريد في زمن ابن العديم .

ويستدل ابن العديم على تاريخ الأوائل بالنظر في النقود القديمة وتحقيق ما كتب على ظاهرها . وهذه طريقة المحدثين من علماء الآثار . قال في صفحة ٩٠ : « ورأيت فلوساً عتيقة ، فتتبعت ما عليها مكتوب ، فإذا أحد الجانبين مكتوب عليه : ضرب هذا الفلس بمدينة حلب سنة ست وأربعين ومائة » . وعلى الجانب الآخر : « مما أمر به الأمير صالح بن علي أكرمه الله » .

ويصل ابن العديم بين أسماء الأماكن وأسماء الولاة ، ويصف هذه الأماكن . قال عند الكلام على الخليفة المعتضد إنه « ولى بحلب من قبل ابنه الحسن بن علي المعروف بكوره الخراساني ، وإليه تنسب دار كوره ، التي داخل باب الجنان بحلب ، والحمام المجاورة لها . وقد خربت الآن ولم يبق لها أثر » .

وإذا كنا نرى ابن العديم يسلك مسلك المحققين من المؤرخين فيعتمد على الوثائق والآثار والنقوش والخرائب ، فإنه يجري مجرى أغلب مؤرخي العرب ، فيذكر الروايات القديمة دون تمحيص كأنها ثقة لا يرتقي الشك إليها . جاء في افتتاح الكتاب عند ذكر حلب وسبب تسميتها واشتقاقها « اسم حلب عربي لا شك فيه » . وقد علق الناشر الفاضل على هذا الرأي فأحال على ما ذكره صاحب معجم البلدان في تعريبه الكلمة من العبرانية أو السريانية ، وإلى بحوث المستشرقين في ذلك ، وماذا كان اسمها في اللغة الأكادية والمصرية القديمة .

وقد عرف الغربيون منزلة الكتاب ، فنقل كثير من المستشرقين في القرن التاسع عشر إلى اللغة اللاتينية بعض أجزائه ، منهم رزو ، وفريتغ ، وموللر ، ودي مينار ، وسلفستر دي ساسي ، فكان ما نقلوه من المراجع الهامة في التاريخ للحروب الصليبية .

ولا نشك في أن نشر هذا الكتاب في اللغة العربية سوف يلقي ضوءاً جديداً على التاريخ الإسلامي ، وخاصة في العصر الذي عاش فيه المؤلف ، بل وفي العصور التي سبقته لأنه يستقي عن مصادر أصبحت مع الأسف مفقودة .

وقد عني الدكتور سامي الدهان بنشر الكتاب نشراً علمياً مع التحقيق الدقيق . ولا يستطيع أن يقدر عمله حق قدره إلا من عانى صناعة النشر .

وقد استوقفتنا بعض عبارات لا تغض من هذا العمل الجليل .

في صفحة ١٦ : وسوريا هي الشام الأولى ... وقال في نفس الصفحة : كان الملك الأول على سوريا وبابل .... وفي نفس الصفحة .... وبها آثار قديمة يقال لها سورية .

فقد رأينا رسم سورية رسمين أحدهما بالألف والآخر بالتاء المربوطة مع أنه رسمها ص ٣٥ ، ٣٦ الرسم الصحيح وهو « سورية » .

وفي ص ٢٢ « ولما عاد كسرى عن الشام ، قام هرقل ابن قوفي بن مروقس ... » قال الناشر في الهامش : « حرنا في رد هذا الاسم إلى أصله الأعجمي » ثم ذكر أن المستشرق الذي ترجم مروج الذهب للمسعودي رسمه Maurice . نقول وهذا هو النطق الفرنسي للاسم اللاتيني Marcus ، ويسميه العرب مرقس ، أو مارقوس ، كما ذكر الشهرستاني .

مكتبة الثقافة

للأستاذ أحمد حسين الصاوي

فلسفة السعادة : للدكتور محمد فتحي — دار الفكر العربي سنة ١٩٥١ — في ٢١٦ صفحة صغيرة .

لا ينبغي أن نصنف الكتب لخاصة القارئين وحدهم بل يجب أن يكون للقارئ العادي نصيب ، ونصيب كبير ، مما ينتج الكتاب . ونعتقد أن خير السبل لنشر الثقافة والإغراء على المطالعة هو تقريب الموضوعات العلمية المتصلة الجافة إلى القارئ العادي بتقديمها في ثوب من البساطة واليسر ؛ ومن ثم نستطيع خلق وعي ثقافي عام يؤدي إلى أطيب النتائج .

وللتبسيط طرق شتى ، فقد يكون بتجنب المصطلحات الفنية والتفريعات العلمية ، وقد يكون بالإكثار من ضرب الأمثلة وتناول الناحية التطبيقية للموضوع ، وقد يكون بغير ذلك .

وكتاب « فلسفة السعادة » يجري على هذا السنن ، تناول فيه مؤلفه من ناحية السيكولوجيا العملية موضوع السعادة ، تلك الكلمة الحلوة البراقة التي اتخذها البشر هدفاً يسعون جميعاً لتحقيقه ، ومن منا لا يريد أن يكون سعيداً ؟ قد يختلف البعض ، وقد تلتوي السبل بالبعض الآخر ، ولكننا جميعاً نواقون إلى أن نكون سعداء مهما اختلفت وجهات نظرنا في ماهية السعادة وتعريفها ومقاييسها .

وفي ص ٣٣ جاء ذكر عزل عمر لخالد بن الوليد وكان أميراً على قنسرين ، تحت إمرة أبي عبيدة الذي كان والي عمر على الشام . وكان خالد قد أجاز الأشعث بن قيس بعشرة آلاف درهم ، فبلغ ذلك عمر ، فكتب إلى أبي عبيدة « أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته ، حتى يعلمكم من أين أجاز الأشعث ؟ أمن ماله ؟ أم من إصابة أصابها ؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف . واعزله على كل حال ، واضمم إليك عمله . فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه . ثم جمع الناس ، وجلس لهم على المنبر . فقام البريد فقال : « يا خالد أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة ؟ » ... إلى أن أجاب خالد أنه من ماله فأعيدت إليه قلنسوته . وبقي خالد متحيراً لا يدري أمعزول أم غير معزول . « وجعل أبو عبيدة يكرمه ويزيده تفخيماً ولا يخبره ، حتى إذا طال على عمر أن يقدم ظن الذي قد كان . فكتب إليه بالوصول » . ونرى أن صواب العبارة ليستقيم المعنى « حتى إذا طلبه عمر أن يقدم ... » ذلك لأن العبارة السابقة تفيد حيرة خالد ، وجهله نية الخليفة ، فلما طلبه عمر أن يقدم عرف المصير .

وقد رسم الناشر الإخشيد بالذال المعجمة ، كما جاء في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، وهكذا ضبطت في نسخته الخطية ، ولو أن بعض المحدثين يرجحون أنها بالدال لا بالذال . ونأخذ على الناشر أنه عدل عن هذا الضبط ، تعني بالذال ، في بعض المواضع ، ولعل ذلك من الخطأ المطبعي ، ولكن العنوان الذي كتبه بالخط الفارسي الكبير خلا من نقطة الذال .

وبعد فهذه هنات هينة لا تنقص من رونق الكتاب ، فالجهد المبذول فيه جدير بكل تقدير وإعجاب .

أحمد فؤاد الأهواني

وقد استهدف المؤلف فى كتابه غايتين ، أن يبسط الموضوع ليفهمه القارئ العادى ويسيغه ، وأن يكون الكتاب عملياً تطبيقياً يستطيع القارئ أن يفيد منه فى حياته العملية ، ولذا تجنب المصطلحات الفنية ، ولم يحاول « إضاعة شىء من صفحات الكتاب فى مناقشات علمية لا تفيد القارئ العادى » .

ولا ريب فى أن المؤلف بما بذله من جهد طيب قد نجح فى تحقيق ما استهدفه من كتابه إلى حد بعيد ، ونحن إذ ننوه بهذا الجهد لا يفوتنا أن نذكر أن المؤلف الشاب جولات موفقة فى ميدان التأليف الفنى التطبيقى ، فقد صنف فى هذه الناحية عدة كتب ، نال أحدها وهو : « الحب عند العرب » جائزة التأليف الأدبى من وزارة المعارف فى العام الماضى .

* * *

الموسيقى والغناء فى ألف ليلة وليلة : تأليف الدكتور

هنرى فارمر وترجمة الأستاذ حسين نصار — دار الفكر الحديث للطبع والنشر سنة ١٩٥١ — فى ٦٤ صفحة صغيرة .

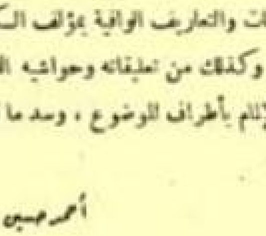
إن أدبنا القديم غنى دون شك بمادته التى يمكن أن نبحث وننقب فيها ونستخرج منها موضوعات عديدة على ضوء الدراسة الحديثة ، وإن التراث الثقافى الضخم الذى أورثتنا الإنسانية إياه لأكبر عون لنا على تسديد خطانا فى بحث أدبنا القديم .

ولا نعرف كتاباً عربياً ظفر بما ظفر به كتاب : « ألف ليلة وليلة » من ذيوع وشهرة ، فقد ترجم إلى معظم اللغات الحية أكثر من مرة ، ومن ثم أخضعه الغربيون لمباضعهم وخصوه بعين العلم الحديث ؛ فخرجوا من مادته الغفل بكثير من الأبحاث والمؤلفات القيمة وزادت هذه الأبحاث من أهمية الكتاب وألقت الضوء على كثير من جوانبه الخفية ، وما لبث « ألف ليلة وليلة » أن غدت موضوع أبحاث جامعية ممتازة أجازتها جامعة فؤاد الأول ، ونال أصحابها عليها أرقى الدرجات العلمية .

والكتاب الذى نقدمه اليوم أحد تلك الأبحاث التى قام بها بعض مستشرقى أوربا عن « ألف ليلة وليلة » كتبه الدكتور هنرى جورج فارمر ، وهو من أكبر الموسيقيين فى انجلترا واسكتلندا ، اشتهر عنه غزير علمه بالموسيقى الشرقية عامة والعربية خاصة ، وكان رئيس لجنة دراسة تاريخ الموسيقى ومخطوطاتها فى مؤتمر الموسيقى العربية الذى عقد بالقاهرة عام ١٩٣٢ ، والذى دعى إليه كبار المهتمين بالموسيقى العربية . والدكتور فارمر غير هذا الكتاب عدة كتب أخرى فى الموسيقى العربية التى يتحمس لها كثيراً ، ويدافع عنها بحرارة وإيمان .

والكتاب على صغره غزير المادة مركزها ، تناول فيه مؤلفه الموسيقى والغناء فى قصص « ألف ليلة وليلة » وما يتصل بهما من الموسيقيين والآلات وطرق الأداء ، مع تحليل ما يطبع هذا كله من طابع خاص يتصل بالبيئة العربية والعقلية الإسلامية ، وقد وفق مترجمه الشاب — كعادته — فى نقله نقلاً أميناً إلى العربية ، وإن كنا نعتب عليه أنه حرمنا ما عودنا إياه فى ترجماته السابقة من كتابة المقدمات والتعاريف الوافية بمؤلف الكتاب المترجم وموضوعه ، وكذلك من تعليقاته وحواشيه الدقيقة ، مما يساعد على الإلمام بأطراف الموضوع ، وسد ما قد يكون به من ثغرات .

أحمد حسين الصاوى



فن الكتابة

(بقية المنشور على صفحة ٨)

مزودة بما أضافه إليها من إنتاجه . وهو لا يستطيع أن ينطلق من أوضاع الفن المألوفة إلا حين ترتفع به خبرته ومرانه إلى مرتبة المجددين . وعلى ذلك يكون من الخطل أن يقال إنه يكفي لأي إنسان أن يترك نفسه على سجيتها لينتج فنا أصيلا ، فالاستعانة عن القوالب الفنية الجامدة بالأصالة الخالقة لا يكون إلا بعد أن تصل خبرة الفنان وقدرته إلى المستوى الذي يمكنه من ذلك . إن الصنعة عنصر أساسي لكل عمل فني ممتاز . وتوفيق الفنان الأصيل يكون على قدر نجاحه في طمس آثار صنعته تحت ستار من أصالته ؛ فإذا بدا عمله الفني طبيعيا ، كان توفيقه من هذه الناحية كاملا ، والذي يزعم أنه يكفي الرجل العادي أن يمسك بالقلم ، ويبتعد عن الصنعة ، ويترك نفسه على سجيتها ليكتب كتابة أدبية ، هو كمن يقول إنه يكفي للإنسان أن يثب ويشرئب ليصل إلى السماء .

كان الفن يخضع في العهود الموغلة في القدم لأضيق حدود القواعد والأصول ، وكان المتسرب إليه لا يستطيع أن يندمج في زمرة الفنانين إلا إذا تتلمذ على أحد أساتذته ليتلقى تلك القواعد والأصول . ويرجع ذلك إلى قصور ذهن الناس حينذاك ، وبساطة إدراكهم ، وبعد مشاعرهم وعواطفهم عن التشعب والتعقيد ، وانحصار تجاربهم في شق محدود . ولذلك لم يكن من المستطاع أن يترك المشتغل بالفن نفسه على سجيتها ويبتدع له نهجاً لينتج فناً مقبولاً . ولكن قدرة العقل البشري على التجديد ازدادت بازدياد نموه . ولكن ذلك التجديد حدث على مهل ، وفي بطء ، وحذر حتى لا يختل وهو يحاول الخلاص من القيود القديمة . وصار التجديد في كل جيل من أجيال الازدهار الفني قاعدة يلتزمها الخلف حتى تتمكن طلائع ذلك الخلف المجددة من الخلاص منها وإحلال غيرها محلها . وقد بلغ اليوم تمكن الفنانين الممتازين من فنهم مبلغاً مكنهم من التوسع في التجديد توسعاً كاد يطيح بقواعد الفن المتوارثة .

ويجدر بنا قبل اختتام هذا المقال أن نشير إلى فرق ملحوظ بين الفنون عامة وفن الكتابة خاصة فيما يتعلق بالشكل والأسلوب . فإنه من المعلوم أن أسلوب الكتابة قديماً كان طليقاً من القيود التي رسفت فيها قوالب الفنون الأخرى . ومرد ذلك إلى أن لغة الكتابة كانت حينذاك قريبة ، كما قال لوويل ، من لغة الكلام . ولكن ذلك لا يمنع أن فن الكتابة كان خاضعاً في مجموعه لأوضاع ضيقة الحدود ، مفروضة على الكتاب فرضاً . على أن قواعد الصرف والبيان والبديع لم تلبث أن أخذت بتلابيب الأسلوب في العهود التي انتشر فيها الترف وكاد عبث المترفين يقضي على الثقافة العامة . فإذا ما تهيأت الظروف لعودة الثقافة العامة إلى الازدهار أخذ الأسلوب يحاول الفكاك مما رسف فيه من أغلال .

وإذا اعترض معترض على هذا المقال بأنه لم يدلل على أن الكتابة فن ، فإن مرد عذرنا في ذلك إلى أننا لا نستطيع التدليل على ما ليس في حاجة إلى دليل .

محمد مفيد الشوباشي

نتيجة مسابقة أحسن تمثيلية

أسفرت مسابقة « أحسن تمثيلية » التي نظمتها إذاعة الجند البرية عن النتيجة التالية :

الجائزة الأولى وقدرها ٢٥ جنيهاً :

فاز بها الأديب عبد الكريم أيوب من بغداد عن تمثيلية « فتح عمورية » .

الجائزتان الثانيتان وقيمة كل منهما ٢٠ جنيهاً :

فاز بهما :

١ — الأديب أحمد أسعد ابراهيم من القاهرة عن تمثيلية « مغامرات قبيح » .

٢ — الأستاذ أحمد عبد القادر المازني من القاهرة عن تمثيلية « في مفترق الطرق » .

الجائزتان الثالثتان وقيمة كل منهما ١٥ جنيهاً :

فاز بهما :

١ — السيدة سنية قراعة من القاهرة عن تمثيلية « شجرة الدر » .

٢ — الأديب محمد شاكر ضياء الدين من الطائف عن تمثيلية « رسول سلام ومحبة » .

قصص

قصة شبابى

للأستاذ طاهر شريف

من صور الحياة :

انتهى الطريق بى وبصاحبي الشيخ إلى محطة الترام بميدان باب الخلق . وكانت الليلة مقمرة ، ونسمات الربيع تهفو بالأدواح وتهمهم بها همهمة الوحى فى صدور الأنبياء فيلذوب قلبي فيها رقة وحناناً .

ومضينا نزجى الوقت بالتحدث من عهد الشباب واستعادة ذكرياته الشائقة — ريثما يأتى الترام — وفجأة تجهم وجه صاحبي الشيخ وارتسمت على جبينه خطوط عريضة تنم عن القلق والاضطراب . فنظرت إليه فى شيء من الدهشة والاستغراب ، وسألته : ماذا ألم بك ياصاحبي حتى صرفك عن مواصلة حديثك . فأرسل زفرة حارة وقال فى صوت متهدج حزين : — قصة شبابى وذكريات صباى — فى هذا المكان وفى ليلة شبيهة بهذه وفى صحبة صاحب مثلك وقفت بداية ذكرياتها ... ! .

كانت الساعة الكبيرة القائمة فى فناء هذا الميدان تشير وقتذاك إلى الثامنة مساء — كما هى الآن — ولم أشعر بها إلا وهى قادمة من كثب من تحت هذا المصباح القائم على إفريز المحطة ، تتهادى فى مشيتها ، ثم وقفت أمامنا وحيتنا تحية طيبة ... ! .

وكانت نظراتها الثاقبة تنبعث من عينيها النجلاوين فتهتك قناعها وتنفذ إلى أعماق قلبي .. فتنطع لمالمحه فتنة وإعجاباً . ثم تقدمت إلينا وسألتنا فى حياء عما إذا كان ترام العباسية يمر من ذلك المكان ؟ .

وسادت فترة من الصمت ، وكأنما كانت تراجع نفسها .. ثم قالت : إنى طبيبة بوزارة كذا ، وقد نقلت منذ أسبوع من مدينة الزقازيق إلى القاهرة ، ولى على موعد مع زميلى الذى سيأتى بالترام القادم ... ! .

وأقبل الترام يهدئ من سرعته عندما أشرف على المحطة . وقبل أن يستقر مدت إليه عنقها وشخصت ببصرها وقالت فى تراخ وفتور : إن زميلى لم يكن من بين ركابه .

ونهضت وصاحبي الشيخ إلى الترام ، وأومأت له بالركوب معه ، إذ شعرت آنذاك بدافع قوى يدفعني إلى الوراء ويستبقيني بجانب هذه السيدة حتى أقف على حقيقة أمرها ، فظاهر شكلها ومضمون عباراتها وعدم اتزان حركاتها — كل ذلك — مما دعا بى إلى الحيرة والتفكير والتشكك فى صدق حديثها — واحتفظت لنفسى برأيها — وسار الترام بصاحبي وبقيت إلى جانبها ، وتناءت السيدة فى نغمة موسيقية ... ثم قالت : مادام زميلى قد تأخر إلى هذا الوقت ، فمن المؤكد أنه لن يأتى بعد ذلك ، حيث كان موعدنا الساعة والنصف .

وفجأة أشارت إلى . وحولت بوجهى مع وجهها ، أنظر ... أنظر إلى هذا الشاب . إنه يرمقني بنظراته الحادة ، إن عينه تكاد تلتهمنى . ما بالكم هكذا وما بالشبابكم الناعس يقع المحجور فى أعينهم ؟ إنى لم أر مثل هذا مدة إقامتى فى مدينة الزقازيق . قلت وأنا لا زلت عند رأيى فيها : لعلك ياسيدتى واهمة فيما تدعين ، ظنى بالناس خيراً ولا تلقى لهم بالاً ، حتى ولو كانوا أشراراً . فكل إنسان مصاب بما يتوهمه .

ثم أرغمتنى مرة ثانية على تحويل وجهى مع وجهها إلى الوراء : لا . لا . لا أستطيع البقاء هنا أكثر من هذا ، إن فرائصى ترتعد والذعر يملأ نفسى ، فهل لك أن ترافقنى حتى أصل إلى البيت ؟ .

وكانت عيناها الواسعتان لا تكفان عن التمعن فى قسمات وجهى ، كما كانت ترهف السمع إلى نبرات صوتى ،

الثقافة

العدد ٦٤٤ ٣٠ من إبريل ١٩٥١	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	الثمن ٢٠ مليماً

نحن ... وأنتم

[إلى الذين يرون الفن مجرد شيء يتلهى به الفارغون ..]

ماذا تريدون منا .. أيها الناس ؟
إنا .. بني الفن .. أوهام وأهجاس
إنا - على الأرض - أشواق مضرّمة
لنا وقودان .. أعصاب .. وإحساس
نعيش .. في الفقر .. والدنيا منضّرة
يزهو بها الورد والنسرين والآس
وأكؤس الناس بالأموال طافحة
ونحن في كأسنا وهم .. وإفلاس
لكننا قد رضينا الكف .. فارغة
ما دام تطفح في أعماقنا .. الكاس
خدعتمونا وقلتم .. إنهم بشر .
أقصى أمانيهم .. ناي .. وقرطاس
فبؤس أجسادهم كيما يخلصهم
من التراب .. وتذكو فيه .. أنفاس
والجسم للروح سجن ليس يطلقه
إلا كما شع - في أعماقه - الناس
وإنهم في سماء الفن آلهة
يعاقرون رطانى .. ما ذاقها الناس
وإنهم قد أقاموا صرح نهضتنا
عالي المنار .. وهم للمجد .. حراس
يا ويحكم قد نثرتم حولنا دررا
من الثناء لها في القلب إيناس
لتطبق الجفن عن دنيا محببة
قد عضها الجلد .. منكم .. وأضراس
لقد صدقتم بما قلتم وإن كذبت
فيكم قلوب .. لها كالطين .. إفلاس
نحن الألى قد أحالوا الكون أغنية
من الهوى .. فكأن الكون . أعراس
ونحن .. من نحن ؟.. رهط ليس يرفعهم
إلا بنو الفن أفاق .. وحساس
مخلدون تساوى الترب عندهم
والتبر .. وهو لدى العميان .. نبراس
مقياسهم في مجال الفخر ما نظموا
والمال عند سوى الشعراء مقياس
لن يخلد المال في دنيا .. مودعة
إذا طوتنا بجوف الأرض أرماس
لكنه الشعر يبقى خالداً أبداً
وإن رمتنا بسهم الموت أقواس

كيلوك حسن ...

الأماني

• إلى الذين يؤمنون بعودة الإنسان الثائر •

فتح الإنسان عينيه وقال   لا أرى آثار طفلي في الرمال
أين ولى أين يا شمس وهل   من لظى عينيك تحميه الظلال
أين ولى أين يا ريح وهل   حين تشتدين تأويه الجبال
أين ولى أين يا سحب فقيل   واسمعي منه أغانيه الطوال
فهو صوت البحر سهران على   تمتمة الأيام تخبو والليال
وأنين الغصن سهران على   صرخة الطائر تدميه الحبال
وارتعاش الفقر مشت قلبه   لبنات من سراب وخيال
واهتزاز الجبل السكران في   قلبه البركان قد غلى ومال
وانتفاض الوحش ذي القلب رأى
قدم الكلب على عنق الغزال
وصراخ العبد في النار هوى   حاطماً أغلاله السود الثقال

• • •

وغفا الإنسان إلا نسمة   زادها الفجر اشتعالاً في اشتعال
وعلى أشواقها الحمر مشى   ذلك الطفل السماوي الجمال
حاملاً إكليل زهر لم يذق   مثله غصن على تلك التلال
وإذا ما اشتبكت أغلاله   بظلال الفجر ألقاه وقال
حمل الناس الأماني منقذا   حملت موجاً من القش الخيال
أمطري يا هذه السحب فلن   تطمسي آثارهم فوق الرمال

محيي ترفيق ...

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٤٤ | الاثنين ٢٤ من رجب سنة ١٣٧٠ — ٣٠ من أبريل سنة ١٩٥١ | السنة الثالثة عشرة

فن السياســـــة

للدكتور أحمد أمين بك

السياسة علم وفن ، فعلم السياسة يشرح النظريات وتطورها في العصور المختلفة ، ونتائجها ونحو ذلك .

وأما فن السياسة ، فيعنى بالناحية العملية ، وتطبيق العمليات على النظريات .

ونلاحظ أن الأمم العربية لم تعن بالسياسة نظرياً ولا عملياً ؛ فقلّ منهم من اطلّع على نظريات الفلسفة وأحاط بها ، وقل منهم من عرف كيف يطبقها عملياً . وقد أتقن ساسة الغربيين وخصوصاً الانجليز والفرنسيين العلم والفن معاً ؛ فمن ناحيتهم النظرية يدرسون كتب السياسة ، وتاريخها في العصور المختلفة ، ومن ناحيتهم العملية يعرفون كيف يستعمرون وكيف يفرقون بين طوائف الأمم ، وكيف يوعزون بتأليف الأحزاب ، ويوعزون بالخلافات بينهم ، وكيف يخصصون كل فرد أو أفراد منهم للاتصال بكل حزب ، وكيف يعرفون الأشخاص الذين يستطيعون أن يلائموا ، فيضمون يدهم لعليهم ، إلى غير ذلك .

والعرب في ذلك كله سذّج غاية السذاجة ، يلعبون بأوراقهم المكشوفة دائماً ، ويمكنون الأجنبي من اللعب بينهم ، ويطلعونه على كل خفية من أمرهم ، فإذا بالأجنبي يعرفهم أكثر من معرفتهم بأنفسهم ؛ ولهم في كل قطر مستعمر وسائل تتفق وعقلية هذا القطر وعاداته وأخلاقه .

أسوق هنا لما علته من أحوال ليبيا ؛ فقد قررت هيئة الأمم منحها الاستقلال في أول يناير ١٩٥٢ ، ولم يحملها على ذلك حبها للعرب ولا انتشال لهم من وهدتهم ، إنما دفعهم إلى ذلك صدّ روسيا عن تسللها إلى ليبيا وتدخلها في شئون البحر الأبيض ، ومع قرار هيئة الأمم ظلت انجلترا طامعة في برقة ، وفرنسا طامعة في فزّان ، وتدبران السياسة حتى تفشل هيئة الأمم أو تستطيعا الضحك عليها ، ثم تخرجا من هذا الصراع وقد وضعت انجلترا يدها على برقة ، وفرنسا يدها على فزان ؛ ولذلك حببوا إلى صنائعهم المناداة بالفدرالية ، وهم لا يعرفون ديمقراطية

ولا فدرالية ، وإنما رددوها كما حفّظوها لهم ، واستخدموا صنائعهم في برقة وفزان بهذه الدعوة ، ومحاربة كل دعوة تناقضها بما أمكنهم من وسائل .

والعرب مساكين لا يعرفون الحيل السياسية ولا الألاعيب ، ويأتمرون بأمر سادتهم من الإنجليز والفرنسيين .

حدثني أفرنجي بعد أن لعبت الخمر برأسه قال : إن هؤلاء العرب في ليبيا سذّج مغفلون لا يصلحون بحال أن يستقلوا ، وكيف يمكن لبلاد تعداد أهلها مليون ونصف أن يستقلوا مع ما هم فيه من السذاجة والتفرق ؟ إن برقة تخاصم طرابلس وتود السيادة عليها ، وهما معاً يخاصمان فزان وفزان تخاصمهما ، ويفتخر زعماء كل قطر بأنفسهم ، وبرقة لا تريد الانضمام لطرابلس ، لأن مقطوعيتها من السكر أكبر من مقطوعية طرابلس ، فإذا اتحدا تساوت مقطوعيتهما ، وهكذا في الصغائر ، مما لا ينظر إليها إلا كل صغير النفس مبتدئ السياسة ، جاهل بفن السياسة . قال : إن في طرابلس مثلاً ستة أحزاب ، على أتم ما يكون من العداء . قال لي أحدهم : إن زعيم حزب كذا خائن متجسس ، لو مر ظله على بيتي لتنجس ، فكيف يكون الاستقلال لمثل هؤلاء الصغار الجاهلين الذين أكثرهم أميون ؟ إنما يستقلون يوم يعقلون ! فلنبذر بينهم الحب ، ولنلعب بدسائسنا التي تمرنا عليها ، وبعد ذلك ندعهم وأنفسهم تأكلهم النار جميعاً وهذا جزاء الغافلين .

فهمت من هذا الكلام أن هذه الحالة صورة مصغرة لما يجري بمصر والعراق وتونس والجزائر ومراكش ؛ فهم يلعبون بكثير من الرءوس ، ويخلقون الأحزاب ويفرقون بينها ، ويستصفون لأنفسهم من ضعف خلقه ، واتضعت نفسه ، فيغرونهم بالمال والجاه والسلطان الزائف . ويقربونهم إليهم ، ويفتحون صدورهم لهم ، ويقفون منهم على كل صغيرة وكبيرة في البلاد .

ألا ترانا في مصر كيف فاوضوا مفاوضة بطيئة عقيمة ، ثم وصلوا إلى نتيجة تدل دلائلها على أنها نتيجة لا ترضي المصريين ، ومع ذلك لا تقف الأحزاب موقفاً واحداً ، وكل حزب خارج الحكم يود فشلها ، علماً منهم بأن نتيجة فشل المفاوضة خروج الوفد من الحكم وصيرورته لهم أو إلى حزب معارض مثله ؟ وهم يدعمون هذه المفاوضات العقيمة بمظاهرات في مجلس العموم وتصريحات وإشاعات ، ونحو ذلك مما مهروا فيه من ألاعيب . ولم يكن بعيداً عنا ما فعله الجنرال جوان بسلطان مراكش ، كما ليس بعيداً عنا تفرق العرب في دفاعهم عن فلسطين مع حقهم ، واتحاد الإسرائيليين مع باطلهم ! وكل هذه دروس قيمة لم ينتفع العرب منها مع الأسف كثيراً ، وكل يوم تتكرر المأساة ولا متعظ .

أليس عجباً أن يتعاون البرقي مع الإنجليز والفزاني مع الفرنسيين ضد بلادهم ، ويحاربون المثل المصري والمثل الباكستاني وهما يخلصان منهم ؟ !

ألا يأتي يوم يتعلمون فيه فن السياسة ، فيفتحون عيونهم ويحفظون أوراقهم ، ويدفعون المسائل بحساب ، ويستفتون من وازع ضميره ، ويلقون عليه درساً عملياً ، وعلى الجملة يتعلمون فن السياسة ؟ !

ليست هذه الخيبة والغفلة طبيعة فيهم ، ولا بالأمر الذي يلتصق بهم بالضرورة ؛ فكل الأمم تقريباً مرت بمثل هذا الدور ، ولكن كفى العرب سذاجة ، وكفاهم غفلة ، وليتعظوا هم بما اتعظ به من قبلهم .

أحمد أمين

تاريخ العلم وعلاقته بالدين والفلسفة

قرر المجمع العلمي العراقي ترجمة كتاب «تاريخ العلم وعلاقته بالدين والفلسفة» تأليف السير وليم سيسل دامبير .

الامام ابن حزم والحب

للأستاذ علي أدهم

كان الحاجب المنصور بن أبي عامر من كبار القواد في تاريخ الإسلام ، وفي طليعة رجالات الأندلس المعدودين ، وحماتها الذائدين عنها والموفرين عليها حقوقها ، والمنصرفين إلى تأييد ملك المتغلبين بها ، وتثبيت أركانه ، وما أحسب في ذلك شكاً ولا خلافاً ؛ ولكن هذا القائد القهار والغازي الظافر والبطل المنجد قد تورط في خطأ أملته عليه إملاء وفرضته عليه فرضاً ودفعته إليه دفعاً طبيعة موقفه التاريخي من ناحية ، وطموحه ومطامعه من ناحية أخرى ؛ فقد استطاع بحذقه ولباقته ودهائه وسياسته أن يستأثر بالسلطة والنفوذ ، ويحجر على الخليفة الشرعي هشام الثاني ، ويستبد بالأمر دونه ، ويقضي على المنافسين ، وأزالهم من طريقه بأساليب قاسية ماكرة ، وحقق بذلك الكثير من أهدافه ؛ ولكنه أضعف فكرة السلطة الشرعية ، وأزال هيبتها من النفوس وجعل الاجتراء عليها والاستخفاف بحقوقها أمراً ميسوراً غير مستنكر ؛ فلما مضى لسبيله وعجز الذين جاءوا بعده عن أن يسدوا مسده ويقوموا مقامه ، ساءت الأحوال واضطربت الأمور ، واستشرى الفساد ؛ وإذا ضعفت المبادئ وعجزت الرجال وقلت الكفايات فغير غريب أن تعم الفوضى ، ويسود الظلام ، وتنطلق الشهوات من عقالها ، وتتحرك المطامع والأهواء ، وتكثر عوامل الهدم والتدمير والإبادة والخراب .

والمؤرخ الذي يطالع أخبار هذه الفترة الحزينة الشاحبة في تاريخ الأندلس يهوله ما يشاهد فيها من انتكاس الأخلاق وفساد الطبائع ، والتواء النفوس ، ومشاهد الغدر والخيانة والخسة والنقص ، والقسوة والنذالة ، حتى يكاد يَسْوَدّ قلبه في السواد الأعظم ، كما يقول أبو تمام في بيته المشهور :

إن شئت أن يسود ظنك كله   فأجله في هذا السواد الأعظم

ومثل هذا المؤرخ لا بد أن يستروح ، ويستشعر شيئاً من السرور والطمأنينة ، ويعاوده جانب من الثقة بالنفس البشرية حينما يواجه في ذلك العصر المظلم شخصية عفة نبيلة قوية مسرعة سامية محلقة مثل شخصية الإمام أبي محمد علي بن حزم ، العالم الفقيه الذي ملأ طباق الأرض علماً ، والفيلسوف المتأله الذي اشتهر بقوة الجنان ، وحدة اللسان ، حتى قيل فيه : « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين » .

هذا الإمام الجاد الصارم الذي يقول فيه ابن حيان نابغة مؤرخي الأندلس وكبيرهم : « إنه حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة » قد أخرج للناس كتاباً في وصف الحب ، ودراسة أطواره ، وتحليل عوارضه وأحواله ، يعد من الآثار البارزة في تراثنا الأدبي ، ومن حقنا أن نفخر ونعتز بأنه من بين مفكرينا الكبار وفقهائنا الأعلام ، من وجد الحب جديراً بالدرس خليقاً بالبحث والتحليل ، فقد كان معظم الفلاسفة والمفكرين من عهد الفلسفة اليونانية إلى القرن التاسع عشر يرون الحب من المسائل التي لا يصح لهم أن ينزلوا من عليائهم إلى الكلام عنها وتناولها بالملاحظة والدرس والتعليل ؛ ولعل أول من خالف هذا التقليد وشذ عن تلك السنة من بين هؤلاء الفلاسفة هو الفيلسوف الألماني اللامع الجريء آرثر شوبنهاور ؛ فقد خص الحب بفصل شائق حافل من فصول كتابه العظيم المسمى « الدنيا فكرةً وإرادةً » ، وتبعه في ذلك تلميذه ومتقبل آثاره الفيلسوف إدوارد فون هارتمان ؛ فقد عقد في كتابه القيم « فلسفة اللاشعوري » فصلاً بديعاً عميقاً عن الحب الجنسي ، اقتفى فيه آثار شوبنهاور وأربى عليه ببعض الملاحظات النافذة ، والتحليلات الموفقة ؛ وأكبر ظني أن هذين الفيلسوفين الجليلين قد مهدا السبيل وأنارا الطريق لبحوث العلامة النفسي الكبير فرويد الذي جعل الحب الجنسي حجر الزاوية في بحوثه وفلسفته .

وكتاب « طوق الحمامة » ليس كتاباً عن الحب فحسب ، وإنما هو كذلك كتاب اعترافات أو ترجمة ذاتية للعلامة ابن حزم ؛ فقد ذكر لنا فيه الكثير من أحاديث نفسه ، ودخائلها وخفاياها ، وما انتابها من أزمات وشدائد ، وما هزها وهالها من حوادث ووقائع ، ومن خلال وصفه لنفسه وتحدثه عن نوازع قلبه استطاع أن يشرف بنا على عصره ،

ويقدم لنا وثيقة نادرة من أحواله وآدابه ، وأخبار رجاله ونسائه قل أن نعثر على مثلها فى مراجع الأدب والتاريخ .

ويكشف لنا هـذا الكتاب النادر عن صفاء نفس ابن حزم ، ورهافة حسه ، ورقة شعوره ، وقوة عواطفه ، وعمقها وصدقها ، ومتانة عقيدته ، ومضاء إرادته ؛ ونستطيع أن نتبين منه لماذا كان هـذا الرجل العظيم القلب والعقل وزراً يعتمد عليه فى علاج المشكلات ، ومؤلفاً من أغزر المؤلفين إنتاجاً فى تاريخ التأليف الإسلامى ، وفقيهاً إماماً ، ومناضلاً ثابتاً فى نضاله ، لا تلين قناته ولا تتصدع صفاته ، ولم يكن الإمام ابن حزم محباً عميق الحب مشبوب العاطفة فحسب ، وإنما كان كذلك صديقاً صحيح الود ، صادق العهد ، جديراً بقول المتنبى :

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا

لفارقت شيبى موجع القلب باكياً

وقد ألف هذا الكتاب استجابة لدعوة صديق كان على ما يظهر من أعز أصدقائه عليه وأكرمهم لديه ، وأشار إلى ذلك فى مقدمته بقوله : « وكلفتنى أعزك الله أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ومعانيه ، وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله ، على سبيل الحقيقة ، لا متزيداً ولا مفتناً ، لكن مورداً لما يحضرنى على وجهه ، وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظى ، وسعة باعى ، فيما أذكره ، فبادرت إلى مرغوبك ، ولولا الإيجاب لما تكلفته ، فالأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرفها إلا فيما نرجو به رحب المنقلب وحسن المآب غداً ، والذى كلفتنى فلا بد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتى وأدركته عنايتى ، وحدثنى به الثقات من أهل زمنى ، ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبى أن أنضى مطية سواى ، ولا أتحلى بحلى مستعار » .

وقد التزم ابن حزم فى كتابه هذه الحدود ، واقتصر على ذكر مشاهداته وتجاربه ، وما سمعه ممن يوثق به من أصحابه ، ولم يجعل الكتاب معرضاً لأخبار العشاق المتداولة ، وقصصهم المألوفة ، كما صنع غيره من الذين قصدوا التأليف فى هذا الموضوع ، مثل داود الأنطاكى فى كتاب « تزيين الأسواق فى أخبار العشاق » وغيره من مؤلفى الكتب الذين يعمدون إلى جمع الأخبار ، وحشد الأشعار ، بغير تفريق ولا تمييز ، ولا تعليل ولا تحليل . أما ابن حزم فليست هذه طريقته ، وله من شخصيته الممتازة وتجاربه المستفيضة ومشاهداته الكثيرة ما يأتى به من هذا السبيل المطروق ، ويجنبه هذه الخطة المبتذلة .

وقد أوقف ابن حزم الفصل الأول من كتابه للكلام عن « ماهية الحب » . والحب عنده لا تدرك ماهيته بالفكر ، وإنما تدرك بالتجربة ، وهو يقول فى ذلك : « الحب أوله هزل وآخره جد ، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة » ولعله تنظر فى ذلك إلى قول المتنبى :

إلام طماعية العـاذل ولا رأى فى الحب للعاقل

وقوله : « لهوى النفوس سريرة لا تعلم »

ويذهب ابن حزم إلى أن الحب اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ؛ فما تناسب من النفوس اتصل ، وما خالف منها انفصل ؛ فسر التمازج والتباين فى المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال ، والشكل يستدعى شكله ، والمثل إلى مثله ساكن ؛ فالمجانسة عند ابن حزم عمل محسوس وتأثير مشاهد ، والتنافر فى الأضداد ، والموافقة فى الأنداد ، ويؤيد ذلك ابن حزم بقوله : « لو كانت علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص من الصورة ، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ، ويعلم فضل غيره ، ولا يجد محيداً لقلبه عنه ، ولو كان الموافقة فى الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه » .

فالحب إذاً استحسان روحانى وامتزاج نفسانى ، ويروى لنا ابن حزم أن أخراط القيم حين وصف له رجل من أهل التفصيل بحبه ؛ فقيل له فى ذلك ، فقال : « ما أحببتى إلا وقد وافقته على بعض أخلاقه » .

ويعتقد ابن حزم أن المحبة لا تصح إلا بعد كثرة المشاهدة وتأكد الألفة ، ولا يكتم شكه فى مسألة الحب من أول نظرة ، وهو يقول فى ذلك : « إنى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه ، ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة ، وأما أن يكون فى ظنى متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً فى حجاب القلب فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لى دهراً ، وأخذى معه فى كل جد وهزل ، وكذلك أنا فى السلو والتوق ؛ فما نسيت وداً لى

قط ، وإن حنيني إلى كل عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ، ويشرقني بالماء ، وقد استراح من لم تكن هذه صفته ، وما مللت شيئاً قط بعد معرفتي به ، ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقائي له ، وما رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت ، لا أقول في الألاف والإخوان وحدهم ، لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك ، وما انتفعت بعيش ولا فارقني الإطراق والانغلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشجى يعتادني وولوع هم ما ينفك يطرقني ، ولقد نغص تذكري ما مضى كل عيش أستأنفه ، وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا ، والله المحمود في كل حال لا إله إلا هو » .

وعند ابن حزم أن هذا الحب الصادق الذي يسير على مهل ويتولد بطول الامتزاج يلائم رأيه في أن الحب اتصال بين النفوس في أصل عالمها العلوي ، وأن ما يقع من أول وهلة إنما هو مجرد استحسان جسدي .

وقد عقد في كتابه فصلاً عنوانه أن من أحب صفة في محبوبه لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها ؛ وبعد أن روى أمثلة تعزز ذلك مستمدة من مشاهداته ومعلوماته شفعها بقوله : « دعني أخبرك أني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على الحسن نفسه ، وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت ، لا تؤاتيني نفسي على سواه ، ولا تحب غيره البتة ، وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضي الله عنه ، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله ، وأما جماعة خلفاء بني مروان رحمهم الله ولا سيما ولد الناصر منهم فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة لا يختلف في ذلك منهم مختلف » فإمامنا العلامة كان من الذين يحبون الشقراوات ، وكذلك كان المرحوم والده . ونلاحظ هنا طريقة ابن حزم ، فهو يصف العارض من عوارض الحب ثم يستدل عليه بالشواهد ويؤيده بتجربته الخاصة .

وفي الفصل الذي يتكلم فيه عن « البين » يقول : « دعني أخبرك أني أحد من دهي بهذه الفادحة ، وتعجلت لي هذه المصيبة ، وذلك أني كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية كانت فيما خلا اسمها نُعْم ، وكانت أمنية المتمني ، وغاية الحسن خلقاً وخلقاً وموافقة لي ، وكنت أبا عذرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتني بها الأقدار ، واخترمتها الليالي ومر النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، وسني حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هي دوني في السن ؛ فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة إسعادها .

وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ، ولو قبل الفداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف وببعض أعضاء جسمي العزيزة عليّ مسارعاً طائعاً ، وما طاب لي عيش بعدها ، ولا أنست بسواها ، ولقد عفى حبها على كل ما قبله وحرّم ما كان بعده ، ومما قلت فيها :

مهذبة بيضاء كالشمس إن بدت ... وسائر ربات الحجال نجوم
أطار هواها القلب عن مستقره ... فبعد وقوع ظلّ وهو يحوم

وفي الكلام عن « الهجر » يقول لنا هذا الرجل المجرب والحكيم الفطن الذي عرف الدنيا وخبر الناس : « لقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء ، وانبساط مدبري الدول ، فما رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بميله إليه ، وصحة مودته له ؛ وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب ، والمتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان ، قد غمره السخط ، وغلب عليه الجفاء ؛ ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحال الأولى أشد من الحديد ، وأنفذ من السيف ، لا أجيب إلى الدنية ، ولا أساعد على الخضوع ، وفي الثانية أذل من الرداء ، وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نفع ، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجع ، وأتحلل بلساني وأغوص على دقائق المعاني ببياني ، وأفنن القول فنوناً ، وأتصدى لكل ما يوجب الترضي » .

وموجز القول أن في كتاب « طوق الحمامة » نظرات فلسفية قيمة وتحليلات نفسية ثمينة ، وخبرة بالناس والحياة واسعة شاملة ، مع السرد الممتع والعرض الشائق ، وقد يسر ذلك لابن حزم ثقافته العالية ، ونشأته الارستقراطية ، وقوة عواطفه وأحاسيسه ، وكثرة تجاربه ومشاهداته .

علي أدهم

حركة القواميس والمعاجم فى مصر

فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

— ٢ —

للدكتور جمال الدين الشيال

وكان لتلاميذ الألسن وخريجيها جهود فى حركة وضع القواميس فصنف خليفة أفندى محمود فى سنة ١٢٦٤ قاموساً للغات الثلاث : العربية والتركية والفارسية ، ونشرت الوقائع المصرية فى العدد ١٣٢ ، بتاريخ ٩ شعبان سنة ١٢٦٤ « أن اليوزباشى خليفه افندى محمود المتخرج من مدرسة الألسن بالأزبكية قد ألف رسالة تشتمل على مفردات اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية ، فصدر الأمر بطبع ما يلزم منها على نفقة الميرى ، وإعطاء الأفندى المومى إليه ربحها ليحصل بذلك على السرور ، وينال الحظ الموفور » .

وذكر صالح مجدى فى ختام رسالته عن رفاعة « حلية الزمن » ثبتاً بأسماء تلاميذه ، وقال إن من بينهم « مصطفى بك السراج ، وقد شرع فى عمل قاموس فرنسى عربى لم يتمه » .

وقد امتد أثر رفاعة وتلاميذه فى هذا الميدان إلى المدارس الأخرى ، ففى مدرسة المهندسخانة اتبع بعض أساتذتها الطريقة السابقة ، فألحق أحمد افندى فايد مثلاً بكتابه « الأقوال المرضية فى علم بنية الكرة الأرضية » ذيلة فى ٣٨ صفحة تشتمل على بيان ألفاظ هذا الفن الاصطلاحية » ، ولما خرجت مدرسة الألسن دفعتها الأولى عين منها اثنان ، هما أبو السعود وصالح مجدى فى مدرسة المهندسخانة ، وعهد إليهما بتدريس اللغة الفرنسية وترجمة ما يلزم من دروس ، « ووضع قاموس أزمعت المدرسة وضعه فى العلوم الرياضية » .

أما مدارس الطب ، فقد قام بالترجمة فيها أول إنشائها طائفة السوريين ، وقد بذلوا فى عملهم جهداً اجتهادياً ، فلما عاد أعضاء البعثات من الأطباء المصريين ، وبدأوا يشاركون فى حركة الترجمة ، كانت مهمتهم أسهل من مهمة أسلافهم السوريين ، وذلك لأنهم كانوا — إلى إتقانهم اللغتين العربية والفرنسية — على علم بالعلوم الطبية ومصطلحاتها .

ولكنهم مع هذا كانوا فى حاجة إلى قاموس طبى ، ولم يتبع طريقة رفاعة فى مدرسة الطب إلا الدكتور « برون » فى كتابه « الجواهر السنية فى الأعمال الكيماوية » ، فقد ألحق به ذيلاً فى ١١٩ صفحة « لشرح الآلات الواردة فى الكتاب » ، ورتب هذا الذيل على حروف المعجم الشيخ التونسى مصحح الكتاب ، وقدم له بقوله : « وبعد ، فلما من الله سبحانه وتعالى بإتمام كتاب الكيميا الماهر فى جميع الفنون ، ناظر مدرسة الطب البشرى الشهير برون ، وكانت فيه أعمال جمة ، تحتاج إلى آلات معرفتها مهمة ، وكان لم يذكر فى الكتاب منها إلا القليل ، فقصد أن يجمع جميع الأشكال ويجعلها كالذيل ليكون بها الإتمام ، ولأجل أن تكون كلها مجموعة فى ورقات قليلة ، لتسهل مراجعتها فى المهمات الجليلة ، فجمعها فى هذه الورقات ، ووضحها أتم توضيح كما هو المقصود للمراجعات ، وأمرنى أن أرتبها على حروف المعجم لتكون فى المراجعة أسهل وأقوم ، فامتثلت أمره لما فيه من الفوائد . . » الخ . ومن الآلات التى شرحت فى هذا المعجم : الأنبوبة ، والأنبيق ، والبوتقة ، والجفنة ، وجهاز تعيين الوزن النوعى للهواء والغازات ، ودورق ولف ، والخبار ، والمرسح . . الخ ، وكلها ألفاظ واصطلاحات ، لهؤلاء الطلائع الفضل فى كشفها أو صياغتها ، فإننا لا نزال نستعملها حتى الآن فى كتبنا الكيماوية والطبيعية .

غير أن كثرة الكتب الطبية التى ترجمت كانت تتطلب إعداد أو ترجمة قاموس طبى ، وقد بدأت المدرسة بترجمة قاموس صغير فى هذا الموضوع من تأليف « نايستن Nysten » ، ولكنه لم يف بالغرض ، فأحضر كلوت بك من فرنسا « قاموس القواميس الطبية Dictionnaire des

Dictionnaires de Médecine » تأليف « فابر Fabre »
وهو في ٨ مجلدات ، ويشتمل على جميع المصطلحات الطبية والفنية في الطب والنبات والحيوان والعلوم الأخرى المختلفة المتصلة بالعلوم الطبية .

وتعاونت مدرسة الطب بكل هيئاتها على ترجمة هذا القاموس إلى اللغة العربية ، و « فرقه ناظر المدرسة إذ ذاك — وهو الدكتور برون — على مهرة معلميها ، وهم : حضرة إبراهيم أفندي النبراوي معلم الجراحة الكبرى ، وحضرة محمد أفندي الشباسي معلم التشريح الخاص ، وحضرة عيسوي أفندي النحراوي معلم التشريح العام ، وحضرة العلامة السيد أحمد أفندي الرشيدي معلم الطبيعة ، وسعادة حسين أفندي غانم الرشيدي معلم الأقرباذين والمادة الطبية ، وحضرة مصطفى أفندي السبكي معلم أمراض العين ، وحضرة حسنين علي أفندي معلم النباتات في ذلك الحين ، فترجم كل منهم الجزء الذي أعطيه ، واجتهد في توقيع لفظه على المعنى حتى شكرت مساعيه » .

ولم يكتف الدكتور برون بهذا ، بل أراد أن يكون القاموس الجديد جامعاً أيضاً للألفاظ والمصطلحات الطبية العربية القديمة ، فأتى بالقاموس المحيط ، ووزعه على أفراد هذه الهيئة ، وأشرك معهم مصححي المدرسة الشيخ محمد عمر التونسي ، والشيخ سالم عوض القناياتي ، والشيخ علي العدوي ، وأمر كلا منهم أن يراجع الجزء الذي بيده ، وينتقي منه « كل لفظ دل على مرض أو عرض ، وكل اسم نبات أو معدن أو حيوان » . ولم يقنع برون بهذا أيضاً ، يقول الشيخ التونسي : « ثم حضني الناظر المذكور باستخراج ما في القانون من التعاريف ، وما في تذكرة داود من كل معنى لطيف ، وزدت على ذلك ما في فقه اللغة ومختصر الصحاح ، وما في المروي من التعاريف الصحاح ، وضممت لذلك أسماء الأطباء المشهورين ، وأسماء عقاقير كنت رأيتها في بلاد السودانين » .

فلما تمت هذه الجهود جميعاً ، عهد برون بهذا القاموس الجديد إلى الشيخ التونسي ، فرتب الألفاظ والمصطلحات على حروف المعجم ، وراجعه مراجعة دقيقة ، ولم يأل جهداً — كما قال — « في تصحيح كلماته ، وتهذيب عباراته » ، فلما انتهى من هذا كله قابله معه وكيل مدرسة الطب الدكتور محمد شافعي أفندي ، وسماه التونسي في النهاية : « الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية » ، ولم يقصره على الألفاظ العربيـة ، بل ضمنه « أسماء لاطينية ، وأخرى فرنساوية ، وأخرى فارسية ، سواء استعملتها العرب ، أو كانت محدثة ودخلت في الألفاظ الطبية لأدنى سبب » .

ولم يكد التونسي ينتهي من إعداد قاموسه حتى كان محمد علي باشا قد لقي نحب ربه ، وأخذت الحياة العلمية في عهد عباس الأول تركد وتخمد نشاطها ، وخشي كلوت بك أن يضيع القاموس ، فاصطحبه معه إلى باريس ، وفي التاسع من سبتمبر سنة ١٨٥١ قدمه هدية « للمكتبة الأهلية » هناك .

وفي مفتتح القرن العشرين فكرت مصر ثانية في هذا القاموس ، وأحضرت له نسختان مصورتان أودعتا في دار الكتب الملكية في القاهرة ، وفي حدود سنة ١٩١٠ بدأت نظارة المعارف تفكر في طبعه ، وعهدت بالأمر إلى الدكتور أحمد عيسى بك ، فنشر منه مائة صفحة فقط ، انتهى فيها إلى لفظ « أزدران » ، أي أنه لم يستوف حرف الألف ، ولم يقف جهد الدكتور عيسى بك عند نشر النص العربي كما تركه التونسي ، بل أعاد ترجمة كل لفظ من ألفاظ القاموس إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، ونشره جامعاً لهذه اللغات الثلاث ، وطبع هذا الجزء الصغير على نفقة دار الكتب الخديوية في مطبعة المقتطف بالقاهرة ، سنة ١٣٣٢ (١٩١٤) ، غير أنه وقف عند هذا الحد ، ولم يتم طبع بقية القاموس ، فظل حتى الآن منسياً في دار الكتب ينتظر من يعنى بنشره وإحيائه .

وفي نفس الوقت الذي كان التونسي يعد فيه قاموس « الشذور الذهبية » فكر الدكتور برون في طبع القاموس المحيط للفيروزابادي في مصر ، وقد أشار إلى مشروعه هذا في كثير من رسائله إلى صديقه « جول مول » ؛ ففي خطابه إليه المؤرخ ١٤ يناير سنة ١٨٤٥ قال : « وتكون مخطئاً إذا حسبت أن القاموس يوجد عند العلماء ، فليس هناك في القاهرة ولا في مصر كلها عشرة علماء يملكون هذا القاموس ، بل ليس هناك عشرة علماء يعرفون كيف يستعمل القاموس » وختم خطابه بجملة فيها تهكم مرير ، قال : « فلنعط إذاً قاموساً للعلماء »

Donnons donc un dictionnaire aux Ulema

(البقية على الصفحة التالية)

سليمان الحكيم

وزوجه بنت فرعون مصر

للآنسة الزهرة

لعل أول ما يتبادر إلى الذهن ، لدى استعراض الملك سليمان ، أنه كان خليقاً بأن تنجبه « أبيجايل » الفطنة ، ذات اللب الرصين ، والعقل الأصيل ، لا أن يكون ابن « بتشبع » الفاتنة ، التي جمعت إلى براعة محاسنها — تخاذل العزم ، وضعف النفس وبذل القيادة ..

ولقد مد سليمان في وجه المجد غرباً ، وبلغ منزلة لا يتعلق بها درك ، كما بلغ بجاه أبيه مكانة يتقاصر عنها الأكفاء ، ويتراجع الأقران . وأفلح في تكثير ثروته الشخصية ، عن طريق جزية طائلة ، قدمتها له الأمم التي دانت لجبروته ، وعن طريق الأموال الأميرية ، التي كانت تدرّها عليه أملاكه الواسعة ، وعن طريق أرباحه التجارية مع البلاد القاصية — وقد رُوى أن سفنه جاءت دفعة واحدة ، بأربعمائة وعشرين وزنة من ذهب أوفير . وكان له أسطول تجارى في بحر الهند . وآخر في البحر الأبيض المتوسط . وكانت سفنه وقوافله تأتيه بالفضة والنحاس والعاج والأبنوس والبوص والخيل والمركبات والتوابل والأفاويه والطواويس والقرود . وجعل الفضة في أورشليم مثل الحجارة ، وجعل الأرز مثل الجميز . بل إنه فاق والده

وقد ذكر لصديقه في خطابات أخرى أنه أعد للأمر عدته ، فأحضر نسخاً كثيرة مخطوطة كما أحضر نسخة القاموس المطبوعة في كلكتا سنة ١٢٣٠ — ١٢٣٢ ، وأنه اتفق مع الشيخ التونسي على مراجعة النسخ ومقابلتها أثناء الطبع ، وأنه طلب من الباشا أن يأذن له بطبعه في مطبعة بولاق .

غير أني رجعت لأقدم نسخة من القاموس طبعت في بولاق ، فوجدت أنها نشرت في جزأين بإشراف وتصحيح الشيخين : محمد قطة العدوى ونصر الهورينى ، وذلك في سنة ١٢٧٢ (١٨٥٦) بأمر محمد سعيد باشا ، ولم أجد في المراجع التي أفدت منها ما يبين الأسباب التي عاقت برون والتونسى عن تنفيذ مشروعهما ، وجعلت تنفيذه على يد الشيخ نصر الهورينى .

وأخيراً لا ننسى أن نذكر أنه بينما كانت هذه المحاولات تتخذ طريقها لوضع أو لترجمة أو لنشر القواميس ، كان هناك شيخان جليلان — أحدهما انجليزى والثانى مصرى أزهرى — يجتمعان كل ليلة — لمدة سبع سنوات — في منزل متواضع بحارة الروم بالقاهرة ، وبين أيديهما نسختان من القاموس المحيط ، ونسخ كثيرة من قواميس اللغة العربية المختلفة ، يقرآن ويراجعان ، ويتفهمان ويصححان ، فإذا مضى الهزيع الأول من الليل عاد الشيخ الأزهرى إلى داره ، وعكف الشيخ الإنجليزى على ترجمة ما قرأ في ليلته إلى اللغة الإنجليزية ، فلما أتم تسعة أعشار القاموس عاد إلى وطنه ، وظل صديقه الأزهرى يوافيه بالعشر الباقى بعد مراجعته ، وهناك في لندن أتم ترجمة القاموس ، وطبع بنصيه العربى والإنجليزى الطبعة الأولى في لندن سنة ١٨٦٣ تحت عنوان : « مد القاموس عربى انجليزى Arabic English Lexicon » .

أما الشيخ الإنجليزى فهو المستشرق المعروف « مستر لين Mr. Lane » ، وأما الشيخ الأزهرى فهو الشيخ إبراهيم عبد الغفار الدسوقى ، الذى يقول بعد أن قص قصة علاقته بصديقه : « وقد وردت أجزاء من الكتاب المترجم إلى بعض الذوات بمصر ، مطبوعة باللغة العربية والإنكليزية باسم هذا الرجل ، مرسوماً فيها صورتى ، والثناء على ما كان من معروفى » .

جمال الدين الشيال

العظيم ، فى زيادة منازل « الحريم » . وإنا وإن كنا لا نعرف على وجه التحقيق عدد الزوجات اللواتى اتخذهن الملك داود ، إلا أننا نقرأ فى الكتاب المقدس أسماء سبع منهن بالذات غير « الزوجات الأخريات والسرارى » .

أما عن سليمان فإن الكتاب المقدس والمؤرخ يوسيفوس يحدثاننا بأنه قد كانت له سبعمائة من النساء السيدات المحصنات ، وثلثمائة من السرارى ، وقد اصطفى كثيرات منهن لأغراض سياسية بحتة ، وتذرع بهن لتوثيق عرى التحالف بينه وبين الصيدونيين والحثيين والعمونيين والأدوميين .

ولقد كان فى أول ملكه سعيداً جداً ، وتجلت آيات حكمته وذاعت فى الأقطار كافة ، وكان مقدار علمه عظيماً باذخاً ، وبرع فى الطبيعيات ، ولعله درسها فى بستان إيثام (وادى قرطاس) حيث كان يتردد محفوفاً بالفرسان والضباط الرافلين فى الملابس المزخرفة ، والذين رُشّت شعورهم بمسحوق الذهب ونطق بثلاثة آلاف مَثَل ، وألف وخمس نشائد ، وذاعت أنباء عبقريته فى جميع الأمصار ، حتى تقاطر أناس من الأباعد ليشاهدوها ، وكانوا يمتحنونه فى مسائل شتى عسيرة .

ولكنه استكثر من الزوجات ، فأغرينه فى آخر ملكه بعبادة الأوثان وما إليها من الجرائر والآثام ، فهبط من أعلى الحكمة إلى أحط دركات الحماقة ، وهد كيان الأسرة الموحدة وأضعف روابط الدم والرحم ! ولو أن صفراً واحداً أضيف إلى يمين الزوجات والسرارى اللواتى كن له .. بل لو أنهن جميعاً لم يجاوزن الثلاثة عداً — فإنا لا نعجب ، بل إننا لا نستطيع أن نسأل فى تعجبنا : لماذا جاء فى الكتاب المقدس « إن نساء سليمان فى شيخوخته ، أملن قلبه وراء آلهة أخرى » . ولكن الذى يدهشنا فى أمره ، ويثير حيرتنا إلى أقصى حد ، تمكنه من الاحتفاظ بسلامة عقله وبدنه ، مدة سنى حكمه الأربعين فى ١٠٢١ — ٩٨١ قبل الميلاد !!

على أن هذا « الاجهاد الصاعق ، أو الانغماس المسرف المدام » على حد التعبير الدقيق الذى وصفه به « الأسقف فرار » — كان فى أيام سليمان ، لا يوجب مثل هذه الدهشة ، التى تشغل أذهان الناس فى زماننا الحاضر . ولكنه مع ذلك صار موضع سخط الكتاب العبرانيين من المحدثين منذ ذلك الحين !!

أما الزوج التى كان لها المقام الأول فى النواحى التاريخية والاجتماعية فهى « بنت فرعون ملك مصر » . وقد صاهره سليمان قبل السنة الحادية عشرة لملكه . وكان هذا الفرعون المصرى ، قد صعد إلى « جازر » فى جنوب فلسطين ، فأخذها وقتل الكنعانيين الساكنين فيها ، وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان . وقد أخذ سليمان زوجه باحتفال عظيم ، وأتى بها إلى مدينة داود ، إلى أن « أكمل بناء بيته » الفخم « وبيت الرب » .

ولسنا نعرف شيئاً مفصلاً عن هذه الزوجة ، ولكننا نستطيع أن نجزم بأنها كانت مثقفة كسائر الأميرات المصريات وبأن ثقافتها كانت عالية يشاد بخواصها فى كل مجتمع وناد . ونعلم كذلك أنها احتفظت بعزتها ونفوذها وسيادتها طيلة أيام حياتها ، وأنها كانت ذات شخصية قوية إلى حد الطغيان ! فقد بنى لها سليمان بيتاً يحقق مثلها المألوفة لديها ، ويلائم ذوقها الذى كان يجمع إلى أسباب البهاء والروعة المعنوية القاهرة ، الفن السليم الرفيع ، والتنسيق الطريف الدقيق . وفى هذا وأشباهه تتجلى مزية المرأة المهذبة والسيدة المثقفة ، ومعنى الحضارة « الأجنبية » العجيبة .. إذ كان البذخ وحده لا يعز على الناس ، فى بداوات السذاجة الأولى ، ولا يدل على أكثر من الفخامة والضخامة والجسامة ....

بل إننا نعرف أنه قد كان لهذه الزوجة المصرية أثرها القوى فى تكييف حياة سليمان ، وفى تطور سير المجتمع الزراعى الإسرائيلى ، وصوغ خلاله وأذواقه ومزاجه ... بل لقد كان لها أثرها البيّن فى اتجاهات التفكير والدين والآداب والفنون ... إذ جاءت إلى سليمان فى اكتمال شبابه وعنفوان نشاطه وطموحه ، ولم يكن يطمح إلى المجد المادىّ أو الملك الواسع ، أو السلطان العريض .

وقد كان عدد رعاياه حينئذ لا يحصى من الكثرة ، ولكنه طلب « قلباً فهيماً وقدرة على التمييز بين الخير والشر » ليحكم « شعب الله العظيم » ، وقد أشاد الشاعر الاسكتلندي براونينج بثياب سليمان الفاخرة « ذات الألوان الزاهية ، التي اشتهرت (صور) باستخراجها من أصداف البحر » ، ووصف حجرة العرش وصفاً رائعاً في قصيدته التي ترجم لها باسم « الشهرة » فقال : « إن الشمس لتلتمس منها لألاءها وبهاءها ، وإنها فرشت بأرياش ، وكأنها قطع من الرياض .

بُسُط أجادَ الرسمَ صانعها
وزها عليها النقش والشغل
فيكاد يقطف من أزاهرها
ويكاد يسقط فوقها النحل

ثم وصف العرش ذاته وصفاً عجيباً معجزاً وقال : « إنه كان يضوع ويضيء بصاحبه ، كأنما اكتسب نوره من روحه ، واقتبس بريقه من رونقه ... إن امرأة سليمان كانت تنظر إليه وهو يسطع في الضياء بجمال بزته الساحرة وثيابه المطرزة الذهبية ، فتترنح به إعجاباً كما تترنح النحلة التي تختطف الشهد من الزنبق حين تعود إلى قريتها العامرة » .

وأكبر الاعتقاد أن الشاعر يقصد هذه الزوجة المصرية التي أخلصت الحب لسليمان ، وكانت تجد فيه سيدها ورجلها ومليكها الذي صافته ودها ، وآثرته بولائها إلى آخر نسمة من حياتها .

وقد ضجت مدينة القدس من أقصاها إلى أقصاها ، لاكتشاف أثر تاريخي عظيم ، طلعت الصحف بأخباره في أوائل سنة ١٩٢٩ ميلادية . وذلك إذ كان عمال الحفريات ينقبون في جنوب معالم هيكل سليمان ، فعثروا على سطح صخري ، مزدان بفسيفساء جميلة الصنع ، وفي وسط السطح صفيحة كبيرة من الحجر الصلد ، حليت بنقوش جميلة ، واتصلت بحلقة من الذهب المكرر . وبعد أن رفعها العمال جانباً ، انكشفت لهم ثغرة قاموا بتطهيرها من النازلات السائبة ، وأناروها ببطارية كهربائية خطفت الأبصار على مشهد رائع أخاذ ، هو مشهد حجرة ازدانت من أرضها لسقفها ، برسوم مخططة بالذهب والعاج ، وصفت في جوانبها الكراسي والمراوح التي لا يمكن تقدير ثمنها . وكان في الحجرة تابوت بديع من الذهب ، يشع منه بريق خاطف ، رغم انقضاء دهر طويل عليه . وبعد أن رفع غطاء التابوت ، وجدت بداخله جثة بشرية ، مدرجة في لفائف من القماش الثمين ، المرصع بالأحجار الثمينة . وكانت أصابع اليدين محلاة بالخواتم الغالية ، ورف على هامة الجثة تاج تتلألأ فيه أحجار الزمرد والياقوت . وبعد أن نقلت الجثة إلى دار الآثار في اليوم التالي ، وجدوا في طيات الثوب الذي يسترها ، وثيقة من رقّ الغزال ، وكانت مكتوبة باللغة العبرية القديمة وهذا نصها :

« ليكن معلوماً لدى الجيل الحاضر ، والأجيال المقبلة ، أني أنا سليمان ملك أورشليم ، قد دفنت في السنة السادسة والثلاثين من ملكي ، زوجي المحبوبة المصرية التي من منفيس ، في الحجرة القائمة تحت قصرها ، بعد أن بذلت نفسها في سبيل زوجها ومليكها ، فرأيت أن أضع بيدي ، تاجي المقدم لي من شعبي في السنة الخامسة والعشرين في ملكي — على جبين محبوبتي اعترافاً بحبها وإخلاصها . وقد زينت حجرتها بكل ما يليق بفتاة من أرض مصر . إنه منذ ثلاثة أشهر قد حضر « بسوفيس » والد زوجي ، يحمل هدايا أراد أن يتملقني بها ، ويختال حيالي ، ليضم عرشي إلى أرض مصر . وقد أغرى ابنته بأن تصبّ لي الخمر ونحن على المائدة . ولما دخلت كانت زوجي ممتقعة اللون ، ولم تحدثني نفسي بالخيانة .. ولما صبت الخمر في الكئوس ، لحظت أن والدها لم يمد يده إلى كأسه ، فرفعت كأسي إلى شفتي غير مرتاب .. ولكن زوجي انتزعت الكأس من يدي ، وتجرعته في سرعة فغضب والدها ، وفر من الغرفة . وبعد بضع دقائق تموت زوجي بين ذراعي ، جثة هامدة . إن بسوفيس الأثيم أوشك أن يقتلني بالسم . ولكن زوجي افتدتني .. فتوجتها بتاجي » .

عبيـــــد بن الأبرص

لسير تشارلس ليال

ترجمة الأستاذ حسين نصار

وكانت حدود أرض أسد تمتد جنوبي تيماء المشهورة، وشرق طريق التجارة العظيم الممتد من الشمال إلى الجنوب، وهو الآن طريق الحج من عَمّان إلى المدينة، وغربي وجنوبي الحد الشرقي من أجأ وسلمى، جبل طيء. وكانت أسد أقصى قبائل معد شمالاً، على الطريق من الجنوب إلى فلسطين وسورية؛ ووراءها قبائل عُذرة، وجُذام، وبلىّ الجنبة، على الطريق التجاري، وإلى شرقها وشمالها الشرقي قبيلة كَلب، الجنبة الأصل أيضاً، في المنخفضات المسماة الآن بوادي سرحان والجوف، يفصلها من أسد شريط واسع من السلاسل الرملية (النفود الآن). وقد زار عدة رحالة أوربيين أرض أسد. وقد عبرها دَفتي، في ربيع ١٨٧٧، في طريقه من مدائن صالح إلى تيماء ومن تيماء إلى حائل. واخترقها أيوتنج Euting وهوبر Huber عام ١٨٨٤. ووصف حديثاً مستر دجلاس كرزرث Douglas Carruthers، الذي زار تيماء من الشمال في شتاء عام ٨ — ١٩٠٩، تجاربه في «مجلة الجمعية الجغرافية الملكية» عدد مارس ١٩١٠، ومناظر هذه المواطن متنوعة. ففي الشرق والشمال سلاسل جبال أجأ وسلمى، تمتد شمالاً بشرق وجنوباً بغرب، وهي كتل هائلة من الجرانيت؛ وفي الغرب المرتفع الرمل ومناطق الحصى الشاسعة لطريق الحج، وتصبح في الربيع مراعي خصبة، كثيرة المياه. وفي الوسط منطقة السلاسل والقفار من المرتفعات الصخرية المتلفة، وفي الجنوب الحَرّات الكبيرة، أو سهول اللافا البركانية، لا تخلو من المراعي والمياه، وأكبرها حرّة خيبر، وكان اسمها حرة ضَرْغد.

وكان عَبيد من سعد بن ثَعْلبة (بن دُودان بن أسد) ويبدو أن نسبه الكامل هو: عَبيد بن الأبْرص (بن عوف) بن جشَم بن عامر بن مالك بن زهير (أو وهْب) بن مالك بن الحارث بن سعد بن ثعلبة. ووصف البكري أرض بني سعد بأنها على مسافة ١٦ ميلاً من فَيْد في اتجاه الكوفة، على سفوح جبل عُنيزة. وتذكر في القصائد عدة أماكن من هذه المنطقة. ويدل وصفها على أنها ليست بعيدة عن مدينة «حائل» الحديثة، وأن دور بني أسد كانت مختلطة بدور بطون طيء. ويبدو من القصيدة ١٨ أنها تعرضت لخسائر جسيمة من جراء هجمات بني غسان بقيادة الحارث الأعرج، الملك النشط، الذي تعرفه القسطنطينية جيداً. ويذكر مطلع القصيدة الأولى إقفار أرضهم، والقصيدة ١٨ البيت الثاني، تفرقة الباقين بين البطون الأخرى من القبيلة. ويذكر في قصائد أخرى معاهدات مع الحارث؛ وكان الوضع الجغرافي يجعل أسداً أول قبيلة مستقلة من أصل عربي يلقى محاربها الملك الغساني في حملاته التي يبغيها لمعاقبة مهاجمي الحدود الرومانية. وربما شارك هذا البطن من أسد في هجمات حجر ومعد يكرب المذكورة آنفاً عامي ٤٩٧ و٥٠١.

ولكن الحوادث التاريخية الرئيسية المذكورة في القصائد تتصل بذبح حجر ومحاولة امرئ القيس الثأر له. ويخاطب عبيد في إحدى قصائد الديوان (رقم ٢٩) البالغة ثلاثين قصيدة، حجراً نفسه؛ ويخاطب في القصائد ٣٠،١٧،١٢،٤ امرأ القيس أو يشير إليه؛ ويذكر في قصيدتين أخريين، بالإضافة إلى ما ذكر فوق، أي رقم ٢ (البيت ٣٧) ورقم ٢٦ (البيت ١١) مقتل حجر. ويشير ثلاث (رقم ١، ٨، ١٠) من المقتولات في آخر الديوان إلى الحادث نفسه.

ولا يرتبط عبيد بامرىء القيس بواسطة هذه الأحداث التاريخية وحدها : إذ توجد إشارات واضحة فى أشعارهما كليهما تدل على أنهما عالجا موضوعات واحدة ، وربما اشتركا فى مناقرات ودية (قبل ظهور العداء بينهما) . فتوافق أشهر قصائد عبيد ، الأولى ، قصيدة امرىء القيس ١٥ فى طبعة آلورد فى العبارات والوزن ، كما بيّن الدكتور همّل Dr. Hommel عام ١٨٩٢ . وهذه ظاهرة جديرة بالملاحظة ، لأن بحرها نوع من البسيط ، غاية فى الندرة ، بل لا أعرف مثالا آخر منه فى الشعر العربى القديم . وهناك حالات أخرى يظهر فيها الشاعران يستمدان من ذخيرة شعرية واحدة فى العبارات والموضوعات ، أو يعالجان موضوعاتهما معالجة واحدة ؛ وأوجه الأنظار إلى التعليقات فى القصائد المختلفة . ولست بحاجة إلى القول بأن هذه الإشارات التاريخية والاتفاقات فى معالجة الموضوعات تعطينا أدلة قوية على صحة القصائد ، قصائد الشاعر الأسدى وأمير كندة ، التى ترد فيها . وقد نشك فى التفاصيل الخرافية عن ذبح حجر وطواف امرىء القيس طلبا لثأره ، كما جاءت فى الروايات ؛ ولكن يبدو لى أنه لا مبرر للشك فى الحوادث الرئيسة . بل رحلة امرىء القيس إلى امبراطور القسطنطينية لطلب نصرته ، التى تبدو غير محتملة للوهلة الأولى ، يوجد ما يؤيدها فى قصيدة عبيد ١٥ البيت ١٩ . ويوجد شاهد آخر يؤيد صحة الخبر الذى تذكره الروايات عن وضع الأمير ، حين شرع فى رحلته إلى الشمال ، ذخيرة قيمة من الأسلحة والدروع لدى الزعيم اليهودى السموءل بن عادياء ، فوضعها فى قصره الأبلق بجوار تيماء . وحين توفى امرؤ القيس فى أثناء رجوعه ، ظهر الحارث ملك غسان وحامى الحدود الرومانية ، أمام الأبلق ، وطالب بأسلحة امرىء القيس . فرفض الزعيم اليهودى أن يسلم وديعته ، حتى عندما هدده الحارث بقتل ابنه ، الذى أسره وهو خارج القصر يصطاد ، أمام نظر أبيه ، وقد قتله فعلاً . ومهما يكن من شىء ، فإن الملك الغسانى عجز عن اقتحام القصر وانسحب دون أن يقضى وطره . ومن الواضح أن الحارث اعتمد فى طلبه وديعة امرىء القيس على أن امرأ القيس صار من الرعية الرومانية باستنصاره قيصر ، وأنه المسئول عن إرثه ، لكونه ممثل الرومان ؛ وقد وردت مكرمة السموءل هذه فى قصيدة مشهورة لأعشى قيس يمدح بها شريحا ، من ولد السموءل ، فى أوائل القرن السابع الميلادى ، ولا يمكن أن يتطرق الشك إليها .

ولا تشير أية قصيدة فى الديوان إلى موت امرىء القيس ، ومن المحتمل أن عبيدا لم يحيَ بعده .

وليس لدينا أخبار عن تفاصيل حياة عبيد ، غير ما جاء فى قصائده . ومن الواضح أن الأخبار التى تروى عنه خرافية ، ولا تحمل طابع الصدق . قيل إن سبب قوله الشعر أنه أتاه آتٍ فى منامه تحت شجرات بالعراء بكُبّة من شعر فألقاها فى فيه ، وقال : قلْ ما بدا لك ، فأنت أشعر العرب ، وأمجد العرب . وقيل إنه عمّر طويلا جدا ، حتى لقد قيل ٣٠٠ عام ، كما قيل إنه زار حاتم طيء المشهور فى صحبة بشر بن أبى خازم والنابغة الذبيانى ، فى أثناء وفودهم على بلاط النعمان أبى قابوس ، آخر خلفاء الحيرة اللخميين . ولا يتفق هذا مع الرواية الأخرى الصحيحة ، القائلة بأن عبيداً قتله المنذر بن ماء السماء جد النعمان . ونعرف من المؤرخين البيزنطيين والسريانيين أن المنذر قتل فى حربه مع الحارث الغسانى عام ٥٥٤ م ؛ إذاً فهو آخر عام يمكن أن تؤرخ به وفاة عبيد ، وإن كنا لا نستطيع أن نعرف المدة التى انقضت على وفاته قبل ذلك العام . ولم يتول النعمان العرش إلا حوالى عام ٥٨٠ م . والخبر العجيب عن قتل المنذر لعبيد فى الصفحة ٢ — ٤ من الديوان ؛ وربما كانت أحسن رواية له الموجودة فى « أمالى » القالى . وكان الغريّان أو الطِّربالان المبنيان على قبرى نديمى الملك الأسديين ، واللذان كان المنذر يسفح عليهما دم أول من يراه فى يوم بؤسه ، لا يزالان فى زمن ابن قتيبة فى الكوفة (الناحية الحيرة القديمة) ويقال فى معجم ياقوت إن تمثين ابن زائدة ، فى زمن ثعلب النحوى ، وجد أحدهما دائراً ، والآخر ماثلا .

ويظهر فى معظم قصائد عبيد أنها من تأليف رجل متقدم السنّ ، ينظر إلى شباب بعدّه من أجمل المراحل التى قام فيها بجلائل الأعمال . ولا يتفق هذا مع الخبر القائل بأنه كان فقيراً مقلا يرعى غُنَيْمة له ، حينما هبط عليه الإلهام المرة الأولى ؛ ويبدو أن نسختنا زادت عبارة ، ليست فى رواية الخبر المطبوع فى « القصائد العشر » ص ١٥٩ ، لتبين أن فقره يرجع إلى بَسْط يده ، وصلة رحمه .

ويوضع عبيد فى مرتبة عالية بين الشعراء القدامى . فقد وضعه محمد بن سلام فى الطبقة الرابعة من الفحول ، مع طرفة ، وعلقمة بن عَبَدة ، وعَدِىّ بن زيد ؛ ويخبرنا الفقرة نفسها أن ذلك المؤلف لا يعرف من قصائده سوى « أقفرَ من أهلِهِ مَلحوب » . إذ أن شعره مضطرب ذاهب ، لقدمه ، على الرغم من شهرته الواسعة . ويقول ابن قتيبة إن القصيدة الأولى تعدّ « من السبعة » ، أى من المعلقات ؛ وربما قدّرها النقاد لصفتها التعليمية والأخلاقية التى ليست ميزتها الكبرى فى نظرنا . ولا شك أن هذا سببه اقتران عبيد بعدىّ بن زيد الحضرمى ، الذى يختلف عن عبيد من جميع الوجوه الأخرى اختلافا كبيراً . واشتهر عبيد بوصف العواصف والأمطار . وروى يونس عن ذى الرمة (وكان بارعاً فى هذا الشأن) أنه فضل امرأ القيس عليه ؛ ولكنه يعد مع أوس بن حجر سادة هذا الوصف . ويتناول كثير من قصائده الباقية العواصف . ويذكره الفرزدق « من النوابغ الماضين الذين وهبوه الشعر » فى عبارة مشهورة يعدد فيها من سبقه من الشعراء العظماء .

ولم تصل إلينا أخبار عن أول من جمع قصائد عبيد الباقية من الفناء ، ويبدو من عبارة ابن سلام (المتوفى سنة ٢٣١) المشار إليها آنفاً أنها لم تكن جمعت حين ألف « طبقات الشعراء الجاهليين » ، ومع ذلك يشار فى شرحنا [الديوان] إلى أبى عمرو الشيبانى ، ذلك الراوى الجامع الذى لا يمل الشعر القديم ، والمتوفى قبل ذلك بعشرين عاماً أو خمسة وعشرين (يقال إنه توفى عام ٢٠٥ أو ٢٠٦ أو ٢١٣) يشار إليه حوالى عشر مرات على أنه عرف عدة قصائد ؛ كما أنه راوى خبر إلهام عبيد بالشعر الذى يفتتح به الديوان . ويذكر الأصمعى (المتوفى سنة ٢١٣) وأبو عبيدة (المتوفى بين عامى ٢٠٨ و ٢١١) فى الشرح ثلاث مرات ، وخالد بن كلثوم مرتين ، وأبو الحسن الأثرم مرة ، ولكن الرواة الذين يتردد ذكرهم كثيراً فى الشرح هم ابن كناسة وأبو الوليد ؛ ويبدو أن الأول المذكور باسمه فى شرح البيت الثانى من القصيدة الثالثة هو محمد بن كناسة الذى يترجم له صاحب الأغانى ١٢ : ١١١ — ١١٥ ، وهو أسدى من بنى الحارث بن ثعلبة (أخى جد عبيد : سعد ابن ثعلبة) عاش فى الكوفة حيث يظهر أن جماعة كبيرة من أسد أقامت بها فى العصر الأموى وأوائل العباسى ؛ وكان ابن أخت ابراهيم بن أدهم الصوفى القديم المشهور ورثاه . وذكر جامى فى « نفحات الأنس » أن ابراهيم بن أدهم توفى عام ١٦١ أو ١٦٦ ، ويقال إن ابن كناسة سمع من الأعمش الذى يذكره « لسان العرب » أحياناً ، وهو مولى بنى كاهل بن أسد فى الكوفة ، وتوفى فيها عام ١٤٧ (أو ١٤٨ أو ١٤٩) .

أما أبو الوليد الذى يذكر أيضاً فى شرح هبة الله فى « المختارات » فلم نستطع أن نعرفه . فربما كان أبا الوليد عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب من بنى الشداخ بن كنانة ، المذكور فى « الفهرست » (ص ٩٠) فى النسابين والمحدثين ؛ ويقال فيه إن أباه كان عالماً بالحديث وأشعار العرب . وتدل المقتبسات الكثيرة من قصائد عبيد فى كتب الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥) دلالة واضحة على وجود الديوان (أو القصائد المؤلفة له) فى أوائل القرن الثالث ، على حين يؤكد ابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦) صحتها فى أواخر القرن نفسه ، وتوجد اثنتا عشرة قصيدة لعبيد فى المجموعة المسماة « مختارات شعراء العرب » التى جمعها هبة الله بن الشجرى (المتوفى سنة ٥٤٢) ، وتوجد نسخة منها بخط المؤلف فى دار الكتب المصرية بالقاهرة ، وطبعت بالحجر عام ١٣٠٦ هـ .

(البحث بقية)

ترجمة

حسين نصار

طرائف يونانية ورومانية

للأستاذ أمين سلامه

حضرت منية أبا فيثاغوراس فى أرض غربة فحزن عليه أصدقاؤه ، فقال لهم : أيها الأصدقاء ليس بين الموت فى الوطن والموت فى الغربة فرق ، لأن الطريق إلى الآخرة من جميع المواضع واحد .

* * *

سئل أرسطو : ما فضل المتعلمين على غير المتعلمين ؟ فقال : فضل الأحياء على الأموات .

* * *

مر الإسكندر بمدينة قد ملكها غيره من الملوك ، فقال : انظروا هل بقي بها أحد من نسل ملوكها . فقالوا : رجل يسكن المقابر . فأحضره وسأله عن إقامته هذه ، فقال : أردت أن أميز عظام الملوك من عظام عبيدهم ، فوجدتها سواء . فقال : هل تتبعنى فأحيى لك شرفك إن كان لك همة ؟ فقال : همتى عظيمة إن أدركتها . فقال : ما هى ؟ قال : حياة لا موت معها ، وشباب لا هرم معه ، وغنى لا فقر معه ، وسرور لا مكروه فيه . فقال : ليس عندى هذا . فقال : كدعنى أتلمسه ممن هو عنده . فقال : ما رأيت مثله حكيما .

* * *

قيل لأفلاطون : كيف ينبغى للرجل أن يصنع لئلا يحتاج ؟ فقال : إن كان غنياً فليقتصد ، وإن كان فقيراً فليدمن العمل .

* * *

دخل ديوجينيس على أنتيثوس فى غرفته وتحت عباءته سكين ، فقال له الفيلسوف : ما الذى يخلصنى مما أقاسيه ؟ فأخرج ديوجينيس السكين من تحت عباءته ، وقال له : هذه هى التى تخلصك . فقال له : إنما أعنى الخلاص من الآلام لا الخلاص من الحياة .

* * *

جاء رجل إلى بتاكوس يقول : إنه يريد أن يتزوج من إحدى اثنتين ، واحدة تساويه حسباً ونسباً والأخرى أغنى منه وأعلى نسباً ، وطلب من الفيلسوف أن يختار له الصالحة ، فأشار عليه أن يذهب إلى مجمع الصبيان الذين يلعبون فيه ، ويسمع ما يقولونه ، ويعمل به ... فلما ذهب سمعهم ينبهون بعضهم ويقولون كل واحد يأخذ نده ... فاعتبر الرجل وآثر التى تقاربه فى الحسب والنسب والغنى .

* * *

قيل لبطليموس : قتل ابنك فى الحرب . فقال : إنه ابن أبيه . ثم قيل له بعد ذلك : إنه لم يقتل لكنه أسر . فقال : لأنه ابن أمه .

* * *

حاول بعض أصدقاء بومبى أن يثنوه عن نية الذهاب إلى روما ، وكانت تعمها الفوضى ، حتى لا يعرض حياته للخطر ، فأجابهم : « من واجبى أن أذهب وليس من واجبى أن أحيا » .

* * *

قيل لديوفريتوس : لم اخترت امرأة دميمة قبيحة الوجه وأنت وسيم جسيم ؟ قال : اخترت من الشر أقله .

* * *

قال سقراط لامرأته حين جزعت لقتله : ما يبكيك ؟ قالت : لأنك تقتل « مظلوماً » . فقال : يا عاجزة الرأى ، أ كنت تريدين أن أقتل بحق ؟ .

* * *

قديم .. وجديد

• إليها .. معاً •

أهوى أخاكِ ولا أنساك بالقمر
كلاكما نغمةٌ تذكو وتنتشرُ
كلاكما بسمةٌ — كالفجر — يرقبها
من بات يطوى الدجى والليل معتكر
كلاكما نشوةٌ لا الكأسُ تعرفها
ولا الندامى ولا الخمر التى عصروا
كلاكما دوحةٌ لو لم أمرّ بها ..
لعشت فى الناسِ لا ظلٌّ ولا ثمر
أنا الغريب الذى آوته روضتكم
يامن بروضتكم قد أخصب الحجر
أسوان يمضى مع الأيام مبتسماً
وبين جنبيه نار الشوق تستعر
ويكتم الناس ما يلقاه معتقداً
أن الشكايةَ ذلٌّ والبكا خور
ويُنهر القلب فى رفقٍ .. فإن بدرتْ
منه البوادرُ لم يُسمع لها خبر
ويقدرُ اللفظَ حتى لا يقال بدا
عما يكابده فى لفظه أثر
هو العذاب أضنته هواجسه
وهدّه التوأمان : اليأس والضجر
ما آب من سفرٍ إلاّ إلى سفرٍ
وقد تساءلتْ به الأيامُ والقدر
ما زال مُذْ صاحبَ الدنيا على ظمأٍ
يغدو وفى قلبه الأحزانُ تشتجر
هذا الربيعُ .. وربيع العمر يجحدهُ
فكيف يصبح لو يمضى به العُمرُ ؟

• • •

عفواً سعادُ فإنى عنه معتذرٌ
هذا الذى سرُّه لم يسمعْ به بَشَرُ
أرتهِ أنتِ فالسابتْ كوامنُه
وهبَّ منها أريجٌ حالمٌ عطِرُ
ذكرى العهودِ التى ضاعت معالمها
ما زلت أحيا بها ... والحر يدّكر

علي بيومي

نظر سيموندس إلى مصارع يتبختر فقال له : أتغلب من هو أقوى منك أو من هو مثلك أو من هو دونك ؟ فقال : من هو أقوى منى . فقال : كذبت . قال : فمن هو مثلى . قال : كذبت ، لو كان مثلك لتساويتما . قال : فمن هو دونى قال : فكل إنسان يغلب من هو دونه .

• • •

سئل صولون : أيما أحمد فى الصبى الحياء أم الخوف ؟ فقال : الحياء ، لأن الحياء يدل على العقل ، والخوف يدل على الجبن .

• • •

بينما كان فيليب ملك مقدونيا يصارع فى المباريات الأولمبية ، سقط فوق الرمال . فلما نهض ولاحظ الأثر الذى تركه جسده قال : « واحسرتاه ، يا لها من رقعة صغيرة ستطوينا يوم أن نموت . فى حين أننا نحاول الآن فى طموح زائد أن نسيطر على العالم كله » .

أمين معوض

البحر فى الأدب العربى

للأستاذ جمال الدين الرمادى

... هـذا البحر الخضم الأزرق الذى يجيش زبده ويثار كالقطن المندوف ، ويضج هديره ويصخب كالأسـد الغضوب ، أو يصفو ويهدأ كمرآة صافية ، أو سماء أخرى تتراءى على الأرض . هذا البحر كم ألهم الشعراء والكتاب فى الأدب العربى فى عصـوره المختلفة وأطواره المتباينة ؟ وسنحاول فى هـذا الفصل أن نتحدث عن أثر البحر فى الأدب العربى .

والذى لاشك فيـه أن البحر كان عند العرب شيئاً مخيفاً مفزعاً ، وكان العرب يخافون ركوبه ، بل إن عمر ابن الخطاب نفسه خاف ركوبه ، فأمر عمرو بن العاص أن يمنع جيشـه من ركوبه ، وكتب إلى عمرو وثيقة تاريخية إن دلت على شىء فإنما تدل على نفور عمر أمير المؤمنين من ركوب البحر ، ولم يوافق عمر على ما عزم عليه عمرو إلا بعد أن وصف ابن العاص البحر وصفاً أدبياً رائعاً ، وخفف لأمير المؤمنين من شأنه ؛ فأباح عمر ركوبه وسأل الله الوقاية من الخطوب والأهوال والعناية الربانية إلى شاطئ الأمان ...

•

وشبّه امرؤ القيس الليـل بموج البحر فى العصر الجاهلى ، وصـور طرفة شق حيزوم السفين الماء كما قسم الترب المفايل باليد ، وكانت هـذه الأوصاف والصور التى يأتى بها الشعراء فى العصر الجاهلى دخيلة على الشعراء الجاهليين ، لأنهم لم يعرفوا سوى الصحراء والناقة والخيل وما إلى ذلك .

فلما تقدم الزمن وانتشرت مظاهر الحضارة واتسعت الفتوح ، عرف العرب البحر معرفة قريبة وثيقة ، وتناول الشعراء والكتاب أثره فى شعرهم ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « لما أراد الله عز وجل أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء ، ووصف من طولها وعرضها وسمكها ؛ ثم نظر إليها بعين الهيبة ، فصارت ماء يترقرق لايثبت فى ضحضاح ، فما يرى من التموج والاضطراب إنما هو ارتعاده من خشية الله تعالى ، ثم خلق الريح فوضع الماء على متنه ، ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء » .

ولعل ابن عباس دفع إلى هذا القول الأخير دفعاً ، لأن الله تعالى يقول فى كتابه العزيز : (وكان عرشـه على الماء) .

وقد حاول شاعر إسلامى أن يقتبس من القرآن الكريم فى شعره فقال أحمد بن محمد الكمال :

قد قلت إذ سـار السفين بهم
والشـوق ينهب مهجتى نهـبا
لو أن لى عزماً أصـول به
لأخذت كل سـفينة غصـبا

ووصف ابن العميد كما وصف القرطبى وأحمد بن عبد الملك وغيرهم البحر وصفاً نثرياً ، فيه مزاوجة بين العبارات ، وفيه ترادف بين الألفاظ ، وفيه انتقاء الكلمات السنية الجرس الوسيق والإيقاع .

ووصف ابن العميد السفن فقال : (كأن المشاريات قد رديت بالقار وحليت بالعجين والنضار . عرائس منشورة الذوائب ، مخضوبة الحواجب ، مفلجة الترائب ، متوجة المفارق ، مكللة العواتق) . وقال أبو عمرو صاحب الصلاة القرطبى : (والبحر تحتنا كأرض تميد بأهلها ، وتزلزل بوعرها وسهلها ، ونحن نعود دود على عود ، قد ثبت منا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق ألسنتنا ، والرش يكتنفنا من كل جانب ، ويسيل من أثوابنا سيل الذائب ،

فشممنا ريح الموت ، وظننا التلف والفوت ...) .

وقال ابن رشيق صاحب كتاب العمدة يتبين طريقين في البحر :

البحر مر المذاق صعب ... لا جعلت حاجتي إليه
أليس ماء ونحن طين ... فما عسى صبرنا عليه

والغريب أن بعض الشعراء العرب عندما حاولوا وصف البحر طغت عليهم طبيعتهم العربية طغياناً ، فإذا هم يشبهون هدير الموج بركض الخيل ، وإذا هم يصورون البحر ميدان تتسابق فيه الجياد ، فقال السلامي :

وميدان تجول به خيول ... تقود الدارعين ولا تقاد
ركبت به إلى اللذات طرفاً ... له جسم وليس له فؤاد
جرى فظننت أن الأرض وجه ... ودجلة ناظر وهو السواد

وأغرب من هذا ما وصف به شاعر آخر السفن بالأفاعي فقال محمد بن هانئ* :

معطفة الأعناق نحو متونها
كما نبهت أيدي الحواة الأفاعيا
إذا أعملوا فيها المجاديف سرعة
ترى عقرباً منها على الماء ماشياً
إذا ما وردن الماء شوقاً لبرده
صدرن ولم يشربن منه سواديا

ووصف الرستمي السفن وصفاً بديعاً جميلاً قلما نجد نظيراً له في الأدب العربي القديم ، بل وربما في الأدب العربي الحديث كذلك :

وتراها في اللج ذات جناحيـ
ـن وإن لم تكن بذات جناح
لا من البيض بل من السود ألوا
نا وذات الألواح والأرواح
طائرات مع الرياح وطوراً
كاسرات بالجري حد الرياح
سائرات لا يشتكين سرى الليـ
ـل ولا يرتقبن ضوء الصباح
ساكنات بلا خضوع سكون
جانحات بلا جمام جماح

والندى على البحر منظر رائع يجلب العين ويستهوي القلب . وقال أبو العباس الكندي يصف هذا المنظر الجميل :

كأن الندى في البحر بحران مائع
على مائع هذا على ذاك مطبق
فهذا لجين مائع مترقرق
وذاك لجين في السماء معلق
إذا أبصرته الشمس بعد احتجابها
له ساعة أبصرته يتمزق

ويعرض بعض الشعراء العرب في بعض قصائد المديح لوصف البحر ؛ وذلك بأن يصوروا للممدوح الطريق الذي سلكوه في سبيله ، وكيف أنهم قطعوا البحار والقفار ابتغاء وجهه ، ومثال ذلك قول القسطلي الذي كان بصقع الأندلس ، كما كان المتنبي بصقع الشام ، اسمعه يقول :

إليك شحنا الفلك تهوي كأنها
وقد ذعرت عن مغرب الشمس غربان
على لجج خضر إذا هبت الصبا
ترامى بنا فيها ثبير وثهلان
وإن سكنت عنا الرياح جرى بنا
زفير إلى ذكر الأحبة حنان
بفلك وموج البحر والهم والدجى
تموج بنا فيها عيون وآذان
ألا هل إلى الدنيا معاد وهل لنا
سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان

والبحر في الأدب العربي ملاذ الحب وملجأ الهوى ، ومرتع الغرام ؛ مثله في هذا كمثل الأدب العربي الذي يصور كثير من الشعراء فيه أحلام الحب في حمى جزيرة نائية في المحيط ، أو زوارق الهوى وهي تنساب في دعة وهوادة على الماء ؛ وحاول بعض الشعراء المحدثين في الأدب العربي - كالشاعر علي محمود طه أن يحذو حذو الأدب الغربي في

احتفاله بالبحر وتصوره ليالى الحب بين أحضانه ، فصور خمر الرى وليالى فينسيا والشاطئ المهجور .

استمع إلى قول (السرى) فى شرب ليلة فى زورق :

ومقتدل يسعى إلىّ بكأسه
وقد كاد ضوء الصبح بالليل يفتك
وقد حجب الغيم السماء كأنما
يزر عليها منه ثوب ممسك
ظللنا نبث الوجد والكأس دائر
ونهتك أستار الهوى فتهتك
ومجلسنا فى الماء يهوى ويرتقى
وإبريقنا فى الكأس يبكى ويضحك

والبحر فى الأدب العربى مبعث الحكمة كذلك ، ومصدر العظة البالغة والعبرة الخالدة ؛ قال ابن الرومى :

كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سُفلاً وتعلو فوقه جيفه

ولكننا لا ينبغى أن ننسى أن ابن الرومى كان يخاف البحر لشدة تطيره وكثرة تشاؤمه ، ومن شدة حذره قوله لأبى العباس بن ثوابة ، وقد ندبه إلى الخروج إليه وركوب دجلة :

أذاقتنى الأسفار ما كرّه الغنى
إلىّ وأغرانى برفض المطالب
لقيت من البحر التبارح بعد ما
لقيت من البحر ابيضاض الذوائب
فما زلت فى جوع وخوف ووحشة
وفى سهر يستغرق الليل واصب
وأما بلاء البحر عندى فإنه
طوانى على روع من الروح واقب
ولم لا ولو ألقيت فيه بصخرة
لوافيت منه القعر أول راسب
ولم أتعلم قط من ذى سباحة
سوى الغوص والمضعوف غير مغالب
وأيسر إشفاق من الماء أننى
أمر به فى الكوز مر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب
فكيف بأمنيه على نفس راكب

فابن الرومى فى هذه القصيدة يبين لنا نفسيته ويظهر لنا علته من عدم ركوب البحر ؛ فهو يخاف عمقه ، لأن الصخرة تتردى فيه بمجرد سقوطها ، وهو لم يتعلم السباحة ، ولا يستطيع أن يغلب الموج ، وهو بعد هذا وذاك يتطير من شرب الماء فى الكوز خشية الموت ومخافة الهلاك مما فيه من أكدار أو أقذار وشوائب .

ولكن علة خوف أبى نواس من البحر تخالف علة ابن الرومى ؛ فأبو نواس يهاب التماسيح التى تجرى فيه ، وقد رأى التمساح أخذ رجلاً بمصر فقال :

أضمرت للنيل هجراناً ومقلية
مذ قيل لى إنما التمساح فى النيل
فمن رأى النيل رأى العين عن كثب
فما أرى النيل إلا فى البراقيل

ومهما يكن من شىء فإن البحر فى الأدب العربى مبعث الحكمة ومصدر العظة البالغة والعبرة الخالدة . وحاول الشاعر المعاصر إيليا أبو ماضى صاحب مجلة السمير بنيويورك أن يفلسف البحر فلسفة ويتحدث عن أصله ، كما حاول الفلاسفة الإغريق الأولون فقال :

قد سألت السحب فى الآفاق هل تذكر رملك
وسألت الشجر المورق هل يعرف فضلك
وسألت الدر فى الأعناق هل يذكر أصلك
وكأنى خلتها قالت جميعا
لست أدرى !
إننى يا بحر بحر شاطئاه شاطئاكا
الغد المجهول والأمس اللذان اكتنفاكا
وكلانا يا بحر قطرة فى ذا وذاكا
لا تسلنى ما غد وما أمس إنى
لست أدرى !

جمال الدين الرمادى

هل لعلم النفس علاقة بالبدانة ؟

ترجمة الأستاذ حسين أحمد أمين

يعتقد الناس أن الشخص البدين يكون عادة سعيداً ومتفائلاً مرحاً .. أما علماء النفس فيرون أن العكس أقرب إلى الصحة .

إن الشخص البدين المرح إنما هو كذلك في الظاهر فقط ، وقد رأى أن مرحه وإلقاء بعض نكاته خارج نفسه على شكل نكتة يجعل حياته أسهل وألطف .. أما في داخل نفسه فهو يعاني التعاسة وتقلب العواطف واضطرابها .. هذه التعاسة هي السبب في بدانته ..

إن السبب المادي في البدانة هو كثرة الأكل بالطبع .. فإذا أكلت طعاماً كل يوم أكثر مما يحتاجه جسمك لأداء وظائفه ، فإن الزائد عن الحاجة يتحول إلى مواد دهنية تختزن في أنسجة الجسم . وكلما زادت بدانتك أثر ذلك على الدم والأعضاء والأعصاب المنتشرة في الجسم .

وبغض النظر عن كون البدانة حملاً على صاحبها فهي تؤثر تأثيراً سيئاً على الكبد والقلب والدورة الدموية .. فتغدو السمنة مهددة للصحة ومهددة للحياة ..

فإذا بدأت تأكل كل يوم أقل مما يحتاجه جسمك لأداء وظائفه ؛ فإن الجسم سيبدأ في استهلاك المختزن من المواد الدهنية وسيبدأ وزنك في الانخفاض . وباستطاعتك — إذا أردت — أن تستعجل هذا الانخفاض ؛ وذلك بممارسة الألعاب الرياضية فيزداد احتراق المواد المختزنة الزائدة .. غير أن هناك حداً لذلك .

فمن الحماقة أن ينهك البدين جسمه فوق طاقته ، وأن يقوم في يومه بأعنف وأقسى التمرينات . فالرياضة الزائدة عن الحد المعقول قد تجلب عليه من الضرر أكثر مما تجلب عليه من النفع .. أما الرياضة المعتدلة المنتظمة فإنها تفيده في النهاية أكثر بكثير من الإجهاد وإنهاك الجسم .

ولكن إذا قلنا إن سبب البدانة هو الأكل الكثير ، وإن علاجها هو التقليل من الأكل ، فما السبب في أن الكثيرين من الناس قد فشلوا في محاولتهم لإزالة بدانتهم ؟.

انتشر بين الناس أن السبب في ذلك هو اختلال في غدد الجسم ، ولكن هذا ليس بالصحيح إلا في حالات نادرة جداً هي أقل من حالة في كل مائة حالة .. ومن الخطأ أن تقول إن السبب الوحيد للبدانة هو كثرة الأكل .

إن كثرة الأكل تؤدي إلى السمنة ، ولكن ما يعني الطبيب النفساني ليس هو كثرة الأكل نفسها ، بل السبب الذي يدفع الشخص البدين إلى كثرة الأكل ..

إن السبب في فشل الكثيرين في محاولتهم لإزالة بدانتهم هو عدم قدرتهم على مقاومة الطعام .. قد يحاولون تقليل كمية الطعام الذي يتناولونه ، وقد يتبعون نظاماً خاصاً في الأكل ، ولكنهم مع ذلك يخدعون أطباءهم ويخدعون أنفسهم بتناول كميات صغيرة ودسمة إضافية من الشيكولاتة والآيس كريم والمشروبات المسكرة ، وذلك فيما بين الوجبات ..

وأعتقد أنه من الصعب جداً أن يخف الإنسان ويقلل وزنه بالتقليل من الطعام ما دام يجهل السبب الذي يدفعه إلى الإكثار من الطعام ..

الحقيقة هي أن الطعام بالنسبة للشخص البدين كالخمر بالنسبة للمدمن على المشروبات الروحية ، كلاهما وسيلة للهرب من المخاوف والهواجس التي تسيطر على النفس .. والشخص العادي يأكل للذة ولإشباع جوعه . أما الشخص البدين فلا تهمه اللذة التي يسعى إليها الشخص العادي . فأكله له معنى عاطفي ، لا يقصد به إشباع جوع جسمه بقدر إشباع جوع روحه وعواطفه ..

ففي الأكل يجد البدين علاجاً وتخلصاً من انفعالاته الداخلية ، ويجد راحة وتخلصاً من مخاوفه ، كما يجد المدمن في الخمر السلام والراحة عندما يشرب .

(البقية على الصفحة التالية)

العقاقير الطبية المختزنة بالجسم وحراسها (*)

للأستاذ عبد البارى نعمت

إنك يجب أن تعلم جيداً كيف صنع جسمك ، والمعلومات التى نحن بسبيل تقديمها إليك الآن ستسمح لك بفهم الكثير من تركيب الآلة البشرية التى هى أجمل آلة فى العالم أجمع ، إنها الآلة التى تمتلكها ، بل هى ذاتك ونفسك ، وهى أدق من آلة السيارة وأ كمل .

إنك لو عرفت ماهية العضلة ، وأنها تستطيع أن تتمدد وتنكمش ، فإنك تستطيع أن تفهم جيداً كيف أن رجليك وذراعيك تتحرك وتستطيع ذلك دواماً ، وإنه لمن الضرورة القصوى أن تمرّن عضلاتك وتحفظها قوية نشيطة .

كما أنه يوجد بجسمك شىء بنفسه يجب أن تعلمه ، ألا وهو العقاقير الطبية المختزنة به التى يفرزها الجسم إلى نفسه ، ويتعاطاها يومياً ، وقد بدأ الأطباء فى الوقت الحاضر يعلمون الشىء الكثير عنها ، وكانوا من قبل يكادون يجهلونها ، أو يعلمون النزر اليسير عنها ، وما وفقوا إلى معرفته عنها اليوم يدعو إلى أشد الدهش .

إن لبعض هذه الأدوية صندوقاً بأسفل المخ ، ولدواء آخر منها صندوق فى مقدم العنق تحت الجلد تماماً ، وتستطيع أن تحس به فهو شبيه بالسلم الطرى ، ويطلق عليه اسم : « Thyroid » أى الغدة الدرقية ، كما يوجد صندوق لدواء آخر فوق كل كلية من كليتيك ، وهو قريب الشبه بالقبعة ،

(*) فصل بعنوان "Medicines and Policemen" من كتاب "How Our Bodies are Made" تأليف (R. M. Wilson)

فنقطة البداية إذاً عند الشخص البدين النهم الذى يريد أن يقلل من حدته هى معرفة السبب فى جوعه المستمر .. ويجب أن يعلم أن شغفه بالأكل أصله نفسانى أ كثر منه مادياً .. أصله اضطراب مشاعره .

فمعظم الأشخاص الذين يعانون السمنة إذاً يعانون اضطراباً داخلياً .. هذا الاضطراب يخففه ويخبأ تناول الطعام ..

والسبب السيكولوجى لهذا الاضطراب لدى هؤلاء الأشخاص التعساء مصدره واحد فى أغلب الأحوال .. فمعظمهم نشأ فى عائلات تسيطر عليها الأم ، وكان استقلالهم عند نموهم وبعده دخولهم فى طور الرجولة تعوقه سيطرة الأم ورغباتها الزائدة وحبها المقيد .

هذا الحب الذى يمنع الأم من سماحها لابنها بالاستقلال عنها يدفعها إلى حرمان ابنها من النمو الطبيعى .. فهى لا تحبذ قيام الصداقة بين ابنها وزملائه ، وتحاول أن تقتل فى نفسه حبه للأشياء خارج المنزل ، وتثير فى نفسه الخوف من إنشاء علاقات جديدة ، فيكون من نتيجة ذلك أن الطفل ينمو مهملاً غير قادر على تهيئة نفسه للحياة الخارجية .

وبما أنه ينشأ خجولاً يهاب المجتمع ، قلق النفس يحاول أن يجزى نفسه النعمة التى أفقدها عدم تمتعه المطلق بالأكل الكثير .. والأكل هنا هو من الأشياء التى سمحت له بها أمه .

وهو بالأكل الكثير يحاول أن ينفرد بنفسه بعيداً عن الحياة الاجتماعية ببناء حائط من البدانة حوله .

فالعلاج الأساسى للسمنة إذاً هو القضاء على النزعة إلى الابتعاد عن النشاط الاجتماعى والاختلاط بالناس ، ثم على أصحابها أن يشتركوا فى جمعيات موسيقية أو فنية ، وأن يكونوا لأنفسهم هوايات عدة ..

صبحى أحمد أمين

وأخيراً يوجد صندوقان يتدليان خارج الجسم فى داخل كيس يراها كل رجل فى جسمه .

إن هـذه الصناديق الملأى بالعقاقير الطبية تضع فى الدم طوال النهار بصفة مستمرة جرعات صغيرة من الدواء ، وإذا نحن لم نتناول هـذا الدواء فإننا نموت (أو على الأقل فى بعض الحالات) ، والدواء الذى يحويه الصندوقان الأخيران ليس ضرورياً للحياة ، ولكنه ألزم ما يكون لكمال النمو الجسمانى ، وعندما يبدأ هذا الدواء النافع ينصب فى دمائنا نصبح رجالاً وتخشن أصواتنا ، وتصير لنا شوارب ولحى ، إن هذا شىء عجيب حقاً ، ومع ذلك فعلمنا قليل عن كيفية حدوثه .

وإن ما تفرزه الغدة الدرقيـة ليساعدنا على الاحتفاظ بالقوة ويجعل لنا عقولاً قوية ، والطفل الذى يولد بغير هذا الدواء ينشأ ضعيفاً ولا يقوى على التفكير إطلاقاً ، ولو أن الأطباء فى طاقتهم اليوم أن يعطوه قليلاً من نفس هـذا الدواء المأخوذ من الأغنام والأبقار ، وبه يتصلح حاله .

ونسمى صناديق الأدوية هذه بالغدد الصماء ، كما توجد أيضاً غدد تفرز اللعاب ، وأخرى تفرز عصارات المعدة ، وثالثة تفرز العرق وغير ذلك ، ولهذه الغدد مجار أى أنابيب دقيقة تفرغ عنها وتنقل عصاراتها ، ولكن غدد الأدوية ليس لها مجار ، بل تضع دواءها فى الدم مباشرة .

ويوجد نوع آخر من الغدد لم نذكر شيئاً عنه ، وهذه لا تضع شيئاً فى الدم ، بل هى بمثابة رجال البوليس للجسم ، ويطلق عليها اسم « Lymph Glands » أى الغدد اللمفاوية ، وتوجد دائماً اثنتان أو ثلاث منها مجتمعة معاً ، ويوجد بعضها على جانبى الرقبة والبعض فى وسط الذراع ، والبعض فى الركبة عند اتصال الساق بالجسم من أمام .

هل لاحظت مرة عندما كانت أصبعك متألمة وملتهبة ، أنك كنت تشعر بألم تحت ذراعك ، أو لاحظت أنه عندما كانت إصبع قدمك أو ساقك متألمة أنك تحس بألم فى ركبتك أيضاً أو إذا أحسست ألماً فى حلقومك تحس بألم فى داخل رقبتك أيضاً ؟ ...

إن سبب ذلك أن رجال الشرطة الموكل إليهم أمر حراستك ، أى الغدد المزود بها جسمك تكون فى شغل شاغل تؤدى وظيفتها .

إن السم إذا أصاب إصبعك (إنك بطبيعة الحال لا ترغب فى أن ينتشر السم فى ذراعك ويصل إلى جسمك) يستطيع بعضه أن ينتشر ، ولكن الغدة الموجودة فى وسط الذراع سوف تبذل قصارى جهدها لإيقاف سريانه ، لأنها لا تلبث أن تنتفخ وتتصلب استعداداً لمحاربة السم ، وبذلك يقف سريانه ، إذ لا يستطيع أن يمر ، وبالتالى لا يستطيع أن يصل إلى دمك .

إن رجال الشرطة هؤلاء محاربون شجعان ، ومثلهم مثل كرات الدم البيضاء ، ولكنهم أكبر منها بكثير ، وإنك تستطيع أن تشعر بهم عندما يتضخمون ، إذ يكونون وقتئذ فى حجم بيضة الحمامة ، وعندما يقف سريان السم وتشفى إصبعك تماماً ، يعود رجل البوليس صغيراً كما كان أول مرة إلى درجة لا تحس معها بوجوده .

عبد البارى نجمت

نقـــد

الهوامل والشوامل

لأبي حيـــان التوحيدي ومسكويه

نشره أحمد أمين بك والسيد أحمد صقر — مطبعة لجنة التأليف — ٣٩٩ صفحة سنة ١٩٥١

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

لا نستطيع أن نضع هـذا الكتاب في يسر تحت باب العلم الذي يجب أن يسلك فيه ، أهو اجتماع ، أم أدب ، أم علم نفس ، أم فلسفة ، أم لغة ؟ إنه كل ذلك ، لأنه يشمل سائر هذه المسائل ، ولعله إلى الفلسفة أقرب ، فهي التي كانت تحيط بكل معرفة وتشمل كل علم في العصور القديمة ؛ فإذا عرفت أن أبا علي مسكويه من أشهر فلاسفة المسلمين وحكمائهم ، وكان الكتاب إجابات على أسئلة أبي حيان التوحيدي ، فهو من قلم الفيلسوف ، كان الكتاب في الفلسفة أليق .

إنه يصور على كل حال لوناً من ألوان الفكر في أكثر عصور الإسلام ازدهاراً ، نعني في أواخر القرن الرابع ، وأوائل الخامس الهجري ، وهو إلى ذلك كله كتاب ينبض بالحياة في كل سطر وفي كل عبارة ، جاءته هذه الحياة من التخاطب والتراسل والشركة في التفكير بين التوحيدي ومسكويه ، وجدير بالفكر إذا تناظر وتجادل وتجاوب أن يكون متحركا لأنه ينتقل من السائل إلى المسئول ولا يصدر عن الشخص بينه وبين نفسه ، وهذه الحركة وهذا الانتقال هما الأصل في الحياة .

وقد يخيل إليك أن حياة الكتاب تنتهي بانتهاء العصر الذي دون فيـه ، ولكنه مع ذلك لا يزال حياً ، لا لأن الطبعة نفضت عنه غبار الأكفان وأخرجته من زوايا النسيان ليصبح متداولاً بين أيدي القراء في هذا العصر ، بل لأن الأفكار التي بسطها مسكويه ، ومعظمها يتعلق بالطبيعة البشرية ، لا تزال من الآراء التي نأخذ بها ، لأن طبيعة البشر في أصولها ثابتة لا تتغير مع تغير الزمان والمكان ، وهل خلا الإنسان منذ بدء الخلق من الحسد والتنازع ، والحب والبغض ، والكبر والعجب ، والإسراف والبخل ، وسائر هذه الخلال التي يتصف بها كل فرد ، ولا يخلو منها إنسان .

وأحسب أني في غير حاجة إلى تزكية كتاب لأبي حيان وتقديم أبي علي مسكويه ؛ فما بالك إذا اجتمعا على التأليف وتعاونا في التفكير .

ولقد وقفت في الكتاب بعض الشوارد رأيت أن أقيدها بهذه الأوابد .

١ — في تأليف الكتاب :

قال مسكويه في استهلال الكتاب : « وها أنا آخذ في أجوبة مسائلك التي سميتها هوامل » يقصد بذلك المسائل التي أرسلها إليه أبو حيان التوحيدي يطلب عنها الجواب ، فتألف من مجموع الأسئلة والأجوبة أومن الهوامل والشوامل ، هذا الكتاب الذي قام بطبعه الدكتور أحمد بك أمين والأستاذ السيد أحمد صقر ووضع في أربعمائة صفحة إلا واحدة ؛ فليس الكتاب للتوحيدي وحده أو لمسكويه وحده ، بل هو لهما معاً ، ولكن الأول سائل والثاني مسئول ، وأحدهما تلميذ والآخر أستاذ .

وقد جرت العادة في مثل هذه الطريقة أن يذكر اسم صاحب الجواب مع تصدير الرسالة بسؤال السائل ، كما هي الحال في رسائل ابن سينا التي كتبها جواباً عن كثير من

علماء عصره وأهل زمانه ؛ غير أن الأمر هنا يختلف بعض الشيء، إذ اجتمعت عدة مسائل بلغت ١٧٥ ، وطال السؤال في بعض الأحيان حتى ليخرج من طبيعته ، ولا ينفي ذلك أن التوحيدي في مقام السائل ، ومسكويه في مقام العالم المجيب ، لأن المسئول أعلى من السائل علماً .

وقد ذكرت بعض المراجع الكتاب جزءاً ، فنسبت الهوامل للتوحيدي ، وأضافت الشوامل لمسكويه ؛ ولكن لما كانت النسخة الموجودة فعلاً وحيدة ، فإننا لا نعرف أيمكن أن توجد الهوامل وحدها أو الشوامل وحدها ، على أن النسخة المخطوطة لم توصف في المقدمة لنعرف خطها وناسخها وزمن كتابتها ، والذي لا شك فيه أن النسخة ليست بخط التوحيدي ، ودليلنا على ذلك أن صاحب النسخة يذكر عند الجواب « قال أبو علي مسكويه — رحمه الله » ، ونحن نعرف أن التوحيدي توفي سنة ٤١٤ هجرية ، ومات مسكويه سنة ٤٢١ هجرية أي بعد وفاة أبي حيان ؛ فلم يكن من المعقول أن يكتب التوحيدي عن مسكويه « رحمه الله » ، ولم يمت بعد .

فإذا كان هذا هكذا ، وكانت هذه العبارة التي تطلب الرحمة ليست من قلم مسكويه ، ولا من قلم التوحيدي ، فكان يجدر أن يضعها الناشر بين معقوفتين مع التنبيه في الهامش أنها من النساخ .

٢ — في الأسماء الدالة على معنى واحد :

سأل أبو حيان عن الفرق بين ألفاظ قد تكون مترادفة ، مثل العجلة والسرعة ، والسرور والفرح ، والهزل والمزح ، وغير ذلك ، ثم قال : « فإن كان بين كل نظيرين من ذلك فرق يفصل معنى من معنى ويفرز مراداً من مراد ، ويبين غرضاً من غرض ، فلم لا يُشترك في معرفته ، كما اشترك في معرفة أصله » . قال الناشر : في اللسان « فرز الأمر يفرزه عزله وكشفه ، ومنه قول الحجاج لقد فرزت عن ذكاء وتجربة » والمعنى يقتضي الفصل والتمييز ، والسياق يدل على التفرقة والإفراز ، ولهذا نرى الأليق أن تقرأ اللفظة « يفرد » أو « يفرز » وهو اصطلاح معروف في المنطق يستعمل عند الكلام عن « الفصل » .

قال مسكويه في جملة الجواب :

« وعرض بعد ذلك أن أصحاب صناعة البلاغة ، وصناعة الشعر والسجع ، وأصحاب البلاغة والخطابة هم الذين يحتاجون إلى الإقناعات المناسبة في مواقف الإصلاح بين المشاجرين مرة ، والحض على الحروب مرة ، والكف عنها مرة ، وفي المقامات الأخر التي يحتاج فيها إلى الإطالة والإسهاب ، وترديد المعنى الواحد على مسامع الحاضرين ، ليتمكن من النفوس ، وينطبع في الأفهام — لم يستحسنوا إعادة اللفظة الواحدة مراراً كثيرة ، ولا سيما الشاعر ... » ص ٨

لقد طالت الجملة حتى وقعت في ثمانية أسطر ، ولذلك عمد الناشر إلى فصل جواب أنّ الواردة في أول العبارة بشرطة ينبه بها القارئ إلى أن هاهنا يقع الجواب . غير أن الجملة كما أثبتها كانت قد بلغت التمام عند قوله « هم الذين يحتاجون » فإما أن يصوب « لم يستحسنوا » بقوله « فلم » وإما أن يصف أصحاب صناعة البلاغة وغيرهم فيعطف الكلام بحرف العطف قائلاً : « وهم » وهذا أليق .

٣ — في كتمان السر :

سأل أبو حيان فقال : « لم تحاث الناس على كتمان الأسرار ، وتبالغوا في أخذ العهد به ، وحرجوا من الإفشاء ، وتناهوا في التواصي بالطي ، ولم تتكتم مع هذه التقدمات » ؟ .

فأجاب أبو علي مسكويه جواباً فلسفياً ، ورجع إلى النفس ، ونظر في قواها ، فوجد أنه « قد تبين في المباحث الفلسفية أن النفس قوتين : إحداهما معطية ، والأخرى آخذة . فهي بالقوة الآخذة تستجيب المعارف ، وتشتاق إلى تعرف الأخبار ، وبها يوجد الصبيان أول نشوئهم محبين لسماع الخرافات ، فإذا تكهلوا أحبوا معرفة الحقائق ... »

يحدثنا مسكويه عن طرق المعرفة ، « فالنفس بقوتها الآخذة تشتاق وتطلب ، وبقوتها المعطية « تفيض على غيرها ما عندها من المعارف » . وفسر الناشر الاستثابة بأنها الاسترجاع ، وليس هذا من جنس الشوق والطلب ، وقد عاد مسكويه في المسألة الثانية عشرة فذكر اللفظة ، وقال : « الاستثبات » من طلب التثبت ، وذلك في ص ٤٦ ، ٤٧ « وقد تقدم لنا في بعض هذه الأجوبة التي مضت أن النفس

قوتين : إحداها هي التي بها يشتاق الإنسان إلى المعارف واستثباتها » . وهذا هو الصواب المعروف . أي « تستثبت » بدلا من « تستثيب » .

٤ — في التعجب :

قال مسكويه في جواب المسألة السادسة عشرة : « أفهم أن آثار النفس وأفعالها كلها بديعة عند الحس، وأصحابه . ولذلك تجد أكثر الناس متعجبين من النفس نفسها ، متحيرين فيها ، ظانين بها ضروب الظنون . وليس يخلون مع كثرة تفننهم في هذه الظنون من أن يجعلوها جسما على عاداتهم في الحس وتصورهم في المحسوسات ، ثم يجدون أفعال هذه النفس وآثارها غير مشبهة شيئاً من آثار الجسم وأفعاله ، فيزداد تعجبهم . ولو أنهم حصلوا مائية النفس لكان تعجبهم من آثارها أقل ، إذ كانت هي غير جسم ، ولو صح لهم أنها جسم لم يكن بدعاً عندهم أن تكون آثارها غير جسمانية » .

نقلتُ العبارةَ بأكلها ليتضح منها المطلوب وينكشف الغامض . إذ كيف تكون آثار النفس وأفعالها بديعة عند الحس ؟ وما أصحاب الحس ؟ وقد ابتدأ أبوحيان المسألة بقوله : « لم خارك المعجَبُ من نفسه التعجب منه ؟ مثال ذلك شاعر يخلق في قافية فيتعجب منه السامع حسب ما اقتضى بديعه ، فالشاعر لِمَ يتعجب أيضاً ، وهو المتعجب منه ؟ . . . » فالسؤال عن أفعال النفس بعيدة عن الإحساسات . والإحساس لا يكون فعلا للنفس ، بل هو من قبيل الانفعالات المتصلة بالمحسوسات ، والمحسوسات جسمانية . ومسكويه يجري في هذا الكتاب وفي غيره من الكتب على مذهب الذين يميزون بين النفس والبدن ويقابلون بينهما . وذكر مسكويه في المسألة السابقة على هذه ، وهي خاصة بالعلم ما نصه : « والنفس في هذا المعنى كالمناسب للجسد ، وذلك أن الجسد إذا حصلت فيه صورةٌ ضعف عن قبول صورة غيرها ، إلا بأن تنمحي الصورة الأولى منه . . . » ص ٥٣ . بل هو ينص في الفقرة التي نقلناها على ذلك فيقول : « وليس يخلون مع كثرة تفننهم في هذه الظنون من أن يجعلوها جسما على عاداتهم في الحس وتصورهم في المحسوسات » . فالنفس غير الجسم ، وأفعال النفس غير أفعال الحس . لذلك كان صواب العبارة التي وضعنا تحتها خطاً « وأن آثار النفس وأفعالها كلها بديعة ، غير الحس . . . » أما لفظة أصحابه فلا تأتلف مع جملة المعنى وحسن السياق . وإني مصححها بالحدس والتخمين بما يناسب المقام ، لأن النسخة المخطوطة ليست معي ، فأرى أنها « وأخيلته » وهي أقرب لفظة إلى حروف « وأصحابه » . قال مسكويه ص ٨٣ : « وذلك أن هذه القوى من قوى النفس التي تأخذ العلوم من الحواس ، إنما ترقيها إلى قوة التخيل عن الحس » .

٥ — الكيموس :

قال مسكويه في الجواب عن سؤال الصرع : « الصرع هو تشنج يحدث في الأعصاب . ومبدأ العصب الدماغ ، لأنه من هناك ينبت في جميع البدن ، وسبب هذا التشنج بخار غليظ يكون من بلغم لزج وكيموس غليظ يسد منافذ الروح التي في بطون الدماغ » .

صواب ينبت ينبث بالثاء المثلثة .

أما كيموس ، فهي لفظة يونانية ، عرفها أوائل المترجمين وذكرها النقلة عن اليونانية ، وجهلها المتأخرون لبعدهم عن معرفة الأصل الإغريقي لها . لذلك كان تفسير صاحب اللسان ، كما نقله الناشر في الهامش أنه : « هو الطعام إذا انهضم في المعدة قبل أن ينصرف عنها ويصير دماً » تفسيراً بعيداً عن الصواب . قال إسحق بن حنين في ترجمة كتاب النفس لأرسطوطاليس : « وأصناف الكيموس معادلة في المذاق لأصناف الرائحة ، إلا أن حسن المذاق فينا أشد استقصاء » . وقال بعد قليل : « وكما أن الكيموس منه حلو ومنه مر ، كذلك في الرائحة منها ما يعادل الكيموس فتكون رائحته حلوة مثل الكيموس الحلو . ومنها ما هو على خلاف ذلك » . ومن طبيعة الكيموس أن يكون رطباً ، وفي ذلك يقول أرسطو : « والرائحة إنما هي للشيء اليابس كما أن الكيموس للرطب » . ثم هجر المتأخرون لفظة كيموس وقالوا الطعم . فيكون معنى العبارة « من بلغم لزج وكيموس غليظ » أي طعم غليظ .

أحمد فؤاد الأهواني

مكتبة الثقافة

للأستاذ أحمد حسين الصاوى

الأسس النفسية للإبداع الفنى ، فى الشعر خاصة :

للأستاذ مصطفى سويف — دار المعارف
سنة ١٩٥١ — فى ٣٥٠ صفحة .

تألفت جماعة « علم النفس التكاملى » فى أواخر عام ١٩٤٥ برعاية المغفور لها الأميرة شويه كار ، وتحت إشراف الأستاذين الدكتور يوسف مراد والدكتور مصطفى زيور ، وهما أستاذا علم النفس بجامعتى فؤاد وفاروق على الترتيب . وتعمل هذه الجماعة فى صمت نشيط متصل على تحقيق هدفها وهو « دراسة الإنسان كوحدة نفسية جسمية اجتماعية » . وهى تصدر لهذا الغرض مجلة « علم النفس » التى احتلت مكانة مرموقة بين الدوريات العلمية ، كما تصدر سلسلة من المؤلفات فى علم النفس .

والكتاب الذى نقدمه اليوم هو خامس تلك المؤلفات . ويؤمن صاحبه إيماناً عميقاً بالفن من حيث هو ظاهرة اجتماعية لا تقل فى أهميتها عن غيرها من الظواهر التى تحقق التكامل النفسى الاجتماعى كاللغة مثلاً . ويكاد هذا الرأى يصطدم بما نعلمه من الطابع الفردى الذاتى لكل أثر فنى ؟ ولكن الأستاذ سويف يحاول جاهداً إثبات رأيه وتحقيقه رغم ما قد يبدو من تعارض بينه وبين ذاتية الفن . وهو لهذا يحلل فى دقة وبراعة تلك الومضات التى تضىء للشاعر طريق إبداعه ، رغم الصعوبة التى تعترض إخضاع مثل هذه المسائل للبحث التجريبى . وخلال ذلك يأخذ الكتاب فى التدليل على رأيه بمحاولة توضيح الأثر الاجتماعى فى إبراز نشاط الشاعر وتوجيهه ، وفى إشعال شرارة الصراع النفسى الذى يسفر عما نسميه إلهاماً أو إبداعاً فنياً .

إن هذا الكتاب يمثل مجهوداً علمياً ضخماً فى تناول مشكلة نفسية دقيقة يتعذر توحيد الأساس العلمى الذى يقوم عليه حلها . فما هى الخبرة الجمالية ؟ هل هى شىء ذاتى أو موضوعى ؟ أو هى شىء بين بين ؟ وكيف نستطيع أن نقف مثل هذا الموقف الوسط الذى لا يعنى بالنسبة للباحث النفسى سوى التناقض والغموض ؟ وما هو الإبداع الفنى ؟ وهل يكفى لمعرفته أن نفسر الإلهام ؟ ولكن ما هو الإلهام ذاته ؟ .

لا شك فى أن هذه الدراسة الممتازة التى قام بها الأستاذ سويف تحت إشراف أستاذه الدكتور يوسف مراد ، وهو الذى كتب مقدمة الكتاب وملخصه بالإنجليزية ، لا شك فى أنها تقدم لنا إجابات وافية عن تلك الأسئلة ، وتكشف لنا الكثير من أسرار مشكلة الإبداع الفنى وأسسه النفسية ، فى الشعر خاصة .

وليس كثيراً على المؤلف الشاب أن تهنئه كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول على هذه الدراسة التى منحته من أجلها درجة الماجستير فى الآداب بتقدير « ممتاز » ، وأن تخص رسالته بجائزة أحسن بحث فى علم النفس .

ونعتقد أن هذا الكتاب سينال ما هو جدير به من اهتمام وتقدير كل مشتغل بالأدب أو الفلسفة أو الاجتماع أو الدراسات النفسية على السواء .

أحمد حسين الصاوى

الدنيا على علاتها

أو حلم بابوك

قصة الفيلسوف الساخر ڤولتير

« ... من أجل هذا كانت الأشخاص في قصص ڤولتير وسائل من جهة ، ورموزاً من جهة أخرى ... » [طه حسين]

ترجمة الأستاذ محمد عبد الحليم محمود

— ١ —

بين الجني والإنسي :

من بين الجن الذين يدبرون شئون الكرة الأرضية يحظى « إتوريل » بمكانة رفيعة ، لأنه هو المشرف على سائر بلدان آسيا الصغرى . وفي صبيحة يوم من الأيام ، ذهب هذا الجني الخطير إلى « بابوك » السيثى ، الذي يقيم بشاطئ نهر « أوكسيس » ، وقال له :

— يا بابوك ، لقد اشتد غضبنا لهذا الفساد العظيم الذي تفشى بين الفرس . لذلك عقدنا — نحن معشر الجن — بالأمس اجتماعاً كبيراً لتقرير مصير مدينة « برسيبوليس » . فاذهب أنت إلى تلك المدينة لتستقصي أمرها ، وترفع إلينا تقريراً عن أحوالها . فإن كان الفساد أغلب عليها من الصلاح ، دمرناها تدميراً ، وإن كان الصلاح أدنى إليها من الفساد ، خلينا بينها وبين البقاء .

فأجاب بابوك في تواضع :

— لكن ، سيدي ، كيف يتسنى لي أن أقوم بتلك المهمة ، وأنا لم أزر فارس من قبل ولا تعرفت فيها على إنسي ؟ .

قال :

— وهذا هو بعينه ما أبغيه . فسوف تكون عادلاً في حكمك ، ولن تميل مع هواك . إن الله قد وهبك الفطنة ، وإني أهبك منذ الآن خاصة اكتساب ثقة الناس وحبهم أينما كنت وحيثما رحلت . فلتذهب ، ولتنصت إلى كل ما يقال ، ولتمعن النظر في كل ما ترى ، ولتتدبر كل أمر ، ولا تخف شيئاً ، ففي كل مكان تحل ، تحل معززاً مكرماً .

الحرب :

واعتلى بابوك ناقته ، ورحل مع أتباعه من الخدم . ولم تمض على رحيلهم أيام حتى التقوا في سهول « سينار » بالجيوش الفارسية التي كانت تعد العدة لمحاربة جيش الهند . فاستوقف بابوك جندياً منعزلاً في ناحية ، وسأله عن دواعي الحرب ، فأجاب :

— أقسم لك بكل الآلهة أني أجهل ذلك تمام الجهل ، فليست تلك الأمور مما يهمني . إنما عملي أن أقتل أو أُقتل في سبيل كسب عيشي . ولا يضيرني أن أخدم هذا الفريق أو ذاك ! بل ربما انقلبت في الغد إلى معسكر الهنود ، لأني سمعت أن أجر الجندي عندهم يزيد نصف درهم عن راتب الجندي في هذا الجيش اللعين ، جيش الفرس . وإذا أردت أن تعرف أسباب قيام الحرب فلترجع في هذا إلى ضابط الفرقة .

وقدم بابوك الجندي هدية صغيرة ، فأدخله المعسكر ، حيث لم يلبث أن تعرف بالضابط ، فسأله عن الأسباب التي دعت إلى القتال . فأجاب :

— وكيف تريد مني أن أعرف تلك الأسباب ؟ وماذا تفيدني معرفتها ؟ لقد كنت أعيش على بعد مائتي فرسخ من مدينة برسيبوليس . فلما قامت الحرب هجرت أسرتي وأهلي ، ورحلت إلى هنا — تبعاً لتقاليد بلادنا — أبحث

عن الثروة أو الموت ، وليس لي غير ذلك من عمل .

قال بابوك مندهشاً :

— وهل زملاؤك الضباط على مثل حالتك من الجهل بذلك الموضوع الخطير ؟

قال :

— أجل ، ولا يعلم جيداً سبب سفك كل تلك الدماء إلا كبار القواد .

وكان عجب بابوك لهذا الكلام شديداً ، فاستأذن للدخول على كبار القواد ، وسُمِحَ له بمجالستهم ، فلاقى منهم ترحيباً ، وحَظِيَ بثقتهم ، فقال له أحدهم :

— يرجع سبب تلك الحرب ، التي تهدد في كيان آسيا منذ عشرين سنة ، إلى منازعة قامت بين عبد من عبيد ملكة فارس وبين ساع من سعاة ديوان ملك الهند . فقد اختلفا في شأن دَيْن لا تزيد قيمته على جزء من ثلاثين من دينار . ودافع كل من وزير الهند ووزير فارس عن حقوق مليكيهما دفاعاً مجيداً . واشتد النزاع ، فهب كل طرف يعد العدة للقتال ، ويسلح جيشاً يربو عدد جنوده على ألف ألف . وهذا الجيش يحتاج في كل عام إلى أربعمائة ألف جندي ليحلوا محل من هلكوا في المعارك . والفوضى قد ضربت أطنابها في البلاد ، فتبعها الخراب والدمار ، والجرائم تزداد يوماً بعد يوم . إن العالم كله يتألم ويشكو ، ولكن عناد المتحاربين لا يهدأ . وكثيراً ما يدعي وزيرنا أو وزير الهند أنه لا يعمل إلا لصالح الإنسانية ولإسعاد الجنس البشري ، فلا يشيع كل ادعاء من هذه الادعاءات إلا تخريب بعض المدن ونهب بعض الولايات .

وفي الغد ذاع أن قد أوشك الطرفان على عقد صلح بينهما . فسارع كل من قائدي الفرس والهنود إلى خوض المعركة خشية ضياع الفرصة .

وكان قتالاً عنيفاً دامياً ، شاهد فيه بابوك من الجرائم والفظائع ما هاله ؛ شاهد كبار القواد وهم يمكرون برئيسهم لإيقاعه في الهزيمة ؛ وشاهد جنوداً يُجْهِزون على ضباطهم انتقاماً لأعمال بدرت منهم فيما مضى ؛ وشاهد بعضهم ينزلون الضربة الأخيرة على الجنود الجرحى ليسلبوهم ملابسهم الممزقة الدامية الملوثة بالتراب ؛ وتنقل بين المستشفيات التي أنشئت لمداواة الجرحى ، فرأى أكثر هؤلاء يهلكون بسبب إهمال الأطباء الذين يتقاضون من الملك أجراً باهظاً للعناية بجيشه . فصاح بابوك :

— « أهؤلاء بشر ، أم هم وحوش ضارية ؟ واسفاه يا برسيبوليس ! أيقنت الساعة أنها سوف تدمر تدميراً » .

وعرج على معسكر الهنود ، وتلك الفكرة لا تبرح باله ، فقوبل فيه — بفضل الهبة التي وهبها إياه الجني — بمثل ما قوبل به في المعسكر الفارسي من الترحاب . ولكنه رأى هناك عين الفظائع والجرائم التي تمززت نفسه منها في المعسكر الأول . عندئذ قال ساخطاً :

— « ويل القوم من أنفسهم ! لو أراد الجني إيتوريل صاحب فارس أن يدمر برسيبوليس ، لوجب على الجني الذي يلي بالهند أن يقضي هو الآخر على سائر مدن الهند ! » .

ولكنه استفسر بعد ذلك عن تفاصيل المعركة ودقائقها ، فكشف له النقاب عن أعمال فيها مروءة وفيها كرم وفيها نخوة أثارت كل الإعجاب ، وأدهشته كل الدهشة ، فصاح مبهور الأنفاس :

— « ما أشد غموض الطبيعة الإنسانية ، وما أغرب أطوارها ! كيف استطاعت النفس البشرية أن تجمع بين كل تلك الفضائل وكل تلك الآثام ، بين كل تلك النخوة وكل ذلك الانحطاط ؟ »

بيد أن الصلح كان قد عُقد قبل أن يتغلب أحد القائدين على غريمه ، رغم سفكهما ، لمصلحتهما الخاصة ، كل تلك الدماء البريئة ، دماء الآلاف من البشر أمثالهما . فذهب كل منهما إلى بلاط مليكه يطلب أجر ما صنع .

وإذا بالصحف والمنشورات الحكومية تشيد بالسلم وترحب بعودته ، ولا حديث لها إلا رجوع الفضيلة والسعادة ترفرفان على أقطار الكرة الأرضية . فقال بابوك :

— « الحمد لله ! طُهِّرَت برسيبوليس ، وغدت موطن الفضيلة والبراءة . لن تُدمر إذاً كما كان يريد هؤلاء الجن القساة الغلاظ الأكباد . فلأحزم أمري ولأسرع إلى تلك العاصمة المجيدة ، عاصمة آسيا » .

(لها بقية)

ترجمة
محمد عبد الحليم محمود

(المتحذلقات) و (مريض الوهم)

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

منذ أسبوعين أذاعت محطة الإذاعة المصرية هاتين الروايتين من دار الأوبرا الملكية حيث قدمتهما فرقة المسرح المصرى الحديث .

الروايتان من تأليف موليير ، وهو — كما ذكرنا فى مناسبة سابقة — واضع أسس الكوميديا الفرنسية التى تمتاز بجانبيها بواقع الحياة والنظرة النقدية للسلوك الإنسانى . وإذاً فلا يجدر بنا أن نكتفى من سماع أو شهود روايتيه بالتحدث عن روعتهما أو التوسل بهما للتدليل على براعة أو عبقرية مؤلفهما ، بل أهم من هذا وأجدى أن نحاول فهم مقومات هذه العبقرية الفريدة ، ودقائق وأهداف هاتين الروايتين ؟ فى ذلك نفع محقق لجمهورنا و (لعباقرتنا) أيضاً من مؤلفين ونقاد على السواء .

من أجل ذلك كنت أرجو أن تمهد محطة الإذاعة لهما بمحاضرة أو محاضرات تتناول هذا جميعه بالشرح والتفسير والتفصيل .

واعتقادى أن أول ما يجدر بنا إدراكه ، أنه ما من عبقرى منتج إلا وله من ظروفه وبيئته ما ساعده على إبراز عبقريته وتكييف إنتاجه وتلوينه بلون معين . وموليير والممتازون من معاصريه ما كانوا ليصلوا إلى ما وصلوا إليه لولا أن غمرهم تيار أدبى واحد واتجاه ثقافى واحد وعاشوا فى عصر ذى سمات خاصة به ، الأمر الذى أدى إلى إمكان وضعهم جميعاً تحت عنوان واحد هو (الكلاسيكية) .

كذلك يجدر بنا أن ندرك أنه ما من مرحلة ناضجة من مراحل الخلق الفنى إلا وسبقتها مراحل غير ناضجة كانت هى بناتها وتجاربها أهم مكونات النضج الذى أعقبها . وهذا ينطبق على كل العصور الذهبية فى تاريخ الفن بلا استثناء .

سوفوكليس الإغريقى فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وشكسبير الإنجليزى فى القرنين ١٥ ، ١٦ ، وإبسن النرويجى فى العصر الحديث .. هؤلاء وأمثالهم شواهد تؤيد ذلك . وكذلك العصر الذهبى الكلاسيكى فى القرن ١٧ فى فرنسا . والنقاد الذين يحصرونه بين عام ١٦٦٠ وعام ١٦٨٥ م أنفسهم الذين يحصرون الفترة الممهدة له بين عام ١٦١٠ وعام ١٦٦٠ . وموليير الذى بلغ الذروة فى الفترة الذهبية هو موليير الذى عاش معظم الفترة السابقة الممهدة لها يدرس ويستفيد ويجرب ويحتذى ما وسعته الدراسة والاستفادة والتجربة والاحتذاء .

لكن مع هذا لابد من استعدادات ذاتية وإلا لصار كل الناس أو معظمهم فنانين ولظل كل الفنانين أو معظمهم فى مستوى واحد ودرجة واحدة .

وحسب موليير دلالة على ذاتيته أنه عاش فى جيل تقليدى كان معيار نجاح المؤلف المسرحى فيه متوقفاً على مدى خضوعه لنظريات نقاد النهضة الإيطالية ومدى احتذائه للإغريق ؛ ورغم ذلك استطاع أن يجمع بين تحقيق هذا وتحقيق أصالته فى نفس الوقت . ولعل من أكبر ما ساعده على ذلك اعتياده — إلى جانب ثقافته ودراسته النظرية — على الخبرة العملية نتيجة احتكاكه بالجمهور احتكاكاً قوياً ومباشراً خلال طوافه بالمقاطعات فبينما كان معاصروه يرهقون أنفسهم بإنتاج كوميديا ذات عقدة وحبكة وبناء محكم ، نجده تارة يحتذى الأقدمين وتارة أخرى يلتزم النوع الشعبى المعروف (بالفارس) أو النوع الإيطالى المعروف بالكوميديا المرتجلة ، أو يمزج بين ذلك مزجاً تكيفه مقدرته الخالقة ، بمعنى أنه يستفيد من القواعد ولا يذعن لها ويستلهم الإغريق والرومان ولا يخضع لهم بلا بصيرة

من هنا تميزت كوميدياه بطابع خاص نستطيع أن نرمز إليه بكلمة واحدة وهى (البساطة) . بساطة لا تكلف فيها ولا تعقيد . بساطة هادئة ولكنها ثائرة ، وواضحة لكنها حاسمة وقوية فى وصولها إلى الهدف .

ويتجلى ذلك بوضوح فى (المتحذلقات) و (مريض الوهم) على السواء .

ففى (المتحذلقات) يضحكنا ضحكا إنسانيا رفيعا من فتاتين ساذجتين نشأتا فى الريف الفرنسى وضاقتا بما فيه من وداعة وسماحة وصراحة ، فجاءتا إلى باريس ، للاستمتاع بما استقر فى ذهنيهما عنها من ارتقاء وتمدين ، ولتشاركا أهلها ذوى الظرف والرشاقة واللطافة فى حياتهم المهذبة وسلوكهم الظريف . ولكن يتقدم إلى خطبتهما شابان لا تتوافر فيهما سمات التأنق والتظرف ، فتعرضان عنهما فى نفور وعدم اكتراث . ثم يتقدم إليهما (الماركيز مسكريل) و (الفيكونت جودليه) فتقبلان عليهما إقبالا حاراً . فى هذا المشهد يسخر موليير العظيم من سلوك أهل باريس المتكلف وأساليبهم الحليمة فى شتى شئون الحياة ، ويمعن فى سخريته من أدعياء الأدب والفن ورواد الصالونات والمحافل الأدبية من متظرفين ومتأدبين ومتشاعرين ؛ وأخيراً يتضح أن الماركيز والفيكونت اللذين قوبلا بالحفاوة والتكريم ليسا سوى خادمين الذين قوبلا بالنفور والازدراء .

بهذه الحيل البسيطة وفى هذا المجال البسيط يدير موليير أحداثه الدراماتيكية الشائقة .

وبمثل هذه البساطة البارعة يظهر لنا ما فى (مريض الوهم) وما فى أدعياء الطب من ذهول وآلية وعناد ؛ فهو لفرط ذهوله وآليته وعناده يجهل أنه سليم معافى ، ويتحرك فى خطوط واحدة تتجمع كلها كما تتفرع كلها من نقطة واحدة هى مرضه الموهوم ؛ وهم لفرط ذهولهم وآليتهم وعنادهم يجهلون جهلهم ، وكم فى الناس من مريض بوهمه ، ومن جاهل بجهله ! ...

على أن المدقق يلاحظ دائماً أن موليير لا يصور فى كوميدياه متظرفاً معيناً ولا متحذلقاً معيناً ، ولا مريضاً واحداً ، ولا موهوماً واحداً ... الخ ...

كما أنه لا يندد بالتظرف والادعاء والتحذلق من الناحية الأخلاقية وحدها ، ولا يهدف إلى مجرد إضحاكنا فحسب ، بقدر ما يصور الفرد الخارج على أوضاع المجتمع والجاهل حقيقة نفسه ، أى يصور (الإنسان) عندما تنقصه المرونة ، وتعوزه اليقظة والقدرة على ملاءمة الظروف ، والبيئة الاجتماعية ، كما يصور حماقات المجتمع ذاته وما يتتابه من سخافات تتكرر حتى تصبح مألوفة بل مشروعة .

الخلاصة أنه يحقق وظيفة الفن الكوميدى الجوهرية التى تُرينا الواقع رؤية مباشرة وتقبية ، ذلك الواقع الذى تحجبه عنا ضرورات الحياة اليومية الضاغطة بمصالحنا الخاصة .

عبد الفتاح البارودى

عـــــزاء

قد بُحّ صوتك من طول اللجاج فصَهْ
نُمْ ، القضاء فلا يُصغى لعاتبه
ما نحنُ ، بل ما النجوم الفيحُ سابحة
سوى فقاقيع آلٍ تحتَ فى تيه
هوّن عليك سحاب العيش زرض بها
وسادر العقل يقتلْ كل تمويه
وحزّ قلبك يكنْ ما يساوره
من الشكوك التى بالموت تقفيه
وهل يفيد امرأً صدقٌ يعذبه
تيْناً الأكاذيب ترضيه وتحبيه
تخذْ من العيش ما يحلو بلا أسفٍ
إن الوجود سواءٌ كلّ ما فيه

محمد خليفة التونسى

الثقافة

العدد ٦٤٥
٧ من مايو ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليما

صفحة

كلمات لقاسم أمين

[بمناسبة ذكرى وفاته]

• اللذة التي تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب، ولا شرف النسب، ولا علو المنصب، ولا شيئاً من الأشياء التي يجري وراءها الناس عادة، وإنما هي أن يكون الإنسان قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم.

• إذا استشارك عدوك فأخلص له النصيحة، لأنه باستشارتك قد خرج عن عداوتك ودخل في مودتك.

• أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل.

• الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأي، ونشر كل مذهب، وترويج كل فكر.

• أمر لا تدري متى يغشاك لا يمنعك مانع من أن تستعد له قبل أن يفاجئك.

• فعل الخير حسن وأحسن منه ستره.

• لا تكمل أخلاق المرء إلا إذا استوى عنده مدح الناس وذمهم إياه.

• لا فرق بين من يفشي سراً اؤتمن عليه، وبين من يختلس مالاً أودع عنده.

• معاقبة الشر بالشر إضافة شر إلى شر.

• كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامي في صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل.

جمعها : أمين محمد الصياد

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلوف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٤٥ | الاثنين ١ من شعبان سنة ١٣٧٠ — ٧ من مايو سنة ١٩٥١ | السنة الثالثة عشرة

الاستعمار

للدكتور أحمد أمين بك

للاستعمار أنواع كثيرة وأشكال مختلفة ، ولكن أكثره مؤسس على الاقتصاد السياسي ؛ فهو يرمي إلى انتفاع أهل البلاد المستعمِرين ما أمكنهم ذلك ، والملك خدمت السياسة الاقتصاد .

والمستعمر في الغالب يرمي إلى ثلاث مسائل :

الأولى — استغلال أموال أمته في البلاد المستعمرة ؛ فإذا كان الممول يستطيع أن يستغل ماله في بلده ثلاثين في المائة مثلاً ، وفي البلاد المستعمَرة لأربعين في المائة وجهها إلى هذه البلاد بحكم قوانين الاقتصاد . والثانية — استغلال للمواد الخامة في الأقطار المستعمَرة كالقطن والحديد والحبوب ونحو ذلك ، مما خلت بلاد المستعمِر منها أو قلت فيها . والثالثة — تصريف المستعمِر بضائعه في البلاد المستعمَرة ؛ وذلك بصناعة المواد الخامة ثم ترويجها .

هذه هي أهم ما يرمي إليه المستعمِر . وليس الاستعمار في ذاته شيئاً محبوباً ، لما يلاقيه المستعمِر من المتاعب ، ولكراهية المستعمَر طبيعياً للاستعمار .

ثم تأتي السياسة بعد ذلك فتمهد الطريق لتحقيق هذه المطالب ، فالجنود التي يرسلها المستعمِرون إلى البلاد المستعمَرة إنما هي لحماية هذه الأغراض من الثورات التي تقوم في البلاد ، أو صدًّا لطموح أمة أخرى تحل محلها .

ولتحقيق هذه الأغراض تتخذ الأمة المستعمِرة وسائلَ كثيرة لتحقيقها : منها إضعاف روح المستعمَر حتى لا يجهم فيطالب بالاستقلال ، وقد يعتمد في ذلك على تفريق الأمة بالأحزاب وإيقاع الخلاف بينها ، أو على إفساد أخلاقها بكثرة المسكرات ، واستهوائهم بالفتيات الجميلات اللاتي يخدمن الاستعمار ونحو ذلك . ومنها إضعاف لغة البلاد وتقوية لغتها هي ، علماً منها بأن الناس يميلون إلى القوم الذين يتكلم المستعمَرون لغتهم ، وقد يستهوون المستعمرين بإنشاء مدارس لهم نموذجية ، حتى يوهموا المواطنين بأن مناهجهم خير من مناهج أهل البلاد ، وحتى يشجعوا أهل البلاد بالإقبال عليها . ومنها اختيار الوظائف لمن يثقون بتأييدهم ، والعمل لمصلحتهم ، ومقاومة الوطنيين والزعماء ، وبث الدسائس لسقوطهم في نظر أمتهم ورميهم بالخيانة . ومنها تقوية الزراعة وتوجيه الناس إليها حتى لا ينافسوهم في صناعاتهم ، ويفهمونهم بأن بلادهم زراعية لا صناعية ، واجتهادهم في

فرض ضرائب كبيرة على المنتجات الوطنية ، حتى تعلوَ أسعارها فتنسع التجارة الأجنبية ، إلى غير ذلك من وسائل لا تحصى .

وأهم عدو لهم في ذلك ، الإسلام والمسلمون ، لا اليهود ولا الوثنيون ، لأنهم يعتقدون أن الإسلام يدعو إلى أن تكون بلادُ المسلمين لهم لا لغيرهم ، ويفرض عليهم المقاومة ما أمكنهم ، ولا يصح أن يفرطوا في أي بلد يدخل في نطاق دار الإسلام ! ولذلك قال أحد الزعماء الفرنسيين : يجب أن نحارب اللغة العربية لأنها وسيلة لتعليم القرآن ، والقرآن يأمر بالجهاد في سبيل الاستقلال .

ثم ، إن بعض الاستعمار ليس القصدُ منه الاستغلال ، وإنما القصد المحافظة على الطرق الحربية ، كاحتلال الإنجليز لجبل طارق ، ولو لم يكسبوا منه مادياً ، ولكن ذلك قليل بجانب ما أسلفنا من أسباب الاستعمار — إذا علمنا ذلك أمكننا أن نعرف كل داء فنعالجه بدوائه لا بشيء آخر ! فعلاج توظيف رءوس الأموال الأجنبية إنما هو مقاومتها بتوظيف الأموال الوطنية ، وفرض استخدام عددٍ معينٍ بنسبة مئوية من المواطنين على الشركات الأجنبية .

والاجتهاد في تشجيع المنتجات الوطنية ومقاومة المواد الأجنبية .

ومن وسائل الشركات الأجنبية الماكرة ، التهرب من قوانين البلاد والتستر وراء مواطن يحتمون باسمه ، ويتهربون من الواجبات تحت ستار منه ، والأمثلة على ذلك كثيرة . ومن وسائلهم أيضاً في ذلك ، استخدام ذوي النفوذ من المواطنين ليحتموا بهم ويحققوا لهم أغراضهم .

وعلاج استخدام المواد الخامة في البلاد ، هو منعُها قدر الإمكان من أن تصل إلى الأجانب ، وتوسيع المصانع الوطنية التي تستخدم خامات المواطنين .

وعلاج رَوَج المصنوعات الأجنبية إغلاء الجمارك ، والضرائب عليها ، حتى تكون أثمان السلع الوطنية أقل من أثمان السلع الأجنبية فيقبل الناس عليها ، والاجتهاد في تحسين المصنوعات الوطنية حتى تفوق أو تقارب المصنوعات الأجنبية ، وهكذا .

وإذا علمنا ذلك أيضاً ، أمكننا أن نفهم سخافة مقاومة الاستعمار بكسر فوانيس الشوارع أو إحراق الترام أو إضراب المدارس ، إلا أن يكون ذلك علامة على بغض الاستعمار وإظهاراً للعواطف الثائرة أو نحو ذلك ! فهذا علاج لا يقابل الداء .

والعلاج الصحيح الذي ذكرنا يحتاج إلى ثقافة في أساليب الاستعمار واسعة ، وتنبيهٍ شديد للوعي القومي ، حتى يدركوا صحة موقفهم ، ويدركوا كيف يعملون لمقاومة خصومهم ! ومتى أدرك المستعمِر أنه لا يستطيع تحقيق أغراضه لم يعد يرى أن للاستعمار فائدة فانسحب بسلام ! وهذه كانت طريقة غاندي وأمثاله التي ترتب عليها انسحاب الإنجليز من الهند . والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

هذه نظرة الذوق الفطري للاستعمار ، ولا بد أن يكون عند المختصين في الاقتصاد والسياسة ما هو أدق من ذلك وأوسع . والله أعلم .

أحمد أمين

الحركة والتطور والتغير

سنة هـــذا الوجود

للأستاذ محمد مفيد الشوباشى

قسم فلاسفة اليونان الكائنات بالنسبة للحركة إلى محرك ومتحرك وجامد ، وبنوا هـذا التقسيم على الظاهر ؛ فهنالك جماد يبدو للعين المجردة ساكنا مستقراً ، وهناك جماد آخر يتحرك ويدفع غيره إلى الحركة ؛ فالنبات متحرك ، والحيوان متحرك ومحرك ، والطير كذلك محرك ومتحرك ، وقد اختلفوا على كنه الحركة وأزليتها مما لا يتسع له مجال هذا البحث .

ولكن الفلسفة لم تلبث فى العصر الحديث أن تجاوزت الظاهر فى حكمها على الأشياء ، وتغلغلت إلى الأغوار ، فأدركت أن كل ما فى الوجود من ماديات ومعنويات لا يكف لحظة عن الحركة حتى الصخر الصلد تضطرب ذراته فى غير توقف .

ويقع التطور والتغير نتيجة للحركة ؛ فلا شيء يبقى على حال ، أو يجرى على غرار ما سبقه ، وإذا كان قد غاب عن أرسطو أن كل ما فى الوجود متحرك ، فقد فطن إلى أن كل ما فى الوجود متطور ، وأن التطور إما أن يجنح إلى الأصدق والأكمل والأعقل أو العكس .

ولكن أرسطو كان يرى أن الشيء المحسوس المتطور يحتفظ رغم تطوره بطبيعته ، وقد قسم الأشياء المحسوسة إلى مادة وصورة ؛ فالمادة التى تتطور وتبدو فى صورة مفهومة صادقة تتطور إلى الأكمل ؛ فإذا تطرق إليها الفساد نكصت على أعقابها فى تطورها إلى الفساد .

ولم يجد فى هذا الصدد جديد ذو بال حتى جاء فلاسفة القرن السابع عشر فقرروا أن ظواهر الوجود التى تتحرك جزئياتها وتتصادم فى حدود المكان تجرى حركتها وفق نواميس طبيعية لا تتبدل .

لقد حاولوا أن يصوروا الوجود متطابق الأجزاء ، يتحرك كل جزء منه تحركا آلياً منتظماً ، ويجرى على وتيرة واحدة ؛ فالوجود فى نظرهم جامد محصور فى نطاق محدود لا يستجد فيه جديد ؛ فكل ما يحدث فيـه مكرر ، وكل ما يحدث فيه معاد ، وترتب على وجهة نظرهم هـذه أن أنكروا الزمن كما أنكره بعض الفلاسفة القدماء ، فما الزمن إلا مقياس التطور والتقدم ، وهكذا أفقدوا التغير الذى يطرأ على الأشياء كل قيمة جوهرية أو أثر فعال .

ولم يحطم هذا النطاق الحديدىّ الذى ضربه الفلاسفة حول الوجود غير الفيلسوف الألمانى هجل الذى استطاع أن يهتدى إلى الطريقة المنظمة التى يجرى عليها الوجود فى تطوره ؛ لقد وضع فلسفة مستجدة لفهم الحياة حين وضع مذهبه الفلسفى الجدلىّ ، أو مذهب الجدلية الثلاثية . ولم يتم توفيقه إلا على ضوء العلم الذى أثبت أن مادة العالم لا تثبت على حال ، وأن أمور العالم لا تسير على طريقة آلية ، ولكن الكون فى حالة انصهار دائم وتبدل مستمر وإن كل جزئية من جزئياته لا تؤول إلى العدم ، ولكنها تتطور تطورا كيفياً فلا يتغير شكلها وحده كما قال أرسطو ، ولكن طبيعتها تتغير كذلك .

وما دام الكون دائم التبدل والتحول ، فالبحث عن طبيعته الأصلية عبث لا طائل تحته .

وجميع المحاولات الفكرية المبذولة لفهم طبيعته الحاضرة عن طريق فهم أصله محاولات مضيعة ، وهكذا سخر الكشف العلمى الحديث من آلية الفكر الفلسفى العتيق ، وقد اتسعت الهوة بينهما حتى اقتنع كل ذى معرفة بأن الفلسفة السابقة على هجل مقطوعة الصلة بالواقع ، فهى ليست سوى رياضة عقلية غير مجدية .

وصل هجل بمذهبه الجدلى ما انقطع من صلة بين العلم والفلسفة ، إذ استرشد فى بحوثه بآخر ما وصل إليه العقل البشرىّ من كشف علمىّ . وقد ابتدأ من حيث انتهى

أرسطو ، وأخذ بعمق الرأى القائل بأن الضد لا يفهم إلا بضده ، وتغلغل إلى أغواره حتى وضعه على أساس علمى وثيق الوشائج . وانتهى إلى أن كل حقيقة من حقائق الوجود لا تتضح إلا على ضوء التفاعل القائم بين النقيضين الكامنين فى المضمون الواحد أو الفكرة الواحدة . فالخير مثلاً لم يكن ليفهم لو لم يصطدم بالشر ، وكذلك القوة والضعف ، والصحة والمرض ، والنمو والفناء وهلم جرا . فلا وجود لشىء فى نظر الإنسان إلا بوجود نقيضه ، وتطور الوجود يجئ بتغلب النقيض على نقيضه وحلوله محله . وزيادة هذا القول بياناً نقول إن كل ما فى الوجود من ماديات ومعنويات ينطوى منذ نشوئه على جرثومة سلبية تؤدى إلى فنائه . وهذه الجرثومة هى النقيض الذى ينمو ، ويظل يشتد فى صراعه مع نقيضه الإيجابى حتى يتغلب عليه ، فينشأ المضمون الجديد الذى يحتوى هو كذلك على جرثومته السلبية ؛ وهكذا وقد ضرب هجل البيضة مثلاً لذلك فقال : إن السلبية ، وهى عملية التفريخ ، تستهلك الإيجابية فى البيضة وتخرج بمضمون جديد . ولعل الفرق واضح بين رأى أرسطو فى التطور ورأى هجل ؛ فبينما يقول الأول إن الشىء يفقد شكله فى تطوره دون طبيعته الأصلية ، يقول هجل إن التطور يتناول شكل الشىء وطبيعته معاً . فالزمن يجئ على الدوام بالجديد المتكاثر ، ويجئ الجديد المتكاثر بنواميس مستجدة ، والحياة لا تسير بين ضفق القوانين الجامدة التى خدع بها فلاسفة القرن السابع عشر ، ولكنها تزخر بما يستجد فيها من كائنات وعقائد ونواميس وقواعد ، تركيباً وتعقيداً .

وجاهد هجل فى سبيل التدليل على أن الفكر يخضع لنفس النواميس التى يخضع لها الوجود . فالعقل يتطور مثل تطور المادة . بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا فقال : إن العقل والمادة توأمان لا يختلف أحدهما عن الآخر ، أو هما شىء متحد . وليس معنى هذا أن هجل كان يناصر فكرة مادية الوجود ، أو فكرة تفسير كنه الوجود على أساس مادى ، فإنه كان يقرر نقيض ذلك . إذ بينما يقول المذهب المادى إن الفكر يتأثر فى تطوره بتطور المادة ، يقول ذلك الفيلسوف إن الفكرة أساس كل تطور ، وإنها الحقيقة الخاصة فى الوجود ، وعلى الرغم من توافق الفكرة والمادة المقابلة لها ، فإن تطور الماديات وليد تطور الأفكار .

وقد عنى داروين فى منتصف القرن التاسع عشر بنظرية تطور الأحياء ، وتناولها من ناحية جزئية ، وهى ناحية أصل أنواع الأحياء وتطورها . وقد قرر أن فصائل الأحياء تتطور مع الزمن إلى مراتب أعلى من مراتبها بحافز الصراع الذى يسفر عما يسميه الانتخاب الطبيعى أو بقاء الأصلح . ولا تخرج نظرية الصراع هذه عن مضمون التناقض الذى قرره هجل . فما تنازع الأحياء إلا نوع من صراع النقيضين ، وما بقاء الأصلح قياساً على المذهب الهجلى إلا بقاء الأحسن أو الأسمى .

ولكن الذى يؤخذ على نظرية داروين أنها انحصرت فى دائرة الصراع بين الأفراد ، وجعلت معيار قيمة كل حى وقدرته لا يخرج عن نطاق نجاحه فى الحياة ، أو فى كفاحه للاحتفاظ بالحياة ، والذى يفوز فى ذلك الكفاح هو الأجدر بالحياة والأصلح لها ، واستمرار الصراع كفيل فى النهاية بظهور الكائن الأسمى . ولم تكن نظرية داروين إلا أصدق تعبير عن صراع الصناعية بعد الثورة الفرنسية فى سبيل الوثوب إلى الثروة والسلطان . وقد ترتب على ازدياد نفوذ الأفراد الذين أصابوا الثروات الطائلة والسلطان الضخم من طريق الأعمال الصناعية والتجارية ، أن تحركت جموع العاملين تواقة إلى رفع مستواها المادى والاجتماعى ، وأسفر ذلك عن تكتل العمال وانتظامهم فى جمعيات ونقابات . ولم تستطع الحكومات أن تقف مكتوفة الأيدى إزاء ذلك الصراع ، فسارعت إلى سن القوانين العادلة تهيمن على نشاط القوى المتضاربة ، فتحمى المظلوم من الظالم والضعيف من القوى ، وقد استهدفت فى تشريعها رفع الحيف قدر المستطاع عن شعوبها ، وتوفير القدر الممكن من أسباب رفاهيتها . وانتشر التعليم وارتفع مستواه . وازدادت تلك الشعوب فطنة ووعياً ، فاستطاعت أن تؤازر

حكوماتها فيما تبذل من جهود لصون حقوقها وحمايتها من طغيان من لم تردعه القوانين من الأفراد .

لم تعد نظرية التطور والتغير والتجدد معلومة في الوقت الحاضر للفلاسفة وقرائهم فحسب ، ولكنها صارت معلومة لسواد الناس بعدما نافست الصناعة الحديثة الطبيعة العتيقة في مزج مختلف المواد وصهرها وتوليد مواد منها مستحدثة ذات صفات جديدة ، وكذلك بعدما أمكن استحداث أنواع جديدة من محصولات الزراعة ، وإرغام قوى الطبيعة على توليد ما يحتاج إليه الإنسان في حياته من حاجيات .

كان أصحاب الفلسفة الآلية أو « الميكانيكية » يرون ظواهر الحياة تنمو وتشتد ، ثم تضمحل وتموت ، وقد حسبوا أن هذا يجرى على غرار واحد ؛ فالناس في نظرهم يولدون ويكبرون ، ثم يضعفون ويتوارون ، وكذلك النبات وسائر الظواهر الطبيعية التى تظهر وتختفى ، ويجرى كل ذلك على وتيرة واحدة بلا تغيير أو تبديل .

ولكن داروين استطاع أن يثبت انتقال الحيوان على مرور الأحقاب من طور إلى طور ، وأنه يتغير تغيراً كيفياً متوالياً في صفاته الجسدية والعقلية . وقد رأينا نحن هنا في مصر بعد أن تم كشف بعض القبور المصرية القديمة والعثور على بعض حبات القمح بها أن نوع ذلك القمح يخالف النوع المعروف في العصر الحاضر ، وعلى هذا القياس يمكن القول أن القمح الذى كان ينبت طبيعياً في العصور السابقة على التاريخ كان أشد اختلافاً عن قمح العصر الحاضر ، والذى يقال عن الحيوان والنبات يقال كذلك عن ظواهر الطبيعة الأخرى .

والذى يهمنا هنا في مصر من هذا البحث أن نستخلص بما يتضمن من حقائق في كفاحنا وتوثبنا إلى تحسين حالنا ، وأن نبرئ أنفسنا مما يصمنا به خصومنا من جمود يزعمون أنه متأصل فينا ، وأنه يقعد بنا عن تحقيق غايات نهضتنا ، وأننا لا نستطيع الخلاص من ربقته مهما جاهدنا في تلك السبيل ؛ فالدول الغربية التى احتلت الشرق وحققت باحتلاله رقيها الحاضر ، وظفرت بالمكانة المرموقة التى وصلت إليها ، تود أن يظل الحاضر جامداً لا يتغير ، فتظل هى في مكان الصدارة ما بقى الزمن .

وعلى ذلك حرص أبناء تلك الدول على ترديد قول شاعر الإنجليز رديارد كبلنج « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقى الاثنان أبداً » ، وظل رجال الاستعمار يغرسون هذا المعنى في نفوس النشء من أبناء الشرق والغرب حتى يفتوا في عضد الأولين بقدر ما يشدون من عضد الآخرين .

والواقع أن التفرقة بين أجناس البشر في الصفات الطبيعية والاستعداد الفكرى شبيهة بالتفرقة العنصرية التى نادى بها هتلر ، فأثار حوله تسفيه العلماء والباحثين من كل حدب وصوب ؛ فالاستعداد واحد بين جميع البشر ، وما تفاوت الأجناس في مداركهم ومشاعرهم إلا نتيجة لاختلاف ظروف حياتهم وملابساتها .

وليس معنى هذا أن نذعن نحن الشرقيين لظروف حياتنا وملابساتها التى قعدت بنا في القرون الماضية عن مجاراة الركب الأوروبى في حضارته ، أو أن نترك قيادنا للزمن معتمدين على تطورنا الطبيعى . بل علينا أن نفرغ قصارى جهدنا حتى نصل نهضتنا إلى مستوى النهضة الأوروبية فنرد للشرق مكانته بين الأمم . وقد أشرنا في ثنايا هذا المقال إلى بطء التطور الطبيعى ، وإلى إسراع التقدم الحضارى في خطاه يوم استطاعت الحضارة أن تدفع التطور إلى الأمام بالوسائل الصناعية ، وإن مثل القمح الذى ضربناه آنفاً يمكن أن يزيد ما نريد تقريره وضوحاً . فقد كانت عيدانه تنبت كل عام ، في عهد ما قبل التاريخ ، من الحبوب التى تساقطت من محصول العام السابق . فلما اهتدى الإنسان إلى الزراعة وحرث الأرض وبث الحب ، ورواه في مواعيده ، كثر المحصول وكبر الحب ، وظل الإنسان يتعهد زرعه حتى استطاع في العصر الحاضر أن يجدد أنواع القمح ويحسنها بانتخاب البذور الممتازة والإكثار منها . فإذا أجدنا حرث التربة لنهضتنا الحاضرة ، واتبعنا طريقة الانتخاب والإكثار على النحو العلمى المتبع في الزراعة فلا بد أن ينتهى هذا إلى إسراع نهضتنا في خطاها صوب الرقى المرتقب .

محمد مفيد الشوباشي

رسالة الجامعة الشعبية

للأستاذ كامل السوافيرى

هذا هو عنوان الكلمة التى ارتجلها معالى الأستاذ محمد العشماوى باشا بدار نقابة الصحفيين بدعوة من الجامعة الشعبية .

وقد ازدحمت الدار بالحاضرين الذين كان من بينهم لفيف من الآنسات والسيدات لفتت كثرتهن الأنظار ، ودفعت الأستاذ على عزت الأصارى المدير العام للجامعة الشعبية أن يخصهن بشكره فى كلمته التى قدم بها المحاضر ، وأن يعلل كثرة عددهن بتقدير المرأة لمعالى المتحدث ، الذى وقف من قضيتها موقف التأييد .

وقد استهل معاليه كلمته الشائقة ، التى استغرقت الساعة والنصف بالإزجاء شكره للجامعة الشعبية أولاً ، وللصحافة المصرية ثانياً ، مبيناً ما بين الاثنتين من وشائج القربى فى نشر الثقافة ، ثم التفت نحو السيدات فأعلمهن أنه لن يستعمل فى حديثه نون النسوة ، مكتفياً بواو الجماعة التى تشمل الجنسين اعترافاً عملياً منه بمبدأ المساواة الذى تطالب به المرأة ؛ فكان ذلك مثار عاصفة من التصفيق من جانب السيدات . ومضى المتحدث فى كلامه مستعرضاً المراحل التاريخية التى اجتازتها الجامعة الشعبية ، فذكر أنها حدث جديد على مصر لم تعرفه إلا منذ ست سنوات ، وأنه أحد الذين كان لهم شرف المساهمة فى فكرة إنشائها ، حيث دعى لإبداء رأيه فى الفكرة ؛ فآمن بها وسعى لإخراجها من دور الفكر إلى طور العمل ، منوهاً بفضل الأستاذ الجليل الدكتور أحمد أمين بك أول المفكرين فى إنشاء الجامعة ، وأسبق العاملين إلى نشر الثقافة العامة فى مصر ؛ فكان ذلك تقليداً محبباً نود أن يحتذيه أعلام الأدب عندما يعرضون لغيرهم من ذوى الفضل فيعترفون لهم بفضلهم .

وأشار بعد ذلك إلى الشكوك التى ساورته حين علم أن هذا الوليد سيطول عليه زمن الرضاعة ، وتمتد به مرحلة الطفولة نتيجة « الروتين » الحكومى ، ولأن الشعب فى مصر قد ألف أن يلقى على كاهل الحكومة جميع الأعباء من ناحية أخرى ، مع أن الجامعة الشعبية تتطلب أن يساهم فيها الشعب .

واستطرد من ذلك إلى الحديث عن الصعاب التى اعترضت المشروع والعقبات التى وقفت فى طريقه حتى تم مولده ، ثم اصطدامه بعد ذلك بالاعتمادات المالية ، وتأرجحه بين الأعاصير المختلفة إلى أن شاءت الأقدار أن يتولى معاليه وزارة المعارف ، وأن يرنو ببصره نحو الجامعة الشعبية فيجدها كالطفل الذى يحبو ولا يستطيع النهوض فيمنحها القوة ، ويرصد لها الأموال التى تساعدها على السير فى مهمتها بخطوات وئيدة .

وانتقل المتحدث بعد ذلك إلى موضوع حديثه ، وهو رسالة الجامعة فقال :

ما هى إذاً رسالة الجامعة ؟

ألأنت الجامعة لتسد نقصاً فى ثقافة الشعب ، أم هى نوع من الكماليات ؟

وهل هى تعليم قصد به مكافحة الأمية ، أم هى تعليم أولى أو فنى أو عام ؟.

والإجابة أن الجامعة شىء من ذلك كله ، وليست شيئاً منه . شىء لما توافر لها من وسائل وأهداف ، وليست شيئاً منه لأنها لا تستهدف الأغراض المحدودة التى تستهدفها هذه الأنواع ، ولا تتقيد بالقيود التى تتقيد بها هذه المعاهد .

هى ضرورة كان يجب أن نفكر فيها منذ نهضة البلاد ، وقيام الحياة الدستورية فيها ، وهى ضرورة حجبتها عنا سياسة المستعمر حين كان يعطينا العلم قطرة قطرة ، ويعمل على إخراج موظفين بقدر الحاجة ؛ فكان الواجب منذ أن تحررنا أن نفكر أول ما نفكر فى وسائل سريعة فعالة تخلق منا شعباً مستنيراً ؛ والجامعة فى بلد فيه بضعة آلاف من الجامعيين والجامعيات ، وملايين من الأميين والأميات ، والسائد

فى البلاد المتحضرة أن يمتعض التعليم الجامعى مع السياسة العامة للبلاد ، ليجد الجامعيون صدى لرسالتهم فى أوساط الشعب ؛ فإذا لم يكن الشعب مستنيراً ، كانت النتيجة أن يكتب الكتاب لغير قارئين ، فيضعف التجاوب بين سواد الشعب ومفكريه ، ويضعف أيضاً الإقبال على العلم فيؤثر هذا أسوأ التأثير فى إقبال المؤلفين على الإنتاج الذى لا يعدو حاله أمرين : تصديره للخارج أو تلافيه . وفى كليهما حرمان الشعب منه .

والمعاهد العلمية بطبيعة السير وفقاً لقيود من السن والظروف والمستوى الثقافى ؛ فهى إنما تؤدى رسالتها فى نطاق محدود ، وحدود ضيقة ، فى حين أن الجامعة الشعبية تؤدى رسالتها فى جميع الحدود ولجميع الطبقات ، وتهيئ لكل راغب فى المعرفة الفرصة للبحث دون قيود ؛ ولذلك كانت رسالتها مرنة ومتطورة وهى لا تغنى عن المعاهد والمعاهد لا تغنى عنها ، وهى إذ تواجه طائفة من الناس بين رجال وسيدات إنما تخدم الحياة لتقوم على أساس من العلم والمعرفة ، وإذ تنال الدارسين فى المعاهد إنما تكملهم ، لأن العلم لا يقف عند حد . فرسالة الجامعة تشمل ثلاث نواح : إنشائية وتكميلية وحيوية . فى الأولى تنشئ فريقاً من الشعب الذى لم يتح له التزود بالعلم . وفى الثانية تكمل الدراسة للذين لم يتموها فى المعاهد . وفى الثالثة تستقبل الذين أتموا الدراسة فى المعاهد لتلائم بين معارفهم المتجددة وظروف الحياة المتجددة . كما أنها أيضاً تتفجر بينابيع الاستعداد . وتمهد لبروز الملكات والمواهب حين تضم طوائف من الشعب ذوى الثقافة والإدراك . وفى مصر كنوز من المواهب لو وجدت من يغذيها ويتعهدها لأحدثت المعجزات .

يقال : لماذا تطغى الحكومات ؟ فيجاب لأنه لا يوجد رأى عام يردها إلى العدل .

ويقال : لماذا تقلب الأوضاع فى مصر ؟ فترى التعليم العالى يلاصق الجهل الطبق ، والغنى المترف يجاور الفقر المدقع ، ونوعاً من السادة حولهم قطعان من العبيد ؟ فيجاب أيضاً بأن سبب ذلك افتقار البلاد للشعب المستنير ، ولا أقصد بالاستنارة معرفة القراءة والكتابة ، بل أقصد بها معرفة الشعب ما له من حقوق وما عليه من واجبات ، فلا يقصر فى القيام بواجبه ولا ينام عن المطالبة بحقوقه ؛ وهذا الشعب هو وحده الذى ينكر على الحكومة طغيانها ، ويردها إلى الصراط السوى ؛ والجامعة الشعبية هى التى تتدخل لتحقق هذه الاستنارة .

إن مصر تتمتع بحكم برلمانى قائم على أحدث النظم البرلمانية ، وتعمل بدستور مقتبس من أعظم الدساتير ، ويقوم الانتخاب فيه على أساس المساواة بين الجاهل والمتعلم ، وهذا الوضع يتطلب الرأى العام المستنير لأن الذى يتقدم لتأدية حق الانتخاب يجب أن يكون على قسط من المعرفة ، وقد افترض الدستور إدراك الأمة كلها لهذه الأمور . وهنا تبرز رسالة الجامعة الشعبية لأنها تهيئ للشعب الاستنارة والمعرفة ليختار ممثليه الذين يتحكمون فى مصايره .

أمل السرافيرى

وزارة الزراعة

تقبل العطاءات بمكتب مدير إدارة المخازن والمشتريات بالدقى لغاية الساعة ١٢ ظهراً من الآتى :

١ — عملية إقامة مبانى الوزارة الداخلة بالطريق رقم ٢٤ و ٢٨ الموصل من طنطا إلى كفر الشيخ يوم ١٧ / ٥ / ١٩٥١ .

٢ — توريد سلك رباط لحزم بالة التبن يوم ١٧ / ٥ / ١٩٥١ .

ويمكن الحصول على الشروط مقابل دفع مبلغ ٥٠ قرشاً من الأولى و ٢٠٠ مليم عن الثانية بخلاف ٥٠ مليماً أجرة البريد لكل منهما — وتقدم العطاءات على ورقة دمغة من فئة الثلاثين مليماً .

٨٢٤٣

٢ - النسيم عند الشعراء

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

ولم يكن عجيباً في النسيم العليل أن تصح به الأجسام وهو سقيم ! فكأن الشفاء كامن في اعتلاله ، والصحة مخبوءة في سقمه ، يتداوى به مرضى الحب فتحيا أنفسهم ، وتصح جسومهم . فكأنه روح تسري في الأجساد ، أو حياة تدب في الحياة .. وإلى هذا المعنى أشار شاعر بقوله :

إذا خلا الجو من هواء ... فبينهم نفحة وبؤس
فهو حياة لكل حي ... كأن أنفاسه نفوس

ولكن « ابن الرومي » الشاعر كان أرق تعبيراً من هذا الشاعر في قوله :

من نسيم كأن مسراه في الأر
واح مسرى الأرواح في الأجساد

كما كان « ابن نباتة السعدي » أوضح لمحتملات العلاج في قوله :

ونفحة من صبا لبنان خالصة ... تميت علة نفس أو تداويها

أما المقابلة بين سقم النسيم من ناحية ، وقدرته من على منح الصحة من ناحية أخرى ، فنجد أن الشعراء يتعرضون لها ، ولا يفوت كثيراً منهم الإشارة إليها .. فهذا الشاعر « الشريف الرضي » يقول :

وفي سريان الريح لو علمتما
شفاء ، ولو أن النسيم عليل ..

وهذا الشاعر « عبد الله بن الدمينة » يسأل عن النسيم العذب من نحو أرض محبوبته ، يهب عليلاً فيصح به جسم الشاعر المريض :

وأين النسيم العذب من نحو أرضها
يجيء مريضاً صحوه فيطيب ؟

وهذا الشاعر « ابن زيدون » يتحدث عن هذه الريح التي صح بها العليل بقوله :

راحت فصح بها السقيم ... ريح معطرة النسيم

وهذا شاعر رقيق يرى في ريح الصبا النجدية طيباً ينفحه كلما دنا منه هبوباً ، فيخيل إليه أن حبيبته « سليمى » علمت أنه سقيم عليل ، فبعثت مع النسيم بنفحات رياها ليكون طبيباً إليه :

أريح الصبا النجدي ما لك كلما
تدانيت منا زاد عرفك طيبا
كأن سليمى نبئت بسقامنا
فأهدتك رياها لجئت طبيبا !

وما حمّل الشعراء المحبون ، ولا استودعوا شيئاً من ظواهر الكون تحيات قلوبهم وصبابات أنفسهم ، كما حمّلوا النسيم ، واستودعوا الريح . فهي دائماً رسولهم إلى من يعشقون ، ومطيتهم إلى من يألفون ، وأمينهم على الأشواق التي تختلج في صدورهم ، فلا يجدون إلا النسيم حاملاً إياها ومؤدياً نصها . وكثيراً ما سألوا — من ناحية أخرى — هذه النسائم والرياح أن تحمل إليهم — بعودة البريد ! — سلام أحبابهم إليهم ، وعطف حبائبهم عليهم ... وكثيراً ما قامت الريح ، وأجزأ النسيم في مهمة السفارة والتراسل بين المحبين ، فعاد الشاعر العاشق من ذلك بأسعد نصيب كالشاعر « غريب بن سعيد » الذي يقول :

وأستودع الريح الجنوب تحية
إليكم تؤدي من سلامي ومن شكري
وكم بلغت ريح الشمال نسيمكم
فأهدت إلينا منكمو طيب النشر

ونرى الشاعر « العباس بن الأحنف » يسأل الرياح أن تحمل سلامه إلى حبيبته ، ويرجو من هذه الحبيبة أن تبعث مع الريح ردها وأن تحملها جوابها .. فيقول :

وإني لأستهدي الرياح سلامكم
إذا أقبلت من نحوكم بهبوب

وأسألها حمل السلام إليكمو   فإن هي يوماً بلغت فأجيبي !

ونرى الشاعر « الشريف الرضي » يصرح بأن نفحات النسيم هي رسل الحب ودلائل الشوق فيقول :

أو ما شممتَ بذي الأبارق نفحةً
خلصت إلى كبد المحب المشتاق
آهٍ على نفحات نجـــدٍ .. إنهـــا
رسل الهـــوى وأدلة الأشواق !

ثم نراه في قصيدة أخرى يسأل الريح أن تحمل أنفاسه من جانب الحمى لتلاقي نسمات وتجده حيث يقيم هناك حبيب طال به العهد على رغم منه ، فيقول :

خذي نَفَسي يا ريح من جانب الحمى
فلاقِ به ليـــلاً نسيم ربى نجـــد
فإن بذاك الحي إلفـــاً عهـــدته
وبالرغم مني أن يطول به عهدي ...

وهذا الشاعر « الأرجاني » لا يكتفي من النسيم بمجرد هبوبه أو بوشك مروره ! ولكنه يعترض ركب النسيم ، كما يعترض الإنسان ركب المطايا وهو عائد من رحلته ، ليستطلع منه الأخبار ، ويسأله عن أهل الديار ، فهو — أي الأرجاني — يتنسم النسيم ليستخرج من كنانته أخبار أحبابه ، فيقول :

إذا ما سرى ركب النسيم اعترضته
لأخبـــار من أحببتـــه متنسماً

ومن هذه العملية — عملية استخبار النسيم ، جاء الفعل (تَنَسَّم) الأخبار الذي نستعمله في استطلاع الأنباء ، والتشوف إليها ، ولو لم تكن أنباء الغرام ، وأخبار الوجد والهيام .

وعرف النسيم المحمل بتحيات الأحباب ، كمعرفه المحمل بأشواق المحبين ، بليغ الدلالة على ما يحمله ، مبين المقالة عما استودعه ، وإن كان لا يتكلم إلا همساً ، ولا ينطق إلا نبساً .. ولا ينشر إلا طيباً ونفحاً ، فهو لا يذيع كلاماً من حروف ، وإنما يذيع عبارات من حفيف ورفيف ...

وإلى هذا يشير الشاعر « الشاب الظريف » في قوله :

أهـــلاً بمقـــدم النسيم ومرحباً
ومذكِّري عهد الصبابة والصِّبا
حَمَلَ التحية من أهيل « المنحنى »
وأبان عنهم بالمقـــال وأعربا ...

وإذا كان « الشاب الظريف » يخبرنا بأن النسيم حمل إليه تحيات أحبابه ، وهم أهل « المنحنى » ، فإن الشاعر « ابن زيدون » يأمر النسيم — أو إذا شئت الرفق في الطلب — يسأله أن يبلغ تحياته إلى الحبيب ، فيقول :

ويا نســـيم الصَّبا بلغ تحيتنـــا
مَنْ لو على القرب حياً كان يحيينا

ولقد تأنق الشعراء في الاحتفال بهبوب النسيم والحفاوة بلقائه ، لأنه يحمل في ركابه أطيب ما يحمل المحبوب ، وهو ريح برديه ، وأريج عطفيه ، وطيب أنفاسه ؛ فنرى الشعراء يصافحون مواكب النسيم والرياح ، ويستقبلونها بالإجلال والإكرام لطيب ما حملت من عند الأحباب ، ونرى الشاعر « ابن هشيمل اليمني » يحتفي بموكب الريح وهي ذلك الرسول الذي لا يتهم في أمانته ، فيقول :

هبَّت لنـــا سَحَراً والصبح ملتثم
والليل قد غاب فيه الشيب والهَرَمُ
سقيمة من بنات الشرق أضعفهـــا
عن قوة السير ، لما هبت ، السقم
فبلغت بلســـان الحـــال قائلةً
ما لا يبلغـــه يوماً إليَّ فمُ
سراً لغائبـــة يسرى إليَّ به
من النســـيم رســـول ليس يتهم
أصافح الريح إجـــلالاً لما حمَلت
إليَّ من ريح برديهـــا وأنســـتم

• • •

والنسيم رسول مؤدب مهذب رقيق الحاشية ، يرف فيمة الرسائل التي يحملها بين الأحباء ، وأهل الأشواق ؛ فلا يبوح بها ، ولا يغفل عما يحفظها ويصونها ، ولكن شاعرة رقيقة حذرة ، هي « وجيهة بنت أوس » خشيت أن لا تصون الريح رسالتها ، وأبدت ما تخفيه وساوسها من أن الريح تبتذل رسالتها إلى عشيرتها ؛ فطلبت منها — بعد دعاء لها بطول السعد — أن لا تخلط تلك الرسالة بالتراب امتهاناً لها ، واحتقاراً لشأنها ، وعبرت عن ذلك في شعرها المروي في « ديوان الحماسة » قائلة :

فلو أن ريحاً بلغت وحي مرسلٍ
حزنٍ لناجيت الجنوبَ على النقب

فقلت لها : أدّى إليهم رسائلى
ولا تخلطيها – طال سعدك – بالترب

• • •

على أن هذا الرسول الرقيق العذب يحمل من الأشواق أحرّها ، ومن حرق الوجد ألذعها وأشدها وقداً ، ومع ذلك فهو لا يزال على اعتلاله واعتلائه ... لا يحترق مما يحمل ولا يشتعل مما يستودع ! ولهذا نجد الشاعر المعاصر المرحوم « الشيخ أحمد الزين » يعجب من هذا النسيم الحامل للنار كيف لا يحترق ، وكيف يبرد مسه وتطيب أنفاسه ؟ وأى واق يقيه من حرارة ما يحمل ؟ فيقول :

يا له كيف لا يحول سموماً بالذى فيه من جوى واحتراق
حامل النار كيف يبرد مساً أى واق منها له أى واق ؟

ونجد الشاعر المعاصر « عادل الغضبان » لا يخاف على النسيم أن يحترق مما يحمله من الشوق ، ولكنه يخاف على منزل الحبيب أن يحترق حين يروى له النسيم نفثات الأشواق فيقول :

نسيم الصبا عرج على مربع الصبا
وعانق به عنى بأغصانك الرُّبى
ولا تروِ عنى نفثة الشوق إننى
أخاف على مغناه أن يتلهبا ! ...

ونجد الشاعر المرحوم « أحمد شوقى بك » يرد شكوى ريح الصبا لاحتراقها مما حملته من الأشواق فى قوله :

وبعثت الشوق فى ريح الصبا
فشكا الحرقة مما استودعك

وتختلف حرارة النسيم وريح الصبا ، أو أية ريح غرامية باختلاف مهبها ... فإذا غدت من عند المحب فهى حارة ، ملتهبة حارقة ، وإذا جاءت من عند المحبوب فهى لطيفة ، عليلة ، وهى برد وسلام على المحب ... ولولا هبوبها من عند الحبيب رطبة عليلة بليلة لاحترق الشاعر العاشق من حر أنفاسه ...

وهكذا نجد فى « مناهج التوسل » طبع الجوائب شاعراً مجهول الاسم يقول :

لولا نسيم الصبا منكم يروّحنى
لكنتُ محترقاً من حرِّ أنفاسى !

• • •

هذا هو النسيم والريح عند شعراء الغزل وأصحاب العشق . . أما النسيم والريح عند شعراء الوصف والطبيعة ، فهو يهدأ فى إغفاءة الوسن بين الرياض ، فلا تثور بهدوئه عجاجة الغبار كما يقول الشاعر « السرىُّ الرفّاء » :

والريح وسنى خلال الروض وانية
فما يراع لها مستيقظ الترب

وهو حين يجوس خلال الرياض والبساتين يتعطر مما يحمله من طيب عطرها وأريج أزهارها ، وكأن ثوبه الفضفاض ، وهو يمشى بين الرياض ، قد غمس فى مداهن من العنبر الذكى الرائحة ، كما يقول « السرى » أيضاً :

وحدائق يسبيك وشى برودها
حتى تشبهها سبائب عبقر
يجرى النسيم خلالها وكأنما
غمست فضول ردائه فى العنبر

وهو حين يغمز بيديه أغصان الأشجار تتلوى راقصة على أنغام يرسلها القمرىُّ ، كما يقول الشاعر « محمود سامى البارودى » :

غمزتها يد الصبا فتلوّت
راقصات على غناء القمارى

وهو حين يهب فى السَّحر تتناجى الأغصان ، وتتداعى الطيور كما يقول الشاعر « ابن الرومى » :

حيَّتك عنا شمال طاف طائفها
بجنة ، نفحت روحاً وريحانا
هبت سُحيراً ، فناجى الغصن صاحبه
سرا بها ، وتنادى الطير إعلانا . .

وهو – فى النهاية – عند شعراء الحكم والأمثال مبتدأ العاصفة من ناحية أو منتهاها من ناحية أخرى . . .

فالريح ترجع عاصفا
من بعد ما ابتدأت نسيما

وكل ريح لها هبوب
يوماً ، فلا بد من ركود

ولكن الرياح عادة تأتى بما لا يحمد للملاّح ، وتجرى بما لا تشتهى السفن .

محمد عبد الغنى حسن

البصـــــل

للأستاذ عبد الرزاق نوفل

اعتاد المصريون أن يزيد إقبالهم على تناول البصل — أخضر أم جافاً — في هذه الفترة من السنة ، ولعل ذلك يرجع إلى ما عرف عن البصل من قديم الزمان من أنه يكسب الإنسان مناعة ضد الأمراض خصوصاً في فترات تغير الجو ، وأنه من المواد الحريفة التي تمنع الجو الذي تنتشر به طول وجودها ، بل إنها تؤثر على ما يوجد في القناة الهضمية من ميكروبات .

والبصل من أقدم المحاصيل التي عرفت في التاريخ ، إذ وجدت له رسوم على الآثار الفرعونية وعلى مقابر قدماء المصريين ، كما ورد ذكره في الكتب المقدسة .

والبصل المصري هو المحصول التالي للقطن بالنسبة للتصدير ، ويعتبر من أجود أصناف البصل في العالم إن لم يكن أجودها على الإطلاق ، وذلك لزيادة المواد الحريفة والطيارة فيه ، وتبلغ الكميات التي تنتج في مصر في المتوسط حوالي ربع مليون طن ، يصدر منها حوالي نصفها إلى انجلترا وأمريكا وفرنسا وإيطاليا وبلاد الشرق الأقصى ؛ وقد فرضت الحكومة الرقابة على صادرات البصل ، وذلك حفظاً لأسواقه في الخارج ؛ فأضيف إلى الجدول الخاص بمراقبة الحاصلات الزراعية ، وأصبح لا يصدر البصل إلا بعد فحصه بمعرفة مكاتب مراقبة الصادرات للتأكد من سلامته وخلوه من الرطوبة والسلوقة (الإصابة بالشمس) ، والمشاشة (الإصابة بالعطب) والخنبوط .

والبصل أهم أنواع الخضر المزروعة في مصر ، ويعتبر المحصول الرئيسي لمديريات جرجا والمنيا وأسيوط ، كما تجود زراعته في باقي المديريات الأخرى بالوجهين القبلي والبحري ؛ وتبلغ المساحة المزروعة منه حوالي ٤٠ ألف فدان ، ويبدأ ظهور المحصول بالوجه القبلي في أوائل فبراير ، وفي الوجه البحري في يونيه .

ولما كان من المستطاع حفظه في أجولة نظيفة في الجو العادي لمدة تزيد على نصف سنة دون أن يتجاوز التلف فيه من ١٠ — إلى ١٥ ٪ مع مراعاة وضع الأجولة في صفوف فوق كمرات خشبية منعاً لوصول الرطوبة إليه ؛ فلذلك يعتبر المحصول موجوداً طول العام ، كما أن رخص أسعاره جعلها يجعله من المواد الأساسية لغذاء الفلاح ، إذ يحتوي على معظم المواد الضرورية للجسم ، فهو يحتوي على ١٥٫٣ ٪ كربوإيدرات وبروتين بنسبة ٢٫٣ ٪ ، وكمية لا بأس بها من الدهون والألياف ، أما أهم الأملاح التي توجد به فهي الكالسيوم بنسبة ٣١ مليجرام لكل مائة جرام منه ، والفوسفور بنسبة ٣٠ ، والحديد بنسبة ١٫٢ ، كما يضم كمية من اليود .

والبصل غني بفيتامين ب بنسبة ٨ وحدات دولية و ج بنسبة ٧ وحدات ، وبذلك فهو يكسب الجسم مناعة ضد الالتهابات لا سيما التهابات الأنف والأذن والحنجرة ، ويساعد في بناء الجسم وتقويته ، كما أنه يقلل من تخزين الدهون الزائدة في الجسم .

ولقد قامت في مصر من سنين محاولات عدة لتجفيف البصل كان مركزها منافقة ، وقيام الحرب الأخيرة شجع هذه الصناعة فنجحت مصر في تجفيف البصل وأنتجت ثلاثة أنواع من البصل المجفف — مجزأ وشرائح ومسحوقاً — وبذلك ركزت العناصر الغذائية ، إذ أمكن التخلص من أكثر الماء الذي يحويه البصل . فالبصل المجفف لا تزيد نسبة الماء فيه عن ٥ ٪ ، بينما تبلغ نسبة الماء في البصل الطازج ٨٠ ٪ من وزنه ، وبذلك أمكن توفير مساحات كبيرة في وسائل النقل البري والبحري وتقليل نفقات الشحن ، إذ أن العشرة أطنان من البصل الطازج يصبح وزنها بعد التجفيف طناً واحداً ؛ وعلى هذا أصبح من المنتظر رواج هذه الصناعة وتقدمها ، لا سيما وقد لاقى البصل المجفف إقبالاً كبيراً في الاستعمال المنزلي نظراً إلى سهولة إعداده ، فيكفي غمس الشرائح في الماء .

(البقية على الصفحة التالية)

عبيد بن الأبرص

ترجمة الأستاذ حسين نصار

ولا يحمل شرح القصائد أى اسم ، وليس له مقدمة تشرح مصدره . ومن الواضح أنه « كوفى » الأصل ، وينتمى الراويان المذكوران فيه (أبو عمرو وابن كناسة) إلى تلك المدرسة . ويبدو أن تعليقاته (أو بعضها) كانت مكتوبة أصلاً على هامش الأبيات ؛ فأضاع المجلد نهايات بعضها فى تجليد النسخة التى كتبت عنها نسختنا ، فنقصت الشروح (انظر مثلاً القصيدة الثانية ، البيتين ٢ ، ٣ ، والقصيدة الثالثة ، البيت الثامن ، وغيرها) . ويرتكب الشارح أحياناً أخطاء جسيمة ، لا يمكن أن تصدر عن عالم بارز . انظر مثلاً شرح البيت ١٢ من القصيدة ٤ ، والقصيدة ٥ البيت ٢ نحوياً ، والقصيدة الأولى ، البيت ٢٩ ، والقصيدة ٦ ، البيت الأول ، والقصيدة ١٢ البيت ١٢ فى معنى الألفاظ ، والقصيدة ٢٠ البيت ٨ فى الأخبار . وغالباً ما يكون الشرح غير كاف ، متجنباً الصعوبات الحقيقية ، محتوياً على تكرار كثير لا طائل تحته . ولا يستشهد بأبيات الشعراء الآخرين فى شرح الألفاظ إلا فى خمس مرات .

أما القصائد الثلاث الأخيرة من المخطوط ، وفيها كثير من المشاكل التى تحتاج للحل ، فليس عليها أى شرح إطلاقاً .

أما صحة الأبيات فينظر إليها الأشخاص المختلفون من زوايا مختلفة بالطبع . ومن المؤكد أن قصائد البدو الوثنيين لم تنتقل إلينا مكتوبة ، وإنما بالرواية . وكانت القصائد التى تسجل انتصارات القبيلة من أعز مآثرها ، فترويها جيلاً عن جيل . وبالإضافة إلى هذا النوع من المعرفة بين القبيلة ، كان الراوى ، ومهمته أن يحتفظ بالأشعار كما نمها ذاكرته . وفى العصور التى لا تستخدم فيها الكتابة إلا فى للدين ولأغراض خاصة ، يُعنى بالذاكرة عناية كبيرة ، وتكون أقدر كثيراً منها فى العصور الحديثة ؛ وليس من المدهش أن تتداول القصائد بهذه الطريقة قرنين أو ثلاثة من الزمان .

ومن الطبيعى أن يظن المرء أن هذه القصائد اعتراها بعض التغيير فى أثناء هذا الانتقال : فعدم ثبات الذاكرة يؤدى إلى إسقاط أبيات ، أو اضطراب ترتيبها ، أو إدخال عبارات متسببة بعبارات من الراوى ؛ ومثل هذه الظواهر مألوفة فى كل مكان . ولكننا حين نختبر القصائد ذاتها ، نجد قدراً من الشخصية الثابتة يكفينا لنقول بأنها فى معظمها من عمل المؤلفين المنسوبة إليهم . فالمعلقات السبع مثلاً ، كلها قصائد ذوات ذاتية ومزايا عالية ، وتقدم لنا شخصيات شديدة التميز . ونفس الأمر نجده مع القصائد الثلاث الباقية (للأعشى والنابغة وعبيد) التى عدها كثير من النقاد من المعلقات . فقد تركت شخصية امرئ القيس ، وزهير ، ولبيد ، والنابغة ، والأعشى طابعها على شعرها ، ومن

دقائق لتصبح شرائح طازجة ، كما يستعمل المسحوق فى الحساء وغيره كما هو ، وبذلك تعفى ربات البيوت من تهيج الأغشية المخاطية ومن أن تدمع عيونهن عند إعداد البصل الطازج .

وللبصل استعمالات أخرى غير الاستهلاك المنزلى : منها أنه يستعمل كنبه قوى فى حالات الإغماء ، كما يستعمل فى تنبيه الطفل ساعة ولادته . وله فوائد طبية ثبت نجاحها حيث يفيد فى وقاية الجروح من التقيح والتعفن ؛ وعادة وضع قشرة من البصل على الدمامل والجروح لوقايتها وشفائها ما زالت منتشرة حتى الآن بالأرياف ، ولعل العامل المفيد فى ذلك هو الزيوت الطيارة التى توجد به . والبصل يعتبر منبهاً للغدد اللعابية ويزيد من إفرازاتها ، ولذلك فهو يساعد على الهضم وينظم الدورة الدموية ، وقد ثبت أن عصارته مفيدة للهضم من ناحية أخرى ، إذ يولد فى المعدة والأمعاء كمية من الغازات التى تساعد على الحركة الدورية وطرد ما يكون فى القناة الهضمية من غازات متجمدة . وقد أفاد فى علاج مرض البهق ، وذلك بدهان الجلد المصاب بعصيره مع قليل من الخل والملح . وما زال يستعمل عصيره مضافاً إلى اللبن فى علاج مرض الاستسقاء ، وقديماً استعمل فى تطهير الجو من ميكروبات الكوليرا بمصر ، وذلك بحرقه مع الثوم والشيح والزعتر فى مباخر بالقلعة ، ولعل آثارها ما زالت موجودة . وثبت أنه يفيد الكبد والكلى ، وقد اعتادت الحوامل والمراضع أن يكثرن من تناول البصل المشوى لما عرف عنه أنه يدر اللبن وينقى الدم .

عبد الرزاق نوفل

إفراط الخيال أن تظن أن معظم القصائد المنسوبة لهم منحولة في عصر متأخر ، من تأليف أدباء عاشوا تحت ظروف مغايرة تمام المغايرة ، وفي عالم شديد الاختلاف عن أيام الحياة البدوية في الصحراء العربية .

والسبب الثاني لاستمساكنا بأن الشعر القديم كما وصل إلينا صحيح في جملته ، وليس منحولاً ، هو إدمان شعراء القرن الأول الهجري به ، فقد استمر شعراء القرن الأول المشهورون — الفرزدق ، وجرير ، والأخطل ، وذو الرمة على تقاليد الشعراء في العصر الجاهلي ؛ فبالإضافة إلى إشاراتهم الشخصية إليهم استعملوا تراثهم الشعري مراراً وتكراراً ، متناولين نفس الموضوعات بنفس الطرق ، محسنين ، ومحورين ومستعيرين ، ولكن ما زالوا متقيدين بنفس التقاليد ، وليس هناك من شك في أنه قد وصلتنا قصائد هؤلاء الشعراء صحيحة ؛ فقد عاشوا في عصر عمّ استخدام الكتابة فيه لتدوين المؤلفات الشعرية ، وإن كانت الرواية لا تزال أداة نشرها بين الجمهور .

وسبب ثالث هو أن القصائد القديمة كانت ملأى بألفاظ غريبة على العلماء الذين كانوا أول من عرض هذه القصائد لمحك النقد ؛ فقد كانت تنتمي لمرحلة قديمة من اللغة كانت غير مستعملة في الزمن الذي كتبت فيه القصائد وجمعت في دواوين .

ويجب أن ينتبه كل من ألف الشروح القديمة (التي تكون المادة التي جمعت منها المعاجم فيما بعد) أن الشراح — الذين يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً — توصلوا إلى شرح الصعوبات بمقابلة عبارة بأخرى ، وبالجدل والنقاش ، لا بالإشارة إلى لغة الخطاب التي لم تكن تحتوي على الألفاظ التي يبحثون عن معناها ، وتعتمد المعاجم كل الاعتماد على الشعر القديم ولغة القرآن والحديث ، وتصرح بصحة الشعر تصريحها بصحة القرآن والحديث .

وإذا اختبرنا القصائد والشذرات المنسوبة لعبيد ، وكل هذه الاعتبارات في ذاكرتنا ، فنجد قدراً كبيراً منها يتألف من « نسيب » أو « تشبيب » القصائد الكبيرة ، فتعرض عمل الشاعر المحترف بهذه الطريقة ، ولا بد أن هذه القطع حفظت لأنها كانت موضع الإعجاب ، ويصرح مطلع ثلاث وعشرين قصيدة من قصائد الديوان الثلاثين ، ويرد بها ذكر مواضع قبيلة الشاعر ووطنه ، وتكرر هذه المواضع من قصيدة لأخرى ، وتدل على أن المؤلف رجل من سعد ابن ثعلبة من أسد التي توجد في أرضها المواضع المذكورة ؛

وتحتوي القصائد على إشارات إلى أحداث عصر عبيد — مقتل حجر ، الأسلحة العظيمة التي تفخر بها القبيلة ، ومقاومة غسان وملكها الحارث الأعرج . وكل هذا يتفق مع كونها من تأليف عبيد . وفي بعض الحالات (مثل الإشارة إلى الصراع مع عامر في النسار ودارم في الجفار ، في القصيدة ٢ البيتين ١٨ ، ١٩ ، إذا كان تأريخ الروايات لهذه الحوادث بعد شعب جبلة صحيحاً) يبدو أنه أدخلت في قصائد عبيد أبيات تشير إلى حوادث وقعت بعد زمن عبيد من تأليف شعراء آخرين من القبيلة .

وتكشف لغة القصائد عن شخصية ذاتية بارزة .

ويتجلى في موضوعات القصائد الكثيرة طريقة متسقة في الطواف حول موضوعات واحدة . فالقصيدة ١٣ تعالج نفس موضوع القصيدة ١١ ، ونجده ثانية في القصيدة ١٨ ، الأبيات ١ — ٥ ، وفي المفضليات قصيدة (رقم ٤) الجميح (أو منقذ) بن الطماح ، من قبيلة تعيد عاش في الجيل التالي له ، تتناول الموضوع نفسه ، بطريقة تذكرنا بعبيد ؛ وقد قتل الجميح ، الذي يصف نفسه بكبر السن في البيت الثالث ، في شعب جبلة ؛ وقد ذكر امرؤ القيس (٣٠ : ١٣) أباه الطماح في عداد أعدائه ، وأنه الذي دس له عند قيصر . ويتكرر موضوع القصيدة البيت ٦ في القصيدة ٧ . وتتشابه القطع المختلفة التي تصف المواصف تشابهاً بارزاً في التناول (انظر شرح كل منها) .

وتحتوي القصائد على فقرات غامضة بسبب ضياع شرحها أو سقوط أبيات توضح معانيها ؛ كما في القصائد ٢ ، ١٩ الأبيات ١٦ — ١٧ . ونشك في معاني عدد كبير من الألفاظ ، أو نجهل معناها ؛ ولكن لا يمكن القطع بصحة الألفاظ في هذه الأحوال لرداءة المخطوط .

وصفوة القول أنه ليس هناك من سبب للشك في صحة نسبة أغلب القصائد المنسوبة لعبيد . أما ما نشك فيه (لأسباب بيناها في ترجمة كل قصيدة) فالقصائد ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٩ ، بالإضافة إلى أبيات من القصيدة ٢ . وأما الأبيات الحكمية ذات الصبغة الإسلامية ، التي تظهر في القصيدة الأولى وبعض القطع الأخرى ، فربما كانت من زيادة بعض المتأخرين . ومن الواضح أن بعض الشذرات في الضميمة منحولة أو منسوبة خطأ لعبيد ، مثل رقم ٣ ، ٤ ، ٥ ، ١٠ ، ١١ ، ١٦ ؛ وربما كان الباقي صحيحاً .

وأسلوب عبيد طبيعي وسهل ، ولا يتجلى فيه التكلف الذي أغرم به الأدباء فيما بعد .

صبحي الصالح

مختارات من نيتشه

• « سأقدم اليوم ، وسأحقق ما أنتوى تحقيقه من أعمال .. » .

هكذا يقول الرجل الذى قدر له أن يبق ..
يصيح به الناس : « لقد أتيت مبكراً فليس هذا زمانك ..
أتيت متأخراً فليست هذه ساعتك » .
ولكن ماذا يهم الخالدين ما يتفوه به الدهماء ؟.

• ماذا يحب الناس فى الآخرين ؟ أمانيهم ..

• ما نفعله لايفهمه أحد .. فالناس إما أن يمدحوا ما نقوم به أو يذموه ..

• الشفقة هى أخطر ما يتهدد الإنسان .

• ما لايقتلنى يزيدنى قوة ..

• لا تهمل العين والحس ..
وابحث عن الشمس حتى فى الظلال ..

• أثم الثلوج ..
وأجمل الجنان ..
لمن يحسن الرقص ..

• « كيف أبلغ القمة ؟ »
ليس هناك وقت يسمح بهذا التفكير .. فابدأ فى الصعود ..

• ا — أكنت مريضاً ؟ وهل انتهى الألم ؟.
وأى طبيب ذلك الذى عالجنى ؟.
إنى لم أعد أحس بأوجاعى السابقة ..
ب — الآن قد انتهت آلامك واختفى مرضك ..
فما دمت قد نسيته فأنت معافى ..

• حينما وقفت فابدأ فى الفحت ..
فالينبوع تحت قدميك ..
ولتدعهم يصيحون من يسيرون فى الظلام :
« لا تنظر تحتك .. فهناك الجحيم » .

• لقد مللت البحث ..
أريد الآن أن أعلم نفسى كيف أجد شيئاً ؟.
فاتبع العاصفة التى كانت تمنعك من التقدم ..
وسر فى أعقابها إلى حيث تقودك ..

• إنى أكره أن أقود وأكره أن أتبع ..
فما أرفض الطاعة وأرفض الحكم ..
أليس فظيعاً أن أصبح قبلة الأنظار ؟.
وأن أضطر إلى إخافة نفسى لأخيف الآخرين .
دعونى أهيم فى الفضاء الواسع كالطير الحلق ..
ثم أعود إلى عشى فأستسلم لأحلامى ..

ترجمة
ع . ا . ا

من الأدب الإنكليزي :

لـــوسى

لوليم وردزورث

كانت تسكن فى أرض لم تطأها الأقدام قط ،
بجانب ينابيع « دوف » ،
عذراء ، لم يكن هناك من يمتدحها
وقليل جداً من عرفها .

●●●

بنفسجة عند صخرة مخضوضرة ،
ولكنها نصف مختبئة عن العين !
جميلة كالنجم حينما
يتألق وحده فى السماء .

●●●

لقد عاشت مجهولة ، وقليل من يستطيع أن يعرف
متى فارقت (لوسى) الحياة !
ولكنها الآن فى قبرها ،
واحسرتاه ! إن الذى يتألم لذلك هو .. أنا .

●●●

أغنيـــة المربية

لوليم بليك

حينما تعلو أصوات الأطفال عند الحشائش ،
وترتفع ضحكاتهم فوق الجبل ،
يكون قلبى قد اتكأ فى صدرى واستراح ،
ويكون كل شىء عندى على ما يرام .

●●●

« وأخيراً ، يا أطفالى ، هيا إلى البيت ، فالشمس قد
جنحت نحو المغيب ،
وها هى قطرات ندى الليل !
هيا ، هيا ، اهجروا اللعب ، ودعونا نرح
حتى ينبثق نور الصباح من السماء الرحبة » .

●●●

« كلا ، كلا ، دعينا نلعب ، فالنهار لمّا يمض ،
وليس بإمكاننا أن نعود لننام !
ثم إن فى السماء طيوراً محلقة ،
وإن على الجبال أغناماً ترعى » .

●●●

« حسن ، لابأس ، اذهبوا والعبوا ،
حتى يتلاشى نور النهار ، وحينئذ ارجعوا إلى البيت ،
لترقدوا » .
وهنا وثب صغيرهم صائحاً مصفقاً متهقهاً !
فرجعت الجبال صدى ذاك » .

●●●

مقـــــر

لشللى

الموسيقى ، حينما تموت أنغامها العذبة
تتردد فى الذاكرة —
والشذى ، عندما تضمحل البنفسجات العبقة ،
يدرج ليعيش فى الحس .
وأوراق الأزاهير حينما تمسى الأزاهير ميتة
تُكدّس لتكون فراشاً للحبيب !
وكذلك أفكارك ، عندما تعرج روحك إلى السماء
يهجع الحب بين طياتها وينام .

(البصرة — العراق) كاظم محمد على الخليفة

على قهوة أنطون ...

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

... وليس في مصر إلا ما أحسب من يذكر شيئاً عن قهوة أنطون ، أو يروى خبراً عن تاريخها وأعلامها ، أو يدري أين كانت ومتى كانت ؟ على أنها كانت رواق المفكرين من طلائع الإصلاح ودعاة النهوض ، وبين جدرانها وضعت مبادئ الثورة الفكرية لتحرير الشرق من الاستعباد العقلي ، ورسمت الخطط لإنقاذ مصر من الاستعباد السياسي ، وتألف الحزب الوطني الحر ، وهو أول حزب سياسي وطني قام في مصر ...

ذلك تاريخ يرجع إلى ثمانين عاماً أو تزيد ، إلى عهد الخديوي إسماعيل ، إذ أوغل التدخل الأجنبي في شئون مصر ، وصارت مالية البلاد نهباً للسماسرة الأجانب ، وأثقل الدين كاهل الخزانة الحكومية ، وأخذ العسر المالي يخانق الأهالي على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ، وبدا المستقبل مظلماً أمام المشفقين على مصير البلاد وكيان الأمة ... في تلك الأونة المرتبكة المضطربة ، وفد على مصر شيخ ثائر للحريات المهضومة والطبقات المظلومة ، ساخط على أولئك الحاكمين من أبناء الشرق ، الغافلين عن الهاوية التي يحفرها الدول الأجنبي تحت أقدامهم ، ذلك الشيخ هو السيد جمال الدين الأفغاني الزعيم المصلح والفيلسوف الديني الحر ، ذلك الشيخ الذي وقف حياته لإيقاظ الشرق من سباته ، والذي وضع في أرضه بذور الثورة الفكرية والوطنية فنمت وأينعت ، وما زال نجني ثمارها إلى اليوم .

وفد السيد جمال الدين الأفغاني على مصر في تلك الأيام ، فالتزم الإقامة في بيت كان يسكنه في حارة اليهود ، وفي هذا البيت كان يتردد عليه تلاميذه ومريدوه ، والمعجبون بجرأته في الحق ، والمتعلقون بآرائه في الدين والإصلاح ؛ فكان يقضي وقته معهم في القراءة والدرس ، وهم يكثرون كل يوم من حوله عدداً ، ويزيدون عليه إقبالاً ، وكأنهم وجدوا فيه المخلص المنتظر ، والزعيم الذي هيأته الأقدار لأبناء مصر في تلك الأونة الحالكة المضطربة التي لا يدري أحد ما وراءها ولا بأي مصير سيطلع غدها .

وزادت الأحوال في مصر سوءاً على سوء ، وزاد المتذمرون والساخطون عدداً وإقبالاً على ذلك الزعيم الثائر في وجه النفوذ الأجنبي المتغلغل في شئون البلاد ، الناقم على الوضع المتمكن في وسائل الحكم وأساليب الحاكمين ، ولم يكن الأفغاني مصرياً في جنسيته أو نشأته ، ولكنه كان يرى أن كل بلد إسلامي وطنه ، وأن بلاد المسلمين وطن لكل مسلم مهما اختلفت الحدود والتخوم ، ومن ثم كانت غيرته على المسائل الوطنية وشئون الإصلاح في مصر ، وقد دفعته هذه الغيرة إلى الرغبة في توسيع الدائرة للدعوة التي كان يدعو إليها في الإصلاح والنهوض ، وآثر أن يخرج من نطاق البيت المحدود إلى نطاق الشارع الفسيح حيث يستطيع أن يبث أفكاره وآراءه إلى أبناء الأمة على اختلاف طبقاتهم ؛ فكان الرجل يقضي نهاره في الدرس والقراءة لتلاميذه ومريديه في البيت ، حتى إذا ما جاء المساء خرج يتوكأ على عصاه ليأخذ مجلسه في قهوة أنطون ...

وكانت قهوة أنطون قهوة خشبية ، بسيطة المنظر والرواء ، كل ما يميزها عدة أشجار كبيرة ترتفع في ساحتها ، وكان موضعها في المكان الذي تشغله عمارة بنك الكريدي ليونيه الآن ، وفي تلك القهوة كان يجلس الأفغاني جلسة طويلة قد تمتد إلى منتصف الليل ، وكان يأخذ مكانه في الصدر ، ويلتف من حوله الجالسون على هيئة نصف دائرة ، ثم يأخذ في الحديث معهم في السياسة وتغلغل النفوذ الأجنبي في شئون البلاد ، والقروض التي ركبتها وهددتها بالخراب والدمار ، واتساع الشقة وفقد الثقة بين الحاكمين والمحكومين ، وكان الأفغاني في حديثه هذا ثيوراً يتدفق

كالسيل قوة وحماسة ، وكان صريحاً لا يخاف أحداً ولا يرهب مخلوقاً مهما يكن جاهه وبطشه ، وكان جلساؤه وأتباعه فى تلك الحلقة من رجال الفكر والرأى ؛ فمنهم صفيه ومريده الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وسليم تقلا باشا مؤسس جريدة الأهرام ، وعبد السلام المويلحى باشا عضو النواب على عهد إسماعيل ، وإبراهيم المويلحى بك الأديب الكبير ، ومحمود سامى البارودى باشا الشاعر المشهور وأحد زعماء الثورة العرابية البارزين ، والسيد عبد الله النديم خطيب الثورة وداعيها ، فكانت ندوة عامرة بالرجال والشخصيات ، وجلسة حافلة بالآراء والأفكار .

فى هذه الندوة التى تركزت فى قهوة أنطون دعا الأفغانى المصريين دعوة صريحة جريئة إلى الثورة العقلية والثورة الوطنية ، وكان يهيب بهم جهاراً أن ينفضوا قبل فوات الأوان ، وأن يأخذوا فى تحرير أنفسهم قبل أن تطبق الأغلال على أعناقهم ، ويأخذ الكرب بخناقهم ، وكان يقول لهم : « هبوا من غفلتكم ، واصحوا من سكرتكم ، وانفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول ، وعيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء ، أو موتوا مأجورين شهداء ، إن الاستعباد يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة عسفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة ، لا حس لكم ولا صوت ، أنظروا أهرام مصر ، وهيا كل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، تجدوها شاهدة بمنعة آبائكم ، وعزة أجدادكم ، فتشبهوا بهم إن لم تكونوا مثلهم .

بهذا الأسلوب الخطابى كان الأفغانى يستنهض الهمم ، ويستفز العواطف ؛ على أنه كان من ناحية أخرى يرسم مع جلسائه وأصفيائه الخطط الإيجابية لإنقاذ الموقف وتدارك الأمر ؛ ففى تلك الندوة التى أقامها الأفغانى على قهوة أنطون تم تأسيس الحزب الوطنى الحر ، وتم وضع برنامجه الإصلاحى والسياسى ، وكان شعاره « مصر للمصريين » وهو شعار اتخذه المصريون لهم مبدأ فى شتى مراحل الجهاد ، وكانوا يهتفون به أيام الثورة المصرية ؛ بل لقد تألفت من أتباع الأفغانى وجلسائه فى تلك الندوة عدة جمعيات وطنية سرية لناهضة سياسة إسماعيل باشا وسياسة نوبار باشا رئيس نظاره ولمقاومة النفوذ الأجنبى مقاومة عملية لا تقف عند حدود الكلام .

ولقد دعا الأفغانى إلى عزل الخديوى إسماعيل جهرة ، وناصره أتباعه فى هذا ، وتم الأمر بعزل إسماعيل فعلاً ، وتولية الخديوى توفيق ، وكان الأفغانى يعلق آمالاً كبيرة لخير البلاد على شباب هذا الأمير ، ويراه معقد الرجاء فى انتشال البلاد من الوهدة التى تردت فيها ، وكان الخديوى توفيق من جانبه يقدر الأفغانى قدره ، ويعرف له مكانته ، ولكن سرعان ما دبت الوحشة بين الرجلين ، وتوجس الخديوى توفيق من ثورة الأفغانى وتطرفه ، ورأت انجلترا من جانبها أن فى بقاء الأفغانى فى مصر خطراً على مطامعها ومآربها فى افتراس البلاد ، فسعت سعيها حتى أخذ عنوة ونفى من مصر إلى غير رجعة .

أبعد الأفغانى من مصر ، ولكنه خلف أتباعه ومريديه يأخذون مجلسهم كل ليلة على قهوة أنطون ؛ فيتذاكرون آراءه فيما بينهم ، ويتدراسون خططه وتدبيراته .

وفى ذلك المكان وضعوا مبادئ الثورة العرابية ، وهى الثورة التى كان بها ما كان من الأثر فى تاريخ مصر ، بل فى تاريخ الشرق .

قال الدكتور شبلى شميل فيما كتبه فى مذكراته عن جمال الدين الأفغانى : « كان جمال الدين فيلسوفاً من الفلاسفة المشائين أو بالحرى الرواقيين ، ورواقه كان رواق القهوة التى بجنب قهوة البورصة القديمة ، ولعل تلاميذه لا ينسون فى مستقبل الأيام أن يحيوا ذكره بينهم فى ذلك المكان ... » ، ولكن الأحداث التى مرت بمصر والشرق كانت أقوى وأعنف من أن تترك فى أذهان أولئك التلاميذ مجالاً للتفكير فى إحياء ذكره وذكر رواقه فى قهوة أنطون ، وجرت الأيام على كل هذا ذيل النسيان ؛ فليس هناك من يذكر شيئاً عن قهوة أنطون ، أو يروى خبراً عن تاريخها وأعلامها وأمجادها ، أو يعرف أين كانت ، ومتى كانت ، وماذا كانت .

محمد فهمى عبد اللطيف

الهوامل والشوامل

لأبي حيان ومسكويه

نشرة الأستاذين الدكتور أحمد أمين بك ، والسيد أحمد صقر

— ١ —

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

من الكتب ما تطالع وجهه فتجدك ماضياً في قراءته مشوقاً أن تتوغل فيه ، وتطوي الصفحة إثر الصفحة حتى تبلغ الغاية .

وكتاب « الهوامل والشوامل » من هذا الطراز الممتع الذي يجتذب أوساط القراء ، كما يجتذب الخاصة من العلماء ، ولقد شرعت في قراءة الصفحة الأولى منه فوجدتني في مجلسي هـذا قد طالعت زهاء ستين صفحة في متعة جميلة ، وإعجاب عميق :

إعجاب بموضوع الكتاب وأسلوبه ؛ فالكتاب من كتب الحياة الخالدة التي تعالج مشاكل النفس والاجتماع والأخلاق ، تلك المشاكل التي تعرض للإنسان من حيث هو إنسان ، لا تتقيد بزمان ولا بمكان ، وكأن تلك المسائل التي سألها أبو حيان في « الهوامل » وأجاب عنها مسكويه في « الشوامل » هي أسئلة الأمس ، وهي أسئلة اليوم ، وهي الأسئلة التي ستعرض للإنسان في القرون التالية إن قدر لهذا الإنسان أن يعمّر بعد اليوم قروناً .

وإعجاب بأسلوب الكتاب : أسلوبه العلمي الذي بني على الصراحة والتفكير الحر وانطلاق العقل ؛ فالسائل لا يمسكه الخجل أن يعترف على نفسه بأخطائه النفسية والخلقية ، والمجيب يستجيب لذلك ويشركه في هذا الاعتراف لأن كلاً منهما إنسان يخطئ ويصيب ، وينال من الخير مثل ما ينال من الشر .

وإعجاب بالأسلوب البياني ، وناهيك بأبي حيان كاتباً هو أشبه كتاب العربية بأبي عثمان الجاحظ في نصاعة بيانه ، وقدرته على معالجة توافه الأمور في إسهاب جميل وعرض بارع ، حتى ليخيل إليك أن ذلك التافه من الأمر قد عاد فيما ترى العين نبيلاً جليلاً . وحسبك بمسكويه صاحب بيان واضح يجمع إلى الوضوح دقة وإحكاماً .

ونظرت في إخراج هذا الكتاب ؛ فوجدت الناشرين قد بذلا فيه غاية الجهد من العناية والاتصال بالقارئ حتى يتأدى إليه النص أقرب ما يكون إلى السلامة .

وهذه هي المهمة الأولى من مهمات الناشر الذي يكدح ويسعى غاية السعي ليحرر كتابه من رقّ التصحيف والتحريف ، ومن ربقة الاستغلاق والغموض .

وقد قلتها بالأمس ، وأقولها اليوم : إن الناشر الذي يستطيع أن يخرج كتاباً مبرأ من العيب ، سليما من الخطأ لم يخلق بعد ، وما أحوجنا نحن الناشرين أن نتبادل الأنوار في هذا الطريق المظلم ، وأن نتلقى برحابة صدر وإخلاص للعلم ، هـذه النقدات التي يقصد بها خدمة العلم ، وخدمة الثقافة ، على أن يكون ذلك فيما بيننا بأسلوب مهذب عفّ بعيد من أدب العامة ، قريب من أدب العلماء . فهذا هو النقد الذي يرجى نفعه ويخلق جواً صالحاً يقارب بين العلماء ، لا كذلك الأسلوب الضيق البغيض الذي يحاول أن يجعل من العلم ساحة حرب وميدان نضال .

ولست أذيع سراً حين أذكر للقارئ أن الذي أشار عليّ بكتابة هذا النقد لكتاب « الهوامل والشوامل » هو الأستاذ الكبير الدكتور أحمد أمين ؛ فقد سألني — حفظه الله — عن رأيي في إخراج الكتاب فأثنيت على الجهد

والعناية التي ظفر بها هذا الكتاب ، وذكرت أن هناك بعض هنات يفوت أمثالها كل ناشر ؛ فطلب إليّ أن أطلعه على بعضها ففعلت ؛ فعزم عليّ في سرور العالم المخلص للعلم أن أنشرها ، إيماناً منه بعظم فائدة النقد وشدة حاجة الناشر والقارئ إليه .

ظهر لي في أثناء قراءتي — وهي قراءة سريعة سائقي إليها جمال الكتاب — بعض هنات لا تغض من قيمة العمل فيه ، وإليك بعضها :

١ — ص ٧ : ١٦ جاء في الأصل : (وهذه الألفاظ الخمس) فجعلها الناشر « الخمسة » ، وليس ما يقتضي العدول عن الأصل ؛ فإنه إنما يعكس العدد مع المعدود إذا تأخر المعدود ، وذلك في الأعداد من الثلاثة إلى التسعة ، أما إذا تقدم المعدود في ذلك وتأخر العدد فإنه يجوز فيه الأمران : المطابقة وعدمها . جاء في حاشية الصبان على الأشموني في أوائل (باب العدد) : « فلو قدم — أي المعدود — وجعل اسم العدد صفة جاز إجراء القاعدة وتركها كما لو حذف . تقول : مسائل تسع ورجال تسعة ، وبالعكس . نقله الإمام النووي عن النحاة ؛ فاحفظها فإنها عزيزة ! » .

٢ — ص ٢٢ : ٧ (ومثال ذلك مزمار فيه ثقب ، متى أطلق الإنسان فيه النفس وخرق موضعاً بإصبع إصبع اختلفت الأصوات في السمع بحسب قربه وبعده) ، في هذه العبارة نقص والوجه « موضعاً موضعاً » ، وقد ورد في س ١٩ من الصفحة نفسها « تخرق الصوت بالمزمار في موضع بعد موضع » ، وبقرن العبارتين يفهم النقص في العبارة الأولى .

٣ — ٢٤ : ٥ (والأصوات المتكرهة التي ليس لها قبول في النفس كثيرة ، ولا عناية للناس بها فتؤلف ، وإنما تجدها مفردة بالاتفاق ، كصرير الباب) . الصواب : « فتؤلّف » ، يدل عليه مقابلته بكلمة « مفردة » ففي الأصوات ما هو مركب مؤلف ، وفيها ما هو مفرد . وقد جاء في ص ٢٣ : « سوى أن التركيب والتأليف متعلقاً بالصناعة كما ضربنا به المثل في نظم الخرز ونظم الأصوات في الموسيقى ، لأن الموسيقار ليس يعمل أكثر من تأليف هذه الأصوات بعضها إلى بعض » .

٤ — وفي الصفحة نفسها س ١٤ — ١٥ (حتى إنك لا تجد في أدبها إلا متلفتاً إلى فائتها حزيناً ، أو هائماً في حاضرها مفتوناً ، أو متمنياً لها في المستقبل معنى) . وفي هذه العبارة أخطاء وإهمال ضبط يؤدي إلى لبس . أما الخطأ ففي كلمة « فائتها » والصواب « فائتها » أي ماضيها ، فهو يقرن بين الأزمنة الثلاث ، والحاضر ، والمستقبل . كما أن وجه الكلام فيما بعد « أو متمنياً بها في المستقبل » ، وهو ما تقتضيه المزاوجة بكلمة « معنى » ، وأما الإهمال فإهمال « معنى » لأن تركها بهذه الصورة يؤدي إلى أنها واحدة المعاني ، وليس ذلك مراداً ، فالوجه أن تضبط « معنّى » . والعرب كثيراً ما يقرنون المتيم بالمعنّى ، أي الذي تيمه الحب وعنّاه .

٥ — ٣٦ : ١٠ — ١٢ (خطرت خطران الفحل ، ومشيت المرضنة ومررت في خيلائك ، ومضيت على غلوائك حتى أشفقت أن تمثر في فضل خطابك) . فهو يشبه بالفحل المختال النشيط الذي قد خلي وشأنه ، لا يرده راد ولا يكبح جماحه خطام ، فهو يعثر في فضل ذلك الخطام . فالصواب المتعين إن شاء الله : « في فضل خطامك » .

٦ — ٣٣ : ١٧ (من ضعفت غريزته ، وساء أدبه ، وجرؤ تَقدمه) . وإنما هي عبارة عن التهجم والاندفاع في الحكم . فالصواب « وجرؤ مُقدمه » بضم الميم ، وهو مصدر ميمي بمعنى الإقدام والجرأة ، وهي مبالغة نظير قولهم جد جدُّه .

٧ — ٣٩ في نهاية الصفحة (تمرض للجهال الذين فاتهم الانهماك في الطبيعة والحواس ، وطلب ملاذها الكاذبة لا التماسَ الصحة ، ولا بلوغَ السعادة » . لا وجه لنصب الكلمتين ، ولا لبنائهما على الفتح ، فليست « لا » هذه لا النافية ، وإنما هي « لا » العاطفة ، والكلمتان معطوفتان على الانهماك ، فالوجه فيهما الرفع .

٨ — ٤٥ : ١٣ (وغرض فاعل ذلك احتراز مودة صاحبه إلى نفسه بإظهار مودته له ، ومحبته إياه) . إنما يقال احترزت من كذا ، أي توقيته ، وكلمة « احتراز »

بمعنى التوق لا وجه لها هنا ، كما أنها لم تسمع بمعنى الإحراز ، ولو افترضنا صحتها اللغوية لواجهت عقبة أخرى ، هي كلمة : « إلى نفسه » التي توحي بأن صوابها « اجترار مودة صاحبه إلى نفسه » ، أي جرها واجتلابها .

٩ — ٤٧ : ١٧ جاء في سؤال أبي حيان : (لم يُحمَّق الشاب إذا تشايخ ، وأخذ نفسه بالزمانة والتانة) ، والتانة : الشدة والقوة ، وليست من صفة الشيوخ ، ولو أراد بها متانة الخلق لصرح وقال : « ومتانة الخلق » ، فليس من المألوف أن يقال شيخ ذو متانة ، وإنما يقال « ذو تألُّه » أي ذو تنسك وعبادة ، وهي من أخص خصائص الشيوخ ، فالوجه « بالزمانة والتأله » ، وكلمة « التأله » وردت في بعض مواضع من كلام أبي حيان ، انظر منها ص ١٤٨ .

١٠ — ٥٦ : ٧ — ٨ (هيهات هيهات ! اشتد اللغط وكثر الغلط ، ورجع كلٌّ إلى الشطط ، وفات الله الفهمَ والفاهم ، والوهمَ والواهمُ) . وفي هذه العبارة أربعة أخطاء ، وصوابها : « وفات واللهِ الفهمُ الفاهمَ ، والوهمُ الواهمَ » ، أي أدرك الناس الغباء في معرفة الحق أو تصوره ، وفاتهم الفهم الصحيح والتصور الصادق .

١١ — ٥٩ : ١٦ (وليس يمكن أن يتكلم فيه إلا بعد تحصيل جميع المقدمات التي قُدِّمت له ومُهِّدت له) ، والمعروف في المقدمات أنها هي التي تمهد لما بعدها ، وتكون بين يديه تيسيراً وتسهيلا .
فوجه الضبط « التي قَدَّمت له ، ومَهَّدت لأجله » .

١٢ — ٦٠ : ٣ (ولو كان إلى معرفة هذا الوضع طريق غير ما ذكرناه لسلكه القدماء ، وأهل الحرص على إشاعة الحكمة وإذاعتها ، فإنهم — رضي الله عنهم — ما أسِفوا ولا بخلوا ، ولكن لم يجدوا إلى هذا المطلوب إلا طريقاً واحداً فسلكوه وسهلوه بغاية جهدهم) . وليس لمعنى الأسف هاهنا وجه ، بل المراد أنهم لم ينقصوا شيئاً من جهدهم ، ولم يبخلوا ببذل مجهودهم في سبيل العثور على الحقيقة . فالوجه إن شاء الله « ما أشَفّوا » أي ما نقصوا . وفي اللسان : « يقال شَفَّ الدرهم يَشِفُّ ، إذا زاد وإذا نقص ، وأشفّه غيره بشِفّه » .

١٣ : ٦٦ : ١٣ (فإذا اختلفت الجماعة التي تتعاون فيه ، ولم تُصدِر عن رأي واحد ظهر فيه من الخلل والوهن والتفاوت ما يظهر في غيره) .
الصواب « ولم تَصْدُر » أي لم يكن منها صدور عن رأي واحد .

١٤ : ٧٤ : ٣ (فإن الحياة المحبوبة والعيش المضبوط) وليست كذلك تقال ، إنما هي « والعيش المغبوط » أي الذي يتمنى مثله لطيبه ونعمته .

١٥ — ٨٤ : ٥ (وما حد الظلم أولاً ؟ فإن المتكلمين ينفكّون(٢) في هذه المواضع كثيراً) . جاء في الحاشية : ((٢) استعمل ينفك هنا في موضع انطلق وأفاض) . وهذا التفسير لا يستقيم ، فإن « ينفكون » هنا مستعملة في معناها الطبيعي ، أي يختلفون وينفصلون وتتباين آراؤهم ولا تتحد . وبهذا المعنى فسر بعضهم قوله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين » . انظر تفسير أبي حيان ٨ : ٤٨٩ . قال : « والظاهر أن المعنى لم يكونوا منفكين ، أي منفصلاً بعضهم من بعض ، بل كان كل منهم مقر الآخر على ما هو عليه » .

١٦ — ٩٧ : ١٣ (فأما الشجاعة فهي استعمال قوة العَصَب بمقدار ما ينبغي) . وليس يقول الحكماء في اصطلاحهم (قوة العصب) ولا (القوة العصبية) وإنما يقولون (قوة الغضب) و (القوة الغضبية) .

وفي ص ١٥٤ : « وقد ذكرنا أن قوة الغضب ربما كلّت ونقصت عما ينبغي فتكون رذيلة ومنقصة ولا تسمى شجاعة » وفي ص ٣٢٧ « لأنه يستعمل فيه قوة الغضب والشجاعة » . وجاء في تهذيب الأخلاق لمسكويه ص ١٩ : « وأنت تكتفي في علم الأخلاق بأنها قوى ثلاث متباينة تقوى إحداها وتضعف بحسب المزاج ، أو العادة ، أو التأديب . فالقوة الناطقة هي التي تسمى الملكية ، وآلتها التي تستعملها من البدن الدماغ . والقوة الشهوية هي التي تسمى بالبهيمية ، وآلتها التي تستعملها من البدن الكبد . والقوة الغضبية هي التي تسمى السبعية ، وآلتها التي تستعملها في البدن القلب » .

(للمقال بقية)

عبد السلام محمد هارون

وأخيراً يترجم كتاب بينوكيو إلى اللغة العربية

للدكتور أومبرتو ريزيتانو

إنها لمصادفة سعيدة ! إذ بينا أطالع في يوم من الأيام ترجمة الكتاب بينوكيو إلى اللغة اللاتينية ، تكرم دار المعارف بإهدائي نسخة من ترجمة ذلك الكتاب العظيم إلى اللغة العربية . وفي الحق إنها لمصادفة سعيدة ، إذ يفكر في الوقت الواحد أستاذ من أساتذة اللغة اللاتينية بإيطاليا في ترجمة هذه القصة الشائقة المسلية إلى لغة شيشيرون ، وأستاذ مصري أديب من الأدباء المعروفين بسلامة الذوق وقوة الأسلوب ، في ترجمتها إلى لغة الجاحظ ؛ وهكذا يلتقي العالمان العربي واللاتيني مرة أخرى — بعدما التقيا أثناء القرون الوسطى ، واصطدما حيناً وتعاونا حيناً آخر — التقاء رمزياً في ترجمة كتاب لم يتهيأ مثله للجيل الناشىء من نيف ونصف قرن ! ومما لا ريب فيه أن دار المعارف الجليلة بنشرها هذا الكتاب قد سدت فراغاً كبيراً في المكتبة العربية ، كما أمدت الناشئين من الناطقين بالضاد بقصة طريفة تؤلف حلقة جديدة في سلسلة القصص التي أطلق عليها اسم « أولادنا » ، وهي سلسلة تعد الأولى من نوعها في اللغة العربية .

فما هو يا ترى كتاب « بينوكيو » ومن مؤلفه العبقري ؟

أما مؤلف « بينوكيو » كارلو لورنسيني — المعروف باسم كولودي — نسبة إلى بلدة صغيرة من بلاد إقليم توسكانا بإيطاليا الوسطى ! فإنه لم يكن يعرف وقت أن نشر منذ نيف وسبعين سنة قصته الرائعة في جريدة الأطفال في فصول متتالية ، ولم يكن ليدور في خلده أنه كان يخرج إلى حيز الوجود قصة عالمية سوف يكتب لها الخلود ، وسوف يتناولها كل ناشىء من الناشئين ، أو أن يخطر بباله أن قصته سوف تلاقي ذلك النجاح المنقطع النظير الذي لاقاه من قبله « بيترو » في القرن السابع عشر والإخوان « جريم » في القرن الذي تلاه بقصصهما الرائعة .

لم يكن الكاتب الإيطالي يعرف ذلك كله ، كما لم يكن يعرف وقتئذ — إذ أنه كان كاتباً متواضعاً يعتمد في رزقه على ما كان يكتبه من مقالات في الصحف الدورية — أن عشرات من المترجمين سوف يسرعون عقب وفاته إلى ترجمة قصته إلى أكثر من مائتي لغة من اللغات الفصحى والدارجة ، نستطيع أخيراً أن نذكر من بينها اللغة العربية بفضل جهود دار المعارف الغراء .

وفي الحق أن كتاب « بينوكيو » وما اشتمل عليه من حوادث طريفة ومغامرات لذيذة فاتنة ، هو من الكتب النادرة التي تستهوي قلوب الناشئين وغير الناشئين وتخلب ألبابهم ، ولكن يبدو أن الذي افتتن بهذه القصة أكثر من كل من عداه ، إنما هو كاتبها نفسه ، إذ أنه بالرغم من تفكيره مرتين في أن يختم قصته التي كانت تنشر كما سبقت الإشارة بالتتابع في جريدة الأطفال — نراه قد واصل سرد الحوادث ويضيف إلى ما كان قد كتبه من فصولها فصولا أخرى ، مما يدل دلالة واضحة على أن ذلك « الأراجوز » الخشبي الذي تدور حوله حوادث القصة كان يستهوي الكاتب الذي أنشأه من خياله قبل أن يستهوي قراءه من الناشئين وغير الناشئين .

ولعمري إن المسئولية التي تقع على كاهل من يقوم على تثقيف الناشئين وتأديبهم لهي مسئولية جسيمة لا تعادلها مسئولية أخرى . ولقد فهمت مصر وأدركت من بضع سنين أنه لا بد من بذل جهود شاقة في هذا الميدان لتحقق أهدافها في سياستها التعليمية ، فشجعت نشاط دور النشر وعلى رأسها دار المعارف التي أخرجت مجموعاتها الجذابة التي نذكر منها « روضة الطفل » و « أولادنا » و « مكتبة الكيلاني للأطفال » و « القصص المدرسية » و « المكتبة الحديثة للأطفال » و « المكتبة الثقافية للشباب » الخ ، وإنها لمجموعات طريفة يجد فيها الأطفال والمراهقون والشباب تسلية وفائدة في وقت معاً ، وإننا لنجد من خلف هذه المؤلفات والترجمات التي نشرت في هذه المجموعات كتلة من

(البقية على الصفحة التالية)

حطام قلب

للأستاذ عصمت نجيب

كانت تسمع أصواتاً مختلطة لا معنى لها ، وتفتح عينيها الذابلتين بين الحين والحين لترى أشباحاً تروح وتغدو ، وعيوناً تفع الدموع فى مآقيها دون أن تتبين من أمرها شيئاً ... وتحس بالدوار فتروح فى غيبوبة ألية ... وتفيق ثانية والأصوات من حولها لا تصمت ... ربما كان يخيل إليها ذلك ... ولكنها كانت تحس بضغط شديد على رأسها... وترى النور وقد بدا أحمر فى لون اللهب ... وتحس البرودة وقد أخذت تنتفض منها رغم ثقل الأغطية ... وبين الحين والحين يوضع فى فمها ميزان الحرارة ... ووجه تحوطه هالة من القماش الأبيض يقترب منها وينزع الميزان ... وكانت الحالات تتكرر وهى لا تعى شيئا ...

لقد كانت يوما ما تعمل فى التدريس ... ولم تهنأ فى عملها سوى بضعة أشهر ثم وقع الحادث ...

ومرت نوبة من نوبات الحمى الشديدة .. وعادت إلى ذهنها المريض بعض الصور كأنها شريط سينمائى ... إنه اليوم الذى التقت به فيه ... هذا الفتى الشاعرى ... ترى أين هو الآن ... إنها السبب فى كل ما حدث ... لا ... لم تكن السبب ... ومضى الشريط ... إنها تدخل المدرسة لأول مرة وجلة مترددة .. يقابلها الزميل ...

— مدرسة جديدة ؟ أهلا وسهلا .

ولم تجد ما ترد به عليه إلا احمراراً فى وجنتيها أحست به ، وهزة من رأسها .

— لا ... لا ... لا ... ليس فينا من خجل ... هيا بنا ، لا بد أن الناظرة تنتظر قدومك ...

وهذه الطرقة الطويلة الصامتة تردد وقع أقدامهما وصدى دقات قلبها الصغير ... ثم يخرج أحد الفراشين من الغرفة ...

الكتاب والمترجمين من أمثال الكيلانى وأحمد الناجى ومحمد قطب وسعيد العريان وأمين دويدار ومحمود زهران والسيدة بهجة صدقى رشيد ومحمود عطية الإبراشى والسيدة إحسان هدايت وغيرهم الذين لا ينفأون يؤلفون ويترجمون مؤلفات تفتخر مصر بها .

وإنا لنجد الآن بفضل نشاط دار المعارف إلى جانب مختصرات من ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنه ، ومن قصص شرقية طريفة أخرى ، ترجمات من الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، تجعل الناشىء يقف على إنتاج العلم الأوربى فى ميدان القصص والحكايات ، وعلى كل ما نشر خارج مصر من كتب خصصت لتثقيف الناشئين وتسليتهم ، الأمر الذى هو مظهر من أهم مظاهر التقدم فى مصر الحديثة ، التى هى فى مسيس الحاجة إلى التزود من الثقافة الأوربية على اختلاف أنواعها ومصادرها ، لأن العلم والفن والفلسفة والأدب وكل مواد الثقافة والمعرفة — كما يقول الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين باشا وزير المعارف فى كتابه القيم مستقبل الثقافة فى مصر — وإنما هى ليست مقصورة على الإنجليز والفرنسيين ، بل هناك لغات أوربية راقية ليست أقل رقياً وامتيازاً عن هاتين اللغتين ، وهناك أمم أوربية راقية ليست أقل تفوقاً وامتيازاً فى الثقافة والمعرفة من هاتين الأمتين العظيمتين » — وإن معاليه بنفوذه وإرشاداته لهو خير من يستطيع أن يشجع الكتاب المصريين على تحقيق هذه الضرورة . ولقد لاحظنا أن مصر قد بدأت تجنى الثمار الأولى لهذا الاتجاه الموفق الجديد الرامى إلى الإفادة من هذه الثقافات والمعارف .

وإنا لنهنىء دار المعارف بهذا النجاح العظيم ، كما نهنىء الطفولة المصرية بهذا المكسب الجديد .

دكتور
أومبرتو رتشيتانو

وتقرأ .. « حجرة الناظرة » .. وتودعها قائلا :
سأذهب إلى حصتى الآن ، وتدخل فى خطى مضطربة ...
وترفع الناظرة عينيها لترى المدرسة الصغيرة .

— أفندم .

— أنا مدرسة جديدة ... إسمى ...

وتطوى صفحة هـذا اليوم وتقابله بعد ذلك .. لقد تشجعت قليلا فتبتسم .. إنه يعطيها بعض الإرشادات .. ولكنها لا تحس إلا بصوته المؤثر يرن فى قلبها ... كم كان مخلصاً ... وبدأ التأثير يظهر عليها ... فهى تسرع إلى المدرسة لكى تراه ... وهو يحمل حساب هذه المقابلة ... فيكون أول الحاضرين ... ويراقبان الفراشين فى عملهم المنتظم كل يوم ... وأحست بأنها تعرفه من قبل ولو لم تره فى حياتها ... إنما كان بينها انسجام لا تدرى منبعه ... كان حديثه عاطفيا ، صادراً عن قلبه ... مع أنه لم يحدثها يوما عما فى قلبه ... لقد أحست بما تضطرم به نفسه ... ورأت نفسها وهى تضع يدها على الكراس تريد الكتابة ، فتذكر صورته وتضع القلم فى استرخاء وتبتسم فى لذة ... يشوبها شىء من قلق ...

ترى كم يوما مر على تلك الصداقة الحلوة البريئة ... وذلك الانجذاب الروحى الم يدعها يوما إلى نزهة إلى سينما .. لقد كان يعرف أن هـذا اللقاء ربما أساء إليها فلم يبح لها بشىء . كم كان هذا جميلا منه ... لقد كانت موقنة أنه لو دعاها لما ترددت ... لقد كانت منساقة نحوه بإنجذاب لا يقاوم ... ولكنه كان يأبى أن يخدش عاطفتها العذراء بكلمة أو لقاء ..

ثم تذكرت يوم الكشف الطبى .. وياله من يوم مشئوم ، وأحست بالدوار ثانية وكاد يغمى عليها ... ومدت يدا فى الهواء كأنما تتعلق بمنقذ غير منظور ...

ثم أحست يد دافئة تضغط على يدها ... هـل تكون هذه يده ؟

لقد كان رحيما ...

وفى إعياء تحركت جفونها ... إنها الصورة المتكررة .. الوجه الحائط باليأس ... وأغمضت عينيها ثانية واستسلمت لذكرى ... كم كان يهولها أن تعلم بالنبأ الفظيع ... ولو كانت فى حالتها العادية لما تأثرت ولا استسلمت للأمر الواقع ، ولكن فى سعادتها وآمالها المجهول الدافقة كانت الصدمة أشد مما تتوقع ...

لقد جاءت النتيجة بأنها مصابة بالسل ... وأحست بالغثيان وأرادت أن تصيح أغيثونى ، ولكن صوتها خانها ، واستسلمت ثانية ... لقد كانت رقيقة تؤثر عليها النسمة ... فلم يكن غريباً أن تكون مريضة ... ولكن هذا الوقت .. كان أصعب الأمور ...

ورأت نفسها على الفراش تبكى أحر البكاء ... وتصورت نفسها وهى على فراشها ... نهاية حياتها شمعة خافتة تذبل ... وجثة تحشرج وتنحل ... وبكت وبكت .. ولم تكف عن البكاء ، إلا لتعذب بالتفكير فى الشخص الحبيب الذى قدر لها ألا تراه ...

وتذكرت اليوم الذى جاء فيه يحمل باقة من الورد .. يحملها أمله فى الشفاء ... وقد ألهمه إحساسه أن غيابها عن المدرسة لمرض ألم بها ...

وتذكرت عندما كانت على الفراش وجاءت إليها أمها تحمل الباقة وعليها اسمه الحبيب ... وكيف ترقرقت الدموع فى عينيها واهتز قلبها بعنف العاطفة ... ولكنها صاحت .. لا .. أبعديه يا أمى ، ما أنا إلا ميكروب خطير يجب الابتعاد عنه ... قولى إنى لا أريد رؤية أحد ... ولكن يا أمى لا تذكرى له عنى .. أرجوك ..

لقد قرأت غادة الكاميليا ، كانت مصدورة هى الأخرى ، ولكنها ضحت بسعادتها فى سبيل هناء حبيبها وراحة أهله ... هى أيضاً يجب عليها أن تضحى ... عليها أن تقتل الحب فى قلبه قبل أن يتمكن منه فتشقيه الذكرى ...

لا ... ستضحى بكل ما تملك ... حتى تريحه من المصير الذى ينتظره معها . وعاد مرة أخرى ومرات ، وفى كل مرة ترجو أمها أن تنهره وأن تطرده حتى لا يفكر فيها ...

وتذكرت اليوم الذى دخلت عليه حجرة الجلوس ... وكيف قام والتأثر يتعلق على وجهه ... ومد إليها يده فى حنان ... فلم تمد إليه يدها بل قالت ، كان يجب أن تفهم إنى لا أرغب فى رؤيتك ... الوداع يا صديق ... ولم تعرف كيف طاوعها لسانها وقلبها ، بل كيف طاوعتها أقدامها على الذهاب إليه لتقول هذه الكلمات القاسية الأليمة ...

ولكنها كانت مدفوعة بقوة لا تقاوم ، التضحية بحبها في سبيل من تحب ... ولم يصدق هو ما سمع ... فقد كان موقناً بحبها له لأنه أخلص في حبه ولم يرتكب إثما يجازى عليه بكل هذا ... وأحست بالدموع تريد الانفجار من قلبها جائة تسترجع ... ولكن أنى لها أن تسترجع القدم القضاء ...

وحزتها يد رقيقة ... فأفاقت لحظة لتضع البرزان مرة أخرى، وأحست بالبرودة والموت يسريان في جسدها ...

إنه لساخر ذلك القدر الذي يحكم المآسي في صورة لا تخطر على بال ... ترى هل كانت تظن وهي تسمعه هذا القول أنها مخطئة ... ولكن ... الساعة التي جاءها فيها النبأ ... النبأ الغريب الذي لم تتوقعه ... مازالت تذكرها .. واللحظة عالقة بذهنها ... لقد أعيد الكشف عليها فثبت أن المريضة فتاة أخرى بنفس اسمها الأول ... وأن الخطأ جاء من الكاتب ...

هل كانت تظن هذا .. هل كان القدر يدخر لها هذه المفاجأة السعيدة ... أو الأليمة ! ... إنها لا تدري .

ورقصت وضحكت وظنت أنها ستقص عليه هذه القصة الرائعة فيحبها أكثر فأكثر ... ثم يمكن أن تتزوج منه ... وأن تنجب أولاداً يسعدون بحبهما ...

وانتزعت الممرضة البرزان ... ورفعت الفتاة نظرها لتقرأ نظرة الممرضة ، ولكنها كانت نظرة جامدة لا تدل على شيء ... فعادت إلى الذكرى الأليمة ...

لقد ذهبت إلى المدرسة ذلك اليوم لتراه وتقص عليه ما حدث لها فيشاركها فرحها .. ولكنه لم يكن موجوداً ...

وذهبت في اليوم التالي مبكرة عسى أن يكون مواظباً على الذكرى ... ولكنه لم يظهر ... وعاشت في الفصل ذاهلة عما حولها تفكر فيه وما حدث له ... ولم تستطع الصبر وقاومت الخجل ... فسألت الناظرة فقالت : لقد قدم استقالته منذ أسبوع ... وقال إنه سيسافر بعيداً .. إلى السودان ... ولكنه بدا تعيساً إلى درجة لا توصف ... لعل عزيزاً له توفي ...

ووجدت نفسها تردد في ذهول : نعم ... لعل عزيزاً له توفي ...

وانتهى الشريط، وإذا بها في المستشفى تعاني حمى قطيعة .. لقد كانت قصة سعيدة التي كانت ستقصها عليه ... ولكنها أصبحت مأساة تلك التي تردد على ذهنها الآن ... وأحست بنفسها تدور في الهواء ، وأحست روحها وقد انفصلت عن جسدها ... ومضت تتأمل الحطام الذي خلفته ... فصاحت: لا ... لا أريد أن أموت ...

ربما عاد ثانية ... ربما قابلته يوماً ما ... إن في جعبة القدر مفاجآت عديدة ... فماذا يحل علىّ بمثل هذه المفاجأة ... أريد أن أعيش ... أريد أن أعيش ... لأراه .

عصمت نجيب

قصة رمزية :

الشراع الجـــــديد

في صباح يوم جميل ، سار الزورق في سكون بجانب الشاطئ المنحدر ، وكان المنظر خلاباً ، ولون النهر مفعماً بالجمال والسلام . ولم يكن في الزورق إلا شيخ هرم ، وولده الذي يجلس بجانبه في هدوء .

— إلى أين نحن سائران يا أبت ؟.

— إلى تلك القرية البعيدة ، هناك سنجتمع بوالدتك وإخوتك ، ألا تحب أن تكون معي هناك ؟.

— نعم أريد ذلك ، ولكن ، ألا نستطيع أن نسرع بإبحاره ؟ ألا نستطيع أن نتبعك أنفسنا اليوم في تجديف مستمر ؟ إني أريد أن أصل سريعاً إلى هناك . ألا ترى أنه لا يكفينا ذلك الشراع القائم فوقنا ؟.

— نحن نسير الآن بتمهل وبطء ، فالهواء اليوم ساكن ، والرياح قد توقفت عن المسير . ولكن ، ألا يعجبك النظر إلى الماء يعكس أشعة الشمس الذهبية ، وإلى تلك الطيور الحمراء تسير وسط السماء ذات الألوان اللامعة ، وإلى هذه الأسماك تثب من أعماق مثواها في حركات راقصة لتظهر على سطح الماء بلونها الفضي الجميل ، ألا يروقك كل هذا يا طفلي العزيز ؟

— نعم ، كل هذا أحبه وأهواه ، ولكن ، ألا نستطيع الوصول في وقت قريب ؟ ألا نستطيع أن نترك زورقنا لتيار النهر فتزداد سرعة ، ونصل إلى والدتي الحبوبة وإخوتي ؟

— إنك لا تعرف النهر جيداً يا بني ، إننا لا نستطيع أن نترك زورقنا ليحمله التيار إلى هدير الجنادل .... هناك حيث لامناص من الصخور القاسية ، ألا تشاهد هذه الزوارق المحطمة تلوح من بعيد . غداً ستعلم كل هذا عندما تدرك النهر وعوالمه .

سكت الطفل وأدار رأسه إلى الوراء وكأنه لم يقتنع ، وأخذ ينظر حوله إلى النهر مرة ، وإلى الشاطئ مرة ، ومرة إلى السماء وما فيها من طيور ، وأشار إلى والده أن يلتفت إلى ذلك اللون القاتم الذي يغزو السماء ، وسأله إن كان هذا دليلا على قرب اشتداد الرياح .

أجاب الشيخ بأن هذا صحيح . وفرح الطفل بهذا القول وهلل . وأخذ يتصور ما سيلقى عند إخوته من لعب كثيرة ، وما سيجده عند أمه من هدايا جميلة .

وبعد وقت ليس بالقصير ، أظلمت السماء ، وهبت الرياح التي كانت كل آمال الطفل وأحلامه .

واشتدت الرياح وزادت سرعة الزورق ، ونظر الطفل فرحاً مبتهجاً إلى القرية البعيدة وهو يقترب منها ، وأخذ يطيل النظر ويمعن في التفكير والخيال ، ثم نظر إلى أبيه ، فوجده يتصبب عرقاً وهو يحاول تثبيت الشراع ، لقد كادت الرياح أن تمزقه وترمي به بعيداً .

خاف الطفل . وأشفق على أبيه من التعب والإرهاق ، وذهب إليه يحاول مساعدته . وكلما أمسك الشيخ بالشراع زادت قوة الريح ومال الزورق وكاد ينقلب .

واشتد حزن الطفل وقلقه ، وحقد على الرياح التي تكاد تفتك به وبأبيه ، وأخذ يسبها ويلعنها وعينه مملوءة بالدموع . أشار الشيخ إلى ولده بالصمت .

— إن شراعنا ضعيف صغير ، والرياح قوية شديدة ، ولكننا سنصل ... سنصل إلى القرية في الغد ، هناك سنجتمع جميعاً ، وستعلمنا أمك كيف ننسج شراعاً أقوى وأكبر ، وسنثبته في زورقنا بشدة وقوة .... حينئذ لن نخاف الرياح مهما اشتدت .

حافظ أحمد أمين

نظرة إلى مسرح شكسبير

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

احتفل عشاق المسرح منذ أسبوعين بذكرى ميلاد شكسبير وذكرى وفاته أيضاً ؛ فقد ولد فى إبريل عام ١٥٦٤ ، وتوفى فى إبريل عام ١٦١٦ .

ومن تحصيل الحاصل أن نقول : إنه قد بلغ بالفن التمثيلى ذروة شاهقة ، وعالج ألوانه المختلفة معالجة لم يسبقه إليها أحد . ولكن ليس من الصواب أن نظن أنه كان يستطيع ذلك لو لم تسبقه تجارب غيره ، ولو لم تقدر له الحياة فى العصر الذى وجد فيه بالذات .

فأما من ناحية تأثره بغيره فيكفى أن نذكر تأثره بمعاصريه الذين يطلق عليهم University Wits . وقد قصدت ذكر هؤلاء ، لأن المعروف عنهم أنهم — على العكس منه — مولعون باحتذاء قوالب تقليدية والتزام أوضاع أكاديمية ، ومع ذلك تأثر بهم تأثراً مباشراً .

فقد عرف مثلاً من (بيل) كيف يمزج الواقع بالخيال .

وعرف من (مارلو) كيف يُرجع بطولة أبطاله لقيمهم الفردية ، وكيف يتطور بالتراجيديا من مجرد « الوعظ » أى من مجرد مأساة تنتهى بالبطل إلى الشقاء بسبب عيب خلقى فيه ، إلى تراجيديا ، يدور الصراع فيها بين إنسان شجاع النفس ، وبين قوى أكبر منه تتغلب عليه فى النهاية ، ولكنه يظل بطلاً حتى فى هزيمته ، وتكون اللذة المستخلصة من مشاهدة مأساته ليست فى « العبرة » منها ، بل فى الإحساس بالعظمة التى تصاحبه . كذلك عرف من (مارلو) كيف يتخير أبطاله من الحياة المألوفة .

وعرف من (كيد Kyd) كيف يدير الصراع فى ذهن البطل وفى دخيلة نفسه بعد أن كان الصراع دائماً بينه وبين قوة خارجة عنه .

وعرف من (جرين Greene) كيف يرتفع بالكوميديا الرومانتيكية من مجرد (فواصل Interludes) تثير الضحك إلى فن له قيمته .

وعرف من (ليلى Lyly) كيف يمزج العالم النموذجى بالعالم الواقعى وكيف يستخدم العنصر الغنائى فى الرمز إلى الحركة ... وهكذا .

وأما من ناحية تأثره بعصره فيكفى أن نعرف أن تمثيلياته تتفق فى أسسها وأهدافها مع تمثيليات معاصريه بصفة عامة بقدر ما تختلف جميعها عن روايات القرون الوسطى وعن الدراما الإغريقية والرومانية ، أى عن دراما العصور التى سبقتهم اختلافاً ملحوظاً .

وغنى عن البيان أن الأوضاع المسرحية واحدة فى جوهرها ، ولكنها تختلف فى شكلها وفى مضمونها النوعى باختلاف العصر والبيئة ومزاج الجمهور ، على اعتبار أن المسرح صورة للحياة على نحو ما .

صحيح أن المسرح الإغريقى يشبه المسرح الإليزابيثى من حيث وجود عنصر « القدر » فى كليهما كقوة تتوقف عليها القوة الدراماتيكية ، ولكن هناك فارقاً ملموساً بينهما ، إذ أن القدر يظهر على المسرح الإغريقى كممثل رابع يلعب دوراً رئيسياً ، بينما فى العصر الإليزابيثى — عصر شكسبير — يجتمع مع عنصر القدر Fate عنصر الحظ أو الفرصة chance ولا تفسير لهذا الاختلاف سوى اختلاف عقائد الجمهور بين هذين العصرين .

فمثلا الأشباح Ghosts التى تمثل عند الإغريق القوى المسيطرة على الكون وعلى أعمال البشر وتتخذ — تبعاً

ذلك – كياناً مستقلا عن الشخصية الدراماتيكية ، نجدها عند الإليزابيثيين متصلة بهذه الشخصيات أو بعضها اتصالا وثيقاً كأنما هي وليدة خيالهم لا أكثر .

وإنه وإن كان النقاد لا يزالون مختلفين حول حقيقة هذه الأشباح إلا أنهم متفقون على أنه لا شيء يجزم بأن الإليزابيثيين كانوا يؤمنون بوجودها وجوداً موضوعياً . من هنا لم يستخدم مسرحهم (الإحساس بالقدر) وحده في التدخل المباشر في الأمور البشرية . فمثلا « هملت » لم يتحرك للانتقام من قاتل أبيه بوحي من شبحه فحسب ، بل كذلك وقبل ذلك بوحي من تفكيره هو ، إذ أنه ارتاب في الأمر قبل أن يرى هذا الشبح .

كذلك كانت عقيدة الجمهور . كان العصر كله عصر نهضة شاملة وثورة فكرية على التقاليد والمعتقدات السالفة ظهرت انطباعاتها لا في شيكسبير وحده ، بل ظهرت كذلك في تشابمان ودكر وجونسون ومارستون ومدلتون وويبستر وفورد وغيرهم من مؤلفي ذلك العهد ، كما ظهرت أيضاً في ارتقاء الشعر والنثر والشعر الحر ... إلخ . وبالجملة ظهرت في مختلف ألوان الفن والأدب ، لأنها ظهرت في مختلف مرافق الحياة .

ولست أقصد من وراء هذا كله أن أقول إن شيكسبير كان مجرد مقلد لغيره ومستعبد لعصره بالمعنى الضيق ، فإننا إذا قارنا بين ما وصلت إليه الدراما بفضله وبين ما كانت عليه قبله أدركنا امتيازه ، وضخامته وعبقريته ! وإنما أردت أن أدلل على أن العبقرية ليس معناها الشذوذ أو إحداث المعجزات التي لا تفسير لها ، وأن العبقري متصل بجيله ملتصق ببيئته مرتبط بظروفه ، لكنه يمتاز على غيره بقدر ما يحسن استخدام الخامات التي بين يديه واستغلالها إلى أقصى ما يستطاع .

فشيكسبير وإن يكن قد تأثر بمعاصريه وسابقيه كما أسلفنا ، إلا أنه أكمل نقائصهم لجعل شخصياته أكثر إنسانية وجعل مسرح أبطاله أكثر دلالة على عظمتهم ، ووفق إلى ما لم يوفقوا إليه من حيث الاهتمام بالشخصيات الثانوية وإبراز دور (المرأة) وتهيئة المشاهد الكوميدية أي Comic scenes خلال تراجيدياته ...

هكذا كانت استفادته ممن سبقوه أو عاصروه ومما أحاط به ، ولهذا تطور من حسن إلى أحسن حتى بلغ القمة ؛ فهو في مكبث أو هملت خير منه في روميو وجوليت .. وهكذا اعتبر خالقاً أصيلاً لتمثيلياته على الرغم من أنه لم يبتدع موضوعاً جديداً واحداً ولم يطرق باباً واحداً غير مسبوق ، وحتى الشعر الحر الذي يعتبر من أروع مزاياه قد سبقه إليه Gorboduc .

وإذاً فلا عبرة برأي الثلاثة من نقاد القرن الماضي الذين يقدسون كل ما جاء به تقديساً مطلقاً ويطبقون على مضمون تمثيلياته أحدث ما عرفوه من نظريات سيكولوجية وحقائق فلسفية ، فهؤلاء يغالون ويتجنون على العلم والفن ، إذ أن هذه النظريات والحقائق لم تخطر له على بال .

ولا عبرة كذلك برأي الثلاثة من نقاد القرن العشرين الذين يحاولون قياس إنتاجه بأقيستهم الحديثة ، ويعتبرون بعض رواياته مثل (روميو وجوليت) « لعب أطفال » !! فهؤلاء أيضاً يغالون ويتجنون على العلم والفن ، إذ أن مسرحه يختلف اختلافاً كبيراً عن المسرح الحديث ، كما أن ما يعزى إليه من ضعف في بعض رواياته الأولى يرجع – أكثر ما يرجع – إلى حداثة عهده بالتأليف حين ألفها .

وإنما يجدر بنا أن نحاول النظر إلى العباقرة دائما نظرة عقلية قوامها تقدير ظروفهم وإمكانياتهم على اعتبار أنهم آدميون قبل كل شيء .

وهكذا تكون نظرتنا الصائبة إلى مسرح شيكسبير ، ذلك العبقري الذي ولد في الربيع ومات في الربيع وظلت مسرحياته من بعده ربيعاً للفن والفكر على مدى الأيام .

عبد الفتاح البارودي

مكتبة الثقافة

للأستاذ أحمد حسين الصاوى

صفحة من تاريخ مصر السياسى الحديث (مفاوضات عدلى — كرزن) : تأليف الدكتور يوسف نحاس — مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥١ — فى ١٦٥ صفحة

تمر مصر فى هذه الأيام بمرحلة من أدق مراحل كفاحها القومى ، فما زلنا بعد سبعين عاماً حافلة من الاحتلال البريطانى لأراضينا نجادل المحتل فى حقوقنا الطبيعية ونفاوضه فى مشروعية مطالبنا ، وما زال هو — معتزاً بقوته ومكانته — ومطمئناً إلى ما يبدو له من هدوئنا وسكينتنا — يغالط ويماطل ، ويتأبى ويتنمر . ولا يعلم إلا الله ما سوف تسفر عنه هذه الحالة القلقة الثائرة .

لقد مرت العلاقات المصرية البريطانية فى هذه الأعوام السبعين بمراحل مختلفة وأطوار متعاقبة ، كان آخرها ما أعقب ثورة سنة ١٩١٩ من اتخاذ خطة المفاوضة التى ارتكزت على ما ظفرت به مصر من حياة دستورية جديدة . ويشرف المصريين أنهم جميعاً ، على اختلاف وجهات نظرهم ، وعلى تشعب آرائهم فى وسائل الكفاح ، يشرفهم اعتصامهم بحبل الوطنية المتين واستهدافهم دائماً غاية واحدة ، هى العمل على أن يستكمل الوطن استقلاله ونهضته ، ويسير قدماً فى ركب التقدم الإنسانى .

وبغض النظر عما إذا كانت المفاوضات هى الوسيلة الناجعة لانتزاع حقوقنا من مغتصبها أو لم تكن ، فينبغى حين نذكر المفاوضات أن نشيد بمواقف ساستنا الذين حملوا بجدارة عبء الوقوف أمام الأسد البريطانى ، عزلاً إلا من سلاح وطنيتهم ، ضعفاء إلا من قوة إيمانهم ، يحاورونه ويداورونه ، ويحاولون بالحجة والإقناع أن يستخلصوا من بين براثنه حقوقنا المسلوبة . لقد أخفق ساستنا أحياناً ، ونجحوا أحياناً أخرى ، وارتطموا بكثير من الصعاب والعقبات ، ولكنهم جميعاً دون استثناء قد بذلوا عصارة نفوسهم وخلاصة تجاربهم وحنكتهم أمام المستعمر الغاصب .

وكثيراً ما احتمل أولئك الساسة صابرين ما أصابهم من سهام النقد وما اتهموا به فى وطنيتهم ، وما قابلهم به مواطنوهم من جحود ونكر . والواجب يقتضينا إنصاف هؤلاء الساسة وبخاصة أن أكثرهم قد انتقل إلى جوار ربه ، ولن يكون ذلك إلا بنشر ما طوى من صفحات كفاحهم وأحاديث مفاوضاتهم ، التى بقى أكثر تفصيلاتها إلى اليوم سراً لا يذاع .

وهذا هو ما فعله الدكتور يوسف نحاس فى كتابه الذى نقدمه اليوم . والدكتور نحاس رجل من أبرز رجال الصف الثانى الذين وقفوا خلف المفاوض المصرى يمدونه بالتقارير والتفاصيل ، ويزودونه بمختلف المعلومات والبيانات ، ويعملون فى نشاط وجد وسهر على إعداد ما يلزم لسير المفاوضات نحو غايتها . وها هو يعرض علينا فى هذه الصفحة التاريخية ما سجله من يومياته كمستشار فى الشئون المالية والاقتصادية لأول وفد مصرى للمفاوضات تألف برياسة المرحوم عدلى يكن باشا فى صيف عام ١٩٢١ .

وعدلى يكن علم من أعلام الرعيل الأول فى السياسة المصرية الحديثة ، امتاز بالإباء وشدة الاعتزاز ووفرة الشعور بالكرامة . ولا ينكر التاريخ مواقفه الفذة حيال الإنجليز مفاوضاً ، وحيال مصر وطنياً . جنى عليه عزوفه عن ضجيج الشعبية وانطواؤه وارستقراطيته الأصيلة ، فاختلف مع الزعيم الشعبى سعد ، مما حجب عن المصريين كثيراً مما امتازت به شخصية عدلى من مواهب وما قام به للوطن من خدمات .

ولهذه اليوميات أهمية بالغة لأكثر من سبب ، فكاتبها

ثم ولى العذاب ...!

« أعصفى يارياح   واقصفى يارعود »
اجهدى ياجراح   واخفقى يابنود
قد رأيت الصباح   ودفنت الجمود

* * *

اعتقى ياحمام   وارقصى ياطيور
أنشدى ياغمام   واضحكى ياقبور
جاء عهد السلام   وولى والجبور

* * *

اعزفى ياطيور   من نشيد الخلود
واملأينا حبور   والدنيا والوجود
فى الضحى والبكور   فى المسا والهجود

* * *

من دنان الهوى   قد شربت الرحيق
من عيون المها   قد رأيت الشروق
ودعوت الرؤى   سوف لا أستفيق

* * *

من طيور الربى   قد وعيت النشيد
عن نسيم الصبا   قد رويت القصيد
فارقصى يادنا   واهتفى للسعيد

* * *

من زمان مضى   من شهور طوال
قد بكيت الهوى   ولعنت الجمال
وشربت الأسى   ورأيت الزوال

* * *

فى هوى الحبيب   كم سكبت الدموع
وأثرت الوجيب   ونثرت الولوع
إن هذا الحبيب   مستبدٌ يروع

* * *

ليس يجدى بكاء   ليس يجدى أنين
ليس يرجى وفاء   ليس يرجى خدين
فيم هذا البكاء ؟   فيم هذا الأنين ؟!

* * *

فبكيت الشباب   « ودفنت الألم »
غاض كأس الشراب   مات سحر النغم
ثم ولى العذاب   وطواه .. العدم

* * *

فاعصفى يارياح   واقصفى يارعود
اجهدى ياجراح   واخفقى يابنود
قد رأيت الصباح   ودفنت الجمود

(مكلا)   عباس فائق غزاوى

أحد الذين ساهموا مساهمة فعالة فى مفاوضات عدلى وكرزن ، فهى لهذا تزيح الستار عن كثير من التفصيلات القيمة ، هذا إلى أن تلك المفاوضات قد أحاطت بها عوامل خاصة تصبغها بصبغة متفردة ، فهى أول مفاوضات رسمية مكتملة بين مصر وانجلترا ، كما أنها جرت قبل أن تقوم فى مصر حياة دستورية ، فضلاً عما لابس هذه المفاوضات من ظروف نجمت عن الخلاف المعروف بين سعد وعدلى وماتبعه من تصدع وانشقاق فى الجبهة الوطنية .

وإن الصراحة التى دون بها الدكتور نحاس يومياته وبسط فى ثناياها آراءه لتضع كثيراً من النقط على الحروف وتعين على تبصيرنا — نحن أبناء هذا الجيل — بكثير من الحقائق الخافية ، وتلقى الضوء على موقف بعض ساستنا الذين توفى الله معظمهم ، أمثال حسين رشدى وإسماعيل صدقى وتوفيق دوس .

هذا وقد ألحق الدكتور نحاس بكتابه الوثائق الرسمية الثلاث لمفاوضات عدلى — كرزن باللغتين العربية والفرنسية عدا كثير من الوثائق الفرعية الأخرى ، مما يعتبر مرجعاً دقيقاً أميناً لتلك الصفحة التاريخية الهامة .

وإن المرء بعد قراءة تلك اليوميات ومقارنتها بما تطالعنا به الأخبار عن مفاوضاتنا فى هذه الأيام ليتساءل فى مرارة ، هل تقدمنا نحو هدفنا كثيراً ؟ ثم يتساءل فى تشكك ، هل هذا هو الطريق القويم للظفر بأمانينا الوطنية ؟

أحمد حسين الصاوى

الثقافة

العدد ٦٤٦
١٤ من مايو ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

أباطيل ...

سأكفر بالشعر والشاعر   وبالفن والنغم الساحر
وبالحب والأغنيات الحسان   وبالمجد والأمل الزاهر
وبالسحر والجسد المشتهى   وبالنار والقدر الساخر
وبالليل والخمر والأمنيات   وبالوجد والدمع الزاخر
وبالفجر والزهر والنحل   وبالأفق والألق الآسر
وباليأس والمرح المستطاب   وبالأمس والغد والحاضر

• • •

أباطيل قد غنتها الحياة   وأسطورة قد رواها اللهب
فهيئ جناحيك يا شاعري   وحلق عن العالم المضطرب
هي الأرض غارقة في الدماء   وأبناؤها في جنون عجب
هيا كلهم من لهيب الشرور   وأهواؤهم من سعير الغضب
فأين من الناس خمر السماء   وقد سكروا بخمور الريب
وأين من الناس ومض النجوم   وقد حُجِبوا بوميض الذهب

• • •

سأكفر بالناس .. بالعابثين   وبالراكضين وراء السراب
وبالناعمين على جرحهم   وبالتائهين بقفر الرغاب
وبالنادبين .. وبالضاحكين   وبالصارخين بوجه العذاب
وبالشاربين خمور الأسى   وبالحالمين بوثب الإهاب
وبالكافرين .. وبالطاهرين   وبالهائمين بسحر الضباب
ألا إنهم رجع أحلامهم   وأحلامهم حفنة من تراب

• • •

سأكفر .. بالشباب العنيد   وبالطمع الطهر خلف الظلال
وبالقلب والذكر العاقبات   وبالفكر في سبحات الخيال
لقد أظلم الكون في ناظري   ورانت عليه سجوف الليال

فإن مضت فدنيا أسى   وإن أتت فدنيا ملال
وروحي تشهق في لهفة   وليس إلى حلمها من منال
فهيئ جناحيك يا شاعري
وحلق عن الأرض مأوى الضلال

(الموصل — العراق)   محمود فتحي المحروق

آه لو تدرى

آ. لو تدرى   ما حوى فكرى
يا ابنة النور   يا ابنة العطر
سحر عينيك   ثار السحر
وخديك ...   رونق الزهر
ونهديك ...   رقصة البدر
وهو يجتاز   صفحة النهر
آ. لو تدرى   ما حوى فكرى
يا ابنة النور   يا ابنة العطر
قربى منى   تحرك الحسرى
وانثرى فوقى   غلة الشعر
وانسجى حولى   هالة الفجر
واهمسى أذنى   غنوة العمر
علنى أطفى   جذوة الجمر
آ. لو تدرى   ماحوى فكرى
يا رؤى قلبى   يا هوى عمرى
روحك السكرى   حيرت أمرى
ولهت قلبى   بالهوى العذرى
ألهمت روحى   خالق الشعر
يا ابنة النور   يا ابنة العطر
آ. لو تدرى   آ. لو تدرى

السيد محمد الصادق

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٤٦ — الاثنين ٨ من شعبان سـنة ١٣٧٠ — ١٤ من مايو سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

ماذا نعرف عن السودان

للأستاذ السيد المحروق

في هـذا الوقت الذي يكثر فيه الحديث عن السودان بمناسبة المفاوضات التي تجرى الآن بين مصر وبريطانيا ، يجدر أن نتناول الأحداث السياسية التي مر بها السودان منذ أن أبرمت المعاهدة المصرية البريطانية في أغسطس سنة ١٩٣٦ ، والتي تمخضت عن الحالة الراهنة فيه .

مضى على السودان حين من الدهر لم تسمح إدارة السودان لأهله وذوى الرأى منهم بممارسة السياسة واقتفاء آثار العالم الخارجي فيما يأخذ من ألوان الحضارة والمدنية . ولقد ضرب حول السودان بسور من حديد حتى لا يحدق عينه إلى ما يهدد نفوذ هذه الإدارة وسلطانها ، وظلت الحال على هذا النحو إلى أن أبرمت المعاهدة المصرية الإنجليزية في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ ؛ فأخذ السودانيون يقلبون بنودها وينقبون في نصوصها ويتناولون ما جاء فيها عن السودان بالبحث الدقيق والدرس العميق ، حتى إذا كانت ندوة ذات مساء بنادى الخريجين بأم درمان انتظم فيها كبار الخريجين في كلية غردون ومفكريهم نبتت فكرة تكوين مؤتمر يضم هؤلاء الخريجين ويعبر عن آرائهم وأفكارهم في كل ما يتصل بشئون البلاد سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ، فتم ذلك في سنة ١٩٣٧ .

منـذ ذلك التاريخ والوعى السياسى ينمو ويزدهر حتى أصبح المؤتمر معقد آمال السودانيين قاطبة ، وقد بدأ حياته الأولى بالاهتمام بالشئون العامة ، كالعمل على نشر التعليم والدعاية الصحية وكل ما يتصل بالمرافق العامة . ولقد أبلى المؤتمر بلاء حسناً في نشر التعليم وإنشاء المدارس ؛ فأوجد يوم التعليم الذى انهالت عليه فيه التبرعات من كل حدب وصـوب من السودانيين والمصريين على السواء ، وبذلك تمكن من أن يخطو بالعلم والتعليم خطوات واسـعة ضاقت عنها إدارة السودان من قبل .

ما كاد المؤتمر يستوى على سوقه حتى أخذ يفكر فيما حوله من الأحداث ، وما قدم السودان من تضحيات في الحرب الأخيرة التى اشترك في ميادينها المختلفة ، وما ساهمت به قوة

وقع السودان من جهود حربية انتهى بهزيمة الإيطاليين في أريتريا — كان كل ذلك حافزاً للمؤتمر أن يتقدم بمذكرة إلى الحاكم العام سنة ١٩٤٢ تضمنت عدة مطالب منها ما يتناول الإصلاح الداخلي ، ومنها ما يتناول نظام الحكم الثنائي الذي ترزح تحت أعبائه البلاد منذ زمن بعيد .

لقد كان أهم ما جاء في هذه المذكرة : هو مطالبة الحاكم العام بالاتصال بدولتي الحكم الثنائي للاعتراف للسودانيين بحق تقرير المصير .

وفي الحق أن إدارة السودان تطلعت إلى المؤتمر كي تجنيها على تدعيم سياستها وتحقيق مآربها ، إلا أنها لم تجد فيه ضالتها المنشودة ، فلما استوثقت من ذلك ، عمدت إلى إنشاء المجلس الاستشاري في سنة ١٩٤٣ وعينت أعضاءه من أنصارها والتابعين لسياستها ، وجعلت رياسته للحاكم العام على أن يحل محله السكرتير الإداري عند غيبته .

ومما يثير العجب أن إدارة السودان كانت تدعي أن هذا المجلس يمثل سكان البلاد جميعاً تمثيلاً صحيحاً ، مع أنها حرصت على ألا يضم أحداً من أهل الجنوب . ومما تجدر الإشارة إليه أن كثيرين من قادة السودانيين أحجموا عن الاشتراك في المجلس الاستشاري مما أوحى إلى إدارة السودان أنها لن تستطيع أن تحقق أهدافها عن طريقه ؛ وفي الوقت نفسه شعر السودانيون بما يراد بهم فبدأوا يفكرون في توحيد صفوفهم والعمل على تكوين جبهة قوية تقف في وجه هذا المجلس . فتكون حزب الأشقاء الذي ينادي بوحدة الوادي تحت التاج المصري مع الاستقلال الداخلي ؛ ثم أعقب ذلك قيام أحزاب أخرى أهمها حزب وحدة وادي النيل الذي يمتاز بمبادئه ويهدف إلى تحقيق الوحدة دون قيد أو شرط ؛ ولعل الظروف تعمل على أن يمد حزب الأشقاء يده إلى حزب وحدة وادي النيل كي يتعاونا جنباً إلى جنب لتحقيق الوحدة الصحيحة البعيدة عن كل زيف أو تضليل .

وفي السودان الآن أحزاب كثيرة ذات أغراض متباينة ؛ وأهمها حزب الاستقلال وحزب الاتحاد وحزب الأمة وغيرها ؛ وتظاهر إدارة السودان حزب الأمة وتقدم له العون ، ذلك لأنها تتخذ منه عضداً في تنفيذ سياستها المرسومة في تحقيق ما تسميه بالاستقلال التام .

وقد توالت على السودان أحداث داخلية جعلت إدارته تتبين أن المجلس الاستشاري لا يسعفها في تحقيق أغراضها فعمدت إلى إنشاء الجمعية التشريعية ، وقد تم إنشاؤها في سنة ١٩٤٨ .

يعتبر إنشاء الجمعية التشريعية بدء مرحلة جديدة في تاريخ السودان ، إذ أصبح فيه نوع من الحكم في ظاهره النظم الدستورية المعروفة ؛ ولكنه في الواقع يسير على السياسة التي يتعهدها الحاكم العام ، ولذلك لم يكن غريباً أن يقاطعها أصحاب الرأي من السودانيين ، وأن يعلنوا سخطهم عليها ، ومحاربتهم لها ، حتى إنها افتتحت في يوم أعدت له إدارة السودان عدتها من الحديد والنار ، ولكن ذلك لم يثن السودانيين عن إظهار ما تكنه نفوسهم نحوها ، الأمر الذي أدى إلى سفك دم الكثيرين منهم وزج البعض في السجون وتشريد البعض الآخر .

ولقد تمخضت الجمعية التشريعية عن تعيين وزراء من السودانيين . وإذا عرفنا أن الحاكم العام يعاونه ثلاثة من السكرتارين الإنجليز ، هم السكرتير الإداري ، والسكرتير القضائي ، والسكرتير المالي ، الذين لهم سلطة تفوق ما للوزراء في البلاد الأخرى ، لتبين لنا الغرض الذي من أجله أنشئت مناصب الوزراء في السودان . أهو مصلحة البلاد ، أم أن ذلك تنفيذ للبرنامج الذي تسير عليه الإدارة هناك .

السيد المرغني

بين الجـــــد واللهو

للأستاذ علي أدهم

كثير من الكلمات المأثورة والحكم المعروفة والأمثال السائرة تحاول أن تؤكد لنا أن الجد في الجد والحرمان في الكسل ، وتحملنا على الاعتقاد بأن من جدّ وجد ، وأنه لابد دون الشهد من إبر النحل ، وتحذرنا عاقبة التقاعد والتكاسل ، والتواني والتراخي ، وهذا كله حسن وطيب ومعقول ، لأنه لو انصرف الناس عن العمل وزهدوا في معاناة الصعاب وأحجموا عن لقاء الأخطار وآثروا الاستكانة وحب السلامة لفسدت الأرض ، وتوقفت حركة التقدم ، وارتدت الإنسانية إلى عهود الظلام والجاهلية ، واستهدفت للهلاك والفناء ، فالحافز إلى الجد والعمل مرده في الأصل إلى غريزة حفظ الذات ، وهي أقوى الغرائز المسيطرة علينا ، ونحن في ظاهر الأمر نعمل من أجل أنفسنا والمحافظة على كياننا ، ولكننا في الواقع نعمل على الدوام للغير ، وما أصدق قول المعري :

> الناس للنـــاس من بدو وحاضرة
>
> بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

ولكن عدداً قليلاً من الناس يقبلون على عملهم في أمل واستبشار ، ويجدون في أدائه الراحة والمتعة وإرضاء الضمير ، وأكثر الناس يظهرون ضيقهم بأداء ما يباشرون من الأعمال ، واجتوائهم لها ، وقل من تراه قانعاً بحاله راضياً عن عمله .

وقد يكون السبب في ذلك فساد نظم المجتمع واختلال موازينه ، مما يثير النقمة في النفوس ، ويزهد الناس في الإقبال على العمل ، والتوفر على إجادته وإتقانه ، وربما كانت المسألة أكثر تعقيداً من ذلك ، فإننا إذا نظرنا إلى حالة الإنسان في ذلك العهد الذي يبدأ فيه تكوين أخلاقه وبناء شخصيته قبل أن يتعلم الكبت والمداراة والنفاق والرياء وهو عهد الطفولة ، وجدنا أن معظم الأطفال يميلون إلى اللعب واللهو ، ويعرضون عن العمل ، واللعب هو مسلاة الطفل ومراحه ومغداه ، وقد ينفق الطفل في اللعب مجهوداً شاقاً لو كلف بمثله لطال شكوه ، وكثر تذمره وتعلله ، وأي جهد يعانيه الطفل محبب إلى نفسه جائز في شريعته ما دام لا يحمل طابع الواجب ، وصبغة الأمر .

فعالم الطفولة هو عالم اللهو واللعب ، وتجاهل الواجبات والتبعات ، والأوامر والنواهي ؛ والطفل لا يقوم بالعمل الذي يعرض عليه إلا بشيء من الضغط والإرغام ، والتحذير والتهديد ، وقد لاحظ علماء النفس أن كثيراً من الآباء يسوءهم هـذا ويقلق خواطرهم ، فيشكون دائماً من أن ابنهم لا يجد متعة في استذكار دروسه ، وأداء واجباته ، وأنه منصرف إلى اللعب واللهو ، ولكن قليلاً من الملاحظة يدلنا على أن ميل الطفل إلى اللهو واللعب دليل على سلامة أعصابه ، وتدفق حيويته ، والأولاد الذين يأخذون واجباتهم مأخذ الجد الصارم ويستيقظون مبكرين خشية التأخر عن ميعاد المدرسة ويكثرون من الإكباب على دروسهم ويعرضون عن اللعب مع أترابهم ، هم في الغالب مرضى الأعصاب ، والاجتهاد الزائد عن الحد علامة اضطراب النفس .

والدافع إلى اللهو واللعب في أيام الطفولة هو أقوى الدوافع ؛ وكلنا نذكر شدة فرحنا في عهد التلمذة بأيام العطلة والفترة التي يتغيب فيها المدرس ، وبخاصة إذا كان صارماً شديداً كثير التدقيق ، أو كانت المادة التي يدرسها من المواد الصعبة التي تحتاج إلى شيء من الانتباه والتركيز أو كانت طريقته في التدريس مملة جافة .

والكبار الذين يضطلعون بالتبعات ويعرفون قيمة العمل ويستشعرون فيه المتعة يتوقون إلى البطالة ، ويحنون

إلى الراحة ، وتستهويهم متعة اللعب ، وهم يدركون أنه من اللازم في كثير من الأوقات أن يقاوم الإنسان ميله الغريزي إلى الكسل واللهو ؛ وحب الراحة وطلب السلامة والرغبة في البطالة والتقاعد عدو يجب مقاومته ، وعلة ينبغي معالجتها من الحين إلى الحين ، ولكن في حكمة وتبصر واعتدال واتزان ؛ لأن قهر النزعة إلى البطالة وحب الراحة قد يكلفنا كثيراً ، ويضر بأعصابنا ، ويؤذي صحتنا بوجه عام . وما أصدق الحديث الشريف : « إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . وتقدير ميل الإنسان إلى الراحة والتبطل وحاجته إلى شيء من اللهو واللعب هو الذي جعل الشرائع والأديان توصي بأيام العطلة إشباعاً لهذه الرغبة ، واستجابة لهذا الميل .

وقد رأت الأديان أن تخلع المدامة على حق الإنسان في الكسل واللهو والبطالة ؛ ففي الأديان القديمة كانت هناك أيام الحفلات الدينية ، وفي الأديان الأحدث نهتمّ عناية بأيام المواسم والأعياد ، والذين لا يملكون يقاومون في أنفسهم الميل إلى اللعب واللهو وحب الراحة يمرضون وتقل كفايتهم للعمل ، وتخذلهم أعصابهم ، وتنوء بحمل ما يجشمونها من الأعباء والأثقال ؛ وفي النفس البشرية صراع دائم عنيف بين الجد واللهو ، وانتصار أحدهما انتصاراً حاسماً مصدر خطر يتهدد الإنسان وينذره بالشر المستطير ؛ وفي بعض الأحيان تطغى عليه الرغبة في الكسل والتبرم بالعمل طغياناً شديداً ، ومن الناس من يعالج هذه الحالة بالخروج إلى الصيد أو القيام بنزهة بحرية أو رحلة إلى الريف فيستشعر الراحة ، ويحط عن كاهله الأعباء والتكاليف ؛ وذلك خليق بأن يرده إلى ميدان العمل موفور النشاط ، متجدد الهمة والعزيمة ؛ وبغير فترات اللهو والراحة يفقد العمل لذته ومتعته ، ويصبح سخرة مرهقة ، وحملاً ثقيلاً ، وخير الأمور الوسط ، وهو المداولة بين الجد واللهو والعمل والراحة ؛ والأقصوصة الآتية للروائي « إرختكو » تمثل حياة رجل بليد قد أمعن في البلادة ، وتجاوز حدود الكسل والتقاعد ؛ والظاهر أنه كانت له في ذلك حكمة ، وربما كانت هذه الحكمة ادخار النشاط والحركة لما هو أهم وأجدر بالنشاط والحركة ؛ وعلى أي حال فإني لا أحسبها من الحكم المقبولة أو المرغوب فيها ، لأن الامتناع من العمل في الحياة عامل سلبي ، والعمل عامل إيجابي ، والحكمة التي ترجح الجانب السلبي على الجانب الإيجابي جديرة بأن تكون موضع الشك ؛ وإلى القارئ نص هذه الأقصوصة وعنوانها « البليد » :

في الميدان الصغير المنعزل جلس إلى جانبي رجل ، وقد لفت نظري من أول الأمر بهيئته وحاله وسلوكه الأعجب والأغرب ؛ فقد كان منحنياً ، وركبتاه في مستوى وجهه ، ودس يده في جيب سرواله ، ووضع على إحدى ركبتيه كتاباً ، وكان يبدو أنه يقرأ فيه ، وكان يتابع السطور في بطء ، وتراخ وعيناه تكادان تكونان مغمضتين ، ولما أتم قراءة الصفحة لم يحاول أن يقلبها ، وبدلاً من ذلك رفع عينيه وقسم انتباهه بين سحابة صغيرة كانت تختزن أقطار السماء وبين القضبان الحديدية في الميدان ، ومن الحين إلى الحين كانت تهب نسمات الربيع الفتّانة ويسمع هزيزها ، وكانت تهفو بطيات ثيابي ، وتحرك عند أقدامنا أوراق السنة الماضية الجافة ، وفي النهاية تقلب صفحة كتاب جاري الشارد الفكر .

وكان حيناً يسمع حفيف الصفحة يصوّب عينيه إلى الكتاب ، ويمضي في القراءة بالطريقة الداخلة الفاترة نفسها كما كان من قبل ، وبعد أن قرأ صفحات عدة على هذا النمط قوي هبوب النسيم واشتد حتى أسقط الكتاب على الأرض .

فنظر جاري إلى الكتاب الملقى على الأرض غير مكترث وأغمض عينيه وأخذته سنة من النوم ؛ فقلت له وقد جذبته من كمه : انظر ، هذا كتابك ملقى على الأرض .

ففتح عينيه ونظر إليّ وقد بدت عليه علائم التفكير ، وقال : نعم ، لقد أدركت ذلك .

— حسن ؛ فلماذا لم تبادر إلى التقاطه ؟ .

فحوّل وجهه نحوي ونظر إليّ نظرة ما كرة بعينيه الناعستين ، وقال : إنه لا يستحق القيام من أجله ، ورجائي أن لا تتحرك فبعض المارة سيلتقطه .

فبدأت أقول له : ولكن ... ؟ . .

وفي تلك اللحظة مرّت امرأة متلفعة بشال وحاملة سلة ،

ولما اقتربت منا انحنت بالغريزة لتلتقط الكتاب ، وقالت : كتابك ياسيدى قد سقط منك .

ووضعت الكتاب على المقعد ، ونظرت إلينا نظرة تشوبها الدهشة ، وسارت فى طريقها .

ففتح جارى عينيه الناعستين ، وغمزنى بهما قائلاً :

— حسن ، ما الذى قلته لك ؟ .

— أكان من الصعب عليك أن تلتقطه بنفسك ؟ .

— أتظن أنه كان أمراً سهلاً ميسوراً ؟ .

فجاذبته أطراف الحديث ولم أر فى حياتى كسولاً بليداً مثله مقتنعاً الاقتناع كله بأنه على حق فى كسله وبلادته .

وشكا إلىّ قائلاً : إن لدى الإنسان أعمالاً كثيرة فى هذه الحياة ! فإن عليه أن يأكل ويشرب ويلبس الثياب ، ويغتسل ويصلى إن كان متديناً ، ولا أود التعليق على تلك المسألة القطعية الصارخة مسألة أن هذا كله لا يعد عملاً ، ولكن بالله عليك فكر فى الأمر ! فإن على الإنسان بعد ذلك أن يعمل ، كأن هذا كله ليس كافياً ! أليس كوكبنا الصغير هذا كوكباً لطيفاً ظريفاً ؟ .

فسألته : وكيف تدبر حياتك إذاً ؟ .

فتأوه وقال : إنها ليست حياة ، وإنما هى بلاء وعذاب ومحنة .

وقرب بين حاجبيه وقال وهو يقصد أن يؤثر فىّ : تصوّر أنى بالأمس كان علىّ أن أذهب إلى الخياط لأفصل ثوباً ! .

ولما لم يؤثر فىّ قوله مضى يقول : نعم ياسيدى ! أفصل ثوباً ! ليته تمزق أشلاء جميعاً ! كان علىّ أن أختار القماش واللون والبطانة والحشو وأقف للمقايسة ... .

فظللت لا أظهر شيئاً من العطف عليه .

فاسترسل يقول : إرفع ذراعيك ! إخلع ثوبك ... لا تنحن ! مد ساقيك ... إلى آخر أمثال هذه المضايقات والمنغصات ! فما قولك فى ذلك ؟ .

فقلت له باهتمام : إن وجودك فظيع ! فلماذا لا تضع حداً لذلك كله ؟ .

— لقد فكرت فى هذا الموضوع ولكن الأمر يقتضى بذل شىء من الجهد فى استحضار بعض اللوازم السخيفة مثل المعاليق والحبال ، ثم عليك أن تكتب هذه الذكريات الأخيرة ، وأحسبهم يسمونها « رسائل النهاية » ، ولذلك قضيت بأن هذا العمل سيكلفنى تعباً جماً .

ثم رفع عينيه إلى السماء وقال : الشمس مائلة إلى الغروب ، أتستطيع أن تذكر لى كم الساعة الآن ؟ .

فأجبته : لقد وقفت ساعتى .

فقال : ليت هذا الكوكب السافل الوضيع يتصدع ! إنه يجور ويدور لغير سبب ظاهر .

فقلت له : تستطيع بسهولة أن تعرف الوقت من الحانوت المواجه للميدان .

فأجابنى ، وقد نظر إلىّ نظرة من ينتظر قضاء حاجة :

— نعم ...

وقمت من مقعدى وقلت : سأذهب إلى هناك وألقى نظرة .

— لا أريد أن أتعبك . لننتظر حتى يمر بنا أحد الناس ونسأله .

وعندما عدت وجدته جالساً بهيئته التى تركته عليها .

وبدأت أزور البلد ، ونشأت بيننا صداقة عجيبة ، وفى أثناء لقائى له كنت أحمل عليه حملات شعواء ، ولكنه كان يتلقاها بالابتسام الذى يدل على طيبة القلب ويقول :

— لا بأس ، ما الذى تجادل من أجله ؟

وقد ذهبت أمس لزيارته ، ووجدته مستلقياً فى فراشه كعادته ، وحوله قصاصات من الجرائد ممزقة ، دع عنك ذكر معطفه الذى بدا لى أنه خلعه بسرعة فسقط على الأرض بعد عودته من جولته اليومية المعتادة .

فحوّل رأسه نحوى وقال وقد بدا عليه السرور :

— ماذا ! أنت هنا ! أعرف أنى أنتظر قدومك منذ نصف ساعة .

— حسن ، وماذا حدث ؟

— ألا تؤدى هذه الخدمة ؟

— بكل تأكيد !

— ولكنى فى الواقع لا أريد أن أتعبك .

— ولكن ما هى هذه الخدمة ؟ إذا كانت فى استطاعتى فإنى لا أتأخر .

— ربما تضايقك .

— إنك تضايقني أكثر بهذا اللف والدوران ، قل لي ماذا تريد ؟.

— ألا تستحضر لي المظلة من فوق المشجب الموضوع بالردهة ؟.

— ولماذا تريد المظلة ، هل تمطر السماء ؟.

— لا ، ولكن علبة السجاير اللعوبة قد سقطت تحت الفراش .

— حسن .

— والمظلة مقبض معقوف ، وسأستخرج به العلبة من تحت الفراش .

— أليس الأسهل أن تجرها بيدك ؟.

فنظر إلي نظرة تنطوي على التقدير والاحترام وقال :

— هل الأمر كذلك ؟.

وأحضرت له العلبة وسألته : ما هذه القصاصات من الورق المنثورة حولك ؟.

— إنها قصاصات من الجرائد ، فإن بارس الأحمق أحرقه الله بنيران جهنم ترك جريدة هذا الصباح فوق الفراش ،

— حسن ؟.

— فلما وصلت المنزل واستلقيت على الفراش أردت أن أقرأ الجريدة ، ولكن كان من الصعب وغير الممكن أن أقوم من الفراش .

— حسن ؟ .

— لذلك بدأت أنتزع قطعاً صغيرة حول طرف الجريدة ، وكنت كلما قرأت قطعة ألقيت بها على الأرض ، وهي طريقة مناسبة كما ترى ، ولكني ارتبكت في قراءة المقال الرئيسي فإني راقد في الفراش فوق منتصف المقال ووسطه .

فقتحت فمي قاصداً أن أقول ما جال بفكري وإذا بصرخة عالية تنبعث من النافذة المفتوحة ، وشاهدت شيئاً أسود يرسل صيحات يائسة ويجاهد في ماء القناة على مسافة لا تتجاوز عشرين قدماً من المنزل ، وكان هناك امرأة وغلام يجريان من هنا ومن هناك على الشاطئ ويلوحان بذراعيهما ويصيحان .

فالتفت إلى البليد وقلت له : إنه سيغرق .

فوثب من مرقده كأنما انفجر من تحته نبع ، وجرى إلى النافذة قائلاً : لعنه الله ، إنه سيغرق من غير شك ، عسى أن يدهمه قطار السماء .

ثم نزع ثوبه وألقى بنفسه من النافذة .

واستطعت أن أرى من نظرته أن النافذة لو كانت في الطابق الثالث لألقى بنفسه منها ، ولكن لحسن الحظ أن النافذة كانت في الطابق الأرضي .

وفي اللحظة التالية كنت أنا كذلك قد وثبت وراءه وهرولت إلى شاطئ القناة .

وكان البليد قد نزل في الماء ، وسبح لإنقاذ الرجل الذي كان يجاهد وصاح به : « التزم السكون بقدر ما تستطيع ، التزم السكون بقدر ما تستطيع » ، وأنا متأكد من أنه كان يستلهم بلادته الكامنة في تقديم هذه النصيحة ، ولكنه مع ذلك أظهر نشاطاً غير معتاد وحضور ذهن وسرعة خاطر.

وبعد خمس دقائق كنا نجر إلى الشاطئ سائق العربة المتهور الذي سقط في القناة وصديق البليد وهو ساكت يبدو عليه أنه مثل الفأر الغريق .

وكانت أسنانه مطبقة إطباقاً شديداً وعيناه مغمضتين ، وجلس سائق العربة وهو يبكي وينشج ، وجاء صاحب الحانوت وانحنى على البليد ولمسه وجسه ثم رفع قلنسوته وقال : « لقد انتهى » .

فقلت له متفزعاً : « ماذا تعني بذلك ؟ لا يمكن أن يكون ذلك ، لابد أنه سيفيق من غشيته ، وعلينا إنقاذه ! ساعدوني أيها الأصدقاء في حمله إلى شقته ، إنها قريبة منا » .

فحمل سائق العربة المبتل الثياب والغلام وصاحب الحانوت جسم البليد ، وتوليت قيادتهم ، وساروا به في شيء من الصعوبة إلى منزله ، ثم رفعوه فوق فراشه وانصرفوا على أطراف أصابع أقدامهم وتركوني وحيداً معه .

فتحرك جسمه ، وانفتحت عيناه الساكنتان وعيناي ، وسألني : هل ذهبوا إلى سبيلهم ؟

— أحمد الله على سلامتك ، لقد خشيت . . . .

— سامحني لما سببت لك من إزعاج ، لقد كنت مبتلاً ، ولما لم أستطع أن أواجه المجيء على قدمي ، وصممت على أن أجعل هؤلاء الأغبياء يحملونني ، فهل تقوم لي بخدمة ؟

— حسن .

— هل تستطيع أن تضغط على الزر الموضوع فوق رأسي ، ولو أني في الواقع أكره أن أتعبك ؟

علي أدهم

الوجودية : فلسفة اجتماعية رجعية (*)

للأستاذ عبد العظيم أنيس

تواجه الحركة الفكرية مجموعة من التيارات الخطرة التى استهوت بعض الشبان فى أوربا فى السنين الأخيرة ثم امتد أثرها إلى بعض المثقفين فى البلاد العربية . ولما لهذه التيارات من خطر بالغ على التكوين الفكرى والاجتماعى للمثقفين فى العالم العربى رأينا أن نعرض لبعضها فى هذا المقال محللين مصدرها مشيرين إلى بالغ الخطر فى تقبلها والعمل بها . وإنما دفعنا إلى هذا غموض ما كتب عن الوجودية ، خصوصا مما جعل بعض المثقفين يخرجون بفكرة خاطئة أقرب إلى الإعجاب منها إلى الاستهجان ، وإلى الإحساس بالطرافة وعنصر المخاطرة منها إلى الإحساس بعناصر الانحلال والتعفن فى ثناياها ..

ولقد تعرضت مجلة « الكاتب المصرى » منذ سنين لهذه الفلسفة فى مقالات ترجمت عن الفرنسية بقلم أحد مؤيديها ، وتعرضت مجلة « المصور » مرة لنشاط الوجوديين فى لبنان . ومهما قيل من أن عنصر التشويق الصحفى هو الدافع إلى كتابة هذا المقال إلا أنه يوهم أن الوجوديين نوعان : نوع جاد ونوع هازل ، وأن الوجودية لها جوانبها السليمة مع جوانبها الخاطئة .

ولكى نفهم حقيقة نشاط الوجوديين ودوافعه يجب أن نعرض أولا الوجودية كمذهب فلسفى واجتماعى . الوجودية فلسفة اجتماعية يتزعم شرحها والدفاع عنها جان بول سارتر الأديب والفيلسوف الفرنسى المشهور . وهى تقوم على أساس إنكار الوجود الإلهى . ولهذا فهى ككل فلسفة تبدأ برفض التبعية للدين ملزمة أن تتخذ لها موقفا من مشكلة إرادة الإنسان وحريته . فإذا كان الوجود الإلهى ليس قائما كان من الواجب على هذه الفلسفة أن تحدد موقفها من عناصر الحرية الإنسانية : دوافعها وأهدافها واتجاهاتها . وإلى هذه الحدود لن نجد فرقا هاما بين الوجودية وغيرها من الفلسفات التى قامت فى الغرب وآمن بها كثيرون . وإنما تبدأ الوجودية فى طريقها الخاص ، بما تبنيه على فكرة إنكار الوجود الإلهى من أفكار أخرى . فهى تؤمن بما ورد على لسان « كيريلوف » فى إحدى روايات « دستويفسكى » إذ يقول : « إذا كان الله ليس له وجود فكل شىء مباح » هذه هى نقطة البدء فى فهم الوجودية كما يقول سارتر نفسه ، وهكذا يتضح أن سارتر لا يعنى من الحرية إلا الفوضوية فى أجلى معانيها .

ليس من الغريب إذاً أن نفهم موقف الوجودية من عنصرين أساسيين للحرية والإرادة البشرية فيما نعتقد ، ألا وهما العلم والتاريخ . ثم إننا نؤمن بأن الإنسان يولد فى عالم لم يكن له يد فى تكوينه . فلم تختر أنت مثلا أن تولد فى القاهرة أو فى إحدى قرى الصعيد ، ولم تخير بين أن تعيش فى عصر المماليك أو فى العصر الحديث . وحين ولدت لم يكن لك يد فى التقدم أو التأخر الذى يعيش المجتمع فى ظله ، لم يكن لك يد فى تكوين العلاقات الاجتماعية القائمة بين الناس . أو فى خلق الظروف الاقتصادية التى يحيا المجتمع تحت رحمتها . وبالاختصار فكل إنسان يواجه حين يولد وينمو مجتمعا لم تكن له أى إرادة فى تكوين ظروفه التى هو عليها ، ومن هذه الزاوية فالإنسان غير حر ، ولكن الإنسان بمجرد أن يواجه هذا المجتمع واعيا ، وأن يفهم من دراسة التاريخ دراسة علمية حقيقية الظروف التى شكلت هذا المجتمع ، والظروف التى تدفع إلى تغيير مساوئه فإنه ينقلب بعد ذلك حراً لا مسيراً فى الكفاح من أجل هذا التغيير .

(*) كان لكتاب روجيه جارودى (أدب القابر) أثر كبير فى مادة هذا المقال

إن الإنسان يصنع التاريخ لا في حدود الظروف التي اختارها هو ، وإنما في حدود الظروف التي وجدها وورثها عن ماض لم يكن له يد في تكوينه . وكما يقول الشاعر يونج « إن الإنسان ليس هو مستقبل الإنسان فقط ، وإنما هو ماضيه كذلك » .

أما الوجودية فهي تنكر كل محصول البشرية من التجارب في الماضي ، لا تأبه به ، بل تنادي بضرورة تجاهله ، وأن يبدأ الإنسان من جديد تماماً كالإنسان البدائي الذي عاش في الغابات .

« يجب أن يبدأ الإنسان من اللاشيء » هكذا يقول سارتر ، وهو في هذا يعود بنا القهقرى بضعة آلاف من السنين ، وفي تمثيله للصيرورة « لا خروج » يتضح مغزى القصة في أنه من المستحيل أن نحكم على الإنسان قبل أن تنتهي سلسلة أعمال حياته . أي قبل أن يموت ، وما دام ليس لنا شرف مشاهدة وفاة الجنس البشري فليس من الممكن أن نحكم على تاريخه ! ليس غريباً إذاً أن تحتقر الوجودية العلم ، وأن تنكر قيمته ، وأن تصور هذا الكون تصوراً بعيداً تمام البعد عما سجله العلم من اكتشافات رائعة !

يتضح هذا في تعريف سارتر للمادة ، فهو يقول في مجلة « الأزمنة الحديثة » : « ما من شيء يميز المادة سوى قصورها الذاتي ، فهي غير قادرة على أن تنتج شيئاً آخر بنفسها ، إنها مرتبة محملة بالحركة والطاقة التي تأتيها من خارجها ، إن المادة تفترضها ثم تطلقها » ، ومنذ مدة علق المرحوم « بول لانجفين » على هذا قائلاً : « إن هذا التعريف متأخر ألفين من السنين بالنسبة لتقدم العلوم الحديثة » .

لقد كان « لبكريتس » يتخيل هذا الوهم عن المادة : عدد لا نهائي من الدقائق الصغيرة تتساقط في فراغ ثم تأخذ في التباعد وفقاً للقوانين الأولية للاحتكاك ، ولكي يدخل عنصر الإرادة في مثل هذا المركب كان لا بد لبكريتس من معجزة ، خروج على هذه الآلية ، وهو ما سماه : « ميل الشيء » ، وهذا هو نفس ما يطلبه سارتر حين يبحث عن « هذا الشيء الصغير من التراجع الذي لا غنى للإنسان عنه حتى يسيطر على « حتمية » حياته .

ولكن سارتر لم يعد له عذر لبكريتس ، فإن تقدم العلوم في بحر ألفين من السنين يعطينا فكرة أدق اليوم عن المادة و « الحتمية » Determinism فلكي يعيش الإنسان ويتقدم في إنتاج احتياجات وجوده كان لا بد له من علم يجعل منه سيداً ومالكاً للطبيعة .

إن عليه أن يعرف قوانين الطبيعة حتى يدرك في أي نقطة من حلقاتها يجب أن يفرض إرادته لكي يصوغ الطبيعة كما يحب هو ، هذه المعرفة للعلاقات المختلفة بين ظواهر الطبيعة هي ما نسميه بالحتمية ، وهي ليست معرفة جامدة ثابتة ، بل إنها تتضح أكثر ، وتتحسن وفق كل اكتشاف علمي عظيم ! ففي أيام « ديكارت » ، وبعد أن بدت اكتشافاته في الهندسة التحليلية كانت الدالة الجبرية هي النموذج لهذه المعرفة . وفي هذه المرحلة كانت كلمات ميكانيكي في « أوتوماتا » Automata تبدو كأنها الكلمة الفاصلة في العلوم التطبيقية ، إذ ظن الكثيرون في ذلك الوقت بأن ظواهر الطبيعة مرتبطة بعضها ببعض كما ترتبط الأجزاء المختلفة في الآلة الواحدة .

ولكن هذا الموقف لم يكن نهائياً بالنسبة للبشرية ، فالحتمية الميكانيكية لم تكن إلا مرحلة في تصور الطبيعة وقوانينها ، فإن تقدم العلوم البيولوجية والتاريخية والاجتماعية قد ساعدنا على تكوين فكرة أخصب من الحتمية ، وقد أصبح من الطبيعي ونحن في عصر الطاقة الذرية أن يكون لنا تصور أدق عن المادة والحتمية مما كان عليه في أيام « ديكارت » .

ونحن في هذا ندرك أن الإنسان ليس آلة مسخرة أو صانعاً للمعجزات ، وأن إرادته ليست شيئاً مناقضاً للحتمية ، بل على العكس ؛ فالحتمية — بمعنى معرفة العلاقات بين ظواهر الطبيعة المختلفة — تغذي هذه الإرادة ، فأنا أكثر حرية حين تكون معرفتي عن العالم أحسن من سابق وحين أستطيع أن أقول في تأكيد أكبر : « لا أستطيع إلا أن أختار ذلك » .

وقد قال سبنوزا : « أن تكون حراً معناه أن تحمل في باطن نفسك كل الأسباب العاقلة لتصرفك » .

وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن الحرية معناها أن تكون أكثر سيطرة على قوى الطبيعة ، على علاقات المجتمع ، وعلى أنفسنا ، ولكن سارتر لا يعترف بهذا كله ، ولا يرى فيه حتى ولو بصيصاً من الحقيقة ؛ وباحتقاره العلم والتاريخ وتجاهلهما فصل سارتر نفسه عن أي خطة للعمل و الكفاح ، فهو لا يقدم ولا يقبل أي وسيلة فعالة لتغيير الواقع الاجتماعي الذي نشكو منه ، وهو بهذا الموقف سمح لتلاميذه أن تسبح عقولهم في « ذاتية » بلا قوانين وعالم بلا تكوين ، إذ ماذا يبقى من موضوعية هذا العالم إذا أنكرنا قوانينه ؟ .

إن سارتر يرفض بموقفه هذا المذهب المادي الفلسفة . ومع ذلك فهو ينكر تشيعه للمذهب المثالي . هنا نرى عبث إنشاء « حزب ثالث » بين المادة والمثالية . إذ ما من شك في أن سارتر قد غرق بوجوديته في مثالية محزنة ، وأنه ليس في فلسفته شيء واحد يفتح الطريق أمام أي تصرف أو عمل لتغيير الواقع الاجتماعي الذي نشكو منه . بل على العكس إنها تحاول أن تغلق كل السبل على الكفاح من أجل مجتمع أفضل وسيطرة أكبر على الطبيعة ؛ وفي هذا تتمثل رجعية فلسفة سارتر . وفي تمثيلية « الذباب » يصور سارتر قلق بعض المثقفين الذين يبحثون عن شيء حقيقي خارج المعرفة البشرية : « إني أعيش في الهواء ... إني أعيش وحدي » . هذه هي صرخة « أورست » الذي يبحث عن « لذة الذهاب إلى مكان ما » . إن سارتر لا يستطيع أن ينزع هذا القناع ويخرج من خلف هذه الآمال المجردة إلى عالم الحقيقة والواقع .

كتب سارتر منذ مدة في « أكسيون » يقول : إن تفكيره ليس بعيداً عن التصور الماركسي للإنسان وإن آماله هي أن يكمل الماركسية من الناحية الذاتية . ولكن الوجودية لا تكمل الماركسية بل تناقضها . ففي موقفها من الحرية والإرادة ونظرتها المثالية للمعرفة وفي إنكارها التاريخ وعدم احتفالها بالعلم يتمثل احتقار الوجودية للإنسان .

إنها تجرده من كل سلاح له في كفاحه في سبيل حرية حقيقية ، ألا وهو المعرفة الطبيعية والمعرفة الاجتماعية . ولذا فهي فلسفة هدم وفناء ، هدفها أن تبشر بالطريق إلى الانحلال والموت . إنها ليست فكرة تأكيد وخلق وبناء المستقبل ، بل هي فكرة تدمير وتشكيك في الماضي وفي المستقبل معاً . وفي هذا يكمن الخطر الحقيقي لفلسفة الوجودية على بعض المثقفين في البلاد العربية . ففي المجتمع العربي حيث لا يزال الكفاح من أجل مجتمع أفضل يتمثل في الكفاح الوطني ضد الاستعمار الأجنبي بما في ذلك نفوذه الاقتصادي والسياسي والعسكري ، تقف الوجودية (بجانب اتجاهات فكرية أخرى) كفلسفة استعمارية تحاول أن تبعد من الناحية العملية مثقفينا عن قضية الكفاح الوطني في المجال الفكري أو السياسي ، وتدفع بهم إلى أبراج عاجية تكون أروع آمال الوجودي فيها تصيد امرأة ماجنة أو البحث عن مشاعر متعفنة في شذوذ جنسي خبيث ... الخ .. ألم يقل كيرلوف : « إذا كان الله ليس له وجود فكل شيء مباح » .

(لندن) عبد العظيم أنيس

أسير فى أرض الأقزام

للأستاذ عثمان نويه

كانت حياة (سويفت) مأساة مارد قيده الأقزام بالأغلال ، وهى إلى جانب ذلك مسلاة ساخر عميق استطاع أن يسخر من أغلاله ، كانت عقله بالغ القوة ، وجسمه بالغ الضعف .

فقد أباه وسنه ستة أشهر ، وما بلغ شهره الثانى عشر حتى اختطفته حاضنته ؛ فهى فى خدمة أسرة سويفت بإرلندا وإذا الأنباء تتراءى إليها بأن عمها فى انجلترا قد مات وأخلف لها تراثاً ... فأبحرت إلى انجلترا دون أن تنذر سيدتها ، وأخذت معها ابن السيدة ، ولم يعد الطفل إلى أمه إلا بعد ثلاث سنين .

فإذا التحق فى صباه بكلية (ترنتى) بدبلن بدا منه نهم إلى المطالعة وانتقاض على النظام المألوف ، ونال البكالوريوس بشق النفس ، ولكن حيل بينه وبين درجة الأستاذية لوقاحته مع مساعد العميد ، كما قالوا .

بيد أنه وفق فى أن يعين سكرتيراً لسير وليم تمبل وهو من مشيرى ملك انجلترا المقربين ، وكانت ألسنة الشر تلغط بأنه الأب الطبيعى لسويفت نفسه ، وأتاح له المنصب راتباً قدره عشرون جنيهاً فى العام ومكاناً على مائدة الخدم .

وهكذا انضم جيبه ، وانسحلت كبرياؤه ؛ فعمل هذا السكرتير الألمعى الشاب يقتصر على نسخ أفكار سيده الشيخ غير الألمعى ، وكان فى أوقات فراغه يقيد آراءه الشخصية ... فى منظومات شعرية غالباً .

وكانت له مسلاة أخرى شائقة ، هى تعليم فتاة صغيرة تدعى (ستيلا) تقيم فى منزل سير وليم على أنها من الخدم ، ولكن أصلها وشأنها يكتنفهما الغموض والإبهام ، فهى تعامل كأنها عضو فى الأسرة ، ويقول اللاغطون أيضاً إنها ابنة طبيعية لسير وليم ، وإن كان اللغط فى هذه المرة ما يبرره .

سعد سويفت بتعليم (ستيلا) وأعجبت الفتاة الصغيرة أعمق الإعجاب بذلك المدرس الكادح اللاذع اللفظ الوادع البسمة ، ولبثت العلاقة بينهما تسع سنين بين مد وجزر إلى أن عين قسيساً فى كنيسة إرلندا ، وكان يطمح حين عين بالكنيسة أن يرقى إلى أسمى المناصب فى كنيسة انجلترا ، لا أن يظل قساً تافهاً على فرعها الإرلندى .

وهذا الأمل هو ما ينكره عليه رؤساؤه أشد الإنكار ، فهذا القسيس المجنون — كما يدعونه — له عقل ملئ بالمفاجآت ... لا تعلم ما يقذف به ، وله قلم يخبو عن تقاليد الكنيسة المعترف بها ؛ فهو قد كتب تعليقاً ساخراً على بعض الطقوس الدينية فى أوربا ، وضحك مطارنة انجلترا وسروا بتهكمه على الكنائس الأخرى ، ولكنهم استشاطوا غضباً من غمزه لكنيسته فى نفس الرسالة ، فرأوا أن مهارة الرجل خليقة بأن تدعو إلى الحذر منه ، والتخوف من مفاجآته .

كانت مأساة الرجل أن عقله أسمى من إدراك معاصريه ، فقررت العقول الصغيرة أن تأسر العقل الكبير فى منصب مغمور ، فهو لا يجاوز وظيفة أسقف ، وإن نال الدكتوراه فى اللاهوت وكسب مودة أصحاب النفوذ ، وتعشى مع رئيس الوزراء ؛ فإذا طلب أن يرقى — كما هو حقه — أجيب برفض مهذب .

وهو فى خلال ذلك يحتفظ بمظهر البشر ، ويملأ أيامه بالنكات والمرح ، وإن كان صدره يغلى غضباً ، إنه يدرك

تفوقه على زعماء زمانه ، ولكن عليه أن يمثل معهم دور التابع ، وينظر إليه على أنه النديم المهرج .

كتب نشرات سياسية لهارلي وهو من أكبر ساسة انجلترا ، وحاول هارلي وهو يصافحه أن يدس في يده ورقة من فئة الخمسين جنيهاً ، فقذف بالورقة في وجه هارلي وانصرف مغضباً ، إنه لم يبع ما كتب مبلغاً من المال ، بل المنصب الكبير الذي يستحقه ، وهذا ما أباه عليه هارلي وغيره من الكبراء .

كانت زيارته لانجلترا فشلاً سياسياً إذاً . ولكنها كانت نصراً فكرياً لا ريب فيه . فقد صار الفارس المعلم في مشارب لندن ، حيث يجتمع فرسان الفكر للمبارزة يومياً . فضربات الأسقف الشيخ كانت عميقة حادة قاتلة . وهو لا يستعمل البلاسم حين يشاء الإيجاع حقاً .

ولم يكن لسويفت في حياته من بلسم غير ستيلا .. تلك الفتاة التي علمها صغيرة ، وهامت به كبيرة . وكانت صادقة الحب هادئة الطباع .. أميل إلى إرضاء الأسقف منها إلى مقاضاته .. فهي تراه رجلاً غير عادي ، يحتاج في معاملته إلى لباقة غير عادية . فلما ماتت ستيلا تركت فراغاً هائماً في قلب العميد الشيخ المحزون . ومنذ ذلك الحين تشابه سلوكه الخارجي ومرارته الباطنة « إني أمقت الدنيا لأني أصبحت لا أصلح لها إطلاقاً » وصار في يوم ميلاده يقرأ في الكتاب المقدس ، ذلك الفصل الذي يلعن فيه أيوب يوم ميلاده .

وإن زرايته بالإنسان لتزيد كل يوم ، وتزيد كل يوم تحمسه لبني جنسه الإرلنديين . فهو يصليهم ناراً بلسانه ويوسعهم بيراعه عطفاً ورثاء . وله في هذا كتيب عنوانه (اقتراح متواضع لتخفيف وطأة أطفال الفقراء على آبائهم وعلى الوطن ، وللإفادة منهم في المجتمع) جاء به ما ملخصه :

« أكد لي أمريكي من أهل الذكر أن الطفل الصحيح البدن يكون لحمه إذا بلغ عامه الأول غاية في اللذة والتغذية ، سواء أكان مسلوقاً أو مقلياً . فليرب فلاحو إرلندا أطفالاً ليتغذى بهم الملاك الانجليز . فالطفل يكفي لأن يحمر طبقين كبيرين في مأدبة . وللإنجليز الحق الأول في لحم هؤلاء الأبناء بعد أن ابتلعوا معظم الآباء . ولقد قمت بحساب لما يتكلفه ابن المتسول من رضاع فوجدته شلنين سنوياً . ولا أحسب أحداً من السادة يضن بعشرة شلنات ثمناً لجثمان طفل سمين . فهنا يصبح الملاك الإنجليزي محبوباً من المستأجر الإرلندي . وتنال الأم ثمانية شلنات ربحاً صافياً .. تفي بنفقاتها حتى تضع مولوداً جديداً . ويستطيع غلاة المقتصدين أن يسلخوا الجثة ، ويكسوا جلدها كساء صناعياً ، فتغدو من أجود قفازات السيدات ، وأجود الأحذية الصيفية للسادة .. »

قرأ السادة الإنجليز هذه النشرة فاشمأزوا من بربرية الكاتب . ومضوا في طريقهم الحضري المهذب .. يميتون المستأجرين جوعاً .. على مهل .

وكتب سويفت (رحلات جلفر) المعروفة . وهي قصة عملاق يغامر في عالم من الأقزام أدركه الزهو والغرور والخبال . وضحك الجميع من هجومه المرير على غباء الجنس البشري ووحشيته . فقد حسب كل قارئ أنه ليس معنياً بهذا الهجوم . وإنما المعني به جاره الغبي . فتألم سويفت ألماً لم يستشعره من قبل « لقد أردت أن أوجع الناس وأستثيرهم ، لا أن أضحكهم وأرفه عنهم » .

رحمتك اللهم ! لقد خلا عقل سويفت من كل شيء ، من التفكير والآلام والسخرية .. ونسي كل ما مر به . هاهو ذا يرى وجهه في المرآة فيسأل : « من ذلك الرجل المهرم المسكين ؟ » . وهذه النواقيس تدق في عيد ميلاده وتوقد المشاعل فيسأل : « من ذلك الرجل الذي أحبه الناس كل هذا الحب ؟ » .

نحن في التاسع عشر من شهر أكتوبر عام ١٧٤٥ . سماء صافية فوق سويفت . وعقل غائم في رأسه . وينجلي الغمام لحظة من الزمن ، فتسمع تمتمة الشيخ المحتضر : « رباه ! رحمتك بي وعنايتك في رحلتي الأخيرة » .

فؤاد نديم

الزوجة المثـــــالية

في رأي سمرست موم

للأديب حسين أحمد أمين

جون : إني مدرك تماما أني أسأت معاملتك . إن لي زوجة صالحة محبة مخلصة . . كرست حياتها لإسعادي وتربية ابني .. زوجة لست أهلا لها .. ولو كان عندي ذرة من الشوق لما عاملتها بمثل ما عاملتها به . ليس لدي ما أدافع به عن نفسي .

مسز كالفر : هل تريدين الطلاق منه يا كونستانس ؟

كونستانس : لقد كان جون دائما خير أب . وإني لا أشعر بحقد نحوه .

مارثا : ما يحيرني هو أنك لم تفعلي شيئا عندما اكتشفت أن جون يخونك مع أعز صديقاتك إليك .

كونستانس : أقول لك الحق ؟ إن خيانته لي ليست من شأني .

مارثا : ليست من شأنك ؟ ألست زوجته ؟

كونستانس : لقد كنا جون وأنا سعداء الحظ إلى أقصى حد وكان زواجنا مثاليا .

مارثا : كيف تقولين هذا ؟

كونستانس : لقد ظللنا خمس سنوات يعبد كلانا الآخر ، وهذه مدة طويلة بالنسبة لحالات الزواج الأخرى .. ودام شهر العسل خمس سنوات ، وإذا بالحظ يقدم لنا أكبر خدمة ، وهي أن كلا منا كف عن حب الآخر فجأة وفي نفس الوقت

جون : إني أعترض على هذا يا كونستانس ، فإني لم أكف عن تكريس حياتي لك .

كونستانس : لم أقل هذا يا عزيزي .. فأنا أيضا لم أكف عن تكريس حياتي لك .. لقد اشتركنا في شتى أنواع التسليات وأحب كل صاحبه الآخر وضحكنا على نفس النكات وقلقنا لنفس المتاعب .. لقد ربطتنا مودة صادقة .. ولكني أسألك وأريد منك أن تصدقني الإجابة : أكنت تحبني في السنوات العشر الأخيرة ؟

جون : أتتوقعين من رجل متزوج من خمسة عشر عاما أن ..

كونستانس : إني لا أطلب أعذاراً يا عزيزي .. إني أسألك سؤالا فحسب .

جون : إني أحب الجلوس إليك أكثر من الجلوس إلى شخص آخر .. ولم أمل إلى شخص مثلما ملت إليك .. إنك أجمل امرأة رأيت وسأظل أقول هذا حتى تبلغين الثالثة

كونستانس : ولكن هل يخفق قلبك ويدق سريعا عندما تسمع وقع أقدامي على السلم .. وهل عندما أدخل الغرفة تهب سريعا لكي تضمني إلى صدرك ؟ إني لم ألاحظ ذلك .

جون : أنا لست أحمق حتى أفعل هذا ..

كونستانس : أعتقد أنك قد أجبت الآن على سؤالي .. إنك لم تعد تحبني كما أني لم أعد أحبك .

جون : لم تصرحي لي بذلك من قبل .

كونستانس : لا ينبغي أن تخبر الزوجة زوجها ولا الزوج زوجته بكل شيء .

جون : ومتى اكتشفت ذلك ؟

كونستانس : في ليلة ما ، كنا نرقص فلاحظت أن خطواتنا ليست منتظمة كما كانت في الماضي ، وذلك لأن عقلي كان يفكر في الثوب الذي كانت تلبسه امرأة بجوارنا .. ثم نظرت إليك فوجدتك تنظر إلى ساقي تلك المرأة وتعجب بجمالهما . فأدركت فجأة أنك لحسن الحظ قد بدأت تكف عن حبي في الوقت الذي بدأت فيه أكف عن حبك .

جون : لم أدرك ذلك أبداً .

كونستانس : أجل .. فالرجل يظن أنه من الطبيعي جداً أن يكف عن حب امرأة ولا يظن أن باستطاعة المرأة أن تكف عن حبه بنفس السهولة .. أفاضب أنت يا عزيزي ؟

جون : كلا ولكني دهشت .. لقد استخففتني طوال هذه الفترة .. وكنت أظن أن شعورك نحوي كما هو لم يتغير .. وقد ساءني أن وجدت نفسي مخطئاً .

كونستانس : كن منطقياً يا جون .. أكان يسرك لو كنت مازلت متيمة بك أضايقك بحبي ، بينما ليس لديك ما تمنحه إياي سوى الصداقة والعطف ؟ .. ليس هناك ما هو أثقل على النفس من أن يحبك شخص لا تحبه .

جون : إنك لم تكوني في وقت من الأوقات ثقيلة على نفسي يا كونستانس ..

كونستانس : ذلك لحسن طالعنا . لقد حبتنا الآلهة بعطفها .. ولن أنسى أبداً الخمس سنوات السعيدة التي قضيناها معاً في ظلال الحب ، وسأظل شاكرة لك ذلك دائماً .. لا لأنك أحببتني ، ولكن لأنك بثثت في قلبي الحب .. لقد كان حبنا كلمة السكانات الخاطفة ، أدركنا الكلمة الأخيرة في نفس اللحظة .. ولهذا كانت حياتنا سعيدة .. وكان زواجنا مثالياً .

مارتا : ألم تهتمي إذاً عندما علمت أن جون يخونك مع ماري لوز ؟

كونستانس : إن الإنسان ضعيف والطبيعة الإنسانية ناقصة .. إني أعترف أني تأثرت في بادئ الأمر .. فلما فكرت وجدت أن من الحماقة أن ألوم جون لأنه أعطى امرأة أخرى ما لا نفع له عندي . وبما أني مشغوفة بجون ، فإني آمل أن ينال دائماً السعادة بطريقته الخاصة .. ولحسن الحظ وجدت أنه يخونني مع أعز صديقة لي أستطيع دائماً أن أقابلها وأشرف عليها ..

إن ماري لوز ليست من الذكاء بحيث تستطيع أن تستولي على قلب جون .. وما دمت محتفظة بقلبه فلا يضيرني أن يمنحها حواسه .. لو سألتني يا جون عمن أختاره كي تخونني معه لما اخترت لك سوى ماري لوز .

مارتا : ألن تطلقيه إذاً ؟

كونستانس : أأطلقه فأفقد منزلاً مريحاً وحصة كبيرة من المال ، ورجلاً أستند إليه ، لأنه خانني ؟ إنني لن أسيء بذلك إلا إلى نفسي .

إن الزوجة هي امرأة اشتهاها رجل في وقت ما فعقد عليها . فلما لم يعد يشتهيها تمسكت به كي يصرف عليها مستندة في ذلك إلى ورقة قانونية .

لقد منحني جون المأوى والطعام والنقود والكساء وسيارة ومركزاً في المجتمع .. لماذا ؟ لأنه منذ خمسة عشر عاماً كان يحبني وتعهد بذلك . أليس من النذالة أن أستغل كرمه وأطلب منه ما لا يحب .

لقد دفع ثمناً طائلاً لشيء لم يعد يرغب فيه .. والرغبة في الشيء عارضة تذهب وتجيء دون أن ندري لها سراً .. والشيء الذي أوقن به هو أنها عندما تولي فإنها تولي إلى الأبد ...

(من مسرحية الزوجة الثانية) عيسى أحمد أمين

من كلام علي بن أبي طالب

- من استبد برأيه هلك ، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها .
- من كتم سره كانت الخيرة بيده .
- من قضى حق من لا يقضي حقه فقد عبده .
- الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق ، والتقصير عن الاستحقاق عي أو حسد .
- من دخل مداخل السوء اتهم .
- ضع فخرك واحطط كبرك واذكر قبرك .
- قليل مدوم عليه خير من كثير مملول منه .
- فلا تفش سرك إلا إليك فإن لكل نصيح نصيحاً .

المختار

من الأدب الهندي :

من هدية المحبين

لطاغور

مساء الأمس في البستان ، قدمت إليك رحيق شبابي .. فرفعت الكأس إلى شفتيك ، وأغمضت عينيك ، وابتسمت حينما أزحت عنك الحجاب .

فانساب على شعرك .. ومال إلى صدري وجهك العذب الهادئ .

مساء الأمس عندما غمر نور القمر العالم ... فأسلمه إلى أحلامه ، واليوم تسيرين في ندى الفجر الساكن ... إلى معبد الله مُتَّزرة بالبياض ، وفي يدك سلة ملأى بالأزاهير .

أما أنا .. فقد انتحيت جانباً في الظل تحت الشجرة مطأطئ الرأس في سكون الفجر عند الطريق الموحش إلى المعبد ...

هناك مكان لك أنت وحدك بين عيدان الأرز ... إن قاربي مزدحم ، وقد ثقلت حمولته .. فكيف لي أن أردك ؟.

جسدك الصغير نحيل ينتفض .. وفي طرف عينيك ابتسامة مشرقة ... ولون ثوبك في لون السحاب .

سوف يهبط الرجل طرقاً مختلفة ... وسوف تجلسين طويلاً في ركن من قاربي ، وفي نهاية الرحلة لن يلح عليك أحد بالبقاء ..

إلى أين أنت ذاهبة ..؟ وفي أي مأوى تريدين اختزان أرزك ؟.

لن أسألك ... ولكن متى طويت القلاع ، ورسوت بقاربي ، فسوف أجلس في المساء ، وأعجب .

إلى أين أنت ذاهبة ؟ وفي أي مأوى تريدين اختزان أرزك ؟.

إنها قريبة مني ... قرب الزهرة الجبلية من الأرض .

إنها عذبة عذوبة النوم للمتعبين . وحبي لها هو حياتي التي تتدفق في سرعتها تدفق النهر في فيضان الخريف .. وهو يحمل الطمي الخصيب .

لقد غدت أغنياتي وحبي شيئاً واحداً ، كهمهمة نهير يغني بكل تياراته وأمواجه .

خلتها تجلس بجانب رأسي تمسح شعري في رقة بأناملها ، فتطلق الأنغام منها .. فنظرت إلى وجهها وحبست الدمع ... فانفجر عتاب كلام مكظوم ...

جلست ورأيت بريق الطريق الناصع من نافذتي ، وقد انعكس عليه وهج كعالم من الصمت يحترق . وحرت في هذه اللحظة إن كانت قد رأت حقاً يطال حقي .

جاءتني رسالة من أيام شبابي التي ذهبت تقول :

« إني أنتظرك في أيام مايو التي لم يولد ، حيث البسمات تنضح الدموع والساعات تردد الأغاني التي لم تنشد » .

وهي تقول : « أقبل إليّ عبر الأثر البالي للعمر خلال أبواب الموت .. فإن الأحلام تتلاشى والآمال تتحقق ، والفاكهة المقطوفة تفسد .

ولكني أنا الحقيقة الخالدة ، وسوف تلتقي مرة ثانية ومرة أخرى في رحلتك إلى الحياة من شاطئ إلى شاطئ » .

حينما أذهب وحيداً في الليل إلى موعد حبي ...
لا تغني الأطيار ، ولا تسير الرياح ...

من الأدب الفرنسي :

العالم الوهمي لأناتول فرانس

قرأت حديثاً كتاباً لشاعر فيلسوف يصور فيه عالماً من البشر، وقد تجرد من العواطف الإنسانية كالفرح والألم والفضول. والإنسان حينما يخرج من هذه السياحة في ذلك العالم الوهمي، ويعود إلى عالمنا حيث يصطرع الرجال ويحبون ويتألمون ويأملون، يجد نفسه مدفوعاً إلى حب بني جنسه كما هم على علاتهم، ويحس بالسعادة في أن يتألم ويشفق معهم، ويشعر شعوراً قوياً جارفاً بأن في هذا وحده تكمن السعادة كل السعادة. فالسعادة في الألم كالبلسم في جراح الشجرة الكريمة. لقد قضى رجال العالم الوهمي على العواطف، فقضوا بذلك على كل شيء: قضوا على الفرح والألم، وعلى اللذة والشقاء، وعلى الخير والشر والجمال، وقضوا على الأخص على الفضائل. هم حكماء، ولكن حكمتهم هذه ذهبت بقيمتهم كلها، فقيمة الإنسان تقاس باجتهاده، وماذا يجدي طول الحياة إذا كانت فارغة، بل ماذا يجدي طولها إذا عاش الإنسان حياً أشبه بميت!.. عمرك الله، إنها لسعادة بائسة تلك التي يصورها الشاعر الفيلسوف!.. لقد جرد شخصياته من العواطف، فأصبحت بمعزل عن الفن، وأصبحت بمعزل عن الوحي الوجداني الذي يلهم الشعراء، فلم يعد في إمكانها أن تتذوق روائع الشعر الحماسي الذي يوحي به الغضب أو الثورة، ولا تعالى القصيد الذي يوحي به الحب والجمال ... لقد عموا وصموا أمام آيات ذلك الشعر الذي يؤله أرض البشر. ومع ذلك يزعمون أنهم سعداء، لأن بيوتهم قد زودت بكل وسائل الراحة والترفيه، ولكن بيتاً واحداً من الشعر قد يفيد الإنسانية أكثر مما أفادته إياها كل المخترعات الحديثة العقيمة!..

السعادة لفولتير

من المسلم به أن الحمق والمجانين سعداء في حياتهم المجردة من التفكير. ولكني لن أرضى أبداً بمثل تلك السعادة التي ثمنها فقدان العقل. ويشاطرني في هذا أكثر الناس. ولكن هناك، رغم ذلك، تناقض شديد في تفكيرنا: ماذا نريد؟ نريد السعادة ... فماذا يضيرنا إن كنا حمقى أو أذكياء مادمنا سعداء؟!.. ومن الجلي أنه يجب علينا تفضيل الحماقة على المنطق إن كان هذا الأخير كفيلاً لنا بالشقاء!.. ولكني لم أجد بين الفلاسفة الذين حدثتهم في هذا من يرضى بالجنون في سبيل السعادة. فاستنتجت أننا، نحن معشر البشر، وإن كنا نقدر السعادة، فإننا أعظم تقديراً للعقل ... بيد أنه، بعد التفكر والتدبر، بدا لي أن تفضيل المنطق على السعادة إنما هو في حقيقته ضرب جديد من الجنون!.. فكيف السبيل إلى تفسير هذا التناقض العجيب؟!..

ترجمة

محمد عبد الحليم محمود

والمنازل على جانبي الطريق تظل ساكنة ...

إنها وقع خطواتي التي يملأ صوتها عند كل خطوة، فأخجل..

وحينما أجلس في شرفتي وأستمع إلى خطاها، لا تحدث أوراق الشجر صوتاً، ويسكن الماء في النهر كالسيف على ركبتي حارس قد نام..

إنه قلبي الذي يدق بشدة.. ولست أدري كيف أهدئ منه.

وعندما تأتي حبيبتي، وتجلس إلى جانبي..

وعندما يختلج جسدي.. أحس بالليل القاتم ...

وتطفئ الريح القنديل، وتحجب السحب النجوم.

إنها الجوهرة في صدري هي التي تشع وتبعث نوراً..

لست أدري كيف أخفيها؟

ترجمة

رقيه صدوح الدبه

المدح والرثاء فى الشعر العربى

للأستاذ عز الدين اسماعيل

لكل أدب من الآداب خواص ومميزات تشخصه عما عداه من الآداب ، والبيئة هى التى تتحكم فى وسم كل أدب من الآداب بسمات معينة ، وطبعه بطابع خاص ، وذلك بحسب طبيعة الأرض وطبيعة سكانها ، وطبيعة حياة هؤلاء السكان الاجتماعية والسياسية . وكل لون من الألوان الأدبية ، أو كما يقولون فى مجال الدراسات المقارنة ، كل موضوع من الموضوعات الأدبية ، وكل شكل من الأشكال الأدبية ، إنما يمكن — بعد التعمق وسبر الأغوار — أن يفسر ظهوره فى الأدب برده إلى تلك الأسس ، فتتبين لنا جذوره العميقة الضاربة فى الأغوار .

ولقد راعنى حقاً أن ألمح فى الأدب العربى نوعاً من التخصص ، ولكنه تخصص يثير فى النفس الفضول ويبعث فيها القلق ، حقاً أن هذا التخصص يمكن أن يعد ميزة لهذا الأدب ، وهى ميزة من التميز لا الامتياز ، ولكنها مع ذلك يكون من الأدعى أن تروعنا وتثير فضولنا ؛ وأعنى بذلك ظهور فنى المدح والرثاء فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى وغلبتهما على سائر الفنون الأدبية فيما تلا من عصور ، حتى لو أمكننا أن نحصى كل ما قيل فى المدح والرثاء لكان ذلك أكثر من نصف التراث الأدبى العربى ، وهذه الكثرة هى التى تثير فضولنا ؛ وما يمكن أن يكون لهذا القدر الأعظم من قصائد المدح والرثاء من قيمة هو ما يبعث فى نفوسنا القلق ؛ وحول هذين الاعتبارين نريد أن نوجه حديثنا الآن .

• • •

فيما يختص بظهور فنى المدح والرثاء نرى هذا الرأى الذى يعطينا تفسيراً قد يكون مقبولاً ومعقولاً :

أما المدح فنرد نشأته الأولى فى الأدب العربى إلى بضعة أمور :

أولاً : البيئة الفقيرة . حقاً لم يكن شبه الجزيرة بقعة قاحلة جرداء كما يمكن أن يتصور الكثيرون ، ولكن هذا لاينفى وجود بقاع لها هذه الصفة ، وقد يقال إن الفقر وحده ليس كافياً لظهور المدح ، ونحن نرى هذا ، ولكن وجود نفر لهم من الثراء والقوة والنفوذ ما ليس لغيرهم هو الشطر المكمل ؛ فبين هذين الجانبين من الإعدام والثراء يقوم المدح ، وكان الشخص إذا كان أهلاً للثناء ولم يجد من يثنى عليه راح يتمدح هو بنفسه ، ويشهر شيمه وفضائله ، ومن هذا السبيل نشأ فى الشعر العربى ما يسمى بفن الفخر ، ولا إنكار لما كان يؤديه المدح فى البيئة العربية من خدمات ، وكلنا يذكر المحلق وخمول صيته وبوار أخواته حتى يمدحه الشاعر فيتناقل الناس المدحة — صادقة كانت أم كاذبة — ويتهافت الناس يخطبون إليه أخواته ، وليست هذه الأطروفة ببعيدة عما نحن فيه ؛ فكل إنسان يريد أن يتزوج من بيت كريم واسع الثراء ، وعلى هذا فأخوات المحلق — الذى لم يكن يتمتع بجاه ولا ثراء — لا محالة بائرات ، والمنقذ الوحيد له ولهن مدحة من شاعر تسير بها الركبان .

ثانياً — كان لإمارتى الحيرة وغسان أثر أى أثر فى ترويج فن المدح ، اقتضى ذلك التنافس الشديد بين الإمارتين ؛ وهذا يضع إصبعنا على أثر الحياة السياسية فى شبه الجزيرة منذ العصر الجاهلى فى استخدام فن المدح والترويج له ، واجتذاب الشعراء بما يغريهم من عطايا وهبات للقيام بالدعاية السكافية التى تصاغ فى قوالب المديح ، ولعلهم لمسوا فى هذه الوسيلة نجاحاً أغراهم فيما بعد على الإيغال فى هذه الطريق ؛ فكان الطابع المميز للشعر الأموى هو شعر

للمديح السياسي ، اقتضته كثرة الأحزاب السياسية والعصبيات القبلية ؛ فكان لزاماً على الحاكمين أن يولوا هذا الأمر أكبر عنايتهم ، ويجندوا أكبر عدد من الشعراء الكبار ليشيدوا بذكرهم بأجمع ما يبتكرون من أساليب المدح أو الدعاية حتى كان من بينهم من يتمتع بلقب « شاعر البيت الأموي » .

والتتبع لهذا الاتجاه في تسخير الشعراء ، وتشجيع فن المدح بين الحكام والقواد وكل من تهمه الدعاية لنفسه ومداهنة خصمه ، لا يعييه التنبه أن يلمس تفشي هذا الفن من الشعر فيما تلا ذلك من عصور ، سواء أكان ذلك في شبه الجزيرة من أصالة ، أم في الجهات الأخرى بطريق العدوى .

ثالثاً : ولا إنكار لما قدمه الدين الإسلامي على يد صاحبه من لون جديد من ألوان المدح ؛ فقد كان ظهور الدين الإسلامي هو السبب المباشر في ظهور فن « المدائح النبوية » الذي أخذ سيره عند طائفة من الناس ، ولم يقتصر على زمان أو مكان . ومنذ الآن ننحي هذا اللون من المديح من دائرة بحثنا لحاجته إلى بحث مستقل . ولكن الذي يعنينا من التعريج على هذا الجانب هو ما يمكن أن يوجهنا إليه من البحث عن أصل لهذا اللون من المدح أكثر في التقدم من ظهور الإسلام . فقد شهرت قريش بأنها سادنة البيت والقائمة على أمره ؛ وفي ذلك من الشرف والمكانة ما تنقطع دونه غايات الآخرين ، ويحبون به قريش . وخدمة قريش للبيت ، ورعايتها للحجيج ، هي ما جعلت الشاعر يقول مثلا :

يا أيها الرجل المحول رحله   هلا نزلت بآل عبد مناف
هبلتــك أمك لو نزلت بأرضهم   منعوك من فقر ومن إقراف

ومن هذا يتبين لنا كيف كانت الحياة الدينية معواناً على رواج فن المدح . ولكن ما يزال يبدو لي أن هناك أصلا أعمق من سدانة قريش للكعبة التي كان يجلها الجميع ويحجون إليها . والآن قد يكون من الصعب أن نشير إلى هذا الأصل لعدم توفر الوثائق الكافية بين أيدينا ، ولأنه يقتضينا الكلام فيما لسنا بسبيله من تحقيق نشأة الشعر العربي .

وأياما كان من أمر فهذه أسباب نراها كافية حتى الآن في تفسير نشأة فن المديح في الشعر العربي .

أما الرثاء ، فيأتي تابعاً للمدح ؛ لأن الرثاء — كما يقال — ليس إلا مدحاً لميت . وهو بهذه المثابة يعد امتداداً للمديح ؛ فبواعثه لها أصولها فيما سبق من مديح الشخص أثناء حياته ، وكل ما يمكن أن نتوقعه من فرق بين قصيدة مدح بها شخص وقصيدة رثي بها هو ظهور أثر الفجيعة في الرثاء ، وإن كان ذلك يخطئنا كثيراً . وقد نختلف حول أسبقية المدح والرثاء أحدهما على الآخر ، ولكن الوضع الطبيعي يؤيد أن الرثاء تالي المدح لأن الموت تالي الحياة ، وكل ما في الأمر أن شخصاً قد يرثى ولم يسبق له أن مدح كصخر الخنساء أو أوسط صبية ابن الرومي ، ولكن هذا لا يحدث إلا بعد ذيوع فن الرثاء بوجه عام . والأصل البعيد الذي يمكن أن نرد إليه ظهور فن الرثاء هو ما كان معروفاً من كتابات تنقش على قبور الأذواء ، والأقيال في جنوب شبه الجزيرة ، والأمراء والملوك في الإمارات الشمالية . ويسعدنا الحظ فتؤيد ذلك النقوش التي عثر عليها والتي نقرأ في واحد منها عن أحد أمراء الحيرة « تي نفس مرا القيس ملك العرب كلها » . أي هذا قبر امرئ القيس ملك العرب كلها ؛ فهذه العبارات التي كانت تنقش على القبور بقصد تخليد الذكرى والإشادة بالفضل هي بذور فن الرثاء . وكما كان من الناس من يحرص على ذيوع صيته في حياته بطريق المدح فقد كان هناك من يحرص على تخليد ذكراه بعد وفاته بطريق الرثاء .

والسبيل التي سلكها المدح في محيط السياسة والعصبيات القبلية والفرق الدينية هي بعينها السبيل التي طرقها الرثاء ، لأنه كما قلنا تابع له . وشعراء الشيعة وشعراء الخوارج على اختلاف فرقهم يملأون الدواوين بشعر الرثاء لصرعاهم .

والآن نريد أن نرى ما لهذا الشعر ، مدحه ورثائه ، من قيمة أدبية ، لا باعتبار أساليبه وأفكاره ، فهذا أمر يطول

شرحه ، ولا يجدى كثيراً فى تقويم أدب من الآداب ؛ ولكن باعتباره تراثاً أدبياً فيه من عناصر الصدق ما يجعل له قيمة أدبية عامة ، ويقدمه بعد ذلك لدراسة أساليبه وأفكاره أو خلوه من تلك العناصر التى يجيرها بكون أدباً مصنوعاً بغض النظر عن قيمة أساليبه وأفكاره فى حد ذاتها .

الغريب أن توضع لكل من فن المدح وفن الرثاء قواعد كان الشعراء فى الماضى متعارفين عليها ، وهى تدور حول الصفات التى يجب أن يمدح بها الممدوح ، والتى كان يعرفها الممدوحون أنفسهم ويرون الشاعر مقصراً فى حقهم حين يحيد عنها إلى غيرها : الشجاعة ، والكرم ، وأصالة النسب ، والمكانة التى تسامى النجوم .. الخ .. وفى التاريخ الأدبى روايات كثيرة تؤيد هذا .

والغريب أن هـذه القواعد مسجلة الآن فى كتاب الأدب للسنة النهائية من المدارس الثانوية بصورة تمتاز حقاً بحسن التقسيم والشمول ، وإن كان فى ذلك من الضرر والخطأ ما فيه .

وهـذه القواعد التى كان يلتزمها الشعراء فى المدح أو الرثاء هى التى تضع يدنا على جانب الزيف فى هذا الشعر . ولو أن قصيدة أو عدة قصائد فى شخص معين كانت صادقة أصيلة ولم تكن جارية وفق العرف من الصفات والأمداح لاكتسبت من وجهة نظر معينة شيئاً من القيمة . ولكنها — جارية على هذا العرف — كانت صالحة لأن تقال فى شخص ما وفى آخر .

وكثيراً ما تحدثنا الروايات عن شعر قيـل فى أحد الأشخاص وَدّ الأمير لو قيل فيه ، وراح يخيف الشاعر الذى لا يجد له مهرباً من ورطته إلا أن يحذف اسم الممدوح ويحشر مكانه اسم الأمير ويقسم أنها — القصيدة — ما قيلت إلا هكذا ! وهذا يؤكد لنا الزيف فى الجانبين .

ولو أن هـذا الشعر كان يسجل صفات الناس حقاً ، ويسجلها كما هى ... ولكنه امتاز بحشو عنصر المبالغة ، والمبالغة فى حد ذاتها سمة غالبة لا على الشعر العربى وحده ، بل على الحياة العربية فى مختلف جوانبها ! وقدامى النقاد العرب عرفوا ذلك تماماً وقسموا المبالغة إلى مقبولة وممقوتة ! على أن المبالغة أيا كانت تجرف الشاعر فى تيار التزيد والكذب الذى يجدر بالفن أن يتبرأ منه . وليس الشعر يغنى عن صدقه كذبه كما قال الشاعر ، ومن الناس من لم يكن ينكر على هـذا الشاعر فى رثائه لأبى تمام مثلاً أن « يصفه بأحسن ما فيه ، وينحله ما ليس فيه ، وخاصة فى الشعر » كأنما الكذب حلال فى الشعر ، ويقولون عن تأبين الميت « إن العادة جرت بأن يعطى من التقريظ والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه » . ويعلم الله كم كانت هـذه الأضعاف المضاعفة من نصيب غير أبى تمام ، وهذا عنصر آخر من الزيف .

والكسب فى الحياة أمر مشروع لاشبهة فيه ، ولكن إذا نظرنا إلى الوسيلة وجدنا الشعر حرياً أن يبعد عن تلك الإهانة المرة التى ذاقها على أيدى أهله ، اتخذ الشعراء شعرهم وسيلة إلى الكسب وعاشوا حياتهم على الاجتداء به ، فإذا شعر أحدهم بالحاجة دبج القصيدة وراح يفكر فيمن سيجزل له العطاء فيقصده بها ! ولم يقتصر هـذا الصنيع على شعر المدح ، بل امتد إلى شعر الرثاء ! وفى مروان بن أبى حفصة مثال على هذا حين مات معن بن زائدة ورثاه ولم يدفع له أهل المرثى المال الذى كان ينتظره فى المرثية . ما لبث أن حول القصيدة — فى شىء من اللباقة — إلى مدح غيره ، وقديماً عمّم الأعشى الشعراء فقال :

والشعر يستنزل الكريم كما استنزل رعد السحابة السّيلا

وبعد ، فإذا كانت عدوى المدح والرثاء لم يسلم منها الشعر فى العصر الذى نعيش فيه ، فنلاحظ أنه بدأ يشفى منها ، ونرجو أن يتم شفاؤه ليطرق أبواباً أخرى تليق بالفن والشعر ، وكنا نود له هذا الشفاء من قديم الزمن فتتحول تلك الثروة الضخمة من شعر المدح والرثاء ، ومجهود الشعراء الذى يخلقها ، إلى محصول آخر أكثر نفعاً وجدوى وأكبر قيمة .

عز الدين إسماعيل

قصة جوستا برلنج

للشاعرة والقصاصة السويدية « سلمى لاجيرلوف »

١٨٥٨ – ١٩٤٠

ترجمة الأستاذ مبارك ابراهيم

كانت فى بدء حياتها مدرسة ، ثم ذاع صيتها إثر نشرها مجموعة من القصص عن حياة الفلاحين ، وأطلقت على تلك المجموعة عنوان هذه القصة التى نشرتها عام ١٨٩١ .

وقد منحت جائزة « نوبل » للآداب فى عام ١٩٠٩ ، وكانت أول عضو من النساء فى الأكاديمية السويدية . وطافت السكاتبة — مستعينة بإجادتها الكثير من اللغات — بإيطاليا وفلسطين والشرق ، ولكن عنايتها الكبرى كانت موجهة إلى الكتابة عن بلادها .

قالت الكاتبة :

تتخذ القصص القديمة ميدانها فى ذلك الإقليم ، إقليم Varmland الذى يُنبت الحديد ، وهى قصص وأساطير سمعها شيوخ القوم من أجدادهم الذين سمعوها من آباء آبائهم .

وهذه الأساطير تتحدث عن ذلك العصر يوم كانت مصانع الحديد تكسب الأموال والثروات الطائلة ، ويوم كان القوم الذين ورثوا عن آبائهم الغنى والجاه يضيفون فى بيوتهم كل داع من دعاة المرح الذين يعيشون على حساب إدخالهم السرور على الناس ، وعلى حذقهم لفنون الموسيقى ، وإجادتهم نظم القوافى .

وهؤلاء كانوا يرون أن من حقهم أن يعيشوا فى بيوت الخاصة ضيوفاً مكرمين ، وكان الفتى (جوستا برلنج) واحداً من أولئك الأضياف .

وهذا الفتى كان أول أمره قسيساً يعمل فى قرية من قرى Varmland ، وكان يعاقر الخمر . وكان على الرغم من هذه السيئة فتىّ حصيفاً فصيحاً يؤمن بالله الإيمان كله ، وكان ذا جمال ملائكى .

وكان هذا الفتى كلما نظر إلى تلك القرية الموحشة تولته الكآبة ، وركبه الغم ، واتخذ من الخمر مغلاقاً لهمومه .

وجاء المطران يوماً لينزع ذلك القسيس عن منصبه ، فقام هذا يدفعه إيمانه القوى بالدين ، فخطب القوم خطبة لم يسمع القوم مثلها من قبل ، فسموا سعيهم ليظفر الرجل بالعفو من مطرانه .

وظنّ القسيس الفتى أن تلك الخطبة قد طهرته من أدران الذنوب .

ولكن آماله فى العفو عنه قد خابت يوم قامت جماعة من زملائه فى شرب الخمر يتوعدون المطران بالقتل .

ورأى القسيس الفتى أن يكفر عن ذنبه بأن يقتل نفسه ، فحالت بينه وبين إنفاذ رغبته زوجة جندى ثرى ، شديد الشكيمة ، صعب القيادة ، كانت تعيش فى مدينة Ekeby .

وقصت هذه المرأة على الفتى قصة أحزانها ، فقالت له : إن أهلها قد أرغموها وهى صغيرة على أن تتزوج رجلا لم يجمع بينها وبينه الحب .

ثم عاد بعد حين من الدهر حبيب أيام الشباب ، وكان قد أدركه الغنى ، فمد لها وازوجها الأحمق يد المعونة .

ولما سمعت أمها هذا الحديث منها قامت تسبها وتلعنها ، ثم مات حبيبها الثرى ، وكان قد أوصى قبيل وفاته أن يرث الجندى وزوجته أرضه الواسعة فى مدينة Ekeby .

وفى تلك المدينة ، وفى بيت تلك السيدة نزل (جوستا برلنج) ضيفاً هو واثنا عشر من السادة الذين عضهم الفقر بنابه .

وجرى (جوستا برلنج) يفتش في كل مكان عن السعادة فلم يظفر بها ، وعمل معلماً ومؤدباً للكونتس الشابة التقية (إبا دونا) ، وقد فتن كلاهما بصاحبه ؛ فلما علمت الفتاة التقية الورعة العنيدة أن صاحبها (جوستا) كان قسيساً مطروداً أعدت نفسها لملاقاة الموت لكي تهرب من حبه ، ولكن (جوستا) وهو زعيم النازلين في بيتها وهو المحبوب من بينهم ، وهو الذي أوتي الأناقة والذكاء ، والذي كان دأبه اقتناص طائر اللذة واللهو أينما حط ، وفي أي أرض نزل ، كان لا يزال يفتقد الرضا والقناعة .

وقد حدث المتحدثون أن الشيخ الفاجر ، الدميم الخلقة (سنترام) صاحب مصانع الحديد كان قد تحالف مع الشيطان ، وقد جاء هذا الشيخ يحدث النزلاء ذات يوم ويدس بينهم وبين مضيفتهم ، ويقول لهم إنها قد باعت أرواحهم للشيطان .

وجاء (جوستا) فأنبأهم أنه قد عقد صفقة مع الشيطان بأن يكون لهم حق الرقابة على مدينة Ekeby عاماً كاملا .

فإذا عمل أولئك النزلاء عمل الرجال المهذبين فإن سلطان الشيطان على تلك المدينة سوف ينقضي ، وإلا فتصبح أرواحهم ملكاً حلالاً للشيطان .

فعمد النزلاء — نكاية بتلك السيدة ، وعقاباً لها على نفاقها — أن يقصوا على زوجها الجندي قصة حياتها الماضية بما فيها من سيرة تشوبها الخطيئات والذنوب .

فلما سمع الجندي هذا القول طرد زوجته . وجعل النزلاء سلطاناً على المدينة .

وفتن النساء في المدينة بجوستا وتمحلت في حبه الحسناء الفاتنة (أناستازيهوك) ، وجاءته ماريا سنكلير تخطب وده ، وقد تركت من أجله ديار قومها ، وهي التي فتن بجمالها الكثيرون ، فلما أصابها الجدري ، وشوهت آثاره وجهها عادت إلى بيت أهلها .

وسيقت زوجة الجندي إلى السجن عقاباً لها على الشروع في حرق المدينة ، فأحس أهل المدينة أن المرأة قد ظلمت ظلماً شديداً . إنها قد لقيت أسوأ المعاملة ، فكانوا — لذلك — يلقون أولئك النزلاء بنفور وجفاء .

وغضب أولئك النزلاء الذين لا يجدون ما ينفقون على الكونتس الشابة (اليزابث) غضباً شديداً .

وكانت (الكونتس) فوق ما أوتيت من شباب غض جميلة مرحة ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكانت — لإفراطها في حسن الظن — غافلة عن أن زوجها (الكونت هنريك) كان رجلا قاسياً ، وكان مغروراً أحمق .

وقد رأت هذه (الكونتس) الشابة ذات يوم أن تراقص (جوستا) عقاباً له ولزملائه النزلاء ، الذين كانوا سبباً فيما حل بزوجة الجندي من نكبات .

ولكي يصب عليها (جوستا) جام انتقامه حملها ذات يوم في مركبة من مركبات الجليد . ولكنه — إذ رق لفتنتها وطيب حديثها — خلى سبيلها ، ثم أرجعها إلى بيت زوجها .

واشتد ما ذهل النزلاء إذ علموا أن (الكونت) — ذلك النبيل الفخور — قد أجبر زوجته (الكونتس) على الاعتذار عن الإهانة التي ألحقتها بجوستا .

ولكن هذا الإذلال الذي لحق (الكونتس) من أجل (جوستا) قد جعله أسير غرامها . فأصبحا منذ ذلك الحين صديقين متحابين ، وظلت العلاقة بينهما تزداد على مر الأيام توثقاً ، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي عرفت فيه أنباء ماضيه ، وما حمل من شرور وآثام . فنأت عنه ورغبت في أن لا تراه مرة أخرى ؛ ولكنها ما إن علمت أنه قد أجمع أمره — في ساعة من ساعات القنوط واليأس — على التزوج من فتاة شريدة مجنونة ، حتى عبرت من أجله النهر المتجمد لتصده عن عزمه .

وتحدث الناس وأطالوا الحديث في أمر هذه العلاقة ، وبلغ حديث الناس مسامع (الكونت) فاتهم زوجته بالخيانة ، وبدا للزوجة أن حبها البريء كان خطئاً كبيراً ، فأقرت بذنبها .

وعمل (الكونت) ، وعملت أمه القاسية القلب ، على التنكيل بالفتاة ، وأعدوا لها من صنوف الذل ألواناً . واحتملت الفتاة كل ما حل بها من عذاب ؛ وذلك لتكفر عن خطيئتها .

فلما طال عذابها بدأ يخونها الصبر والجلد ، وخشيت أن يصيب جنينها الذي تحمله أذى ، فقد لجأت إلى الفرار ، لتعيش بين قوم من الفلاحين عيش المغمورين .

ولما علمت أن (الكونت) قد فسخ عقد زواجها توسلت إلى (جوستا) أن يتخذها زوجة ، وذلك لكي يجد مولودها يوم ولادته أباً .

طرائف

للأستاذ جمال الدين محمد موسى

مقاعد مكيفة :

كلنا قد سمع عن تكييف الهواء في دور العرض السينمائي ودور العرض المسرحي ، ولكن ما من أحد سمع عن تكييف المقاعد ذاتها داخل تلك الدور ، بحيث تدفئك في الشتاء ، وتنعشك في الصيف أثناء تمتعك بمشاهدة العرض سينمائياً كان أو مسرحياً .

والمقاعد المكيفة هذه اختراع جديد سجل في الولايات المتحدة ، وهو من ابتكار المخترع إريك ج . بوفال .

وفكرة الاختراع طريفة ؛ فأرجل المقعد عبارة عن أنابيب يمر فيها بخار أو ماء ساخن في الشتاء وماء بارد في الصيف . والمقعد بما فيه المسند مصنوع من شرائط معدنية وهي بالطبع موصلة للحرارة أو البرودة ، وبذا يمكنها أن تحمل الدفء ، أو الإنعاش ، الذي يصل إليها خلال الأرجل ، إلى المتربع على عرشها .

• • •

العلم في خدمة الصناعة :

سأحدث القارئ عن مثال من أمثلة العلم الموجه لخدمة أغراض الصناعة ...

هناك مواد صلبة كثيرة تحتاج إلى سحقها وطحنها لتقوم بدورها في محيط الصناعة . وبعض هذه المواد شديد

وأجابها (جوستا) إلى ما طلبت ، ولكن الطفل فارق الحياة بعد قليل .

ورضي (جوستا) عن زواجه بتلك المرأة ، ولكنه خشي أن يكون هذا الزواج نكبة من النكبات .

وكانت آخر مُزاحة من مزاحات (جوستا) مُزاحة يخالطها الحزن والأسى . فقد جاءه رجل هو (السكافي ليزة) وكان قد فارق السجن منذ قليل مكفراً عن تهمة باطلة ، فالتف حوله (النزلاء) وسقوه خمراً ، فلعبت الخمر في رأسه . ذلك لأنه لم يكن من معتاديها . فعمد (النزلاء) إلى وجهه فلطخوه بالطلاء والنقش . ثم بعثوا به — وهو على تلك الحال — إلى امرأته ، فطردته زوجته شر طردة ، فخرج الرجل وقد نذر ليعيشن حياته يطوف الفيافي والقرى ، يبث البائس والملهوف . ثم نزل القحط والفقر بالمدينة ، فهاج هائج أهلها وثار ثائرهم ، وقد ضاقوا بالنزلاء ، وبما اقترفوا من خطيئات وآثام . ثم أجمعوا أمرهم على أن يخربوا المدينة . ولكن ما أوتيه (جوستا) من لباقة وكياسة ، وما جبلت عليه (البيرابث) من رقة وظرف ، قد صدّ القوم عن غيهم .

وحاول (جوستا) الانتحار ليريح زوجته من عناء صحبته . ولكنها منعته عن المضي فيما انتوى ، وقالت له : إن الانتحار ليس السبيل إلى الخلاص من الإثم . إنما السبيل إلى ذلك هجر حياة اللهو والإثم .

ثم عقد كلاهما العزم على أن يحييا حياتهما بسدياني الخير وصنائع المعروف ...

(عن الإنجليزية)

مبارك إبراهيم

الصلابة ، مما يجعل عملية السحق أو الطحن غير هينة ، بل أقول شاقة وجد صعبة ...

وقد بحثت شركة لِنْد لمنتجات الهواء فى نيويورك بالولايات المتحدة فى هذا الموضوع طويلاً ، وتوصلت أخيراً إلى ابتكار طريقة تسهل عملية السحق ، لأكثر المواد صلابة ، إلى حد جد بعيد ، كما فتحت الآفاق لفوائد أخرى عديدة فى هذا المضمار ..

أما ما توصلت إليه الشركة ، فهو استخدام النتروجين السائل فى تسهيل عملية الطحن .

وفائدة هذا النتروجين السائل الذى يستخدم فى صورة رشاش ، هو تبريد المواد التى يراد سحقها إلى درجة تصير فيها هشة ، وبذا يغدو من السهل طحنها ...

وسيكون لهذه الطريقة أثرها فى تسهيل وإسراع عملية طحن المواد المتباينة ، وخاصة المواد الصلبة والمواد الحساسة للحرارة مثل اللدائن ومبيدات الحشرات والمواد التى تستخدم فى تركيب الأدوية والمواد الغذائية والمواد التى تحتوى على الفيتامينات وغيرها من المواد العضوية ...

ولنشرح للقارىء العملية فى شىء من التفصيل .... يوصل النتروجين السائل إلى حجرة توجد بين قادوس الطاحونة وبين رحاها المصنوعة من الصلب والسريعة الدوران ، ومن هناك يتساقط كرشاش على المادة التى يراد سحقها ، حين تبدأ فى المرور بين رحى الطاحونة ، مُبرّداً إياها إلى درجة حرارة منخفضة .

وقد وجد أنه ليس من الضرورى تبريد المواد إلى درجة حرارة النتروجين السائل ، وهى بالتقريب ثلاثمائة وعشرون تحت الصفر الفهرنهيتى .

ولعل البعض يتساءل عن السر فى اختيار النتروجين السائل فى عملية التبريد دون غيره من الغازات المسالة الأخرى ، وهو تساؤل أجيب عليه بقولى إن ذلك يرجع إلى أن النتروجين عنصر خامل لا يتفاعل كيميائيا مع المواد التى تطحن . وهذه نقطة لها أهميتها فى ترجيح استعماله ..

وتستخدم هذه الطريقة الآن فى طحن المواد الغالية الثمن.

ولعل من أهم تطبيقاتها أن جو النتروجين الخامل الذى يسود عملية الطحن سيجعل من الممكن سحق المفرقعات والمواد القابلة للأكسدة .

كما أن الطحن فى درجة حرارة منخفضة سيمنع فقد الروائح (الأروما) والمواد المتطايرة لدى سحق المواد العطرة ....

• • •

صورة الذرة :

ما هى الذرة ؟ وما طبيعتها وم تتكون ؟؟ إن على كل فرد اليوم أن يدرى حقيقة هذا الجزء من المادة فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، عصر الذرة ...

كان العلماء يعتقدون فى الماضى أن الذرة جزء لا يتجزأ ، ولكن ذلك الاعتقاد قد انقرض انقراضاً تاماً .

ويصور العلماء الذرة اليوم بأنها تتكون من نواة فى المركز هى سويداء قلبها النابض ، وحولها توجد جسيمات سالبة التكهرب تسمى « إلكترونات » تتحرك فى فضاء يحيط بالنواة . وتقع هذه الإلكترونات فى طبقات : طبقة داخلية تحيط بها أخرى ثم طبقة ثالثة وهكذا ...

ويبلغ قطر النواة جزءاً من عشرة آلاف جزء من قطر الذرة نفسها . وفى النواة تتركز جل مادة الذرة ، فوزنها يساوى تقريباً الوزن الذرى ، إذ أن الإلكترونات التى تدور حول النواة خفيفة الوزن جداً .

وتحمل النواة كهربية موجبة تعادل وحدات الكهربية السالبة التى تحملها الإلكترونات التى تدور حولها ، وبذا فإن الذرة فى مجموعها متعادلة كهربياً ..

جمال الدين محمد موسى

هل تعـــــلم ؟

١ — صدأ الحديد :

هل تعلم أن بريطانيا تنفق نحو ٤٠ مليونا من الجنيهات لمقاومة صدأ الحديد والصلب ، وأن العالم ينفق لنفس الغرض نحو ٥٠٠ مليون من الجنيهات ؟ .

إن أهم العوامل التي تسبب الصدأ هو الهواء والماء ، ولا بد أن يكونا مجتمعين لتكوين الصدأ . فقضبان السكك الحديدية مثلا ، لا تصدأ قبل مضي سبعين عاما إذا كانت في الريف حيث تقل الرطوبة ، أما إذا كانت تحت نفق فإنها تصدأ قبل مضي ثماني سنوات(*).

٢ — مرونة الصلب :

هل تعلم أن الصلب أكثر مرونة من المطاط ؟ فليست المرونة — كما هو معروف — قابلية المادة للاستطالة ، وإنما هي قابليتها للعودة كما كانت بعد الاستطالة .

فإذا شددت قطعة من المطاط وأخرى من الصلب وتسبب عن ذلك استطالة كلتيهما ثم أوقفت الشد فإن قطعة الصلب تعود إلى حالتها قبل الشد في وقت أقل من قطعة المطاط .

٣ — ارتفاع السلالم :

هل تعلم أن ارتفاع كل درجة من السلم يجب أن يكون مساويا تماما لارتفاع جميع الدرجات وإلا تسبب عن ذلك سقوط الشخص الصاعد أو النازل عليه .

بل وأن هناك قوانين معروفة يجب أن يسير عليها كل من يصمم السلم ؟ ! فمثلا يجب ألا يزيد ارتفاع الدرجة الواحدة عن ١٨ سم وألا يقل عن ١٥ سم وأن عرض الدرجة يجب أن يتراوح بين ٢٦ ، ٣٠ سم .

بل وقد يكون ارتفاع الدرجة وعرضها مطابقا لهذه القواعد ومع ذلك فلا يُعد السلم مريحا .

فهناك قوانين أخرى لتصميم السلم لكي تجعل السلم مريحا في استعماله . فمثلا إذا ضربت ارتفاع الدرجة في عرضها يجب أن يتراوح المضروب بين ٤٥٠ ، ٤٧٠ سم . وأن يكون مجموع عرض الدرجة وضعف الارتفاع يتراوح بين ٦٠ ، ٦٢ سم .

فإذا كان السلم مطابقا لكل هذه الشروط عد مريحا وملائما للاستعمال .

٤ — التيار الكهربائي :

هل تعلم أنه يمكنك توليد تيار كهربائي دون استعمال بطارية أو أي مولد آخر ؟

فإنك إذا أحضرت سلكا من البلاتين وسلكا آخر مكونا من سبيكة من البلاتين والروديوم ، وأوصلت كل طرف بطرف من السلك الآخر ، ووضعت طرفين متصلين في الثلج مثلاً « درجة حرارة منخفضة » ، والطرفين الآخرين في زيت ساخن « درجة حرارة مرتفعة » ، فإن تيارا كهربائيا سيسري في السلك .

(٠٠٠١)

(*) ومن أهم الطرق لمقاومة الصدأ تغطية الصلب أو الحديد بمادة غير قابلة للصدأ مثل الفضة الألمانية German Silver وهي عبارة عن سبيكة من النحاس والنيكل والزنك بنسبة ١ نيكل : ٢ زنك : ٤ نحاس .

كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب

نشر وتحقيـــق

الأستاذين هنري لاووست وسامى الدهان

الجزء الأول — ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير — المعهد الفرنسي بدمشق — ١٩٥١

للدكتور شوقي ضيف

هذا كتاب يقوم على نشره وتحقيقه مستشرق وعربي هما : الأستاذ هنري لاووست والدكتور سامى الدهان ، وكل منهما يؤدي فيه خبرته ومعرفته ، وكأنما يتحد فيه الجهد الشرقي والجهد الغربي . والكتاب كما هو واضح من عنوانه تذييل على كتاب آخر هو طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ، وقد حوى هذا الجزء ٩٧ ترجمة من سنة ٤٦٠ هـ إلى سنة ٥٤٠ هـ .

ولا شك أننا نرحب بهذا العمل ، وفي رأينا أن من خير ما يهدى إلى مكتبتنا الحديثة الكتاب القديم يقوم على بحثه ووضع فهارسه من خبروا هذه المهنة ، مهنة النشر ، ونقول المهنة لأن النشر في حقيقته مهنة تحتاج معرفة شاملة وثقافة واسعة بفن الإخراج وفن التحقيق ، حتى تتم الحياة للكتاب الذي يراد نشره وبعثه .

وكل من عانى صعوبة النشر للنصوص المخطوطة يرحب بل يثني على كل عمل جديد يضيف أثراً من آثارنا القديمة إلى مكتبتنا الحديثة ، لما يعلم من الصعوبات الكثيرة التي يعانيها الناشر ، وهي صعوبات تضنيه وتقتل وقته ، ومع ذلك يضطلع بها راضياً مرضياً ، سعيداً بتصيبه من حياته وما نصب نفسه له من إحياء مخطوط ، وإخراجه من الظلمات إلى النور .

وكم يكون طريفاً أن يصف لنا الناشر المختص حياته بين رفوف الكتاب ينقب ويبحث عن ضالته ، ثم يصف لنا ما كابده في هذا السبيل وما عاناه . فكتاب ينشره ناشر هو ثمرة لأبحاث وجهود متواصلة يأخذ بعضها برقاب بعض وكأنها حلقات متسلسلة ، وكم من حلقات تذهب عبثاً ، وكم من أوقات تضيع سُدًى .

فكتاب يضطلع بإخراجه ناشر معناه أنه عاشر طوائف كثيرة من الكتب وأصحابها ، وما زال يحاول أن يصطفي له كتاباً ، وما زال يتعرف على الكتب ، وما زال يختار وينتخب ، ينظر في النسخ ، وينظر في المؤلف وقيمته ، وينظر في أهمية الكتاب .

ثم ما يزال حين ينتخب كتاباً معيناً يطلب نسخه المختلفة في المكاتب المبثوثة في الشرق والغرب ، وقد تواتيه الفرصة ليحصل على إحدى النسخ الجيدة ، ثم لا تواتيه في نسخ ثانية وثالثة ، فيتلبث ويتأنى حتى يحصل على أمنيته .

وهو بعد ذلك وبعد حصوله على النسخ يحاول أن يرجعها إلى أصول ، همه أن يجنسها ، فالكتاب كأنه شجرة والنسخ كأنها فروعها ، وكل فرع تنتظم فيه مجموعة ، وقد تكون النسخ كثيرة والفروع متعددة ، ولكنها جميعها تحوي أغلاطاً مختلفة وتزيد تحريفاً ، فيضطر إلى الرجوع إلى مصادر أخرى يتخذها منارات تكشف له الطريق .

وهذا العمل لا يستطيعه إلا من صبر نفسه على الامتحان : امتحان النصوص وامتحان كلماتها وعباراتها ، فكل لفظة تمر به يعرضها على الشك ، وكل لفظة يشك فيها يعرضها على مقاييس الامتحان ، وما أدق النص

وأصعبه حين تضطرب ألفاظه ، فتتحول عباراته أو كثير منها إلى ما يشبه المسائل الحسابية الصعبة التي تريد حلولاً ، وما يزال الناشر يعرض الحلول ، حتى إذا عثر على حل ممكن فرح به كما يفرح الطفل باللعبة تهدى إليه .

وقد يكون النص واضح القراءة جميل الخط ، ولكن لدى الامتحان يتبين الناشر أن الكاتب ليس مثقفاً ، بل لعله شبه أمي ، فهو ينقل ، وهو يخطئ كثيراً في نقله رغم خطه الواضح الجميل . ويرى الناشر أن العبارات لا تطرد ، وأن كلمات بها تقف حجر عثرة في طريقه ، فما يزال يتأتى لها ، وما يزال يحاول أن يستخدم خبرته ، وما يزال يمتحن النص وما يزال يتحسس مواضع الخطأ فيه كما يتحسس الطبيب موضع العلة في المريض .

وصعوبات النشر من هذه الناحية كثيرة ، وما يعانيه أي ناشر في عمله شيء أبعد من أن نحيط بوصفه ؛ ولذلك كنت أقدر كل عمل في هذا الصدد ، وأحترم ما أداه الناشر من جهود وما بذله من عناء .

وهذا الكتاب الجديد الذي تعاون في إخراجه وبحثه الناشران الفاضلان الأستاذان هنري لاووست وسامي الدهان واضح الدلالة على عنايتهما وأنهما حاولا كل ما استطاعا من عمل في بحثه ، فقد رجعا فيه إلى نسخ مختلفة وهي نسخ كانت متعبة ، ولذلك لم يكتفيا بها ، بل ذهبا يضمان عليها رصداً من كتب الحديث وكتب التاريخ والتراجم ، مثل المنتظم والشذرات والأنساب للسمعاني . وفي كل ترجمة يتعقبان صاحبها في المراجع المختلفة ويذكران ذلك في هوامش الكتاب .

وأمام هذا العمل نجد مقدمة واسعة عن ابن حنبل وتلامذته وكتب الطبقات الخاصة بالحنابلة . ثم نجد حديثاً مفصلاً عن ابن رجب البغدادي مؤلف الكتاب وثقافته . حتى إذا استوفيا ذلك تحدثا عن الذيل ونسخه . وقد نشراه عن ثلاث نسخ ، اثنتان منها محفوظتان في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، والثالثة محفوظة في مكتبة كوبرولي باستانبول .

ومن يتصفح هذا الكتاب يجد أنه لا يحوي تراجم الحنابلة فحسب ، فهو قبل كل شيء يحوي آراء من يترجم لهم في مسائل الفقه والتشريع الإسلامي ، وليس ذلك فقط ، فهو يحوي أيضاً آراءهم في مسائل الاعتقاد .

ومن هنا تأتي أهمية الكتاب ، إذ يعطينا خطوطاً مهمة في المذهب الحنبلي ومناقشات طريفة في فروعه على مر السنين ، كما يعطينا أيضاً آراء الحنابلة في المسائل الكلامية وما رسب في بيئتهم من محاربتها . وكلنا نعرف قصة خلق القرآن وما عاناه فيها ابن حنبل لعصر المأمون ، وهي في حقيقتها قصة المعتزلة وأهل الآثار والسنة .

وقد أصبح من أهم معتقدات الحنابلة التمسك بالأحاديث النبوية وعدم الجري وراء الآراء الاعتزالية وما يتفرع منها ويتشعب ، حتى الآراء الأشعرية نجدها تناقش في هذا الكتاب ، ونجدهم غير راضين عنها ، وبالمثل الآراء الصوفية .

والكتاب لهذا كتاب جدير بالنشر ، ولا شك في أن الناشرين يستحقان منا كل ثناء لما بذلا فيه من جهد ، وما اضطلعا به من خدمة هذا الجانب في تاريخ التمدين الديني والعقلي .

شوقي ضيف

من مطالعات الكتب

للأستاذ الدمرداش محمد بك

تواترت الإشاعات أخيراً بأن اليهود يشيدون مرفأ بحرياً وميناء تجارياً عند رأس خليج العقبة بالقرب من بلدة العقبة ، وأنهم يقيمون استحكامات قوية عند الرشرش وبير القطار بالقرب من الطرف الجنوبي للحدود المصرية الشرقية . وقد رددت الجرائد المحلية وبعض الجرائد الأجنبية هذه الإشاعات في نشراتها المختلفة .

وفي زيارتي للسويس من نحو أسبوعين قابلت اتفاقاً أحد ضباط مصلحة الحدود الذين يعملون في شبه جزيرة سيناء ، فسألته جلية الخبر ، فأكد الإشاعة وزاد عليها بأن قال إن اليهود يحفرون آباراً إرتوازية في وادي العربة لمد المنطقة بالماء العذب ، وينشئون مطاراً كبيراً في صحراء النجب .

وبينما هذه الإشاعات يتردد صداها هنا وهناك ، ويتساءل الناس عن غرض اليهود من إقامة هذه المنشآت في هذه البقعة النائية المجدبة من منطقة صحراء النجب المتاخمة لحدود مصر الشرقية ، شاء الصادفة أن تقع عيني وأنا أقرأ في كتاب السلوك لمؤلفه المقريزي على العبارة الآتية عند ذكر حوادث سنة ٥٧٨ هجرية . يقول المقريزي :

« وفيها قصد الفرنج (يقصد الصليبيين) بلاد الحجاز وأنشأ البرنس أرناط صاحب الكرك سفناً وحملها على البر إلى بحر القلزم (يقصد خليج العقبة) وأركب فيها الرجال وأوقف منها مركبين على حرزة قلعة القلزم (يقصد قلعة أيلة أي قلعة العقبة) لمنع أهلها من استقاء الماء ، وسارت البقية نحو عيذاب (كانت مبناه على البحر الأحمر بالقرب من القصير الحالية) فقتلوا وأسروا وأحرقوا في بحر القلزم (يقصد البحر الأحمر) نحو ست عشرة مركباً ، وأخذوا بعيذاب مركباً يأتي بالحجاج من جدة ، وأخذوا في الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب وقتلوا الجميع ، وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن ، وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين ، وأحدثوا حوادث لم يسمع في الإسلام بمثلها ، ولا وصل قبلهم رومي إلى ذلك الموضع ؛ فإنه لم يبق بينهم وبين المدينة النبوية سوى مسيرة يوم واحد ، ومضوا إلى الحجاز يريدون المدينة النبوية فجهز الملك العادل وكان نائب السلطان (يقصد السلطان صلاح الدين الأيوبي) بالقاهرة الحاجب حسام الدين لؤلؤ إلى القلزم ؛ فعمّر مراكب بمصر والأسكندرية وسار إلى أيلة (أي العقبة الحالية) وظفر بمراكب للفرنج فحرقها وأسر من فيها وسار إلى عيذاب وتبع



مراكب الفرنج فوقع بها بعد أيام واستولى عليها وأطلق من فيها من التجار المأسورين ورد عليهم ما أخذ منهم ، وصعد البر فركب خيل العرب حتى أدرك من فر من الفرنج وأخذهم فساق منهم اثنين إلى منى ونحرهما كما تنحر البدن وعاد إلى القاهرة بالأسرى في ذي الحجة فضربت أعناقهم كلهم » .

فكرت طويلا وبإمعان في هذه الفقرة من كتاب السلوك ، وتواردت في ذهني شتى الخواطر واستجمعت شتات

ما وعته الذاكرة من مشاهدات وملاحظات فى أثناء رحلاتى فى بلاد الطور وخليج العقبة وشواطىء البحر الأحمر والداخل الشرقية لبلاد الصعيد ، وقلت لنفسى : إذا كان غزو سواحل مصر الشرقية ممكناً فى سنة ٥٧٨ هجرية بواسطة مراكب شراعية تستند فى تموينها على قاعدة فى رأس خليج العقبة ، فإنه يكون الغزو الآن أكثر سهولة وأيسر إحكاماً بعد اختراع الطيارات والسفن البخارية الحديثة ؛ ثم إن خليج العقبة صالح لسير السفن بأنواعها وأحجامها ، وتقطع السفن فى هذه الأيام طوله فى نحو ست ساعات . وسواحل مصر الشرقية من السويس إلى السودان لا تزال كما كانت فى عهد صلاح الدين الأيوبى مكشوفة من غير استحكامات تحميها من الغزو المفاجىء . ومرافىء الغردقة وسفاجة والقصير تصلح لرسو السفن الكبيرة ، ويربطها بوادى النيل من الأقصر إلى قنا طرق صحراوية معبدة لا يزيد طول أطولها على مائتى كيلومتر ، وتقطعها السيارات الثقيلة فى ست ساعات والسيارات الخفيفة فى أربع ساعات . ويوجد فى رأس غارب والغردقة مطارات تصلح بعد تمهيد بسيط لنزول الطيارات الكبيرة . وتوجد منابع زيت البترول التى تمد القطر المصرى بمصادر الطاقة الميكانيكية فى رأس غارب والغردقة ، كما تقوم مصانع تكريره فى السويس عند رأس خليج السويس .

ويوجد الماء العذب فى الطور تجاه رأس غارب على مرحلة قصيرة منه .

والمعروف عن اليهود أنهم قوم ماكرون خبثاء ، وأنهم يكنون لنا العداوة والبغضاء ، ويضمرون لنا نية الغدر ؛ فإذا تسنى لهم يوماً ما أن يحشدوا أسطولاً من السفن عند رأس خليج العقبة مزوداً بالقوات والمعدات الكافيـة ، وبالطيارات ، وفاجأونا بغارة خاطفة على سواحلنا الشرقية كما فعل البرنس ارناط فى سنة ٥٧٨ هـ ، فإنه يكون فى الاستطاعة بفضل الوسائل الحربية الحديثة أن يصلوا فى يوم واحد بقواتهم الآلية إلى مدينة قنا والأقصر ، وبهذا يشطرون الوادى نصفين ويهددون خزان أسوان ومدينتى سوهاج وأسيوط تهديداً مباشراً ، كما يمكنهم الاستيلاء بواسطة الجنود المنقولة بالطيارات على منابع البترول فى رأس غارب وتهديد مصانع التكرير فى السويس تهديداً شديداً .

ولكن من حسن الحظ أن مصر تملك فى خليج العقبة ثلاث جزر تتحكم فى الملاحة البحرية فيه . اثنتان منهما عند مدخله تجاه رأس محمد ، هما جزيرة تيران وبينها وبين الرأس مضيق حرج لمرور السفن ، وجزيرة صنافر فى الشرق منها ، وكلتا الجزيرتين قفر بلقع ، وتقع الجزيرة الثالثة عند رأس الخليج ، وتسمى جزيرة فرعون وتتكون من أكمتين بينهما فرجة ضيقة ، وعلى قمتى الأكمتين خرائب قلعة قديمة كان يحيط بها سور منيع ، والأرجح أن القلعة من بناء صلاح الدين الأيوبى ، ويظهر أنه بناها لمقاومة الصليبيين ، وبين الجزيرتين وساحل سيناء مسافة قصيرة تبلغ نحو ٢٥٠ متراً ، فإذا حصنت الجزيرة تحصيناً عصرياً تحكمت بقوة بالغة فى الملاحة البحرية فى الخليج وفى بلدة العقبة وفى مرفأ اليهود وميناتهم .

كذلك من حسن الحظ بالنسبة لأسباب الدفاع أن جميع مداخلنا الشرقيـة من السويس إلى حدود السودان عبارة عن مسالك فى وديان جرداء تكتنفها فى كثير من أجزائها سلاسل من جبال وعرة ، فيسهل سدها فى وجه أى اعتداء مسلح بواسطة قوات عسكرية صغيرة ، كما أن عدم وجود مصادر غنية للماء العذب فى هذه المناطق وتعذر نقله إليها بكميات كافيـة فى حالة الحرب يجعل الإقامة لمدة طويلة فى المواقى الساحلية وفى داخلية المنطقة أمراً عسيراً .

ومما يدل على شـدة اهتمام اليهود بطور سيناء وخليج العقبة ودأبهم الشديد من زمن بعيد للوقوف على أحوالها ، ما شاهدته بنفسى فى سنة ١٩٣٥ فى أحـد وديان بلاد الطور ؛ وتفصيل ذلك أنه فى أحد أيام شهر مارس من تلك السنة غادرت القاهرة مع بعض الرفاق فى رحلة إلى رأس محمد ووصلنا الطور فى اليوم التالى ، وبعد أن تزودنا منها بالماء والبنزين والطعام واصلنا السير إلى رأس محمد على عزم أن نقضى هناك سواد الليل ونعود فى الصباح إلى الطور ؛ ولكن بدا لنا فى الصباح ما غير رأينا ، فبدلاً من العودة إلى الطور حاولنا الوصول إلى العقبة سائرين مع تعاريج شاطىء خليج العقبة ، ولكن حدث بعد أن قطعنا مسافة طويلة أن اعترض سبيلنا لسان من الجبل ممتـد فى الماء ، وتعذر على السيارات اجتيازه فعدنا أدراجنا ، وفى أثناء العودة جلس الرفاق عند مدخل أحـد الوديان التماساً للراحة ، وتناء

(البقية على الصفحة التالية)

قصص

المالك الجديد

للأستاذ جلال أحمد أمين

جرى الطفل إلى الحديقة ، وما إن لمح أمه جيداً تنسج ، حتى جرى إليها صائحاً في ابتهاج :

— هل رأيت ساعتي يا أماه ؟.

دهشت الأم عندما سمعته ، وتناولت الساعة من يده ، وعادت إلى هدوئها وابتسامتها حين رأت أن ساعة أخيه القديمة هي التي في يده .

— هل أعطاها لك ؟.

قال الطفل في سرعة :

— نعم . أليست جميلة !.

ناولته الأم ساعته وقالت :

— ألم يكن يستطيع أن ينتظر ويعطيها لك في الغد كهدية !.

أخذ الطفل يتأمل ساعته من جديد وقال وهو يحاول فتحها ودون أن ينظر إلى أمه :

— لقد اشترى لنفسه ساعة جديدة ، وهو يقول إنه لم يعد في حاجة إلى هذه !.

مدت الأم يدها وقالت :

— ألا ينقصها شيء ، أرني !.

ناولها الطفل الساعة وهو يقول :

— بها كل شيء ، ولكن أخي يقول : إنها تحتاج إلى إصلاح يسير وإني أستطيع ذلك ..

أخذت الأم تقلب الساعة ثم قالت :

— حسناً ! حاول ذلك ، هل أفتحها لك ؟.

— نعم .

وأدارت الأم الساعة قليلاً ففتحتها وأعادتها إليه وهي تتأهب أن تعود إلى نسيجها وقالت :

— افعل بها ما تشاء ، ثم أرني ماذا صنعت .

أمسك الطفل بالساعة واقترب حاجباه في اهتمام ، وراح يملأ الساعة وراقب العجلات وهي تدور فتدير ما يتصل بها . وبدا عليه أنه استطاع أن يفهم كيف تدير العجلة الأولى العجلة التي تتصل بها ، ولكنه أجهد وجهه فجأة وحملق في الأرض . ثم قام من كرسيه وأقبل على أمه وقال :

— أليست هذه العجلة هي سبب دوران الثانية يا أماه ؟.

— نعم !.

وأشار الطفل إلى العجلة الأولى وقال :

— فما الذي يدير هذه !.

لم تنظر الأم في ساعة من قبل ، ولكنها قالت :

— لابد أن هناك عجلة أخرى تحتها هذه العجلات !.

الصادفات أن أدخل الوادي المرجة فأرى في إحدى جنباته خياماً منصوبة ، ويدفعني حب الاستطلاع إلى التقدم نحوها فيقابلني تابع مصري من أهل العريش ، فأعرف منه أن الخيام لبعثة من علماء أمريكا وأنهم جاءوا من العقبة على ظهور الجمال متنقلين على طول الشاطئ ، وأنهم يحملون معهم الكثير من العدد والآلات ، وأنهم يزورون الوديان ويتقبون في الجبال ويفحصون الصخور ويعملون مقاسات بآلاتهم في البر والبحر . وتشاء الصادفات الغريبة أيضاً أن أعثر في الوادي في طريق عودتي على دفتر صغير لتدوين المفكرات مكتوب على ظاهر غلافه عبارة باللغة الإنجليزية مطبوعة بالحروف ترجمتها (الجمعية اليهودية للبحث العلمي ببرية سيناء) وتحت هذه العبارة اسم صاحب المفكرة (الدكتور ف . ب . ماير) وداخل المفكرة معلومات متنوعة عن أسماء الوديان والجبال وعيون الماء واصطلاحات كثيرة مكتوبة بالرموز لم أفهم معناها .

الدمرداش محمد

— ألا أستطيع أن أراها ؟.

— تستطيع ، ولكن يجب أن ترفع كل هذه العجلات أولاً ..

ولم يجد الطفل لبحثه فائدة إن لم يجد العجلة المختفية . وأطرق قليلاً ثم قال :

— لابد أن هذه العجلة المختفية هي سبب توقف الساعة ؟

— هذا شيء عظيم ، هيا .. ابحث عنها .

وعاد الطفل إلى مكانه وأخذ يخرج من الساعة جزءا جزءا حتى جمع الأجزاء كلها في يده . واستولى عليه شعور لذيذ وهو ينظر إلى الساعة الفارغة والأجزاء المتصلة في يده ، وشعر بالإعجاب بنفسه ، إذ استطاع أن يكتشف العجلة المختفية ، دون أن يدرك بينه وبين نفسه قيمة لها بمفردها إلا أنها بإصلاحها ستجعل الساعة تسير .

وفتح الطفل كفه لأمه ، وتسللت العجلة من بين أصابعه وسقطت بين العشب ، ولم يشعر الطفل إلا وهو يلقي بالأجزاء الباقية بإهمال في يد أمه وانحنى يبحث عن العجلة الضائعة ..

وضاعت جهود الطفل هباء ، وشعرت الأم بخطأ ابنها بعبثه بالساعة ، وشعر هو في عجب بضآلة العجلة حتى لم تبد له من بين العشب .

وتناول الطفل الأجزاء الباقية وجلس على كرسيه ، وأخذ يحملق في الأجزاء دون أن يصنع بها شيئاً .

وابتسمت الأم في إشفاق وقالت له :

— هل كنت تريد أن تصلح الساعة أو أن تعرف كيف تسير ؟.

قال الطفل :

— لم أكن أريد إلا أن أعرف كيف تسير !.

وأدركت الأم أنه لا يقول حقا ، ولكنه لم يدرك شيئا من هذا ، وكان مؤمنا بأنه لا يريد أن يعرف كيف تسير .

قالت الأم :

— لا بأس إذاً من ضياع العجلة ، تستطيع أن تفهم بدونها ، أرني ..

وذهب الطفل بالساعة إليها ، فأخذت تعيد كل جزء إلى مكانه وتشرح للطفل ، وما إن انتهت من ذلك حتى قال :

— فكيف تدير العجلة الأخيرة العقربين ؟

— هذا لن تستطيع أن تراه إلا إن وضعناها في مكانهما .

وناولها الطفل العقربين والبناء فوضعتها في مكانها ، ونظرت الأم فرأت أن هذه الأشياء الأخيرة قد حجبت بقية الأشياء ، وشعرت بأنها تفهم كيف تدير العجلة الأخيرة العقربين ، ولكنها شعرت كذلك بأن الطفل لن يستطيع أن يرى شيئا أو يفهم ..

قال الطفل :

— كيف إذاً ؟

ترددت الأم قليلا ثم لم تجد بداً من أن تقول :

— لن تستطيع أن تفهم ! قبل أن نضع العقربين لم تكن ترى إلا العجلات ، وبعد وضعهما لم تعد ترى إلا العقربين ، وأنت تريد أن ترى اتصال العقربين بالعجلات .

فكر الطفل قليلا ولكنه لم يفهم كلام أمه ، وارتاب في أنها تفهم هي الأخرى .. وأحست الأم بفشله في أن يجعل الساعة تسير وفي أن يعرف سبب سيرها وتوقفها ، وخشيت أن يعتريه ضيق ، فعاد الابتسام إلى وجهها ولعبت قليلا بشعره ولم تستطع أن تصبر فقالت :

— لقد ذكرت لأبيك رغبتك منذ زمن طويل في الحصول على ساعة ، فأحضر لك ساعة لعيد ميلادك ليعطيها لك في الغد .

هب الطفل واقفا فجأة ، ودون أن ينبس بشيء جرى إلى أبيه داخل البيت .

صاحت به أمه :

— هل تعطي هذه الساعة إذاً لأخيك الصغير ؟

صاح الطفل دون أن يشعر :

— نعم .. نعم .. طبعا ..

وجرى إلى أبيه .

وابتسمت الأم مرة أخرى ، ونظرت إلى الساعة ، وشعرت بحب نحوها وشيء من العطف ، وتذكرت اليوم الذي اشترتها فيه لأكبر أبنائها ، وتخيلت ابنها الأصغر صاحبها الجديد ، وهو يحاول أن يصنع منها شيئا ..

ميمول أحمد أمين

الثقافة

العـــدد ٦٤٧
٢١ من مايو ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليما

من هنا ومن هناك

عصابية الأدباء وتواضعهم :

هل لاقيت صعوبة فى شق طريقك بين الأدباء ؟

هل استطعت فى بداية حياتك الأدبيـة أن تعيش من إنتاج قلمك ؟

وما هو الكتاب الذى تعتبره خير كتبك ؟

ثم ما هو الكتاب الذى تعتبره جـديراً بالخلود من بين مؤلفاتك ؟

هذه الأسئلة وضعتها الجريدة الفرنسية « أخبار الأدب » لطائفة من كبار الكتاب والشعراء .

وقد أجابوا كلهم بصراحـة تامة ؛ فكانت بينهم شبه إجماع على أن الكاتب فى بداية حياته الأدبية لابد له من بذل مجهودات كثيرة طويلة للوصول إلى مصاف الأدباء الذين يعتد بهم . ثم رأى أغلبهم أن الأدب لا يكفى الإنسان إذا أراد أن يحيا حياة كريمة . والغريب أن الكثير منهم ، فى إجابته على السؤال الأخير ، يعترف فى تواضع جم بأنه لم يكتب شيئاً يستحق أن يخلد فى تاريخ الأدب ! .. وذلك برغم أن من بين هؤلاء الكتاب أدباء عالميين مثل بول فاليرى وجورج دوهاميل وهنرى بوردو ، وأندريه موروا وفرانسوا مورياك وجان كوكتو وجان بول سارتر .

التحليل النفسى :

فى دار الأمبثيه فرانسيز بالقاهرة ألقى الأستاذ فرانسوا بيرج محاضرة باللغـة الفرنسية عن التحليل النفسى ، وقد عرض فى هذه المحاضرة لعلاقة التحليل النفسى بالحياة العامة والأخلاق وبمعرفة النفس البشرية ؛ وبيّن مذهب فرويد فى التحليل النفسى وفرّق بينه وبين مذهب آدلر ، ثم صحح بعض الأخطاء الشائعة عن التحليل النفسى .

وخلال عرضه المبادئ المختلفة التى يسير عليها العلماء فى بحوثهم النفسية كان يضرب للسامعين أمثلة حيّة طريفة توضح ما يرمى إليه من معانٍ فيها بعض الغموض ، ومن هذه الأمثلة الشائقة : يُرْوَى أن رجلاً كان مصاباً بمرض السادزم ، وهو مرض يشعر الإنسان معه برغبة ملحة فى تعذيب غيره من الناس ، وأحياناً فى قتلهم ، ولكن هذا المرض تحول إلى مجال آخر ، فأصبح الرجل جزاراً يذبح الأبقار والخراف ويقطع فى لحومها دون أن يلومه على ذلك أحد ... ويروى أن أحد التمورجية الممرضين كان له ابن فى كلية الطب فرسب هـذا الابن فى الامتحان النهائى رغم كونه من الطلبة الأذكياء ، وتعليل هذا أنه فى باطنه كان لا يرغب أن يكون طبيباً ، لأنه بذلك يصبح فى مرتبة أعلى من مرتبـة أبيه التمورجى ... ونحن نرى الأمم فى بعض الأحيان تتدافع إلى الحرب برغم ما فيها من ويلات ، وتعليل ذلك بسيط ؛ فإن انتظار الحرب أشق على النفس من ويلات هذه الحرب نفسها ! ...

ريفارول :

تحتفل فرنسا فى الوقت الحاضر بمرور ١٥٠ سـنة على وفاة الأديب الحكيم ريفارول ، وقد ولد هـذا الكاتب سنة ١٧٥٣ ووفد على باريس سنة ١٧٧٧ حيث لقى نجاحاً كبيراً بكتاباته الساخرة ، واختير عضواً بأكاديمية برلين ، وقربه ملك فرنسا لويس السادس عشر وملك ألمانيا فردريك ؛ ولكنه اشتغل بالسياسة ، ونقد فى كتاباته رجال الحكم وأصحاب السلطان ، فجلب على نفسه الكثير من العداوات ، وفى الثورة الفرنسية انضم إلى جانب الملكيين فاضطهده رجال الثورة ، واضطر إلى الفرار ، فلجأ إلى هولندا ثم إلى انجلترا وأخيراً إلى برلين حيث مات سنة ١٨٠١ ، وأكثر مؤلفاته انتشاراً مجموعة حكمه التى كان يسجلها فى دفاتر خاصة ، ثم رسالته عن خصائص اللغة الفرنسية ، وهاك بعض حكم هـذا الأديب : الطباعة مدفعية الفكر — العواطف تتغلب على العقل فى مجتمعات الشعب — يجب علينا أن نحارب الفكر بالفكر والحجة بالحجة ، أما الحديد والنار فلن يجديا فتيلاً فى مثل هذه المعمعة ...

محمد عبد الحليم محمود

الثقافة

صاحب الامتياز	AL-THAQAFA	رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك	المدارة	محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٤٧ | الاثنين ١٥ من شعبان سنة ١٣٧٠ — ٢١ من مايو سنة ١٩٥١ | السنة الثالثة عشرة

تحدى إسرائيل هيئة الأمم

للدكتور أحمد أمين بك

فى الأنباء أن إسرائيل اعتدت على القسم الحرام الذى بينها وبين سوريا وتكرر اعتداؤها ، وعرض الأمر على هيئة الأمم فاعترفت باعتدائها وقررت أنها لاحق لها فى ذلك . ثم هزئت إسرائيل بهذا القرار واستمرت فى اعتدائها . ويحق لها ذلك لأنها هزئت بقرار هيئة الأمم مراراً ولم ينلها أى أذى ، وهل بعد قتل برنادوت استهزاء ؟ وكان الظن أن مقتله يثير عليها هيئة الأمم ويغضبها فلم يكن شىء من ذلك ، بل نالت من حقوقها ، بل نالت من مصالحها أكثر مما نالت قبل مقتله .

وإسرائيل من غير شك أعرف من العرب بالسياسة الدولية ، وكم للسياسة من ألاعيب وطرق ملتوية ، ولا يبعد بحال من الأحوال أن تهتكر هيئة الأمم فعل إسرائيل ظاهراً ، وتبعث إليها بالاعتداء باطناً ، تحكما فى ذقون العرب والعالم . ثم إن إسرائيل تعلم أنها بنت أمريكا المدللة وحبيبتها المقربة ، فكيف يغضب محب على حبيبه ، وتقسو أم على بنتها ؟ إذاً فلتفعل ما تفعل ولا تكترث بهيئة الأمم المتحدة وقرارها العلى ، ولتضرب بقرارها عرض الحائط ، ولتعتد ما شاء لها الاعتداء ، ولتنقض على أى بلد من بلاد العرب ما أمكنها الانقضاض وهى آمنة مطمئنة .

ثم إن أمريكا وانجلترا لا تهمهان إلى الآن القرار القانونى والعدالة القانونية ، وإنما تهمهان المصلحة والسيف والنار . إن شئت فاعتبر بمصر وإيران . فمصر التى تحترم العدالة والقانون ، وتطالب بهما منذ سبعين عاماً لا يُسمع لها ، وتماطل رجال بريطانيا عاماً بعد عام . وتستصرخ مصر ولا من ينجدها . ويقع هذا تحت سمع أمريكا وبصرها فلا تبس بكلمة . وأما إيران فقد صممت على تأميم بترولها وأدركت الشركة الإنجليزية الإيرانية صدق عزيمتها ، فتقدمت إلى إيران تعرض شروطاً حسنة وتكرر شروطها

وتعدلها وفق مطالب إيران ، وإيران تأبى إلا التأميم ولا تعبأ بوعيد أو تهديد . وتنتخب من ينفذ سياستها وتعزل من لم ينفذ رغم كل التهديدات . أليس هذا كله دليلاً على أن أوربا على العموم لا تفهم إلا لغة القوة ، وويل للضعيف ، فإنه هو الذليل وهو المهين وهو المستجدى ولا يسمع لاستجدائه .

ألم يلفتك أن إسرائيل وهى العزيزة القوية قتلت برنادوت ثم ذهب دمه هدراً ، وترعى فى آل مصر وذهب إلى الشام وهو معروف بميوله الإسرائيلية وعداوته للعرب ، فاستقبله العرب أحسن استقبال ، وأكرموه كما يكرم الفاتح العظيم ، وأنزلوه فى ضيافتهم على حسابهم ، ونصبوا له الأصص والرياحين ، حيث ظنوا أنهم بإكرامه ينالون عطفه ! ولو كان هذا حقاً ، لكانت إسرائيل أولى بفهم هذه السياسة العالية ، وكانت تكرم برنادوت ولا تقتله . وويل للعرب من سياستهم .

لكم تأخرت مصر فى وطنيتها وسياستها ، فمن عشرات السنين زارها الرئيس روزفلت ولمزها فى وطنيتها بكلمة عابرة ، فهاج المصريون وأبوا إلا أن يستنكروا كله ويقابلوها بشر منها . هذا ما فعلناه بالأمس ، وهذا ما نفعله اليوم . ورحم الله الشاعر إذ يقول :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى
بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصرى معشر خشن
عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد
ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة
ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته
سواهم من جميع الناس إنسانا

وهكذا قومنا كما وصفهم الشاعر ، يجزون على الإساءة إحسانا ، وعلى الظلم عدلا ، ويضربون فلا يضربون ، ويستذلون فيصبرون ، كأن الإيمان عندهم ذل واستكانة ، لا غضب واستماتة ، ومقابلة القوة بالقوة ، والحرب بالحرب ، وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى : « من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

وصدق رسول الله إذ يقول : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » .

أحمد أمين

غربة ...!

تشاجيت حتى ألفت الأسى
وأنكرت لحن الهوى والمرح !
وفاضت بقلبى مآسى الحياة
ككأس حوى الخمر حتى طفح
فلست أبالى أناح الهزار
على روضه لهى أم صدح ؟
ولست أبالى نعيق الغراب
ولست أوالى أليفاً نزح !

•••

أنا غربة فى ضمير الزمان
وحس شقى هنا مطرح
أنا شبح هائم مفرد
بصحراء هل يستبان الشبح ؟!
لقد ملنى موكب السامرين
على ثغر ساحر أو فرح !
وغادرنى موكب العاشقين
وحطم مثل يدى القدح
خطوتى إلى غمرات الظلام
فسر شقائى نما واتضح !

حسن عبد الله القرشى

بوارق الأمـــــل

فى نهضتنا الحـــديثة

للأستاذ محمد مفيد الشوباشى

يغمض كثيرون منا أعينهم عن نهضتنا الثقافية، وينكرون شواهد نموها وتقدمها. بل يذهب غيرهم إلى أبعد من هذا فيزعمون أننا نعود إلى الوراء القهقرى، وحالنا تسوء يوما بعد يوم. فالتعليم عندنا فى تدهور، والثقافة العامة لا تلقى ما كانت تلقاه فى اهتمام، والأخلاق فى انحلال متلاحق. فمصر فى نظر أولئك المتشائمين تسير إلى الهاوية، ولا أمل فى إنقاذها. ونحن نحسب أن مثل هذا التشاؤم وليد العاطفة الجامحة التى لا تنفك تبتعد بصاحبها عن الواقع، فالذى يضيق بالحاضر يدفعه ضيقه به إلى إنكار حسناته وتجسيم سيئاته، ويجد من حنين المتقدمين فى السن إلى ماضيهم وتصويره فى صورة لامعة ما يحمله على الوثوق من أن الماضى كان خيراً من الحاضر، وأن الأجيال التى طواها الزمن خلقت من طينة غير طينة جيله، وأن التدهور الخلقى والفكرى من خصائص زمانه دون غيره. ولكنه لو رجع إلى نقد الكتاب والشعراء السابقين لمجتمعاتهم لأدرك أن كل جيل كان يحسن الظن بمن سبقوه، ويحسب الشر وقفا على أهل زمانه دون غيرهم. والذى يريد أن يتبين الواقع على حقيقته عليه أن يرجع إلى التاريخ ويتتبع تطور الإنسانية خلاله. وليس تتبع خطوات التاريخ وسيلة معرفة الماضى فحسب، ولكنه كذلك وسيلة معرفة الحاضر معرفة صحيحة. ولعل فهم الحاضر واستنتاج المستقبل على هدى الاتجاهات التاريخية هما الغاية التى يتوخاها الدارس المستنير للتاريخ! ومن البديهيات التى لا يطمس معالمها إلا غبار الأهواء الجامحة أن الإنسان أيام همجيته الأولى كان فى جريه وراء قوته ماكراً غداراً مفترسا، لا يفترق عن سائر الضوارى المفترسة، وأنه اليوم يختلف عن الهمجية القديمة كل الاختلاف. وقد يقال إن تلك الهمجية الأولى ظلت تبدو فى صور مختلفة على تعاقب العصور، فكانت تتجلى أثناء العصور القبلية فى سطو بعض القبائل على بعض. وحين اهتدى الناس إلى الزراعة تبدت فى الصراع حول اغتصاب الأراضى الممتازة، وعتق الرقاب، وإرغام العبيد على استثمار الأراضى المغتصبة، وظلت الحال كذلك حين انقلب الرق إلى السخرة فى عهد الإقطاع، ولم يخض تنور الإنسان على همجيته يوم أخذ يعتنق العقائد الدينية والمثل الأخلاقية، بل اتخذ من تعصبه لعقائده ومثله إلى تلك الحروب المذهبية الوحشية التى عرفتها القرون الوسطى. ومحض الملوك والأمراء شعوبهم يوم ازدهرت الدول فى سبيل غزو الشعوب الضعيفة واستعمارها واستغلال مواردها. وفى العصر الحاضر الذى ازدهرت فيه الحضارة ظل الإنسان على عهده القديم فى صراعه الرهيب حول المادة، وحول السطوة والنفوذ ... هذا ما يقوله المتشائمون، ولكن الحكم المعتدل يدرك أن همجية الإنسان ظلت تفقد حدتها على تعاقب العصور. وأن نفور الشعوب من الحروب أخذ يشتد فى الأيام الأخيرة، وتتجلى شواهده للعيان. وأن مذهب تنازع البقاء، أو تنازع الأفراد فى سبيل المادة والنفوذ أخذ يندثر وتحل محله فكرة التعاون فى سبيل تحسين حال المجتمع. فالمدنية الحاضرة توشك أن تؤتى ثمرتها، رغم تلبد جو السياسة العالمية بالغيوم، ورغم تشاؤم المتشائمين. فما يوم بلوغ الشعوب رشدها ببعيد.

ومما زاد تشاؤم المتشائمين أن فلاسفة القرن السابع عشر شنوا حرباً شعواء على الجهل الذى كان مخيماً على أوربا حينذاك، وفضحوا الوسائل التى لجأ إليها رجال الكنيسة للتسلط على الناس، فسخروا من المعتقدات الزائفة، ومن الخرافات التى خيمت على العقول، وطمست معالم الواقع، وأعجزت الناس عن إدراك الحقائق. وبشروا العالم بأن سيادة العقل، وتغلب العلم على الجهل، سيكفل للبشرية سعادتها المنشودة. وقد تخلصت عقول المستنيرين من شوائب

الجهل ، وازدهر العلم ازدهاراً غير متوقع ، ولكن السعادة المرتقبة لم تتوفر للإنسانية كما تنبأ فلاسفة الاستنارة . ذلك لأن تقدم العقل البشرى استتبع تقدم الصناعة متأثراً بها ومؤثراً فيها ، فاتسع المجال لمنافسة الأفراد فى سبيل المال والجاه ، ولم يقف الموفقون عند حد فى تكديسهم للمال ، فاختل توازن الثروة ، فنال منها فريق فوق حاجته أضعافاً ، وعجز فريق عن نيل الكفاف منها . وهكذا أخفق العلم فى المراحل الأولى لتقدمه ، فى تحقيق ما علق عليه المفكرون من آمال . ومرجع ذلك أن الشعوب لم تكن قد حصلت على القسط الكافى من الاستنارة . على أن بشائر سعادة الإنسانية قد بدأت تظهر فى الأفق البعيد كما قلنا ، فإن الحكومات الحرية أخذت تحد من استغلال الناس للناس بما تسن من قوانين ، وبما تفرض من ضرائب تصاعدية ، وأخذت شعوبها تدرك أن التعاون فى سبيل تحقيق الغايات أجدى من التنافس الفردى المقيت .

ونعود الآن إلى ما بدأناه فنقول إن نهضتنا الحضارية لا تحتاج إلى تمحيص لنظهر على حقيقتها ، فهى تجابه المتطلع إليها لأول وهلة ، ومن أول نظرة . ذلك بأن مظهرها أوضح من مخبرها ، وسابق عليه فى التقدم . وإن إلمامة يسيرة بالتاريخ تكشف الفرق الواضح بين ما كنا عليه منذ قرن ونصف قرن من الزمان ، وما نحن عليه الآن . فأما من حيث المظهر الحضارى فكانت مدن مصر الكبرى فى القرن الثامن عشر أشبه بقرى الريف . فالطرق فيها ضيقة ملتوية مترية لم تكد تتجاوز أصابع اليد ، ودور السكنى على الأغلب قصيرة منضغطة قبيحة داكنة مما تراكم عليها من غبار وأقذار .. والتجارة لم تكد تتناول غير العطور والتوابل والأقمشة الرخيصة ، والسلاح الأبيض العتيق ، وأصناف الزينة التافهة ، والمأكولات الشعبية . والصناعة لم تتجاوز الحرف اليدوية البدائية ، ودور التعليم والجمعيات الثقافية لم تكد تتعدى بعض المعاهد الدينية ، والكتاتيب الأولية ، واجتماعات علماء الدين فى منازل أغنيائهم . وملاهى الشعب لم تكد تتجاوز المقاهى الفقيرة منعقدة الجو بالدخان المتصاعد من قصبات التدخين . وكانت القنوات والخلجان والأراضى الزراعية تخترق تلك المدن وتبادلها الأقذار والحشرات والهوام .

وعلى الرغم من التغيير المادى الذى طرأ على مصر فى مستهل القرن التاسع عشر على يد محمد على باشا الكبير وبعض من ولوا عرش مصر من بعده ، فإن مستوى الحياة المدنية لم يرق رقياً فعلاً حتى أواخر القرن الماضى ؛ فقد كان سكان المدن المصرية ، رغم إنشاء الساحات الحرية ، والمتاحف الأثرية والفنية ، ودار الأوبرا ، والقصور الأنيقة ، والفنادق الكبيرة ، ينتقلون من شارع إلى شارع على ظهور الدواب ، ويحتفظون بزيهم القديم ، وبتقاليدهم العتيقة فى حياتهم المنزلية ومعاملاتهم اليومية ، وظلت الكتاتيب والمعاهد الدينية عماد النشاط الثقافى رغم وجود المدارس العالية التى أنشأها محمد على باشا . ولم يرصف من الشوارع إلا ما يدخل فى حكم النادر . ولم تعرف المدن حينذاك الجمعيات العلمية ، والهيئات الثقافية ، والمؤسسات الفنية ذات الأثر الفعال فى رفع المستوى الثقافى . أما القرن العشرون فهو الذى شهد خطوات مصر الواسعة فى سبيل التقدم المادى حتى لتكاد مسافة التقدم فى بحر سنة واحدة من هذه السنين الأخيرة تزيد على أضعاف المسافة التى كانت تتقدمها مصر خلال القرن الماضى فى بحر عشرات السنين .

ولا يصعب على من يريد أن يقف على مدى تطور العقلية المصرية فى بحر المدة التى تحدثنا عنها ، ومدى تأثرها بالرقى المادى الحديث أن يجد بغيته فى دراسة حال قرانا التى لا تزال تشبه مدننا القديمة ، وامتحان عقلية قطانها التى لم تتأثر بنهضتنا الحديثة إلا تأثراً يسيراً لم تطمس معه معالم العقلية الغابرة ...

وهو يستطيع بالمقارنة غير العسيرة أن يدرك فى وضوح أن التطور الفكرى كان يتابع التطور المادى على كر تلك الأزمان . أما الفرق بين عقلية الجيل الماضى والجيل الحاضر فإننا نحن المخضرمين نستطيع بعد أن خبرنا الجيلين ، أن نتبينه دون لبس ، لقد أتاح ازدهار مدنتا لحياتنا الاجتماعية أن تزدهر ، ولجامعاتنا ومؤسساتنا الثقافية أن تتكون وتنمو متأثرة بالحالة الاجتماعية الحديثة ومؤثرة فيها ؛ فنحن نرى اليوم الألسن والأقلام تخوض فى بحوث أدبية وعلمية وفنية لم يعهد جدودنا عنها شيئاً .

ونحن نرى وعى طليعة شبابنا الثقف الأوضاع المحلية والدولية يكاد ينضج .

وقد يقال إن نهضتنا الحديثة محصورة في دائرة ضيقة ، فهي قائمة على عدد محدود من قطان مدننا الكبرى ، والذي يتحدث عنها لا يتحدث إلا عن طبقته ، أما سواد الشعب فباق على عهده القديم لا يتزحزح عنه .

ونحن نعترض على هذا الرأي من ناحيته ، فأما انحصار النهضة في طبقة معينة فهو يثبت وجودها ولا ينفيه ، وإن دل على شيء ، فهو يدل على أنها في بدايتها ، وهذا ما لا ننكره . وأما عدم تأثر سواد الشعب بها فهو ينافي الواقع ، وكل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد ، أن تأثره بها ما زال في مراحله الأولى .

ثم إن نهضتنا الثقافية لم ترق إلى مستوى الحضارة العصرية في الدول الكبرى ، ولكنا نعتقد أنها تهيأت خير تهيؤ للوثبة المنشودة ، والأمل معقود على البارزين من مفكري مصر ليقودوها في طريق التقدم ؛ ومن الأخطاء الشائعة الظن بأن الفرد ، وهو وليد عصره ، ومقيد بمعتقدات ذلك العصر ومثله يتأثر به ، ولكنه لا يستطيع أن يؤثر فيه ؛ فالفرد مهما تسامت عقليته في نظر أصحاب هذا الظن يتبع جيله ، ولكنه لا يقوده ... هذا الظن يخالف الواقع .

فالفرد يخضع للقاعدة العامة التي تقول بالتأثير والتأثر ، والفرد القادر يستطيع أن يقود جيله رغم تقيده بمثل ذلك الجيل ومعتقداته ، ويتوقف نجاحه في قيادة جيله على فهم أوضاع عصره وظروفه وملابساته ، ويتوقف كذلك على فهم اتجاهاته الفكرية الجديدة ، فهو إذا فهم ذلك فهماً صحيحاً كان أقدر على تحويره تحويراً يفسح في مجال التقدم للنهضة . ونحن نضرب مثلا لذلك تيسير التعليم الابتدائي والثانوي لأبناء الأمة كافة . فإن هذا العمل ، على الرغم من أنه فردي ، من شأنه أن يدفع بنهضتنا إلى الأمام دفعة لا يدرك مداها إلا بالتأمل العميق . وكذلك نحن نجد بين كتابنا اليوم من استطاع أن يتخلص من قيود الصنعة الجافة ويخرج بكتابته من أوضاعها الضيقة ، ويسمو على المعاني الخارجة التافهة ، ويكشف آفاقا جديدة للفكر ، ويحول الأدب من معرض للتنميق والتزويق إلى قوة فعالة تبث في المجتمع مشاعر جديدة سامية ، وتوجهه توجيها مثمراً .. إن مثل هذه الكتابة عمل فردي ، ولكن من شأنها كذلك أن تزيد نهضتنا سرعة في سبيل تقدمها .

إن نهضتنا تندفع في طريقها إلى الأمام بفضل الازدهار المادي المطرد ، وهذا الازدهار يرفع مستوى مجتمعنا الفكري فيمده إمداداً جديداً لدفع نهضتنا خطوة أخرى إلى الأمام . وكل خطوة في سبيل التقدم تحفز الهمة ، وتتيح للممتازين منا فرصة جديدة للعمل على سرعة التقدم ، وهكذا نجد الظروف السعيدة مهيأة لركبنا الحضاري الذي يحاول أن يلحق بالحضارة العالمية .

محمد مفيد الشوباشي

قارة إطلنطه

محاضرة ألقاها مسيو ألبير بزيا في الليسيه فرانسيه بالقاهرة

ترجمة الأستاذ محمد صادق حسين بك

لنطو الزمن القهقرى حتى نأتى أفلاطون فى مجلسه بمعلبز معبد رشيق أنيق فوقه سماء الإغريق الصافية ، وفى أفقه بحر هوميروس ينبض بمياهه المتكررة ، وألحانه المرددة ...

هذه حلقة من فلاسفة يتباحثون يحيط بهم الشباب من فتية فى جمال أبياد وفتيات فى فتنة قريبه يصلحن كما صلحت تماثيل يستوحى منها النحاتون أروع التماثيل ، حتى إذا دنونا من الحلقة وجدنا سقراط يسائل ، لا بل هو أفلاطون الحكيم يقص ، ومن حوله يستمعون .

يقول إن جده الأعلى لأمه سولون مشرع أثينا العظيم رحل إلى مصر فى طلب العلم ، كما كان يرحل إليها فى طلبه غيره من شباب الإغريق ، وإن أنباء رحلة سولون توارثت فى أهله ، وربما كساها التوارث عيناً من نسج الخيال ، لكنها فى جوهرها حقائق لم يشك فى صدقها من القدماء مؤرخ ولا ناقد .

وها كم بعض ما رواه سولون مما تلقى من العلم عن طائفة الكهنة فى سخا عاصمة مصر السفلى ، قال كاهن قد أدركته السن العالية : ياسولون أنتم معشر الإغريق لا تزالون أبد الدهر أطفالاً ، نعم ياسولون إن الإغريق لن تدركه الشيخوخة ، بل لا يزال عقله شاباً ، إن عقولكم خلو من قديم الآراء التى تحصل من طول التوارث ومن العلم الذى أنضجه طول الزمن ، ذلك أن الناس أدركهم الفناء ولا يزال يدركهم ، تفنيهم النار ويفنيهم الماء لما ينزلان بهم من الفتك المريع ! فقد يحدث تحول فى الأجرام السماوية تكون عاقبته — فى فترات من الزمن جد متباعدة — أن تأتى النار على كل ما على وجه الأرض ، وقد يحدث أن يطغى الماء فلا يبقى على شىء ، ولا ينجو من الفناء إلا ساقة الأنعام ورعاة الشاء فى رؤوس الجبال ، وما دام الماء لا يبقى إلا على الأمى والجاهل فإنكم تبقون صفاراً لما استحوذ عليكم من الجهل بما كان من الأحداث فى قديم الزمان ، ألا ترى ياسولون أنكم معشر الإغريق لم يأتكم من أنباء طغيان الماء على الأرض سوى أنباء طوفان واحد ، على حين أن هذا الطوفان الذى تذكرون قد تقدمته طوافين أخرى كثيرة . اهـ .

فأنتم ترون أن كاهن سخا قد أبان فى حديثه الجيولوجى هذا عما كان فى العالم من سلسلة انقلابات أرضية شهدها الناس وراحوا ضحيتها .

يقول أفلاطون إن جده قد أخذ منه العجب لما سمع ما سمع ! فالتمس من الكاهن أن يزيده علماً ! أما نحن فيتملكنا العجب أكثر مما تملك سولون لهذا البيان فى القرن السادس قبل المسيح الذى يدل على ما كان لدى الكهنة فى مصر القديمة من علم غاية فى الدقة عن تطورات وانقلابات أرضية ، نشأت على آثرها جبال وغاضت قارات ، ومعرفة بتطورات عصور الجليد التى أتت على الأرض[1] ، ولكن لنكن كسولون ولنطلب من كاهن سخا المزيد .

أخذ الكاهن يقص على الإغريقى الشاب أموراً أكد

---

(١) بعد إلقاء هذه المحاضرة وفد على مصر الأستاذ يورى Urey أستاذ الطبيعة الذرية بجامعة شيكاجو ، وهو الحاصل على جائزة نوبل ، وجاء فى حديث له أثر أن مصر نجت من الانقلاب الأرضى الذى نشأت على أثره تلك السلسلة الضخمة من الجبال الممتدة من البرانس إلى هملايا .

أنها ترجع إلى ما قبل تسعة آلاف سنة ، فقال : كان من السهل فى ذلك العهد عبور بحرنا هذا ؛ فقد كان أمام المجاز الذى تسمونه معبرة هيرقلس (بوغاز جبل طارق) جزيرة أوسع رقعة من ليبيا وآسيا جميعاً — وأنبهكم هنا إلى أن آسيا فى حديث الكاهن لا يعنى بها إلا آسيا الصغرى دون سائر القارة الأسيوية — وكان الملاحون فى ذلك الزمان ينتقلون من تلك الجزيرة إلى جزر أخرى وراءها ، ومن هذه يصلون إلى قارة على الشاطئ الآخر لذلك البحر العظيم ؛ هذا وكان فى تلك الجزيرة العظمى ، واسمها جزيرة اطلنطه ، ملوك لهم دولة عريضة الهيبة ، دولة لها سلطان على الجزيرة كلها وعلى كثير غيرها من الجزر وعلى أجزاء من القارة الواقعة وراءها ؛ أما من ناحيتنا هذه فقد كان لها ليبيا إلى مصر وأوربا إلى تيرانى اهـ . أقول وتيرانى هذه هى ذلك الإقليم من إيطاليا الذى ازدهرت فيه مدنية الأترسك وما حوت من غرائب .

وقبل أن أعود إلى الكلام عن الجزيرة العظمى جزيرة اطلنطه وهى موضوع حديثى هذا ، أرى واجباً على أن أقف معكم وقفة نتدبر فيها ما زودنا به كاهن سخا من دقائق جغرافية .

ينبئنا ذلك الشيخ أنه قبل العصر الذى عاش فيه بتسعة آلاف سنة كانت تقوم فيما وراء معبرة هيرقلس من محيط جزيرة ضخمة ، وأنها كانت مقراً لدولة عظيمة ذات حول وطول ؛ وهداه علمه إلى أن وراء هذه الجزيرة جزراً غيرها ، الوصول إليها من أطلنطه سهل ميسور ، ثم وراء هذه بحر عظيم وأرض تحيط به يصفها شيخنا الكاهن بأنها قارة . وعندى أنه لا سبيل إلى وصف أظهر من هذا يتعين به أن تلك الجزر القائمة وراء اطلنطه إنما هى مجموعة من الجزر التى نسميها فى جغرافيتنا الحديثة جزر الأنتيل ، وأن البحر الذى يليها إنما هو خليج المكسيك ، ثم القارة التى تحيط به والمقصود منها ذلك القوس من الأرض الممتد من فلوريدا إلى فنزويلا . غير أن الباحثين فى العصر القديم وفى القرون الوسطى لم يعنوا بخبر الجزيرة العظمى وأغفلوا النظر فيما ورد عن سائر الجزر وعما وراءها من بحر وقارة ؛ على أن هذا الذى ورد عنها يجب فى عصرنا هذا أن يقنع كل باحث منصف بصدق ما قرره أفلاطون . وهنا ألفت نظركم إلى وجوب الرجوع إلى محاورتى أفلاطون تيمية وكريتياس ، وفيهما يصور المدنية الإطلنطية تصوير الشاعر قوى الخيال ، وقد تجدون فى قراءتها متعة دونها ما تستشعرونه من لذة فى أروع الروايات . بعد هذا أنتقل إلى ختام حديث شيخ سخا ، حيث يقول : ولقد كان زمن توالت فيه الهزات الزلزلية وما استتبعت من انقلابات فى الكرة الأرضية ؛ ففى يوم واحد وليلة ليلاء غاصت اطلنطه فى المحيط ومحيت من الوجود .

وجم السامعون لما قصه أفلاطون وصمتوا صمتاً طويلا جعله يقول على لسان سقراط : يجب أن يعد السامعون ما رويت حقائق تاريخية ثابتة لا أساطير مختلقة اهـ .

تلك لمحة من أفلاطون تنم عن حذر لا مندوحة عنه إذا اعتبرنا ما كان من نظرة السادة الأقدمين والسادة المحدثين إلى ما رواه ، فقد جعله قلة من أولئك وكثرة من هؤلاء فى عداد القصص الخرافية .

ولقد كان من العسير فى الماضى القطع بوجود تلك الجزيرة الشاسعة وما فيها من سلطان ضخم ومدنية ذات شأن ؛ ذلك أنه لم يكن دليل يؤيد وجودها إلا فى قاع المحيط الأطلنطى ، فكان لا مفر من الانتظار إلى عصرنا هذا حتى نهتدى إلى الدليل ، وقد هدانا إليه علم الجيولوجيا ، وهو علم بعد حديثاً ! فالواقع أنه ثبت جيولوجيا ثبوتاً قاطعاً أن أوربا كانت تصلها بأمريكا الشمالية فى الطورين الأول والثانى قارة شاسعة ؛ وكذلك كانت إفريقية وأمريكا الجنوبية ؛ فلما كان الطور الثالث وقد شهد ظهور سلسلة جبال الألب انفصلت القارة القديمة عن القارة الجديدة بعد اتصالها وتكون المحيط الأطلنطى .

ربما خيل إلى المتأمل فيما تقدم أنه لا ينحصر ما جاء به أفلاطون عن اطلنطه وما قدره كاهن سخا من تلكم الفترة

الفلية فترة ٩ آلاف من السنين ، وهى فترة لا يؤبه لها ، فإن ظهور المحيط الأطلنطى فى الطور الثالث إنما يوغل بنا فى ماض سحيق يكون التقدير فيه بمئات الآلاف من السنين . فلتحكمْ إذاً معلومات جيولوجية حديثة أثبت أساساً وأوفر من الصحة حظاً .

ذلك أن مد حبال التلغراف عبر المحيط والحاجة إلى إصلاحها غير مرة استلزم سبر غور جزء من الأطلنطى تحده جزر كنارى وأزور والرأس الأخضر — وهو قدر من المحيط عظيم تبلغ مساحته مساحة ليبيا وآسيا مجتمعتين — فتبينت طبيعته ، وظهر أنه منطقة غير منتظمة أخص صفاتها أنها بركانية تكونت فى عصر قريب . والواقع أن تلك النواحى لا تزال ميداناً للنشاط البركانى؛ فكثيراً ما يشاهد الملاحون فيها جزراً تبدو فجأة ثم تختفى فجأة . وفى سنة ١٩٠٩ ثار فى جزيرة تنريف بركان تبد ثورة غاية فى العنف ؛ فالخلاصة أن جزر كنارى وأزور فعلا تشهد بوجود الجزيرة الكبرى اطلنطه ؛ فما تلك الجزر إلا الأجزاء العليا من تلك الجزيرة التى اختفت ، واختفاؤها إنما كان فى عصر أقرب إلينا مما يظن الجيولوجيون الأوائل .

وها كم مستنداً يقرّب عهد الفاجعة التى آلت إلى اختفاء الجزيرة من العصر الذى حدده كاهن سخا فى بيانه ، والندع الكلمة الآن للعالم الجيولوجى تَرميه قال :

فى صيف ١٨٩٨ كانت إحدى السفن تعمل فى مد حبل تلغراف فى المحيط ، واتفق أن انقطع الحبل وأعمل العمال خطاطيفهم لينتشلوه فكان يعلق بها قطع من المواد البركانية كالزجاج . يقول تَرميه : ولم يدرك مغزى هذه الظاهرة من علماء الجيولوجيا إلا فئة قليلة . ثم يقول : لو أن تلك المواد البركانية تجمدت بضغط الماء عليها لتبلورت ، أما وهى كما هى فإن تجمدها يكون بفعل الضغط الجوى ، وإذاً فالأرض التى هى قاع الأطلنطى فى منطقة الأزور تكون قد غطيت بسيل المواد البركانية وهى مكشوفة قبل أن تغور اهـ . ويستخلص تَرميه من هذا أن تلك الأرض قد غارت فى عهد قريب جداً فى عصر من عصور الطور الرابع ، وهو ما يعرف عند الجيولوجيين بالطور الحالى أى الطور الذى عاصره الإنسان .

وهذا سترابون وعلماء الجغرافيا من الأقدمين يشيرون — عند كلامهم عن طريق القصدير والقصدير الذى يفضى إلى الجزر البريطانية — إلى أن الأقاليم التى يخطيها الثانى وبحر الشمال غارت فى عصر شهده الإنسان .

وعلماء الجيولوجيا كانوا يذهبون — وهم موقنون — إلى أن فتحة المانش قد وجدت قبل عصر الجليد ، أى قبل ٣٠٠٠٠٠ سنة . ومع هذا كان من الطرافة المستملحة السخرية من سترابون ومن آراء الأقدمين المتواترة .

منذ ثلاثين سنة تبين أثناء التماس بعض المواد فى قاع البحر أن تلك المنطقة التى نحن بصددها غمرها الماء وانحسر عنها مرات آخرها كان فى العصر البرونزى حوالى سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد ، أى فى زمن شهده الإنسان وفى إبان المدنية الإيجية والمدنية المصرية .

أرجو أن تغفروا لى هذا الاستطراد فقصارى إبداء مقدار ما يجب على العلماء من تبصر وحكمة قبل الإقدام على إنكار ما تواتر عن الأقدمين .

إن ما ألمعنا إليه من أن قدماء المصريين كانوا على علم بما جرى فى الأطلنطى قبل زمنهم بتسعة آلاف سنة يثير مشكلة غامضة من مشاكل التاريخ ، هى : من أين جاءت المدنية المصرية ، ينيرها بنور جديد ، وإن شئت فقل ينصر ما جمعه فى عهد البطالسة الكاهن المصرى مانيتون من معلومات لبث علماء التاريخ المصرى زمناً طويلاً يفندونها احتقاراً لشأنها .

النظرية العلمية التى استقرت قروناً تنحصر فى القول بمجئ كل مدنية من الشرق ؛ وعلى هذا لبث علماء التاريخ المصرى زمناً طويلاً ينكرون أن وادى النيل شهد الإنسان البوليطيق ، أى إنسان عصر الحجر المصقول ، وذهبوا إلى أن قبائل سامية نقلت إلى مصر السفلى مدنية الكلدانيين التى ازدهرت فى وادى دجلة والفرات ؛ وإنما ألمام إلى

الافتراض هذا اضطرارهم إلى التماس تفسير ما ظهر فجأة في مصر من مدنية قاربت الكمال ولم تبق بها حاجة إلى غير الاستمرار ، وذلك فيما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف سنة قبل المسيح .

ولقد أصر العلماء ولا يزالون يصرون على القول بأن مدنية مصر شرقية الأصل ، استهواهم القول القديم بأن الشرق مصدر كل عرفان ، على حين أننا لا نكاد نلمح شبه من الشبه بين المدنيتين فيما أبانت مستنداتهما من عناصرهما .

لكنا أمام أخبار مصر المتواترة وأمام شاهد من تاريخ مانيتون وقد كتبه في عهد البطالسة ولم يصل إلينا منه سوى النزر اليسير ، كالبيان المعروف من أسماء ملوك مصر ، وهو بيان لا تزال المكشوفات الحديثة تزكيه وتؤيد منه دقة كان يرضي العلماء من قبل التشكك فيها . أقول ومانيتون يروى أنه كان في مصر ، من قبل مينا رأس الأسرة التاريخية الأولى ، أسر إلهية من أبناء حوروس هي التي أنشأت في مصر دينها وعلمها وفنها .

وإذا كانت الجيولوجيا قد أمدتنا بما لم نكن نتوقع من تأييد لما رواه أفلاطون ، فإن علوم ما قبل التاريخ وهي علوم حديثة العهد : قد جاءتنا بما يؤيد رواية مانيتون ، فقد أسفرت مباحث ما قبل التاريخ عن وجود آثار القبائل نيوليطيقية من صائدي الحيوان والسمك ، وجدت هذه الآثار على طول وادي النيل في الهضاب المطلة عليه . ثم إن ما وجد في منطقة حلوان من مقابر أقدم من عصر الأسر يدل على قيام مدنية راقية استكملت في عهد الأسر التاريخية الأولى أكثر حظها من الازدهار .

إنما نقرر هنا فن أين جاء أولئك الملوك الإلهيون الذين أمدوا سكان وادي النيل البدائيين بدين أساسه عبادة الشمس وبفني الهندسة والزراعة اللذين أجريا الخصب في الوادي والدلتا حتى جعلا من أرض مصر جنانا نضرة ؟ هنا أيضا نجد الجواب فيما تواتر من الأخبار الدينية . لقد قدم الملوك الإلهيون من الغرب ، ثم إلى الغرب موطن الأجداد ، ثم إلى أمنتي ذلك الغرب الغامض ، كان مصير فرعون بعد أن تحوله الطقوس الجنازية فتجعل منه أوزيرس .

في هذا الغرب كانت أطلنطه ، وليكن لنا على بال أن اختراق تلك القارة الشيدة كان في عصر ما يسيرا خاليا من المصاعب المرهقة ؛ فهذه لم تكتنفه إلا في عهود جد متأخرة ، ذلك أن الصحراء أتى عليها زمن كانت فيه على غير ما نعهده الآن ، كانت تشقها الأنهار وتتخللها البحيرات ، كانت أشبه بأرض معشبة مترامية الأطراف فيها الغابات وعليها تعيش جموع من ذوات الثدي عثر الباحثون عليها متحجرة حول بحيرة قارون .

وفي الصحراء الكبرى آثار تشهد بأن أهل أطلنطه فروا على أثر النكبة التي حلت بجزرتهم واخترقوا أفريقية مشرقين حتى استقروا في وادي النيل ؛ فإذا لم نسلم بصحة هذا الافتراض فإننا نعجز عن تعليل ما في بعض الطوائف الأفريقية كالبهل مثلا من خصائص وما يشاهد في تلك النواحي من آثار حضارة قديمة فيها عناصر الحضارة الفرعونية .

(البحث بقية) محمد صادق صبيح

١ - الحياة كما عرفها طَرَفَة

للأستاذ عز الدين إسماعيل

في الشعر الجاهلي نوع من الأصالة والصدق يجعله حرياً بأن يدرس ويعتز به، شأن كل أدب توفرت له هذه الصفة. والسر في ذلك أن الشعر الجاهلي ولد بكراً في بيئته، أو هو ابن بيئته كما يجري بذلك التعبير. ومن هؤلاء الشعراء ممن مثل تلك البيئة فظهرت سماتها وملامحها مثبتة في صوره وتعبيراته وأفكاره. فضلاً عن أن شعر هذا العصر يدل عليه بوجه عام دلالة تامة، فإن لكل شاعر تقريباً طابعه الخاص المميز له. لامرئ القيس طابعه، ولزهير طابعه، ولطرفة طابعه ... وهكذا كل منهم يصور لنا جانباً من جوانب تلك الحياة النابضة في ذلك العصر الغامض.

ونحن اليوم معنيون بطرفة بن العبد الذي لم تطل به الحياة فلاقى حتفه وهو ابن عشرين. وطرفة مشكوك في ديانته، وقد ضمه مؤلف «شعراء النصرانية» إلى مجموعة شعراء العصر الجاهلي، ولم يبين الأساس الذي اعتمد عليه في ذلك. على أن نظرة متفحصة في ديوان طرفة وملحقاته (راجع الطبعة الأوربية) لتشككنا كثيراً في مسيحية طرفة، إن لم تحملنا على اعتقاد وثنيته. والذي يعنينا من التعرض لهذه المسألة اعتقاد سائد عند بعض الكتاب بأن الحياة العقلية في العصر الجاهلي مدينة للديانة المسيحية والديانة اليهودية. ومهما اختلفنا حول هذا الاعتقاد فالذي يطالعنا في ديوان طرفة من أفكار وعقائد ليس له صلة بمسيحية ولا بيهودية، بل ما يطالعنا أقرب إلى الأفكار الحرة التي يعانيها البعض في تلك الفترة من الحياة، فترة الشباب المبكر الذي عاشه طرفة وعاناه.

هذه الفترة الحرجة في حياة الفرد هي التي وجهت شعر طرفة وأملت عليه أفكاره وعقائده في الحياة والموت والناس ... وقد عبر عن تلك الأفكار في قوة وصدق يشعرنا دائماً بمرارة التجربة أو بمرارة ثمرتها، ولكنها ثمرة ناضجة على كل حال. فإذا كان قد أودى ابن عشرين فقد عاش طرفة هذه العشرين كاملة، أعني أنها كانت مليئة بالتجارب الشعورية التي أثمرت هذه الثمار. وفي هذا سر ما عبر عنه القدامى بأنه كان جريئاً على الشعر! فما أكسبه هذه الجرأة إلا نتيجة لنضج أفكاره وتجاربه، فكان صادق التعبير عن هذه التجارب وعرض تلك الأفكار. وقد ألمع هو إلى هذا الصدق الذي حين قال:

وإن أحسن بيت أنت قائله
بيت يقال إذا أنشدته: صدقا

فإذا قلنا إن لطرفة اتجاهاً خاصاً في الشعر، وطابعاً مميزاً له، وشعوراً صادقاً يؤديه تعبير صادق لم نبعد. وبعد جولة في ديوانه نستطيع أن نضع أيدينا على أفكاره ونجني من ثمار تجاربه. ولكن قبل أن نعرض لذلك نلفت النظر المحيط الذي تدور فيه تلك الأفكار دائماً ولا تخرج عنه أو تخترق حدوده، أو إلى الأرض التي تنبت فيها بذور تلك الأفكار. القلق والتشاؤم: هما الباعثان والموجهان دائماً لأفكاره وخواطره، لا نستطيع أن نضيف إليهما ثالثاً لا يدخل في نطاقهما. هاهو ذا طرفة يقص علينا من تأريق الحياة له ليلة ابتدرته فيها طوارق الهم فتجافى عنه الكرى واستهلت سوابقها. وإنه ليبيت يرعى النجم أسيراً لتلك الأفكار مكبلاً بهذا الهم الذي لم يكن خيال محبوب زار وهناً، أو ذكرى لأيام أنس بربع صار موحشاً بعد إيناس ... ولكنه الدهر العضوض:

أرقت لهم أسهرتني طوارقه
وساعدني دمعي ففاضت سوابقه

وبت أراعي النجم لا أطعم الكرى
كأني أسير طائر القلب خافقه
يعالج أغلال الحديد مكبلا
وقد عُدْنَ بيضاً كالثغام مفارقه
ولم أبك طيفا زار وهنا خياله
ولا غاله خاف الحذر كنت أعاتقه
ولا شاقني ربع خلا من أنيسه
فأضحت به آرامه ونقانقه
ولا خلت أشغالا قبتّ مسهداً
لأن الفتى ما عاش فالله رازقه
ولكن دهراً ضاق بعد اتساعه
وجاءت أمور وسعها مضايقه

وقد تسأل : ما الذي يبيت طرفة هكذا مهموما ؟ والجواب على ذلك أن الشاعر لا يملك من أمره شيئا ، وقلّ أن يستطيع التحكم في خواطره ، خاصة إذا كانت تدور به حول ما يثير ويقلق . وغير الشاعر يستطيع أن يقنع بأقل نصيب من حياته دون أن يشغله هم أو يؤرقه خاطر . يقول طرفة :

ومن هانت الدنيا عليه فإنني
ضمين له أن لا تتمّ خلائقه
ومن كابد الدنيا فقد طال همه
ومن عف واستغنى رأى ما يوافقه
ومن حارب الأيام طاشت سهامه
ومن أمن المكروه فالدهر عائقه

وفي البيت الأخير نحس بالتشاؤم الذي يسيطر على موقف طرفة إزاء الحياة ؛ فهو لا يتوقع مطلقا أن تصيب سهامه ، بل يتوقع لها الطيش ، ولا ينتظر أمانا من المكروه لأن الدهر له بالمرصاد عائق له دون هذا . فهو لا ينتظر تحقيق أمل في الحياة ، بل لا يتوقع حياة هادئة لا يصيبه فيها مكروه .

وهناك تجربة لطرفة مع أهله وعشيرته حرية أن تزيد من همه وتقلق فكره . فهناك ثلاث خصال كان طرفة يراها لازمة لحياة الشاب ولا يعنيه بعدها أن تودي بحياته : شرب الخمر ، وغوث الهتاج ، والتمتع بالنساء :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى
وجدك لم أحفل متى قام عوّدي
فمنهن سبق العاذلات بشربة
كميت متى ما تعلّ بالماء تزبد
وكرّي إذا نادى المضاف محنّباً
كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب
ببهكنة تحت الطراف المعمد

وما زال طرفة يدمن شرب الخمر ، ويبيع كل ما ملكت يده وينفق في لذته إلى أن نبذته العشيرة وأبعدته كالبعير الذليل ، فلم ينكره عندئذ الفقراء ولا الأغنياء . وهل كانت العشيرة تضمن له الخلود إن هو أقلع عن تصرفه ؟ فإن كانوا لا يستطيعون أن يدفعوا عنه المنية فليدعوه لإنفاق ما ملكت يده والتمتع بملذ الحياة ، مبادراً بذلك قبل أن تبادره المنية :

وما زال تشرابي الخمور ولذتي
وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي
إلى أن تحامتني العشيرة كلها
وأفردت إفراد البعير المعبد
رأيت بني غبراء لا ينكرونني
ولا أهل هذاك الطراف الممدد
ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وهكذا نبذ طرفة ليعتنق آراءه وحده ، وليمارس الحياة

كما يراها وحده ، وليتحمل وحده نتيجة كل هذا . ويلومه مالك ابن عمه ، ثم هو يتحاماه ويقنطه من كل خير ؛ وهكذا يمض طرفة ويهجر ويضام دون أن يحدث حدثاً ، ويكاد ابن عمه من تضييقه عليه يحرمه أنفاسه رغم شكره وسؤاله العفو ، وهذا الظلم من ذوى القربى ما أقساه على النفس . إن طرفة لا يستطيع أن يغير وجهة نظره في الحياة حتى يرضى العشيرة . ولظلم ذوى القربى له أهون عليه من أن يغير رأيه . فإن لم يحتملوه فليتركوه لسجيته وإن شطت به الدار :

يلوم وما أدرى عــلام يلومنى
كما لامنى فى الحى قرط بن معبد
فــمالى أرانى وابن عمى مالكاً
متى أدن منه ينأ عنى ويبعد
وأيأسنى من كل خــير طلبــته
كأنا وضعناه إلى رمس مُلْحَد ...
بلا حــدث أحدثتــه وكمحدث
هجائى وقذفى بالشكاة ومطردى
فلو كان مولاى امرأ هو غــيره
لفرج كربى أو لأنظرنى غدى
ولـكن مولاى امرؤ هو خانق
على الشكر والتسآل أو أنا مفتدى
وظلم ذوى القربى أشــد مضاضة
على المــرء من وقع الحسام المهند
فذرنى وخلقى إننى لك شــاكر
ولو حل بيتى نائياً عند ضرغد

هذه هى تجربة طرفة مع أهله ، وهى تجربة مُرة ، شديدة الوقع على النفس . وقد قال لنا طرفة إنه حينا تحامته القبيلة لم يتنكر له الفقراء بنو الغبراء ولا الأثرياء أهل الطراف . ولعله أنس إليهم وراح يجرب صحبتهم ، فيكونون له أهلاً بأهل وخلاناً بخلان . وما أحسبه كان مقبلاً على ذلك بشىء من الرجاء ، بل كان القلق والتشاؤم يكونان السحاب الذى أظله ، والمنظار الأســود إلى الحياة والناس لم يفارق ناظريه . ولذلك لم ينجح فيما أقدم عليه ، بل كان الفشل يترصده هنالك ، ولم يكن لتجربته مع الأصدقاء ثمرة أقل مرارة منها مع عشيرته . كان طرفة يحس بنفسه إحساساً تاماً ، ويحاول أن يرتفع عن الدنايا والصغائر ، ولعله أصاب من ذلك كثيراً ولم يلق كفاءه ، ولقى من أصدقائه مثل الذى ذاق من أهله . وطابع الصدق فى تجربته مع الأصدقاء لا يقل وضوحاً عنه فى تجربته مع أهله ؛ وذلك لأنه يشعرنا بأنه تغلغل فى نفسية صديقه وسبر أغوارها وعرف كوامنها ، ولم يكن تزدهيه منه الابتسامة فوراءها عبوس ، ولا الموافقة لأنها منطوية على مكر ، ولم تخدعه منه المجاملة بالجهر والصدر لا تهدأ له هادئة ... وكل هذه اختبارات نفسية يحس طرفة بنفســه نتائجها فى صديقه . قد يكون أخطأ فى تقديراته ولـكننا لا ننسى هنا أيضاً تشاؤمه :

مضى سلف أهل الحجا منه والتقى
ولا خــير فى دهر تولت غرانقه
فلم يبق إلا شــامت بمصيبــة
وذو حسد ما تستقيم طرائــقه
عــدو صــديق عابس متبسم
يعاملنى بالمكر حــين أوافقــه
يجاملنى جهــراً إذا ما لقيتــه
وفى الصدر ما تهدى هديراً شقاشقه
إذا ما رأى الدنيــا على تهللت
بإقبالهــا يوماً صفت لى خلائقه
وإن آل خطب أو ألمت مخــيلة
أوصــله فيها بدت لى صواعقه
ومن بنايــه علىّ تغيظا
وصــعد أنفاسا كأنى خانقه

ونسأل طرفة : كيف تظهر له نتائج تلك الاختبارات وهى خافية فى النفس ، وكيف يعرفها والطريق إلى ذلك مقفل ؟

فيجب بأن ما يدور في النفس له امتداد بيولوجي يظهر للعين حين يصمت الشخص ، ويعرف باللحظ حين ينطق . وهذا يدل على أن تجربته دائماً مدققة متفحصة :

وعـــين الفتى تبدي بما في ضميره

وتعرفه باللحظ حـــين تناطقه

ولئن كان طرفة قد فشل مع أهله وأحد الفرار منهم ليعيش أفكاره حراً لا تكبله الأوهام فقد فشل في الركون إلى الأصدقاء ، ولم يجد منهم إلا ما يزيد همه ويثير قلقه . والنتيجة الحتمية هو أن يبتعد أيضاً عن هؤلاء الأصدقاء ويرغب عنهم :

سأصرف نفسي عن هوى كل غادر

وأعرض عن أخلاقه وأخارقه

ويقول :

وأما رجـــال نافقوا في إخائهم

ولست إذا أحببت حراً أنافقه

قلوب الذئاب الضاريات قلوبهم

وألسنهم أحلى الذي أنت ذائقه

فلست إليهم ما حييت براغب

ولا خير في حب امرىء لا تطابقه

لا خير في حب امرىء ليس من طبقتك في الفهم وتناول الأمور ، فيكون ذلك مثاراً للخلاف الدائم بينكما ، كما حدث بين طرفة وأهله وبينه وبين أصدقائه . الأصدقاء هينون بدورهم على طرفة حتى ليسيء الظن بتصرفاتهم إساءته الظن بكل شيء . ويكفي سبباً لمفارقته صديقه أن يبذل له من الود أقل من بذله :

إذا المرء لم يبذل من الود مثل ما

بذلت له فاعـــلم بأني مفارقه

وهكذا نرى الدنيا تضيق الخناق على طرفة ، فلا هو سعيد الحال مع أهله ، ولا ناعم البال بصحبة ، بل لقي من أولئك الظلم والاضطهاد والجفاء ، ومن هؤلاء النفاق والرياء ، فساعد ذلك على كثرة شكوكه وقلقه ، ونمى بذور التشاؤم في نفسه . وحين تضيق بالإنسان الدنيا يحط على رأسه عبئاً ثقيل كيمدك في العير ، في طرف منه الحياة بكل ما فيها ، وفي الطرف الآخر الموت وما وراءه ، ولن يستطيع التخفف من عبئه إلا أن يقطع أحد الطرفين فيهوي الثقل المقابل وكأنما قطع الطرفين معاً . ولكن أي الثقلين ترى قد فضل طرفة بعد التفكير أن يبدأ بتره ، وكم تردد بين الحياة والموت ؟

(البحث بقية)　　　　عز الدين اسماعيل

أوهـــــام

املأ الكأس وآرعها ودعني

قد مضى ليـــلي وقلبي ضاع مني

املأ الكأس ففيها ذكرياتي

وبوحي الكأس قد أبدعت فني

أيها الساقي لقـــد ضيعت عمري

بين وهم القلب حبــاً والتمني

أيها الساقي فدعني وخيـــالي

أقبـــل الفجر وليلي راح عني

●●●

إنما أمسي وبوحي ذكريات

وأغاريد بهـــا الكأس تغني

وحيـــاتي كلها وهم خيـــالي

أيها الســـاقي فدعني لا تلمني

املأ الكأس وآرعها أجتني

هل يبل الدهر من وهمي وظني ؟

جفت الكأس ولم أرو غليلي

وانقضى ليلي ولم أسفه حزني

محمد عبد الرازق

مختارات لجـــوته

لم يجد اللازم صعوبة في إقناع والدي بالأمر ، فنحه أبي على سبيل المجاملة مارفض أن يمنحه لأولاده عن التمسك بعقيدة .

وأقمنا المسرح الصغير ودعونا جيراننا لمشاهدة المسرحية .

وبدأت أرقب الدمى وهي تتحرك على خشبة المسرح في عجب ودهشة .. كيف تسنى للمهندس أن يفعل، كل هذا ؟ إنني أعرف تماماً أن هـذه الدمى لا تتكلم وأن هناك من يتكلم بدلاً عنها ، وأعرف تماماً أنها لا تتحرك بنفسها وأن هناك من يحركها من وراء الستار .. ولكن ماعجزت عن فهمه والوصـول إلى حقيقته هو كيف بدت كل هذه الأشياء في هذا الجمال ، وكيف ظهرت لنا الدمى وكأنها تتكلم وتتحرك من تلقاء نفسها .. وسألت نفسي عن مصدر الضوء الذي يغشى المسرح ، وعن مكان المهندس الذي يحرك هذه الأصنام . وتملكتني الحيرة ووددت لو كنت مكان المهندس لأبهر الناس بفني ومكان المتفرجين في نفس الوقت لأنبهر بهذا الفن ، وتمنيت لو كانت لي يد خفية في تقديم المسرحية وأن أتمتع في نفس الوقت بسحر الخدعة ..

وانتهت المسرحية وقام المتفرجون يتحادثون .. أما أنا فتسللت إلى الباب ورافقت المهندس وهو ينظم القطع ويضعها في مكانها ! فأولجت رأسي بين الستار ورأيت الدمى التي كانت تتبارز وتتصارع منذ حين راقدة في هدوء جنباً إلى جنب في أحد الأدراج .. وارتحت لمعرفة الحقيقة وبدأت أفكر .. فإذا بتفكيري يقودني إلى أني رغم اكتشافي لم أفهم شيئاً ، وأن العلاقة بين جزئيات التمثيلية مازالت محجوبة عن إدراكي ! مع أن هذه العلاقة هي أهم ما في الأمر ، وعليها تترتب كل نتيجة ...

•••

وأخيراً جاء المساء الموعود .. وأوقدت الشموع .. وجلس الأطفال والفتيات في أماكنهم منتظرين بدء المسرحية التي مثلتها مع زملائي من الصبيان . وكان الممثلون قد ارتدوا ملابسهم وامتشقوا سيوفهم .. وإذا بهم على حين بغتة يفطنون إلى أنهم لايحفظون أدوارهم وأنهم لايعرفون ماسيقولونه . لقد شغلنا بالمصاعب الوقتية الحالية والتغلب عليها فنسينا ترتيب الأدوار ودراسة مايجب علينا قوله وعمله .. فقد اعتقد كل منا في سذاجة أن باستطاعته بسهولة تمثيل دور البطل حين حلول الساعة ..

•••

إن الأطفال باستطاعتهم في ألعابهم أن يصنعوا كل شيء من أي شيء .. فأية قطعة من أية مادة هي خوذة ، وأية كتلة من الخشب هي سيف ، وأية مجموعة من الخرق هي دمية .. فهم لايدركون مدى قوتهم وحدودها ، ولذلك فبإمكانهم القيام بكل شيء .. وهم يعتقدون إلى ذلك أن الجميع يرون مايرونه هم ويعتقدون معهم أن ماصنعوه إن هو إلا خوذات وسيوف ودمى حقيقية .

•••

قلّما يغيب عن عقولنا فن التعبئة في الحياة حتى إذا ما انتهت المعركة لبينا حاجة .

•••

غاية الحياة هي الحياة نفسها .

•••

مختارات لطـــاغور

- دع الموتى خلود الشهرة ، وللأحياء خلود الحب .
- نحن نحيا في هذا العالم عندما نحب .
- الحياة عبور بحر ، وهناك نلتقي جميعاً في نفس المركب الضيق .
- قدني إلى وسط السكون لأملأ قلبي بالأغاني .
- أتلى ظل على طريق ، لأن لي مصباحاً لم يوقد .
- ماهو لحب الظــلام المتلق الذى شراراته النجــوم ؟.
- الزيف لا يمكن أن يكبر في الحقيقة بأن يكبر بالقوة .
- الليل يرحل نحو النور ، والعمر نحو الموت .
- قد قبّل العالم روحى بآلامــه سائلاً عودتها في أغان .
- الرجل عقبة أمام نفسه .
- الشباب كالحب يلعب على قلوب التلال ويجلب مفاجآت من الجمال .
- من هو أنت لا تراه ، وما تراه ليس إلا خيالك .
- لا أستطيع اختيار الأحسن ، ولكن الأحسن هو الذى يختارني .
- لا تتلق أحواض الأنهار الجافة شكراً على ماضيها .
- العقل حاد ، وليس واسعاً يتعلق عنـد كل نقطة ولا يتحرك .
- تترك الفجوات في الحياة ، وخلالها تأتي موسيقى الموت الحزينة .
- قاسيت ويئست ، وعرفت الموت ، وإني مسرور ... إني من هذا العالم العظيم !!.

ترجمة

رفيق ممدوح الرجب

من أصدق وأعجب الأشياء، أن يصدر الخطأ والصواب من ينبوع واحد .. فلنتعز إلا نقسو على الخطأ ، فهذه القسوة غالباً ما تصيب الصواب .

•••

إذا كان الإنسان يمل كثيراً في أقوال الآخرين حين يرددها ، فما ذلك إلا لأنه لم يفهمها .

•••

لا نحسن الظن بالناس إن أتوا هم إلينا ، بل لابد أن نذهب إليهم كيما نعلم حقيقتهم .

•••

أكبر عزاء للوضاعة والتفاهة أن العبقرى ليس خالداً .

ترجمة

حسين أحمد أمين

التعريف والرياضـــــة

للأستاذ محمود أمين العالم

ما هو التعريف السليم لعملية حسابية بسيطة كعملية ضرب ٢ × ٣ ... مثلاً . أو بتعبير آخر : ما هى الدلالة المنطقية لهذه الإشارة × ؟ قد يقال بأن عملية ضرب ٢ × ٣ إنما هى مضاعفة العدد ٢ بنسبة العدد ٣ . ولكن لو صح هذا القول — مؤقتاً فيما يتعلق بالأعداد الصحيحة فإنه لا يصدق على الكسور لأن $\frac{1}{2} \times \frac{1}{2}$ مثلا يساوى $\frac{1}{4}$. فالمضاعفة إذاً ليست جوهر عملية الضرب الحسابى . هذا إلى أن التعبير « بالمضاعفة » و « بالنسبة إلى » ليس غير وصف خارجى للعملية لا يكشف عن مضمونها الباطنى . وقد يقال كذلك بأن عملية الضرب هى تكرار عدد بالنسبة إلى عدد آخر . والتعريف هنا بين النقص . فهو لا يكشف كذلك عن مضمون عملية الضرب ، بل ويستند إلى عملية حسابية أخرى هى عملية الجمع . فحاصل ضرب عدد فى عدد آخر يساوى كما نعرف تكرار أحد الأعداد — أى جمعه إلى نفسه — بمقدار العدد الآخر . وهكذا نجد أن ذلك القول الثانى إنما يعرف عملية الضرب بالإشارة إلى أن نتيجتها تشابه نتيجة عملية أخرى هى عملية الجمع . فهو لذلك لا يبين عن طبيعة عملية الضرب نفسها ولا يكشف عن طابعها التجريدى الخاص .

ولقد انتهى إلىّ أن ذلك القول الثانى هو ما ارتضته إحدى لجان المجمع اللغوى منذ أيام تعريفاً لعملية الضرب . وذكرنا فى الحقيقة بتعريفات قديمة لحسابى العرب . فلقد عرف بعضهم الضرب بأنه طلب عدد ثالث إذا قسم على أحدهما خرج العدد الآخر . وهو تعريف — كما نرى — يرتكز على عملية القسمة . وهو كذلك يعرف الضرب بنتيجة العملية . ويشبه فى ذلك تعريفاً آخر لعملية الضرب بأنها تحصيل عدد ثالث نسبته إلى أحدهما كنسبة العدد الآخر إلى الواحد . فالعشرون هى مضروب الخمسة فى الأربعة وبالعكس ، ونسبة العشرين إلى الخمسة كنسبة الأربعة إلى الواحد . وكما أن العشرين أربعة أمثال الخمسة فكذلك الأربعة أربعة أمثال الواحد . ويتبين لنا من تلك التعريفات وغيرها أنها — كما قلنا — تعرف الضرب إما بنتيجته أو بمشابهته بعمليات حسابية أخرى كالجمع والقسمة دون أن تمس عملية الضرب نفسها كعملية قائمة بنفسها . وليست هذه النتيجة التى نخلص إليها حكماً بفساد تلك التعريفات ، وإنما بأنها ناقصة لا تستوعب الجوانب المختلفة لعملية الضرب .

والحق أن تعريف عملية الضرب يثير أمامنا مشكلات ثلاثاً . أولاها مشكلة التعريف نفسها وتطبيقها على العمليات الرياضية عامة والحسابية خاصة . فالتعريف عملية منطقية فكيف يجوز لنا أن نطبقها على الرياضة . أما المشكلة الثانية فتتعلق بعناصر عملية الضرب وهى الأعداد . فما معنى العدد وما دلالته .. ولا شك فى أنه لا سبيل إلى معرفة طبيعة عملية الضرب دون أن نعرف حقيقة العدد . أما المشكلة الثالثة فمشكلة عامة تتعلق بعملية التعريف من حيث هى ، لا من حيث تطبيقها على الرياضة . فما معنى أن نعرف الشىء .. وما دلالة هذا التعريف وما قيمته .

أما المشكلة الأولى مشكلة التعريف المنطقى للرياضة ، فليست فى الحقيقة إلا جانباً صغيراً من قصة قديمة هى قصة الازدواج بين المنطق والرياضة ، وهى قصة بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وما حلت السنوات الأولى من القرن العشرين حتى تجمعت حدود وأسس نهائية أمكن أن يقام عليها ما يسمى بالمنطق الرياضى أو المنطق الرمزى . سنكتفى بالإشارة إليه هذه الإشارة العابرة . ولكن يهمنا هنا أن نذكر أن الرياضيين المناطقة أو المناطقة الرمزيين ، قد عالجوا كافة العمليات الرياضية ووضعوا تعريفات لعمليتى الجمع والضرب سنعرض لها . إلا أننا لن نستطيع ذلك قبل مواجهة المشكلة الثانية وهى مشكلة العدد . ذلك لأن تعريفات الجمع والضرب إنما تقوم على فهم منطقى معين للعدد .

والعدد كذلك قصة طريفة للغاية تتوزعها الفلسفة والرياضة وعلم الأساطير . إلا أننا سنقف هنا عند حده المنطقى فحسب . فما هو العدد ... هل هو تكثر يقاس بالوحدة كما يقول أرسطو ، أو هو الكثرة كما يقول بعض مناطقة

العرب ، أو هو ما به يجاب على السؤال كم كما يقول بعض حسابي العرب كذلك ، أو هو ما نحصل عليه بعملية العد" ؟ الحق أن العدد سابق على كل تحديد من تلك التحديدات . فالوحدة والتكثر التي يقول بها أرسطو صفات تعرف بالعدد ولا يعرف العدد بها . وكذلك شأن التعريف بالكمية وبأنه ما به يجاب على السؤال كم . أما فيما يتعلق بعملية العد فهي تستلزم كذلك معرفة سابقة بالعدد ، ثم إنها لا تصلح تحديداً للأعداد اللانهائية التي لا سبيل إلى عدّها .

والحقيقة أننا لم نعرف دلالة العدد معرفة منطقية قبل أواخر القرن التاسع عشر نتيجة لأبحاث فريجه . فالعدد عند فريجه لا ينتسب إلى حال نفسي ذاتي ، كما أنه لا يشير إلى وقائع خارجية ، وإنما هو في منطقة وسطى بين هذين .. تلك هي المنطق . فالعدد حد كلي ، فهو ليس صفة لأشياء واقعية وإنما صفة للحدود الكلية . فهو يشير إلى مجموعة من الأشياء أو ما نسميه بالأصناف ، ولكنه في الوقت نفسه لا يشير إلى صنف معين وإنما إلى كل الأصناف التي تشابه هذا الصنف . العدد إذاً صنف الأصناف . فالعدد خمسة مثلاً صنف لكل الأشياء الخماسية ، والعدد (٢) صنف لكل الزوجيات ، والعدد ٣ صنف لكل الثلاثيات .. وهكذا ، العدد الرياضي على تعبير رسل صنف الأصناف المتشابهة .

وقد يتعرض هذا التحديد المنطقي للعدد لفروع كثيرة نوافق على جانب منها ، ولكن لا سبيل إلى ذكرها هنا ، وإنما نكتفي بالإشارة إلى أنه على هذا الفهم المنطقي للعدد أمكن إقامة تعريفات منطقية لعمليات الجمع والضرب وغيرها من العمليات الحسابية .

ففي حاصل جمع عددين مثل سكاف مثلاً يقال بأن سكاف هو الصنف الذي ينتسب إليه كل فرد من أفراد سكاف ، فهو صنف يشتمل على كل أفراد الأصناف الداخلة فيه . أو بتعبير آخر : حاصل الجمع المنطقي لصنفين هو الصنف الذي يندرج فيه كل منهما كما أنه مندرج في كل صنف يندرجان فيه . أما حاصل ضرب صنفين فهو الصنف المندرج في كل صنف فيهما والذي يندرج فيه كل صنف مندرج في كل منهما ، كما يمكن القول بأن حاصل ضرب صنفين هو أكبر صنف يتضمنهما معا . أما حاصل جمعهما فهو أصغر صنف يتضمنهما معا .

ومن هنا يتبين لنا دون أن ندخل في تفصيلات اصطلاحية أن ما وصل إليه التعريف المنطقي للضرب والجمع

الرياضي لم يتخلص من العيوب التي وجهناها إلى التعريفات السابقة ، فهو أولاً تعريف يتم بأن ينسب العملية إلى مذهب معين في العدد ، فهو إذاً تعريف يرد المعرف إلى مقررات سابقة . هذا إلى أن تلك التعريفات لم توضح طبيعة العملية بقدر ما اقتصرت على وصف نتيجتها وصفا تحليليا . والحق أن القصور راجع إلى عملية التعريف نفسها ، والتعريف المنطقي الرياضي بوجه خاص .

فالتعريف الرياضي لا يرد المعرف إلى عناصر أولية بسيطة بينة بذاتها ، وإنما يكتفي بأن يقيم نسبة بين المعرف وبين مجموعة من الأشياء متفق عليها .. هي ما نسمي باللامعرفات أو الثوابت المنطقية أو المبادئ . فتلك المبادئ حدود يتم التعريف بأن ينسب إليها ما يراد تعريفه ؛ وعلى هذا فالتعريف في الرياضة لا يكشف عن المضمون وإنما يكتفي بتحديد نسبة ثابتة إلى مقررات محدودة .

والتعريف بوجه عام سواء أكان فلسفيا أو لغويا لا يفضل ذلك التعريف المنطقي الرياضي ، فهو عملية مغلقة دائرية لا جدة فيها ولا كشف . وينقلنا هذا إلى المشكلة الثالثة مشكلة قيمة التعريف ودلالته :

الحق أنه لو جاز التعريف في مجال الرياضة والمنطق فإنه لا مبرر له بصفة جدية في غيرها من المجالات العرفانية ؛ فالتعريف في حقيقته علاقة تحليلية بين أسماء لا تتصل اتصالا مباشراً بالتجربة الخارجية ، ولا تشير إلى واقع حقيقي . فهو إن تعلق بكلمة جمد من دلالتها الحية ، وإن تعلق بموقف حد من حركته الوظيفية . هذا إلى أن كل تعريف إنما يستند إلى معرفة سابقة مقررة ، كالتعريف في الرياضة سواء بسواء ؛ ولهذا فهو لا يفضي إلى معرفة جديدة ، بل هو بطبيعته قوالب تجمد فيها الجديد من المعارف ، ولكننا قد نعرف الشيء لا بأن نقيم علاقة تحليلية بين عناصر الشيء المراد تعريفه ، وإنما بأن نضعه في إطاره العام ونقيم الأبعاد التي تربطه بغيره ونتتبع الوظيفة التي يتحرك بها وفيها كجزء في كل وككل في جزء . أما ذلك التعريف التحليلي فقطع واقتطاع ومجانبة للتغير والتداخل والاستمرار التي هي صفات الواقع .

لقد جعل أفلاطون كل محاورة من محاوراته مجالاً لتحديد مشكلة من المشاكل تحديداً يفضي إلى تعريف أخير لها ، وفضيلة أفلاطون الكبرى أنه لم يكن يصل أبداً

(البقية على الصفحة التالية)

التعليم عند الرومان

للأستاذ أمين سلامه

مرّ تاريخ التعليم الروماني بأربع مراحل : المرحلة الأولى ، وقد استمرت حتى عام ٢٥٠ ق . م ، كان التعليم فيها بعيداً كل البعد عن تدخل النفوذ الأجنبي . بيد أنه في المرحلة الثانية التي دامت حتى عام ١٠٠ ق . م ، تأثر بالنفوذ الإغريقي ، وظل كذلك طوال المرحلة الثالثة ، أي من عام ١٠٠ ق . م . حتى عام ١٠٠ ميلادية . أما المرحلة الرابعة فتعرف بمرحلة الاضمحلال ، وجدير بنا أن نعلم أن هذه التواريخ كلها تكاد تكون تقريبية .

وكان التعليم في المرحلة الأولى عملياً يهدف إلى بث روح الخصال الجيدة والأخلاق الفاضلة في نفوس النشء ، وإيقاظ النعرة الوطنية في عقول أبناء الوطن ، وتنشئة الطفل تنشئة صالحة تتيح له القيام بواجبه نحو بيته ووطنه خير قيام ، وقد كان التعليم في ذلك الوقت محافظاً شديد التمسك بعادات السلف وتقاليدهم ، وبتربية الأبناء على نهج تربية آبائهم وأجدادهم فيخرجون صورة طبق الأصل منهم .

وكانت الأم هي المعلم الأول للطفل ، ويقول تاكيتوس إن الأم أفضل من الخادمة في تنشئة ولدها ؛ فما يزيدها فخراً أن تدبر شئون منزلها وتربي أطفالها بنفسها ، غير أنه في بعض الأحايين كان يُعهد أمر الأطفال إلى امرأة عجوز من الأقارب فيتركون في كنفها تنشئهم حسبما تعوّدت ؛ ويحدثنا تاكيتوس كذلك عن هذه الشمطاء ، فيقول : إنها كانت تنظم أوقات فراغهم وتشرف على ألعابهم وترتبها لهم ، ولكنه لا يذكر لنا شيئاً عن هذه الألعاب ، على أنها لا يمكن أن تتعدى الدمى والمراثى وركوب الجياد الخشبية واللعب بعكازة « البهلوان » ، ومختلف ألعاب الكرة ، وإذا ما اشتد ساعد الأطفال جاء دور الآباء في تربية أولادهم فيبدون اهتماماً زائداً بما يقوّى أبدانهم وينشط أجسادهم ويُبعد عنهم الخمول والكسل ، محاولين جهد طاقتهم أن يعودوهم على احترام القوانين والخوف من الآلهة والاعتدال في القول والتصرف في الأمور بحكمة وروية ، والاقتصاد والاعتماد على النفس ، بينما كان الأبناء الكبار يلازمون آباءهم باستمرار ، كي يتعلموا منهم ما يجب عليهم في المستقبل

إلى تعريف أخير حاسم ، وإنما كان يكشف عن الجوانب المتعددة المختلفة المتناقضة للموضوع الواحد ؛ ولهذا بقيت محاوراته حتى اليوم حية خصبة متطورة مع الزمن . أما أرسطو فكان على غير ذلك تماماً ؛ فلقد كان هدفه الأكبر أن يحصل على التعريف الجامع المانع ، أو على حد تعبير فلاسفة العرب (القول الشارح) ، وكتبه تزخر بالتعريفات النهائية الجامعة المانعة ؛ فالتعريف عند أرسطو كان كله السر التي تكشف عن كل دقيق مستغلق . والحق أن نظرة عميقة إلى تعريفاته المتعددة لتكشف لنا أنها لم تكن غير محاولة دائبة لرد كل شيء إلى مسلمات ومقررات أولى وضعها هو منذ البداية ، وأراد أن ينسب كل شيء إليها ؛ ومما يؤسف له أن أرسطو ظل مسيطراً على العقلية الإنسانية عدة قرون حتى تجمدت تلك العقلية وأصبحت المعرفة عندها مجرد تعريفات تصاغ وقوالب تحدد . وإن تاريخ الفكر الحديث — سواء في العلم أو الفلسفة — ليبدأ في الحقيقة عندما أخذ يتحلل من التعريف الأرسطي الجامع المانع ويطل على الحقائق من نوافذ أخرى غير التعاريف .

وما أحرانا دائماً في تعريفنا للأشياء أن لا نقف عند حدود تلك التعريفات المبتسرة والتحديدات المتسرعة والاستخلاصات المتعسفة .. وإنما نحرص دائماً على أن نتتبع تاريخ حياة الشيء المراد تعريفه .. نتتبعها مستنفذ كافة جوانبه دون أن نوصدها في وجه التغير .

فبهذا وحده يمكن أن نجعل من التعريف معرفة ، وليس من المعرفة تعريفاً .

محمود أمين العالم

من مساهمة في خدمة الآلهة ، ويحفظوا عنهم النصائح التي قد يوجهونها إلى عملائهم وزائريهم ، وتقاليد الأسرة وأبطال الوطن القوميين ، كما كانوا يصحبونهم إلى مجلس الشيوخ والولائم . أما الفتيات فكن يتعلمن من أمهاتهن تدبير شئون المنزل والغزل والنسج وخياطة الملابس ، بينما كان يتعلم الصبيان طرق الحرث والبذر والحصد علاوة على مايدربهم عليه آباؤهم من التمرينات الرياضية التي تقوي الجسم ، وتجعله صالحاً للقتال حين يدق ناقوس الحرب ؛ فكانوا يتدربون على العدْو والقفز والمصارعة والملاكمة والسباحة وركوب الخيل واستعمال أدوات القتال .

وكان الصبيان يتعلمون كذلك من الحساب والقراءة والكتابة ما يتيح لهم إدارة شئون البيت وأعمال المصالح الحكومية ، على أن يقوم الوالد ببعض المساعدة في هذا التعليم الثقافي ، ولا ريب أن تعليماً كهذا لم يكن يحتاج لأن تخصص له مدارس بالمعنى المفهوم ، غير أنها وجدت على مر الوقت ، وإن كان عسيراً علينا أن نحدد بالضبط متى حدث هذا .

وقد ازداد النفوذ الإغريقي في روما بسرعة إبان القرن الثالث قبل الميلاد ، وسبب ذلك اتصالها الوثيق بالمستعمرات الإغريقية في إيطاليا ، وتدفق العبيد الإغريق إليها ، هذا فضلاً عما كان لشعاب الرومان أنفسهم إلى بلاد الإغريق من أثر لاتصالهم شخصياً بالحياة الإغريقية والفن والأدب في تلك البلاد .

في الحرب البونية الثانية كان ليفيوس أندرونيكوس يعطي في روما دروساً في الأدب اقتصرت في بادئ الأمر على بعض البيوتات الخاصة ، إلا أنه ما كاد ينصرم عام ١٦٩ ق . م . حتى بدأ كراتيس — الذي حضر من مالّوس — يلقي في روما محاضراته العامة في الأدب ، وأصبحت طريقته مثلاً يحذو حذوه الآخرون ، وقد اقتصر عماد التعليم في ذلك الوقت على تحليل شخصية وقصائد شاعر إغريقي كهوميروس مثلاً ، واستخدموا كذلك ترجمة ليفيوس أندرونيكوس للأوديسة ، وعندما نشأ الأدب اللاتيني بالمعنى الصحيح كان تعليمه يسير على نهج الأدب الإغريقي .

وفي تلك الحقبة افتتحت مدارس البلاغة كانت في أول الأمر إغريقية بحتة تُعلَّم فيها الخطابة العامة ، وقد ظهر أثر هذا التعليم الذي كان مقصوراً على طبقات المواطنين الأشراف في القرن الثاني قبل الميلاد ، وبالرغم من أثر النماذج الإغريقية؛ فإن الرومان لم يوفقوا إلى منهج تربوي يتفق وتباين العقول وتفاوتها .

ففي العصور الأولى كان التعليم البدني في روما لا يرمي إلا إلى إعداد رجال أقوياء صالحين للقتال ، بينما كان في أثينا يهدف إلى سلامة الجسم وقوة البنية وجمالها .

وقد بدأ البنون والبنات يمارسون الرقص والموسيقى اللذين لم يكونا في يوم من الأيام جزءاً أساسياً من منهج التعليم ، بل كانا يعتبران من ضروب التسلية ، حتى إن الشخص الروماني كان يعتبر الرقص — بصفة خاصة — عاراً عظيماً .

وفي القرن الأول قبل الميلاد تساوى التعليم الروماني والتعليم الإغريقي ، كما يظهر جلياً في النحو والبلاغة والهندسة والحساب وعلم الفلك والموسيقى والطب والزراعة .

ولدينا كثير من المصادر عن نظم التعليم في الفترة ما بين عام ١٠٠ ق . م . وعام ١٠٠ بعد الميلاد ، تساعدنا على تصويره في شيء من الكمال . هذا على الأقل فيما يتعلق بأطفال طبقة الأثرياء .

وتحت ضغط النفوذ الإغريقي ، كان يُعهد بتربية الطفل إلى مرضعته الإغريقية ، ثم يرعاه بعد ذلك ، فيما بين السابعة والسادسة عشرة ، عبدٌ يهتم بأموره وينظر في شئونه ويعنى بأخلاقه وسلوكه ، ويلقنه كيف يتكلم الإغريقية . وقد أصبح هذا العبد فيما بعد ضرورة لا يستغنى عنها عندما أنشئت المدارس ورغب الآباء في تعليم أبنائهم فن المحادثة باللغة الإغريقية . إذ كان على العبد أن يلازم الصبي في غدوه إلى المدرسة وينتظر فيها حتى يعود به منها .

وفي بادئ الأمر لم تشيد مبانٍ خاصة للمدارس ، بل كانت الدراسة عبارة عن حجرة في الطابق السفلي يشرف

مدخلها على الطريق ، ثم أصبحت فيما بعد عدة غرف تلقى فيها المحاضرات . وكانت هذه المدارس مؤثثة فى غير ترف ، فإذا كانت المدرسة رحبة واسعة ، قسم التلاميذ إلى فرق وجلسوا على مقاعد من الخشب ، حتى إذا ما أرادوا الكلام وقفوا ، أو الكتابة أسندوا ألواحهم على رُكبهم .

وكانت المصابيح ضرورية ، لأن الدراسة كانت تبدأ كل يوم قبل أن يهتك الفجر ستار الظلام ، فكان يخرج الصبي مع عبده أحياناً قبل صياح الديك والكواكب منثورة على صفحة السماء القاتمة ، فإن كان من الأثرياء تبعه عبدٌ يحمل حقيبته المملوءة بالكتب والألواح . ولا جرم كان يُسمح للصبي أن يشترى وهو فى طريقه إلى المدرسة رغيفاً من الخبز يسد به رمقه ريثما يحين الظهر فيعود إلى بيته ليتناول طعام الغداء ، ثم يقفل راجعاً إلى المدرسة عوداً على بدء . ولا نعرف بالضبط متى كان ينتهى اليوم المدرسى .

وتتميز المدارس الرومانية ، سواء الأولية منها أو الثانوية، بنظامها الصارم . ففى حالة العقاب الخفيف كان يضرب بالعصا ، بينما عند الشدة كان السوط يلهب الظهر العرى .

ولم يكن جميع الأساتذة ميالين إلى معاملة التلاميذ بالشدة والقسوة ، فكان بلوطارخوس وكونتليانوس يريان أن العقاب الجسمانى لا يجدى نفعاً ، فضلاً عن كونه وصمة عار فى جبين المدرس . وجرت العادة أن يدفع للأديب والنحوى وعالم البلاغة راتب شهرى يختلف باختلاف الزمان والمكان ومقدرة المدرس . ويحدثنا هوراتيوس عن تلاميذ بلدته ، فيقول : إن التلميذ كان يدفع لمعلمه ثمانية مليمات فى الشهر . أما فى أيام ديوقليتيان فكان أقصى ما يدفعه التلميذ شهرياً للأديب خمسين ديناراً ، وللنحوى مائتى دينار ، ولمدرس البلاغة مائتين وخمسين . ويستطيع مدرس الأدب أو البلاغة أن يزيد دخله كثيراً حسب مهارته وحصافته . فقد كان النحوى كيونتوس ريميوس بالايمون يربح من مدرسته ١٦٠٠٠٠٠ مليم فى العام . وفى بعض الأحايين كان يتعاقد المدرس مع الوالدين على أن يدفعا له مرتباً خاصاً كل سنة ، وأحياناً كان يترك هذا الأمر لتقديرهما وسخائهما . هذا فضلاً عن الهدايا التى كانت تقدم للمدرس فى مناسبات خاصة كل عام .

ويبدو أن العطلات المدرسية كانت غير قليلة فى ذلك الوقت ، وأن المدارس كانت تغلق أبوابها فى عيدى ميتيرفا وساتورن ، وأيام السوق ، وربما فى أعياد فلورا وفكتوريا وكيريس وأبولى كذلك . كما كانت تمنح الإجازات المفرحة فى مناسبات خاصة كالانتصارات ومباريات السيوف . وكانت أطول العطلات فى أيام الصيف القائظ عندما يهجم الحر بلفحاته فيجعل العمل المدرسى غير مثمر وغير مريح ، وعندما تكون الحاجة ماسة فى القرى إلى أبناء المدارس ليحصدوا الزرع ويقطفوا عناقيد العنب من الكروم . وهناك من يذكر أن العطلات المدرسية كانت تستمر من منتصف شهر يونيه حتى منتصف شهر أكتوبر ، غير أنه لا يوجد ما يثبت صحة هذا القول .

وسواء كان يتعلم البنون مع البنات جنباً إلى جنب ، أو كل منهما على حدة ، فهذه مسألة جديرة بأن نغض الطرف عنها لما يكتنفها من غموض وشك . إذ من يدرى ؟ فربما كانوا فى بعض الأماكن يتلقون العلم جنباً إلى جنب .

وكان للتلميذ أن يذهب إلى المدرسة الأولية متى بلغ السابعة من عمره ، غير أن الطفل ، كما يقول كونتيليانوس ، كان يبدأ تعلم الحروف الهجائية فى منزله قبل هذه السن ، ويقضى الطفل فى هذه المدرسة خمس سنوات يتعلم خلالها القراءة والكتابة والحساب ، كما يتدرب على النطق الصحيح للمقاطع والقراءة السليمة . ويبدأ فى كتابة الحروف الهجائية فى نفس الوقت الذى يبدأ فيه تعلم قراءتها . وأحياناً كان المدرس يمسك يده ليساعده فى كتابتها . ثم يعكف التلميذ بعد ذلك على محاكاة نماذج من الخط عبارة عن مجموعة من الحكم والأقوال المأثورة الجديرة بالحفظ والفهم .

ولم نسمع قط أن التلاميذ كانوا يستعملون المداد فى كتاباتهم إلا فى العصور المتأخرة وحتى ذلك كان نادراً . وكان المدرس يملى كثيراً من الحكم والأمثال المختارة من الأدب الرفيع على شرط أن يحفظها التلميذ عن ظهر قلب . إذ كانت تنمية الذاكرة فى ذلك الحين تلعب دوراً عظيماً فى التعليم

الرومانى . أما الحساب فكان يعلم عقلياً أو بالعدّ على الأصابع أو باستعمال الحصى .

وعندما يبلغ التلميذ الثانية عشرة من عمره ، يذهب إلى النحوى ليعلمه الأدب ويستمر هناك حتى يرتدى « الشملة » ، وكان يبدأ دائماً بدراسة الأدب الإغريقى قبل الأدب اللاتينى ، ويرى كونتليانوس أن هذه خير طريقة . وكانت طرق تعليم الأدبين واحدة ، فيجيدون دراسة الشعر ، غير أن عنايتهم بالنثر يحوطها شىء من الشك ، ولا يعرف ما إذا كانوا يعتنون به عنايتهم بالنظم . وعلى أية حال كان التلاميذ يقرأون النثر ويملى عليهم ويدونونه كمادة إنشائية .

ويحتل هوميروس المكانة الأولى عند الإغريق ، ويليه هسيود ، ثم كتاب الدراما والأغانى . أما الشعراء الرومانيون الذين كانوا يقرأون لهم ، فهم ليفيوس أندرونيكوس ، وأنيوس ، وبلاوتوس ، وتيرنس ، وفرجيل ، وهوراس ولوكان ، وستاتيوس . ويرى كونتليانوس أن أنجع طريقة هى البدء بفرجيل حتى ولو لم يفهمه التلاميذ من أول وهلة ! وكان يحاول النحوى جهد طاقته أن يوقف تلاميذه على كل منظومة ثم دراستها ، فيجعلهم يقرأونها بنطق سليم مع مراعاة الترقيم والتعبير الصحيح . وكان درس النحو يشمل دراسة الأصوات والتغييرات التى طرأت على الكلمات وتصريفها . وكان يقضى النحوى جل وقته فى شرح قصائد الشعراء . وكان يحاضر فى القافية وفى الشعر بصفة عامة ، ومميزات كل شاعر ، وما تحويه المنظومات والقصائد من معلومات تاريخية ، ومن ميثولوجيا وفلسفة وفلك .

وكانت البلاغة ، أو فن الخطابة العامة ، عماد التعليم الرومانى . ولا يبدأ التلميذ دراستها إلا إذا ارتدى الشملة أولاً . وكانوا يعلقون أهمية عظمى على القدرة الخطابية إبان عصر الجمهورية للدفاع فى المحاكم ، والتحدث فى المحافل العامة أو فى مجلس الشيوخ . أما فى عصر الإمبراطورية ، فقد قل الاهتمام بها . ولكن دراسة البلاغة ظلت حتى صارت فيما بعد أكثر تنسيقاً وأعظم تعمقاً .

وفى نهاية عصر الجمهورية اعتاد الشباب الرومانى أن يذهب إلى البلاد الأجنبية لدراسة البلاغة والفلسفة ، ولو أنه كان يستطيع البدء فى دراسة الفلسفة فى روما ، غير أنه لا يتمكن من استيعابها كما يجب إلا إذا ذهب إلى أثينا . ولقد رحل شيشرون وقيصر وأوغسطس وهوراس وأوفيد إلى الخارج طلباً للعلم ، وكانت أثينا كعبة العلوم لمن يرغب فى المزيد منها . كما كانت رودس وميتيلين وإفيسوس وبرجاموس وسميرنا والإسكندرية من البلدان الأجنبية الأخرى التى كان يسعى إليها الشباب الرومانى لارتشاف العلم من منهله العذب .

• • •

وقد ظل التعليم الرومانى مدة ثلاثة قرون بعد عام ١٠٠ ميلادية ، يسير على وتيرة واحدة وعلى نفس الطريقة السابقة ، غير أن ازدياد انهيار الإمبراطورية قد ترك آثاره البغيضة فى التعليم . فكفّ النحوى عن إعداد التلاميذ لمدارس البلاغة كما عانت الأخيرة بعض التغير . فالفرق بين الجمهورية والإمبراطورية قد فَصَلَ البلاغة تماماً عن الحياة الحقة ، فأصبحت ضيقة النطاق مملوءة بالتكلف وبريق الصناعة ، ولا ترتكز فى نفس الوقت على أسس متينة . كما حذفت اللغة الإغريقية التى كانت تعتبر فيما مضى عنصراً هاماً فى منهج التعليم

وبعد القرن الثانى للميلاد ، داوم عدد قليل من التلاميذ على الدراسات العالية ، حتى أصبحت هذه الدراسات قصراً على فئة الأدباء المحترفين .

وقد حدث بعض التغير فى هذه الفترة ، إذا عفا يوليوس قيصر عن جميع مدرسى الفنون الحرة وكان أغلبهم من الإغريق . أما فاسباسيان فكان أول من اهتم بقدر العلم ورفع مستواه ، فجعل لمدرسى البلاغة ، الإغريق والرومان ، مرتباً قدره . . . . . . ع مليم يدفع لهم من الخزانة العامة . ثم طفق الأباطرة بعد ذلك يعطفون على المدرسين ويمنحونهم امتيازات خاصة . فأعفوهم من الضرائب ومن الخدمة العسكرية . ونتيجة لذلك خضع التعليم للإشراف الحكومى . ولم يهتم الأباطرة الأوائل بإدارة المدارس بأنفسهم ، غير أن الأباطرة المتأخرين تدخلوا فى تعيين المدرسين وتقدير أتعابهم . فلما أصبح الأساتذة طبقة ممتازة ، بدأت الحكومة تحدد عددهم .

أمير سلامة

أول ما نعمل في الصباح (*)

ترجمة الأستاذ عبد الباري نعمت

درج الناس على أن يتثاءبوا ويتمطوا عندما يهبون من نومهم في الصباح . وعلى الرغم من أنه عمل عادي ومتكرر ويأتيه الناس جميعاً إلا أن قليلاً منهم من يهتمون بمعرفة سببه وكيفية حدوثه ، والكل مسوقون إليه بحكم العادة .

وإنك لو سألت أحداً عن سر ذلك التثاؤب والتمطي لتلقيت الجواب الآتي :

« إنهما يطردان النوم من الدماغ ، ويؤديان إلى اليقظة ويكسبان المرء نشاطاً يعده لمباشرة ما يؤديه من أعمال » .

تلك حقيقة لا ريب فيها ، إلا أن هذا الرد لا يتضمن التفسير المقنع المنشود ، لذلك سنحاول أن نشاهد بأنفسنا ما يأتيه رجل نائم على وشك الاستيقاظ في الصباح ، وإنك لتستطيع فعل ذلك بملاحظة نفسك إذا شئت التيقن مما يحدث تماماً .

انظر إلى الشخص النائم بعض الوقت بإمعان ولاحظه ما استطعت فإنك ترى عينيه مغمضتين وجفنيه ثابتين لا حراك بهما ، كما أن فمه يكون مطبقاً أيضاً أو مفتوحاً قليلاً ، إنه يتنفس ببطء حتى لتكاد تشك أنه يتنفس ، وإذا دققت في ملاحظة تنفسه وجدت الهواء الذي يدخل إلى جسمه يستغرق من الوقت أطول مما يستغرقه الهواء الخارج منه ، وإذا تيسر لك أن تلاحظ جسمه تحت الغطاء فإنك تراه يكبر عند الشهيق ويصغر عند الزفير ، وإذا استطعت أن تراه نائماً بغير غطاء ، وربما تيسر لك ذلك أثناء الصيف أو في وقت الحر القائظ ، فإنك تشاهد أن الجزء الذي يحوي

المعدة هو الذي يكبر أي يتمدد عند الشهيق ، ويصغر أي ينكمش عند الزفير ، كأنه صنع من مطاط مرن . ولنحاول إجراء تجربة أخرى قبل أن نوقظ هذا الرجل النائم ! إنك عندئذ تستطيع أن تشاهد بنفسك أن النائم لا يستطيع استعمال عينيه مطلقاً فهما مغمضتان ، ولكن هل أذناه مغلقتان كذلك ؟ وهل أنفه مغلق أيضاً ؟ وهل يستطيع السمع وهو نائم كما يستطيعه وهو صاح ؟ وهل يستطيع الشم وهل يحس بالأشياء التي تلامسه ؟.

قليل من يستطيع أن يجيبك عن هذه الأسئلة العديدة ، لأن عدد من حاول رؤية ذلك قليل جداً — فلنجرب إذاً :

هل تنام آذاننا :

أحضر إلى غرفة النائم ساعة لها دقات عالية وقربها من أذن النائم ، إن الرجل إذا كان مستغرقاً في نوم عميق سوف لا يحس بالساعة ولو قربتها من أذنه حتى لامستها ، وسوف لا يزعجه عملك هذا ، فهو فاقد الشعور تماماً ، كما أنك تستطيع أن تحدث صوتاً أو أصواتاً مرتفعة دون أن ينتبه إليها أو يسمعها على شرط أن تكون أصواتاً عادية لأن أذنيه تنامان كما تنام عيناه .

أحضر زجاجة من العطر وضع قليلا منها فوق منديل ، قرب المنديل من أنف النائم ودعه الرائحة إنه لا يحس بشم الرائحة ، ولذلك سوف لا ينتبه أقل تنبه .

إلمس يده لمساً خفيفاً وليكن بحذر ، فإنه سوف لا يحس

(*) فصل بعنوان First Thing in the Morning من كتاب How Our Bodies are Made تأليف R. M. Wilson

بضلك هذه ، ولكن إذا أعترض في الحس فإنه سوف يشعر به ، فتراه يزيح يده جانباً ومع ذلك فإنه لا يستيقظ ، وإذا كنت ممن يغرمون بالمزاح فلك أن تتقدم إلى أكثر من ذلك ، فتستطيع مثلا أن تأتي بريشة من ريش الطير وتحك بها أنفه ، إنك لا تلبث أن تراه يحرك رأسه ويحك أنفه إلا أنه مع ذلك لا يستيقظ ، ولكنك لو كررت هذه العملية فإنه عندئذ يهب من نومه ويصحو .

ما معنى كل ذلك ؟ :

إذا كانت لديك الروح العلمية أي إذا كنت مشغوفاً بمعرفة أسرار الكائنات فإنك لابد سائل نفسك هذه الأسئلة :—

لماذا لا يسمع الناس وهم نيام كما يسمعون وهم في اليقظة ؟

ولماذا لا يستطيعون الشم وهم نيام ويستطيعونه في اليقظة ؟ .

ولماذا يفقدون الشعور وهم نيام ؟ .

لا ريب أنه يهمك أن تعرف الإجابة الصحيحة عن كل ذلك ، ولكن عليك أن تعلم أن هذه المعرفة لا تتيسر حتى اليوم لأمهر الأطباء ، وبرغم ذلك فتوجد بعض الأشياء التي تساعدنا على إدراك بعض المعرفة .

إذا كان لك أخ صغير أو أخت صغيرة لا تزال بالمهد فألق على والدتك هذا السؤال :

— أتسمعين بكاء أخي وأنت نائمة يا أماه ؟

— نعم ، إني أسمعه إذا رفع صوته بالبكاء .

إنها تلقي إليك هذا القول من غير تفكير لأنها ربما ظنت أن من الغباوة منها ألا تسمع صياح طفلها .

ألق عليها بعد ذلك السؤال التالي :

— ولماذا تسمعين صياح أخي الرضيع ؟

إنها عندئذ تتطلع إليك مشدوهة لأنها لا تعرف لماذا وكيف تسمع صياح الطفل ، وربما أجابت بما يلي :

— اعلم يا بني أن الأمهات يستيقظن دائماً عند ما يصيح أطفالهن .

إن صياح الطفل في الحجرة لا يحمل كثيراً من الضوضاء ، وإن هو حملها فإن هذه الضوضاء سوف لا تكون في قوة عاصفة هوجاء ، ومع ذلك فالعاصفة الشديدة الهوجاء ربما لا توقظ والدة الطفل ؟ حقيقة نجد كثيراً من الأمهات يستطعن النوم ملء جفونهن برغم وجود عاصفة ، ولكن إذا صاح أطفالهن لا يلبثن أن ينهضن سراعاً من النوم .

وهاك مثلا آخر عن هذه الحالة الغريبة :—

عند ما يكون كلبك نائماً تشاهد أنه يظل مستغرقاً في نومه مهما حدث حوله من جلبة أو ضوضاء ، ما دام الناس الذين يعرفهم جالسين بالحجرة التي ينام فيها ، ولكنه يصحو عند ما يقبل على هذه الحجرة شخص غريب ، إنه يصحو في التو واللحظة ويأخذ في ملاحظة هذا الغريب ، وهو لا يزال واقفاً بباب الحجرة قبل أن يدخلها .

ليست المسألة إذاً في مبلغ الضوضاء :

ليست المسألة في مبلغ الضوضاء قطعاً ، وما لا أكبر الأثر هو نوعها ، ففي أثناء النوم تكون آذاننا مغلقة عن الأصوات المرتفعة كما تكون عيوننا مغلقة عن الضوء ، ولكن آذاننا تكون مفتحة لنوع معين من الضوضاء الخفيفة ، وإذا استطعنا سماع هذه الأصوات الخفيفة فإننا نصحو في الحال . ألا فاعلم أن هناك سراً مهما في هذه المسألة ، وذلك لصالح سلامتنا وسعادتنا ؟ فالأم إذا لم تستيقظ عند صياح فلذة كبدها عندما يحتاج إليها ويدعوها إليه بصياحه ، ربما كانت سببا في فقد حياة وليدها بوقوعه على الأرض من فراشه أو بإصابته في أية حادثة أخرى ؟ وإذا لم يتنبه الكلب النائم عندما يقتحم الغرباء حجرة أسياده فربما هوجم قبل أن يجد الوقت الكافي للاستعداد للمقاومة والدفاع والإنذار كما في حالة سطو اللصوص مثلا .

والناس الذين يسافرون بطريق البحر إلى مسافات طويلة يهبون من نومهم عندما تتوقف آلات السفينة عن العمل وهم نائمون ؟ وقد أنقذت حياة أنفس كثيرة نتيجة لتوقف آلات السفن الناشيء عن إصابتها بكارثة من الكوارث .

وفي النهاية نستطيع أن نقول إنه ولو أن أعيننا وآذاننا وغيرها من أعضاء الحس عندما تكون نائمة إلا أن أجزاء المخ الموكل إليها أمر المحافظة على سلامتنا وأمننا وسلامة الناس الأعزاء لدينا وأمنهم لا تنام مطلقا ، فهي بمثابة الحراس الأمناء المتيقظين الذين يعطون إشارة الخطر في الوقت المناسب .

عبد الباري نعمت

الهوامل والشوامل

لأبي حيان ومسكويه

نشرة الأستاذين الدكتور أحمد أمين بك ، والسيد أحمد صقر

— ٢ — للأستاذ عبد السلام محمد هارون

١٧ — ٤٤ : ٩ وردت كلمة (الساوئ) مهموزة . والصواب : « المساوى » بالتخفيف . وفي اللسان : « قال : وسألته عن مسائية فقال : هي مقلوبة ، وإنما حدها مساوئة ، فكرهوا الواو مع الهمز لأنهما حرفان مستثقلان ... وقولهم : الخيل على مساويها ، أى إنها وإن كانت بها أوصاب وعيوب فإن كرمها يحملها على الجرى » . وورد نحوه في القاموس . وجاء في المصباح : « والمساءة نقيض المسرة ، وأصلها مسوأة على مفعلة بفتح الميم والعين ، ولهذا ترد الواو في الجمع ، فيقال هي المساوى لكن استعمل الجمع مخففاً . وبدت مساويه ، أى نقائصه ومعايبه » .

١٨ — ١٢٠ : ١٠ — ١٢ (وفي مثل العامة : (فلان مقعد العرس) كناية عن الذى يخل على نفسه . والعبارة تنطق بتحريفها . وفي مثل هذا يجدر بالناشر أن ينبه على ارتيابه في النص وألا يدعه يمر بهذه السهولة . وهذه العبارة تحتاج إلى تحقيق طويل . ولا سيما أن مسكويه أشار إلى أن هذه الكناية بنفسها نطق بها أرسطاليس . فهى كناية مشتركة بين العامة من العرب وبين اليونانيين .

١٩ — ١٣٧ : ٦ — ٨ (إن النفس ترى عند غيبة المرئيات ما تراه من حضورها . وذلك بحصول صورها في الحاس المشترك . وهذه حال يجدها الإنسان من نفسه ضرورة لا يمكنه أن يدفعى عنها) . وهنا تحريف عجيب حقا . ولا يستقيم عند الفهم . وما الذى يجعل مسكويه يتحدى الناس جميعا في هذه المسألة بهذا الأسلوب الثائر فيقول لهم : إنكم لا تستطيعون أن تدفعوني عنها !! . الصواب المتعين إن شاء الله : « وضرورة لا يمكنه أن يستغنى عنها » ، أى إن استحضار صور المرئيات من الأمور الضرورية التى لا يمكن الإنسان أن يستغنى عنها ليتم بها ذكره ، وليتم له تفكيره ، وتصح له أحكامه . وفاقد الذاكرة والتخيل يعد فاقد الحياة .

٢٠ — ١٤٣ : ١٧ — ١٨ (لم صار الحصيف المتمكن واللبيب البرز ، يشاور فيأتى بالفلق والداهية حتى يدع الشعر مشقوقة ، والغيث مرهوقة ، فإذا انفرد بشأنه وانتصر لنفسه وتعصب غاية منافسه عاد كسراب بقيعة لا يحل ولا يمر) فهو يتحدث في شأن الرجل الذى تظهر منه قوة العقل وحصافة الرأى حينا يستشيره غيره فيجد عنده رأيا سديدا عبقريا ، وحكما صالحا ، ولكنه إذا فكر لنفسه أساء الحكم وأفسد التدبير . والمراد أنه في الحالة الأولى يتغلغل إلى بواطن الأمور وأسرارها فينكشف له من خفىء العواقب ومستور النتائج ما يخفى على غيره ، فكأنما هو ينظر بعين الغيب . وهل من الحصافة وعبقرية الرأى أن يشاور الرجل فيخدع مستشيره ويحمله على أن يكره الغيث ويعيبه !! فصواب العبارة « حتى يدع السر مشقوقة ، والغيب مرموقة » كما أن صواب سائر العبارة « وانتصب لنفسه » .

٢١ — ١٦٠ : ٨ — ١١ (وسأضرب لذلك مثلا وهو أن مزاج الإنسان لما كان مقاربا لمزاج الفرس وكان بينهما مناسبة ، حصل بينهما قبول من تلك الجهة ، فإذا تباعد المزاج حتى يكون منه الفار والدود والجعل والذباب نفر منه الإنسان وتكرهه) . وأنا على تمرسى بهذا الحيوان دهراً طويلا ، وطول ما قلبت من أجله الدفاتر والطروس لم أجد من ذكر « الفار » ، فالكلمة محرفة لا ريب يقصد بها ضرب من الحيوان دنىء محقر يناظر الدود والجعل

والشباب وغالها . وهو « النِّبار » : جمع نبر بالكسر . جاء فى اللسان : « والنبر : القُراد ، وقيل النبر بالكسر دويبة شبيهة بالقراد إذا دبّت على البعير تورّم مدبّها . وقيل النبر دويبة أصغر من القراد تلسع فينتبر موضع لسعها ويترم ؛ وقيل هو الحرقوص . والجمع نبار وأنبار » .

٢٢ — ١٧٥ : ٨ (وما الذى يَحْلَى به إذا استقصى وما الذى يتحوّله إذا جنح إلى الهوينى) وجاء فى الحاشية فى تفسير كلمة « يحلى » : (فى اللسان : « وحلى بقلبى وعينى يحلى . وحلى يحلو حلاوة وحلوانا ، إذا أعجبك ، وهو من المقلوب ، والمعنى يحلى بالعين ») . وهذا التفسير لا يستقيم ، فإن المراد ما الذى يظفر به ويفيده ويحصل عليه إذا استقصى ؟ وليس من الحلاوة فى شيء ، وإنما هو من قولهم : « لم يَحْلَ بطائل » . وفى اللسان : « ويقال ما حليت منه حليا ، أى ما أصبت . قال ابن برى : وقولهم لم يَحْلَ بطائل ، أى لم يظفر ولم يستفد كبير فائدة » .

على أن فى العبارة التى نقلها الشارح عن اللسان خطأ فى النقل ، والصواب « وحلا يحلو » .

٢٣ — ١٨٢ : ٥ — ٤ (كما يفعل بالخل إذا ركب مع العسل أو السكر فيسمّى سكنجبيناً) . ولست أدرى أوردت الكلمة على هذه الصورة المخطئة فى الأصل أم هى خطأ مطبعى ، فإنى بحثت فى قائمة الخطأ والصواب — وهى طويلة قد جاوزت الثلاثة — فلم أجد لها ذكراً . ومهما يكن فإن صوابها « سكنجبينا » . وقد أشار الشارح إلى صفحة ١٠٥ من مفاتيح العلوم ، وقد رجعت إلى هذه الصفحة فلم أجد شيئا يتعلق بالكلمة ، وإنما وجدت إشارة يسيرة إليها فى صفحة ١٠٤ .

والسكنجبين معرب من الفارسية ، وأصله فيها (سِكَنْگبين) أو (سِرْكَنْگبين) كما فى المعجم الفارسى الإنجليزى لاستينجاس .

وقد أشار إلى المأخذ الثانى داود فى تذكرة أولى الألباب وإلى الأول أدى شير فى الألفاظ الفارسية المعربة ، والأول مركب من (سِك) و (أنكبين) ، والثانى من (سِرْكا) و (أنكبين) .

و (سِك) و (سِرْكا) معناها الخل ، و (أنكبين) معناه العسل .

ويراد به كل شراب حلو حامض يتخذ دواء للصفراء ، وهو فى لغة الأطباء من الغربيين : (Oxymel) ، وانظر صنعته فى مادة (شراب) من التذكرة ، ومنهاج الدكان ص ٣١ — ٣٢ ، ٣٨ — ٣٩ . وهذا اللفظ لم يذكره صاحب اللسان ، وذكر صاحب القاموس (السكبينج) ، وقال : « دواء معروف » ، وليس هذا بالسكنجبين ، بل هو نبات له صمغ يتداوى به ، ولم يشر إليه الجواليقى ، ولا تكلم فيه صاحب شفاء الغليل . ولكنه ورد استعماله قديماً فى كلام الجاحظ ، انظر الحيوان (٥ : ١٤٦) بتحقيق كاتب المقال .

٢٤ — ١٩٦ : ١٦ (حتى يُصْدِر عن أمره) ، هذا ضبط غريب ، والوجه (يَصْدُر) فإنها من صدر عن الورد وعن الماء ، وعن البلاد . وفى الحديث : « يهلكون مهلكا واحداً ويَصْدُرون مصادر شتى » ، قال صاحب اللسان : « يصدرون بعد الهلكة مصادر متفرقة على قدر أعمالهم ونياتهم ؛ ففريق فى الجنة وفريق فى السعير » ، وأما الإصدار فإنما يستعمل استعمالاً خاصاً فى مجاز قولهم للذى يبتدئ أمراً ثم لا يتمه : فلان يورد ولا يصدر . فإذا أتمه قيل أورد وأصدر ، وقد سبق نظير هذا فى التنبيه رقم ١٣ .

٢٥ — ١٩٨ : ٢٠ (لما يتبع النبوة من التعظيم والتشريف ، ونُجوع الناس لها بالطبع ، والناس أهل بيتها مرتبة الإمامة والتمليك — أمر خارج عن حكم العادة) وعقب عليها الشارح بقوله : (فى اللسان : « والنجعة عند العرب : المذهب فى طلب الكلأ فى موضعه ») .

وإنما يصح هذا التفسير إذا كان النص سليماً ، ولكن النص بعيد عن الصواب ، ويتجه الصواب حينما تتجه بالنقطة العليا من الكلمة إلى جهة اليسار ، وبالنقطة السفلى إلى نحو اليمين لتكون قراءتها « بُخوع » ، والبخوع : الخضوع والطاعة ، وهما المناسبان للتعظيم والتشريف ،

وفى اللسان : « وخنع لى بالطاعة خنوعاً كذلك ، وخنعت له : ذللت وأطعت وأقررت ، وفى حديث عمر رضى الله عنه : فأصبحت يختبق الناس ، ومن لم يكن يخنع لنا بطاعة » .

٣٦ — ٢٢٦ : ٧ (فَقَهَتْ القىء) إنما هى « فَقِهْتُ » بكسر القاف ، كما فى اللسان والقاموس . وأما « فَقَهَهُ » فهو فعل الغلبة ، من قولهم : « فاقهه فى العلم فَفَقَهَه » ، أى باحثه فى العلم فغلبه فيه .

٣٧ — ٢٧٥ : ٣ (أو القبء وتَبْزِه) كذا وردت بسكون الباء ، والصواب « تَبَزِه » بفتحها ، والتبز نظير القبء فى وزنه ومعناه ، وضبط هذه الكلمة يخفى على كثير من الأدباء . وأما التبز بالسكون فهو مصدر تبزه تبزاً كقبأه القيء . وقد تكرر هذا الخطأ فى الكتاب قبل ذلك فى ٢٥٢ : ٢ و ٢٧٣ : ٢١ .

٣٨ — ٢٧٥ : ٩ (قد مرّ فى صور هذه المسائل مستقصى) الصواب « فى صدر » .

٣٩ — ٢٩٠ : ١٣ — ١٤ (كما تفعله الفرس بأول يوم من شهرهم المسمى « هرمز » ، وبآخر يوم المسمى « بانيران ») .

وهرمز اسم لأول يوم من أيام الشهر . وأما « بانيران » بهذا الوضع فليس بصواب ، والصواب « أنيران » ، كما فى مروج الذهب للمسعودى ٢ : ٢٠٣ طبع ١٩٤٨ فى باب (ذكر أيام الفرس) .

وذكره أيضاً استينجاس فى المعجم الفارسى الإنجليزى ص ١١٦ . فليست « بانيران » كلة واحدة ، والوجه أن تكتب (بـ « أنيران ») ، ومما هو جدير بالذكر أن الفرس يجعلون لكل يوم من أيام الشهر الثلاثين اسماً خاصاً ، فهى ثلاثون اسماً ذكرها المسعودى ، وليست سبعة تتكرر فى كل أسبوع كما هو المعهود عند كثير من الأمم .

٣٠ — ٣٠٥ : ٥ — ٦ (إنما يدرك البصر بآلة ذات طبقات ورطوبات وقصبة مجوفة ذائبة من بطن الدماغ) . الصواب « دانية » أى قريبة ، ولا وجه لكلمة « ذائبة »

هنا ، وليس لورودها فى جو آخر فى سطر ١٢ من الصفحة علاقة بهذا الوضع .

٣١ — ٣١٠ : ٥ (وكذا الأمر إذا ورد أخذ بالخِنَّق وسدّ المُكَتَّظم) . وهذا ضبط لم يقل به أحد ، إنما هو « بالمُخَنَّق » . والمخنق بضم الميم وفتح الخاء وتشديد النون المفتوحة : موضع الخناق ، وهو الحبل الذى يخنق به . وفى اللسان : « وموضعه من العنق مخنق بالتشديد ، يقال بلغ منه المخنق ، وأخذت بمخنقه ، أى موضع الخناق » . وأنشد صاحب اللسان لأبى النجم :

● والنفس قد طارت إلى المخنَّق ●

وأنشد الجاحظ فى الحيوان ٣ : ١٣٥ لجابر بن حنى التغلبى :

لعمرك ما عمرُو بن هند وقد دعا
لتخدمَ ليلى أمه بموفق
فقام ابنُ كلثوم إلى السيف مغضباً
فأمسك من ندمانه بالمخنَّق

٣٢ — ٣٣١ : ٢ — ٣ (لأن غرضه كان فى ذلك الأمر نفسُ الحركة والرياضة) الصواب « نفسَ الحركة » .

٣٣ — ٣٥٤ : ٦ (إن منافع الجبال ووضعها على بسيط من الأرض كثيرة جداً) . الصواب « ووضعِها » أى ومنافع وضعها ، أما عطفها على « منافع » فلا يستقيم .

٣٤ — ٣٦١ : ١ — ٢ (وهذه جهات لكل مطلوب فإذا عرفت جهة جُهلت أخرى ، وليس يخلو العلم بأحدها من الأخرى) . الصواب : « بإحداها » ، أى بإحدى الجهات .

٣٥ — ٣٦٣ — ٣٦٤ (فيحصل من القسمة أربعة) ، وهى :

حىٌّ ناطق مائتٌ .
وحىٌّ غير ناطق غير مائتٍ .
وحى ناطق غير مائتٍ .
(وحىٌّ غير ناطق مائتٍ) . الصواب : « مائتٌ » بالرفع .

٣٦ — ٢٦٧ : ٩ (وهيهات . ذلك العلم عميق البحر عالى الفلك) .

وقد أشير فى الحاشية إلى أنها فى الأصل « على الفلك » ولا وجه للعدول عن الأصل ، و « على » هنا ليست حرف جر ، وإنما هى صفة مشبهة على وزن فعيل ، مثل غنىّ وشقىّ ، والعلىّ هو العالى الرفيع ، ومنه مأخذ « علىّ » العلَم المشهور .

٣٧ — ٣٣٩ : ١٧ — ١٨ (ما الفرق بين العرافة والكهانة ، والتنجيم والطرق ، والعيافة والزَّجْر ؟) ، وقد نبه فى الحاشية إلى أن الكلمة فى أصلها « والجزو » .

وتصحيح الجزو بالزجر جيد جداً فى فن التصحيف ، والصواب « والحَزْو » بنزع نقطة الجيم فتصير حاء مهملة ، فهذا هو التصحيح المتعين ، وفى اللسان : « أبو زيد : حزَوْنا الطير نحزُوها حَزْواً : زجرناها زجراً » .

٣٨ — ٣٤٢ : ٣ (لأن هذه الأشياء الأربعة) هى فى الأصل : « الأربعة الأشياء » ، ولا وجه للعدول عن الأصل مادام مستقيماً صالحاً .

هذه بعض تحقيقات وتصحيحات واستدراكات لقراءة هذا النص النادر الممتع ، الذى يهنأ الناشران الكريمان عظيم التهنئة بما أحسنا تقديمه إلى الأدباء .

ولست أدع القلم قبل أن أحيِّد كما أشاد الأدباء جميعاً بهذه الروح الرياضية العلمية التى دعا إليها أستاذنا الجليل الدكتور أحمد أمين بك ، الذى لبيت دعوته فى إعجاب لأنقد كتابه فى المجلة التى يشرف على تحريرها ، كما آنوه بتركه لى الحرية كاملة أن أكتب ما أشاء ، فى حدود هذه الروح الرياضية العلمية التى يجب أن تسود منذ اليوم نقادنا المعاصرين

فلم يعُد النقد الأدبى كما كان بالأمس تجريحاً وتشهيراً بالنقود ، بل آن أن نصطنع الجد فيما يمسُّ أقدار الأدباء وكراماتهم العلمية ، فإن العثار أمر يعرض للأدباء جميعاً ، لا يرتاب فى ذلك إلا معتز ، أو ذاهب العقل ، أو متهافت النفس . وأمر النقد لا يعدو أن يكون معاونة ومجادلة فى الرأى ، أو مشاركة فى التهدّى إلى الصواب . والنقد أيما خادم للعلم ، وليس ضرباً هيناً من فنون الهجاء ، وإنما هو فن رفيع يتأتى إليه الأديب فى خلق سمح ، وخطاب كريم .

عبد السلام محمد هارون

جامعة إبراهيم باشا الكبير

كلية طب العباسية

إعلان

تعلن كلية طب العباسية عن وجود وظيفة معيد كل الوقت خالية بقسم الكيمياء الحيوية فى الدرجة السادسة ، ويشترط فى المتقدم أن يكون حاصلاً على بكالوريوس الطب والجراحة من إحدى الكليات المصرية ، وحاصلاً على درجة جيد على الأقل ، على أن يمنح المتقدم أول مربوط الدرجة السادسة وبدل تفرغ قدره عشرة جنيهات شهرياً فوق الماهية نظير عدم مزاولته المهنة خارج الوظيفة على أية صورة كانت .

وعلى المرشح للوظيفة أن يقدم تعهداً كتابياً بعدم التقدم لأى دبلوم أو ماجستير أو دكتوراه إكلينيكية لمدة ثلاث سنوات على الأقل .

وتقدم الطلبات باسم حضرة صاحب العزة عميد كلية طب العباسية فى بحر أسبوعين من تاريخ النشر . والموظفون يقدمون طلباتهم عن طريق المصالح التابعين لها .

٨٣٦٩

الراقصان

عن جي دي موباسان

ترجمة الأستاذ أحمد بدران

قال جون بريدل وهو عزب قديم قضى حياته كلها لا يحفل بشيء: «إن أعظم المآسي لا تحزنني إلا قليلا! لقد شهدت الحرب من كثب، وطالما مشيت على جثث الموتى دون رحمة. فإن أعمال الطبيعة الوحشية القاسية التي تجعلنا نصرخ صرخات الفزع لا تهز أفئدتنا ولا ترسل الرعدة في أجسامنا كتلك المناظر الصغيرة العابرة التي تمتلئ بها الحياة. ولا شك أن أقصى الحزن هو ذلك الذي تحسه الأم لفقد طفلها وتحسه الابن لفقد أمه. فهو حزن شديد طاغ يحز في النفس ويترك فيها جراحا، بيد أن الإنسان يبرأ من مثل هذه المصائب كما يندمل الجرح الكبير النازف، لكن هناك حادثات صغيرة تثير فينا سيلا من الأفكار الحزينة وتفتح أمامنا باب العذاب النفسي، عذاب شديد بقدر ما هو غامض، عميق وإن كان خافيا، وشعور بالأسى وإحساس بالقلق يلازمنا طويلا. وهناك حادثة من ذلك النوع، قديمة ولكنها تلازمني كأنها حدثت بالأمس. إنني الآن في الخمسين من عمري. وقد كنت أيامها صغيرا وكنت كثير التأمل للطبيعة. حزينا قليلا وحالما قليلا وتملأني فلسفة الحزن، فلم أكن أحفل بالمقاهي الصاخبة ولا بالأصدقاء المرحين ولا بالفتيات الطائشات.

كنت أستيقظ مبكرا فأقوم بجولة حوالي الثامنة صباحا في منتزه اللكسمبورج وحدي. وربما لا تعرف ذلك المتنزه، كان جميلا كالبسمة على الشفاه، وكانت الماشي المستقيمة المنتظمة تمتد بين صفين من الأشجار الناشئة تشذبها بعناية مقصات الحدائق الكبيرة، أو بين أحواض الزهر الجميلة، وكانت النحل تتخذ لها ركنا بأكمله في هذا الحقل البديع، وتسكن في بيوت من القش تستقر بعناية على ألواح الخشب.

وكان هناك ركن لا تصل إليه إلا من فتحة في السياج، فكنت أذهب إليه كل صباح وأجلس على مقعد أقرأ، وأحيانا أدع كتابي يقع على ركبتي بينما أسبح في الأحلام وأستمع إلى صوت باريس يأتيني من بعيد، وأشعر بالاطمئنان التام إذ تحوطني تلك الصفوف من الأشجار العتيقة، ولكني أدركت بعد حين أنني لست الوحيد الذي يؤم المكان، فقد كنت أصادف من وقت لآخر وجها لوجه رجلا كبير السن يلبس حذاء ذا أزرار ذهبية وسروالا له ذيل، وحلة بلون الدخان وضع شريطا بدل رباطة العنق وقبعة قد بليت حافتها. وكان نحيفا، نحيفا جدا، وعصبيا، فهو تارة يبتسم وتارة يعبس، وكانت عيناه الضيقتان تلمعان على الدوام وهما دائما التحرك، وكان يحمل دائما عصا فخمة ذات مقبض من الذهب ولا بد أنها هدية، هدية ثمينة ...

ولقد أدهشني أمر هذا الرجل الطيب في أول الأمر، ولكني أحسست بعد ذلك عنية لا حد لها وأنا أرقبه من وراء سياج من الخضرة وأتتبعه من بعد وأنا أقف وراء أكمة كيلا يراني. حدث ذات يوم وكان يظن نفسه وحيدا أن بدأ يقوم ببعض الحركات، قفزات صغيرة ثم انحناء، ثم قوس رجليه المتراخيتين ثم استدار بمهارة كأنما يرتكز على محور وهو يثني ويتأرجح بطريقة تبعث على السخرية، وهو يبتسم كأنه أمام جمهور يشاهده ويرمي بتحيات رقيقة إلى الهواء.. لقد كان يرقص.. !

وظللت دهشاً ذاهلاً أسائل نفسي: هل هذا الرجل مجنون؟ ولكنه وقف فجأة وتقدم كما يفعل الممثلون على خشبة المسرح وانحنى ثم خطا بضع خطوات إلى الخلف وهو يبتسم

ابتسامة الشك المؤلم وبلق قبلات بيديه المرتعشتين إلى الصفين من الأشجار الجميلة .. وبعد ذلك استأنف سيره في جد ... !

ومنذ ذلك اليوم ظللت أتبعه وهو يعيد هذه الحركات جيئاً كل صباح ، وتملكتني رغبة قاهرة في أن أتحدث إليه ، فتشجعت وانحنيت ثم قلت له .. إنه ليوم جميل .. هذا اليوم يا سيدي .

فانحنى .. وقال : أجل ياسيدي .. إنه يذكرني بجو الأزمان الخوالي ..

وما انقضى أسبوع حتى كنا صديقين وعرفت قصته ، لقد كان الراقص الأول في الأوبرا منذ أيام لويس الخامس عشر . وعصاه الجميلة منحة من الكونت دي كلرمونت . وكان إذا تحدث عن الرقص لم يفرغ حديثه أو تنضب جعبته . وكان قد وثق بي حين قال : لقد تزوجت لا كاسترس ياسيدي وسأقدمها إليك لو أردت ، ولكنها لا تأتي هنا مبكرة كما أفعل . إن هذه الحديقة كما ترى متعتنا وحياتنا ، فهي كل ما بقي لنا من الأيام الماضية ، وإنه ليخيل إلينا أننا ما كنا نستطيع العيش لو لم تبق لنا ، إنها قديمة ولكنها ممتازة ، أليس كذلك ؟ هنا أستطيع أن أستنشق نفس الهواء الذي استنشقته أيام شبابي ، وأنا أحضر مع زوجتي كل يوم في الأصيل ، ولكني أحضر ثانية في الصباح وحدي لأني أستيقظ مبكراً ..

وفي الأصيل عدت إلى اللوكسمبورج ، ولمحت صديقي يمنح ذراعه في احتفال كبير لسيدة عجوز ترتدي السواد قدمها إلي . وكانت هي لا كاسترس الراقصة العظيمة التي أحبها الملوك والأمراء وكل من عاش في ذلك الزمن الجميل الذي كان معطراً بشذى الحب .

وجلسنا على مقعد وكنا في شهر مايو ورائحة الأزهار تعبق الجو والشمس تنتشر كبقع كبيرة من بين أغصان الأشجار ، وكانت الحديقة خالية وصوت العربات يصلنا من بعيد ... وقلت للراقص القديم .. هل تستطيع أن تشرح لي كيف كان رقص المينوت ؟ ..

فأجاب على الفور .. « المينوت » ياسيدي .. هي ملكة الرقصات ورقصة الملكات . هل تفهم ؟ أما وقد انقضى زمن الملوك فلم يعد هناك اليوم مينوت !

« ثم بدأ يثني على هذه الرقصة ويشرحها في مباهاة شرحاً لم أفهم منه شيئاً ، وأردت أن [illegible] إلى الخطوات ، والحركات والسكنات ، فاضطرب و[illegible] بأنه قد فقد قوته ، ولكنه ظل جاداً في عصبيته وهو يلتفت إلى العجوز التي ظلت طوال الحديث صامتة في جد :

— أليس : هل ؟ .. أقول هل تكرمين بأن تري هذا السيد كيف كان المينوت حقيقة ؟ ..

فأدارت عينيها الهادئتين في كل ناحية ثم قامت دون أن تنبس بكلمة ووقفت أمامه . ثم شاهدت شيئاً لا يمكن أن يُنسى ... !

لقد بدآ يتحركان إلى الأمام وإلى الخلف في خفة الطفل ويتقابلان وينحنيان ويقفزان كدميتين صنعهما صانع ماهر منذ زمن بعيد تتحركان حركة ميكانيكية ، ولكنها فسدت قليلاً على مر الأيام ...

كنت أشاهدهما وقد استولى علي حزن عميق ، كأني أرى مشهداً فكاهياً مؤثراً ، ولم أدر أهي الرغبة في الضحك تتملكني أم الرغبة في البكاء . ولما انتهيا من الرقص وقفا بضع ثوان أحدهما [illegible] الآخر وهما ينشجان في حنان ثم تعانقا في هدوء ...

وغادرت [illegible]اريس بعدها بثلاثة أيام إلى الريف ، فلم أرهما بعد ذلك . فلما عدت بعد سنتين كانت حديقة اللكسمبورج قد أتلفت . ترى ماذا فعل الزوجان الهرمان بعد أن فقدا الحديقة العزيزة التي تذكرهما بالأيام السالفة ، بتعرجاتها والماشي التي تظللها الأشجار ..؟ هل ماتا ؟ أم هل هما يضطربان في الشوارع الحديثة كأنهما منفيان لا أمل لهما في العودة إلى الوطن ؟ أم تراهما يرقصان في مكان ما ، يرقصان رقصة المينوت بين أشجار السرو إلى جانب المقابر في ضوء القمر .. ؟ إن الذكرى تضنيني .. وتلازمني كأنها جرح يأبى أن يندمل . لم ؟ لست أدري .. وربما تجد هذا الأمر غريباً .. أليس كذلك ؟

أحمد عبدالله

الثقافة

العدد ٦٤٨	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون	الثمن ٢٠ مليماً
٢٨ من مايو ١٩٥١	تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	

من هنا ومن هناك

للأستاذ محمد عبد الحليم محمود

قصص الطوفان :

بحث كثير من العلماء عن آثار عهد الطوفان وهل كان هناك طوفان حقيقة ، وماذا كانت أسبابه الجغرافية ونتائجه المادية ... ولكن كل تلك البحوث على وجه العموم لم تؤد إلى نتيجة يوثق بها ؛ لأنها لا تعتمد إلا على الحدس والتخمين وعلى مجموعة تافهة لا يعتد بها من الحقائق والآثار . وهذا ما بينه الأستاذ « فرانسوا برج » في مستهل محاضرته بدار « الأمبتيه فرانسيز » عن قصة الطوفان .

وليس المهم عنده الدلالة الجغرافية لحديث الطوفان ، بل المعنى الرمزي والعلة النفسية له .

وهو قبل أن يستخلص هذا المعنى ويعرض لهذه العلة ، قد ألقى على السامعين أمثلة طريفة من قصص الطوفان عند مختلف الشعوب والأجناس . فبعض الباحثين قد سجلوا ما يزيد على ٤٠٠ أسطورة تتعلق بالطوفان في جميع أنحاء العالم .

فهناك أسطورة تقول بأن هذه الأرض كانت قديماً غشاء كبيراً من الجلد ملقى على الماء ، ثم تقطع هذا الغشاء فانبجست منه المياه وغمرته إلى حين .

وفي أسطورة أخرى نجد ضفدعة هائلة قد ابتلعت سائر مياه العالم في يوم من أيام الحر اللافح وظلت تختزنها في بطنها إلى أن ضحكت ذات مرة فلم تستطع حبس المياه في جوفها فأغرقت الأرض .

وعند بعض شعوب المحيط الهندي ، نسمع أن البشر في قديم الزمن أغضبوا إلههم ؛ فأراد أن ينتقم منهم فأغرقهم ، ثم رجع فندم على فعلته فأنقذهم ؛ ولكنهم لم يرتدوا عن غيهم ، بل دبروا مؤامرة لقتل هذا الإله الطيب . بيد أن الإله كان لهم بالمرصاد ، فعاقبهم ثانية وهددهم إن عادوا إلى الشر أن يعيد الطوفان على الأرض . ويقول المحاضر إن هذه الأسطورة هي المثل الوحيد من بين أساطير الإنسانية الذي نجد فيه البشر يتحدون الإله ويعملون على التخلص منه.

كذلك نجد في جزر المحيط الهندي أسطورة تقول : إن قوماً عثروا على ثعبان كبير فقطعوه أجزاء صغيرة ووضعوها على النار ؛ فتصاعدت منها أبخرة كثيفة كانت سحابة نزل منه الماء الذي أغرق الأرض .

وفي أمريكا الجنوبية عثر الباحثون على أسطورة مؤداها أن الطوفان عم الأرض ، ولم ينج منه إلا رجل واحد . وأراد هذا الرجل أن تكون له ذرية ، فاقتطع من جسمه عضواً وزرعه في الأرض ، فكانت منه امرأة فتزوجها وأنجب منها ...

أما في مصر فإننا نجد أسطورة لا ككل الأساطير ، لأنها لا تذكر فيها الماء ، وإن كانت تتحدث عن هلاك البشرية ثم نجاتها ؛ فقد غضب الإله رع على الإنسان ، لأنه تطاول على مقامه ؛ فبعث إليه بالإلاهة هاتور التي جعلت تأكل أبناء البشر حتى أتت على أغلبهم ، ثم أراد رع إنقاذ البقية الباقية من رعيته ، فأعطى الإلاهة القاسية خمراً أسكرتها فتلاهت عن أكل بني الإنسان ، وتزوجها رع وصعد معها إلى السماء على ظهر البقرة المقدسة .

وهذه الأساطير على وجه العموم يعوزها المنطق السليم ، ولكنها تعبر في وضوح عن نفسية الإنسان الذي يشعر في أعماقه بأنه مذنب يحق عليه العقاب .

وبأنه شرير يجب أن يطهر روحه من أدران الرذيلة ؛ ووظيفة ماء الطوفان المعنوية هي هذا التطهير وهذه التصفية للنفس البشرية .

أما الغاية الرمزية لقصة الطوفان ، فهي التعبير عن فكرة الحياة ، ثم الفناء ، ثم البعث ، تلك الفكرة التي تشغل بال الإنسان في كل زمان ومكان .

وينتهي المحاضر إلى أن هذه الأساطير إجمالاً تبين

(البقية على صفحة ٣١)

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتيــاز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العــدد ٦٤٨ | الاثنين ٢٢ من شعبان سنة ١٣٧٠ — ٢٨ من مايو سنة ١٩٥١ | السنة الثالثة عشرة

الذكرى الألفية لابن سينا

الأستاذ كامل السوافيري

أقامت الجمعيــة المصرية لتاريخ العلوم احتفالاً فى دار الجمعية الجغرافية الملكية مساء الخميس ٣ مايو بمناسبة مرور ألف عام على مولد الرئيس ابن سينا ، افتتحه الأستاذ مصطفى نظيف بكلمة أسدى فيها شكره للحاضرين الذين لبوا دعوة الجمعية ، وأبدى أسفه لتخلف معالى وزير المعارف بسبب مرضه ، وحرمان الحاضرين من سماع كلمته التى كان مقرراً أن تكون أولى الكلمات فى برنامج الاحتفال ، وتمنى له عاجل الشفاء ، ثم نوه بمكانة ابن سينا فى الطب والفلسفة ، وأعلن أن الجمعية تلقت كلمتين من خطيبين لم يحضرا ، الأولى كلمة الدموزيل داالفرى الأمينة المساعدة للمخطوطات بالمكتبة الأهلية بباريس ، ويلقيها الأستاذ عبد الحميد أحمد ، والثانية كلمة ساطع الحصرى بك ، ويلقيها الأستاذ محمد أحمد بنونه بك .

ثم وقف الأستاذ عبد الحميد أحمد وألقى كلمة الدموزيل عن أثر ابن سينا فى النهضة الطبية بأوربا ، وقد تناولت فيها الآثار الطبية لابن سينا وخصوصاً رسالة النفس التى دفعت الغربيين لدراسة علم النفس ، ثم تحدثت عن مدى استفادة الأوربيين من مؤلفات ابن سينا منذ القرن الثانى عشر حتى الثامن عشر حيث طبعت مخطوطاته ، وقرر كثير من كتبه فى جامعات إيطاليا وفرنسا وإنجلترا ، وختمت كلمتها بإزجاء تحيتها للمحتفلين بابن سينا فى القاهرة .

ثم وقف الدكتور محمد كامل حسين بك فتحدث عن كتاب القانون لابن سينا ، وتناول العلاقة بين الفلسفة والطب ، وتساءل عما إذا كان ابن سينا يعتبر فيلسوفاً أم طبيباً أم يجمع بين الطب والفلسفة ، ثم عرض لعلاقة الفلسفة بالعلم ، وأبان أن هــذه العلاقة موضحة فى كتاب القانون ، واستشهد بفقرات منه ، ثم قال : لا يرى ابن سينا أن للطبيب حقاً فى أن يتدخل فى عمل الفيلسوف ، ولذلك لا أثر لطب ابن سينا فى فلسفته ، بل هناك أثر لفلسفته فى طبه . وبعد أن أفاض فى هــذه الناحية ختم كلمته بقوله إن مزاجه أقرب للناحية الفلسفية من الطبية .

وتلاه الأستاذ أمين مرسى قنديل بك فتحدث عن مؤلفات ابن سينا مبينا أن إنتاجه كان خصبا ومتنوعاً ، فهو عالم وطبيب ورياضى وفيلسوف وشاعر وموسوعى فى تأليفه وذو عقل جبار ، وقد صيغت كتبه فى أسلوب قوى على الرغم من صعوبة الموضوعات التى عالجها وتعقدها .

واستطرد إلى مؤلفاته فذكر أنها لو جمعت لكونت وحدها مكتبة عظيمة ، إذ تبلغ كتبه ورسائله ٢٧٠ كتاباً ورسالة ، مقسمة إلى أقسام من الفلسفة والطبيعة والأدب ، وقد تناولها أنصاره وخصومه بالشرح والتعليق فانتشرت فى البلاد الغربية ، ولذا لا توجد مكتبة فى العالم الغربى ليس بها كتب لابن سينا ، ومع أن الغرب يومئذ كان يغط فى الجهالة لم يلبث بعد أن تفتحت عيناه على نور العلم أن عرف

لابن سينا منزلته حيث أقبل الغربيون على كتبه يترجمونها وتأثرت بها الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى أعظم التأثر .

ولم يكتب ابن سينا كتبه في بلد واحد بل في جهات متعددة ؛ فقد كتب بعضها في بخارى ثم انتقل إلى طوس فجرجان تبعاً لظروف حياته ، والشفاء أعظم كتبه الفلسفية ، وهو موسوعة تشمل المنطق والطبيعة والرياضيات ، وهو مقسم إلى جمل وفنون ومقالات وفصول ، ومخطوطات هذا الكتاب شتى مبعثرة في العالم الشرقي والغربي ، وقد ترجم إلى العبرية والسريانية . وتلاه الأستاذ مصطفى نظيف ، فتحدث عن النحو الحسي في مبحث المرئية عند ابن سينا ، وأوضح كيفية إدراك العقل للتصورات والتصديقات الأولية مبيناً رأى ابن سينا في الإدراك نقلاً عن كتابي الشفاء والإشارات ، قائلاً : إن الإدراك عنده فعل يقع ، يُعرّف ولا يُعَرّف ، وإدراك الشيء أخذ صورته بنحو ولا بد فيه من مدرِك ومدرَك ، وفسر التصورات والتصديقات بأربعة أنواع : إدراك الحس وإدراك الخيال وإدراك الوهم ، ويتضمن إدراك النسب الزمانية والمكانية والمعانى الجزئية ، وإدراك الكليات ، ويدرك العقل هذه الأنواع بترتيبها حيث يبدأ بالأول وينتهى بالرابع ، وقد أفاض المتحدث في توضيح ذلك إفاضة طويلة .

وأعقبه الدكتور ابراهيم مدكور بك ، فتحدث عن ابن سينا والكيمياء ، واستعرض تاريخ العلوم عند العرب ، واختلاط العلم بالفلسفة في العصور الوسطى مبيناً أنه منذ مقدمة ابن خلدون لم يكتب في العربية شيء يعتد به في العلوم الطبيعية ، ولا شك أنه قامت في العالم الإسلامي دراسات علمية متنوعة في الطب والكيمياء ، وتاريخها متمم لتاريخ الثقافة الإسلامية ، ولكن هذه الدراسات ظلت في أودية الإهمال ولم تجد من ينقب عنها وينشر روائعها . وقد أخذ العرب العلوم الكيميائية عن اليونان بالترجمة ، ولكنهم لم يقفوا عندها .

وانتقل الدكتور إلى الحديث عن الكيمياء في عهد ابن سينا ، والنظريات التي كانت سائدة يومئذ عن المعادن ، والتي لم يأخذها ابن سينا قضايا مسلمة إذ لم يقم دليل على صدقها ، وأوضح أنه كان ينكر السحر والطلاسم ، ويرفض التنجيم ، ولا يرى سبيلاً للكشف والتنبؤ بالغيب إلا الوحي والإلهام ، وهي ظاهرة نفسية تفسر تفسيراً علمياً سيكولوجياً ، وقد وضع ابن سينا كتاباً في الكيمياء أهداه إلى أبي الحسن السهلي ، ولا يزال مخطوطاً ، ولا سبيل لأن نقول كلمة في العلوم الطبيعية إلا إذا نشرت على حقيقتها .

ثم وقف الأستاذ محمد أحمد بنونه بك ، فألقى كلمة ساطع الحصري بك عن الآراء الجيولوجية لابن سينا ، وبعد أن فرغ من إلقائها ، ألقى كلمة عن ابن سينا وعلم الحياة ، وبذلك انتهى الاحتفال .

وقد لاحظنا قلة عدد الحاضرين ، ولا ندري إن كان مرد ذلك إلى تعقد الأبحاث الفلسفية التي لا يستسيغها بعض المثقفين ، أم إلى ارتفاع درجة حرارة المكان الذي أقيم فيه الاحتفال .

ومما يستحق التسجيل ، أن عدداً من الآباء الكاثوليك والمستشرقين حضروا وأصغوا باهتمام إلى ما ألقي من كلمات .

الجامعة العربية وابن سينا :

نشرت جريدة للاريبق في عددها الصادر يوم ٦ مايو ما يأتي :

تقرر الاحتفال بالعيد الألفي للفيلسوف ابن سينا في النصف الثاني من مارس سنة ١٩٥٢ ببغداد ، وتقوم بتنظيم هذا الاحتفال الإدارة الثقافية للجامعة العربية ، وهي دائبة الاتصال بالحكومة الإيرانية ، للتنسيق بين الاحتفال العربي المعتزم إقامته في بغداد ، والاحتفال الإيراني المعتزم إقامته في طهران . وكان قد تقرر أن يكون احتفال بغداد في أكتوبر سنة ١٩٥١ ، ولكن لما أبلغت الحكومة الإيرانية بذلك ، قالت إن هذا الموعد يصادف شهر المحرم ، وهو شهر حداد عند الشيعة فلا تقام فيه حفلات ، وإن الحكومة الإيرانية تعمل في بناء ضريح لابن سينا في « همدان » لم يتم بعد ، ولا ينتظر أن يتم قبل أكتوبر ١٩٥١ ، ويحسن أن يكون الضريح مهيئاً عند الاحتفال ، ولذلك قررت اللجنة المؤلفة لهذا الغرض أن يقام احتفال بغداد في النصف الثاني من مارس سنة ١٩٥٢ ، وتم الاتفاق مع إيران على هذا الموعد ، وعلى أن يقام احتفال طهران في النصف الأول من إبريل من السنة نفسها ، إذ ينتقل المحتفلون من بغداد إلى طهران ، ويتم الاحتفال على هذه الصورة التعاونية ، وقد ألفت لجان فرعية في العراق ، وسوريا ولبنان ، وكل منها تعمل في بلادها للتحضير للاحتفال العام في بغداد .

والمعروف أن ابن سينا ولد سنة ٣٧٠ ومات سنة ٤٢٨هـ

عادل الغضبان

٢ - العشق عند العرب

للأستاذ كمال منصور

علاماته ومميزاته :

هل للعشق علامات ؟ ... وهل هـذه العلامات كافية لأن تجعلنا نستطيع التفرقة والتمييز بين شخصين أحدهما عاشق والثاني لم يعرف الهوى إلى قلبه سبيلا ؟ ...

هذان سؤالان يستطيع المتتبع لحالة العشاق أن يجيب عليهما فى سهولة ويسر ! إذ لا شك فيه أن للحب علامات ومميزات عرفها العرب ، وتعمقوا فى دراستها ، وأول هذه العلامات إدمان النظر ؛ فترى العاشق يطيـل النظر إلى محبوبه فينتقل طرفه بتنقل المحبوب ، وينزوى بانزوائه ، ويتبعه أينما سار .

فليس لعينى عنـــد غيرك موقف
كأنك ما يحكون من حجر البحت
أصرفهــا حيث انصرفت وكيفما
تقلبت كالمنعوت فى النحو والنعت

ومن علاماته الرغبة فى التحدث مع المحبوب ، والإصغاء لحديثه بشوق ولهفة ، ومجاراته فى كل ما يقول ، كتصديقه وإن كذب ، والوقوف إلى جانبه وإن ظلم ، واستغراب كل ما يأتى به ولو كان ذلك مستحيلاً ، ومنها التقرب إليـه والتعمد للجلوس بقربه ، وارتياد المكان الذى هو فيه ، وتخطى الصعاب والعقبات المؤدية إليه ، والتباطؤ فى القيام عند مفارقة المكان الموجود به .

إذا قمت عنـك لم أمش إلا
مشى عان يقــاد نحو الفنــاء
فى مجيئى إليــك أحث كالبــد
ر إذا كان قاطعــاً للسماء
وقيــامى إن قمت كالأنجم العــا
لية الثابتــات فى الإبطــاء

ومنها كثرة الغمز الخفى ، والتعمد لمس اليد عند المحادثة ، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وتقبيل كل شىء يخص المحبوب كملابسه ورسمه وحتى جدار داره .

أمر على الديار ديار ليـلى
أقبــل ذا الجدار وذا الجــدارا
وما حب الديار شغفن قلبى
ولكن حب من سكن الديارا

ومنها الاصفرار والروعة اللذان يدلان على الحب عند رؤية من يحب وخفقان القلب عند رؤية من يشبهه ، أو عند سماع اسمه .

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى
فهيج أشواق الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليــلى غيرها فكأنمــا
أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما يستطيع بذله ولو كان بخيلاً مقتراً ، لأن العاشق مهما كان بخيــلاً لا يمكن أن يبخل على معشوقه ، ومنه يتطرق الحال كما يقول ابن حزم إلى من يعلم أنه إذا بخل عليه أوصل الأمر إلى معشوقه ، وهكذا ، فيؤدى الحال إلى الكرم المطلق وغيره من الصفات الجيدة كالشجاعة والنبل والسمو ، ومن أظهر تلك المميزات وأوضحها أن يجد العاشق لذة وسروراً كبيرين عند ذكر المحبوب وسماع أخباره ، وأن يحب أهل محبوبه وقرابتــه وخاصته حتى يكونوا عنده أحب إليــه من أهله ، بل ومن نفسه .

فيا ساكنى أكناف دجلة كلكم
إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

ومنها الاتفاق الذى قد يقع بين العاشق والمعشوق ، وخاصة إذا كان الحب الذى بينهما فيه مشاكلة ومناسبة ؛ فكثيراً ما يتكلم بكلام فيتكلم به الحب ، ويحلم أحلاماً يراها بعينها

معشوقه ، بل وقد يمرض المحب بمرض محبوبه . قال صاحب تزيين الأسواق : حكي عن أبي نواس أنه مرض فدخل عليه بعض أصحابه يعودونه فوجدوا به خفة ، قالوا فانبسط معنا وقال : من أين جئتم ؟ فقلنا : من عند عنان جارية الناطفي . فقال : أو كانت عليلة ؟ قلنا : نعم وقد عوفيت الآن . فقال : والله لقد أنكرت علتي هذه ولم أعرف لها سبباً غير أني توهمت أن ذلك لعلة نالت بعض من أحب ، ولقد وجدت في يومي هذا راحة ، ففرحت طمعاً في أن يكون الله عافاها منها قبلي . ثم دعا بدواة وكتب إلى عنان يقول :

إني حممت ولم أشعر بحماك
حتى تحدث عوادي بشكواك
فقلت : ما كانت الحمى لتطرقني
من غير ما سبب إلا بحماك
وخصلة كنت فيهم غير متهم
عافاني الله منها حين عافاك

ويقرب من قول أبي نواس هذا قول الشاعر :

مرض الحبيب فعدته فمرضت من حذري عليه
وأتى الحبيب يزورني فبرئت من نظري إليه

ومن مميزات العشق نحافة البدن ، فيصبح الجسم هزيلا من شدة التفكير فيمن يحب ، وكثرة الذهول حتى يصير العاشق شارداً ، فإذا حدثك لم يكن معك لا بفكره ولا بقلبه ، وإنما هو يحدثك حديثاً آلياً ، لأنه منصرف عنك إلى التفكير فيمن يحب . ومنها شخوص صورة المحبوب أمامه يراها في كل مكان حتى لتكاد تسد عليه السبل .

أريد لأنسى ذكرها فكأنما
تمثل لي ليلى بكل سبيل

ومنها كثرة الوجوم والإطراق والتحير الدائم ، فبينما هو فرح نشوان طلق الوجه ، خفيف الحركات ، صار حزيناً حائر النفس جامداً ، لايكاد ينطق بكلمة ، ويتبرم بكل شيء يحيط به . ومنها حب الوحدة ، والميل إلى العزلة والانفراد ، والسهر والأرق والجزع الشديد إذا أعرض محبوبه عنه وفر منه ، فتراه يزفر ويتأوه ، ويشكو ولا يقر له قرار . ومنها التشبه بالمحبوب في كل شيء ، فإن كان محباً للعلم اجتهد العاشق في طلبه ، وإن كان ميالا إلى الأسمار والنوادر والأخبار المستحسنة ذهب المحب في طلبها وحفظها ، كل ذلك ليتشبه بمحبوبه ويتقرب إليه ، ويرضي رغباته .

حول العشق

بعد هذا نجد أشياء كثيرة قيلت حول العشق ، منها الفرق بين الحب والعشق ، فقد فرق العرب بينهما ؛ ففي نهاية الأرب : المحبة جنس والعشق نوع ، فإن الرجل يحب أباه وأمه ولا يبعثه ذلك على تلف نفسه ، بخلاف العاشق ، فكل عشق سموه حباً ولم يسموا كل حب عشقاً ، فالعشق أخص من الحب ، بخلاف ما ذكره الانطاكي في كتابه تزيين الأسواق من أن الحب أخص من العشق ، لأنه لما كان الحب مستغرقاً للعشق كان العشق أخص منه . وقد تحدث العرب عن سبب العشق فقالوا : إن سببه مصادفة النفس ما يلائم طبعها فتستحسنه وتميل إليه ، وذكروا أن من أسبابه سماع الغناء ، وإنشاد الغزل ، غير أن أقوى هذه الأسباب هو ما ذكره بعض الحكماء من أن العشق لا يقع إلا لمجانس ، وأنه يضعف ويقوى على قدر التشاكل ، وذلك القول مأخوذ من الحديث الشريف : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » . وقد كثرت أقوال العرب في مدح العشق وذمه ، قال قدامة : العشق فضيلة تنتج الحيلة ، وتشجع الجبان ، وتسخي كف البخيل ، وتصفي ذهن الغبي ، وتطلق بالشعر لسان الأعجم . وقيل لبعض العقلاء : إن ابنك قد عشق ، فقال : الحمد لله ، الآن قد رقت حواشيه ، ولطفت إشارته وظرفت حركاته . وقال العباس بن الأحنف :

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى
ولا خير فيمن لا يحب ويعشق

وقال آخر :

إذا لم تذق في هذه الدار صبوة
فموتك فيها والحياة سواء

ووصف العرب من لم يعشق بأبشع الصفات ، وألصقوا به التهم ، فقالوا : إنه رديء التراكيب ، جاف الطبع ، كز المعاطف ، لا فرق بينه وبين عير الفلاة .

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فأنت وعير في الفلاة سواء

الدور الذي لعبه القصاص :

لعب القصاص دوراً خطيراً في تلك العاطفة ، وهذا الفن القصصي الذي نشأ حول العشق ودار عما قيل فيه من شعر ، هذا الدور الخطير الذي لعبه القصاص هو تلك الحكايات الغريبة ، والروايات النادرة بل المستحيلة الوقوع التي نسجها خيال أولئك القصاص ، والتي يستبعدها العقل ، ولا يعترف بوقوعها ، وحتى لو جاز له أن يسلم بحدوث بعضها فلا يجوز أن يسلم بكثرتها وتعددها ! فقد راح القصاص يمعنون في نسج تلك القصص والخرافات ، فصاحب مصارع العشاق يحدثنا عن عاشقة يقطع لحمها قطعاً قطعاً ، وهي لا تشعر بذلك لأن الطبيب كان يذكر أمامها اسم من تحب ، ويروي لنا كذلك أنه لما بلغ عفراء وفاة حبيبها عروة بن حزام خرجت حتى أتت إلى قبره فتمرغت عليه وبكت طويلا وأنشدت :

ألا أيها الركب المخبون ويحكم
بحق نعيتم عروة بن حزام
فإن كان حقاً ما تقولون فاعلموا
بأن قد نعيتم بدر كل ظلام

ولما فرغت من شعرها ألقت نفسها على القبر فحركت فوجدت ميتة ، ودفنت إلى جانبه فنبتت من القبرين شجرتان ، حتى إذا صارتا على حد قامة التفتا ، فكانت المارة تنظر إليهما ولا تعرف من أي ضرب من النبات .

وليس أدل على ما نذهب إليه مما قيل عن مجنون ليلى من أنه أخذ يهيم على وجهه في الصحراء ، حتى ألف الظباء ، وألفته الظباء ، وآنس الوحوش وصار يعيش معها ، وكان لا يلبس إلا ثوباً خلقاً ، ولا يمشي إلا عارياً ، وكان يلعب بالتراب ، ويجمع حوله العظام ، وكانوا يحبسونه ويقيدونه ، فيعض لسانه وشفتيه ، وكان لا يأكل إلا مما ينبت في الحقول من بقل ، ولا يشرب إلا مع هذه الظباء ! وقد ذهبت بهم المبالغة إلى الدرجة التي جعلتهم يزعمون أن العشق وقع بين الإنس والجن ، وأن عمر بن يربوع تزوج سعلاة ، حتى النخيل قد عشق وبرحه العشق ، وكذلك الطيور ، إلى آخر هذا الثبت الطويل من الحكايات الغريبة التي لا يقبلها العقل ، وكثيراً ما حدثونا عن تدخل السلطان عندما يلتجئ إليه أهل المحبوبة يشكون له العاشق ، وما قال فيها من شعر ، فتراهم يجعلون السلطان يهدر دمه ، وكأن السلطان كما يقول الدكتور طه حسين لا عمل له إلا إهدار دم فلان وفلان من العشاق ! وهم مبالغون كذلك فيما نسجوه حول الخلفاء من قصص غرامية يجب أن ننظر إليها بين الحذر والشك ! فالمدائني يروي أنه لما ماتت حبابة وكانت يحبها يزيد بن عبد الملك ، اشتاق إليها بعد ثلاثة أيام من دفنه إياها ، فقال : لابد أن تنبش حتى أنظر إليها ، فنبشت وكشف له عن وجهها وقد تغيرت تغيراً قبيحاً ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، اتق الله تعالى ، ألا تراها كيف صارت . قال : ما رأيت قط أحسن منها اليوم ، فأخرجوها ، فأخذ يشمها ويرشفها ، فعاتبه على ذلك ذووه ، ولم يزالوا به حتى أزالوه عن ذلك . مثل هذه القصة لو ذكرت عن شخص عادي لجازي لنا أن نصدقها إلى حد ما ، أما أن تروى لنا عن أمير المؤمنين فهذا أمر بعيد الاحتمال لا يمكن أن يكون إلا من خيال القصاص والرواة . وتصل المبالغة بهؤلاء القصاص حداً كبيراً فيجعلون كل عاشق يشهق شهقة يفارق فيها الحياة عند ذكر اسم محبوبته ، أو عند رؤيته لها ! فقد روى الأنطاكي أن هند صاحبة عبد الله بن عجلان كانت جالسة على حوض وزوجها يسقي إبله ، فلما رآها عبد الله تعارفا ، وشد كل منهما على صاحبه ودنا منه حتى اعتنقا وسقطا إلى الأرض فوجدا ميتين .

فإذا كان لنا أن ننظر إلى هذا الفن القصصي الغرامي فإننا يجب أن ننظر إليه على أنه ضرب من التسلية ، اتخذه هؤلاء القصاص لما وجدوا الفرصة أمامهم سانحة ، فقد رأوا أن العرب كلفوا بالعشق والعشاق ، واهتموا بأخبارهم وأشعارهم ، فكان لا مفر لهؤلاء القصاص من أن يقدموا لهم ما يحتاجون إليه ، وأن يغذوا تلك النفوس الجائعة اللاهبة ، ولو أدى ذلك إلى الالتجاء إلى ضروب من الاستحالة والخيال ..

كمال منصور

قارة إطلنـــــــطه

محاضرة ألقاها مسيو ألبير بزيا في الليسيه فرانسيه بالقاهرة

– ٢ – ترجمة الأستاذ محمد صادق حسين بك

ننتقل إلى ناحية أخرى من نواحي بحثنا في هـذا الموضوع لنطو الزمان القهقرى مرة أخرى حتى نأتي بلاط إزابلا ملكة كاستيل .

إذ ذاك شاعت شائعات في الدوائر العلمية ، وظهرت خرائط جغرافية كخريطة توسكانلي ، كان لظهورها هزة بين الملاحين ، إذ زعم أصحاب الخرائط أن الأرض مستديرة ، وأنه الوصول إلى الهنـد وما فيها من كنوز جولكوندا ، وإلى خيرات بلاد الخطا (الصين) ، وإلى ما هو خير منها في بلاد سيبانجو (اليابان) للوصول إلى هذا كله لا حاجة بعد بالمسافرين إلى طرق القوافل بعيدة الشقة التي سار فيها ماركوبولو وما تقتضيه من سنين عدة ، ولا إلى الطريق الملاحي حول رأس الرجا الصالح وما يحف بها من أخطار ، لاسيما وقد كانت في يد البرتغاليين وهم عليها جد حريصين ؛ فما على من يبغي الوصول إلى الهند وما فيها من جبال زمرد ومعادن من ذهب إلا التشجيع والاندفاع إليها مغرباً .

ودار الهمس في البلاط أن رجلاً من أهل جنوه اسمه كرستوف كولمب يحاول جاهداً أن يحمل الملكة على أن تعينه ، حتى يقوم برحلته إلى الهند عن طريق الغرب ، وليس فينا من يجهل ما كان من أمر هذه الرحلة ، ولا من يجهل أن أولئكم الملاحين البواسل وصلوا لا إلى الهند ، بل إلى أراض جديدة ، وصلوا إلى مجموعة جزر ، ثم إلى بحر وراءها ، ثم إلى قارة تحيط بهـذا البحر ؛ فما كان أعلم أفلاطون هذا بالجغرافيا حين اهتدى منذ ألفي سنة إلى هذه الحقائق .

وأزيدكم أن الاسبان وجـدوا في جزر كنارى وهم لم يهتدوا إليها إلا بعد رحلاتهم الأولى ، وجدوا قوماً هم الجوانش غريباً أمرهم ؛ فقد كانوا من الجنس الأبيض ، لغتهم غامضة ، وفيهم آثار حضارة قديمة ، يعبدون الشمس ، ولهم طقوس موقى ، ويمارسون التحنيط ؛ فمن أين جاء هؤلاء الناس العجيب أمرهم ، المنزولون عن سائر الخلق وسط المحيط الأطلنطي ؟ إن أحداً لا يدري غير أن الأسبان عملوا ما لا يجمل ، حتى انقرض هؤلاء القوم الوادعون بعد بضعة أجيال ؛ فكان مصيرهم كمصير أهل جزر الأنتيل وهم الكرائيب ؛ فقد أعمل الأسبان في حمل السلم ، وما زالوا يرهقونهم حتى فنوا بأساً وغماً . ولما نزل الأسبان آخر الأمر في الأرض الكبيرة التي تحيط بالبحر رحب بهم أهلها ترحيباً عجيباً ، نزل كورتيز وأصحابه وقد انتشرت لحاهم المريضة على دروعهم ، فلاءم أهل البلاد لقاء يشعر بأنهم حسبوهم آلهة أو رسلاً من قبل آلهة ، ذلك أن أهل البلاد كانت لهم عقيدة قديمة ، هي أن حضارتهم إنما جاءتهم من آلهة ذوي لحى قدموا إليهم من الشرق ، وأن الزمن سيدور حتى يرجع إليهم من الشرق أيضاً أولئكم الآلهة الملتحون . وهنا أسوق إلى الراغبين منكم في دقائق التاريخ ذلك التشابه العجيب حقاً بين إيمان أهل المكسيك بآلهة ملتحين يقدمون من الأطلنطي ، وبين ما نشاهد في مصر القديمة من حمل لحية مستعارة للفراعنة والآلهة . ولدينا أمر لا يقل عما تقدم غرابة ، هو أن الفنان المصري القديم لما أراد تمثيل ابن النيل وتمييزه من السامي والزنجي والليبي اختار نموذجاً فارعاً دقيق الشفاه ، ذا أنف كأنف النسر ولون أحمر ، وهذا نموذج تسكي أو أزتكي ، أي أطلنطي .

وفي الدنيا الجديدة ، نرى أوجه شبه لها دلالتها لا يسع المتأمل فيها إلا أن يذكر حضارة مصر القديمة ، ونرى ما بينها وبين الحضارة القديمة في أمريكا من شبه دقيق ؛ فمنذ عهود سحيقة كان في المكسيك وبيرو مثل ما كان في وادي النيل

من دين شمسي وعقائد في الموت والبعث يصحبها التحنيط وملكية إلاهية ومبان هرمية ، وكتابة هيروغليفية أساسها وإن تباينت واحد ، ومبعثها فكرة واحدة .

وصحيح أن حضارة المكسيك وهي أحدث ، وحضارة بيرو وهي أقدم ، ليستا من حيث القدم بندّين للحضارة الفرعونية ، وعسير أن نقطع بأن الحضارات الأمريكية القائمة عند الفتح الأسباني يرجع أصلها إلى عصر نكبة أطلنطة ، لكننا نجد في بيرو حضارة أمعن في القدم من حضارة آلانكا وهي حضارة المايا ؛ في الغابات البكر في جنوب المكسيك وفي يوقطان ، وهي إلى اليوم لا يكاد الوصول إليها يكون ممكناً ، تثوى أطلال مدن لا يدرك كنهها ، وبغير الطائرات لا يكاد يهتدى إلى تحديد مواقعها . كانت مدائن قوم يعرفون بالمايا انقرضت مدنيتهم قبل الفتح الأسباني بزمن طويل ، ولا يزال التنقيب عن تلك المدن في مهده ، غير أن مبانيها وهي من الحجارة الضخمة تشبه آثار الكرنك ، أما كتابتها فلم يهتد بعد إلى حلها إلا فيما يتعلق بالأعداد ؛ فقد اهتدى الباحثون إلى توقيتها ، وقرر العلماء — وقد بهتوا لما وجدوا — أن تقويم أولئك القوم قد بلغ من الدقة مبلغاً ليس وراءه غاية ، فقد كان أدق من تقويمنا ، وكانت له نتائج تشهد بملاحظات فلكية ، وقد استندوا في تقويمهم كما استند قدماء المصريين إلى الشعرى اليمانية ، وهذا أغرب وأعجب .

لم نكن نتوقع ونحن نعالج هذا البحث أن نعثر منذ عهد قريب على تأييد لوجهة نظرنا حين وجدنا في عدد الجورنال دجنيف الصادر في ٢٣ فبراير سنة ١٩٥٠ حديثاً للأستاذ جيرار ، وهو عالم سويسري ذو شهرة عالمية ظهر له حديثاً تاريخ ضخم في مدنيات أهل أمريكا الأصليين تناول فيه من تاريخ القارة الأمريكية مدة تبلغ ١٢٠٠٠ سنة .

قال الأستاذ في حديثه : تمتاز حضارة المايا كما امتازت حضارة مصر القديمة بتقدم علم الفلك على أساس النظر والمشاهدة ؛ فقد كان المايا القوم بلغ في كل ذلك مبلغ تقويمنا الجريجوري . اهـ .

ثم يقول : وفي تاريخ أمريكا قبل عهد كولومب مجموعة من خصائص يشترك فيها مع خصائص في تاريخ مصر القديمة ومنها الهرم والإعلاء من شأن الخصب وعبادة الطائر والحية والدين الشمسي والقرد المقدس والقتال بين الشمس والظلام والحية المجنحة والحية المتطاولة ومفتاح الحياة والكتابة الهيروغليفية ، وصور صفحة الوجه ، والرحلة بعد الموت وغير ذلك .

لكن الأستاذ لم يستطع مع كل ما ذكر من هذه الخصائص المشتركة الخروج على ما رسم العلماء من قبل ، فذهب إلى أن هذا التشابه توارد ؛ وهو حكم لا نراه يتمشى مع روح النقد العلمي ، ولا يتفق والنظر السليم .

فإن من المستغرب حقاً أن تسفر مدنية مصر القديمة ومدنية أمريكا القديمة عن مظاهر بلغت هذا المبلغ من التشابه على ما بينهما من بعد الشقة ؛ فبينهما كتلة إفريقية ومحيط عتيد ، ذلك لغز حقاً ما أبسط تفسيره حين نعلم أن تلك الأقطار المتباعدة قد سطعت عليها أنوار الحضارة من مقر للحضارة واحد ، وأن حضارتها إنما ترجع إلى قبائل متحضرة راقية فرت إلى جهتين مختلفتين عندما وقعت كارثة أطلنطه .

بقي أن نبين كيف وقعت تلك الكارثة التي حلت بأطلنطه ، ولا مندوحة لي إن أردت أن أجيد في هذا البيان من أن أفضي ببعض شئوني الخاصة .

منذ زمن طويل وكنت شاباً متعطشاً طلعة ، قدمت كما قدم ذلك الشاب الإغريقي إلى وادي النيل وأنا أظن أن إقامتي فيه لن تطول ، فلما استقر بي المقام صادفت حادثاً عجباً كالذي صادفه سولون ، لم ألتق كما التقاه هو هيئة دينية ولا كهنة شيوخ علماء ، بل التقيت جماعة من قبيل من القوم ، أستطيع الآن بعد مضي ثلاثين سنة أن أتحدث عنهم ولا أكون ناكثاً للعهد ؛ فأقول : إنهم كانوا فئة قليلة عاهدتها القيام بحوث سرية .

وكان أول ما تناولت قضية كلكم تعرفونها ، هي أن الناس في الصغر كالناس في الكبر ، وشرحها يتناول أمرين أحدهما الذرة والآخر الإنسان .

لقد لبث أصحاب العلوم السرية قروناً يتوارثون قواعد مذهبهم ، على حين كان أصحاب العلوم المعترف بها يستمسكون بالقول بعدم قبول الذرة للتجزؤ وبأن المادة إنما تتكون من عناصر مستقلة لا يتحول أحدها إلى غيره . ولقد لقنتني الجماعة التي لقيتني أن الذرة وهي المتناهية في الصغر عالم يشبه المجموعة الشمسية ، يتكون من نواة حولها سيارات وكلها في حركة دائمة ، ثم لقنتني تلك الجماعة أن ذرات تلك العناصر المقول بعدم قابليتها للتحول إلى غيرها من العناصر لا اختلاف بينها إلا في كميات سياراتها وتنوع هيئات تكونها ، وأن المادة إذاً ليست جامدة ، بل هي مرنة دائمة التجمع والتفرق ، وأن تحول العنصر الثقيل كالرصاص مثلاً إلى عنصر خفيف كالذهب ممكن ، وأن اختلال التوازن فجأة يمكن أن يحدث تفرقاً متصلاً تفنى عنده المادة من حيث هي مادة وتنقلب قوة هائلة لا كابح لجماحها .

كان شرطاً في هذا التلقين السري عهد — وإن شئت فيمين فرضته حكمة قرون خلت — بالامتناع عن ممارسة أية تجربة عملية تتصل بمطلق التحليل والتحويل ، واعتبر من حاول شيئاً منهما ساحراً يستحق من العقوبة ما يستحقه الأشرار .

هذا وقد كانوا يستشهدون على خطر محاولة تحليل الذرة بما حل بأطلنطه وتناقلوا بالرواية ما لم يفض به كاهن سخا إلى سولون أو ما لم يرد هذا أن يبوح به تمسكاً بسرية التلقي ، وهو أن أهل أطلنطا الذين بلغوا من العلم مبلغاً عظيماً قد عنوا عناية خاصة بالبحث في قوى العقل الإنساني وما في إشعاعه من قوة ، وهو بحث لا نكاد نرى علماء العصر الحاضر يدركون إلا لماماً . وقد حصل أن مجموعة من أولئك الذين عرفوا من قديم بأنهم سحرة دفعهم الطموح إلى الإقدام على تحطيم الذرة يبتغون أن تتوافر لهم عدة حرب يصلون بها إلى ما شاءوا من سيطرة وبسط سلطان ، فقاموا بتجارب كتجارب بكيني في عصرنا هذا ، غير أنهم لم يتحروا أن يختاروا لها ميداناً نائياً في مجاهل المحيط ، بل قاموا بها في أرض غير مستقرة ذات استعداد للثوران البركاني ، فأطلقوا قوى جبارة لا قبل لهم بها ولا قدرة لهم على ضبطها .

ثم كانت عاقبة إقدام هؤلاء السحرة من أهل أطلنطه على ما قدمنا ذكره من تحطيم الذرة وعجزهم عن كبح جماحه ، حدوث سلسلة من انفجارات بركانية صحبتها هزات أرضية أعقبها انهيار الإقليم كله وخسف به .

وكأن بالمشائر من أهل أطلنطه الذين لجأوا إلى وادي النيل حملوا إلى أهله الحضارة ، كأني بهم وقد تملكهم الرعب زمناً طويلاً من فظائع النكبة التي حلت ببلادهم ؛ ومن هنا كان التشدد في جعل العلم سراً لا يباح لغير المخلصين ممن طال اختبارهم وأسفرت تنقيتهم عن الاطمئنان إلى طهارة نفوسهم .

وبقي ذلك عند الأقدمين تقليداً لا محيد عنه في تلقين الأسرار ، ولا يزال منه بقية في الطقوس التي نراها في بعض الجماعات السرية في عصرنا هذا ، وجاءت الديانات الروحانية العظمى فأبقت على هذا التقليد وساعدت على نقله في الأجيال لما جعلته جزءاً من تعاليمها ، كما نرى في سفر التكوين من تحريم تناول الثمر من شجرة العلم .

لكن شيئاً من تلك الأسرار قد تسرب ، وأقدم نفر من المتدنين عدّوا ممن لا ينبغي لهم هذا المقام على الاشتغال بالبحث في هذا الذي حرم عليهم ، فوصموا بوصمة السحر وكثروا في القرون الوسطى وعرفوا بأهل الصنعة (الكيميا) وهم الذين آمنوا بإمكان تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة ، ولاسيما تحويل الرصاص إلى الذهب ؛ غير أنهم اعتقدوا أنه لا بد دون هذا من الحصول على مادة سموها حجر الفلاسفة أو الحجر ذا الانبعاث ، فأفنوا أعمارهم في البحث عنه على غير جدوى ، ولعل من لهم علم بهذا السر الأعظم كانوا جد حريصين على كتمانه .

ثم يأتي عصرنا هذا وفيه يتاح للعلم الحديث — وقد أسس على غير ما أسس عليه العلم القديم — أن يوفق إلى الاهتداء إلى ذلك الحجر ، وفق إلى الراديوم الذي به أمكن صنع الأسلحة الملعونة التي ستفضي إلى تحطيم السحرة أنفسهم بل إلى فناء الإنسانية أو فناء الحضارة على أقل تقدير .

كل هذا الذي حدثتكم عنه إنما نقلاً عما لقنته حين حللت

٢٤ - خاطـــــرة

للدكتور أحمد أمين بك

اشتريت هذه الأيام مُبرّداً كهربائياً ؛ فأصبح في ميسورنا دائماً أن نجد الماء البارد والأكل البارد والفاكهة الباردة مُيسّرة سهلة . ولا أدرى لِمَ امتزج عندى الشعور باللذة منه بالشعور بالخوف ! وربما كان ذلك الخوف راجعاً إلى أن اللذة الكبيرة تستدعى الإفراط إلى حد الضرر .

وشيء آخر ، وهو أنى أكره لأولادى أن تُيسّر لهم الحياة تيسيراً يفقد قوة المقاومة ، وقد كان هذا دأبهم في كل حياتهم . فقد تعلموا في رياض الأطفال وهي يسيرة سهلة بجانب كتاتيبنا ، وعُوّدوا فيها الليونة والنعيم ، بدل ما كنا نلقاه في كتاتيبنا من الشدة والشقاء ، وركبوا السيارة المريحة السهلة بدل أن كنا نسير من الأزهر إلى بيتنا على أرجلنا نحواً من ساعة كل يوم صباحاً ومساء .. ووجدوا الأكل الطيب كما اشتهوا ، وكنا لا نجد الأكل الضرورى إلا بعناء .

وقد كنتُ نتاج ذلك الشقاء ، فماذا يا تُرى يكون نتاج هذا النعيم ؟ .

إنى أخشى على الفتى من أن يجد كل مطالبه ميسرة ، وأن لا يتعوّد اجتياز العقبات التى تكون في طريقه .

ورأيت في تجارب حياتى كيف فشل أكثر أولاد الأغنياء لشدة ترفهم ونعيمهم ، وفاز عليهم البؤساء الأشقياء .

وقرأتُ أن الإمبراطور غليوم ملك ألمانيا السابق ، كان يفرض على نفسه كل يوم وقتاً يقطع فيه الأشجار ويكسر الأخشاب ، احتفاظاً عنده بقوة المقاومة إذا جدّ الجدّ .

هذا ما خشيته من البرّاد الكهربائى ، والله يحمينا ويحمى أولادنا من ضرره ، كما يحمينا من أضرار كل المخترعات الحديثة التى تسهّل الحياة وقد تُتلف الناس .

أحمد أمين

بمصر ، ولا ضرر اليوم من الإفضاء به ، بل إن شئتم أن تتجشموا مصاعب الاطلاع عليه فهو مبسوط أمامكم في مظانه من المؤلفات الجمة عن العلوم السرية وعن الثيوسوفيا . هناك تجدون ما يكفيكم عن الذرة وما تتكون منه من نواة والكترونات وعن إمكان تحطيمها وعن وحدة المادة وقابليتها للتحول إلى قوة ، وكلها أمور كانت معروفة مسلماً بها ، بل كانت تلقن المريدين زمناً طويلاً من قبل أن يذعن العلم الرسمى — إن صح هذا التعبير — ويأتى آخر الأمر فيسلم بها .

هذا وإنى أختم رحلتنا هذه الطويلة في أعماق الزمن وفي نواحى الأرض بأن أؤكد لكم أن الزمن الذى خشيه حكماء الأقدمين قد جاء وأصبحنا مرة أخرى نهباً لطائفة السحرة الأشرار .

ألا ترون أننا لا نزال ما أصبحنا وما أمسينا نرى في الصحف كلاماً في فناء العالم ووسائل تحققه ، وأن أولئكم السحرة الأشرار العاملين بتأييد من الحكومات على العمل بمعامل الأبحاث يأخذ منهم الرعب كل مأخذ خشية ألا يهتدوا إلى ما يرضيهم من وسائل التدمير العاجل الذريع ، بل قيل إنهم يخشون أن ينجو من الكارثة الكبرى ناج من البشر ، فهم جدّ جادين في أن يضمنوا لنا فناء الإنسانية فناء كاملاً .

أفهل يستولى اليأس والقنوط على الناس فيترددوا في الهاوية مستسلمين دون أن يحاولوا نجاة أو خلاصاً — فالعالم كله يدوى بأن الكارثة فناكلا ولا حاجة بنا لسوى حسن النية ننجو به من الدمار ونتحكم في شجرة العلم فلا تكون بعد إلا طيبة الثمر .

لقد نصح لنا خير الناصحين منذ ألفين من السنين بأن السلام لحسن النية من الطيبين ، فهل تصح عزيمة الناس على الإصغاء لهذا الناصح الأمين .

إنها لهم مسألة حياة أو موت كما يقولون .

محمد صادق حسين

من « الملهاة الانسانية »

لوليـــام ساروريان(*)

ترجمة الأستاذ جلال أحمد أمين

وقف « مستر آرا » أمام دكانه في « أثاكا » بولاية كاليفورنيا . ومستر آرا ، رجل طويل ، نحيف الوجه ، يبدو عليه الكآبة وإن كانت ملامحه يمازجها شيء من اللطف والبشاشة .

وقف أمام دكانه لحظة ، وحين هم بالدخول ، خرج منه طفل صغير له ملامح « مستر آرا » ووقف إلى جانبه ..

قال الطفل : بابا ..

— ها ، جون ؟ .

قال الطفل في جد يشوبه الحزن : أعطني تفاحة ..

أمسك الأب يد ابنه ودخلا معا ، ووقفا أمام أكوام الفاكهة وتناول الأب أحسن تفاحة في الكوم وأعطاها للطفل .

— تفاحة ؟.. حسنا هاهي ذي تفاحة ..

وسار الأب إلى منضدته ينتظر زبونا ، وأخذ يسترق النظر إلى ابنه من حين لآخر ، وبدا له الطفل حزينا مثله على الرغم من الأربعين عاما التي تفصل بينهما ..

قضم الطفل قطعة كبيرة من التفاحة وأخذ يمضغها ببطء ثم يبتلعها ، وبدا لحظة كأنه يفكر فيها أيضا ، ولم تسعده التفاحة فوضعها على المنضدة أمام أبيه ثم نظر إليه وعاد ينظر إلى الأرض .

في « أثاكا » بولاية كاليفورنيا جلس الأب والابن في دكان « مستر آرا » بعيدين عن وطنهما بنحو سبعة آلاف ميل ، وليس هناك ريب في أن الكآبة والوحشة كانت تشيع في نفس كل منهما ، ولكن أحداً لم يكن ليعلم يقينا أن هذه الكآبة جينها ما كانت لتملأ نفس كل منهما لو لم يكونا بعيدين عن الوطن بنحو سبعة آلاف ميل .

نظر الأب إلى ابنه ، إلى وجهه هو في وجه الطفل ، إلى عينيه هو ، ومن وراء العينين إلى كآبته هو أيضا . لم يكن إلى جانبه إلا « مستر آرا » نفسه ولكنه أسفر قليلا ، وتناول الأب التفاحة التي تركها الابن ، والتفاح شيء أجمل وأعز من أن يضيع هباء . حسنا ، إن كان ابنه لا يريد أن يأكلها فليأكلها هو رغما عنه وإن كان لا يشعر في داخل نفسه بأي رغبة أو ميل إلى التفاح أو حتى إلى رائحته . وتابع « مستر آرا » قضم التفاحة ومضغها ثم بلعها . ولكن لم يستطع بعد لحظة أن يستمر ، فألقى ما بقي منها في صندوق القمامة بشيء من الأسف .

قال الابن مرة أخرى : بابا .

— ها ، جون ؟

— أعطني برتقالة ..

تخير الأب أكبر برتقالة وناولها للطفل .

— برتقالة ؟ حسنا ، هاهي ذي برتقالة .

وأعمل الطفل أسنانه في القشرة ثم أخذ يتم ذلك بأصابعه ، فعل ذلك ببطء ولكن بمهارة أول الأمر ، ثم أخذ نشاطه يضعف بعد لحظة .. لم يكن وراء هذه القشرة مجرد عصير ، بل كانت هناك ذروة السعادة لهذا الطفل . وضع الطفل القشر على المنضدة أمام أبيه ، وقسم البرتقالة نصفين ، ووضع نصفا في فمه وأخذ يمضغه ثم بلعه .

ولكنها لم تكن غير برتقالة ، ولم تكن فيها ذروة سعادته . وتوقف الطفل برهة ثم وضع ما بقي من البرتقالة أمام أبيه .

ومرة أخرى تناول الأب البرتقالة وبدأ يتم العمل في سكون ، وبعد لحظة ألقى إلى القمامة قطعة لا تقل عن النصف كثيراً .

قال الطفل : بابا ..

وأجاب الأب مرة أخرى : ها ، جون ؟

— أريد حلوى ...

— حلوى ؟ .. حسناً ، ها هي ذي الحلوى ..

(*) وليم ساروريان كاتب أمريكي معاصر ولد سنة ١٩٠٨ من أبوين أرمنيين ، وهـذا فصل مقتطف من كتابه (The Human Comedy)

وتناول الأب من إناء الحلوى أحب قطعة إلى الطفل وناوله إياها . وتأمل الطفل القطعة قليلا ثم انتزع الورق وقضم منها قطعة كبيرة وأخذ أيضاً عضغها ببطء وابتلعها . ولكنه لم يجد فيها شيئاً . لم تكن غير حلوى .

ومرة أخرى أعاد الابن إلى أبيه شيئاً آخر من هذا العالم لم يفلح في أن يجلب له سعادة ، ولم يبد على وجه أبيه حنق ، والتقطها منه وأخذ يقضم منها ، ثم أدار وجهه وألقى بالحلوى في صندوق القمامة ...

ولسبب ما شعر « مستر آرا » بغضب مرير ، وأخذ يلعن سراً في قلبه بعضاً من الناس يبعدون عنه بنحو سبعة آلاف من الأميال بدت له قلوبهم مرة خالية من الإنسانية أو على الأقل بدوا له جهلاء ... وهتف من أعماقه : هؤلاء الكلاب !

قال الطفل : بابا .

— ها ، جون ؟ .

— أعطني موزة .

تنهد الأب هذه المرة ، ولكنه تمالك نفسه .

— موزة ؟ حسناً ، ها هي ذي موزة ...

وأخذ يقلب بيديه سباطة الموز المعلقة فوق أكوام الفاكهة ، ثم وجد أخيراً واحدة بدت له ناضجة وحلوة ، فاقتطفها وناولها للطفل .

وأخيراً جاء رجل يطلب شيئاً ولم يكن « مستر آرا » قد رآه من قبل ، وأحنى « مستر آرا » رأسه محيياً فأحنى له الرجل رأسه .

— كمك ، هل عندك كمك ؟ .

قال « مستر آرا » في دهشة : كمك ؟ أي كمك تريد ؟

— كعكا ، كعكا محشواً .

— كعكا محشواً ؟ .

وأخذ « مستر آرا » يقلب نظره على الأشياء التي يكتظ بها دكانه ، وهمس مرة أخرى متسائلا : كعكا محشواً ؟

ووضع الطفل الموزة على المنضدة أمام أبيه .

— بابا ...

نظر الأب إلى ابنه ، وحدق فيه ، ثم أخذ يصيح في سرعة غريبة :

— طلبت تفاحة فأعطيتك تفاحة ، طلبت برتقالة فأعطيتك برتقالة ، أردت حلوى فأعطيتك حلوى ، طلبت موزة فأعطيتك موزة ، ماذا تريد الآن ؟ ! .

قال الطفل : كمك .

قال الرجل لابنه : أي كمك تريد ... قالها لابنه دون أن ينسى الرجل ، بل قالها في الواقع للرجل وفي الوقت نفسه لابنه ، وفي الوقت نفسه لكل إنسان ، لكل إنسان وفي أية بقعة ، كل إنسان يريد شيئاً ...

قال الطفل : كعكا محشواً ...

قال الرجل لابنه في عصبية : ليس عندي كمك ... ولكنه بدلاً من أن ينظر إلى ابنه نظر إلى الرجل .

— لم تريد كعكا ؟ عندي كل شيء ، ولكن ليس عندي كمك ، لم تريد كعكا ؟ .

قال الرجل في هدوء : كعكا لطفل صغير ...

— ليس عندي كمك ، وأنا أيضاً لي طفل صغير ، أعطيته تفاحاً وبرتقالاً وحلوى وموزاً ، وأشياء طيبة أخرى ...

وتوقف برهة ثم نظر إلى الرجل وحدق في عينيه وقال له : ماذا تريد ؟ لم تريد كعكا ؟ .

قال الرجل : ابن أخي أصيب بالأنفلونزا ، إنه يبكي ويصيح « أريد كعكا ، كعكا محشواً » .

ولكن كل إنسان يعيش حياته هو ، ولكل حياة أشياء خاصة بها يجري وراءها .

نظر الطفل إلى أبيه مرة أخرى وقال : بابا ...

ولكن الأب في هذه المرة أبى أن ينظر إلى ابنه ، ونظر إلى الرجل الذي يشكو ابن أخيه من الأنفلونزا ، نظر إليه نظرة من يفهم شعوره ، نظرة فيها عطف ، ولكنها مملوءة بالغضب ، ليس غضباً على الرجل ولكنه غضب على العالم ، على المرض وعلى الألم وعلى الكآبة ، على القلب الذي يريد ما لا يستطيع أن يناله ، كان « مستر آرا » غاضباً على نفسه هو الآخر ، لأنه على الرغم من أنه أقام دكانه هذا في « أناكا » بكاليفورنيا بعيداً عن وطنه بسبعة آلاف ميل ، فإنه لا يملك كعكا محشواً ، لا يملك ذلك الذي يريده الطفل المريض بالأنفلونزا .

أشار « مستر آرا » إلى ابنه وقال : تفاح وبرتقال ، وحلوى وموز ، ولكن ليس عندي كمك ، إن ابني عمره ثلاث سنوات وليس مريضاً ، ويريد أشياء كثيرة ، يريد تفاحاً وبرتقالاً ، ويريد حلوى ويريد موزاً ، لست أدري ماذا يريد ، لا أحد يدري ماذا يريد ، إنه فقط يريد ، إنه

(البقية على الصفحة التالية)

للحقيقة والتـــــاريخ

(بين الجاحظ وتلميذ الجاحظ)

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

قرأت في العدد الأول من السنة الأولى لمجلة (مدرسة الإسرائيليين القرائين) سنة ١٩٥٠ — ١٥٩١ عبارة منسوبة إلى أبي عثمان الجاحظ ، هذا نصها :

« حفظك الله وأبقاك وأمتعَ بك ، وجعل ما بيني وبينك من ودّ موصولاً أبدَ الدهر ، فقد عرفتُك صديقاً لا يشوب صداقتَه زَيفٌ من شوائب الدنيا ، وعرفتُك على تقادم العهد وتطاول الزمان أخاً ثابت الإخاء وثيق النفس ، ليس كمن يدور بخلته بين الناس ملتمساً بها الذم ، وباغياً بها النفع ، فكان ذلك أيدك الله ، مما أكبرك في عيني ، وأعظمك في نفسي ، ويسعدني أن أقدم إليك هذا الكتاب الخالد ، لترى فيه ، ولتعلم أيها السمي الكريم ، أني أحفظ لك في نفسي مثل ما تحفظ لي من وفاء ، وأطوي لك صدري على مثل ما تطوي من ولاء » .

والحق أن هذه الكلمة ليست للجاحظ ، وإنما هي لكاتب هذه السطور ، نسجها في أسلوب أبي عثمان الجاحظ وبيانه ، ولعلها قد سما بها التقليد والمحاكاة حتى ظنت أنها من كلامه ، وأنى يكون لمثلي أن يرتفع إلى حيث الجاحظ وسحر بيانه !

وإن ضمير التاريخ ليدعوني أن أعلن أن هذه الكلمة هي عبارة الإهداء التي صدرتُ بها كتاب « البيان والتبيين » لشيخنا الجاحظ ، وذلك في نشرته الأخيرة التي أخرجتها في أربع مجلدات .

وعبارة الإهداء هذه مقدَّمة مني بقلبي إلى صديقي وسميّي الأستاذ « عبد السلام محمد الناظر » أحد كبار رجال الأعمال والمال ، الذي يرجع عهد الصداقة به إلى أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، وهو الذي أشرت إليه بكلمة « السمي الكريم » ، وقد ذكرت ذلك في مقدمتي للبيان والتبيين .

وحرصاً مني على أن لا يتكرر مثل هذا اللبس أرجو كل من وقعت إليه نسخة من نشرتي هذه أن يشير إلى أنها من صنع كاتب هذا البيان .

عبد السلام محمد هارون

يتلفت إلى الله ويقول : أعطني هذا وأعطني ذاك ، ولكنه لا يرضى أبداً ، دائماً يريد ، دائماً يشعر بكآبة ، وإلهنا المسكين لا يملك شيئاً يعالج به الكآبة ، أعطانا كل شيء ، العالم والضوء والأم والأب والأخ والأخت والعم وأبناء العم ، وأعطانا البيت والضيعة والفرن والمائدة والسرير ، أعطانا إلهنا المسكين كل شيء ولا أحد سعيد ، كل إنسان هو كهذا الطفل الصغير المريض بالأنفلونزا ، كل إنسان يقول : أريد كعكاً محشواً . . .

وتوقف « مستر آرا » برهة ، وتنفس تنفساً عميقاً ، وزفر زفرة طويلة وهو يقول بأعلى صوته : ليس عندي كعك محشو . .

وتحرك مستر آرا قليلاً في ضيق وغضب ، وتناول كيساً من الورق وفتحه وأخذ يلتقط مما أمامه ويلقيه في الكيس :

— هاهو ذا برتقال ، أحسن برتقال ، هاهو ذا تفاح ، هاهو ذا موز . . وبأدب شديد وعطف صادق على الرجل وعلى ابن أخيه المريض بالأنفلونزا ، ناول الكيس الرجل :

— خذ هذا لطفلك ، ربما ينقطع عن بكائه ، خذ هذه الأشياء الطيبة لطفلك ، لا تدفع شيئاً ، لا أريد نقوداً . .

وعاد مرة أخرى فقال في رقة شديدة : ليس عندي كعك محشو . .

قال الرجل : إنه يبكي ، دائماً يبكي ، يصيح دائماً « كعك محشو ، أريد كعكا . . » أشكرك على كل هذا ، ولكننا قد أعطيناه تفاحاً وبرتقالاً وأشياء كثيرة أخرى .

ووضع الرجل الكيس على المنضدة وهو يقول : الطفل يصيح : « أريد كعكاً محشواً ، لا أريد تفاحاً ولا برتقالاً » . . معذرة ، سأسأل بقالاً آخر . . ربما كان عنده كعك محشو . .

همس مستر آرا : حسناً يا صديق ، كما تحب ، لتذهب وتسأل بقالاً آخر ، ولكن لا أحد عنده كعك محشو . .

وخرج الرجل في خجل ، وظل مستر آرا دقيقة كاملة واقفاً خلف منضدته يحدق في إثره .

جميل أحمد أمين

الفتـــــــاة المثقفة

الآنسة الزهرة

سيداتى .. آنساتى .. بناتى :

لقد شاءت إدارة هـذه المدرسة العالية(1) ، أن تجعلنى عنوان احتفالها الكريم ، وفى مرجوّى أن آخذ كن موضوعه الناصع ، ولقـد نظمت لى بذلك عقداً ثميناً ، وبودى أن أستميحها وأستميحكن عذراً ، لكى أعفى من هذا العقد الذى لا عيب فيه ، سوى أن جيدى يقصر عن مجاراة نفاسته . وها أنا فى أنف أمامكن لا لأنيط شكرى فى أعناق منتها وتلطفها ، بل إنسانة تجمعها بكن شركة الجنس والإنسانية ، ووحدة المطلب والغاية ، كما تربطها بخاليتكن فى هـذه المدرسة العزيزة ، لحمة الثقافة وصلة الأرومة ، لحضراتكن جميعاً منى وأنا منكن ، وحديثى إليكن الآن حديث القلب للقلب . ولو سئلت أن أحدد لكنّ غاية الإنسان من وجوده ، لقلت : « الثقافة » . ولو سئلت منكن : « ما الذى أعنيه بالثقافة لأجبت : « إنها السعى إلى اكتشاف جديد فى ميدان المعرفة ، والسير على أقدامنا ، والاهتداء إلى السبيل السوى حين يضطرب حبل الأمور . والثقافة شىء والتعليم شىء آخر . لأن التعليم تلقين المعلومات الحسية ، ووسيلة من وسائل الثقافة .

أما الثقافة فهى السبيل إلى التعمق فى الحياة ، لأنها مجموعة الاختبارات البشرية فى الفنون والعلوم ، وهى التى تكون الملكات بالمعلومات التى تملأ سوق الحياة ، والإحساس بأثرها الفعال فى جميع الأمور ، واختبار صدقها عن تجربة ، وسريانها فى العروق واختلاطها بالدم ، وارتباطها فى صميم النفس ، كالطعام الذى تتناوله فيختار منه الجسم ، وينظم فيه ويهضمه ، فيبنى منه ما تفرق من مركباته . فهى الثقافة التى تجعل من البصر بصيرة تفهم بها حقائق هذا الوجود وتلتذها ، وعندئذ تغدو الحياة فناً جميلاً . فنعيش ونحن نحس المسئولية أمام العالم ، تملأ ضمائرنا وتجيش فى أرواحنا وقلوبنا . ولقد كان أجلّ المثقفين شأناً ، رجل حداد بسيط ، صادفته فى بعض رحلاتى ، وكانت معلوماته المستقاة من الكتب ضئيلة محدودة ، وكان فى محيطه نكرة من النكرات ، ولكن شخصيته كانت تبرز جلية حتى ، فياضة بالنشاط والحيوية ، آمرة بصدق النظر ، وقوة التأثير وعظم الأثر . وما كنت تجادلين معه موضوعاً ، حتى كان يطالعك فيه باتجاه جديد — اتجاهه الخاص ، يعبر فيه عن رأيه المستقل الأصيل ، وإذ ذاك يريك منه الإنسان ، الإنسان بروحه — عالماً رحيباً تجتمع فيـه كل العوالم من منظورة وغير منظورة ، وليس لها وجود إلا فيه ، والإنسان إن عرف ما فيه ، عرف كل شىء .. وكان أقلّ من عرفت ثقافة ، أستاذ من الراسخين فى علم الطبيعيات ، ما تفتحت العين على مثله فى ميدانها ، وقد ترجمت تصانيفه فيها إلى جميع لغات العالم المتمدين . أما هو فكان تائهاً مغلقاً ، شبيهاً بصندوق يوشك أن يتصدع مما يكظه من المتاع . فكان رجلاً أجاد حشو عقله بالعلوم ، ولكنه لم يجد فى هذه العلوم ، المصابيح التى تنير آفاق نفسه المظلمة ، وتظهر ممكناته ، وكان مثله مثل رجل أضاع مفتاح بيته ، فراح يجمع مفاتيح من هنا ومن هناك ، ولما عاد بعد اغتراب طويل ، لم يجد فى مجموعته مفتاحاً يفتح به أغلاق بيته ، فظل خارجاً وظل طريداً شريداً ، ولم يكن نصيبه من جميع هذه المفاتيح ، سوى التعب والشقاء والحسرة والغربة . ومن أجل هذا لا أسأل الفتاة الطالبة ، هل تحمل على ظهر لسانها المعلقات العشر ، والإلياذة وشكسبير ، وديوان لامارتين ؟ أو هل تحيط بعلوم المتقدمين والمتأخرين ، وتلم بتاريخ الملوك والأباطرة البائدين ، أو تحيط بتخطيط البلدان والأقاليم ، أو تستوعب النظريات الهندسية ، أو تعى أسرار الذرة الخفية ، لأن الفتاة المثقفة هى التى تستطيع أن تكيف الجو الذى تعيش

(1) فى حفلة اليوبيل الذهبى لمدرسة البنات الأمريكية العالية بالأقصر .

فيه ، وهي التي تجد في الدين دستور حياتها المؤلف من ثلاثة أضلاع : أولها القانون الإلهي الأزلي ، والثاني الضمير ، والثالث قانون البلاد .

وهي التي تحفظ التوازن التام لحساسيتها ، وتسيطر على المؤثرات الخارجية ، والانفعالات الغريزية ، فلا تستسلم للعواطف والأهواء الجارفة .

وهي التي تحقق استخدام زينتها للتعبير عن ذاتها المعنوية ، واستجلاء جمالها بمظاهر بسيطة تناسب الذوق السليم المتمدين ، والفطرة الصافية المحتشمة . وكل فتاة في الدنيا تحب أن تكون جميلة .

والمثقفة تعلم أن الأنوثة في ذاتها ، لا تخلو من مظهر جاذبية وجمال ، فتبديه على شكل جسمها وثيابها ، وعلى حركاتها وسكناتها في بساطة بالغة التأثير ، فلا توارى ما في نفسها من رشاقة الأطفال ، ومرحهم وسلامة قلوبهم ، وصدق حبهم — جسمها صحيح ريان ، وبشرتها رقاقة وضيئة ، وشعرها حسن التنظيم والترجيل والتصفيف ، يلائم ملامحها ، وقدها أهيف ممشوق ، وجبينها مشرق ، وعيناها تتلألآن حياة وطهراً ، وعلى ثغرها ابتسامة الرضى صادرة عن قلب سليم ، في كل شيء فيها روعة من الجمال البسيط المهذب ، هي أبلغ في التعبير من كل ما في العالم من جوهرات كريمة وثياب نفيسة وروائح ذكية وأصباغ باهرة ، هي حينئذ المثل الأعلى للجمال ، والغاية التي تنتهي إليها مرتبة الأدب والكمال ، تجمع إلى جمال الظاهر جمال السيرة ، إذ تجمل ذهنها حالياً لإدراك الحياة العملية الصحيحة ، فهي تلميذة مدرسة الحياة ، وهي اخصائية في فنون هذه المدرسة ، وهي البصيرة بآداب المجتمع ، كيف تجلس ، وكيف تمشي ، وكيف تأكل ، وكيف تشرب ، وكيف تستقبل ضيوفاً ، وكيف تودع ضيوفاً ، وكيف تحادث من حولها وتجاملهم وتواسيهم ، وهي القادرة على الإحاطة بكل مهمة تتعلق بالبيت والأسرة ، ويكفي أنها الزهرة الجميلة في بستان البيت ! في واجبها كامنة أن تنظر إلى إخوتها بعين الحنو ، وتكون لهم مثالاً طيباً في السلوك والتفكير والمعاملات ، وتكون لوالديها الابنة البرة والخدوم الطيعة والبذول الودود ، وهي كزوج ملاك رجاء لزوجها وأمنية حبه ، تشاطره أفراحه وأتراحه ، وتوفر له أسباب الراحة والصحة والهناء ، والحياة ، وتقوم بواجباتها في شئون المنزل الداخلية ، كما تريد أن يقوم بواجبه في شئون المنزل الخارجية ، وتحسن التوازن بين إيراده ونفقاته ؛ فلا تكون « كمديرة هانم » التي قالت لزوجها ذات يوم : « بلاش تشترى بدلة سبق السنة دي ، وبلاش تشترى جزمة ولا تشتراشولا كرافتات ، والشكل ده يبقى عندنا فلوس علشان نشترى كلب لولو ! » .

وهي التي تتجنب الإسراف فتعرف كيف تكون غنية لا بالمال الذي تملكه ، بل بما تستطيع أن تستغنى عنه من المشتريات ، إن الزوجة هي الركن الأساسي الذي يقوم عليه مجد بريطانيا العظمى ، ومع ذلك فإن الانجليزي لا يشرك امرأته في أعماله الخارجية ، كما أنه لا يتدخل في شئونها المنزلية ، وكثيراً ما يحدث أن يأتي الرجل إلى بيته ويقول لزوجه ، لقد أضعت ثروتي وسنسافر غداً إلى أستراليا لاكتساب رزقنا فيها ، أو لقد انتدبتني الإمبراطورية لمهمة في أدغال أفريقيا الموحشة ؛ فتبادر إلى تأييد صدق « لورد دربن » في قوله : « إننا معشر الإنجليز إذا أردنا أن ننتدب رجلاً لمهمة خطيرة أو منصب جليل سألنا عن صفات زوجه أولاً لا عن صفاته » . وتمضى معه راضية مسرورة .

لا تنادى بالويل والثبور لهذا التغيير الصاعق ، ولا تطالب الحكومة بأن تمنحها بدل اغتراب أو تعويض تضحية ، بل تعرف كيف تستفيد بما لهذا التغيير من مزايا لم تكن تحلم بإمكان وجودها في ذلك المحيط المخيف . وتؤمن أن كل شيء في هذه الحياة مهما يجيء على غير المراد ، فإن فيه جدوة من الخير ، وحينئذ ينفتح القلب للحياة بعد استكراه ، ويمتلىء غبطة وقوة ، والعواطف كالعضلات تنمو بالتمرين وتحيى على البقية بالإجهاد حقاً .

إن المثقفة هي التي تقول لزوجها عملياً في الغربة والمخاوف إنها ترضيه شريكاً لحياتها ، إذا كان لا يعرف الحياة إلا مصارعة ، ولا العيش إلا مثابرة ، ولا ملاقاة الخطوب إلا جهاداً غلاباً ، ولا الموت إلا سقوطاً في حومة الواجب المقدس والعمل النبيل .

وهي كأم تقوم بتربية أطفالها بنفسها ، وتسهر على تعليمهم ببصيرتها ، كما تسهر عليهم بباصرتها ، وتشبع أرواحهم وعقولهم كما تغذى أجسادهم وأعصابهم ، وتدرس الأطعمة الصحية وتعرف

علاقتها بتكوين الأخلاق والشخصية وتجديد الأنسجة والحيوية ، وتؤلف بين عناصرها الطائفية النافعة لكي لا يسوء تفاعلها في الجسم ويدمره . وتعلمهم أن يترعرعوا في بساتين الحياة ليكونوا أشجاراً وارفة ، ثمارها مرضاة الله ومحبة القريب والغريب ، وتنزيه النفس عن كل أمر معيب ، والنهوض بالعمل الصالح . والمثقفة — ابنة كانت أو اختاً أو زوجة ، تجعل البيت فردوس نعيم أرضي لذويها ، وتهيء لهم به منازل كرامة لا يهدم بنيانها ، ولا تتقوض أركانها ، وحياة موفورة قوامها المفاداة والصداقة والإخلاص المتبادل .

والمثقفة هي التي لا يأخذها الغرور ، فلا يرتبك محدثوها في محادثتها ولا تشمخ على جليسها بسعة المعارف وجمال الخلق والخلق أو بذخ الجاه ، ولا تساجل غيرها في الفخر وتتبجح على صويحباتها وقريباتها بألقاب أبيها الباشا أو زوجها صاحب العالي أو شقيقها سعادة البيه المدير أو ابن عمها صاحب العزة . والمثقفة هي التي تجيد التحدث بلغتها في سلامة ووضوح لتستطيع الإعراب عن نفسها على أفصح وجه ممكن . والمثقفة هي ذات الصوت المهذب فلا تدفعه رغباً من حلقها فيخرج عالياً مخنوقاً ، ويجعل المرء يتمنى لو افترض ضريبة على الألفاظ إذا أرسلت بصوت صارخ . والمثقفة هي التي تدير بين فكيها لساناً أحلى من الشهد ، يسري بحديثه عن الخواطر ويجد فيه السامع ترياق الهموم . وهي التي تجيد المناقشة التي تمزج بأجزاء النفس ، وتتوخى الدقة في الرقة وتزن الكلام وتحسن الجواب وتحوز بالإقناع في الموقف العصيب . إن الحاجة نبيهة أحمد حسنين ناظرة مدرسة الفيوم الابتدائية للبنات قد رأت يوماً إحدى تلميذاتها لا تمالك نفسها من البكاء في ثورة سنة ١٩١٩ ، فسارعت إلى مخيم الماجور الإنجليزي لتذود عن أم تلميذتها واثنتين من قريباتها ، إذ قبض عليهن وأودعن السجن بسبب أزواجهن المتهمين بتهريب السلاح .

وما تحدث من الضابط الذي لم يقف لمصافحتها ، قالت : « يظهر أن الإنجليز في مصر ، غير الإنجليز في إنجلترا . ففهم مرادها ، وقام وقدم لها مقعداً ، ولكنها أبت الجلوس وقالت : « لقد جئت إليك بخصوص السيدات المعتقلات » . فأجاب : « إني لا أعتقلهن بأمري ولكن بأمر أزواجهن الهاربين ، متى عادوا وسلموا أنفسهم كان هذا أمراً منهم بأن أفرج عنهن في الحال » . فقالت الناظرة : « إن هذا ليس من خلق الإنجليز » . فقال : « ولكنه من خلق الهاربين » . فقالت : « ستنتهي الثورة ، وستعود أصدقاء ، ولكن التاريخ لن ينسى أنكم سجنتم نساء في القرن العشرين ، وأؤكد لك أنك لو استشرت أي انجليزي في عملك هذا لما أقرك عليه » ! فقال الماجور : « لا تتعبي نفسك ! » وقالت الناظرة : « لا أقل من أن تسمح لي برؤية السجينات » . وقادوها إليهن . وفجأة دخل الماجور وقال : « لقد قررت أن أفرج عن المعتقلات ، وسيخرجن معك الآن ، وتتولى توصيلكن سيارة انجليزية » . فقالت الناظرة : « إني أحيي فيك الرجل المتمدين الذي لا ينسيه عداؤه إنسانيته » . فقال الماجور : « وأنا أشكرك . ولكن أرجو أن تعديني بشرفك أن تبلغي كل ما يصلك عن الهاربين » . فابتسمت الناظرة وهي تقول : « وهل ترضى أنت عن هذا الوعد ؟ أو هل تستطيع أن تعتمد على مثله » ، ومضت بهن . ولم يقل الضابط الإنجليزي شيئاً .

والفتاة المثقفة هي التي تستطيع بعد أن تترك المدرسة وتدخل إلى معترك العالم ، أن تجد نفسها أكثر علماً ، وأبعد نظراً ، وأقوى إرادة وحظاً من الرجل ، وإنها لتثور على البالي من الأوضاع ، إلا أنها تأبى أن تتخذ من ثورتها طفرة طائشة ، بل تجعلها نشاطاً رزيناً مطرداً ، في ناحية من ناحية كفاحها المنظم ، لا تستغرقه كله ، ولا تستنفد معه قواها جميعها ، وإنها لتقتحم على الرجل ميدان العمل ، فلا يجد الرجل فيها مزاحمة ، ولا يجد بداً من احترامها ، فيقف ذاته على خدمتها ، ويبذل راحته في سبيل هنائها ، ويجد نفسه سعيداً إذا رأى حبات العرق الصبية على جبينه قد تبلورت وتحولت إلى حجارة كريمة تزدان بها أصابع زوجه أو نحر أخته أو أذن ابنته ، لأنه يعلم أن المرأة بطبعها لا يشغلها إلا وليدها رضيعاً وكهلاً ، ولا تؤثر في الدنيا مشغلة إلا معاونته على البر بالوطن عن طريق البر به هو ، وإلا مشاركته في تنظيم أوضاع المجتمع الذي تمثل نصف حياته ، وتقف من ورائه ، قوة القوى التي تدعم قوته وارتقاءه ، وتغذي عظمته ونهوضه ؛ ولئن كان في مقدرة

المرأة ، أن تتولى كل عمل يوكل إليها في غناء وكفاية ، إلا أن الأمم الناضجة التي آمنت بتساوي الجنسين في جميع الحقوق ، قد عرفت بالاختبار ، أن أكثر الناس نجاحاً في الحياة هم الذين ينهضون بأعمال تطابق فطرتهم الأصيلة ، واستعداداتهم وملكاتهم الطبيعية . ويجاهر كبار الساسة الغربيين بأن المرأة عندهم قد أعطيت حقوق تساويها من حيث الوظائف السياسية والمدنية فضلاً عن الاجتماعية والأدبية ، ولكن إشرافها وعملها يكونان أقوى في دوائر البيت وهو مركز سلطان الأنثى قبل كل شيء . وإنها بعد أن بلغت مناها في مزاولة حقوقها الدستورية ، قد استقرت مطمئنة إلى إدراك التزامات هذه الحقوق بإزاء وظيفة سلطانها الطبيعية وتفانت في أدائها على الوجه الأكمل .

سيداتي ..

إن من دواعي الحمد لله أن أشهد بأن هذه المدرسة العظيمة ، قد حرصت على تهيئة الجو الثقافي لطالباتها ، وظلت تحمل رسالتها العليا مدة خمسين سنة في أمانة وصدق ومثابرة وإيثار . ولما كانت العبرة في وسائل التربية وطرق التعليم لا بالمناهج الجذاب ، فيكفيني فخراً أن أناديكن بلسانها بإخريجات هذا العلم قائلة :

وعادة السيف أن يزهى بجوهره
وليس يعمل إلا في يدي بطل

فهيا إلى الاستجابة لندائها الذي يخاطبكن بلسان الرسول الحكيم قائلا :

« ليكن كل واحد بحسب ما أخذ موهبة ، يخدم بها بعضكم بعضاً كوكلاء صالحين على نعمة الله » .

إنكن واقفات على عتبات فجر جديد ، كافح في سبيل انبثاقه ذلك البطل الشهم المقدام قاسم بك أمين محرر المرأة الشرقية . وإني لأطلب إليكن الآن أن تقفن وتنحنين باحترام مدة دقيقة واحدة اعترافاً بفضله ، ووفاء لذكراه المجيدة التي تقام في الثالث والعشرين من هذا الشهر .

أجل . إنكن واقفات أمام فجر جديد ، يطالبكن بطاقة جديدة ، وبقوة جديدة خلقها الكفاح الطويل والتقدم الملموس وأطلقها للعمل ، وها هي في تصاعد وتقتحم كل مجال ، والحياة أمامكن ، فسرن نحو الغاية المقدسة وانظرن ألا تنسى أنداءكن العشب إلا لتتفتح في إثرها الورود . فإذا سألكن ربكن حساباً عن الفسحة التي قسمها لكن من العمر فلتقلن : « اللهم إنا طلبناك في أنفسنا فأعطنا أن نراك في كل نفس » .

لئن عجزت عن شكر برك فوقي
وأقوى الورى عن شكر برك عاجز
فإن شأني واعتقادي وطاقتي
لأفلاك ما أوليتنيها مراكز

واذكرن أن الثلثين من شعب مصر هم من الفلاحين المزارعين ، وأن أختكن الفلاحة تعيش وراء ستار حديدي من الجهل والعوز والمرض وما يستتبعه ركود التقاليد وجمود العزلة . فعليكن أن تمزقن هذا الستار إلى نصفين ، وتغرسن بذور المعرفة والنور في تلك الدنيا القاحلة التي يطبق عليها الظلام ويعجز عنها ري الثقافة ، فإذا هي قفر من جميع مظاهر الإنسانية الحقة .

ليكن شعار حياتكن شعار ذلك الذي رسم يداً ممدودة تقبض على قلب ملتهب بالنار وهو يبتهل مخاطباً الجلال الإلهي بقوله : « أقدم لك كل شيء ، لا أحجز شيئاً » .

فانظرن ماذا تكون حياتكن . أنظرن أن تكون في قلوبكن آمال الربيع ، وخيرات الصيف وسلام الخريف وطمأنينته ، وقوة الشتاء وصبره . أنظرن ألا يبقى بينكن وبين الفجر الصحيح ، إلا أن تبرهن كل منكن بالمعنى الجميع الذي يدركه العالم الرصين من كلمة الفتاة المثقفة . أفقها واسع رحيب كالجنة ، ونشاطها وديع كالعدل ، وسلوكها نزيه كالقانون ، وحياتها سجل للنهضة والارتقاء ، وتصرفاتها رسالة مقروءة رائعة ، وخلقها قوة خالقة مبدعة ، وكفايتها ثروة منقذة خالدة ، وآراؤها نفوذ آمر آسر ، ومساعيها حياة طاهرة موفورة تفيض بالإيثار والكفاح لتأييد قضية السلام العالمي . ولتسير قوى البلاد الإنتاجية نحو خير الشعب وحريته وسعادته ، وتوجيه مختلف الأمور إلى مجال العظمة والعظائم .

واذكرن كما هللت لكن الحياة بالفوز ، أن اليد التي تصفق هي يد الرئيسة الفاضلة التي أعدتكن لهذا المجد وأيدي المعلمات الساهرات اللواتي مزجن قواهن بمواهبكن فتجلت منكن هذه الثقافة الممتازة والشخصية النيرة .

الزهرة

النقـــــاب ودلالته ...

ترجمة الأستاذ مبارك ابراهيم

النقاب هو الخمار كالكتاب ، وهو القناع ، وهو الحجاب ، وهو البرقع ، وهو النصيف الذي أشار إليه النابغة الذبياني في قصيدته فقال :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه
فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب رخص كأن بنانه
عنم على أغصانه لم يعقد

قال الكاتب :

ليس في هذه الدنيا منظر هو أحلى وأفتن من منظر عروس جميلة في نقاب عرسها .

وليس النقاب في حفلات الزواج وقفاً على البلاد الأوربية ، بل إنك لواجده في الصين ، وبورما ، وكوريا ، ومنشوريا وإيران ، وفي ممالك أخرى .

وقد تختلف العادات ذات الصلة بالنقاب في تلك البلاد عنها في بلاد أوربا .

فالعرائس في (كابودوشيا) مثلاً مجبرات على ارتداء النقاب أربعين ليلة بعد الزواج .

وفي الصين لا يرى العريس عروسه حتى ينزع نقابها الحريري الأحمر الذي ترتديه يوم تجيء إلى بيته .

والنقاب الذي ترتديه العروس في انجلترا هو في زعم الزاعمين مأخوذ من المظلة التي يرفعها اليهود في حفلات أعراسهم ، ولو أن الفرض الأقرب للعقل هو أنه مأخوذ من البخنق الذي كانوا يرتدونه في الأزمنة القديمة .

ونقاب العروس له دلالة هي أعمق أثراً وأبعد غوراً مما يبدو في ظاهر الأمر ، فإن موسم الزواج لدى الأقوام البدائيين هو ذلك الوقت الذي تكثر وتنتشر فيه الأرواح الشريرة . وهو الوقت الذي يجب أن يعنى فيه العناية كلها بإبعاد أسباب الشقاء وتقريب دواعي الهناء في الحياة الزوجية وما يستتبع الزواج الهنيء من كثرة في الأولاد .

فلا عجب أن يعنى القوم كل العناية بأمر العروس . فتحمل إلى بيت زوجها — وهي منتقبة من الرأس إلى القدم — في هودج قامت حوله ضجة ، وصحبته طلقات البنادق . وهم يقصدون بتلك الضجة أن يخيفوا الأرواح الشريرة ، وأن يحولوا بين العروس وبين نظرات حسودها ، فقد تكون تلك النظرات مصدر شر وأذى في تلك الفترة الحرجة ، فترة العرس . وقد اعتادت العرائس الكاثوليكيات في إكوادور أن ينتقبن نقاباً كاملاً حتى يصلن إلى المحراب في الكنيسة . فإذا بلغن ذلك المحراب أمن شر العين الحاسدة فأزحن عن وجوههن النقاب .

وفي ماليزيا تحمل العروس إلى بيت بعلها في غلالات من الخضر ، ويروّح عليها بمراوح من سعف النخل توجّه إلى وجهها ، حتى لا تقع عينها على واحد من النظارة الغافلين فتسحره .

وكانت عرائس الجبل الأسود ينتقبن أشد نقاب ، إذا جاء الرجال لنقلهن من بيوت آبائهن إلى بيوت أزواجهن ، حتى لقد قيل مرة : إن عروساً حلت مكان أخرى مصادفة واتفاقاً . ذلك لأن العريسين لم يكونا — بالطبع — قد رأيا عروسيهما من قبل أبداً .

وقيل في تعليل هذا الخطأ إن العروسين كان عليهما وقد جاءتا من مكان بعيد — أن تقضيا الليل في سفح الجبل وبانت كلتاهما في مخيم واحد . وفي الصباح ذهب كل عريس بعروس صاحبه . ثم زُفّت الفتاتان فوراً وصولهما إلى بيت الزوجية . ولما كان القوم لم يروهما من قبل فقد ظل الخطأ قائماً بضعة أيام .

والرجل البدائي يؤمن بالنظرة أو بالطائف من الجن ، ويرى أن النظرة تنقل بالعدوى . ومن أوهام المصدقين بهذه النظرة قولهم : إن الروح قد تهرب أو قد تسحر بطريق الفم أو بطريق الخياشيم . ولذلك فإن سلطان دارفور بالسودان قد اعتاد أن يلف وجهه في نقاب رقيق ، وبخاصة تينك الجارحتين الظاهرتين ، وهما الأنف والفم .

ولذلك أيضاً فإنّ سلطان وادای وسلطان بورنو يتكلمان من وراء حجاب .

ومن أجل ذلك أيضاً فإنّ رجال العرب ونساءهم الملاح الوجوه يغطّون وجوههم اتقاء شر النظرة الحاسدة .

ويقول الرجل من أهل الجبل الأسود إذا أراد أن يعبر عن نجاته من هلاك محقق : إنّ روحى كانت فى أنفى الوقت كله . بينما تعمل النساء السافرات — إذا فوجئن بنظرة من رجل غريب — على حشو أفواههن بشىء ما ، حتى لا تسحر أرواحهن .

ويطلق اسم الطوارق — كصيغة من صيغ الاسترذال — على بعض الأقوام الرحل الذين يسكنون الصحراء الكبرى ، وهؤلاء الطوارق وإن كانوا مسلمين اسماً ، إلا أن نساءهم لا ينتقبن . وهن يستمتعن بقسط وافر من حرية التصرف .

والنقاب لدى أولئك الأقوام يرتديه الرجال ، وقوامه شريط رقيق من النسيج يلفونه حول رءوسهم بطريقة تخيل للرائى أن هذا النقاب « برنس » يغطى الجبين والأنف والفم ، تاركا ثغرة صغيرة للعينين . وهم إذا لبسوا النقاب ظلوا عاكفين على ارتدائه طوال حياتهم ، وهم يبدأون بارتدائه فى العشرين من عمرهم ، ولا يزعونه إذا أكلوا أو ناموا ، أو ... ماتوا . .

وإذا أراد رجل من الطوارق خلع نقابه نظر حوله ليستيقن أن أحداً ليس حاضراً .

وفى الحق أن النقاب يقصد به عند هؤلاء الطوارق إلى الوقاية من أفاعيل القوى الخارقة للطبيعة التى قد تصيب أولئك المحاربين المروعين بشدة البأس فى الحرب ، والذين يسمون بالملثّمين .

ويمكن أن يندرج تحت قائمة النقاب تلك الطلة التى يرفعها اليهود فى أعراسهم .

هذا وقد فرضت كتب الأديان على النساء أن ينتقبن ، وذلك منذ العهود القديمة ، ولذلك كان النساء المسيحيات ينتقبن إذا ذهبن إلى الكنائس ، وقد بقى من آثار هذا النقاب عادة لبس النساء القبعات فى الكنائس ، فى حين أن الرجال يخلعونها .

والراهبات المترهبات يرتدين النقاب . وفى أسبانيا تلبس النساء تلك الطرحة من القرّم الأسود كآية من آيات احترام بيوت الله . ومن ثم نشأت عادة العرائس الاسبانيات أن يلبسن ليلة العرس لباساً من الحرير الأسود .

وكذلك يرجع أصل النقاب الأسود الذى ترتديه النسوة الأرامل إلى أصل دينى ، ذلك أنه كان يشترط فى العصور الوسطى أن تلجأ الأرملة إلى الدير علامة الحزن لا قصد الترهب .

ويشترط الدين الإسلامى على النساء أن يعشن فى عزلة من الرجال وأن ينتقبن . وقد ذكر هذا بوضوح فى القرآن الكريم : —

(يا أيها النبىّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدنين عليهنّ من جلابيبهنّ ذلك أدنى أن يعرفْن فلا يؤذين) .

(وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهنّ ، ولا يبدين زينتهنّ إلاّ ما ظهر منها وليضربن بخُمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلاّ لبعولتهنّ أو آبائهن أو آباء بعولتهنّ أو أبنائهنّ أو أبناء بعولتهنّ أو إخوانهن أو بنى إخوانهنّ أو بنى أخواتهنّ أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهنّ أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) .

والنساء فى التركستان لا يذهبن إلى الأسواق إلاّ متخذات نقاباً مصنوعاً من شعر الخيل الأسود. وهذا الصنف من النقاب يصنع بكثرة فى مدينة بخارى . وهنّ يرتدين فوق هذا النقاب قباء مزرّر الأكمام .

وكذلك نساء اليهود فى بخارى يرتدين هذا الزى مخافة أن يُظن أنهنّ مسلمات خارجات على القانون فيالقين النقاب .

ونساء المدن فى مصر كنّ يرتدين النقاب وكنّ يغطين خُمُرَهنّ فى الجنازات ، وهى عادة ذكرها الإنجيل ، وكانت متبعةً عند الأقوام القدماء .

والفلاحات المصريات لا يحسن بالسعادة الكاملة إلا إذا انتقبن .

والنساء فى إيران لا يخرجن إلاّ وقد لفهن قباء أسود اسمه « الشادار » وإلاّ إذا غطّين وجوههن بنقاب من الحرير الأبيض .

وأولئك النساء يؤمن بشر العين الحاسدة ، ولذلك فهن يلبسن التعاويذ والرقى لتحميهن شر الحاسد والحسد .

وكانت تركيا فيما مضى الملاذ الروحى للدين الإسلامى ؛ ذلك لأن الخليفة كان بينه وبين النبى (ص) رحم ماسة ونسب قريب .

والمعروف أن القرآن يجيز للرجل أن يتزوج أربعاً من النساء ، هذا بخلاف ما ملكت يمينه من السرارى ، ولكن قلما نجد رجلاً من الترك يمسك فى عصمته أكثر من زوجة واحدة ، يستوى فى ذلك الغنى والفقير ، ذلك لأن كل بيت من بيوت الترك ينقسم قسمين : الحرملك والسلاملك ، والأول قد أعد للحريم ، والثانى للرجال .

وشروط دخول الحرملك هى شروط قاسية حتى على الزوج نفسه ؛ فهو لا يستطيع اقتحام « الحرملك » ، إذا رأى على عتبة الباب حذاء من أحذية النساء .

وإذا غادرت الهانم التركية بيتها ارتدت قباء أو فراجية ، وهو ثوب يغطى الجسم كله إلى الكعبين ، ثم وضعت « اليشمك » فوق وجهها .

ومن الخطأ البالغ ، ومن المغالطة فى الحقائق ، أن يظن ظان أن المرأة المسلمة تعيش عيش الذل والمسكنة بين جدران البيت أو بين زوايا « الحرملك » ، إذ الواقع أن الدين الإسلامى يحمى المرأة إلى أقصى حدود الحماية ، ويصون حقوقها كاملة عند الطلاق .

وفى أفغانستان خطا الرجال المتقدميون بالنساء خطوات واسعة فى سبيل التحرر من أسر النقاب ، ويظن أن هذه الحركة التقدمية كانت السبب الأول فى خلع الملك أمان الله ، ولكن العاهل الحالى لتلك البلاد يؤيد اليوم حركة تحرير النساء ، على حين أن القوم فى بلاده يفضلون البقاء على ما وجدوا عليه آباءهم .

والحال يختلف نوعاً ما فى تركيا ، إذ بسقوط الخلافة تزعزعت الأسباب الداعية لعزلة النساء . وقام مصطفى كمال بحرر النساء ، وجعل امرأته تظهر فى المجامع سافرة . ولكن السفور فى تركيا الأسيوية كان يمشى مشياً وئيداً . والمظنون أنه بسبب بطء سير الحضارة ، وعسر اجتناء فوائدها ، لن يختفى ما خلفته الأجيال المتقادمة بين عشية وضحاها .

أما فى الهند الحديثة فإن معركة الحرية وبلوغ الأهداف الوطنية فى الهند البريطانية قد أنالا المرأة الهندية — على اختلاف أديانها — قسطاً من السفور ، فجعلاها تهجر النقاب وتتخلى عن حياة الحريم . ولكن الغالبية العظمى من نساء الهند لا يزلن يحيين حياة العزلة . ومن النساء المسلمات من إذا صورت بالفوتوغرافيا أصبح زوجها فى حل من طلاقها ، لأن الصورة قد يراها رجل غريب ...

وبعد ، فإن تاريخ النقاب ما زال يحوطه الغموض . ولكن لا شك فى أن هناك صلة متينة ، وارتباطاً وثيقاً بين النقاب وبين أسرار الزواج ، وغوامض الطقوس ، والعين الحاسدة ، وعزلة النساء ...

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم

الخس

الأستاذ عبد الرزاق نوفل

نباتات الخس تعتبر من أقدم الخضر التي عرفت ؛ فقد وجدت رسومه على مقابر قدماء المصريين ، ووجدت بذوره فيها ، وكان رسم نبات الخس ليرمز إلى خصب الأرض ، ويقال إن عمره كمحصول خضري يرجع إلى حوالي ألف سنة قبل الميلاد ، وهو يزرع لتؤكل أوراقه طازجة ، أو مع غيره من الخضر كسلاطة ، أو تحشى أوراقه كورق العنب .

ويوجد من الخس أصناف عديدة تبلغ حوالي مائة صنف ، إلا أنها تصنف تحت أربعة أنواع رئيسية هي :

١ — الخس البلدي : ويمتاز بطول أوراقه وعرضها والعرق الأوسط غزير العصير كثير الحلاوة ، ومنه الخس البلدى .

٢ — الخس الروميني : وهو أقل حلاوة من البلدى ، وأوراقه أرق .

٣ — الخس اللاتوجا : ورأسه مندمج ، لذا فهو قريب الشبه بالكرنب ، وبه مرارة خفيفة .

٤ — الخس الشرشر : ويميز عن غيره بأن أوراقه مجزأة الجوانب .

ويوجد صنف من الخس اسمه : « خس الزيت » يعرف بلونه الأخضر القاتم المشوب بحمرة خفيفة ، ونباتاته أطول من الخس البلدى ، وبه مرارة شديدة ، وهذا النوع يزرع بالصعيد الأقصى ، لا سيما مديرية قنا ، من أجل بذوره التي يستخرج منها الزيت .

وتزرع شتلات الخس البلدى من أكتوبر إلى يناير في الأراضي الطينية الخفيفة ، أما الأنواع الإفرنجية فتزرع طوال العام في الأراضي الصفراء الطميية ، وتنضج النباتات بعد ٧٠ — ٩٠ يوماً ، ويعطى الفدان حوالي ٤٠ ألف نبات ، وتظهر الأنواع البلدية في السوق من ديسمبر إلى مايو ، أما الأنواع الإفرنجية فتظهر طوال العام .

ويحتوى الخس على كمية وافرة من الكربوإيدرات تبلغ ٩ر١٤٪ وبه ١ر١٪ بروتين و ٣ر٠٪ دهون زيادة على الماء والألياف والرماد ، وبكل مائة جرام من الخس ٣٦ مليجرام كالسيوم و ٣٠ فسفور ، وبه كمية من الحديد ، وتفيد هذه الأملاح في تنبيه الأعصاب والمراكز العصبية ، كما أنها من المواد الأساسية في تكوين العظم وتقويته ، وتعتبر هامة في تركيب الجسم .

والخس غني جداً بالفيتامينات ، فبه كمية كبيرة من فيتامين (ا) وهذا الفيتامين له تأثير كبير على شبكة العين ، وقلته في الجسم تسبب مرض العشى (عمى الليل) ، كما أن وجوده يقي الجسم من الالتهابات ، لا سيما التهاب الأذن والكلى .

وبالخس كمية غزيرة من فيتامين (ح) إذ يحتوى كل مائة جرام من الخس على ٢٠ مليجرام من فيتامين (ح) وانعدام هذا الفيتامين في الجسم يسبب مرض الاسقربوط ، ومن علاماته وجود دوائر سوداء حول العينين ، وشحوب اللون ، وفقد الشهية واضطراب الهضم ، ونزيف الأنف مع الصداع ، وتكرار أمراض اللثة ، والشعور بالتعب من أي مجهود ، وأكل الخس يعطي الجسم مناعة ضد هذا المرض ويشفى المريض به ، كما أن الخس يزيد من مقاومة الجسم للأمراض المعدية .

أما فيتامين (ب) فيوجد بالخس كمية متوسطة منه ، وهذا الفيتامين يقي الجسم من التهاب الأعصاب ومن كثير من الاضطرابات العصبية ، كما أن انعدامه من الجسم يسبب الهزال ونقص الوزن .

ويمتاز الخس عن غيره من الخضر بفيتامين (ه) الذى عرف وجوده به أخيراً ، وهذا الفيتامين ضد العقم ، إذ قد لوحظ أن تعدد الإجهاض في الأنثى يرجع إلى نقص الجسم

فى فيتامين (ه) ، كما أن انعدامه فى الذكور يمنع خصوبتها ، ولذا فهو يعتبر فيتامين الإخصاب . ولما كانت الكمية الموجودة بالخس منه كمية وافرة ، فإن تناول الخس مفيد جداً فى حالات العقم ، كما أنه يمنع ويقى من الإجهاض المتكرر.

هذا ولما كانت كمية الماء الموجودة بالخس كمية كبيرة ، فالخس البلدى يحتوى على ٨٢٫٣٪ ماء ، والخس لاتوجا يحتوى على ٩٤٫٣ ٪ فهو يعتبر مرطباً لا سيما فى الصيف ؛ والصنف اللاتوجا يوجد طول العام . ويشتد الاقبال على الخس خصوصاً فى مواسم الخماسين ، وياحبذا لو أمكن العناية بالطلب عليه وجعله من المواد الأساسية فى السلاطة .

ويعتبر الخس من ضمن المواد التى تساعد على هضم الطعام وطرد بقاياه من الجسم ؛ فعصيره يرطب الأمعاء ويمنع تجمع بقايا الأكل وجفافه ، وينشط الحركة الدودية للأمعاء ؛ ولذا فهو يمنع الإمساك ويساعد على تنظيم إخراج الفضلات وقضاء الحاجة .

ولما عرف الأجانب مالى الخس من فوائد عديدة للجسم أقبلوا عليه وأفردوا له مكاناً دائماً فى وجباتهم ، بل إن بعض المقاهى الكبرى فى مصر أصبحت تقدمه لروادها كالشاى أو القهوة أو العصير ، ولعل الوقت الذى يعم فيه فى كافة المقاهى والمنتديات يكون قريباً .

ولما كانت نباتات الخس قريبة من الأرض ، وكثيراً ما تسمد بالأسمدة العضوية ، لذا فهى كثيرة التعرض للتلوث بميكروبات الأمراض الخاصة بالقناة الهضمية وأهمها الدوسنتاريا والتيفود — ويجب العناية بغسلها فى الماء الجارى عدة مرات ، وأفضل من ذلك غسلها بمحلول برمنجنات البوتاسيوم بنسبة جزء برمنجنات إلى خمسة آلاف جزء من الماء ، ويحضر ذلك المحلول بإذابة قرص من البرمنجنات (القرص ثلث جرام عادة) فى لتر ونصف ماء ، ثم تغسل النباتات بعد ذلك بالماء الجارى ، فبذلك يمكن التيقن من خلوها من الميكروبات .

عبد الرزاق نوفل

نقد

على نقد الهوامل والشوامل

للأستاذ السيد أحمد صقر

لم يدهشني شيء قط ما أدهشني نقد كتاب « الهوامل والشوامل » للأستاذ الجليل عبد السلام محمد هارون ، وما سررت بشيء قط ما سررت به ، فقد أكب الأستاذ عليه إكباب الحريص حتى بلغ الغاية ، وحتى تركني حائراً بين تقديري لفضله وشكري لإحسانه ، وهو أهل الفضل والإحسان إن شاء الله . وقد بدا لي أن أسكت عن هذا النقد الضخم ، لأني نظرت فيه كأني غريب عن الكتاب وكأني لم أشترك في نشره ، ولولا آخر كلمة قالها الأستاذ : « لم يعد النقد الأدبي كما كان بالأمس تجريحاً وتشهيراً بالمنقود ، بل آن أن نصطنع الجد فيما يمس أقدار الأدباء وكرامتهم العلمية ، فإن المثار أمس يعرض للأدباء جميعاً ، لا يرتاب في ذلك إلا مفتر ، أو ذاهب العقل ، أو متهالك النفس » . وهذا كلام حسن معجب ، حملني على أن أنصف الكتاب المنقود ، فإن له من القدر والكرامة ما للأدباء الذين تولوا نشره .

ذكر الأستاذ في كلمته ثمانية وثلاثين مأخذاً ، أحببت أن أستقريها حتى لا تضيع الفائدة التي ابتغاها أستاذنا في تصحيح النص المنشور .

بيد أني وجدت من هذا العدد الضخم أيضاً ثمانية مآخذ تمحضت للخطأ المطبعي بلا شك ، يدل عليها أدنى النظر ، والإطالة بتكرارها عنت على القارئ وإضاعة لوقته وهي رقم ١٦ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، وأحد عشر مأخذاً هي رقم ٧ ، ٨ ، ١٣ ، ٢٤ (وهما شيء واحد في الحقيقة) ، ١٤ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧ وهي — إن شئت — مآخذ حق ، وإن كان لبعضها وجه واسع في التأويل .

ووجدت ستة مآخذ تحمل إليها الأستاذ واقترح تصحيحها وكان الخطأ في غير ما تحمل إليه ، وكان الصواب في غير ما اقترح ، وهي :

٣ — ٢٤ : ٥ « والأصوات المستكرهة التي ليس لها قبول في النفس كثيرة ، ولاعناية للناس بها فتؤلف ، وإنما تجدها مفردة بالاتفاق كصرير الباب ، وصوت الصُّفر إذا جرده الصفار ، وما أشبههما ، فإن النفس تنفر من هذه فتقشعر ، وربما قام له شعر البدن ، وحدث بالنفس منه دوار حتى ينكر الإنسان حاله ، وهو معروف بين » . نقلنا هذه الجملة بتمامها وإن كان الأستاذ قد اختصرها في مقاله عند : « كصرير الباب » .

اقترح الأستاذ أن يكون صوابها « فتؤلف » ومسكويه لم يرد مثل هذا قط ، والعبارة ليست من تأليف الأصوات المستكرهة أو إفرادها في شيء ، ولا معنى لأن تكون الأصوات المستكرهة مؤلفة أو مفردة بالاتفاق أو بغير اتفاق ! وصواب العبارة « وإنما تجدها مفْرَزَةً بالاتفاق ... فإن النفس تنفر من هذه فتقشعر » وهكذا يستقيم الكلام ويعتدل ما اعوج منه . يقول مسكويه : إن الألفاظ المستكرهة بعيدة عن أن تجد من الدواعي ما يحمل بعض النفوس تألفها ، بل هي مفرزة باتفاق الناس جميعاً فلذلك يستحيل على النفوس أن تألفها كما يألف الإنسان أحياناً شيئاً يكرهه .

١٢ — ٦٠ : ٣ « فإنهم رضي الله عنهم ما أسِفوا ولا غلوا » اقترح الأستاذ أن يجعلها « وما أسَفوا » أي ما نقصوا . والصواب عندنا « أسْفَوا » من الإسفاف ، مجاز من قولهم أسف الطائر إذا دنا من الأرض في طيرانه ، ومنه حديث علي « ولكني أسففت إذ أسفوا » .

١٥ — ٨٤ : ٥ « وما حد الظلم أولاً فإن المتكلمين ينفكون في هذه المواضع كثيراً » . جاء في الحاشية : « استعمل ينفك هنا في موضع انطلق وأفاض » . وأراد الناقد أن

بعضها بعض يختلفون ، وتلك أقوالاً اعتسفها من كتب التفسير ، والصواب : « يَتَفَكَّكُون » أي يضطربون ، قال الزمخشري : « وفي مشيه وكلامه تفكك : أي اضطراب ، كالشيء ينفك بعضه من بعض ، وفلان متفكك إذا لم يتماسك من حمق » وصدق ، فهذا هو صوابها .

١٩ — ١٢٧ : ٦ : « إن النفس تُرى عند غيبة المرئيات ما تراه في حضورها ، وذلك بحصول صورها في الحاس المشترك ، وهــذه حال يجدها الإنسان من نفسه ضرورة لا يمكنه أن يدفعن عنها » ؛ واقترح الأستاذ أن يقحم « واواً » وأن يستدعي لفظاً لتكون العبارة « وضرورة لا يمكنه أن يستغني عنها » ، والعبارة كما جاءت في المخطوط والمطبوع لا يستقيم بها الكلام كما رأى الأستاذ ، واقتراحه يزيد الكلام بعداً عن الاستقامة ! ويلوي وجهه عما أراد مسكويه إذ قال على أثر ما نقلناه : « وإلا فمن أين لنا صورة بغداد وخراسان ، والبلاد التي شاهدناها مرة ، ثم منازلنا بها وصور أصدقائنا فيها ، وجميع ما نتذكره منذ الصبا لولا حصول هذه الصورة في الحاس المشترك » . وهذا الاستفهام : « وإلا فمن أين ... الخ ... » يدل على أن مسكويه في مقام حجاج يرد قولاً على أبي حيان ؛ فصواب العبارة بلا ريب : « وهذه حال يجدها الإنسان من نفسه ضرورة لا يمكنك أن تدفعن عنها وإلا فمن أين ... الخ ... » ، وهذا بيّن غاية البيان ، وفي بقية جواب مسكويه ما يدل على أنه قد ضاق صدره بلدَدِ أبي حيان وجداله .

٢١ — ١٦٠ : ٨ : « فإذا تباعد المزاج حتى يكون منه الفار والدود والجعل والذباب نفر منه الإنسان وتكرّهه » وحرص الأستاذ حرصاً على أن يكون صوابها : « النّار » يعني الفراد ، وليس كذلك ، بل هي : « الفار » كما في المخطوط . قال أبو عثمان الجاحظ في كتاب « الحيوان » الذي تولى نشره الأستاذ الناقد ٥/٢٥٦ : « وبين الفار وبين طباع كثير من الناس منافرة ، حتى إن بعضهم لو وطئ على ثعبان ، أو رمى بثعبان — لكان الذي يدخله من المكروه والوحشة والفزع أيسر مما يدخله من الفارة لو رمى بها أو وطئ عليها » .

وهذا هو الصواب المتعين إن شاء الله! أليس كذلك ؟!

٣٠ — ٣٠٥ : ٥ : « فإنما يدرك البصر بآلة ذات طبقات ورطوبات وقصبة مجوفة نابية من بطن الدماغ » واقترح أن يكون صوابها « نائبة » وقد أصاب فيما اقترح « إلا أن « قصبة » خطأ والصواب . « عَصَبَة » .

فهذه المآخذ الستة التي لم يوفق الأستاذ فيما اقترح من تصويب خمسة منها ، سقط علينا أن نقيدها في قائمة الخطأ والصواب التي ذكرها الأستاذ في نقده كالضيّق بها والمستنكر لما جئن ذكرها !

بقيت واحدة هي رقم ١٨ — ١٢٠ : « وفي مثل العامة فلان مقعد العرس » كناية عن البخل . قال الأستاذ « إن العبارة ناطق بالتحريف » ! ولا ندري كيف نطقت له بالتحريف ، فهو من أمثال العامة أولا ، وهو قديم جدا ثانيا . كيف يتاح لنا نحن المحدثين أن نزعم لأنفسنا علم لغة العامة قديما ، ولم تأتنا في كتاب ، فمن التحكم أن نقطع بتحريف شيء لا علم لنا به ؛ هذا على أن معنى العرس في اللغة ، هي : امرأة الرجل ، والتقديد في اللغة أيضا : تمليح اللحم وتجفيفه في الشمس ، كأن العامة أرادوا أن البخيل يقتر على امرأته حتى يجف عودها وتصير كاللحم القديد ، وما كان له هذا المخرج في اللغة فلا يقال عنه إنه ناطق بالتحريف .

وهناك مأخذان آخران ، متشابهان ، وهما رقم (١) فاتحة النقد و٣٨ خاتمة النقد . الأول ص ٧ « وهــذه الألفاظ الخمسة » وكانت في الأصل : « الخمس » ، والثاني ص ٣٤٢ « لأن هذه الأشياء الأربعة » وكانت في الأصل : « الأربعة الأشياء » فَعُدِلَ فيهما عن الأصل ، والعدول عن الأصل في ذاته لا يوجب أن يكون الأصل خطأ ، وقد عُدِلَ في الأولى عن الأصل لأن مسكويه درج على عكس العدد مع المعدود إذا تأخر المعدود من الثلاثة إلى التسعة في أكثر من ثلاثين موضعا منها : ص ٨٢ ، ١٠٣ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٨٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٧ . وهذا وحده دليل على أن مسكويه لم يكن يستعمل تلك القاعدة المزرة التي أهداها إلينا الأستاذ من باب العدد في حاشية الصبان على الأشموني !

وبقيت عشرة مآخذ كلها صواب ، ولكن الأستاذ أبى إلا أن يوسع على نفسه ، فتبجبج ما شاء حتى يعدها أخطاء . !

(٣) ٢٢ : ٧ « مثال ذلك مزمار فيه ثقب متى أطلق الإنسان فيه النفس وخرق موضعاً بإصبع إصبع اختلفت الأصوات في السمع بحسب قربه وبعده » قال الأستاذ : « إن في العبارة نقصاً ، والوجه موضعاً موضعاً » . ولو صح هذا لكانت عربية العبارة تقتضي أن يقول « بحسب قرب الموضع وبعده » أو « بحسب قربها وبعدها » وهــذا بين عالم لستكره شاذ النحو من باب الضمائر ، والأصل هو الصواب .

(٤) ٢٤ — « حتى إنك لا تجد على أديمها إلا متلفتا إلى فائتها حزينا ، أو هائما على حاضرها مفتونا ، أو متمنياً لها في المستقبل معنى » قال الأستاذ : « في هذه العبارة أخطاء ، وإهمال ضبط يؤدي إلى لبس » .

أراد أن يكون صواب « فائتها » « فاتها » وهي قراءة جائزة في العربية كما يقول أصحاب القراءات ، إلا أن الأولى صحيحة المعنى مطابقة للأصل الواضح ، فهم يقولون مثلا قد كان فيما فات من عمري ، أو ما فات من أيامي ، يريدون مضى وفات ، وهو مجاز كثير .

وأما قوله : إن الزاوجة تقتضي أن يكون الصواب : « أو مُتَمَنِّياً بها في المستقبل معنى » فهو رأي لو كان له قرآن ، ولم نجد أحداً يقول : فلان متمنٍ بالمنى في المستقبل ، فهو كلام عندئذ ملفق ، وأخشى أن يكون لا معنى له ، وسياقة حديث أبي حيان يدل على أنه أراد أن كل إنسان يتمنى أن تكون له الأماني المستقبل ، وبعنيه هذا التمني الطويل الذي لا يدري أيكون أم لا يكون .

أما إهمال ضبط « معنًى » فالموضع غير ملتبس هنا بواحد المعاني كما يتوهم ، ومثل هذا الإهمال لو التمسناه في كتاب كالحيوان مثلاً ٣ / ١٢٠ لرأينا ثمة هذين البيتين :

إذا يُحفُّ ترابُها بلِّتها دِيَمٌ
من كوكبٍ بزل بالمــاء سجام

لم يَرْعَها أحــد واربتها زمناً
فأُوٌّ من الأرضِ محفوف بأعلام

ضبطت فيهما ألفاظ لا تحتاج إلى ضبط أصلا ، وبقيت « بزل » و « اربتها » بلا ضبط ولا شرح ولا تعليق مع أن ناشر الكتاب صحح « يَرْعَها » مرتين ، الأولى في آخر الجزء ، والأخرى في الاستدراكات في آخر الجزء السابع ، ثم لم يعرض له أن يضبط هذين الحرفين فأين هذان مع خفاء معناهما من الأخرى وهي واضحة المعنى غير ملتبسة .

(٥) ٣٦ « وقد عرض لك فيها عارض من العجب ، وسانح من التيه ، فخطرت خطران الفحل ، ومشيت العرضنة ، ومررت في خيلائك ، ومضيت على غلوائك ، حتى أشفقت أن تعثر في فضل خطابك » أراد الأستاذ أن يكون الصواب : « في فضل خطامك » لما جاء من ذكر الفحل والعرضنة ، وهذا وهم شديد ، فإن « خطرت » التي أسند فيها الفعل إلى أبي حيان ليست من معنى خطران الفحل بذنبه من النشاط ، بل العبارة دالة على التشبيه وإن اتفق اللفظ ، كما يقال طغى الرجل طغيان السيل ، فطغيان الرجل من غير جنس طغيان السيل . ومعنى خطرت : اختلت وتبخترت في كلامك ، ثم انقطع التشبيه عند قوله : « العرضنة » وعطف « ومررت في خيلائك » على « خطرت » هذه بهذا المعنى ، ومضى في كلامه الأول عن العجب والتيه والخيلاء والغلواء ، فلا معنى لذكر الخطام بعد .

ولكن لعل كلمة « الخطاب » أشكلت على الناقد ! فصرفه هذا إلى تخيل التصحيف فيها فجعلها « خطامك » ، وإنما أراد مسكويه بالخطاب : المحاورة والمجادلة والحِجَاج الذي استغرق في سؤال أبي حيان أكثر من ثلاثين سطراً ، هي بعض ما رواه لنا مسكويه ، كما صرح بذلك في آخر السؤال ، والخطاب بهذا المعنى هو الذي فسر به كثير من المفسرين قوله تعالى : (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وقوله : (وعزّني في الخطاب) .

(٦) ٣٣ — ١٧ « وجرؤ مَقْدَمه » أحب أن تكون « مُقدمه » بضم الميم مصدراً ميميا من « أقدَم » . ولكن قالت العرب : « قَدِمَ فلان على الأمر : إذا أقدم عليه » ومصدرها الميمي « مَقدم » بفتح الميم بلا شك .

(٩) ٤٧ « لم حمّق الشاب إذا تشايَخ ، وأخذ نفسه بالزماتة والثاتة » ، وتمنى الأستاذ أن يكون صوابها :

« والتأله » لأن المتانة ليست من صفات الشيوخ ، ولو أرادها لقال مصرحاً : « متانة الخلق » فليس من المألوف أن يقال : شيخ ذو متانة ، وإنما يقال : ذو تأله : أي ذو تنسك وعبادة ، وهي من أخص خصائص الشيوخ » ! هكذا قال !!...

ويقول قدامة الكاتب في « جواهر الألفاظ » في باب « الرزانة والوقار وجميل الصفات » : « ما أحلمه وأوقره وأقوى متانته » ، وأظنها هاهنا بينة لا تصلح لأن تكون « ما أقوى تألهه » !!!.

والمتانة كما يقول أصحاب اللغة : الشدة والقوة والاقتدار ، ومن البين أن أبا حيان أراد بالمتانة هنا : إظهار القوة والجلد ، والركانة والتمكن ، ووقار النفس والجوارح ، ولذلك أعقب هذه الجملة المتقوة بقوله : « وآثر الجد ، وانشمر من الهزل ، ونبا عن الخنى ، وسدد طرفه في مشيه ، وجمع عطفه في قعوده ، وشفق في لفظه وحدق في لحظه » وهذه صفات الجلد الركين لا صفات الناسك المتأله .

(١٠) ٥٦ « هيهات هيهات !! اشتد اللغط ، وكثر الغلط ، ورجع كل إلى الشطط ، وفات الله الفهم والفاهم والوهم والواهم » .

وعرض له عارض في تصويب العبارة ، لكي يعد فيها أربعة أخطاء ! جعلها : « وفات والله الفهم الفاهم ، والوهم الواهم » .

وهذا تحريف للنص ، وتحريف المعنى .

كان من حق أبي حيان على الناقد أن يأخذ بأول كلامه منذ قال في ص ٥٥ « وعن ذكر الله تعالى : بم يحيط العلم من المشار إليه باختلاف الإشارات والعبارات ؟ ... فإن كان منعوتاً بنعت فقد حصره الناعت بالنعت ، وإن كان غير منعوت فقد استباحه الجهل ، وزاحمه المعدوم ، ولا بد من الإثبات إذا استحال النفي ، وإذا وقف الإثبات والنفي على المثبت النافي — فقد سبق إذاً كل إثبات ونفي ! فإن كان سابقاً كل هذه الألفاظ ، وجميع هذه الأغراض ، فما نصيب العارف ؟ وما بغية ما ظفر به الواجد ؟ هيهات هيهات ... الخ ... » .

ويجيء أن الضمير في قوله : « سبق ، فإن كان سابقاً » لله تبارك وتقدست أسماؤه ولبس بين « سبق » و « وفات » في المعنى كبير فرق ، وأراد أبو حيان بهما جميعا نفي إدراك الخلق لله تعالى والإحاطة به ، وإن جاء بلفظ مثبت غير منفي ، فهو إذاً مشتق من قوله تعالى (لا تدركه الأبصارُ وهو يدرك الأبصارَ) تأول قول الله (لا تدركه) بجعله سبق وفات الألفاظ ، أي لا تدركه الألفاظ ولا تحيط به ، وفات الفهمَ والفاهمَ والوهمَ والواهمَ ، أي لا يدركه سبحانه جل جلاله فهم ولا فاهم ، ولا وهم ولا واهم ، وهو كقول علي رضوان الله عليه : « لا تقع الأوهام له على صفة » وقوله أيضا : « امتنع على عين البصير فلا عين من لم يره تنكره ، ولا قلب من أثبته يبصره ، سبق في العلو ، ولا شيء أعلى منه » .

١١ — ٥٩ : ١٦ « المقدمات التي قُدِّمت له ومُهِّدت لأجله » أراد الأستاذ أن يجعلها « قَدَّمت ومَهَّدت » بالبناء للمعلوم ، وضبطها بالبناء للمجهول صواب كما نص عليه صاحب اللسان وغيره ، يعنون أنها تتقدم بين يدي الكلام كالفاتحة له .

١٧ — ٤٤ « المساوئ » قال الأستاذ « الصواب « المساوى » بالتخفيف » كأنه إلزام ، والتخفيف ليس لازما ، وإن كان كثر استعمالهم له مخففا .

٢٠ — ١٤٣ « لم سار الحصيف المتمكن ، واللبيب البرز يشاوَرُ فيأتي بالفيلق والداهية حتى يجمع الشَّعر مشقوقاً والغيث مرهوقاً ، فإذا انفرد بشأنه وانتصر لنفسه ، وتعقب غاية منافعه عاد كسراب بقيعة لا يحلي ولا يمر » وجعل صواب العبارة « حتى يجمع الشعر مشقوقاً ، والغيث مرهوقاً ، فإذا انفرد بشأنه ، وانتصب لنفسه » الخ .

وسياق الكلام يدل على أن أبا حيان لم يرد المعنى الذي ارتآه الأستاذ في استشفاف الغيب ، ومعرفة العواقب المستورة ، ولو أراده لتعجب الكلام يضرب بعضه في وجوه بعض ، على أن فيه أيضاً كلمة تحرسه من سوء التحريف ، وهي قوله : « وتعقب غاية منافعه » فهي صريحة الدلالة على معنى التصرف في طلب المنافع واكتسابها من وجوهها بالحيلة والتأتي

والرفق ، فمعنى قول أبي حيان : إن هذا الأديب الحصيف يأتي مستثيره بما يذهل من حسن احتياله ورفقه ، حتى يشق له الشعرة وهي لا تشق ، ويغض إليه الغبث وهو غير بغيض . يريد أن يسهل لمستثيره الصعب وإن استحال كاستحالة شق الشعرة ، ويكره إليه الشيء الذي يحبه إعجاباً يعميه عما فيه من الضرة ، فرب أمر يحسبه الرجل خيراً وهو شر ، ومجلبة للتلف .

أما « انتصر لنفسه » فهي صحيحة فصيحة لاتعاب ، والانتصار والاستنصار طلب النصر .

٣٩ — ص ٢٩٠ السمى « بإيران » وليس فيما كتبناه خطأ إلا أن الباء لم تخرج مخرج القوس كما أراد الأستاذ : بـ « أبران » .

قلت : إني لم أسر بشيء قط ما سررت بهذا النقد ، فهذه الكلمة تأويل سروري . أما دهشتي فلها أسرار أخر ، فإني ظللت ألتمس في هذا النقد مأخذاً واحداً يردع ما عراني حين قرأت في البيان والتبيين ٤ / ٧٣ : « اعلم أن جماع الخير كله الحياء ، فعليك به . فتواضع في نفسك ، وانخدع في مالك ، واعلم أن السكوت عن الأمر الذي يعنيك خير من الكلام ، فإذا اضطررت إليه فتحرّ الصدق والإيجاز ، تسلم إن شاء الله تعالى » وما أبلغها من عظة ! .

وقد شرح الناشر قوله : « انخدع في مالك » شرحاً عجيباً ، إذ يقول : « والانخداع : الدخول ، يقال انخدع الضب : إذا شم ريح الإنسان فدخل في جحره » !! .

أجل ، ولكني لم أجد في ذلك النقد الضخم ما يردعني ، وحسبي أن أروي للقارئ أنه قيل لعرابة الأوسي : « بم سُدْتَ قومك ؟ فقال : بأربع : أنخدع لهم من مالي ، وأذلُّ لهم في عرضي ، ولا أحقر صغيرهم ، ولا أحسد رفيعهم » . ولله درّه ، ما أعلقه بخلق الأشراف والسادة ، ويقول الفرزدق :

لا خير في حَبٍّ من تُرجى فواضله
فاستمطروا من قريش كل منخدع
كأن فيه إذا حاولته بَلَهاً
عن ماله ، وهو وافي العقل والورع

أما ما بلغ بي غاية الدهشة ، فهو أني رأيت الأستاذ استفتح نقده بالحض على التمسك بآداب النقد ، والنهي عن مخالفتها إلى ما لايليق بالنقاد ، ثم ختم كلامه أيضاً بعظة أخرى تحرضهم إلى السمو بالنقد عن مبتذل الهجاء . وهذا ليس يدهش في ذات نفسه . بل المدهش أن يكتب لغير مناسبة ظاهرة ! : فلقد يدعوه الدكتور أحمد أمين بك إلى نقد كتاب تولى نشره ، فلا يقصر كلامه على نقد الكتاب ، بل يبدأ كلامه ويختمه بعظات يؤدب بها جمهرة النقاد أدباً يدعوهم إلى اتباعه « منذ اليوم » ، أو كما قال .

وثانية : أخطاء مطبعية يكاد السطر والسطران والثلاثة ، والأربعة إن شئت ، يكفي بعضها في الإحاطة بها ، ورد ما طار من صوابها ، فإذا هي لايكفيها أحياناً أقل من ثلاثين سطراً شاكية السلاح لكي ترد « مُكْتَنْجِبَاً » إلى « مُكْتَنْجِبِيَاً » بياء ساقطة ! لم أر قط أعجب من ياء ساقطة تحتاج إلى كل هذا المدد ، وكل هذا المداد ، وكل هذا الصبر على تسطير الكلام ! .

وثالثة : دروس في الصرف والنحو ، ولكنها تأتي في غير موضع حاجة إلى حرز النحو وشارده ! .

ورابعة أخرى : أحد عشر مأخذاً يرجى لبعضها وجوه من التأويل فيما وسع الله علينا من اللغة ، فتظل تتضخم وتطول حتى تبلغ ثمانية وثلاثين مأخذاً في سبع صفحات ، في ثلاثة عشر عموداً من أعمدة الثقافة ! .

لم ؟ ثم لم ؟ لست أدري . إنه لعجيب ، بل فوق العجيب ، بل فوق كل عجيب !! .

السيد أحمد صقر

الثقافة : أفسحت الثقافة صدرها للنقاد في نقد كتاب « الهوامل والشوامل » ، وقد أدت واجبها بأن تعرض على القراء أوجه النظر المختلفة ليتسنى لهم الحكم بالصواب أو الخطأ ، كلٌّ حسب ذوقه ومبلغه من العلم ، ونظن أنه لا يأتي بعد ذلك إلا ما كان من قبيل اللجاج الذي تنزه القارئ عنه وربأ بوقته ، ولذلك اعتزمنا أن نغلق باب هذا الموضوع ، ونعتذر عن ذلك للقراء .

من مطالعات الكتب

للأستاذ الدمرداش محمد بك

من منذ شهر أتى ذكر المرحوم اللواء صادق باشا في بعض الجرائد المحلية ، بمناسبة خطبة جلالة الملك لحفيدته صاحبة العصمة الآنسة ناريمان هانم . وفيما ذكرته عنه أنه كان أميناً للصرة في قافلة الحج سنة ١٢٩٧ هجرية (١٨٨٠ م) ، وأنه ألف كتاباً في وصف طريق الحج أسماه (مشعل المحمل) — وأذكر لهذه المناسبة أني كنت قد اطلعت على هذه الرسالة في سنة ١٩٣٤ قبل قيامي برحلة في طريق الحج القديم ، ما بين السويس والعقبة ، عبر هضبة التيه بشبه جزيرة سيناء في مارس من تلك السنة .

ومشعل المحمل رسالة صغيرة تحتوي على وصف مطول للطريق الذي سلكه المحمل من القاهرة إلى مكة في تلك السنة (١٢٩٧ هـ) مع ذكر أسماء المدن والمحطات التي نزل بها في أثناء السفر ، مع بيانات مختصرة عما شاهده المؤلف في كل منها — والرسالة في جملتها مقتضبة ، التزم مؤلفها في كتابتها الطريقة العسكرية من حيث العناية بوصف القلاع ، وتدوين أطوال الطرق واتجاهاتها وساعة القيام وساعة الوصول ، ولم يتعرض إلا قليلاً للوصف الجغرافي .

يقول صادق باشا — وكان وقتها الميرالاي صادق بك — : إن قافلتهم في الذهاب كانت مؤلفة من ١١٠٣ نفساً و ٢٤٧ حصاناً و ٤٨٨ جملاً و ١٠٠ حمار ، وأنهم قاموا من العباسية يوم الخميس ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٠ ووصلوا السويس عن الطريق الصحراوي يوم الأحد ٣ أكتوبر و (نخل) يوم ٧ أكتوبر وسطح العقبة يوم ١٠ أكتوبر ونزلوا من نقب العقبة يوم ١١ أكتوبر ووصلوا قلعة العقبة في نفس اليوم — أي أن القافلة قطعت المسافة بين العباسية والعقبة في نحو اثنى عشر يوماً .

وفي مارس سنة ١٩٣٤ سافرت بالسيارة في نفس الطريق ؛ فطويت المسافة بين القاهرة والسويس في ساعتين ، والمسافة بين السويس ونخل في خمس ساعات ، والمسافة بين نخل وسطح العقبة في ست ساعات ، والمسافة بين سطح العقبة وبلدة العقبة في ساعتين ، أي قطعت المسافة بين القاهرة والعقبة في خمس عشرة ساعة — ومع أنه كان قد مر على رحلة صادق باشا حوالي خمسين عاماً ، فإن معالم الطريق كانت لا تزال كما رآها ووصفها ، ولا عجب في ذلك ؛ فإن طريق السيارات من القاهرة إلى العقبة يتفق في كثير من أجزائه مع الدرب السلطاني القديم الذي كان يخترق هضبة شبه جزيرة سيناء من الغرب إلى الشرق ، وهذا الدرب كانت تسلكه قوافل التجارة ، وحملات الغزو بين مصر والحجاز وجنوب فلسطين ، وهو أيضاً طريق المحمل المصري في ذهابه إلى مكة وعودته منها زهاء ستة قرون ، وذلك في المدة ما بين سنتي ١٢٦٧ ، ١٨٨٥ ، وفي هذه السنة الأخيرة أبطل الطريق البري واتخذ المحمل طريق البحر إلى جدة في ولاية الخديو توفيق .

ومن أشهر معالم هذا الطريق بلدة نخل ، وتقع على حافة وادي العريش أطول وديان سينا وأشدها خصباً ، وكان لنخل في العصر القديم أهمية كبيرة نظراً لوقوعها عند ملتقى طرق القوافل ، وفي العهد العثماني اتخذها الأتراك عاصمة لسيناء ، وشيدوا فيها قلعة كبيرة لا تزال مبانيها الحربية قائمة إلى الآن .

يقول صادق باشا في وصف نخل : ... وبعد الغروب بعشر دقائق وصل الركب قلعة نخل ، وهي قلعة مربعة الشكل مبنية بالحجر النحت ... وبداخل القلعة حواصل معدة لذخائر الحجاج والمستخدمين ، وبها محافظ وبوزباشي وملازم مخزنجي وبكباشي وستة وعشرون عسكرياً بندق

طرز قديم بشطفه وستة طوبجية ومدفع واحد نحاس طرز قديم برى ... وفى أسفل البرج الشرقى البحرى ساقية ماؤها فيسوفى (أى معدنى) عمقها ٢٢ متراً ، يديرها ثوران فيصل ماؤها إلى خارج القلعة إلى ثلاثة أحواض مبنية معدة للحجاج والقوافل ... وهناك عشش لسكنى العساكر ... وفى أوان الحج يوجد هناك البطيخ والبلح والتين العابى والجبن والدخان .

أقول : وفقدت تلك أهميتها منذ أن تحولت التجارة إلى الطريق البحرى ، كما أنها أقفرت بعد الحرب العالمية الأولى لنزوح السكان والتجار إلى العريش العاصمة الجديدة لسيناء ، ولم نجد بها فى سنة ١٩٣٤ إلا نقطة بوليس بها ثلاثة عساكر هجانة وبعض أفراد قلائل من أهالى المنطقة ، ومسجداً خرباً ، ومنازل خالية متداعية للسقوط ، وبقايا القلعة والبئر .

ولما وصلت سطح العقبة جلست عند رأس النقب على حافة الهضبة لأستريح ، ولأمتع النظر بمشهد فريد يجمع بين الجمال والروعة والجلال : فأمامى رءوس الجبال الجرانيتية الحمراء ، منتصبة كالحراب ، متراصة فى صفوف متراجعة نحو الشرق ، ومن ورائها وادى العربة العظيم منحدراً نحو الخليج فى اتساع وانبساط ، ومن خلفه جبال الحجاز وشرقى الأردن قائمة كالسد تتمادى فى الارتفاع نحو الشرق والجنوب حتى تختفى وراء الأفق البعيد ، وعن يمينى خليج العقبة مبسوطاً كشريط أزرق تحت أقدام الجبال ، ومن تحتى طريق النزول متعوراً فى الصخر يتلوى كالثعبان بين القلاع والأخاديد والهاوى والسفوح مسافة خمسة كيلو مترات ، وأنا فوق الهضبة جالساً على ارتفاع بسبعمائة وخمسين متراً مأخوذاً صامتاً ، تغمرنى أشعة الشمس المشرقة ، وينعشنى نسيم بارد لطيف .

وطريق النزول هذا أنشأه أصلاً السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى ملك مصر ، وهو عقبة من أصعب عقبات هذا الطريق وأشدها خطراً فى النزول والصعود على السواء .

وبعد أن نزلت من نقب العقبة بسلام ، واصلت السير إلى بلدة العقبة (أيلة القديمة) وموقعها على رأس الخليج — ويقول صادق باشا فى وصفها : وسكان هذه البقعة يبلغون مائة شخص ، ويأتى إليها العربان فى موسم الحج للتجارة بالفواكه من معان ، مثل الخوخ والرمان والعنب ، وأما البامية والخضروات فتزرع بها ، وهناك نخيل ومياه عذبة ، وقلعتها متينة مبنية بالحجر النحت ، وبداخلها مسجد وحواصل للذخائر ، ومحافظ يوزباشى جهادى طوبجى وأربعة مدافع ، وبها ٣٣ عسكرياً بيادة وسبعة طوبجية ، وبجوارها بيوت صغيرة وعشش ، وهى أكبر قلاع الحاج .

أقول : وقد وجدت البلدة فى سنة ١٩٣٤ كما وصفها صادق باشا فقيرة جداً ، ليس فيها مطعم ولا مقهى ولا شىء غير بعض البيوت الصغيرة والعشش والبحر والرمل والنخيل وبعض البساتين ، كما وجدت قلعتها مخربة ، ولم يكن بها عساكر ولا مدافع ، ولم تكن تابعة لمصر ، بل كانت فى حوزة حكومة شرقى الأردن .

والذين يطالعون الصحف فى هذه الأيام ، يعرفون أن اليهود يقيمون فى رأس الخليج بالقرب من هذه القرية جهة الشمال منها ، وأنهم يشيدون هناك مدينة وميناء بحرياً ، وسيكون لهذا العمل شأن كبير فى عمران هذه المنطقة الهامة ، كما سيكون له نتائج سياسية واقتصادية بعيدة المدى ، فليتنبه المصريون إذا كانوا عنها غافلين .

الدمرداش محمد

من هنا ومن هناك

(بقية المنشور على صفحة ٢)

معتقدات الشعوب المختلفة وعاداتهم ، لأنها تتصل اتصالاً وثيقاً بحياتهم وبشعائر دينهم ...

***

عضوان جديدان بالمجمع اللغوى :

احتفل مجمع فؤاد الأول للغة العربية منذ أيام قلائل باستقبال عضوين جديدين هما : الأستاذ عبد الحميد العبادى بك والدكتور أحمد عمار .

وألقى كل منهما فى هذه المناسبة كلمة بليغة ، تحدث فيها عن الأديب الراحل الذى حل محله بين جنبات هذا المجمع .

ولنرجع ثلاثة قرون إلى الوراء ، لننظر فى أصل مثل هذه الكلمات التقليدية وتطورها فى مجمع من أعرق المجامع اللغوية الغربية ، هو الأكاديمية الفرنسية .

فى سنة ١٦٣٤ أنشئت الأكاديمية الفرنسية . ولم يكن يشترط بادئ الأمر فى العضو الجديد أن يلقى كلمة مناسبة فى حفل استقباله .

ثم حدث فى سنة ١٦٤٠ أن انتخب بالمجمع المحامى المعروف أوليفيه باترو ، فألقى خلال الحفل خطاباً رائعاً يشكر فيه زملاءه أعضاء المجمع . ولاقى هذا الخطاب نجاحاً كبيراً وكان له صدى فى الأوساط الأدبية ؛ فاتخذ منه المجمع سنة يسير عليها فى استقبال كل « خالد » جديد ، إذ يشترط عليه إلقاء كلمة على الحاضرين من أعضا المجمع عند انتخابه .

وكانت هذه الكلمات التقليدية فى أول الأمر مقصورة على شكر أعضاء المجمع وبيان مناقب العضو الفقيد ومدح الملك والأمراء الذين يعينون المجمع بأموالهم ونفوذهم .

ثم ثار بعض الأدباء على هذا الوضع . ففى سنة ١٦٧١ تحدث بوسويه فى كلمته عن تاريخ المجمع نفسه ولم يذكر بلفظ واحد الأديب الذى كان يحتل مكانه . وفى سنة ١٧٤٦ تحدث فولتير عند دخوله المجمع عن أثر الشعر فى اللغة .

وكانت الضربة القاضية لهذا التقليد عندما ألقى العالم الأديب بوفون فى سنة ١٧٥٣ خطابه المشهور عن « الأسلوب » . ومن بعده أصبح الأعضاء الجدد يفضلون أن يتحدثوا فى كلماتهم عن موضوع أدبى عام لا علاقة له بالأشخاص الذين اختيروا مكانهم .

وكانت حفلات الاستقبال فى بدء عهد الأكاديمية الفرنسية مقصورة على أعضاء المجمع وحسب . ثم عمل شارل بيرو ، وهو القصاص المعروف بحكاياته الخرافية العجيبة ، على جعلها حفلات علنية يحضرها من شاء من الأدباء والعلماء .

وكان الانتخاب يجرى بطريقة الاقتراع العلنى ، وتعرض نتيجته على الملك فيوافق عليها أو يرفضها (كما حدث مثلاً عند انتخاب لافونتين الذى عارض لويس الرابع عشر فى دخوله المجمع) .

الأدب الإباحى بين أوربا وأمريكا :

يمتاز العصر الحاضر بظاهرة متينة فى الأدب ، هى وفرة الكتب الإباحية . ويعتقد الناس عامة أن فرنسا هى المصدر الأول لهذا الصنف من المؤلفات .

ولكن الأدباء الفرنسيين يحاولون جهدهم التنصل من هذه التهمة وإلقاءها على غيرهم . ولقد كتب أحدهم أخيراً يقول : إن الأدب الإباحى بضاعة غريبة جاءت إلى أوربا من القارة الأمريكية ، إذ صدرتها إليها الولايات المتحدة مع مشروبات الكوكا ومع أفلام قطاع الطرق .. ثم هو يعرض لمؤلفى الروايات الإباحية، فيلاحظ أن معظمهم من الشبان ذوى النفوس المريضة الذين يحاولون ستر فشلهم فى حياتهم الجنسية بنشر أقذر ما يتمخض عنه العقل من أفكار .

والطريف فى هذا المقال أن صاحبه يرى أن الكتب الإباحية على العموم تنقصها الجرأة الحقيقية ، ورغم ما فيها من خروج على الأخلاق والآداب ، فكل هذه الكتب تجرى على نمط واحد ممل، وتعتمد على مناظر تقليدية لا ابتكار فيها .

ثم هو يتنبأ بأن هذه الظاهرة المبتذلة لا بد وأن تزول فى القريب العاجل لأن مثلها مثل بعض الأدوية إذا استزاد منها الإنسان قتلته ، فوجب عليه أن لا يأخذ منها إلا قطرات ضئيلة ! وعنده أن بعض أنواع الأدب المكشوف قد لا يكون منها ضرر ، بل قد تكون محمودة العواقب ! ومثلها ما نجده فى كتب بعض كبار المؤلفين أمثال روسو فى اعترافاته أو فولتير فى قصصه أو مونتيسكيو فى رسائله الفارسية ...

محمد عبد الحليم محمود

الثقافة

العـــدد ٦٤٩
٤ من يونيه ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

صفحة

من هنا ومن هناك

للأستاذ محمد عبد الحليم محمود

اعترافاتي :

كتب الدكتور أحمد أمين بك في عدد شهر مايو من مجلة الهلال تحت عنوان «اعترافاتي» يقول : «واعتاد الكتاب أن يقصروا الاعترافات على المسائل الجنسية التي اعتاد الإنسان أن يُسرها ولا يجهر بها إلا لخواص أصدقائه ، ولعل المسئول عن حصر الكلمة بهذا المعنى جان جاك روسو وأمثاله ممن قيدوا هذه الاعترافات ... أما الكلمة نفسها فواسعة شاملة ، تشمل هذا النوع وتشمل غيره من الفضائل التي اكتسبها الإنسان في حياته بعنف ومشقة » .

وقد يفهم بعض القراء من هذه العبارة أن روسو في « اعترافاته » المشهورة لم يهتم إلا بالمسائل الجنسية التي اعترضته في حياته .

وكتاب الاعترافات Les Confessions لجان جاك روسو يشتمل على اثنى عشر جزءا . وهو آخر مؤلف وضعه الكاتب الفرنسي الكبير . وقد دفعه إلى كتابته سببان رئيسيان هما : أولاً دفع الاتهامات التي كانت يرميه بها أعداؤه ، وثانياً تحقيق ذاته والإبانة عن كوامن نفسه في كتاب يكون مثالاً يحتذيه بنو البشر في كل زمان ومكان . وهو لذلك ينتهج الصراحة التامة في كتابته : فيعترف بأخطائه الكثيرة وزلاته المتعددة ، ولكنه بعد ذلك يجلو لنا عن « الفضائل التي اكتسبها في حياته بعنف ومشقة » . بل هو إنما أورد أخطاءه وزلاته ليظهرنا في وضوح على المشقة التي لاقاها في التغلب على نزعات نفسه وصبوات حسه . فهو فوق كل شيء إنسان فيه النواحي الضعيفة الكثيرة وفيه النواحي الطيبة القليلة ، وقوة شخصيته وعبقريته إنما تكونان في تغلب الصالح على الطالح في ضميره وقلبه .

أما الناحية الجنسية فهو يهتم بها كل الاهتمام ويوليها عناية ودراسة دقيقة ، إلا أنها لا تحتل سوى صفحات قليلة متناثرة خلال مؤلفه الضخم .

القهوة والفلسفة :

في النصف الثاني من القرن السابع عشر عُرفت القهوة في فرنسا . وفتح أول مقهى أبوابه في مرسيليا سنة ١٦٥٤ . ويرجع الفضل في انتشارها بين رجال البلاط والأدباء في باريس إلى سليمان أغا السفير العثماني لدى الملك لويس الرابع عشر . وقد ذاع في أول الأمر أن القهوة عبارة عن سُم لا يؤمن شره ؛ ونصح أحد الأطباء الفيلسوف الفرنسي فونتنيل بعدم تعاطي هذا المشروب ، فأجاب الفيلسوف : « إن كان هذا سماً فإنه سم كالدواء لأني أتعاطاه منذ ٨٠ سنة ! » ، ولقد عاش فونتنيل حتى بلغ المائة . واعتقد الناس أيضاً آنئذ أن القهوة «موضة» لن تلبث أن تختفي وتتلاشى . ويروى عن الأديبة مدام دي سيفينيه أنها قالت عن المؤلف المسرحي الشهير راسين : « إن أدبه سوف يزول أثره مثلما تزول موضة القهوة » ، فكان حكمها عليه خاطئاً — أو كان صادقاً إذا شئت — لأن مسرحياته مازالت إلى عصرنا هذا مثار الإعجاب ، كما أن القهوة لا تزال شائعة الاستعمال .

وكانت المقاهي في باريس هي المجلس المفضل لدى الفلاسفة خلال القرن الثامن عشر . وكان في تلك العاصمة مقاه ثلاث يكفي أن نذكر أسماء بعض من كانوا يترددون عليها بانتظام لنعرف أثرها في الفلسفة ، فمن هؤلاء : فولتير وديدرو وروسو وموبرتويس وفونتنيل ولاموت ، وغيرهم .

وقد وصف مونتيسكيو ، في رسائله الفارسية ، هذه المقاهي فقال : « القهوة شائعة في باريس . وهناك عدد من المحال المخصصة لتوزيعها . وفي بعض تلك المحال يلعب الناس الشطرنج ، وفي بعضها يقرأون الأخبار في الصحف ، وفي بعضها الآخر يجتمع الفلاسفة ... »

وكانت تلك المقاهي مجالاً للمناقشات في شتى الموضوعات من أدبية وسياسية وفلسفية ، وكانت هي البؤرة التي فيها تلتقي الآراء الجديدة والأفكار الجريئة التي قادت الأمة .

(البقية على صفحة ٣١)

الثقافة

صاحب الامتياز | AL-THAQAFA | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | الإدارة | محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٤٩ | الاثنين ٢٩ من شعبان سنة ١٣٧٠ — ٤ من يونيه سنة ١٩٥١ | السنة الثالثة عشرة

معاهـــــدات الإقامة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

بدت أخيراً فى الأفق مسألة معاهدات الإقامة التى ترغب فى عقدها مع مصر بعض الدول الأجنبية ، التى كانت تتمتع من قبل بنظام الامتيازات الأجنبية ، ولفت النظر بنوع خاص أن دولة من هذه الدول لها جالية كبيرة بمصر تبذل فى هذا السبيل جهوداً متوالية ، وتتقدم إلى وزارة الخارجية المصرية بطلبات غريبة تذكرنا بعهد الامتيازات ، بل لعل منها ما يفوق هذه الامتيازات البائدة من حيث افتئاته على حقوق السيادة المصرية . وحسبك أن تعلم أنه ورد ضمن هذه المطالب — على ماروته الصحف — أن تكون المهن والأعمال التى يزاولها رعايا هذه الدولة فى مصر وراثية فى هؤلاء الرعايا ، وأنه لايجوز للحكومة المصرية أن تستعمل حق إبعاد أحد من هؤلاء الرعايا إلا مقروناً بإبداء الأسباب ، وأن يتمتع بحق الإقامة الدائم كل من قضى منهم بمصر سنوات معينة إلى غير ذلك ! مع العلم بأنه قد تسرب إلى مصر خلال سنى الحرب آلاف من رعايا الدولة المشار إليها ، وما زالت السلطات المصرية تجد فى حصرهم وتتأهب لإبعاد كل من لم تتوافر له الأسباب الشرعية للإقامة منهم ، ونحن لانلوم دولة أجنبية تحاول أن تكسب لرعاياها حقوقاً وامتيازات خاصة . ولكن الذى يدهشنا كل الدهشة أن يقبل أولو الأمر فى مصر الإصغاء لمثل هذه الطلبات أو مجرد مناقشتها ، حتى ولو اقترن هذا الإصغاء وهذه المناقشة أخيراً بالرفض ، ففى ذلك وحده مايشعر بأن مصر مازالت على عهدها السابق من رحابة الصدر التى هى أقرب إلى الضعف ، ومن كرم الضيافة الذى هو أقرب إلى التورط والتخاذل .

ونحن نحمد الله على أن حكومتنا لم ترتض الموافقة على هذه الطلبات المترفة ، وأن إدارة الجوازات والجنسية بوزارة الداخلية قد أبدت فى ذلك يقظة مشكورة ؛ ولكن الذى يقلق بالنا هو أن المساعى الحثيثة ما زال مبذولة لعقد المعاهدة المشار إليها بصورة أو أخرى ، وأن باقى الدول ذوات الامتيازات القديمة ترقب الفرصة ، وتنتظر النتائج لتتقدم من جانبها بعقد معاهدات مماثلة مع مصر ، تقتضى فيها كل منها ما تستطيع من الحكومة المصرية لتوطيد أقدام رعاياها ومصالحها فى مصر ، باسم الإقامة والصداقة ، وباسم الحقوق والمزايا المتبادلة .

ونحن نود أن نتساءل ما الذي يحمل مصر على أن ترتضي عقد هذه المعاهدات التي تغل يدها وسلطانها في شئون كثيرة ، وذلك دون أن تحصل في مقابل ذلك على أي حق أو ميزة ؟ إن مسألة التبادل في عقد هذه المعاهدات بالنسبة لمصر أمر خيالي محض ، فليس لمصر ، ولن يكون لها جاليات مصرية في اليونان أو إيطاليا أو فرنسا أو غيرها ، والقول بأن الحقوق المكتسبة لدولة من الدول في هذه المعاهدات سيمنح مثلها لرعايا المصريين المقيمين في هذه الدولة هو سخرية لامثيل لها ؛ فنحن نرى الجالية اليونانية التي تقارب في بلادنا نحو المائة ألف ، وتتغلغل في جميع البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وينافس أفرادها المصريين في سائر الأعمال والمهن حتى التافه منها ، لا يقابلها مصري واحد في اليونان ، وليس لمصر مقابل المنشآت اليونانية التي تعد بالمئات والتي يراد أيضاً أن تتمتع بحقوق خاصة ، ليس لمصر ما يقابلها سوى منشأة واحدة أو اثنتين ؛ وقس على ذلك سائر الدول الأخرى التي لها في مصر جاليات كبيرة مثل إيطاليا وفرنسا وانجلترا وغيرها .

وإذاً فمن الواضح أنه لا مصلحة لمصر إطلاقاً في عقد معاهدات الإقامة ، مهما خفف من وطأتها ، ومهما أسبغ عليها من ألفاظ المودة والصداقة ، ومهما حدد مدتها ، على حساب السيادة المصرية وحدها .

ولا شك أن عقدها بأية صورة من الصور ، وفي الظروف التي أشرنا إليها لن يكون إلا محاولة سافرة من جانب الدول الأجنبية إلى إحياء عهد الامتيازات بصورة جديدة . ونستطيع بعد الذي قاسيناه من عسف الامتيازات الأجنبية ونظامها القضائي ، أن نقدر منذ الآن ماذا سيئول إليه أمر هذه المعاهدات متى ظفرت بها كل الدول التي كانت تتمتع من قبل بالامتيازات ، وكيف أنها متى عقدت ، سوف تعود بمضي الزمن فتوطد للمصالح الأجنبية على حساب المصالح المصرية ، وتعرقل الكثير من حقوق السيادة المصرية .

ولهذا فإنه يجدر بأولي الأمر في مصر أن يمعنوا النظر طويلاً في أمر هذه المعاهدات ، وأن يزنوها بميزان الحرص الشديد على حقوق السيادة المصرية ، ونحن على يقين بأنهم في النهاية سوف يرون معنا أن الخطة المثلى هي أن يصرف النظر في الوقت الحاضر عن عقد أية معاهدة من هذا النوع ، وأن يكتفي بعقد المعاهدات التجارية لمدد قصيرة مع الدول الراغبة في ذلك ، وأن يترك أمر الجاليات والمصالح الأجنبية إلى رعاية النظم والقوانين المحلية أسوة بما هو متبع في سائر دول العالم .

محمد عبد الله عنان

الأبطال بين الماضي والحاضر

للأستاذ علي أدهم

الاهتمام بأمر القادة الأعلام والزعماء الأفذاذ البارزين في التاريخ أو الحياة العامة الراهنة من المسائل التي لا تفتأ تتجدد ويثور حولها الجدل والنقاش، وقد تختلف وجهات النظر في تفسير التاريخ وتفهم حوادثه واستنباط النتائج من حركاته وأحواله. فيعزو البعض خطوات التاريخ ووثباته ونهضاته وانقلاباته إلى العناية الإلهية المشرفة على سير الحوادث ومصاير البشر، ويرى فريق آخر أن الإرادة البشرية وحدها هي التي تخلق كوائن التاريخ وتصنع حوادثه، وقد يذهب بعض المفسرين للتاريخ مذهباً آخر فينسب الفضل في الحركة التاريخية إلى هذا الشيء الذي لا يخلو من غموض ويسمونه «روح العصر»، وقد يرد فريق آخر الحركة التاريخية إلى ما يطلق عليه اسم «الديالكتيك»، ولكن مهما اختلفت الآراء في تفسير التاريخ فإن مشكلة تقدير مكانة الأبطال أو القادة العظماء ثابتة في مكانها، وأنصار فكرة روح العصر يقولون إن الأبطال قد بلغوا مكانة البطولة لأنهم أقوى من غيرهم تعبيراً عن روح العصر، وأصحاب فكرة العناية الإلهية يقولون إن العناية قد اختارتهم للقيام بتحقيق أهدافها واتخذتهم وسيلة للإعراب عن إرادتها وتنفيذ خططها.

وقد اهتمت الإنسانية بالأبطال قديماً وحديثاً، والعناية بأمر الأبطال، والإعجاب بهم في عصرنا من الأمور الواضحة المألوفة، وقد يبدو ذلك متناقضاً مع ما اعتدنا أن نسميه ديمقراطية العصر الحديث وحرصه على المساواة، ولكن عصرنا الحديث من ناحية أخرى من العصور القلقة المضطربة، وفي عصور القلق والاضطراب يكثر تلفت الناس إلى هؤلاء الرجال الأعلام الذين نسميهم الأبطال.

وتكاثر المشكلات في شتى نواحي الحياة يحدث لنا حيرة وارتباكاً، ولذا نلتمس تفريج أزماتنا على يد الزعماء والقادة، ونخلع عليهم لقب البطولة، ونستدني الكواكب لننظمها لهم عقود مدح، لأن المعجزات ستحدث بفضل زعامتهم، ولأنهم سيصارعون المشكلات ويصرعونها،

وهؤلاء الزعماء يحملون الأمانة، ويتعرضون لمشكلة خطيرة يحجم عن الإقدام عليها الضعفاء المترددون — وهم للأسف الأغلبية والكثرة الكاثرة — وهي مشكلة البت في أمورنا والفصل في مصيرنا.

ومن مزايا الديمقراطية أنها تشجع المواهب والملكات في مختلف ميادين النشاط الإنساني، وتفسح المجال لظهور ألوان العبقرية والنبوغ، ولكن هذا من ناحية أخرى يمهد السبيل لظهور زعامات في الفن والأدب والعلم والصناعة، ولكن أمثال هذه الزعامات في الأغلب الأعم لا تبلغ مبلغ الزعامات السياسية، والزعامات السياسية أقوى منها نفوذاً، وربما كانت لذلك أبعد منها تأثيراً.

ومما يلاحظ في العصر الحديث بوجه عام أن الأبطال أو الزعماء أعلى صوتاً وأبعد أثراً من أمثالهم في العصور الخالية، وذلك لأن التقدم العلمي والصناعي الحديث قد يسر للزعماء وسائل لم تكن موجودة من قبل، مثل الصحافة والنشر والإذاعة وطرق المواصلات وأساليب النقل! ولقد كان غاية ما يطمع فيه الزعيم قديماً من إشاعة الذكر واشتهار الأمر هو أن يصنع له تمثال يقام في ركن من الأركان! أما الآن فإن الزعيم تؤخذ له الصور الشمسية في الأوضاع المختلفة، والحالات المتلونة، والمواقف المتعددة، وتذاع في جميع الأنحاء، ويستمتع أتباعه وأنصاره باستماع خطبه الرنانة وكلماته الجامعة وبلاغاته الرائعة في المذياع والميكروفون، ويتأثرون بنبرات صوته ولهيب حماسته! وواضح من ذلك أن أمثال قيصر والإسكندر وكرومويل ونابليون لم يسيطروا على نفوس أنصارهم سيطرة زعماء العصر الحاضر، فقد كانت تنقصهم الوسائل التي هيأها العلم الحديث لزعماء العصر الحديث وأبطاله.

وأبطال العصر الحديث في استطاعتهم أن ينشئوا الجيل الجديد على النمط الذي يريدون، لأن أوامرهم ونواهيهم تتغلغل في نواحي التربية والتعليم والتهذيب والتثقيف، وهم بطبيعة الحال لا يخلقون العبقريين في الميادين التي يرغبون

أن تزدان بالعبقرية ، لأن العبقرية هبة من السماء ولا تصنع في الأرض . ولكنهم يستطيعون شيئاً آخر ، وهو شل حركة النوابغ الذين لا يلبون طلباتهم ، والقضاء على العبقريين الذين يقاومون إرادتهم ؛ والانسحاب من الحياة أو اعتزال العمل لا يكفي في العصر الحديث للخلاص من طغيان الأبطال ، لأن الاعتزال يبعث الشبهة ، ويستدعي الغضب والنقمة ، ويثير ظنون الدولة وريبها ، ويثبت عيونها فيضرب حول المعتزلين نطاق من الملاحظة والمراقبة وتحصى عليهم حركاتهم وسكناتهم .

وفي البلاد الشديدة التمسك بالنظام الديمقراطي تعد الزعامة مسئولة أمام نواب الأمة ، معرضة لنقداتهم الشديدة وحملاتهم الشعواء ، ورقابتهم الساهرة ؛ ولكن مما يلاحظ بوجه عام في البلاد الديمقراطية أن السلطة التنفيذية قد اتسعت واشتدت ، ومن أسباب ذلك الرغبة في مقاومة الدول التي اتبعت نظماً سياسية مخالفة للديمقراطية من ناحية ، ثم الاتجاه إلى ما يصح أن نسميه رأسمالية الدولة من ناحية أخرى . ومهما كانت الأسباب فإن المشاهد في العصر الحاضر حتى في الدول العريقة في الديمقراطية أن نفوذ رؤساء الوزارات أعظم وأقوى مما كان من قبل .

وتاريخ كل أمة يمثل لصغارها الناشئين أعمال العظماء ، ويروي لهم أخبار بطولتهم ومخاطراتهم ومواقفهم المشرفة ، سواء كانوا حقيقيين أو أسطوريين . وقديماً كان يسمى البطل « أبا الشعب » أو منقذه ومخلصه وهاديه ومرشده ، ورغم ما طرأ على أساليب التربية من التغيير والتعديل فقد ظلت محتويات التربية التاريخية على حالها ، وربما كان السبب في ذلك الحرص على استبقاء التأثير السحري الذي يثير خيال الطفل ويحرك عواطفه إذا عرضنا عليه التاريخ في صورة مخاطرات شخصية للأبطال . ومعروف أن الخرافات والأساطير والأغنية تترك أثراً في نفوس الناشئين لا يزول ، والانتقال من الفرد إلى النظم الاجتماعية والمؤثرات الفكرية معناه الانتقال من الخاص والمعين إلى التجريدات ، وليس هذا الانتقال من الأمور السهلة ، وهذا هو السبب في أن الكثيرين يميلون إلى تشخيص « القوى الاجتماعية » و « القوانين الاقتصادية » و « أنواع الحضارات » وينسبون لأمثال هذه التجريدات أعمالاً كالتي يعزونها إلى الأبطال .

وقد حاول بعض المؤرخين المحدثين أن يقللوا من أثر الأبطال في التاريخ ، ويهونوا من أمرهم ، وقد عمدوا إلى توضيح أثر العوامل الاقتصادية في التاريخ ، ولكن فريقاً من هؤلاء المؤرخين قد خدعوا أنفسهم من حيث لا يشعرون ؛ فقد جهدوا في إبعاد الملوك والقادة والسياسيين من التاريخ ، ولكنهم أقاموا مكانهم أساطين الصناعة ، وقهارمة المال ، وكبار المفكرين في الفلسفة والعلم ، وفي هذا التبديل لون من ألوان التقدم ، وشيء من التجديد واتساع آفاق النظر والتقدير ، ولكن الإشادة بالعظماء بوجه عام لا يتفق مع مذهبهم التاريخي القائم على انتقاص قيمة العامل الفردي في التاريخ .

والموقف الآن سواء في الدول الديمقراطية أو في الأمم الآخذة بالنظم الديكتاتورية ملائم لتقوية عقيدة الإيمان بالأبطال والتلفت إليهم والتعلق بهم ، والتقدم الفني ملائم كل الملاءمة لترسيخ هذه العقيدة وتمكينها من الوصول إلى العقل الباطن للأفراد والأمم ، فكل وسيلة طوعها العلم تستخدم الآن لتثبيت مكانة الزعيم ، وتفخيم أمره ، وإعلاء شأنه ، وإبعاد شهرته ، وإذاعة كلمته ، وكل تقدم ينسب له ؛ فهو باعث النهضة ، ومصدر الخير والبركة ، والموقف قبل قدومه كان باعثاً على اليأس موجباً للتذمر والسخط ، وبعد مجيئه وإشراق طلعته أعطيت القوس باريها ، وقاد السفينة ربانها الخبير الماهر ، وزعيم العصر الحاضر وليد اليأس والحاجة والتخبط والتردد والحيرة تلقاء المشكلات السياسية والاقتصادية ، فإذا جاء وألقيت إليه مقاليد الأمور ظل في حاجة إلى المساعدة والتأييد ليستبقي قوته ، ويحتفظ بنفوذه حتى يستطيع بعد ذلك أن يوجه الرأي العام الوجهة التي يريدها ، ويغذيه بالصلات والأماني التي يحققها بؤمن برسالته ويحبب بقدامته

ومن الأفكار الغالبة السائدة فكرة أن البطل وحده هو الذي ينقذنا من الورطات ويجنبنا الأخطار والهلاك والأزمات الطارئة التي تحار في علاجها العقول ، وكلما تكاثرت الشدائد وتوالت المشكلات اشتد الشعور بالحاجة إلى هذا البطل الفذ ، وكل أمل في معالجة مشكلة من المشكلات مرتبط بالتفكير في بطل من الأبطال يتولى هذا العلاج ، ويحل العقدة بقدرته الخارقة ، وكلما اشتدت الأزمة وتعقدت الأمور قوي الشوق إلى هذا البطل وطال الحنين إلى اجتلاء محياه وترقب قدومه .

وحتى الذين يقولون بالجبرية التاريخية لا يستطيعون أن يكتبوا التاريخ ويهملوا فيه أمر الأبطال الذين يتولون القيادة في الأوقات العصيبة والأزمات الحرجة ، ويلعبون دوراً حاسماً في توجيه الحوادث وصناعة التاريخ .

والأزمات التي تنتاب الأمم تتفاوت في القوة والشمول ، ولكن إذا حكمنا على تاريخ الأمم بما نعلمه عن ماضيهم نجد أن تاريخ كل أمة لم يخل في عصر من عصوره من الأزمات والشدائد والمشكلات ، وتاريخ الأمم يكاد يكون تاريخ الأزمات المتوالية والشدائد المتلاحقة ، ومهما كانت القوى الاجتماعية الفعالة فسيظل الشعور بالحاجة إلى البطل قوياً ، وكما يفتقد البدر في الليلة الظلماء ، فكذلك سيحتاج دائماً إلى البطل المبدع والمنظم والقيادة والتوجيه ، وربما كان من دواعي الأسف أنه كلما اشتدت الحاجة الماسة إلى ظهور البطل قلّت كفاية المرشحين للبطولة !

ويرى المفكرون السياسيون أن المجتمع الديمقراطي أقل تعرضاً للأزمات الجامحة من غيره من المجتمعات ، وعندهم أن الديمقراطية تختار أبطالها في تبصر وبعد التجربة والامتحان ، والديمقراطية الفطنة اليقظة تتعاون مع أبطالها تعاوناً خالصاً صادقاً ، ولكنها في الوقت نفسه لا تغمض عينيها على القذى ، ولا تغفل عن مراقبة النفوذ الممنوح له والسلطة التي خولته إياها ، وهي مشكلة عسيرة ، ولكن لا بد من مواجهتها وقهرها ، وإلا أصبحت الديمقراطية حقل تجارب للطغاة أو مدرسة لتخريجهم .

وقد شغل موضوع الأبطال في التاريخ المؤرخين والمفكرين الاجتماعيين منذ أثاره كارلايل في القرن التاسع عشر ، وكارلايل قد غالى في آرائه التي بسطها في كتابه عن الأبطال وعبادة البطولة ، حتى اضطر صديقه الكاتب الأمريكي الكبير إمرسن إلى أن يرد عليه رداً حاسماً في كتابه القيم العميق الذي سماه « الرجال الممثلون » وكشف فيه عن فضل الجماعات في خلق الأبطال وإعداد المسرح لظهورهم ؛ وقد خالف كارلايل في رأيه الماركسيون ، كما نقض آراءه الفيلسوف الإنجليزي المعروف هربرت سبنسر ؛ ولكن الذين خالفوا كارلايل بالغوا في الطرف الآخر . وكارلايل يرجحهم على الأقل في بلاغة أسلوبه وقوة عرضه الشائق لنظريته . وقد يخالف الإنسان كارلايل في آرائه التي عرضها بكتابه ولكنه مع ذلك يستمتع بجمال أسلوب الكاتب وما تضمنه من كلمات جامعة وأفكار مضيئة لامعة ؛ وقد حمل الفيلسوف الأمريكي وليام جيمس على آراء سبنسر ومن يقولون قوله في هذا الموضوع حملة شديدة وفند آراءهم تفنيداً قوياً في مقاله الضافي الذي جعل عنوانه « العظماء وبيئتهم » . ويذهب وليام جيمس إلى أن كل تغيير اجتماعي له شأن كان من عمل فرد من الأفراد الممتازين ، وأن الظروف التي تجعل هذا العمل اليوم مقبولاً هي كذلك من عمل أفراد متقدمين ، وإلمامنا بأحوال البيئة لا يكفي في تفسير ظهور أمثال هؤلاء الأفراد الأفذاذ وتعليله .

ولفرويد رأي خاص في اتجاه أفكار الناس وأمانيهم إلى الزعيم الذي يقودهم ويحمل عنهم التبعة ، ومضمون هذا الرأي أن معظم الناس يحنون دائماً عن الوالد — أو الوالدة — الذي يحميهم ويبعث في نفوسهم الطمأنينة والاستبشار ، ويهبهم الثبات النفسي والاستقرار العاطفي ، في بواكير شبابهم ومطالع حياتهم ، وهم في الغالب لا يتجاوزون هذه المرحلة من مراحل الحياة النفسية ، ولذا يظلون يعتمدون على والديهم ومعلميهم ، وكل من يستطيع أن يقوم في حياتهم بدور تهدئة مخاوفهم ، وتغذية أوهامهم ، والإجابة عن تساؤلهم ، والحاجة النفسية إلى طلب الأمن والسلامة والخلاص من ربقة المخاوف والقلق النفسي تتفاوت بتفاوت العصور وأزمانها وتختلف باختلاف مستويات التربية والنضج والثقافة ؛ ففي الأوقات الهادئة المستقرة ، وفي الأمم التي أخذت بنصيب وافر من الثقافة والتعليم تضعف الحاجة إلى هذا البديل من الوالد ويؤثر الناس الاعتماد على أنفسهم .

وهكذا اختلف آراء المؤرخين والمفكرين الاجتماعيين والفلاسفة في تقدير قيمة البطل في التاريخ ؛ ففريق منهم يرون في الرجل العظيم أو البطل مجرد عنوان ورمز للجبرية الاجتماعية ، وفريق آخر يرونه وسيلة من الوسائل لتحقيق اتجاهات العصر وإظهار سلطان القانون التاريخي ، وفريق ثالث يرى أنصاره أن معظم حركات التاريخ من وحي الأفراد الملهمين الأفذاذ الذين يحار العقل في تفسير ظهورهم ، وتعليل تفوقهم ونبوغهم ؛ وهناك فريق آخر وسط بين هذه الفرق المتعارضة المختلفة يحاول أنصاره أن يوفقوا بين قوة الظروف والملابسات وتأثيرها وظهور الأبطال والعظماء .

علي أدهم

حيـــــاة فيلسوف

للأستاذ محمود محمود

وقع بين يدىّ حديثاً كتاب عن حياة فيلسوف فرنسى عاش فى القرن الثامن عشر ، ولم يسعده الحظ بأن يكون اسمه نجماً من النجوم اللوامع فى الكتب التى تدون تاريخ الفلسفة . وربما كان ذلك لأنه لم يبتدع نظاماً فلسفياً محكماً مترابط الأطراف ، وإنما كانت له فى الحياة الإنسانية والنفس البشرية نظرات خاطفة وأفكار مفككة وإن تكن نافذة ثاقبة .

وقد كانت حياته وأحاسيسه ومشاعره فى جملتها شبيهة بحياة الكثيرين من رجال الفكر الخالص الذين أعرفهم ، لذلك أحببتها وأردت أن أنقل طرفاً منها لقراء هذه المجلة ، لعل فيها لبعضهم عزاء وسلوى عما يلاقون فى حياتهم من مشقة وإهمال .

فى صيف عام ١٨١٦ كان هذا الرجل — وهو حينئذ مراقب مجلس النواب فى فرنسا — يستشفى عند عين من عيون المياه المعدنية فى جبال البرانس . وذات صباح استيقظ كعادته فى ساعة مبكرة منهوكا مضطرباً ضعيفاً ، يرتجف رهبة من لقاء يوم جديد . فقد كان يحس بعد يقظته ذلة الضعف والمرض ، ويمارس فى شخصه تسلط الجسم على العقل والإرادة ، وانتصار الجانب الحيوانى على الجانب الإنسانى . وكان كثيراً ما يردد وهو يرتدى ثيابه فى الصباح هذه العبارة : « ما أبأسنى من إنسان ! من ينقذنى من هذا الجسم الفانى ، ومن ذا الذى يستطيع ذلك ؟ » .

ثم يخرج من داره ، فإذا بلفحة البرد تصفع وجهه ، والسحب الداكنة والرياح العاصفة ترعب قلبه ، فترتعد فرائصه خشية أن تنقل عليه وطأة العلة .

ثم يتوجه إلى حمام المياه المعدنية ومعه كتاب لباسكال عليه شروح لفلتير وكندرسيه . فيعجبه النص ولا يعجبه التعليق . كيف يسوغ لفلتير مثلاً أن يفهم التأمل على أنه الكسل ثم يشيد به كأنه سر عظمة الرجال ، ويحط من شأن الحركة كأنها هبوط فى طبيعة الإنسان ! ما أشد غفلة فلتير ! ولكن لماذا نتوقع من مثل هذا الرجل أن يدرك طبيعة التأمل ؟ ويعود فيلسوفنا بعدئذ إلى كتابات باسكال يتصفحها ويندفع فى قراءتها .

يطالع فيها هذه العبارة : « إننا لا نقنع بالحياة التى بين جنوبنا ، ولا نرضى بأنفسنا . إنما نحن نريد أن نحيا حياة خيالية تتمثل فيما يراه غيرنا فينا . ومن ثم فإن كل جهد نبذله إنما نوجهه إلى ما يظهرنا على غير حقيقتنا . لا يكف المرء منا عن العمل لكى يصون هذا المخلوق الخيالى ويحمله ، مهملاً ذلك الإنسان الذى يمثل شخصه فعلاً على حقيقته » .

فيلقى المراقب الكتاب ، ويتدبر ما قرأ ، ثم يدرك فى حسرة شديدة أن كل متاعبه إنما نشأت عن تلك الرغبة الملحة التى تدفعه لكى يظهر بما ليس فيه — لكى يظهر رجلاً من رجال العمل ، وهو فى الواقع من رجال الفكر ، ولكى يبدو سياسياً فى حين أن الطبيعة قد جعلته نفسانياً يتأمل باطن نفسه ، ولكى يبدو فكهاً مرحاً وقد أراده الله أن يكون جاداً رزيناً . يا للحماقة ! وهناك حماقات أخرى أشد من هذه نكراً . ينظر الفيلسوف خلال مياه الحمام إلى بشرته المتغضنة وجسمه المعروق فيقهقه ساخراً ، لأنه رجل فى الخمسين من عمره يحسب أنه بالدهون والعطور والمساحيق يستطيع أن يرد إلى كهولته الشباب الذى يجذب النساء . يا للعجب ! لماذا يضع نفسه هذا الوضع ؟ لماذا ؟ إن المبادئ الخلقية التى يؤمن بها ينبغى أن تصرفه عن هذا العمل ، ثم إنه يدرك أن الشواب — برغم هذا كله — لن يقبلن عليه . غير أنه — مع هذا — لا يألو جهداً فى أن يظهر بغير مظهره . ألا إنها لحماقة ليس لها من العقل ما يسوغها ، ولكنه يتشبث بها كأنها فضيلة من الفضائل ، لأنه — ككثيره من الناس — لا يستطيع أن يتخلص

من عوامل الضعف في النفس البشرية .

وتتوارد الخواطر على هذا الفيلسوف وهو في حمامه ، ويستبعد في ذاكرته ماضي حياته العملية التي لا يجدها حياة ناجحة لامعة ؛ لأن النجاح في الحياة العامة كثيراً ما يرجع إلى عيوب المرء أكثر مما يرجع إلى فضائله ! ويتنهد حسرة على نفسه ، ثم يستلقي على ظهره ويغمض عينيه ، ويشرد عقله في التأملات عندما يقرع الحارس الباب وينبهه إلى أنه قضى في حمامه أكثر من ساعتين ، حينئذ يدرك في شيء من الفزع أنه بدد ساعتين من ساعاته المحدودة في الحياة ، فينهض من حمامه وهو يئن أنيناً خافتاً لا يحس تقدماً في صحته ، ثم يخفف جسمه النحيل الذي كان في شبابه الباكر قداً ممشوقاً عندما كان حارساً في بلاط لويس السادس عشر .

ويرتدي ثيابه في خفة ، ويعود إلى مسكنه ، وينضو عنه ثيابه مرة أخرى ، ثم يأوي إلى فراشه ساعة من زمان ، غير أنه لا يقوى على الاسترخاء ، فيرتدي ثيابه للمرة الثالثة ويستوي على أحد المقاعد مضطرباً محزوناً ، ويكب على رسائله ، وتدخل عليه زوجه تحمل له قدحاً من القهوة ! فتلقاه شاحب الوجه منهوك القوى ، وتعرض عليه خدمته فيرفض ويعرض عنها ، ثم يخجل من نفسه وهو يحس في الوقت ذاته أن تركه وحيداً ، ثم يمد يده إلى قلمه ويشرع في الكتابة ! فتدرك زوجه ما يرمي إليه ثم تنصرف ، وتحدث نفسها وهي منصرفة : « ما أبأس هذه المرأة ! ولكني — برغم ذلك — أحمد الله على انصرافها » .

يكتب تقريراً لوزير الداخلية عن الرأي العام في دائرته ثم يتناول صحيفة أخرى ، ويسجل ملاحظات له على كتاب الفيلسوف ، وبعدئذ يدق الجرس ويأمر بإعداد جواده ، ويدون ما حدث بعد ذلك في مذكراته ، فيقول :

« كانت أعصابي محطمة فامتطيت صهوة جوادي آملا أن يصلح الركوب من ذات نفسي ، وقد فرغت باب بيتي آنئذ دوقة روهان يصحبها زميل كاستلبجاك تستجديني صدقة للفقراء . فدفعت مبلغاً أشعرني الدوقة أنه زهيد . فأحسست بوخز الضمير كأني ارتكبت إثماً من أحط الآثام . وأرتج عليّ وصمتت قسيدة بالانصراف دون أن أنبس ببنت شفة . ومنذ تلك اللحظة استحال عليّ أن أفكر في أي شيء آخر . ماذا عسى أن تظن بي الدوقة ؟ وماذا عسى أن يكون تعليق زميل الذي لم يخلص وده لي من قبل ؟ سوف أصبح أضحوكة عند كل من يعرفني . إن صدقتي لم تعبر عن ميولي . ولسوف يفسر موقفي آرائي على أنه جشع وطمع ، وأنا ذلك الذي لم أعبأ بالمال في أكثر الظروف ما كان أيسر على نفسي أن أمنح الدوقة أضعاف هذا المبلغ ! لماذا لم أفتح كيسي وأظهر رغبتي في إغاثة البائسين . لم يخطر لي آنئذ إلا أن جمع المال لجمهور الفقراء بتلك الطريقة لن يعود عليهم بالنفع أبداً .

لقد كنت مع الدوقة معوج السلوك ، قليل الذوق ، ولم أستطع أن ألتمس لنفسي عزاء .

وامتطيت صهوة جوادي آملا أن أبعد عني هذه الفكرة التي أزعجتني بإلحاحها غير أنها طاردتني أنى ذهبت . فأنهيت رحلتي ، وعدت إلى بيتي وفي نيتي أن أبحث عن الدوقة وأضاعف لها صدقتي ، وأشرح لها موقفي في شيء من لباقة الحديث .

وبهذه العزيمة توجهت إلى بيتها ، وأخذت أذرع الطريق أمامه جيئة وذهاباً ، غير أني لم ألج بابها خشية أن أسيء التصرف مرة أخرى . وعدت إلى بيتي في المساء يساورني القلق كما كنت . وطاردتني الفكرة حتى أسابيع الهذيان ، ثم تنبهت إلى نفسي وأشفقت عليها من الجنون .

وبينا أنا أتناول طعام العشاء لم أحدث زوجتي بكلمة واحدة لأني كنت سابحاً في تأملاتي . وليس من عادتي أن أبث غيري مشاعري أو أحاسيسي إن كانت حزينة أو مؤلمة »

إنما كان فيلسوفنا يبث همومه مذكراته لا زوجته . لا يجد لنفسه في ذلك عزاء ، وإنما كان لنا في هذه المذكرات كسب أدبي عظيم . كان الخاسر وكنا الرابحين . لأن مذكرات مين دي بيران[1] ظهرت بعد كل هذه السنين كتاباً قيماً يكشف عن بواطن النفوس ، كتاباً يقرأ ثم يقرأ ولا يمل القارئ العودة إليه .

إن الفلسفة كثيراً ما تكتب في صيغ مجردة مبهمة ، وفي

---

(١) Maine de Biran .

تعميم واسع بعيد المدى . وقد يكون ذلك صواباً . ولكنى أرى — برغم ذلك — أن من الخير لنا — أحياناً — أن نبحث بعض مشكلاتها فى إطار من حياة واقعية ، لا فى خلاء أو فضاء — إن جاز هذا التعبير . والأفضل أن تكون هذه الحياة لرجل هو نفسه فيلسوف بعيد النظر .

إن مذكرات مين دى بيران وثيقة فريدة فى تاريخ الفلسفة . فإنا بفضل صراحتها ودقتها وتفصيلها قد عرفنا بيران أكثر مما عرفنا غيره من فلاسفة العصر القديم . عرفنا ما كان يجيش فى صدره من أحاسيس يوماً بعد يوم ، كما عرفنا رأيه فى هذه الأحاسيس . عرفنا كيف أثرت حالاته البدنية فى عقله ، وكيف أثر عقله فى حالاته البدنية . عرفنا كيف كان يستجيب للطبيعة والفن وللأفراد ذوى الأمزجة المتنوعة والظروف الاجتماعية المختلفة . عرفنا ما كان يحب وما لا يحب ، وما حقق من أهدافه وما لم يحقق ، وما كان يدور فى خاطره ، كما عرفنا الظروف النفسية — بل والظروف الصحية — التى جالت فيها هذه الخواطر . ولذا فقد كانت حياة بيران عوناً كبيراً لنا على فهم مشكلات الفلسفة الدائمة .

عاش بيران إبان الثورة الفرنسية ، ولم يعطف رجالها عليه ولم يعطف عليهم ، واحتمى فى بيته الريفى بدرس الفلسفة وينعم بحياة زوجية هادئة .

ولما ماتت زوجته حزن عليها حزناً شديداً . وبعد فترة من الزمن خفت أحزانه تدريجاً وتزوج مرة أخرى ، وعاد إلى الحياة العامة ولقى فيها شيئاً من النجاح . وارتقى حتى عين مراقباً لمجلس النواب . غير أن خجله وضعف صوته قد حالا دون أن يكون خطيباً بارزاً فى المجلس . فكان يؤدى واجبه النيابى خلف ستار : فى اللجان ، وفى المحادثات الخاصة مع الوزراء ومع زملائه . ولم يهب المجلس من يومه غير ساعات معدودات . أما بقية الوقت فكان ينفقها فى دراسة الفلسفة وفى حياته الخاصة . يحب أن يجتمع رجال الفكر المعاصرين له ليبحث معهم فى جلساته الخاصة طبيعة الإنسان ومركزه فى الكون ، ثم يدون مذكرات من آرائه الفلسفية . وبقى كذلك حتى مات فى عام ١٨٢٤ مخلفاً بعده كثيراً من الكتب والأوراق وقليلاً من الثراء والمال .

ولقد بلغ به الخجل أنه كان يجد نفسه غريباً فى كل مجتمع ، يؤلمه الكلام ، بل كثيراً ما يستحيل عليه استحالة مادية . يحملق فى الناس ، وتفر الأفكار من رأسه ، وتصاب حباله الصوتية بالشلل مهما يكن جمهور السامعين .

لم ينسجم بيران مع العالم الذى كان يعيش فيه ، فكان يتجنب الكفاح والنضال مع غيره ، ولا يصر على حقه . يمقت الجدل — اللهم إلا إن كان ذلك فى موضوعات الفلسفة ومع أصدقائه الأدنين — فإن لم يعجبه الرأى ظل صامتاً لا يعارض ، أو وافق عليه أدباً وضعفاً . يؤثر فى شئون المال الخسارة على المساومة ، كما يؤثر ضياع حقه على النضال من أجل نيله . يستحيل عليه أن يقول « لا » لمن يستدينه قرضاً من المال . وأشق من ذلك على نفسه أن يطالب حقه من مدينيه .

وكان فى المجتمع يخشى ذوى النفوذ والنابهين من رجال الأعمال ، حتى من كان منهم ناجحاً بحظه لا بجده واجتهاده ، تضعف نفسه إزاءهم فيفقد سلطانه على نفسه كما يفقد قدرته على التفكير ، ويتفوه بآراء لم يعتقد فى صحتها ، ويفعل ما لا ترضى نفسه عنه . على أنه بذلك لم يرتفع شأنه فى أعينهم . يزدرونه أو يتجاهلونه . فإن التقى بزملائه المتفلسفين انطلق فى الحديث وحلت عقدة من لسانه .

جاء فى مذكراته « أن الرجل إن أحزنه ضعفه ، وإن كان يمقت من يسبقونه فى مضمار الحياة ، ويلتمس العزلة لكى يتحاشى موازنة نفسه بهم ، وشعوره بالنقص إزاءهم ، مثل هذا الرجل ليس متواضعاً ، وإنما هو ملىء بالغرور والكبرياء » وجاء فى مذكراته كذلك « إن شعورى بالكبرياء يقتلنى ، برغم خجلى وبرغم ما يبدو علىّ من تواضع » .

كتب مرة مقالا لإحدى الصحف ، ورفض رئيس التحرير نشره ، معتذراً بطوله وصعوبته حتى على الخاصة من القراء ، فأسف بيران لذلك وكتب فى مذكراته يقول « لست من هذه الدنيا ، ويجب علىّ أن أتخلى عن محاولة العيش والعمل فيها . »

وحقّر مرة صديق له من شأن الميتافيزيقا ، فكتب يقول : « إن أمثال هذا الرجل ليست لديهم فكرة عن الحياة الباطنية . إنهم ينظرون إليها كأنها حماقة وعبث . وكذلك يعتقد أولئك الذين يعرفون الحياة الباطنية أن أولئك الذين يهتمون بأمور الدنيا ويعيشون خارج أنفسهم إنما هم حمقى عابثون . أى هذين الفريقين يا ترى على حق وصواب ؟ هل

عامر بن الطفيـــل

لسير تشارلس ليال

ترجمة الأستاذ حسين نصار

كان بنو عامر بن صَعْصَعَة ، الذين ينتمى إليهم هـذا الشاعر ، أقوى بطون قبيلة هوازن الكبيرة ، التى يرى النسابة أنها من أبناء قيس عيلان بن مُضَر (بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان) . وكان بنو عامر ، فى هذا العصر الذى نتناوله بالبحث ، متضامنين تضامناً وثيقاً ، متحدى الكلمة فى منازعاتهم مع جيرانهم ، وأهم بطون عامر : هلال ، ونُمَير وسُوَاءة ، وأبناء ربيعة من زوجه « مَجْد » القرشية : وقد أنجب هـذا الزواج البطنين القويين المعروفين بكلاب وكعب ؛ ومن كعب : عُقَيل ، وجَعْدة وقُشَير ، وبطون أخرى لا تعنينا هنا ؛ ومن كلاب عدة بطون أشهرها جعفر وأبو بكر . وكان شاعرنا من بنى جعفر ، ويبدو أنه كانت فيهم رياسة قبيلة عامر بن صعصعة كلها ، فى حياة شاعرنا والجيل الذى قبله ، ما عدا فترة وجيزة .

وكان الأحوص زعيم بنى عامر يوم شِعب جَبَلة الذى لن يزول اسمه . ثم تلاه فى الرياسة ابن أخيه عامر أبو براء ، الملقب « ملاعب الأسنة » ، فابن أخيه عامر بن الطفيــل شاعرنا . وقد مات معظم الأشخاص المذكورين فى جدول نسب عامر فى الحروب . فقتل عمه ربيعة ، أبو لبيد الشاعر ، فى ذى عَلَق ، وهو يحارب بنى أسد ؛ وقتل عمه عُبَيدة فى ذى نَجَب ، بعد شعب جبلة بعام ، فى صراعه مع بنى يربوع من تميم ؛ ومات أبوه الطُّفَيل بِهَرْجاب . وهلك من إخوته قيس وحكم فى يوم الرقم ، وحنظلة فى حِسْمَى ، وعبد الله فى النباءة ؛ وكنانة والحارث ابنا عمه عبيدة فى الرقم أيضاً ؛ وعبد عمرو ابن عمه حنظلة فى بَدْوَة . وكان أبناء هذه القبيلة يحسون كل الإحساس بما لهم من امتياز ؛ يدعى لبيد فى أول شعر قاله ، وهى أبيات من بحر الرجز فخر بها

هم أولئك الذين يشكرون مالا يعرفون ولا يحبون أن يعرفوا ؟ إنى أعرف العالم الخارجى كما يعرفونه وأستطيع أن أحكم عليه . أما هم فلا يعرفون شيئاً عن حياتى الباطنية . ومع ذلك تراهم يزعمون أنهم يستطيعون الحكم على هذا العالم الخفى » .

وقد امتد بغض ميران للجماهير حتى شمل جمهور القراء ، فكان يكره أن يتعرض لتحديق الجمهور الذى لا يعطف عليه . يكره هذا التحديق حتى إن كان رمزياً وعلى الورق . كتب مرة إلى صديق له عندما أخرج أول كتبه يقول : « إنى يساورنى الكثير من الفزع عندما أتصور أنى قد حكم على بطبع كتابى وأنا على قيد الحياة . » واستمر هذا الفزع عنده حتى نهاية حياته . فكان كلما نشر فصلاً أو مقالا فعل ذلك كارها وبعد تسويف طويل وتردد شديد ، ولا تخلو نفسه من العذاب والألم .

وهذا الخوف من التعرض لجمهور القراء كان يعززه فى نفســه شعور بأنه لم يكن كاتباً بالسليقة . إذ كان يجد مشقة كبرى فى التأليف . يعبر من الفكرة ثم يجيد التعبير عنها ، ولا يهتدى أبداً إلى الصيغة التى يرضى عنها كل الرضى . لا تواتيه اللفظة المناسبة فى الموضع اللائم ، ولا يحس مايسميه الكتاب وحياً أو إلهاماً . ولا يجد لذة فى الكتابة . ولم يكن نثره بارعا وجميلا . وهو من أجل ذلك آسف وفخور . آسف لأنه لم يوهب ملكة الأسلوب ، وفخور لأنه ليس كغيره من الكتاب حاويا يلعب بالألفاظ ليخدع القراء .

عاش طوال حياته مريضاً تنتابه العلل على اختــلافها . لكنه لم يأسف لذلك كثيراً « لأن المرضى وحدهم هم الذين يحسون وجودهم . فالأصحاء — حتى إن كانوا من الفلاسفة — ينغمسون فى متع الحياة حتى يضيق بهم الوقت عن بحثها ... الصحة تدفعنا إلى العالم الخارجى ، والمرض يردنا إلى أنفسنا »

وقد قضى ميران حياته منطويا على نفســه دائم التفكير فيها .

محمود محمود

الربيع بن زياد فى بلاط النعمان ملك الحيرة ، أن قبيلته فى المركز الأسمى ، قال :

نحن بنو أم البنين الأربعه
ونحن خيرُ عامر بن صعصعه
المطعمون الجفنة المدعدعه
والضاربون الهامَ تحت الخيضعه

وعلى الرغم من تضامن بطون بنى عامر المتعددة وانحيازها الظاهر على أعدائها الخارجيين ، لم تخل من العداوات فيما بينها دواما . فقد رُويت لنا أخبار بعض الوقائع بين بنى جعفر وأبى بكر ، الفرعين المهمين من كلاب . وكان بنو عبس تحت حماية بنى جعفر فى يوم شعب جبلة ، وحاربوا معهم فى تلك الوقعة العظيمة ؛ ولكن الصلات فسدت بين عبس وجعفر ، فانسحبت الأولى من حماية الثانية ، ووضعت نفسها تحت حماية أبى بكر . ولم يمر وقت طويل بعد ذلك ، حتى انخلعت جعفر من أخوة بنى عامر ، فيما يبدو ، نتيجة لمعركة نشبت بينها وبين أبى بكر ، وارتبطت ببنى الحارث بن كعب اليمنيين : فلم يشهدوا يوم النسار ، الذى نشب بعد شعب جبلة بوقت غير طويل ، وكبدت أسد والرباب عامراً خسائر فادحة ، وغنموا كثيراً من الأسلاب واسترقوا عدداً وفيراً من النساء . وأدى نزاع آخر مع أبى بكر إلى انخلاع جعفر ثانية ، فيما يبدو ، والتجائها إلى حماية بنى الحارث ؛ وتروى أخبار هذا النزاع فى النقائض ص ٥٣٢ — ٥٣٥ . وأخيراً سوّى النزاع بشروط عادلة ، ومُهِّد السبيل لرجوع بنى جعفر إلى قبيلتهم ، واشتراك عامر بن الطفيل فى هذه التسوية . وفى ديوانه مقطوعة واحدة ، — هى رقم ٤ ، البيت الثانى وما يليه — تتحدث عن بنى أبى بكر بلهجة شديدة العداء .

وكانت بنو عامر تعيش فى أراض واسعة مترامية الأطراف فى أواسط بلاد العرب . وإلى شمالها وشمالها الغربى قبائل غطفان العظيمة ، المتألفة من عبس ، وذبيان ، وأشجع ؛ وإلى الشرق من هؤلاء أسد ، لجماعة من طيئ ، فرهط من تميم ، معظمهم من بنى دارم . ولا بد أن الأراضى التى بين عُنيزة (عنيزة) الحديثة والرس كانت ملتقى ديار بنى عامر بديار القبائل الثلاث الأخرى بالتقريب . وفى شرق بنى عامر كانت حنيفة ، تنزل اليمامة أو أواسط نجد ؛ وفى غربهم أقرباؤهم بنو سُليم ، وكانوا ينزلون على طريق الحج (وهو الطريق التجارى الرئيسى سابقاً) من مكة إلى الشمال ويشغلون حرّة واسعة تمتد فى الشمال والجنوب ، ويبدو أنها ما يسمى « حرة كشب » فى خريطة دفق . وفى جنوب سليم يبدأ حرم مكة ، الذى تتصل به أراضى عامر اتصالا مباشراً . وكانت واحة الطائف فى وسط ديارهم ، وهى شديدة الخصب كثيرة الثمار تنزلها ثقيف . وكانت مراعى بنى عامر تنتشر حول هذه الواحة ، وتتصل فى الجنوب بالمنطقة التى يحتلها بنو الحارث بن كعب ، وخثعم ، وهمدان اليمنيون . وكانت منازل بنى عامر فى هذه المنطقة — تبالة وبيشة — تختلط بعض الاختلاط بمنازل هؤلاء اليمنيين ، الذين يجمعهم اسم «مذحج» .

وقد اخترق مستر دفق ، فى رحلة من عنيزة (عنيزة) إلى الطائف ، الجزء الشمالى من ديار بنى عامر ، ويقيم فيها الآن بدو عتيبة (عتيبة) . وكثير من أسماء المواضع المذكورة فى رحلاته ليست إلا أسماء القرنين السادس والسابع بعد الميلاد . ويصف لنا المقتطفات التالية منه مظاهر هذه الديار (فى الصيف) :

« نحن الآن (فى الرس) على حدود النفود ، وأمامنا سهل خشن كثير الحصباء تحت أقدامنا : ودخلنا المنطقة الوسطى الجرانيتية البازلتية من بلاد العرب ، وهى تمتد من جبال شمر [1] إلى مكة » (المجلد الثانى ، ص ٤٥٩) .

« وتقدمنا من « النخيل » (النخيل : الموضع يستراح فيه فى الظهيرة) فى برية سهلة مليئة بالكتل البازلتية والجرانيتية الرمادية التى تميل إلى الاحمرار ، مثل التى رأيناها فى ديار حرب وشمر فى الغرب . . . وفى الصباح ارتحلنا ماشين بنفس الأرض المرتفعة ، لا تقع العين منا إلا على كتل من الصخور البازلتية والجرانيتية . أما الأراضى من القصيم إلى الطائف فقفرة على الدوام (ص ٤٦٠) .

وخلفت عدة قرى وراء الظهور ، ثم — « تقدمنا فى الغد فى نفس الأراضى القفرة المرتفعة ، المليئة بالصخور الحادة

(١) كل الأسماء هنا حديثة ومضبوطة بحسب نطق الأعراب الذين قابلهم دفق ، لا تبعاً لنطق العرب الفصيح فى المعاجم .

والكتل ، والجبال ، التي تتألف من الصخور والجرانيت . وعند الظهر لم نعد نشعر بالحرارة المحرقة التي كنا نشعر بها بالأمس ، وقرأت في البارومتر الجاف أننا على ارتفاع يقرب من خمسة آلاف قدم ، فصار هواء الصيف المشرق خفيفاً منعشاً ... وكان إلى يمينا جبل متوسط جرانيتي ، يسمى كُطْحَمَة . وقيلنا بجوار مياه النُّعُرُل ، في منخفض بين الجبال الصخرية : وكانت الأرض خضراء ذات شجيرات صحراوية خشنة ؛ وفيها آبار (قُلْبان) قديمة يبلغ عمقها اثنى عشر قدماً ؛ وماؤها عذب خفيف» (ص ٤٦١) .

وهذه البرية المرتفعة أحسن مرعى وجدتني رأيته في بلاد العرب : «الشجيرات قليلة ، ولكنه «أرض بيضاء» مغطاة بالأعشاب الصحراوية المسماة «النَّصِيّ» ... وترى في كل مكان منه بعض شجر السَّمُر أو الطلح ، مما يدل على أن الماء ليس على عمق بعيد (ص ٤٦٢) .

(وقد ظن مستر دوتي أن هذه الأراضي على حافة الأمطار الوسمية أو المدارية ، التي تنزل في أوائل الخريف ، وتستمر عادة خمسة أسابيع أو ستة في الطائف) .

«وبعد الظهر اخترقنا نفس الصحراء المستوية ، المليئة بالحشائش الجافة المتصبة ، ولكنها جد منعزلة : وأصبحت الصخور البلزلتية أكثر من الجرانيتية . ورأيت نباتين صحراويين أو ثلاثة للمرة الأولى — إنها يشير مناخ آخر» (ص ٤٦٣) .

وتحركنا قبل الفجر بساعة ؛ فأرانا الضوء أراضي أكثر انبساطاً أمامنا ، تكثر فيها أشجار الطلح ... وتقل القلبان والعيون الثابتة ... كما تقل آثار القطعان» (ص ٤٦٤) .

«ووقفنا بأرض «عَفِيف» . وهي منخفضة كالترل ، محاطة بجبال بازلتية منخفضة ... وينمو في هذه الأنحاء كثير من العشب الطويل المسمى «ثُرم thurrm» الذي رأيناه على طريق الحج من مورية» (ص ٤٦٧) .

«وتقدمنا من عفيف قبل بزوغ اليوم الجديد . وعندما أشرقت الشمس ، كنا خلفنا السلسلة الجبلية المنخفضة الممتدة على شمالنا ، وظهرت البرية أمامنا أشد انبساطاً : وكانت مغطاة بالعشب الجاف ، ومع ذلك ... لازالت هناك مراع أحسن ! لقد قلت الجبال الآن ، وأصبحنا لا نرى إلا صخوراً في موضع المرتفعات والقمم» .

«وقلنا بين جبال كحيلة» و «الثمثل» في موضع يسمى «جِثيرم» ، وهو منخفض به شجر الطلح ، ويغزر به عشب قصير شائك له زهر أرجواني ، يحمل اسم المكان نفسه» (ص ٤٦٨) .

ودخلت القافلة في منطقة «مستوية ذات مرتفعات ، من الأرض المختلطة بالمراعي الجيدة» (ص ٤٦٩) ، وأخذت تقترب من «تلك البلاد البركانية العظيمة ، أعني حرة الكشب . وعبرنا أرضاً مبتلة كثيرة المياه الجوفية سبخة ؛ وهي بيضاء اللون من لمعان الندى : وكنا أحياناً نخترق أراضي سوداء كثيرة الحصى والصخور السوداء ... وكان في هذه الصحراء ، المتشابهة الارتفاع والظهر ، كثير من شجر السَّمُر : ولكن أكثره جاف ، ولم أر شيئاً منه صار خشبياً» (ص ٤٧٠) .

وتقدموا بين حافة الحرة والسهل ، حيث توجد مياه متنوعة ، ولكن معظمها رديء . ووصلوا إلى «مَرْخ السيد ، وهو مجموعة صغيرة من الطلح ، بديعة الجمال في أرض «الحالة» الخالية ؛ وتكثر به ينابيع المياه التي يبلغ عمقها تسع أقدام ، وتأخذ مياهها من الأمطار» ... وكان أمامنا على الدوام مسطحات ملحية ، تصل من ورائنا إلى الساحل البركاني» (ص ٤٧٣) . وكان هناك ماء آخر يسمى «الَّنى» أو «لّنى الشَّعْب» ، أو أمياه هكران ، وبه آبار كثيرة ، ويعتبر مورداً رئيسياً للأعراب» (نفس الصفحة) .

كذا تقدمت الرحلة ، حتى وصلت القافلة (القاصدة مكة) إلى حدود هضبة نجد ، ففارقها مستر دوتي .

وتدل المقتطفات السابقة على أن «دار بني عامر بها مراع طيبة ، لا تنقصها موارد المياه ؛ ويكثر بها العشب والطلح . وربما كانت الأحوال أحسن في الجنوب ، في اتجاه تبالة . وكانت الجبال والصخور البركانية كثيرة ، والسطح متغير إلى حد ملحوظ ، مع تنوع النبات ، حتى في أشد أيام الصيف .

(للبحث بقية) عيسى قصار

٢ - الحياة كما عرفها طرفة

للأستاذ عز الدين إسماعيل

الحياة والموت لغز الأبد الذي حارت وستحار فيه العقول . أتعب الفلاسفة وأضنى المفكرين ، وخيل إلى كل منهم أنه قد اهتدى إلى الحل ، وأنه قد عرف – وليته حقاً عرف – السر ، ولكن وجهة نظره التي ارتاح لها أخيراً وآمن بها إيمانه بنفسه ؛ فاختط لنفسه منهجاً في الحياة على أساس نظرته أو فكرته التي اطمأن إليها ، وراح يدبر أموره وعلاقاته بحسب هذا النهج ، والإنسان الذي يسير على منهج system معين في حياته خير ممن يسير على غير هدى ؛ فهو يتحكم في الأمور وفق إرادته وحسب فكرته التي مضى في تكوينها ، ولا يتدخل في أموره ما يخالف إرادته ، أو يقسره على الخروج على فكرته ، وكذلك كان طرفة !.

رأى طرفة في الحياة رأياً بعد أن أنفذ البصيرة ، فاعتنق هذا الرأي وآمن به ولم يرض الخروج عنه ، وراح يتصرف في الحياة بحسبه ، ساء ذلك الناس أم سرهم ، أرضى العشيرة أم أغضبها ، ولم يستمع للائم ينقد تصرفه ، بل يجب أن يلومه غيره لاختلاف وجهات النظر ، ويناقش عن رأيه إلى أن يطمئن إلى أنه قال ما هو حري أن يقنع ؛ فعندئذ يقول لك : دعني إذاً أستجيب ؛ فأنا الذي سأتحمل نتيجة تصرفي ...

الحياة عند طرفة ملهاة لا أكثر ولا أقل ، والموت هو الستار الذي يسدل على هذه الملهاة ، ولكن أحداً لا يستطيع التحكم في إسدال هذا الستار في الوقت المناسب ، بل قد يسدل في أثناء الملهاة على غير ما توقع من الشهود ، وهذا ما يثير قلق طرفة ، ثم ماذا بعد الموت ؟ أحياناً لا يدري ، وأحياناً أخرى يرى أعمال الإنسان تحاسبه ، وهذا التردد نتيجة القلق ؛ لأنه بينا يدعو إلى اتخاذ الحياة ملهاة وعبثاً فإنه يدعو أيضاً إلى التزود من المعروف .

فإذا قلت : إن خوفه من الموت هو الذي أملى عليه حياة العبث ، وخوفه أحياناً مما قد يكون خلف الموت هو الذي أملى عليه التزود من المعروف ، لم أذهب بعيداً :

لعمرك ما أدري وإني لواجل
أفي اليوم إقدام المنية أم غد ...
لعمرك ما الأيام إلا معارة
فما اسطعت من معروفها فتزود

أو يقول :

فكيف يرجي المرء دهراً مخلداً
وأعماله عما قليل تحاسبه

غير أن طرفة قد بدر منذ اللحظة الأولى بقطع الطرف الأكثر ثقلاً أو الأكثر غموضاً وإبهاماً وإتعاباً للفكر ، وهو الموت ؛ فعرف أنه يترصده حيث كان ومتى كان ، فلا بد أن يصرف أكبر همه إلى الحياة ، وأن يستمتع بها ما وسعه الاستمتاع ، ووسيلته إلى ذلك المال ؛ ففي اللهو والعبث باع طرفة كل ما يملك وأنفق طريفه ومتلده ، غير مبق على ثراء أو مدخر لمال ، بل إنه ليستعبد هذا المال ما دام لا يذود عنه المنية :

وتقول عاذلتي وليس لها ... بغد ولا ما بعده علم
إن الثراء هو الخلود وإن ... المرء يكرب يومه العدم
ولئن بنيت لي المشقر في ... هضب تقصر دونه العصم
لتنقبن عني المنية إن ... الله ليس لحكمه حكم

فالثراء إذاً ليس هو الخلود ، ومن خطل الرأي أن يحرم الإنسان نفسه الملذات ، ويقتر عليها إبقاء على المال الذي لن يضمن له الخلود ، وحين توافي المنية أليست تساوي بين قبر البخيل المقتر وقبر المسرف الذي لم يحرم نفسه أطايب الحياة ؟ وهناك بين القبور لا تكاد تفرق بين قبريهما ؛ فقد علتهما الحجارة المنضدة ، ولا امتياز لضجعة واحد على الآخر ، بل الكل سواسية أمام الموت :

ألم تر لقمان بن عاد تتابعت
عليه النسور ثم غابت كواكبه

أو يقول :

أرى الموت لا يرعى على ذي جلالة
وإن كان في الدنيا عزيزاً بمقعد ...

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي
عقيلة مال الفاحش المتشدد

أو يقول مصوراً قبر البخيل والمقتصد المتلاف لماله متجاورين :

أرى قبر نحام بخيل بماله
كقبر غوي في البطالة مفسد

ترى جثوتين من تراب عليهما
صفائح صم من صفيح منضد

وطرفة يلح على المال والعقل أهمية كبرى لمن أراد أن يعيش حياة رخية ناعمة ، وبغيرهما يقل بهاؤه ، وتطبق عليه أقطار السماوات والأرض ، ولا ينفعه الحزم في معرفة مواقع الخير له في أي وجه من الأرض هي ، أوراءه أم قدامه ، وإن غاب في طلبه لم يشفق على غيبته صديق ، وإن عاد لم يفرح لعودته أصفياؤه ، وإن مات لم يفقده أحد ، وإن عاش لم يسرر أحداً لقاؤه ، وهكذا تقل أصدقاؤه ، ولا تحلو في قلب أحد إخاؤه ، وعندئذ ينقم عليه أبناؤه ، وتقل قيمته في نظرهم ، ولم يرتضوا منه عقله وإن كان كبير العقل ، أو لم يرتضوا منه عقله الذي قصر به وبهم دون توفير الأموال . وعندئذ لا ينصره أحد وإن كان منطيقاً قليل الخطأ ، بل يرد عليه كلامه .

وقيمة المال وأهميته في الحياة لا يستطيع أن ينكرها أحد ، ولكن طرفة يعطينا لمسات موفقة من صميم الحياة لما يعانيه الشخص الذي قل ماله ، ودقة الحس في هذه اللمسات واضحة فيما يصور لنا طرفة من تغير في وزن الأبناء وتقديرهم لأبيهم وعقله حين يقل ماله :

إذا قل مال المرء قل بهاؤه
وضاقت عليه أرضه وسماؤه

وأصبح لا يدري وإن كان حازماً
أقدامه خير له أم وراؤه

ولم يمض في وجه من الأرض واسع
من الناس إلا ضاق عنه فضاؤه

فإن غاب لم يشفق عليه صديقه
وإن آب لم يفرح به أصفياؤه

وإن مات لم يفقد ولي دعاءه
وإن عاش لم يسرر صديقاً لقاؤه ..

إذا قل مال المرء قل صديقه
ولم يحل في قلب الخليل إخاؤه

إذا قل مال المرء لم يرض عقله
بنوه ، ولم يغضب له أولياؤه

وأصبح مردوداً عليه كلامه
وإن كان منطيقاً قليلاً خطاؤه

وطبيعي أن وفرة المال تجنب الشخص كل هذا ؛ ويستمد الإنسان المال من أهله قبل كل شيء ، فإن نفد أهله فليس معنى ذلك أنه قد قضي عليه ، فها هو ذا طرفة تنبذه العشيرة ولو شاء الله لمنحه مالاً كثيراً وجعله كسيد من ساداتهم :

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد
ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

فأصبحت ذا مال كثير وزارني
بنون كرام سادة لمسود

وإذا ما رزقت المال الكثير فتذكر أنه للإنفاق لا للتقتير ، وتذكر دائماً أن المنايا ترصد الفتى حيث سلك ، ومهما طال عمر الإنسان فإلى انقضاء لا محالة :

أرى المال كنزاً ناقصاً كل ليلة
وما تنقص الأيام والدهر ينفد

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى
لكالطول المرخى وثنياه باليد

والمنايا بعدد النفوس ، وهي موافية في الغد لا محالة ، وإن غداً لناظره لقريب ، وحيث يكون المرء فالموت لاحقه ولا يفلت منه إنسان :

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى
بعيداً غداً ، ما أقرب اليوم من غد

* * *

ولا بد من صوب وشيك وآجل

لحيث يكون المرء فالموت لاحقه

وإذ تحقق لطرفة هذا الرأي كان طبيعياً جداً أن يحمل حملته على زجر الطير عندما ينوي الشخص أمراً ، فلا خبرة للطير بما يكون أو سيكون ، ولا علم لها بما سيكون خيراً أو شراً حتى يصدر الناس في حياتهم عن إشاراتها العضوية . والموت يلاقي الشخص ، أطاع الطير أم عصاه :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى

ولا زاجرات الطير ما الله فاعلُ

* * *

إذا ما أردت الأمر فامض لوجهه

وخـــل الهوينى جانباً متنائياً

ولا يمنعنّك الطـــــير مما أردته

فقد خط في الألواح ما كنت لاقياً

وهكذا يحمل طرفة على معتقد من معتقدات العرب سائد بينهم ، ولم يحمـــل عليه بدافع ديني كما قد يتبادر إلى الذهن ، بل كانت حملته هذه جزءاً من فكرته العامة عن الحياة والموت . ووراء تسنّم طرفة في الأبيات السابقة نحس بابتسامة سخرية مرة ، تدل على ضيقه بأفكار الناس ، وآمالهم في مستقبل يخيل إليهم أنهم قد عرفوه واطمأنوا إليه ؛ والحق أنهم لم يعرفوا ، فمن المستقبل مالم يخطر لهم بخاطر أو يكن في الحسبان . ولكنهم اطمأنوا إلى ذلك فاستراحوا ، ولم يطمئن طرفة فلم يسترح . كان المستقبل في عينيه مظلماً ، والحياة بلا أمل في المستقبل ضيقة وثقيلة لا تحتمل ، ولكن ما حيلته في ذلك . وهكذا الشاعر : يرى الناس يقضون حياتهم مستريحين إلى أفكار وعادات تدل دلالة واضحة على الغفلة الفاضحة ، ولكن خواطرهم بذلك مستريحة لا يقلقها شيء ؛ ولو خلقه الله مثلهم ، لا يدقق ولا يكتنه الأشياء ، لاستراح مثلهم ، ولكنه لا يملك من أمر ذلك شيئاً ، فوجدانه الحساس يتأثر بأقل المؤثرات ، وبأدق الأمور ، ويقلقه أتفه الأشياء ، فضلا عن أعظمها ، فلا يجد إلى الراحة سبيلاً . والشاعر بهذه المثابة مبتلى بنفسه .

والمهم في أمر طرفة أنه لم يترك أفكاره تأكله وتقضي عليه ، بل هضمها هو هضماً جيداً وتمثلها تمثلا تاماً ، فاستراح هو أيضاً بدوره إليها ، ولم تنغص عليه حياته حين كانت غصة في حلوق الآخرين . كانت أفكار طرفة أفكاراً عملية لها من الواقع والوقائع مســـند قوى ، فكانت بمثابة دستوره في الحياة .

لم يقلق طرفة اعتناقه لهذا الدستور والسير عليه في حياته ، ولم يؤرقه العمل بمقتضاه ، وإن كان هذا الدستور في حد ذاته لم يتكون — كما سبق أن قلنا — إلا نتيجة للقلق النفسي ، ولم يترعرع إلا على أرض من التشاؤم ، ولكن طرفة أخيراً قد ارتضاه ورأى فيه جلية الصواب :

لعمرك ما أمري عليّ بغمة نهاري ، ولا ليلي علي بسرمد

والخلاصة أن طرفة شاعر يحملنا على احترامه من جهة تعبيره عن فترة حرجة في حياة الفرد شديدة التعقيد ، تعبيراً صادقاً . وهذه هي فترة الشباب . فيها يساور الإنسان كثير من الوساوس والشكوك ، وتكون الحياة هي مشكلة المشكلات لديه : الأفكار السائدة والعادات الجارية ، والعقائد ... كلها تكون محل أخذ ورد ، فإن كان فارّاً جرى معها في عنان ، وإن كان فارّاً التقى معها في اصطدام . وقد اصطدم طرفة كثيراً بما كان سائداً في عهده من أفكار ومعتقدات ، وانتهى إلى أن الحياة وشيكة الزوال ، والمنية تدهم الإنسان في كل مكان ، فلا بد من التمتع بأكبر قسط من ملاذ الحياة ، ولا معنى للشح واختزان الأموال وتصنع الحكمة .

البهجة في الحياة ، وري الظمأ بملذاتها قبل أن تدهم المنية ، هو ما سيطر على طرفة في فترة الشباب التي لم يتجاوزها ، وإن خطر لك أن تختلف معه في وجهة النظر فلك هذا ، ولكنه يقول لك : إنه ،

كريم يُروّي نفسه في حيـــاته

ستعلم إن متنا غداً أينا الصدى

(تم) عز الدين اسماعيل

دار الكتب المصرية

للأستاذ عبد الله أمين

تخلفت هذه الدار عن ركب الحضارة المصرية الحديثة مراحل طويلة ، فقد قفزت مصر الناهضة في الثلاثين سنة الأخيرة بعد ثورة سنة ١٩١٩ قفزات واسعات في سبيل التقدم والرقي . وأكبر مظاهر هذا التقدم هو المعاهد العلمية المصرية المدنية والدينية ، وقد باعدت هذه الوثبات بين مصر الحديثة وبين ماضيها القريب مباعدة شاسعة .

أما دار الكتب المصرية فلا تزال حيث كانت منذ أكثر من خمس وأربعين سنة ، من يوم أن نقلت إلى دارها في ميدان أحمد ماهر باشا (باب الخلق) سنة ١٩٠٥ ، لم تتقدم في طريق النهضة الحديثة خطوة واحدة ؛ فالدار هي الدار والمحتويات هي المحتويات ، والنظام هو النظام والقيود هي القيود ، والجمود هو الجمود .

على حين أن دار الكتب أعلى معاهد العلم مناراً ، وأبلغها في حياة الأمة آثاراً ، لأنها تضم بين جنباتها جميع الثقافات وثمار القرائح البشرية في جميع العصور ، فهي أثمن الكنوز ، ويختلف إليها طلاب المعرفة من الأطفال والشبان والشواب ، والرجال والنساء ، والشيوخ في اختلاف أسنانهم ، والتي لا يستغنى عنها طلابُ الحقيقة من المهد إلى اللحد ، وعشاق الدرس الذين حالت قيود المعاهد العلمية وشروطها ونظمها وأوقاتها دون تزودهم بشيء من المعرفة ، والذين أتموا الدراسات العالية ونالوا أعلى الدرجات العلمية ولم تخمد لهم شهوة في طلب العلم ؛ فهي فوق جميع المعاهد ، وهي أجدرها جميعاً بأن تحمل لواء المعارف ، وإن من يحمل لواء ركب لهو جدير بأن يسير في مقدمة الركب ، لا أن يتأخر حتى ينقطع عنه .

وكل نقص في هذه الدار ، وكل قيد فيها ولو كان خيطاً دقيقاً من الحرير يعوقها عن أدائها رسالتها على الوجه الأكمل ، كالزغبة من زغب الطائر في الريح العاصف لها مقاومة ولها تأثير وإن يكن ضعيفاً .

وفي هذه الدار نقص كثير ، ولا أدعي أني أحصيه هنا ، وإنما أذكر ما يحضرني لعلي أفتح بذلك الباب لعشاق إصلاحها .

فأما الموقع فضيّق جداً ومزدحم كثير الحركة عنيف الضجة ، وخير موقع لها الفضاء الواسع عند ميدان الخديوي إسماعيل ، وقد كانت — فيما أظن — خُصِّصت بقطعة من الأرض فيه ، ولا أدري ماذا تم في ذلك ، وهو ليس بكثير عليها ، وليست هي أقل تأثيراً في حياة الأمة ونهضتها من دار الآثار المصرية القديمة القريبة من الميدان المذكور ؛ فإذا كان ذلك مستحيلاً — وما هو بمستحيل — فإن بالقرب منها بجوار مكانها القديم محل وزارة المعارف القديم ستة أفدنة ، وهي أرض فاضل باشا ، وفيها مسجده وقصره والمدرسة الخديوية القديمة التي أخليت تداعي ؛ فإذا بنيت لها دار في وسط هذه الأرض الواسعة كان الفضاء حولها كفيلاً بإبعاد الضجة عنها ؛ غير أنها أحق المؤسسات بذلك الموقع الممتاز عند ميدان الخديوي إسماعيل .

وأما البناء فلم يُراعَ فيه إلا الضخامة الفارغة ، فهو كالطبل الأجوف إذا شققته لم تجده شيئاً ، ولمباني دور الكتب الحديثة نظام يلائم نظمها الحديثة ؛ فخبراء دور الكتب ومنهم موظفون في الدار يقولون إن الكتب تستعار الآن في بعض المكتبات في العالم استعارة داخلية بالتيار الكهربي ، وإن هذا النظام يحتاج إلى مبان على نظام يلائمه وإن بناء هذه الدار لا يصلح له .

ومن عيوب المكان الواضحة أن المطالعة في هذه الدار قاعة واحدة ، ومن أغرب الأمور أن هذه القاعدة في أقصى الدار من الشرق ، وباب الدار وسلمها في أقصاها من الغرب ، فلا بد لزوار هذه القاعة من أن يجتازوا الدار كلها ليصلوا إليها ، وهذه القاعة متسعة ، ولقد اقتضى اتساعها أن يرتفع سقفها ارتفاعاً شاهقاً ، وأن يحول دون إنشاء طبقة أخرى

فوقها في مستوى الطبقة الثالثة التي فوق سائر الحجر ، وأن يحشر فيها كل الرواد على اختلاف أجناسهم وأسنانهم ومقاصدهم.

وخير من ذلك بلا شك أن يكون للمطالعة عدة قاعات ، قاعة للأطفال ، وقاعة للشواب والسيدات ، وقاعة للشبان والرجال ، وقاعة للباحثين ، وقاعة للنسخ ، وقاعة لقراء الصحف والمجلات وغير ذلك ، وأن تزود كل قاعة بما يلائمها من أثاث ومراجع وغير ذلك .

وهذه القاعة الكبرى ، ومخازن الكتب ، لا يحجبها عن الشمس إلا سقوفها ، ولذلك يشتد فيها الحر ويتعسر العمل صيفاً ! هذا إلى المشقة التي يكابدها كبار السن والضعفاء من الرواد في الصعود إلى هذه القاعة ، وإلى ما تلقاه السقوف من الكتب وهي ثقيلة وقماطرها أثقل لأنها من الحديد ، وكان الواجب أن يكون كل ذلك في الطبقة الأولى على الأرض مباشرة لتيسير زيارة القاعة وللاطمئنان من ناحية أثقال الكتب وقماطرها .

ومن عيوب البناء الظاهرة أن ليس فيه حجرة استراحة ، فقد يخطىء الرائد الحريص على إدراك الوقت من أوله ، في تقدير مسافة الانتقال إلى الدار ، فيجيء قبل وقت فتحها صباحاً أو مساء ، وليس أمامه مكان ينتظر فيه الإذن بالدخول إلا الشارع ، وما أكثر ما لاقينا وتلاقي إلى الآن ، من هذا الانتظار في حر الصيف وبرد الشتاء .

ومن عيوبه الظاهرة أن ليس فيه مكان كمقصف متصل بالدار منفصل عنها ، يؤمن مع انفصاله إذا شبت فيه النار أن تمتد إلى الدار ، ويجد فيه الزائر ما قد يحتاج إليه ، من طعام وأشربة حارة وباردة ، ومن الاستراحة ، ومن مكان التدخين . حتى مرافقها أصبحت غير كافية وكذلك مصلاها .

وأما كتبها فهي وإن كانت في زيادة مطردة بمضي الزمن ، فإنها لا تزال قليلة قلة شائنة لهذه الدار التي تعد أكبر دار للكتب العربية في العالم كله أو يجب أن تكون كذلك ، ولا يمكن أن تعد هذه الدار غنية بالكتب أو كاملة ما دام في العالم كله كتاب عربي واحد مخطوط أو مطبوع وليس فيها منه أكثر من نسخة ! وقد أصبح اقتناء الكتب المخطوطة يسيراً يسر اقتناء الكتب المطبوعة ، وذلك بفضل التصوير الشمسي .

غير أن الحقيقة المرة المؤلمة أن في مكتبات العالم الشرقي والغربي كتبا مخطوطة وأخرى مطبوعة ومنها نسخ كثيرة في مكتبات آحاد الناس ، ومع ذلك ليس في هذه الدار ورقة واحدة منها ، وهذا كلام في غنى عن الاستدلال بكتب بأعيانها ، فإن الكتب التي يعوز الدار اقتناؤها لا تحصى ، هذا إلى أن في الدار كتبا مطبوعة طبعات قديمة وقد طبعت طبعات حديثة جيدة وليس في الدار منها إلا القديم .

وأما النظام فمن أعظم أركانه الكبرى فتح أبواب الدار لروادها وقتا واحداً متصلا لا يقل عن اثنتي عشرة ساعة ، لأن الوقت المقدر الآن لاستقبال الرواد وهو سبع ساعات ونصف ساعة قصير وهو مع قصره مجزأ إلى وقتين بينهما عطلة طويلة ثلاث ساعات في الشتاء وأربع ساعات في الصيف ، وهذه التجزئة تفوت على القراء والباحثين الانتفاع بالوقتين جميعا ، لأن القليل منهم من يجد من الهمة والنشاط والقوة وسعة الوقت ما يمكنه من أن يجيء الدار مرتين في اليوم الواحد قبل الظهر وبعده ، وهو إذا استطاع أن يجيء فيهما معاً فقد ينفق الانتقال كثيراً من وقته ، وجهده وكثيراً ما يضيع منه بعض هذين الوقتين لأنه ربما لا يستطيع إدراك الدار من أول الوقت ، هذا إلى ما يضيع منه في استعارة الكتب وردها في الوقتين .

ولا شك أن الوقت إذا اتسع بهذا الاتصال كان أكفل للفرص ، فإن الباحث يستطيع أن يجد في خلال الاثنتي عشرة ساعة الوقت الذي يلائمه أكثر مما يجده في سبع ساعات ونصف ساعة في وقتين .

وإن الساعة التي تلائم الباحث وينشط فيها أجدى عليه وأنفع من كثير من الوقت يقضيه في البحث في شيء من الملل والزهد ، وإذا هو لم يجد هذه الساعة الملائمة ماتت الرغبة فيه وخمد النشاط وضاعت الفرصة .

هذا وإن مكتبة البرلمان الأمريكي تفتح وقتاً واحداً متصلا من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة العاشرة مساء ، أي ثلاث عشرة ساعة ، وإن المكتبة الأهلية بباريس تفتح أيضاً أبوابها للرواد وقتاً واحداً متصلا ، على حين أن دار الكتب المصرية في هذا الشهر إبريل تغلق أبوابها مساء الساعة السابعة أي بعد غروب الشمس بقليل ، وأحداث الحي الذي هي فيه لا يزالون يلعبون في الشوارع المحيطة بها ويثيرون ضجة عنيفة ، أي أنهم لا يزالون في عنفوان نشاطهم وهي تتهيأ للنوم .

ومن أكبر مقومات النظام الفهارس الدقيقة الجامعة الشاملة المحكمة الترتيب ؛ وفهارس هذه الدار مع ما بذل فيها فى عهودها الماضية من جهود لايسعنا إلا إجلالها وشكرها ، لا تزال فى أشد الحاجة إلى إكمال ، وأظهر مظاهر النقص فيها أن ليس فيها فهرس بأسماء المؤلفين وأمام اسم كل مؤلف أسماء مؤلفاته ، وهذا نقص واضح وعيب فاضح .

ومن عيوبها الخفية مثلا أنك إذا كنت تعلم أن لابن الجزرى كتاباً فى طبقات القراء وأنت لاتعرف اسم كتابه هذا وأخذت تبحث فى الفهرس فى المظان وهو باب طبقات القراء وباب تراجم القراء ، لا يمكن أن تهتدى إليه ، لأن اسمه غاية النهاية فى طبقات القراء وليس فى باب الطبقات ولا فى باب التراجم إشارة إليه .

وإذا علمت أن ديوان الأعشى طبع طبعة جيدة حديثة ومعه الأعشون الآخرون ، وأنت لاتعرف اسم الكتاب ، فإن من العبث وإضاعة الجهد والوقت أن تبحث عن ديوان الأعشى أو شعر الأعشى أوشرح ديوان الأعشى أو شرح شعر الأعشى ، فإنك لن تجد فى هذه المظان كلها إلا كتيباً ردىء الطبع من ورقات قليلة . أما الكتاب الذى تبحث عنه فاسمه الصحيح « الصبح المنير فى شعر أبى بصير » وليس فى هذه المظان إشارة إليه .

والأمثلة كثيرة لاتحصى .

على أن هذه الفهارس المكتوبة الصامتة لا يمكن أن تغنى شيئاً عن الفهارس الحية الناطقة ، وهم المرشدون ، فيجب أن يكون فى هذه الدار طائفة من الموظفين يقصر عملهم على تدوين أسماء الكتب ودراستها لإرشاد الرواد عنها ؛ وفى الدار طائفة من هؤلاء ، ظهر فيهم ذكاء فى هذه الناحية ، فيجب أن يخصصوا لذلك ، وهذا التخصص سيشغل كل أوقاتهم بالبحث والدرس والإرشاد ، ويمكن أن ينتفع بهؤلاء المرشدين بطريق أخرى سأذكرها فى نظام الاستعارة .

فمن عيوب النظام فى هذه الدار نظام الاستعارة الداخلية القائم الآن فهو بعينه نظام الاستعارة من خمسين سنة من أيام أن كانت فى مكان وزارة المعارف القديم فى درب الجماميز .

ولماذا لا تقسم مخازن الدار إلى أقسام ، فيكون فى كل قسم طائفة من العلوم ويتولى كل قسم واحد أو أكثر من المرشدين ، ويكون لكل قسم نافذة يتصل منها الرواد بالموظف مباشرة على نحو ما يحدث فى المصارف ، ويسترشدونه أو يطلبون منه كتباً بأعيانها ويعرضها عليهم كما يعرض الوراق الكتب على المشترى ، فإذا وقع اختيار الرائد على كتاب بعينه كتب به استمارة وقدمها هى وبطاقته الشخصية أو بطاقة تعرف له من الدار أو هما معاً ، وتبقى البطاقة مع الاستمارة عند الموظف المرشد فى قسمه ، ويكون مع ذلك على الرواد مراقبون إلى الرقابة القائمة الآن على رأس السلم .

أقترح هذا النظام وللدار أن تبحث عن غيره لتيسير الاستعارة .

وفى الدار آفة من شر الآفات هى الكتب المفككة ، فقد يبقى الكتاب مفككاً زمناً طويلاً لا ينتفع به ، فيجب أن يولى قسم التجليد أكبر عناية ممكنة ، فإنه عصب الدار ، فيوسع ويزاد عدد عماله ويزود بكل ما يحتاج إليه بسخاء ليتمكن من تجليد جميع الكتب ومن أن ينجز تجليد كل كتاب مفكوك فى مدة لا تتجاوز أسبوعاً على الأكثر .

أما طبع الكتب فهو عمل ضخم جدير أن يشغل الدار عما هو خير منه ألف مرة ، وهو البحث بكل الوسائل الممكنة عن جميع الكتب العربية المطبوعة والمخطوطة فى أنحاء العالم واقتناء عدة نسخ من كل كتاب منها والعناية بما فى الدار من كتب . وهـذا هو الذى خلقت من أجله دور الكتب .

وكفى ما أفنت الدار من عمر طويل وجهد كبير ومال كثير فى طبع بعض الكتب الضخمة التى لما يتم طبعها ؛ وما كان أحوج المصلحة العامـة أن يضيع هذا وذاك فى البحث عن الكتب العربية واقتنائها ، فإذا فرغت من اقتناء نسخ من كل كتاب عربى مطبوع أو مخطوط فى العالم توجهت إلى اقتناء كتب اللغات الأخرى .

واضطلاع الدار بطبع الكتب — وهو ليس من عملها البتة — اضطرها اضطراراً إلى القسم الأدبى ، وقد كان الأدباء فى مطبعة بولاق الأميرية جديرين بهذا القسم وجديرين بالمرتبات الضخمة ، فنفقات القسم الأدبى ونفقات الطبعة والطباعة ، تضخم ميزان الدار المالى ، وما هو بحوتها بضخم ، ويسد هذا التضخم باب الاستخدام فى وجوه ذوى المؤهلات والكفايات المكتبية ، وباب الترقى فى وجوه الفنيين الجديرين به وبعناية الدار لأنهم عصبها .

(البقية على الصفحة التالية)

نقد

فن التفصيل

للآنسة وداد سكاكيني

من طبيعة المرأة أن تتزين وتتجمل ، ولو أننا صعدنا في تاريخ الجمال إلى المرأة الأولى التي وصفها الفن والخيال لوجدنا أن بنت حواء الأولى كانت تسعى بين الرياض فتقطف ما يروقها من الأزاهير لتحلي به جيدها ورأسها ، وإذا استدللنا بما يستدل به علماء الاجتماع من المشاهدات المحسوسة المعاصرة التي تعكس صور الغابرين والبائدين من أمم الأرض لرأينا النساء في جزائر هونولولو وهواي والأتلانتيك يتزين بعقود من الزهر والرياحين أو بتيجان مصنوعة من الورد تكلل هاماتهن الرشيقة .

فلما انتهت المرأة القديمة من زينة شعرها وجيدها تلفتت إلى زينة جسمها وقوامها فعنيت بجلبابها وثوبها ، ومر الثوب خلال العصور متدرجاً من شبه ملاءة تلتف إلى ديباجة تغص ، وكانت لسوى الفنون مشاركة في تجميل الثياب النسائية ، حتى أسست في القرن العشرين دور في العواصم الكبرى لإبداع الأفانين في أشكال الأزياء ووشيها وزخرفتها ، واختصت طائفة من المصورين والمصورات بوضع النماذج التي تساير روح العصر وتستجيب للذوق الحديث ، وتتعهد مطالب المرأة في التزين والتجمل ، كما وضعت من أجل ذلك المسابقات الفنية وجوائزها الغالية لمن يبتكر أبدع الأزياء للمواسم والفصول .

على أن لكل من لبوس الصيف والشتاء طابعاً خاصاً ، كما أن الحضارة الحاضرة وإن تكن عقدت ثياب المرأة وعددتها ، فإنها رفعتها إلى أفق الجمال التالي ، فلكل حال لبوس ، وألوان محتومة ، ولضروب الحفلات الدبلوماسية والاجتماعية أزياء خاصة ؛ فينبغي للمرأة التي يتاح لها ذلك أن تعنى به عناية الطبقات الأخرى بلبوسها وأزيائها ، وقد بلغ من شغف المرأة بجمال الثوب وشوقها إلى كل جديد منه أن راحت تطلب المزيد من ابتكار المصورين والخياطين .

وكان لمصر في نهضتها الحديثة التي انبسطت آفاقها الثقافية وتعددت مظاهرها أن تأخذ بنصيبها من التعليم

فمن الخير للدار وللمصلحة العامة أن يعهد بطبع الكتب إلى إدارة أخرى تختص بها ، كإدارة التراث القديم في وزارة المعارف ، وأن ينقل إليها كل ما يتعلق به من القسم الأدبي والمطبعة وميزانيتهما المالي ، أو أن يرد كل ذلك إلى المطبعة الأميرية ببولاق ، وأن تتفرغ الدار لما خلقت له ، وهو اقتناء الكتب وادخارها وتيسير الانتفاع بها بالأخذ بأحدث النظم .

والقسم الأدبي مع ذلك متاعبه ، فإن قيامه في أية ناحية يغري الأدباء والمتأدبين بالالتحاق به ، وهؤلاء لهم أقدارهم ومنازلهم التي تأبى عليهم الخضوع لقيود الوظائف ، وفي هذا الإباء خسارة للدار وقدوة لا ترضاها لموظفيها .

ومن وسائل نشر الثقافة بين عامة الشعب إنشاء المكتبات الفرعية في عواصم القطر ، ثم فيما يليها من البلاد ، فإذا تيسر ذلك ارتفع مستوى الشعب واستطاع أن يساهم في الأخذ بأسباب الحضارة وفي الانتفاع بها ، وحينئذ تصبح دار الكتب المصرية وزارة معارف أخرى في وزارة المعارف.

هذا ومن الأدلة الظاهرة على تأخر الدار في التجديد أن أنابيب الإضاءة الوهاجة الحديثة المعروفة بالأنيون ملأت الطرقات والمكاتب الفردية والمحال التجارية الكبرى والصغرى وكثيراً جداً من البيوت ، ولا تزال قاعة المطالعة في شبه ظلام بجانب هذه الإضاءة بمصابيح يحجب ضوءها هالات كثيفة عتيقة وضعت للزينة والأبهة اللائقة لضخامة الدار.

عبد الله أمين

الفن النسائي . وهل كان أجدى على الفتاة المصرية الحديثة من هذه الدراسة التي تلازمها في حياتها وتشغل فراغها وحاجتها بصنع يديها وابتكار مواهبها .

إن عالم المدرسة الممزوجة بالرموز الكيميائية والمعادلات الرياضية وحشد أسماء الأصقاع النائية في أذهان الفتيات من الدراسة العقيمة البعيدة ، غير أن أكثرها لا يلبث أن يطويه البيت وما فيه من زواج وأمومة . فإن لم تكن الفتاة قد ألمت بفنون ضرورية من التدبير المنزلي والخياطة والتفصيل صفرت يدها من كل شيء ، وصارت عاطلاً وثقلاً على نفسها والمجتمع ! فما كل فتاة بمترفة ولا مبطرة حتى تستغني عن الإلمام بالفنون التي تستجيب لطبيعتها ، وتقضي حاجتها وحاجة أهلها .

والكتاب الذي حفزني لهذه الكلمة هو « فن التفصيل » فقد كانت صفحاته تبعث في خاطري كلما ترددت في تقليبها والاطلاع عليها هواجس وأفكاراً تلازم المرأة فيما خلقت له من التجمل والتفنن في الملبوس .

وراح يتراءى في خيالي مشهد كثير من النساء على اختلاف بيئاتهن ومكانتهن كن يتوافدن على الخياطات متنقلات أو تحمل لهن ألف من القماش بين ثمين وخفيف ، وكانت الخياطة البارعة تستبد بهن فتشتط بالأجر ثم تخلف الميعاد .

أفليس جديراً بالمرأة العربية الحديثة وقد أقبلت على كل جديد في مظاهرها ، وعنيت بالأزياء الفنية أوفى عناية ، أن تكون ملمة بفن التفصيل واقفة على كل تغير أو تطور فيه . وهل من ضير عليها إذا اهتمت به ومارسته طالبة في مدرستها أو زوجاً وأماً في بيتها ، ثم علمته لبناتها ، لتدفع عن نفسها وأسرتها كل شطط ، بل تكون قد وضعت لبنة في الاقتصاد المنزلي إذا ضمت إلى لبنة ثانية من الفكر والتدبير ، قام البيت الحديث على أساس الوعي والكفاية والإخلاص .

ومؤلفة الكتاب من الرعيل الأول في التعليم النسائي بمصر ، وقد سبقت هي وزميلاتها إلى وضع القواعد الراسخة لأصول الحياة المنزلية الصحيحة ! فتزودن من ثقافة الغرب في بعثات رسمية كانت الغرسة الأولى التي تجني مصر اليوم خيراتها . ولقد عرفت المربية الفضلى السيدة إقبال حجازي مؤلفة الكتاب دؤوباً على تتبع كل جديد في فنها متمرسة به مدرسة له في أكبر معهد نسائي ! فهي إذ تؤلف بموضوعه لا تكون قد صنعت إلا خير ما ينبغي أن يصنع بعد المراس والدراية الطويلة والذوق السليم .

وليس هذا الكتاب واحد تجاربها ومنتوجها ! فإن لها غيره وفيه أصول الغسل والكي على أحدث الأساليب وأقومها .

وهي إذ تقدم كتابها إلى المعاهد والبيوت وتجعله مرجعاً لكل فتاة تحب أن تلبس من صنع يديها وذوقها واقتصادها إنما تقدم الدينار المضروب الذي لا زيف فيه ! فقد شاع في السوق وبين أيدي الطالبات كتب أخيه بالمراسم الزائفة ممسوخة الملامح تجارية الغايات .

فللمؤلفة الجليلة وزميلتها الفاضلة الشكر على إهدائهما إليّ هذا الكتاب الذي أرجو أن يتاح تناوله لكل فتاة وسيدة بيت ، وأن يعم نفعه لا في مصر فحسب بل في البلاد العربية كلها ! فإن فتياتها بحاجة ماسة إلى مثله وإلى توجيه فني صحيح في الدراسات النسوية .

(القاهرة) وداد سكاكيني

علم الحيـــاة

قرر المجمـــع العلمي العراقي

ترجمة كتاب « علم الحيـــاة »

تأليف جوليان هكسلي ،

ا . ج . جي ويلز .

من أدب الآباء إلى الأبناء

للأستاذ محمود العبطة

كتب الأستاذ محمد عبد الغني حسن في مجلة (الثقافة) الزاهرة، مقالتين عن (رسائل الآباء إلى الأبناء). (عدد: ٦٣٧ و ٦٣٩) بمناسبة جمع (رسائل) العلامة الدكتور أحمد أمين بك إلى (ولده) في كتاب مستقل، بعد أن كان قراء العربية يقرءونها منشورة في كل شهر من مجلة (الهلال) الغراء؛ وقد قال الأستاذ عبد الغني عن كتاب (إلى ولدي) وعن كتاب (من والد إلى ولده) للمؤرخ الصحافي المرحوم أحمد حافظ عوض بك: إن الكتابين (في اللغة العربية لا ثالث لهما). والذي أعلمه أن هناك كتاباً ثالثاً في هذا الموضوع كتبه الأديب الفلسطيني الأستاذ خليل السكاكيني، عضو مجمع (فؤاد الأول) اللغوي ومن كبار المربين العرب؛ كتبه إلى ولده (سري) عندما كان يطلب العلم في الجامعة الأمريكية ببيروت، والكتاب مطبوع وهو مصدر بأبيات رقيقة لصديق الأستاذ السكاكيني الشاعر العراقي الكبير المرحوم (معروف الرصافي) ... وكتاب الأستاذ السكاكيني لا يعنيني في كلمتي هذه، خصوصاً وأني لا أحوزه تحت يدي، الساعة؛ ولكن الذي يعنيني رسائل أدبية طريفة، هي من أدب الآباء إلى الأبناء، كتبها عالم العراق وأديبه الفذ (السيد محمود أبو الثناء الألوسي) الذي عاش في منتصف القرن التاسع عشر (١٨٠٢ — ١٨٥٤) والذي غذى الحياة العلمية والأدبية ببغداد وسائر أرجاء القطر العراقي، غذاء، لا تزال آثاره بادية حتى اليوم، والذي يكفيك من جلال علمه، وعلو مكانته، أن تفسيره للقرآن الكريم (روح المعاني) طبع في مصر طبعتين، وطبع في الهند طبعة ثالثة، وأنه يدرس الآن في الجامعة الأزهرية في القاهرة؛ ومع هذا فإني لعلى أمل في أن الأستاذ عبد الغني حسن سيظفر بكتاب الأستاذ خليل السكاكيني، وأنه سيقدمه لقراء الثقافة، كما قدم كتابي الأستاذين الجليلين أحمد أمين بك وأحمد حافظ عوض بك.

أما رسائل أبي الثناء الألوسي (الألوسي الكبير) إلى أولاده، والتي هي — كما قلت — نوع طريف من أدب الآباء إلى الأبناء، وتجتمع مع كتب الأساتذة أحمد أمين بك والمرحوم عوض بك والأستاذ السكاكيني، في فلك واحد، وفي موضوع واحد أيضاً، فقد جعلها أبو الثناء مقدمة (لمقامات الألوسي) التي طبعت طبعة حجرية(*) قبل أكثر من مائة سنة وبعد وفاة مؤلفها بثلاث سنوات، والتي تقع في أربع مقامات، أولها رسالته إلى أبنائه، أما الثلاث الباقيات، فقد صور فيها حياته ودراسته وشيوخه، وما لاقاه من ظلم الولاة، ونفاق الناس ووقيعة أولياء الأمر فيه، تصويراً فنياً أخاذاً، ولا تفوق هذه المقامات من حيث جودة التصوير، وانعكاس الحياة، إلا (الحكاية) التي جعلها في ذيل مقاماته، والتي جعلها تدور على أحد (الدراويش) الذين يبطنون غير ما يظهرون، جاعلين الرياء والادعاء، ديدنهم في سبيل أغراضهم الخسيسة ومطالبهم الوضيعة ... وأبو الثناء الألوسي في مقاماته كما في رحلاته، وفي تواليفه وآثاره الأدبية الأخرى، تبدو عليه سمة الأديب الذواقة الذي يعرف سر العربية، أو موسيقى اللفظ، وخفة الأسلوب؛ وهو وإن التزم السجع والطباق، وأخذ بالمحسنات البديعية، وزركشة الكلام، إنه مع ما التزم من المحسنات اللفظية، فكتاباته وانطباعاته تأتي عفو الخاطر، وعلى البديهة الحساسة الشاعرة.

يفتتح (الألوسي) رسالته إلى أولاده بذكر الموت؛ فيقول لهم:

(بني: إني أرى داعي الموت لا يقلع، وأرى من مضى لا يرجع، ومن بقي فإليه ينزع ...)، ثم يستشهد بأبيات خطيب العرب (قس بن ساعدة) التي جعلها ختام خطبته الشهيرة:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر .. الخ

(*) طبعت في (كربلاء) عام ١٢٧٣ هـ.

وهو في ذكره (الموت) الذي هو مصير كل حي، أراد أن ينبه أولاده في أولى رسائله إلى الفصل الأخير من مسرحية الحياة ذات الفصول المتنوعة، وأن يجعلهم يتذكرون هذا المصير الأبدي في كل وقت وحين، حتى لا تكون أعمالهم وأشغالهم في زحام العيش، بدون نفع أو هداية أو خدمة للناس.

ثم يقول لأولاده (... يابني: عليكم بتقوى الله تعالى في السر والجهر، فإن التقوى وايم الله تعالى ملاك الأمر، وإن التقوى هي الكهف الأوفى والسبب الأقوى...)، والسيد الألوسي بعد أن ينبه أولاده بذكر الموت ويوصيهم بتقوى الله سراً وجهراً، يوصي أولاده بطلب (العلم)، ويقول لهم (ساهروا النجوم في طلب العلوم...) الخ.. ويذكر فوائد العلوم، وفضل المتعلمين ومكانتهم عند الله وعند الناس أجمعين، ويأمر أولاده بقوله (يابني: وليكن اشتغالكم بالفقه والحديث والتفسير، وسائر علوم الدين، أكثر من اشتغالكم بفلسفة المتفلسفين.. !) وفي هذه الفقرات من المقامات يتجلى لنا الألوسي الفقيه والمحدث والمفسر، وهو ينصح فلذات كبده التي تمشي على الأرض، باشتغالهم بعلوم الدين أكثر من اشتغالهم بفلسفة الفلاسفة! وليس معنى هذا الكلام أن السيد الألوسي، وهو الواسع الأفق والخبير الطلاعة بفنون العلوم، يحارب الفلسفة بحجة الحفاظ على علوم الدين، وهو الذي بز وبرز في (علم التفسير) و (علم المنطق) و (علم الكلام)، وله تواليف مشهورة في كل منها! وكل هذه المواضيع تتطلب النظر في كتب الفلسفة أكثر من النظر في الكتب العلمية الأخرى — ليس معنى هذا أنه يحارب الفلسفة والفلاسفة، بل أنه يقر ويعترف بفوائدها، إذ يقول في آخر تلك الفقرات: (... ولا أقول الاشتغال بالفلسفة محض الحمق والسفه، لما أن فيها اليوم نفعاً في الصناعات، وإنما الأعمال بالنيات) وبعد هذه النصائح العلمية القيمة يطلب من أولاده الأخذ بعقيدة السلف الصالح والرجوع في ذلك إلى أحكام القرآن والسنة النبوية.

وهو أخيراً يقف من (الصوفية) موقفه من (الفلاسفة) فلا يشن الغارة عليهم، ولا يدعو إلى محاربتهم والزراية بهم وحرق كتبهم، كما وقع في العصور الإسلامية المختلفة، إذ حارب الفقهاء الصوفية، وشددوا النكير عليهم! كلا. إن الألوسي الكبير وهو عالم العراق ومفتي بغداد، والفقيه الجليل يوصي أولاده (بحسن الظن بالسادة الصوفية)، ويقول لهم: (وإياكم والوقيعة فيهم فهي والله ردية...)، وهو لا ينصحهم بذلك لمجرد النصح والإرشاد، بل ينصحهم بعد أن تذوق التصوف، وسلك مسلك المتصوفة، ومرت عليه (التجربة الصوفية) كما يقول الدكتور عفيفي إذ أنه يقول: (... واقطعوا أطماعكم — لأولاده — من استماع كلامهم التي تخالف ظواهرها الشريعة، فليس لفهم مرادهم منها سوى السلوك كما سلكوا ذريعة... وإياكم أن تظنوا أن القوم أرادوا ظواهرها البينة البطلان، حاشاهم ثم حاشاهم من أن يحوموا حول حمى ذلك الهذيان...)، ويقرر أخيراً تقرير الحاذق بأسرار التصوف أنه ليس بين حكم الشريعة وبين الطريقة (الطريقة الصوفية) مخالفة بقدر شعرة أو شعيرة في الحقيقة:

فإن لم يكنها أو تكنه فإنه
أخوها غذته أمه بلبانها

أنا — أيها الصديق القارئ — قد ذكرت لك تتفاً، ونقلت لك سطوراً، من رسائل الألوسي الكبير إلى أولاده! ولعلك قد تذوقت أسلوب الألوسي في الإنشاء وطريقته في الكتابة! كما علمت — ولا شك — أنه لم يكن من علماء الدين الجامدين المتعصبين، بل هو مجدد وهو مصلح وهو فوق كل ذلك مفكر عميق. وها أنا أنقل لك قطعة كاملة من رسائله، وصف فيها (بعض الناس) كما يقول وصفاً فنياً رائعاً، تكاد أن تلمسه بيديك وإن مر على كتابته ما يقرب من مائة عام، وهذا شأن الأدب الخالد الذي ينتصر على الزمان.

قال (بعض الناس ذئاب، عليهم من جلود الشياه ثياب، فلا تعجبوا بتماوت تمتعت كالملوك كله، ولات كالصعلوك عريكته، وولع الذبول بهامته، فتناطحت تفاحة كتفه ورمانة هامته، وربما ألزق ذقنه بصدره، وأصاغ بسمعه نحو سره، وحمل سبحة، من ذوات الأذناب، وجعلها شبكة، وأحمل فيها سبابته تنقر حباتها كما تنقر الحب الديكة..) الخ. ثم يوصي أولاده في (الباقة في كتم الأسرار، لا سيما عن الأشرار)

الذين وصف أحدهم في السطور الماضية ، والذين لاقى منهم التعس في حياته ، فهو لذلك يحذر أولاده من صحبتهم ، وهو يأمر أولاده بأن لا ينخرطوا في حبهم ، أو في بغضهم ، وأن يأخذوا الوسط في الحالين ، وأن لا يكثروا من الهزل والمزاح : (إياكم وكثرة المزاح ، فإن منه ما هو كطعن الرماح ، وإنه لينفر الرفيق ، ويوغر صدر الصديق) . ويطلب السيد الألوسي من أبنائه (حسن الوفاق — لأن الاختلاف (عنده) وخيم ، وضرر الافتراق عظيم .) وهو يتمثل بقول أحد شعراء الحماسة :

كونوا جميعاً يابني إذا اعترى
خطب ولا تتفرقوا آحادا
تأبى القداح إذا اجتمعن تكسراً
وإذا افترقن تكسرت أفرادا

والألوسي الكبير ، ينثر أخوات هذه النصائح وهذه العظات ، في رسالته إلى أبنائه ، وهذه وما سبقها تبرز آراء الرجل في الدين والأخلاق والمعاشرة ، وماذا يجب على أولاده أن يسلكوه حتى يلقوا مآربهم في الحياة ! وهو في القسم الأخير من رسالته ، يرسم للقارئ صورة بينة للحالة الاجتماعية والسياسية للعراق ولبغداد على الأخص ، في النصف الأول من القرن التاسع عشر . يقول : إن أهل (بغداد) وهو يدعوهم (أهل الزوراء)(*) وقد شاع هذا اللقب في عصره واستعمله هو ، وأدباء ذلك الجيل كثيراً ! يقول عنهم (إن أهل بغداد لا يجتمعون إلا على زور ، ولو أنحى كالشمس الضحى في الظهور ، بل يكونون طائفتين في كل حادثة) وينصحهم أن يميلوا ويتحيزوا مع الطائفة التي تنشد الحق (فإن أنتم أمنتم المكروه فالواجب أن تكونوا مع الطائفة المحقة ، وإن لم توجد تلك الطائفة فعليهم أن يكونوا طائفة ثالثة (وإلا فكونوا طائفة ثالثة ، واعتزلوا عن الطائفتين بمعزل ، وابعدوا عنهما بألف ألف منزل) ويقول فيما بعد : إن العراق قد دالت دولته بعد غزوات الأعاجم والأجانب (إن العراق قد خلقت ثيابه ، بل أكل لحمه وشحمه وإهابه ، فمنجنيقة يشق رجمها المرائر ... قد تصدر فيه كل غب سفيه ، واستولى عليه من يأبى أن يلوكه الفم لتنه بشدقيه .)

(*) سميت الزوراء لازورار (القبلة) عنها ، أو لانعطاء نهر دجلة عندما يمر بها .

والألوسي ، المواطن العراقي العربي ، يتمرد على حالة وطنه وبلاده ، ويقلقه حكامها من الأجانب ، بهذه الحمم الفائرة ، والجمل الثائرة ، وهو لا يكتفي بهذا ، بل يتبعه ببيت من الهجاء ، ومن الهجو المقذع ، وهو من الشعر الفارسي . والألوسي ينصح أولاده بالبعد ما استطاعوا عن الحكام . وإن أرادوا أن يعاشروا فريقاً من الناس ، فليعاشروا سوقة بغداد ، لأن أبناء السوق عند الألوسي خير من الأعيان والحكام ! ثم يصف أهل بغداد في ذلك الجيل ، وتعظيمهم لمن يتقرب للسلطان والولاة وذوي الأمر ، إذ السراي عندهم كالكعبة أو أعظم منها ، ويطيعون (الوزير) وهو الوالي ، أكثر من إطاعتهم الله !! وإلى غير ذلك من هذه الصور الصارخة ، في ذلك العصر المتفسخ ، المتحلل ، الذي ضاعت فيه القيم والموازين .

والألوسي الكبير لا يطلب من أولاده البعد ، كل البعد ، عن الحكام والولاة ، إذ كيف البعد ، ومطالب الحياة وشئون العيش متصلة بهم كل الاتصال ، إذ أنهم الكل في الكل وأي منهم هو الحاكم بأمره في تلك العصور المظلمة ، لا يطلب منهم البعد عن الحكام ، ولكن يطلب منهم القرب منهم مع قلة الكلام وقلة الجلوس ! وهو بعد ذلك لا ينسى عشيرته وأهله ، بل يأمر أولاده (بصلة الأرحام ، وإكرام الأخوال والأعمام .) ويطلب منهم الميثاق من الله ، ببناته ويقول لأولاده (يا بني : الله الله ! في أخواتكم ، وعدوهن في عداد بناتكم) . ويطلب منهم العناية بأمهم ويوصيهم بها خيراً ... ويختم هذه الوصايا الرائعة والتعاليم الطيبة ، التي هي أنموذج من أدب الآباء إلى الأبناء بقصيدة حكمية (لأبي الفتح البستي) والتي أولها :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الإنسان إحسان

فيذكر منها تسعة وثلاثين بيتاً .

والسيد أبو الثناء الألوسي قد كتب هذه الرسائل(*) ، التي هي من جملة (مقامات الألوسي) بعد رجوعه إلى بغداد من رحلته إلى (الأستانة) وقد أودعها خلاصة علمه وتجاربه ، كما أظهر براعته في الكتابة وطريقته في الإنشاء .

(بغداد) محمود العبطة

(*) المسك الأذفر : تأليف محمود شكري الألوسي (ص ٢٠)

قصة رمزية :

نحـــو الشاطئ

في البحر المتسع ، بينما كانت إحدى الموجات تتجه نحو الشاطئ ، تلاقت فقاعتان ، وأخذتا تسيران معاً إلى جانب باقي الفقاقيع نحو الشاطئ . وإذا بالفقاعة الصغيرة تتساءل :

— أتعرفين يا أختاه إلى أين نسير ؟

— نحن نسير يا عزيزتي نحو الشاطئ .

— الشاطئ ؟

— نعم ، ذلك الشاطئ البعيد . هناك سنترك البحر الذي نحن عليه ونخلع تلك القشرة من الماء التي تغلفنا ، ويتحد هواؤنا بباقي الهواء ، وسط هذا الفضاء الفسيح .

— إني لا أفهمك ياعزيزتي . أي بحر تقصدين ؟ هل نعيش الآن فوق شيء يسمى بحراً ؟

— إنه بحر كبير ذلك الذي نعيش فيـه . ألا تشعرين أنت به ؟

— لا .. إني لا أراه ؟ وهل تريته أنت ، أم أن هـذه الفقاقيع في تلك الموجة البيضاء التي تسبقنا قد علمتك هـذا العلم الذي لا أفهمه ؟

— إنه بحر عظيم خالد ، ذلك الذي جئنا منـه ونشأنا على صورته ، ونسير الآن مع إحدى موجاته في هذا الاتجاه المرسوم . ذلك الاتجاه الذي لا نستطيع أن نحيد عنـه يمنة أو يسرة إلا بأمر هذه التيارات من تحتنا وتلك الرياح من فوقنا .. وأخيراً عند ما نصل هناك ، عند الشاطئ ، سنفنى ونختفي كأننا لم نكن ، وسيتحرر ذلك الهواء الذي يملأنا ليسبح في الفضاء .

— عجيب قولك هـذا . كيف تصفين البحر بالعظمة والخلود ، وتصفيننا بأننا جئنا منه ونشأنا على صورته ، وبعد ذلك تقولين إننا سنفنى ونختفي كأننا لم نكن ؟ ألا ترين أن أقوالك هذه مملوءة بالتناقض ؟

— إنني لم أشعر بهذا في أي وقت ، حاولي أن تدركي ذلك ياعزيزتي ، حاولي أن تفهميه جيداً . فهو بحر كبير عظيم رغم صغرنا وتفاهتنا ، خالد مهما فنينا ، نظيف مهما اتسخنا ، ثابت راسخ مهما لعب بنا التيار ومهما لعبت بنا الرياح .

وبينما الفقاعتان في هذا الحوار ، أتى إليهما صوت من الأمام ، فنظرتا إلى الموجة التي سبقتهما والتي كانت تعلوها تلك الطبقة البيضاء ، وسألت الفقاعة الصغيرة أختها عما يعني هذا الصوت .

— ذلك هو صوت الفناء لإحدى أخواتنا .

— ولكنك ذكرت لي أن الفقاقيع تتلاشى عند وصول موجتها إلى الشاطئ !.

— نعم ، هذا صحيح ياعزيزتي ، ولكن بعض الفقاقيع تحاول أن تتزاحم لتجد لنفسها موضعاً في أعلى الموجة ، إنها تدفع ثمن هـذا التزاحم ، فتتلاشى بين الضغط والإرهاق ، قبل أن تصل إلى الشاطئ .

— ولكن مالي أرى باقي الفقاقيع بين لعب وسرور ، تقفز في الهواء ثم تعود في مرح ، أليس لهـذا الأمر أهمية عندها ؟.

— ها أنت ذي ترين ، أنها مازالت ترقص وتلعب ، وما زالت في طريقها المرسوم لا تأبه لشيء . فليس للموجة أن تقف ، فلا بد لها من الوصول .

— إني أخاف هذا الشاطئ يا أختاه ، أريد أن أظل كما أنا ، أريد أن أعود إلى الموجة خلفنا .

— لا تخافي ياعزيزتي ، فليس الشاطئ مما يدعو إلى الرعب أو الفزع ، لا تنظري إلى نفسك وحدك ، أو إلى من بجوارك من فقاقيع ، حاولي أن ترى البحر كله ، حاولي أن تنسي وترقصي وتفرحي ، فلا داعي للحزن والقلق ، ولا تحاولي الرجوع إلى الموجة خلفنا ، فليس هناك شيء يناسبك .

حافظ أحمد أبيض

مفاجأة تقلب الكيان

قصة لموريس ليبلان

ترجمة الدكتور « م . غ »

على أثر رسو الباخرة في مرفأ التجارة سأل « جاك دوفريش » عن مكتب البريد ثم تبع ذلك الطريق الطويل الذي يخترق جبل طارق إلى ذلك المكتب .

ولقد كان هذا الثغر هو المحط الأخير للعودة من تلك الرحلة الواسعة المدى التي قام بها في شواطئ أفريقيا والتي رافق فيها عدداً من العلماء والمستكشفين .

وكان جاك يسرع في السير متأكداً من أنه سيجد رسالة من زوجته ، من عزيزته الوديعة « جيلبرت » التي لم يكن لديه أنباء عنها منذ أسبوع .

ولم يخب أمله في الانتظار ، إذ سلم إليه العامل رسالة ، وفي الحال فض غلافها في الطريق . وكانت هذه الرسالة من عشرين صفحة مكتوبة بخط دقيق سكبت فيها « جيلبرت » المغرمة الحميدة الصفات أسرار قلبها ، وقصت على زوجها سيرة حياتها الحادثة يوما فيوما . وكذلك حياة ابنتها « هارييت » ، وكثيراً ما تحدثت في هذه الرسالة أيضا عن سرورهما بفكرة اجتماعهما المقبل .

وأخيراً كانت تلك الرسالة تنتهي بما يلي : « سأذهب إلى مارسيليا لملاقاتك يا جاكي المحبوب ، ستجدني كما تركتني لم أكبر كثيراً فيما أظن ، ولكن الذي لا ريب فيه هو أنك ستجدني أكثر حبا من ذي قبل ، وليس لدي سعادة أخرى غير حبك ، ولا غاية لي إلا جعلك سعيداً . أيبتغي لك على ذلك برهان صغير ؟ أوه ! حقا أنه برهان صغير جداً ، ومجمله أنني على أثر تسلم رسالتك الأخيرة أغلقت الباب على الفور في وجه قريبنا « جورج دي بروكور » أجل لقد كنت محقا وقد فتح تحذيرك عيني ، فزياراته قد صارت في الأيام الأخيرة متتالية أكثر من المألوف .

ماذا تريد يا عزيزي ، كان يخيل إلي أن المرأة التي تحب زوجها تظل دائما محمية من هذه الهاجمات الناعقة ، وكنت مخدوعة في ذلك . ومهما يكن من الأمر فقد تذرعت لجورج بعذر من أي نوع كان ، ورفضت تلك النزهة التي كان يجب أن أرافقه فيها أنا و « هارييت » يوم الأحد بالسيارة إلى قصر « رانبوييه » .

أحس جاك عند ذلك أن العبرات تترقرق في عينيه ، لأن حب « جيلبرت » البسيط الجدي طالما ملأ نفسه بالانفعال ، إذ كان يترك دائما في نفسه أثراً أقوى من الثقة والاحترام ، وهو نوع من العبادة التي يمنحها الإنسان بعض الكائنات الأكثر نقاء ، والأكثر نبلا .

ولما أحس بأنه مستريح البال سعيد ، أخذ يتنزه في طرقات المدينة وساحاتها . وحينما دنت ساعة الرحيل سلك إلى المرفأ ذلك الطريق الطويل الذي تزدحم الحوانيت على جانبيه . وفي أحد هذه الحوانيت لمح عدداً من الصحف والمجلات الأجنبية ، فاشترى صحيفة فرنسية وبسطها وأخذ يتصفحها وهو سائر .

ولم يخط بعد ذلك عشر خطوات حتى صاح صيحة مختنقة وارتعدت ساقاه واضطربت الصحيفة في يديه . فأسند ظهره إلى أحد الأبواب وجعلت عيناه التائهتان تبحثان من جديد عن تلك الأسطر المرعبة التي كانت قد لفتت انتباهه . قرأها مرة ثانية بفزع لا يوصف ، وهي كما يلي : « آخر ساعة : حدث أمس (الأحد) قبيل المساء بين « رامبوييه » و « شيفروز » أن انزلقت سيارة « الكونت جورج دي بروكور » في أحد المنعطفات وانقلبت فقتل « الكونت دي بروكور » وبعد عشر دقائق توفي الشخصان اللذان كانا يرافقانه ، وهما : « مدام جاك دوفريش » وابنتها البالغة من العمر عشرة أعوام .

كان أمام جاك في هذه اللحظة مقهى فدخله في الحال وشرب كأسين من الويسكي ، وعلى أثر ذلك وضع يده في جيبه الذي كان يحفظ فيه مسدسه عادة ، ولما لم يجده تذكر أنه تركه في « كابينته » بالباخرة ، وعند ذلك خرج من المقهى وسار مهرولاً نحو المرفأ ، لأنه لم يكن لديه إذ ذاك فكرة أخرى غير الموت ، والموت بأسرع ما يستطيع

دون التفكير في أي شيء آخر . ولكن تلك الكلمات الروعة التي وردت في النبأ كانت تمزقه كأنها حديد منصهر ! كان ساعتئذ يستحضر في مخيلته زوجته وابنته ، وكان يفكر أيضاً في تلك الخيانة البغيضة وفي كذب الرسالة التي تسلمها ، وفي تصنع كل هذه الاحتجاجات الغرامية الزائفة ، وتبديل ذلك الحب الناتق .

وعندما وصل إلى المرفأ كان كأنه يجري ، وكان أكثر المسافرين قد صعدوا إلى الباخرة فشعر أنهم ينظرون إليه ، وأن عدة أشخاص من الذين بأيديهم صحف كانوا يتهامسون فيما بينهم حينما مر أمامهم .

نزل بعد ذلك إلى كابينته وأغلق الباب على نفسه وقبض على مسدسه في شيء من الحنق وأسنده إلى جبهته .

• • •

وبعد ساعتين من ذلك ، وحينما جاء أحد خدم الباخرة يعلن إليه أن مائدة العشاء قد أعدت فتح باب كابينته واتجه نحو غرفة المائدة :

— أستميحكم العفو عن هذا التأخر .

نطق بهذه الكلمات وكان مظهره هادئاً كل الهدوء ، ولم يكن يلوح على وجهه أي قلق ولا أي ألم .

وكان يسود من حوله سكون مضايق ، إذ كان الحاضرون ينظرون بدهشة عظيمة إلى هذا الرجل الذي تلقى منذ هنيهة نبأ وفاة زوجته وابنته ، وهو لا يزال يحتفظ بسكونه إلى هذا الحد ! فهل تراه كان يجهل هذا الخبر ، كلا بتاتاً كيف ؟ فقد رآه الناس صاعداً إلى المرفأ ومعه نفس هذه الصحيفة الفرنسية التي قرأ الجميع فيها ذلك النبأ ؛ ومنظره الغريب ، وامتقاع وجهه ، وإشاراته التائهة ، كل ذلك يدل على أنه يعرف النبأ ؛ وإذاً فكيف أمكنه أن يحتوي على ألم عنيف إلى هذا الحد ، وأن يخفي طعنته بعدم الاكتراث إلى هذه الدرجة ؟ .

وكان أمره طول المساء وفي صباح اليوم التالي على هذا النحو تماماً ، ثم إنه كان لا يظهر إلا قليلاً ويقضي أكثر الوقت في كابينته . ولكن في اللحظة التي كان يلتقي فيها برفاقه في السفر كان يتكلف خلو القلب وفراغ الذهن ، ويتصنع اعتدال المزاج ، وكانت محادثاته تبدو طبيعية إلى حد يجعل من غير المعقول أنه يمثل دوراً مقصوداً . ثم لماذا هو يمثل هذا الدور ؟ .

كان الجميع يعرفون طبيعته الكريمة ، وكانوا يذكرون بأي حب وحنان ، كان يتحدث عن زوجته وابنته ، وبأي كبرياء كان يعرض صورتيهما على أصدقائه ، تلك العواطف لا تختنق بغتة ، بل هي تحيا وتنمو بصدمة الكارثة ، وأية كارثة أعظم وأفظع من هذه المصيبة التي يعلمها الإنسان مصادفة من صحيفة يشتريها وهو مار في الطريق .

مضت على ذلك ساعات وساعات ، وأخذت الباخرة تقترب من أرض الوطن ، وسرعان ما تبين الركاب شواطئ فرنسا ؛ فظهرت مارسيليا في الأفق وتحددت أمامهم ، وفي أثناء تلك اللحظة المؤثرة التي تسبق ساعة الوصول ظل « جاك » مختفياً لم يره أحد من رفاقه ، ولما أصعد عمال الباخرة أمتعته عرف الركاب منهم أنه متمدد على سريره بدون حركة .

رست الباخرة على رصيف المرفأ فشاهد القادمون على الشاطئ مناديل تلوح في الهواء ، ونساء وأطفالاً يبدون حركات السرور ، ومع ذلك فبعض المسافرين الذين كانوا أكثر اتصالاً بـ « جاك » أثناء السفر كانوا ينتظرون بالرغم منهم حتى يخرج من كابينته ، بل إنهم أحسوا بشيء من الفزع كما لو كانوا يخشون أن يكون قد صمم في هذه الدقيقة القاسية أحد التصميمات اليائسة ؛ فنزل إليه أحدهم مبعوثاً من الآخرين ... وعندما وقع نظره عليه قال له :

— هل أنت قادم يا دوفريش ؟ .

— نعم أنا قادم ...

وإذ ذاك صعد على ظهر الباخرة متأبطاً ذراع رفيقه ؛ فأحس هذا الأخير أن « جاك » يتثاقل في مشيته وبالأحرى كان يترك نفسه ينسحب انسحاباً ويسير منخفض الرأس .

ساروا معاً في الممر ...

وفي هذه الأثناء تمتم « جاك » قائلاً لصاحبه :

— أسندني فإني سأسقط .

غير أنه لم يلبث أن نزع ذراعه بغتة من ذراع رفيقه ، ورفع رأسه كما لو كان يطيع قوة لا تقاوم وصاح قائلاً :

— جيلبرت ... هاريت ...

وفي الواقع أنه في هذه اللحظة قد شوهدت سيدة وفتاة تجريان نحوه من خلال زحام الجماهير ؛ فاندفع إليهما واحتضنهما بين ذراعيه وضمهما إلى صدره في شيء من الجنون وأخذ يتمتم كأنه فقد صوابه قائلاً :

— جيلبرت ... أأنت يا عزيزتي ؟ .. آه ! أنا كنت أعرف جيداً يا « جيلبرتي » ... كان الناظرون ينظرون إليهم ولم يكونوا يفهمون بعد من هاتان السيدتان اللتان يقبلهما جاك بكل هذا الشغف .

— جيلبرت ... جيلبرت أأنت ؟ ...

وعلى أثر ذلك تخاذلت قواه وأصيب بشيء من الدوار ولحت زوجته أنه يبكي ، فتنبهت في الحال إلى سبب بكائه وقالت له :

— نم ...

— أوصدقت أننا نحن الضحيتان ؟ .

— أنا لم أصدق ذلك .

— كيف ؟ ! .

— كلا ، ما دامت قد تسلمت رسالتك ، التي وعدتني فيها بأنك لم ترى بعد ذلك « جورج دي بروكور » وبأنك لن تصحبه في السيارة .

— هل كان لديك بي الثقة الكافية ؟ ... وبالرغم من هذا النبأ ؟ ... وبالرغم من الأسماء ؟ ...

وعلى أثر ذلك أصاب السيدة بدورها اضطراب عظيم وجعلت توضح أفكارها متمتمة :

— إنه خطأ ارتكبته هذه الصحيفة ، وإن السيدتين اللتين قتلتا هما : ابنتا عمنا دوفريش ، ودعاهما جورج في اللحظة الأخيرة ، ولم ينخدع في الاسم إلا صحيفة واحدة كتبت جاك دوفريش ... وقد علمت بها الخطأ متأخرة فلم أملك أن أبرق إليك .. أوه ! لابد أن تكون قد تألمت كثيراً ! ..

— أنا لم أتألم ولم يكن لي الحق في أن أتألم ما دامت رسالتك كانت تحت عيني ، وما دمت أعرفك ، وما دمت أعلم أنك غير قادرة على الكذب . لا ، أنا لم أصدق يا جيلبرت ، وكان من المستحيل على أن أصدق عنك شيئاً كهذا ...

صمتا بعد ذلك ، ويد كل منهما في يد صاحبه ، إذ لم تعد أية كلمة تستطيع أن توضح الانفعالات التي تقلب كيانهما ، وكانا يرتعدان إلى أعماقهما ، وكانا يحسان — في ضعفهما الإنساني وفي حبهما الأقوى من القدر ، والأعظم من الكوارث ، والأقدر من الموت ، وفي وسط أولئك الناس الذين ينظرون إليهم — برغبة واحدة وهي أن يركع كل منهما على ركبتيه ويجهش بالبكاء . (م . غ)

الشرق والمسرح

للأستاذ عبد الفتاح البارودي

في الأسبوع الأخير من إبريل الماضي ، احتفلت الكنيسة الشرقية بأسبوع الآلام أو الأسبوع المقدس الذي يبدأ (بأحد السعف) وينتهي (بعيد القيامة) . وقد سبق أن احتفلت الكنيسة الغربية بنفس هذا الأسبوع Holy Week مع اختلاف في التاريخ ، إذ بدأ أحد السعف Palm Sunday يوم ١٨ مارس الماضي وانتهى عيد القيامة Easter Day في الخامس والعشرين منه .

ولست الآن بصدد البحث في أسباب هذا الاختلاف ، وإنما يعنى هنا البحث عن أسباب اختلاف أثر كل من الاحتفالين في الفنون عامة وفي الفن المسرحي بصفة خاصة .

فمن المحقق أن الاحتفالات الدينية بالأسبوع المقدس ونظائره من المناسبات ، قد تطورت في الغرب إلى مسرح ، بينما لم تتطور على هذا النحو في الشرق .

ففي انجلترا مثلاً أضيفت نصوص Tropes additional أو Tepts إلى الألحان الكنسية ، وبدأت منذ القرن الثامن تعرض مع النصوص الدينية في شكل « حوار » كذلك العرض الرمزي الذي يمثل مجيء المريمات الثلاث إلى قبر المسيح ، ويدور فيه مثل هذا الحوار :

— عمَّن تبحثن في القبر أيتها المسيحيات ؟
— يسوع الناصري الذي صلب .
— إنه ليس هنا . لقد قام كما قال من قبل .
إذهبْن وأعلنّ للملأ أنه قام من القبر .

ومعلوم أن هذه الـ Tropes فصلت على حدة بعد ذلك وأصبحت تقدم بذاتها ، ثم نظمت تنظيماً دراماتيكياً ، وسرعان ما تطورت ، إذ نما الحوار والغنى وتلونت الحركة وتنوعت ، وسرعان أيضاً ما أدخلت اللهجات العامية فيها ، وقد ساعد هذا كله على اقتراب الدراما الدينية من الناس والدنيا ، وابتعادها عن القساوسة والكنيسة .

وشبيه بهذا ما حدث في فرنسا ، حيث نشأ في القرون الوسطى مسرح استمد موضوعاته أول الأمر من الدين المسيحي ، ثم امتزجت الموضوعات الدنيوية بها شيئاً فشيئاً إلى أن أصدر برلمان باريس عام ١٥٤٨ قانوناً يمنع (جماعة المأساة المقدسة Confreres de la Passion) من تمثيل الموضوعات الدينية ، وبذا انقطعت آخر حلقة بين الكنيسة والمسرح ، وترتب على ذلك أن سهل تماماً على « الإنسانيين Humaniss Confreres » أن يبدأوا مرحلة جديدة وسديدة في الأدب التمثيلي .

وهكذا تمخضت الاحتفالات الدينية في انجلترا وفرنسا وغيرهما من أمم أوربا بصفة عامة ، عن مسرح كان النواة الأولى للمسرح الأوربي الممتاز .

ولا يتسع المقام للإضافة في إيضاح أثرها في مختلف ألوان الفنون الأخرى ، ويكفي أن أشير إلى ما أذاعته محطة الإذاعة البريطانية هذا العام خلال الاحتفال بالأسبوع المقدس ، فقد تضمن برنامجها ترجمة لقصيدة ألفريد دي فيني « جبل الزيتون » التي يصف فيها صعود المسيح إلى ذلك الجبل وابتهاله إلى الله أن ينقذه من الهلاك .. كما تضمن إذاعة إحدى أوبرات الموسيقي العظيم سبستيان باخ ، وهي « المأساة كما رواها متى » كما تضمن كذلك إذاعة بعض روائع هاندل وخاصة « المسيح » وما إلى ذلك مما يدل على أثر الطقوس الدينية العميق ، لا في المسرح وحده ، بل في الشعر والغناء والموسيقى .. إلخ في أوربا .

فلماذا لم يكن لها مثل هذا الأثر في الشرق ؟

لست أبتغي من وراء ذلك بحثاً تاريخياً ، وإنما أبتغي الاهتداء إلى علة قصور البيئة الشرقية عن التطور الفني ،

عما سبب هـذا الجمود الشامل الملحوظ فى مختلف فنونها ومختلف أممها ومختلف عصورها .

والمشكلة ليست هينة . ويزيد من تعقيدها أن نفس التراتيل والطقوس الدينية التى تطورت تطوراً فنياً فى الغرب هى نفس الطقوس والتراتيل التى لم تتطور على هـذا النحو فى الشرق . بل أكثر من هذا أن الموضوعات الرمزية التى تدور حولها إنما هى فى أصلها منقولة — كما يقول Chambers — من كنيسة أورشليم خلال القرن الرابع الميلادى .

فالمقطوعة التى أسلفت ذكرها على هيئة حوار مثلا هى فى أصلها جزء من الأصحاح الرابع والعشرين من إنجيل لوقا ، ولا يزال يرتل فى الكنيسة الشرقية ، ولكن على النحو التالى : (ثم فى أول الأسبوع أول الفجر أتين إلى القبر حاملات الحنوط الذى أعددنه ومعهن الناس فوجدن الحجر مدحرجا عن القبر فدخلن ولم يجدن جسد الرب يسوع ، وفيما هن محتارات فى ذلك إذا رجلان وقفا بثياب براقة . وإذ كن خائفات ومنكسات وجوههن إلى الأرض قالا لهن لماذا تطلبن الحى بين الأموات ليس هو ههنا لكنه قام ....)

والعجيب أن هذه الطقوس الدينية مترعة — فى أصلها الشرقى — بالإمكانيات الفنيـة . ولنضرب مثلاً بيوم (الجمعة الكبيرة) كما تحتفل به الكنيسة الشرقية .

يبدأ الاحتفال صباحاً بصلاة تقرأ فيها بعض إصحاحات الكتاب المقدس الخاصة بموضوع الصلب . وعندما يجئ الظهر تبدأ صلاة أخرى ، إذ توضع صورة السيد المسيح — مصلوباً — على منضدة تسمى « منضدة الصلبوت » إلى أن يأتى موعد الصلب فتطفأ الأنوار بعض الوقت ثم تضاء ويطوف القسيس بالصورة فى أرجاء الكنيسة ، ثم يضعها على المذبح حيث تلف بلفائف حريرية وتغطى بالورود وتقرأ عليها مزامير (داود النبى) ويوضع حولها شمعتان وتترك هكذا إلى « عيد القيامة » .

أفبعد هذا دليل على أن فى هذه الطقوس إمكانيات فنية؟ يكفى أنها غنية « بالرمز » وهو أقوى أداة للمحاكاة . فانطفاء الأنوار عند الصلب رمز لظلام العالم . ووضع الصورة على المذبح ولفها بالحرير وتغطيتها بالورود رمز للدفن . والشمعتان الموقدتان حولها رمز للملكين حارسين .. وهكذا .

وإذاً فكيف تأتى للغربيين أن يستغلوها — دوننا — استغلالاً فنياً ؟ وهل يجوز بعد ذلك أن نستنتج أن البيئة الشرقية بيئة غير ذات مجال فنى ؟ وإذا صح هذا فما العلاج ؟!

عبد الفتاح البارودى

غربة

أمضى الزمان غريب الدار حيرانا
أرعى بساحتـه هماً وأحزانا
ما حاجتى لبـلاد بت مفتـقداً
فيها ـ على شغفـى ـ صحباً وإخوانا ؟!
أسعى إلى المال فى الآفاق مغترباً
هل يسعد المال صبًّا بات ولهانا ؟!
هل يسعد المال صباً لم يزل قلقاً
يقضى الليـالى والأيام أسوانا ؟!
إن يجمع المرء شيئاً عز مطلبه
بالبعد فهو الذى قد بات خسرانا
يا ضيعة العاشـق المحروم مغترباً
عن الأحبة والعهد الذى كانا !!
يلقى وجوهاً لأجـل المال كالحة
ويهجر الصحب والأحباب هيانا
إنى تركت بمصر غادة ملكت
قلبى ، فقلـبى ليس لى الآنا
إن غاب قلبى ، ألقى بعده عوضاً
أليس كل عزيز بعـده هانا ؟!

(الطائف) أحمد أبو المجد عيسى

من هنا ومن هناك

(بقية المنشور على صفحة ٢)

دكاترة جدد :

جاء فى الأنباء أنه قد نوقشت فى جامعة باريس رسالات تقدم بها خمســـة من الأساتذة المصريين للحصول على درجة الدكتوراه ، وقد فازوا جميعا بها .

والدكاترة الجدد هم الأساتذة جميل فرج وأنور عبد العزيز وعفيق عبد الفتاح ومحمد صقر خفاجه ومحمود جمال زكى .

زهور الشر ومدام بوفارى :

وقدم الأستاذ جميل فرج رسالته عن قصة «مدام بوفارى» كما قدم الأستاذ أنور عبد العزيز رسالته عن «زهور الشر» .

وكلا الكتابين من أمهات الكتب فى الأدب الإنسانى ولكل منهما قصة وقضية .

فأما «مدام بوفارى» فرواية للكاتب الفرنسى فلوبير وفلوبير كاتب مقل يبحث فى إنتاجه عن الكيف لا عن الكم؛ لذلك نرى له فى الأدب مكانة عظيمة وإن كانت مؤلفاته تعد على الأصابع . وأعمق قصصه وأكثرها انتشاراً هى «مدام بوفارى» . وفيها يروى فى أسلوبه الرصـين المحكم حياة امرأة من الطبقـة المتوسطة تسلطت على لبها الأفكار الرومانتيكية والعواطف المثالية الخيالية ، فراحت تحاول تحقيق آمالها وأحلامها ، ولكن الحياة الواقعية صدمتها بحقائقها المرة الأليمة ، فانتهى بها المطاف إلى الانتحار . وقيمة القصة فى معناها الإنسانى العميق الذى جلاه المؤلف فى صورة قوية مؤثرة خلال عرضه لحياة تلك المرأة الشقيـــة . وقد أثار الكتاب حين صدوره ضجة كبيرة ، إذ كان نهجاً جديداً فى عالم الأدب . واتهم صاحبه بأنه يحرض على الفساد بعرضه صوراً قيل عنها يومئذ إنها إباحية وإنها خارجة عن حدود الآداب العامة . وحوكم فلوبير وأريد تحريم قصته . ولكنه خرج منتصراً بعد جهاد شاق ودفاع قوى عن أبطال قصته الذين كان يقصد بهم العبرة لا الفساد . وقد رأينا هذه الرواية الممتازة فى مصر على الشاشة البيضاء أخيراً فكانت تعبيراً صادقاً عن قصد المؤلف وإن كان مخرجوها قد غيروا الكثير من معالمها

وأما «زهور الشر» فديوان الشاعر المشهور بودلير . وبودلير يعتبر المنبع الذى منه نشأت أغلب المذاهب الشعرية فى الغرب فى العصر الحديث ، وعلى الأخص المذهب الرمزى منها . فبالرغم من أن هذا الشاعر ينتمى إلى المدرسة الرومانتيكية من ناحيـة عنايته بالفن والشكل ، إلا أنه يقترب من المدرسة الواقعية بسبب كرهه المبالغة فى وصف العواطف والتصـورات . إنه لا يتعلق برسم اضطرابات الحواس ومناظر الحياة الخارجية ؛ بل هو يبحث أولاً فى أعماق النفس عن الحياة الداخلية بصبواتها الجامحة وخلجاتها المتلاحقة . وهو لا يصف هذه الأشياء ، وإنما يحاول إثارتها فى نفس القارئ باستخدام الألفاظ والتعبيرات ذات القيم الرمزية القوية . وهو أيضاً مثل فلوبير كاتب مقل لا ينظم قصيدة إلا تحت تأثير دافع قوى . و «زهور الشر» أكثر شعره انتشاراً . وكانت لهذا الديوان قضية مشهورة ؛ فقد اتهم صاحبه أيضاً بالإباحية ومثل بكتابه أمام القضاء وقضت المحكمة بتحريم سبع من قصائده رأت فيها خروجاً على الآداب العامة . ولكن ، بعد مرور ٨٠ سنة على وفاته ، روجعت هذه القضية الأدبية ورد القضاء إلى صاحب زهور الشر اعتباره ؛ فخلال تلك الفترة الطويلة كان الناس قد عرفوا حقيقة زهور الشر وتبينوا مقصدها الإنسانى البعيد الذى لم يكن ليقلل من قيمته ما رآه القضاء فى القصائد السبع المحرمة من إباحية سافرة .

والعبرة فى قصـة هذين الكتابين هى أن الابتكار والتجديد فى الأدب يجد أصحابهما دائماً عقبات قوية تعترض طريقهم ، ولكنهم ينتصرون عليها دائماً وإن طال الزمن . فزهور الشر ومدام بوفارى أصبحا الآن من دعائم الأدب الإنسانى ومن مفاخر الأدب الفرنسى .

دكتوراه الدولة :

وهاتان الرسالتان قد نال بهما صاحباهما دكتوراه الجامعة . أما الأستاذان عفيق عبد الفتاح ومحمد صقر خفاجة فقد نالا دكتوراه الدولة عن الرسائل التى تقدما بها .

والفرق بين دكتوراه الدولة ودكتوراه الجامعة أن الأولى يشترط فيها كتابة رسالتين : إحداهما أساسية والثانية فرعية يبحث فيها عرض مسألة تتعلق بموضوع الرسالة الأساسية . أما دكتوراه الجامعة فيتقدم لها الطالب برسالة واحدة .

ومما يذكر أن أغلب الحاصلين على شهادة الدكتوراه فى مصر ، ومنهم طه حسين ومنصـور فهمى وغيرهما ، حصلوا عليها من الجامعة . ولم يتجه المبعوثون المصريون إلى طلب دكتوراه الدولة إلا فى السنوات القليلة الماضية .

محمد عبد الحليم محمود

الثقافة

العدد ٦٥٠
١١ من يونيه ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

صفحة

شعراء ساخطون :

الأديب المدرس !!

« قد يكون في هذه القصيدة بعض المغالاة ، ولكنها تحتفظ بكثير من الحق »

نظرتُ إلى التدريس نظرة فاحص
فأزعجني همُّ الأديب المدرسِ
يغذي عقولا لا تسيغ بيانه
فيفتر منه العزم بعد التحمس
أدارَ على طلابه من نتاجه
رحيقاً فلم يظفر لديهم بمحتسي
وطاف عليهم بالأزاهير غضّة
ينسّقها ما بين فل ونرجس
فما اهتزت الأعطاف من فرط نشوة
كأغصان دوح في الخمائل ميّس
وضاع سدًى عطر الزهور ولم يعد
يؤثر في قاسٍ من الصخر أملس
توخّى لدى التعبير كل سهولة
وأجهد في التبسيط فطنة كيّس
وذلل من أفكاره كل جامح
كما اعتاض عن صعب الغريب بمؤنس
فلو علم الطلاب منه لأتحفوا
بأغلى من در الكنوز وأنفس
تعهد غرس الذوق بين طباعهم
فصادف من أذهانهم شر مغرس
وسُلّح بالذهن الوضيء فلم يجد
له في رحاب الدرس من متنفس
فمال إلى الإسفاف وهو جريمة
متى يدن منها صاحب الذوق يدنس
تعاجمَ والفصحى غذتْ لسانه
بأعذب من شدو الطيور وأسلس
كبا حظه بين التلاميذ فانتهوا
لمأزمة كادت تطيح بأنفس
ولن ترتجي نفعاً يُتاح لمعشر
إذا برم المرءوس بالمترئس

يحاول أن يرقى بهم نحو أوجه
وقد لعب الشيطان منهم بأرؤس
إذا انتشروا بين المقاعد خلتهم
قروداً أبتْ أن تستقر بمجلس
يطيلون في الفصل الضجيج كأنهم
لدى حانةٍ ماجت بخمر وأكؤس
يهددهم بالقمع ثم تصدّه
زواجر عطف دافق متبجّس
يحذّره إشفاقه أن يعنّتهم
فتحسبه كالخائف المتوجس
يرى أنهم أبناؤه ، لو أساءهم
لخالف دستور الحنان المقدس
ولا بدّ من حزم يعوق هواجساً
بصدر متى يلق التسامح يهجس
إذا صلصل الناقوس طاروا كأنهم
مساجين فروا من غياهب محبس
ومن فوقهم قومٌ تناسوا غباءهم
وجروا على الدنيا ذيول التغطرس
أساتذة عند الوزارة وحدها
وعند سواها لن يباعوا بأفلس
دعتهم إلى التدريس دون روية
وهم ـ لو درتْ ـ في حاجة لمدرس
رءوس تحلت بالطرابيش في الورى
لتخدع عنها ناظر المتفرّس
ولكنها كالطبل تفشي ما بها ... !
فترتع في قفر يد المتلمس
شفاهٌ تطيل الصمت لا عن رزانة
فإن نبست فاهتْ بأقبح منبس
تخاف افتضاحاً إذ تردّ إجابة
فتومئ بالتصديق إيماء أخرس
لقد أودع النشءُ العزيز لديهمو
فأرمس في جوف الثرى شر مرمس
وماذا عليهم لو تنحوا ، لينقذوا
ذخائر شعب بالنوائب متعس
لقد ساءني حظي ، فصرت زميلهم
فأقدحْ به حظاً عبوساً وأبئس !

للصورة

محمد رجب البيومي

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز		رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك	الإدارة	محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٥٠ — الاثنين ٧ من رمضان سنة ١٣٧٠ — ١١ من يونيه سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

من المحرر ... إلى القارئ

سألني صديق انجليزي منذ حين : هل تصف لي حركة الثقافة اليوم في مصر والشرق العربي وصفاً موجزاً يمكن وضعه في « قشر بندقة » — كما يقولون — ؟ فأجبته : إنها تأليف وترجمة ونشر ؛ وهي شديدة الشبه جداً بحركة النهضة الأوربية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، حين كانت انجلترا — مثلاً — تنشر تراث اليونان والرومان الأقدمين ، وتترجم عن الأدب الفرنسي وغيره من دول أوربا ، ثم تخرج بعد ذلك نتاجاً جديداً من خلق رجالها .

على أن هذه الأضلاع الثلاثة ليست متساوية الطول ؛ فأكثر الحركة عندنا ترجمة ، وأقلها تأليف ، وأما نشر التراث القديم فقد كان فاتراً مضطرباً ، ثم أخذ في الأعوام الأخيرة يشتد ويستقيم .

قلت إن هذا المثلث الثقافي ليس متساوي الأضلاع ، ولا ينبغي له أن يكون ، لأن حاجتنا قد تضعف هنا وتشتد هناك ؛ كلا ولا هي تظهر في أدبائنا ومؤلفينا كلها معاً جنباً إلى جنب ؛ فقد تجد الكاتب الذي يترجم ويؤلف ثم لا ينشر قديماً ، وقد تجد الأديب الذي يؤلف ولا يترجم ، أو الأديب الذي ينشر دون أن يأخذ بنصيب من ترجمة أو تأليف ، بل قد تجد صاحب القلم الذي وهب نفسه وقلمه للترجمة وحدها — وكلهم صاحب فضل ، وكلهم مشكور على فضله .

وهذه الأضلاع الثلاثة لا يدوم الواحد منها على طول واحد مع تتابع السنين وتطور الفكر ، فهي كلها تطول وتضخم ، لكن النسبة بين أطوالها تختلف على مر الزمن ، فليس من ريب في أن نسبة التأليف إلى غيره من أوجه النشاط الفكري ، آخذة في الزيادة التي يستحيل معها التشاؤم .

ولا أحسبه غروراً منا أن نقول إن هذه اللجنة المباركة بجهود رجالها — لجنة التأليف والترجمة والنشر — قد كانت من أقوى العوامل في دفع الحركة الثقافية في مصر والشرق العربي إلى أمام ، دفعاً اطردت خطاه اطراداً ثابتاً تقدم دائماً ولم يتأخر أبداً .

وهذه هي « الثقافة » صحيفتها وإحدى أدواتها بين يدي القارئ ... فإذا سأل سائل : ما رسالتكم ؟ أجبناه : هي رسالة اللجنة نفسها — تأليف وترجمة ونشر .

ولما كانت الصحيفة الأدبية الحية لابد أن تكون معياراً حساساً لمحيطها الثقافي ، كان لزاماً على « الثقافة » أن تغيّر من أطوال الأضلاع الثلاثة بحيث تتناسب أطوالها دائماً مع الحركة الفكرية وحاجة القراء ؛ فلئن كانت النتف القصيرة والمجالات غذاء كافياً للقارئ الناشئ ، فهي لا تشبع من نما وتطورت مداركه .

لهذا تزمع « الثقافة » أن تبدأ مع قرائها عهداً جديداً ، يكون قوامه البحوث المستفيضة التي تستكمل توضيح الفكرة وتستوفي جوانب الموضوع ؛ وإذا أغضب هذا قارئاً متراخياً كان يريد التسلية الرخيصة السهلة الميسرة ، فنحن نودّع هذا القارئ لنكسب قارئاً آخر يريد لنفسه الغذاء العقلي السليم .

زكي نجيب محمود

الجواهرى من ديوانه

للأستاذ عبد الخالق طه

يسر « الثقافة » أن تقدم لقرائها هــذه الدراسة الجيدة لشاعر العراق « الجواهرى » التى تتبلور فى شعره قسمات هذا العصر الذى نعيش فيه ، بأخلاقه ودوافعه ونوازعه ، بل بصور مصرنا هــذا بما فيه من نقص فى مقدار الثقافة الغربية التى لا مندوحة عنها لإنسان يعيش فى القرن العشرين ، ونحن نوافق الكاتب الفاضل صاحب البحث على « أن قوة التصادم بين الشرق والغرب هى وحدها التى تقنع الأعين المثقلة فى الشرق والغرب . فما من مرة احتك فيها الشرق بالغرب إلا وخرج من احتكاكهما ضوء أنار العالم ، وما من مرة التقى فيها وجه الشرق بوجه الغرب ونظر أحدهما فى عين الآخر إلا وأبصر على نفسه كأنه ينظر فى مرآة » .

« الثقافة »

هذه دراسة كتبت محاضرة ألقيت فى مدينة الموصل فى ضحى عام ١٩٤٩ أى قبل ميلاد ديوان الجواهرى الأخير ، ولكن لم يتيسر لها أن تنشر فى ذلك الحين لأسباب لا محل لذكرها الآن ، ونظراً لزوال تلك الأســباب ورغبة فى استكمال البحث آثرنا نشرها بعد تحوير أسلوبها الخطابى عازمين على أن نقوم فى المستقبل بدراسة جديدة لهذا الشاعر من ديوانه الحديث موازنين بينه فى ديوانيه .

والآن لننظر فى الديوان لنرى أنه قد طبع عام ١٩٣٥ ميلادية ، وأن ميلاد أقدم قصيدة فيه هو عام ١٩٢٠ ، فالديوان إذاً يمثل شعر الجواهرى وشخصيته فى الخمس عشرة سنة المحصورة بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٣٥ ، ونحن إذا تصفحنا هــذا الديوان ألفيناه فوضى مواضيع ومشتجر قصائد لا تجمع بينها وحدة الغرض ، ولا يقربها من بعضها تاريخ النظم ، وهذه الفوضى فى ترتيب قصائد الديوان سوف تطلعنا على الفوضى فى عواطف شاعرنا والاضطراب فى ميوله وأهوائه ، وسوف لا ينجينا من هــذه الفوضى ومن هذا الاضطراب إلا التقدمة حيث تأخذ بيدنا فى أناة وتسهل فتصنف لنا الديوان إلى أصناف أربعــة هى : الشعر السياسى ، والشعر الاجتماعى ، ثم شعر الوصف ، ثم الأدب المكشوف .

على أنه لا ينبغى أن يفهم مما قلناه سابقاً أن شاعرنا إنسان معقد مبهم لا يكاد يستوعبه ذهن أو ينفذ إليه فكر ! فصاحبنا وإن كان بحراً لجياً فى عواطفه الزاخرة القلقة المتناقضة إلا أنه مع ذلك سهل الفهم سريع الانكشاف ! ذلك لأنه صريح والصراحة تؤدى بصاحبها إلى الصدق ، والصدق أكبر ميزات الشعر والشاعر ، فإن أصدق الشعراء فناً وحياة لمن تعرفه بديوانه وتعرفه لديوانه .

الواقع أن صراحة شاعرنا الحبيبة قد أضفت على شعره لوناً رائعاً من الصفاء والوضوح ، لأن الصراحة تصحبها الجرأة — وجرأة شاعرنا قوية عنيفة صاخبة كما سنرى — كما أنها تسلم صاحبها إلى أن يكون نقى القلب سليم الطوية مكشوف العواطف والميول ، وهكذا لازمت الصراحة ديوان الجواهرى فى جميع أبوابه وأغراضه من مبدئه إلى منتهاه ؛ فشاعرنا كان لا يملك إلا أن يهتف بالحقيقة مع كامل يقينه بما يجمله ذلك من ضروب الأذى والإرهاق :

هتفت وما أنفــك أهتف صارخاً

ولو حرموا مسى ، ولو حللوا دمى

وهو ما يبرح منادياً بأعلى صوته رغم كل بلاء :

ديدنى تصــوير ما فى خاطرى

وأنا مغرى بهــذا الديدن

أنا من أجــل لســانى مبتلى

رغم إحســاسى بعيش خشن

هــذه الصراحة وهذه الجرأة ، أو بعبارة أخرى هذه الصراحة الجريئة هى التى مكنت له أن يعطينا صوراً واضحة صادقة للعصر الذى عاش فيه من ناحيتيه السياسية والاجتماعية ، وسهلت لنا أن نتفهم تلك الصور من دون عنت ولا إرهاق ؛ فهو حين يصف لنا ما كانت عليه البلاد من التدهور

السياسي والاضطراب الخلقي ، وما كان عليه زعماء البلاد من إيثار المصالح الخاصة على المصالح العامة ، فإنه يعرض ذلك بأسلوب جلي جرىء متحد لا لبس فيه ولا إبهام ، فيقول :

ولو كنت من أهل السياسة لم أدع
سناماً لمن أرتاب فيهم وغاربا
تملقت الورى بالظن أحصي خطاهم
ورحت لفلات القلوب محاسبا
ولم أر في الإثم الفظيع ارتكبته
سوى أنني أديت للحكم واجبا
فإن لم أطق تهديم بيت مصارحاً
أتيت فهدمت البيوت مواربا
لجأت إلى الدستور في كل شدة
أفسر منه ما أراه مناسبا
وجردته سيفاً أمض وقيعة
من السيف هندياً وأمضى مضاربا
أكم به الأفواه حقاً وباطلاً
وأخنق أنفاساً به ومواهبا
أهدّم فيه مجلساً لا أريده
وإن ضم أحراراً غياراً أطايبا
وأبني عليه مجلساً لي ثانياً
أشبع ألكاكاً عليه روابيا
وأحشد فيه أصدقائي وأسرتي
كما ضم بيت أسرة وصواحبا

وهو حين يصور لنا حالة الحاكمين والطرق التي جاءوا بها إلى الحكم وكيف أنهم ما كانوا يحلمون به لو أن الأمور سارت سيرها الطبيعي ، وكانت مقاييس المواهب والكفايات صحيحة ، إنه عند ذلك لا يسعه إلا أن ينادي بأعلى صوته :

أقول لمرعوب أضل صوابه
تردى ظلمات تضل وترعب
ألا إن وضع النهي والأمر عندنا
غريب وأهل النهي والأمر أغرب
تداول هذا الحكم ناس لو انهم
أرادوه طيفاً في منام لخيبوا
ودع عنك تفصيلاً لشتى وسائل
بها ملكوا هذي الرقاب وقربوا
فأيسرها أن مد أطيل امتهانهم
إلى أن أدروا ضرعها وتحلبوا

هكذا صور لنا الجواهري حالة البلاد السياسية بكل صراحة وبكل جرأة ، فلم يتنكر على نفسه أن يتناول أدق المسائل بالنقد والتجريح ، لأنه يعلم أنه مسئول في ذلك أمام الضمير ، والضمير الحر هو كل ما يملكه الإنسان الشريف في هذه الدنيا . ولئن كان شاعرنا في شعره السياسي على هذه الشاكلة من الجرأة في القول والصراحة في التعبير ، فإنه في شعره الاجتماعي أكثر صراحة وأمضى جرأة ؛ ذلك أن الميدان الاجتماعي عادة أوسع من الميدان السياسي وأن الضغط على اللسان في الشعر الاجتماعي في عامة الأحوال أخف منه في الشعر السياسي ؛ لهذا كانت الصور الاجتماعية التي قدمها إلينا الشاعر واضحة المعالم متعددة الألوان بارزة الخطوط متماسكة المعاني ، فهو يرى مجتمعه بعدم الاستقرار الخلقي وبتبلبل مقاييس الأمور ، فالمنافع محامد والحرمان منها معايب ، وإن ابن آدم ثعلب لا تدري متى يفترسك ، وإن ثمة من يسمي الجور حزماً وحكمة ويعد المخازي مناقب . وإن الغش والكذب والنفاق والظلم قد نشرت ألويتها بين الناس ، وإن النبل والإباء والشهامة معان لا وجود لها في قاموس المجتمع . وإن الشعب بات يقاسي ألواناً قاسية من الفقر والجهل والمرض ، وألواناً قاسية من الفوضى وطغيان المنعمين والخونة وسماسرة الوطنية . فينطلق منددا بهذه الأوضاع مطالباً بوضع الأمور في نصابها ، وحين لا يجد لكلامه واعياً يثور ، ويروح يطلب إلى القارئ ، أن يتجنب الشرف لأن فيه حتفه ، وأن يلتزم المخازي لأن فيها نعمه ، ويمضي في قوله ذاك وقلبه يقطر دماً :

دع النبل للعاجز المقعد   وما اسطعت من مغنم فازدد
ولا تخدعن بقول الضعاف   من الناس إنك عف اليد
فإنك لو كنت محض الإباء   ومحض الشهامة والسؤدد
وأعطيت في الخلق طهر الغمام
وفي الفضل منزلة الفرقد
شرفاً تشير إليك الأكف   وتنعت بالعلم المفرد
لما زاد حظك من عيشة   على حظ ذي العاهة المقعد

ولما كان الأمر كذلك فإنه يهيب بصاحبه والألم يعتصر فؤاده :

إليك النصيحة من مصطل ... بنار التجارب مستحصد
رد العيش مزدحم الضفتين ... من الغش ملتحم المورد
وجل فيه أروغ من ثعلب ... وأشجع من ضيغم ملبد
وأنت إذا لم تماش الظروف ... على كل شمس حريب ردى

ثم يذهب مصارحاً قارئه كاشفاً له عن دخائل الناس تبريراً لنصائحه السابقة :

إذا ما عجمت نفوس الرجال ... من الأقربين إلى الأبعد
وأوقفت نفسك للمدعين ... سمو المقاصد بالمرصد
تيقنت أن الذي يدعون ... من المجد الآن لم يولد
هم الناس لا يخطئون الوحوش ... بغير التحيل للمقصد

وما دام الناس على هذه الشاكلة فلا بد أن يحذرهم المرء وأن يأخذ للأمر أهبته :

فلا تأت ساحة هذي الذئاب ... تنازلها ثم أن تورد
وخذ مخلباً لك من غدرة ... وناباً من الكذب فاستأسد
ولا تدين بغير الرياء ... وغير النفاق فلا تعبد

ولكن شاعرنا تضيق نفسه أخيراً بهذه الأوضاع المزرية ويتزي به أنه فتحمله الثورة على أن يصيح بقارئه :

وصلّ على سائر الوثبات ... صلاة الحالف المسجد
وما سطعت الطمع بالمتدّى ... عليه وقبّل يد المعتدى
ونفسك في الخير لا تبلها ... وعقلك في الخير لا تجهد

هذه إحدى صور المجتمع الذي عاش فيه شاعرنا . ما كان له أن يهمل تصويرها وهو الشاعر الملهم الذي تتجاوب في نفسه أصداء المحيط الذي يكتنفه ، وتتراوح في أجواء روحه المآسي التي ترتكب على مسرح البيئة . وأنى له أن يسكت وهو الذي يعد السكوت للشاعر بمثابة الحكم عليه بالإعدام :

وعندك قوة التعبير عما ... تحس وميزة الشعراء نطق
حياتك أن تقول ولو محالاً ... وحكم بالسكوت عليك شنق

وكيف له أن يسكت والتفرقة بين مواطنيه تتخذ كل يوم شكلاً جديداً ولوناً مستحدثاً ، فهي في يوم نعرة عنصرية تفرق بين أبناء البلد الواحد ، وهي في آخر نعرة طائفية تفرق بين أبناء الدين الواحد ، وهذه النعرات إن أثارها المستعمر لمآربه الاستعمارية ، فإنما يستغلها ذوو المطامع والأغراض من أبناء البلاد أنفسهم لتطمئن رغباتهم الذاتية .

إن شاعرنا تجاه تلك الأوضاع لا يملك إلا أن يجأر :

لم يخل درب من عراقيل ... ولم يسلم ممر
باسم البلاد يحل من ... جر البلاد إلى خطر
وبرغم أنا قد تزعم ... عندنا حق البقر
تهتاجنا النعرات طائفة ... وينبح من نعر

وكيف تأمل من شاعرنا السكوت وهو إن نظر إلى الشباب — وهم عدة الوطن — ألفاهم وقد أمات اليأس نفوسهم وباتوا لا يتفوهون إلا بالشكوى ؟ وهو إن تلفت يميناً وشمالاً غابت عن عينيه تلك النفوس الحرة التي تحتضن الحر وتحمي ذماره فيولول من كبد حرى :

أبل هذه النفوس من اليأس
استكانت مستقبل الشعب يبتى
خدعة هذه المظاهر ما في القوم
فرد يعيش عيشاً مهتى
الشباب المرهفاء رفت عليهم
كشباد غطى جروحاً وطعناً
والأحاديث كلها تشتكي (الوضع)
وفصل الخطاب أنا (يئسنا)
لانظام حر فيرعى الكفاءات
ولا من يقيم للحر وزناً
عكست آية الفضائل فالأعلى
مقاماً من كان في النفس أدنى

وهناك أيضاً صور أخرى غير هذه للمجتمع الذي عاش فيه شاعرنا ، صورها جميعاً بصراحة وجرأة وصدق فأجاد تصويرها ، إلا أننا نتجاوزها معتقدين أن ما عرضناه فيه الكفاية لتمثلوا رأينا الذي ذهبنا إليه . على أن هناك أمراً هاماً يستوقف نظر الباحث المدقق ، وهو أن هذه الصراحة الجريئة في شاعرنا تصحبها صفة أخرى عميقة قوية أيضاً ، هي هذا التشاؤم الذي يشيع في كل بيت من أبيات الديوان والذي اشتد حتى أصبح يأساً فإنما لا تخلو الحياة معه ولا تطيب . فنحن ما نراه إلا نائحاً باكياً حتى فيما لا موضع

النواح فيه ، وحتى أصبحت الشكوى صفة لازمة لأشعاره . وهذا التشاؤم في شاعرنا وإن كان هادئاً وادعاً في بعض الأحيان إلا أنه متمرد ثائر على الدوام . فالانقباض إن صاحبته الصراحة والجرأة أصبح تمرداً وثورة .

ولقد يقال في تعليل هذه الظاهرة من شعر شاعرنا إن الوضع السياسي المتقلقل في البلاد ، والعبودية الاستعمارية المفروضة على الشعب هما اللذان صبغا شعره هذه الصبغة الحزينة . أليس هو القائل :

ولا تعجبوا أن القوافي حزينة
فكل بلادي في ثياب حداد
وما الشعر إلا صفحة من شقائها
وما أنا إلا صورة لبلادي

ولقد يقال إن الأزمة المالية الخانقة الآخذة بتلابيب شاعرنا هي التي وضعت على عينيه تلك النظارة السوداء . فنحن نراه يشكو العوز في أكثر من موضع من الديوان ، ولعله حين كان يخاطبنا :

كيف يستطيع رسم شكل المسرا
ت نزيل في غرفة مثل لحد
تائه في حياته ليس يدري
أي باب إلى السرور يؤدي
فأروني رفاهة ونعيما
لأريكم تصوير جنة خلد

أقول لعله حين كان يخاطبنا بتلك الأبيات كان يصب علينا اللعنات صباً لتخاذلنا عن تقويم معاش شاعر نذر نفسه قرباناً لشرف بلاده حتى أسلمه ذلك إلى العوز وحتى بلغ به ذلك العوز أحياناً إلى أن يتزلف بأشعاره إلى من لا يحسن تقديرها ولا يفقه روائعها .

ولقد يقال أيضاً في تعليل تلك الظاهرة إن إهمال التقدير للشعر والأدب في البلاد ، ونكران فضل الشعراء والأدباء والزراية بهم مع ما يختلج في نفس شاعرنا من الطموح لنيل الصدارة بين شعراء العراق ، كل ذلك دفع به إلى الشكوى والتألم بعد أن أصبح الوضع على حاله :

إن الأديب وإن الشعر قدرهما
مطرح بين منبوذ ومسبوب
أعلى من الشعر عند القوم منزلة
تمخ البطون وتطريز الجلابيب

وبعد أن أصبح إذا تلفت حوله متبيناً موضعه وإخوانه الشعراء والأدباء من هذا الوطن الذي رفعوا بنده عالياً في سماء الفن والجمال ، ما يلبث أن يرجع الطرف دامعاً والقلب كسيراً فيئن أنين الثكلى :

أيجفوني الورى حتى صحابي
وتنبو الأرض بي حتى بلادي ؟
ومن عجب تضيعني وذكرى
تردده المحافل والنوادي

وكيف لشاعرنا ألا يبكي حالة الأدب والأدباء وقد بات يشار إلى الشاعر العراقي :

ذاك أديب مات اضطهاداً   ذاك هو الشاعر العراقي

إنه كلما تذكر هذا وأبصر ذاك يعود لثورته الداوية ليترجم عن شقائه وحرمانه في أنغام من الألم المرير أنغام الفنان المهموم الذي يبحث عن الهم في الشعر فلا يجده فيبحث عن الشعر في الهم فيصرعه . قلنا لقد يقال إن الفوضى السياسية والاجتماعية في البلاد ، والعوز المادي الذي كان عليه الشاعر ، وكذلك إخلاصه لفنه الذي لم يجد من يقدره ، وطموحه الذي لم يلف من يحققه له ، أثرت كل أولئك منفردة ومجتمعة في نفسيته ، فطبعتها بذلك اللون القاتم من الشكوى المتمردة . وهذا القول فيه كثير من الصواب ، فالحق أن لهذه الأمور مؤثراتها في نفسية شاعرنا وفي طبعه ، ولكنها عوامل مساعدة وليست مبدعة . ذلك أن الحزن والانقباض — في نظرنا — طبع أصيل في هذا الشاعر كونتهما عقد نفسية منذ طفولته لا نستطيع تحديدها لجهلنا تلك الحقبة من تاريخ حياته . ولعل مما زاد في وطأة هاتين الظاهرتين — الحزن والانقباض — حتى أصبحتا تشاؤماً مريراً تهزز أعصابه ورهافة حسه . أما الفوضى السياسية والاجتماعية في البلاد أو عوزه المادي أو إغفاله كشاعر فنان فهي وسائل ينفس بها شاعرنا عن تلك العقد الكامنة في أغوار نفسه . لنسمعه وهو يصف ساحرا في قصيدته التي أسماها (الطبيعة الضاحكة) كيف يستهلها بهذا النواح :

ودعت شرخ صباي قبل رحيله
وضلت منه ولات حين نصوله

وتقضت كل من شباب مخلف
إبرائه للعين مثل ذبوله
وأرى الصبا عجلا يمر وإنني
ساعدت عاجله على تعجيله
بأسى تجاوز حده حتى الغد
أمسيت أخشى الشر قبل حلوله
وبلدت حتى لا ألذ بفرح
حذر الشكاة وخوف عدوله

فالإنسان الذي يبلغ به طبعه إلى أن لا يرى الأمور إلا أنها شر وأن الشر منها لا بد صائر إلى ما يسوءه ، أقول إن إنساناً مثل هذا هل يتصور أن يدفع الحزن إليه دافع من غير ذات نفسه ؟ ولعل أبا فرات يؤيد رأينا هذا الذي ذهبنا إليه حين يقول :

وأظنني قد كنت أروع خاطراً
بالخطب لو لم أعن في تأويله
لكن شغفت بأن أقابل بينه
أبدا وبين خلافه ومثيله
وشغلت بالي والصبابة أنني
أجني فراغ العمر من مشغوله

ولكن ما لنا نذهب إلى التأويل والاستنباط وصاحبنا يعترف برأينا فيه ويعجب من نفسه كيف خلق هذا الخلق فيسألنا برفق ولين :

خبروني فإنني من لباناتي ... وعيشي رهين أمر عجاب
أي حال هذي وما السر في ... تكوين خلق بهذه الأعصاب
أبداً ينظر الحوادث والعالم ... والناس من وراء ضباب ؟

وإنه ليعترف لنا بهذا أيضاً في موضع آخر حيث يقول إن شعر الشاعر قطعة منه وصورة له :

ما الشعر في خيال المرء ينظمه ... لكنه قطعات من سجاياه

فما دام الأمر كذلك فإن ما ذهبنا إليه من الرأي يصبح حقيقة ثابتة .

(البحث بقية)

عبد الغاني طه

فاوست

للأستاذ إدوار منسى

ليست الفكرة الأصلية التي بنى عليها جوته مأساة فاوست ابتكاراً شخصياً لعقل واحد موهوب ، ولكنها كما هو الحال في معظم الأعمال الشعرية العظيمة ، نهاية ما وصلت إليه من حلقات تطورية طويلة تمتع الشاعر في جوها بتضافر جهود الأجيال .

ولقد ذاعت خرافة فاوست منذ القرن السادس عشر في ألمانيا ! ويقول كارل سيمروك ، أحد الثقات الألمان ، في بحث له نشر عام ١٨٧٤ عن حقيقة فاوست ، إن هذه الشخصية كانت موجودة حقاً وإن كان يكتنفها بعض الغموض . وأشهر كتاب عرض خرافة فاوست في القرن السادس عشر هو « كتاب فاوست » الذي وضعه فيدمان عام ١٥٨٧ . وتناول الشاعر الإنجليزي مارلو القصة وكتب مأساة الفاوست ساهمت مع الكتاب المذكور في شرف إثارة عقل جوته إلى الإبداع الأعظم . وقدمت مسرحية مارلو إلى ألمانيا فرقة من الممثلين الإنجليز ! ومن ثم تسلمها جيل من الممثلين بعد جيل ... وانتقلت هذه المأساة إلى مسرح « الماريونيت » (الدمى) . ولقد زارت أمثال هذه المسارح فرنكفورت ، مسقط رأس جوته ، وشاهد الشاعر المسرحية في واحدة منها عندما كان صغيراً ، فانطبعت في رأسه وتركت به آثاراً لم تمحه الأيام .

• • •

إذا وثقنا بذاكرة جوته فقد بدأت تراوده في سنه العشرين عام ١٧٦٩ ، فكرة كتابة « دراما فاوست » . ولقد حدث أن أعاد جوته من جامعة ليبزج إلى منزل والديه بفرنكفورت مرض خطير ، فكان يطرد فترة النقه المتطاولة بدراسات في الكيمياء والسحر . وبينما كان يتابع دراساته بستراسبورج عام ١٧٧٠ يخبرنا بأن « قصة مسرحية الدمى ... كانت ما زالت تطن وتدوي في نفسي بأصداء عدة » . أما متى شرع جوته يكتب فاوست فيصعب القول بالتأكيد . فهناك إشارات متفرقة تنبئنا باشتغاله بها بين سنتي ١٧٧٣ ، ١٧٧٥ . ولكن إذ دعاه دوق « ساكس فيمار » إلى دوقيته عام ١٧٧٥ انتقل جوته إليها ، فشغلته ملاهي حياة البلاط وواجباته عن فاوست لمدى أربعة عشر عاماً . وليس قبل رحلته الإيطالية ، وفي الواقع ليس قبل سنته الثانية بإيطاليا حين وجد جوته في نفسه الرغبة في النبش من مخطوطه القديم الذي عبثت به السنون ! واستأنف العمل الذي كان قد انقطع . ولكن ما لبث أن تركه حتى عام ١٧٩٧ حين تناول جوته « فاوست » للمرة الثالثة ... تحت إلحاح صديقه شلر ! ثم وضع « فاوست » على الرف لحين من الزمان . ولكن مع أول القرن الجديد تناول الشاعر « فاوست » من جديد برغبة أكيدة . وفي عام ١٨٠٨ بعد أربعين عاماً تقريباً من أول تفكير فيه ، ظهر الجزء الأول من فاوست تاماً كما نقرأه الآن .

ثم مضت عشرون عاماً أخرى قبل أن يظهر الجزء الثاني ! فقد أتم جوته الفصل الثالث منه عام ١٨٢٧ ، ثم بدأ الفصل الأول عام ١٨٢٨ . ومنذ ذلك الحين أخذ جوته يعمل باستمرار في قصيدته حتى تمت في منتصف عام ١٨٣١ ، فختمها ووضعها جانباً مع تعليمات بألا تفض وتنشر إلا بعد وفاته ! وعلى أي حال فقد فتحها جوته نفسه عام ١٨٣٢ ، وأجرى فيها تعديلين طفيفين ...

وهكذا وضع هذا الرجل الهرم الأشيب الذي بلغ ثلاثة وثمانين عاماً ، آخر اللمسات الفنية للعمل الذي تأمله وفكر فيه إذ كان فتى في العشرين ! ...

ومات الشاعر بعد شهرين ، ونشر في نفس السنة الجزء الثاني من فاوست .

• • •

وقد ترجم الشاعر والكاتب الفرنسي جيرار دي نرفال المأساة إلى الفرنسية ، وهي الترجمة الوحيدة الفرنسية التي

بقيت حتى اليوم ، والتى نجحت كل النجاح بحيث إن جوته ، كما يقـول چون بيير إيكرمان فى كتابه « محادثات مع جوته فى سنواته الأخيرة من حياته » ، كان يحتفظ دائماً بهذه الترجمة (وهى ترجمة الجزء الأول من فاوست ، كما لا أحتاج أن أقول) ، ويعرض عليها ويقرأها من وقت لآخر . وقد وجد چيرار دى نرڤال بعد ترجمة الجزء الثانى بعد وفاة جوته أنه يلزم تصدير جزئى فاوست بمقدمة ضافية محاولاً أن يجلو فيها غموض القصيدة خصوصاً فى جزئها الثانى ، ومن ثم صدرت الترجمة الفرنسية لجيرار دى نرڤال فى طبعتها الثالثة عام ١٨٤٠ متضمنة مقدمة مسهبة يعرض فيها القصة ويحلل مواقفها ويفسر غوامضها ويلقى بعض الضوء على ما خفى من معانيها ومراميها .

وقد لخصنا هـذه المقدمة الطويلة وعقبنا عليها وأضفنا ثبتاً بالأسماء الإغريقية الواردة فيها مؤملين أن تكون ذات نفع للقارىء ، خصوصاً قارىء الجزء الثانى من المأساة ، هذا الجزء الغامض كل الغموض ، المبهم كل الإبهام .

* * *

الجزء الأول

يقدم لنا جوته دكتور فاوست شخصية بلغت أوج النضج ، ذكية عبقرية ملمة بجميع العلوم ، متمثلة لكل الأفـكار ، غير متطلعة إلا إلى معرفة الأشياء وراء الطبيعة ؛ ليست قادرة على الحياة فى هذه الدائرة المحدودة من الرغبات الإنسانية ، وهو لهذا يتجه بتفكيره إلى الموت ، ولـكن أجراس وأناشيد عيد الفصح تتجاوب فى الخارج فجأة ؛ فترتجف يده بالـكأس المسمومة التى كان قد أعدها لوضع حد لحياته ؛ فيدعها جانباً ، ويذكر عندئذ أن الله قد حرم قتل الذات ... فيعود راضياً أو متكلف الرضا ، إلى تقبل الحياة كما يحياها الآخرون ، منتظراً مثلهم لحظة أن يناديه ربه إلى جواره ، ومن ثم يخرج من غرفة درسه مع خادمه ڤاجنر مكتئباً مفكراً ؛ فيلتقى بجمع صاخب من الناس فى أردية العيد يتبادلون الأغانى ويتراشقون بالنكات ، ثم يخلو مع رفيقه بالريف الهادئ للتنزه ، وهناك تتدفق من قلبه كل خلجات نفسه ، إذ يتكلم عن النفسين اللتين يجاذبانه : تود إحداهما الانطلاق إلى السماء التى تجتذبها ، فى حين تناضل الأخرى الأغلال التى تربطها بأديم الأرض .

وفى هـذه اللحظة العليا من التأمل العميق والأوهام الجنحة يتقمص الشيطان كلباً أسود يتمسح بقدمى فاوست فيصطحبه الأخير إلى حجرة درسه حانياً عليه رافقاً به ، راعياً له ؛ فيشغله الكلب عن قراءة الـكتاب المقدس حيث كان الدكتور ينشد بعض السلوى والعزاء .

وفى هـذه الأثناء يتحول الكلب إلى هيئة أخرى ، إذ يعلو وينتفخ ويصير كفرس البحر ضخامة ودمامة ، يكشر عن أنيابه ويقلب عينين يتطاير منهما الشرر ، ثم يتخذ شكلاً يحاكى الفيل ويملأ الفضاء كله ويستحيل إلى بخار متطاير يتقشع آخر الأمر عن شيطان فى زى طالب علم متجول يقدم إلى فاوست الينابيع السحرية والرؤى العليا ، ويصور له عجائب الحياة المستقبلة دون أن ينزعه عن الوجود الحقيقى . أما فاوست فيبث همه وشجنه ويصور ضيقه بهـذه الحياة وزهده فيها وتبرمه بها ، فيخفف الشيطان من شقاء الدكتور بأن يعرض عليه مصاحبته مصاحبة الظل وخدمته خدمة العبد ، مبشراً له سبل البهجة ، متيحاً له أسباب النعيم . أما فاوست الشيخ فتغريه هذه العروض ، ويوقع بدمه عقداً مع الشيطان ، عقداً لم يكن يدرى أنه قد أضاع من أجله حياته حتى نهايتها ، وأصبح هذا الذى كان يدعوه الذكاء والعبقرية إلى مخاصمة الله لا يدرى — فيما بعد — كيف يتخلص من هذه الروح الشريرة التى أراد عن طيب خاطر أن يصاحبها .

بدأ بين فاوست والشيطان ، واسمه ميفيستوفيليس ، عهداً بإرضاء الثانى كل رغبات الأول وعلى أن يكون فاوست فى آخر أمره ، إذا لم يعجز الشيطان عن إرضائه ، عبداً للشيطان » . وهناك وقع الشيطان فى حيرة : فماذا يبدأ ، وكيف يختار لسيده من بين ضروب اللذة وأفانين اللهو ؟! لحسن حظه أن العالم الشيخ ، وقد لزم حجرة درسه طوال حياته ، لا يعرف من مباهج الدنيا شيئاً ، ولا يدرك للوجود الإنسانى معنى ، وإن عرف وأدرك الدنيا والوجود من خلال قراءاته ... على صفحات مجلداته البالية ؛ إن صفحة قلبه

ليضاء شمية يعوزها قليل من الحب والألم ؛ ولن يكون من الصعب تهيئتها فيأس والحسرة بإثارة عواطفه وأحاسيسه الراكدة النائمة ؛ وهذا هو مشروع ميفيستو فيليس الذى يستهل عمله بإعادة دم الشباب الحار إلى قلب فاوست بفعل شراب سحرى يوقع شاربه فى غرام أول امرأة يلقاها .

وهذا هو ما تم بالفعل ؛ فعند خروجه من لدى الساحرة التى قامت بتحضير الشراب السحرى له ، يقع فاوست فى حب فتاة غضة يافعة التقى بها فى الطريق ، وتدعى مرجريت . وسرعان ما يدعو ميفيستو فيليس راجياً إياه أن يجمع بينه وبين هذه التى أسرت لبه واستحوذت لتو على قلبه . فيعده الشيطان بأن يهيئ له الأمر ويصبح ميفيستو فيليس وسيطاً ، فيغمر مرجريت بالهدايا ، ويمهد لسيده لقاء أو لقاءين مع الفتاة فى بيت صاحبة لها عجوز ؛ وتشعر الفتاة نحوه بالحب . ويبعد الشيطان عن الحبيبين أعين الرقباء والعواذل وفى مقدمتهم أم مرجريت التى تناولها ابنتها بإيعاز من فاوست شراباً سامّاً لتخلو وإياه ساعات من الليل فى هدوء وسكون . ثم يهيئ الشيطان مبارزة بين فاوست وأخى مرجريت — الذى ثارت ثائرته لعلاقة أخته بفاوست — فيقع الأخ فى المبارزة صريعاً . وإذ تقع مرجريت فريسة لتعريض الناس بها وسخطهم عليها ، بعد هذا الإطار من الهم والدموع ، يختطف ميفيستو فيليس صاحبه وينتقل به إلى قمة جبل « يؤمها من سائر الأقطار جماهير الأبالسة والعفاريت والسحرة ، وهناك ينغمسون فى اللعب واللهو ... ولعل الشيطان أراد بهذا إلهاء فاوست عن الجرائم الثلاث التى ارتكبها » : تدنيس عرض فتاة ، وقتل أخيها ، والتسبب فى تسميم أمها . ولكن الحنين يعود إلى فاوست ، فيضطر صاحبه إلى العودة معه لإنقاذ مرجريت من السجن الذى ألقيت فيه عقاباً لقتلها طفلها من السفاح بأن ألقته فى غدير . وهناك يدور مشهد ممزق ، ترى فيه الفتاة المسكينة الشاردة العقل قد أنابت فى قلبها وأعماقها نظرة العذراء ، وقد سألتها عفواً وغفراناً . وتشيح بوجهها عن عاشقها الذى أصبحت تراه ألعوبة فى يد الشيطان ، كل ما فيه خداع ورياء وزيف . وفى اللحظة التى أراد فيها فاوست أن يجذب مرجريت لإنقاذها مما هى فيه تدق النواقيس إيذاناً بموتها ، فتسأل مرجريت عدل السماء ... ويمضى فاوست وميفيستو فيليس .

• • •

« نفسان ، يا أسفا تتقاسمان صدرى وتود كل منها الانفصال عن الأخرى : إحداها مشتعلة بالحب ، تلتصق بأديم الأرض بواسطة أعضاء الجسد ، بينما تجتذب الأخرى حركة وراء طبيعية بعيداً عن الظلام ، نحو الأفلاك العليا للآلهة ! آه لو كانت فى الهواء أرواح « تحوم بين الأرض والسماء ! تعالى إلى ! تعالى إلى من سحبك الذهبية ، وقودينى إلى حياة جديدة دائمة التغير . أجل ! لو كانت لى عباءة سحرية تحملنى إلى أقطار بعيدة غريبة ، إذاً لفضلتها على أجود الألبسة وأغلاها ، وإن كانت العباءة البنفسجية للملك[1] » .

ومتى كان الإنسان خلواً من عاطفتى الخير والشر معاً ، يتصارعان ويتعاركان ويتشابكان ويلق كل من الآخر ما يلقاه العدو من العدو والخصيم من الخصيم ! ومتى استراح الإنسان من العناء الذى يفرضه موقفه من هذا الوسيط بين جاذب عن يمين يدفعه إلى الخير حيناً ، وجاذب عن يسار يدفعه إلى الشر أحياناً ! ومتى وجد الإنسان المتعة التى قد يستتبعها انهزام إحدى العاطفتين التام أمام العاطفة الأخرى ، وتفوقها عليها تفوقاً أبدياً ، وإخضاعها لها إخضاعاً دائماً سرمدياً .

وفاوست كأى إنسان آخر لعبة بين هذين الجاذبين ؛ فقد كان قبل أن يزين له الشيطان سبله مثالاً للخير يقتدى به ، فأصبح بعد مصاحبته له مثالاً للشر ينفر منه .

من إذاً بطل هذه المأساة : أهو فاوست أم ميفيستو فيليس ؟! تقول مدام دى ستايل : « إن الشيطان هو بطل هذه القصة ؛ وإن الكاتب لم يتمثله قط شبحاً قبيحاً كما اعتادوا تصويره للأطفال . لقد جعل منه ... أشهر شرير ... ولقد أراد جوته من هذه الشخصية ... إظهار المزاح المر الذى يتمكن الازدراء من إضافته ... ففى أحاديث ميفيستو فيليس سخرية جهنمية تحمل على الخليقة كلها ، وترى الكون كتاباً قبيحاً جعل الشيطان من نفسه له ناقداً ومؤدباً » .

(البحث بقية) إدوار منسى

(١) فاوست ، الجزء الأول . المنظر : أمام باب المدينة .

النقـــد الأدبي

ووجوب تسـديد خطاه

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

إن كان النقد الأدبي في البلاد المتحضرة يسدي للأدباء من كتاب وقراء جميل التبصير والتوجيه والإرشاد، ويعين بذلك على سرعة ازدهار الإنتاج الأدبي، فإن حاجتنا نحن إليه أشد في هذه الأيام التي اندفع فيها إلى الكتابة كل من ظن في نفسه القدرة على الإمساك بالقلم، وأرهق هو وأمثاله الذين لم تنضج ملكاتهم المطابع، وكدسوا المكتبات بكميات من المؤلفات الجديدة التي لا نقول عنها إنها كثيرة العدد في ذاتها، ولكنها كثيرة بالقياس إلى عدد قرائها الذين يحاولون تثقيف عقولهم بالقراءة دون أن يتاح لهم فهم أدبي أو ذوق فني يكفل لتمييز غثها من سمينها. وهكذا كاد يطغى العرض على الجوهر، ويضله في زحمة سوقنا الأدبية.

ولن نفيض في التحدث عن حاجة كتابنا وقرائنا إلى نقد يتعاون معهم على تسديد خطا نهضتنا الأدبية، فإن الإشارة تكفي ما دام الأمر أوضح من أن يحتاج إلى بيان. وسنقصر محاولتنا على شرح ما نحسبه أساساً يصلح لتشييد النقد المجدي عليه.

أنواع النقد الأدبي:

حيثما يظهر الأدب يظهر معه النقد، فالنقد قديم كالأدب، ومرتبط به كظله. إذ من الطبيعي أن يكون هناك قادحون ومادحون لكل عمل ذي بال، وأن يحاول بعض هؤلاء تقويمه وتوجيهه. ومن الطبيعي أيضاً أن يجاري النقد الأدبي الآداب التي نشأ في ظلها، وأن يتطور معها متأثراً بها ومؤثراً فيها. والنقد لم يزدهر في الأدب العربي، لأن مناهج ذلك الأدب لم يتسع لها مجال التنوع الذي يتيح للنقد أن يخرج من عقاله، ويتفرع إلى مذاهب. على أن النقد في أوربا شأناً آخر، فقد أسفر اهتمام قدماء اليونان بالتمثيليات والشعر القصصي والنحت والتصوير عن عناية أرسطو بوضع أصول الفنون، فأضاء النقد بذلك طريق التقدم، وصانه من التخبط والفوضى رغم ما كبله به من قيود، وما وضع له من حدود.

وقد انكمش النقد الأدبي في أوربا طوال انكماش الآداب، حتى إذا لاحت بشائر عصر النهضة، وجدناه ينهض في أعقاب الآداب والفنون والعلوم، ويجاريها في تطورها، ويعينها على الخلاص من القواعد الضيقة التي رسفت في أغلالها حقبة طويلة من الزمن.

وقد انقسم الرأي في النقد الأدبي إبان العصر الحديث إلى مذهبين أساسيين، يرى أنصار أولهما أن الحكم على الأعمال الأدبية يعتمد على الذوق أو الحاسة الفنية، فمن خطل الرأي في مثل هذه الحال مطالبة الناقد بالاعتماد في تقويمه لتلك الأعمال على قواعد ثابتة جامدة دون الاعتماد على ذوقه الفني. ومن الواضح أن اتجاه هذا المذهب اتجاه ذاتي، فهو يحاول أن يجعل محك العمل الأدبي ذوق الناقد الشخصي زعماً بأن خبرة الناقد وتجربته كفيلتان بعصمته من الخطأ، وتنزهه عن الغاية. أما أنصار المذهب الثاني، وهو المذهب الموضوعي، فيرفضون فكرة تخويل الناقد كامل الحرية في تقرير أحكامه، ويرون تقييده بقواعد تستمد من عيون الأعمال الأدبية السابقة المشهود لها. وحجتهم في ذلك أن الاعتماد على أذواق عباقرة الأدباء مجتمعين أسلم من الاعتماد على فرد واحد أياً كانت كفايته الأدبية. ومن الواضح أن الأخذ بهذا المذهب يقيد الآداب بماضيها، ويحول دون سرعة تطورها.

النقد الذاتي:

ظهر هذا المذهب بظهور الأدب الرومانسي، واستشرى باستشرائه. والأدب الرومانسي هو أدب الفردية، وقد

آذن بالطلوع والتألق عقب الثورة الفرنسية ، وازدهار الصناعة الآلية . ويرجع ذلك كما قلنا فى مقال سابق إلى توفر ظروف اقتصادية ساعدت على ظهور الطبقة المتوسطة ، وبثت فى نفوس أفرادها شدة الاعتداد بالنفس والشعور بالذات . ونشأ عباقرة الأدب حينذاك من بين هذه الطبقة ، لدى كل منهم بذاته ، ووقف قلمه على التعبير عن مشاعرها ومطامحها . وفاز أدبه بالرواج ، وصيته بالذيوع ، لأن كتابته كانت تصادف هوى فى نفوس أفراد طبقته . واندثر الأدب الكلاسيكي بعد أن زال سلطان حماته الأشراف . ولم يعن الأدب بمشاكل سواد الناس لأن العناية بها لم تكن تتيح الشهرة والرواج . وكان من الطبيعى أن يجارى النقد ذلك الأدب ، وأن يقصر كل اهتمامه على شخص الكاتب الأديب ، وأن يحاول فهمه قبل أن يحاول فهم أعماله الأدبية ، وأن يستمد تقويمه لتلك الأعمال من ظروف مؤلفها وميوله وتأثره بأصدقائه وأعدائه وغير ذلك من ملابسات حياته الخاصة . وقد خرج النقد بذلك من الحكم الموضوعى على العمل الأدبى إلى محاولة تفسير غامضه ، وإبراز مواطن جماله وتزيينه على القراء . وكان من أساطين هذا المذهب « تين » و « سانت بيف » و « أرنولد » و « لوبل » . وعلى الرغم من أن أول هؤلاء قال بوقوع الأديب الكبير تحت تأثير بيئته وجنسه وعصره ، فقد قال أنه يؤثر فى بيئته كما يتأثر بها ، وأن قيمة أعماله الأدبية تقاس بمقدار ذلك التأثير ، فاته ذلك واقتصر على محاولة تتبع أثر البيئة والعصر فى أعمال الأديب ، والاستعانة بهما على تفسير اتجاهاته وإبراز ظلالها . أما سانت بيف فقد ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه تين ، وتطرف حتى أنكر تأثير البيئة والعصر فى الأديب ، ومن فهم حياته نستطيع أن نفهم أدبه ونقدره تقديراً صحيحاً . والأخذ بهذا الرأى يربط الإنتاج الأدبى بشخص مؤلفه ، فلا يجعل لذلك الإنتاج قيمة موضوعية ، ولكن يجعل قيمته مستمدة من ظروف حياة مؤلفه الخاصة . وقد جرى سائر النقاد الذاتيين على العناية بتحليل شخصية المؤلف قبل العناية بتحليل مؤلفاته ، والاحتفال بمواهبه الخارقة دون الاحتفال بأثر تلك المؤلفات فى تطور مجتمعه .

النقد الموضوعى :

كان النقد قبل ظهور الاتجاه الذاتى موضوعياً ، وقد جنح إلى تقدير العمل الأدبى على أساس انطباقه على أصول الأدب المتعارف عليها . ومن البديهى القول بأن ذلك النقد وقف حجر عثرة فى سبيل تجدد الأساليب الأدبية . وظل كذلك حتى استطاعت نهضة الأدب أن تزحزحه من طريقها . وتحرر شيئاً فشيئاً من ربقته ، ثم طغى الأدب الرومانسى بجرفه فى تياره . وما ارتفع المستوى الثقافى للشعوب فى أوربا ، وأصبحت الأغلبية قادرة على فهم الإنتاج الأدبى وهضمه ، حتى اتجه الأدب إلى سواد الناس ، فتحولت الرومانسية إلى الواقعية ، وهجر حملة الأقلام الخيال والقضايا المثالية ، واتجهوا إلى الواقع ، وشاركوا الشعوب فيما تعانيه من متاعب ، وما تتوق إليه من آمال . وقد تجدد النقد الموضوعى على أثر ذلك وظهر فى صور جديدة . فلم يتقيد بالقوالب الفنية القديمة ، ولم يتخذ من الإنتاج الأدبى العتيق ميزاناً يقيس به الإنتاج الجديد .

ولكنه أخذ يتحرى مضمون العمل الأدبى دون قالبه ، ويبنى حكمه على قيمة ذلك المضمون دون ما نظر إلى ظروف حياة المؤلف وملابساتها . ولكن انحرف مع ذلك فلم يصب هدفه ؛ ذلك لأن الأهواء أخذت تتنازعه ، وانقسم النقاد إلى فرق يحاول كل فريق منها أن يوجه الأدب إلى النهج الذى يؤثره . فالذى تغلب عليه الصوفية ، أو النزعة الدينية يحصر همه فى تمجيد الأدب الذى يطرق المواضيع التى ترضى تلك النزعة ، ويسفه ما عداه . والذى استهواه علم النفس لا يقدر إلا الأدب الذى يعنى بتحليل نزعات الأفراد المختلفة . وقال فريق بأن الأدب يصبح لغواً لا طائل تحته إذا لم يعالج المشاكل الاجتماعية ، ويشير فى تناوله لأية مشكلة منها إلى الحل الموفق . وقال آخر بأن الأدب الذى لا يستعين بالرمزية فى أداء معانيه يسف إلى العامية المبتذلة . ورأينا نقاداً لا يقدرون إلا الأدب الذى يجعل من الصالحية محوراً تدور عليه أحداث الحياة . ورأينا آخرين يقولون بأن الغرائز البهيمية هى محور الحياة دون غيرها . وهكذا امتد

النزاع بين النقاد لم يعد محصوراً بين الرومانسية والموضوعية كما كان في مستهل عصر النهضة .

ولم تتعدد مدارس النقد الأدبي على هذا النحو إلا بتفاعلها مع تعدد المذاهب الأدبية . ومن العسف أن يتحيز النقد الأدبي لنهج في الأدب دون نهج ، إذ عليه أن يقدر كل عمل أدبي في ذاته دون ما تحزب منهجي . ولكن تركه كذلك خاضعاً لمحض ذوق النقاد ومزاجهم يعرضه للضلال في معترك تنازع الأهواء . ولذلك يستهدف هذا المقال أن يضع لذلك النقد قاعدة قد تعصمه من الزلل .

ميزان النقد السليم :

من الآراء التي يسلم بها الناس عامة أن الذوق الفني منقطع الصلة بعقلية الإنسان ، فقد يبلغ عالم من العلماء مستوى رفيعاً من علمه . ولكنه يعجز مع ذلك عن تقدير العمل الفني تقديراً سليماً . ولكن هذا الرأي الذي قد ينطبق على الحالات الفردية لا ينطبق على ذوق المجتمعات . فمن المحقق أن التقدم الحضاري ينهض بمستوى الذوق الفني نهوضه بسائر ألوان المعرفة ، إذ هناك علاقة وثيقة بين رقي المجتمع الفكري وبين رقي ذوقه العام ، ولكل شعب ذوق يناسب درجة رقيه ، وقد أشرنا في مقال سابق إلى الظروف التي تساعد على التطور الفكري ، وقلنا إن كل تطور من هذا القبيل تنشأ معه ألوان جديدة من المعتقدات والمثل الخلقية والآداب والفنون وغيرها من أوجه النشاط الفكري والعاطفي ، وكل ناحية من نواحي مثل هذا النشاط تتأثر بالأخرى وتؤثر فيها ، وما دامت الآداب ترقى على مراحل مع مرور الزمن ، فيصح اتخاذ هذه المراحل موازين يقاس بها الأدب المعاصر . ولزيادة هذا الرأي وضوحاً نقول إن الأدب يجاهد كغيره من نواحي النشاط الإنساني في سبيل التقدم ، وإنه لا يستطيع أن يسلم برغم جهاده من بعض شوائب الماضي ، ومن بعض التيارات الرجعية ؛ ومهمة الناقد أن يبين لنا ماهية الأدب الذي يقدمه ، وهل هو من النوع العتيق البالي أم هو ملائم لعصره ؟ وهل هو مناصر للرجعية أم معين على سرعة التقدم الحضاري ؟ وهل هو بصير بالاتجاه الجديد الذي لم يتضح بعد ومعبر عنه ، أم هو واقف عند معتقدات عصره المؤذنة بالزوال ؟... ومن الواضح أن الناقد يفشل في أداء مهمته على هذا النحو إذا هو لم يتخذ من مراحل تطور الأدب ، ومن حسنات كل مرحلة وسيئاتها ، ميزاناً يزن به أحكامه . وهو يكون أقدر على الحكم الصحيح بمقدار تمكنه من مثل هذه الدراسة ، فهي التي تعصمه من الانخداع في جمال أسلوب المؤلف أو طرافة معانيه أو حسن عرضه أو غير ذلك من ألوان التمويه التي تخدع القراء ، وتخفي عنهم جوهر العمل الأدبي .

مراحل تطور الذوق :

لسنا نزعم أننا نستطيع أن نضع قاعدة محكمة لمجرى تطور الذوق لدى الشعوب الصاعدة في مدارج الحضارة ، ولكننا نستطيع أن نشير إلى المعالم الأساسية لمراحل تطوره . فالهمج يستسيغون الألوان البراقة ، والأصوات الرتيبة الطنانة ، ولا يحرك مشاعرهم إلا التجسيم والتضخيم والتهويل .

ولكن ذوق الهمج يتحور بمقدار ما يصيبون من أسباب الحضارة . ثم تأخذ البساطة الفنية في التغلب شيئاً فشيئاً على ألوان فنهم العتيقة . فإذا تحضروا وبلغوا من الحضارة مستوى رفيعاً ، بلغت فنونهم غايتها من البساطة والإتقان الفني والتخلص من الزوائد الفنية ؛ والأدب الذي يروج بين الشعوب البدائية هو الذي يختار الأساطير والخرافات الوثنية موضوعاً له ، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الأدب الذي يصور الصراع بين الناس والآلهة ، أو بينهم وبين الأقدار . فإذا استنار العقل عدل الأدب عن هذا إلى نقد المجتمع باختيار نماذج من أفراده ذوي العيوب الاجتماعية ، وإذا أدت استنارة العقل البشري إلى رقي الصناعة ، وازدهار الحضارة ، وظهرت طبقة الصناعيين ، قويت النزعة الفردية في المجتمع وظهر الأدب الذاتي . وإذا ارتفع المستوى الثقافي لدى عامة الناس تحول الأدب من القلة إليهم ، واتخذ من تيارات حياتهم الفكرية ، ومن آلامهم وآمالهم ونزوعهم إلى تحسين عالمهم موضوعاً له .

أما الأسلوب في الأدب والفن فهو يكافح كذلك في سبيل التحرر من قيوده ، وتحطيم ما لا يجدي من قوالبه ، والتخلص من زوائده ، والوصول إلى الجمع بين البساطة

وبدأ الأستاذ ميريل بتقديم عام لمسرح الحكيم عرض فيه لأهم الخصائص التي يمتاز بها فن الحكيم المسرحي.

وأولى هذه الخصائص هو أن مسرح الحكيم مسرح أفكار قبل كل شيء. فكل شخصية فيه تصور فكرة متميزة. وكل شخصية تصور جانباً من جوانب النفس الإنسانية. وهذه الشخصيات المختلفة، في صراعها المستمر، ترمز إلى ما يدور في أعماق الإنسان وما يضطرب في صميم كيانه المقلق. وهذا النوع المسرحي منتشر في أوربا اليوم انتشاراً كبيراً، والكثير من المسرحيات الجديدة في فرنسا وانجلترا تحاول قبل كل شيء أن تعرض شخصيات رمزية تحتوي على أفكار فلسفية وإنسانية عميقة.

وتوفيق الحكيم يستقي عناصر مسرحياته من مصادر عديدة. فهو يأخذها من القرآن ومن الإنجيل ومن الأساطير الغربية والعربية على السواء. ولكنه استطاع أن يخلق من مثل هذا الشتيت المتنافر من المصادر فناً جديداً له طابعه الخاص وشخصيات متميزة مستقلة.

ومسرح الحكيم يمتاز إلى جانب ذلك بأن فيه الكثير من عناصر فلسفة القوة، تلك الفلسفة التي يمثلها نيتشه، كما تمثلها شخصية بروميثيوس في أساطير القدماء: فأبطال الحكيم في صراع دائم مع الأقدار التي تفرض إرادتها على البشر! وهم لا يقبلون حالتهم التي وجدوا عليها، بل يحاولون أن يرتفعوا إلى ما هو أسمى وما هو أمثل! إنهم يحاولون أن يخلقوا لأنفسهم عالماً يسعدون فيه، ولكنهم مع ذلك في عذاب متجدد وشقاء يجدونه في كل وقت ومكان.

وهؤلاء الأبطال يعبرون عن تشاؤم من نوع خاص: إنه تشاؤم إنساني يختلط به عنصر التفاؤل الرفيع. فبجماليون وأوديب وغيرهما يبحثون عن السعادة فلا يجدونها مهما سعوا، وهم يدورون في حلقة من الشقاء لا نهاية لها. ولكنهم مع ذلك لا يفقدون عنصر السمو ولا يهبطون إلى الدرك الأسفل، بل هم يؤمنون دائماً بمثلهم الأعلى الذي يصبون إليه. ففلسفة هذا المسرح إذاً تتلخص في أن حالة الإنسان على الأرض حالة شقاء، ولكنها مع ذلك تحتفظ في صميمها بعنصر السمو الإنساني الرفيع، ويجب أن لا نيأس منها أبداً وإن كتب علينا العذاب المستمر...

وعقب هذه المقدمة المختصرة لمسرح توفيق الحكيم قام الأستاذ سولون بالاشتراك مع بعض الممثلين الهواة من فرقة الأتيليه بعرض مسرحية بيجماليون. وهي من بين مجموعة مسرحيات توفيق الحكيم التي ترجمها إلى اللغة الفرنسية الأساتذة: أحمد خضري ونسيم قسطندي وسامي جبرة.

ومثلوا لنا الفصل الأول منها، ثم بعض المناظر المختارة من الفصل الثالث، ثم الفصل الأخير.

أزمة في مسارح لندن:

أقامت الحكومة الإنجليزية مباراة بين مؤلفي المسرح لاختيار تمثيلية واحدة تعرض في بعض المهرجانات الأدبية. فهل تدري كم كان عدد الأدباء الذين تقدموا بمؤلفاتهم لهذه المباراة؟.. لقد بلغ عددهم ٧٠٠ بالتمام والكمال!.. وهذا يعني أن ٦٩٩ من المؤلفين سوف يضطرون إلى البحث عن مجالات أخرى لعرض مسرحياتهم. لذلك ينتظر أن يكون التنافس شديداً من جانب هؤلاء المؤلفين على مسارح لندن التي يبلغ عددها ٣٥ مسرحاً، وعلى مسارح الضواحي الصغيرة التي تستطيع أن تخاطر بعرض تمثيليات جديدة لا يعرف على التحديد ما سوف تلاقيه من إقبال... هذا وفي مصر نسمع في كل يوم استغاثة من المشرفين على الفرق التمثيلية يشكون من عدم اهتمام الأدباء بالمسرح وعدم إقبالهم على التأليف له.

... وأزمة في الشعر أيضاً:

نشاهد في مصر أن القراء في العصر الحاضر قل إقبالهم على الشعر. وليست هذه ظاهرة خاصة ببلادنا، ففي انجلترا نجد سوق الشعر كاسدة. وسواء كان السبب في كسادها قلة الشعر الجيد أو عدم تذوق الناس الشعر، فقد أعلن الناشرون الإنجليز أنهم على غير استعداد لطبع دواوين جديدة إلا بقدر. ويقول الأستاذ «ستيفن سبندر» إن في انجلترا كلها ٢٠٠٠ فقط من القراء لديهم قابلية لشراء دواوين الشعر الجديدة! ثم هو يقترح أن يُنشأ لقراء الشعر خاصة نادٍ يجمع شملهم ويكون غرضه الأول تشجيع الشعراء بتسهيل شراء دواوينهم والدعاية لشعرهم.

محمد عبد الحليم محمود

كيف تنهض الأمم من كبوتها

للأستاذ كامل السوافيري

هـذا هو عنوان المحاضرة التي ألقاها الأستاذ ساطع الحصري بك بدار جمعية الوحدة العربية .

وقد استهل المحاضر حديثه بلفت أنظار السامعين إلى اكتفائه بسرد الحقائق التاريخية ، تاركا لهم مهمة التعليق عليها ، واندفع يقول : عندما نستعرض تاريخ الأمم نجد أنها كثيراً ما منيت بكوارث فادحة نتج عنها أحد أمرين : إما انهيار الأمة بعد الكارثة وتحطيم مجدها بحيث لا تنهض ، وإما بعثها بعثاً جديداً لاتخاذها من الكارثة عبرة تتعظ بها وتنهض بعدها ، وندع الأمم التي هدتها النكبات لنتحدث عن الأمم التي حفزتها المصائب للنهوض ودفعتها للإصلاح ، وأوضح مثال لذلك كارثة بروسيا عندما حاربها نابليون ، وكانت ألمانيا يومئذ مجزأة إلى ولايات متعددة أقواها بروسيا التي هاجمها نابليون فانهزمت أمام قواته شر هزيمة ، وأذعنت صاغرة إلى قبول كل الشروط التي أملاها عليها وكانت قاسية جداً ، ولكنه لم يمض عليها سبعة أعوام حتى استطاعت أن تجهز جيشاً لجباً يحارب نابليون ويهزمه ، وأن تسترد مجدها وتستعيد مكانتها في العالم ؛ فكيف تمكنت من ذلك ؟.

عرفت أنه لابد لها من القوة ، ولكن ما السبيل للقوة وحالتها الاقتصادية سيئة ، والمستعمر يتربص بها ويحول بينها وبين ما تريد . فنظمت التدريب العسكري في بلادها بحيث يأتي بنتائج عسكرية سريعة ، وطبقت هذا النظام على جميع أفراد الشعب تطبيقاً تاماً ، ووجهت عنايتها للرياضة البدنية وعممتها بين طبقات الشعب ، وكانت ترمي من وراء ذلك إلى تحسين الصحة بين أفراد الشعب ليكونوا على استعداد للتربية العسكرية لا ليتغلبوا على خصومهم في المباريات . ثم اتجهت إلى الناحية الاجتماعية فنهضت بها نهضة تناولت الفوارق بين طبقات الشعب وجعلت منه طبقة واحدة ، وانصرف المفكرون والعلماء والأدباء والكتاب والفلاسفة جميعاً إلى الدعوة للإصلاح وجمع الكلمة وبث روح القوة والكفاح في نفوس الأمة حتى قال بعض الفلاسفة : إن ألمانيا لم تسمع شعراً حماسياً يتردد في أرجائها فيلهب القلوب ويشعل النفوس كالذي سمعته في هذه الفترة القاسية من محنتها ، ولذلك كانت كارثة بروسيا عاملاً كبيراً في نهضتها في النواحي الفكرية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية ؛ إذ عبأت الأمة قواها ، وتضافرت جهود أبنائها على استعادة حريتها واستقلالها .

ونكبت فرنسا سنة ١٨٧٠ نكبة كبيرة حين أعلنت الحرب على بروسيا ، بعد أن حققت ألمانيا وحدتها ، وظنت فرنسا أن من السهل عليها الاستيلاء على برلين ، ولكن الرياح جرت بما لا يشتهي الفرنسيون الذين لم يكتفوا بالهزيمة أمام الجيوش الألمانية ، بل استولى البروسيون على القسم الشمالي من فرنسا واحتلوه ، وضموا إليهم منطقتي الألزاس واللورين ، وفرضوا على فرنسا مقداراً كبيراً من الأموال ، أو بتعبير أدق غرامة مالية فادحة ، وقد هزت الكارثة الأمة الفرنسية هزاً عنيفاً ؛ فأخذت تعيد النظر في سياستها ، وتدرس أسباب الهزيمة ، وتعالج نقط ضعفها على ضوء ما أسفرت عنه تجارب الكارثة ، ورأت أولاً أن تمحو الاحتلال من بلادها فدفعت الغرامة المالية ، وجلا الألمان عن القسم الشمالي الذي احتلوه ، ثم ظلت تعمل على استرداد الألزاس واللورين حتى تمكنت من ذلك في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ بفضل اتحاد أبنائها وتفهم أسباب ضعفها والاستفادة من الكارثة .

وواصل المحاضر حديثه قائلاً : ومالي أضرب لكم الأمثال بأمم أوربا وأترك أمم الشرق التي أصيبت بالمحن ، فاستيقظت بعدها وبنت مجدها من جديد ، فهذه تركيا أصيبت بكارثة في حربها مع البلقان أفقدتها كل بلادها في أوربا ، وطوحت بعدد كبير من أبنائها ، ولم تمض أعوام حتى كان الأتراك قد استردوا مدنهم ، وعزا المحاضر ذلك إلى أن تركيا قد أدركت أسرار السياسة الأوربية ووقفت على ألاعيب الدول العظمى الاستعمارية التي تنقض اليوم ما أبرمته بالأمس ، وتتحلل من عهودها ووعودها إذا كانت مصلحتها

الاستعمارية تتطلب ذلك ، ولقد كان فهم الأتراك للعقلية الأوربية من أكبر الأسباب التي هيأت لهم النجاح ورفعت من شأنهم في الميادين الدولية ، لأنهم بعد ذلك نهجوا سياسة جديدة تعتمد على القوة وحدها ، وهي اللغة التي لا تفهم أوربا لغة غيرها .

وفي حرب الاستقلال أو الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ هزم الأتراك ، واحتل الحلفاء قسماً من تركيا ، وفرضوا عليها معاهدة سيفر التي تقضي بانتزاع بعض البلاد التركية من الوطن التركي ، ولكن الأتراك قبلوا انفصال الأجزاء غير التركية من بلادهم ، أما الأجزاء التي أصلها تركي فلم يقبلوا أبداً انفصالها من تركيا بأي حال ، ولذلك قامت حركة مصطفى كمال ، وقاوم الكماليون جنود الحلفاء دون موافقة الخليفة ورفضوا معاهدة سيفر ، وأصبحوا أمام عدوين : الخليفة والحلفاء الذين طلبوا من الخليفة تجهيز جيش لمحاربة أتاتورك ، وقد حشد الكماليون جهودهم وعبأوا قواهم في هذه الحركة الاستقلالية المجيدة ، وكانت النتيجة انتصاراً باهراً لهم وهزيمة للأعداء ؛ إذ أخرجوا اليونان أولاً ثم الحلفاء بعد ذلك ، ولم يتردد الأتراك يومئذ في الاتفاق مع الروس للوصول إلى أهدافهم ، وهكذا كانت نكبة تركيا في حرب البلقان هي الدرس الذي جعلها تنهض نهضتها الأخيرة .

ثم ذكر المتحدث نبذة قصيرة عن اليابان ختم بها محاضرته فقال : إن اليابان كانت حتى سنة ١٨٦٨ في عزلة عن العالم فأرغمها الأوربيون على أن تفتح أبوابها للتجارة وأخذت تقتبس النظم الأوربية من الناحية العلمية ، وهي أول دولة أسيوية استطاعت أن تتغلب على الأوربيين إذ أعدت جيشها وسارت في ركب الحضارة الأوربية وسايرت النهضة الصناعية في أوربا ، وبعد هذه الحركات الإصلاحية جربت قوتها أولاً مع الصين وحاربتها فانتصرت عليها ثم انسحبت منها ، ولكن لم يمض عامان على انسحابها حتى أخذت أوربا تحتل مدناً من الصين وقد أثر هذا أسوأ التأثير على اليابان وقامت الحرب بينها وبين الروس وانتهت بانتصار اليابان ، وأدى انتصارها إلى تغيير العقلية الرجعية ، التي كانت تعتقد أنه لا يمكن أن تتغلب دولة أسيوية على دولة أوربية ، وبذلك انتهت المحاضرة .

ونحن بدورنا نؤثر أن نقدم المحاضرة للقراء دون تعليق عليها أسوة بالمحاضر ، ولكنا نأمل أن تتخذ الأمة العربية ذات التاريخ المجيد من كارثة فلسطين ، عبرة تحفزها لنهضة إصلاحية شاملة في النواحي العلمية والاجتماعية والعسكرية ونرجو أن تحقق الأيام آمالنا .

كامل السرائيرى

ترجمة ابن عساكر في معجم الأدباء

للأستاذ صلاح الدين المنجد

في العام الحالي ، أقر المجمع العلمي العربي بدمشق نشر تاريخ دمشق الكبير للحافظ ابن عساكر . وهو عمل جليل ضخم ، ولعله من أجلّ ما صدر عن مجمع دمشق من أعمال . لأن هذا التاريخ فخر مدينة دمشق . وما أحسب أن مدينة أُلّف فيها مثل هذا التاريخ سعةً وجلالة . وهو من نوادر التراث العربي . وضعه الحافظ في ثمانمائة جزء ، وجعل كل عشرة أجزاء مجلدة فكان تاريخه ثمانين مجلدة . كل مجلدة في مائتي ورقة .

وقد عهد إليّ مجمع دمشق ، بادئ بدء ، تحقيق المجلد الثالث والمجلد الرابع من هذا التاريخ ، ثم ضم إليهما الأول والثاني . فبدأت بالمجلد الأول وعكفت على تحقيقه وتصحيحه ومقارنته بنسخ شتى أتى بها المجمع من القاهرة وأكسفورد وكمبردج وباريس . حتى فرغت منه ، فدفعه المجمع منذ قريب إلى الطبع .

وكان عليّ أن أرجع إلى من ترجم لابن عساكر لأتبين ما قيل فيه . وكان ياقوت أحد من رجعت إليهم . ولكن راعني أن تكون هذه الترجمة البارعة التي ساقها ياقوت للحافظ في معجم الأدباء[1] مثقلة بالأخطاء : من تحريف وتصحيف ، ومن إغفال الخطأ وعدم التنبه إليه ، ومن إغفال معارضة ما ورد في الترجمة بما ورد في تراجم أخرى .

وهاك أنموذجات مما وجدت :

١ — ص ٨٦ :

وصاحبٍ خان ما استودعته وأتى
ما لا يليق بأرباب الديانات
وأظهر السر مختاراً بلا سبب
وذاك والله من أوفى الجنايات

قلت : رواها الصفدى « الجنايات » وكذا وجدتها في مجموع مخطوط في القاهرة .

٢ — ص ٨٧ : من قوله يهجو نيسابور :

لمتُ من شدة البرد الذي ظهرت
آثار شدته في ظاهر البدن

قلت : رواها الصفدى « آيات » .

٣ — ص ٧٨ : « أخبار أبي الدنيا جزء واحد » . الصحيح : أخبار ابن أبي الدنيا .

٤ — ص ٧٨ : « كتاب الجواب المبسوط لمن ذكر حديث الهبوط ... » الصحيح : « ... لمن أنكر حديث » .

ص ٧٨ : « كتاب طرق حديث عبد الله بن عمر » الصحيح : « عبد الله بن عمرو » .

٥ — ص ٧٩ : « كتاب أخبار أبي محمد سعد بن عبد العزيز » الصحيح : « سعيد بن عبد العزيز » .

٦ — ص ٨٠ : « قرية الحُمْشَرِيّين » بضم الحاء وسكون الميم وفتح الراء .... » .

وعلق فقال : لم أعثر على اسم كهذا في القاموس أو المعجم ، والذي فيهما حمران كعثمان .

قلت : ضبط المحقق الكلمة خطأ . وصوابها : « الجِنْبَرِيّين » نسبة إلى « جِنْبِر » وهي قرية كانت في قرب دمشق . نزلت بها من الجن فسميت باسمهم . وقد دثرت هذه القرية ، ولكن موقعها معروف وقد حددناه في كتابنا « دور القرآن بدمشق » وكتابنا « خطط دمشق » .

٧ — ص ٨٠ : « قرية قبيات » الصحيح : « قرية قينية » لأن قينية كانت إلى جانب الجنبريين ، وكانت قرية لليمن أيضاً . وكذا وردت في الوافي المخطوط .

٨ — ص ٨٠ : « ومن حديث أهل رندين » .

---

(١) طبعة الرفاعي . أنظر الجزء الثالث عشر .

الوافى بالوفيـــــات

للصلاح الصفدى

مطبعة وزارة المعارف باستانبول

فى سنة ١٩٣١ صدر الجزء الأول من كتاب الوافى بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، باعتناء المستشرق الألمانى الكبير الأستاذ الدكتور هـ . ريتر . وكان الكتاب السادس من النشريات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية فى استانبول . وقد بذل الأستاذ ريتر جهوداً محمودة فى تصحيح هـذا الجزء الأول ومعارضته ، والتعليق عليه ، فكان التفكير فى طبع هـذا الكتاب أولاً ، ثم إخراج الكتاب من مآثر هذا المستشرق التى تذكر له .

وقد صـدر الآن الجزء الثانى من الوافى ، حققه وعُنى به المستشرق الأستاذ س . ديدرينغ S. Dedering وفيه من تراجم المحمدين ، من محمد بن إبراهيم بن عمر إلى محمد بن الحسين بن محمد . وكان الجزء الأول يشتمل من التراجم من محمد بن محمد إلى محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن .

اعتمد الأستاذ ديدرينغ لنشر هذا الجزء على نسخة مخطوطة وحيدة محفوظة فى خزانة السراى باستانبول ، وهى نسخة جيدة قوبلت على نسخة المؤلف . واعتمد كذلك على كتاب آخر للصفدى اسمه (أعيان العصر وأعوان النصر) فيه تراجم رجال ذكرهم فى (الوافى) أيضاً . وقد وجد من هذا الكتاب نسخة مكتوبة بخط المؤلف نفسه . فعرض تراجم الكتابين بعضها على بعض ، وتبين له أن الاختلاف بينها يسير جداً فى بعض اللفظ » .

وقد حاول الأستاذ المحقق إثبات النص كما وجده لم يستجز التبديل فيه . قال : « وإذا رأيت كتابنا هـذا وطالعته ، وعثرت على بعض ألفاظ تخالف صيغها قواعد النحويين ، فلا تلمنا على إثباتنا إياها على ما هى عليه فى الأصل بغير تغيير ولا تصحيح ، فإننا لم نستجز تغييرها إلا فى مواضع يسيرة .

الصحيح : « قرية زبدين » بالزاى المعجمة بعد باء بنقطة واحدة . قرية معروفة فى غوطة دمشق .

٩ — ص ٨٠ : « ... وجبيرين » الصحيح : « جِسْرِين » بالجيم المكسورة ثم السين وهى قرية معروفة من قرى غوطة دمشق .

١٠ — ص ٨١ : « ومن حديث رومة » بالراء . الصحيح أنها « دومة » بالدال .

١١ — ص ٨١ : « .. أهل جَبخراء » . الصحيح : « حجَيْرا » قرية من الغوطة فى جنوب دمشق .

١٢ — ص ٨١ : « ... وعين توما » . الصحيح : « عين تَرْما » بالتاء والراء .

١٣ — ص ٨١ : « ... أبى غالب ابن البنانى » . الصحيح : « ابن البنّاء » وهو معروف .

١٤ — ص ٨٢ : « ... وخرّج أربعين حديثاً مساواة الإمام أبى عبد الله ... » . الصحيح : « ... مساواة الإمام أبى عبد الله ... » .

١٥ — ص ٨٢ : « ... أبى عبد الله القراوى » . الصحيح : « الفرّاوى » بالفاء .

١٦ — ص ٨٢ : « ... ومصافحةً لأبى سعد السمعانى وأربعين حديثاً فى جزء » . الصحيح : « ومصافحةً لأبى سعد السمعانى أربعين حديثاً ... » .

١٧ — ص ٨٢ : « .. وآخر ما صنعه جزء فى ... » قلت : « وآخر ما صنّفه » .

فهذه أخطاء وجدتها عرَضاً وأنا أقرأ ترجمة الحافظ — وهى فى بضع صفحات — وترجمة الحافظ واحدة من مئات التراجم التى ضمها معجم الأدباء . فكيف يستطيع الباحث أن يطمئن إلى أشباه هـذه الطبعات من كتبنا القديمة الأصول . ومتى يفكر العلماء فى تحقيق هـذا المعجم تحقيقاً جديراً به ، وبما فيه من فوائد وآيات !

(دمشق) صلاح الدين المنجد

لأننا نشك أنها كانت على هذه الصيغ في أصل المؤلف » .

إن إثبات النص كما وُجد أمر واجب مشكور . لكن أمر إثباته على ما فيه من خطأ يحتمل الأخذ والرد . فعندي أن الغاية من تحقيق هذه المخطوطات ، هي نشرها صحيحة لينتفع بها الناس . وإذا كانت الصحة هدفنا ، فكيف نثبت الخطأ . ونحن نعلم أن المؤلف نفسه ما أخطأ يوم ألّف ، وأن النساخ هم الذين حرفوا وصحفوا وأخطأوا — وخاصة عندما يكون المؤلف رجلاً ذا شأن وعلم كالصلاح الصفدي — وكان من الأحسن إثبات الكلام على صحته ، والإشارة إلى ما كان عليه في خطئه .

على أن المحقق لم يهمل التصحيح مطلقاً . بل نبه على الخطأ في محال كثيرة من الكتاب . فالصفدي يذكر مثلاً أن وفاة محمد بن اسحق بن مندة كانت سنة ست وتسعين وثلاث مائة ، فنبه المحقق إلى أن وفاته كانت سنة خمس وتسعين وثلاث مائة .

وقد أشار المحقق إلى أماكن وجود تراجم الصفدي في كتب التراجم الأخرى . ونوّه عما في هذه التراجم من اختلاف . وفسر بعض أقوال الصفدي . مما وجده في كتب ثانية . وأشار إلى تراجم من ترجم لهم الصفدي ، في ذيل بروكلن . وهذا كله عمل متقن مفيد جيد . يجدر بنا تقديم أجمل الشكر إلى هؤلاء المستشرقين الألمان عليه .

ومما مرّ بنا أثناء مطالعتنا هذا الكتاب النادر :

ص ١٦٠ ، س ٣ : « وكان لا يأكل إلا اللحم مصاوقة والحلاوة السكرية » . والصواب « اللحم مصلوقاً » .

ص ١٢٩ ، س ١٨ :

وبغير النصنُ المهفهف ليناً
كلما راح ينثنى فى الغلاله

قلت : أظنها « يعير » .

ص ٢٤٥ ، س ١٠ : « يا برق إن تجز العقيق فطالما »
قلت : « ... إن تجز ، من جاز يجوز » .

ص ٢٥٠ ، س ٣ : « وتوفى سنة ثلث ومائتين » .
قلت : « توفى » ولعلها من خطأ الطبع .

ص ٢٧٠ ، س ٦ : « لا يرى أحسن من قماشه ولا أنضف » قلت : هي « أنظف » ، وهي بالضاد عامية .

ص ٢٨٨ ، س ٣ : « وكان مكانته من المنصور يفزع الناس إليه » . قلت : الصواب « وكان لمكانته من المنصور ، يفزع الناس إليه » .

ص ٢٩٧ س ٩ : « ملأ (التهذيب) بالرواية عنه » قلت الصواب أملى التهذيب ، ولم أجد ملأ بمعنى أملى .

ص ٣٠٤ و ٣٠٥ س ١٩ و ١ : « كتاب الجامع في اللغة .. كتاب كبير يقال إنه ما صنف مثله . وفي وقف الفاضل بالقاهرة نسخة به » . قلت : « نسخة منه »

ص ٣٠٦ س ١١ : « وناكحةٍ بلا منهر حليلاً » قلت الصواب « وناكحة بلا مهر حليلاً » .

ص ٣٥٢ ، س ٩ : « محمد بن الحسن بن على المعروف بابن امرأة الشيخ على الفريقي » . قلت : الصواب « الفرنقي » بالنون لا بالياء . قال الذهبي في المشتبه : « والزاهد الشيخ على الفرنقي بسفح قاسيون وأولاده . قال ابن ناصر الدين في مسودة توضيحه في حرف الفاء : الكمال أبو الحسن علي ... الفرنقي ، بفتح الفاء ، وسكون الراء ، وفتح النون وكسر المثلثة ، ويقال بالتاء بدل المثلثة » .

وكذا وردت في الكتابة المنقوشة فوق باب زاوية الفرنثي بالصالحية . وقد نقل سجل الكتابات العربية ... Repertoire هذه الكتابة (Voix, No. 3911) . وانظر القلائد الجوهرية لابن طولون ، تحقيق دهمان ١ : ١٩٧ ، وكتابنا : خطط دمشق ص ٨١ .

ص ٣٣٧ س ١٤ :

« وبكل أرض جنة من عدله الصا
فى نداه أسال فيها كوثرا »

البيت لابن عُنين يمدح الملك العادل . وقد ورد في ديوانه برواية أحسن :

وبكل أرض جنة من عدله الضا
فى أسال نداه فيها كوثرا »

لأن الضافي بالضاد أحسن من الصافي بالصاد هنا . على أن رواية الوافي لبعض أبيات هذه القصيدة أحسن من الرواية التي أثبتت بها في الديوان ، فليقابل بينهما .

هذه ملاحظات رأيناها . وإن المكتبة العربية لتفخر بطبع هذا الكتاب . ولا شك أن الأستاذ ريتر الذي دفع إلى إخراجه ، والأستاذ ديدرينغ الذي عني بتحقيقه ونشره جديران بكل شكر جميل وثناء .

(دمشق) صلاح الدين المنجد

قصص

أرض العـــافية

للأستاذ حبيب توفيق

لا أدرى إن كانت تلك ذكريات تلاحقنى أو أطيافاً تبرق لى بين الحين والحين، أو حقائق تمثل أمامى مجسمة راعشة بالحياة، لا آثر فيها لخيال وأطياف. إنها كصاحب الدين يتبع فى إلحاح خطى مدينه عساه أن يظفر من فرط لقائه بمبتغاه. ولكن هذه لن تظفر منى إلا بالألم والحسرة وإحياء ذكرى دفين مقبور لا يحيا ولا يعود ...

أخى قد مات ... ودفنته بيدى فى بطن ذلك التل الفسيح الذى دفن فيه كثير من الفراعين أجدادى وأجداده. وها هذا تعاودنى الصور الثائرة فى وضوحها! فأذكره يوم حملته فى ذلك القارب الكالح الصغير، وهو أوهن من أن يحمل جدث شاب فتى مصقول. ويومها انفلت بى وبالوقى الواجم، وبهذا الجدث المسجى فى تابوت مديد كفاته الفارعة، وأخذ يجرى على صفحة النيل وهى تموج بهدهدات باكية حزينة، تتوائم مع ذلك الأسى الفادح الذى يحتشد فيغمر كل ما حولنا ... حتى وصلنا إلى الضفة الثانية. وأحسسنا عندها أننا انتقلنا إلى عالم الموت، وأننا خلفنا وادينا الحى الصاخب.

واستقبلنا بعض العائشين بهذا المكان فرأينا وجوهاً شاحبة ساهمة، أو أن عيوننا رأتهم فى شحوب. ولكن قرأنا على كل جوارحهم أنهم منوطون بأن يقفوا حداً بين الموت والحياة.

ولحق بنا أناس كثيرون، ومشينا أنا وخلانى وخلانه، وحملنا النعش الصامت وبه خلاصة شباب وعصارة غصن مهصور وذبول زهرة. ولم أستطع أن أوقن وقتذاك أنه مات.

كان شبابه المحمول يطغى على الموت المتفشى فى هذا التل الذى اختزن فى جوفه كل تلك الرموس والأجداث.

ولم أصدق إلا بعد أن واريناه التراب. هبطوا به إلى جوف سحيق، ثم سدوا فى وجوهنا الكاسفة الباب الذى حجزه عنا إلى الأبد.

• • •

بدأت من وقتها أعيش لذكراه. وكنت أحبها وأنشقها وأهفو إليها. بل كنت أحرك دفينها لتكون ساوتى على مر الأيام. تهالف إلى وأنا أكتب، وأنا أتلو. بل كنت أرافقها وأنا أسير فكأنما كانت أقدامى تطأ أرضاً تكسوأديمها حفنات من رماده المقدس، فأخفف الوطء.

وألحت علىّ فى إسراف وإرهاق. وأحسست أنها تضنينى وتتلف حياتى. وبدأت ألوانها تعطى للذهن معنى غير معناها الأول. كانت أول الأمر تحمل كثيراً من بهجة اللقاء، وتخفف من حرقة بعاد طويل غير محدود الأمد، حتى أخذت تمد أخيراً ومعها كثير من اليأس، والثورة، والتبرم بالحياة. وأخيراً رحلت إلى العراق وقلت أهرب من الأطياف ومن حشدها وألمها ولحاقها، وأوفر على نفسى هذا العناء الشاق ثم مرارة تلك الفلسفة التى علقت بذهنى وجعلتنى أستهين بالحياة وأسخر من الحرص عليها. وبعد أن بدأت تفعل فىّ فعل الفكرة المسيطرة كى يزهد المرء حتى الحياة نفسها، فإنه لن يفيده أن يظفر بكل مناعمها ونعيمها وملذاتها ما دامت إلى زوال.

• • •

كان يزينه شباب يانع موفور يحسد عليه، وكانت له قوة سابغة، وقوام مرموق، ووجه نضير باسم يلمع بسحر أخاذ، ثم كان له قلب عامر خصب جعل الحياة أمامه لجة مملوءة أملاً ونوراً. وإذا به يسقم السقم الطويل الذى ينخر الصدر، ويذبل الوجنات، ويذهب بالنضرة، ويقضى على

الشباب . فكان صدره يحمل أروع شباب وأعنف غرام ، وأفتك سقم .

وحاولت أن تغيب عنى صورته بعض الوقت ، واندمجت فى الحياة الجديدة . وشغلت حيناً فى التفكير فى حالى وما سأصير إليه . تركت وطنى وبيتى وابنى الوحيد ، ورحت أضرب من جديد فى أرض الله . ورحت أستعرض الأسفار وما تحوى من لذائذ ومشاهد . ورأيت أنى سأحقق حلماً من أحلام كل من قرأ (ألف ليلة وليلة) ، وسأنغمر فى حياة فنية رائقة فى تلك المدينة الحالمة ، عاصمة الرشيد بماضيها وحاضرها ، وما تكدس فى تاريخها العريض من عمران قرون وقرون . وألهانى كل هذا عن صورة أخى الحبيب .. ولكنى لم أنسه تماماً ...

مررت فى سفرتى بتلك الرياض اليانعات والتلال الخضر والجبال وقد جلل قللها شعر أشيب يسيل على وجناتها الناضرة التى تفيض بنضارة الحياة ، فيذكرنى جمالها بجماله ، وفتها بفتنه ، ونضرتها بنضرته . ورأيت كلما مررت بتلك الأكناف شباب الدنيا وفتنة الشرق فذكرتنى بشبابه الفاتن .

ووصلت ... وهيأت نفسى للعمل الجديد ... وإذا بى أشهد أخى ... شهدته بلحمه ودمه ... دخلت حجرة التلاميذ لأول مرة فإذا بى ألقاه جالساً ... وألجم لسانى ، وانقفر فمى ، وفتحت عيونى فى حملقة ملحوظة كأنما ألمّ بى عارض مفاجئ . وبان على وجهى تغير من صادف حادثاً جللاً ليس له جلد على احتماله . وجاهدت لأتمالك نفسى وفكرت أنى لا بد أتغلب وأحد من نفسى تلك الدهشة وهذا الاضطراب فى أول لقاء لى بهؤلاء التلاميذ الجدد . وسرت بينهم حتى قربته ورحت أتمعن فى وجهه ... إنه هو ... أخى الحبيب بشعره المرسل اللامع ، وملامحه القوية الدقيقة ووجهه الطويل وشفاهه المستوية ، وقامته الفرعاء ، ثم شحوبه الذى يناضل وسط غمرة الشباب ويأبى إلا أن يبقى ليزيد الوجه سحراً .. وسألته :

— ما اسمك ؟...

— اسمى حسن عبد الله ...

وقالها فى نغمة آلية هادئة ، هى صورة من نبرات أخى يوم اشتد مرضه وأوشك أن يموت .

ودهش التلاميذ ، كما دهش التلميذ نفسه فانتصب واقفاً وقال فى صراحة :

— هل من غريب فىّ ؟

وهنا زاد اضطرابى وتلعثمت ثم قلت ...

— لا .. إنما ... أنت تشبه أخى تماماً إن لم تكن ... أقصد ألست هو ؟...

وقلتها فى كلمات متكسرة مضطربة ، ولكن لم يبد الهزل أثر فيها . لهذا ساد المكان صمت ولم تجد على الوجوه حتى بسمة واحدة .. قال :

— لا .. لست هو ... وأين أخوك هذا ؟

— بمصر

— تقيد ؟

— لا ... إنه مات ...

— رحمه الله ...

● ● ●

كثيراً ما يفلت من الإنسان جنانه ، فلا يملك القوة التى يسيطر بها على أحاسيسه . ولقد أفلت جنانى فلم أصدق ما قاله ، بل كان من الحبب إلى نفسى أن أعتقد أن هذا هو أخى وأنه هبط إلى الحياة من جديد على نمط من أنماط تناسخ الأرواح ، وأن القدر هو الذى يكيد للإنسان أحياناً ، فيبىء ما لم يجر له بخلد أو خيال . وإن كان المنطق يناضل لهدم ما يجول بخيال المرء فى مثل تلك الأوقات ، إلا أنه يبوء بالفشل ، وتسيطر الخاطرة على الذهن وينقلب الوضع ونعتقد عن يقين أن كل شىء جائز الوقوع معقول . ميت يحيا أو حى لا يموت . ونستمرئ خيالنا تلك الأشياء ، لأنها تشيع فى نفوسنا رغبة نتلهف إليها ، ومن ثم نغذيها فلا تطمس أو تزول .

وانقلب الدرس إلى صور وذكريات كتلك التى دفنتها بمصر ، وصار المكان يعبق بالموت والحياة ، وأخذت أتخيل التل الرابض عند سفح الجبل يضم جدث أخى . وبدأت أستعرض ما كن وما كان مذخوراً فى طيات ذهنى من قديم ، ما كنت أذكره وما كنت قد نسيته . ثم شطح خيالى فذكرنى بادجار آلن بو ، وعالمه الذى كان يعيش فيه ، والذى كان يبعث الوجل إلى نفس قارئه الذى لم يعرفه على

حقيقته ثم يعود الإنسان يؤمن بغرابته فيطمئن إلى كل ما يتمت به شخوصه وما تتصف به . بل تذكرت هذا الرجل الحق الذي خلقه لنا وبلز ، ولكن لم يكن هذا الشاب مثل تلك الشخصية الخفية . إنه أخي بلحمه ودمه ، وليس يحمل ذلك البدن الشفاف الذي تخترق من ورائه كلٌ حبة فيه وكل قطرة دم .

إني لا أرى روحاً ، بل بدناً حياً يحمل كل صفات أخي . ثم انحدرت في هذا العالم الوثني الزاهر ، فصار يحلو لي أن أستطرد فيا كان يبعثه في كياني .

إن تلك الصور لا تؤلم ، بل يحلو لي أن أتبعها . وجدتني أشغف بأن أرنو إليه طويلاً ، وأن أستمد من ملامحه الحبيبة ، بل وجدتني أهفو إلى أن أحتضنه وأن أقبله . وأن أعبر عن بعض شوقي إليه بعد فراق عام طويل قضيته وسط حشد من الصور الباهتة ، ونبع من الآلام السكائح للمض . ودق الجرس ، وتركت مكاني كما جئت إليه بعد أن نظرت إلى صاحبي نظرة طويلة متلهفة ، فيها حنان وحيرة وخيال ، وحقيقة وجنون .

● ● ●

لم أنم ليلتها وفكرت طول ساعات هذا الليل البهيم الطويل ، وكان بعض هذا التفكير عنيفاً صاخباً . تمنيت أن أعرف داره ، فأذهب إليها وأجلس إليه وأتحدث معه طويلاً على أن أهتدي إلى حقيقته وكنه وجوده ، وفكرت في أن أعيش معه وأستمتع بالحياة مع أخي من جديد .

وجاء الصباح ، وتوالت بعدها الأيام وأنا أتقدم في معرفته والتقرب إليه ، وأنس إليّ وأنست إليه ، وعرف أني أحببته لأنه كما أراد الخالق شبيه أخي . ورأى صورته فرأى فيها نفسه ، حتى هذا الذبول الشاحب كان يتضح في الصورة .. وكثرت زيارته لي لأني رجوته أن يفعل ، وكنت أثناء جلستنا أحس منه هدوءاً ، لا يتواءم مع شاب في مثل نضجه ، وشيئاً من القلة لم أرضه له ، وخفت أن يكون خجلاً تحول الجلسة معه إلى ملل مقيت . ثم صحته يسعل أكثر من مرة . وعندها سألته :

— أتشكو من شيء ؟

فأبطأ في الإجابة ثم قال ..

— لا

— قل . أنا مثل أخيك . بل أنت أخي ..

— صدري ..

— ماذا به ؟

— المرض القتال ...

وكنت أسمع . حتى ذلك الذي ساق أخي إلى القبر قد أتى ليسوق هذا الشاب إلى مثواه الأخير . وكنت أجن إذ أرى كل ما سبق ، ثم أعلم أنه مريض بذات الرئة .

ورثيت له في نفسي وإن لم أظهر له ألمي وقلقي ، وأحببت له الحياة وأردته أن يتشبث بها إن كان يوسي أن أعينه على ذلك . وتذكرت حلوان ... تلك الصحراء الطيبة الحنون التي تمنح جفافها وهوائها الطيب به تلك الصدور النخرة فتبعث بها بعض الحياة . ثم تذكرت تلك الشقة الشاحطة التي تفصل ما بين القرابين ووادينا المعلوء بالعافية . واستطرد في التفكير وأردت أن أفعل وأن أنفذ دون تسويف . فهذا سقم يحتاج إلى نضال سريع وعمل جريء . ورآني على حالي تلك ، فسأل ...

— هل مات أخوك بهذا المرض ؟ .

— أخي ! ... لا ...

— ألم يكن مريضاً بذات الرئة ؟ .

— وكيف عرفت ؟ ...

— قرأته في وجهه ...

— إنه وإن كان مريضاً ، فقد مات بغيره .

— إذاً ليس هذا المرض مما يفتك الفتك الأكيد .

— إذا كنت حذراً ، وإذا لم تفعل مثل ما فعل أخي ...

— وماذا فعل ؟ .

— أحب الممرضة وأحبته ...

— وهل قتله هذا الحب ؟ ...

— نعم ... كان له تلك الجاذبية الناطقة التي ترضخ له قلب فتاة ترى شاباً في مثل سنه ، ثم كانت له آمال يستحيل على مثل مرضه أن يقوضها .

أدخلناه المصح فإذا هو يحول شخصاً آخر بعد أسبوعين ، وإذا بالمرض يتخاذل أمام هذا الحشد من سحر حلوان ،

ودبت في خدوده حمرة ، وفي شفاهه مثلها ، وبانت آثار العافية عليه فإذا هو ساحر فاتن ، وعادت إليه قوته فإذا جسمه مفتول مصقول كأحسن ما تشتهي فتاة متعطشة للهوى ...

ورأته ورعته وغمرته بالحدب والعناية إحدى ملائكة هذا المصح واسمها ل ... وكنت أزوره فأراها إلى جانبه تحدثه وتسليه وتسامره في كثير من الحنان والميل والتلهف بحيث إنها كانت لا تفارقه إلا لماما ، وبعث ذلك فيه أملاً جديداً في الحياة أراد أن يقضي به على البقية الباقية من مرضه ، وهيئت له خواطر جديدة وأهداف جديدة وأفكار تنصب كلها على المستقبل وعلى ما سوف يقوم به يوم يترك المصح ، وتلحق به تلك التي بعثت في بدنه الحياة من جديد ، وفاتحها فيما يفكر فيه ، فإذا بها تبادله غراماً بغرام ، وإذا هذا الصدر الذي كنا نحسبه خرباً منخوراً يحوي غراماً له أعمق تاريخ وأجل قدسية ، وتذكرت أيامها بروننج ذلك الشاعر الفحل الذي أحب فتاة مصدورة فقضى هذا الحب على مرضها ، وكانت معجزة لم يقم بها طب أو طبيب ، واستكنهت كل شيء على حقيقته وأدركت الأثر النفسي المختلف عقب تلك العلاقة الغرامية ، ولكن لم يدركها أو يقدرها أحد غيري ، ثار السكثيرون ، وثارت رئيسة الممرضات ، ولم ترض أن تشتري حياة شابة غالية بغرام كهذا مع إحدى من يعملن تحت إمرتها ، فحالت بينه وبينها ، وكانت صدمة اهتز لها وجدان أخي وهو يشعر بحريته وحقه في مصح مأجور كهذا ؛ وتمر الأيام فإذا هو لا يرى الملاك الذي يمده بالعافية كل يوم وكل ساعة .

وسأل فإذا به يعلم أن الممرضة قد نقلت إلى غير الجناح الذي يعيش به ، ولكنه لم ييأس ولم يعرف الوجل ، خاصة وأنه لم يعرف الأسى حينما أيقن أن حياته ستدبر بعد أيام .

كان يذهب إليها وكانت تضطر إلى أن تذهب إليه يتعان في لحظات اللقاء بعض الكلام الحلو المرير ، ولكن بعد أن أحس الكل أن المرض أخذت تزول عنه بعض علائم الصحة المكسوبة .

وإذا الطبيب يدرك أنه يتقهقر بعد تحسن كبير .

ووهن جسمه الوهن الذي يحمل المرض بكل مضاعفاته بثقل ويهلك ، ولكنه رغم ذلك لم يحس وهناً بقلبه ... بقي عامراً بحبها .

وأراد أن يتم مرة بالخروج من المصح ليذهب مع ل ... إلى دار خيالة ، وخرجت هي كعادتها في أيام الراحة ، ولكن الطبيب لم يعطه التصريح الذي طلب لأن صحته لم تكن تساعده على ذلك ، وكان متعباً حقاً ، وكان الطبيب كريماً فأفهمه نتيجة عمله وأنه سيؤخره أياماً في عمر هذا المرض اللعين ، وأخيراً خرج رغم أنف الجميع ، فقفز من سياج المصح العالي وجرى ليقابلها .. وقضى معها ساعات .. عاد بعدها محطماً ، وكان عقابه أن يطلب منه ترك المصح ، وتفاهم معي الطبيب فقدرت موقفه وأخذته وبه صدر بدأ ينخر من جديد ... وقلب عامر بأعنف غرام ...

* * *

ترك أرض العافية ، ترك حلوان الجميلة بحدائقها الغناء ومصحها الباسق الرابض فوق تل شامخ يقربه من الهواء الرخاء ، والنسمات الصافيات ، تركناها ونحن نحس أننا نترك سراً من الأسرار التي تجود بها تلك الأرض المباركة ، يتصل بحيوات هؤلاء المصدورين .

وقضى بعدها عاماً معذباً .... يراسلها وتراسله حتى مات ...

* * *

وبعد أن ذكرت له قصة أخي برقت عيونه وأحسسته وكأنما انتشل من غرق ، قال :

— سأذهب إلى حلوان ما دامت تحوي هذا السر الذي يمنح الحياة لصدور .

— ولكن ل ...

— سوف أتعظ من قصة أخيك ...

— ولكنها ستحبك ... إنك ... إنك أخي تماماً .

— ولكني لن أبادلها الغرام ...

— أتقدر ؟ .

— بإذن الله ...

وجئت إلى مصر ... الوادي المسحور لأهيء له مقاماً بأرض العافية .

حبيب ترفيق

مكبث

للأستاذ سامي أمين

أتيح لنا ، نحن المقبورين في زاوية من زوايا الشرق هنا في « الموصل » ، أن نشاهد الفلم العظيم « مكبث » ، وأن نحيا هائمين في أجواء « شكسبير » محلقين مع أفكاره ساعتين ونصف ساعة من الزمن .

والحق أن كتب في هذه الأيام القريبة الماضية في العدد « ٦٤٣ » من « الثقافة » الغراء الأستاذ « عبد الفتاح البارودي » كلمة طلب فيها من الكتاب والنقاد في الشرق بمناسبة عرض « مكبث » أن يواجهوا بالحقائق ويبدوا آراءهم بصراحة لتقريب هذا الفلم العظيم من أفهام الجمهور الذي كان إقباله على هذا الأثر الجليل فاتراً تافهاً ، وهضمه لمغزاه صعباً عسيراً .

وقد أعجبني هذا القول للأستاذ كل الإعجاب ، يشهد الله ، فهو أصدق كلمة تقال في مثل هذه المناسبة ، وتعبر أحسن تعبير . أقول الحق ورزقي على الله : إن السبب هو الجهل ؛ فمعظم الذين استحسنوا هذا الفلم إنما استحسنوه لأنهم يخشون أن يقال إنهم — مثلاً — لم يفهموا شكسبير ، ومعظم الذين استقبحوه لا يستندون في ذلك إلى سند واحد من الأسانيد الفنية ، وهؤلاء وهؤلاء لا يعلمون كثيراً أو قليلاً من شكسبير ولا عن (التراجيديا) ولا عن الفوارق الدقيقة بين المسرح والسينما ... الخ ...

فرأيت باعتباري شرقياً أن أعرض ما فهمته من هذه الرواية على الجمهور ، وأن أطرح آرائي ما بين أيدي النقاد الأفاضل والكتاب ، نزولاً عند رغبة الأستاذ « البارودي » . ولعلنا أن نفيد من هذا التفاهم وتبادل الفكر فنفيد من ثم رواد السينما من الشرقيين ... فيكون إقبالهم على الأفكار الراقية الممتازة تاماً جيداً ، يدل على ذوق رفيع ونفس متفتحة سامية . ولا تعود تلك الأفلام الناجحة ذات الأهداف البعيدة النبيلة إعراضاً وصدوفاً في الشرق ، مثلما لقيت « مكبث » التي لم تمتد مدة عرضها هنا في « الموصل » أكثر من أيام ثلاثة !.. في حين عرضت أفلام منحطة وضيعة تعتمد على التهريج أسابيع وأسابيع ، لحظيت بإقبال الجمهور وتهافته وتشجيعه .

والآن فلننظر في « مكبث » :

يتميز هذا الفلم العظيم عن بقية الأفلام الغربية بضخامة فكرته وفخامة موضوعه ، فهو لم يتعرض لنفس إنسانية واحدة بأن يأخذها شارحاً محللاً ، أو يقتصر في مشاهده وحوادثه على قضية اجتماعية معينة ، أو يثبت في مكان ذي حد معلوم ، كلا ، وإنما تناول نفوساً عاشت أجيالاً تعاني نزاعاً داخلياً مؤذياً وتكابد صراعاً نفسياً جباراً ، نغص عليها عيشها الساذج البريء وحياتها الهادئة الوادعة ، فكانت في عذاب جوهري متصل دونه عذاب الجحيم .

وكان مبعث هذا العذاب عاملان أساسيان قام عليهما فلم « مكبث » وهما : الخرافة والدين . فإن العاملين الأساسيين اللذين شرحهما وأشار إليهما وأبرزهما « شكسبير » تمثلان في اتجاهات بطل القصة « مكبث » وحركاته وأفعاله ؛ فهو مؤمن بالخرافة ، مستسلم لأحكامها ، مذعن لتوجيهاتها من جهة ، وهو مسيحي تتملكه الفكرة الدينية ، وتستبد بتصرفاته التعاليم المسيحية من جهة أخرى ؛ فالعاملان اللذان هدما حياة « مكبث » ونغصا عيشه هما : الخرافة والدين .

فـ « مكبث » إنسان مقيد الفكر ، ذليل الخطوات ، لا يملك أمر نفسه ، ولا يعرف للحرية طعماً .

وأول ما يطالعنا من مشاهد الفلم : الساحرات الثلاث اللائي يدخلن في روع « مكبث » أنه سيكون ملكاً لأسكتلندا ، وهو أمير جلاميس ليس غير ... وتظل هذه النبوءة قابعة في قرارة نفسه ، حتى يستجيب ويسعى لتحقيقها ، فيلتهما بعد أن يرتكب إثماً فظيعاً لا تجرؤ عليه

زفـــــرة !!

ربِّ ... أيا ربِّ !! .. إلامَ يجور
جسد يفور بقلبه تنُّور !!
منذ استقام لسانه ، ودعاؤه :
(ربِّ !!) .. وأنت بما أكِنُّ خبير!
حاشاى أن أدعو سواك ، وباطلٌ
ربٌّ يشار له ، سواك ، وزور
أخطىء!!نعم! أخطىء.. وأخطىء ا كيفما!
أخطىء ، وأنت،لأجل ذاك ، غفور!!
أتردّنى من أجل أخطائى ؟!... معا
ذ الله !.. إنى ، فيما ترى ، معذور !
ركبت لى (عقلا) ! وعقلى مصدر الـ
آثام فى (التفكير) حين يجور !
فأقدر (الأشياء) جهداً .. ولا
يَبْدُ لى إذا ما خانَنى التقدير ..!
مُحْجبٌ من (الإبهام) تكثف كلما
أوغلت حيث يغوص بى التفكير ..
وأروح أخبط فى ظلام (الشك) كالـ
عشواء طاح برشدها الديجور !
وكمن به مسٌّ من الشيطان فى
ليل من (الأوهام) بات يدور !
لكن إيمانى بـ (ذاتك) ـ رغم أنـ
ف الشك ! ـ لايرقى إليه فتور !

● ● ●

حتى أبالسة الجحيم ، إذ يلوّث يديه بقتل الملك الذى أحبه وأكرمه وأنعم عليه ، ليحتل ملكه ويلبس تاجه من بعده .. وهذا كله تحقيقاً لنبوءة الساحرات ليس إلا !

وهكذا تظل الخرافات توجه خطوات « مكبث » وتستبد بعقله وتملك عليه لبه إلى آخر الفلم .

ومع كل ذلك فإن « مكبث » فى قرارة نفسه يُحسّ إحساساً مبهما بأنه لايجد راحة فى تصرفاته هذه ، وبأن ثمة نداء خفياً يرسم له طريقاً غير التى يسلكها ...

وهنا يشير « شكسبير » بهذا الإحساس الغامض المجهول المنبعث من أغوار النفس الإنسانية إلى « الضمير » الذى لن تطمره الخرافات ولن تطمسه الشرور والآثام مهما تكاثفت وتلبدت وأرهقت النفوس وملأت الرءوس .

فعندما يطالع « مكبث » هذا الشعور الغريب الواعى يراجع نفسه ، ويتصفح ماضيه ، فيرى أنه بالرغم من كسبه العظيم التاج الملكى وتجاحه الباهر الساحق فى كل تدبيراته واغتيالاته ، مشتت النفس ، موزع الخاطر ، مبلبل الحياة ، غير قرير البال ... ثم إنه كمسيحى اجترم وأثم وتورط بقتل الملك وتشريد الناس ، لن ينجو من عقاب النار ! ...

وهكذا تمضى الرواية على هذا النحو من الصراع النفسانى بين هذين العاملين حتى النهاية ، ولست أريد أن ألخص الفلم وأتناول مشاهده واحداً إثر واحد بالتحليل ، فليس فى هذا من جدوى سوى تضييع الوقت ، وملء صفحات المجلة بغير إنصاف .

ومعلوم أن « مكبث » صورة واحدة لما كان عليه الناس قديماً من زمن « شكسبير » تزحم رؤوسهم الخرافات والأوهام ، وتعبث بعقولهم وألبابهم الأباطيل ... فبغير التحرر من كل قيد وعقيدة وسخف مضى زمنه ، لا يمكن للإنسان أن يعيش حراً ، وأن ينتهج فى هذه الحياة ، ويفهمها فهماً صحيحاً يرضاه الله ، وينعم به الإنسان ...

نحن نعرف أن « شكسبير » لم يفهمه الناس إلا من بعد مضى مئات السنين على مؤلفاته ؛ فليس عجيباً إذاً أن يصعب فهم « شكسبير » فى الشرق ، والشرقيون يحيون اليوم حياة معاصرى « شكسبير » ، ويعانون نفس الصراع الذى عاناه أولئك ...

وكل الذى نتمناه هو ألا يُحوجنا الزمن إلى مئات أخرى من السنين لنتحرر من قيودنا وعقائدنا ، فتنطلق آهات الإعجاب والذهول من أفواهنا وشفاهنا عند التحليق فى سماوات « شكسبير » والتمتع بروائعه ! ...

(الموصل) سامى أيوب

يارب ! .. ما معنى (الحياة) ؟!! فإنها
تبدو .. وليس بوجهها تعبير ؟!
(خلط) تموج به الدُّنا .. و (تناقض) ..
و (مفارقات) تلتقي .. و (شرور) !
ثمّ في العباد – وهم سواء – (سادة)
تطغى ، و (قطعان) لها التحقير ؟!
ثمّ ذلك (التفضيل) دون قضية
فيمن سما ، أو في (الحقير) قصور ؟!
بل قد يكون العكس ! .. ؟ فهي قضية
عجب ! .. وما لغموضها تفسير !!

* * *

سبحانك اللهم !! هـذا باطلٌ
حقٌّ ! .. وحقٌّ خلفه مقبور !
و (الظلم) في الدنيا أساس نظامها
والناس فيها : عاجز ، وقدير !
أحياؤها خلقوا ؟ ليشقوا .. أو ليشـ
ـقوها ! .. وآخرة المطاف قبور !!
غفرانك اللهم !! قد أسرفت في
سؤلي ! .. وأنت بما أريد بصير !
هذا (الغموض) يغيظني ! فأغوص في الـ
ـخافي ! عسى يبدو لي المستور .. !
وعار لي حين أبصر (سيداً)
متألهاً تغشى هواه غرور ..
وأمامه يجثو (فقير) معدم !
والذل فوق جبينه مسطور !
حتى ليوشك أن يبوس (حذاءه)
ليعيش ! .. وهو على الكفاف شكور !!
هذا (العظيم) مشاركٌ لك في (التكـ
ـبر) !! فهو النعماء (منك) كفور ! ..
وتذيقه (اللذات) يمرح عبرها .. !
وفراشه إستبرق وحرير !!
و (عبيدك) ، المسكين يسجد خاشعاً
لك في (الثرى) ! ونصيبه (التحقير) !!
وحياته ضنكٌ ! يعاف طعامه
كلب العظيم ! .. وليته ميسور !!

فنهاره عرق يسيل ! .. وليله
أرق .. وويل دائم ! .. وثبور !!
يغدو ، ليخدم (ربّه) ! من ربُّه ؟!
هو ذلك (المتألّه) المغرور !!
مترجلاً يسعى إليه ، وبطنه
خاوٍ ! .. و (كرش) وليه مجرور !!
ويظل يعصر ذهنه .. رباه !! .. كم
قد شيد من (عرق الفقير) قصور !!
رفقاً به يارب !! .. إن حياته
لأخف منها الموت ! .. وهو سعير !!
يشقى ! وليت شقاءه متجدد
فلقد يهوّن خطبه التغيير !!
لكنه بؤس (رتيب) : آلة
صماء ! تلهو بها يدٌ ! فتدور !!
أمسي وأصبح ثم أصبح في المدى
أمسيت فيه كأنني (طنبور) !!
هذا يدار ، فيستفاد بمائه ...
وأنا حياتي كلها تسخير !!

* * *

شيئاً من (الإنصاف) أو شيئاً من (التـ
ـحديد) يارب ! .. وأنت قدير !!
لا أبتغي ملكاً ! .. ولا أرجوه ! ..
حسبي القليل .. وما لديك كثير !
أبغي الحياة كريمة : وسطاً ! فلا
أنا قاهر فيها ، ولا مقهور !
أحيا (كإنسان) يعيش بفكره
حر ، وجوهر عرضه موفور ..
لا كون ذا (طمع) ، وهذا مطلبي
متواضع ، سهل عليك يسير ؟!
أم قد قضيت بأن أعيش مشرداً
حتى أموت ! ، وخاطري مكسور ؟!
ربي !! .. إلهي !! ما أظنك تاركي
فرداً ، ومالي في الحياة نصير !!!

عمر عبد العزيز الأقصري

الثقافة

العدد ٦٥٢
٢٥ من يونيه ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليما

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٥٢ — الاثنين ٢١ من رمضان سنة ١٣٧٠ — ٢٥ من يونيه سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

هاروت وماروت

للدكتور زكي نجيب محمود

كان من أساطير العرب أن كوكب الزُّهَرة هو امرأة بغيٌّ تحولت نجماً ، وخلاصة الأسطورة كما ذكرها « البلخي » هي ما يأتي :

« روى أن الله تعالى لما أراد أن يخلق آدم ، قال للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة ؛ قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ فلما خلق آدم وأظهرت ذريته في الأرض الفساد ، قالت الملائكة : يارب ، أهؤلاء الذين استخلفتهم في الأرض ؟ فأمرهم الله أن يختاروا من أفاضلهم ثلاثة ينزلهم إلى الأرض ليحملوا الناس على الحق ، ففعلوا ؛ قيل وجاءتهم امرأة فافتتنوا بها حتى شربوا الخمر وقتلوا النفس وسجدوا لغير الله سبحانه وتعالى ؛ وعلّموا المرأة الاسم الذي كانوا يصعدون به إلى السماء ، فصعدت ، حتى إذا كانت في السماء مسخت كوكباً ، وهي الزُّهَرة ؛ قالوا : وخُيِّر الملكان بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختاروا عذاب الدنيا ، فهما معلقان بشعورهما في بئر بأرض بابل ، يأتيهما السحرة فيتعلمون منهما السحر » (الأساطير العربية قبل الإسلام ، نقلاً عن كتاب « عبقر » لصاحبه شفيق معلوف من أدباء المهجر) .

تلك هي أسطورة هاروت وماروت كما قرأتها ؛ ولا بد لنا بادئ ذي بدء أن نغضي عما فيها من خلط بين المثنى والجمع ، إذ هي تبدأ بالحديث عن ثلاثة من الملائكة أرسلوا إلى الأرض ، فتتحدث عنهم بصيغة الجمع ، ثم تعود فتتحدث عن هاروت وماروت وحدهما بصيغة المثنى ، دون أن تذكر خبراً عن زميلهما الثالث .

قرأت هذه الأسطورة فوجدتها تصور حياتنا السياسية منذ ربع قرن أو يزيد ؛ بل وجدتها تصور كثيراً جداً من جوانب الحياة إلى جانب تصويرها للحياة السياسية .

فعناصر الأسطورة كما يرى القارئ هي أن تعيث ذرية آدم في الأرض فساداً ، فيرفع الملائكة شكاتهم إلى الله ، فيختارهم الله لحكومة الأرض لعلهم يصلحون ، فما يكادون يضطربون في الشئون الأرضية حتى يتعرضوا لعوامل الإغراء ، فيفسدون ويُفسدون ، ولا يكونون خيراً حالاً من آدم وذريته .

وهكذا الحال في حياتنا السياسية ؛ فكلما أرادت الظروف

لحزب سياسى أن يتولى أمورنا ، قالت الأحزاب الأخرى بلسان حالها متوجهة بشكاتها إلى ربها : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء .. الخ ؟.

ويكون الحق إلى جانب هذه الأحزاب فيما قالت ، لأن الحزب القائم على الأمر وذريته ، تظهر فيه عوامل الفساد حقاً ، وتنتشر فى الأرض ألوان العبث على أيديهم ألواناً وأشكالاً ؛ فلا غرابة أن تشمت الأحزاب المعارضة وأن تتوجه بسؤالها إلى الله : يارب أهؤلاء الذين استخلفتهم فى الأرض ؟!.

وهاهنا يأمر الله تلك الأحزاب النافقة المتضجرة العاتبة الشامتة ، والتى ترى أنفسها ملائكة أطهاراً أنقياء إذا قيست إلى الحاكمين الفجار ؛ يأمر الله تلك الأحزاب العاتبة الشامتة أن تختار من أفاضل رجالها نفراً تُلقى بين أيديهم مقاليد الحكم ، لعلهم أن يكونوا الصالحين المصلحين ؛ فينزل الملائكة المختارون إلى الأرض ليحملوا الناس على الحق ، ثم لايلبثون أن تسرى فى دمائهم الشهوات الحيوانية اللاهبة العارمة ، فتفتنهم عن أنفسهم فتنة بعيدة المدى ، لايتورعون معها أن يسجدوا لغير الله ؛ إنهم عندئذ لايتورعون أن يسجدوا للشيطان العابث بهم وبأحلامهم ، وهو الشيطان الذى ما يزال يغوايتهم حتى يأخذ منهم كلمة السر التى يصعد بها إلى السماء حيث يلمع ويسطع كما يلمع كوكب الزهرة فى السماء ... وأما هم ، فيعلقون من شعورهم بين الأرض والسماء ، فلا إلى الناس هبطوا واضطربوا معهم فى شئون العيش الشريف ، ولا إلى السماء صعدوا ليعودوا مع الملائكة أبراراً أطهاراً .

والتتمة التى لم تذكرها الأسطورة ، هى أن تعود ذرية آدم إلى مكان القيادة مرة أخرى ، وسرعان ما تنشر الفساد فى الأرض كما نشرته أول مرة ؛ وهكذا دواليك حلقة بعد بعد حلقة إلى يوم الدين .

● ● ●

هكذا تصور الأسطورة القديمة حياتنا السياسية الحديثة أبدع تصوير وأبرعه ؛ لكنها إلى جانب ذلك تصور كثيراً جداً من جوانب حياتنا الأخرى ، فلنا فى كل يوم من أمثال هاروت وماروت مئات ومئات ، ولنا فى كل يوم من أمثال الزهرة كذلك مئات ومئات .

وهنا يجمل بنا أن نحدد للقارئ معنى « البغى » كما يجب أن نفهمه ؛ فالبغى قد يكون رجلا كما قد تكون امرأة ، والصفة الجوهرية فى البغى أن يبيع مثله العليا من أجل نفع عاجل ، وقد تكون هذه المثل العليا مبادئ خلقية تواضع عليها الناس ، أو أهدافاً فكرية أو فنية اتفقت عليها كلمة العالم المتحضر كله ؛ يبيع البغى هذا كله بثمن بخس من مال أو جاه ، يبيع كل ما لديه من عزة وكرامة ثمناً لصعوده ؛ حتى إذا ما صعد البغى إلى منازل الكواكب النيرة اللامعة ، لم يسأل الناس كيف كان وكيف أتيح له الصعود ومن أين جاءه النور الذى يلمع به .

وفى حياتنا العامة ، بل فى حياتنا العلمية والفنية من أمثال هؤلاء البغايا كثيرون ، كثيرون جداً ، ففى مكان الرياسة قد ترى من ليس له رأس يفكر ، وفى مكان العلماء قد تجد من لا يقوم على علمه برهان واحد من آثاره ، بل قد تصادف فى مكان الصدارة من حياتنا الأدبية من سوف لا يذكره الغد القريب بصفحة واحدة خطها قلمه ... كل هؤلاء كواكب نيرات فى حياتنا ، كالزهرة اللألاءة ، كانت بغياً ثم مسخها الله كوكباً !!

● ● ●

كذلك رأيت فى الأسطورة معنى آخر ، يمس جانباً آخر من جوانب حياتنا العقلية والسياسية .

ففى الأسطورة قد فسد الملائكة عندما نزلوا إلى الأرض ؛ وتعريف « الملائكة » أنهم الكائنات التى تعقل بغير أجساد ، أعنى أنهم الكائنات التى لها ما للإنسان من فكر ، دون أن يكون لها ما له من بدن ؛ وستتخذ « الأرض » هنا رمزاً للحياة الدنيا بشئونها العملية ، وبخاصة شئون السياسة

وفى ضوء هذا التفسير للكلمتين ، نسأل هذا السؤال : هل يجوز لأصحاب العقل والفكر أن يشتركوا فى سياسة الجماعات اشتراكاً عملياً ؟ بعبارة أخرى : هل يجوز لأصحاب الفكر النظرى أن يتولوا مقاليد الحكم ؟

ولهذا السؤال جوابان : فأما هذه الأسطورة التى نحن اليوم بصددها ، فتجيب جواباً واضحاً ، وهو أن لا ؛ لأن العقل الخالص إذا نزل إلى الأرض واضطرب فى محيط الحياة العملية انحرف عن صوابه ، وضل ضلالا بعيداً ، ذلك لأن

مناجاة

يا نيــل قربك خافق يشــأوه
يشكو وليس بواجــد من يرحم
قلب إذا ضحك الورى ألفيتــه
قلباً كــبيراً بائساً يتــألم
وإذا أردت ســؤاله عمــا به
سبقتْ إليــك دموعه تتكلم
وبوده لو يســتطيع تكلماً
لأبان ما يشجي الحــليم ويُكلِم
لكنه مُحــرم الصــفا حياته
لحن ينــوح وحرقة تتضرم

•••

يا نيل واسِ ليَ الفــؤاد فإنني
قد ضقت ذرعاً بالحيــاة ومنهم
فأنا غريب يشد أنك سلوتي
وأعز ما أرجــو بمصر وأكرم
يا نيــل لا ذكرى ولا مستقبل
لا حاضر يشــفى ولا من يلهم
لا خاطر مشــورة بالحب إن
ساد الحيــاة تكلف وتجهم
لكنه ألم وعيش حــلو
مر وطلعتــه عبوس مظــلم
فإذا أتيتك ضارعاً متــوسلاً
أرجو العــزاء فإنني بك مغرم
قد ضاقت الدنيــا كأن رحابها
حولي قيود من حــديد يقصم
وجنانها قفــر وورد نباتهــا
شــوك يقوم كأنه المستلئم

•••

يا نيل في تهــدار موجك رنة
تشكي تواني كل حيث يتبرم
وعلى جبابك زفرة قد صعدت
من صــدر مجروح لبعدك يألم
جارت عليه يد الزمان فأصبحت
منه الفنــاء كأنما هو أبكم
فمضى وقــد عبثت به أحداثه
عين تجــود وخافق مسترحم

(نزيل القاهرة) صبحي رشيد غريس

الحياة العملية ستضطره اضطراراً أن يميل مع « الهوى » — والهوى في الأسطورة غرام بامرأة بغي. لكن الأهواء قد تتعدد صنوفها — وشرط الفكر الخالص ألا يميل مع الأهواء كائنة ما كانت، فيستوحي إملاء المنطق العقل وحده دون أن يحب أو يكره؛ شرط المفكر أن يقف من موضوع تفكيره على الحياد التام، فلا يبدي عاطفة هنا أو هناك؛ فإذا تناول العالم المفكر وردة، انقلبت الوردة في يديه جسماً يحلله إلى أجزائه كما يحلل الأوساخ والأوحال؛ أما إن شمها فأعجبه بأريجها، فعندئذ يصبح فناناً ويخرج من دائرة العلماء أصحاب الفكر الخالص والعقل المحايد.

وهيهات أن تشترك في عالم السياسة بفكرك وتظل محايداً بفكرتك فلا تحيد بدوافع العاطفة ذات اليمين مرة وذات اليسار أخرى؛ ومن ثم كان فساد الملائكة في هذه الأسطورة عند ما نزلوا إلى الأرض...

لكن للسؤال جواباً آخر قاله أفلاطون منذ زمن بعيد، فقد كتب « الجمهورية » ليقول فيما يقوله: إن الحكم ينبغي أن يكون للحكماء، أي أن تلقى مقاليد الحكومة إلى أصحاب الفكر — وهم عنده الفلاسفة — لأنهم أقدر من غيرهم على فهم طبيعة الإنسان وقيادته؛ فكما أنك لا تلقى بزمام السفينة إلا إلى ربان يعرف طبيعة البحر والجو ليجنب السفينة مواضع الخطر، فكذلك سفينة الدولة ... إلى آخر ما قال.

ونحن نضع السؤال نفسه في صيغة أضيق مجالا، فنقول: هل يجوز لرجال الجامعة عندنا أن يشتركوا في الحكومة؟ ونترك القارئ أن يختار لنفسه أحد الجوابين؛ فأمامه ما قد أجاب به أفلاطون وما تجيب به أسطورة هاروت وماروت

زكي نجيب محمود

٢٥ - خاطـــــرة

للدكتور أحمد أمين بك

يعجبني تعبير انجليزي لا أعرف له نظيراً في اللغة العربية، وهو ما يمكننا أن نترجمه بـ (حوض اللذة)، ويعنون به استعداد النفس للذة.

والذي ألاحظه أن حوض اللذة على حد تعبيرهم واسع عند الطفل والجاهل، ضيق عند الكبير والعالم؛ فالطفل يتلذذ جداً بقطعة من الحلوى والثوب الجديد. وقد شاهدت ذلك في نفسي، فكنت كثير اللذة بفطيرة آكلها في الصباح، وبشجرة بجوار ساقية أجلس تحتها، وأقرأ وأغني بعض القصائد، ويعجبني صوتي إذا غنيت، وأفرح جداً بقرش يعطينيه أبي، وبمائة وخمسين قرشاً تعطينيها مدرستي كل شهر، ويعجبني منظر البحر إذا رأيته، ومنظر الجبل إذا مشيت فيه، وأتلذذ جداً من كتاب أشتريه، وأفرح برمضان إذا أتى، وبالعيد إذا أقبل، وأحتفل لهما كل الاحتفال...

وهكذا أرى الجاهل «واسع حوض اللذة»؛ فهو يتلذذ من أكلة فخمة، ومن ثوب جديد، ومن نكتة رائعة، وكل اهتمامه بجنيه يربحه ثم ينفقه، وبيت يشتريه، وبأكلة يأكلها وبثوب يلبسه، وكلما رقي الإنسان وكثر علمه وارتقت ثقافته وكثر تأمله ضاق حوض اللذة عنده. فلا ترضيه أكلة، ولا يلذه منظر؛ والمتنبي يعبر عن ذلك بقوله:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة
وما تبتغي؟ ما أبتغي جل أن يسمى

وأوضح من ذلك ما قاله:

وإذا كانت النفـــوس كبارا
تعبت في مرادها الأجســـام

وها أنذا لما كبرت ضاق عندي حوض اللذة جداً، فإذا ربحت مائة جنيه لم ألتذ منها لذتي بالقرش الذي كان يعطينيه أبي، وإذا نظرت إلى منظر طبيعي لم ألتذ منه كما كنت ألتذ في الماضي، وإذا نظرت إلى رواية تمثيلية أو رواية سينمائية لم ألتذ منها كما كنت ألتذ أيام شبابي؛ فالطفولة والشباب كانا يضفيان على كل شيء، مما يجعلنا نلتذ أكبر لذة ونحتمل الألم في ثبات، فلما زال الشباب زال كل شيء. وصدق الشاعر إذ يقول:

ما كنت أوفى شــبابي كنه عزته
حتى انقضى فإذا الدنيــا له تبع

ولذلك نرى الشباب يضحك من كل شيء، ويسر من كل شيء، وسبب ذلك ما قلنا: من أن حوض اللذة عندهم واسع، فإذا انقضى ضاق حوض اللذة، فلم يضحكوا كما كانوا يضحكون، ولم يطربوا كما كانوا يطربون.

ولست أدري، أخير الناس من ضاق حوضه أم من اتسع حوضه! أما أرسطو فكان يفضل الإنسان الحزين على الإنسان المرح، ولذلك كان يفضل المأساة على الملهاة.

أما أنا فقد أوافق أرسطو في أن الحزين أنفع للناس، وأكثر خيراً وإفادة، ولذلك كان أكثر المصلحين من أكثر الناس حزناً، يحز في نفوسهم ما يرونه من ضلال الناس وفسادهم وظلمهم، ويعملون جاهدين على إصلاحهم وتقويم معوجهم، ولو أداهم ذلك إلى الموت. ولكن هؤلاء الحزناء شر على أنفسهم، فهم دائماً قلقون حائرون مضطربون. فلئن دعوت لنفسي دعوة صادقة، فإني أسأل الله أن يوسع حوض لذتي.

أحمد أمين

حافظ إبراهـــــيم

للأستاذ عبد السميع المصرى .

حافظ هو الصورة الحية للبيئة التى عاش فيها ، وما قلبت فى ديوانه إلا شعرت بأنى أعيش مع صاحبه على الأرض التى عاش فيها ؛ فأحس إحساسه ، وأرى الناس الذين أعرفهم وأخالطهم وأعاشرهم وأعاملهم فى حياتى كل يوم قد ملأوا علىّ فراغ المكان ، وراحوا يشكون آلامهم ويسردون أخبارهم ويحكون حياتهم .

لقد كنت أطلق على حافظ أحياناً « الشاعر الواقعى » وللواقع جمال تدركه العين الباحثة والفكر الدقيق والنفس الحساسة التى تسبر الغور فتدرك ما لا يدرك الإنسان العادى بالنظرة العابرة وما كان أقدر حافظاً على التقاط صوره من واقع الحياة ومن مادة الأرض ومن الحوادث التى يلقاها ، وما أصدق أحمد زكى أبو شادى حين يصفه بقوله :

من طين مصر نما ومن أنفاسهـــا

والأرض لا تنمى الشـــعور ذميا

كالأنبيـــاء يفيض من إعـــانه

بالفظ شهداً والبيان شهـــيا

صـــافى الفؤاد فليس ينبض مرة

إلا صـــفياً للنفـــوس حميا

حقاً أن حافظاً بضعة من مصر ، وقطعة من طينها ، عاش مخلصاً لها يصور خلجاتها وما يتنابها من أحداث ، وكان أصدق مصور للمجتمع الذى عاش فيه .

« كالأنبياء يفيض من إيمانه » . وكذلك كل فنان ملهم ، يحس إحساساً قوياً بما تقع عليه حواسه وتتفاعل فى قلبه خبراته وتجاربه ، فيحاول الإفصاح عنها وتقديمها للناس بأسلوبه الخاص وأداته الفنية المفضلة .

أما صفاء الفؤاد والإخلاص الذى لا تشوبه شائبة حقد أو ضغينة فليس أدل عليهما من اعترافه لشوقى بالفضـل والسبق مع ما فى الاعتراف للغير بالفضل من غضاضة وثقل على النفس الإنسانيـة ... بل لقد كانت قصيدته فى حفل تتويج شوقى أميراً للشعر من أبدع ما قيل فى المهرجان وهى التى مطلعها :

أمـــير القوافى قد أتيت مبـــايعاً

وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ولعل فى هذه القصة التى يرويها خليل بك مطران عن رحلته إلى إحـدى قرى لبنان مع حافظ حيث اعترض طريقهما زحام شديد ، واتفق أن تعرف أحد الشبان على مطران فأخـبره عن وجود حافظ معه وسأله أن يفسح لهما طريقاً ، واستعان الشاب بشيخ أبيض اللحية طويلها ما كاد يعرف وجود حافظ حتى تفرس فى وجهه ثم قال لصاحبه : « الحمد لله أنى رأيته قبل مماتى » فوقعت هذه الكلمات فى قلب حافظ موقعاً عظيماً ، حتى إن وجهه قد اخضل على سمرته بالدموع المتساقطة من عينيه ، ثم قال لمطران : (اليوم قد كوفئت أجل مكافأة عن خدمة أديتها لقوم كرام) ... لعل فى هـذه القصة أبلغ مثل على نفسية حافظ الشكور .

ولد محمد حافظ إبراهيم عام ١٨٧١ فى ديروط بمديرية أسيوط ، ونشأ فى القاهرة ، وبعد أن جاز التعليم الابتدائى ، وطرفاً من التعليم الثانوى التحق بالمدرسة الحربية وتخرج فيها ضابطاً بالجيش المصرى حيث أرسل إلى السودان ليمكث بضع سنوات ، ويشترك سنة ١٨٩٩ فى ثورة فيغضب عليه المستعمر ويطرد من السودان ، ثم يلتحق بعد ذلك بالبوليس فى أرياف مصر ، لكن يلحقه غضب المستعمر فى البوليس أيضاً فيخرج إلى الاستيداع ويحال إلى التقاعد ، فى رتبة اليوزباشى ، ويعود بعد ذلك ببضع سنين فيلتحق بدار الكتب المصرية فى وظيفة رئيس القسم الأدبى بها ثم وكيلاً للدار حيث يظل فى هـذا المنصب إلى أن يخرج

منه فى سن الستين قبل وفاته بضعة أشهر فى فجر ٢١ يوليه سنة ١٩٣٢ .

بيئة الشاعر

كان حافظ ابناً لأحد ضباط البوليس ولست أدرى مدى تأثير هذا الوالد فى حياة ابنه ؟ هل كان يأخذه بالشدة أم باللين ؟ هل كان يعنى بأمره أم يتركه للأقدار تهيىء له مستقبله ؟ غير أن من المحقق أن هذا الوالد لم يكن بذى ثراء وقد مات وترك حافظاً غلاماً يافعاً فكفله خاله ، ولم يكن أيضاً بالرجل الموسر ، فضاق بحافظ لبطالته وعدم سلوكه حياة منظمة ، وأحست نفس الشاعر بثقل الحال وسآمته وشعر باستثقاله تكاليف عيشه ، فقال معبراً عن آلامه وحسه المرهف الذى أوذى :

ثقلت عليك مئونتى إنى أراها واهيه
فافرح فإنى ذاهب متوجه فى داهيه

ويغلب على ظنى أن هذه الظروف مجتمعة هى التى أملت على حافظ ترك التعليم الثانوى والالتحاق بالمدرسة الحربية ، حتى لا يكلف خاله من النفقات فوق ما يطيق ، وليختصر طريقه إلى الحياة وكسب العيش ، وعند تخرجه سار فى حملة استرجاع السودان فعاش فيه سنوات ثلاثاً انتهت بإحالته عنه .

ولقد شعر بوطأة الاحتلال وبطشه وكأنه نجا من خاله صدر حياته ليلقى عنت المتصرفين واستبداد المحتلين إلى جانب قلة ماله — ومن كان فى كرم حافظ لا يكفيه راتبه — فلم يشعر بتغير فى حياته ولا تقدم فى معاشه ، فخيل إليه أنه حليف بؤس وشقاء ، وأنه ضحية الظروف التى حرمته الأب وحرمته المال الذى يستطيع معه أن يفرغ لأدبه وشعره وما خلق له ؟ وقد عبر عن ذلك فى قوله :

جنيت عليك يا نفسى وقبلى عليك جنى أبى فدعى عتابى
فلولا أنهم وأدوا بيانى بلغت بك المنى وشفيت ما بى
سعيت وكم سعى قبلى أديب فآب بخيبة بعد اغتراب
وما أعذرت حتى كان نعلى دما ووسادتى وجه التراب
وحتى صيرتنى الشمس عبداً صبيغاً بعد ما دبغت إهابى
وحتى قلم الإملاق ظفرى وحتى حطم المقدار نابى

ثم اصطلحت عليه بعد عودته من السودان الأحداث والضائقات حتى اضطر حيالها أن يلتمس إحالته على المعاش ويبقى فى مصر بلا عمل .

هذه الأعوام التى عانى فيها حافظ آلام الحرمان وتقلب الحال وصروف الدهر هى أخصب سنى حياته إنتاجاً ، لكن عندما بلغ الأربعين والتحق بالعمل فى دار الكتب المصرية أخلد إلى الراحة وآثر العافية والبعد عن السياسة وكبت ثورة نفسه ، فقل إنتاجه وأصبح شعره لا يسمع إلا فى المناسبات كرثاء من مات واستقبال من قدم ، وهو شعر يعتريه الفتور وتضعف فيه الحيوية ويغلب عليه الحرص على الوظيفة ومورد الرزق .

تشاؤمه

« لست أطمع أن تطول حياتى ، ووددت لو لقيت الموت الآن ، وإنى لأعجب من دقة إلىّ بطء، كأنما قد أدركته الشيخوخة على توالى الأجيال ، فما يستطيع أن يسرع الخطى ليلقى نفساً سئمت العيش وبرمت بالحياة .. وماذا أبغى من حياة ضاعت الحقيقة فيها واستوى فيها الحسن والمسىء ، وهضم الغنى حق الفقير وشابت فيها الفضيلة وترعرعت الرذيلة ..؟ وماذا أنا وحياة تحالفت فيها الهم وقصدت فيها السم ؟ »

هكذا قال حافظ مبيناً رأيه فى الحياة وفى الدنيا وفى الناس ، وهو رأى قد أبعد فى التشاؤم إلى أقصى مداه ، ولعلنا نلتمس لحافظ عذراً إن مال هذا الميل — بعد إذ رأينا ما واجهته به الحياة من أحداث متلاحقة أصابته فحولت مجرى حياته عن وجهته التى كان يرجوها ونغصت عيشه — وما عانى من حرمان على مدى سنين طوال هى زهرة العمر وربيع الحياة ، حتى أكثر من الشكوى من صروف الدهر واستعجل الموت وأظهر الزهد فى الحياة ، ولعل أبلغ ما عبر به عن هذا الشعور هذه الأبيات من قصيدته فى تأبين حفنى ناصف :

آذنت شمس حياتى بمغيب
ودنا المنهل يا نفس فطيبى
وارقبيه كل يوم إنما
نحن فى قبضة علام الغيوب

اذكرى للموت لدى النوم ولا
تغفلى من ذكره عند الهبوب
واذكرى الوحشة فى القبر فلا
مؤنس فيها سوى تقوى القلوب
فدعى الخبر احتساباً فكفى
بعض ما قدمت من تلك الذنوب
حسن جنباى إلى برد الثرى
حيث أنسى من عدو وحبيب
مضجع لا يشتكى صاحبه
شدة الدهر ولا شد الخطوب
لا ولا يسئمه ذاك الذى
يسئم الأحياء من عيش رتيب

وإذا كان للأحداث الخاصة فى حياة حافظ أثرها فى أن ينحو هذا النحو من التشاؤم فلا شك عندى فى أن الحوادث العامة كان لها أيضاً أثر بعيد فى تشاؤمه .

فلا ننس أن حافظاً قد عاصر الاحتلال منذ أن وطئت قدما المحتل أرض وادى النيل ، وما كان لنفس أبية أن ترضى الاستعباد والهوان ، فكان صراع لابد منه بينه وبين الاستعباد أدى إلى إحالته نهاية المطاف عن عمله ، وهو قد شاهد الانقلاب العثمانى ، والحرب العظمى ، والثورة المصرية والكمالية والعربية ، ورأى عن قرب العروش تهوى والنظم الاجتماعية تزلزل وكل قيم الحياة يعتورها الشك والتغير ، وشاهد كل ما يبعث الريبة إلى النفوس وسوء الظن إلى القلوب .

وهو لم يرض يوما عن حال بلاده ، وما آلت إليه على أيدى المتمصرين من سوء حال وضعف أخلاق ؟ وله فى ذلك شعر كثير نجتزىء منه بقوله :

وهل فى مصر مفخرة سوى الألقاب والرتب ؟
وذى إرث يكاثرنا بمال غير مكتسب ؟
وما ذا فى مدارسكم من التعليم والكتب ؟
وما ذا فى صحائفكم سوى التمويه والكذب ؟

فلا عجب بعد ذلك أن ينطوى حافظ على نفسه ويشيع التشاؤم الذى ملأ قلبه فى شعره ، وتمس روحه الحزينة فى إجادته مراثيه ، بل وفى كل ما قال من الشعر .. فهو دائم التوجع لنفسه وللناس ، وإذا رأى مصيبة كان نصيبه من الوجيعة كنصيب صاحبها أو أكثر ، ولذلك كان حافظ أقرب إلى نفوس الشعب لأنه كان دائم المشاركة له فى مآسيه .

وهو قد دعى يوماً إلى حفل افتتاح « دار لرعاية الأطفال » فألقى قصيدة فى هذه المناسبة السارة ، لكن روحه الحزينة غلبته على أمره فراح فى ثنايا قصيدته يصف حال امرأة عصف الزمان بأهلها — كما عصف به — فى أبيات تفيض أسى ولوعة ، ويصور لنا مبلغ أساه وحزنه لحالها :

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال ؟
لا بل فتاة بالعراء حيالى
أمست بمدرجة الخطوب فما لها
راع هناك وما لها من والى
دانيتها ولصوتها فى مسمعى
وقع النبال عطفن إثر نبال
وسألتها : من أنت ؟ وهى كأنها
رسم على طلل من الأطلال
فتململت جزعاً وقالت : حامل
لم تدر طعم الغمض منذ ليالى
قد مات والدها وماتت أمها
ومضى الحمام بعمها والخال
وإلى هنا حبس الحياء لسانها
وجرى البكاء بدمعها الهطال

شاعريته

مما يلفت النظر فى ديوان حافظ أنه قليل البحث فى التاريخ والكتابة فيه ، ولا أظن هذا يرجع إلى قصور فى شاعريته ، إنما إلى نقص فى علمه ، العلم الكافى بحوادث التاريخ وبواعثها ، لأنه حينما كتب عمريته المشهورة كان يحلق فى سماء صافية من صفحات التاريخ ويجتلى مما فيها من درر غوال ما ينظمه شعراً رصيناً سامى المعانى .

والطابع الغالب فى شعره هو تصوير ما يدور حوله ، وأخذ أشكاله من مادة عصره الكئيبة ، وقد قنع حافظ ببيئته وحوادث عصره عن التحليق فى سماوات الخيال ، وقد ساعده

بطاقته الخيالية وشعوره الرقيق على إجادة تصوير آلام أمة وآمالها ، بل وآلام العروبة وآمالها ، حتى غدا شاعر العروبة وشعره سجل الأحداث المعاصرة له .

وإلى جانب هذه الحساسية الشاعرية كان حافظ ضليعاً في علوم اللغة مما ساعده على تقديم صوره الشعرية في أطر من اللغة بالغة القوة والإبداع ، حتى لقد قال عنه خليل مطران (يتعب في قرض قريضه تعب النحات الماهر في استخراج تمثال جميل من حجره ، يؤثر الجزالة على الرقة وله فيها آيات) .

ولا يسمو شعر حافظ بلغته وأسلوبه فحسب ، بل إن حافظاً كان يعنى بموسيقى الشعر عناية فائقة ، فيؤلف بين كلماته في تناسق موسيقى رائع ، ويستعين بهذه الموسيقى اللفظية في تحميل بيت الشعر أكبر المعاني وفي نقل صورة حية نابضة بالروح والحركة ! فتأمل معي قوله في وصف ثورة البحر :

عاصف يرتمي وبحر يغير أنا بالله منهما مستجير

فصفير الصاد والفاء ينقل لنا صوت العاصفة بينما ينقل لنا المقطع الأخير من (يرتمي) صدى تمثل من الأثقال يرتطم بجدران السفينة ، ثم نتمثل إذ نسمع الغين والياء الممدودة بعدها هدير الأمواج ، وهكذا يستعين حافظ بموسيقاه اللفظية في إضفاء الحياة على صوره الشعرية .

وليس كل ما في هذا البيت هو موسيقى اللفظ فحسب ، بل إنه ليدلنا على قدرة حافظ على اجتلاء محاسن الطبيعة وتأثره بما يرى من جمالها وحسن ترجمته عن هذا الشعور بالجمال .

وأكثر شعر حافظ في الطبيعة استعارات لوصف لون أو صوت أو خلق أو شخص مثل قوله :

لكن عيدك يا عباس أنطقني
كالبدر أطلق صوت البلبل الطرب

أو قوله في وصف شعر هوجو :

ماثغور الزهر في أكمامها ضاحكات من بكاء السحب
نظم الوسمي فيها لؤلؤاً كثنايا الغيد أو كالحبب
عندما يغشى بأبهى منظراً من معانيه التي تلعب بي

وقوله فيه :

إذا نظرت فيها العيون حسبتها
لحسن انسجام القول كالجدول الجاري

وقوله في وصف الإمام الشيخ محمد عبده :

فأنت بيم كالشمس بالحر أيها
ترد الأجاج الملح عذباً فيرشف

والحافظ نصيب مما يسمى في عصرنا (بحس الطبيعة) وهو اهتزاز نفس الشاعر من مشاهد الطبيعة وما يحدثه هذا الاهتزاز من تجاوب مع قلب الشاعر وروحه ، فيتردد صداه في شعره روحاً يضفيها على هذه المشاهد فتتحرك بالحياة وتنبض بالروح وتتحرر من جمودها .

تأمل هذه الأبيات :

ولو شئت أذهلت النجوم عن السرى
وعطلت أفلاكاً بهن تدور
وأشهدت جنح الليل يوم زفرة
غرامية منها الشرار يطير

تحس بأن الليل والنجوم أصبحت في نظر الشاعر كائنات حية يناجيها وتتحدث إليها ! وله من هذا القبيل في الدجى والنجوم كثير نذكر منه مثلا آخر تتلبث فيه أيضاً روح حافظ الحزينة :

لله ما أقسى فؤاد الدجى على فؤاد العاشق المولع
هذا غليظ لم يرضه الهوى ما بين جنبي أسود أسفع
وذاك في جنبي فتى مدنف على سوى الرقة لم يطبع

وتراه يتحدث إلى الطير في قوله :

هجعت يا طير ولم أهجع ما أنت إلا عاشق مدعي
لو كنت ممن يعرفون الجوى قضيت هذا الليل سهداً معي

ولعل من الأدلة القاطعة على شغف حافظ بالطبيعة وحبه لها وعكوفه على استيحائها الشعر تلك الأبيات التي قالها في نادي الرياضة بالجزيرة .

قل للحزين وقل للعليل وقل للعليل : هناك الدوا
وقل للأديب إذا تعذر ساعها إذا ما البيان عليك التوى
وقل للمكب على درسه إذا نهك الدرس منه القوى
تنسم صباحاً تجدد قواك فأرض الجزيرة لا تجتوى

على أن شاعرية حافظ لم يقصرها على الطبيعة واجتلاء مفاتنها ، بل كان له في فنون الشعر جولات موفقة ، وكان في كل ناحية من القول يعبر عن شعور صادق وإحساس عميق ، فتراه حين يمدح صادقاً في مدحه معبراً عن شعوره

العميق بفضل الممدوح واستحقاقه للثناء . تأمل معى قليلا هذين البيتين :

بكرا صاحبي يوم الإياب وقفا بي بعين شمس قفا بي
إنني والذى برى ما بنفسى لمشوق لظل تلك الرحاب

ألا تحس مع الشاعر بتلك الفرحة الغامرة التي فاضت بها نفسه ! وكأن به يود لو استطاع أن يطير إلى منزل الإمام فيلقاه ساعة عودته ويحظى برؤيته لحظة أوبته ، فلا تضيع من هذه الفرصة دقيقة ! وهو يعطف بعد ذلك على الإمام فيبرز مزاياه وفضله الذى استحق من أجله المديح :

يا أمينـــاً على الحقيقة والإفتاء
والشرع والهـــدى والكتاب
أنت نعم الإمام في موطن الرأ
ى ونعم الإمام في المحـــراب
أنت علمتنا الرجوع إلى الحق
ورد الأمـــور للأســـباب
ثم أشرقت في المنـــار علينا
بين نور الهدى ونور الصواب

بل إن شعور حافظ بعظم ممدوحه (الأستاذ الإمام محمد عبده) كان شعوراً عميقاً جعله يعتقد أن الناس حاسدوه على مكانته لديه .

أيهـــذا الإمام أكثرت حسا
دى فباتت نفوسهم في التهاب
أبصروا موقفي فعـــز عليهم
منك قربى ومن عـــلاك اقترابي

وصدقُ حافظ في شعوره وإخلاصه واسترساله في شعره وتركه النفس على سجيتها جعله أثيراً لدى الخاصة والعامة محبوباً من جمهور الناس أكثر من سواه ، ولننظر مثالا آخر من إخلاص حافظ في مدح الإمام أيضاً :

كأن فؤادى إبرة قد تمغطست
بحبك أنى حرّفت عنك تعطف
كأن يراعى في مديحك ساجد
مدامعه من خشية الله تذرف

وما كان لهـــذا القلب الكبير الذى يفيض إخلاصاً لأصدقائه وخلطائه أن يضيق بحب بلاده كلها ويضيق بهـــذا الحب في أشعاره حتى أصبح شاعر النيل والوطنية غير منازع .

بل إن قلب حافظ قد وسع أمته بل والعروبة جمعاء ، فصار لهنا ترجمان صدق ولسان دفاع ، بلادها جميعاً وطن له :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب
هنا العلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما
قلب الهلال عليها خافق يجب
خدران للضاد لم تهتك ستورهما
ولا تحول عن مغناهما الأدب
إذا ألمت بوادى النيـــل نازلة
باتت لها راسيات الشام تضطرب
وإن دعا في ثرى الأهرام ذو ألم
أجابه في ذرى لبنان منتحب
لو أخلص النيل والأردن ودّهما
تصافحت فيهما الأمواه والعشب
هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم
فصافحوها تصافح نفسها العرب
فما الكنانة إلا الشام عاج على
ربوعها من بنيهـــا سادة نجب
إن يكتبوا لى ذنباً في مودتهم
فإنما الفخر في الذنب الذى كتبوا

واستمع إلى حافظ يحدثنا عن طرابلس ويحذر الشرق من خداع الغرب وغدره :

طمع ألقى عن الغرب اللثـــاما
فاستفق يا شرق واحذر أن تناما
واحملى أيتهـــا الشمس إلى
كل من يسكن في الشرق السلاما
واشهدى يوم التنادى أنـــا
في سبيل الحق قد متنا كراما
مادت الأرض بنـــا حين انتشت
من دم القتـــلى حلالا وحراما

ثم يصور بعد ذلك فظائع الإيطاليين وما ارتكبوه من جرائم وآثام :

عجز الطليان من أبطالنا

فأعدوا من ذرارينا الحماما

كبلوهم قتلوهم مثلوا

بذوات الخدر طاحوا باليتامى

ذبحوا الأشياخ والزمنى ولم

يرحموا طفلا ولم يبقوا غلاما

أحرقوا الدور استحلوا كل ما

حرمت لاهاي في العهد احتراما

ويبدو أن الجيش الإيطالي عريق في الانسحاب والهرب والإدبار ساعة الزحف والقتال ، لأن حافظا يخبرنا أنه فعل ذلك في حرب طرابلس ؛ وكلنا يعلم أنه أعاد المأساة في الحرب العظمى ١٩١٤ — ١٩١٨ ، وكررها بصورة تدعو إلى الأسف في الحرب العالمية الأخيرة ١٩٣٩ — ١٩٤٥ ، كما أن قادته وزعماءه عريقون في الدعاية الباطلة والأقاويل الكاذبة :

قد ملأنا البر من أشلائهم

فدعوهم يملأوا الدنيا كلاما

أعلنوا الحرب وأضمرنا لهم

أينما حلوا هلاكا واخترما

خبروا قيكتور عنا أنه

أدهش العالم حربا ونظاما

أدهش العالم لما أن رأوا

جيشه يسبق في الحرب النعاما

مالهم (والنصر من عاداتهم)

لزموا الساحل خوفا واعتصاما

لكن ما كان لقلب مثل قلب حافظ أن يحمل حقدا أو ضغينة ، لأن هذا القلب العظيم أكبر من أن يحفظ غلا لمخلوق ضعيف ، ولأن أمثال حافظ ما خلقوا لأوطانهم ولا لأممهم ، إنما خلقوا للإنسانية جمعاء يعبرون عن آلامها وبواسيها في أحزانها ويترجمون عن آمالها ... فترى حافظا يهز قلبه ما حل بإيطاليا من زلازل فيرسل الشعر فيه توجع وتفجع لهذه النازلة ، ويجأر إلى الله يشكو له ما حل ببني الإنسان :

غليان في الأرض نفس عنه ... ثوران في البحر والبركان

رب أين المفر والبحر والبر ... على الكيد للورى عاملان ؟

وأب ذاهل إلى النار يمشي ... مستميتا تمتد منه اليدان

باحثا عن بناته وبنيه ... مسرع الخطو مستطير الجنان

تأكل النار منه لا هو ناج ... من لظاها ولا اللظى عنه وان

ومن يطالع ديوان حافظ يحس قوة هذه النزعة العالمية في شعره وكثرتها ؛ فهو تارة يحدثنا عن حرب اليابان ضد روسيا ، وطورا يحدثنا عن مآسي تركيا وخلافتها .

عبد السميع المصري

عامر بن الطفيل

لسير تشارلس ليال

— ٢ —

ترجمة الأستاذ حسين نصار

وتخبرنا الرواية التي يقبلها عامة الأدباء أن عامر بن الطفيل ولد يوم شعب جبلة . ذلك اليوم الذي حازت فيه قبيلته نصراً مبيناً على قوات تميم (دارم) ، وأسد ، وذبيان ، المتحالفة ؛ أما الرواية الأخرى فتقول إنه كان يومئذ طفلا على ذراع أمه ، وأمه كبشة بنت عروة ، الملقب « بالرحالة » لأنه كان يقود القوافل التجارية من لدن ملك الحيرة إلى سوق عكاظ . وتختلف الآراء في تاريخ هذا اليوم . فيروى الطبري (١ : ٩٦٦) ، عن أبي عبيدة ، أنه وقع في عام مولد النبي ، أي « عام الفيل » ، الذي تجمع عامة الآراء على أنه عام ٥٧٠ م . ولكن آخرين يروون (من المحتمل عن ابن الكلبي) أنه كان قبل ذلك بسبعة عشر عاماً . والظاهر أن هـذا القول مستنتج من الرواية التي تقول إن عامر بن الطفيل كان في الثمانين من عمره ، حين زار النبي في عام وفاته صلى الله عليه وسلم . ولكن توجد عدة اعتبارات تجعل هذا القول غاية في عدم الاحتمال . أحدها أن عم عامر ، عامر بن مالك أبا براء « ملاعب الأسنة » كان لا يزال حياً وزعيما في العام الرابع من الهجرة ، ذلك العام الذي وقع فيه حادث بئر معونة ؛ وقد كان أبو براء أحد قواد بني عامر يوم جبلة ، ولا بد أنه كان لا يقل عن العشرين أو الخامسة والعشرين من عمره في ذلك الحين ؛ فإذا كان ابن أخيه توفي في الثمانين ، فلا بد أن أبا براء كان قريباً من المائة عندما وقع حادث بئر معونة ، وذلك أمر غير محتمل . وكذلك يقال إن لبيدا الشاعر ، وهو ابن عم عامر ، كان في التاسعة أو العاشرة من عمره يوم شعب جبلة ، فإذا كانت الموقعة حدثت قبل وفاة عامر بثمانين عاماً ، إذاً كان لبيد في التاسعة والثمانين أو التسعين حين اعتنق الإسلام . ولكنه عاش عدة أعوام بعد ذلك ، ويروى أنه مات في بداية خلافة معاوية ، أي عام ٤٠ هـ : وإذاً كان حينئذ في العشرين بعد المائة من عمره ، وذلك أمر مستحيل . أضف إلى ذلك أن القصص تروى أن لبيدا قال أول شعر له في عهد النعمان أبي قابوس ، آخر ملوك الحيرة ، وهو لم يرتق العرش إلا عام ٥٨٠ م . فإذا كان بنو جعفر ، ولبيد معهم ، وفدوا على بلاط النعمان في أول عام من حكمه ، وكان يوم شعب جبلة حدث عام ٥٥٣ ، وكان لبيد الشاعر في التاسعة من عمره حينئذ ، فإنه لا يمكن وصفه « بالغلام » عند ظهوره أمام الملك . أما إذا كان يوم شعب جبلة وقع عام ٥٧٠ ، فإن لبيدا يكون في التاسعة عشرة أو العشرين عام تولى النعمان الحكم . وأخيراً ، يوحي إلينا نشاط عامر الحربي إلى آخر حياته أنه لم يكن حينئذ شيخا في الثمانين ، ويوافقه القول بأنه كان في الثانية والستين أو الثالثة والستين ، مثل النبي .

ويبدو أن الحروب كانت مستمرة بين قبيلة عامر وبين قبائل غطفان في الشمال والشمال الشرقي ، وقبيلة مذحج في الجنوب ، في أثناء حياته . وكانت عبس ، التي كانت تعتمد على عامر بن صعصعة في جبلة ، قد تهادنت مع ذبيان منذ وقت طويل ، وأصبحت عدوة لعامر ، مثلها مثل بقية قبائل غطفان . وتشير معظم قصائد الديوان إلى هذه العداوة ، وإذا كانت القصيدة الثانية صحيحة النسبة إلى عامر ، كانت تصور لنا حروب عامر مع اليمن وتميم على أنها همهم الأول ، على الرغم من أنها تذكر عداوة بعض القبائل الأخرى ، مثل شيبان ، في البيت ١٠ ، وأسد ، في البيت ١١ ، وحنيفة ، في البيت ١٣ ، بل تذهب بعيداً حتى عبد القيس في البحرين ، البيت ١٧ . ومن الشاق بعض الشيء أن نحدد مواطن الصلات بين عامر وتميم (أو بالأحرى بني دارم) التي يصفها في البيتين ٢٨ — ٢٩ . ومن الواضح أن شهرة عامر بن صعصعة العسكرية كانت ذائعة أيام النبي . وكان أقوى حلف واجهه محمد حلف هوازن في حنين (٦٣٠ م) ،

الذي كاد يودي بالرسول . ولكن غاب عن هذه الغزوة كلاب وكعب من عامر ؟ ولو حضرا ، وربما تغير تاريخ الإسلام أشد تغير .

ولن يتفعنا أن نحاول رسم صورة أو تاريخ لجميع الحروب التي اشترك فيها عامر بن الطفيل قائداً لقبيلته ، فسيظهر في فهرس الأماكن عدد هذه الأيام المذكورة في الديوان . كما أن أيام العرب لم تتغير خصائصها على مجرى القرون . وقد لانخطئ حين نقول إن معظم هذه والأيام» كانت مجرد مناوشات ، كان عدد القتلى والجرحى فيها قليلاً ، أما القصائد فتبالغ كثيراً في أهميتها . وهذا القول ينطبق على جميع الحروب في بلاد العرب ، كما يقول مستر دفق . أما الحادث الغريب في التاريخ فهو إسراع بني جعفر إلى بني الحارث ابن كعب في نجران لطلب حمايتهم حين دب الشر بينهم وبين أبناء عمهم بني بكر بن كلاب ! مع أن الرء يستنتج من القصائد أن بني الحارث ألد أعدائهم وأشدهم خصومة . والأمر الغريب الثاني هو عرض المنافرة المشهورة بين عامر بن الطفيل وابن عمه علقمة بين علاثة على هرم بن قطبة بن سنان الفزاري ليحكم بينهما ، بعد أن رفض ذلك أبو سفيان وأبو جهل القرشيان ، وعيينة بن حصن الفزاري ، وغيلان ابن سلمة الثقفي ، وحرملة بن الأشعر المري ، برغم أن فزارة إحدى بطون ذبيان التي تقطر قصائد عامر عداوة عنيفة لهم ! هاتان الحقيقتان تبينان لنا أننا يجب أن نصل إلى نتائج عظيمة من الروايات التي نقلت إلينا عن مشاهير التحاربين بعضهم نحو بعض ، بغض النظر عن المبالغة في عدد المشتركين أو الجرحى في هذه الحروب .

ولما كان بنو عامر مجاورين للحرم المقدس ، فإنهم عنوا عناية خاصة بالاحتفالات المتصلة بالعيد السنوي في مكة . وانتمت بعض بطونهم إلى الحمس (جمع أحمس) ، الذين فرضوا على أنفسهم التزامات خاصة في أثناء الاحتفال بالحج ، ورغم أنهم لايعيشون داخل الحرم ، مثل غيرهم من الحمس ، فإنهم دخلوا فيهم لأن ربيعة بن عامر بن صعصعة زوج مجد بنت تيم بن مرة من قريش ، وأنجب منها كلابا وكعباً فعدا من الحمس بفضل أمهما . أما لبيد ، ذو الطبيعة المستجيبة للتأثيرات الدينية ، فقد تمت هذه الالتزامات من طبيعته ؛ وأما ابن عمه عامر بن الطفيل فلا يظهر عليه أي أثر للطبيعة دينية . ولكن من الطبيعي أن نلاحظ جميع القبائل المجاورة هدنة الأشهر الحرم الثلاثة ، وتزور سوق عكاظ ، الذي لابد أنه أتاح الفرصة لهؤلاء الذين أقسمتهم العداوات بسبب الدم والأصل ليتقابلوا مقابلات سلمية . ومن أول المعارك التي اشترك فيها عامر بن الطفيل حرب الفجار ، التي كان سببها انتهاك الأشهر الحرم المقدسة . ويقال إن هذا كان في شباب محمد ، وكان عامر تبعاً لذلك في مثل سنه . إذ قتل البراض الكناني (وكانت كنانة إذ ذاك حليفة لقريش) عروة الرحال من بني جعفر ، في الأشهر الحرم . وكان عروة وهو أبو كبشة أم عامر ، يحمي قافلة تجارية من لدن النعمان ملك الحيرة إلى سوق عكاظ . ووصلت أخبار قتله أولاً إلى قريش وكنانة ، فانسحبوا حالا من السوق . وحين وصلت إلى رجال عامر ، تبعوا قريشاً المنسحبة ، فلاقوها عند نخلة وكان قائد عامر في هذه المعركة عم شاعرنا أبو براء ، وقائد قريش عبد الله بن جدعان ، وهشام بن المغيرة ، وحرب بن أمية . وهزمت قريش يومئذ ، ولكنها أفلحت في الدخول إلى الحرم ، فوجدت مأمناً لا يجرؤ أعداؤها على انتهاكه . ولم تنته الحرب بهذه الموقعة ، بل استمرت ثلاثة أعوام أخرى ؛ ولكن كلابا وكعباً لم يشتركا ثانية فيها مع إخوانهم من بني عامر .

ويبدو أن الحادث الهام الثاني الذي اشترك فيه عامر بن الطفيل هو يوم الرقم . وقد وصفه ابن الكلبي وصفاً مطولا في شرح الأنباري على القصيدة الخامسة من « المفضليات » ويظهر أن هذا الوصف يخلط بين موقعتين ، هما يوما الرقم وساحوق ، اللذان تناول أبو عبيدة كلا منهما على حدة . وذكر أبو عبيدة أن عامر بن الطفيل كان في شبابه حينئذ ، ولكنه لم يكن وصل إلى مرتبة القيادة في قبيلته . وخلاصة الحوادث أن بني عامر أغاروا على بني مرة بن عوف ، وبني فزارة من غطفان ، فلقوهم بوادي الرقم . وأجهدت خيل بني عامر ، فلم تستطع الفرار بأسلابها قبل أن تدركهم جموع فزارة (بقيادة عيينة بن حصن) وبني مرة (بقيادة سنان بن أبي حارثة) . فأصعد بنو عامر في الوادي ، لجهلهم بالديار ، مؤملين أن يخرجوا من الطرف الآخر ويهربوا ؛ ولكن الوادي كان مسدوداً ، وعندما رجعوا وجدوا طريقهم

محاصراً ، وأعداؤهم ينتظرونهم على مدخله . ويورد الخبر ، عن أبي عبيدة وابن الكلبي كليهما ، أن عامر بن الطفيل كان قد عرج على امرأة فزارية ، تدعى أسماء بنت قدامة بن سُكين بن خديج ، من سعد بن عدي ، التي ربما كان تعرف بها في عكاظ : وكانت قد تزوجت شبث بن عوف بن قيس ، من القبيلة نفسها . فيقال إنه مكث عندها حتى تبين بنو عامر غلطتهم ، وعزموا على الهجوم على خصومهم ليشقوا طريقاً لنجاتهم . فلحق بهم ، عند مرورهم بدار أسماء ، في محاولتهم اليائسة للخلاص ، وتمكن هو وجماعة آخرون من الهرب ؛ ولكنه فقد حصانه ، الذي نُفق تحته ، واضطر إلى أن يردفه معه ابن عمه جبار على حصانه الأحوى ، بعد أن رفض أخوه عقيل أن يأخذه معه ، وهو هارب على حصانه . وأسرت فزارة ٨٤ عامرياً في ذلك اليوم ، فأسلمتهم إلى بطن من أشجع ليحتفظوا بهم حتى ينتهي القتال . ولكن الحليس ابن عبد الله بن دهمان الأشجعي قتلهم جميعاً ثأراً بغارة كان قد شنها عامر على بعض أقربائه . وقتل في هذه الموقعة كنانة والحارث ابنا عبيدة عم عامر ، وقيس بن الطفيل أخوه . ويحدد أبو عبيدة تاريخ المعركة بقوله إنها وقعت عندما هرب النابغة ، شاعر ذبيان ، من بلاط النعمان في الحيرة ، والتجأ إلى ملوك غسان . وتشير القصيدتان الثالثة والتاسعة والعشرون من مجموعتنا إلى هذا الحادث . وقد غضب بنو فزارة لتشبيب عامر بأسماء في مطالع قصائده ، وطلبت إلى النابغة أن يهجوه . ويظهر أثر هذا في الديوان في القصائد رقم ١٦ ، و ١٦ ل ، و ٢٣ .

ويروى أبو عبيدة أن يوم ساحوق تلا نكبة يوم الرقم ، حين أغار بنو ذبيان على بني عامر ونهبوا منهم عدداً كبيراً من الإبل . فتبعهم العامريون ، ونشبت حرب قطيعة ، هُزم فيها بنو عامر وأرغموا على الفرار . وهرب حكم أخو عامر مع رفاقه ، فضل طريقه في الصحراء ، وأخيراً انتحر ، بعد أن قاسى العطش الشديد ، خوفاً من الوقوع في أيدي أعدائه فيذيقونه أمَّ العذاب . وقد أشار إلى هذا الحادث سلمة بن الخرشب الأنماري في المفضلية الخامسة ، وعروة بن الورد العبسي (الديوان رقم ١٠) .

ويذكر أحد الأخبار ، في رواية ابن الكلبي في شرح المفضليات ، أن عامراً أُسر يوم الرقم أو ساحوق ، فأنقذه جبار بن مالك بن حمار وابن أخيه حزام بن زيد من آسريه من فزارة ، وحماه حين أراد رئيسهما عيينة أن يقتله . وتشير إلى هذا القطعة التي برقم ٢٦ من الديوان ، ويمدح عامر فيها حاميه . ولكن الشك يحيط بهذا الحادث . فمن الواضح أن قصيدة سلمة بن الخرشب ، التي تلحق بها القصة ، تصف عامراً يهرب بفضل سرعة جواده (البيت الخامس وما بعده) . ويذكر سلمة أن الحادث (البيت ١٣) وقع في « شرق الرورات » (التي يقال إن حكماً انتحر فيها) وساحوق (البيت ١٦) ، الذي يقال إن بني عامر أصيبوا فيه بنكبة عظيمة . والقطعة من مصدر مشكوك فيه . فلم يروها ابن الكلبي ، المتهم في أقواله ، فحسب : بل يقال أيضاً إنه نسخها من « كتاب حماد الراوية » ، ذلك الرجل المتهم بانتحال كثير من الشعر القديم .

ولقي بنو عامر نكبة أخرى في موضع يقال له النباعة ، أغاروا فيه على بني عبس ، ولكنهم صدوهم وتبعوهم . ويقال إن عامراً عرقب حصانه الورد أو الزنوق ، حين سقط به في أثناء الهرب . وقتل في هذه المعركة أيضاً ابن عم عامر ، البراء بن عامر بن مالك رئيس القبيلة ، وعبد الله بن الطفيل أخو عامر .

وإذا احتكمنا إلى الديوان ، رأينا أنه لا بد وقعت حروب كثيرة أخرى بين عامر وقبائل غطفان ، وانتصر فيها بنو عامر ؛ ولكن مراجعنا لا تورد لنا تفاصيلها .

ومن الواضح أيضاً أن عامراً ومذحجاً كانا دائمي النزاع في الجانب اليمني من ديار بني عامر ؛ ولكننا لن نورد هنا إلا تفاصيل موقعة هامة واحدة ، تلك هي موقعة فَيْف الريح . ويقال إن مذحج كلها اجتمعت في هذا اليوم تحت قيادة الحصين بن يزيد الحارثي ، وكان معها نهد (التي ينتمي إليها عدة أبطال) وبنو الحارث ، وجُعفي ، وزبيد ، وسعد العشيرة ، ومراد ، وصُداء ، بالإضافة إلى كثير من بطون خثعم ، وهاجموا عامر بن صعصعة ، وكانت في ذلك الحين متفرقة في المراعي الصيفية في فيف الريح . وظهرت عامر أيضاً بجميع بطونها تقريباً ، ومنها كلاب ، ونمير ، وجعدة والبكاء ، ولم تكن هلال حاضرة ، ولكن يقال إن عامر

ابن الطفيل جلب منها أربعين رمحاً وزعها بين أتباعه . ويروى أن الموقعة استغرقت ثلاثة أيام ، ولكن لم يوصف لنا منها سوى الحروب بين الأبطال المرموقين . وكان عامر بن الطفيل قائد عامر بن صعصعة ، ويروى أنه أصيب بثمانين طعنة رمح بين الثغر والنحر . وكان يحارب فى صف بنى عامر رجل يسمى مسهر بن يزيد بن عبد يغوث رئيس بلحارث ، وكان مسهر قد ارتكب جريمة فى قبيلته أرغمته على تركها ، فاستجار بعامر . وكان عامر بن الطفيل يختبر رءوس الرماح ، فى أثناء المعركة ، ليرى ما عليها من آثار الدماء ، وهو يشجع رجاله على أن يبرزوا أنفسهم فى القتال ، فجاء مسهر وأبرز رمحه ، ودعا عامراً إليه . فانحنى عامر ليختبره ، فشكه مسهر بالرمح فقطع وجنة عامر واخترق عينه . ولما فعل مسهر ذلك ، ترك رمحه ، وفر هارباً ، فلحق بقبيلته ، التى أمل أن يرضيها بهجومه الغادر على عامر . ولم تؤد الحرب إلى نتيجة حاسمة ، إذ انسحب كل فريق دون أن يحصل على غنيمة ؛ ولكن « كان الصبر والشرف فيها لبنى عامر » .

وتشير إلى هذا اليوم القصيدتان ١٠ و ١١ من الديوان ، وقد حدد تاريخه بالتقريب ، بأنه كان بعد يوم المشقر (القصيدة ١١ ، البيت ٦) ، وأن مسهراً حفيد عبد يغوث الذى قاد قبائل مذحج فى يوم الكلاب الثانى ، والذى لابد كان قد مات حين آلت القيادة إلى الحصين . ويرى كوسان دى برسفال أنه من المحتمل أن يوم المشقر كان فى عام ٦١١م والكلاب بعده بعام ؛ وكذلك ربما كان يوم فيف الريح فى عام ٦١٣ أو ٦١٤ .

ولا يحتوى الديوان على أية إشارة إلى المنافرة المشهورة بين عامر بن الطفيل وابن عمه علقمة بن علاثة ، اللهم إلا فى المقدمة التى بين يدى القصائد . وتوجد القصة فى الأغانى ١٥ : ٥٢ — ٥٩ ، وقد ترجمها كوسان دى برسفال فى « المقالة Essai » ٢ : ٥٦٤ — ٥٦٩ ترجمة رائعة . ولم ينظم الشاعران نفسهما القصائد التى قامت بالدور الأكبر فى هذه المنافرة ، وإنما نظمها شعراء آخرون فى مدحهما . فكان فى صف عامر بن الطفيل ابن أخيه لبيد ، ثم ميمون أعشى بكر بن وائل ، الذى يفوق لبيداً أهمية ؛ وفى صف علقمة ، مروان ابن سراقة بن عوف ، وتحيف بن عوف ، والسندرى بن يزيد بن شريح (وكلهم أبناء أعمامه) ، وجرول المشهور بالحطيئة . وقد أشرت قبلا أن النزاع عرض على هرم بن قطبة بن سنان الفزارى ، فحكم بأن الاثنين متساويان ، « كركبتى البعير الأدرم تقعان إلى الأرض معاً » . واعتنق هرم الإسلام فى وقت معروف ، ومدحه الخليفة عمر لرجاحة عقله التى جعلته يرفض أن يصرح بمن يفضل من المتنافرين . وأسلم علقمة أيضاً ، ولكن فى تاريخ غير معروف يقيناً . وقد صار رئيس عامر بن صعصعة بعد وفاة عامر بن الطفيل ، وارتد حين توفى النبى ، مثل قادة معظم القبائل البدوية الأخرى ، وتذكر رواية أخرى أنه ارتد بعد إسلامه فى حياة النبى لا بعد وفاته ، وهاجر إلى سورية بعد فتح الطائف . وعندما توفى محمد ، أسرع بالرجوع إلى قبيلته ، وبقى متردداً فيما يفعل ، وأخيراً أعزم على الإسلام ثانية ، فنال حب أبى بكر . وهناك خبر فى الأغانى يروى عن الحطيئة يتضمن أن عمر عين علقمة والياً على حوران ، وأنه توفى وهو يتقلد مهام منصبه هذا . وكل هذه الإشارات تدل على أن المنافرة كانت فى أواخر حياة عامر ، وإن وقعت قبل أن يتوفى عمه عامر أبو براء ، الذى كان يكرهها أشد الكراهية .

(للبحث بقية)

حسين نصار

الحياة الإنجليزية وأوقات الفراغ

للكاتبين الإنجليزيين «روتترى» و «لافرز»

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

إذا غضضنا الطرف عن الحروب وشائعات الحروب ، فإن مما لاشك فيه أن حضارتنا تلاقى اليوم صنوفاً وألواناً من التغيير والتبديل ، وكذلك مما لاريب فيه أن ليالى المستقبل حبالى باحتمالات لا يُعرف كنهها ولا يُسبر غورها .

وحتى إذا سلمنا أن بيننا وبين العصر الذرى جيلاً أو جيلين ، فإن من الواضح الجلى أن العلم والهندسة قد خففا إلى حد كبير العناء الذى تلاقيه الكثرة الغالبة من الناس ، وفى الوقت ذاته فإن التعليم على نطاق أوسع ، ونظام أحسن ، قد وسّع الآفاق لدى تلك الجماهير تدريجاً — ولكن فى مثابرة ودؤوب — وقد أيقظ فيها كفاءات جديدة ، وألواناً من النشاط واللهو مستحدثة .

وقد بدأنا نحن نستيقن أن الطريقة التى يستغل بها المرء وقته قد تصبح فى وقت قد يكون قريباً مشكلة من كبريات المشاكل ذات الصلة بالأخلاق والاجتماع .

وإذا صح ماقيل أن « إبليس » لا يزال دائباً على أن يوحى بالشر لكل من لايعمل عملاً ، فإن الفرص التى أمامه تؤذن بالاستزادة من الشرور .

من أجل هذا ندب مؤلفا هذا الكتاب نفسيهما لدراسة مشكلة أوقات الفراغ ، وقد عمدا إلى اتخاذ « مقاطعة يورك » ميداناً للبحث فى خير الوسائل التى تؤدى إلى الترفيه عن المواطنين هناك .

ولكن مما لاخفاء به أن المرء لايستطيع أن يعرف تلك الوسائل قبل أن يعرف ما يحتاجه فعلاً أولئك المواطنون ، وسرعان ما قد تعرض للباحث مسائل أخلاقية واجتماعية هى آية فى الخطورة . فقد يسأل سائل : ما الذى يحل محل الصيد والقنص والرماية ؟ وقد يجيب مجيب بأنه قد يحل محل تلك الأشياء الثلاثة . ثلاثة أشياء أخرى هى : الخمر والقمار والسينما !.

لهذا كان غير عجيب أن باحثين اجتماعيين قديرين كالمستر (روتترى) وزميله المستر (لافرز) قد عرفا أنهما بخوضهما غمار تلك الأبحاث قد ركبا — غير عامدين — متن أمواج متلاطمة من الدراسات الثقافية والروحية للأمة ، وهو عمل — كما يقولان فى تواضع العلماء — ماكانا يظنان أنهما سيتوليانه عن قصد وإصرار ، ولكنهما — ولحسن حظنا جميعاً — قد رأيا أن ليس من الصواب أن ينكصا فيه على عقبيهما ، بل سارا فيه قُدُماً بكل ما يخطر على البال من خبرة ومثابرة وحسن إدراك . وقدما لنا صورة غير مسبوقة عن حياة الشعب الإنجليزى فى منتصف هذا القرن الذى نعيش فيه ، وهى دراسة اجتماعية بالغة الأهمية ؛ وهى دراسة كاملة تفيض بالحياة ، وتجمع بين الجد والتسلية . وهى دراسة تدعمها — كلما كان ذلك ممكناً — تحقيقات إحصائية ، وتعززها دراسات شخصية لحالات فردية .

ويجب أن نسارع فنقول : إن الكتاب دراسة لبعض

> **مع الفكر الأوربي المعاصر**
>
> ستبدأ الثقافة مع قرائها هذا الباب الجديد لتطلعهم فيه على ما تخرجه المطبعة الأوربية اليوم من نتاج الفكر ، حتى يكونوا على صلة قريبة سريعة بمآثر رجال الفكر المعاصر .
>
> « الثقافة »

العادات والميول أكثر مما هو دراسة الأخلاق كوحدة كاملة . وهو كذلك ليس تحليلاً للمبادئ الإنجليزية ، ولا المثل العليا ، ولا لطريقة النظر إلى الأشياء بصفة عامة .

وهناك مسائل مسلم بها جدلاً كمسائل احترام قوانين اللعب ، وهو ما نعتبره نحن الإنجليز ركناً أساسياً من تكويننا ، وكذلك التقليد القومي من تقاليدنا ، وهو العمل تطوعاً واختياراً ، وهو ما نرجو ونأمل أن يظل من خلائقنا الثابتة .

كل هذه المسائل ومثيلاتها قد أغفلت كإطار للصورة في ذلك الكتاب .

والمؤلفان لم يذكرا الألعاب الرياضية في كتابهما إلا قليلاً . بل إن اللعبة الرياضية الوحيدة التي درساها بعناية هي القمار الخاص بالمراهنة .

والمؤلفان — في الحدود التي أخذا نفسيهما بالتزامها — قد جمعا في صبر وجلد بالغين مجموعة من الحقائق المدهشة ، وقاما بعرضها في براعة وسهولة ، جعلت من كتابهما مؤلفاً هو أبدع ما ظهر من نوعه .

وإذا نحن حاولنا في هذه السطور أن نلم إلمامة وافية بكل ما جاء في هذا السفر الضخم فإنما نحاول بلوغ هدف ، الوصول إليه جد عسير .

وكل ما نستطيع عمله هو أن نمثل لطريقة المؤلفين في تناولهما موضع الإصلاح ، وفيما يريانه من الوسائل التي تبلغ بهما إلى ما يهدفان .

وقد يثير شيئاً من العجب أن يجعل المؤلفان القمار التجاري المقام الأول ، ولكن يبدو أنهما يعملان بعد اقتناع برأي « دكتور تريفليان » الذي ذكره في كتابه « التاريخ الاجتماعي للإنجليز » حيث يقول : إن مضار القمار الآن قد تفوق مضار الخمر .

وهما يصوران لنا الشعب الإنجليزي وعاداته في المقامرة ، وما استتبع هذا من قيام صناعات وحرف غايتها إشباع رغبات أولئك المولعين بالقمار ، وهي صناعات يعمل فيها عدد من الناس يساوي الذين يعملون في صناعة المنسوجات القطنية ، بل يعمل فيها عدد من الناس يفوقون ضعف عدد الذين يعملون في البحرية الإنجليزية .

والخسارة المادية في القمار قد تبلغ واحداً في المائة من مجموع الإيراد القومي ، وهو رقم ليس عالياً جداً .

ولكن العادة في ذاتها — عادة القمار — هي ظاهرة تبعث على الذهول والدهش ، وهما يعرفان المراهنة بوصفها « أنها محاولة لا نتزاز المال بغير مقابل من شخص غير معروف ، أو أنها « الرغبة في التكسب على حساب شقاء الآخرين ومصائبهم » .

وقد جاء في الفصل الذي عقداه عن الخمر أن مجموع عدد الزيارات التي يقوم بها رواد الحانات كل أسبوع ، قد بلغ ثمانين مليوناً ، وقد أثبت مكتب من مكاتب الإحصاء أن ثلث عدد السكان الذين تجاوزوا الثامنة عشرة من عمرهم يشربون البيرة بغير انقطاع .

وليس من شك في أن إباحة مشارب الخمر ، والعناية بتأثيثها ، هما من دواعي اجتذاب أولئك الرواد . ولا يخفى المؤلفان ما للإعلانات من أثر بالغ في الإيحاء والترغيب في شرب الخمر .

ويرى المؤلفان أن يسن قانون بأن لا يشمل الإعلان عن الخمر شيئاً سوى اسمها واسم بائعها وصانعها .

وهما في الفصل الذي كتباه عن الدين قد عقدا مقارنة بين عدد الذين عمروا الكنائس في عام ١٩٠١ وبين عدد الذين عمروها في عامي ١٩٣٨ ، ١٩٤٥ ، فكانت نتيجة الإحصاء ، أن التمسك بشعائر الدين كان في الجيل الماضي أشد وأقوى .

أما أمتع فصل من فصول الكتاب ، فهو ذلك الفصل الذي ضمناه دراسة شخصية لحالات أفراد من المجتمع الإنجليزي . وهو فصل قد أجادا فيه الإجادة كلها .

وهذه الدراسة لم تكن وسيلتها توجيه الأسئلة وتدوين الإجابة عليها ، ولكنها كانت بطريقة الاستجواب غير المباشر ؛ وذلك بعقد أواصر التعارف والصحبة مع كل من أرادا التحدث إليه . وقد دونا في كتابهما خلاصة دراستهما لعشرين ومائتي حالة من بين ألف حالة قاما بدراستها دراسة تفيض بالحياة .

والقارىء لتلك الدراسات يتملكه العجب من هذه الروايات التي تجمع حياة أشخاصها بين النقيضين : المأساة والملهاة .

من تاريخ القرآن الكريم

للأستاذ محمود أبو ريه

عن لنا أن ننشر كلمة نبين فيها شيئاً عن تدوين أحاديث الرسول (ص) ، ومتى وقع هذا التدوين ، وكيف كان . ولكنا رأينا قبل أن نعرض لهذا الأمر أن نأتى بفذلكة فى تاريخ القرآن الكريم وطريقة جمعه ، يتبين منها كيف كانت عناية الصحابة بتدوين هذا الكتاب الكريم بعد أن كُتب عند نزوله فى عهد النبى (ص) ، وكيف كانوا يبالغون فى التحرى فى جمعه حتى جاء على أكمل وجه وأصدق صورة ، واستحق هذا الكتاب العزيز بهذه العناية الفائقة صفة التواتر الصحيح الذى لا يمترى فيه إنسان ، ولا يختلف فيه اثنان .

ولو أن الصحابة كانوا قد فعلوا فى تدوين أحاديث الرسول (ص) مثل ما فعلوا فى تدوين القرآن لجاءت هذه الأحاديث على غير ما هى عليه الآن ؛ فتكون كلها متواترة فى لفظها ومعناها ، ليس فيها شىء اسمه صحيح ، ولا شىء اسمه حسن ، ولا شىء اسمه ضعيف أو موضوع ! .

وبذلك كان ينحط عن كواهل العلماء أثقال البحث عن صحة ما روى عن الرسول (ص) ، وأعباء تأليف الكتب الكثيرة التى وضعت فى علوم الحديث ، وبيان أحوال الرجال من حيث الجرح والتعديل وغير ذلك .

وكان أئمة الفقه يسيرون على نهج واحد ، لا اختلاف بينهم ولا تباين ؛ إذ تكون أدلتهم كلها متواترة ؛ فلا يأخذون بالظن الذى فتح أبواب الخلاف وشق صفوف الأمة إلى مذاهب وفرق ؛ بله ما نجم عن ذلك من الفرقة بين علماء الحديث وبين علماء الكلام والأصول من ناحية ، وبينهم وبين أهل الرأى من الفقهاء من ناحية أخرى ، مما لا يزال أثره بينهم إلى اليوم قائماً .

ولقد كان بودى أن أقتبس اثنى عشر مثلاً من تلك الدراسات ، ولكنى مكتف بواحد منها . وقد اخترته مصادفة واتفاقاً :

الآنسة (أ) فتاة من فتيات بيت من بيوت الطبقة العاملة . عمرها واحد وعشرون عاماً . يعيش أهلها فى بيت ملأ الزحام جوانبه . ويعيش الأبوان والبنات الثلاث والفتيان — وكلهم قد جاوز سن البلوغ — فى ذلك البيت المكون من غرفتين للنوم .

ويعمل الرجل وواحد من ولديه فى مسبك . وليس فى البيت حمام ولا حديقة . وليس يفصل البيت من بيت الجار غير فناء ضيق .

والآنسة « أ » التى أسلفنا القول عنها تقوم بمعجزة من المعجزات . وذلك بالعيش فى هذه البيئة . فهى تخرج من هذا البيت . وكأنها غانية مبتدلة . وهى مخطوبة لى صانع يعمل فى البحرية . وهذه الحالة — حالة الخطبة — تعبر لارتقاء فى مدارج الحياة لدى هذه الفتاة . وهى جد راغبة فى أن تبدو ظريفة فى عين خطيبها .

والمحيط الذى تعيش فيه هذه الفتاة محيط وبىء . ففيه مضاجعة المحارم . وفيه الفسق بالإكراه .

أما الزنا فهو كوجبة الطعام الكاملة .

ولا شك أن الفتاة كانت تعرف أشياء عن الرجال . ولكنها منذ التقت بخطيبها قد نسيت كل شىء . وهى تحاول أن ترقى بنفسها . وقد ظفرت بكتيب صغير يتضمن نبذاً عن مسائل التجميل .

وقد اشترت كتاباً يبحث فى قواعد آداب السلوك . والآنسة « أ » تدخن وتعاقر الخمر قليلا . وهى تحب الرقص والسينما . وهى تشتاق أن يكون لها بيت ، أو شقة مستقلة . وهى لا تريد أن تنجب أطفالاً إلا بعد سنين ...

وهذه القصة قصة كاملة . فى غنى عن التعليق . وهى كذلك فى غير حاجة إلى البيان والشرح .

ولعله ليس خيالاً أن يكون هذا الكتاب نقطة التحول لنهضة كبرى تؤدى إلى تجميل أوقات الفراغ لدى اللاعبين . والرقى بها إلى غاية أنبل وأسمى ...

(عن الإنجليزية) مبارك ابراهيم

وإنا نمهد لقولنا بكلمة في معنى الوحي .

قال الراغب في مفرداته[1] : أصل الوحي الإشارة السريعة ، ولتضمنه السرعة قيل : (أمر وحي) ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ، وبإشارة ببعض الجوارح ، وبالكتابة . وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا : « فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم » فقد قيل رمز ، وقيل أشار ، وقيل كتب .

وقوله : وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم — فذلك بالوسواس المشار إليه بقوله : « من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس » وإن الشيطان لمة .

ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه (وحي) وذلك أضرب ، كما دل عليه قوله : «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً — إلى قوله — بإذنه ما يشاء» ، وذلك إما برسول مشاهد تُرى ذاته ويسمع كلامه كتبليغ جبريل للنبي في صورة معينة ، وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله ، وإما بإلقاء في الروع كما ذكر النبي : « إن روح القدس نفث في روعي » ، وإما بإلهام — نحو « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه» وإما بتسخير — نحو قوله : « وأوحى ربك إلى النحل » ، أو بمنام كما قال عليه الصلاة والسلام : « انقطع الوحي وبقيت المبشرات : رؤيا المؤمن » .

وقال الأستاذ الإمام محمد عبده في رسالة التوحيد ، بعد أن عرف معنى الوحي لغة[2] : «وقيل الوحي إعلام في خفاء ، ويطلق ويراد به الموحى ، وقد عرفوه شرعاً بأنه كلام[3] الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه . أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه : عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة .

كيفية الإنزال والوحي :

قال السيوطي في الإتقان[4] : في المنزل على النبي (ص) ثلاثة أقوال : (الأول) أنه اللفظ والمعنى ، وأن جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به . (الثاني) أن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة ، وأنه (ص) علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب ؛ وتمسك قائل هذا بظاهر قوله تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك » (الثالث) أن جبريل ألقى إليه المعنى ، وأنه عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب ، وأن أهل السماء يقرءونه بالعربية ، ثم إنه نزل به كذلك بعد ذلك . وقال : وفي التنزيل طريقان : — (أولهما) أن النبي انخلع من صورته البشرية إلى صورة الملكية ، وأخذه من جبريل (والثانية) أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه .

نزول القرآن منجماً :

أنزل القرآن العزيز منجماً في بضع وعشرين سنة بمكة والمدينة ، فربما نزلت الآية المفردة ، وربما نزلت آيات عدة إلى عشر ، كما صح عند أهل الحديث ، وذلك بسبب الحاجة التي تكون سبباً في النزول ، وليثبت به فؤاد النبي (ص) ، ثم ليكون أشد على العرب ، وأبلغ في الحجة عليهم .

وقد نزلت بعض السور كاملة ، كالفاتحة والإخلاص والكوثر .

وقد صح كذلك نزول بعض آية . روى البخاري عن البراء قال : لما نزلت (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله) قال النبي (ص) أدع لي زيداً وليجيء باللوح والدواة . ثم قال : « لا يستوي القاعدون — وخلف ظهر النبي — عمرو بن أم مكتوم الأعمى . فقال : يارسول الله ، فما تأمرني ، فإني رجل ضرير — فنزلت مكانها « لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله غير أولي الضرر » — والذي في التلاوة غير أولي الضرر — قبل والمجاهدون في سبيل الله .

وكان الرسول (ص) يأمر كتاب الوحي أن يكتبوا ما ينزل عليه من الوحي عند نزوله حتى لا يفلت منه شيء .

كيف تلقى الصحابة يتلقون القرآن :

كان النبي (ص) بعد أن ينزل إليه ما ينزل من القرآن ويكتبه كتاب الوحي يحض صحابته على حفظه وضبطه والمداومة

(١) ص ٥٣٦ .
(٢) ص ٦٩ من الطبعة الأولى .
(٣) وفي صفحة ١٠٨ من الطبعة الثانية أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي .
(٤) ص ٤٤ ج ١ .

بالليل والنهار على تلاوته في صلاتهم وغير صلاتهم ، وبذلك كثر الحفاظ فيهم ، إما بحفظ القرآن كله أو بحفظ بعضه .

كتاب الوحي :

كان من كتاب الوحي الخلفاء الأربعة وسعيد بن العاص والزبير بن العوام وطلحة، وكان أكثرهم كتابة وأشهرهم بينهم زيد بن ثابت .

وكان أول من كتب للنبي بمكة من قريش عبد الله بن سعد ابن أبي سرح الذي ارتد ثم عاد إلى الإسلام يوم الفتح ، وأول من كتب بالمدينة أبي بن كعب وزيد بن ثابت ، وممن كتبوا كذلك حنظلة بن الربيع الأزدي .

الذين جمعوا القرآن على عهد النبي .

ذكروا أن الذين جمعوا القرآن على عهد النبي : هم علي ابن أبي طالب ، وسعيد بن عبيد بن النعمان ، ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب ، وعبيد بن معاوية ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء . ولم يذكر ابن النديم في الفهرست من هؤلاء عبيد بن معاوية .

وذكر الذهبي في طبقات القراء أن المشهورين بإقراء القرآن عثمان وعلي وأبي وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبو موسى الأشعري .

وإذا كان هناك اختلاف في بعض من جمعوا القرآن فإنه لم يحصل اختلاف في أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وعلي .

جمع القرآن وصحفه في عهد أبي بكر :

روى البخاري عن زيد بن ثابت أنه قال :

قبض رسول الله ولم يكن القرآن جمع في شيء ، وذلك لأنه كان في الصدور وفيما كتبوه متفرقاً . ولما تولى أبو بكر ونشبت حرب الردة وقتل فيها كثير من الصحابة خشي عمر من ضياع القرآن بموت الصحابة فدخل على أبي بكر وقال له : إن أصحاب رسول الله باليمامة يتهافتون تهافت الفراش في النار ، وإني أخشى ألا يشهدوا موطناً إلا فعلوا ذلك حتى يقتلوا وهم حملة القرآن فيضيع القرآن وينسى ، ولو جمعته وكتبته ! فنفر منها أبو بكر ، ولما تراجعا أرسل أبو بكر إلى زيد بن ثابت وقال له : إن عمر قد دعاني إلى أمر فأبيت ، وأنت كاتب الوحي ، فإن تكن معه اتبعتكما ، فنفر زيد كذلك وقال : نفعل ما لم يفعل رسول الله ؟ فقال عمر : وما عليكما لو فعلتما ذلك . فشرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك رأي عمر ، ثم تتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف[1] والأكتاف وقطع الأديم وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة براءة مع ابن خزيمة لم أجدها مع غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى خاتمة السورة .

وقد اختص أبو بكر زيداً بذلك لأنه كاتب الوحي وكان حافظاً للقرآن وصاحب العرضة الأخيرة ، وقبلت شهادة ابن خزيمة الأنصاري وحده لأن رسول الله جعل شهادته بشهادة رجلين .

تحريهم في جمع القرآن :

لما اتفق الرأي على جمع القرآن قام عمر في الناس وقال : من تلقى من رسول الله شيئاً من القرآن فليأت به .

وقال أبو بكر لعمر وزيد اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه . وكان عمر لا يقبل من أحد حديثاً عن رسول الله حتى يشهد شاهدان أنهما تلقياه من النبي .

وعهدوا إلى بلال أن ينادي في أنحاء المدينة أن من كان عنده قطعة عليها شيء من كتاب الله فليأت بها إلى المسجد وليسلمها إلى الكتبة .

قال أبو شامة : وكان غرضهم ألا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ، لا من مجرد الحفظ ، ولذلك قال في آخر سورة التوبة : لم أجدها مع غيره ، أي لم أجدها مكتوبة مع غيره لأنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة .

وروى ابن وهب في موطئه عن مالك عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله بن عمر أنه قال : « جمع أبو بكر القرآن في قراطيس » وبذلك يكون أبو بكر أول من جمع القرآن (في الصحف) بعد أن كان متفرقاً — وهذا هو الجمع الأول

الجمع الثاني في عهد عثمان :

لبثت الصحف التي كتبت في عهد أبي بكر محفوظة عنده

---

(١) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل ، كانوا يكشطون الخوص عنه ويكتبون في الطرف العريض . واللخاف جمع لخفة بفتح وسكون ، وهي صفائح الحجارة .

إلى أن قضى نحبه ، ثم حفظت عند عمر مدة ولايته ، وقبل موته دفع بها إلى ابنته حفصة حتى طلبها عثمان ليراجعوا عليها الصحف التي كتبت في عهده .

المصاحف التي كتبها عثمان :

وما كاد عمر ينقلب إلى ربه ويتولى عثمان أمر المسلمين حتى ثارت أعاصير الفتن وتفرق الناس ، وكان من هذا التفرق أن اختلف المسلمون في قراءة القرآن حتى كفر بعضهم بعضاً ، وامتد هذا الخلاف حتى عم جميع الأمصار .

روى البخاري أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وآذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، وقال لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى !

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف : لما كان في خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر بعضهم بعضاً .

ومما ذكره حذيفة : رأيت أناساً من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، وأنهم أخذوا القرآن عن (المقداد) ، ورأيت أهل دمشق يقولون إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم وأنهم قرأوا بقراءة (أبي بن كعب) ، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك ، وأنهم قرأوا على (أبي موسى) ويسمون مصحفه (لباب القلوب) .

ولما بلغ كل ذلك عثمان خطب فقال : أنتم عندي تختلفون فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافاً . ثم أرسل إلى حفصة ابنة عمر : أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك . فأرسلت بها حفصة إلى عثمان . فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم . ففعلوا ، ثم رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، وكان ذلك في أواخر ٢٤هـ وأوائل ٢٥هـ

وقد اختلفوا في عدة المصاحف التي أمر عثمان بكتابتها ، والمشهور أنها كانت خمسة ، أرسل أربعة منها في الآفاق وأمسك عنده واحداً .

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان :

قال بعض العلماء : إن الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان ، أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد ، فجمعه في صحائف مرتبا لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي (ص) ، وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرأوه بلغاتهم مع اتساع اللغات ، فأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضاً ، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك ، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم ، وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم رفعاً للحرج والمشقة ، في ابتداء الأمر ، فإنه قد رأى أن الحاجة في ذلك قد انتهت ، فاقتصر على لغة واحدة

محمود أبو رية

عاشق ...!!

قسما بحبك ، بالهوى الـ / مجنون يعصف بالقلوب
بالنور يلمع في عيو / نك ، وهو نار في جنوبي
بالزهر يسطع في خدو / دك ، بالفم الحلو الرطيب
بالعطر من ثغر حبيـ / ـب النحل رياني ، خضيب
بالدر يبرق من ثنا / ياك ، بغامتك اللعوب
بالبلبل الغرِّيد إذ / تشدين بالصوت الطروب
بالكبر من أنف كحدِّ / السيف ، بالشمم المهيب
بالطهر ينضح من جبيـ / ـنك آه من طهر مذيب
بالسحر من وجه حبا / ه الله بالسحر العجيب
بالريم من جيد يسلُّ / الفهم من عقل اللبيب
بالخصر قد أضنيته / نحولاً وصلا بالكثيب
والو ، كقلب الصب ، كالـ / أملود ماس من الهبوب
بالوردة الحمراء في / نهديك تهدر كاللهيب
بالنظرة النعساء في / جفنيك ، بالسهم المصيب
أنا قد عشقت شقاوتي / في حب روحك ياحبيبي !!

(اسكندرية) محسن صادق عبد الله

لعنة الفكر

للأستاذ إدوار مقسي

« البلبل والوردة » قصة جميلة لأوسكار وايلد ، خلاصتها أن طالب فلسفة أحب فتاة حسناء ، وعدته أن تراقصه في حفل سيقام في دار أبيها — وهو في نفس الوقت أستاذه — بشرط ... ويا له من شرط ! أن يهديها وردة حمراء ! ولم يكن الموسم موسم ورود حمراء أو بيضاء ! ولكن بعد محاولات خيالية توصل الطالب بمساعدة بلبل بذل دماء قلبه كلها فداء الطالب المسكين إلى خلق وردة حمراء « بلون قاني كلون اليواقيت والرجان » ، أسرع بها طالب الفلسفة إلى فتاته الحسناء ، سعيداً حالماً برضاها وحبها . ولكن وا أسفاه !..

— إنها لا تناسب ثوبي ، فضلاً عن أن قريب الحاكم أرسل إليّ جواهر ثمينة . والكل يعرف أن الجواهر أغلى كثيراً من الورود .

— أقسم أنك جاحدة .

— إن كنت جاحدة فأنت خشن . وعلى كل من تكون ؟! طالب لا أكثر ولا أقل . فكيف تريدني أن أفضلك على قريب الحاكم ؟! .

وهكذا عاد الطالب كسير القلب مخذول النفس إلى فلسفته يدرسها ، وإلى علومه يستوعبها .

وأوسكار وايلد يرمز هنا إلى أن المرأة لا يغرّها إلا البريق ، ولا يخطف بصرها إلا اللمعان ، ولا يهفو قلبها إلا المظهر ... القشرة دون اللباب ! « إن الجواهر أغلى كثيراً من الورود » ! وإن الحياة الصاخبة المرحة أجمل كثيراً من الحياة التي ظاهرها ساكن راكد وباطنها غني بالتأملات والأفكار ! وإن العيش مع قريب الحاكم — الذي يعزز حبه بهدايا الذهب والفضة — لأفضل كثيراً من العيش مع مفكر لا يملك ذهباً ولا فضة ، ولكن كل بضاعته أفكار وأوهام لا تعترف بها المرأة ولا تعيرها أي التفات ! أجل ، إن فكرة العيش مع رجل أرصد حياته للفكر تدفع بالمرأة غالباً إلى الهرب منه . نادراً ما نجد من ترضى بمفكر تقاسم وأفكاره حياته . نادراً ما نجد امرأة كمدام طه حسين التي كثيراً ما يسميها عميد الأدب العربي بـ « هذا الملك الكريم » ! أو كماري آن زوجة دزرائيلي التي كانت تكافح معه الحياة حتى ظفر بالمجد ، وكان هذا بمجهودها معه وتشجيعها له ! أو كزوجة شومان التي ظلت بعد وفاة زوجها الموسيقي تعزف للعالم كل ما كتب ، تنشر موسيقاه التي لم يكن قد هضمها الجمهور بعد ، حتى آخر يوم من حياتها ، فتمت بذلك رسالة زوجها على يديها ، بل بأناملها وإرادتها ، لأنها كانت تؤمن بفنه وعبقريته ... بل كانت تؤمن بزوجها قبل أن تؤمن بفنه وعبقريته ، وغيرهن .

تنفر المرأة من الفكر ، لأن جوهرها عاطفي . ولقد حسُن ظن أوسكار وايلد في إحدى مخلوقاته حينما قال « إنها » (في قصة « جريمة اللورد آرثر سافيل ») « لم تكن تعنى قط بالموسيقى ، ولكنها كانت مغرمة كل الإغرام بالموسيقيين » ... فالمرأة عموماً لا تهوى الفكر فضلاً عن المفكرين . ولقد كان سبينوزا ، الفيلسوف والأخلاقي اليهودي ، يبادل ابنة أستاذه في اللاتينية الحب . كان حينئذ فقيراً ، كما كان فقيراً دائماً ، حتى ظهر للفتاة محب آخر تحولت إليه وقد أخذ « بصرها » بريق هداياه الثمينة ... وهكذا فقد الفيلسوف الفتاة ، فأهدرت كرامة الحب وقد خبا بجانب زيف الأصفر الرنان !

إن وجه المفكر المقطب لا يوحي للمرأة إلا بنفس منقبضة ، وإن كانت تفيض أحياناً بالبهجة والانطلاق . ويوصف المفكرون بلسان أوساط الناس بمجهدي عقولهم فيما لا يدعو إلى التفكير ! ومن ثم فالانتساب إليهم حمق لا يغتفر . ولقد كان سقراط غير مرحب به في بيته لأنه كان يهمل زوجته وأولاده . وكان رأي امرأته فيه أنه : « تافه للأشياء » ، عاطل ، يجلب لعائلته الشهرة أكثر مما يجلب لها الخبز !

وهكذا حلت اللعنة على كل من له رأس يستعمله في التفكير البحت ، الحكم على المفكرين بالوحدة يؤزونها — راغمين أو راضين — بلا مشاركة امرأة كثيراً

ما تكون حمقاً، لا ترى في الفكر سوى لعنة وفي المفكرين سوى « تافهين للاشيء » !.

وقصة حب نيتشه، الفيلسوف الحالم، كما يمكن أن نسميه، قصة فيلسوف خدع في حبه وخيب في آماله وأمانيه. كان نيتشه قد قارب الأربعين وهو بعيد كل البعد عن الزواج والمرأة على العموم. ولم يكن هذا لبعد تفكيره عنهما وزهده فيهما. فالقارئ المتفحص لحياته يلحظ بين السطور مقدار إعجابه بمنزل صديقه فاجنر — في فترة إقامته بتريبشن — حيث كان يرفرف حب وحنان الزوجة كوزيما، زوجة فاجنر. بل يلحظ القارئ بين السطور، أو القارئ فوق السطور نفسها أحياناً، مقدار إعجاب نيتشه بكوزيما بالذات كمخلوقة تشارك زوجها العظيم أفكاره وآراءه ومجده أيضاً... ليس لبعد تفكير نيتشه من الزواج وغرامه بالمرأة، ولكن لعدم عثوره على من تشاركه الحياة كمفكرة وكمقيدة. ولكن يلتقي نيتشه يوماً بالفتاة التي ظن أنها « هي » التي يبحث عنها ويحلم بها. فهي قد قرأت كل كتبه، وهي قد تشبعت بفلسفته كل التشبع، وهي قد استظهرت عن ظهر قلب كثيراً من الفقرات التي كتبها...

فلا يملك إلا البوح لـ « لوسالومي » (وهو اسم الفتاة) بإعجابه وحبه منذ اللقاء الثاني، ولكنها تدهش وكأنها فوجئت، إذ يقترح عليها الزواج منه، وتفر هاربة قائلة له ما معناه: إن إعجابها به كان روحياً أكثر من أي شيء آخر...!

•••

عندما يهب الله « الفكر » إحدى مخلوقاته، فقد أراد لها الوحدة أيضاً، فلا وفاق للعبقرية مع الغوغاء. وأين مياه الينابيع الصافية الرقراقة من مياه المستنقعات الراكدة العكرة! أين النور من الظلام! ترى لو أن المفكر في بدء طريقه، قد خير بين أن يمضي في التبشير عن رسالته أو أن ينساق فيما ينساق فيه الناس من حياة يأخذونها كما هي... أي الطريقين كان يتخذ؟! إنه لسؤال من السخافة بمكان! فأين العاقل الذي يتحول من الينابيع الصافية الرقراقة إلى المستنقعات ينهل من راكد ومتكدر مياهها! أين العاقل الذي يتحول بناظريه من النور إلى الظلام يتخبط في دياجيره حتى وإن كتبت عليه الوحدة طيلة أيام حياته!.

إدوار منسي

كتب من سورية :

الذيل على طبقات الحنابلة

لابن رجب

للأستاذ صلاح الدين المنجد

صدر هذا الكتاب بتحقيق المستشرق الجليل الأستاذ هنري لاووست ، والأستاذ سامي الدهان . والمحققان من الأعلام . فالأستاذ لاووست مختص بشئون الحنابلة ، أما الدكتور الدهان فسبق أن نشر ديوان أبي فراس ، والوأواء ، ورسالة السياسة للوزير المغربي[1] .

وهذا الكتاب جعله مؤلفه ذيلاً لطبقات الحنابلة للقاضي ابن أبي يعلى . فبدأ بوفيات سنة ٤٦٠ هـ ، ومضى به حتى القرن الثامن . (توفي ابن رجب في سنة ٧٩٥) .

ونصوص هذا القسم من الكتاب معروفة ، أعني أنها لا تنشر أول مرة . فقد نجدها في المنتظم لابن الجوزي ، ونجدها عند ابن العماد في الشذرات ، وقد أخذ هذا معظم تراجم ابن رجب بنصها في أحايين كثيرة . وهذا يجعل أمر تحقيق الكتاب سهلاً .

أما تحقيق الكتاب ، فقد أبهجنا أن يقوم به مستشرق كبير ، مع الدكتور الدهان . وقلنا إن الكتاب سيكون آية في الدقة ، وأنموذجاً يقلده المحققون . لأن الأستاذ المستشرق سيتبع فيه أصول النشر الأوربية بدقة ، والدكتور الدهان سيعنى بالضبط والتصحيح . فيأتي الكتاب كأحسن كتاب يُنشر .

اعتمد المحققان على نسختين من الكتاب في ظاهرية دمشق ، وعلى نسخة ثالثة أتيا بها من استانبول . وقد اتخذا النسخة (ظ) أماً ، وهي نسخة الظاهرية الأولى .

ويؤسفني أن أقول : إن المحققين لم يتقيدا بأصول النشر — على جلالتهما — لأني وجدت اختلافاً بين النص المطبوع ، والنسخة (ظ) التي اتخذاها أماً . ولعلهما لم يقابلا النص بعد النسخ على المخطوطة . أو أنهما أغفلا التدقيق .

وقد قابلت ثلاث صحائف من المطبوع على المخطوطة الأم . فوجدت أن هناك ألفاظاً بدّلها المحققان ولم يشيرا في الهامش إلى ما فعلاه ، ووجدت أنهما أسقطا بعض الكلمات من النسخة الأم . وأنهما أثبتا ما لا يوجد في الأصول .

فني ص ٣٤٦ من المطبوع نجد : « نصر بن الحسين الحراني » . ونجد في المخطوطة الأم « نصر بن الخير » ولم يشيرا إلى هذا الاختلاف .

وفي ص ٣٤٧ من المطبوع نجد : « لاعب العود في صورة الإكراه » . ونجد في المخطوطة الأم « لاعب العود ... » ولم يشيرا إليه .

وفي ص ٣٤٨ نجد : « الحريم الطاهري » . ونجد في النسخة الأم « الحريم الظاهري » ولم يشيرا إلى ذلك .

قد يكون ما أثبته المحققان هو الصحيح ، لكن أصول النشر تقضي بالإشارة إلى اختلاف الألفاظ في النسخ ، ولو كانت خطأ ، لاسيما في نشرة يقوم بها مستشرق كبير .

أما إسقاط المحققين بعض ألفاظ من الأصل . فمثاله :

في ص ٣٤٧ ، س ٩ : « روى السلفي عن أبي الفتح أحمد بن حامد الأسدي » . وقد وجدت في النسخة الأم ، وفي نسخة (ظا) ما يلي : « روى السلفي عن أبي الفتح أحمد بن محمد بن حامد الأسدي » . فهما قد أسقطا كلمة (محمد) . وكان هذا الاسم ورد على صحته في ص ٥٥ فلم ينتبه إلى ذلك المحققان .

(١) انظر نقدنا هذه الرسالة في « الثقافة ١٩٥٠ » .

أما إثبات أسماء لا وجود لها في الأصل فمثاله :

في ص ٢٤٨ جاء في عنوان « المبارك بن عبد الله » . وهو في الأم ، وفيها « المبارك بن عبد الملك » . والغريب أن الاسم يرد صحيحاً ، في النص ، ولم ينتبه إلى ذلك المحققان .

فهذا ما وجدته في ثلاث صحائف . وما أزعم أن الكتاب كله فيه ما في هذه الصحائف . فلعل المحققين أجملا التدقيق في آخر الكتاب .

أما ما عثرت عليه من الأخطاء فهاك بعضه :

١ — ص (م ١٥) : « ويترجم ابن حجر العسقلاني في إنباء الغمر » . قلت : ما أدري من أين أتى المحققان بهذا الاسم « إنباء » فالمعروف أنه بالهمز « إنباء » . وكذا وجدته في كشف الظنون (١ : ١٧٠) . وفي الشذرات (٧ : ٢٧٢) . ومسودة هذا الكتاب موجودة في ظاهرية دمشق . (تاريخ ٢٤١) وقد رجعت إليها فوجدت ابن حجر يكتب بخطه : « وسميته إنباء الغمر بأبناء العمر » (ورقة ١ آ) . وعلى هذا فقد أخطأ المحققان . وليس بعد خط المؤلف شبهة .

٢ — ص (م ١٥) : جاء « وقضى في دمشق بأرض الخيرية » بالخاء المعجمة . والصواب « الحبرية » بالحاء المهملة نسبة إلى الحبريين ، وكانت الأرض تسمى « الحبريين » أيضاً باسم من نزل بها . والحبريون محلة بظاهر دمشق على القنوات . (انظر ياقوت ٢ : ٢٤٣) وانظر نزهة الأنام للبدري ، وما ورد عنها في كتابنا خطط دمشق .

٣ — ص ٤١ ، س ٦ جاء « أحمد بن سليمان بن ريان » قلت : ريان بالراء والياء خطأ . والصواب (زبان) بزاي وموحدة . انظر المشتبه ص ٣٣٢ ، وميزان الاعتدال ١ : ٤٨ .

٤ — ص ٤٥ س ١٢ . جاء « أبو المعالي أحمد بن محمد ابن الحسين الداري » . قلت : الداري كما أثبتها المحققان بالدال المهملة خطأ . والصواب بالذال المعجمة . قال في المشتبه : « وبذال معجمة الذاري . أبو المعالي أحمد بن محمد بن الحسين بن الذاري » ص ٤٧١ .

٥ — ص ١٣٧ س ١٨ ورد « أبو بكر الساسي » بالسين المهملة . وهو خطأ . والصواب بالشين المعجمة . قال في المشتبه : « والشاشي خلق ، منهم أبو بكر محمد بن المظفر الشاشي » ص ٣٤٩ .

٦ — ص ١٣٩ س ١٣ ورد « الخلنط وهو النقل » . كان المحققين أن يستدركا ما جاء في لب اللباب : « والخلط هو الفاكهة اليابسة من كل نوع » ص ٢٣٩ . وكذا في الشذرات .

٧ — ص ١٤٠ س ٧ : ورد « يحيى البيق » وعلق عليها المحققان : « لعلها البيسق » . قلت : كلاهما خطأ . الصواب « يحيى السيبي » من أهل السيب ، وهو على الفرات ، بقرب الحلة . انظر طبقات القراء ٢ : ٣٦٥ ، والمشتبه ص ٣٥١ .

٨ — ص ١٤٢ س ١٨ « حادي عشرين صفر » . الصواب : « حادي عشري صفر » بحذف النون .

٩ — ص ١٦٠ س ٢٠ « ثنا عبد المؤمن بن أحمد بن جوز الجرجاني » قلت : جوز بالجيم خطأ . والصواب حوزة ، بالحاء المهملة وآخره تاء مربوطة . جاء في القاموس (مادة حوز) « وعبد المؤمن بن أحمد بن حوزة الحوزي الجرجاني ، محدث . »

١٠ — ص ١٦٣ س ١٦ « أبو القاسم بن قلدويه » كذا بالقاف . والصواب « فلدويه » بالفاء . وقد ضبطها في تاج العروس . قال : « فلدويه جد أبي القاسم عبد العزيز بن أحمد ..... بن فلدويه » .

١١ ص ٢١٥ س ١١ « أبو الفتح الميداني » . كان على المحققين أن يثبتا « المندائي » . جاء في المشتبه : « وأبو العباس أحمد بن بختيار المندائي ، قاضي واسط . وابنه مسند العراق أبو الفتح المندائي » ص ٥١٢ .

١٢ — ص ٢١٦ س ١٢ « جعفر بن محمد القرياني » كذا بالنون ، وهو خطأ . والصواب بالباء ، نسبة إلى فرياب . قال في المشتبه : « وجعفر بن محمد الفريابي ، الحافظ صاحب التصانيف » ص ٥٠٤ .

١٣ — ص ٢٢٧ س ٢٠ « محمد بن عمرو البحتري » وهو خطأ . والصواب البختري بالخاء المعجمة . وفي المشتبه : « والبختري جد محمد بن عمرو البختري ، محدث مشهور » ص ٣٦ .

١٤ — ص ٢٤٧ س ٧ « صدقة بن علي بن محشي » بالحاء المهملة . وقد ضبط اللفظ في المشتبه « مخشيّ » بالخاء المعجمة .

١٥ — ص ٢٤٢ س ٤ « أحمد بن الدبيق » إذا صح رسم الكلمة . فيجب أن تكون دبيق ، بتقديم الموحدة على المثناة التحتية . نسبة إلى دبيق كأمير ، بلدة بمصر ، أو إلى

من ديوان خفقات قلب :

إليهـــا

.. إلى التي أترعت كأس حرماني .. وملأت يدي بالهشيم من الأحلام .. وتركتني في وحشة تلي أصل الوحشة صلوات الألم .. وأعيش على سراب الأمس الجميل ..

إليها .. في مدائن شبابها ونضارها .. وفي محراب خافقا المتصاعدة من حوله الأبخرة .. أبخرة القلوب المحترقة في لهيب الحب المقدس ... أرسل هذه الخفقات من القلب الذي تسعره ...

إلى التي سطرت في المجد أخباري
وداعبت بالهوى والحب .. أوتاري
والحبت في كياني ... كل جارحة
وأشعلت في فؤادي جذوة النار
وخلصتني من الأصفاد في بدني
وأنقذتني .. من طيني .. وأسواري
وأفرغت .. في فؤادي كأس صبوتها
فأرشدتني .. إلى كنزي وأسراري
وفتحت في شعوري ألف نافذة
أطل منها إلى عمقي .. وأغواري
تبارك الحب أحياني .. بغمته
فقمت من غفوتي أشدو بأشعاري
وفي فمي ألف معنى كان في خلدي
مغلقاً .. بين أسداف وأستار
أقام خلف ضلوعي .. غير منطلق
كما أقام غريب .. نازح الدار
جئته أنت من دنياك فانبجست
هذي الخواطر تزهو بين أسطاري
إليك يا سر قلبي كل قافية
أصوغها من دمي من دمعي الجاري
إليك وحدك دون الناس ما خطرت
به البراعة من شعري وأفكاري
إليك خفقة قلب ليس يشغله
عنك التغرب في مدن وأمصار
يلاحق الخطو خلف المجد يطلبه
ودونه الدهر .. ليث الغابة الضاري
ومعه إحساس منك ... بارقة
من الرجاء .. تنير الأفق للساري
إليك قلبي .. كنزاً .. طالما نبعت
منه القصائد .. لحناً .. جد مختار
يصوغها .. لك عِقداً من مشاعره
يفوق كل عقود الزهر والغار

كيورك حسن مشر

الدقيقة ، بلدة بالعراق . أنظر لب اللباب .

فهذه أنموذجات من الأخطاء . وهناك أعلام كثيرة أعتقد أنها وردت على غير صحتها ، وتحتاج إلى ضبط .

ولا بد من لفت نظر المحققين إلى أنه كان عليهما أن يحترما رسم القرآن الكريم في الآيات المذكورة في الكتاب . فقد جاء في ص ٣٠٦ : « السماوات مطويات » وكان الأولى إثباتها « السموات مطويات » .

وفي الكتاب ألفاظ كثيرة كان ينبغي شرحها أو ضبطها ككلمة « الداناج » ومعناها العالم . ولو أنهما ضبطا كثيراً من أسماء الأعلام مثل « طبرزد » و « ابن البطر » و « البردى » لكان خيراً من ضبط مقدمة المؤلف بالشكل الكامل .

وقد كان بوسع المحققين أن يكون الكتاب أكثر صحة ، فالسرعة تبدو فيه واضحة ، وهو لم يحرر ويتقن . ومهما كان من أمر هذه الأخطاء التي ذكرناها أنموذجات ، وغيرها مما ترك المحققان ولم يصححاه ، معتمدين على فطنة القارئ[1] ، فإن الأستاذ لاووست والدكتور الدهان جديران بالشكر على ما بذلاه — قدر وسعهما — من جهد في التحقيق والضبط وصنع الفهارس ، كما أن المعهد الفرنسي بدمشق جدير بالشكر على إخراج هذه النصوص العربية .

(دمشق)   صلاح الدين المنجد

---

(١) انظر ص ١٠٣ من الكتاب .

فى دوائر الأدب والفن

تقويم لشهر يونيه :

فى العدد رقم ٤٥ من مجلة « أنباء اليونيسكو » تقويم طريف لشهر يونيه ؛ فواضعه — الأستاذ جورج فراديير — لم يتناول فيه بالبحث درجات الحرارة أو مدارات النجوم ، بل عرض عرضاً موجزاً وافياً لحياة وأعمال مجموعة من الأدباء والفنانين كانت وفاتهم فى هذا الشهر من شهور الصيف .

وأول هؤلاء هو الكاتب الشاعر الألمانى : جرهاردت هوبتمان ، وهوبتمان فى شبابه لم يكن ينزع نحو الأدب والكتابة ، بل كان يريد أن يكون مهندساً ، وكانت أغلب قراءته فى كتب علمية بحتة ، ولكنه عندما أصبح على حد تعبير النقاد « كاتباً عبقرياً » اعتاد أن يقول إن دراساته الهندسية العلمية كانت خير معين له فى إنتاجه الأدبى ، سواء منه المسرحى أو القصصى والشعرى .

وقد عاب عليه الناس فى بداية حياته الأدبية أنه يأخذ أفكار مؤلفاته من كتاب مشهورين مثل يرون وإبسن وزولا وتولستوى . وهوبتمان فى الحقيقة كان يستلهم فى كتاباته أحوال المجتمع الذى يحيط به ، فكان يدافع فى حرارة وإيمان عن حقوق العمال والفقراء ، ومسرحيته المشهورة «Die weber» أوضح مثل على هذا الاتجاه ، ولكن المشكلات الاجتماعية لم تستحوذ وحدها على هذا الكاتب ؛ فقد عرض فى مؤلفاته لمسائل أخرى كثيرة أدبية وفلسفية ، وقد نال هوبتمان جائزة نوبل عام ١٩١٢ .

وتفرغ بعد ذلك لكتابة القصة ، وألف ملحمة شعرية تاريخية ذات صبغة دينية قوية هى «Emmanuel Quint» ثم وهب نفسه لعبادة « الطبيعة » بجمالها الساحر وليالى صفائها الخلابة ، وكان أدبه فى الأعوام الأخيرة من حياته تعبيراً صادقاً عن حب الحياة وجمال الشباب وخلود قوى الطبيعة ، وقد مات فى الحادى عشر من يونيه سنة ١٩٤٦ .

أما ج . ك . شيسترتون ، فقد توفى فى الرابع عشر من يونيه سنة ١٩٣٦ . وقد كان خلال حياته الحافلة العدو الأكبر لركود العقل والتواكل والغرور ، كما كان يقف فى صف المعارضين للتيارات المادية التى تخلط بين التقدم الصناعى الآلى والتقدم الإنسانى المعنوى . وقد كرس حياته إلى جانب ذلك لمحاربة النزعات الأنانية الجارفة فى المجتمع وروح التكتل والأثرة . وقد كان شاعراً عظيماً إلى جانب كونه مصلحاً اجتماعياً . وله أبحاث كثيرة فى الأدب كما له قصص بوليسية متعددة . وكان يحب فى كتاباته الإغراب ، ويعرض أفكاراً تبدو لأول وهلة متناقضة ، ولكنه كان يدعو لمبادئ محددة واضحة ؛ فهو فى ميدان السياسة يريد الاشتراكية ، وفى ميدان الدين يريد الكاثوليكية .

وفى السابع عشر من يونيه سنة ١٩٣٦ أيضاً مات الكاتب الروسى المعروف « مكسيم جوركى » وجوركى لقب اتخذه الكاتب عندما بدأ يكتب . واسمه الأصلى أليكس مكسيموفيتش بيشكوف . وقد مارس صاحب هذا الاسم فى صباه حياة التشرد والمغامرة . فقد كان يتيماً مجبراً على أن يعول نفسه وهو فى سن التاسعة . وقد عاش زهاء ١٥ سنة مع الشحاذين واللصوص والهاربين من وجه القانون على قارعة الطرق الطويلة الممتدة بين نجنى نوفجرد وتفليس . وفى هذه المدينة الأخيرة شاءت له الأقدار أن يصبح صحفياً ثم كاتباً قصصياً . وسرعان ما ذاع صيته واشتهر فى روسيا ثم فى العالم أجمع . وخلال كل مؤلفاته تظهر لنا فى وضوح عقيدته فى مستقبل الإنسانية وإيمانه بسمو الإنسان . ذلك الإيمان الذى يضفى على عمله الأدبى صبغة مميزة قوية . وكان تفكيره ثورياً . وكان يعتبر نفسه نبياً من الأنبياء ، له رسالة رفيعة روحية فى هذا العالم الذى طغت عليه « طبيعة ثانية » هى الحضارة المادية . وهو يقول على لسان « إنسان » فى قصيدة رائعة له : « سوف يأتى اليوم الذى يمتزج فيه عالم إحساساتى وعواطفى بعالم تفكيرى الخالد فى نار محرقة

خالقة بين جوانحي تذيب كل ما هو مظلم وشرير في أعماق ، وعندئذ تكون نفسي على صورة الآلهة التي خلقتها فكرى » .

والرجل الأخير في سجل هؤلاء الخالدين هو جان إجناس بادريسكي ، الذي توفي في التاسع والعشرين من يونيه عام ١٩٤١ . وقد كان دون جدال أبرع ضارب على البيان عرفه العالم ... كان بولاندى النشأة . وكان يحب وطنه الشقى حباً عظيما خالصاً : كان فناناً عظيما ، ولكنه كان بولانديا مخلصاً قبل أن يكون ضارب بيان ! فكرس حياته ووقته لخدمة وطنه الذى دارت به الدوائر وطمعت فيه الأمم الكبيرة فحاولت تمزيقه وتشتيت شمل أبنائه . وخلال الحرب العالمية الأولى تبرع بإيراد حفلاته الناجحة وبكل ثروته لمساعدة هيئة تحرير بولندا في أمريكا ، ثم رجع إلى بلاده عندما تمكن من ذلك ، وانتخب رئيساً للحزب الوطنى هناك وخاض غمار الانتخابات ففاز برياسة الجمهورية البولاندية الفتية ! فأصبح الرجل الذى تعتمد عليه الأمة في كفاحها المرير ، واستحق بإخلاصه ونزاهته أن يسمى بأبى الأمة . ولكنه عندما أحس بأن رسالته الوطنية قد تمت ترفع بنفسه وبفنه عن أن يفنى حياته في السياسة دون غاية ! فتنازل بمحض إرادته عن كرسى الرياسة ، وعاد إلى موسيقاه مرة أخرى وإلى جمهوره الحافل في شتى عواصم أوربا .

فينيلون :

تستعد الأوساط الأدبية في فرنسا للاحتفال بمرور ثلاثة قرون على مولد الأديب الفيلسوف فينيلون .

وفينيلون وُلد سنة ١٦٥١ من أسرة شريفة بمقاطعة بريجور ، واشتغل بالدين ، وتدرج في مناصب الكنيسة حتى عُين سنة ١٦٩٥ أسقفاً لمقاطعة كامبريه ، واختير عضواً بالأكاديمية الفرنسية وعُهد إليه بتربية ولى عهد المملكة . ثم ثارت في فرنسا بعض المناقشات الدينية حول مذهب « السلام الداخلى » ، وأخرج فينيلون حول هذا الموضوع كتابه « شرح حِكَم القديسين » الذى اعتبرته كنيسة روما خارجاً عن تعاليم الدين الصحيح . فنُفي الرجل بسبب ذلك من بلاط المملكة ، وعاش في مقاطعته حيث مات عام ١٧١٥ .

وأشهر مؤلفات هذا الكاتب هي :

رسالة في تربية الفتاة : وفيها يبسط آراءه في هذا الموضوع الخطير ، موضوع تربية الفتاة . وفينيلون أول من عني بدراسة تربية الفتاة دراسة جدية صحيحة . وعنده أن المبدأ الأول لهذه التربية هو أن تكون ملائمة لوظيفة المرأة في الأسرة وفي المجتمع ، ثم أن تكون مساعدة لطبيعة المرأة في تطوراتها وتغيراتها ، وهو يؤمن بخيرية الطبيعة الإنسانية على عكس الكثيرين غيره من رجال الكنيسة في هذا العصر .

ورسالة إلى المجمع : ضمنها آراءه الأدبية ونظريته في واجبات « الأكاديمية الفرنسية » بمناسبة إعلانها القاموس الذى استغرقت في صنعه سنين عديدة ، وهذه الرسالة تعد من أقوى دعائم النقد الأدبى (وقد ترجمها الأستاذ عادل الغضبان في مجلة الكتاب خلال السنة الماضية) .

ثم قصة « تلياك » : وفيها يروى مغامرات البطل الأسطورى تلياك الذى يجوب أقطار الأرض باحثاً عن أبيه أوليس بطل ملحمة هومير المشهورة . وقد كتبها من أجل تلميذه ولى العهد ، وبث فيها دروساً في الأخلاق والدين والسياسة ليرشد ملك المستقبل إلى خير الطرق في سياسة رعاياه وفي حل مشكلات الحكم .

وإن العمل الأدبى الذى تتمثل لنا فيه شخصية فينيلون أحسن تمثيل هو مجموعة رسائله الضخمة التى تتناول سائر الموضوعات المطروقة في عصره ، كما تجلو لنا عن معظم نواحى عقليته ونفسيته المعقدة العبقرية .

كان فينيلون عنيداً إلى حد التهور ، يتحمس لرأيه وإن كان خاطئاً ، فلا يجادل في سبيل الحق دائماً ، وإنما في سبيل فرض فكرته . وكان سياسيا داهية يعرف كيف ينتهز الفرص وكيف يميل مع الريح ثم يعتدل فيسيطر على الموقف بشخصيته

القومية . وكان معتزاً بنفسه إلى حد الغرور ، لا يقبل الهزيمة مهما كان خصمه قوياً ، ويظل يختزن في نفسه الغضب إلى أن تواتيه الفرصة فينفجر ، وكان بعد ذلك طموحاً يهدف إلى السيطرة ، لا في النطاق الفكري فحسب ، بل أيضاً في الميدان السياسي ؛ كان يبغي من وراء تربيته لولي العهد الوصول إلى الوزارة .

ولكنه بعد ذلك كان بفلسفته العملية في التربية وبآرائه المبتكرة في الأدب وبنزعته الثورية في الدين نقطة تحول من التفكير الكلاسيكي القديم إلى التفكير الفلسفي الحديث ونبعاً من منابع فلسفة القرن الثامن عشر ...

التاريخ بين القومية والعالمية :

ألقى الدكتور عبد الحميد البطريق في دار رابطة خريجي معاهد التربية ، محاضرة قيمة عنوانها : التاريخ بين العالمية والقومية .

وقد مهد لحديثه بتحديد أنواع التاريخ : فهناك التاريخ من الناحية الموضوعية Objective ، والتاريخ من الناحية الذاتية Subjective . ودراسة التاريخ قد تكون مطلقة غير محدودة ، وفي هذه الحال تكون التاريخ العالمي Universal ؛ وقد تكون محدودة بزمن أو مكان أو موضوع . وتاريخ شعب من الشعوب ، وهو تاريخ محدود بمكان ، يسمى التاريخ القومي National . وفي كل هذه الأحوال يهدف التاريخ من الوجهة التربوية إلى تقريب الماضي من أذهان التلاميذ ليفهموا به الحاضر وليكون هادياً يهتدون به إلى المستقبل .

ثم عرض الأستاذ المحاضر المشكلة الأساسية في دراسة التاريخ القومي : وهي أن الطالب يدرسه في كتب وجه مؤلفوها كل عنايتهم إلى محاكاة الأبطال الوطنيين والتعصب ضد الشعوب الأخرى ، أو الانتقاص المتعمد من قدرها لإعلاء شأن الوطن ولو على أنقاض تاريخ الأوطان الأخرى .

والدكتور عبد الحميد البطريق كان يمثل مصر في الحلقة التي عقدتها منظمة اليونيسكو في صيف العام الماضي في مدينة بروكسيل حيث اجتمع مندوبو خمسين دولة لبحث أقوم السبل لتدريس التاريخ في مراحل التعليم المختلفة في نطاق العلاقات الثقافية الدولية ، ولإيجاد وسيلة للتعاون الدولي في سبيل تحسين كتب التاريخ المدرسية ، بحيث لا يكتب التاريخ خدمة لسياسة دولة بذاتها ، بل يكتب خدمة للحقيقة والإنسانية كلها في وحدتها على الزمان والمكان .

وترى هيئة اليونيسكو أن التاريخ كما تصوره الكتب المدرسية الحالية تزييف لحقيقة الوجود الإنساني واستعداء للشعوب على الشعوب . وترى أن تلك الأعمال الحربية التي تمجدها كتب التاريخ ليست سوى ثورات وقتية في حياة الشعوب ، ولا يبقى على الزمن إلا ما قدمت كل أمة من خير للحضارة وللإنسانية .

وبحثت حلقة بروكسيل الدراسية في إمكان التأثير على عقلية الشعوب بإصلاح مناهج الكتب الدراسية وتصحيح الأخطاء الفاحشة التي يقع فيها المؤلفون عن سوء نية . ولكن اليونيسكو لا ترمي إلى الانتقاص من قيمة التاريخ القومي ، بل ترجو أن تخلق من النشء الجديد مواطنين عالميين بحيث لا يتعارض ذلك مع وصفهم كمواطنين صالحين في وطنهم الأصلي ، فيصبح التاريخ بذلك وسيلة من وسائل نشر السلام وبث روح التفاهم بين الشعوب دون الحط من قيمة التاريخ القومي .

ثم أشار المحاضر إلى كتبنا المدرسية في التاريخ ، وإلى طريقة تدريس التاريخ في المدارس الثانوية والمرحلة الجامعية بمصر ؛ وبين النقص فيها من ناحية معالجة الشئون العالمية الحديثة والمعاصرة ؛ فهو يريد قبل كل شيء أن يدرس تاريخنا القومي ، في ضوء الحضارة العالمية الحالية ، ليدرك الشباب أين يقع من هذا العالم الواسع ، فلا يعيشوا في عصر الذرة على مجرد الفخر بأنهم سلالة الفراعنة ، أو نسل العرب الأمجاد .

وأخيراً لخص الأستاذ المحاضر في ختام حديثه بعض المقترحات ، التي أثيرت في حلقة البحث في بروكسيل ؛ وكلها تقريباً تدور حول اتخاذ دراسة التاريخ وسيلة لنشر السلام العالمي ، ومحاولة التوفيق بين القومية والعالمية في دراسة التاريخ ، وتحري الحقيقة في البحوث التاريخية المختلفة .

من بريد الثقافة

حضرة ... رئيس تحرير الثقافة الغراء .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

وبعد ، فقد سرني هذا القرار الجرئ ... في افتتاحية العدد (٦٥٠) من الثقافة ، وهو إزماع بدء عهد جديد للثقافة ، قوامه البحوث المستفيضة المستوفاة فكرة وموضوعاً ... ووداعاً للقارئ المتراخي ...!

وهو رأى صائب في ذاته وفي جرأته ؛ فالوعى (العقل) قد نبه وتعمق إلى حد التطلع إلى ما وراء المنظور ، ولم تعد نظرته تطفو على (سطح) الأشياء .. تلك ظاهرة تراها في كل مكان ، حتى كادت عدواها تسرى إلى أنصاف المثقفين ، إن لم تكن قد سرت فعلاً إلى صفوف العامة ...

عبد العزيز ابراهيم عبيد
كلية الحقوق

حضرة الأستاذ المحترم زكي نجيب محمود

تحية واحتراما :

وبعد ، فلقد أرضتني وأعجبتني كلمتكم التي نشرت في طليعة العدد بشأن اتجاه المجلة إلى نشر البحوث الأدبية الشافية في الآداب والفنون ، وخاصة في الموضوعات الأدبيـة الرائعة القيمة ، ذلك لأن الآداب المصرية — كما تعلمون — فقيرة إلى تلك البحوث ، وهي في أمس الحاجة للآراء الأدبيـة الناقدة لمختلف المؤلفات المشهورة العالمية ؛ تلك الآراء التي تبين خصائصها ودقائقها والمقدرة الفنية التي بذلها الكتّاب فيها ، وتلك المقدرة المتصلة هي التي تعرف القارئ بالمؤلف تعريفاً حسناً . واتجاه المجلة إلى هذا النهج اتجاه سليم ينطبق تمام الانطباق على اسمها . فالمقالات القصيرة رخيصة الآن في سوق الأدب المصرى المكتظ بها ، وهي لا تشفى غليلا ولا تجدى فتيلا في تثقيف الأذهان وتنوير العقول .

وأرجو بعد ذلك أن تتكرموا بنقد المؤلفات الروائيـة المشهورة كما تتعاون بشركم لتحليل « فاوست » ، وكذلك أدوار تطور النقد الأدبى بالتفصيل ، والمهم النقد الأوربى .

وإنى إذ أبعث تحيتى للكتاب الذين اشتركوا في إخراج العدد (٦٥٠) للموضوعات القيمة التي طرقوها ، أحيى فيكم هـذا الاتجاه إلى نشر البحوث القيمة ، وفقكم الله إلى ما فيه ارتقاء الأدب وعلو « الثقافة » .

(رأس التين — اسكندرية) أحمد محمد أحمد

دائرة معارف :

منذ مائتي سنة ، وعلى وجه التحديد يوم أول يونيه سنة ١٧٥١ ، ظهر أول جزء من دائرة المعارف الفرنسية ، أو الأنسيكلوبيديا Encyclopédie المشهورة . وتتابعت أجزاء هذا المؤلف الضخم بعد ذلك في الظهور حتى بلغت ١٧ جزءاً ، إلى جانب ١١ مجلداً من اللوحات والرسوم التوضيحية ؛ وإن كان القائمون بأمرها قد لاقوا الكثير من العنت والمشقة وواجهوا الكثير من الأعداء .

ولم تكن دائرة المعارف هذه في أول أمرها سوى مشروع ترجمة قاموس إنجليزى للمؤلف إفرايم شامبيرز . ولكن سرعان ما توسع الناشرون في هذا المشروع ، حتى أرادوا أن يجمعوا في دائرة المعارف الجديدة سائر المعلومات التي توصل إليها الإنسان حتى ذلك العصر ، وأشرف على تنفيذ تلك الفكرة الضخمة الفيلسوف المعروف ديدرو ، الذى كرس لها حياته . واشترك معه في التحرير أغلب فلاسفة القرن الثامن عشر في فرنسا ؛ فنحن نجد بين الموقعين على مختلف المقالات العلمية والأدبية والفنية رجالاً أمثال : فولتير ومونتيسكيو وروسو ودالمبير وكوندياك وهلفيتيوس وهولباك ، إلخ ... كما عاونه عدد كبير من العلماء والخبراء كل في دائرة اختصاصه .

لذلك خرج المؤلف الجديد سجلاً حافلاً بمعارف الإنسانية ، وتعبيراً صادقاً عن روح العصر الذى أنتجه : روح التحرر من كل قيد غير قيود العقل والمنطق ، وروح الإيمان بالتقدم الإنساني المطرد ؛ كما كان مدرسـة جامعة لكل عالم أو فيلسوف في العصور التي تلت ، يستقى منها بطريقة سهلة ميسرة ما يبتغى من معلومات ، ويتشبع فيها بتلك الفلسفة الحرة المبنية على الدراسة الصحيحة التي سميت فيما بعد بالفلسفة الانسكلوبيدية .

محمد عبد الحليم محمود

الثقافة

الثمن ٢٠ مليماً	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	العدد ٦٥٤ ٩ من يوليه ١٩٥١

صفحة

نجوى .. على الشاطئ * ..

على الفرات البديع الوديع .. والطبيعة الحالمة ترتل أغاني الحياة لميلاد الصيف .. أمسكت بقيثارتي ، فإذا هو لم يزل ينشج ، في ألم فاجع ، أنة بيرون الناديه : « أنقذوني من قلبي .. إنه يحترق .. »

أيها الشاطئ * ! .. عاد الصيف فياض الفتون ... زاهر الإشراق بالأحلام والفن العجيب
وسرى زورقك المسحور مشبوب الحنين ... يتهادى فوق صدر الشط كالحلم الحبيب
وصدى مجدافه النشـوان مكتوم الأنين ... يهمس اللحن بسمع الموج في وقع رتيب
عالم السحر مذ طاف على هذا السكون ... بسط البهجة تختال على كل القلـوب
غير قلبي ، أيها الشاطئ * ، تذكيه شجوني ... فهو آلام وأشـواق تلظى كاللهيب

كم ينـادي بحبيبي بين آهـات الجراح
أو ما ترجـع فتـاتاً بأنداء الصـباح

إن سجا الليل وأغفى الكون في صمت الوجود ... وأطل * البدر يختال بأسرار الليـالي
في الفضاء الطلق سحري الخطى حلو الصعود ... وترامى النور ينساب على صدر الرمال
سكرت روحي مع الأنسام من خمر الخلود ... واستفاقت ذكريات الحب عذراء الجمال
تنتشي لهفة اللقيا إلى عهـد بعيد ... فارو يا رمل إلى الضفة أيامي الخوالي
هذه الليلة ذكرى من هوى ماض سعيد ... خلدتها سـاعة أمست أساطير خيال

كم أنادي أين ها أين حبيبي ؟ .. كيف راح ؟
آه لو يرجع مل * الروح في طيف الصباح .

أيها الشاطئ * هل مرت على خضر الروابي ... حين نام الشفق الوسنان في حضن المساء
غادة فتانة سمراء في روق الشباب ... ما جنت للقلب إلا هائم في سحر البهاء
خطرت كالوحي كالإلهام أو لمع سراب ... فتلالت العمر نشوان بأفراح اللقاء
أو ما أبلغتها يأسي وسهدي واغترابي ... واحتراقي بلهيب الوجد في طول شقائي
فهي دنياي التي حفت بآمال الشباب ... ورؤى أحلامي البيض وسؤلي ورجائي

وهي لطف الأمس أمضيناه وصلاً في مراح
فمتى ترجع لقياهـا تباشير الصباح ؟

أيها الشاطئ * كم سامر ساجي الربع قبلي ... مدنف مذ غدرت ليلاه مكلوم الجنان
قد طوى عهد هواه ما طوى أيام وصلي ... واحتواه موكب النسيان في ركب الزمان
من له بالرشد يا شاطئ * أم بالرشد من لي ... وقلوب الغيد صنوان لطبع الأفعوان
قل له ما عاد النهر مع الليل تجلي ... قصة الحب على الماء على روض التداني
وسنا البدر على اللجة في أبدع شكل ... أنت من حواء أم القدر لا ترجو الأماني

لم يكن عهدك بالحب سوى زرع رياح .
وانطوى الأمس كأحلام العذارى في الصباح

(بغداد) ... أنور الناصري

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٥٤ — الاثنين ٥ من شوال سنة ١٣٧٠ — ٩ من يوليه سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

إعانة المجلات العلمية

للدكتور زكي نجيب محمود

لوزارة المعارف جهود مشكورة في تشجيع الحركة العلمية والفنية في كثير من صورها ، تشجيعاً لولاه لما استطاعت تلك الحركة — في أرجح الظن — أن تحقق هذا الذي حققته اليوم على قلته وضآلته .

فهي تعين المدارس والجامعات إعانة مبسوطة الكف لا تدخر في ذلك وسعاً ، حتى لتدفع كل نفقات الطالب في بعض المراحل التعليمية ، وقسطاً كبيراً من تلك النفقات في المراحل التعليمية الأخرى ؛ وهي تدفع مكافآت مجزية في تشجيع حركة الترجمة حتى لقد يبلغ ما تدفعه أجراً على ترجمة الكتاب أحياناً مبلغاً يزيد على ما يكسبه مؤلف الكتاب نفسه ، وهي تبذل بذلاً حسناً في تشجيع المؤلفين بشراء بضع مئات من كل كتاب تقريباً ، مما يعوض على المؤلف شيئاً مما أنفقه في تأليف كتابه من جهد ومال ، وهي تعين الفرق التمثيلية الأجنبية والمصرية على السواء بألوف الجنيهات كل عام ، وهي كذلك تسخو على كثير من الجمعيات العلمية والنوادي الأدبية والاجتماعية بمال كثير أو قليل ؛ وهكذا وهكذا إلى آخر ما تنفقه الحكومة في هذا السبيل ، وإذاً فهي جهود للحكومة مذكورة مشكورة مهما يكن بها من نقص هنا أو عيب هناك ؛ إن لم تصلحه اليوم ، فهي لا بد فاعلة غداً ؛ فحسبك من أصحاب الحكم في هذا الصدد أن تراهم قد ولوا وجوههم نحو الخير الصحيح ؛ فإن كان في خطاهم تعثر في أول الطريق ، فالأرجح أن يعتدل بهم السير بعد حين .

لكننا نرى أن وزارة المعارف قد غفلت عن إعانة المجلات العلمية إعانة تمكنها من القيام بواجبها على نحو كامل ، وهي بإغضائها عن هذا الجانب من البناء الثقافي بمثابة من يصلح الأدوار العليا من البناء ، ويترك الأساس متداعياً منهاراً ؛ ولست أطلق الكلام هنا إطلاقاً عن غير وعي بمعناه ، وإنما أعني هذا الذي أقوله بأدق ما يؤديه من معنى .

فالمجلات العلمية والأدبية هي حقل التجارب الذي يخرج لنا الكتاب والمؤلفين فيما بعد ؛ فإذا أنت محوته فقد محوت تسعة أعشار الفرصة التي تهيأ للأقلام الناشئة ، وبالتالي فقد محوت تسعة أعشار المؤلفين في الجيل المقبل ؛ ولست بذلك أعني أن المجلات العلمية مقصورة على أقلام الناشئين ،

لكنها توشك أن تكون هي المجال الوحيد أمام هؤلاء ؛ أما الكاتب الذي استقام واعتدل وقويت ساقاه فيستطيع أن يتنفس في الكتب إن ضاقت أمامه المجلات التي تتناسب مع مكانته الفنية والأدبية . وأنا أقول ذلك تفاؤلاً مني بكبار كتابنا ؛ وإلا فلو قلت ما أعتقده حقاً لقلت مرة أخرى ما أعلنته في مواضع عدة ، وهو أن الكاتب عندنا في معظم الأحيان لستنفد جهوده المقالة الواحدة ؛ وليس هو كالكاتب الأوربي يستطيع أن يستطرد مع فكرته حتى يملأ بها كتاباً . وإذاً فإضعاف المجلات الفنية والأدبية عندنا معناه المباشر هو سد الطريق في وجوه أصحاب القلم جميعاً ، صغارهم وكبارهم على السواء .

كانت المجلات والصحف عندنا هي المعمل الذي أخرج لنا قادة الفكر الذين نفخر بهم ونعتز . والذين نخشى مخلصين أن يتركوا وراءهم فراغاً يستحيل على الجيل التالي لهم أن يملأه ؛ فلولا الكتابة الصحفية لما كان لدينا العقاد والمازني وطه حسين وأحمد أمين وهيكل وغيرهم ؛ وقد كدت أقول توفيق الحكيم . وأنا أتحفظ بالنسبة إلى الأستاذ الحكيم لأنه على خلاف هؤلاء جميعاً قد بدأ أدبه الممتاز بالكتاب الكامل ، ثم جرفه التيار العام ، فغلّب على الكتاب بالمقالة ، وأتبع مرحلة التمثيلية الكاملة ذات الفصول ، بمرحلة التمثيلية ذات الفصل الواحد ، التي تتناسب مع الإخراج الصحفي ؛ وهو لاشك سير في الطريق من آخره إلى أوله ، لكنه يدل دلالة قوية على سيطرة المجلة أو الصحيفة على أدبائنا . فكيف إذاً تكون الحال لو عشنا في خلاء من مجلات وصحف أدبية ممتازة ؟

فكر في قادة الأدب عندنا واحداً بعد واحد ، واسأل : ماذا يستطيع فلان أن يكتب إذا امتنعت دونه كتابة المقالة ؟ تجد جواب السؤال حاضراً في أغلب الحالات ، وهو : لا يستطيع أن يكتب شيئاً ، لأنه أضحل فكراً من أن يخرج فكره في كتاب متصل ؛ وكم مر علينا من تجارب ، سدت فيها أبواب الصحف على كبار كتابنا ، فسكتوا وطووا أقلامهم لأن الواحد منهم إما أن يكتب مقالة أو لا يكتب شيئاً ؛ والكثرة الغالبة من نتاجنا الأدبي الذي يتخذ في النهاية صورة الكتب ، إن هي إلا مقالات جمعت في كتب ، وليست هي بالكتب الأصيلة التي أنشأها منشئوها على أساس الكتاب لا على أساس المقالة .

لست هاهنا ناقداً يشير إلى وجه من أوجه النقص في إنتاجنا الأدبي والفني ، ولكني أصف هذه الحالة لأنتهي إلى النتيجة التي تتفرع عنها ، وهي أنه إذا انعدمت المجلات الأدبية والفنية فقد انعدمت بالتالي الفرصة الوحيدة التي يتنفس فيها كبار كتابنا ، والتي تهيء مجال المران لصغارهم الناشئين .

قرأت في العدد الأخير من المجلة الإنجليزية « القرن التاسع عشر وما بعده » مقالاً هو الذي انبثقت منه فكرة هذا المقال الذي أكتبه ؛ إذ قرأت تحت عنوان : « حالة الجمعيات الفنية » (في انجلترا) ما يشبه البكاء على تدهور الجمعيات الفنية هناك بسبب قلة الإعانة المالية التي تقدمها حكومتهم إليها ؛ ويقول كاتب المقال متجهاً بقوله إلى رجال الحكومة : إننا في أثناء الحرب الأخيرة قد حرمنا كثيراً من ألوان التسلية واللهو ، حتى يتوافر مجهودنا كله للقتال ، ومع ذلك لم نجرؤ على تحريم سباق الخيل ، وكانت حجة الحكومة عندئذ هي أن إغلاق حلبات السباق يؤدي إلى تعريض تربية الجياد الكريمة لخطر جسيم ؛ ولما كانت الحكومة حريصة على اتصال سلسلة الجياد الكريمة حتى لا ينقطع حبلها ، فقد أبقت على الدافع الأول إلى تربيتها والعناية بها ، ألا وهو السباق وحلبته — وبعد هذا التشبيه ينتقل الكاتب إلى حالة الجمعيات الفنية عندهم ، فيقول : أليست تحرص الحكومة على اتصال سلسلة رجال الفكر كما كانت تحرص على الجياد الأصيلة ؟ إنها لابد حريصة على ذلك أشد الحرص ، وإذاً فلا مناص من صيانة الحلبة التي يؤدي وجودها إلى وجود رجال الفكر ، ويؤدي انعدامها أو ضعفها إلى انعدامهم أو ضعفهم ، وما تلك الحلبة سوى

الجمعيات العلمية بما لها من مكتبات ومجلات وغيرها .

ويقول كاتب ذلك المقال أيضاً : إن هنالك المجامع العلمية الرسمية ، مثل « المجمع الملكي » للعلوم الطبيعية والرياضة ، و « المجمع العلمي البريطاني » للتاريخ والأدب والفلسفة والآثار — هذه المجامع العلمية الرسمية تحظى برعاية الحكومة على الوجه الأكمل ؛ لكن كيف السبيل إلى إمداد تلك المجامع بقادة الفكر إذا لم يكن لدينا « جمعيات » تكون بمثابة صفوف الشعب التي يخرج منها هؤلاء القادة ؟ هل تستطيع أن تظفر بالقادة دون أن يكون لديك المجال الذي يتخرجون فيه ويتمرسون في ميدانه ؟ فلا مناص لنا — إذاً — من رعاية الجمعيات العلمية والأدبية حتى تخرج لنا فيما بعد قادة المجامع .

وإن صح هذا القول مرة واحدة في انجلترا ، فهو صحيح ألف مرة بالنسبة لنا في مصر ، وسائر بلدان الشرق العربي ؛ ونحن ننظر إلى مجلاتنا العلمية والأدبية نظرتنا إلى « الجمعيات العلمية » التي وردت في المقال الذي أشرنا إليه .

انظر إلى « المجمع اللغوي » عندنا — مثلاً — وهو يضم فريقاً من القادة ، تجد أعضاءه جميعاً قد بلغوا ما بلغوه بفضل المجلات والصحف التي هيأت لهم سبيل الكتابة في شبابهم وكهولتهم على السواء ؛ ولك أن تسأل بعد ذلك : ما مصير كتابنا الناشئين الذين يحملون بذور التفكير والكتابة ، إذا لم يجدوا أمامهم المجلات القوية التي تعينهم وتشجعهم على الكتابة والتفكير ؟ أليس واجباً محتوماً على القائمين بالأمر أن يتعهدوا هذا المصدر حتى يضمنوا لحياتنا العلمية استمراراً وازدياداً في القوة والنماء ؟ أم تراهم يحسبون أن الزمان قد وقفت دورته ، وأن الحاضر هو الزمان كله من أوله إلى آخره ؟ .

إن الصراحة هنا واجبة لأن الأمر في رأينا خطير غاية الخطر ؛ فإذا استثنيت المجلات التي تصدرها دور النشر الكبرى صاحبة رءوس الأموال الضخمة ، وجدت سائر مجلاتنا الأدبيـة المحترمة في طريقها إلى الانهيار والزوال ، وما قيامها إلا أضحية كبرى من أصحابها ؛ أين المجلات التي شهدها شباب الجيـل الماضي — والتي كانت ميدان قادة الفكر عندنا اليوم — السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي والرسالة في عنفوانها والثقافة في إبانها ، بل أين المجلة القوية التي لم تشهد النور إلا حقبة قصيرة ؟ مجلة الكتاب المصري ؟ زالت كلها أو هي كالزائلة . لأن الحكومة لا تعينها بالقدر الذي يمكنها من البقاء . ولا يكفي من الحكومة أن تعين بشراء بضع مئين من أعدادها ، بل لا بد هنا من السخاء في العطاء ، لأن المسألة متعلقة بحياتنا الفكرية من أساسه .

لا ينبغي لوزارة المعارف أن تترك المجلات العلمية لعوامل العرض والطلب في السـوق ، وإلا فلن يكون هناك مجلة علمية واحدة ، لسبب بسيط ، وهو أن السوق تتطلب مادة سهلة التسلية ؛ والمجلات التي في مقدورها اليوم أن تعيش عيش الرغد والرواج هي التي تغذي ذلك الاتجاه في السوق ، غير آبهة بمثل أعلى لا بد من فرضه على جمهور القراء ؛ فليس من الحكمة في شيء أن نتركوا أصحاب الفكر لأبناء الشارع يسيرونهم كيف شاءوا ، كما تتركون بائعي الصابون لعوامل العرض والطلب في سوق البيع والشراء .

زكي نجيب محمود

بين فاجنر ونيتشه (*)

للأستاذ إدوار منسى

في هذا البحث دراسة العبقرية إبان تكونها؛ والعباقرة — كما يفهمهم شوبنهور — لا يحتم عليهم أن يخضعوا للقوانين التي يخضع لها سائر البشر.

« المحرر »

— ١ —

مولد صداقة

ظهر في أفق نيتشه عبقريان : شوبنهور وفاجنر . فقد صادفت فلسفة شوبنهور هوى في نفس نيتشه في بدء حياته الفكرية ومنها استلهم : إرادة القوة . فقد ظل واقعاً تحت تأثير هذه الشخصية لحين من الزمان طويل يكون فترة هامة من تاريخ تطوره الروحي . فعنده وجد نيتشه أحسن من تغنى بالتشاؤم وأبرع من وصف آلام الحياة وأعمق من نفذ إلى جوهرها ووضع يده على مفتاحها ، ألا وهو : إرادة الحياة

« وطبيعي أن يعجب نيتشه بفاجنر ما دام يعجب بأستاذه شوبنهور . فموسيقى فاجنر تحقيق لنظرية شوبنهور في الفن ، وهي النظرية التي تريد أن تجعل من الفن عموماً ، والموسيقى على وجه التخصيص ، الوسيلة الوحيدة للخلاص في الحياة ومن الحياة ... » ويقارن نيتشه شوبنهور بفاجنر : « الشيء الذي يسرني في فاجنر ؟ الشيء الذي يسرني في شوبنهور ، هو هذا الجو الأخلاقي ، هذا العبير الفاوستي : الموت والقبر »

• • •

كان نيتشه مشغوفاً بالموسيقى منذ صغره ؛ وعندما نشر فاجنر قطعته الموسيقية « ترستان » ، أفرغ نيتشه وصديق له كل ما كان في جيبيهما المرتجيين من مال قليل ليحصلا على « نوتتها » . منذ هذا الوقت أصبح نيتشه فاجنرياً . ففي العطلات المدرسية كان يعكف هو وصديقه صباح مساء على التدرب على الأجزاء المتصعة منها للبيانو . ولم يكن عزفهما حسناً آنئذ ، ولكن ماذا يهم ! لقد كان حسبهما أن يعزفا شيئاً لموسيقى الشهير . وقد قالت إليزابيث ، أخت نيتشه في الكتاب الذي وضعته عن أخيها : « لم يكن كلا الغلامين قد سمع الأوبرا حتى الآن أو عرف كيف تعزف الألحان melodies ، فكانا يخرجان أصواتاً نكراء ما كان أقربها إلى عواء الكلاب . » وازداد هذا الشغف بفاجنر تدريجياً حتى التحق نيتشه بجامعة ليبزج . وفي فترة دراسته بها كان لا يفوته حضور الحفلات الموسيقية الكبرى ، وكان إعجابه بفاجنر في أشد مراحله آنئذ . وفي رسالة إلى صديق له قال : « كنت البارحة في أوتربب حيث استهلت موسيقى الشتوي بعد عمّا بمقدمة ترستان وإيزولد وافتتاحية Die Meistersinger .. إن موسيقى فاجنر تهزني هزاً »

ثم تبع ذلك مقابلة لفاجنر هيأها لنيتشه صديق له آخر . فقد جاء فاجنر إلى ليبزج متنكراً ليبقى بها قليلاً في منزل أخته ، ودعي نيتشه إلى مقابلته مساء يوم أحد . وفي الرسالة التالية إلى صديقه الأول يصف هذا المساء : « سأخبرك الآن عما قدمه إلينا فاجنر هذا المساء من مسرات . فقبل وبعد العشاء عزف لنا كل القطع المهمة من Die Meistersinger مقلداً جميع الأصوات ، مؤدياً إياها بروح عالية . يمكنني القول إنه رجل حيوي حاد الطبع ، عجيب ! فهو يتكلم بسرعة ويبدي الكثير من الألمعية والذكاء . وكنا نتحدث في فترات بين العزف عن شوبنهور . أوه ، إنك ستدرك مدى السرور الذي عمني إذ كان يتحدث عنه بحرارة ذاكراً مقدار ما هو مدين له به ، وأنه الفيلسوف الوحيد الذي فهم روح الموسيقى .. ثم أخذ بعد ذلك يقرأ علينا جزءاً من قصة حياته التي كتبها لنفسه والتي كان آخذاً في تدوينها في ذلك الوقت ؛ ولا أملك إلا القول إنه يكتب بمقدرة فائقة » .

وفي نهاية هذا المساء صافح فاجنر نيتشه بحرارة ودعاه إلى زيارته مرة أخرى .

• • •

كان فاجنر ، بعد حياته المضطربة ، يعيش في عزلة تامة في تربشن Triebschen بالقرب من لوسرن Lucerne ، فبعد أعوام طويلة من النضالات العنيفة تركته زوجته منّا Minna عام ١٨٦١ ، وفي عام ١٨٦٤ توجه إلى ميونيخ

(*) مقتبسة من : H.A. Reyburn's : Nietzsche, The Story of a Human Philosopher, London, 1948.

حيث دعاه للملك الشاب لودفيج الثاني ، هناك وقع في حب كوزيما Cosima ابنة فرانز ليست وزوجة هانز ڤون بولو ، قائد الأوركسترا الكبير وأحد مشاهير العزف على البيانو . كانت كوزيما حينئذ أماً لطفلتين : دانيلا وبلوندين ڤون بولو ، وفي عام ١٨٦٥ وضعت كوزيما من ڤاجنر ابنة أسمياها إزولد ، وعندما أراد ڤاجنر أن يترك ميونيخ بعد أشهر قليلة من وفاة زوجته منّا عام ١٨٦٦ دعا عائلة صديقه ڤون بولو بأجمعها لتشاركه منزله الجديد في تريبشن ، وإذ لم يلب ڤون بولو دعوة ڤاجنر ، هجرت كوزيما زوجها ولبت نداء الحب مصطحبة معها أولادها ، وفي عام ١٨٦٧ وضعت من ڤاجنر في تريبشن طفلة أخرى أسمياها إيفا .

عندما ذهب نيتشه إلى بال عام ١٨٦٩ ليتسلم مهام منصبه كأستاذ للغات القديمة بجامعتها ، قدم نفسه وجلاً إلى هذه العائلة ؛ فقد أمضى أيام عطلته الأولى من هذه السنة في لوسرن ، وأخذ طريقه صباح يوم سبت إلى تريبشن ؛ وعند باب حديقة الموسيقي الكبير تريث ليستمع عن بعد إلى ڤاجنر إذ يؤلف موسيقاه ، وفي مكنه لمحه الأخير ودعاه إلى الدخول ، ثم زاره نيتشه رسمياً بعد ذلك بيومين ، وكانت الزيارة ناجحة حتى إنها أتبعت بعد ذلك بدعوة أخرى على العشاء في عيد ميلاد ڤاجنر في ٢٢ مايو ، ولكن واجبات نيتشه في الجامعة لم تسمح بتلبية هذه الدعوة الأخيرة التي كان سروره بها عظيماً .

وها هو ذا رده على ڤاجنر :

« ٢٢ مايو سنة ١٨٦٩ »

« سيدي المحترم :

« لقد طالما رغبت من أمد طويل في التعبير دون احتياط عما أشعر به كاملاً من شكر لك ، والحقيقة أن أعلى وأخصب لحظات حياتي لهي قرينة الاتصال باسمك ، أنا لا أعرف غير رجل آخر هو توأمك في العقل : آرثر شوبنهور ، الذي أراه بعين التقديس التي أراك بها .

« في اعترافي لك بهذا ... أشعر بلذة خاصة ، بل بشعور من الكبرياء ؛ فإذا كان قدر العبقري أن يكون ملك القلة من الناس ، في الوقت الحاضر على الأقل ، فإن لهذه القلة المختارة الحق في الشعور بالتشريف الذي منح لها لترى النور وتستمتع في دفئه ، بينما يشعر الآخرون بالقشعريرة في الخارج ...

« أراني جسوراً إذ أحشر نفسي في زمرة هذه القلة المختارة ، وقد رأيت عجز العالم عن تفهم شخصيتك وكتاباتك وموسيقاك ، والجملة ، عجزه عن الشعور بهذا الجو من الجد والنظرة الروحية في الحياة ... »

وتمضي الرسالة على هذه النغمة بكل ما فيها من تقدير كبير حتى تنتهي ، بعد إهداء السلام إلى «البارونة ڤون بولو» ، بهذه الخاتمة : « تلميذك المعجب بك ، المخلص لك . »

ولم يكن هذا الخطاب مدحاً خالصاً لڤاجنر بقدر ما كان تعبيراً صادقاً عن مشاعر نيتشه الحقيقية . فقد قال نيتشه مرة في خطاب بتاريخ ٢٩ مايو ١٨٦٩ مايلي : « إن ڤاجنر لهو في الحقيقة كل ما كنا ننتظر منه : عقل كبير خصب ، رجل نشيط ساحر محبوب ، ذو إرادة قوية » ، الخ . وفي خطاب آخر بتاريخ ٤ أغسطس من نفس السنة بعد أن ازدادت صداقته لڤاجنر : « لقد وجدت أخيراً رجلاً لا يستطيع رجل غيره أن يوحي إليّ بصورة من أسماه شوبنهور بـ « العبقري » . فهو متشبع حتى أعماقه بهذه الفلسفة العميقة العجيبة . هذا الرجل هو رتشارد ڤاجنر ، الذي بخصوصه لا يجب أن تقبل أي حكم عليه إن في الصحف أو في كتابات خبراء الموسيقى ... فليس هناك أحد يعرفه ويتمكن من الحكم الصائب عليه ، لأن ذوق العالم يجري على قاعدة أخرى ولا يرتاح إلى الجو الذي يخلقه من حوله . ففيه تتحكم المثل العليا المطلقة ونبل الحياة الجدية . إلى بقربه أشعر كأني في حضرة الإله » .

حتى في كتابته إلى أهل بيته قال في ١٦ يونيو من نفس العام : « ... لقد وجدت في لوسرن الصديق الذي طالما اشتقت إليه : إنه رتشارد ڤاجنر ، الوحيد كرجل وكفنان . فمعه ومع زوجته الموهوبة ، ابنة فرانز ليست ، أمضيت أياماً سعيدة ... ونحن نعيش هناك سوياً في أحاديث ممتعة وفي دائرة عائلية محبوبة بعيدة كل البعد عن السخافات والتوافه الاجتماعية العادية » .

• • •

وهكذا تعلق نيتشه بتريبشن واغتبط بصحبة ڤاجنر وكوزيما .

كان ڤاجنر صغير الجسم — إن صح هذا التعبير — ذا رأس ضخم ، ممتلئاً حيوية ، زاخراً بالأفكار ، مستعداً دائماً للتعبير عنها ، لا يتورع أن يصب جام غضبه على أي شيء ،

أى إنسان ... ولكن ، فى نفس الوقت ، مع مقدرة فائقة على إيقاف نفسه عند حدها وضبطها . وكان بطبيعته منطوياً على نفسه ، محباً لذاته ، قاسياً ، متمكناً من فنه ، آمراً ، متشبثاً برأيه فى تحقيق أغراضه وفى إرضاء نفسه . وكان على مساعديه ، وكذا أصدقائه ، أن يحققوا رغباته ، وأن يعملوا بعين النشاط الذى كان يعمل به . وكان يعمل فى إسراف وتبذير ، ولم يكن يعنيه من يؤدى عنه الحساب . ولكنه كان بجانب ذلك رقيق القلب بطبيعته ، مرحاً ، ساحراً ، مؤازراً لهؤلاء الذين اصطفاهم والذين أرادوا عن طيب خاطر أن يتبعوه ، أما هؤلاء الذين جانبوه فقد كان لهم العدو اللدود ، إذ كان مقتنعاً دائماً بصواب فكرته .

أما كوزيما فهى أطول قامة من فاجنر ، وبأنفها وفمها الكبيرين نوعاً كانت أكثر سحراً . وبالرغم من طبيعتها الجازمة كطبيعة فاجنر فهى أكثر سكوناً وأقل صخباً وأكثر مقدرة على الوصول إلى أغراضها بهدوء . وهى إن كانت تزوجت صغيرة بفون بولو ، فهى لم تكن تكنّ له عاطفة كبيرة ، ولما عندما ظهر ريتشارد فاجنر فى أفق حياتها أدركت فتو أنها قد وجدت بغيتها لتقدر وتساعد وتدفع بهذا العبقرى فى طريق المجد .

فى صحبة هذين المخلوقين كان نيتشه يشعر أن حياته قد بدأت من جديد ، وأن هذه الحياة التى أصبحت أكثر خصوبة ، قد دخل فيها من عناصر القوة ما كان يعوزها من قبل . وبالرغم من صغر سنه بجانب فاجنر — كان الأول فى الخامسة والعشرين عندما كان الأخير فى السادسة والخمسين — كان الأخير يعامله معاملة الند للند . وبالرغم من أن فاجنر لم يكن محتملاً فى بعض الأوقات ، فقد كان فى بعضها الآخر يحسن الإصغاء إلى نيتشه خصوصاً عندما كان يتكلم عن وجهة نظره فى الحياة . وكانت كوزيما رفيقة حسنة أيضاً ، قادرة على أن تأخذ مكانها فى هذه المناقشات العالية التى — فى رأى نيتشه — كانت تعطى قيمة الحياة . وهكذا رضيت تريبشن عن نيتشه كما رضى هو عنها ، فقد صار يعامل هناك كفرد من عائلتها التى وهبته شيئاً طالما كان يشتاق إليه . فقد كان لها بجانب جوها العقلى الذى كان يجرى وراءه ، ذلك الجو العائلى المنسجم . وكان له فى هذا المنزل غرفتان لاستعماله الخاص ، وكان حراً فى الحضور دون دعوة خاصة أو استئذان ، وهو لم يكن محبوباً من الكبار هناك فحسب ، بل من الأطفال وخدم البيت أيضاً .

ولقد أمضى نيتشه عيد الميلاد عام ١٨٦٩ فى تريبشن ، وأطال مكثه بها أكثر من أسبوعين ، وكان شعوره كما قال ، شعور « انتعاش غريب » . وحتى فى أخريات أيامه كان سحر هذه الحياة مازال عالقاً بذاكرته . فقد ذكر تريبشن مراراً فى بعض كتاباته : « أشعر أنه يجب ذكر كلمة أو كلمتين عن الفضل الذى من أجله انتعشت حياتى . كان هذا دون أدنى شك فى الصداقة الخالصة التى كانت بينى وبين ريتشارد فاجنر . إن كل علاقاتى الأخرى مع الرجال الآخرين كانت سطحية جداً . ولكن لا يمكنى أن أمحو من ذاكرتى هذه الأيام التى أمضيتها فى تريبشن ، أيام كلها ثقة ومرح ووحى عال ولحظات عميقة ، إنى لا أعرف مدى علاقات فاجنر بغيرى من الناس ، ولكن سحابة واحدة لم تغشَ سماءنا » .

وفى هذا الكلام شىء من المبالغة . ففى بعض الأوقات كانت هناك سحب . فقد كان فاجنر رجل عمل يقود مريديه بعنف ؛ وكان نيتشه يشعر بهذا العنف أحياناً . وكان الأول خليقاً أن يفرض على أصدقائه ملازمته حتى ولو على حساب راحتهم . وأكثر من مرة وجه فاجنر بعض اللوم إلى نيتشه فى لهجة ضاحكة يشوبها شىء من الجد لتخلفه الطويل أحياناً . ولكن سحب تريبشن كانت صغيرة خفيفة سريعة الانقشاع . وكل ما يمكن أن يذكره نيتشه تماماً هو هذه السماء الصافية الزاهية التى كانت تبدد هموم حياته وهواجس أفكاره .

وفى هذه الأثناء ولد طفل آخر لفاجنر وكوزيما ، كان هذا فى منتصف عام ١٨٦٩ ، وأطلقا عليه اسم « سيجفريد » . وتم الزواج الرسمى لهذين المحبين فى الخامس والعشرين من أغسطس عام ١٨٧٠[1] . [وقد توفيت منّا زوجة فاجنر الأولى فى الخامس والعشرين من يناير عام ١٨٦٦] . ولكن إذ لم يتمكن نيتشه من حضور حفلة الزفاف ، فقد أرسل للعروسين مهنئاً ، وكانت تهنئته عبارة خالصة ، وقد أكد فيها نظرياً أن أعظم الناس على الأرض : العباقرة ، كما يفهمهم شوبنهور ، ليس من المحتم أن يخضعوا للقوانين التى وضعت للإنسانية العادية ، وأنهم أحرار فى أن يسلكوا فى حياتهم الخاصة طريقاً خاصاً ،

(١) بعد أن تم طلاق كوزيما من زوجها السابق فون بولو بعد إقامتها بتريبشن بأربع سنوات .

وهو بهذا يعني علاقة ڤاجنر بكوزيما قبل أن يتم هذا الزواج الرسمي .

وفي أواخر عام ١٨٧٠ تمكنت من ڤاجنر فكرة إنشاء مسرح خاص جديد في بيروث Bayreuth ؛ وسار في هذا المشروع قدماً . وعندما نضجت الفكرة رأى أن يرحل عن ترِبشن . وفي أبريل عام ١٨٧٢ انتهت إقامته بها .

وقد وصل نيتشه إلى ترِبشن ذات مساء ، ووجد عملية نقل الأثاث على أشدها . وفي أثناء قيام كوزيما بمباشرة حزم أمتعة الدار ، جلس نيتشه إلى البيانو وبدأ يرتجل بعض الموسيقى ، صابّاً فيها أحزانه وآلامه ومخاوفه وذكرياته عن الماضي التلاشي .

— ٢ —

ڤاجنر في نظر نيتشه

بدأ ابتعاد نيتشه عن آل ڤاجنر في أبريل عام ١٨٧٢ عندما ترك الأخيرون ترِبشن إلى بيروث ، فقد كانت ترِبشن بالنسبة إلى نيتشه بمثابة الوطن الحبيب . هناك كان ينظر إلى البطلين المثاليين — ڤاجنر وكوزيما — نظرة احترام ومحبة وتقديس . ولكن باختفاء ذلك العش الحبيب في ترِبشن ، تلاشى مكان نيتشه فيه بحيث إنه لم يعد يجد له مكاناً مماثلاً في مستقرهم الجديد البعيد في بيروث . فقد كان هناك فارق كبير في الجو بين ترِبشن وبيروث ، فارق شعر به نيتشه . ففي ترِبشن كان ڤاجنر في شبه منفى : موسيقياً وشاعراً ومجدداً في الفن ، ومعه كان يتفق نيتشه كل الاتفاق . ولكن في بيروث تحول التحمس للفن من أجل الفن إلى تحمس في عرضه وترويجه ، أي تحول من جوهر الفن في الفنان إلى مظهره . ولما صار ڤاجنر مهتماً بالمظهر فقد أصبح تدريجياً — بالنسبة إلى نيتشه — لايعنى بموسيقاه عنايته بالإنتاج والعرض . وإذ تغير ڤاجنر في عيني نيتشه ، قل حب الأخير للأول وبدأ فتوره نحوه . وصادف هذا الفتور هوى في قلب نيتشه ، إذ رأى الفرصة قد واتته ليبتعد عن تأثير ڤاجنر ليبدأ في توكيد حريته وفرديته وشخصيته من جديد ، وقد كادت أن تذهب بأضوائه تحت لواء الموسيقى الكبير .

بدأ عام ١٨٧٣ بداية سيئة . فقد دعا ڤاجنر نيتشه إلى بيروث ، فلم يلب الفيلسوف الدعوة ؛ وربما كانت هذه أول مرة يرفض فيها نيتشه دعوة لڤاجنر . وتألم الأخير ، ولم يدرك نيتشه مقدار هذا الألم إلا من خطاب أرسلته إليه كوزيما في فبراير من نفس السنة . ثم كتب ڤاجنر خطاباً إلى نيتشه من أجل بعض أوراق كان قد تركها فيه بطريق الخطأ ، دون أن يذكر له شيئاً عن الموضوع . ولكن خطابه كان يحوى اعتذاراً مخبأً عن الأسلوب الجاف الذى كتب به : « لقد نمت أمس مساء ، لأول مرة ، بنوم طويل عميق دون أى اضطراب ... لقد خدعنى غروري في أشياء كثيرة . فهناك لحظات أفقد خلالها نفسي في مسارب التفكير العميق ؛ وفي أوقات كهذه تظهر أنت أمامي عادة ، دائماً قريب الشبه بفيدى (تصغير اسم سيجفريد ، ابن ڤاجنر) ، ولكن أمثال هذه اللحظات لاتدوم طويلاً ، إذ لا تلبث « مجتمعات ڤاجنر » وحفلاته الموسيقية أن تتراقص من حولي في حلقات تدير الرأس » .

وكتب نيتشه في نفس الوقت إلى صديق له شارحاً وجهة نظره في هذا الفتور بينه وبين ڤاجنر قائلاً له : إنه لا يعرف أبداً كيف يمكن لإنسان أن يكون أكثر منه ولعاً بڤاجنر وإخلاصاً له ، ولكن ... « يجب أن أحافظ على حريتي » !

واحتفل ڤاجنر دعوة نيتشه إلى بيروث في عيد الفصح كما تعود أن يدعوه . فتألم الأخير ، ولكنه ذهب إليها دون دعوة من ڤاجنر مصطحباً معه مسودات مقالة كتبها ، مؤملاً أن يعرضها على الموسيقى الكبير قبل نشرها . ولكن ڤاجنر كان مشغولاً بموسيقاه — أو تظاهر بالاشتغال بها — فلم يظهر نشاطاً إلى الترحيب بالفيلسوف . فعاد نيتشه إلى بال خائب الأمل ، بل غاضبا . ومن ثم كتب إلى ڤاجنر خطاباً اعتذارياً نادراً في لغة « متمسكنة » يرى القارئ فيها تغير حاله : إن الأيام التى أمضيتها في بيروث تحيا دائماً في ذاكرتى .. إنى أقدر تماماً ضيقك بى أثناء وجودى عندكم دون القدرة على إصلاح ما فسد ؛ ولكن عذرى هو أنى أتعلم ببطء ... لقد تحققت بوضوح أيها السيد العزيز أن زيارة كهذه لا يمكن أن تكون منعشة لك ، وغير محتملة في بعض الأوقات . لقد طالما رغبت ، على الأقل ، في مظهر الاستقلال ، ولكن دون جدوى ! كفى ! إنى أستسمحك في أن تقبلنى تلميذاً لك شاكراً قلبي من أجلك ... »

فمن الواضح أن شعور نيتشه بالقطيعة كان في تحول إلى شعور مؤلم بالنقص وأن السلوك التذللى الذى كان يتخذه لا يمكن أن يستمر في طبيعة كهذه .

ظهرت في أكتوبر فرصة لنيتشه لإصلاح ما فسد . فمشروع بيروث المسرحي كان في متاعب مالية صعبة . وقد سأل مجلسه الإداري نيتشه أن يستنهض الأمة الألمانية لاكتتاب عام . فكتب نيتشه المنشور الذي عنونه « صرخة منذرة في الألمان » . وحاضر في مواطنيه من أجل واجب تدعيم الفن الألماني في شخص ڤاجنر ، معنفاً إياهم على عدم اكتراثهم ، والعراقيل التي يضعونها في طريق إحياء الروح القديم بواسطة الأوبرا التراجيدية الجديدة . وقد قال بعضهم عندما قرأ مسودة المنشور إنه شيء عظيم لهؤلاء الڤاجنريين المتحمسين فعلا ، ولكنه لا ينتظر أن يدعو بقية الشعب إلى التبرع بالمال أو حتى التشجيع . وفعلا ، ذهب المشروع الڤاجنري من سيء إلى أسوأ ، وظهر كأنه كان مقدراً له السقوط .

• • •

ولنبحث الآن نقطة الخلاف المختلفة بين نيتشه وڤاجنر ، وسر تذبذبه بين الابتعاد عنه والتقرب إليه . لقد كان ڤاجنر على صواب حقا : ففلسفته كانت جميلة ، وكانت موسيقاه السبيل الوحيد إلى مدنية جميلة راقية . أيمكن أن يقع الخطأ بطريق أو بآخر في ڤاجنر نفسه ؟ لقد تحقق نيتشه شخصيا أنه بإمكانه (ڤاجنر) الإيحاء بالنفور والتباعد ، كما أنه بإمكانه الإيحاء بالحب والود . وربما بدأ الآن يفكر في نفسه قائلا : إن هذا المظهر المزدوج لا يرجع إلى علاقة الشخص الخاصة بڤاجنر بقدر ما يرجع إلى شيء متأصل في طبيعة ڤاجنر نفسه ، وفي فنه في المجموع ، بحيث يلزم لها تقويم جديد . وفي هذه الحالة ، وبنظر أكثر صواباً من ذي قبل ، بدأ نيتشه في يناير عام ١٨٧٤ يستعيد مكانة ڤاجنر في نفسه ، ويدون في السر أفكاره عنه .

لقد أخفق مشروع ڤاجنر ، فإلى أي حد يعود هذا الإخفاق إلى ڤاجنر نفسه ؟ كان ڤاجنر يعمل جاهداً على إقناع مواطنيه بأخذ الفن جدياً . فلم يكن الفن عنده أداة للزينة أو لتزجية أوقات الفراغ ، إنما هو حاجة عامة تتطلبها الحياة نفسها : إنه « كمال وخلاص للحياة » . لقد أعطى ڤاجنر الفن مكاناً عالياً في سلم الأشياء ، وجعل « أهمية عظمى » ، تماماً كما فعل شوبنهور . وفي هذا قال إنه لا يمكن للفنون أن ينفصل أحدها عن الآخر ، ولا يجب فقط أن تتشابك ، بل أن تستمد جميعها من أصل واحد : ففي عزلها إفسادها وإضعافها وحطها . فلكي تصبح الفنون عظيمة ، يجب أن تتحد وينظر إليها على أنها روح الحياة .

ولقد تحقق نيتشه من هذا . وعندما فكر : كيف وصل ، أو حاول ڤاجنر الوصول إلى هذا الاتحاد ، رأى أن هذا المطلب الأساسي يستتبع وجود « ممثل » . فڤاجنر يستعمل الفنون الأخرى من موسيقى وتصوير وشعر لتشترك جميعاً على المسرح . هناك بكل تأكيد ، شيء خلف الممثل : هناك الحياة نفسها ، المعنى الباطني للأشياء ، الذي يعبر عنه في الدراما ، وفي هذا لا يختلف ڤاجنر — حسب نيتشه — عن أي فنان آخر ذي وحي عبقري ، وإن تميز بالهيكل الذي يتخذه هذا الدافع الباطني . وهنا يقول نيتشه : « أمام ڤاجنر الصورة الباطنية الطبيعية ، وقد ظهرت لتجارب النفس ممثلة في الحركة ؛ وهذا ما يود أن يطابقه . فبطريقة شوبنهورية عليا يود ڤاجنر أن يعبر عن الإرادة مباشرة » . فـ « الحركة » هي الكلمة المهمة هنا ، أو « الإيحاء » ، كما يعبر عنه نيتشه عموماً في أمكنة أخرى . فلا الفكرة ولا المعنى ولا الدراما في معناها العادي حيث يُهتمّ بالمكان ومنطق الكلام ؛ بل الحركة كتعبير مباشر عن دافع باطني : كالرقص مثلاً ، هو سلسلة من المواقف المتغيرة المتظامة الإيقاع حيث تتجسد الدوافع الباطنية مباشرة .

ولقد قال نيتشه قبل ڤاجنر ، إن هناك وجهتي نظر لمعالجة الدراما . حسب الأولى ، الدراما هي السائدة المتسلطة وما الموسيقى سوى تابع لها ، توضع بحيث تتبع انفعالات الممثلين ومواقفهم . ولكن إذ تطورت الموسيقى فقد كسبت لنفسها استقلالاً ، وانتقلت روح الأوبرا من الدراما إلى الموسيقى بحيث إنها ، أي الموسيقى ، لم تعد بعد سنداً أو تابعاً للعمل الدرامي ، بل أصبحت بناء مستقلاً قائماً بذاته . أما الدراما ، بمسرحها وتمثيل شخصياتها وحركاتها فقد أصبحت تابعة لها فقط . بمعنى أن الموسيقى صارت توحي بالأعمال والحوادث التي توافقها . وفي هذا كسب وغنم كبير ، إذ أن مجال الموسيقى في التعبير عن مشاعر النفس أوسع ، وفي تصويرها أدق وأقدر . يقول نيتشه إن الموسيقى ليست مطلقة عند ڤاجنر ، أو هي ليست نهاية في ذاتها ؛ ولكنها وسيلة إلى التعبير ، لأن ما تعبر عنه هو الحركة أو الإيحاء ، وهي من خلال هذا تصل إلى الانفعالات والإرادة .

ولكن كيف يجتمع هذان الوجهان في الفن ؟ وقبل

هنا ، كيف تحرم الموسيقى من مركزها المستقل فتنقلب وسيلة للتعبير ! لقد تأمل نيتشه هـذه النقطة ووجد أنه كي يصل فاجنر بالفن إلى أعلى مراتبه ، يجب أن يمزج الممثل والشاعر والموسيقى ليكونوا شخصاً واحداً .

ولـكن تحت هـذا الشرط تفقد الفنون في انفرادها استقلالها فلا تعود كاملة في ذاتها ؛ فالموسيقى لم تعد تقدر بقواعدها المطلقة ، ولـكن بما لها من معنى تأوى ضمن المجموع المركب . ويقول نيتشه إن موسيقياً كهذا يفرض سلفاً وجود موسيقى متقدمة غنية جداً يمكن بها التعبير عن عدد كبير جداً من العواطف ؛ وبهذه المقتطفات الموسيقية يمكن أن يكوّن في عقل المستمع حالة يجيبها على ضوئها رغب الممثل في أن يفهمه الشعب ، وعندما يتم هـذا — وهذا ما وصل إليه فاجنر فعلاً — تصبح الموسيقى وسيلة للتعبير ، وهي على هذا قد هبطت إلى مستوى أقل مما كانت عليه بعدم كونها مستقلة في ذاتها ، ولـكنها مع هـذا ذات قيمة عظمى في المجموع برغم صغر دورها .

هذه هي وجهة نظر فاجنر ، ولـكنه في تنفيـذها — يقول نيتشه — قد أبان إلى أي حد هو بعيد عن الثقافة الألمانية ، وفي الحقيقة إلى أي حد هو « لا ألماني » ، فـكي يعطى الفن المرتبة العليا في الحياة ، كما أراد ، اتخذ فاجنر المسرح أساساً ، و « هنا » يقول نيتشه : « يثأر الجمهور حقاً ولا يخفى نفسه ويخدعها كما يفعل في المتاحف والحفلات الموسيقية ... لا شك في أنه إذا كان فاجنر إيطالياً لـكان بإمكانه أن يصل إلى هذه النهاية ؛ ولـكن الألمان لا يقدرون الأوبرا حق قدرها ، وهم يعاملونها دائماً على أنها شيء مجلوب و « لا ألماني » . والحق أنه ، أي الشعب الألماني ، لا ينشط إلى المسرح ولا يهتم به جدياً » .

شيء غريب ! فقد فشل فاجنر في إقناع الألمان بأن يأخذوا المسرح مأخذ الجد ، وهم يقفون مترددين حياله ، وهو يثور ويغضب ، كما لو أن خلاص الألمان ميئوس منه ؛ وعلاوة على ذلك فقد كان الألمان يفكرون في ذلك الوقت في شيء أكثر أهمية ، بحيث إن عبارة الفن هذه كانت تلوح لهم نغماً غريباً مبالغاً فيه ؛ فالألمان يعتقدون ، على قول نيتشه : أن روح الحياة لا توجد في الفن ، وقد كان جل اهتمامهم موجهاً إلى مظاهر الحياة الأخرى ، وكانوا عندما يلتمسون الفن بعد مشاغلهم اليومية يبحثون فيه عن قليل من الترفيه اللذيذ . يقول نيتشه : إن نوع الموسيقى الفاجنرية لا يصلح للعلاقات العملية والاجتماعية ، ومن ثم كانت الـكراهيـة الغريزية لهذا الفن الجدى الذى لم يكن يلائم ذوق الشعب الألماني آنئذ .

هناك ناحية أخرى للمسألة : فقـد اقتنع نيتشه بقوة وجهة نظر فاجنر بالرغم من مظاهر إخفاقه وبغير عظمته . وقد كتب في مذكراته ما يلي : « من المحتمل جداً أن لا يعجب فاجنر الألمان لاشتغاله بالفنون كل على حدة ، ولـكن ربما تحققت آماله يوماً في إنتاج صـورة من الثقافة المتحدة أو المشتركة ... فعنده هـذا الشعور بالاتحاد في التنوع ، ولهذا فأنا أنظر إليه مثل bearer of culture

ولـكن الارتفاع بالمجموع يعطينا هبوطاً في الأجزاء ؛ ولا يمكن لنيتشه أن ينفى هذه الناحية . ففاجنر ينظم كل شيء للمجموع ، ولا يتحكم فيه كأجزاء منفصلة : موسيقى ، شعر ، دراما ، إلخ . فالموسيقى لا تساوى كثيراً ، ولا الشعر ولا الدراما ، ولـكن القيمة الحقيقية لـكل هذا تكمن في « المجموع » الذى يرفعها إلى أسمى الدرجات .

لم تكن دعوة فاجنر إذاً للخاصة ولـكن لجمهور المسرح الذى هو أقرب أن يكون إلى جماعة مختلطة متنافرة . ويقول نيتشه إن اللغة المسرحية هي اللغة التي يتكلم بها فن فاجنر .

« هل موسيقى فاجنر في نفسها عظيمة حقـاً ؟ لقد شككت دائماً في مقدار موهبة فاجنر في الفن ! » هكذا تساءل نيتشه ، ثم أضاف : « إني لا أعرف من موسيقيينا العظام من كان رديئاً لجأ في الثامنة والعشرين من عمره مثلما كان فاجنر ؛ إن فاجنر تأثيري ، فإلى أى حد هو حقاً فني ! إنه يؤثر البساطة في الموضوع الدرامي لأن لها التأثير الأعظم ؛ فهو يحشد كل العناصر التأثيرية أينما أراد من مواقع الضعف أو القوة ، وهو يود كممثل أن يقلد الإنسان فقط في انفعالاته ، لأنه في أطواره الأخرى لا تمثل طبيعته إلا الضعف والتصنع »

تتلخص فـكرة فاجنر كلها في فرض سيطرة « الحركات والإيماءات » على الأوبرا بحيث تضطر الموسيقى إلى أن تكون في خدمة عواطف وانفعالات ليست فنية ولا رفيعة ولا منسجمة . وهنا يقول نيتشه : « إن إخضاع الموسيقى لانفعالات طبيعية يقلل من قيمتها ورنينها ويجعلها أخيراً غير قادرة على تحمل العبء المشترك » .

إدوار مقدسي

إيمان شاعر

للأستاذ عبد العزيز إبراهيم عيد

هذا مقال لقارئ من قراء الثقافة ينقد فيه شاعراً من شعرائها. ويسرنا أن يلتقي القراء بالكتاب على هذا النحو الجميل.

« الثقافة »

[مر كليم الله في القفر برجل يقذف السماء بالحجارة ويصيح : (ياظالم !.. أشبعت الناس وجوعتني ! وكسوتهم وعريتني ! وأغنيتهم وأفقرتني !..) فناجى ربه : يارب ! هذا عبدك !! فقال الرب : دعه ياموسى ! فإني منه راضٍ !! قال : كيف يارب ؟! فقال : حسبه أن عرف أني الواحد الرازق ، فجاء إليّ .. ولم يذهب إلى الملك !.. وهذا ما أريده من إيمان عبدي !] (التوراة)

أما الإيمان ، فستراه بعد قليل ...

وأما الشاعر ، فهو الأستاذ عمر عبد العزيز الأقصري ، وقد سبق لي أن تشرفت بالتحدث عنه على صفحات الثقافة الغراء . وكان دافعي يومها دهشة المأخوذ بروعة الشيء يبحث وراءه متسائلا : من هذا ؟؟

واليوم أعود إلى التحدث ، بنفس الدافع خالياً من التساؤل الصريع ، وإن بقيت علامة الاستفهام من (شخصه) منحنية الظهر لم ترفع رأسها بعد لتقول : هاهو ذا !!. ، فشعر شاعرنا هذا ، لا يمكن أن يمر على السمع مر الكريم ، بل مر الموكب الحافل منها بجميع الحواس لا يترك منها واحدة

وأشهد أني ما قرأت شعراً لهذا الشاعر ، إلا وأحسست في نفسي بيقظة غريبة ، وفي قلبي بتفتح لذيذ .. ورأيتني أقف عند كل بيت ، أو شطر من بيت ، لأهز رأسي بطء نشوان ، وألفظ بلساني ، كأن الكلمات قطرات شهد تتساقط في فمي !.. ويستولي على شعور مسيطر مريح ، بأن هذا الشاعر ذو إيمان مثالي عجيب ، يجعله يرفع (الكلفة) بينه وبين ربه ، فيخاطبه بلهجة الطفل المدلل ، المحبوب من أمه ، الواثق من مكانته في قلبها — حينا يراها — ولا يعرف غيرها — وقد حرمته من شيء يشتهيه .. ، فيلذ لك كما يلذ لهذه الأم ، أن تستمع إلى توسلاته بتلك اللهجة الطفلية الثائرة البريئة من التزويق المفتعل ، فتهتز : يهتز منك القلب والروح ، والشعور .. ثم تتطرق اللذة إلى عقلك فلسفة ذهنية ، ملتبسة بحلاوة الإيمان التسليمي الجوهري ، المنطق الظاهر .. ثم تمتزج بك ، أو تمتزج بها .. ثم إذا بك ، بعد قليل ، — لا تسألني كيف ! — قد صرت هو ، أي الشاعر الطفل المدلل ، المحبوب من أمه ، الواثق من مكانته في قلبها — وقد راح يتوسل إليها بالبكاء تارة ، وبالاحتجاج أخرى ، بلهجة حادة تحز ولا تجرح ، حارة تلذع ولا تحرق — لكي تعطيه الشيء الذي حرمته منه دون إخوته !.. ، فيترنم فكرك ، وتنتشي أذنك ، ويرقص فؤادك ، ويدهش لبك ، حتى تفرغ ، أو يسكت الشاعر ، فتستيقظ ، لتعود — مرغما — إلى القراءة ، عود صاحب الحلم إلى إغماض جفنيه ، ليعود إليه حلمه ، أو يعود هو إلى حلمه الذي استيقظ منه ، دون أن يشبع من حلاوته !..

كل هذه (التفاعلات) كانت ، وما تزال تتلبسني بلا رحمة كلما قرأت شعراً لهذا الشاعر .. وأقوم بعدها إلى القلم ، لأكتب عن الشعر ، وعن الشاعر .. وأكتب .. وأكتب ؛ ولكني لا أجد حداً أقف عنده ! .. ثم أقرأ ما كتبت — على كثرته — فلا أجدني قد كتبت شيئاً !.. أو بتعبير أدق : لا أجدني قد قلت شيئاً مما أريد قوله ! ..

وقبل أن ألم أطراف (مقال) يصلح للنشر ، تطالعني (الثقافة) بقصيدة أخرى ، فأقرأها .. أقرأها وأنا أعلم أنها — تبوط على ما كتبت ! فتزدحم لدى (الصور) ، وتختلط (الظلال) .. ويتداخل بعضها في بعض .. وإذا بي أقف بينها مشدوهاً ، أحاول أن أتخلص منها ، وأن أتخير .. ولكن ، في هذه (الزحمة) ، هيهات !!

وينال مني الإعياء ، فأجلس لاهثاً ، وأعتمد خدي على باطن يدي ، أو ظاهرها ، مكتفياً بالحلقة البلهاء ، في

هذه المعاني الحية ، وهي تدور ، وتلتف حول الفورة بحورية ، تتفجر بها ألسنة نورانية ، تتحول إلى مرائي أحلامية ، ترقص في رشاقة تدير الرأس ، وخفة تميل الجسد هشيماً تذروه الرياح !!

وهكذا لم أف بوعدي لقراء الثقافة الغراء بالعود إلى التحدث عن هذا الشاعر وشعره منذ عام ، أو يزيد !...

* * *

لقد قرأت شعر الشاعر الأقصري كله ، كل ما نشر له تتبعته في كل مكان وقرأته ، فما وجدت قصيدة واحدة منه تخلو من : (يارب !!) ، بهذا الرسم المقووس ، متبوعة بهذه العلامات الحمراء التي لا يخلو بيت في شعره من واحدة أو أكثر منها ...

وكثيراً ما استوقفت نظري هذه العلامات ! فهو يضعها بإسراف لم يسبقه إليه شاعر ! .. والحق أن لهذه العلامات — كما أراها — لغات ذات معان دقت ، بحيث لا يكشف عنها غيرها .. وجلت ، حتى لا يسعها سواها ! فهي أشبه بقطرات الدمع تنساب على الخدود في صمت ! .. وأشبه بذبول الوجنة في إطراقة حزن ! .. وهي أشبه بالرنوة الحيرى الولهى في عين اليتيم ! .. وتشبه كل معنى دَقّ ، حتى عيّ اللسان عن إمساكه .. وجلّ ، حتى ضاق اللفظ المركب المقيد بالوضع ، عن حصره وإبرازه ، فوسعته هذه العلامات (!!!) ..

(يارب !!) ، تنطلق مدوية مجلجلة ، فيها لهف الاستغاثة ، وصخب الألم ! .. وفيها مسكنة التوسل وإطراقة الخطيئة ! ..

ثم فيها ، إلى ذلك كله ، لب الإيمان ، كل الإيمان ! :

رب ! .. أيا ربي ! الآلام يحور عبد يحور بقلبه تشور ؟!

منذ استقام لسانه ، ودعاؤه :

(رب !!) .. وأنت بما أكن خبير !

حاشاي أن أدعو سواك ! وباطل

رب يشار له ، سواك ، وزور !

أخطيء ؟ ثم أخطيء ! وأخطيء !! كيف لا

أخطيء ، وأنت ، لأجل ذاك ، غفور ؟!

أتردني من أجل أخطائي ؟! معا

ذلك !! إني ، فيا ربي ، معذور[1] !!

(١) العدد ٦٥٠ — ١١ — ٦ — ١٩٥١ من الثقافة

وهنا يبرز (العقل) بمنطقه (الحسي) الذي يتقاتل منذ الأزل بين جنبي كل (عاقل) يحسن التأمل والنظر والموازنة بين الأشياء :

ركبت لي (عقلاً) ! وعقل مصدر الـ

آثام في (التفكير) حين يجور ! .. ؟

فأقدر (الأشياء) مجتهداً .. ولا

يَدَ لي إذا ما خانني التقدير !!

ولكأن بهذا الشاعر ينتقي ألفاظه ، عمداً ، في دقة متناهية ، بحيث يعطي اللفظ المعبر كل المعنى المبرعنه ، لا يعدوه ، ولا يقصر دونه .. نرى ذلك واضحاً في اللفظ نفسه .. ونراه في (الموسيقى) الحاصر بينهما ..

ومع ذلك فأنت لا تحس بتلك (الوعورة) التي تحسها بادية في (الصنعة) ، وأنت تقرأ شعراً فيه آثر منها .. وإنما تشعر ، وأنت تقرأ لشاعرنا هذا بحلاوة العبارة تنساب من أذنك إلى قلبك انسياب الماء العذب الفرات في فم الصادى وقت الهاجرة ! فتطرب وتعجب في وقت معاً ... وهي ظاهرة يمتاز بها شعراء الفطرة ...

ويسترسل الشاعر — وهو كثير الاسترسال — والاسترسال ضرب من البلاغة الفطرية — في تصوير (البلبلة) الفكرية التي تتخبطه (تخبط الشيطان لمن به منه مس) ، أو (تخبط العشواء طاح برشدها الديجور !) ... ويالله من هذه (الصور) الفنية تأخذ روعتها بمجامع القلب وتطيح بالرشد ! ... وإنها لشتى يعج بها شعر هذا الشاعر عجاً ! ...

وما أنا ، ولا أحد بذي قدرة على أن يتناول هذا الشعر ليلم به في حديث واحد ... إلا مجزأ في عدة أحاديث ...

وعلم الله ! ما أدري أي ناحية منه اليوم أتناول ... ولكنه خيط تخبط الشاعر نفسه في (تأملاته الكونية) .

وماذا على لو تلمته في (استطراداته) المتتابعة ، وتنقلاته الرشيقة من (المنطق الحسي) في أعقابه (الشك) إلى (الإيمان التسليمي) المطلق رغم (أنف) هذا الشك :

لكن إيماني بـ (ذاتك) — رغم أنـ

ـف الشك ! — لا يرقى إليه فتور !

رغم أنف الشك !! ... لماذا لم يقل مثلاً : رغم هذا الشك ... وكان البيت يظل مستقيما وزناً ومعنى ؟!

ولكنها (الدقة) في انتقاء الألفاظ، لإبراز معنى خاص مقصود؛ فكلمة (أنف) تحمل معنى (التحدي) تحدي القلب المؤمن للعقل الشاك!...

غفرانك اللهم!... قد أسرفت في
سؤلي!... وأنت بما أريد بصير!

(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا. فسبحان الله رب العرش عما يصفون... لا يسأل عما يفعل!...). تبارك الله! هذا قوله يذكره الشاعر حينما رأى نفسه قد أوغل في (منطقة حرام) بسؤاله الذي لا يُسأل عما يفعل، فيحني هامته، حتى تلامس الرغام!... مبالغة في الانكسار... ويلتمس المغفرة هاتفاً:

غفرانك اللهم!!...

ويعترف بذنبه:

قد أسرفت في سؤلي!...

ثم يطغى عليه إيمانه الإشراقي، ويتغلب فيه الرجاء على الخوف، فيرفع رأسه، ويرنو إلى ربه قائلاً:

... وأنت بما أريد بصير!...

تعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور!... وصدري ما أخفى غير إيمان بأن (علمك بحالي يغنيك عن سؤالي) وتعلم أن كنه سؤالي توسل يحت في قالب احتجاج بريء لا يكبر على عفوك... حينما قلت:

وعبدك المسكين يسجد خاشعاً
لك في (الثرى) وتصيبه (التعسير)

هل أحسست؟! أأدرك روعة المعاني، وألتفت إلى (حلاوة) التعبير؟!.

هذا الأسلوب!... أشهد إن فيه لحلاوة، وإن عليه لطلاوة!...

ثم المعنى!... ماذا فيه؟! رائحة (انتقاد) لنظام الله في ملكه، تفوح... وتذكو... حتى تطغو، فيحسبها الجاهل (انتقاداً صريحاً) إن لم أقل (كفراً)؟!.

أما أنا، فأرى احتجاج الطفل المدلل المحبوب من أمه المؤمن بها، كنعمة هو منها، وقد حرمته الشيء، ناله إخوته، فهو يبكي ويحتج، ويصرخ ويثور... ويدق الأرض بقدميه الصغيرتين، فيثير الغبار ليقينه أن أمه لن تغضب عليه، فتلمه... بل سترق له وتحنو... وتتمنى له لو قوي على تحمل (الحرمان) من شيء ضار... أو لو عرف أنه ضار، فلا تذهب نفسه عليه حسرات:

فنهاره عرق يسيل!... وليله
أرق!.. وويل دائم!.. وثبور
يغدو.. ليخدم (ربّه) من ربه؟
هو ذلك (التـــائه) المغرور!
مترجلاً يسعى إليه.. وبطنه خاوٍ.. و(كرش) وليه مخور

أنظر جيداً إلى تلك (الأقواس) وما (حشر) بينهما!! قف قليلاً عند كرش وليه، وتأمله وهو يعلو ويهبط، ولا يجد به (النفس) طريقاً يتردد فيه من فرط التخمة، فهو يكاد ينفجر!!..

ثم لا تنس أنه (مخور)!!

يالله!! ألا يكفي (كرش) الغني المكتظ بالأطايب واللذات! حتى يسند الشاعر (مسامه) بالخمر؟!

إن التعبير عن (الخواء) بـ(البطن) وعن (التخمة) بـ(الكرش)، لإعجاز يجعل المفارقة بين الغني والفقير تبلغ الذروة والأوج!!

ويظل يعصر ذهنه!.. رباه!! كم
قد شيد من (عرق الفقير) قصور!!

(الذهن) و(العصر) و(التشييد).. ثم (رباه) قائمة في الوسط قلعة حصينة، يعتصم بها، وقد أطبقت الأعاصير!.. صورة فنية رائعة للمعركة الخالدة بين الفقير والغني.. بين الخادم والمخدوم.. بين الرئيس والمرؤوس.. بين الحاكم والمحكوم!.. لا عاصم من ويلاتها غير (رباه!!)!..

أمسي، وأصبح.. ثم أصبح في الذي
أمسيت فيه!! كأنني (طنبور)!!
هذا يدار، فيستقاد بمائه...
وأنا حياتي كلها تسخير!!

لو خطر لك أن تشرح هذا الشعر، لتلخص حياة (الموظف الصغير).. فهل تقدر على أن تأتي بتعبير أرق، أو أسلس، أو أخصر لفظاً منه؟!..

حاول!!...

وإن لم تقدر، فاهتف مع الشاعر:

حافظ إبراهـــيم

— ٣ —

للأستاذ عبد السميع المصرى

مراثيــــه

الرثاء من أجود شعر حافظ ، ولعل ذلك مرجعه لروح التشاؤم التى كانت تلازمه ، ولهذا الشقاء الذى كان يتحيفه ، ولما كان يحسه من ظلم الزمان له حتى أجاد التوجع والتألم والشكوى ؛ فإذا رثى حافظ فهو يتحدث عن المرثى وصلته الشخصية به وحبه له ، وترى القصيدة تسرى فيها لوعة الحزن الشخصى وروعة الوفاء ، ويبرز فى القصيدة صورة الفقيد وأعماله وخلاله .

فرثاء حافظ من النوع الإنسانى البسيط ، يختلف قوة وضعفاً حسب مكانة المرثى فى حياة الشاعر أو فى الحياة العامة ، وهو بكاء من الشاعر لنفسه ولذكرياته وأصدقائه الراحلين لا تكلف فيه ولا تصنع ... فلا فلسفة هناك ولا محاولة للتفلسف ، إنما إرسال النفس على سجيتها فى الحزن وتصوير لهول المصاب .

فأنت إذا قرأت رثاء حافظ الشيخ محمد عبده خرجت بصورة لمواقفه وأعماله وآثاره ، ثم لفجيعة العلم والدين والتقوى فيه ، ثم لهذا الأسى واللوعة التى تغمر نفس حافظ لفقده وفقد منزله فى عين شمس الذى أظله كثيراً :

سلام على الإســلام بعد محمد
سـلام على أيامـه النضرات
على الدين والدنيا ، على العلم والحجى
على البر والتقوى ، على الحسنات

شيئاً من الإنصاف !! أو شيئاً من (ال
تجديد) يا ربى !! وأنت قدير !
لا أبتغى ملكاً ! ولا أرجو غنىً !
حسبى القليل !.. وما لديك كثير
أبغى الحياة كريمة : وسطاً ! فلا
أنا لاهٍ فيهـا ولا مقهـور !
أحيا (كإنسان) يعيش بفكره
حراً .. وجوهر عرضه موفور ..!!
!! كون نا (طمع) .. وهذا مطلبى
متواضع ، سهل ، عليك يسير !؟
أم قد قضيت بأن أعيش مشرداً
حتى أموت وخاطرى مكسور !!؟

(.. أموت وخاطرى مكسور) !! هيه ! أين قلبك الآن !؟ وما حاله !؟ ألا زال بين جنبيك بضعة متماسكة ، لم يذب عطفاً على هذا الطفل البائس المحروم من (كعكة العيد) يستجديها أمه ، وقد حرمته منها خوفاً على (صحته) !!؟

• • •

ثم ، وفى النهاية ، النهاية التى ترغمنى على اقتطاعها الصفحات الضيقة ، الضيقة رغم أنها هى أيضاً ! — فأقفز بك إلى هذه النهاية ، نهاية القصيدة ، لأبرز لك ذلك (الإيمان الإشراقى) ، إيمان الشاعر الذى حدثتك عنه ، والذى لم أتحدث إليك عن شئ سواه فى هذه العجالة — يتجلى فى أبهاء روعته ، وأوج ذروته ، ويرغمك على أن تهتف من أعماقك فى صدق مكين ، قائلاً الشاعر :

(حاش لربك أن يتركك !!) ...

حينما تستمع إليه فى هذا البيت الأخير يهتف :

ربى !! إلهى !! ما أظنك تاركى
فرداً !! ومالى فى الحياة نصير !!

• • •

وبعد ، فهل ترانى قلت شيئاً مما أريد قوله !؟
أما أنا ، فأشهد أن : لا .. ! فإلى اللقاء ...

عبد العزيز إبراهيم عبيد
ليسانس حقوق — جامعة فؤاد

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله
فأصبحت أخشى أن تطول حياتى
فوا لهفى — والقبر بينى وبينه —
على نظرة من تلكم النظرات
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً
كأنى حيال القبر فى عرفات
تباركت هذا الدين دين محمد
أيترك فى الدنيا بغير حماة ؟
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى
ولانت قناة الدين للغمزات
فنى الهند محزون وفى الصين جازع
وفى مصر باك دائم الحسرات
بكى عالم الإسلام عالم عصره
سراج الدياجى هادم الشبهات
بكينا على فرد وإن بكاءنا
على أنفس لله منقطعات
تعهدها فضل الإمام وحاطها
بإحسانه والدهر غير مواتى
فيا منزلاً فى عين شمس أظلنى
وأرغم حسادى وغم عداتى
عليك سلام الله مالك موحشاً
عبوس المغانى مقفر العرصات

وكذلك جميع مراثيه ؛ فهو إذ يرثى مصطفى كامل صور حزنه وحزن مصر رجالها ونسائها على الفقيد مع صور أعماله وبطولته :

نثروا عليك نوادى الأزهار
وأتيت أنثر بينهم أشعارى
غادرتنا والحادثات بمصدر
والعيش عيش مذلة وإسار
عز القرار على ليلة نعيه
وتهددت موحكبه فقر قرارى
شاهدت يوم الحشر يوم وفاته
وعلمت منه مراتب الأقدار
تسعون ألفاً حول نعشك خشع
يمشون تحت لوائك السيار
خطوا بأدمعهم على وجه الثرى
للحزن أسطاراً على أسطار
كم ذات خدر يوم طاف بك الردى
هتكت عليك حرائر الأستار
سفرت تودع أمة محمولة
فى النعش لاخبراً من الأخبار

العمــرية

لا نستطيع أن نختم الحديث عن شاعرية حافظ دون أن نقف لحظة لدى عمريته المشهورة التى نظمها فى سيرة الفاروق عمر رضى الله عنه ، وإن نظرة إلى كنوز التاريخ تثبت لنا هذه القدرة التى أوتى منها حافظ حظاً عظيماً لم يعن باستخدامه .

لقد كان التاريخ دائماً مرجعاً لفحول الشعراء والكتاب ؛ وعندما حاول حافظ أن يلج باب التاريخ ورد مورده الفياض أتى لنا بدرة من شعره ، فياليته أطال الوقوف بهذا الباب ، إذاً لأمتعنا بالكثير .

ألقى حافظ قصيدته هذه فى حفل أقيم خصيصاً عام ١٩١٨ ، ولعل الباعث له على نظمها فى تلك الفترة الحالكة من تاريخ الأمة العربية عامة ، هو إهداء صورة بارعة باهرة لأقوى شخصية فى تاريخ العروبة ، تكون قدوة لناشئة العصر ، ومثالاً يحتذى به ، وهو يشير إلى هذا القصد فى ختام قصيدته حيث يقول :

هذى مناقبه فى عهد دولته
للشاهدين وللأعقاب أحكيها
فى كل واحدة منهن نابلة
من الطبائع تغذو نفس واعيها
لعل فى أمة الإسلام نابتة
تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى ترى بعض ما شادت أوائلها
من الصروح وما عاناه بانيها
وحسبها أن ترى ما كان من عمر
حتى ينبه منها عين غافيها

وأنت تحس إذ تقرأ مطلع العمرية بأن حافظاً قد أقدم على هذا المجهود المبارك وهو هياب وجل ، لضخامة الموضوع

وعظم الشخصية وجلالها .. وقد يكون لجدة هذا النوع من الشعر على كاتبه :

حسب القوافي وحسبي حين ألقيها
أني إلى ساحة الفاروق أهديها
لاهم هب لي بياناً أستعين به
على قضاء حقوق نام قاضيها
قد نازعتني نفسي أن أوفيها
وليس في طوق مثلي أن يوفيها
فمر سري" المعاني أن يواتيني
فيها فإني ضعيف الحال واهيها

وهو بعد ذلك يحدثنا عن سداد آراء عمر حديثاً مطولاً ينتهي إلى ذكر ما كان ينزل من القرآن موافقاً لآراء عمر :

رأيت في الدين آراء موفقة
فأنزل الله قرآناً يزكيها
كم استراح رسول الله مغتبطاً
بحكمة لك عند الرأي يلفيها

ثم يحدثنا عن موقف عمر يوم السقيفة وحزمه الذي حسم الخلاف بين المهاجرين والأنصار :

وموقف لك بعد المصطفى افترقت
فيه الصحابة لما غاب هاديها
بايعت فيه أبا بكر فبايعه
على الخلافة قاصيها ودانيها
وأطفئت فتنة لولاك لاستعرت
بين القبائل وانسابت أفاعيها

أما عن عدل عمر ، فاسمع إلى حافظ يبدع لك في صوره ، بادئاً بذكر عزل خالد بن الوليد من قيادة الجيش :

لم يرع في طاعة المولى خئولته
ولا رعى غيرها فيما ينافيها
وما أصاب ابنه والسوط يأخذه
لديه من رأفة في الحد يبديها
إن الذي برأ الفاروق نزهه
عن النقائص والأغراض تثنيها
فذاك خلق من الفردوس طينته
الله أودع فيها ما ينقيها

لا الكبر يسكنها لا الظلم يصحبها
لا الحقد يعرفها لا الحرص يغويها

أما لقاء كسرى لعمر وما يشعر به المرء لدى هذا المنظر من هوان الدنيا وصغر شأنها ، إذ يرى أمير المؤمنين ومن دان له الروم والعجم ، مستلقياً على الثرى كأصغر تابع من رعاياه ، فقد أوجز حافظ وصفه في هذه الأبيات التي تفيض قوة وروعة :

رآه مستغرقاً في نومه فرأى
فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا
ببردة كاد طول العهد يبليها
فهان في عينه ما كان يكبره
من الأكاسر والدنيا بأيديها

أما أخذ عمر بالشورى فهو أمر مشهور وله خطره :

درى عميد بني الشورى بموضعها
فعاش ما عاش يبنيها ويعليها
وما استبد برأي في حكومته
إن الحكومة تغري مستبديها
رأي الجماعة لا تشقى البلاد به
رغم الخلاف ، ورأي الفرد يشقيها

وعمر كان أزهد الناس وأعفهم ، وهو يأخذ نفسه بالزهد ويقضي فيه خشية أن يداخله الغرور بالدنيا وعرضها .
ويذكر حافظ حادثة دخول عمر بيت المقدس وتقديم الناس له حلة فاخرة وجواداً كريماً بدلا من حماره :—

يامن صدفت عن الدنيا وزينتها
فلم يغرك من دنياك مغريها
صحت « يا قوم كاد الزهو يقتلني
وداخلتني حال لست أدريها
وكاد يصبو إلى دنياكم عمر
ويرتضي بيع باقيها بفانيها
ردوا ركابي فلا أبغي به بدلا
ردوا ثيابي فحسبي اليوم باليها »

الغزل فى شعره

أظلنا الحديث عن حافظ وشعره ، ولا شك أنكم مشوقون إلى معرفة نصيب المرأة فى حياة هذا الشاعر العظيم .

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن مقياس خطر المرأة فى حياة الشاعر هو ما نظم من نسيب وغزل ، وقد كان هذا الضرب من الشعر أقل ما فى ديوان حافظ . فهل أقفرت حياته من المرأة ؟

يلوذ أصدقاء حافظ بالصمت حيال هذا السؤال ، فلم يحدثنا أحدهم عن مكانة المرأة فى حياته ، ولست أدرى أعن جهل كان هذا أم عن وفاء ، حرصوا معه على عدم الخوض فى حياته ، ولكن من المحقق أنه تقصير فى حق حافظ وحق الأدب والتاريخ ، لأن حياة الشاعر ما كانت ملكا خاصاً له بل هى ملك للإنسانية كلها ، وإذا جهلنا هذه الناحية منها فقد غاب عنا الكثير من بواعث شعره .

وكل ما نعلم عن حافظ أنه تزوج عام ١٩٠٦ عقب عودته من السودان من أسرة بنى عابدين ثم افترق عن زوجه بعد أربعة أشهر ، ولا ندرى بعد ذلك شيئاً عن أسباب هذا الفراق ، ولا نعرف إذا كانت المرأة قد دخلت فى حياة حافظ أم أقفرت حياته من آرها .

وقد أجمع كثير من النقاد على ضعف الغزل فى شعر حافظ وفتور العاطفة الكامنة وراءه .

وهاكم أمثلة من غزله :

ظنى الحسا بالله ما ضركا	إذا رأينا فى الكرى طيفكا
وما الذى تخشاه لو أنهم	قالوا فلان قد غدا عبدكا
قد حرموا الرق ولكنهم	ما حرموا رق الهوى عندكا

وله أيضاً :

أنا العاشق العانى وإن كنت لا تدرى
أعيذك من وجد تغلغل فى صدرى
خليلى هذا الليل فى زيه أتى
فقم نتمسى فلسهد دوماً من الصبر

وزعموا أنه لم يخاطب أنثى بشعره فى غير هذين البيتين :

أذنت ترثين فى الشمس والضحى
وفى النور والظلماء والأرض والسما
ولا تسمحى للشك يخطر خطرة
بنفسك يوما أنى لست مغرما

ولعل حافظاً ينفى عن نفسه تهمة الجمود وفتور العاطفة فى هذه الأبيات :

سكن الظلام وبات قلبك يخفق
وسطا على جنبيك هم مقلق
عجبا ! بلغك السكوت مع الهوى
وسواك يحنه الغرام فينطق
ورموك بالسلوى ولو شهدوا الذى
تطويه فى تلك الضلوع لأشفقوا

وهو يحدثنا عن موثق مع الحبيب بألا يبوح بهواه ويكتم خبره فى هذه الأبيات :

إن الذى أغرى السهاد بمقلتى	منعت فلسى به متعلق
واثقته ألا أبوح وإنما	يوم الحساب يحل ذاك الموثق
وشقيت منه بقربه وبعاده	وأخو الشقاء إلى الشقاء موفق

ومن بديع ما قاله فى هذا الباب :

وكم لمة فى غفلة الدهر نهست	هموما لها بين الضلوع سعير
فقد يشتفى الصب السقيم بزورة	وينجو بلفظ عاثر وأسير

ولعل حافظاً قد شغل عن هوى الغانيات بهوى مصر فأرق فى هواها وفكر :

لعمرك ما أرقت لغير مصر	ومالى دونها أمد يرام
ذكرت جلالها أيام كانت	تصول بها الفراعنة العظام
فأقلق مضجعى ما بات فيها	وبات مصر فيه تهول الام

ملحه

وهب الله حافظا — على بؤسه وحرمانه — خفة فى الروح — وإرهافاً فى الحس وحضوراً فى البديهة ، فضحك من البؤس وتهكم بالشقاء ، وفرح حياته بالفكاهة الحلوة والنادرة المستملحة ، فنمت فيه ملكة التهكم وترعرعت فيه روح الفكاهة ، فكانت طبيعته فى بؤسه هى طبيعة المصرى الخالصة ، ومزاجه فى شقائه هو مزاج المصرى الصميم ، يظهر المرح ويكتم الألم والحزن ، بل يتخذ من مرحه الظاهرى الممزوج بالفكاهة وسيلة للتخفيف عن شقائه ، ومنفذاً للترويح عن آلامه .

وقد أضافت هذه الروح لفنون حافظ في الشعر فنا مستحبا تهيم به الخاصة والعامة أعلى من مكانة حافظ لدى الجماهير ؛ ويظهر هذا اللون في شعره الذي يداعب فيه إخوانه ويشكو إليهم فيه زمانه ، فقد كتب إلى جار له في يوم زفافه يستهديه من طعام العرس وثياباً يلبسها :

أحامد كيف تنسانى وبينى   وبينك يا أخى صلة الجوار ؟
أيشبع مصطفى الحولى وأمسى   أعالج جوعتى فى كسر دارى ؟
وبيتى فارغ لا شىء فيه   سواى وإننى فى البيت عارى
ومالى جزمة سوداء حتى   أوافيكم على قرب المزار
فإن لم تبعثن إلى حالاً   بمائدة على متن البخار
تغطيها من الحلوى صنوف   ومن حمل تتبل بالبهار
فإنى شاعر يخشى لسانى   وسوف أريك عاقبة احتقارى

ولقد ألح الفقر — فقر المال — لحافظ أن يخالط العامة ومجالسهم ويشاركهم فى خيرهم وشرهم ، وأصبح يحتفى باستحسان الشعب ويصغى إلى الجمهور ؛ ولما كان يتولى إلقاء قصائده بنفسه حتى يطرب باستحسان الناس وتصفيقهم لشعره ، حتى غدا ذوق الجماهير مقياساً من مقاييس شعره وأصبح شعره صورة واضحة المعالم لمجتمعه وعصره . وقد يغرق فى الشعبية حتى يأتى بالسقيم والمبتذل ، لكنه على كل حال من المحبب إلى قلوب الشعب .

وقد صور حافظ الكثير من الأمثال العامية والتعابير المصرية والألفاظ الشعبية فى شعره ، كقوله فى حفلة تكريم حفنى ناصف :

لولا الحياء ولولا   دينى وعقلى وسنى
لقمت فى يوم حفنى   أدعو لكرة بنى
لا تنس عيشاً تولى   ما بين شرح ومتن
وذقت من (جاء زيد)   ومن شروح الشمنى
أيام (سلطان) يلهو   (بعشبه) ويغنى
يشكو إليك وتشكو   إليه عيشة غبن

ولعلكم تقرءون الكثير مما تنشره المجلات فى هذه الأيام من نوادر حافظ ، وقد أثر عنه أنه كان يحب أن يتكلم وكان يحسن التكلم ، وكان يفيض فى الحديث على جلسائه بملحه وطرفه ، وهم بنشوة حديثه مأخوذون يودون لو لم ينته من حديثه . ولا بأس من إيراد هذه الملحة ، فإنه يروى أن حافظاً زار بور سعيد وخرج فى جمع من أصدقائه بدعوة من زكى أبى شادى للنزهة فى زورق فى القنال ، فلما جلس حافظ فى الزورق وجد أمامه الشاعر على الأتلى فأنشد مازحاً على الفور :

أبا شادى أبا شادى   لقد أكثرت حسادى
أتم تنظر على الأتلى   مثل القرد فى النادى

أعمــــاله

من المؤسف حقاً أن تمضى تسعة عشر عاماً على وفاة حافظ ولا يعنى أحد من معاصريه بدراسته الدراسة الوافية ، ولا يهتم قومه بالعناية بآثاره العناية الواجبة ، فلم يكتب عنه حتى الآن سوى كتابين صغيرين أحدهما عن شعره السياسى .

أما كتب حافظ فهى عدا ديوانه (الوجيز فى علم الاقتصاد) بالاشتراك فى تعريبه مع خليل مطران (والتربية الأولية) عن الفرنسية ، وكلاهما من الكتب المدرسية التى كلف بترجمتها ، وقد كان اختيار حافظ لترجمة (الوجيز) لتعريب المصطلحات الاقتصادية أو وضع مصطلحات جديدة عن طريق الاشتقاق اللغوى ، وهو من أنصار هذا المبدأ ويرى أنه أحفظ لكيان اللغة العربية ، وفيها يقول على لسانها :

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية
وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات

ولحافظ فى النثر أيضاً ليالى سطيح وهو أشبه بمقامة نقدية اجتماعية ، كما أنه ترجم البؤساء لفيكتور هيجو .

هذى مناقبه فى عهد دولته   للشاهدين وللأعقاب أحكيها

عبد السميع المصرى

مراجع البحث : ليالى سطيح لحافظ ، ديوان حافظ .
شوقى وحافظ للدكتور طه حسين .
أبحاث عن حافظ للسيدة بنت الشاطئ بمجلة الكتاب .
» » » مجلة أبولو للدكتور أبو شادى .

أحاديث الصيف

للأستاذ أمين سلامة

قصة الصيف :

كانت «ديميتر» عند اليونانيين ربة الغلال ، تكسو الأرض بالأزهار والغابات والحقول بالأشجار والنباتات ، وكانوا يمثلونها بامرأة قد توجت رأسها بسنابل القمح وأزهار الحقول .

وحدث أن كانت ابنتها الجميلة بروسربينا تجمع باقة الزهور الجميلة فرآها بلوتو رب الجحيم فأحبها ، وأراد أن يحظى بها فاختطفها وحملها في عربته .

فلما انتظرت ديميتر رجوع ابنتها من قطف الزهور وطال انتظارها ، ذهبت تبحث عنها ولكن دون جدوى .

وفي صقلية أخبرتها حورية من عرائس البحر بما فعله رب الجحيم بابنتها ، فيممت شطر مملكة الجحيم فوجدت ابنتها تجلس فوق عرش المملكة وبجانبها بلوتو . فأخذت تستعطفه وتتوسل إليه أن يترك لها ابنتها ، ولكنه أبى . فلجأت إلى عدالة جوبيتر — كبير الآلهة — فأمر بأن تعود الفتاة إلى أمها إذا كانت لم تأكل شيئاً في الجحيم .. ولكن بروسربينا كانت قد أكلت ست حبات من الرمان . فقبل جوبيتر أن تعود الابنة إلى أمها ستة شهور من السنة فوافق بلوتو على هذا الحل كارهاً .

وعلى ذلك كانت الفتاة كلما ذهبت إلى العالم العلوى لتقضى مع أمها نصف السنة يعتدل الجو وتتفتح الأزهار وتنبت فى الأرض الغلال والأثمار ، فسميت هذه الفترة من السنة بفصل الربيع والصيف . حتى إذا ما انتقلت بروسربينا إلى الجحيم لتقضى نصف السنة الآخر مع بلوتو فى مملكته المظلمة ، بدأ الجو يبرد وأخذت الأوراق تتساقط وكأن الأرض قد فارقتها الحياة إيذاناً بتقدم فصل الخريف والشتاء .

شهور الصيف :

لا شك أن الصيف عندنا يبدأ فى شهر مايو ، ويقولون إن رومولوس مؤسس مدينة روما هو الذى أطلق عليه هذا الاسم تبجيلاً لأم رسول الآلهة . والكلمة مايو فى اللغة السكسونية معناها «الحلب ثلاث مرات» ؛ ذلك لأنهم كانوا يحلبون أبقارهم ثلاث مرات فى اليوم الواحد طول هذا الشهر .

ويحظى شهر مايو بإعجاب واهتمام الشعراء ؛ فقد وصف شكسبير فى إحدى رواياته فتاة جميلة ، فقال إنها : «مزدانة كما تزدان الطبيعة فى شهر مايو» . ويعجب توسر بأزهار هذا الشهر ، ويعتقد أنها من أمطار شهر إبريل الحلوة ، على أن هناك مثلا قديما يقول : «إنى أرحب بك كما أرحب بالزهور فى شهر مايو» .

والرومان أيضاً هم الذين ابتكروا الاسم «يونية» تبجيلاً لفتوة رسول الآلهة وشبابه النضير ؛ ذلك لأن الكلمة يونية معناها فى اللغة اللاتينية «شاب» أو «يافع» . ويمتاز يونية فى نظر الدكتور توماس بهدوء الطقس واعتداله . ولذا فإنه يمتدح أثر هذا على حقول القمح حين تتماوج سيقانه الدقيقة فينبعث منها نغم جميل ساحر . أما كاوبر فيرى أن الحياة وسط الحقول فى هذا الشهر ضرب من الحياة فى «الجنة الموعودة» .

أما يوليو فهو خامس شهور السنة الرومانية ، ولذلك كانوا يسمونه «كوينتاليس» أى الخامس . ثم تحول الاسم إلى يوليو نسبة إلى يوليوس قيصر تقديراً لشخصه العظيم . ويصرح الدكتور توماس بظاهرة جغرافية تتعلق بهذا الشهر ، ولا نعرف هل يوافقه عليها علماء الجغرافيا اليوم أم لا ؟ . يقول الدكتور توماس : إن أمطرت السماء فى أول يوم من أيام هذا الشهر ، فإنها لن تنقطع عن المطر لمدة أربعة أسابيع متوالية . ويشبه سيفسر حرارة هذا الشهر «بالنار» .

وكان «أغسطس» يسمى قديماً «مارس» نسبة إلى مارس رب الحرب والضرب عند الرومان . فلما أرادوا أن يبجلوا أوغسطس قيصر ثانى أباطرة روما لانتصاراته الباهرة ولتوليه قنصليته الأولى فى هذا الشهر ، جعلوا اسم هذا

الشهر « أوغسطس » أي الرابع ، ولما كان هـذا الشهر سالخاً عند السكسونيين لحزن المحاصيل الزراعية فقد سموه « شهر الحزن » .

ويرى « دكنز » أن هذا الشهر من خير شهور السنة ، فيه تتدثر الطبيعة بأجمل الحلل وأفتنها . بيد أن الذين ولدوا في هذا الشهر عليهم أن يطمئنوا ! فالاسكتلنديون يعتقدون أن مواليد هـذا الشهر من الذكور يتصفون بمهارة فائقة وعبقرية زائدة . ويعتقد « جون راى » بأنه لو أشرق صباح اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر وانقضى يوماً جميلا صحواً فهذا يبشر بمقدم فصل خريف ممتع جذاب .

الصيف والحب :

يقول تنيسون إن الذي لا يحب في الصيف وخاصة في شهر مايو فقد انطوى على قلب قد من صخر ! ويؤيده في ذلك شكسبير ، فهو يرى أن الصيف أفضل الفصول للحب .

الصيف والزواج :

أجمعت الآراء على أن الزواج في الصيف وخاصة في شهر مايو أمر يحسن تجنبه ! فهو على رأى أوفيد الشاعر الروماني مجلبة للندم تارة ، ويسوق إلى زيجة رديئة طوراً ، وعلى زعم الروس يمشى سوء الحظ في ركابه ، وينصحون الأحبار بعدم الإقبال عليه في مايو ، والناس في جميع الأمم تصفه بأنه ملعون جداً .

ويقول « جولت » إن مواليد الزيجات الصيفية تموت صغاراً ، بينما يقول رولاند : إن خير الزيجات الصيفية هي التي تكون المرأة فيها من مواليد شهر مايو والزوج من مواليد شهر يونيو .

الصيف ضيعت اللبن :

كثيراً ما يجرى هذا المثل العربي القديم على ألسنة العامة والخاصة ولا تعرف حكايته .

زعموا أن عمرو بن عمر تزوج بنت عمه دختنوس بعد ما أسن ، وكان أكثر قومه مالاً وأعظمهم شرفاً ، فلم تزل تولع به وتؤذيه وتسمعه ما يكره وتهجوه حتى طلقها ، وتزوجها من بعده عمير بن معبد ابن عمها ، وكان رجلا شابا قليل المال ، فمرت إبله كأنها الليل من كثرتها ، فقالت لخادمتها : « ويلك انطلقي إلى عمرو فقولي له فليسقنا من اللبن » فأتاه الرسول ، فقال : « إن بنت عمك دختنوس تقول لك اسقنا من لبنك » فقال لها عمرو : قولي لها « الصيف ضيعت اللبن » فذهبت مثلا .

قالوا في الصيف :

— شكراً للسماء فقد انقضى الصيف .
(توماس كنستابل)

— طنين الحشرات ينبئ بمقدم فصل الصيف .
(لاندور)

— يا الصيف ذي التاج الذهبي . إنه فصل الصفاء والجمال . (هاوسمان)

— يعدنا الخريف بفاكهته والصيف بمحصولاته والربيع بأزهاره وننجو من الشتاء بالنار . (أوفيد)

— لن يكون الوقت كله صيفاً . (هيود)

— برد الصيف أحد من السيف . (مثل عربي)

أمين سلامه

قالوا ...

● إذا كنت قد شيدت بأمانيك قصوراً في الهواء فلا تظن أن جهدك قد ضاع سدى ، فالقصور لا تقوم إلا في الهواء ، ولكن عليك أن تبني لها أساساً ثابتاً على الأرض . [ثورو]

● في الحياة غرضان حقيقان بالعناية : أن تظفر بما تبغى وأن تتمتع به بعد ذلك ، وأحكم الحكماء وحدهم يدركون الغرض الثاني . [لوجان برسيل سمث]

● كل امرئ سيارة عامة يركب فيها جميع أسلافه . [أولفر وندل هومز]

● يقول المتفائل : إن كأسي ملأى إلى نصفها ، أما المتشائم فيقول : إن كأسي فارغة إلى نصفها .

● الفقر في الوطن غربة .

● ليست الحياة شمعة قصيرة الأجل في نظري ، إنها مشعل باهر أمسكت به الساعة وفي نيتي أن يكون أبهى ما يكون ضياء ، وأنا ممسك به قبل أن أسلمه للأجيال المقبلة . [برنارد شو]

تأملات في القمـــــر

لأولدس هكسلي

ترجمة الأستاذ وليم بنى

المادية والعقليـة وغيرها من الفلسفات التي تقول : « لا شيء غير كذا » ... لا شيء غير المكان ، والزمان ، والمادة ، والحركة ، ولا شيء غير الجنس ، ولا شيء غير الاقتصاد ، ولا شيء غير الروح ، ولا شيء غير الشعور ، ولا شيء غير علم النفس ؛ إن عبارة « لا شيء غير كذا » كلام تافه بقدر ما هو صغير ، تنقصه السماحة ، كفانا قولاً : لا شيء غير كذا ؛ فلقد حان أن نقول مع شيء من الذوق السليم الفطرى : ليس هـذا وحده ، ولـكن أيضاً كذا وكذا ...

ها هو الليل من وراء النافذة يتأمل ليصحو ، وتعوم الحديقة في ضوء القمر بألوانها الذاهبة ، ويبدو الورد قرمزياً بعد أن كان حالكاً في سواد الليـل ، والأشجار ترنو إلى حافة الخضرة الحبـة ، وحاجز الشرفة الناصع البياض يلمع إزاء السماء بزرقتها الداكنة — كل هذا يجعلني أتساءل : هل ترقد الواحة هنا ، وتمتد الصحراء وراء آخر نخلة ؟ ويتموج ضوء القمر منعكساً على جدران المنزل البيضاء ، والقمر بدر ، وليس بدراً وحسب ، ولـكنه جميل ، وليس جميلاً وحسب ، ولـكنه ...

أتهم سقراط بالـكفر لأنه قال إن القمر حجر ، وأنكر التهمة قائلاً إن عامة الناس يعرفون أن القمر إله ، وهو يتفق مع عامة الناس ، ويبدو قول سقراط معقولاً بل علمياً رداً على فلسفة « لا شيء غير ... المادية » ، ويفضل قوله قول لورنس من الوجهة العقلية والعلمية معاً ، وجاء قول لورنس في كتابه العجيب « أوهام اللاشعور » الذي يجمع بين المادة السيكولوجية الصادقة ، والمظهر العلمي المختلق ، يقول لورنس : ليس القمر عالماً شديد البرودة مثل عالمنا ثم برد ، كلام فارغ ! فهو عالم من المادة الفعالة مثـل الراديوم والفوسفور تجمد على قطب من الطاقة العظيمة ، ويعيب قول لورنس أنه قد برهن على بطلانه ، فما لا شك فيه أن القمر ليس من الراديوم ولا من الفوسفور ؛ القمر حجر ، وكان لورنس ساخطاً على فلاسفة : « لا شيء غير كذا » الذين يؤكدون أن القمر حجر وحسب ، وله الحق أن يسخط ؛ فلقد كان يحس أن القمر شيء آخر ، ويحس بأهمية القمر البالغة ، ومعناه العميق إحساساً مبنياً على اليقين التجريبي ، ولـكنه أراد أن يفسر هـذه الحقيقة الحدسية تفسيراً علمياً ، تفسيراً يقوم على المادة لا على الروح ، فمن العبث القول أن القمر من الراديوم ! وليس من العبث القول أنه من مادة إلهية ؛ فليس ما يمنع أن يكون القمر حجراً وإلهاً .

والحجة على أنه حجر وليس براديوم توجد في كتب الأطفال العلمية ، وهي حجة مقنعة وملزمة ، وليست الحجة على ألوهية القمر بأقل إقناعاً منها ، ومن الممكن أن نستخلص هذه الحجة من تجاربنا ، ومن أقوال الشعراء ، بل يمكن أن نستخرجها من شذرات مبثوثة في كتب الفسيولوجيا والطب ...

ولـكن ما ألوهية القمر ؟ وما الألوهية ؟ كيف نعرف الإله . في لغة علم النفس الإله شيء يثير فينا نوعاً من الشعور يسميه الأستاذ أوتو (الشعور بالقوة الخارقة) هذا الشعور هو مادة الإله الأولى ، ومنها استمد العقل أفراد الآلهة الذين يملأون الأساطير اليونانية وغيرها ، واستخلص منها صفات الإله . وهكذا أحس البشر بالفزع والرهبة أمام الكون الخطر المعجز ، وجعلهم هذا الإحساس يعتقدون في وجود

آلهة غضاب . ثم أثر فيهم التفكير في الآلهة الغضاب الشعور بالفزع والرهبة حتى لو جاءهم الباعث على الفزع من الوجود نفسه . الانفعال ثم التعقل ثم الانفعال ، عملية دائرية متصلة ، لحياة الإنسانية الدينية تقوم على مبدأ القلق .

القمر حجر ، ولكنه حجر يثير الشعور بالقوة الخارقة في الإنسان رجلاً كان أو امرأة . فهناك ضوء القمر الرقيق الناعم الذي يمنحنا سلاماً يفوق الإدراك . وهناك ضوء القمر الذي يثير الخشوع ، وضوء القمر البارد القاسي الذي يثير في النفس الشعور بالوحدة واليأس والعزلة ، والشعور بالشناعة وعدم الطهارة . وهناك ضوء القمر الحالم الحنون الذي يغري بالحب ، لاحب فرد وحسب ، ولكن حب الكون بأجمعه . ويلقي القمر شعاعه على الجسم ، كما ينفذ شعاعه إلى العقل عن طريق البصر ؛ فهو يؤثر في النفس تأثيراً مباشراً ، كما أنه يؤثر فيها بطرق غامضة غير مباشرة أو دائرية ؛ وذلك عن طريق الدم . وربما نصف الجنس البشري في خضوع تام لدورة القمر . وهناك من الأدلة ما يؤكد أن الحياة الفسيولوجية ، ومن ثم الحياة الروحية للرجال والنساء على السواء ، تقوى وتضعف تبعاً لتغيرات القمر ؛ فثمة أفراح غير معقولة ، وأحزان غير مفهومة ، وضحكات وتأوهات من غير سبب ظاهر . هذه الظاهرات الفجائية ، والأوهام هي نسيج حالاتنا النفسية ، ومصدر الآلهة والجن وما إليها ، وهذه الظاهرات مبعثها الدم والأخلاط . والدم والأخلاط يخضعان للقمر من بين ما يخضعان له من أشياء . فالقمر إذاً يؤثر في النفس تأثيراً مباشراً عن طريق البصر ، وتأثيراً غير مباشر عن طريق الدم ، حتى الكلاب والذئاب يبدو أنها تحس على نحو حيواني مبهم بالقوة الخارقة المتعلقة بالقمر إذا حكمنا عليها بنباحها وعوائها في الليل . ولقد وحد بين أرطاميس إلهة كل ما هو وحشي ، وبين سيلين إلهة القمر في الأساطير المتأخرة .

وإذا نظرنا إلى القمر باعتباره حجراً ، نجد أن حجريته يمكن فيها مبعث الشعور بالقوة الخارقة ، فهو حجر قديم خلو من الماء والهواء ، وصورة لمآل أرضنا عندما تفقد الشمس قوتها بعد عدة ملايين من السنين . ولا نستطيع أن ندبم التفكير في القمر إلا وتجيش نفوسنا بمشاعر القوة الخارقة ، وتندرج هذه المشاعر تحت صنفين متضادين ؛ يطلق على الصنف الأول مشاعر الشناعة الإنسانية ، وعلى الصنف الثاني اسم مشاعر العظمة الإنسانية . فإذا تأملت هذا الحجر الفاني يسبح في الفضاء الواسع تشعر كأنك حشرة ، أنك وضيع حقير إزاء هذا الجبروت المعجز ، وتقول مع باسكال : سكون هذا الفضاء اللامتناهي يفزعني ، وقد تشعر بعكس هذا ، وتقول مع بول فاليري : سكون هذا الفضاء اللامتناهي لا يفزعني . لأن منظر هذا الجرم الحجري لا يجعلك تشعر بالضرورة أنك حشرة ، بل على العكس يجعلك فخورا برجولتك معتزاً بها . وهناك يسبح ذلك الجرم أقرب رمز للمخاوف الفلكية منا ، وآلهها لنا . ولكن الذين اكتشفوا مخاوف المكان والزمان من الفلكيين كانوا جبراً منا . والكون يتحدى الإنسان على الرغم من شناعته وحقارته ، وقد قبل الإنسان هذا التحدي.

وينظر إلينا هذا الحجر من اللامتناهي للظلام كأنه يقول : تذكروا أن مآلكم الموت . ولكن تذكر الموت يشيع فينا كبرياء إنسانية وشعوراً بالقوة هائلة لنا الحق فيها .

وليم بخ

إعلان

يتشرف مدير عام مصلحة الأملاك الأميرية بإحاطة الجمهور علماً بأنه معروض للبيع بالتقسيط بالمزاد العلني بجلسة ١٤ يوليه سنة ١٩٥١ الأراضي الأميرية الكائنة بناحية زبيدة البحرية بمنطقة كوم الذهب بتفتيش دسوق البالغ مساحتها ١٥١ فداناً تقريباً مكونة من صفقتين مجموع ثمنهما الأساسي ٦٨٢٠ جنيهاً — وستعقد الجلسة من الساعة العاشرة لغاية الساعة الثانية عشرة ظهراً بديوان المصلحة بمصر .

وتطلب المعلومات فيما يتعلق بالموقع وشروط البيع من ديوان مصلحة الأملاك الأميرية بشارع منصور رقم ١٥ بجوار وزارة المالية بمصر أو من ديوان تفتيش دسوق بأبي غنيمة .

٨٧٣٢

الخل الوفي ...

لأوسكار وايلد

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

إقرأ هذه القصة محاولا لنفسك أن «هيوز» صاحب الطاحونة في القصة إنما يصور أولى الأمر عندنا في مصر على اختلاف زعمائهم، وأن «هانس» يصور طبقات الشعب المتعطشة للاصلاح الحقيقي، وأولو الأمر يعدون الوعود الجميلة، وطبقات الشعب تنتظر الوفاء بتلك الوعود في غير جدوى، فكأنما كتب أوسكار وايلد هذه القصة يصور بها ذلك.
«الثقافة»

قال طائر من الطيور لفأر من الفئران: سأنزل إلى جوارك لأقص عليك قصة الخل الوفي:—

يحكى أنه في زمن من الأزمان كان يعيش على ظهر هذه الدنيا رجل كريم العنصر طيب الأعراق، اسمه (هانس).

قال الفأر: أوكان هذا الرجل من الرجال البارزين؟

قال الطائر: أكبر الظن أنه لم يكن كذلك إذا استثنينا طيبة قلبه وابتسامته المشرقة.

وقد كان صاحبنا هذا يعيش وحيداً في كوخ صغير. وهو يعمل كل يوم عمل البستاني في حديقته. وكانت تلك الحديقة — لفرط عنايته بها — بهجة للناظرين:

فمن نرجس لما رأى حسن نفسه
تداخله العجب به فتيما
ومن سوسن لما رأى الصبغ دونه
على كل أنواع الرياض تقسما
تجلبب من زرق اليواقيت حلة
فأغرب في اللبوس فيها وأحكما
وأنوار منثور تخالف شكلها
فصار بها شكل الربيع منمنما
جواهر لو قد طال فيها حياتها
رأيت بها كل الملوك محكما

وكان لهانس أصدقاء كثيرون، ولكن الخل الوفي بينهم كان الرجل الضخم (هيوز) صاحب الطاحونة. ولقد كان هذا الرجل الغني — والحق يقال — صديقاً قد أوفى على الغاية في صداقته، إذ كان لا يمشي — كلما مر على الحديقة — أن يطل من سورها فيجمع باقة من الورود أو يملأ جيوبه من التوت إذا كان الوسم موسم الفاكهة.

وكان من عادته أن يقول: إن على الأصدقاء الصادقين أن يتقاسموا الأشياء كلها فيما بينهم. وكان (هانس) يسمع فيبتسم. ويحس إحساس الفخار والزهو بأن أتيح له أن يكون من بين أصدقائه رجل يؤمن بهذه الآراء القيمة.

وكان الجيران أحيانا يعجبون من أن الطحان الغني لم يرد يوما جميل صاحبه وهو الذي يملك مئات الأكياس من الدقيق. وهو الذي عنده ست بقرات حلوب. كما أن عنده قطيعا من الغنم يستطيع أن يهديه منها جزة أو جزتين. ولكن (هانس) لم يعن يوما بالتفكير في هذه الأشياء. إذ كان أحب الأشياء عنده وأبعثها للسرور لديه أن يسمع إلى ما يقوله صديقه الطحان الغني عن فضائل إنكار الذات التي تقوم برهانا على الصداقة الصادقة.

وفي فصول الربيع والصيف والخريف كان (هانس) سعيداً غاية السعادة لا يصده صاد عن العمل في حديقته، حتى إذا جاء الشتاء وعريت الحديقة من الزهر والثمر فلا فاكهة تحمل إلى السوق ولا زهر. عانى الألم الممض من الجوع والبرد وبات يقضي الليالي بغير عشاء إلا بضع ثمرات من الكمثرى المجففة أو البندق. وظل طوال الشتاء يقاسي ألم الوحدة فلا خليل ولا أنيس.

وهذا الطحان ما كان ليراه مادام الشتاء ممدود الرواق.

وكان من عادة هذا الطحان أن يقول لامرأته: لست أجد أية فائدة من ذهابي لرؤية (هانس الصغير) ما دامت

الفرج . ذلك لأن الناس إذا ألمت بهم النوائب وجب أن يتركوا لأنفسهم وأن لا يثقلهم الزوار ... وهـذه — على الأقل — آرائى فى الصداقة . وإنى لواثق أنى على حق . وعلى هذا فانى منتظر عودة الربيع . ويومئذ سأزوره . ويومئذ سيكون فى قدرته أن يجيء لى سلة ملأى بأزهار الربيع . وسأسعد يومئذ وأنعم بتلك الهدية .

وكانت امرأته تقول له : إنك لكثير التفكير حقاً فى أمور الآخرين ... وإنى ليسرنى أكبر السرور أن أسمع حديثك عن الصداقة والأصدقاء . وإنى لعلى يقين أن القسيس نفسه لا يستطيع أن يحسن القول فى هذا الأمر كما تحسنه أنت . على الرغم من أنه يسكن بيتاً ذا ثلاثة طوابق . وعلى الرغم من أنه يتختم بخاتم من ذهب .

وقال أصغر أولاد الطحان الغنى : ألا نستطيع أن ندعو «هانس الصغير» إلى بيتنا حتى إذا كان يشكو الجوع أعطيته نصف غذائى من العصيدة . ثم أريته أرانبى البيضاء .

فصاح أبوه فى وجهه : يالك من ولد غبى ! وإنى لست أعرف ما فائدة إرسالك إلى المدرسة . إذ يبدو أنك لا تتعلم هناك شيئاً . ألا فلتعلم يا بنى أنه إذا جاء (هانس) إلى بيتنا . ورأى النار الموقدة ورأى العشاء الفاخر ورأى باطية النبيذ الكبيرة شاع فى نفسه الحسد . والحسد من أشد الأشياء هدماً لسعادة النفس . وهو قادر على أن يحيل النفس المطمئنة نفساً قلقة مضطربة . ولست أبغى — والحق أقول — أن أبدل من اطمئنان نفس (هانس) قلقاً واضطراباً . وأنا أصدق صديق له . ولكنى سوف أظل أرقبه دائماً من بعيد . وسوف أعنى بأن أجنبه وساوس الشيطان . وفضلاً عن ذلك فان (هانس) إذا جاء إلينا فهو لابد سائلى أن أعطيه مقداراً من الدقيق عارية وقرضاً . وهذا مالا أستطيع أن أفعله . فالدقيق شيء والصداقة شيء آخر . وهما ضدان لا يجتمعان . ألا ترى أن هجاء الكلمتين مختلف جداً ؟ بل هما لفظان لمعنيين ليس بينهما صلة . وكل الناس يعرفون ذلك ...

قالت امرأته وهى تملأ قدحها خمراً : ما أبدع قولك . وما أروع حجتك ! لكأنى أرى نفسى الآن فى الكنيسة ...

فأجابها : إن كثيراً من الناس يجيدون القول . ولكن قليلين جداً هم الذين يحسنون فن الحديث . وهذا ما يثبت أن فن الحديث أصعب الفنين .

ثم نظر نظرة عابسة إلى ولده الصغير الذى أحس إحساس الخجل وقد خفض رأسه . وبدأ يلح فى طلب الشاى إخفاء لخجله . وبدأ والده يلتمس له المعاذير وأولها صغر سنه .

وعندئذ سأل الفأر : وهل هذه نهاية القصة ؟

قال الطائر : بل هذه بدايتها .

قال الفأر : إذاً فأنت من رجال المدرسة القديمة . ألا فاعلم — علمت الخير — أن القصاص البارع فى أيامنا هذه هو الذى يبدأ بنهاية القصة ثم يتبعها ببدايتها . ثم يختتمها بواسطة عقدها . وهذه هى الطريقة الحديثة . وقد سمعت شرحها وتفصيلها منذ قريب من أحد النقاد وهو يمشى إلى جانب فتى حول غدير ماء . وكان هذا الناقد يسهب فى الشرح والتفسير . وإنى لأظنه على حق . ودليلى على ذلك نظاراته الزرقاء ورأسه الأصلع .

ثم استطرد الفأر يقول : ولكن أتم قصتك فإنى أحببت الطحان حباً جماً . ذلك أن عندى من عاطفة الخير صنوفاً وألواناً . وكلانا يشبه صاحبه حذوك النعل بالنعل .

واستطرد الطائر يقول : فلما ذهب الشتاء وبدأت أكمام الزهر تتفتح قال الطحان لامرأته : إنه أصبح واجباً عليه أن ينزل إلى الوادى ليرى (هانس الصغير) فصاحت فى وجهه تقول : ما أطيب قلبك وأخلص سريرتك . إنك دائم التفكير فى الآخرين . فلا تنس أن تأخذ معك السلة الكبرى لتعود بها ملأى بالأزهار ...

وربط الطحان أشرعة طاحونته ربطاً محكماً بسلسلة من حديد وسار إلى بيت (هانس) ممسكاً السلة بذراعيه . وقال لصاحبه : عم صباحاً ياهانس .

قال هانس مبتسماً ابتسامة عريضة وهو يمسك بفأسه : صباح الخير ياسيدى !

— ما فعل بك الشتاء الطويل ؟

— لست أستطيع أن أجزيك شكراً على هذا السؤال الطيب . وإنى لأخشى أن أقول إن الشتاء كان قاسياً على . فقد لقيت فيه من أمرى نصباً . ولكن الآن وقد جاء الربيع فإنى به جد سعيد . فكل الزهور تنمو وتزهر .

— لقد طالما كنت موضوع أحاديثنا طوال الشتاء . وكنا نتساءل : كيف أنت وكيف حالك ؟

— لقد كان هذا فضلاً من أفضالك ، ولقد خشيت أن تكونوا قد نسيتمونى .

— إنى ليتولانى العجب منك . فالصداقة ليس من خلائقها النسيان ، وإنى لأخشى أنك لا تستطيع أن تدرك المعانى الشعرية التى تقوم عليها الحياة . ولكن قل لى — والشىء يذكر بالشىء — كيف حال أزهارك ؟

لقد أينعت وحان قطافها ، وإنه لمن حسن حظى أن عندى الكثير من صنوفها وألوانها ، وإنى لمعتزم أن أغدو بها إلى السوق فأبيعها لابنة العمدة وأسترد بثمنها عربة اليد التى كانت عندى .

— تسترد عربة اليد التى كانت عندك؟ أوتعنى بذلك أنك كنت قد بعتها ؟ إنه لمن دلائل الغباء البالغ أن تفعل ذلك !

— لقد كنت ، والحق يقال ، مضطراً . وقد تحرج الحاجات — ياسيدى الطحان — كرائم من رب بهن ضنين . فقد تعلم أن زمن الشتاء كان من أزمنة المحن عندى ، وقد عدمت فيه القوت . بل عدمت فيه أقل القوت . فبدأت أولاً ببيع الأزرار الفضية التى كانت تحلى بدلتى التى أرتديها أيام الآحاد والأعياد ، ثم ثنيت ببيع سلسلتى الفضية ، ثم غليونى الكبير . ثم ألجأتنى الحاجة إلى بيع عربة اليد ، ولكنى الآن ذاهب لأسترد هذه الأشياء كلها

قال الطحان : إنى لمعطيك ياهانس عربتى : وهى فى غير حاجة إلى إصلاح كبير . ذلك لأن جانباً واحداً ليس غير من جوانبها قد فقد . وذلك أن فى (فراملها) شيئاً يستحق الإصلاح . وإنى لأعرف أنه سخاء منى وأى سخاء أن أتنزل لك عن تلك العربة . وإنى لأعرف أيضاً أن كثيراً من الناس سوف يعدوننى سفيهاً أو معتوهاً للتخلى عن تلك العربة . ولكن ليس للائم عندى عتاب . ذلك أنى أرى أن السخاء هو أصل الصداقة وروحها . وفضلاً عن ذلك فإن عندى عربة يد جديدة سأخص بها نفسى ...

الحق أن ذلك منك سخاء وأى سخاء ؟ قال ذلك وقد شاع فى وجهه السرور ، ثم استطرد يقول : وإنى لمستطيع إصلاحها فى غير مشقة ؛ ذلك لأن عندى فى البيت لوحاً من الخشب .

— ماذا تقول: ألوح من الخشب ؟ ذلك ما كنت أبغى ! إنى أريد إصلاح شونتى فإن فى سقفها شقاً كبيراً . فإذا لم أقم بإصلاحه فإن الغلال ستتلفها الرطوبة . ولقد كان من حسن الطالع أن ذكرت لى ما ذكرت . أما وقد أعطيتك عربتى فإنك معتزم أن تعطينى لوح الخشب ، ولامشاحة فى أن عربة اليد هى أغلى ثمناً من لوح الخشب ، ولكن الصداقة الصادقة لا تبالى أبداً بمثل هذه الفروق . فأرجو منك أن تجيئنى بلوح الخشب من فورك ، وحق أن أبدأ بإصلاح شونتى فى يومى هذا .

— لاريب فى ذلك ولاشك .

ثم جرى إلى الحظيرة وجاء بلوح الخشب .

قال الطحان : إنه ليس باللوح الكبير . وإنى لأخشى أنه بعد إصلاح سقف شونتى لن يتبقى من اللوح بقية تستطيع بها إصلاح العربة . ولكن هذا بالطبع خطأ لست أنا المسئول عنه . وما دمت قد أعطيتك عربتى فإنى واثق أنك راغب فى إهدائى بعض الأزهار ، وهاك السلة ورجائى إليك أن تملأها ملأً كاملاً .

قال (هانس) — وقد بلغ به الحزن مبلغه — ملأً كاملاً ؟

قال ذلك القول لأنه رأى أن السلة كبيرة جداً . وأنه لو ملأها فلن يتبقى له ما يبيعه فى السوق . وهو جد راغب فى استرجاع أزراره الفضية .

— حسناً ! ولكنى ما دمت قد أعطيتك عربتى فلست أرى كثيراً على أن أسألك بعض الأزهار ، وقد أكون فى ذلك مخطئاً ولكنى أرى أن الصداقة — وأعنى بها الصداقة الصادقة — بريئة البراءة كلها من الأنانية فى أى لون من ألوانها ، فصرخ (هانس) فى وجهه قائلاً :

— أيها الصديق العزيز: لك ماتشاء وتشتهى من الأزهار بل لك الأزهار كلها . وإنى لأفضل الإبقاء على حسن ظنك بى على الأزرار الفضية .

قال هذا ثم جرى يجمع أجمل أزهاره فملأ بها سلة صديقه .

— أستودعك الله يا هانس !

قال هذا ثم صعد فى الجبل وهو يحمل لوح الخشب فوق كتفه ، ويمسك بيده سلة الأزهار .

قال (هانس) فى حفظ الله ورعايته ! ثم قفل راجعا وهو فرح مسرور بعربة اليد التى وعد بها .

وفى اليوم التالى — وقد كان واقفا يسمر غصنا من أغصان المتسلقات فوق السقيفة — سمع الطحان يناديه من عرض الطريق فنزل (هانس) السلم وجرى إلى مصدر

الصوت، فإذا الطحان يحمل كيسا من الدقيق فوق ظهره، ويطلب إليه أن يحمل عنه الكيس إلى السوق ...

قال (هانس): إني لآسف. ذلك لأني اليوم مشغول إذ على أن أسمر (الشلقات) وعلى أيضا أن أسق الأزهار وأن أحش الحشيش.

قال الطحان: يخيل إلى أني وقد أزمعت أن أعطيك عربتي فليس مما يتفق وشروط الصداقة أن تعصى لى أمراً.

— لا تقل هذا القول فإني لا أبغي عن الصداقة عوضاً.

ثم جرى فجاء بقبعته ثم دلف إلى السوق وهو يحمل الكيس الكبير فوق كتفه.

وكان اليوم قائظاً شديد الحر. وكانت الطريق تغطيها غلالة من تراب. وقبل أن يبلغ (هانس) منتصف الطريق كان التعب قد برح به حتى لقد اضطر أن يجلس ليستريح. ومع هذا فقد سار يحمل العبء في شجاعة الشجعان. وأخيراً بلغ السوق، وباع كيس الدقيق بالثمن الربيح. ثم أسرع بالعودة إلى بيته مخافة أن يلقاه بعض اللصوص إذا جن عليه الليل.

ولما أوى إلى فراشه قال يحدث نفسه: لا شك أني قد لقيت من يومي هذا نصباً. ولكن يسرني أني أجبت طلبة (الطحان) ذلك لأنه أصدق أصدقائي، وأخلص خلصائي. وفضلاً عن ذلك فإنه سوف يعطيني عربته.

وفي بكرة اليوم التالي جاء الطحان ليأخذ نقوده، ولكن (هانس) كان لايزال نائماً من أثر التعب. فقال له الطحان: أقسم إنك لكسول. ولقد كنت أظن — وقد أمضيت العزم على إعطائك عربتي — أن تكون أكثر دؤوباً في العمل وأوفر نشاطاً. والكسل — كما يجب أن تعلم — خطيئة كبرى. ومن المؤكد أني لا أرضى أن يوصف به واحد من أصحابي. وأرجو أن لا تسوءك صراحتي. فإني ما كنت أبيح لنفسي — ولو في عالم الرؤيا — أن أسلك هذا السلوك معك لو لم أكن صديقك. وإلا فقل لي: ما فائدة الصداقة إذا كان المرء لا يستطيع أن يقول لصديقه كل ما يجول بخاطره؟ وإنك لترى أن أي إنسان يستطيع أن يقول كل قول يبعث في النفس السرور. ويشيع فيها البهجة محاولا بذلك إرضاء صاحبه وتملقه. ولكن الصديق الصادق هو الذي يبكيك ولا يعنيه أكان في ذلك سخطك أو رضاك. وهو إن كان صديقك حقاً فهو لابد سالك سبيل الإبكاء لا الإضحاك، ذلك لأنه يعرف أن ذلك هو السبيل القويم الهادي إلى طريق الرشاد.

قال (هانس) وهو ينزع قبعته ويدلك عينيه: ولكني كنت متعبا، حتى لقد ظننت أن سوف يطول رقادي حتى أسمع تغريد العصافير. ألا تعرف أن سماع تغريد العصافير يبعث في قوة ونشاطا؟

— يسرني أن أعرف ذلك، لأني أريدك أن تصعد إلى الطاحونة فور ارتدائك ملابسك لتصلح لي سقف شونتي.

وكان (هانس) شديد الرغبة في أن يعمل في حديقته، ذلك لأن أزهاره قد طال بالسقي عهدها، ولكنه لم يكن يريد أن يرد صاحبه خائبا، ذلك لأن «الطحان» كان خله الوفي ... وبعد أن فكر مليًّا قال لصاحبه — في صوت يمازجه الحياء والخجل —: أو تحسبني غير وفي إذا قلت لك إني اليوم مشغول؟

— ما في ذلك شك! ذلك لأني أحسبني ما بالغت في الطلب إذا عرفت أني بسبيل إعطائك عربتي، ولا مفر — إذا أبيت التعاب — من أن أعمل هذا العمل بنفسي.

قال (هانس) وهو يهب الخطى في طريقه إلى الشونة بعد أن ارتدى ملابسه في سرعة بالغة: لن تعوقني عنك العوائق، وإني ذاهب فلاقيك هناك.

وما لبث أن بلغ الشونة وظل يعمل حتى غربت الشمس. وعندئذ جاء الطحان ليرى ماذا أتم من عمل، ثم سأله في صوت تمازجه الغبطة: هل سددت الثغرة يا هانس؟

قال: نعم. فقال له الطحان: إن أحب الأعمال وأجلبها للسرور هو ذلك العمل الذي يؤديه صديق لصديقه. فرد عليه (هانس) بقوله: إنها لمنة عظمى أن أسمع حديثك، ولكني أخشى أن لا يخطر ببالي يوماً ما آراء قيمة مثل آرائك.

— بل لا بد من مجيء ذلك اليوم الذي يخطر فيه بخاطرك مثل هذه الآراء. إنما دون هذا العناء أقصى العناء، والجهد أشد الجهد.

— أحق ما تقول؟

— بل هو الحق الذي لا يأتيه الباطل. والآن وقد أصلحت الثغرة فيمكنك التوجه إلى بيتك لتنال قسطا من الراحة. ذلك لأني أريد منك أن تأخذ نعاجي غداً إلى الجبل. فلم يبد (هانس) أي اعتراض. وذلك مخافة عقبى الجدل.

وفي الصباح الباكر أحضر الطحان عاجبه إلى الكوخ فأخذها (هانس) وسار بها إلى الجبل . وكلفه ذلك ساعات اليوم كله . فلما عاد إلى بيته ألجأه التعب إلى الرقاد فوق كرسيه . ولم يستيقظ إلا ضحى الغد . وقال يحدث نفسه : ما أسعدني بيومي هذا الذي سأقضيه في حديقتي . ولكنه لم يقدر له أن يعنى بأزهاره . ذلك أن الطحان كان يغدو ويروح مطالبا إياه بخدمات لا تنتهي . أو طالبا إليه أن يعد له بذر العوسج . وكان (هانس) تنتابه الكآبة أحيانا مخافة أن تظن أزهاره أنه قد نسيها . ولكنه كان يعزي نفسه بأنه قد كسب صداقة الطحان . وفضلاً عن ذلك فقد كان يقول : إن صديقي سوف يعطيني عربته وهذا منه محض سخاء وكرم

ولذلك فإن (هانس) كان لا يتوانى في خدمة الطحان . أما هذا فكان رأيه ذكر أجمل ما قال القائلون . وأروع ما كتب الكاتبون عن الصداقة والأصدقاء . فكان (هانس) يدونها في كراسته . وكان يستذكرها أثناء الليل . ذلك لأنه كان تلميذاً ذكيا ...

ثم حدث أنه بينا كان (هانس) جالساً ذات ليلة إلى جانب المدفأة أن دق الباب دقاً عنيفاً . وكانت ليلة حالكة السواد وكانت الريح تعصف وتزأر . فظن (هانس) أن الدق من فعل العاصفة . فلما عاد الدق مرة ثم مرة ظن أنه عابر من أبناء السبيل فجرى إلى الباب وإذا به يلقى الطحان واقفاً ممسكاً مصباحا بإحدى يديه وممسكا بالأخرى عصا غليظة . وبادره بقوله : إني ياصديقي (هانس) قد نزلت بي نازلة وألمت بي ملمة . ذلك أن ولدي الصغير قد زلت قدمه من فوق السلم وقد كسرت ساقه وأنا ذاهب به إلى الطبيب . ولكن الطبيب يقيم في مكان بعيد والليل ليل قر . فخطر ببالي أن تقوم مقامي . وأنت تعرف أني سأعطيك عربتي فمن الخير أن تصنع معي معروفا لقاء ذلك .

قال (هانس) : بكل تأكيد . وإني لأعدها تحية منك وتكرمة . أن تجئ إلي . وإني قائم من فوري . ولكن عليك أن تعيرني مصباحك . فإن الليلة سوداء مظلمة . وأخشى أن تزل بي القدم فأهوى إلى درك سحيق .

— إني لآسف ! ذلك لأنه المصباح الجديد . وسوف تكون الخسارة فادحة إذا أصابه كسر أو عطب .

— لا عليك فإني أستطيع أن أسير بغير مصباح . ثم ارتدى قباءه من فرو . ووضع قبعة من وبر . ولف حول عنقه كوفية ثم بدأ السير . ولكن الليلة كانت جد مظلمة . والعاصفة كانت جد مروعة . فكان (هانس) يكاد لا يرى شيئا . وكان لا يستطيع الوقوف . ولكنه على الرغم من ذلك كان جريئا مقداما . فاستطاع الوصول إلى بيت الطبيب بعد ثلاث ساعات قضاها سائراً مجداً .

وسأله الطبيب عما جاء به في تلك الليلة المظلمة فقال : إن ابن الطحان قد كسرت ساقه وهو يرجو منك المبادرة بالمجئ لعلاجه . وأمر الطبيب بحصانه فأسرج . ثم امتطى صهوة حصانه الضخم . وأمسك بمصباحه . وسار في طريقه إلى بيت الطحان . وسار (هانس) وراءه ولكن العاصفة اشتدت سوءا بعد سوء . وهطل المطر كأفواه القرب . فما استطاع (هانس) أن يلحق بالحصان .

وأخيراً ضل الفتى طريقه . وغاصت قدماه في مستنقع زلق . فمات من الغرق . وعثر رعاة المعز بجثته غداة الغد وهي طافية فوق إحدى البرك . وجاءوا بها إلى الكوخ .

ومشى الناس كلهم باكين خلفه ؛ ذلك لأنه كان إلى كل القلوب حبيباً . وكان صاحبه الطحان يرتدي السواد . وكان أكثر المشيعين حزناً وأسى .

وقد سمعه الناس يقول : لقد كنت أصدق أصدقائه . فمن اللائق أن أكون في الصف الأول من صفوف المشيعين ...

ولما عاد المشيعون قال حداد القرية : إن فقد (هانس) هو خسارة كبرى لكل من عرفه . وظلوا جميعاً جلوساً باسمين يشربون الخمر المثلجة . ويأكلون الكعك الحلو اللذيذ ...

وقال الطحان : إن موته — ولا شك — خسارة كبرى . ولقد بلغ من سخائي معه أني كنت قد وعدته بعربتي ... والآن لست أعرف ماذا أصنع بها ؛ فهي في حاجة إلى إصلاح كبير . وهي إذا بعتها فلن ألقى من يشتريها . ولذلك فإني سأحرص بعد اليوم على أن لا أعطي أحداً حاجة من حاجاتي ... فقديماً قالوا :

الجود يُفقر ... والإقدام قتال ...

(عن الإنجليزية) مبارك ابراهيم

نقد

المزهر (*)

للعلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي

تحقيق الأساتذة : محمد أحمد جاد المولى بك ، وعلى محمد البجاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم

عدد الصفحات ٦٦٣ — طبع بمطبعة الحلبي

للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار

طبع المزهر للسيوطي أربع مرات في أوقات مختلفة ومطابع متباينة ، يتفاوت بعضها عن بعض في الدقة والصحة والسلامة والنظافة ، وإحداها جد رديئة ومملوءة بالأخطاء .

وخير هذه الطبعات : الطبعة الأخيرة التي قام بها ثلاثة من الأعلام النابهين من إخواننا المصريين — حماة الثقافة العربية والأدب العربي واللغة العربية — وهم الأساتذة الفضلاء : محمد أحمد جاد المولى ، وعلى محمد البجاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

وأشهد أن تحقيق هذا النفر للمزهر كان تحقيقاً علمياً يدل على سعة الاطلاع ، كما يدل على عظم الجهد الذي بذل في نشره نشراً صحيحاً دقيقاً ، غير أن في الكتاب هنات تثبت أن العصمة والكمال ليسا من نصيب الناس مهما حاولوا ذلك ويهدوا السبيل إليه ، واستعدوا له .

ولا تقع تبعة أكثر هذه الهنات عليهم ، لأنهم اعتمدوا على نسخ خاطئة ، واجتهدوا في تقويم المعوج وإصلاح الخطأ وإخراج المزهر إخراجاً صحيحاً ، ومع هذا فاتهم تحقيق كثير من الكلمات والتعابير ، ولكنهم نبهوا القارئ إلى ما لم يوفقوا لتحقيقه أو يهتدوا إلى حقيقته ، إلا أنهم مع هذا الاجتهاد والحرص فاتت منهم الإشارة إلى بعض المواضع التي تحتاج إلى تنبيه .

ومن هذه المواضع ما جاء في صفحة ١٨٠ من الجزء الأول : « أخبرنا غير واحد من أصحابنا عن أبي محمد بن السيد البطليوسي عن أخيه أبي عبد الله الحجازى » الخ .

فالمحققون الثلاثة لم يشيروا إلى أن في الكلمة سقطاً ، مع أنه ظاهر ، فأبو عبد الله الحجازى ليس أخاً للبطليوسي .

وقد وقفت عند هذه الجملة ورجعت إلى خزانة كتبي فلم أوفق لمعرفة ما سقط منها ، ولكني نبهت في نسخي إلى السقط ، كما نبهت في كثير من الكتاب إلى ما أخذته على المحققين الثلاثة ، رجاء أن أعود إليه عندما أهتدى إلى الصواب .

وشاء الله أن أقضي الشتاء في الطائف رغبة في الهدوء واستجمام الراحة ، وأن أتردد على مكتبته العامة التي لم يفتح بابها منذ سنين ، أدرس ما بها من مخطوطات ونوادر كما درست مكتبات مكة والمدينة ، وإذا بي أعثر بين مئات الآلاف من الأوراق المهملة المخطوطة في كل علم أو فن معروف عند العرب ، على أوراق بالية لا قيمة لها عند القيمين على أمر تلك المكتبة المهملة الضائعة .

وكانت تلك الأوراق المعدودة كل ما تبقى من نسخة مخطوطة من المزهر التي لم أهتد إلى ناسخه لضياع أوله وآخره ، وعدد هذه الأوراق تسع وعشرون ورقة ؛ طول كل ورقة منها ٢١ س وعرضها ١٥ س ، والصفحة مرحومة

(*) أهدى هذا البحث إلى صديق الشيخ عبد الله سرور ، فإليه يرجع فضل كتابته ، لأنه أتاح لي فرصة زيارة مكتبة الطائف ، ووقف من جهوده وفضله ما جعلني أقف على نوادر ونفائس من المخطوطات ، ولولا جهوده المثمرة لما استطعت أن أكتب هذا الفصل . (عطار)

بالسطور ، والسطر مزحوم بالكلمات ، حتى إنه يحوي أكثر من عشرين كلمة ، والخط جد دقيق ورديء غير مقروء إلا بجهد جهيد ، لأن الناسخ يهمل النقط ولا يحسن الخط ، وفوق هذا يسقط كلمات وجملاً ، ويخطئ في الإملاء ، وينجم من جراء كل هذا التصحيف والتحريف والغلط .

وتضم هذه الأوراق القليلة من كتاب المزهر ما تقابل صفحة من طبعة الحلبي ، ابتداء من أول « باب معرفة المصنوع » صفحة ١٧١ من الجزء الأول من هذه الطبعة حتى صفحة ٣٧١ حيث يبتدئ فصل عنوانه : « النوع الخامس والعشرون . معرفة المشترك » .

ورجعت إلى هذه الأوراق أحقق تلك الجملة التي وقع بها السقط فاهتديت إليه وهو : « وأبو الحسن البطليوسي » وإذا وضعت هذه الكلمات في موضعها من جملة المزهر المطبوع كان الكلام تاماً لا سقط فيه ، وتصبح الجملة هكذا : « أخبرنا غير واحد من أصحابنا عن أبي محمد بن السيد البطليوسي عن أخيه أبي الحسن البطليوسي عن أبي عبد الله الحجازي » الخ ، وبهذا يتم الكلام .

وبمعارضة طبعة الحلبي من المزهر التي تعد أصح ما طبع منه بهذه الأوراق وجدت بينهما خلافاً كبيراً ، وها أنا أشير إلى بعضها ، ومستعد أن أقدم إلى الإخوان المحققين الثلاثة هذه الأوراق حتى يقوموا هم بمعارضتها رغبة في تصحيح الطبعة الثانية إن قدر له أن يطبع ، ثم ردها إلى حتى أعيدها إلى مكانها من المكتبة .

جاء في صفحة ١٧٢ من المزهر طبعة الحلبي : « ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها » .

وفي الأوراق التي عثرنا عليها : « ورائفها أو رائقها » بدل زائفها ، ولعل أحدهما أمكن من زائفها في موضعها ، لأن البهرج — كما شرحه المحققون في الهامش — الرديء ، والزائف الرديء أيضاً ، وما أظن ابن سلام يريد أن يقول : يعرف زائفها وزائفها ، أو يعرف بهرجها وبهرجها ، والرائع ما يعجب الناس بحسنه أو بجهارة منظره ، وفي الدرهم غير الزائف معنى الروعة .

ولكني أرى أن الصحيح : « ورائقها » بدل زائفها ، ففي اللغة : شراب رائق أي مصفى ، ومسك رائق أي خالص ، والكلام يستقيم عندما يكون من الجملة ، ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف رديئها وخالصها .

وفي الصفحة نفسها : « وإن كثرة المداومة لتعين على العلم به » وذكر المحققون الثلاثة في هامشها : « المدارسة » إشارة إلى أن طبقات الشعراء ذكر المدارسة بدل المداومة ، وهو أصح ، لأن السياق يتطلبه ويحمل به ، وفي نسخة الطائف : « المدارسة » مثلما في طبقات الشعراء ، ولعل التغيير جاء من نساخ المزهر .

وفي الصفحة نفسها أيضاً : « لخلف بن حيان أبي محرز » وفي الهامش : « في كل النسخ : بن . والتصحيح من طبقات الشعراء ، ومعجم الأدباء » وفي نسخة الطائف : « لخلف ابن حيان أبي محرز » كما في طبقات الشعراء ، ومعجم البلدان .

وفي صفحة ١٧٤ : « ولا عربيتهم عربيتنا » وفي نسخة الطائف : « ولا عربيتهم بعربيتنا » .

وفيها : « وما ذهب من ذكر وقائعهم » وفي نسخة الطائف : « وما ذهب من وقائعهم وذكرها » .

وفيها : « ثم كانت الرواية بعد فزادوا في الأشعار » وفي نسخة الطائف : « ثم كانت الرواة فزادوا في الأشعار » وهذا يوافق ما في طبقات الشعراء الذي نقل منه السيوطي .

وفي صفحة ١٧٥ : « فأتيته أنا وابن نوح » وعلق المحققون بالهامش : « هكذا في طبقات الشعراء . وفي كل النسخ : وأنا » إلا في نسخة الطائف ، فإنها توافق ما بطبقات الشعراء ، وتخالف كل النسخ التي اطلع عليها المحققون .

وفيها : « فلما فقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم » . وعلق المحققون في الهامش : « في طبقات الشعراء : فلما فقد شعر أبيه » وهذا نفسه في نسخة الطائف ، وهو أولى .

وفي نسخة الطائف : وإذا الكلام دون كلام متمم ، بدل ما جاء بهذه الطبعة : « وإذا كلام دون كلام متمم » .

وفي صفحة ١٨١ : « كان محسوم سعيد بن العاص ابن أمية يذكرون » إلخ . وفي هامشها : « عبارة الكامل :

كان قوم سعيد » إلخ . وفي نسخة الطائف نص مال الكامل ، وكان حريا بالمحققين أن يضعوا قوما بدل عموم ويشيروا في الهامش إلى الأصوب .

وفي الصفحة نفسها :

أبو أحيحة من يعم بمثله
يضرب وإن كان ذا مال وذا عدد

وفي نسخة الطائف :

أبو أحيحة من يعم بمثله
يضرب وإن كان ذا مال وأعداد

وفي صفحة ١٨٢ : « وفيها : عنشج » وفي هامشها : « في كل النسخ : عنشج ، بالنون والتصحيح من الجمهرة » وفي نسخة الطائف : عفشج

وفيها : والألط : نبت ، أظن أنه مصنوع » وفي نسخة الطائف : « الألط نبت وأظنه مصنوعا » .

وفي صفحة ١٨٤ : « قال ابن نوفل : سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء : أخبرني عما وضعت مما سميت عربية أيدخل فيه كلام العرب كله » . وفي نسخة الطائف : قال ابن نوفل : سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء : أخبرني عما وضعت مما سميت عربية أيدخل في كلام العرب كله »

وجاء في صفحة ١٨٥ : « هذا كتاب اختيار الفصيح » وفي نسخة الطائف : « هذا كتاب اختيار فصيح الكلام » .

وفيها : « ومنه ما هو دون ذلك » وفي نسخة الطائف : ومنه ما دون ذلك » .

وفي صفحة ١٨٧ : « وينبو عن سماعها ، كما ينبو عن سماع الأصوات المنكرة ، فإن اللفظ من قبيل الأصوات ، والأصوات منها ما تستلذ النفس بسماعه ، ومنها ما تكره سماعه » وفي هامشها : في كل النسخ : من ، وفي القاموس : الفعل إما لازم أو متعد بمن أو بالباء » وفي نسخة الطائف : التعدية بعن ، وفي نسخة الطائف : « ما تستلذ النفس سماعه »

وفيها : « فإن قلت : ما نقصد بالفصيح ؟ » وفي نسخة الطائف : ما يراد .

وفي صفحة ٢٢٥ : « قول العامة : تحوى لتوى على وزن جهل يجهل خطأ أو لغة رديئة » وذكر المحققون في الهامش قولهم : « لم نقف على ضبط هذه العبارة » وفي طبعة صبيح : ج ١ ص ١٣٥ تحوى لتوى أيضاً ، وكذلك في الطبعة الأميرية . ج ١ ص ١١١ : « قول العامة : تحوى لتوى على وزن جهل يجهل » إلخ . أما طبعة السعادة فليست عندي ، ويغلب أنها لا تخرج عن هذه الطبعات ، إذ لو كان فيها الصواب أو ما يخالف غيرها لذكره المحققون .

وفي نسخة الطائف : « قول العامة : عوى يعوى على وزن جهل يجهل خطأ أو لغة رديئة » وتقرأ تصحيفاً : تحوى لتوى ، لأن الكلمتين في نسخة الطائف بدون نقط ، وتحوى لتوى تصحيف عوى يعوى .

وكما أن « تحوى لتوى » يخل بسياق الجملة وتركيبها فإن « عوى يعوى » لا يتفق معها ، لأنها ليست من باب جهل يجهل بل من باب ضرب يضرب ، واهتديت إلى أن صواب : تحوى لتوى ، أو عوى يعوى هو : « غوى يغوى » على وزن جهل يجهل ، وهذه هي اللغة الرديئة ، ولم يروها إلا أبو عبيد كما ذكر لسان العرب في الجزء التاسع عشر صفحة ٣٧٧ ، واللغة الصحيحة : غوى يغوى على وزن ضرب يضرب .

وفي صفحة ٢٤٥ : « بقي علينا أن نورد العلة » وذكر المحققون في الهامش : « هذه عبارة الخصائص ، وفي كل النسخ : في باب العلة » وفي نسخة الطائف : « بقي بيان العلة » وهو أجمل في التعبير وأمكن في بناء الجملة التي ورد فيها .

وفي صفحة ٢٤٧ : « لكن الثلاثي جاز فيه خفته » وفي هامشها : « في جميع النسخ : جاءت فيه خفة . وهذه رواية الخصائص » وفي نسخة الطائف : « جاءت فيه خفته » .

وفي كثير من الصفحات مثل ما بينت من التغيير والتصحيف ، وما ذكرته ليس إلا مثالاً ضربته للقراء ثم للإخوان المحققين ، عَلَّني أحملهم بهذا على طلب الورقات التي لدي ، ليصححوا ما يمكن تصحيحه من الزهر في طبعه الثانيـــة .

(مكة المكرمة) أحمد عبد الغفور عطار

الثقافة

العـــدد ٦٥٥
١٦ من يوليه ١٩٥١

مجلة أسـبوعية للآداب والعـلوم والفنون
تصدرها لجنـة التأليف والترجمـة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٥٥ | الاثنين ١٢ من شوال سنة ١٣٧٠ — ١٦ من يوليه سنة ١٩٥١ | السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

تمثـــال فدياس

في محاورة « هپياس الكبير » لأفلاطون ، يدور نقاش بين سقراط وهپياس عن الجمال ما هو ؟ ويستطرد الحوار بينهما سؤالاً وجواباً ، حتى يبلغ موضعاً يدور فيه الكلام على الصورة الآتية :

هپياس — لو كان ، يا سقراط ، كل ما يريده من السائل من معنى الجمال ، أن أدله على شيء يخلع الفتنة على كل الأشياء الفاتنة ، بحيث يبدو الجميل جميلاً إذا ما أضيف إليه ذلك الشيء ، فليس أيسر من الإجابة عن مثل هذا السؤال ، ولا بد أن يكون السائل في هذه الحالة غاية في السذاجة والفقر في ذوقه الفني ، لأنك إذا أجبته عن سؤاله بقولك : إن الجمال الذي يسأل عنه ، إن هو إلا الذهب ، أخرسه الجواب ولم يستطع أن يقيم له اعتراضاً ؛ لأننا جميعاً — فيما أظن — متفقون على أن الشيء إذا طلى بالذهب ، حتى وإن كان قبيحاً قبل طلائه ، فسيبدو جميلاً بعد إضافة الذهب إليه .

سقراط — إنك لا تدري إلى أي حد تبلغ البداهة الجاهلية من صاحبنا السائل يا هپياس ! ولا تدري كم يتعذر عليك أن تقنعه .

هپياس — وماذا يضيرك من أمثال هذا البداهي يا سقراط ؟ إنه إذا لم يرض بقولة الحق ، فسيكون هو أضحوكة الضاحكين .

سقراط — لكنه مع ذلك سيكون أبعد ما يكون الإنسان قبولاً لمثل جوابك هذا ، وسيتناولني أنا بلاذع تهكمه ، قائلاً : هل أصاب رأسك مسٌّ من جنون حتى لتظن أن « فدياس » نحاتٌ رديء ؟ وعندئذ لا بد لي من الاعتراف له بأني لا أظن مثل هذا الظن بفدياس .

هپياس — وستكون في اعترافك هذا على حق يا سقراط .

سقراط — بالطبع ! ومع ذلك فإذا ما اعترفت له بأن فدياس فنان مُجيد في فنه ، سيقول لي على الفور : « وهل تظن أن فدياس لم يكن على علم بمثل هذا الجمال الذي تحدثني الآن عنه ؟ » وعندئذ سأستفسره ما يريد بسؤاله هذا ، وسيجيب قائلاً : « لأن فدياس حين نحت تمثال « أثينا » لم يجعل عينيها من ذهب ، ولا جعل بقية وجهها من ذهب ، ولا جعل يديها وقدميها من ذهب ، إنما صنعها من عاج ، ألم يكن الذهب (في رأيك) ليزيدها جمالاً ؟ ولا بد أن يكون خطؤه هذا في فنه راجعاً إلى جهله بهذه الحقيقة التي

جئت تقررها لى اليوم ، وهى أن كل شيء جميل إنما يستمد جماله من الذهب » — فبماذا ترد اعتراضه هذا يا هبياس ؟.

هبياس — ليس فى ذلك شيء من عسر ، سنقول إن فدياس كان على صواب فيما فعل ، لأن العاج أيضاً جميل .

سقراط — لكنه سيعود إلى السؤال قائلاً : « ولماذا صنع فدياس الحدقتين (فى تمثاله) من الحجر ، بجاء الحجر والعاج على أتم ما يكون الانسجام ؟ أم هل تقول إن الحجر الجميل هو كذلك — كالذهب والعاج — شيء جميل ؟.

هبياس — نعم إن الحجر حين يوضع فى موضعه المناسب يكون جميلاً ، ولا مندوحة لنا عن الاعتراف بجماله عندئذ .

سقراط — وإذا سألنى إن كان الحجر يبدو قبيحاً لو وضع فى غير موضعه الملائم ، فهل أوافقه أو لا أوافقه ؟.

هبياس — لابد لك من موافقته يا سقراط .

سقراط — عندئذ سيجيبنى قائلاً : إذاً فخلاصة حكمك هى أن العاج والذهب يخلعان على الأشياء جمالاً على شرط أن يجيئا ملائمين ، أما إذا أضفت إلى الشيء عاجاً أو ذهباً فى غير ملاءمة فسيكون الشيء قبيحاً برغم ما أضيف إليه من عاج أو ذهب ؟ » ... الخ .

• • •

وأحسب القارئ على أتم اتفاق مع هذه النتيجة التى انتهى إليها سقراط فى هذا الجزء من محاورته مع زميله هبياس عن معنى الجمال ؛ إنه الملاءمة والتناسب ، مهما تكن المادة التى بين يديك ، فالذهب فى الوضع الخطأ قبيح ، والحجر فى الوضع الصواب جميل .

ليس الجميل جميلاً ولا القبيح قبيحاً فى ذاته بغض النظر عما يحيط به من ظروف وملابسات ، فالشيء الواحد يكون جميلاً هنا قبيحاً هناك ، لأنه هنا متفق متسق مع محيطه ، وهو هناك متنافر نشاز ؛ وكثيراً ما يعاد تنظيم الأجزاء مع بقائها على عددها بغير حذف أو إضافة ، فتصبح جميلة بعد قبح ، أو قبيحة بعد جمال .

وما جمال الشعر أو النثر الفنى ؟ إن هذا أو ذاك قوامه ألفاظ من القاموس ، لكنه الوضع الصحيح للفظة بالنسبة إلى ما يجاورها هو سر الجمال عبارة وتعبيراً ؛ والشاعر نفسها قد تجمُلُ أو تقبُح بائتلافها أو اختلافها مع المحيط ؛ فالضاحك فى مأتم قبيح كالباكى فى عرس سواء بسواء ؛ وهذا هو نفسه معنى النشاز فى أنغام الموسيقى ؛ فالنغمة النشاز مرذول بالنسبة لما حولها من نغمات ، وربما كانت هى نفسها نغمة جميلة فى موضعها المناسب ؛ والقذارة مادة كأية مادة أخرى ، لكنها وضعت فى غير موضعها الصحيح فأصبحت « قذارة » تشمئز منها النفوس ؛ وهكذا وهكذا من الأمثلة التى لا تنتهى ، مما يقطع بصواب هذه النتيجة فى معنى الجمال — وهى أن الشيء يستحيل الحكم عليه فى ذاته بجمال أو بقبح مجرداً عن موضعه بالنسبة إلى سائر الأشياء .

• • •

وبديهى أن هذه الحقيقة الواضحة تظل حقيقة فى صغار الأمور وكبارها على السواء ؛ فليست الأنظمة السياسية والاجتماعية بالشيء الذى يوصف بالجمال أو بالقبح ، أو يوصف بالصواب أو بالخطأ ، مجرداً عن الظروف التى يراد لتلك الأنظمة أن توضع فى وسطها ؛ فإذا كان من الحكمة أن تعامل الطفل على أنه طفل وهو طفل ، فإن الحكمة كذلك أن تعامل الجاهل على أنه جاهل وهو جاهل ؛ أما إذا طالبت الطفل أن يسلك سلوك الرجال ، أو توقعت من الجاهل أن يتصرف تصرف العقلاء ، فأنت متطلب من الأشياء ضد طباعها ، وموقفك فى كلتا الحالتين خطأ قبيح .

إنى حتى هذه الساعة من حياتى ما أزال أحس كلما عاودتنى ذكرى طفولتى حين كنت أتصرف كما يتصرف الأطفال بحكم طبائعهم المفطورة فيهم ، فإذا بالصفعات تأتينى من حيث أدرى ولا أدرى ؛ ذلك أن والدى رحمه الله كان يريدنى رجلاً فى سلوكى وأنا بعد فى الخامسة من عمرى أو نحوها ؛ كان يعطينى المال ويطلب منى أن أشترى له كذا بكذا وأعيد له بقية ماله ، وكثيراً ما كنت أخطئ فى وصف ما حدث فينزل بى العقاب السريع ، على الرغم من أنى كنت أعود له ببقية ماله صحيحة كاملة — لا ؛ إنه لم يكتفيه منى أن أذهب إلى الدكان كالآلة الصماء فأشترى كذا وأعود له بكذا ، بل لابد لى أن أبين له لماذا كان الحساب على نحو ما كان ؛ ولم يكن ذلك الحساب فى مقدورى عندئذ ؛ وإذاً فأنا أقبح — فى رأيه — ألا أكون مثله فى سرعة الحساب ودقته ، وهيهات له أن يقتنع بأقوال الوسطاء ، بأن الطفل لا يطلب إليه ما يطلب إلى الرجل .

بين المقـــــابر

فى مساء وكنت سأمان فاتر · قلت : هيا أجول بين المقابر
حيث لا ضجة تعكر صفوى · بل سكون ورهبة ومصاير
حيث لا زحمة تكدر نفسى · بل هدوء يدب بين الحفائر
حيث آباؤنا الأولى سبقونا · واستقروا كما استقر المسافر
خلفوا الحب للبنين وباتوا · مطمئنين فى رحاب القادر
حيث تلقى الجميع لا كبرياء · لا عتو .. لا قسوة .. لا تظاهر
كلهـــم جاء طـــائعاً وجميعاً
سرح الطرف ! هل هناك مكابر ؟

• • •

واحتوانى الفضاء وهو عميق · وصحا بى الخيال وهو خواطر
قلت : وهمى وورع قومى بعالى · لا أرى العيش غير طيف عابر
يخلق الموت للقضاء سبيلاً · فيغيب الجميع والموت حاضر
إنه السوق كلنا واردوها · يوم لا ينفع الفخور التفاخر
يا لماضى كيف أصفح عنه · بعد أن ضاع فى الخضم الزاخر
أين كنا وكيف جئنا وماذا · نتمنى من الزمان الحاضر ؟!
لم نشـــق وكل حى مـــلاق
حتفه اليوم – إن يحن – أو باكر !
إيه يا ابن الحياة ! كيف تغالى · فى أتون العذاب والموت زائر !
عمرنا الخصب كيف يذهب عفواً
وسبيل الكفاح باد وظـــاهر !
فى سبيل الحياة وهو سمو · ولو ان السمو شئ نادر
فى سبيل الشعوب وهو طريق · أنا نفسى إليه ماض وسائر
أنا نفسى نشأت ما بين قوم · ورثوا البؤس كابراً عن كابر
بذلوا النفس والنفيس وماتوا · أيعيش الجياع .. والجوع كافر !
يا كرام الجدود كيف تلاقى · فى غد جيلنا الجديد الحائر ؟
آرانا نقـــول إنا ورثنا · ماورثنا عن الزمان الغابر ؟
أم ترانا نقول إنا سجدنا · وركعنا لكل طاغ وجائر ؟!
تخرج الأرض كل يوم جديداً · ماعدا الشرق فى الجهالة سادر
طحنته الخطوب حتى تناسى · عزمه الصارم القوى الباتر
حبذا الطلعة التى نحن فيها · إن صحونا مع الشروق الساحر
حبذا الشدة التى عصرتنا · إن أفقنا وأيقظتنا الزواجر

• • •

من قديم الزمان والحق يعلى · حكمه الطائش الشديد الغادر
من قديم الزمان والشرق راض · بالذى صار والذى هو صائر
أفهموا الناس أنها أقدار · ومن الدين أن تطاع القادر
كذب المغرضون فيما ادعوه · إنما الدين للعدالة ناصر
إنما الدين أن نعيش كريماً · لا ضعيفاً على الذلة صابر
نحن شدنا للملحدين قبوراً · ورفعنا للمؤمنين منـــابر
وبنينا لنا تركنا لبانـ · من مزيد نزهو به ونفاخر
وقنعنا لما طلبنا عسيراً · ورضينا لما شققنا حناجر
وبقينا كما ولدنا حفاة · وعراة فهل لذلك آخر ؟!!

• • •

أيها الراقدون والكون ساهر · أيها الغائبون والشمل حاضر
يغضب الحر للديار ويغتـ · ص ولا يعبأ البليد الخائر
بارجالاً عق الزمان عليهم · وطوتهم عن الحياة المقابر

على بيرى

ولست أدرى لماذا أحكم على أبى الآن بالخطأ ، ولا أحكم بهذا الخطأ نفسه على دولة تتولى أمور أمة فى دور الطفولة ، وتصر على أن تضع لها من الأنظمة السياسية والاجتماعية مالا يتسق إلا فى أمة اكتمل نموها ونضجها ؟ فتكون النتيجة المحتومة أن تعجز الأمة الطفلة عن هضم الغذاء ، لأنه أكثر دسماً مما تحتمله معدتها ، وينتهى بها الأمر إلى حال من الذبول والموت ، وقد أراد لها ولاتها الحياة والنمو ، أرادوا لها ذلك بنية حسنة طيبة ، لكن الطريق إلى الجحيم قد يكون مرصوفاً بأطيب النيات .

• • •

لكننا أمة دستورها فى الجمال هو طلاء الشئ بالذهب ، حسب العين أن تقع من الشئ على ظاهر لامع يخطف البصر بريقه ، ولكن بعد ذلك من حقيقة الباطن ما يكون ! فما زلنا نهتدى فى كل أمورنا بالقول السائر بأن « الجرن الكبير خير من شماتة الأعداء » — وليس يهمنا بعد ذلك فى كثير أو قليل أن يكون ذلك الجرن الكبير مليئاً بالغلال أو خاوياً يئن من بناه .

زكى نجيب محمود

•

٣٦ - خاطـــــرة

للدكتور أحمد أمين بك

الشهرة هي الأخرى حظ من الحظوظ ، من الصعب جداً إدراك قوانينها المعقدة الدقيقة ، فكما يمنح الشخص رزقاً كبيراً وآخر رزقاً ضيقاً لا لسبب معلوم ، كذلك يمنح الشخص شهرة واسعة ، وآخر لا يمنحها مع استيفائه لكل شروطها ، وإنما :

هو الحظ حتى تفضل العين أختها
وحتى يكون العبد للعبد سـيـدا

ويشبه الحظ في ذلك ورق اليانصيب ، من مائة ألف أو أكثر ، يشترون هذا الورق ، يكسب واحد أو اثنان ، وقد يكون هذا الكاسب أقل الناس حاجة إلى الكسب . وتجربتنا في الحياة تدلنا على أن الشهرة فاعدة قد تعرف وقد لا تعرف ، فكتاب يطبع ويشتهر ، وكتاب يطبع ولا يشتهر ، وربما كان الكتاب الذي لا يشتهر خيراً ألف مرة من كتاب يشتهر ، ومن المؤسف أن العالم مع تقدمه الكبير في نواح مختلفة من الحياة ، ومع تجاربه الطويلة لم يتقدم كثيراً في فهم قانون الشهرة ، مثله في ذلك كمثل قانون لعب النرد واللعب بالورق ، وقد تكسب من حيث لا تدري ، وقد تخسر من حيث لا تدري .

وحدث منتحدث أن رجلاً كان محامياً ماهراً ، لم يعرف منه إلا أنه كان أميناً في عمله ، مخلصاً لقضاياه ، ولكن لم يعرف أنه شاعر ، وأخيراً نظم بعض الشعر وعرضه على صاحب جريدة ، فاشتراه منه بخمسين دولاراً ، ولكن ما لبث هذا الشعر أن اشتهر وراج ، وباعت الجريدة منه ثمانية آلاف نسخة على حساب هذا الشعر ، ثم طبعته في كتيب وحده وكسبت منه آلاف الجنيهات ، ولم يكن هو ولا الجريدة يتوقعان شيئاً من هذا الرواج .

وتنظر حولك ممن اشتهروا لظروف خاصة ، فتجد شهرة كاذبة وهم لا يستحقون شيئاً منها ، بينما غيرهم من المغمورين أقوم منهم . وقد منح بعض الناس قدرة على التهويش والعمل على الشهرة ، فاسمهم في كل جريدة وعلى كل لسان ، وإذا تحركوا حركة أو سعلوا سعلة طنطنوا بها ، بينما الآخرون يعملون عملاً عظيماً ويتركونه للقدر فلا يشتهرون .

ونصيحتي لك أيها الناشئ ، ألا تقصد إلى الشهرة ، بل دعها تأتي عفواً من غير قصد ، واقصد إلى الجودة أكثر مما تقصد إلى الشهرة ؛ فإن أتت الشهرة فبها وإلا فإلى جهنم . ومن المشاهد أن الشهرة لا ترتبط بالإجادة ، ولا بالعلم الواسع ، ولا بالفن الدقيق ، ولكن بأشياء أخرى قد نعلم بعضها ولا نعلم أكثرها . وبالأمس مررت على صيدليتين ، إحداهما مشهورة ضيقة الحجم ، تكسب كثيراً ، وبجانبها صيدلية أخرى أكبر منها حجماً وأكثر أدوية ، ولكنها لا تكسب شيئاً . وقديماً دخل أعرابي السوق فلم يربح شيئاً ، ووجد من ليس له استعداد كبير وهو يربح الربح الكبير ، فقال : الحمد لله . يلحنون ويربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح ! ظناً منه ، خطأ ، أن اللحن مرتبط بالربح . ولكنها في آخر الأمر حظوظ . وكم سكن حي الدقي رجال عظماء كعبد الخالق باشا ثروت وأمثاله ، ولكن لم يشتهر الحي إلا بحي العجوزة ، ومَن هذه العجوزة ؟ لست أدري . وإلى الآن لا يزال عمر افندي بدكانه الصغير يتغلب اسمه على أوروزدي باك ببنائه الكبير ، ولا يزال أوروزدي باك يتمسح باسم عمر افندي ، وكم في الدنيا من أمثال هذا ، وكما قال ابن الرومي :

إن للحظ كيمياء إذا ما
مس كلباً أحاله إنسانا

أحمد أمين

المصادفات وأثرها في احتمالات التاريخ

للأستاذ علي أدهم

[هل تسير حوادث التاريخ سيراً منطقياً كما يصورها المؤرخون ؟ أم أن الحوادث العارضة العابرة تسير مجراها هنا أو هناك كما تشاء لها المصادفة ؟ يوضح لنا الكاتب في هذا المقال « كيف أن التاريخ يبدو لنا من بعيد منطقياً أكثر مما كان في الحقيقة »] .

« الثقافة »

حينما تبلغ الحوادث في عصر من العصور مداها ، وتستكمل الرواية التي تمثل في كل زمان فصولها ، وتسدل عليها الأستار ، ويلوذ ممثلوها بعالم الصمت ، يخيل إلينا أن الحوادث التي وقعت متتابعة لم يكن منها بد ولا عنها محيد ، وأنها كانت حتماً مقضياً ، وأن بينها ترابطاً منطقياً لا ثغرة فيه ولا فكاك منه ، وربما كان هذا نوعاً من خداع النظر إلى الماضي ليس لنا فيه حيلة ، ولا نزاع في أن الأحداث التاريخية مما لا يمكن رده ، وأن ما مضى فات ولن يعود ، ولكن ليس معنى هذا أنه كان محتوماً ، وأنه لم يكن في كل لحظة من اللحظات وموقف من المواقف عرضة للتغير والسير في اتجاه مخالف للاتجاه الذي سلكه ، والماضي على ما يبدو قوة سحرية تجعلنا نعتقد أنه لم يكن هناك سبيل إلى حدوث شيء آخر ، وذلك في حين أن الكثير من الحوادث التاريخية كان يمكن أن تقع في صورة أخرى غير الصورة التي اتخذتها ، أو تتجه اتجاهاً آخر لو وجد البطل الذي يستطيع مواجهة الظروف وحسن تصريف الأمور أو غير ذلك من الأحوال والملابسات .

ويرى بعض المفكرين أنه من العبث وإضاعة الوقت التفكير فيما كان يمكن أن يكون ، وأن فتح باب المحتملات التي كانت متوقعة في أي زمان لا يقف عند حد ، ولا يحقق غاية ، ولا يجدي فتيلاً ، وهذا الرأي صحيح من الوجهة العملية التجريبية ، لأن الرجل العملي يحاول أن يجد من الأمور كما هي ، ويأبى أن يشغل تفكيره ويوزع قواه في النظر إلى الأمور كما كان يمكن أن تكون ، ولكن الرجل المطبوع على التفكير والتأمل والولع بالقياس والاستنباط لا يرى ذلك عديم الجدوى ، ودأبه أن يفكر في الحاضر والمستقبل والخالد الباقي والفاني الزائل ، ومن ثم لا يرى بأساً في أن يسائل نفسه عن المحتملات التي كان يمكن أن تكون لو تغيرت بعض وجوه التاريخ .

ورغم الخلاف القائم بين أنصار الجبرية في التاريخ وبين القائلين بحرية الإرادة فإنه من الواضح أن بعض حوادث التاريخ المعروفة كان يمكن أن تأخذ وضعاً آخر وترتسم في صورة غير الصورة المعهودة ، وقد تكون حوادث التاريخ الكبيرة ووقائعه المطبعة خاضعة لقوانين لا مفر منها ، ولكن المصادفات والحوادث العرضية والنزوات البشرية والحماقات والسخافات والالتواءات والانحرافات لها مع ذلك مكانتها وآثارها سواء في حياة الأفراد أو الجماعات ، ورب مصادفة أشقت رجلاً وحطمت آمالاً ، ورب نزوة من النزوات أو حماقة من الحماقات أثرت في مصير أمة وأخرت تقدم جيل من الأجيال وحملته ما لا يحتمل من الخطوب والأرزاء ، ويبدو لي أن التاريخ في مجموعه مزيج غريب من الجبر والحرية والضرورة والاختيار ، وفي بعض المواقف كان مصير أمة من الأمم معلقاً بيد رجل واحد ، وكانت هذه الأمة تسعد إذا أحسن الاختيار وأجاد التفكير ، وتشقى إذا أساء الاختيار وركب رأسه وطاوع نزواته ! ونحن نشاهد في حاضرنا أمثلة تؤيد ذلك ، وقد كان الماضي في ذلك مثل الحاضر حذوك النعل بالنعل كما يقول العرب .

وبروز عامل الاختيار وعامل المصادفة في الحركة التاريخية مما يجعل دراسة الحوادث التاريخية نافعة إن كان هناك وجه للانتفاع بتجارب التاريخ ؛ وذلك لأنه لو كانت حوادث التاريخ محتومة ولا متحول عن وقوعها لما كان علينا ضير في أن نغفل

أيدينا من العمل ونكتفي بترقب الحوادث ! ولكن لما كانت الطبيعة البشرية في جوهرها غير متغيرة وكانت الظروف تتشابه في إقبالها وإدبارها وشدتها ولينها فقد نستطيع الاستفادة من أخطاء الأمس ونكبات الأيام السوالف ، ومن ثم قد يكون هناك فائدة في معرفة ماحدث ومعرفة ما كان يمكن أن يحدث .

ومما يزيد هذا النوع من التفكير قيمة أن العامل الحاسم المرجح في موقف من المواقف أو أزمة من الأزمات قد يكون شيئاً خفي الشأن غير واضح الأهمية ، وقد يبدو زهيد القيمة ضئيلاً هزيلاً ، ولكنه مع ذلك قد يحول مجرى التاريخ ، وفي بعض الأحيان يكون للصغائر والتوافه أهمية وآثار بعيدة ترجح أهمية التفكير السديد والحساب الدقيق والنظر البعيد ، ولعل الشريف الرضي كان يقصد شيئاً من هذا القبيل في بيته المؤثر الذي يقول فيه :

إنا لنا وقدرنا مجرى قدر بنازل غير موهوم ومظنون

وقد تناول الكاتب الانجليزي البحاثة والمؤرخ السياسي القدير الأستاذ هيرنشو موضوع المحتملات التاريخية في سلسلة من الفصول نشرت في إحدى المجلات الأدبية الأسبوعية في انجلترا ، وقدم فيها أمثلة من تلك المحتملات ! وقد ساعده اطلاعه الواسع وعلمه الغزير على أن يختار أمثلة عامة من التاريخ العالمي لها دلالتها ، وأمثلة خاصة من تاريخ انجلترا السياسي ! ومن الأمثلة التي اختارها من التاريخ العالمي ذلك المثل الذي كثيراً ما يردده أنصار مذهب المصادفة وتأثيرها في التاريخ ، وهذا المثل هو أنف كليو بطره السكين الذي رأى الباحثون قبل هيرنشو حشره في هذا الموضوع ، وقديماً قيل إنه لو كان أنف كليو بطره أكبر مما كان لتغير وجه التاريخ ! وذلك لأن هذا الأنف الضخم كان لا بد أن ينتقص من جمالها فلا تظفر بالمكانة التي ظفرت بها في نفس يوليوس قيصر ومارك أنطوني ، وبذلك كانت لا تقع موقعة اكتيوم ويتغير تاريخ الرومان وتاريخ العالم تبعاً لذلك ، ويقول هيرنشو تعليقاً على ذلك : « إني بريء من القول بأن حجم أنف أي سيدة أو شكله — على الأقل في تقديرها — شيء من الأشياء الصغيرة التافهة ، ولكنه ليس من الأشياء التي ينظر إليها باعتبارها من الأشياء الحاكمة الفاصلة في مصاير الأمم عند القائلين بالعناية الإلهية أو القائلين بالجبرية الاقتصادية ، ولكن مع ذلك فإنه من الأشياء القابلة للمناقشة أن أنف كليو بطره لو اختلف قليلاً ولو بمقدار قيراط عما كان عليه لقضى ذلك على جمالها ولما استطاعت أن تفتن قيصر أو تسحر مارك أنطوني بجمالها ، ولتغير تاريخ الرومان تغيراً كبيراً ، وتغير تبعاً لذلك تاريخ العهد المسيحي بحذافيره ، ولما حدثت موقعة اكتيوم ، ولما قامت امبراطورية أغسطس على الصورة التي قامت بها ، ولما حكم سوريا بونتياس بيلاط ولا هيرود ، ولما وجدت الظروف التي مكنت القديس بولس من القيام برحلاته التبشيرية ، وربما ظلت روما بعيدة عن الديانة المسيحية ، وهكذا إلى ما لا يمكن تحديده .

وذكر الأستاذ هيرنشو حادثة من حياة جان جاك روسو ، باعتبارها مثلاً من الأمثلة الكثيرة على تأثير المصادفة في حياة الأفراد والأمم ! ففي حياة روسو حادثة تبين لنا كيف أن شيئاً تافهاً من الحين إلى الحين يجعل تيار الحوادث ينحرف عن مجراه ! ولقد كان روسو نفسه من أبناء المصادفات ، وحياته نفسها سيطرت عليها ظروف اتفاقية عرضية ! ففي اليوم الرابع عشر من شهر مارس سنة ١٧٢٨ وهو في السادسة عشرة من عمره وكان يعمل صبياً عند أحد الحفارين في جنيف ، ذهب مع رفيقين له في أمسية من أماسي يوم الأحد الباردة الشهباء إلى جولة بالضواحي ، وكان يعلم أن أبواب المدينة تقفل في الساعة الثامنة فأسرع حتى لا يصل متأخراً ، وحدث في ذلك اليوم بوجه خاص أن الجندي القائم بحراسة الأبواب كان حريصاً على الانصراف قبل الميعاد المحدد ليحظى بلقاء الفتاة التي يحبها ، وإذاً أقفل الأبواب قبل الميعاد المحدد ، وسمع روسو وعلى مقربة من الباب صوت الطبلة المنذرة وانطلق بأقصى ما يستطيع من السرعة ليصل قبل أن يقفل الباب ، وكان على بعد عشرين خطوة حينما وقعت الحادثة القاضية ، ولم يعر الحارس العاشق الولهان صراخ روسو أي التفات ، وكانت هذه هي المرة الثالثة التي بات فيها روسو خارج المدينة ! وكان سيده الفظ الغليظ قد هدده بالعقوبة الشديدة إذا تكرر منه ذلك ، ولذا صمم روسو على عدم العودة إلى المدينة ، وبدأ حياته المتقلبة المضطربة وهو خالي الجيب من النقود ولا يملك شيئاً

سوى ما كان يرتديه من الملابس ، وهذه الحياة القلقة الثائرة ألهمته كتابة كتاب «العقد الاجتماعي» ورسالة «عدم المساواة» ، وكتابه القيم في التربية المسمى إميل ؛ ولو أن روسو جاء إلى باب المدينة في الوقت المناسب لما اضطر إلى هذا النوع من أنواع الحياة ، ولما وجد أحد الأسباب الفكرية للثورة الفرنسية ، ولا افتقد روبسبيير النبع الأصلي لوحيه ، ولحرمت الديمقراطية الحديثة من ظهور أحد رسلها الأعلام ، وروسو نفسه قدر بعد ذلك هذه اللحظة الحاسمة وأثرها البعيد في تاريخ حياته وسجل ذلك في اعترافاته .

وفلاسفة التاريخ من طراز «بكل» وأوجست كونت ومن إليهما يحاولون أن يجعلوا التاريخ علماً آليا ، ولكنهم يواجهون من الحين إلى الحين بعض الظواهر التي لا تفسرها الفلسفة المادية والتي لم يكن في وسع العقل البشري ، التكهن بحدوثها ، وليست كل هذه الحوادث غير المنتظرة من أنواع الأشياء التي تبدو صغيرة تافهة ، ولكنها مع ذلك تؤثر تأثيراً بالغاً ، فهناك أشياء على جانب من الخطورة والأهمية ، وهي ظهور الإرادة البشرية القوية التي تطبع الحوادث بطابعها وتدفعها دفعاً إلى الناحية التي تريدها ؛ ويتجلى ذلك في ظهور أمثال قيصر ونابليون ولوثر وأضرابهم من الرجال الأعلياء والقادة البرزين ، ولا نزاع في أن أمثال هؤلاء الرجال إلى حد ما ثمرة زمانهم ، ولكنهم من ناحية أخرى يفرغون زمانهم في القالب الذي يختارونه ، وهم رواد لما يسميه برجسن « التطور الخالق » ؛ وقد اختار الأستاذ هيرنشو من بين هؤلاء العظماء النابغين الاسكندر المقدوني ليتخذ من حياته وموته دليلاً على أثر الإرادة البشرية في توجيه التاريخ ، وذكر أن الاسكندر ولد سنة ٣٥٦ قبل الميلاد وكانت المعركة بين الشرق والغرب على أشدها ، وقد ظلت مستعرة النيران دائرة الأرجاء مدة مائتي سنة منذ منتصف القرن السادس حينما ضم كيروس الفارسي آسيا الصغرى إلى امبراطوريته المترامية الأطراف وفرض سيادته على المدن اليونانية ، وكان اليونانيون من الرعايا الثائرين المتمردين ، وقد نهبوا ساردس سنة ٤٩٩ قبل الميلاد مما اضطر ملك الجليل الشأن — ملك الدولة الفارسية — إلى محاولة القضاء عليهم ، ومن ثم الحملات التي قادها داريوس واكسرسيس والتي صد غارتها اليونانيون في المعارك المشهورة في التاريخ أمثال معركة ماراثون وسلاميز وبلاتيا ؛ ولو هزم اليونانيون في تلك المعارك لتغير وجه التاريخ ، لأن اليونانيين كانوا من أكبر أساتذة العالم في الفن والعلم والفلسفة والأدب ، ولكن اليونانيين كان ينقصهم الدين والإنسانية ، كانت لهم آلهة كثيرة ولكن آلهتهم كانوا مساعدين سلبيين لهم ، وكانت العبقرية اليونانية عبقرية أرضية ، وكانوا لذلك تنقصهم النزعة الإنسانية ، فكانت اهتماماتهم مقصورة على مدينتهم ، ولم يكن عندهم أي فكرة عن الأخوة الإنسانية ؛ وموجز القول أنهم كان ينقصهم هذان العنصران الجوهريان اللذان كانت آسيا قادرة على مدهم بهما ، ومن ثم مأساة هذا الصراع الطويل بين قومين كان كل منهما في حاجة إلى أن يستكمل نفسه عن طريق الآخر ، وقد قدر لفيليب المقدوني ولابنه الأعظم شأناً أن يريا الطريق لإنهاء هذا الصراع الطويل ، وقد بدأ فيليب العمل بإخضاع المدن اليونانية وضمها للدولة المقدونية ، ولما قتل فيليب سنة ٣٣٦ تولى ابنه الاسكندر انجاز الخطة التي وضعها أبوه ، وقد هزم الفرس ، واستولى على امبراطوريتهم ، ومزج الغرب بالشرق ، وساعد على توحيد آسيا وأوربا ، واحترم عقائد الآسيويين ، وأنشأ مدناً يونانية في وسط آسيا ، ومن هذه المراكز الثقافية تغلغلت اللغة اليونانية والفلسفة اليونانية والعلم اليوناني في آسيا ، وانبعث من جراء ذلك حضارة جديدة بلغت الازدهار في الاسكندرية حيث تم امتزاج الشرق والغرب .

ولقد تم ذلك بفضل الاسكندر وفتوحه الظافرة ، ولكن حينما أصابته حمى الملاريا وهو في الثالثة والثلاثين من عمره وختمت حياته في سنة ٣٢٣ قبل الميلاد كان لا يزال أمامه أعمال كثيرة ، فلو لم يمت الاسكندر في ريعان الشباب وعاش سنوات ليوطد دولته ويتم برنامجه لتغير تاريخ العالم ، وقد كان حين وفاته يهم بإخضاع شبه جزيرة العرب وكان ينوي ضم قرطاجنة إلى أملاكه وإخضاع روما ولو مد له في العمر لتغيرت تبعاً لذلك حوادث التاريخ .

ومن الأمثلة التي ساقها الأستاذ هيرنشو لتأييد فكرته في محتملات التاريخ هزيمة كينتلياس فيراس الحاكم الروماني أمام القبائل الألمانية وإبادة ثلاث فرق من الجيش الروماني ،

وقد كانت نتيجة هذه المعركة الساحقة أن عجز الرومان عن بسط نفوذهم على القبائل الألمانية ؛ ولو لم يهزم قيراس هذه الهزيمة الشنعاء لاستطاع الرومان أن يفرضوا حضارتهم على ألمانيا ، ولما حدث بعد ذلك غزوات البرابرة للدولة الرومانية ، ولتغير تاريخ أوربا تبعاً لذلك . وعرض الأستاذ هيرنشو لمعركة تور التي يسميها العرب بلاط الشهداء ، فلو أن جموع الفرانك التي كان يقودها شارل مارتل هزمت في هذه المعركة لكان لهذه الهزيمة آثارها البعيدة ، ويذكر كذلك حصار العرب القسطنطينية من سنة ٧١٦ إلى سنة ٧١٨ ميلادية وعجزهم عن الاستيلاء عليها ، ولو أنهم قدروا على ذلك لتغير وجه التاريخ . وضرب الأستاذ هيرنشو مثلاً لأثر العوامل المفاجئة في التاريخ بظهور جان دارك ، وقد استطاعت بقوة العقيدة أن تخلق من ضعف الفرنسيين قوة وأن تحيل انتصارات الإنجليز هزائم متوالية حتى اضطروا في النهاية إلى الجلاء عن الأرض الفرنسية .

وأظن أن هناك صعوبات في رد نهوض جان دارك إلى الأسباب الاقتصادية والدوافع المادية ؛ ويختار هيرنشو مثلاً آخر من تاريخ الإنجليز أنفسهم ، وهو استيلاء وليام الفاتح على انجلترا في سنة ١٠٦٦ ووقوع معركة هستنجز ، وهذا الغزو النورماندي كان نقطة تحول في تاريخ الإنجليز ، ويرى هيرنشو أن إقدام وليام على غزو انجلترا كان مغامرة محفوفة بالخطر وغير مضمونة النجاح ، لأن هارولد جودو إيمان كان محارباً من الطراز الأول ، وكان في جيشه مجاهدون أقوياء مجربون ، وكان له أسطول قوي يستطيع أن يشل حركة جيش وليام الفاتح ، ولم يكن هناك ما يبعث على الأمل في تغلب وليام ، ولو كانت الظروف عادية مألوفة لما استطاع وليام الوصول إلى الجزر البريطانية ، فقد ظل طوال الصيف وهو يتحين الفرصة من الأسطول الانجليزي ليعبر القناة ؛ ولو كان وليام هو العدو الوحيد لهارولد ، لعرف هارولد كيف يتقي شره بسهولة ، ولكن هارولد كان له لسوء حظه عدوان آخران ، أحدهما كان أخاه ، والآخر ملك النرويج الذي جاء على أمل أن يستعيد ضم انجلترا إلى اسكنديناوه ؛ وبينما كان هارولد يراقب من الشاطئ الجنوبي نزل ملك النرويج في يوركشاير واضطر هارولد إلى ترك مراقبة الشاطئ الجنوبي والإسراع لقتاله ، وقد تغلب عليه ، وانتهز وليام الفرصة للنزول بانجلترا ، وأقبل هارولد في جموعه لقتاله ، وكانت جنوده قد نال منها الإعياء ، فخسر المعركة ، ولو أنه تمهل وانتظر لاستطاع أسطوله أن يقطع اتصال جيش وليام بقواعده في القارة الأوربية ويحرمه من موارده ويمهد بذلك السبيل لهزيمته وسحقه . وقد أراد الأستاذ هيرنشو بذلك أن يوضح أن انتصار وليام قد قام على حلقة من المصادفات الصالحة ، وهذا الانتصار القائم على المصادفة أثر في تاريخ انجلترا تأثيراً بعيد المدى .

ويمكن أن نسوق من تاريخ الأمم المختلفة أمثلة كثيرة كالتي اختارها الأستاذ هيرنشو لبيان أثر المصادفة أو الأمور التافهة الصغيرة أو إرادة الرجال الممتازين في سير التاريخ . والواقع أن التاريخ يبدو لنا من بعيد منطقياً أكثر مما كان في الحقيقة ، وإن كان للقوانين الطبيعية والبواعث الاقتصادية أثرها في التاريخ فإن للمصادفات والنزوات والصغائر والسخافات لها فيه كذلك مكانها الملحوظ وآثارها الباقية .

علي أدهم

نحن وباريس

للأستاذ محمد أمين حسونه

تحتفل مدينة باريس فى غضون هذا الشهر — يوليه — بذكرى مرور ألفى عام على تأسيسها فى سلسلة احتفالات قومية وشعبية ، شاركتها مصر فيها رسمياً بإيفاد بعثة من أعضاء بلدية القاهرة ، حيث قدمت هدية رمزية من أحدث البلديات إلى أقدم البلديات فى العالم .

والواقع أن لباريس شهرة عالمية لم تدانها عاصمة أخرى من عواصم العالم ، وقد احتلت مكانة فريدة فى الأدب العربى الحديث ، وظفرت بسلسلة مؤلفات وأبحاث وقصائد لم تظفر بها عاصمة أخرى ؛ ولعل سر هذا الظفر والإعجاب أن العاصمة الفرنسية كانت ولا تزال ينبوعاً من ينابيع الثقافة الحديثة ، ومورداً من مناهل العلم والتفكير ، عبث منه طائفة من عظماء مصر الأفذاذ وزعماء الإصلاح فيها وأعلام الأدب والفن والقانون ؛ فقد تلق الثقافة فى باريس كثيرون من أفراد الأسرة المالكة ، وعلى رأسهم الخديوى إسماعيل والسلطان حسين كامل ، ومن رؤساء الدولة : نوبار وشريف وثروت وحسين رشدى وحسين سرى وسعد زغلول . ومن الوزراء : على مبارك وإسماعيل سرى وعثمان غالب وواصف غالى وطه حسين وهيكل ، إلى غيرهم من فحول المشتغلين بالسياسة والاجتماع والفلسفة والطب والعلوم والعسكرية .

وباريس اسم ساحر جذب إليه أقلام طائفة من أعلام المؤلفين والباحثين والشعراء ، وفى المكتبة العربية عدة مؤلفات تحمل اسم باريس ، فى مقدمتها كتاب رفاعة رافع الطهطاوى الموسوم بعنوان « تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز » المطبوع ببولاق فى عام ١٨٣١ .

طوى رفاعة رافع الطهطاوى صدر شبابه فى عاصمة النور ، وكان أحد أفراد البعثة العلمية التى أوفدت إلى فرنسا فى عام ١٨٢٦ ، فراعته باريس بمؤسساتها العلمية ودور كتبها وملاعب التمثيل فيها وما تزخر به من ألوان المتاع والمسرة ، ولفت نظره عوائد أهلها وأخلاقهم وتراثهم الثقافى ، فأخذ يقارن ويوازن بين ما يقع عليه نظره فى شتى أرجائها وبين ما ألفه فى مصر ، وكان من نتيجة هذه المشاهدات والنظرات التى انطبعت فى ذهنه أن عكف على دراسة تاريخها والنظم السياسية والاجتماعية التى صدرت عنها ، وكانت ثورة سنة ١٨٣٠ تجتاح باريس ، والمباحث الدستورية والمبادئ الديمقراطية تشغل الأذهان ، لذلك كان من الطبيعى أن يعنى رفاعة بما لمسه من كتب فيدرسه ويستقصى أصوله ويكون له إلى جانب ما شاهده ودرسه أثر واضح فى كتابه .

ومن حسن حظ رفاعة أن عرض مسودات كتابه قبل أن يفكر فى طبعه على نخبة من المستعربين الفرنسيين وفى طليعتهم سلفستر دى ساسى وكوسان دى برسفال ، فامتدحا مجهوده وأثنيا على المعلومات التى حصل عليها وشجعاه على طبع هذا الكتاب .

أما الكتاب الثانى الذى ظفرت به المكتبة العربية فهو « الدنيا فى باريز » الذى طبعه شيخ العروبة أحمد زكى باشا فى عام ١٩٠٠ لمناسبة افتتاح المعرض الدولى بعاصمة فرنسا ، ويعد هذا الكتاب دائرة معارف عن باريس : شعبها ، آثارها ، أعلامها ، دور العلم والفن فيها ، متاحفها ، قصورها ، ملاهيها ، حدائقها ، مطاعمها ، مصانعها ، مما يعطى القارئ العربى فكرة واضحة عنها .

وللدكتور زكى مبارك كتاب طبعه فى عام ١٩٣١ بعنوان « ذكريات باريس — صور لما فى مدينة النور من صراع بين الهوى والعقل والهدى والضلال » ويقول فى مقدمته : عرفت باريس وأهل باريس معرفة قلما تقدر لإنسان سواى ، ولم يكن ذلك فقط لأنى اتصلت بها نحو خمسة أعوام ، وإنما كان ذلك لأنى وصلت إليها بعد يأس وبعد شوق فكنت أنتهب محاسنها فى شره ونهم . »

والكتاب عبارة عن مجموعة رسائل موجهة إلى صديق ،

كان المؤلف ينشرها على صفحات جريدة « البلاغ » وفي هذه الرسائل أوصاف عن الأنظمة الدستورية في فرنسا، وسهرة في جامع باريس، وذكريات عن الحي اللاتيني — حي الطلبة — وصور مشرقة باسمة لطائفة من أساتذة جامعة باريس ولاسيما المستشرقين منهم.

وكان الأستاذ أحمد الصاوي من الكتاب الذين فتنوا بباريس ورددوا اسمها أكثر من مرة في ثنايا مقالاته وأبحاثه وأحاديثه، وقد دفعه هذا الإعجاب إلى أن يصدر كتاباً يحمل اسم « باريس » استكتب فيه طائفة من أعلام عصره، من رجال الاقتصاد والمال والأدب والفن والقانون، وملأه بصور من أقلام الكتاب الأجانب الذين وصفوا الحياة في باريس.

وشجع كتاب الأستاذ الصاوي غيره من الكتاب على تخصيص مؤلفات تحمل اسم « باريس » فأصدر الأستاذ نزيه مسعد كتابه « ليالي باريس » ويشمل عدة صور عن مسارح باريس ودور اللهو فيها، والحياة في حي مونبارناس — حي الفن واللهو — وأبحاث عن الجاليات الشرقية والعربية التي تقطن عاصمة فرنسا. وأصدر الأستاذ شفيق رزق الله كتابه « معالم باريس » وفيه أوصاف شائقة لرحلة المؤلف إلى بعض عواصم أوربا، وخص بالذكر باريس ومعالمها الأثرية والعلمية والفنية. ثم كتاب « أنت وأنا في باريس » للأستاذ جوزيف خوري، ويحوي لوحات باسمة لما انطبع في نفس المؤلف لدى زيارته باريس.

وللدكتور طه حسين باشا كتاب موسوم بعنوان. (صوت باريس) ولا يفهم من عنوان هذا الكتاب أن به أوصافاً أو صوراً عن باريس، وإنما هو عبارة عن مجموعة مسرحيات فرنسية لخصها المؤلف عن فحول كتاب المسرح الفرنسي، وقد اتخذ لها هذا العنوان تخليداً لذكرى النكبة التي حلت بباريس عندما وطأتها أقدام الغزاة الجرمان.

* * *

وقد تغنى بفتان باريس وأمجادها التاريخية طائفة من شعراء العربية وحركت عاصمة النور أوتار قيثارة الشعر بين أناملهم، وكان أشد هؤلاء الشعراء حماسة أمير الشعراء شوقي الذي رضع لبان الثقافة في صدر شبابه بباريس وكان مفتوناً بإنتاج طائفة من أدبائها ومفكريها، فهو يدافع عن سمعة باريس بقوله:

زعموك دار خلاعة ومجانة ... ودعارة يا إفك ما زعموك
تحذين أعلام البيان كأنهم ... أصحاب تيجان ملوك أريك
والأفق شرق البلاد وغربها ... ما حج طالبه سوى ناديك
والعصر أنت جماله وجلاله ... والركن من بنيانه المسموك
أخذت لواء الحق عنك شعوبه ... ومشت حضارته بنور بنيك
وخزانة التاريخ ساعة عرضها ... فالفخر خير كنوزها ماضيك

ولشوقي قصائد أخرى عصماء يصف فيها معالم باريس: كنهر السين، وغاب بولونيا، ومثوى نابليون بونابرت، وهي جميعاً لا تقل حماسة وروعة عن القصيدة التي استشهدنا ببعض أبياتها.

وتزخر دواوين طائفة من شعرائنا: كمطران وحافظ والجارم ورامي ومحمد تيمور وزكي مبارك وعبد الغني حسن وبشر فارس وعزيز فهمي بقصائد تعد من عيون الشعر العربي الحديث، يشيدون فيها بمحاسن باريس ويتغنون بأمجادها وينوهون بعلو كعبها في العلوم والفنون وسائر ضروب الثقافة

وكانت محنة باريس في عام ١٩٤٠ حين احتلت أرضها القوات النازية مثار وحي لطائفة من شعرائنا، وفي مقدمتهم علي محمود طه الذي نظم عدة قصائد وفي مقدمتها قصيدته التي يرثي فيها لحال باريس ويستنهض همم أهلها بقوله:

ساحة الباستيل خان التقى ... وتعالت صرخة الفجر الوليد
فوق أحجارك صرعى أسهم ... فلئن كنتِ سفر الخلود
فاذكريهم بالذي ... والقرن تاريخهم ثم أعيدي

وظفرت باريس باهتمام الأدب الشعبي العربي، فنظم محمود بيرم التونسي عدة أزجال يصف فيها الحياة في جوانب باريس، كزجله الذي يقول فيه « الحظ كان عسكر والناس تروح له بارز » وزجله الذي يصف فيه ليلة ١٤ يوليه — عيد الحرية — فيقول:

الفجر نايم وأهلك يا باريس صاحيين
معمرين الطريق داخلين على خارجين
إن دقت اتنين صباحا خش مونبارناس
حي العذارى السكارى تحت كعب الكاس
وجوه عزلها جمالها عن وجوه الناس
من كل نجمة عاشقها في سماها هلال
تجلب بنورها أم في الهند والشلال
حي الفينوس عبادها من ملوك المال

* * *

عبرة من حياة مليونير

الأستاذ موسى الزاوى

سيرة جون د . روكفلر (١٨٣٩ — ١٩٣٧) الثرى الأمريكى ، الذى أحبته الجماهير بقدر ما أبغضته !

هذه قصة جون د . روكفلر الذى فتن بجمع المال وتكديسه حتى أوشك الذهب أن يستعبده ، وحتى أصبحت حياته كفاحاً مريراً فى سبيل الثراء واستنباط الوسائل الجهنمية مشروعة وغير مشروعة لزيادة رصيده فى البنوك ، حتى لقد زعموا أنه كان « يبكى » أمر البكاء ، ويمرض « فى الحال ! » إذا علم بخسارة حاقت به . لذا كان من أشق الأمور على حاشيته أن ينهوا إليه نبأ فشل صفقة عقدها ، بينما كان السرور والطرب يستخفانه إذا نجحت إحدى صفقاته فيرقص ويغنى ويلقى بقبعته على الأرض .

نعم ، فقد كان روكفلر يعبد المال ولم يكن فى الحياة شىء يشجيه ويطربه ويهبه القوة غير رؤية الأصفر الرنان ، لك أن تقول إن جمع المال عنده كان حاسة سادسة .

والحق أن التوفيق الذى لازمه فى صفقاته لم يكن وليد المصادفات ، ولكنه كان عن خبرة تامة ومعرفة واسعة شاملة ! ذلك أن الحياة حركته من صغره حتى مرن مراناً طويلا شاقاً على اكتساب المال ، فقد ولد لأبوين فقيرين رقيقى الحال ، فكان عليه وهو ما زال طالباً صغيراً أن يكسب ما يقيم أوده .

وإنك لتعجب إذ تعلم أنه كان من صغره يبدى شغفاً فائقاً بمسائل التجارة وقد تعود أن يحتفظ بنوتة صغيرة كان يسميها دفتراً للحسابات الجارية ، يرصد فيه كل قرش يدخل جيبه وكل قرش ينفقه .

وقد مارس أولى عملياته التجارية وهو فى سن السابعة . فقد منحوه عدداً من بيض الدجاج الهندى فاعتنى به حتى فقس وما زال يواصل عنايته (بالكتاكيت) الصغار ويقوم بتغذيتها على الفضلات حتى سمنت وكبرت فباع الفراخ بمبلغ كبير ، سارع برصده فى دفتره .

وقد أتم تعليمه الثانوى فى سن السادسة عشرة ، ولم تكن طاقة أسرته المالية لتسمح بإرساله إلى الجامعة ، فالتحق بمدرسة تجارية لمدة أشهر مضى بعدها يذرع شوارع كليفلاند — حيث استقرت أسرته — بحثاً عن عمل حتى وفق فى النهاية إلى وظيفة مساعد كاتب حسابات فى مخزن بضائع شركة White & Tuttle .

وفى نهاية الأشهر الثلاثة الأولى منحوه خمسين دولاراً . ثم رتبوا له بعد ذلك خمسة وعشرين دولاراً شهرياً ... واستطاع بهمته ونشاطه أن يكسب ثقة رؤسائه ، فلما استقال كاتب الحسابات جعلوه خلفاً له بمرتب سنوى قدره خمسمائة دولار ، وهو — حينئذ — مرتب كبير لشاب فى السابعة عشرة .

على أنه استقال بعد عام وبدأ يعمل لحسابه الخاص ، فكون مع انجليزى يدعى كلارك شركة تجارية صغيرة (١٨٥٨) تشترى البضائع السهلة التوزيع كالملح والسمك والجبس والغلال ... الخ وتقوم ببيعها لقاء ربح معين .

ونجحت الشركة الصغيرة ، وكان روكفلر يجوب البلاد للدعاية لشركته ، وكسب الزبائن لها ، وكان يقترض من

بقى أن نذكر أن هناك أشتاتاً من كتب السياحة فى الأدب العربى ، أفرد مؤلفوها فيها فصولاً عن مدارس ووصفوا الحياة بين جوانبها كما وقعت عليها أنظارهم ، ويكاد القلم يضيق عن إحصاء هذه الكتب ، لكننا نذكر منها على سبيل المثال كتاب : فى الصيف لطه حسين ، وولدى لهيكل ، وإرشاد الألبا إلى محاسن أوربا لأمين فكرى ، وخمسة فى سيارة لسامى الجريديني ، ومشاهدات لعبد الوهاب أبو العيون ، وسفر السفر إلى معرض الحضر لديمترى خلاط ، إلى غيرها مما تزخر به المكتبة العربية من شتى ألوان كتب السياحة والرحلات .

محمد أبيو عمرة

البيوتات المالية آلاف الدولارات ليتمكن من تنفيذ مشروعاته .

على أن نقطة التحول في حياته ، هي اتجاهه إلى حقول البترول ، ففي سنة ١٨٥٩ نجح الكولونيل دريك في حفر بئر للبترول بولاية بنسلفانيا ، في المنطقة التي سميت فيما بعد « أويل كريك » .

وكان روكفلر في ذلك الوقت في العشرين من العمر ، فأخذ يقرأ ويدرس كل ما يكتب ويقال عن صناعة البترول ، ثم كون هو وشريكه شركة لاستخراج البترول مع استمرار شركتهما الأولى في عملها ونشاطها .

وفي عام ١٨٦٥ انفصل روكفلر عن شريكه ، واستقل مع شركاء آخرين بالعمل في صناعة البترول وحدها ، ونجحت أعماله الجديدة وتدفق المال إلى جيوبه وجيوب شركائه ، ولكنه في عام ١٨٧٠ أعاد تكوين شركته بحيث أصبح الرئيس المتصرف في شئونها ، وبرأس مال قدره مليون دولار ، وهي الشركة التي عرفت باسم « ستاندرد أويل كومباني » واستمر نجاح الشركة في عهدها الجديد وإدارتها الجديدة التي تجمعت في يد « جون د . روكفلر » .

ونستطيع أن ندرك صورة هذا النجاح ، إذا علمت أن الشركة ارتفع رأس مالها في فترة عامين إلى مليونين ونصف من الدولارات ، ثم عاد وارتفع في عام ١٨٧٤ إلى ثلاثة ملايين ونصف من الدولارات .

ولكن روكفلر لم يقنع بهذه الثروة الضخمة ، كان كلما ازداد تدفق المال في جيوبه ، ازدادت أطماعه وتضخمت ، وبدأ يصبو إلى مزيد من الثراء والقوة ... وأخذ يحلم بالسيطرة الكاملة التامة على سوق البترول ... وأهمه التفكير في هذا الشأن طويلاً ، ثم خطر بباله حوالي عام ١٨٨٢ فكرة شيطانية جريئة لم يتوان عن تنفيذها ، وهي أن يستفيد من نظام في القانون الإنجليزي يُعرف بالترست Trust ، وبموجبه يمكن لشخص أن يدير أملاك شخص آخر ويضع يده عليها ... وكانت صناعة البترول يشغلها حينذاك نحو سبعين شركة مساهمة مستقلة ، فمازال بطائفة منها يقنعها بفكرته ويخوفها من عواقب التنافس ، ويبين لهم مزايا مشروعه وفوائده حتى استمالهم ، ووافقوا على فكرته ، وهي تقضي بإنشاء « نقابة مالية » يتنازل إليها مساهمو الشركات (التي قبلت الدخول في مشروعه) عن أسهمهم ويعطونها لأعضاء النقابة ، على أن يتسلموا بدل الأسهم شهادات إيداع ، وهذه الشهادات تعطيهم الحق في الحصول على الأرباح ، ولكنها تسلبهم حق التدخل في إدارة الشركة التي ستصبح من نصيب النقابة المالية .. وهذه بدورها ستخضع لأقوى أعضائها نفوذاً وثراء وشخصية ...

ومَكَّن هذا النظام روكفلر أن يجمع في قبضته الجزء الأكبر من صناعة البترول .

ورُوِّع منتجو البترول في أنحاء أمريكا حينما سمعوا بتكوين « ترست روكفلر » لأنه كان خطراً داهماً سيؤدي إلى اكتساحهم من سوق هذه الصناعة ، فإن شركة روكفلر بتكوينها الجديد أصبحت قادرة على تذليل كثير من العقبات التي كانت تقف في سبيلها ، فاستطاعت تقليل نفقات الإنتاج ، ثم تغلبت على صعوبات النقل بعد توافر الأموال لديها ، فمدت أنابيب البترول على مسافة قدرها ١٥٠٠٠٠٠ ك . م . فحققت بذلك اقتصاداً كبيراً في نفقات النقل بلغ نحواً من ستين في المائة ... كما استطاعت أن تتحكم في أثمان البترول ، وبالتالي في المستهلكين .

ثم عمد روكفلر لتحقيق أطماعه إلى ما هو أدهى من ذلك ، فأنشأ شبكة من الجاسوسية ترصد أنباء الشركات المنافسة ، فإذا عَلِم بأن شركة ما سترسل كمية من البترول إلى جهة ما ، أسرع الترست فأمر بإرسال كمية أكبر إلى ذلك المكان حتى تقضي على منافسها ... وإذا عَلِم بأن شركة ما حددت سعراً معيناً للبيع في جهة ما ، عَمَد الترست إلى تخفيض الأسعار التي تبيع بها في هذه الجهة ... وهكذا .

وبذلك أمكن لروكفلر أن يحتكر سوق البترول ، وأن ينصب نفسه ملكاً على صناعته ، حتى لقد تراوحت ثروته عام ١٨٩٢ بين خمسمائة مليون وألف مليون دولار !

وجلس روكفلر على عرشه يخير الشركات الزاحفة المسكينة بين أمرين : إما الاندماج في شركته أو الموت بالمنافسة ، ولم تكن تأخذه على أعدائه ومنافسيه ذرة من الشفقة أو العطف .. كان شعاره حطّم أعداءك قبل أن يحطموك .. فسلك في سبيل ذلك كل وسيلة شريفة وغير شريفة ، حتى إنه لم يتورع عن تقديم الرشوة إلى بعض أعضاء البرلمان الأمريكي الساخطين عليه ، حين علم بأنهم قد بدأوا يتحركون ضده ... فقد كان جمع المال همّه الأكبر ، فلم يتحرك قلبه للمساكين الذين خربت بيوتهم ، والعمال الذين تشردوا

في الآفاق بعد إغلاق مصانعهم ، والمستهلكين العُزل الذين فرض عليهم الأسعار التي توافقه وتوافق مصالحه ومصالح جيبه .

وضج الناس بالشكوى من هذا التجبر الذي لا يرحم ، وفاضت أنهار الصحف بالمقالات التي تهاجمه وتقدح فيه ، ووصفوه باللص والمحتال وسفاك الدماء... وأخذ يتلقى فيضاً من رسائل التهديد بالقتل حتى لقد اضطر لاستئجار حراس أشداء لحراسته .

كما تحركت الحكومة الأمريكية تحت ضغط الرأي العام ، وضغط الحانقين عليه وقدمته لمحاكمة بتهمة الاحتكار الذي يحرمه القانون الأمريكي . . وقد استمر عرض قضيته أمام القضاء خمس سنوات كاملة ليقول فيها كلمته ، والتي دمغت روكفلر بالاحتيال والنصب والاحتكار .

وتهاوى الشيخ المختال — وكان قد نيف على الخمسين — أمام هذه الضربات المتلاحقة ، وبدأ يحس بالخوف والقلق يعصفان بحياته ويحولان سعادته وطمأنينته وهماً وسراباً ، فمرض مرضاً طويلاً ، وأصيب بتساقط شعر الرأس وعسر الهضم ، وأصبح غذاؤه — وهو المليونير المريض الثراء — لا يعدو مقداراً من اللبن وقليلاً من قطع البسكويت ... ودقّ جسمه ونحف حتى بدا وكأنه هيكل عظمي مغلف بالجلد !.

وخيره أطباؤه بين الموت أو اعتزال كل عمل إداري أو فكري أو جسماني . وقد فضل الاعتزال ، فاستقال من رياسة شركاته وأخلد إلى الراحة التامة .

وكانت هذه العزلة خيراً وبركة على روكفلر ، وعلى العالم أيضاً ... ففي هذه العزلة حدث لروكفلر أغرب تحول يمكن أن يحدث لإنسان ... فقد انقلبت آراؤه وأفكاره وتطورت تطوراً غريباً غير متوقع... وانقشع من ذهنه هذا الكابوس الزائف ، الذي أقض مضجعه وأفسد حياته ، وملأ الدنيا حوله مقتاً وعداوة وبغضاء ... وأعنى به كابوس الذهب... لقد بدأ يدرك أن السعادة لا تشترى بالمال .. وأن صحة البدن وراحة البال والضمير خير وأبقى ... فقرر منذ ذلك الحين أن يكف إلى الأبد عن التفكير في كيفية زيادة رصيده !.. وخرج على العالم من عزلته بأغرب اختراع فريد في نوعه .. ألا وهو جمعية خير تتولى إنفاق أمواله على وجوه الخير .

ومع ذلك فقد أوجس الناس — ولهم الحق — خيفة من هذا المشروع ، وظنوه حيلة من حيل الشيخ المريض لاستدرار عطف الناس عليه ، ولكنهم كانوا جميعاً مخطئين ، فإن الشيخ قد تطور حقاً .. ففي سنة ١٩٠١ أسس « معهد روكفلر للأبحاث الطبية » وقد أنفق في إنشائه حوالي ستين مليون دولار ، وغرضه إجراء الأبحاث الطبية لوقاية العالم غائلة الأمراض الخطرة والأوبئة الفتاكة ، كالسل والحمى الشوكية والأنفلونزا والملاريا .. الخ ، ولا تزال هذه المؤسسة قائمة إلى الآن ، وقد انتشرت فروعها في كافة أنحاء الدنيا ، تنشر الصحة والسلامة لملايين البشر وتقدم لهم خير العقاقير كالأعجوبة التي ذاع صيتها أخيراً : البنسلين .

وفي عام ١٩٠٢ أنشأ روكفلر « مجلس التعليم العام » لترقية التعليم في كافة أنحاء الولايات المتحدة دون تفريق في الجنس أو اللون أو الدين ، وقد كلفه خمسين مليون دولار .

وفي عام ١٩١٣ أسس « مكتب الصحة الاجتماعية » الذي كلفه ثلاثين مليوناً ونصف مليون من الدولارات ، وكذلك « مؤسسة روكفلر » التي جعل شعارها (العمل على رفاهية البشر في كافة أنحاء العالم) والتي كلفته وحدها ما ينيف على ١٨٢ مليوناً من الدولارات .

ولما ماتت زوجته أقام في ذكراها معهداً لرعاية أحوال الأطفال والنساء الاجتماعية والصحية والتعليمية ، وكلفه إنشاؤه ٧٥ مليون دولار ، كما أعان جامعة شيكاغو بمبلغ ٢٣ مليون دولار ... الخ .

وليست هذه الأرقام أرقاماً خيالية ؛ فهي حقيقة واقعة ، وهي تعطينا فكرة صادقة عن الانقلاب المبارك في حياة المليونير الكبير .

أما روكفلر فقد عاش في أمان وسلام ، وأحس برد الراحة والطمأنينة ، واسترد صحته ، وذهب عنه التوجس والخوف اللذان أفسدا حياته ، ومد الله في عمره فعاش ثمانياً وتسعين عاماً ، فلما استجاب لداعي ربه بكته الملايين في أمريكا وأنحاء العالم .

ألا ما أكثر العبر التي تستفاد من سيرة جون د . روكفلر ، ولكن لعل أجلها وأعظمها أن سعادة المال وهم باطل ، وأن متاع الحياة في راحة النفس والصحة وفعل الخير .

مرسي الرازقي

بين فاجنر ونيتشه (*)

— ٢ —

للأستاذ إدوار منسى

— ٣ —

فتور وقطيعة

لم تدم الأزمة المالية لمشروع إنشاء مسرح بيروث طويلاً . فقد طلعت البشرى فى فبراير عام ١٨٧٤ بأن العقبات التى كانت تقف فى طريقه قد ذللت ، وأن الشعب الألمانى أن يستعد لهذا الحدث الجليل فى تاريخ الأوبرا فى ألمانيا . وسرعان ماتلقى نيتشه دعوة حارة من فاجنر وكوزيما كليهما للحضور إلى بيروث . ولكنه رفض أن يذهب آنئذ ، وبدلاً من ذلك رحل إلى قرية صغيرة فى أعالى الألب لتمضية شهر يوليو .

لم يغضب فاجنر هذه المرة كما غضب فى المرة السابقة ، لأنه ربما كان قد بدأ يفهم نيتشه أكثر مما يتصور هذا الأخير . ولكنه كان على يقين من أن نيتشه سيأتى . وهذا ماحدث . ففى أغسطس قدم نيتشه بصحبة أخته إلى بيروث ، واستقبلهما آل فاجنر بحرارة فائقة . ولكن نيتشه كان متحفظاً بعض التحفظ .

وهناك حدث بين العبقريين سوء تفاهم جديد . ففى الربيع من ذلك العام كان نيتشه قد استمع إلى « أغنية النصر » لبراهمز ، واحتفظ بنسخة منها . وكان نيتشه يعرف التعارض التام بين فاجنر وبراهمز ونفور الأول من موسيقى الأخير . ولكن بالرغم من هذا فقد وضع نيتشه عمداً مقطوعة براهمز ذات يوم على البيانو حيث كان لابد لفاجنر أن يراها كلما حل بالغرفة . فقال فاجنر لإليزابيث بعد حين : « إنى أعرف تماما أن نيتشه كان يريد أن يقول لى : أنظر ! فهاهنا موسيقى آخر بإمكانه أن يكتب شيئاً يستحق الالتفات ! لقد احتملت منه هذا إلى أقصى ما يمكن أن يحتمله صبرى ، ولكنى لم أعالك نفسى ذات مساء ، فانفجرت فيه غاضباً . وكم كان غضبى آنئذ » !

أجل . حينئذ اكتسى وجه نيتشه فجأة بالاحمرار وحملق فى فاجنر الغاضب بعينين كبيرتين تصوران كبرياء الهيئة . هذه واقعة غريبة . فهناك كائنان متعصبان ، لكل منهما مزاج مختلف كل الاختلاف ، يقف كل منهما فى وجه الآخر : أما فاجنر فأسرع وأنشط وأكثر اندفاعاً ، يترك لسانه العنان ، فيقول باندفاع ما يتراءى له دون تدبر أو تحفظ ، وبلغة خشنة أحياناً ؛ بينما نيتشه يملك زمام نفسه دائماً ، أو بمعنى أصح ، لا يدرى ماذا يقول فى أمثال هذه المواقف وماذا يفعل . فهو لا يعرف التنفيس عن نفسه إلا بالكتابة ... الكتابة فقط . ولهذا فقد زال تأثير الحادث من نفس فاجنر فى الحال ، ولكنه بقى فى نفس نيتشه وقتاً أطول .

غادر آل فاجنر بيروث فى أوائل عام ١٨٧٥ فى رحلة موسيقية طويلة استغرقت أكثر من العام . وعندما عادوا فى منتصف عام ١٨٧٦ استحثوا نيتشه بخطاب أن يأتى إلى بيروث . وسرعان ما لبىّ الدعوة هذه المرة . وهناك شاهد جزءاً من The Ring لأول مرة على مسرح بيروث فى أغسطس من نفس السنة . فى هذه الأثناء كان فاجنر مشغولاً جداً بحيث إنه لم يجد متسعاً من الوقت للتحدث باستفاضة إلى نيتشه . ويصح القول أن نيتشه نفسه كان يتجنب فاجنر ويتحفظ معه . وفى هذا تقول إليزابيث ، أخت نيتشه : إن فاجنر لم يأل جهداً فى إحاطة نيتشه بكل ضروب الاحتفاء والتكريم والتمييز ، ولكن نيتشه كان يتجنب كل هذا التشريف كلما واتته الفرصة .

وقبل نهاية الشهر عاد نيتشه إلى بال دون أخته . وعندما ودعها قال والدموع فى عينيه : « أوه ... هذه هى بيروث ! »

ورحل نيتشه إلى سورنتو ، بجوار نابولى ، فى أواخر أكتوبر . ولدهشته العظمى ، وربما لروعته ، وجد آل

(*) مقتبسة عن : H.A. Reyburn's : Nietzsche, The Story of a Human Philosopher, London, 1948

فاجنر قد سبقوه إليها . ولكن ، وإن كان نيتشه قد شعر بالحيرة والارتباك فقد بدا فاجنر بشوشاً مبتهجاً ممتلئاً بالثقة وميالاً إلى المناقشة كما كان في الماضي . وفي الحق أن نيتشه كان يرى في قوة فاجنر وحيويته الفائقة إذلالاً وإضجاراً له ، وكان يشعر علاوة على ذلك بالكظم الملائم الذي كان يفرضه تعارض وجهتي نظر كل منهما خوفاً من التصادم . وفي ذات عشية ، قبيل رحيل فاجنر عن سورنتو ، كان يمشي الرجلان على الشاطىء . وبدأ فاجنر يتكلم عن Parsifal ، وهو العمل الذي كان آخذاً فيه حينئذ ، وجعل يشرحها ويعبر عنها في طريقة درامية يعرفها نيتشه جيداً . تكلم عنها على أنها ليست فقط tour de force ، بل تجسد لتجربة حيوية مبنية على المواقف المسيحية وانفعالاته في حياته الخاصة : كالندم والكفارة ، التي كانت تدخل في النسيج الحي لدرامته . وبينما كان فاجنر يتحدث كان الظلام ينشر أستاره على الكون والضباب الرقيق يغزو الشاطىء من البحر ، كان نيتشه يستمع صامتاً في ضجر حتى لاحظ فاجنر بروده وجموده ... حينئذ انتحل نيتشه عذراً واستأذن من فاجنر واختفى هارباً في الظلام ، مقتاً وحيداً . ولم ير نيتشه فاجنر مطلقاً بعد هذا المساء .

وبقي نيتشه بسورنتو حتى مايو عام ١٨٧٧ . وعندما غادرها كان في الحقيقة قد أنهى صداقته بفاجنر . ولكن الأخير لم يكن على علم بهذه القطيعة ، وهو لهذا قد أرسل إلى نيتشه نسخة من بارسيفال في أوائل العام التالي . ولكن نيتشه لم يكاتبه في صددها ، ولكنه بدلاً من ذلك تحدث إلى الآخرين عنها دون تحفظ ! وبالرغم من إقراره بقوتها الشعرية فقد قدر لها الفشل كدراما وكموسيقى .

وفي أثناء ذلك كان نيتشه قد أصدر كتاباً (Human all too human) بها جرفيه فاجنر هجوماً عنيفاً ، مما جعل عودة المياه إلى مجاريها بين الرجلين مستحيلة جداً .

●●●

عندما توفي فاجنر في ١٣ فبراير ١٨٨٣[1] وتلقى نيتشه خبر وفاته ، كتب إلى صديق له يقول : « إني أعتقد حقاً أن موت فاجنر كان التنفيس الأعظم الذي يمكن أن يقدم إليّ في الوقت الحاضر . وإنه لمن الصعب أن يكون الشخص خصماً طيلة ستة سنوات لرجل كان يحترمه جداً ! فلست ممن صنعوا لأمثال هذه الخصومات ... لقد تحققت في الصيف الماضي من أنه قد أخذ الشعب الألماني جميعاً » .

ولكن مع اختفاء فاجنر من حياة نيتشه لم يكف الأخير من شن الحرب عليه ! ففي عام ١٨٨٨ أصدر كتاباً أسماه « قضية فاجنر » ، ثم أتبعه بآخر أسماه « نيتشه ضد فاجنر » وكان آخر شيء كتبه في حياته .

ولا يحوي الكتابان شيئاً جديداً من فاجنر كفنان ، ولكنهما يلقيان بعض الضوء على نيتشه نفسه . لقد أراد نيتشه إسقاط فاجنر ولكنه بدلا من ذلك لوث نفسه بالطين . ولنأخذ لذلك مثلا . فعندما كان نيتشه يحاول قلقاً إقناع الألمان بضرورة قبول موسيقى فاجنر الجديدة ، تساءل فجأة : « وهل كان فاجنر ألمانياً بالمرة ؟ ... لقد كان والده ممثلا يدعى Geyer » . ثم وضح هذا الالتواء في مكان آخر : إن فاجنر ليس عاقلاً شرعياً ، وإن الدم اليهودي يجري في عروقه . (الاسم Geyer من الأسماء اليهودية) . لقد طالما نوقشت هذه النقطة . ولكن الاعتبارات الرئيسية بسيطة سهلة . فقد كان فاجنر صغيراً عندما توفي أبوه ، وتزوجت أمه مرة أخرى . وكان زوجها الثاني هو الممثل « جيير » الذي ذكره نيتشه . وكان فاجنر مغرما بزوج أمه الذي أعطاه اسمه ولكن ، ليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد أن أمه لم تكن وفية لزوجها الأول أثناء حياته ، وهو من جهته لم يكن يشك مطلقا في أبوته لابنه . فإذا كانت أم فاجنر وزوجها الأول عندهما أي شك من هذا القبيل ، فلم يكن لأحدهما أن يذكره للغلام . وإذا لم يكن عند فاجنر أي علم بولادته غير الشرعية ، فكيف يعلم بذلك نيتشه ؟! ولهذا نجد أن هذه الحرب التي شنها نيتشه على فاجنر بعد موت الأخير بخمس سنوات لم تكن لتليق بفيلسوف مثله له ما كان له من روح أرستقراطية نبيلة .

ولكن ، لماذا كان هجوم نيتشه على فاجنر هكذا قاسياً وطويلاً وشخصياً ؟.

يتركز السبب غالباً في السحر القوي الذي كان يفرضه

(١) وعاشت بعده كوزيما حتى عام ١٩١٥ .

الثاني على الأول . ولكن ، لماذا كان التعارض بمثل هذه القسوة وهذه الشدة ؟ ما هو أساس الخلاف ؟.

ليست الإجابة على هذا السؤال بسيطة . فهناك ، فضلاً عن العوامل الصحية وتعديل وجهة نظر نيتشه في الموسيقى عوامل كثيرة . فكما رأينا هناك اختلافاً في المزاج ملحوظاً بين الرجلين : فأنانية فاجنر الزائدة كانت تتطلب من الآخرين انقياداً تاماً كلياً له ، وهذا الانقياد التام الكلي لايتفق وطباع نيتشه . فكان مما يثير فاجنر هذه الصلابة التي كان يبديها نيتشه نحوه . ولهذا كتب على الرجلين أن يتصادما بين حين وآخر .

ولكن أمثال هذه الخلافات ، بالرغم من أنها كانت تؤدي إلى الاحتكاك وسوء التفاهم أثناء أي نقاش عادي ، لم يكن لها أن تتسبب في عداء دائم مستحكم كالذي حدث فعلاً ، فلا بد إذاً من سبب آخر .

في حالة نيتشه يوجد عامل معقد من الغيرة : الحقد والحسد بمعناها العادي الشائع الذي يشعر بهما المتفوق نحو المتفوق . وبالرغم من أن هذا العامل لايوضح الموقف كثيراً فلا يمكن إهمال أهميته على أي حال .

لم يكن من السهل أن يقبل فاجنر آراء نيتشه في الحياة والفن ، ومع هذا فهو قد انتهى بعد نضال عنيف إلى النجاح الذي لا يعلوه نجاح . وجلب نحوه لا العامة فحسب كما كان يعتقد نيتشه ، ولكن الخاصة المختارين وذوي الرؤوس المفكرة والجمهور الذي في ألمانيا وفرنسا وروسيا ، حتى غدت بيروث ملتقى الملوك والأمراء جميعا .

ثم إن نيتشه لم يتمكن قط من التغلب على المتاعب التي كانت خليقة أن تضايقه أثناء مروره من الصبا إلى الرجولة ومن الحماية إلى الحرية . (لقد عاش نيتشه دائما تحت تأثير نسوي خالص ؛ فهو إذ توفي أبوه وتركه صغيراً ، عاش مع والدته وأخته حينا ، ومعهما وعمته أحياناً أخرى) وكان موقفه من عائلته سلبياً جداً ، واستمر على سلبيته دائماً ، وجاء استقلاله هذا المنقوص مع كتاباته الفانية بحيث جعلاه يفكر أن يأخذ مكان التابع من فاجنر . ولما كان نيتشه غير متمكن فعلا من إقناع العالم أنه « أيضاً » رجل عظيم ، فقد سلك سلوكاً عدائياً وهاجم هذا الذي كان يقف خلفه ويحجبه عن الناس . لقد هاجم نيتشه فاجنر (كما هاجم المسيحية والأخلاقيين والفلاسفة وقواد العالم الجديد والسياسيين) ليس فقط لأنه لم يكن متفقاً معه ، ولكن لأن الشعب الألماني ، العالم فيه والجاهل على السواء ، كان يقدسه ويؤلهه . وإذ لم يحتمل نيتشه أن يكون أخاً « للملك » فقد صار عليه متمرداً وله عدواً .

ثم يأتي أخيراً هذان العاملان اللذان أشرنا إليهما منذ قليل : صحة نيتشه وتعديل وجهة نظره في الموسيقى . كان نيتشه عندما دعا شوبنهور : « أبي ! » تشاؤمياً كما كان فاجنر . ولكن ما إن دب فيه المرض حتى ثار على التشاؤم شوبنهور واعتنق مبدأ « الحياة » . فكان المرض شاحذاً لإرادته موحياً إليه بالشجاعة دافعاً به إلى توكيد حياته ، بالرغم مما كان ينتابه طول حياته من آلام في الرأس والعينين والمعدة ، فقد كان ضعيفا مريضاً ، لا يكاد يبل من مرض حتى يعود إليه ، ولايكاد ينجو من علة حتى تغزوه أخرى . ولكنه كان ينكر على المريض أن يكون متشائما ، ومن ثم انحصر تفكيره في نقد القيم الأخلاقية والدينية والاتجاه بوضع « إرادة القوة » في المحل الأول .

هنا دب الخلاف بينه وبين فاجنر . وفي « نيتشه ضد فاجنر » نجد نقطة الضعف الأساسية التي كانت تزداد وضوحاً في إنتاج فاجنر . وقد وصف نيتشه هذه النقطة عندما قال إن فاجنر « يسبح » دائما ولكنه لا « ينتقل » أو بمعنى آخر هناك حقيقة العالم المنظور وحقيقة العالم غير المنظور ، وفي الأعمال الفنية الكبيرة هناك درجة « انتقال » بين إحداها والأخرى ، ولكن ليس عند فاجنر غير الحقيقة الثابتة ، وهي مجموع المسرح والممثل اللذين لايتصلان أي اتصال بالحقيقة غير المنظورة . فإن المسرح لعظيم ، وإن الممثلين لعظماء ، ولكن ليس هناك أي اتصال بين هذه العظمة الخارجية والحقيقة غير المنظورة ، ولاشك أن لها مكانا ودلالة في مجموع الأشياء ، ولكن « لاتكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون » تعني أن كل ما ليس متصلا « بغير المنظور » مصيره الموت والفناء .

ولكن ... رغم ما كان بين نيتشه وفاجنر من عداء مستحكم لم يتمالك الأول أن قال برقة عندما رأى صورة الفاجنر في لحظة من لحظات جنونه الأخيرة — جنون نيتشه — : « كم أحببته » !

إدوار مقسي

كان عالمـــا جليلا

[الصديق الخالد المغفور له الأستاذ عبد الرحيم محمود]

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

خلق للعلم ، وعاش للعلم ، حتى إذا ما أدى واجبه كاملاً غير منقوص ، راح إلى جوار ربه قرير العين ، مثلج الصدر ، مرتاح الضمير ، وراح صديقه إلى قبره ساخن العين ، حران الصدر ، حزنان الضمير !!.

شيعناه بالأمس إلى قبره . وكنا نحسب أننا سنلتقى بجنازة حافلة تتلاطم فيها أمواج الأصدقاء ، وتتلاقى فيها عيون الصفوة المختارة من كبار الأدباء والعلماء ، ولكن الذى نعى العالم الجليل « عبد الرحيم محمود » لم يحسن النعى ولم يوفق فيه ، ولم ينشر خبر وفاته كما ينبغى أن يذاع ، وهو هو الأديب الكبير الذى تحمل فضله جمهرة الأدباء ، وانتفع بعلمه كبار العلماء .

فإنى لأعلم يقيناً أن « عبد الرحيم » كان أستاذاً لكبار أدباء هذا الجيل ومرشداً لهم ، وأعلم يقيناً أنهم كانوا يعترفون له بهذه الأستاذية ويفخرون بها فى مجالسهم وأحاديثهم ، وأنهم كانوا يحاولون بقدر الإمكان أن يجزلوا ثوابه على هذا الفضل البارع ، ولكن سوء حظ الأديب يأبى إلا أن يلاحقه حتى الممات !

كانت جنازته جنازة صغيرة ، ولكنها كانت على صغرها تضم نخبة مختارة من المثقفين ، فكان فيها كاتب واحد كبير ، وأستاذ واحد من أساتذة الجامعة ، ومؤرخ واحد من كبار المؤرخين ، وشيخ واحد من أعضاء الشيوخ ، وقاض واحد من القضاة الوطنيين ، وصحفى واحد من خيرة الصحفيين ، وموظف واحد من كبار موظفى المجمع اللغوى ، وآخر من كبار موظفى وزارة المعارف ، فكان هؤلاء إلى الصفوة من زملائه بدار الكتب المصرية هم الذين أسعدهم الحظ بشرف السير فى جنازته . وإنى لأرى أن ذلك جاء طبقاً لرغبته وسنته فى العيش ، سنة التواضع العميق ، والبعد عن زخارف الحياة وتهاويلها .

كان عبد الرحيم عالما جليلاً نافذ البصر ، وأديباً مخلاً نافذ النظر ، وكان ملجأنا وموئلنا حين تظلم شبهات العلم ، وتختلط موازين النقد ، فيحل من تلك ، ويفصل بين هذه بما آتاه الله من مقدرة عالية ، ومن اتزان عقلى بلغ الغاية أو أوفى على النهاية .

كان عبد الرحيم مصباح القسم الأدبى بدار الكتب منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، وإليه يرجع الفضل فى كثير مما ظهر من محققات الدار .

وكان نبراس لجنة إحياء آثار أبى العلاء ، وإليه يرجع كثير من الفضل فيما ظهر من آثار أبى العلاء . وأشهد لقد كان أستاذنا ومرشدنا فى هذه اللجنة ، وكثيراً ما كنا نختصم اختصاماً عنيفاً وراء المعنى الذى لا ريب فى خطئه ، فإذا هو يصابرنا ويصابرنا فى تمثلة الأستاذ وإعنائه حتى يلمع الحق فى جانبه ، فنهرع إليه معترفين له به ، ثم نشد على يده إعجاباً بفضله وخلقه العلمى .

كان عبد الرحيم أستاذاً للتحقيق العلمى ، يتأتى لمجاهيل العلم من حيث تحجب ظنون الناس ، ويهتدى إلى منشأ كله من حيث تضل الأفهام ، وكان صبوراً على التحقيق والتنقيب ، مجانباً للتسرع والاندفاع ، وقد تمكث الكراسة الواحدة من تجارب الطبع تحت يده زهاء الأسبوع ، وهو يعيد النظر فيها ويجيد ، ولا يتركها حتى يجلوها سليمة من الخطأ ، بريئة من العيب ، كل ذلك فى أمانة بالغة ، وحرص على كبير .

وكان حجة عظيما فى مسائل العربية ولغات العرب ، فكانت فتواه القول الفصل ، والبرهان الساطع .

وكان قوى الذاكرة يعلم العلم فيحفظ به سليما كما هو لا تغيير ولا تبديل . ولقد زرته فيما بين فى حجرته المتواضعة ، ولست أجد لديه من الكتب والمراجع إلا لسان العرب لابن منظور ثم شفعه أخيراً بمعجم مقاييس اللغة لابن فارس ، لأنه كان يعتمد على ذاكرة عبقرية ، تعى من أعماق الماضى ما لا يعيه المحدثون من سطوح الحاضر !

وكان عبد الرحيم صديقا وفيا خالص الوفاء ، وكان ذا مروءة فياضة ، وكان على ضيق ذات يده مفرط الجود ،

مع الفكر الأوربي المعاصر

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

١ – كتاب بنت عن أبيها

كتبت الآنسة « ليلياس » بنت « سير ريدر هجارد » الروائي الإنجليزي المعروف (١٨٥٦ — ١٩٢٥) ومؤلف الروايات ذات الأسماء الموسيقية : « هي أو عائشة » و « كنوز الملك سليمان » وغيرها .

كتبت كتاباً عن أبيها وسمته : The cloak I left . وروايات « سير ريدر هجارد » كانت في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن تلتهم التهاماً . فكانت تقرأ في الليل وفي النهار ، وكانت تقرأ في البيت وفي الطريق ، بل كان الناس يتخذونها نقلاً وفاكهة على موائد الطعام .

ومن العجيب أن « سير ريدر » وهو من وصفنا ، وهو من تغلغلت آراؤه في نفوس شباب جيله ، لم يترك في هذه الدنيا إلا دوياً غير بعيد المدى .

ومما لاشك فيه أن « ريدر هجارد » كان كاتباً ذا حظوة لاحد لها ، وذلك في العصر الذي كتب فيه كتبه ، يوم كان الناس يرون في روايات « ستيفنسون » و « كبلنج » و « وايلد » و « كونان دويل » أنها تنفخ في الفن من روحها .

ولقد كتب « سير ريدر » ترجمة لحياته نشرت بعد وفاته ، ويمكن أن يقال إنه بعد نشر هذه الترجمة جر النسيان على صاحبها ذيوله ، ويمكن أن يقال أيضاً — ولا نكران للحق — إن كتبه قد أهملت إهمالاً ، وإن كان لايزال للبعض منها قراء ومعجبون .

من أجل هذا كان كتاب الآنسة « ليلياس هجارد » عن أبيها قد جاء في الوقت المناسب ، يذكرنا بحياة رجل كان لكتبه الأثر البالغ في الأخذ بيد كتاب كانوا في عهده من شداة الأدب ، فأصبحوا اليوم — بفضل اقتفاء خطواته والمشي بنوره — من أرسخ الكتاب قدماً ، وأبعدهم صوتاً ، وأعمقهم آراً .

والآنسة « ليلياس » لم تحاول في كتابها أن تنشدنا قصيدة من قصائد المديح والثناء . بل كانت — إنما دعا داعي الحق — تصور لنا أباها في صورة عابسة قاتمة .

والآنسة الكاتبة تسهب القول في الأثر الذي أحدثه في نفس أبيها وفاة ولده الوحيد ، وهو ما يزال طفلاً ، وقد مات هذا الولد يوم كان أبوه وأمه في رحلة لهما إلى المكسيك . وكأنه بموت هذا الولد — كما تقول الكاتبة —

لا يضن أن يتبرع بجاهه ، إذ كان له جاه عظيم لدى كبار رجال الدولة ، وكثيراً ما جلب إلى أصدقائه ومواطنيه من أبناء الصعيد خيراً كثيراً ، ودافع عنهم أذى كبيراً ، وأعلم لقد جلب الخير إلى كثير ممن وصلوا إلى السلطان .

كان عبد الرحيم ظل الصيف : كان ذا دعابة وفكاهة يصدران عن أدب جم ، وخلق سمح ، وذكاء جميل ، وكان مجلسه سروراً ومتعة عالية . وكانت جميع أندية القاهرة تعرف عبد الرحيم ، إذ كان يتردد عليها منذ صباه ، وله في كل منها أصدقاء ومريدون . كان عبد الرحيم صديقاً للقاهرة ، وعلمت في جنازته بالأمس أنه آثر أن يدفن في القاهرة على أن يدفن في مسقط رأسه ، وأوصى بذلك إلى أحد أصدقائه المختارين الذي اختار له مثوى كريماً في مقبرة أسرته في حي الإمام الشافعي .

فليرحمه الله وليسكب عليه شآبيب رحمته ورضوانه !!

لقد ترك عبد الرحيم في قلوب أصدقائه كلوماً لا تبرأ ، وجراحاً لا تندمل ، وفي صفوف تلاميذه والمعجبين به فراغاً لا يسد ، وثلمة لا ترأب . ولكنه ترك للعلم جهاداً صالحاً ، وللوفاء والبر مثالاً عالياً ، وللمروءة والكرم مناراً واضحاً ، وللصبر وقوة الاحتمال علماً شامخاً !!

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاء أن يترحما
تحية من غادرته غرض الردى ... إذا زار عن شحط بلادك سلما
وما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

عبد السلام محمد هارون

قد ماتت بضعة من نفس والده .

وقد عرف الأهل كلهم ما كان يحدثه تذكر هذا الولد أو الحديث عنه من قريب أو بعيد ، من ضيق وغم في نفس أبيه .

وهذا الشرح يفيد الباحث عندما يريد أن يعرف العوامل النفسية التي كان يصدر عنها هذا الكاتب .

ومهما يكن من شيء فإن « ريدر هجارد » يستطيع أن يفاخر ويباهي بأنه كان من بناة الإمبراطورية البريطانية ؛ ذلك بأنه هو الذي رفع بيده علم بلاده في ميدان « بريتوريا » (عاصمة الترنسفال) ، وكان ذلك في عام ١٨٧٧ يوم كان المترجم له لم يجاوز العشرين من عمره إلا قليلا .

وفوق ذلك كله فقد كان الكاتب يؤمن الإيمان كله أن الفضائل التي فصلها في قد شخوص رواياته هي الفضائل التي يجب أن تكون لها السيادة على نفوس الناس أجمعين .

• • •

٢ ـ كتابان عن العدالة السوفيتية وهما :

(ا) كتاب حركة التطهير في روسيا وانتزاع الاعترافات غصبا وقهراً . وهو من تأليف الكاتبين « بك » و « جودن » .

(ب) كتاب دعوة إلى موسكو وهو من تأليف الزعيم البولندي zstypulkowski

كلمة العدالة هي النغمة التي تسود أجواء العالم الغربي أكثر مما تسوده نغمة الحرية والديمقراطية . والحرية والديمقراطية كلتان يصعب تحديد معناهما ، وحتى إذا أمكن ذلك التحديد فانهما تبدوان أنهما شيئان غير ضروريين لكل الناس على السواء .

ولكن « العدالة » وهي التي تقوم على مبدأ أن لا يقبض على إنسان في غير جريمة ، وأن لا يسجن إنسان بغير محاكمة ، وأن لا يحاكم إنسان بغير أن يتاح له دفع التهمة عن نفسه . العدالة التي تقوم على هذه الأركان هي كالقضية الرياضية التي تقول إن اثنين واثنين أربعة . وهي العدالة التي ليس لها في سائر بقاع الأرض غير معنى واحد لا يحتمل التغيير والتبديل . وإن كثيراً من الناس لم يفضوا النظام السوفيتي ويقاوموه إلا لأن ذلك النظام ينكر العدالة الإنكار كله ، كما يتبين من حركات التطهير الشاملة ، ومن المحاكمات الصورية ، ومن الاعترافات التي تؤخذ أخذاً وهي بعيدة كل البعد عن التصديق ، ومن الآلاف المؤلفة من المعتقلين الذين يساقون سوقاً إلى المعتقلات في سيبريا وآسيا .

ومن الصور السوفيتية التي تحدث رائها عن الغلظة والفظاظة ، صور الاعترافات التي تنتزع من المعتقلين البائسين غصبا وقسرا ، وإن تكن تلك الوسيلة ليست من الظواهر الطارئة في التاريخ .

وإذا ارتاب مرتاب في صدق هذه الأقوال فليس عليه إلا أن يقرأ ترجمة هذين الكتابين . ومترجمو الكتابين هم ممن ذاقوا مرارات العذاب . عذاب التحقيق بين يدي رجال البوليس الروسي .

فالمسيو « ستيبلكوسكي » واحد من الستة عشر زعيما الذين كانوا يتزعمون الحركة السرية البولندية . والذين دعوا لمقابلة المارشال زوكوف في شهر مارس من عام ١٩٤٥ لا لشيء سوى أن يروا أنفسهم معتقلين ، توجه إليهم تهمتا التخريب والتعاون مع الألمان .

أما المستر « بك » والمستر جودين فهما اسمان مستعاران . وأولهما مؤرخ سوفيتي . وثانيهما عالم من علماء الألمان . وقد قاسيا كثيراً من العذاب في حركة التطهير التي تمت بين عامي ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ .

أما الزعيم البولندي فلم يزد على أن يقص قصته هو . وقد فصلها تفصيلاً . وألبسها لونا من ألوان الحياة النابضة . وأما الآخران فقد جمعا بقدر المستطاع كل ما عرفاه بالمشاهدة بين الأصدقاء والأعداء في مختلف السجون .

ويقول الزعيم البولندي إن طريقة إعطاء مخدر للحصول على اعترافات هي طريقة غير مستعملة . وكذلك طريقة الضرب ليست من الطرق المقررة رسميا . وإن كان يلجأ إليها أحيانا ، وكذلك يلجأ أحيانا إلى طريقة التعذيب بإضعاف مقاومة المعتقلين . وذلك بإنقاص طعامهم ووسائل دفئهم . وكذلك بتسهيدهم ، وتحريم النوم على جفونهم .

ومن وسائل التعذيب التي لم يستطع مقاومتها أكثر الرجال جرأة وأشدهم جلداً واحتمالا هي طريقة الاستجواب بلا انقطاع زمنا قد يطول أسابيع وشهوراً بل أعواما . والاستجواب لا ينقطع ليلاً أو نهاراً ، يظل المعتقل أثناءه واقفا ساعات طوالا .

والزعيم البولندي يقرر أنه استجوب واحداً وأربعين

ومائة مرة ، وقد ظل مرة واقفا أربع عشرة ساعة .

وقد بلغ من قسوة هذه الطريقة أن واحداً من المحققين أنفسهم قد نال منه الإعياء فبكى .

وهناك أكثر من سبب معقول فى أن يعترف المعتقل الروسى . ذلك لأنه يعرف أن معاملته أثناء الاستجواب ستكون أسوأ معاملة . بل إن معاملته بعد الحكم عليه سوف تكون أقل سوءاً ، وهو كذلك يعرف أن اعترافه لن يقدم أو يؤخر فى تشديد الحكم أو تخفيفه .

وهو كذلك يعرف أنه بإتباعه ما يوحى به المحققون من اعترافات ، له الأثر كل الأثر فى عدم إلحاق الأذى بأهله وعشيرته .

أما الصعوبة التى تقف حجر عثرة فى طريقه فهى معرفة ما يريد المحققون أن يعترف لهم به . وفى أن يلفق حكاية يرضى عنها المحققون دون أن يكثر من اتهام الأبرياء من الأحياء .

وفى أثناء حركة التطهير كان المعتقلون يتعاونون فى تأليف الأساطير .

وكانت غرف المعتقلين ملأى بقوائم تتضمن أسماء أناس ليس من الخطر اتهامهم ، وذلك إما لأنهم قد فارقوا هذه الدنيا ، وإما لأنهم ممن سبق اعتقالهم .

أما كراهة المحققين لقول الحق فكراهة لا حد لها .

والكتاب على الرغم من هذا كله لا يخلو من قصص فكاهية ، كقصة ذلك الشيوعى الأجنبى الذى جمع مؤتمراً صحافياً ينفى فيه أمام الصحافة الرأسمالية ... أنبأ القبض عليه .

ولم يلبث هذا الشيوعى الأجنبى أن ألقى القبض عليه فى اليوم التالى ...

٣ - الحرب الصليبية الأولى

كتاب من تأليف س . د . ج برانت

كل كتاب جديد يبحث فى تاريخ الحروب الصليبية لابد له من أن يدعو القارىء إلى المقارنة بينه وبين كتاب « تاريخ الحروب الصليبية » للكاتب الفرنسى Grousset .

والأستاذ « برانت » نفسه يبدى شكه فى فائدة كتابه بالإضافة إلى ذلك المؤلف الضخم الذى كتب فى هذا الموضوع ، كما يبدى شكه — بصفة خاصة — فى فائدة الإعادة لقصة سبق أن قصها قصاص بارع هو زميله الفرنسى .

ولكنه يقول إن شفيعه فى تأليف هذا الكتاب أن العلماء المولنديين لم يشاركوا إلى يومنا هذا فى الكتابة فى هذا الموضوع من التاريخ . وأنه يرجو ويأمل أن الدراسة المستقلة المجددة للمصادر القديمة والحديثة — وهى التى اعتمد عليها عند تأليف كتابه — تكون يوماً ما ذات نفع لدى الإخصائيين ولدى القراء العاديين على السواء .

وهو يقول أيضاً : إن استغراقه فى هذه الحقبة البعيدة من التاريخ قد أراح عقله من التفكير فى الاحتلال الألمانى لبلاده .

ولا شك أن تجارب المؤلف الشخصية فى شئون الحرب والأثر الذى أحدثته شدائد الحروب وويلاتها قد أضفت على هذا الكتاب الرزين ثوباً من الحياة .

وإن مؤرخاً من المؤرخين يشير — فى تزمت التزمتين — إلى كل مصدر من مصادر كل حقيقة من الحقائق التى يوردها ، ويدلى بكل دليل يؤيد كل فرض من فروضه . إن مؤرخاً كهذا لا مفر له من أن يبدو جافاً غير مستساغ على الرغم من علمه وأستاذيته .

ولكن كتاب « البروفسور برانت » هو أبعد ما يكون عن الجفاف . وكذلك فإن كتابه هذا ليس نسخة معادة مكررة من كتاب « Grousset » ، وإن كان لا يختلف عنه من وجهة الوقائع التى ذكرت فى كتابه .

وإن القارىء لكتاب « برانت » ليجد أفكار زميله المؤرخ الفرنسى منبثة فى ثنايا الكتاب ، وهو مقر بصحتها .

وكتاب « برانت » وإن كثرت فيه الملامح التى تشبه ملامح كتاب « Grousset » هو أشبه بصورتين لشخص واحد صورهما مصوران مختلفان .

وكتاب « برانت » بعد أن بحث فيه مؤلفه مسألة غزو الإسلام لأوربا الغربية ، وبعد أن درس فيه الموقف فى حوض البحر المتوسط فى القرن الحادى عشر قد قصر البحث فيه على الحرب الصليبية الأولى وجعل خاتمته فتح بيت المقدس .

والمأمول أن يستأنف « برانت » أبحاثه فيحدثنا عن الحروب الصليبية الأخرى . وعن المستعمرات التى أقامها الفرنجة فى الشرق الأوسط ...

(عن الإنجليزية) مبارك ابراهيم

قصة الماس بجنوب أفريقيا

للأستاذ عبد البارى نعمت

يرجع اكتشاف الماس بجنوب أفريقيا إلى عام ١٨٦٧ ، وكان الناس قبل ذلك يجهلون انطواء أرضها عليه . وكانت الهند منذ القدم هي المصدر الوحيد الذي يمد العالم بهذا الحجر الثمين ، حتى اكتشف وجوده بالبرازيل وبالمنطقة المحيطة بمدينة كمبرلي بجنوب أفريقيا حيث توجد أغنى عروقه .

وتقع مدينة كمبرلي فوق هضبة أفريقيا الجنوبية في وسط سهل رملي قفر لا يشعر بالثراء ، وهي تبعد عن مدينة الكاب نحو الشمال بمقدار سبعمائة ميل — ويدهش الزائر الغريب لهذه المدينة ويتساءل : كيف أنها تنار بالكهرباء ، وتعج بالحوانيت والفنادق الكبيرة وتصدر لها الصحف اليومية الكبيرة ؟ ويثير عجبه توفر جميع مظاهر المدنية بها ، كما يتملكه الدهش أيضاً عندما يقع بصره على أهلها وهم يبدون بأبهج الحلل وتكتظ بهم الطرقات ودور الأعمال في كل مكان ؟ ولكن سرعان ما يبطل عجبه ويزول عنه الدهش عندما يعلم أن كمبرلي من بين أغنى مدن العالم إن لم تكن أغناها ؛ فالأرض من حولها تنتج من الثروة ما يزيد على ما ينتجه غيرها منها ، والماس هو مصدر هذه الثروة التي يحتويها الثرى ، والماس من أثمن الأحجار وأكبرها حجماً ، وتمثل الكمية المنتجة منه ٩٠ ٪ من جملة ما ينتجه العالم ، وقد بلغ مقدار ما أمكن الحصول عليه منه في مدى أربعين سنة ما يربو على خمسة عشر طناً ، والطن من الماس حمل حصانين ؛ وإذا استطعت تصور ثلاثين حصاناً يحمل كل منها حملا ثقيلا ويسير الواحد منها خلف الآخر لاستطعت تصور الكمية الهائلة من الماس الثمين الذي تمد به العالم هذه المنطقة الغنية من جنوب أفريقيا . والقطعة الصغيرة من الماس تساوي عديداً من الجنيهات ، وقياساً على ذلك يساوي إنتاج هذه المدينة الكبيرة ملايين الجنيهات ، وهي تنتج سنوياً ما تعادل قيمته خمسة ملايين من الجنيهات على وجه التقريب ويعمل في مناجمها آلاف الرجال .

وقد كانت الهند منذ القدم مصدراً مهماً لمد العالم بالماس ، وما لبثت البرازيل أن شاركتها في هذا الميدان عندما اكتشف بها الماس قريباً من مدينة باهيا ، وسرعان ما رحل إليها آلاف الرجال للبحث عنه وذلك بمجرد السماع باكتشاف وجوده هناك . ولم يكن أحد يظن في وجود الماس بجنوب أفريقيا حتى عام ١٨٦٧ حينما عثر عليه هناك شخص يدعى « جون أوريلي » . والمتواتر أن « أوريلي » هذا كان يصطاد قريباً من شاطئ نهر فال ولما أصابه الإعياء واستولى عليه التعب وجن عليه الليل لجأ إلى مزرعة قريبة لشخص يدعى « شوك فان نايكرك » وهو بوير من أهل هولندا آثر العيش بهذه البقعة الموحشة . وبينما كان الصياد يجاذب مضيفه أطراف الحديث وقع نظره مصادفة على بعض أحجار براقة ملقاة فوق منضدة صغيرة ، ولما تناولها بين يديه وأخذ يقلبها فاحصاً قيل له إنها جلبت من شاطئ نهر فال ، وما رأى مضيفه إعجابه بها حتى أعطاه إياها فقبلها منه شاكراً . ولما أعاد فحصها وجد من بينها حجراً كبيراً فيه خاصية قطع الزجاج فعرضه على أحد تجار الجوهرات فأخبره التاجر أنه قطعة من ماس وأنه يساوي من القيمة ٢٥٠٠ دولار . وما ذاع هذا الخبر حتى هرع الأوربيون والوطنيون على السواء إلى هذه المنطقة للبحث عن الثراء ، ومر عامان ولم يعثر على حجر كبير آخر . وأخيراً عثر عليه أحد رجال الهوتنتوت وباعه « لشوك فان نايكرك » مقابل قطيعين صغيرين من الماشية والأغنام لم يتجاوز ثمنهما جميعاً ألف دولار ، وباع « فان نايكرك » هذا الحجر إلى أحد تجار الماس بمبلغ خمسين ألف ريال وأرسله هذا بدوره إلى انجلترا حيث ابتاعته الكونتيسة « دودلي » بعد صقله بما يزيد على ضعف

ثمنه ، وظهر أنه من الماس الأبيض النقى وأنه يزن ثلاث أوقيات ونصف أوقية .

وما ذاعت أنباء هذا الكشف العظيم حتى عسكر كثير من الرجال قريباً من شواطئ نهرى فال وأورانج وتحروا عن سواعد الجد وأخذوا يقلبون الثرى رجاء العثور على الماس الثمين ، ولم يوفقوا إلى العثور على شيء البتة بجوار نهر أورانج ، وما وجدوا سوى القليل منه قريباً من نهر فال ؛ وما إن وسعوا دائرة بحثهم حتى اهتدوا إلى مواطن الماس الغنية غير بعيد عن مدينة كمبرلى حيث توجد منه كميات كبيرة تختلط بالثرى وتتعمق فى باطن الأرض إلى أغوار لا يعلم أحد مداها ، وتعلو البقعة التى تحويه طبقة من الرمل الأحمر بسمك بضع أقدام فوق طبقة أسمك منها من رواسب الحجر الجيرى فوق طبقة من الطمى الصلب الذى يتخلله الماس — ولهذا الطمى لون أزرق ، ولذا تسمى الأرض التى تحوى الماس بالأرض الزرقاء ، وهى تحوى خليطاً من مختلف الأحجار تختلط بها الماس والكل صلب متماسك كأنه الصلصال الصلد ، وتمتد الأرض الزرقاء متعمقة على هيئة أنابيب أو أنفاق ، وعندما تستخرج من باطن الأرض تجفف فى الشمس ثم تبلل بالماء بين الفينة والفينة لتتشقق إلى قطع صغيرة يمكن إذابتها وفصل قطع الماس عنها .

وكانت المناجم فى بادئ الأمر تحفر بكل مكان فى حدود منطقة الماس لمعرفة خير مواطنه ، وتبين أخيراً من جميع هذه الحفريات أن الماس أربعة حقول بالغة الأهمية تقع جميعها حول مدينة « كمبرلى » فى دائرة لا يعدو اتساعها ثلاثة أميال ونصف الميل ؛ وقد أطلقت على هذه المناجم أسماء : كمبرلى — دى بيرز — ديتوتسبان — بولتونتاين ، وبدئ فى استغلالها استغلالا سطحياً فكانت الطبقة الزرقاء تحمل إلى السطح فى سلال تجذبها الأسلاك ، ثم تقدم الاستغلال إلى التعمق بداخل المنجم وشق أنفاق جانبية به وحمل الطبقة الزرقاء المستخرجة منه إلى السطح بواسطة آلات بخارية .

ويستخرج الماس اليوم على نطاق واسع ، وقد ابتاعت شركة دى بيرز أغنى حقوله ؛ وبدأت هذه الشركة عملها برأس مال لا يتجاوز عشرين مليونا من الدولارات ؛ وهى اليوم تهيمن على إنتاج الماس بجنوب افريقيا . وإذا تيسرت لك زيارة أحد مناجم الماس فانك تستقل المصعد فيهبط بك إلى أسفل المنجم حيث تشاهد الوطنيين أنصاف العراة يكسرون الصخر ويحملونه العربات التى تنقله إلى سطح المنجم وقد تصل فى هبوطك بداخل المنجم إلى عمق يصل أحياناً إلى أكثر من ألف قدم تحت سطح الأرض ، وقد تسير بداخل نفق من الأنفاق حيث تتيسر لك رؤية العمال وهم مكبين على العمل بجد وصبر ، وجلهم من الوطنيين ذوى البشرة السوداء ، وهم يحفرون الأرض باحثين عن الصخر الأزرق ، ويرفع بعضهم قطع الصخر الكبيرة ويضعونها فوق العربات ويعمل البعض فى دفع العربات لتوصيلها إلى سطح المنجم بواسطة الرافعات ، ويبلغ من شدة الحرارة بداخل المنجم أن ترى العرق يتصبب من هذه الأجسام السوداء .

ويضاء المنجم بالكهرباء ، وتستطيع أن تشاهد جميع ما يحويه واضحاً كأنك فى وضح النهار ، ولو أمسكت قطعة من الصخر الأزرق الذى يحوى الماس لوجدتها كالصابون ملساء ، ولو نظرت إليها متمعناً لما وجدت بها ماساً .

وعندما يصل الصخر الماسى إلى سطح المنجم يذهب به إلى حقول التجفيف ، ولو تيسرت لك مرافقته لشاهدت الرجال ينثرونه فوق الأرض فتبدو الأرض من تحته على هيئة حقل ذى طينة زرقاء قد فرغ من حرثه فى التو واللحظ ، ويلاحظ أن الكتل الزرقاء الضخمة فى صلابة الحجر الجيرى وهى تحتاج إلى شهور كى تتفتت ، ولذلك يرش فوقها الماء بين الفينة والفينة وتحرث قليلا وتتشقق ، وبعد ذلك تتفتت ، ثم توضع بداخل أسطوانات سريعة الدوران ، ويضاف إليها الماء بين وقت وآخر فيذوب الطمى الأزرق ويطفو ، وترسب الأحجار ومن بينها الماس فوق مناضد حديدية طليت بمادة دهنية فتلتصق بالمناضد ، ويعمد القائمون على هذا العمل بين وقت وآخر إلى كشط المادة الدهنية لاستخلاص أحجار الماس منها بعد صهرها . وعندما تتطلع إلى هذه الأحجار الماسية لا تجد لها ذلك البريق الذى تبدو به عندما تقطع وتصقل ، ومثل الماسة الخام مثل الحجر الأبيض القليل اللمعان ، وتنقل الماسات الخام إلى مصنع الشركة ، حيث تنظف

بالأحماض وتدرج بعناية تبعاً للون والحجم ودرجة النقاء ، ثم تجزأ إلى طرود وتثمن ويبتاعها التجار المحليون وهم وكلاء من كبار تجار الماس في العالم ، ويقوم هؤلاء التجار بشحنها على ظهور السفن إلى أوربا وأمريكا حيث تقطع وتصقل ويصاغ منها الجواهر والحلى ؛ وبهذه المناسبة نذكر أن أمهر صانعي الماس يوجدون بمدينة أمستردام بهولندا .

ويتباين الماس المستخرج من جنوب أفريقيا من حيث اللون ، وأثمنه ما كان أبيض نقياً ، ومن الماسات ذات اللون الأخضر ، ومنها الزرقاء والصفراء والبرتقالية والقرنفلية ، ويتوقف تحديد قيمة الماسة عموماً على الحجم واللون ودرجة النقاء .

وقد عثر في سنة ١٨٨٨ على ماسة كبيرة صفراء بمنجم دى بيرز بلغ وزنها ٤٢٨ قيراطاً قبل الصقل و ٢٢٨ قيراطاً بعده . ولكن بذتها ماسة أخرى أكبرمنها بلغ وزنها ٩٧٠ قيراطاً عثر عليها بولاية الأورانج الحرة بعد ذلك بست سنوات ، وقد بذتها كذلك ماسة أخرى أكبر من الجميع عثر عليها بالترنسفال في سنة ١٩٠٥ وزاد وزنها عن ٣٠٠٠ قيراط .

وقد تخال أن الماس بالمنجم نهب مباح لكل من تحدثه نفسه بذلك ، وتلك هي الحقيقة بعينها لو لم تتخذ احتياطات مشددة ، من بينها أن يبقى عمال المنجم به مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر متتالية وأن يقيموا ويبيتوا في أماكن متصلة به تحيط بها أسوار عالية مسقوفة مشبكة من الأسلاك الضيقة الثقوب تحول دون إلقاء الماسات المسروقة إلى الأصدقاء بالخارج ؛ كما أن هؤلاء العمال يراقبون أثناء العمل مراقبة عديدة تمنعهم من ابتلاع الماسات أو إخفائها في أجسامهم وهم يفتشون دائماً للتيقن من أنهم لم يخفوا شيئاً تحت آباطهم أو بين أصابع أقدامهم أو في شقوق أو جروح يحدثون إلى إحداثها بأجسامهم لهذا الغرض ؛ ويعطى العامل رداء جديداً كلما دخل المنجم ويفتش جيداً كلما غادره ؛ وإلى جانب ذلك فالقانون يتضمن عقاباً صارماً لكل من يبتاع ماساً من أحد من أهل البلاد أو من غيرهم ممن لا يستطيعون إثبات ملكيتهم له أو مصدر حصولهم عليه .

عبد البارى نعمت

كتب وردت إلى المجلة

١ — شخصية الفرد العراقى : تأليف الدكتور على حسين الوردى

وهو بحث في شخصية الشعب العراقى على ضوء علم الاجتماع الحديث ؛ وقوام الكتاب محاضرة انقسم البحث فيها قسمين ، فهو أولاً يلقى ضوءاً على عناصر الشخصية بصفة عامة ، ثم يعقب على ذلك بتطبيق على الشعب العراقى ، لينتهى إلى أن شخصية العراقى فيها ازدواج يشمل الطموح إلى المثل العليا من الوجهة النظرية والانحراف عنها في الحياة العملية .

والكتاب يقع في ٦٨ صفحة من القطع المتوسط .

٢ — الأشباح الظامئة : للأستاذ الشاعر محمد النقدى

وهو ديوان شعر يقع في ٩٤ صفحة من القطع المتوسط ومن أبرز قصائده قصيدة «الممسوخ» التي يفتتح بها الديوان ، وقد بناها الشاعر على أسطورة شعبية .

٣ — التيجانى شاعر الجمال : بقلم الأستاذ عبد المجيد عابدين مدرس بكلية غردون بالخرطوم

وهو بحث أدبى نقدى جيد في شعر « التيجانى يوسف بشير » الشاعر السودانى المتوفى سنة ١٩٣٧ ، بعد عمر قصير لم يطل أكثر من خمسة وعشرين عاماً .

والحق أن التيجانى — كما أبرزه الأستاذ المؤلف — شاعر مجدد مجيد ، وجدير بالمشتغلين بالشعر العربى الحديث أن يطالعوا هذه الصفحة عن زميل لهم نبغ في السودان ، ولم تمهله الأيام حتى يثمر كل ما كان يرجى لشجرته الطيبة من ثمر .

ويقع الكتاب في ٥٥ صفحة من القطع المتوسط .

٤ — المدخل إلى دراسة النحو العربى على ضوء اللغات السامية : بقلم الأستاذ عبد المجيد عابدين ، المدرس بكلية غوردون بالخرطوم

وهو محاولة في تجديد النحو ، يرجو بها المؤلف أن يجيء تمهيداً لكتاب آخر هو الآن بسبيل إعداده .

ويقع الكتاب في ١٤٢ صفحة من القطع المتوسط .

ندوة القلم

مستقبل الأدب فى مصر

أصغيت منذ بضعة أيام إلى حديث لأحد الفضلاء تحت هذا العنوان بإحدى محطات الإذاعة . ولا أكتمك أن العنوان استرعى انتباهى ، لاعتقادى بأن ذلك موضوع قديم انتهى الناس منه منذ أمد بعيد ، فجمعت حواسى وأخذت أستمع إلى الأديب الفاضل وهو يقسم الأدب إلى شعر ونثر ويقول إن الشعر كان فى القرن الماضى ضعيف الديباجة ركيك الأسلوب مهلهل الألفاظ ، فيه كثير من التصنع غير الطبيعى . ثم استطرد إلى ذكر شوقى وأقرانه ، وما قدموا به من جليل الخدمات فى رفع أسلوب الشعر العربى والتسامى بألفاظه إلى فصيح العربية وجزل العبارة ، وانتهى الأديب الفاضل إلى المقارنة بين أسلوب النثر فى القرن الماضى وبين أسلوبه بعد المويلحى والمنفلوطى ، وبعد أن شرع الناس يدرسون أسلوب كليلة ودمنة والعقد الفريد .

عجبت لهذا المقال الذى يرى فيه مؤلفه أن الأدب العربى بجميع موضوعاته من منظوم ومنثور إنما هو أسلوب فقط ، وديباجة وجزالة عبارة ، وأن مستقبله ينحصر فى بلوغ المزيد من هذه الديباجة والجزالة . ولا أدرى كيف غاب عن المحاضر الفاضل تمشيًا الأدب العام والخاص وانطواء الأول منهما على كل ما صدر فى اللغة من فكر مسطر أو غير مسطر ، وكيف أن معنى الثانى هو كل ما عبرت به الأفكار عن الشعور والأحاسيس الإنسانية أيا ما كان الثوب الذى ترتديه تلك المشاعر ؟ فالشعر إذاً — وهذا من المسائل البديهية التى لم يعد أحد يناقش فيها فيما أعتقد — تعبير عن المشاعر البشرية ، وليس الشعر ديباجة ، ولا جزالة عبارة ولا رصانة أسلوب ، بل هو كل ما عبر عن معنى فى النفس ، فلو تكلمنا عن شوقى بوصف كونه شاعراً ، وجب أن يتضح أمام أذهاننا أننا نتحدث عنه من ناحية تعبيره عن عواطفه ومشاعره . فإن هو تمكن من ذلك وأجاد فهو الشاعر الحق ، وإن هو لم يستطع أن يعبر عما فى نفسه فليس بشاعر ، وإن جود عبارته ورقق ديباجته كما يقولون .

لذلك فإنى لم أستطع أن أوافق المحاضر فى رأيه بأن الشعر العربى قد انحط بعد شوقى وزميليه حافظ ومطران ورائدهم البارودى ؛ إذ الرأى عندى أن الشعر — وإن تراجعت قيمته اليوم فى العالم أجمع — إلا أنه فى العربية قد أخذ يتجه إلى الاتجاه الصحيح الواجب للشعر ، الذى يذهب إليه النقاد فى العصور الحديثة ، وهى تعبيره عن النفس كما أسلفنا . ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر ما عليه كتاب الملاح التائه من روعة تهز النفوس ، لأنه تعبير صادق عن مشاعر شاعر ، وليس مدحاً لأمير أو طلباً لقوت أو تكلفاً يقتل كل موهبة فى أنبغ شاعر . ولعل قارئ هذه الكلمة معى الآن فى أن مستقبل الشعر ينحصر فى التعبير عن صادق العاطفة النفسية ؛ فكأن الشاعر موسيقار يمسك بقيثارته ينطق أوتارها بما يختلج فى نفسه من ألوان : منها الفرح والطرب والحزن والثبر والحمس .

ذلك مستقبل الشعر ، ولعله هو ما كان يجب أن يكون عليه ماضيه فى العربية ، لولا سمة المجتمع العربى واستئثار أمرائه بالجاه والمال ، واضطرار الشاعر إلى التملق والمديح استدراراً للقوت .

ولقد غلبت الدوافع العملية على عقلية الناس فى جميع أقطار الأرض . فكان أول ما بدأوا به فى الأدب أن أنزلوا الشعر عن عرشه الذى ظل متربعاً عليه عصوراً مديدة . ثم منحوا النثر تلك المنزلة المبرزة التى كانت للشعر ، منحوه إياها لا بوصفه ديباجة مشرقة وأسلوباً ناصعاً ، بل حصروا قيمة النثر كلها فيما يعبر عنه من موضوع ، واقتضت ظروف الحياة الجديدة أن يتوائم ذلك الموضوع مع أحداث الدنيا وأحوال الناس . فزالت من الوجود تلك الأغراض القديمة

وتلك الموضوعات البالية من إخوانيات ورسائل سلطانية ، وأخذ النثر في العربية — بل في العالم أجمع — يتجه إلى الحياة يتخذها محوراً للأدب النثرى الحديث ، وجعل الصحافة والمجلات مرآته ومعرضه ، فهو فيها مقالات تبلغ من دقة التعبير وكمال الوصف حداً يتزايد في كل يوم ، ولكن الثروة الحقيقية التي أخذ يتجه إليها النثر العربي تنحصر في موضوعين أخذناهما عن أوربا : فأما الأول فكتابة المذكرات والتراجم الحقة المعبرة عن النفس والعصر والواصفة لما مر بكاتبها من أحداث ، والترجمة بصدق عما انقلب في نفسه ، والصورة بشجاعة وجرأة دون خجل أو مداراة . ولست أنكر أن العربية تراثا ينطوي على كثير من التراجم ، ولكنها جلها إن لم تكن كلها ليست صوراً حقة للشخص أو العصر المترجم له ، بل هي صورة بلاغية يتأنق فيها كاتبها في الأسلوب ولا يزال يوليه عنايته حتى يغمط الموضوع حقه من صدق الوصف وإبراز الشخصية . أما العنصر الثاني من عنصري الأدب اللذين سينحصر فيهما مستقبله في العربية فهو الرواية بوصفها تصويرا مكتوبا لأحوال الناس ومعايشهم ، ونقدا لتصرفاتهم وأساليبهم في الحياة ، وتحليلا لما يهجس في نفوسهم من هواجس ويختلج فيها من عواطف أو يترقرق فيها من أحاسيس .

ومن يمن الطالع أن أدباء هذا العصر قد أخذوا أنفسهم آنفاً بهذين الضربين من الأدب ، فظهرت المذكرات والتراجم الصادقة التصوير . وما حديث كتاب الأيام لطه حسين وحياتي لأحمد أمين بغائب عن الأذهان . ولو نظرت إلى المكتبة العربية لوجدتها الآن عامرة بمئات من قصص عظيمة دبج فيها أدباؤنا الناهضون أمثال المرحوم إبراهيم رمزي بك في باب القمر والدكتور طه حسين باشا في دعاء الكروان وغيرها ، ومحمود تيمور بك في مؤلفاته العديدة الجليلة ، غرزاً عظيماً للأدب العربي والنثر العربي والفكر العربي .

هذا هو فيما أعتقد ما ينحصر فيه مستقبل الأدب العربي شعره ونثره .

عبد العزيز توفيق جاويد

على هامش الامتحانات

جلست الأستاذة تشرب فنجان القهوة في حجرة الأساتذة العامة ، وقد بدا عليها شيء من الإعياء والضيق . ثم انطلقت تقول : ستقر عيني حينما تنتهي « دوخة » الامتحانات . إنها أشق علي من المحاضرات .

قلت ، وكنت جالسا بالقرب منها : ألما تفرغوا بعد من تقدير الدرجات ؟ قالت : ليت المسألة اقتصرت على تقدير الدرجات ! إننا نكتب كذلك تقريراً عن كل طالب وطالبة ، وعلى هذا التقرير يتوقف المصير . قلت : أفهم هذا جيدا ، فأنتم ، في قسم الدراسات الاجتماعية ، تعدون مشرفين اجتماعيين ومشرفات ، وزائرين وزائرات . ولا بد من تقدير الناحية العملية لكل طالب أو طالبة عند التقدير العام .

الأستاذة : الأمر كذلك . وهنا صعوبة من أشق الصعوبات ! فلا تحسبن الآراء تتفق دائما في تقدير الناحية العملية لكل طالب ، لأن هذه أدق من تقدير الجواب التحريري ، ولكل أستاذ ذوقه ومذهبه .

قلت : إن نتائج الامتحانات — عملية كانت أو نظرية — ستظل دائما موضع الخلاف ، لا سيما إذا كان التقدير فيها ذاتيا ، وهذا شأن كل فن أو بحث ليس له قواعد علمية محددة . وكثير من الدراسات الاجتماعية لم تقنن مقاييسها بعد . ولكن كيف حال الطالبة فلانة في الامتحان ؟

الأستاذة : فلانة ! أنت تعرفها خير معرفة . وفي مكنتك أن تحكم على قدرتها .

أنا : أما قدرتها في المواد النظرية فهي عندي من الممتازات ، ولكني أسأل من الناحية الأخرى ، الناحية العملية ؟ إذ أخشى ألا تكون موفقة فيها .

الأستاذة : لخشيتك هذه نصيب كبير من الصحة . فهي — كما عرفت مما كتب عنها من تقارير — غير صالحة لمهنة الخدمات الاجتماعية . ولذلك يتجه الرأي إلى أن تمنح الشهادة وينص فيها على ذلك .

أنا : لست أفهم ما تقولين ! طالبة أمضت في قسمكم ثلاث سنوات ، تدرس وتتمرن ، وقد نجحت في كل سنة من السنتين الماضيتين ، تقولون لها في هذه السنة : أنت فاشلة في الناحية العملية .

الأستاذة : رويدك ، ودونك فكرة عن هذه الطالبة . لقد قلنا لها فى نهاية السنة الأولى إننا غير مطمئنين إلى مستواها العملى ، ولكنا لم نشأ أن نحرمها الاستمرار فى الدارسة لمجرد هذا الشك ، لا سيا وكانت قد أمضت عندنا سنة واحدة . وفى آخر السنة الثانية وجدناها لم تتحسن فى الناحية العملية ، فأنذرناها إن هى أرادت الاستمرار فى الدراسة إلى النهاية تحملت عاقبة هذا الضعف ، واقترحنا عليها أن تنتقل إلى دراسة أخرى نظرية محضة ، فآثرت البقاء فى دراستها على عهدتها .

قلت : إن الفتاة ذكية ومجدة ، ولهذا ولا شك أثره فى إتقان العمل ، والقيام به على أساس من المعرفة الصحيحة

قالت السيدة : إن جوهر الخدمات الاجتماعية — كما تعلم — هو التفاهم والعطف على من تحاول توجيهه وإصلاحه وتناول كل حالة بما يناسبها من حدب ولباقة . والخدمات الاجتماعية تتناول مشاكل بشرية ، فهى تحتاج إلى فهم للنفسيات المختلفة وظروفها ، وإلى الترفق فى معالجة هذه الحالات وقيادتها . وعلاج هذه المشاكل والعلل فن وعلم معا ، ولا تكفى معرفة العلم . وليس كل عالم اجتماعى فنانا اجتماعيا مصلحا ، وكم مصلحين اجتماعيين ومرشدين لم تخرجهم مدرسة .

قلت : ومصير هذه الفتاة بعد السنوات الثلاث فى الدرس والعمل والتحصيل ؟

الأستاذة : ستمنح الشهادة ، وينص فيها على أنها فشلت فى الناحية العملية من الدراسة .

أنا : وما قيمة هذه الشهادة بهذه الصورة ؟

الأستاذة : تحصل بها على عمل فى أى مصلحة من مصالح الخدمة الاجتماعية ، أو فى جمعية من الجمعيات أو مؤسسة من المؤسسات الاجتماعية أو الشركات .

قلت : وكيف تفيد بهذه الشهادة ، وفيها نص الفشل ، إنها سوف لا تؤهلها لعمل .

الأستاذة : يظهر أنك لا تعرف نظام التوظف عندنا ، إن مثل هذه الفتاة تمنح من الوظيفة ما يعادل وظيفة زميلتها الناجحة فى التمرين العملى ، إلا أن الأولى لا تعمل بعد التوظف فى الخدمات الاجتماعية المباشرة ، ولكن تقوم بوظيفة إدارية ، فى ميدان الخدمة الاجتماعية ، تتصل بدراساتها التى نجحت فيها . وسوف تنتج فى عملها هذا إنتاجاً موفقا كما كانت موفقة فيه أثناء الدراسة .

أنا : ومرتبها ؟

السيدة : سيكون مرتبها كزميلتها الناجحة ، وإن كانت فرص الناجحة فى الترقى أكثر من صاحبتنا .

أنا : هذا غير عدل . كيف يستوى مرتب هذه ومرتب تلك ؟ .

الأستاذة : المرتب فى هذه البلاد لا يطرد مع المؤهلات ، وإنما يتوقف على العمل والإنتاج . ألا تعرف أن كناس الشارع مرتبه عندنا أكبر من مرتب بعض المدرسين فى المدارس الابتدائية والثانوية ؟ إن الأساس فى المرتب أن يكفل للعامل وأسرته عيشة مريحة . ولهذا لا يصح أن يقل عن قدر معين تحدده نفقات المعيشة . ولو قارنت مرتب الكاتبة على الآلة بمرتب الممرضة أو الزائرة الاجتماعية ، أو العامل فى مصنع النسيج ، أو سائق السيارة لوجدت الفرق بينهما قليلا بالرغم من اختلاف الثقافة ومدة الإعداد والدراسة . إن كلا من هؤلاء يؤدى عملاً نافعاً يستحق من أجله أجراً يعيش به هو ومن يعول .

قلت : وإذاً فلا خوف على صاحبتنا هذه أن توصد أمامها أبواب العمل .

الأستاذة : كلا . إن ميدان العمل متسع . والشهادة التى ستمنحها الطالبة تبين نواحى قوتها ونواحى ضعفها . وستجد عند التوظف من العمل ما يناسب نواحى القوة عندها . إن الخطر فى أن يوكل إليها من العمل ما فشلت فيه أثناء الدراسة .

قلت : وهل لهذه الغاية تكون الامتحانات ؟

قالت : نعم هذه إحدى غاياتها ؛ إنها تبين ما عند الممتحن من النواحى الصالحة فتستغل أو تنمى ، كما تبين درجة تقدمه أثناء مرحلة الإعداد المهنى ، فيوكل إليه فى المجتمع ما يناسبه من عمل .

وهنا كانت فترة الاستراحة قد انتهت . وسمحت الأستاذة بالانصراف فانصرفت ، وفى ذهنى تتردد العبارة : « نظام معقول »

(جامعة مانشستر) عبد العزيز عبد المجيد

فيلم ظهور الإســـــلام

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

ما أظن أن أجنى على الفيلم المصرى إذا قلت إنه لم يصل بعد إلى المستوى الفنى الذى نرجوه له . وينطبق هذا على سائر الفنون التمثيلية عندنا كالراديو والمسرح . وما أظن أن أجنى على أدبائنا إذا قلت إنهم مسئولون إلى حد كبير عن هذا التصور ، لأنهم ما برحوا متباعدين عن الأدب التمثيلى والفنون التمثيلية على وجه العموم . وربما كان مما يزيد مسئوليتهم علمهم علم اليقين أن الأدب الممتاز يتجلى أكثر ما يتجلى فى هذه الفنون كما هو الحال فى أوربا ، وأن أهم عناصر الإنتاج الفنى هو « الموضــوع » الذى هو من اختصاصهم دون غيرهم ، وأن الأدب العربى لن يساير الآداب الغربية الممتازة إلا إذا شارك فيما تشارك فيه من نشاط فنى ، وإلا إذا نهض أدباؤه بمثل ما ينهض به أدباء الغرب من تبعات فنية .

من أجل ذلك كله فرحت فرحاً شــديداً بفيلم (ظهور الإســلام) لا لشىء ، إلا لأن الأديب الكبير طه حسين هو الذى ألف موضوعه ووضع السيناريو الخاص به ، وأشرف على إعداده للسينما .

على أن الوقوف عنــد حد الابتهاج بهذه المحاولة الجدية أمر لا غناء فيه . فلا أقل إذاً من أن ننظر إلى أى حد عملت على تقريب إنتاجنا السينمائى من الأوضاع الفنية وتوجيهه لتحقيق رسالة الفن التمثيلى .

إن النظرة الأولى لهذا الفيلم تظهر لنا جلاء أنه صورة تكاد تكون حرفية لبعض المشاهد التى تضمنتها قصــة (الوعد الحق) . وهذه القصة ليست سوى وصف سريع لبعض شخصيات عرفها التاريخ قبيل ظهور الإسلام ، وسرد موجز لبعض معتقدات العرب وعاداتهم وقتئذ ، وتسجيل عابر لأثر الإســلام فى هؤلاء الناس ، وفى هذه المعتقدات والعادات . أى أنها — وهذا لا يعيبها — ليست قصة تخيلية يتحقق التعبير الرمزى فى دلالاتها ومدلولاتها ، بحيث تتجسد معانيها تجسيداً حسياً ، وتحيا شخصياتها فى عالم مأهول ، ويحتدم الصراع بينها تبعاً لما يحركها ويكيفها ، ويرين عليها من (فعل ورد فعل) ... الخ .

وغنى عن البيان أن الفن السينمائى ليس مجرد تصوير لمحتويات كتابٍ ما أو جزئيات قصةٍ ما ، كما أنه ليس من المحتم على واضع السيناريو أن يعتمد بالضرورة على قصة تمثيلية بالذات ، إذ أن له — كما لكل فنان — أن ينقل إلينا التجربة التى أحسها ، أو الاختبار الذى تمرس به حسبما يشاء دون أن يعنينا فى كثير أو قليل نوع المصدر الذى اتخذ منه مادته الأولى .. وإنما عليه إزاء هذه الحرية فى الاختيار مسئولية إخضاع ما اختاره لأصول الوضع الفنى الجديد الذى يعمل فيه .

ولا شك فى أن مؤلفنا الكبير قد وفق فى تحقيق كثير من الخصائص التى ينبغى أن تتحقق فى كل عمل دراماتيكى على وجــه الإجمال وفى السيناريو على وجــه التحديد . ولا أدل على ذلك من نجاحه الكامل فى اختيار أهم الحوادث وعرضها فى زمن سينمائى محكم ، غير أن الحرص على الاحتفاظ بها كما هى بأسرها وبكل تفاصيلها لم يهيئ للبناء الفنى Construction بعض العناصر التى لا غنى عنها وأبرزها « الصراع Conflict » . ولست أزعم أن الفيلم قد خلا خلواً تاماً من هذا العنصر الجوهرى ، فما أذكر أن لحظة واحدة تمر على مشاهديه دون أن يروا إنساناً يبارز إنساناً أو جحفلاً يلاقى جحفلاً . ولكن هل يحسون خلال ذلك بإحساس درامى ؟! .

إن مثل هــذا الإحساس يتولد من الإحساس بقوة

الصراع الدرامي الذي لا يكون إلا بين الإنسان وبين قوة جبرية ، وكل أنواع التمثيليات الممتازة في شتى العصور تتفق في هذا ، وإنما تختلف صور الصراع فيها باختلاف مفاهيم الناس للكون الذي يعيشون فيه . هكذا امتازت تمثيليات الإغريق مثلا لأنها كانت تصويراً لصراع رهيب بينهم وبين القضاء ، حتى ليسميها النقاد (دراما الإنسان والقضاء) وهكذا امتازت دراما عصر النهضة لأنها كانت تصويراً لصراع عنيف بين الإنسان الضخم — الإنسان الذي ضخمته نظريات ذلك العصر — وبين القوى التي تتحكم في التصرف البشري ، ولذلك يسميها النقاد (دراما العظمة الإنسانية) .. وهكذا .. وهكذا ..

فما هو نوع الصراع الذي نجده في فيلم ظهور الإسلام ؟

نحن نجد هنا على التحقيق صراعاً رهيباً وعنيفاً بين رغبات ودوافع شريرة ، ورغبات ودوافع خيرة ، أو بين الحياة الدنيا والآخرة ، أو بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح . ومعلوم أننا إذا بحثنا عن شبيه لذلك في تاريخ الدراما لما وجدناه إلا في دراما العصور الوسطى التي يسميها النقاد (دراما عالمين Drama of Two Worlds) بالنسبة إلى أنها تمثل نوعاً من التعارض بين الدنيا باعتبارها مجال الشر والرذيلة ، وبين الآخرة باعتبارها مجال الخير والفضيلة ، ويعتبرونها غير ذات صراع ، لأن الصراع فيها غير درامي ، أو هو بتعبير آخر صراع ليست « القوة الجبرية » طرفاً فيه .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى النظر في (الوحـدة الفنية) وجدنا قبل كل شيء أن من أبرز ما يلاحظ في هذا الفيلم صوت « الراوي » الذي صاحب مختلف مناظره ، وتخللها من أولها إلى آخرها . وأعترف أن مثل هذا وإن يكن غير معهود في أي فيلم سينمائي بهذه الكيفية إلا أنه كان هنا ضرورياً . فقد كان من غير الممكن أن نعلم شيئاً كثيراً من تلك المناظر لو لم يصفها لنا منظراً بعد منظر ويحدثنا عن تفاصيلها ودلالتها . لكننا من جهة أخرى نعلم أن من أهم أركان نظرية « التقليد » عند أرسطو — تلك النظرية التي لا تزال صحيحة إلى يومنا هذا — أن الدراما تمثل أمام الجمهور بواسطة أشخاص ناطقين (أي الشخصيات) وهؤلاء هم وحدهم الذين تمثل الدراما في أعمالهم ، بمعنى أن حوادث القصة التمثيلية لا تمثل إلا بواسطتهم وبحيث لا يعبر عنهم وعن شعورهم وتفكيرهم سوى سلوكهم وحوارهم .

ومؤدى ذلك أن ليس (للراوي) وجود أصيل في العمل التمثيلي .

ثم إنه من المفروض في الدراما أن تتجسم معانيها في هذه الشخصيات لا سيما الرئيسية منها ، وهذه وتلك سواء بذواتها أو بامتداداتها تبدأ مع بداية التمثيل وتنتهي بنهايته ، بشرط أن تتطور خلاله تطوراً طبيعياً ومنطقياً وحتمياً في نفس الوقت ، أي تتطور من بداية نعلمها إلى نهاية نعلم أن لا مفر منها طبقاً لقانون الاحتمال أو الضرورة ... لكن شخصيات هذا الفيلم تظل جميعها من البداية إلى النهاية ذات صفات وقسمات واحدة بلا تغيير .

كذلك من أبرز ما يلاحظ في هذا الفيلم أن شخصياته الرئيسية (محتجبة) أي لا نراها ولكن نسمع عنها من غيرها . واحتجاب الشخصيات شيء معهود في الفن التمثيلي بشرط أن يكون ذلك لضرورة فنية . فالتركيز مثلاً — وهو من أروع مزايا هذا الفن — يقتضي تقليل عدد الشخصيات إلى أدنى حد ممكن . فهل كان احتجاب بعض شخصيات هذا الفيلم بسبب التركيز أو بأي سبب فني آخر ؟ أظن لا . وأظن أن المخرج الفاضل — بحكم طبيعة عمله وبحكم اشتراكه في السيناريو — مسئول عن ذلك أولا . لأننا إذا التمسنا له عذراً في مسايرة الرأي القائل بعدم جواز تصوير بعض أعلام الإسلام ، فما الذي اضطره إذاً إلى المحافظة على سياق القصة الأصلية وهو مرتكز على هؤلاء الأعلام ارتكازاً جوهرياً ؟ لقد ترتب على هذا شعورنا بأن هناك شخصيات « غائبة » كان ينبغي إيجادها ، وأدى هذا بالتالي إلى انزواء بعض المعاني وإلى انطماس بعض المعالم وإلى وجود فجوات في التسلسل والسرد . والعجيب أنه — أي المخرج — كأنما كان يعمل على توسيع هـذه الفجوات وتضخيم هذا النقص من فرط تذكيره لنا بتلك الشخصيات دون تهيئة مجالاتها الحيوية أو حتى دون الرمز إليها رمزاً فنياً . لأن علامة الرمز الفني الدال أن يغني عن المرموز إليه غناء طبيعياً ومنطقياً . أما أن يذكر (الراوي) دخول الرسول العظيم

غروب صداقة ...!؟

أنسيت عهد صداقتي وإخائي
يامن جحدت على الوداد وفائي ؟

أنسيت يوماً كنت لي فيه أخاً
وأنا أخوك ، ونحن أهل صفاء

أنسيت نفساً قد صفا لك ودها
لحنك حب الأم للأبناء

أنسيت أيام الصبا ورحيقها
أيام نلهو في دد ورخاء

أيام أنسام الزمان ندية
والدهر يبسم في بديع رداء

أنسيت عربدة الشباب وأنسه
ومجالس الأنغام والصهباء

أنسيتها ! ، فذهبت تجحد صحبتي
ياويح قلبك إذ جحدت إخائي !

لو كان من ذنب جنيت ، سكت في
حزن ، ورضت على القلى أحشائي

لكنّ ذنبي كله وجريرتي
هو أن رماني الدهر بالأرزاء !!

•••

أكذا تمزق صحبتي ووفائي
لا بل تشيع أخلص الخلصاء !!

أكذا تقابلني بوجه معرض
وأرى عليك بوادر البغضاء

لما علمت بأنني في غمرة
وبأنني في عسرة وعناء

وبأن مصباح النور قد خبا
وبأن نابي لم يعد لقناء

كم كنت طبك عند كل ملمة
وشريك عيشك عند كل بلاء !

فإذا مرضت فلا تحس وجيعة
وأنا السقام يدب في أعضائي

وإذا فرحت بذلت نفسي راضيا
وسكبت روحي مخلصا ودمائي

وإذا شكوت ملالة أو وحشة
أترعت كأسي واقتنيت لقائي

ونسيت ذلك بالجحود ، وجئتني
تلقي إلي بضحكة صفراء ...

والدهر أثقل ما يكون إذا ابتلى
بخيانة الخلصاء لا الأعداء !

فالقرب ، حسبي من زماني أنه
قد راح يكشف الأم اللؤماء !!

(اسكندرية) حسن صادق حميد الله

يجرب ثم لا أرى سوى جزء من الناقة التي استخدمها ..

أما أن يحدثنا عن إحدى الغزوات بقوله : (وكان أول سيف ارتفع هو سيف علي بن أبي طالب) ثم لا نرى سوى نصل هذا السيف . فذلك ما لا عهد للفن التمثيلي به .

واعتقادي أنه لم يكن من المستحيل على واضع السيناريو أن يتخلص من مثل هذه المآزق الدقيقة لو أنه استطاع تكييف الحوادث دون أن يحتم على نفسه أن يلتزم الأصل التزاماً حرفياً . وإلا فليس مما يضير قصة ما أن تكون غير ملائمة للإخراج السينمائي .

بقي أن أسأل عن الغرض من هذا الفيلم . والحق أني لا أدري إن كان يهدف إلى التعريف بفضائل الإسلام لنزداد إيماناً .. أم التعريف بتضحيات المؤمنين السابقين كنموذج رائع يدعونا إلى التأسي بهم .. ربما كان هذا كله أو بعضه ! وحبذا لو كان هذا كله أو بعضه ، ولكن إلى أي حد تعتبر مثل هذه الأغراض متفقة مع وظيفة الفن التمثيلي !!

عبد الفتاح البارودي

الثقافة

العـــدد ٦٥٦
٣١ من يوليه ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

صفحة

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

العدد ٦٥٦ | الاثنين ١٩ من شوال سنة ١٣٧٠ — ٢٣ من يوليه سنة ١٩٥١ | السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

الحس المشترك

للدكتور زكى نجيب محمود

كثيراً ما تدل اللفظة من ألفاظ اللغة على طور من أطوار التاريخ الفكرى ، اجتازه أصحاب تلك اللغة فيما مضى ، أو لا يزالون فى مرحلة اجتيازه الآن إذا كانت اللفظة ما تزال قائمة بدلالتها تلك ؛ فمثلاً لفظتا « رَحِم » و « رحمة » فى اللغة العربية ، وما بينهما من تشابه ، تدلان على أن الرحمة فى طور من أطوار التاريخ الفكرى لأصحاب هذه اللغة ، كانت مقصورة على ذوى الرحم ، وذلك أيام أن كانت القوانين الأخلاقية ملزمة للفرد إزاء بنى أسرته أو قبيلته ، وغير ملزمة له بالنسبة إلى أفراد القبائل الأخرى ؛ ولفظتا « نَفْس » و « نَفَس » تدلان أيضاً بما بينهما من تشابه على طور من أطوار التاريخ الفكرى لأصحاب هذه اللغة ، كانت العقيدة فيه سائدة بأن النَّفْس فى الكائن الحى إن هى إلا الأنفاس التى يدخلها أو يخرجها شهيقاً وزفيراً . والعلاقة بنفسها قائمة بين لفظتى « روح » و « ريح » ؛ وهكذا تستطيع أن تستشف كثيراً من المذاهب الفكرية لأمة من الأمم من خلال دراستك لألفاظها على هذا النحو .

ومن هذا القبيل لفظة Sense فى اللغة الإنجليزية ؛ فلهذه اللفظة عند أصحاب هذه اللغة حتى اليوم معنيان ، فهى قد تعنى « الحس » بإحدى الحواس (كالبصر والسمع واللمس) ، وهى قد تعنى كذلك « العقل » أو « المعنى العقلى » فتراهم يصفون ذلك الشخص ، أو العبارة بهذه الكلمة ومشتقاتها ، ليدلوا بذلك على أن الشخص ذو عقل حصيف أو خلو منه ، وأن العبارة ذات معنى يسيغه العقل أو خلو منه .

ولهذا الازدواج فى معنى كلمة Sense فى اللغة الإنجليزية دلالة قوية فى تاريخهم الفكرى ، لأن أبرز طابع يميز الفلسفة الإنجليزية منذ نشأت إلى يومنا الراهن ، هو اعتبارها الحواس مصدر المعرفة ؛ فليس « العقل » عند كثير من فلاسفتهم إلا ما قد أدركته « الحواس » أو ما تستطيع أن تدركه ؛ فالإنجليز فى تفكيرهم — حتى الفلسفى منه — أميل الشعوب إلى التزام الأمر الواقع الذى تبصره الأعين وتسمعه الآذان ، « فالحس » وحده وما قد يقع له من مدركات هو كل المعرفة التى يُعتَدّ بها ويُستند إليها ؛ وكل تفكير لا يجد له ركيزة بين المحسوسات ، فهو حلم أو كالحلم الذى لا يغنى ولا يسمن .

لا عجب إذاً أن نرى الغربيين قد التقيا عندهم في لفظة واحدة ومشتقاتها ؛ فإذا وصفوا العبارة أو الفكرة بأنها nonsense كان المراد أنها عبارة أو فكرة غير معقول ، أو إن شئت فقل إنها عبارة أو فكرة لا اعتماد فيها على ما تدركه الحواس ، لأن لهذه الكلمة معنيان ؛ فهي تعني « لامعنى » وهي كذلك تعني « لاحس » — أي ليس هناك من المدركات الحسية ما يجعل للعبارة معنى .

ولهم في هذا الباب عبارة يتفردون بها ، لأنها تدل على صفة تميزهم من سائر الشعوب ، وهي عبارة Common sense ، ومعناها الحرفي هو — في رأيي — أدق ترجمة لها ، وهو « الحس المشترك » أو قل « الفهم المشترك » مادام « الحس » و « الفهم » عندهم شيء واحد ، لأن ما لا يُحَسّ لا يُفهم ، وما يُفهَم لابد أن يُحَسّ ؛ و « الحس المشترك » أو « الفهم المشترك » هو ما يشترك الناس — كلهم أو معظمهم — في إدراكه على نحو معين ، لا يختلف باختلاف الأفراد .

وبديهي أنه كلما ازداد أفراد الشعب الواحد اتفاقاً في ثقافتهم ، ازدادوا قرباً من « الحس المشترك » ؛ فهم يتفقون في أحكامهم على الأشياء بمقدار اتفاقهم في الثقافة واتحادهم في وجهة النظر ؛ والظاهر أن الإنجليز في هذا الاتحاد في وجهة النظر إلى الأشياء والحكم عليها ، قد بلغوا مبلغاً قصرت من دونه سائر الشعوب ، ومن ثم كان تفردهم بعبارة « Common sense » حتى لقد نقلتها بقية الشعوب عنهم إما بنصها أو بأقرب ترجمة لها .

* * *

وإذا حللت المواقف التي يستخدم فيها « الحس المشترك » للحكم على سلوك الناس بالصواب أو بالخطأ ، وجدتها المواقف التي يهتدي فيها الإنسان إلى الحكم الصحيح دون أن يكون على وعي بالمقدمات المنطقية التي يستند إليها في حكمه ذاك ؛ فكأنما هو حكم صائب بالفطرة السليمة ، ولا يحتاج إلى سند من أدلة وشواهد — ترى الإنجليزي يحكم على هذا السلوك أو ذاك بأنه صواب ، أو بأنه خطأ ، فإذا سألته : كيف عرفت ذلك ؟ أجابك بقوله : « بالحس المشترك » ثم لا يزيد على ذلك شيئاً .

ليس « الحس المشترك » هو سبيل الحكم على العادات والتقاليد ، بل الحكم هنا العادات والتقاليد نفسها ؛ فإذا لبست سيدة السواد لوفاة زوجها أو ابنها ، ثم سئلت : لماذا تفعل ذلك ؟ كان جوابها : « هي العادة الجارية ، أو هو التقليد السائد ، في إظهار الشعور بالحزن » ؛ وإذاً فليس هذا مجال الحس المشترك .

كذلك ليس « الحس المشترك » هو سبيل الحكم على المسائل العلمية ؛ فالعالم الطبيعي — مثلاً — لا يحكم « بحسه المشترك » على الوزن النوعي للذهب أو مقدار الضغط الجوي على جبال الهملايا ؛ والعالم الرياضي لا يحكم « بحسه المشترك » على مساحة الدائرة والجذر التربيعي للعدد ٣ — هذه المسائل العلمية يُرجع فيها إلى التجربة إن كان العلم من العلوم الطبيعية ، وإلى التحليل إن كان من العلوم الرياضية ؛ والحكم في كلتا الحالتين مستند إلى مقدمات معروفة مذكورة ؛ حتى إذا ما سئل العالم الطبيعي : كيف عرفت أن الضغط الجوي على جبال الهملايا هو كذا ، أظهر التجارب التي قام بها هو أو غيره من العلماء لإثبات ذلك ، وإذا ما سئل العالم الرياضي : كيف عرفت مساحة الدائرة ، بين الخطوات التي سار فيها تحليله حتى انتهى إلى ما انتهى إليه من نتائج ؛ لكن حين يكون الحكم مستنداً إلى « الحس المشترك » فلا يكون صاحب الحكم على استعداد لإبراز مقدماته التي استند إليها ، وكل ما في وسعه أن يجيب به إذا ما سئل : كيف عرفت ذلك ؟ أن يقول : « بالحس المشترك » فمثلاً إذا سألت : لماذا ينبغي أن تخضع الأقلية لحكم الأكثرية؟ لم تجد لذلك جواباً عند علم من علوم الطبيعة أو الكيمياء ، وإنما حكمه عند « الحس المشترك » .

وذلك نفسه هو ما يجعل لأحكام « الحس المشترك » أهمية كبرى في حياة الناس الاجتماعية ؛ لأنه — لسوء الحظ — لم يبلغ الإنسان في فهم نفسه فهماً علمياً إلا شوطاً قصيراً ؛ ولذلك ترى أحكامه على أنواع سلوكه بالصواب أو بالخطأ كثيراً ما تعوزها الدقة العلمية ، فلا بد له من الركون إلى فطرته يحكم بها حكماً سريعاً نافذاً حتى تسير عجلة

الحياة ؛ وإن عجلة الحياة لتزداد فى سيرها سهولة ويسراً كلما ازداد الناس قدرة على أحكام « الحس المشترك » فى شتى المواقف ، بحيث لا يحدث بين الأفراد من الاختلاف والتصادم إلا حده الأدنى .

• • •

وتستطيع بعد هذا التحليل أن تعلم لماذا تقع على معركة ناشبة بين الأفراد هنا فى مصر كلما خطوت خطوة ، مع أنك قد تعيش الأعوام فى بلد كانجلترا ولا تصادفك معركة واحدة ؟ تركب الترام هنا فيندر جداً ألا تسمع اشتجاراً بين الكمسارى وراكب أو أكثر من راكب واحد ؛ وتسير فى الطريق العام فيندر جداً ألا تشهد اختلافاً فى الرأى بين الشرطى والباعة ، أو بين بائع وشار ؛ بل تدخل البيوت فيندر جداً ألا ترى ما يهولك من البشاعة صورة الخلاف بين الزوج وزوجته ، وبين الوالد وأبنائه ، أو بين المخدوم وخادمه .. الخلاف بين أفراد الشعب هنا يستوقف النظر بحدته وشدته واتساع نطاقه : هو بين الرئيس ومرءوسيه ، وبين صاحب الأرض أو العقار ومستأجريه ، وبين العمدة وأهل القرية ، وبين رب الأسرة وأفرادها ، وبين المدرس وتلاميذه ، وفى كل مجال يتصل فيه الأفراد بعضهم ببعض فى شأن من شئون الاجتماع .

أقول إنك تستطيع فى ضوء التحليل الذى قدمناه « للحس المشترك » أن تجيب لنفسك عن سؤالك : لماذا يقع كل هذا الخلاف بين أفراد المجتمع الواحد ؟ فالجواب الصحيح هنا هو : لأنهم أفراد بغير حس مشترك ! إنهم لا يحكمون على الموقف الواحد حكماً واحداً ؛ فقد شهدت — مثلا — بالأمس جندياً من جنود الجيش يركب سيارة عامة أجر الركوب فيها ثلاثة قروش ، ولما كان الجندى حق الركوب بنصف أجر ، فقد كان عليه أن يدفع قرشاً ونصف قرش ، لكنه أبى إلا أن يدفع ما يدفعه فى السيارات الأخرى ، وكان خلاف ، وكان وقوف السيارة ، وكان غضب أخذ نطاقه يتسع حتى شمل الراكبين جميعاً ؛ وما أظن أن موقفاً كهذا يجوز أن يقع فى بلد بين أبنائه « حس مشترك » أو « فهم مشترك » للأمور .. العلة كلها هى أننا نحكم بأحكام مختلفة على الموقف الواحد ، ومن ثم يقع بيننا ما يقع من ألوان التنافر التى أشرت إليها ، التنافر فى البيت والطريق العام والديوان وعربات الترام والمتاجر وغيرها .

ليست الروابط بين الأفراد واستقرارها أمراً تافهاً يسيراً ، لأنها هى عصب الحياة ؛ إنك تعيش — راضياً أو كارهاً — على صلات بغيرك ، تعيش متصلاً بأبنائك وإخوتك وجيرانك ، وتعيش متصلاً برئيسك أو مرءوسيك ، والتاجر الذى تعامله والشرطى فى الطريق وهكذا ؛ فإن كان الشأن كل صلة من صلاتك تلك سبب الشقاء ، فانظر كيف تكون حياتك فى مجموعها ! وإنك لتعجب أن يكون بيننا هذا الاختلاف كله وهذا الشقاء كله ، ولا يكاد يقوم منا باحث واحد يبحث « العلاقات الإنسانية » بحثاً علمياً ، فى الوقت الذى تسير فيه الصلات الاجتماعية فى بلد كانجلترا على درجة من التفاهم يحسد الانجليز عليها بغير شك ، ومع ذلك لا يزال يقوم من مؤلفيهم من يتناول « الروابط بين الناس » بالبحث المفصل ؛ وإنى لأذكر فى هذا الصدد كتابين يحضرانى الآن ، ولابد أن يكون هناك سواهما مما لم أقع عليه : أحدهما كتاب بعنوان « العلاقات بين الناس » لكاتبهم « لاندو » والآخر كتاب لكاتب أمريكى هو « ستيوارت تشيس » وعنوانه « علم الروابط بين الناس » .

وقد يسأل سائل : ولماذا انعدم « الحس المشترك » بيننا ؟ وأجيب جواباً سريعاً بأن ذلك يرجع أول ما يرجع إلى التباين الثقافى الواسع المدى ، الذى تراه منعكساً فى تباين الأزياء ، وتباين المساكن والمآكل والمشارب ؛ إنك تسير فى البلد الأوربى فيستوقف نظرك التشابه فى المساكن حتى لكأن كل إنسان يسكن بيتاً لا يكاد يختلف فى باب أو نافذة عن بيت زميله ، وحتى لتظن ألا موضع بينهم لاختلاف الفقر والغنى ؛ وتأكل فى بيت الأسرة المتواضعة وفى بيت الأسرة الغنية فيدهشك التشابه الشديد بين ألوان الطعام هنا وهناك وطريقة الأكل ، حتى لتظن أن القوم كلهم من طبقة واحدة ، تخرجوا كلهم فى معهد واحد .

أما نحن ... !!

زكى نجيب محمود

رســــائل من المغرب

الرسالة الأولى

هذه هي الحلقة الأولى من خمس رسائل سننشرها « الثقافة » في خمسة أعداد متتابعة ، وإننا ليسرنا أن نقدم لقرائنا هذه السلسلة من الرسائل الممتازة في تعبيرها وتصويرها للحالة القائمة في بلاد المغرب .

« الثقافة »

طنجة في ... سنة ١٩٥١

أخي راتب .

لقد حمل إلي البريد مفاجأة سارة ، غمرتني بحلم سعيد وسط عواصف من الأطياف المزعجة التي تنتابنا في هذا الركن من العالم العربي . حمل إلي البريد رسالتك الرقيقة التي ذكرتني السنوات السبع السعيدة التي أمضيتها في مصر العزيزة : في مدارسها ، وبين أبنائها ، إخواننا الذين ندين لهم بكرم الضيافة وجميل العطف علينا أبناء المغرب ، ونذكر لهم إفساحهم المجال أمامنا في مدارس مصر ومعاهدها لندرس ونتفقه في ديننا ودنيانا . وأذكرتني رسالتك بالذات خمس سنوات في مدرسة السعيدية حيث كنا زملاء . وأذكرتني كذلك حادثة — ربما لا تزال تذكرها — يوم أن قال مدرس الجغرافيا : إن سكان شمالي إفريقيا برابرة خاضعون للحكم الفرنسي ، فثرت واحتججت وقلت له : كلا إننا عرب مسلمون مثلكم ، اغتصب الأجنبي حريتنا ، وسوف نعمل على استردادها بقوة إيماننا ، وجهود شبابنا . واشترك معي يومذاك سائر تلاميذ الفصل في الاحتجاج وجاملوني ! فأسف المدرس لما صدر منه ، ولكني ذهبت إلى حجرته شاكراً ومعتذراً .

ثم بعثت رسالتك في نفسي فرحة عميقة ؛ لأنك ذكرتني ولأن بها خبر توفيقك في حياتك العملية الجديدة حياة المحاماة . وما أحوجنا إليها تدافع بها عن الحق والعدل والكرامة ، ولأنك تقول فيها : إنك عزمت على زيارة بلادنا فأهلاً وسهلاً بك ، وبأمثالك الأوفياء من أبناء العروبة الذين يشاركوننا آمالنا وآلامنا . سوف تكون في بلادك ، بين أهلك وإخوانك . وإن زيارة إخواننا المصريين وأبناء العروبة لنا لأمنية نسعد بتحقيقها .



وتسألني — يا أخي — من الأسئلة ما تريد أن تعرف به شيئاً من وسائل القدوم إلينا وإمكان ذلك ، وعن أوضاعنا السياسية وأحوالنا الاجتماعية . وتقول : « أعذرني إن أبحت أسألك شيئاً من الجهل بتاريخكم وأوضاعكم الحاضرة . فنحن ندرس عنها في مدارسنا شيئاً قليلاً وهو أكثر اتصالاً بالماضي منه بالحاضر . وما يصدر عن بلادكم من الكتب قليل الأهم إلا ما تنشره الصحف » .

وأنا ألتمس لك العذر ، فبرامج التعليم لا تسمح بالتوسع الواجب في دراسة تاريخنا الحديث ، وقيود الاحتلال والرقابة عندنا لا تبيح أن تصل إليكم أخبارنا على حقيقتها ، كما تمنع وصول ثقافتكم وكتبكم إلينا .

وتقول في رسالتك : « لست أدري كيف صارت مراكش إلى ثلاث مناطق من النفوذ الأجنبي : منطقة عالمية ، ومنطقة إسبانية ، ومنطقة فرنسية . والكل أرض واحدة وشعب واحد وملك واحد » . وألتمس لك العذر في هذا السؤال أيضاً ، فتاريخ مراكش الحديث ، وتقسيمها إلى مناطق ، لا يعرفه إلا القليل ممن يعنون بشئون هذه البلاد . ولذلك سأحرص على أن أجيبك عن أسئلتك ، ولي رجاء واحد هو أن تتيح لأكثر ما يمكن من إخوانك ومعارفك أن يطلعوا على هذه الرسائل ، فأضمن بذلك أني قمت لبلادي بالدعاية الصحيحة ، وكشفت من نواح خفية يجب أن تعلن .

إنك تستطيع أن تفد إلى منطقة طنجة من غير حاجة إلى تصريح بالدخول ؛ لأنها منطقة عالمية مفتوحة الأبواب لكل سكان العالم . ولهذا الوضع السياسي تاريخ طويل أحدثك عنه في إيجاز :

كانت طنجة أقصى نقطة في الشمال الغربي من إفريقيا وصل إليها العرب ، ومنها عبروا إلى الأندلس وفتحوها . وكانت بلاد مراكش الحالية تسمى « المغرب الأقصى » . وبالرغم من أن بلاد تونس والجزائر دخلت في دائرة النفوذ العثماني ، وصارت تابعة لتركيا ، فإن مراكش ظلت خارج هذا النفوذ ، واستمرت تدافع عن استقلالها حتى نهاية القرن التاسع عشر .

ولقد كانت بلاد شمالي إفريقيا أقرب بلاد إسلامية إلى الأندلس ؛ فلما اشتد اضطهاد المسيحيين المسلمين قتلا وتعذيباً وتنصيراً ، هاجرت آلاف الأسرات من الأندلس ، واستقرت في تونس والجزائر ومراكش . وكان نصيب مراكش منها عظيما لا سيما ميناء طنجة . وأسس أهل الأندلس مدينة تطوان في سنة ١٤٩٢ وعمروها . ولذلك تجد أسرات كثيرة في شمالي إفريقيا لا تزال محتفظة بأسمائها وألقابها الأندلسية . ونقل المسلمون من الأندلس إلى مراكش علومهم وفنونهم ، فازدهرت بهم البلاد . وإن الزائر الآن لبيوت مراكش القديمة ليجد طراز معمارها ونظامها الداخلي شبيهين بطراز قصور الحمراء ونظامها .

وقد تعرضت بلاد المغرب الأقصى لغارات الأسبان المسيحيين سنوات طويلة بعد القضاء على الإسلام في الأندلس ، وكان عليها أن تصد هذه الغارات المتوالية .

وكانت طنجة ميناء هاماً بين أوربا وإفريقيا ، ولها من موقعها عند مدخل مضيق جبل طارق بين البحر الأبيض والمحيط الإطلنطي ما جعلها مرسى للسفن التجارية الأجنبية ، وسوقاً عظيمة للتجارة بين إفريقيا وأوربا . فاستوطنها عدد من التجار الأجانب لا سيما اليهود .

وقد تمكن البرتغاليون أثناء رحلاتهم واكتشافاتهم العظيمة في القرن الخامس عشر والسادس عشر من غزو طنجة والاستيلاء عليها سنة ١٤٧١ ، فاقتطعوها بذلك من بقية أراضي المغرب الأقصى .

ولما تزوج الملك تشارلس الثاني الإنجليزي من الأميرة كاترين البرتغالية أهدت إليه الأسرة البرتغالية الحاكمة مدينة طنجة . وبذلك تركها البرتغاليون الذين عانوا مصاعب الدفاع عنها ضد غارات المسلمين المجاهدين ، وحل محلهم الجنود البريطانيون سنة ١٦٦١ . ولكن زعماء القبائل في شمالي مراكش لم يقبلوا أن يحتل أجنبي هذا البناء المهم ، فاستمروا يهاجمون الحامية البريطانية حتى اضطرت إلى إخلائها نهائياً بعد اثنتين وعشرين سنة من الاستيلاء عليها . وبذلك رجعت طنجة إلى حوزة مراكش . وظلت كذلك إلى سنة ١٩٠٤ ، كما سأشير إلى ذلك بعد .

ولما غزت فرنسا بلاد الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وأعلنت أنها جزء من الأراضي الفرنسية سنة ١٨٤٨ لم يرضخ الجزائريون لهذا الاغتصاب الغاشم ، ولجأ الأمير عبد القادر الجزائري برجاله الهاربين إلى مراكش ، ومن هناك كان يشن الغارات على الجيوش الفرنسية ، وشتبك معهم في حروب بتأييد مراكش ومساعدتها . وقد أثار هذا حفيظة فرنسا فحدثت نيتها أن تغزو مراكش ، ولكنها كانت تشعر بمعارضة انجلترا لها ، لأنها كانت كذلك تطمع في مراكش . أما إسبانيا فإنها لما وجدت فرنسا قد احتلت الجزائر وتونس أغارت على شمالي مراكش ، واستولت جنودها على سبتة وتطوان والساحل الشمالي (كما في الخريطة) . ومن ذلك الوقت صار لأسبانيا منطقة نفوذ في مراكش ، وأعلنت نفسها حامية لهذه المنطقة .

أما فرنسا فقد استمرت تهدد مراكش وتحاول التدخل في شئونها ، ونجحت في سنة ١٩٠٤ في التفاهم مع انجلترا وعقد اتفاق لندن . وبمقتضاه تعهدت فرنسا ألا تتعرض لنفوذ بريطانيا في مصر ، نظير إطلاق حريتها في مراكش . ومنذ ذلك التاريخ اعتبرت فرنسا نفسها حامية لمراكش ما عدا الجزء الشمالي الذي احتلته إسبانيا . ولما احتجت ألمانيا على اتفاق لندن عقد مؤتمر الجزيرة (جنوبي إسبانيا) سنة ١٩٠٦ وحضره مندوبون من معظم الدول الأوربية ، فأيد المؤتمر حق فرنسا في حماية مراكش . وبذلك أخذت فرنسا توطد سلطانها في سائر البلاد ، وتصبح الحاكمة المتصرفة المتسلطة لكل المرافق .

وهنا أعود بك يا أخي إلى طنجة مرة أخرى ، لأذكر أن هذه المدينة بالرغم من وقوعها داخل منطقة النفوذ الأسباني ، فإنها قد احتفظت بشيء من الحصانة التي لم تجعلها خاضعة للحماية الإسبانية . ذلك أن سلاطين مراكش قد

خاطـــــرة - ٢٧

هممت هذه الأيام بعمل خطير ، ثم راقبت نفسي ماذا تصنع ؛ فإذا فيها برلمان داخلي كأدق أنواع البرلمانات وأنظمها . فقد بدأت تتحرك الرغبة أولاً ، وقامت تخطب وتبدى حججها في فصاحة وبلاغة ، والكل يُصغي إليها ، لم تطل في الحديث عما تشاء اعتماداً على قوتها وعظمتها ، ثم جلست في زهو وإعجاب ، فوقف الضمير يعارضها ، ويبدى عدم ارتياحه لطلباتها ، مقتصراً على ما ينشأ عن هذه الرغبة من آلام ، ثم وقف العقل وقد وجدته أحياناً ترعوه الرغبة فيتكلم في مصلحتها ويدافع عن اتجاهاتها ، ثم لاحظت أن الخوف يقف محذراً من تنفيذ طلباتها ، منذراً بنتيجة عملها ، مخوفاً النفس والبدن من نتائجها . ورأيت بعد ذلك الخيال يحلق في الجو فيصور النتائج للعمل الذى تريده الرغبة نتائج جميلة أحياناً ، وقبيحة أحياناً أخرى ، وهو بهذا العمل يشجع أو يخذل . وأحياناً يسيطر الحب على الموقف فيؤيد الرغبة تأييداً جامحاً ، ثم بعد ذلك لا يسمع لعقل ولا لخوف ، وأحياناً لا يكون للحب موقف في الأمر ؛ ولكن تكون السيطرة للإباء والأنفة ، فتصد النفس عن تنفيذ الرغبة . ثم رأيت أن هذا البرلمان تارة يثور فيطيح بكل العوامل الأخرى وينفذ الرغبة مهما كانت النتائج . وأحياناً يكون برلماناً هادئاً يصغى فيه إلى كل الأصوات إصغاء تاماً ، سواء في ذلك المؤيدون والمعارضون ، ثم تؤخذ الأصوات ، والحكم بعد ذلك للأغلبية . وهو برلمان ثائر أحياناً هادئ أحياناً ، يتكلم فيه المتكلمون بتؤدة وهدوء أحياناً ، وبخروج عن اللياقة أحياناً . وأياما كان فهو برلمان بكل معنى الكلمة ، يصور صورة صادقة البرلمان الخارجي من مؤامرات ودسائس وألاعيب وخداع وكل ما يحدث في الخارج . ومن العجب أن تاريخ هذا البرلمان قديم ، كان من عهد آدم ولم يلتفت الناس إلى تقليده إلا من عهد قريب ، وحتى إلى الآن لم يتقنوا إتقانه وفاتت منهم بعض معانيه .

أحمد أمين

جعلوها منذ القرن السابع عشر مقراً لقناصل الدول الأجنبية ، كما هي الحال في جدة الآن بجزيرة العرب ، ومنحوا سكانها من الأوربيين ، الذين ازدادوا عدداً ، امتيازات مالية وبوليسية وصحية خاصة . فصارت بالرغم من أنها مراكشية من الناحية الرسمية دولية من الناحية الواقعية . فلما احتلت إسبانيا شمالي مراكش تركت طنجة كما كانت عليه تفادياً لمشاكل الدول ذات الامتيازات . ولما تم اتفاق لندن سنة ١٩٠٤ قوى مركز فرنسا في طنجة ، وكانت تود أن تضمها إلى نفوذها لولا أنها خشيت إغضاب انجلترا وإسبانيا ، لأن كلا منهما كانت تريدها لنفسها .

وفي سنة ١٩١٣ بدأت فرنسا وانجلترا وإسبانيا المفاوضة بشأن الوضع الدولي والإداري لمنطقة طنجة ، غير أن الحرب العالمية الأولى حالت دون الوصول إلى نتيجة . فاستأنفت هذه الدول المفاوضة في سنة ١٩٢٣ وتم الاتفاق على أن تصبح طنجة منطقة حرة عالمية ، لها إدارة مستقلة عن المنطقتين الإسبانية والفرنسية . وصار يشرف عليها مجلس مكون من أعضاء يمثلون فرنسا وإسبانيا وانجلترا ، ثم ضم إليهم ممثل لإيطاليا سنة ١٩٢٨ . وكان للسلطان مندوب فتخلصت منه فرنسا بحجة أن لها السيادة على المنطقة السلطانية . وإلى جانب المجلس الإدارى قامت هيئة تشريعية مكونة من سبعة وعشرين عضواً ، منهم ستة من العرب فقط . ولكن سلطة المجلس الإدارى هي العليا . وقد ظل هذا النظام إلى سنة ١٩٤٠ عندما سقطت فرنسا ثم إيطاليا ، فانتهزت إسبانيا الفرصة ، واحتلت طنجة وأعلنت حمايتها عليها .

وفي أكتوبر سنة ١٩٤٥ اضطرت إسبانيا إلى سحب جنودها منها ، وأعيد تنظيم الإدارة على أساس اتفاق سنة ١٩٢٣ . وأصبحت الإدارة مكونة من ممثلي فرنسا وإسبانيا وبريطانيا وأمريكا وروسيا والبلجيك وإيطاليا ، وأعيد مندوب السلطان . وبذلك عادت تلك المدينة المراكشية التي يسكنها مائة ألف نسمة ، منها ثمانون ألفاً من العرب — عادت إلى حظيرة النفوذ الأجنبي المستغل ، نفوذ الدول المتنافسة فيما بينها ، المتفقة جميعاً ضد أهل البلاد الأصليين . عادت إلى حال أصبح فيها الأجنبي هو السيد وأهل البلاد غرباء .

والآن — أيها الأخ العزيز — أكتفي في هذه الرسالة بهذا القدر . وأستأنف حديثي إليك في الرسالة القادمة . فإلى اللقاء .

أخوك

أبو مروان

الفـــــرد والفردية

عند ألكسس كارل

للأستاذ عز الدين اسماعيل

إن كل تفكير يتناول « الإنسان » بصفة عامة مجردة دون أن يقف عند الأفراد ، هو تفكير منحرف عن جادة الصواب ، فليس لهذا « الإنسان » العام المجرد وجود ، وكل ما في العالم أفراد — الأفراد هم الحقائق المحسوسة الواقعة . وأما المجردات فمكتشفات وهمية لا يتجاوز وجودها رأس الإنسان .

ويسرنا أن ننشر هذا البحث القيم لـ « ألكسس كارل » الذي يبرز للقراء أهمية الفرد وحقيقة وجوده ، بالقياس إلى « الإنسان » بصفته العامة المجردة ، ويؤكد فيه على رأيه بأن المجتمع الحديث يتجاهل الفردية ويعامل الناس باعتبارهم مجردات ، وبذلك انحدر إلى خطأ فظيع هو محاولته إخضاع الناس — على اختلاف فرديتهم — لنظام واحد .

« الثقافة »

— ١ —

ألا ما أبعده من ضلال فكرى أن ننسينا الكلمات الكلية مثل لفظة « إنسان » ماوراءها من أفراد ، مع أنه ليس في العالم الواقع إلا هؤلاء الأفراد . هؤلاء الأفراد — لا « الإنسان » بصفة كلية — هم الذين يمكن الكلام عنهم . والفرق بين الفرد والإنسان بصفة كلية هو أن الفرد واقعة محسوسة ؛ هو الواحد الذي يعمل ويحب ويعاني ويحارب ويموت ، وعلى العكس من ذلك « الإنسان » ؛ فالإنسان الكلي ليس إلا فكرة أفلاطونية تعيش في أدمغتنا وكتبنا . وكلامنا عن « الإنسان » ليس إلا ضربا من التعميم . وهذه هي مشكلة العصور الوسطى التي مازال صداها يسمع حتى الآن بين الواقعيين والاسميين(*) . ويبدو أن كلا الفريقين على صواب ؛ فنحن في حاجة إلى الكلي والجزئي . نحن نعيش في عالمين مختلفين ، عالم الحقائق وعالم رموزها . ولكي نحصل المعرفة بأنفسنا فإننا نفيد من كلتا الملاحظة والتجريدات العقلية . ولكن قد يستخدم المجرد خطأ بدل المحسوس ، وفي هذه الحال تعامل الحقائق معاملة الرموز ، وأغلب أخطاء المربين وعلماء الطبيعة والاجتماع من مثل هذا التخليط . وكذلك الأمر بالنسبة لعلماء الذين اعتادوا طبائع الآليات والكيمياء والطبيعة والفسيولوجيا ولم يألفوا الفلسفة ، والثقافة العقلية — من المحتمل ألا يميزوا بوضوح بين العام والفرد الجزئي . ومع ذلك فمن المهم في فهمنا للإنسان أن نحصر انتباهنا في الأفراد .

الحق أن الفردية هامة في الإنسان ، وليست مجرد مظهر معين لبنية الجسم ، ولكنها تتخلل وجودنا بكامله ، وهي تجعل النفس واقعة متفردة في تاريخ العالم ، وهي تترك طابعها على كل الجسم والإدراك وعلى كل جزء في هذا الكل ، ورغم بقائه غير قابل للتجزؤ .

ويتميز الأفراد بسهولة الواحد من الآخر بأشكال وجوههم وإيماءاتهم وطريقة مشيهم وانفعالاتهم العقلية والخلقية . ورغم أن الزمن يحدث تغيرات كثيرة في مظهرهم فإن الفرد يظل دائماً يعرف — كما بين ذلك برتلون Bertillon منذ زمن بعيد — بواسطة أجزاء معينة في شكله العام . ثم إن خطوط أطراف الأصابع أيضاً مميزات ثابتة . وبصمات الأصابع هي التوقيع الحقيقي الصحيح للإنسان . وصورة الجلد ليست إلا مظهراً من مظاهر فردية الأنسجة . وهذه الفردية في الأنسجة يمكن أن تظهر بوضوح إذا لاحظنا أن أجزاء الجلد — المأخوذ بعضها من المريض نفسه والبعض الآخر من قريب أو صديق — عندما تلصق على سطح الجرح تلتصق الأجزاء المأخوذة من المريض نفسه بالجرح بعد بضعة أيام وتأخذ في النمو ، بينما الأجزاء المأخوذة من ناس آخرين تتقلص وتصغر . وبهذا تعيش الأولى وتموت الثانية .

ومن النادر أن يوجد فردان يتشابهان تمام التشابه بحيث يمكن أن يتبادلا أنسجتهما . ومن الشاذ أن يصح هذا

(*) الواقعيون بلغة العصور الوسطى هم الذين يعتقدون بأن الكلمات الكلية مثل « إنسان » لها مسميات غير الأفراد ، وأما الاسميون فهم الذين يقولون إن الكلمة الكلية مجرد اسم .

كما يحدث أحياناً بين الآباء وأبنائهم . والقاعدة هي أن أنسجة الفرد ترفض قبول أنسجة فرد آخر .

والأمر كذلك بالنسبة للخلايا ، ففي نوع خاص عند كل فرد . ونظراً لأن كل جسم له خاصيته كان ذلك أكبر عائق عن استخدام طريقة استنبات الأعضاء المنقولة في الأغراض العلاجية على نطاق واسع . وتعتمد نوعية الفرد على البناء الداخلي للذرات الكبيرة الناتجة من المائين (مواد كربوهيدراتية ودهنية) والبروتينات . ويلاحظ أن فرداً من جنس ما يكون أكثر تشابها مع أفراد جنسه منه مع أفراد أجناس أخرى .

إن فرديتنا تضرب بجذورها في أعماق نفوسنا ، وهي طابع عام لكل أجزاء الجسم ، وتظهر بوضوح في عمليات النمو الفسيولوجي كما في التركيب الكيميائي للخلايا . وكل شخص يعمل بطريقته الخاصة أمام حوادث العالم الخارجي : الضجيج ، الخطر ، الطعام ، البرد ، الحرارة ، هجمات الميكروبات والسموم . ولو أن مجموعة من الحيوانات من نوع واحد حقنت بكميات متساوية من البروتين الأجنبي مثلاً فإنها لا تستجيب لها بطريقة واحدة ، وقد لا يستجيب القليل منها إطلاقاً . وكذلك الحال في أثناء الأوبئة الخطيرة ، يتصرف الناس تبعاً لخصائصهم الفردية ؛ بعضهم يمرض ويموت ، وبعض يمرض ويشفى ، وبعض لا يصاب البتة ، ويبقى البعض الأخير متأثراً تأثراً بسيطاً بالمرض دون إظهار أي أعراض خاصة .

وبما أن كل حادثة تسجل داخل الجسم ، ويتكيف بحسبها سواء أكانت مرضية أم غير مرضية ، فإن فترة النمو عند الإنسان كافية لإظهار فرديته بوضوح أكثر . ومن ثم كان الكهول يختلفون الواحد عن الآخر أكثر بكثير مما يختلف الأطفال . وكان كل فرد تاريخاً لا وجه للشبه بينه وبين تواريخ الآخرين .

هذا من جهة خصائص الفرد العضوية ، وأما خصائصه العقلية فهي أكثر دقة . وكل شخص محدود متميز من سواه في قواه النفسية . وليس هناك أفراد في عقلية واحدة . ولا شك أن أولئك الذين مزاجهم يماثل سلاذج أقرب شبهاً الواحد منهم بالآخر . ولكن كلما كانت الشخصية أكثر غنى اتسعت هوة الاختلافات الفردية . ومن النادر أن تنمو كل قوى الإدراك في الوقت نفسه في فرد واحد ، بل يلاحظ أنه في أغلب الناس يكون بعض هذه القوى ضعيفاً أو مفقوداً . وليس هناك عمل أكثر صعوبة من أن نحلل تركيب فرد معين ، لشدة تركب الشخصية العقلية ، وعدم كفاية الاختبارات النفسية . فمجالات هذا التحليل متعددة ، وعلاقة الأجزاء المختلفة بعضها ببعض تزيد الأمر صعوبة . ومثلك يمكن أن نحلل الفرد ونقسم تقسيمات مختلفة لا حصر لها من حيث بناؤه الطبيعي والنفسي ، ومن حيث العلاقات الممكنة بين قواه المختلفة .

وكل شخص يشعر بفرديته ، وهذه الفردية حقيقية ، ولكن هناك اختلافات كبيرة في درجة التفرد ؛ فشخصيات معينة عظيمة الغنى والقوة ، وأخرى ضعيفة يسهل تكيفها بالبيئة والملابسات . وبعض الأمراض تجعل الناس يشعرون بتحلل شخصياتهم ، وبعضها يهدم الشخصية . وفي بعض الأمراض الأخرى تكون التغيرات وقتية فقط . ومرض الهستريا يولّد شخصية مزدوجة ؛ فيبدو المريض كأنه صار فردين مختلفين يجهل أحدهما أفكار الآخر وتصرفاته .

ومع كل هذا تبقى الفردية النفسية غامضة ، ويظل من الصعب قياس جزئياتها ، كما لا يستطاع تقرير طبيعتها على وجه التحديد ، ولا كيف يختلف الفرد الواحد عن الآخر ، بل ليس في مقدورنا حتى اكتشاف خصائص إنسان معين .

وفي المجالات العملية يميل الآباء والمربون إلى إخضاع الأطفال لنظام واحد ، لأنهم لا يعرفون كيف يقفون على فرديتهم . وكذلك الأمر في طرق العمل الحديثة ؛ لا تقيم أي وزن لشخصية العمال ، جهلاً بحقيقة أن الناس جميعاً مختلفون . والغالبية منا غير منتبهين لميولهم الخاصة ، ومع هذا فكل شخص لا يستطيع أن يعمل كل شيء . وكل فرد يهيئ نفسه بسهولة — تبعاً لمميزاته — لنوع معين من العمل أو طريقة خاصة للحياة ، ونجاحه وسعادته تعتمد على المجانسة بينه وبين بيئته . فلا بد أن يتلاءم مع جماعته كما يتلاءم المفتاح والقفل . وواجب الآباء والمدرسين أن يهيئوا أنفسهم أولاً وقبل كل شيء لمعرفة الصفات الوراثية لكل طفل وإمكانياته . ولسوء الحظ أن الدراسة النفسية العلمية لا تستطيع أن تقدم معونة ذات أثر ، وليس للاختبارات المجراة على أطفال المدرسة وتلاميذها بواسطة علماء النفس

غير الخبيرين ، ليست لها أهمية كبيرة . وما زال حتى اليوم لا يمكن وزن الفردية واستعداداتها ، ولكن مراقباً حكيماً يستطيع أن يكتشف المستقبل من المميزات الحالية لفرد معين .

ومن الظواهر التي تتجلى فيها الفردية ظاهرة المرض ؛ فليس هناك مرض واحد عند كل مريض ، بل هناك أمراض بمقدار ما هنالك من مرضى . ومظهر المرض الواحد ومقدار سريانه في الجسم يختلف عند كبار السن عنه عند الشباب مثلاً . المرض بكلمة جامعة حادثة شخصية تتكون من الفرد نفسه . وربما كان من الصعب قيام علم الطب بناء على مجرد عدد كبير من الملاحظات الفردية . وكان لا بد من تنظيم حقائقه وتبسيطها بواسطة التجريدات ، ولكن هذا النوع من العلم وسق ناقص وإن كان مريحاً ويسهل تعليمه ، ولسوء الحظ أننا قنعنا بهذه النتيجة .

إن المعرفة الطبية يجب أن تمتد وراء علم الأمراض . ولا بد من التمييز بين المرض كما تصفه الكتب (وفيها تظهر لنا الصورة المجردة والأحكام العامة التي أشار إليها كارل في مستهل كلامه) وبين المريض المحسوس (أي الفرد) المراد علاجه ، والذي لا يجب أن يدرس فحسب ، بل أيضاً يجب أن يخفف عنه ، وأن يشجع وأن يشفى . ودور الطبيب هو اكتشاف خصائص فردية المريض ، ومقدار مقاومته وحساسيته بالنسبة للمرض ، وقيمة قواه العضوية ، وماضيه ، ومستقبله . ونتيجة مرض ما في مريض معين يجب أن يتنبأ بها لا بحساب الاحتمالات الممكنة ، ولكن بالتحليل الدقيق لشخصية الفرد في جوانبها المختلفة .

وما يزال كثير من الأطباء يتبعون المجردات وينسون الأفراد ، وبعضهم يعتقد أن معرفة المرض هامة مثل معرفة المرض ذاته . والأولون يودون البقاء في جو الرموز ، والآخرون يشعرون بضرورة فهم المحسوس .

والحقيقة أنه يجب — كما سبقت الإشارة — الجمع بين الجانبين ؛ فيجب دراسة الفرد ، كما يجب دراسة المرض . وفشل الطبيب يأتي من أنه يعيش في عالم خيالي ؛ فبدلاً من عنايته بالمريض ، إنما به يهتم بالأمراض كما هي موصوفة في البحوث الطبية ؛ وهو بعمله هذا يكون ضحية الاعتقاد في العموميات .

إن مهمة الطبيب تشبه إلى حد بعيد مهمة البائع الذي يحاول أن يلائم بين الأردية ذات المقاس الواحد وبين أفراد مختلفين في الحجم ، وإذا تركنا التشبيه فإنه لا يحقق واجبه ما لم يكتشف الخواص النوعية لكل مريض ، ونجاحه يعتمد لا على معرفته فحسب ، بل أيضاً على قدرته على الإمساك بالخصائص التي تجعل كل كائن بشرى فرداً .

وهناك أصلان يعدان الفرد ويؤثران فيه ويكيفان حياته ، هما : الوراثة (ما يرثه الفرد من خصائص أبويه التي تبدو ظاهرة للعيان ، وما يرثه من خصائص جنسه بوجه عام) ، والنشأة . فمن هذين الأصلين تظهر الفردية . ولكن ترى تكون الوراثة أهم من النشأة أم العكس ؟ يدعى واطسون Watson والسلوكيون أن التربية والبيئة قادرة على تكييف الإنسان بحسب الصورة المطلوبة . ويمكن أن تكون التربية هي كل شيء ، وألا تعد الوراثة شيئاً ذا بال . وعلى العكس من ذلك يعتقد علماء الوراثة أنها بالنسبة للإنسان مثل حظه المقسوم ، وكلتا المدرستين قد نسيت أن مثل هذه المشكلة لا يمكن حلها بالمحاجة ، ولكن يمكن ذلك فقط بالمشاهدات والتجارب .

وتعلمنا المشاهدات والتجارب أن عناصر الوراثة والنشأة تختلف في كل فرد ، وأن قيمتها لا يمكن تحديدها . ولهذا كان من العادي أن توجد بين الأطفال من نفس الأبوين والذين نشأوا مجتمعين وربوا بنفس الطريقة — من العادي أن توجد اختلافات جلية بينهم في الشكل والقامة والنظام العصبي والميول العقلية والصفات الأخلاقية .

وواضح أن هذه الاختلافات ترجع إلى أصل وراثي خاص بالأجداد . وكذلك الأمر بالنسبة للحيوانات . فإذا أخذنا — على سبيل المثال — مجموعة من الأجراء في حجر أمها وجدنا أن استجابتها للأشياء الخارجية تختلف من حيث نوعها ومظهرها . ويكون هذا النوع من الاستجابة صفة ملازمة للفرد من الأجراء طيلة حياته . وإذا كان من الممكن أن يكون هناك نوع من التشابه أو التوحد بين كائنين في الجرثومة الواحدة لاكتسابهما نفس الخصائص الوراثية فإنهما يفقدان مثل هذا التشابه أو التوحد إذا هما فصلا منذ بداية حياتهما وعوملا بطرق مختلفة وفي بيئات مختلفة . وفي سن الثامنة عشرة أو العشرين تظهر بينهما اختلافات واضحة ، وأيضاً مشابهات واضحة خاصة من وجهة النظر العقلية .

ما هو الأثر الذي يتركه الجنس في بنية الجسم والعقل ؟

دلت كثير من المشاهدات والتجارب على أن بعض مظاهر معينة فى الفرد تكون موجودة من قبل فى الجرثومة وأن البعض يمكن فقط وجوده. وعلى ذلك فالجنس يؤثر فى الفرد بطريقتين: طريقة ثابتة خاصة بذلك الجزء من المظاهر الموجودة من قبل فى الجرثومة؛ فهذه تترك فى الفرد خصائص مستقرة، والطريقة الأخرى خاصة بتلك الإمكانيات فى الفرد؛ وهذه تؤثر فى صورة ميول الفرد التى قد تصير — وقد تفشل فى أن تصير — ذات أثر، تبعاً لظروف النمو والتقدم.

والجنس على وجه العموم يتقرر منذ اللحظة التى تتحد فيها خلايا الذكر بخلايا الأنثى. والبيضة التى ستفرخ فى المستقبل ذكراً تختلف عن تلك التى ستفرخ أنثى. وبهذا تختلف كل خلايا جسم الرجل من خلايا المرأة. وترجع غالبية صفات الفرد السلبية والإيجابية إلى عوامل الوراثة، ولكن هذه الصفات وظهورها فى الفرد منوط بظروف حياته. فضعف العقل والجنون وغيرها من العيوب وراثية، وكذلك تنتقل بعض الأمراض من الآباء إلى الأبناء، ولكن كميل واستعداد فقط. والذى يمكن أن يمنع — أو يحقق — وقوعها هى ظروف نشأة الفرد. وكذلك الأمر بالنسبة للقوة والنشاط وقوة العزيمة والذكاء وغيرها من الصفات الإيجابية. ويمكن أن تقرر قيمة كل فرد فى حدود ميوله الوراثية، ولكن لا يمكن التنبؤ بخصائص نتائج زواج معين، نظراً لأن الناس ليسوا من نسل أصيل خالص من الشوائب. ومع هذا، فمن المعروف أن الأطفال المولودين فى الأسر الراقية يحتمل كثيراً أن يكونوا من نوع أرقى من هؤلاء المولودين فى الأسر الدنيا. ومن الممكن أن يشتمل نسل الرجل العظيم على أطفال منحطين، كما أن أسرة خاملة يمكن أن تخرج رجلا عظيما.

يتكون الفرد من مجموع استعداداته وميوله الوراثية وصفاته المكتسبة من البيئة. وهذه الاستعدادات الوراثية تطبع الفرد فى مراحل نموه بطوابع معينة لا يسمح لها بالظهور على مسرح الحياة إلا البيئة نفسها. ومن أجل ذلك تختلط الاستعدادات والميول الوراثية بالصفات المكتسبة من البيئة إلى درجة يصعب فيها التمييز بين ما هو وراثى وما هو مكتسب. وحقيق أن هناك بعض الخصائص التى لا يصعب ردها إلى الأصل الوراثى مثل لون العيون والشعر وقصر النظر وضعف العقل، ولكن الكثير من الخصائص الأخرى يعتمد على ما للبيئة من أثر، سواء فى الجسم أو العقل. ومن الجدير بنا هنا أن نسجل — مع ذلك — أن كل فرد ينمو بطريقته الخاصة وتبعاً للصفات النوعية لأنسجته. وأما من حيث الميول فإننا نختلف من حيث قدرتها على التحقق.

وإذا ثبت أن للبيئة أثرها فى الفرد فإنه ليس من المستطاع التنبؤ إلى أى حد سوف تتأثر ميول طفل ما بثقافته وأسلوب الحياة والظروف الاجتماعية المحيطة. والأمر بالنسبة لتلك الميول أشد تعقداً، فلسنا ندرى كيف تتسرب إليه البذرة من آبائه وأسلافه وتستقر فى البويضة التى يتكون فيها، ولسنا نستطيع تحديد سلسلة هؤلاء الأسلاف بعدد معين، فقد تشترك فى نمو الجنين إمدادات لأسلاف بعيدين منسيين، بل لسنا ندرى ما إذا كانت التغيرات التلقائية فى الجنين نفسه لا يمكن أن تسبب ظهور بعض الخصائص غير المتوقعة. ولذلك يحدث أحياناً أن طفلاً ما عرفت ميول أسلافه فى عدة أجيال يظهر خصائص جديدة كل الجدة ولم تكن متوقعة. ومع هذا فإن أثر البيئة ذاتها يمكن أن يتوقع فى حدود معينة فقط؛ فظروف النمو لا يمكن — مثلاً — أن تخلق من الجبان شجاعاً، ولا من الكسول نشيطاً، فليست الشجاعة والحيوية والذكاء مرجعها الأول والأخير هو البيئة، وإنما هى تصلح للعمل فقط فى حدود الاستعدادات الوراثية.

وإذا ما استقرت استعدادات معينة للفرد وولدت معه فإن هذه الاستعدادات تكون عرضة لكثير من العوامل التى قد تنميها، أو تنحرف بها، أو تخمدها. هذه العوامل كيميائية ونفسية وفسيولوجية. فأما من حيث العامل الكيميائى فإن نقص الفيتامين مثلاً يمكن أن يؤدى إلى إهمال عمل الخصية أو أى غدة أخرى. وبهذه الطريقة يقف تقدم الفرد الذى كان من الممكن أن يصير — نظراً لصفاته الوراثية — زعيماً لأمة. ومن ذلك يتبين لنا أن جميع أحوال البيئة الطبيعية والكيميائية قادرة على التأثير فى تحقيق إمكانياتنا، وليس مظهرنا العقلى والعضوى — إلى حد بعيد — إلا أثراً من آثارها.

أما العوامل النفسية فأثرها فى الفرد أعظم؛ فهى التى تعطى حياتنا صورتها العقلية والأخلاقية، وقد تصل بنا الحال إلى السيطرة على نموّنا أو إهمالنا. وتربية العقل والميول النفسية لها أثرها على الفرد من حيث نفسه وجسمه. ولسنا ندرى إلى أى حد تستطيع التأثيرات العقلية الصادرة

من البيئة أن تساعد أو تخنق الميول الوراثية ، ولكنها — بلا شك — تلعب دوراً رئيسياً في حظ الفرد . وأحياناً ما تقضي على أرقى الصفات العقلية فيه . هي — على وجه العموم — تذهب ببعض الأفراد وراء كل النبوءات . وهي تساعد الضعيف ، وتزيد القوى قوة (قرأ بونابرت الصغير بلوتارك فاجتهد في أن يفكر ويعيش كما صنع الرجل العظيم في القدم) .

إن أثر البيئة على الفرد يختلف تبعاً لحالة الأنسجة والإدراك . وبعبارة أخرى فإن العامل الواحد الواقع على أفراد عدة أو على الفرد الواحد في فترات مختلفة من وجوده لا يكون له نفس الأثر . ومقدار استجابته للبيئة يعتمد على ميوله أو استعداداته الوراثية . فالعقبة التي تقف في وجه شخص ما تحض آخر على بذل مجهود أعظم ، وتحدد له تحقق الإمكانيات التي كانت قد بقيت مدة طويلة مختبئة . وعلى الجملة فإن نصيب البيئة في تحقيق الاستعدادات الوراثية لشخص معين لا يمكن تحديده بالضبط .

وأما فيما بين الفرد والطبيعة أو الكون فمسألة ما زال الجزء الغامض فيها أكبر من الجزء الواضح . فمن المعروف أن الفرد ظاهرة تختلف تمام الاختلاف عن العالم المادي ، وكذلك عن الكائنات الحية الأخرى . وهو في الوقت نفسه مرتبط بأمثاله وبيئته ، ولا يستطيع الحياة بدونهم . وهو كظاهرة مستقل عن الكون وإن كان يعتمد عليه . ونحن لا نعرف كيفية ارتباطه بالكائنات الأخرى حيث تمتد حدوده الزمانية والمكانية ؟ فالشخصية تمتد خارج المحتوى المادي للجسم ، وحدودها أبعد بكثير من أن تقف عند سطح الجلد . فكل شخص منا أكبر بكثير وأبعد امتداداً من جسمه ، وعالمنا الداخلي على اتصال دائم بالكون . فالحدود التشريحية ليست إلا مظهراً من مظاهر الفردية ، وليست أسواراً تحبس شخصيتنا العقلية . الحب والكراهية حقيقتان يرتبط الناس في الشعور بهما الواحد بالآخر بشكل إيجابي ، مهما كانت المسافة بينهما . فإذا استطعنا أن نرى هذه الحلقات غير المادية لظهر لنا الكائن البشري في مظاهر جديدة وغريبة . وبعض الناس لا يستطيع أن يمتد وراء حدوده التشريحية ، بعكس البعض الآخر — كزعماء الأمم والقديسين والمحبين للبشر — الذين يبدون كأنهم يفرشون أجنحتهم على القطر من الأقطار ، وعلى القارة من القارات ، وعلى العالم أجمع .

وهناك علاقات غامضة ومحيرة بين بعض الأفراد والطبيعة . فهؤلاء يظهرون كأنهم يخرجون من نطاق أنفسهم . ومن هؤلاء أنبياء العلم والفن والدين . وهم ينجحون عادة في أن يدركوا في ظلمات المجهول موجودات كاملة هي المجردات الرياضية ، والمثل الأفلاطونية ، والجمال المطلق ، والله .

وكما يمتد الفرد في المكان خارج حدود الجسم فكذلك يمتد خارجها في الزمان فيتصل بالماضي والمستقبل .

ومن المشهور أن الخصائص التي يكتسبها الفرد في حياته لا تنتقل إلى ذريته ، ولكن من المحقق أن نتائج أخطائه تنتقل إليهم . وبهذا يترك كل فرد طابعه على بيئته ومنزله وأسرته وأصدقائه ، ويعيش كأنما هو محاط بنفسه . ومن الممكن أن ينقل صفاته إلى ذريته في أثناء ما يقوم به من أعمال وتصرفات . فالطفل يعتمد على أبويه فترة طويلة يدرس فيها كل ما يمكن أن يعلماه ، ويستغل قواه الغريزية لتقليدهما ، ويميل إلى أن يصير مثلهما . وهو يقلد — فيما يقلد — الجهل والجبن وغيرهما . وطبيعي أن يكون هناك أنماط كثيرة من الآباء . وبعضهم يتركون لنسلهم ميراثاً من الذكاء والطيبة والإحساس الفني والشجاعة . وبعد موتهم تستمر شخصيتهم حية خلال كشوفهم العلمية وإنتاجهم الفني ، وفي المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أقاموها ، أو على الأقل في المنزل الذي بنوه والحقول التي زرعوها بأيديهم . ومثل هؤلاء الناس خلقت مدنيتنا .

إن المجتمع الحديث يتجاهل الفردية ويهتم « بالإنسان » العام المجرد ؛ فهو يعامل الناس باعتبارهم مجردات . وهذا الخلط بين الفرد « والإنسان » بصفة عامة مجردة قد جر المدنيات الصناعية إلى خطأ أساسي ، هو إخضاع الناس لنظام واحد . وحق أنه إذا كنا نحن جميعاً متشابهين كان من الممكن أن نعيش في منظمات ضخمة كالمطابع ، ولكن الواقع أن كل واحد منا له شخصيته . ولهذا لا يجب إرسال الأطفال في سن صغيرة إلى المدرسة حيث يربون في نطاق واسع ، فهذه أول خطوة خاطئة في أسلوب التربية ، ومن الأفضل أن تترك للطفل الصغير فرصة الانفراد بدلا من محوه تماماً بوضعه في غمار أعداد ضخمة من الأطفال . ومن المشهور أنه قد نشأ معظم الرجال العظام في عزلة وانفراد . وطبيعي

أنه لا يمكن الاستغناء عن المدرسة في الدراسات الفنية ، فهي تفي — إلى حد ما — بحاجة الطفل إلى الاتصال بأطفال آخرين . ولكن التربية يجب أن تعالج بالتوجيه الناجح ، وذلك التوجيه يرجع إلى الأبوين ، فهما وحدهما ، أو — على وجه الخصوص — الأم تلاحظ منذ البداية خصائص أطفالها العقلية والنفسية التي تهدف التربية إلى معرفتها . وقد اقترف المجتمع الحديث خطأً خطيراً باستبداله المدرسة بالترتيب العائلي نهائياً ؛ فالأمهات يرسلن أطفالهن إلى روضة الأطفال ليتفرغن إلى أعمالهن ورغباتهن الاجتماعية وأخيلتهن الأدبية أو الفنية ولعب الورق والذهاب إلى السينما وإضاعة أوقاتهن في عبث شائق ! وهن بعد مسئولات عن ضياع أطفالهن في غمار باقي الأطفال في المدرسة ، وحرمانهم من مجتمع الأسرة الذي يجدون فيه أكبر الفائدة . فوجوده في المدرسة مع أمثاله من الأطفال لا يفيده كثيراً ، ويظل هو غير مكتمل ، فلابد للفرد — كما سبق — لكي يصل إلى منتهى قوته ، من العزلة النسبية ، تلك العزلة التي تتحقق في جو الأسرة ومجتمعها الصغير . وكما تهمل فردية الأطفال تهمل كذلك فردية الشبان مما أدى إلى ضعفهم عامة وفقدانهم الثقة بأنفسهم .

ليس من الممكن أن يحيا الإنسان حياة طيبة تتسع لنشاطه وشخصيته في الظهور إذا هو ارتمى في غمار المدن الحديثة الهائلة ، بل على العكس فإنه يضيع فيها وتضيع فرديته في غمار هذا القطيع ، ولا يشعر بمسئولية أو كرامة . وفوق رءوس الجميع يقوم الرجل الغني والسياسي القوي أما الباقون فليسوا سوى ذرات من التراب ليس لها أسماء . وعلى العكس من ذلك الفرد فإنه يعيش رجلاً بمعنى الكلمة عندما ينتمي إلى مجموعة صغيرة وعندما يسكن القرية أو المدينة الصغيرة حيث تكبر أهميته النسبية ، وحيث يجد فرصة لأن يأمل في أن يصير بدوره مواطناً ذا أثر .

وخطأ آخر يرجع إلى الخلط بين الفرد الجزئي و « الإنسان » بصفة عامة ، هو المساواة الديمقراطية . هذه العقيدة تتحطم الآن تحت ضربات تجارب الأمم ، ولذا فليس من الضروري أن تؤكد زيفها ، ولكن من العجيب أن نجاحها استمر مدة طويلة . فكيف قبلت الإنسانية مثل هذه العقيدة سنين عدة ؟ إن الفكرة الديمقراطية لا تحسب حساباً لقانون أجسامنا وإدراكنا ، ولا تعي بالحقيقة الملموسة التي هي الفرد ، حقاً أن الكائنات البشرية تتساوى ولكن لا تتساوى الأفراد . وتساويهم في الحقوق فكرة خاطئة ؛ فضعاف العقول والعباقرة لا يجب أن يتساووا أمام القانون . وكذلك الأغبياء وغير الأذكياء وغير القادرين على الملاحظة وبذل المجهود ليس لهم حق في الثقافة العالية ، ومن المضحك أن يعطوا حق الانتخاب مثل الأفراد الناضجين تمام النضج . والأجناس أيضاً ليست متساوية . وإهمال هذه الفروق أمر جد خطير .

إن المبدأ الديمقراطي قد ساعد على عرقلة تقدم الفرد الممتاز في المجتمع . وواضح أنه — على العكس من ذلك — يجب احترام الفروق الفردية . إن المجتمع الحديث يحتاج إلى الكبير والصغير والمتوسط والأقل منه ، ولكننا يجب ألا ننشئ الأنواع العالية بنفس الطرق التي تنشأ بها الأنواع المنحطة . وإخضاع الناس لنظام واحد — في الديمقراطية — يقرر قوة الضعاف . والضعاف مفضلون في كل مكان على الأقوياء ، ويساعدون ويحمون ، شأنهم في ذلك شأن المريض والمجرم والمجنون ، فإنهم يستثيرون عطف الجمهور . وفي هذا تبدو ملامح النزعة الإنسانية التي يتشدق بها الكثيرون .

إن أسطورة المساواة ، وحب التجريد ، وكره الحقيقة الملموسة ، كل ذلك مسئول — إلى حد بعيد — عن طمس الفردية . ولما كان من غير الممكن النهوض بالأنواع المنحطة كانت الوسيلة الوحيدة لبث المساواة الديمقراطية بين الناس هي النزول بالجميع إلى المستوى الأدنى . ومن هنا امحت شخصيات الأفراد .

هذه هي بعض الجوانب التي تتجلى فيها الفردية بكل وضوح ، ومن الممكن أن تضاف إليها الجوانب الأخرى الفكرية والنفسية والأخلاقية والجمالية ، فتزيد صورة الفرد تفرداً . وتحملنا على الاهتمام بالفرد كظاهرة واقعة محسوسة ، وتنظيم حياتنا في البيت والمدرسة والمجتمع على الأساس الذي ينظر إلى الفرد هذه النظرة ؛ ولعلنا بذلك نكون قد أقمنا شيئاً يمكن أن يكون له صفة الاستقرار والدوام ، وهو في الوقت نفسه يضمن لهذا العالم مدنيات من نوع أرقى ، كما يضمن للأفراد حياة مليئة خصبة .

عز الدين اسماعيل

ڤولتـــــير

١٦٩٤ – ١٧٧٨

للأستاذ موسى الزاوى

من المعروف أن كتابات ڤولتير وجان جاك روسو تعتبر المعاول الأولى التي هدمت صرح الملكية الاستبدادية في فرنسا، ومهدت الطريق إلى عهد الحرية والإخاء والمساواة كما سمى عهد الثورة الفرنسية.

وقد عاصر ڤولتير روسو، بل إنهما ماتا في عام واحد وإن كان الأول قد سبق الثاني إلى الدنيا بنحو ثمانية عشر عاما. ومع اتحاد أهدافهما في مقاومة الظلم والعدوان لم تكن العلاقات بينهما على ما يرام، وليس هنا مجال الدخول في تفصيلات هذا الخلاف المؤسف. ولكن جدير بنا أن نذكر أن الكاتبين العظيمين كانا على طرفي نقيض! فروسو كان شخصاً حيياً خجولا يميل إلى العزلة والوحدة، في حين كان ڤولتير جريئاً اجتماعياً كثير الأصدقاء.

ولعل وجه الشبه الوحيد بينهما — إن اعتبر كذلك — هو ذلك القلق الدائم والخوف المستمر الذى لازم حياتهما واستبد بهما. فقد عاشا في عصر ينكر عليهما التفكير السليم والنقد النزيه، ويطلب منهما أن يكفا أقلامهما، ويغضا أبصارهما عن المظالم والمساوئ، ويجعل ضريبة الشجاعة الأدبية والتفكير الحر: الاعتقال والاضطهاد والسجن والنفى.

لذلك عاش أديبانا الكبيران في قلق وخوف مقيمين، لم يستقر لهما قرار. حتى لقد ظل روسو[1] ينتقل من بلد إلى بلد ومن حام إلى حام، كذلك فعل ڤولتير — كما سنرى — حتى لقد ظل ستين عاماً من حياته يسكن بيوت غيره! لا يكاد يشعر بالأمان والسلام. على أنه إذا كان قد افتقد الأمان والسلام، فإنه قد جعل حياة أعدائه جحيما لا يطاق بلواذعه وسخرياته التي كانت تنهال على رءوسهم كوابل من المطر!

ثم! فقد جعل مهمته — مدى نصف قرن من الزمان — أن يمزق بالفكاهة والسخرية، الخرافات والأقنعة الزائفة التي كانت تستر النظم السياسية والاجتماعية السائدة في عصره.

سمع ذات يوم أن الوصى على عرش فرنسا باع نصف الجياد في اصطبلات الملك، فعلق على الخبر ساخراً «كان أفضل لو عزل نصف الحمير الذين يملأون البلاط الملكى!»

وقد بدأ هذا الساخر الأكبر حياته بمزحة. فقد ولد نصف مائت وقدر له الأطباء أربعة أيام في الحياة، ولكنه سخر منهم وعاش أربعة وثمانين عاما!

وختمها بمزحة، فحينما كان على سرير الموت جاءوه بقس ليعترف له، فسأله: من أرسلك ياسيدى الأب؟ فأجابه رجل الدين: «الله يامسيو ڤولتير» فرد عليه: «آه، ياسيدى العزيز، وأين هي أوراق اعتمادك!»

كان نحيفا كأنما هو هيكل بشرى، طويل الأنف، وبوجهه آثار جدرى وله عيون ساخرة، دقيقة كالخرز، وهو على العموم قبيح الشكل، ورغم أنه كان عليلا ودائم الشكوى من صحته فقد كانت له قوة احتمال فائقة.. وقد كان إلى جانب حيويته النفسية والجسمانية شديد الذكاء، فقد استطاع وهو في الثالثة من عمره أن يحفظ عن ظهر قلب، خرافات لافونتين وقصيدة «الموسويات» وسيكون لهذه القصيدة التي تعرضت بالسخرية والذمة لكافة الأديان أثر كبير على أفكار ڤولتير الدينية.

وكان والده الروحى (بالعميد) الأب شاتوف كثير السخرية دائم التنويه بذكائه، فذكره لصديقته العجوز نينون دى لنكلو وهى ثمانية في الثمانين من العمر، فطلبت منه أن يقدمه إليها، وقد أوصت له عند وفاتها بمبلغ من المال ليشترى به كتباً.

(١) راجع مقالنا عن روسو بالعدد ٦١٨ من الثقافة

وفي العاشرة ألحقه والده بمدرسة يسوعية هي مدرسة لويس لجراند Louis Le Grand حيث أدهش أساتذته بسرعة خاطره وذكائه المفرط ، وكان عمله المدرسي موفقا على أحسن مايتمنى والد لولده .

ولما بلغ الثانية عشرة كان يقرض الشعر بسهولة ويسر متناه ، وكان والده سعيداً بنجاح ولده فخوراً بذكائه ، لذلك شعر — وكان مسجل عقود شهير — بخيبة أمل مُرة عندما أعلنه صغيره أنه يريد أن يكون كاتباً .. فقد كان يرى « أن مهنة الأدب لاطائل وراءها ، وتؤدى بصاحبها إلى الموت جوعاً » .

لذلك أرسله عقب تخرجه من مدرسة لويس لجراند وكان في السادسة عشرة إلى مدرسة القانون على أمل أن يثنيه عن عزمه ويصبح من رجال القانون ، ولكنه أهمل دروسه وخصص أوقاته لقرض الشعر والمطالعة والحب .

وكمحاولة أخيرة من والده لشترى له منصباً قضائياً ، ولكنه رفضه بإصرار : « لا أريد لنفسى مهنة غير مهنة الأدب » .

وفي أواخر عام ١٧١٣ اختير الأب شاتونوف ممثلاً لفرنسا في هولندا فاختاره ليكون وصيفاً ضمن حاشيته .

وبدأ فولتير حياته في الخارج بأن أصبح عاشقاً ! إذ التقى في لاهاى بفتاة جميلة تدعى أولمب ، وهي ابنة سيدة أفاقة تحترف بيع الكتب والصحافة .

غير أن الأم لم توافق على هذا الحب ، ففولتير كان آنذاك رقيق الحال ، وهي ترغب لفتاتها عاشقاً ثرياً ، فبذلت جهدها للتفريق بينهما ، واشتكته للسفير ، الذي اضطر أمام تهديداتها إلى إعادته إلى باريس .

وفي عام ١٧١٥ توفى لويس الرابع عشر وتولى الوصاية على العرش الدوق فيليب دورليان ، فاستبشر الناس بالعهد الجديد خيراً ، فقد كان المعروف عن الوصى الجديد أنه رجل طيب القلب يحب الحرية حباً عظيماً ، وشمر الشاب فولتير عن ساعده وكتب قصيدة نقد لاذع في الوصى الحر ! فكان جزاؤه أحد عشر شهراً في سجن الباستيل .

وفي السجن اتخذ اسم فولتير ، وفيه كتب أولى أعماله الأدبية : الهنرياد وهي قصيدة قصصية طويلة عن هنرى الرابع النافارى .

وكانت العادة حينذاك أن يتبع السجن الإبعاد عن باريس فترة من الزمن ، فدعاه الدوق دى بثين Bethene إلى قصره بسولى ، فقبل الدعوة على الفور ، فإن السجن قد هدَّ صحته وأضعفها على ضعفها الأول ، وشعر أنه في حاجة إلى هواء الريف النقى .

وفي سولى التقى بمدموازيل دى ليفرى ، وهي فتاة تعد نفسها للمسرح ، فأحبها وأصبح عشيقها وقد كتب لها طائفة من المسرحيات تمثلها .

وفي فترة غيبه عن باريس أخرجت مسرحيته « أوديب » وقد استمر عرضها أكثر من أربع وخمسين ليلة متتالية ، وهو نصر لم تعرفه مسارح باريس حتى أيام راسين وكورنى .

على أن هذا النجاح الكبير لم يكن راجعاً إلى المسرحية ذاتها ، ولكنها الأحداث التى أحاطت باسم فولتير من سجن ونفى وماشاع على الألسنة من أن هذه المسرحية ، إنما كتبت تعريضاً بالوصى الفاضل الذى قيل إنه زنى مع ابنته .

على أية حال فقد لاقت أوديب — التى تجرأ فولتير وأهداها إلى زوجة الوصى ! — إقبالا منقطع النظير وأكسبته صيتاً ومجداً وشهرة .

ولا شئ ينجح كالنجاح ، فقد عفا عنه الدوق ومنحه نوطاً ورتب له معاشا .

ثم مات والده أروبه مخلفاً له ثروة كبيرة لم يلبث أن بددها في مشروعات خيالية ، لذلك فكر في نشر « الهنرياد » وطلب الإذن بالنشر ، ولكن الطلب رفض لأنها تعرضت لمسائل دينية دقيقة ، فطبعها سراً في روان ١٧٢٣ وأشرف بنفسه على إخراجها . وفي أثناء ذلك مرض بالجدرى واشتد مرضه حتى أوشك الموت أن يطرق بابه ولكنه عوفى ، وإن كان المرض قد ترك آثاره على وجهه .

ثم وجد فولتير نفسه مرة أخرى في الباستيل ، فقد تشاجر مع الشيفاليه دى روهان في دار الأوبرا لسبب غير معلوم على وجه الدقة .

وذات يوم وكان في ضيافة الدوق دى سولى استدعى إلى الخارج فإذا به يفاجأ بخدم دى روهان ينهالون عليه ضربا فاستشاط فولتير غضباً ودعا غريمه إلى المبارزة ، وفي اليوم الذى كان محدداً للمبارزة قبض عليه وأودع السجن ، لقد خشى دى روهان أن يكون سيف فولتير حاداً حدة لسانه فطالب بحماية مدير البوليس .

ومكث في السجن أسبوعين ثم أفرج عنه بناء على طلبه على أن يغادر فرنسا ، وغادرها فعلاً إلى انجلترا ووصلها عشية الاحتفال بعيد ميلاد الملك .

وفي انجلترا وجدت عبقريته متنفسا ، وقد استطاع أن يتعلم اللغة الانجليزية بسرعة ، ولم يمض عليه عام وبعض عام حتى امتلك ناصية آدابها واستطاع أن يتفهمها ويتذوقها ، وقد أعاد نشر الهنرياد خلال إقامته في انجلترا وكسب من ذلك مالاً طائلا وقد أهدى هذه الطبعة إلى المليكة كارولين مليكة انجلترا .

وفتن فولتير بالحرية الفكرية السائدة في هذه البلاد ، حتى لقد فكر في إقامة دائمة بها ، كتب إلى أحد أصدقائه الفرنسيين يقول : « في هذا البلد يستطيع الإنسان أن يستخدم عقله بحرية ودون خوف ، ولو أني استجبت لمواطني لأقمت هنا ، على الأقل لأتعلم كيف أفكر . »

وفي انجلترا تعرف فولتير بجوناثان سويفت مؤلف رحلات جلفر ، وقد أعجب به فولتير وأحبه وكان يسميه « رابليه انجلترا » وعندما ظهرت قصة جلفر شغل بنقلها إلى الفرنسية ، ومن المعروف أن قصة فولتير Micromégas (الضئيل الكبير) مستلهمة من قصة سويفت .

وفي انجلترا أيضاً كتب كتابيه : تاريخ شارل الثاني عشر ، والرسائل الانجليزية أو الفلسفية . وفي هذه الرسائل حاول أن يقابل الحرية الانجليزية بالعبودية السائدة في فرنسا في قالب من السخرية والفكاهة . فأبان حكمة النظام الانجليزي « الذي يترك للملك كامل السلطة لفعل الخير ، ولكنه يغل يده عن اقتراف الشر » ، وأثنى على مجلس العموم وامتدح نظام الضرائب « كل شخص يدفع ، ليس تبعاً لطبقته الاجتماعية بل تبعاً لدخله » ، وأبدى اهتماماً بالحالة السعيدة التي عليها الفلاحون البريطانيون بالمقارنة إلى زملائهم التعساء من الفلاحين الفرنسيين : « إن أقدام الفلاح الإنجليزي ، ليست مرضوضة من جراء الحذاء الخشن ، فهو يأكل خبزاً أبيض ويرتدي هنداماً لائقاً ، ولا يتردد في تغطية سطح منزله بالقرميد ، خشية أن يرفع جباة الضرائب ما يدفعه في العام القادم ! » ، وامتدح فولتير فوق هذا حرية القول السائدة : « لأي شخص الحق في أن يتكلم جهراً وعلانية ... أو أن يطبع آراءه في المسائل العامة » .

ولكنه رغم إعجابه بانجلترا فإنه شعر بالسعادة عندما ألقى أصدقاؤه وسمح له بالعودة إلى فرنسا ، فإن الضباب اللندني تسرب إلى عظامه ، وكان مشوقاً إلى مد أطرافه الملتوية في دفء الشمس الباريسية : « إني أحب انجلترا ولكني مع ذلك أود أن أعيش في باريس » .

وعاد فولتير إلى فرنسا في عام ١٧٢٩ وأقام في سان جرمان بعض الوقت ، ومنها كتب إلى الوزير موريا يرجو منه أن يسمح له « بجر أغلاله إلى باريس » .

وهكذا عاد فولتير إلى باريس بعد غيبة ثلاثة أعوام ، ولكن إقامته لم تطل فيها ، فلم يلبث أن وجد نفسه يغوص من جديد في مشكلات ، فقد توفيت في عام ١٧٣١ الممثلة العظيمة « أدرين ليكوفرر » وكان فولتير شديد الإعجاب بها ، فلما رفضت الكنيسة أن تقام لها الطقوس الدينية المعتادة ، استشاط غضباً ، ونظم قصيدة قدح وهجاء ، اعتبرتها الكنيسة كفراً وإلحاداً ، فاضطر إلى الفرار إلى روان ، وهناك باشر سراً نشر رسائله عن الإنجليز ، ولكن إحدى النسخ وقعت في يد مسئول حكومي فتألبت عليه قوات البوليس وصادرت الكتاب ، وقرر البرلمان في العاشر من شهر يونيه ١٧٣٤ إحراقه وقبض على الناشر وأودع سجن الباستيل وصدر أمر بإلقاء القبض على فولتير .

ولم تكن لدى فولتير أدنى رغبة في العودة إلى الباستيل ، فالتجأ إلى قصر مدام دي شاتليه في سيري ، وهي بلدة على الحدود على مقربة من دوقية اللورين . وقد تعرف فولتير بها في عام ١٧٣٣ ، وهي ليست من ذوات الجمال الطاغي — بل إن هناك من وصفها بالقبح — ولكنها كانت ذات شخصية رائعة ومثقفة ثقافة علمية عالية راغبة شديدة الشغف بالعلوم التجريبية وخاصة الطبيعة .

وكانت ذات طبيعة شهوانية حادة ، ومزاج ناري عنيف ، تقضي أغلب أوقاتها في حجرة مكتبها وأصابعها ملوثة بالمداد ، مؤتزرة (فوطة) قديمة سوداء مما يلبس لوقاية الثياب ، تنقب عن أسرار الكيمياء والطبيعة والفلسفة والرياضيات . وكثيراً ما تقضي الليالي بطولها ترقب السماء خلال تلسكوبها . أما أوقات فراغها فكانت تشغلها بترجمة كتاب نيوتن Principia وقصيدة الإنيادة لفرجيل .

وكانت المركيزة دي شاتليه حين دخل فولتير حياتها زوجة وأماً لثلاثة أولاد وفي السابعة والعشرين . بينما كان هو يكبرها بأحد عشر عاماً ، أما زوجها فكان بعيداً عن قصره مع فرقته في الميدان .

وقد عاش ڤولتير في كنف المركيزة أربعة عشر عاماً كان فيها سيد القصر وعشيق ربته!.

وقد جرى ڤولتير وعشيقته خلال عشرتهما الطويلة على نظام دقيق، فهما ينهضان في ساعة مبكرة من الصباح، حيث يعملان كل في غرفة مكتبه حتى منتصف النهار، فيتناولان طعام الإفطار ثم يعودان إلى عملهما حتى وقت الغداء. وعنده يدعو ڤولتير ضيوفه إلى بعض محادثات عابرة في الرواق المؤدي إلى مكتبه لمدة نصف ساعة، ينهض بعدها وينحني لهم إيذاناً بالانصراف، فيعودون إلى غرفهم، وهم — أي الضيوف — مطلقو الحرية بعد ذلك في تسلية أنفسهم كيفما يشاءون.

أما ڤولتير والمركيزة فلا يظهران بعد ذلك إلا وقت العشاء، فيجلسان إليه مع ضيوفهما، وقد استطالت شهرة هذه الجلسات التي كان ڤولتير روحها ونجمها، يرسلهم في عواصف من الضحك المتصل بطرائفه ونوادره وأقاصيصه الساخرة وتمثيلياته الضاحكة.

وقد طابت لڤولتير عزلته في سيرى، حتى إنه دعي في عام ١٧٤٠ إلى بلاط فردريك الأكبر ملك بروسيا ولكنه رفض.

وفي سيرى كتب مسرحيته ألزير ومسرحية محمد وهي مسرحية سوقية تافهة مليئة بالمطاعن على النبي الكريم وهي التي أهداها إلى البابا، ذلك أنه كان دائب السعي للحصول على عضوية المجمع الفرنسي، ولكن الأساقفة والأتقياء من الأعضاء كانوا يقفون في سبيله لأهاجيه المقذعة في الدين، فلم يجد ما يطيب به خاطرهم إلا أن يكتب هذه المسرحية... وقد أرسلها رأساً إلى البابا الذي كتب له بإعجابه وخصه بالغفران والبركة البابوية... وهكذا لم يجد المجمع بداً من تعيينه في المكان الذي خلا بوفاة الكردينال فلورى (في ٩ مايو ١٧٤٦).

وفي هذه الفترة من حياته كتب طائفة من القصص الرائعة المسلية: صادق، سكر منتادو، البرئ، زاديج، العالم كما يسير، ميكروميجاس، كما وضع مسرحيته ميروب وكتب جانباً كبيراً من رسالته عن الأخلاق والروح عن عصر لويس الرابع عشر، واشترك مع مدام دى شاتليه في وضع رسالة عن نظام نيوتن.

وقد استطاعت المركيزة بنفوذها ومعونة أصدقائها أن تصفي ما كان بينه وبين البلاط، وأن تحصل له على عفو منه، وبذا استطاع ڤولتير أن يعود إلى باريس، ثم أصبح بمساعدة مدام دى بمبادور محظية الملك لويس الخامس عشر، المؤرخ الرسمي للبلاط (١٧٤٥).

وذات مساء دخل ڤولتير على مدام دى شاتليه دون أن يعلنها بقدومه، فوجدها في أحضان شاب يدعى سان لامبير، وهو ضابط وسيم تعرفا به في بلاط حاكم اللورين، فخرج حانقاً غاضباً وفي نيته أن يغادرها إلى الأبد، ولكنها لحقت به واعتذرت له وطيبت خاطره وذكرت له أنها لا تزال مقيمة على حبه، ولكنه أي ڤولتير — أصبح الآن ضعيف الصحة ولم يعد قادراً على القيام «بواجباته نحوها» وعلى ذلك فلا يحق له أن يغضب إذا تولى عنه أحد أصدقائه «هذه المهمة»! والغريب أن ڤولتير اقتنع بهذه الحجة والوجيهة!» وصفت نفسه، ولم يمض زمن طويل حتى أعلنته حبيبته أنها حامل وأبدت جزعها لذلك (إذ كانت حينئذ في الرابعة والأربعين).

وقد حدث ما كانت تخشاه وتوفيت في اليوم السادس من ولادة الطفل (١٧٤٩) وكانت وفاتها صدمة قاسية لڤولتير، الذي طار جنانه وصوابه لفقدها، فبكى بكاء مراً طويلاً وتملكه اليأس وحطمه الأسى.. وبقي أياماً لا يكاد يصدق أنها ماتت، وأنها بعد هذه العشرة الطويلة الرائعة ستختفي من حياته.. وطاردته الذكريات وهو يتجول في أنحاء القصر الذي ضمه وضمها أربعة عشر عاماً، فقرر أن يفر من ذكرياته إلى باريس.. ولكن شيئاً هائلاً كان يدوي في أعماق نفسه، لقد كانت وفاة مدام دى شاتليه نقطة تحول هامة في أفكاره وآرائه، وبدأت نظرته المرحة إلى الحياة تتبدل وتميل إلى الكآبة.

فلما جاءت الأنباء عام ١٧٥٥ بأخبار الهزة الأرضية في لشبونة، ووفاة نحو من ثلاثين ألف شخص في هذه الكارثة، باتت نظرته قاتمة وامتلأت نفسه تشاؤماً، وبدأ يدرك أن الحياة أكثر من أن تكون موضوعاً لنكتة جميلة أو ضحكة ساخرة.

وبينما كانت هذه الثورة الفكرية تجري في ذهنه، ظلت حياته على قلقها، فقد عاود فردريك دعوته إلى بروسيا فرحل إليها في ١٥ يونيه ١٧٥٠ واستمرت إقامته هناك ثلاث سنوات لم تكن موفقة من كافة الوجوه، فإن ڤولتير لم يشأ أن يقنع بمركزه كمثقف لعقل مولاه، بل اشتغل بالتجارة وعمد إلى جمع ثروة كبيرة بوسائل كانت في بعض الأحيان غير شريفة، كذلك حاول أن يتدخل في الشئون السياسية للبلد، حتى انتهى الأمر بين الصديقين بالقطيعة؛ ورحل

فولتير عن ألمانيا نهائياً فى ٢٦ مارس ١٧٥٣ متوجهاً إلى سويسرا حيث اشترى داراً فى لوزان وأخرى فى جنيف دعاها دليس Delice (أى النعيم) ثم قصراً ثالثاً فى فيرنى (١٧٥٨) على التخوم الفرنسية السويسرية .

وهكذا لأول مرة فى حياته يسكن دوراً يمتلكها ! وهو الآن فى الستين يريد أن يعيش بقية أيامه فى عزلة هادئة ، ورفاهية كاملة ، فأثث قصوره تأثيثاً فاخراً ، واستدعى ابنة أخته للإقامة معه .

ولكن أى عزلة هادئة ! إن حياته فى فيرنى التى امتدت نحواً من عشرين عاماً لم تعرف هدوءاً ولا راحة ، بل كانت شيئاً عجباً ، فإن فولتير فى ذلك الوقت قد أصبح بإنتاجه الوفير ، صحفياً بغير جريدة ، فقد نشر طوفاناً من الرسائل والكتب والمقطوعات والنشرات ، وجميعها موجهة ضد كافة أنواع المظالم الاجتماعية والتعصب الدينى الأجوف ، وكان يتفنن فى إذاعتها على الناس بكافة الطرق والوسائل .

وأصبح قصره فى فيرنى معقل الدعوة للحرية ومركز الدفاع عن المظلومين ، ليس فى فرنسا فحسب ، بل فى العالم أجمع . وحسبنا أن نشير إلى قضية كالاس وهو والد بروتستانتى اتهم ظلماً بقتل ولده لأنه أراد اعتناق الكاثوليكية ، وكان الاتهام ظاهر التلفيق . ولكن القضاة حكموا عليه بالموت .. ووصل فولتير خبر القضية فتوفر على دراستها ، ولما تيقن من براءته نهض للدفاع عنه وظل يكتب فى إصرار وعناد ويهاجم القضاة القساة حتى أثار عليهم الرأى العام ، وكان أن أعيدت المحاكمة وألغى الحكم فى ٩ مارس سنة ١٧٦٦

وكان هذا النصر بالغ التأثير فى نفوس الجماهير الذين أخذوا ينظرون إلى فولتير كحاميهم ومتقدمهم ، وتوجهوا بأبصارهم إلى فيرنى حيث يقيم فيلسوفهم كإله على عرشه يقرءون مايكتب ويذيعون ما يقول .. لقد أصبح زعيماً ..

ولم يقف نشاطه فى فيرنى عند هذا الحد ، بل شيد مصنعاً للجوارب الحريرية والدنتلة ، ومصنعاً لصناعة الساعات ، وكان يشرف بنفسه على أعماله التجارية ، وقد حول جزءاً ضخماً من ممتلكاته إلى عماله ، فبنى لهم منازل مثالية وأصلح أراضيهم وشيد لهم كنيسة نقش عليها هذه العبارة « بناها فولتير لله » لأنه رغم آرائه فى الأديان ، كان مؤمناً يمنح الآخرين حرية العبادة .. حتى أصبحت فيرنى — فى أيامه — بلدة غنية سعيدة .

وفى فيرنى أتم رسالته عن الأخلاق وتاريخ بطرس الأكبر وأعد قاموسه الفلسفى .. كما كتب طائفة من القصص الواقعية العميقة كأميرة بابلون ، وجانو وكولان ، والثور الأبيض .. وكتابه الخالد كانديد (١٧٥٩) الذى يمثل قمة أعماله الفكرية .. وفيه تتبدى نظرته الجديدة إلى الحياة ، ويتبين الانقلاب الخطير الذى أشرنا إليه ، فهو فى كانديد متشائم متطير ، وهو يبرهن فى كتابه أن العالم الذى نعيش فيه هو أشد العوالم سوءاً .. وما أظلمه من موضوع لقصة ساخرة .. لقد فارقه تفاؤله ..

ومات لويس الخامس عشر وهو لا يزال يعيش فى فيرنى ، واشتد شوقه إلى زيارة باريس ، خاصة وأنها كانت تستعد لإخراج مسرحيته إيرين Irene (١٧٧٧) آخر أمجاده الأدبية .

فى الخامس عشر من فبراير ١٧٧٨ غادر فيرنى ، فلم يكد الناس يعلمون خبر قدومه حتى سرت موجة من الفرح الطاغى فى أنحاء باريس . فلما خرج لشهود مسرحيته استقبله الناس استقبال الفاتحين وتكالبوا من كل فج على رؤيته وازدحمت الشوارع بجمهور غفير أتى من أنحاء باريس لتحيته ، ولما دخل المسرح استقبله دوى هائل من التصفيق ، ثم أصرت الجماهير على تتويجه فارتفع الستار فى المسرح عن تمثال له ، ثم تقدم إليه الممثلون يضعون واحداً بعد الآخر أكاليل من الغار على رأسه ، والجمهور يصيح فى كل مرة « الشعب يقدمها لك يا فولتير » .

وفى خروجه من المسرح حملته النساء والرجال على أكتافهم إلى القصر الذى ينزل فيه ... فلم يكن هذا نصراً بل كان غزواً .

وظل أسابيع يطوف بالمدينة وقد أنسته حماسة النصر ، ضعف صحته ، فأبدى نشاطاً لا يناسب شيخاً فى الرابعة والثمانين .. وكان لهذا أثره فمرض مرضاً موجعاً قصيراً ، وفى ٣٠ مايو ١٧٧٨ فاضت نفسه .

مرسى الزارق

مع الفكر الأوربي المعاصر

البوذية

كتاب من تأليف كريسماس همفريز

ولد مؤلف هذا الكتاب بمدينة لندن عام ١٩٠١ ، وهو من أسرة أنجبت كثيراً من رجال المحاماة ، وقد اشتغل هو محامياً إثر تخرجه من جامعة «كمبردج» ، ثم أصبح فيما بعد — كما كان والده من قبل — رجلاً من رجال النيابة العمومية .

واهتمامه بشئون «البوذية» يرجع إلى أيام شبابه ؛ ففي سنة ١٩٢٤ أسس هو «الجمعية البوذية» بمدينة لندن ، وهي اليوم أقدم وأكبر مؤسسة بوذية في أوربا .

وإليه يرجع الفضل في نشر كل ما ألف في تلك الفلسفة الدينية ، أو الديانة الفلسفية ، ونصيبه هو من تلك المؤلفات ستة كتب . وإليه أيضاً يرجع الفضل في نشر مبادئ البوذية الاثنى عشر التي ترجمت — حتى اليوم — إلى ست عشرة لغة ، وهي المبادئ التي يعمل العاملون على أن تشيع بين الناس كمبادئ للبوذية العالمية .

وكتابه الصغير الذي نحن بصدده اليوم ، هو سفر جديد يزاد على ما ألف في الديانة البوذية من أسفار .

وهو سفر يقابل بالمزيد من الترحاب عند الراغبين في معرفة أسرار تلك الديانة .

وهذا الكتاب يستفيد منه القارئ العادي ، كما يستفيد منه الدارس المتعمق . وهو على صغره كتاب واف شامل ، يمكن اعتباره «دائرة معارف للجيب» عن الديانة البوذية .

و«البوذية» هي فلسفة دينية قبل أن تكون ديانة بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة ، ونظامها القديم هو أول نظام وأعمقه في تاريخ الفلسفتين الشرقية والغربية .

وقد نشأت تلك الديانة الفلسفية ، أو الفلسفة الدينية ، في الهند ، في القرن السادس قبل الميلاد ، وهي لا تزال باقية إلى اليوم في الممالك الأسيوية . وهي إذا قيست بعدد أتباعها تُعد من أكبر الديانات في العالم .

ومن مقوماتها العظمى تلك الطريقة التي تقوم على التثقيف والتهذيب ، وتعتبر تعاليمها الدواء لشفاء النفس في الأعصر الحديثة .

والتعاليم الأساسية للبوذية القديمة تشبه إلى حد كبير آراء المتقدمين من رجال الفكر الأوربي في القرن التاسع عشر ، ويمكن أن تحسب فلسفة «شوبنهور» و«هارتمان» كأنها آراء منقولة عن البوذية أو مستمدة منها .

وقد سمت البوذية بثقافة كل بلد حلت به ، وهي التي قد نفخت من روحها في الفن الهندي والصيني واليابانى .

وعناصر الرحمة والمسالمة التي رُكبت في روح تلك الديانة قد كشفت عن نفسها في التسامح مع الأديان كلها ، وفي اتباع سياسة الرفق واللين مع العدو والصديق ، وفي حب الحيوان والمظاهر الكونية ، وفي المساواة بين الرجل والرجل ، وبين الرجل والمرأة ، وفي قول البوذي وهو يحيي القوم من كل لون وجنس : «السلام على جميع الكائنات» .

وقد أحست أوربا بأثر الديانة البوذية أيام الرومان ، وكذلك بدأ الاهتمام بها يزداد في الخمسة والسبعين سنة الأخيرة ، وذلك بفضل جهود العلماء من الإنجليز والأوربيين ، ولكن لا يزال هناك من يسيء فهم تلك الديانة ، ويسميها دين تشاؤم وهروب من الحياة ، ويقول : إن «النرفانا» (وهي كلمة سنسكريتية ، ومعناها الحرفي : الانطفاء والخمود ، ومعناها الديني : بلوغ مرتبة الصفاء الروحي ، وذلك بقهر رغبات الجسد) ليست إلا مرادفاً للعدم .

والمأمول أن كتاب «مستر همفريز» يستطيع أن يُعفّي على آثار سوء الفهم هذا .

وخلاصة هذا الدين أن الروح هي قبس من النور الأسنى ، وأنها بعد الموت سوف تعود إلى المادة مرة بعد مرة ، ولن ينجيها من أسر المادة إلا التأمل اللاهوتي فتصفو الروح وتتطهر حتى تصبح صالحة للفناء في ذات الإله .

ونحن ملخصون فيما يلي ما جاء في كتاب «البوذية»

تحت عنوان « البوذية اليوم » . قال الكاتب :

لقد زرت فى عام ١٩٤٦ كل الممالك التى تنتشر فيها البوذية ، فأصبحت قادراً على أن أضم مشاهداتى الشخصية إلى الرسائل التى تبودلت بينى وبين العارفين بأسرار تلك الديانة وإلى الكثير من الكتب التى قرأتها — وهى كتب تبحث فى حالة « البوذية » بعد الحرب العالمية الأخيرة — فثبت عندى ثبوتاً قاطعاً أن المبادئ البوذية لم ينلها وهن أو ضعف فى أى بقعة من بقاعها ، إذا استثنينا البلاد الصينية ، كما ثبت أن نفوذ ذلك الدين يزيد زيادة مطردة فى بلاد كثيرة ، على أنه لم تبد إلى الآن أية علامة على أن « البوذية العالمية » قد أصبحت قوة منظمة ذات أثر عالمى ، ولو أن العسف الذى يلقاه القوم فى الشرق الأقصى على يدى الشيوعية قد يُعين على خلق هذه القوة العالمية .

ومما هو ثابت ثبوتاً يقينياً أن البوذية ليس من السهل إخضاعها لسيطرة أية منظمة عالمية أو غير عالمية . إذ هى تستند دائماً على المجهود الفردى لتثقيف الفرد وتكميله بالعلم والمعرفة .

وهى لا تصبو أبداً إلى السيطرة الدنيوية . حتى ليعد النساك البوذيون الذين يتخذون من السياسة ملهاة لهم وتسلية أنهم قد حطوا من أقدار أنفسهم .

ونظام « البابوية » غير معروف فى الديانة البوذية . وليس لرجال ذلك الدين أى نفوذ دنيوى إلا فى بلاد « التبت » ولذلك فإن التعاون الدولى مقصور عندهم على العناية بتبادل الآراء فيما يتعلق « بالعقائد البوذية » وفى أحسن الوسائل المؤدية إلى نشرها وإذاعتها .

وقد أحدثت « البوذية » وسوف تحدث آثاراً فى العالم الحديث بعيدة المدى . وذلك بالتزامها جانب القوة الروحية . ففى اليابان مثلا تنتعش « البوذية » انتعاشاً قوياً على الرغم من محاولة الأمريكيين إغراء اليابانيين باعتناق « المسيحية » . وكان رد اليابانيين على هذه المحاولة أن وقفوا على أبواب المعابد البوذية يقدمون لكل زائر لتلك المعابد نسخة من كتاب « المبادئ البوذية » الاثنى عشر .

أما فى الصين فالبوذية تضمحل اضمحلالاً سريعاً وتشاركها فى هذا الاضمحلال الديانات الأخرى . ذلك لأن الجيل الناشئ من الشباب الصينى معنيٌّ إلى أقصى حد بألوان السياسة الغربية . وبما يحسبونه آراء غربية . وفى كمبوديا حيث تتلاقى وتتشابك الأجناس والأديان يلقى الباحث عناء شديداً إذا أراد أن يكون رأياً صائباً فى الحكم بانتشار « البوذية » أو عدم انتشارها .

ففى ناحية يرى المرء ما يبدو أنه سقوط واضمحلال لكل الأديان ، وذلك تحت ضغط ظروف الحرب الأهلية . ومن ناحية أخرى يرى الجمعيات الدينية البوذية يتزايد عددها وتنتشر فى كل أنحاء شبه الجزيرة . والمظنون من هذا التزايد والانتشار أنهما أثران من آثار الحاجة المتزايدة إلى التغلب على النزعة غير الدينية .

وفى « سيام » وهى الدولة البوذية الوحيدة ، يبذل رجال طائفة « السانجها » محاولات قوية للاتصال بالأفكار الحديثة ، والطاقة لهذا الغرض هذا الاتصال غاية المدى هى اللغة . ولذلك فقد لجأ رجال تلك الطائفة إلى « الراديو » فى بلادهم يستعينون به فى إذاعة أحاديث أسبوعية . وبفضل الرعاية الملكية فى « سيام » تزداد الجمعية البوذية السيامية قوة ونفوذاً .

أما فى « بورما » فإن الموقف معقد بسبب المعارك الدائرة رحاها بين الأهليين . ولكن الوعيد والتهديد اللذين تلقتهما « بورما » من جانب الشيوعية قد أثارا الاهتمام بطرق الحياة عند البوذيين كقاعدة يبنى عليها الأمل فى شفاء الأمة من عللها وأسقامها .

هذا ولا تزال « البوذية » تتغلغل فى « بورما » ولا يزال لها الأثر الأبلغ الأثر فى حياة أفراد الشعب .

ويمكن أن ينسحب هذا القول على « جزيرة سيلان » على الرغم من أن كثيراً من أهل الرأى فى تلك الجزيرة قد نالوا بطريقة مصطنعة الحظوة فى الكنائس المسيحية .

وتلك الطريقة المصطنعة تقوم على أن المسيحيين قد أنشأوا منذ زمان طويل أحسن المدارس وأولوها بمقاصد التعليم ، فكان لا مفر للأسر ذات المكانة أن ترسل بأولادها إلى تلك المدارس حيث يحصلون على أرقى تعليم وأحسنه . وذلك لقاء اعتناقهم — فى الظاهر — الديانة المسيحية . وهم — فى أقصى ضمائرهم — بوذيون لا تشوب بوذيتهم شائبة . إذا استثنينا شائبة العنصر المتدنى الذى دخل على عقائد القوم على أيدى الغزاة القادمين من الهنود غير الآريين .

أما وقد انتهى عهد الرقابة الأجنبية فإن القوم يتأهبون

لوضع الخطط المؤدية إلى زيادة انتشار التعاليم البوذية . وإلى إعادة الأضرحة والمزارات البوذية إلى ما كانت عليه من قبل

وجملة القول أن « البوذية » في « سيلان » قد استعادت ماعدها . واهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، حتى لقد استطاعت أن ترسل من فائض قوتها رجالاً يرفعون أعلامها في سائر أرجاء العالم ، وحتى لقد استطاعت أن تمد أولئك الرجال من أفراد الجامعة « المهابوذية » بكل ما يحتاجونه من المال .

ونختم هذا المقال بأن ننقل المبادىء الاثنى عشر للديانة البوذية وهي : —

١ — خلاص النفس هو أول ما يجب أن يسارع إليه كل إنسان ، فإذا أصاب رجلا جرح من سهم مسموم وجب عليه أن لا يؤجل انتزاع ذلك السهم انتظاراً لمعرفة اسم الرجل الذي أطلق السهم . أو لمعرفة طول السهم أو كيف صنع .

وسيكون في الوقت متسع للاستزادة من المعرفة أثناء سلوك الطريق . أما الآن فابدأ بمواجهة الحياة كما هي . على أن تتعلم دائماً من طريق التجربة الشخصية المباشرة .

٢ — أول حقيقة من حقائق الوجود هي قانون التغير أو قانون عدم الدوام .

وكل ما في الدنيا ابتداء من الفأرة العمياء وانتهاء بالجبل الأشم ، ومن الفكرة المجردة ، إلى الأمبراطورية ذات الطول والعرض . يسير وفق دورة الوجود التي لا تبديل فيها ولا تغيير : — فولادة . فنماء . فذبول . فموت وفناء .

والحياة هي التي لها وحدها صفة الاستمرار ، وهي تسعى دائماً أن تكشف عن ذاتها في أشكال جديدة .

والحياة قنطرة عبور . ولهذا وجب أن لا تبنى فوقها بيتاً . والحياة عملية من عمليات القبض والتدفق . وكل من تعلق بشكل من الأشكال . وتشبث به — بالغاً ما بلغ ذلك الشكل من الحسن والرواء — فإن التعلق بذلك الشكل سوف تضنيه وتعذبه مقاومة تيار التدفق .

٣ — وقانون التغير ينطبق كذلك على الروح ، فليس هناك طبيعة من الطبائع عند فرد من الأفراد لها صفة الخلود وعدم التغير . وليس يستعصي على التغير إلا الحقيقة الكلية .

وكل أشكال الحياة — ومنها الإنسان — هي أعراض لتلك الحقيقة .

وليس في الدنيا أحد يملك الحياة التي بين جنبيه إلا كما تملك ذبالة المصباح الكهربائي إشعاع التيار الكهربائي الذي يضيئها .

٤ — كل المعلولات لها علل ، وروح الإنسان وسجاياه هي حاصل الجمع لآرائه وأعماله الماضية .

والكرما — ومعناها تجدد الولادة — يخضع لحكمها كل من في الوجود . والإنسان هو الخالق الأوحد لكل الحادثات التي تحدث له ، ولكل أثر من آثار تلك الحادثات . وكذلك لحالته المستقبلة . ولمصيره النهائي .

وبالرأي الصائب ، وبالعمل الصالح . يستطيع الإنسان أن يطهر قلبه تدريجاً . وهكذا بتحقيق وجود ذاته يبلغ الإنسان في الوقت المناسب الخلاص والانطلاق من أسر الولادة المتجددة .

وهذه العملية تستغرق أدهاراً تتجدد فيها الحياة على الأرض مرة بعد مرة .

وكل شكل من أشكال الحياة سوف يبلغ — في خاتمة المطاف — درجة التكمل بالعلم والمعرفة .

٥ — الحياة وحدة لا تتجزأ ، ولو أن أشكالها الدائمة التغير لا تعد ولا تحصى ، وهي قابلة للعطب والفساد .

وليس هناك — على التحقيق — شيء اسمه الموت ، ولو أن كل الصور إلى فناء .

ومن إدراكنا لوحدة الحياة تنبعث الرحمة . والرحمة هي حاسة المطابقة مع الحياة .

والرحمة توصف بأنها قانون القوانين . وهي التوافق السرمدي ، وكل من يخالف عن هذا التوافق سوف يعذب . وسوف يؤخر يوم تكمل ذاته بالعلم والمعرفة .

٦ — لما كانت الحياة كلاً متصل الأجزاء فإن الخير الذي يصيب جزءاً من الأجزاء له أثر على سائر الأجزاء .

والإنسان — لجهله — يظن أنه يستطيع أن يسعى لخير نفسه فينجح . وهذا النشاط الموجه توجيهاً أنانياً مصدر للألم والعذاب .

والإنسان يتعلم — بسبب ما يناله من عذاب — أن يقلل من دواعي الأنانية حتى يزول سبب تلك الأنانية . وقد علم بوذا أتباعه أربع حقائق هي :

(أ) إن العذاب موجود في كل مكان .

(ب) إن الموجب للعذاب هو سوء توجيه الرغبات .

(ج) إن العلاج قائم في إزالة الدواعي والأسباب .

(د) أن يسلك الإنسان السبيل السوي ذا الثمانية دروب . وهو سبيل الارتقاء بالنفس المؤدي إلى خلاص النفس من العذاب .

(٧) الطريق ذو الثمانية دروب يشتمل على : الآراء السليمة أو الفهم الأول ، ثم المقاصد السليمة . ثم النطق السليم . ثم الأعمال السليمة . ثم الحياة السليمة . ثم المجاهدة السليمة . ثم التركيز العقلي السليم . وأخيراً اتباع « الطريق » المؤدي — بصحيح النظر — إلى المطلوب من كمال العلم والمعرفة .

ولما كانت « البوذية » طريقاً من طرق الحياة . وليست نظرية من نظريات الحياة ، فإن سلوك الطريق الذي أسلفنا وصفه لازم لزوماً كلياً لخلاص النفس . فامتنع عن عمل الشر ، وتعلم أن تعمل صالحاً ، وطهر قلبك . وهذه هي تعاليم البوذيين .

(٨) الحقيقة الكلية شيء يجل عن الوصف . « وبوذا » — وهو كأي آدمي — قد بلغ غاية الغايات في العلم .

وغاية الغايات في الحياة هي بلوغ تلك المرتبة .

وهذا الحال من « الوعي » وهو « النرفانا » — ومعناها إزالة حدود « الثنائية » — ممكن في هذه الدنيا .

لكل الناس . وكل الأشكال الأخرى للحياة منطوون على القدرة على التعلم ، فانظر في سريرة نفسك تكن أنت « بوذا » .

(٩) الإيمان المطلوب في البوذية هو الاعتقاد الصحيح بأن خطوات الطريق التي سار فيها « الرشد » يجب أن نخطوها نحن .

وتلك الطريق يجب أن يسير فيها الإنسان بكليته . وليس فقط بأحسن ما فيه . ويجب أن تشمل المعرفة القلب والعقل . و « بوذا » كان كلي الرحمة كما كان كلي العلم والمعرفة .

(١٠) « البوذية » تعلق أهمية كبرى على الحاجة إلى التأمل والتفكر المؤديين بمضي الزمن إلى ترقي الملكات الروحية الباطنة ، وأوقات الصمت التي تقضى في اليقظة الباطنة لازمة للحياة الروحية المتزنة .

و « البوذي » واجب عليه في كل وقت أن يكون يقظاً رابط الجأش . وأن ينأى بنفسه من كل الانفعالات ذات الصلة بالمظاهر البراقة الخداعة .

(١١) قال « بوذا » اعمل على خلاص نفسك بمثابرة وجد . و « البوذية » لا تعرف وسيلة تؤدي إلى الحق سوى وجدان الفرد . وتلك وسيلة خاصة بالفرد وحده . وكل إنسان ملاق جزاء ما قدمت يداه . وهذا الجزاء يكسبه المعرفة ، وذلك أثناء معاونته لبني الإنسان على الخلاص .

وليست الصلاة لبوذا أو لأي إله من الآلهة بنافعة أثراً من الآثار عن بلوغ غايته .

والنساك البوذيون هم معلمون ورجال مثاليون يقتدى بهم . وهم — بأية حال — ليسوا واسطة بين الفرد وبين الحقيقة . يجب على البوذي أن يبدي أوفى التسامح مع أتباع كل دين . وأنصار كل فلسفة . ذلك بأنه ليس لإنسان أن يبدي رأياً في اختيار الطريق التي يسلكها جاره لبلوغ هدفه .

(١٢) « البوذية » ليست دين تشاؤم أو دين هروب من الحياة . والبوذية كذلك ليست تنكر وجود الله أو الروح ولو أنها تخلع معانيها هي على تلك المصطلحات .

• • •

و « البوذية » طريق من طرق الفكر . وهي ديانة ، وهي علم روحي وطريق للحياة . وهو طريق معقول تحمل له صفة الشمول . وقد أرضت « البوذية » في الألفين من السنين الماضية الحاجات الروحية لأناس يبلغ عددهم ثلث عدد الجنس البشري .

و « البوذية » تروق في نظر الغرب ؛ ذلك لأنها دين بغير « مذاهب » . وهي ترضي العقل والقلب معاً ، وهي تسعى دائبة إلى تحقيق وجود النفس . على أن يحاط هذا المسعى بالتسامح مع أصحاب الآراء الأخرى .

و « البوذية » دين يشمل العلم والدين والفلسفة وعلم النفس والفنون وعلم الأخلاق ؛ وهو يشير إلى الإنسان كأنه المبدع لحياته الحاضرة ، وكأنه المسيطر على قضائه وقدره !

مبارك ابراهيم

نقد

١ - المنطق الوضعي

تأليف الدكتور زكي نجيب محمود

للأستاذ عبد الفتاح الديدي

هذا هو كتاب الموسم بلا نزاع .. وقد كان خليقاً أن يثير طائفة من المنازعات والمساجلات بين المثقفين في مصر لولا ما نحن في حاجة إليه من الراحة في الصيف وما نحن في حاجة إليه من الزاد الفكري لقراءة الكتاب .

ولا شك أني أقبل على عمل جريء عندما أعرض لكتاب أستاذ لي كان يخصني بصداقته فوق أستاذيته . ولكني لا أشعر بالحرج في هذا العمل تبعاً لما اعتدت أن أجده من الحرية في مناقشته بنفسه وليس بيننا ستار ، فما بالك وبيننا الآن ستار ؟ ولذلك لا أتوقع أن يكون موقفي اليوم غريباً عليه ، خاصة وأنه يعلم أني لا أدين بمذهبه الفلسفي ، وأني من طائفة أخرى تقف في الناحية المقابلة من حيث الاعتقاد .

وأبدأ فأقول إن الكتاب حدث في تاريخ فكر هذه الأمة ، وخطوة من الخطوات التي تشعرنا بأننا قد غدونا في مستهل حركة فلسفية وتطور روحي ممتاز .. لماذا ؟.. لأننا لأول مرة نجد بين مكتبتنا العربية كتاباً فكرياً واضحاً من نمط معين وعلى نظام ومنهج بالذات . فالكتاب يبحث في المنطق ولا يأتي — مع ذلك — خلواً من منهج فكري ومبدأ فلسفي ، ولا يخلو من اتجاه بارز في تفسير حقائق الأشياء . فليس هو بكتاب في المنطق كمادة مستقلة ، وإنما يزيد على ذلك بكونه مائدة من الموائد التي يقدم عليها نوع من الغذاء العقلي الخاص .. وهذا هو ما تظهرك عليه مقدمة الكتاب .

وأثنى على الكتاب ثناء آخر ، فأشير إلى أنه من المستحسن في الأيام الأولى من مراحل تفكير هذه الأمة أن يتجه الناس (أو يدفعوا دفعاً) إلى كراهية التحليق ، وأن يأخذوا (أو يجبروا على الأخذ) بنزعة هذا الكتاب في التحديد الوضعي لمستلزمات الحياة ، وأن يجعلوا النظرة الواقعية أساساً لتفكيرهم ، حتى لا يتمادى الرأي العام فيما هو منجرف فيه من تيار الهوس الروحي والمثالية الجوفاء . فأهم ما يميز الكتاب أنه يصدر خلال مرحلة جذابة من تاريخ هذه الأمة الفكري ، فيردع ما في خيالاتها من سرعة الوهم ، ويقص ما في طبيعة أبنائها من خفة الحلم .

ولكني أعود فأقول إنه كان يلزمنا قبل هذا الكتاب كتب في هذا الموضوع ، وإن المنطق كان خليقاً أن يدرس بطرق أخرى قبل أن نقفز هذه القفزة وقبل أن نستعد للنظر بهذا الأسلوب . كان يلزمنا على الأقل كتاب يعرض المذاهب المنطقية المختلفة في التاريخ وفي العصر الحاضر بصورة عامة إجمالية ، حتى يقبل القارئ على المشكلة في غير إحساس بالغربة ، بل كان من الممكن أن يجعل الدكتور مقدمة كتابه بحثاً عاماً في المنطق وأن يدخل بكتابه فيضعه الوضع المناسب من بين المذاهب الأخرى ثم يبين قيمته الخاصة

(ا) الميتافيزيقا : والحق أني حائر في معالجة هذا الكتاب .. لأني لا أدري كيف أبدأ ، وكيف أنتهي في مقال واحد ، مع العلم بأن المقدمة وحدها تثير في نفسي من الخواطر ما يسع أكثر من مقالين . فماذا أبقي للنقاط الأصيلة في الكتاب ؟.. ومع هذا فسأحاول الإيجاز بقدر الإمكان حتى يسهل علينا الإتيان على الكتاب بأكمله .

وأقول أولاً إني لا أوافق الأستاذ الدكتور على إلغاء الميتافيزيقا بالبساطة التي يطلبها . وأريد أن نتفق على ماهية الميتافيزيقا قبل أن نتخاصم حولها . وأخشى ما أخشاه أن أدافع عن شيء آخر سوى ما ينكره الأستاذ الدكتور ويتحامل عليه . والميتافيزيقا كما أفهمها الآن ، بعد التصفيات العديدة التي قام بها الفلاسفة ، وبعد المناقشات الطائلة التي دارت حولها ، لا تعدو أن تكون بحثاً في المشاكل التي لم تزل موضع حيرة العقل البشري بعد أن عجزت معارف

الإنسان الأخرى عن الإجابة عليها . أو بعبارة أخرى — الميتافيزيقا الآن هي : الدراسة العقلية التي يقوم بها ذهن الإنسان تجاه مظاهر الحياة التي لم تخضع بعد لأساليب ثابتة مضمونة في البحث والنظر . وإن شاء الدكتور أن يأخذ بتعريف رسل في هذا المجال فسيجده واقياً بالغرض ومؤدياً نفس المعنى . فهو يضعها في مكان قائم بذاته ومنحصر بين الديانة من جهة والعلم من جهة أخرى ، ويصفها بأنها الأرض التي لاتدخل في ملكية أحد بالذات . ويقول : إن معظم المسائل التي تشغف بها العقول التأملة شغفاً كبيراً لا يستطيع العلم أن يجيب عنها ، كما أن الإجابات الموثوق بها من جانب رجال الدين ليست مقنعة عند المفكرين المتحضين . ثم يسرد رسل بعد ذلك جملة الأسئلة التي يصح أن تكون مادة للبحث الميتافيزيقي الخالص .

ولا شك أن الميتافيزيقا معرضة دائماً لعمليات انتقاص متصل ، نتيجة لتقدم العلوم ونتيجة للتقدم الحاصل في دراسة مشاكلها هي الخاصة ؛ ولكن هذا لا يعيبها في شيء ، ولعله من الأوفق لها دائماً أن تكون حية بهذه الصورة المتغيرة الدائمة التحول فالمسائل الفكرية تعمق وتزداد قيمة بقدر ما تكون بعيدة عن الثبات والجمود ، وتفسد وتبور كلما توقفت عن النشاط واقتربت من حالة الركود واعتورها خمول الشيخ العاجز في منتصف الطريق .

وإذا أخذنا الميتافيزيقا على أنها مجموعة الأعمال العقلية التي تصدر عن الإنسان ، وهو بإزاء المجهول من مشكلات الحياة ، ونظرنا إليها بوصفها هجمات أولى يقوم بها الإنسان في ميدان المعرفة البكر ، كما تتلوه الفرق المزودة بالأنابيب والمقاييس ، فالراجح أن الميتافيزيقا لن تخسر شيئاً ذا بال ، وأنها ستفسح الطريق أمام العلوم الأخرى إذا وجدت نفسها غير قادرة على التقدم أكثر من هذا .. والغيرة التي يبديها بعض المتخصصين في المواد المختلفة بإزاء المتخصصين الآخرين ، والحماس الذي يبدونه من أجل أن يوقفوا السبق ، في التقدم الإنساني نحو المعرفة الكاملة ، على أنفسهم يحتاج إلى تفسير أكثر من تفاسير الميتافيزيقا . أو بعبارة أخرى : ماذا يعني ذلك الحماس وتلك الغيرة التي يبديها بعض العلماء لإيقاف البحث العقلي على ما يقدمونه ، هم خاصة ، من الخدمات طالما كانت هناك فائدة مؤكدة من بحوث الآخرين . بل إن هذه الغيرة نفسها أعقد بكثير من المواد التي تخضع للأساليب الميتافيزيقية في التفكير ، وتحتاج في الغالب إلى بحوث ميتافيزيقية أخرى لتفسيرها وتقريبها إلى الذهن .

ثم نلاحظ أن هذه الطريقة ستكون وسيلة سهلة لتخلص بها العقول الضعيفة من بحث المشكلات الفكرية المرهقة وتلك من العقد التي حيرت الفلاسفة من قبل ، وسيكون الجهل بالشيء دافعاً من الدوافع التي تبعث على رفضه واختصار الطريق . والحق أنه شعور طبيعي لدى الإنسان الذي يحكم على شيء بالذات دون أن يعرفه .. ويعرفه هنا لها معنى مضاعف ... فالمعرفة تؤدي إلى الألفة وتبعث على الشك في أحكام الإنسان بالنسبة لموضوع الحكم على الأقل ، إن لم تكن سبباً في مناصرته . ولعل القضاة قد عرفوا في الحاكم هذه الحقيقة وصاروا يسألون الشاهد في القضية : هل تعرف فلاناً الذي تشهد له أو عليه ؟ ولو اعتبرنا أنفسنا قضاة في قضية الميتافيزيقا لسألنا الشاهد زكي نجيب محمود : بأي تعريف تعرف الميتافيزيقا ؟ .

فلعل الميتافيزيقا التي ظن الدكتور زكي نجيب محمود أنه هدمها شيء آخر سوى الميتافيزيقا التي يتناولها الكتاب اليوم بالبحث والدرس . وهي لا تعدو أن تكون نظراً في المسائل الحيوية العادية ، ومثلها كل العلوم القريبة وأساليب التحليل الخاصة .. أما عقول الأفلاك والأحوال النورانية والمحرك الأول فلم تعد ضمن مباحث الميتافيزيقا الحديثة .

وتستطيع في الميتافيزيقا نفسها أن تجد غالبية الأفكار التي رددها أصحاب المذهب ، ولكن بأسلوب مغاير له منطقه التحليل الخاص وآلاته الرجعية الفسيحة . وأغرب من هذا أن العلماء أنفسهم لا تجد عندهم هذه النزعة وأن كل أولئك الذين يهاجمون بلسان العلم من الفلاسفة الخلص . وأعتقد أن النزاع لم يخرج حتى اليوم من دائرة الميتافيزيقا . ولو قرأ أصحاب المذاهب المعارضة للميتافيزيقا أبوابها المختلفة وكتبها المتنوعة لوجدوا آراءهم هذه نفسها وقد تناولتها بحذافيرها حذو النعل بالنعل . ولولا خشيتي الدخول في تفصيلات طويلة لأثبت عبارات من أصحاب المذهب الوضعي ، وعبارات من كتب الميتافيزيقا الحديثة لترى إلى أي حد هم « قدماء » !!.

ويقول الدكتور زكي نجيب محمود (ص ١٢ س ٧) : ومن النتائج الخطيرة التي تترتب على هذا أيضاً ، حذف الميتافيزيقا من ميدان العلوم ، لأنها بحكم تعريفها تتحدث عما ليس في الطبيعة ، إذ تتحدث عن شيء بعد الطبيعة أو وراءها ،

لكنه ليس جزءاً من الطبيعة على كل حال ».

ولنا على هذا الكلام اعتراضان : أولهما أن اسم العلم لا يحدد موضوعه ولا يعين حدود دراساته تبعاً لما قد يجد في ثنايا مادته من اختلافات وتطورات .

ونلاحظ هنا أن الميتافيزيقا كانت أجرأ فروع المعرفة في التقدم وأسرعها في التحول ، واستحال عليها أن تقف مكتوفة الأيدي من جيل إلى جيل . وفي الأوقات التي استحال على العلوم الأخرى أن تقوم فيها بحركة ما ، حملت هي عبء الكفاية ، وكانت سيدة المعارف طيلة أجيال طويلة بحكم مرونتها وقابليتها للاتساع وتمشيها مع الهمات الوقتية ومقدرتها العجيبة على تأدية أغراض كثيرة . كذلك يمكن أن نقول عن اسم الميتافيزيقا إنه مجرد تسمية تقليدية لمباحث متصلة متفرعة يصعب الآن إعطاؤها عنواناً آخر . فلنأخذها كذلك على أنها رمز .. لا أكثر ولا أقل . وابتدع الفلاسفة المحدثون اسم علم الوجود ontologie ليحل في هذه الناحية محل الميتافيزيقا بعد أن صارت مجرد دراسات الموجود . وبهذا لم تعد الميتافيزيقا كلاماً متعلقا بما ليس في الطبيعة على نحو ما تدل التسمية القديمة ، وإنما صارت علماً خاصاً بما يجري في حدود الوجود الماثل .

وهنا أجد نفسي أمام الاعتراض الثاني وهو : ماذا نعني بالطبيعة ؟ وماذا نعني بالوجود ؟ وهل إذا دخل الشيء في حدود الطبيعة كان خارجاً عن نطاق الوجود ؟ وهل يكون الشيء خارجا عن حدود الوجود إذا تعدى نطاق الطبيعة ؟ وما صلة الطبيعة بالوجود إذاً ؟ لقد ظن الدكتور أنه حل الإشكال بقوله إن الميتافيزيقا تصف ما هو غير موجود في الطبيعة . ولكني أعتقد أنه زاد من تعقيد المسألة وأضفى على الحل نوعا من الإشكالية الجديدة . فهو لم يشر إلى شيء من هذا الذي قلناه عند تعرضه للطبيعة والوجود مع أنه في صميم موضوعه . وحتى الفصل الخاص بمعنى الطبيعة أشار الدكتور فيه إلى أن العلم يعنى بما هو موضوعي دون ما هو ذاتي ، ولم تعد هذا الخبر بعد كلام طويل . وأعتقد أنه في هذا المكان أو في هذه النقطة يمكن امتحان الدكتور ومعرفة أولاً ماذا يعني بالميتافيزيقا ، وثانياً مدى إيمانه بالألفاظ التي يضعها .

فأصحاب الميتافيزيقا يفرقون تفرقة أساسية بين شيئين هامين : الأول يسمونه المتعالي ، والثاني يسمونه العالي . وهما على التوالي transcendental و transcendent .

أما العالي — ولعله ما يقصده الدكتور زكي نجيب محمود عندما يتحدث عما يسميه بالميتافيزيقا — فعبارة عن الموضوعات التي لا تخضع لتجربة مباشرة وتخرج عن الحدود المستطاعة في قدرة الإنسان على التصور والتفكير مثل خلود الروح — ويكفي لتعرف مدى عداوة الميتافيزيقا الحديثة لهذه الموضوعات وامتهانها لها أن تقرأ كتاباً من سبعمائة صفحة في أبواب الميتافيزيقا دون أن ترى لهذه المشاكل وجوداً وبغير أن تحس أنها تحتل ذرة من تفكير سارتر عند تأليفه الوجود والعدم .

أما الشيء الثاني وهو المسائل المتعالية فعبارة عن الموضوعات التي تبدو عالية وليست كذلك في الحقيقة . أو هي عبارة عن الموضوعات التي تدخل في نطاق الوجود وتخضع لتجارب فردية وقد تتعدى نطاق الحس . وليس أكثر من البحوث التي كتبت حديثاً في باب الإدراك بوصفه المشكلة الأولى في الفلسفة والفكر عموماً . وهذه هي مادة الميتافيزيقا . وأنا أعلم رأي الدكتور فيها بوصفها مسائل فردية غير موضوعية ، وسنكون مناقشتنا لها في مقال قادم كعنصر مستقل .

ثم إننا نعلم أيضاً عند دراستنا الميتافيزيقا — وهذه هي النقطة الثانية — أنها تعوّل على النظرة الكلية في بحث الأمور . وذلك في مقابل الطريقة الجزئية التي يتبعها العلماء المختصون في المواد المختلفة . ولا أدري لماذا يحلو للبعض أن ينظر إلى الطريقتين على أنهما متعارضتان ، ولا يتبين معنى التكامل في النظرتين ؟ وأعتقد في النهاية أنه من الممكن أن تتجاور النظرتان ، وأن تتعاون كل منهما على اكتشاف طريقها الخاص وبحث موضوعاتها الأصيلة . ولو كان الدكتور مؤمناً حقاً بما قاله عن الاحتمال والرجحان في أبواب العلم والمعرفة (في النص الوارد ص ٣٣) لكفانا أنفسنا عن محاولة الإطالة في مناقشة هذا الرأي . وإذا سأل الدكتور عما جنيناه من وراء النظرة الكلية في بحث الأمور في الميتافيزيقا فسأجد نفسي مضطراً إلى التبرع لسؤاله عن النتائج التي نشأت عن اتباع المنهج الوضعي في حل المشكلات . وسأسأل نفس السؤال الذي سأله جود في كتابه النقدي للمذهب الوضعيين : أخبرونا بالله عليكم كم مشكلة حللتموها بأسلوبكم التحليلي وطريقتكم الجزئية في معالجة المسائل ؟ أعطونا اسم مشكلة واحدة أعطيتم لها حلاً ...

ومفهوم أن العلماء الطبيعيين وأشياع النظر العلمي

نوادر المخطوطات

المجموعة الثانية

نشر وتحقيق الأستاذ الثبت عبد السلام محمد هارون

الدكتور شوقي ضيف

هذه هي الحلقة الثانية من تلك السلسلة الطريفة التي يضطلع ببعثها وإحيائها صديقنا العالم الجليل عبد السلام محمد هارون . وليس من شك في أنه وفق إلى أوسع الحدود في التوفيق حين اختار القيام على نشر الرسائل الصغيرة النادرة في عالم المخطوطات العربية بجانب ما يقوم به من نشر بعض الأمهات .

فكل من يتصل بالمخطوطات العربية يعرف أن الرسالة الصغيرة لا تقل أهمية في تاريخ فكرنا العربي عن الكتاب الكبير ، بل ربما كانت الرسالة الصغيرة أشد أهمية ، فهي العادة يحملها المؤلف إما فكرة جديدة ، أو نصوصاً جديدة . ونحن في الكتب الكبيرة إنما نبحث عن هذه الرسائل الصغيرة وما يشبهها ، حتى نقف على الحركات الجديدة في حياتنا العقلية السابقة ، وحتى نطلع على بعض خصائص هذه الحياة .

وقد يكون من تكرار القول أن نشير إلى أننا لا نزال في حاجة إلى نشر التراث العربي وإلى التوسع في ذلك ، وإلى طائفة من شبابنا الذين تثقفوا مهنة النشر أو يثقفونها ، لبعث كل ما يمكن من الأعمال والمؤلفات التي كتبها الأسلاف والأجداد ، والتي لا تزال مطوية على رفوف المكاتب تنتظر من يتناولها بالإخراج والإحياء .

وقد قدمت الأستاذ الجليل عبد السلام محمد هارون غير مرة وأشدت بجهوده ، وما يبذله فيما ينشره من عنت وعناء ، فهو من جهة قد أحسن مهنة النشر إلى أقصى حد ممكن ، وهو من جهة أمين على ما ينشره . ولست أقصد بالأمانة هنا المحافظة على النص ، ولكني أقصد المحافظة على كل ما يمكن لبعث النص على خير الوجوه من حيث التذييل عليه والتعليق ، في غير تكثر ولا ادعاء ، وفي الوقت نفسه في تثبت وثقة بما يقول ويكتب .

وإني أشبه الناشرين من الشباب بمجتهدين ، فكل يجتهد حسب ذوقه ، وحسب ما يضع لنفسه من مناهج ، وما أحرانا بأن نقبل من كلٍّ ذوقه ومنهجه ، وما يوفر لعمله من جهود ، وحتى إن اختلفنا مع بعض الناشرين ، أو لم يجر

الخالص في الفلسفة يريدون أن يخصصوا مواد بحثهم وموضوعات تأملهم من الأشياء التي لا تتعلق بما هو ظاهر في نطاق النظر التجريبي والتي هي خاصة بالفكر العقلي الذي يملك القدرة على التحليق والتجريد . أو هم يعنون بنوع من المعارف الوضعية التي تستند إلى كل من المشاهدة والتجربة بغير تأمل فارغ أو خروج على المحسوس أو شطح في المسائل الغيبية . وأنه فأقول إنهم ليسوا مخطئين حينما يفعلون هذا ، ولكنهم يخطئون أشد الخطأ حينما يعتقدون أن مجال الترقي في العلم لا يحصل إلا من هذا الطريق ، أو حينما ينظرون باستخفاف إلى كل محاولة فلسفية داخل النطاق العلمي . ولو أن المسألة مسألة إنكار في باب الخرافة والتخيل ، وفي باب التفسير البعيد عن روح الواقعية الحية ، لما لحق بنا عالم أو فيلسوف في حلبة الإنكار والنفي ؛ ولكننا نشعر في قرارة نفوسنا بأن البحث الفلسفي — الخيالي كما يزعمون — هو الأصل في كل ارتقاء يصيبه العلم وكل كسب تناله المعرفة . وهاك تاريخ العلم فتأمله وابحث عن المنحنيات التي حاد فيها العلم عن طريقه الخاطئ ، فستجد فيلسوفاً ، عند كل واحد من هذه المنحنيات ، يلوّح بأفكاره ويمهد بخطراته لإعداد ما يمكن أن يفيد الاتجاه الجديد .

هذا هو ما عرض لنا فيما يختص بموضوع الميتافيزيقا كما أشار إليه الدكتور زكي نجيب في كتابه عن المنطق الوضعي . وسنعود إلى تفصيل رأينا في جملة من نقاط هذا الكتاب . ونرجو أن نوفق في عرضنا ونقدنا لهذا الكتاب الممتاز .

عبد الفتاح الديدي

ذوقهم مع أذواقنا ولا منهجهم مع منهجنا ، فإنى أرى أن نقبل منهم عملهم فى غير تحفظ .

وفى رأيى أنه ينبغى أن ننتظر حتى تكثر الأمثلة والنماذج ، وخاصة عند بعض من اتقنوا النشر على أصوله من أمثال الأستاذ عبدالسلام محمد هارون . وحينئذ يمكن النقد ويمكن التوجيه ، وفى رأيى أيضاً أن النشر الجيد خير من النقد الجيد فى حد ذاته ، لأن الأول يعطى المثال ، بينما الثانى يشير إليه ، وقد يخرج من الإشارة إلى السخط والإزراء .

وما أحرى جماعة الناشرين أن يقوم بينهم التعاون والتآزر ، وأن يتعمق ذلك نفوسهم ، فيشعروا بشىء من الإخاء . وحبذا لو أحدثوا نقابة أو جمعية يكون من شأنها لم شتاتهم من جهة ، وتعارفهم من جهة ثانية ، بحيث يمكن أن يتعاونوا فى عملهم تعاوناً يفيد نشرهم منه .

وإنى أرنو إلى هذا اليوم الذى أرى فيه كل ناشر قريباً من زميله ، بحيث يعرض عليه ما فى النص الذى ينشره من صعاب لعله يجد له منها مخرجاً .

وتصحيح النصوص القديمة هو فى رأيى دائماً مسألة احتمالات ، وقد يوفق الناشر فى تصحيح يصحح به النص ، وقد لايوفق ، وهذا لايضيره بحال ، فالمجتهد إن وفق أجران ، وله أيضاً إن أخطأ أجر واحد ، ولكنه أجر على كل حال .

ومع أنى اتصلت فى أوقات متقطعة وعلى أزمان متباعدة بنشر بعض النصوص العربية ، فإنى أعترف بأن ما صنعته فى هذا الجانب لم يكن فى كل مرة إلا صوراً من الاحتمالات ، قد أعود أنا ، إن نظرت من جديد فى النص ، فأصلحها ، ومن أجل ذلك كنت أقدر كل عمل يتصل بنشر المخطوطات القديمة ، وأعرف مدى ما يلقاه الناشر من صعوبات فى عمله ؛ فليس يعلم إلا الله مدى ما يوفر الناشر المصنف من أمثال الأستاذ الجليل عبد السلام هارون لعمله من جهود مضنية .

وإنى لأشعر دائماً كلما قرأت له عملاً جديداً أنه يبذل كل الإمكانيات ليخرج عمله إخراجاً حسناً ، ومع ذلك فأنت لا تشعر منه أثناء ذلك بصلف ولا بمباهاة يدل بها عليك ، بل هو يقدم عمله للباحثين ، ويطلب إليهم أن ينبهوه إلى ما قد يفوته ، أو يند منه . وذلك خلق العلماء العاملين .

وهذه المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات تحتوى خمسة آثار طريفة ، أولها خطبة واصل بن عطاء التى اشتهرت فى العصرين الأموى والعباسى لا لما حذقه فيها من فصاحة وبلاغة ، بل أيضاً لأنه استطاع أن يتجنب فيها الراء ، وكانت له لثغة فيها ، وكان ذلك يعد عيباً يقع فيه خطيب ذو بيان ومنطق . وقد نشرت هذه الخطبة من قبل ولكنه أعاد نشرها لعثوره على أصل جديد قرأه كاتبه محمد بن يوسف اللخمى على الإمام أبى ذر الخشنى ، وأيضاً فإنه عثر على أصل ثان فى كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ، فأتاح له ذلك أن يجيد نشره . وقدم لهذا النشر بمقدمة طريفة عن واصل ولثغته ، وحديث الجاحظ عنه وعن أنواع اللثغة بصفة عامة .

وبجانب هذه الخطبة البديعة نجد (كتاب أبيات الاستشهاد لأحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) وهو كتاب قصد به صاحبه إلى أن يضع بين أيدى الأدباء مجموعة من الأشعار التى يمكن أن يُتمثّل بها فى المناسبات المختلفة من عتاب أو اعتذار أو جزع أو حزن أو معونة لإحسان أو إساءة من صديق ونحو ذلك . ويعقب هذه الرسالة رسالة ثانية فى أعجاز أبيات للمبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، وهى أيضاً شطور أبيات يتمثل بها التمثل فى المناسبات المختلفة .

ونستمر فنجد كتاب العصا لأسامة بن منقذ بطل شيزر وأحد قواد الحروب الصليبية ، فهو فارس ، وهو إلى ذلك شاعر ، ومؤلف . وكتابه العصا يمكن أن يجد له صلة واضحة بكتاب العصا للجاحظ فى البيان والتبيين ، غير أن أسامة يضيف أشعاراً جديدة كثيرة مما نظمه الشعراء بعد عصر الجاحظ ، ومما نظمه هو نفسه ، وأيضاً فإنه — على عادته فى مؤلفاته — يقص كثيراً من مشاهداته وعصره . وهذا يجعل لتلك الرسالة — على قصرها — طرافة خاصة .

ونصل أخيراً إلى رسالة التلميذ لعبد القادر البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ ، وهى رسالة تبحث فى كلمة التلميذ ووجودها فى العربية — وقد أثيرت فى الأيام الأخيرة أبحاث حولها ، وهل هى عربية أو غير عربية .

وتلك هى المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات ، ولا شك فى أنها ثروة جديدة تضاف إلى تراثنا المنشور .

شوقى ضيف

تجارب الدكتور هايدجر

للقصصي الأمريكي نثانيل هوثورن

ترجمة الأستاذ بسام عازر

كان الدكتور هايدجر طبيباً متفنناً ، عكف على دراسة الطب والكيمياء فبلغ منهما غايته . وفاق أهل زمانه ؛ ولكنه كان غريب الأطوار شاذ الطباع ، وقد نسجت حوله الأقاصيص والروايات التي تناقلتها الألسن فأصبحت موضوع تندّر القوم وسمرهم .

وقد اتخذ الدكتور هايدجر له أربعة من أعز الأصدقاء ، ثلاثة رجال وامرأة ، ممن تقدمت بهم السن ، وطابقت أهواؤهم هواه . فأما الأول فقد بدأ حياته تاجراً فضرب في هذه الصناعة بسهم وافر ، ولكنه أضاع ثروته في المضاربات المالية ، فأصبح صفر اليدين ليس بينه وبين المستعطي فرق كبير . وأما الثاني فقد التحق في الجيش ضابطاً صغيراً إلى أن بلغ رتبة الكولونيل ، ولكن انغماسه في الملذات والشهوات ، أفقده ماله ، وأنهك جسمه ، فأورثه ذلك أسقاماً كثيرة تحمل منها صنوفاً شتى من العذاب والآلام . أما الثالث فقد شب ميالاً إلى السياسة ، فخاض معتركها وجاهد في ميادينها ، ولكن ما لبث نجمه أن خبا ، بسبب غرابة آرائه السياسية وهجنتها ! فنبذه الناس وأهملوا شأنه ، وانسدل بينهم وبينه حجاب صفيق من النسيان . أما الرابع فسيدة عجوز كانت على جانب عظيم من الجمال . وقد مات عنها زوجها وهي لما تزل في ريعان الصبا ، وحامت حولها الظنون والشبهات بعد ذلك ، مما أثار نقمة أهل البلد عليها ، فاضطرت إلى الانزواء في كسر بيتها ، مؤثرة حياة العزلة والانفراد .

والجدير بالذكر أن أولئك السادة الثلاثة أصدقاء الدكتور هايدجر كانوا جميعاً من أوائل عشاق هذه الأرملة العجوز ، وقد بلغ تنافسهم في حبها درجة كادت تفضي بهم مرة إلى الوقيعة .

وفي ذات يوم دعا الدكتور هايدجر أصدقاءه الأربعة إلى حجرة مختبره ، فجاءوا ملبين الدعوة . ولما انتظم عقدهم أعلمهم الدكتور باعتزامه القيام بتجربة علمية فيها تسلية وخير عميم لهم . وطلب منهم أن يساعدوه وييسروا مهمته قدر الإمكان . ولا بد لنا قبل اصطحاب الدكتور في تجربته ، من أن نصف مختبره ونلم إلمامة وجيزة بما حواه من أثاث وآلات وأدوات وكتب .

كان مختبر الدكتور هايدجر قائماً في حجرة قديمة مظلمة تقع في طرف ناء من المدينة ؛ وقد نسج العنكبوت خيوطه في أرجائها ، وتراكم غبار القِدَم على أرضها . وقد صف فيها عدد من خزائن الكتب المليئة أدراجها بالمجلدات الضخمة ، والرقوق والصحائف المطوية . وفوق الخزانة الوسطى ، تمثال نصفي من البرونز لأبقراط أبي الطب الذي كان يرجع الدكتور هايدجر إليه في معظم أبحاثه الطبية .

وقام في أشد زوايا الحجرة ظلاماً ، مخدع صغير من خشب البلوط ، يطل من بابه هيكل بشري في شكل مروع . وعلقت بين خزانتين من خزائن الكتب مرآة كبيرة يعلوها الغبار وقد حليت أطرافها بالذهب . ومما يروى أن أشباح الموتى الذين عالجهم الدكتور هايدجر ولفظوا أنفاسهم الأخيرة بين يديه قد استقرت جميعها وراء هذه المرآة التي كان كلما أراد الطبيب النظر إليها ، طالعته هذه الأشباح وحدقت في وجهه ... وفي ركن مقابل من أركان الحجرة قام تمثال كامل لامرأة في مقتبل العمر ، ترتدي أفخر الثياب ، وقد ارتسمت على محياها آيات جمال باهرة . لقد كان الدكتور هايدجر منذ خمسين عاماً على وشك الزواج بهذه الفتاة ، ولكنها راحت ضحية وصفة دواء خاطئة ، وصفها لها الدكتور عشية زواجهما . ولعل أغرب ما حوته الحجرة ، وأدعى

إلى الدهشة ، ذلك الكتاب الضخم المكسو بالجلد الأسود ، وقد خلت دفتاه من الكتابة فلم يستطع أحد معرفة اسمه . ولكن المأثور عنه أنه كتاب سحر نادر المثال ، وآية ذلك أن خادماً جاءت مرة لتمسح الغبار عنه ، فلم تكد ترفعه بين يديها حتى رأت — ويا هول ما رأت ! — رأت الهيكل البشرى يهتز فى مخدعه ، وتمثال الفتاة يخطو خطوة إلى الأمام ، ووجوهاً شاحبة كوجوه الموتى ، تطل عليها من المرآة ، على حين شاهدت تمثال أبقراط وقد تجهم وجهه وانقبضت أساريره ، وسمعته وهو يقول لها « ترفقى يا هذا !. ترفقى . ! » .

هذا وصف موجز لمختبر الدكتور هايدجر . ولنعد الآن إلى تجربته التى دعا إليها أصدقاءه الأربعة لمشاهدتها والانتفاع بها ، فنى وسط الحجرة نصبت منضدة سوداء ، عليها جفنة من بلور ، أترعت ماء ، وقد نفذت الشمس من خلال ستائر النوافذ ، وسطعت على الجفنة ، فانعكس عنها ضياء زاه رقيق ، ارتسم على وجوه الشيوخ الجالسين حول المائدة ، وقد وضع أمام كل منهم قدح فارغ من الزجاج العادى .

كان أصدقاء الدكتور هايدجر الذين عرفوا فيه غرابة الأطوار ، يتوقعون ألا تتعدى تجربة صديقهم النطاسى أمثال تلك السخافات التى ما برح يفاجئهم بها بين آن وآخر ، فتسبب لهم كثيراً من المضايقة وصداع الرأس ، كقتل فأر فى مفرغة هواء مثلا ، أو تفحص دقائق نسيج العناكب بالمجهر ... غير أن الدكتور كانت تبدو عليه أمارات الجد هذه المرة . وما لبث أن وثب إلى حيث يوضع الكتاب السحرى . فأخذه بين يديه وطفق يقلب أوراقه إلى أن استخرج من بينها وردة جافة ذاوية بدت كأنها ستتحطم بين أنامله ، ثم قال : « هذه الزهرة التى ترون ، كانت منذ خمسين عاماً متفتحة الكم عبقة الأريج ، وقد قدمتها لى المرحومة الآنسة سلفيا وورد خطيبتى التى ترون تمثالها قائماً أمامكم ، فى يوم زواجنا الذى لم يتم . ولقد حرصت منذ ذلك الحين على الاحتفاظ بهذه الوردة بين طيات هذا الكتاب . فهل جال فى خواطركم أو خيل إليكم أن هذه الزهرة الذابلة قد تعود يوماً ما إلى الحياة فتزهر وتشرق مرة أخرى !! .

فصاحت الأرملة العجوز وهى تهز رأسها استغراباً : « يا للسخف والحمق !.. وهل يمكن لوجه عجوز بنت سبعين أن يعود إلى سابق نضارته ورونقه !! » .

فلم يجب الطبيب ، بل سرعان ما رفع الغطاء عن جفنة الماء ورمى بالوردة الذابلة فيها ، فبدت الوردة وكأنما أخذت تمتص من السائل ، ثم ما لبثت أن تفتحت أكمامها ، وتوردت شيئاً فشيئاً ، ودب الاخضرار فى ساقها ، وورقاتها ، وتلألأت قطرتان أو ثلاث من الطل فى طياتها ، فإذا بها زهرة نضرة يانعة كأنما قد اقتطفتها يد الآنسة سلفيا وورد منذ دقائق معدودة فقط !.

بيد أن الحاضرين لم يظهروا كبير استغراب لما قد وقع ، وقد حسبوه من قبيل الخداع ، إذ كانوا قد تعودوا رؤية أمثال هذه الألعاب ، بل ما هو أغرب منها ، عند حذاق المشعوذين ، ولكنهم طلبوا من الدكتور أن يشرح لهم الأمر ، فأعلمهم أنه فى جزائر فلوريدا النائية عين ماء تسمى « عين الشباب » ، تحيط بها الأشجار الدائمة الاخضرار ، فتحجبها عن الأبصار . وأن أحد معارفه قد استطاع الحصول منها على كمية من الماء ، هى التى يرونها أمامهم فى الجفنة .

فتنحنح الكولونيل وهو لا يكاد يصدق كلمة واحدة مما قاله صديقه الطبيب . ثم سأله عن تأثير هذا السائل فى الجسم الإنسانى . فقال الطبيب وهو يصب الماء فى أقداح ضيوفه « ستختبرون ذلك بأنفسكم أيها الأصدقاء ، ثم تحكمون .. وها أنا ذا قد وضعت تحت تصرفكم كمية وافرة من هذا الماء العجيب لتشربوا منه ما طاب لكم الشرب ، ولتستردوا شبابكم وتجددوا عهد الفتوة . أما أنا فيكفينى الآن أن أراقب التجربة وتطور سيرها .. »

واستمهل الطبيب أصدقاءه قليلاً ليسدى إليهم هذه النصيحة قال : « أيها الأصدقاء الأحياء .. إنكم تقفون الآن مرة أخرى على عتبة الشباب — هذا الشباب الذى مر بكم من قبل ، فذقتم حلوه ومره ، وخبرتم نزواته وجسيم أخطاره ، فاتقوا الله فى شبابكم الثانى ، واعتصموا فيه بحبال التقوى والبر ، ولا توردوه موارد الشر والرذيلة ، وجنبوه مساقط الزلل كى تكونوا مثالاً يحتذى ، ونبراساً يستضاء به على مدى الأجيال ...

ولكن أصدقاء الطبيب كانوا فى شغل شاغل عما نصحهم من نصح ، فأجابوه بهمهمات استخفاف . وما لبثت أيديهم المرتعشة أن امتدت بشغف إلى الأقداح الأربعة ، فكرعوا مافيها ووضعوها ثانية على المائدة . ولم تمض بضع دقائق حتى أخذ السائل العجيب يحدث أثره فيهم ، إذ شعر كل منهم

بنشوة سرور وانشراح، كما لو كان قد تناول قدحاً من كريم الخمر. وسرى دم الشباب حاراً في عروقهم، وتوردت منهم الوجنات، ودب النشاط في أجسامهم وقد كانت خامدة خائرة القوة، فأخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض وقد خيل إليهم أن يداً سحرية قد شرعت تسل منهم معالم الكبر التي نقشتها يد الزمان على جباههم، وتبدل بها فيضاً من النشاط والدم الحار. وأحست العجوز الأرملة بشبابها، فأصلحت لباس رأسها، وأمالته إلى الجانب قليلاً..!

وصاحوا بالدكتور بصوت واحد: «ألا زدنا بالله من هذا الماء مثنى وثلاث ومافوق.. فلقد زايلنا الهرم ولكننا لم نزل شيوخاً كباراً..» فأجاب الدكتور مازحاً وهو يعيد ملء الأقداح: «أجل! أنتم على صواب.. لقد انقضى زمن طويل وأنتم تكبرون وتهرمون حتى ملأتم الهرم ولزمتم من الشيب. فلا غرو أن تأخذ عودتكم إلى عهد الصبا، وودتم لو تزعتم ثوب الكبر في مُدَّة وجيزة...». ثم ناولهم الأقداح فأفرغوا ما فيها دفعة واحدة، فأحسوا بفيض جديد من القوة يتدفق في عروقهم، وأخذت غشاوة الشيخوخة تنقشع من عيونهم فقويت منهم الأبصار، وبدأت ظلال تطرق إلى رءوسهم فاسودت اللمم بعد بياض.. ومال الكولونيل إلى الأرملة مطرياً ما غدت عليه من جمال واعتدال قوام، فلم تصدق كل ما قاله الكولونيل، إذ عرفت فيه ماجناً خبيثاً! فنهضت إلى المرآة لتنظر بعينها. كذلك عاودت الآخرين ذكريات الشباب العابرة، فقام السياسي منهم ينادي بآرائه السياسية المنهجة، ويشيد بالوطنية والعزة القومية وحقوق الشعب، في حين أخذ الكولونيل ينشد نشيداً حماسياً موقعاً أنغامه على كوب الماء أمامه، وعيناه لا تطرفان من النظر إلى المرأة الجالسة بجواره.. وانهمك التاجر بعملية حسابية تجارية فيها القروش والدنانير.. أما الأرملة فقد وقفت أمام المرآة وأخذت تداعب خيالها، وهي تبتسم وتتهافت وتتثنى، وقد أعجبت بنفسها أيما إعجاب.

ثم أسرعت نحو الطبيب تطلب منه أن يراقصها، فاعتذر بلطف قائلاً: إنه شيخ مسن، وقد نسي الرقص منذ زمن بعيد، ونصح لها أن تختار واحداً من هؤلاء الفتيان ليرقص معها. وفي الحال تقدم منها الكولونيل عارضاً عليها أن تراقصه. فصاح به السياسي: «لا بل إن كلارا تود مراقصتي»... فهب التاجر من مقعده وزمجر بهم قائلاً: «ابتعدا يا هذان... لقد كانت كلارا وعدتني بالزواج منذ خمسين سنة، فأنا أحق منكما بالرقص معها». والتف الثلاثة حولها وأخذ واحد يديها وطوق الثاني عنقها، وطفق الثالث يداعب خصلات شعرها المتدلية من تحت قبعتها... وحاولت كلارا الإفلات من قبضتهم فلم تستطع، وقد غلبها الحياء وعيل صبرها، وأخذت تلهث بشدة. لقد كان منظر هؤلاء الثلاثة وهم ملتفون حول كلارا، صورة ناطقة لاندفاع الشباب وراء الجمال، وافتتانهم به، وتنافسهم عليه. وظلوا ساعة وهم متعلقون بأذيال الفتاة، وقد ألهبت أنفاسها الحارة شعورهم.. فأخذوا يتبادلون نظرات الغيظ والتهديد، وأمسك كلٌّ منهم بخناق الآخر، دون أن يدعوا للفتاة مجالاً للإفلات. وفيما هم في هذا العراك، إذا بهم يصطدمون بالمائدة، فتنقلب وتسقط عنها جفنة الماء، فتتحطم ويسيل منها ماء الشباب جزافاً على الأرض!!

وثار ثائر الدكتور هايدجر فصاح بهم قائلاً: «مكانكم يا قوم.! وأنت أيضاً يا كلارا.. يا لكم من جهلة معربدين»

ونظر فرأى الوردة التي أهدتها له سلفاً وورد منذ خمسين سنة، ملقاة على الأرض وكان يؤرها بعطفه، فالتقطها فإذا هي تذبل بين يديه. أما الشيوخ فقد تراجعوا ذاهلين، وسرت فيهم رعدة الخوف من أن يعودوا القهقرى، وتزول عنهم جدة الشباب بزوال المعين الذي كانوا يستقون منه.

والواقع أن ما كانوا يخشونه قد حصل، إذ بدأوا يشعرون بأن كل لحظة تمر تسلب فلذة من شبابهم، وتقربهم خطوة إلى الشيخوخة، فجأروا إلى الطبيب ملتمسين العون والنجدة، فقال لهم: اعلموا أني لست بآسف على ما حدث.. فقد كان تصرفكم المشين هو الذي جلب عليكم الوبال. لقد أرقتم ماء شبابكم، وستعودون شيوخاً كما كنتم! وعبثاً لو رأيت نبع هذا الماء يتدفق من تحت عتبة بيتي، لما امتدت يداي لأخذ جرعة واحدة منه!».

أما هم فلم يتعظوا، بل قرروا القيام برحلة إلى جزائر فلوريدا، للتفتيش عن «عين الشباب» والارتشاف من مائها ليلاً ونهاراً، ولكن هيهات أن يجدوها..!

(قبرس) بسام عائد

الثقافة

العدد ٦٥٧
٣٠ من يوليه ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليما

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٥٧ — الاثنين ٢٦ من شوال سنة ١٣٧٠ — ٣٠ من يوليه سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

فى ضوء المصباح :

الكوميديا الأرضية

للدكتور زكى نجيب محمود

يحكى أن شاعراً كان اسمه « دانتى » ، عاش فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان ، قد كتب قصيدة طويلة عظيمة أسماها له الناس من بعده « الكوميديا الإلهية » ، طاف فيها بصحبة أستاذ له قديم من الشعراء الأولين ، هو « فرجيل » ، طاف بالجحيم فوصف مَن شهده فيها من الأشقياء وما شهده منصبًّا عليهم هناك من عذاب أليم .

ثم شاء الله — ولا رادّ لمشيئة الله إذا شاء — أن يبعث « دانتى » حيًّا شاعراً كما كان ، وأن يبعث معه « فرجيل » دليلاً هادياً كما كان أيضاً ؛ وعاودت دانتى شهوته القديمة فى وصف الأهوال ، فكان أن زار بلداً يقال عنه إنه بلد العجائب ، حتى إذا ما رجع إلى بلاده عمد تواً إلى ما كان قد كتبه فى حياته الأولى ، وأدخل عليه تغييراً وتحويراً يناسب العصر الحديث ، مستفيداً بما علمته التجربة فى بلد العجائب ، وإدراكاً منه بأن الشاعر الحق لامندوحة له عن مسايرة الزمن ؛ لكنه هذه المرة أطلق العنوان بنفسه على قصيدته ، ولم يترك ذلك للأجيال القادمة ، كما قد فعل أول مرة ، ثم اختار عبارة « الكوميديا الأرضية » عنواناً لقصيدته الجديدة .

وهاك خلاصة وافية لوصف الجحيم فى « الكوميديا الأرضية » كما كتبها الشاعر القديم الحديث .

يقص علينا « دانتى » كيف سار فى صحبة دليله « فرجيل » حتى بلغا باب الجحيم الأرضى ، فقرأ على قمة الباب هذه الأسطر الآتية مكتوبة بماء الذهب : « ادخلوا إلى مدينة الأحزان ! ادخلوا إلى أرض العذاب ! ادخلوا بين من تنكَّبت بهم السبيل إلى أبد الآبدين ! فيأيها الداخلون انفضوا من أنفسكم — عند مدخل — كل رجاء » .

ويدخل الرجلان فإذا بالجحيم هوة سحيقة فى هيئة واد طويل مديد ، رأسه عند مركز الأرض وقدمه على حافة البحر ، وجوانبه مدرجة درجاتٍ عِراضا ، وعلى هذا المدرج حُشِر الآدميون ! ولا يكاد الشاعران يدخلان أبواب الجحيم حتى يبلغا نهراً يسمى بنهر الأسف والأسى ، وعلى شطه ألفيا نفراً يريد العبور إلى الشاطئ الآخر ؛ وكان العبور تحت إشراف حارس فظيع بشع يجذب الناس جذباً قاسياً عنيفاً ، وعيناه تدوران فى رأسه كأنهما حلقتان من نار ! فلا يحتمل دانتى هذا المشهد الرهيب ،

وسقط فى إغماءة لا يفيق منها إلا على صوت رعد يقصف قصفاً شديداً ، وعندئذ يعلم أنه وزميله قد عبرا نهر الأسف والأسى ، حيث انتهى بهما العبور إلى أولى حلقات الجحيم ، وهاهنا وجدا عبدة المادىّ الذين أنهكوا قواهم وأضاعوا حياتهم فى سبيل ملذاتهم ؛ ولذلك فقد حق عليهم الحرمان من نعيم الفردوس ، وأخذت تلذعهم الزنابير فى وجوههم وأعناقهم ، فيصيحون من الألم ، ولا يعرفون إلى الطمأنينة والراحة سبيلا . ويجتاز الشاعران هذه المرحلة ليجدا أمامهما فريقاً آخر من الآثمين المجرمين ، وهو فريق أولئك الذين شغلتهم فى الدنيا عقولهم عن إشباع شهوات أجسادهم ؛ وإذا بهؤلاء قد عصفت بهم ريح شديدة فأخذتهم الراجفة كأنهم الكراكىّ فى العاصفة ؛ وهنا يقول دانتى : « ها هنا بدأت أسمع صيحات الحزن والأسى ، فهاهنا قد أتيت إلى حيث الأنات الشاكيات ، تقرع أذنى فتؤذيها ، إذ ها هنا قد أتيت إلى مكان خفت فيه الضوء ، وزمجرت رياح عواصف ، كأنه البحر مزقته العاصفة برياحها الهوج ؛ وهبت فى جنبات الجحيم رياح عاتية أخذت فى سورة الغضب تسوق أمامها هؤلاء الآثمين سوقاً فتدور بأجسادهم حتى الدوار ، وتدفعهم دفعاً عنيفاً موجعاً .. الخ » .

وهنا سقط شاعرنا « دانتى » فى إغماءة أخرى ، لأنه رقيق الحس كسائر الشعراء ، حتى إذا ما أفاق ألفى نفسه فى الحلقة الثالثة من حلقات الجحيم — فى هذه الحلقة الثالثة أعدّ العقاب لمن عفّ فلم يلحف فى السؤال عن حقه لدى أصحاب السلطان ، فشاهد الشاعران أولئك الخائبين الخاسرين وهم يتمرغون فى حمأة من الطين تحت وابل من المطر والثلج والصقيع ، بينما وقف صف من كلاب وحشية تنبح فى وجوههم وتعوى ، وتمزق جلودهم تمزيقاً بأنيابها ومخالبها .

وبعدئذ سار الشاعران إلى حيث الحلقة الرابعة من حلقات الجحيم ، فوجدا جماعة كانت تشتغل بالإصلاح فتقصد فى غيرهم نعاسهم وأحلامهم ، ولذلك حقت عليهم اللعنة ونزل العقاب ؛ فرآهم الزائران هناك يدحرجون جلاميد صخر عاتيات فى اتجاهين متقابلين ، ثم لا تلبث جلاميدهم أن يصدم بعضها بعضاً ، ويعود كل جلمود كما كان أول أمره ، فينفجر الأشقياء المجرمون بالغضب من كثرة ما نالهم من نصب وإعياء ، ويلعن فريق منهم فريقاً ، لأن كل فريق يعتقد أن الفريق الثانى هو الذى أتلف عليه ما صنع .

وينتقل الزائران إلى الحلقة الخامسة من حلقات الجحيم ، وقد خصصت لمن أخذ زمانه بالدقة فلا يؤخر موعداً ولا يؤجل عملا إلى غد ؛ ويغضب ويحزن إذا ما رأى من المستهترين تراخياً وتفريطاً — كان هؤلاء الغاضبون يسكنون فى الجحيم قاع بحيرة من وحل ، يتنهدون فتنتفخ على سطح البحيرة فقاقيع لا تلبث أن تنفجر ؛ وقد قال منهم قائل حين أحس بمرور الشاعرين إلى جانب البحيرة : « كنا ذات يوم حزانى على الفوضى الضاربة فى أرجاء البلاد ؛ كنا رغم الهواء الحلو الذى كانت تبهجه أشعة الشمس ، نحمل فى أجوافنا نفوساً مظلمة وضباباً ثقيلا ، لذلك حق علينا الحزن فى هذا المكان القاتم » .

وبعدئذ وصل الشاعران إلى مكان الحلقة السادسة حيث أبصرا خلال الضباب الكثيف أبراجاً وقباباً متوهجة بألسنة اللهب ، فقيل لهم إن هذا مدخل مدينة الشيطان ، وكانت طائفة من الجن قائمة على حراسة أبوابها ؛ ويدخل الرجلان باباً فإذا هما يشهدان سهلا فسيحاً ملأته أجداث مكشوفة لا يسترها غطاء ، تتأجج فى كل منها نار تلتهمه لأن صاحبه كان حراً فى رأيه يعتقد كيف شاء ، لهذا حقت عليهم جميعاً هذه الفضيحة المنكرة لجرأتهم الشنعاء .

وبلغ الراحلان حدود الحلقة السابعة من حلقات الجحيم فهبطاها خلال شق من صخور ممزقة الجوانب ، حتى انتهيا إلى نهر من دماء ، وقف فى لجبه أولئك الحمقى الذين كانوا يتورعون فى حياتهم عن اشتراك الأحزاب السياسية ، ويقفون فى ركن هادئ يفكرون ، أو يمضون فى سبيلهم الجاد يشتغلون ويعملون .

وكانت الحلقة السابعة ذات شقين ، فدخل الشاعران شقها الثانى وأبصرا فريقاً آخر من المضللين الذين أخذتهم الغيرة فى سبيل الضعفاء والمرضى والمعوزين ، فهؤلاء قد انقلبوا فى الجحيم أشجاراً جافة قصيرة ، تتدلى منها ثمار مسمومة ، وكان كلما انكسر فرع من شجرة تدفق الدم كأنه ينصبّ من جسم مجروح ، وذلك جزاء ما أحدثوه من قلق فى نفوس كانت آمنة مطمئنة .

وفى الحلقة الثامنة من حلقات الجحيم حشدت طائفة أولئك الذين كانوا لا يراءون ولا ينافقون فى عالم خلقه الله للرياء والنفاق . فحق على هؤلاء الكفار عقاب شديد ، إذ غمسوا فى حفرة ملئت بقار يغلى ! وقد يحدث الفينة بعد الفينة أن يعلو الآثم بظهره فوق سطح القار من فرط الألم ، ثم يختفى فى سرعة أين منها لمحة البرق الخاطف ! فكما تقف الضفادع من بركة الماء عند حافتها ، لا يبدو فوق الماء منها غير خياشيمها ، كذلك وقف هؤلاء الآثمون فى لجة القار ! ولكن سرعان ما يأتيهم الحارس فيغوص الجناة تحت الوهج .

وقد شهد « دانتى » هنالك مشهداً رهيباً ، إذ شهد أحد الجناة يطفو ويطيل الظهور على سطح القار بعض الشىء ، فجاءه الحارس وأمسك بخصلات شعره ، وجذبها جذباً شديداً ، ثم ألقى به فى عنف طريحاً حتى بدا له كأنه كلب من كلاب الماء .

وفى الحلقة التاسعة حشر أولئك الجانين الأقدام البلهاء الذين استنصحوا فى حياتهم فنصحوا بالحق ، فكل فرد من هؤلاء قد ألبسوه هنالك قلنسوة ثقيلة من رصاص زخرفوه له بالذهب ، وكلما ثقلت القلنسوة على رأس المذنب حتى مال عنقه إلى صدره ، ألهبه الحارس بسوطه على ظهره ، قائلاً له : اعتدل فإن على رأسك طلاء من ذهب هو علامة الصدق فى القول والإخلاص فى العمل .

وفى الحلقة العاشرة والأخيرة من حلقات الجحيم ، شهد الشاعران — وياهول ما شهدا — شهدا فريقاً من الناس أتوا فى حياتهم أمراً إدّاً ، واقترفوا جريمة هيهات أن تجد لها عند الله غفراناً ! هؤلاء هم الذين لم يتشفعوا بشفيع أو يتوسطوا بوسيط وعملوا فى صمت ، مع أن الله قد أراد لهم أن يصيحوا ويملأوا الدنيا جلبة كلما خطوا خطوة أو نطقوا كلمة ؛ فكان جزاؤهم فى جهنم أن ينزلوا فى قاع الجحيم ، وهو بحر من ثلوج تبدو فيه أشباح المذنبين كأنما هى ذباب يضطرب فى وعاء من البلور ! وكتب عليهم هنالك أن يقرض بعضهم عظام بعض من الجوع كما تفعل الكلاب الجائعة ! فهذا جزاء من يعمل صامتاً معتمداً على نفسه ! فلماذا خلق الله للناس آذاناً إذا لم يسمعوا بها صياح الصائحين ، ولماذا خلق لهم قلوباً إذا لم ترقّ لشفاعة المتشفعين ؟ .

وكانت الكروب عندئذ قد أضافت صدر « دانتى » وطلب من دليله أن يسرع به إلى حيث الفردوس ونعيمه ! فما هو إلا أن وجد مركبة مغطاة بالزهر ، حملته مع زميله بين مروج من الخضرة اليانعة والقصور الشاهقة والأكل الطيب وطمأنينة النفس وراحة البال — فهاهنا ينعم من رضى عنهم الله من المنافقين أصحاب الشهوة المسعورة والكذب المبين والخداع والرياء .

وأفاق « دانتى » وهمس لزميله فرحاً مستبشراً ، فقال : ادعُ لنا الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم هذا النعيم .

زكى نجيب محمود

واهـــوانى

واهوانى ممن أحاطت صباها   بسياج من الدلال الغيور
يجنح الورد ثم يأباه عمداً   ويذيل الرجاء بعد النبور
هى دم لكنه من لهيب   وهى لحم لكنه من عطور
هى دنيا طلاسم وأحاجى   هومت فى مواكب من غرور

•••

إنه يغشاه موحشات الليالى   يتن فى مهجتى كيوم النشور
لست أدرى ولست آمل أدرى ..
ما حيـاتى وأى شىء مصيرى
لا تكونى مع الزمان عناداً   ذل قلبى من الزمان الكفور
ما أرانى إلا كظاوى فلاة   ليس يدرى ماذا وراء المسير
أتقـل مرارة فى جحيـم
من شكوك مسمومة كالفجـور
وأرى الكون من خلال دموعى
مأتمـاً باكياً عليـه سرورى
ما دموع الحزين إلا صلاة   رتلتها الآماق فوق النحور
إنها ومضة التحرر شعت   فى ظلام الإرهاق عبر العصور
أنا أدرى بما فؤادك يطوى   موثدرين ما وراء سطورى
فاطرحى الذل يا ظلوم وهيا   نغنم العمر فى ظلال الخدور
وتعالى نعب خمر الأمانى   فى كئوس من الوفاء النمير
شرعة الحب جذوة فضرام   فلهيب مخلد فى الدهور

(الوسل)   عبد العالى طه

كيف تتغير الأمم

للدكتور أحمد أمين بك

الأمة في حركة مستمرة دائمة ، فهي طوراً إلى الأمام وطوراً إلى الخلف ، ولكنها لا تقف أبداً ، وحركتها تحدث في بطء ، فلا نرى نتائجها إلا بعد عهد طويل . وكثيراً ما يكون هذا التغير ضرورياً لتغير العادات والتقاليد التي ينشأ عنها تغير في الأوضاع ؛ فمثلاً تغير الطبيعة من صيف إلى شتاء ، ومن شتاء إلى صيف ، ينشأ عنه تغير في الملبس ، وكالذي شاهدناه من سفور المرأة قد نشأ عنه تغير في الملابس وتغير في أوضاع الزواج وغير ذلك .

فالتغير يسلم بعضه إلى بعض . وهو يحدث عادة من الطبقة الراقية الأرستوقراطية ، سواء كانت أرستوقراطية في المال ، فإن الفقير مولع أبداً بتقليد الأغنياء ، أو أرستوقراطية عقلية ، فإن المثقفين عادة ينقدون الجهلاء في اعتقاداتهم بالأساطير وفي تقاليدهم الوضيعة فيكون التغير .

والتغير عادة يقابل بالمقاومة ، فكل تغير تقابله بعض الجهات بالعداء .. فبكل أمة محافظون يكرهون التغير ولا يرضون عنه ويعبدون تقاليدهم القديمة ، ولا يتم التغير إلا بعناء ، كالسفور وحق المرأة في الانتخاب ونحو ذلك .

وقد تحدث هذه المقاومة بحسن نية ، إذ يعتقدون أن المقترح الجديد ضار كل الضرر ولا تتغلب العادات الجديدة إلا بعناء .. وربما لا يحدث التغير المطلوب إلا بعد حرب أو ثورة ، وذلك عند شدة العداء أو المقاومة .

والمشاهد أن هذا التغير في الأمة إما أن يحدث عن دعوة وقصد ، وإما أن يحدث لا عن دعوة ولا عن قصد ؛ فالأول يأتي بعد درس لأضرار الحاضر ووضع خطة العمل على تغييره .. مثله حركة النبي محمد (ص) وحركة أحد السلاطين العثمانيين للقضاء على الانكشارية لما رأى ظلمهم وعسفهم ، وحركة قاسم أمين في الدعوة إلى السفور ونحو ذلك .

أما الثاني فمثله هجرة جماعة إلى بلد آخر، كهجرة بعض الأوروبيين إلى أمريكا ؛ فينشأ عن ذلك اختلاط بين سكان البلاد الأصليين ، ومواليد جديدة تتخذ طرفاً من هؤلاء ، وطرفاً من هؤلاء .

ومثل ذلك السينما والإذاعة ، فإنهما يقلبان من غير قصد عقول الجماهير وأذواقهم ومداركهم ... والتاريخ مملوء بالأمثلة على النوعين . وما الثورة الفرنسية إلا مثل قوي على التغيير من النوع المقصود . وكذلك الثورة الروسية ، وهما أيضاً مثلان للثورة على النظم القديمة وعدم الرضا عنها . وربما دلت هذه الثورات وأمثالها على ضرورة شيء هام جداً ، وهو تعديل الأمة نفسها على حسب الظروف الجديدة . وربما كان من خير الأمثلة على ذلك انجلترا ، فقلة الثورات فيها ناشئة من أنها تنظر نظرة جيدة إلى الظروف الطارئة فتؤقلم نفسها حسب هذه الظروف ؛ فلما شاهدت الثورة الفرنسية غيرت نفسها على مقتضاها ، ولما رأت قوة الاشتراكية عدلت أيضاً نفسها على وفقها ، ولم تشأ أن تصطدم بها .. وربما كان من أسباب ذلك أنها جزيرة بحرية تعلمت من البحر المد والجزر وتعديل النفس حسب الأمواج والرياح .

والتغير في الأمة إذا كان عن قصد كان صعباً عسيراً لاختلاف الأفراد في المزاج والثقافات والآراء والرغبات والطموح والأفكار ، ورغبة بعضهم في الإصلاح الجديد ، وصد بعضهم عنه وغير ذلك . ولذلك قل أن يكون إجماع من الشعب على التغير ، وقل أن يكون في البرلمان الممثل للشعب اتفاق على رأي . وفي كل أمة قوم متزمتون يحافظون على القديم ولا يرضون أبداً عن التقدم خطوة المصالحة بينهم وبين الأحرار ، ولذلك كان الإصلاح البطيء غير المقصود أسلم عاقبة وأقل خطراً .

وكلما تقدمت الأمم في عقليتها كانت أقرب إلى قبول

في الليـــــل ..

قالت روحك .. قلت الليل أستارُ
وتحن في معبد الأحلام أحبارُ
تشدو فتصغي نجوم وهْي حالمة
حتى الجلاميد أسماع وأبصـــار
والبدر في حاله يسقي نواظرنا
والليل حان ، وخمار ، وأوتار
عيناك .. عيناك .. بإحساء مُدْرَتَيْنَا
آمنت بالله .. !! إن الحسن سحار !
عيناك .. عيناك .. ! في قلبي تدفقتا
سيلاً يضج بعمق وهْو جبار
أهفو إليك كما تهفو إلى لهب
فراشـــة شاقها جمر وأنوار
أدنو .. فيرجع بي خوف يخامرني
فأنثني ويحفني الشـــك والنار
فمن ترى أنت ؟ .. لا أدري وحيرني
أني بكنهك لا أدري .. ونظار :
في اللانهايات .. في البحر المضروب إذا
أســـال فيه دماء الغرب بشارُ
ووشح الأرجوانُ الأفق منتشراً
والموج، وهو رهيبُ الخطو هدار
أظل بالشاطئ الوسنان منفرداً
كأنني في كتاب الحزن أسطارا
سهمان ولهان .. حيران الرؤى أبداً
كأنني في نواح المـــوج منكارا
لا النسم إن هب تشجيني مواكبه
ولا الأغاني .. ولا الصب غدار
ولا الشحارير في وادي الجبال ولا
فردوس شعري .. وعمري النور والنار
غابت .. ! فويلي .. كما غابت مودعة
شمس الأصيل .. وغابت آه أنوار .. !
وليس يهـــدأ قلبي وهي نائيـــة
ليلاي عودي .. فإن الليل أستار
عودي فلولاك لم أشعر بما نسجت
يد الخيال .. فأنت الوحي والقيثارا
وأنت لحني أرى في سحره رقصت
صـــوفية زفها الفن آزار
عودي فكم ذبت تحناناً على لهب الـ
أشـــواق أرنو ودمعي عنك أخبار
وأنت ناعمة في ظـــل وارفة
وحول حسنك أطيـــار وأزهار
فآه ليلاي تلُّ الصـــد تحرقني
كم للغواني بفن الصـــد أسرارا

محيي الدين فارس السوداني

التغير ، لأنها في هـــذا التغير الجديد تحمل عقلها أكثر مما تحمل مشاعرها ، والعقل دائماً أرقى من الشاعر .

أما الأمة الوضيعة فهي أقل قبولاً للإصلاح ، لأنها تحمل مشاعرها أكثر مما تحمل عقلها ، ومن أجل هـــذا يحتاج المصلحون إلى دعاية قوية حتى تجمع الأمة على قبول التغير الجديد ؛ فإذا لم تقبل فليس أمامهم إلا القوة لإخضاع هذه الميول الثائرة المستبدة ، فالاستبداد لا يقابل إلا بالاستبداد . فإن حصل الإصلاح بالقوة شعر الشعب بعد ذلك بفائدته واطمأن إليه .

ولذلك كان التعليم خير إصلاح ، لأنه يهيئ الأمة لقبول الآراء الجديدة .. فإذا تعرض الإصلاح لناحية دينية قوبل المنادي به بأقسى معارضة ، لأن الدين يغشى عادات وتقاليد يتمسك بها الناس ويظنون أنهم بهذا التمسك يعبدون الله ويؤدون واجبهم ، ويظنون أن من أراد تغيير هذه العادات والتقاليد يريد تغيير الدين ، وما أشد ذلك على النفوس .. وفي التاريخ كثير من الأحداث الدينية والوسائل السياسية التي وقفنا عقبة في سبيل الإصلاح والمصلحين ! وكثيراً ما ادعى من الدين ما ليس من الدين ، وكثيراً ما لعبت السياسة دورها الخطير في شعورها أن الإصلاح يضرها ، فهي لا تصرح بذلك لأن الجمهور يكشف لعبتها ، وإنما تثير الشعوب بإفهامهم أن الإصلاح يضرهم ، بينما لا يضر الإصلاح سوى صالح الساسة ، وكم من الحريات والإصلاحات كبتت باسم المحافظة على النظام ومراعاة المصلحة العامة .

أحمد أمين

من أدب سمرست موم

صديق الشدة

للأستاذ على أدهم

سمرست موم من كبار الكتاب الروائيين ذوى الشهرة العالمية فى الوقت الحاضر ، وهو بعد موت الكاتبين الكبيرين ولز وجلزورذى يعد شيخ الكتاب البريطانيين المعاصرين وأبعدهم شهرة ، وقد نال هذه المكانة المرموقة برواياته الكثيرة الممتعة وقصصه وأقصوصاته المحكمة السبك البليغة الأداء ، ومسرحياته الشائقة . وسمرست موم روائى مطبوع له ملكة مطواع ، وعنده معين لا ينضب من الابتكار والتنويع ، وقد زاده بسطة فى معرفة النفس الإنسانية وخبرة بالطباع كثرة تجاربه ومشاهداته وأسفاره ورحلاته ؛ ورواياته ومسرحياته حافلة بالشخصيات المختلفة وطرز الأخلاق المتباينة ، وهو يحاول أن يصف الطبيعة البشرية كما هى بغير طلاء ولا تنميق ؛ وهذه الواقعية الصارمة قد تميل بنا فى بعض الأحيان إلى أن نعزو إليه شيئاً من القسوة والكلبية فى تصوير الطباع وكشف خفايا النفوس ؛ ولكن حينما نطيل النظر فى فن الرجل وطريقته نجد أنه فنان مخلص لا يلقن أشخاصه حكماً أخلاقية متكلفة ، ولا يجرهم إلى مواقف مفتعلة غير طبيعية ، وإنما يترك لهم حرية الانطلاق مع منطق طباعهم ومقتضيات نشأتهم وتكوينهم ، والكثيرون ممن تلقاهم فى رواياته لا يرفعون من شأن الإنسان فى نظرنا ، ولكن موم لا يريد أن يكذب بنا فى القول ويزيف لنا الفن ؛ وماذنب الرجل إذا كان النقص أقرب إلى طباعنا من الكمال ، وإذا كان وراء النواحى اللامعة المتألقة فى حياة الناس بعض الجوانب الأخرى الشوهاء البغيضة المنفرة ؟ والقصة التى أقدمها للقراء من أقصوصاته التى تبين طريقته واتجاهه ، وقد جرى فيها على أسلوبه المعهود ، فبدأها بملاحظة تبين لنا مَنْزَع القصة وهدفها ، وموم على ما يبدو لى يحب أن يسخر من سذاجة الناس وانخداعهم بالظواهر وادعائهم العريض بأنهم يفهمون النفوس ويستبطنون خفاياها ، ولذا كثيراً ما يحدثنا عن أحد أبطال رواياته ويعدد لنا صفاته وملامحه ، فنسرع فى الحكم عليه ونحسبه من أحسن الناس أخلاقاً وأخلصهم نية وأطيبهم قلباً ، فإذا به من السفلة الأوغاد والأشرار المجرمين ؛ وقد نبدأ بسوء الظن بالبطل واستثقاله والتبرم بأحاديثه ، فإذا بالمؤلف يكشف لنا من نواح باهرة فى أخلاقه جديرة بالإعجاب والتقدير ، وكأن الرجل مغرى بالضحك من فراستنا والعبث بظنوننا وتقديراتنا ؛ وهو يرمى من وراء ذلك إلى شئ جدى ، وهو أن يرينا ويقنعنا بأن الحكم على أخلاق الناس ليس بالبساطة أو السهولة التى يظنها الكثيرون ، وأن نفوس الناس صناديق مقفلة حافلة بالخفايا والأسرار والتناقضات ، وهو شئ يحزن نفوسنا ، لأنه يكاد يرينا استحالة المعرفة ، ويمس كرامة الغرور الحبيب إلى النفوس ، ولكنه من ناحية أخرى يعودنا الحذر والأناة فى إصدار الأحكام والأخذ بظواهر الأمور :—

لقد قضيت حتى اليوم ثلاثين عاماً وأنا عاكف على دراسة زملائى البشر ، ومع ذلك لا أعرف عنهم سوى النزر اليسير ، وإنى لأتردد فى اختيار خادم بمجرد ما يبدو على محياه ، ومع ذلك فإن أكبر ظنى هو أننا نحكم على أكثر من نلقى من الناس بما يبدو على وجوههم ، ونحن نستخرج النتائج عن أخلاقهم مما نراه من شكل أحناكهم ونظرات عيونهم وهيئة أفواههم ، وإنى لأعجب إذا كنا نصيب فى ذلك أكثر مما نخطئ ؛ وأغلب الروايات والمسرحيات غير أمينة فى تصوير الحياة ، لأن مؤلفيها يصورون الإنسان موحد الطبيعة ، فى حين أن معظم الناس لا يخلون من التناقض ، ونحن البشر مجموعة من المتناقضات ، وأنا أهز كتفى حينما يذكر لى الناس أن آراءهم الأولى عن أحد الأشخاص دائماً صادقة ؛ وأظن أن أمثال هؤلاء الناس إما أنهم لم يرزقوا سوى القليل من نفاذ البصيرة وإما أنهم مغرورون ، ومن ناحيتى أرى أنى كلما أمعنت فى معرفة الناس ازددت حيرة وارتباكاً ، وأقدم أصدقائى هم الذين أستطيع أن أقول عنهم إنى لا أعرف عنهم سوى بعض الأوليات .

ولقد دارت في نفسي هذه الخواطر حينما قرأت اليوم نعي إدوارد هايد برتون بمدينة كوب ، وقد كان بيرتون تاجراً ، وقد قضى سنوات عدة في بلاد اليابان ، وكانت معرفتي به قليلة ، ولكني عنيت بأمره لأنه سبب لي دهشة عظيمة ، ولو لم أكن قد سمعت القصة منه لما اعتقدت أنه كان أهلاً لمثل هذا العمل ، وكان يزيد في دهشتي أن هيئته وسلوكه كانا يوحيان إليّ طرازاً معيناً ، فقد كان يبدو لي أنه موحد الأخلاق منسجم الطبيعة ، وكان صغير الجُرم لايتجاوز طوله خمس أقدام وأربعة قراريط ، شديد النحافة أبيض الشعر ، وكان وجهه أحمر اللون كثير التجاعيد ، وعيناه زرقاوين ، وكان يرتدي ثياباً نظيفة ملائمة لسنه ومكانته ، وأظنه كان يشارف الستين حينما عرفته ، وكان مكتبه في كوب ، ولكنه كان يختلف إلى يوكوهاما .

وحدث أني كنت أقضي بها أياماً قلائل أنتظر قدوم سفينة ، وقدمت له في النادي الانجليزي ولعبنا معاً لعبة البردج ، وكان يحسن هذه اللعبة ويسخو فيها ، وكان قليل الكلام ، ولكن حديثه كان يدل على رجاحة العقل وحسن الإدراك ، وكانت له فكاهة هادئة جافة ، وكان يبدو أنه معروف في النادي ، وكانوا يصفونه بعد انصرافه بأنه من أحسن الناس ،

واتفق أننا كنا نحن الاثنان نازلين في الفندق الكبير ، وفي اليوم التالي دعاني لتناول الغداء معه ، ولقيت زوجته وكانت بدينة متقدمة في السن ظاهرة البشاشة ، وكريمته ، وكان يبدو لي أنها أسرة متضامنة متحابة ، والشيء الذي استرعى نظري في بيرتون هو أنه كان رقيق الحاشية ، دمث الأخلاق ، في عينيه الزرقاوين شيء يوحي الطمأنينة ، ويبهج الخاطر ، وكان صوته رخياً ، لا يخطر ببالك أنه يستطيع أن يعلو ويرتفع إذا تملك بيرتون الغضب ، وكانت بسمته رقيقة شفافة ؛ وموجز القول أن هذا الرجل كان يجذبك لأنه كان يشعرك بأنه يحب إخوانه البشر حباً صادقاً خالصاً ، كان ساحراً فاتناً ، ولكن ليس فيه ما ينفر أو يسوء ، وكان مولعاً بلعب الورق وشرب الكوكتيل ، وله أسلوب بارع في رواية الطرف والنوادر ، وكان في صباه رياضياً ، وكان غنياً ميسوراً ، وقد جمع ثروته بكده واجتهاده ، وكان فيه شيء يحببه إليك ويقربه من نفسك ، وهو أنه كان خفيف الجسم هزيلاً نحيلاً ، يثير في نفسك الرغبة في حمايته ورد الأذى عنه ، ويشعرك بأنه لا يقوى على إيذاء ذبابة .

وفي عصر أحد الأيام كنت جالساً على أحد الكراسي المريحة في الفندق الكبير ، وكان ذلك قبل الزلزال ، وكنت أشرف من النوافذ على منظر الثغر الأفيح المزدحم بالحركة والنشاط ، كان هناك سفن كثيرة في طريقها من فانكوفر إلى سان فرانسيسكو أو إلى أوربا من طريق شنغهاي وهنج كنج وسنغافورة ، وكان هناك سفن مختلفة الجنسيات قد نالت منها الأسفار وآثار فيها خوض البحار ، وسفن صينية بأشرعتها الملونة ومؤخراتها العالية ، وكان المنظر الحافل بالحركة والنشاط يبعث في النفس — لأمرما — الارتياح والسكينة ، كانت هناك قصة خيالية ، وكان يبدو أنه ما عليك إلا أن تبسط يدك لتلمسها .

وجاء برتون وهو فأقبل عليّ وجلس على المقعد التالي لمقعدي ، وقال لي وماذا تقول في قليل من الشراب ؟ وصفق بيديه واستدعى الغلام وأمره باستحضار كأسين من الجن ، وحينما أحضرهما الغلام مر بالشارع الخارجي رجل ولوح بيديه مشيرا إليّ ، فقال لي برتون بعد أن حييت الرجل : أتعرف ترنر ؟

فأجبته : لقد لقيته في النادي . وقد علمت أن له دخلاً يأتيه من وطنه الأصلي

فقال برتون : أظنه صادقاً في ذلك ، وعندنا كثيرون من أمثاله .

قلت له : إنه يحسن لعبة البردج .

فقال : هم في الغالب يحسنون هذه اللعبة ، ولقد كان هنا في العام الماضي إنسان يحمل اسماً مثل اسمي ، وكان أحسن لاعب بردج عرفته ، وأظنك لم تره في لندن ، كان يسمي نفسه (لني برتون) وأظن أنه كان منتسباً إلى بعض الأندية الراقية .

فأجبته : إنني لا أذكر أني لقيت صاحب هذا الاسم .

فاسترسل يقول : لقد كان لاعباً ممتازاً ، ولقد لاعبته كثيراً ، وقد قضى في كوب حيناً من الزمن .

ثم احتسى كأسه ومضى يقول : إنها قصة مسلية ، لقد كان شاباً لا بأس به ، وقد كنت أوده ، ولقد كان أنيق البزة أنيقاً أحوذياً وسيما جعد الشعر متورد الخدين يشغل بال النساء ، ولم يكن فيه ما يسوء ويضر ، وغاية ما في الأمر أنه لم يكن له ضابط ولا عنان ، وكان يفرط في الشراب ، وأمثاله يفعلون ذلك ، وكانت ترد إليه من وطنه نقود كل ثلاثة أشهر ، وكان

يجمع كذلك نقوداً من اللعب بالورق ، وقد كسب منى كثيراً .

وضحك برتون ضحكاً خفيفة رقيقة ، وقد كنت أعلم من تجربتي أنه كان يحتمل الخسارة في البردج بنفس طيبة هادئة .

واسترسل يقول : وأظن أن هذا هو السبب الذى جعله يسيء إلىّ حينما أصبح خاوى الوفاض ، وربما كان من أسباب ذلك أنه كان صبي ، فقد حضر إلىّ في مكتبي ذات يوم وسألنى أن أجد له عملاً ، وقد أدهشنى ذلك ، وأخبرنى أنه لم يرد إليه نقود من الخارج وأنه يريد أن يعمل ، فسألته عن سنه فقال إنه في الخامسة والثلاثين . فقلت له : وماذا كنت تعمل حتى اليوم ؟ فأجابنى : كنت لا أعمل شيئاً .

فلم أتمالك من الضحك وقلت له : أخشى أنى لا أستطيع أن أعمل لك شيئاً ، فعد إلىّ بعد خمسة وثلاثين عاماً أخرى ، ولعل حينذاك أرى ما أستطيع عمله .

فجمد في مكانه واصفار وجهه ، وتردد لحظة ثم قال لى إن الحظ خانه في لعب الورق ، فإنه لم يشأ أن يقتصر على لعب البردج ، وأخذ يلعب البوكر فخسر نقوده وأصبح معدماً معسراً عاجزاً عن دفع نفقات الفندق الذى ينزل به ، وقد رفضت إدارة الفندق أن تعطيه أكثر مما أخذ ، وصار رجلاً لا عمل له ولا مال عنده ، وقال إنه إذا لم يجد عملاً فليس أمامه سوى الانتحار .

فنظرت إليه قليلاً ، ورأيت أنه مفلول العزم مهيض الجناح ، وقد شرب أكثر من المعتاد ، وبدا أنه في الخمسين من عمره ، ولو أن النوانى رأينه وهو في هذه الحالة لأعرضن عنه .

فسألته : ألا تستطيع عمل شيء سوى اللعب بالورق ؟

فقال : أستطيع السباحة .

فلم أكد أصدق أذنى ، وبدا لى رده سخيفاً ، وقال : لقد كنت أعوم لأجل جامعتى .

وقد أدركت بعض مارمى إليه ، وقد عرفت الكثيرين ممن كانوا يحرزون الإعجاب في جامعتهم بغير وجه حق ، ولذا لم يؤثر في قوله .

وقلت : لقد كنت أنا نفسى سباحاً قديراً حينما كنت شاباً . وخطرت ببالى فكرة .

وتوقف برتون عن الكلام ثم التفت إلىّ وسألنى : هل تعرف مدينة كوب . فقلت : لا ، لقد مررت بها ولكنى لم أقض فيها سوى ليلة واحدة .

— إذاً أنت لا تعرف نادى شيبوا ، وحينما كنت شاباً كنت أسبح من هناك حتى المنارة ، ومنها إلى خليج تاروبى ، وهى مسافة ثلاثة أميال ، والسباحة فيها صعبة ، وذلك لوجود تيارات حول المنارة ، وقلت للشاب صبى عنها ، وأخبرته أنه إذا قطع هذه المسافة سابحاً فإنى سأدبر له عملاً .

ولمحت أنه قد اعترته دهشة وتردد .

فقلت : إنك تزعم أنك سباح .

فأجاب : إنى لست في حالة طيبة .

فلم أقل شيئاً ، وهززت كتفى .

فنظر إلىّ لحظة ثم طأطأ رأسه وقال : حسن ، متى تريد أن أقوم بذلك ؟

فنظرت إلى ساعتى ، وكانت قد جاوزت العاشرة صباحاً .

— إن قطع هذه المسافة بالسباحة لا يستغرق أكثر من ساعة وربع ساعة ، وسأذهب إلى الخليج في منتصف الساعة الواحدة وألقاك هناك ، وسأحملك معى إلى النادى لترتدى ملابسك ونتناول الغداء معاً .

فقال : لقد اتفقنا على ذلك .

وتصافحنا ورجوت له التوفيق ، وتركنى ، وكانت عندى أعمال كثيرة في ذلك الصباح ، وقد استطعت بصعوبة أن أذهب إلى الخليج في منتصف الساعة الواحدة ، ولم يكن هناك موجب للإسراع فإنه لم يظهر بالخليج .

فسألته : أتراه خاف وأحجم في اللحظة الأخيرة ؟

فأجاب برتون : لا ، لم يخف ، فقد بدأ السباحة ، ولكنه كان قد أضعف بنيته بالإفراط في الشراب والانغماس في الشهوات ، وكانت التيارات حول المنارة أقوى من أن يستطيع مغالبتها ، ولم نستخرج جثته إلا بعد ثلاثة أيام .

فلم أقل شيئاً مدة دقيقة أو دقيقتين فقد هزتنى قليلاً هذه القصة ، ثم وجهت إلى برتون هذا السؤال :

— أكنت تعرف حينما وعدته بهذا العمل أنه سيغرق ؟

فضحك ضحكاً رفيقة رقيقة ، ونظر إلىّ بعينيه العاطفتين الصريحتين الزرقاوين ، وحك ذقنه بيده وقال : حسن ، لم يكن في مكتبى مكان خال في تلك اللحظة .

علي أدهم

رســـــائل من المغرب

الرسالة الثانية

طنجة فى ... سنة ١٩٥١

أخى راتب ،

ذكرت لك فى رسالتى السابقة نبذة وجيزة عن الظروف التى أدت إلى تقسيم بلاد المغرب الأقصى (مراكش) إلى مناطق ثلاث: واحدة دولية هى منطقة طنجة ، والثانية تحت الحماية الأسبانية هى المنطقة الخليفية ، والثالثة تحت الحماية الفرنسية هى المنطقة السلطانية . ولا بد قد تبين لك أن هذا التقسيم الصناعى أوجده تدخل الدول الأوربية ، غير المشروع ، بقوة السلاح ، ومحاربتها شعباً وادعاً آمناً ، رغبة فى الاستغلال . وقد تم لها ذلك فى أبشع صورة من صور الاستغلال كما سأبين ذلك فى هذه الرسالة ورسالات أخرى .

ولما كانت منطقة الاحتلال الأسبانى خارجة عن إشراف مولانا السلطان المباشر — وهو صاحب السلطة العليا وسيد البلاد — أناب عنه من يخلفه فى هذه السلطة وسماه الخليفة . وهو عادة من أمراء أسرته . والخليفة الحالى هو مولاى الحسن بن المهدى العلوى .

ولعلك توافق معى على أن وجود خليفة للسلطان فى المنطقة الأسبانية فيه حكمة وبعد نظر إذا قورن بما اجتمعوه فى اتفاقية السودان سنة ١٨٩٩ من الاكتفاء بالحاكم العام الذى تقترحه أنجلترا ويعينه والى مصر . فلو كان الخديو فى ذلك الوقت عين نائباً عنه يمثل سلطته العليا بجانب الحاكم العام لظل السودان رسمياً جزءاً من مصر ، حتى ولو كان نائب مصر ذا سلطة اسمية كما هى الحال مع سلطة الخليفة عندنا . والخليفة يقيم فى مدينة تطوان وله بها قصر جميل . ولكن السلطة الفعلية فى يد المقيم العام الأسبانى ، وهو صاحب السلطة التشريعية والتنفيذية معاً . ويعاونه عدد من النواب الأسبان (نائبو التعليم والقضاء والأشغال والزراعة والغابات ... الخ) ومن المراقبين .

أما فى منطقة الاحتلال الفرنسى فالسيادة العليا لسيد البلاد ، وهو السلطان مولاى صاحب الجلالة سيدى محمد بن يوسف الذى تولى الحكم فى نوفمبر سنة ١٩٢٧ والذى يحبه الشعب حب إخلاص وولاء ووفاء . والحاكم الفعلى هو المقيم العام الفرنسى — الجنرال جوان الآن — وهو كل شىء . ويعاونه مديرون ومراقبون ورجال شرطة وجيش احتلال ... والجميع فرنسيون ، ومدينة الرباط هى العاصمة .

والآن لأعد معك لوصف الحال الاجتماعية فى طنجة . فلقد كان من آثار جعلها دولية أن فتحت أبوابها لكل من هب ودب من متشردى العالم ، الذين لم يجدوا فى أوطانهم اطمئناناً أو عملاً مغرياً ، ولمن يريدون أن يتهربوا بأموالهم من دفع الضرائب المرتفعة فى بلادهم على الاستغلال ورأس المال ، وللمقامرين وللتجار فى جميع أنواع المحظورات ، وللساقطات من النساء اللواتى ضاقت بهن سبل الكسب فى بلادهن .

لذلك تجد فى طنجة جاليات من جميع أنحاء العالم ، وأكبرها الجالية الأسبانية ، وكل جالية تتكلم بالطبع لغتها القومية ، وتتكلم بالإضافة إليها عدداً من اللغات الأخرى . ولهذا تسمع فى طنجة — دوارجها وأسواقها — بلبلة الأصوات واللهجات . غير أن جميع هذه اللغات المحلية تشترك فى خاصة واحدة هى فسادها . فلا تسمع فرنسية سليمة ، أو أسبانية راقية ، أو أنجليزية مهذبة ، أو عربية صحيحة ، أو إيطالية نظيفة . كلا ، فجميع هذه اللغات تشوبها هجنة العامية ، وتنم عن مستوى واطئ لمتحدثيها . وماذا تنتظر من جاليات معظمها من الطبقات الدنيا التى لا هم لها إلا كسب المال بأية وسيلة ؟ .

وكان من نتيجة فتح الباب على مصراعيه وتخفيف القيود الجمركية أن أصبحت طنجة من أكبر أسواق العالم فى التجارة المحظورة كالأسلحة والمخدرات . فحينما كانت الحرب فى فلسطين ، وامتنعت الدول عن تصدير الأسلحة للعرب ، كان اليهود يشترون الأسلحة باسم تجار فى طنجة ، ومنها

يرسلونها إلى يهود فلسطين . وتعتبر طنجة سوقاً كبرى سوداء للتجارة فى النقود بصفة رسمية ، فجميع نقود العالم تباع هنا وتشترى ، واليهود هم أكبر تجارها ، ولهم فيها دائماً صفقات يومية رابحة ، ولهم عملاء فى جميع أنحاء العالم يهربون إليهم النقود .

ولما كانت طنجة أقرب نقطة فى إفريقيا إلى أوربا فقد هاجر إليها وغمرها الأسبانيون والفرنسيون الفقراء سعياً وراء الرزق ، كما كان يفد اليونانيون إلى مصر — حفاة عراة — ثم يبدءون من الأعمال ما يترفع عنه أو لا يحسنه أبناء البلاد من المراكشيين ؛ فيشتغلون خدماً فى الفنادق

بيتنا ، وغمرتنا من مدارس الأجانب التى لا تعلم لغتنا العربية ولا ديننا ، وما كنفينا بالكتاتيب المتأخرة والفقهاء الأميين يحفظون شيئاً من القرآن والدين . ثم نشأ الآن عدد من المدارس الابتدائية الأهلية الصالحة ، ولكنها أقل مما نحتاج إليه بكثير ، وأين التعليم الثانوى والتعليم العالى ؟ لقد فرحنا واستبشرنا عندما أذيع أن مصر العزيزة ستنشئ عندنا معهداً ثانوياً . نحن فى حاجة ملحة إلى التعليم بجميع أنواعه ، وإدارة المدينة لا تشجع التعليم الوطنى ، وأخشى أن تعوق مشروع المعهد المصرى عندما يجئ مرحلة التنفيذ .

فإذا كانت هذه حالنا فى التعليم عرفت — يا أخى —



والمقاهى ، وتجاراً متجولين ، وسماسرة . ثم لا يلبثون أن يصيروا أثرياء ، فيملكوا المقاهى والفنادق والمحال التجارية الكبرى ، ويصبحوا سادة أصحاب ثراء . ثم يحتوون ويتملكون من الأعمال والمصانع ما لا يستطيع منافستهم فيه المراكشى المغرور الجاهل ، أو العاجز عن اتخاذ ما اتخذوه من أساليب .

أما التعليم فحالنا فيه يرثى لها . فلكل جالية مدارسها تعلم فيها البرامج الحديثة ، يؤمها البنون والبنات . أما نحن فقد عددنا تعليم البنت عاراً وفسقاً ؛ فظلت جاهلة قابعة فى

نوع الأطفال والشبان الذين عندنا ، أطفالنا معظمهم حمالون فى الميناء ، وخدم فى الفنادق والمقاهى الأجنبية ومساحو أحذية . وشباننا سائقو سيارات خاصة وعامة ، وتجار برءوس أموال صغيرة ، ومتعطلون ومتسكعون . وهم لا يقوون على منافسة الأجنبى المتعلم صاحب النفوذ ، الذى يجد من جاليته تأييداً وعوناً مادياً وأدبياً .

وأما الناحية الدينية عندنا فيؤسفنى أن أقول لك إن أبناء الجيل الجديد قد ألهتهم مظاهر المدنية الحديثة وجاذبيتها عن أن يفكروا فى الدين وواجباته . ولقد غزتنا الحياة



منظر فى طنجة
ونرى به سيدة عليها كتبة فى زيها القومى

الأجنبية قطفت حتى على هذا الشعور الذى كان يغمر النفوس بالقوة والصلاح والإيمان . وصرت تجد الآن حانة الخمور بجانب المسجد ، والرقص بجانب الزاوية ، والحانة والرقص عامران والمسجد والزاوية خاليان . وضاع ما وقف على المساجد وأعمال الخير من أموال ، وصار ما يهدم لا يعمر ، وضنت النفوس بالمال للإصلاح .

وإذا ما تجولت فى طنجة رأيت مدينتين مختلفتين ، مدينة أجنبية نظيفة صحية راقية ، وأخرى مهملة ، ضيقة الأزقة، متداعية الأبنية ، مزدحمة بسكانها . ولا داعى لأن أقول : لمن هذه ، ولمن تلك .

إن فكرة الدولية — يا أخى — فكرة حلوة جذابة ، ولكن التجربة قد أثبتت فسادها ، وعدم إمكانها عملياً . فطنجة الدولية تضم جماعات من جميع أنحاء العالم والأديان . وهؤلاء تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . فلا تربط بينهم عاطفة مشتركة نحو وطن واحد ، أو دين واحد أو لغة واحدة ، وليس لهم هدف أخلاقى أو عمل مشترك . وهم متباينون فى السلوك والعادات والأهواء والآمال ، وقد صارت المصلحة الفردية أو مصلحة الجالية قبل المصلحة العامة . وسادت الأنانية الممقوتة ، وجازت فى سبيل تحقيق الغايات الشخصية كل وسيلة . ومن يولد فى طنجة من أبوين أجنبيين لا يحمل لمسقط رأسه ولاء ، وإنما ولاؤه لوطن آبائه . ثم قد صارت طنجة مدينة دولية ، ولكنها ضمت أسوأ ما يمكن أن تبعث به الدول من أخلاق وسلوك . وإن كانت ثمة أية ميزة لهذه المدينة فهى أنها صارت ملجأ الأحرار والمضطهدين السياسيين . وإلا وهى مأوى الخارجين على القانون ، وفاسدى الأخلاق ، والمتعطلين ! .

وبعد فاعذرنى — أيها الأخ — إن كنت قد ضمنت رسالتى هذه صورة سوداء لمدينة طنجة . فما هى إلا الحقيقة المريرة ذكرتها لك .

على أنها الأحوال قد صرن كلها
عجائب حتى ليس فيها عجائب

وأستودعك الله إلى الرسالة القادمة .

أخوك
أبو مروان

سر الهـــوى

وســألتنى بالعـابـــه   كما أبثك ما بـــــه
لا لن أبثك ما حــــوته   النفس فى طيــــاتـه
ولقد عتبت ... وقلت لى :   سر الهوى أشتـــاته
وطلبت منى قــــولة   تفضى إليك بسريـــه
لتصب من ورد العذاب   كـــــرائق المتعاليــــه
وأسام منك الحتف   تلوه الشرور العاتيـه
وأصير قربانا لها   بك الورود الجانيــه

• • •

لا لن أبثك قانيه   ما قد حوته جنــــانيه
لا لن أبوح بقـــولة   تفضى إليــك بسريـه
أنا قد خططت شريعة   فى الحب ليست فانيه
إن الهوى مهما ارتوى   لا ينض عنه لســـانيه
أو أن تبوح به الشفا   ه على مســــامع قانيه
باللحظ لا بالسمع يمـ   ـرح بل ... عيون ساجيه
الحب فى دنيا الهوى   كالروح ريح ســـاريه
ما كنهه ؟ ما سره ؟   حارت عقول واعيـــه

• • •

كانت لنا فى قلبنا الأ   لحان ريح جاريه
أذكت لواعج مهجتى   بســابق التهــاويه
عصفت بلحن مشاعرى   ودوى به قيثــاريه
بعد المشيب وحسن أنـــغام الشباب الحانيه
لا تسألى عن حبك !!   مكنون فى أحشـــائيه
إن كنت واجدة هوى   فهواك ملء جنــــانيه

(الاسكندرية)   السيد محمد الصاوى

حافظ وشوقى

« ما أكثر ما كتبه الكاتبون عن حافظ وشوقى ! ولكن هل يكفى المستقبل ما كتبه الماضى عن الشعراء ؟ كلا ، فالنظريات النقدية الجديدة — كما يقول الكاتب — « تقوم بعملية نفض متصل للغبار الذى يتكوم مع الزمن حول أسماء الشعراء القدماء ... »

(العالم)

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

ينظر الناقد إلى الشخصية الأدبية على أنها مادة لفنه وموضوع من موضوعات بحثه .. ولذلك كثيراً ما نجد فى تاريخ الأدب شخصية قد أغفلها النقد ولم يعتمد عليها ، طالما كانت النماذج ضرورة من ضرورات العمل النقدى وأساساً من الأسس المنهجية فى التقدير . وقد يظل الشاعر أو الأديب مئات من السنين دون أن يأتى على ذكره أحد . وقد يبقى أجيالاً فى غربة عن المجالات العامة ، ثم يظهر طفرة واحدة .. وإذا به فى يوم وليلة قد شغل الجو الأدبى وصار أحدوثة الناس . وذلك لأن النقاد يحتاجون دائماً إلى الأدلة الصائبة على ما يذهبون إليه فى دراستهم النقدية ، ولأنهم يتحسسون النماذج المؤيدة حينما يجد فى أيديهم تفسير جديد للعمل الأدبى والتقدير النقدى . فالنظريات النقدية الجديدة تقوم بعملية نفض متصل لهذا الغبار الذى يتكوم مع الزمن حول أسماء الشعراء القدماء ، وتبث فى نماذجهم الفنية عناصر الحياة ، وتجعل الروح تدب فيهم من جديد كأنهم أبناء اليوم .

فالتاريخ الأدبى إذاً فى انتظار هذه الأنوار التى يسلطها النقاد بأقلامهم فتضىء المعالم المطمورة وتكشف عن النواحى المتألقة فى الآثار المتروكة . وكلما جدت المذاهب والأنظار النقدية ، اتضحت هذه الحقيقة وأصبح الشعراء الأقدمون أدوات فى أيدى المحدثين من النقاد بحيث تتقاسمهم المذاهب وتختصم حولهم ، حسب الأصول التى يستند كل منها إليها عند فهم الأعمال الأدبية . وقلما يحاول ناقد أن يأتى بنظريات فى النقد بغير أن يدعمها بالقرائن وبغير أن يعززها بالشواهد وبغير أن يجعل لها تاريخاً قريباً من أذهان القراء وحسياتهم .

وهذا هو الحال بالنسبة إلى الشعراء والفنانين من الأنجليز والفرنسيين ... فتجد الآن كل شاعر من القدماء وقد أحاطت به المدارس النقدية إحاطة يستحيل معها أن يستقل عنها أو أن يبرأ من عناصرها الفنية . وأحياناً يكون الشاعر الواحد موضوعاً لجملة من الدراسات والتطبيقات المختلفة ، بحيث تتوزعه فى النهاية عدة مذاهب كما هى الحال عند بودلير وأرتور رامبو . ويصعب على الناقد العربى أن يكتب شيئاً نظرياً جديداً فى النقد ويستدل عليه بنماذج من الغرب . وهو يفعل هذا مضطراً فى بعض الأحيان .. ولكن أفضل من هذا بطبيعة الحال أن نعثر على نماذج أدبية عربية تؤيد أفكارنا النقدية وتدعمها بالطريقة التى تؤلف بين النظريات الأدبية والنماذج الفنية تأليفاً يقربها من إحساسات القراء والمتتبعين لحركات النقد .

ولقد كتب الكثيرون عن شوقى وحافظ . وفاضت كتب النقد الحديث بالمقالات التحليلية الخاصة بشعر كل منهما على حدة أو مجتمعين فى مقام الموازنة والمقارنة . ولست الآن بصدد إثارة لمشكلة التفضيل بينهما ، ولكنى فطنت إلى فوارق أصيلة بين طبيعة الشاعرين يحسن أن يتدبرها ناقد باحث مختص بالموضوع . ولا تعدو بعض تلك الفوارق أن تكون صفة خلقية أكثر مما هى شىء آخر ، ومع ذلك أكاد أوقن فى قرارة نفسى بأن هذا الفارق وحده يكفى لأن يجعلك تصدر حكماً قريباً من الصحة عند الموازنة بين الشاعرين . ولا أقول هذا لمجرد الظن بأنى أستطيع أن أقرن بين صفتين خلقيتين فى الرجلين ثم ألحقهما بحكم نقدى

خاص بطابع الشعر ومزاج الوضع الفني .. ليس هذا هو ما أريد . لأني معتقد بأن العمل الفني قد لا يتأثر بالأخلاق الشخصية ، وأعتقد يتأثر ببعض العادات الفردية أحياناً كثيرة ، خصوصاً عندما لا يعرف الإنسان حدود شخصيته تمام المعرفة . بل أذهب هاهنا إلى حد التصريح بأن ربط الصفات الشخصية بمميزات الأعمال الفنية لدى كبار الكتاب والشعراء ضرب من العبث الواضح طالما كان من الممكن وجود تصدع في الرابطة الموصلة بين شخصية الأديب بوصفه أديباً وشخصيته كإنسان حي . وكثير من الأدباء يختلف في كتبه اختلافاً كبيراً عما هو عليه في واقع حياته ، ويمتاز في أعماله الأدبية بخصائص لا وجود لها بالمرة في أسلوبه الدنيوي .

بيد أني أحاول الآن إيجاد رابطة موصلة بين شخصيتي حافظ وشوقي وبين أخلاق كل منهما على الرغم من هذا الاحتمال — أو هذا الترجيح إذا شئت — الذي قدمناه في بيان الصلة بين أعمال الأديب الفنية وأعماله في الحياة . ولولا ما أشعر به من قوة الترابط بين هذه الصفة في الحياة العادية وبين مقابلها في العمل الفني لتراجعت . وأعتقد فضلاً من هذا بأن هذه الطبيعة — كصفة شخصية — ذات تأثير عجيب في المزاج الفني والروح الشعرية ، ومن شأنها بالتالي أن توجه التركيب العضوي في التعبير وأن تحدد موقف الأديب من جهة المشاهد . وتلك هي خاصية الاندماج كما يمكن أن نسميها . ويصح أن نحدد هذه الكلمة سمة أدبية في أعمال الشاعر ، كما يصح أن تشير إلى صفة شخصية في ذات الأديب بوصفه ابناً للمجتمع ، وهي تنبع في قرارها من طبيعة المشاركة الوجدانية بوصفها دافعاً إلى التبادل مع الغير ضروباً من الإحساس الباطني الذي يعبر عن مدى قابلية الفرد للاشتباك الروحي مع بيئته ومواطنيه .. فالمشاركة الوجدانية طبيعة حيوية تمتد إلى نفسية الأديب فتستحيل هنالك إلى عناصر شخصية تبرز معالمه الفنية وتمثل المشاهدات التي يدرجها في عمله بخطوط مرئية . وحينئذ تكون هذه الصفة خاصية أدبية وتنسجم مع جملة السمات التي يمتاز بها المؤلف والمؤلَّف على السواء .

ولعلك تذكر بهذه المناسبة أن الشاعر أو الأديب يلعب دوراً هاماً بشخصه على مسرح العمل الفني الذي يبدعه . وسيكون هذا الموضوع مادة لدراسة مستقلة عن «الاندماج» ولكننا نشير هاهنا إشارة عابرة فنقول : إنه إما أن يبدو كروح هائم في جنبات العمل أو يتجلى كشبح شفوف من وراء السطور ، أو يبرز بين المشاهد كواحد من الشخصيات الوارد ذكرها .. وقد يظهر كبطل في القصة التي يحكيها أو واحد من الذين عليهم إذا أراد أن يشعر الآخرين التجاوب معهم . وهذا الأخير هو موقف حافظ في أشعاره دائماً .. أما شوقي فقد امتاز ببرود عجيب بإزاء المشاهد العامة والأشياء الخارجية . وقد كان من التقيد له ، والحال هذه تجاه العالم الخارجي ، أن تكثر بأشعاره رنة الخطاب النفسي .. ولكن هذا أيضاً قد استحال عليه ، وكأنما عالمه الخارجي والداخلي سواء ، وهذا هو السبب — فيما أعتقد — لاتهام العقاد إياه بأنه عديم الشخصية في آثاره .

أما حافظ — على خلاف هذا — فحساسيته بالغة ، وكانت الشخصية الفنية عموماً لكافة أعماله ، وكان دور الشاعر مؤدى أداء كاملاً في آثاره . وكان يحس — في المشاكل الوطنية خاصة — بأنه مصاب مع المصابين وأنه ضمن من ينزل بهم البلاء . وتلك ميزة جاءته من جانب القومية ، فأكسبته حب توكيد الشخصية الفنية في الجانب الشعري ، وجعلت قارئه يحس بارتفاع الكلفة بينه وبين المؤلف . اقرأ هذين البيتين :

يا مصر هل بعد هذا اليأس متسع
يجري الرجاء به في كل مضطرب
لا نحن موتى ولا الأحياء تشبهنا
كأننا فيك لم نشهد ولم نغب

فتلك زفرة شاعر أحس المصاب في نفسه قبل أن يحس به في مواطنيه ، وانتقل بوجدانه إلى داخلية العمل الشعري ، حتى ليجد القارئ نوعاً من الملابسة بينه هو كشاعر وبين عناصر القصيدة . هنا لا ينظم الشاعر وحسب ، بل ينظم وينفعل ويؤدي به الانفعال إلى ذلك الجمال الخالد في التأسي على حال أمته والشكوى المحزونة لما صار إليه أمرها . هنا لا تقرأ شعراً فقط ، بل تقرأ الشعر وناظمه وتلمس عناصر شخصيته الفنية إلى جانب عمله . ووازن — من ثم — بين ما قرأت وبين أقوال شوقي في نفس المعنى :

إلام الخلف بينكمو إلاما
وهذي الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكمو لبعض
وتبدون العداوة والخصاما

فعندئذ سندرك جوهر الفكرة التي أرمي إليها من وراء هذه الملاحظة النقدية ؛ فشوقي في أبياته هذه يمثل شخصية فنية غريبة بالنسبة إلى من يوجه إليهم الكلام . وهذا لا يليق في مقام الشعر السياسي خصوصاً . ونستطيع أن نقول لذلك إن شوقي لم يعان المشكلة التي أمسك بالقلم لينظم فيها ، وإنه بعيد كل البعد عن التأثر بالمجال الحيوي الذي يريد أن يسرد شعراً في بابه . وكثير من النماذج التي تقرأها في ديوان حافظ وديوان شوقي تؤكد لك في النهاية خلو ثانيهما من روح المعاناة والتجربة ، ووضوحها تماماً عند أولهما . وقد ضربنا مثلاً بالشعر القومي السياسي لأنه أفسح مجال للروح الفنية في شخصية الشاعر ، ولأنه سبيل لإظهار الشاعر الفردية والجمعية على اختلاف درجاتها .

ثم تأتي بعد هذا إلى فوارق فنية متصلة بالعمل نفسه ، فنلاحظ أن طبيعة النغم عند كل من الشاعرين تتقارب أحياناً بحكم غفلتهما عن المثل المحتذى ، وبحكم الفهم الردىء الذي تبناه بخصوص العمل الأدبي . ولم يكن النقاد نظريين تحليليين في تلك الفترة بقدر ما كانوا مهاجمين ، فاستحال بذلك التفاهم بين الفريقين ، واستقرت أعمال شوقي وحافظ من غير أن يبدو عليها أي تأثر صادق بالحركات النقدية ؛ ولذلك كان الاثنان يتقاربان في مواقف كثيرة بحكم الميول الأدبية السائدة ، لا بحكم طابع كل منهما في الإنتاج . وهذا من شأنه أن يزيد من صعوبة الفهم لكليهما ، ويجعل القارئ وجهاً لوجه أمام صناعة غير أصيلة . فليس فيها شيء من حافظ وشوقي .. أعني لم يبد فيها المزاج الاختياري أو الاستقلال الصادق في الفن الأدبي لدى كل منهما . وكثيراً ما يبدو الرجلان لهذا شبحين في خيال الناقد ، ويظهران كستار انعكست عليه أضواء لم تنبع من داخلية نفوسهما ولم تنبثق من قرار فن أصيل .

من ذلك مثلا روح الخطابة التجلية في صناعة شوقي ، وعباراته الطويلة التي لا تقبل الانثناء ، وعدم استعانته بطريقة التقطيع في تكوين الجملة ، بحيث تخلو من الشد الذي يمسكها من أول البيت إلى آخره ... وهذا عيب من عيوب عدم التمكن في أسلوب الكتابة والنظم . وكان حافظ السكين يتأثر بهذه الأجواء ، ويجري في آثر الصنعة الرنانة خشية أن يكون تقصيره عن هذا الشأو في أعماله سبباً في انتقاص مقدرته الفنية واتهامه بالأسلوب « غير الرصين » ثم وضعه في مرتبة أقل من شوقي . وقد كان غنياً عن هذا كله بأنغامه الهادئة الشائقة .

والمفروض دائماً في النغم الشعري ألا يكون من الارتفاع أو الحدة بحيث يختل انسجامه مع المعنى المصبوب .. فيشغل عن المعنى ويلهي عن التقدير الذوقي ويصرف عن الاستمتاع بكافة العناصر المتمثلة في العمل دفعة واحدة . ويكون هذا كله عكساً في حالة ما نجعل النغم في درجة صوتية مناسبة للمعنى المؤدى فيقوى هذا الأخير ويبرز ويشترك في التأثير . هذا هو النغم ، وهكذا ينبغي دائماً أن يكون . فهو أداة من أدوات التوضيح المعنوي وعامل من عوامل إبراز المضمون علاوة على كونه عنصراً فنياً . وكان من الممكن بالنسبة إلى حافظ ابراهيم أن يصل إلى أرفع درجات الإتقان في إصدار النغم لو لم يعتقد خطأ بأن رقة النغم ضعف ، وأن المثل الأعلى هو ذلك الذي يسير عليه شوقي عندما يجعل عباراته مشدودة ممطوطة . فقد أفسد عليه هذا الشعور طبيعة عمله وجعله هو الآخر يحاول أن يقترب من شوقي وأن يبتعد عن طريقته حتى انتهى إلى هذا الوضع الذي تمسي فيه نفحة الشاعرية وروح الفن مطمورة بين أمشاج من الصناعة الزائفة.

ونستطيع أن ندرك مدى رقة النغم حين تمتزج بدقة الشعور وجمال الإحساس في أبيات قالها حافظ تحت عنوان « وداع الشباب » ... فلا نجد هاهنا سوى صناعة أصيلة ولغة تعبر عن سمو روحه وشفوفية إحساسه ورقة شاعريته . فقد انطلق هنا مع شعوره الوافر إزاء بيت كان يقطنه أيام الشباب وسط بقاع مزروعة في إحدى ضواحي القاهرة .

كم مر بي فيك عيش لست أذكره
ومر بي فيك عيش لست أنساه
ودعت فيك بقايا ما علقت به
من الشباب وما ودعت ذكراه
أهفو إليه على ما أقرحت كبدي
من التباريح أولاه وأخراه
لبسته ودموع العين طيعة
والنفس جياشة والقلب أواه
فكان عوني على وجد أكابده
ومر عيشي على الملات ألقاه
إن خان ودي صديق كنت أصحبه
أو خان عهدي حبيب كنت أهواه

الشقيقات برونتيه

للأستاذ أحمد بدران

يعتز الأدب الإنجليزى بذلك التراث الخالد الذى خلفته الشقيقات الثلاث : شارلوت وإميلى وآن برونتيه . ولا شك أن قصة « مرتفعات وذرنج » التى كتبتها إميلى ، أو قصة « جين آير » التى وضعتها شارلوت ، ستبقى عملاً رائعاً على مدى الأزمان .

ومن عجب أن الشقيقات الثلاث اللاتى أغنين الأدب بهذه الروائع كانت حياتهن قصة حزينة من قصص البؤس والشقاء . فلقد توالت عليهن المصائب ، فمات أمهن أولاً ، وفى عام ١٨٤٨ مات أخوهن بترك بالسل بعد أن أدمن الخمر والمخدرات ، ومرضت إميلى بعده بقليل وتوفيت بعد أخيها بثلاثة أشهر . ولحقت بها أختها آن بعد ذلك بخمسة أشهر ، ولم تبق من الأسرة البائسة إلا شارلوت التى تزوجت عام ١٨٥٤ ، ولكن ما مضى على زواجها عام واحد حتى قضت نحبها هى الأخرى بالسل .

وقد كتبت شارلوت برونتيه ، وهى التى كانت تسمى باسم « كورير بل » فى سبتمبر ١٨٥٠ فى مقدمة لكتاب أختها إميلى برونتيه « مرتفعات وذرنج » حين أعيد طبعه تتحدث عن أختيها وعن نفسها وجهادهن المشترك فقالت :

« لقد كان يظن أن كل الأعمال التى نشرت بأسماء كورير وإليس وآكتون بل ، هى فى الحقيقة إنتاج شخص واحد ، وقد حاولت إصلاح هذا الخطأ بضع كلمات من التصويب فى مقدمة الطبعة الثالثة من « جين آير » ولكن يبدو أن هذه الكلمات لم تحظ بالتصديق ، وأجدنى مضطرة فى مناسبة إعادة طبع « مرتفعات وذرنج » أن أشرح جلية الأمر .

قد أرخص الدمع ينبوع الغناء به
وا لهفتى ! ونضوب الشيب أغلاه

كم روّح الدمع عن قلبى ، وكم غسلت
منه السوابق حزناً فى حناياه

لم أدر ما بعده .. حتى ترشّفه
فمُ الشيب ، على رغمى ، فأفناه

قالوا تحررت من قيد الملاح فعش
حراً .. ففى الأسر ذل كنت تأباه

فقلت : ياليته دامت صرامته
ما كان أرفقه عندى وأحناه

بُدلت منه بقيد لست أفلته
وكيف أفلت قيداً صاغه الله

أسرى الصبابة أحياء وإن جهدوا
أما الشيب ففى الأموات أسراه

وهذا الشعر يعبر عن إنسانية دفينة وعن تجربة حية ، ويؤدى كل ما نرجوه من الشاعر فى غير ما جلبة ولا ضوضاء .

فالمطلوب من الشاعر إذاً أن يكون متمتعاً بقدر من الحساسية الذى يؤهله لأن يتأثر وأن يحاول التأثير ، وأن يناجى فيحسن المناجاة ، ولا علينا — بعد هذا — إن أقام الدنيا وأقعدها أو لم يقم الدنيا ولم يقعدها . فشتان بين الشعر وطبل المسحراتى !!

شوقى وحافظ هما مثال الشاعر التائه بغير فن خاص ولا فكرة نقدية ، وهما الدليل على أن صنعة الشعر لا تقف عند الحد الظاهر اللامع البراق ، وإنما تدق وتدق حتى لتبدو فى النهاية عمقاً وأصالة وخفة روح . وهما بعد هذا أو قبل هذا تجربة فى تاريخ شعر هذه الأمة .. لنا أن نستهديها ، ولنا كذلك أن ننبذها ؛ ولكننا لن نكون ذوى أفكار فى عوالم الشعر ومجالات الفن إن لم ننظر إليهما بعين العبرة والرغبة فى الاستفادة ، ولم تسكرنا الهوايات الشخصية والنزع الفردية عن حقيقة الفن الأصيل النابض بالحياة .

عبد الفتاح الديدى

وإني لأشعر بأن الخفاء الذي لابس هذين الاسمين إليس وآ كتون قد مضى أجله ، والأساة الصغيرة التي كانت تبعث فينا قبلاً بعض المتعة قد فقدت هـذا الأثر . فلقد تغيرت الأحوال ، وأصبح إذاً من واجبي أن أشرح باختصار أصل وتأليف الكتب التي وضعها كورير وإليس وآ كتون بل .

فمنذ خمسة أعوام وجدنا أنفسنا — أختاي وأنا — مجتمعات في منزلنا بعد فترة طويلة من الفراق . ولما كنا نعيش في منطقة نائية حيث لم يتقدم العلم إلا قليلا ، فلم تكن هناك إذاً فرصة البحث عن صلات اجتماعية خارج محيطنا المنزلي ، فاعتمدنا كلية على أنفسنا ، وعلى الكتب والقراءة لتشغل بها حياتنا ، ونصيب حظنا من المتعة ، وكانت السعادة القصوى التي عرفناها منذ الطفولة هي في محاولة الإنشاء الأدبي . وكنا في أول الأمر نتبادل ونتشاور فيما نكتبه ، ولكننا انقطعنا عن ذلك ، ولهذا كانت كل واحدة منا تجهل التقدم الذي أصابته الأخرى .

وذات يوم في خريف عام ١٨٤٥ وقع في يدي مصادفة كتاب من الشعر بخط شقيقتي إميلي ، ولم تأخذني الدهشة ، إذ كنت أعرف أنها قادرة على نظم الشعر وأنها كانت تنظمه بالفعل ، ونظرت فيه ولكن شيئاً أكثر من الدهشة قد استولى علي ؛ ذلك هو شعور عميق بأن هذه ليست أشعاراً عادية ولا هي كالتي تكتبها النساء ، بل هي أشعار قوية أنيقة وعميقة ومبتكرة ، وكان لها في أذني نغم خاص ، نغم حزين سام . ولم تكن شخصية إميلي لتسمح لأقرب الناس إليها وأعزهم عليها بالتدخل في شئونها ، ولقد استغرقت ساعات حتى أخبرتها بما اكتشفت واحتجت إلى أيام حتى أقنعها بأن هذه الأشعار تستحق النشر ، وكنت أعلم أن ذهناً كذهنها لا يمكن أن يكون خالياً من ومضة خفية من ومضات الطموح ، ورفضت أن أتقاعس في محاولاتي لإذكاء النار في هذه الومضة .

وفي نفس الوقت أخرجت شقيقتي الصغرى في هدوء بعض ما كتبت ، وهي تقول إنه ما دامت أشعار إميلي قد أسعدتني فربما أحب أن أنظر في أشعارها ... وإني لأعلم أنني لست بالقاضي العادل ، ولكني أعتقد أن أشعارها هي الأخرى لها نغم حلو متفرد .

لقد حفظنا منذ زمن طويل ذلك الحلم بأن نصبح مؤلفات ، الحلم الذي لم يبرح أذهاننا حتى حين باعدتنا الأيام وشغلتنا أمور الحياة ، والآن أصبح هذا الحلم قوة وتصميماً ، واتفقنا على أن ننظم مجموعة صغيرة من أشعارنا ونحاول أن ننشرها ، وأخفينا أسماءنا تحت أسماء (كورير وإليس وآ كتون بل) حتى لا نظهر أننا نساء ، وإن لم نكن نعلم بعد أن طريقة كتابتنا وتفكيرنا ليست بالتي تسمى « نسائية » وكان لدينا شعور مبهم بأن المؤلفات ينظر إليهن بعين من الحقد ، ولقد لاحظنا كيف يستغل النقاد أحياناً في تقدم سلاح الشخصية .

وكان إخراج كتابنا الصغير عملاً شاقاً . فكما هو متوقع لم نكن نحن ولا أشعارنا من المرغوب فيهم ، ولكننا أعددنا أنفسنا لهذه النتيجة منذ البداية ؛ وبرغم قلة تجاربنا ، فقد استفدنا من تجارب من قبلنا ، وكانت الصعوبة أكثر في الحصول على إجابة من الناشرين الذين كتبنا إليهم ، ولما أعنتنا هذه العقبة خاطرت بالكتابة إلى السادة تشامبرز وشركاه ، من ادنبرج أطلب نصحهم ، وتلقيت منهم إجابة مقتضبة ورسمية ، ولكنها مؤدبة ومعقولة اتبعناها فشققنا أخيراً طريقنا .

وطبع الكتاب ، وهو قليل الشهرة ، وليس فيه ما يستحق الذكر ، إلا أشعار إليس ، وإن كان هذا الرأي لا يتفق ورأي النقاد ، على أني متمسكة به . وقد أخفق هذا الفشل في أن يحطمنا ، بل إن محاولتنا الأولى قد أكسبتنا قدرة عجيبة على المقاومة ، وبدأت كل واحدة منا تكتب ، فكتبت إليس بل قصة « مرتفعات وذرنج » وكتبت آ كتون بل « آجنز جراي » وكتبت كورير بل قصة في مجلد واحد ، وعرضنا هذه الكتب على الناشرين عاماً ونصف عام ، ولكنها قوبلت دائماً بالرفض ، وأخيراً قبلت.. « مرتفعات وذرنج » و « آجنز جراي » بشروط مجحفة بالمؤلفتين ، أما كتاب كورير بل فلم يقبله أحد ، حتى إن شيئاً يشبه برودة اليأس بدأ يغشى قلبها ، وكمحاولة يائسة أرسلت مرة أخرى إلى ناشر جديد « السادة سمث والدر وشركاهما » .

وفي وقت أقصر مما تتوقع وصلها خطاب فتحته في خوف وهي تتوقع أن تقرأ كلمتين جافتين تقولان أن « السادة سمث والدر وشركاهما » ليسوا مستعدين لنشر هذا الكتاب ، ولكنها بدلاً من ذلك أخرجت خطاباً في صفحتين قرأته وهي ترتجف .

كانوا يحترزون عن نشر القصة لأسباب فنية ، ولكنهم ناقشوا قيمتها وأثنوا على مزاياها فى تشجيع واهتمام وبروح منصفة ، حتى إن هذا الرفض قد أطرب المؤلفة أكثر من أى موافقة مقتضبة . وقد ذكروا أن كتاباً فى ثلاثة أجزاء سيلقى اهتماماً أكبر . وكنت فى ذلك الحين أكمل « جين آير » التى كنت أعمل فيها ، بينما الكتاب ذو الجزء الواحد يدور بين ناشرى لندن . وفى ثلاثة أسابيع أرسلتها حيث تلقتها أيدى ماهرة صديقة . وكان هذا فى بداية سبتمبر سنة ١٨٤٧ .

وظهرت القصة قبل نهاية أكتوبر التالى بينما كانت « مرتفعات وذرنج » و « آجنز جراى » أعمال شقيقتى مازالتا فى المطبعة منذ شهور . وأخيراً ظهرتا ! وأخفق النقاد فى أن يكونوا إزاءهما عادلين ، فإن القوة الحقيقية وإن تكن غير ناضجة فى « مرتفعات وذرنج » لم يدركها إلا القليلون ولم يفهم أحد حقيقتها ويقدرها التقدير الصحيح . وصورت شخصية مؤلفة الكتاب تصويراً خاطئاً ، فقد ذكروا أن هذه محاولة سابقة وفجة من محاولات نفس القلم الذى كتب « جين آير » وكانت غلطة محزنة وافتراء ، إلا أنها أضحكتنا فى تلك الأيام فإنه اليوم يشعرنى بمرارته . وقد قوبل الكتاب بحقد على اعتبار أن كتابى « مرتفعات وذرنج » و « جين آير » لشخص واحد استغل نجاح كتاب « جين آير » لينشر بعدها محاولة غير ناضجة له ، وهو تصرف لا يليق من كاتب . وأنا لا أحب أن أجعل من هذه الحادثة موضعاً للشكوى أو اللوم ، فإن احترامى لذكرى شقيقتى — التى كانت تعد مثل هذا الحديث لا يليق ، تمنعنى من ذلك .

ولقيت قصة « مستأجر قاعة ويلدفل » لآ كتون بل مثل هذا الاستقبال غير الكريم ، ولكنى لا أعجب لذلك ، فقد كان اختيار الموضوع غير موفق ، لأنه أبعد ما يكون عن طبيعة آ كتون ! وهكذا اضطرت أن تقاسى الآلام وقتاً طويلاً ، نتيجة إساءة استخدام المواهب والاستفادة من الذكاء ، وإذ كانت شديدة الحساسية منطوية على نفسها فقد انطبع هذا الفشل فى أعماقها وأخذت تمعن التفكير فيه ، حتى إنها اعتقدت أن من واجبها أن تكتب لتجعل من قصتها عظة للآخرين .

ولم تسمح إليس ولا آ كتون لليأس بأن يتسلط عليهما وأعادتا المحاولة ، ولكنهما منيتا بالفشل مرة أخرى ، فاعتزلت شقيقتى إميلى العالم ، وما تزال ذكريات مرضها محفورة فى ذاكرتى ، ولكنى لا أقوى على أن أسردها ، لقد مضت تنحدر بسرعة وكانت متعجلة فى فراقنا ، وكلما ازداد جسمها ضعفاً ازداد عقلها قوة ، فكانت تتحمل الآلام فى شجاعة جعلتنى أنظر إليها فى إعجاب وحنو ، ومضى شهران قاسيان أليمان بين اليأس والرجاء ، وأخيراً حل اليوم الذى كان عليها أن تقاسى فيه آلام الموت ، وفقدنا إميلى فى ١٩ ديسمبر سنة ١٨٤٨ ففارقنا جسدها وإن لم تفارقنا ذكراها .

وحسبت أن الدهر قد نال منا ما فيه الكفاية ، ولكنى كنت مخطئة ، فما كادت إميلى توسد التراب حتى مرضت آن ، وما مضى على وفاة إميلى أسبوعان حتى أحسسنا أننا يجب أن نعد أنفسنا لاستقبال كارثة أخرى ، ومضت آن فى نفس الطريق وإن ابطأت الخطى ، وفى شجاعة تشبه شجاعة أختها ، وأعانها دينها وإيمانها على احتمال رحلتها القاسية ، وما زلت أذكر مشيتها الهادئة فى ٢٨ مايو سنة ١٨٤٩ .

ماذا أقول عن شقيقتى بعد ذلك .. يجب ألا أقول شيئاً وليس عندى ما أقوله .. لقد كانتا امرأتين من طراز نادر لهما أخلاق وعادات خاصة ، ففى طبيعة إميلى التقت القوة بالبساطة ، كانت ثقافتها مضطربة وذوقها غير مشذب ، ولكن لها قوة غامضة لا تأتلف والحياة التى تحيط بها ، وكانت دائماً محتاجة إلى وسيط يقف بينها وبين العالم ، وكانت إرادتها صلبة وكثيراً ما تعارضت مع مصلحتها . أما آن فكانت أقل عنفاً ، وكانت تستغرقها أفكارها الخاصة ، قوية الاحتمال ، منكرة للذات ، ذكية ؛ ولكن تحفظها يلقى ستاراً على احساساتها ، ولم تكن إميلى ولا آن قد تعلمتا تعليماً منتظماً ، ولم تفكرا فى تثقيف عقليهما بنتاج العقول الأخرى ، فكانت كتابتهما طبيعية لا تكلف فيها أصيلة لا تقليد فيها ، كانت كتابتهما خلقاً خالصاً تستمدان مادته من تجاربهما القليلة فى الحياة .

كانتا للغرباء لا شىء ، ولأصحاب النظرة السطحية أقل من لا شىء ... أما لمن عرفهما عن كثب طوال الحياة فقد كانتا عظيمتين رائعتين ... ولقد كتبت هذه الكلمات لأنى شعرت أن واجباً مقدساً يدعونى أن أزيح شيئاً من التراب عن قبرها وأجعل اسميهما الكريمين نظيفين من الوحل » .

أحمد عبد الله

عامر بن الطفيل

لسير تشارلس ليال

ترجمة الأستاذ حسين نصار

الآن نصل إلى حادثين غير مذكورين في الديوان ، ولكنهما يبرزان عامر بن الطفيل إلى التاريخ الإسلامي العام لأنهما يربطانه بالنبي ، ونظن كل الظن أنهما أثرا في الأخبار الواردة عن مجرى حياته ، بل في حكم النقاد على شعره أيضاً .

وأولهما حادث بئر معونة ، الذي أصيب فيه النبي بنكبة فادحة ، في شهر صفر سنة أربع من الهجرة ، بعد غزوة أحد بأربعة أشهر . وتذكر الرواية التي وصلت إلينا ، عن ابن إسحاق ، أن أبا براء عامر بن مالك ، وكان سيد بني عامر ابن صعصعة ، قدم على النبي المدينة ، فأهدى له فرسين وراحلتين . فلم يقبل محمد هدية مشرك ، وعرض عليه الإسلام ، فلم يسلم ، ولم يبعد من الإسلام ، واقترح على النبي أن يرسل بعض أصحابه إلى نجد ، ليدعو إلى الدين الجديد ، وأضاف إلى كلامه أنه يأمل أن ينجح الدعاة نجاحاً كبيراً . فقال محمد إنه يخشى عليهم أهل نجد . فوعد أبو براء بحمايتهم ، وألح على النبي ثانية في إرسالهم . فبعث محمد المنذر بن عمرو ، أخا بني ساعدة في المدينة ، الملقب « المُعْنِق ليموت »[1] ، في أربعين رجلا من أصحابه ، من خيار المسلمين . وكان دليلهم من بني سليم ، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة ، في الطرف الشرقي من حرّة سليم ، بينها وبين أرض بني عامر ، فبعثوا حرام بن ملحان بكتاب النبي إلى عامر بن الطفيل . فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله . ثم استصرخ على البعث بني عامر ليهاجموهم . فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، فإن فيه خفراً لعقد أبي براء وجواره . فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم من عصية ، ورعل ، وذكوان ، فأجابوه إلى ذلك . فغشوهم وهم في رحالهم ، وإليهم في المرعى ، فأحاطوا بهم . واحتدم القتال وأظهر الصحابة شجاعة نادرة ، ولكنهم قتلوا من آخرهم إلا كعب بن زيد ، فإنهم تركوه وبه رمق ، فارتُثّ[1] من بين القتلى ، فعاش حتى قتل يوم الخندق ، في العام التالي (٥ هـ) . ولم يشهد القتال اثنان منهم ، هما عمرو بن أمية الضمري ، والمنذر بن محمد بن عقبة ، من المدنيين ، إذ كانا يرعيان الإبل . فرأيا من بُعد الطير تحوم فوق موضع القتال ، فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم في دمائهم ، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة . وتأهب عمرو بن أمية للفرار ، ليحمل إلى النبي خبر البعث : ولكن المدني قال إنه لا يرغب بنفسه عن موطن قتل فيه أصدقاؤه ، ثم قاتل حتى قُتل . وأخذوا عمراً أسيراً ، وأتوا به إلى عامر بن الطفيل ، فلما أخبرهم أنه من مُضر ، أطلقه ، وجزّ ناصيته ، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه . فخرج عمرو قاصداً المدينة ، حتى إذا كان بقناة ، وهو واد قريب من المدينة ، التقى برجلين من بني كلاب من عامر ، عرف قبيلتهما من سؤالهما . فأمهلهما ، حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما ، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأراً من بني عامر . ولكن هذين العامريين كانا قد قدما على النبي ، فأعطاهما عقداً لم يعلم به عمرو . فلما قدم على الرسول فأخبره خبر موت رفاقه وقتله العامريين ، عزم محمد على دفع ديتهما إلى أبي براء .

وتألم الرسول لهذا المصير الذي لاقاه الدعاة ألماً شديداً — بل لم يجد على قتلى ما وجد على قتلى بئر معونة . فدعا على قتلتهم ، بعد الركعة من الصبح ، وعلى بني لحيان ، وعضل ، والقارة (من هذيل) ، الذين قتلوا بعثاً صغيراً أوفده إليهم في الرجيع ، وجاء خبرهم في ليلة واحدة مع خبر بئر معونة ، خمسة عشر يوماً (ويقال : أربعين) . واستمر يدعو عليهم حتى نزلت عليه الآية ١٢٣ من السورة ٣ (ليس

(١) المعنق : المسرع ؛ لقب بذلك لأنه أسرع إلى الشهادة .

(١) ارتث : رفع وبه جراح .

لك من الأمر شيء ، أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) ثم بلغ جبريل النبي رسالة من القتلى المسلمين ، معتبراً إياها من القرآن ، وهاك نصها : « بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا ، فرضي عنا ورضينا عنه » . وبقيت هذه الآية تشكل فترة من الوقت بجزء من القرآن ، ثم نسخت ، ونزل بدلها الآية ١٦٣ من السورة ٣ ، ونصها : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله » .

وقد أثار هذا الخبر كثيراً من الشك في باحثيه . فأول ما يلاحظ عليه أنه ورد في وصف المغازي ، لا الوفود السلمية ، ويلاحظ من بداية الخبر عند ابن هشام ٣ : ١٩٣ أن بعث بئر معونة أرسل في صفر ، بعد انقضاء الأشهر الحرم ، ذي القعدة ، وذي الحجة ، والمحرم ، مباشرة ؛ وقد يدل هذا على أنه كان بعثاً حربياً . كما أنه إذا كان وفداً « للدعوة » للإسلام ، لم يكن يحتاج إلى عدد كبير مثل أربعين رجلا ، أو سبعين . أضف إلى ذلك أنه وصلت إلينا رواية أخرى للحادث لا تتعرض لعامر بن الطفيل إطلاقاً . فقد روى ابن سعد ص ٣٨ في خبر موجز له عن أنس بن مالك ، إن رعلا ، وذكوان ، وعصية من سليم أتوا النبي فاستمدوه على قومهم ؛ فأمدهم بسبعين رجلاً من « الأنصار » كانوا يدعون « القراء » (لأنهم كانوا يحطبون بالنهار ويصلون ويتلون القرآن بالليل) . فلما بلغوا بئر معونة ، غدروا بهم فقتلوهم . فبلغ ذلك النبي ، فقنت شهراً في صلاة الصبح يدعو على رعل ، وذكوان ، وعصية ؛ وقرأ النبي بهم قرآناً ، هو ما ذكرته آنفاً ، زماناً ، ثم إنه رفع أو نسي . ويتفق مع هذه الرواية قول الواقدي بأن دليل القوم كان من بني سليم . ويجب أن نتذكر أيضاً أن النبي كان غزا في العام السابق ، ٣ هـ ، بني سليم ، ولم يغز منها بطائل ، لتفرقها في مياهها . ويقول النسابون إن سليم أخت هوازن ، ولكنها ليست بذات صلة قريبة بعامر ابن صعصعة .

وتختلف الروايات اختلافاً كبيراً بصدد العقد الذي منحه أبو براء النبي . وليس من المحتمل أن أبا براء قدم على النبي بشخصه . فرواية الأغاني ١٥ تذكر أنه كان مريضاً بالدُّبَيلة ، وأنه بعث ابن أخيه لبيدا بهدية من الإبل ليطلب منه مساعدته في إشفائه . فرد النبي الهدية ، ولكنه قال في نفس الوقت إنه لو قبل هدية من مشرك ، لقبل هدية أبي براء ؛ ومع ذلك ، ناوله النبي جبوبة من الأرض ، كان رطبها بأن تفل فيها ، وأمره بأن يذوبها في الماء ، ويسقيها لأبي براء . ويضاف إلى ذلك أن لبيدا مكث بعض الوقت في المدينة ، يقرأ القرآن ، فدون سورة الرحمن منه ، وأخذها معه عند عودته . وأعطى الجبوبة إلى أبي براء كما وصف النبي ، فذوبها وشربها فبرأ .

وأخيراً ، لو كان عامر بن الطفيل مسئولاً منذ أول الأمر عن الخيانة التي أدت إلى مقتل البعث ، فمن الغريب ألا يرد اسمه في الدعاء الذي كان يقنت به النبي في صلاة الصبح في المدينة عدة أيام بعد سماعه خبر النكبة .

وأقوى دليل على اشتراك عامر بن الطفيل في مذبحة بئر معونة ، وعلى منح أبي براء نوعاً من الأمان للبعث ، يوجد في مقطوعات الشعر المعاصر المرتبطة بالحادث والمحفوظة في ديوان حسان بن ثابت وغيره . إذ يوجد في ديوان حسان ثلاث قطع : رقم ٤٠ ، ثلاثة أبيات في رثاء نافع بن بديل ، أحد القتلى ، ورقم ٩٤ ، في رثاء قتلى بئر معونة كلهم ، مع ذكر المنذر لأنه « المعنق ليموت » ، ورقم ١١١ ، يخاطب بها ربيعة بن أبي براء . ولا يذكر عامراً في أولى هذه القصائد (التي تنسب إلى عبد الله ابن رواحة أيضاً) ، ولا في الثانية . أما الثالثة ، التي تتكلم عن الخيانة ، فتنطبق على بطون سليم التي قيل إنها دعت البعثة ، انطباقها على عامر أو أكثر . ويقول الشاعر (في رواية ابن هشام) في المقطوعة الثالثة (ذكر ابن هشام ٣ : ١٩٦ والطبري ١٤٤٥ القطع في ترتيب مخالف الديوان)

بني أمّ البنين ألم يرُعكم ... وأنتم من ذوائب أهل نجد
تهكّمُ عامرٍ بأبي براء ... ليُخفِرَه ؟ وما خطأ كعمد
ألا أبلغ ربيعة ذا المساعي ... فما أحدثت في الحدثان بعدي ؟
أبوك أبو الحروب ، أبو براء ... وخالك ماجدٌ حَكَمُ بنُ سعد

ويقال في التعليقات على هذه القصيدة إنه يخاطب بها ربيعة ، ويحثه على معاقبة عامر بن الطفيل لغدره . وعندما

سمع ربيعة هذه الأبيات ، ذهب إلى النبي وقال : « نقضتها ضربة بسيف أو طعنة برمح ؟ » قال النبي : « نعم » فرجع ربيعة إلى موطنه وضرب عامراً ، ولكنه أخطأ مقاتله . فوثب عليه قومه فأخذوه ، وقالوا لعامر : « اقتص منه » ، فأخرجه عامر من الحي ، ثم حفر بئراً ، وقال : « اشهدوا أني جعلت ذنبه في هذا البئر . » ثم ردّ فيها تراباً وأطلقه .

ويستشهد في شرح القصيدة ٥٠ من ديوان حسان ، مرثاة المنذر بن عمرو ، قائد الحملة ، من قول اخته ، وهي أكثر وضوحاً ، تقول :

أعيني ألا ابكي على المنذر ... بسجل من الدمع ولا تفتري
وبكي ابن عمرو أخا المكرمات ... وذا الجد ، والنسب الأطهر
تداوت عليهم ذئاب الحجاز ... بنو بهثة ، وبنو جعفر
يقودهم عامر ذو الشقاء ... وذو الغدر والفتك والنكر
فلو حضر القوم تلك الجموع ... جموع أبي الحية الأعور
لألفوا ليوثاً غداة اللقاء ... وما ذاك منهم بمستنكر

وليس من سبيل لسوء فهم هذه القطعة ؛ ولكن يبدو أنها أميل إلى الحسم أكثر مما يجب ، كما أنها لا تتفق مع القطعتين التاليتين . وبهثة أحد بطون سليم . أما « ذئاب الحجاز » فمن الغريب أن يطلق على بني جعفر ، الذين يسكنون نجداً لا الحجاز .

ويقول كعب بن مالك الأنصاري ، أحد شعراء النبي ، لبني جعفر في قطعة ذكرها ابن هشام :

تركتم جاركم لبني سليم ... مخافة حربهم عجزاً وهوناً
فلو حبلاً تناول من عقيل ... لمدّ بحبلها حبلاً متيناً
أو القرطاء ما إن أسلموه ... وقدماً ما وفوا إذ لا تفونا

ويبدو أن هذه المقطوعة الأخيرة لا تتفق مع رواية الحادث كما أوردها ابن إسحاق . وذكر الطبري قصيدة أخرى لكعب ، يظهر أنها ، مثل أختها المذكورة حالا ، تلوم بني جعفر ، ومنهم عامر بن الطفيل ، لا لقتالهم وفد المسلمين ، وإنما لعدم حمايتهم لهم من سليم ، وعدم استجابتهم لصراخهم حين هجم عليهم أعداؤهم .

وأخيراً يذكر ابن هشام بيتين لرجل من سليم ، يسمى أنس بن عباس ، يفتخر بقتل نافع بن بديل (أحد القتلى المسلمين) ويعتده ثأراً لمقتل طعيمة بن عدي ، ابن أخته ، الذي كناه أبا الريان .

وصفوة القول في بعث بئر معونة أنه يبدو أنه بعث حربي ، أرسله النبي لمساعدة أحد بطون بني سليم على بعض البطون الأخرى ، ولم يكن غرضه الدعوة إلى الإسلام عند بني عامر ؛ وفي نفسي كان للنبي الحق في أن يظن أن بني عامر أصدقاء له ، وكان ينتظر عونهم ، لصلته بأبي براء . ولكن خاب ظنه ، وبرهن السلميون على أنهم خونة ، وربما شاركهم عامر بن الطفيل في هجمتهم على وفد النبي . وفي نفس الوقت من المحتمل أنه نقض عقد أبي براء بعمله هذا ؛ ويظهر هذا محتملاً من أداء النبي دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية في أثناء عودتهما من المدينة إلى قبيلتهما .

ولم يعش أبو براء طويلاً بعد حادث بئر معونة . وتزعم خرافة أن حزنه لخيانة عامر بن الطفيل جعله ينتحر بشرب الخمر القوية إلى أن مات .

(البحث بقية) ... صبحي لصاد

مع الفكر الأوربي المعاصر

١ – علم النفس ونزلاء السجون أو الستة المذنبون

كتاب من تأليف دكتور دونالد بول ولسون

هذا كتاب رزين رصين، جم الفائدة جزيل النفع، على الرغم مما يبدو لقارئه وكأنه أقصوصة من الأقاصيص. وعلى الرغم مما تحمله من كلمات عامية أمريكية.

وقد دعي مؤلفه – وهو أستاذ من أساتذة علم النفس – ليعمل طبيباً في إحدى الإصلاحيات منذ عشرين عاماً. وليبحث في علاقة الإجرام بعادة الإدمان على المخدرات. وظل في تلك الوظيفة ثلاث سنين. واستعان في عمله الذي كان قوامه جمع البيانات وترتيبها ترتيباً إحصائياً بستة من المذنبين من نزلاء تلك الإصلاحية.

والكتاب في جملته ذو ثلاث شعب: القصص المتعلقة بأشخاص هؤلاء الستة المذنبين. ثم حوادث السجن العادية. ثم المعلومات الخاصة بمثل هذه الموضوعات، كنظام العقاب عند الأمريكيين، وكعلاقة علم النفس الطبي بمشكلة المخدرات.

ولم يكن علاج تلك الأدواء هدف مؤلف هذا الكتاب، إنما كان همه ووكده البحث والدراسة.

والرجال المذنبون الذين كانوا يعملون معه هم – نسبياً – على قدر عال من الذكاء؛ ذلك لأن المعروف أن السجناء هم – في الحد الأوسط – قليلو الذكاء.

وقد استفاد هؤلاء الستة بسبب العمل مع هذا الباحث النفساني، الفوائد التي ما كانت تتاح لهم لو ظلوا سجناء عاديين. ومن تلك الفوائد إحساسهم بأنهم قد أصبحوا يؤدون عملاً نافعاً. وقد أنتج هذا الإحساس فائدة ثانوية. وهي أنهم تعلموا شيئاً قليلاً من علم النفس. وهذا القليل من العلم قد أعانهم على القدرة على فهم نقائصهم، فأصبحوا بعد ذلك قوماً صالحين.

وهذه النتائج مضافة إلى نجاح الآراء التي أبداها «دكتور ولسون»، ومنها اقتراحه – يوم أضرب السجناء – أن تكون لهؤلاء السجناء لجنة تحكم فيما شجر بينهم وبين رجال السجن من خلاف. كل أولئك كان بمثابة حكم قاس على الأنظمة العادية للسجون الأمريكية.

وقد لقي نظام العقاب في أمريكا هجوماً عنيفاً على يدي المؤلف. وهو يرى في أنظمة العقاب في انجلترا مثالاً يحتذى، وقدوة يقتدى بها.

وقد كانت فظائع القرون الوسطى ترتكب في سجون أمريكا حتى عام ١٩٢٩. فواحد من الرجال الذين عرفهم «دكتور ولسون» عذب تعذيباً شديداً بأن ربطت إبهاماه الإبهامان، وعلق منهما تعليقاً. فما زال كانت الإبهامان قد تشوهتا.

وفي ذلك العام – عام ١٩٢٩ – كونت لجنة فأوصت بالتغيير والتبديل في تلك الأنظمة، فأنشئ ديوان للسجون، وأدخل نظام لتعليم موظفي السجون وتدريبهم. ولكن نظام سجون الدرجة الثالثة قد بقي على حاله. و «الدكتور ولسون» يصوره في صورة من صور الجستابو (نظام البوليس السري السياسي في عهد النازيين وقد أنشئ عام ١٩٣٣. وكان زعيمه جورنج ثم هملر).

ولا يزال حراس السجون في أمريكا يحملون أسلحة نارية، وعلى باب الإصلاحية ركبت مدافع سريعة الطلقات.

أما ما يحدث بين جدران «الإصلاحية» فقد يبدو غريباً جداً لدى الأنجليز. فإن حياة موظفي السجون في أمريكا وحياة السجناء غير المهذبين هي حياة محفوفة بالخطر! وذلك لما يحوم دائماً بين القتيلين من عراك.

والنقانق يهربن إلى داخل السجن كما تهرب الأشياء الممنوعة. والأحجار التي تنبت المواد المخدرة تزرع في أرض السجن. والمحادثة السرية بين السجناء وأصحابهم في الخارج منتشرة انتشاراً كبيراً، حتى إن السجناء كانوا يعرفون

موعد زيارة « دكتور ولسون » قبل أن يعرفه رجال السجن ورؤساؤهم .

وقد تمكن بعض نزلاء السجن من سرقة سيارة قدموها هدية لدكتور ولسون إثر اعتزاله الخدمة ، ووضعوها بأنفسهم في أحد مستودعات السيارات ...

ويقول « دكتور ولسون » ويصر على هذا القول إصراراً : إن المجرم الفاشل هو الذي تضمه جدران السجون في أمريكا . أما المجرم الخطر غير الفاشل فهو يرتكب جناياته وهو مطمئن آمن ، وهو قرير العين ناعم البال .

ودكتور ولسون لا يرضى عن تلك القوانين التي تخلق من الناس مجرمين لجهلهم إياها ، أو التي ترسل بهم إلى غيابات السجون لأنهم اتبعوا سنة القائلين بأن كل ممنوع لذيذ .

وفيما يقصه في كتابه عن المخدرات ، التي لم يعرفها الغرب إلا منذ قرن ونصف قرن ، يرينا دكتور ولسون أن علاج مدمنيها لا يجب أن يكون في العقوبات البدنية ، بل يجب أن يكون العلاج طبياً ونفسانياً .

وهو يرينا كيف أن مدمني المخدرات لا يستطيعون أن يرتكبوا أية جريمة ذات خطر .

وهو يذكر في كتابه أن الاختلاط الجنسي الشاذ ليس إلا أثراً من آثار عزل الناس في مكان واحد عزلاً يخالف طبيعة الأشياء .

وهو يعقد فصلاً في كتابه عن فائدة التنويم المغناطيسي في علاج مرضى المخدرات . وكذلك في الكشف عن آلامهم وآمالهم المكبوتة .

وهو يرينا في هذا الفصل كيف حالفه التوفيق في علاج رجل كان يشكو علة في القلب ، وذلك على أثر كبته لأمر جريمة وقعت منه ، وهي أنه كان قد قتل حارساً من حراس السجن ، ثم ألقى التهمة على سجين آخر ، فلقي هذا حتفه مصعوقاً على الكرسي الكهربائي .

وهو يضمن كتابه قطعة مسلية عن منجم زنجي كان يصنع الأعاجيب في تنويم الآخرين ، وفي إخضاع نفسه هو لحالات التيبوبة ...

● ● ●

٢ — معالم الطريق في تاريخ التعليم

تأليف ت . ل . جارمان

هذا كتاب يرى فيه القائلون بقصر التعليم وترقيته كتاباً أقرب إلى السطحية . ويرى فيه القراء العاديون المتهومون في القراءة أنه قد أوفى على الغاية ، وأن فيه ما يشبع نهمهم .

والكتاب فيه فجوات من النقص غير خافية ! فهو قد خلا من أية إشارة إلى تعليم البنات . ولكن كتاباً ألفه صاحبه وسود فيه من الصحائف ثلاثمائة . وبدأه بتاريخ التعليم في « أثينا » القديمة . وطاف بقارئه على معالم العصور الوسطى وعصر النهضة . ودار به دورته حتى أشهده قانون التعليم الصادر في انجلترا عام ١٩٤٤ .

إن كتاباً كهذا ليس يتنظر منه إلا أن تبدو في مراحله المختلفة مثل هذه الفجوات ، وهي قليلة .

ومن أقوال المؤلف إنه يستحيل على قارئ التاريخ ، تاريخ روسيا وفرنسا وسويسرا ، أن يغض الطرف عن تلك العلاقة التي تكاد تلمس باليد بين نظام التعليم القائم على دعائم ثابتة من الحزم والدقة ، وبين قوة الأمة واقتدارها .

والمؤلف قد جعل لكتابه عنواناً آخر هو (التعليم الانجليزي جزء من التقاليد الأوروبية) . وقد أتاح له هذا العنوان أن ينظر نظرات خاطفة إلى مملكة روسيا فيذكر أن « فريدريك الأكبر » قد وضع الخطوط الأولى لنظام مدارس الدولة . كما يذكر أن السياسي البروسي البارون فون هنريك فريدريك كارل ستين (١٧٥٧ — ١٨٣١) قد صارح قومه بأنه لكي تسترد الأمة عافيتها يجب عليها أن تعتمد أكثر ما تعتمد على تعليم الناشئة وتربيتهم .

وقد أخذت « روسيا » بما نصح به هذا السياسي ؛ فما إن جاء عام ١٨٤٠ حتى كانت مدارس التعليم الأولى قد انتشرت في أنحاء البلاد الروسية ، وحتى لقد بلغ عددها ثلاثين ألفاً . وكان برلمان انجلترا قبل ذلك التاريخ بسبع سنين قد أرصد للتعليم مبلغاً تافهاً ضئيلاً هو عشرون ألفاً من الجنيهات .

ولا يخطئ الباحث في شئون تلك المدارس الأولية أن يرى فيها الأسس التي قامت عليها قوة ألمانيا وعظمتها ، وإن

يكن فى تلك الأسس ما يثير الحزن ويبعث الأسى .

ولقد كانت تلك المدارس المصادر التى انبعث منها الدقة والإتقان اللذان يبدوان للعيان فى منشآت السكك الحديدية الحربية ، وفى كل ما أنتجته الصناعات الألمانية فيما بعد .

ومما لا يحل القول فيه أن التعليم له الأثر البالغ فى كفاية الأمة واقتدارها . والملاحظ فى انجلترا أن نهضة إصلاح التعليم هى فى الأغلب الأعم مقودة بوساوس الأوهام ، ولذلك فهى قد فقدت عطف الرجال أصحاب العقول المستنيرة .

ومن المقتبسات الكثيرة النافعة التى تفيض بها صحائف الكتاب قول قاله « فرنسيس بلاس » (سياسى انجليزى متطرف كان يحترف خياطة الملابس . توفى عام ١٨٥٤) وهو : « إن الرأى الذى أدين به هو أن يسير نظام تعليم الأطفال — بصفة عامة — على وتيرة واحدة ، بحيث إذا قامت على تربيتهم إدارة حكيمة كانوا هم كذلك حكماء فضلاء » .

ولا يزال مثل هذا الرأى سائداً ، ولكنه رأى لا يظفر بالرضا من جانب الرجال الذين يفكرون تفكيراً عملياً .

ومن محاسن هذا الكتاب أنه ينظر إلى طرق كل الأمور نظرة الشك والارتياب .

* * *

٣ — أرض الصوماليين
أو الصومال الإيطالى سابقاً

تأليف : ا . سيلفيا بانكهرست

ولدت مؤلفة هذا الكتاب عام ١٨٨٢ وهى ابنة السيدة « إميلين بانكهرست » (١٨٥٨ — ١٩٢٨) التى كانت تطالب بمنح النساء حق الانتخاب . والتى دخلت السجن مراراً بسبب تلك المطالبة . ولم يخرج عنها إلا بعد إضرابها عن الطعام .

أما مؤلفة هذا الكتاب فقد كانت تناهض فكرة الحرب . فلما أغارت إيطاليا على الحبشة وغزتها ، كانت أكبر المدافعين عن القضية الأثيوبية .

وهى اليوم بتأليفها هذا الكتاب قد أحسنت صنعاً بجمع المواد المكونة لتاريخ جزء من العالم قل من يعرفه .

ولا شك أن أرض الصوماليين هى من أجدب بقاع الأرض وأكثرها تأخراً عن ركب الحضارة فى أفريقيا إن لم يكن فى العالم كله .

وهى منذ حوالى قرن من الزمان قد قسمت أقساماً أربعة ، ورفرفت على بقاعها أعلام أربع دول وهى : بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وأثيوبيا .

والأقوام الصوماليون فى الأعم الأغلب أقوام رحالة ، بل إنهم ليحسبون من البدو الرحل . ولذلك فإن تقسيم البلاد إلى أربعة أقسام ، وتحديد الحدود الفاصلة بين كل قسم وقسم كان بدعة مضللة .

ولقد رحبت غالبية الصوماليين بمنع تجارة الرقيق ، وبسيادة أحكام القانون والنظام ، وبالشىء القليل من العلم ومن التجارة ، وبالعناية بالشئون الصحية . وهم — على الرغم من ذلك — يرون أن حرفة الرعى عندهم قد أعاقتها تبعيتهم إلى أكثر من دولة واحدة . وذلك كلما أرادوا الانتقال من مكان إلى مكان ارتياداً للكلأ .

ولقد ساءهم أنهم ألفوا أنفسهم فى عام ١٩٤٠ مطالبين بشن الغارات على أبناء عشائرهم بعد أن زودوا بأحدث أنواع الأسلحة التى جاءت بها الحرب المتحضرة .

أما نصيب الصوماليين الذين عاشوا فى الصومال الإيطالى فكان أتعس وأشد بؤساً ! فهم لم يكفهم العذاب الذى كانوا يلاقونه بسبب سوء الإدارة الإيطالية . بل قد رأوا أنفسهم متخلفين عن ركب إخوانهم الذين كانوا تحت حكم الانجليز .

والآنسة بانكهرست تكتب دائماً كصديق وفى ، وولى حميم لأثيوبيا . وقد أدى بها وفاؤها وولاؤها أن تخالف عن رأى العارفين الذين جابوا أرجاء تلك البلاد القصية ، وعرفوا مابها من تخلف عن ركب الحضارة . ولا يزال هذا التأخر يقض مضاجع الحكومة المركزية فى « أديس أبابا » .

والآنسة بانكهرست تسائل نفسها : كيف تساس وكيف تتقدم الصومال . وهى تلك البلاد الممتدة الرقعة ، وهى

تلك البلاد القاحلة الجرداء التي تكاد الصحراء تغطي نصف أرضها ؟

وهي تسائل نفسها أيضاً : هل من الممكن بلوغ مرحلة من التقدم الاقتصادي تكفي لتمويل القائمين بالأمر دون أية مساعدة خارجية ؟.

وتجيب الآنسة « بانكهرست » على أسئلتها التي ، ثم تستطرد فتقول : إن إثيوبيا يجب أن تكون العون الخارجي للصومال .

ويرى بعضهم أن الآنسة قد أخطأت في ظنها أن « إثيوبيا » تسير في سبيل التقدم دون عون من الخارج . فإن الثابت أن « إثيوبيا » قد تلقت معونة أمريكية مقدارها عدة ملايين من الدولارات لإنشاء الطرق .

وفي الأنجاد الحبشية حيث تقوم مساحة كبرى من الأرض التي قد تكون صالحة للزراعة ، تلقت « إثيوبيا » معونة إيطالية في شكل طرق وبنايات ومطارات .

و « إثيوبيا » قد تلقت كذلك أثناء الحرب العالمية عوناً بريطانياً بالغاً في صورة مساعدات حربية واقتصادية ، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر . وذلك لكي تستطيع أن تنهض من كبوتها .

والآنسة بانكهرست تقول : إن الصوماليين مسلمون ،

وهذا ما أدى بغير واحدة من الدول المسلمة أن توصي بتحديد زمن الوصاية بأعوام قليلة لكي تستطيع الصومال أن تظفر باستقلالها إذا ما انقضت تلك الأعوام القليلة .

والدول المسلمة على حق في هذا . بل هم أصدق حكماً من أولئك الذين جعلوا من الصومال رهاناً يتراهنون به في السياسة العالمية . والذين قرروا مصير تلك البلاد دون أن يحسبوا حساباً لسعادة أهلها ورفاهيتهم .

ويبدو أن المؤلفة ترضى بالحكم الإيطالي على ما به من مستوى غير عال ! وذلك اجتناباً للحاجة إلى معاونة أوربية أخرى .

وهي تقول : لقد كان من أهداف الإدارة البريطانية منذ عهد لورد « لوجارد » (١٨٥٨ — ١٩٤٥) . وقد كان من الحكام البريطانيين في شرق أفريقيا) أن توسع في إنشاء وترقية المعاهد الأهلية للتعليم بقدر ما تسمح بطاقة البلاد المالية ، وأن تقر القانون والنظام ، وأن تعنى بالشئون الصحية .

وترى المؤلفة أن خير ما ينفع تلك البلاد هو النهوض بالتعليم بأوفى معاني تلك الكلمة ! وذلك لضمان بلوغ حد القدرة الإدارية حتى إذا جاء عام ١٩٦٠ أصبح الصومال الإيطالي (سابقاً) دولة حرة مستقلة .

مبارك ابراهيم

من بريد الثقافة :

حضرة الفاضل المحترم رئيس تحرير الثقافة الغراء .

.. أما بعد ، فقد شغلتني الامتحانات ، عن أن أخلو بمجلتي الحبيبة . وكان أخيراً ، واطلعت في العدد ٩٤٤ على نقد الأستاذ الأهواني القيم لكتاب العوامل والشوامل ، فاستوقفني تعليقه على لفظة (كيموس) .

والواقع أن تفسير صاحب اللسان ، الذي رآه الأستاذ بعيداً عن الصواب ، هو في الحقيقة عين الصواب .

إذ المعروف في الطب ، أنه بعد نهاية عملية الهضم في المعدة ، يتحول الطعام إلى « كتلة لزجة حامضية » هي الكيموس Chyme ، ثم ينتقل إلى الأمعاء الدقيقة حيث تبدأ عملية الامتصاص . أما هجر لفظة كيموس إلى (طعم) فلم نسمع به حتى الآن في الجامعة ..

وعظيم تقديري للأستاذ الأهواني

ع . الوكيل

قالوا ...

- ثق بما عليه عقلك في خاصة أمورك ، وثق بما يوجبه إليك قلبك في أمور الناس .
- الصبر صبران : فأعلاهما أن تصبر على ما لا ترجو فيه النفع في العاقبة . والحلم حلمان : فأشرفهما حلمك عمن هو دونك . والصدق صدقان : فأعظمهما صدقك فيما يضرك . والوفاء وفاءان : أسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه [الجاحظ]
- الدنيا بأسرها لا تسع متباغضين ، وشبر في شبر يسع متحابين . [الخليل بن أحمد]
- إذا وهب الإنسان الخيال لكي يعوضه من نقصه ، وأعطى روح الفكاهة لكي تعزيه عن حقيقته .

ندوة القلم

أوجست كونت وعلم الاجتماع الحديث

(١٧٩٨ — ١٨٥٧)

هو الفيلسوف العلامة الفرنسي الشهير بفلسفته الإيجابية، وتأسيسه لعلم الاجتماع، والمعروف بدعوته إلى البحث عن محتويات الكون وإلى تدقيق المعارف وفحصها بدلاً من الاهتمام بدراسات ما وراء الطبيعة ومباحث اللاهوت. وقد قصد من ذلك إلى تأسيس علم اجتماعي يقابل العلم الطبيعي، يعطينا صورة إيجابية لواقع المجتمع الذي نعيش فيه.

تأثر كونت بآراء مونتسكيو كثيراً وخاصة فيما يتعلق بالتأثيرات الطبيعية في المجتمع البشري، كما تأثر بمبادئ كوندورسيه فيما يتعلق بالتقدم الإنساني. وقد كان مونتسكيو وكوندورسيه قد انتبها إلى ضرورة ملء الفراغ الموجود في مجال أبحاث العلوم الاجتماعية، فوجدا أن الارتباط بين الظواهر المختلفة وثيق، ولكنهما لم يتمكنا من التوصل إلى توضيح هذا النظام الاجتماعي المعقد التكوين. وقد حدث عقيب الثورة الفرنسية تطور عظيم في ساحة هذه العلوم. وكان سان سيمون من فرسان هذا الميدان ومن المؤمنين بقدرة العلم العظيمة في جميع مجالات الحياة. وعندما وجد سان سيمون أن المجتمع الأوربي المعاصر يساوره قلق واضطراب شديدان كلاهما ناتج عن تأثير الفوضى الضاربة أطنابها في الحياة العامة في ذلك الوقت، تفرغ إلى إيجاد الوسائل الضرورية لحل هذه المشاكل ولبناء أساس فكري جديد على أنقاض تلك الأفكار المدحورة إبان حركات الثورة الفرنسية، كما أوجب قبل كل شيء دراسة مجتمعات ذلك العصر ونظمه السائدة؛ ولكي يتسنى له تحقيق هذا الغرض رأى ضرورة تأسيس علم يدرس المجتمعات أسماه (علم الصلحة الاجتماعية). إلا أنه لم يلبث أن عدل عن نهجه وانتهت أبحاثه إلى نوع من التصوف أو ترديد أفكار كثيرة اقتبسها ممن سبقه من الباحثين، كتشبيه المجتمع بكائن حي، وعرضه فكرة الحتمية في تقدم الإنسان.

درس أوجست كونت العلوم الطبيعية والرياضية بالإضافة إلى الفلسفة، ثم اتصل سنة ١٨١٨ بسان سيمون فأعجب به أيما إعجاب، فأطلق على نفسه (العبد السيمودي سان‌سيمون). ثم فارقه سنة ١٨٢٢ بعد أن بلغت منه استفادته مبلغاً عظيماً وقد شغف بفلسفة التاريخ ودراسته.

طريقته في البحث:

أخذ كونت بالطريقة الاستنتاجية والتاريخية في البحث، واتخذ علم الحياة (البيولوجي) أساساً لدراسته الاجتماعية، وشبه التقدم الاجتماعي بالنمو البشري. وقال: إن مثل الأمراض الاجتماعية التي تنتاب البناء الاجتماعي مثل الأمراض التي تنتاب أي كائن حي آخر، وإن علمي الاجتماع والحياة فرعان لعلم واحد، وقد وضع علم الحياة في تسلسل العلوم قبل علم الاجتماع مباشرة. والتاريخ في نظر كونت يجب أن يكون بحثاً عن القوانين التي تسيطر على التقدم الاجتماعي للنوع البشري.

أما التفاسير الدينية فإنها تقف حجر عثرة في سبيل الإصلاحات الاجتماعية؛ فلذا يجب أن يحل التفكير الإيجابي محل التفكير في فلسفة ما وراء الطبيعة، وأن تؤسس الفلسفة الإيجابية قبل البدء بالتجديد الاجتماعي، وعلى هذا الأساس يستلزم تكوين علم جديد هو علم الاجتماع.

أكد كونت لزوم مشاهدة الحقائق بقدر الإمكان مع أنها عملية صعبة وموادها الدراسية معقدة، كذلك أكد ضرورة إجراء مقارنة بين المجتمع الإنساني وبين المجتمع الحيواني، ومقارنة المراحل المتتابعة في التاريخ لفئة معينة، لكي يتضح أثر الجيل في الآخر في مضمار تطور المجتمع البشري.

تأسيس علم الاجتماع :

وضع كونت الاصطلاح العلمى لعلم الاجتماع . فكان له الفضل فى إظهاره للعالم علماً من العلوم الحيوية . عندما نشر آثره المعروف : Cours de Philosophie Positive(*) فى سنى ١٨٣٠ — ١٨٤٠ فاشتق Socialogy من Socius وهو مقطع لاتينى ومعناه المجتمع ، ومن Logos وهو يونانى ومعناه العلم ، مما جعلها عرضة لانتقاد النقاد ، لأن هذا الاصلاح فى نظرهم كان نابياً ، لأنه لم يشتق كما جرت العادة عن أصلين يونانيين كما فى كلمة Biology وكلمة Psychology . ولكن بالرغم من ذلك فقد شاع استعماله واعترف الجميع به .

خصص كونت من نفس مصنفه (دروس فى الفلسفة الإيجابية) أجزاء لعلم الاجتماع ، من الجزء الثالث إلى الجزء السادس ، وأعطى لهذا العلم درجة عظيمة عند تصنيفه لشهور العلوم ؛ ذلك أنه حين تتبع الأدوار المختلفة التى مرت بها المعرفة الإنسانية ، جاء بترتيب خاص أسماه (التسلسل فى العلوم) فقال : إن الرياضيات هى أقدم أنواع المعرفة التى اهتدى إليها الإنسان ، ثم الفلك ، فالطبيعة ، فالكيمياء ، فعلم الحياة (البيولوجى) ، فعلم الاجتماع . وفى نظره أن أبسط ألوان المعرفة : الرياضيات ، وأعقدها : علم الاجتماع . لأن تفسير الظواهر الاجتماعية يستلزم الإلمام بالمعارف الأخرى ، وهذا بدوره يعلل لنا تأخر ظهور علم الاجتماع .

إن علم الاجتماع فى اعتقاد كونت جامع للعلوم الاجتماعية الأخرى : كالأخلاق والقانون والاقتصاد والسياسة والتاريخ والبحوث الدينية والفلسفة . وهو الذى يمد كل هذه العلوم بالقوانين العامة الشاملة للحياة والعلاقات الاجتماعية ، لأن لهذا العلم قوانينه كما لعلم الحياة قوانينه ، يستعملها فى الربط بين الموضوعات المتعددة ، والكشف عن مبادئها .

لقد أوجست كونت فى ساحة العلوم — التى كانت تعرف حتى ذلك الوقت بالعلوم الأدبية — بدور هائل . فأحدث فيها تغييراً يراه البعض أشبه بالانقلاب الكوبرنيكى منه إلى أى شىء آخر . فبدلاً من أن يفسر الإنسانية بالإنسان ، كما يعمل علم النفس ، أخذ يفسر الإنسان بالإنسانية ، أو بأسلوب آخر : أيجب تدقيق الجزء مبتدئين من الكل ، أم يجب تدقيق الكل بمساعدة الأجزاء ؟ والحقيقة أن السؤال يجاب عنه بالوجهين ، إلا أن فيلسوفنا وجد أن الكل هو الذى يفسر الأجزاء ، ويقابل هذا أن الأجزاء لا يمكن أن تفسر الكل . ثم استطرد يقول : إن الإنسان حيوان اجتماعى يستمد كيانه المعنوى أو حياته الروحية من المجتمع الذى يعيش فيه . فهو إن لم يوجد فى أحضان المجتمع لما وجدت الحياة العقلية والنفسية طريقها إليه . وإن ما نلاحظ عنده من الظاهر الروحية مثل الشعور والمباح والرغبة ليست إلا ضروباً من الظاهر البيولوجية الكثيرة التى يملكها .

يظهر من هذا الاستعراض البسيط للقارئ الكريم أن أوجست كونت فى تاريخ علم الاجتماع داعية لا منكر ؛ فإن عظمته تنحصر فى مقدرته العقلية على التركيب Synthesis وعلى بناء النظريات وما يبدأ به من الأعمال ، لا على ما أنجزه منها ، فإن ما جاء به من المباحث والآراء لم تثبت فى ضوء الحقائق الاجتماعية العلمية الحديثة ، ولم يسلم أكثرها من طابع الغموض والتجريد .

صبحى على الدالوقى

بين الكتاب والسينما والمسرح

شاهدت القاهرة خلال الأسابيع القليلة الماضية عرض عدة أفلام تتخذ فكرتها من مؤلفات أدبية مشهورة ، مثل : أوليفر تويست لتشارلس ديكنس ، والسيمفونية الريفية لأندريه جيد ، وكين لإدوارد كين .

وتلك كلها محاولات لتدعيم « السينما » بعناصر فنية رفيعة تسمو بها ولو قليلاً عن مستوى القصص الرخيصة التى اعتادت أن تقدمها .

ومن المسلم به أن الفن السينمائى قد استفاد كثيراً من هذا الأدب القوى الذى يحاول استخدامه .

لكن هل الأدب من جانبه قد حظى بفائدة ما من وراء إخراجه على الشاشة البيضاء ؟

هناك عداء قديم بين الكتاب وبين التمثيل (سواء كان على المسرح أو على الشاشة البيضاء) .

وهناك أدباء كثيرون يؤمنون بأن أدب الكتب شىء

(*) IV. P. 200 وقع الكتاب فى ستة مجلدات نقلت إلى اللغة الانكليزية وصدرت سنة ١٨٩٣ .

وأدب المسرح والسينما شيء آخر ، وأن التوفيق بينهما لا يكون إلا على حساب أحدهما ، لأن لكليهما خصائصه التى لا يمكن أن تنتقل إلى الآخر .

وللأديب الفرنسى جورج دوهاميل كتاب طريف عنوانه «صور من حياة المستقبل» ، يتحدث فيه عن الحضارة المادية التى تسود أمريكا اليوم ، ويقارن بينها وبين الحضارة الإنسانية التى يُحِبُّ لها أن تنتشر . وفى بعض فصوله يتحدث عن دور الخيالة وأثرها ، فيقول :

« ... الصور فى الأفلام تتحرك وتذهب ، أجل : إنها تذهب . وكل عمل فنى صحيح يبحث قبل كل شيء عن الخلود ...

« السينما تسلية عبيد ولهو جهلاء أذهلتهم هموم الحياة عن التفكير .

« إنها مناظر ميسرة لا تقتضى من الإنسان أى جهد ، ولا تتطلب منه مواصلة الانتباه وربط الأفكار . إنها لا تعرض لأى مشكلة عرضاً صحيحاً وافياً ، ولا تبعث فى القلوب العواطف والأحلام والآمال .

« والصور التى يُحِبُّ الإنسان أن يتعلق بها فى الرواية وأن يتأملها ملياً تنزع منه فى قسوة ، ولا تدع له مجالاً للحلم أو التدبر . فالشاهد لا يشارك فى هذا اللهو الذى يقدم له ، وإنما هو خاضع يؤتى طعاماً فيتلقمه دون أن يكون لإرادته فى ذلك دخل ...

« إنى أقرر أن شعباً تعرض عليه مثل هذه الحضارة زهاء نصف قرن لابد وأن ينحدر إلى أحط الحالات . وقد تقولون إن الحضارة فى أمريكا بلغت درجة عالية برغم دور الخيالة . والجواب على ذلك : أنه إذا كانت ناطحة السحاب فى هذه البلاد تبنى فى بضعة أسابيع ، فإنه قد لزم لفاجنر عشرون سنة كى ينشىء بعض أعماله الفنية ... وإنى مستعد للتضحية بكل أفلام العالم مقابل مسرحية واحدة لموليير أو لوحة لرامبرانت أو لحن لباخ

« والسينما لم تصل بعد إلى أن تكون فناً . فكل الأعمال الفنية التى تؤثر فى حياة إنسان يجب أن لا يصل إلى لبابها إلا بعد جهد ومشقة . والكِتابُ العبقرى مثلاً يجب على القارىء أن يشحن كلاه ويكد ذهنه فيه ... أما «الفيلم» فهو ليس بالممتنع على الفهم : إنه كبائعة الهوى تعطى الحب لمن يريد مقابل دريهمات .

« والسينما بطبيعتها حركة متصلة ، ولكنها لا تحرك فكر الشاهد بل تدعوه إلى الخمول ...

« وراعنى أخيراً أن رأيت الروايات التى أبدعها فن كتابنا الأفذاذ تخرج لنا على الشاشة البيضاء ... فمن يصرخ فى وجه المعتدى قائلاً : دع العبقرية الحقة ، دع الفن الصحيح لا تمسه بأناملك المشوهة ؟!.. » .

وقد حضر جورج دوهاميل إلى مصر منذ بضع سنين وألقى فى الجامعة الأمريكية محاضرة عن مقومات الحضارة ووسائل نشرها ، تعرض فيها للمفاضلة بين الكِتاب وبين الوسائل الحديثة لنشر الثقافة من إذاعة وسينما وصحافة ، فقال :

« أما الكتاب فهو خلاصة تجارب الإنسان وعصارة دروس الحياة ، فيه نحتفظ بحضارتنا ، وبه ننشرها ونذيعها . ولئن كان للجمل سنامه الذى يدخر فيه الغذاء حتى تلجئه الضرورة إلى الاستنجاد به ، فإن المكتبة هى الذخيرة الروحية التى يحتفظ بها الإنسان ويستمتع بها حيناً يحلو له ذلك ، أو حيناً يضيق بالحياة ذرعاً .

« لا يستطيع أحد أن ينكر فضل الكتاب على الحياة ، فلولاه لأصبحت أثراً بعد عين . فكروا قليلاً فى مصير الحضارة الحالية لو هدمت المكاتب وأحرقت الكتب . لاشك أن صرحها ينهار ، ويعود الإنسان تدريجياً إلى الحالة البدائية والعيشة المتوحشة ... فلا تنفعه حينئذ صحف أو إذاعة أو سينما .

« فالصحف والإذاعة والسينما وجبات من الطعام يدفع إليها الإنسان دفعاً ، أما المكتبة فمائدة تزخر بألوان من المأكولات المختلفة يستطيع الإنسان أن يتخير منها ما يلذ له ويطيب .

« والكتاب أخيراً ، بما يتطلب من القارىء ومن المؤلف على السواء ، من مجهود وإعمال تفكير ، يفيد المجتمع فائدة عظمى ؛ فهو يعين على تقوية الانتباه وتركيزه ، وليس ذلك بالأمر الهين من الناحية التربوية ... » .

أما الكاتب الناقد الكبير أناتول فرانس فلم يدرك عهد السينما وأمجادها ، ولكنه تحدث عن المسرح بما يشبه كلام دوهاميل عن دور الخيالة ... قال فى مقال له مفاضلاً بين المسرحية الممثلة على الأخشاب ، وبين الأدب فى دفتى كتاب :

« ... كثير من الناس يستحيل عليهم تكوين فكرة

واضحة عما قرأوا . فإذا ما شاهدوا قصة تمثيلية استطاعوا أن يحكوا بدقة ما رأوه .

« والسبب أننا عندما نقرأ كتاباً ، فإنما نقرؤه كما نريد . أو بعبارة أصح : نقرأ منه ما نريد .

« فالكتاب يعتمد على التخيل كثيراً . لذلك لا تجد فيه العقول الجامدة العادية سوى متعة ضئيلة .

« وعلى النقيض من ذلك نرى المسرح يظهر كل شيء ويحق المشاهد من عبء التخيل . لذلك يلقى فيه عامة الناس ما يروقهم ، بينا تأنف منه النفوس التي تتسم بسمة الخيال ، والتي جبلت على التأمل : فهي نفوس لا تحب الأفكار إلا لما تتيحه لها من الاسترسال في الأحلام ، وما تبثه فيها من صدى موسيقى جميل .

« ما لهاتيك النفوس والتمثيل !!.. خير لها ألف مرة أن تستشعر البهجة واللذة النشطة بين صفحات الكتب . فذلك بالنسبة لها متعة لا تعدلها اللذة الساكنة التي يمنحها المسرح .

« أتدري ما الكتاب ؟..

« إنه مجموعة من الرموز المتتابعة لا غير . وعلى القارئ أن يستخلص منها بنفسه ما تنطوي عليه من صور وألوان وعواطف . وعلى القارئ وحده تتوقف قيمة الكتاب : فهو الذي يسبغ عليه حرارة العاطفة أو فتورها .

« بل إن مثل الكلمة في الكتاب كمثل الأنامل السحرية تمس عصباً من أعصاب النغم لمس الريشة للوتر ، فتحدث لحناً يلائم الروح ويتردد صداه طويلاً . ومهما كانت يد الفنان بارعة ملهمة ، فإن ما تثيره من لحن تتوقف قيمته على نوع أوتارنا الداخلية .

« أما المسرح ، فإن الأمر فيه ليس على هذا النمط ، بل العلامات الصغيرة السوداء ، التي على الورق ، تتشكل في مناظر حية ! والحروف المطبعية الدقيقة التي كانت تترك المجال واسعاً للتخيل والتفكير ، تنقلب في صورة رجال ونساء لا غموض يحيط بهم ولا خفاء . وكل شيء في المسرح محدود محسوس ، لذلك يضيق مجال الاختلاف بين مشاعر النظارة مهما تباينت طباعهم ... »

محمد عبد الحليم محمود

الثقافة

العـــدد ٦٥٨
٦ من أغسطس ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

صفحة

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٥٨ — الاثنين ٣ من ذي القعدة سنة ١٣٧٠ — ٦ من أغسطس سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

نظـــرة الطائر

للدكتور زكي نجيب محمود

يرتفع الطائر إلى السماء وينظر ، فتكون نظرته واسعة المدى بعيدة الأفق ؛ وأما الدودة فتنكفىء بوجهها نحو الأرض زاحفة ، فينحصر نطاق النظر عندها حتى لا يمتد إلى أبعد من أنفها .

ونحن في كثير جداً من أمورنا — أفراداً ودولة — أقرب إلى الدود الزاحف منا إلى الطير المحلق في الفضاء ؛ فترانا ننظر إلى « هنا » و « الآن » — على حد تعبير الإنجليز — أي ننظر إلى مواضع أقدامنا وإلى اللحظة الزمنية القصيرة التي نجتازها ، ثم نتصرف بما يرضي ذلك المكان المحدود وهذا الزمن القصير العابر ، بغضّ النظر عما يترتب على ذلك من نتائج فيما هو أبعد قليلاً من نطاقنا المكاني والزماني الضيق المحدود ؛ ولا غرابة إذاً أن ترانا ننقض غداً ما أبرمناه اليوم ، ثم نهدم بعد غد ما نبنيه في الغد ؛ ذلك لأننا اليوم لا نفكر في غد أو بعد غد ، وفي غد ننسى اليوم ونتناسى ما يتلوه من أيام — كالتي نَقَضَت غَزْلها ، لولا أن التي كانت تغزل غزلها لكي تنقضه ، ثم تغزله مرة جديدة لتنقضه ، وهكذا ، إنما كانت تقصد إلى المماطلة حتى يعود زوجها من سفره البعيد المجهول ، تخلصاً من خطّابها الكثيرين الذين لبثوا ينتظرون قرارها ، وقد وعدتهم ألا تنطق بقرار حتى تتم غَزْلها ، ثم قصدت ألا تتمه أبداً ، فراحت تغزل وتنقض ما غزلت ، وهي عالمة بما تفعل مدبرة له ؛ وإذاً فمن الظلم على تلك المفكرة المدبرة التي ترسم لنفسها الخطة وتأخذ في تنفيذها ، من الظلم عليها أن نقيس أنفسنا بها حين نريد تشبيهاً يصوّر حالنا ؛ إذ نبني اليوم ما نهدمه بعد حين ، عن غير تدبر ولا تفكير .

حين يرتفع الطائر إلى السماء لينظر ، تعتدل في عينيه النِّسَبُ بين الأشياء مقروناً بعضها إلى بعض ، فيرى على وجه الدقة ضآلة الضئيل وعظمة العظيم ، إذ يرى — مثلاً — كم يكبر هذا البناء العالي ذلك الكوخ الصغير الوطيء ، لأنه يراهما معاً بنظرة واحدة فتسهل الموازنة والمقارنة ، أما إذا وقف ذلك الطائر على باب الكوخ ونظر ، فسيخيل إليه أنه إزاء عمارة جبارة ، أين هو منها طولاً وعرضاً وارتفاعاً ؛ ويحجب الكوخ عن عينيه ما وراءه من قمم عالية ،

فينقلب الكوخ الصغير الوطىء في عينيه مثلاً أعلى في الارتفاع والسمو .

إن إدراك النسبة الصحيحة بين الأشخاص والأشياء والأفكار نعمة كبرى ، ليست تتوافر للناس جميعاً على السواء ؛ فهنا قد تدق عنده « حاسة النسبة » بين الأشياء دقة تهديه إلى وضع الأمور في نصابها الصحيح ، وذلك قد تنعدم عنده تلك « الحاسة » انعداماً حتى لتراه يُكْبِر الصغير ويُصَغِّر الكبير وهو لا يدري ؛ وما أشبه هذين برجلين متساويين في الدَّخل ، فأما أولهما فيوزع ماله المكسوب على مقتضيات الحياة — ضروراتها وكمالياتها — توزيعاً راعى فيه النسبة الصحيحة ، فلا يضطرب له أمر ، وأما الثاني فقد تتملكه الشهوة نحو شيء بعينه فيزيغ بصره عما عداه ، وينفق ماله كله في ناحية واحدة لأن عينيه قد عميت عن سائر النواحي ، فيختل التوازن وتضطرب الحياة .

ولعلنا إذ نصف إنساناً بأنه « عاقل » في طريقة تصرفه في حياته ، فإنما نريد بهذه الصفة أنه ينظر إلى أموره الكثيرة نظرة الطائر ، ليراها كلها في لمحة واحدة ، فيتسنى له أن يوازن ليقدر النسبة الصحيحة بين أحجامها ، وعندئذ يقدم الأهم على المهم لأنه قد وقف الوقفة التي تكشف له أين الأهم وأين المهم وأين ما ليست له أهمية فيحذف من قائمة الحساب ؛ فالإنسان حزمة من شهوات ورغبات ، وليس من الحكمة أن تقتلع تلك الشهوات والرغبات اقتلاعاً من أساسها ؛ فتلك هي النظرة القديمة التي استبدت بتفكير الإنسان عصوراً طويلة ، على اعتبار أن الشهوات والرغبات هي من مقتضيات الجسد ، والجسد منبوذ مكروه محتقر دنىء ، بكل ما يتعلق به وبكل ما يقتضيه ؛ أما الصحيح فهو أن نضع هذا الجسد البشري موضع التقدير ، وكدت أقول موضع التقديس ؛ ولكم عانى الناس ضروب العنت والإرهاق بسبب أن أجسادهم لم تكن هي موضع الاعتبار من أول الأمر ، فلبثت تلك الأجساد تتضور من جوع وتئن من ألم لأن أصحاب الشأن مشغولون « بالمثل العليا » التي هي وراء الأجساد وتزدري التفكير في الجوع والألم ! لكن ذلك استطراد قد بعد بنا عما أخذنا في تقريره ، وهو أن الإنسان حزمة من شهوات ورغبات ، ليس من الحكمة في شيء أن تجتث وتقتلع ، وإنما الحكمة هي في نسبتها بعضها إلى بعض نسبة صحيحة ؛ فأشبع هذه الرغبة من ضعف ما أشبع تلك ، إذا رأيت ذلك يحقق لي في النهاية اتزان الحياة وهدوءها والمراد رقيها — ولست أستطيع إدراك هذا التناسب إلا إن وقفت من رغباتي جميعاً موقف الذي يراها دفعة واحدة ، وتلك هي نظرة الطائر .

وما أكثر ما نصف المجنون إنساناً ، إذا حللنا وجه النقص فيه ، وجدناه انحصار نظره في نطاق ضيق من جوانب حياته ، أو خضوعه خضوعاً تاماً لعاطفة واحدة أو فكرة واحدة فرضت نفسها عليه فلم يعد يستطيع رؤية ما وراءها أو الإحساس بما عداها ؛ فالذي ينصرف بكل شعوره نحو الحزن على وليد فقده أو مال أضاعه ، مجنون جنون الذي ينصرف بكل إنفاقه نحو الخمر غير آبه لما يتطلبه العيش من رداء ومسكن وخبز وماء ؛ وموضع الجنون هنا هو في النظر بعين الدودة المنكفئة بوجهها نحو الأرض فلا ترى أبعد من مليمترين أو ثلاثة ، فتفوتها الدنيا الواسعة العريضة من حولها .

و « العاقل » في نظرته إلى الأمور نظرة الطائر ، يضيف المستقبل إلى الحاضر في اعتباره ، وكلما ارتفع الطائر الرائي ازداد الطول الزمني الذي يقع له في مجال رؤيته ، واتسعت أمامه رقعة المستقبل الذي لابد أن يدخله في حسابه وهو يقضي في شئونه بهذا القرار أو ذاك ؛ ومن هنا قيل إن الموازنة بين الرغبات عند إشباعها وتفضيل بعضها على بعض ، تحسب حساب اللذة إلى جانب حسابها للحدة ؛ فقد تكون الرغبة الآن حادة شديدة ملحة تناديك بإشباعها إشباعاً سريعاً ، لكن أثر إشباعها لن يدوم معك إلا لحظة قصيرة ثم يمضي ، بل قد تترك وراءها من النتائج ما يسبب آلاماً أضعاف أضعاف اللذة التي نجمت عن إشباعها ، فمثل هذه الرغبة — عند « العاقل » — يجب أن تفسح الطريق لرغبة أخرى أطول منها أمداً في بقاء الأثر وإن تكن أقل منها حدة وإلحاحاً في اللحظة الراهنة .

وكذلك الأمر في الدولة وسياستها ؛ فقد توصف الدولة بأنها بعيدة المدى في سياستها أو قصيرة المدى ، والفرق بين الحالتين هو الفرق بين نظرة الطائر ونظرة الدودة : الدولة في الحالة الأولى توسع من نطاق الرؤية حتى لتضع مئات السنين المقبلة في اعتبارها وحسابها ، وهي في الحالة الثانية تضع أنفها على الرغام وتنظر ، فإذا اللحظة الراهنة ومقتضياتها هي كل ما هنالك ، وأنا أترك للقارئ أن يحكم لنفسه بأي النظرتين تنظر الدولة في بلادنا : أهي من قبيل ما ينظر الطير أم من قبيل ما ينظر الدود ؟

وكذلك تتحكم فينا نظرة الدود في علاقتنا بعضنا ببعض ؛ فقد أوصينا برعاية ذوي القربى ورعاية الجار ، ولو سألنا : من هم ذوو القربى ومن هو الجار الذي تجب علينا رعايته ؟ كان الجواب عند الدودة غيره عند الطائر : « القربى » عند الدودة هي « القرب » المكاني الزمني ، فلا قرابة إلا من التصق بجلدك التصاقاً ليدخل في نطاق نظرك الضيق ، وإلا فلو بَعُد قليلاً فلا سبيل إلى رؤيته وإدراكه ، لأن الوجه منكفئ نحو الأرض فلا يرى ؛ وكذلك الجار هو من تمد يدك فتمسه إلى جوارك ؛ لكن الطائر حين يرتفع ويتسع نطاق إدراكه ، تزداد في عينه المسافة من مكان وزمان ، ويصبح « البعيد » في الحقيقة « قريباً » ، فذوو قرباه عندئذ يزداد عددهم ، كما يزداد عدد جيرانه .

إن أصحاب النظرة البدائية الإقليمية المحدودة هم الذين يحسبون القربى محصورة في الأسرة وأفرادها ، ويحسبون الجوار في تلاصق جدران المنازل ؛ وإذا علوت بنظرك ، أصبحت الأمة كلها من ذوي قرباك ، وأصبح الشعب كله جيرانك — ثم إذا ازددت ارتفاعاً حتى تقرب من مواضع الآلهة ، كان ذوو القربى هم الإنسانية كلها ، وكان الجيران هم أفراد البشر جميعاً .

إنه لما يستوقف النظر في هذا الصدد ، أن الفلاسفة الذين كتبوا في الدولة المثلى ، تفاوت في أعينهم الحجم بتفاوت أزمانهم ؛ فأفلاطون يرى الدولة المثلى في « مدينة » واحدة ، لأنه لم يكن يتصور أن التماسك الاجتماعي ممكن إذا اتسعت رقعة البلاد اتساعاً يجاوز بها حدود المدينة ، وهو في ذلك بغير شك صادر عن تفكير عصره السياسي والأخلاقي معاً ، فكأنما الإنسان عنده قد ضاق به الخيال حتى ليعجز عن مؤاخاة إنسان آخر في مدينة أخرى ؛ وجاء « توماس مور » في عصر النهضة الأوربية فكتب في الدولة المثلى ، وجعلها جزيرة لا مدينة ، لأن الأفق الإنساني كان قد اتسع بعض الشيء ؛ ثم جاء بعد ذلك من الكتاب الأوربيين — مثل أوجست كونت وصموئيل بتلر — من جعل الدولة المثلى هي أوربا جميعاً بعد أن تتحد دولها كلها في دولة واحدة ؛ وهي دعوة شبيهة بما يدعو إليه فريق من ساسة هذا العصر ؛ وأخيراً جاء « ولز » وكتب كتاباً في الدولة المثلى يجعل حدودها الكرة الأرضية بأسرها — وهكذا ترى الطائر يزداد ارتفاعاً على مر الزمن ، فيزداد أفقه اتساعاً .

أعتقد أننا نصيب إذا قلنا إن نظرة الطائر علامة من علامات التقدم والرقي ، ونظرة الدودة دليل على التأخر والبدائية .

ترى في أي مرحلة نحن من مراحل الطريق ؟ .

زكي نجيب محمود

رغيف العيش

أو

ميزانية الأسرة

في هـذا المقال بحث علمي إحصائي قامت به هيئة جامعية ، وهو ينتهي إلى نتيجة هامة ، هي أن سعر الرغيف الشعبي ينبغي أن يظل كما هو ، مع إنتاج رغيف أنظف بسعر أعلى .

« الهلال »

للدكتور حسن محمد حسين

يكاد كلام الناس لاينقطع في وقت من الأوقات عن رغيف العيش . لكنه في هذه الأيام زاد بنسبة ملحوظة . فالحكومة تقترح زيادة سعره لتخفيض نفقات خفض سعره التي تقوم الحكومة به وتكاد تنوء بأعبائه . والبرلمان يناقش ويوازن ويفاضل ، وهو حائر بين الموافقة فيرتفع السعر وعدم الموافقة فيبقى على ما هو عليه . والشعب بين هذا وذاك منتظر مترقب . ونحن هنا نورد بهذه المناسبة تقريراً وضعته أخيراً جمعية الأبحاث الإحصائية بكلية التجارة التابعة لجامعة فؤاد الأول عن بحث قامت به بإشراف كاتب هـذا المقال عن ميزانية الأسرة المصرية بالقاهرة عام ١٩٥١ . وهاك نص التقرير :

الغرض من البحث :

لدراسة ميزانية الأسرة عادة غرضان أساسيان :

١ — قياس مستوى معيشة الشعب أو الطبقة المعينة منه موضوع البحث . لأنها تعطينا بياناً عن أنواع الأشياء التي تستهلكها الأسرة وكمياتها في وحدة الزمن .

٢ — المساعدة على إنشاء رقم قياسي لنفقة المعيشة . فبواسطتها نحصل على الأوزان المختلفة اللازمة لترجيح أسعار الأشياء الداخلة في تكوين هذا الرقم تبعاً لأهمية كل منها كوجه من أوجه الإنفاق .

الاستعداد للبحث :

قام أعضاء الجمعية وعددهم مائة ببحث تمهيدي في شهر ديسمبر ١٩٥٠ استخدم فيه كل منهم كشفين لجمع البيانات من أسرتين عن مصروفاتهما في يومين معينين متتاليين في منتصف الشهر . وتركت في هذه الكشوف أوجه الإنفاق غير محددة . وكان على الباحث أو رب الأسرة وضع بيان عن كل إنفاق قام به في هذين اليومين .

استفاد الأعضاء من هذا البحث اكتساب خبرة في معاملة الأفراد ومواجهة الصعوبات المختلفة ومحاولة التغلب عليها . كما أمكن نتيجة لذلك تحديد أبواب الإنفاق الهامة . ووجد أن الأفضل تقسيم أوجه الإنفاق إلى مجموعات واسعة كل مجموعة منها متجانسة فيما بينها ، على أن تشمل المجموعات جميع أوجه الإنفاق بقدر المستطاع . وقد لجأت الجمعية إلى هذا النظام لتسهيل عملية ملء الاستمارات ثم تفريغها .

وقد طبعت بعد ذلك كراسات على هذا النمط ، تشمل كل منها ثلاثين كشفاً يومياً للإنفاق ، أضيف إليها كشف آخر للتخزين والمصروفات المنتظمة على فترات أطول من شهر ، مثل كسوة الشتاء وكسوة الصيف ، وأقساط التأمين والاشتراكات في جمعيات الادخار ، وأقساط تسديد الديون وما شاكلها . كما صدرت الكراسة بجدول للدخل ذي قسمين : أولهما لتسجيل كل ما يحصل عليه رب الأسرة خلال فترة البحث ، والآخر لكل دخل إضافي آخر ينتظر الحصول عليه خلال العام ، مثل إيجار منزل يملكه أو استحقاق في وقف أو مكافأة سنوية يحصل عليها من العمل أو ما شاكلها .

نطاق البحث :

تخيرت الجمعية لبحثها الطبقة التي ينحصر دخلها الشهري بين خمسة جنيهات وخمسة وعشرين جنيها ، لاعتقادها أن هذه الطبقة هي التي تكوّن أغلبية سكان القاهرة في الوقت الحالي ، كما أنها أكثر الطبقات حساسية بأي تقلبات في الأحوال والأسعار . وعنيت الجمعية في بحثها أكبر عناية بجعل هذه العينة شاملة ممثلة من جميع النواحي بقدر الاستطاعة . فراعت الحصول على عائلات من جميع أحياء القاهرة ، وأن تكون جميع فئات الدخل في الحدود السابق ذكرها موزعة توزيعاً ممثلا ، وأن يكون توزيع العائلات معقولاً من حيث الأنواع المختلفة لمهنة رب الأسرة ، كما أن تكون محتوية على عائلات تشغل مساكن من درجات مختلفة .

ثم حددت الجمعية الشهر الواقع بين ٢٠ يناير ١٩٥١ ، ١٨ فبراير لجمع البيانات . ولوحظ في هذا الاختيار أن هذه الفترة كانت خالية من الأعياد والمواسم وأنها لا تبدأ بأول شهر ولا منتصف شهر ، وهي الأيام التي يغلب فيها استيلاء الموظف أو العامل على مرتبه أو أجره . كما أنها تحتوي في خلالها على مثل هذه الأيام .

جمع البيانات :

قام بجمع البيانات في هذه الكراسات حوالي ٨٥ عضواً من أعضاء الجمعية عن حوالي ١٣٠٠ أسرة منتقاة بحيث تفي بشرطين : أولهما أن تكوّن عينة ممثلة بقدر الإمكان ، والثاني أن يكون أربابها من النوع الذي يهتم بالتعاون في بحث علمي كهذا وبقدر الأمانة والدقة فيه .

وبعد جمع هذه الكراسات وجد أنه من الممكن الاعتماد على البيانات الواردة في حوالي ألف منها . وإلى الآن لم يتم تبويب البيانات الواردة بهذه الكراسات جميعها للحصول على نتائج نهائية ورؤى أخذ عينة منها للوصول إلى نتائج أولية .

تركيب العينة :

كانت العينة حوالي سدس العدد الكلي للعائلات ، وكان متوسط عدد أفراد العائلة منها يتراوح بين أربعة وخمسة . وقد روعي في اختيار هذه العينة أن تكون عشوائية ممثلة كما يلي :—

(١) إذ كانت موزعة توزيعاً مناسباً على أحياء القاهرة المختلفة .

(٢) وكان توزيع أربابها على المهن المختلفة كما يلي :—

٣٨ ٪ موظفو حكومة و ٣٠ ٪ عمال فنيون
١٠ ٪ عمال غير فنيين و ١٠ ٪ موظفو شركات
٨ ٪ المهن الحرة و ٤ ٪ بأعمال أخرى مختلفة

(٣) أما من ناحية الدخل الشهري للأسرة فكان التوزيع كالآتي :—

١٣ ٪ من ٥ جـ.م . إلى أقل من ١٠ جـ.م .
٢٢ ٪ من ١٠ جـ.م . إلى أقل من ١٥ جـ.م .
٢٥ ٪ من ١٥ جـ.م . إلى أقل من ٢٠ جـ.م .
٤٠ ٪ من ٢٠ جـ.م . إلى أقل من ٢٥ جـ.م .

(٤) وكان توزيعها بالنسبة لدرجة السكن كالآتي :—

١٦ ٪ ملاك لا يدفعون إيجاراً
٣٣ ٪ يدفعون إيجاراً أقل من ٢ جـ.م .
٣٦ ٪ يدفعون إيجاراً من ٢ جـ.م . إلى أقل من ٤ جـ.م .
١١ ٪ يدفعون إيجاراً من ٤ جـ.م . إلى أقل من ٦ جـ.م .
٣ ٪ يدفعون إيجاراً من ٦ جـ.م . إلى أقل من ٨ جـ.م .
١ ٪ يدفعون إيجاراً من ٨ جـ.م . إلى أقل من ١٠ جـ.م .

النتائج الأولية :

وجد من هذه العينة أن توزيع المصروف الشهري الكلي على أوجه الإنفاق المختلفة كان في المتوسط كالآتي :—

٤٥ ٪ للغذاء و ١٣ ٪ للكساء
١٦ ٪ للسكن
١٧ ٪ للمصروفات المنزلية الأخرى والعلاجية
٦ ٪ للمواصلات والسينما و ٣ ٪ للمصروفات الأخرى

● ● ●

هذا التقرير كما ترى مجرد سرد لمنهج البحث وطرق إجرائه وما نتج منه . ولكنه خال من أي استنتاج أو تعليق . وقد ترك هذا عمداً لكي يستنتج منه من يشاء ما يريد .

ويلاحظ أن نسبة المنفق على الغذاء ٤٥ من الإنفاق الكلي . هذا هو المتوسط بالنسبة لجميع العائلات بالعينة ، وتتراوح دخولها الشهرية بين خمسة جنيهات وخمسة وعشرين

جنيها . ولما كان المعروف أنه كلما نقص الإنفاق الكلى زادت نسبة المنفق منه على الضروريات وفى مقدمتها الغذاء ، فإن العائلات التى ينقص مجمل إنفاقها من المتوسط تزيد نسبة ما تنفقه على الغذاء عن ٤٥ ٪ . أى أن العائلات الفقيرة تصرف معظم دخلها على الغذاء ، فتتأثر أكثر من غيرها بارتفاع أسعار المواد الغذائية . وقد وجد فى هذه العينة أن نسبة الإنفاق على الخبز وحده حوالى ٢٥ ٪ فى المتوسط ترتفع إلى أكثر من ذلك كلما قل الإنفاق الكلى للعائلة عن المتوسط . ومعنى ذلك أن الأسرة التى تنفق عشرين جنيها فى الشهر تصرف من هذا المبلغ على الخبز وحده حوالى خمسة جنيهات فى المتوسط ، فإذا ارتفع سعر الرغيف من خمسة مليمات إلى ستة فإن مجمل المنفق على الخبز شهرياً يرتفع من خمسة جنيهات إلى ستة ، أى يرتفع بمقدار جنيه . ولما كانت العائلات فى هذا المستوى لا تكاد توفر شيئاً من دخلها — إن لم تكن تستدين لتسد نفقاتها — فلا بد من أنها تقتطع هذا الجنيه من النفقات على البنود الأخرى . ويلاحظ أن مصروفات هذه العائلات تكاد تنحصر كلها فى ضروريات الحياة ، فليس لديهم فائض يسمح بالإنفاق على كماليات بالمرة ؛ ومعنى ذلك أن توفر العائلة هذا الجنيه من أبواب الغذاء الأخرى كالخضر والفواكه واللحوم التى لا تكاد فعلا تحصل على ما يكفيها منها ، فما بالك إذا اضطرت إلى تخفيض النفقات على هذه الأشياء بمقدار جنيه شهرياً أى حوالى ربع المنفق فعلاً .

هذه الاعتراضات قد تجعلنا نميل إلى تحبيذ الرأى القائل بقاء سعر الرغيف الشعبى على ما هو عليه ، مع إنتاج رغيف أنظف بسعر أعلى بكثير حوالى عشرة مليمات مثلاً للطبقات المقتدرة . هذا الرأى فى الواقع وجيه جداً إذا أمكن للحكومة أن تحكم التنفيذ فتطمئن إلى عدم تكالب القادر وغير القادر على الرغيف الرخيص ، فيبقى الحال كما هو دون أن تستطيع الحكومة أن توفر شيئاً من مصروفاتها الكثيرة .

وقد تكون هناك حلول أخرى أقوم من هذا وذلك ، بها تستطيع الحكومة توفير بعض نفقاتها دون إرهاق لسواد الشعب . منها رفع سكر الطوارئ وزيت الطوارئ بنسبة محسوسة أكثر مما فعلت من قريب . فما زالت هذه المواد تباع فى السوق السوداء بأسعار باهظة ، فلو أن الحكومة وفرتها فى السوق بأسعار تقل قليلاً عنها فى السوق السوداء لقضت على هذه السوق واقتسمت هى المكاسب بدلاً من تجار هذه السوق . ومنها التشجيع وفرض ضرائب تصاعدية . ومنها ومنها مما لا يخفى على الاقتصاديين الأفاضل من رجال الحكومة والبرلمان . وفقهم الله جميعاً إلى ما ينفع هذا الوطن العزيز .

الدكتور

حسن محمد حسين

أسراء المادة . .

[إلى الذين أعماهم بريق الذهب عن المعانى الانسانية وقتل فى نفوسهم الرحمة والشفقة على البشر أمثالهم .. إليهم فى قصورهم ورياشهم ومجالسهم المادية التى يرونها كل شىء ..]

يا من تعيش على الوجـــود .. بشرة التكالب
فتراه .. لمعة درهم .. وثراء .. نهزة ناهب
وترى التســـاهل والتفاوت سقطات الكاذب
فمكثت تلتهب النضار بناجــذ .. ومخالب
لا أنت تشبع أو تخفف من مجـــاعة ساغب
كالنار تلتهم الذى تلقيه .. كف الحـــاطب
ويكاد يأكل راحتيه .. لظى اللهيب الواصب
أعميت نفســـك فاندفعت وراء ومض خارب
وطمست فيـــك الآدمية .. بالتراب الذاهب
الزهو عندك باقة ستكون بغية طـــالب
والكأس .. تأمل أن تباع سلافها الشارب
والحسن .. عندك فى الحل لاقى ابتسامة كاعب
وإذا عبثت . فالثرى .. والمال .. أزلى راهب
وصلاتك الكلم المنمق وهو خدعة ذاهب
أنضم مال المعسرين لمالك .. التـــواكب
وتعود تضحك ظافراً شدقيك ضحكة ســالب
كل المعـــانى تستحيل لديك سلعة كاسب
لم ترع حرمة والد أو ترع حرمة صـــاحب
هذا ضـــلال ما علمت .. فقد بصفقة خائب
سترى ازدراءك فى الحيـــاة بأعين وحواجب
وغداً ستندم إذ تحـــل عليك نقمة غاضب

كيلانى حسن سند

البطولة ، وقد يظل يناضل بطريق الإقناع المنطقي والحجج المعقولة ، فإذا اتبع هذا الأسلوب أمنت الديمقراطية جانبه ، وعرفت على مدى الأيام مكانته ، واحترمت آراءه ، وقدرت إخلاصه ! ولكن البطل قد يحرص على النجاح السريع ، والشهرة العاجلة ، فيعمد إلى الأساليب الملتوية لنيل ثقة الجماعات ، ولا يعف عن الدجل والتهريج وتملق الغرائز الوضيعة والأهواء السفة ، وقد يظفر بعد ذلك بثقة الأغلبية ، ولكن بعد أن يفسد على الديمقراطية أمورها ، وينزل بمستواها ، ويثير الشكوك حول قيمها ومعاييرها .

ولقد قدرتُ حتى الآن أن وجهة نظر البطل قد لا تقبلها الأغلبية في ضوء المناقشة الحرة والبحث الخالص النزيه ، وأنها إذا قبلت والبحث فإنما يكون ذلك عن طريق المخادعة والدجل والتضليل ! ولكن لنفرض أن الأغلبية قد اقتنعت بآراء البطل ، واستبان لها ما تنطوي عليه هذه الآراء من أصالة وتجربة ناضجة ووصول إلى الجوهر واللباب ونفاذ إلى كبد الصواب ، فإن البطل بعد ذلك كله قد يرى أن تنفيذ آرائه لا يكفي فيه الاقتناع ، ولا يحتمل الانتظار ، وهو واثق من أن آراءه لخير المجتمع ، وقد يغريه ذلك بأن يرغم المجتمع على قبولها ، ويحمله على تنفيذها في أقرب فرصة وأسرع وقت ممكن ، وقد يرى أن المعارضة لآرائه — حتى ولو كانت حسنة القصد — ضرب من الخيانة وإهدار للمصلحة العامة ، وهو في الوقت نفسه يعلم أن النجاح يجعل الأمة تغتفر له الكثير .

ولكن هل الإبطاء في التنفيذ خليقة من خلائق الديمقراطية التي لا يمكن علاجها والعدول عنها ؟ كلا ! فإن في وسع الديمقراطية في المواقف الحاسمة الخطيرة أن تتقي عواقب التأخير وضرر الإبطاء ، بأن تمنح الزعيم الذي تثق به سلطة واسعة مؤقتة ، وهذه السلطة الواسعة المؤقتة لا تمحو بطبيعة الحال خطرَ الإبطاء محواً تاماً ، ولكن الديمقراطية إذا تنازلت عن سلطانها تنازلاً غير محدود لفرد من الأفراد ولأي اعتبار من الاعتبارات تفقد صفاتها الأصيلة ومزاياها الكبيرة ! وحقيقة أن منح الأبطال سلطات واسعة في الأزمات الحازبة من الأمور الواجبة ، ولكن الصعوبة كامنة في تقدير الموقف الذي يجب فيه التفويض التام ومنح السلطة الكاملة ، وهذه الناحية من غير شك من النواحي الشائكة الدقيقة في النظم الديمقراطية .

والبطل يطالب دائماً نفوذاً أوسع ، ويطمع في نيل سلطان لا حد له ، ومن الطبيعي لكيانه ووظيفته وما يحسبه من واجباته أن يطالب بذلك ، وهو في الوقت نفسه لا يتنازل عن السلطة الواسعة الممنوحة له بسهولة وطيبة نفس وحسن التخلي ، ويخيل إليَّ أنه من السذاجة أن نتصور أن الناس يسلكون غير هذا السلوك ، فإن السلطة الواسعة كما أكد لنا اللورد أكتون مفسدة ، والرجل الذي تسخو نفسه بالنزول عن السلطة لا بد أن يكون فيه عنصر من عناصر القداسة والنبل النادرين ! وفي الأوقات القلقة الخطرة لا يمكن الحكومة الديمقراطية أن تستدفع الشر وتأمن الخطر إذا لم تتحسّب لذاتها بالنفوذ الواسع ، ولكن ما تمنحه في تردد وحذر عليها أن تسترده في حرص واهتمام في الوقت المناسب ، والمشكلة هنا هي تحديد الوقت المناسب ، فليس من المنتظر أن تتفق الجماعة مع البطل في يسر وسهولة على تحديد هذا الوقت !

وليس في وسع الديمقراطية أن تثق الثقة كلها من أن البطل الذي تزوده بالسلطة الواسعة لا يسيء استعمالها ، أو لا يسرف في الاستمساك بها والحرص عليها حتى بعد انتهاء الظروف القاسية التي استوجبت منحه هذه السلطة ، ولكن الديمقراطية لا تتأخر عن ذلك في المواقف العصيبة والأزمات الجائحة التي تحتاج إلى البت السريع والأعمال الحاسمة والتنفيذ العاجل ! وقد لا يكون هناك دليل على أن السلطة الممنوحة قد أسيء استعمالها ، ولكن الديمقراطية ستكون ديمقراطية عزلاء مستضعفة مفرطة قصيرة النظر إذا لم تبادر إلى سحب هذه السلطة بعد انتهاء الأزمة ومرور العاصفة .

على أن الديمقراطية لا تستهدف للخطر من ناحية الأبطال وحدهم على شدة حاجتها إليهم ، فهي مهددة بالخطر من ناحية أفرادها الذين لا يؤمنون بها إيماناً صحيحاً تاماً ، ويحرصون على امتيازاتهم ومصالحهم أكثر من حرصهم على مبادئ الديمقراطية ومثلها العليا ! وأفراد هذه الطبقة قد ينزلون عن حرياتهم للبطل ، ويتنكرون للديمقراطية حرصاً على مصالحهم الخاصة ! ومن الأمثلة على ذلك الطبقات المحافظة في إيطاليا وألمانيا قبل الحرب الكبرى الأخيرة ، فقد سلموا قيادتهم لأمثال هتلر وموسوليني رعاية لمصالحهم ، وصوناً لامتيازاتهم التي ظفروا بها في ظل الديمقراطية ، وماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة أنهم فقدوا حرياتهم وخسروا مصالحهم !

وما يسمى في الديمقراطية الحقة من ناحية معاملتها

للأبطال والرجال البارزين « نكران الجميل » هو في الواقع لون من ألوان بعد النظر وحسن التقدير . والديمقراطية الرشيدة تقدر الأبطال وتحرص على الانتفاع بهم ، ولكنها لا تبالغ في تمجيدهم وإكبارهم . ولا تخلق منهم آلهة لتعبدهم ، ولا تصنع منهم أصناماً لتقدسهم . وأكبر دواعي احترامهم في نظرها أنهم لم يستجيبوا لإغراء حب السلطة والولع بالسيطرة ، وأنهم انسحبوا من الميدان بعد أن قاموا بواجبهم ، ورأت أمتهم أن عملهم قد تم ، وأن الظروف لا تستلزم إبقاء مقاليد الأمور في أيديهم .

على أن الأبطال في نظر الديمقراطية ليسوا وحدهم الرجال الذين يصنعون التاريخ ، ويزلزلون الأرض ويقرعون الأسماع . والبطولة في ظلال الديمقراطية تشمل العاملين في محراب الفكر ، وميدان العلم ، ومجال الأدب والفن ، والمصلحين الاجتماعيين ، لأن هؤلاء هم الذين يصوغون مثلها العليا الفكرية ، ويرفعون مستواها الاجتماعي ، ويوسعون دائرة معلوماتها وتجاربها ، ويهذبون أحاسيسها ومشاعرها . والمحافظة على الأصول الديمقراطية تستلزم جودة الفهم ، وحسن الإدراك ، وتهذيب الذوق ، وإرهاف الحس ، لتستطيع الأكثرية أن تحسن الاختيار ، وتفرق بين النافع والضار ، ولا يخدعها بريق الألفاظ وزائف الأقوال ، ولا تجوز عندها الحجج الواهية والأوهام الملفقة ، والوعود الكاذبة . والأمة الديمقراطية تكرم ساستها وتقدر زعماءها ، ولكنها لا تنسى من أجلهم فضل أساتذتها من المصلحين والعلماء والفلاسفة والكتاب والشعراء ، فهم الذين يوسعون آفاقها ويحددون مطارح أفكارها ويصححون مقاييسها وأساليب معرفتها ، فهي لا تضعهم في منزلة دون منزلة القادة والزعماء ، بل قد تسمو بهم إلى منزلة أعلى ، وترتفع بهم إلى مكانة أسمى .

ومن مزايا الديمقراطية الجديرة بالتنويه والإشادة أنها تحطم الحواجز الكثيرة البغضاء ، والحدود القائمة بين الأبطال وبين الناس العاديين ؛ وذلك لأن الديمقراطية تفسر البطولة تفسيراً جديداً ، فهي لا ترى البطولة مقصورة على هذا العدد القليل النادر من الناس الذين تسميهم الأبطال ، وترفض الفكرة الارستقراطية القائمة على احتقار الأكثرية والاعتقاد بأن المواهب مقصورة على الأقلية . وترى الديمقراطية أن المواهب الإنسانية كثيرة التنوع ، مختلفة الألوان ، وأن في كل إنسان جرثومة البطل ، لأن له من المواهب والاستعدادات والقدرات ما يمكن الاستفادة منه لو عرف المجتمع كيف ينمي هذه المواهب ، وينمي هذه الاستعدادات ، ويشجع هذه القدرات ، ويفسح لها المجال ، ويهيئ لها الجو . ويمكن الاستكثار من الأبطال الممتازين والنوابغ المعدودين بتوسيع الفرص الاجتماعية ، وتعميم التعليم على اختلاف أنواعه ، ومحاولة استغلال كل موهبة ، والانتفاع بكل كفاية ؛ والتقصير في إتاحة الفرص الاجتماعية هو الذي جعل التفوق في الماضي مقصوراً على نوع خاص من المواهب والملكات ، وأضاع الفرصة على طرز متنوعة من المواهب والقدرات لم يكن الوسط الاجتماعي والأحوال السائدة والملابسات الغالبة تسمح لها بالتفتح والازدهار وبلوغ أقصى مداها من النماء ؛ ولما كان يبدو على الدوام أن هناك قلة قليلة متفوقة وأغلبية كبيرة تافهة سخيفة متخلفة عاجزة ؛ وحينما تفسح الفرص الاجتماعية المجال لمختلف المواهب ومتنوع البراعات سيتضح أنه من الضيق والتعصب وأفن الرأي أن تقصر العظمة والبطولة على هؤلاء الأبطال الذين لم يصلوا إلى المجد إلا على الدماء والأشلاء أو بالدسائس والمكايد . فشعار الديمقراطية أن كل إنسان بطل ، وأن واجب المجتمع أن يكشف عن هذه البطولة ، ويمكنها من الظهور ؛ وأنصار مذهب البطولة في التاريخ مثل كارلايل ونيتشه وأضرابهما يحتقرون الجماعات ، ولا يؤمنون بالديمقراطية ؛ وقد كان كارلايل ينكر قيمة المجالس النيابية ، ويسخر مما يدور بها من مناقشات ، ويعجب بالحكام المطلقين من أمثال كرومويل وفردريك الأكبر . وكان نيتشه يرى الديمقراطية مرة من ثمرات التدهور والانحطاط . وقد رأى أنصار الفكرة الديمقراطية أن يقوموا من ناحيتهم بحملة ترمي إلى الزراية بالأبطال وانتقاص قيمتهم ورد كل شيء إلى حركة الجماعات ووحيها الملهم . ولكني أرى أن الديمقراطية الحقة لا تنتقص الأبطال ، ولا تحاول الغض منهم ، وإنما تعمل على الانتفاع بمواهبهم ، وتستكثر من أمثالهم في نواحي الحياة المختلفة بتوسيع نطاق التعليم وإتاحة الفرص الملائمة للمواهب المختلفة لتصبح الديمقراطية لفظاً له معناه ، ونظاماً له ما يسنده وما يسوغه .

علي أدهم

رســــائل من المغرب

الرسالة الثالثة

طنجة فى ... سنة ١٩٥١

أخى راتب .

تستطيع أن تفد إلينا بطريق البر أو البحر أو الهواء . والعادة أن يذهب القادمون من الشرق أولاً إلى جبل طارق ، ومنه يعبرون إلى طنجة فى سفينة تجارية تسافر يومياً وتقطع المسافة فى ثلاث ساعات تقريباً ، أو يستقلون الطائرة . ولك أن تذهب إلى إسبانيا أولاً ، ومنها إلى طنجة . ثم ترسو فى طنجة بعض السفن التجارية الوافدة من الشرق ، ولكن لا يوجد خط بحرى منتظم للركاب بيننا وبين البلاد العربية . فلا بد إذاً للقادم من أى بلد عربى أن يذهب أولاً إلى أوربا ومنها إلى مراكش . فانظر إلى أى حد صار التواصل بيننا !.

ولا تحتاج إلى تصريح لدخول طنجة ، وإن كان البوليس يطلب إليك أن تعطيه بيانات مفصلة عن أسباب قدومك ، ومدة الإقامة ، وعنوانك .. الخ ! ذلك لأنك من رعايا إحدى الدول غير المشتركة فى إدارة المدينة . ولدخول المنطقة الخليفية أو السلطانية تحتاج إلى تصريح (Visa) من القنصلية الإسبانية للأولى والفرنسية للثانية . وقد كان من الصعب على المصرى — وغيره من أبناء العرب — الحصول على تصريح إسبانى لدخول المنطقة الخليفية ، غير أن العلاقات الودية التى نشأت أخيراً بين مصر وإسبانيا جعلت قناصل إسبانيا يراعون جانب المجاملة بمنحهم المصريين تصريحاً لدخول المنطقة الخليفية ، وإن كان ذلك لا يتفق والسياسة العامة التى تعمل على قطع الصلات بين سكان المنطقة والعالم العربى . أما الحصول على التصريح الفرنسى لدخول المنطقة السلطانية فهذا من أعقد المسائل . ففرنسا لا تحب العرب ولا سيما المصريين . فقد خسرت نفوذها فى سوريا ، واحتضنت مصر الأمير عبد الكريم وصحبه على حين غفلة منها . ولا زالت مصر مأوى الوطنيين المراكشيين وغيرهم . وهى مركز الجامعة العربية . والصحف المصرية — وهى قادة الصحف العربية — لا تفتأ تهاجم الاستعمار الفرنسى فى شمالى إفريقيا . والحركة الوطنية فى مصر وباء خطير تنتقل عدواه بطريق الاتصال أو اللمس . فلذلك وضع الاستعمار الفرنسى سياسته على أساس الحيلولة بين الزائرين العرب ودخولهم بلاد شمالى إفريقيا .

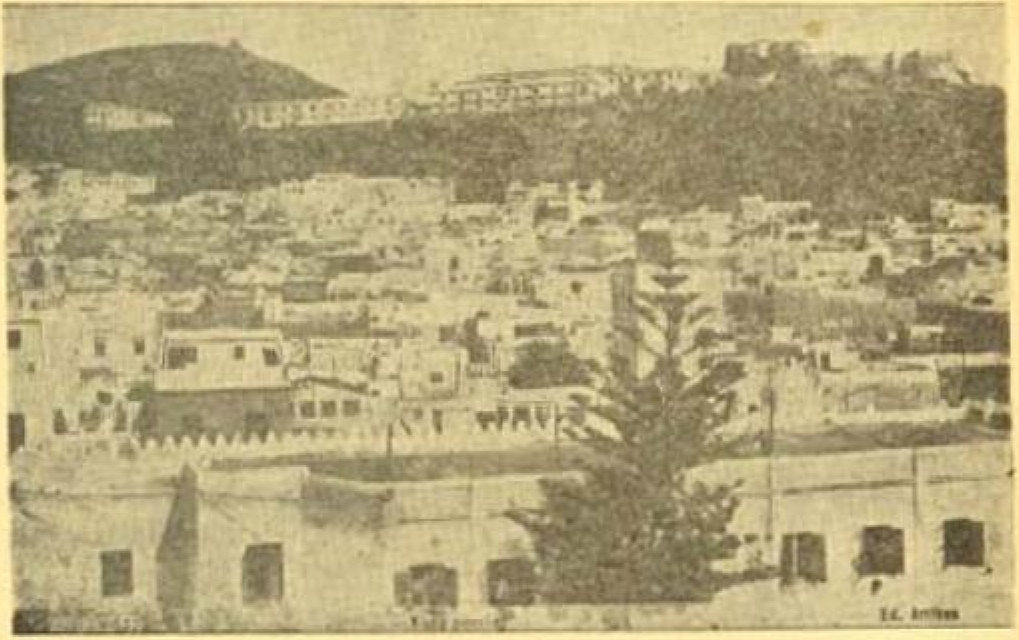
ولعلك تعرف أن مصر حاولت إنشاء قنصلية لها فى شمالى إفريقيا — تونس — فرفضت ذلك فرنسا . وقبلت أخيراً أمام التهديد ، على أن يكون مقر القنصل فى مرسيليا . وواضح أنها لا تريد أن يقف العالم العربى على ما يجرى فى داخل شمالى إفريقيا من فظائع الاستعمار . على أنه من الإنصاف أن أسجل هنا أن فرنسا تبيح لعنصر خاص من أهل البلاد العربية أن يدخل شمالى إفريقيا ، لا بل وترحب بهذا العنصر وتمنحه الوظائف ، وتسخو معه فى الأجر . ويؤسفنى أن أقول لك إن هذا العنصر الذى ينتمى إلى العرب بحكم موطنه ومولده ولغته خطر علينا كل الخطر . وقد أضر بنا فى الماضى ، ولا يزال يؤذينا فى الحاضر . وهذا العنصر يستخدمه الفرنسيون فى الجلوك والبوليس السرى ، والدعاية والرقابة ، والتجسس علينا نحن المستعمرين . ذلك لأنه يجيد العربية والفرنسية ويتصل بنا بسهولة ، ويندس فينا ويتقرب إلينا باسم العربية ، ثم ينقل إلى المستعمر الأخبار والشبهات . وكم معتقلين ومضطهدين هم ضحايا هذا العنصر الدخيل . ومنه عدد الآن فى المنطقة الخليفية أيضاً وفى الجزائر وتونس . ولقد قاست مصر أثناء الاحتلال البريطانى ، شر هذا العنصر المأجور .

فالتصريح الفرنسى بدخول مراكش إذاً يعد معجزة من المعجزات . ثم قد يُسمح لبعض الهيئات غير السياسية بالدخول ، كما سمح فى العام الماضى لبعض أعضاء الجمعية الملكية الزراعية ، ولفرقة التمثيل القومية ، ولكن هذا

من باب ذر الرماد ، والمجاملة الدبلوماسية . ولا أذيع سراً إذا قلت إن هذه الهيئات تكون دائماً تحت الرقابة السرية ، ولا يسمح لها إلا بزيارات معينة في حدود موضوعة ، ويطلب إلى بعض الشخصيات في البلاد عدم مقابلتها ، أو التغيب عن الأماكن التي تزورها .

وهب أنك تمكنت من الحصول على التصريح الإسباني لدخول المنطقة الخليفية ، إنك بعد وصولك إلى طنجة ستسافر بالسيارة نحو ثلاث ساعات حتى تصل إلى مدينة تطوان العاصمة .

استبقاء جيش احتلال قوي ، لاسيما الآن ، أن نشاط الحركات القومية في البلاد المراكشية وأن يقظة البلاد العربية بما في ذلك بلاد شمالي إفريقيا . وسبب ثالث هو أن حكومة الحماية في المنطقة الخليفية حكومة عسكرية والقانون القائم قانون الأحكام العرفية . ولذلك تجد معظم الموظفين المدنيين يعمل معهم موظفون عسكريون في الجمارك والبنوك والسكك الحديدية إلخ . أما الضعفاء العزل سكان المنطقة الخليفية الذين لا تزيد عددهم عن عدد سكان القاهرة فليس لديهم



(مدينة تطوان) عاصمة المنطقة الخليفية بمراكش

وسوف تلاحظ على طول الطريق ظاهرة غريبة ، هي انتشار الجنود الإسبانيين وكثرتهم ، حتى لترى معسكراتهم فوق الهضاب ، وفي منحنيات الطرق ، وفي الغابات . ولذلك أسباب : منها أن هذه المنطقة الخليفية هي الوكر الذي دبر فيه الجنرال فرانكو حملته وهجومه على أعدائه الشيوعيين في إسبانيا نفسها ، وفيها كان — ولا يزال — أنصاره وزملاؤه . فهو لا يزال يحتفظ برصيد عظيم من الجنود والضباط والذخيرة احتياطاً للطوارئ . ومنها أنه لا بد من

حيلة أو وسيلة إلا الاستسلام وكبت الشعور الحزين .

فإذا وصلت إلى مركز الجمارك عند حدود المنطقة الخليفية فعليك أن تخضع لتفتيش دقيق ، ولا أعني التفتيش عن البضائع المجمركة ، أو النقود التي معك ، أو لاستيفاء الأوراق الرسمية وجواز السفر ، لا بل التفتيش عما تحمل من أوراق مكتوبة أو مطبوعات . فالخطر كل الخطر في أن تحمل كتاباً أو مجلة مطبوعة في إحدى البلاد العربية . ولما كان موظف الجمارك إما إسبانياً أو مواطناً ، يريد أن يرضي رئيسه ،



منظر في الحي الوطني بمدينة تطوان

فإن الطريقة العادية عند العثور على أية مطبوعات معك هي استئصالها والاستيلاء عليها ، إذ ما حاجتك إلى هذه المطبوعات ؟ إن مافي المنطقة من كتب — على قلتها — كاف لأمثالك والعدد القليل من المراكشيين المثقفين ، وليس من المصلحة تشجيع القراءة والمعرفة .

فإذا ما أتيت إلى مدينة تطوان رأيت مدينة جميلة فيها حيان رئيسيان ؟ الحي الأسباني والحي المراكشي ، وخير مقارنة بين الحيين أن أذكر لك حيين في القاهرة : جاردن سيتي ومصر القديمة ، ولعلك تحسب أن الحي المراكشي للمراكشيين وحدهم ، كلا ، فسوف تجد الحي المراكشي عامراً بالأسرات الأسبانية التي تعيش فيه كما نعيش نحن ، على حين لا يسمح لنا بأن نسكن الحي الاسباني .

وسوف تطوف في المدينة وتسأل عن أصحاب الفنادق والمقاهي والمحال التجارية ، والشركات . وأود أن أطمئنك منذ الآن ، إلى أنها أسبانية ، وأن المراكشيين لا يمارسون إلا التجارة المتواضعة كالعطارة والأحذية (البلغ) والأقمشة المحلية والحبوب الخ . ولعلك تدهش حين تعلم أن بعض الحرف يمارسها فيها الأسبان كالحلاقة ومسح الأحذية ، وأن حرفة تخياطة القمصان والملابس الافرنجية لا يعرفها أحد من المراكشيين ، وإنما هي في يد اليهود أو الأسبان .

وعلى ذكر اليهود نحن نسميهم هنا « أهل الملاح » وحيهم يسمى « حي الملاح » ، والغالب أن هذا تحريف من عبارة « أهل الله » وبالرغم من أن الكاثوليك — وجميع الاسبان كاثوليك — يكرهون اليهود الذين قتلوا المسيح في عقيدتهم ، تجدهم يثقون بهم أكثر مما يثقون بنا أهل البلاد .

وسوف تطوف بالمدينة وترى دواوين الحكومة ، ومباني مصلحية ، ومعاهد ، وحمامات للسباحة ، وملاعب للكرة والتنس ، ومدارس فنية ، ولكني أريد أن أطمئنك من الآن إلى أن نصيبنا في جميع هذه المؤسسات قليل جداً ، فجميع الموظفين الكبار ، ومعظم الصغار أسبان ، وإنك لتجد الموظف منهم يملك فندقاً وحانة للخمور ومطعماً ، فإذا ما رجع من عمله في الديوان اشترك مع زوجه أو أخته في إدارة الفندق والحانة والمطعم .

قلت إن نصيبنا من هذه المؤسسات قليل ! فمن ذلك حمامات السباحة وملاعب الكرة والتنس لا تجدها إلا عامرة بالجالية الأسبانية . والمدارس — أيها الأخ — تبنى بأموالنا ، وينفق عليها من أموالنا ويدخلها كل طفل ، أو طفلة أسبانية ، في سن التعليم الابتدائي أو الثانوي . أما نحن فالتعليم يعطى لنا « بالقطارة » قطرة قطرة . المدارس الابتدائية تعد على الأصابع وعدد تلاميذ المدارس جميعها بضعة آلاف ، وليس لدينا إلا مدرسة ثانوية واحدة فيها نحو مائة تلميذ ، وتعليم البنات في حكم المعدوم . ولدينا مدرسة للفنون والصنائع ، ولكن أي الفنون وأي الصنائع ؟ زخرفة الخشب ، وصنع القاشاني ، والجلود ، والأواني النحاسية المنقوشة ، تلك الصناعات القديمة التي ليست لها قيمة تجارية ولا مستقبل في الأسواق . وسوف تجد العامل — المتخرج في هذه المدرسة — يعمل يومين في صناعة صينية من النحاس ثمنها عشرون قرشاً .

هذا وليس في البلاد معهد للتعليم العالي ومن يسعده الحظ

عامر بن الطفيل

لسير تشارلس ليال

ترجمة الأستاذ حسين نصار

ثاني الحادثين المذكورين سابقاً قدوم عامر بن الطفيل على النبي ، عام ٩ فيما يحتمل ، أو ربما عام ١٠ من الهجرة . يقول ابن هشام (٤ : ٢١٣) ، والطبري (١ : ١٧٤٥ — ٧) ، والأغاني (١٥ : ١٣٧) ، وقد أخذوا جميعهم القصة من مصدر واحد ، ورووها بألفاظ واحدة ، يقولون إن وفد بني عامر بن صعصعة قدم على النبي ، وعلى رأسهم عامر ابن الطفيل ، وأربد بن قيس (أخو لبيد لأمه) وجبار ابن سلمى . ويقال إن عامراً كان يريد الغدر بالنبي . فلما حثته قبيلته على الإسلام ، قال : « والله لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي ، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش ! فاتفق مع أربد أن يشغل وجه النبي عنه بالحديث ، فيعلوه أربد بالسيف . فلما قدم عامر على النبي قال : « يا محمد ، خالني » (أي تفرد لي خاليا حتى أتحدث معك بمفردك) . فقال محمد : لا ، والله ، حتى تؤمن بالله وحده » . وجعل عامر يكلم النبي ، وينتظر من أربد ما كان أمره ؛ فجعل أربد لا يحير شيئاً . وأخيراً قال ، بعد أن أبى الرسول أن يمنحه مقابلة خاصة برغم إلحاحه ، — « أما والله ، لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً » . فلما ولى ، قال النبي : « اللهم ! اكفني عامر بن الطفيل » . ولما خرجوا ، قال عامر لأربد : « ويلك يا أربد ، أين ما كنت أوصيتك به ؛ والله ، ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندي على نفسي منك : وايم الله ، لا أخافك بعد اليوم أبداً » . قال أربد : « لا أبا لك ! لا تعجل علي ، والله ما هممت بالذي أمرتني به من أمره إلا دخلت بيني وبين الرجل ، حتى ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟ » وخرجوا راجعين إلى بلادهم . حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه ، فمات في بيت امرأة من بني سلول ؛ فجعل يقول : « يا بني عامر ، أغدة كغدة البكر ، وموتاً في بيت سلولية ! » ودفنه أصحابه هناك ، وقدموا أرض قومهم ، فلما قدموا أتاهم قومهم فقالوا : « ما وراءك يا أربد ؟ » قال :

فيتم التعليم الثانوي ، ويكون ذا مال يستطيع أن يتم تعليمه في أسبانيا . وكم من أهل البلاد يستطيعون هذا ؟ أما الذهاب إلى إحدى البلاد العربية الشرقية لإتمام التعليم بعد الثانوي فقد أثبتت التجربة عدم صلاحيته من الناحية السياسية ؛ ذلك لأن من يعودون من هذه البلاد العربية تكون أفكارهم قد صمت بآراء ومشروعات غير مرغوب فيها ! والطريقة السليمة — بعد التجربة — هي وضع العقبات في سبيل من يرغب في إتمام تعليمه بمصر أو سوريا . ولعلك تعرف أن بيت العرب بالقاهرة أوشك أن يقفل ، لأن من يعود من الطلبة المغاربة إلى بلادهم لا يعين من يحل محلهم .

وثمة مسألة ستلاحظها عندما تكون في المنطقة الخليفية ، تلك هي أن أهل هذه المنطقة لا يسمح لهم بالذهاب إلى طنجة أو المنطقة السلطانية إلا بتصريح . وما أدراك ما التصريح ، ومقدمات التصريح ؟ لا بد من اختبار تحريري طويل ، وملء استمارات ، وتقديم مستندات ، وصور شمسية وبيان أسباب ومسببات ، قبل الحصول على هذا التصريح .

ومن هذا يتضح لك — أيها الأخ الكريم — أن سكان المنطقة الخليفية يعيشون في سجن سياسي وثقافي وعمراني ، يعيشون في حال من الضعف أخشى أن ينطبق عليهم القول :

إن من كان ضعيفاً أكله الأقوياء .

وأكتفي اليوم بهذا القدر . وموعدنا الرسالة القادمة .

أخوك

أبو مروان

« لا شيء والله ، لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن ، فأرميه بنبل هذه حتى أقتله » . فخرج بعد مقالته هذه بيوم أو يومين ، معه جمل له يبيعه ، فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة ، فأحرقتهما .

هذه هي القصة ، كما يرويها ابن إسحاق . ولكن هناك رواية أخرى عن لقاء النبي وعامر بن الطفيل ، ليس فيها ذكر لصحبة أربد له ، ولا تقول شيئاً عن عزم عامر على قتله ، وإنما يقال إن النبي قابله مقابلة ودية ووسده وسادة ودعاه إلى الإسلام . فأجاب عامر إنه يسلم ، على أن له السيادة على البدو ، ولمحمد السيادة على المدن والقرى . فأبى محمد ، فقام عامر مغضباً فولى ، وقال : « لأملأنها عليك خيلاً جرداً ورجالاً مرداً ! » فخرج فأصيب بالطاعون ، كما روينا سابقاً ، ومات في بيت امرأة من سلول .

وهناك رواية أخرى عن موت أربد مختلفة عن الأولى كل الاختلاف ، وتذكر أنه توفي عام ٤ هـ ، بعد رجوع لبيد من وفادته على النبي بأمر من أبي براء . وكما قيل آنفاً ، أقام لبيد في المدينة يقرأ القرآن ، ويقال إنه اكتتب سورة الرحمن ورجع بها . فلقيه أربد فقال له : « يا أخي ، أخبرني عن هذا الرجل : فإنه لم يأته رجل أوثق عندي فيه قولاً منك » . فقال لبيد : « يا أخي ، ما رأيت مثله » . وجعل يذكر صدقه ، وبره ، وحسن حديثه . فقال له : « هل معك من قوله شيء ؟ » قال : « نعم » . فأخرج له سورة الرحمن ، وقرأها عليه . فلما فرغ منها قال له أربد : « لوددت أني ألقى الرحمن بتلك البُرقة ، فإن لم أضربه بسيفي فعليّ وعليّ ! » ونشأت سحابة ، فخرجا يحتالان عن بعيريهما . فلما أدرك أربد بعيره ، غشيته صاعقة فقتلته .

ولا نحوز أية قصة من هذه القصص ثقتنا . ولكننا لدينا شاهد ، في العدد الهائل من المراثي التي قالها لبيد في أخيه غير الشقيق أربد ، الذي كان يحبه حباً جماً ، وهي تنص على أن أربد مات بفعل صاعقة ، وعلى أن لبيداً لم يكن قد أسلم في ذلك الحين . ومن غير المحتمل أن يأسف لبيد، ذو الحس المرهف نحو التدين ، هذا الأسف العميق من أجل أربد ، ويرثيه في هذه القصائد الجليلة الكثيرة ، لو كان أربد شريكاً في مؤامرة للغدر بالنبي ، أو نطق بالعبارة الفاحشة المنسوبة إليه ؛ ويدل عدد هذه القصائد أنها استغرقت فترة كبيرة من الوقت ، ولذلك فالأكثر احتمالاً أن أربد مات قريباً من زمن وفادة لبيد الأولى على النبي بأمر أبي براء ، لا بعد ذلك ببضعة أعوام ، في أثناء العودة من وفاة عامر عام ٩ أو ١٠ هـ . ومن المحقق أن لبيداً كان ميالاً لقبول الدين الجديد ، وسرعان ما أسلم بعد ذلك ، إن لم يكن قد أسلم قبل ذلك . ومن الأمور التي لها دلالتها أنه لم يصل إلينا أي رثاء له في عامر بن الطفيل .

وجملة القول أنه يبدو لي من الجائز حذف خبر عزم عامر على قتل النبي ؛ إذ أنه لا أساس له . ولكن من الممكن أن يكون هدده ، وإن كنا ، بالطبع ، لا نستطيع أن نثق بالروايات المتعارضة التي وصلت إلينا عما جرى بينهما في المقابلة . ومن المحتمل أنه مات حال عودته ؛ ولكننا لسنا على يقين من موته في بني سلول ، كما تشير كلماته الأخيرة (التي سارت مثلاً) فالخبر المروي في الأغاني ١٥ : ١٣٩ ، وفي مقدمة ديواننا (ص ٩١) ، القائل بأن بني عامر نصبت عليه أنصاباً ميلاً في ميل ، حمًى على قبره ، لا تدخله ماشية ، ولا تنشر فيه راعية ولا نَرعى ، ولا يسلكه راكب ولا ماش ، يجعل المرء يفترض أنه مات بين قومه . ويقول أبو عبيدة :

ولم يترك عقباً ، وإن كانت كنيته « أبو علي » تبين أنه أنجب على الأقل ابناً ، ومن الجائز أنه توفي وهو صغير .

وليس لدينا أخبار عن أول شخص جمع أشعار عامر بن الطفيل ، كما هو الحال في شعر عبيد ؛ ومن الجائز أن يكون أبا عمرو الشيباني . ويقال إن ديواننا الحالي من رواية أبي العباس أحمد بن يحيى ، الملقب بثعلب (٢٠٠ — ٢٩١) تلميذ ابن الأعرابي وأحد العلماء المشهورين في النحو على المذهب الكوفي . أما مؤلف الشرح أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (٢٧١ — ٣٢٧ أو ٣٢٨) ، فكان من أشهر تلاميذ ثعلب وعلماء الكوفة أيضاً . وقد اشتهر برواية شرح

أبيه الكبير على « المفضليات » ، وبتأليف « كتاب الأضداد » (تحقيق هوتسما ١٨٨١) ، و « كتاب الزاهر فى معانى كلمات الناس » (مخطوط بكوبرلى ١٢٨٠) . وبعمل أحد الشروح الكبيرة على المعلقات اسمه أيضاً ، وهو موجود فى مخطوط بالقسطنطينية ، وقد نشر الدكتور رشر فى ١٩١٠ شرح معلقة طرفة منه . ولم يُذكر هذا الديوان بالاسم فى قائمة المؤلفات التى تنسبها إليه « معجم ابن خلكان » و « الفهرست » ، ولكن لا يخامرنا الشك فى أنه من تأليفه . فمقدمة وشروح القصيدتين (رقم ١١ و ٢٩) الداخلتين فى « المفضليات » ، تتفق مع شروح ذلك الكتاب الذى يحمل اسم أبيه وتقحه هو نفسه ؛ ويثبت فى ص ١٤١ أن القصيدة رقم ٣٦ مأخوذة من نفس الشرح أيضاً . ولا تعطينا التعليقات أخباراً كاملة عن دلالات القصائد التاريخية ؛ وربما لا يمكن معرفتها الآن فى كثير من الأحوال ، وفى بعض الأحيان تحتوى على أخطاء ظاهرة ، كما فى ص ٩٦ ، ١٣٦ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٩ . وهناك أخطاء ثانية ناتجة عن ضعف الذاكرة ، هى الاستشهاد بأبيات مؤلفة من شطرين مأخوذين من مواضع مختلفة من القصيدة الواحدة ، كما فى ص ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٧ . وعلى الرغم من هذه الأخطاء ، فالشرح له فائدته ، وخاصة فى تصحيح النص . والأصل الذى نُسخت منه مخطوطتنا جيد ، وكان الناسخ أميناً عادة . وقد أشرت إلى كل موضع خرجت فيه عن النص ، فى التعليقات . والأمر هنا يختلف جد الاختلاف عن الجزء الذى يحتوى على ديوان عبيد من المخطوط (وهو بخط الناسخ نفسه دون شك) .

وربما وجدت مجموعات أخرى لشعر عامر . إذ يُذكر البيت الثانى من القصيدة الثامنة ، فى شرح المفضليات ص ٣٣ ، كما فى مخطوطنا ، تصرح تعليقة فى الهامش بأنه فى ديوان عامر : « مثل خشب الرقد » ؛ ولما كانت القصيدة بائية ، فربما دل هذا القول على وجود ديوان فى موضع مما تختلف رواية القصيدة فيه كل الاختلاف . ويبدو أن بعض القطع التى فى الضميمة مأخوذة من أمثال هذه المجموعة المفقودة ؛ فكل الظاهر توحى بصحة رقم ١ ؛ ومن الواضح أن رقم ٢ جزء من القصيدة الثامنة ، ورقم ٤ ، ٥ ، ٦ (مشهورة جداً) ٧ ، ٨ (منه ورقتان فى شرح المفضليات) ١٠ ، ١١ (من شرح المفضليات أيضاً) ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ كلها من الجائز أنها من قول عامر ، وأخذت من مجموعة أخرى لشعره . أما القطع الأخرى فى الضميمة فمشكوك فيها أو من الواضح أنها منحولة . وربما كانت القصيدة الثانية فى الديوان (وهى القصيدة الوحيدة الطويلة) عرضة الشك بسبب إصرارها على هزيمة تميم فى شعب جبلة ؛ فلو كان عامر ولد فى ذلك اليوم ، فمن البعيد أن يذكره كأنما هو حدث قريب . ومن الجائز أن يشير البيت (رقم ١٨) الذى يقال فى الشرح إنه يشير إلى قائد بنى الحارث بن كعب الذى من المحقق أنه معاصر لعامر ، من الجائز أن يشير إلى أحد الرؤساء الآخرين باسم الحصين ؛ فيوم ذى نجب ، إن كان هو اليوم المذكور فى النقائض ١٠٧٩و٥٨٧ ، لقيه بنو عامر الهزيمة ، لا النصر . ولذلك لا بد أنه يقصد يوماً آخر . والمقطوعات الأخرى التى يشك فيها هى رقم ١٧ (لذكرها عنترة العبسى) و ٢٦ .

ولا يصرع فى الديوان غير مطلع أربع مقطوعات ، هى رقم ٢ ، ٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ؛ يضاف إليها اثنتان فى الضميمة (١٦ و ٢١) ، من المحقق أن ثانيتهما منحولة . أما المقطوعات الأخرى فصغيرة ، تدور حول ما يسميه العرب « الفخر » ، الفخر بالغارات الحربية ومآثر القبيلة . وقد استحسن الأصمعى أسلوب عامر . وقال إنه كان يسمى « المحبر » ، أى المزين أو المجمل للشعر . أما هو فيسمى نفسه مراراً « ابن الحرب » (١٤ : ١ ؛ ٣٣ : ٤ ؛ ٢٩ : ١٠) ، وليس لديه ما يتكلم عنه غير الحرب . ولذلك يجب ألا نتوقع أن نجد عنده التنوع والخيال الشعرى اللذين نجدهما عند عبيد . وقد تطرأ لنا فكرة المقارنة بينه وبين عنترة ، الشاعر الفارس العظيم الآخر ؛ ولكننا لم يصل إلينا أى « نسيب » من عامر ، ذلك النسيب الذى تظهر فيه الموارد التى يستقى منها الشعر الصحراوى ، ولذلك لا نستطيع أن نضع أحد الشاعرين إلى جانب الآخر . وما بقى إلا أن نقول ، إن قارئ الديوان سيحكم بنفسه على الرجل وشعره .

حسين نصار

مع الفكر الأوربي المعاصر

١ — زمن الأوهام الحلوة

ولد « الهر هانس كاروسا » مؤلف هـذا الـكتاب عام ١٨٧٨ ، وهو شاعر وناثر وطبيب ألماني ، له ديوان شعر ، وله مؤلفات منها : « الطفولة » ، و « الصبا والشباب » وهما يحسبان من كتب الاعترافات .

و « الهر هانس كاروسا » يقول في كتابه الذي سماه « زمن الأوهام الحلوة » : لايقدر المرء أن يعرف قدر ما مر به من تجارب في الحياة إلا بعد توديعه زمن الشبيبة والصبا .

ويعد هـذا بعد بلوغ الـكبر ربحاً وكسباً ، ذلك لأنه يمكننا من أن نحيا حياتنا مرة أخرى ، بل أن نحيا حياة يشيع فيها لون من النشوة ، نشوة الانطلاق والتحرر ، ولـكنها نشوة يمازجها إدراك أمتن وأعمق وأبعد مدى من الإدراك في زمن الشباب .

والهر « كاروسا » يمسك في كتابه هذا بالخيط الذي ألقاه من يده يوم انتهى من تأليف كتابيه اللذين يحسبان رقيقين من رقى السحر ، وهما : « الطفولة » ، و « الصبا والشباب » اللذين أسلفنا القول عنهما ، واللذين نشرهما في انجلترا منذ عشرين عاماً .

والمؤلف في كتابه « زمن الأوهام الحلوة » ، يصف لنا ما مر به في عامه الأول كطالب من طلبة الطب في مدينة « ميونيخ » . وكان ذلك يوم كان القرن الماضي يكاد يلفظ آخر أنفاسه ، ويلقي بآخر ورقة من أوراقه .

والوصف الذي أودعه كتابه هو صـدى الخبرة والتجربة . وفيه يرى القارئ صورة لشاب يلقى الحياة بوجه ينبض بشاشة ويفيض بشراً ، وفوق ذلك فهو وصف تشيع فيه وحدة السياق والتركيز ؛ ذلك لأنه يشمل مرحلة من المراحل الحاسمة في تاريخ صاحبه ، وهي مرحلة الانتقال من الفتوة إلى الرجولة .

فإذا رجع بك المؤلف إلى ذلك العام رأيت فتى عليه أغصان الشباب غضة ، يملأ نفسه الترقب والشوق القلق إلى معرفة الدنيا وما فيها . بل رأيت فتى يطلب علوم الطب في تلك المدينة من مدن تلك البلاد الزراعية بلاد « بافاريا » . بل رأيت فتى ذا عقل من العقول القابلة لم تفسده العـادات ، وقد بدأ يعرف كيف يفاضل ويقارن بين مختلف الانفعالات والمؤثرات .

وهو يصف نفسه فيقول : كنت أطوّف ما أطوف في ذلك العالم السعيد عالم « اليقظة اليومية » ، وكنت أعبّ وأنهل بالكبير والصغير من معين الحياة الذي يفيض بالماء الزلال ، والذي كان يخيل إليّ أنه معين لاينضب ماؤه . وكنت أومن الإيمان كله أن كل شيء كان وكل شيء سيكون لابد يحدث في حياتي أثراً من الآثار .

في هـذا الإطار العقلي لقيّ صاحبنا الدنيا لأول مرة ، لقاه ملؤه الحب الذي امتزج بديا من الألم والفن ، ولقاه ملؤه الأدب الذي يحاول أن يعبر به عن هذا الحب الممزوج بالألم والفن تعبيراً يبقى على الزمن .

وتلك الفترة من الزمن كانت فترة أعد فيها نفسه لحياة ذات الشقين : حياة الطبيب والشاعر ، وفيها توثقت الروابط والصلات بينه وبين القوم البافاريين الذين أشربت قلوبهم حب الزراعة والأرض ، وفيها تفتحت مداركه ، ففكر فيما يحيط به من أرض وسماء ، وفيما يجري على مشاهد الطبيعة من تغير وتبديل .

وفي تلك الفترة درس الـكيمياء ، فعرف كيف يجمع ويوائم بين العناصر الأولى لـكل مادة ، فيكون من هـذا الجمع مادة جديدة لها خصائص جـديدة لايشاركها فيها غيرها .

وقد كانت دراسـة الـكيمياء ، حافزاً له وباعثاً على قول الشعر الذي وجد فيه متنفسـاً لآلامه وآماله . وقد ختم المؤلف كتابه بمناجاة لنفسه إذ يقول : إن أغراض الحياة لا تزال غير واضحة المعالم . ولـكن الشاب « كاروسا » قد تعلم أن ينظر إلى حياته نفسه في ثقة تزداد على مر الزمن نمواً .

وإذ يقول : إنه الدكتور « كاروسا » هو الذى يمسك بسماعة الطبيب ويسمع إلى دقات قلب « هانس كاروسا » الكاتب والشاعر . وفى سكينة الشيخوخة وهدوئها تحولت ذكريات الشباب الذى نصل لونه ، ومضت أيامه إلى صورة بينة الملامح خافتة صالحة سوف تبقى ذكرياتها على الزمن .

• • •

٢ ــ (١) عمر تقضى فى خدمة رويتر

كتاب من تأليف سير رودريك جونس

(ب) العيد المئوى لرويتر

كتاب من تأليف جراهام ستورى

الصحافة فى العالم الأنجلوسكسونى مدينة لعام ١٨٤٨ ديناً بالغاً . فقد بعثت الانقلابات الثورية فى ألمانيا بالفتى يوليوس رويتر (١٨١٦ — ١٨٩٩) إلى لندن بطريق باريس . كما كان بين المهاجرين الذين فروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية عائلة أوكس الذى كتب على واحد من أبنائها ، هو أدولف أوكس أن يصبح مؤسساً لجريدة نيويورك تيمس . وكان كلا الرجلين رائداً فى فنه . ولكن رويتر كان عبقرياً مجدداً . وتقوم عبقريته على إدراكه لأهمية الأنباء . وهو بعد أن تتلمذ فى باريس على « شارل هافاس » صاحب وكالة الأنباء المعروفة باسمه ، أنشأ خطاً تلغرافياً بين مدينتى « برلين » و « آخن » فى ألمانيا ليمد التجار وأصحاب المصارف المحليين بأخبار التجارة .

ولما أنشأت الحكومة الفرنسية خطها التلغرافى الخاص بين « باريس » و « بروكسل » انتهز رويتر هذه الفرصة وسد الثغرة بمده خطاً تلغرافياً فى المسافة التى تصل بين مدينة « بروكسل » فى بلجيكا وبين مدينة « آخن » فى ألمانيا . وهى تبلغ مائة ميل . وبذلك أصبح الخط الذى أنشأه حلقة اتصال بين باريس وبرلين .

وكذلك لجأ « رويتر » إلى استعماله بريداً من « حمام الزاجل » فاقتصد سبع ساعات من الوقت الذى كانت تستغرقه قطارات البريد .

ولما أصبحت محطات حمام الزاجل مهددة بالبطالة . وذلك بسبب إنشاء خطوط التلغراف ، عبر « رويتر » خليج المانش وألقى عصا تسياره فى لندن عام ١٨٥١ .

وقد اتخذ شعاره منذ اللحظة الأولى لحلوله بتلك العاصمة أن تكون أخباره ميسرة لجميع المشتركين على السواء .

وقد أصر إصراراً لم يحد عنه قط ، وهو إصرار أوحت به عبقريته بأن يذكر اسمه فى مفتتح كل برقية من برقياته . وسرعان ما واتاه النجاح الذى يتمناه ويهدف إليه كل قائم بعمل من الأعمال العامة . فأصبح الناس فى كل مكان يعرفون أن كلمة « رويتر » هى معنى من معانى الوثوق .

وقصة هذه الابتداءات ، وقصة نهضة وكالة « رويتر » الأخبارية وتطورها أثناء المائة سنة الماضية حتى أصبحت الوكالة العالمية الكبرى ، قد قصها فى براعة الفنان — « مستر جراهام ستورى » فى كتابه الذى سماه « العيد المئوى لرويتر » وهو يحدثنا فى هذا الكتاب عن المبادئ التى وضعها البارون رويتر والتى سار عليها خلفاؤه من بعده .

وقد بنيت شهرة « رويتر » على دعائم ثلاث : الدقة ، والأمانة ، والصدق . وكان أشد ما لقيته وكالة « رويتر » الأخبارية من عنت هو ارتفاع أسعار جمع الأنباء . ذلك لأن مثل تلك الوكالة الأخبارية لا بد لها من مراسلين ينتشرون فى كافة أنحاء العالم . وما استطاعت وكالة من وكالات الأنباء أن تقوم بسداد نفقاتها .

والوكالات المنافسة لوكالة « رويتر » كوكالة « وولف » الألمانية كانت وكالة معانة من حكومتها ، وكانت وكالة هافاس الفرنسية تستعين على سداد نفقاتها بالإعلانات التى كانت تقوم على نشرها وتوزيعها .

أما « يوليوس رويتر » وولده « هربرت رويتر » فكانا يعتمدان على ما كانا يكسبانه من خدمة تلغرافية خاصة قاما بإنشائها ، ومن إرسال حوالات النقود بالتلغراف لقاء أجر .

ومن الوسائل التى استعانا بها أيضاً بنك « رويتر » الذى أنشآه ، والذى كاد يودى بوكالة الأنباء بسبب إفلاسه يوم نشبت الحرب العظمى .

وفى هذه المرحلة من تاريخ « رويتر » أبدى الشاب « رودريك جونس » براعة وتفوقاً لا حد لهما . وكتابه « عمر تقضى فى خدمة رويتر » ليس إلا ترجمة ذاتية لحياته .

وهو يقص علينا فيه حكايته هو لا حكاية « رويتر » ولِمَ لا؟ وقد قضى خمساً وعشرين سنة وهو الآمر الناهي ، وهو الرقيب العتيد في تلك الوكالة ، يتحكم في مصايرها ، ويصبها في القالب الذي يرضاه .

وقد اختير لبراعته الفائقة في الإدارة والتنظيم ، ولقدرته على مماشاة الناس ومسايرتهم ، خلفاً للبارون الثاني من آل « رويتر » . ولكن في كتابه ، وفي كتاب « مستر ستوري » نقصاً بادياً وهو أنهما لم ينبئانا كيف نظمت تلك الإدارة الكبرى ، وكيف كانت تسير ، فأسلمانا للحدس والتخمين نستكشف بهما خبايا وأسرار تلك المؤسسة الضخمة .

ويحدثنا « سير جونس » أنه نشأ وتربى في جنوب إفريقيا ثم عمل مراسلاً حربياً في حرب البوير . ثم اختير عام ١٩٠٥ — وكان في السابعة والعشرين من عمره — مديراً عاماً لوكالة رويتر في تلك البلاد . وهناك لمع اسمه . وذاع صيته وأصبح صديقاً حميماً لسمطس و« بوتا » . ولكنه وقد كان رجلاً طموحاً ، كان يبدو قليل الصبر كلما تقادم عليه العهد ومرت به السنون . وكان يأمل أن يخلف البارون « هربرت رويتر » في رياسته لتلك الوكالة . وكان يظن أن البارون يرى فيه خلفه المرتقب . ولكن سنوات عشراً قد انقضت وهو لا يزال يغدو ويروح في جنوب إفريقيا ، إلى أن جاء شهر أبريل من عام ١٩١٥ فباتت وكالة « رويتر » بغير رئيس ! ذلك لأن البارون كان قد انتحر .

ثم يحدثنا « سير جونس » أنه ظفر بأمنيته في أكتوبر من ذلك العام بعد أن قامت في سبيله الصعاب والعقبات ، وبعد أن لقي ما لقي من دس وكيد . وكان يومئذ في السابعة والثلاثين من عمره . وكانت الوكالة على شفا الانهيار ، وكان البنك قد أصيب بالنكبات . وكانت أسعار أسهم الوكالة قد هبطت من عشرة جنيهات إلى ثلاثة .

ولكن « سير جونس » كان قد آلى على نفسه أن لا ينحني للكارثة ، فأعاد تنظيم الوكالة ، وأعاد لها ثقة الناس بها . ولكن الخوف كان قد ركبه ، إذ كان يحسب أنه ما دامت أسهم الوكالة بين أيدي الناس في السوق الحرة ، فقد يصبح ذات يوم فيلقى السيطرة على تلك الوكالة وقد أصبحت في أيدي أناس غرباء . وهو يقص علينا كيف جمع بمعاونة « مارك نابيتر » مبلغاً يزيد على نصف مليون من الجنيهات واشترى به حصص الشركاء والمساهمين بسعر أحد عشر جنيهاً للسهم الواحد .

وقد ظلت عملية الشراء هذه إلى اللحظة الأخيرة « سراً لدى أبوابه أقفال » . فلم يحط بها أحد من أعضاء مجلس الإدارة الآخرين . ولم يكشف هو سر خطته إلا بعد الحرب ، يوم أصبح هو أكبر مساهم وشريك . ولم يمض عام واحد حتى سدد المال الذي كان قد اقترضه .

ومنذ عام ١٨٦٩ أصبح من المسلّم به أن وكالة من وكالات الأنباء الدولية هي لازمة من ألزم اللوازم لأية دولة من الدول العظمى . ولذلك فقد اقتسمت وكالات « رويتر » و« هافاس » و« وولف » — بمقتضى اتفاقية الوكالات — العالم فيما بينها . فأصبح لكل منها منطقة نفوذه . وكذلك أصبحت كل وكالة من تلكم الوكالات عرضة للتدخل الحكومي .

ويقول مستر « ستوري » : إن وكالات الأنباء السياسية والاجتماعية لم تكن يوماً من مصادر الإيراد والكسب . وقد عرفت الصحف هذا فعاشت على ما تدرّه عليها الإعلانات من ربح وكسب .

ولم يكن أمام أية وكالة من وكالات الأنباء لكي تضمن رزقها إلا طريقان : الأول أن تقبل العون المباشر من حكومتها فتصبح بذلك لساناً ناطقاً من ألسنة الحكومة . والطريق الثاني أن تقوم الوكالة بأعمال أخرى وأن تعيش على دخل تلك الأعمال .

ومنذ الساعة الأولى كانت وكالة « وولف » تتلقى بطريق خفي إعانة من الحكومة البروسية . ولكن وكالة « رويتر » سارت في طريقها مستقلة . لا تعتمد على معونة من أحد ، على الرغم من اتهامها دائماً بأنها وكالة تابعة للحكومة . ولم يكن في هذا الاتهام ما يثير العجب . وذلك لأنها في نهاية القرن الماضي كانت أشبه الأشياء بمعهد من معاهد الحكومة البريطانية . ويزداد هذا الظن رسوخاً إذا تذكر المرء أن منطقة نفوذ وكالة « رويتر » كانت تشمل حوالي نصف بلاد العالم (الإمبراطورية البريطانية والهند والشرق الأقصى) وظلت بلاد تلك المنطقة خمسين عاما وهي تتلقى أنباءها

كلها من مصادر بريطانية . فكان من الطبيعي أن ينظر إلى وكالة «روبتر» كأنها وسيلة من وسائل نشر النفوذ البريطاني ؛ ومع هذا فإن نفوذ تلك الوكالة كان لابد له من أن يضعف ضعفاً بالغاً إذا ظهر بأية صورة من الصور أنها تستند إلى عون مالي من الحكومة .

وفي الحرب العظمى أو في الحرب العالمية الأولى كما يسمونها ، وفيما تلاها من سنوات ، كان على وكالة « روبتر » أن تحارب أعداء ثلاثة هم : دول المحور والاتحاد السوفيتي ، ووكالات الأنباء المتحدة . والصحافة المتحدة للولايات المتحدة الأمريكية .

وكان على « سير جونس » أن يواجه هذه الصعاب . فلم ير بداً من بيع حق الإشراف على وكالة « روبتر » إلى « اتحاد الصحافة » . وذلك في عام ١٩٢٥ . وبقي هو رئيس مجلس إدارة الشركة ، وعضو مجلسها المنتدب .

ومنذ الحرب العالمية الثانية ساهم في إدارة « روبتر » والإشراف عليها جماعة أصحاب الصحف الاسترالية ، وجماعة أصحاب الصحف النيوزيلاندية ، وجماعة أصحاب الصحف الهندية .

ومن يتتبع خطوات وكالة « روبتر » منذ مائة عام يوم كانت وكالة صغيرة متواضعة ، يرى أنها قد قطعت في سبيل التقدم شوطاً كبيراً ؛ والفضل في ذلك التقدم يرجع بلا شك إلى حنكة مؤسس تلك الوكالة وقدرته الفائقة .

٣ - تاريخ موجز للحرب العالمية الأولى

كتاب من تأليف سير جيمس إدموندز

يقول البريجادير جنرال « إدموندز » إن كتابه هذا قد اختص في الجزء الأكبر من صفحاته بالحرب البرية .

ويرى بعض النقاد أنه كان من الأنفع لو احتوى هذا الكتاب على المزيد من حديث الوقائع البحرية . أما عن الحرب الجوية فقد كانت الطائرات أثناء الحرب العالمية الأولى لا تزال تحبو وتتعثر في أولى خطواتها . فلم يكن في شرح وقائعها فائدة ذات شأن .

ومما يشوق نفوس طلاب المدارس البحرية ويظفر بإعجابهم قراءتهم لتلك الصورة البارعة التي صور بها المؤلف معركة « جتلند » وهي أكبر المعارك البحرية في الحرب العالمية الأولى وأهمها .

(وقد نشبت في ٣١ مايو عام ١٩١٦ بين الأسطول الإنجليزي ، وكان يقوده أمير البحار « جليكو » ، والأسطول الألماني ، وكان يقوده أمير البحار « شير » ، وأغرقت فيها قطعتان من الأسطول البريطاني هما : « انديفا تيجابل » و « كوين ماري » . ولكن المعركة انتهت بانسحاب الأسطول الألماني إلى قواعده) .

والقارىء لهذا الكتاب من المشتغلين بفنون الحرب البرية يجد الوضوح أبين الوضوح في شرح المؤلف للمعارك البرية ، وبخاصة تلك المعارك الصغرى كمعارك « مونس » و « لمبرج » و « كبراي » و « فيتوريوفينيتو » . وليس هذا بمقلل من شأن شرحه للمعارك الكبرى . فإن وصفه لمعركة « الأبر الثالثة » قد كتب بمهارة فائقة .

والكتاب على وجازته لا يدانيه كتاب آخر في دقة ما جاء به من شرح وتفصيل .

والخرائط التي وردت في هذا الكتاب يقصر عنها كل مديح . مبارك ابراهيم

هـــــدية

روحك السكرى بأنسام شذيه
بالهوى المأمول كالخمر الرويه
علمتنا الأماني الشاعريه
ليت شعري . هل حنا القلب عليه

• • •

وجهك الصافي وعيناك الوضيه
هدهدت روحي بأحلام هنيه
تترك البلبل بأحلى صبيه
في التلاق يطفىء النار الخفيه

• • •

أنت ما أنت ... أزاهير نديه
أنت يا روحي ترانيم عليه
من رباب الخلد لا الأرض الوطيه
فاقبل شعري هذا كهديه

الاسكندرية السيد محمد الصادق

ندوة القلم

أرني لسانك

إذا ذهبت إلى طبيب تشكو علة ما ، طلب منك حتماً أن تخرج لسانك ، وقد عرف العامة منذ القدم أن اللسان مرآة الجوف ، والحقيقة أن للسان أهمية كبيرة في تشخيص بعض الأمراض ؛ إذ هو يقوم بوظيفة هامة في مضغ الطعام وبلعه ، وفي إخراج الصوت . والشخص السليم قادر على أن يحرك لسانه ببطء أو بسرعة وفي جميع الاتجاهات ، ويكون ثابتاً إذا أخرج . أما إذا شوهد اللسان مرتعشاً فربما كان ذلك نتيجة اهتياج عصبي بسيط ، وتكون الارتعاشات حينئذ دقيقة . وربما نتجت هذه الارتعاشات من الإفراط في تناول الأشربة الكحولية ، ولكنها تحدث أيضاً في حالات ازدياد نشاط الغدة الدرقية المرضى ، وفي حالات الشلل الجنونى الذى يحدث نتيجة إصابة الجهاز العصبي المركزى بالزهرى ، كما قد تكون هذه الذبذبات من أثر الإصابة بحمى مخية ، ونشاهد ارتعاشات سريعة وغير منتظمة في الأطفال المصابين بحمى روماتزمية أثرت في المخ ، وتكون مصحوبة بحركات غير إرادية في الأطراف . وربما صعب على المرضى الضعفاء والمهوكة أن يخرجوا ألسنتهم أو أمكنهم إخراجه ، ولكن في بطء غير عادى .

ويولد بعض الأطفال وقد ثبتت ألسنتهم في قاع الفم بوساطة غشاء ، على أن علاج هذه الحالة ميسور بعملية جراحية بسيطة .

واللسان الكبير الحجم يعوق البلع والنطق ، وهو يشاهد عادة في الأقزام وفي المتوحشين وفي المتوليين . ولكن اللسان ربما زاد حجمه نتيجة الإصابة بالزهرى أو نقص إفرازات الغدة الدرقية أو ازدياد نشاط الغدة النخامية ، وورم اللسان يحدث في حالات ازدياد الحساسية .

ونحن نتوقع أنك إذا أخرجت لسانك خرج مستقيماً ، ولكن في حالة الإصابة بالفالج فإن اللسان ينحرف عند إخراجه إلى ناحية نصف الجسم المشلول .

ويعمل إفراز اللعاب في الشخص السليم على ترطيب اللسان ، فإذا ما قل إفراز اللعاب كما يحدث في حالات الحمى أصبح اللسان جافاً وغطته طبقة تحجب لونه ، على أن ألسنة بعض الأصحاء وخاصة الذين يكثرون من التدخين تغطيها مثل هذه الطبقة ، ولكن هذه الطبقة البيضاء تدل عادة على اضطراب الجهاز الهضمي وخاصة المعدة . وإذا أصيب شخص بالحمى غطى اللسان بطبقة كثيفة ربما أصبح لونها بنياً في الوسط ومصفراً في الجوانب ، فإذا ما عاد اللسان رطباً واختفى هذا الغشاء دل ذلك على أن حالة المريض في تحسن . أما إذا استمر هذا الغشاء أو ازداد كثافة أو تشقق ، دل ذلك على أن حالة المريض العامة تزداد سوءاً . وأحياناً يكسو هذا الغشاء نصف اللسان فقط كما في حالة شلل الوجه ، إذ يقوم جانب واحد من الوجه بوظيفة المضغ ، كما شوهد حدوث هذه الظاهرة عقب الحقن بالكحول لعلاج التهاب العصب التوأمي الثلاثي ، وهو الذى يسبب ألماً شديداً في جانب الوجه يدفع بعض المرضى من هوله إلى الانتحار .

وإذا كان لون اللسان أسود دل ذلك على أن المريض يتعاطى مركبات الفحم أو الحديد أو البزموت ، ويكون اللسان ناصع البياض في حالات فقر الدم الشديد ، وتظهر بقع بيضاء متناثرة على اللسان في الدور الثاني من أدوار الإصابة بالزهرى ، ويكون اللسان أزرق في حالات الزرقة الناشئة عن أمراض القلب الخلقية أو هبوط القلب ، وربما ظهرت بقع زرقاء على سطح اللسان في مرض أديسون ، وهو الذى يحدث نتيجة اضطراب الغدة فوق الكلوية . ويصبح اللسان مصفراً في حالات اليرقان واحتباس الصفراء ، إذ يشاطر اللسان بقية الجسم هذا اللون ، ويصبح لون اللسان بنياً في بعض الذين يقاسون حمى التيفود .

واللسان الأحمر كقطعة اللحم وفيه تشققات يشاهد في حالات التيفود في أسبوعها الثالث . وفي المرضى بالبلاجرا ، وهو ذلك المرض واسع الانتشار بين الفلاحين المصريين الذى ينتج من نقص في فيتامين ب أو بالأدق نقص جزء من

هذا الفيتامين يدعى حامض النيكوتينك حيث نجد اللسان أحمر اللون لامعاً وحارقاً نتيجة التهابه .

وإذا ترك المريض بالسكر دون علاج أصبح لسانه جافاً ومحمراً . وفي الإصابة بالحمى القرمزية تساعدنا رؤية اللسان على تشخيص الحمى في دقة ، إذ يتخذ اللسان شكلاً خاصاً يعبر عنه بأنه يشبه الشليك .

واللسان من أكثر أجزاء الجسم تعرضاً للإصابة بالسرطان ! ولذا ينظر الجراح في قلق شديد إلى كل قرحة مزمنة في اللسان وخاصة في الجزء الخلفي من جانبيه . وربما كانت هذه القرحة قرحة بسيطة نتيجة احتكاك اللسان بإحدى الأسنان الحادة أو طقم أسنان ناتىء ، ولكن حتى هذه القرحة الحميدة كثيراً ما انقلبت إذا أهمل أمرها إلى قرحة خبيثة هي قرحة السرطان . على أن سرطان اللسان أهون أمراً من السرطان يصيب جزءاً آخر من الجسم ، إذ يسهل هنا اكتشافه قبل استفحاله وصبح من الميسور علاجه بوساطة الراديوم .

أحمد بدران

الامتحان للوظائف

حضرة صاحب العزة رئيس تحرير مجلة « الثقافة »

بعد التحية : بمناسبة عقد امتحان ترقية الموظفين ، في محكمة الاسكندرية الكلية رأيت أن أعرض على القراء فكرة عن تاريخ عقد هذه الامتحانات عندما بدأت في انجلترا منذ قرن ، وأكون شاكرة لو تفضلتم بنشر المقال في مجلة « الثقافة » لو رأيتم صلاحيته لذلك .

كان من بين الاقتراحات في مشروع الكادر الجديد أن يكون اختيار الموظفين على أساس إجراء امتحانات مسابقة الغرض منها اختيار الأصلح من الطلاب بعد اختبار ذكائهم وقدرتهم الفكرية وكفاءتهم للقيام بأعباء الوظيفة الجديدة ، وقد عرض مثل هذا الاقتراح على الشعب الانجليزى لأول مرة منذ قرن .

وكان أول المشجعين للاقتراح السير تشارلز ترفليان ، Sir Charles Trevalyan والسير ستافورد نورثكوت Sir Stafford Northcote اللذان لقيا بعض التعضيد من جانب الأحرار ، كما نالهما ما ينال أمثالهما من قادة الفكر والسياسة من نقد لاذع ومقاومة عنيفة .

وقد عضد الفكرة بعبقرية فذة الكاتب الانجليزى ، رجل الاقتصاد والفلسفة والسياسة ، جون ستيوارت ميل ، الذى كان يرمى إلى تعيين موظفى الحكومة بصفة دائمة ، وأن يكون اختيارهم عن طريق امتحانات مسابقة يصرح بالاشتراك فيها لأفراد الشعب من جميع الطبقات ، ويشمل هذا الجنسين على السواء ، كما كان من رأيه الإكثار من عدد هؤلاء الموظفين بدرجة تتيح لأكبر عدد ممكن من الجمهور الاشتراك في الأداة الحكومية ؛ وبما أنه كان يتوقع أن يمثل موظفو الحكومة الارستقراطية الفكرية في انجلترا فإنه اقترح أن يكون لكل من يجتاز مثل هذه الامتحانات الحق في إعطاء صوتين عند إجراء الانتخابات البرلمانية ، وأن تكون هذه الامتحانات متصلة بأعمال الوظائف المنتظر أن يشغلها الطلاب وأن تعقد لراغبي الالتحاق بالوظائف الحكومية لأول مرة ، على أن تكون الترقية على أساس الأقدمية والاختيار معاً .

وممن عارضوا الفكرة وبالغوا في أثرها السيء الأديب آنتونى ترولوب Anthony Trollope الذى سخر من سير تشارلز ترفليان وسير ستافورد نورثكوت في إحدى رواياته الهزلية التى تحمل اسم الكتبة الثلاثة Three Clerks التى قص علينا فيها أيضاً كيف التحق هو نفسه بإحدى الوظائف الصغيرة في مصلحة البريد عن طريق أحد هذه الامتحانات حينما كانت امتحانات صورية فقط .

ولكن بالرغم من هذه المعارضة وأمثالها ، فقد عقدت امتحانات لأول مرة في عام ١٨٥٤ ، وقد أدخلت عليها تحسينات كثيرة منذ ذلك الوقت جعلتها ميزاناً دقيقاً لقدرة الطالب على القيام بما سوف تتطلبه مهام منصبه الجديد .

وقد ازداد فعلا عدد موظفى الحكومة تدريجياً إلى سنة ١٩٣٩ حيث بلغ مجموعهم ٠٠٠ ر ٣٧٥ موظف ، منهم ٠٠٠ ر ١٨٣ في مصلحة البريد وحدها . وفي إبريل سنة ١٩٤٨ بلغ عددهم ٤٠٣ ر ٦٩٣ موظف وموظفة .

وتقوم باختيار هؤلاء الموظفين اللجنة المركزية لموظفى الحكومة ، وهى تختار موظفين من أربع طبقات : الأولى

وهي الإدارية وتبلغ الآن حوالي ١٥٠٠ موظف مسئولين عن الإشراف العام على المصالح الحكومية ومراقبتها ، والتعيين في مثل هذه الوظائف مقصور على خريجي الجامعات الذين من بينهم تختار اللجنة المركزية لموظفي الحكومة من ترى صلاحيته .

والطبقة الثانية هي الطبقة التنفيذية ، وقد بلغت قبل الحرب العالمية الثانية ١٨٥٠٠ موظف مسئولين عن تنفيذ السياسة الموضوعة ، وعن التصرف في المسائل الفردية التي تطرأ أثناء سير العمل ، والتي تحتاج إلى حسن التصرف وتدبير الأمور ؛ والامتحانات التي تؤهل لهذه الوظائف يمكن أن يتقدم إليها من أتموا مرحلة تعليمهم الثانوي .

أما طبقة الكتبة فهي أكبر الثلاث الطبقات عدداً ، إذ بلغت ٧٧٠٠٠ قبل الحرب العالمية الثانية ، وعملها ينحصر في الكتابات والحسابات .. الخ ، وطلبتها في مستوى طلبة الثقافة العامة .

وتوجد أخيراً طبقة دون طبقة الكتبة ، وتشمل عمال ماكينات الكتابة والاختزال والعاونين ومعظمهم من الفتيات صغيرات السن .

كما أن هناك موظفين آخرين مثل موظفي ومفتشي الضرائب والجمارك والمعامل .. الخ

والتعيين جميع هذه الطبقات يكون بصفة دائمة بعد مدة اختبار حوالي سنة أو سنتين . ويحالون إلى المعاش في سن الستين حيث تعطيهم الحكومة مكافأة علاوة على المعاش السنوي .

ومنذ سنة ١٩٤٦ ، صرحت الحكومة البريطانية لموظفاتها من السيدات بالبقاء في وظائفهن بعد زواجهن . أما المرتبات في أثناء الإجازات المرضية ، وكذلك العطلات السنوية الاعتيادية فنظامها مرض للغاية .

ومن هنا نرى أن نظام شغل الوظائف الحكومية في انجلترا قد مكن الحكومة من الاستفادة بصفوة منتخبة ، كما أصبحت مكانة الموظفين أنفسهم في الدولة من أسمى وأرفع مكانة .

وتفضلوا يا أصحاب العزة بقبول وافر الشكر وفائق الاحترام

بهجة عبد الحميد محمد

حب السيطرة

لعل من أعمق الدوافع التي تسير الإنسان ، وتفسر أغلب أعماله وتصرفاته هو دافع السيطرة وحب النفوذ ، فغريزة حب السيطرة تستطيع أن تفسر معظم ما نشاهده في المجتمع وبين الأفراد ، فبها نستطيع أن نفسر حب الحكام لكراسي الحكم ، وحب الأغنياء لجمع المال ، ونستطيع أن نفسر بها أعمال السياسيين والموظفين للحصول على المراكز الكبيرة والمناصب العالية ، وهي أيضاً العلة الرئيسية في قيام الحروب واشتعال الثورات ، وهي أصل معظم ما يأتي به الإنسان من أعمال ، وما يرجوه من آمال ، فهي أقوى بكثير من الغرائز الأخرى ، حتى الاقتصادية منها ، وكثيراً ما يكون الدافع إلى حب التملك ليس إلا وسيلة للحصول على هذه السيطرة .

فإذا نظرت إلى الموظفين والعمال في مقر أعمالهم ، تجد أن أنشطهم وأكثرهم إنتاجاً هم هؤلاء الذين يعشقون القوة والنفوذ ، وهم بتضحيتهم لراحتهم ، إنما يطلبون السيطرة ، ولذلك تلاحظ أن الموظف النشيط يكره كل شيء لا ينطوي تحت إرادته وسلطانه ، وهو يحاول تغيير كل ما هو بين يديه كل ساعة والأخرى ليشبع شهوته إلى القوة والإحساس بها على أقوى صورة ممكنة .

والآباء والأمهات يحبون أولادهم ، لأن هؤلاء الأولاد هم المجال الذي يظهرون فيه قوتهم ونفوذهم ، وهم لا يكرهون شيئاً كرههم لمن يحرمهم هذه السيطرة ، وهذا يفسر كرههم الشديد لأزواج أولادهم .

والأولاد بدورهم يبحثون عن السيطرة منذ صغرهم ، فهم يبدأون بطلب المراتب الصغيرة رغبة في الشعور بالقوة والتفوق ، فإذا ما اجتازوا سن اللعب بالمراتب تطلعوا إلى الزواج ، وإلى خلق بيت آخر ومسرح جديد لإظهار سلطتهم ، والسبب في ازدياد تطلع البنات للزواج عنه في حالة الأولاد ، أن الفتاة لا تستطيع أن تظهر سلطتها إلا في منزلها ، في حين أن الفتى يتطلع لإظهار سلطته في عمله بجانب إظهارها في منزله .

وكلما ازدادت القوة عند فرد من الأفراد ، أو تركزت

في دولة من الدول ، زاد الخطر وتجسم ، فمن نال القوة عشقها حتى تتأصل في نفسه ، وصاحب القوة يتلذذ من إظهار قوته في كل وقت ، وإظهارها لا يكون إلا بمنع الآخرين عن فعل ما يشتهونه ، وإجبارهم على عمل شيء لا يحبونه ، وهذا ما يفعله بعض الشيوخ الذين تمكنت فيهم غريزة حب السيطرة ؛ فعملوا على إعاقة الشبان من الاستمتاع بما فقدوه هم ، وهذا ما يفعله بعض المدرسين والرؤساء والحكام مع تلاميذهم ومرءوسيهم ؛ فيفرضون عليهم أوامرهم وآراءهم ، ويقتلون شخصية كل من يعمل تحت أيديهم فيحيلونهم بذلك إلى آلات بشرية .

فإذا عرفنا ما للسيطرة من أهمية كبيرة في تسيير الدول والأفراد ، رأينا أن مشكلة توزيعها بين الناس من أهم المشاكل ، وهي أيضاً أصعب وأكثر تعقيداً من مشكلة توزيع الثروة ، وأن تركيز السلطة في شخص واحد أو هيئة واحدة هو الخطر كل الخطر ، لأن تركيزها هذا ما هو إلا دكتاتورية تعمل على هدم روح الفردية بين الناس . والذي يريد أن يؤدي أجل خدمة المجتمع الذي يعيش فيه فعليه أن يعمل بكل ما لديه من قوة على مقاومة هؤلاء الذين جمعوا السلطة وركزوها في أيديهم .

والنظرية الأساسية في الديمقراطية ، هي أن توزع القوة في أيدي الناس جميعاً ، وأن تترك لهم الحرية في عمل أي شيء يريدون عمله ، فلا يجب أن تتدخل القوة إلا مع أولئك الذين يحاولون استعمال القوة في إخضاع الآخرين ، أو مع الأقلية عندما تعترض سبيل الأغلبية .

ولكي نحصل على ديمقراطية صحيحة ، فعلينا — بجانب اهتمامنا بتوزيع الثروة توزيعاً عادلاً — أن نهتم بتوزيع السلطة في أيدي الأفراد جميعهم ، ورأيي هو أن نبدأ أولاً بالأطفال في منازلهم ومدارسهم ، لأنهم المادة الخامة التي نشيد بها المستقبل ، فنبدأ في تشكيل التعليم والتربية بحيث نضعف فيهم الدوافع نحو القوة والسيطرة ، اللهم إلا قوة الشخصية والسيطرة على النفس ، كما يجب أن يكون أساس التربية هو التشجيع على العمل الجيد ، وليس التهديد بالعقاب على العمل الرديء ، فإذا نجحنا في تطبيق هذه النظريات في المدارس والمنازل ، خلقنا بذلك جيلاً حراً لا يخاف التهديد والعقاب ، وإنما يعمل بوحي من ضميره وعقله لبناء مستقبل أصلح ، وإذا استطعنا أن نقضي على النزعات الدكتاتورية عند الآباء والمدرسين ، فلن يمضي وقت طويل حتى نجد أن هذه الطبقة ، التي تحكمنا الآن ، هي الأخرى قد تغيرت ، وهذه المجموعة من الزعماء ، قد زالت وامحت ، وحل محلها طبقة أخرى تستمد الزعامة من شعب حر مستنير .

عائدة أحمد أمين

قالوا

• خير مقياس لخلق الرجل هو ما يفعله في خلوته إذا وثق من أن أحداً لن يطلع على سره . [ماكولي]

• ما من أحد يستطيع أن يشعرك أنك أقل منه منزلة ما لم ترض أنت لنفسك بذلك . [إليانور روزفلت]

• إنما خلقت المرأة ليحبها الرجل لا ليدرك كنهها . [أوسكار وايلد]

• السيد الكريم هو من يفكر في شعور الآخرين مثل التفكير في حقوقه ، وفي حقوقهم قبل التفكير في شعوره . [ماثيو هنري بكهام]

• إنك تبلغ مرتبة النمو الكامل حين تضحك ضحكتك الأولى ساخراً من نفسك . [إثيل بريمور]

• الفم المطبق لا يدخله الذباب . [مثل فلبيني]

• الأحمق أحد رجلين : واحد يقول : هذا قديم فهو خير كله ، وواحد يقول : هذا جديد فهو خير إذاً من القديم . [الأسقف إنج]

• أتريد أن تعرف موطن الضعف في خلق امرىء ما ؟ لاحظ ما يسرع إلى ملاحظته من مواطن الضعف في الناس .

• يعلمنا التاريخ أننا لا نتعلم شيئاً من التاريخ . [فردريك هيجل]

• إذا أردت أن تعرف طبقتك من الناس فانظر إلى من تحبه لغير علة . [عن أفلاطون]

• أهدى طريق وأكفله لك بأن تعيش في هذه الدنيا موفور الكرامة والشرف ، هو أن يكون ما تبطنه في نفسك كالذي يظهر منك للناس . [سقراط]

تهافت المناطقة الوضعيين

— ١ —

للأستاذ عبده فراج

منذ عصر النهضة ظهرت الحاجة إلى إصلاح المنطق الأرسطى إصلاحاً يجعله كفيلاً بضمان الصحة، لا فى حدود معلوماتنا السابقة فحسب كما تركه لنا أرسطو طاليس، بل خصوصاً فى ارتيادنا الآفاق المجهولة طلباً لزيادة علمنا، سواء بالكشف عن أحوال الطبيعة التى تكتنفنا أو بكشف الحقائق الرياضية واختراع براهينها.

وظلت هذه الحاجة ماسة بعد أن انبرى لإشباعها فلاسفة كبار وصغار، نذكر منهم بيكون وديكارت وكانت وستورات مل. وكان لمناقشة الأخير للمنطق الأرسطى ومساجلاته مع أنصار ذلك المنطق، الفضل فى إثارة مشكلات أوحت إلى المناطقة الوضعيين فى النمسا وانجلترا بمذهبهم الذى لخصه الأستاذ عباس محمود العقاد فى أن «المعنى لا يكون إلا لأحد شيئين، واقعة محسوسة أو عبارة من قبيل تحصيل الحاصل، كإعادة المعنى الواحد بعبارتين مختلفتين أو كقولنا إن ٥ × ٥ = ٢٥» وماعدا هذا فلا معنى له أو هو كلام فارغ؛ وبعبارة أخرى يقصدون قصر الفكر على العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية. وكان ممن حمل لواء هذا المذهب برتراندرسل أشهر الفلاسفة فى هذا العصر.

وقد رحب المشتغلون بالفلسفة بهذا المذهب لما فيه من تحريك للماء الآسن وإتاحة لعلم المنطق أن يتطور ويلحق بالعلوم التى استبطأته فانطلقت وخلفته.

وقد ظهر فى مصر فى مارس من هذا العام كتاب ضخم فى «المنطق الوضعى» ألفه الدكتور زكى نجيب محمود بعد أن درس موضوعه على أعلامه فى انجلترا وقال فى مقدمته: «أخذت به أخذ الواثق بصدق دعواه وطفقت أنظر بمنظاره إلى شتى الدراسات، فأمحو منها لنفسى ما تقتضينى مبادئ المذهب أن أمحوه».

وقد درست هذا الكتاب فوجدته يلقى أضواء ساطعة على كل خبايا المنطق الوضعى؛ وشعرت أثناء ذلك بشيئين، أولهما الإعجاب بجهد المؤلف وبراعته فى العرض براعة تتجلى فى كل صفحات الكتاب؛ ولا أحسب أن أى تقريظ سيفوق ما استحقه هذا الرائد الفاضل نظير ما تجشم من عناء. وثانيهما العجب من تهافت المناطقة الوضعيين تهافتاً ذكرنى بقول من قال «تسمع بالمعيدى خير من أن تراه». فأغرانى ذلك بالاستجابة إلى دعوة المنطق الفاضل الدكتور شفيق العاصى لكتابة رأيى فيهم وبيان قصور مذهبهم عن إشباع حاجة المنطق إلى التطور والإصلاح. ولا يتسع المقال لحصر ما يلاحظ على هذا المذهب كما هو معروض فى كتاب «المنطق الوضعى» إذ يكاد لا تخلو صحيفة من صفحاته الخمسمائة مما يثير جدلاً، ولذا سنقتصر على القسم الأول تقريباً ونختار ما نراه أساسياً وأكثر شمولاً لغيره من المسائل.

وأول ما نصادفه من مقررات الوضعيين اعتبارهم التفكير والألفاظ المعبرة عنه شيئاً واحداً. يقول الأستاذ آير فى ص٧ «لا ضرورة لافتراض وجود شىء نعلل به عملية الفكر سوى العبارات اللفظية» ويقول المؤلف متابعاً له «فليس التفكير شيئاً يضاف إلى الكلام بل ... الفكر هو الألفاظ نفسها وطريقة تركيبها». وهكذا يخالف هذا المنطق «العلمى» ما يقرره علم النفس من أن هناك عمليات عقلية كالإدراك والتصور والتخيل والتذكر والتفكير مستقلة عن الألفاظ المعبرة عنها، ومن أن بعض القردة العليا تقوم بعملية الاختراع والتفكير مع أنها لا تملك ألفاظاً أو رموزاً ذات ترتيب معين. ونحن نلاحظ فى أنفسنا أننا أحياناً نعجز عن التعبير عن بعض أفكارنا، هذا فضلاً عن أن الألفاظ والرموز فى أصل وجودها التاريخى لاحقة للعمليات

الفكرية ، أى أن الإنسان شعر بالمعنى أولاً ثم أوجد له لفظاً ينقله به ، والألفاظ والتراكيب اللغوية والمصطلحات العلمية تنمو باطراد لتملأ الفراغ المتجدد باستمرار بين ألفاظ اللغة والتصورات والأفكار الجديدة . ولا أحسب أن الوضعيين ينكرون على الصم البكم كل تفكير طيلة حياتهم المقفلة . فإذا كان المنطق لا ينبغى له أن يتعرض إلا للأفكار المعبر عنها فليس للمناطقة الحق فى الادعاء من جراء ذلك بأنه لا فكر إلا المعبر عنه ، فيكونون كالمتخصص فى المنطق إذ يدعى أنه لا علم إلا المناطق ، ولا حق لهم كذلك فى الادعاء بأن الفكر هو اللفظ ، فيكونون مثل مسجل المواليد الذى يزعم أن السكان هم أوراق الميلاد .

وفى الكلام عن القضية ، وهى العبارة التى يجوز وصفها بالصدق أو بالكذب ، يخرج المؤلف من القضايا العبارات الإنشائية كالأمر والاستفهام والتعجب ، وينتج عن ذلك فى مذهبه حذف علم الأخلاق وعلم الجمال من ميدان العلوم ، لأنهما يبحثان فيما يجب أن يكون وليس فيما هو كائن ، كما يخرج العبارات التى يستحيل أن نرسم لنا صورة يمكن المطابقة بينها وبين الأصل المخبر عنه كالقول بأن « وزن الفضيلة ثلاثة أمتار » ، وينتج عن هذا فى مذهبه حذف الميتافيزيقا من ميدان العلوم ما دامت بحكم تعريفها تتحدث عما ليس فى الطبيعة ويستحيل وصف حديثها بالصدق أو بالكذب .

ونحن نلاحظ أن هذا الحذف بالجملة يتفق مع طريقة الوضعيين المفضلة ، وهى حل المشاكل الموجودة بالهرب منها أو بإنكار وجودها . وعندنا أن إخراج المنطق للأمر والاستفهام والتعجب إنما هو رفض لشكل العبارة فقط ، حرصاً على البساطة والوضوح والضبط . فعبارة « افتح النافذة » لا تخلو من أن تتضمن ادعاء بأن النافذة مقفلة وبأن المتكلم يريد حقاً أن يفتحها المخاطب ، وكلا الادعاءين قد يكون صادقاً أو كاذباً . وهناك استفهام غير حقيقى مثل « وهل يخفى القمر ؟ » معناه « القمر لا يخفى » . فالمنطق يطالبنا بالتعبير بصيغة مباشرة صريحة واضحة وهى صيغة الموضوع والمحمول . ويقول الدكتور زكى نجيب « إذا قلت عن شىء إنه أفضل من شىء آخر أو أجمل منه ، وإذا قلت عن شىء إنه خير أو شر أو جميل أو قبيح فليس قولى مما يجوز أن يكون قضية فى حكم المنطق ، لأنه قول يعبر عن شعور ذاتى ولا يصور شيئاً من عالم الواقع الذى يشترك فى ملاحظته أكثر من فرد واحد » . فنقول له : لا فرق من حيث احتمال الصدق والكذب بين القول الذى يبحث فيما هو كائن والذى يبحث فيما يجب أن يكون ، وكذلك لا فرق فى قابلية الصدق والكذب بين أن تقول إن هذا السلوك أفضل من ذلك أو إن هذا المنظر أجمل من ذلك ، وبين أن تقول مثلاً إن هذه القهوة أحلى من تلك أو إن هذه الحديقة أثقل من تلك . وإذا كان الحكم الأخير قد أمكن اختراع مقياس لمراجعته بخلاف الأحكام الأخرى فذلك فرق ثانوى لا يمنع من اتفاق الكثيرين على وجود الفرق فى الحلاوة بين القهوتين وفى الخيرية بين السلوكين وفى الجمال بين المنظرين . ونحن نرى تهافت الشبان على خطبة الفتاة الجميلة وانصرافهم عن الدميمة ، ونرى إقبال الناس على الأصوات والألحان الجميلة وانفضاضهم عن القبيحة . وما رأى الدكتور زكى والوضعيين فى مسابقات الجمال ودعم أحكامها بالقياس ؟ أليس فى هذه الأمور يشترك أكثر من فرد واحد فى الملاحظة وفى الاتفاق فى الحكم ؟ بلى قطعاً ! وإذاً فلعلهم يريدون أن يقولوا إنه فى ميدان الأخلاق والجمال قد يخالف فرد أو أكثر ما يتفق عليه الآخرون . ولكن هذا إنما يحدث فى الأحوال الغامضة التى تكاد تتعادل فيها مرجحات الكفتين . ويحدث مثله فى العلوم الطبيعية إذ يختلف العلماء فى تفسير ظاهرة والأطباء فى تشخيص مرض . وهكذا يكون من الخطأ إخراج الأخلاق والجمال من ميدان العلوم بحجة أن أحكامها غير قابلة للصدق والكذب ؛ ولكنهم إن كانوا يضمرون إخراجها من ميدان العلوم الطبيعية الباحثة فى الأجسام فليفصحوا بذلك لنقول لهم إنه لا الأخلاق ولا الجمال ولا الميتافيزيقا تدعى أو تفضل الدخول فى ميدان تلك العلوم . لأنها سعيدة حيث هى فى ميدان الفلسفة التى تتسع لدراسة غير الأجسام وتختص بدراسة ما يجب أن يكون وتهدف إلى إسعاد الإنسانية بتعريفها بما هو أجمل وأفضل من غيره .

وأما اعتبار القول بأن « وزن الفضيلة ثلاثة أمتار »

وما يشبه ذلك أقوالا لا يجوز وصفها بالصدق والكذب ، فنقول فيه إن كل عبارة مؤلفة من موضوع هو لفظ مفهوم ومحمول هو لفظ مفهوم يجوز وصفه بالصدق أو بالكذب .

والمثال السابق قضية كاذبة لأنها تفيد أن الفضيلة وزناً وبالتالي أنها جسم وهذا كذب ، وتفيد أن الوزن يقدر بالأمتار وهذا كذب ، فيكون تحديد الأمتار بأنها ثلاثة كذباً ، وامتناع المنطق عن الحكم على مثل هذه العبارة هو نوع من الإضراب عن العمل بلا سبب .

وبناء على هذا فالميتافزيقا ، على فرض أنها لا تتحدث إلا عما ليس في الطبيعة ، عباراتها قابلة للصدق والكذب ، وإذا استحال على الوضعيين إثبات صدق أحكامها أو كذبها فلا يصح أن يحكموا باستحالة ذلك على غيرهم ممن لا يقتصرون على دراسة ما يقع بنفسه تحت خبراتهم ، بل تتسع صدورهم لما يقع تحت خبراتهم بآثاره أو بما يمكن أن يكون من آثاره ، ولولا هذا الاتساع لما خطرت الميتافزيقا ببال من بحثوها قبلهم . والوضعيون لم يثبتوا بعد أن الوجود وما يقع بنفسه تحت خبرة الإنسان شيء واحد . وإني لأخشى ، إذا كان بين الميتافزيقا والوضعيين حرب تأكل بنيها كما يقول المؤلف في المقدمة ، أن تكون الحرب هي للميتافزيقا .

ننتقل بعد ذلك إلى ما جاء في كتاب « المنطق الوضعي » خاصاً بالتفرقة بين القضية التركيبية والقضية التحليلية ، فالأولى تضيف في محمولها عنصراً جديداً إلى مفهوم موضوعها ، أو كما يقول المؤلف « هي القول الذي يضيف إلى موضوع الحديث علماً جديداً » ولنمثل لذلك بقولنا « أرامل التي لم يتزوجن بعده » ، والثانية « تكرر عناصر الموضوع بعضها أو كلها فلا تضيف إلى علمنا به شيئاً جديداً سوى إبرازها لتلك العناصر بحيث تصبح مذكورة ذكراً صريحاً بعد أن كانت متضمنة » ، ومثال ذلك « الأرامل كن متزوجات » وهذه التفرقة جيدة طالما كان الأساس الذي نتقيد به في التمييز بين القضيتين هو معنى لفظ أو ألفاظ الموضوع كما هو محدد في اللغة . ولكن المؤلف يتابع الوضعيين في انحرافهم عن هذا القيد وادعائهم بأن « العلوم الطبيعية كلها على اختلافها تتألف من قضايا تركيبية ، وأما الرياضة والمنطق فهما يتألفان من قضايا تحليلية » .

والواقع أن التفرقة بين القضية التركيبية والقضية التحليلية أمر في غاية الأهمية عني به كانت والتزم فيه القيد المشار إليه ، ومثل للقضية التركيبية بالمثال الذي يرويه لنا الأستاذ يوسف كرم في تاريخ الفلسفة الحديثة إذ يقول : « ٧ + ٥ = ١٢ فلا فكرة ٧ ولا فكرة ٥ تتضمنان فكرة ١٢ » . فإذا كان الوضعيون ، كما يفهم من كلام الدكتور زكي نجيب ، يعتبرون هذا المثال قضية تحليلية فيكونون قد انحرفوا عن التعريف السابق للقضية التحليلية وتعرضوا للتردي فيما لا آخر له من الأخطاء والخلط والغموض . ويبدأ ذلك في كتابنا بقول رادل « الأمر متوقف على مقدار المعرفة التي يلم بها الأشخاص المتكلمون في الأوقات المختلفة » ولا بد أن ينتج من ذلك ما رآه فيتش ص ١٥ من أن « الأحكام كلها تحليلية بالنسبة للمتكلم وقد تكون تحليلية أو تركيبية بالنسبة للمخاطب » . كما نتج عنه زعمهم باختلاف معنى الصدق والكذب لا بين القضيتين بل بين العلوم الطبيعية التي اختصوها بالقضايا التركيبية والعلوم الرياضية التي قصروا عليها القضايا التحليلية . بينما لو تقيدنا بالتعريفين الأصليين لظهرت كل من العلوم الطبيعية والرياضية مشتملة على النوعين من القضايا .

يقول الدكتور زكي نجيب ص ٢٠ : « القضايا الرياضية تحليلية كلها لأنها تحصيل حاصل ، فقولنا ٦ + ٤ = ١٠ معناه أننا قد اتفقنا على أن نستعمل رمزين بمعنى واحد (٦ + ٤) ، (١٠) ، كما اتفقنا على استعمال لفظي الليث والأسد بمعنى واحد » .

فهل هذا صحيح ؟ إن الاتفاق على ترادف الألفاظ ثابت في القواميس ، ولكن متى وأين اتفق الناس على رموز جمع كل الأعداد ، وطرحها وضربها وقسمتها وتربيعها وتكعيبها الخ . والأعداد لا نهاية لها ؟ إننا لو اتفقنا على التعريف الأصلي للقضية التحليلية ، فإن القضية الحسابية لا تكون تحليلية إلا إذا كانت من النوع الذي يقول بأن أربعة هي واحد وواحد وواحد وواحد ، لأن المحمول هنا لا يزيد على الموضوع ما دام المفروض أني أعلم معنى الأربعة في اللغة كما تقيدنا بذلك في التعريف ؟ أما القول بأن الأربعة عدد زوجي أو بأن ٤ + ٦ = ١٠ أو بأن ٣ × ٧ + ٩ × ١٣ = ١٣٨ أو بأن المثلث المتساوي الأضلاع متساوي

الزوايا ، أو بأن محيط الدائرة أكبر من ثلاثة أضعاف قطرها ، فكل ذلك يتعين اعتباره قضايا تركيبية تحمل علماً جديداً إلى السامع الذى كان يعرف معانى ألفاظ الموضوع ؟ ولست بهذا أعارض المؤلف وحده ، بل أعارض قبل كل شيء المناطقة الرياضيين الذين يصفون رياضتهم بأنها تحصيل حاصل ، وأسألهم : هل الأمر تحصيل حاصل بالنسبة للمخاطب أو بالنسبة للحقيقة ؟ إن كان بالنسبة للمخاطب فهو استفاد علماً كان يجهله ولم يقربه إلا بعد قليل أو كثير من الشك ، فكيف يكون هذا تحصيل حاصل بالنسبة له ؟ وإن كان بالنسبة للحقيقة فكل علم بما فى ذلك العلوم الطبيعية هو تحصيل حاصل ، لأن رؤية الأشياء ذات الصفات المعينة ثم القول بأن لها هذه الصفات هو تحصيل حاصل بالنسبة لتلك الأشياء .

فإذا أقررنا بوجهة نظرنا هذه خالفنا المناطقة الوضعيين مرة أخرى فى توزيعهم لليقين والاحتمال ، إذ يخصون بالأول الرياضة والمنطق وبالثانى العلوم الطبيعية . يقول المؤلف ص ٢٣ « إننا لا ينبغى أن نطلب أكثر من الاحتمال والترجيح فى العلوم الطبيعية » ويقول « لما كانت المعادلات الرياضية وقضايا المنطق لا تقول شيئاً جديداً كانت يقينية فى شتى الظروف » . ونحن نرى أن هذا التوزيع لليقين والاحتمال قائم على أساس باطل . فاليقين الحسى لا يقل عن اليقين الرياضى . فأنا أوقن بأن هذه العصا أطول من هذا القلم كما أوقن بأن العدد مائة أكبر من العدد عشرة . بل إن اليقين الحسى أساس لليقين الرياضى عند شخصين اختلفا فى جمع أو طرح عددين من القروش أو البيض أو الخراف ؛ والهندسة نفسها فى إثبات انطباق المثلثين المتساويين فى ضلعين والزاوية المحصورة بينهما قد تلجأ إلى التطبيق الحسى للمثلثين أو تلتمس منا تخيل ذلك من باب التساهل . وفى القضايا العامة يكون القول بأن الحديد أكبر كثافة من الخشب ، وهو قول علمى لارياضى ، لا يقل يقيناً عن القول بأنه فى المثلث المختلف الأضلاع يقابل الضلع الأكبر من غيره الزاوية الأكبر من غيرها ؛ ذلك بأن الحكم العلمى السابق مرتبط بما يحتمه ، وهو توقف التسمية على التركيب الذرى للجسمين . أما القضايا الاحتمالية فى العلم الطبيعى فهى تلك التى لا تستند فى ذهننا إلى علة تحتمها مثل القول بأن « كل الزواحف تبيض » .

ولكن المفروض أن المعنى الحقيقى لهذه العبارة هو أن الزواحف التى لاحظها العلماء تبيض ، وأن العلماء لم يصادفوا زواحف لا تبيض ؛ وبهذا المعنى تكون هذه القضية صادقة صدقاً يقينياً ما دامت تطابق الواقع . فالحس هو المرجع وهو أساس كل يقين . ولا نلجأ إلى الاستدلال المنطقى أو الرياضى إلا عندما يتعذر الحس ، فأنت توقن أن (ا) أكبر من (ﺟ) إذا رأيتهما وقرنتهما . فإذا تعذر ذلك تبحث عن واسطة سبق لك قرنها بكل منهما وتقول : (ا) أكبر من (ب) و (ب) أكبر من (ﺟ) إذن (ا) أكبر من (ﺟ) . ولنا فى هذا أسوة بفقهاء المسلمين حين قالوا : إذا حضر الماء بطل التيمم . ثم نسأل الوضعيين : إذا كانت قضايا المنطق يقينية فأى منطق يقصدون ؟ هل هو المنطق الوضعى الذى يختلفون به المنطق التقليدى ؟ أم هو هذا الأخير الذى تخطىء به منطقهم ؟ .

(للبحث بقية) عبده فراج

قالوا

- إن رحلة طولها ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة .
  [مثل صينى]
- الإنسان يخش نفسه ولا يخش سواه . [جوته]
- خلوا الجمال عن المرأة فهى أسلمه . [مريموس]
- إن الرجل الذى يتكلم كثيراً لا يعمل أبداً .
  [موبجو]
- الطريق المفروش بالزهور لا يؤدى إلى المجد .
  [لافونتين]
- لا شيء فى الوجود يرفع قدر المرأة كالعفة .
  [أديسون]
- العدالة عرجاء فيجب مساعدتها برجال مترفعين عن الدنايا والأغراض . [رسكن]
- من لا يأمل أبداً لا ييأس أبداً . [برنارد شو]
- إذا بلغ الرجل السبعين فلا يجوز له أن يخاف الموت أو يشكو شقاء الحياة . [سولون]
- إن الدنيا سجن عام يدخلها الطفل باكياً ويخرج منها باكياً . [شكسبير]

بين المجلة وقرائها

مشكلة النقــــد

... ولا يكاد يرفع الإنسان عينيه إلى جملة من المجلات والصحف حتى يفاجأ بهذه الروح النقدية الزائفة ، حتى لكأنهم من عالم آخر سوى هـذا العالم . لقد آذوا حياة الفكر والأدب بهذا الأسلوب الضيق المهلهل في النقد . فمقالاتهم النقدية لا تعدو أن تكون تعبيراً مكشوفاً عن شهوات دفينة .

(القاهرة) بهمام السيد

إنها لحيرة والله ياسيدي ... فأصوات الكتّاب تعلو من حين إلى حين منادية بضرورة الأخذ بوجوه النقد النزيه ، والبعد عن روح التعدي والاتهام الخالية من التأييد المنطقي .. وعلى الرغم من ذلك تقع المجلات الأدبية الظاهرة في أخطاء فجة من هذه الناحية ، ولا زالت تتكرر الحوادث السخيفة في النقـد المعاصر من يوم إلى يوم !! مازلنا نرى عناصر التحقير بغير موجب ، وما زلنا نلمس ملامح التشنيع والإهانة بين سطور الكتّاب والمعقبين . ولا تخلو مجلة حديثة من هذه الظاهرة ، ولا تكاد تجد كاتباً واحداً من أصحاب الميول النقدية أو من أصحاب المكانات الممتازة في أدبنا الحديث بريئاً من هـذا العيب . إننا نفاضل ولا ميزان للمفاضلة ، ونقدّر ولا موجب حتى لمجرد التقدير . وأدل شيء على ذلك هو أننا نثير ذكرى الماضي ، ونعيد وضع المؤلفات على صورة إحصائية ، ونجدد أسلوب القدماء في الترقيم وإعطاء الدرجات .

لقد انتهى عهد الإمارة في الشعر والسلطنة في البيان والإمامة في اللغة ! لقد فرغنا من مهمة التفضيل والاعتبار النسبي .. وأصبحنا الآن في جو أدبي آخر لا نقول فيه هذا أفضل كتاب وتلك أعظم قصيدة ، بل نقول هذا الكتاب يمتاز بكذا وكذا وعيوبه كذا وكذا .. أو هـذه القصيدة تصدر عن شاعرية وتفوح بالخيالات وتموج بالتعابير الموسيقية ، وسبب جمالها كذا وكذا ... وإما العكس . فالدراسة الأدبية التحليلية الآن شيء آخر سوى إعطاء الأحكام الجائرة وتصيب المقولات التي تسري مسرى الشعائر والأمثال .

والنوادر في هذا المعنى كثيرة .. ولا يلهيني عنها الآن سوى حيرة مثل حيرتك ياسيدي .. إذ لا أدري — والحال هذه — كيف أبدأ ، وماذا أقول ، ولمن أرفع شكواك ؟ فقد وقع خطابك من نفسي موقعاً مؤثراً حتى بدأت أشك في الأحكام الجائرة وأحسست بأن النقاد جميعاً أبناء هوى وأصحاب حماقة .

واتهامك يشملني أنا أيضاً طالما كنت لا أستطيع أن أصرخ بأعلى صوتي في وجه أولئك الأسياد الجالسين على دست الحكم في دولة الأدب . وأنا عاجز طالما كنت قليل التأثير في المتطفلين على حرفة النقد والمتركين في حلبته . إذ كيف يسمع الناس مني وينصتون إليّ بعد أن تيقنوا من أنني أحمل الخطيئة بين جنبيّ — شأني شأن سواي — وأنني ماضٍ مع الماضين في ساحة التجريح المواتي والمؤاخذة الطائرة !! .

> ستفتح « الثقافة » في هذا الباب مجالاً أوسع أمام قرائها ، ليحث من أراد بما أراد من سؤال يريد جواباً ، أو ملاحظة تريد تعليقاً ، ما دام ذلك يمس نقطة ثقافية فيها الجدوى وارتفاع النظر

الموسيقى الكلاسيك

يرجع اهتمامي بالموسيقى إلى زمن بعيد .. ولو كنت بصدد تأريخ تلك الهواية لرجعت بك إلى أيام الطفولة . ولـكنني لم أبدأ عنايتي بالموسيقى إلا بعد أن اشتركت في جمعيات شاملة لا تزال موجودة في كليات الجامعة . هنالك في أروقة كليـة الآداب بالقاهرة استمعنا إلى تسجيلات نعلم بها الآن ونتخيل رنينها في الآذان ، ونود لو أتيح لنا شيء منها بعد أن أصبحنا نتذوقها ونستطعمها . هنالك في أروقة الكلية ومدرجاتها استمعنا إلى معزوفات بتهوفن وموتسارت ، وجلسنا صامتين بإزاء الأنغام الممتازة من وضع التشايكوفسكي وفاجنر ، وبقينا ساعات طوالاً نتأمل الأرض بعيوننا التائهة

وتحسس أنغام ليست وشوبير بآذاننا المقطوعة .

والآن ، أنظر من حولى فلا أملك إلا أن أبكى مما نعانيه من جدب وحرمان ، وأن أحسد الأوربيين على هذا التفاوت الذى يرفعهم عنا درجات ودرجات فى دنيا الفنون .

(العراق) م . ه . الطاهرى

لسنا أسعد منك حظاً فى مصر يا أخى .. إن الحرمان من الفنون معقود على رءوسنا جميعاً كالطير . وإذا كانت هذه اللحظات الفنية قد أتيحت لك أثناء دراستك الجامعية فتيقن من أن هذا لم يكن إلا بجهود قوم فضلاء ، وأن حياتنا الخارجية ليس فيها موسيقى كلاسيك . وفى المرات المعدودة التى شرفتنا فى مصر أثناءها فرق أجنبية حال الفقر على متذوقى الموسيقى الحقيقيين أن يشهدوا شيئاً . وأوربا نفسها تعانى هذه الحالة نفسها ولكن بصورة أخرى . فالإقبال عندهم على الكلاسيك قد ضعف إلى حد إفلاس فرق كبيرة كثيرة .

وقد نشرت مجموعة الكتب « بليكان » مؤلفاً عن الموسيقى سنة ١٩٥٠ للناقد الموسيقى المعروف رالف هيل وبعض زملائه من المحررين المختصين . والكتاب — ولعلك رأيته — عبارة عن مناقشة لموضوعات موسيقية بارزة ودراسات شاملة لكل ما يتعلق بفن الموسيقى ولو من جانب التشكيلات الصناعية . ويشير الأستاذ رالف هيل فى أول بحوث الكتاب إلى الصعوبات المادية التى تعانيها الفرق الموسيقية التى تعزف أنغام الكلاسيك فى لندن . وهو يقرر حقيقة الزيادة الملحوظة فى عدد المهتمين بالموسيقى الكلاسيك منذ عشر سنوات ، ولكنه لا يجد مع ذلك مندوحة عن تقرير حقيقة المعاناة التى تتسم بها حياة الفرق العازفة الإنجليزية فيما عدا الفرقة الخاصة بالإذاعة فى لندن . فهذه قد وجدت الحماية من دار الإذاعة على الرغم من المهاجمات الشديدة التى قام بها الجمهور نحو برامجها .

والقراءة أيضاً

إنى أحب مجلتكم يا سيدى وأقبل على قراءتها بنفس مشتاقة .. ولكنى أتعب من القراءة وأمل بسرعة . وكثيراً ما أقبلت على كتب وروايات لقراءتها فإذا بى لا أكاد أقرأ صفحتين حتى يغلبنى النعاس وأهرع إلى السرير لأدخل فى نوم عميق ! إنى حائر يا سيدى بين هذه الرغبة الشديدة فى القراءة والتزود بالثقافة وبين هذا الضعف الذى أشعر به كلما هممت بأن أقرأ .. ألا من علاج ؟

(قارىء)

إن مشكلتك يا عزيزى هى مشكلة جيل الشباب فى مصر الآن ، إن إرادة عدم إجهاد النفس هى التى تنيم الانسان عند ما يقبل على القراءة ، وهى إرادة قوية متمكنة من نفوسنا قادرة على التأثير فى مشاعرنا الباطنة ، إنك لست بمفردك على هذا الحال ، وتيقن من أن لك زملاء مخلصين فى هذا النحو ، فشعبنا ليس من الشعوب القرّاءة بحمد الله ولا تكاد تجد من بين شبابنا الذى يدعى أنه مثقف شخصاً أو اثنين يتابعون الكتب بانتظام أو بغير انتظام . واجلس فى أى مكان عام فلن تجد إنساناً واحداً يطالع شيئاً فى يده . ليس هذا فحسب ، بل تعجب معى من أولئك الذين يخجلون من حمل الكتب فى الطريق خشية اتهامهم بأنهم لا يزالون تلاميذ !! ولا زلت أذكر صاحباً أصمته وأنا ماش فى طريق يوماً من أنى مع ما أبلغه من الكبر لا أزال تلميذاً .. لا لشىء إلا لأنى أحمل الكتب !

آه لو تعلم كيف يقرءون فى الخارج وفى أوربا بالذات ، إنهم يتنفسون الثقافة ويتنفلون ويحسون بأن الإنسان من غير قراءة لا يساوى شيئاً . إنهم يقرءون فى الطريق وفى الترام وفى القهوة ويستهولون فداحة العيش من غير تشغيل معدة العقل ، وقلما تجد إنساناً فرنسياً مثقفاً لا يكون قد اطلع على جملة المؤلفات الأدبية المعاصرة أو شهد أغلب التمثيليات التى يضعها كبار الكتاب هناك . ويحكى لنا أستاذ جامعى أن ليفى بريل وهو من أكبر علماء الاجتماع كان يقرأ فى الكتاب من بيته إلى كرسيه بالقاعة كأنما يأسف للدقائق يمضيها فى غير اطلاع .

وأعود فأقول إن إرادة الإنسان الباطنة أقوى من إرادته الظاهرة ، وقد أجرى علم النفس الحديث تجارب على الجنود الذين أصيبوا بالعمى أثناء القتال بالمعارك الحربية ، وانتهى إلى أن الخوف من القتال هو الذى كان يؤثر عليهم التأثير العضوى الذى يؤدى إلى سحبه ووضعه فى المستشفيات بعيداً عن الميادين . لم يكونوا يحبون الحرب ويكرهون رؤية الفظائع الدموية فأعماهم شعورهم الباطن حتى يخلصوا من هذا الهم الثقيل ، وكذلك القارىء الذى يحس بالنعاس بعد دقائق من الامساك بالكتاب ، إنه هو الآخر يحمل فى باطنه رغبة أصيلة وعشقاً خالصاً لحولة الكسل . إنه ابن بار لهذه الأمة التى لا تريد أن تعرف ولا تتطلع إلى ثقافة ولا تهتم بالغذاء العقلى .

عبد الفتاح البرجى

الثقافة

العدد ٦٥٩
١٣ من أغسطس ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليما

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
دكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٥٩ — الاثنين ١٠ من ذي القعدة سنة ١٣٧٠ — ١٣ من أغسطس سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

آباء وأبنـــاء

للدكتور زكي نجيب محمود

يحكى أن جماعة من القنافذ كانت تعيش معاً في سفح الجبل ؛ فلما جاءها الشتاء ببرده المثلوج ، وأخذتها في الليل رعشة تناولت منها المفاصل والعظام ، اقترح عليها واحد منها أن يجتمع شتيتها في كومة متلاصقة حتى يدفئ بعضها بعضا بحرارة أجسادها ؛ لكن جماعة القنافذ لم يكد يلاصق بعضها ببعض طلباً للدفء ، حتى أحس كل منها وخز الإبر الحادة المسنونة التي تغطي أجساد زملائه ؛ فما هو إلا أن أفصحت كلها عن كظيم آلامها وطلبت أن تعود إلى مواضعها المتفرقة ، فلذعة البرد أهون من هذا الوخز الأليم ؛ وعادت القنافذ فتفرقت كما كانت أول أمرها ، لكنها كذلك عادت فأحست زمهرير الشتاء يهز كيانها هزاً عنيفاً ، وكأنما نسيت إزاء هـذا البلاء ما كان من ألم الوخز منذ قريب ، فصاح بعضها ببعض ينشد كلها التلاصق مرة أخرى حتى يعود لها الدفء ؛ وعاد وخز الإبر وأنساها الألم الحاضر ألم الماضي ، فضجرت وتفرقت مرة أخرى — وهكذا دواليك : اقتراب وابتعاد واتصال وانفصال ؛ إلى أن قال منهم قائل حكيم : خطؤنا في المبالغة والإسراف ، فإذا ابتعدنا أوغلنا في البعد حتى فقد كل منا دفء أخيه وتعرض للبرد الشديد ، وإذا اقتربنا أوغلنا في القرب حتى وخز كل منا جلد أخيه فأدماه ؛ والحكمة في اختيار الوضع الصواب بين الطرفين بحيث ننجو من الوخز دون أن نفقد دفء التقارب ما استطعنا إليه سبيلاً .

وحكاية القنافذ هذه تقفز إلى ذهني كلما صحت بخلاف يدب بين أفراد الأسرة الواحدة ، أو بين جماعة من الأصدقاء .. فكأنما أراد الله لنا ألا نقع أبداً على هذا الوضع الصواب في علاقتنا بعضنا ببعض ، بحيث يبعد كل منا عن شئون الآخرين بعداً يتيح لهؤلاء الآخرين أن يشعروا بشخصياتهم مستقلة قائمة بذاتها ، وبحيث لا يكون ذلك البعد سبباً في حرماننا من دفء العاطفة التي يستمدها بعضنا من بعض .

وتبلغ هـذه المأساة قمتها حين تقع حوادثها بين الآباء وأبنائهم ؛ إني لا أعتز بخبرة واسعة في شئون الناس وأمور حياتهم من حيث الدقائق والتفصيلات ، لأني أعيش حياة أقرب إلى العزلة في ركن هادئ لا يصطخب بكثير من الناس

فى تشابكهم واصطدامهم ، لكننى فى حدود خبرتى الضيقة القليلة ، لم أكد أصادف أسرة مصرية واحدة لا يأكل أفرادها بعضهم بعضا ، فكل ينهش لحم أخيه حياً ، ومع ذلك لايجدون إلى التباعد سبيلا ؛ فالتقاليد الشرقية تحتم أن يتكوم أفراد الأسرة الواحدة حتى لا يكون بينها فرقة فى أعين الناس ، لكنها إذا ما تلاصقت على هذا النحو الشديد ، أصابها ما أصاب القنافذ فى اجتماعها : وخز أليم يدمى الجلود ؛ وشر المأساة هو — كما أسلفت — حين يكون هذا الوخز الأليم بين الوالد وأبنائه ؛ فيستحيل على الوالد أن يرضيه ابتعاد أبنائه عنه ، إما لشدة فى عاطفته الأبوية — ولا أظن ذلك — وإما لخوفه مما يقوله الناس لو تفرق أفراد أسرته ؛ وفى الوقت نفسه يستحيل على ذلك الوالد أن يُبقى على شخصيات أبنائه سليمة من الوخز ؛ وقل مثل ذلك أيضاً بالنسبة للأبناء إزاء آبائهم ، فلا هم يحزمون أمرهم فيستقلوا بعيشهم حين تسعفهم القدرة الاقتصادية ، ولا هم يظلون مع آبائهم تحت سقف واحد بحيث يحرصون على جلود هؤلاء الآباء من التجريح والتمزيق .

وهنا تعود إلىّ ذكريات أعوامى الماضية ، حين اكتملت رجولتى وأوغلت فى الحلقة الرابعة من عمرى ، ومع ذلك ظللت أساكن والدى فى بيت واحد ، وحرص كلانا جهد الاستطاعة ألا يتلقى الإساءة من الآخر ، فكان كل منا كأنه يلعب بالبيضة والحجر كما يقولون ، لا يريد للحجر أن يكسر البيضة ؛ لكن ذلك محال على الطبيعة البشرية ، ولما كان لوالدى — رحمه الله — ميزة أنه والد ، فكثيراً جداً ما صب على رأسى الإساءة تلو الإساءة على مسمع ومشهد من الناس ؛ وكنت أكظم غيظى وأنطوى على نفسى فى غرفتى أمزق أعصابى تمزيقاً ، ولا يعود إلىّ هدوء النفس إلا بعد أيام ؛ إنى لا أعلم أين قرأ والدى أو أين سمع فكرة أعجبته وصادفت فى نفسه هوى ، وهى أن الوالد يكرر نفسه فى أبنائه ، فالابن نسخة من أبيه ، وما دام الأصل موجوداً فهذه النسخات لا ينبغى أن يعترف لها بوجود ؛ والحق أنه إذا كانت المقدمة صحيحة لزم أن تكون هذه النتيجة صحيحة أيضاً ، إذ ما دمنا صوراً مكررة له ، فله هو القيمة كلها ، وأما نحن فلا يلتفت إلينا إلا فى غيبته .

لكن المقدمة خطأ فاحش ونتيجتها خطأ أفحش ؛ وهذا هو ما نريد أن نحفره حفراً فى رءوس الآباء عندنا ؛ فلكل ولد شخصيته الفردية المستقلة القائمة بذاتها ؛ وقد أعلنت الطبيعة ذلك إعلاناً صريحاً يوم قطعت القابلة الحبل السُّرى الذى كان يصل الجنين بأمه ، ففصلتهما شخصين بعد أن كانا شخصاً واحداً . إن صميم الحياة فى كافة الأحياء هو هذا التفرد ؛ فيستحيل عليك أن تجد على سطح الأرض من أقصاها إلى أقصاها ورقتين من أوراق الشجر متماثلتين كل التماثل ؛ وانظر إلى بصمات الأصابع كيف يستحيل تكرارها فى شخصين على نحو يحقق التطابق التام ؛ ليس الأمر فى الحياة والأحياء كالأمر فى المصنع ومنتجاته ؛ ثم إن المصنع يستطيع أن يخرج لك مئات الأحذية أو مئات السيارات بحيث تجئ على تشابه تام أحياناً ، لكن ذلك محال فى كافة الأحياء من الأميبا الوضيعة البسيطة إلى الإنسان .

لقد حدث لى أن اشتركت فى مؤتمر لليونسكو فى باريس عام ١٩٤٧ ، وكان بين الشخصيات الكبيرة التى لقيتها هناك السيدة مرغريت ميد ، وهى من أكبر العلماء العالميين فى علم الأجناس البشرية ؛ كنت أسمع اسمها يذكر فى المحاضرات مقرونا بالتبجيل والاحترام ، وكنت أرجع إلى كتبها رجوعى إلى الثقة ؛ وكنت أتصورها سيدة عجوزاً أربت على الستين ؛ فلما رأيتها فى أربعينها ما تزال مليئة بالحياة ، عجبت أن تجئ هذه السمعة العلمية العالمية كلها لهذه المرأة التى لم تزل تعنى بنفسها وثيابها ... وتحدثت إليها وكان مما حدثتنى أن ذكرت لى كيف جاءتها الدعوة وهى فى أمريكا لحضور اجتماع اليونسكو بباريس ، وكان لها طفلة فى السادسة من عمرها ، فعرضت على الطفلة كلا من الصورتين : صورة مرافقتها إلى باريس (وهو أمر لم تكن توده الأم) وصورة بقائها مع أبيها ؛ وما زالت بها حتى اختارت طفلتها عن طيب خاطر أن تبقى ... قالت لى الأم : إنها لا تذكر مرة واحدة أرغمت فيها طفلتها هذه على شئ ، فما الإنسان — فى رأيها — إلا قوة اختيار لنفسه ، وإنما أرادت هذه الأم العالمة لابنتها أن تنمو على إنسانية كاملة .

لكن قل هذا لمعظم آبائنا يضحكوا منك ، وحتى إن هم

أرغموا على فعله أمام عناد أطفالهم ، فإنما يرغمون عليه إرغاماً ، ولا يصدر منهم عن عقيدة في تربية أبنائهم تربية سليمة .

لا يريد الوالد عندنا أن يعترف عن عقيدة بأنه هو شيء وكل ابن من أبنائه شيء آخر ، ولو كان ذلك صوابا ، فلست أدري إذاً لماذا يحصون السكان فرداً فرداً ، ولا يحصونهم والداً والداً ؟ وهيهات أن تطمس وجود والدك إلى جانب وجودك ، ثم يسلم الأمر بعد ذلك من النتائج أخطر النتائج .

فالولد الذي يبدأ هذه البداية البشعة ، يريد أن يقرر ذاته حسب ما تملي عليه طبيعته وظروفه ، فيمحوه أبوه محواً كأنه ظل من ظلاله ، تراه يكبر على أحد أمرين : فإما هو عبد ذليل لكل سلطان ، أو هو ثائر ناقم على كل سلطان ؟ وليست حياته في كلتا الحالتين بالحياة السوية المادية السعيدة .

إنه سرعان ما تنتقل سلطة الوالد إلى سلطة الحاكم أو سلطة المستعمر أو ما إليهما ، وعندئذ يسهل على الحاكم أن يستبد ويطغى ، أو يسهل على المستعمر أن يمرح ويمرع ، لأن هذا أو ذلك سيجد نفسه إزاء أفراد نشأوا على طاعة عمياء ؟ وهل تعجب بعد ذلك أن يُضرب المثل في الطغيان بحكام الشرق ، وألا يجد المستعمرون أيسر منالاً من بلاد الشرق ؟ إنهما وجهان لحقيقة واحدة : هي طغيان الوالد بأولاده وابتلاع أشخاصهم في شخصه .

لكن هذه الطاعة العمياء قد تنتج كذلك النفوس الثائرة المحطمة لكل سلطان ، التي تهدم الهدم ذاته انتقاماً لما أصابها أيام الطفولة . وإذا كثر أمثال هؤلاء تعذر السير المتين المطمئن في المجتمع بصفة عامة — وأذكر في هذا الصدد أني صادفت طالباً فاطعني أثناء المحاضرة ليعترض بما لم يكن له ارتباط قوي بما كنت أحاضر فيه ، فاطعني ليبدي رأياً وهو يرتعش من الانفعال الذي لا موجب له ، والرأي متعلق بالله ومدى علمه وقدرته . فأمسكته في غير جواب ، حتى إذا ما فرغت من المحاضرة ، دعوته على انفراد لأسأله عن حاله في أسرته قبل أن أستعيد سؤاله ، وسرعان ما علمت أن العلاقة بينه وبين أبيه توشك أن تكون هي العلاقة بين العدو وعدوه اللدود ... فثار الثائر على الأب الأصغر والأب الأكبر ، وكل ما تشم فيه رائحة السلطان الأبوي بغير تمييز .

• • •

وبعد ، فهذه خواطر في نوع واحد من أنواع العلاقة بين الناس عندنا ، أثارتها في نفسي رسالة جاءتني منذ أيام قليلة من قارئة مثقفة تخرجت في الجامعة فيما أرجح ، أقرؤها فترتسم أمامك صورة فتاة من مئات الضحايا ، اللاتي قد أرهف العلم فيهن الشعور وهذب منهن الحس ، ثم عُدن إلى الحياة ليجدن أنفسهن في مجتمع منزلي قاس خشن غليظ ؟ ولست أدري لماذا اختارت هذه القارئة المجهولة أن تبعث رسالتها إليّ ؟ لعلها رجحت أن تجد فيّ أذناً تصغي ، لما يتسرب مني آناً بعد آن من أخبار طفولتي ؛ وها أنذا أترك كثيراً من آلامها المبثوثة في خطابها ، وأثبت هنا قليلا منها ، ليرى القراء كيف تعيش هذه الفتاة المثقفة في دفع من الذل والجزر ، تقول :

« ... حينما علمت أن أبي يتهمني بضعف الشخصية وانعدام الإرادة ، جثمت على صدري سنوات حياتي الماضية بثقلها فحطمت روحي ؛ لقد لاحظ أبي أخيراً هذا الضعف في شخصيتي وهو في ذلك يلقي التبعة عليّ !! إن مرحلة طفولتي وطفولة إخوتي جميعاً لتتراءى أمام عيني الآن بكل أحداثها .. ولكن ماذا أقول ؟ ألم تكن كل هذه الأحداث كفيلة بأن تنتهي بي إلى هذه النهاية ؟!

ولكني مع ذلك قد حاولت يوماً أن أتناسى تلك الأيام وأن أبني حياتي من جديد ؛ حاولت أن أتشجع وأكون لنفسي شخصيتي ؛ وقد كنت صادقة قوية الإيمان فيما عزمت عليه ، لكنهم لم يتركوني ، فقد سدوا أمامي جميع الطرق حتى انهرت أمامهم ؛ لماذا ينسى أبي كل ما فعل بنا ؟ لماذا ؟ إنه لا يذكر إلا أنه يجب أن تكون على ما يشتهي ولو كان ذلك هو المستحيل ...

والآن قد ذهبت آمالي وأحلامي ؛ لقد فقدت كل شيء ، لقد فقدت الرغبة في الحياة . لم يعد لي أمل ولا هدف .

(البقية على الصفحة التالية)

٢٨ - خاطـــــرة

للدكتور أحمد أمين بك

اليوم كانت الريح شديدة ، وكنت في الإسكندرية وسلمني ساعي البريد خطاباً استنفدته فمزقته وألقيته في مهب الريح ، ثم وقفت أتأمل فرأيت عجباً .

قصاصات حملتها الريح فطارت سريعاً لا تعرج على شيء ، وما زالت تجري حتى غابت عن عيني .

وقصاصات جرت كثيراً ثم اصطدمت بحجر فوقفت عنده تحاول الهرب منه فلا يمكن ، لأن الريح تدفعها من خلف والحجر يصدها من الأمام ، فوقفت في منتصف الطريق .

وقصاصة ثالثة ما بدأت أن تتحرك حتى اصطدمت بقشرة بطيخ فلصقت بها ! فلا هي قادرة على التخلص منها لتسير إلى الأمام ، ولا هي قادرة على الرجوع بفعل الريح . وهكذا ورقة واحدة تقسمتها الأقدار ولعبت بها الظروف .

قلت : أليس كذلك الناس في الحياة ؟ من أب واحد وأم واحدة ، وبعضهم يسير قدماً في الحياة لا يلوى على شيء حتى يصل إلى النهاية المحتومة ، ويظن لنفسه أنه إنما وصل إلى ما وصل إليه بجده وسعيه ! مع أنه لا يفوق غيره في شيء ، وإنما خدمته الظروف فخلت الطريق أمامه .

وآخر يسير نصف الطريق فيصطدم فيقف حيث كان ، لا يستطيع أن يتقدم أو يتأخر ، ويرى غيره قد سبقه فيظن أنه إنما سبقه لكفاية فيه . وليس كذلك ، وينظر فيرى من هو متخلف عنه فيحمد الله على ما كان .

وثالث لا يلبث أن يبتدئ فيتعثر ، فلا يستطيع أن يصل حتى إلى من وقف في منتصف الطريق ، ومع ذلك قد ينظر فيرى أنه أحسن صحة من السابقين أو أكثر عقلاً أو نحو ذلك ، فيقول مع القائلين :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه

وجاهل جاهـــل تلقاه مرزوقا

هـــذا الذي ترك الأوهام حائرة

وصـــير العـــالم النحرير زنديقا

وهكذا يكفر بالحظ ولا يستطيع أن يجد الحل .

هذه أوراق متشابهة جداً ، ومصايرها مختلفة جداً .

وهكذا شأن الدنيا : غني يكسب ورقة اليانصيب مرة ومرتين ، ومحتاج لا يكسبها . وأذن ولا حلق ، وحلق ولا أذن . وصحة ولا مال ، ومال ولا صحة ، وامرأة غنية وهي عقيم ، وامرأة فقيرة وهي ولود ، ومثرية قبيحة ، وجميلة معدمة ، ونور للعميان ، وظلام للمبصرين ، والله بالسر عليم .

فهل يستطيع صاحب المنطق الوضعي أن يكشف عن هذه الأحوال ؟

أحمد أمين

ولم أعد أسعى وراء غاية ؛ كل ما أشعر به هو خواء وركود تام . إن شيئاً لم يعد يستثير اهتمامي ، حتى كتبي وموسيقاي يا سيدي لم أعد أشعر بالرغبة فيهما . إن حالي أقرب ما تكون إلى الموت . إني أسير بل أعثر في ظلام ، لا أعرف لنفسي طريقاً في الحياة ، لقد سئمت كل شيء ، بل وسئمت نفسي ... »

ليتنا — يا فتاتي — نسترشد بحكمة القنفذ العاقل حين توجه بالنصيحة لزملائه القنافذ ، وهي أن نحسب على وجه الدقة كم تكون المسافة بيننا وبين سوانا من الأهل والأصدقاء ، بحيث لا نحرم من دفء العواطف الإنسانية في صلاتنا بهؤلاء وهؤلاء ، وبحيث ننجو في الوقت نفسه من وخز الإبر .

زكي نجيب محمود

رســـــائل من المغرب

الرسالة الرابعة

طنجة في ... سنة ١٩٥١

أخي راغب .

سأتحدث إليك في هذه الرسالة عن تجربة مريرة مؤلمة ، فيها عظة لنا نحن أهل المغرب ، ومعرفة لكم أهل المشرق .

منذ سنتين حاولت أن أزور بلاد الجزائر . وبالرغم من أن هذه البلاد تعد في نظر الفرنسيين ، وفي العرف السياسي الرسمي ، قطعة من الاتحاد الفرنسي ، فإني وجدت من العنت والصعوبة في الحصول على التصريح بالدخول الشيء الكثير . فلقد كان عليّ أن أقدم ثلاث صور شمسية ، وأن أجيب عن مجموعة من الأسئلة الشخصية ، وأن أعطي عنوان شخصين مزكيين من أهل الجزائر ، وأن أنتظر حتى تُرسل أوراقي إلى الحاكم العام هناك فتفحص ثم يؤشر بالموافقة على الزيارة . ولقد ترددت كثيراً في أن أعطي اسمي صديقين لي من أهل الجزائر ، على أنهما مزكيان ، خشية أن تثار حولهما الشبهات السياسية . وأخيراً استطعت أن أدخل بلاد الجزائر فماذا وجدت ؟ .

وجدت تلك البلاد التي استهدفت للغزو الفرنسي منذ ١٢٠ سنة قد امحت منها الآثار العربية ، والمعالم الإسلامية ، والتقاليد القومية ، اللهم إلا بقايا تتراءى هنا وهناك كما يتراءى تحت الرماد وميض النار . فلم تقع عيني على جريدة أو مجلة عربية ، ولم أر عنوان شارع ، أو لافتة ، مكتوباً بالعربية . ثم تصدر بهذه البلاد التي يسكنها سبعة ملايين من المسلمين مجلة « شبه أسبوعية » اسمها « البصائر » هي لسان جمعية العلماء ، وشعارها العروبة والإسلام ، وأقول « شبه أسبوعية » لأنها لا تصدر كل أسبوع كما هو المفروض . والسبب في تعثرها وتعطيلها واضح . فالبلاد بصيرورتها فرنسية رسمياً ، أصبحت فيها اللغة الفرنسية هي اللغة القومية ، تعلم في المدارس على أنها اللغة الأولى ، وأصبحت اللغة العربية لغة أجنبية يختارها التلميذ بعد الفرنسية كما يختار الإسبانية أو الإيطالية . وبذلك قل قراء العربية إلى درجة الندرة .

هذا إلى أن المجلة مجلة مقالات جدية لا أخبار ولا قصص غرامية . فلذلك لا يجد فيها العدد القليل من قراء العربية ما يجده في المجلات والصحف الفرنسية المحلية والخارجية .

ولقد حاولت أن أتكلم العربية مع الجزائريين فلم أستطع التفاهم . فما يعرفونه من العربية مزيج من البربرية والكلمات الفرنسية . وكيف أفهمهم وهم ينطقون بكلمتي محمد وعلي مثلاً « مُهمَّت وألي » ؟ ولقد خفف من قسوة شعوري بالأسى لهذه الحال ما عرفته من أن جمعية العلماء الجزائريين ، والغيورين من الوطنيين ، قد أسسوا مدارس إسلامية عربية ، ولكن روادها قليل . وسبب ذلك أيضاً واضح ؛ فالأطفال يرسلهم آباؤهم إلى مدارس الدولة التي تمنح الشهادات ، والتي تمكنهم في المستقبل من الارتزاق والتوظف . أما المدارس العربية الأهلية فمستقبلها خياليّ ، لا تمنح شهادات معترفاً بها ، ولا تعد لدراسات عليا . والآباء في ذلك معذورون . على أني سمعت من بعض الآباء أنهم لحرصهم على تعليم أولادهم العربية ، يرسلون بهم في الفجر لتلقي درس أو درسين قبل الذهاب إلى مدرسة الحكومة . ومنهم من يذهب إلى المدارس العربية بعد العودة من مدارس الحكومة . وفي هذا عناء ومشقة على الأطفال . ولا أبالغ إذا قلت إن معلمي هذه المدارس العربية من نوع فقهاء الكتاتيب التي كانت عندكم بمصر في أول هذا القرن ، ممن يتخذون من أساليب التعليم العتيقة ما يكرّه الأطفال فيما يتعلمون .

أما معالم الإسلام فلعلك توافق معي على أن أهمها المساجد التي يدل قيامها على وجود جماعة مسلمة تؤمها . ومن المحزن أن أروي لك ما ذكره لي أحد إخواننا الجزائريين من أنه كان بمدينة الجزائر عند الغزو الفرنسي نحو مائتي مسجد وزاوية فلم يبق بها الآن إلا مسجدان . ماذا جرى ؟ قطعت الأوقاف ، وألغيت الوظائف الدينية بها ، ولم يُصلح ما آل منها إلى السقوط فتهدم وأصبح خرائب ،

وحُوِّل بعضها إلى كنائس . ولا زالت بعض كنائسها محتفظة ببنايتها الأولى عندما كانت مساجد ؛ كما في الصورة المرافقة .

وزوال المساجد ، واضطهاد العلماء ، واتهامهم بالحركات السياسية المعادية ، وفتح المدارس الفرنسية بدل القومية ، وإحلال اللغة الفرنسية محل العربية ، نشأت أجيال لا تعرف من الإسلام إلا اسمه ، وتعترف بإسلامها بصورة تقليدية ، لا تحمل معها معنى واضحاً أو شعوراً قوياً .

وأنت تعرف أن ليس لفرنسا دين رسمي ، فهي لا تعلم يظنون أن غرضهم إنسانى اجتماعى محض . إن لهؤلاء عياداتهم الطبية ، وملاجئهم ، ومدارسهم ، وأنديتهم الاجتماعية ، وخدماتهم ، وإعاناتهم ، وهم يبثون في الطبقات الدنيا الجاهلة ، ويغرونهم بالخدمات الصحية والمعونات . وقد نجحوا فعلاً في تنصير عدد من البسطاء ، وإيواء أطفال يتامى أو فقراء من أبناء المسلمين فنشئوا على دينهم . وبذلك لم يتخذ الاستعمار من الإسلام ، ودين البلاد ، موقفاً سلبياً فقط ، بل اتخذ موقفاً إيجابياً بصورة خفية . وبالرغم من كل هذه



(كاتدرائية في مدينة الجزائر وكانت قبل مسجداً)

في مدارسها بالجزائر ديانة من الديانات ، ولكن الشعب مسيحي ومعظمه كاثوليكي ، والمدرسون والمدرسات من أصل فرنسي ، ولذلك تقفل المدارس أيام الآحاد ، أيام العطلة الأسبوعية . وهكذا صار أولاد المسلمين الذين يتعلمون بمدارس الحكومة لا يعرفون شيئاً من التقاليد الإسلامية ، وينظرون إلى يوم الأحد على أنه يوم عطلتهم الأسبوعية .

وللمبشرين الذين وفدوا مع الغزو وانتشروا في البلاد ، لاسيما القرى والجبال ، يجدون من الحكام تأييداً عظيماً . أذكر لك شيئاً من طوائف المبشرين « الآباء البيض » الذين الجهود مازال أهل الجزائر متمسكين بدينهم حريصين عليه ، ولو أنه حرص صوري .

لاتسئ فهمي — أيها الأخ — فتظن أني متعصب ديني . كلا فأنا أومن بما جاء في القرآن (ولا أنا عابد ماعبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين) . وإنما سقت لك ما لاحظته عن حال الإسلام والمسلمين في الجزائر لترى مقدار مافعل الاستعمار بدين البلاد ولغتها .

فإن سألتني عن التقاليد القومية قلت لك إن البلاد فقدت كل تقاليدها القومية ؛ فليس لها أعياد قومية ؛ عيد ملك



(الحي الوطني في مدينة الجزائر)

أو عيد استقلال أو عيد الدستور ، وإنما تحتفل يوم ١٤ يوليو عيد الثورة الفرنسية ، وفقدت تاريخها القومي ! فلا يُعلَّم في المدارس إلا تاريخ فرنسا ، والجزائر الفرنسية ، وفقدت ذكرى عظمائها ؟ فما كان لها من عظماء محا الاستعمار ذكره واسمه . وأصبحت شوارعها وميادينها ومدارسها تحمل أسماء قواد ، وسياسيين ، وشعراء ، وكتاب فرنسيين . ثم طغت عليها تقاليد الدولة المستعمرة : بيوت الفاجرات مفتوحة علناً ، وحانات الخمور أكثر من دكاكين السجاير ، وأصبحت الجزائر الإسلامية شهيرة بخمورها التي هي مورد ثروة كبيرة للحكومة والأفراد . والملاهي ودور القمار مؤسسات مرخص بها رسمياً ، ولم يبق من تقاليد البلاد ما يذكرها بقوميتها وعزتها وتاريخها . ثم بقي شيء احترمه الاستعمار وحافظ عليه هو الجهل ، والاعتقاد في الكرامات ، وزيارة أضرحة الأولياء ، وإنك لو زرت بعض الأضرحة لوجدت جماهير من النساء والشيوخ والأطفال ، يطوفون ، ويتبركون ، ويرجون الشفاء ، أو ردّ المفقود ، أو رفع البلاء !.

وثمة شيء آخر احتفظ به الاستعمار وشجعه ، هو الفقر .

ومن المغالطات أن يقال إن الاستعمار ينمي ثروة البلاد ؟ فلمن هذه التنمية ؟ إنه ينميها لنفسه ولمستعمريه ولدولته . ويكفي دليلاً على ذلك أن الفرنسيين نجحوا في شراء الأراضي الزراعية من السكان الأصليين فزحفوا إلى الجنوب — إلى الصحراء — ولكن لم يتركوهم وصحراءهم ، بل صاروا كما أصلح أهل البلاد الأراضي ، وزادت ديونهم الناجمة عن الشراب والسفه ، اشتروها منهم . وبذلك تحولت الثروة الزراعية إلى المستعمر . أما الثروة الصناعية والتجارية فهل تنتظر أن ينافس فيها الجزائري سيده المستعمر ؟ إن الشركات الصناعية ، والبيوت التجارية ، والمصارف ، كل هذه في يد الفرنسيين . ولا تنس أن العملة في الجزائر هي الفرنك الفرنسي ، والبلاد — يا أخي — غنية بمعادنها لاسيما الحديد ، وصناعاتها الزراعية كالسجائر من التبغ الناجح في الجزائر ، والزيوت ، والصابون ، والأخشاب ، والفواكه ، والخمور .

أما الجزائريون فبالرغم من معاشرتهم للفرنسيين أكثر من قرن ، ومشاهدتهم إياهم في حياتهم الإنتاجية والثقافية ، مازالوا يعيشون عيشة فقر وبؤس وحرمان ، إنهم لم يندمجوا في الفرنسيين فيصيروا مثلهم ، ولم يبقوا على كيانهم وثروتهم ، ويتعلموا ، وينشطوا ، ويتنافسوا لينهضوا . فصاروا إلى تلك الحال التي تشاهدها في الصورة المرافقة .

سافرت يوماً إلى إحدى القرى النائية في الجنوب ، وحسبت أني سأجد نفسي في صميم الشعب الجزائري ، ولكن أملي خاب ، فقد وجدت المقاهي والمتاجر والمطاعم والفنادق والحانات والبيوت الجميلة والبساتين كلها في يد المستعمر .

هذه — يا أخي — إحدى تجاربي في آثار الاستعمار الفرنسي بشمال إفريقيا ، وودت أن أسجلها لك في رسائلي هذه ، وأن أمليها ، وإنها لصفحة سوداء في تاريخ الاستعمار ، وفي سجل أمة كانت أولى دول العالم التي نادت بالحرية والإخاء والمساواة ، أمة تفاخر بديمقراطيتها ودفاعها عن الديمقراطية والحريات . ولكن العالم مازال مليئاً بالمتناقضات .

قتل امرئ في غابة　　جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن　　مسألة فيها نظر

أخوك

أبو مروان

العيـــد المئوى
للسكك الحديدية فى مصر

للأستاذ محمد أمين حسونة

فى يوم ١٢ يوليه عام ١٨٥١ وقع عباس باشا الأول اتفاقاً بينه وبين المهندس العالمى روبرت ستيفنسن لإنشاء خط حديدى من الإسكندرية إلى القاهرة فالسويس ، وبذلك يكون قد انقضى قرن كامل على مد أول خط حديدى فى القارة الأفريقية بل فى الشرق بأسره .

والحقيقة أن موقع مصر الجغرافى وهو الملتقى الطبيعى لقارات آسيا وأوربا وأفريقية جعل لها أهمية خاصة ومركزاً تجارياً تحسد عليه . وورد اسم مصر فى الكتب المقدسة باعتبار أنها طريق تجارى عالمى وأن فيها أهراء الغلال ومستودعات الحبوب . وظلت مصر أجيالا طويلة وهى تملك طريق التجارة بين الشرق والغرب . وأخيراً برزت عند فريق من رجال الأعمال فى انجلترا فكرة اختصار الرحلة إلى الهند عن طريق الاسكندرية وأحد موانىء البحر الأحمر ، وظلت هذه الفكرة تشغل الأذهان وقتاً طويلا إلى أن كتب النجاح لضابط بحرى هو الملازم توماس واجهورن ، فأنشأ ما أسماه بالطريق البرى « أوفر لاند روت » وهو عبارة عن طريق يبدأ من القاهرة إلى السويس فى الصحراء ، فكان القادمون من أوربا يهبطون الإسكندرية ثم يسافرون بالنيل إلى بولاق وبعد أن يقضوا فى القاهرة يومين أو ثلاثة ريثما يفرغ البريد والبضائع فى بولاق يستقلون مركبات الإمنيبوس تجرها الجياد إلى السويس ومنها يستقلون البواخر إلى الهند والشرق الأقصى .

وأخذت أهمية « الطريق البرى » تزداد شيئاً فشيئاً حتى تحولت إليه تجارة الشرق ولجأت إليه الحكومات الأوربية فى إرسال بريدها إلى الهند ، وبلغ متوسط عدد المسافرين بهذا الطريق نحو عشرة آلاف مسافر سنوياً . وأكبر محمد على المشروع لفائدته ، فأنشأ مصلحة حكومية خاصة هى « الأمبارية » تتناول الإشراف على حركة نقل المسافرين والبضائع والبريد وأعمال السفن النهرية التى تجرى بين الإسكندرية وبولاق ، فضلا عن إشرافها على قطار الخيول فى الطريق الصحراوى وحفر آبار ارتوازية .

فى هذه الفترة كان الإنجليز قد فرغوا من مد الخط الحديدى بين ليفربول ومنشستر ، وهو أول الخطوط التى افتتحت للاستغلال التجارى ، فاتجهت النية إلى تعميم التجربة فى مصر والاستعاضة بها عن الطريق البرى .

ويبدو لنا أن تقدم المشروعات الصناعية فى أوربا فى خلال القرن الثامن عشر والتنافس الاقتصادى بين الدول قد أدى إلى البحث عن مواصلات سريعة لتصريف الإنتاج فى ربوع الشرق بأيسر طريقة ، وكانت مصر هى حلقة الوصل بين الغرب والشرق فاتجهت الأنظار إليها لاتخاذها طريقاً إلى الشرق .

وكان محمد على الكبير فى مقدمة المحبذين لمشروع مد خطوط حديدية تصل الاسكندرية بالسويس ، فقد كان حلماً طالما داعب مخيلته وأمنية تتفق مع رغباته السامية ، فيجعل من مصر قاعدة لتصريف الإنتاج الصناعى الأوربى . وأعطيت مناقصة « ليث جالواى » فى لندن للإشراف على ابتياع مهمات الخط الحديدى المقترح مده مع البحث عن مساهمين يعدون المشروع بالمال ومفاوضة الحكومة البريطانية فى الترخيص لها بالنقل على الطريق فى مقابل ثلاثة بنسات عن كل رسالة تنقل إلى الهند وبالعكس . وفى صيف عام ١٨٣٥ وصلت إلى ميناء الاسكندرية أول رسالة من المهمات والأدوات والقضبان والقاطرات والركبات . وهنا برزت مشكلة سياسية عرقلت تنفيذ المشروع ... كانت المزاحمة السياسية بين كل من فرنسا وانجلترا للسيطرة على مرافق المواصلات إلى الشرق قد قويت . وخشيت فرنسا أن يعرقل مشروع مد السكة الحديدية نيتها البيتة فى حفر

قناة تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر . وكانت حجة فرنسا التي تقدمت بها إلى محمد علي أن منح امتياز خط القاهرة — السويس الحديدي للإنجليز فيه مضار وأخطار كثيرة ، فهو لن يعود بأرباح على خزانة الدولة ، وأن معناه وضع عنق مصر تحت أقدام إنجلترا . إذ أن الإنجليز سوف يطالبون في المستقبل بامتيازات أشد خطورة كالسماح بمرور الجيوش البريطانية المتجهة إلى الهند بوساطة هذا الخط ، فضلاً عن أن المؤسسات التي ستصحب المشروع كالمحطات والمصانع وورش الصيانة ومخازن الفحم ستكون إنجليزية بحتة ، فضلاً عن أن المشروع من الناحيـة الاقتصادية قد لا يأتي بربح أكثر من واحد في الثلاثة من رأس المال .

وكان رد محمد علي في النهاية : أن مصر ليس عندها المال الكافي لتقوم وحدها بإنشاء الخط الحديدي وأن الخط غير ضروري في الوقت الحاضر .

أما المهمات التي وصلت إلى الاسكندرية فظلت متروكة على أرصفة الميناء نحو خمسة عشر عاماً إلى أن علاها الصدأ . وبقيت الطرق الحديدية في مصر في مقدمة المسائل الحيوية التي تعيرها انجلترا اهتماماً بالغاً ، وتتحين الفرص لتنفيذها ، على حين كانت فرنسا تحبذ مشروع حفر القناة مع محاربتها طريق السويس الحديدي .

وكانت وفاة محمد علي فرصة طيبة لانجلترا التي لم تتوان من توطيد علاقتها بالوالي الجـديد وعرض خدماتها عليه بغية الحصول على امتياز مشروع إنشاء السكك الحديدية وتقويض سياسـة فرنسا في مصر مع الحيلولة دون تنفيذ مشروع حفر القناة .

وكان لسكرتير مستر والم قنصل انجلترا في القاهرة دخل في الموضوع ... كان هناك شبه فتور بين عباس الأول وبين الباب العالي ، وحاول رجال الدولة العثمانية من ناحية أخرى أن يطبقوا على مصر القانون المعروف بقانون التنظيمات ، فاستعان مستر والم بوساطة سفير انجلترا في استامبول لكي يحمل الباب العالي على تغيير سياسته نحو مصر ومنع رجال الدولة العثمانية من التدخل في شئونها الخاصة ، والسعي في تغيير نظام وراثة العرش ليئول إلى الحاكم نجل عباس الأول . وانتهز القنصل الإنجليزي فرصة نجاح مسعاه ، فأخذ يزين للوالي الجديد مشروع إنشاء سكة حديدية تستغلها الحكومة المصرية وتستولى على إيرادها ، إلا أن عباساً الأول كان يخشى سطوة فرنسا ، فكلف مسيو لجوان أن يسأل فرنسا عن نوع المساعدة التي يمكن أن تقدمها في حالة إنشاء خطوط حديدية في مصر ، ولكن مسيو جيزوه وزير خارجية فرنسا مع اعترافه بالفوائد التي تنجم عن تنفيذ مثل هذا المشروع كان مهتما بفكرة حفر القناة تمهيداً لسيطرة فرنسا على طرق المواصلات إلى الشرق .

ورأى عباس الأول أن فرنسا تهتم في الواقع بمشروع القناة أكثر من اهتمامها بمشروع الخط الحديدي فآثر الإذعان إلى مشيئة انجلترا والاتجاه إليها لتتولى بمعرفتها القيام بالمشروع .

وفي خريف عام ١٨٥٠ وفد على مصر روبرت ستيفنسن نجل مخترع السكك الحديدية بقصد النزهة والسياحة ، أما في الباطن فلتقديم مشورته الفنية إلى الوالي بشأن الخطوط الحديدية المقترح مدها ، كان من رأى ستيفنسن أن يبدأ الخط الحديدي من القناطر إلى القاهرة فالسويس لعدة أسباب . منها : أن المواصلات بالنيل ليست على ما يرام ، فالنهر لا يصلح للملاحة إلا مدة خمسة أشهر في السنة والسفن التي تجري في مرضه لا تزيد حمولتها على خمسين طناً ، فضلا عن أن البدء بمد الخط من الاسكندرية يسهل نقل المهمات والأدوات والقضبان إلى داخل البلاد .

ومن الطريف أن نذكر أن المباحثات كانت تجرى بين عباس الأول ومستر والم وستيفنسون سراً في الليل في قصر الوالي الواقع بناحية « الدار البيضاء » على طريق السويس الصحراوي ، وكان الغرض من التكتم في هذه المباحثات ألا تتسرب إلى فرنسا فتكون سبباً في عرقلة المشروع ، إلا أنه على الرغم من تلك الحيطة فقد اتصل بقنصل فرنسا بعض التفصيلات المتعلقة بالمشروع فاحتج على ذلك ، غير أن عباساً الأول أكد له أن إدارة السكك الحديدية ستكون مصرية ولن تمتد إليها الأيدي الانجليزية إلا في الأعمال الفنية البحتة ، وأن الترانسيت والبريد لن يعطى امتيازهما لدولة ما أجنبية .

وسافر نوبار باشا في خلال ذلك الوقت إلى لندن حاملا

(البقية على الصفحة التالية)

من آراء برتراند رسل

للأستاذ حسين أحمد أمين

١ — الزواج :

سنعالج هنا الزواج كعلاقة بين الزوج والزوجة ، وهو نظام قانوني وفي بعض المجتمعات نظام ديني ... غير أن صبغته القانونية أهم .

والزواج معروف لدى المجتمعات المتمدينة والفطرية ولدى أنواع كثيرة من الحيوانات حيث تتطلب تربية الأحداث مساعدة من الذكر .. وتعدد الزوجات غير معروف لدى الحيوانات كما أنها من حسن الحظ بحيث تجنبت مشكلة من المشاكل التي تضطرب لها حياة الإنسان ؛ فالذكر من الحيوان إذا تزوج لم يعد جذاباً للأنثى غير زوجته ، كما أن الأنثى من الحيوان إذا تزوجت لم تعد تجذب غير زوجها .. فالخطيئة والخيانة غير معروفتين لدى الحيوانات التي تجهل تعاليم الأديان ، والغريزة عندها تكفي لتوجيهها نحو الفضيلة . كما نجد الرجال في بعض المجتمعات البدائية كالبوشمن والتاسمان مخلصين كل الإخلاص لزوجاتهم .. أما في المجتمعات المتمدينة فالاقتصار على الزوجة نادر .

والعوامل الاقتصادية هي التي أدت إلى تعدد الزوجات ، وكما تدخل الاقتصاد في المسائل الجنسية تسبب عنه المصائب والعبودية ؛ ففي المجتمعات الزراعية والتي تشتغل بالرعي تستخدم الزوجات والأولاد في العمل لمساعدة الرجل .. فيسعى الرجل إلى زيادة عدد زوجاته وخاصة إن كان من الرؤساء أو الأثرياء ، ويصبح إشباع غريزة الرجل الجنسية من الوظائف الثانوية للزوجة — في هذه المجتمعات يصبح من السهل على الرجل أن يطلق زوجته بينما يكون ذلك من المستحيل على المرأة .

ونظرة المجتمعات إلى الخيانة الزوجية تختلف . فبعضها يتسامح ، بل وفي مجتمع Samoan نجد الرجال عند قيامهم بالرحلات يتوقعون من زوجاتهم التسرية عن أنفسهن أثناء غيابهم . وفي بعضها نجد الإعدام عقوبة المرأة الزانية .

وإذا بحثنا عن الشروط اللازمة لتهيئة زواج سعيد نرى

معه العقود الرسمية المشروع التصديق عليها والإشراف على شراء وشحن المهمات والأدوات والقضبان الحديدية . وبادر عباس الأول بأن أصدر أمراً بتعيين الحاج عبد الله أغا الانجليزي في منصب مدير عام السكك الحديدية المصرية ، وفاء لوعد قطعه على نفسه ، فقد كان عبد الله أغا يعمل مترجماً في القنصلية الانجليزية في القاهرة ، وكان بطبيعة عمله يشهد الحادثات التي تجري في قصر « الدار البيضاء » ويقوم بمهمة الترجمة ، واستطاع أن يظفر بثقة الباشا وأن يحصل منه على وعد بأنه لو تحسنت الأحوال بين مصر وتركيا ونفذ مشروع السكك الحديدية فإن الباشا يعده بمكافأة ، فوعده بتعيينه أول مدير للسكك الحديدية ، ومنحه رتبة أميرالاي ووهبه هبة قدرها ألفا جنيه وقصراً في الحلمية .

وفي أول سبتمبر عام ١٨٥١ وقف ستيفنسن في منطقة القباري ومعه طائفة من المهندسين الانجليز تحيط بهم جموع العمال والفلاحين والجنود ، وضرب بيده المعول الأول فابتدأ العمل في الحال ، وما أتى شهر إبريل عام ١٨٥٣ حتى كان الخط من الاسكندرية إلى كفر الزيات قد فرغ من مده وسارت عليه القطر بانتظام .

هذه هي المرحلة الأولى من مراحل إنشاء السكك الحديدية في مصر ، وهي مرحلة كانت محفوفة بالصعاب والعقبات من سياسية إلى اقتصادية ؛ ولكن على الرغم من ذلك فإن من المآثر التي تفخر بها مصر أنها رابع دولة في العالم وأول دولة في الشرق استخدمت القطار ، وهو رسول المدنية ورمز الحضارة ودليل الرقي والعمران ، يصفر فيبشر الناس بقوة العلم ومجد الانسان ، ويجري فيحمل إليهم شتى الأرزاق والخيرات .

محمد أمين حسونة

أنفسنا وقد وصلنا إلى نتيجة غريبة ، وهي أنه كلما ارتقى الناس وزادت مدنيتهم قلت قدرتهم على مواصلة حياة زوجية سعيدة مع زوجة واحدة لا تتغير لتغير أمزجتهم وطباعهم وأهدافهم باستمرار .. وقد أخطأت الكنيسة إذ نظرت إلى الزواج كعلاقة جنسية محضة ، لأن هذه النظرات أدت إلى أن الكنيسة قيدت انفصام عرى الزواج ، لأنها لا ترى داعياً لتغيير الزوج زوجته والزوجة زوجها ما دام الرجال سواء والنساء سواء في إشباع الرغبة الجنسية . فالكنيسة لم تدرك العوامل الأخرى غير الجنسية التي تثور أمام استمرار الزواج .

وشرط آخر لتحقق السعادة في الزواج ، وهو صعوبة اتصال الزوج بامرأة غير زوجته والزوجة برجل غير زوجها . فإن تحققت هذه الصعوبة اضطر الرجل والمرأة إلى تحسين حياتهما الزوجية إلى أقصى حد يستطيعانه ، اللهم إلا في الزوجات التي لا أمل في إصلاحها . وبالاختصار سيكون الزواج سعيداً إذا لم يستطع الزوجان أن يحصلا على سعادة خارج نطاقه

والشرط الأخير أيضاً غير متحق في المجتمعات المتمدينة ، لذلك قلما نرى زواجاً استمر سعيداً بعد سنواته الأولى .

فإذا درسنا الأسباب التي تؤدي إلى تعاسة الزيجات نجد أن أهمها هو سوء التربية الجنسية وخاصة عند الأغنياء . فأطفال الفلاحين يعتادون مبكراً على ما نسميه حقائق الحياة مما يشاهدونه ، لا من الرجال والنساء فحسب ، بل ومن الحيوانات . أما أولاد الأغنياء — حتى أبناء المثقفين منهم — فقد أحيطوا بسياج لا ينفذون منه إلى الحقائق الجنسية .

ويعتقد الدين المسيحي أنه من الخير أن يقبل كل من المرأة والرجل على الزواج دون أية خبرة جنسية سابقة . وهذا خطأ كبير ، فمعظم الزيجات التي من هذا القبيل فاشلة ، لأن السلوك الجنسي عند الإنسان ليس غريزياً وليس من الممكن الإقبال عليه دون دراية . فيشعر العريس والعروس المجردان من الخبرة بالخجل وعدم الارتياح . وقد يكون من الأحسن قليلاً أن تكون المرأة وحدها مجردة من الخبرة على أن يكون الرجل قد استقاها من النساء العموميات .

ومن نتائج سوء التربية الجنسية نسيان الرجل أنه من الضروري استمرار ملاطفته لزوجته وجهل المرأة بأن تمنعها عن زوجها يهدم الزواج . وكان من السائد في الجيل القديم بين النساء — أن تمتع المرأة بالاتصال الجنسي أقل من تمتع الرجل به .. وكن يفخرن بذلك مما سبب استحالة قيام علاقة صريحة بين الزوج وزوجته . والواقع أن قلة الاستمتاع بالعملية الجنسية يبعد كل البعد من القضية كما أنه ناتج عن ضعف جسماني أو نفسي .

ومن أسباب تعاسة الزيجات تحرر المرأة واتساع الفرصة لها للخيانة .. فالفرصة تخلق الفكرة والفكرة تخلق الرغبة ، والرغبة — عند ضعف الوازع الديني — تخلق التنفيذ .

ففي القديم كان على الزوجة أن تغير من نفسها لتساير مزاج الزوج ، وليس على الزوج أن يغير نفسه .. أما الآن وقد تحررت المرأة فقد تمردت على الوضع السابق وشعرت بأن حقوقها كحقوق الرجل بينما ظل الرجل على الوضع القديم .

هذه هي أسباب شقاء الأزواج ، وللقضاء عليها اقترحت شتى الحلول .. ففي أمريكا يتهاونون الطلاق . ولكن الطلاق — وإن كان من الواجب تسهيله — ليس علاج لشقاء الزيجات ..

وفي رأيي أن الزواج لن يكون سعيداً إلا إذا توافرت فيه العناصر الآتية :

١ — المساواة بين الرجل والمرأة .

٢ — الحرية المكفولة للطرفين .

٣ — التوافق الذهني والجسمي .

٤ — تشابه مقياس قيم الأشياء عند الرجل والمرأة .

إذا تحققت هذه الشروط الأربعة أصبح الزواج أعظم وأهم علاقة بين كائنين بشريين .

٢ — البغاء :

إن اعتبار تمسك المرأة بالفضيلة وحفظها لشرفها كأمر ضروري هام يؤدي حتماً إلى وجود نظام البغاء إلى جانب نظام الزواج .. وكذا يصدق ما كتبه ليكي عن النساء العموميات ، وقوله : إنهن يحفظن أمن العائلات ، ويمنعن الاعتداء على طهارة الزوجات والفتيات .. وقد غضب الأخلاقيون لهذا القول ، ولكنهم لم يستطيعوا إثبات عكسه .

والحاجة إلى البغاء تظهر عند وجود رجال غير متزوجين أو رجال في رحلات بعيدين عن زوجاتهم ولا يطيقون العيش دون نساء ، كما أنهم لا يجدون في المجتمع الفاضل نساء محترمات يستطيعون معاشرتهن .. لذلك أوجد المجتمع لهؤلاء الرجال نظام البغاء ، وإن خجل من الاعتراف به .

ورغم قيام المرأة العمومية بهذه الوظيفة الاجتماعية ، ورغم حفظها لأمن العائلات فإنها محتقرة من الجميع ولا يسمح لها بالاختلاط مع الأفراد العاديين إلا في علاقة عمل .. وهذا الظلم المزري بدأ بقيام الديانة المسيحية واستمر حتى يومنا هذا .

ونظام البغاء لم يكن محتقراً في القديم كما هو شأنه الآن . كما لم يكن يجري في الخفاء . ذلك أن البغاء في الأصل كانت تحترفه الكاهنات الموهوبات للرب ، وكان اتصالهن بالرب العابر يعتبر من العبادات . وكان الناس يعاملونهن باحترام ، والرجال الذين يتصلون بهن يكرمونهن ويعظمونهن .

فلما أغلقت المعابد استمر نظام البغاء قائماً ، ولكن على أساس السعي وراء الربح — لا ربح النساء اللواتي يحترفنه ، ولكن ربح من يتملكونهن من الأسياد .. ثم تحول هذا الأساس تدريجاً إلى ربح المحترفات .

والبغاء في العصر الحديث في طريقه إلى الزوال تبعاً لازدياد وسائل التعيش الأخرى ، وتبعاً لازدياد عدد النساء اللواتي يرغبن في الاتصال بالرجال لإشباع الرغبة لا للدوافع الاقتصادية .

ورغم ذلك فلا أعتقد أن البغاء سيختفي كلية ، فالبحارة مثلاً والرجال التعساء في الزواج والرجال الذين يخافون زوجاتهم ، ليس بإمكانهم انتظار امرأة تعرض نفسها عليهم لشغفها بهم . ومع هذا فهناك ثلاثة عوامل تدعو إلى حصر البغاء في أضيق نطاق : أولاً — الخطر الذي يهدد الصحة العامة . ثانياً — تدهور روح النساء . وثالثاً — تدهور روح الرجال .

والعامل الأساسي هو الخطر الذي يهدد الصحة .. فالأمراض الجنسية تنتشر بصفة خاصة من الاتصال بالنساء العموميات .. والنظرة الطبية البحتة تجد أن تقييد هؤلاء النسوة في السجلات وإشراف الدولة عليهن لم يُفد في إزالة هذا الخطر . بل قد يؤدي إلى أخطار أخرى ، كإساءة البوليس المشرف على النسوة استعمال السلطة وإدماج طبقة من النساء اللواتي لا يردن احتراف البغاء في التعريف القانوني .

والبغاء في الواقع يجعل من حياة محترفاته حياة بائسة شاقة .. فالتعرض لخطر الأمراض والكسل والتعرض للإسراف في الشراب واحتقار الناس حتى العملاء ، كل هذا يحط من روح المرأة العمومية ويهدد أخلاقها ..

كذلك قد يغرس اعتياد الاتصال بالعاهرات في نفس الرجل أسوأ الآثار .. فهو لن يشعر بالحاجة إلى إرضاء المرأة والسعي وراء حبها حتى يشبع غريزته ، كما أنه سيجد نفسه محتقراً لجميع النساء اللواتي يتصل بهن اتصالاً جنسياً ، مما قد يعرض زواجه للشقاء والفشل . وقد يعامل الزوج زوجته كما يعامل العاهرة ، فينسى أن الاتصال الجنسي ينبغي أن يكون رغبة الطرفين ، وأن يحدث بعد استرضاء الزوجة وإثارة حبها له . وينتج عن ذلك اشمئزاز الزوجة من خشونته ووحشيته وما يترتب على ذلك من أخطر الآثار .

وتدخل العوامل الاقتصادية في الغريزة الجنسية خطير للغاية .. فالاتصال الجنسي يجب أن يسبب بهجة للطرفين ، وأن يُسعى إليه برغبتهما المشتركة .. كما أن توبيخ الضمير الذي يعقب الاتصال بالعاهرات يؤدي إلى اختلال تقدير قيم الأشياء لدى الرجل وعدم ثقته بحكمه .

محسن أحمد أمين

مقدمة ابن خلدون

للأستاذ محمود أبو رية

من يوم أن عرفت فضل حكيم الشرق ابن خلدون ومقدار مقدمته النفيسة التي لم يؤلف في العربية مثلها والتي جعلت مؤلفها يحق أستاذاً لعلماء أوربا في علم الاجتماع الذي وضع قواعده وأسس بنيانه — وأنا لا أدع طبعة من طبعات هذه المقدمة إلا اشتريتها ، سواء ما ظهر منها بمصر أو بالشام — ذلك بأنه لا يوجد منها صورة منشورة صحيحة كما كتبها مؤلفها ، وكنت أتمنى أن تخرج من هذه المقدمة طبعة عصرية تصدر عن أصل صحيح في شكل أنيق يتفق وجلال قدرها .

وفي صيف سنة ١٩٢٣ قرأت بمجلة الهلال كلمة لأحمد تيمور باشا رحمه الله ذكر فيها ، أن كل طبعات مقدمة ابن خلدون لا تطابق الأصل الصحيح منها ، وأنه يوجد بمكتبة زكي باشا نسخة خطية من هذه المقدمة بخط مؤلفها ، فسررت بهذا النبأ وتوجهت باستفهام إلى زكي باشا على جريدة المحروسة عن حقيقة ما نشره تيمور باشا ، وكان ذلك في ١٧ أغسطس سنة ١٩٢٣ ، فأجاب رحمه الله بضع مقالات على هذه الجريدة تكلم فيها عن طرف من تاريخ ابن خلدون ومقدمته . وأنا أسوق هنا خلاصة ما قاله عن هذه المقدمة النفيسة وفيه البلاغ لما نحن بسبيل الكلام فيه اليوم . ذكر رحمه الله أن هذه المقدمة الفريدة قد ظل أمرها مهملاً خمسة قرون كاملة ، فقد تم تأليفها في سنة ٧٧٥ هـ ، ولم تظهر إلا في سنة ١٢٧٤ هـ سنة ١٨٥٧ م[1] وكان أول من عثر على هذا الكنز رجل نمساوي اسمه آمر لي ، فقد وقف في دار كتب (ويانة) عاصمة النمسا على نسخة مخطوطة من هذه المقدمة ، ثم نشرها مع بعض ملاحظات وتعليقات في المجلة المعروفة باسم الخزانة الطليانية . فكانت أعماله مدعاة لتنبيه علماء أوربة على العناية بهذا الأثر العربي الكريم . ولما جاء المسيو آسرلي إلى مصر قنصلاً لدولته لدى محمد علي باشا كان مما عمله أن حض محمد علي باشا على الانتفاع بهذا الكتاب وطبعه ، فترجمه إلى اللغة التركية وطبع بمطبعة بولاق وكذلك طبع الأصل العربي منها ، وفي الوقت الذي طبعت فيه المقدمة في مصر كان العلامة كترمير الفرنساوي يطبعها في باريس ، وقد طبعت هذه المقدمة بالمطبعة الأميرية طبعة ثانية في سنة ١٢٨٤ هـ .

ثم ذكر زكي باشا وأنه بعد ما تحقق وجود المسخ والبتر والتشويه والتحريف في جميع ما صدر من الطبعات العربية لمقدمة ابن خلدون آلى على نفسه أن يبحث عن نسخة خطية تكون وافية بالمرام ، حتى قضى الله له الظفر بها في خزانة المرحوم عاطف افندي بالقسطنطينية ، وهذه النسخة قد صححها ابن خلدون بخطه ، وذلك أنه لما عاد إلى القاهرة من عند تيمورلنك طاغية التتار رأى الناسخين قد شوهوا محاسن مقدمة تاريخه فضاقت نفسه وتناول نسخة من التي أصابها المسخ وأقبل عليها بنفسه وتولى تصحيحها بخطه ، وكان من هذا التصحيح أن حذف بعض الكلمات وطائفة من العبارات ووضع هوامش كثيرة بخطه ، فإذا أعوزه المكان أضاف (طيارة) أي جزازة ويلصقها بين الصفحتين ويدل على موضعها دلالة ظاهرة واضحة . وقد انتقلت هذه النسخة من مصر إلى الآستانة على أثر سقوط مصر بين يدي السلطان سليم سنة ٩٢٢ هـ

وقد عثر عليها زكي باشا في سنة ١٩١٠ م في خزانة المرحوم عاطف افندي بالآستانة ولم يلبث أن أخذ صورتها الفتوغرافية في أربعة مجلدات وأنفق عليها مالاً كثيراً ، وقد كتب على هذه المقدمة العبارة الآتية وهذه صورة المقدمة

(١) في كتاب (ابن خلدون) المؤرخ الكبير الأستاذ محمد عبد الله عنان أن ذلك كان في سنة ١٨٠٨ م .

من كتاب العبر في أخبار العجم والبربر ، وهي علية كلها كالديباجة لكتاب التاريخ قابلتها جهدي وصححتها وليس يوجد في نسخها أصح منها ، وكتب مؤلفها عبد الرحمن ابن خلدون وفقه الله تعالى وعفا عنه » .

ولما وقفت من زكي باشا على نبأ هذه المقدمة وكان الشرق كله في حاجة إلى الصورة الصحيحة منها ، رجعت إلى العالم الجليل الدكتور أحمد أمين بك رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر راغباً إليه أن تقوم اللجنة — التي من أغراضها نشر الأسفار القديمة النافعة — بطبع هذه المقدمة وهي خير ما ينشر من ذخائرنا العربية ، فجاءني من هذه اللجنة جواب مؤرخ ١٦ أغسطس سنة ١٩٢٧ تقول فيه : إن اللجنة ستضع هذا الاقتراح موضع البحث ، ولما لم تحقق اللجنة رجاءنا ، رجعنا إلى وزارة المعارف فطلبنا منها مراراً على صفحات الجرائد أن تعنى بنشر هذا الأثر القيم فتطبعه طبعة صحيحة ، ولكنها أصمت آذانها ، وغبرت السنون على هذه المقدمة وهي على تحريفاتها وأغلاطها .

ولا تزال أمنية طبع هذه المقدمة تختلج في صدري لا أفتأ أسعى إليها ما وجدت إلى السعي سبيلاً .

ولما أتمت لجنة التأليف طبع كتاب العقد الفريد وأخرجته في هذه الصورة الصحيحة الجليلة ، أسرعت — وكان ذلك منذ شهور — فطلبت من العلامة الجليل الدكتور أحمد أمين بك أن تأخذ اللجنة في طبع هذه المقدمة لكي تؤدي للعربية أجل خدمة في هذا العصر ، وبينا أرتقب تحقيق أمنيتي التي لا يعتريني يأس منها أو ملل في التماسها إذا بي أجد إعلاناً بمجلة الثقافة الغراء عن ظهور كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً بتحقيق الأستاذ الفاضل محمد بن تاويت الطنجي ، فشاع السرور في قلبي وكأن أمنيتي العزيزة قد دنت مني ، وقلت لعل هذا الكتاب الممتع يكون مقدمة لظهور مقدمة ابن خلدون أو يكون طليعة لها وللتاريخ ابن خلدون كله من بعدها .

ومرة ثالثة أتوجه إلى لجنة التأليف الموقرة بعد أن توجهت إليها في سنة ١٩٢٧ راجياً منها أن تتعاون هي والأستاذ الفاضل الطنجي على إخراج هذه المقدمة عن النسخة التي نقلها زكي باشا ، وهي موجودة الآن بالمكتبة الزكية ، في صورة أنيقة وشكل بهيج ، حتى تتحقق أمنيتنا التي هي أمنية العربية كلها ، والتي ظللنا أكثر من ربع قرن ننشدها ، فيخرج هذا الكنز الثمين إلى الناس لينتفعوا منه على مر العصور .

وللأستاذ الطنجي خالص تحياتنا وشكرنا على عنايته بآثار حكيمنا (ابن خلدون) وجده في تحقيقها ونشرها لينتفع الناس بها . وكذلك نسدي صادق حمدنا للجنة التأليف الموقرة التي لا تفتأ تعمل على ما ينفع العلم وطلابه من تأليف وترجمة ونشر .

(المنصورة) محمود أبو رية

في الأدب المصري القديم

للأستاذ محمد عبد الحليم محمود

لا يخفى على أحد أن فنون النحت والنقش والتصوير قد بلغت عند المصريين القدامى مرتبة كبيرة من الرقي والتقدم ... ولكن هل وصلت فنون الأدب إلى مثل ذلك في تلك العصور السالفة ؟ وهل كان أجدادنا يعتبرون الأدب صناعة جديرة بالاحترام ؟..

يكفي أن نقرأ وصية الكاتب المصري القديم لابنه لنقف على قيمة الأدب والأدباء عند قدماء المصريين :

يستعرض الكاتب سائر الصناعات التي يستطيع أن يتخصص فيها الإنسان : الفلاحة ، الحدادة ، الحلاقة ، البناء ، الجبس ... الخ ، ويبين عيوب كل واحدة ؛ ثم يتحدث عن فن الكتابة فيقول :

« ... فأما هؤلاء الكتاب البارعون ... فقد كتب لهم الخلود ولأسمائهم المجد ، وإن كانت أجسادهم قد ذهبت عنها الحياة ، وفنى أولادهم وسائر أفراد عشيرتهم ...

« إنهم لم يصنعوا لأنفسهم أهرامات شاهقة أو مسلات عالية ، ولم يتركوا وراءهم ذرية ذات سلطان تمجد أسماءهم ... ولكنهم خلفوا كتباً سوف تنطق بعظمتهم ما دامت الدنيا...»

« كن كاتباً يا بني كي يخلد اسمك على مر الزمان . إن الكتاب العظيم لأبقى في ذكرى الإنسانية من القصر الضخم .. إن الكتاب معبد وحرم لمن كان يعتبر !.. » .

وإن هذه الكلمات لتذكرنا بقول الشاعر الإنجليزي ميلتون في تمجيد شكسبير ، بعد ذلك بآلاف السنين :

« ليست عظامك المقدسة ، يا صاحبي العظيم
في حاجة إلى جهود الأجيال المتوالية تبني لك مقبرة ضخمة .
وليس جسدك الطاهر في حاجة إلى أن يوارى
تحت هرم شامخ يناطح بقمته السماء ...
... فأنت ... قد بنيت لنفسك معبداً خالداً ... » .

وإن أدباً كان منذ عشرات القرون يحظى بمثل هذا الاحترام والتقدير لجدير بالدراسة والترجمة . لكن المكتبة العربية فقيرة جداً في هذا الميدان ؛ وذلك ، على الأرجح ، بسبب طغيان الثقافة الغربية على الآداب المصرية القديمة . ولقد سبقنا الغربيون من فرنسيين وإنجليز وألمان إلى الكشف عن ذلك الكنز الخبيء من الشعر والنثر الذي صاحب أقدم حضارات الإنسانية .

ومن أمهات الكتب التي صدرت حول هذا الموضوع مؤلف المؤرخ بيير جيلبير ، أخرجته جماعة الدراسات المصرية القديمة بمدينة بروكسيل ، وعنوانه « الشعر المصري القديم » .

ولقد قسم المؤلف كتابه قسمين : أولهما يتناول بالدراسة ذلك النوع من الشعر الذي يقال في المناسبات الرسمية وفي مديح الملوك والأمراء ، وثانيهما الشعر الذاتي في الحب والعبادة أو التشكي .

١ — الشعر الرسمي : والكاتب لا يعطي هذا الجانب من الأدب عناية كبيرة ؛ لأنه على حد تعبيره « أدب جامد لا يعبر عن حقيقة ما يختلج في النفس الإنسانية من مشاعر وصبوات » ؛ وعلى ذلك فهو ليس بالشعر الحقيق . وليست العبرة عندي بالقيمة التاريخية للقصيدة ، بل بالقيمة الإنسانية . ولكننا قد نجد هنا وهناك مقطوعات من الشعر تبلغ حداً جيداً من الروعة ، وإن كانت مع ذلك تعد من الشعر الرسمي . مثال ذلك تلك القصيدة الطويلة التي تمجد أعمال رمسيس الثاني في معركة قادش . لقد وقع هذا الملك المشهور في فخ دبره له الأعداء ، عند مدينة قادش بالشام ، وأحدقت به جنود الحيثيين وهو بمفرده وسط جموعهم الحاقدة ، فراح يصلي لإلهه آمون ويستعين به على قهر أعدائه . قال :

« ... ما هذا الذي أراه أي أبي آمون ؟
وهل ينسى الأب ولده البار ؟..
هل خالفت قط أوامرك وتعديت نواهيك ؟
ما أعظمك يا أيها المهيمن على مصر كلها !
إنك أجل من أن تترك أعداءنا يقهروننا ...

وهل صعب عليك رد هؤلاء الغرباء يا أبي ؟
إنهم أعداؤك ... إنهم لا يعرفون الله !
... الويل لمن يعصيك يا آمون .
وما أسعد القلب الذى يعرفك ويحبك .
إنى أناديك يا أبي آمون
وسط أعدائى الذين لا أعرف لهم عدداً
فالكل على ولا أحد معى
لقد هجرنى جميع أصحابى ولم يلبوا ندائى
ولكنى أناديك ، أى آمون ، فأشعر بالقوة تعود إلىّ
وأشعر بأنك خير لى من ألف ألف فارس ... »

وفى مقطوعة أخرى يصف الشاعر فرحة المصريين عقب انتصار الملك مرنفتاح على أعدائه ، فيقول بعد سرد حوادث الحرب :

« حلت بمصر البهجة وملأ قلوب أبنائها الحبور .
وفى كل مجلس تسمع الناس يحكون أعمال مرنفتاح العظيم
فما أعمق حب أبناء الشعب لهذا الملك القدير .
وما أكثر تمجيدهم له : إنهم يضعونه مع الآلهة فى معابدهم .
... لقد انتهت الحرب ... وعادت السكينة إلى قلوب الرجال .
وحفلت المتنزهات بالرواد .
وترك الجند حصونهم ، وهدأت المعسكرات ...
لم يعد هناك خوف على قطعان المواشى فتركها الناس ترعى على حريتها بين الحقول ...
لقد انتهت الآلام ، ولم نعد نسمع عويل الثكالى من الأمهات ...
ومن زرع قمحاً سوف يحصده ويأكله خبزاً فى هدوء وسكينة . »

٢ — الشعر الدينى : وأول قصيدة يعرضها المؤرخ فى هذا القسم ، هى تلك التى كتبها الملك أمينوفيس الرابع أو إخناتون فى تمجيد إلهه آتون أو قرص الشمس المقدس . والمعروف عن إخناتون أنه أول إنسان دعا إلى التوحيد ، وأراد أن يعبد الناس إلهاً يتمثل فى قرص الشمس ولا يشركون به أحداً . قال :

« إنك ترتفع رائعاً وسط السماء
أيها القرص الحى الذى نشأ مع نشأة الزمان .
إنك تتألق فى الأفق
فتملأ الأرض كلها بهائك .
إنك رائع الطلعة ، عظيم ، قوى البريق .
أشعتك تحتضن سائر أقطار الأرض ،
التى تخضع كلها لك ، أى رع العظيم ...
إنك بعيد ، ولكن أشعتك تدفىء الأرض .
... عندما تغرب وراء الأفق لتستريح ،
تصبح الأرض فى ظلام دامس
مثل ظلام الموت ...
وعندئذ ينام الإنسان ...
وتخرج السباع من كهوفها .
وتزحف الثعابين السامة لتلدغ كل من تلاقيه .
إن الأرض مغمورة فى الظلام والسكون ،
لأن من خلق الخلائق يستريح وراء الأفق ...
وعندما تشرق ، أيها القرص المقدس الحى ،
تستيقظ الأرض من سباتها .
وتبتهج الأنعام برزقها ، وتخضر النباتات فى حقولها ،
وتزقزق الطيور فى أعشاشها ...
... إنك تخرج الرجال من بطون النساء ،
وتنفث الروح فى النطفة فتحيها إنساناً ...
إنك تمنح الفرخ الصغير القوة التى بها يكسر قشر بيضته ،
وتمنحه الغذاء لينمو ويعتلىء ...
فما أعجب ما تصنع ،
أيها الإله المتوحد الفرد ! .. »

وبعد ذلك يأتى دور الشعر العاطفى الغزلى . وأغلب الأمثلة التى يعرضها علينا المؤلف مأخوذة من بردية هاريس رقم ٥٠٠ التى كتبت فى عصر رمسيس الثانى . والغزل المصرى القديم يمتاز بالبساطة والبراءة الهنية التى تشبه براءة الطفولة ، تلك البراءة التى لم تعرف بعد ما هو الرجس ولا تميز بين الحب الحلال والحب الحرام . فلذلك نجد فى هذا الصنف من الشعر جمالاً ساذجاً يريح القلب والأعصاب كالواحة المخضرة وسط هذه الحياة المادية المعقدة .

يقول العاشق وهو يسوق زورقه وسط مياه النيل ويرقب شروق الشمس وينظر إلى مدينة منفيس القريبة حيث تنتظره فتاته :

« إن الزورق الذى يقلنى يتأرجح على مياه النهر الدافقة ،
وإن نسمة المجاديف السريعة تحدو ركبنا .
وأنا أحمل فوق كتفى الزهور والرياحين .
سوف أصل إلى منفيس ، مدينة الحياة ،
فأقول للإله بتاح ، إله الحق :
(إمنحنى الليلة فتاتى) .
إن النهر يبدو جميلا كالخمر المعتقة
والإله بتاح يختفى وراء شجيراته
والآلهة سخمت تتمثل فى أزاهيره الريانة
... سوف تبتهج فتاتى بمقدمى ! ... »

وينشد الفتى ، وهو على سرير المرض ، هذه الأبيات الجميلة :

« إنى قابع فى عقر دارى على سرير المرض .
إنى مريض ، وليس الذنب ذنبى .
لسوف يأتى الصاحب والجار ليعادنى .
فياليتها تأتى معهم ، تلك التى ملكت على فؤادى .
فالأطباء فى حيرة ويأس من أمرى ...
ولكنها هى تدرى جيداً ماحل بى من مرض ! ... »

وتنفى الفتاة العاشقة فى أحد البساتين ، بحبها ، فتمتزج عواطفها وإحساساتها بمظاهر الطبيعة الجميلة وتقول مناجية حبيبها :

« إنى صاحبتك الأولى .
أنظر : إنى كالبستان الملىء بالزهور والرياحين .
أنظر : ما أروع هذا النبع وسط الحقول .
أنظر : ما أجمل البستان الذى نتنزه فيه .
ما أجمله عندما تكون يدك فى يدى .
إن قلبى يطمئن ويبتهج
عندما أكون إلى جانبك .
إن حديثك كالخمر المسكرة تبعث فى نفسى النشوة .
وإن نظرة منك خير لى ألف مرة من الطعام والشراب ! »

والأشجار المثمرة الجميلة تتكلم هى الأخرى فى الربيع فتناجى العاشق الشاب قائلة :

« تعال لتقضى لحظات من عمرك بين أحضان الطبيعة ،
فالبستان اليوم فى أجمل حلله
... فابعث أمامك بعبيدك
حاملين الخمر المعتقة ... والفاكهة الطيبة ،
والطعام الشهى ... والزهور والرياحين .
تعال ، لتقضى فى ظل الظليل أياماً مع فتاتك المحبوبة .
ولن أبوح لأحد بسركما ،
فأنا الصديق الوفى الودود ... »

وأخيراً يعرض علينا مؤلف « الشعر المصرى القديم » نماذج من الأدب الماتى تعبر عن حالة الشعب الاجتماعية وعن آمال وأحلام الشعراء فى تلك العصور السالفة ! ومنها القصائد التى تبين عن تفاؤل قوى فى المستقبل ! كما أن منها القصائد المترعة بالألم واليأس ، التى تفيض بالتشاؤم وبالثورة العاتية على النظم الاجتماعية القائمة .

... وبعد ، فلعل فى عرضنا الوجيز لذلك الكتاب القيم ما يكشف الستار عن بعض جوانب الأدب المصرى القديم الذى يجدر بنا دراسته ونشره إلى جانب ما نعنى بنشره من تراث الثقافة العربية .

أحمد عبد الحليم محمود

مع الفكر الأوربي المعاصر

١ – في بلاد السلطان أو في عصر الانكشارية

كتاب من تأليف « ألكسندر باليس »

هذا كتاب يبعث الحنين إلى العصور الخالية . فهو يذكر القارىء بحضارة الامبراطورية العثمانية . تلك الحضارة التي طالما دار حولها الجدل .

وقد اتخذ المؤلف إماماً له ومرشداً في تأليفه رحالة تركيا عاش في القرن السابع عشر . ويسميه كاتب من الكتاب الإفرنج : ابن بطوطة القرن السابع عشر . وهذا الرحالة واسمه « أولياء » كان وصيفاً من وصفاء السلطان مراد الرابع الذي كان أكثر السلاطين ظمأ إلى سفك الدماء . والذي كان على الرغم من ذلك حامياً من الحماة الممتازين للموسيقى والفنون .

وكان « أولياء » هذا رجلا ذا عقل موسوعي . وكان يعنى بالفلسفة . ويمكن المؤرخ أن يحسبه قنطرة بين الرحالين الغابرين والرحالين في العصر الحاضر . ومنهم هيرودوت (٤٨٤ — ٤٢٤ ق . م) وكازانوفا (قصاص إيطالي ١٧٢٥ — ١٧٩٨) وكاناليتو (مصور إيطالي ١٦٩٧ — ١٧٦٨) وبادكر (ناشر ألماني ١٨٠١ — ١٨٥٩ أصدر مجموعة من الكتب التي تقوم على إرشاد السائحين) .

وقد خلف ذلك الرجل مجموعة صالحة من الوثائق عن حياة المجتمع التركي في عصره .

وقد كان الرجل ممن ركبهم الغرور . وكان ممن أوتوا الصبر على البحث والتقصي . كما كان ممن أوتوا القدرة على قص القصص ذات العرض والطول .

فلما وقع كتابه هذا — « واسمه « سياحت نامه » — بين يدي مؤلف هذا الكتاب جلى إليه جلية العالم الثبت الفطن وغربله غربلة تدل على البراعة والمهارة . وأخرج منه صورة متقنة في إطار بديع . وقدمه لقرائه ليروا فيه تلك الصورة الفائتة لمدينة استانبول في إبان مجدها وازدهارها .

ومن الملاحظات التي يحسها القارىء لهذا الكتاب أن الأوتوقراطية العثمانية كانت أوتوقراطية مخلاة يحلوى الديموقراطية .

فقد كان المجتمع التركي يومئذ مجتمعاً يستطيع فيه عبد الرق أن يبلغ مرتبة الوزارة . وكان للواطنين من التجار والصناع نقاباتهم وتذود عنهم نقابات قوية . وكان جمهور الشعب يستمتع بكل ما يرفه عيشه ويحبب إليه الحياة . وكانت المهرجانات التي تقام في المناسبات العامة تزرى بتلك التي كانت تقام في روما القديمة . بل تزرى بموكب تنصيب عمدة لندن اليوم .

والمؤلف يصف لنا نقابات الحرف المختلفة التي كانت تشارك في تلك المهرجانات — وقد بلغ عددها خمساً وثلاثين وسبعمائة — وهو يقول إن المبدأ الذي قامت عليه تلك النقابات منقول مما جاء في الكتب المقدسة . فقد قيل إن آدم أبا البشر كان فلاحاً . وإن نوحاً كان نجاراً . وإرمياء كان طبيباً جراحاً . والمسيح كان رحالة . ومحمد (ص) وهو خاتم الأنبياء والمرسلين كان مجاهداً في سبيل الله .

ومن طوائف المجتمع التركي التي ورد ذكرها في ذلك الكتاب : طائفة الكناسين بأحذيتهم ذات الرقبة التي تبلغ الركبتين . وأرديتهم التي تلفهم لفاً محكماً . وكان أولئك الكناسون يدفعون للحكومة جعلا على أن تمنحهم حق البحث في أكوام الزبالة عن المسامير والنقود والأحجار الكريمة .

ومن تلك الطوائف طائفة الأرزن . ويسميهم المؤلف الباحثين عن المعادن . وقال عنهم — بعد أن أساء القول فيهم — إنهم لازمون للبلاد وقت الحصار .

ومن تلك الطوائف أيضاً طائفة الغواصين . وكلهم من الاغريق . وقد قال عنهم : إنهم يصفون الزيت من أفواههم فوق صفحة البحر فيحيلونها مرآة يرون فيها قاع البحر مهما يكن عميقاً .

ومنهم طائفة بائعي الثلج الذين يجيئون به من « جبل

أولب » ليشمتوا لسكان قصر السلطان أشربة مثلجة .

ومنهم طائفة دابغى الجلود الذين تبض جلودهم رائحة كريهة . وهم الذين تتق نفوسهم إذا شموا رائحة العطور .

ومنهم طوائف مروضى الوحوش ، وصاحبى القهوات ، وبائعى الشربات . وحارق الفحم من الأخريق ، والقائمين بعملية شنق المجرمين ، ومنهم كذلك طائفة النشالين البارعين .

وهذه — كما ترى — مجموعة طوائف كان يتمنى « ديكنز » أن تكون لديه ليجيد وصفها ونعتها .

ويقول المؤلف إن الطبقة العليا من القوم كانوا يحيون حياة لا تختلف عن حياة أمثالهم من الإيطاليين فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . أو عن حياة أمثالهم من الانجليز فى عصر الملكة « إليزابث » . فكانوا يلهون كما لهوا ، ويقصفون كما قصفوا . وكانوا فى الصيد والقنص أشباههم ونظراءهم . وكانوا يستطيبون عيش الريف . وكانوا فى سهراتهم تحيق حدائقهم بزهر الخزامى . وتضاء بآلاف المصابيح الصغيرة تحملها ظهور السلاحف وهى تزحف بين الزهور ...

٢ — إنسانة تحب الخير للناس

أو كارولين شيزوم

كتاب من تأليف مارجريت كدل

شهدت السنون القلائل الماضية بعث أناس كان النسيان قد جرّ عليهم ذيوله . ثم انتفضوا فزال القبر والكفن .

من هؤلاء الناس « كارولين شيزوم » وهى تلك السيدة التى ذاع صيتها فى الخافقين فى منتصف القرن التاسع عشر ، ثم نسيها الناس بعد حين .

وقد جاءت اليوم الآنسة « كدل » فترجمت لها ترجمة وافية ، ولكن الترجمة لم تكن قصة الحياة الخاصة « لكارولين شيزوم » . ذلك لأن المعروف عن حياة هذه السيدة هو أقل من القليل ، حتى لقد عرف عنها أنها تبذت كل شىء يدل عليها ، ويعرف الناس بها ، وحتى لقد تخلت عن أبنائها الأطفال فى سبيل ما نذرت نفسها له ، وحتى لقد جهل الناس تاريخ مولدها ، واسم البلد الذى أنجبها ، ولو أن الظنون أنها ولدت فى شهر من شهور عام ١٨٠٨ فى قرية تجاور مدينة « نورغبتون » . وعلى هذا فإن الكتاب الذى نحن بصدده لا يعطينا إلا قصة حياة عامة ، وإلا بياناً عن مشكلة الهجرة إلى أستراليا .

وتقول المؤلفة إن السيدة شيزوم كانت زوجة لضابط يعمل فى شركة الهند الشرقية . وقد رضيت به زوجاً يوم رضى هو أن يتركها حرة تفعل ما تشاء فى سبيل عملها الإنسانى .

وقد حطا رحالها فى « مدراس » حيث أنشأت هى مدرسة لتعليم أولاد الجنود . ثم سافرا إلى أستراليا فبلغا مدينة « سدنى » عام ١٨٣٨ ثم بدأت تعرف تدريجاً خبايا مشكلة الفتيات اللاتى لا مأوى لهن . واللاتى وصلن إلى تلك المدينة بعد سفر شاق طويل مضن ، تحطمت فيه أخلاقهن ، وتركن بعد وصولهن لرحمة الأقدار — وهى قاسية — فى تلك المدينة .

وبدأت تلك السيدة أعمالها بإيوائها أولئك الفتيات فى بيتها . ثم سعت سعيها لدى الموظفين العديدين ولدى زوجاتهم لكى يتعاونوا على إنشاء بيوت تأوى إليها تلك الفتيات ، وإقامة مكاتب تعمل على إيجاد عمل لكل واحدة منهن (وقد بلغ عدد الفتيات فى السنين الست الأولى أحد عشر ألفاً) .

وقد لفتت إليها الأنظار برفعها الأمر إلى القضاء لتظهر الناس على الخزى والريبة اللذين تفيض بهما جنبات بواخر المهاجرة . ثم أمطرت وزارة المستعمرات فى انجلترا بوابل من الشكاوى والاقتراحات ، وكلها ترمى إلى نفع المهاجرات وخدمتهن . ثم قصدت إلى الجزر البريطانية فزارت الريف والحضر ، وطافت بالسهل والجبل ، تخطب القوم فى مشكلة الهجرة والمهاجرات . ثم اختتمت المسعى بإنشائها جمعية المهاجرة . ونصت فى قانون إنشائها على الأخذ بيد الفتيات اللاتى كن يرضين عن غرام الشيوخ بهن طمعاً فى أموالهم .

ثم سارت تلك السيدة قدماً فى سبيل تحقيق أهدافها ، وانتقلت من زوجة خابة فيها حياء ، وخفر إلى رحالة جريئة لا يشق لها غبار . وإلى داعية للخير فى مختلف نواحيه . حتى لقد صاغها الكاتب الانجليزى « شارلس ديكنز — وقد كان صديقاً لها — Mrs Jellyry وذلك فى روايته التى سماها البيت الذى تخفق الريح فيه .

وكانت السيدة « شيزوم » ترى أن أمثل الممالك عند المرأة ما كرسيه البيت . وكانت توصى بعدم زيادة أجور الفتيات العاملات . وحجتها فى ذلك أنه إذا زادت أجورهن أصبحن فى غير حاجة إلى الزواج .

أما رأس مال تلك السيدة المجاهدة فلم يكن سوى زوجها الذى أنسى نفسه وأنكر ذاته فى سبيل الذود عن القضايا التى تناصرها امرأته . هذا بالإضافة إلى ما أوتيت هى من لباقة وكياسة . وبراءة من الوجدة والضغينة . وقد سمتها مجلة Punch الإنجليزية « موسى الثانى فى قبعة وشال » .

وقد منحتها حكومة « فكتوريا » الأسترالية منحة مقدارها خمسمائة وسبعة آلاف جنيه عرفاناً لفضلها وتقديراً لجهودها . فأنفقت هذا المبلغ فى دعم مشروعاتها الإصلاحية . وقد كانت هى تأبى أن تأخذ فى صنيعها أجراً . حتى لقد ماتت فقيرة معدمة .

والكتاب فوق ذلك يعنى بمسائل النقص فى أساليب الإدارة وفى وسائل النقل فى دولة حديثة عهد بالإنشاء والتعمير . وقد استتبع هذا النقص تكدس المهاجرين فى المدن الساحلية . وكراهية ملاك الأرض لكل قادم جديد إذا لم يكن من الطبقة العاملة الكادحة .

وقد انتهى المطاف بالسيدة « شيزوم » أن أقامت من نفسها مدافعاً شديد الغيرة على حقوق الفقراء . وإن كانت مؤلفة هذا الكتاب لا توافقها على دفاعها عن حقوق أصحاب الملكيات الصغيرة . ذلك لأنها ترى أن الأرض فى « استراليا » هى أصلح للمراعى منها للزراعة .

وقد اقتضى تأليف هذا الكتاب مؤلفته ثمانى سنين ، فجاء بحثاً رزيناً مدعماً بالوثائق ، يدل على براعة صاحبته ويشير إلى اقتدارها .

٣ — يد القانون

كتاب من تأليف الآنسة مارجرى فراى

إنه فرض على المجتمع أن يحمى نفسه ويوقيها شر الجريمة والمجرمين . كما أن فرضاً عليه أن يأخذ بيد الخارجين على القانون ، إلى طريق الهداية والرشاد .

وخليق بالمجتمع أن يقوم بعمليتى الهدم والبناء . يجرح ثم يأسو ، ويهدم ما تخرب من نفوس المجرمين ، ويقيم مكانه بناء صالحاً قوى الدعائم ثابت الأركان .

ومؤلفة « يد القانون » تبحث فى كتابها هذا عن مدى ما تحققه القوانين الحالية وطرق العقاب السائدة فى المجتمع اليوم من مطابقة للمبدأين سالفى الذكر . وهى قد عاشت حياتها تبذل المجهود لمنع الجريمة . وتسعى السعى كله لتظفر للمجرمين الآثمين بحسن المعاملة . وهى تحدث قارئ كتابها حديث حجة من الثقات عن صنوف العقوبات التى تستطيع المحاكم توقيعها . كما تحدثه عن مختلف أنواع السجون التى يبعث إليها المجرمين .

وقانون الجنايات الذى صدر عام ١٩٤٨ قد عدد وأحصى مختلف معاهد العقوبة وزاد فيها ؛ فمن نظام ضباط المراقبة إلى مراكز التدريب إلى مدارس التعليم إلى نظام السجون المفتوحة . إلى نظام سجون بورستال Borstals (وهى إصلاحيات أنشئت بمقتضى قانون صدر عام ١٩٠٨ . والقصد من إنشائها صد الأحداث الناشئين الضالين من الجنسين عن غوايتهم . وقد جرب النظام الذى استحدثه هذا القانون لأول مرة فى سجن بورستال بالقرب من مدينة روشستر بمقاطعة كنت) .

والقصد من تعدد هذه المنشآت هو إيجاد الفرص لإصلاح المجرمين بطريق التعليم والتثقيف ، وتمكين المحاكم والسجون من مكافحة النزعات الشريرة ، ونزعات اعتياد الجريمة .

ومؤلفة الكتاب مع إعجابها بكل هذا لا ترى فيه إلا خطوة أولى فى سبيل إيجاد نظام إصلاحى حقيقى ، يمكن تطبيقه وفقاً لحالة كل فرد من أفراد المجرمين .

وقد جاءت فى كتابها ببيان وافٍ دقيق يثبت أن هناك كثيراً من العوامل المضادة تقف حجر عثرة فى سبيل هداية أولئك الذين زلت بهم القدم وتحول دون رد الاعتبار إليهم . فبنايات السجون لا تزال بنايات قد أكل عليها الدهر وشرب . ولا تزال تلك السجون مكتظة بنزلائها . ولا تزال وسائل التعليم النظم ، والعمل المنظم غير متكافئة . ولعل هذه العقبة أن تكون عقبة مؤقتة .

وهناك عقبة أخرى قد تكون أكثر استعصاء على الحل . وهى عقبة قوامها حالة عقلية متوارثة من العصور القديمة . ولا تزال تداعب عقول القائمين بالأمر على السجون اليوم . وهى الاعتقاد بأن المجرمين قوم لا يستطاع إصلاحهم . وأن من يقبل الإصلاح منهم إنما يقبله رغم أنفه . أو مصادفة واتفاقاً .

والمؤلفة تتمثل « بسير فرانك نيوسام » إذ يقول :

رد على نقد

للدكتور أحمد أمين بك

تقدنى ناقد من أسرة مهدى السودان فى كتابى «المهدى والمهدوية» بما يأتى :

أولاً : أن مهدى السودان لم يكن شيعياً ، وإنما كان سنياً كما تدل عليه كتبه وابتهالاته .

ثانياً : أنى قلت إنه كان متقشفاً ، فلما اتسع له الرزق وقع فى الترف .

ثالثاً : ينقدنى فى تاريخ وقعة من وقائع بأنها حدثت بعد ذلك بسنتين .

وجوابى على ذلك ، بعد شكرى له ، أنى فيما أذكر لم أقل إن المهدى كان شيعياً ، وكان الكتاب يدور حول من ادّعوا المهدية ، سواء كانوا سنيين كالمهدى والسنوسى ، أو شيعيين كالفاطميين والقرامطة ، حتى ولو كانوا نصارى أو يهوداً .

وأما دعوى الترف بعد أن در عليه المال ، فقد استندت فيها على مستشرقين عاشروه فى بؤسه ونعيمه ، وما أظن أنهم يكذبون ، وإنما دعا الناقد لذلك ، فيما أظن ، حبه لأسرته .

وأما تاريخ الوقعة فقد استندت فيها على بروكلن ، وربما كان مخطئاً فأخطأت معه ، وسأراجع هذا التاريخ ، فإذا ظهر أنه خطأ صححته فى الطبعة الثانية إن شاء الله .

وتقدنى ناقد آخر بأن الكتاب غير متماسك الأجزاء ، ففيه تفصيل لأشياء ليس محلها التفصيل ، وفيه إيجاز لمسائل كان حقها التطويل ، وضرب مثلاً لذلك الكلام على (إخوان الصفا) فقال إنى أطلت فيها إطالة استطراد مما لا حاجة بالكتاب إليها ، وربما كان هذا النقد صحيحاً ، وقد يكون شغفى بالفلسفة حملنى على الوقوع فى مثل هذا الخطأ ، جرياً مع القلم والرغبة من غير شعور ، وعلى كل حال فللناقد الشكر ، وسأستفيد من نقده .

وانتقدت علىّ أسرة المرحوم الشيخ محمد المهدى أنى قلت إنهم من أصل نصرانى ، وعثرى فيه أولاً تسميته بالمهدى ، وثانياً إقرارهم بأن جده اسمه زيكو ، وهو اسم لا نعرفه فى الإسلام ، وقد قالوا إن عندهم النسبة الإسلامية ، وإنهم من أصل إيرانى مسلم ، وإن أبا زيكو هذا اسمه عثمان وهو اسم مسلم ؛ فنعتذر إليهم وهم أعلم به منى .

* * *

واعترض علىّ عالم من أسيوط لأنه وقع فى صفحة ٢٣٠ من كتاب هارون الرشيد كلمة زبيدة بنت المنصور وليست هى بنت المنصور ، ولو كانت كذلك لكانت عمة الرشيد ، فلا يجوز له أن يتزوجها . والحقيقة أنها زبيدة بنت جعفر ابن المنصور ، فهى ابنة عمه ، ولذلك جاز التزوج بها ، ونعتذر لأن كلمة جعفر سقطت من الطبعة ، وللمنتقد الشكر .

أحمد أمين

لا تزال فى هذا البلد مدرسة من مدارس الرأى ينظر أتباعها إلى البطش بالمجرمين كأنه نظام من أنظمة الحكم . وهى تقول : إن العلاج الإصلاحى لا يبلغ غاية النجاح إلا إذا بذل السجين نفسه غاية الجهد فى التعاون مع القائمين على إصلاح شأنه .

ولذلك كانت مجاهدة النفس ومراقبتها وتهذيبها والثقة بها هى الأمور التى يجب على القائمين بالأمر فى السجون تنميتها فى نفوس السجناء . وذلك إعداداً لهم لبدء حياة جديدة بعد خروجهم ، ثم العمل على إقناعهم بأنهم هم القادرون على أن يردوا لأنفسهم اعتبارها .

وسلوك المجرمين سلوكاً حسناً بعد الإفراج عنهم هو الدليل الصادق على حسن سهر القائمين على إصلاحهم ، وعلى تجنيبهم مغريات العودة إلى ارتكاب الجريمة .

وحسب هذا الكتاب « كتاب « يد القانون » فخراً أن يزيل من أعين الرأى العام تلك الغشاوة ، غشاوة عدم المبالاة بمصير المجرمين ، وإثارة الرغبة فى التفكير الجدى فى هذا الموضوع الحيوى الخطير ...

مبارك إبراهيم

أسرار النفس

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

١٦٣ صفحة . مكتبة الآداب . القاهرة ١٩٥١

للدكتور شوقى ضيف

هذا كتاب يتضح موضوعه من عنوانه ، فقد أراد به الأستاذ الفاضل الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى أن يذيع جوانب من أسرار النفس وأن يكشف عنها الغطاء . وقد كانت النفس ولا تزال طلسماً من الطلاسم وخاصة أمام من يريد التعمق فى أغوارها الداخلية ، إذ يحس كأنما يدخل فى غابات متشابكة ، بل يحس كأنما يدخل فى ظلام من ورائه ظلام .

وعلم النفس الحديث يحاول جاهداً منذ وجد أن يسلط أشعته على هذا الظلام حتى تتكشف لنا النفس بوعيها ولا وعيها ، ويستهوى هذا النشاط العقلى كثيراً من الباحثين والقراء ، ومن لا يريد أن يقف على النفس البشرية عامة ونفسه خاصة . ومنذ زمن بعيد والدكتور الأهوانى يبحث فى هذه الأنحاء النفسية ويدرس ، ولذلك أقبلت على قراءة كتابه أريد أن أعرف ما عنده من جديد .

وقد رأيته يتخذ للكتاب موضوعات عامة مثل : الثقة ، التقدم ، اللائق والواجب ، الظاهر والباطن ، التحليل النفسانى ، الطموح ، الحسد ، الغرور ، ونحو ذلك . وهو يسوق الحديث سياقاً هادئاً ، يستلهمه من قراءاته النفسية وما عرفه عن مشاهير الأدباء والعلماء ، ويقف وقفات طويلة عند الفلاسفة ، فيستنتج من سلوكهم وأقوالهم ما يحيك به حججه وأدلته ، وينسج خيوطها ، ويبرم مُحْكَمها .

وحديثه فى ذلك كله ليس فيه عنف ، بل فيه الدعة ، وفيه هذا التشويق الذى جاءه من خبرته فى التربية والتعليم . ولعل ذلك ماجعل الغاية التربوية واضحة فى الكتاب ، فهو يسعى إلى إنارة السبيل أمام الناس ليعرفوا أنفسهم وأنفس غيرهم .

والحديث فى النفس وأسرارها طويل ، ولست ممن يؤمنون كثيراً بالحديث الجاف فى النفس الذى ينتهى إلى وضع القواعد والقوانين ، فى رأيى أن علم النفس ليس علماً كاملاً ، لسبب بسيط ، وهو أنه يقوم على تجارب فردية لا تنفك عنها قواعده وقوانينه ، ومن هنا كانت لا تلبث أن تشذ حينما تلتقى بفرد جديد أو تجربة جديدة .

والدكتور الأهوانى لاينحو فى كتابه هذا نحو وضع القواعد والقوانين للنفس ، وإنما ينحو نحو الحديث العام عن بعض صفاتها وخصائصها فى الأدباء والعلماء والفلاسفة والناس من حوله . ولعل من الطريف أنه ساق أثناء ذلك مجموعة من اعترافاته ، وهو يتحدث عن بعض مشاهداته أو تجاربه ، وهى اعترافات تذيع كثيراً من أسرار نفسه ، قبل أن تذيع أسرار النفس عامة ، ويستطيع من يتعقبها أن يوزعها على أدوار حياته فى الصبا والشباب والكهولة ...

فمن ذلك ماجرى به قلمه ص ٨٢ إذ يقول : « فى سن العاشرة أو نحو ذلك كنت أميل إلى قراءة القصص ، وكانت هذه الرغبة تدفعنى إلى شراء الروايات وقراءتها فى الفصل الدرسى ، حيث أضع الرواية على ركبتى فى أثناء الدرس ، حتى لا يضبطنى المدرس متلبساً بقراءة رواية ومشتغلاً بالانصراف عن الدرس ، فلما فترت الرغبة فى قراءة القصص والروايات اتجهت نحو قراءة أشياء أخرى أكثر جداً ، ووقعت على هذه الكتب مما كان موجوداً فى البيت ، وكان أبى مع أنه مهندس يقتنى كثيراً من الكتب الدينية وبعض كتب الأدب مثل الأغانى ، وقرأت وأنا فى الثانية عشرة الأدب الكبير لابن المقفع ، فكان له أعظم الأثر فى حياتى

الأدبية وفي تكوين ذوقي ، وقرأت كذلك مما وجدته أمامي نهج البلاغة » .

ويظهر أن سن الثالثة عشرة كانت موضع تحول واسع في نفس الدكتور الأهواني ، فنحن نراه يسترسل في ص ٥٠ فيقول : « في الثالثة عشرة كنت أقرض الشعر ، وهو شعر على أي حال لست أدري أموزون هو أم ليس موزوناً ، ولكني أذكر أنه كان هجاء في بعض الزملاء . وكنت أحب أن أقرأ الشعر وأحفظه . حتى إذا تقدمنا في الدرس فرض مدرس اللغة العربية علينا شعراً سقيماً لا تقبله نفسي ، في السنة الأولى الثانوية . وهل يستطيع تلميذ صغير أن يتذوق قصيدة بديع الزمان (ألاطم لو شهدت ببطن خبت) فضلاً عن فساد الشرح . وانتهى الأمر إلى كراهة الشعر والانصراف عنه إلى درجة أني لا أستطيع أن أمضي في قراءة قصيدة إلى نهايتها ولا أحفظ إلا البيت والبيتين » .

وكما كانت عنده نزعات في هذا الوقت إلى قرض الشعر أماتها في نفسه أستاذ اللغة العربية ، كانت عنده نزعات أخرى إلى تعلم الموسيقى ، ولكن أباه لم يشجعه عليها ، بل كان يزجره عنها ، يقول ص ٥١ : « ورغبت في الصغر إلى تعلم الموسيقى ، وتعلمت الكمان ، وكان المدرس يعزف المقطوعة مرة واحدة ، فيلتقطها ذهني ، وأعيدها بأصابعي ، حتى بلغت درجة لا بأس بها . فهل تدري من كان في نفسي هذا الميل وصرفني عن هذا الفن ؟ إنه والدي — رحمه الله — كان يقول كلما رآني أحمل الكمان ذاهباً إلى الدرس : هل تريد أن تصبح آلاتيا ؟ وكان أهل زمانه يعدون الفنون الجميلة كالتمثيل والموسيقى والرسم ضروباً من اللهو والفسق والمجون فضلاً عن مجافاتها لروح الدين . وهذه نظرة خاطئة ، لم تتعدل حتى الآن تعديلاً تاماً » .

ويتتبع الدكتور الأهواني في كتابه فإذا هو في امتحان البكالوريا (ص ٨) أمام لجنة الامتحان ، وهي لجنة اللغة العربية ، ولم يكن يحفظ من الشعر شيئاً إلا هذين البيتين لجرير :

إن العيـــون التي في طرفها حور
قتلننـــا ثم لم يحيين قتـــلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضـــعف خلق الله إنسانا

وسأله الممتحن ماذا يحفظ ، فأنشده البيتين تواً ، واستحى الممتحن أن يسأله عن معناهما ، فأجازه ، ودعاه إلى الانصراف . وبعد ذلك نلتقي به في الجامعة (ص ١١٥) بين يدي أستاذنا المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق يقتبس من علمه ومن خلقه . وما نزال حتى نراه أستاذاً في الجامعة (ص ١٠٠) والطلاب من حوله يسألونه في مشاكلهم النفسية ، كما نراه (ص ٩٨ ، ١٠٣) آخذاً في معالجة بعض المرضى العصبيين والنفسيين . وأثناء ذلك نجده يذكر (ص ٩) كريمته التي كان يتأمل في طرفها وهي في المهد فيجد لذة كبيرة . وفي ص ١٢٧ يشكو من الخدم وما يعانيه منهم . وبجانب ذلك يذكر في (ص ٦٩) كتابه (في عالم الفلسفة) كما يذكر في (ص ١٥) أنه عاصر السينما في عهدين : حين كانت صامتة ، ولما نطقت . ومن حين لآخر يعرض علينا مشاهداته في رحلة له إلى أوربا قبل الحرب الأخيرة ، فتارة يتحدث عن باريس (ص ١٨ ، ٢٠) ، وتارة عن إيطاليا (١٣٥) .

أليست هذه مجموعة طريفة من الاعترافات ألقاها الدكتور الأهواني أثناء وصف بعض حوادثه النفسية ، وهي تلتقي في الكتاب مع بعض التجارب التي مرت به ، وهو يحدثك عن ذلك حديثاً صادقاً لا خداع فيه ولا اصطناع لتكلف أو تمحل .

شوقي ضيف

تهافت المناطقة الوضعيين

— ٢ —

للأستاذ عبده فراج

وإلى أن نصل إلى أول البحوث التي يفتخر بها المناطقة الوضعيون ، أقصد منطق العلاقات ومعادلات الحدود ، سنضطر إلى التعليق بسرعة من فوق خمسين صحيفة ورد فيها من أعاجيبهم أمور كثيرة ، منها أن عبارة مثل « مؤلف مسرحية أهل الكهف من أئمة الأدب الحديث في مصر » فيها العلاقة هي لفظ « من » والمحمول هو « أئمة الأدب الحديث في مصر » وليس المحمول « إمام من أئمة الأدب إلخ » فما العلاقة لو ذكرت كلمة « إمام » صراحة ؟ وما الفرق بين الصيغتين ؟ وما العلاقة لو كانت العبارة « مؤلف مسرحية أهل الكهف من طنطا » ؟ ومنها توسيع بعضهم لمعنى اسم العلم حتى يشمل الضمير والحرف بأل أحياناً . ومنها اختراعهم لما يسمونه « اللفظ الجزئي بالمعنى الدقيق » ويقتضى ذلك يكون اسم العلم مثل « العقاد » لفظاً « قريب الشبه جداً بالاسم الكلى » لأنه يمر بأحوال مختلفة في اللحظات المتعاقبة . وما دروا أن هذا المعنى إذا زدناه دقة بطريقتهم فإنه لا يعود هناك شيء جزئي ، لأن أحوال الأشياء في تغير دائم كما علمنا هرقليطس ، ولأن كل لحظة من تلك اللحظات قابلة القسمة إلى ما لا نهاية كما يقول زينون الأيلى ، فلن يمسك الوضعيون بجزئي إلا ويجدونه قد أصبح غيره ! إن عجبا لا ينقضى من جونسون وكارنب ورزاند رسل الذين يعتبرون أحوال الفرد الواحد كأنها أفراد كثيرة ثم يصفون هذا الخطأ بأنه هو الدقة ! ومن تلك الأعاجيب طريقة حلهم لمشكلة المفهوم . يقول المؤلف ص ٤٠ « يرى الوضعيون أن الكلمة لها ماصدقات وليس له مفهوم ... وبهذا الرأى نتخلص من المشكلة القائمة بين أصحاب المفهوم » وتلك دهشة عرفناها للوضعيين في التخلص من المشاكل . ولكن المؤلف ينقض ذلك حين يتكلم عن التعريف ص ٤٨ « بل إن التفاهم بين الناس في حياتهم اليومية قائم على اتفاقهم على أن يكون للكلمة المعينة معنى معين . » ومنها أقوالهم ص٦٤ عن الفئة الفارغة : « الفئة التي بغير أفراد ، ولها في المنطق الوضعي الحديث أهمية كبرى لأنها فئة يتساوى فيها القول بالإيجاب والسلب » فقارن هذا بما جاء ص ١٢٨ سطر ٤ « الشيء ونقيضه لا يجتمعان في شيء » وبما جاء ص ٢٧ « ليس يشترط للمنطق أن يعلم إن كان في إرلندة ثعابين حقاً أو لم يكن حتى يقال إن عبارة « ثعابين إرلندى » ليس لها مسميات ... (فاللفظ الكلى) هو الذى يجوز له أن ينطبق على أى فرد إذا توافرت فيه صفات معينة ، سواء وجد من هذا النوع فرد واحد أو مجموعة أفراد أو لم يوجد ... » فلعمرى بحسب هذه المتناقضات كيف يستوى السلب والإيجاب في الفئة الفارغة ؟ إن هذا نوع جديد من الإضراب من النمط الذى أشرنا إليه في صدر هذا البحث .

فلنهمل ما بقي من مثل هذه الملاحظات لنصل إلى ما استحدثوه باسم منطق العلاقات . لا شك أن الاتجاه إلى العلاقات وإحصائها ودراستها هو ثروة قيمة للمنطق ، وربما كان مقدراً له أن ينمو ويزدهر من هذا الطريق في المستقبل ، إلا أن الوضعيين لم يحسنوا استغلال هذه الثروة التي لفتوا الأنظار إليها بقوة ، بل ربما كان الاقتصار على علاقة الموضوع بالمحمول كما في المنطق التقليدى أسلم وأدق من مجاراة الوضعيين في طريقة تصرفهم في موضوع العلاقات . انظر مثلا اقتراح رزندل الوارد ص ٢٤٣ الذى يعالج به أخطاء زملائه من الوضعيين « إذا ارتبط شيئان بشيء معين برابطة معينة واحدة ارتبط الشيئان أحدهما بالآخر بنفس هذه الرابطة » وهذا واضح البطلان ، لأنه إذا كان ا م ب و ج م ب لم يكن كل من ا ، ج مما لصاحبه . وإذا كان هذا هو العلاج فلا شك أن الداء كان عياء ! هذا مع أن الوضعيين أنفسهم قد احترسوا من مثل هذا في دراسة أنواع التعدى وهى مذكورة في ص ٨٩ . وبالجملة نعيب على معالجتهم لموضوع العلاقات شيئين على الأقل :

١ — فقدان البساطة وتعذر الاهتداء إلى قواعد محصورة ، لأن العلاقات لا حصر لها ولكل منها أنواع ، وليس

لأى نوع منها إلا مثال واحد أو أمثلة نادرة ، مما يخشى معه أن يصبح لكل مثال قاعدة تخصه وأن تبطل الحاجة إلى علم المنطق . وهذا برادلى نفسه يقول « هنالك من مبادىء القياس بمقدار ما هنالك من أنواع الروابط ، ولما كانت هذه لا حصر لها فالمبادىء لا حصر لها . »

٢ — فقدان الدقة بإعاقة الفكر عن النظر فى الاحتمالات المعاكسة ، وهو أمر كان يكفله فى المنطق الأرسطى اعتباره الحد الأوسط هو محمول الصغرى بأكمله وليس فقط أحد أطراف العلاقة وكذلك اشتراطه كلية المقدمة الكبرى . والتوضيح نمثل بأن المنطق الوضعى يقول « ا أكبر من ب وب أكبر من حـ ، إذن ا أكبر من حـ » أما المنطق الأرسطى فيقول « ا أكبر من ء وكل ما هو أكبر من ء أكبر من حـ ، إذن ا أكبر من حـ » وهذه الطريقة الأخيرة أدق لأنها لا توقعنا فى خطأ الوضعيين إذا قالوا مثلاً « بما أن درجات محمد أقل من درجات أحمد ودرجات أحمد أقل من درجات النجاح إذاً درجات محمد أقل من درجات النجاح » لأن أرسطو كان يلزمنا بأن نضع الكبرى : « كل ما هو أقل من درجات أحمد أقل من درجات النجاح » وبهذا ينبهنا إلى الاحتمال الذى قد ينجح فيه صاحب الدرجات المرتفعة وإن كانت أقل من درجات الراسب صاحب الدرجات غير المرتفعة .

ونشير بعد هذا إلى رذيلة أساسية ملازمة للمناطقة الرياضيين ، وهى إقحام العمليات الرياضية فى المنطق إقحاماً يتجلى فيه التكلف والفشل . ومن ذلك كلامهم عن الضرب والقسمة فى المنطق . ومعلوم أن كلا منهما عكس الآخر فى الرياضة ، إذ أن حاصل ضرب أى عددين لابد من قبوله القسمة على كل منهما . أما الضرب والقسمة المزعومان فى المنطق الوضعى فيستعصيان على ذلك باعترافهم المذكور ص ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ بطريقة تدعو إلى الرثاء . وهذا الاستعصاء وحده دليل الفشل . ثم يزعمون أن عبارة « المدرسون الجامعيون » هى عملية ضرب منطق مثل عبارة ا × ب بينا يفسرون الأولى بأن معناها إخراج غير المدرسين من كافة الناس ثم إخراج غير الجامعيين مما يتبقى ، وهذه عملية طرح ولا تمت إلى الضرب بأدنى صلة ، لأن الضرب إضافة الشىء إلى نفسه مرات معينة . ولقد انساقوا فى هذا الزيغ فوحدوا بين علاقتى الذاتية والتساوى ، وهذا هو بيت الداء فى المنطق الوضعى ، إذ تولد عنه ما يسمونه بالنظريات إمعاناً من الرياضيين فى لف المنطق فى كفن رياضى . وهى نظريات ذكرتنى قراءتها بالقول الكريم « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » . وليتهم فى ذلك توخوا الوضوح الرياضى ، بل استعملوا الرمز الواحد للدلالة على معنيين مثل الرمز الدال على عضوية فئة فى فئة ص ١٣١ وعلى لزوم قضية من قضية ص ١١٢ ، وهذا اللزوم نفسه لم يميزوا فيه بين معنيين مختلفين ؛ فنى المثال الوارد ص ٣٤٦ « إذا كانت الحرب تستلزم عدم الإنتاج فإن الإنتاج يستلزم عدم قيام الحرب » يتضح أن الفعل الأول معناه « يؤدى حتماً إلى » والثانى معناه « يحتاج حتماً إلى » كما يستعملون رمزين لمعنى واحد ، فالعطف يرمز له أحياناً بالنقطة وأحياناً بعلامة زائد ، والنقطة فى مكان آخر رمز الفئة الفارغة ، وعلامة زائد فى مكان آخر رمز لعلاقة البدائل بين الحدود ، والبدائل لها رمز خاص فى القضايا يشير إلى أحد معانى البدائل ، وهناك معنيان للبدائل تركا بدون رمز ، وليس هذا حصرا بل هو تمثيل لعيوب الرموز فى ذلك المنطق . على أن طريقة قراءة الصيغة الرمزية فيها من التحكم والبداء واتباع الأهواء ما ينزع الصبر ويثير من الضجر ما يثيره فأفأة العى . فلعمرى إن المنطق إذا رام الاستعاضة بهذه اللغة العمياء عن لغته المبصرة كان كمن راح ينادى « يامن يبيعنى سمساً مقشوراً بسمسم غير مقشور » .

بقيت مسألة نختم عندها هذا البحث ولعلها أجد أثراً مما سبق . تلك أن المناطقة الوضعيين خضوعاً منهم لشهوة هدم المنطق التقليدى اجترأوا على القول ، بأنه أحياناً لا يجوز استنتاج صدق القضية الجزئية من صدق القضية الكلية ، وذلك إذا ما كان موضوع القضية الكلية يشير إلى فئة فارغة ليس لها أفراد فى العالم الواقعى . وقد أنفق المؤلف كثيراً من الصفحات فى تثبيت هذا المعنى الذى يبدو أن المدرسة الوضعية مجمعة عليه والذى يهدمون به كثيراً من أحكام المنطق التقليدى فى التقابل والعكس ونقض المحمول ونقض الموضوع والاستدلال القياسى . وإنما دعاهم إلى هذه

الفتوى الغربية تفسيرهم التحكمى لمعنى القضية الكلية ومعنى القضية الجزئية ؛ فالعبارة كل ا هى ب معناها عندهم : إذا كان هناك فرد من ا فهذا الفرد هو ب ، وعندهم أن صدق هذه العبارة لا يتوقف على وجود فرد من ا فعلاً . أما العبارة الجزئية « بعض ا هو ب » فمعناها عندهم : هنالك فرد واحد على الأقل من فئة ا هو ب . وعندهم أن صدق هذه الأخيرة يتوقف على وجود ذلك الفرد فعلاً ؛ فالأولى عبارة شرطية ، والثانية وجودية ؛ ولذلك فإن « من عدم الوجود لا يجوز أن نستدل على الوجود » .

وهكذا يعتقدون أنهم أثبتوا خطأ المنطق التقليدى فى استنتاجه دائماً صدق الجزئية من صدق الكلية . ولكنا نلفت النظر إلى مبدأ الثنائية الذى يشترطه أرسطو فى « ا » إذا استعملت مرتين فى أى استدلال ، فإن كانت فارغة فى الكلية فتكون هى هى فى الجزئية ، وإن كان لها فرد واحد على الأقل فى الجزئية فتكون هى هى فى الكلية ؛ وعلى هذا ففى حكمنا بالصدق أو الكذب على هاتين القضيتين المتقابلتين يجب أن نعتبر إما الناحية المادية وحدها فى كلتيهما أو الناحية الصورية وحدها فى كلتيهما ، فإذا اعتبرنا الناحية المادية وكانت ا فئة فارغة فيتعين الحكم بالكذب على القضيتين إذا نسبنا إلى ا ما يفيد الوجود أو يتوقف عليه مثل « كل ملوك فرنسا فى النصف الأول من القرن العشرين عمروا أكثر من مائة عام » وكذلك « بعض ملوك فرنسا ... الخ » . ويتعين الحكم بالصدق على الكلية إذا حكمت على الفئة الفارغة بعدم الوجود مثل « كل ملوك فرنسا فى النصف الأول من القرن العشرين أشخاص خرافية لا وجود لها فى الواقع » وبالتالى تصدق الجزئية « بعض ملوك فرنسا فى النصف الأول من القرن العشرين أشخاص خرافية لا وجود لها فى الواقع » .

وهى صادقة لأنها لم تنسب إلى البعض الآخر الوجود كما لم تنسبه إلى أى فرد من البعض الأول . ومن هذا المثال الأخير يتبين لك التحكم فى تفسير الوضعيين لمعنى الجزئية بأنها تفيد الوجود لفرد واحد على الأقل ؛ وإذاً يكون معنى القضية الأخيرة على حسب مذهبهم المتهافت « يوجد فرد واحد على الأقل من ملوك فرنسا فى النصف الأول من القرن العشرين لا وجود له » . وأما إذا اعتبرنا الناحية الصورية وحدها فى كلتا القضيتين ، أى دون نظر إلى وجود الأفراد فعلاً ، ثم فرضنا بسبب ذلك صدق الكلية رغم حديثها عن فئة فارغة ، فإنه يتعين صدق الجزئية أيضاً رغم حديثها من فئة فارغة . فينحصر خطأ الوضعيين فى أنهم ينظرون إلى الكلية الفارغة الموضوع من وجهة النظر الصورية فيجيزون صدقها ، وينظرون إلى الجزئية الفارغة الموضوع من وجهة النظر المادية فلا يجيزون صدقها ، ويرتبون على ذلك أن صدق الكلية لا يستتبع دائماً صدق الجزئية .

ومن جهة أخرى نقول لهم إذا فهمنا القضية الكلية متضمنة معنى الشرط لا التقرير فيجب فهم الجزئية من نفس وجهة النظر أى متضمنة معنى الشرط لا التقرير ، فعندما تكون « كل ا هى ب » معناها « إذا وجد فرد من ا كان دائماً فرداً من ب » ، فإن « بعض ا هى ب » يكون معناها « إذا وجد فرد من ا كان أحياناً فرداً من ب » ، فكأن الجزئية تفيد فقط أن من الخطأ الظن بأنه « إذا وجد فرد من ا لم يكن أبداً فرداً من ب » ونحن نستخدم فى إثبات هذا المعنى أقوال الوضعيين أنفسهم . فقد أورد المؤلف فى صحيفتى ١٧٩ ، ١٨٠ تحليل برتراند رسل لمعنى القضية الكلية والقضية الجزئية جاء فيه :

١ — كل س هى ك معناها : إن قولنا (س هى ا) يلزم عنها (س هى ب) هو قول صادق دائماً .

٢ — بعض س هى ك معناها : إن قولنا (س هى ا) يصاحبها (س هى ب) هو قول صادق أحياناً

وإذا كان الأمر كذلك فكيف لا نستنتج ٢ من ١) ؟ كيف لا يحق لنا أن نستنتج صدق المصاحبة أحياناً من صدق الملازمة دائماً ؟ وكيف ، بعبارة أخرى ، لا نستنتج صدق الجزئية من صدق الكلية التى تقابلها ؟ إنى لأشفق على الوضعيين من ابتسامة أرسطو لو درى أنهم يحاولون أن يوهنوا صخرته بهذه الأقوال التى تردد فى جامعات أوربا فى القرن العشرين .

● ● ●

وإنى لأكتفى بهذا القدر بلا تقديس للمنطق التقليدى ولا إنكار لقصوره وعجزه وضرورة ترميمه وتوسيع آفاقه ،

ولا جحود لفضل الوضعيين فى نشاطهم فى التفتيش فى المنطق لإحيائه وفى الميتافيزيقا لتحرير الإنسانية من أوهام قد تتغذى جذورها من تربة ذلك العلم ، بيد أنه قد يسمو المريض ويخطئ الوسيلة . ولا جدال فى أن المنطق الحديث سيتمشى وينمو بإصابات الوضعيين وبأخطائهم على السواء . وكذلك لاجدال فى أن كتاب « المنطق الوضعى » وغيره مما وعد به الدكتور زكى نجيب محمود سيكون حافزاً للمفكرين المصريين والعرب إلى زيادة الاهتمام بالفكر الحديث والإدلاء بدلوهم فى ميادين الفلسفة المعاصرة .

(الزقازيق)   عبده فراج

من وحى الشعراء :

شجون الموظف ..!

ما بالُ قومك يخطئونك !   يا ليتهم عرفوا شجونك !
وجدوك تصطنع الوقا   ر فأصبحوا يتهيبونك
ورأوا لثغرك بسمة   تكسو بروقها جبينك
أرسلتها كرهاً لتُخفِ   عن مسامعهم أنينك
ووراءها شجنٌ يطلُّ   كل ثانية جفونك
قد كُمنتَ حزنك عنهمو   وأبى ارتباكك أن يصونك
مهما ارتبكتَ فلن ترا   ع فإن قومك يقدرونك
حسبوا المرتب ثروةً   ذهبية تقضى شئونك
كنزٌ يعينك إن أبى   ميراثُ جدك أن يعينك
جهلوا مصابك فيه فا   ندفعوا إليك يهنئونك
وسعوا كما يسعى العبيد   وراء ظلك يتبعونك
عدُّوه حين قبضته   يا ليتهم عدُّوا ديونك
فليسألوا التجار إن   جهلوا فهم لا يجهلونك
هم دائنوك تكاد تـ   ـقط فى الثرى إذ يرمقونك
تُولِيهمو الإكبار مذ   طرآ وهم لا يُكبرونك
أنت المثقف إنما   صرعت دراهمهم فنونك
فإذا اقتليتَ إلى بنيك   وجدتهم يترقبونك
زُغبٌ تهش لهم وقد   طاروا إليك يفتشونك
يتحلقون لينظروا   ماذا ملأتَ به يمينك
أعطيتهم وهمو إذا ابـ   ـتهجوا بخيرك يُبهجونك
وأخذتَ تلثمهم وتبـ   ـسم ضاحكا إذ يلثمونك
قطعت ديونك ثم خفـ   ـت حين خفوا يشكرونك
حققت مأربهم وجا   ءوا من جديد يسألونك
فِلَذٌ من الأكباد تُسـ   ـعدهم وهم لا يسعدونك
فى كل يوم مطلبٌ   ما بالهم لا يعذرونك
أبداً ترقّه عنهمو   وهمو وراءك يثقلونك
لو كنت فى زمن الرخا   ء منحتهم ما يقتضونك
لكن عصرك لافحٌ   أذوت هواجره غصونك
جف المعينُ به ولم   تر رافداً يُجرى معينك
قد كُنتَ فيه فيا له   عصراً تعمَّد أن يُهينك
غطّى طريقك بالصخو   ر وبعثر الأشواك دونك
وقضى الغلاء به محا   ما كاد أن يغرى وتينك
قد بات يطعن فى حشا   ك فليته أمسى طعينك
وأثارها حرباً عجا   ول أن يدك بها حصونك
أنت الدفين به وكا   ن الظن أن يغدو دفينك
حرب تصول بها النقو   د ضرامها تحمى عرينك
فإذا ونت عنك الضرا   غم كنت أن تلقى منونك
ومن المصائب أن تعيـ   ـش لدى أناس يبهظونك
جهلوا حقيقة دخلك الـ   ـمحدود لكن يرهقونك
عند التبرع يقصدونك!   ولدى الضيافة يدهمونك
فهدوك صحناً رافداً   تخشى الكرازة أن تشينك
وترى سخاءك نعمة   زهراء تأملُ أن تزينك
فسعوا إليك ولن تُخيـ   ـب سعى قوم يبتغونك
تركوا سراة الريف وا   نهالوا عليك يضايقونك
هذا جنون منهمو   إن لم يكن قصدوا جنونك
وجدوا حياتك مرتعاً   خصباً فراحوا يسلبونك
ودّع حياتك لحظةً   وأراك ذئاباً ينهشونك
هيهات لو ودّعته   لأخفت تشبعه حنينك
ظلموك إذ أكرمتهم !   مَنْ لى بقوم ينصفونك

محمد رجب البيومى

بين المجلة وقرائها

أندريه جيد

قرأت بعض القصص التي ألفها أندريه جيد وأعجبت بها أيما إعجاب. ولا أدري كيف لا تذكره مجلاتنا عند موته وتبحثه بحثاً أدبياً. بل إني أشك في احتفال الفرنسيين بفنه. ترى ما السبب ؟.

(اسكندرية) نعيم ضيرى

أما مجلتنا فقد كتبت — ولعلها الوحيدة — عن أندريه جيد عقب موته. وأما عن تقدير أندريه جيد عموماً فأرجو أن تلاحظ أولاً أنه مات في سن متأخرة، بعد أن كان قد أتم كل حركاته واستكمل جميع أفكاره وخلص من توكيد اتجاهاته. لقد استشعرنا جميعاً بعض الأسى لمعابه، ولكن حزننا عليه لا يبلغ درجة الحسرة ولا يرتفع إلى حد البكاء من أجله .. فليس من الغريب أن يموت وقد نيف على الثمانين، وليس من المأمول فيه أن يتم رسالة لو طال به الأجل، لأنه لم يكن صاحب رسالة من الرسالات، ولذلك يمكننا القول بأنه مات بعد أن استوفى شروطه ونال من الحياة أغلى ما تستطيع أن تقدمه لإنسان من الشهرة والتأثير والمكانة الرفيعة في نفوس عشاق أدبه، والحسد والبغضاء في قلوب الحانقين عليه.

فإذا نظرت حواليك ولم تجد أندريه جيد يثير زوبعة في عالم الأدب، فاعلم أنه قد خرج إلى الحياة الأدبية في أواخر القرن الماضي ومستهل هذا القرن، وأنه قد ثارت حوله الزوابع مرات ومرات. وأنه من خير من لعب دوره كأديب مفكر، وأدى واجبه كصاحب قلم. إننا نقرؤه الآن في مصر ونعجب من أن الفرنسيين المحدثين لا يأتون على ذكره. ولكننا لو تمعنا قليلاً لعرفنا أن حياتهم لم تعد في حاجة إليه، وأننا نحن هنا محتاجون لعشرات من أمثال هذا الرجل العظيم.

وإذا أردت أن تستفيد من أندريه جيد حقاً فخذه — كما قلت لك — على أنه كاتب بغير رسالة .. ونحن لا ندعي هذا الادعاء، ولا نلصق به هذه الصفة للغض من شأنه والتقليل من أهميته، وإنما نحاول أن نفهمه الفهم اللازم حتى لا يختلط علينا فهمه. ونرجح رأينا هذا بما قاله هو نفسه في بعض كتاباته من أنه لم يكن غرضه قط إحداث أثر في نفوس قرائه، ولم يرغب — كما قال في يومياته بتاريخ ٣ يونيه سنة ١٩٢٤ — إعطاء إرشادات وتقديم التعاليم، مقدراً أن هؤلاء القراء لن يمكنهم ولا ينبغي لهم أن يجدوا تلك التعاليم والإرشادات إلا بأنفسهم. فما هو من أصحاب المذاهب الذين يغارون على ما يقولون غيرة المفكر الذي أجهد نفسه في الإعداد والحبكة والتنظيم، ولا هو من أولئك الذين تقبل على دراستهم وعلمهم بعقلية منطقية تحسب حساب الأصول والمراجعة، ولا يحل لك علاوة على ذلك أن تضعه في قائمة المصلحين والفلاسفة وأصحاب الدعوات. كل ذلك لابد من أن تستبعده من خاطرك وأنت مقبل عليه، ولابد من أن تنحيه جانباً عندما تحاول النظر في كتبه، لأنه لا يحتاج لأكثر من الإحساس والذوق والتقدير العاطفي والبلاغة الشعورية الخالصة. أو إذا شئت فلك أن تحكم عليه من وجهة النظر الجمالية، وأن تزنه بميزان التذوق البحت، لأنك مهما قلت من أن الرجل انتقادات اجتماعية ومهما وضعت في حسابك نظراته الأخلاقية، فلن تستطيع أن تقتنع بالمقاييس التي استجدت على يديه، وستهمل بالتالي كل تقديراته وانتقاداته بعد تولّ من الإقبال عليها، ثم إن هذه النظرات والآراء لا ترتفع إلى حد أن تكون أساساً لنظريات كاملة، ولكنك ستراع حتماً بما فيها من صراحة ترغمك على اعتبارها مذهباً وتدفعك دفعاً إلى أن تفردها رسالة قائمة بذاتها. فلو قلنا إن أندريه جيد دعا إلى الصراحة في صراحة وحبب إلى الناس الوضوح والبعد عن النفاق لكان هذا حسبه مذهباً قائماً بذاته في دستور العلاقات الاجتماعية.

فلا شك أنهم غير محتاجين اليوم في فرنسا لرسالة

الصراحة التي أتى بها جيد .. أما نحن فما أحوجنا إلى أمثال هذه الرسالات ؟!.

●●●

الحب والزواج

كنت أطالع في كتاب من أمهات كتب الاجتماع وفوجئت بقول المؤلف إن الزواج لا ينبني على ظاهرة الحب .. تلك الظاهرة التي قد يخيل إلينا أنها كل شيء في تكوين الأسرة ، وأنها العماد الأول في بناء المجتمع الذي يقوم على علاقات وعقود .

(الملقية الجديدة)

ليس هذا بالغريب إذا كان صاحب الكتاب من علماء الاجتماع الذين يقررون الحقائق بناء على الإحصاء والتقدير العلمي . وأغلب ظني أنه كذلك .. فليس يبدو من ملامح هذا الرأي أية شاعرية أو خيال ، ولو قدر أن يكون هذا الكتاب لأديب أو شاعر لذهب إلى حد القول بأن الحب هو أصل كل علاقة بين قلبين يتوادان ويتحابان ، وأن الزواج لا يعدو أن يكون مواصلة لهذا الشعور البريء الذي أحس به كل من الزوجين في مبدأ الأمر ... والحقيقة أنها غلطتنا عندما نخلط بين أقوال الفنانين وأقوال العلماء . فالفنان ينظر إلى الأسرة على أنها الرباط المقدس الذي جمع بين قلبين تآلفا في عش منعزل حلقت في سمائه عصافير الجنة وانطلقت في جوه ملائكة الحنان الإلهي وعرائس البهجة العلوية . أما العالم فنظرته بخلاف ذلك .

وأذكر بهذه المناسبة ما كتبه أزفالد شوارز صاحب كتاب « علم نفس الجنس » في الفصل الخاص بالزواج .. فهو يقول نفس هذا الرأي ويؤيد ذات الحقيقة عندما يجرى قلمه بهذه الكلمات : إن شيئاً واحداً ينبغي أن يقرر في الحال وبتأكيد شديد ، ألا وهو أن طبيعة التجربة النفسية التي تكون عصب الزواج لا تتمثل كما هو معتقد عموماً فيما يسمونه بالحب . ومن وجهة النظر النفسية يمكن أن نقول إنها تتمثل في ذلك الشعور بالانتماء إلى شخص آخر على نحو أشد قرباً واكتمالا مما هو الأمر في أية علاقة أخرى بإنسان ؛ إنها الإحساس بالاندماج مع هذا الشخص الآخر في وحدة هي ما نسميه بالثنائي أو « نحن » . ونستطيع أن نحقق رأينا بأن الحب ليس الجوهر الأساسي في الزواج عن طريق ما نلاحظه من الاختلافات في العلاقات التي تقوم بين المحبين وبين الأزواج . واللغة نفسها تشير إلى هذا عندما نقول عن فلان إنه « وقع » في حب وعن آخر إنه عقد على زوجته . ففي العبارة الأولى نحس بدور المصير الذي يكتسح حياتنا . أما العبارة الثانية فتعبر عن الإقبال على عمل فيه إحكام واتزان وتصميم . ولذلك يعد الحب الفاشل مأساة ، أما الزواج الفاشل فعبارة عن خطأ ..

ولم ينس أزفالد شوارز أن يقول إنه على الرغم من أن الحب ليس أصلا للزواج ولا يعد أساس العقد الأسرى فإنه يلعب دوراً هاماً على مسرح الحياة الزوجية . وهكذا يمكن أن نوفق بين الفهم العلمي الصحيح وبين ما قد يخيل إلينا عن حقائق المشاكل الجنسية . فالأمور توضع في نصابها عندما نعرف جيداً دور الإحساسات والعواطف في الأعمال العادية بغير أن نرد أعمالنا العادية إلى الإحساسات والعواطف وبغير أن نجعل الإحساسات والعواطف وقفاً على بعض أعمالنا العادية . ومعنى هذا أن الحب لا يكون أصلاً في الزواج ولكنه لا يختفي مع ذلك من حياة الأزواج . وكونه شديد اللزوم في حياة الأزواج ليس معناه أنه يبرز هاهنا وحسب ، فمن الجائز بروزه في مجالات أخرى من علاقات الناس بعضهم وبعض .

ثم إن هناك ملاحظة أخرى يسوقها شوارز تأييداً لفكرته . لأنه أراد أن يبعد عامل الحب من أصل الزواج فاستدل على ذلك بما قد يطرأ على الحب من شدة أو ضعف وأن هذا لا يؤدى إلى نتيجة إيجابية في العلاقة الزوجية . فليس الحب العاطفي هو الذي يقرر نجاح الزواج أو فشله تبعاً لما شهدناه من أن الزيجات التي تمت في العصور القديمة بغير اختيار الزوج نفسه كانت أسعد بكثير من زيجات المحبين والمحبات ! .

نحن نؤكد هنا لصاحب الخطاب أن الزواج شيء آخر سوى الحب وأن الحب قد يوجد ولو لم يتم زواج وأن الزواج قد يتم ، ولا أساس هنالك من حب أو عاطفة . ولكن مع هذا لا ننسى أن نندب حظ أولئك الفاشلين في الحب لأنهم قد فشلوا في تجربة الحياة !.

عبد الفتاح الديدي

الثقافة

العـدد ٦٦٠
٢٠ من أغسطس ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

صفحة

في ضوء المصباح :

أبحاث ومقالات :

مع الفكر الأوربي المعاصر :

نقد :

سينما — مسرح :

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلوف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٦٠ الاثنين ١٧ من ذى القعدة سنة ١٣٧٠ — ٢٠ من أغسطس سنة ١٩٥١ السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

إلى سادتى الحكام ..

للدكتور زكى نجيب محمود

إلى السادة من أصحاب السلطان فى هذا البلد أوجّه الحديث .. لكن عفواً سادتى ، فما قصدت بهذا إلى الإساءة عامداً ، فأنا عالم أتم العلم بأن سادتى لايقرءون لأصحاب الفكر النظرى ما يكتبون ، ومن ثم نجاح الأولين وإخفاق الآخرين ؛ فهؤلاء قد أوصدوا من دونهم أبواب أبراجهم وقطّعوا الأسلاك التى تصلهم بالعالم الخارجى ، وعاشوا فى عزلة موحشة يقرءون ويكتبون ؛ أما أولئك السادة فقد خرجوا إلى حيث يضطرب الناس وتصطخب الحياة ، ليحكموا الناس ويمسكوا بزمام الحياة ، فليس بهم حاجة إلى كاتب يوجه إليهم حديث النصح والهداية ، وحسبهم فى باب القراءة ما قد طالعوه أيام الطلب فى مدارسهم وكلياتهم فى عهد الطفولة والصبا .

لم أقصد ياسادتى إلى الإساءة عامداً ، حين زعمت أنى أوجه إليكم حديثى هذا ، فلست جاداً فى استعمال هذه الكلمات ، وإنما الأمر كله أحلام وأوهام ؛ فالخيال والغرور كلاهما يصوران لى أحياناً أنى أكتب لقارئ ، ثم سرعان ما يوغل بى الخيال وينشط الغرور حتى أتوهم أن هذا القارئ قد يكون من أصحاب السلطان ، فأخاطبه كأنما أخاطب رجلاً سميعاً بصيراً من لحم ودم ، والأمر كله لايعدو تخليط واهم وأضغاث حالم ، وكما يقول « جوله حث » : إذا كانت أحلام الحالم لاتضر الناس فاتركوه يحلم كيف شاء .

أردت أن أقول ياسادتى إنى كنت أقرأ لأفلاطون قراءات مبعثرة هنا وهناك ، فاستوقف نظرى حرص شديد من ذلك الشيخ القديم على أن ينبه قارئه على مر الأجيال إلى علاقة قوية شديدة بين الخير والجمال ، فقد أخذ يكرر فى مواضع كثيرة أن الخيِّر والجميل شىء واحد ... وفكرت لنفسى : تُرى ماذا يعنى كبير الفلاسفة اليونان بقوله هذا ؟ وانتهيت إلى تحليل أرضانى ، تترتب عليه نتيجة هى التى أردت أن أسوقها إلى سادتى الحكام فى هذا البلد ، وهى أن كل ما فى هذا البلد المسكين قبيح ذميم بفعل هؤلاء السادة أنفسهم ، ومحبت أن يُعنى السادة بالجمال فى مساكنهم الخاصة وفى ملابسهم ومآكلهم وشتى جوانب حياتهم الشخصية ، ثم لا تمتد هذه العناية قليلاً لتشمل شئون الشعب الذى ألقى إلى أيديهم بزمامه ...

فماذا يعنى فيلسوفنا بأن الخير هو نفسه الجمال ؟ سأقص على القارىء خواطرى كما وردت حين أردت توضيح الفكرة لنفسى ؟ قلت : اختر لنفسك مثلا أو مثلين مما يستحيل أن يختلف الناس فى أنه خير ، فالصحة خير من المرض بغير شك ، والغنى خير من الفقر بلا ريب ، وإذاً فلنمعن النظر فى هذين : الصحة والغنى ، فهذان مثلان للخير يرضاهما الناس جميعاً وعلى رأسهم السادة أصحاب السلطان ؟ فكيف تكون العافية جمالا ، وكيف يكون المال جمالا ، وقد عهدنا الجمال على ألسنة الشعراء لايكون إلا الزهرة والجدول والمرأة الفاتنة والقمر الوضاء والشمس وهى غاربة وما إلى ذلك من ألوان الجمال ؟

ثم سألت نفسى قائلا : ألا يحسن بك أن تنتقل بنظرك إلى الأشياء الجميلة أولاً ، لعلك مدرك عنصراً مشتركاً بينها ، هو الذى يجعلها جميلة ، بحيث تزداد جمالاً أو تنقص بزيادة ذلك العنصر فيها أو نقصه ؟ وسرعان ما وقعت على الجواب الذى لست أشك فى أنه كان ماثلاً فى ذهن أفلاطون وهو يفكر فى هذا الصدد ، لأنه جواب أعتقد أن كل مفكر يونانى لم يكن يتردد فى قوله لو سئل : ما الجمال ؟ وذلك هو احتفاظ الجسم بنسب معينة بين أجزائه ؟ ففكرة تناسب الأجزاء والوقوف بالشىء عند حد يرضاه الذوق والعقل معاً ، فى غير إسراف فى هذا الطرف أو ذاك ، هذه الفكرة كانت تشغل الفكر اليونانى حتى لتصادفك كلما قرأت لليونان شيئاً .

جمال المرأة الجميلة هو احتفاظ أجزاء جسمها بنسب معينة ، يعرفها فى عصرنا هذا القائمون على مسابقات الجمال ، فللذراع طول وللساق طول ولكل جزء من أجزاء الجسد مقياس معين ، ويكون جمال المرأة بمقدار قربها من تلك المقاييس فى أجزاء جسمها ؟ ولكن من الذى يقرر هذه الأطوال والمقاييس ؟ تقررها التجربة والخبرة والملاحظة ، فأنسب طول للذراع هو نفسه الطول الذى يجعل الذراع فى أحسن حالة تمكنها من الحركة السهلة ، وأنسب طول للساق هو نفسه الطول الذى يجعل الساق فى أحسن حالة تمكنها من الحركة السهلة ، وهكذا ؟ فكأنما الذى يقرر لنا تلك الأطوال والمقاييس هو مدى قدرة الأعضاء على أن تحتفظ لنا بالحياة والبقاء القوى السليم .

وبعد أن يتقرر لنا شرط الجمال البشرى ، يتقرر تبعاً له شرط الجمال فى كل شىء آخر ، لأن الإنسان بعدئذ يخلع نظرته الذاتية على الأشياء ، فما دام الإنسان حين تتوافر لأعضاء جسده النسب التى تجعلها أقدر على الحركة والاحتفاظ بالحياة ، يكون فى الوقت نفسه قد توفرت له صفة أخرى هى التماثل (السيمترية) ، إذاً فليجعل التماثل مقياساً يقيس به جمال الزهرة وجمال البناء وجمال الشِّعر وجمال الصفوف المنتظمة من الجنود وما إلى ذلك .

ومادام الإنسان يتوافر لجسده شرط الجمال حين تتوافر له سهولة الحركة ويُسْرها ، إذاً فليجعل من الحركة المنسابة مقياساً يقيس به جمال الجدول الجارى وانطلاق الصوت وكل مايذكّره بحركة الحياة النابضة فى جسده هو ، كاحمرار الشفق عند غروب الشمس وميوسة الأغصان وميلانها السهل مع هبوب الريح ، وصوت حفيفها الذى يذكر بهمس العاشقين .

والخلاصة هى أن رأى الإنسان فى جمال الأشياء مستمد فى النهاية من رأيه فى جمال جسمه ، وجمال جسمه مستمد من خبرته التى دلته على أن الحياة تكون أضمن بقاء حين تتوافر للجسم نسب معينة بين أعضائه ، فهذه النِّسَب — إذاً — هى عنده المرجع الأخير .

• • •

وبعد أن قررت لنفسى ذلك فى الأحكام الجمالية ، عدت إلى المثلين اللذين أردت بحثهما من أمثلة الخير المتفق عليه . مَثَل الصحة ومَثَل الغنى ؟ وسألت : متى يكون الجسم صحيحاً معافى ؟ يكون كذلك حين تلتزم عناصره نِسَباً معينة ، فإذا زاد أو قل السكر أو الزلال أو الملح أو غير ذلك مما ينبغى ، اعتل الجسم ، وكان شفاؤه فى الحدّ من الزيادة إن كانت زيادة ، أو فى سد النقص إن كانت قلة .

ومزاج الإنسان يختلف من ساعة إلى ساعة ، فهو الآن فى نشوة من نفسه ، وهو الآن فى غم وضيق ، لماذا ؟ لأن « مزاج » العناصر يختلف من ساعة إلى أخرى ، فإذا كانت نسبة « المزج » صحيحة كان « المزاج » النفسى صحيحاً

كذلك ، وإذا كانت نسبة المزج مضطربة كان المزاج النفسي مضطرباً .

فالصحة البدنية والصحة النفسية على السواء ، هي في أساسها صحة في النسبة بين العناصر ؛ لكن الجمال في الشيء الجميل إن هو — كما أسلفنا — إلا احتفاظ الأجزاء بنسب معينة كذلك ؛ وإذاً فالجسم الصحيح هو كذلك جسم جميل ، لأن الأساس في الحالتين واحد ؛ ولما كانت الصحة خيراً متفقاً عليه ، كان الخير والجمال شيئاً واحداً ، وكان الخَيِّر هو نفسه الجميل .

وننتقل إلى المثل الآخر من أمثلة الخير ، الذي أردنا تحليله لتوضيح ما أردنا توضيحه ، وهو الغنى — فالمال خير متفَق على خيريته عند الكثرة الغالبة من الناس ؛ وحتى أولئك الذين يذمونه ويحسبونه شراً ، إنما يذمونه بالكلام ويسعون وراء جمعه بالفعل والعمل .

لكن الناس كذلك متفقون بما بينهم من فهم مشترك للأمور ، على أن هنالك نسبة معينة لابد أن يراعيها صاحب الحاجات لإنفاق مقادير معينة من المال بين كسبه وإنفاقه ، فإذا كسب مالا ولم ينفقه لم يكن عند الناس موضع مدح ، كذلك إذا أنفق مالاً ولم يكسبه ؛ بل ترى الناس يكادون يحددون أنواعاً معينة من العمل لكسب مقادير معينة من المال ، ثم أنواعاً معينة من المال المكسوب ، ولا يكون صاحب المال عندهم موصوفاً بالخير إلا إذا حافظ على هذه النِّسَب كلها بين نواحي كسبه وأوجه إنفاقه جميعاً ؛ فرجل يُمدح لأن معظم ماله من كسبه عن طريق العمل ، ورجل آخر يُذَمّ لأن معظم ماله هو مال زوجته ؛ وغني يُمدح لأنه يجود بماله ، وغني يذم لأنه يبخل ، وهكذا .

وهكذا يتوقف الخير المنسوب إلى المال على نسب مطلوبة في طريقة كسبه وطريقة إنفاقه على السواء ؛ وقد أسلفنا أن التناسب هو أيضاً أساس الحكم بالجمال على الشيء الجميل ، وإذاً فالخيِّر هنا أيضاً هو نفسه الجميل ، لأن الأصل واحد في الحكمين .

• • •

وأعود إلى السادة من أصحاب الحكم والسلطان ، الذين أوجّه إليهم الحديث فيما أوحت نفسي ، فأقول :

أيها السادة ، لقد اختلّ في أيديكم الميزان فاضطربت النسبة الصحيحة بين الأشياء والأوضاع ، فامتلأت البلاد بالقبح الذميم لأنها امتلأت بصنوف الشر ، وقد أوضحنا لكم أن الشر هو القبح ، وأن الخير هو الجمال .

إنكم — فيما أرى — عشاق للجمال في كثير من صوره ؛ تعشقونه في جميلات النساء ، شأنكم في ذلك شأن سائر الناس منذ كان على الأرض إنسان ؛ وتعشقونه في الطعام الجيد ، فقد ظهر لنا فيما أسلفناه من تحليل أن الجودة في الشيء هي جماله ، وإذاً فالطعام الجيد هو كذلك طعام جميل ، وقد حباكم الله في هذه الناحية بحاسة حادة تميزون بها الجيد من الرديء ، أعني الجميل من القبيح ؛ وتعشقون الجمال في الجبال الشم المعشوشبة السفوح المثلوجة القمم ، وإلا لما تجشمتم هذا العناء المضني كل صيف في ارتياد سويسرا وغير سويسرا من بلاد الجبال ، وتعشقونه في البحر وشواطئه ؛ وتعشقونه في أثاث منازلكم وفي ملابسكم ... وفي يسادق شيء واحد لو عشقتم فيه جماله صلح الأمر كله من أوله إلى آخره — ذلك هو العدل .

كان العدل أقوى مثل وأصح مثل ساقه لنا أفلاطون — صاحب فكرة اتحاد الخير والجمال — ليوضح به كيف يكون الاحتفاظ بالنسبة الصحيحة بين الأشياء جميلاً ، وما العدل عنده إلا هذا الاحتفاظ بالنسبة الصحيحة بين الأشياء ، فهلاً أضفتم يسادتي هذا الخير إلى سائر خيراتكم ، فتضيفوا بذلك جميلاً آخر إلى قائمة الجمال الذي تعبدونه في كثير من صوره ؟

الظلم — أيها السادة — يملأ حولكم أركان البلاد ، الظلم بمعناه الصميم ، وهو اضطراب النسبة بين الأشياء والأحياء ، وبالتالي يملأ القبح جنبات هذا الوادي المبارك الذي أراد له الله أن يكون جميلاً ؛ إنه لاتناسب يسادتي بين المناصب وشاغليها ، فصغير عندكم يملأ منصباً كبيراً ، وكبير يشغل منصباً صغيراً ، ولا تناسب بين المرتبات والعاملين ؛ فعامل منتج ضئيل الكسب ، وخامل لاينتج عظيم الكسب ، يستمتع بما لم يرده الله ولا طبائع الأشياء أن يستمتع به من طيبات .

العدل ، العدل يسادتي الحكام ، فالعدل خيرٌ ، ولذلك فهو جميل ، وأنتم من عشاق الجمال .

زكي نجيب محمود

ضـــــيعة الأدب

[مهداة للأستاذ سيد قطب]

للدكتور أحمد أمين بك

مما أعجب له تفكك الأدباء في مصر ! فليس لهم رابطة تربطهم ، وكل أديب حزب وحده ، وكما يتراشق السياسيون في سياستهم يتراشق الأدباء . وفي الوقت الذي نرى فيه تكوّن النقابات للعمال وغيرهم ، حتى كان للحلاقين نقابة ، لا نجد للأدباء نقابة . وحاول مرة الأستاذ توفيق بك الحكيم أن يجمع بينهم ليخرجوا مجلة كبيرة تحمل اسمهم فلم يفلح ، فكيف يتصافى فلان مع فلان ، أو فلان مع فلان ، ومن ذا الذي يُرضى أن يكون رئيساً للجميع ، وانفضت الدعوة إلى لا شيء .

ننظر إلى الأدباء في فرنسا مثلاً ، فنراهم كتلة ينتهزون كل فرصة للاجتماع ، اجتماع لمؤلف مات منذ عشرين سنة ، واجتماع لمؤلف ظهر منذ عشر سنين . وهكذا تتوالى الاجتماعات حتى لا يمر شهر من غير اجتماعين أو أكثر من هذا القبيل ، وبعض الاجتماع عن بحوث في أدب تطبع وتنشر . ونحن أردنا مرة أن نجتمع فأسسنا نادي القلم ، فهرب منه بعض الأدباء لأنهم لم يرضوا أن يكون فلان رئيساً ، والذين اجتمعوا لم يفلحوا لأنه كان من الخطأ ضم أدباء الجاليات الأجنبية إلى الأدباء المصريين .

وربما كان من أهم أسباب الانحلال انغماس الأدباء في السياسة الحزبية لا القومية ، وتفرقهم تفرق السياسيين لأن كلاً ينصر حزباً ؛ مع أني أعتقد أن السياسة تفسد الأدب وتفقده الخلود ؛ فالأدب السياسي ابن يومه ، والأدباء الذين يقدرون رسالتهم يفهمون أنهم أرقى من السياسيين ، بل أرقى من الوزارة نفسها . وأن على أكتافهم عبئاً ثقيلاً ، فهم يحملون الأدب من عهد امرئ القيس إلى اليوم ، وهم يحافظون عليه ويزيدونه حتى يسلموه إلى الجيل الذي بعدهم . ولو عرضت الوزارة على برنارد شو أو أمثاله جيد لسخرا من ذلك كل السخرية وترفعا عن الوزارة ، وإن للأدب مجداً أكبر من مجد السياسة ، بل الأديب الكبير يستطيع أن يكون مناراً عالياً يهتدي به الوزراء أنفسهم ، وللأديب من الخلود ما ليس للوزير ، بل إن الأديب تخلده الكتابة المترفعة عن الحزبية ولا تخلده الكتابات السياسية .

وأذكر مرة أني وصاحباً لي كنا نتحدث عن ابن حزم فقلت : إن أباه كان وزيراً . فقال : ما اسمه ؟ قلت : لا أذكر قال : سبحان الله ، أتذكر ابن حزم العالم ولا تذكر أباه الوزير . قلت : هو كذلك .

وحدثني أن مرشحاً للمجمع اللغوي الفرنسي كان وزيراً لفرنسا في أمريكا ، فطلب إليه أن يقدم طلباً ليكون عضواً ، فكتبه على ورقة طبع عليها اسم السفارة الفرنسية في أمريكا ، فرفض المجمع ترشيحه لأنه ظن أنه يُدِل بمركزه السياسي على مركزه في المجمع ، وهو يعتقد بحق أن مركزه الأدبي في المجمع أشرف من مركزه السياسي .

ونقطة أخرى يؤسف لها ، وهو أن الأدباء عندنا كانوا أدباء مستقلين لا يُعِدون من يخلفهم ، فإذا زالوا زالت مدارسهم ولنكع من بعدهم طويلاً حتى يختطوا الطريق ، لم يفعلوا ما تفعل شجرة الموز ، فقبل أن تموت تترك خلفاً لها من جنسها ، إنما فعلوا ما فعلت شجرة الورد تنضر حيناً ثم تذبل من غير عقب . إن الأديب كالمتصوف ، والمتصوف الكبير ينبغي أن يعد مريداً صغيراً حتى تتصل الحلقات . وقرأت بحثاً لطيفاً لابن خلدون في هل يشترط في التصوف أن يتعلم على شيخ ، أو أنه ينال غرضه استقلالاً ، فكان من حجج المؤيدين لحجج المشيخة أن هناك أسراراً في قلب الشيخ ، وليست مما في الكتب ، والكتب تعلم الناس عامة ، والشيخ يعلم المريد ما يصلح له ، وما يتناسب مع نفسه ومواته وبيئته ، وقد كان القدماء لا يقدرون التعلم بأخذ علمه من الكتب ، ويسمونه صحفياً ، بل حتى لا يكتفون بالأخذ عن الشيخ حتى يكتب له إجازة ، وفي كتب التاريخ صور كثيرة من هذه الإجازات ، فما بال أدبائنا يعيشون لأنفسهم ، ويتباعدون على هوة تكون بينهم وبين خلفهم ،

ابن بسام وكتاب الذخيرة

للأستاذ علي أدهم

روى المقري في كتابه القيم[1] « نفح الطيب » أن أحد رجال المغرب وفد على بغداد حاضرة الخلافة العباسية في عهد الخليفة الجليل الشأن هارون الرشيد ، ولأمر ما مثل هذا الوافد المغربي بين يدي الخليفة العظيم ، فقال له الخليفة في حديثه معه وهو يدل بسعة سلطانه وعلو شأنه : « يقال إن الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب » ، فأجابه المغربي وكان على ما يظهر رجلاً حاضر البديهة جرئ الجنان : « صدقوا يا أمير المؤمنين ، وإنه طاووس » ، ولعل هذا الجواب البارع — إن كان لهذه القصة المروية نصيب من الحق ولم تكن من تلفيق الواضعين أو طرف الظرفاء المتندرين — قد حمل الرشيد على أن يعيد نظره في تقدير أهل الأندلس والمغرب ، وأن يعلم أن الله تعالت قدرته أكرم وأعدل من أن يسبغ المواهب جميعها على قوم من الأقوام ويحرم منها سائر البشر ، فلكل مصر من الأمصار ميزاته وبراعاته ، وخصائصه التي ينفرد بها ، ولكل قوم من الأقوام مجال من مجالات السبق والتجويد والإحسان والتبرز ، وقد مضى العهد الذي كانت فيه المآرب السياسية المبهمة أو التعصبات المذهبية القاتمة تقتضي ترجيح الغرب على الشرق أو تفضيل الشرق على الغرب ، وأصبحنا في عهد نحرص فيه الحرص كله على معرفة الثقافات الإنسانية في شتى ألوانها ، ومختلف مظاهرها ، لتزداد مداركنا سعة وعمقاً ، ونتأكد معرفتنا ، ويستقيم تفكيرنا ، وتطرد مقاييسنا .

وقد لا نجد في الأدب الأندلسي نظراء للفحول المتقدمين من كبار شعراء المشارقة من طبقة أمثال المتنبي وأبي تمام والبحتري والمعري والشريف الرضي ، ولكن لا نزاع في أن الأدب العربي يخسر الكثير إذا أغفل شعر أمثال ابن زيدون وابن خفاجة وابن دراج القسطلي والرمادي وابن شهيد وغيرهم من كبار شعراء الأندلس ويمثل الأدب الأندلسي والثقافة الأندلسية المغربية . ونحن إن كنا لا نرى في الأدب الأندلسي الجبال الشامخة الذرى التي تطالعنا في أدب المشارقة إلا أن الهضبات الكثيرة التي تصادفنا في الأدب

(1) راجع صفحة ٢٢٨ من الجزء الأول من نفح الطيب طبع سنة ١٩٤٩ وتحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد .

ونشاهد هذا فيمن بعد جيلنا ، فقد كان من قبلنا يأخذ عن القدماء بأساليبهم القديمة ، ثم جئنا نحن حلقة وسطاً بين القديم والجديد ، ثم عيب من يأتي بعدنا أنه يعرف الجديد ولا يعرف القديم ، فتراث من قبلنا سيذهب هباء ، أو تتراكم عليه الأتربة في المكاتب ، مع أن فيه كنوزاً قيمة ، تناسينا نحن أكثر من الكنوز الغربية . إن برنارد شو و ه . ج ويلز وأمثالهما لم يكونوا يستطيعون أن ينتجوا ما أنتجوا إلا بمريدين لهم ، يمدون لهم المواد الخامة ، ويستفيدون من عملهم ، فما بالنا لا نعمل مثل ما عملوا ، إنها الأنانية المحضة وعدم التقدير للعواقب . إن الأديب يظن أنه يعمل لنفسه فيربح ما يربح ، ويؤلف ما يؤلف ، ليشتهر أو ليربح ، ويقول بعدي الطوفان ، وليست هذه فكرة إنسانية ولا قومية ، وقد علمنا آباؤنا أن نزرع شجرة الزيتون ولو لم نأكل ثمرها في أعمارنا ، وقالوا قد زرع من قبلنا فأكلنا ، ونزرع ليأكل من بعدنا . إن أخشى ما أخشاه أن يرى الأدباء أعمارهم فلا يجدوا من يحملها بعدهم . ولست أقول هذا مزدهياً ولكن أقوله باكياً . وأخشى أن يمر زمن طويل حتى يرزق الله الأدب من يحمل عبئه . وخير أن يكون الأدب يماً يداً بيد من أن يكون يماً سَلَماً .

وكما يحمل تبعة ذلك الأديب نفسه يحملها الأديب الناشئ ، فهو ينفر من أن يكون « مريداً » ، ويود أن يتزبب قبل أن يتحصرم ، أو أن يطلع الثنية من غير سلم ، وما هكذا تنال الأمور ؛ فكم خضعنا لننال ، وكم صبرنا لنفهم ، وقد عودتنا الأيام أن ليس طريق العلم والأدب سهلاً معبداً ، وإنما هو طريق مملوء بالأشواك ، لا يسير فيه إلا من تحصّن بالصبر والأناة .

أحمد أمين

الأندلس لما جمالها وروعتها ، وهى حافلة بعبق الأزهار ، وشهى الثمار ! وقد أبقى لنا منها مجموعة ساطعة ونخبة ممتازة ذلك الكتاب الممتع النفيس الذى وضعه الأديب المهذب الذوق الحسن الاختيار أبو الحسن على بن بسام الشنتريني وأسماه « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » وهذا الكتاب من أجل كتب الأدب العربى وأنفسها وأحفلها بالطرف والروائع وعجائب الأخبار وغرائب السير ! وقد لا يكون له من علو الشأن وجلالة الخطر ما لكتاب الأغانى أو تاريخ الأمم والملوك للطبرى وأمثالها من المراجع المأثورة ، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يطاول الكثير من المؤلفات الأخرى الأدبية ذوات الشهرة الواسعة والمكانة العالية ، مثل كتاب يتيمة الدهر للثعالبى وزهر الآداب للحصرى ، وهو بالقياس إلى الأدب الأندلسى مرجع من أهم المراجع وأوثقها وأغناها ! وحينما يتم طبع الأجزاء الباقية منه سيجد الباحثون فى تاريخ الأدب الأندلسى وتاريخ الأندلس عامة أن جانباً لا يستهان به من طريق البحث فى الأدب الأندلسى قد أصبح واضح المعالم ، لا يضل فيه السائر بين الشعاب والثنايا والمنعرجات .

ومؤلف هذا الكتاب الجامع والسفر النفيس وهو أبو الحسن على بن بسام من الأشخاص الذين كنا نحب أن نعلم الكثير عن نشأتهم وسيرتهم ، ولا نزاع فى أن حياة الرجل الذى سد مثل هذه الثغرة فى تاريخ الأدب الأندلسى جديرة بالدرس والعناية ، ولكن ما نعلمه عن حياته ونشأته ومذهبه وسيرته قليل جداً لا ينقع الغلة ولا يفى بالحاجة ، وقد كان ابن خلكان يعرف اسمه ، وقد اطلع على كتابه ، ونقل عنه ، واعتمد عليه ، ومع ذلك لم يحشره فى زمرة أعيانه ، ولم يخصه ياقوت فى معجمه المعروف سوى بأسطر ثلاثة ، وهو عنده مؤلف كتاب الذخيرة وكفى ، وذكره المقرى مراراً فى نفح الطيب ونقل عنه ، ولكنه مع ذلك لم يفرد له ترجمة مفصلة أو موجزة ، وإنها لعبرة مؤلمة أن تضيع أخبار من حفظ أخبار الناس ولا نعرف تاريخ من وعى صدره التاريخ ، وقد نشأ ابن بسام فى مدينة شنترين وهى مدينة معدودة فى كورباجة على الشاطىء الأيمن من نهر تاجو ، وموقعها إلى الشمال الشرقى من أشبونة ، يقول عنها صاحب الروض المعطار : إنها من أكرم الأرضين ، ولها بساتين كثيرة وفواكه ومباقل ، ونهرها يفيض على بطحائها كفيض نيل مصر ، فيزدرع أهلها على ثراه عند انقطاع الفريعة فى البلاد وذهاب أوانها ، فلا يقصر عن غاية الطيب ، وقد ظل بها ابن بسام مكفول الرزق مكفى الحاجة قد أغناه كرم الانتساب عن سوء الاكتساب ، كما يقول عن نفسه ، حتى خرج منها مروع السرب مفلول الغرب ، وكان موقف المسلمين فى الأندلس قد أخذ يتحرج منذ أواخر القرن الرابع الهجرى وخلال القرن الخامس ، وكانت المدن الواقعة فى الأطراف الشمالية مثل شنترين تجد صعوبة فى المحافظة على كيانها ورد الغارات عنها . ولما انهارت الخلافة الأموية بالأندلس وظهر ملوك الطوائف كانت شنترين من البلاد التى دخلت فى حوزة بنى الأفطس ، وقد اتصل ملكهم حتى قتل المرابطون المتوكل آخر ملوكهم فى غرة سنة ٤٨٥ ، والظاهر أن مدينة شنترين وقعت بعد ذلك فى قبضة الإسبانيين حتى استردها منهم الأمير سيرين أبى بكر بن تاشفين فى عهد ملك المرابطين على بن يوسف بن تاشفين ! ولكن الإسبانيين عاودوا الكرة واستولوا عليها ، وقد حاول أمير الموحدين أبو يعقوب استردادها فى سنة ٥٧٩ ولكنه لم يوفق فى ذلك . ولم يذكر لنا ابن بسام سنة خروجه من شنترين ، ومهما يكن من الأمر فإنه قد لقى صعوبات جمة فى النجاة بنفسه ووصل إشبيلية و « نفس قد تقطعت شعاعاً وذهب أكثرها التياعاً » ، ولم يحمد مقامه بها ، فقد كانت سوق الأدب بها كاسدة ، وحامله « أضيع من قمر الشتاء » وقيمة كل أحد ماله ، وقد ظل ابن بسام بها مهجور الفناء ، وحيداً من الخلان ، يعانى أزمة الفقر وسوء الحال حتى « طلع على أرضها شهاب سعدها وتمكينها ، وهبت لها ريح دنياها ودينها ، ملك أملاكها وجذيلها المحككها وأسعد نجوم أفلاكها و فلان » ثمال المظلوم ، ومال السائل والمحروم ، ومحيى العلم وصريخ ذويه وحامليه » وعطف عليه هذا الأمير وأخذ بيده فطالع حضرته بكتاب الذخيرة ، وإن كان قد طوى عنا اسمه ولقبه ونسبه وحسبه ، والأرجح أن هذا الأمير المجهول كان فى طليعة رجال المرابطين وربما كان أحد أبناء يوسف ابن تاشفين نفسه .

وقد ذكر لنا ابن بسام فى صراحة مستحبة السبب الذى حمله على تأليف هذا الكتاب وجمع مادته ، فقال فى مقدمته : « وما زال فى أفقنا هذا الأندلسى القصى إلى وقتنا هذا من فرسان الفنين وأئمة النوعين قوم هم ما هم طيب مكاسر ، وصفاء جواهر ، وعذوبة موارد ومصادر ، لعبوا بأطراف

الـكلام للشفق ، لبس الدجى بجفون الزرق ، وصبوا على ثواقب النجوم ، غرائب المنثور والمنظوم ... إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً ، وأشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ الرذية ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد ! فغاظني منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري ، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة ، مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه ، وقديماً ضيعوا العلم وأهله ، ويارب محسن مات إحسانه قبله ! وليت شعري : من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل الشرق بالإحسان ؟ » .

ونرى من ذلك أن الحافز لهذا الرجل الفاضل على وضع هذا الـكتاب هو ما نسميه بلغة عصرنا « النزعة القومية » أو « العاطفة الوطنية » فقد أثار وطنيته وحرك قوميته شدة عناية أهل الأندلس بأدب المشارقة وإهمالهم أدبهم القومي مع جودته وامتيازه واستحقاقه للعناية والرعاية . وقد أراد ابن بسام أن يرد للأدب الأندلسي اعتباره ، ويسترعي الأنظار إلى محاسنه ، ويسجل رواعاته وعبقرياته . على أن هذه النزعة القومية أو العصبية الشعرية الوطنية لم تضل رأيه ولم تفسد عليه حكمه ؛ وسبب ذلك ثقافته الواسعة ، واطلاعه الغزير ، وتضلعه من فنون الأدب العربي في متتابع عصوره ، والثقافة الحقة تحد من صولة الهوى ، وتميل بالإنسان إلى القصد والاعتدال . وكان ابن بسام أعرف بفضل أدباء المشارقة من أن يبخسهم حقهم ، وأسلم ذوقاً وأصح تقديراً من أن ينحل أهل الأندلس ما ليس لهم ! وليس أدل على سعة أفق ابن بسام وطلاقة تفكيره من أنه كان لا يرى الإجادة مقصورة على قوم دون قوم ، وأنها لا ينفرد بها الشرق دون الغرب ، ولا القدماء دون المحدثين ؛ وهو يرى سخافة الرأي القائل بأن الأوائل لم يتركوا للأواخر شيئاً ، ويقول في مقدمة كتابه : « وكم من نكتة أغفلها الخطباء ، ورب متردم غادره الشعراء ، والإحسان غير محصور ، وليس الفضل على زمن بمقصور ، وعزيز على الفضل أن ينكر ، تقدم به الزمن أو تأخر ، ولحى الله قولهم : الفضل للمتقدم ! فكم دفن من إحسان ، وأخمل من فلان . ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين ، لضاع علم كثير ، وذهب أدب غزير » ؛ فالرجل لا يريد أن ينصف أهل الأندلس وحدهم ، وإنما يريد أن ينصف فكرة « الحداثة والتجديد » ويهدم فكرة ترجيح القدامى على المحدثين لمجرد كونهم قد تقدم بهم الزمن وتأخر الزمن بالمحدثين .

ويظهر من طريقة تنسيق الـكتاب ومن بعض عباراته الصريحة وإشاراته الواضحة ، أن المؤلف قد اتخذ الثعالبي صاحب اليتيمة قدوة له وإماماً ، فجرى على خطته وسار على منهجه ، واصطنع السجع كما اصطنعه الثعالبي ، واحتفل وتأنق في تقديم الـكتاب والشعراء ، والإشارة إلى محاسنهم والتنويه ببراعاتهم احتفال الثعالبي وتأنقه في التحدث عن شعراء اليتيمة وكتابها والإشادة بذكرهم ؛ وقد كان الثعالبي مؤلفاً بارعاً له كتب كثيرة في مواضيع مختلفة ، جزيلة الفائدة تدل على تمكن ، وتنم على حياة أوقفت على البحث والتصنيف . وأما ابن بسام فإني لا أعرف له غير كتاب الذخيرة ، والظاهر أنه استغرق جهده واستأثر بوقته ، وبخاصة لأن الـكثيرين ممن ذكرهم في كتابه لم تكن لهم أخبار موضوعة ولا أشعار مجموعة تفسح له طريق الاختيار منها ، وقد اضطره ذلك إلى البحث الطويل والاستقصاء الشاق . ويبدو لي أن الثعالبي كان على فضله وسعة اطلاعه أكثر خضوعاً لأحكام القدماء من ابن بسام ، وأنه كثيراً ما يخدعه التبهرج ، ويحسب الشحم فيمن شحمه ورم . أما ابن بسام فإنه نافذ النظر ، سليم الذوق ، بارع الناقدة ، دقيق الملاحظة ، لا يخدعه الطلاء المموه ، ولا تضلل تفكيره الألفاظ الضخمة المدوية ، أو الطنطنة العالية .

وقد قسم كتابه أربعة أقسام باعتبار الأقاليم كما قسم الثعالبي كتابه باعتبار الأقاليم ؛ فقسم لقرطبة وما يصاقبها من وسط الأندلس ، وقسم لإشبيلية وما اتصل بها من بلاد غرب الأندلس ، وقسم لبلنسية وما يليها من شرق الأندلس ، وأفرد القسم الرابع لمن طرأ على شبه الجزيرة في المدة المؤرخة من أديب وشاعر وكاتب . ووصل بهذا القسم ذكر طائفة من مشهوري أهل تلك الجهات ممن نجم في عصره بإفريقية والشام والعراق ، وصرح بأنه ذكر هؤلاء اتساء بأبي منصور الثعالبي في اليتيمة .

وقد اختص بعنايته أخبار الملوك والأمراء والرؤساء وتأثيرهم في الأدب كما فعل الثعالبي والفتح بن خاقان وغيرهما من مؤرخي الأدب ، ليوضح العلاقة بين الأدب والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة وتأثير تلك الأحوال في اتجاهات الأدب ومشاعر الشعراء والكتاب وإنتاجهم الفني ؛ وهو في هذه الناحية يفضل الثعالبي وغيره من مؤرخي الآداب ، لأنه لا يكتفي بالأخبار العامة ، والملاحظات العارضة ، وإنما يقف وقفات طويلة ، ويفصل ويدقق ، ويتحرى ويتثبت ، ويأتي بالفوائد التاريخية القيمة ، ويستقي الأخبار من ينابيعها الأصيلة ؛ وقد آمن بالمنهج التاريخي في الأدب والنقد ، وأخذ به ، وعمل في حدوده ، قبل أن يعرف هذا المذهب في القرن التاسع عشر ، وترسم حدوده ، وتفصل طرائقه ؛ وحرصه على التحري والاستقصاء في هذا الموضوع جعله يرجع إلى المؤرخين الثقات ويستشيرهم ، وينقل عنهم ، ويستمد منهم ، وكان من حسن التوفيق أنه اعتمد على شيخ مؤرخي الأندلس وزعيمهم غير منازع المؤرخ الأندلسي الذائع الصيت ابن حيان ، وهو مؤرخ معروف بالصدق ودقة التحري والصراحة واستقلال الرأي مع براعة الأسلوب وطرافته والقدرة الفائقة في تصوير الحوادث ووصف الرجال والأعمال ونقدها ، وهو يكثر من النقل عنه ، ويطيل في بعض المواقف إطالة غير مملولة ، بل لعلها إطالة مفيدة شائقة ، لأن ابن حيان يعرف كيف يجتذب القارئ في رواية الأخبار ، وعرض الحوادث ، والتحدث عن الأشخاص .

وقد أشار ابن بسام إلى عنايته بالمنهج التاريخي في الأدب بقوله : « وتخللت ما ضمنته من الرسائل والأشعار بما اتصلت به أو قيلت فيه من الوقائع والأخبار . واعتمدت المائة الخامسة من الهجرة فشرحت بعض محنها ، وجلوت وجوه فتنها ، وأحصيت علل استيلاء طوائف الروم على الأقاليم ، وألمعت بالأسباب التي دعت ملوكها إلى خلعهم ، واجتثاث أصلهم وفرعهم ، وعبرت عن ذلك بلفظ يتتبع الهم بين الجوانح ، ويحل العصم سهل الأباطح ، وعولت في ذلك على تاريخ أبي مروان ابن حيان ، فأوردت فصوله ، ونقلت جمله وتفصيله ، فإذا أعوزني كلامه ، وعزني سرد نظامه ، عكفت على طللي البائد ، وضربت في حديدي البارد »

وهو كلام يدل على صراحة الرجل وتواضعه واعتداله .

ولو لم يكن من مزايا هذا الكتاب سوى عناية ابن بسام بالمحافظة على الكثير من نصوص تاريخ ابن حيان الذي فقد أكثر مادته براعته ووعاه عقله الكفاء فضلاً ونبلاً ، ولكان ذلك من دواعي الحرص على كتابه والرغبة في اقتنائه والاستمتاع بما فيه من مادة طلية وأخبار ممتعة شائقة .

ولابن بسام استدراكات وتعليقات على بعض أبيات الشعر التي يذكرها والأخبار التي ينقلها تدل على ضلاعته وكفايته وسعة اطلاعه ، والأسجاع القوية التي يقدم بها الكتّاب والشعراء لا تخلو من مبالغة واضحة ، وكانت المبالغة آفة من آفات عصره والعصور التي تلته ، ولكنها لا تخلو في الوقت نفسه من صدق النظر ، وقوة التمييز ، ومحاولة تحديد للمواهب ووصف للملكات ؛ وفي الأجزاء المطبوعة من الكتاب لمحات من أخباره وأحواله ، من ذلك ما رواه عن اجتماعه بالوزير ابن عبدون وهو قوله : « اجتمعت بالوزير أبي محمد عبد المجيد بن عبدون أول لقائي له بشنترين في جملة أصحاب المتوكل ، فأول مجلس اجتمعت معه فيه وسمع بعض الإخوان يدعونني باسمي فقال لي : « أنت[1] علي بن بسام حقاً ؟ قلت : نعم . قال : أو تهجو حتى الآن أباك أبا جعفر وأخاك جعفراً ؟ فقلت له : وأنت أيضاً عبد المجيد ؟ قال : أجل . قلت : وحتى الآن فيك ابن مناذر يتغزل ؟ فضحك من حضر لهذا الجواب الحاضر » وقد ذكر له المقّري بعض أبيات من الشعر منها قوله يخاطب أبا بكر بن عبد العزيز .

أبا بكرٍ المجتبى للأدب ... رفيع العماد قريع الحسب
أيلحن فيك الزمان الخئون ... ويعرب عنك لسان العرب
وإن لم يكن أفقنا واحداً ... فينظمنا شمل هذا الأدب

ونظمه دون نثره كما لاحظ المقري ، وقد مدحه أبو بكر بن عبادة بأبيات يقول في مطلعها :

يا منيفاً على السماكين سام ... حزت فضل السباق عن بسام

وكتاب الذخيرة كاف في التنويه بفضله وتخليد اسمه .

علي أدهم

---

(1) علي بن بسام الذي أشار إليه ابن عبدون وسمي ابن بسام صاحب الذخيرة هو الشاعر المعروف بالبسامي وكان خبيث اللسان لم يسلم من هجائه أبوه ولا أخوه ، وعبد المجيد هو الذي رثاه ابن مناذر بداليته المشهورة .

رســـــائل من المغرب

الرسالة الخامسة

طنجة فى ... سنة ١٩٥١

أخى راتب ،

عندما أعلنت الحرب الأخيرة وقفنا نحن المراكشيين بجانب الحلفاء — أو بعبارة أخرى بجانب فرنسا — وقدمنا كل ما طلب إلينا من الرجال والعتاد والتموين ، وقدمنا موانينا ومطاراتنا ومواصلاتنا . وربما تقول إنه كان علينا أن نقدم هذا بحكم الحماية التى لفرنسا على بلادنا ، كما فعلتم أنتم — المصريين — أثناء الحرب الأولى عندما كانت لانجلترا الحماية على مصر . والواقع هو أننا — حكومة وشعباً — قدمنا كل مساعدة ممكنة بدافع المبدأ ، مبدأ تحريرنا للديمقراطية . فلقد فهمنا حينذاك أن الحلفاء كانوا يدافعون عن الحريات ، حريات الشعوب والأفراد ، وأنهم يريدون أن يتغلبوا على الدكتاتورية وطغيانها ، وأن فى نيتهم ، بعد هزيمة الدكتاتورية ، أن يجعلوا من هذا العالم عالماً جديداً خالياً من العوز يتمتع بالحرية والسلام ، ويكون لكل شعب فيه حق تقرير مصيره . والواقع أن دعاية الحلفاء القوية فى ذلك الوقت كانت مغرية ومقنعة . وقد كان فى استطاعتنا أن نثور ، وأن نخلق قلاقل واضطرابات — بإيعازمن المحور — ولكنا لم نر من المروءة أن نضرب من الخلف . ولما هزمت فرنسا سنة ١٩٤٠ وقامت حكومة ڤيشى التى كانت تتلقى الأوامر من الألمان ظلت عاطفتنا مع «فرنسا الحرة» ؛ لأننا كنا من أنصار الحرية . ولعلك لا تعرف أن حكومة ڤيشى رغبت إلى مولانا السلطان أن يضايق اليهود فى أموالهم وأنفسهم — وكانت هذه رغبة ألمانيا — فرفض مولانا قائلاً : إنهم من رعيتى ، وفى حمايتى ، فلا يمسهم أحد بسوء . ثم نزل الحلفاء فى مراكش سنة ١٩٤٢ ، فجددنا ثقتنا بالديمقراطية ظناً منا أن فى انتصارها تحقيقاً لآمالنا . ولكن ماذا جنينا ؟

لقد كان انتصار فرنسا نكبة علينا ، فهزيمة إيطاليا أعادت للحبشة حريتها واستقلالها ، وحررت ليبيا وإرتريا أما نحن فما زلنا كما كنا من قبل إن لم تسؤ حالنا .

قدم الوطنيون مطالب البلاد ، فى أواخرسنوات الحرب إلى المقيم العام ، فقال : إن الوقت لم يحن بعد للنظر فيها ووعد بإصلاحات تدريجية . وانتهت الحرب وضيق الفرنسيون الخناق على حرياتنا ، وصارت الصحف تصدر نصف بيضاء لا تحمل إلا الإعلانات وأخبار القادمين والمسافرين وحظرت الاجتماعات ، وعوكس الوطنيون فى أموالهم وأعمالهم . وتتطور المأساة فيطلب المقيم العام إلى سيد البلاد أن يعلن أن «حزب الاستقلال» حزب غير شرعى ، فيحل بذلك الحزب ، ويشتت رجاله !

لقد كانت السلطات الفرنسية تتهم الوطنيين — قبل الحرب — بممالأتهم للنازية والفاشية ، فلما زال هذان المذهبان ، أصبح الوطنيون يتهمون بالشيوعية . وهكذا نجد المستعمرون دائماً فى قاموس السياسة أوصافاً نكراء ، يصمون بها المجاهدين الأحرار . ولا أريد أن أعيد هنا ذكر المأساة السياسية التى حدثت فى شهرى فبراير ومارس الماضيين وتحدى السلطات المستعمرة لأمة بأكملها شعباً وحكومة ، وما قام من مظاهرات أخمدت بالسلاح ، واعتقال السلطات لمئات من الأبرياء فى جميع أنحاء البلاد ومحاكمتهم ، ولكنى أريد أن أشرح لك حالنا اليوم تحت الحماية الفرنسية .

هنا حقيقة يطيب لى أن أعلنها ، تلك هى أن علاقتنا بسلطاننا إنما هى علاقة ولاء خالص وحب ، لا فرق فى ذلك بين من يسميهم المستعمر برابرة وعرباً . وحبنا لسلطاننا هو فى الواقع حب طبيعى لا تقليدى ، منشؤه أننا نرى فيه أباً لأسرة كبيرة ، وراعياً دينياً ومدنياً معاً ، وسيداً عطوفاً حدباً على مصالحنا . وهو فى بساطة حياته ، ومشاركته إيانا آلامنا وآمالنا يرتبط بنا بروابط روحية ومعنوية عميقة . وإنك لتجد صورته فى بيوتنا وحجراتنا الخاصة تمثل فيها قيادته

الرشيدة وأبوته وعطفه . لهذا كان من مصلحة المستعمرين أن يخلقوا في البلاد — مقابل هذه الوحدة بين الشعب وسيده — هيئة موالية لهم يعتمدون عليها ، هيئة هي ورقة اللعب التي يهددون باستعمالها عند الأزمات السياسية . وأنت — يا أخي — تعرف أمثلة لذلك في السودان وغيره من البلاد العربية التي يسودها النفوذ الأجنبي .

ومنذ أن وضع الفرنسيون أقدامهم في مراكش حاولوا أن يفرقوا بين عرب وبرابرة . فعززوا سلطات زعماء

الأسرات الفرنسية وزرعوها في المدن والقرى زرعاً ، وسهلوا لها استغلال رءوس الأموال في الصناعة والتجارة والزراعة ، وساعدوهم على امتلاك الأراضي ، فنما عدد الفرنسيين وغيرهم من الأجانب ، ونمت معهم ثرواتهم نمواً فاحشاً ، وصرت تجدهم في المدن والقرى أصحاب المتاجر والفنادق والمقاهي والبيوت التجارية وأصحاب المزارع الواسعة والبساتين ، والشركات الزراعية يستخدمون فيها معارفهم الفنية ، وآلات الإنتاج الحديثة ، مما لا يعرفه المزارع



(الحي الفرنسي في مدينة فاس)

القبائل البربرية وحاولوا كسبهم ، وعملوا على إحياء عادات البربر ولغاتهم وهي لغات غير مكتوبة . وفي سنة ١٩٣٠ أصدروا قانوناً بوجوب احترام العادات والتقاليد البربرية ، ونظام القبائل ، وأنشئوا بمقتضاه مجالس قضائية قبلية مستقلة عن نظام المحاكم المدنية والشرعية ، مجالس تشبه مجالس نظار العشائر في السودان .

ثم حاولوا منذ إعلان الحماية أن يطبقوا السياسة التي اتبعوها في الجزائر ، على مراكش بالتدريج . فاستقدموا

المراكشي ، وبانتشارهم بيننا نشروا معهم عاداتهم ، وهي أجنبية عنا نحن المسلمين المحافظين ، فأخذنا عنهم أسوأ العادات ، أخذنا عنهم الربا والقمار وشرب المسكرات ، وإن كنا لا نزال — والحمد لله — محتفظين بتقاليدنا الإسلامية بصفة عامة إذا قورنا بأهل الجزائر .

وأنت إذا ذهبت إلى المصايف المراكشية وجدتها ملكاً للفرنسيين ، ولا يسمحون للوطنيين أن يختلطوا بهم أو يجاوروهم ، وفي كثير من المدن مثل فاس ومكناس



(مدخل إلى « فاس البالى » حيث يقيم أهل البلاد)

اشتروا أراضى البناء، وقسموها وجعلوها مقراً لهم وللأوربيين ولا يسمحون لأهل البلاد بالبناء فيها ، ولذلك نشأ فى مدننا حيان متميزان : الحى الفرنسى الراقى ، والحى الوطنى المهمل .

وفى مراكش الآن نصف مليون معظمهم فرنسيون ، وقد حرم الاستعمار المراكشيين من كل الوظائف الكبرى ، بل بعض الوظائف الصغيرة ، فإذا أنت دخلت أحد المصارف راعك ألا تجد فيه من المراكشيين إلا البواب والسعاة ، وإذا درست إدارة من إدارات الحكومة — كالسكة الحديد مثلاً — وجدت معظم موظفيها من الفرنسيين ، حتى الكسارة ، ولم لا ؟ إن اللغة الفرنسية هى لغة الدواوين ، والمراكشيون لا يتاح لهم من التعليم عادة ما يمكنهم من الوصول إلى المستوى الثقافى أو الفنى الذى يسمح لهم بمنافسة الفرنسى ، وقد كانت هذه حالة مصر إلى نهاية الحرب الأولى ، وحالة السودانيين مع الأنجليز إلى سنوات أخيرة ...

ويكفى أن أذكرك بحال الشركات الأجنبية فى مصر قبل صدور « قانون استعمال اللغة العربية » فيها لتدرك كيف أن جميع أعمالنا الرسمية والتجارية فى يد الفرنسيين ، وتستعمل فيها اللغة الفرنسية ... ثم من الواجب أن أقول إن بين الموظفين الفرنسيين عدداً لا بأس به من المراكشيين هم موضع عطفهم وثقتهم ، ولكنهم بالأسف يهود .

وأقول : بالأسف لأنهم محسوبون علينا وليسوا منا ؟ فهم يوالون المستعمر ، وهم يتمتعون بكل المزايا ، ولكن عاطفتهم ليست معنا ، ولقد استطاعوا أثناء حرب فلسطين — وما زالوا — أن يقدموا المساعدات المالية لأعداء العرب ...

فإذا سألت عن حال التعليم قلت لك إن عدد التلاميذ المراكشيين الذين فى مدارس الدولة يقل عن عدد التلاميذ الفرنسيين الذين فى المدارس الفرنسية بمراكش ، وعن عدد التلاميذ اليهود الذين فى مدارسهم الخاصة .

وليس فى بلادنا معاهد فنية عالية تعد إعداداً جامعياً للطب والهندسة والعلوم ، وإنما الوسيلة إلى ذلك هى إرسال الشبان إلى جامعات فرنسا .

ولقد كان من أثر قصر تعلم اللغات الأجنبية فى مدارس الحكومة على اللغة الفرنسية أن اتجه تعليمنا العالى نحو فرنسا ، وحرمنا الاتصال بالثقافات الأوربية الأخرى . وإذا عرفت أن شئون البلاد فى يد الإدارة الفرنسية أدركت أنه ليس من مصلحتها نشر التعليم أو تثقيف الشعب ، ولكننا نحن المراكشيين قد تنبهنا الآن إلى هذه الحال ، وبدأنا نبنى المدارس للبنين والبنات ، ولاقينا فى مشروعنا هذا كل تشجيع وإقبال .

وفى البلاد الآن نهضة قوية فى كل نواحى الحياة ، ويقظة لحقوقنا الوطنية تزيد كل يوم نشاطاً .

ونحن حين ننظر حولنا فنجد شعوباً كانت بالأمس فى مرحلة بدائية فصارت تحكم نفسها بنفسها كالساحل الذهبى مثلاً ، وحين نذكر تاريخنا الماضى وقد امتدت الامبراطورية المراكشية فى عهد المرابطين والموحدين إلى تونس وأسبانيا ، ونذكر الدور الثقافى الذى قام به علماؤنا فى التاريخ ، نشعر بأن الوقت قد حان لاسترداد حريتنا وحقوقنا ، ولتنمية مواهبنا وقدراتنا وثرواتنا ،

والإشراف على شئون بلادنا ، والتعاون مع من نشاء من أمم العالم لخيرنا وخير الإنسانية .

إن حركتنا القومية هذه حركة طبيعية صحيحة سليمة ، ولا بد منها لكل شعب من الشعوب ، والمشكلة هي أن الأنانية الاستعمارية لا تريد أن تعترف بها ، وتعمل على كبتها .

ولقد صرح الأستاذ علال الفاسي رئيس حزب الاستقلال في كتاب نشرته معظم الصحف الأمريكية والانجليزية بأهداف الشعب المراكشي التي يعمل حزب الاستقلال على تحقيقها فقال :

« إن هدفنا هو استقلال بلادنا والانتقال بالعلاقة السائدة وغير المرضية بيننا وبين فرنسا إلى علاقة تعاون حر ، ويبدو أن هذا الهدف غير واضح في أذهان من يتحدثون عن المسألة المراكشية في الخارج .

... أما أن حركتنا الاستقلالية قائمة فهذا ما لا شك فيه ، وهي قوية أيضاً ، وأعضاء حزبنا من جميع الطبقات : من المثقفين ورجال الصناعة والتجارة إلى الزارعين الأميين ورجال القبائل . وإن نشاطنا الآن لموجه إلى نواحي السياسة والتربية . فقد نظمنا حرباً ضد الأمية في جميع أنحاء البلاد ، وأسسنا مدارس كثيرة في المدن والقرى ، ابتدائية وثانوية ، ونعمل على استمرارها في رسالتها . ونحن نربي العمال وننظم صفوفهم لكي يكونوا اتحاداتهم ؛ هذه الاتحادات التي تحظر الإدارة الفرنسية في مراكش تكوينها . وهذه الجهود تبذل في جو من الصعوبات بسبب الحظر القائم على حريتنا المدنية .

إن حركتنا حركة وطنية أساسها الإسلام والديمقراطية ، وبهذه الصورة تنكر كل علاقة بالشيوعية . ولقد حاول الحزب الشيوعي الفرنسي أن يتفق معنا على تكوين جبهة مشتركة ، وألح في محاولاته دون جدوى . وليس حزب الاستقلال معادياً لفرنسا ، ولكنا حقاً ضد نظام الاستعمار الذي أثقلت به الإدارة الفرنسية عاتق الشعب المراكشي ، ومع ذلك مازلنا نعمل بقوة على أن نصل إلى حل الموقف مع الحكومة الفرنسية على أساس من التفاهم والاحترام المتبادل » .

فأنت ترى — أيها الأخ العزيز — فيما ذكرت لك ما وصلت إليه بلادنا في عهد الحماية الفرنسية . وقد أردت أن أذكر لك هذا قبل أن تفد إلينا لكي يتهيأ ذهنك لمشاهدة ما نحن فيه . وأنا متفائل جداً عند ما أقول « قبل أن تفد إلينا » ، إذ يخيل إلي أن مصيرك سيكون كمصير غيرك من أبناء العرب الذين حاولوا الحصول على تصريح لدخول مراكش السلطانية ، من القناصل الفرنسية . فالمنطقة السلطانية منطقة محظورة عليهم ، بل إنها محظورة كذلك على أي زائر يخشى منه أن يقوم بدعاية أمينة ضد السياسة الاستعمارية الفرنسية .

فإذا عرفت هذا عرفت أنه لا فرق بين « الستار الحديدي » الذي تفرضه الروسيا و « الستار الحريري » الذي تستخفي وراءه القادة الفرنسية . ولكن الأول باسم الدكتاتورية والثاني باسم الديمقراطية .

لقد أطلت عليك — يا راتب — في رسالتي ، ولست أريد بهذا أن أصرفك عن زيارتنا . كلا فسوف تجد بيننا أهلاً بأهل وإخواناً بإخوان . حاول أن تدخل المنطقة السلطانية . فمن سار على الدرب وصل . وأستودعك الله ، وإلى اللقاء .

أخوك

أبو مروان

الاسكندرية

فى القرن الثامن الهجرى

للدكتور جمال الدين الشيال

توفى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٣) ، وخلفه على عرش مصر عدد كبير من أولاده وأحفاده لم تكن لهم شخصيته الفذة ولا همته العالية ، بل كان معظمهم أطفالاً صغار السن ، فاستبد بشئون الملك دونهم كبار الأمراء من المماليك ؛ وكثرت المنافسات بين هؤلاء الأمراء حتى شغلهم النزاع فى سبيل الاستئثار بالسلطان عن العناية بشئون مصر عامة ، والثغور خاصة .

وكانت الدعوة لتجديد الحروب الصليبية ضد مصر قد قويت ونشطت حينذاك فى ممالك أوربا المختلفة ، وكانت الرسل تتوافد متنكرة على مصر لدراسة أحوالها الداخلية ، وكتبت التقارير الكثيرة تصف ما كانت تعانيه مصر من اضطراب داخلى صرف الحكام عن العناية بشئون القلاع والأسطول ، وخاصة فى الاسكندرية .

وتَدَبّ بطرس لوزنيان — ملك قبرص — نفسه للقيام بهذه الحملة الصليبية ، ووصلت أساطيله إلى مياه الاسكندرية فى شهر صفر سنة ٧٦٧ (أكتوبر ١٣٦٥) ، وسرعان ما نزلت جنوده إلى البر فاقتحموا الأبواب ، ودخلوا المدينة بعد مقاومة ضئيلة .

وقد يبدو غريباً أن تسقط المدينة فى أيدى الأعداء بهذه السرعة وبهذه السهولة ، رغم ما كان يحيط بها من أسوار حصينة وأبراج منيعة ، ومع أن خزائن أسلحتها كانت مليئة بالعدة والعتاد ؛ ولكننا نجد التفسير فى ذلك الاضطراب الذى كان يسود مصر فى ذلك الحين : فقد كان على عرشها سلطان طفل لم يكد يبلغ الحادية عشرة من عمره — هو السلطان الملك الأشرف شعبان — ، وكان يستبد بالأمر دونه الأمير يلبغا العمرى الخاصكى ؛ وكانت جهود هذا الأمير مصروفة كلها لمقاومة منافسيه من أمراء الدولة الآخرين .

وزاد الطين بلة أن والى الإسكندرية الأصيل — وهو الأمير صلاح الدين خليل بن عرّام — كان متغيباً عن المدينة يؤدى فريضة الحج ، وكان ينوب عنه فى حكم المدينة أمير آخر أقل منه درجة وأصغر مرتبة ، هو الأمير جنغرا .

ويبدو أن حامية المدينة كانت قد قلّ عددها عن ذى قبل ، كما يبدو أن هذا الأمير جنغرا كان يعنى بالمظاهر أكثر من عنايته بشئون الدفاع الجدية عن المدينة ، فهو — بدلاً من أن يعنى بتعمير سفن الأسطول ، والإكثار من جند الحامية وتدريبهم — كان يخرج كل ليلة ليشرف على حراس الميناء وهم يطلقون النفط فيتطاير الشرر منه مختلفاً ألوانه .

هذه هى شخصية جنغرا كما وصفها النويرى ، المؤرخ السكندرى المعاصر لهذه الحملة بقوله : « فأقام جنغرا بالاسكندرية (نائباً عن واليها الذى كان بالحجاز) من شوال سنة ست وستين وسبعمائة إلى المحرم ، ينظر تلك الطوائف ، التى لكل طائفة منها ليلة فى الأسبوع تبيت (فيها) تحرس بساحل المينة ؛ وربما بات ليالى فى الغرفة التى على باب مسجد تربة طغيه ، ويتقدم قدامه فانوسين ... مقابل باب المسجد المذكور ؛ وتأتى طائفة الزراقين يطلقون النفط ، وهو ينظر من طيقان الغرفة المذكورة إلى الشرار الطيّار ، والدوالب التى تدور بألوان النار من الخضرة والصفرة ، والبياض والحمرة ، فيحصل بذلك الانشراح ، من العشى إلى الصباح ، ويبتهج أيضاً بنظره إلى كثرة الخلائق المنتشرة على الساحل من الرماة والعوام .. فإذا أصبحوا انتظمت الطائفة التى باتت تحرس ، ودخل البلد فى همة وجد ، وكثرة العدد ، فتجتمع لدخولهم الرجال والنسوان ، ينظرون لأقوام كزهر بستان ، من حسن الملابس ، ورياش تلك الأطالس » .

لم يستطع جنغرا إذاً — وهذه همته — أن يصمد لمقاومة القبارصة ، ففر إلى دمنهور ، وفر معه من استطاع

النجاة بنفسه من الجند والأعيان . ودخل الصليبيون المدينة فقتلوا معظم من بها ، وأسروا الباقين ، وخربوا المدينة تخريباً تاماً ، وهدموا دورها وقصورها ومساجدها ، ونهبوا فنادقها ومتاجرها ومصانعها ، ونقلوا هذا كله إلى سفنهم .

وتباطأ يلبغا في إرسال النجدة الحربية . ولم ينقذ المدينة إلا اختلاف دب بين رجال الحملة ، فقرروا مغادرة الاسكندرية والعودة إلى جزيرتهم بعد أن قضوا بها أربعة أيام لم يتوانوا خلالها عن التخريب والتدمير ، والنهب والسلب ، ووصلت النجدة بعد أن غادر جنود الأعداء المدينة ، وبعد أن « أخذوا من الأموال ذهباً وحريراً وبهاراً وغير ذلك ما لا يحد ولا يوصف » ، وبعد أن « تحولت الغنائم كلها إلى الشواني بالبحر ، فسمع للأسارى من العويل والبكاء ، والشكوى والجأر إلى الله والاستغاثة به ، وبالمسلمين ما قطع الأكباد ، وذرفت له العيون وأصم الأسماع » .

وحمل الصليبيون معهم في عودتهم نحو خمسة آلاف أسير — من الرجال والنساء — ، هم معظم من بقي حياً من سكان الاسكندرية ، ومما يدل على أن جنود هذه الحملة لم يكونوا يستهدفون هدفاً معيناً إلا النهب والسلب أن هؤلاء الأسرى لم يكونوا جميعاً من المسلمين ، بل كان بعضهم من اليهود ومن مسيحيي الشرق .

كان لهذه الحادثة أسوأ الأثر في المدينة ، فقد هدمت دورها وقصورها ، وخربت أسوارها وحصونها ، وقل أهلوها وساءت أحوالها ، وظلت على هذه الحال السيئة سنوات طويلة ، يؤكد هذه الحقيقة المقريزي وهو يعلق على هذه الحادثة بقوله : « فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالاسكندرية من الحوادث ، ومنها اختلت أحوالها ، واتضع أهلها ، وقلت أموالهم ، وزالت نعمهم » .

وقد شعر السلطان الملك الأشرف شعبان — منذ تلك الواقعة — أن الاسكندرية قد غدت محط أنظار الفرنج ، ومنبت الخطر الذي قد يهدد الدولة كلها إذا أزمع الأعداء العودة إليها ، فزادت عنايته بها ، ورفع مكانتها ، وزاد في قدر حاكمها ؛ فبعد أن كانت الاسكندرية ولاية يليها وال من أمراء الطبلخاناه جعلها الأشرف شعبان في نفس السنة التي غزاها فيها القبارصة (أي سنة ٧٦٧) ، وإنما بعد رحيلهم عنها ، نيابة يحكمها نائب من الأمراء المقدمين .

والمقصود بالنائب في مصطلح ذلك العصر أنه ينوب عن السلطان في حكم المدينة ، لهذا أصبح نائب الاسكندرية — منذ هذا التعديل — ما للسلطان في القاهرة ؛ فله دار النيابة هي مقر حكمه ، وتحت يده حاجب — أمير عشرة — ، وحاجب جندي ، ووالي المدينة ، وأجناد حلقة عدتهم مائتا نفر ، وموقع يسمى كاتب السر ، وناظر يشرف على الأموال الديوانية ، معه مستوف ، وتحت يده كتاب وشهود ؛ وأصبح للمدينة أيضاً محتسب خاص يشرف على شئونها الاقتصادية والاجتماعية ، وتعددت قضاتها — شأنها في ذلك شأن القاهرة — فأصبح بها قاضي قضاة مالكي ، وآخر حنفي ، وثالث شافعي .

وجعل في دار النيابة هذه كرسي للسلطنة ، كما رسم بأن يكون للنائب مواكب رسمية خاصة تسير في طريق محدد شأن المواكب السلطانية بالقاهرة ، فكان موكب نائب الإسكندرية يبدأ من دار النيابة — وكانت قريبة من باب البحر ، وتشرف نوافذها على الميناء الشرقية — ويتقدمه الشبابة السلطانية ، ويتبعه الأمراء والجند ، فيخرج من باب البحر ، ويسير خارج المدينة قدر ساعة ثم يعود من نفس الطريق إلى دار النيابة ، فإذا كان الموكب من المواكب التي يتلوها السماط وضع كرسي السلطنة في صدر الإيوان مغشى بالأطلس الأصفر ، ووضع عليه سيف نمجاة سلطانية ، ومد السماط تحته ، وجلس النائب في ناحية من الإيوان بجوار شباك يطل على الميناء الشرقية ، وجلس رجال الدولة بترتيب خاص — شأنهم في ذلك شأن رجال الدولة في مجلس السلطان بالقلعة — فجلس القاضي المالكي عن يمين النائب والقاضي الحنفي عن يساره ، والناظر تحته ، والموقع أو كاتب السر بين يديه ، ورؤوس الجند على قدر منازلهم ، وترفع القصص والشكاوى فيقرؤها الموقع على النائب ، ويفصل هذا فيها بحضرة القضاة ، ثم ينصرف المجلس ، وبانصرافه ينتهي الموكب .

أضفى هذا التغيير على المدينة صفة جديدة . إذ اعترف بها عاصمة ثانية للدولة ، بها كرسي للسلطنة ، ويحكمها أمير كبير هو نائب عن السلطان بها ، ويقيم العدل بها قضاة مستقلون ، ويشرف على أسواقها واقتصادياتها محتسب خاص ؛ وزيد في عدد حاميتها ، وشحنت المدينة بالعدة والسلاح ، وزودت بأحدث معدات الدفاع كالمدافع — وكانت حديثة الاختراع — ، فقد روى القلقشندي أنه رأى بنفسه في

الإسكندرية « فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين فى نيابة الأمير صلاح الدين بن عرّام مدفعاً قد صنع من نحاس ورصاص ، وقيد بأطواق الحديد ، رُمى عنه فى الميدان بندقة من حديد عظيمة محماة ، فوقعت فى بحر السلسلة — خارج باب البحر — وهى مسافة بعيدة » .

وفى سنة ٧٧٠ هـ كان السلطان الملك الأشرف شعبان قد شارف البلوغ ، وقارب السادسة عشرة من عمره ، واستطاع أن يدير شئون الحكم بنفسه ، فرأى أن يذهب إلى الإسكندرية ليشرف على حصونها ومنشآتها وأسوارها ووسائل الدفاع عنها ؛ وقد شاهد هذه الزيارة المؤرخ السكندرى محمد بن القاسم النويرى ، ووصفها وصفاً سوياً ؛ ولهذا الوصف قيمة خاصة لأنه يتضمن بيانات نادرة عن تاريخ المدينة وطوبوغرافيتها فى ذلك القرن ، وبمراجعته نستطيع أن نرسم مصوراً تفصيلياً للمدينة وأسوارها وأبوابها والكثير من أحيائها ومعالمها وشوارعها فى ذلك العصر .

فهو يذكر أن السلطان دخل المدينة من باب رشيد ؛ ثم يعدد الأحياء التى مرّ بها إلى أن وصل إلى باب البحر المقابل للمياه الشرقية ، فيقول إنه صار — بعد دخوله من باب رشيد — فيما كان يسمى وقتذاك بالمحجة العظمى ، ثم مر بمسجد أبى الأشهب ، وعطف عطفته فمر على دار ابن الحباب ، ومنها إلى جفار القصارين ، إلى الصادر ، إلى أن خرج من باب البحر ، فنثر عليه مقابل دار العدل ودار الطراز دنانير كثيرة التقطها الناس .

هذه أحياء ومعالم قد زالت ولم يعد لها أثر فى الاسكندرية الحديثة ، وإنما بقيت لها دلالاتها الهامة عند كتابة تاريخ المدينة الاقتصادى ؛ فالنويرى يذكر أن الطريق إلى باب البحر كان فى نهايته — وبالقرب من هذا الباب — جفار القصارين ، وهى ساحة يباشر فيها القصارون تقصير الثياب — أى دقها وضربها — وهى مرحلة من مراحل صناعة النسيج فى تلك العصور .

وبالقرب من ذلك الجفار مَعْلَمَان اقتصاديان هامان : أحدهما له أهمية تجارية ، وهو الصادر ، أى مخازن التجارة الصادرة إلى الخارج ، تحملها سفن الفرنجة التى كانت تفد إلى المياه الشرقية فحسب ، ولا تجرؤ على الدخول فى المياه الغربية الخاصة بسفن المسلمين ؛ وثانيهما له أهمية صناعية ، وهو دار الطراز ؛ ودار الطراز مصطلح كان يطلق فى تلك العصور على مصنع النسيج ؛ وكتب التاريخ تذكر أن موانئ مصر الشمالية : الاسكندرية ، ودمياط وتنيس ودبيق وغيرها كانت مراكز هامة لهذه الصناعة ، كما تذكر أنه كان يقوم بها دور طراز خاصة ، وبها تنسج ملابس السلطان وخاصته وحريمه والخلع التى يخلعها على رجال الدولة فى المناسبات الخاصة ، ودور طراز عامة وبها تنسج الأقمشة الشعبية .

ويتضح من كلام المؤرخين كذلك أن المدن المصرية الأخرى كانت قد فقدت أهميتها فى العصر المملوكى كمراكز لصناعة النسيج ، وبقيت الاسكندرية ولها الصدارة فى هذه الصناعة ، حتى غدت لمنسوجاتها شهرة خاصة فى الأسواق ؛ فابن الحاج يذكر فى كتابه « المدخل » أن بعض التجار « كانوا يشترون القماش الخام الأبيض من بلاد مختلفة مما يشبه قماش الاسكندرية ، ثم يقصرونه بالاسكندرية ، ويبيعونه على أنه اسكندرانى ، وهذا غش لأن المشترى لو علم أنه من غير الاسكندرية لم يرض به ، ولم يعط من الثمن إلا دون ما أعطاه أولا » .

وقد ذكر النويرى فى وصفه أن السلطان الأشرف شعبان قد زار دار الطراز « ورأى مواضع أنوالها واستعمالاتها فرأى كل صانع ينسج على منواله (نوله) من أصناف الأقمشة المنمقة ، والبدلات المطبقة ، المتخذة لحريم السلطان ، المختلفة الألوان . . . وكيف تصنع الطيور المنسوجة والغالات والشاذروانات وغيرها ، بتلك الخيطان الطالعة والهابطة ، إلى أن يكمل كل طائر وغيره » .

ويفهم من وصف النويرى أيضاً أن الاسكندرية كان يحيط بها ثلاثة أسوار ، أحدها داخلى مما يلى البلد ، وثانيها خارجى يشرف على ما يحيط بها ، والثالث بينهما ؛ فهو يقول وهو يصف موكب السلطان عند دخوله المدينة : « .. إلى أن خرج من باب البحر الذى يلى البلد .. ثم سار وخرج من باب البحر الثانى ، ثم الثالث ، فشاهد البحر الملح والمينة بها مراكب الفرنج » . وكان هناك بين كل سور والآخر فصيل يفصل بينهما ، كما كان السور الخارجى المطل على البحر أبراج وقلاع مشحونة بالعدد والأسلحة والأحراس ، وتخفق عليها الأعلام .

وكان للسور الخارجى أبواب عدة ، كان أهمها باب رشيد فى شرق المدينة ، وهو المؤدى إلى الطريق المنتهية إلى مدينة

رشيد ، وباب البحر — (وكان يواجه الميناء الشرقية) — فى شمالها ، والباب الأخضر فى غربها ، وباب سدرة — أو باب العمود — فى جنوبها ؛ وكانت العادة القديمة إذا زار سلطان من سلاطين المماليك المدينة أن تدك أبوابها وتلقى على الأرض إلى أن يرحل ، فيعاد تركيبها .

وذكر النويرى أن الأشرف شعبان لما خرج من باب البحر الخارجى شاهد الخندق الجديد الذى أنشأه نائب المدينة الأمير صلاح الدين بن عرام بعد وقعة القبارصة ، « ولم يكن قبل فى ذلك المكان خندق » ، كما ذكر أنه كان هناك خندق آخر يحيط بالسور من ناحيته الغربية عند الباب الأخضر .

وفى وصف النويرى تحديد لبعض معالم المدينة الهامة الأخرى ، فهو يذكر أن دار صناعة السفن كانت تقوم بالقرب من دار الطراز ، وأنه كان بالمدينة داران للصناعة ، إحداهما بالميناء الشرقية ، والثانية بالميناء الغربية ؛ كما كان بها قصر السلاح بالقرب من الباب الأخضر ، وهو قصر ذو قاعات كثيرة مملوءة بالأسلحة والعدة والعتاد ، أنشأ كلا منها سلطان من سلاطين المماليك ، وسماها باسمه ؛ وقد رسم السلطان الملك الأشرف شعبان فى زيارته هذه أن تنشأ بالقصر قاعة جديدة تحمل اسمه ، وكان للقصر مسجد ملحق به .

وبالقرب من الباب الأخضر أيضاً يقوم ضريح الشيخ أبى بكر الطرطوشى ، وعلى مسافة منه الجامع الغربى ، أكبر جوامع المدينة فى ذلك العصر ، ويجاوره دار السلطان .

هذه هى معالم المدينة الهامة التى أشار إليها النويرى فى وصفه ، غير أنا نلاحظ أنه أهمل الإشارة إلى مؤسسة حكومية هامة تهم الذين يدرسون التاريخ الاسكندرية من الناحية الاقتصادية ، ونقصد بهذه المؤسسة « دار الضرب السكندرية » ، فإن المتواتر فى الكتب التاريخية أنه كان بمصر داران للضرب ، إحداهما فى القاهرة ، والثانية فى الاسكندرية ؛ ولسنا نعرف على وجه التحديد فى أى أحياء المدينة كانت تقوم هذه الدار ، وأغلب الظن أنها كانت تقوم فى الحى الذى كان يضم المنشآت الحكومية السالف ذكرها : دار السلطان ، وقصر السلاح .

ولسنا نعرف أيضاً على وجه التحديد متى أنشئت هذه الدار بالاسكندرية ، وإنما نستطيع أن نقول — على وجه التقريب — إنها أنشئت فى العصر الفاطمى ، فإن أقدم نص يشير إلى وجودها هو ما ذكره ابن مماتى — وهو مؤرخ عاصر نهاية الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية — فقد قال فى كتابه قوانين الدواوين عند كلامه عن دور الضرب : « المستمر الآن فى الديار المصرية داران : دار بالقاهرة المحروسة ، ودار بالاسكندرية — حماها الله » .

وقد أشار صاحب صبح الأعشى إلى وجود هذه الدار بالاسكندرية فى عهد الأشرف شعبان ، فقد ذكر أن نائب المدينة الأمير صلاح الدين بن عرام قد ضرب بالاسكندرية بعد السبعين والسبعمائة دنانير زنة كل دينار منها مثقال ، على أحد الوجهين منه : « محمد رسول الله » ، وعلى الوجه الآخر : « ضرب بالاسكندرية فى الدولة الأشرفية شعبان ابن حسين ، عز نصره » .

وليس من المعروف حتام استمرت هذه الدار تؤدى عملها ، وإنما نستطيع أن نقرر أنها ظلت موجودة حتى أواخر القرن الثامن الهجرى (١٤ م) ، فإن ابن الحاج — وهو من كتاب هذا القرن — يقرر أن السكة المضروبة بالاسكندرية كانت تختلف فى قيمتها عن السكة المضروبة فى القاهرة ، فهو يقول : « وليست دراهم الاسكندرية كدراهم الديار المصرية » ، كما يذكر المقريزى فى كتابه إغاثة الأمة أن الظاهر برقوق قد « اتخذ بالإسكندرية دار ضرب لعمل الفلوس » ، وهذا النص قد يعنى أن دار الضرب القديمة قد تلاشى أمرها قبل عهد برقوق ، فأنشأ فى عهده داراً جديدة غيرها ، وقد يعنى أن الدار القديمة كانت تضرب الدنانير والدراهم فحسب ، فرأى أن ينشىء إلى جانبها داراً جديدة لضرب الفلوس .

هذه هى الاسكندرية حتى أواخر القرن الثامن الهجرى ، غير أننا نلاحظ أن غزوة القبارصة كانت بالغة الأثر فى تاريخ المدينة ، فقد قضت على الكثير من سكانها قتلاً وأسراً ، كما خربت الكثير من معالمها ، أما أهلوها الذين فروا منها أثناء الوقعة ، فإنهم لم يعودوا إليها جميعاً ، فقل سكانها واتضعت أحوالها ؛ يقرر هذه الحقيقة — كما سبق أن ذكرنا — المقريزى بقوله : « فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالاسكندرية من الحوادث ، ومنها اختلت أحوالها واتضع أهلها ، وقلت أموالهم ، وزالت نعمهم ... » .

جمال الدين الشيال

الملك زوسر والنيل

للآنسة الزهرة

كنت أنظر إلى مياه النيل السعيد عشية أمس ، حين تردد في أذني البيتان الآتيان لصلاح الصفدي :

قالوا : علا نيل مصر في زيادته ... حتى لقد بلغ الأهرام حين طما
فقلت : هذا عجيب في بلادكم ... أن ابن ستة عشر يبلغ الهرما

فأرجعا إلى ذاكرتي أسطورة « فيضان النيل » التي اكتشفت سنة ١٨٩٠ م . والعاهل المذكور في كتابات هذه الأسطورة ، هو : « زوسر » الملك الثالث من الأسرة الثالثة القديمة . وتنص القصة : على أنه في السنة الثامنة عشرة من حكم هذا الملك العظيم[1] ، قد حلّ قحط شديد بأرض مصر ، فكذبت الآمال ، لأن النيل ظلّ سبع سنوات لا يسوق ماءه ، وتقاصرت الآمال عنه ، فعكف على المعابد والهلاك الناس ، وكلحت في الحقول والبساتين الأغراس ، فلم تجد نبت أو غرس ، وتواترت أنباء هذا البلاء ، إلى الملك الجالس فوق عرشه في « طيبة » فالتاع والتعج من فرط الأسى ورأى أن يكتب إلى نائبه ورائده « ميتار » الذي كان حاكماً على « بلاد المعابد » في أرض الجنوب ورئيس شعوب « كنتي » القاطنة بين « الفنتين » و« أسوان » وبعث إليه الرسالة الآتية :

« نحن إذ نستوى على عرشنا في البيت العظيم العالي ، الذي هو مرتع التراث الوطني ، وعنوان مجد المصريين جميعاً ، نستشعر مضاً وجوى ، بسبب الأنباء التي ترد إلينا يومياً ، وتتساقط نفسنا هماً وأسى من أجل الكوارث التي نزلت بشعبنا ، لأن النيل قد حجب وجهه عنا مدة سبع سنوات طوال ، ولم ترتفع مياهه إلى مستواها اللازم منذ سبع سنوات كاملات ، وأوشكت الحنطة أن تنفد من المخازن ، وتعذر الحصول على الفاكهة والخضر والبقل ، وأصبحت الأرض مواتاً لا يرف على أديمها نور نضر ، أو عود خضر ، وأصبح القوم ضرابي يتلوون من سعار الجوع ، ويتململون من شدة السغبة ، وغدا الثاني مضرماً والترب معدماً ، وانقلب الناس من عوزهم لصوصاً ، ينهب الواحد منهم أخاه ، حتى تفشى الاغتصاب والجور ، والقسوة والعدوان ، وتضاغى الأطفال في الأحياء والطرقات من الجوع الأدقع ، وضرحت مفاصل الشبان ، والسرقت قوة الشبان كما اخترام من رهبة الإملاق ، وخواء البطون وعنف الرقة والهزال ، وسقط الشيب الرعشون على الأرض ، وباتوا ينتظرون الموت ، وكثر استغفارهم من الذنوب . والآن تعدو بي ذاكرتي إلى ذلك العهد الذي كان لي فيه مشير نصوح ، عهد الأرباب ، عهد « توت » وعهد الرئيس « أموذيس » ساحر « ممفيس » وكاهنها المشهور — ابن المعبود « بتاح » رب الجدار الجنوبي ، ولكن ابن بتاح ، الذي أنقذ البلاد من العدو ، قد خلا مكانه وذهب في سبيل القرون الخالية ، ولا يمكن أن يعود لنجدتنا ، فخبرنا يا « ميتار » : « من أين يجيء النيل ومياهه » ؟ ومَنْ المعبودة أو المعبود الذي يهيمن عليه ويقوم على حراسة مياهه ؟ وأيّ شكل يتخذه ذلك المعبود ، لأن النيل مصدر رزق ، وهو الذي يملأ أنبارى بالغلات ؟! إني أريد أن أذهب وأستشير رئيس كهنة « هرموبوليس » مدينة المعبود « توت » الذي ينطوي بإحسانه جميع الناس في أعمالهم كافة ، وأريد أن أذهب إلى « بيت الحياة » (أي : مكتبة المعبد) وأتناول ملفات المخطوطات بين يدي ، وأتصفحها لأتفهم جميع هذه المسائل » .

---

(١) هو باني الهرم المدرج في « سقارة » ، وهو الذي استغل مناجم النحاس في « سيناء » ويرجع نجاحه الكبير إلى مهندسه الجليل « امحوتب » الذي اشتهر بالحكمة الكهنوتية وتأليف الأمثال والسحر والطب والمعمار ، وقد ألهه المصريون بعد موته بخمسة وألفي سنة ، ودعاه الإغريق « أموتيس » .

وما إن قرأ « ميثار » تلك الرسالة الملكية حتى مضى في رحلته إلى « طيبة » ، ومثل في حضرة جلالته فسأله : « مَنْ هو المعبود المتسلط على النيل ؟ ولماذا خذلنا الفيضان ، وتخلّى عنا هذه السنين الطوال ؟ » .

فأجاب الحاكم : « إنه في حوزة إله الفيضان « خنومو » وهو يزجر مياهه ويحجزها في جزيرة « فيلة » . فسأله زوسر قائلاً : « وأين تقع هذه الجزيرة ، وكيف يفعل المعبود ذلك ؟ » — لأن زوسر وإن كان ملك مصر والمسيطر على تلك الجزيرة إلا أنه لم يكن يعرف عنها إلا اسمها — فقال « ميثار » : إن « فيلة » جزيرة بهية ، تجثم في وسط اللجة ، تجثم الفيل الضخم العظيم ، وعليها بنيت (آبو) ومعناها (مدينة البداية) ومنها يبزغ إله الشمس ، حين يريد أن يسبغ الحياة على بني البشر ، وتقوم فوقها الصخور الصلدة الباذخة ، التي تؤلف المتراس الخارجي للحصن الجنوبي القويّ ، الذي لا ترقى الشياه إلى علياته . ولكن الفيضان يختبئ في جوف مغارة هائلة في تلك الجزيرة ، وهذه المغارة تضم نقرتين تشبهان الثديين ، ومن هاتين النقرتين كان فيضان النيل ، يحدر أخلاف نمائه ويجرى في قوة ووداعة ليبارك الأرض بالخصب والإثمار ، كما عمد المعبود إلى جذب مزاليج الباب ليفتحه في الوقت المرتقب والموسم المعهود . واعلم أيها الملك أن الأراضي المحيطة بالجزيرة ، ليست غنية كأراضي طيبة ، إلا أنها تجود من الحنطة والخمر والزيت ، بالمقادير التي تسد أعواز الأهالي . وفي أكمة في وسط الجزيرة ، يقوم المعبد الشخصي لخنومو ، ولكنه تداعى وتهدم وأوشك أن يندثر . لأنه قد حسُن في أعين الملوك آبائك وأسلافك ، أن ينتزعوا منه الأراضي التي كانت تمده بالثروة » . وهنا صمت الرائد الملكي صمتاً يضج بالمعاني والدلالات الخطيرة . فسأله الملك : « وبماذا تشير عليّ إذاً ؟ » فأجابه الرائد في إصرار صليب : « إن ملك الشمال والجنوب — جلالتكم — له الرأي الأسد . ولكن لعله يروق لمولاي الملك أن يتجه إلى الرب خنومو ، ويقصد إليه في معبده الخاص القائم في تلك الجزيرة » فقال زوسر : « إن كانت تلك هي كلمات الحكمة » .

وفي ذلك اليوم بعينه انطلق الملك إلى المعبد ، وبعد أن جاء بتقدماته إلى ربّه ، جثا أمامه في محرابه . وفيما كان يرفع إليه الابتهالات والضراعات ، تراءى له (خنومو) ورفع يده إلى العلاء ، وتكلم قائلاً : أنا (خنومو) الخالق ، وهوذا يداي عليك ، ويداي تشدان نحوك لحمايتك وصيانتك ، وقد منحتك الحياة . وأنا مرشد جميع البشر وحافظهم وظهيرهم . أنا إله النيل الذي ينهضه في فيضانه ، ليمنح الصحة والحياة لجميع الذين يكدون ويكدحون . أنظر ، إني أبو جميع الناس ، وولي الأرض كلها ، ومع ذلك فإن الناس يهملونني ويقصرون في حقوقي . وفي تكبرهم الأرعن وعتوهم الأحمق ، يقسون قلوبهم ولا يدعون باسمي ، ولا يعبدون في محرابي المقدس . ولكن بما أنك قد جئت ورجعت إليّ والتمست معونتي ، فسأرجع إليك وسترتفع مياه الفيضان كل سنة كسالف عهدها ، وستنهال الأموال والثروة والوفر والخصب على أرض مصر » . وتم جميع الذي قاله المعبود . وذكر « الملك زوسر » أن المعبود قد اشتكى من إهمال محرابه الذي تهدم ، مع أن الحجارة مكدسة من حوله بكثرة وأوجد الشكر لهذا المعبود المحسن ، عبادته في قلب الملك ، فأصدر أمراً بتجديد المعبد ، وأصدر بياناً ملكياً هذا نصه : « إلى المعبود العظيم (خنومو) نسلم زمام السؤدد على جميع الأرض التي تقع على مسيرة يومين حول (جزيرة فيلة) . ومن الآن فصاعداً يجب أن يدفع إلى معبده جميع ما تنتجه الأرض من حنطة وخمر وزيت . وعلى كل مزارع صانع أن يؤدي الأداوة اللازمة ، كما يتحتم على كل حائك وصياد أن يقدم العشور من كل ما يقع في حوزته من السمك والطير والعجول لترفع إليه مع التقدمات . وكذلك يجب أن تجبى المكوس عن جميع الأحجار الكريمة والمعادن والأخشاب الثمينة التي كانت ترسل سابقاً إلى البلاد الأخرى المجاورة محافظة على مقام المعبود المقدس ، وإبقاء على سلامة معبده !! وأمر جلالته بأن ينقش هذا المرسوم الملكي ، على لوحة مستديرة من حجر الجرانيت وأن توضع في مكان بارز في جزيرة « ساهال » على بعد ميلين أو ثلاثة أميال من الشلال الأول لتكون رمزاً ثابتاً دائماً إلى إقراره بالفضل واعترافه بالجميل ، الذي يحتمل منة أيديه المعبود « خنومو » رب « جزيرة الفيل » ..!!

الزهرة

مع الفكر الأوربي المعاصر

١ — العلم الفرنسي

أو دائرة المعارف الفرنسية

في اليوم الأول من شهر يوليو عام ١٧٥١ أي منذ مائتي سنة ظهر المجلد الأول من دائرة المعارف الفرنسية ، التي كانت محصولاً علمياً لا يبارى ، وهي تلك الثمرة من ثمرات القرن الثامن عشر التي أحدثت هزة عنيفة في العقول والأفكار ، ولكنها هزة لم تبلغ مداها إلا في اليوم الرابع عشر من شهر يوليو عام ١٧٨٩ يوم اقتحم الشعب الفرنسي أسوار سجن « الباستيل » فكان ذلك إيذاناً ببدء الثورة الفرنسية ...

والذي لا ريب فيه أن « دائرة المعارف الفرنسية » إنما هي من وحي الانجليز ، ففي عام ١٧٢٨ كان « افرايم تشامبرز » قد نشر دائرة معارف موسومة باسمه (وهي لا تمت بأية صلة إلى دائرة المعارف المعروفة بهذا الاسم اليوم) ، فقام في عام ١٧٤٣ « ليبرتون » وهو ناشر فرنسي ، وقد أحس بما قد يدرّه نشر مثل هذه الموسوعة من ربح مادي ، فعهد إلى « سليوس » وهو ألماني و « جون ملز » وهو انجليزي أن يقوما بترجمتها إلى الفرنسية ، ولكنهما عجزا عن الترجمة ، فاستدعى « ليبرتون » « ديدرو » الفرنسي وكان لا يزال كاتباً مغموراً ليقوم بأعباء هذا العمل .

واستعان « ديدرو » بـ « دي لامبير » ثم استقر رأيه على أن يخرج للناس « دائرة معارف » جديدة كل الجدة ، ولذلك فقد اختار لمعاونته جماعة من أكبر أدباء عصره ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر « فولتير » و « روسو » و « مونتسكيو » .

ولكن إخراج مثل هذا العمل الضخم في زمن ساد فيه حكم الطغيان كان عملا محفوفاً بالمكاره .

وكان أفراد مثل هذا الرعيل الذين حملوا أمانة هذا العمل تجمعهم وحدة الرأي ، ووحدة النظر إلى المستقبل ، فهم في مسائل الأديان كانوا من المتسامحين ، كما كانوا من المتزمتين القائلين بكفاية العقل .

وفي مسائل الحكم كانوا من القائلين بنقد الحكام ، وكانوا من المعارضين في تمييز طبقة عن طبقة ، ولذلك فلا عجب أن كتابهم هذا قد بدأ معارضاً هداماً للكنيسة والحكومة .

وظهر المجلد الأول من تلك الموسوعة عام ١٧٥١ ، وقد عد ظهوره نجاحاً لا يدانيه نجاح ، فقد كان الوقت الذي ظهر فيه وقت تطلع تعالى وبخاصة في الموضوعات العلمية ، فإذا ظهر كتاب يؤدي للناس صورة إجمالية لما وصلت إليه العلوم كان لا بد له أن ترضى عنه عقول جمهرة المستنيرين .

ولكن حدث في عام ١٧٥٢ — وكان قد ظهر من هذه الموسوعة مجلدان — أن صدر قرار من مجلس الوزراء بوقفها عن الصدور ، بوصف أنها ضارة بالمعاهد العلمية القائمة يومذاك .

وفي عام ١٧٦٥ جيء بالطابع وزج به في سجن « الباستيل » . وصودرت جميع النسخ التي بيعت ، والتي كانت معدة للبيع .

وفي تلك الفترة من الزمن كانت « مدام دي بومبادور » حظية الملك ، وكانت من أصدق أصدقاء « دائرة المعارف » وكانت تلك السيدة تستطيع أن تسدي للدائرة صنيعة من جانبها .

وصف « فولتير » هذه النائبة السعيدة فيقول :

في حفلة من حفلات العشاء في القصر الملكي عام ١٧٧٤ ظل القوم يتساءلون حول كيفية صنع البارود ، وإذا بمدام « بومبادور » تتساءل بدورها : كيف يصنع « أحمر الشفاه » ، وكيف تصنع « الجوارب الحريرية » ؟ .

وعندئذ قام دوق « دي فالير » يعلن أسفه على أن الملك قد صادر الكتاب الذي كان يؤدي لنا أجوبة عن

مثل هذه المسائل . فما لبث ذلك أن بعث بمن جاء بمجموعة من أجزاء الموسوعة ، فسر سروراً بالغاً بالأجوبة التى قرأها ، وقد تفضل من أجل ذلك فأمر بحرية تداول « دائرة المعارف » .

ولكن أسباب القلق لدى « ديدرو » لم تبلغ منتهاها يومئذ . ذلك لأن الطابع ، وكان قد أمضه ما لقيه فى سجن الباستيل من شدة وعذاب ، كان قد جاء بمسودات الأجزاء وحذف منها كل ما يمكن أن تفوح منه رائحة القول المثير .

وقد عرف « ديدرو » ما فعله الطابع بطريق المصادفة ، وذلك أنه رأى — وهو يقرأ موضوعاً كان هو قد كتبه — كيف اقتضب موضوعه ، وكيف حرف فيه الكلم عن مواضعه . ولكنه وقد كان يحتفظ — لحسن الحظ — بالصورة الأصلية لذلك الموضوع فقد جاء بها ، وسارع إلى تصحيح الأغلاط ، وإعادة النصوص إلى أصلها .

وأخيراً وبعد أن تجاوز السعد والنحس طريق ذلك الكتاب ، تم ظهور المجلد الثامن والعشرين وهو آخر مجلد فى « دائرة المعارف الفرنسية » وذلك عام ١٧٧٢ .

وأكثر المواضيع المختصة بالعلوم الرياضية ، والطبيعة كتبها « دالمبر » واختص « روسو » بموضوعات الموسيقى . أما « ديدرو » محرر الدائرة ، فقد كتب بنفسه أكثر ما بقى من الموضوعات .

ومما تجدر معرفته أنه كان معنيا العناية كلها بالكتابة عن مختلف الصناعات والحرف ولا تستثنى أقلها وأحقرها .

وكانت هذه العناية تستحق التنويه فى زمن كان التحقير والازدراء من نصيب كل عمل يدوى .

وكانت طريقته فى الكتابة عن هذه الموضوعات أن يذهب بنفسه إلى المصانع الصغيرة ويرقب الصناع وهم يعملون فيناقشهم ويتعلم منهم سر صناعاتهم .

ولهذه العناية بالمسائل الصناعية دلالتها ، فإن الثورة الكبرى الأخرى وأعنى بها الثورة الصناعية كانت قد بدأت تظهر فى الوجود .

ومن الفكاهات التى يمكن تدوينها أن «لورد شستر فيلد» كتب خطاباً يرد به على ولده ، وكان هذا قد طلب منه أن يأذن له فى شراء نسخة من « دائرة المعارف الفرنسية » .

كتب اللورد إلى ولده يقول : إنى أتنبأ لك أنك سوف تشتريها يوماً ما ، وسوف تعكف عليها ، وسوف تقرأ فيها رواية « كانديد » أو « التفاؤل » لفولتير ! وهى رواية فلسفية كتبها فولتير عام ١٧٥٩ وفيها يصب « فولتير » كل ألوان البلايا ، وكل صنوف الرزايا على رأس « كانديد » بطل القصة و « كانديد » يحتملها كلها . وعلى فمه ابتسامة ضاحكة ساخرة .

وكان « فولتير » قد قصد بتأليف تلك الرواية أن يسخر من التفاؤل الذى كان سائداً فى القرن الثامن عشر ، ولا سيما التفاؤل الذى كان ينادى به (بوب) بقوله : كل ما هو كائن فهو حق . والذى يشير إليه « ليبنتز » فيقول : « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » .

وقد كتب « فولتير » على غلاف الرواية : إنها ترجمت من الألمانية بقلم الدكتور « رالف » . وهذا القول حديث خرافة لا يمت إلى الحقيقة بسبب أو نسب ...

• • •

٢ - الضعف الإنسانى

رواية من الروايات الإيطالية تجمع بين المأساة والملهاة ، وهى أحدث رواية ألفها الروائى الإيطالى المشهور « ريكاردو باشلى » .

والقصة فى ذاتها بسيطة التركيب . ومفادها أن رجلاً ماكراً محتالا ، ذا شخصية عنيفة مستبدة ، قد فرض نفسه بقوة الإيحاء والتسلط على عقل رجل أبله قد تقدمت به السن ، وأضلته الشهوات ، فأفزعه وأثار الرعب فى روعه بأن جعله يصدق أن مذنباً هائلاً هو فى طريقه من السماء إلى الأرض ، وأن العالم سوف يفنى فناء تاماً . إما بواسطة الاحتراق ، وإما بواسطة الاختناق الذى لا بد تحدثه الغازات السامة التى يحتويها ذنب ذلك المذنب .

وقصارى ما كان يسعى إليه ذلك المحتال هو أن يجتذب إلى جيبه أكبر قدر من المال قبل أن تزول الدنيا ويفنى العالم . وتقوم مشاهد الرواية فى مدينة من المدن الإيطالية اسمها « فيوما لنتو » . صورها المؤلف فجعل منها مدينة

قد حيل بينها وبين الاتصال بدنيا الناس .

والشاهد للرواية يراها أول الأمر رواية مضحكة قد بالغ الكاتب في إلباسها ثوباً فضفاضاً من الفكاهة .

وقد أبدع المؤلف في وصف الوليمة التي أقامها في بيته ذلك الأبله « جولا سيكا » وصفاً يتحلب له لعاب الآكلين ذوي النهم . ويذكرنا بالأوصاف التي كان يجيء بها « أربيتر بترونيوس » رفيق « نيرون » ونجيه ، وخدن ملذاته وشهواته .

وسرعان ما يذاع بين الناس وينتشر في المدينة خبر دنو الذئب من الأرض ، فيشيع الفزع بينهم ، ويملأ الرعب قلوبهم ، وإذا بالمحتال « بروسكانتيني » يصبح مشغولاً بالقلق الذي استولى على قلوب سكان المدينة .

وهكذا تصبح مدينة « فوما لتو » — وقد وقعت تحت فكرة الخوف من نهاية العالم — رمزاً للإنسانية كلها ، ولضعفها وخورها . كما تصبح وكأنها مركبة تحمل صوراً لتحولات السياسة وتقلباتها . كما تحمل أشاير مخرومة بالمسائل الخلقية والاقتصادية التي مرت بتلك المدينة منذ الحرب العالمية الأولى . ثم يأخذ المؤلف بعد ذلك في شرح حوادث التاريخ الإيطالي في الأربعين سنة الماضية . وهو يحلل أسباب تلك الحوادث ونتائجها تحليلاً دقيقاً بعيداً كل البعد عن التهريج والمجون .

وهذه الرواية تذكر القارئ بالروائي الإيطالي « الكونت اليساندرو مانزوني » . (١٧٨٥ — ١٨٧٣) الذي اشتهر بروايته التي جمعت بين الوقائع التاريخية ووقائع الحب . والتي سماها « المخطوبة » .

وعسير على من يريد تلخيص رواية « الضعف الإنساني » أن يتقصى كل ما احتوته صحائفها من شخصيات ومن حوادث تجمع بين ألوان الملهاة والمأساة .

والمؤلف يصور فيها بصور مشهداً يبدو فيه الجمهور وقد احتشد في دار البلدية . وهو يطالب بجثة « بروسكانتيني » ذلك العالم المدعي . وإذا بالرجل يظهر — على غير انتظار — واقفاً في الشرفة إلى جوار محافظ المدينة . وإذا به يبرهن للناس — مستعيناً بما أوتي من لباقة وكياسة — بأن الخوف من الذئب كان خوفاً حقيقياً ، وأن هذا الخوف قد زال . ولكن الحكومات هي التي تريد أن يبقى الخوف دائماً في قلوب الناس . وذلك لتمسك بزمام الحكم ، ولتقبض على أعنة السلطان .

ثم لا يلبث الرجل أن يظفر بتصفيق الناس وتهليلهم وتحيتهم له كبطل من الأبطال . ثم إذا به يسارع إلى الهروب منهم بأقصى ما يستطيع . وجيوبه ملأى بما ظفر به من مال وعقار .

ثم إذا بالمدينة تستقر فيها الأمور ، وتعود سيرتها الأولى .

•••

٣ — مقالان في الاجتماع

أو : الأمبريالزم وطبقات المجتمع

كتاب ألفه

جوزيف شومبانر وترجمه هينز نوردين

مؤلف هذا الكتاب هو من رجال الاقتصاد الألمانيين وقد شغل منصب أستاذ في جامعة « هارفارد » منذ عام ١٩٣٢ إلى حين وفاته .

والرجل بحكم مهنته رجل من رجال الاقتصاد كما أسلفنا القول . ولكننا إذا أردنا أن نضع اسم صنف البضاعة التي يحتويها هذان المقالان لكان الظن أكبر الظن أن نسميها « بضاعة اجتماعية » .

وكلا المقالين كتب منذ سنين عديدة . فواحد منهما كتب في سني الحرب العالمية الأولى . والثاني لحقه بعد بضع سنين . والقراء الذين منعهم مانع اللغة من قراءتهما في أصلهما الألماني لا شك يرحبون الترحيب كله إذ يرونهما لأول مرة يجاوران في اللغة الإنجليزية .

والهدف الذي كان يهدف إليه الأستاذ « شومبانر » في مقاله عن « الأمبريالزم » أو سياسة التوسع الاستعماري هو معارضته للآراء الماركسية التي ترى في « الأمبريالزم » نتيجة من نتائج الدوافع الاقتصادية . وحجته في ذلك أن « الأمبريالزم » الحديثة — وهي أبعد من أن تكون وليدة الرأسمالية —

في موكب الشمس

للأستاذ محمد توحيد السلحدار

« في موكب الشمس » سفر تاريخي نفيس للدكتور أحمد بدوي قد يحسن ، قبل الكلام على وضعه في نفس الكاتب وإن لم يكن من علماء التاريخ ، تذكير بعض القراء بآراء سديدة مما كتب العلماء والأدباء الغربيون في هذا العلم .

قرروا أن التاريخ من أهم أقسام الأدب ، وأن الثقافة السامية في أمة هي شعورها بدوام ذاتها شعوراً كسبته بدرس ماضيها ؛ وأن كل قرن يتناول التاريخ ليجدده ويحييه ويقابل الأزمنة الحالية بالوقت الحاضر .

وقال لاكور — جاييه[1] : « كثيراً ما زعموا أن التاريخ يعيد نفسه ... وليس صحيحاً أن الحوادث تعود خلال الأحقاب تبعاً لقوانين طبيعية لا تتغير ... فهل يجب أن يستنتج من ذلك أنه يكفي تحليل أحوال الزمن الحاضر

(١) روبير لاكور — جاييه ، المؤرخ ، عضو مجمع العلوم الأخلاقية والسياسية ، صاحب كتاب « الأزمات الكبيرة في تاريخ فرنسة » — في أول الكتاب .

وحوادثه لإعداد المستقبل ، وأن القرون الفائتة لا يمكن أن تتخذ أمثلة بما أن القرون المستقبلة لن تشبهها ؟ ... بلى إذا لم يكن غرضنا سوى وصف نظم سياسية أو أنماط من الحياة ماتت ؛ ومن دون شك ، كذلك ، إذا كان أملنا أن نستخلص من هذه الأبحاث (كتابه) حقائق مطلقة قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان ! وبكلمة واحدة : إذا نسينا أن ما يجب فهمه هو أننا نستخلص ردود أفعال بشرية لا فعل مجرد آلات . إن معرفة الحوادث لابد منها للمؤرخ ، لكنها ليست سوى موضع بداية يستطيع منه أن يباشر تحليلها[1] ، وفي ذلك يعظم دوره . فإن أعماله ليست مجرد شيء

(١) التحليل (analyse) هو الانتقال بالنظر في الحوادث من المركب إلى البسيط ، من المسببات إلى الأسباب ، لاستخراج الأحكام . وبمعنى أعم ، هو طريقة تفكير يفصل بها العقل الإنساني موضوع خواطره المركب غالباً ، فيستخلص عناصره المتنوعة ، وينتقل من المسببات إلى الأسباب ، ويعلو إلى أصلها ليقف على سلسلة تتابعها .

=

إنما هي في الواقع ميراث ورثه العالم عن العصر السابق للعصر الرأسمالي .

ويعرض المؤلف للأمبريالزم فيقول : إنها كلمة لا تؤدي معنى من المعاني ، بل هي كلمة غير ذات موضوع .

ثم يجيء بعد ذلك فيدرس ألوان « الأمبريالزم » في العصور القديمة والحديثة . ويخرج من دراسته برأي يقول فيه إن الغرائز والعوائد المهنية ، والدواعي الاجتماعية ، هي الأسباب الأولى التي أدت إلى نشوء « الأمبريالزم » .

وهو يصر على القول بأن من المفروض على الرأسمالية ، أن تتغلب على هذه الأسباب ، حتى إذا عاشت « الأمبريالزم » بعد ذلك وبقيت مرفوعة الرأس في جماعة رأسمالية كان وجودها أشبه بوحش محتضر بعد أن أثخنته الجراح .

أما المقال الثاني فموضوعه « طبقات المجتمع » وقد عني فيه المؤلف بنهوض وسقوط الأفراد أو الأسر التي تتكون منها طبقة من الطبقات .

وهو ينسب الارتفاع والانخفاض عند هؤلاء الناس إلى البلادة والعجز أو الكفاية وفقدان الكفاية ، وهذا السبب العام يفسر ما يشاهد في انتقال فرد أو أسرة من طبقة معينة إلى طبقة أخرى .

وهو كذلك ينسب نهوض واضمحلال مجموعة من الطبقات إلى قدرتها أو عجزها عن الانتفاع بما ورثته من خصائص ومزايا .

وخلاصة بحث الأستاذ المؤلف هو أن الأسس الثابتة التي تقوم عليها نظرية الطبقات إنما قوامها الفروق بين الأشخاص في القدرة والكفاية ...

مبارك إبراهيم

فن . لأن الحوادث وإن كان من شأنها ألا تتماثل وتتحد أبداً ، وكانت نتائجها تختلف دائماً في التقريب ، ليوجد مع ذلك بعض الثبات في البواعث البشرية . وهكذا يكفي أيضاً ليكون التاريخ جديراً بأن يؤدي دروساً وإيحاءات » .

وقريب من معنى ذلك الثبات في البواعث البشرية قول أندريه سيجفريد(١) : « في أعماق نفسية الشعوب شيء من الثبات يوجد أثره دائماً » في حياتها وتاريخها .

يضاف إلى ما تقدم ذكره من أقوال نبغاء الغربيين أيضاً : إن كتب التاريخ كثيرة شتى بعضها ما عرض الحوادث عرضاً مجرداً بلا وضع خاص سوى ترتيب وقوعها الزمني ، وهذه هي الكثرة الكبيرة التي مردّها إلى مذهب المحدّثين أمثال هردوت ؛ ومنها ما أريد فيه الاستعانة بالمنطق والفلسفة على شرح حقيقة عظيمة عالية ، ناتجة من صورة الحوادث البشرية تحت النظرة العامة والتعميم ، وهذا هو أحدث المذاهب .

والتاريخ على ما فهمه قدماء الكتاب ، أدب وأخلاق ، وهذه الصفة أفضل من وصفه بالعلم ؛ فعند الماهرين في اللغة اليونانية أن هردوت ، مثلا ، وهو المكنى بأبي التاريخ ، محدّث فنان ، صادق اللهجة ، لكنه ثاقب النظر في ملاحظاته ، عادل دقيق في أحكامه ، مسلّ ممتع ، ولا شيء أكثر تنوعاً من حديثه ، وهكذا المذهب يعظم البطل منفرداً ، وترى أعماله صادرة من تلقاء نفسه بلا مؤثر خارجي وبحسبه ليحيا ؛ فلا يعيبه بل لا يخطر له ما يحدث مستقلا عن الفرد بقوة الأشياء وقوة الأفكار . وليس للمؤرخين اللاتينيين غير منهج اليونانيين . ومؤرخو العرب مجسّمون بلا نقد ، ومترجمون مسايرون ، يدوّنون الحوادث الثابتة والقصص الخالية من الأهمية بلا تمييز ، ولهم في كتابة التاريخ منهجان : « إما أن يسردوا السنين وما وقع فيها من الحوادث في أي مكان ، مستندة من غير اتصال ولا رابطة ... وإما أن يسوقوا الحوادث باعتبار الأمم والدول »(١) .

وقد تقدمت في القرن الثامن عشر حركة الدراسات التاريخية بفضل فولتير ومنتسكيو وجيبّون ، على أنها لم تبلغ مداها إلا بعد التربية العلمية في القرن التاسع عشر الذي تصور المؤرخون فيه صورة التاريخ النهائية . وهي تمزج سياق الحديث بالعلم الواسع والتحليل النقدي للحوادث الجزئية والشرح التفصيلي ، وتمزجه بتلك الفلسفة الصابرة على الاستنتاج التي يستخلص بجوهرها الثاقب أسباب الحوادث وروابطها . وطاف هذا التجديد بأوربة كلها ، إذ أرادت كل أمة أن تعيد تنظيم تاريخها . ولم تقف هذه الحاجة إلى الكمال عند المنهج ، فتناولت العبارة ذاتها ، حتى أصبح للأسلوب التاريخي كذلك قواعده وصفاته الخاصة التي تلائمه ، وهي : الاختيار الحصيف للتفاصيل ، ووضوح الحديث ، وإشراق الوصف ، وحرارة إنشاء خالٍ من التصنع والرونق البهرج ؛ لكنه إنشاء يجعل الأناقة في خدمة القوة ، ويضع الصورة في العبارة الوجيزة ، ويؤلف بين الدقة والحركة من بليغ إلى أبلغ حيث يوائم موضعه في سياق الحديث .

والحقيقة هي أول شرط في التاريخ . وهو كاف لجعل الحديث التاريخي شائقاً كما كل المؤلفات الشعرية أو الروائية ، ذلك بأن الحياة الإنسانية كلها تنبسط فيه بأكثر صورها تنوعاً وأشدها إطراباً . لكن قليلون من الناس يستطيعون أن يخلوا الأمانة التامة في التحليل والحكم ، ويخلوا الضمير والعلم ، كل التخلب ، على هوى الآراء المطيرة وغموض الشهادات المبتسرة ، غير الحقيقة تحقيقاً كافياً .

ألا إن العصر الذي نعيش فيه حقق تقدماً جيد المدى في متنوع المناهج لمراجعة التاريخ وبسطه وشرحه . ولم تحمل النفوس قط مثل شوقها الحديث إلى الرجوع في الزمان

= والاستقراء (Synthèse) طريقة تفكير يحوّل من الأصول إلى النتائج ، من الأسباب إلى المسببات . وهو عكس التحليل ، أي أنه كالتركيب . والأولى أن يقال إن المنهجين ليسا سوى طريقين مختلفين لمنهج واحد . فبعد أن يرجع التحليل المركبات إلى بسائطها والفروع إلى أصولها ، يجب أن يربط الاستقراء الأصول والنتائج بسلسلة من المستنبطات تسمح بالانتقال شيئاً فشيئاً من الأبسط إلى الأكثر تركباً . والاستقراء تعم الفكر والحوادث وخواص كل كائن .

فالقصد من التحليل هو إدراك العلاقات بين خواطر العقل في موضوع النظر بعد إثبات الصور الذهنية الأولية التي تكون أساساً لها ، وبعد حدها بدقة ، توصلا بالاستقراء إلى مستنبطات صالحة يخرج منها المركب الذي فصّله التحليل .

(١) أندريه سيجفريد ، عضو المجمع الفرنسي ، صاحب كتاب « روح الأمم » في بداية الباب الأول ؛ والكتاب في ستة أبواب عرضت رأي واضعه في « النزعة إلى الواقع والحقيقة عند اللاتينيين » و « الذكاء الفرنسي المبتدع » ، و « الإصرار الإنجليزي » و « المشروع الألماني للنظام » و « النزعة إلى التأمل والأحلام المفكرة عند الروس » و « النشاط الأمريكي مع اعتقاد أن الإنسان ليس بمعتمد شيء على قواه وإرادته » .

(١) تاريخ الأدب العربي ، للأستاذ أحمد حسن الزيات .

مع سلسلة الحوادث ، وإلى إدراك مواضع العلاقات التى تربط بينها ، والتثبت فى شأن التغيرات الكثيرة التى تقع فى الحال الخلقية والفكرية عند الجماعات فى مجرى الحوادث القاهر . والحق أن العصر جدد نوعين من أشرف رياضات العقل البشرى ، وهما : النقد والتاريخ ، إذ كانا قبيل ذلك فنين فرجهما بالحقيقة جعلهما علمين . ولقد كان من كلف الغربيين بالتاريخ أن رقوه بما اقتبسوا من أساليب العلوم الأخرى القاربة له ، كالتاريخ الطبيعى وعلوم الاجتماع ، وأدركوا خصوصاً أن العلوم جميعاً لا تستطيع أن تمثل لنا صورة كاملة من الحياة ، وأن الفن وحده ينجح فى ذلك بإضافة لمسته الخاصة به إلى ما يؤخذ ابتداء من هذه العلوم .

وعلى أساتذة التاريخ أن يأتوا بالحيار المحكم بين ما يمضى وما يبقى ، بين الكتب الصادرة عن الأهواء والآراء القطيرة وبين الصنع التى يتغلب فيها منهج التحليل ودراسة المصادر وروح النقد وتقدير التفاصيل والهجة الصريحة ، أى الكتب التى يسمو فيها التاريخ إلى مستوى العلم ومقامه الجليل[1] .

تلك خلاصة كافية من آراء الغربيين المعاصرين فى علوم التاريخ ومناهجه وأساليبه . وليست بالطبع كل ما هنالك . بل لها شروح وفروع وفنون . وهذه الآراء أصول وهى من أحرز الأصول اكتفى بها عن الفصول ، وإن أصاب الفصل ، بعد إحراز الأصل ، فهو أفضل » كما قال ابن المقفع .

فإذا وعى قارىء هذه الأصول قبل أن يطالع أى كتاب فى التاريخ ، كان أقدر على تفهمه والاستنارة به ، والتمتع منه ، وتقديره تقديراً لا وكس فيه ولا شطط . ويجمل به ، بعد ذلك ، أن يقبل على مطالعة الكتاب بسلامة طوية وحسن نية ، متناسياً كل رأى قد يكون سمعه بشأنه ، متهيئاً لفهمه على أحسن وجه بالنسبة إلى مقاصد صاحبه ومراميه ، راغباً فى الإفادة والمتعة منه ، ثم يكون له ما شاء من رأى فى وقع الصنيع ومن حكم فى قيمته . بيد أن علماء التاريخ هم الأقدرون الأحقون بالتنبيه على الأخطاء التاريخية التى قد تقع فى كتاب لأحدهم بسبب سهو ، مثلاً ، من المؤلف عن مرجع لو اعتبره لما أخطأ ، أو بسبب خطأ فى قراءة أثر أو وثيقة ، أو لعجلة فى التحليل والحكم أو فى تعميمه ، إلى أشباه هذه الأمور التى يكون الكلام أولى العلم فيها اعتبار وقبول أو تفنيد من بعضهم .

• • •

أما بعد ، فكتاب الدكتور بدوى جزءان ، وثالث ملحق بالثانى فيه الصور والرسوم المتعلقة بالنص (الطبعة الأولى للجميع) . وقد شغل نص الكتاب فى جزأيه ١٢١٠ صفحة كبيرة ، غير صفحات الفهارس والمراجع والملحق .

« فى موكب الشمس » عنوان على أدبى بديع ، له جلالة ، وله دلالة قرية بارعة على الكتاب : لأن الشمس أصل فى المعتقدات والمعبودات الفرعونية ، واسمها (رع) كثيراً ما يقرن بأسماء ملوك الفراعنة ، ولما خاطبها شوقى فى قصيدته على أختاتون بقوله :

قفى يا أخت يوشع خبرينا
أحاديث القرون الغابرينا

يلى العنوان ، فى الجزء الأول ، إهداء هو طرفة : « إلى ذكرى محمد فى ممبرج ، فهى التى ألهمتنى تلك الأحاديث » .

منهج الكتاب :

ولهذا الجزء مقدمة ، هى تحفة نفيسة تحوى :

١ — « قصة الكتاب » تشرح كيف تبعث من وعيه الباطن وعقله فكرة الكتاب ، وتصف وثنية الفراعنة وأصل معتقداتهم فى الشمس ، وتهيىء الفكر لفهم الكتاب .

٢ — « قصة التاريخ المصرى » وهى عرض لنشأته ونموه بعد أن بدأ الإغريق يفدون على مصر ومنذ جاءها هيرودوت وكتب كتابه عنها .

٣ — « نظرة عابرة » عامة التقطت صورة مصغرة لتاريخ مصر من عهد الملك مينا إلى أن ولى عليها محمد على الكبير مؤسس البيت العلوى المجيد . وهى ليتعرف القارىء

(١) فى خدمة التاريخ علوم تساعده : علم الكتب والنشرات (Bibliographie) وعلم قراءة المخطوط القديمة (Paléographie) وعلم الخطوط والنقوش المحفورة فى الأحجار وغيرها ، خصوصاً فى آثار العصور العتيقة (Epigraphie) ، وعلم المسكوكات (Numismatique) وعلم الأختام (Sigillographie) وعلم البراءات وغيرها من الوثائق الرسمية لمعرفة عمرها وصحتها وقيمتها النسبية كأوراق رسمية (Diplomatique) وعلم الأزمنة والتواريخ (Chronologie) ، وعلم الآثار القديمة (Archéologie) .

معالم التاريخ الكبرى فى هذه القرون الطويلة ، ويهتدى بها كما يهتدى السائح بأول جولة فى مدينة كبرى لم يزرها من قبل .

يلى ذلك سبعة فصول ، أولها فى « مصادر التاريخ المصرى » وأولها كتاب هردوت « وإن كان قد آذى مصر كثيراً » . وقد فند المؤلف ملاحظاته الخاطئة عن المصريين . ويلى بعد ما كتبوا من المصادر « مانيتون الذى عاش فى سمنود ونسب إليها ، ولعله ولد فيها ، ويليل ما كتبه إلى العلم والتاريخ إنما قبس بذلك الذى صدر عن هردوت » ومن مصادر تلك الصور الثبتة « الطبيعة المصرية والنيل » لأنه الأساس فى كل شيء ؛ ثم الألواح مثل « لوح الملك نعرمر » (خالق الوحدة التاريخية المصرية) ؛ و « أوراق البردى » وهى من مصادر التاريخ الكبرى ، ثم المداون (جمع مدونة) ، كمدونة أو « بردية تورين » من مدن إيطاليا ، وهى سند من الأسناد التاريخية الكبرى ؛ وهناك مصادر أخرى « ادخرتها الأيام فى بلاد مثل كريت وفلسطين وسورية وبلاد النهرين وما وراء ذلك ، وبلاد النوبة والسودان ، وهلم جرا » ؛ وأيضاً « التراث الذى خلفه من زار مصر أو أقام بها من كتاب العصر القديم مثل هكتيه الملطى واسترابون وبلوتارخ الذى « رأى فى عشرة المصريين ما رغبه وحبب إليه الإقامة فى مصر » ؛ وأخيراً « الأساطير المصرية إذ (ليست كلها من نسج الخيال ، وإنما هى صورة منمقة من الماضى البعيد فيها أشكاله وألوانه ، ومنها أسطورة « إزيس وأوزيريس ») ، وقد ألم المؤلف ببعض ما تصور من ألوان الحياة المصرية التى قامت حول بطليها .

والفصل الثانى من الجزء الأول ، يصور « فجر التاريخ » ؛ والثالث فى « عصر الأسرات الأولى » ؛ والرابع فى « العقائد الدينية وغموضها فى نظر أصحاب التاريخ الحديث فى البحث » ، « وفى الطبيعة المصرية ما يدفع الناس إلى التفكير فى البحث » ؛ والفصل الخامس فى الدولة القديمة : مصر بناء الأهرام ، من الأسرة الثالثة إلى آخر السادسة ؛ والفصل السادس فى سقوط الدولة القديمة ؛ والسابع عن الدولة القديمة فى وعى الزمن ، وفيه الهرم وأبو الهول .

أما الجزء الثانى من الكتاب فله مقدمة هى تتمة ما فى الجزء الأول من المقدمة ، وتتضمن بيان عشرة مقاصد :

« رحلة إلى وادى يعين » وهو « ذلك الوادى الذى قدّر للمؤلف أن يراه فى الحلم وأن يصفه » ، كما جاء فى مقدمة الجزء الأول ؛ « حلم مروع » رأى فيه أوزيريس وحاوره ، « وجوب الإيمان بالله » . « خلافة الله على الأرض » ، « العلم والتعليم » ، « العظمة والعظماء » ، « الدستور والحياة النيابية » ، « الدين » ، « الجامعات » « الخاتمة » ، وفى آخرها يخاطب أوزيريس :

« قلت : حدثك أنسانى ماجئت من أجله . قال : حقك الروع تريد أن أفتيك فيه ! قلت : هو ذاك . قال : الرؤى رؤاكم ، والحياة حياتكم ، ولن تنفع الأحياء فيها الموتى ؛ ثم التمسوا من وراء ذلك ما تشتهون ، أو اتقوا ما تكرهون ، وحسبك ما سمعت من حديث . أسأل الله أن يوفقك ويهدى قومك إلى فهمه وتصديقه ، وأملى ... أن يرى قومك فى سيرة الزمن لدينا بعض ما ينفع أمثالكم من الحكمة والموعظة الحسنة . قلت : وهلا أوصيتنا بعد ذلك بشيء ؟ قال : أوصيكم بالصدق فى النية والقول والعمل » .

يلى المقدمة عشرون فصلاً تحوى التاريخ المصرى من أيام الأسرتين السابعة والثامنة إلى رمسيس الثالث ، وتنتهى بنظرة عامة فى أحوال مصر أيام الرعامسة .

(البحث بقية)

محمد توحيد السلحدار

مأساة مكبث وبطولته

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

سرنى أن أقرأ فى (الثقافة) كلمتين متتاليتين عن فيلم مكبث تعقيباً على ما كتبته عنه[1] . فهذا بعض ما كنت أبغيه حين قلت إنى أريد أن أنتهز فرصة عرضه وأحاول أن أثير بين نقادنا ما يثيره نقاد الغرب فى هذه المناسبات من مسائل فنية ، لعل فى إثارتها ما يعود علينا بالفائدة . وهذا هو كذلك ما يدفعنى إلى مناقشة بعض ما جاء فى هاتين الكلمتين لعلنا نصل إلى الحقيقة .

●●●

جاء فى الكلمة الأولى ما ملخصه أن هذا الفيلم صورة لما كان عليه الناس فى عصر شكسبير ، وأنه لهذا يقوم على عاملين أساسيين هما : « الخرافة والدين » وأن بطله مكبث توجّه الخرافة خطواته نحو الجريمة ومع ذلك فإن الدين يجعله يحس فى قرارة نفسه بأنه لا يجد راحة فى تصرفاته ، وأن شكسبير يشير بهذا الإحساس إلى الضمير الذى لا تطمره الخرافات ولا تطمسه الشرور والآثام ، وأن مكبث عندما يطالع هذا الشعور يراجع نفسه فيرى أنه — بالرغم من كسبه العظيم التاج الملكى ونجاحه فى كل تدبيراته — مشتت النفس ، لأن إحساسه الدينى — كمسيحى — يؤكد له أنه لن ينجو من عذاب النار طالما أنه قتل الملك وشرد الناس ... إلخ ... إلخ .

وغنى عن البيان أن هذا الفيلم هو حقاً صورة لما كان عليه الناس فى عصر شكسبير ، شأنه فى ذلك شأن كل دراما ممتازة .. ولكن هل كان الناس وقتئذ — أى فى عصر النهضة — مؤمنين بالخرافة والدين معاً على هذا النحو ؟ هل كانت الخرافة توجههم من جهة والوازع الدينى المسيحى يسيطر عليهم من جهة أخرى بحيث يعتقدون أن النار مصير المجرمين الآثمين ؟ .

إن الإجماع على أن عصر النهضة هو عصر يقظة العقل وتحرره من قيود العقائد وانتشار العلوم والمعارف ، وانبعاث صيحة روجر بيكون بالدعوة إلى التجربة والاختبار ، واتفاق رواد الفكر الجديد على استهجان الكتب والتقاليد القديمة ، ومن ثم ظهرت العصامية فى الأفراد وظهرت الفردية النامية فى المجتمع وظهرت النزعة الإنسانية فى الفن والأدب وظهرت البروتستنتية فى الدين ... وهذا كله يمثل حضارة الطبقة المتوسطة التى تكونت وقتئذ وأطاحت قيمها بقيم القرون الوسطى والظلمة وعصور الإقطاعيات الريفية .

والمفروض أن تتجلى سمات ذلك جميعه فى مظاهر النشاط الفنى والأدبى والدراما فى مقدمتها . فكيف يتفق هذا إذا سلمنا بأن دراما مكبث تقوم على عاملى الخرافة والدين ؟! .

أيمكن أن نفترض إذاً أن رجال المسرح — وهم فى شتى العصور معبرون عن العصر الذى كتبوا فيه والناس الذين كتبوا لهم — لم يكونوا كذلك فى عصر النهضة ؟ لكن الواقع غير ذلك بل عكس ذلك . فمعظمهم كانوا من قادة هذا الانقلاب الفكرى والروحى ، حتى لقد اتهموا بالإلحاد مثل بيل وكيد ومارلو ولودج ... وقدم بعضهم للمحاكمة بسبب هذه التهمة . وقد تجلت نزعتهم الإلحادية هذه بشكل واضح فى كثير من مسرحياتهم حتى لنجد فى إحداها مثل هذه العبارة :

« ما الدين عندى سوى ألعوبة طفل

وما من خطيئة على الأرض سوى الجهل »

(١) الأعداد ٦٤٣ ، ٦٥٠ ، ٦٥٣

وعلى وجه العموم لم يكن كتّاب مسرح عصر النهضة يكتبون حول فضائل الخير ورذائل الشر وثواب المؤمن وعقاب الكافر وتقديس الأولياء والتهكم على الشيطان كما كان الحال فى القرون الوسطى ، وإنما أصبحوا يعنون بالحياة الدنيا التى يحياها البشر ويصورون الآمال والمطامع الإنسانية ويركزون اهتمامهم فى إبراز عظمة الإنسان .

إذاً كيف يمكن تفسير دراما مكبث تفسيراً سليماً يربطها بروح العصر ؟

أغلب الظن أن ظاهر الرواية لا يعيننا على ذلك ، بل يتمشى مع تفسير كاتب الكلمة التى تناولتها . فالقائد مكبث يعود من غزواته منتصراً فيقابل ثلاث ساحرات يبشرنه بأنه سيكون ملكاً ، فتزداد مطامعه ويقتل الملك ويتربع عرشه لكنه يعيش بعد ذلك فى رعب وفزع إلى أن يلقى حتفه .

غير أننا إذا تعمقنا النظر فى جوهر المشكلة — مشكلة العلاقة بين القدر والإنسان كما يتصورها شيكسبير وعصره — وجدنا أن فهمنا لها مرتبط بمدى فهمنا لأثر الساحرات فى هذه المأساة ، فإنهن هنا رمز القدر .

ونحن أمام احتمالين لا ثالث لهما . فإما أن لهن فعلاً وجوداً موضوعياً ، أى أن شيكسبير يؤمن بوجودهن وجوداً حقيقياً ، وإذاً تكون مأساة مكبث راجعة إليهن أى إلى القدر قبل كل شىء . وإلا فيكون وجودهن ذاتياً أى امتداداً لخيال مكبث وأمانيه ، وتبعاً لذلك يكون المسئول عن شقائه هو نفسه لا القدر .

وقد كان من الممكن أن نجزم بأحد هذين الاحتمالين لو أننا عرفنا تماماً عقيدة شيكسبير الدينية أو على الأقل مدى إيمانه بالقدر وأثره فى تصرفات الإنسان . ولكن هذا مالا سبيل إلى معرفته معرفة يقينية ، لقلة المعروف عن هذا الشاعر المسرحى من جهة ، ولأن العصر كله كان عصر اضطراب فكرى وروحى من جهة أخرى .

إذاً ليس فى وسعنا سوى محاولة معرفة مدى مسئولية الإنسان فى الحياة الدنيا وأثر القدر فى تصرفاته وفى تعيين مصيره فى الحياة الآخرة من وجهتى نظر المذهبين الدينيين السائدين وقتئذ ، وهما الكاثوليكية والبروتستنتية ، على اعتبار أن الكاثوليكية هى المذهب الذى كان سائداً فى القرون الوسطى ، وأن البروتستنتية — كما يقول صاحب كتاب بروميثيوس طليقا — هى التخريج النهضى للمسيحية ، وأن الصراع بين هذين المذهبين كان على أشده فى ذلك العصر .. ثم نحاول تفسير دراما مكبث على ضوء ما قد نصل إليه .

وأبادر فألخص الفوارق بينهما — فى هذا الصدد — فى عبارة واحدة ، وهى أن الكاثوليكية تبشر بنظرية (العدل الإلهى Divine Justice) بينما تبشر البروتستنتية بنظرية (اللطف الإلهى Divine Grace) .

فالكاثوليكية تدين بأن الإنسان يولد ملوثاً بخطيئة موروثة هى « الخطيئة الأولى » ويبقى قبل كل شىء أن يتطهر منها ثم بعد ذلك يجازى فى آخرته بما يفعله فى دنياه .

والأصل فى ذلك عندهم أننا من سلالة آدم وحواء ولهما خطيئة معروفة وقد ورثناها عنهما فيما ورثنا . وجاء السيد المسيح مخلصاً لنا منها بدمه ولحمه . ففى آخر ليلة قبل صلبه — كما يعتقدون — اجتمع مع تلامذته على مأدبة (وفيما هم يأكلون أخذ الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال : خذوا كلوا هذا هو جسدى ... وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً : اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمى الذى للعهد الجديد يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا)[1]

ولا يزال التعبير عن هذا متبعاً بطريقة رمزية فى الطقوس الدينية الكاثوليكية وأهمها (الاعتراف) و (المناولة) . فهم يعترفون أمام الكاهن بأخطائهم ثم « يتناولون » فى الكنيسة النبيذ والقربان رامزين بهما إلى دم المسيح وجسده ، وبهذا يتطهرون من الآثام جميعاً وبعد ذلك يحيا كل منهم كما يختار ، فمن يتبع الخير فمصيره إلى الجنة ، ومن يتبع الشر فالنار موعده وبئس القرار ، أى أن كل إنسان يلقى جزاء ما قدمت يداه ، وهذا هو (العدل الإلهى) .

أما فى البروتستنتية فلا يعترف الإنسان أمام الكاهن ولا يعرف مصيره فى آخرته ؛ فقد يفعل أحدنا الخير ومع ذلك لا يضمن الجنة ، وقد يكون شريراً ثم يحظى بها إذا شمله (اللطف الإلهى) .

---

(١) إنجيل متى .

وسبب ذلك أن جذور هذا المذهب — من الناحية الفلسفية — متصلة بالأفلاطونية والهرمزية ومذهب المعرفة Gnosticism ، ففى هذه المذاهب نجد أن العالم الذى نعيش فيه إنما هو ظل لعالم آخر ، هو عالم المُثُل ، وأننا قبل أن نوجد على الأرض كنا فى ذلك العالم مُثلاً . وحدث أن ثارت هذه المثل فغضب الإله عليها وعاقبها ، إذ أمر (هرمز) بأن يصنع لها أجساداً من الصلصال وأن يحبسها فى هذه الأجساد . لهذا نحن نتعذب فى هذه الدنيا عقاباً لنا على ثورتنا أو خطيئتنا فى العالم الأول حتى يشملنا اللطف الإلهى وعلامته الوحيدة هى النجاح فى حياتنا الدنيوية !!.

بهذا تفسر النظرية البروتستنتية لماذا يولد بعض الناس سعداء ، ولماذا يلازم النحس بعضهم الآخر بلا سبب ظاهر .. وهكذا .

ولهذا نجد أن البروتستنتى لايعنى فى حياته بالخير والشر بقدر مايعنى بالنجاح ، أى بالربح والخسارة ؛ إذ أنه يؤمن بالجبرية — جبرية القدر Predestination — وبأن مصيره محتوم وغير معلوم له ، وأن أهم مايطمح إليه فى آخرته أن يشمله اللطف الإلهى .

وواضح أن هذه نظرية تلائم الطبقة المتوسطة التى استبدلت التجارة بالزراعة والمدينة بالقرية ، ومن ثم أطلق عليها (الطبقة البرجوازية) نسبة إلى Burgh ومعناها : مدينة . ومن أجل هذا سادت هذه النظرية فى العصر الذى سادت فيه هذه الطبقة ، أى فى عصر النهضة .. بعكس النظرية الكاثوليكية التى كانت تلائم العصور الوسطى عصور الزراعة والريف .

والفارق بين هذين المذهبين فيما يتصل بموضوعنا هو فى مدى مسئولية الإنسان عن أعماله ، أو فيما إذا كان مخيراً أم مجبراً إزاء قوة القدر .

ونحن إذا حاولنا تطبيق ذلك على تراجيديات شيكسبير لمعرفة مدى المسئولية التى يلقيها على أبطاله لوجدنا أننا نستطيع أن نقول إنه يؤمن بأن القدر هو المتصرف فى الحياة الدنيا ؛ إذ أنه يرمز له برموز مرئية ، كالأشباح والأطياف والساحرات وما إليها ، ويجعل لها نصيباً كبيراً فى تكييف تراجيدياته ... كما أننا نستطيع فى نفس الوقت أن نقول إنه لايؤمن بالقدر ، لأنه يقصر رؤية هذه الرموز على أبطاله أحياناً ، وأحياناً أخرى يشرك غيرهم فى رؤيتها دون أن ندرى سبباً لهذا أو ذاك ، حتى ليظن بعض النقاد أنها حيل أو أدوات مسرحية . بل إن فى تراجيديا مكبث بالذات ينفرد البطل — فى مشهد الوليمة — برؤية شبح بانكو ، بينما — فى مشهد الساحرات — يشترك معه بانكو فى رؤيتهن !!.

الخلاصة : أننا لانستطيع الجزم بأن هذه الرموز القدرية موضوعية أو ذاتية ، وبالتالى لا نستطيع تحديد مسئولية مكبث عن مأساته .

وأقصى ما يستطاع — ولعل هذا هو مغزى الدراما — أن نتساءل : هل نحن ألعوبة فى يد القدر ، أم نحن المسئولون عن أعمالنا ؟ وهل للإنسان أن يختار ؟ وهل يصرعه القدر أم خطاياه ؟ ... الخ ... الخ .

ولا شك فى أن مثل هذه الأسئلة التى تبعثها هذه الدراما دليل على أنها مطابقة لروح عصر النهضة ، عصر التساؤل والشك . أى أنها بعبارة أخرى لا تقوم على عامل الخرافة والدين بقدر ما تقوم على عكس ذلك .

* * *

أما صاحب الكلمة الثانية فيقول — نقلاً عن مجلة انجليزية — إن (ويلز) أخفق فى إخراج وتمثيل هذه التراجيديا لسببين :

السبب الأول أنه اتبع الأسلوب التأثرى الذى خيم على الفيلم كثيراً من الغموض والظلام .

والسبب الثانى أنه لم يظهر مكبث بمظهر الوغد ، وإنما أظهره بطلاً ، فانتزع العطف بدلا من أن يستجلب السخط « كما هو المطلوب من الدور » .

والحق كما أراه ومع احترامى للناقد والناقل أن (ويلز) قد نجح فى إخراج وتمثيل هذه التراجيديا لهذين السببين بالذات .

فالإحساس بالغموض والظلام الذى نحس به فى معظم

المشاهد لاعلاقة للأسلوب التأثري به ، وإنما هو إحساس سبق أن أحس به الناقدان الكبيران Bradly و De Suincey ، وعلله الأول بما يكتنف هذه التراجيديا من رهبة ، وعلله الثاني بما يهيمن عليها من ظلام يصل إلى حد السواد ! وهذا بالطبع منصب على النص المكتوب قبل أن يوجد اللعب التأثري بمئات السنين. فإذا كان (ويلز) قد وفق إلى إبراز هذا الغموض وهذه الظلمة ، فلست أدرى كيف يلام على ما كان ينبغي أن يهنأ عليه .

وأعجب من هذا كله أن يلام ، لأنه أخرج مكبث بطلاً ينتزع العطف لا وغداً يستجلب السخط كما هو المطلوب من الدور !!. فليس مكبث — كما صوره شكسبير وكما أخرجه ويلز — وغداً .. وليس المطلوب من الدور أن يستجلب السخط إلا إذا قومناه بالمعيار الأخلاقي ، وهو معيار لايصلح — وحده — لتقويم الدراما عامة ، ودراما شكسبير خاصة .

فن المعلوم أن البطل الدرامي إنسان يكاد يكون كاملاً من شتى النواحي إلا ناحية واحدة ضعيفة فيه ويصرع بسببها . وهذا الضعف على هذا النحو دليل على أن بطولته « بشرية » لا مثالية ولا ملائكية !! إذ أن الأرض لايعيش عليها مثاليون ولا ملائكة .

وهكذا نجد أن معظم تراجيديات شكسبير تدور حول بطل تصرعه فكرة أو رغبة أو تعلق لشيء ما يستبد به أكثر مما ينبغي . فقيصر تصرعه رغبته الجامحة في المجد . وتاركون تصرعه شهوته العارمة . وكوريولينوس يصرعه تيه الشرف . وكذلك مكبث يصرعه طموحه الفظيع .. وهكذا .

وهم — رغم ذلك — أبطال . ولئن كانت حياتهم تنتهي بالشقاء والموت ، فليس معنى هذا أنهم يشقون ويموتون مهزومين . وحسبنا أنهم لاينتهون إلى مصارعهم إلا بعد كفاح عنيف يستنفد أقصى ما يملكونه من قوى بشرية .

عبد الفتاح البارودي

قالوا ...

- ويل للرجال من عيون المرأة الجميلة .

[مدام كورنلى]

- لا يشقى في الحياة من له قلب يخفق مع قلبه .

[شكسبير]

- إن العيش في السجون لضمير نقي وعقل هادئ أفضل من العيشة في أسمى العروش بالهم والقلق والاضطراب

[بيكون]

- الغيرة أخت الحب كما أن الشيطان أخو الملائكة .

[بوفير]

- لا تفعل ما لا تستصوبه ولا تقل ما لا تصدقه .

[لافاييت]

- إذا بذل الشخص جهده في أمر فلا لوم عليه إذا لم ينجح .

[وشنطن]

- إذا جمعت مصائب البشر في وعاء ثم قسمت على الناس بالسواء لرضي كل فرد بمصائبه . [سقراط]

الثقافة

العدد ٦٦١ ٢٧ من أغسطس ١٩٥١	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	الثمن ٢٠ مليماً

صفحة

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ـ تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٦١ — الاثنين ٢٤ من ذي القعدة سنة ١٣٧٠ — ٢٧ من أغسطس سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

نشر القديم

للدكتور زكي نجيب محمود

إني أتهم أدباءنا ومفكرينا بالجبن والخور ! وأمام من يخورون ويجبنون ؟ أمام سواد الناس من الأميين وأشباههم ! أتهم أدباءنا ومفكرينا بالجبن والخور أمام السواد ، ولست أدري فيم إذاً حملهم القلم إذا لم تكن مهمتهم الأولى أن يستحيل هذا « السواد » على أيديهم بياضاً ؟.

أدباؤنا ومفكرونا يرتعدون خوفاً ورعباً مما عسى أن يقوله الناس فيهم ، كأن الله قد خلق الطغام ليملوا على أصحاب الفكر ما يكتبون ويزجروهم عما لا يكتبون ، ولم يخلق أصحاب الفكر لكي يكونوا لهؤلاء الناس نبراساً يهتدون به ويُرشَدون .

سيطر هذا الخوف على أدبائنا ومفكرينا — لا أكاد أستثني من كبارهم أحداً — حتى لقد أصبح من المألوف لقارئ أن يسأل قارئاً كلما كتب الكاتب من هؤلاء الكبار مقالاً أو أخرج كتاباً يتمشى مع عقيدة العامة ووجهة نظرها : أحقاً يعتقد فلان هذا في صدق ما كتب ؟ أصبح من المألوف أن يسأل قارئ قارئاً مثل هذا السؤال عما يكتبه كبار أدبائنا ومفكرينا مما يمالئون به سواد العامة ، لأن القراء قد أدركوا هذه الهوة السحيقة التي أصبحت تفصل بين ما يدور في باطن المفكر وبين ما يخرجه للناس على الورق ؛ وأصبح القراء في حيرة من أمر قادة الفكر فيهم : متى يقصد هؤلاء القادة حقاً إلى صدق ما يكتبونه ومتى لا يقصدون ؟.

إن كانت فكرة الكاتب متمشية مع فكرة العامة ، مضى فيها الكاتب من أول حياته الأدبية إلى آخرها ، لأنه ليس في طريقه خطر يحمله على انتهاج سبيل آخر ؛ وأما إن كانت فكرة الكاتب متعارضة مع رأي العامة ، فهنا نلحظ الأعاجيب في سيرة الكاتب ، فهو يبدأ حياته الأدبية بشيء لينتهي آخر الأمر إلى نقيضه ، ومن ثم سؤال القراء بعضهم بعضا ، أحقاً يعتقد الكاتب في صدق ما يروي ؟ ودلني على مفكر واحد من أصحاب القلم عندنا قد عُرف بفكرة معينة تصدم عقيدة سواد الناس ، ثم ثبت عليها ، وأخذ يكتب فيها دون أن يتحول عنها .

قد يبدأ الكاتب عندنا بشيء من الشجاعة فيعلن الرأي الذي يخالف ما قد ألِفَه الناس وتواضعوا عليه ، لكنه سرعان ما يعود بيسراه ليمحو ما خطّته يمناه ، ولا يتردد في تمزيق أوراقه جميعاً ليعيد مكانها ورقاً يخط به القلم الذي

يحلو وقعه في المسامع — لماذا ؟ لأن المسكين يريد أن يبيع بضاعته في سوق رائجة التماساً للقمة العيش ؟ ألا قبّح الله عيشاً يكون المهر الأدبي وسيلته .

على أن لقمة العيش إن كانت في أعين الناس مبرراً كافياً لهذه الزحمة الفكرية ، فلماذا يبرر أن نرى الكاتب قد أصاب ما يكفي جوفه وجوف أولاده من شِبَعٍ ورِيّ ، ومع ذلك يدس عقيدته بين ضلوعه ابتغاء مجد شخصي أو شهرة رخيصة ؟ إني لأذكر بهذه المناسبة سطرين من الشعر الإنجليزي ، قالهما شاعر محزون في منتصف القرن التاسع عشر ، إذ رأى واحداً من زملائه الشعراء قد اختطفته من بين زمرتهم يد تلعب بعد اللون في بضاعتها ، وأعني به « تنسُّن » حين اختاروه أميراً للشعراء ، وهو لقب كان يحتم على صاحبه أن يكون تابعاً من توابع السلطان .. فقال الزميل المحزون على فقد زميله سطريه المشهورين :

« من أجل حفنة واحدة من الفضة قد تركنا
تركنا ابتغاء شريط يلصق بسترته » .

● ● ●

ومن يدري ؟ لعل هذه المقدمة الطويلة قد أملاها عليّ الهوى ، لأمهد بها لرأي جريء أريد أن أفجأ به القارئ ثم أترك على الله بعد ذلك رزقي ؟ فقد أردت أن أعبر في هذا المقال عن رأي أراه وأومن بصدقه ، وهو أن رجوعنا إلى الثقافة العربية القديمة بهذه النسبة الكبيرة البادية فيما نكثر من نشره هذه الأيام من كتب العرب الأقدمين ، هو أشبه شيء بالوباء ، يصيب نهوضنا الفكري الذي لم يستقم بعد على قدميه ؟ وربما أحدث هذا الوباء في عقولنا من الضرر ما قد يستحيل بعد اليوم زوال أثره والنجاة من شره .

أردت أن أقول إن كثيراً جداً مما نقوم على نشره هذه الأيام من كتب العرب الأقدمين ، لا تساوي قيمته قيمة الورق الذي طبع عليه ؟ وليت الأمر في ضرره يقف عند حد انعدام نفعه ، بل إنه ليعيد لنا جواً فكرياً قد يضطرنا اضطراراً إلى تنفس هوائه حتى تمتلئ به رئاتنا وصدورنا ، فنكون عندئذ بمثابة من يعود بالزمان القهقرى ؟ فلست أدري بأي حق أصيح حتى تسمع الصيحة ؟ فأقول : إننا نقوم في واد والدنيا المتحضرة في واد آخر .

والأمر أمر نسبة صحيحة بين الأشياء ؛ فلو كان كل كتاب عربي قديم تقوم المطابع على إخراجه واستنفاد الورق والحبر فيه ، يقوم إلى جانبه ألف كتاب مما ينقل إلينا ثمار المدنية الحاضرة والفكر المعاصر ، لما كان هنالك موضع الشكوى ؛ أما والمطابع منصرفة بمعظم مجهودها إلى شد الأعناق إلى الوراء ، حتى لنكاد نطالع كل يوم إعلاناً جديداً عن كتاب آخر قديم كتب له النشور وشهد النور بعد ظلمة القبور ، فمن ذا يلومنا على آهة الحسرة نبعثها من أعمق أعماق النفس أسى وأسفاً ؟.

الكتاب القديم تحفة نضيفها إلى المكتبة لنضيف بها صفحة الماضي إلى صفحات الحاضر ، لكننا نعيش على صفحات الحاضر ونتسلى بذكريات الماضي ، اللهم إلا إذا كان المراد بنا أن تكون حياتنا كلها أحلاماً نستعيد بها مجدنا القديم ، فتمضي الحياة الحاضرة تحت أنوفنا ونحن نيام رقود ؟.

ألست ترانا نجمع الآثار القديمة في متحف واحد أو متحفين أو عشرة ، ثم نترك ألوف الألوف من الباقي بعد ذلك للسكنى والعيش ؟ من ذا يريد أن يكون المتحف المصري داره التي ينام فيها ويأكل ويعمل ويسمُر مع أهله وأصدقائه ؟.

لكن الذين يريدون أن يملأوا علينا رفوف المكاتب بالقديم المنشور هم كمن يريدون أن يُنسونا أمور عيشنا ويجعلون من المتاحف مضطرب حياتنا ؟ لقد يكون من الخير أن نضع تمثالاً في هذا الركن أو ذاك من أركان دارك ، أو تعلق صورة هنا أو هناك على جدرانها ، على أن تستبقي لنفسك معظم فراغ الدار للجلوس والحركة والأكل والنوم والطهي والغسل .

الكتاب القديم المبعوث من قبره هو كالكراسة القديمة نعثر عليها تحت الأثاث المخزون ، ونتصفحها فنجدها أثراً جميلاً من آثار الطفولة ، فهي الكراسة التي كنا نكتب فيها الحساب أو الإنشاء ونحن في المدرسة الأولية ، فنبتسم لها ابتسامة الإشفاق ونمسح عنها التراب ونضعها في ركن من خزانة الكتب احتفاظاً بذكرى يوم مضى ؛ لكن الأمر ينقلب جنوناً صريحاً إذا جعلنا هذه الكراسة بعد ذلك شغلنا الشاغل ، نقرأ ما فيها قراءة من يتوسم الجد في عمله .

ماذا يريد بنا هؤلاء الناس الذين يلوون وجوهنا وعيوننا إلى الوراء ؟ ماذا يريدون للمهندس الذي يبني العمائر

والجسور ورصف الطرق أن يقرأ ليقوم بما يجب له أن يقوم به من بناء وتعمير ؟ ماذا يريدون للطبيب الذي يسأل من شفاء المرضى أن يقرأ ليؤدي ما نسأله من أدائه ؟ ماذا يريدون للاقتصادي الذي نطالبه بتصريف بضائعنا في الأسواق العالمية وباستيراد حاجاتنا من تلك الأسواق بأحسن الشروط ، ماذا يريدون لهذا الاقتصادي أن يقرأ لكي يحقق لنا هذا الذي نطالبه به ؟ ماذا يريدون للزارع الذي نود له أن يملأ علينا المخازن غلة وثمراً أن يقرأ لتتوافر لنا بحبوحة العيش ورخاؤه ؟ أم هل يريد هؤلاء الناس لنا أن نصرف عن هندستنا وطبنا واقتصادنا وزراعتنا لنقرأ الوافي بالوفيات ونوادر المخطوطات وكتاب الإرشاد والزهر وترجمة ابن عساكر ...؟!

« لا ، يا جاهل ! » — الآن خيل إلى أن قراء كثيرين سيشفقون علىّ من هذا الجهل المطبق الذي أبديه ، وسيخاطبونني من بعد قائلين : « لا ، يا جاهل ! ما لنا الآن بالهندسة والطب والاقتصاد والزراعة ؟! هذه الكتب القديمة التي ننشرها إنما هي للثقافة والتثقيف ... » كأن شرط « التثقيف » عندهم أن يمتلئ الرأس بما ليس ينفع الحياة في شيء من بناء الدور وشفاء المرضى .

والحمد لله فقد رضيت لنفسي بالجهالة المطبقة إن كانت هذه الكتب هي أدوات الثقافة التي أملأ بمكنونها رأسي ! لو كان ما أريده فناً من الفنون ، فقبل أن أقرأ هذه الكتب لابد لي أولاً أن ألم بما يكتبه جهابذة الفن من أهل المدنية القائمة ، ثم أعقب على ذلك إن شئت بصفحة أقرؤها من صفحات الطفولة الماضية لأتسلى بلهو الماضي إلى جانب جد الحاضر ؛ وإن كان ما أريده أدباً من شعر أو نثر أو قصة أو مقالة أو ما شئت ، فلا بد لي أولاً أن أملأ جعبتي بالزاد الذي يغذيني غذاء حديثاً لأسير مع السائرين في ركبهم ، ثم بعد ذلك ألهو ساعة أو ساعتين بنوادر المخطوطات — وإنما ضربت المثل بالفن والأدب ، وهما ما قد يظن أهل الظنون أن لنا فيهما شيئاً نفاخر به بين ما تفاخر به سائر الأمم ، ولم أذكر شيئاً عن العلوم التي لا أحسب مكابراً يريدنا على ترك ما عند الغرب منها لنتزود بما قاله فيها العرب الأقدمون .

احكموا بيننا أيها المنصفون : هذا كتاب قديم نشره الناشرون ، فيه — مثلاً — طب قديم أو علم نفس قديم ، فكم من الزمن ينبغي أن أخصصه لمثل هذا الكتاب بحيث يكون في دراستي شيء من الاتزان ، فلا يطغى قديم على حديث ؟ في رأيي أنه كلما أنفقت ألف ساعة فيما يقال عن الموضوع عند الباحثين المعاصرين ، يكفي أن أنفق ساعة واحدة في نظرة أنظر بها إلى ما قاله صاحبنا القديم ، ويكون ذلك على سبيل اللهو والتسلية الذي لا جد فيه — وإن كان ذلك كذلك فقد كان ينبغي أن يصدر ألف كتاب فيها ثقافة حديثة كلما صدر كتاب واحد قديم — لكن انظر إلى ما تخرجه لنا المطابع هذه الأيام واعجب .

إن كل أنواع العزلة شر على الحياة الخصبة المليئة ، إلا إن كانت عزلة مؤقتة فيها استعداد لما بعدها ، وشر أنواع العزلة جميعاً هي العزلة الفكرية عن سائر العالم ؛ فليس الفكر طاحونة تدور في الهواء ولا تطحن شيئاً ، إنما الفكر يدور في أبحاث علمية من طبيعة وكيمياء ونبات وحيوان ونفس واجتماع واقتصاد وزراعة وتجارة وحرب ، ونظم سياسية ونظم تربوية وغيرها ، وفي كل هذه الأمور يكتب المؤلفون من رجال الغرب عشرات الكتب تلو عشراتها ، فهل نترك هذه الأكداس الفكرية كلها ، لننطوي على أنفسنا في جب مظلم ملىء بالتراب ، فننفض الغبار عن كتاب قديم فيه — مثلاً — أسماء الجبال عند العرب أو ذكر الأعشاب وطرائق تحضيرها والعلاج بها ، ونهش ونبش لهذا الكنز الثمين ، وروح تدق عليه الطبول على فقرنا ، والورق على ما نحن فيه من مجاعة ورقية ، وتنشغل به أصحاب التفكير والقراء في آن معاً ؟ والأمر — كما أسلفت — هو نسبة صحيحة بين الأشياء ، فلو أخرجت هذا الكتاب وإلى جانبه ألف كتاب — على أقل تقدير — مما ينقل إلىّ ثقافة الغرب القائمة اليوم ، والتي يسير العالم الآن على هديها ، وعلى شرط أن تكون هذه الكتب الألف موضع الجد والدراسة ، وأن يكون ذلك الكتاب القديم الواحد بمثابة التحفة التي تنظر إليها نظرة من لا يريد أن ينسى طفولته الغابرة ، لو حدث هذا لما كان لنا على نشر القديم ملامة وعتاب .

ماذا يكون مصير الأجيال الجامعية الناشئة حين تتلفت في عالم الكتب العربية لتقرأ ، فلا تجد على رفوفها إلا هذه

(البقية على الصفحة التالية)

نداء الشاطئ ...

للأديبة « ا . ف »

أقبل الصيف فهيا … فأنا في الشط وحدي
هاهنا في الرمل والأمـ … ـواج .. من جزر ومدّ
هاهنا في حانة البحـ … ـر .. تناجي الكأس ودي
بيد أني لا أبالي … بها، وأطوي الشوق جهدي
وأظل اليوم ظمآ … ن أبث الشط وجدي

هاهنا الشاطئ مجنو … ن بأسراب الجمال
هاهنا الفتنة ، والسحـ … ـر ، وأطياف الخيال
هاهنا نسعد بالخلـ … ـد ، بأحلام الليالي
نمسك الموج ونبني … عشنا فوق الرمال
فنعيش في حنان أصفا … ف ، وند ، ولآلي !

زرقة البحر كعينيـ … ـك ، وسحر البحر سحرك
ثورة الموج كنهديـ … ـك ، وغدر الموج غدرك
نفحة الشط إذا رفـ … ـت هتفنا : فاح عطرك !
أغنيات الطير فوق الـ … ـماء ما غرّدَ ثغرك
ونعيم « الجزر » وصلك … وجحيم « المد » هجرك !

هاهنا في زرقة البحـ … ـر ، ووسط الماء نسبح
وهنا في قفزة المو … ج وضحك اللج نمرح
وهنا في ذهب الرمـ … ـل وفوق الشط نمرح
ومع الأمواج نشدو … ومع الأنسام نصدح
وعلى الأصال نمسي … وعلى الأسحار نصبح

هاهنا الزورق في الليـ … ـل يطيف بنا يهيم
عازف المجداف يشري … والهوى شادٍ رخيم
راقص الخطوة نمشي … لا كما يختال ريم
فوق رأسينا نجوم … وعلى الماء نجوم
فكأنا في سحابيـ … ـن — كنجمين — نعوم !

هاهنا الشاطئ يدعو … ك لتلقى فيه رحلك
وهنا البحر يناديـ … ـك ، ويغني الموج وصلك
وهنا تقفز بشرًا … وهنا تحضن رملك
وهنا تسبح يومك … وهنا تسمر ليلك
وهنا في الشط تغدو … وأنا أمسك ظلك !

هاهنا قاض الهوى بي … يا حبيبي وعذابي !
هاهنا عشت ، وحبي … صاخبٌ مثل العباب
شاردَ القلب معنّى … والأسى مله إهابي
شاخصًا أرقب طيفًا … لم يزلْ رهن الغياب
وأنادي « منية القلب » (م) ... فهل لي من جواب ؟!

(الإسكندرية) « حسن صادق محمد الله »

الجبا كل العظمة التي أخرجناها من قبورها ولففناها بورق أبيض ناصع ، وقلنا ها كم الأزاهر النضرة فاملأوا خياشيمكم بشذاها ! مصيرهم محتوم ، وهو أن يُقبلوا عليها بقدر ما في وسع شبابنا الجامعي أن يقبل على قراءة ، وما هو إلا أن يظن هؤلاء الشباب أن العلم هو هذا ، وأن الدنيا هي هذه التي طالعوها على صحائف تلك الكتب ، ولسنا في هذا التقدير بمسرفين ، فعلى بعد خطوات منا معاهد تأخذ بمثل هذه الدراسة ؛ فعليكم بها وانظروا ما « العلم » في جوها وبين أبهائها .

وهكذا سيمضي الغرب في طريقه وسنمضي : هو يشتغل بتفتيت الذرّة ، ونحن نعبث بتشقيق الشَّعرة . هل هذه اللفظة قالها العرب مفتوحة أو مضمومة ؟ وهل هذا الحرف في النص الأصلي فاءٌ أو قاف ؟ سيمضي الغرب في طريقه وسنمضي : هو يحاول الصعود إلى ذرى السماء ، ونحن نحفر الأجداث لنستخرج منها الرمم .

لست أدعي أني فريد نوعي في هذا الرأي الذي أراه ، فهم يعدون بالألوف أولئك الذين يضحكون سخرية من هذا الإسراف في نشر الكتب القديمة ؛ ودليل ذلك أنهم يعدون بالألوف أولئك الذين لا يقرءون صفحة واحدة من هذه الكتب لو أهديتهم إياها بغير مقابل من مال ؛ لكن أحداً من هؤلاء لا يجرؤ على الجهر بهذا الرأي خوفاً من العامة وأشباههم ؛ إن رأي العامة هو أن للآثار العربية قدسية لا ينبغي أن تمسها قدم ، فإذا كتب كاتب فليتغن بهذا اللحن أو فليصمت .

وها أنذا أبيع صمت الغفلة بغير ثمن ، لأن تسعة وتسعين قارئاً من كل مائة سيتمتم لنفسه قائلاً عني : جاهل لا يعرف قيمة الدر النفيس .

زكي نجيب محمود

بين هيني وجيتي

الأستاذ على أدهم

في الثلث الأول من القرن التاسع عشر كانت شهرة جيتي قد تجاوزت ألمانيا وأوربا إلى سائر نواحي العالم وبلغت الذروة ، وكان جيتي نفسه قد نضجت تجاربه ، واكتملت عبقريته ، وأصبح شاعر العصر وأديبه وحكيمه الذي يشار إليه بالبنان ، ويحج إليه القصاد في ويمار ليشاهدوا هذا المارد الجبار ويملأوا عيونهم من النظر إليه وآذانهم من الاستماع إلى أحاديثه الخصبة الموحية قبل أن يطويه الموت ويضاف اسمه إلى سجل الخالدين في التاريخ . وكان هينريك هيني حينذاك شاباً في مقتبل العمر ، وعنفوان الشباب ، قوى العاطفة ، مرهف الإحساس ، يلمع في عينيه بريق الذكاء ، وترف على جبينه لمحات العبقرية ، وقد أخذ يشق طريقه إلى الشهرة والمجد الأدبي ؛ واسترعت مجموعة الأشعار الغنائية التي أذاعها أنظار النقاد والقراء ، ومتذوقي الأدب اللباب ، فأخذوا يرددون أن نجماً جديداً قد لاح في سماء الأدب ؛ وكان شباب الشعب الألماني في تلك الفترة قد أخذ يتنكر للشاعر العظيم والمربي الكبير منذ بدأت الحروب النابليونية ، واتهموه بفتور العاطفة القومية وضعف الوطنية ، وتطرف بعضهم فرموه بعدم الاكتراث والخيانة ، وأخرجهم ذلك إلى الشك في أدبه ، وانتقاص عبقريته ، والنيل من مكانته ؛ ووجه إليه بعض النقاد نقدات مسمومة وحملات شعواء ، وأولع فريق آخر من النقاد بالموازنة بينه وبين صديقه وضريبه في الأدب الألماني شلر ، وفضلوا عليه شلر ، وأثنوا على مؤلفاته ، وأكبروا آياته الفنية ، على حساب انتقاص آثار جيتي وطرفه الأدبية . والجميل أن انقسام الناس إلى معسكرين يتعصب أحدهما لشلر ويسرف في مدحه ، ويتعصب المعسكر الآخر لجيتي ويبالغ في الإشادة بأدبه لم يفسد ما كان بين الصديقين من وثيق العلاقات وعميق التقدير وحسن التفاهم والتعاون ، وقد كانت صداقتهما من الصداقات النادرة القليلة في تاريخ الأدب .

وكان هيني الشاب الشاعر الطموح المشتعل الحماسة الحاد اللسان اللاذع السخرية يشارك شباب عصره ضيقهم بجيتي وثورتهم به وتمردهم عليه ، وكان يزيد هذه الكراهة اتقاداً حسد الشبان الطامحين من الشعراء والأدباء لرجال الأدب الشيوخ الذين توطدت مكانتهم ، وعلت شهرتهم ، ويغلب على الشبان الطموحين في مثل هذه الأحوال الظن بأن هؤلاء الشيوخ قد استأثروا بالشهرة وأقاموا العقبات في سبيلهم ، فلابد من هدمهم وإزالتهم من الطريق ليظهروا وينالوا حقهم ، ويظفروا بالمكانة اللائقة لنبوغهم وتفوقهم .

وهيني نفسه قد اعترف في صراحته المحببة بأن الحسد كان من أسباب حملته على جيتي وكراهته له ؛ وهيني رجل ساخر لعوب بأطراف الكلام ، ولكني مع ذلك لا أرى داعياً لرفض ما ذكره هو عن نفسه ، فقد قال في بحثه الانتقادي الممتع عن المدرسة الرومانتيكية « من الصعب أن أعرف الأسباب الخاصة التي بعثت كل فرد على أن يعلن كراهيته لجيتي ، ولكني أعرف الأسباب السرية الخفية لأحد هؤلاء الأشخاص ، ولما كان هذا الشخص هو أنا نفسي فإني أعترف صراحة أني كنت أحسد[1] جيتي » . وفي ذلك الوقت كان يقيم في برلين فارنهاجن فون إنسي مع زوجته راحيل ، وكان صالون هذه الأسرة لمدة سنوات ملتقى كبار المفكرين والشعراء والنقاد ، وكان ممن يغشونه الفيلسوف هيجل والمفكر شليرماخر والروائي البارون دي لاموت فوكيه والبحاثة هبولت وغيرهم . وقدم هيني أحد أصدقائه لفارنهاجن ، وفي بادئ الأمر اعتاق الحياء هيني في حضرة هؤلاء الأعلام الأكبر منه سناً ، والأرسخ منه قدماً والأبعد منه شهرة ، والأسمى مكانة ، ولكن السيدة راحيل كانت امرأة مستنيرة مثقفة سامية الروح ، جمة العطف ، وقد استطاعت بوداعتها ولباقتها أن تروض جماح الشاب الثائر هيني وتؤنس وحشته وتطلق لسانه ، وقد اشتهرت راحيل بإعجابها الشديد

(١) راجع صفحة ١١٢ من كتاب « كتابات هيني النثرية » The Prose Writings of Heinrich Heine.

بجيق وإكبارها له ودفاعها الدائم عنه ، وكانت تحاول أن تحمل الناس جميعهم على مشاركتها فى هذا الإعجاب ، وقد رأت جيق أول مرة فى مدينة فرانكفورت ، وكانت تقله عربة ، فلما طالعها محياه كادت تفقد صوابها ، واندفعت تجرى خلف العربة وهى تصيح « إنه جيق ! إنه جيق ! » فنظر جيق حوله وسره تحمس هذه المرأة الشابة له ، وابتسم لها ابتسامة لطيفة رقيقة ، وبعد هذه الحادثة بقليل زارها فى منزلها ، وحدثت هيني عن ذكرى هذه الزيارة وقد غلبها الحياء فقالت : « كان كل شىء فى ذلك الصباح يعمل على معاكستى ، فقد استيقظت من النوم متأخرة ، وفى الساعة التاسعة كنت لا أزال أمام المرآة أصلح من شأنى ، وجاء الخادم وأعلن أن أحد السادة يريد أن يتحدث إلىّ ، وقلت فى نفسى « من عسى أن يكون هذا الزائر ؟ » وأرسلت دورا لتعرف جلية الأمر ، فعادت إلىّ فى التو واللحظة حاملة بطاقة جيق ، وقالت لى « أخبرنى السيد أنه يستطيع الانتظار » ، فقلت لها « أدخليه على الفور ! وأسرعت وتلفعت بمئزر ، وهكذا تقدمت للقاء جيق ، ولا أزال حتى اليوم أستشعر الخجل لذلك ، ولكنى آثرت الاستهداف لعدم ارتياحه على أن أتركه منتظراً ، فليس من اللائق أن تجعل جيق ينتظر ! . وقد ارتبكت ارتباكاً شديداً ، وغلب على أن أعتذر له عن الملبس الذى لقيته به ، وقلت له إنى أشكر لك حضورك . وتكلمنا فى أشياء تافهة ، وبطبيعة الحال كانت هناك آلاف الأشياء التى كنت أريد أن أتحدث إليه عنها ، ولكن هكذا حالة الإنسان حينما يلق الذى يحبه ويقدسه ويجله » .

وكان هيني يستمع إلى ثنائها على جيق والتنويه بأدبه بشىء من الضيق والغيرة ، وكان يجد صعوبة فى أن يحنى رأسه إزاء تفوق جيق وامتيازه ، وكان يعتقد أن راحيل تبالغ فى تمجيده ، وتعطيه أكثر من حقه ، وقد اجترأ على مخالفتها فى ذلك ، فقالت لخاصة أصدقائها « إن هيني لم يبلغ بعد السن التى يستطيع فيها تقدير جيق ، ولابد من أن ينضج الإنسان ويهذب ويصقل ويثقف نفسه لكى يستطيع تقدير حكمة شاعر ويمار ، وبقاء توازن جيق والانسجام الذى يشمل العالم جميعه ، على ما فى هذا التوازن والانسجام من متناقضات » وكان إعجاب راحيل بجيق « الرزين » أكثر من إعجابها بجيق الشاعر . وقد كان هيني يحترم راحيل ويعجب بها ويقدر عطفها عليه ، ولكنه مع ذلك يرى أن من حقه أن يثور ويطاوع أهواءه ونوازعه ويقتحم عالم القلق والفوضى والاضطراب قبل أن يصل إلى الاتزان والانسجام .

وكان هيني يستمتع فى صالونها بالحرية التامة ويعارض ويجادل ويناضل عن آرائه فى قوة وعنف ، وكان صالونها من العوامل الهامة فى تكوين أفكاره واتجاهاته ؛ وفى هذا الصالون استمع إلى هيجل وهو يشرح آراءه فى فلسفة التاريخ ، واسترعت راحيل نظره إلى جهود سانت سيمون وأنصاره ، فأقبل على دراسة مشكلات القرن التاسع عشر الاجتماعية وعنى بها طوال حياته ، وقد كانت حياة هيني ملأى بسوء التفاهم والمعارك والخلافات والدسائس والعداوات ، ولكن علاقته بأسرة فرنهاجن ظلت الناحية المشرقة فى حياته التى لا تغشاها السحب ولا تخيم عليها الظلام .

وفى مدينة كوتنجن عرف هيني إكرمان الذى أصبح فيما بعد موضع ثقة جيق والذى سجل أحاديث جيق فى كتاب قيم مشهور ، وكان إكرمان قد بدأ يعرف بحبه لجيق وشدة إعجابه بعبقريته ، وقد نقل فرانسوا فيتو مترجم حياة هيني عما زعم أنه مذكرات إكرمان غير المطبوعة ما يستفاد منه أن إكرمان سجل فى هذه المذكرات يوم ٣ أغسطس سنة ١٨٢٤ ما يأتى :—

« يحاول هيني أن يظهر فى مظهر الرجل العاظم الشأن ، فقد قال عرضاً إنه زار فيمار ، فأجبته : أفى الحق أنك زرت فيمار ؟ » .

فتظاهر بأنه لم يسمع ، وأخذ يتكلم فى موضوعات أخرى ، وبعد نصف ساعة عاد إلى الموضوع نفسه وقال : إنه زار فيمار ، وإن الجعة هناك جيدة .

فسألته بتاً : الجعة وحدها !

فأجاب وقد غشيته غاشية من الذهول : وكذلك اللحم الشوى .

فقال له إكرمان وقد نفد صبره : أمسك عن هذا السخف ، وحدثنا هل رأيت جيق ؟

ولم يرد هيني في ذلك اليوم على هذا السؤال ، وترك إكرمان وأصحابه في حيرة من أمره .

وفي لقاء آخر حدثه هيني عن لقائه لجيته وأطلعه على هذه الرسالة التي وجهها إليه قبل اللقاء ، وهو يقول فيها : « ياصاحب السعادة — إني أسألك أن تتيح لي حظوة لقائك بضع دقائق ، ولا أريد أن أثقل عليك ، وكل ما أوده هو أن أقبل يدك وأنصرف ، واسمي هنريك هيني ، وقد ولدت في أرض الراين ، وقد عشت إلى وقت قريب في جوتنجن ، وعشت بعد ذلك سنوات عدة في برلين حيث تشرفت بمعرفة أصدقائك القدماء ، تولند وأسرة فارنهاجن وغيرها ، وفي كل يوم كان يزداد حبي لك . وأنا نفسي شاعر ، وقد اجترأت منذ ثلاث سنوات على أن أرسل إليك مأساة ومعها ديوان شعر ، وفضلاً عن ذلك فإني رجل مريض ، وقد ذهبت لقضاء ثلاثة أسابيع في الهارز طلباً للراحة ، وهناك استولت علي رغبة شديدة في أن أحج إلى فيمار لأقدم احتراماتي لجيته ، وقد فعلت فعل الحجيج فجئتك سعياً على الأقدام ، وقد بيض ثيابي غبار الطريق ، والآن أسألك أن تحقق رغبتي وتسمح لي باللقاء . »

واسترسل هيني في حديثه مع إكرمان وقال « إن جيته كان مهذباً رقيقاً لطيفاً في لقائه ولكن لم يكن إنسانياً ، وهكذا كان الرجل الذي حاولت أن أكبره وأجله رغم ما بيننا من الاختلافات وتفاوت المشارب ، ولقد أصبت بخيبة أمل شديدة ، وقد سألني عما أعمله فقلت له : إني مكب على موضوع فاوست ، فتغير وجهه وتجهم وقال لي في برود : وماذا يستبقيك يا سيد هيني في فيمار ؟ فأجبته وقد انحنيت له مودعاً : لا شيء بعد هذه الزيارة . »

والظاهر أن هيني أراد أن يضايق جيته ويتهكم منه لغروره وتعاليه ، بادعاء أنه سيتناول موضوع فاوست من جديد وينافس جيته بالكتابة فيه .

وقد كتب هيني ضمن رسالة لأحد أصدقائه المقربين عن لقائه لجيته : « جيته وأنا طبيعتان مختلفتان متناقضتان ، فهو في الجوهر رجل حابته الحياة ، وهو يرى أن الاستمتاع بالحياة هو خير ما فيها ، وبالرغم من أنه في بعض الأوقات يلمح الحياة المثالية ويشعر بها شعوراً غامضاً ويعبر عن ذلك في أشعاره ، فإنه برغم ذلك لم يفهمها ولم يعشها . وأنا على نقيضه ، فإني في الجوهر متحمس ، ومعنى ذلك أن المثل الأعلى يلهمني ويستأثر بي ، إلى حد أني على استعداد لأن أقدم حياتي له ، بل هو يغريني على أن أجعله يستغرقني ويحتويني ، ولكني تعلقت بمتع الحياة ووجدت فيها لذة وسروراً ، ومن ثم المعركة الرهيبة الناشبة في نفسي بين عقلي الواضح الذي يوافق على استمتاعي بملذات الحياة ورفض التضحية بالنفس ويعدها حمقاً وسخفاً ، وعواطفي التي تشتد وتقوى وتأخذ بأكظامي وتحاول أن تدفعني دفعاً إلى عالمها القديم المعزول » .

وعجب هيني من أمر نفسه في لقائه لجيته ، فقد ظل أياماً يفكر فيما يقوله لجيته حين اجتماعه به ، فلما سنحت الفرصة وسمحت الأيام بهذا اللقاء لم يجد أبلغ شبان عصره وأصدقهم عبقرية ما يقوله لجيته سوى هذه العبارة التافهة : « إن البرقوق الذي ذقته في الطريق بين ينا وفيمار هو ألذ وأشهى ما ذقته من هذا النوع » .

وتحدث هيني عن جيته في الفصل الطويل والبحث الضافي الذي كتبه عن المدرسة الرومانتيكية ، ومن أقواله عن جيته في هذا المقال : « وكان جيته يخشى كل كاتب فيه طرافة وله استقلال ، وكان يمجد ويمدح صغار المؤلفين وضعاف الكتاب ، ولقد أمعن في ذلك حتى أصبح مدح جيته لأي كاتب دليلاً على أنه من الكتاب العاديين » .

ولكنه مع ذلك حينما عرض الخلاف بين أنصار شلر وأنصار جيته في هذا المقال لم يأخذ جانب أنصار شلر وقال : « إن المعجبين بشلر يتمدحون في حماسة طهارة ماكس بيكولوميني وصفاء تكلا وبوزا وغيرهم من أبطال روايات شلر ، ومن ناحية أخرى يعيبون أخلاق فيلين وكلاتشن وكلارشن وسائر بطلات جيته وأبطاله ويعدونهم خارجين على الآداب ، ويقابل أنصار جيته ذلك بالابتسام ، ويقولون إن أبطال جيته وبطلاته لا شأن لهم بالأخلاق ، وإن عالم الفن لا يعبأ بالفوارق الأخلاقية ، والفن مثل الكون قد وجد لأجل نفسه لا لأجل الآداب والأخلاق ، وبالرغم من أن آراء الناس عن الكون تتغير وتتسع فإن الكون نفسه يظل على حاله ، ولا يطرأ عليه تغيير ، ولذا يجب أن يظل الفن كذلك بعيداً عن التأثر بآراء الجيل الحاضر من

بني الإنسان ، ويلزم أن يظل الفن مستقلاً بوجه خاص عن المذاهب الأخلاقية ، لأن هذه المذاهب تتغير كما ظهرت ديانة جديدة وحلت محل المعتقد القديم » ، ويعلق هيني على وجهة نظر أنصار جيتي التي أطال في عرضها عرضاً نزيهاً وافياً بقوله : « إنني لا أقبل هـذا الرأي بدون تحفظ ، ولقد أدى هذا الرأي بأنصار جيتي إلى أن يعلنوا أن الفن هو أسمى ضروب الخير ، وقد أغراهم ذلك على أن ينأوا بأنفسهم عن مطالب عالم الواقع الذي يجب أن تكون له المكانة الأولى » .

ويرى هيني أن شلر استجاب لعالم الحقيقة والواقع أكثر من جيتي ، وأنه يستحق المدح من أجـل ذلك ، وقد حمل شلر علم المعركة ، وتغنى بأفكار الثورة الفرنسية العظيمة ، وهدم حصون باستيل العقل ، واشترك في بنيان معبد الحرية ، هذا المعبد الهائل الذي تأوي إلى ظله الشعوب ، وتلوذ بركنه الأمم ، وقد عني شلر بالتاريخ ، وتحمس للتقدم الاجتماعي . أما جيتي فقد أقبل على دراسة الفرد والطبيعة والفن ، وكان عدم اكتراثه نتيجة من نتائج تأثره بمذهب وحدة الوجود .

ومما يؤسف له أن هذا المذهب كثيراً ما يؤدي بمن يأخذ به إلى ترك الأمور تجري في أعنتها ، لأنه إذا كان كل ما في الوجود شيئاً مقدسـاً فسواء أن يشغل الإنسان بالسحب أو بالجواهر القـديمة والأغاني الشعبية أو بتشريح القردة ؟ ولهذا لم يحفل جيتي بمطالب الإنسانية ، وشغل نفسه بالتشريح ونظريات الضوء ودراسة النباتات ومراقبة السحب ، وحقيقة أن جيتي وصف بعض معارك الصراع العنيف لأجل الحرية ، ولكنه وصفها كفنان ، فقد كانت الحماسة الشعبية بغيضة إليه ، وكان ينفر منها ويجتويها ، وهو لم يتحمس في الفلسفة التي سادت في عصرنا ، إما لأنه لم يستطع فهمها وإما لأنه خشي أن تفقده هـدوء النفس ، ولست أنكر قيمة أعمال جيتي وطرائفه الفنية ، فهي تزين بلادنا المحبوبة كما تزين التماثيل الجميلة الحدائق ، ولكنها بعد كل شيء ليست سوى تماثيل ! وقد يعشقها الإنسان ولكنها عقيمة تماماً » .

ويصرح هيني بأن ما سماه هيني وشباب ألمانيا في كتابات جيتي هو عقمها وتفريغ جيتي الفن وتأثيره الذي راض من عزائم بعض الشبان وكان عقبة في سبيل التجديد السياسي الذي كان لازماً لبلادهم .

وقد هاجم المؤرخ النقادة الألماني مِنْزِلْ جيتي هجوماً عنيفاً ، وأنكر عليه عبقريته ، وفضل عليه شلر ، ويقول هيني عن هذا الهجوم العنيف : « كنت في ذلك الوقت من خصوم جيتي ، ولكني مع ذلك لم تسرني الخشونة التي أبداها منزل في نقده ، وقد شكوت قلة الاحترام لجيتي التي انطوى عليها النقد ، وقلت إن جيتي برغم كل شيء هو ملك أدبنا ، وفي تناوله بسكين النقد يخلق بنا أن نعامله بالاحترام اللائق ، مثل الجلاد الذي كان عليه أن يطيح رأس شارل الأول ، فإنه قبل أن يقوم بواجبات وظيفته ركع إزاء الملك والتمس منه الصفح » .

ويعتذر هيني عن خصومته لجيتي بقوله : « لم أكن مثل هؤلاء النقاد الذين استعملوا مناظيرهم المكبرة وادعوا أنهم رأوا كلَفاً في صفحة القمر ، فإني لم أستطع أن أجد عيباً في أعمال جيتي الفنية ، وما حسبه هؤلاء القوم ذوو البصر الحاد كلفاً في وجه القمر هو غابات مزدهرة وجداول فضية وجبال شُمٌّ وأودية باسمة ضاحية » .

ويرد هيني على الذين يفضلون شلر على جيتي بقوله : « لا شيء أدل على الحماقة من انتقاص جيتي لإعلاء شأن شلر ، وقد جرت العادة أن يمدح شلر من أجل النبـل من جيتي ، ألا يعرف هؤلاء النقاد أن هذه الشخصيات التي صورها شلر في صـورة مثالية أسهل في الخلق وأدنى منالاً من هؤلاء الكائنات الضعيفة المذنبة التي يرينا جيتي لمحات عنها في أعماله ؟ ألا يعلمون أن المصـورين العاديين يختارون في أغلب الأوقات موضوعات مقدسة ويصورونها بغير إجادة ولا إتقان ؟ ولكن تصوير فلاح له سحنة منفرة أو امرأة متقدمة في السن كريهة المنظر يستلزم أستاذاً بارعاً في التصوير ، وأعظم مزايا جيتي هي اكتمال أعماله الفنية ، فليست فيها أجزاء قوية وأخرى ضعيفة ، وليس فيها اختلاط وفوضى ، ولا تعصب لبعض الشخصيات ، وكل شخص يظهر في روايات جيتي وتمثيلياته كأنه الشخصية الرئيسية ، وكذلك في هومر وفي شكسبير » .

وهكذا لم يستطع هيني أن ينكر على جيتي براعة فنه وعظيم مكانته في الأدب الألماني ، بالرغم من تمرده عليه ، وحسده له ، وضيقه ببعض الجوانب التي عدها جديرة بالنفور في شخصيته ومسلكه وموقفه .

علي أدهم

ألبيـــــر كامو

[أي روحي .. لا تطلبي إلى الحياة الخالدة بل استنفدي حقل الإمكان ..] .
(پندار)

للأستاذ عبد الفتاح الديدي

لا .. لن ننتحر .. فلتنزل بنا المصائب أزواجاً وأفراداً ، ولتحط بأجسامنا ألوان من العلل والهموم ، ولتمتلىء الحياة بضروب من التفاهة والعبث ... ومع هـذا كله فسنظل مستمسكين بالعيش الإنساني المحدود ... إنه عيش باهت لا قيمة له ، فلا غد ولا أمل ولا نور ، ولكنه يُعدّ كل شيء بالنسبة إلينا ، ولا بد أن نعطيه — نحن البشر — تقديره اللازم ... أيها الناس ... إني أحمل إليكم رسالة العبث ، ولكن افتضوها ، فستجدون في طياتها رسالة العدل والكرامة ... ـأقول لكم إن الحياة لا معنى لها كما تتكاتف لإعطائها معنى من عندنا ، وبذلك تستحيل إلى شيء « إنسانيّ » له قداسته وحرمته وجدواه .

تلك صرخة كامو التي انبعثت أول ما انبعثت من الجزائر الفرنسية ممتلئة بكل دلالات القلق الوجودي ، معبرة عن محنة الفكر المعاصر ! لم يقل كامو هذه الألفاظ بعينها ، ولكنها — فيما أعتقد — تعطيك لمحة من اللمحات التي تكشف لك عن أدب كامو ، وتفتح لك أبوابه وتدخل بك إلى أعماق فؤاده ...

هنا محور أفكاره وتلك هي أهم نقطة ينبغي أن نعوّل عليها في فهمك لآرائه ، فهو رجل يريد أن يجعل للحياة معنى بعد أن اكتشف أنه ليس لها أي معنى ، ويريد أن يخلق فيها أوضاعاً إنسانية وأخلاقاً فردية تحدد اتجاهنا في العمل وتبث فينا الثقة ، وتجعلنا نغالب الإحساس بالضيعة ، وتشجعنا على محو آثار العبث البادية بوضوح في معاشنا الإنساني ...

ونبدأ مع كامو من أول أمره لنرى كيف تطورت الأفكار في رأسه على هذا النحو ، فنجد أنه ولد عام ١٩١٣ ، وأنه درس الفلسفة واضطر إلى العدول عنها تحت تأثير المرض أولاً والحاجة ثانياً ؛ فاشتغل بالصحافة ؛ وكان فشله في الاستمرار على نحو ما أراد لنفسه أن يكون في المجال العلمي ، سبباً فيما احتواه خاطره من الأفكار السوداء ومن التشاؤم العنيف ؛ ونحن نعرف أنه ألف كتاباً (مترجماً) وعمره لا يعدو الثالثة والعشرين ، بعنوان « ليالي الزفاف » ، وفي هذا الكتاب نشعر بأننا حيال كاتب ممتاز له أسلوب جميل فريد ، وله نغمة حزينة أصيلة ، وله أفكاره الغريبة المتمردة ، وتتبين ذلك من عباراته ... ولكن هذا يثبت أيضاً أن كل ما هو بسيط يفوتنا . ما هو اللون الأزرق ؟ وما هو التفكير في اللون الأزرق ؟ إنها نفس الصعوبة بالنسبة إلى الموت ... فلسنا ندري كيف نتحدث عن الموت وعن الألوان ... ولكن هل يمكنني حقاً أن أفكر فيه ؟ أقول لنفسي : ينبغي أن أموت ، ولكن هذا لا يعني شيئاً ما دمت لا أصل إلى حد اعتقاده ، ولا يمكنني أن أملك سوى تجربة الآخرين للموت ... رأيت أناساً يموتون ، ورأيت كلاباً — على الخصوص — يموتون ، ولمسها هو الذي هدّني... وعندئذ أفكر: زهور ، ابتسامات ، حب النساء . فأفهم أن كل إشفاقي وذعري من الموت إنما ينشأ عن حسدي للعيش .

إني أحسد أولئك الذين سوف يعيشون وستأخذ عندهم الزهور والرغبة في النساء كل معناها الحقيق .. إني حسود لأني أحب الحياة كثيراً ، وذلك من أجل ألا أكون أنانياً ... إذ فيم تهمني الأبدية ! ؟ فبالنسبة إلي ، أمام هذا العالم ، لا أريد أن أكذب ولا أن يكذب الآخرون عليّ . إني أود الاستمرار بوعيي إلى الآخر ، ومشاهدة ختام حياتي

بزادى كاملاً من الحسد والرعب ؟ فبقدر انفصالى عن العالم وانشقاقى من الحياة أحس بالخوف من الموت ...

ومع فكرة الموت تنشأ لدى الفتى الناشىء أفكار أخرى ، أهمها وأخطرها اعتقاده فى العبث ؟ فالموت ، والاختلاف والتنازع ، والمصادفات ، وعدم التأكد من شىء ، واستحالة الوصول إلى معنى ثابت ... كل هذا يزرع فى قلبه إيماناً غريباً بالتفاهة ويجعله يشعر فى حياتنا اليومية الرتابة ، ويدفعه إلى الإحساس بالغربة وسط مظاهر الوجود .

ولأجل تكبير هذا الإحساس وتضخيم أفكاره تلك ، نراه يكتب مسرحية كاليجولا ، ويعبر عن الفضيحة فى عملية الموت والعبث فى السياق الصغير . ويأتى هذا كله على لسان شخصية كاليجولا إثر موت أخته دوروسلا التى كانت عزيزة عليه أثيرة لديه ؟ فالأشياء على نحو ما هى عليه لا ترضى كاليجولا ولا تعجبه ، وتكاد ألا تكون محتملة ، ويقول : إن موت أختى وهى لها لا يعنى شيئاً ، ولكننى اكتشفت حقيقة من ورائه هى التى تضنينى ، فموت أختى لا يعدو أن يكون رمزاً ... رمزاً لموت الناس وتعاستهم .

إن كل ما يحيط بى هو أكذوبة ، أما أنا فأريد أن أعيش على بينة ، على صواب ، وأعتقد أنى أملك الوسائل التى تحول الناس إلى مثل طريق ، فهم محرومون من المعرفة ، وينقصهم المعلم الذى يعرف ماذا يقول ولم يتحدث ..

وهنا — فى كاليجولا — نحس بالخيوط التى تتواصل فى تفكيره ، وبالروابط التى تقرن أفكاره ، ونثبت أصالته ووثوقه من اتجاهه ، ولكننا نصطدم فجأة بموقفه الجبار فى رواية الغريب ... نحس البذور وقد استحالت إلى أشجار باسقة ، نحس التسلسل وقد أصبح تياراً عنيفاً ، نحس الحيرة وقد ارتسمت على وجه ساخر عابث . وألفت نظر القارىء هنا إلى أمور عدة : أولها أن هذه القصة بالإضافة إلى مسرحية « الشيطان فهمه » تمثل فكرة حدوث الأشياء وورود الوقائع على نحو يخالف رغبة الإنسان ، فالحوادث التى تقع هى فى الغالب مكروهة ، ولا تأتى بناء على تصميم ذاتى ... إنما يهيئها ألعوبة فى يد القدر وسهم طائش أطلقه المصير ، وبهذه الصورة ينبغى أن نفهم دور كل من « ميرسوه » بطل قصة الغريب ، وجان بطل مسرحية « الشيطان فهمه » . ولعل الصلة الروحية القوية فيما بين القصتين هى التى دعت ميرسوه إلى ذكر المصير الذى لقيه جان إبان سجنه .

وكذلك نلاحظ أن الغريب تعبر عن روح سجينة وتعطى دائماً معنى الانغلاق وتصور الوقائع بصورة تشعرك أن مؤلف القصة نفسها جانى الأسر ويتألم من الحبسة . ويشترك مع هذه القصة فى الدلالة على ظاهرة الانغلاق قصة (الطاعون) . وأعتقد أن هذا ناتىء عن مرضه هو شخصياً بمرض صدرى يضطره إلى الانطواء على نفسه والانغلاق على روحه والانطلاق بين جدران ذاتيته فحسب . فالحوائط السميكة التى أحاطت ببطل قصة الغريب فى سجنه لا تعدو أن تكون رمزاً للعوائق الرهيبة التى تحرم كامو من الاندفاع بمنة ويسرة ، وتحول بينه وبين الخروج من حدود نفسه ، كذلك يتمثل الانغلاق فى الطاعون الذى ينزل ببلدة « أوران » فيفصلها عن غيرها من البلاد ويجعلها فى عزلة تامة كلها خوف وذعر وألم .

وملاحظة ثالثة هامة بشأن قصة الغريب وهى أنها تدل على تحول ظاهر فى أفكار كامو .. فقد وصف كامو فى كتابه « ليالى الزفاف » مظاهر الطبيعة ، وجنح إلى مشاركة الحياة قواها وأراد أن يجد اللذة فى إحساسه الحيوانى الخالص بين الرمال الحمراء وأمواج البحر الفضية . أما الغريب فهو — كما يقول سارتر — الإنسان أمام العالم ؟ أى هنا شىء آخر سوى العالم ، معارض له ومناهض لقواه ، بل لقد ذهب إلى حد القول بأن الإنسان لم يخلق لهذا العالم ، ونظر بناء على ذلك إلى العلاقة بينهما نظرة ملؤها التشاؤم والقنوط ، واعتبر الإنسان محكوماً ذا طبيعة مغايرة لطبيعة الأشياء من حوله .. فقد ألقى الإنسان بغير مسؤولية ليشهد العبث ويحوم بالثورة ويأمل فى لاشىء ... إنه برىء .. برىء بكل معانى الكلمة ، بل ومنفعل أيضاً إذا شئت . وبهذا نفهم تماماً عنوان قصة كامو ، فالغريب الذى شاء تصويره هو بالضبط واحد من أولئك الأبرياء المتعبين الذين يضحون المجتمع لأنهم لا يقبلون أصول لعبته . إنه يعيش مع الغرباء ، ولكنه غريب أيضاً بالنسبة إليهم ، ولهذا السبب سيحبه البعض مثل خليلته مارى التى تتمسك به لغرابته . وسيكرهه البعض لنفس السبب .. ونحن أنفسنا ، نحن الذين لم نألف بعد الإحساس بالعبث ، نتبع الكتاب ونحاول عبثاً الحكم عليه حسب قواعدنا المعتادة فنجد أنه كذلك غريب بالنسبة إلينا .

ولكن كيف يمكن بعد كل هذا الفقدان الذاتى أن يقيم الإنسان مذهباً فى الأخلاق أو نظاماً للعمل ؟ إن الفكرة

التي كونها كامو في ذهنه عن الإنسان تجعله أضعف من أن تكون لعلاقته بالآخرين فائدة ، وأهون من أن يكون لحياته أسلوب . وأبعد شيء عن التصور هو أن توجد فكرة أخلاقية بين هذا العبث الكامل ، وأن تنشأ أصول نظرية على هذه الأعدام المطلقة ، وأن تبنى أحكام ونظم فوق هذه الفوضى الضاربة . ولكن كامو يفعل هذه المعجزة .. إنه يبنى قصراً على الرمال ، ويعتقد — على الرغم من ذلك — أن هذا القصر من الثبات بمكان . إنها ضرورة تلك التي تلجئنا إلى هذا التصرف ، فنحن لا حول لنا ولا قوة ، موجودون في عالم شاذ بالنسبة إلينا ، بدون معونة من أحد سوانا ، ولا بد أن نعيش مع ذلك .. فما العمل ؟ لابد أن نعترض على مصايرنا وأن نتصرف في العالم بمنطق وذكاء ، وألا نتنازل أو نستسلم مهما كانت الظروف . فإذا تولد عن هذا الشعور نظام في الأخلاق أو فكرة عن أصول العيش ، فلابد من قبولها على الرغم من الفراغ الذي تقوم عليه . إننا لا نملك أفضل من هذا ، أو بمعنى آخر : إنه خلق من لا شيء ، وبنى على أسس من صنعنا نحن ، من صنع الأفراد ، ففيم الاعتراض ؟

ويبقى ملاحظة طبيعة العمل الأدبي عند كامو . فليس هو صاحب المذهب أو الفيلسوف الذي يدافع عن فكرته ، ولا يجوز أن تنظر إليه على أنه واحد من المتهورين على آرائه المطلقة . لا .. لا . لا يخطرن هذا على بالك ، لأنه من صميم أسلوبه وروحه أن يلقى الكلام على عواهنه — شأنه شأن بنيشة الفيلسوف — فهو لا يحاول الإقناع . إنه ليس من أولئك المفكرين المهمومين بأفكارهم ، ولو شاء هو نفسه أن يكون كذلك لما استطاع . لأن عدم الاهتمام أصيل في طبيعته ، ولأن طريقته في الكتابة — ثانياً — تجعلك تشعر أنه لا يعمل عملاً وإنما يعطيك فكرة عن شيء موجود ، قائم ، عن شيء هناك . إني أقف عند هذه النقطة لتوضيحها وجلائها أكثر من ذلك . قلت إن كامو يؤمن بالعبث في العالم وخلو الحياة من دلالة معقولة . فكل عمل داخل نطاق الوجود الأرضي متصف بهذه الصفة ولو كان عملاً أدبياً . ولذلك نجد كامو لا يحاول قط أن يشرح شيئاً ولا يسعى من أجل تبرير فكرة ، ولم يعمل يوماً على إثبات قول من الأقوال التي وردت في كتبه . هذه طبيعته في أعماله الأدبية ، وهي في الوقت نفسه محاذاة لأصل اعتقاده وأسلوب معاشه . فهو — كما يقول سارتر — يحاول الاقتراح فقط ، ولا يشغل نفسه بتحقيق ما يظن هو نفسه أنه لا يقبل التحقيق . إنه لا يعتقد في قرارة نفسه بضرورة العمل الأدبي عند أصحاب المواهب ، كما يحاول الفنانون الآخرون أن يوهمونا ؛ فالقصة التي يؤلفها والرأي الذي يرتئيه كان يمكن ألا يكون ، شأنه شأن هذه القطعة من الحجر أو ذلك الجرى من الماء . هي نوع من الحاضر وهي لحة مجزوءة من حياة ، وهي صفحة من عمر . فتراه يكتب ويعبر وكأن في إمكانه ألا يكتب وألا يعبر .. ولكن الأمر سيان في النهاية . لا فرق عنده بين كتابة المقال وتناول القهوة وتدخين السيجار .

ورجل هذا شأنه من الصعب أن تجهد نفسك في مناقشة آرائه وبحث مؤلفاته .. دعه يتقوَّل ما يقول ، وخذ منه والتفت بعد ذلك أنفاسك من حولك دون أن تبس ببنت شفة . هو في حق عن كل المديح تصدر من فمك ، ولا يحتاج منك إلا أن تتكاتف معه في معركة العدالة لإقامة الصلات البشرية على أساس جديد .

ولكن نعود فنقول : كيف يتم له هذا ؟ من أجل الوصول إلى معرفة تفاصيل المشكلة يحسن أن نقسم تفكيره إلى ثلاث مراحل : مرحلة أولى هي عبارة عن فترة من الحساسية واللاأخلاقية . ومرحلة ثانية نسميها بفترة التفلسف . ومرحلة ثالثة تتم فيها نزعته الأخلاقية .

والخطوط الرئيسية في فترته الأولى هي عبارة عن جنوحه إلى العيش بدون محاولة اختراع أية دلالة في الحياة وبغير إعطاء معنى لهذا الوجود . كذلك نجد عنده معاناة لجانب التهديد الذي يتمثل في معاقبتنا الإنسانية على صورة موت مفاجئ أو يأس قاطع أو تلاش حاسم . ويقول : إني أعرف أنه ليس ثمة أي حظ سماوي أو حياة طوباوية ولا وجود للأبدية في حدود نطاق آخر سوى هذا النطاق المضروب حول حياتنا اليومية ؛ فهذه الأشياء المحيطة بي وتلك الحقائق الملموسة لدى تحركني وحدها . أما أصحابنا المثاليون فلا أظن أنني أملك القدرة على فهمهم . وليس معنى هذا أننا أغبياء بالضرورة ؛ ولكني مع هذا لا أجد معنى للذة الخلود وسعادة الأبد .

ويأخذ كامو المثل من أسطورة سيزيف .. ذلك العبد الذي لم يمكنه أن يكف لحظة عن عبوديته . فهو يدفع الحجر الثقيل إلى قرب القمة في أعلى الجبل ثم يسقط منه ويتدحرج

إلى أسفل الجبل فيدفعه ثانية أمامه ليعود فيهوى من جديد .. وهكذا !! وماذا نفعل نحن أكثر من هذا ؟ نستيقظ ونتناول القهوة ونقفز إلى الترام ونمكث في العمل عدة ساعات نتناول الطعام بعدها وننام ، ونعود فنكرر هذا الأسلوب الرتيب أيام الأسبوع متوالية .. فباستمرار ندور كالثور الذى يحرك الساقية أو كسيزيف الذى يدفع الحجر ، ولا نكف من بذل الجهد ونمضى بغير توقف ، ونحقق وجودنا بالخضوع لهذا المصير الماحل ، الخالى من المعقولية . فما من شيء يمكن تفسيره ، وما من شيء يمكن التأكد منه سوى الموت .. وهنا ينهض الإنسان ليثير الشكوك ويطلق الأسئلة فيجد نفسه محاطاً بجدران اللامعقولية والعبث ، مأسوراً بأغلال التفاهة والعدم .

وفي هذه اللحظة يتجه تفكيره نحو التفلسف ويتطلع إلى التفسير ويأخذ في سرد الآراء . فهاهنا نقطة تحول تبدأ عندها المرحلة الثانية . وهي — كما سميناها — فترة التفلسف . لقد تكشف العبث من حولنا وأصبح حقيقة ثابتة ، وصار من الضروري أن يبدأ التفكير الفلسفي عنده من هناك . فأية حركة نحو البناء الفكري لابد أن تنشأ حول هذا المحور العالم العبث ، وتنبني على هذا الأساس المادي الأثر .

فكل إنسان في رأيه هو سيزيف .. إننا ندحرج الحجر أمامنا مع علمنا بأنه سيعود إلى أسفل الجبل من جديد . ولكننا نعلم أيضاً أن قيمتنا كبشر تتركز في استنفاد قوانا على مصطبة العدم . فسيزيف هو الأستاذ الكبير عند كامو — كما كان زرادشت عند نيتشه — وهو الذى شبع الإنسانية بروح الإخلاص وعلمها كيف تهبط بالآلهة لترتفع بالأحجار . كل شيء على ما يرام في نظره ، والعالم لا يتصف بخير أو بشر — ويكفى لإرواء التعطش في قلوب الأفراد أن يجهدوا أنفسهم في حركة التصعيد نحو القمم . ونقطة البدء دائماً هي الاعتراف بأن سيزيف سعيد .. سعيد بوعيه وقبوله لأحواله وتفانيه من أجل محنة الإنسان وتضحيته في عالم بغير تأييد ولا رعاية .

وهنا نجد أنفسنا بإزاء لمحات من فلسفات قديمة ترد في غضون أقواله وتسرى بين السطور في أقاصيصه . إذ نجد منه قبولاً لوجوده المهدد بالفناء ، ونجد فيه استشعاراً بالفرحة نتيجة لهذه المحدودية في المعاش الإنسانى .. إنه يستمد فرحه المباشر من وجوده ويلتمس رضاه الشخصى في حياة السالكة سبيل العدم . ومأساة المصير لا تأتى إلا من فناء هذا الجسد ؟ مع أنه ، وحده ، عنصر الخير في هذا العالم . وليس أمامنا إلا أن نستنفد قوى الجسوم وأن ننتهب لذات الحس وأن نوسع من نطاق تجاربنا الممكنة .

ولكننا في الحقيقة مضطرون إلى أن نفرق بينه وبين الرواقية ؛ فأصحاب المذهب الأخير لا يطلقون اسم العبث على ما يعجزون عن فهمه ويعتقدون بوجود مبدأ خفى للكون وسر مكنون للحياة . كذلك يستسلم الرواقى للمصير ويحاول إدماج إرادته في ناموس الكون ونظام العالم ، ويجعل رغباته تحت تصرف القدر . ويحاول الرواقى فضلاً عن هذا احتقار شهواته وتحدى ميوله .. بخلاف ما يتصف به الإنسان الواقف على العبث من نصرة عواطفه وتحمسه للانطلاق والتحرر . وهكذا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نتلمس عناصر الرواقية في تفكيره بحذر .

وشهد كامو الحرب الأخيرة ولمس بنفسه آلام البشرية ، وعانى من قريب مشكلات الإنسان الحائر بين أطماعه ومصالح الآخرين . فنجد نفسه وقد بدأت تتبلور وروحه وقد أخذت تتشكل بصورة أخلاقية جديدة . وتكون هذه هي المرحلة الثالثة والأخيرة ، مرحلة التفكير الأخلاقى . والواقع أنه مادام العبث هو ماهية الوجود ، ومادامت اللامعقولية هي نسيج الحياة ، فلابد أن يكون الإحساس بالتفاهة ، والفرحة المغمورة بنشوة العيش المجهول ، والعاطفة المشوبة بالرغبة في العمل الخالى من هدف ، مصدر الوحى الأصيل في أسلوبه الأخلاقى .

قد يرى البعض في هذا تناقضاً وسخفاً .. ولكن ما أحب هذا التناقض وذلك السخف إليه ! فالسياق على هذا النحو هو وحده الذى سيعطى لكل تصرف وزنه الإنسانى وقيمته الفردية . ويكفى أن تكون ذا نظرة عقلية نحو الحياة لتقيم أخلاقاً ؛ ولاشك أن كامو يملك هذه النظرة . وأولئك الذين يرون في الأمر خطورة إنما يتولد عندهم هذا الشعور من تعرفهم للأخلاق .. فلها في نظرهم صورة تقليدية متعلقة بالأحكام الفاضلة ، ومتخومة بالقواعد والأصول الذوقية .. مع أننا لو تساءلنا ببساطة : ماذا تكون الأخلاق ؟ لوجدناها لا تعدو أن تكون اختياراً لموقف بالذات من أجل توطيد المصير الفردى . وأخلاق كامو تبدأ من الفرد ، ولكنها تمضى في سياقها حتى تأخذ في النهاية شكلاً جمعياً .

مع الفكر الأوربي المعاصر

١ — قصة من قصص بيرل بك في حياتها الخاصة

بقلم الكاتبة إلفريدا فيوت

قبل أن نتحدث عن هذا الكتاب نذكر كلمة موجزة عن السيدة « بيرل بك » فنقول : هي روائية أمريكية ولدت عام ١٨٩٢ وألفت قصصاً كثيرة منها « قصة الأرض الطيبة » وقصة « الأبناء » وقصة « الأم » .

وقد منحت جائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٨ .

وقصة « الأم » (وقد كنت نقلت منها فصلين نشرتهما « الثقافة » منذ أربع سنوات) هي قصة كل أم ، في كل عصر من العصور ، وفي كل بلد من البلاد ، وإن كانت الكاتبة قد خصت بها الأم في الصين .

وفي الكتاب الذي نحن بصدده اليوم تتحدث الكاتبة عن كتيب صغير للسيدة « بيرل بك » سمته : « الطفل الذي لاينمو جسمه أبداً » فتقول : إن من يظن أن هذا الكتاب لم يعد إلا حاجة آباء الأطفال الناقصي الخلقة ومعلميهم يكون مخطئاً . فالناس كلهم في حاجة إليه ، سواء من كان منهم يحس الإشفاق — ولا شيء غير الإشفاق — على أولئك الأطفال البائسين ، ومن كان منهم لايستطيع الجهر بالقول لمن كان له طفل لاينمو نمواً طبيعياً ، ومن كان منهم يومئ إيماءة خفيفة ، ويشير من طرف خفي إلى القضاء بالموت — في غير ألم — على أولئك الذين لايرجى شفاؤهم ، ومن كان منهم لايبالي بما عليه المعاهد التي تعنى بمثل أولئك الأطفال من عدم الكفاية والنقص .

كل أولئك هم في حاجة إلى هذا الكتاب ، بل هم قد كانوا في حاجة إليه منذ سنين .

ولم يكن يستطيع تأليف مثل هذا الكتاب الذي يحسب تحفة أدبية غير السيدة « بيرل بك » في صبرها وقوة احتمالها ، فهو كتاب يمس موضوعه شغاف القلب .

وهي فيه تواجه مشكلة قول الصدق في صراحة عجيبة ، وذلك بتدوينها المراحل البطيئة التي جعلتها تستيقن أن النقص العقلي عند طفلتها غير قابل للشفاء . وهي تقول : إن إحجام الأصدقاء والأطباء عن مواجهتها بالحقائق ، على ما بها من ألم الصدمة ، كان له عندها أسوأ الأثر .

وهي تقول في فصل من فصوله : بينما كنت أراقب طفلتي وهي تلعب ، وقد أخذني حزن تتقبض منه الجوانح ، خطر ببالي أن هذه الطفلة قد تقضي حياتها في هذه الدنيا كما تقضي الملائكة حياتهم في ملكوت السماء ، وأن متاعب

ويتم هذا بطريقة واضحة وعلى نمط معين بمجرد اتفاق الناس على مواجهة العالم ومحاربة الشر ومقاومة العبث . فنحن أعداء العالم ، وتأخذ عداوتنا مظهر المعارضة والإنكار ؛ واجتماعنا حول هذا الشعور واتفاقنا حول ذلك الاعتقاد ، ترتسم على أعمالنا معالم التجمهر وتتشرب حركتنا بروح التعاون ، ويتنحى الفرد لتبدأ الجماعة . وهكذا تصير رغبة الإنسان رغبة إنسانية .. ففي أول الأمر وضع الفرد لنفسه قيماً خاصة ملبئة بالغرور والإيمان بالعبث . ثم أخذ الأفراد بنفس الفكر وعلى هذا الأساس عينه في صراع جمعي إزاء العبث الكوني ، فوضعوا قيماً مشتركة عبارة عن العدالة واحترام الفكر وتقدير المشاعر والتحالف على شكل صداقة إنسانية . وهكذا تتأسس الأخلاق بإيعاز من الصراع الأخوي ضد قوى الطبيعة .

بل هكذا يشترك كامو في الصراع السياسي وينازل الشر والتعاسة محلياً ثم يمضي بين الناس كإنسان متميز بإرادة الخير . وهنا يولد الدكتور ريه في قصة الطاعون ، فالسعادة ينبغي أن تكون هدفاً لكل حيوية إنسانية ، ولابد على الدوام من نشدان الخير . وليس هناك مثل أوضح من الدكتور ريه في التعبير عن الثورة التي تهب إعلاناً عن ضمير الإنسان وهو بصدد معاناته من جراء وضعه مع الآخرين .

عبد الفتاح الديدى

الحياة لن تعرف الطريق إليها . فهي لن تعرف أنها تختلف من سائر الأطفال ، وهي سوف تستمتع بمباهج الحياة وبراءة الطفولة إلى أن تفارق هذا العالم . وإن قصاراي أن أضمن لها السلامة وأن أيسر لها الطعام والمأوى ، وأن أضفي عليها ثوباً من الحنان والعطف ...

والعبء في مثل هذه الحالات إنما ينوء به الآباء لا الأطفال . فبشاشات الحياة قد فاضت عندي كما فاض كل أمل في أن أظفر بأمومتي لهذه البنت ، وبهذا انقطع حبل التواصل بيننا .

وتمامي العاقل في مثل هذه الحالة لابد يخطر بالبال أن الموت يبدو أرحم بالمريض ، ولكن ما ذنب هؤلاء الأطفال الأبرياء الذين تمسك أيدينا بأعنة حياتهم .

وكلمة « الموت في غير أمل » لفظ جميل ، ولكنه لفظ له معنى بشع كريه .

و « پرل بك » يوم أيقنت بضرورة التسليم بالأمر الواقع لم يكن كفاحها قد بلغ غايته . فقد كانت هي في ذلك الحين تعيش في الصين ، والمثل الأعلى في حياة الأسرة الصينية هو أن يعيش الأجداد والآباء والأبناء والحفدة تحت سقف واحد ، وهم لهذا لايرون غضاضة في أن يكون بينهم أفراد متأخرون عقلياً وجسمانياً ، وأن يكون بينهم كذلك أيتام ومشوهون ، وهم يوقنون أنهم محاسبون عن العناية بأمثال هؤلاء ، وهم لذلك لا يخطر ببالهم نظام العلاج في الملاجئ والمعاهد ، بل هم يكرهون هذا النظام .

والغربيون بما استقر في أذهانهم من فهم لسعادة المجتمع والتنظيم الخاص ، يميلون إلى النظر إلى وحدة الأسرة كأنها جزء من مجتمع أكبر .

وهم لذلك يرحبون بفكرة المسئولية المشتركة أو المسئولية الجماعية ، وهم يرون أن إبقاء طفل مريض وحيداً في البيت قد يسبب له صدمة يكون لها أسوأ الأثر على سلامته إذا غادر أهله ذلك البيت .

وهي تستطرد فتقول : لقد عقدت العزم على أن أحيط ابنتي بجو من الهناءة والسعادة . ورضيت بأن أقبلها على علاتها . لا أرجو منها شيئاً . ورضيت بأن أجدي الامتنان إذا برق في ظلام عقلها بارق من أمل . كما عقدت العزم على أن أسكنها في أي مكان يمكن أن يكون فيه إسعادها ، وقد كفلتها حتى بلغت التاسعة من عمرها . ثم طفقت أبحث لها عن مكان أمين تقضي فيه حياتها . وكان البحث مضنياً وعسيراً . وقد أجادت « پرل بك » الإجادة كلها في وصف هذا العسر ، إذ كان همها ووكدها أن تضمن لابنتها الهناءة والرفاهية . ومن قولها في هذا :

إن الأطفال الذين لا تنمو أجسامهم أبداً إنما هم كائنات آدمية . وهم لذلك يتألمون كما تتألم المخلوقات الآدمية غير المشوهة . ولكنه ألم مكبوت لا يستطيعون أن يفصحوا عنه أو أن ينطقوا به جملاً وألفاظاً . أو أن تجرى به أقلامهم سطوراً وكلمات . ولكنه — على أية حال — ألم عميق ممض .

وأولئك الناس هم في كل حالاتهم أرقى من البهائم ، على الرغم من أنهم فقدوا عقولهم ، وعجزوا عن التعبير عما يؤلمهم أو يقض مضاجعهم ، وهذه النظرية يجب ألا تغيب عن الأذهان أبداً .

وهم مهما انحطت مداركهم فإن المادة المكونة لإنسانيتهم مازالت باقية . وهم على هذا يحسبون في عداد أفراد الأسرة الإنسانية .

وبعد لأي استطاعت « پرل بك » أن تهيء لابنتها مستقرين هادئين وحرمين آمنين . وكان أحدهما لإقامتها الدائمة . وكان الآخر للزيارة القصيرة والإلمامة الخاطفة . وكانت في كليهما سعيدة . ذلك لأن البيئتين تصل بينهما دعامتان هما الأمن في ناحية ، وحب الأم في الناحية الأخرى ، والحب هو الأصل في تلك السعادة ، ذلك لأن الطفل الذي لايزار ولا يُحَبُّ هو الطفل الذي فقد الطمأنينة كلها . ولكي تتم على هذه البنت نعمة السعادة كان لابد من أن تبذل التضحيات الغالية من جانب الأم . وكان يقابل هذه التضحيات عطاء غير ممنون من جانب البنت . وفي هذا تقول « پرل بك » : إني أقرر شاكرة ممتنة أن ابنتي قد علمتني أشياء وأشياء . فمنها تعلمت احترام وتوقير كل حياة آدمية . ومنها تعلمت أن كل الناس في إنسانيتهم سواء في الحقوق ، وأن ليس أحد منهم أقل من غيره درجة في الآدمية ، وأن لكل منهم الحق في أن يكون آمناً في سربه .

وكذلك تعلمت منها أن هناك صفات من صفات الخير لا علاقة لها بالعقل . وأن مما يلفت النظر أن هذه الصفات تكثر عند من حرموا نعمة العقل . وهذه الصفات لازمة

اليوم لطفلنا الذي نعيش فيه أكثر من الصفات التي تمتّ إلى الطفل بالصلات .

وكتاب « الطفل الذي لا ينمو جسمه أبداً » كتاب قصد به التحدي . فهو تحد الفرد ، وهو تحد المجتمع ، وهو نداء للمجتمع بدعوة للبحث في أسباب نقص العقل . وشعاره : « إن ما قد كان ، ليس من اللازم أن يبقى إلى الأبد » .

و « بيرل بك » هي أم أمريكية . وهناك أم إنجليزية أحست كما أحست « بيرل بك » بأن من واجبها أن تواجه هذه المشكلة من أجل نفسها . ومن أجل الأمهات الأخريات . تلك الأم الإنجليزية هي « مارجوري شيف » التي كتبت كتاباً عاجلاً سمته : قصة « طفل متأخر » . وصفت فيه وصفاً واضحاً موجزاً تجاربها في « تربية طفل به نقص خلقي بين أحضان أسرة عادية » . وهي تجارب إن هي أسعدت أسرة الطفل مرة فقد أسعدت الطفل سبعين مرة .

وهذا الكتاب أو هذه الرسالة التي تفيض جنباتها بالحس المشترك وبالمعلومات النافعة ، يوحي بأن من الخير للناس كلهم أن يحاطوا خبراً بهذه المشكلات ، مشكلات الأطفال الناقصين .

وتقول السيدة « بيرل بك » في ختام كتابها :

على الرغم من أن هناك قلة من الناس دأبها التدخل فيما لا يعنيها بقصد التجسس والتعيير . وعلى الرغم من أن هناك بعض الناس الذين لا هم لهم إلا الفرح لحزن الآخرين . فإن هناك آلافاً من أهل الحنان والخير . وهذا ما يملؤني ثقة بأن القلب الإنساني لا يزال يفيض بالخير . وأن هـذا الخير يجد له مكاناً في قلوب أفراد من كل طبقة من طبقات الناس . وأن هذا الخير منتشر في هذه الدنيا على الرغم من ألوان الخبث وضروب الفساد .

وطبيعة الخير هذه هي وحدها التي تبعث في دنيا الناس أملاً يحبب إلى الناس الحياة ..

٢ — الناجون من القنـــبلة الذرية
أو « نحن أهل مدينة نجازاكي »

كتاب من تأليف طبيب من أهل تلك المدينة اسمه

ناكاشي ناجاي

« مدينة ناجازاكي » هي من مدن البحر اليابانية التي يعرف العالم الغربي اسمها منذ زمان طويل أكثر من أية مدينة سواها من مدن اليابان ؛ فهي منذ أكثر من أربعة قرون أكبر مركز للديانة المسيحية في اليابان . وقد ظلت منذ ذلك الحين حرماً آمناً لعشاق المذهب الروماني الكاثوليكي ، على الرغم مما نال المسيحيين فيها من نكال وتعذيب بلغا غايتهما عام ١٦٣٧ — ١٦٣٨ حيث قتل من المسيحيين أُلوف مؤلفة .

وهي كذلك معروفة بأنها مركز من مراكز التجارة الهولندية . وإن كثيراً من الذين سافروا إليها في العصور الحديثة لا بدّ ذاكرون تلك الطريقة البدائية التي كانت تمون بها السفن من الفحم على أيدي الشيالين وهم يروحون ويجيئون بالقفف والجواليق .

وهي وإن كانت قد غشيتها غاشية من ظلال النسيان على أثر صعود نجم المدينتين « كوبي » و « يوكوهاما » فإن اسمها بما له من أنغام متغنية في آذان الغربيين قد ظلّ له رنينه ، وبقيت له حلاوته .

واسم « نجازاكي » المحبب إلى كل أذن قد كسب شهرة جديدة منذ ألقيت عليها القنبلة الذرية الثانية ، ولكنها شهرة لم تبلغ الشهرة التي بلغتها « هيروشيما » التي لم تكن معروفة لجمهرة الناس من الغربيين قبل اليوم السادس من أغسطس عام ١٩٤٥ . وقصة « ناجازاكي » وهي القصة التي يمكن أن تسمى « قصة عذاب يوم الحساب » . تروى اليوم لأول مرة .

ومؤلف هذا الكتاب . كتاب « نحن أهل مدينة نجازاكي » مات وهو في الثالثة والأربعين من عمره متأثراً بما كان قد أصابه يومذاك من أثر الإشعاع الذري .

وقد كان هو في عام ١٩٢٨ طالباً من طلبة الطب ، ثم خدم في الفرقة الطبية قبل أن يشتغل بالعمل بكلية « ناجازاكي » الطبية عام ١٩٤٠ .

وقد ألف كتابه هذا باليابانية لكي يترجم إلى الإنجليزية وينشر بين الناطقين بها ، وهو إلى اليوم لم ينشر باللغة اليابانية .

والمؤلف يقص في كتابه قصة ثمانية من أقاربه وأصحابه عن شاهدوا أهوال الفاجعة ، وكلهم مسيحيون ، وقد قيد كلامهم كما نطقوا بها .

أما زوجة « الدكتور نجاى » فقــد قتلت لساعتها ، ولكن اثنين من القصاص هما ابناها « كايانو نجاى » و « ما كوتو نجاى » وكان عمر البنت يوم الكارثة أربع سنوات . وكان عمر الولد عشراً .

وقصص الرعب والفزع التى يرويها الرواة هى مما يجعل الولدان شيبا ، وهى مما تذهل كل مرضعة عما أرضعت . فعظام الهالكين من الأهل والولد قد حالت من نورها رماداً ، والأجنة قد هلكت فى بطون أمهاتها .

وفيما يلى ثلاث فقرات مأخوذة مما أدلى به أولئك الناجون من هول الكارثة التى وقعت فى اليوم التاسع من أغسطس عام ١٩٤٥ :

١ — وعلى حين غفلة بدت فى الأفق شعلة كبرى كأنها البرق الخاطف ، ثم إذا بشىء أحمر ممتد الرقعة قد بدا وكأنه شجرة قد اجتثت من أصلها فطارت فى السماء ، وكأن تلك الشجرة قد صنعت من نار ولهب ، وكأن أعلى تلك الشجرة قد أخذت فتحاتها تتسع ثم تتسع حتى لكأن الشجرة كائن من الكائنات الحية (من كلام ابنة الدكتور البالغ عمرها أربع سنوات) .

٢ — وقد بدأت ألاقى كثيراً من الناس الذين أصابتهم الجروح ، وكانوا كلهم عراة إلا من أحزمة من جلد تمنطقوا بها ، وكانوا يقومون ويتعثرون ، ثم يقومون ويتعثرون ، كأن بهم مساً ، وكانوا يبكون بكاء الهائمين غير مبالين بما هم فيــه من عرى فاضح ، أما وجوههم ورقابهم وأيديهم فقد امتلأت بثوراً .

وقد رأيت جلود بعضهم وقد قشرت تقشيراً ، وقد تدلت ، وقد غشاها غلاف من التراب (من كلام السيدة نجاى ابنة عم الدكتور نجاى وعمرها ٣٧ سنة) .

٣ — وقد عثرنا بامرأة شابة ملقاة فى الطريق هى وطفلاها ، وكأن وجهها استحال بثرة واحدة قد ورمت وانتفخت ...

أما جسمها فقد بدا بثوراً ، وقد فقدت شعر رأسها ، وكأن النار قد شيطته ، وقد فقدت بصرها ، ولكن بقيت لها حاسة السمع ، فلما أحست بنا قالت لنا فى صوت خافت : رجائى إليكم أن تأخذوا الأطفال معكم ! ولكن الأطفال كانوا فى حالة أسوأ من حالة أمهم ، وقد رأيتهم خاشعة أبصارهم ، يعانون سكرات الموت ، وكان الأمر أمر من الذى سيدركه الموت أولاً : الأطفال أم الأم ؟ (من كلام سيدة أخرى من قريبات الدكتور « نجاى ») .

أما الفصل الأخير من الكتاب فقد كتبه الدكتور « نجاى » ، وفيه يقول : لست أدرى ماذا يكون جزائى عند أولادى ، وقد ظللت أعمل فى فرقة الإسعاف يومين كاملين بدلاً من ذهابى إلى البيت حيث كانت أمهم ترقد رقدة الموت ...

وهو يقول فى آخر صفحة من كتابه : إن الذى يحز فى النفس هو ذلك « الخراب الروحى » الذى لن يحس به أو يراه أولئك الزائرون لخرائب « ناجازاكى » ، وذلك « الخراب الروحى » هو الذى تعجز عنه حقاً يد الإصلاح .

هذا وإن القارىء لهذا الكتاب الذى وصف ما حل بالمؤلف من مصائب وكوارث ، لن يجد فيه كلمة لوم توجه إلى الذين ألقوا القنبلة الذرية ، فهل هــذا أثر من آثار ما جبل عليه اليابانيون من التزام الكتمان والكبت ؟

ويقابل الصمت فى هــذه الناحية صمتهم عن الاعتراف بالجميل لشروط الصلح السخية ... فهل كان حقاً عليهم أن يشكروا ؟ وهــل كان حقاً عليهم أن ينسوا الخسارة التى لحقت بهم بفقدانهم لفرموزا وكوريا ، وجزائر كوريلز ، (وهى مجموعة جزائر صغيرة تبلغ عدتها ٤٧ جزيرة) ؟ ...

مبارك ابراهيم

التقدم الاقتصادى للدول المتخلفة

للدكتور حسن محمد حسين

من بين المطبوعات الحديثة لهيئة الأمم المتحدة تقرير وضعته نخبة من صفوة رجال الفكر الاقتصادى العالميين عن « وسائل التنشئة الاقتصادية للدول المتخلفة » . وهو تقرير يجدر بكل من تهمه هذه المسائل أن يطلع عليه . ولفائدة من لا تمكنه ظروفه من هذا الاطلاع ننقل هنا بعض فقرات منه .

— لن يحدث التقدم الاقتصادى إلا إذا وجد الجو الملائم له . فلا بد من وجود الرغبة أولاً لدى أهل الدولة أنفسهم للتقدم . كما يجب أن تكون مؤسساتهم الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية والسياسية ملائمة له .

لن تتولد الرغبة فى التقدم الاقتصادى فى مجتمع لا يعتقد أفراده فى إمكان هذا التقدم . فإن التقدم لا يحدث إلا حيث يعتقد الناس أن الإنسان بوسعه أن يسيطر على الطبيعة بالسعى المتعمد . وقد استغرق العقل البشرى وقتاً طويلاً فى تعلم هذا الدرس . ولكن الناس أينما تعلموه يصبحون تجريبيين فى موقفهم من الأساليب المادية ، والمؤسسات الاجتماعية ، وما إليها . وهذا التكيف التجريبى أو العلمى هو أحد الشروط اللازم توافرها لحدوث التقدم . ويحدث التقدم فى أعظم صوره فى الدول التى يكون فيها التعليم منتشراً ومشجعاً للطريقة التجريبية .

— التقدم الاقتصادى السريع مستحيل بدون إجراء تعديلات مؤلمة . فلا بد من التحرر من الآراء الفلسفية العتيقة ، وحل المؤسسات الاجتماعية القديمة ، وهدم حواجز الطوائف والمذاهب والأجناس . وسوف يصطدم عدد كبير من الناس الذين لا يمكنهم مسايرة التقدم بعدم تحقق آمالهم فى حياة مريحة . وقليل جداً من المجتمعات تكون عندها الرغبة فى دفع ثمن التقدم الاقتصادى السريع كاملاً .

— فى رأينا أن هناك عدداً من الدول المتخلفة حيث يعمل تركيز السلطة الاقتصادية والسياسية فى أيدى طبقة صغيرة — كل همها المحافظة على ثروتها وحقوقها — على تحطيم كل أمل فى تقدم اقتصادى ، إلا بقيام ثورة اجتماعية تؤدى إلى تعديل توزيع الدخل والسلطة .

— لا يمكن أن يحدث تقدم اقتصادى إلا إذا كان جميع قادة الدولة من سياسيين ، ومعلمين ، ومهندسين ، وقادة أعمال ، وزعماء نقابات عمال ، ورجال دين ، وصحفيين ، راغبين فى التقدم الاقتصادى للدولة ومستعدين لدفع الثمن ، ألا وهو خلق مجتمع تنعدم فيه الامتيازات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . ومتى توفرت القيادة الصالحة والرغبة العامة فى التقدم ، فإن جميع مشاكل التقدم الاقتصادى تخضع للحل . فما لا شك فيه أن الشعوب تتأثر بطبيعة الحكم . فإذا كان القادة رجعيين أنانيين فاسدين كانت الشعوب بدورها خائرة العزم ، عاجزة عن الابتداع . أما إذا اكتسب القادة ثقة الدولة وأثبتوا أنهم جادون فى استئصال غائلة الامتيازات والفروق البينة ، فإنه يمكنهم بلا شك أن يبثوا فى الشعب روح التحمس الجارف للتقدم .

— المشاريع الخاصة سوف لا تؤتى أفضل ثمارها إلا إذا كان النظام التشريعى والاجتماعى يضمن للقائم بالعمل الحصول على ثمرة جهده . وأهم مجالات هذه المشاريع الخاصة التى لا تلق العناية الكافية فى الدول المتخلفة التعاقد بين المزارع والمالك . إذ ينبغى أن تكون تشريعات الإيجارات بحيث تحمى المستأجر من الاضطرابات الاستبدادية وتضمن له استمرار علاقات هادئة طالما يجيد زراعة الأرض . كما يجب أن تكفل له هذه التشريعات تعويضات عند نهاية مدة الإيجار عن كل تحسينات أدخلها ولم تستهلك بعد .

— فى كثير من الأحوال يستدعى الأمر إصلاحاً أعمق أساساً من تشريعات حماية المستأجرين . ففى كثير من البلاد المتخلفة نجد القائم بزراعة الأرض موضع استغلال فاحش من طبقة الملاك الذين لا يقومون بأى عمل اجتماعى مفيد . هذه الطبقة تسعى إلى الحصول على أكبر قسط من الزيادة فى الإنتاج الزراعى ، فهى بمثابة حجر الرحى فى عنق المستأجرين

تعوقهم من ناحية عن إدخال أى تحسينات على الزراعة ، ومن الناحية الأخرى تمتص كل دخلهم ، فلا يبقى لهم منه ما يكفى لادخار مبلغ يمكنهم استثماره فى الأرض . فى مثل هذه الدول يستلزم التقدم الزراعى التخلص من هذه الطبقة من الملاك . وليست هذه هى الخطوة الوحيدة اللازمة ، بل يجب أيضاً تنظيم العمل ، وإعادة النظر فى حجم الوحدة الزراعية ، وما إلى ذلك . ولكنها على أى حال أول خطوة لازمة لإطلاق الطاقة الإنتاجية للشعب من عقالها .

— يجب أن نعترف بأن هناك عقبات قوية فى سبيل أى تقدم فنى عام فى الدول المتخلفة . فإن تفهم الطرق الفنية الحديثة بهذه الدول عملية صعبة باهظة التكاليف . وحتى فى حالة التحسينات الزراعية البسيطة السابقة الإشارة إليها نجد الأمر يستدعى وجود إدارة منظمة فى الهيئات الزراعية الحكومية تحتوى على الكفاية من الخبراء والفنيين وتستطيع توسعة نطاق خدماتها بحيث تصل إلى الفلاحين وتقوم بتعليمهم . وعلى العموم لابد من الوصول إلى مستوى أساسى معين للتعليم ومحو الأمية بين المنتجين أنفسهم لكى نضمن تقدماً واسعاً فى الناحية الفنية . وهذا يستلزم نشر التعليم فى جميع مراحله ، مما يستدعى إنشاء معاهد التعليم التى بدونها لا يمكن نشر التعليم والمحافظة على المستوى اللازم له . فكأن أولى الصعوبات العظمى فى سبيل التقدم الفنى فى الدول المتخلفة هو عدم وجود دعامة تعليمية وإدارية تهيء للمنتجين الفرصة كى يتعلموا الأساليب الفنية الحديثة .

— يجب أن تبدأ خطة التقدم الاقتصادى بتوسيع اختصاص المعاهد المحلية لتقوم بتدريب المستخدمين المطلوبين من جميع المستويات . فإن التدريب المحلى فى نفس البيئة التى سيمارس الناس فيها عملهم له مزايا واضحة بجانب توفير تكاليف الفنيين الأجانب الباهظة لتدريبهم . إذ لا يمكن للتقدم المفروض من السلطات العليا أو المستورد من الخارج أن يتخذ صفة الدوام أو النمو الذاتى . فالتعليم الحديث والأساليب الفنية الجديدة لا يمكن أن تؤتى خير ثمارها إلا إذا هضمت جيداً وبدأت تنمو على أساس من التقاليد الوطنية .

— وتدريب الفنيين بسيط نسبياً ، والأصعب منه هو تدريب الهيئة الإدارية ، لأن الصفات اللازمة للإدارة الناجحة من الصعب اكتسابها فى أى معهد تدريبى ، بل لابد من تعلمها فى العمل نفسه . وهذه هى إحدى النواحى التى يتفوق فيها الأسلوب الديمقراطى فى الحياة على كل ما عداه كشرط للتقدم الاقتصادى . إذ المرء يتعلم الإدارة بالمساهمة فيها . وعلى ذلك فإن التعلم يكون أسرع فى الدول التى تنتشر فيها المعاهد ذات الحكم الذاتى ، بما فى ذلك الهيئات الحاكمة المركزية والمحلية حتى إلى مستوى المجالس القروية ، والحركات التعاونية ، والنقابات العمالية ، والجماعات الحكومية أو الحرة العديدة الأخرى التى يميل الناس الأحرار إلى التكتل فيها . وعلى النقيض من ذلك نجد أن تعلم فن الإدارة مقصور على فئة محظوظة فقط فى المستعمرات وفى الدول الأخرى التى تستبعد فيها أغلبية الشعب عن المشاركة فى الحكم كإداريين أو سياسيين ، أو من الاشتراك فى إدارة مشاريع خاصة . وهذا الإقصاء عن المشاركة يفسر أحياناً بأنه لرعاية الصالح المزعومة للشعب نفسه الذى يجب — على حد قولهم — أن يتعلم أولاً فنون الإدارة قبل أن يؤتمن على القيام بها فعلاً . هذا المنطق فى رأينا خاطئ ، إذ أنه ليست هناك وسيلة لتعلم الإدارة إلا بممارستها .

حسن محمد صبحى

فى موكب الشمس

— ٢ —

للأستاذ محمد توحيد السلحدار

أمانته على المذهب العلمى :

إن هذا المؤلف الجاد أمين على المذهب العلمى الفنى الحديث ، ومصداق أمانته كتابه هذا من أوله إلى آخره . ويكفى التنبيه إلى بعض المواضع الدالة على ذلك :

بيّن أغلاط هيرودوت وغيره (جـ ١ الصفحات ٤٠ — ٥١ — ٤٥٥ ثم قال : « ليس من الخير أن نصد عن كتب هؤلاء بسبب ما جاء فيها من أغلاط ومن تشويه . وإنما الخير فى أن ننظر فيها ونقارن ما ورد بها بما نجده على الآثار المصرية من رسوم تصور لنا الحياة المصرية كلها » وقد فعل وجاء بالصحيح .

التحليل والنظر والاستنتاج (فى صفحتى ١٤ و ١٥ والصفحات ٨٩ و ٩١ وما بعدها — قصة سنوهى والاستنتاج التاريخى جـ ٢) .

المقابلات بين الحاضر والماضى (جـ ٢ الصفحة ق)

المقارنات بين الشخصيات التاريخية (جـ ٢ الصفحة ٩٨)

بسط الحقائق فى معرض الصور البشرية (جـ ٢ الصفحات م ، س ، ع ، و ، ش ، ت ، ث ، ا ، ب من المقدمة) .

التوجيه عن طريق التاريخ (جـ ٢ الصفحات ك ، ل ثم ص ٥ — ٩ ثم ص ٣٧ ، ثم ن ، ف ، ق ، خ ، ذ ، ثم ص ٦٢٨ ثم ظ) .

مجد مصر الحربى (جـ ٢ ص ٦٢٨ وما بعدها) .

الفن فى عهد الرعامسة (جـ ٢ ص ٩١٥ وما بعدها) .

التحرر العقلى وأثره فى الحياة الفنية والأدبية (ص ٩٢٥ وما بعدها) .

أخناتون (جـ ٢ ص ٥٦٨ — ٦١٢) .

فائدة النظر فى التاريخ القديم (جـ ٢ ص ٤٤٦ وما بعدها)

يقول المؤلف : « حرى أن يكون المؤرخ شديد الشك ، سيء الظن فى كل ما يتناول من قضايا التاريخ » . ويقول علماء التاريخ إنه معرفة الحوادث الماضية ، وإن معرفتها ليست ممكنة إلا بضرب من الملاحظة وهو النظر فى مصادر التاريخ ومراجعه . وأول واجب المؤرخ هو تقدير قيمة هذه المصادر والمراجع . وهنا يحتم عليه أن يسأل نفسه : هل يخدعنا الشاهد ؟ وهل هو مخدوع ؟ وهل هو خادع ومخدوع فى آن ؟ والنقد التاريخى هو إحصاء جميع الأسباب التى قد يشك فى أنها لم تشب صحة الشهادة ، ثم بحثها جيداً واحداً فواحداً ؛ فإذا ثبت أنه لم يكن هنالك من سبب قد استدعى كذب الشاهد ، ولا من مدعاة لانخداعه حكم له بصحة ما يؤكد .

رأى المؤلف أحياناً ليس جازماً حيث يتقدمه مثل لعل ، ربما ، قد ، لكن القرائن والسياق وصفة الكاتب ، كل أولئك يدل على أن الرأى هنا إنما هو فرض على قد يثبته أو ينفيه التقدم العلمى فى المستقبل . فالمؤلف حريص على العلم .

يقول المؤلف فى علاقة الملكة حتشبسوت بخادمها : « ولو أملك اليوم من الأدلة والشواهد ما يجنى على تبرئة ساحة الملكة لما ترددت فى ذلك » . وهذا شأن العالم حين يشك فى مثل تلك العلاقة .

ركن أنجيلك من رجال الآثار تندر بفرية هى أن اخناتون تورط مع أخيه فى علاقة جنسية . ثم راقت الفرية نيوبرى العالم الذى عرفته جامعة فؤاد الأول وذكرها فى مقال نشرته مجلة انجليزية . ثم نقلت فى كتاب عربى للأستاذ الكبير الدكتور سليم بك حسن ، وقد أقام الدكتور بدوى فى الجزء الثانى الأدلة العلمية والفنية على أنها محض افتراء ، وقال : « التاريخ حديث الإنسانية وقصتها ... ومن واجبنا

أن تنظر فيه بعين الشك ، وتقلب فى حوادثه وأخباره بكثير من الحذر ، وتضع قضاياه دائماً بين الشك واليقين ؛ فلا ترفضها عن تعصب وهوى ، ولا تقبلها إلا على ضوء من المنطق وأساس من العلم ، على أن يكون مبدؤنا فى كل ذلك الترجيح لا الجزم » . والكلام ههنا للعلماء الذين يعرفون ما هو النقد التاريخى . وقد عاتب المؤلف زميله المصرى قياماً بالواجب العلمى لأنهما يكتبان بالعربية لأبناء وطنهما ولدنيا العلم .

يرجع المؤلف أحياناً إلى مسائل أشار إليها فى مناسبة من حديثه سبقت هذه الإشارة ؛ مثال ذلك كلامه على هيرودوت وديودور الصقلى ومانيتون ثم رجوعه إليهم . لكن كل رجعة تقع فى محلها بزيادة بيان وإرساخ معنى فى القلب ؛ والتعليم هو إرساخ ما وعى العقل فى الوعى الباطن ، ومن وسائله التكرار .

• • •

رد النقد :

يكتب المؤلف فى وثنية قدماء المصريين ، ويطلها ويسترحم الرحمن لهم . لكنه حريص على ألا يضل قارئ فى غفلة أو بسوء نية ، فيمزج بكلامه العلمى برهان إيمانه مزجاً فنياً حتى ليقفه أوزيريس نفسه على باب الإسلام فى عالم الموتى .

يقول المؤلف ، فى مقدمة الجزء الأول ، بلسان صاحبه ، وقد رمز به إلى نفسه : « ناديت الله أشكو إليه كربى ، فإذا صوت هادئ رقيق ينبعث إلىّ ملياً وكأنما يخرج من قلبى . قلت : من أنت ؟ قال : صوت من رحمة الله ، إليك ؛ قلت : حنانيك يا رحمة الله ، أغيثينى ، أدركينى ، أين أكون من ملك الله ؟ قال : لا بأس عليك ، فأنت فى موكب الشمس » .

ثم اعتدل المؤلف ، أى صديقه الرمزى : « وكأنما أفاق من حلم وقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . ما أطول هذه الرحلة .. إلى عالم الموت . قلت : هون عليك يا صديقى فأنت بخير والحمد لله ، فما هى إلا أضغاث أحلام » . قالت رحمة الله ، فى قدماء المصريين : « والله يعلم أنهم قد كانوا يبحثون عن ذاته ، فيصورونه فى عقولهم وقلوبهم ، ويجعلون من صورته منتهى الأمانى الإنسانية وأغلاها ؛ وهم لم يصيبوا وجه الرشد ، لأن تصورهم قد ضلل العامة من قصار العقول . نسأل الله أن يعفو عنهم على كل حال .. وما هذه الصور التى رأيت بعين خيالك للوروث فأنكرتها ، غير بعض ما صوروا لعامتهم من آثار قوة الله . وما كان عليهم من حرج أن يروا الله فى الشمس ، فالشمس مظهر من قوة الله ، ولعلها أروع مظاهر قوته فى هذا الوجود ؛ وإنه لتصوير أقل ما يقال فيه أنه أفاد فى تحضير هذه الدنيا ؛ ثم مهد السبيل لأجيالها التى بحثت وحققت واهتدت ما مد الله لها فى سبيل الهدى وأنار لها الطريق إلى غاية الحق » .

وفى تتمة المقدمة بالجزء الثانى ، يقول المؤلف عن صديقه الرمزى ، أى عن نفسه هو : « ثم استيقظ مع الشمس هادئ النفس وهو يردد قوله تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة . لقد رأيتنى الليلة بين يديه (يدى أوزيريس » . قال : وما ذاك بيمينك يا بنى ؟ قلت : كتاب الله الكريم ، ثم انحنى وأخذ الكتاب بين يديه فقبله ثم أعاده إلىّ وهو يقول : أنعم به وأكرم من كتاب ، إنه دستور الدنيا والآخرة ، أنزله الله على رجل الدنيا والآخرة ، ليقرأه الناس على مكث ؛ ليتهم يا بنى يتدبرونه ليصبحوا من سادات الدنيا والآخرة » .

قال المؤلف فى الجزء الأول ص ١٢٨ : « فى الطبيعة المصرية ما يدفع الناس إلى التفكير فى البعث » . ويقول فى الجزء الثانى ص ٣٠٩ : « لا ندرى عما وراء الموت خيراً ولا شراً . لكنه قضاء الطبيعة لا مرد له ، قد جعل الموت آخر كل حىّ » . والطبيعة خلقها الله بسنتها ، وما بين الموت والبعث هو المجهول . أما البعث فشىء آخر ، إذ يقول المؤلف (الجزء الثانى ص ٤٠٦) : « أعرف أن ذلك الشعب المصرى قد عشق الخلود ... ثم سعى إليه فى إشفاق لا يخلو من الأمل والرجاء ... وعلم أن الله هو صاحب الخلود ، وأنه قد تفرد وحده بالبقاء ، فسعى فى الوصول إلى الله وطمع فى لقائه ، ومن كان يرجو لقاء ربه وعمل عملاً صالحاً ، فمصيره إلى الله ونصيبه الخلود ، يوم ينفخ فى الصور وتبدل الأرض غير الأرض » . وهذه إشارة إلى قوله تعالى : « يوم ينفخُ فى الصور فتأتون أفواجاً » من سورة النبأ ، النبأ العظيم ،

أى البعث ، إذ كان أهل مكة يسألون المؤمنين عنه على طريق الاستهزاء .

يقول المؤلف (ج٢ ص ٥٩٢) : « فى الحق أن علماء التجديد والإصلاح فى هذه الدنيا قد لقوا من دنياهم مثل ما لقى أخناتون وأكثر مما لقى أيضاً ؛ فما نعرف أن نبياً من أنبياء الله ، أو رسولاً من رسله ، ولا زعيماً من زعماء الإصلاح ، نادى بفكرته بين قومه وعشيرته إلا ولقى من صنوف الاضطهاد والتعذيب والتشريد شر ما يلقى المجرمون ... ومحمد بن عبد الله قد لقى من أهله وعشيرته الأقربين من صنوف الاضطهاد والتعذيب ما أبكى عينه وأحزن قلبه » . وأصحاب العقول من قراء كتاب الدكتور ، بل علماء الإسلام ، يفهمون بداهة أنه لا يساوى أخناتون بالرسول ، وإنما يقدم الدليل التاريخى على أن زعماء التجديد يسمون فوق مستوى أقوامهم فيضطهدون .

فى هذا السفر العظيم ثقافة واسعة سامية ، وفلسفة نيرة ، ومهارة فى بسط شائق للمقاصد والأغراض يسهّل للقارئ فهم الكلام ويرسخ محتواه فى الوعى الباطن ؛ وفيه النظر الفلسفى فى تاريخ أمة ، وهذا التاريخ لا يعد آفاق النظر الفلسفى الذى من شأنه أن يمتد إلى التاريخ عامة جرياً وراء الأسباب والمسببات ، أى آثرها فى أحوال البشر ؛ وفيه التناسى لآراء الغربية الحديثة ، وهى أبعد ما وصل إليه العلم ؛ وفيه رجوع إلى حوادث الإسلام وغيره من الأديان ؛ وفيه توجيه دعت إليه الإيحاءات والمقابلات التاريخية ، وبرره بل أوجبه على العالم البصير ما يرى فى وطنه وفى الدنيا من أحوال ؛ وفيه وطنية صادقة ، ومكارم أخلاق ، وعواطف نبيلة تغذى قلب القارئ فى لطف . ذلك كله لا يلقى أقل ظل من الغموض على الحقائق التاريخية البينة فى تسلسلها الواضح على النهج العلمى الدقيق . ومع ذلك كله ليس يمكن أن يقال فى هذا الصنيع العلمى الأدبى شىء يشبه ما قيل فى كتب كرلايل ومشليه مثلاً .

كرلايل كان ، قبل كل شىء ، مؤرخاً وفيلسوفاً ؛ وإحساساته القلبية شبه مرضية ، وأفكاره غامضة أحياناً ، وأسلوبه مكتظ بالمجازات وفيه اضطراب أحياناً ، وتعوزت يشوبها الغلو . أما مشليه المؤرخ الفرنسى فقد وصل ، بوحى المخيلة والأسلوب ، إلى أن يوجد بعثاً حقيقياً لحياة الفرنسيين القومية فى كل من كتابيه « تاريخ فرنسة » و « تاريخ الثورة » . ولقد تأثر من السياسات المعاصرة ، وكتب بأسلوب فيه حرارة ، موشى بألوان المجازات الكثيرة ، مفرط فى الشاعرية ، وكثيراً ما تبدو فيه شدة المغالاة للمذهب . ولمحبة الذين يزعمون أن بصرهم من خوارق الطبيعة يرى أشباه الماضى ، وذلك خصوصاً فى القسم الثانى من تاريخه . على أن مشليه درس الوثائق الأصلية بعناية ، وتفهمه نبوغ نادر فى الحدس والكهانة ، وكان فكره عالياً كريماً بلا انقطاع . وقد بث الحياة فى التاريخ . لكن مما يؤسف له ، أنه أدخل فيه حمية الناشئة والهوى ، وسببت آراؤه اللاذعة الحربة وقفه مرتين عن التدريس فى معهد « كوليج دو فرانس » بباريس .

« فى موكب الشمس » كتاب أراد صاحبه أن يقوم فيه بأقل ما يجب عليه نحو مصر ، فعرض به « حياة المصريين عرضاً واضحاً لا عسر فيه ولا التواء ولا تهويل » ، وصور حضارتهم وبين عقائدهم و « كيف يدال من دولة إلى دولة ، ومن قرن إلى قرن ، ومن جيل إلى جيل » . وهو يعرف طبعاً أن كتابه ليس أول ولا آخر كتاب فى تاريخ الفراعنة ومجدهم وفضلهم وسبقهم . لكن الكثرة العظمى من المثقفين المصريين لا تعرف هذا المجد وهذا الفضل وهذا السبق معرفة علمية ، ومنهم من لا يعرفها إلا بالسماع العابر ؛ أما القلة فتعلم أن الأمم الحية الراقية لا تسأم تجديد تاريخها ، والإشادة بنصيب آبائها من المجد والفضل ، وأنها ما زالت تؤلف فى تاريخها وإن امتلأت مكتباتها الواسعة بالآلاف المؤلفة من الكتب الصغيرة والضخمة فيه . والإنسان كلما زادت معارفه رأى فيها نقصاً ، ومن قلت معارفه توهم أنها أكثر مما يعرف فى الواقع من أمره . وحسناً فعل المؤلف ، لأن المثقف ، المفكر حقاً ، يحب الأمور الفكرية والثقافة العلمية ؛ ويعرف أن الكتابة بأنواعها قد أصبحت فى العصر الحديث تكتب لمنفعة اجتماعية ، فمن دأب هذا المثقف المفكر أن يبحث عن حقائق الأشياء وأسبابها ، وأن ينشرها لمتعته الذاتية ، ولمنفعة قومه ومنفعة من يرغب فى معرفتها من الناس أجمعين .

• • •

إجمال الرأى فى الكتاب أى خاتمة المقال :

تخرّج الدكتور بدوى فى التاريخ بمصر ، ثم اغترب إلى ألمانيا حيث قضى ثمانى سنوات يكمّل فيها علمه بعرفان علمائها . وكان قد ألمّت به علة منذ أيام صباه ، فاشتدت وطأتها عليه هناك حتى حملته يوماً إلى المستشفى « وأسلمته إلى يد الجراح بين يأس من الشفاء ، وأمل فى رحمة الله التى وسعت كل شىء » .

طالت أيام مرضه ، وامتد زمن مكثه فى المستشفى يعانى الآلام البدنية والنفسية ، ويشغل قلبه وفكرَه حاله السيئة ، وأهله ووطنه ، وما امتلأ به وعيه الباطن من تاريخ قومه ، وتطول لياليه وهو بين اليقظة والحلم تطفو من أعماق عقله وفؤاده طوائف الفكَر والوجدانيات تصورها وتثير سورها مخيلته الخلاّقة . فخلق فى هـذه المحنة حلمه الذى وصف فى مقدمته ، والذى هو مدين له بفكرة هذا الكتاب الجليل . فلما أراد أن يؤلفه أوحت إليه ملكته الفنية أن يفرض نفسه صاحباً فى المستشفى لهذا المريض الذى يشرح حياة الفراعنة ووثنيتهم ، ولم يكن المريض إلا ذات المؤلف ، وجرد من نفسه صوتاً « من رحمة الله » التى أنقذته ، صوتاً يحادثه ، وما دارت المحادثة إلا بينه وبين نفسه .

فكرة المؤلف الأساسية المرفرفة على صفحات كتابه هى أن « كل مرض يفنى ، وكل محنة تزول ، أما الشعب المصرى الكريم فحى خالد لا يموت » .

وأغراض الكتاب نبيلة . أولها شرح معنى ذلك الخلود ، ودفع ما تجنى به أهل الدنيا على قدماء المصريين تسرعاً فى الحكم أو لهوى « والله لا يكره أن ينصف الموتى من الأحياء » . ومن أغراضه أن يوضح لقرائه أن إعلان السلم ليس بمانعه من أن يفهم وثنية قدماء المصريين ، وأنهم لم يكونوا سخفاء ، ولا ظلمة شريرين فيها بالنسبة لطور البشر فى دهر المعارف السحيقة : فإن الله لم يخرج الآدميين من الظلمات إلى النور إلا بعد إذ نقلهم من طور إلى أطوار ، التالى فيها أرقى من سابقه ، وإن ظلت جماعات وشعوب على حالها البدائية ، أو بادت أو تأخرت بعد تقدم ، أو استأنفت التقدم أو تخلفت ، وإنما العبرة بمن اهتدى وارتقى من البشر .

ومن الأغراض أيضاً بث توجيهات من إيحاء تاريخ الأجداد ، والإبانة عن كريم الأخلاق من صدق وأمانة وصراحة وإقدام فى وطنية رائعة ؛ ولكل أولئك ، من هذه وتلك ، محل فى هـذا الزمن المضطرب الذى تبلبلت فيه الآراء ، وضلت عقول ، وانحطت نفوس ، واحتقرت قيم أخلاقية ليس يصلح أمر قوم بذهابها .

أما وسائل المؤلف فهى إيراد الحقائق التاريخية مستندة إلى شهادة الآثار والمراجع العلمية ، واستعانة المنطق السليم والنظر الفلسفى فى تاريخ مصر فى بهرة التاريخ العام ، على ضوء ثقافة مؤاتية وهدى مخيلة مبدعة ، والاعتماد على أسلوب عال تسمو بلاغته بما يتخلله من آى القرآن الكريم ؛ وعلى الجملة مزج حقائق التاريخ الفرعونى بالفن .

فالكتاب بمقدمته البديعة ، ومنهجه ، ومباحثه ، وأسلوبه ، ومذهبه العلمى الفنى ، خرج من وعى صاحبه ومخيلته الخلاقة ، وعليه طابع أصالة علمية فنية ؛ يشعر القارئ بقوته ، ولا يلاحظ فيه موضع ضعف . فهو جيد ، نافع ، ممتع ، وهو كالجبل الأشم ليس يتزعزع .

محمد ترحيب السفراء

ورد إلى المجلة كتاب :

الملك عبد العزيز آل سعود

بمناسبة يوبيله الذهبى

بقلم

الأستاذ محيى الدين رضا

المحرر بجريدة المصرى

وهو كتاب يقع فى ١٣٠ صفحة من القطع المتوسط ، ويتحدث عن تاريخ الملك عبد العزيز آل سعود عاهل الجزيرة العربية ، وأهم ما قام به من أعمال ، وما دار بينه وبين الشخصيات البارزة من أحاديث .

إعـــــلان

جوائز فؤاد الأول لسنة ١٩٥٢

تعلن وزارة المعارف أن الموضوعات التي سيمنح المصريون عن الإنتاج فيها جوائز فؤاد الأول للآداب والقانون والعلوم عن سنة ١٩٥٢ ، وعن جائزتي القانون المتخلفتين من سنتي ١٩٥٠ ، ١٩٥١ هي :

أولاً — الآداب :

الآداب البحتة مثل الأدب القصصي والأدب التصويري والأدب الاجتماعي والشعر والبحوث الأدبية (النقد — البحوث اللغوية — الدراسات الإسلامية الأدبية) .

ثانياً — القانون :

(ا) القانون الخاص ويشمل الفقه الإسلامي والقانون المدني ، والقانون التجاري وأوضاع التقاضي ، وغيرها من فروع القانون الخاص .

(ب) العلوم الجنائية وتشمل القانون الجنائي ، والإجراءات الجنائية وعلم الاجتماع الجنائي ، وعلم النفس الجنائي ، وعلم العقوبة ، وغيرها من فروع العلوم الجنائية .

(ح) القانون العام ويشمل القانون الدستوري ، القانون الإداري ، والقانون الدولي (العام والخاص) وغيرها من فروع القانون العام .

(د) العلوم الاقتصادية والمالية .

ثالثاً — العلوم الطبيعية والرياضة الفلكية :

ويدخل فيها بنوع خاص علم الطبيعة التجريبي وعلم الطبيعة النظري والعلوم الإحصائية وعلم طبيعة الأجرام السماوية . (الاستروفيزيقا) والهيدروليكا والميكانيكا والكهرباء .

ويشترط في الإنتاج الذي يقدم لنيل الجوائز الثلاث :

١ — أن يكون ذا قيمة علمية أو فنية ممتازة تظهر فيه دقة البحث والابتكار ، ويهدف خاصة إلى ما يفيد مصر والإنتاج القومي وتقدم العلوم .

٢ — أن يكون قد سبق نشره ، ولم يمض على نشره لأول مرة أكثر من خمس سنوات من تاريخ الإعلان .

٣ — أن يكون باللغة العربية الفصحى .

ويرسل الإنتاج من أربع نسخ إلى الإدارة العامة للثقافة بوزارة المعارف في موعد غايته ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥١ ولا تسترد النسخ المرسلة في أية حالة .

وقيمة كل جائزة من هذه الجوائز ١٠٠٠ جنيه ، وسيكون موعد منح هذه الجوائز يوم ٢٨ أبريل سنة ١٩٥٢ تخليداً لذكرى المغفور له الملك فؤاد الأول

٩١٠٩

الذاهــــــل

[هذه دراسة فى التحليل النفسى صيغت فى قالب أدبى ممتاز]

« الثقافة »

للأستاذ إدوار مفتى

— ١ —

كانت ساعة الدكتور تعلن الثانية عشرة مساء تماماً عندما ما سمع ، وهو جالس إلى مكتبه يقرأ بعد أن صرف آخر زبون منذ ساعة ، طرقاً قوياً متلاحقاً على باب عيادته . فقفز من مقعده وهرول يرى زبون آخر الليل . وما إن فتح الباب حتى اقتحم صالة الانتظار رجل فى بيجامة النوم ، مصفر الوجه ، مبهور الأنفاس ، متصبب العرق ، مفكك الأوصال ، مشعث الشعر .

— اسمى عبد المجيد عزب... لا يهم ! أعنى... أنا شنقت . أقصد... أهناك أمل ؟ أريدها أن تعيش...

— اهدأ قليلاً ، تفضل بالجلوس !

— كيف أهدأ يا دكتور وقد شنقت...

— من ؟!

— زوجتى .

— زوجتك ؟!

— أريدها أن تعيش . أتفهم ! أريدها أن تعيش ! أرجو أن تسرع يا دكتور فربما تمكنا من إنقاذها . فلست متيقناً من موتها... أو من حياتها .

ولم يكن مسكن الرجل بشارع شبرا يبعد كثيراً عن عيادة الدكتور ؛ فانطلقا لا ينبسان ببنت شفة حتى توقف الرجل أمام إحدى العمارات تجاه مدرسة التوفيقية وقال للدكتور .

— إذهب أنت يا دكتور ، أما أنا فسأنتظر هنا .

— لماذا ؟

— لأنى لا أحتمل رؤية زوجتى مسجاة على الفراش . ساصعد إليها إذا كانت فيها حياة ، وسأسلم نفسى للبوليس إذا كانت... هاك مفتاح شقتى فى الطابق الرابع ، ستجد رقعة نحاسية عليها اسمى...

— عبد المجيد عزب .

— تماماً . ولكن كيف عرفت ؟!

— هذه أول كلمة فهت بها عندما دخلت عيادتى .

— آه . نسيت . سأنتظرك هنا إذاً يا دكتور .

— إنى أفضل أن تصحبنى على أى حال .

— إنه يكاد يغمى علىّ عندما أرى صرصوراً ميتاً ، فكيف بى أمام زوجتى التى أزهقت أنفاسها يدى !

— على رسلك . انتظر هنا إذاً .

— ٢ —

وارتقى الدكتور الدرج وهو يتأمل هذه الجريمة البشعة . وعندما وصل إلى ردهة الطابق الرابع ، وكانت مضاءة ، توجه إلى الباب الذى يحمل اسم «عبد المجيد عزب» وبحركة آلية ضغط على زر الجرس . وإذ تذكر فجأة أن لا إنسان فى الداخل... لا إنسان به روح وتنبض فيه حياة على الأقل ، رفع إصبعه عن الزر . ولكنه سمع للتو صوتاً ناعماً ناعساً تلاه صوت الخادم يقول من خلف الباب :

— من هناك ؟

— أليست هذه شقة عبد المجيد عزب ؟

— تماماً .

— إنها الخادم على ما أعتقد .

— لا يا أفندم .

— من إذاً ؟

— زوجة عبد المجيد عزب .

وانتفض الطبيب كمن لدغته عقرب وقال متلعثماً :

— لقد ماتت ! غير ممكن ! إن زوجة عبد المجيد عزب قد شنقت .

وكانت صاحبة الصوت النائم الناعس قد أضاءت نور الصالة وفتحت الباب . عندئذ ظهرت امرأة فى روب دى شامبر ، فاتنة فى ريعان الشباب ، مياسة العود ، متأودة

القوام ، ثائرة الشعر ، ذابلة الجفنين ، يقول كل شيء فيها إنها كانت مؤرقة تحاول النوم — أو تغالبه — وقد ذعرت عند سماعها جرس الباب .

— من أنت ؟! أوه . إني أرى حقيبتك السوداء . دكتور ! من أرسلك ؟

— زوجك ياهانم . أعني زوج المشنوقة . وقد دعاني لأنقذك .. أعني لأنقذها إذا كان هناك أمل .

— إذا كان هناك أمل ! .

— إنك ميتة . . . أقصد أنها ميتة .

— ها ها ها ! .

— كيف تضحكين في مواقف الجد ياهانم ! لقد شنقت زوجة عبد المجيد عزب . شنقها زوجها . أين جثتها ، فقد لا تكون فارقت الحياة بعد .

— كما تريد . اتبعني .

وقادت المزعومة زوجة عبد المجيد عزب الطبيب حتى المطبخ . هناك أضاءت المصباح الكهربائي ، وقريباً من الباب ، على الأرض ، رأى الدكتور شيئاً صغيراً لا يتجاوز طوله ثلاثين سنتيمتراً وعرضه عشرة سنتيمترات ، ملفوفاً مكوراً في خرقة بالية . فنظر إلى السيدة متسائلاً ، فقالت له هازّة كتفيها ساخرة :

— أجل ، إنها . . . المشنوقة .

وانحنى الطبيب يحل الخرقة . وشد ما كانت دهشته عندما وجد قطة ، قطة سوداء مزرية فاقدة الحياة ، تتدلى من عنقها قطعة من الدوبارة .

— ما هذه ؟! .

— زوجة عبد المجيد عزب .

قالتها المرأة بهدوء .

— عدنا إلى المزاح ياهانم ! ما هذه ؟! .

— ألا ترى ! إنها قطة . أقسم بشرف مهنتك إنها قطة .

— أعرف أنها قطة . ولكن ما الذي صنع بها هكذا ؟!

— حكم الإعدام الذي نفذه زوجي فيّ .

— لا أفهم ! .

— حتى أنا لا أفهم . كل الذي أفهمه أنه لولا هذه القطة لكنت الآن مكانها .

— ما الذي حدث ؟ .

— دعني أقص عليك .

وعادت به المرأة إلى الأنتريه ، وجلسا ، وقدمت له سيجارة جعل يدخنها ، بينما كانت تروي له الحادث .

— ٣ —

« عندما عاد زوجي من الخارج هذا المساء ، وفي صعوده إليّ ، وعند الدرجات التسع أو الثمان الباقية لمح رجلاً يهبط الدرج . وكان الرجل قد أخطأ العمارة التي يقصدها فطرق باب شقتنا خطأ . وعندما أجبته وعرف أن العمارة التي يقصدها تجاور عمارتنا ، اعتذر وانصرف ! فتبعه زوجي بناظريه حتى اختفى في الطبقات السفلى ، وعندما صعد إليّ أخبرته بما حدث .

« أمضينا شطراً كبيراً من المساء في اللهو والدعابة ، وليس لنا أولاد تشغل أحدنا عن صاحبه ، حتى حان موعد تناول العشاء ، فتعشينا وأوينا إلى مضاجعنا . وكانت الساعة بعد الحادية عشرة بقليل ، وكان النوم يداعب جفوني عندما سمعت زوجي يتململ في فراشه ويتقلب على غير عادته . فقلت له : ألا زلت مستيقظاً ؟ فصمت ، أو ظل على صمته قليلاً ثم قال بهدوء : من كان هذا الرجل الذي كان يهبط الدرج عند صعودي ؟ وقفز من فراشه وأضاء الغرفة وتوسطها ثم استأنف اتهامه الرهيب صائحاً وهو يصر على أسنانه بينما كنت أنكمش رعباً في فراشي : من كان هذا الرجل ؟ من كان هذا الرجل ؟ ففزعت وقلت متلعثمة مرتعدة : أي رجل ياسي عبد المجيد ؟! وحاولت أن أوضح له خطأه ، ولكنه أصر على أني أخونه في غيابه . وطال النقاش واحتدم الجدل : هو يصر على أني أخونه في غيابه ، وأنا أحاول إقناعه بأني لم أخنه قط في حياتي ولم أفكر يوماً في العبث بشرفه .

« آه . عندما يصدقني زوجي يادكتور . إنه يحبني ، أجل ، ولكن أكثر من اللازم ، أكثر مما يجب . فإن حبه ليتجسم في غيرة حمقاء تفسد علينا الحياة وتجعلها قطعة من الجحيم لا تطاق . فهو يفرض عليّ الامتناع عن الزينة ، ويصر على ارتداء الملابس القاتمة ولزوم البيت . وهو لا يدعني أزور أحداً ولا يسمح لأحد بزيارتي حتى أبناء عمومتي وخئولتي كفوا عن السؤال عني خشية أن يظن بهم زوجي الظنون . كلمة قصيرة مع المكوجي تثير شكوكه ! حديث تافه

مع البقال يبعث ظنونه . آه . عندما أصحبه إلى دور السينما ، وهى المكان الوحيد الذى نذهب إليه للتسلية ، فإن عينيه لا تكفان عن البحث فى الطريق عمن ينظر إلىّ واجداً فيه منافسه الخفى علىّ ومشاركه المجهول فىّ . وتمتد هذه المراقبة المجنونة حتى نستقر فى أماكننا فى السينما ، عندئذ يدور بناظريه فى الجلوس حوله عله يجد بينهم من يظنني أخونه معه . ولا يطمئن ، ولا أستريح حتى تطفأ الأنوار ويدار الشريط . عندئذ يتيقن من أن العيون كلها قد تحولت عنى واتجهت إلى الشاشة .

« هذه هى حياتنا يادكتور . وكثيراً ما أضيق به فأقول له : علام الغيرة يازوجى ؟ لست أجمل النساء ولا أجذبهم إلى قلوب الرجال حتى تخشى على نفسك من منافس جرىء ! فيجيبنى : ماذا أصنع ؟ إنى أحبك ! آه . أهذا هو الحب يادكتور ؟ »

— قطعاً لا . إذ كيف يكون الحب مع انعدام الثقة ؟ ! ولكنك انحرفت عن قصتك . ما الذى حدث بعد أن أهانك زوجك وأساء فيك الظن ؟

— كان وجهه قد اكتسى بالغضب وقدحت عيناه بالشرر وطفق يصيح : أيحدث هذا بعد خمس سنوات من زواجنا ! من يدرى ما الذى كنت تصنعينه فى غيابى طيلة هذه الأعوام ! أيحدث هذا فى فراشى ... فى دارى ! ولمحت بوادر الشر تنذر بهلاكى . وكانت هذه أول مرة أراه فيها على هذه الحال من الثورة والهياج . من يدرى . فربما كان ينتظر مثل هذه الفرصة لينفجر فينفس بهذا الانفجار عن شىء فى نفسه لا أعرف ما هو . لقد تقدم منى مهدداً يفشق يديه : منذ متى كنت تخونيننى ! فقفزت من فراشى وانطلقت من غرفة النوم وأنا أتمتم متوسلة مستعطفة : لم أخنك قط يازوجى ولم أفكر يوماً فى خيانتك ولن أفكر . كنت لك وسأكون لك بجسمى . كل حياتى كانت وستكون لك خالصة . فصاح فى وجهى : ياخادعة من تكونين غير واحدة من النساء ! كلهن عندى سواء . سأقتلك ! سأقتلك ! ومازال بى حتى حاصرنى فى دورة المياه حيث لم أجد غير باب « التواليت » ملجأ ، فأغلقت به نفسى محاولة فتحه وإيصاده دونى . ولكنه كان أسرع منى فطوق بيديه الحديديتين عنقى وبدأ يضغط عليه فى إصرار وجنون . ولكنى أفلت .

« وفى نفس اللحظة تعثر زوجى بقطة ، لعلها أن تكون للجيران ، فوقع بوجهه على الأرض ، وجعل يصيح لاعناً القطط وكل ما ينضوى تحت فصيلتها من الحيوان وسابّاً الجيران الذين يطلقون حيواناتهم تعيث فى بيوت الناس فساداً . هنا تحول مجرى المعركة . فبدلاً من أن يطاردنى جعل يطارد القطة بنفس الجنون الذى كان يطاردنى به . وكنت ألمحه ذاهلة وهو ينقض على القطة فى دورة المياه فتفلت منه إلى الصالة ، فيتعقبها مغضباً ، فتلجأ إلى غرفة النوم وتنزلق تحت السرير — كل هذا وأنا أرقبه مستخفية دون أن يرانى — وينزلق خلفها تحت السرير ويمسك بذيلها ، فتتخلص منه هاربة من الناحية الأخرى ، وتترك غرفة النوم إلى الصالون ، فيسرع زوجى خلفها ويغلق من دونه الباب . ثم أسمع هرجاً ومرجاً داخل الصالون . ويظهر زوجى بعد قليل على عتبة الباب مضطرب الهيئة وهو قابض على القطة . ثم يقيم « الشنقة » فى السقف من دوبارة طويلة دلاها من حلقة حديدية كانت لمصباح لم يعلق — ويمكنك يادكتور أن ترى بقية الدوبارة معلقة حتى الآن — ثم يدخل رأس القطة البائسة فى الأنشوطة ويتركها تتلوى وتتمايل وتتأرجح حتى تستكين وتفيض روحها . وكنت أثناء ذلك كله أرى وأتأمل وأعجب ! ما الذى حول تفكير زوجى عنى إلى القطة المظلومة فأوقع بها دون ذنب أو جريرة عقاباً كان لى ظلماً أيضاً ؟ ! ثم أرى زوجى ، دائماً دون أن يرانى ، يفص الدوبارة ويتناول القطة ويلفها فى خرقة كانت ملقاة على الأرض ، وينزل بها إلى حيث لا أعلم . فلا يمضى وقت طويل حتى يعود بالقطة التعسة ويضعها برفق وحنان فى فراشى ويغادر الدار فلا يعود حتى الآن ... وقد فزعت لمرأى القطة الميتة فنقلتها إلى المطبخ . وأنا لا أدرى ماذا أصنع بها وماذا أصنع بنفسى أيضاً ! أين زوجى الآن يادكتور ؟

— إنه ينتظر أمام باب العمارة نتيجة فحصى عليك ظاناً أنك ..

— تعنى أنها ...

— ظاناً أنها لم تمت تماماً .

— إنى لأعجب كيف يظن زوجى أنه خنقنى وما خنق غير قطة ألقاها حظها العاثر بين قدميه !

— لذلك تبرير ياسيدتى . هو أن زوجك ، دون أن

يشعر ، لم يكن يريد بك سوءاً وإن أظهر هذه القسوة نحوك والنية في قتلك والرغبة في التخلص منك . كان هناك جاذبان متضادان يتناحران نوى فكره الواعي وغير الواعي . ولكن عامل الانتقام لنفسه ، وإن يكن مبنياً على ظنون كاذبة ، كان أقوى وهو المسيطر المتحكم . وهو إذ جاء بك كان لابد أن ينتهي بحياتك إلى الهلاك لولا اعتراض القطة طريقه فحولت إليها كل قواه الانتقامية فانصرف بجمعه إليها وأفرغ فيها جام غضبه . وبهذا يكون قد استراح باطناً وظاهراً : استراح ظاهراً لأنه قتلك متمثلة في القطة ، واستراح باطناً ، وإن لم يدر ، لأنه لم يمسك بأذى . هنا يجب أن أحذرك من شيء . فهو طالما يعرف أنه « كاد » يقتلك فهو راض مستريح . ولكن منذ اللحظة التي يعرف فيها أنه قتل القطة مكانك « فقد » يعود إلى ثورته ويستأنف المعركة من جديد . فاجتهدي دائماً في ألا تذكري أمامه شيئاً بصدد القطة

— وإذ يعود الآن ويجدني صحيحة معافاة ؟ .

— سيجدك راقدة حيث ترك القطة على فراشك . فقط أريد قطعة حبل . . . حبل غسيل مثلاً ومقصاً .

فأتت إليه المرأة بما طلب . فقطع الدكتور الحبل قطعتين ودلى إحداها مكان النوارة من حلقة المصباح في السقف ، هذه النوارة التي شنقت في أنشوطتها القطة . وجعل من طرف قطعة الحبل الأخرى أنشوطة أدخل فيها رأس المرأة .

— آه . أرجو أن تدعي قلق بالقطة خارج الدار . تخلصي منها كلية .

وعندما عادت بعد أن ألقت بالقطة من شباك المطبخ ، أشار إليها أن تستلقي في فراشها وأن تتدثر بملاءة السرير كما كانت القطة ملفوفة في الحرقة البالية .

— لا أفهم يادكتور ؟ ما معنى هذا ؟ .

— تذكري دائماً أنك القطة وأن القطة هي أنت . وأن كلاً منكما شيء واحد . وأنك كدت تموتين شنقاً ، وأن الأنشوطة حول رقبتك حلت مكان الأنشوطة حول رقبة القطة .

— فهمت .

— والآن اذهبي إلى فراشك . واتذني لي بالانصراف . سيصعد زوجك بعد قليل ، فأدى دورك تماماً . أسعدت مساء ياسيدتي .

وأخذ الدكتور حقيبته السوداء وهبط إلى القاتل الموهوم .

— ٤ —

كان عبد الحميد عزب يذرع الرصيف أمام العيادة جيئة وذهاباً بخطى عصبية قلقة . وكان ظله المضطرب الذي يلقيه مصباح عازي أمام المبنى يجاوره ويحاوره ، يستطيل حيناً ويقصر حيناً آخر ، يستقيم على الطوار مرة وينكسر على الجدران مرة أخرى . وعندما رأى الدكتور أخيراً على عتبة الباب أسرع إليه .

— كيف الحال يادكتور ؟ أهناك أمل ؟ إني أريدها أن تعيش .

— أتريدها أن تعيش حقاً ؟ .

— إنها زوجتي يادكتور ، إنها نصفي الآخر . كيف أستغني عنه ؟ .

— لماذا قتلتها إذاً ؟ .

— « لست في حي القاتل » ! أتقول « قتلتها » ! إذاً هي ماتت ؟ ماتت ؟ .

— يرحمها الله ! .

قالها الدكتور كاذباً ليرى وقع الخبر على الرجل ، ولشيء آخر في نفسه : إنه يود أن يروى الرجل قصته بلسانه . ولكن الأخير انفجر باكياً .

— زوجتي ! زوجتي ! إني مجرم ! إني مجرم . . .

فأخذه الدكتور بين ذراعيه وجعل يهدئ من روعه ويطيب من خاطره حتى استكان وهدأ ، ولكنه قال متلعثماً وهو يمسح دمعه على خديه :

— دعني أسلم نفسي للبوليس . إني قاتل .

ولم العجلة ؟ أمامنا متسع من الوقت . أود أن أسمع قصة قتلك زوجتك .

— وماالفع هذا الآن ؟ لقد ماتت ! أي جنون ! .

وكانت دموعه مازالت تلمع في ضوء المصباح الهزيل وهي تترقرق على خديه ، بينما كان يكتم بكاءه في صدره جاهداً . وحثه الدكتور على أن يروى قصته . وقدم له سيجارة وأشعل لنفسه أخرى . وبدأ القاتل يروى قصته ناظراً في الدخان الذي كان ينفثه كأنه يستعيد خلاله مشاهد جريمته الموهومة .

* * *

وقص الرجل على الدكتور ظروف هذه « الجريمة » تماماً كما قصتها عليه زوجته . ثم استأنف :

« تقرر مصير زوجتي في الصالون . وكانت قد حوصرت

في ركن الغرفة حيث توجد إحدى النوافذ أسدلت عليها ستائر من المخمل . فاقتربت منها بتصميم وقد ثبت ناظري على رقبتها . وما إن هممت بها حتى تعلقت بالستائر المخملية وجذبت جسدها بسرعة إلى أعلى . فكرت قليلاً : كيف آخذها بين يدي . . . ووقعت عيني على صندوق السكاكين فوق البيانو . فجاءتني الفكرة . أسرعت إلى الصندوق وفتحته وانتزعت منه قوس السكين . وكانت سالا زوجتي في متناول عصاي ، فانهلت عليها ضرباً بدون هوادة حتى تمزق فستانها وترف الدم على ساقيها . وتابعت ضربي لها ضرباً مبرحاً حتى خارت قواها وتفككت أوصالها وانهارت مقاومتها ، فسقطت على الأرض جسداً هامداً لاحراك به » .

وجذب الناحل من سيجارته نفساً طويلاً ثم أردف :

« كانت في سقف الصالون حلقة من الحديد معدة لمصباح لم يعلق . . . أمررت بها حبلاً قوياً جعلت من طرفه أنشوطة مناسبة . وأصعدت ضحيتي مقعداً أسفل الحبل ، ووضعت رأسها في الأنشوطة : واحد . . . اثنين . . . ثلاثة ! تدحرج المقعد وتدلى الجسد ، والتوت الرقبة ، ثم ازرق الوجه وجحظت العينان . عندئذ أسرعت بإنزال الجثة بكل هدوء ، ودثرتها بملاءة السرير وحملتها على كتفي وأسرعت بها خارجاً . وما إن وطئت قدماي الطريق المقفر حتى تنفست الصعداء . وبالقرب من عمارتنا قطعة من الأرض فضاء ، فلم يكن علىّ لأتخلص من حملي إلا أن أسرع إليها وألقي بها فيها . ولكن ما إن تخففت من جسد زوجتي حتى غشيني الذعر وتملكني الخوف . فجعلت أنتفض من الرعب وأرتعد من الرهبة . وانثنيت ألقي نظرة مجنونة على هذا الجسد الهامد الذي انتزعت منه الحياة قسراً منذ قليل . كان المكان مظلماً خاوياً ميتاً ، فلم أر شيئاً ! ولكن طرقت أسماعي وأنا في غمرة الذهول نعال عسكري الدورية تقترب ، فكاد قلبي يثب من صدري اضطراباً ، إذ تخيلت البوليس يطبق علىّ ويضع « الحديد » في يدي ويقودني إلى حيث ألقى حتفي بنفس الطريقة التي لقيت بها زوجتي حتفها . فما شعرت إلا بإرسال ساقي مع الريح . وجعلت أعدو وأعدو ذعراً ممن يلاحقني ، ممن يطالب رقبتي ثمناً لجريمتي . وتمهلت أخيراً وقد كلت قدماي وتلاشت خطى مطاردي وأنشأت أفكر : لقد قتلت زوجتي . . . لماذا ؟ ألأنها خانتني مع آخر ! ألم يكن من الأفضل طلاقها وتجنب نفسي هول العقاب الذي سألاقيه ! وصحت من أعماق قلبي : إني قاتل ، إني قاتل ! يجب أن ألقى جزائي . وفكرت للتو في تسليم نفسي للبوليس . ولا أدري ما الذي جعل خاطراً غريباً يمر برأسي يقول . ألا يمكن أن تكون مازالت حية ؟ أليس من الممكن أن أكون تعجلت إنزالها من المشنقة وأنها لهذا قد تكون مازالت حية ! وهكذا تملكني الشك وطرق الأمل في عودة الحياة إليها . فتوقفت عن السير أتدبر ماذا أصنع . أكنت أحب لزوجتي أن تعود إلى الحياة وأن تبعث بعد الموت لأتم تعذيبها ، أم لأنقذ نفسي من حبل المشنقة الذي كنت أرى ظله يأخذ بخناقي وأنشوطته تحكم حول رقبتي ! ؟ لم أفكر طويلاً في هذا . وأرجأت تسليم نفسي للبوليس حتى أتيقن من موتها . . . أو من حياتها . وعدوت عدو المخبول إلى حيث ألقيت بضحيتي فحملتها على كتفي وأنا مبهور الأنفاس ، وعدت إلى مسكني ووضعت زوجتي في فراشها ، وأسرعت إليك يادكتور ، أستشيرك في الأمر .

« آه . كما تذكرت أنها ماتت . هذه المخلوقة الجميلة التي كانت تملأ حياتي ، هذه الزوجة التي طالما أثارت الغيرة في قلبي . كم كنت أحمق مجنوناً » .

قال الدكتور وهو يلقي بقية سيجارته بعد أن سحب نفساً طويلاً :

— ترى ماذا كنت تصنع لو أن زوجتك ما زالت على قيد الحياة ! .

— كنت أقسم ألا أعود ثانية إلى غيرتي الحمقاء ، وجنوني المدمر . كيف أظن في زوجتي الظنون وقد تزوجنا بعد حب متبادل دام أكثر من العام ؟ .

قالها الناحل في صوت متهدج متكسر .

— إني لا أكاد أعرف ما أقول . لقد كذبت عليك . . .

— كذبت علىّ ؟ !

— إن زوجتك . . .

— ماذا ؟ .

— مازالت حية ترزق .

— كيف ؟

— لقد نجت من الموت بأعجوبة . إنها تنتظرك ! انطلق إليها يارجل واحذر الغيرة ثانية .

لم يصدق الرجل أذنيه . ورأى الطبيب في ضوء الصباح

الضعف شكا في عينيه . فقال حاثاً إياه وهو يمد إليه مفتاح الباب .

— هيا يا رجل . إنها تنتظرك .

ودفعه دفعة رقيقة إلى باب البيت ومضى في الظلام الذي ابتلعه بعد حين . أما القاتل الموهوم فقد ألقى بما تبقى من سيجارته المحترقة وقفز الدرج أرجاً أرجاً حتى ردهة الطابق الرابع ، فتريث قليلا أمام باب شقته ليلتقط أنفاسه ، ثم فتح الباب .

— ٥ —

عندما دخل عبد الحميد عزب مخدع زوجته على أطراف أصابعه ، وأضاء نور الغرفة بإصبع مرتجفة ، كان أول ما وقعت عليه عيناه ، وبشكل واضح ظاهر ، طرف الحبل متدلى من عنق زوجته على حافة الفراش . فأسرع إلى الأنشوطة يحاول حلها برفق . في هذه اللحظة تململت الزوجة في فراشها وتحركت قليلا وتنهدت وأزاحت بأناملها عن جسدها اللاءة . فلم يجد الرجل الشجاعة الكافية لحل أنشوطته ، فتركها بينما كانت المرأة تدير وجهها في الغرفة وهي تنهض بتثاقل . كانت تتثاءب . ووقعت عيناها على زوجها وهو جاث عند الوسادة ؛ وقالت له في صوت كأنه صادر من الأعماق ، وقد ترجت على الفراش وتدلى الحبل على صدرها :

— ما الذي حدث ؟!

ثم نظرت إلى صدرها واصطنعت الارتياع :

— هذا الحبل حول رقبتي !

فتحرك الرجل وجثا عند طرف الفراش وأخذ يدها في يديه وقال في تأثر وتضرع وتوسل وقد ترقرقت في عينيه الدموع :

— إغفري لي زلتي . دعينا ننس كل الذي حدث . لنبدأ حياتنا من جديد . إني منذ الساعة إنسان آخر . قولي : غفرت لك .

— ولكنك كدت تقتلني . كدت تزهق أنفاسي . أريد أن أعرف فقط ما الذي جنيت . ما الذي فعلت حتى تحاول قتلي هكذا ؟!

— دعيني أحل هذه الأنشوطة وألقي بها بعيداً .

— سأحلها وأحتفظ بها في هذا الصوان ، في « علاقة » الكرافتات .

— ولمَ هذا ؟

— لترى جريمتك دائماً ماثلة أمامك فلا تعود إليها مرة أخرى .

— إنه إذاً لعذاب أن أذكر دائماً هذا الجرم . لا تكوني قاسية إلى هذا الحد . كما يجملني .

— ولكن خطأك اليوم كاد يؤدي بنا إلى الهلاك : أنا على يديك ، وأنت على يدي « العشماوي » .

— ربك لا تذكريني بهذا . اطرحي هذا الكابوس جانباً يا حبيبتي .

— أو تجرؤ على مناداتي بـ « حبيبتك » ؟

— وهل ينبض قلبي إلا بحبك يا زوجتي ؟

— لقد مرت خمسة أعوام على زفافنا ...

— أتذكرين هذه الأعوام ؟

— كل دقيقة ، كل ثانية فيها .

— إذاً أعيدي إليّ هذه اللحظات الجميلة . لنسترجع معاً ذكرى حبنا ... ولكن دعيني أحل هذه الأنشوطة وألقي بها بعيداً .

فابتسمت له المرأة ؛ فقام الزوج من جثوه وحل الأنشوطة وتناولها بين يديه بعد أن طبع على عنق زوجته قبلة حارة . ولاحظته المرأة وهو يسرع إلى الصالة فيقف متأملاً الحبل المتدلي من سقفها ، فيصعد على المائدة ويحله من حلقته ، ويضمه إلى الأنشوطة ، ثم يهرع بهما إلى المطبخ حيث صندوق القمامة ، فيلقيهما فيه . ثم يعود إليها طائراً كأنه قد تخفف من حمل ثقيل .

— زوجتي أنت كل شيء في حياتي .

— إني أذكر هذا القول . لقد سمعته منك أيام خطبتنا .

— هذه الأشهر السبعة التي فرضتها عائلتك لتتمكنوا من إتمام « الجهاز » على الوجه الأكمل !

— لقد كنت كالملهوف .

— ومن كان يراك آنئذ ولا يتلهف إليك !

— « من كان يراني » ! وهل تبحث الآن يا رجل ؟

— كانت زلتي . إنما أنت دائماً كما كنت دائماً لم يتغير فيك شيء ... يا زوجتي يا حبيبتي . وتلاقت شفتاهما قبل أن يتم الرجل مناجاته .

وكانت قبلة لم تردد جدران مخدعهما صدى أشهى منها .

إدوار مقسي

الثقافة

العدد ٦٦٢
٣ من سبتمبر ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٦٢ — الاثنين ١ من ذى الحجة سنة ١٣٧٠ — ٣ من سبتمبر ســنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

سُلَّم القيم

للدكتور زكى نجيب محمود

ليست قيمة الشيء كائنة فيه جزءاً منه ، كما تكون عقارب هذه الساعة التي أمامي جزءاً منها يتصل وينفصل ؛ إنما تنشأ قيمة الشيء عن علاقتنا به ، فنحن الذين نجعل للأشياء قيمتها ، مهما يكن نوع تلك القيمة ، اقتصادية أو خلقية أو جمالية ، صادرين في تقويمنا للأشياء عن مصالحنا الذاتية ، فما يخدم لنا صالحاً كان له من القيمة بمقدار ما يخدم ؛ ولذلك ترانا نُدرِّج الأشياء المختلفة التي تشبع فينا حاجة أو غرضاً ، ندرِّجها في سُلَّم متفاوت من القيم ، حسب تفاوتها في إشباعها لحاجاتنا وتحقيقها لأغراضنا .

لهذا قد تجعل الشيء قيمة في موضع معين أو سياق معلوم ، حتى إذا ما تغير موضعه أو اختلف سياقه ، فقد قيمته ، وكلنا قد قرأ إبان الطفولة قصة المسافر الذي انقطع به الطريق في الصحراء ، وقد فرغ منه الزاد وكاد الجوع أن يهلكه ، فراح يخبط في سيره يميناً ويساراً حتى وقعت عيناه على صرة ملقاة ظنها طعاماً ، فأخذته نشوة من الفرح ردت إليه الأمل في الحياة ، لكنه فتحها بيد مرتعشة ليجدها مليئة بالدر والجوهر ، فألقى بمكنونها « النفيس » في يأس وقنوط ، إذ لم تكن لذلك الدر والجوهر عندئذ قيمة رغيف واحد من الخبز .

وصدق هذا الكلام على القيم الأخلاقية والجمالية صدقه على القيمة الاقتصادية ؛ فالفعل فضيلة أو رذيلة حسب ما يقوم به ذلك الفعل في نهاية الأمر بتهيئة أسعد حياة ممكنة لأكبر عدد ممكن من الناس ؛ وليس في الفعل ذاته — كائناً ما كان — شيء يجعله فضيلة أو رذيلة بغض النظر عن الظروف المحيطة به ؛ حتى ليحدثنا علماء الأجناس البشرية بأنه ما من فعل يطوف بخيالك ، إلا وجدته هو نفسه فضيلة عند بعض القبائل وفي بعض العصور ، ورذيلة عند قبائل أخرى وفي عصور أخرى .

كان الرق فعلاً مباحاً فيما مضى فأصبح محظوراً محرماً ؛ كانت الطاعة العمياء لولي الأمر عبادة أيام بناء الهرم الأكبر ، فأصبحت عبودية تضع المساير لها قيوداً وحدوداً ؛ كان الثأر واجباً لامندوحة لأفراد الأسرة أو القبيلة عن أخذه بأيديهم عاجلاً أو آجلاً ، فأصبح علامة على الهمجية التي يقف في وجهها القانون ، وهكذا وهكذا مما لا يكاد يحصيه عد من الأفعال والأوضاع .

وحين حين يحكم فريق من الناس فى عصر معين على فعل بأنه خير ، فهم لايقصدون بالخير إلى صورة الفعل كما تبدو حركاتها الجسدية فى عين الرائى ، بل يقصدون إلى مايترتب على ذلك الفعل من نتائج جالبة للعيش الرضى السعيد ؛ وإلا فلن نجد فرقاً فى الصورة الحركية الظاهرية لفعل الشجاعة وفعل الجبن : كلاهما مشى أو جرى ، الشجاع يمشى نحو عدوه أو يجرى ، والجبان يمشى مبعداً عن عدوه أو يجرى ؛ لكن المشى أو الجرى فى الحالة الأولى ينتج نتائج نسعى إليها ونرضاها ، وهو فى الحالة الأخرى يعود علينا بما لا نحبه أو نبتغيه .

كذلك قل فى القيمة الجمالية : فالشىء الذى نقول عنه إنه جميل ، قد يكون شديد الشبه جداً فى صورته الخارجية بالشىء الذى نقول عنه إنه قبيح ؛ لأن جمال الجميل وقبح القبيح ليس كائناً فى الشىء ذاته ، وإنما ينبعث من نظرتنا الذاتية لهذا وذاك ؛ وإلا فما الفرق فى الصورة بين نهدى « جميل » على صدر فتاة ناهد ، وبين ورم « قبيح » على عنقها ؟ وما الفرق بين ماء الشلال الدافق حين تنظر إليه ساعة التنزه ، وبينه حين تنظر إليه وطفلك غارق فيه ؟ لا فرق إلا ما تحدده أهواؤنا ومصالحنا الشخصية الذاتية .

أهواؤنا ومصالحنا — إذاً — هى التى تملى ما النفيس وما الخسيس فى تقدير القيمة الاقتصادية ، وهى التى تملى ما الفضيلة وما الرذيلة فى تقدير القيمة الخلقية ؛ ثم هى كذلك التى تقرر ما الجميل وما القبيح فى تقدير القيمة الجمالية — هذا رأى من الوضوح بحيث تعجب أشد العجب كيف وقع الخلاف فى أمره بين رجال الفكر ونقدة الفنون ؛ فمن هؤلاء فريق يزعم أن فضيلة الفعل الفاضل ، وجمال الشىء الجميل ، كائن فى الفعل نفسه أو الشىء نفسه ، كما يكون التربيع فى الشىء المربع والتدوير فى الشىء المستدير ؛ وترتب على ذلك بالطبع نتيجة من أخطر النتائج ، وهى أن ما كان فضيلة عند آبائنا وأجدادنا ينبغى أن يظل كذلك بالنسبة لنا وإلى أبد الآبدين .

تعجب أشد العجب أن تجد هذا الفريق من رجال الفكر وأصحاب النقد الفنى ، ينظر هذه النظرة الموضوعية فى القيم ؛ وإذا طالبت أحدهم أن يحلل لك الشىء موضوع الحكم إلى عناصره ليريك عنصراً من بينها اسمه « فضيلة » أو عنصراً اسمه « جمال » ، فلا يجيبك إلا بنظرة الازدراء ، لأنك تكون فى رأيه « مادياً » ممقوتاً ذميماً ؛ وأما هو « فروحانى » لا يريد أن يرى الفضيلة بعينيه ويلمسها بيديه ، أو أن يرى الجمال ويلمسه عنصراً مستقلاً قائماً بذاته على النحو الذى يرى به أو يلمس قطعة من النحاس أو الحديد ؛ هو « روحانى » يكفيه أن يقول إن الفعل الفاضل فضيلته جزء منه ، وإن الشىء الجميل جماله جزء منه ، ولا بأس عنده فى أن تكون هذه « الأجزاء » من أفاعيل السحر ، نحكم بوجودها لكننا لا ندركها بحاسة من حواس « المادين » الأجلاف الغلاظ .

ليقولوا فى ذلك ما شاءت لهم مثاليتهم ، وأما نحن فرأينا فى قيم الأشياء والأفعال هو كما أسلفنا : فالأفعال والأشياء فى ذاتها محايدة ، ونحن الذين تضطرنا ظروف العيش أن نفضل فعلاً على فعل ، حين نرى أن الفعل المفضل أضمن الفعلين طريقاً إلى الحياة السعيدة القوية لأكبر عدد من أفراد المجتمع ، أو من أفراد الإنسانية قاطبة إن شئت .

فإذا تغيرت ظروف العيش ، تغير فى إثرها — أو وجب أن يتغير — سلم القيم ؛ فما كان فى أعيننا ذا قيمة قد يصبح ولا قيمة له ، لأنه لم يعد هو وسيلة احتفاظنا بوجودنا — وإذا تغيرت ظروف الحياة ولم يتغير فى إثرها سلم القيم ، كان الأرجح أن يظهر مصلح عظيم ينادى بالثورة أو الانقلاب ؛ وما الثورة أو الانقلاب عندئذ إلا تحوير فى تقويم الناس للأشياء بحيث يجىء التقويم متناسباً مع ما تقتضيه الظروف القائمة .

إنه من سوء حظ الإنسان فى تاريخه ، أن ظروف حياته المادية تتغير بخطى أسرع جداً مما تتطور به طريقته فى تقدير قيم الأشياء والأفعال والأوضاع ، فتظل طريقة التقدير متلكئة حتى تصبح كالثوب الضيق الممزق ، ويصبح خلعه ضرورة محتومة ، يراها صاحب النظر السليم وإن عارضه فيها سواد الناس ، فإن استطاع هذا أن يغير من وجهة نظر الناس حتى يدركوا ما أدرك ، كان هو المصلح الاجتماعى العظيم .

وأعتقد أننا فى مثل هذا الموقف الآن : فظروف اجتماعية واقتصادية تغيرت واشتد بها التغير ، وسلم القيم باق على حاله ؛

وإذاً فالثورة الحقيقية التي نريدها، هي أن نقلب هذا السلم قلباً تتغير معه أوضاع درجاته بنسبة بعضها لبعض، وعندئذ نجد أن درجات سفلى ستعلو، ودرجات عليا ستسفل.

كنا أمة زراعية رعوية، نشتغل بالزراعة اليدوية فنتخلق بأخلاقها، وإلى جانب ذلك ورثنا أخلاق الرعاة البدو عن آبائنا العرب، فكان لنا من هذا المزيج الزراعي الرعوي أساس تقويمنا لكل شيء؛ لكن الزراعة والرعي قد مستهما عجلات الآلات الصناعية، والصناعة أخلاق غير أخلاق الزراعة والرعي، فلا بد لنا من ثوب جديد يلائم الجو الجديد.

* * *

لم يعد بد في الحياة الجديدة من رفع قيمة العلم الطبيعي وخفض قيمة الوسائل الكلامية، لأن آلات المصانع لا يديرها الشعر المقفى ولا النثر المسجوع؛ فإن كانت الإبل في حياة البدو الرحل بحاجة إلى حداء الشاعر لتقطع الفلاة على حلو النغم، فإن القطار لا يستمع إلى غناء، ولكنه يريد قضباناً من حديد، والطائرة لا غنى لها عن محركات من الصلب الصليب؛ كان آباؤنا العرب يتنافسون في عكاظ كل عام ليروا أيهم أشعر من أخيه ليتقرر بذلك أي القبائل أعلى منزلة وأعز جانباً، لكن ميدان التنافس اليوم كائن بين مخابير المعامل وأنابيبها وغازاتها وعناصرها، لأن الغلبة للسابق في إعداد الآلة، ولم تعد الغلبة كما كانت للشاعر المجيد وعشيرته.

تفتح كيس البريد الوارد إلى «الثقافة» فإذا نسبة الوارد هي عشر قصائد من الشعر مقابل مقالة واحدة، وبين المقالات النثرية نفسها تجد نسبة البحوث الأدبية إلى البحوث العلمية عشرة إلى واحد أيضاً؛ أعني أن في كل مائة ممن يهمون بالكتابة تسعين شاعراً وتسعة من الأدباء الناثرين وعالماً واحداً؛ وربما تطيب هذه النسبة الثقافية في قبيلة بدوية أو في قرية زراعية تجر المحراث بالأيدي، فتعمل ساعة وتستريح خمس ساعات تستمع خلالها لما ينشده الشعراء من شعر. لكن العالم قد تغير، وقيم الأشياء ينبغي كذلك أن تتغير تبعاً له.

ولا يزال لواء الحكم معقوداً عندنا — في أغلب الأحيان — للخطيب البليغ في تنميق اللفظ، القدير في رفع الصوت وخفضه، لا للعالم الإخصائي في شئون الدنيا الجارية من حرب واقتصاد؛ وحتى الكاتب الذي يكتب للناس في الصحف، تراه أميل إلى صب أسلوبه في قالب الخطابة الذي يؤثر في النفوس الساذجة، أكثر منه إلى مراعاة الدقة والأمانة في رصد الحقائق.

ولم يعد بد في الحياة الجديدة من رفع قيمة العامل بيديه وخفض قيمة الفكر النظري الذي يشطح بفكره في السماء، ويأبى النزول إلى الأرض مع أبناء آدم وبناته؛ فالكفاءة العملية لا «شهادة الكفاءة» النظرية هي مقياس التقدير، ومضى العهد وانقضى الذي كان فيه التفكير النظري المجرد من القدرة على التطبيق من علامات التهذيب والسيادة.

ولم يعد بد في الحياة الجديدة من تغيير النظر إلى المرأة تغييراً كاملاً شاملاً؛ ولست أقصر حقها على ما تطالب به من فتح الأبواب أمامها على مصاريعها لتعمل إلى جانب الرجل وتنافسه، بل أزيد على ذلك نقطة أخرى أغفلها المطالبون للمرأة بحقوقها، وأراها جوهرية في تكامل شخصيتها تكاملاً يلائم روح العصر الجديد النشيط العامل، وتلك أن المرأة مسئولة عن نفسها، وليس المسئول أخاً لها أو والداً كما كانت الحال أيام القبيلة، حين كانت المرأة وعاء يستولده الرجل ما شاء لنفسه من بنين وبنات.

عفة المرأة في الحياة البدائية هي الشغل الشاغل، وهي محور الأخلاق كلها، فإن سلمت كانت الأخلاق بخير، مهما يكن بعد ذلك بين الناس من تقتيل وسرقة ونهب ورشوة وفساد؛ وذلك لأن الغريزة الجنسية عندهم هي الهدف الوحيد الذي يحيون من أجله؛ وها نحن أولاء نسمع كل يوم صراخاً ينبعث من هنا وهناك خوفاً من «المدنية الغربية» لأنها تهدم الأخلاق!! و«الأخلاق» عند الصارخين المستغيثين هي عفة المرأة ولا شيء غير ذلك، ظناً منهم أن المرأة عندنا أعف منها عندهم؛ أما أن يكون من الأخلاق ألا تسرق أموال الدولة وأنت قيّم عليها، وألا ترفع أنصارك وأصهارك على حساب أصحاب الحق، وألا تجبن عن التصريح برأيك حين تشعر بأنه الحق، وألا تسكت على ظلم تراه، وألا تسطو على العاجزين في طعامهم، حين تستبيح لنفسك أكثر مما ينبغي لك، فتبقى

(البقية على الصفحة التالية)

الروايات التاريخية

للأستاذ علي أدهم

الروايات التاريخية ليست تاريخاً خالصاً محققاً يرجع إليه ، ويوثق به ، ويعتمد عليه ، ولكنها مع ذلك تستمد مادتها من التاريخ ، وتؤثر بدورها في فهمنا له ، وطريقتنا في عرض حوادثه ، وسرد أخباره ، وتصوير شخصياته . وأعظم الروايات التاريخيـة وأدلها على قوة الخيال وإجادة البحث والاستقصاء لا تغني غناء التاريخ ، ولا تقوم مقامه ، وقد لا تتناول حوادثه المأثورة إلا عرضاً ، وقد تحاول أن تصف مواقف معينة تشبه ما ورد في التاريخ ، ولكنها ليست المواقف التاريخية بنصها وفصها وخيرها وشرها ، وقد تعرضها عرضاً بلاغياً وتفسرها تفسيراً فنياً يلائم أهداف الرواية التاريخية ويوافق وضعها وجوّها .

والروايات التاريخية كان لها أثر محمود في ترويج التاريخ وتقريب حوادثه إلى الأفهام ، وأكثر الناس يملون قراءة كتب التاريخ الجافة المملوءة بالحوادث المملة والأخبار المتشابهة الرتيبة ، وبخاصة لأن الكثيرين من المؤرخين قد يجيدون البحث والتحري ويبذلون جهداً جباراً في جمع الأخبار ، وحشد المعلومات ، ولكنهم يعرضونها عرضاً مملاً يغري الناس بالزهادة في قراءة التاريخ والوقوف على حوادثه وأخباره ؛ وقد لحظ ذلك في الشرق المؤرخ المعروف جورجي زيدان ، فقد وجد أن الكثيرين لا يصبرون على فهم أسلوب أمثال الطبري والمسعودي واليعقوبي وابن خلدون وغيرهم من مؤرخي الإسلام الأعلام ، فحفزه ذلك على كتابة رواياته التاريخية ، وقد وفق فيها إلى استمالة القراء لمعرفة الحوادث البارزة المشهورة في تاريخ الإسلام ، وقد سار في آثاره بعض المؤلفين ، وربما كان فيهم من هو أبلغ منه أسلوباً ، وأقوى عرضاً للحوادث ، وأقدر على وصف المشاعر وتحليل العواطف ، ولكن لزيدان فضل السبق وتمهيد السبيل .

وأستاذ الكتاب جميعاً في هذا اللون من ألوان الأدب التاريخي ورائده الأول غير منازع هو الكاتب الأسكتلندي الكبير الذائع الصيت السير ولتر سكوت ، فهو واضع أساس الرواية التاريخية الفنية ، ومعظم من جاءوا بعده اهتدوا بهديه ، وضربوا على قالبه ، وكانوا من تلامذته وأتباعه ، سواء أدركوا ذلك أو لم يدركوه ، وقد كان السير ولتر سكوت شاعراً مفلقاً قبل أن يكون كاتباً روائياً ؛ ويروى

للعاجزين أقل مما ينبغي لهم ، إلى آخر هذه القائمة الطويلة العريضة من « الأخلاق » بمعناها الصحيح ، فليس ذلك كله عندهم بشيء ما دام « الحريم » مصوناً في الخدور .

لكن لم يعد بد من إعادة النظر في سلم القيم ، لنعيد الموازنة السليمة بين درجاته ، فنضيف إلى هذا « الخلق » الواحد الذي صببنا عليه كل اهتمامنا ، عدداً كبيراً جداً من « الأخلاق » الأخرى التي ليس من اكتسابها بد .

ولم يعد بد في الحياة الجديدة أن تكون الفردية هي أساس كل تفكير سياسي واجتماعي ، فليس زيد زيداً لأنه عضو في أسرة كذا أو قبيلة كذا ، بل إن زيداً زيد لأنه زيد ؛ على أن زيداً وعمراً وخالداً كلهم سواء في المادة الإنسانية وإن تفاوتت بينهم ألوان العمل وأقدار المال ؛ فإذا تكلمنا عن جماعة بلغة الحياة القديمة قلنا هذه قبيلة كذا التي يرأسها فلان ؛ أما إذا تكلمنا عن تلك الجماعة بلغة الحياة الراهنة ، وجب أن نقول : هـذه جماعة قوامها فلان وفلان وفلان .

وبعد فربما أكون قد أخطأت في التطبيق هنا أو هناك . أما المبدأ الذي أردت أن أقرره — وهو أننا في أشد الحاجة إلى تغيير نسبة القيم بعضها إلى بعض ، ليكون لنا بذلك سلم جديد نهتدي به — فلست أحسب أني قد أخطأت في تقريره .

زكي نجيب محمود

أنه ظل ينظم الشعر مجيداً فيه سباقاً للأقران حائزاً للإعجاب والتقدير حتى لمع نجم الشاعر الكبير بيرون وعلت شهرته ووجد فيه منافساً قوياً فتخلى له عن الميدان ، وأقبل على كتابة الروايات التاريخية ، وأدهش معاصريه بالإسراع في الإخراج ووفرة الإنتاج ، واتسع رزقه وكثرت أرباحه وعاش عيشة الأعيان المياسير والأمراء الوارثين ، حتى أصيب بكارثة مالية واجهها بعزم لا يلين ، وجاهد جهاد الأبطال في استصلاح أحواله المالية ، وتفريج أزمته ، وقد اقتضاه ذلك تحميل نفسه ما لا يطاق من الجهد المبذول ، والعناء الشديد ، حتى اعتلت صحته ، واستنفدت حيويته .

وقد ولد السير والتر سكوت في القرن الثامن عشر ونشأ فيه ، وفي هذا القرن بدأت بوادر العناية بكتابة التاريخ وفلسفته ، وظهر فيه ڤولتير وهو مؤرخ من طراز ممتاز ، وكتابه عن عهد لويز الرابع عشر يعد من طرائف الكتابات التاريخية . وظهر جيبون مؤلف كتاب تدهور الدولة الرومانية وسقوطها ، وهو من كتب التاريخ العظيمة الخالدة ، وغيرهما من المؤرخين المجيدين المقتدرين ؛ وكانت كتابة التاريخ في ذلك القرن تقوم على البحث الدقيق ، وغربلة الأخبار وعرضها على محك النقد ؛ ولكن كتاب التاريخ في القرن الثامن عشر رغم إجادتهم وتجديدهم في كتابة التاريخ كان ينقصهم شيء هام ، وهو فهم نفسية العصور التي يصفونها ؛ ومن أقوال تين في تقدمه : « في كتب ڤولتير وجيبون وروبرتسن لا نجد المعرفة الواسعة والأحكام النافذة وحدها ، بل نجد كذلك وصف النظم والقوانين وصفاً دقيقاً صحيحاً ، وموجز القول أننا نرى كل شيء إلا « أرواح الرجال » ... وهبة الخيال العاطف التي تمكن الكاتب من الامتزاج بمشاعر الغير قد حرم منها مؤرخو القرن الثامن عشر » وهي هبة لازمة المؤرخ ، وبدون هذا الخيال العاطف لا يستطيع المؤرخ أن يتغلغل إلى روح العصر الذي يتصدى للكتابة عنه ولا أن يشارك الشخص الذي يحاول أن يؤرخ أعماله ومشاعره ووجهات نظره ؛ ومن أقوال النقادة الفرنسي إميل فاجيه في نقد ڤولتير : « النقص الرئيسي في ڤولتير هو عجزه الأصيل وعدم قدرته على الخروج من حدود نفسه ، وهذا النقص يتخلل أخلاقه ويسيطر على سلوكه وتصرفاته ، ويكون آراءه في السياسة والتاريخ والفلسفة ، وانحصار رأي ڤولتير في أهل عصره يجعله يخطئ الحكم على بني الإنسان » .

وأهم ما يؤخذ على مؤرخي القرن الثامن عشر بوجه عام هو نقص الحاسة التاريخية الذي جعلهم يعتقدون أن الإنسان في كل العصور مثل إنسان القرن الثامن عشر ، وغض النظر عما يعرض له من التغيرات ، ويطرأ عليه من الأحوال المختلفة ؛ وجيبون وهو من أقدر مؤرخي ذلك القرن يأخذ عليه النقاد أن عقله المتشكك الناقد لم يستطع فهم المعارك الدينية والخلافات المذهبية التي كانت تعصف بالناس عصفاً وتؤثر في نفوسهم وحياتهم تأثيراً عميقاً خلال العصور التي وصفها في تاريخه ؛ وقد ذكر جيبون قصة هذه الخلافات الشديدة الكثيرة ، ولكن القارئ يشعر أنه كان يشرف على القوم المتفرقين في هذه الخلافات وترتسم على وجهه ابتسامات الاحتقار أو الإشفاق لأنه لم يستطع فهم جوهر هذه الخلافات ، ولذا عجز عن تفسيرها لغيره .

وعدم التفات مؤرخي القرن الثامن عشر لألوان التغيرات التي استهدف لها تاريخ العالم جعل كتابة التاريخ رتيبة مملة تكاد تكون أخباراً مكررة وحوادث معادة وصوراً متماثلة ؛ وقد أخل ذلك بالعنصر الفني والمنهج الأدبي في كتابة التاريخ وعرض حوادثه وأشخاصه ، وأتاح الفرصة لظهور السير والتر سكوت والرواية التاريخية . والظاهر أن العنصر الأدبي لازم في كتابة التاريخ ، فإذا أبعد من ناحية احتال على الدخول من منفذ آخر ، والشعور بالحاجة إلى هذا العنصر الأدبي هو الذي ساعد على ميلاد الرواية التاريخية ، وكان من عوامل ترويج روايات أمثال والتر سكوت في بريطانيا ومانزوني في إيطاليا وسائر الكتاب الذين ترسموا خطواتهم واقتدوا بهم .

وقد أظهر سكوت في رواياته أن التغيرات التي تعتور حياة البشر لا تقتصر على الثياب ومعدات الدفاع عن النفس وأشكال المباني والطرق ووسائل المواصلات ، بل تشمل كذلك العقائد والأفكار والأخلاق والآداب والطبائع والعادات ؛

وقد استطاع بخياله القوي وعطفه الشامل أن يعرض على قرائه صوراً تاريخية نابضة بالحياة ملونة باللون المحلي ، حتى ساد الاعتقاد بأن التاريخ الذي يتعلمه الناس من روايات السير والتر سكوت أصدق تصويراً ، وأصح تحقيقاً ، وأقوى أثراً من التاريخ الذي تحتويه الكتب الجافة المملة التي يخرجها المؤرخون المتخصصون بعد الإمعان في التحقيق والتدقيق في عرض الموضوع ، ولدعاء العلم الواسع والبحث العميق .

وفي روايات سكوت نرى النورمانديين والإنجلوساكسون والأسكتلنديين والإنجليز والصليبيين والبيوريتان وقد انتفضوا من قبورهم ، واستردوا حياتهم القوية العارمة ، وعواطفهم الجائشة الطافية ؛ وقد استرعى ذلك نظر المؤرخين ، وجعلهم يعيدون النظر في كتابتهم للتاريخ ، فقد استجدوا في كتاباتهم العناية باللون المحلي ، وأهملوا العناية بإبراز خصائص العصور المختلفة ؛ وكان من أثر ذلك أن أصبحت كتاباتهم غثة مملة جدباء خالية من الحياة ؛ فلماذا لا ينتفعون بهذا العنصر الذي أدرك أهميته الروائيون وفي طليعتهم السير والتر سكوت ؟ .

ففي أوائل القرن التاسع عشر تناول هذه المشكلة المؤرخ الفرنسي أوجستين تيري . وقد كان في ذلك الوقت حزيناً موجع القلب لما أصاب فرنسا من اكتساح الجيوش الأجنبية لأراضيها ، وبحث عن موضوع تاريخي يبث فيه آلامه ويعبر خلاله عن آرائه السياسية ، وظن أن هذا الموضوع الملائم هو غزو النورمانديين لانجلترا ، وهو يقول في ذلك : « فأقبلت على تناول هذا الموضوع باهتمام شديد . ولكن بعد محاولات استبان لي أني أزيف التاريخ ، وذلك لأني كنت أستعمل نفس القواعد لصور مختلفة ، ولما كانت أفكاري السياسية قد غلبتني على أمري وسيطرت علي ، لذلك كنت أحاول كتابة التاريخ على طريقة فلاسفة القرن الثامن عشر ، ومعنى ذلك أني كنت أستخلص من الحوادث التي أرويها صفوفاً منظمة من البراهين تثبت معتقداتي بدلاً من أن أقدم تقارير مسهبة مفصلة » . وبحث فيه البحوث التي أجراها في موضوعه المختار حماسة واهتماماً حتى أصبح لا يقنع باتباع الأسلوب القديم في تناول التاريخ ، وظل حيناً من الزمن في التماس الأسلوب المناسب ، وفي ذلك الوقت وقعت

في يده روايات السير والتر سكوت فأخرجته من حيرته ، وكانت له بمثابة الكشف والإلهام ، فقد وجد فيها سرد الحوادث النابض بالحياة المعبر في أجمل بيان عن الفروق بين مختلف الشعوب ومتباين العصور ؛ وتراءى له أن خيال والتر سكوت القوي قد استطاع أن يبعث الناس من القبور ، ويجعلهم يستردون الحياة ويتحركون إزاء عين القارئ ؛ وقد عبر تيري عن هذا الشعور بقوله : « وارتفع إعجابي العظيم بهذا الكاتب إلى درجة أنني حينما وازنت بين معرفته الواسعة الغزيرة بالعصور القديمة وبين اطلاع أشهر مؤرخينا المحدثين العديم اللون ؛ ومن ثم رحبت بظهور طرفته الفنية المسماه « إيفانهو » بحماسة قوية ، ففي هذا الكتاب استطاع سكوت بعينه النسرية أن يلقي ضوءاً على العصر الذي شغلت به ثلاث سنوات . وقد أرانا بجرأة العبقرية كيف أن النورمانديين والسكسون غزاة ومنهزمين قد وقفا وجهاً لوجه على الثرى الإنجليزي ، وذلك بعد الغزو بمائة وعشرين سنة ، وقد رسم بألوان شعرية فترة من فترات هذه الدراما الطويلة التي كنت أحاول أن أكتب عنها بقلم المؤرخ الكادح » ، وقد شد ذلك من عزم تيري وجعله يعلن الحرب على المؤرخين العاطلين من الخيال الذين لا يستطيعون أن يصوروا الماضي ويعيدوا بناءه .

وهذا الطريق الذي اتبعه تيري في كتابه عن الفتح النورماندي مسترشداً بطريقة السير والتر سكوت في رواياته التاريخية هو نفسه الطريق الذي سار فيه المؤرخون الذين نبغوا في أوائل القرن التاسع عشر مثل سيسموندي ورسكوت وماكولي وفون رانك وكارلايل وغيرهم .

ونرى من ذلك أن نقص العنصر الفني في كتابة التاريخ أدى إلى ظهور الرواية التاريخية ؛ ولما كان من الطبيعي وقد عاد هذا العنصر إلى كتابة التاريخ على يد أعلام المؤرخين في القرن التاسع عشر أن يقل بعد ذلك الإقبال على الروايات التاريخية ، فقد استطاع المؤرخون أن يسدوا هذا العجز ، ويستوفوا هذا النقص ، وينفخوا من روحهم حياة في كتابة التاريخ ، ويظهروا العصور في جوها الملائم ، ولونها المناسب ، وأخذ الشك يتسرب إلى نفوس الناس من ناحية صدق الروايات التاريخية .

والروائى المؤرخ تلزمه صفتان ، عقلية تاريخية تستطيع أن تستخلص الصور من سجلات الماضى وتكون الأفكار عن حقيقته ، وقوة الخيال الخالق الذى يستطيع استحضار الأحاسيس والمشاعر التى ألمت بنفوس أهل تلك الصور العابرة ، وكثير من كتاب الرواية التاريخية قد أفادوا من كتب المؤرخين وسلطوا خيالهم على المعلومات المستمدة من المراجع التاريخية ؛ والمعروف عن دكنز مثلاً أنه أطال النظر فى كتاب كارلايل الممتع عن الثورة الفرنسية قبل أن يشرع فى كتابة قصة المدينتين التى تتناول عصر الثورة . والروائى التاريخى الناجح يوفق فى استحضار الألوان الزاهية الحية لتفصيلات العصر الذى يتناوله الاجتماعية والسياسية والأدبية ؛ ومن الخطأ أن يجعل بواعث أشخاصه ودوافعهم عصرية ، وإن كان بعض المؤرخين الروائيين يضطر إلى ذلك بسبب نقص المادة التاريخية عن العصر الذى يحاول إحياءه وتمثيل حوادثه وأشخاصه ؛ ولا نزاع فى أن الطبيعة البشرية واحدة فى كل العصور ، ولكنها برغم ذلك ليست متشابهة التشابه كله ؛ ورواية الحرب والسلم التى كتبها الكاتب العظيم تولستوى تعد أعظم الروايات التاريخية ، لأن تولستوى عرف تاريخ الأسرتين اللتين تناولت تاريخهما الرواية معرفة صحيحة ودرس غزو نابليون لروسيا دراسة مستوفاة ، وكان له من تجاربه فى ميادين القتال وقوة خياله وإحساسه ما مكنه من خلق هذه الطرفة الفنية النادرة .

والروايات التاريخية تستعين بالبحث التاريخى وقوة الخيال ، ولكن هناك روايات تاريخية من نوع آخر ، وهى ما يصح أن نسميها روايات تاريخية معاصرة ؛ وهذا اللون من الروايات يصف العادات المعاصرة والمشكلات الراهنة ، وهى تكتسب أهمية وقيمة تاريخية بمرور الزمن ، وأمثال هذه الروايات لا تصف حوادث معينة ، وإنما تصف العادات والأفكار والتقاليد السائدة .

والروايات التاريخية ناحية امتياز على الكتب التاريخية ، وذلك أن التاريخ معظمه يدور حول الحوادث البارزة الكبرى والشخصيات الممتازة النبيهة ؛ أما الروايات التاريخية فقد تتناول حياة ما يسمى فى عرف الباحثين المعاصرين « الرجل الصغير » والمقصود به الرجل من غمار الشعب ، وحياة مثل هذا الرجل الصغير قد يهملها التاريخ الذى لا يكاد يبصره أو يسمع صوته ، ولكن الروائى بخياله الصادق وشعوره العاطف يستطيع أن يصف لنا حياة هذا الإنسان الصغير بآماله وأحلامه ومسراته وهمومه ، ويطلعنا بذلك على جوانب هامة من حياة الناس العاديين فى عصره ، وهم الكثرة الكاثرة .

وقد عاب المؤرخ الناقد تين على السير ولترسكوت إسرافه فى الإخراج ، وعد ذلك دليلاً على قلة تحريه الحقائق ، وقال فى نقده : « كل هذه الصور من الماضى البعيد التى يعرضها صور زائفة ، وليس فيها صحيح سوى الملابس والمناظر والمظاهر الخارجية ، والأعمال والأقوال والمشاعر وما إلى ذلك كله متمق متحضر مصبوب فى القوالب المحدثة ، وحينا نتأمل أخلاق المؤلف وحياته يساورنا الشك ؛ فماذا يريد ؟ وماذا يطلب ضيوفه ؟ وهل هو من طلاب الحق كما هو سواء كان قبيحاً أو متوحشاً قاسياً ؟ وهل هو باحث منقب لا يبالى بالثناء ولا يعبأ إلا بالبحث عما يطرأ على الطبيعة الحية من تغيرات ؟ كلا ، إنه لا يعبأ بذلك كله ... وليس عنده وقت ليصل إلى أغوار النفوس التى يصفها ، فهو يحصر اهتمامه فى المظهر الخارجى ، ويرى الصور والخارجيات ، ويصفها ويطيل فى ذلك أكثر مما يصف المشاعر الداخلية ... » وعلى هذا النمط يسترسل تين فى نقد السير ولترسكوت ، وواضح أنه يأخذ عليه قلة توفره على بحث الصور التى تصدى لوصفها فى رواياته وإسرافه فى الإخراج الذى حال بينه وبين الإجادة فى رأى تين ؛ وقد أفاد كتاب الرواية التاريخية من نقد تين الشديد لروايات السير ولترسكوت ، فتحروا الدقة وبالغوا فى الاستقصاء ، وجاءت بعض طرفهم الأدبية آيات فنية عظيمة تجمع بين دقة البحث وقوة الخيال وبراعة العرض ، ويتجلى ذلك فى روايات أمثال فلوبير الفرنسى ومرزكوفسكى الروسى ، وبخاصة روايتيه العظيمتين عن « موت الآلهة »[1] و « الرائدين »[2] .

على أدهم

---

(١) Death of the Gods.

(٢) The Forerunners.

التراث القـــــديم

للدكتور أحمد أمين بك

كتب الدكتور زكي نجيب محمود مقالاً في العدد الماضي من الثقافة عاب فيه الأدباء من غير استثناء بعدم الحرية والرجعية وتمجيد القديم ، ولابد أن يكون قد عناني فيمن عنى ، فلأدافع عن نفسي ، وأترك الغير للدفاع عن أنفسهم ، والحديث عن النفس ثقيل بغيض ، فلأحتمله في جراءة ...

لقد عاهدت الله منذ أمسكت قلمي ألا أكتب إلا ما أعتقد ، وظللت على ذلك إلى اليوم ، غاية الأمر أن مزاجي كان يتطلب مني أن أعبر عن رأيي بأدب ولياقة ، أما أن أغير رأيي إلى رأي آخر ، فذلك مالم أحتمله ولن أحتمله .

لقد اعتقدت أن المعتزلة من خير العلماء ، فكنت أول من ناصرهم ، وأضفيت عليهم إجلالاً ، على حين تربيت على الكتب التي يقول متنها ، قالت المعتزلة ، ويقول شرحها قبحهم الله ، ونصرت السنة على الشيعة في مواضع ، ونصرت الشيعة على السنة في مواضع ، لاقصد لي إلا الحق ، وعرضت نفسي أحياناً للقتل ، وأحياناً لرد القطيع ، فلم أعبأ بكل ذلك .

وفي الأدب ناديت بأن أكثر أدبنا من باب الدبج هو أدب معدة لا أدب روح ، وطالبت بالعدول عن ذلك ، كما ناديت بمجاراة البيئة الحديثة ، وكما ناديت بأن أدب الطبيعة في الأدب العربي أدب بهلواني ، يجري وراء الاستعارة والتشبيه ، والواجب يقضي بأن يتشرب الشاعر الطبيعة فيهضمها ، أو أن يحتضنها فيفنى فيها ، لا أن يضع كل فنه في التشبيه والاستعارة ، وكما ناديت بعدم التزام البحور الستة عشر ، بل يجب أن تتبع الأذن الموسيقية لا التقليد القديم . ونعيت على أبي نواس أنه نادى بعدم اتباع القديم من بكاء للأطلال ، وأكل الضباب واليرابيع ، ثم عاد إلى تقليد الناس بعد أن فشل في دعوته . وكتبت جملة مقالات في جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي ، لُمْتُ فيها الأدباء على الجمود ، وآخر ما كتبت أن أغضبت الشيعة في نقدي فكرة المهدي والمهدوية ، وأنها مختلقة ، ونشرت كتاباً في ذلك .

ودعوت إلى الاجتهاد المطلق ، وكانت آخر مقالة كتبتها « الحث على الابتكار » في مجلة رسالة الإسلام ، فهل بعد ذلك يصح أن يقال إني رجعي ألتزم القديم وأدعو إليه ، ولنأت بعد ذلك إلى الموضوع نفسه وهو التشهير بنا بأننا ننشر القديم .

الذي أعرفه من قديم أن الدكتور معجب بالمدنية الغربية لا إلى حد ، ناقم على التراث العربي لا إلى حد ، ولكن ما رأيه في أن الغربيين أنفسهم أسسوا نهضتهم على المدنية اليونانية والرومانية ، ووجهوا همهم لنشرها وفهمها وترجمتها ، ولم يتركوا صغيراً ولا كبيراً منها ولا قيما ولا تافهاً إلا فعلوا فيه ذلك ، حتى طبهم وكيمياءهم وطبيعتهم وعلم نفسهم ، علما بأن التافه في نظرهم قد يكون غير تافه في نظر غيرهم . بل ما رأيه في أن المستشرقين أرادوا أن يفهمونا ، فنشروا أصول الأدب العربي ، ونحن مدينون لهم بأكثر الكتب العربية القديمة ، بل ما تعلق الدكتور بالمدنية الغربية ، وجريه وراءها ، وتحبيذه لكل ما تأتي به ، كأنها مدنية معصومة من الخطأ ، مع أن فلاسفتهم وعلماءهم يقرون بأنها مملوءة بالعيوب ؟ .

بل مالنا ولهم ، ونحن نرى أن نتيجة المدنية الغربية كان قلق الناس واضطرابهم ، وسوء معيشتهم ، إذ كان تاجها المدافع والأسلحة الحديثة والقنبلة الذرية ، ولو قارنا بين مدنية إسلامية نتيجتها الهدوء والاطمئنان ، ومدنية غربية نتيجتها الفزع والرعب لفضلنا الأولى ! .

إن كل مدنية فيها مزاياها وفيها عيوبها ، ومزية المدنية الغربية بناء الحياة على العلم ، ومن عيوبها خلوّها من الإنسانية ، ومن عيوبنا نحن أننا لا نبني حياتنا على العلم ، وأن فينا مركب النقص الذي يجعل المدنية الغربية من الخطأ .

لقد نشرت الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان ، والهوامل والشوامل له ولمسكويه ، وأؤكد لحضرته أن هذين الكتابين وأمثالها كشفت للناس كثيراً من المدنية الإسلامية ، والحياة

أشواق...

يا حبيبي أقبل الليل منير الذكريات
والدجى قيثار وجد في محاريب حياتي
أين مني ربتاك عطر عبقري النفحات ؟
آه من مشبوب أوهامي ومن ليل شكاتي !

●●●

أين مني الآن أحلامي.. وأنغامي.. ودني ؟
أين مني الآن أفراحي وإشراقة فني ؟
لست أرنو آملاً .. لا أبصر الأشياء مني
أنا من أضجت ألحانه الحيارى كل أذن

●●●

صور تعبر أوهامي من الماضي رطاب
أججت نار شجوني وأماني العذاب
أشعلت مصباح قلبي .. خبا النور وذاب
أين ظل النجاوى ؟.. أين أحلام الشباب ؟

●●●

أنت يا إشراقة الإيمان في قلبي وعيني !
أنت .. أنت النور في ليلي وفي محراب فني !
صوتك الحالم لحن عبقري أي لحن !
وشذاك الحلو ندى بالهوى العذري دني !

●●●

إنما روحك في روحي ... صلاة قدسيه !
رتلتها شفة الحب أغاريد شجيه
أسكرت سمع الليالي والقلوب الشاعريه
إنما أنت حياتي .. وأماني الوضيه

●●●

أنت يا مرهف إحساسي برقراق النشيد ..
أنت يا واهب أشعاري مقاليد الخلود ..
هات لي من حانة الأشواق أنغامي وعودي
وارو لي من شهرزاد .. وأساطير الوجود ..

●●●

أنت في أفق خيالاتي وأحلامي قمر
أنت في مزهر أشواقي أغاريد وشعر
أنت خمر عتقتها يد ربي أنت سحر
فاسقني لنعد حباً ليس فيه شوك وجمر

●●●

أنا في دنيا من الأوهام .. في صحراء قلبي
فتعالي نعبر الأيام في زورق حبي
ونعيد الحلم الزاهي في جنة قرب
سوف تغتال خطانا موجة الموت بغضب .!

محيي الدين فارس السوداني

القديمة . ولسنا نستطيع أن نتقدم خطوة إلا إذا فهمنا الحاضر ، ولسنا نفهم الحاضر ، إلا إذا فهمنا الماضي . وهكذا يفعل الغربيون في علاقاتهم بآبائهم وآثارهم . فتحف الوفر مملوءة بالآثار القديمة ، ومملوءة بالعلماء الذين لووا رؤوسهم إلى الوراء ليفهموا ما خلفه الآباء . فما لنا نحل لهم هذا العمل ، ونحرم مثله علينا ؟ .

إن واجبنا حقاً أن نؤلف الكتب العديدة في فهم المدنية الغربية ، ولكن واجبنا أيضاً أن نفهم أصلنا وتراث آبائنا . وليس جانب منهما أولى بجانب . وعندنا من الأدباء مدرسة تتبع القديم وأخرى تتبع الجديد ، وثالثة تأخذ بقبس من هذه ، وقبس من تلك . فلا لوم علينا إذا حاولنا أن نفهم مصدر تلك المدارس .

وكما يعاب من قصر نظره فلم ير إلا القديم ، كذلك يعاب من قصر نظره فلم ير إلا الجديد ، وهؤلاء علماء الطب الغربيون الذين يخدم الدكتور ، يمجدون م ابن سينا وقانونه ، فمالنا لا نمجدها مثلهم ؟! وأشهد الله أن كانت لي مريضة عجز عن معالجتها الأطباء المحدثون ، وشفيت على يد عطار بوصفة ذكرها داود في تذكرته . ولست أقول هذا لأبرهن على أن الطب القديم خير من الطب الحديث ، ولكن لأقول إن في تتبع القديم فائدة لا تعوض . وهذا فتزجيرالد أتحف قومه الإنجليز بترجمة رباعيات عمر الخيام الشرقي الإسلامي .

وكم كان لكتاب (ألف ليلة وليلة) من أثر في أدباء الأمم الغربية ، ترجمة ، أو احتذاء ، أو اقتباساً . وهناك ألوف الكتب من هذا القبيل . فهل يحل للغربيين تراثنا ، ويحرم علينا ، أم هي النظرة الضالة التي تتحيز ولا تعدل ؟؟.

أحمد أمين

حقوق الصحافة الأدبية

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

خضعت الصحافة فى مصر بشتى ألوانها لدراسات كثيرة، وتقدم كتاب عديدون ببحوث لها قيمتها فى تفصيل الوقائع الخاصة بحرية الأقلام من وجهة النظر السياسية والاجتماعية. بل لقد بلغت هذه الدراسات والبحوث من القوة بحيث استهوت الكتاب الأدباء، واستدرجت أقلام نقاد وشعراء إلى ميدان الكتابة الصحفية العادية. وظلت الصحافة الأدبية ناعسة أو شبه ناعسة.. ولعلها اللون الصحفى الوحيد الذى لم يكتب بشأنه أحد ولم يتقدم إنسان بدراسة قانونية أو فكرية للالتزامات والحريات التى تنشأ عن العمل الصحفى الأدبى الخالص. وفى هذا امتهان شديد للصحافة الأدبية؛ ولا أدرى على أى نحو يقبل الصحفيون الأدباء هذه الأوضاع التى تجعلهم دائماً فى الصف الأخير من ركب الحياة. وأعتقد أنه قد آن الأوان كيا يقوموا هم الآخرون بثورتهم على الأوضاع التقليدية التى تحول بينهم وبين حرية القول والقرض والإبانة.

وستسألنى بلا شك: على أى الدعائم تريد أن تضع القوانين التى تضمن حقوق الصحافة الأدبية؟ وألفت نظرك هاهنا إلى أن المشكلة عندنا غير موضوعة بالمرة بينما تكاد تكون ثابتة الأساس وطيدة القدم عند إخواننا الصحفيين العاديين. ومع ذلك فهم يعانون ويقاسون ويمرون بالأزمات تلو الأزمات. فما بالك بنا ونحن نخطو فى أول الطريق. وينبغى أن نلاحظ — ونحن بصدد التفرقة بين مشكلتهم ومشكلتنا — أن الصحافة عموماً لا تقوم على أكتاف القارئ فى مصر، ولعلها لم تكن كذلك فى يوم من الأيام. فإذا كانت الصحف العادية تستمد قوتها من الهيئات والحكومات وأصحاب النفوذ وشركات الدعاية والإعلان ولا تكاد تعتمد كلية على ما يدفعه القارئ ثمناً لما يقرأه، فكيف تصور أنها قد طالبت مع ذلك بحقوق وأنها قد ناضلت من أجل حريتها فى النقد والمؤاخذة؟ ولو حازت الصحافة بعض الحقوق ونالت جزءاً من الحريات فكيف تصور نوعية هذه الحقوق وتلك الحريات؟ لا شك أنها ستكون مبتورة معوجة.. ولا غرابة فى ذلك. فإذا جاءت الصحافة الأدبية اليوم لتطالب بحقوقها وهى التى لا تجد سنداً من قارئ ولا تجد تأييداً من الهيئات ولا تلقى أية معونة جدية من أصحاب النفوذ.. فماذا تصور أن تكون حقوقها إذا استطاعت أن تنال شيئاً ما؟

كذلك يلاحظ أن الصحافة العادية لا تمثل سوى نفسها، ولا تدافع عن شئ آخر سوى حريتها الخاصة، وأنها إذا طالبت بشئ، فإنما تفعل من أجل ذاتها وحسب. ولذلك قد يكون الأمر هيناً بالنسبة إليها عما إذا كانت تتحمل تبعات قوم آخرين وتطالب بلسانها ولسان مجموعة أخرى من الأفراد أو هيئة أخرى من الهيئات. أما الصحافة الأدبية فتقوم فى وجهها عقبات من هذه الناحية.. لأنها إذا طالبت بحقوقها الخاصة فسيتمتع بالتبعية عن هذه الحقوق تمتع الأدباء والأفراد والمفكرين بأشياء كثيرة قد تستهولها الحكومات وترى فيها خطراً عظيماً. فإذا ضمنت الصحافة الأدبية لنفسها أى حق فسيعتبر كل مفكر من أبناء هذه الأمة هذا الحق حقاً له هو الآخر، وسيكون — بالتالى — حقاً للكتاب والمؤلفين الذين لا يطرقون مجال الكتابة الأدبية فى الصحف. ومن هنا نفهم أن الحقوق التى ستطالب بها الصحافة الأدبية ستكون ذات جدوى بالنسبة إلى قوم آخرين وأنها ستشمل غيرهم.. ولهذا تتصف هذه الحقوق بالخطورة التى قد ترعب أصحاب السلطان أكثر مما ترعبهم حقوق الصحفيين العاديين.

ومن جهة ثالثة تفترض هذه الحقوق الخاصة بالصحافة الأدبية — مقدماً — حرية الاعتقاد وحرية البحث فى الدين وحرية المناوأة لأصحاب المذاهب والملل وحق الإعلان عما فى الضمير من جهة الإيمان أو عدمه. وهنا يكمن الإشكال

السكرتير طالما كنا سندخل بهذا تحت ظل ما يقرره الدستور، وسنناقش المسائل التي لا يقرر قانوننا الوضعي في البلاد مناقشتها وأنا لا أقول إن حرية الصحافة الأدبية تهدف بالضرورة إلى هذا النحو وتتجه حتماً إلى هذا الاتجاه . ولكنها أشياء مفروض التصريح بها ضمناً إذا ما سمح أصحاب الشأن بإعطاء الحقوق الصحفية لكتابنا الأدباء . فالصحفي الأديب لا يطالب بحقوقه كما يأخذ على عاتقه بمهمة التشنيع على المذاهب الدينية وكما يتكفل بمهاجمة النقط الرئيسية في مسائل الإيمان ، ولكنها أمور مفروضة تأتي عفواً ويجد الباحث راحة عندما يقوم ببحث أدبي يمس من بعيد أو من قريب عناصر الإيمان الروحي دون أن ينافق ويداري وبغير أن تحول الحياة الروحية عندنا دون إتمامه واستيفائه لما هو بصدده من نتائج علمية .

وهنا تصطدم الصحافة الأدبية بصعوبة لا يتخيلها أصحابنا الصحفيون العاديون ، ولم يجدوا أنفسهم يوماً من الأيام في حاجة إلى مثل هذه التجربة ، ولم يحاولوا قط مناقشة الدستور من هذه الناحية ، شأنهم في جملة النواحي الباقية التي لا تكف أقلامهم ليل نهار عن متابعتها وتفصيلها وبحث نقاطها . والحقوق الصحفية للأدباء لا معنى لها على الإطلاق بغير إباحة هذه الظاهرة والسماح لأصحاب القلم هاهنا بأن يكونوا كما يشاءون وأن يعلنوا كما يريدون ، وأن يخوضوا غمار البحوث الموضوعة جانباً بغير خوف ولا إشفاق مما ينال أصحاب الفكر الحر عادة إذا ناقضوا الأصول الوضعية لقانون العقوبات . وهم ولا شك — بوصفهم الطبقة الأولى المفكرة في هذه الأمة — يعرفون حدود تفكيرهم ويشعرون بمسئولية الرأي إلى حد يستحيل معه أن تستهويهم الأعمال الطائشة . وهذا من شأنه أن يبعث الطمأنينة في قلوب الواقفين في وجه كل حرية فكرية يُنعم بها على أبناء الأمة وكل حق في التصريح والكتابة الطليقة .

فالمشتغلون بالصحافة الأدبية من طراز يخالف كل مشتغل بالصحافة العادية في مصر ، ويصعب أن يكون من رجاله من لا يتمتع بمواهب وبميزات ودرجات علمية خاصة قد لا تكون مشترطة فيمن يتقدم للعمل الصحفي العادي . بل أذهب إلى أبعد من هذا فأستدل بمقال الدكتور زكي نجيب محمود منذ شهرين في مجلتنا هذه عندما قال بأن أدباءنا ومفكرينا جميعاً مختصون في كتابة المقال . وهذا من شأنه أن يجعلنا نطمئن إلى أن الصحافة الأدبية هي مجال النشاط الخاص — ولعله الوحيد — بالكتاب والأدباء في مصر جميعاً . ومن المستحيل — وهذه هي حالة الصحافة الأدبية — أن نتهمها بعدم الكفاءة لتحمل مسئولية الرأي الحر والقدرة على استغلال حقوقها الخاصة في هذه الناحية استغلالاً يعود على الحركة الفكرية في مصر بأعظم الفوائد وأجل المزايا .

ونشير هنا أيضاً إلى محدودية التوزيع الذي نلاحظه على مجلاتنا الأدبية بلا استثناء . فهذا يجعل الحكام وأصحاب الأمر يطمئنون إلى قلة الفاعلية وضعف التأثير الذي ينتج عن الكتابة الأدبية الحرة ، ويضمن لهم بقاء الأفكار في دائرة مغلقة تعرف للقلم حقه وترى للفكر حرمته وتقدس بعد هذا فردية الرأي . فليس للصحافة الأدبية تأثير مباشر على الجماهير ، ويصعب أن تجد لمشكلة فكرية أو مشادة علمية صداها في الرأي العام ، وهذه مزية خاصة لا تتوافر في الصحافة العادية وتجعل القائمين بالأمر أكثر شجاعة في إقدامهم على إعطاء الصحافة الأدبية حقوقها ومستلزمات عملها . ومن المفروغ منه أن خطورة العمل الصحفي لا تأتي إلا من شعبية حركاتها .. فإذا ضمنت بقاء النزاع في دائرة معينة وفي وسط بالذات له حظه الرفيع من الثقافة وله مداه الواسع من الفهم وله باعه الطويل في الإحساس الذوقي ، فاعلم أنك لو أبحت لأصحاب القلم حرية مناطحة السحاب لما كان لأعمالهم أن تسوء حياتنا العملية وتضر بأوضاعنا وظروفنا العائشة .

هذه هي الظروف التي تكتنف حقوق الصحفيين الأدباء . وقد جئنا على هذه الصفحة من أجل أن نبدأ من عندنا إثارة الموضوع على نطاق أوسع تحت أنظار رؤساء التحرير في المجلات الأدبية . وهي ظروف لو درست درساً قانونياً سليماً لأتت بأبهر النتائج في نطاق الصحافة الأدبية الخالصة

ويكفى أن تتصور مايفعله رؤساء التحرير بالمجلات الأدبية فيما تسطره أقلام الكتاب لتستشعر مذلة الأديب العامل فى ميدان الصحافة . ولست بصدد تأريخ مايحدث عادة فى هذه الناحية ، ولكننى أذكر هذا الوضع لترى إلى أى حد نحن أسرى فى حدود النطاق الذى يفرضه علينا رؤساء التحرير على الرغم مما قد يتصف به بعضهم من سعة الأفق وحرية التفكير الشخصى .

وإننا لننتهز هذه الفرصة — فرصة الثورة من أجل حريات الصحافة — لننادى من جانبنا بحقوق الصحافة الأدبية . ولا أدرى ماسوف يؤول إليه الأمر ، ولكننى معتقد أننا بهذا سنسطر الكلمة الأولى فى صفحة الفكر ، وسنحمل أول مشعل فى سبيل الحرية ، وسنكون اللحن الأول فى المقطوعة المقدسة التى ينشدها حملة الأقلام الأدبية عادة فى الأمم المستنيرة . ولا أدرى كيف أبوح بكل مايموج الآن بخاطرى من الأفكار والشوارد ، والقلم رئيس التحرير مسلط على كتفى . فبودى أن أطالب بخطة كاملة لمشروع قانون خاص بحقوق الصحافة الأدبية ، وبودى أن أضرب الأمثلة للقارئ كيما يفطن إلى التلاعب الذى يحدث بمقالات الأدباء المتطرفين فى التفكير . ولكننى أمسك عن هذا كله وأكتفى بأن ألفت النظر إلى الحرية التى يتمتع بها أدباء الغرب ومفكروه فى تناولهم للموضوعات وفى كتابتهم البحوث وفى تعرضهم لشئون الأدب والفن والفكر . فحرية الاعتقاد هناك مكفولة للناس جميعاً — أدباء وغير أدباء — وهم قادرون لذلك على أن يبرزوا أمام الرأى العام بغير مسوح وأن يعلنوا آراءهم فى صراحة وأن يعرف اتجاه الكاتب على مرأى ومسمع من الجميع .

ويعجب الإنسان ، وهو يطالع المجلات الأدبية الافرنجية ، من أن كلمة حرية الفكر تثير عندهم نوعاً من الضحك والسخرية . فالواقع أنهم لا يشعرون بالحرية الفكرية عندما يقبل الواحد منهم على بحث موضوع من الموضوعات . إنه يقوم ببحث علمى .. هذا هو كل ما فى الأمر ، ولا يعرف بعد ذلك معنى لأن تقول له ، وهو بصدد بحثه ، إنه حر .. إذ أنه ليس حراً فى الحقيقة وإنما هو خاضع لأحكام البحث العلمى التى تثبح رقبته وتثقل على كاهله . ولا يفهم معنى كذلك لأن تتهمه بالإلحاد ، لأنه لايعرف مدلولاً لهذه الكلمة عندما يرتفع بنفسه إلى مستويات التفكير العليا وينطلق بعقله إلى سماوات المعرفة الخالصة . ولا يثور للحرية إلا فى حالة واحدة ، وهى عندما تطالبه السلطات القائمة باتجاه معين فى إثبات نظرية من النظريات لدعم الفكرة السياسية التى يقوم عليها نظام الحكم ! وفيما عدا هذا لا يكاد يظفر الإنسان بطائل من مناقشاتهم حول موضوع الحرية من حيث هو خاصة لازمة فى الكتابة الأدبية الصحفية .

وفى النهاية نقول إننا لانقل عن الهيئات الأخرى أحقية بحقوق الصحافة وحرية التفكير والاعتقاد ! بل نذهب إلى حد الإيمان بأنها فى هذا المجال الروحى الخالص ألزم منها فى أى منحى آخر . إننا هاهنا لانطالب بحرية البحث الأدبى لمجرد التشدق بأننا أحرار أو لمجرد الزهو والاختيال بين الناس بهذا الحق الجديد ، ولكننا نريده لأنه ضرورة تفرض نفسها على أصحاب الأقلام ، وتلزمهم بمخاطبة العقل أكثر من مناجاة الشعور ، وتجعلهم أمناء فى تفكيرهم ومباحثهم ونتائج أعمالهم . إن حريتنا فى المجال الأدبى لها تكاليفها ، ولكن أجمل بها من تكاليف .. فهى عنوان حضارة الأمة وهى مرآة الحياة المعاصرة بالنسبة إلى المؤرخ الذى يستدل من التزامات الكتابة على مدى الرقى الذى يصادفه الشعب . ولهذا ستجدنا سعداء بهذه التكاليف والأعباء التى تنجم بالضرورة عن استعمال الحقوق الصحيحة لصحافة أدبية ممتازة ، وسترانا مضحين بالراحة والهدوء فى سبيل تنوير الأذهان بطريقة عصرية أقرب إلى الروح العالمى الحاضر منها إلى الينبوع الذى اشتق منه البكرى والمنفلوطى وعلى يوسف أسلوب كتابتهم ووحى سطورهم . وعندئذ نقول حقاً إننا خطونا بالصحافة الأدبية خطوة سليمة وقفزنا بها قفزة رائعة وظفرنا بما يليق بها من الكرامة والاستقلال .

عبد الفتاح الديدى

مدينة فاضـــــلة

في هـذا البحث يعرض الكاتب للمدينة الفاضلة عند ڤولتير عرضاً نقدياً تحليلياً ، وهى مدينة — كما يقول الكاتب — لم تظفر بعناية الكتاب والنقاد عندنا ، برغم أن صاحبها من أعظم كتاب الإنسانية . وستنتشر البحث على حلقات ثلاث .
« الثقافة »

للأستاذ محمد عبد الحليم محمود

لكل مفكر مدينته الفاضلة .

فالمدينة الفاضلة هى الحلم الأسمى الذى يراود خيال الإنسان منذ خلق ، وهى الهدف الذى ترمى إلى تحقيقه جهود الأفراد والجماعات خلال الأجيال المتعاقبة .

وإذا كان الناس ، عندما يتحدثون عن المدن الفاضلة ، إنما يذكرون طائفة من الفلاسفة والعلماء والأدباء لا يكادون يخرجون من نطاقهم ، فلا يعنى هذا أن غيرهم من المفكرين لم يتجسم فى مخيلتهم حلم المجتمع المثالى فى البقعة المثالية ... أى المدينة الفاضلة ...

وهى فاضلة بالنسبة إلى ذلك الذى يتخيلها ويسعى لها ؛ وكل فرد له عقليته الخاصة ، وكل أمة لها مزاجها المعين ، وكل جيل يختلف عن الأجيال التى سبقته وعن الأجيال التى ستأتى من بعده .

... أفلاطون الإغريقى ، والفارابى العربى ، وتوماس مور الانجليزى ، وكامبانيلا الإيطالى ، وأندريا الألمانى ، وكابيه الفرنسى ... كل أولئك نذكرهم عند ذكر المدن الفاضلة .

لكن فى مؤلفات كل كاتب عظيم مهما كان اتجاهه فى التفكير لا بد وأن توجد نواة ما لمدينة فاضلة ...

نعم ... ولكن قد تكون هذه النواة مغمورة وسط الأفكار الكثيرة ، وقد تكون مستترة فى قالب لا ينتبه له القارئ ... ولا نزعم أنها دائماً من الأهمية بحيث نستطيع مقارنتها بجمهورية أفلاطون أو جزيرة بيكون أو إيكارية كابيه ؛ بيد أنها على أى حال موجودة يستطيع الإنسان اليقظ أن يعثر عليها ولو بعد جهد ومشقة ...

وفى هذا البحث نقدم إحدى المدن الفاضلة التى لم تحظ بعناية الكتاب والنقاد رغم أن صاحبها من أعظم كتاب الإنسانية ، والتى تعبر تعبيراً صادقاً عن شخصية مؤلفها وطموحه وآماله وآرائه ، فضلاً عن تصويرها للحالة الفكرية والاجتماعية فى العصر التى وجدت فيه ...

تلك هى « إلدورادو » (Eldorado) ... المدينة الذهبية ... المدينة الفاضلة عند الكاتب الفرنسى « ڤولتير » .

● ● ●

قصة « كانديد » تصور أقصى ما بلغه التشاؤم بصاحبها الحكيم « ڤولتير(*) » ...

فهو كتبها فى تلك الفترة من حياته التى أعقبت سلسلة من المآسى والاضطرابات التى حلت به وبالعالم كله فى ذلك القرن الثامن عشر :

فأما فيما يتعلق به فقد سجن مراراً ثم نفى إلى بلاد الإنجليز ، وعندما عاد إلى وطنه طورد من جديد ، فهرب من باريس والتجأ إلى قصر صديقته مدام دى شاتليه ، ثم دعى إلى قصر فردريك ملك بروسيا ، لكنه لم يلبث أن دب الخلاف بينه وبين صاحبه ، فاضطر إلى الفرار من جديد . وعلم بعد ذلك بخيانة أعز صديقاته وموتها . وظل أعواماً شريداً لا يجد له مأوى ، حتى استقر فى فرنى ، على التخوم الفرنسية — السويسرية ، حيث كتب قصته المذكورة .

وأما فيما يتعلق بالعالم من حوله : فقد كان يرى فيه استبداد الملوك الطغاة فى فرنسا وألمانيا وغيرها من الأقطار ، كما يرى فقر الشعوب وجهل الأفراد وتطاحن الأمم فى حروب لا فائدة وراءها ، ثم انتشار الفساد فى الطبقات الحاكمة وفى أوساط الأغنياء وفى نظم الكنيسة وبين رجال

---

* Voltaire : Caudide (Roman philosophique)

الدين . وأثر في نفسه على الأخص حادثان أفرد لهما فصولاً مهمة في القصة هما : زلزال مدينة لشبونة بإسبانيا ، وإعدام الأميرال بينج بانجلترا .

لذلك خرج مؤلفه الجديد « كانديد » سفراً حافلاً بشرور الإنسانية وآلامها وصورة معتمة للفساد المنتشر في سائر أرجائها .

هي قصة اليأس من هذه الحياة في هذه الدنيا .

إلا أن فيها فصلاً قد يجد القارئ بين سطوره بعض العزاء وبعض الأمل .

ذلك هو الفصل الذي يتحدث فيه الكاتب عن « إلدورادو » ، أو المدينة الفاضلة كما يراها فولتير .

وهذه البلدة لا يتخيلها الكاتب في أوربا أو آسيا أو إفريقيا ، أي في العالم القديم كما كانوا يقولون ، ولكنه يضعها في أمريكا ، في العالم الجديد الذي كان ما يزال بعيداً عن تلك الحضارات الزائفة التي اصطنعها بنو البشر وراحوا يفاخرون بها ، وهي في الحقيقة شر كلها .

وإذا أردت التحديد فتلك المدينة تقع في مكان بين مقاطعة الأرجنتين وغينيا الفرنسية ، هناك حيث تحيط بها جبال شاهقة الارتفاع تجعل من المتعذر جداً أن يصل المرء إليها ، أو أن يخرج منها . وذلك هو السبب الأول في احتفاظ أهلها بخصائلهم الحلوة وطباعهم الخيرة ونظمهم الصالحة ..

استطاع كانديد ، بطل القصة ، وصحبته خادمه الوفي كاكمبو ، أن ينفذ إلى مملكة إلدورادو بأعجوبة : لقد تاه بين الأحراش والوديان ونفد زاده وكلت قدمه ويئس من الوصول إلى البلدة التي كان يبغيها . ورأى أمامه نهراً قوى التيار فاصطنع لنفسه ولخادمه زورقاً وجعل يندفع مع المياه الدافقة . فاجتازت به مسافات شاسعة مختلفة التضاريس والطبيعة ، ثم دخلت به في سرداب عميق مظلم يخترق جبالاً هائلة ، وظلت تجرى به وسط الظلمات عدة ساعات ، حتى خرج أخيراً إلى بقعة ، بعيدة عن هذه الجبال ، تحطم فيها الزورق فوق صخور النهر ، فسبح كانديد وخادمه إلى الشط ثم وقفا يتأملان البلاد التي اضطرا إلى النزول بها ..

« ... فرأيا حقولاً تعاملت من أجل غرضين أساسيين : النزهة والطعام . ففي كل مكان قد امتزجت المنفعة باللذة النفسية . وكانت الطرق حافلة بعربات صنعت من مادة براقة تحمل رجالاً ونساء غاية في الجمال ، وتجرها بسرعة عجيبة خراف حمراء ضخمة تفوق في قوة قوائمها جياد الأندلس وتطوان والمكنيك .

وقال كانديد : — هذا بلد ، على ما أرى ، خير من موطني الأول في وستفاليا بألمانيا ... »

وسار الرجلان حتى وجدا قرية يلعب بعض الأطفال في طرقاتها . وتأمل كانديد الحصى التي يلهون بها فرآها مصنوعة من الذهب والزمرد والياقوت . فاعتقد أن هؤلاء من أولاد الملوك . ورأى الأطفال معلم القرية « أكتاب » فرموا بلعبهم تلك النفيسة وتبعوه إلى المدرسة . فما كان من صاحبينا إلا أن جمعا تلك الأحجار الكريمة وذلك الذهب الكثير ، وقد تملكهم العجب .

ووجدا مطعماً فدخلاه . وكان كاكمبو ، الخادم الوفي ، يعرف لغة البلاد ، فطلب أكلاً . فقدم لهما طعام شهي من الطيور والحلوى ولحم القردة والفواكه في أطباق من البجف يحملها خدم يرتدون حللاً من نسيج الذهب .

وأراد الرجلان أن يدفعا ثمن الطعام فقدما للمشرف على الحانة قطعاً من ذلك الذهب الذي جمعاه آنفاً . ولكنهما دهشا إذ رأياه يغرق في الضحك هو وزوجته ...

« ... وأخيراً تمالك الرجل نفسه ، وقال : — أرى أنكما لاشك غريبان عن بلادنا . ونحن لم نعتد رؤية الأغراب ، فاغفرا لي ضحكي عندما قدمتما لي هذه الحجارة التي توجد بكثرة على قارعة الطريق .. لكن ، لا حاجة بكما إلى النقود لتطعما هنا . فكل الحانات والمطاعم المؤسسة لتسهيل التجارة والسفر إنما تدفع تكاليفها الحكومة ...

« ... قال كانديد في ذهول : — ما هذا البلد المجهول عند أمم الأرض كلها ، والذي يختلف فيه جوهر الطبيعة والإنسان عما اعتدنا أن نراه في عالمنا القديم ؟ لاشك أنه البلد الذي فيه كل شيء على ما يرام ؟ لأنه لابد وأن يكون على الأرض بلد كل شيء فيه على ما يرام ... »

... ودل صاحب المطعم ضيفيه على شيخ من العلماء يستطيع أن يجيب على أسئلتهما العديدة ويشفى غليلهما من المعرفة ، فيذهبان إليه في بيته البسيط الذي صنع بابه من الفضة لاغير ، ولم تطل جدرانه إلا بالذهب ، وإن كانت النقوش التي يتحلى بها هذا الطلاء تعوض تفاهته ورخصه .

وكانت قاعة الاستقبال مرصعة بالزمرد والياقوت فقط ..

« ولقى الشيخ ضيفيه على أريكة من ريش الطيور الناعم ، وقدم إليهما شراباً فى كئوس من الأحجار الكريمة ، ثم حدثهما قائلا : إنى أبلغ من العمر مائة واثنتين وسبعين سنة ، وقد علمت من أبى المتوفى الذى كان خادماً للملك خبر الثورات التى قامت بأمريكا الجنوبية ، فهو قد كان من شهودها ، والبلاد التى نعيش فيها هى الوطن الأول لشعب الإنكا ، الذى خرج نفر منه فى غير ما حذر لإخضاع بعض أقطار الأرض ، فكان هلاكهم على يد المهاجرين الاسبان .

«وكان الأمراء الذين بقوا داخل البلاد أكثر حكمة من هؤلاء الخارجين ، فسنوا بموافقة الأمة تشريعاً يقضى بعدم خروج أحد المواطنين من مملكتنا الصغيرة ، وهذا ما حفظ لنا سذاجتنا الفطرية وسعادتنا .

« ولقد خمن الاسبان وجود بلادنا هذه وأسموها : (إلدورادو) ، ومنذ قرابة مائة عام استطاع أحد الإنجليز ، هو النبيل رالِف ، أن يقترب من هذه البقعة ، ولكن الصخور العالية والوديان العميقة التى تحيط بنا قد حمتنا حتى الآن من طمع الشعوب الأوروبية التى لا أدرى ما سر تهالكها على أحجار أرضنا وطينها ، فتلك الشعوب تستبيح إفناءنا عن آخرنا فى سبيل الحصول على هذه الحجارة وذلك الطين ...

« وطال الحوار ، ودار حول النظم الحكومية ، والعادات والتقاليد ، والنساء ، ودور اللهو والمسارح ، والفنون . وكان كانديد ميالاً للمسائل الميتافيزيقية ، فسأل عما إذا لم يكن فى المملكة أديان .

« واحمر وجه الشيخ ، وأجاب : ماذا تقول ؟ وهل تشك فى هذا ؟ أم هل تحسبنا نجحد نعم الإله ؟ .

« فعاد كانديد يسأل فى تواضع عن كنه عقيدة الناس فى إلدورادو .

« فاحمر وجه الشيخ من جديد ، وأجاب : وهل هناك عقائد متعددة ؟ إننا على ما أعلم ندين بما يدين به البشر جميعاً ، إننا نعبد الله صباح مساء .

« قال كاكمبو الذى كان يترجم لسيده كانديد : وهل تعبدون إلهاً واحداً ؟ .

« قال الشيخ : إنى لا أعلم أن هناك إلاهين أو ثلاثة أو أربعة ، فما أغرب أسئلتكم .

« وأراد كانديد أن يعرف كيف يتضرع الناس لإلههم فى هذه البلاد ، فقال له الشيخ الوقور الطيب : إننا لا نتضرع له ، فلسنا نسأله شيئاً فوق ما نحن عليه من نعيم ، وهو يعطينا كل ما ينبغى لنا ، وإنما نحن نشكره دائماً على أفضاله وآلائه .

« وسأل كانديد عن القسس ورجال الدين ، فابتسم الشيخ وهو يقول : ياصاحبى ، كلنا هنا قسس ورجال دين ، ومليكنا فى كل صباح يقيم صلاة الشكر للإله ، ومن ورائه سائر أرباب العائلات يرتلون الأناشيد كل صباح تصحبهم جوقة مكونة من ستة آلاف من الموسيقيين .

« قال : ماذا تزعم ؟ أليس عندكم نساك ورهبان وقسس يدعون الدين ويتنازعون فيما بينهم ويتنافسون ، ويدس بعضهم لبعض ثم يقيمون محاكم التفتيش ويحرقون من لا يؤمن بمذهبهم من العباد ؟ .

« قال الشيخ : هذا جنون ، ونحن هنا أصحاب عقيدة واحدة ، ولا أفهم ماذا تريد بكلمات النساك والرهبان ...

« ... وعقب هذا الحديث الطويل أمر الشيخ بعربة يجرها ستة من الخراف الحمراء ، ووهب السائحين اثنى عشر من الخدم يصحبونهما فى رحلتهما إلى مقر الملك ، وقال لهما مودعاً : لن أستطيع مصاحبتكما لأنى قد بلغت من الكبر عتياً ، فاعذرا لى ذلك ، ولسوف يلقاكما الملك بما ينبغى من الترحاب ، ومن التكريم ...

« فركب كانديد وكاكمبو العربة ، وسارا بسرعة عجيبة نحو العاصمة » ...

وهنا يحسن بنا أن نقف لحظة لنتأمل فى تلك الصورة التى رسمها فولتير لهذه القطعة من البلاد الفاضلة ، وفى ذلك الحديث الذى دار بين الأوروبيين والشيخ العالم ، قبل أن نمضى إلى عاصمة إلدورادو وإلى قصر الملك الذى يحكم هذا الشعب السعيد فى تلك البقعة الفريدة من الأرض التى ما عرف عليها بطل القصة الفتى كانديد سوى الشر والآثام وخاصة فى البلاد الأوربية .

محمد عبد الحليم محمود

من آراء برتراند رسل

ترجمة الأستاذ وليم يني

١ — برتراند رسل والشيوعية :

برتراند رسل الفيلسوف الأنجليزى المعاصر الكبير اشتراكى النزعة ، إذ يرى فى الاشتراكية علاجاً لأدواء المجتمع ، ولا يرى بديلا عنها فى تخليص العالم مما يعانيه من أزمات ، وما يتهدده من أخطار ، وإن كان رسل يدعو إلى الاشتراكية إلا أنه خصم للشيوعية . ولقد سعى إلى روسيا بعد الحرب العالمية الأولى ليرى بعينيه التجربة الشيوعية الكبرى الأولى ، وقابل لينين ، ولكنه عاد من روسيا غير راض عن الشيوعية ، وكتب فيها كتابه (البلشفية نظرياً وعملياً) وفى مقال له عن الشيوعية والفاشستية يبين اعتراضاته على كليهما ، ولا يرى فى أحد النظامين بديلا عن الآخر ، كما يذهب إلى ذلك بعض الناس ، بل يراهما شراً كليهما .

ويستهل رسل نقده للشيوعية بتعريف الشخص الشيوعى ، ويقول إنه الشخص الذى يقبل نظريات الدولية الثالثة ، فقد كان المسيحيون الأولون شيوعيين من بعض الوجوه ، وكذلك كانت بعض الجماعات الدينية أثناء العصور الوسطى ، ولكن شيوعية العصر الحديث شيوعية مطلقة من جميع الوجوه .

وهاك اعتراضات رسل على الشيوعية ، يقول :

أولاً : لا يمكننى قبول فلسفة ماركس ، ولا حتى مادية لينين ومذهبه الذى يقوم على النقد التجريبى ، فلست مادياً وإن كنت بعيداً عن المثالية ، ولا أعتقد فى وجود ضرورة جدلية فى التاريخ ، ولقد أخذ ماركس هذه العقيدة عن هيجل بدون أساسها المنطقى ؛ أعنى أولية الفكرة ، واعتقد ماركس فى تقدم البشرية فى مراحلها التالية ، وإنى لا أجد ضرورة لهذا الاعتقاد .

ثانياً : لا يمكننى — كذلك — قبول نظرية ماركس عن القيمة ، ولا حتى نظريته عن « القيمة الفائضة » ؛ فالنظرية القائلة إن قيمة أية سلعة تتناسب مع مقدار العمل المستهلك فى إنتاجها ، هذه النظرية أخذها ماركس عن ريكاردو ، ولقد بين ريكاردو نفسه فساد هذه النظرية بنظريته عن الإيجار ، وقد نبذها علماء الاقتصاد من غير الماركسيين من زمن بعيد ، وتقوم نظرية ماركس عن « القيمة الفائضة » على نظرية مالتوس فى السكان ، ونبذ ماركس هذه النظرية بعد ، ولا تكون نظريات ماركس الاقتصادية وحدة منطقية متماسكة ، بل بنى مذهبه الاقتصادى على قبول بعض النظريات القديمة ، ونقد بعضها الآخر على نحو يتسق مع نقده للرأسمالية .

ثالثاً : من الخطر اعتبار أى رجل مهما كان معصوماً ، إذ يترتب على هذا التسليم الساذج ، وتبسيط الأمور غاية التبسيط ، وقد أدى الاعتقاد القديم بتنزيل الكتب المقدسة بالناس إلى استعدادهم لقبول أى كتاب مقدس ، وإن فى عبادة السلطة منافاة للروح العلمية .

رابعاً : ليست الشيوعية ديموقراطية ، وما تسميه : ديكتاتورية البروليتاريا — فى الحقيقة — ديكتاتورية أقلية تقبض على زمام السلطة ، ويدلنا التاريخ أن الحكومة كانت تخدم دائماً الطبقة الحاكمة ما لم يؤثر فيها الخوف من فقدان النفوذ ، ويرى ماركس نفسه هذا الرأى ، وللطبقة الحاكمة فى الدولة الشيوعية من القوة ما يربو على ما للطبقة الرأسمالية فى الدولة الديموقراطية ، وتستطيع — طالما احتفظت بولاء الجيش — أن تستخدم قوتها فى الحصول على امتيازات ضارة بقدر ضرر امتيازات الرأسمالية ، واعتقاد بعض الناس أنها تعمل لصالح العام إنما هو مثالية حمقاء ، وتخالف لسيكولوجية ماركس السياسية .

خامساً : تضيق الشيوعية الخناق على الحريات ، وخاصة الحرية العقلية ، ولا يجاريها فى ذلك نظام غير الفاشستية ، ويفرض توحيد القوى الاقتصادية والسياسية نظاماً إرهابياً

عجباً مطلقاً فى وجه أى استثناء ، فيصبح التقدم والرقى ضرباً من المستحيل فى ظل هـذا النظام ما دام الحاكمون يعارضون أى تغير لا يزيد من نفوذهم . ولقد تسرب التطورات الخطيرة فى التاريخ بفضـل بعض الظروف التى أتاحت الحياة والعيش لبعض الأشخاص الذين لم يتمتعوا بالتأييد والرضى . فقد عاش كبلر مثلا على التنجيم ، وعاش داروين على مال موروث ، وعاش ماركس على استغلال صديقه انجلز لعمال مانشستر . أما فى ظل النظام الشيوعى فلا يتاح لغير المرغوب فيهم مثل هـذه الظروف تعينهم على الحياة والبقاء .

سادساً : تمجد تعاليم ماركس والشيوعية الحديثة العمل اليدوى ، وتفضله على العمل العقلى ، والنتيجة مناهضة العلماء الذين يقولون بضرورة الاشتراكية ، ومن المستحيل تنظيم القوة الاشتراكية بدون جهودهم . وانقسام المجتمع بفضل الماركسيين عملياً إلى طبقات دنيا .

سابعاً : والدعوة إلى حرب الطبقات تجعل من المحتمل نشوب نار هذه الحرب فى أية لحظة لا تتعادل فيها القوة المتعارضة . وقد تكون القوة فى جانب الرأسماليين ، وإذا تفوق الرأسماليون صرنا إلى عهد من الرجعية العنيفة ، وإذا تعادلت القوتان تعرضت الحضارة لخطر جسيم ينذر بفناء الرأسماليين والشيوعيين جميعاً . والرأى عندى أنه ينبغى للاشتراكيين أن يعتمدوا على الإقناع لتوطيد الاشتراكية فى ظل النظم الديمقراطية الصحيحة . وألا يستعجلوا استعمال القوة إلا فى نهاية الأمر عندما يلجأ أعداؤهم — المتغلبون على أمرهم — إلى القوة غير المشروعة ، فعندئذ لهم أن يستعملوا القوة فيجعلوا الحرب النهائية قصيرة الأجل لا تهدد الحضارة .

ثامناً : يكمن فى أعماق ماركس والشيوعيين حقد لا يجعلنا نتوقع أن يقيموا — غداة انتصارهم — نظاماً لا توجد فيه منافذ للشر ، وسيميلون إلى استعمال الإرهاب ، وخاصة إذا جاء النصر بعد حرب طويلة الأمد مشكوك فى نهايتها . ولا أظن أن الحزب المنتصر سيلازم جانب الحكمة والاعتدال فى البناء والتعمير ؟ ويتناسى الماركسيون أن الحرب سيكولوجية خاصة بها تترتب على الخوف بغض النظر عن السبب الأصلى للنزاع .

والناظر فى هذا النقد يجد أن رسل يبنى نقده على أسس فلسفية واقتصادية وسياسية واجتماعية وعقائدية ، لأن الشيوعية تمس هذه الأمور جميعاً ، فليست مذهباً فلسفياً ، ولا نظرية اقتصادية وحسب ، بل هى نظام يقوم على أسس فلسفية واقتصادية وسياسية ، ويترتب عليه تغير شامل فى المجتمع ، فتناول رسل نقده للشيوعية على هذا الاعتبار ، مما يتطلب إلينا أن نديم النظر فيه على إيجازه .

٢ — حول الجسم والعقل :

من الآثار السيئة التى ترتبت على تقدم العلم تضييق نطاق معارفنا . فكنا نعرف أو نحسب أننا نعرف أن الإنسان يتألف من روح وجسم ، وأن الجسم فى المكان والزمان ، والروح فى الزمان فقط . ولم يشك أحد فى وجود الروح وإن اختلف الناس حول خلودها . أما الجسم فكان الرجل العادى يدرك وجوده إدراكا حسياً بديهياً ، وكان العالم يقف الموقف عينه . أما الفيلسوف فكان يميل إلى تحليل الجسم ورده إلى عنصر معين وفقاً للمذهب الذى يؤيده . ولكن لم يكن يهتم أحد بما يقوله الفلاسفة . وبالجملة ظلت المادية سائدة حتى بين العلماء ذوى العقيدة الدينية الراسخة .

فقدنا الآن هذه الأفكار الساذجة : فعلماء الطبيعة يؤكدون عدم وجود ما نسميه مادة ، وعلماء الفسيولوجيا يجزمون بعدم وجود ما نسميه عقلاً . وهذا أمر لا نظير له . من يصدق أن صانع الأحذية يقول بعدم وجود الأحذية ، وصانع الملابس يقول إن الناس عراة فى الحقيقة ؟؟ هذا عجيب ! ولكن أعجب منه موقف بعض علماء الطبيعة ، وبعض علماء الفسيولوجيا ! فهؤلاء الفسيولوجيون يحاولون رد النشاط العقلى إلى نشاط الجسم ، متجاهلين ما يقوم فى سبيل ذلك من عقبات لا يجزم أحد الآن بإمكان التغلب عليها . وكل ما يقال اعتماداً على علم الطبيعة نفسه أن ما نسميه جسماً هو تركيب أو تصور عقلى لا تقابله حقيقة فيزيقية . فلا عجب أن وجد المادى نفسه فى موقف لا يحسد عليه ، فهو إن أفلح فى رد النشاط العقلى إلى الجسم ، فكيف يتجنب الرأى القائل إن الجسم نفسه

ما هو إلا تصور اخترعه العقل ؟ وهكذا نجد أنفسنا في حلقة مفرغة : العقل نشاط الجسم ، والجسم تصور العقل . ومن الواضح أن هذا القول لا يصدق كل الصدق ، أو ليس هو بالحقيقة الكاملة ، ولابد من وجود شيء لا هو عقل ولا هو جسم ، ولكنهما معاً يردان إليه ، ويستخلصان منه .

لننظر الآن في الجسم : يرى الرجل العادي أن الأشياء المادية توجد ما دامت تبدو واضحة لحواسه ، فما يصطدم به لا شك في وجوده . ذلك هو المذهب الميتافيزيقي للرجل العادي . ولكنا نجد العالم الطبيعي يذكرنا بأننا لا نصطدم بشيء مطلقاً . فلو أنك نطحت حائطاً برأسك فأنت لا تلمسه في الحقيقة ، فالذي يحدث أننا عندما نمس شيئاً تجذب بعض الالكترونات والبروتونات والتي تكون جزءاً منا إلى بعض الالكترونات والبروتونات في ذلك الشيء ، أو تنفر هذه من تلك ، ولا يحدث اتصال حقيقي ، بل تضطرب الالكترونات والبروتونات نتيجة لهذا ، وينقل العصب هذا الاضطراب إلى المخ فيحدث فيه تأثيراً ، وهذا التأثير ضروري لإحساسنا بالاتصال واللمس ، وبتوالي التجارب من هذا النوع يصبح الإحساس عندنا حقيقة لا اختراعاً . والالكترونات والبروتونات نفسها إن هي إلا حقائق أولية أو تقريبات ، وهي إما حزمة من الموجات المتتالية ، وإما حزمة من احتمالات إحصائية لحوادث متباينة .

وهكذا أصبحت المادة وهماً لا يمكن أن نصنع منه عصاً تضرب بها العقل . والمادة التي لم تكن محل شك أصبحت فكرة لا تفي بمطالب علم الطبيعة . ومع ذلك فلا يؤيد العلم الحديث وجود الروح أو العقل باعتبارها حقيقتين ، وما يجعلنا نعتقد في وجود المادة يجعلنا لا نعتقد في وجودها . ولن ينتهي الصراع بين المادة والعقل بانتصار أحدهما ، بل ينتهي بالاعتراف أن كليهما تصور نافع وحسب ؛ فالعالم يتألف من حوادث لا من أشياء ثابتة ذات صفات متغيرة . ويمكن تقسيم الحوادث إلى مجموعات وفقاً لما بينها من روابط علية . ونسمي مجموعة باسم مادة إذا ارتبطت حوادثها بروابط علية من نوع معين ، ونسمي مجموعة أخرى باسم عقل إذا ارتبطت حوادثها بروابط علية من نوع آخر . وكل حادثة تمر في عقل الإنسان تندرج في مجموعة من إحدى المجموعتين . فإذا كانت من المجموعة الأولى كونت جزءاً من المخ ، وإذا كانت من المجموعة الثانية كونت جزءاً من العقل.

وبذلك نعتبر المادة والعقل تصورين نافعين ، أو وسائل مفيدة لتصنيف الحوادث . والشمس تفقد من المادة ما يقدر بملايين الأطنان في الدقيقة الواحدة ، وإذا كان العقل يمتاز بالذاكرة فلا يصح الافتراض أن الذاكرة المرتبطة بشخص معين تبقى بعد موت هذا الشخص ، بل إن العكس هو الصحيح ، لأن الذاكرة ترتبط بتركيب خاص للمخ ، وهذا التركيب ينحل بالموت ، فالذاكرة إذاً تنحل بالموت . ومع أننا لا نستطيع أن نقطع بصحة المذهب المادي ، فسيظل العالم جميلاً لو صح المذهب . ويرى أن الباعث على خصومة المذهب المادي رغبتان : الأولى الرغبة في إثبات خلود الروح ، والثانية الرغبة في إثبات أن القوة الأولى المحركة في الكون عقلية (روحية) لا مادية .

ويرى أن الماديين على حق في موقفهم من كلتا الرغبتين ، ولا شك أن رغباتنا تؤثر في سطح الأرض ، فسطح الأرض كان يختلف عما هو الآن لو لم يستغله الإنسان في سبيل الطعام والثروة ، ولكن قوانا محدودة ، فليس في مقدورنا أن نؤثر في الشمس ، أو في القمر ، أو حتى في أعماق الأرض ، ولا دليل على أن علة ما يحدث فيما نعجز دونه علة عقلية . والخلاصة أنه لا يحدث شيء وفقاً لرغبة الإنسان إلا على سطح الأرض ، وما دمنا نعتمد على الطاقة التي تستمدها الأرض من الشمس ، فنحن نعتمد بالضرورة على الشمس ، ويستحيل تحقيق رغباتنا إذا فقدت الشمس حرارتها ...

وليس لنا أن نبني أفكارنا على ما يستطيعه العلم في المستقبل ، فقد يستطيع أن يطيل عمر الإنسان على الأرض ؛ ولكن إذا صدق علم الطبيعة وخاصة القانون الثاني من الديناميكا الحرارية ، فلا يمكن أن نأمل في بقاء الإنسان إلى الأبد .

قد يرى البعض أن هذا القول يبعث على التشاؤم ، ولكن إذا كنا مخلصين لأنفسنا فلا بد أن نعترف بأن ما سيحدث بعد عدة ملايين من السنين لا يهمنا الآن في كثير ولا قليل . وبينما يطامن العلم من دعاوينا الكونية إذا هو يزيد من أسباب راحتنا على الأرض ، وهذا يفسر لنا لماذا ظفر العلم بتسامح الناس ورضاهم بالرغم من تهديد رجال الدين .

رليم يق

التنبــــؤ العلمى
أو
نظــــام الدورة

للدكتور حسن محمد حسين

يميل الإنسان بطبعه إلى كل ما هو غامض مجهول ، فيفحصه ويبحث فيه لعله يوفق إلى كشف سره واجتلاء غموضه . ومن بين هذه الغوامض المجهولة مستقبل الإنسان . فهو يسترعى منه أشد انتباهه ويحظى بأقصى اهتمامه . إذ أنه يعلم ماضيه ويعرف حاضره . فلا يقلقه إذاً ويشغل باله شىء أكثر من مستقبله . ولا يمكن أن يكون الأمر إلا على هذا الوجه . لأن الشخص الذى لا يعيش إلا فى حاضره ، ولحاضره فقط ، هو أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان ، كما أن الشخص الذى يعيش فى ماضيه ويستغرق فيه لابد أن يكون مختل العقل سقيم النفس .

لذلك نجد الإنسان دائم البحث والتنقيب لعله يستطيع الكشف عن خفايا المستقبل فيتنبأ بما سوف تأتى له به الأيام . فيستعين الناس أحياناً بالفنجان والكف والنجوم وغيرها وغيرها فى بحثهم عن هذه الخفايا . وهذا النوع من التنبؤ لا يعنينا فى كثير أو قليل فى مقالنا هذا ، لأنه لا يعدو أن يكون رجماً بالغيب . أما الذى يعنينا فهو ذلك التنبؤ الذى يستخدم أسلوباً علمياً لا غبار عليه . ذلك هو التنبؤ العلمى أو التنبؤ الإحصائى . وهذا التنبؤ الإحصائى يتسم بالتواضع العلمى . فهو لا يؤكد أن شيئاً معيناً سيحدث فى زمن محدد ، ولكنه يقول إذا بقيت الظروف على ما هى عليه ، فمن المرجح أن يحدث كذا حوالى وقت بعينه . وقد يزيد على ذلك قليلاً فيعين احتمال حدوث هذا الشىء أو عدم حدوثه . والمتنبئ بهذا الأسلوب يعلم على كل حال أن دقة تنبئه تتوقف على عوامل كثيرة متشابكة متعارضة دائمة التغير تكاد لا تخضع لضابط .

وأغلب التنبؤ الإحصائى أساسه استخدام فكرة الدورات فقد لوحظ أن الكثير من الظواهر الطبيعية تخضع لنظام الدورة . فالليل والنهار يتتابعان ، وأوجه القمر تعيد أنفسها ، وفصول السنة تتعاقب . كل ذلك بنظام ثابت دقيق يتبع قوانين طبيعية رياضية معروفة . لكن هناك ظواهر أخرى لها دورات أيضاً ، لكنها غير خاضعة لمثل هذا النظام الدقيق ، أو لعلها خاضعة لقوانين معينة لم يوفق العلم إلى استنتاجها بعد . من ذلك الانتعاش الاقتصادى والكساد ، والحرب والسلم ، والجفاف والرطوبة ، وغيرها كثير .

وممن مارسوا عملية التنبؤ الإحصائى على نطاق واسع الأستاذ العلامة رعوند هوفر هويلر ، الأستاذ بمعهد بابسون لإدارة الأعمال فى ماساشوستس ومدير أبحاث التاريخ فى مؤسسة علم الأجواء فى إلينوى . ولهذا الباحث طبعاً أنصار وناقدون ، ولكن الأساليب العلمية التى يتبعها تعزز النتائج التى يصل إليها . وتنبؤاته ليست من النوع الحاسم ، بل من نوع تقريبى كما تنتظر من أى تنبؤ علمى . فهو لا ينذر مثلاً بانهيار اقتصادى فى عام ١٩٦٣ ، بل إنه يتنبأ فقط بصعوبات اقتصادية حوالى ذلك الوقت . وذلك بفرض أن الأحوال الدولية تستمر فى المستقبل كما كانت فى الماضى . كما أنه يتوقع أن يستمر التوتر الدولى لبضع سنوات قليلة مقبلة .

وتدل أبحاث هويلر على أن الأحداث البشرية تتبع

نظاماً خاصاً ، وقد قام بجمع أكداس متراكمة من البيانات لتوضيح هذا النظام . ويمكن بواسطة هذه البيانات من عمل رسوم بيانية تدل على أن الحروب ، والكساد ، والثورات ، وحوادث أخرى كثيرة تقع فى فترات منتظمة . بل إن الأذواق البشرية تتغير بنفس التتابع .

فنلاحظ أننا فى عصر من العصور نميل إلى الزخرفة فى المبانى ، وفى العصر التالى نميل إلى التبسيط الشديد . كما نجد أننا فى فترة معينة نعشق الصور المعقدة من الموسيقى والفن والأدب ، ثم نتجه فى فترة تالية إلى البسيط منها الذى لا تكلف فيه . وأحياناً تصبح الحكومات من ناحية السلطة المطلقة فتنشأ الدكتاتوريات ، ثم تنتقل إلى النقيض فتتغلب الفردية وتعود الديمقراطية إلى الحياة .

وقد تعلقت دراسات هويلر الضخمة فى تفاصيل التاريخ المدون لمدى ثلاثة آلاف من السنين . وقد استنتج من ذلك نظام الحوادث فى الماضى ، وبتطبيق هذا النظام على المستقبل يمكنه التنبؤ بما سوف يحدث فى القرون المقبلة . وقد بدأ هذا المجهود الجبار منذ حوالى ربع قرن عندما كان رئيس قسم علم النفس فى جامعة كانساس . وما زالت تنبؤاته طبعاً موضع اختبار وذلك لضخامتها وطموحها .

وقام هويلر أيضاً بدراسة الثقافات المختلفة ، وتراءى له أن السلوك البشرى يتبع هو الآخر نظاماً دورياً ، ووضع رسماً بيانياً تقريبياً لهذه الدورة . وكان هناك فى نفس الوقت عالم آخر هو الدكتور دوجلاس بمرصد « لاول » فى أريزونا يفحص دورة من نوع آخر بدراسة حلقات أشجار الصنوبر الأصفر بأريزونا البالغة من العمر ألفاً وخمسمائة عام . فوجد أن هذه الحلقات تكون سميكة فى بعض السنين رقيقة فى بعضها الآخر . فخمن أن السمك ناتج عن الرطوبة والرقة عن الجفاف ، وعليه يكون تاريخ الجو فى مدى ألف وخمسمائة عام مكتوباً على حلقات هذه الأشجار . وبمراجعة ذلك على ما هو مسجل عن الجو فى هذه المدة وجد أن الفكرة سليمة . وبعد دراسة مليون حلقة تمكن دوجلاس من رسم النتائج فوجد أن منحنى الجو يدل على تعاقب فترات الحرارة والبرودة وكذلك الرطوبة والجفاف بانتظام . بل وأكثر من ذلك ، فقد اتضح أن هذا المنحنى ينسجم تماماً مع منحنى هويلر الثقافى . إذ يتخذ سلوك الناس اتجاهاً معيناً فى فترات الدفء الطويلة ، كما يتخذ اتجاهاً آخر فى فترات البرودة .

لكن هذه الأبحاث عرضة لنقد واضح ، إذ أنها قاصرة على أريزونا فقط . فما بال بقية العالم ؟ هل هناك نظام عالمى مماثل ؟ — لكى يصل هويلر إلى الإجابة عن هذا السؤال وسع نطاق أبحاثه كثيراً منذ حوالى عشرين سنة بمعاونة أربعين مساعداً . ولما كانت السجلات الجوية المعتمدة لا ترجع إلى أكثر من مائة عام اضطرت جماعة الأبحاث إلى الاعتماد على أدلة غير مباشرة لمعرفة تاريخ التغيرات الجوية العالمية . فاستعانوا بدراسة حلقات بعض الأشجار الضخمة فى كاليفورنيا التى يرجع تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنة . كما استرشدوا بالمجاعات والأوبئة المذكورة فى الإنجيل والتى كانت تحدث فى أوقات الحرارة والجفاف . كذلك استفادوا مما هو معروف عن أوقات تكون الجليد وأوقات تشققه على الأنهار الروسية ، وهذه الأوقات مسجلة بعناية ، لأن تجارة الدولة كانت تعتمد كثيراً على الملاحة النهرية . كما استعانوا أيضاً بعشرات الآلاف من أمثال هذه الحوادث التى تساعد فى التأريخ للجو .

وقد اتضح من مقارنة الحوادث توافق عالمى غريب له مئات الشواهد . مثال ذلك أن رقة حلقات الأشجار فى كاليفورنيا دلت على فترة جفاف شديد فى العشر سنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وقد حدث فى نفس الوقت وباء وقحط فى مصر ، كما عانت الهند والصين من جفاف شديد وقلة فى المحصول .

ومما استنتجته جماعة الأبحاث أن التغيرات الجوية تعيد نفسها بنظام ثابت يتبع دورة ضخمة مدتها ١٠٢٠ سنة تحتوى فى ثناياها على دورات أصغر مددها ٥١٠ سنة ، ١٧٠ سنة ، ١٠٠ سنة .

اتجه بعد ذلك هويلر ومساعدوه إلى بحث أنواع السلوك البشرى فى أجزاء المنحنى المختلفة ، فاستعانوا بكتب التاريخ ووجدوا أدلة واضحة على انتشار طراز معين من السلوك فى فترات الحرارة وطراز آخر فى فترات البرودة . إذ تميزت فترات الحرارة بالاستبداد والدكتاتورية والحروب العالمية وتطرفات أخرى كثيرة . فيكاد يقع ظهور جميع القواد

الحربين العظامى فترات الحرارة ، مثل وليام الفاتح وشارلمان ونابوليون ، وأخيراً أيزنهاور وروميل . وقد حدثت تسعون فى المائة من اضطهادات اليهود فى فترات حرارة .

أما فى فترات البرودة فتجد الحوادث تختلف عن هذه كل الاختلاف . فعندما يهبط الترمومتر العالمى ولو بضع درجات تجد الفردية تظهر وتتغلب ، فيحرر الأفراد أنفسهم من نير الاستعباد . فقد وقعت الثورة الفرنسية وتحرير أمريكا فى فترة برودة . وفى نفس الوقت ظهرت المبادئ الديمقراطية فى جهات أخرى من العالم ، فاشتعلت نيران الثورة أو الحروب الأهلية فى الأماكن المتباعدة — سيام والمكسيك والهند وتركيا وبلجيكا . كما قامت أغلب حركات الإصلاح الاجتماعى فى فترات مماثلة . فى فترات برودة ظهر المسيح والامبراطور قسطنطين ودانتى وشوسر ولوثر وكلفن وواشنطون ولنكولن وأكثر من تسعين فى المائة من الملوك الذين يصفهم التاريخ « بالعظمة » .

وفى عام ١٩٣٥ وضع هويلر قائمة بتنبؤاته عما يتوقع حدوثه فى العالم لغاية عام ١٩٥٠ . فقد تنبأ بموسم حرب قبل ١٩٤٠ وهى نبوءة حققها هتلر . كما توقع مجموعة أخرى من الحوادث عقب عام ١٩٤٤ يتميز بها ختام طور حار طويل جلب معه حربين عالميتين . وعندما يبدأ العالم فى البرودة تنتعش الديمقراطية من جديد . وقد حدث ذلك بالفعل ، فقد اكتسبت الاستقلال كل من الهند والباكستان وبورما والفليبين واثنتا عشرة دولة أخرى يبلغ مجموع سكانها ستمائة مليون نسمة .

وستميل المدة الباقية من هذا القرن على العموم نحو البرودة ، يرتفع فيها الترمومتر لفترتين قصيرتين فقط فى عامى ١٩٥٢ ، ١٩٧٠ . ولما كانت الحرب تكاد لا تقع إلا فى فترات الحرارة ، فإن هاتين السنتين ستكونان من مواطن الخطر ، فإذا اجتزناهما بسلام ضمنا السلم حتى عام ٢٠٠٠ ، حيث نبدأ الدخول فى دور حرارة من جديد . وفى ذلك العام يتوقع هويلر أزمة عالمية شديدة ، لأنه عندئذ تجتمع الدورة التى مدتها ٥١٠ سنة مع تلك التى مدتها ١٧٠ سنة . فكلما اجتمعت هاتان الدورتان فى الماضى انقرض عالم قديم ونشأ آخر حديث . فقد حدث مرة أن انهارت روما ومعها امبراطورية شارلمان ، وفى مرة أخرى انقشعت ظلمات العصور الوسطى بحلول عصر النهضة . فإذا صدقت هذه التنبؤات فعلينا أن نتوقع عالماً جديداً فى سنة ٢٠٠٠ .

فعلى أى صورة سوف يكون هذا العالم ؟ يعتقد هويلر أنه ستحدث نهضة أكثر شمولاً من سابقتها التى حدثت فى القرن الخامس عشر . وأن العالم الجديد سوف لا تتحكم فيه الشيوعية ، بل ديمقراطية جديدة أوسع مدى وأبعد أثراً من أى ديمقراطية عرفها العالم حتى الآن .

حسين محمد حبيب

« لا ! »

« اللهم اجعلها « لا » الناس ولا تجعلها « لا » المرأة »

« لا » لم تزل فى القلب حائرة ... كالنصل تخفى لسنها الذكر

بعض الجروح تظل فاغرة ... أفواهها الموت تنتظر

والبعض تنسى وجه قاتلها ... وتروح والنسيان تأتمر

ولى الربيع ، وليس ترجعه ... أزهارها الورق ، ولا المطر

وقنعت من دنياى أن تركت ... بعضى يدق بصدره وتر

نبع ، ولا ماء ! وأعجبه ... أن يستقى من حوضه البشر

يا دمية ! خرافها دعت ... عبثاً ، وهو يصنعها ضجر

« اللا » فى شفتيك أغنية ... فيها يغازل أرضنا القمر

الأمر أمرك أنت سيدتى ... بل أنت من الروح والبصر

ماذا أريد ؟ وكل ما اشتهيا ... شفتاى فى شفتيك مزدهر

إنى لأسأل كلما هجرت ... نفسى المنادمة : وأين القدر ؟

لكننى — والجرح يوخزنى ... ماذا أقول ، وفى فمى حجر

• • •

ورسائلى ما كنت أكتبها ... لولا حنين فى يختصر

صوت ينادينى فأتبعه ... وأقول : وأنت ! فيكذب الخبر

(بغداد) ... عبد الوهاب البياتى

١ — عودة إلى قراءة كتابين

(ا) سياحة حول غرفتي

(ب) أرواح بادية للعيان

هذان الكتابان هما من الكتب التي لا تبلى جدتها . ألف الكتاب الأول « الكونت زافييه دي ميستر » (١٧٦٣ — ١٨٥٢) وهو كاتب من الكتاب الأذكياء . وهو من نصراء الملكية في فرنسا .

وكتابه هذا مجموعة لطيفة من المقالات القصار . صقلت فتألقت كلآلئ العقد النضيد . واستمد عنوان كل مقالة من تلك المقالات من وحي الأشياء التي تحتويها غرفته .

أما زمن الكتاب ومكان تأليفه فكان أيام أن سجن اثنين وأربعين يوماً قضاها مقبوضاً عليه في سجن مدينة « تورينو » . وكان يومئذ ضابطاً من ضباط الجيش الروسي .

وهو يحسب الأشياء التي كانت تحيط به في غرفته كأنها مجموعة من الاستعارات المجازية يقرأ فيها صوراً كاملة من صور الحياة الانسانية .

وهو يصف وصفاً ممتعاً فوائد هذا النوع من الرحلات التي سماها « رحلات إلى جانب الموقد » . وهو مستغرق في حالات ثلاث من حالات الفراغ : فراغ الذهن . وفراغ القلب . وفراغ الجيب . وهو يرى القارئ مدى ما ينعكس في مرآة روحه من متعة ولذة باستمتاعها بوصف الأشياء التي تزخر بها غرفته ، كالسرير ، وصيوان الكتب ، و « بذلة السفر » ، وأدوات التصوير ، وآلات الموسيقى .

وهو يصور لنا السرير كأنه بداية العالم ونهايته . وصيوان الكتب كأنه إطار بديع حوى أعظم المثل العليا في هذه الدنيا .

وهو يطيل التأمل في صورة من الصور التي يحتويها ذلك الإطار ، وهي صورة إبليس كما وصفه الشاعر « ملتون » وهو إذ يتحدث عن « بذلة السفر » يرينا أثر الملابس في أخلاق الناس . ثم يصور لنا الأثر الذي تحدثه زيادة نجمة من النجوم في بذلة ضابط من الضباط ، وأثر ذلك في حالته النفسية .

وهو إذا تكلم عن الجسد جعل لهذا الفصل عنواناً هو : « الحيوان » وهو يعرف ذلك الجسد أو ذلك « الحيوان » بأنه خادم الروح ونائبها . وهو يصف « الروح » بأنها تلك « الخطية » التي تنأى أحياناً عن ذلك الخادم ، وتمنحه الصدود ، وذلك حين يكون العقل مستغرقاً في حالة من حالات الشرود . وحينئذ تمسك يد ذلك الحيوان — في غير انتباه — بالمسمار المحمي ، فيصيب الاحتراق تلك اليد .

وأدق الصور التي جاء بها الكاتب في كتابه هي صورة تلك الحسناء الفاتنة التي تتبع عيناها كل من يرنو إليها . ولكن المحب الذي يظن أن هاتين العينين إنما ترنوان إليه وحده . إنما هو محب قد فقد عقله . ذلك لأن كل متطلع إلى مفاتن تلك الحسناء يرى نفسه أنه هو الحبيب المرموق الموموق ، مهما كثر عدد أولئك المحبين ومهما توحد زمن التطلع ...

* * *

أما الكتاب الثاني : « أرواح بادية للعيان » فقد ألفه « جماليل برادفورد » (١٨٦٣ — ١٩٣٢) وهو كاتب أمريكي اختص بكتابة التراجم .

وكتابه هذا سلسلة من الصور الوصفية لطائفة من الأدباء الذين اشتهروا بكتابة الرسائل ؛ وبذلك أتاحوا للمؤلف أن يظفر بالدلائل التي تدل على طبيعة نفوسهم .

وكل أولئك الكتاب . قد عاش حياته عزباً إذا استثنينا « إدوارد فتزجيرالد » (١٨٠٩ — ١٨٨٣) (وهو الشاعر الإنجليزي الذي ترجم رباعيات الخيام) فقد تزوج في أخريات أيامه . والمؤلف يعنى العناية كلها بذكر عاداتهم وهم يعملون . ويذكر ميولهم من ناحية المال والشهرة ، ويشرح علاقاتهم الغرامية والسياسية والإخوانية .

وهو إذا تكلم عن « فولتير » اتخذ دليله ومرشده حب ذلك الرجل للانسانية عامة وولعه برفع مستوى أفرادها .

و « فولتير » في نظر المؤلف هو في زمنه أجمد رجال

العقل صوتا وأكرمهم أثراً . وقد كان معاصروه من الطبقة المحافظة يصمونه بأنه كان هداماً . بينما كان الداعون والمعجبون به يستطيبون سخريته اللاذعة بالمجتمع الفاسد الذي ولد فيه .

أما الشاعر الإنجليزي توماس جراي (١٧١٦ – ١٧٧١) ذلك الزاهد الناسك . فكان رجلا خجولا . وكان يقضي أيامه في القراءة والتفكير ، وقد امتاز أسلوبه بالبساطة . وكان « جراي » يشكو التفاهة التي لا حد لها . تلك التفاهة التي يرى هو أنها من صفات الأقوام الذين يوصفون بالعظمة . وكان ينعى عليهم أعمالهم التي يصفونها بجلالة القدر .

وهو وإن كان المرض لم يتعهده إلا قليلا فإنه كذلك لم يتمتع بالعافية إلا قليلا . وقد يكون ذلك راجعاً إلى إجهاد عقله وإلى قلة رياضة بدنه . فأصابته من جراء ذلك حالة من الانقباض والغم .

وكان يكره ما كان يسميه « بالعراء الوحشي » وإن كان يقول إن التفاهة البغيضة كانت تملك عليه مشاعره . كلما تم مشاهدة نجاد اسكتلندة أو مشارف جبال « الألب » .

وكان يرى المتعة كل المتعة في حديقة يمشي بين نبتها وزهرها وفي الطيور وقد كتب لها الإياب من مهاجرها . وفي الفصول وقد تتابعت بين ربيع وصيف ، وخريف وشتاء . كما كان يرى المتعة في مشاهدة آثار « الفن الإيطالي » وآثار العمارة على الطراز القوطي .

ولما رفض أن يكون شاعر الدولة قال في أسباب رفضه إن الثناء الذي يعتز به ويفاخر إنما هو ذلك الثناء الذي يجيئه على لسان القلة من قضاة الأدب الحقيقيين الذين تفرقوا في أقطار هذه الدنيا .

أما الكاتب الإنجليزي «هوراس والبول» (١٧١٧ — ١٧٩٧) الذي كان أبوه رئيساً للوزارة فقد كان وسيطاً بين دنيا الأدب وبين دنيا العمل . وكان كأنه يمسك بيده مرآة تبدو فيها صور الأخطاء والحماقات وألوان الفتنة التي يفتتن بها من يسمون بالأقوام المصريين . وقد كان همه ووكده أن تظل تلك المرآة دائمة الصقل واللمعان .

وقد كان أبوه — كما أسلفنا القول — رئيساً من رؤساء الوزارة النابهين . ولذلك فقد عاش ولده في جو يحوي عبير الملوك وبلاط الملوك . وكان يعيش حياة ناعمة مترفة ، فكانت رسائله أشبه برسائل «فولتير» في التعبير عن روح عصرها . وكان يصور بمثل أدوار تلك الحياة كما كان يصور مشاهد تلك الحياة في صورة قصة ذات طلاوة .

وقد عاش حياته كلها مولعاً بالفنون الجميلة ، ولكنه ولع الهواة لا ولع الدارسين المتعمقين . فكان يأخذ الأمور من أقرب مواردها وذلك لعجزه عن أخذها من أعمق مواردها .

ويوم كان في الرابعة والعشرين من عمره كان يقول إنه لا تستهويه العيون التي في طرفها حور ، ولا يدغدغه الهيام ! ومصداق هذا القول أن حبه لمدام « دى دفان » قد طاف بقلبه طائفه يوم كان هو في الخمسين من عمره . وكانت هي في السبعين من عمرها . وكان غرامها به غرام كاتب في السادسة عشرة من عمرها .

وأما الشاعر الإنجليزي « كوبر » (١٧٣١ — ١٨٠٠) فكان مثالاً للشخصية المزدوجة ! فهو في إحدى ناحيتيه جد رقيق الحاشية ، ذو خلق رضي ، يهوى اللهو البريء . وله القدرة — إذا شاء — على الابتسام ، بل على الضحك .

وهو في الناحية الأخرى رجل متزمت في مسائل الدين . وقد جاءه هذا التزمت من ناحية كيانه العليل ، ومن ناحية عقيدته الدينية التي جعلته من القانطين من رحمة الله ، والتي كانت تصور له أنه غير ناج من العذاب ، وأن مصيره إلى سواء الجحيم .

أما الكاتب والناقد « شارلس لام » (١٧٧٥ — ١٨٣٤) فكان طوال حياته حليف الوساوس والأوهام . ويرى المؤلف أن « لام » يمثل شخصية المهرج التي جاء بها «شكسبير» في رواياته ! فهو يجمع بين المرح والسخرية ، وهو يجمع كذلك بين رقة الشمائل وبين الحب والحكمة .

وكانت الخمر عدوه الطبيعي ، بل كانت أمق عدو له . ذلك لأن عقله غير المتزن كان من السهل أن يطيح به قليل من الخمر .

وكان « لام » فوق ذلك من أكثر الناس حفظاً لعهود إخوانه القليلين الذين كان يحبهم . وهو يرى أن لغز هذا العالم لا يحل طلاسمه إلا الحب والضحك .

وكان « تاكيراى » يسميه « القديس شارلس » .

وكان « كيتس » يرى فيه إنساناً عاقلاً رزيناً . وليس خيالياً . ولا حالماً . وأنه قد أوتى قدرة على الإبداع لا حد لها . كما أوتى جنون العباقرة .

والشاعر « كيتس » هذا (الذى مات فى السادسة والعشرين من عمره) كان يقول عن نفسه : « إنى أبالغ فى كل الأمور . ولست أومن بأن خير الأمور الوسط . فأنا إذا غضبت غضبة تافهة تطور الأمر فى بضع دقائق فأصبح مشكلة من المشاكل الكبرى ، ليس من يحلها غير من كان فى قدرة الشاعر اليونانى سوفوكليس » (٤٩٥ — ٤٠٦ ق . م) .

أما حب « كيتس » لـ « فانى برون » فقد حال المرض دون أن يبلغ الحب مداه . وقد أحال هذا الحب ساعاته الأخيرة إلى جحيم وأنكال .

ويرى المؤلف أن « كيتس » إنما قتله الحب والمجد . ولو أنه كان قد عاش عيش الحمق الجهال لما عرف مرض السل الطريق إليه .

وأما الروائى الفرنسى « فلوبير » (١٨٢١ — ١٨٨٠) فيرى المؤلف أن مثله العليا قد جعلته يدقق فى اختيار أصلح الكلمات وأوفاها بالمعنى المراد ؛ فقد كانت جملة من الجمل تكلفه ساعات بل أياماً من العناء والجهد . وكان الفن عنده هو الحياة . وروايته « مدام بوفارى » (وهى دراسة نفسية لامرأة طبيب من أطباء الريف اضطرت إلى الانتحار إثر حوادث غرامية غير موفقة) ، تعتبر نصراً مؤزراً للفن « فلوبير » . أما رسائله فتعتبر نصراً له كرجل من رجال الفن .

أما الشاعر الإنجليزى « إدوارد فتزجيرالد » (١٨٠٩ — ١٨٨٣) فكان رجلاً واسع الخبرة ، ولكنه لم يحسن الانتفاع بخبرته ؛ ذلك لأنه كان رجلاً بليداً . وكان يقول هو عن نفسه : إنى لأظننى أستحق اللعنة أشد اللعنة على ما أنا فيه من الركون إلى البطالة والكسل . .

٢ — رائد من رواد الطب

أو ترجمة حياة الدكتور إدوار جينر

(١٧٤٩ — ١٨٢٣)

كتاب من تأليف و . ر . لى فانى

منذ نيف ومائتى عام ولد هذا الطبيب الذى اخترع المصل المضاد لمرض الجدرى . وما شاد الناس بذكر هذا الطبيب من قبل مثل ما يشيدون بذكره اليوم . ذلك لأن المترجمين لحياته لم يعنوا العناية الواجبة بدراسة تلك الحياة .

وأول أولئك المترجمين كان « جون بارون » وقد نشر كتابه الذى سماه حياة « إدوار جينر » فى جزءين . ولكنه عجز عن استساغة وهضم المصادر التى استقى منها مادة كتابه ، فما استطاع أن يجعل منها غذاء كاملا .

ثم جاء بعده « كروكشانك » فأصدر فى عام ١٨٨٩ كتاباً سماه « حياة ورسائل دكتور جينر » وكان هذا الكتاب مصيبة خبيثة على المترجم له . فقد كتبه كاتبه بقصد التشنيع والتعيير . »

ثم ظهرت بعد هذين الكتابين كتب أخرى نشر بعضها فى حياته . ولكن أكمل الكتب وأحقها بالثقة لم يكتب بعد . واليوم نرى أن خطوة إلى الأمام تنبىء بالخير قد خطاها مؤلف هذا الكتاب الذى نحن بصدده ؛ ذلك لأنه — وهو مدير مكتبة كلية الجراحين الملكية بإنجلترا — قد أتيح له الاطلاع على كل ما ييسر له الدراسة ، ويمكن له فى البحث .

وهو يقرر عن يقين وصدق اقتناع أن الدكتور جينر كان طبيباً لا يشق له غبار . وكان كذلك عالماً حجة من علماء العلوم الطبيعية . وليس كما تقول الأسطورة إنه كان طبيباً مغموراً من أطباء الريف قد واتاه الحظ الحانى فعرف دواء يقى الناس شر العدوى بمرض الجدرى . وكان الناس — فى زمنه — متلهفين التلهف كله على هذا الدواء . . .

وفى الفصل الذى عقده المؤلف على تجارب الدكتور جينر ومشاهداته يؤكد أن جينر مدين بنجاحه لأستاذه الدكتور « جون هنتر » الذى ظل يسترشد بآرائه ويهتدى بهديه زهاء ثلاثة وعشرين عاماً قضاها متقفاً عليه .

والدكتور « هنتر » هو الذى قال له « جينر » فى عام ١٧٧٥ قولته المشهورة وهى : ولماذا تفكر ؟ ولماذا لا تحاول أن تجرب ! وكان ذلك بمناسبة البحث فى درجات الحرارة التى تكون عليها أجسام القنافذ فى أيام « السبات الشتوى » . والدكتور « هنتر » هـذا هو الذى كتب « لجينر » يوم منى الأخير بفشل فى قضية من قضايا الحب : لا تبال بهجرها ! فانى موكل إليك موضوعاً سوف يملك عليك لبك . وقوام هذا الموضوع هو دراسة القنافذ !

وكانت عادات الطائر المسمى بالوقوق هى من المسائل التى كانت تشغل خاطر « هنتر » وتلميذه . وقد حدث أنه بعد أن قدم « جينر » خلاصة بحثه عن عادات هذا الطائر . أن أتيح له أن يكتشف كيف يتخلص « الوقوق » من بيضه وفراخه ، وكيف يزعجها من عشه ؛ ولذلك فقد طلب هو أن تعاد إليه رسالته المخطوطة ليزيد عليها تتمة أبحاثه .

(ويقول صاحب كتاب معجم الحيوان : إن الوقوق هو طائر على قدر الحمامة يشبه الباذق ، كثير الصوت وقواق ، وهو لا يحضن بيضه ، بل يلقيه خلسة فى عش طائر آخر ، فإذا خرجت فراخه من البيض زقها الطائر الآخر صاحب العش ، أى أنه يسرق تعب غيره) .

هذا وقد يبدو غريباً أن التحقيق فيما تم على يدى جينر من أعمال سوف تبقى على الدهر ، قد كان مصدره كلية الجراحين الملكية بدلاً من كلية الأطباء الباطنيين .

وربما كان هذا راجعاً إلى أن جمهرة الوثائق القيمة التى خلفها « جينر » تحتويها اليوم مكتبة كلية الجراحين . ومنها تلك المخطوطة التى عنوانها : تحقيق فى التاريخ الطبيعى لمرض ظهر فى مقاطعة جلوسسترشير وعرف باسم جدرى البقر .

وهذه الوثيقة قد حصل عليها من عائلة « جينر » سير جيمس باجت فأهداها إلى كلية الجراحين فى عام ١٨٧٩ .

وقد نشر لأول مرة الكتاب الذى ألفه « جينر » بصوره الجميلة الملونة عام ١٧٩٨ ثم أعيد طبعه عام ١٨٠٠ بعد أن أضيفت إليه زيادات .

وسرعان ما ترجم هذا الكتاب إلى اللغات الفرنسية والألمانية والإيطالية والبرتغالية ، فذاع صيت المؤلف فى أوربا كلها .

ولكن طريقة العلاج التى ابتدعها لم تحز القبول فى أى مكان ولا تستثنى البلاد الإنجليزية .

وفى عام ١٨٠٢ تقدم الدكتور « جينر » إلى البرلمان يطلب الاعتراف باكتشافه فمنحه البرلمان منحة مالية مقدارها عشرون ألفاً من الجنيهات .

ومما تجدر معرفته أن الطبيب سير رونالد روس (١٨٥٧ — ١٩٣٢) تقدم إلى البرلمان الإنجليزى فى عام ١٩١٣ يطلب تعويضاً ماليًا عن اكتشافه لطفيليات مرض الملاريا وعن دراسته لتطورات تلك الطفيليات ، ولكنه لم يظفر بتقدير البرلمان .

ومات الدكتور « جينر » وهو فى الرابعة والسبعين من عمره . مات وهو عارف لقدر نفسه . مات وهو عارف أنه واحد من كبار الذين أحسنوا إلى بنى الناس ...

مبارك ابراهيم

ندوة القلم

من شعراء الطبيعة :

فرانسيس تومسن

أو

الشاعر المعدم

كان تومسن صبياً حالماً خجولاً ، بعد أن قضى حياة شقية ومرت عليه أيام حالكة فى المدرسة . وفى عام ١٨٧٨ بعث به والده الطبيب إلى « مانشستر » لدراسة الطب . وبينما كان المفروض فيه الإقبال على دراسة التشريح ، صار يصرف ساعاته فى المكتبة ليطالع الشعر . ومرت الأعوام وشاعرنا يلاقى فشلاً أثر فشل فى امتحاناته ، حتى تهاوى صبر أبيه الرقيق وانهدّت قواه حين لاحظ أن مطامح ابنه الأدبية قد لا تثمر شيئاً . وعليه نُبذ الشاعر ونفسه لتدبر أمرها . وفى حالة يرثى لها من التدهور الجسمانى المتتبع والناتج خصوصاً عن طيمة تناول الأفيون ، وصل لندن خاوى الوفاض بدون مال ، سوى ما يحتويه متاعه من دواوين شعر لـ « بليك واخيلوس » وضع كل منهما فى جيب ! وراح يجوب الطرقات وهو بأسماله الرثة . فكان يقضى ليله نائماً على الأرصفة والجسور . وبشق النفس كان يحصل على القرش الأبيض من مهنته « مساح أحذية » ثم ما لبث أن اندفع يبيع الشخاط والجرائد فى الميادين . وكان الحزن العميق هو الذنب الأول للقدّر ، والذى حفر كل الأوجاع البدنية فى هيكله العليل ، والعلاج الناجع الوحيد الذى وصفه لنفسه هو : « اشف نفسك أيها الطبيب » .

وفى عام ١٨٨٧ عندما تبدى له بصيص من الأمل ، قدم عدة مخطوطات من شعره إلى ولفريد ما ينيل محرر مجلة « ميرى انكلاند » التى حالما وقعت عيناه عليها صعقه الدهش لشدة متانتها وقوة أسرها . فبعث حالاً فى طلب ناظمها الذى ظهر فى غرفة التحرير « اخشن وأزرى حالة من متسول عادى . مرتدياً سترة ليس خلفها قميص وبأقدام عارية داخل حذاء مثقوب » . وكانت تلك الزيارة من أروع القصص فى تاريخ الأدب الحديث . وبعد إقناع وإلحاح رضى تومسن بضيافة ولفريد ما ينيل وزوجه إليس ؟ ذلك لأن شعره بالرغم من قلته وعوزه إلى مساندة شعبية ، هو فى طريقته الخاصة يعد أعظم شعر فى تلك الفترة . وبقى تومسن فى ملجئه من بيت ماينيل حتى آخر لحظة من حياته . وحين ازدهر اسمه وسمت شهرته فيما بعد ، كان والده يقرأ اسمه مقروناً بأسماء شيلى وتينسن وغيرهما حتى تأخذه الدهشة فيقول : « ياالصبى ! ما ضرّ لو أخبرنى قبل الآن ! » .

يعدّ تومسن أعظم شاعر صوفىّ فى الأدب الانكليزى ، وكان ذا نفسية بسيطة وروح صافية ميالة لحب الأطفال . ويعتبر تومسن غروباً لشمس القرن التاسع عشر ذات الروعة الأخاذة . وقد توّج رأسه بتلك الصور المسرفة بالألوان الروحية من خريدته « أغنية إلى الشمس الغاربة » كقوله :

« إيه أيها اليوم المسن تطامن للغروب
فإن مسائك يترنم حولك عند الهبوط .
جليلاً كان موكبك المشرق الاحتفالى »
« ولكنك فى غروبك نما كى مهرجاناً عظيماً
متقلاً بضوضاء السماء
وعصفة موسيقاك الرثية تصم آذان الفضاء
وصنوجك تصطفق لتشعل أديم المغرب
أنت تصنع أيها النهار فناءك بظفر واعتزاز
فإنى أرى القرمز يدوى من مزاميرك ! »

وإن أحلامه للنفقة البهية ليست سوى هروب من مرارة الحياة . ولقد وجد سلوته فى التصوف الدينى ، فله قصائد راقية وعبادة نقية فى « أغانى الأخت » وله « كلب السماء » و « حب فى حضن دبانا » . وفى قصائده عن الأطفال

تم عبير الرحمة بخضوع من أيائها . وكان يدعو طفل القرية حين يصادفه زهرة « الأقحوان » . ومن خاصة هذا الشاعر أنه جمع من الحوادث التافهة ومن تلك الأيام السائرة قصائده الموسومة بـ « الوسيق الذهبية » وحين شاهد الغروب فى ستورنكتن أرسل نشيده الخالد المعروف .

وفى الأيام السالفة لوفاته ذهب كريض خصوصى إلى مستشفى سان جون فى غابة سان جون ، وهناك فى الثامن والأربعين من عمره ، فى ١٣ من نوفمبر عام ١٩٠٧ مضى إلى العالم الآخر وقت الفجر — الفجر الذى كان ساعة موته فى قصيدته « الحلم الموعود » . ورقد فى كنيسة سانت مارى وفى كفنه حفظت ورود من حديقة الشاعر الكبير جورج ميردث . وقد كتب عليها ميردث يقول : « حزمة صغيرة من شاعر وفى » . وهناك أيضاً البقسيج الجاف على صدر الشاعر الميت والمقدم من تلك اليد التى طالما غنى بها الشاعر غناءه القدسى . وانتحب الأصدقاء المخلصون ، لا من أجل فقده فقط ، بل من أجل أغانيه . لقد جعل جميع الناس مدينين له ، تاركاً لأولئك الذين أحبوه ذكرى تلك الشخصية الفرحة ، وإلى الشعر الانكليزى ذلك الاسم الذى لا يموت .

(بغداد) ضياء الشماع

الحكومة فى رأى جوته

الحكومة العاقلة تعامل الناس كما لا كما ينبغى أن يكونوا .

● ● ●

وخطا الرجل الهرم بين الشاب والفتاة وصاح بأعلى صوته : هذه الأرض يحكمها ثلاثة : الحكمة والظاهر والقوة .

● ● ●

يتوقف كل شىء فى الدولة على السلطة التنفيذية . و مهما خولنا السلطة التشريعية من سلطات وتعود فالدولة عاجزة من التقدم إذا كانت السلطة التنفيذية قد سرى فيها الفساد .

● ● ●

التحكم فى شئون الناس سهل . أما حكمهم فمن الصعوبة بمكان .

● ● ●

ما خير الحكومات ؟ تلك التى تعلمنا كيف نحكم أنفسنا .

● ● ●

لينصرف كل فرد إلى إظهار نشاطه فى دائرته الخاصة وحدها بحزم وإقبال . وستجد ذلك أجدى على المجتمع فى النهاية وأكثر خدمة للصالح العام .

● ● ●

العظمة وحدها خليقة بأن تكسب الحاكم حب شعبه وتعلقهم به . . وهو إن جاهد حتى جعل دولته سعيدة فى الداخل مرموقة بالاحترام فى الخارج ، فله أن يخرج إلى شعبه فى عربة مفتوحة مطمئناً إلى حب الناس له متمتعاً باحترام الكافة إياه . . أما إذا لم يجد فى نفسه العظمة ولم يقم بأعمال تجذب إليه قلوب الجماهير فلن يحميه شىء منهم ولو تعدد الحراسة على شخصه التافه .

● ● ●

لاينكر أحد أثر المناخ على تكوين الإنسان الجسمى . . غير أن مالا يعلمه الكثيرون هو أثر شكل الحكومة وما يستتبعه من خلق جو معنوى على تكوين ونمو شخصية الإنسان . . لا أقصد بذلك العامة والغوغاء بل السامين من أبناء الشعب .

حسين أحمد أمين

ورد إلى المجلة كتاب :

فى موطن جبران خليل جبران

بقلم

الأستاذ محيي الدين رضا

المحرر بجريدة المصرى

وهو مجموعة صور ومشاهدات من ماضى لبنان وحاضرها .

ويقع فى ١٩٢ صفحة من القطع المتوسط

نقد

هرون الرشيد

للأستاذ نقولا الحداد

حضرة الكاتب المحقق الدكتور أحمد بك أمين :

أشكر لك كتابك القيم عن هرون الرشيد وأهنئك لتوفقك في تأليفه . هو كتاب نفيس جداً . ولا أظن مؤلفاً آخر أجاد كما أجدت في وصف حياة هرون الرشيد ووصف الأحوال الاجتماعية والسياسية في عصره وحول عصره .

وقد لفت نظرى دفاعك عن أخطائه . وفحوى الدفاع أن عذره في ظروف عصره التي اقتضت تلك الأخطاء . ونحن نعلم أن الحق والصواب عنصران أذليان مطلقان في كل مكان وزمان . فلا شأن للبيئة ولا الظروف فيها . فالخطأ خطأ في أي زمان .

عفواً . لم تدافع عن جريمة الرشيد الكبرى ، في قتل أخته العباسة وولديها ، في حين أنه هو الذي أمر بزواجها من جعفر وأخذ عليه عهداً ألا يمسها ، على حين أن مساسها توجبه الطبيعة البشرية وتحله الشريعة السماوية . فلا حرج في أن يجتمع زوجان شرعيان بمقتضى الطبع ومقتضى الشرع . وهل كان يخفى على هرون اجتماعهما سراً وإنجاب ولدين ؟

قد يكون للخليفة هرون الرشيد عذر في غدره بجعفر وبآله من البرامكة . قد يكون له عذر سياسى ، لأن زوجته زبيدة وبعض ذويه أوغروا صدره على جعفر وقومه ، لأن أمرهم في الدولة استفحل جداً حتى صار يخشى من خطره على الخلافة . ولكن هذا الاستفحال لم يكن جريمة جعفر ، وإنما كان جريمة الرشيد نفسه . لأنه لو لم يترك له ولقومه الحبل على الغارب ما أمكنهم أن يستفحلوا ولا أثروا ذلك الثراء الضخم . كان حريًّا به أن يسهر على ملكه لكيلا يضيع ، لا أن يسلمه تسليماً مطلقاً لجعفر وسائر البرامكة وهم أغراب عنه وعن قومه ، حتى إذا نجحوا في سياسة الدولة وإدارة المملكة وصار الشعب ينظر إليهم كأنهم السادة النبه إلى خطرهم وغدر بهم غدراً لايغفره الله .

قد نعذره بعض العذر في نكبة البرامكة بحكم ظروف العصر كما قلتم . ولكننا لايمكن أن نعذره في قتل أخته العباسة وهي لم تذنب إليه قط ، بل هو الجاني عليها . زوجها من وزيره وحرّم عليها مساكنته . وهذا استبداد لا مثيل له في تاريخ العالم . فهو يختلى ألوف امرأة ويحرم على أخته مساكنة زوجها الشرعى . يحرمها النعمة الطبيعية البشرية . ولماذا ؟ . فهل كان يجد لها زوجاً أفضل من وزيره الذي ساس الدولة وأحسن إدارة المملكة ؟

ثم ماذنب الولدين حتى يقتلهما ! ألأنهما يرمكيان دماً . وهل هما اختارا هذه العصبية أم هو اختارها لهما ؟ لو أبقى عليهما وتركهما ينشآن في عهدة أبيهما لربما صارا من أركان الدولة العباسية ، لأن الوراثة الاجتماعية تتغلب على الوراثة البيولوجية ، بل هذه تختفي في ظل تلك . لو تبنى زوجان مسلمان لنشآت مسلماً بكل معنى الكلمة وكنت متعصباً للإسلام ضد النصرانية . أليس فظيعاً جداً أن يذبحهما بعد أن أتى بهما إليه ، فيراهما حسنى المنظر ويستنطقهما فيجدهما فصيحين ويتكلمان بفصاحة هاشمية . ثم يأمر بضرب عنقيهما .

أى قلب هذا الذي يفعل هذا ؟ .

أى وحش ضار يفترس هذا الافتراس ؟ أليس هرون الرشيد إنساناً ، أم كان حيواناً مفترساً ؟ لاتغتفر لهرون هذه الفظاعة . وقد كان في وسعه أن يستبقى أخته العباسة وولديها وهي تربى الولدين خير تربية على سنة هاشمية وأخلاق عباسية فيصبحان من خير أركان الدولة .

ولكن هكذا يكون بطر حب الذات . وهكذا تكون عقلية الحكام المستبدين الذين يعتقدون أن الناس لهم لا لله .

نقولا الحداد

من بريد الثقافة

— ١ —

حضرة المحترم الفاضل رئيس تحرير مجلة الثقافة الغراء

السلام عليكم . وبعد : نشرت الثقافة فى العدد ٦٥٠ مقالا للأستاذ صلاح الدين المنجد به ملاحظات على الجزء الثانى من الوافى بالوفيات للصفدى وقد جاء فى ص ٢٤ من المجلة قول الأستاذ إن البيت الوارد فى ص ٢٤٥ من الصفدى (يا برق إن تجر العقيق فطالما) وقال الأستاذ الصواب إن تجز بالزاى من جاز يجوز .

قلت لعل الصواب بالراء . ولكن بغير الشكل الذى ضبطه الناشر . فالناشر فتح التاء وضم الجيم . وأظن الصواب ضم التاء وسكون الجيم من أجرى يجرى ، والمراد أن البرق دلالة الغيث الذى يجرى العقيق ولكن سحائب الأجفان أغنت العقيق عن البرق وغيثه . ويكون البيت :—

يا برق إن تجر العقيق فطالما   أغنته عنك سحائب الأجفان

أرجو التكرم بنشر هذا الوجه . لعل الأستاذ المنجد يتفضل بإبداء رأيه فيه . والسلام عليكم ورحمة الله ؟

— ٢ —

حضرة المحترم الفاضل رئيس تحرير مجلة الثقافة الغراء

تحية واحتراماً وبعد : إلحاقاً بكتابى السابق والخاص بمقال الأستاذ صلاح الدين المنجد فى العدد ٦٥٠ من الثقافة أقول إنى أخذت على الأستاذ أمرين فى مقاليه المنشورين فى العدد المذكور وهما :—

١ — ذكر فى ص ٢٣ عند آخر اعتراضاته على ترجمة ابن عساكر فى معجم الأدباء أن كلمة (صنعه) بالعين صوابها (صنّفه) بالفاء وتشديد النون — قلت لا وجه لاعتراض الأستاذ المنجد ، لأننا نرى بعض الكتب القديمة يذكر عنها صنعة فلان (بالعين) . فعبارة آخر ما صنعه بالعين لم تكن تستوجب تصحيح الأستاذ المنجد ...

٢ — ذكر فى ص ٢٤ من المجلة — فى تعقيبه على الجزء الثانى من الوافى بالوفيات للصفدى أن (ملأ) خطأ والصواب (أملى) . وقد وهم الأستاذ المنجد فاعتبر كلمة (ملْء) من الإملاء ، وإنما هى من ملأ الشىء يملأه . والعبارة كما وردت فى ص ٢٩٧ من الوافى تشير إلى أبى منصور الأزهرى وأنه روى عن شيخه الهروى : (فما أكثر مَلْءَ التهذيب بالرواية عنه) — أى ملأ مؤلفه بالرواية عن شيخه — ثم إن الناشر رسم كلمة (ملْء) بوضع الهمزة على ألف هكذا (ملأ) ولكنه ضبطها بالشكل بوضع فتحة على الميم وسكون على اللام وفتحة على الهمزة المرسومة على الألف مما ينفى الوهم ، ويقطع بأن المراد أنها من ملأ الشىء ملئاً ، ويكون الأستاذ المنجد وهم فى اعتبارها من الإملاء ...

لذا أرجو أن تتفضلوا مشكورين بنشر هذا لنرى رأى الأستاذ صلاح الدين المنجد فيه ؟

عبد السلام النجار

معلومات شراعية :

سمعنا فى أحد الأحاديث التى يلقيها الأستاذ فؤاد المدرس بجامعة فؤاد فى الإذاعة المصرية عن السودان حديثاً استعرض فيه مراحل دخول الإسلام فى السودان إلى أن وصل إلى مدينة « تمبكتو » فاستطرد مشكوراً فيما لها من مركز جغرافى هام ومكانة تاريخية عظمى . وأنا أود أن أنبه جنابه مستسمحا منه :

على أن انتشار الإسلام فى « تمبكتو » وما جاورها من السودان الغربى إنما يرجع الفضل فيه للبربر الملثمين المتاخمين لسواحل « غانة » وهم الأولى بنوها فى المائة الخامسة الهجرية بعد بنائهم مراكش فى المائة الرابعة من الهجرة ، فلم تزل من ممتلكاتهم حتى دالت دولتهم على يد إخوانهم الموحدين من « المصامدة » فى القرن السادس الهجرى ، ثم استقل بها ملوك « مالى » من السودان حتى استردها منهم المنصور السعدى فى القرن الحادى عشر الهجرى ، فلم تزل تابعة لمراكش حتى استقل بها موسى بن على الملثمى ، إلى أن احتلتها الحماية الفرنسية فى منتصف القرن الرابع عشر الهجرى بقيادة الجنرال « كولنيل » وتلك حقائق إن كنت فى شك منها فراجع من سجلات التاريخ المغربى ما يلى :

الاستقصاء فى أخبار دول المغرب الأقصى : الناصرى
نزهة الحادى : لابن الحاج المراكشى
تاريخ سودان المغرب : لابن السعد التمبكتى
الأنيس المطرب : لابن زرع
نزهة الأبصار : الصفاقسى
تاريخ تونس : لابن دينار التونسى

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،   محمد مختار

الثقافة

العدد ٦٦٣
١٠ من سبتمبر ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليما

صفحة

الثقافة

صاحب الامتياز AL-THAQAFA رئيس التحرير المسئول

الدكتور أحمد أمين بك — الإدارة — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ – ٥٦٧٦٩

العدد ٦٦٣ — الاثنين ٨ من ذي الحجة سنة ١٣٧٠ — ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

رهـــــان

للدكتور زكي نجيب محمود

هي عشرون جواداً أو ثلاثون ، بعضها في حلبة السباق يلهث من الجري ، وبعضها الآخر في الحظائر يدس رأسه في المذاود ليطعم ، أو يتمرغ على أرض لينة – بما فرشت به من الدريس – ليستجم ويسترخي ! ثم يتبادل الفريقان من الجياد موضعيهما ، فتجيء الخيل السابقة إلى الحظائر فتأكل من المذاود جيد العلف أو تسترخي على الأرض اللينة لتستجم وتسترخي ، وتذهب الخيل المسترخية الطامحة إلى حلبة السباق لتلهث من الجري ، وهكذا دواليك حيناً بعد حين .

وحول حلبة السباق وقفت ألوف البشر ، متلاصقة الأجساد متدافعة بالمناكب ، حتى لتحمر منها الأعين ، وتنتفش الأوداج ، ويتصبب العرق ! هذه الألوف من التعساء المناكيد ، قد تأرقت جنوبها على المضاجع ، لم يهنأ لها في ديارها طعام ولا شراب ، فجاءت إلى حلبة السباق لتبذل من مالها وجهدها ما تستطيع بذله وما لا تستطيع ، رهاناً على الجياد المتسابقة ، حتى إذا ما أتمت الخيل شوطها ، أخذ يعلو في الثراء والجاه من يعلو ، ويهبط فيهما من يهبط ، وللمراهنين في كل يوم حظوظ كتبت لهم في اللوح المحفوظ .

لترقب الوجوه والأجساد في ذلك الزحام ، واستمع إلى ما ينطقون به همساً وصياحاً ، حين تهتز أقدارهم في كف القدر ، معلقة بما هو أوهى من خيوط العنكبوت : هذا واحد قد مط عنقه مطاً ، وشد أوتاره شداً ، ووثب على أطراف قدميه ، وأخذ يدور بناظريه خلال غابة من أعناق المتزاحمين ، لعله يتابع الجياد بناظريه وهي تدور ! فتنبسط في وجهه الأسارير ثم تنقبض مائة مرة في الدقيقة الواحدة ، لأن حصانه الذي راهن عليه يتقدم تارة ويتأخر تارة ، وهو مع الحصان في تقدمه وتأخره يتأرجح انبساطاً وانقباضاً

وهذا آخر يضرب الأرض بقدميه من قلق ، ويضرب كفيه بيديه ، ويزفر آهات متتابعات ، لكنها مختلفات الصوت والمعنى ، فآهة يزفرها مرة ليتوجع ، وآهة أخرى يطلقها ليتشفى ! لأن حصانه هو الآخر لا يفصل بينه وبين الأمل المتصل أو اليأس المتصل ، فأخذ يؤرجحه بين اليأس والأمل .

وهذا ثالث لا يكف عن الصياح إلى الجياد منادياً لها بأسمائها ، يستنهض فيها الهمم ، لأن سنابكها تكتب له مقدار حظه ، وكل ثنية يثني بها هذا الحصان أو ذاك ، لها في حياته هو صدى ، فقد يثني حصانه قليلاً ذات اليمين ، فإذا معنى ذلك أنه رئيس على أترابه منذ الغد ، أو يثني قليلاً ذات اليسار ، فيهبط منذ غده إلى مراتب المرءوسين ، وهلم جرا ! فهو معذور إذا أجهد حلقه بالصياح هاتفاً : « هيا يا [illegible] ! » « شد حيلك بالحيل » ...

والمراهنين في اختيار جيادهم مذاهب ؛ فبعضهم يفضل أن يضع رهانه على جواد سبّاق ، راضياً بالكسب القليل المضمون ؛ ذلك لأن الجواد إذا اشتهر بالسبق ، كثر المراهنون عليه ، وبالتالي قل النصيب عند توزيع الغنائم ؛ وبعضهم الآخر يؤثر لنفسه الرهان على جواد مغمور بعض الشيء ، لأن الحظ إذا أسعف هذا الجواد "الخفي" وكان له السبق ، فاز المراهن بربح موفور لقلة المراهنين ؛ وبعضهم يمسك العصا من وسطها — كما يقولون — حتى لا يفوته طرف اليمين ولا طرف اليسار ، فيراهن على الوجهين في آن معاً .

وأشهد أني عشت ما قد عشت من سنين ، غافلا عن هذا النشاط العجيب الذي يستنفد جهد الألوف من البشر ، فقد كنت أحسب أن الناس جميعاً ينفقون أيامهم كما أنفق أيامي على نحو بارد ممل رتيب : عمل وأكل ونوم ، فعمل وأكل ونوم ، ثم عمل وأكل ونوم ؛ لم أكن أدري أن هنالك ألوفاً من البشر تغمض أعينها على أرق وتفتحها على قلق ، من كثرة ما أضافت إلى حياتها من عوامل الأمل واليأس ، وأسباب الصعود والهبوط ، بحيث لا يكون الواحد منهم في غده ما يكون في يومه ، فهو في كل يوم على حال .

وظللت على غفلتي حتى فتح عيني صديق الطبيب البارع حين ذهبنا يوما إلى دار السينما ، حيث شهدنا فيما شهدناه مباراة في الملاكمة جرت بين ملاكمين قيل إنهما مشهوران معروفان في العالم أجمع — وإن كنت لم أعرف عنهما شيئاً — وحول منصة المباراة جلست أو وقفت ألوف مؤلفة من المتفرجين ، على أشد ما يكون الناس تحمساً واهتياجاً ؛ فكانوا يقفون ويقعدون ، ويلوحون بأيديهم ويخبطون الأرض بأقدامهم ويصيحون على نحو عنيف مثير ، كأنه يوم الحشر قد نفخ له في الصور .

عندئذ ملت نحو صديقي أهمس في أذنه : كيف تبلغ حرارة التحمس عند هؤلاء الناس كل هذا المدى ؟ ألسنا مثلهم ننظر إلى اللاعبين فنرى ما يرون ؟ لماذا — إذاً — ننظر في هدوء وصمت ، وينظرون هم في هذه الضجة الكبرى ؟ كيف يكون بين الناس كل هذه الفروق والمشهد واحد أمامهم ؟!

فضحك صديق الطبيب البارع ضحكته الرزينة الهادئة ، وقال : إن هؤلاء لا يتفرجون على الملاكمة وكفى كما نفعل نحن ، وإلا لما كان هنالك كل هذا الفرق بيننا وبينهم ، لكنهم قد راهنوا بأموالهم على اللاعبين ، فأصبح الأمر عندهم أمر كسب أو خسارة ، ومن ثم هذا الهيجان العنيف وهذا التحمس الشديد .

* * *

وأشهد أني منذ تلك الملاحظة اليسيرة العابرة ، التي قالها لي الصديق الطبيب ، قد فهمت من مجرى السياسة المصرية ما لم أكن أفهمه من تيارات ودوافع ؛ وانكشف لي عن كثير من سرها الذي ليس بالسر عند التابعين المتبعين الذين تغلي عروقهم بدم الحياة ويشتعلون حرارة بوقدة العيش ، وإنما هو سر ينتظر الكشف عند الغافلين المغفلين الذين يجعلون أيامهم عملا وأكلا ونوماً .

في حلبة السياسة المصرية تجيء وزارة وتمضي وزارة ، كالجياد رأيناها في حلبة السباق تجيء وتمضي ؛ وبين الوزراء يجيئون ويمضون ، ما بين الجياد : فمنهم وزراء عاملون قائمون على الحكم ، يشبهون الخيل وهي تجري شوطها لاهثة من الجري ، ومنهم وزراء متعطلون يقضون فترة الراحة ، فتراهم في الأندية والقصور يطعمون وينعمون استجماماً واسترخاء ، استعداداً لدورتهم القادمة — فثلاثون عاماً من أعوام السياسة المصرية قد علمتهم أن الوزارة دورات متتابعة يتولاها فريق بعد فريق ، رضي الناس أو كرهوا .

أما الغافلون المغفلون فيقرءون خبر وزارة تجيء ووزارة تمضي ، على نحو ما كنت مع صديق الطبيب أشهد الملاكمة ؛ يقرءونه خبراً من الأخبار كما يقرءون — مثلا — أن مواعيد القطارات الذاهبة إلى الإسكندرية قد تغيرت مع قدوم الصيف أو حلول الشتاء ، فيترتب على ذلك تغيير يسير جداً في حياتهم ، أو لا يترتب عليه شيء قط ، إن لم يكونوا من أصحاب السفر والانتقال — وهم في كلتا الحالتين يقرءون الخبر بجنان ثابت وأعصاب هادئة ، ولا يكادون يفرغون من قراءته ، حتى يلقوا بالجريدة جانباً ، ليمضوا فيما هم ماضون فيه من عمل وأكل ونوم .

وأما التابعون المتبعون فليست هذه حالهم ، فهم أشباه هؤلاء الألوف الذين شهدناهم حول حلبة السباق يراهنون بجهدهم كله ومالهم كله على هذا الحصان أو ذاك ، ثم يقفون بعد ذلك في تشوف وتطلع وقلق وأرق وانتظار ؛ ترى هل يكتب لهم في ميدان السباق صعود أم هبوط ؟ ترى هل يخرجون من الزحام ظافرين أم خاسرين ؟.

ويختلف الراهنون في ميدان السياسة المصرية أحزاباً على نحو ما رأينا الراهنين في حلبة السباق يختلفون مذاهب : ألم تر فريقاً من الراهنين على الجياد يفضل الرهان على جواد كسبه قليل لكنه أكثر ضماناً من غيره لأنه سبّاق ؟ وفريقاً آخر يؤثر الرهان على جواد مغمور بعض الشيء لكن كسبه غزير موفور إن صادفه التوفيق وحالفه النجاح .

فهكذا يتخير المشتغلون بالسياسة المصرية أحزابهم : هل يناصر هذا الحزب أو ذاك ؟ أما هذا الحزب فأشياعه كثيرون والرجحان في الكسب من ورائه قليل ، وأما ذلك الحزب فأشياعه قليلون واحتمال الكسب من ورائه كبير ؛ وذلك الحزب الآخر لا رجال فيه ، فطريق الوزراء لأعضائه البارزين مفتوح .. وهكذا يأخذ المشتغلون بالسياسة المصرية في المفاضلة بين حزب وحزب ، ثم يختلفون في اختيارهم باختلاف أمزجتهم وطباعهم . فمن الناس من يحب المغامرة الجريئة التي إما رفعتهم إلى قمة الجبل الشاهق أو جاءتهم بالهلاك ، كهؤلاء الذين نقرأ عنهم في الأساطير من طلاب الكنوز المدفونة في الجزر البعيدة ؛ تراهم يركبون في سبيل بغيتهم كل صعب ، فإما كنز يقعون عليه فتدين لهم الدنيا أو يهلكون ؛ لكن الناس فيهم إلى جانب هؤلاء المغامرين من أذلهم الحرص فأرادوا السير الهين السلس وإن أبطأ .

ورءوس الأحزاب المصرية على أتم علم بجوانب الموقف ما ظهر منها وما استتر ؛ فهم يعلمون حق العلم أن ليس الأمر بين الناس مرهوناً باختلاف الآراء وتشعب الفلسفات ، ليس الأمر عند المشتغلين بالسياسة المصرية موقوفاً على اختلاف المنهج ؛ فوزارة نجيء لأنها اشتراكية والناس قد صوتوا في الانتخاب للحكم الاشتراكي ، أو لأنها محافظة على النظام الاقتصادي القديم والناس قد أرادوا عند التصويت لهذا النظام القديم أن يبقى ؛ إنما الأمر كله كسب شخصي وغنائم ، الأمر كالمرهان في حلبة السباق : أي الجياد أقرب إلى أن يملأ جيوبي بالمال وجوفي بالطعام فأراهن عليه ... وأدرك رؤساء الأحزاب المصرية ذلك أتم إدراك ، فراحوا — كلما جاء الحكم إلى فريق منهم — يغدقون على أنصارهم ألوان النعيم جزاء ما راهنوا ، ولقاء ما بذلوا من جهد جهيد في الصياح والهتاف والقلق والأرق .

والسعيد السعيد في هذا البلد هو من يهتدي في حلبة السياسة إلى الجواد الرابح ، والشقي الشقي هو من ربط مصيره بجواد خاسر .

زكي نجيب محمود

مستقبل العـــــالم

للدكتور أحمد أمين بك

قرأت مقالاً للفيلسوف البريطاني برتراند رسل كتبه حديثاً في مستقبل العالم ، فأحببت أن أستوحي كتابته للقراء ولنفسي .

إن عالم اليوم في هلع وفزع ، وهرج ومرج ، وحيرة واضطراب ، من جراء ما اخترعه العلم الحديث من أسلحة ذرية وقنابل ذرية تتكاثر على مدى الزمان ، ومتى تكاثرت فستنفجر يوماً ما إن عاجلاً وإن آجلاً ، ويزيد في هذا الخطر خلو العالم الإنساني من الضمير الحي ، ورغبة بعض الناس في وقوع الحرب ، لأنها مظهر من مظاهر البطولة وحب التضحية ، وقد يُفتن بهما بعض الناس . فأحبوا آلة الحرب بأشكالها المختلفة . وما لم يحدث ما ليس في الحسبان (كالاتفاق على إلغاء الحرب وموت بعض الزعماء الذين يدعون إليها ونحو ذلك) فسيواجه العالم مشاكل عديدة ، وتكون النتيجة أحد أمور ثلاثة :

أولاً : فناء البشرية .

ثانياً : عودة العالم إلى البربرية .

ثالثاً : توحيد العالم وخضوعه لحكومة واحدة .

فأما فناء البشرية ، فيكون — إن حدث — نتيجة للأبحاث التي يقوم بها العلماء في القنابل الذرية وتحسينها والإكثار منها ، وربما كان حدوثها سبباً في انفجار الطاقة البشرية في كل الكائنات ، حتى يصل ذلك إلى الشمس فتنفجر أيضاً ، وتكون نتيجة ذلك انتهاء هذا العالم . وقد لا يحدث هذا في الحرب القادمة ، ولكنه يحدث إذا تقدم العلم في هذا الطريق . وكل الدلائل تدل على الوصول إلى هذه الغاية ، واحتمال وقوعها . والله تعالى يقول : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس » . وهذا ما هو حادث اليوم . فقد ازينت الأرض بالمخترعات الحديثة ، وظن أهلها أنهم يستطيعون التغلب على القوانين الطبيعية ، وأصبح من خلق العلم الحديث إخضاع القوى الطبيعية واستعبادها بعد أن كانت النفوس البشرية تصادقها ولكن لا تخضعها .

أما الاحتمال الثاني ، وهو عودة العالم إلى البربرية ، وبدؤه من جديد بناء الحضارة وتهجيه ألف باء بعد أن وصل إلى الياء ، فيأتي من احتمال أن الحروب القادمة تُزيل الأمم المتحضرة ولا يبقى على وجه الأرض إلا البربرون سكان الصحارى وأمثالهم ، فيبدأون من جديد في تعمير ما خُرِّب ، وتمر عليهم أعوام يكتشفون فيها المعادن ، ثم آلاف السنين يكتشفون فيها الآلات ، وهكذا يعيد التاريخ نفسه .

وأما الاحتمال الثالث ، وهو إنشاء حكومة واحدة تحكم العالم ، فقد يحدث ، كما حدث لتطور الفرد ، فقد كان الفرد إذا غُصب حقه استرده بالقوة ، وذلك قبل إنشاء المحاكم ، فلما رقي وجدت المحاكم للفصل في المنازعات وتُحرِّم أخذ الحق بالقوة ، ودعمت المحاكم بالبوليس والقوى التنفيذية ؛ فماذا لا تصل الأمم إلى ما وصلت إليه الأفراد ، فلا يكون هنالك حرب لدفع الظلم ، ولكن إذا اعتدت أمة على أمة ، فصلت محاكم كمحاكم الأفراد فيها ، وكان لها من القوة التنفيذية ما تستطيع أن تنفذ به حكمها ، وقد أدرك هذا المفترحون لإنشاء محكمة العدل الدولية ، وعصبة الأمم ، وهيئة الأمم المتحدة ، ولكنهم مع الأسف قد فشلوا ، لأنهم أنشأوها محكمة أو هيئات أفلاطونية ، لا تملك وسائل التنفيذ ، فهي محكمة ليس لها بوليس ، وذلك الاحتمال يحدث عند نشوب حرب عالمية تكون من نتيجتها اكتساح روسيا لبريطانيا وفرنسا ، ويبقى العالم أمام قوتين : روسيا وأمريكا ، وهما الدولتان العظيمتان في العالم

إلى أستاذنا الدكتور أحمد أمين

للاستاذ سيد قطب

قرأت ياسيدي مقالكم في الثقافة عن «ضيعة الأدب» ذلكم المقال الذي تفضلتم فأهديتموه إليّ .. إنها لفتة كريمة كان لها في نفسي وقع عميق . إني لم أعتبرها هدية شخصية من الدكتور أحمد أمين بك إلى سيد قطب . لقد اعتبرتها هدية جيل إلى جيل .. ومن هنا كان وقعها العميق في نفسي .

هدية جيل إلى جيل ، رمزاً لشعلة الفكر المقدسة ، التي تظل مضيئة أبداً ، تنتقل ، لا من فرد إلى فرد ، ولا من جماعة إلى جماعة ؛ بل تنتقل من جيل إلى جيل ، ومن الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، لتظل مضيئة أبداً ، لأنها سر الله في الإنسان ، وآية تكريمه في الأرض .

ولقد تحدثتم ياسيدي عن الأدب وأصله حديثاً يليق برجل مثلكم مجرب ، فقلتم كلمة الحق في جيلكم ، وقلتم كلمة الحق في الجيل الجديد ..

قلتم عن جيلكم : «ونقطة أخرى يؤسف لها ، وهو أن الأدباء عندنا كانوا أدباء مستقلين لا يعدون من خلفهم ، فإذا زالوا زالت مدارسهم ، وتسكع من بعدهم طويلاً حتى يختطوا الطريق ، لم يفعلوا ما تفعله شجرة الموز ، فقبل أن تموت تترك خلفاً لها من جنسها ، إنما فعلوا مافعلت شجرة الورد تنضر حيناً ثم تذبل من غير عقب» .

وقلتم عن الجيل الجديد : «وكما يحمل تبعة ذلك الأديب نفسه ، يحمله الأديب الناشئ ، فهو ينفر من أن يكون «مريداً» ويود أن يتزبب قبل أن يتحصرم ، أو أن يطلع المئذنة من غير سلم ، وماهكذا تنال الأمور» .

اليوم . فإن انتصرت أمريكا الرأسمالية فلذلك مزاياه وعيوبه ، فمن أكبر عيوب أمريكا ، هذه الرأسمالية والفروق الكبيرة بين الطبقات ، ومن مزاياه حرية الرأي وحرية القول وحرية الصحافة وحرية العلم وحرية الأدب والفن ، وهي مزايا لايستهان بها . يقول برتراند رسل : إنه شخصياً يفضلها على كل ما عداها ، ويأمل نجاح أمريكا لهذه الغاية . وإن انتصرت روسيا فلها كذلك مزاياها وعيوبها : فمن أهم عيوبها الحجر على حرية الرأي والبحث والعلم واستخدام الأدب والفن في خدمة السياسة ، ومن مزاياها — كما يقال عنها — المكافأة على العمل لا على رأس المال . وقد يقول قائل : من أين عرفنا هذا وروسيا مغلقة الأبواب ، فنقول : إن روسيا لما استولت على بولندا طبقت عليها نظامها ، وبولندا مفتحة الأبواب تحت أعين من يراها ، وقد كان فيها طائفة مثقفة شردت وأهينت وكبتت ، ومن استطاع البقاء منها جارى نظام السوفيت ، وأصبح أدبها أدباً في خدمة الشيوعية ، ومن المعقول أنه إذا انتصرت روسيا كانت حكومتها هي الحكومة العالمية واكتسحت ما عداها ، وفرضت آراءها بالقوة ، وكان شأن العالم كله شأن بولندا الآن . ومن غير شك ، إذا كانت هناك حكومة عالمية موحدة ، لم يخل نظامها من ثورات تحدث بين حين وآخر ، كالذي يحدث في كل أمة ، خصوصاً في أول أمرها ، ولكن مصير تلك الثورات إلى فناء ، وستتمكن الدولة الجديدة في سيرها ، كما تمكنت محاكم الأفراد في أول أمرها حتى تستقر على مدى الزمان . فأي هذه الاحتمالات الثلاثة هو الذي سيحدث ؟ أم لا يحدث هذا ولا ذلك ، بل ما يحدث ما قال أبو العلاء : (وتقدرون فتضحك الأقدار) ؟ علم ذلك عند الله .

أحمد أمين

أنا أقركم على كل ما قررتم في شأن الجيلين . ولكني أستسمحكم عذراً في أن أحمل جيل الشيوخ أكبر التبعة . لقد كان عليهم أن يصححوا أخطاء الشباب . ولقد كانوا مستطيعين لو أرادوا . مستطيعين بروح العطف والتشجيع والقدوة . ولكنهم كانوا من الأنانية — ومعذرة إذا قسوت — بحيث لم يروا إلا أنفسهم وأشخاصهم . فلم يعد لديهم وقت للمريدين والتلاميذ . ولم تعد في أرواحهم فسحة تسع المريدين والتلاميذ .

لقد كانوا أنانيين ، فلم يشعروا المريدين أنهم يعدونهم لشيء ، ويهيئونهم لتلقي الشعلة ، وأن الطريق أمامهم طويل ، لأن العبء الذي سيلقى على عاتقهم ثقيل .. ومن هنا استعجل الشبان وقلقوا وحاولوا صعود القمة من غير سلم !.

ودعوني الآن أصارحكم بتجربتي الخاصة ، التي تركت في نفسي ذات يوم مرارة ، ومن أجل هذه المرارة لم أكتب عنها من قبل ، حتى صفت روحي منها ، وذهبت عني مرارتها ، وأصبحت مجرد ذكرى قد تنفع واعظ ...

لقد كنت مريداً بكل معنى كلمة المريد لرجل من جيلكم تعرفونه عن يقين . ولقد كنت صديقاً أو ودوداً مع الآخرين من جيلكم كذلك . لقد كتبت عنكم جميعاً بلا استثناء . شرحت آراءكم وعرضت كتبكم ، وحللت أعمالكم بقدر ما كنت أستطيع .

ثم جاء دوري .. جاء دوري في أن أنشر كتباً بعد أن كنت أنشر بحوثاً ومقالات وقصائد . لقد جاء دوري في نشر الكتب متأخراً كثيراً ، لأني آثرت ألا أطلع القمة من غير سلم ، وأن أتريث في نشر كتب مسجلة حتى أحس شيئاً من النضج الحقيقي يسمح لي أن أظهر في أسواق الناشرين .

وكان أول كتاب نشرته هو ذلك الكتاب الذي نال إعجاب صديقكم الراحل المغفور له عبد العزيز باشا فهمي ، ذلك الإعجاب الذي آثرتم أن تبلغوني نبأه في رسالة منكم إلي وأنا مريض ، لعل ذلك أن يكون له أثر طيب في صحتي كما قدرتم ، ذلك هو كتاب « التصوير الفني في القرآن » .

وكان كتاباً موفقاً حقاً . أقولها الآن مطمئناً بعد أن أصبحت حقيقة أدبية منفصلة عن شخصي !.

فماذا كان موقف أستاذي ؟ وماذا كان موقف جيلكم كله ؟ ماذا كان موقف جيل الشيوخ ، لا من هذا الكتاب وحده ولكن من الكتب العشرة التي نشرتها حتى الآن ؟

أراجع كل ما خطته أقلام هذا الجيل كله عن عشرة كتب . فلا أعثر إلا على حديث في الإذاعة لفقيد الأدب المرحوم الأستاذ المازني ، وإلا إشارة كريمة للأستاذ توفيق الحكيم في أخبار اليوم ...

هذا كل ما خطته أقلام جيل الأساتذة عن عشرة كتب لمريد جيد درس كل آثارهم واستوعبها ، ونوه بها ، وشرحها وحللها ، في خلال عشرين عاماً !.

وأنا اليوم أحمد الله على أني خططت طريقي بنفسي مستقلاً وبجهدي خالصاً . لم يأخذ بيدي عظيم ، ولم يقدمني إلى الناس أستاذ ... ولكن كلمة طيبة من جيل الأساتذة كانت قبل خمس سنوات فقط تعد في نفسي شيئاً عظيماً ، وتترك في روحي أثراً طيباً .. غير أنها — مع الأسف — لم تكن . وحتى الكلمتان اللتان جاد بهما هذا الجيل جاءتا متأخرتين عن موعدهما كثيراً . جاءتا بعد أن كنت قد وصلت ووجدت الطريق .

هذه تجربة — أنا اليوم في حل من عرضها ، لأنها لم تعد ذات أثر في نفسي إطلاقاً . إنما نشرها كالتكم الأخيرة ، عن الأدب وأهله ، وعن تعاون الأساتذة والمريدين .

وأنا أسجلها هنا لعلها تضيء الطريق لأساتذة ومريدين آخرين في هذا الجيل .

إن الشباب في حاجة إلى تجاوب روحي . في حاجة إلى ثقة ، في حاجة إلى صلة قلبية تطمئنهم على أنهم ليسوا وحدهم ، وأن الآخرين ليسوا أنانيين إلى حد أنهم لا يرون في المريدين إلا منافسين ومزاحمين !.

ومرة أخرى أكرر لكم أن هديتكم الكريمة كان لها عميق الأثر في نفسي ، فهي تحية طيبة من جيل إلى جيل ..

سيد قطب

الفتح بن خاقان

للأستاذ علي أدهم

ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي ، وتتابعت الفتوحات الإسلامية الباهرة بسرعة لم يسبق لها نظير في التاريخ ، وشغل المسلمون بغزواتهم المظفرة عن تدوين أخبارها ، ولما استقر المسلمون في الأمصار التي بسطوا عليها سلطانهم ، وهدأت حركة الفتح والغزو ، ظهر الأخباريون والرواة والمؤرخون ، ولم يكن عند العرب مؤلفات تاريخية ولا مدونات للحوادث والكوائن قبل عهد النبي معروفة مأثورة ؛ ولما كان النبي العظيم هو باعث هذه النهضة ومحركها الأول ، فمن الطبيعي والمعقول أن تكون سيرته وأحاديثه ومواقفه هي أول موضوع للتاريخ الإسلامي ، وأن يتبع ذلك في الأهمية تاريخ صحابته الأوفياء ، والذين حاربوا تحت لوائه ، واستشهدوا في سبيل دعوته .

وقد ظلت أخبار هذه السيرة العطرة والمواقف المشرفة الجليلة تروى بالسماع والرواية قرابة قرن حتى تكاثرت وازدحمت وأصبحت عبئاً تنوء تحته الذاكرة ، ويكاد يعجز الرواة والحفاظ ، وخيف عليها من الضياع والتشتت والتحريف والتبديل ، فبدأ تسجيلها وتدوينها ، وكان ذلك في أواخر العهد الأموي ، وقد قويت الحركة وظهرت آثارها جلية واضحة في العصر العباسي الأول .

وبطبيعة الحال نشأ التاريخ المكتوب من الروايات المسموعة ، والأخبار المرددة المتناقلة ، وبذل الحفاظ جهداً محموداً على قدر ما تستطيعه الطاقة البشرية في تحري صحة الأخبار والاعتماد على الذين شاهدوا الحوادث بأنفسهم أو سمعوا أخبارها ممن حضروها وأبلوا فيها بلاء حسناً ، وكان الحافظ ينقل الإسناد ليدل على صحة روايته ؛ والإسناد هو ذكر سلسلة متتابعة من الأشخاص الذين تناقلوا الخبر عن منبعه الأصلي قبل أن ينحدر إليه ويبلغ مسمعه .

واعتماد مؤرخي الإسلام على الرواية والإسناد كان يجعل لرأي الشاهد الأول قيمة كبيرة ، لأن روايته هي الأساس الذي يقوم عليه الإسناد من ناحية وتحقيق المؤرخ من ناحية أخرى ؛ ولذلك استلزم الأمر مزيد العناية بتعرف أخبار هؤلاء الرجال وتحري سيرهم وأخلاقهم ونزعاتهم الفكرية ، واستأثر ذلك بنصيب كبير من جهد المؤرخين ، وهذا هو الأصل في ظهور كتب الطبقات ، وأسبقها كما هو معروف طبقات ابن سعد ؛ وقد سار المؤرخون المتأخرون على غرارها فظهرت طبقات الشعراء ، وطبقات الأطباء ، وطبقات النحاة وتواريخ الأعيان ، وهي تتناول تاريخ الرجال الذين امتازوا وبرزوا في أية ناحية من نواحي الحياة الدينية أو الأدبية أو السياسية ، وتعرفنا بهم ، وتلخص لنا أعمالهم وأخبارهم ، وتتفاوت هذه الكتب في الإجادة والإتقان والتحقيق والتدقيق ، ومن الكتب التي صيغت على هذا المثال واتجهت في هذا الاتجاه كتاب « قلائد العقيان » وكتاب « مطمح الأنفس » للأديب الأندلسي المعروف والكاتب المنشىء القدير أبي نصر الفتح بن محمد الذي عرف في تاريخ الأدب باسم الفتح بن خاقان .

والمعروف عن نسب الفتح هو أنه الفتح بن محمد ابن عبيد الله القيسي الإشبيلي ، ويكنى أبا نصر ، وقد اشتهر بابن خاقان ، وخاقان فيما أعلم لفظة تركية معناها الملك ؛ فمن أين جاءت الفتح هذه الخاقانية التي قد توجد شيئاً من اللبس بينه وبين الفتح بن خاقان وزير الخليفة العباسي المتوكل وصفيه الذي قتل معه ؛ وقد كان الفتح وزير المتوكل من أصل تركي . أما الفتح الأندلسي العربي النجار فالظاهر أن نسبة الخاقانية إليه كانت من قبيل التنقص له والزراية به ، كما يستخلص من كلام مؤرخي المغرب والأندلس عنه .

وقد نشأ الفتح في قرية من قرى الأندلس تعرف بقلعة الواد من قرى يحصب ، وهي في إقليم غرناطة ، ومن شيوخه وأساتذته أبو بكر بن القصيرة وأبوبكر الداني المعروف بابن اللبانة وأبو محمد بن عبدون وابن دريد الكاتب وغيرهم ؛ وقد أجمع نقاد الأندلس والمغرب على أنه كان كاتباً بليغاً عذب

الألفاظ لعوباً بأطراف الكلام قديراً في الوصف ، حتى قال بعض من عرّف به[1] : « إنه أراد أن يفضح الشعراء الذين ذكرهم في كتبه بنثره سامحه الله تعالى ! » وقد اعتمد عليه المقّري في نفح الطيب ونقل عنه كثيراً ، ومن أقواله عنه[2] « وهو يشيد قصور الشرف إذا مدح ، ويهدم معاقلها إذا هجا وقدح » .

وقد كان الفتح معاصراً لابن بسام صاحب الذخيرة ، ويروى صاحب النفح نقلا عن المغرب : « وهو وأبو الحسن ابن بسام الشنتريني مؤلف الذخيرة فرسا هذا الأوان ، وكلاهما قس وسحبان ، والتفضيل بينهما عسير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً ، وعلماً مفيداً ، وإطناباً في الأخبار وإمتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تعلقاً وتعشقاً بالأنفس ، ولولا ما اتسم به مما عرف من أجله بابن خاقان ، لكان أحد كتاب الحضرة المرابطية بل جلها المستولى على الرهان ، وإنما أخل به ما ذكر مع كونه اشتهر بقدم أولى الأحساب ، والتمرّن بالطعن على الأدباء والكتاب » وأحسبها موازنة دقيقة صحيحة على إيجازها . والواقع أن ابن بسام أكثر موضوعية وأقرب إلى الطريقة العلمية ، وأدق وأوفى ، وأنزه وأسمى . والفتح أكثر ذاتية ، وقد كان يتكسب بأدبه ، ويخيف الناس بطول لسانه وقدرته في الثلب والهجاء ، ويستدر بذلك أخلاف الرزق ، ويتمسح به التملق والتبرز ، وهو أسلوب غير كريم ، نزل به نفسه وأساء إلى أدبه ، ولا نزاع في أنه كان أديباً مطبوعاً وكاتباً منشئاً قديراً ، وربما كان أحلى عبارة من ابن بسام وأوجز إشارة ؛ ومزاج ابن بسام أقرب إلى أمزجة العلماء والمفكرين ، وأما الفتح فأخلاقه تشبه أخلاق بعض الشعراء المنحرفين ، والذين ابتلاهم الله بالشذوذ من أصحاب الأمزجة الفنية ؛ والمعروف عنه أنه كان مجازفاً لا يخلو من المعاقرة والقصف حتى هان قدره على الناس ، وابتذلت نفسه ، وساء ذكره ، ولم يدع بلداً من بلاد الأندلس إلا دخله مسترفداً أميره وأعيانه ، فإذا قصروا في حقه ولم يؤدوا إليه الإتاوة أخضعهم بهجائه وثلبه وبذاءة لسانه .

وعبارات الفتح مسجعة ، ولكن سجعه يكاد يكون رسلاً عارياً خالياً من وصمة التكلف بريئاً من التعقيد ، وسجعه يرضي الأذن ويبهج الذوق ، ويدل على غزارة محصوله اللغوي وسعة اطلاعه على تاريخ الأدب العربي وأيام العرب في الجاهلية ؛ ولكنه على عذوبة ألفاظه وموسيقيتها وما تدل عليه من براعة فنية في تنسيق الكلام ونظمه وحسن اختياره ، لا تحمل إلينا فكراً دقيقاً صائباً ، ولا رأياً جديداً محصاً ، ولا حقائق مؤكدة يمكن الرجوع إليها ، ولا معلومات وثيقة يصح الاعتماد عليها . والواقع أن كتاب قلائد العقيان وهو أشهر ما كتب الفتح أقرب إلى المقامات في حسن اختيار الألفاظ ورصفها ، فقيمته في جزالة أسلوبه ورصانة ألفاظه ، ولكننا لا نستطيع أن نثق بحقائقه التاريخية ، أو نطمئن إلى نزاهة حكمه على الأشخاص ووزنه لهم ، وتقديره لمواهبهم ؛ هذا هو رأيي في الروح الغالبة على هذا الكتاب ، وأحب أن أستدرك فأقول إن بعض تراجمه لا تخلو من تصوير بديع وأخبار شائقة ، ومن هذا القبيل ما كتبه عن المعتمد في القلائد ، وما كتبه عن الحاجب جعفر بن محمد المصحفي والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في كتاب المطمح ، ويتخلل الكتابين أخبار مسلية عن مطارحات الشعراء والأدباء ومجالس لهوهم ، فإن للفتح ميلاً خاصاً إلى الإكثار من ذكر مجالس الشراب وأخبار القصف والمجون .

ومن شعر الفتح قوله :

إلى أين تَرقى قد علوت على البدر
وقد نلت غايات السيادة والقدر

وجدت إلى أن ليس يذكر حاتم
وأغنيت أهل الجدب من سبل القطر

وكم رام أهل اللوم باللوم وقفه
وبحرك مدٌّ لا يَئول إلى جزر

ولو لم يكن فيك السماح جبلة
لأرّ ذاك اللوم فيك مع الدهر

ومما روى عنه أنه قصد يوماً إلى مجلس قضاء أبي الفضل عياض خمراً ، فتنسم بعض حاضري المجلس رائحة الخمر ، فأعلم القاضي بذلك فاستثبته وحدّه حداً تاماً ، وبعث إليه

---

(1) راجع صفحة ٣٠٦ من الجزء الخامس من نفح الطيب تحقيق الأستاذ محي الدين عبد الحميد .

(2) راجع صفحة ٣٠٦ من الجزء نفسه .

بعد أن أقام عليه الحد بثلاثة دنانير وعمامة ، فقال الفتح حينئذ لبعض من أصحابه : « عزمت على إسقاط القاضي أبي الفضل من كتابي الموسوم بقلائد العقيان » قال : « فقلت له لا تفعل وهي نصيحة » ، فقال : « وكيف ذلك ؟ » فقلت له : « قصتك معه من الجائز أن تنسى ، وأنت تريد أن تتركها مؤرخة ، إذ كل من ينظر في كتابك يجدك قد ذكرت فيه من هو مثله ودونه في العلم والصيت ، فيسأل عن ذلك ، فيقال له ، فيتوارث العلم عن الأكابر الأصاغر » ، قال فتبين الفتح ذلك وعلم صحته وأقر اسمه .

وقد رزق الفتح هذه المرة — إن صحت هذه الرواية — صديقاً ناصحاً جنبه هذا الزلق ، ولكن من سوء حظه على ما يظهر أنه لم يكن دائماً إلى جانبه من يقدمون له مثل هذه النصائح الثمينة ، فكان يغلبه هواه على عقله ، ويضل رأيه ، ويفسد عليه أمره ؛ وقضيته مع الفيلسوف الأندلسي ابن باجة تبين لنا كيف كان يركب هذا الرجل رأسه ويطاوع نزواته ، ويتجانف عن الحق ، ويتعمد التشويه والتضليل ، والاتجار بالإساءة والهجو ، دون أن يزعه ضمير حتى أورده خلق كريم ؛ واسم ابن باجة أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ ، وقد حمل عليه الفتح في كتاب القلائد حملة شعواء ، وهجاه هجاء مراً ، وصوره في صورة قبيحة ، وبدأ الكلام عنه قائلاً في أسجاعه المعهودة : « هو رمد جفن الدين ، وكمد نفوس المهتدين ، اشتهر سخفاً وجنوناً ، وهجر مفروضاً ومسنوناً ، فما يتشرع ، ولا يأخذ في غير الأضاليل ولا يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ، ولا أظهر مخيلة إنابة ، ولا أقر بباريه ومصوره ، ولا أقر عن تباريه في ميدان تهوره ، الإساءة إليه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان » ، وبعد أن أطال الضرب على هذه النغمة ليؤكد في ذهن القارئ سوء عقيدة الرجل راح يطعن في أصله ونشأته وأخلاقه وصورته ، واتهمه بالإغارة على معاني الشعراء وأخذها من أربابها أخذ الناصب ، ورماه بقلة العقل ونزارته والقذارة والوضارة وسوء السياسة ونقص الكياسة ، إلى آخر ما في الفصل الذي عقده للحديث عنه وختم به كتاب القلائد فكان ختامه غير مسك .

والرجل الذي تحامل عليه الفتح هذا التحامل القاسي ورماه بتلك الأوصاف المعيبة هو الذي يقول فيه لسان الدين ابن الخطيب في الإحاطة : إنه آخر فلاسفة الإسلام في الأندلس ، والذي يقول عنه ابن الطفيل الفيلسوف وصاحب رسالة حي ابن يقظان عند كلامه عن أضرابه من مفكري الأندلس وفلاسفتها : « لم يكن فيهم أثقب ذهناً ولا أصح نظراً ولا أصدق روية من أبي بكر بن الصائغ ، غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته » وكان إلى جانب ذلك له ملكة شعرية وشعر رقيق ، ومن الحكايات المشهورة عنه أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى عليه بعض موشحاته التي مطلعها :

جَرِّرِ الذيل أيما جر وصل الشكر منك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك ، وختمها بقوله :

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبي بكر

فأعجب ابن تيفلويت غاية الإعجاب بهذه الموشحة وقال : « ما أحسن ما بدأت وما ختمت » وحلف بالله ألا يمشي ابن باجه لداره إلا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه .

وهناك روايتان في سبب تحامل الفتح على ابن باجه ، تقول الرواية الأولى : إنه لما عزم الفتح على تصنيف كتاب « قلائد العقيان » جعل يرسل إلى كل واحد من ملوك الأندلس ووزرائها وأعيانها من أهل الأدب والشعر والبلاغة يعرفه عزمه ويسأله إنفاذ شيء من شعره ونظمه ونثره ليذكره في كتابه ، وكانوا يعرفون شره وثلبه ، فكانوا يخافونه وينفذون إليه ذلك وصرر الدنانير ، فكل من أرضته صلته أحسن في كتابه وصفه وصفته ، وكل من تغافل عن بره هجاه وثلبه ، وكان ممن تصدى له وأرسل إليه أبو بكر بن باجة المعروف بابن الصائغ ، وكان وزير ابن تيفلويت صاحب المرية ، وهو أحد الأعيان وأركان العلم والبيان ، وكان شديد العناية بعلوم الأوائل مستولياً على أهل الأشعار والرسائل ، وكانوا يشبهونه بالمغرب بابن سينا بالمشرق ، وله تصانيف في المنطق وغيره ، فلما وصلته رسالته تهاون بها ، ولم يبرها طرفه ، ولا لوى نحوها عطفه ، وغاظ ذلك الفتح وأحقده عليه فنفث سمه في تلك الأسجاع البذيئة التي حاول بها أن ينال من ابن باجه ، ويشوه صورته ،

فنال من نفسه أضعاف ما نال من ابن باجه .

والرواية الثانية تقول إنهما كانا قد اجتمعا في مجلس ، وأخذ الفتح يكثر في ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ، ووصف حلياً ، وكان يبدو من أنفه فضلة خضراء ، فلما مل ابن باجه حديثه من نفسه التفت إليه وقال له : « فمن تلك الجواهر إذاً الزمردة التي على شاربك » فحقدها عليه وثلبه في كتابه ، وأنا أميل إلى ترجيح الرواية الأولى لأنها تتفق مع ما عرف من أخلاق ابن باجة من الحرص على المال والضن به . والفتح في شدة جشعه إلى المال والتماسه بكل الطرق والوسائل لم يكن يعز في نفسه ويثيره ويحقده مثل حرمانه من العطاء ، وحبس المال عنه . ومهما كان من الأمر فإن الروايات المختلفة تجمع على أن ابن باجة لما بلغه ما كتبه الفتح أغدق له مالاً استكفه به واستصلحه . فلما صنف الفتح كتاب المطمح افتتحه بذكر ابن الصائغ وأثنى عليه فيه ثناء عطراً جميلاً فقال : « الوزير أبو بكر بن الصائغ هو بدر فهم ساطع ، وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بعصره الأعصار ، وتأرجت من طيب ذكره الأمصار ، وقام به وزن المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فننا وتهدل ، وعطل بالبرهان التقليد ، وحقق بعد عدمه الاختراع والتوليد ، إذا قدح زند فهمه أورى بشرر للجهل محرق ، وإن طما بحر خاطره فهو لكل شيء مغرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق الذي هو للإيمان شقيق ، وله أدب يود عطارد أن يلتحفه ، ومذهب يتمنى أن يعرفه ، ونظم تتمناه اللبات والنحور ، وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور .. إلى آخره » . والمسألة هنا ليست مسألة ذكر الجوانب المختلفة من شخصية ابن باجه والنواحي المتعارضة في أدبه وتفكيره وأخلاقه وسيرته ، لأن الفتح لو حاول ذلك لما وقع في التناقض ولوجد مجال القول ذا سعة ، وإنما الواضح أن الرجل الذي كان في رأى الفتح فاسد العقيدة ورمداً لجفن الدين ، قد أصبح هنا مؤمناً نزيه النفس متصاوناً يود عطارد أن يلتحف بأدبه ، إلى آخر هذا اللون من السجع الذي يجيده الفتح ، ولم يصبح كذلك وتستحيل أحواله وصفاته من النقيض إلى النقيض إلا بعد أن دفع الثمن وأدى الجزية .

وعلى هذا النمط من الإسراف في المدح أو المبالغة في القدح يسير الفتح في كتابيه القلائد والمطمح ، فهو لا يحاول أن يذكر موضع الإعجاب وموضع المؤاخذة ويدلل على كليهما بالكلام المناسب والمنطق المتماسك ، ولا يحكم عقله وتفكيره ، وإنما يحكم عواطفه ونوازعه وأهواءه ومآربه ومصالحه ومآربه . والأسلوب المسجع بطبيعته وبحكم تركيبه وبنائه قد لا يتسع لتقرير الحق ووصف الواقع فكيف إذا انساق الكاتب مع أهوائه وسيطرت عليه نزواته ؟ والفتح يجيد كما قدمت وصف مجالس الشراب واللهو ، وربما كان ذلك هو الحياة عنده حين يترجم للفقهاء والقضاة ، والحياة في نظر الفتح حانة خمر ومجلس لهو ، والفتح في ترصيعه الكلام وتنميقه العبارات لا يتحرى الحق ، ولا يريد الصدق ، فهو في الكتابة يعبث ويلهو ، ولكنه في عبثه ولهوه نمط خاص ، وطراز ممتاز ، يدل على قدرة قد أسيء استعمالها ، ومن ذلك كان يمكن أن يفيد منها الأدب واحترام الحقيقة وتحري الإنصاف أكثر مما كان .

وقد وجد الفتح قتيلاً في فندق بمراكش سنة ٥٢٨ أو ٥٢٩ مثلاً به أقبح تمثيل ، ويقال إن الذي أشار بقتله أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، وكان معروفاً بصرامة العقيدة والشدة في أمور الدين ، رحم الله الفتح وغفر له ؟

علي أدهم

مدينة فاضـــــلة

— ٢ —

للأستاذ محمد عبد الحليم محمود

كان ڤولتير يحب الترف فى معيشته إلى حد بعيد :

توسل إليه فى بدء شبابه عن طريق مخالطة النبلاء والأغنياء ومصاحبتهم .

وتوسل إليه فى بلاط ملوك أوربا مثل فردريك الثانى ، ولويس الخامس عشر .

ولكنه وجد أخيراً أن أمثل الطرق لحياة الترف هو المال ... هو الذهب .

فاتجه إلى تنمية ثروته الشخصية عن طريق التجارة والمعاملات المالية المعقدة ... فلم يكن الأدب فى أيامه صناعة كاسبة .

وقد كان له ما أراد ... كان له مال كثير وغنى وافر .

ثم كانت له حياة الترف والنعيم التى يشتهيها . فشيد لنفسه قصراً باذخاً فى فرنى على الحدود الفرنسية — السويسرية . وأقام فيه كأنه ملك فى بلاطه يحوط به كل غال ونفيس من متاع هذه الدنيا ... وبلغ من إسرافه فى إرضاء شهواته أن بنى لنفسه مسرحاً خاصاً يمثل على أخشابه ما يؤلفه من روايات مسرحية .

فلا عجب ، وهذا مبلغ اهتمامه بالمال ، أن يكون أول شىء يلحظه فى المدينة الفاضلة هو الذهب .

ذلك الذهب الذى يكسو الطرقات ، ولم تعد له قيمة لكثرته ، واتخذ الناس من الجوهر والياقوت والزمرد مواد يشيدون بها قصورهم الضخمة المزخرفة .

وآية النعيم والترف إذاً هى هذه « الكئوس المصنوعة من الجواهر الضخمة » ، و « جدران الترف المرصعة باللآلىء الكريمة » ، و « الملابس المصنوعة من أسلاك الذهب »

ومن كانوا يحظون بمثل هذا فلا يكونون ، فيما يرى الكاتب ، إلا سعداء .

... وكان ڤولتير يرى تشجيع التجارة ومعاونة الحكومات للتجار بسائر الوسائل الممكنة ، وله نظريات فى هذا الميدان طالما نادى بتطبيقها ؛ فلذلك نراه فى حديثه عن خير البلاد الطيبة يذكر لنا تلك « الفنادق » الضخمة التى تقيمها الحكومة عند نهاية كل مرحلة من مراحل الطرق الكبيرة لينزل بها المسافرون ، والتجار منهم خاصة ، فينفق عليهم فى سعة وبذخ وتتحمل خزانة الدولة نفقاتهم المختلفة ، فيعود ذلك على البلاد بالخير المضاعف .

وجدير بنا أن نلاحظ ما يرويه الناس عن الخراف الحمراء التى تجر العربات الضخمة فى سرعة عجيبة . فمن المعروف أن المواصلات فى القرن الثامن عشر كانت رديئة للغاية ، وكانت تعتمد قبل كل شىء على الخيل التى كثيراً ما تتعطل أو تنفق . وإذا كان ڤولتير لم يتنبأ بالقطار أو بالطائرة فهو على أى حال كان يفكر فى وسيلة تريح المسافرين المرهقين من عنت الرحلات .

وأهم آراء الكاتب فى المدينة الفاضلة تتركز فى حديث الشيخ العالم إلى ضيفيه الأوربيين .

ونستطيع أن نوضح هذه الآراء فيما يلى :

١ — الناس فى هذه البلاد سعداء ، فلذلك تطول أعمارهم ، فعمر الشيخ الذى يحدثنا مثلا كاد أن يبلغ القرنين ولم يكمله بعد .

٢ — خير للإنسان أن يبقى فى وطنه ويرضى بالحال التى قسمت له ولا يغتر بقوته فيخرج لحرب غيره من بنى الإنسان . وأبلغ مثل على ذلك هو ما حدث لشعب الإنكا الذين أفنى الإسبان جزءاً كبيراً منهم .

٣ — عدم الاتصال بالحضارات الحديثة يحفظ للشعوب سعادتها وسذاجتها .

٤ — تكالب الأوربيين على استغلال الشعوب الأمريكية البدائية يجر أوخم العواقب ، فيجب على هذه الشعوب أن تحتمى منهم قدر الإمكان .

٥ — يجب أن يكون للدين مكانة خاصة فى البلاد

الفاضلة . والدين الذي يتحدث عنه ڤولتير يمتاز بالبساطة المطلقة ! فهناك عقيدة واحدة لا يختلف فيها اثنان ، وإله واحد لا شريك له . وهذا الإله ليس إلهاً متجبراً يعرض على الناس إرادته العمياء ويظلمهم ! لكنه إله خير مطلق يعطي عباده كل ما هم في حاجة إليه ، ولا يطلب منهم إلا الشكر والاعتراف بالجميل . وطقوس الدين ساذجة رائعة . ملك يقوم على رأس شعبه بالصلاة ، والموسيقى تعزف أشجى الألحان . وليس في هذا الدين قسس يتنازعون فيما بينهم ويتنافسون . بل كل رب عائلة هو وحده الرئيس الديني لأسرته ، دون ما حاجة إلى وسيط أو شفيع .

فالمدينة الفاضلة ليس بها رجال دين بالمعنى المعروف .

والمجتمع الذي يريد السعادة إذاً يجب أن ينبذ رجال الدين .

ولكي نفهم موقف ڤولتير هذا من الكنيسة يجب أن نلقي نظرة سريعة على حالة الكنيسة في عصره .

ولكي نفهم دعوته للبساطة المطلقة في العقيدة يجب أن نعرف شيئاً عن المبادئ الدينية العامة التي كان ينادي بها الفلاسفة في القرن الثامن عشر .

وأقرب صورة للكنيسة في عصر ڤولتير هي تلك التي رسمها لنا ڤولتير في قصته كانديد : صورة تبعث في نفس القارئ الغضب الممزوج باليأس المرير .

فهي صورة التعصب الأحمق الذي يدفع بالإنسان إلى تعذيب أخيه الإنسان ، لا لشيء إلا أنه يختلف معه في بعض الشكليات التافهة من طقوس الدين .

وهي صورة المجتمع الغريب الذي يتصف به القسس إذ يتخذون إيمان العوام وسيلة للغنى والسلطة والجاه .

وهي صورة ذلك التنافس السخيف الدائم بين المذاهب المختلفة من دين واحد .

ثم هي تبين الفساد العظيم الذي سرى إلى رجال الدين ، فبنوا لأنفسهم القصور واتخذوا الخليلات وأسرفوا في إمتاع نفوسهم بكل ما لذ وطاب من أسباب الحياة ، بينما الشعوب ترزح في أغلال الفقر والجهل المطبق .

ورجل الدين بعد ذلك لا فائدة منه ، بل هو عالة على المجتمع ، وهو شر يستفحل يوماً بعد يوم .

فلا عجب ، والحال هذه ، أن يقوم الفلاسفة — والقرن الثامن عشر كان قرن الفلسفة — بالدعوة إلى الإصلاح والتجديد في النظم الدينية السائدة .

وكان أول مفكر تجرأ فبحث في الدين من الناحية العقلية البحتة هو الفيلسوف هنري بايل ، الذي رأى أن الدين ليس حاجة ضرورية للمجتمع ، ونادى بفصل أمور الحكم والإدارة عن أمور الكنيسة والعقيدة ، وحمل حملة صادقة على التعصب القاسي العنيف الذي امتازت به الكنيسة المسيحية .

وتبعه في حملته هذه أغلب الفلاسفة الذين جاءوا من بعده ، ومنهم صاحب قصة كانديد .

وكان ڤولتير يؤمن بإله الفلاسفة ، ذلك الإله العقلي البحت ، الذي لا يطلب من عباده طقوساً سخيفة ، ولا يحتاج إلى وسطاء من رجال الدين بينه وبين البشر . ثم كان يؤمن بالحرية الفردية في المسائل الدينية إلى أقصى حدودها ، وسعى سعياً جباراً لهدم صروح التعصب أينما وُجد .

وإذا كان يقرر في بعض رسائله أنه من الخير للرجل من العامة أن يؤمن بالجنة والنار ، وبالثواب والعقاب — وذلك لأسباب مادية بحتة — فهو يقرر أيضاً أن أبغض شيء إلى نفسه هو سيطرة رجل الدين على المجتمع واستغلاله لحسابه وذر الرماد في العيون بتلك الطقوس الفارغة والعبادات السخيفة التي لا يستطيع العقل المفكر قبولها .

. . . ولنعد الآن ، بعد هذا الاستطراد الذي لم يكن منه بد لتوضيح آراء ڤولتير في المدينة الفاضلة ، لنعد إلى صاحبنا كانديد وإلى خادمه كاكمبو .

لقد ركبا في طريقهما إلى عاصمة إلدورادو في عربتها التي تجرها الخراف الصحية بسرعة فائقة .

يقول القاص :

« ... وصلت المركبة إلى قصر الملك بعد رحلة استغرقت أقل من أربع ساعات ... وكان باب القصر يبلغ من الارتفاع مائتين وعشرين قدماً ، ومن العرض مائة قدم . ولا نستطيع وصف المادة التي صنع منها ، فهي تفوق إلى درجة رفيعة مادة الحصى والتراب والحجارة ، مما نسميه نحن ذهباً وجواهر .

« واستقبل كانديد وكاكمبو عشرون فتاة من الحرس الملكي عند نزولهما من العربة ، وذهبن بهما إلى الحمامات ، وألبسنهما أثواباً من ريش الطيور الناعم ، ثم سلمنهما إلى رجال البلاط الذين قادوهما إلى حجرة العرش الملكي بين صفين من الموسيقيين ، كل صف عدده ألف فنان ، حسب عادة البلاد .

وعند ما اقتربا من العرش ، سأل كاكمبو : كيف يحيي

الناس الملك : هل يركع المرء أمامه ، أم يسجد له ؟ وهل يرفع يده إلى رأسه ، أم يجعلها من ورائه ...

« ... فقال له الأمين الأكبر : — العادة عندنا تقضي بأن الإنسان يصافح الملك بمودة ويقبله على وجنتيه .

« فانهال كانديد وكاكبو على الملك يقبلانه . فرحب بهما كل الترحيب ، ودعاهما للعشاء معه في المساء .

« وحتى يحين الموعد المحدد أخذهما بعض رجال البلاط للتفرج على معالم المدينة . فرأيا الأبنية الضخمة ترتفع إلى علو شاهق ، والأسواق حسنة التنسيق تحت قباب ضخمة تحملها آلاف الأعمدة ، وينابيع الماء النقي ، وينابيع ماء الورد وعصير قصب السكر ، تتدفق وسط ميادين واسعة قد رصفت بنوع من الأحجار الكريمة تبعث رائحة منعشة مثل رائحة القرنفل ...

« ... وسأل كانديد عن دار القضاء ، وعن المحاكم ، فقيل له إنه ليس في إلدورادو شيء مثل هذا ، وإن أهلها لا يعرفون التقاضي والتنازع . وسأل عن السجون فقيل له إنه لا يوجد بالمدينة سجون .

« والشيء الذي أثار دهشته وإعجابه كان وجود (قصر العلوم) ، وهو بناء يضم سائر الأدوات في المواد اللازمة للبحث العلمي ، في الطبيعة والرياضيات خاصة .

وبعدما طاف صاحبانا ببعض أحياء المدينة عادا إلى القصر حيث جلسا إلى مائدة الطعام بجوار الملك وسيدات البلاط ، وقدمت لهما ألوان من الغذاء لم يتذوقا فيما مضى من حياتهما أحسن منها . وأعجب كانديد بأخلاق الملك الكريمة وذكائه ولطفه .

ومكثا شهراً في هذه البلاد الجميلة ...

ولكن كانديد كان يحب ...

كان يحب فتاة ألمانية من بنات جنسه .

والمحب لا يمكن أن يكون سعيداً في مكان لا توجد به صاحبته ! .

فكان كانديد شقياً في مقامه بإلدورادو ، وإن تضافرت كل العوامل على إسعاده وإرضائه .

وأخذ يقنع كاكبو برأيه في العودة إلى الوطن .

وكان كاكبو من ناحيته يميل للمظاهر والتبختر ، ويعلم أنه لو بقي في إلدورادو فسوف يبقى كفرد من الأفراد له ما لهم وعليه ما عليهم . أما لو عاد إلى بلاده حاملا شيئاً من الذهب والجواهر واللآلىء ، فسوف يكون أغنى الناس قاطبة وأقواهم نفوذاً وأعظمهم جاهاً .

ولهذا اقتنع الخادم برأي سيده ،

وذهب الاثنان إلى الملك يحدثانه في أمر خروجهما من بلاده ، فقال لهما :

« . . . إنكما بذلك تقدمان على حماقة عجيبة . أنا أعرف جيداً أن مملكتي ليست هي كل شيء في هذا العالم . ولكن إذا وجد الإنسان راحته في بلد ما فعليه أن يحاول البقاء بها . ورغم هذا فليس لي أن أحجز عندي أناسا غرباء ، فذلك تعسف لا تقره تقاليدنا أو قوانيننا . وكل إنسان فهو حر وله أن يفعل ما يشاء . اذهبا إلى حيث شئتما متى شئتما . . .

ولكن الخروج من إلدورادو غاية في الصعوبة ؛ فمن المستحيل أن ترجعا عن طريق مياه النهر التي أتت بكما إلى هنا ، فالتيار أقوى من أن يسمح بذلك . أما الجبال التي تحيط بمملكتي فارتفاعها يبلغ عشرة آلاف قدم ، وهي كالحائط الضخم في اعتدالها ، فلا سبيل إلى صعودها بالوسائل العادية . . . ولكني سوف أطلب من المهندسين والعمال أن يصنعوا لكما آلة كبيرة تستطيع رفعكما إلى قمة الجبل ثم إنزالكما من الناحية الأخرى . والآن ، فإني على استعداد لمنحكما ما تطلبانه من خيرات بلادي .

« قال كاكبو : — نحن لا نطلب من جلالتكم سوى بعض الخراف الحمراء محملة بالطعام ، وبكمية من أحجار بلادكم وطينها ، مما ندعوه نحن ذهباً وجواهر .

« فضحك الملك ، وقال : — أنا لا أدرك سر تكالب أهل أوربا على هذه المواد الحقيرة الرخيصة . ولكن لكما أن تأخذا ما تشاءان من هذا الطين وهذه الحجارة ، وليبارك لكما الله فيما تأخذان . . .

ويأمر الملك الكريم بصنع الآلة الضخمة التي تكلف الخزانة أموالا طائلة وتكلف العلماء والعمال جهداً عظيما .

ويخرج المغامران من البلاد الفاضلة ليغزوا بغناهما الهائل أرض الله ؛ فقد أهدى إليهما الملك عشرات الخراف المحملة بالذهب والجواهر واللآلىء الغالية .

ويقول كانديد مرحاً عندما يضع قدمه على الأرض وراء الجبال التي تحيط بإلدورادو :

« عندنا الآن من المال ما يكفي لتخليص حبيبتي كونيجوند من

رائن أعدائنا . . . فلنذهب أولاً إلى بعض المستعمرات الأوربية على شاطىء البحر . . . ولنر بعد ذلك أى الممالك تستطيع أن تشترى ! . . »

وإلى هنا ينتهى فصل المدينة الفاضلة فى قصة كانديد.

وقد رأينا كيف يصف الكاتب فى الجزء الأخير منه قصر الملك وعاصمة المملكة وتقاليد الشعب وأخلاقه.

فرأينا أن فكرة الترف والبذخ لم تفارقه:

قصر يبلغ بابه من الارتفاع أكثر من مائتى قدم، صنع من مادة أنفس من الذهب والجوهر. وحرس من الفتيات الحسان يستقبلن الضيفان. وجوقات من الموسيقيين يبلغ عدد أفرادها ألفين.

ومدينة ذات أبنية فخمة ضخمة عالية، وينابيع ينبجس منها ماء الورد وعصير قصب السكر فضلاً عن الماء النقى، وميادين رصفت بأحجار نفيسة تمتاز برائحة جميلة.

ولعله فى وصفه القصر قد تأثر بما كان فى بلاط ملوك فرنسا من الإسراف والأبهة. وإن ما يروى عن مظاهر النعم والترف فى قصر فرساى ليبعث فى النفس الدهشة والعجب.

محمد عبد الحليم محمود

منطقة القاهرة الجنوبية

قلم التغذية — إعلان

تقبل العطاءات بمكتب حضرة صاحب العزة الراقب العام لمنطقة القاهرة الجنوبية التعليمية بشارع ضريح سعد رقم ١٤ بالقاهرة لغاية الساعة الثانية عشرة من يوم الاثنين ١٧ / ٩ / ١٩٥١ عن توريد الأغذية اللازمة لبعض تلاميذ وتلميذات المدارس والمعاهد ومراكز التموين التابعة للمنطقة ابتداء من أول العام الدراسى ٥١ / ١٩٥٢ إلى آخر العطلة الصيفية وأسماء هذه المعاهد والمدارس ومراكز التموين مدونة بالكشوف الموجودة بالمنطقة.

والعطاءات التى تقدم باليد تسلم إلى حضرة رئيس قلم القيد بالمنطقة بالإيصال اللازم، وذلك قبل انتهاء الميعاد المحدد.

وستفتح هذه العطاءات فى الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاثنين ١٧ / ٩ / ١٩٥١ وذلك بمبنى منطقة القاهرة الجنوبية (١٤ شارع ضريح سعد) ويراعى أن يكون مظروف العطاء مختوماً بالشمع الأحمر ثم يوضع فى مظروف آخر يكتب عليه اسم مقدم العطاء ونوعه، ويرفق بكل عطاء تأمين ابتدائى وفقاً للشروط، وكل عطاء غير مصحوب بالتأمين الابتدائى كاملاً لن تلتفت إليه المنطقة بحال من الأحوال، ويمكن الحصول على شروط العطاء من إدارة المنطقة الجنوبية مقابل دفع الثمن وقدره خمسمائة مليم للنسخة الواحدة خلاف أجرة إرسالها بالبريد المسجل وقدره مائة مليم.

ويراعى عند تقديم طلب بشراء شروط العطاء أن يكون على ورقة دمغة من فئة الثلاثين مليماً، والعطاءات التى ترد بعد الميعاد المحدد بالإعلان لايلتفت إليها وتعتبر لاغية.

والمنطقة حرة فى قبول أو رفض أى عطاء دون إبداء الأسباب.

٩٢٣٩

صراع مع المرض (*)

للدكتور أحمد بدران

للأبحاث الطبية منزلة عظيمة عند العلماء ؛ فكل كشف في ميدان الطب يقربنا خطوة من الفهم الصحيح لجسم الإنسان ، ضعفه وقصوره من ناحية ، وقوة مقاومته وقدرته العجيبة على النزال من ناحية أخرى . ويتمتع علماء الطب دون كثير من زملائهم الباحثين في الميادين الأخرى بالتقدير ؛ إذ من المعروف أنهم يكدحون في سبيل تخفيف الآلام وعلاج الأمراض . وقد سجل علماء الطب في النصف قرن الأخير ما يشبه المعجزات في ميادين البحث عن منشأ الأمراض ، واكتشاف طرق جديدة للتغلب عليها ، وفي الحد من الوفيات وإطالة حياة الإنسان . ورغم ما أدركوه في هذا المجال فإن الطب ما زال يتقدم بخطوات جبارة لا تعوقه الحروب ولا تثنيه الكوارث التي تهدد حياة الإنسان .

منذ أجيال كانت الأمراض تعد مسّاً من الشيطان ، وكان الإنسان يقف مكتوفاً إزاءها ؛ كانت أوبئة الحمى القرمزية والكوليرا والتيفوس تحصد الأرواح البشرية دون شفقة ولا تلقى مقاومة تذكر ؛ أما الآن فإن معظم هذه الأوبئة الخطيرة السريعة الانتشار يمكن التحكم فيها . وفي قاعات الولادة في أوربا بلغت نسبة الوفيات بين المواليد خمسين في المائة ، أما الآن فمن بين الآلاف من المواليد لا يزيد عدد الوفيات عن عدد أصابع اليدين .

وفي خلال الحرب العالمية الأولى كان تقيح الجروح بين القوات المقاتلة يسبب عدداً كبيراً من الوفيات ، ففي بعض الجيوش كان سبعون في المائة من الجرحى يموتون من تقيح الجروح والكسور . أما في الحرب العالمية الثانية فقد انخفضت هذه النسبة كثيراً بين الجيوش الأمريكية والإنجليزية والروسية على حد سواء ؛ ويرجع الفضل في هذا وفي غيره من النتائج في ميادين الطب والجراحة إلى جيش صغير من علماء الطب يشتغلون في المعامل ومعاهد البحث في أنحاء العالم ، وتبقى أسماؤهم — إلا نادراً — في طي النسيان لا يذكرها العامة ، بل ولا الأطباء الذين يجنون ثمار أبحاثهم . ومرتبات هؤلاء العلماء غالباً ضئيلة ، ولا يصل دخلهم إلى جزء مما يكسبه زملاؤهم الذين يمارسون الطب . ومع ذلك فإنهم يشعرون بالغبطة والقناعة والرضا أكثر من العاملين في أي ميدان آخر ، فإن عملهم دائماً مشوق وعجيب ، إذ أنهم يبحثون أهم مسائل الوجود ، ويسعون إلى الإجابة عن تلك الأسئلة الخالدة عن سر الحياة والموت .

والكشف العلمي ليس وحدة قائمة بذاتها ؛ وإنما هو حلقة في سلسلة طويلة ، فإن الكشف لا يمكن أن يعد كاملاً نهائياً ، بل هو دائماً يعدّل وتتفرع منه خطوط جديدة للبحث . وكل اكتشاف يؤدي إلى بحث جديد ، وكل بحث يؤدي إلى اكتشاف ، وهذا التوغل اللانهائي المثير في أسرار الحياة يلهب فضول الإنسان ويشجعه على مداومة البحث .

والبحث العلمي يشبه نباتاً ينمو ، فمن بذرة واحدة زرعها مجهول — عام أسدل عليه ستار النسيان — تنمو شجرة هائلة ذات فروع كثيرة وأطراف عديدة . وهي تنمو ببطء ، وكثيراً ما تلاقي عقبات كثيرة . ولا بد أولاً كل شيء من أن تعد الأرض الصالحة لتلقي البذرة ، ويجب أن تكون البذرة قد تم نضجها ؛ وفي هذا العمل التمهيدي يشترك عدد

(*) ملخصة من كتاب المعالم المعجزة للدكتور بوريس سوكولوف .

كثير من العلماء ، يعملون هنا وهناك كل على حدة حتى تأتي اللحظة الحاسمة حين يأتي رجل ذو شخصية خارقة ونظر ثاقب فيؤلف بين النتائج المتفرقة ويقدم إلى العلم كشفاً .

ولا يصل إلى سمع العامة إلا أسماء العلماء الذين تم على أيديهم الكشف ووصل بهم إلى نهاية الوقفة . فالعامة يعرفون أسماء وليم هارفي وجوزيف ليستر ولوي باستير وروبرت كوخ . ولكن وراء هؤلاء آلاف من العلماء الآخرين ساهموا في هذه الأبحاث مساهمة فعالة حتى آن لها أن تؤتي ثمارها .

وليس في البحث العلمي شيء يأتي على حين غرة ، فكل كشف كان فكرة غامضة راودت العقول وقتاً طويلا . فمن لم يسمع ببحوث الدكتور وليم هارفي ، أبي الفسيولوجيا الذي اكتشف في القرن السابع عشر دورة الدم ووصفها في دقة ، فوضع الحجر الأساسي في علم الطب الحديث ؟ ومع ذلك فإن رجال الطب في جامعة بادوا حيث تعلم هارفي الطب شابا ، كانوا جد قريبين من نفس هذا الكشف . ألم يكتب سرفيتس عن الدورة في الرئتين ؟ ألم يكتشف فابريكيس أستاذ هارفي صمامات الأوردة وصفها ؟ لقد أعدت الأرض الصالحة لنظرية الدورة الدموية ، ولكن هارفي نظم المشاهدات السابقة وجعل منها وحدة واكتشف أدلة جديدة وقام بتجارب بسيطة عبقرية وضع بها أسس نظريته الجديدة .

والجراثيم التي اكتشفها أنطون فون لوفنهوك في عام ١٦٧٦ : قبل ذلك بأعوام لاحظ بير بوريل بمجهر بدائي أجساماً تشبه الجراثيم وصفها في كتابه الذي نشر عام ١٦٥٣ . وفي عام ١٦٥٠ أعلن اليسوعي كيرشر أنه رأى في الدم أجساماً دقيقة هي في رأيه سبب الطاعون .

وباستير نفسه ؟ قبل أن يستطيع إثبات أن الجراثيم سبب المرض ، اقتنع بأن فكرة التوالد الذاتي فكرة خاطئة من أساسها ، وكانت هناك مشاهدات عدة تشير إلى أن الجراثيم التي تملأ الجو أو تعيش على الجروح المتقيحة تأخذ طريقها إلى الدم وتسبب التسمم . وقبل أن يبدأ باستير تجاربه على الجمرة أوضح دافين أن جرثومة الجمرة يمكن نقلها إلى الخراف ، ومن بعده استطاع راير ودافين إثبات أن هذا المرض يمكن انتقاله من الخراف المصابة إلى السليمة بحقنها بالدم ، وبعدها بخمسة عشر عاماً أمكن باستير عزل الجرثومة وزرعها وإثبات أن المرض ينشأ بسببها ؟ فعظمة باستير ليست فقط في المشاهدات التي شاهدها والتجارب التي أجراها ، بل هي أيضاً في شجاعته وفي نظراته الثاقبة وتفكيره الباهر وروحه الجريئة . فقد كان على استعداد للقتال من أجل عقيدة يؤمن بها حتى يخرجها من الغموض ليتقبلها الجميع .

وحتى اكتشاف الكسندر فلمنج النجاح للبنسلين ، العقار الذي قربنا من الانتصار الباهر على دنيا الجراثيم ، كان له مقدماته . ففي عام ١٨٩٧ أعلن دوتشس أن نوعاً من الفطر يسمى البنسليم له القدرة على إعاقة نمو الجراثيم ، وبعدها بخمسة عشر عاماً اكتشف نودرص من معهد باستير أن الفطر المسماة « أسبر جلس فيوميجاتس » تحد من نمو مكروب السل وتجعله أقل نشاطاً وقوة . وقبل أن يكتشف الفطر الذي أصبح عالمي الشهرة الآن ، ألا وهو « البنسليم نوتاتم » اكتشف روزنتال في معهد باستير بباريس واندريا جراتيا وسارا داث من معهد باستير ببروكسل ، المادة الفعالة التي تفرزها هذه الفطر ، ولكن هذه الاكتشافات التي سبقت عمل فلمنج دلت على أن هناك فكرة تنتظر عقلاً كبيراً ليخرجها إلى الوجود ، فعظمة فلمنج هي في اعتقاده الذي لا يتزحزح في صحة كشفه وفي بصيرته ومثابرته .

إذاً فهناك نوع من التسلسل في تقدم العلوم الطبية ، وهناك هدف تقودنا إليه البكتريولوجيا الطبية ، فما هو هدف ذلك العلم الذي يعنى بدراسة الجراثيم المسببة للمرض ليتسنى لنا مكافحتها بحذق ؟ .

كان هناك وقت يعيش فيه إنسان ما قبل التاريخ في مجاهل الغابات تحيط به الوحوش المفترسة ، وكان يعتبر نضاله من أجل البقاء عادياً وطبيعياً . ففي يوم تفترس الوحوش رجلاً ، وفي اليوم التالي يقتل الرجل وحشاً . ولم يكن الإنسان البدائي بقادر على أن يرى حياة أخرى أكثر أمناً . فلما انتشرت المدنية وتجمع البشر ، اختفى خطر الوحوش المفترسة ،

بل استؤنست بعض الحيوانات واستخدمت لسد حاجات الإنسان . ولكن خطراً جديداً ظهر فى شكل الجراثيم المسببة للأمراض . فبدأت الأمراض التى لم تكن معروفة لأسلافنا القدماء — على ما نعلم — تهدد بقاء الجنس البشرى ، فاجتاحت المدن والبلدان وفتكت الطاعون والكوليرا ، والتيفوس والملاريا والجدرى على ملايين لا تحصى . وكانت الالتهابات الرئوية وغيرها من الأمراض تقضى على الكثيرين من بنى الإنسان فى طفولتهم أو مطلع حياتهم . فماذا كان موقف الإنسان من هذه الأخطار التى لم يكن يدرى كنهها ؟ لقد كان خطر الحيوانات المفترسة حقيقة ملموسة يستطيع رؤيتها ومحاربتها . أما الأمراض فهى تجعله يواجه المجهول ؛ وكان عجز الإنسان ووقوفه لا حول له أمام الأوبئة الفاتكة التى تقضى على الزوجات والأزواج والأطفال والأصدقاء ، تجعلها فى نظره شيئاً فوق الطبيعة يتصل بالسماء . وظلت النظريات الخرافية عن منشأ الأمراض عامة والأوبئة بوجه خاص تسيطر على تفكيره عصوراً عدة . كانت الميكروبات تلك الأعداء الخفية المروعة الأشد خطراً من الوحوش المفترسة فى كل مكان من حوله . كان المرض يعتبر يد السماء الضاربة ، والعقاب على الخطايا والآثام .

وحتى حين تقدم العلم وازدادت معرفتنا بالجراثيم المسببة للمرض ظلت هذه النظرة الواهمة إلى الأمراض باقية ، وكان هذا الاعتقاد الخرافى وإن تعدل بعض الشىء يؤلف جزءاً من نفوسنا حتى وقت اكتشاف البنسلين .

إن الدور غير العادى الذى لعبته العقاقير المضادة للجراثيم وبالأخص البنسلين ، لم يقدر بعد التقدير الكامل . فإن الأعوام القليلة التى مرت منذ استخدام البنسلين قد غيرت موقفنا من عدونا القديم ، الميكروب ، تغييراً جوهرياً .

والعوامل النفسية فى قتال المرض ذات أهمية قصوى ، فإن اختفاء الاعتقاد الخرافى فى منشأ المرض نتيجة اكتشاف العقاقير الجديدة وعلمنا أن الجراثيم يمكن قهرها بنجاح بواسطة هذه العقاقير العجيبة لمما يساعد إلى قدر كبير على الشفاء العاجل وإن كان من الطبيعى أن قوى المقاومة فى الفرد ما تزال الكلمة الأخيرة الحاسمة فى قتال المرض . إلا أن تحسن نفسية المريض هو غالباً ما يكون الحد الفاصل بين نجاح العلاج وفشله .

ما هو الهدف الذى يرمى إليه علم البكتريولوجيا الطبية ؟ إنه يبدو حقاً أو خيالاً ذلك الهدف الذى تتحرك نحوه العلوم الطبية كأنما تدفعها قوة إلهية . إن هذا الهدف هو أن نعيش فى عالم لا ميكروبات فيه ، وأن نجعل كل الجراثيم المسببة للمرض أليفة وغير ضارة ، وأن نرى الأوبئة قد تلاشت من العالم أو على الأقل يسهل تضييق الخناق عليها ، وأن نجعل من عالمنا عالماً آمناً ، والموت بالالتهاب الرئوى أو الطاعون أو الالتهاب السحائى أو السل أو غيرها من الأمراض نادراً ندرة الحيوانات المفترسة فى عالمنا .

هل يوجد مثل هذا العالم يوماً ؟ نحن لا نشك فى ذلك . وكل الظواهر تؤيد اعتقادنا أنه — إن آجلاً وإن عاجلاً — لن نكون بحاجة إلى الخوف من الجراثيم المسببة للمرض . حقاً أننا لا نزال فى أول الطريق إلى ذلك النصر العظيم ، وربما مرت أجيال حتى نصل إليه ؟ ولكن لا يشك من يراقب عن كثب تقدم علم العقاقير الجديدة فى أن هذا الحلم سيتحقق يوماً ما .

وفى الماضى القريب خطونا خطوة رائعة فى هذا السبيل . تعلمنا الكثير عن حياة هذه البكتريا المرضية ونواحى ضعفها وقصورها ومن أين يمكن أن تهاجمها العقاقير ، وباكتشاف البنسلين وغيره من المواد المستخرجة من الفطر والبكتريا فتح أمامنا طريق جديد . وفى هذا المجال أحرزنا من التقدم فى الأعوام القليلة الماضية أكثر مما أحرزناه فى أجيال سابقة . لقد استحق الكسندر فلمنج ذلك الفضل الذى أعطاه لويس باستير حين قال : « لقد بددت الغموض الذى أحاط بقتالنا المرض سنوات عدة » فإن فلمنج قد أوضح لنا الطرق الجديدة لاقتناص الميكروب والسبيل الذى يؤدى إلى النصر النهائى .

وفى ضوء اكتشاف البنسلين وغيره من المواد الطبيعية يبدو مستقبل الإنسانية مليئاً بالأمل . ففى كل عام ستنخفض الوفيات بالمرض ويقل فزعنا من الجراثيم القاتلة ، فلا عجب أن سمى الإنسان هذه الاكتشافات والعقاقير المعجزة » .

أحمد مراد

مع الفكر الأوربى المعاصر

١ — الشرق كما تراه أعين «شرقية»

كتاب من تأليف ساتتا راماراو

هذا كتاب تفيض دفتاه بحقائق عن الشرق تغلب اللب . وهي حقائق فريدة في بابها .

و«ساتتاراماراو» هو اسم المؤلفة كما معناها «الربيع» وهي ابنة أول سفير هندي بعث إلى اليابان .

وقد صحبت المؤلفة أباها في صيف عام ١٩٤٧ كضيفة رسمية في دار السفارة . وقضت خريف ذلك العام والشتاء التالي تعمل مدرسة في إحدى المدارس هناك . وطفقت تمنح العناية كلها بمسائل المسرح . ثم خرجت وفي صحبتها اثنتان أو ثلاث من صويحباتها تطوف بلاد الصين والهند الصينية وسيام واندونيسيا . وكن يعشن عيش الأقوام البدائيين . وكانت مطاياهن في غالبية مراحل هذه الرحلة عربات النقل العابرة . وهي عربات تنقل من يصادفها احتساباً لوجه الله .

ومن يقرأ أحاديث المخاطرات التي صادفتها فكأنما يقرأ قصة رائعة تجمع بين اللذة والفائدة . إذ يبدو أن المؤلفة قد أوتيت موهبة الحس الدقيق ، والإعجاب بكل ما هو غريب مألوف ، سواء أكان ذلك في الشعوب أو في البلاد التي تقطنها تلك الشعوب . كما أوتيت عقلاً يجمع بين الذكاء وبين سعة الأفق .

وهي قد لقيت في اليابان وكذلك في الصين كثيراً من الكتاب البارعين وجمهرة من الممثلين القادرين . ومن هؤلاء الممثلين ذلك «الرجل — الممثلة» الذي يمثل في براعة لا مثيل لها — وهو في الثالثة والسبعين من عمره — دور فتاة في التاسعة عشرة من عمرها...

وقد عرفت — فيما عرفت — ما يعانيه الكتاب الصينيون من فقر شديد . فإن واحداً من أبرع أولئك الكتاب ، قد ظل عاكفاً على التأليف سنتين كاملتين أتم فيهما تأليف كتابين ، وكان ربحه الصافي من هذا المجهود الضخم ما يساوى ثمن ثلاث كعكات من الكعك الصيني ...

وقد لقيت «ساتتا» في أثناء رحلتها مناظر للبؤس لا يستطيع أن يصفها أحد . كما رأت بذخاً وثراء يعجز عن وصفهما الواصفون .

ففي أحد أطراف الصين رأت السكابة المجندين يؤخذون للجيش الصيني الوطني والدافع تدفعهم في ظهورهم دفعاً . كما رأت الأطفال من الرقيق وقد أهد المرض أجسامهم من الجوع . وهم يعملون في مناجم الفحم ولما يبلغوا السادسة من عمرهم لقاء ما يساوي عشرة قروش في الشهر .

وفي الطرف الآخر تصف المعابد القديمة في «كيوتو» ، وتصف راقصات القصر اللائي يرقصن الرقصات المقدسة في خرائب معبد «أنجكورفات» وهو أشهر تلك المعابد .

وهي تصف المدينة التي يقيم فيها «اللاما» ، وهي المدينة القائمة في الصحراء ، وكأنها من صنع جن لا إنس . كما تصف الأديار ذات الجدران البيضاء والسقوف الذهبية . كما تصف «اللامات» وهم يرفلون في الأردية الحمراء ، ويسيرون بين أعمدة المعبد وحيطانه البديعة النقش والصنع ، وهم يتفكرون في خلق السموات والأرض .

وهي تصف من ناحية أخرى مشاهد تقشعر منها الجلود ! فقد حدث أن أمضت ليلة من الليالي بعيدة عن صويحباتها في إحدى القرى النائية في الشمال الغربي من الصين . وهي قرية لم تكن تعرف حتى اسمها . ولم تكن تعرف كيف تخاطب القوم هناك . حتى لقد ظنت أنها لن ترجع إلى أهلها أبداً . وقد كتبت لها النجاة على يد رجل من أهل التقوى من قوم «التبت» .

ومما جعل لهذا الكتاب قيمة ممتازة أن المؤلفة قد ولدت في الهند ثم تثقفت في انجلترا وأمريكا . ومن ثم جاءتها هذه النظرة التي تجمع بين الحنان إلى الشرق والرضى عن محاسن الغرب .

وفوق ذلك فإنه لم يكن لها من رحلتها غرض خاص تسعى وراءه . وبذلك استطاعت أن تنظر إلى العالمين الشرقي والغربي نظرة المعتبر والمستمتع على حسابهما كليهما . فهي

تنعت فى متعة بمازحها النشيطين إلى ذلك الرجل الإنجليزى الذى يقول إن الصينيين لم يوهبوا حاسة الفكاهة . ذلك لأنها تعرف من قبل رأى الأسيويين فى ذلك . فهم يقولون إن قدرة الغربيين على اصطناع الفكاهة إنما يخشيها ركام من ظلمات الجشع المادى .

وهى كذلك لا تتردد فى أن تسخر من أخطائها وقلة فهمها . كما حدث لها يوم اشترت باسم أبيها بيتاً فى طوكيو ونسيت أن تذكر فى العقد أن البيع يشمل أشجار الحديقة وكانت تلك الأشجار أجمل ما فى البيت . فلما راحت تضع يدها على البيت ألفت الأشجار وقد قلعت وحملت إلى مكان بعيد .

وقد وصفت ما كان ينالها من ضيق كلما ضحك البنات فى المدرسة ضحكات لا تنتهى . وذلك عند ما كانت تشرح لهم عادة الإنجليز فى القسم على الإنجيل . فلما سألت والدها فى ذلك فسر لها سر ضحك التلميذات بقوله : إن كل أمة تنظر إلى الطقوس الدينية لدى الأمم الأخرى كأنها خرافات وأساطير .

وقد ذكرت فى كتابها ما شاهدته من أمارات القلق عند رجل يابانى من المثقفين وهو يعيب على الأمريكيين محاولتهم صبغ اليابانيين بالصبغة الأمريكية فى أساليب الحياة ، والفكر والفن ، والعادات ، وهم قدم يختلفون عن الأمريكيين فى كل شىء : فى النظر إلى المستقبل ، وفى الزواج ، وفى الميراث القومى .

والأمريكيون بعملهم هذا يعقدون القواعد ويضعون الأسس لأعقد مشكلة تواجه أية دولة محتلة فى بلاد كتبت عليها الهزيمة .

وهى تقول : إذا فرضنا أن النظام الديموقراطى ملائم للأسيويين — وأنا لا أظنه كذلك — فيجب أن يكون نظاماً ديموقراطياً يعين على الإبقاء على أحسن ما فى ثقافتنا . وذلك أولى لنا من أن نقبل نظاماً من أحسن الأنظمة السائدة عند أقوام آخرين ..

•••

٢ — « رسائل هينى » الشاعر الألمانى

من كتاب عنوانه « هينريك » هينى للكاتب ألمانى

ولد « هينريك هينى » عام ١٧٩٧ ودرس القانون فى جامعات « بون » و « جوتنجن » و « برلين » .

وقد ولد يهودياً ثم تنصر وهو فى الثامنة والعشرين من عمره . وألزمه المرض — وكان شللاً فى العمود الفقرى — الفراش طوال الثمانى سنين التى سبقت وفاته ، ومات وهو فى التاسعة والخمسين من عمره .. قال « ألفرد دى فينى » فى المقدمة التى كتبها لمسرحيته التى سماها « شترتون » إنه يشبه حظ الشاعر فى المجتمع بتلك اللعبة الشنيعة التى يلعبها الأطفال فى بعض البلاد الفرنسية . وهى أنهم يمسكون عقرباً بين دراعى « كماشة » ، ثم يضعونها فى فراغ دائرة يحيط بها الجمر المتوهج فتعانى من حره ما تعانى . ثم يضحكون منها وهى تحاول النجاة فلا تستطيع . ثم تعود إلى مكانها الأول وتظل جائمة يكاد الضيق يقتلها . ثم تسدد زبانيتها إلى صدرها فتقتل نفسها . وإذا بالصبية يقابلون هذا المصير النكود بعاصفة من الضحك لا تنتهى .

ومثل « هينريك هينى » مثل تلك العقرب . فإن ألمانيا التى ولد فيها كانت تضن على فتاها بشىء من الحنان ، وأفراد المجتمع الذين كانوا يحيطون به كانت قلوبهم تجمع بين الحشاشة والبشاشة . وبين القسوة والتحجر ، وكأنهم وقد التفوا حوله ، قد اجتمعوا ليضيقوا الخناق على جرو من أجراء النمورة ، فكانوا يعدون الأشراك ، ويهيئون مهاوى الهلاك لشاعر من أكبر الشعراء فى جميع العصور ، شاعر ملء برديه واحد من عتاة الساخرين المتهزئين الذين تقطر أقلامهم سماً .

وتبين صحة هذا المثل عند قراءة الرسائل التى كتبها « هينى » فى بدء شبابه . وهو ما زال فى ألمانيا . وفى ذلك الجو العابس . وفى أباطح تلك الأرض الصلبة نمت — بأعجوبة من الأعاجيب — أزهار حبه كما نمت أزهار حقده .

وتلك الرسائل تبدى لنا صورة الشاعر الشاب وهو فى ميادئه ، ولبس فى أحسن زيه وزينته .

وتلك الرسائل سداها ولحمتها الصدق ، فهى تصور تلك

المآزق التي تضيق لها النفس ، والتي كان عرضة لها وهو يكافح في سبيل البقاء . وهي تصور تلك الوسائل الخسيسة التي كان يلجأ إليها أحياناً . وهي تصور حقده وبغضه لأعدائه . وهي تصور أطوار رجل كان في الأعم الأغلب من حالاته مريضاً حزيناً . ولكنه كان يحيل المادة التي تبعث الحزن والأسى إلى مادة تبعث الفرح والسرور .

وهي تصوره صديقاً ، ومعادياً ، ومحباً ، ومعترفاً بالجميل ، وسخياً كريماً . وقارئ تلك الرسائل لا يعدم أن يجد فيها أحياناً براعة التخيل التي لا حد لها . وأن يجد فيها غالباً ومضات من الفكاهة ، ولمحات من براعة النكتة .

وهي رسائل تكشف إلى حد ما عن المستور من أمر صاحبها ، ولكنها قلما تكشف عن الأسباب الأصلية لآلام صاحبها .

ولولا ما أوتي النقاد من جلد على البحث ، وصبر على التقصي لما استطاعوا أن يكشفوا عن سر غرامه الثاني ، الذي بالغ « هو في تغشيته بغشاء » من التعمية ، وهو غرامه بابنة عمه الصغرى . وكانت أحلى شكلاً وأجمل قداً من أختها الكبرى . وقد كان نصيبه في الحالين الصدود أبلغ الصدود ، وما برح الجرح الذي أصابه في هذين الحادثين ينغر إلى حين وفاته .

وهناك لطمة أصابت كبرياء هذا الشاعر الجبار يوم زار جوته وقبعته في يده من فرط التوقير . وقد طار قلبه شعاعاً من فرط التهيب . فلقي من « حكيم الأولمب » كل زراية وتحقير ، لم يبرأ من آثارها أبداً .

كذلك لاذ صاحبنا بالصمت ، ولم يذكر لأصحابه شيئاً من شعوره يوم تقدم للتنصير . وذلك عام ١٨٢٥ فقد كان ذلك العمل محاولة يائسة أراد بها أن يخلع عنه ثوب اليهودية ، وهو ثوب عسير على الخلع ، بل قد كان ذلك العمل محاولة فاشلة ليظفر بمكان تحت الشمس ، وليخفف أثر الحزن الذي جلبته عليه يهوديته .

ولقد بلغت بهيني الهالة أن يحس أن كلبه الصغير قد كانت تناله كل مساءة من كلاب أصحابها مسيحيون .

ولقد حرمته يهوديته إلى حد كبير من مجالسة أرباب الجاه وأصحاب السلطان ، كما حرمته حرماناً تاماً من الوظائف العامة .

وهيني الذي كانت نظرته إلى كلتا الديانتين اليهودية والمسيحية نظرة غير خالصة قد ظل حياته كلها مذبذباً لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ، كما تشهد بذلك وصيته التي ضمنها إحدى قصائده .

و« هيني » لم يكن من أولئك الذين يستطيعون التغلب على المشكلات . وما كانت جروحه قريبة البرء والشفاء ، وما كان من العافين عن أعدائه . ولا الغافرين لهم خطاياهم ، وما كان ينسى الإساءة أبداً .

وكأنما كان جزءاً من مأساة حياته ، بل جزءاً من انتصار فنه أنه لم يكن يستطيع أن ينسى ، بل لم يكن يريد أن ينسى .

وكان لهيني عم من أصحاب الملايين اسمه « سولومون هيني » وكان على فرط غناه فظاً غليظ القلب ، وكان غير مثقف ، وكان الذي بينه وبين ابن أخيه مختلف جداً .

ومن يعرف ثراء قوم « هيني » وصلاتهم بأصحاب الجاه والسلطان ، لا بد له أن يلوم « هيني » على تخلفه عن الركب . ولكن الواقع أن أسوأ ما لقي « هيني » في حياته من أذى ومضرة قد لقيه على أيدي أولئك الأقرباء ، وأيدي أصحابهم وخلطائهم .

وقد قبل عمه هذا على مضض أن يهبه قليلاً من المال . ولكنه مال لم يحرمه صحبة الفقر ، بل لم يحرمه من أن تدوم تلك الصحبة حتى وافت « هيني » منيته .

وطارد المرض « هيني » مطاردة طال أمدها ، فلازمه الصداع أيام فتوته . ثم مشى في ركابه حتى ألهده . ولكن أنسته آلامه محبة بعض خلانه الأوفياء ، وخاصة صديقه « فارنهاجن » وزوجته البارعة « راحيل » . وفي ذلك يقول له في إحدى رسائله :

« لقد شقيت في هذه الدنيا ، وكان يضحي بي في كثير من الأحيان . ولكنك أنت وزوجك كنتما أول إنسانين لقيت منهما معاملة إنسانية ، ولا بد لي أن أعلق بهذه الذكريات . ذلك لأن إساءات خبيثة تلح في الالحاق بي ،

ورأسى لا يزال يشكو الصداع ، وقلبي لم يبرأ منه بعد برءاً كاملاً .

وكان « هينى » يعرف أن فى أقصى نواحى ضميره هاوية يخافها ويخشاها فيقول : « إن طائفاً من الهوس يتملكنى وأنا قد بدأت أعتقد أنى أختلف من الوجهة الروحية عن سائر الناس ، وأنى أكثر منهم عمقاً وأبعد غوراً ، وأن هناك حزناً قائماً يجثم فوق روحى ، وكأنه غشاء من الثلج ، وأنى مشوق غاية الشوق إلى الليل السرمدى » .

وكان يعرف كذلك أنه لم يكن مبرأ من الخطيئة ؛ فهو يقول فى إحدى رسائله : « إن قلة المال أو كثرته ليس لها أقل أثر على مبادئى ، ولكنها لها الأثر كل الأثر على أعمالى ، وأنا — على مابى — أعرف معرفة يقينية أن لى روحاً ، فليكفك هذا منى . فأوليني حبك من أجل هذا ، ومن أجل ذلك الإحساس الغامض الذى يجد له تفسيراً فيما يتجاورنى من جنون وعقل ، وفيما جبلت عليه من خير وشر ، وكذلك أوليني حبك من أجل ما عاهدت عليه نفسك بأن تمنحينى ذلك الحب ، ومن أجل ما تؤمنين به من أنى أستحق أن أحب .

« وأخيراً فإنى لأحبك ، وكيف أستطيع أن أحبك وأنت مثال قد جمع بين صور الفضائل كلها » .

والناس ينظرون دائماً إلى « هينى » نظرتهم إلى « بيرون » ، ولا خلاف فى أن بينهما مشابه . وقد استطاع هذان الحيوانان الضاريان أن يقضيا على خصومهما وأن يفقداهم عطف النظارة والمتفرجين .

ولكى يحس الناس إحساس « هينى » ويشعروا شعوره يجب عليهم أن يلموا إلماماً تاماً بما ناله من صنوف المهانة ومرارة الذل بوصفه يهودياً . ثم الإلمام بحالته العقلية يوم رأى نفسه يهودياً قد تنصر .

ولقد أمضه — فيما أمضه — أن صديقه الكبير « الكونت بلاتن » صوره أبشع صورة فى بيتين من الشعر يقول فيهما :

« أما أنا فصديقه ، ولكنى لن أكون يوماً له محباً .

ذلك لأن رائحة الثوم الكريهة تفوح من فيه » .

ولما بلغ « هينى » الرابعة والثلاثين من عمره غادر بلاده إلى فرنسا حيث عاش هناك بقية حياته ، وكأنه رجل مقضى عليه بالنفى من بلاده . وهو فى هذا النفى قد أشبه « بيرون » مرة أخرى .

وفى العاصمة الفرنسية بلغ « هينى » درجة النضج فى السياسة وفى الفلسفة ، وقد وصف «هنرى ليشتنبرزاى» (الذى كان أستاذاً للآداب الألمانية فى جامعة باريس) مقالات « هينى » التى كتبها عن الأدب والعقائد والسياسة الألمانية بأنها « نتاج استقراء واسع ، ومحصول دراسة مستفيضة » .

ولقد احتمل « هينى » عذاب المرض ثمانى سنوات فوق حشية من الحشايا كانت عنده باللحد أشبه ، فكان احتماله هذا يبعث الرعب فى القلوب ، ولكن قصائده التى قالها فى تلك السنين كانت من أروع قصائده ، ذلك لأن روحه كانت كالشمس لها مفاتن الشروق والغروب .

وتلك القصائد ، سواء ما كان منها فى مرارة الحنظل أو فى حلاوة الشهد ، وسواء ما كان منها من قصائد البكاء والنحيب أو من قصائد الحب وملاعبه ، فكلها قد بلغ غاية الجودة ، وكلها قد أعجز القائلين .

ومن ذا الذى يستطيع أن يؤدى له واجب الإنصاف فى اللحظة التى سبقت نهايته ، وقد ألقى القلم لآخر مرة من بين أصابعه . وقد وقف إلى جانب سريره صديق من أصدقائه ينظر إلى الأوراق وهى تغطى سريره وتنتثر على الأرض فيقول :

لقد سمعت ضحكة جافية . ولقد نظرت إلى « هينى » وسمعته يصرخ فيقول : إنى أمسك بهم ! وإن أعدائى سواء منهم من كان حياً أو من غيبته القبور لن يستطيعوا الفرار ، وليس « هينى » هو الذى يموت كما يموت الرجال العاديون ، وسوف تبقى مخالب النمر تعمل عملها بعد موته ! ..

• • •

٣ – (ا) حياة القرية

كتاب من تأليف « نورمان وير »

و (ب) حياة المدينة

كتاب من تأليف « روبرت كروفت كوك » و « نويل باربر »

كتاب « حياة القرية » ألفه كاتب من الهواة . وهو كتاب قد أحاط بموضوعه إحاطة شاملة ، فالفصل الذى عنوانه « ميلاد قرية » يلخص القارئ تاريخ الزراعة منذ عصور ماقبل التاريخ . وفيه يعالج المؤلف موضوعات مختلفة منها الصناعات ، وفنون العمارة ، والخرافات ، والأعياد ، واللهجات الوطنية ، وسوق القرية .

وقد أضيفت إلى مواد هذه الموضوعات ألحاق اقتبسها المؤلف من كتب له كتبها منذ سنين .

وهو يضفى على قريته التى وصفها غلالة رقيقة من الرقة والظرف ، أما تاريخ تلك القرية فلا معالم له ، ذلك أن المؤلف لا يريد — إلا فى القليل الأقل — أن يشوش الأمر على القارئ بذكر الشهور والسنين ، وسواء عنده أ كانت الحوادث التى يصفها من حوادث القرن الحادى عشر أو السادس عشر أو التاسع عشر ، فكل الأزمان عنده لها مكانتها ؛ ذلك لأنها قد أصبحت فى سجل الغابرين ، وقد أضفى عليها القدم وقاره وجلاله .

وهو بين آونة وأخرى يجعل حادثة من الحوادث تخترق السحاب ، فتبدو للناظرين ، كأن يذكر أنه فى عام ١٣٨١ قد ثار الفلاحون ثورتهم من أجل الاستقلال .

وأحسن فصول الكتاب ما كتب عن الصناعات ، وفيه يذكر المؤلف نتفاً لطيفة كقوله إن صناعة القرم فى « بكنها مشير » و « بدفورد شير » قد أدخلها الأقوام « البروتستانت » الذين جاءوا من بلجيكا واتخذوا قرية « كرانفيلد » بمقاطعة « بدفوردشير » دار إقامة ، وذلك فى عام ١٥٦٣ .

وهو يقول إن العيش فى الريف متعة لمن كان ذا ثراء ومال . والكتاب جزيل النفع جم الفائدة لطلاب العلم من أهل الشرق الذين يرغبون فى معارف مبسطة عن القرى فى ريف انجلترا وعن عادات أهل تلك القرى ..

أما كتاب « حياة المدينة » فهو كتاب خفيف الروح ؛ فيه محاولات لوصف ثلاثين مدينة من كبريات المدن فى العالم .

ويقول المؤلفان إنهما ألفا كتابهما عقب سهرة من سهرات باريس ، خرجا فى نهايتها وهما يتناجيان بقولهما إنهما بزيارتهما لباريس قد تمت لهما زيارة كل مدينة من المدن الكبرى فى العالم ، ثم استدركا فقالا : إلا تلك المدن التى تقع فى النصف الثانى من الكرة الأرضية . ثم أضافا إلى ذلك قولهما : على أننا قرأنا كتباً عن تلك المدن التى لم نزرها زيارة شخصية ..

وقد اختصا كل مدينة بصورة موجزة يصوران فيها مشهداً أو مشهدين من مشاهد المدينة ؛ فهما يقولان :

إن أعجب ما فى « برشلونة » هى تلك الأغانى الحارة حرارة الندم ، أنفاس أولئك الأشقياء المعترفين بذنوبهم ، والمتصاعدة من نوافذ الكنائس الكبرى ، وإن فى « بانافيا » (فى جزيرة جاوه) يهرم المرء وهو فى سن الخامسة والعشرين وإن فى « هاربين » تعلق لافتات فى حانات « الجولف » تقول : لايسمح باللعب إلا لحاملى المسدسات .

وإن فى شوارع لندن قد غاضت الابتسامات وغاب القوم ذوو البشاشات ، وخلوا مكانهم لقوم عابسين قد رثت ملابسهم وصح هندامهم ، وعلتهم قترة من الجد العابس .

وهما يقولان :

إن موسكو لا تحسب من مدن أوربا ، إنما هى مدينة آسيوية ، وإن نيويورك مدينة قد شغفها حب المال فهى مشغولة بجمعه وصنعه .

وإن فن الحياة فى باريس لايبدو فى الحب بين المحبين كما يظن الظانون ، وإنما يبدو فى فنون الطعام .

وهما يقولان :

إن « روما » أشبه بسارية من ذهب .

وإن مدينتى « شنغاى » و « سنغافورة » تقصان على العالم قصصاً تثير الرعب ، وقصصاً تغنى لها النفس .

وإن مدينة « البندقية » تفوح منها رائحة القدم . وهى الرائحة الحبية إلى كل نفس ..

والكتاب فى جملته صالح للقراءة إلى جانب السرير فى يوم عطلة ...

بارك ابراهيم

رد على نقد

كتب الأستاذ الفاضل نقولا الحداد مقالاً في الثقافة أشكره عليه في إشادته بكتاب هارون الرشيد ، ولكني آخذه على شيئين : الأول أخذه عليّ أني ذكرت أن الرشيد قتل العباسة وولديها من جعفر ولم أؤاخذ الرشيد على ذلك .

أما قتل الرشيد العباسة فلا أذكر أني نسبته للرشيد ، ولا أذكر أني قرأته في كتاب تاريخ محترم ، وكل ما أذكره أني ذكرت ما يقوله بعض المؤرخين من أن الرشيد عقد لجعفر على العباسة ثم أنسلها جعفر ولدين قتلهما الرشيد ؟ وقد ذكرت أن هـذا العقد لا غبار عليه ، لجعفر البرمكي كفء العباسة ، ولو تخير الرشيد لأخته ما اختار لها خيراً من جعفر ، وله طويلاً في التنكيل بالبرامكة ، وخصوصاً تنكيله بابني جعفر ، وليس لهما ذنب يؤاخذان عليه ، وقلت إن العباسة معذورة في اتصالها بجعفر فهي له زوجة شرعية ، بل أستطيع أن أتحدى الأستاذ نقولا في دعواه أني قلت إن الرشيد قد قتل العباسة ثم لم ألمه على ذلك ، وأكون شاكراً له لو دلني على النص وصفحته من الكتاب لأصحح خطئي إن كان .

والمأخذ الثاني عليه أنه يرى أن الحق حق حيث كان في كل زمان ومكان ، والباطل باطل كذلك حيث كان . ومؤاخذة الناس على الحق والباطل واحدة في كل الصور . ولست أرى هذا الرأي . فقد أوافقه على أن الحق والباطل حقائق مجردة في كل زمان ومكان لا يتغيران بتغير الأشخاص ، ولكني أخالفه في مؤاخذة الناس عليهما مهما تغيرت البيئة . فالمؤاخذة إنما تكون بمقدار تقدير الناس للحق والباطل وفهمهما . هؤلاء المصريون من عهد قريب كان نساؤهم يتحجبن وكان الرجال يرون أن الحجاب فضيلة ، ثم سفرن فرأى الرجال أن السفور فضيلة ، والحجاب رذيلة . والمصريون عادة أقل تقديراً للصدق والأمانة من الإنجليز والألمان ، فيجب أن نؤاخذ المصريين عليهما أقل مما نؤاخذ الألمان والإنجليز . والمصريون يقدرون العفة أكثر مما يقدرها الألمان والإنجليز ، وليست المسئولية على هؤلاء وهؤلاء واحدة ، بل إن الأمة الواحدة قد يختلف تقديرها للفضيلة بحسب المكان ، فلا تكون المؤاخذة واحدة ؛ فالغيرة في الصعيد أكثر منها في البحيرة ، فإذا قتل الصعيدي زوجته أو أخته غيرة لم يؤاخذ كما يؤاخذ البحيري . والقضاة يعلمون ذلك ، فيفرقون في الحكم بينهما . ولا يقدر الإنجليز والفرنسيون الغيرة كما يقدرها الصعايدة والبحاروة ، وبذلك تختلف قوة المؤاخذة . والطفل أو الشاب إذا ارتكب جريمة خصوصاً في الجرائم التي تدفع إليها الشهوة أو قوة الشعور لم يؤاخذ عادة كما يؤاخذ الشيخ المسن ، الذي كثرت تجاربه وضعفت مشاعره . وهكذا من آلاف الأمثلة . فهل يريد الأستاذ أن يؤاخذ الناس الرشيد وهو في عصر لم يكن الناس فيه يعرفون حق الحياة وحق الحرية ، كما تؤاخذ من تعدى عليهما اليوم ؟ إن ذلك والحق يقال يكون جرماً فظيعاً . ومن أجل هذا شرّع في القوانين الحديثة تقدير الظروف التي ارتكب فيها المجرم إجرامه . وليس من الحق أن نكلف عامة الشعب أو عامة الشعوب فوق طاقتها ، فنحملها مسئولية ما لم تفهم وما لم تقدر ، وإن كان الحق حقاً في ذاته ، والباطل باطلاً في ذاته . بل إن عوامل الفصول المختلفة تجعل الإجرام في فصل أشد من الإجرام في فصل آخر . فالفقير إذا اشتد به الجوع وسرق رغيفاً في الأيام القاسية البرد كان أخف جرماً من غني سرق رغيفاً في أيام الصيف ؛ وعمر بن الخطاب لم يوقع الحد على فقير سرق ناقة وقد اشتد به الجوع ، ولم يوقع حد الشرب على أبي محجن الثقفي لأنه أبلى في الحروب بلاء حسنا . وأوقف الحدود كلها في أيام الحرب لما رأى أن بعض من وجب عليه الحد يفر إلى بلاد الأعداء . أفبعد هذا كله يصر الأستاذ على أن المسئولية في جميع الصور والأمكنة واحدة لا تتغير ؟ .

الحق فيما أرى أنها تتغير قوة وضعفاء ، وأن الرشيد لو ارتكب نكبة البرامكة اليوم لكانت مسئوليته أشد . ولو ارتكبها في انجلترا أو ألمانيا كانت مسئوليته أكبر مما إذا ارتكبها في مصر أو بغداد . لأنهم هناك يقدرون الأمور ويعرفون الحقوق أكثر مما نعرف ونقدر .

هذا ما أرى وللأستاذ رأيه . فإما أن يرجع إلى الحق حسب ما أرى ، وإما أن يصر على رأيه . ولكل وجهة هو موليها . وأشكره أخيراً كما شكرته أولاً على حسن تقديره للكتاب .

أحمد أمين

كتاب رياض النفوس

فى طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم

قام على نشره الدكتور حسين مؤنس

للأستاذ إحسان عباس

هــذا كتاب قيم تضافرت على إخراجه مميزات بارزة فى الأستاذ الناشر ، لعل من أظهرها الأصالة فى البحث ، والتخصص العميق فى دراسة المغرب الإسلامى ، والاستجابة لهذا التخصص فى تحقيق النصوص المتصلة بالدراسات المغربية ، والجهد الذى لا يعرف الراحة فى استيفاء البحث والتحقيق ؛ وهى مميزات مشفوعة عنــد الدكتور مؤنس بتواضع جم ، ودأب صامت إيجابى ، يوجهه شرف الغاية العلمية ، ويسيره هدوء النفس الواثقة المطمئنة إلى إخلاصها فيما تعمل .

وقد برزت هــذه الخصائص كلها بروزاً واضحاً فى تلك المقدمة البارعة العميقة التى عرض فيها الأستاذ المحقق لبعض النواحى الهامة فى تاريخ المغرب ، فطلع علينا برأى طريف فى الأسباب التى وجهت الإفريقيين إلى التمسك بمذهب مالك ، وكيف أصبح هــذا المذهب « عنصراً من عناصر الكيان الشخصى لكل منهم ، وانتبه فى نفوسهم وهى محل — إذا لم نقل قومياً — يربط أشد الارتباط بالمالكية ، وأصبح المغربى المسلم الحريص على دينه وخلقه لابد وأن يكون مالكيا معارضاً للحكام متجنباً الاتصال بهم » (ص ١٣ من المقدمة) ثم بين لنا أهمية كتاب الرياض وكيف أنه يتمشى فى قيمته مع أهمية المذهب المالكى فى إفريقية ، وكيف يصور لنا نشأة الرباط وتطوره « وإذا كانت المالكية هى العصب الأول لتاريخ المغرب فإن الرباط العصب الثانى ، بل يكاد يكون علة وجوده » (ص ٣٦ من المقدمة) .

ومن طبيعة المخطوطتين اللتين اعتمد عليهما الأستاذ المحقق ، أولا ، ومن الذيول الملحقة بهذا الجزء ثانياً ، يتجلى مقدار الجهد الذى بذل فى إخراج هــذا الكتاب . والحق أن النشر المستوفى ليس بالعمل السهل وإن بدا سهــلاً لمن لم يتمرس به . ومن الحيف أن يؤاخذ الناشرون المتقنون بهنات صغيرة يجدها القارئ هنا وهناك ؛ فالسلامة من الخطأ من أنواع الكمال ، والكمال متعذر . ومن هنا أرانى لا أجد حرجا فى الإشارة إلى أمور توقفت عندها فى كتاب الرياض ، دون أن يكون لها أثر فيما أحس به نحو هذا العمل من إعجاب .

١ — ص : ٣ فيعثون سرعاناً خيلهم ينظرون : لعلها فيغشون كما هى عند ابن عذارى (١/٦) .

٢ — ص ١٣ : وبلغ موضعاً يقال له قرطاجنة فسبى فيها ما (يأتى) : أصلحها الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب باشا : فسبى فيها ماأتى ، وأرى أن هناك حذفاً وأن صحتها : فسبى فيها مالا يأتى عليه الوصف ، ويقابلها عند ابن عذارى : فسبى فيها مالا يحيط به الوصف ، فى الإشارة إلى الحادثة نفسها

٣ — ص ٣٧ : فى حديث الرسول عن تهودة « سوف يقتل بها رجال من أمتى على الجهاد فى سبيل الله تعالى ، ثوابهم وثواب أهل بدر واحد ، وا شوقاه إليهم » والنص عند ابن عذارى صريح بأن الذى يقول « وا شوقاه إليهم » هو شهر بن حوشب راوى الحديث .

٤ — ص ٣٣ : « وكانت الكاهنة حين أسرت ثمانين رجلاً من أصحاب حسان أحسنت إسارهم إلا رجلاً واحداً وهو يزيد بن خالد العبسى » قيل فى التعليق : فى الصلب أسامت وهو الأصح . والخبر عند ابن عبد الحكم وابن عذارى أنها « أحسنت إسار من أسرته من أصحابه وأرسلتهم إلا رجلاً منهم من بنى عبس يقال له خالد بن يزيد » . وهذا الاسم لم يصحح فى الرياض إلا مرة واحدة ثم ترك على الأصل .

٥ — ص ٣٦ : هذه الصفحة مصورة وملحقة بالكتاب

وبمقابلتها بالأصل يتبين أن الأستاذ المحقق يصحح الأصل دون إشارة إلى ذلك، وربما كان محقاً بعض الشيء، لأن الأخطاء في الأصل كثيرة ولا يحتاج تصحيحها إلى تعليق ، ومع ذلك فالإشارة إلى الأصل تعين على تقدير حال النسخة الأصلية وحال ناسخها .

٦ — ص ٤٦ : كان إذا قدم مكة لم يخرج منها حتى يطوف لكل يوم غاب عنها أسبوعاً ؛ وربما كان صوابها سبعاً .

٧ — ص ٤٧ : أبو سعيد القداد بن عمر بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة البهراني : صوابه ابن عمرو كما في طبقات ابن سعد وفتوح مصر ؛ والبهراني أو البهراوي، لأنه منسوب إلى بهراء .

٨ — ص ٥٠ : ومنهم المطلب بن السائب بن أبي وداعة السهمي : هذا الاسم مكرر من طبقات أبي العرب ولكن أين الأصل وأين التكملة ؟ :

٩ — ص ٥٠ : ويقرأ بالسورة فيرتلها حتى يكون الحر من أطول منها . وفي التعليق إشارة إلى اضطراب النص ثم نقل طويل من البخاري لا يحل الإشكال ولا حاجة إليه . وفي موطأ مالك « حتى تكون أطول من أطول منها » أي أن السورة المرتلة تصبح أطول من سورة أطول منها بلا ترتيل . والحديث نفسه في أسد الغابة في ترجمة حفصة بنت عمر .

١٠ — ص ٥٣ ومنهم أبو محمد فضالة بن عبيد (الله) . وبعد أسطر في الصفحة نفسها كتب الاسم فضالة بن عبيد ، وفي ص ٦٤ كتب فضالة بن عبيد زيد الأنصاري . وأظن صوابه فضالة بن عبيد لوروده كذلك في غير مصدر (وانظر الإصابة) .

١١ — ص ٥٤ : ومنهم جرهد بن خويلد بن بجرة السلمي وفي الإصابة الأسلمي .

١٢ — ص ٦١ : ومنهم أبيض : وفي التعليق عليه أنه أبيض بن حمال السبائي المازني . والتوقف في تسميته — كما فعل الناسك — أصح ، إذا رجعنا إلى مادة « أبيض » في الإصابة وأسد الغابة . فلا شك أن أحد المسمين بهذا الاسم دخل أفريقية ولكنه ، على الأغلب ليس أبيض بن حمال . وكلمة المازني صحتها المأربي كما في أسد الغابة .

١٣ — ص ٦٢ : وذكر أبو العرب بن تميم . والصواب أبو العرب تميم .

١٤ — ص ٧٦ : قلت وأنا عبدالله عثمان بن عمر كاتب هذه النسخة .. إلخ : واضح أن هذا كلام الناسخ ، فلا أدري أمن الحق أن يترك في مكانه من المتن أم أن يدرج في الهامش

١٥ — ص ٩٠ :

فتى ما قضى فيما خلا ثم لا ترى لمصبوة فيما بقي آخر الدهر

تجعل كلمة ترى مع الشطر الأول .

١٦ — ص ٩٢ : « ذكر أحمد بن صالح أن أصل عكرمة من بربر أفريقية وذكر غيره أنه من سبي افريقية ، اشتراه ابن عباس فقيل له أتبيع علم أبيك...إلخ » شرحت اشتراه بمعنى باعه فأوهم ذلك أن الذي باع عكرمة هو ابن عباس ، ولكن هل يقال لابن عباس : أتبيع علم أبيك ؟ أكان والد ابن عباس عالماً ؟ أكان عكرمة خادماً عنده ؟ من هنا يتبين أن في النص اضطراباً يصححه ما جاء في طبقات ابن سعد : « مات ابن عباس وعكرمة عبد ، فاشتراه خالد بن يزيد بن معاوية من علي بن عبد الله بن عباس بأربعة آلاف دينار ، فبلغ ذلك عكرمة فأتى علياً فقال : بعتني بأربعة آلاف دينار ؟ قال : نعم . قال : أما إنه ما خير لك ، بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار » . وعلى هذا تظل اشتراه بمعنى الشراء لا البيع ، وزاد في النص جملة مثل « ثم باعه ابنه بعد وفاته » وبها يصح النص في الرياض .

١٧ — ص ٩٣ : توفي سنة خمس ومائة وهو ابن ( ) سنة ؛ وتمامه . وهو ابن ثمانين سنة كما في طبقات ابن سعد .

١٨ — ص ١٠٧ : فكتب إليه يزيد « ابعث إلي به في قطيفة » وفي الهامش شرحت كلمة قطيفة شرحاً لا علاقة له بالمعنى المراد ؛ والمراد ابعث به ملفوفاً محمولاً ولا تؤخره لأنه كان قد كتب إليه يعلمه أنه مريض .

١٩ — ص ١٦٥ : لا تمر الليالي والأيام حتى تنمحي كتب أبي حنيفة . وكلمة تنمحي كانت في الأصل تمتحي والأصل صحيح أيضاً .

٢٠ — ص ١٦٦ : وشكا نبي من الأنبياء إلى الله عز وجل الضعف في قومه : كلمة الضعف فيما يبدو لي تصرف بها الناسخ وأباح لنفسه تغييرها وأصلها الوناء ، لأن السياق كله منصب على توضيح كلمة الوناء التي هي بمعنى الضعف .

٢١ — ص ٢٠٩ : أبغي رءوساً ، أبغي فتوتاً ، أبغي

بين المجلة وقرائها

أزمة الشعر

لفت نظرى فى « الثقافة » أنها تعنى بدراسة الآداب الغابرة وإحياء تراث الراحلين بالأمس وأمس الأمس . وهو نهج حسن جدير بالتقدير والإجلال . ولكن ألا يكون أحسن لو عنيت ، بجانب الوفاء لأدباء الأمس ، بالعطف والتشجيع لأدباء اليوم ، وأخص منهم الشعراء ؟ فالشعر ، ذلك الفن الخالد ، كاد يموت وينقرض !

حسن المدبولى
من علماء الأزهر

أجل فاتت نظر الأستاذ إلى أننا نعنى ونهتم بجوانب « الثقافة » جميعاً .. وهذه المجلة — حينما اتخذت « الثقافة » اسماً لها — أرادت بذلك أن تحمل مشعل الفنون والعلوم والآداب جميعاً .

فإذا أعطت أهمية لشعراء الأمس والأدباء السابقين فذلك جزء من واجبها المناط بها . وإذا بحثت فى الفكر الحديث وانصرفت إلى أعمال المؤلفين الغربيين والشرقيين فهى إنما تؤدى مهمة أوقفت جهودها عليها منذ سنوات . والمجلة — خصوصاً الأدبية — إذا خلت من الجاد وسقط من حسابها الهدف الذى ترمى إليه تموت يوماً بعد يوم ولن تحقق لها الحياة فى عصر ينزع كل إنسان فيه إلى أن تكون له غاية ، ويجهد نفسه من أجل تذليل الصعاب التى تقف فى سبيله إلى تلك الغاية . إن الحياة — فى العصر الحاضر — أصبحت لا تحتمل سيراً بغير هدى أو نزوعاً بغير هدف . وقد تظهر هذه الأهداف واضحة فى وقت من الأوقات وقد تختفى بعض الأحيان ، ولكنها تظهر فى النهاية فكراً ناضجاً فى رءوس الناس ومبادئ مرسومة فى عقولهم .

و « الثقافة » تعنى بالشعر .. ولا شك فى أنها تبذل جهداً كبيراً فى سبيله لأنه فن أدبى خالص ، ولأننا نعتقد أنه فرع من فروع الثقافة التى أخذنا على أنفسنا أن نزرع شجرتها فى هذا البلد كاملة مستوفاة . والشعراء الأحياء يأخذون من عنايتنا أضعاف أضعاف ما ناله الأقدمون من الاهتمام والجهد . ولكن .. وآه من لكن هذه ..

ولكن أين هو الشاعر الممتاز الذى يستهوى فئة المثقفين بقراءته ؟ أنا لا أتهم أحداً ، ولكنى أنظر من حولى فأجد سوق الشعر قد اقتصر على الإنشاد الصوتى بين جماعة من الناس . ولسنا فى هذا بدعاً بين الأمم .. فغالبية المثقفين من أبناء الدول المتحضرة جداً فى فنون الأدب قد أصبحت لا تجهد نفسها فى الإبداع الفنى للشعر الخالص ولم تعد تهتم به ذلك الاهتمام الذى ترويه لنا كتب الأدب القديم .

جيداً ، والصواب جيئاً ، وهو التمر والأقط يدقان ويعجنان بالسمن عجناً شديداً .

٢٢ — ص ٢٥٧ :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ولمشترى دنياه بالدين أعجب

صوابها : وللمشترى .

٢٣ — ص ٢٥٩ . وكان سحنون رحمه الله يقول « من فقه الرجل مطعمه . . . . . العذير » كتب فى التعليق على هذه العبارة بأنه موجود إلى جانبها فى الأصل : تكررت من نسخة أخرى . ولعل الاشارة على هذا الشكل لا توضح بدقة أن هذه العبارة نفسها وردت فى ص ٢٥٧ سطر ٩ وما بعده .

٢٤ — ص ٤٤٠ :

يقارعنى من شاء منكم بعيشة معيشة أهل الفقر ظاهرة السنة

تقرأ : معيبة الآفات .

ولا يفوتنى أن أذكر فى ختام هذه الملاحظ أن مثل رياض النفوس فى نسخه الأصلية المضطربة لا يحسن إخراجه هذا الإخراج إلا محقق حجة وعالم مخلص كالدكتور مؤنس .

إحسان عباس
بكلية غوردون التذكارية

حضارة الغرب

ألست معى فى أن الموضوعات المترجمة تطغى على معظم صفحات هذه المجلة الغراء . يجوز أن يكون لكم رأى فى هذا ، فأرجو أن توضحوا ماغاب عنى وعن أمثالى من القراء .

(إسنا) فوزى عباس

نعم .. لنا رأى . بل لنا آراء وغايات حول هذا العمل . وليتنا نستطيع أن نقدم إلى قارئنا كل ما نريد أن يطلع عليه من ثقافة الغرب . وليست هذه أول مرة يعترض علينا هذا الاعتراض وتوجه إلينا هذه الملاحظة . ولكننا نصر على اتجاهنا هذا معتقدين أننا ما زلنا فقراء إلى ما تنتجه المطابع الغربية . والحقيقة التى لا ينكرها أحد هى أن الأوربيين قد تقدموا علينا فى أبواب المعرفة تقدماً يجعلنا فى تأخر متصل يوما بعد يوم . ومهما ترجمنا ونقلنا واقتبسنا فلن نستطيع أن نحيط علماً بكل ما أخرجوه من ثمار العقول الناضجة هنالك . وقد رأيت مرة نشرة خاصة بطلبة السوربون فى علم النفس وأحسست عند قراءتها إلى أى حد لا نزال تائهين ، وعند ما وازنتها بأفضل المجلات الأدبية أو الفنية عندنا وجدت أنها تفوقها بمراحل .

لا أريد أن أضع من شأن مكتبتنا العربية ، ولا أميل إلى التجريح ، وأعتقد أن لدينا كتاباً يوضعون جنباً إلى جنب مع بعض المفكرين الغربيين . ولكنهم لم يعطونا كل الجوانب ولا نزال فقراء فى أبواب كثيرة .. بل أستطيع أن أحكم بأننا سنظل عيالاً على الفكر الأوربى جيلا آخر . ولكى تحس بالمشكلة إحساساً قوياً ، سل واحداً من طلبة الآداب والتجارة والعلوم والرياضيات بالجامعات عندنا : هل تجد مراجعك العربية مستوفاة ؟ وهذا طالب عادى ، فما بالك بطلبة الدكتوراه والماجستير .

ثم لاحظ شيئاً آخر ، وهو أننا — فى هذه المرحلة بالذات من تاريخ الأمة — نضع دعائم الرأى والتفكير ونرسم الخطوط التى ستتقدم فى حدها طلائع المعرفة والعلم . كل عمل فى مجال الأدب الآن هو حجر فى الأساس الذى سينبنى عليه تفكيرنا وذوقنا . فإذا لم يكن الأساس متيناً وإذا لم تكن الدعامة قوية ، وإذا لم نستهد بتجارب الآخرين ممن شقوا نفس الطريق بشجاعة وبأس فلن نبلغ شيئاً فى معراج الفكر والفنون ، ولو عملنا قروناً بعد قرون . إننا نريد أن نزود القارئ بمحصول فكرى وزاد أدبى يقى ذوقه من شوائب التهريج الذى امتلأت به حياتنا اليومية ، ونضع بين يدى مجلتنا كل ما تتوق نفسه إليه من ثقافة الغرب ، وكل ما يتطلع إليه من أبواب الفنون التى لا غنى عنها لشباب العالم المثقف وشيوخه . أو بعبارة أخرى : إننا نسعى بكل ما فينا من قوى فى سبيل جعل ينبوع المعرفة فى الغرب يسيل بين جدران وادينا فيجد فى عقول أبنائه تربة خصبة ، وتنشأ عندنا الثمار مباركة طيبة .

انزع يا أخى من ذهنك هذه الصورة المشوهة التى اعتاد بعض الناس أن يرسمها فى أذهاننا عن حياة الغرب وفكره وأدبه . فالحق أنهم قوم ممتازون ، وأننا نحتاج إليهم احتياجاً كبيراً لنخط معالم طريقنا .

الفن الحديث

وجاءتنا رسالة من أحد الفنانين يسألنا : ما بالكم لم تعودوا تهتمون بدراسة الفنون العامة كالرسم والنحت والموسيقى . وأؤكد لصاحب الرسالة أنه فى نيتنا عمل أشياء كثيرة ، وأنه لا ينقصنا إلا الإحساس بحاجة القراء . فأنت تعلم أن عدد القراء فى مصر ضئيل ، وتعلم أيضاً أن هواة الفنون قلة ، وفى الوقت الذى يظهر فى مجتمعنا طوائف من محبى القراءة والفن ستجد مجلاتنا الأدبية مضطرة إلى أن تجارى هواياتهم وتتجاوب مع رغباتهم . ومع ذلك فسنحاول أن نقدم دراسات وافية لفنانين كبار ، وسنعمل دائماً على تغذية المجلة بعناصر الفن الرفيع . ونعنى من وراء هذا كله بالتربية الذوقية .

القراءة والحياة !

تناولت بقلمك مشكلة القراءة عند الناس وتحمست تحمساً شديداً لهؤلاء الذين يدفنون أنفسهم بين الصحائف ويقتلون وقتهم بالقراءة . وأنا أيضاً على مثل رأيك .. ولكن أظن أن كلينا أنت وأنا نتجاهل بهذا حقيقة كبرى هى حقيقة الحياة . فللحياة على نفوسنا حق أكبر من حق الكتب ! والغلطة الكبرى التى يرتكبها معظم المثقفين فى مصر هى أنهم يملأون رءوسهم بالكلمات ويحشدون فى رءوسهم المعلومات ويبدون فى النهاية كأطفال كبار .. لماذا ؟! لأنهم

لم يوازنوا بين ما في رءوسهم من صنوف المعرفة وما في قلوبهم من ضروب التجربة . ولينك تقرأ مقال هنا زلت عن « جهل المتعلم » الذى يقول فيه إن جليس الكتاب يغلف نفسه بنسيج من التعميات اللفظية ولا يرى سوى النتاجات القليلة التى تنجم عن تفكير الآخرين فى الأشياء . ولذلك تراه يعتاد أخذ الرأى عن سواه ويجهده التفكير فى المشاكل مباشرة ... !

• زكريا الدرويش
معيد بكلية طب العباسية

هنالك من النقاد المحترمين الذين نطأطئ الرأس إجلالا لأفكارهم قبل أن نحاول الرد عليها وتفنيدها . ورأيه فى هذا الجانب — ولا شك — له خطورته . والحق أنى نسيت جانب الحياة ، وأنا أتكلم عن القراءة ، من شدة الثورة التى ألمت بى حينئذ . وقد كنت خليقاً أن أعمل لها حساباً لولا السرعة وضيق المجال . أما وقد أعطيتنى فرصة أخرى لطرق الموضوع مرة ثانية ، فستكون هذه المناسبة أوفق من أجل التحدث عن الجانب الذى فضلت الإشارة إليه

ولكن ستعجب — مرة أخرى — من أن تجدنى هاهنا أيضاً متحمساً لرأيى فى ضرورة القراءة الدائمة والتحصيل العقلى المتصل . إن أمثال هازلت حينما يقولون هذا الرأى ، سيكون كلامهم مناسباً للجو الذى يعيشون فيه ، حيث تتكالب الغالبية على استطعام القراءة واستعذاب المعرفة . فرأيه هذا رد فعل لمجتمع اتخذ من القراءة عملاً أساسياً وجعلها ذات أهمية بين العادات اليومية للإنسان المثقف . وبهذه الفكرة تراه كأنما يحاول إخراج الناس عن الحدود الحرفية للكلمات التى يطالعونها فى الكتب . أما نحن فحاجتنا إلى من يحثنا على القراءة أشد من حاجتنا إلى من يدفعنا إلى الفطنة لتجربة الحياة . ذلك لأننا من ناحية القراءة معدمون ولا تكاد تظفر بأكثر من عشرات بين المصريين اتخذوا من القراءة الأدبية عادة حيوية لهم . كذلك أشعر بأن مجال التجربة فى حياتنا الشخصية ضئيل ، ولا سبيل إلى تنميته وتغذيته فى مجتمع مجدب قاحل . ولاشك فى أنى أحس باحترام عميق لأولئك الذين يجمعون إلى قيمة العقل قيمة الروح ، وتتوافر لهم أداة العلم وأداة الحياة الصحيحة معاً . . لاشك أنى أؤمن بالتجربة فى حياة الفرد وأعتقد أنها شيء غبين فى معيشة الإنسان ..

ولكن كيف يكن هذا فى مجتمع يتحدث عن التجارب كما يتحدث عن الملاهى ويظن أنه قد استوفى حظه من التجربة واستكمل أدواته من معرفة الحياة عندما ينتهى من حفظ عبارات الحب ويعتاد كئوس الشراب .

فما أحب إلى قلبى أن أتحدث عن التجربة فى حياة الشباب ! ولكنى أظن أن حاجتنا إلى تعود القراءة أشد من هذا كله . ذلك أن العقول إذا استوفت شروطها من العلم والمعرفة استطاعت أن تجد فى تجارب الكتاب — وهم قوم لهم تجاربهم بطبيعة الحال — شيئاً أجمل بكثير من التجارب التافهة التى يسمح لنا بها المجتمع المصرى الآن . وإنى لأتهم أى إنسان يدعوك إلى ترك الكتاب من أجل القيام بتجربة ما ، بأنه جاهل يريد أن يتهرب من جلسة الوحدة التى تتيحها له القراءة فى ساعات طوال . سيقول لك ذلك الجاهل أشياء كثيرة كما تحبب إليك مفارقة الكتاب وهجران الكتب حتى تخرج إلى الوجود المطلق حيث تحتسى كئوس التجربة مفعمة بالمرارة المعهودة . وإنه لينطلق فى وجهك باسم الثقافة التى لايمكن أن تتحد مجالاتها بكلمات الكتاب بين يديك ، ولكن تيقن من أنه يخدعك ، وأن حياتنا خالية من التجربة الصحيحة ، وأن الجلوس إلى الكتاب أعود عليك بالنفع من أروع أنواع التجارب التى يمكن أن تسمح بها ظروفك .

إنها حركة رائعة ولا شك أن يقوم الإنسان بإلقاء الكتاب جيداً كيما يستعد للخروج إلى الحياة حيث تكمن المعرفة الكبرى ، وحيث يغترف من الحقيقة ذاتها فى باطن الأشياء . ولكن كيف يكن هذا وعقولنا أخوى من صناديق الإحسان ونفوسنا أضعف من أعواد الذرة ! وأكاد أجزم بأن القراءة هى الملاذ الوحيد للراغبين فى التجربة عندنا من المصريين ، خاصة وأننا نستطيع أن نحدد من التجارب بكثرة القراءة لكتاب الغرب من أصحاب الأقلام الرفيعة . وأبعد شيء عن التصديق هو أن يكون كتاب الغرب الحاليين فارغين من التجربة وضعفاء فى جانب الروح ، إذ أنهم قاسوا حقاً من ظروف الحياة ما يجعلنا نطمئن إلى أحكامهم فى مجالات الحياة الصحيحة .

ع . م

من بريد الثقافة

لفت أنظار قراء الثقافة :

يسرني أن ألفت أنظار قراء الثقافة في المقال الذي نشرته تحت عنوان (رسائل من المغرب) في الرسالة الخامسة في عدد ٦٦٠ يوم ٣٠ أغسطس شهر ٨ بإمضاء مستعار باسم أبي مروان . فقد اندفع ذلك الكاتب الكريم بدافع الغيرة والغضب مما ترتكبه فرنسا العجوز في وطنه المغرب من صنوف العسف وضروب الاضطهاد إلى أن ذكر منها محاولة فرنسا إحياء اللغة البربرية غير الحية وغير المكتوبة ، متخذة ذلك وسيلة لتصيير البربر وفصلهم عن إخوانهم العرب ، وإني بعد شكره على إخلاصه لوطنه وطلب السماح منه أود أن أنبه بأن اللغة البربرية حية ومستعملة بالحروف العربية في التأليف والتدوين ، وقد فسر إليها بربر السوس الأقصى القرآن الكريم ، وترجموا إليها من العربية مؤلفات دينية وتاريخية وأدبية ، ومن ضمن تلك المؤلفات « كتاب خليل في الفقه المالكي » هو الذي لا يزالون يتلونه حفظاً بلسانهم ، وكتب في الدعوات والأذكار والمدائح النبوية . ولهم بها مدونات في الأدب القومي ، منها قصيدة في قصة المعراج ، وقصيدة في غزوة بدر ، وقصيدة في قصة يوسف وزليخا ، وقصيدة (حمد) في قصة شاب بكى حتى غرق في دموعه فساخ في الأرض حتى نزل الجحيم واجتمع بأهلها ثم رجع إلى الدنيا ، وصار يحدث أهلها بأحاديث كلها وعظ وتخويف من هول ما رأى ، ولا تزال أبجديتهم التي يكتبون بها قبل الفتح الإسلامي باقية عند قبائل الطوارق الملثمين الضاربين في الصحراء الكبرى والمجاورين السودان الغربي (ويسمونها تفنق) وقد رسمها محمد الهلالي الميلي الجزائري في كتابه الذي أسماه (تاريخ الجزائر) القديم والحديث ، وعثمان الكعاك التونسي في كتابه (موجز تاريخ الجزائر العام) ، والأستاذ إبراهيم الزاهري الجزائري في مقال له نشره في مقتطف سنة ١٩٣٠ م ، وقد ذكرها أحد المستشرقين الذين اشتركوا في تأليف دائرة المعارف الإسلامية في حرف (ب) في مادة بربر ، وكل هذه المؤلفات موجودة في دار الكتب المصرية في قسم التاريخ . وأظن أن في هذا إقناعاً للأخ الكريم أبي مروان ، على أن حياة لغة البربر وكتابتها لا يخول لفرنسا العجوز تصيير البربر ولا فصلهم عن إخوانهم العرب ، فهم كغيرهم من إخوانهم غير العرب ، مثل إيران وأفغان وأندونيسيا ، فلم يطمع الأجنبي في تصييرهم باستعمال لغتهم والتدوين بها .

محمد المختار

الطالب بالأزهر الشريف برواق المغاربة

— ١ —

أول أمير أقام الحج في الإسلام :

هو عتّاب بن أسيد ، وكانت هذه الإمارة في السنة الثامنة من الهجرة .

وفي السنة التاسعة من الهجرة أرسل سيدنا محمد أبا بكر أميراً على الحج .

— ٢ —

الجريدة ، لا السياسة :

في أول أغسطس ١٩٥١ ذكر صاحب العزة محمد عمران عبد الكريم بك في المصري (حينما أنشأ جماعة من الأعيان جريدة السياسة للدفاع عنهم وعن مبادئهم في ذلك الوقت ١٩٠٦) .

ومحمد مختار يونس يقول مصححاً لهذا : « إن الذي أنشىء هو « الجريدة » لا السياسة ، لحزب الأمة بزعامة محمود سليمان باشا ، وبرياسة تحرير أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد باشا .

محمد مختار يونس

الثقافة

العــدد ٦٦٤ ١٧ من سبتمبر ١٩٥١	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	الثمن ٢٠ مليماً

صفحة

جنــــة الأشواق

كتبت إليه تقول :

« واهاً لك يا شاعرى الحبيب .. كيف هى دنياك فى ريفك الجميل ؟ وأنت تشق الجبال بجناحيك الطليقين .. بعيداً عن مدائن الهوى ؟ » .. فكتب لها قائلا : —

دنيــــاى يا نغم الزاهر موسع
تتزاحم الأطيـــاف فى جنباته
أنى التفت أرى الظلام مخيماً
فى قلبه .. والصمت من أناته
فهنا على الأشــــواك قلب ظامئ
تتراقــص الذكرى على دقاته
وهناك قرب الصخر ريشة شاعر
كانت نجوم الليـــل من لوحاته
هى وحدة للهوف تنطق بالأسى
وتغص بالأحـــلام عنـــد سباته

• • •

ناجيت والليل الكئيب مسامرى
فتضاحكت منى نجـــوم سمائه
وتناثرت حــــولى رؤى مخمورة
من قلب هذا الليـــل فى ظلمائه
وتلاحقتــــنى أعين وهاجــة
مثل اللهيب يؤج فى أضــــوائه
أواه !... يا أملاً تألق فجـــره
وخبا ولم يترك ســــوى أشلائه
هذا شـــبابى .. صارخ متمرد
لم يرض إلا الصمت من أصدائه

• • •

عذراء .. يا أملى وسر كآبتى ...
ونشـــيد روحى الثائر المتبرم
هذا دمى .. يغـــلى كأن لهيبه
فورات هذا العـــالم المتجهم
أنى التفت فنى جوانب صـــومعى
لم ألق غـــير خيـــالك المتبسم

ناديته ... فصــــغى إلىّ مسائلاً
ورنا إلىّ بنظـــرة المتـــألم ...
وإذا هممت بأن يكون منادمى
ضحكت كئوسى واستفاق توهمى

• • •

بالأمس فى صخب الحياة هجرتنى
قلباً يذوب صـــبابة ومشاعرا
والآن فى الريف الحزين تركتنى
يا ثورة الأعمـــاق جرحاً غائرا
أشدو .. فتنتبه الخاوف فى الدجى
وتثير فى الصمت الرهيب خواطرا
وتنام أعراس الشـــباب كئيبة
فى مهجتى .. وصباى ينبض شاعرا
يا جنـــة الأشواق .. حبك فى دمى
يلهو بأحـــلامى .. ويعبق ناضرا

• • •

لا تبعـــدى عنى .. فدنياى الأسى
وهواك نار لا يمـــوت لهيبهـــا
أنا فى الظـــلام ملاحن مشبوبة
وعواصف حـــيرى يضج نحيبها
هذى الخمائل لا تبدد شـــقوتى
أبداً .. ولا يحـــيى رجائى طيبها
هذى الكئوس محال أن تروى صدى
قلب يذوب بشـــدوه وبذيبها
قد أقفرت دنيـــاى يا نغمى ! فمن
أنغامك السكرى يفوح جديبها !

الموصل — العراق — محمود فتحى المحروق

الثقافة

صاحب الامتياز — AL-THAQAFA — رئيس التحرير المسئول

الدكتور أحمد أمين بك — الإدارة — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـدد ٦٦٤ الاثنين ١٥ من ذى الحجة سنة ١٣٧٠ — ١٧ من سبتمبر سنة ١٩٥١ السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

نفوس فقـــيرة

للدكتور زكى نجيب محمود

الفقر صوره شتى ...

فمنها اليباب القفر الذى تلتهب رماله بوقدة الشمس ، حتى لتنقلب حبات الرمل على سطحه جمرات من نار ، وتهب عليه الريح السموم فإذا هى ألسنة من اللهب تنفثها جهنم ؛ هـذا اليباب إذا ما شاء له القدر يوماً أن يصيبه شىء من المطر ، غاص المطر فى جوفه وذاب كأن لم يكن ؛ فهو قفر كما كان ، لا زرع فيه ولا ضرع ، إلا أشواكا تنشب على وجهه هنا وهناك فتزيده فقراً على فقره .

ومنها الصخر الأجرد الذى تَمَدَّدَ صـدره وتصلبت أطرافه ، فلا يتفجر جوفه عن قطرة أو نبتة ؛ إذا سال عليه الماء انحسر عنـه لأنه مغلق أصم عبوس مخيف ؛ فلا هو يخرج من جوفه شيئاً ، ولا هو يفتح مغاليقه ليتقبل مما حوله شيئاً ؛ لا أمل فيه لمسافر ولا رجاء عنده لضال .

ومنها السماء لا تجود بالغيث ، تيبس الأرض من تحتها وتتشقق ، ويجف الزرع ويموت ، وتشخص الأبصار إليها ضارعة ، وتصعد الدعوات إليها مسترحمة ، لكنها كالحة مصفرة الوجه لا تجود .

ومنها الوردة تذبل وتذوى ، طار عنها الشذى وجف من عرقها الماء ، تفركها بين إصبعيك فإذا هى رماد تذروه الريح مع التراب والعفر ؛ ومنها الجدول غيض ماؤه ، تعبره ماشياً على قدميك ، فترن أصداء خطاك بين صخوره خلائه وفراغه .

ومنها الجيوب تخلو من المال ، فيمشى صاحبها بين أكداس الطعام فى الدكاكين وهو جائع ، لأنه لا يملك أن يستجيب للمعدة تناديه ولبائع الطعام يغريه .

لكن لا اليباب القفر الذى تلتهب رماله بوقدة الشمس ، ولا الصخر الأجرد الذى صلد صدره وتصلبت أطرافه ، ولا السماء اليابسة ولا الوردة الذابلة ولا الجدول غيض ماؤه ولا الجيوب الخالية من المال ، يستطيعة أن تعبر عن الفقر بأبلغ مما تعبر عنه النفوس الفقيرة !.

فقيرة هى تلك النفوس التى يعيش أصحابها فيما تعيش فيه ولا تتأثر ، كأنما تنظر العين ولا ترى ، وتسمع الأذن ولا تعى ، وكأنما قُدَّ القلب من صوّان ، فتجرى فى شعابه « مجارى » الفضاء ، لا تترك وراءها ثمراً ولا آثاراً ، كالماء

يهبط على رمال اليباب البلقع فيغيض فيه بغير زرع ، أو يسيل على الصخر الأصلع فينحسر عنه ولا حياة ! إن القلب الفقير عضلة تصلح لمبضع التشريح ولا تصلح لريشة الشاعر ! وصاحب النفس الفقيرة كالمذياع التالف ، فيه المفاتيح والصمامات والأسلاك ، لكن الهواء من حوله يعج بموجات الصوت وهو أبكم ، لا يلتقط ولا يذيع .

فقيرة هي النفس التي تنظر إلى باطنها فتجد خواء ، فتمتد إلى خارجها لتقتني ما يسد لها ذلك الخواء ؛ وماذا تقتني ؟ تصيد أناساً آخرين ذوي نفوس أخرى لتخضعهم لسلطانها ! إنها علامة لا تخطئ في تمييز أصحاب النفوس الفقيرة من سواهم ، فحيثما وجدت طاغية — صغيراً كان أو كبيراً — فاعلم أن مصدر طغيانه هو فقر نفسه ؛ إن المكتفي بنفسه لا يطغى ؛ إن من يشعر في نفسه بثقة واطمئنان ليس في حاجة إلى دعامة من سواه ؛ وإذاً فماذا أقول؟ أأقول إن الطغيان قد امتد بجذوره في ربوع الشرق لجدب نفوس أهله ؟ .

أي والله ، لقد ضرب الطغيان بجذوره في ربوع الشرق منذ آماد بعيدة سحيقة ، حتى أصبحت لفظتا الشرق والطغيان مترادفتين أو كالمترادفتين ، فهما تصادفانك متجاورتين متلاصقتين في كثير من الآداب الأوربية ؛ لا ! إني أرى الكلمة على شفتيك فلا تقلها ! لا تقل دهشاً : أي طغيان ؟ لا تقل إن لنا دستوراً يجعل الناس سواسية ويحرم الطغيان ، فالطغيان في دمائنا : الحاكم الشرقي طاغية ، والرئيس الشرقي طاغية ، والوالد الشرقي طاغية ، والزوج الشرقي طاغية ، والموسر الشرقي طاغية — طغاة هؤلاء جميعاً ، لأن في نفوسهم هزالاً يعوضونه بمظاهر الاستبداد بسواهم ... قال أمامي وزير مصري لست في حل من ذكر اسمه ، قال ذات يوم وكنا في لندن ، وكان مؤتمر سياسي منعقداً هناك ، وجاء مستر بفن — وزير خارجية انجلترا إذ ذاك — جاء إلى المؤتمر السياسي يمثل بلاده ، مشياً على قدميه ، وليس وراءه ولا أمامه « زفة » تطبل وتزمر ؛ فقال الوزير المصري على مسمع مني : كنت أتصور في الديمقراطية الانجليزية شيئاً كثيراً ، ولكني لم أكن مع ذلك أتصور أن يبلغ بها المدى هذا الحد البعيد ، أوزير خارجيتها يجيء إلى مؤتمر كهذا وسط الزحام راجلا ؟ فكدت عندئذ أصيح في وجه الوزير المصري قائلاً : أستحلفك الأهل والولد يامعالي الوزير أن تذكر ذلك عند عودتك إلى بلادنا ، أن تذكر لأصحاب المعالي الوزراء ، حتى يتذكروا شيئاً منه وهم راحلون إلى حمامات الاستشفاء للمتعة والتنزه ، وحتى يتذكروا شيئاً منه وهم عائدون من شطئان البحر وجنات الأرض إلى بلادهم ليستأنفوا « العمل » .

العظمة في الشرق معناها الطغيان ، والطغيان من معانيه كسر القوانين ، فيستحيل أن يكون العظيم عظيماً عندنا إن أطاع القانون ، حتى لو كان هذا القانون من وضعه هو ، لأن العبث بالقيود هي عندنا الحد الفاصل بين السيد والمسود ؛ قل لي إلى أي حد تستطيع في الشرق أن تعبث بالقانون والنظام ، أقل لك في أي مرتبة أنت من مراتب المجتمع ، فأعلاها منزلة أكثرها عبثاً ، وأدناها أقلها .

ولعل هذه الفكرة قد بلغت أقصاها تطرفاً ، حين أرادوا أن يتصوروا كمال الله ومطلق سلطانه وسيادته ، فتصوروه فاعلاً للمعجزات ، والمعجزة هي إيقاف قانون من قوانين الطبيعة وتعطيله ؛ فلما كان الله أكمل ما يكون الكائن جبروتاً وسلطاناً ، فلا بد أن يكون أقدر ما يكون الكائن على تعطيل القوانين الطبيعية كيف شاء وحيث شاء ؛ أما أن يكون كمال الله — كما تصوره سبينوزا — هو في أن تظل قوانين الكون قائمة مطردة ، فذلك تصور بعيد جداً عن تصورهم لمعنى العظمة والجلال .

فقيرة هي النفس التي لا تستطيع أن تقف موقف سواها ، لترى ما ترى وتحس كما تحس ؛ وهيهات عندنا أن نجد صاحب النفس الغنية بخيالها الخصبة بشعورها ، ذلك الذي في مقدوره أن يحس الألم مع من يحسه ، وينظر إلى الناس في ظروفهم ؛ هل رأيت الأطفال في القرى كيف يجرون الجراء مشدودة من أعناقها بالحبال ، وكيف يمسكون الهررة من أذنابها ثم يجذبونها جذباً ويديرونها في قسوة وعنف ، والجراء تئن والهررة تموء مواء المتألم المستغيث ، والأطفال يضحكون لأنين الجراء ومواء الهررة ، والآباء والأمهات يقهقهون لضحكات أطفالهم ؟ إذاً فاعلم ياسيدي أن هذه هي المدرسة التي نتلقى فيها أول دروسنا في العاطفة

والمشاركة الوجدانية بعضنا مع بعض ؟ أعلم ياسيدي حتى العلم أن قصة الجراء والهررة المسكينة تتكرر حولك مائة مرة في اليوم الواحد ؟ لكنها ليست هذه المرة بين الأطفال من ناحية والجراء والهررة من ناحية أخرى ، فيشد الأطفال الجراء من أعناقها ويجذبون الهررة من أذنابها ، بل هي الآن بين أصحاب النقود — أو كان نوع النقود — وبين العاجزين وأرزاقهم !!

إننا يا سيدي أمة نحيا وفق الحكمة التي استنها لنا شاعر من شعرائنا الأقدمين ، وهي « إنما العاجز من لايستبد » ! بل إن الشاعر لم يخلق من عنده شيئاً ، إنما لاحظ أخلاقنا وسجل ! فكم ألف سنة لابد أن تمضي قبل أن يجيء شاعر آخر يلاحظ أخلاقنا ويسجل ، فإذا ما يسجله هو : « إنما القادر من لايستبد » ؟.

كم ألف عام لابد أن تمضي قبل أن يجد الطفل في القرية أبوين يربيانه على أنه لا ينبغي أن يعبث بآلام الكلاب والقطط ؟ لو بدأنا هذه البداية ، جاز لنا أن نتمنى إلى أن يعطف الإنسان منا على الإنسان .

لقد تفضل أستاذنا الدكتور أحمد أمين بك فوجه إليّ الحديث قائلاً : « إن كل مدنية فيها مزاياها وفيها عيوبها ، ومزية المدنية الغربية بناء الحياة على العلم ، ومن عيوبها خلوها من الإنسانية » .. أحقاً ياسيدي أن المدنية الغربية قد خلت من الإنسانية ، تلك المدنية التي لا يستطيع الإنسان في ظلها أن يحرك زهرة بين أصابعه على مرأى من الناس ، ولا أن ينزع البذور عن أمها لأنها بمثابة الأجنة التي تضمن استمرار الحياة ؟ تلك المدنية التي يستحيل على إنسان في ظلها أن يوقع الأذى بقط أو كلب ، حتى لقد أصبح ذلك « الضعف » فيهم مصدر كثير من تندرنا وفكاهتنا ؟ لقد وقعتُ على هذه الصورة التي أنشرها وسط المقال ، في جريدة إنجليزية حديثة الصدور ، وهي تصور الشرطي ، قد أوقف حركة المرور حتى يتيسر لإوزة وفراخها أن تعبر الطريق الذي يفصل بين حديقتي سنت جيمس ويكنجهام (وهما من الحدائق العامة في لندن) ..



شرطي في لندن يقف حركة المرور ليتسنى للإوزة الأم الصغيرة بصغارها أن تعبر الطريق قادمة من بحيرة في حديقة سنت جيمس إلى حديقة بكنجهام المتاخمة لها

سيقول القائل : لكنهم أقوام ترعى القطط والكلاب والإوز وبطش الأمم . فأقول رداً على ذلك : إن الفعل الأول صواب والفعل الثاني خطأ ، ولا تذهب السيئة بالحسنة ، وقد شاركناهم في البطش السياسي ، ولم نشاركهم في العطف على الأحياء .

هل كان يمكن ياسيدي لهذا الغرب أن ينتج ما أنتجه من فنون وآداب لو كان خلواً من الشعور الإنساني ؟ كم تمثالاً وكم تمثيلاً وكم معملاً في ربوع الغرب يقوم النهار والليل ليخرج لنا ما نخفف به البلاء عن مرضانا ؟ أنصف الغرب ياسيدي ، فهو نفسه الغرب قد تركز في قنينة الدواء التي تبعث إلى الصيدلي في لهفة أن يسعفنا بما دفعاً للألم .

فقيرة هي تلك النفوس التي لا يستطيع أصحابها أن ينظروا من وراء الأشخاص إلى حيث ظروفهم ، ولو قد فعلوا لاشتد بهم التسامح وضاع فيهم الغلو والنفرة ؛ إنك — كما يقول الشاعر الإنجليزي — لو عرفت كل شيء عفوت عن كل شيء ؛ وهو يعني بذلك أنك لو ألممت بكل الظروف التي تحيط بمن تعدّه آثماً ، أدركت موقفه على حقيقته بما فيه من

رثاء النفس وهجاء النفس

للأستاذ علي أدهم

من مأثور أقوال القائد الانجليزي وليام هازلت « ربما كان خير علاج الخوف من الموت ، هو أن نفكر في أن الحياة لها بداية ، وكذلك لها نهاية » . ويسترسل هازلت في بسط رأيه ، وتأييد فكرته ، فيقول : « لقد مر زمان لم نكن فيه موجودين ، فلماذا يزعجنا أنه سيجيء زمن يمتنع فيه وجودنا » ؟ وهما حجتان منطقيتان معقولتان ، ولكن حبنا للحياة وتعلقنا بها ليس مسألة منطق وفهم ودراية ، وإنما مسألة طبع وغريزة وإرادة ، وقد أدرك ذلك شوبنهاور ووفاه حقه من الشرح والتدليل بما لا يترك مجالاً لقائل ، ولحظه كذلك أبو العلاء ، وأطال القول فيه وأشبعه كما تثبت ذلك لزومياته بوجه خاص ، من ذلك قوله :

وحب العيش أعبد كل حر وعلّم ساغباً أكل المرار

ومن ثم ينفر الناس من التفكير في الموت ، وكلما طالت إقامتهم في الدنيا ، وتقدم بهم العمر ، وعلت أسنانهم ، زاد خوفهم من الموت ، واشتد نفورهم منه ، ولذا يقول المتنبي :

وإذا الشيخ قال أفٍ فما مل حياةً وإنما الضعف ملا

وقد يسأم الإنسان « تكاليف الحياة » كما سئمها لبيد ، أما الحياة في ذاتها فهيهات أن تسأم مهما ساءت الظروف وقست الأحوال ؟ ومن أجل ذلك نكبر شأن هؤلاء الأفراد القلائل الذين يشذون عن هذه القاعدة ، ويتمردون على هذا الحب الطاغي للحياة ، ويتخلصون من أصفاده ، ونرفعهم إلى مرتبة الأبطال والشهداء .

وإذا تصفحنا دواوين الشعراء نجد أن الكثيرين منهم يرثون أصدقاءهم وأحبابهم أو أنصارهم الذين عطفوا عليهم وأجزلوا لهم العطاء ، أو قدروا أدبهم وأعجبوا بشعرهم وأثنوا عليه ، ولكنهم يندر أن يفكروا في أن يرثوا أنفسهم ، لأن رثاء النفس يقتضي مواجهة مشكلة الموت ، وهي مواجهة في أغلب الأوقات لا ترتاح لها النفس ولا تسكن إليها .

ولا أعرف في الأدب العربي شعراً صريحاً في مواجهة الموت ورثاء النفس غير هذه الأبيات التي رواها صاحب العقد في باب المراثي لشاعر غير مشهور اسمه يزيد ابن خذاق ، وهو يقول في هذه الأبيات الغريبة :

هل للفتى من بنات الدهر من واقِ
أم هل له من حمام الموت من راقِ

قد رجلوني وما بالشعر من شعث
وألبسوني ثياباً غير أخلاق

وطيبوني وقالوا أيما رجل
وأدرجوني كأني طي مخراق

وأرسلوا فتية من خيرهم حسباً
ليسندوا في ضريح القبر أطباقي

مثيرات ودوافع ، وعندئذ ستراك أميل إلى المغفرة والتسامح . والإثم — كما يقول شاعر انجليزي أيضاً — من طبيعة البشر ، أما الغفران فمن صفات الله .. لكن أين لنا العين التي تنظر إلى الظروف خلال الشخص الماثل أمامنا بجسده ؟ أين لنا العين التي تنظر إلى « ع » — مثلا — فترى وراءه داراً ملئت أركانها وجحورها بالأنفس البشرية المعدمة العاجزة ، كلها تريد منه الطعام والدواء ؟ إن « ع » موظف صغير ، قد يعبس حيناً وقد يبتسم حيناً ، فإذا ابتسم ابتسمنا معه ، وإذا عبس زجرناه على عبوسه ، لأننا خلو من النفوس العاطفة التي في مقدورها أن تنظر إلى العابس القانط ، فتقول : لعل وراء ذلك ما يغفر .

فقيرة هي تلك النفوس التي تبطش بالأشياء والأحياء بطش الصبيان ، فقيرة — يا أبا العلاء — هي تلك النفوس التي لا تخفف الوطء ، لأنها لا تدري أن أديم الأرض هو من هذه الأجساد .

زكي نجيب محمود

وقسموا المال وارفضت عوائدهم

وقال قائلهم مات ابن خــــذاق

هون عليك ولا تولع بإشفاق

فإنمــــا مالنـــا للوارث الباقي

ولست أعرف الظروف الخاصة التي بعثت ابن خــذاق هـذا على رثاء نفسه . ولكني أعرف أن ظروفاً خاصة قد بعثت شاعراً آخر على رثاء نفسه ، ووصف قبره ، وهذا الشاعر هو مالك بن الريب ، فقد كان خرج مع سعيد بن عثمان بن عفان لما ولي خراسان ، فلما كان ببعض الطريق أراد أن يلبس نعله فإذا بأفعى في داخلها فلسعته ، فلما أحس الموت استلقى على قفاه وأنشأ قصيدة في رثاء نفسه يقول منها :

دعاني الهوى من أهل ودي وصحبتي

بذي الطَّبَّسَيْنِ فالتفتُّ ورائيـــا

فيا صاحبي رحلي دنا الموت فاحفرا

برابيــــة إني مقيم لياليـــا

وخطا بأطراف الأســـنة مضجعي

وردا على عيني فضـــل ردائيـــا

ولا تحســـداني بارك الله فيكما

من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا

خـــذاني فجراني ببردي إليـــكما

فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا

تفقدت من يبكي على فلم أجـــد

سوى الرمح والسيف الرديني باكيا

وبالرمل لو يعلمن علمي نســـوة

بكين وفدَّين الطبيبَ المــداويا

يقولون لا تبعـــد وهم يدفنونني

وأين مكان البعد إلا مكانيـــا

ومن الشعراء الذين رثوا أنفسهم أبو العتاهية ، ومن رثائه لنفسه هذان البيتان المؤثران :

إذا ما انقضت عنى من الدهر مدتي

فإن بكاء الباكيـــات قليــــل

سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتي

ويحـــدث بعدي للخليل خليـــل

وقد رثى حافظ ابراهيم نفسه ضمن قصيدة له جيدة في ذكرى الأستاذ الإمام مطلعها :

آذنت شمس حياتي بمغيب ودنا المنهل يانفسُ فطيبي

إن من سار إليه سيرنا ودعا الراحة من بعد اللغوب

والفيلسوف الانجليزي المعاصر برتراند رسل على غزارة علمه وعميق تفكيره ، وصائب نظراته بدوات وأطروفات ، من ذلك رثاؤه لنفسه الذي نشره سنة ١٩٣٧ في مجلة المستمع الانجليزية ، وأعاد نشره ضمن مجموعة من فصوله الشائقة أسماها « فصول غير مقبولة » وذكر في هامش هذا الرثاء لنفسه أن هذا الرثاء سيظهر أولا يظهر في عدد أول يونيو سنة ١٩٦٢ من جريدة التايمز بمناسبة موته المأسوف عليه ، ولكن الذي جاء متأخراً ؛ وقد بلغ رسل في هذا العام الثامنة بعد السبعين من عمره الحافل ، والظاهر أنه يطمع في بلوغ التسعين ، مدّ الله في عمره ، وأطال بقاءه ، فإن في استطالة حياة أمثاله من المفكرين الأحرار المخلصين خيراً للإنسانية ، وهو يقول في هذا الرثاء : « بموت الإيرل رسل الثالث — أو برتراند رسل كما كان يفضل أن يسمى نفسه — في التسعين من عمره ، تنقطع صلة من صلاتنا بالماضي البعيد جداً ، وجده اللورد جون رسل أحد رؤساء الوزارة في العهد الفكتوري زار نابليون في جزيرة إلبا ، وجدته لأمه كان صديقاً لأرملة الشاب الثاني المطالب بالعرش ، وقد قام في صباه بعمل هام في المنطق الرياضي ، ولكن موقفه الشاذ في أثناء الحرب الكبرى الأولى أظهر نقصاً في قدرته على الأحكام المتزنة ، وقد تزايد تأثير ذلك على كتابته فيما بعد ، وربما كان من أسباب ذلك إلى حد ما أنه لم يحظ بتلقي دروسه في إحدى المدارس العامة ، وإنما درس على مدرسين خصوصيين حتى بلغ الثامنة عشرة من سنه ، والتحق بعد ذلك بكلية ترنتي بجامعة كمبردج ، وأصبح في سنة ١٨٩٣ أحد الطلبة المتفوقين البارزين ، وفي سنة ١٨٩٥ أصبح زميلاً ، وفي خلال السنوات الخمس العشرة التالية أخرج الكتب التي قامت عليها شهرته في عالم العلم والمعرفة ، وهي « أسس الهندسة » و « فلسفة ليبنتز » و « مبادىء الرياضة » وكتاب « المبادىء الرياضية » بالاشتراك مع هوايتهد ، وهذا الكتاب الأخير الذي كان له في أيام ظهوره أهمية يدين بجانب كبير من امتيازه وتفوقه للدكتور هوايتهد الذي

أصبح فيا بعد أستاذاً ، وهو رجل أوتى البصيرة والعمق الروحى اللذين كانا ينقصان رسل ، كما دلت على ذلك كتاباته التالية ، ولرسل براعة وقدرة على سوق الحجج ولكنه يجهل تلك الاعتبارات التى تسمو على مجرد المنطق .

ونقص هذا العمق الروحى ظهر فى صورة مؤلمة فى خلال الحرب الكبرى الأولى حينما انتوى رأى رسل واستمسك بأنه لما كانت الحرب شراً فإن واجب الساسة هو سرعة إنهائها ، وكان ذلك لايتم إلا بأن يلتزم الإنجليز الحياد ، وينتصر الألمان ، وذلك بالرغم من أنه لم يقلل من شأن الإساءة إلى الأمة البلجيكية ، ويلزم أن نذهب إلى أن دراساته الرياضية جعلته ينظر نظرة كلية من شأنها أن تتجاهل المبدأ الذى ينطوى عليه الأمر ، وقد ظل فى أثناء الحرب يدعو إلى إنهائها بأى شرط من الشروط ، وقد حرمته كلية ترنتى بحق من إلقاء المحاضرات بها ، وقد قضى فى السجن بضعة أشهر سنة ١٩١٨ .

وفى سنة ١٩٢٠ زار روسيا زيارة قصيرة ، ولم يكن التأثير الذى تركته فى نفسه حكومتها تأثيراً مرضياً ، وزار الصين زيارة أطول ، واستمتع هناك بالحضارة التقليدية القائمة على العقل التى لا تزال بقاياها الراهنة تذكرنا بالقرن الثامن عشر ! وفى السنوات التالية بدد مجهوداته فى كتابات يدافع فيها عن الاشتراكية وإصلاح التربية ، ويدعو إلى ناموس للآداب أقل صرامة فى مسألة الزواج ، وفى بعض الأوقات كان يعود إلى موضوعات أقل اتصالاً بأحوال العصر ومشكلاته ، وكتاباته التاريخية بأسلوبها وبما فيها من حسن السبك وبراعة الإشارة تخفى عن القراء غير المدققين سطحية مذهبه العقلى العتيق الذى ظل مستمسكاً به إلى النهاية .

وفى الحرب العالمية الثانية لم يكن له شأن يذكر لأنه فر إلى بلاد محايدة قبيل نشوبها ، وكان فى أحاديثه الخاصة يردد أن الجبابين الولوعين بقتل الإنسان قد أحسن استعمالهم فى قتل بعضهم البعض الآخر ، ويحسن بالعقلاء أن يبتعدوا عنهم أثناء قيامهم بهذا العمل ، ولحسن الحظ أن هذا الرأى الذى يذكرنا بيتام قد أصبح نادراً فى هذا العصر الذى يقرر أن البطولة لها قيمة مستقلة عن المنفعة ، وحقيقة أن جزءاً كبيراً مما كان العالم المتحضر قد أصبح أطلالاً دارسة ، ولكن لا يستطيع أحد من الذين يفكرون تفكيراً صحيحاً أن يسلم بأن الذين ماتوا من أجل الحق فى هذا الصراع العظيم قد ذهبت حياتهم سدى .

وحياته برغم ما كان فيها من العناد والشذوذ كانت لا تخلو من تناقض متصل ، يذكرنا بهؤلاء الأحرار الأرستقراطيين فى أوائل القرن التاسع عشر ، وكانت مبادئه محبية ، ولكنها على ما كانت عليه سيطرت على حياته ، ففى حياته الخاصة كان لا يبدو هذا الميل إلى المشاكسة الذى شوه كتاباته ، وقد كان محدثاً لبقاً لا يخلو من العطف الإنسانى ، وكان له أصدقاء كثيرون ، ولكنه على وجه التقريب عاش بعد موتهم جميعاً ، وبالرغم من ذلك فإنه يبدو للباقين منهم وهو شيخ طاعن فى السن ، مستمتعاً بالحياة كل الاستمتاع ! والفضل فى ذلك من غير شك يرجع إلى حد كبير إلى صحته التى لم يطرأ عليها تغير لأنه فى سنواته الأخيرة كان من الوجهة السياسية معتزلاً مثل ملتن بعد عهد عودة الملكية ، لقد كان آخر من بقى من عهد طواه الموت » .

وهذا الرثاء للنفس يتفق مع نزعة رسل فى كتاباته ، فهو لا يصطنع النغمة العاطفية حتى فى رثائه لنفسه ! .

ورثاء النفس على ما فيه من مواجهة حقيقة الموت قد يحوى جانباً من الإشادة بالنفس وذكر فضائلها ومناقبها ، وهو من هذه الناحية نقيض هجاء النفس الذى يدعو إلى ذكر عيوبها وكشف المخبوء من نقائصها ، وليس من السهل على الطبيعة البشرية أن تكشف نفسها وتعلن عيوبها ، ولهذا يقل بين الناس من يهجو نفسه ويتنقص خلائقه ، وأكثر من ابتلاهم الله بهذه الخليقة كانوا من أهل الشذوذ والالتواء الخلق

والشاعر العربى المعروف باسم الحطيئة كان من غير شك شاعراً مطبوعاً مجوداً للشعر ، ولكنه برغم براعته الشعرية وقدرته الفنية كان على ما يبدو رجلاً حقير النفس سيء الطوية ، وقد كان هذا المسكين نكبة على نفسه فهجاها ، ونكبة على أمه وسائر من اتصلوا به فلم يمسك عن هجائهم ، وقد ظهر بين الشعراء من أولعوا بهجو أنفسهم وتحقير شأنهم ، ولكنى لا أذكر أنى قرأت شيئاً لأحد الفلاسفة أو كبار المفكرين المتازين فى هجو نفسه أو سب أمه أو أبيه ،

وقد أراد الكاتب الإيطالى المفكر جيوفانى بابينى أن يعرض قدرته على النقد القارص والهجاء اللاذع فتناول نفسه فى أحد الفصول الأدبية ، وبابينى ليس فيلسوفاً خالصاً ولا مفكراً مبدعاً وإنما هو رجل كاتب أديب له مشاركة فى الفلسفة والتاريخ

والنقد، واطلاع واسع على الآداب العالمية وأسلوب أدبي لامع.

وهو يقول عن نفسه وقد عزا القول إلى أحد معارفه وأصحابه: «جيوفاني بابيني ليس في حاجة إلى من يقدمه لقرائنا، فكلهم يعرفونه، وأصدقاؤه يعرفونه معرفة أكيدة أكثر من أعدائه، فهو أقبح الناس صورة في إيطاليا (هذا إذا كان يصح أن يحشر في زمرة البشر) وهو من الدمامة بحيث إن ميرابو بالقياس إليه يعد أنموذجاً أكاديمياً أو أبوللو بلفدير. ولما كان الوجه مرآة الروح كما تقول الأمثال التي تتضمن حكمة القدماء العميقة، فإنه لا يدهش الناس أن يعلموا أن هذا البابيني هو وغد الأدب وهجاء الصحافة وزبال الفن، وشجاع السياسة والمجرم الأثيم في الفلسفة ومتمرد الثقافة، وهو شريك في عالم الأفكار السفلية ووثيق الاتصال بها، وهو يعيش عيشة فاخرة رائقة، وهو بطبيعة الحال يعيش في قلعة يصعب الوصول إليها مثل كل بلطجي، وموارده هي السرقة والهجو والسلب والنهب، ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن طعامه الشهي هو لحم الضعفاء، وأن شرابه المحبوب هو الدم الإنساني الحار الساخن، ويعرف الناس جميعهم أنه شر الأجلاف الثلاثة الذين تقلهم أرض إيطاليا، وتردد الإشاعات أنه أقسم قسماً مؤكداً بأنه سيعادي كل رسالة تكتب أو كتبت من السلوك الحسن والخلق الرضى! وقد بلغ الأمر بهذا الوغد الخبل أنه يقول ما يجول بفكره حقاً، وأبلغ من ذلك في الإساءة أنه يجترئ على مهاجمة النقاد حينما يضايقونه. وإن النفور ليستولي على نفوسنا وتتملكنا الاحتقار والغضب وتثور نفوسنا حينما نرى هذا الخبيث الزنيم طريد القلم وقاطع طريق الأدب يهاجم الأشخاص الذين تكرمهم البلاد، وتقرأ أعمالهم الجامعات، وتمنحهم الجوائز المجامع العلمية واللجان الأدبية، وتحترمهم الطبقة البورجوازية، دون أن نعلم السبب الذي يدعو إلى هذا الاحترام! ومن ذا الذي يطيق أن يرى ذلك المشهد دون أن تسري في أوصاله رعدة وتأخذه رعشة! ومن ذا الذي يستطيع أن يقف إزاء ذلك مكتوف اليد؟ إننا سنقابل بالاحتجاج والمعارضة هذا الهبوط المزري بالنقد! لقد أوقف أكثر من خمسين صفحة من كتابه الأخير على نقد كروتشه الذي يحترمه جميع الإيطاليين، وهاجم دانتوزيو الشاعر الوطني الكبير، وانتقص رومان رولان مؤلف رواية جان كريستوف، ومزق إرباً إرباً الدكتور[1] فوست والأمير الحزين هملت. وقضية بابيني واضحة فهو لا يمدح إلا من اشتهروا بالهجو مثل سويفت الذي افترى على الإنسانية، وفاينينجر الذي افترى على المرأة، وهو لا يعرف سوى العداوة، ولا دافع له إلا سعار الغضب، ولا يحسن غير الشتم، ولا يروقه سوى التجديف والطعن.

وحقيقة أن الذين ظفروا بشهرة لا يستحقونها جديرون بأن ينحدروا إلى المستوى المناسب لهم، وأن الذين ظهروا في غفلة الزمن يجب أن تكشف حقيقتهم، ولكن ذلك لا يكون بالأسلوب الذي يتبعه بابيني، ونحب أن نذكره بقول آبائنا الذي نوصي به أبناءنا وهو «إن النقد سهل والفن صعب» وإذا اجترأ هذا الثائر كيف المنيد على أن يرد علينا قائلاً: إن النقد نفسه قد يكون فناً، فما علينا إلا أن نجيبه بقول الكاتب الخالد منزوني: «رفقاً بنفسك أيها المخلوق الضعيف، فإن قلب ميلان رأساً على عقب يحتاج إلى أكثر منك».

وقد حاول بابيني خلال هجائه لنفسه أن يدافع عن نفسه ويسوغ موقفه من بعض معاصريه وشدته في نقدهم، فهجاؤه لنفسه نوع طريف من الأدب، وليس من هذا الهجاء للنفس الذي يدل على سقم النفس وفساد الطبع؟

علي أدهم

(1) هذا المقال هو الفصل الأخير من كتاب لجيوفاني بابيني اسمه «أربعة وعشرون عقلا» انتقد فيه الفيلسوف كروتشه ورواية هملت.

التربيـــــة والتعليم

للدكتور حسين مؤنس

أتيح لي منذ أسابيع أن أزور جامعة « وسترن رزيرف » بمدينة كليفلاند بولاية أوهايو بالولايات المتحدة ، وقد حدثاني إلى قصدها بالذات أنها جامعة أمريكية صرفة نفضت من نفسها كل تقاليد الجامعات الأوربية واختطت طريقاً خاصاً بها راعت فيه حاجات إقليمها الذي قامت فيه وحاجات البلدة الأمريكية عامة ، ولا تنفرد جامعة كليفلاند بهذا النهج ، بل يشاركها فيه عدد عظيم من الجامعات التي تقوم في النواحي الداخلية من الولايات المتحدة ، فكلها قد أهملت تلك القواعد الأوربية في إنشاء الجامعات ، وبدت كل منها وكأنها طراز خاص قائم بذاته في التعليم الجامعي ، فهي تهمل اللغات القديمة وتحل محلها أكبر عدد من اللغات الحديثة ، وتكتفي من الفلسفة بأيسر نصيب ، ولا تعنى من التاريخ إلا بالحديث والمعاصر ، وتعطي طلبة الآداب بدلا من ذلك نصيباً وافياً من دراسات تنفعهم في حياتهم العملية كـكتابة الرسائل وفنون الإعلان واستعمال الآلات الحاسبة وفن الخطابة والكلام وعلم النفس التجريبي وما إلى ذلك .

وإلى جانب ذلك رأيت الكلية مهتمة اهتماماً بالغاً بتربية الطلاب تربية عملية ، فهم الذين يديرون معظم الأعمال الداخلية في الجامعة كتنظيم الفرق الرياضية وحفلاتها ، وهم يديرون المقاصف والمطاعم ، ويشتركون مع الأساتذة في إدارة الكلية ؛ ولما كانت الجامعة تملك عقارات كثيرة تبرع بها نفر من أهل الخير فإن الطلبة يشتركون في هـذه الإدارة ، وهم طول اليوم في الجامعـة مع أساتذتهم ورجال إدارتها ، يشتركون في كل شيء ويكتبون عن تجاربهم تقارير في صحيفتهم التي توزع الآلاف كل أسبوع .

وقد اجتمعت بأحد أساتذة كلية الآداب في هذه الجامعة وهو رجل أشيب مهيب ، هيئته أقرب إلى هيئات رجال الأعمال منها إلى هيئة أساتذة الجامعات ، وأبديت له عجبي من هـذا الطراز الغريب من التدريس الجامعي ، وقلت له إن المفروض أن كليات الآداب إنما تقوم لرعاية تراث الإنسانية الفكري وتلقينه للطلاب حتى لا تنقطع صلة الحاضرين بالماضين ، وحتى يلم الطالب المتخصص بكل ما ألف الماضون في فرع تخصصه وبما انتهوا إليه من أساليب البحث حتى يصبح هو نفسه قادراً على البحث والإنتاج ، وحتى تنزل في البلاد دائماً خميرة طيبة من الباحثين والدارسين الذين يحملون مشعل الأدب الجميل والبحث التاريخي المدقق والتفكير الفلسفي القويم والسير به إلى الأمام .

فاستمع إلى حديثي ثم قال : نحن نعلم ذلك كله ، وعندنا في هذه البلاد نحو ست جامعات تعنى بما تقول وتسير على القواعد التقليدية للجامعات الأوربيـة فيما يتصـل بالبرامج وطرق التدريس وأهدافه . وفي هـذه الجامعات كفاية لتحقيق الأغراض التي تحدثت عنها . ونحن هنا في داخل الولايات المتحدة لا نؤمن بذلك ونرى أن الجامعة ينبغي أن تقدم للطالب ما يحتاجه في حياته العملية ، لا مجرد دراسات نظرية لا ينتفع من ورائها إلا القليلون ، وما فائدة تدريس اللاتينية لطالب يريد أن يشتغل في الإذاعة بعد ذلك ؟ أليس الأجدى عليه أن يتعلم أساليب وضع البرامج وطرق الإذاعة والنواحي الفنية من الإعلان بطريق المذياع ؟ ثم ما فائدة إجهاد ذهنه بفلسفة العصور الوسطى . إننا نريد أن نؤهله لحياة أمريكية ذات مطالب جديدة ، ولهـذا فنحن نجتهد في تكوين خلقه تكويناً عملياً ، حتى يصبح صالحاً للحياة قادراً على تولي أي عمل . إن هـذا النوع الضيق من التدريس الجامعي قد أنزل بالشعوب الأوروبية التي أسرفت فيه أضراراً كثيرة ، إن مأساة بلد كفرنسا ترجع إلى كثرة عـدد المتخرجين في الجامعات النظرية : آلاف من الشبان أنفقوا أعمارهم في دراسات قيمة بالفعل ، ولكنها لم تنفعهم في كسب رزق محترم ، فامتلأت نفوسهم يأساً ومرارة ، وهانت في أنظارهم كل القيم الاجتماعية في سبيل الكسب ،

ودخل الكثيرون منهم ميدان السياسة وفي نفوسهم حقد عظيم على المجتمع وجشع عظيم إلى الكسب عن أي طريق . وها أنت ترى النتيجة : إن تسعين في المائة من السياسيين وأعضاء البرلمان في ذلك البلد من خريجي كليات الحقوق والآداب . وحدث مثل ذلك في ألمانيا ، ليس في الدنيا بلد فيه من حملة الدكتوراه مثل ما في ألمانيا ، وهؤلاء جميعاً تعلموا تعليماً نظرياً بحتاً ، ووضعتهم شهاداتهم في مستوى عال من الناحية الذهنية ، ولكنها لم تؤهلهم للكسب أو العيش الكريم ، وأنفوا أن يتناولوا أعمالاً بسيطة ، لأنهم حملة شهادات عليا ، فتعطلوا وضاقت بهم سبل العيش ، ثم جاء هتلر وجعل يمنيهم بالخير الكثير فتزاموا على أقدامه وساروا خلفه دون فهم لغاياته ، لأن تعليمهم كما قلت لك نظري صرف ، فانساقوا في الطريق المحزن ولم ينتفع بهم بلدهم في شيء . قارن بذلك بلداً كإنجلترا : إن التعليم الجامعي هناك غال لايستطيعه إلا من يريده حقاً ، ولهذا لا تخرج الجامعات هناك إلا بالقدر الذي تحتاجه الأمة من ذوي الشهادات العالية ، وبقية الشبان ينصرفون إلى دراسة الفنون العملية ويتخرجون بشهادات متوسطة ثم ينصرفون إلى سد حاجات مجتمعهم العملية ، ولما كانوا يتخرجون من مدارسهم المتوسطة في سن مبكرة فإن الاندماج في الحياة العملية يربيهم ويكونهم ، ويصبحون بعد ذلك رجالاً عمليين لا يسهل خداعهم ولا يفسد خلقهم التعطل ، ثم إنهم بسبب تعليمهم البسيط — لا يأنفون من أي عمل ويبدأون الحياة دائماً من أول السلم . وها أنت ترى بعينيك أن الإنجليز كشعب لم يفشل في ميدان الحياة فشل الفرنسيين والألمان . إنهم يتجهون هناك نحو التربية ، أما الفرنسيون والألمان فيتجهون نحو التعليم ، والتاريخ يرينا بوضوح أن التربية أجدى على الناس من التعليم : قليل من العلم مع كثير من التربية خير من كثير من العلم مع قليل من التربية ، وليس هناك أضر على الشعوب من آلاف الجامعيين الذين يحمل كل منهم شهادة لاتدل إلا على أنه قرأ كذا كتاباً ، أما نفسه وقلبه فخاويان ، لا تكوين ولا تدريب ولا فهم لطبائع الحياة ولا قدرة على الانسجام مع حقائق الحياة الواقعية . صدقني أن التاريخ يدل بوضوح على أن النصر دائماً للشعوب الحسنة التربية على الشعوب المتعلمة ، لهذا فنحن نحاول أن نتحاشى هذا القدر ونجتهد في أن نربي نفوس الطلاب ونعدهم على مطالب الحياة العملية ولو أدى ذلك إلى إهمال بعض فروع الدراسة النظرية . وقد رأينا نحن أن الشبان مغرمون بالجامعة ، كل منهم يريد أن يكون طالباً جامعياً ويأنف من دخول المدرسة المتوسطة ! ولهذا جعلنا بعض كليات الجامعة أشبه بمدرسة متوسطة حتى نلائم بين مطالبنا وفلسفتنا في التعليم وبين غرور الشباب ، فكانت النتيجة أننا ابتدعنا لوناً جديداً من الجامعات ، لوناً يعنى أولاً وقبل كل شيء بالتربية والتكوين . أما أولئك الذين يريدون العلم لذاته ، أولئك الذين يحسون في أنفسهم الميل إلى البحث فأمامهم جامعات هارفارد ويل وبرنستون وكولومبيا وبيركلي .

* * *

واستقرت في نفسي كلماته ، ومضيت أتدبر قوله « إن التاريخ يدل بوضوح على أن النصر دائماً للشعوب الحسنة التربية على الشعوب المتعلمة » ورأيت أن أطبق هذا الرأي على ماضينا قبل أن أنظر في السياسة التعليمية التي ينبغي لنا أن ننتهجها في هذا البلد .

وجدت أولاً أن الأمة الإسلامية كانت قبل أن يدهمها الاضمحلال أمة متعلمة ، فقد حفلت بلاد المسلمين من شمال الهند إلى حدود جبال البرتات (البرانس) بالعلم والمتعلمين ، ولم تكن هناك قرية فما دونها إلا كان فيها من يقرأ ويكتب بل من يضم صدره العلم الغزير ، وأمامك أسماء المؤلفين ممن بقيت لنا كتبهم فانظر في ألقابهم ومواضع ميلادهم ، تجد أنه ما من قرية أو بلدة إلا أخرجت العالم والعلماء بل النفر الغفير منهم ، وتناولت كتاب تاريخ الآداب العربي لبروكلمان وبسطت أمامي خريطة العالم الإسلامي ومضيت أضع نقطة في كل بلد أو قرية خرج منها عالم أو شاعر أو فيلسوف ، وماهو إلا قليل حتى كانت الخريطة قد غطيت بتلك النقط ، ولم أصل مع ذلك إلى نصف فهرس الأسماء ، ثم تناولت بعض كتب الرحلات والمسالك والممالك ومضيت أحصى أعداد من لقيه الرحالون والجغرافيون من العلماء أو المتعلمين في كل مرحلة من الطرق التي اجتازوها لمسالك العجب ، وتبينت أن حالة العلم في البلاد الإسلامية حتى في

عصور الاضمحلال كانت طيبة جداً ، حتى نواحي الصحراء مثل فزان وودان وأطراف المملكة الإسلامية في نواحي سرقسطة وصقلية وسردانية وجزائر الهند وأطراف فارس إلى حدود الصين ، بل داخل الصين وفي بلاد مثل كانتون وفي داخل الدولة البيزنطية ، كان هناك من علماء المسلمين ومتعلميهم نفر ، بل نفذ علم العرب إلى أقاصي بلاد الغرب فوصلت كتبهم إلى باريس وسالرنو وبعض نواحي ألمانيا ، ولم تخل بلاد المسلمين في يوم من الأيام من علماء وصلوا إلى أقصى حدود العلم المعروف في تلك العصور ، بل تخطى بعضهم عصورهم بزمان كما فعل ابن الهيثم في البصريات وابن سينا في الطب وابن البيطار في النبات والبيروني في الفلك والرياضيات ، ثم إنني لاحظت من كتب الرحلات أن بلاد الإسلام كلها لم تخل في أي موضع منها ممن يقرأ ويكتب ، فكان في كل قرية عشرات ممن يقرأون ويكتبون .

وقد كان الناس في الماضي لا يحتاجون إلى أن يتعلموا جميعاً القراءة والكتابة كما هو الحال اليوم ، لأن معاد الناس لم يكن على الكتابة في كل شيء كما تفعل الآن ، لأن الكتابة تحتاج إلى ورق وحبر ، وكان الورق سلعة غالية والحبر صناعة معقدة لابد أن يتقنها من يريد الكتابة ، فكان الكاتب يصنع حبره بيده كما يطبخ طعامه في بيته ، وكانت الكتب شيئاً غالياً أو خاصاً ، والقراءة والكتابة صناعة إذا أهملها صاحبها نسيها ، فلم يكن يتكلف عناء تعلمهما إلا من عول على أن يعيش من الكتابة والقراءة . أما عامة الناس فكان تعلم القراءة والكتابة بالنسبة لهم جهداً ضائعاً ، لأن مصيرها كان إلى النسيان لقلة الاستعمال ، ثم إن الناس كانوا يجدون الكتابة ممن يقرأ ويكتب في كل زمان ومكان ، وكانوا يجدون من يحدثهم بما في بطون الكتب وميادين العلم في كل حين . ومن ثم لم يتكلف معظمهم تعلم القراءة والكتابة لانعدام الحاجة الماسة إليهما دون أن يكون معنى ذلك أن يظلوا جهلاء ، فقد كان الجو حولهم عامراً بالعلم والعلماء والكاتبين والقارئين . فلم يكن العالم الإسلامي إذاً عالماً جاهلا بل متعلماً ، ولا يمكننا رد انهياره إلى شيوع الجهل كما يقع في ظنون الكثيرين .

ونظرت من ناحية أخرى إلى التربية في العالم الإسلامي فتبينت حقائق تبرر موضوع بحثنا هذا ، وأنا أقصد بالتربية تكوين الناشئين وتهيئتهم لمواجهة مصاعب الحياة ومطالب المجتمع ، ولا أقصد بذلك علم التربية ، فرأيت أن الناشئ المسلم في هذه العصور نفسها كان يخرج إلى الحياة دون تربية أصلا ، فتعدد الزوجات وكثرة العيال في البيت الواحد حالت بين الوالد وتربية أولاده ، ثم إن هوان شأن المرأة في البيت وعيشها تحت رحمة الضرائر والطلاق، هبطتها إلى مراتب الهوان والذل وجعلها أشبه بالرقيق ، ومن كانت هذه حاله لم يكن بقادر على تربية الأولاد أو تكوينهم ، والأم هي التي تربي الأولاد وتهذبهم ، وهي لا تستطيع ذلك إلا إذا كانت لها في نفسها سيادة وفي بيتها اطمئنان ، ومن ثم لم تستطع القيام بواجبها في تربية أولادها ، ولم يصبح البيت الإسلامي مكان تربية بل مكان إفساد ، بسبب ما يمر تحت نظر الصبي من مناظر الخصومة بين الضرائر ، وبسبب ما يراه من تحقير أبيه لأمه وانصرافه إلى غيرها من النساء وإذلالها بشتى صنوف المهانة والتحقير .

ثم إن العالم الذي كان الناس يعيشون فيه كان عالماً لا يوحي إلى النفس أي معنى كريم أو خلق رفيع ، فقد تحولت الدولة الإسلامية من أوائل العصر الأموي إلى استبدادية عسكرية يقوم على رأسها خليفة أو سلطان أو حاكم لا يعتمد إلا على طوائف من الجند وأصناف المرتزقة ، وكانت نظرة الحاكم إلى رعيته نظرة الصياد للطائر يستحل لنفسه مال أي واحد منها ودمه ، وكلما مست أولئك الحكام الحاجة إلى مال عمدوا إلى من عنده مال فاستصفوه ، وكلما ثارت بنفوسهم الريب من ناحية إنسان عمدوا إلى دمه فأراقوه ، فانبتت همم الناس عن طلب الرزق والاستكثار من الكسب وإظهار النعمة حذراً من طمع الحكام ، وانصرفت الهمم عن الاشتغال بما نسميه اليوم الأعمال العامة طلباً للسلامة وبعداً عن مواطن الريب ، وقعد الناس عن إتقان الحرف ، لأن الذي يتكلف نفسه عناء إتقان صناعة يفعل هذا وهو يرجو بيعها لمن يقدرها والتمتع بمكاسبها ، فأما وقد كان عامة الناس لا يملكون المال الذي يشترون به الطرفة الطيبة ، أو يملكونه ولا يجرءون على إظهاره ، وأما ورجال السلطان يطوفون بأصحاب الحرف كالذئاب يغدرون عليهم المغارم

والجبايات ، فقد قعدت همم الناس عن تجويد الحرف ، ولم تعد تجد في العصور المتأخرة منهم إلا القليل النادر ، والمقريزي نفسه يحدثنا في « كشف الغمة » عن ندرة الصناع في بلد اشتهر أهله بتجويد الصناعات كمصر ، فما بالك بالحال في نواحي العالم الإسلامي الأخرى ؟ وإن الناظر إلى ما خلفته هذه العصور الباقية من طرف الصناعات وبدائع الآثار ليجدها قليلة جداً بالنسبة لما كان ينتظر من عالم واسع متحضر كالعالم الإسلامي ، فإن مجموع ما لدينا من آثار العمارة والفن الإسلامي خلال هذه العصور الطويلة لا يزيد على ما نجده في بلد صغير مثل هولندا .

ثم إن حكام المسلمين من مطالع العصر العباسي درجوا على أن يعتمدوا على الجند الأجانب في تأييد عروشهم ، وكان دافع العباسيين إلى ذلك أول الأمر سوء الظن بالعرب ، ثم درجوا على ذلك وأصبحت قاعدة من قواعد الحكم ، ولم يعد الحكام يفكرون في استنفار رعاياهم للحرب وتربيتهم تربية عسكرية إلا في النادر ، وغدت الشعوب الإسلامية شعوباً مغلوبة على أمرها يحتلها الأجانب في الواقع ، فكان لهذا أسوأ الأثر على أخلاق أهلها ، فقد حرم رجالها فُرَصَ الاشتراك في الحروب وما يتأصل في النفس تبعاً لذلك من شعور العزة والكرامة والنجدة والفتوة ، واستقر في نفوسهم شعور من القهر والذل والمسكنة .

والناس منذ خلقوا تربيهم البيوت أولاً ثم الاندراج في تيار الحياة ومعاناة الصنائع والحرف والتعرض لطلب العيش ثانياً ، ثم الاشتراك في الحروب ثالثاً ، مما يبعث في نفوسهم الجلد والعزة من ناحية ، ويفتح أمامهم سبل الحكم وإدارة الأمور في بلادهم ، ويوطد الصلة بينهم وبين الأرض التي يعيشون عليها من ناحية أخرى ؛ وقد حرم أهل الدولة الإسلامية هذه الفرص الثلاث ، فخرجوا إلى الحياة دون تربية أصلاً وغلب على نفوسهم الاستسلام للقدر والهلع أمام حوادث الأيام ، والسذاجة التي تبعث إلى الدهشة في كثير من الأحيان .

ولم ينفع العالم الإسلامي علمه ، لأنه كان علماً نظرياً لا يقويه تربية صالحة ، بل كان المتعلمون أنفسهم وبالاً على أمتهم من نواح كثيرة ، لأن تعلمهم أشعرهم بأنهم أرفع مستوى من عامة الشعب وأنهم ينتمون إلى السلاطين والحكام ، فجروا في ركابهم التماساً للعيش ، حتى الفقهاء منهم جعلوا همهم إصدار الرخص والفتاوى لتبرير أعمال أهل الحكم . وأنا أتكلم هنا عن الكثرة الغالبة ، لأن الواقع أنه كان هناك أفراد نأوا بأنفسهم عن ذلك السبيل ، ولكنهم كانوا قلة لا يعول عليها في قياس . وعندما يقرأ الإنسان بعض ما خلفه أولئك العلماء يتملكه العجب من سذاجتهم وقلة فهمهم لشئون الحياة وطبائع البشر على رغم علمهم الواسع في نواح معينة ، وهي سذاجة مصدرها قلة التجربة وانعدام التربية والتكوين . وكان الحكام يلجأون في بعض الأحيان إلى أدباء أو شعراء أو فقهاء فيتخذون منهم الوزراء والمشيرين ، فكانوا يسوسون الأمور على نحو هو أسوأ من سياسة قادة الجند الأجلاف لها ، وذلك بسبب السذاجة وقلة التربية أيضاً ، وهذا هو ما حدا بابن خلدون إلى أن يقول في مقدمته إن الفقهاء والمؤرخين إذا تعرضوا لشئون الحكم ساءت عاقبتهم وعاقبة الحكم على أيديهم أيضاً .

• • •

فإذا التفتنا ناحية أوربا خلال عصور الإسلام الزاهرة رأينا صورة تخالف ذلك كل المخالفة : رأينا شعوباً ران على نفوسها جهل شديد ، كان هناك نفر من الرهبان وأهل الكنائس يقرأون ويكتبون ، ولكن عامة الناس ، حتى الحكام والقادة والأمراء ، كانوا لا يقرأون أو لا يكتبون إلا في النادر ، حتى إن شرلمان نفسه كان لا يكتب إلا اسمه وبصعوبة بالغة ، وكنت تبحث في البلد الكبير عمن يقرأ كتاباً أو يكتب خطاباً فلا تجده . وعندما نطلع نحن على ما خلفته هذه العصور الأوربية من كتب تدهش لهذا الجهل العميق ، وعندما وصلت إليهم كتب العرب تلقفوها بشوق العطشان إلى الماء ، وجعلوا يتدارسونها كأنها صادرة من أهل كوكب آخر .

بيد أنها كانت إلى جانب ذلك شعوباً مجربة تعرض رجالها لمشاكل الحياة ومتاعب الحروب ، وعاشت في بيئات جغرافية قاسية قضت على الضعفاء منهم أولاً فأولاً ، ولم تبق إلا على الأقوياء الصالحين ، ولم يطمئن كل شعب منها في إقليمه إلا بعد معاناة حروب طويلة مهلكة مع جيرانه ،

فصلت أعواد رجالها وضريت نفوسهم على الحروب وأفادوا من غمار الحروب ومعاناة أمور السياسة والحكم ما جعلهم جلهم ذوى خبرة وفهم لشئون الحياة وجرأة على ركوب الأخطار ، فلم يجد حكامهم أنفسهم مضطرين إلى البحث عن الجنود المرتزقين خارج بلادهم ، واعتمدوا على رعاياهم فى تكوين جيوشهم ، لأن هؤلاء الرعايا كانوا يعيشون فى دويلات صغيرة أو كبيرة كل منها إقطاعية ، يعتمد صاحب الإقطاعية على ما يؤديه إليه من يعيشون فى إقليمه من الخدمة العسكرية ، ويعتمد الملك على ما يقدمه إليه أصحاب الإقطاعيات من معاونات عسكرية ، فكان صاحب الإقطاعية حريصاً على ولاء أهل إقطاعيته والملك ، حريصاً على ولاء مقطعيه ، ومن ثم جرت العادة على أن يتراضى صاحب الإقطاعية مع من يسكنون أرضه ويتراضى الملك مع أصحاب الإقطاعيات ، فلا يدخل إنسان فى ولاء إنسان إلا بموجب وثيقة محددة الشروط تبين بوضوح حقوق هـذا وحقوق ذاك ، فدرج الأوربى فى العصر الوسيط على النظر فى أمور نفسه والتفكير فيما له وما عليه ، وكان اشتراكه فى جيش الإقطاعية أو جيش الملك وقاية له من الذل والسادة ، وبعثا فى نفسه دائماً شعور المسئولية والإحساس بأنه قادر على الدفاع عن نفسه إذا لزم ذلك .

ثم إن حياة الناس فى إقطاعيات منفصل بعضها عن بعض ألزم أهل كل إقطاعية أن يصنعوا بأنفسهم كل ما يلزمهم من أدوات وسلاح ، وكان كل صاحب إقطاعية ينافس جيرانه فى مظاهر الحياة وعدة الحرب ، فحرص على الصناع من أهل إقليمه واجتهد فى ترضيتهم وتشجيعهم ولم يجرؤ على غصبهم أموالهم خوفاً من أن يثور عليه أهل الإقطاعية ويرفضوا أداء الخدمة العسكرية وعليها معول سلطانه ، فنشطت نفوس الناس هناك للعمل والإنتاج ، وكثر الصناع والتجار ، وغنيت قلوب الناس هناك بشعور الرجولة والعزة وكسبوا من معاناة الحرف والكسب الطيب من ورائها خبرة بشئون الحياة ومعرفة بما ينبغى لها من صبر وخلق .

وإلى جانب ذلك درج أولئك الناس على الزواج بالواحدة منذ دخولهم المسيحية ، فكانت المرأة على ضآلة شأنها فى ذلك المجتمع آمنة فى بيتها مطمئنة إلى أولادها ، والمرأة إذا اطمأنت من هذه الناحية قامت بواجبها الطبيعى وهو تربية الأولاد ، وبفضلها تأصلت « فكرة البيت » فى النفوس ، ونبتت فى البيوت مع مضى الزمن تقاليد أسرية طيبة كان لها أكبر الأثر فى تهذيب نفوس أولئك الناس على مر السنين ، وحرصت المرأة بطبيعتها على أن تدخر لنفسها ولأبنائها ، لأنها كانت تشعر — مهما ساءت العلاقات بينها وبين زوجها — أن أحداً لن يقتلعها من هـذا البيت ، وأن امرأة أخرى لن تشاركها فيه ، ونشأ الأولاد فى هذه البيوت الآمنة فتأصل فى نفوسهم شعور الأمان ، وخرجوا إلى الدنيا يعملون فى مجتمع آمن مستعد لتقبل ثمرات الصناعة والفن ، يختلف كل الاختلاف عن جو الغصب والمصادرة والاستصفاء الذى كان الصانع ينشأ فيه فى المجتمعات الإسلامية ، فمضى الصناع يعملون فى اجتهاد ، وأخذت الصناعة ترقى ، وغنيت المدن الكبيرة والصغيرة فى غرب أوربا بالمبانى الجميلة الباسقة يزينها الرياش الطيب ، وقدم أولئك الصناع لجيوش بلادهم من بديع الأسلحة والزرود ودروع الحديد ما كان نادراً فى بلاد الإسلام ، ومن ثم فإننا نرى الشرق الإسلامى يخوض معركة خاسرة مع النصرانية ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى ، وما عليك إلا أن تتبع تفاصيل الوقائع والصادمات من الجانبين فى صقلية وأسبانيا حتى تتبين صدق ما أقول ، وهزائم الإسلام فى هذين الميدانين إنما هى نتيجة لامتياز جيوش النصارى فى العدة والسلاح وثبات الجند النصارى مع قوادهم ، لأنهم لم يكونوا مجموعين بالقوة والغصب كما كان يحدث فى تكوين جيوش الإسلام فى هذه الناحية ؛ ولا يمكن الاعتراض على هذا بما حدث أثناء الحروب الصليبية ، لأن انتصارات الإسلام على النصرانية فى تلك الحروب كان مرجعها فى الغالب إلى بعد الصليبيين عن ديارهم وصعوبة حصولهم على الإمدادات ، بينما المسلمون يحاربون فى عقر دارهم ؛ ثم إن الإسلام لم يكسب انتصارات حربية حقيقية فى الصليبيات إلا بفضل عبقرية صلاح الدين ، وهذا وحده عامل كبير يجعل انتصاراً كحطين خارجاً عن موضوع القياس ، وإذا أردت أن تتحقق من ذلك فانظر إلى صراع الإسلام والنصرانية فى الأندلس .

•••

هكذا انتصر مجتمع جاهل حسن التربية على مجتمع متعلم سيء التربية ، هكذا لم ينفع المسلمين علمهم على بعد آفاقه وانتشاره . ونفعت أولئك الأقوام تربيتهم على ما كان يسود مجتمعهم من الجهل والظلام . لقد انتصرت الشعوب الحسنة التربية على الشعوب المتعلمة فى العصور الوسطى كما حدث فى العصر الحديث . ثم إن العالم الإسلامى انهار بعد ذلك ولم ينفعه علمه ، انهار واضطربت شئونه على رغم آلاف المتعلمين الذين كانوا يتولون شئون الدولة فى المكاتب والدواوين . بل إنك لتجد أن سوء تربية أولئك المتعلمين كانت من أسباب ضياع الدولة . فكان العلماء من أسرع الناس انقياداً للحكام ومعاونة لهم على الفساد . ولو أنك أردت أن تتعرف مفهوم التربية الحسنة مما بين أيدينا من مؤلفات المسلمين فى هذا الباب ، لوجدتها كلها تربية خنوع وضعف وذلة وحيلة ومراوغة وحض على الابتعاد عن الدنيا خوفاً من شرورها وضرورها لا عن طريق الشبع والزهد الصحيح ، وليس فى الدنيا أدب فيه من الشحاذة والتسول والترامى على أقدام ذوى الجاه والشذوذ كما فى تراثنا الذى تدارسه ، و « العلة الأولى » فى ذلك هى سوء التربية لا قلة العلم .

علتنا إذاً هى سوء التربية لا الجهل ، وقد بسطت فيما سلف من الكلام ما أردته « بسوء التربية » وعرّفت بالأسباب التاريخية لذلك ، وليس من الغريب والحالة هذه أن تكون محنتنا الراهنة محنة أخلاق لا جهل ، وشكوانا من ضعف أخلاق المتعلمين أمر من شكوانا من جهل الجهلاء .

وقد كان العلاج الصحيح الذى يرفعنا من الوهدة هو الاهتمام بالتربية قدر اهتمامنا بالعلم ، وأن تكون مدارسنا معاهد للتربية لا فصولاً يحشر فيها الطلبة حشراً ليلقى عليهم المدرس قشوراً من العلم ، وكنا قد سرنا فى هذا الطريق الصحيح ، واجتهدنا فى أن يكون المدرس بيداجوجيا مكتمل التدريب ، وبذلنا عناية كبرى فى إعداد المدرسين ، ولكن هذا الطريق بدا طويلاً بطيئاً لقوم يتعجلون النتائج وينظرون إلى الكم لا إلى الكيف ، وحسبوا أن العبرة بكثرة المتعلمين ، غير ناظرين إلى ما يتعلمون وغير ملتفتين إلى ما ينبغى أن تكون عليه التربية الصحيحة ، وها هى ثانوياتنا تموج بآلاف الطلاب لا يكادون يتعلمون شيئاً ، وقضينا بجرة قلم على التعليم الصناعى وفائدته لنا لا تقل عن فائدة الجامعات ، وحوّلنا المدرس الجامعى إلى خطيب يلقى دروسه على مئات الطلاب دون أن تكون أمامه أى فرصة للتعرف عليهم وتربيتهم ، ودون أن تكون أمامهم أى فرصة للإفادة منه ، إننا نجرى فى هذا الباب وراء أمم لا تبقية أثبتت التجارب فشلها فى ميدان الحياة أمام غيرها ... وهذا الغير — وهم الإنجليز والأمريكيون — يدققون فى قبول طلبة الثانويات ، ويتقاضون المال الكثير عن التعليم فى الجامعات ، فلا يظفر به إلا من يريده حقاً أو من يؤهله امتياز واضح للتعليم بالمجان ، أما بقية الطلاب فأمامهم المدارس الصناعية وأبواب الحرف ، ولم يقل أحدٌ إن صاحب الحرفة لا يكون إلا سقط المجتمع ونفاية الناس ! إن العامل مفيد للأمة كالطبيب ، وصاحب الحرفة فى نفس المستوى مع القانونى من حيث الخدمة التى يؤديها للمجتمع ، ولن يرتفع مستوى عمالنا ، ولن يكثر ويصح إنتاجهم إلا إذا خرجوا من أوساط المتعلمين ، وإلا إذا كانوا فى نفس المستوى العقلى الذى يعيش فيه الأطباء والمهندسون والمحامون ، وهذا — على الأقل — هو ما تجده فى بلاد موفقة كانجلترا والولايات المتحدة .

حسين مؤنس

قالوا ...

- ينبغى أن لا نغضب أو نثور إذا رأينا من الناس القسوة والظلم والزهو والأنانية ... فهكذا خلقوا ، وهذه هى طبيعتهم ... وأيسر لنا وأهون من إصلاحهم أن نطلب من الحجر ألا يسقط ومن النار ألا تشتعل ...

[لابرويير]

- اعصفى ... اعصفى ياريح الشقاء ! فلن تبلغ قسوتك قسوة الإنسان الجاحد الناكر للجميل ... اعصفى ! فكم من صداقة يشوبها النفاق والرياء ... اعصفى ! فما الحب إلا جنون واختلاق ...

[شكسبير]

مدينة فاضـــلة

— ٣ —

للأستاذ محمد عبد الحليم محمود

وهاك مثلا وصفا موجزا لبلاط الملك لويس السادس عشر يعرضه علينا أحد المؤرخين :

« ... كان يحيط بالملك في بلاطه ما يقرب من ثمانية عشر ألف شخص، منهم ستة عشر يشغلون وظائف القصر المختلفة، والباقي يطلقون يتملقون الملك حتى يحظوا ببعض الرتب أو الأعمال ...

« ... وكان ترف هذا البلاط يمتاز بالفوضى : فالحظائر الملكية التي تحتوي على حوالي ألفي جواد ومائتي عربة تتكلف وحدها ما يزيد على سبعة ملايين من الجنيهات ... ونفقات المائدة الملكية تبلغ حوالي ثلاثة ملايين من الجنيهات .

« وكان التبديد والسرقة مستفحلين ... ورجال البلاط يتهافتون على كل ما تدره الضرائب الفادحة التعسفية من أموال ... حتى لقد قال أحد الوزراء في ذلك العصر : والبلاط الملكي «مقبرة» الأمة ! ... »(*)

بيد أن بلاط إلدو رادو كان شيئاً آخر غير هذا . كان بلاط ملك حكيم يحب الخير لرعيته ، وإن كان لا يبخل على قصره بمظاهر الأبهة والفخامة . وليس ذلك إسرافاً منه وتبذيراً ، فشعبه يحيى عيشة كلها نعيم ورفاهية وترف ! ولا حرج على الحاكم أن يمتع نفسه بكل ما يهوى ، ما دام المحكومون يتمتعون هم الآخرون بكل ما تهوى نفوسهم .

وملك إلدو رادو ليس واحداً من هؤلاء الملوك الذين تغرهم السلطة ، ويفسدهم النفوذ المطلق .. إنه حاكم صحيح الأخلاق كريمها ، متواضع كل التواضع ، يحترم تقاليد شعبه ويرعى قوانينه .

انظر إليه يستقبل زواره بكرمه العظيم ولا يبخل عليهم بالمصافحة الحارة والقبلات الساذجة ... أجل ، إنه ليس كملوك فرنسا وألمانيا الذين آثر عنهم في عصر فولتير العجرفة والاستبداد والإغراق في الرسميات الجافة الفارغة لإظهار قوتهم وسيطرتهم .

(*) A. Malet : L'Epoque Contemporaine

ثم انظر إليه يحدث ضيفه فيقول إن مملكته ليست بخير ممالك العالم ، ثم يقول إنه ليس بإمكانه تقييد حرية إنسان ، وإن الإنسان حر ، وله أن يفعل ما يشاء .

حقاً أنه ملك حكيم ... ملك لا يدعي «الحق الإلهي»، بل يعترف صراحة أنه يخضع لقانون بلاده مثلما يخضع له سائر الأفراد ... فهو ملك ، ولكنه قبل كل شيء إنسان .

وتلك صورة الحاكم العادل كما كان يتخيلها فولتير ، وكما كان يتخيلها مفكرو القرن الثامن عشر على اختلاف نزعاتهم .

وإذا قيل إن كتابات مفكري القرن الثامن عشر كانت سبباً من أسباب قيام الثورة الفرنسية العاتية وهدم صروح الملكية بفرنسا ، فمن الثابت أن هؤلاء المفكرين لم يكونوا يطمعون في حكومة جمهورية ، بل كان كل مطلبهم أن تعمد الحكومة القائمة إلى شيء من الإصلاح في النظم الإدارية والاقتصادية وشيء من التسامح في معاملة الرعية ، ثم شيء من الاعتدال في الإنفاق على المظاهر والحفلات في البلاط الذي أسرف في ذلك إسرافاً شديداً من بعد عهد لويس الثالث عشر .

وقد كان أغلب الفلاسفة يؤيدون الحكم الملكي الرشيد غير الاستبدادي .

فمونتيسكيو ، مثلاً ، عندما عرض تقسيمه المعروف لأنواع الحكم ، في « روح القوانين » ، أعلن صراحة أن النظام الملكي خير نظم الحكم لبلاد مثل انجلترا وفرنسا ، وإن كان يرى تقييد سلطة الملك بمجموعة من القوانين الصارمة ... ولم يكن مونتيسكيو يحلم بما سوف يتمخض عنه المستقبل من تأويل وتطبيق لآرائه العتيدة(*) .

وفولتير ، عندما يعرض لبلاده الفاضلة حكومة ملكية تحترم القانون والتقاليد ، لا يخرج في ذلك عن الروح العامة للتفكير السياسي في عصره .

(*) M. Braunschvig : Notre litterature étudiée dans les textes (XVIIIème siècle)

يقول أحد النقاد فى عرضه لمذهب ڤولتير فى الحكم :

« فلنكن ملكيين ، لأنه يجب أن نكون أوفياء لتقاليد بلادنا ... وعلينا أن نتجنب الحكم الاستبدادى الذى عده مونتيسكيو ، خطأ ، من نظم الحكم الممكنة ... ولكن علينا بعد ذلك أن نطالب بحكومة قوية : حكومة تحترم حقوق الأفراد ، وتحول دون استبداد الطوائف — دينية كانت أو قضائية أو حربية — ، ولا تعوق التقدم الاجتماعى والعقلى ، ولا تهزأ بنصائح الخبراء والفلاسفة ، وهى فوق ذلك متسامحة غير متعصبة ولا متهورة فى المسائل الدينية ، تقيم العدل ، وتحاول أن تنمى ثروة البلاد . ويكون للملك عندئذ له كل السلطات التى تمكنه من عمل الخير ، ولكنه مغلول اليدين إذا ابتغى لأمته الشر والإسراف(*) » .

هذا هو الملك الحق عند ڤولتير ، وهذا هو الدستور القويم .

فلنتأمل الآن فى شىء من التفصيل وصفه الشائق لعاصمة إلدورادو ، تلك العاصمة الكاملة السعيدة .

ونبادر فنقول إن فكرة هذه المدينة كانت فكرة ثابتة فى مخيلة الناس ، بمعنى أنها كانت تراود ذهنه فى كثير من المناسبات ، فيصفها هى هى فى فصول متعددة من كتاباته ... نراه يقول مثلاً ، فى إحدى قصصه واصفاً محاسن مدينة پرسيبوليس الفارسية :

« ... وأخذ الرجل يتجول فى المدينة ، فرأى معابد أخرى أعظم بناء وأجمل زينة ، يؤمها شعب مهذب ، وتصدح فيها موسيقى مؤتلفة النغمات ، ورأى ينابيع الماء ... تخلب البصر بمنظرها الرائع ! وشاهد ميادين فسيحة تزدان بتماثيل برونزية — تكاد تنطق من فرط إتقان صانعها — لخيرة الملوك من الذين حكموا بلاد الفرس ... وأعجب بالقناطر الفخمة القائمة على النهر ، والمتنزهات الرائعة المريحة للنفس ، والقصور الكبيرة المنثورة يميناً وشمالاً(†) ... » .

مدينتان متشابهتان فى الفخامة والجمال ، وفى الترف الذى يشيع فى كل ناحية .

(*) Roger Petit : Introduction à la Philosophie de Voltaire (Larous. Edit.)

(†) Voltaire : Le monde comme il va (conte)

وها بعد ذلك طيفان للحلم الذهبى الذى كان يهيم به الحكيم الكبير .

وإذا كانت مظاهر الترف والفخامة هى النواحى التى يميل الكاتب — بطبعه — إلى تفصيلها ، فهو مع ذلك لا يهمل الجوانب الأخرى الهامة من المدينة .

وأهم شىء فى المدينة هو — إذا صح التعبير — خلوها من المحاكم والسجون ، لانعدام الخلافات بين سكانها ، ولأنه ليس بها لصوص أو مجرمون .

وإن هذا لأمر جد خطير إذا علمنا الدور العظيم الذى كانت تلعبه المحاكم والسجون فى حياة الأوربيين ، وخاصة منهم أهل فرنسا .

فقد فطر الفرنسيون على حب النزاع والتنافس فيما بينهم لأتفه الأسباب . فاستفحل أمر القضاء فى بلادهم ، واشتد نفوذ القضاة حتى أصبحوا دولة داخل الدولة تنازع الحكومة القائمة سلطانها وتفرض عليها فى بعض الأحيان إرادتها .

وقد كان للبرلمان — أقوى سلطة قضائية فى عهد الملكية بفرنسا — شأن كبير فى تطور التاريخ الفرنسى ، وفى حدوث الانقلابات الفجائية من عهد لعهد .

ولم تكن مهمة المتقاضين بعد ذلك سهلة ميسرة . فالنظم القضائية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر قد بلغت من التعقيد والتعدد درجة عجيبة . وزاد الأمر صعوبة أن القضاة فى تلك العصور كان أغلبهم يمتاز بالجشع والطمع ، وأن المناصب القضائية كانت تباع كالسلع للأكفاء ولغير الأكفاء ، فيحصل عليها من يدفع أكبر ثمن .

لكن إقبال الناس على المحاكم ، برغم كل هذا ، لم يفتر .

وفى بعض قصصه ، يزعم ڤولتير أن الله خلق العالم بحيث يشغلُ نصف سكانه من البشر بالحرب ، ويشغلُ النصف الباقى بالمنازعات القضائية(*) .

وكانت هذه المنازعات القضائية مادة دسمة للأدب الفرنسى فى مختلف العصور ، يتخذها موضوعاً للفكاهة أو السخرية . ولقد عرض الشاعر الكبير راسين ، مثلاً ، لحياة القضاة وعقلية هواة المحاكم فى مسرحية مشهورة له

(*) Voltaire : Songe de Platon (conte)

أسماها « المتقاضين » ، وهي المسرحية الهزلية الوحيدة التي كتبها ، فأدبه — فيما عدا « المتقاضين » قاصر على المآسي العاطفية العنيفة(*) .

فإذا كان هذا مبلغ اهتمام الناس بالقضاء في فرنسا ، وإذا كان هـذا شأن القضاء في تاريخهم ، فلا غرابة أن يفرد له الكاتب في حديث مدينته الفاضلة مكاناً خاصاً ، ويحاول إيجاد علاج له فلا يرى إلا استئصاله علاجاً .

هذا فيما يتعلق بالمحاكم ...

وقد كان للسجون ، هي الأخرى شأن خطير .

إذ كانت على الدوام حافلة بالمذنبين وبغير المذنبين من الناس .

كان يعمرها اللصوص والقتلة والآثمون على اختلاف ألوانهم ! كما كان يعمرها رجال السياسة المغضوب عليهم من الحكام ، ورجال الإصلاح الدين يهددون المسرفين والمبددين من أصحاب الحظوة ، وأفراد الشعب الذين لم يتبعوا تعاليم الكنيسة بدقة وإخلاص ، أو الذين أثقلت كاهلهم الضرائب فلم يوفوها لخزانة الملك المسرف ، فاقتادتهم الشرطة إلى الزنزانات ...

وقصر « الباستيل » الذي اتخذته الدولة داراً جهنمية لكل هؤلاء ، لأقوى شاهد على ذلك .

أما في دولة إلدورادو ، فالناس أحرار ... وهم فوق ذلك ، أو قل : ملائك ، فضلاء ! ..

فلا حاجة بهم إلى السجون ، إذ الخصومات السياسية غير معروفة عندهم ، والخلافات الدينية والاجتماعية والمالية معدومة تماماً ، وإذاً هم يأمنون بطبعهم من الإجرام .

والسجون بعد ذلك ليست بالوسيلة الناجعة للإصلاح . ولطالما نادى فولتير ومونتيسكيو وغيرهما من الفلاسفة بنظريات مبتكرة في هذا الميدان .

ولننتقل الآن إلى ناحية أخرى من المدينة الفاضلة ، ألا وهي الناحية العلمية .

فالقاصّ يزعم أن الشيء الذي أثر أكبر الأثر في نفس

(*) J. Racine : Les Plaideurs (comédie)

كانديد ، عندما راح يتجول في عاصمة إلدورادو ، كان وجود « قصر العلوم » ، ذلك البناء الضخم الذي يضم سائر الآلات اللازمة للبحث العلمي ، وخاصة في الطبيعة والكيمياء .

ولعل القراء يعرفون أن فولتير لم يكن أديباً وفيلسوفاً فحسب ، وإنما كان عالماً كذلك ممتازاً أثر تأثيراً قوياً على تيار البحث العلمي في عصره .

فهو الذي أذاع في فرنسا ، وبالتالي في القارة الأوربية كلها ، نظريات نيوتن في المسائل الكونية وخاصة في الجاذبية .

ونظم في ذلك القصائد الطوال ، وكتب عدة رسائل أهمها : « عناصر فلسفة نيوتن » ، و « بحث حول طبيعة النار »(*)

وكان يقارن بين ديكارت الفرنسي ، ونيوتن الإنجليزي فيكاد يفضل الثاني على الأول .

وقد اشترك في الكثير من المناقشات التي تدور حول العلوم في عصره ، فتراه مثلاً يعارض معارضة قوية آراء الكاتب روسو الذي كان يزعم أن الآداب والعلوم هي أصل كل شر على وجه الأرض ، وأن الحياة المثلى لبني البشر هي حياة الفطرة الطبيعية الساذجة ، الخالية من كل تكلف وكل صناعة . وقد ذهب في فكرته هذه إلى أبعد الحدود ، فادعى أن الأدباء والعلماء شر على البشرية ، ونصح للنشء بعدم قراءة الأدب والفلسفة ، فضلاً عن تعاطي العلوم(†) .

وقد رد عليه فولتير رداً قوياً ساخراً في عدة رسائل منها « حديث تيمون » ، و « خطاب إلى جان جاك روسو » . وملخص رأيه أن العلم والأدب والصناعة أشياء ضرورية للحياة البشرية الصحيحة ، وأن العلماء والأدباء ما كانوا أبداً شراً على الأرض ، وإنما جاء الشر من الجهل أو من الإسراف في التمتع بما ينتجه التقدم من وسائل الرفاهية .

فالزعيم هولاكو الذي خرب أقطاراً عديدة من الأرض

(*) Voltaire : (1) Eléments de la philosophie de Newton (2) Dissertation sur la nature du feu

(†) J.J. Rousseau (1) Emile
(2) Discours sur l'inégalité
(3) Discours sur les Sciences et les arts

كان من الجهلاء . وكذلك كان أغلب القسديين في الأرض .. أما فرجيل ، وأما شيشرون ، وأما غاليليو ، فلسنا نعلم أنهم أحرقوا العقول الحصبة ودمروا المدن العامرة وقتلوا النفوس البريئة ...

وإذا أنت نظرت إلى الشعوب البدائية الفطرية فسوف تجد فيها دون جدال نفس الآثام والرذائل التي تجدها في البلاد المتحضرة ... بيد أن هذه الأخيرة تمتاز بالفكر الحي الصحيح وبأن المدنية قد هذبت الطباع ووجهت النفوس إلى مثل أعلى وأفكار سامية شتان الفرق بينها وبين خرافات المتوحشين من أهل الغابات أو الصحارى الذين يعيشون — على حد تعبير روسو — على الفطرة الطبيعية الساذجة(*) ! .

وكان الفضل في الاتجاه العلمي الذي سلكه فولتير ، لامرأة نبيلة هي « مدام دي شاتيليه » التي آوته عندما كان طريداً تبحث عنه الرقابة الحكومية لما كتبه بسبب بعض كتاباته العنيفة . وطابت له الإقامة عندها وألف في قصرها الكثير من كتبه .

وكانت مدام دي شاتيليه :

« ذات شخصية رائعة ومثقفة ثقافة علمية عالية راقية ، شديدة الشغف بالعلوم التجريبية وخاصة الطبيعة » .

« ... تقضي أغلب أوقاتها ... تنقب عن أسرار الكيميا والطبيعة والفلسفة والرياضيات ... أما أوقات فراغها فكانت تشغلها بترجمة كتاب نيوتن Principia ... »(**)

وسرت عدوى البحث العلمي منها إلى صاحبها ، فراح من ناحيته ينقب ويجرب ويدون ملاحظاته ونتائج بحثه ، ثم ينقل نظريات العلماء الإنجليز إلى الفرنسية مبسطة ميسرة .

وكان عصر فولتير ، كما هو معروف ، عصر الفلسفة . ولكنه أيضاً كان عصر العلم .

فكل مفكري القرن الثامن عشر تقريباً بحثوا في العلوم المختلفة وتوصلوا إلى نتائج لا بأس بها .

وجاء بعض العلماء باكتشافات كان لها تأثير عظيم على تقدم الحضارة الإنسانية : مثل تحليل الهواء والماء ، واستعمال القوة البخارية ، واكتشاف الكهرباء ... الخ ...

(*) Voltaire : (1) Timee-(dialogue)
(2) Lettre à J.J. Rousseau-(30Aout 1755).

(**) موسى الزاوي : فولتير (الثقافة ٦٠٦)

لكن كل هذه الأعمال العلمية كانت أعمالا فردية ، ولم يكن هناك تعاون بالمعنى الصحيح بين العلماء ، ولم تعرف المعامل الكبيرة التي تضم الأجهزة الكاملة اللازمة للتجريب والبحث ...

ومن هنا نرى أهمية « قصر العلوم » الذي يحدثنا عنه الكاتب في مدينته الفاضلة ، فيقول إنه يحوي سائر الأشياء اللازمة للبحث العلمي وخاصة في الطبيعة والرياضيات . فتلك الفكرة تعبر عن آمال العلماء والباحثين على اختلاف مناهجهم في أن يصبح لهم دار يجدون فيها ما يحتاجون إليه من وسائل البحث ، كما يستطيعون فيها التعاون والتآزر في سبيل الوصول إلى أحسن النتائج في أقصر وقت وبأقل جهد ممكن .

هذا حديث المدينة الفاضلة عند فولتير .

وهو كما نرى يعبر أصدق تعبير عن شخصية صاحبه ، وعن روح العصر الذي عاش فيه ، ذلك العصر الحافل بالطغيان والبؤس والتعصب . والعدل إذا لم يتحقق للناس في زمن من الأزمان لسبب من الأسباب ... « ... انبرأيت نفوسهم لحاكم عادل تتحقق فيه العدالة بجميع أشكالها ، فمن الناس من لجأ إلى الخيال يعيش فيه ، وألف في ذلك اليوتوبيا أو المدن الفاضلة على حد تعبير الفارابي ، وخلق من خياله دنيا ونظاماً عادلا كل العدالة ، خالياً من الظلم كل الخلو ، وعاش فيه بخياله ينعم بالعدل الخيالي ... »(*)

لكن .. هل في الإمكان إخراج « إلدورادو » من حيز الخيال إلى حيز الواقع ؟ ..

يقول كانديد متعجباً أثناء سياحته بذلك البلد الرائع :

« ما هذا البلد المجهول عند أمم الأرض كلها ، والذي يختلف فيه جوهر الطبيعة والإنسان عما اعتدنا أن نراه في عالمنا القديم ؟ لاشك أنه البلد الذي فيه كل شيء على ما يرام ... لأنه لابد أن يكون على الأرض بلد كل شيء فيه على ما يرام ... »

أجل . لابد أن يوجد على وجه الأرض بلد خير كله . ولابد وأن يعثر الإنسان على هذا البلد ... أما أين ، وأما متى ... فذلك ما لا يعلمه إنسان ...

محمد عبد الحليم محمود

(*) الدكتور أحمد أمين بك : المهدى والمهدوية (اقرأ ١٠٣)

مع الفكر الأوربي المعاصر

١ — أعظم قصة في الأدب الإيطالي

للكاتب كوهون

إن إهمال الأدباء الإنجليز لشأن أعظم قصة في الأدب الإيطالي هو أمر غير مفهوم عند أدباء الطليان . وتلك القصة هي التي سماها مؤلفها «الكونت السندرو مازوني» (المخطوبة) .

ويمكن أن يقاس مدى هذا الإهمال بتتبع تاريخ الترجمة الإنجليزية لتلك القصة ، وهو التاريخ الذي يقص مراحله في بيان موجز الكاتب كوهون Colquhoun في ترجمته لتلك القصة عن لغتها الأصلية .

ويقول العارفون : إن الترجمات التي ظهرت على التعاقب منذ أن ظهرت أول ترجمة لها في العشرة الثالثة من القرن الماضي . إما ترجمة لم تراع فيها الدقة ، وإما ترجمة ناقصة ، وإما ترجمة مشوهة .

وكذلك يقولون إن الترجمة التي بين أيدي الناس اليوم تجمع بين هذه العيوب الثلاثة .

وقد حاول النقاد الإيطاليون أن يجدوا لهذا الإهمال تفسيراً ، فقال قائل منهم : إن القصة قد ألبسها صاحبها ثوباً من الصراحة فضفاضاً ، وقال آخر : إن القراء الإنجليز حسبوها شبيهة بقصص «والتر سكوت» ، وقال ثالث : إن الأدب الإنجليزي يزخر بعبرات ضخم من القصص ، بينما الأدب الإيطالي هو في هذا اللون ظالع غير ضليع ، وقال رابع : إن البريطانيين قد لقنهم شعراؤهم الرومانتيكيون أن ينظروا إلى إيطاليا من ناحيتين : إحداهما تطل على الأدب الرومانتيكي ، والأخرى تطل على فن الآثار القديمة ، ولذلك فهم ينظرون إلى «واقعية» مازوني نظرة ملؤها الحيرة .

والذي لاسبيل إلى إنكاره أن «مازوني» نسيج وحده ، وهو لاشك أعظم شاعر إيطالي ظهر في عصره ، إذا استثنينا «ليوباردي» (شاعر إيطالي كان مشوه الخلقة وكان حليف العلل والأسقام منذ طفولته) .

وقصته المخطوبة تمثل في الأدب الإيطالي وفي حياة الأمة الإيطالية دوراً يشبه الدور الذي مثلته قصة «دون كيشوت» في إسبانيا .

وقد أتبع «كوهون» ترجمته لهذه القصة ببيان موجز عن حياة «مازوني» وأدبه فقال : إن «مازوني» ولد عام ١٧٨٥ بمدينة «ميلان» وأبوه ، أو الأب المفروض أنه والده (ذلك أن أبوة «مازوني» تحيط بها علامات الاستفهام) كان اسمه «پترو مازوني» وهو من طبقة الأشراف التي لا تعلو في مراقي النبل درجاتها ، وأمه امرأة جميلة كانت من الحاطبين اسمها «جوليا بكاريا» وهي ابنة رجل من علماء القانون الجنائي المشهورين .

ويوم كان الشاعر طفلاً انسلت هي هاربة إلى باريس في صحبة رجل من خلانها اسمه «كارلو امبوناتي» وهو مصرفي من أثرياء «لومبارديا» .

ويبدو أن «مازوني» قد قضى طفولة معرضة لمهاب الريح ، فنشأت في نفسه خصائص من الهوس الديني ومن الوساوس والمخاوف . غير أنه كان في مختلف المراحل الدراسية طالباً بارعاً في أدبيات اللغة اللاتينية ، فلما درس «فرجيل» كان لهذه الدراسة أثر أي أثر في عقله وأدبه .

وقد ظل «مازوني» حياته كلها من الأحرار الثابتين على المبدأ ، ومدافعاً من أقوى المدافعين عن وحدة إيطاليا .

وفي عام ١٨١٠ أي بعد زواجه بالفتاة «هنرييت بلونديل» التي كانت من أسرة سويسرية تدين بالمذهب البروتستانتي ألفى نفسه مقوداً هو وزوجته وأمه إلى اعتناق المذهب الكاثوليكي . وهذا التحول المذهبي كان المعين الحقيقي الذي شرب منه «مازوني» شرباً روياً في حياته الأدبية ، ولو أنه قد التزم الصمت فلم يبح بسر الظروف والملابسات التي أدت إلى هذا التحول .

ومالبث « مانزوني » أن بدأ ينظم القصائد في الموضوعات الدينية . وكانت الآراء التي تضمنتها قصائده آراء عادية معروفة ليس لها صفة العمق .

وكان « مانزوني » يعتقد اعتقاداً جازماً أن تفضيله الموضوعات المسيحية والموضوعات الحياة اليومية العادية ، وأن انصرافه عن نظم القصائد في الآلهات ، وعذارى البحر والرعاة ، كان لوناً من ألوان الأدب الرومانتيكي ، وإن يكن الحق الذي لا مرية فيه أن الرومانتيكية كما يفهمها أقوام ممالك الشمال لم تثبت جذورها يوما في الأرض الإيطالية وإن يكن من الحق أيضاً أن بساطة قصائده الدينية تذكر القارئ بالكتّاب اللاتينيين الذين كانوا يتخذون من اللاتينية الفصحى أداة للتعبير عن أفكارهم وآرائهم .

وإذا ألقينا نظرة إلى الوراء ألفينا أعمال « مانزوني » الأدبية الأولى، إنما كانت تمهيداً لإعداد نفسه لكتابة القصة .

فقد نظم قصيدتين من قصائد المآسي التاريخية ، وجعل عنوان القصيدة الأولى « الكونت دي كارمانيولا » ، وقد اقتبس حوادثها من قصة رئيس عصابة مشهور عاش في القرن السادس عشر ، كان مخدوموه من أهل البندقية قد شنقوه . وجعل عنوان القصيدة الثانية « أدلتشي » ، وقد أدار أبياتها على هزيمة « شارلمان » للأقوام اللومبارديين .

وعيب هاتين القصيدتين من قصائد المآسي تعتبران قصيدتين غنائيتين تسمع فيهما مرير الأعواد التي صنعتا منها .

وإذا نظر العارفون إليهما اليوم فإنما ينظرون إلى ما فيهما من وصف رحلة « القس مارتينو » في جبال الألب التي لم تكن قد وطأتها قدم إنسان من قبل .

وكذلك نشر « مانزوني » غير واحدة من المقالات رد في إحداها على نقد لأخلاق الطليان ، جرى به قلم المؤرخ السويسري سيسموندي (١٧٧٣ — ١٨٤٢) وهذا الرد كتبه « مانزوني » بوحي من رجال آخرين .

وعالج في مقالة أخرى مشكلة اللغة الإيطالية وهي المشكلة القائمة التي لقي منها الأمرين .

وفي مقالة ثالثة قص تاريخ مدينة « ميلانو » ، ويقول العارفون إن هذه المقالات كانت كالهيكل العظمي لا لحم فيه ولا دم ، بل كانت تنقصها حتى أصناف الحقائق التي تجعل قراءتها مستساغة إلى حد ما .

كذلك يقول العارفون إن « مانزوني » كانت تملك عليه لبه فكرة « الصدق » ، وهي الفكرة التي جعلته يثني على القصة التاريخية أنها تجمع بين الحقيقة والتلفيق .

وكانت حياة « مانزوني » الشخصية كحياته الأدبية حياة عادية غير ملهمة ، وقد قضى أخريات أعوامه متنقلاً بين « ميلانو » وبين بيته الريفي في مدينة « بروسوليو » حيث يعنى بالشئون الزراعية .

وعلى الرغم من ولائه لقضية الأحرار في إيطاليا فقد منعه كرهه للانغماس في الحياة العامة ، وللاختلاط بالجماهير ، من أن يلعب أي دور هام في سياسة زمانه .

وقد تزوج مرتين وأنجب أولاداً كثيرين . وقد عمر فبلغ الخامسة والثمانين . ولما مات حزن الناس لموته كرجل من الرجال البارزين قد أصبح في ذمة التاريخ . وألف « فردي » لحناً جنازياً باسم « مانزوني » واحتفلت الأمة بدفنه احتفالاً شعبياً رائعاً .

ولنعد إلى قصته « المخطوبة » فنقول : إن الحبكة في تلك القصة قد اكتملت لها صفة الرواية الرومانتيكية .

وقد اختار « مانزوني » زماناً لقصته أوائل القرن السابع عشر ، يوم كان الإيطاليون يحيون حياة تخالف المألوف ، وجعل إقليمه « لومبارديا » مسرحاً لقصة . يوم كان ذلك الإقليم يسيطر عليه الأسبانيون ويشنون عليه حرباً إن كانت قد تميزت بأعمال البطولة فإنها كانت حرباً لاهدف لها ، وقد جلبت على البلاد القحط والطاعون .

وتتلخص حوادث القصة في أن شاباً من نساجي الحرير رزق الفقر كما رزق الفضيلة اسمه « رنزو ترامالينو » كان يعيش في قرية بالقرب من مدينة « ليكو » الواقعة على بحيرة « كومو » ، وكان خاطباً لفتاة اسمها « لوسيا موندبللا » ، وكانت هي إحدى جاراته .

وأرسل « دون رودريجو » — وكان رجل سوء — جماعة من السفلة الذين يتناولون الناس لقاء أجر ، أرسلهم يتهددون قسيس القرية « دون أبونديو » إذا هو عقد العقد للخطيبين الشابين .

وأعد « الدون » من ناحية أخرى عدته ليخطف الفتاة المخطوبة ، ولكن الخطيبين كانا فى رعاية أخ من « الإخوة الكابوشيين » اسمه « كريستوفيرو » فهربت الخطيبة وأمها إلى الدير فى مدينة « مونزا » . كما هرب الخطيب « رنزو » إلى مدينة « ميلانو » .

ولسوء الطالع كان الدير الذى هربت إليه الفتاة وأمها ترأسه امرأة ذات نسب عريق ، ولكن أهلها أجبروها على الرهبنة . وكان لهذه الراهبة حبيب اشتركت معه فى اختطاف « لوسيا » ! وقد تم الاختطاف بمعاونة واحد من قطاع الطريق . كان أشد بأساً . وأكثر عتواً من « دون رودريجو » . وهو رجل كان الناس يخافون بطشه ، بل كانوا يخافون أن يذكروا اسمه ، فكانوا إذا أرادوا أن يذكروه أو يشيروا إليه قالوا : « الذى لا يسمى » .

ولكن هذا الرجل العاتى ذا البطش الشديد قد فتن برقة « لوسيا » وطيب حديثها . كما فتن بأخلاقها الرضية — أو هكذا شاء له المؤلف — فبدا له أن يغير مذهبه العتيق . وبدلاً من أن يختطف الفتاة راح يسعى ليظفر بالتحدث إلى رئيس أساقفة « ميلانو » ، كما راح يسعى لفك أسر الفتاة .

وإلى هنا يبدو أن الأمور تسير فى سهولة ويسر ، ولكن الزواج وقد بلغ هذه المرحلة قد أعاقته سلسلة من الحوادث التاريخية التى يقصها « مازونى » فى تفصيل دقيق . فقد خاض « رنزو » غمار ثورة قام بها الشعب مطالباً بالخبز . واضطر آخر الأمر أن يعبر النهر إلى العدوة الأخرى . ثم أعقب الجوع وباء الطاعون فأصيبت به « لوسيا » و « دون رودريجو » ثم أصيب به الأخ « كريستوفيرو » ثم لحقهما « رنزو » بالمعزل الصحى الذى أقيم بميلانو .

ومات « دون رودريجو » موتة شنيعة وشفيت « لوسيا » ثم تزوج الخطيبان وعقد زواجهما قسيس القرية « دون أبونديو » ، ثم استقر بهما المقام ليشقيا — كما شقى الناس من قبل — فى تشييد بيت وتدعيم أسرة .

هذه هى الخطوط الرئيسية للقصة ، وهى خطوط لا يجد القارئ فيها شيئاً يفسر شعور كثيرين من الإيطاليين بأن « مازونى » قد أوتى القدرة على التعبير عن خصائصهم وأحاسيسهم ، وأنه يمسك بيده مرآة تعكس ألف منظر ومنظر لحياة أمتهم .

وهناك رأى يقول إن « مازونى » قد أخذ إطار قصته من مادة القصة الرومانتيكية السائدة فى زمانه ، ثم ملأ الفراغ بمادة هى جد غريبة . وبذلك أصبح رائداً لمن جاء بعده من القصاص الواقعيين .

و « مازونى » فى سياقه القصصى يبدو واضحاً متأنقاً . كما يبدو أنه يحشو قصصه بموضوعات لها دلالتها ومغزاها . وهو بذلك يلتزم ما كان يلتزمه بوكاشيو (١٣١٣ — ١٣٧٥) .

مثال ذلك أن وصفه لرهبنة « السنيورة » التى أشار عليها أهلها بالرهبانية . هو فى ذاته قصة قصيرة من قصص الأدب الكلاسيكى . ولكن « مازونى » قد زاد فيها وألبسها ثوباً جديداً من التحليل السيكولوجى . وإن القارئ ليرى فيه مشابه من الروائى الفرنسى « بروست » .

وقد كتب الكتّاب وأطالوا فى تأثر مازونى فى ورعه وتقواه بورع أتباع « جانسن » وتقواهم . والأثر الدينى بادٍ فى كل ناحية من نواحى الكتاب . ولكنه الدين الذى يفيض إنسانية وتسامحاً ، وهو الدين الذى لا يزال قوة لها الأثر الفعال بين العامة من الإيطاليين اليوم .

وإذا كان « الأخ كريستوفيرو » . وإذا كان رئيس أساقفة ميلانو . هما من الشخصيات التى تحوطها القداسة فإن « دون أبونديو » قسيس القرية هو شخصية تمثل الجبن والأنانية . أو كما يصفه « مازونى » بقوله : « إن دون أبونديو لم يولد وله قلب أسد » . أو كما يصف هو نفسه وهو يخاطب ربة بيته يوم نصحت له بأن يشكو أمر مصيبته إلى رئيس الأساقفة : أتظنين يا غافلة أن نصيحتك هذه هى خير نصيحة تنصحين بها لرجل بائس مثلى فى الوقت الذى قد تنطلق فيه رصاصة تصيبنى فى الظهر ؟ وهل يستطيع رئيس الأساقفة أن يضع الأمر فى نصابه ؟

و « مازونى » يلبس شخصيتين من شخصيات قصته هما : « بريتوا » و « أبنز » ثوب الدين الذى يغلب على نفوس الفلاحين الإيطاليين الذين اشتهروا بمراعاة الحرص والحذر فى علاقاتهم بأرباب السلطان ، سواء أكان مظهر هذا السلطان فى الدنيا أو فى الآخرة .

وهو يُنطق «أيتيز» بقولها : إن من طبيعة الحياة أن يكون في العالم سادة وعبيد . وهي تنصح لابنتها فتقول : عندما تعرفين الدنيا كما عرفتها أنا سوف تستبينين أن ليس في الدنيا شيء عجيب . فكل الطبقة من القوم يطوف بهم أحياناً طائف من الجنون . فمن الخير كل الخير أن تدعهم يتحدثون كما شاء لهم الهوى ، وبخاصة إذا كان المرء في حاجة إليهم . وعليك أنت أن تتظاهري بالإصغاء إليهم في جد ووقار ، وكأنهم ينطقون صواباً .

والصور التي يرسمها «مازوني» للفقراء والمغلوبين على أمرهم ليست بأحسن تصويراً من تلك التي يرسمها للأغنياء وأصحاب السلطان . ولكن «مازوني» يعطف على الفقراء ويبدي عدم ثقته بالأغنياء ، وبخاصة أولئك الذين يمشون في الأرض مرحاً . وهو دائماً يشفق على البساطة التي تنطق بها ألسنة الفلاحين لوناً محبباً .

أما الوضوح والتأنق اللذان يكتب بهما «مازوني» فينطقان بأنهما من صنع إيطاليا لا من صنع بلد غريب . فوصفه مثلاً لمناظر الطاعون في «ميلانو» حيث يصور الكناسين وهم يحملون المصابين ، أو وهم يشعلون عربات الموتى كأنهم عفاريت من الجن . إن وصفه لهذه المناظر ليذكر المرء بوصف «دانتي» لمناظر الجحيم .

ولقد لقيت قصة «مازوني» هذه إقبالاً عظيماً في إيطاليا ولدى كل المعجبين بالأدب الإيطالي في الخارج . وأكثر المعجبين هو «جوته» الذي كان شبيهاً بمازوني في وقوفه على أرض البرزخ الفاصل بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وكما أن للقصة معجبين كما أسلفنا القول ، فإن لها عائبين وعلى رأسهم «ستندال» (١٧٨٣ — ١٨٤٢) وليس في هذا الشأن شيء غريب . فالقصة تصف أشتات الإيطاليين من الفقراء الشرفاء المجدين الذين كان «مازوني» يشيد بذكرهم والذين هم العمود الفقري في إيطاليا حتى في أيامنا هذه . وهم أولئك الناس الذين كان «ستندال» لا يقر لهم بحق البقاء ، كما قال في قصته التي سماها «دير بارما» .

وكان أول من عرف قدر «مازوني» وأشاد ببراعته في الأدب من الكتاب الناطقين بالإنجليزية ، الكاتب الأمريكي «إدجار آلان بو» . (١٨٠٩ — ١٨٤٩) .

ولما استحال «مازوني» شخصية القوم في تمثال ، حج الإنجليز لزيارة تمثاله ، وكان من بينهم «جلادستون» و«نيومان» .

وكان «مازوني» يتكلم اللغة الإيطالية في بيته وبين أفراد أسرته ، وكان يكتب الفرنسية الفصحى في سهولة وطلاقة . ولكنه لم يكن يعرف الإنجليزية . وإن كان من الثابت أنه كان من أكثر المتحمسين إعجاباً بشكسبير الذي عرفه عن طريق الترجمات الفرنسية . حتى ليبدو أنه مدين في تأليفه لرواية «المخطوبة» بالشيء الكثير لشيخ الروائيين الإنجليز وإمامهم .

٢ – سحر إرلنـــــدة

كتاب من تأليف «روبرت جيبنجز»

في هذا الكتاب ألوان من الإمتاع تجعله كتاباً محبباً إلى كل قلب . فهو يبدأ بوصفه للأنواع المختلفة من المعاول والفئوس التي كانت تستعمل في جنوب إرلندة .

وهو يقص أخبار القراصنة من البربر الذين أغاروا على مدينة بلتيمور عام ١٦٣١ فأسروا الأسرى ونهبوا ديارهم . وهم أولئك القراصنة الذين كانوا يستعينون بعلم الكف ليعرفوا نوع العمل الذي قد يصلح له كل واحد من أولئك الأسرى .

وهو يذكر الأساطير والفنون الشعبية عند سائر الشعوب ، ويذكر ألوان المشابهة وأوجه المماثلة بينها وبين الأساطير والفنون الشعبية في «إرلندة» .

وحب المؤلف لبلاده يبدو في كل سطر من سطور الكتاب . وهو يضمن كتابه كل المعارف التي اكتسبها من سياحاته العديدة . فأعواد القصب التي يتخذ منها سقفاً لقاربه الذي يقضي فيه ليلة من الليالي فوق بحيرة من البحيرات ، يذكره بالأعواد المنحوتة في الألواح الحجرية التي كانت تزين يوماً ما قصر الملك «سناكريب» في مدينة نينوى عاصمة «آشور» .

والنوافذ والرقائق المصنوعة من الحديد المخرم التي يراها في بعض بنايات بلده ، وهي النوافذ والرقائق التي اشتهرت بصنعها مدينة البندقية ، تخطر بباله فائدة التقليد وأهميته في الفنون .

(البقية على الصفحة التالية)

في موكب العلم

حــــــول التدخين

للأستاذ عبد الباري نعمت

نشأت عادة التدخين منذ القدم بين السكان الأصليين لجزر الهند الغربية — وورد ذكر التبغ في التاريخ القديم لأمريكا الجنوبية ، إذ كان الهنود الحمر يستعملونه ، وهم الذين علموا المستعمرين الأسبان منذ أكثر من أربعة قرون — كانوا يمضغون التبغ كما كانوا يدخنونه ، وطريقتهم في ذلك أنهم كانوا يعدون النار ويلقون بها أوراق الطباق الجافة ، ثم يستنشقون دخانه بواسطة قناة ذات طرفين يضعون أحد طرفيها فوق الأوراق المحترقة ويضعون الطرف الآخر قريباً من فتحتي الأنف — وكانت تلك الطريقة هي أفضل الطرق لديهم للحصول على النيكوتين الذي يحتويه التبغ . وقد وصف شاهد عيان تأثير استنشاق النيكوتين على شخص خامل كسول فقال : طالما لاحظت أثناء أسفاري أن الطريقة التدخين هذه آثاراً غير عادي على المدمنين عليها ، وقد أفزعتني النتائج إذ أن المدخن بعد أن يأخذ نفساً قوياً تصيبه رعدة كتلك التي تصيب الواقع في نوبة صرع أو شلل ، وما يلبث أن يسقط فوق الأرض فاقداً كل وعي ، بينما يعبر وجهه وعضلاته عن منتهى الألم . وقد ذكر البحارة الذين بعث بهم كولومبس لاكتشاف جزيرة كوبا وارتيادها في سنة ١٤٩٢ ، أن أهل هذه الجزيرة يحملون معهم آلات التدخين ويخرجون الدخان من أنوفهم وأفواههم ، كما

وهو إذا رأى سياجاً من النباتات الشوكية يحيط بسور حديقة من الحدائق طار به خياله إلى جمهورية « شيلي » في أمريكا الجنوبية ، فتذكر قصة ذلك الرجل الإرلندي الذي هاجر إلى تلك البلاد وأصبح فيما بعد أول رئيس لتلك الجمهورية .

وإذا سار على الشاطئ المواجه للمحيط الأطلسي سره منظر الطيور ومنها القبرة والكروان ومالك الحزين والبط البري .

وهو يقص قصة العراك الذي دار يوماً بين صقر من الصقور وبين الطائر المسمى « أبو قصادة » وكيف أن الطائر الصغير كان ينجو من عدوه القوي ، وذلك ببراعته في الحيل الحربية التي كان يستعين بها في طيرانه .

وهو إذا رأى رأس الطائر المسمى الأطبش في جزيرة من جزر إرلندة ، تذكر أشباه هذا الطائر ونظراءه فوق صخرة من صخور زيلندا الجديدة .

وهو يحدث القارئ عن مدينة « ويكلو » ومن ذهبها الذي أغرى الغزاة بغزوها ، كما يحدث القارئ عن الأساطير التي تتحدث عن الكنوز المخبوءة .

وفي أساطير القديسين الذين تفيض بهم أرجاء « إرلندة » يجد المؤلف وجهاً للمشابهة التامة بين أساطير هؤلاء القديسين وبين الأساطير عند الإغريق ، وهو يرى في دراسة هذين الصنفين من الأساطير فائدة جديدة يستمدها من الأمثال التي تُستقى من معين تلك الأساطير .

وهو يحدث القارئ كيف ظهرت بالوجود وكيف تقررت حقوق التأليف وحقوق إعادة الطبع ، وكيف أن المؤلفين جميعاً منذ العصور القديمة إلى يومنا هذا ، مدينون في كل بلد من بلاد العالم لإرلندة ! فهو يقول إن تقرير هذه الحقوق كان على أثر خلاف قام بين اثنين من رؤساء الأديار على نسخة من كتاب « المزامير » ، وإن ملك « طاهراء » الإرلندي هو الذي حسم هذا الخلاف ، وبذلك تقرر هذا الحق ، وأصبح واجب التنفيذ ...

مبارك ابراهيم

ذكروا أنهم رأوا هؤلاء العراة المتوحشين يلفون أوراقاً كثيرة بعضها فوق بعض ويدخنونها كما تفعل الشياطين — ويؤدى هذا الوصف المختصر إلى معرفة مصدر تلك العادة السيئة التى انتشرت فى جميع أنحاء العالم .

إدخال الطباق إلى البلاد المتمدينة :

عرف الطباق بانجلترا بعد اكتشاف أمريكا بوقت قصير ، وأول من أدخله إليها هو « السير جون هوكنز » فى سنة ١٥٦٥ وقد حض « السير والتر رالى » على استعماله كما حبذ استعماله كذلك « السير فرانسيس دريك » هو ورفاقه عقب عودتهم من فرجينيا إلى انجلترا فى سنة ١٥٨٥ ووصفوه علاجاً لعسر الهضم ، وازداد استعماله تدريجاً واتخذه البعض دواء واستعمله البعض الآخر فى التدخين اعتقاداً منهم بتأثيره المهدئ على الجهاز العصبى .

الجهود التى بذلت لمقاومة عادة التدخين والقضاء عليها :

ظهرت النتائج السيئة المترتبة على التدخين بمجرد زيادة انتشار هذه العادة وتهديدها حياة الشعوب ، وقد بذلت لمقاومتها جهود صادقة ، ففرض الحكام والولاة عقوبات صارمة على المدمنين عليها ، وكانت تعد فى بعض البلاد جريمة من الجرائم ونبذ المدمنون عليها من المجتمع — وقد حرم دوق موسكو استعمال الدخان فى دوقيته وفرض عليها عقوبات أشدها الإعدام . ووصف دخول هذه العادة بدوقيته فيقول : « إنها لم تدخل بواسطة ملك عادل أو فاتح قاهر أو طبيب ماهر ، إنما أدخلها المتوحشون ودخلوا معها وكان ضررها منصباً على الفقراء بوجه خاص ، وقد اندثر هؤلاء المتوحشون وقضى الموت عليهم ولكنها ما زالت قوية باقية » .

وقد حرم أحد سلاطين تركيا دخول الطباق إلى مملكته وكان يقضى بالإعدام على كل من يقبض عليه متلبساً بجريمة التدخين ، وناشد « جيمس الأول » ملك انجلترا وطنية شعبه لكى يهجروا عادة التدخين المرذولة فقال : « مواطنى الأعزاء — أناشدكم أن تستجيبوا لرجائى — دعونا نبحث عما يدفعنا إلى الاقتداء بهؤلاء الهنود الوثنيين سيئى الخصال فيما يذهبون إليه وأخذهم لهذه العادة الوحشية القذرة ، وهل نكون مثلهم ونحن الأعزاء المسالمون وقت السلم النابهو الذكر المكللون بالنصر وقت الحرب السعيدو الحظ فى كلا الحالتين ، نحن القادرون دائماً على مد يد المساعدة إلى جيراننا ، هل نسير نحن وهذه حالنا من القوة والثراء ونباهة الذكر وراء هؤلاء البرابرة الذين هم كالأنعام أو أضل سبيلا ، إنهم عبيد الأسبان حثالة العالم . أتسيرون وراءهم وتتخذون عاداتهم المرذولة عادات لكم ، وبذلكم تصيرون موضع احتقار جميع الشعوب وموضع ازدراء الأجانب الذين يجاورنكم وينزلون ضيوفاً بينكم — إنها عادة تجلب المقت والاحتقار ، وهى جد مؤذية للعين كريهة إلى الأنف ضارة بالمخ خطيرة على الرئتين . إلهى ! ما أقبح هذا الدخان الأسود المتصاعد من المدمن عليها كأنه دخان الجحيم ! » .

والحكم الآتى نصه « أى شخص يضبط فى الطريق العام متلبساً بتدخين التبغ يغرم أربعة شلنات فى كل مرة » .

قد أصدرته محكمة متوولد بانجلترا فى سنة ١٦٩٥ .

ورغم هذه الجهود الأولى التى كانت تبذل للحد من عادة التدخين والقضاء عليها ومنع انتشارها ، كان شأن هذه العادة — أى مصيرها — شأن كل رذيلة تنتشر ويزداد انتشارها يوماً بعد يوم ولا يقتصر شرها اليوم على الرجال فقط ، بل يمتد إلى الشبان والفتيان والنساء أيضاً .

انتشار عادة التدخين :

قد أتى على الناس وقت كفوا فيه عن محاربة التدخين وعن إذاعة ما يسببه استعمال التبغ من عواقب وخيمة ، فكثر المدمنون عليه ، وهم يجهلون تلك النتائج ويجهلون طبيعته الخطيرة الضارة — وما انتشر الإجرام فى العالم وعمت الأمراض وانتاب الناس كثير من الأدواء حتى هب الأطباء والعلماء ورجال الدين يحثون الناس على بحث أسباب هذا الفساد العالمى ، فوفق الناس إلى العلم بأن للتبغ أثراً كبيراً فيما ينتاب الناس من البلاء ، وتيقنوا أن ما كان ينسب من قبل إلى أشياء خلاف التبغ مرده فى الحقيقة إلى التبغ نفسه ، وظهر أن أثر التبغ يشتد وتظهر نتيجته على الجيل الثالث أو الرابع من نسل المدمن عليه .

ويعد التدخين في الوقت الحاضر عادة عالمية ؛ فهو ذائع في جميع أنحاء العالم ، وهو أشيع ما يكون في الصين واليابان وسيام . وفي بورما تخرج الأم مضغة التبغ من فمها لتضعها بين شفتي ابنها الرضيع ، وفي نيوزيلندا يدخن جميع سكانها الطباق ، لا يستثنى منهم في ذلك صغير أو كبير ، وطني أو دخيل ، وحتى أقزام أواسط أفريقيا يداومون التدخين .

وتبلغ كمية التبغ المستهلكة سنوياً في الوقت الحاضر مبلغاً عظيماً يسترعي الانتباه ، وقد زادت هذه الكمية بعد الحرب الأخيرة ، كما حدث عقب حرب سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ . ورغم انتشار البؤس والفاقة ونقص كثير من ضروريات الحياة ، فإن كثيراً من الأمم قد بذلت جهوداً طائلة لسد حاجة مدخني التبغ فيها ، وقد زاد عدد السيدات المدخنات زيادة ملحوظة ، كما زاد عدد المدخنين من الفتيان والمراهقين ، كما أن الحرب قد غيرت العادات الخاصة بالتدخين ، وترى اليوم أقلية من الناس تدخن السيجار والغليون ، والغالبية تدخن السجاير (انظر مقالنا عن محصول التبغ في بلاد اليونان في العدد رقم ٥٩٦ من هذه المجلة) .

ولقد قاومت انجلترا انتشار عادة التدخين في بلادها في بادئ الأمر ، ويدل القسم التالي على مبلغ انتشار هذه العادة بين النساء ، ومدى مقاومة الحكومة والجمعيات لها ، وقد وضعت هذا القسم إحدى الجمعيات بمدينة ليدز ، وحملت أعضاءها من الرجال والنساء على تلاوته والتعهد بالعمل بما جاء به :

« أتعهد بعون الله تعالى ومشيئته أن أمتنع عن شراء التبغ أو استعماله بأية صورة كانت حتى أبلغ الحادية والعشرين من عمري على الأقل ، وليس هذا مراعاة مني لمصلحتي الخاصة فحسب ، بل مراعاة لمصلحة وطننا العزيز أيضاً » .

وكانت السيدات في بادئ الأمر يدخن التبغ خفية ، وما لبثن طويلاً حتى صرن يدخنه جهاراً ، وكن من قبل هن العنصر المصلح للنسل دون الرجال الذين أفسد التبغ حالهم ، وما انغمس النساء في التدخين وأفرطن في تناول المسكرات ، سالكين في ذلك مسلك الرجال ، حتى عم النسل الفساد وانحط مستوى الذكاء ، واعتلت الصحة وقوة البنية .

وفي مصانع الدخان بمدينة فينا ، حيث تعمل غالبية من النساء ، كان للتبغ أثر كبير فيها انتاب كثيرات منهن من العقم — وقد ذكر الدكتور « مورل » عن حالة النسوة اللائي يعملن بمصانع الدخان بمدينة نانسي أن نسبة الوفيات بين أطفالهن الرضع بلغت ٩٩ ٪ عندما كن يعدن إلى العمل بعد الوضع مباشرة ، في حين أن نسبة وفيات الأطفال الذين ترضعهم أمهاتهم غير العاملات بمصانع الدخان لا تتجاوز ٣٩ ٪ .

الأحكام التي سنت لمنع التدخين :

سنت انجلترا الأحكام التي تمنع من بيع التبغ للشبان وقضت باعتبار قيامهم بالتدخين جريمة يعاقب عليها أشد عقاب . وكذلك سنت كندا مثل هذه الأحكام ؛ فحظرت بيع الدخان وصنع السجاير وبيعها ، كما حرمت استيراد الدخان خاماً وتصديره مصنوعاً . وفي بعض الولايات الأمريكية كانت الأحكام تقضي بفرض غرامة تتراوح قيمتها بين خمسة دولارات وخمسين دولاراً على كل مدخن للسجاير والحبس مدة لا تزيد على ستة أشهر ، وكان المبلغ عن كل مدخن يعطى نصف الغرامة المحصلة تشجيعاً للتبليغ عن المجرمين . وفي ولاية أخرى من ولايات أمريكا كان العقاب يوقع على كل من يعطي أو تكون في حوزته سجاير أو أوراقها .

وسن في اليابان تشريع بحرم التدخين على من هم دون العشرين ، ويقضي بتوقيع غرامة على الآباء أو الأوصياء الذين يسمحون لمن تحت ولايتهم بمخالفة هذا القانون ، كما كان يعاقب بائعو الطباق الذين كانوا يبيعونه إلى من هم دون العشرين من الشبان مع علمهم بذلك .

وفي بعض الممتلكات البريطانية كانت سن التحريم تتقدم إلى أقل من العشرين ؛ ففي كندا كانت الثامنة عشرة هي سن التحريم . وفي أونتاريو كانت السادسة عشرة هي هذه السن ، وكذلك كانت في نيوبرونسويك وكويبك ونوفاسكوشيا وفي جزيرة البرنس إدوارد وفي كولومبيا البريطانية .

وفي مستعمرة الكاب سن قانون نصه ما يلي :

« يحرم قانوناً على أي تاجر أو بائع أن يبيع أو يورّد أي نوع من أنواع التبغ أو السيجار أو السجاير لأي شخص لم يبلغ السابعة عشرة من عمره دون أن يقدم إليه طلب موقع عليه من والد هذا الشخص أو الوصي عليه أو مخدمه ويكون معروفاً لديه ، وكل من يخالف أحكام هذا القانون يكون عرضة لغرامة لا تتجاوز ٢٥ دولاراً لكل مخالفة ، وعند عدم الدفع يحبس مدة لا تزيد على شهر » .

وصدر قانون بمقاطعة نيو سوث ويلز بأستراليا ينص على ما يلي : — أي متعامل بالتبغ أو السيجار أو السجاير ، وأي بائع للطباق مرخص أو غير مرخص ، يكون عرضة لدفع غرامة لا تتجاوز ٢٥ دولاراً إذا ثبت أنه أعطى شخصاً يبلغ حقيقة السادسة عشرة من عمره أو يبدو أنه قريب منها تبغاً بأية هيئة أو سجاير أو سيجار » .

وقد لجأت سويسرا إلى سن أحكام أشد صرامة مما سنته غيرها من الأمم ، فقد حرمت التدخين على الغلمان إطلاقاً ، وقضت بأن الغلام الذي يرى مدخناً بالطريق يقبض عليه حالاً ويغرّم أو يحبس .

الأثر السيء للدخان على الصحة والأخلاق بشهادة الأطباء :

مهما قيل عن الآثار الضارة المترتبة على استعمال الطباق فعندي أن ما يقال في هذا السبيل لا يعدو وصف الحقيقة بحال ، فإن التبغ أشد ضرراً بالصغار ، ومبلغ ضرره ووخيم عاقبته لا يستطاع تقديرها بالتحديد ، وقد لوحظ أن المدمنين على التدخين لا يمكن أن يعتمد عليهم ، وهم لا يتورعون عن فعل المنكر ، والخداع والكذب والسرقة من أخص صفاتهم شأنهم في ذلك شأن صرعى المورفين والأفيون ، وما مثل التبغ إلا كمثل الكوكايين والمورفين ، يبلد الشعور الأدبي ويخدر المخ والأعصاب ويخل الجسد كله ، وهكذا يصيب ضرره الإنسان عقلياً وأدبياً . وقد أجرى الدكتور « كلستون » عضو مجلس التعليم بمدينة سان فرانسسكو دراسة خاصة على تأثير السجاير على المراهقين ، وانتهى إلى النتيجة الآتية التي ضمنها تقريره الآتي : —

« لقد رأيت غلماناً نابهي الذكر أصحاء قد تحولوا إلى بلهاء أغبياء وإلى جبناء خائري العزيمة ، وذلك نتيجة إدمانهم على التدخين . واستطرد يقول : إنه لا يبالغ فيما يقول ، بل هو يتحرى الحقيقة ولا ينطق عن الهوى ولا يذكر إلا الصدق الذي يعلمه كل معلم وطبيب » .

ويذكر الدكتور « بريمر » طبيب مستشفى الأمراض العقلية ما يلي : « إن استعمال التبغ بين الصغار يؤدي إلى اختلال الأخلاق ، ويؤدي انتشاره بين الكبار إلى أمراض العقل واختلال الصحة » . ويذكر الدكتور « سوالى » الطبيب بمستشفى سان توماس بانجلترا ما يلي : —

« إن لي دراسة طويلة وخبرة كبيرة بالأمراض العقلية ، وأنا جد مقتنع بأن التدخين هو أرذل عادة في الوجود ، ولا أعرف شيئاً آخر أو عملاً سواه يسبب الأمراض العقلية » . وورد في التقرير الذي صدر بإرلندا عن مصحات الأمراض العقلية أن نسبة عدد المصابين بهذه الأمراض إلى عدد السكان بلغت ١٥ في كل عشرة آلاف في سنة ١٨٥١ ، في حين أنها بلغت ٥٦ في كل عشرة آلاف في سنة ١٩٠١ . ولا ريب أن سرعة انتشار الأمراض العقلية ليست مقصورة على إرلندا فحسب بل هي عامة بالعالم أجمع . ويذكر الدكتور « فوربس ونسلو » الطبيب الإنجليزي الثقة في الأمراض العقلية العبارة التالية : —

« إذا قدر للأمراض العقلية أن تستمر في الزيادة كما هو شأنها الآن ، فإنما هي مسألة وقت لكي يصبح عدد المرضى أكثر من عدد الأصحاء ، ولا شك أن التبغ يلعب دوراً هاماً في هذه الزيادة تبعاً لتأثيره الضار على المخ » .

وتأثير التبغ على المواهب العقلية أمر مفروغ منه ، شهد به الأطباء والمعلمون ورؤساء العمل بالمصانع ، فقد تيقنوا أن الشبان الذين يدمنون على التدخين لم يظهروا أي تفوق في دراساتهم ، ولم يمكن الاعتماد عليهم في أي عمل يوكل إليهم ، مما دعا كثيراً من الجامعات والمعاهد إلى تحريم التدخين على طلابها .

عبد البارى نعمت

المهدي والمهدوية

تأليف الدكتور أحمد أمين بك

للأستاذ سعد محمد حسن

أكبر الظن أني لست في حاجة إلى أن أقدم للقراء أستاذنا الكبير ، الدكتور أحمد أمين بك ، فقد عرفوه دون ريب ، قائداً من قادة الفكر ، وعلماً من أعلام الثقافة الإسلامية الأصيلة ، ذات الينابيع الثرة الفياضة ، كما عرفوه أحد أساطين الأدب العربي في العصر الحديث ، وإن تراثه الفكري — لا سيما ذلك الذي يتسم بطابع الدراسات الإسلامية كفجر الإسلام وضحاه — ليعد بحق من خير وأمتع ما أنتجه الباحثون .

وقد أخرج أستاذنا الكبير هذه الأيام لجمهور الأدباء ، كتيباً صغيراً في سلسلة « اقرأ » بعنوان « المهدي والمهدوية » ، تناول فيه بالدراسة والبحث فكرة « المهدية » من بدء ظهورها حتى اليوم ، وإنه ليقول (ص ٧ مقدمة) :

« أردت أن أشرح هذه الفكرة وأتتبع تاريخها من أول عهدنا بها فكان هذا الكتيب » .

وقد تلقفت هذا البحث حين صدوره ، وصحبته إلى مكتبي ساعة أو تزيد ، فرغت منه بعدها وأنا أحمد لأستاذنا الكبير هذا الجهد المشكور ، فقد أرخ لهذه الأسطورة منذ أقدم العصور الإسلامية حتى اليوم ، وأوضح لنا عواملها ، وحدثنا عن الدول التي أقامتها كدولة بني عبيد ، والموحدين ، ومهدي السودان ، كما حدثنا عن الفرق والطوائف الدينية التي كانت تدين بها كالقرامطة ، والحشاشين (الإسماعيلية) ، والبابيين والبهائيين والقاديانيين . بيد أني رأيت في البحث أشياء ، في النفس منها أشياء ، فأحببت أن أناقش فيها أستاذنا الكبير ، وأن أشرك معي قراء الثقافة ، فأضعها أو بعضها في الميزان ، بحثاً وراء الحق ونشداناً له ، والحقيقة — كما قيل — بنت البحث .

(١) يقول المؤلف (ص ١٠) .

« ونشأت فرقة تسمى الكيسانية نسبة إلى كيسان ، يتزعمها المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وزعم هو وفرقته أن محمد بن الحنفية هو الإمام وهو المهدي ، ولكنه نقل كلمة المهدي إلى معنى آخر لزمها إلى اليوم وهو أن هذا المهدي لم يمت ... » الخ .

ونحن نناقش هذه العبارة من أوجه ثلاثة :

أولاً : ينسب المؤلف « الكيسانية » إلى « كيسان » ، ثم لا يعرف القارئ بكيسان هذا ، حتى يستطيع أن يربط بينه وبين زعيم الطائفة « المختار » ويتفهم مدى العلاقة بينهما ، تلك العلاقة التي تفرض على الزعيم أن يسمي الطائفة « الكيسانية » باسمه .

فهل كان « كيسان » مولى لعلي بن أبي طالب ، وعلى يديه تلقى المختار العلم ، وعرف منه قتلة الحسين ، فلقب بلقبه ؟ أو أن « كيسان » هذا كان صاحب شرطة المختار المكنى أبا عمرة ، وكان فتاكا سفاكا للدماء ، يفوق في ذلك زعيمه ابن أبي عبيد ، فنسبت الطائفة إليه ؟ أو أن المختار نفسه — كما يقول البغدادي — كان يلقب أصالة بكيسان ؟

ثانياً : يذكر المؤلف أن المختار هو أول من نقل كلمة « المهدي » من معناها اللغوي إلى معناها الحالي ، وقد أكد لنا هذا المعنى مرة ثانية في قوله (ص١١) : « ومن هنا لبست الكلمة معاني أخر ... » الخ ، ومرة ثالثة في قوله (ص ٤٢) متحدثاً عن المختار أنه « اخترع فكرة المهدي الجديدة » .

والحق أن شيئاً من ذلك لم يكن ، فابن أبي عبيد لم يخترع ولم يبتدع ، ولم يكن هو أيضاً أول من نقل كلمة المهدي من معناها اللغوي البسيط إلى معناها الحالي المعقد . أما صاحب الابتداع والاختراع فهو — بحق — ابن السوداء عبد الله ابن سبأ اليهودي اليمني المتسلم ، الذي يعتبر — دون شك — رأس كل الفتن والاضطرابات التي حاقت بالمجتمع الإسلامي الأول ، وهو صاحب فرقة « السبأية » التي تحمل اسمه ، والتي تعتبر أسبق فرق الشيعة وجوداً في التاريخ .

ولقد كان ابن السوداء أول من أدخل هذه العقيدة « عقيدة المهدية » البيئة الإسلامية ، وقد زعمها في علي بن

أبي طالب ، الذي ضاق بمزاعمه — من مهدية حيناً وجزء إلهي حيناً آخر — فزعماً فهمّ بقتله ، بعد أن أحرق بالنار كثيراً من أتباعه ، فصاح الناس : « يا أمير المؤمنين أتقتل رجلاً يدعو إلى حكم أهل البيت والبراءة من أعدائك ؟ » فاستجاب عليّ لنداء القوم ، ونفى ابن السوداء إلى ساباط المدائن ، خوفاً من شماتة أهل الشام واختلاف أصحابه عليه كما يقول البغدادي . ولما بلغ ابن سبأ نعي علي ، قال للذي نعاه : « كذبت لو جئتنا بدماغه في سبعين صرة وأقمت على قتله سبعين عدلاً ، لعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل ، ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه ، ويملك الأرض فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً » .

وهكذا كان عليّ أول « مهدي » — بالمعنى الجديد — في تاريخ الإسلام ، وكان ابن السوداء أول من صنع هذه الصناعة وأدخل هذه البضاعة ، أدخلها من المعتقدات اليهودية ؛ فالنبي « إيليا » أو « إلياس » الذي رفع عندهم إلى السماء ، والذي لا بد أن يعود يوما إلى الأرض في آخر الزمان لإقامة دعائم الحق ، هو تماما الأنموذج الأول لأسطورة المسيح والأئمة المختفين

والعلامة « النوبختي » يحدثنا في كتابه « فرق الشيعة » أن ابن السوداء كان يقول بمهدية « يوشع بن نون » أيام تهوده ، ومن الظريف هنا أن صاحبنا هذا كان يستدل على مهدية عليّ ورجعته بقوله تعالى « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » مدعياً أن الآية تشير إلى رجعة عليّ كمهدي ، زاعماً أنه هنا هو الدابة .!

ثالثاً : تدل عبارة المؤلف السابقة على أن المختار وفرقته الكيسانية ، كانوا جميعاً يدينون بمهدية ابن الحنفية بعد وفاته ، وإن كانوا هم طبعاً لا يعترفون بموته .

والحق أن المختار لم يكن جاداً في دعواه مهدية ابن الحنفية ، فكان يقول بها سياسة لا تديناً ، قال بها حال حياة ابن الحنفية فحسب ، بل شطراً من حياته ، ليتاجر بنفوذه الروحي ، توصلا للحكم وانتقاما من ابن الزبير وبني أمية جميعاً ، ولما تم له الأمر ، توجه إلى ابن الحنفية ليقاسمه الظفر بعد أن حارب ابن أبي عبيد باسمه ونفوذه ، وأكبر الظن أن ابن الحنفية كان راغباً كل الرغبة عن تلقيبه بالمهدي ، وإن شك في ذلك « مرجليوث » Margoliouth ، وأكبر الظن أيضاً أنه كان كأبيه عليّ ، لا يعرف أساليب السياسة الماكرة ، فوثق من المختار وأخذ طريقه إليه ، وحينما علم المختار بقدومه إليه بالكوفة قال لجنده :

« إن للمهدي علامة وهي أن يضرب بالسيف ضربة ، فإن لم يقطع جلده فهو المهدي ... » ! وما كاد صاحبنا ابن الحنفية يعلم في طريقه بهذا النبأ حتى قفل راجعاً فراراً بجلده وخوفاً على حياته ، وبذلك تخلص منه المختار وصفا له الجو .

وبعد وفاة ابن الحنفية ، انقسمت الكيسانية ؛ فمنهم من اعترف بموته ، وهم بذلك لا يدينون بمهديته ، ومنهم « الكربية » أتباع « أبي كرب الضرير » ، وهؤلاء وحدهم هم الذين لم يؤمنوا بموت ابن الحنفية ، وقالوا بمهديته ، وأنه حي يرزق بجبال رضوى ، عنده عسل وماء .

(٢) وفي صفحة (١١) أورد المؤلف لكثير عزة — وكان كريباً كيسانياً — قوله :

وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء

تغيب لا يرى فيهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء

وأكبر الظن أن هذين البيتين وأخواتهما ، ليست جميعاً من شعر كثير ، وإنما هي من شعر السيد الحميري ، وكان — كصاحبه — كريباً كيسانياً ، وهي تسند خطأ إلى كثير لتشابه الشاعرين في المشرب والنزع ، ولذلك جعلها شارح ديوانه المطبوع بالجزائر من الشعر المنحول إليه .

(٣) وفي صفحة (١٢) يقول المؤلف إن المنصور سمى بغداد « دار السلام تشبهاً بالجنة » .

والحق أن ذلك لم يكن ، فالخليفة أبو جعفر لم يسم بغداد أبداً بدار السلام ، وإنما سماها — كما يقول البغدادي — « مدينة السلام » . أما تشبيهها بالجنة وتلقيبها بدار السلام فكان في العصور المتأخرة .

(٤) وفي صفحة (١٦) أورد المؤلف لابن هانئ الأندلسي قوله :

إذا كان أمن يشمل الأرض كلها

فلا بد فيها من دليل مقدم

ونحن لا نعرف حكمة لوجود هذا الدليل المقدم إذا شمل الأمن الأرض كلها ؟ :

وصواب البيت ، كما في الديوان (طبع بولاق عام ١٢٧٤ هـ) :

إذا كان أمر يشمل الأرض كلها

فلا بد فيه من دليل مقدم

(٥) وفي صفحة (١٧) أورد لابن هانئ أيضاً :

وروح هدى في نور جسم بعده
شعاع من الأعلى الذي لم يجسم

ولا ندري كيف تحل الروح في نور بعده شعاع !!

وصواب البيت « وروح هدى في جسم نور بعده » الخ .

(٦) وفي صفحة (١٩) أورد المؤلف لابن هانئ كذلك

لو كان علمك بالإله مقسما
في الناس ما بعث الإله رسولا

لو كان لفظك فيهما أنزل الـ
ـقرآن والتوراة والإنجيلا

ولا ندري من أين جاء أستاذنا بهذين البيتين ، اللذين لا وجود لهما في ديوان ابن هانئ ؟ وقد بحثت عنهما فيه طويلا دون جدوى ، وما أشك أبداً في أنهما محرفان .

(٧) وفي صفحة (٢٤) ذكر المؤلف أن عدد رسائل إخوان الصفا اثنتان وخمسون .

وأكبر الظن أن الرسائل إحدى وخمسون فقط ؛ فالتوحيدي وهو ذلك المصدر الهام الذي حدثنا عن هذه الرسائل وأماط عن مؤلفيها اللثام ، يقول في « الإمتاع والمؤانسة » :

« وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة ، علميا وعمليا ، وأفردوا لها فهرستاً وسموها رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ... » الخ .

والعلامة « دي بور » De Boer يقول في كتابه « تاريخ الفلسفة في الإسلام » :

« وتتألف هذه الدائرة من إحدى وخمسين رسالة » .

و « حاجي خليفة » صاحب « كشف الظنون » يعدها أيضاً إحدى وخمسين .

(٨) وفي صفحة (٣١) يقول المؤلف ، بعد التحدث عن الحضارة الفاطمية كأثر لعقيدة المهدي :

« وقد أنشأ الشيعيون القصائد في مدح هذا المهدي وسموه صاحب الزمان ، وكان ممن مدحه بهاء الدين العاملي » .

وفي هذه العبارة شيء من اللبس ، إذ لم يكن للشيعيين مهدي واحد ، بل تعدد مهديوهم بتعدد فرقهم ، والمهدي الذي لقب بصاحب الزمان ومدحه العاملي ، ليس مهدي الشيعة على الإطلاق ، وإنما هو مهدي الإمامية الاثني عشرية فحسب ، هو محمد بن الحسن العسكري ، الذي اختفى — بزعمهم — في سرداب بمدينة « الحلة » قرب بغداد ، منذ ألف عام ونيف ... !

وقد يكون أقرب إلى غرض المؤلف أن يقول :

« وقد أنشأ الشيعيون القصائد في مدح مهديهم ، وكان ممن فعل ذلك ، بهاء الدين العاملي ، الذي امتدح محمد بن الحسن العسكري ، مهدي الاثني عشرية ، والملقب بصاحب الزمان » .

(٩) وفي صفحة (٣١) أيضاً ، أورد المؤلف للعاملي قوله :

علوم الورى في جنب أبحر علمه
كغرفة كف أو كغمسة منقار

والصواب « كغرفة كف » .

(١٠) وفي نهاية الشعر الذي أورده المؤلف لبهاء الدين العاملي يقول :

« وقد شرح القصيدة في آخر كتابه الكشكول » .

ويفهم القارئ من هذه العبارة أن العاملي هو الذي شرح قصيدته بنهاية كتابه الكشكول ، والحق أن الذي قام بشرحها هو « النبيلي » أحمد بن علي .

(١١) وفي صفحة (٣٣) يقول المؤلف : « وكان انتشار المهدية في بلاد المغرب أكثر منها في بلاد المشرق » .

ثم يعود بعد ذلك فيقول صفحة (٤١) :

« وكما لعبت فكرة المهدي والتشيع في المغرب لعبت كذلك مثلها أو أكثر منها في المشرق » وبين العبارتين تضارب واضح .

(١٢) وفي صفحة (٣٥) يقول المؤلف ، بصدد التحدث عن ابن تومرت إنه « شيعي من نسل علي بن أبي طالب » .

والحق أن ابن تومرت لم يكن من أرومة عربية ، وإنما كان بربرياً لحماً ودماً ، وذا نسب في البربرية عريق ، فهو هرغي من « هرغة » أحد بطون « مصمودة » ، وهي بربرية بشهادة ابن حزم الناطقة في « جمهرة أنساب العرب » ؛ وقد أدرجها أيضاً ضمن قبائل البربر ، صاحب كتاب (مفاخر البربر) الذي نشره العلامة « بروفنسال » Provençal ، كما حدثنا عنها أيضاً كقبيلة بربرية العلامة « يفر » Yver في « دائرة المعارف الإسلامية » .

وابن خلدون ، الذي انتفع بأبحاث ابن حزم ، يحدثنا أن هذا الداعية ، اسمه « أمغار » وهي كلمة بربرية معناها « رئيس » ، كما أن كنيته « ابن تومرت » بربرية كذلك ، وإذا استثنينا أباه فإنا نجد أسماء أجداده بربرية أيضاً .

أما ذلك النسب المصطنع الذي يرتفع به إلى علي بن أبي طالب ، فكان أمراً لابد منه لتأييد دعوى المهدية ، ليس عند صاحبنا هذا — ابن تومرت — فحسب ، بل عند كل ثائر يدعي هذه الدعوى ، حتى تؤيده « مجموعة الأحاديث » المتصلة ، التي لا تتصور مهدياً من غير آل البيت .

(للنقد بقية)

سعد محمد حسن

من بريد الثقافة

إلى الدكتور زكي نجيب محمود :

أحييك وأحيي فيك هـذا العقل الحر ، وتلك النفس الواعية ، وضمير العلم النزيه ..

أحييك لأنك الرجل الذي عرف بحق كيف يفرق بدقة بين حدود الأمور .. أين ينتهي كل منها .. وأين يبدأ .. وكيف يمتد .. وما علاقته بغيره — وعلى أي أساس يقوم ... !؟ ثم وضعت كل أمر في مكانه ، فلم تخلط بين هذا وذاك .. ولم تجعل — إلا الشيء الواحد — فلا يمتد على كل هذه الأمور .. هذا الشيء .. هو العقل الذي لا يؤمن إلا بنفسه .. العقل الذي ينظر متحرراً تمام التحرر من كل قيد ، بريئاً كل البراءة من كل أثر ، فإذا رأى الأمر حقاً جهر به ، وإن اصطلح (السـواد) على أنه باطل ، وإذا رآه باطلاً ، نادى ضده ولو اتفقت العامة على أنه حق ..

ذلك العقل الذي قمت تنادي بإطلاقه من أغلاله في مؤتمر ثقافي لجامعة عربية .. ! حيث ناديت بأن ندع النشء أحراراً يهتدون إلى الطريق بأنفسهم وأفكارهم ، ولا نفرض عليهم دليلاً معيناً يلزمهم طرقاً خاصة ، بحجة الإرشاد والهداية ، حتى إذا ما خلوا إلى أنفسهم رأوا الفرق بعيداً بين ما يدور في نفوسهم وصدورهم وبين ما أريدت نفوسهم وصدورهم أن تدور حوله .

وها أنت ذا يا سيدي تتقدم مرة أخرى لتصيح وتنادي في إفصاح ووضوح ، وتقول في غير ما التواء :

« تعالوا أيها (المفكرون) نتفق على حدود الأشياء ، فلا ندع واحداً منها يجور على الآخر ، ولا نضع فوقها جميعاً شيئاً بدعوى القداسة .. وتعالوا نهيء الطريق لهذه العقول الناشئة حتى تسير فيه مطمئنة لا تتبع إلا هاتف العقل »

وكم كنت أنظر بكل إجلال وإكبار لكل جادٍ يعلن رأيه في عزم وقوة .. فاذا .. ؟ لأنه آمن بعقله .. والإيمان بالعقل بدء الحرية .. الحرية الحقة التي تقوم على أساس صحيح سليم لا يتطرق إليه بلى أو فناء .. ولكنا كنا نرى في كل مرة هـذه الوجبات المموج من قوم يتلوون طبقة بينها ، لا تستحي أن تظهر جهلها على الناس سافرة مكابرة .. وأرجو ألا تظن يا سيدي أن جرأتي تنحصر في خطابي إليكم ، ولكني حاولت أن أنتصر لحرية العقل ببعض ردود نشرتها في مجلة « الرسالة » مشكورة : رد على مدرس في كلية اللغة العربية ، كتب ما أسماه بحثاً أدبياً عن موازنة بين قصيدتين جاهليتين ، ونشرت « الثقافة » مشكورة رداً لي على أحد كبار الكتاب عالج مشكلة الحشيش .. ! وإني لا أفخر بهذا ، ولكني أسجله لأقدمه إلى عزتكم كوثيقة حين أطلب منكم أن تعتبروني تلميذاً من تلاميذكم ، ألجأ إليكم أطلب المعونة في رأي ، أو التوجيه في أمر ، لأنكم أوتيتم الحكمة — والحكمة في نظري أن يعرف الإنسان أين يبدأ الأمر وأين ينتهي .. وكيف يمتد وما علاقته بغيره — ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ...

إن المرء لن يحيا غير حياة واحدة .. فمن العقوق لحياته ، بل ومن العقوق لإنسانيته ، أن يرضى لنفسه أن يلف في خرق قذرة من الجهل والشعوذة ، بل ومن التنكر لضميره أن يجبره على أن يتخذ كل يوم وجهة ، وأن يكون على استعداد لامتثال أمره طيلة حياته ...

كم أنت عظيم أيها الأستاذ .. حييت بكل حرف خططت في هذا المقال ألف تحية .

المدرس
أحمد قاسم أحمد

وفاة عالم سوري :

علم من أعلام سورية ، وأحد أعضاء مجمعها العلمي العربي ، الشيخ محمد راغب الطباخ الحلبي . رزئت البلاد بوفاته في أواخر رمضان سنة ١٣٧٠ عن ٧٨ سنة . درس علوم الشريعة على كبار أساتيذها حتى نبغ فيها ، وتخصص في التاريخ ، ثم عكف زهاء عشرين سنة على جمع تاريخ حلب ، فألف كتابه الممتع (إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء) في سبعة أجزاء ، وهو أحد مؤلفاته الكثيرة ، وله في مجلة المجمع العلمي مقالات وتحقيقات جمة .

وكان يبحث عن آثار الأسلاف ويصححها وينشرها ، وقد طبع منها الكثير ، في الأدب والفقه والتاريخ والحديث وغيرها وكان أستاذاً للحديث والتاريخ الإسلامي في الكلية الشرعية بحلب ، ثم اختارته الوزارة مديراً لها . ومن كبار تلاميذه : الشيخ مصطفى الزرقا الأستاذ في كلية الحقوق بدمشق ، والدكتور معروف الدواليبي رئيس مجلس النواب السوري . رحم الله الفقيد ، وعوض العالم الإسلامي عنه خيراً .

عبد اللطيف الطباخ

الثقافة

العدد ٦٦٥
٢٤ من سبتمبر ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليما

أيهـــا العربى ...

— ١ —

أخى ، يا أخى حسبنا أننـــا ... نثرنا دموعَ الأسى ههنـا
نثرنا المدامعَ كالثاكلات ... وكدنا بها نفقد الأعينـا
ألا مالنا قد أضـعنا الرجاء ... ألا ما بنا ، يا أخى ما لنـا
نصبنا لأوطاننا والعـلى ... مآتم توحى بأن نحزنا
فيا ضيعة الأمل المرتجى ... ويا خيبة الأمل المقتنى
ويا فرحة الأوغدين الطغاة ... يباهيك أوغدهم : ها أنا
ليؤلمنى أن هـذا الشقاء ... وهذا البكاء والشجى ، والعنا
دخلنا كوانــه طائعين ... وأصبح من حالنا ديدنا
ألا همة غير ذوب الجفون ... ألا عزمة غيـر آه الونى
ألا صرخة غير همس الكلام ... تخادع فى جرسه الألسنا
رأيت نحيبكمو لا يكف ... وعزمكمو ماهراً هينـا

— ٢ —

لأبعد ما يسلك اليائسون ... مهامه خطت دروب الفنـا
يضللهم بارق من سراب ... نأى إذ دنوا ، ونأوا إذ دنى
وتفجعهم فادحات الخطوب ... وليس لهم عن نواها غنى
كنعتيةٍ رأسهـا فى الرغام ... وعن كتب ناس قد رنا ..
وأفجع ما عنـدهم أنهم ... يولون عنك لكى .. نركنا
لآرائهم أن معنى البقـاء ... بأن تستكين وأن تجبنـا
وأن مثانى الهوى والخيال ... لأروع من موطن موطنا
فيابئس ما أنتمو تزعمون ... ويا ويحكم زمرة الخنـا
ألا فاتركوا الأنفس المؤمنات ... يفتشن عن مخرج من هنا
يفتشن عن مسلك للخلاص ... لعل بنا من يرى ما بنـا

— ٣ —

أخى ، يا أخى إن جفتك الحياة ... فكن كالضحى فرق ديدنا
وكالعبق فى فنجان الزهور ... يضوع من عطر الصبا لنا
وكن بلبلاً جاذبه الرياض ... يناغى الزنابق ، والسوسنا
وكالنور فى جنبات الشروق ... يلاعب طياتهـا ، والثنى
وكاللحن عند احتضان الجمال ... يهدهد إيقاعه الأرغنـا
وكالنسم فى جنبات الغصون ... يداعب رفرفه الأغصنـا
وكالنسر منطلقاً فى الفضاء ... يرى الأفق ملعبه المقتنى
وكالرعد فوق أعالى الجبال ... تأبت على السفح أن تذعنا
وجرد مضاءك إن روعتك ... دجون الفضا ، والبلى عندنا
أخى يا ابن أمى وصافح أخاً ... به ، وبكم ، أمة ... تقتنى
وجاهد لحبك دار الخلود ... ولا تطلبن جزيل الثنـا
ستطلقهـا صرخة الناقمين ... ونبعثهـا عاصفاً للدنى
هو الموت يا مرحباً بالممات ... هو القبر يا مرحباً بالفنـا
هو المجد قربانه التضحيات ، ... به عاليات القرى ... تبتنى

— ٤ —

سلام على عزمات الشباب ... على كل مستبشر بالمنـا
وبالوعى والبعث والأمنيات ... تهـادين من ربوات المنى
على كل منطلق ... فالحياة ... طليق الهوى ثوروىّ اتغنا
على الحاملين لواء الثبـات ... وأكبادهم لعناق القنـا
على كل مستبسل مستهـام ... بحب الأذى ، جاوز الممكنا
على الفكر يعبده العاقلون ... على واحة فى بوادى السنا
ستولد أورادها فى الربيع ... ونقطفها طيبات ... الجنى
وتترك أشواكها ... والقتاد ... لتحصده ثورة ... التحنى
سلام ، سلام إلى المؤمنين ... بأن لهم فى السما مسكنا

(بغداد) ... كاظم جواد

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٦٥ الاثنين ٢٢ من ذى الحجة سنة ١٣٧٠ — ٢٤ من سبتمبر سنة ١٩٥١ السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

مهمة الكاتب

للدكتور زكى نجيب محمود

اللهم إنى كفرت بالأقلام تكتب بالمداد ، فمن لنا بعشرة آلاف قلم تنفث من أسنانها الحمم ، لعلها تلسع الجلود فتوقظ الرقود من سباتهم العميق ، وتحفز الوقوف إلى الحركة والسير ، وتستحث السائرين ليسرعوا الخطى ، عسى أن ندرك الركب ، فقد بعدت المسافة جداً بين الرأس والذنب .

كفرت بالأقلام تكتب بالمداد ، لأن الكتاب عندنا قد ظلوا يكتبون ويكتبون ، ولم يزل الناس على حالهم غرقى في أوهامهم ؛ فمهما وجهنا اللوم إلى كبار كتابنا على ء لأنهم الناس في كثير مما كتبوه ، حين جعلوا يجددون لهم أمجادهم ويترنمون لهم بالأنغام التى تصادف هوى في نفوسهم ، فلا بد لنا إلى جانب اللوم أن نعترف لهم بالفضل في محاولتهم تغيير كثير من القيم السائدة ، التى أصبح قيامها محالاً بين شعب أراد أن يتحضر ؛ فمنذ ثلث قرن أو يزيد ، أخذ كبار كتابنا ينقلون إلينا معايير جديدة للأخلاق ونظم الحكم والتربية ، ويطلون مقاييس جديدة نقيس بها الآداب والفنون ، ويلفتون أنظارنا إلى القواعد الصحيحة التى ينبغى أن نحكم بها على الأشياء في هذا العصر الحديث — كتبوا وكتبوا ، وما يزال الناس على حالهم فيما أرى ؛ حدث تغير طفيف في القشرة ، أما اللباب فهو هو كما كان منذ قرون .

كنت أتحدث إلى أستاذنا العقاد منذ حين ، فقلت له في سياق الحديث : إننا لا نتطور ولا نتغير ، كأنما قوانين التطور الاجتماعى التى تسرى على سائر البشر لا تنطبق علينا ، فقال باسماً : بل قل إن شئت إن القوانين الطبيعية نفسها توشك في أرضنا ألا تفعل فعلها ... وهو بذلك يعنى أن ما تتوقعه في أى بلد من بلاد الأرض قد لا يقع لك في هذه البلاد ، فربما وضعت وعاء الماء على النار متوقعاً للماء أن يغلى ، فإذا به يتجمد ثلجاً ! وبعبارة أعم ، إن المقدمات عندنا قلما تنتج نتائجها ، والنتائج قلما تتفرع من مقدماتها الصحيحة ؛ أنظر — مثلاً — إلى الخطة التى وضعناها منذ ربع قرن لمحو الأمية ؛ حسبنا الحساب وقلنا سنفعل كذا وكذا ، وستمحى الأمية بعد كذا من السنين ؛ وتمضى السنون ، ونسأل كيف الحال ؟ فلا نجد من يعرف كيف يجيب — ليس لك أن تعجب لحدوث شيء في أى زمان وأى مكان ، لأن العجب إنما يكون لشذوذ يحدث وسط

انتظام واطراد فيستوقف النظر ويستثير العجب . أما إن كان الأصل في الأشياء هو ألا نظام ولا اطراد ، فلا عجب ولا تعجب ، إلا إذا شاء الله لجزء من الحوادث في ركن من البلاد أن يسير مؤقتاً على سياق منتظم من قانون معلوم ! .. ليس في ذلك مبالغة أو إسراف ، فالذي يلفت أنظارنا اليوم هو أن تجد رجلاً قد اؤتمن على عمل للشعب أو مال للدولة فأنجز العمل أميناً ، أو أدّى المال كاملاً .

ولعل كبار كتابنا قد أدركوا أنهم كانوا ينفخون في قربة مقطوعة حين كانوا يقصدون إلى الجد فيما يكتبون ، فانقلبوا إلى كتابة التسلية وإزجاء الفراغ ، وشجعهم على ذلك أن بعض الشركات المالية التي أرادت لها المصادفة أن تشرف على إصدار الصحف والمجلات ، قد أغرتهم بالمال ، على شرط أن يكتبوا لها ما تطلب إليهم الكتابة فيه وبالمقدار الذي تطلبه ، وبالمكافأة التي تقررها ، فالموضوع والمقدار والمكافأة عند أصحاب تلك الشركات المالية ، كلها أمور يقررها الجمهور الشاري ، إذ لا فرق عندها بين المجلات والصحف التي تنزلها إلى السوق ، وبين رءوس الماشية وقوالب الطوب ، والفول والعدس — كلها سلع تجارية ، ولا بد فيها جميعاً أن يُنظر إلى الشروط الصالحة للبيع والشراء ...

إذاً فقد انصرف كتابنا الكبار عن الكتابة الجادة لسببين : الأول أنهم وجدوا كتابتهم لا تغير من الأمر الواقع شيئاً ، فالناس هم الناس سواء كتب الكتاب أو لم يكتبوا ، والثاني هو أن زمام الكتابة لم يعد في أيديهم هم ، بل انتقل إلى أصحاب رءوس الأموال الذين اختاروا لاستغلال أموالهم تجارة الصحف والمجلات ؛ وإن شئت أن تنظر إلى إنتاج هذا الأديب أو ذاك ، فأت بمجموعة من مقالاته التي أصدرها منذ عشرين عاماً أو ثلاثين ، ثم قارنها بمجموعة من مقالاته التي يكتبها هذه الأيام في المجلات التي أعنيها ، وسترى الفرق واضحاً : كان هنالك جد وعزم على تغيير عقول القراء ، فأصبح هنا استهتار وعدم مبالاة بما يجري به القلم ، لأن الأمر عنده وعند صاحب المجلة لم يعد يزيد أو يقل عن صفحتين يكتبهما ليتسلى بهما القارئ حين لا تسعفه للتسلية وسيلة أخرى .

لكن لو أخلص هؤلاء الكتاب لوجدوا أن مهمتهم لا تزال باقية على حالها ، فهم لم يغيروا من عقائد الناس شيئاً ، إذ لا يزال الناس في حالة شبيهة جداً بما كانت عليه أوربا في العصور الوسطى ... إن أبرز ما يميز التفكير في العصور الوسطى هو الاستناد في الأحكام على الكتب القديمة ، فإذا قال قائل قولا ، وطالبه السامعون بالسند ارتد إلى الكتب القديمة يستخرج الدليل حتى إذا ما وجده اقتنع هو واقتنع السامعون على السواء . والنهضة الأوربية التي جاءت لتنفض غبار العصور الوسطى ، كان معناها هو هذا : أن يرجع الناس في أحكامهم إلى ما تقوله الطبيعة وما يقوله الواقع ، وأن تكون وسيلتهم إلى ذلك هي عيونهم وآذانهم ، لأن الله أرحم جداً وأقدر جداً من أن يقصر العيون والآذان على عصر واحد ذهب ومضى ليكون الناس من بعده صُماً عمياً لا يسمعون ولا يبصرون .

لا يزال الناس عندنا في حالة شبيهة جداً بما كانت عليه أوربا في العصور الوسطى ؛ يؤمنون بأفواه مفتوحة ولعاب سائل ؛ فإذا تمنينا لهم شيئاً ، فهو أن يقيض لهم الله من أصحاب الفكر وأرباب القلم مثل من أنعم بهم على عباده من الأوربيين إبان نهضتهم ؛ فلو استعرضت أوربا عندئذ بخيالك وجدت مفكريها وكتابها قد عقدوا عزماً من حديد على تنظيف الرءوس وتجديد النفوس ، ليستقبل الناس عهداً جديداً ، هو الذي نسميه اليوم بأوربا الحديثة — فأين لنا من علمائنا من يقوم بالدور الذي قام به جاليليو وكبلر ونيوتن إبان النهضة الأوربية ، ليلفتوا أنظارنا إلى الطبيعة ندرسها ، بدل الانطواء على أنفسنا مكبين على صفحات صفر معفرة بالتراب ؟ وأين لنا من فلاسفتنا من يدعو إلى ما دعا إليه ديكارت وبيكن أيام النهضة الأوربية ، ليرسموا لنا منهاج التفكير الجاد الصارم ، الذي لا يلين أمام عاطفة حتى يبلغ الحق ، وهو في سبيل ذلك يتشكك ويتثبت ويتحقق حتى

لا ينخدع بإيمان السذج البلهاء ؟ وأين لنا من أدبائنا من يكتب بمثل الأقلام التي كتب بها سيرفانتيز ومونتيني وشيكسبير ، ليهزوا فينا الجبال هزاً عنيفاً ، فترتسم الدنيا أمام أنظارنا في صورة جديدة ؟ .

لا .. ليس بيننا العلماء، وليس بيننا الفلاسفة .. لا صغار ولا كبار — وأعظم من يعظمون في أعيننا من هؤلاء هم « تلاميذ » حفظوا كثيراً أو قليلاً مما كتبه العلماء والفلاسفة في أوربا التي نعوذ بالله من شيطانها الرجيم ! ! إننا نتسامح في استعمال الألفاظ إلى الحد الذي نقول عنده عن فلان إنه « عالم » حين يكون فلان هذا قد وعى رأسه قائمة طويلة من الحقائق التي وصل إليها العلم ؛ لكن « العالم » الحق ليس هو من وعى وحفظ ، إنما هو من عرف كيف يسأل الطبيعة سؤالاً وكيف يجعلها تجيب له عن سؤاله بما يجرى من تجارب في أنابيبه ومخابيره ؛ وليس بيننا من يعرف كيف يسأل الطبيعة سؤالاً جديداً ، ويجعلها تجيب له عنه جواباً يذيعه في العالم المتحضر على أنه من كشفه هو ومجهوده هو .

لا .. ليس بيننا العلماء وليس بيننا الفلاسفة ، وكان يمكن أن يكون بيننا الأدباء ، لكنهم — واحسرتاه — قد انصرفوا عن مهمتهم إلى حيث الكلام الخفيف اللطيف ، الذي يبيعونه لشركات الصحف والمجلات ، بيع التاجر الذي يراعى في سلعته ظروف العرض والطلب .

ولم يكن قد حان الوقت بعد لهؤلاء الكتاب أن يلقوا السلاح من أيديهم ، لأننا لم نزل أمة في عصورها الوسطى ، تنتظر الانتقال إلى العصر الحديث على أيديهم ؛ إنه لمما يستوقف النظر في أمتنا أنها تنقسم قسمين : أقلية ضئيلة جداً في ناحية وأكثرية كبيرة جداً في ناحية أخرى ؛ وهي تنقسم هذين القسمين في كل شيء : في الثروة ، وفي العلم ، وفي التحضر بأسباب المدنية الحديثة ؛ فأقلية ضئيلة بلغ بها الغنى حد الإفراط، وأكثرية كبيرة تمرّغها الفقر في الوحل ؛ وأقلية ضئيلة بلغت من العلم شأواً ، وأكثرية كبيرة نزلت من الجهالة إلى حد الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب ؛ وأقلية ضئيلة تكاد تنخرط مع الأوربيين في حضارتهم ، وأكثرية كبيرة لم تمسها يد القرون التي تتابعت على الإنسانية في تاريخها الطويل .

إننا لم نزل أمة بدائية في احتكامنا إلى العواطف حيث ينبغي تحكيم العقل ؛ فالعاطفة ترفع الحكومات وتخفضها ، والعاطفة ترسم المشروعات وتنسخها ، والعاطفة تحالف الدول الأخرى وتخاصمها ، والعاطفة تملأ المناصب وتخليها ، والعاطفة تؤيد وتعارض وتستحسن وتستهجن — أفتكون هذه حالنا والكتّاب عندنا مشغولون بالكتابة الخفيفة لتسلية القراء وإرضاء الشركات الصحفية ؟ .

إننا لم نزل أمة بدائية تملأ الخرافة رءوسنا ، نتشاءم ونتفاءل ونؤمن بإيمان العجائز ؛ واسمع القصة الآتية واعجب : أقمنا ذات يوم حفلاً نودع به راحلاً ونستقبل قادماً ، وجلس على المائدة أمامي رجل صناعته تدريس الفلسفة في الجامعة ؛ فأخذ هذا الفيلسوف يقص علينا كيف يفعل الإيمان الأعاجيب ، قال : كان في شبرا شيخ تقي صالح ، له مريدون كثيرون ؛ وكنت أحضر جلساته أحياناً ، وقد أخذ يعلم تلاميذه كيف يقولون البسملة بإيمان ، ثم يمشون بعد ذلك على سطح الماء فإذا هم يدوسون بأقدامهم على سطح أصلب من الحجر ؛ وحدث ذات مرة لبائع فجل (ولست أدري لماذا وقعت الواقعة لبائع الفجل وحده ، ولم يقع مثلها لزميله الأستاذ الفيلسوف) من تلاميذ الرجل أن فرغ من بيع بضاعته ، وأراد الرجوع إلى داره في امبابه ؛ وسار على قدميه شوطاً ، ثم تنبه فجأة إلى دروس أستاذه الشيخ ، فوقف على شاطئ النيل ، وأغمض عينيه ، وقال بكل قلبه « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم مشى ، فإذا هو الثاني من النهر على أرض يابسة ! — هكذا قص علينا الفيلسوف قصته ، ولولا أنني أتمنى له السلامة لتمنيت عندئذ أن يقوم هو الآخر بالتجربة عينها ، لينخفض الشعب من عامل من عوامل التخريف — وإن كان هذا شأن القمة العليا من طبقة « المثقفين » (١٢) فماذا تكون حال الملايين من السواد ؟

نعم ، لا إنســـانية

[مهداة للدكتور زكي نجيب محمود]

للدكتور أحمد أمين بك

روى الدكتور أني حدثته مرة فقلت : إن كل حضارة سواء كانت إسلامية أم غربية لها مزاياها ولها عيوبها ، فمن مزايا المدنية الغربية عليها لا إنسانيتها ! وقد انتقدني بأن المدنية الغربية أكثر إنسانية . نعم ، إن ذلك صحيح من الناحية الأخلاقية الفردية ، فالطبيب الإنجليزي أو الألماني طبيب إنساني ، بمعنى أنه يعالج معالجة صحيحة النصراني والمسلم واليهودي والوثني . بل قد يعالج عدوه كما يعالج صديقه لأن هذا واجب خلقي . بل قد يكون منهم الذي يشفق حتى على الحيوان ، فيولي من العناية بكلبه ما يوليه لابنه أو بنته ،

وقد شاهدت كثيراً من هذه الحوادث ، فرأيت إنجليزياً وهو يسافر إلى بلاده فيوصي بالعناية بضفدعة عنده . ورأيت إنجليزياً يملك حصاناً ويعتز به ؛ فإذا سافر إلى بلده لا إلى رجعة أطلق عليه الرصاص حتى لا يهان . ورأيت من يعمل عملية جراحية تساوي مائتي جنيه فيعف عن أن يأخذ أجراً ، لأن المريض مدرس فقير ، أو أستاذ جامعي لا يملك شيئاً ، ونحو ذلك كثير . وعندهم المستشفيات الإنسانية الكثيرة ، والتبرعات الخيرية الكثيرة ، والعطف الكثير على المحتاجين والبائسين ، ومن يتبرع بالمال الوفير لإنشاء كرسي في جامعة ،

أفبعد هذا كله يلقي كبار كتابنا من أيديهم أقلامهم الجادة كأنما قد فرغوا من مهمتهم ، ولم يبق عليهم سوى أن يكتبوا ما تطلب إليهم شركات الصحف كتابته لتسلية القراء ؟

ونحن لم نزل أمة بدائية في عقيدتنا بأن الإنسان ألعوبة في يد القدر ؛ فتلك هي نظرة الشعوب الأولى التي لم تكن تدري كيف يسقط المطر ولا كيف ينبت الزرع ولا من أين تمتلئ الأنهار ومن أين يجيء الأحياء وإلى أين يذهب الموتى ؛ إنها شعوب لم تكن تدري من ذلك كله شيئاً ، فتوهمت حلقة الغير في خيوط مستورة أطرافها في كف مارد جبار لا تراه العيون ، أخذ يشد هذا الخيط أو ذاك كيف شاء ، ويعبث بالناس من حيث يشعرون ولا يشعرون ، فاستضعفوا أنفسهم إزاء هـذا « القدر » المتحكم ، إذ لا حيلة لهم بين يديه ؛ لكن العلم أخذ يكشف للناس عن ألاعيبه ، فيظهرهم على خيوطه السحرية خيطاً في إثر خيط ، كما يفسر لنا الحاوي سر ما يبهرنا من فنه ! والفرق كبير جداً في تكوين الشخصية وبناء الأخلاق بين رجل هتك ستر « القدر » ورجل لا يدري من أمره شيئاً : الأول يشعر بالثقة والقوة ، والثاني يجبن ويخضع ! انظر إلى الناس من حولك ، انظر إلى عيونهم وقسمات وجوههم ، تجد الاستكانة والذلة قد ارتسمت في نظراتهم وعلى شفاههم ؛ ولأمر ما يسير المصري عادة مطأطئ الرأس يمس الأرض بقدمه مساً خفيفاً ، ويمشي الأوربي مرفوع الرأس يضرب الأرض بقدميه ضرباً قوياً ؛ إنك قلَّ أن تجد أوربياً قد أسدل جفنيه على عينيه ، بل هو دائماً ينظر وكأنما ستنقدح نظراته الشرر ، بينما يندر أن تقع على مصري في مستطاعه أن ينظر إليك بعين مفتوحة : عند الأول جرأة على الحياة وعند الثاني جبن وخوف ؛ لأن الأول قد علموه أنه سيد الكون ، أما الثاني فقد لقنوه أنه ألعوبة في يد « القدر » — أفبعد هذا كله يترك الكتّاب أقلامهم الجادة ليكتبوا « الطقاطيق » الخفيفة التي تطلب إليهم الشركات الصحفية أن يكتبوها ؟ .

لا . . إنه لا تكفينا إزاء ذلك كله أقلام تكتب الجد بمداد على ورق ، بل نحن في أمس الحاجة إلى أقلام تنفث من أسنانها الحمم التي يلسع الجلود ليستيقظ الرقود .

زكي نجيب محمود

أو مستشفى فى بلدة ليس فيها مستشفى ، أو لشراء مطبعة للعميان أو نحو ذلك . فهم فى هذا الباب أرقى منا بكثير . ولعل هذا وأمثاله هو ما نظر إليه الدكتور زكى فكوّن رأيه على هذا النحو .

ولكن ، أنتقل من هذا النظر إلى نظر آخر أوسع . أين الإنسانية فى الحروب الأخيرة وما جلبت من ويلات ، والحروب القادمة وما تستتبعه من مصيبات تقشعر من وصفها الأجسام ؟.

أين الإنسانية فى القنبلة الذرية والصواريخ البيدة والمخترعات الحديثة المدمرة ؟ .

إنهم لو كانوا إنسانيين لاخترعوا الذرة ولم يخترعوا قنبلتها ، وسخروا أحلال الذرات فى إسعاد الإنسان لا فى إشقائه . وأين الإنسانية فى كل ما فعله الغرب بالشرق ؟ استعباد لاحد له ، واستغلال لاحد له . ولو كانت إنسانيةٌ لأخذ الغرب بيد الشرق وسيّره معه فى بناء المدنية . أين المدنيـة فيما تفعله فرنسا فى المغرب من فتك بكل مطالب بالوطنية ومدافع عن الحرية ؟ وأين الإنسانية فى هيئة أمم توالى إسرائيل ظلماً وتغدر بالعرب ظلماً ، وتحكم على إسرائيل ولا تطالبها بالتنفيذ ، وتحكم على العرب فتطالبهم بالتنفيذ ، وتقتل إسرائيل برنادوت رئيس اللجنة فيظن العالم أن العقاب سيكون صارماً ، فإذا هو لا شىء ! ولو كانت قد قتلته العرب لما كفاهم أن يمحوهم من الوجود محواً ! وأين وأين من آلاف المسائل التى تقع تحت أعيننا كل يوم ؟!.

هذا هو مظهر الإنسانية الحقيق ، أما حوادث جزئية كرحمة فرد بشغدفة ، ورحمة إنجليزى بحصان بطريق القتل ، فشىء صغير لا يحقق الإنسانية !.

إن الإنسانية أكبر من ذلك وأوسع ، وإنا نلمسها عند رجال السياسة الأوربيين فلا نجدها ، وليس السياسيون هم المسئولين وحدهم . بل إن الشعوب التى تقرهم على ظلمهم مسئولة معهم . فليكن النظر واسعاً واسعاً حتى ندرك الحقيقة ... إن نوع إنسانيتهم كإنسانية صاحب الخروف يغذيه قبل العيد الكبير ليذبحه ، أو كإنسانية السجان يعطى المحكوم عليه بالإعدام شربة ماء قبل أن يقتله ... ولأجل هـذا قلت مراراً إن المدنية الغربية مادية حتى فى معانيها ، ولهذا راج فيها مذهب المنفعة المادى ، وساد جميع المذاهب الأخرى .

ليس يصح أن يغرنا الرّواق ، فنرى مصانع كبيرة ومخترعات عظيمة ومطاعم فخمة وشوارع نظيفة وسينما وتمثيلاً ، أرقى مما عندنا بكثير ...

إن القلب أيها الأستاذ هو كل شىء ، فلا يغرنّك ما ترى من بهرجة ، وما يدّعون من عظمة .. إن العلم لهم لا محالة ، ولكن تنقصهم الإنسانية أيضاً لا محالة .

حدث الأستاذ (جود) قال : « قابلت رجلاً هندياً فافتخرت أمامه بما اخترعنا من غواصات وطائرات ، فقال الهندى : نعم ، إنكم اخترعتم الغواصات تغوصون بها فى أعماق البحار ، واخترعتم الطائرات تطيرون بها فى أعلى الجو ، ولكن مع الأسف لم تتعلموا كيف تمشون على الأرض . إن المشى على الأرض فى اعتقاده يتطلب إنسانية لا تأتى من الطيارات والغواصات ، وإنما تأتى من القلوب » .

لقد كان الإسلام أكثر إنسانية حين أمر ألا يُجهز على جريح ، ولا يؤذى غير مقاتل ، وأن ترحم النساء والصبيان والمسنون .

وفى الأمثال العامية مثلان لطيفان لأداء هـذا المعنى : الأول : لا يعجبك البيت وزُويقه ، والساكن ناشف ريقه . والثانى قولهم : تعساً لطشت من الذهب نطرش فيه الدم .

قد أكون مخطئاً فى تفضيل الشرق على الغرب فى الإنسانية ، ولكن لا يضرنى فقدها فى الشرق أيضاً ، فإنى أنشدها ولو لم تكن فى الشرق ولا فى الغرب !.

سامحنى أيها الأستاذ إذا قلت إن مثل من غرته المدنية الحديثة مثل ذلك الإنجليزى الذى أوصى بالشغدفة وذهب ليقتل أخاه الإنسان . والله يوفقك .

أحمد أمين

نظرات إلى المستقبل

للأستاذ على أدهم

يحجم أكثر المفكرين عن التحدث عن المستقبل لأنهم يدركون صعوبة الحكم على الحاضر الذى نراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا ، فكيف بالمستقبل الذى لم تطالعنا بعد صوره ولا نستطيع أن نعرف شيئاً عن محتملاته معرفة أكيدة ؟ وقد تخصص بعض الناس فى دراسة الماضى وأفنوا أعمارهم فى جمع المعلومات الوثيقة والحقائق الممحصة عنه ، ومع ذلك تراهم يختلفون اختلافاً كبيراً فى تفسير وقائعه وتصور حوادثه ، والمستقبل محجوب عنا وراء أستار صفيقة ، وليس عندنا عنه أخبار ولا وثائق ، والأرجح أنه لم يخلق بعد ، لأنه فى دور التكوين ، فكيف يصح حكمنا عليه ويصدق تقديرنا له ؟ ولكن فى الإنسان ميلاً لاينالب إلى التشوف للمستقبل ، ورغبة حافزة إلى مطالعة الغيب المستور مهما قصر علمنا عن أن ينال المحجب ؟ ويقبل الناس إقبالاً شديداً على من يصور لهم المستقبل فى صورة باسمة مشرقة ، ولا يضنون عليه بالمال وثقتهم وحبهم وتقديرهم ، ولكن الذى يصور لهم المستقبل فى صورة سوداء مظلمة فى الأغلب يكون نصيبه منهم الشك والتكذيب إن لم يكن الرجم بالأحجار ؟ وفى الأساطير اليونانية أن كسندرا ابنة بريام وهيكوبا كانت فى شبابها موضع رعاية الإله أبوللو ، وكانت وكنت آونة وجمالاً فتنت أبولو ، فحباها القدرة على التكهن ، ووعدته بالنزول على رغباته ، ولكنها لم تف بوعدها ، فغضب عليها أبولو وقضى أن لايصدق الناس تكهناتها ، ومعظم الذين يتكهنون بالشر يكون مصيرهم مثل مصير كسندرا ، فلا يجدون من الناس مصدقاً ، والعجيب أن هذا التكذيب قد يكون مدعاة لصدق التكهن ، وقد كان الكاتب البريطانى الكبير ولز ولوعاً بالتكهنات ، وأكبر ظنى أن الناس لم تكن تأخذ تكهناته مأخذ الجد وإنما كانوا يتسلون بقراءتها ، ويعجبون بسعة خياله ، وتحليق أوهامه . وماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة أن الواقع حقق الكثير من تكهناته . وقد سلك مسلكه الفيلسوف البريطانى المعاصر برتراند رسل ، وحاول أن يزحزح الستار قليلاً عن المستقبل ، فعقد فصلاً فى آخر كتاب أخرجه الحديث عن مستقبل البشرية ، ورسل فى طليعة فلاسفة العصر ؟ وهو كسائر الفلاسفة يرى من حقه أن يتحدث عن كل شىء ، لأن الفلسفة ليست لها منطقة محددة التخوم ، فلماذا لايدخل المستقبل فى حسابه ؟ وتكهنات رسل ليست سارة كل السرور ولا ميئسة كل اليأس ، وربما كان من الخير أن ننظر لها من حيث هى تحذيرات البشرية ، ونصائح دالة من رجل خبر الحياة ، وأطال التفكير فى مشكلات المجتمع وقضاياه السياسية والاقتصادية والنفسية .

ويقول رسل فى مستهل تكهناته : « قبل نهاية القرن الحاضر ، إن لم يحدث شىء ليس فى الحسبان على الإطلاق ، سيحدث أحد محتملات ثلاثة ، وهذه المحتملات الثلاثة هى :

١ — نهاية الحياة الإنسانية وربما نهاية الحياة كلها فى هذا الكوكب .

٢ — الارتداد إلى الهمجية بعد أن تؤدى الكوارث التى تنزل بالبشر إلى تناقص عدد سكان الأرض .

٣ — توحد العالم فى ظل حكومة مفردة تحتكر امتلاك كل أسلحة الحرب الرئيسية ، ولست أدعى معرفة أى هذه المحتملات سيتحقق ، أو حتى معرفة أيها أقرب إلى التحقيق ، وإنما الذى أزعمه بدون أى تردد هو أن نوع النظام الذى تعودناه وألفناه لايمكن أن يستمر .

والاحتمال الأول وهو احتمال إبادة الحياة البشرية لاينتظر وقوعه فى الحرب العالمية التالية ، إلا إذا تأجلت هذه الحرب مدى أكثر مما يبدو محتملاً فى هذه الآونة ، ولكن إذا كانت الحرب العالمية التالية غير حاسمة ، أو إذا كان المنتصرون غير عقلاء ، وإذا لم تتصف بحياة الحكومات المنظمة ، فإن عصراً من عصور التقدم الفنى الصناعى المحموم ينتظر بعده فى أعقابها ، ويرى كثير من العلماء الأثبات أن استعمال وسائل أقوى كثيراً مما نملك الآن

للانتفاع بالطاقة الذرية يمكّن من تحليل الأنسجة الحية في كل مكان ، والإنسان الذي يعيش بعد ذلك قد يقيم نفسه حاكما عاماً على العالم ، ولكن عهده سيكون قصيراً ورعاياه ستكون رمماً ، وستنتهي بموته فترة الحياة .

ويقول رسل إن المشاهد الذي لا ناقة له ولا جمل في هذا الموضوع قد يرى أن هذه النتيجة ملائمة ؟ فقد حفل سجل الإنسانية بالحماقة والقسوة ، ولكننا نحن الذين اشتركنا في تمثيل الرواية لا نقف هذا الموقف ، وقد سمعت قوماً يقولون إنهم يفضلون أن تنتهي حياة البشر على خضوعهم لحكومة السوفيت ، ولا شك أن روسيا بها من يقولون مثل ذلك ولا يقبلون الخضوع للنظام الرأسمالي ، ولكن هذا ادعاء للبطولة من الطرفين ، وهو شيء خطير ، لأنه يصرف عن التفكير في تلافي النكبة التي يدعي الفريقان أنهما لا يخشيان شرها .

والاحتمال الثاني ، وهو احتمال الارتداد إلى الوحشية والهمجية ، قد يفسح المجال للظن بإمكان العودة إلى الحضارة كما حدث بعد سقوط روما ، وسيكون هذا الانتقال للناجين مؤلماً للذين يقاسونه ، وستظل الحياة مدى قرون بعد ذلك قاسية مظلمة ، ولكن سيكون هناك مع ذلك مستقبل للإنسانية .

وفي رأي رسل أن الحرب التي تقوم على الوسائل العلمية لا يبعد أن تسفر عن مثل هذه النتائج ، وإذا تصورنا أن كل فريق من الفرق المتحاربة قد تمكن من تخريب أهم مدن الفرق المعادية له ، وقضى على المعامل ودور الكتب وأهلك عدداً ضخماً من السكان ، ونشر الأوبئة والأمراض الفتاكة ، فهل يستطيع المجتمع أن يتماسك بعد ذلك ؟ وهل يمكن أن يقال للناس إن العلم كان سبب نكبتهم وإن انقراض العلماء سيسوق لكم عهد الرخاء ؟ ويرجح رسل أنه في هذه الحالة يندثر عقد الحكومات المنظمة ، ويرتد الذين يعيشون بعد هذه النكبة إلى عهد الهمجية القديمة البائدة .

أما الاحتمال الثالث ، وهو ظهور حكومة عالمية موحدة تسيطر على العالم جميعه ، فيمكن في رأي رسل تحقيقه بطرق مختلفة ، منها انتصار الولايات المتحدة في الحرب القادمة أو انتصار روسيا الشيوعية ، أو بطريق ثالث وهو الاتحاد والتراضي ، أو بتحالف الأمم التي تريد حكومة أممية والتي قد تصبح قوة لا تستطيع روسيا مقاومتها ، وقد يتم هذا بدون وقوع حرب ، ولكنه يحتاج إلى سياسة حازمة جريئة واسعة الخيال في أمم كثيرة .

وهناك حجج كثيرة توجه لنقد فكرة مشروع الحكومة الموحدة لجميع العالم ، أكثرها شيوعاً الحجة القائلة إن هذا المشروع خيالي وغير ممكن تحقيقه .

ويعتقد رسل أن سوء الظن المتبادل بين روسيا والغرب يجعل الأمل في اتحادهما في المستقبل القريب أملاً غير ميسور التحقيق ، وعلينا في رأيه أن نسلم بأن الحكومة العالمية لا يمكن إلا أن تفرض فرضاً بالقوة والعنف . ويقول رسل إن بعض الناس قد يتساءل : لماذا كل هذا الحديث عن الحكومة العالمية ؟ لقد حدثت حروب كثيرة في الماضي وقد بقي بعدها الجنس البشري ، فلماذا لا يبقى ويستمر إذا ظلت الحروب تنشب في المستقبل ؟ وفضلاً عن ذلك فإن الناس يحبون الحرب وبدونها يشعرون بأن نشاطهم معطل ، وبدون الحروب لا تتاح فرصة لأعمال البطولة والتضحية .

ويرد رسل على من يقولون هذا القول بأنهم لم يلقوا بالهم إلى الممكنات الفنية الصناعية الحديثة ، وهو يعتقد أن الحضارة لا تستطيع احتمال حرب إلا إذا قامت في القريب العاجل ولم يطل أمدها ، أما إذا تتابعت الحروب فإنها إذا لم تقض على البشرية فلا مفر من الارتداد إلى حالة الهمجية ؛ وهو يؤكد أن الذي يجنب الانسانية هذا المصير هو وجود حكومة عالمية تفرض نفسها بالقوة وتحتكر الأسلحة الهامة .

ويرى رسل أن الأحوال العالمية إذا ظلت في مجراها الحالي فمن الواضح أن التنافس بين روسيا والغرب سيظل على حاله حتى يصبح في حوزة روسيا العدد الكافي من القنابل الذرية ، ومتى تم ذلك فإن روسيا تغامر بخوض حرب ذرية ، وفي هذه الحرب يقضى على الغرب قضاء نهائياً ؛ وإذا بقيت بعد ذلك الولايات المتحدة وروسيا الشيوعية نشبت الحرب بينهما ، والمنتصر منهما هو الذي سيبسط سلطانه على العالم ، ويتحقق حينئذ وجود الحكومة العالمية ، وإذا لم يحدث ذلك فإما أن يقضى على الحضارة وإما أن يقضى على البشر .

وإذا انتصر أحد الطرفين فإن المنتصر سيحتكر السلاح ، وبذلك ينتفي وجود الثورات الناجحة ، وسيكون أفراد الأمة المنتصرة في مأمن من الخوف وطغيانه ، ومن المحتمل في هذه الحالة أن تهذب أخلاقهم وتقل ميلهم إلى الاضطهاد ، وعلى مدى الأيام يدخلون في رعايتهم الأمم المغلوبة كما صنع الرومان من قبل ، ويتحقق حينئذ وجود الحكومة العالمية ويُنسى أنها كانت مدينة في وجودها للحرب .

ويرى رسل أن عالماً تسوده الولايات المتحدة أو تحكمه روسيا الشيوعية خير من الفوضى الدولية الراهنة ، ولكنه يفضل أن تنتصر الولايات المتحدة ، لا لأن الرأسمالية خير من الشيوعية ، فهو يصرح بأن الولايات المتحدة لو كانت شيوعية وكانت روسيا رأسمالية فإنه سيكون في جانب الولايات المتحدة ... والسبب في ذلك أن الولايات المتحدة تحترم الأشياء التي يقدرها في الحياة المتحضرة أكثر من احترام روسيا لها ، لحرية الفكر وحرية البحث وحرية المناقشة وحرية الشعور مكفولة إلى حد كبير في الولايات المتحدة ، وانتصار روسيا يقضي على ذلك كله ، وهو يضرب مثلاً لذلك بولندة ، فقد كان بها جامعات مزدهرة ورجال من المفكرين الممتازين قُتل بعضهم منها واختفى البعض الآخر ، وقد أصبح التعليم فيها مقصوراً على تلقي أصول الشيوعية كما يفهمها استالين ، ولا يسمح بالتعليم هناك إلا للأولاد الذين لا يشك في ولاء آبائهم للنظام الشيوعي ، ولا يقصد بالتعليم هناك إنماء الملكات ، وإنما يقصد به تخريج من يحسنون ترديد الصيغ المحفوظة واكتساب رضاء الحاكمين ، فهو تعليم لا قيمة له ، وإذا استمر هذا النظام في بولندة فإنه سيقضي قضاء تاماً على العلم والفلسفة والفن والأدب ، ويصبح كل إنسان هناك لا يفكر لنفسه وإنما يكوّن مجرد وحدة في المجموعة ، وانتصار روسيا معناه أن يصبح العالم جميعه على هذا الطراز . ويقول رسل إن هذا هو الذي يخيفه من احتمال انتصار روسيا الشيوعية .

وعنده أن انتصار الولايات المتحدة سيكون أقل من ذلك وخامة عاقبة وسوء نتيجة ، لأن انتصار الولايات المتحدة لا يكون انتصارها وحدها ، وإنما انتصارها مع حلفاء لها ، وهؤلاء الحلفاء سيصرون على الاحتفاظ بجانب من تقاليدهم الاستقلالية ، ويصعب علينا تصور أن الجيش الأمريكي يلقي القبض على زعماء جامعتي اكسفورد وكيمبردج ويرسلهم إلى الأعمال الشاقة في ألسكا ، ومثل ذلك حدث في بولندة ، وبعد انتصار الولايات المتحدة سيظل هناك ثقافة بريطانية وثقافة فرنسية وثقافة إيطالية ، وآمل أن تظل هناك كذلك ثقافة ألمانية ، أي أنه لا يكون هناك هذه الرتابة المميتة التي تسود العالم إذا انتصرت روسيا الشيوعية .

ويرى رسل أن هناك فرقاً آخر هاماً ، وهو أنك في أمريكا تستطيع أن تكتب كتاباً تنال فيه من لنكولن إذا شئت ! ولكن في روسيا إذا كتبت شيئاً ينتقص من فضل لينين فإنك لا تجد من يجترئ على طبعه ونشره وتعرض نفسك للأذى والاضطهاد . وفي أمريكا تستطيع أن تكون مثالياً في الفلسفة أو مادياً أو من القائلين بالمنطق الوضعي أو تعتنق أي مذهب يحلو لك اعتناقه من المذاهب الفكرية ، ولكن في روسيا لا مفر لك من اتباع المادية الديالكتيكية ، وإذا قصرت في متابعة الفلسفة الرسمية التي تدين بها الدولة لقيت العنت واستهدفت للشدة ، واستالين وحده هو الذي يعرف الحق وعليك أن تتبعه ، وتغير رأيك إذا غير رأيه ، وتظل على رأيك إذا ظل على رأيه ولم يبد له أن يغيره ، وفي مثل هذه الحالة لا مفر من تدهور الحياة الفكرية ، وتعطل التقدم الفني الصناعي على مدى الأيام ، والحرية التي يحتقرها الشيوعيون ليست لازمة لجماعة المفكرين وحدهم ، وقد أدى فقدان الحرية في الاتحاد السوفيتي إلى ظهور تفاوت وعدم مساواة بين الطبقات ليس له نظير في بريطانيا ولا في الولايات المتحدة ! ومتى سيطرت على الصحافة والنشر طبقة خاصة فإنها تستطيع الإبقاء على المظالم وأعمال القسوة بالتستر عليها وعدم إذاعتها ، والتفاوت بين الطبقات موجود في كل مجتمع ولكنه يقل ويتناقص في النظام الديمقراطي ، ويزيد ويتفاقم في النظام الذي تسيطر فيه على الحكم طبقة خاصة .

ثم يتساءل رسل بعد ذلك عن السياسة التي يحسن اتباعها إزاء الأخطار التي تستهدف لها الإنسانية وهي :

١ — إبادة النوع الإنساني .

٢ — الارتداد إلى الهمجية .

٣ — وجود حكومة عالمية تستعبد الناس وتسومهم الذل والهوان ، والقضاء على التقدم فى المعرفة والفكر ، وهو يرى أن الخطر الأول والخطر الثانى مؤكد وقوعهما إذا لم تستطع الإنسانية إنهاء عهد الحروب والقضاء عليها ، ولا يتيسر ذلك إلا إذا ركزت القوة المسلحة فى يد سلطة مفردة ، ومثل هذا التركيز لن يكون وليد الاتفاق والتفاهم بسبب معارضة روسيا الشيوعية ، ولكن يلزم الحصول عليه بطريق آخر .

وعنده أن أول خطوة فى هذا الطريق الآخر هى إقناع الولايات المتحدة والإمبراطورية البريطانية بضرورة توحيد العالم توحيداً حربياً عسكرياً ، وتدعى الأمم الأخرى إلى الاشتراك فى هذا الحلف العسكرى وتعرض عليها شروط مغرية لقبول هذا التعاون الحربى ؛ وحينما يقوى هذا التحالف ويشتد ساعده تهدد الأمم التى تأبى الانضمام إليه بأنها ستعد خارجة على القانون ؛ وإذا وقعت حرب بعد ذلك فإن الولايات المتحدة لن يمسها سوء وينتصر الحلفاء ، ويمكن أن يستأثروا بعد ذلك بالاحتفاظ بالأسلحة الهامة ، وبذلك يسود السلام ، وإذا كان الحلفاء أقوياء ، فربما تغنيهم هذه القوة عن خوض غمار الحرب ، والدول المعارضة قد تؤثر السلامة وتنضم إلى هذا التحالف بدون حرب ، وإذا حدث ذلك أمكن العالم أن يتخلص من الأخطار التى تهدده بدون الالتجاء إلى حرب أخرى ، ولكن خضوع روسيا بلا حرب من الأمور التى لا أجترئ على أن أبدى فيها فكراً أو أقدم رأياً .

ويدرك رسل أنه قد أفرط فى التفزيع لنا بأشباح الحروب البيدة والأخطار الماحقة ، فيعتذر عن ذلك قائلاً إن هذا لازم لإخراجنا من نطاق تفكيرنا العادى الضيق المحدود ومقاومة ما عندنا من الأحكام السابقة والتعصب لآرائنا الملازمة لنا ؛ وإذا تجاوزنا منطقة الأخطار فإن أمام الإنسانية مستقبلاً باهراً وخيراً عميماً لم يعرف له نظير فى سوالف الأزمنة ؛ ولا يوجد الآن سوى دولتين مستقلتين استقلالاً تاماً وهما أمريكا وروسيا ، فإذا أصبحنا دولة واحدة انتهى عهد الحروب المنظمة الذى استمر ستة آلاف سنة ، وإذا بطلت الحرب دون أن يعم العالم الطغيان زالت المخاوف الجاثمة على صدر الإنسانية وقلت القسوة تبعاً لذلك ؛ ورسل يعد الخوف أهم أسباب القسوة على ما يظهر ؛ وزوال شبح الحرب يحول تفكير الإنسان إلى مقاومة المرض والفقر والجهل ويجعله يحصر جهده فى هذه الحرب الجدية ، والفكر البشرى قمين بالتغلب على هؤلاء الأعداء الثلاثة متى فرغ لها وركز جهوده فى مقاومتها .

والحرية خير ولازمة ، ولكنها ليست خيراً مطلقاً ، فنحن فى حاجة إلى كبح جماح القتلة ، والأهم من ذلك كبح جماح الحكومات المعتدية ، ولابد من قانون لتنظيم الحرية ، والعالم فى أمس حاجة إلى قوانين محترمة فعالة لتنظيم العلاقات الأممية ، والخطوة الأولى فى سبيل ذلك هى إيجاد الضمانات الكافية ، وهذا لا يكون ممكناً إلا إذا وجدت قوة واحدة مسلحة تسيطر على العالم جميعه ، وليست هذه القوة غاية فى نفسها وإنما هى وسيلة لإنشاء نظام اجتماعى خاضع لسلطان القانون لا تكون فيه القوة فى حيازة فرد أو أمة ، وإنما تكون فى حيازة سلطة محايدة خاضعة للقوانين الموضوعة ، ويرى رسل أن هناك أملاً فى أن القانون لا القوة الغاشمة سيسود العلاقات الأممية فى القرن الحالى ، وإذا لم يتحقق هذا الأمل واجه العالم الكارثة ، وإذا تحقق هذا الأمل أصبحت الدنيا أحسن مما كانت فى العهود الغابرة جميعها . ونحن نرجو أن يحقق المستقبل آمال رسل الزاهية ويجنب العالم مخاوفه المزعجة وتكهناته المظلمة الرهيبة .

فى أرشم

أبو مروان فى الجزائر

أخى أبا مروان ، تحية واحتراما .

قرأت رسائلك القيمة فى « الثقافة » عن المغرب ، كما قرأها كل متطلع إلى الاطلاع على ما يجرى فى هذا الجزء الهام من الوطن العربى الأكبر ، وأعجبت « بعاطفتك » الوطنية المتدفقة التى أملت عليك جانباً كبيراً من تصويرك لهذه البلاد التعسة المستعمرة إلى جانب ما أملاه عليك واقعها المؤلم فى هذا التصوير .

وأود أن تسمح لى — وأنا مغربى مثلك — أن لا أتركك تنحل بك هذه العاطفة الوطنية ما تريد ، وأن أمنعك من الاستسلام لها ، هذا الاستسلام المخيف الذى جعلك تنظر إلى بلادك — لا أقول نظرة يأس وسواد — بل نظرة قربتك ، موضوعياً ، من الخروج من الواقع القائم فيها . وخطر هذه النظرة ليس فى أن تنحل بها أنت فحسب ، بل فيما تسبغه على هذه البلاد من جلباب الموت والاندثار ، وتعرضها فيه على أنظار إخواننا فى الشرق العربى ، هذا العرض المهول الذى يدفعهم إلى اليأس منها والبكاء عليها والتحسر المر على « أندلس » ثانية أو ثالثة ، بعد فلسطين ، والحال أن ليس هناك من داع لكل هذا التهويل ، أو بالأحرى لم يعد اليوم من داع له . وأشهد أن لو جاءت رسائلك هذه قبل اليوم بنحو عشرين سنة لكانت أقرب إلى الواقع . أما أن تكتبها اليوم فى عهد انتفض فيه المغرب من أقصاه إلى أدناه انتفاضته الصادقة التى غيرت من معالمه النفسية والسياسية والعقلية وجميع مظاهره القومية — فأمر عجيب ..

وأزيدك توضيحاً لما أريد أن أقول : فلو كنت فى رسائلك القيمة قد التزمت التصوير الشامل وصورت عدستك المنظر بكل أجزائه الرئيسية ، والنشطة بعنف وثبت لكنت أقرب إلى النجاح وأميل إلى التوفيق إجمالاً . ولكن الخطر والخطأ معاً فى أنك قد أخذت بمناظر الخراب الفاجع الذى أحدثه الاستعمار فى بلادك ، فانصرفت إليه بحرارة قلبك تلتقط منه ما دق وجل ، ذاهلاً عن كل أثر من آثار الترميم والإصلاح والنهوض التى أخذ يعمل لها شعبك وحققها منذ سنوات طويلة شاقة مريرة .

نعم . إن الاستعمار — وخاصة فى بلادنا — كان تعميراً للذين استعمرونا بقدر ما كان تخريباً لنا ولوطننا . هذا أمر لا أتهمك فيه بشىء من المبالغة ، ولا يمكن لأى كان أن يحتاج فيه إلى مبالغة ، لأن واقعه قد تجاوز الخيال والمجاز . ولكن هل صحيح أن الاستعمار وآثاره هو كل شىء يمكن أن يرى فى هذه البلاد ؟ فأين هو رد الفعل المنتظر أو المفروض أن يحدثه فى الشعب استعمار فاحش شنيع من هذا الطراز ؟ هذا هو السؤال الذى تثيره رسائلك فى ذهن كل قارئ فى شرقنا العربى ، ولكنك لا تجيبه عليه . وسكوتك عنه يوشك أن يعطيه « صورة » — لا وجود لها — عن موت الشعب وخمود مقاومته فى عصر ميزته الرئيسية هى مقاومة الشعوب لكل طغيان وكل استعمار مقاومة لا هوادة فيها ولا يأس ولا تشاؤم .

أخى أبا مروان ، دعنى أحدثك بكل صراحة . إنك لم تعرف بلادك . وخليق بك والحالة هذه أن لا تكتب عنها ولو مذكرات لنفسك . ولآخذ لك بعض الأمثلة على ذلك — معفيك من التتبع المفصل لكل نوادرك التى أضحكت الكثير من مواطنيك فى هذه الرسائل .

فقد جاء فى رسائلك الرابعة عن الجزائر : أنك حاولت أن تتكلم العربية مع الجزائريين فلم تستطع التفاهم ... فما يعرفونه من العربية مزيج من البربرية واللكنة الفرنسية . وكيف تفهمهم وهم ينطقون بكلمتى محمد وعلى مثلاً : ممت وألى .

وقبل أن أصحح هذه الأغلوطة ، أود أن أقدم إلى القارئ ملاحظة يحتفظ بها لتيسر له بقية الحديث : صحيح أن الجزائر (العاصمة) قد تركزت فيها أكبر جالية فرنسية بالنسبة لبقية مدن القطر ، وبالنسبة أيضاً لبقية عواصم المغرب العربى . وكان من جراء ذلك أن اتخذت هذه الجالية قسماً هاماً من المدينة ، أقامت فيه البنايات الشاهقة

والمحلات الفخمة والإدارات الرئيسية ، وأصبحت تعتبر هذا القسم من المدينة الذى احتله احتلالاً — مدينة بذاتها ، مستقلة استقلالاً تاماً كما لو كانت فى أوربا . وبقى الجزء الآخر من المدينة جزءاً أهلياً خالصاً ، حيث يعيش المواطنون الجزائريون على طريقتهم الوطنية الشرقية الشائعة فى جميع أنحاء العالم العربى ، والشرق بصفة عامة ، حيث تنقسم المدينة هذا الانقسام البشع من جراء التقاء شعبين فيها ، لكل منهما عاداته وأسلوبه فى الحياة ومستواه من الرقى . وهكذا يكون فى كل مدينة أو عاصمة من عواصم الشرق الذى استعمره الغرب — بما فى ذلك المغرب — حى أهلى وحى أوربى ، أو حى جديد وحى قديم ..

ومن الطبيعى أن تنشأ — والكلام على الجزائر — علاقة ما بين الجزءين . وأن تتم هذه العلاقة لا عن طريق الاصطكاك بل عن طريق الأفراد . أفراد من كلا الجزءين المتقابلين كثيراً ما يشكلون هم أيضاً صنفاً ثالثاً يتأرجح بين الجزءين الرئيسيين لا هو شرقى جزائرى ولا غربى فرنسى ، بل مزيج من الاثنين . ومن الطبيعى أن يتغلب القسم الأقوى من هذا الصنف على القسم الأضعف — وهو فى حاجة إليه — فى عاداته ولغته وتصرفاته . أما الجزآن الرئيسيان فيبقيان فأنين كل على ساقه يتنفس الحياة بقدر ما يمد له الجو من عناصرها وعواملها . وهذا هو هيكل الجزائر التى استعمرها الفرنسيون — منذ ١٢١ سنة — وليسمح لى أبو مروان مرة أخرى — فلا أقول «استسلمت» منذ هذا التاريخ بل حاربت منه ١٧ سنة حرباً مريرة — لا مجرد ثورة — ثم وقع الاستسلام فيما بعد .

.. ويظهر أن هذا الصنف التعس الذى لا يكاد يبلغ فى مجموع الشعب الجزائرى نصف واحد فى الألف هو الذى شاءت الأقدار أن تضعه فى طريق أبى مروان ليأخذ منه نظرة — شاملة — عامة للشعب الجزائرى برمته ! أذكر بهذه المناسبة أنى التقيت مرة — وكان ذلك فى سنة ١٩٤٨ — فى إحدى إدارات الجامعة المصرية بالقاهرة بشاب نال شهادة الباكالوريا وأخذ يتهيأ للالتحاق بالجامعة كما علمت من حديثه . ولما عرف أنى مغربى ألقى على هذا السؤال : « والمغرب ده هو بتاع الملك عبد الله موش كده ؟ » وأخذت أفهمه بأن المغرب ليس فيه ملك عبد الله وإنما هو أمير عبد الله فى قطر آخر اسمه شرق الأردن .. وأذكر أننا كنا نتمشى — وقد خرجنا من الإدارة — فى ضواحى إحدى حدائق الجامعة عندما استوقفته ورسمت له فى الأرض كيف أن المغرب يقع غربى مصر ويتكون من أقطار كذا وكيت .. وأن شرق الأردن يقع شرقى مصر وفيه الملك عبد الله .

وبالرغم من أنى أعتقد أن هذا الشاب ليس هو الوحيد من بين شبابنا العرب « الباكالوريين » الذى يجهل جغرافية بلاده العربية الكبرى ، ولكنى مع ذلك لم يخطر ببالى حتى الآن أن أذهب إلى أن المصريين أو العرب قد فقدوا « قوميتهم الجغرافية » إن صح التعبير وأنهم لم يعودوا يعرفون شيئاً عن أوطانهم كما ذهب إلى ذلك بكل سهولة أخى أبو مروان ، من أن الجزائريين قد فقدوا قوميتهم لمجرد مصادفته بعض العمال البؤساء لا يتكلمون العربية كما يحب هو ويشتهى . ولا أقول لا يحسنون النطق بها ، وعجبت لذلك مدى من المبالغة قد وصل الكاتب بشير الدهشة حقاً .

ويقول الأخ أبو مروان إنه سافر إلى إحدى القرى الجزائرية فى الجنوب حيث كان يأمل أن يجد نفسه فى صميم الشعب الجزائرى ، وقال إنه وجد المرافق الاقتصادية الراقية كلها فى يد الأجانب ، وكنت أود أن لو تذكر فى هذه القرية ما إذا كانت هى أيضاً لا يعرف سكانها أن ينطقوا بكلمة محمد أو على أم هى عربية صميمة وكل ما ينقصها إنما هو الناحية الاقتصادية فقط ، وأنها ما تزال هى التى تمثل الشعب الجزائرى فى عروبته وسلامة نطقه وقوة تدينه .

إن مثل هذا المجال الواسع من الإبهام وعدم التحديد الذى تفسحه فى كتاباتنا التى نرسلها على علاتها هو الخطر بعينه فلا نعرف أين يبتدئ الجمال وأين يقف ولا أين تبدو معالم القبح أو تختفى .

ومن قبيل هذا الخلط أيضاً ما يعبر عنه الكاتب « باللغة القومية » وهو يعنى دون شك « اللغة الرسمية » فيقول : « فالبلاد بصيرورتها فرنسية رسمياً أصبحت فيها اللغة الفرنسية هى اللغة القومية » . وفرق كبير كما هو ظاهر بين اللغة الرسمية واللغة القومية ، إذ القومية هى التى يتكلمها القوم أى السكان أو الشعب . والرسمية هى لغة الدولة وإداراتها . ويمكن أن يتحقق الأمران معاً كما هو الحال فى الأمة المصرية أو الفرنسية ، ويجوز أيضاً أن تكون الرسمية لغة والقومية أخرى فى أمة واحدة كما هو الأمر بالنسبة إلى الجزائر . والنسبة أيضاً إلى تونس ومراكش إلى حد ما ، والنسبة إلى الهند والباكستان . فاللغة الرسمية فى الجزائر هى اللغة الفرنسية

حقاً . ولكنها ياعزيزي أبا مروان ليست هي اللغة القومية ، كلا ! إذ لو كان الحال كذلك في الجزائر — لغتها القومية هي الفرنسية وسكانها لا يمكن التفاهم معهم بالعربية ولا يحسنون النطق بمحمد وعلي — كيف كان يمكن مثلاً — ومثلاً واحداً — للأستاذ يوسف وهبي بك أن يقيم فيها بفرقته التمثيلية أسابيع وأسابيع وهو يمثل رواياته العربية في المجتمع الجزائري الذي أقبل عليه إقبالاً لا يقل عما وجده في المجتمع التونسي والمصري ، وكيف أمكن أن يكون له أصدقاء أفاضل يعتز بهم ويعتزون به ؟ .

وهناك نقطة هامة أخرى لا يجوز الخلط فيها إطلاقاً ، وهي هذه : « فليس لها — أي البلاد — أعياد قومية : عيد استقلال أو عيد دستور أو عيد ملك . وإنما تحتفل بيوم ١٤ يوليو ، عيد الثورة الفرنسية » .

فأي بلاد تعني ؟ هل تعني الشعب الجزائري أم الإدارة الفرنسية التي تحكمه ؟ إن الإدارة لا محالة تحتفل بهذا العيد وبغيره من الأعياد القومية وحتى الدينية لا في الجزائر وحدها بل في جميع أنحاء شمال إفريقيا ، وأما أن الشعب يشاركها في هذه الأعياد ، سواء في الجزائر أو في غيرها من مناطق المغرب العربي ، فأمر لم أشهده بعد .

فما عسى أن يفهم القارئ المصري والعربي من كلمة : « بلاد » غير الشعب والحكومة معاً ، وهو معذور عندما يقرأ جملة كهذه ويضرب يداً على أخرى ثم يقول واحسرتاه هذه أندلس أخرى . وكان في إمكان الأخ الكاتب أن يقتصر على تصوير الواقع كما هو فقط وأن لا يتجاوز القول مثلاً — بأن الإدارة الفرنسية لا تتحرج إطلاقاً في الاحتفال بأعيادها القومية في هذه البلاد كما لو كانت في بلادها الخاصة ، ويشاركها في ذلك أولئك الجنود البؤساء الذين تجلبهم للاستعراض كما تحضر موائدها المتخمة أدنابها من الأهالي . أما الشعب فليس له أعياد قومية ولكنه أيضاً لا يعرف شيئاً عن الأعياد القومية الفرنسية فضلاً عن المشاركة فيها .

ونقطة أخيرة لا أجيز لنفسي أن أتناساها ، هي حديثك عما نشأ من أجيال لا تعرف من الإسلام إلا اسمه ، وتعترف بإسلامها بصورة تقليدية لا تحمل معها معنى واضحاً أو شعوراً قوياً ! فإن كان الكاتب يقصد الإسلام كدين بجميع عناصره الفقهية والروحية والفكرية فأعتقد أن الأجيال الجزائرية الحديثة ليست هي وحدها التي ضعف فيها الشعور الديني من بين شباب العرب والمسلمين أو من شباب العالم أجمعه ، بل إن هذه الأجيال في الجزائر لم تفعل أكثر من أن اشتركت مع مثيلاتها من أجيال العالم في هذه « الميزة » المؤسفة ...

وأما أن يقصد بالإسلام تلك المجموعة المتشابكة من العرف الديني والتقاليد القومية والمواطف الوطنية التي تتداخل جميعها في أقطار المغرب العربي وتجند كلها لتكتيل قوى الأمة ضد عدوها المستعمر ، ويقول عنها إنها ضعيفة في الجزائر فغير صحيح .

فلعل الأخ أبا مروان لا ينسى مثلاً — ومثلاً واحداً أيضاً — أن الجزائر دفعت ٤٥ ألفاً من أبنائها في حوادث ماي ١٩٤٥ سقطوا بالرصاص وأصبحت بلادك على وشك الدخول في معركة تنتحر فيها انتحاراً — لم تضح بهم إلا في سبيل قضية دينية وقومية ووطنية جميعاً هي قضية العلم الجزائري الذي لم تجرؤ على التنازل عنه في مظاهراتها ، أو تموت دونه ، وحوادث باريس الأخيرة هي أيضاً في سبيل هذا العلم ، وقد قام بها العمال الجزائريون القاطنون في باريس وهم لا يعرفون العربية حقاً ، ولكنهم كتلة من الشعور الديني والقومي العنيف لا الضعيف .

أخي أبا مروان لا تسيء فهمي ، إني لا أتهمك بتعمد الإغراق في العاطفة الوطنية الذي دعاك إلى الإساءة إلى بلادك من حيث أردت النفع لها . وفي تعريفنا لإخواننا الشرقيين بقضية بلادنا وصلة هذه البلاد يجب أن نكون معهم — وهم جزء منا ونحن جزء منهم — صرحاء وواقعيين وموضوعيين أيضاً ، فلا يكفي أن نندفع في الإغراق والتهويل قصد إثارة شفقتهم علينا وتحسرهم لما أصابنا من فواجع وآلام ، ولا يكفي أن نبثهم شكوانا المحزنة من الاستعمار وآثاره التي تتقهقر يومياً إلى الوراء في بلادنا ، بل يحسن إلى جانب ذلك أن نعطيهم أيضاً صورة دقيقة سليمة عن كفاح شعبنا لهذا الاستعمار وانتفاضه المستمر ليزيل عن حياته الناشئة وإمكانياته المكبوتة آثار القهر والكبت والتعفن . واجبنا فيما نكتب أن نعرف إخواننا الشرقيين لا بمآسينا السوداء فقط ، بل وبأننا أيضاً قد أصبحنا لهم قوة في هذا الجناح الحساس من أفريقيا قد انبعثت إلى

خطرات أدبية

تأليف ستيفن ليكوك

فرغت من مطالعة كتاب « خطرات أدبية » للكاتب الكندي الفكه ستيفن ليكوك ، فألفيت فيه حديقة غناء طافحة بالدعابات الحكيمة ، والنوادر المرحة واللذعات الساخرة والملح اللطيفة، مما يكاد يطرق كل شأن من شئون الحياة ؛ فلا يملك القارئ إلا أن يهتز لها عجباً وطرباً . فستيفن ليكوك الذي خبر الحياة حلوها ومرها ، وهو أستاذ في إحدى الجامعات الأمريكية ، ثم وهو كاتب يشار إليه بالبنان في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، نجده ينتقل بنا في خضم الحياة الزاخر ، من أفق إلى أفق ، ومن لون إلى لون ، ملاحظاً منقباً متغلغلا إلى أبعد خلجات النفس البشرية واهتزازات العواطف ، فيصورها لنا جميعها بريشة فنان بارع . فهو تارة يصور شذوذ الإنسان العقلي أو الفكري ، وطوراً تقلبات النفس وما يعتورها من شطحات خيال ، وتصرفات غير مألوفة لا تصدر إلا عن مريض ، وتارة أخرى يرسم لنا دخائل هذه النفس وما تنطوي عليه من طمع وأثرة وغيرة وحسد ، وما يراودها من أحلام الغنى ، وحب الغنى والسيطرة ، والتمتع بالمباهج ، ضارباً على ذلك كله أصدق المثل ، مستخلصاً أبلغ العظات والعبر .

لقد قال أحدهم عن ليكوك إنه بز معاصريه جميعاً من الكتاب في إدخال المتعة على القلوب ، بحيث يمكن القول أنه من أعظم أصحاب النكتة في التاريخ . فكل نادرة من نوادره ودعابة من دعاباته تقوم — شأن كل نادرة ودعابة حقة — على أساس من الحكمة العميقة والمعرفة الصحيحة بدخائل النفس وأحابيبها الخفية . وقد أبى ناقد إلا أن يضع قصص ليكوك ولطائفه في مرتبة الأدب الرفيع (الكلاسيك) . وقد يكون ستيفن ليكوك في مقدمة أولئك الرواد الذين شادوا أسس النكتة في أمريكا الشمالية — هذه النكتة التي شاعت وتنوعت فأصبحت من مميزات هذا الشعب . ولئن كان بعض الملح الأمريكية يجافي أحياناً ما ، ذوق الشرقي ، بسبب اختلاف البيئة أو الطابع الفني الذي صبغت فيه النكتة ، فإن ستيفن ليكوك عرف كيف يصوغ طرفه وتحفه في قالب شامل مبتكر ، بحيث يسهل على الصيني مثلا إدراك مغازيها ، والارتياح لها بقدر ما يرى الأمريكي فيها مرآة صافية لطوايا نفسه ودخائل لبه .

ولا عبرة في أن الكاتب كان كنديا ، إذ أنه عاش في الولايات المتحدة حقبة من الزمن أستاذاً في جامعة ماكجيل Mcgill بشيكاغو ، وقد نشر معظم آثاره في المجلات والصحف الأمريكية .

فإذا تصفحنا الكتاب رأينا ألواناً من هذه الطرف تتصل كل واحدة منها بشأن من شئون الحياة أو مشهد من مشاهدها . وها أنا أسوق ثلاثة أمثلة منها فقط . ونحن لا يهمنا إن كانت هذه الموضوعات واقعية أم أنها من نسج الخيال ، بقدر ما يهمنا ملاحظته من ارتفاع ليكوك بها عن طابع التكلف والحذلقة ، فجاءت هينة طبيعية منقادة ..

فأول هذه المشاهد قضية ذلك الرجل الذي أراد أن يودع أمواله في البنك لأول مرة .. وفيها تصوير لشعور الخشية والتكتم الذي يلازم معظم الناس عند دخولهم البنك ، لاسيما إذا كانوا يدخلونه لأول مرة ، وما يرافق ذلك من حيرة

الحياة من جديد ، ووضعت رجلها في طريق النهضة مع سائر الشعوب الناشئة التي تسير نحو مستقبل ملئ بالعظمة حافل بالسؤدد والخير ، ولن تستطيع أية قوة أن تقف في طريق هذه الشعوب بما فيها شعبنا المناضل نحو غايتها المحتومة ، لأنها تسير بإرادة قانون التطور التاريخي .

وصدقني أخيراً — يا أخي أبا مروان — أن الجزائر لم يعد عليها من خوف بعد ما سارت مع الركب ، وأنها حريصة على أن لا تتخلف عنه ، وإن رابك منها شحوب في أديم قوميتها البادي فامكث فيها شهرين أو ثلاثة واتصل بأوساطها الوطنية ليدلوك على مكامن حياتها وانبعاثها ، فستعلم عندئذ أن العظم الذي يغطيه ذلك الأديم الشاحب هو عظم على عكس ما تتصوره من قوة البنيان وحرارة الحياة وسلامة الاتجاه ، والسلام عليك .

ع . س .

وازدياد من كثرة النماذج التي تعرض على المرء ، وللموظفين المختصين الذين يتعين عليه المرور بهم ، كل في دوره . ويقصد الرجل البنك فيلج باب البناء متردداً متلفتاً ، ويمم شطر المحاسب ليلتمس منه مقابلة المدير العام ... ثم تزل لسانه — وهنا عقدة النكتة — فيقول إنه يبغي مقابلة المدير على انفراد .. فتنبعث في أرجاء البنك حركة غير عادية ، ويقتاد الرجل إلى غرفة المدير فيرحب هذا به ويسأله عما لديه من معلومات ، حاسباً إياه أحد رجال البوليس السري ، وقد جاء ينذره من مؤامرة تحاك للسطو على أموال البنك .

ويسقط في يد الرجل ويتمتم قائلا : إنه ليس من رجال البوليس السري ، بل جاء ليودع أمواله في البنك . فيرتاح المدير قليلاً — وقد سري عنه — ويسأل الرجل عن قيمة الأموال التي ينوي إيداعها . فيجيبه هذا بأنها خمسة وستون دولاراً عداً ونقداً .. ! فينهض المدير وقد ضاق ذرعاً بالرجل ، ويأمر أحد المحاسبين باستلام المبلغ منه . غير أن الرجل لم يكد يودع الخمسة والستين دولاراً حتى فطن إلى أنه يعوزه إبقاء ستة دولارات منها معه ، كمصروف خاص ! فيستكتب المحاسب صكاً بهذه الدولارات الستة ليسحبها من الرصيد العام ويمسك بالصك ليوقعه — وهو في أشد حالات الاضطراب والخجل ، فيخطئ ويضع الرقم خمسة (٥) إلى جانب الرقم ستة (٦) فيصبح مجموع ما سيسحبه (٦٥) دولاراً ، وهو كل المبلغ الذي أودعه منذ هنيهة ! وفي غمرة هذه الورطة التي ألمت بصاحبنا تتراءى له فكرة التحدي والنزق كأن يظهر أمام موظفي البنك بمظهر من خدشت كرامته أثناء كتابة الصك الأخير ! فيعدل عن رأيه في إيداع أمواله ، ويطالب بسحبها كلها ..

ويسترد الرجل نقوده ويخرج من البنك لا يلوي على شيء ، ولكنه لم يكد يوصد الباب خلفه ، حتى رنت في أذنيه عاصفة قوية من الضحك ارتجت لها جوانب البناء ! ..

ومنذ ذلك الحين لم يعرف صاحبنا طريقه إلى البنك مرة أخرى ، بل كان يودع أوراق البنكنوت في جيب سراويله ، أما القطع الفضية فيلقي بها في جوربه ... !

أما القصة التالية فتصور لنا ما تعوده معظم شركات التأمين على الحياة من ترغيب وتشويق للناس ليؤمنوا على حياتهم . وليس القصد — طبعاً — النصيحة الخالصة ، بل الترويج للبضاعة .. وربما بلغ الحد ببعض الشركات أن تتغاضى عن بعض قوانينها التي تحتم مثلاً أن يكون المؤمَّن عليه سليم الجسم قويه ، في سبيل الحصول على (زبون) جديد . فستيفن ليكوك يرسم لنا هذه الصورة في قصته ويتندر على شركات التأمين ما شاء له التندر .

يقول : جاءني يوماً موظف من إحدى شركات التأمين عارضاً علي فكرة التأمين على حياتي ! وأنا رجل لا أطيق رؤية موظفي هذه الشركات ، إذ أن حججهم تنصب دوماً على أنني ميت يوماً ما ، الأمر الذي أخالفهم فيه كل المخالفة .. ! على أنني أرخيت هذه المرة للموظف العنان ، ورحت أشجعه وأستصوب آراءه وحججه ، إلى أن تركني وقد خلف لي وراءه رقعة طبعت عليها الأسئلة ، التي ينبغي لكل طالب للتأمين أن يجيب عليها . وهذا ما كنت أبتغيه ! إذ كنت قد عولت على أن أجيب على هذه الأسئلة ، إجابة قاطعة بحيث لا تترك في نفوس أصحابها مجالاً لأدنى شك في أمر صلاحيتي للتأمين على حياتي ، وهذا بعض ما أجبت عليه :

س : كم عمرك ؟ .
ج : لا أدري .
س : ما سعة صدرك ؟ .
ج : تسع عشرة بوصة .
س : ما هو امتداد صدرك ؟ .
ج : نصف بوصة .
س : ما طول قامتك ؟ .
ج : ست أقدام وخمس بوصات إذا سرت منتصباً ، وأقل منها إذا مشيت على الأربع .. !
س : هل جدك ميت ؟ .
ج : في الواقع نعم .
س : ما سبب موته ؟ .
ج : التسمم بسبب إدمان الخمر ..
س : هل والدك متوفى ؟ .
ج : أجل .
س : سبب الوفاة ؟ .
ج : السُّعْر (داء الكلب) .
س : ما هي الأمراض التي أصبتم بها ؟ .

ج : فى عهد الطفولة أصبت بالتدرن والبرص وماء الركب ، وفى عهد الرجولة بالشيزوفرينيا، المعدة وشقطة الدماغ ..

س : هل لك أشقاء ؟ .

ج : ثلاثة عشر ، مات معظمهم ..

س : هل أنت ميال إلى تناول بعض المواد التى قد تعجل فى انتهاء أجلك ؟

ج : أجل ، فأنا أحتسى الخمر ، وأدخن وأتعاطى المورفين فضلاً عن أنى تعودت أن أبلع بزر العنب وأكره الرياضة ..

لقد كنت أظن عند بلوغى نهاية القائمة أنى قد فرغت إلى الأبد من هـذا الموضوع وأنه سيكون آخر العهد بينى وبين شركات التأمين . ثم قمت فأودعت الرقعة فى البريد ، مرفقاً إياها بحوالة مالية بقيمة المدفوع لثلاثة أشهر مقبلة ، وأنا واثق من أن المبلغ سيُرَدُّ إلىَّ قريباً . ولـكنى فوجئت بعد بضعة أيام بوصول هذا الـكتاب من الشركة :—

سيدى العزيز .

تسلمنا كتابكم المتضمن الطلب للتأمين على الحياة مع خمسة عشر دولاراً قيمة الاشتراك لثلاثة أشهر . وبعد المقابلة الدقيقة لأضبارتكم مع متوسط نسبة المستوى العصرى يسرنا أن نقبلكم « كمجازفة » فى الدرجة الأولى .. ! !

أما المشهد الثالث والأخير فيصور لنا الكوك فيه الرجل الذى يريد أن يصنع معروفاً فيسف فى الـكرم ويتبذل فيفسد معروفه عليه ويصبح الـكرم برماً به ، صدوفاً عنه .

قال : كنت واقفاً ذات مساء على ناصية الشارع لأشعل سيجارتى ، إذ لم أكن أحمـل ثقاباً . فمر بى رجل محتشم فسألته إن كان معه عود ثقاب فأجابنى : « عود ثقاب ؟ بلى ، بلى » ثم حلَّ أزرار معطفه ، ووضـع يده فى جيب صدرته وهو يقول : « أنا عالم بوجود عود هنا .. وأكاد أقسم أنه فى الجيب السفلى ، أو لعله — انتظر لحظة — لعله فى الجيب العلوى .. اصبر حتى أضع هـذه الرزم على الرصيف .. ! »

فقلت له ملاطفاً : لا تزعج بالك ياسـيدى ، فالمسألة لا قيمة لها .

أجاب : العفو ، .. فلا تعب ولا إزعاج .. سأخرجه حالا ، فأنا موقن بوجود عود ثقاب معى .. فى مكان ما .

ثم أخذ يغرز يديه فى جيوبه مفتشاً إلى أن قال :

— ولـكن هل علمت أن هذه ليست الصدرية التى تعودت ارتداءها كل يوم .. !

ورأيت الاضطراب قد أخذ يبدو على وجه الرجل فقلت له محتجاً :

— إذا كانت هذه الصدرية التى لم تعود ارتداءها ، فـكيف تبغى العثور على عود الثقاب ؟ لا بأس ياسيدى واعفنى .

أجاب : على رِسْلك ياهذا ! لابد من وجود واحد من هاته العيدان اللعينة فى مكان ما هنا .. أظنه عنـد ساعتى .. ها .. إنه ليس هناك . قف لأنظر فى سترتى .. هلاَّ عرف ذلك الخياط المخزى كيف يصنع جيوباً الناس يستطيعون الوصول إليها .. !

وبدا الرجل مهتاًّ منهمكاً ، وقد ألقى بعصاه على الأرض وأخذ يقلب جيوبه ، وقد صك بأسنانه ثم زفر قائلاً : هـذه نتيجة عادى ذلك الولد الخبيث ، فى العبث بجيوب أبيه .. فوالله لأؤدبنه عند رجوعى إلى البيت.. والآن أرجو منك أن تمسك قليلاً بذيل معطفى ، فأنا أراهنك على أنه فى جيبى الخلفى

فرجوته مرة أخرى قائلاً :

— دع عنك كل هذا العناء ياسيدى ، فالمسألة أهون مما تصور . أريد أن تخلع معطفك ياسيدى .. بالله عليك لا تفعل ! . ثم أرجو ألا تلق بأوراقك هكذا على الثلج . وألا تشق جيبك على هذا النحو .. أرجو منك ياسيدى ألا تدوس على معطفك .. وألا تضع قدميك وسط هذه الرزم .. لشد ما يؤلمنى أن أسمعك تسب ذلك الطفل الصغير ابنك ، وما أستبينه فى صوتك من رنة التوعد . . .

وفجأة انطلقت من فم الرجل زفرة ارتياح واستبشار ، وهو يجلب يده من تحت بطانة سترته منادياً :

— وجدته ..! وجدته ..! هاك إياه . .

ثم تقـدم نحو المصباح ليستبين الشىء ، فإذا هو عود (الكنس) الأسنان !!

وعلـكتنى سورة من الحنق ، فقذفت به فى وجه عربة كانت مسرعة نحونا ولذت بالفرار ! .

بسام فائق

مستوى الأسعار فى القرن الأول الهجرى

للدكتور صالح احمد العلى

لقد أدت الفتوحات الإسلامية إلى توحيد الشرق الأوسط تحت ظل امبراطورية واحدة كانت تتبع من حيث المبدأ على الأقل، سياسة حرية التجارة، فأطلقت مبادلة السلع بين مختلف مقاطعات امبراطوريتها، ولم تحتكر تجارة أية بضاعة أو تمنع مبادلتها، لا بل سمحت حتى لتجارة السلع التى يحرمها الإسلام كالخمر[1]، وجبت من بيعها الضرائب[2].

وقد أتاحت هذه السياسة لبعض الأشخاص فرصة احتكار بعض السلع[3]، غير أن احتكاراتهم كانت فى الغالب عملية موقتة فردية لا تدعمها امتيازات حكومية؛ لذلك لم يكن لها تأثير دائمى على الأسعار أو شامل لكافة أنحاء الإمبراطورية. والحق أن الناس كانت تنظر لمثل هذه الاحتكارات الفردية بشىء من النفور، كما يتجلى ذلك من الأحاديث الكثيرة المروية عن الرسول فى ذم الاحتكار[4] والتى يمكن اعتبارها أيضاً صدى لموقف المسلمين تجاه الاحتكار.

وكان من نتائج توحيد الشرق الأوسط أن أصبحت للامبراطورية الإسلامية فى نظامها النقدى عملتان، هما الدينار الذهبى البيزنطى الذى كان يزن مثقالاً واحداً[5]، والدرهم الفضى الساسانى الذى كان يزن، قبل أن أنقص الحجاج عيار العملة، مثقالاً واحداً أيضاً[6]، أى أنه كان يعادل

(١) الأموال لابن سلام ص ٩٦ — ١٠٢٤٧ — ٦ مدونة مالك ج ٣ ص ٤٠٠؛ طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢٦٩.

(٢) ابن سعد ج ٥ ص ٢٨٠.

(٣) راجع عن احتكار مروان بيع الحبوب فى المدينة أنساب الأشراف للبلاذرى ج ٥ ص ٢٩ تاريخ الخميس للديار بكرى ج ٢ ص ٢٩٩؛ وعن احتكار سعيد بن المسيب النوى والخبط والبزر فى المدينة سنن أبى داوود كتاب البيوع باب فى النهى عن الحكرة

(٤) راجع هذه الأحاديث ومواطنها من كتب الصحاح فى الفهرس المفصل للأحاديث النبوية طبع فنسنك.

(٥) أنظر والكر ٧١١ CXL

(٦) راجع عن الدرهم الوافى فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٦٥ وكذلك كتالوج النقود الإسلامية لوالكر ص ٧١١ CXL

وزن الدينار الذهبى ويسمى وافياً. وكانت العملة[1] الذهبية سائدة فى القسم الغربى من الإمبراطورية، أما العملة الفضية ففى الشرق، وبناء على سياسة حرية التجارة التى اتبعتها الدولة، فقد أبيح نقل كل من العملتين إلى القسم الآخر الذى لم يكن يستخدمه من قبل؛ ولم تقيد الدولة هذا النقل أو تفرض لتبادل المعدنين سعراً رسمياً؛ لذلك لم تكن نسبة سعر الفضة إلى الذهب ثابتة؛ فقد كانت نسبة سعرها إلى الذهب فى زمن النبى فى الحجاز ١٠ — ١ ثم نزلت فى زمن عمر وعثمان إلى ١٢ — ١[2] ثم عاد سعرها منذ زمن على يرتفع. ومع أننا لا نستطيع أن نعين بالضبط التدرج الزمنى لهذا الارتفاع[3]، إلا أنه يبدو أنه وصل فى زمن الحجاج حداً خطيراً اضطر معه هذا الوالى الحازم إلى أن ينقص وزن

(١) لم يسك الساسانيون المتأخرون نقوداً ذهبية، أما البيزنطيون فقد كانوا يسكون الفضة ولكنهم توقفوا عند الفتح الإسلامى راجع كتالوج النقود البيزنطية لروث ص ٧١ LXX والعملة فى مصر الرومانية والبيزنطية لجونسن ووست.

(٢) يمكن الاستدلال على نسبة تبادل المعدنين من الدية التى حددها عمر بألف دينار أو اثنى عشر ألف درهم (الخراج لأبى يوسف ص ٩٢ مسند أبى حنيفة ج ٢ ص ١٧٩ تفسير الطبرى ج ٤ ص ١٢٣ — ٤ وكذلك فى كتب الحديث ابن حنبل ج ٥ ص ٣٢٧ ابن ماجه ج ٢ ص ٧٢ ترمذى ص ٢٣٨ النسائى ج ٢ ص ٢٤٧ — ٨) وهذه النسبة يؤيدها ما روى من أن الحد الأدنى الذى يلزم قطع يد السارق زمن عثمان كان ربع دينار أو ثلاثة دراهم (الأم للشافعى ج ٦ ص ٣٤ سنن أبى داوود ج ٤ ص ١٣٦، الموطأ لمالك ج ٢ ص ١٧٢، المدونة ج ٤ ص ١٨٤). ومن الجدير بالملاحظة أن نسبة سعر التبادل بين الفضة والذهب فى الشرق الأوسط ظلت مدة طويلة قبل الإسلام تتراوح بين ١٢ — ١٥ — ١ أنظر مقال هايشلهايم ضوء على العملة والتضخم لمصر فى مجلة التاريخ الاقتصادى سنة ١٩٣٢ وكذلك جونسن ووست ص ١٠٨.

(٣) لقد بدت عوارض الأزمة تظهر منذ ولاية مروان ابن الحكم المدينة فى عهد معاوية. أنظر فتوح البلدان ص ٤٢٠ والأحكام السلطانية للماوردى ص ١٤٩.

الدرهم المتعامل إلى ٧/١٠ من المثقال(١) وبجبر الناس على قبول هذا ، أي أنه فرض سعراً رسمياً للعملة . وربما أخذ الحجاج هذه النسبة مستنداً على سعر السوق للفضة بالنسبة إلى الذهب ، ولا ريب أن سعر العملة يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار عند دراسة مستوى الأسعار في مختلف أنحاء الإمبراطورية .

وليس هناك دليل واضح يثبت أن الدولة الإسلامية في القرن الأول الهجري كانت تفرض تسعيرة رسمية للسلع بصورة مباشرة ؛ وتروى عن النبي أحاديث تشير إلى أنه أبى أن يفرض تسعيرة إجبارية للمواد الغذائية الضرورية في فترة صعد فيها الغلاء المدينة وقراها(٢) . ولا ريب أن تأكيد الرواية على ذكر هذه الأحاديث يمكن أن يتخذ كمثل لموقف الدولة تجاه التسعيرة الإجبارية .

على أن بعض التدابير التي اتخذتها الدولة كان من شأنها أن تؤثر في تحديد الأسعار بطريقة غير مباشرة ؛ فقد كانت مثلاً تجبي ضرائبها من الزراع بالنقد والعين ، أي أنها كانت تأخذ مع النقود منتوجاتهم العينية ، وبذلك تخفف على الفلاحين بعض الأعباء فلا يضطرون إلى بيعها بأسعار رخيصة لدفع الضريبة . ولما كانت ضرائب الدولة ثابتة فقد كان هذا يؤدي إلى ثبات الأسعار بعض الشيء . ثم إن الدولة كانت تدفع إلى المقاتلة وعيالاتهم وهم لا يقلون عن المليون بأي حال ، مقداراً معيناً ثابتاً من العطاء مما حدد قوة الشراء لهؤلاء المقاتلة العرب المستهلكين . ثم إنها كانت توزع عليهم القمح والزيت مجاناً . الأمر الذي ضيق مجال التلاعب في أسعار هذه المواد الضرورية للمعيشة والتي كانت أهم منتوجات الشرق الأوسط(٣) . والواقع أننا لا نسمع بحدوث تغيرات كبيرة في الأسعار حتى زمن عمر بن عبد العزيز . على أن هذا لا يعني عدم وجود تغيرات موسمية أو محلية موقتة في الأسعار .

(١) فتوح البلدان ص ٤٦٦ ولكر ٧١١ CXL . ومن الجدير بالملاحظة أن الدرهم الجديد جعل في سكه في خراسان سنة ٧٢ ثم في دمشق سنة ٧٤ ثم في العراق سنة ٧٥ (ولكر CXXXIX مما يدل على أن الأزمة كانت عامة في أنحاء الامبراطورية . وسنتحدث عنها بالتفصيل في مقال آخر .

(٢) الخراج لأبي يوسف ص ٤٩ .

(٣) الخراج لأبي يوسف ص ٧٦ .

ومن الملاحظ أن الإمبراطورية الإسلامية الواسعة كانت تضم مدناً تخصص بعضها في صناعات معينة أو منتوجات خاصة ، ولا بد أن أسعار هذه المنتوجات كانت أرخص في البلاد التي أنتجها . غير أنه لسوء الحظ ليست لدينا معلومات مفصلة عن الأسعار في هذه البلاد المنتجة ، اللهم ما عدا مصر التي لدينا عنها معلومات طيبة بفضل أوراق البردي . ويتضح من أوراق البردي المعروفة بمجموعة قروديق والتي درسها ادريس بيل أن سعر رأس الغنم كان نصف دينار ، والبصل ١٢ اردباً بدينار ، والخضراوات ٦٠٠ إقة بدينار ، والزبيب اردبان بدينار . أما الحبوب فكانت أسعارها تتراوح بين ١٠ — ١٣ اردباً بدينار(١) .

أما البلاد العربية والأمصار التي سكنها العرب والتي كانت مراكز استهلاكية تستورد البضائع والسلع من المراكز الإنتاجية ؛ فإنه توجد عن الأسعار فيها معلومات غير قليلة مبعثرة في ثنايا الكتب العربية ، وقد حاولت في مقالي هذا أن أنظم قائمة لأسعار المواد آنذاك ، ولا بد لي أن أقرر أن هذه الأسعار كانت في الأمصار الإسلامية ، ولا بد أن تكون أغلى قليلاً من أسعار المناطق الإنتاجية .

أما أسعار الحنطة في القرن الأول فمن الغريب أنه لم يذكر سعرها في الأحوال الاعتيادية ، ولم يرد عنها إلا خبران يذكران سعرها في حالات غلاء شاذة ، أحدهما ما ذكره الواقدي من أن الحنطة ارتفعت أسعارها عند حصار الحجاج لمكة (سنة ٧٠ هـ) حتى بلغ سعر المد درهمين(٢) ؛ والآخر ما رواه ابن عياش عن سعر الحنطة في العراق زمن خالد القسري حوالي (١٢٣ هـ) حيث بلغت الكيلجة درهماً بنتيجة تلاعب الخليفة هشام في الأسعار(٣) . ولعل سكوت المؤرخين عن ذكر أسعار الحبوب برغم أهميتها في المعاش يرجع إلى أن الدولة كانت توزعها على العرب بالمجان ، الأمر الذي جعلها لا تلعب دوراً في الحياة الاقتصادية في الأمصار ، ولذلك أغفل الرواة ذكر أسعارها .

(١) أوراق البردي الأغريقية في المتحف البريطاني ترجمة وطبع ادريس بل ج ٤ ص ١١١ v XXX .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري طبع أهلورت ص ٣٤ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ١٦٥٨ (طبعة أوربا) .

غير أنه يمكن أخذ فكرة تقريبية لأسعار الحنطة في هذا القرن من الاطلاع على أسعارها في القرن الثاني الهجري حيث كان سعر الحنطة في الموصل زمن الرشيد يبلغ ٣٠ درهما للجريب (٨٠ كيلو) وسعر الشعير ٢٠ درهما[١] ؛ وكانت أسعارها في بغداد زمن المأمون (سنة ٢٠٤ هـ) ٣٥ درهما للجريب[٢] . وهـذا السعر يقارب معدل سعر الحنطة في الإمبراطورية البيزنطية طيلة العصور الوسطى[٣] .

أما الزيت فكان سعر القسط منه يساوي ٩ دراهم في الجزيرة زمن معاوية[٤] .

●●●

أما أسعار الحيوانات فيمكن استنتاجها من الدية التي حددها عمر بألف دينار أو اثني عشر ألف درهم أو مائة من الإبل أو مائتين من البقر أو ألفين من الشاء[٥] . ومعنى هـذا أن سعر البعير كان ١٢٠ درهما ، والبقرة ٦٠ درهما ، والشاة ستة دراهم . ويؤيد ما تذكره كتب الفقه والحديث في الزكاة أسعار الغنم ، إذ يقولون إن أهل الغنم يمكنهم أن يدفعوا المصدق شاة أو خمسة دراهم[٦] .

ويروي الشافعي في الأم أن جملا بيع زمن عمر بمائة وعشرين درهما[٧] ؛ ولا ريب أن هـذه الأسعار يجب أن ينظر إليها كمعدل ، إذ أن أسعار الحيوانات تختلف باختلاف أعمارها ونوعيتها وقوتها ، ويمكننا أن نستنتج من التفاصيل الواردة في ضريبة الزكاة على الماشية ، أن الإبل يزداد سعرها عشرة دراهم كلما زاد عمرها سنة[٨] .

---

(١) تاريخ الموصل للأزدي ج ٢ ص ٢٣٨ مخطوط ، المتحف البريطاني .

(٢) دي غويه في تعليقه على ترجمة كتاب الخراج لقدامة ابن جعفر ص ٨ .

(٣) اندرياديس في مقاله عن ثروة الفقراء النقود البيزنطية منشور في مجلة بزنطيوم سنة ١٩٢١ .

(٤) كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ص ١١٠٣ (المخطوط باريس) .

(٥) أنظر المصادر المذكورة في التعليق ٨ .

(٦) أنظر مثلا الأموال لابن سلام ص ٣٧١ — ٢ .

(٧) كتاب الأم ج ٢ ص ٢٥٩ . ويذكر البخاري في الكتاب ١٤ باب ٤ أن جملا بيع بمائتي درهم ، كما يروي مالك أن جملا بيع بـ ٤٠٠ درهم (موطأ ج ٢ ص ١٢٥) .

(٨) أنظر مثلا في كتب الفقه أبواب زكاة الماشية : كالأموال لابن سلام ص ٣٠٨ فما بعد .

أما الخيل فلما كانت ضريبة الزكاة المفروضة عليها عشرة دراهم[١] ، وهي تعادل واحداً من أربعين من سعرها الأصلي ، لذلك يمكن اعتبار سعرها ٤٠٠ درهم ، ولا شك أن الخيول الأصيلة كانت أسعارها أعلى من هذا بكثير .

●●●

أما العبيد العاديون فكانت أسعارهم تبلغ في الجزيرة العربية زمن النبي وبعده حوالي ٤٠٠ درهم ، كما يدل على هذا الغرامة التي فرضها النبي على إسقاط الجنين[٢] ، والفدية التي حددها عمر لتحرير المسترقين من العرب[٣] ، على أن هناك إشارات غير قليلة إلى عبيد بلغت أسعارهم في المدينة ٨٠٠ درهم آنذاك[٤] . ولا ريب أن أسعار العبيد تختلف باختلاف أصلهم وجنسهم وسنهم وتربيتهم ومدى العرض والطلب عليهم ؛ وقد نقل الأغاني نصاً يبين اختلاف أسعار العبيد باختلاف مواهبهم ، فهو يقول إن الشاعر نصيب ، وكان عبداً نوبياً ، أدخل على عبد العزيز بن مروان وقدمه المقومين فقال : قوموا غلاماً أسود ليس به عيب . قالوا : مائة دينار ، قال : إنه راع للإبل يبصرها ويحسن القيام عليها . قالوا حينئذ : مائتا دينار ؛ قال : إنه يبري القسي ويثقفها ويبري النبل ويريشها ، قالوا : أربعمائة دينار . قال : إنه راوية للشعر بصير به ، قالوا : ستمائة دينار ، قال : إنه شاعر لا يلحق حذقاً ، قالوا : ألف دينار ، قال : ادفعوها إليه[٥] » . وقد بيع عكرمة مولى ابن عباس بأربعة آلاف درهم[٦] ، وبيع عبد لعبد الله ابن جعفر بعشرة آلاف درهم[٧] . أما سلامة فقد اشتراها الوليد الثاني بعشرين ألف درهم[٨] ، وحبابة بألف دينار[٩] .

---

(١) الآثار لأبي يوسف ص ٨٧ — الآثار للشيباني ص ٤٢ ، الأموال لابن سلام ٤١٦٠ ابن سعد ج ٥ ص ٢٢٢ .

(٢) المدونة ج ٤ ص ٤٨٤ .

(٣) ابن سلام ص ١٣٤ فتوح البلدان ص ١٠٤ .

(٤) المدونة ج ٣ ص ٣٢٧ ، ٣٣٦ — الجامع للشيباني ص ٢٥٤ — مسانيد أبي حنيفة ج ٢ ص ١٤ النسائي ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٥) الأغاني ج ١ ص ١٢٨ .

(٦) ابن سعد ج ٥ ص ٢١٢ .

(٧) صحيح مسلم ج ١ ص ٤٤٠ .

(٨) أغاني ج ٨ ص ١٠ .

(٩) أغاني ج ١٣ ص ١٤٩ راجع كذلك ،

ومع أن الفتوحات الإسلامية قد أدت إلى ازدياد العبيد المأخوذين من أسرى الحروب ، غير أنه ليس هناك دليل على أن أسعارهم انخفضت بازدياد عددهم ؛ ولعل هذا يرجع إلى أن هذه الفتوحات رافقها رخاء اقتصادى وازدياد الطلب على العبيد لاستخدامهم للخدمة فى البيوت أو فى الزراعة والصناعة والتجارة . والواقع أن العبيد لعبوا دوراً كبيراً فى الحياة الاقتصادية فى صدر العصر الإسلامى نرجو أن نشرحه فى مقال آخر . ويكفى أن نقول هنا إن مهارة بعض العبيد ونشاطهم وما كانوا يجنونه لأسيادهم من أرباح قد أدى إلى ارتفاع أسعارهم ارتفاعاً كبيراً ، ويتبين ذلك من المبالغ الطائلة التى كانوا يدفعونها فى مكاتباتهم للحصول على حريتهم .

وقد ذكر ابن حبيب البكرى أسماء عدد من هؤلاء العبيد وما دفعوه فى المكاتبات ؛ ففى الكوفة ذكر أسماء ثلاثة دفع كل منهم سبعين ألف درهم للحصول على حريته ، وستة آخرين دفع كل منهم خمسين ألف درهم ، واثنين دفع كل منهم أربعين ألف درهم وخمسة دفع كل منهم ثلاثين ألف درهم ، وعبدين دفع كل منهما عشرين ألف درهم مكاتبة للحصول على حريتهم . أما فى البصرة فقد ذكر اسم عبدين دفع كل منهما مائة ألف درهم مكاتبة ، وثلاثة آخرين دفع كل منهم خمسين ألف درهم ، وعبد آخر دفع أربعين ألف درهم مكاتبة للحصول على حريته ، وذكر أيضاً عبداً آخر دفع ثلاثين ألف درهم لمكاتبته[1] . ولدينا من الحجاز أخبار عن أبى سعيد المقبرى وأفلح اللذين كوتب كل منهما على أربعين ألف درهم[2] .

ولا شك أن هذه الأرقام العالية للمكاتبات لا تدل على الأسعار الأصلية للعبيد عند شرائهم ؛ إذ أن القوانين الإسلامية أباحت للأسياد أن يفرضوا ما يشاءون من المبالغ على عبيدهم فى المكاتبة بصرف النظر عن أسعارهم الأصلية أو الحالة الاقتصادية أو قدرة هؤلاء العبيد على الدفع ، وكثيراً ما كان هؤلاء العبيد يضطرون إلى استجداء الناس للحصول على مبالغ المكاتبة[1] . ثم إنه من المحتمل أن الأرقام العالية المذكورة آنفاً للمكاتبات هى أرقام شاذة ، وأن أغلبية المكاتبين لم يكونوا ليدفعوا مثل هذه المبالغ الضخمة .

● ● ●

أما الألبسة والمنسوجات فكانت أسعارها تختلف اختلافاً كبيراً تبعاً للمواد المصنوعة منها والمهارة الفنية فى صنعها وتطريزها ؛ فسعر القميص العادى من القطن فى زمن على بن أبى طالب كان يتراوح بين ٣ــ٤ دراهم[2] ، وقد قدر ثمن قميص الحسن البصرى بستة دراهم[3] ، وقميص عمر بن عبد العزيز بأربعة عشر درهماً[4] ، وكلها ولا ريب مصنوعة من منسوجات اعتيادية رخيصة .

أما الألبسة المترفة ، وخاصة المصنوعة من الخز والحرير ، فقد كانت أسعارها أغلى من ذلك بكثير ، فالبرد اليمانى[5] والطيلسان الكردى[6] كان يساوى كل منهما مائة درهم ، أما مطرف الخز فيبلغ سعره عادة خمسمائة درهم[7] ، وإن كانت لدينا أخبار عن بعض ثياب يبلغ ثمنها سبعمائة أو يزيد[8]

صالح أحمد العلى

---

(١) المحبر لمحمد بن حبيب البكرى ص ٣٤٠ — ٨ .

(٢) أنظر الأم ج ٦ ص ٣٦٤ ، ٤٠٤ تفسير الطبرى ج ١٨ ص ٨٩ — ٩١ ابن سعد ج ٥ ص ٦٢ حلية الأولياء للأصبهانى ج ١ ص ٤٩٢ .

---

(١) تفسير الطبرى ج ١٠ ص ١٠٠ أنظر أيضاً مسند ابن حنبل ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) أنساب الأشراف ص ٤٣٨ ا (مخطوطة باريس) حلية الأولياء ج ٢ ص ١١٣ ابن سعد ج ٣ قسم ا ص ١٨ .

(٣) عيون الأخبار ج ١ ص ٢٥١ ابن سعد ج ٧ قسم ١ ص ١٢٤ .

(٤) ابن سعد ج ٣ ص ٩٢ مروج الذهب ج ٥ ص ٤٢٤ أغانى ج ١ ص ١٣٤ .

(٥) ابن سعد ج ٣ ص ٣٩ .

(٦) ابن سعد ج ٤ ص ١٢١ .

(٧) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٩٢ ، ج ٤ قسم ١ ص ١٢٧ . ابن سعد ج ٥ قسم ١ ص ٥٠ ، ١٦١ ، ٢٤٦ .

(٨) أغانى ج ١ ص ١٥٢ أنساب الأشراف ج ٢ ص ١٣٠ (مخطوطة دار الكتب) حلية الأولياء ج ٤ ص ١٥ الأشربة لابن قتيبة ص ٨٢ .

نقد

مصر الخـــــالدة

تأليف الأستاذ حسن بك جوهر

للأستاذ موسى الطاوى

لم يكن المؤرخ الشهير العلامة برستد مبالغاً يوم قال : « إن المدقق فى تاريخ العالم لايرى مناصاً من القول بأن مصر أم للمدنيات والحضارات على الإطلاق » .

فقد قامت هذه الحضارات على ضفاف النيل الوادع الجميل منذ آلاف السنين ، فأشرقت شمسها على ظلام العالم البائد ، المكبل بوحشيته وهمجيته وانحطاطه ، فما أسرع « ما قبستها أثينا ومشت على هدى منها روما ، وشع منها نور على العالم القديم »(1) .

فى ذلك الوقت الذى قامت فيه هذه الحضارة الخالدة التى بهرت عالمنا هذا الحديث ، وبلغت من العمر مئين عدة من السنين ، لم تكن يونان يومئذ سوى تجمعات من القبائل البربرية بلغت من البؤس والوحشية مبلغاً ضربت به الأمثال ، وقل مثل هذا فى سائر ما عرف التاريخ من أناس فى أرجاء المعمورة . فى هذا الوقت كانت مصر ترفل مزهوة بمدنها الآهلة ، ومبانيها الرائعة ، وزراعاتها المبتكرة ، وصناعاتها الفريدة ، وتجاراتها الواسعة ، وثقافاتها المتعددة ، ومدنياتها الخالدة التى كانت وما تزال مهبط الأفئدة وبهر الأبصار ، وموضع الإعجاب والدهش فى كل بقاع العالم ، وعن هذه المدنية العظيمة أخذت جميع المدنيات ، حتى إن كلية معبد (رع) الدينية بلغ عدد طلابها اثنى عشر ألفاً فى عهد رمسيس الثالث من مصريين وأجانب كانوا تنقل تلك الثقافات والمدنيات الرائعة إلى بلادهم فيما بعد . قال العلامة ماسبيرو فى تاريخه عن هذه الكلية : « إنها هى التى أظهرت علم اللاهوت وعلوم الفلسفة فى أقطار الدنيا »(2) .

ولقد كان للحياة الزاهية المستقرة ، وللعقيدة الدينية عند قدماء المصريين أثرها فى إخراج علوم الطب والفلك والهندسة والحساب والحكمة وغيرها إلى حيز الوجود ، مع البلوغ فى بعضها كالطب مبلغاً عجز عن إدراك شأوه أطباء القرن العشرين بعد الميلاد ؛ كما أخرجت مصر هذه ألواناً أخرى من الفنون والآداب والشعر والموسيقى والرسم والنحت ما زالت مثلاً عليا للفن الراقى الجميل الرائع ، يتأثر بها الفنانون فى إنتاجهم إلى يومنا هذا ؛ وفى مدارسها أيضاً تخرج الفن اليونانى والرومانى ، وعن هذين أخذ العالم أجمع . فمصر إذاً سيدة الأمم طراً ، وصاحبة الفضل والجميل على سائر المدنيات والحضارات ، لأنها بحسب عبارة (برستد) « أم المدنيات والحضارات » . ولهذا كان تاريخها شغل العالم الشاغل منذ آلاف السنين إلى يومنا هذا . فما زالت دول العالم المتحضر فى أوربا وأمريكا تتسابق فى بعث البعوث إلى مصر ، وإنشاء المعاهد الخاصة بتاريخ مصر وأمجاد مصر ، وإفراد المجلدات الضخام الخاصة بمصر ، ورغم هذا كله فإنهم لم يعرفوا إلا القليل عن مصر ، ولهذا أيضاً صارت مصر بآثارها وتاريخها كعبة السياح الذين يفخرون بأنهم يوماً من الأيام زاروا مصر ، وقبلة المتعطشين إلى معرفة شىء ولو يسير عن « أم المدنيات والحضارات » وبهذا صارت مصر القديمة مورد بركة وثروة جليلة لمصر الحديثة من الناحية الأدبية والناحية المادية كذلك ؛ فيالَه من تراث خالد ذلك الذى خلفه لنا أجدادنا الفراعين ! .

(مصر الخالدة) هذه التى أسلفنا بعض الحديث عنها هى موضوع الكتاب الأخير الذى أخرجه للناس هذه الأيام صديقنا الأستاذ حسن بك جوهر مراقب عام منطقة القاهرة الجنوبية التعليمية . والأستاذ جوهر كما يعرفه الذين قرأوا

(1) ، (2) صفحة ٨ ، ٣٧ من الكتاب .

كتبه، لاسيما كتابه عن (الحبشة)، (في ربوع السودان) وأيضاً (أقاصيصه) الممتعة؛ أديب سلس التفكير سلس التعبير قبل أن يكون مؤرخاً، وهو إلى جانب هذا عالم غزير المادة واسع الأفق، دقيق النظر، جم التواضع! ولقد قدم بإخراجه كتاب (مصر الخالدة) هذا الإخراج الفني الجميل — خير هدية يمكن أن تقدم إلى القارئ العربي والمكتبة العربية، إذ وفق في معالجة هذا الموضوع الخطير إلى حد استحق معه كل ثناء وتقدير. ولعل ميزة هذا الكتاب التي انفرد بها، أن مؤلفه حاول جهده أن يكون صورة واضحة المعالم للحضارة المصرية القديمة من حيث هي، ومن حيث نظرة الأمم إليها؛ فهو لم يضيع وقته ولا وقت قارئه في تفاصيل المعارك الحربية، واختلاف المؤرخين في تعليلها، شأن أكثر الذين كتبوا عن مصر القديمة؛ وإنما هو يمر بك سريعاً خلال هذه الحربيات، فلا تحس سوى لمسات خاطفة قد تقتصر على ذكر نتيجة المعركة وما يستتبع ذلك من موت أسرة وقيام أخرى، أو بعبارة أخرى، موت حضارة وقيام حضارة، فالحضارة بمقوماتها من ثقافة وفن وعمارة وصناعة وزراعة واقتصاد وفلسفة ودين وأخلاق وعادات وما إلى ذلك، هي كل ما يعنيه المؤلف بكتابه هذا؛ وهو يعرض عليك هذا كله عرضاً قصصياً جميلاً أخاذاً، ينقلك عبر الزمن آلاف السنين، فلا تحس إلا أنك تسمع وترى وتحيا في هذه الحياة الفرعونية المجيدة. ثم يأبى المؤلف إلا أن يعرض عليك مقدار فهم الأمم وحيرتهم في تعليل هذه الحضارة الخالدة، فيسيح بك مع مؤرخي العالم القديم والحديث حيث تشاهد اليونان والرومان وبعض الغربيين ينسبونها إلى العظمة المستكنة في مصر! ولكنك لا تلبث أن ترى مؤرخي العرب القدامى كابن إياس والبغدادي لا يرونها أعمالاً إنسانية، وإنما هي في نظرهم شيء خارق وفوق حدود الطاقة البشرية، لهذا تراهم ينسبون هذه الحضارة إلى فعل السحر والجان!!.

وفي الكتاب تجديد من ناحية البحث العلمي والموازنات التاريخية، والأسلوب الأدبي الممتع والتنسيق الجميل، وهو يضم بين دفتيه عدداً من اللوحات الفنية المنقولة عن أصولها القديمة بلغت غاية الروعة والجمال، كتلك التي للراقصات بين يدي فرعون، والتي للعذراء مريم مع المسيح عليه السلام، وغيرها من لوحات رائعة لا تكاد تخلو منها صفحة من الكتاب، وإن كنت أؤاخذ الأستاذ الفاضل في أنه ترك بعضها مجهول النسب، وحبذا لو تدارك هذا في الطبعة القادمة فنسب كل لوحة إلى الجهة التي عنها أخذ، فليس كل القراء درسوا الآثار القديمة لدرجة يسهل عليهم معرفة أصول هذه اللوحات. وكنت أود كذلك لو أن المؤلف ترك نفسه السمحة على سجيتها فأعفاها من إيراد بضعة ألفاظ قد يعسر فهمها أو تبدو نشازاً في أسلوبه الواضح الهادئ، مثل الظران ص ١٠ والطوطمية ص ٢١ والنجم والشجر ص ٩ وهد الجبل في صفحة ١٤١، فهو وإن كان عربياً إلا أن كثرة استعمال السوقة له تجعله مبتذلاً. ولكم غبطت الأستاذ على لغته السليمة وإيراده تراكيب فصيحة تفيد المشتغلين بالترجمة الأدبية إلى العربية من اللغات الأجنبية، لأن أكثر الكتاب حتى الآن يعتبرونها أساليب أجنبية، كقوله في صفحة ١٢٠ « فلما مثل (ددى) الساحر بين يدي الملك قال له: (أين كنت تكون) ولم لم أرك قبل اليوم »، فالتعبير (أين كنت تكون) يوهم بالأجنبية، ولكن الأستاذ جوهر يؤكد عربيته الأصيلة وتساعده ذاكرته القوية فيرينا التعبير برمته في كتاب (كليلة ودمنة) ص ٥١ طبعة المعارف. إلى آخر هذه الاستعمالات المفيدة التي جعلت من الكتاب غرضاً أدبياً بجانب أغراضه التاريخية.

• • •

وقصارى القول أن الصديق الفاضل وفق في بعث الحياة المصرية القديمة والحضارة المصرية القديمة بكل معانيها وألوانها — صحيحة تدب فيها الحياة خلال دفتي هذا الكتاب القيم. وإنا لنهنئ صديقنا الأستاذ جوهر على هذا الجهد الموفق، ونشكره على أن أتاح لنا فرصة التمتع بقراءته بإهدائه إيانا إحدى نسخه. كما نشكره على إتاحته للقارئ العربي فرصة معرفة جانب — طالما حرم معرفته — من أهم جوانب تاريخ مصر الخالدة.

مرسي البطاوي

ندوة القلم

حروب الأفراد

الحرب حالة طبيعية تنشب بين الأفراد ، كما تنشب بين الدول ؛ إذا استحكم الخلاف وتأزمت العلاقات ، ولم يستطع السلام أن يفض هذا الخلاف ، أو يسوى هاتيك العلاقات..

فأما عن الحرب بين الأفراد ، فهذه تتم في المجتمع الواحد ، وأصلها موجود في نظام « الانتقام الشخصى » وفي نزعة الفوضى التي كانت مستحكمة الحلقات في نفوس الأفراد ، يعتدى قويهم على ضعيفهم ، ولا يستطيع هذا الضعيف أن يعيش وسط الأقوياء إلا مستعبداً ذليلاً لا حول له ولا قوة ...

هذا الانطلاق الفطرى إلى الاعتداء والانتقام ، وهذه الفوضى التي لم تكن منظمة ، وليست لها حدود ، جعلت الحياة في المجتمع سعيراً لا يطاق وعذاباً لا يحتمل ، فكان لا مناص من أن يتنازل كل فرد عن قسط من حريته ، حتى يستطيع أفراد في المجتمع أن يتمتعوا بحظهم من الحرية والأمن والسعادة والطمأنينة .

وتفلسف القدماء في ذلك ، فأيقنوا بوجود أصول سليمة الأصل طبيعية المحتد ، هي التي تحكم بل وتستطيع أن تحكم الروابط بين الأفراد ، ويستطيع هؤلاء الأفراد أن يحتكموا إليها لفصل في منازعاتهم ، بدل الجنوح إلى تلك النزعة الفطرية الغريبة : نزعة الانتقام الشخصى ونزعة الحروب بين أفراد البشر..

وقيل بأن كل عمل من الأعمال ، سواء أكان خيراً أم شراً ، إنما يهدى إليه العقل البشرى السليم وفقاً للطبيعة من حيث اتفاقه معها أو عدم انسجامه وما تقضى به ...

وقامت الخلافات حول هذا المبدأ ، فسلم البعض بهذه الأصول ، وأنكر الآخرون وجودها ، ولكن الذى نريد أن نقوله هو أن فقهاء علم القانون وعلم الاجتماع قد أجمعوا على أن القوانين وأحكامها وقضاءها ، ما قامت إلا لتحكم العلاقات بين الأفراد ، وذلك يجعل فوضى الاعتداءات من الأقوياء على الضعفاء ، وهذه من الوقائع المتشابهة دائماً ، وكذلك فوضى الانتقام والثأر ، وفوضى الحروب بين الأفراد بعضهم مع بعض ، لا مسوغ لها ؛ ثم إن تلك القوانين تضع الحد لتلك البدائيات حتى لا تطوح بالبشرية وتصد تيار النهضة وتقف حائلاً دون التطور المطلوب...

ولم تقم سلطة القضاء بقواعدها وقوانينها قومة واحدة بانتشار نظام الانتقام والحروب الفردية ، إنما مرت المسألة في فصول متتابعة ، استوحاها العقل السليم من الطبيعة المهيمنة على الأفراد ، مما يدل على أن ثمة أصولاً لنزعة التحكيم والقضاء ، وقواعد قديمة تمشت مع عرف البشر في تطوره الدائم المستمر ؛ فنجد أن حرب الأفراد كان منشؤها نزاعاً بين فردين ، يؤدى إلى نشوب حرب بين عشيرتيهما ، مما أدى بالتالى إلى قيام « نظام التحكيم » المعروف ، والذى مهد لقيام نظام القضاء..

بل إننا نجد في العصور الوسطى « نظام المبارزة » منتشراً ، يفض به المتنازعان نزاعهما عن طريق نواب ينوبون عن طرفى المنازعة بعد أن كان المتنازعان يقومان شخصياً بالمبارزة ؛ ولا شك أن هذه الطريقة الفردية لم تكن من العدالة بحيث تستدعى الإبقاء عليها ، حتى جاء أخيراً نظام الحكم بالدية التي هي الأصل القانونى للغرامة في القوانين العصرية ، فرقق بعض الشيء من الطريق الوحشى الذى كان متبعاً في المجتمعات البدائية ومجتمعات العصور الوسطى..

وقامت القوانين الموضوعة ، بعد أن توصل العقل البشرى إلى أن الدولة هى المنوط بها مهمة النظام واستتباب الأمن ، فهى السلطة التي توقع العقاب على الجانى ، وفقاً لتلك القوانين الموضوعة ، وهذه الأخيرة هي التي تحكم كذلك روابط الناس بعضهم ببعض ، حتى لا يتعرضوا لمهازل الانطلاق الأولى والحرية المطلقة ، تلك الحرية التي أشاعت

الفوضى وهددت الأمن وقضت على النظام ، وبالتالي على الأفراد وخاصة الضعفاء منهم ، وهم الكثرة الساحقة في مجتمع البشر .

على أن سيادة الدولة على هذا الأساس لا تكون شرعية إلا إذا كان المقصود منها أن تكفل تطبيق تلك القوانين الموضوعة لحماية الأفراد وتنظيم العلاقات ..

وقيل بأن نزعة السيطرة من القوى على الضعيف آن لها أن تُباد ؛ إذ المفروض أن أفراد البشر كلهم متساوون ، وعلى هذا لحماية القوانين لهم متساوية بالنسبة ، لا بالدقة حسب الظروف الاجتماعية لكل منهم ، لأن التساوى في هذه الحماية ليس من العدالة في شيء ، بل إنه لا يؤدى إلى تلك المساواة التي أيقن العقل البشرى بخروجها ووجوب وجودها بين سائر الأفراد .

وتتضح بعد هذا الحكمة من قيام الحكومات في المجتمعات ، تلك الحكومات التي تقوم بإنشاء البوليس ، وهذا الأخير عليه محور الحياة الحديثة ؛ ويبين لنا كذلك المدى الهائل الذى وصلت إليه البشرية في تطورها وكفاحها المستمر للقضاء على فضلات البدائية الفوضية التي لم يبق منها في العالم إلى اليوم إلا أطراف رقيقة ، يحاول أن يقلمها ، ويود أن يقضى عليها القضاء الأخير ...

●●●

يقول الأستاذ ج روبرتس : « إن الحكومة معناها من البساطة بمكان ؛ إنها تعنى أن الناس في أمريكا مثلاً يخضعون لقواعد ويحتكمون إليها .. وبالرغم من أن في مكنتهم أن يغيروها إذا شاءوا ، بيد أنهم حتى ذلك الحين على كل منهم أن يخضع لها ، ولن يستطيع الفرد أن يناقش تلك القواعد ويصوت عليها ، إنما هو ينتخب نواباً لينوبوا عنه في أداء تلك المهمة ، ولن يستطيع الفرد أن يؤيد تلك القواعد ؛ لذا يختار هؤلاء النواب قوة بوليسية لتقوم بذلك التأييد والتدعيم ، وتنشأ المحكمة لتسمع ما يقوله الفرد وما يقوله البوليس ، وكذلك السجين ، وحينئذ تقرر ما إذا خرق قاعدة اجتماعية ، وكيف ينال على هذا الخرق الجزاء .. وتلك هي القوة اللازمة للقانون .

« ولكن هناك في جنوب الباسفيك ، لم يصل المتوحشون إلى ذلك بعد ، حيث إنهم لا يدركون معنى الحكومة ، وليس ثمة قواعد وقوانين ولا بوليس ولا محاكم ، وما على الفرد إذا وقع عليه اعتداء إلا أن يضمد جراحه ، وبعدئذ ينصب كميناً لمن اعتدى عليه ليحق الحق ويحقق العدالة .. وتستمر الوحشية حتى يقع أحدهما أخيراً مضرجاً بالدماء ... وتلك هي الحرب .

ولهذا نجد أن الأستاذ ج روبرتس أجاد التعرض لهذه المسألة ، وأوضح الفارق بين حياة الأمريكان مثلاً ، حيث إن الأهلين مقيدون بقوانين إن خرقوها وقف البوليس في وجوههم ، وفصلت المحكمة في جرمهم ، ووقعت عليهم ما يستحقون من عقاب ، وبين بلاد كجنوب الباسفيك ليس فيها هذا التنظيم الذى يحد من الانطلاق الوحشى ويهذب الأنانية الفردية ، ويدعم كذلك النظام الاجتماعى .

هذا الفارق ملحوظ ، فتلك بلاد لم تعرف سبيلها إلى النهضة والتطور ، إنها تمثل المجتمع البائد حيث لا حكومة ولا قانون بالمعنى الذى نعرفه ، ولا عدالة بالمعنى الذى نفهمه .. إنما الحكومة والقانون والحق والعدالة ، كل أولئك يتمثلون في « حروب الأفراد » .. في حروب « الانتقام الشخصى » تلك الخطوة الأولى التي تخطوها البشرية في فترة الوحشية والتي تبقى إلى اليوم جذورها ممثلة في الظاهر في بلاد لم تنهض بعد ، كهذا الجنوب من الباسفيك ، وكامنة في الباطن في المجتمعات الحديثة ، ولكن يحد من ظهورها وينظم تهورها ويدعم أركانها ، قوانين المجتمع الحديث بحكومته ومحاكمه وبوليسه .

.. كل هذا يدعونا إلى القول بأن الحروب بين الأفراد قد وصلت إلى مرحلة ناهضة من موافقة العدالة والمنطق .. يسترجع إليها العقل البشرى ، ويرجى على يدها خير البشرية ، وقد جاهدت قروناً كي تصل إليها ، حتى آن لها أن تصل !..

أحمد طه الشربينى

امرأة في حياة نيتشه

[إنه الليل ، والآن تتحدث كل الينابيع بصوت أعلى ، وكل نفس مني ينبوع أيضاً ... شيء لم يهدأ ، وليس له أن يهدأ أبداً في أعماقي : إنه يبحث عن الكلام . في أعماقي تعطش إلى الحب ، وهو يتكلم بلغة الحب]. (نيتشه)

كان نيتشه في مسينا بصقلية يقضي شتاء ١٨٨١ — ١٨٨٢ وحيداً عندما جاءته من روما رسالة في أواخر أبريل عام ١٨٨٢ من صديقين له يلحان عليه في المجيء إلى العاصمة الإيطالية قائلين إنهما قد اكتشفا له تلميذة يافعة يلوح أنها ولدت فقط لفلسفته . وللتو ترك نيتشه صقلية وأسرع إلى روما حيث كانت تنتظره الفتاة .

كانت تدعى « لوسالومي » : فتاة في العشرين أو الواحد والعشرين ، ذات عقل رصين ركين ، ما لبثت منذ هبطت المدينة المقدسة أن تعرفت إلى أصدقاء نيتشه : فأعاروها ما لم تكن قد قرأت من كتبه . وكانت النتيجة أن صارت قلقة تنتظر فيلسوفها المفضل على أحر من الجمر .. وقدمت الفتاة إليه في كاتدرائية القديس بيتر بروما ، وأثمر تعارفهما سريعاً ...

وقد بلغ الحماس بنيتشه في حاشية خطاب أرسله إلى أخته في ذلك الوقت حيث يقول : « في فترات بين الأحاديث أخبرتني [واحدة من أصدقائه] أن الفتاة اليافعة قد أسرت لها أنها قد جاهدت منذ أعوامها الباكرة في سبيل المعرفة وبذلت من أجلها كل تضحية ، لقد هزني هذا ، وكانت الدموع تترقرق في عينيها [عيني صديقته] إذ كانت تخبرني بذلك ، وهي تعتقد أن مس سالومي قريبة جداً مني من ناحية العقل » . ولم يلبث أن أحس نيتشه بسحر الفتاة وغزاه اهتمامها الملتهب به واجتذابها الصادق إليه ، ورحل نيتشه بعد أيام من هذا اللقاء الأول مع الفتاة وأمها إذ كانت تصاحبها ، وصديق له يدعى ري إلى لوسرن ، ومنها صاحب الفتاة إلى تربشن ، وهناك عند حافة بحيرتها تحدث إليها عن حياته الخاصة ، عن طفولته ، عن والده وقد مات وهو طفل ، تحدث إليها عن سنيه البواكر ، عن شكوكه الأولى عن هول ارتيابه الأول وعما عوضه ، عن فقدان عقيدته احتضان فلسفة شوبنهور وفن فاجنر ! فأخذت الفتاة بسحر حديثه الهامس الصادر عن قلب شفت عليه الوحدة وآلمه طول انتظار الرفيق ، وإذ رآها ساهمة الفكر شاردة اللب أراد أن يسلمها قلبه بعد أن بسط لها أفكاره . لقد وقع نيتشه في الحب ، ولكنه لا يعرف كيف يعبر لفتاته عن حبه ، لا يعرف كيف يبثها غرامه ، لا يعرف كيف يفصح لها عن رغبته في الزواج منها ! إنما هو الإعجاب الصامت الأخرس الذي لا يتقن لغة الكلام ! ومن ثم همس نيتشه بسره إلى ري وسأله أن « يجس نبض » الفتاة في هذا الأمر ، وغادر تربشن إلى بال حيث كان ينزل ضيفاً على أحد أصدقائه ، وجعل ينتظر رد ري بصبر نافد .

أكانت أحلام لوسالومي في « الزوج » المرتقب تنطبق على نيتشه ؟! أكانت ترى في الفيلسوف أمنيتها كشريك لحياتها ؟! لا .. ! ألم يكن تشبعها بأحلام فيلسوفها ليجعلها تنسى أنه لا يصلح لها زوجاً . حقاً لقد كان نيتشه أعجوبة جميلة ، وإنه ليطيب أن يسمح للشخص باستكشاف طيات عقله المعقد ، ولكنه على العموم لا يصلح « للاستعمال اليومي » ! أو للصحبة اليومية ، وعلى هذا ردته لوسالومي برقة ، وبطريقة تقليدية ، واعدة إياه بصداقة لا تنفصم عراها ، وتلمذة دائمة لا تتحول .

وإذ يتسلم نيتشه هذه الأخبار يسرع إلى لوسرن ليرمى بسهمه الأخير . ولكن إذ كانت لوسالومي ثابتة عند رأيها ووعدها بصداقتها واهتمامها الدائم بفلسفته فقد اضطر إلى الرضاء منها بهذا القدر من العلاقة .

● ● ●

بعد ما يقرب من ثلاثة أشهر من اللقاء الأول كان فاجنر بسبيل تقديم « بارسيفال » في بيروت (بألمانيا) ، فذهبت لوسالومي بصحبة اليزابيث أخت نيتشه لترى تحفة فاجنر . أما نيتشه فتوجه إلى إحدى القرى على نهر السال بعد أن ألح على لو أن تلحق به مع أخته حالما ينتهي الحفل ، وفي هذه الأثناء كانت لو قد كتبت قصيدة « إلى الألم » ، بلغت من التشبع بفلسفة نيتشه بحيث كان كل من يقرأها يقول إنها لنيتشه وليست للفتاة ، وفي أحد خطابات نيتشه في ذلك العهد وهو بتاريخ ١٣ يوليو ١٨٨٢ يقول : « إن هذه القصيدة لصديقتي لو ... إنها بمثابة غناء لأفكاري وطريقة تفكيري » ، ولكنه كان علاوة على إطرائه عقلها غارقاً في حبها برغم دوام إيحائه لنفسه أنه فقط ... صديقها .

عادت لوسالومي في أوائل أغسطس مع اليزابيث شقيقته إلى القرية على نهر السال ، وبدأ نيتشه يعلم تلميذته مبادئه

التي عاش لها وبها ، ولكن ... أكانت لوسالومي الفتاة في العشرين أو الواحد والعشرين من عمرها تستوعب كل أفكاره ؟ أكانت تفهم كل أقواله ؟ أكانت حقاً تعي تلقنتها له ؟ ماذا يهم ! لقد أخذ نيتشه كل شيء جدياً ، وصرّح للفتاة بكل أفكاره ، بكل ما كان يضطرب في نفسه ، قال لها كل شيء بطريقة لم يفعلها قط من قبل في أيام شبابه مع أي أحد آخر . وكانت لوسالومي كصمام الأمن وجد في التحدث إليها تنفيساً عما كان يعتمل في قلبه ويثور في نفسه من أفكار ومخاوف ، ولشد ما كانت مخاوفه آنذاك من « العود الأبدي » .

وانقضت الأيام سراعاً ، وارتبط الصديقان خلالها ارتباطاً روحياً وثيقاً قديماً . وأخيراً أرادت لوسالومي الرحيل ، كان ذلك في أواخر أغسطس . فألح عليها نيتشه في البقاء أسبوعاً آخر . « ولكن ما جدوى التأجيل والفراق واقع محتوم ! » ولكنها رضخت له وبقيت ... ثم تركته في نهاية الأسبوع على أن يتلاقيا في ميونيخ ثم في ليبتزج . وقد سلمته قبل رحيلها قصيدة أخرى : « صلاة الحياة » ، مستوحاة من أفكاره ، وكانت من شدة تأثيرها فيه بحيث لحنها موسيقياً وأطلق عليها اسم : « أنشودة الحياة » ، وكتب إلى صديقته لو على أثر ذلك يقول لها إنها « يمكن أن تكون معبراً صغيراً قد يمكننا به الوصول إلى عالم المستقبل معاً ... إذا امتنعت علينا المعابر الأخرى » .

ولكن إليزابيث ، أخت الفيلسوف ، وقد تربت تربية دينية متزمتة لم تكن ترى في هذه العلاقة « الروحية » إلا شراً ونكراً وفضيحة ، وكانت لذلك تنهال على أخيها تعنيفاً وتوبيخاً وهي لم تنتج بتعنيفها له وتوبيخها إياه فيما بينها وبينه فحسب ، ولكنها ذمت فيه وقدحت له عند والدتهما . وهكذا تعاونت الاثنتان على تسويد حياة المفكر الذي حاول الدفاع عن نفسه وعن هذه العلاقة الروحية البريئة كما ثارتا في وجهه وأشبعتاه لوماً وتأنيباً : « لقد طالما دافعت عن نفسي أمام إليزابيث ... كما لو كنت حيواناً ميئوساً منه ، ولكنها لن تكف عن تعذيبي واضطهادي » . وصرخ في أخته : « إني لا أحب النفوس التي على شاكلتك » . وكتب إلى أمه يقول : « إن أختي مخلوقة شريرة ... لقد تدخلت في أخص مشاعري المقدسة ، مشاعر لم تكن لتوجد على الأرض قط .. فبعد كل خطاب أجدني أتقزز من الطريقة الفادحة القذرة التي تتكلم بها عن الآنسة سالومي » .

ولكن لم يمض قليل بعد رحيل لوسالومي حتى وصله منها خطاب فاتر بارد هدم كل عقيدته فيها ، إذ عرف في سطوره سطحيتها ، فرد عليه رداً قاسياً جداً ، قال في ختامه : « وداعاً . لم أقرأ خطابك حتى نهايته ، ولكني قرأت كثيراً فيما قرأت »

وهكذا قطع نيتشه صلاته بأقرب الأقربين إليه : والدته وأخته ، ومن ظنها صنوه في العقل ، لوسالومي ، واعتزل العالم في رابالو ، في عالمة الساحل ، قريباً من جنوا بإيطاليا ، حيث قضى الشتاء وحيداً ، مغموراً في بؤسه وشقائه .

إنه هناك حيث بدأ في فبراير ١٨٨٣ كتابة الجزء الأول من « زرادشت » ، ولكن لم تمض عشرة أيام من بدء كتابته « زرادشت » ، وكان قد انتهى منه (انتهى من كتابة الجزء الأول) ، حتى أصيب بالأنفلونزا . وعلمت أخته بمرضه في أبريل ، فاستشارته في أن تأتي لتمريضه ، حينئذ نسي نيتشه مضايقاتها القديمة له وابتهج بعودة المياه إلى مجاريها — وقد خذلته لوسالومي — ثم تلاقيا في مستهل مايو بروما ، وبقيا بها حتى منتصف يونيو . وأحس نيتشه خلال هذه الفترة أن مصاحبة أخته له لم تكن لترضيه كل الرضاء ، إذ لم يكن بوسعها أن تجعله سعيداً ولم تكن لتقدر على أن ترضي عقله كما يجب أن يرضى العقل . ومن ثم انفجرت رغبته الفتية الملهمة المبهمة ، حنينه إلى نصفه المكمل لنصفه ، اشتياقه إلى الصديق والرفيق والحبيب مجسماً في الزوج ... في قصيدة نثرية « أغنية الليل » . هذه الأغنية التي ضمها بعدئذ إلى الجزء الثاني من « زرادشت » .

« إنه الليل : الآن فقط تستيقظ كل أغاني المحبين ! وإن نفسي أيضاً لأغنية محب . شيء لم يهدأ وليس له أن يهدأ في أعماقي : إنه يبحث عن الكلام . في أعماقي تعطش إلى الحب ، وهو يتكلم بلغة الحب ... إني لا أعرف سعادة الأخذ . (أي أنه « يعطي » دائماً : يعطي نفسه ، تعاليمه ، حبه ، ولا يعطيه الآخرون شيئاً . إنه يود لو يأخذ كما يعطي ! إنه يود لو يعرف لذة الأخذ كما يعرف لذة العطاء ، ولكن) لقد ماتت لذة العطاء أيضاً من دوام العطاء ، وبليت فضيلتي

بين المجلة وقرائها

الشعب والفنون

..أريد أن أعرف السبب الذى جعل شعبنا « ليس من الشعوب القراءة » على حد تعبيرك ، ومن المسئول عن تقصير الشعب فى هذا المضمار ؟ أهو الشعب نفسه ؟ هذا الشعب الذى يسيطر عليه الجهل ويخيم عليه الفقر.. فهو أمى جاهل لا علم له بالقراءة والكتابة والعلم والثقافة ... وهو فقير ليس فى مقدوره شراء مجلة أو كتاب ليقرأه ، بل ليس فى مقدوره شراء قوت يومه ! إن شعبنا ليس شاذاً ، فهو كبقية الشعوب يحب العلم والأدب والاطلاع . ولكن هنالك عقبات تقف فى طريقه تمنعه من بلوغ السعادة . هذه العقبات هى التى نعرفها جميعاً ونحس بوقعها فى مجتمعاتنا : فقر ومرض وجهل . وأقل نظرة إلى أسلوب الحياة من حولنا ستدير لنا ببساطة معرفة هذه الأدواء والعقبات التى تحرم الإنسان من جميع حقوقه بل وأبسطها..

لم تبلغ الشعوب العربية بطبيعة الحال تلك الدرجة التى بلغتها شعوب أوربا ، ولم تصل إلى جزء مما يتمتع به الغربيون من معانى الكرامة الإنسانية . وقد نالت شعوب أوربا ذلك كله بفضل نضالها الذى لا هوادة فيه ، حتى قضت على معظم العقبات التى فى طريقها واستطاعت فى النهاية أن تصل إلى حضارتها وثقافتها هذه التى تكلمت عنها.. فواجب كل شخص يحتم عليه أن يبحث فى أسباب آلام الشعب ومتاعبه ، وأن يعالج هذه الآفات الاجتماعية حتى يستطيع أن يكشف الدواء الناجع لهذا الداء العضال .

فعند ما نستطيع أن نقضى على هذه العقبات ، ونخلص الشعب من أوحاله التى تشده إلى الأرض ، ونهيء ونوسع الفرص الاجتماعية لكل شخص فى المجتمع.. عندئذ يحق لك ولكل شخص أن يلوم الشعب . وأظن أنه لن يفعل..

رليم شهوان (بيت جالا — فلسطين)

هذه أغلب فقرات خطابك.. ولو استطعت أن أنشره كاملاً لفعلت . فإنه يعطى فكرة طيبة عن جانب له خطورته فى علاج المشكلة . والواقع أن اهتزاز القلم فى يديك وارتعاد أطرافك وأنت تسطر هذه الكلمات دفعنى إلى قراءة الخطاب مرات ومرات . وهى دليل فى الوقت نفسه على أنك تكتب عن إيمان وعن رغبة صادقة وأنك تصدر فى قولك عن نفس حساسة ! ولن أملك ، وقد جمت أطراف

من قيضها ... أوه ، يالوحدة هؤلاء الذين يعطون ! » .

ولقد تقطعت كل الأسباب بينه وبين من كان يأمل أن تكون صنوه فى العقل ، لم يعد يفكر فيها ، وكان كلما مرت برأسه صورتها لعن هؤلاء الذين كانوا السبب فى تقديمها إليه وتعريفها به . وهكذا عاد إلى وحدته طاوياً قلبه على الحرمان ، متجرعاً كئوس الألم .

كان نيتشه فى الثامنة والثلاثين عندما عرف لوسالومى لأول مرة ! ومات فى السادسة والخمسين بعد أن أمضى الاثنى عشر عاماً الأخيرة من حياته فى الظلام : الظلام العقلى ... الجنونى .

● ● ●

كان نيتشه ينبوعاً من هذه الينابيع الروحية القليلة التى أرادت أن تروى ظمأ عطشى الروح ! كان نوراً من هذه الأنوار القليلة التى أرادت أن تبدد ظلام كالحى النفس . كان رسولاً ! كان نموذجاً للرسول ، ولكنه دفع ثمن رسالته غالياً : دفعه وحدة قاتلة وعزلة دائمة . فلا أحد يفهمه : لا أصدقاؤه ، ولا عائلته ، ولا الناس . حتى هذه التى ظن أنها توأمه فى العقل خذلته وتركته ... وكانت هى المرأة الوحيدة التى أرادها فى حياته ، المرأة الوحيدة التى رأى أنها توأمه ، فإذا بالحب الذى كان ينتظر أن تبادله إياه سراب ووهم

إدوار مقسى

المشكلة، إلا أن أؤمّن على كلامك.. فأتعجب لهذه الظاهرة الفريدة فى بلادنا، وهى أن الفنون فيها تكلف الإنسان أكثر مما يكلفه أى شىء آخر. إن العلم فى بلاد الله جمعاء هو أرخص شىء. وتكاد تكون رغبة الناس فى القراءة نتيجة لإحساسهم بأن هذا الباب لن يكون باهظ التكاليف شأن الدواعى الأخرى للهو. أما عندنا فالكتب والمجلات ذات سعر مرتفع يعجز عن دفعه الإنسان المتوسط الحالة فضلاً عن الفقير المعدم.

ولكنى مع ذلك أحس فى داخلية نفسى بأن المسألة ليست مسألة فقر أو سواه. فالإحساس الفنى والمشكلة التى يقدر بها الإنسان طعوم الأشياء المتواردة على خاطره إنما توجد فى بيئتها من غير تأثر كبير بالظروف. ولعل شيئاً من الأشياء لم يتح للناس مثلما أتيح لهم أن يفكروا ولو كانوا فى أسوأ الأوقات. فلم يمنع الفقر جان جاك روسو من الخروج إلى الطريق مساء كيما يقرأ على ضوء المصباح العام! ولم يحل جوع أوربا ونهمها بعد الحرب الأخيرة دون استمرارهم فى عاداتهم القديمة... يقرءون ويقرءون ويقرءون.

ولكنى أستطيع — من ناحية أخرى — أن ألاحظ ملاحظة من شأنها أن تقوّض حكمنا فى العطف على الشعب والاعتذار عنه بخصوص القراءة. ذلك أن فقر الشعوب عندنا لم يمنع دون انتعاش الحركات السينمائية فى مصر والشرق. وبقليل من التأمل تستطيع أن تلمس مقدار التهالك الذى يبديه الأفراد عندنا على أفلام السينما، على الرغم من الفقر الذى يهدهم والعوز الذى يحرمهم من أهم ضرورات الحياة المعيشية! ولا أشك فى أن ثمن تذكرة السينما التى تعرض أفلاماً عربية يساوى أو يقل قليلاً عن ثمن كتاب أدبى لمؤلف كبير. ومع ذلك فالكثيرون منا يفضلون دفع النقود فى تذكرة سينما على قراءة قصة أو الإقبال على بحث. ولو أن شعبا من الشعوب القارئة بحق، لزهد فى أفلام قيمتها الفنية معروفة، وآثر القراءة الصامتة حيث تستجلى الروح، فى ظلال الوحدة، معالم الفن الصحيح، ومعانى العزة الروحية والكرامة العقلية.

وفى النهاية يمكن القول بأن شعبنا «منفتح» للعالم ولا يقبل الانفصال عن المجتمع، ويحب التزاحم «مع الآخرين» من أجل نسيان فرديته.. وهذه هى المشكلة فى الواقع! إذ لو استطاع الناس عندنا احتمال العزلة والانقطاع عن العالم، وأمكن الفرد منا البقاء وحيداً مدة طويلة لاستقامت لنا القراءة. ولكننا — فى الغالب — لسنا كذلك.. إننا نميل إلى العمل المشترك ونخشى الانفراد بذواتنا فى مكان مقفل، ولا نكاد ندع فرصة لداخلية أنفسنا كيما تطفو وتظهر. ولهذا نفشل فى تكوين عادة القراءة التى تتطلب على الخصوص قدرة على مواجهة النفس فى حالة ابتعادها عن الآخرين وشجاعة بإزاء الأعاصير الباطنة الخفية.. والله أعلم.

وقفات أدبية

قلت فى مقالك عن حافظ وشوقى «ينظر الناقد إلى الشخصية الأدبية على أنها مادة لفنه، وموضوع من موضوعات بحثه، ولذلك قلما تجد فى تاريخ الأدب شخصية قد أغفلها النقد ولم يعتمد عليها طالما كانت النماذج ضرورة من ضرورات العمل النقدى، وأساساً من الأسس المذهبية فى النقد». فما هى الأسس المذهبية فى النقد؟ وما معنى النماذج التى هى ضرورة من ضرورات العمل النقدى؟ وما هى المدارس النقدية؟

أحمد محمد أحمد

أشكر لك خطابك.. فإنه يتيح لى فرصة الرجوع إلى نفسى مرة أخرى. إذ أن الكاتب عادة يشبه الطاحونة التى تدور فى اتجاه واحد وقلما تعود. وقد جاءت كلماتى التى تساءلت عنها فى مقال حافظ وشوقى عرضاً؛ ولذلك لم آبه فى ذلك الحين لمراجعتها وتحديدها وتوضيحها التوضيح اللازم. وقد كانت محتاجة ولا شك إلى زيادة بيان، وذلك هو ما أثار بنفسك الرغبة فى الوقوف الدقيق على معانى الكلمات حتى يظهر المعنى المقصود.

وأبدأ هذه المرة بإعطاء مثل يوضح لنا معانى الكلمات التى أشرت إليها: من المتفق عليه أن يوجد من بين المشتغلين بالأدب قوم يختصون بالنقد ويحاسبون أصحاب الأعمال الأدبية على ما ينتجون. ولا يمكن أن تبنى أحكام

هؤلاء النقاد على الأهواء الطارئة والمجاملات الشخصية ، وإنما تبنى أحكامهم على أسس مذهبية فى النقد . وهذه الأسس هى عبارة عن الدعائم التى يستند إليها الناقد والمبادئ التى يرجع إليها فى تعزيز مؤاخذاته لصاحب المؤلف أمام الجمهور القارئ . ولا يمكن أن يتشابه النقاد جميعاً فى مقاييسهم ويستحيل أن يصدروا كلهم عن أصل فكرى واحد وعن قواعد مكررة .. وإنما ينقسم النقاد فيما بينهم وبين أنفسهم إلى فرق وشيع .. كل حسب مفهومه الخاص للعمل الفنى وطريقة تقديره المؤلف المعروض . ولذلك قلنا إن هذه الأسس مذهبية ، بمعنى أنها تختلف باختلاف المذاهب النقدية التى يدين بها كل ناقد على حدة . فالمذاهب النقدية — شأنها شأن المدارس الأدبية — يختلف بعضها عن بعض ، ويتميز بعضها من بعض ، وتقوم الفروق بين كل منها تبعاً للأسس الخاصة التى يعتمد عليها أنصار كل مذهب .

ولكن لاحظ شيئاً .. وهو أن هذه الأسس الفكرية التى يتشيع لها أنصار المذهب النقدى المعين محتاجة أشد الحاجة إلى الشواهد التى تؤيدها والأعمال الأدبية التى تناصرها . أى أنها بعبارة أخرى محتاجة إلى النماذج الفنية التى توضح الفكرة النقدية وتجعلها حقيقة ملموسة . إذ أن الأفكار النقدية لا قيمة لها على الإطلاق ما لم ترتكن إلى نماذج من أعمال الأدباء والشعراء تثبت بها حقيقة اتجاهها وتؤكد بها صدق الادعاء الذى تدعيه . فالأساس النقدى محتاج إلى نموذج ترتسم عليه كل الصفات التى يتطلبها أصحابه فى العمل الفنى ، وتتوفر فيه واقعياً كل العناصر المراد تأييدها أو رفضها . وبذلك لا يتهم القارئ ناقد العمل الفنى بأنه خيالى ، يقترح حسب بغير عملية تجريبية تؤيد صدق دعواه .

وقد طلع العقاد على أدباء هذا الجيل بمجموعة من المقاييس الأدبية التى جعلها حكماً فى تفرقته بين الشعر الصحيح وغير الصحيح . فاتهمته الغالبية بأنه مفكر لا يزيد على كونه صاحب أفكار نقدية وحسب . فما كان منه إلا أن أخرج كتاب ابن الرومى وشعراء مصر كتطبيقات عملية لأفكار وتحليلات ظنوا استحالة تمثلها فى الواقع . فهذا هو ما عنيناه بالنماذج . أما سؤالك عن المدارس النقدية فيحتاج إلى إجابة قد تطول بنا إذا أردنا تحديدها وذكر أسمائها وتعيين أشياعها . ولكنك قد عرفت مما تقدم أن المدارس النقدية هى الفئات التى تختصم حول مبادئ نقدية معينة . ونحن فى مصر جديرون بأن نسأل هذا السؤال لأننا لم نألف هذا الجو . والمدرسة النقدية الوحيدة التى تكونت لدينا هى التى ضمت أقلام العقاد والمازنى وشكرى ، ولكنها فيما أعتقد قد انتهت من مهمتها ولم يبق إلا القيام بشرح وتطبيقات وتوسيع فى جوانب الفكرة التى قامت عليها .

وقد كنت أود أن أحدثك عن مدارس الغرب فى النقد ، ولكنى سأدع هذا لمناسبات أخرى .. وأرجو أن تجد فيما فائدة تليق بروحك التواقة إلى المعرفة .

ع . د

على شاطئ البحر ...

ههنا شاطئ الهوى   مُتَّعُ الروح والنظر !
ههنا الحسن ههنا   فاتناتٌ من البشر
طلعات على الرمال (م) تـراوحن كالزَّهَر
كم يناديْنَ بالجسوم (م) ويغرين بالصور ؟
والنهود الوضاء كم   تؤنَ فى الموج بالخفر
آه لو كنت موجة   حملتْ فتنة البشر
لتساميت كالطيور (م) إلى عالم سحر !!
ذلك الموج ثائر   آه من ثورة البَحَرْ
عجباً .. ! كيف لا أثور (م) وقد داعب الشعر
وأنا الشاعر الذى   عشق الكأس والوترا

(الإسكندرية)   محيى الدين فارس الدورانى

من بريد الثقافة

رد على نقد :

حضرة الأستاذ المحترم رئيس تحرير مجلة الثقافة :

اطلعت في العدد رقم ٦٦٤ على نقد حضرة الأستاذ سعد محمد حسن لكتاب المهدى والمهدوية للدكتور احمد أمين بك ، وقد قال الأستاذ في نقده في صفحة ١٩ أورد المؤلف لابن هانيء كذلك :

لو كان حقك بالإله مقسماً في الناس ما بعث الإله رسولاً
لو كان لفظك فيهم ما أنزل القـرآن والتوراة والإنجيلا

ولا ندرى من أين جاء أستاذنا بهذين البيتين اللذين لا وجود لهما في ديوان ابن هانيء ؛ وقد بحثت عنهما فيه طويلاً دون جدوى ، وما أشك أبداً في أنهما محرفان .

وهذان البيتان لشاعر العربية الكبير أبي الطيب المتنبي من قصيدة له مشهورة في مدح الأمير بدر بن عمار الأسدى يقول في مطلعها :

في الخد إن عزم الخليط رحيلاً
مطر تزيد به الخـدود محولا

وقد ضمن المتنبي هذه القصيدة وصفه المعروف للأسد ومنه قوله :

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آسٍ يجس عليلا

والبيتان صحيحان ، وليس بهما شيء من التحريف ، ولست أدرى لماذا قطع الأستاذ بأنهما محرفان وهما بريئان من التحريف ، والظاهر أن مبالغة المتنبي المخيفة في البيتين هي التي جعلت الدكتور أحمد بك أمين يعزوهما إلى ابن هانيء ، فهي شبيهة بالمبالغات المأثورة التي كان هذا الشاعر يتورط فيها بغير قصد ولا اعتدال بل بشيء كثير من الإسراف والاعتساف .

على أدهم

الى الدكتور زكى نجيب محمود :

لقد أورد الأستاذ الكبير الدكتور زكى نجيب محمود في مقال سابق « نثر القديم » سطرين من الشعر « من أجل حصة واحدة في القصة قد تركنا ، تركنا إبقاء شريط يلصق بسترته » . وقال إنهما عن « تنسن » . والصواب « وليم وردز ورث » شاعر الطبيعة عندما أصبح أمير شعراء بلاده .

وأنا أغتنم مناسبة هذا الخطأ البسيط لأعبر للدكتور زكى نجيب عن عميق احترامي وتقديري له ولمقالاته القيمة » .

(عمان — الأردن) يوسف بدر الله

حول كلمة « طالما » :

حضرة الأستاذ العلامة رئيس تحرير مجلة الثقافة الغراء :

أما بعد : فقد لاحظت أخيراً في أعداد متتالية من المجلة استعمال أحد كبار الأساتذة كلمة « طالما » بمعنى (مادام) أو (بما أن ...) إلخ ... وقد وجدت في العدد الأخير رقم ٦٦٣ أن أستاذاً آخر لا يقل شأناً عن الأول قد استعملها بنفس المعنى .

مع أن معناها الصحيح ورد في نفس العدد ببريد الثقافة الغراء في البيت التالي :

يا برق إن تجـر العقيق فطالما
أغنته عنك سحائب الأجفـان

أم لعل المجمع اللغوى أجاز استعمال طالما بمعنى « مادام » مع معناها الأصلي وهو قريب من « كثيرا » ؟ كما أجاز استعمال الخاس وهو نوع من الشجر بمعنى الخاسة ولم يكن له عذر لوجود لفظة الخاسة في اللغة وهي معروفة وشائعة .

أرجو التنبيه إلى الحقيقة ولكم جزيل الشكر .

(مصيف أبي قير) عبد الله الرياشي

الثقافة

العدد ٦٦٦ — ١ من أكتوبر ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليما

صفحة

تجربة قاسية :

السر الذائع

« لى من ظننتهم أوفياء ، فائتمنتهم على الأسرار الخطيرة ... ثم يذيعونها بدون حياء » .

أإن غدر الأصحاب أودى بك الهم
حليف الحجا ، أين الرزانة والحزم ؟
أتجزع أن نالتك ألسنة الورى
وأى سماء لايمر بها غيم ؟
تعيش لدى قوم تأجج حقدهم
وتأمل أن يرعى مكانتك القوم
ومن جمعته بالعقارب صحبة
فإن لم يمت من سمها ساءه الكلم
وأنت بعصر من يعش فيه هاتئاً
صباحاً ، سيرنو فى المساء له الغم
تجمع أهواء على شر موثق
فسيان ذو التفكير والجاهل الغدم
إذا هام ذو السمع البصير بإفكه
فمن خطأ أن يعذل الشمى والصم
تعد التمادى فى الصدود جريمة
رويدك ، توثيق الوداد هو الجرم
فقبلك قد آخيت حتى أقاربى
فما اختصنى بالود خال ولا عم
لقيت أذى قومى فأغضيت كاسفا
وقلت أعزى النفس : كل له يوم
ولى صاحب كالصل تلقاه ناعماً
وفى رأسه البراق يلتهب السم
دلفت إليه لست أدرى أخانى
ذكائى أم قد ساقنى القدر الحتم
وكنت زعمت العيش يصفو بقربه
فزدت به هولاً ، وما صدق الزعم
كما شرب المرء الدواء ليشتفى
فكان له منه التوجع والسقم
وآنست منه دقة وفطانة
فقلت : حصيف زانه الحذق والفهم
ولم أدر أن الحذق واللؤم توءم
فحيث يكون الحذق يزدهى اللؤم
وصاقبته ودى فكنت كنازح
إلى غابة يحتلها أسد ضخم
عشبلاً لو فر فيها مسافر
من الأسد الضارى لأودى به الوهم
وكان وصولياً يضحى بأهله
ليملأ كفيه فكنت به أسمو
تلطف حتى استل منى خبرتى
وزود من فكرى فكان له الغنم
وكان معى سر خطير كتمته
بقلبى عن نفسى ، وقد ينفع الكتم
وقلت : دفين فى الضلوع مكبل
تموت فوقه الأحشاء وانطبق العظم
أسير وألقى الناس شرقاً ومغرباً
وليس لمخلوق به أبداً علم
فما زال بى الثعبان يخدع فطنتى
بظاهر بشر ، دونه الباطن الجهم
ويسبر أغواراً بقلبى عميقة
فإن ضل فيها قاده مكره الجم
تغلغل حتى اجتاز منها دروبها
وليس له فيها طريق ولا رسم
وشاهد سرى فى الظلام مبرقعاً
فكان له من فكره الحاذق النجم
تمكن منه ، وهو فى منطق الحجا
فظائع أعمال يطيش لها الحلم
فظائع ، لو يدرى بها الناس ملنى
رفاقى ، وأودت بى النقيصة والإثم
وصاح أمامى : ها هو القوس فى يدى
فنى أى وقت فيك ينطلق السهم
يقول أذيع السر عنك مهدداً
فألثم كفيه ، وما ينفع اللثم
تطامنت أبكى كى يصون مكانتى
وهيهات يجدى عنده الوابل السجم
فيارب خذنى ، أو خذه معجلاً
فهذا قلب ، كاد يقصفه الهم

محمد رجب البيومى

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | الإدارة | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | | محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٦٦ — الاثنين ٢٩ من ذي الحجة سنة ١٣٧٠ — ١ من أكتوبر سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

في ضوء الصباح :

أنتيجـــونا

للدكتور زكي نجيب محمود

إلى أي الجانبين ننتصر إذا نشأ التعارض ونشب الصراع : أننتصر لذوى القربى من أبناء الأسرة ، أم للقانون الذى يظل الأمة جميعاً ؟ .

وكثيراً جداً ما ينشأ ذلك التعارض وهذا الصراع في صدور الأفراد ، لأن كل فرد هو في الوقت نفسه عضو من أسرة وفرد في أمة ، وقد يحدث أن يجيء فعله موائياً لصالح أسرته وأمته معاً ، لكن قد يحدث كذلك أن يكون الفعل الذى يخدم صالح أسرته مناقضاً لصالح الأمة ، والفعل الذى يخدم صالح الأمة مناقضاً لصالح الأسرة . فإلى أى الجانبين ينبغى له أن ينحاز وينتصر ؟ .

أما من الوجهة النظرية فلا أحسب أن اثنين يختلفان ، في الإجابة عن هذا السؤال ؛ فالأمة عندنا جميعاً هي المجموعة الكبرى التي تحتوى في جوفها الأسر ، وهي التي يجب أن تظل قائمة سواء بقيت أو فنيت هذه الأسرة أو تلك ، فلا ضير علينا أن تزدهر أسرة أو تذوى ، أو أن تولد أسرة أو تموت ، لكن علينا كل الضير إذا فقدت الأمة مقومات بقائها ، لأن الخيط الذى يمسك الأفراد وأسرهم في كل واحد ، ينقطع عندئذ وينفرط العقد ، وتنتثر الحبات فرادى ؛

وبذلك نكون بمثابة من يناقض نفسه ، لأننا حين ألفنا من أنفسنا مجموعة كبرى أسميناها أمة ، قد اعترفنا ضمناً أننا في ظل هذه المجموعة وحدها نستطيع أن نعيش ؛ وماذا أنت قائل في رجل يظل السنين يُنبت شجرة ويرعاها في سبيل أن يستمتع بظلها ، حتى إذا ما نمت الشجرة وامتد ظلها ، أمسك بيده الفأس ليبترها من أرضها زاعماً لنفسه أن صالحه أحق بالرعاية وأولى ؟ كأن صالحه الفردى لم يكن هو المبدأ الأساسى والدافع الأول لاجتماعه مع غيره في حظيرة أمة واحدة ! .

نقول إنه لا خلاف على ذلك من الوجهة النظرية ، حتى إذا ما وجدنا أنفسنا أمام الموقف العملي الذى يتطلب منا أن نسلك هذه السبيل أو تلك ، فإما أن ننتصر لأبناء الأسرة التي ننتمى إليها ، أو أن ننحاز للأمة على حساب الأسرة ، حين يكون بين صالح هذه وصالح تلك تعارض واختلاف ، فعندئذ يتعذر جداً على غير من قطعوا من المدنية شوطاً بعيداً ، أن يغضوا أطرافهم عن صوالح أسرهم في سبيل مصلحة المجموعة الكبرى .

وإذاً فذلك مقياس نستطيع أن نسبر به مدى ما تألف

من تحضر وتمدن ؟ هو مقياس تستطيع أن تجزم به لنفسك إن كنت لا تزال بدائياً جاهلياً في تكوينك النفسي ، أم خطوت إلى أمام مع خطو الزمن ؟ وسأروي لك فيما يلي خلاصة لمسرحية أنتيجونا[١] التي أنشأها سوفوكليس ليصور بها هذا الصراع الذي ما ينفك ينشب في صدور الأفراد حين يدعوهم الداعيان معاً : داعي الأسرة وداعي الأمة ، وحين يكون الداعيان على تناقض وخلاف ، سأروي لك هذه الخلاصة لتسأل نفسك بعدها : هل أشعر بالعطف على أنتيجونا التي آثرت واجبها نحو أخيها على واجبها إزاء قانون أصدره الملك ليتمثل به صالح الأمة ؟ أم أشعر نحوها بالسخط والغيظ ؟ فإن وجدت نفسك عاطفاً عليها راضياً عنها ، فاعلم أنك إذاً ما تزال في هذه المرحلة الأولية البدائية بقلبك وشعورك ، وإن ظننت في نفسك غير ذلك ، وأنك في حاجة إلى أن تغير من نفسك ، ليغير الله ما يحيق بأمتك من تهدم وتصدع وانحلال :

« إتيوكليس » و « بولينيس » أخوان قتلا معاً في يوم واحد ؛ أما الأول فقد أجيز لجثته أن يوارى في التراب وأن يؤدى إليه من الواجبات الدينية ما يسر نفوس الموتى ، لأنه جاد بنفسه في سبيل وطنه ، وأما الآخر فقد أمر الملك « كريون » — ملك ثيبة — ألا يُدفن ولا يُبكى ، وأن يُترك نهباً لسباع الطير التي تتأهب لافتراسه ، وذلك لأنه ناصر أعداء الوطن على وطنه ، ويجيء النبأ إلى أختهما أنتيجونا ؛ فماذا تراها صانعة ؟ إن رابطة الرحم التي تربطها بأخيها بولينيس تقضي عليها ألا تترك جثته في العراء بغير أن يقبر أو تؤدى إليه فروض الدين ، لكن هذا هو أمر الملك — والملك هنا هو الدولة وأمره هو صالح الأمة — هذا هو أمر الملك صريح ، بأن من يحاول دفن ذلك الشقي الآثم ، سيلاقي أقصى أنواع العذاب وسط المدينة ويشهد من مواطنيه .

وتلتقي أنتيجونا بأختها أسمينا لتحمل إليها النبأ ، ولتطلب إليها أن تعاونها على دفن أخيهما :

أسمينا — ماذا ؛ أي أنتيجونا التعسة ! أتقدمين على ذلك رغم أمر كريون ؟

أنتيجونا — أله الحق أن يقطع ما يصل بيني وبين قرابتي ؟ .

(١) النصوص الواردة هنا مأخوذة من الترجمة العربية للدكتور طه حسين باشا في كتابه « من الأدب التمثيلي اليوناني » .

أسمينا ... ... إن الذين يأمرون أشد منا قوة ، وإن علينا أن نذعن لما يريدون ...

أنتيجونا ... ... إفعلي ما تؤثرين ؛ أما أنا فمواراة أخي ، فإذا أديتُ هذا الواجب ، فما أجمل بي أن أموت .

وقامت أنتيجونا بما رأته واجبها نحو جثمان أخيها ، فوارته التراب ، متعرضة بذلك إلى غضب الملك وعقابه ؛ ولم يزل الحراس يبحثون عمن اجترأ على دفن بولينيس ، حتى علموا أنها أنتيجونا ، فساقوها إلى الملك كريون :

كريون — ماذا ! أتظلين مطرقة إلى الأرض من غير أن تنكري ما تؤخذين به ؟ ...

أنتيجونا — كلا ، بل أنا أعترف به ، وأنا أبعد الناس من إنكاره .

كريون — أجيبيني من غير محاولة ، أتعلمين أني قد كنت حظرت مواراة بولينيس ؟ .

أنتيجونا — نعم ، أعلم ذلك . وهل كان يمكن أن أجهله ؟ وقد أعلن إلى الناس كافة .

كريون — وكيف جرؤت على مخالفة هذا الأمر ؟ .

أنتيجونا — ذلك لأنه لم يصدر عن « زوس » ولا عن « العدل » مواطن آلهة الموتى ، ولا عن غيرهما من الآلهة الذين يشرعون للناس قوانينهم ، وما أرى أن أوامرك قد بلغت من القوة بحيث تجعل القوانين التي تصدر عن رجل أحق بالطاعة والإذعان ، من القوانين التي تصدر عن الآلهة الخالدين ، تلك القوانين التي لم تكتب ، والتي ليس إلى محوها من سبيل ؛ لم توجد هذه القوانين منذ اليوم ولا منذ أمس ؛ هي خالدة أبدية ، وليس من يستطيع أن يعلم متى وجدت ؛ ألم يكن من الحق علي إذاً أن أذعن لأمر الآلهة من غير أن أخشى أحداً من الناس ؟ قد كنت أعلم أني ميتة ... ومن ذا الذي يعيش من الآلام في مثل هذه الحياة التي أعيش فيها ثم لا يرى الموت سعادة وخيراً .. وقد كنت أتعرض لما هو أشد لنفسي إيلاماً لو أني تركت بالعراء أخا حملته الأحشاء التي حملتني.

وجعل الملك يبدي من دهشته لجرأة الفتاة ، وجعلت الفتاة تبدي من فخرها لأدائها واجبها ، قائلة فيما قالت : « وأي مجد أحب إليّ من أني قد واريت أخي ؟ » .

وسألها الملك : ألا تخزيها أن تسلك سبيلا غير السبيل التي سلكها أهل ثيبة جميعاً حين أطاعوا أمره ؟ فتجيبه :

ليس هنالك ما يحمل على الخزى إذا شرف الإنسان من يصل الدم بينهم وبينه .

وبلغت كريون للملك نظر أنتيجونا إلى أنها قد كان لها أخوان ، لا أخ واحد ، أحدهما دافع عن وطنه فاستحق التشريف ، وجاء الآخر يدمر وطنه فاستحق اللعنة . فكيف يسوغ لها — إذاً — أن تسوى بين الأخوين فى المعاملة ، فتجيبه أنتيجونا بأنها لا تفرق بين أخويها ، فكلاهما أخوها لأبيها وأمها ، وإن الآلهة لتأمرها بتشريفهما جميعاً .

ولا يجد الملك بداً من أن يأمر بالفتاة فتلقى فى كهف حتى تموت ؛ لكن الأديب الفنان سوفوكليس ، يمضى فى تعقيد الأمور ، ليتبين مُشاهد المسرحية كيف يصبّ البلاء على من يحاول العبث بتقاليد الناس ، لأن التقاليد فى عصره لم تزل أقوى من قوانين الدولة ، فهو ينتصر لأنتيجونا راعية التقاليد على كريون مشرع القوانين ؛ فجعل « هيمون » بن كريون وخاطب أنتيجونا ، يلقى بنفسه وراء حبيبته فى كهفها ، فيموتان معاً . وتسمع الملكة — زوجة كريون — أن ابنها قد لقى حتفه غماً لعناد أبيه ، فتنتحر حزناً عليه ؛ فتنزل الكروب بالملك : « مثل سىء ضرب للناس يبين لهم ماذا يجر الهوج على الملوك أنفسهم »

كريون : قودونى إلى مكان بعيد ، أنا هذا الشخص المجنون ! أى بنى لقد قتلتك دون أن أريد ، ولقد قتلتكِ أنت أيضاً أى أوريديس (الملكة) واحسرتاه ! لست أدرى إلى أيكما أنظر ، ولا إلى أى جهة أتحول ، لقد فقدت كل شىء ، لقد ألح على رأسى قضاء لا يطاق .

رئيس الجوقة — إن الحكمة لأول ينابيع السعادة .. إن غرور المتكبرين ليعلمهم الحكمة بما يجر عليهم من الشر ، ولكنهم لا يتعلمون إلا بعد فوات الوقت وتقدم السن .

* * *

ونعود فنسأل القارىء : ماذا ترى من نفسك ، وإلى أى جهة تميل ؟ أتنتصر إلى أنتيجونا أم تنتصر إلى الملك ؟ إن انتصارك لأنتيجونا انتصار للأسرة على الأمة حين ينشأ التعارض بينهما ، وانتصارك للملك انتصار للقانون على حكم التقاليد — ما أحسبك إلا ذاهباً بعطفك وعاطفتك مع أنتيجونا ، لأنك — مثلى — قد نشأت فى جو يُقرّب إلى قلبك الأهل بأشد وأقوى مما يُقرّب المواطنين والغرباء ؛ وقد يهون شر ذلك فى مثلك ومثلى ، لأن كلينا ليس من أصحاب الحكم ، فإيثاره لجانب ليس بذى خطر بعيد ، لكن الطامة الكبرى حين يتأثر أصحاب الحكم بما تتأثر به — أنت وأنا — من عواطف العامة والدهماء .

إنى أقول ما قاله كريون مدافعاً عن وجهة نظره : « ليس من سبيل إلى أن تُعرف نفس الرجل وذكاؤه وأخلاقه إذا لم يجلس مجلس الحكم ، ولم يوكل إليه تدبير الدولة وحماية قوانينها ؛ أما أنا فأعتقد وقد اعتقدت دائماً أن ذلك الرجل الذى يكلف الحكومة وحماية القوانين فلا يقف نفسه على النصح للدولة وتضحية كل شىء فى سبيلها ، بل يمنعه الخوف من ذلك — أعتقد أن هذا الرجل شرير مقوت ، ولا أستطيع إلا أن أزدرى ذلك الذى يؤثر منفعة الصديق على منفعة الوطن » .

إنه لم يعد بد — كما قلت فى موضع آخر — من تغيير قيم الأشياء والأوضاع ، فما كان صالحاً لآبائنا لم يعد صالحاً لنا ؛ فقد كانت شدة الروابط الأسرية موضع فخر حين كانت الحياة بدوية متنقلة بين أطراف الصحراء ، فكان حتماً على أبناء الأسرة الواحدة أن يتحدوا جبهة واحدة أمام هجمات الأسر الأخرى أو القبائل الأخرى — والقبيلة أسرة كبيرة — أما اليوم فسبيل الخير هو أن تخلخل الروابط الأسرية بعض الشىء ، حتى لا يجد الرجل نفسه ملزماً بحكم تربيته أن يؤثر ذوى رحمه على سواهم حين يؤول إليه زمام الحكم وتلقى فى أيديه مقاليد الأمور ، ويصبح قادراً على الضر والنفع .

إنه لا تناقض بين أن تكون للأسرة المكانة الأولى عند الطفل ، حتى إذا ما تم له النمو فى محيطها وخرج للناس رجلاً ، تصبح لأسرته المكانة الثانية ؛ كما أنه لا تناقض بين أن يطعم الرضيع من ثدى أمه ، حتى إذا ما جاوز حدود الرضاعة التمس لرزقه مورداً آخر .

إن بين أمثالنا التى تصور أخلاقنا مثلاً يقول : « أنا وأخى على ابن عمى ، وأنا وابن عمى على الغريب » — صورة قوية موجزة للتكتل الأسرىّ البغيض ، ونريد أن يأتى الزمن الذى تقول فيه أمثالنا : ألا « غريب » بين أبناء الوطن الواحد ، وأنى وأخى وابن عمى وأبناء الوطن جميعاً على من تولى أمورنا فيؤثر « قريباً » على « غريب » .

زكى نجيب محمود

لماذا لا نتعلم من التاريخ ؟

للأستاذ علي أدهم

بعض الكوارث التى تصيب الأمم قد تكون مجهولة الأسباب ، ولكن من الواضح أن الكثير من النكبات التى أصابت الناس مصدرها أنهم لا يفيدون من التجارب ولا يتعلمون من التاريخ ، وأكثر حوادث التاريخ تكاد تكون قصة الحماقات البشرية التى لم تع دروس التاريخ وأهملت عظاته وتجاهلتها وأعرضت عنها ، وطالما استوقفنى بيت من الشعر لشوقى فى القصيدة التى رثى بها بطرس غالى وهو قوله :

والحكم للتاريخ فيـــك فإن غد
يزن الرجال ويصـــدر الأحكاما

ويخيل إلى أن أكثر الناس لا يبالون أحكام التاريخ هذه ، ولا يفكرون فيها ، ولست أدرى هل كان المرحوم شوقى نفسه قائل هــذا البيت من المعنيين بأحكام التاريخ ! أرجو أن يجد الذين تخصصوا لدراسة حياته ومواقفه واتجاهاته أنه كان كذلك .

وقد اهتمت الأمم المثقفة بالتربية والتعليم وبذلت جهوداً عظيمة ، وقامت بتجارب شتى للبحث عن أصح أساليب التربية وأحسن سبل التعليم ، والكثيرون منا يتفاءلون ويحسنون الظن بالإنسان ، ويرون أنه قابل للتربية وصالح للتعليم ، والواقع أن المربى — على الأرجح — لابد أن يكون متفائلا حسن الظن بالطبيعة البشرية وقابليتها للإصلاح والتهذيب ؛ ولكن هناك بعض المتشائمين الذين يشكون فى قيمة التربية والتعليم ، ويتساءلون : هل نجحت التربية فى محاولتها ؟ وهل استطاعت أن تهذب الإنسان وترفع من مستواه ؟ وخير رد على هذا التساؤل هو بطبيعة الحال التوسع فى التربية والتعليم والإكثار منهما والإمعان فيهما ؛ فالتعليم يفتح لنا آفاقاً جديدة ، ويمكننا من الاتصال بأرقى العقول البشرية فى مختلف الأمم ومتباين الأجيال ومختلف العصور ؛ ولا نزاع فى أننا قد نتأثر بمثلهم العليا وأخلاقهم السامية ، وقد نتعلم منهم الصدق والأمانة والإخلاص والنزاهة والترفع عن الصغائر ، ولولا العلم والتربية لما كانت الابتكارات العلمية التى لطفت آلام الإنسان ويسرت له الكثير من المطالب المادية وضاعفت متع الحياة ؛ والعالم بغير مدارس ولا معاهد للتربية والتعليم لايصبح جحيماً فحسب ، بل يخيم عليه الظلام وتذوى فيه النفوس وتقبر المواهب ؛ فالتربية مهما اعتورها النقص ولحقها الإخفاق وساء بها الظن خير من الجهل المطبق والعامية الطاغية ؛ ولولاها لكان العالم اليوم أسوأ حالاً مما هو عليه ، ولتعقدت الأمور أكثر مما هى معقدة ، ولاستفحل الداء وأعجز الإنسانية التطبيب والدواء .

والتاريخ نفسه يوضح لنا أن التجارب قد تكون معلماً ، وقد لا تعلمنا التجارب جميعاً فى كل وقت ، ولكنها قد تعلم بعضنا فى بعض الأوقات ، ولو انتفع عظم الأمم بالتاريخ لتجنبت الكثير من الثورات الدامية والانقلابات الخطيرة .

وقد تناول هذا الموضوع الكاتب الحرفى القدير ليدل هارت فى رسالة له قيمة أسماها « لماذا لا نتعلم من التاريخ » وضمنها الكثير من آرائه السديدة ، وهذه الرسالة نفسها ترينا صعوبة التعلم من التاريخ ، وذلك لأن التاريخ بطبيعته يعلم الأقوام المختلفين دروساً مختلفة ، والآراء فى تفسير التاريخ كثيراً ما تتعارض وتتناقض ، وحينما نقرأ لكبار المؤرخين نجد أن كلا منهم قد استخلص منه نتائج قد لا تتفق مع النتائج التى استخلصها غيره من المؤرخين ؛ وما رآه فى التاريخ مثلاً مفكر مثل كارلايل يخالف مالحظه مفكر آخر مثل تولستوى ؛ وكبار المؤرخين غير متفقين على ما تعلموه من التاريخ . وقد ظن هتلر أنه تعلم من التاريخ درساً قصر عن إدراكه قبله الإمبراطور غليوم ومستشاروه ؛ ومن الغريب أنه وقع فى نفس الخطأ الذى تورط فيه الإمبراطور غليوم فحارب فى جبهتين كما حارب الإمبراطور غليوم ، واستخف بقوة أعدائه كما استهان بها غليوم . والمشكل هو أن نفس الذين يريدون أن يتعلموا من التاريخ ليس من السهل اتفاقهم على الدرس الذى يجب أن يتعلموه ، والحقيقة

المزية هي أن الكثيرين لا يريدون أن يتعلموا من التاريخ ، وذلك لأن الطابع الشخصية والمآرب الذاتية والأهواء والشهوات تضل طريقهم وتصرفهم عن الإفادة من التاريخ وتجاربه .

والتاريخ هو تجارب الإنسانية ، ولكن ما أقل استفادتنا من تجاربنا الخاصة ، ونحن أقل من ذلك استفادة من تجارب آبائنا وأجدادنا وتجارب الأمم السالفة والعصور الغابرة ...

وإذا كانت تجارب التاريخ لا تفيد فليس الذنب ذنب التاريخ ولا العيب عيبه ، وإنما هو ذنبنا وعيبنا وخطؤنا ! فالدروس في التاريخ كثيرة والعبر ماثلة والعظات متكاثرة ، ولكننا نتجاهلها لأنها تحد من أطماعنا وتعترض شهواتنا ، وما أصدق قول المتنبي :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا   وعناهم من شأنه ما عنانا

ولكن ما قيمة ذلك ما دمنا لا نريد الانتفاع بتجارب التاريخ ؟ ...

وقد تحدث ليدل هارت في مستهل رسالته عن قيمة التاريخ فقال : « التاريخ هو سجل خطوات الإنسان وعثراته ، وهو يرينا أن الخطوات كانت بطيئة وقليلة ، وأن العثرات كانت سريعة وكثيرة ، وهو يتيح لنا الفرصة للاستفادة من عثرات المتقدمين وسقطاتهم ، ويجب أن يجعلنا ما نشعر به من قصور وعجز ، مقتصدين في ذم هؤلاء الذين تورطوا في الخطأ ، ولكن يجب أن نحاسب أنفسنا إذا فاتنا تعرف الأخطاء ، وهناك نزعة عامة لاعتبار التاريخ موضوعاً للمتخصصين ، وهذا هو الخطأ الأول ، لأن التاريخ — على نقيض ذلك — هو الصحيح الجوهري لكل لون من ألوان التخصص ، وإذا نظر إليه نظرة صحيحة فهو أوسع الدراسات مجالاً ، وهو يشمل كل وجه من أوجه الحياة ، فهو يضع أساس التربية لأنه يرينا كيف يكرر البشر أخطاءهم ويكشف لنا هذه الأخطاء . ولقد كان بسمارك الذي قال هذا التعليق الذي ينم على الاحتقار والذي يناسب هؤلاء الذين يصفون أنفسهم بأنهم « رجال عمليون » تمييزاً لهم من « النظريين » ، وهو قوله : « إن الحمقى يقولون إنهم يتعلمون من التجارب ، وأنا أفضل أن أتعلم من تجارب الآخرين » ، ودراسة التاريخ تتيح لنا هذه الفرصة ، فهو التجربة العامة ، وهي تجربة أطول إلى أقصى حد ، وأوسع وأكثر تنوعاً من تجربة أي فرد ، وطالما سمعنا من الناس أنهم يدعون معرفة الدنيا لأنهم بلغوا الستين أو السبعين من عمرهم ، ومعظم هؤلاء يمكن وصفهم بأنهم شباب ناشئ في الستين أو السبعين ، ولا عذر لرجل متعلم إذا كان عمر عقله أقل من ثلاثة آلاف سنة .

ويتبع ذلك بذكر ملاحظات له تبين لنا كيف يصنع التاريخ ، وكيف يكتب ، يقول فيها : « مما يساعدنا على فهم الحوادث السالفة بعض تجاربنا الراهنة في مشاهدة كيف يتقرر وقوع الحوادث ؛ ولقد كان من حظي الحسن أن أرى بعض الأجزاء الصغيرة من التاريخ وهي تصنع ؛ وقد علمتني هذه التجربة أن الصادفة هي الغالبة ، مثل تأثير الكراهة الشخصية أو الكبد المريضة أو الشغب المنزلي » .

ويسترسل في بسط رأيه فيقول : « ربما كان أقوى هذه الصادفات المؤثرة في التاريخ الوقت المخصص لتناول الغداء ، فقد لاحظت أثناء حضوري الكثير من اللجان في لندن وجنيف كيف أن البحث المتزن لمشكلة من المشاكل يختل ويضطرب وينتهي الباحثون إلى رأي فطير يخالف في بعض الأوقات اتجاه الرأي السابق ؛ وسبب ذلك أن معظم الأعضاء كانوا مرتبطين بمواعيد لتناول الغداء ، واستطاع أحد الأعضاء الماكرين أن يستغل حرصهم على مراقبة الوقت ليحقق هدفه . ولقد كان نابليون هو الذي قال : « إن الجيش إنما يمشي بمعدته » ، وملاحظتي تجعلني أميل إلى أن أكمل قوله هذه بهذا المثل وهو : « إن التاريخ يسير في مجراه بمعدة الساسة » ، واليابانيون يقولون : إن المعدة هي بيت الشجاعة . ويؤيد هذا القول براهين كثيرة من التاريخ الحربي تدل على أن الروح المعنوية للجيوش تتوقف على حالة معدتها ؛ ومن ذلك كله يستطيع المؤرخ أن يستخلص أن مصير الأمم يتوقف إلى حد كبير على تيارات الشعور الناجي° لا على الأحكام المتزنة » .

ثم يشككنا في الوثائق التي يكتبها القواد عن المعارك التي يخوضون غمارها ، ويروي تأييداً لرأيه هذه الحادثة لما انهارت الجبهة البريطانية في مارس سنة ١٩١٨ وجاءت

الإمدادات الفرنسية لتسد الثغرات ، وصل أحد كبار القواد الفرنسيين إلى معسكر بعض فرق الجيش ، وهناك أملى الأوامر التي تعين الخط الذي تقف عليه الجيوش في تلك الليلة وتبدأ حركة الهجوم المضاد في الصباح ؛ ولكن الفرقة بعد أن قرأت الأمر حارت في أمرها ، وقال رئيسها مبدياً دهشته : « ولكن هذا الخط وراء الجبهة الألمانية ، فقد فقدناه أمس » . ولكن القائد الكبير ابتسم ابتسامة العارف وقال : « إن هذا التاريخ » وأضيف إلى ذلك أن هذا القائد كان له مركز سام أثناء الحرب في مكان المخطوطات التي اعتمد عليها التاريخ الرسمي بعد ذلك ، والمخطوطات الرسمية بها كثير من الثغرات ، وهي علامة تدل على أن كثيراً من الوثائق أعدمت لإخفاء ما قد يضر بسمعة قائد من القواد ؛ والأصعب من ذلك كشف الوثائق المزيفة التي وضعت في مكان بعض الوثائق التي أعدمت ؛ وقد كنت أعجب في بعض الأوقات كيف يمكن القواد أن يقوموا بأعمالهم في الحرب وهم يقضون الكثير من وقتهم في إعداد المواد للمؤرخين .

وإذا كان عظماء الرجال في الماضي — حيث التحقق من صحة الحوادث أصعب — قد شعروا بالتاريخ شعور الأجيال الحديثة فلنا أن نتساءل أي قيمة يمكن أن نعطيها لأي شيء أقدم من تاريخنا المعاصر ، وكشف التاريخ من التجارب التي تزيدنا فطنة ورزانة . ولقد جعلت المؤرخ الأمريكي الشهير هنري آدمز يقول في رده على رسالة جاءته : « لقد كتبت الكثير من التاريخ حتى أصبحت لا أومن به ، فإذا أراد إنسان أن يخالفني فإني مستعد لأن أتفق معه ؛ ودراسة تاريخ الحرب بوجه خاص تبدد أوهامنا في الاعتماد على شهادة الناس ودقتهم بوجه عام ، حتى إذا غضضنا النظر عن تشكيل الحوادث لتلائم أغراض الدعوة » .

ويتحدث في موضع آخر من الرسالة عن « الخوف من الحق » فيقول : « يعلمنا التاريخ أنه في كل عصر وكل إقليم كان الناس يكرهون أي تعليق صادق على نظمهم الشعبية ، ونتعلم من التاريخ كذلك أنه لا شيء كان أدعى إلى بقاء الكذب والزيف والشر الذي ينجم عنه من إصرار الناس الصالحين على عدم التسليم بالحق حينما كان الحق مقلقاً ليقينهم المزعزع ، ولا أتصور مثلاً أعلى لحياة الإنسان أسمى من مواجهة الحياة بعين مبصرة بدلاً من التعثر في طرقاتها مثل مكفوفي البصر أو البلهاء أو السكارى ، وهو ما يفضله أكثر الناس ؛ ويندر أن تلقى بين الناس من يسأل نفسه عند أول مواجهته لشيء من الأشياء « هل هذا الشيء حقيقي ؟ » وبالرغم من هذا فإنه إن لم يصبح هذا التساؤل هو المواجهة الطبيعية للأشياء فإن هذا يظل يدل على أن البحث عن الحق ليس مطلب الإنسان الأسمى ، وما لم يصبح الحق مطلب الإنسان الأسمى فالترقي غير محتمل » .

ويتخذ ليدل هارت الألمان مثلاً لذلك ، فيروى أنهم ألحقوا بقانون العقوبات الألماني في سنة ١٩٣٦ مادة تنص على أن الأشياء التي تستخرج من تاريخ ألمانيا السالف وتسيء إلى الشرف الألماني يعاقب الذي يجيء بها بالأعمال الشاقة ، سواء كان ما جاء به حقاً أو باطلاً ، وكتابة التاريخ الحق تسيء على الدوام إلى من لهم مصلحة في إخفائه ، وقد تفردت ألمانيا بأنها كانت أول بلاد تجعل ذلك جريمة ينص عليها في قانون العقوبات ! .

ويرى ليدل هارت أن أخطر الأوهام هي الأوهام التي تنشأ من تزييف التاريخ لمصالح القومية المتوهمة والمحافظة على الروح المعنوية في الحرب ؛ ومن العجيب أننا نحصل على التجارب في صعوبة وعناء ، ولكننا نلقى صعاباً جمة في الاستفادة منها ، والذين صادفوا أكبر المشقات يظهرون استعدادهم ليلقوا نصيباً أكبر من الشقاء . ويذهب ليدل هارت إلى القول بأن فن إخفاء الحقائق وسترها قد ظهر في كتابة التاريخ الحربي قبل أن يطبق في ميادين القتال بزمن طويل ، وهذا الفن لا يخفي الأخطاء التي يمكن أن تعالج وحدها ، وإنما يغذي الثقة المزيفة ، وقد كانت الثقة المزيفة سبب أكثر السقطات التي سجلها تاريخ الحروب .

ويتحدث ليدل هارت عن الولاء الصادق والولاء الكاذب فيقول: « يعلمنا التاريخ أن هؤلاء الذين لا ينطوون على الولاء لرؤسائهم يكثرون من التبشير بالولاء لأتباعهم ومرؤوسيهم ؛ ومنذ سنوات قلائل كان هناك رجل يكثر من التبشير بالولاء حينما يكون في منصب عال ، وقد وصف هذا الرجل رؤساؤه في أحاديثهم الخاصة وكذلك زملاؤه ومساعدوه بأنه من هذا الصنف من الناس الذي لا يتورع

من شيء في سبيل طلب الظهور والرقي ؛ والولاء صفة نبيلة على شريطة أن لا تمحو من النفس الولاء الأكبر ، وهو الولاء للحق والولاء لما يليق ؛ ولكن هذه الكلمة كثيراً ما يساء استعمالها ، لأننا إذا حللنا أكثر ما يفهمه الناس من لفظة الولاء ، نجد أنه مؤامرة لإخفاء عدم الكفاية المشتركة ، وهو من هذه الناحية في جوهره ضرب من الأثرة مثل ولاء العبودية الذي يحط من قدر السيد والعبد » . ويتحدث بهذه المناسبة عن الذين يقبلون على كتابة التاريخ أو التراجم متأثرين بهذه الفكرة الخاطئة عن الولاء ، فيقول : « هذه الأنواع الصغيرة من الولاء تغزو ميدان كتابة التاريخ وتفسد ثمراته ، لأن البحث عن الحق من أجل الحق وحده هو أول صفة من صفات المؤرخ ؛ وكثيرون من يحاولون القيام بكتابة التاريخ ؛ ولكن القليلين جديرون بذلك ، لا لنقص المواهب ، وإنما لنقص الدافع أو العزم على اتباع الحق أينما قادنا وأدى بنا . والكثيرون عندهم موانع عاطفية حينما يتصدون لكتابة التراجم مثل الصداقة والقرابة وولاء التقليد ؛ وأقل قيمة من هؤلاء الذين يحرصون على أن تكون النتائج التي يصلون إليها مما يرضى الجمهور أو ترضى ولي نعمتهم أو أولياءهم ؛ وليس معنى ذلك أن آراء المؤرخين يصل إلى الحق في كليته الشاملة ، وإنما معناه أنه يقترب منه إذا صح منه العزم . وقد سمعت من بعض الرجال البارزين الذين اشتركوا في الحرب الكبرى الأولى قولهم إن بعض حوادث تلك الحرب يحسن المرور عليها والسكوت عنها في كتب التاريخ ؛ وقد كان هؤلاء الرجال شرفاء حسني السمعة ، ولكنهم لم يشعروا بأنهم كانوا يجرمون ، وهذا الإجرام لم يكن مقصوراً على مصالح بلادهم ، وإنما كان إجراماً يؤذي الحق ، والحق هو الأساس الجوهري للشرف » .

ويتحدث عن المحافظة على العهود والمواثيق فيقول : « تقوم الحضارة على ممارسة المحافظة على الوعود ، وقد لا يبدو ذلك شيئاً سامي القدر عظيم الشأن ، ولكن إذا اهتزت الثقة بالمحافظة على العهود فإن البناء جميعه يتداعى وينهار ، وكل محاولة بنائية وجميع العلاقات البشرية سواء كانت شخصية أو سياسية أو تجارية قوامها الاعتماد على الوعود » .

ويذهب ليدل هارت إلى أن الدقة في أعمق معانيها هي أساس الفضائل وأساس التفاهم وأنها ضمان التقدم ، ويعزو معظم أسباب متاعب الإنسانية إلى الإسراف ، وأن العجز هو سبب إخفاقنا في دفع هذه المتاعب ، وأن منعها متوقف على التزام الاعتدال ، والمعلومات غير الدقيقة والأحكام العريضة السريعة والأحاديث المنطوية على الحقد والكراهة ، كل ذلك هو الذي يثير الحروب ؛ فجرثومة الحرب في داخل نفوسنا لا في الاقتصاديات أو السياسات أو الدين ، ولا يمكن الخلاص من شر الحرب إلا إذا عالجنا أسبابها الأصيلة في نفوسنا » .

وينقل عن الجنرال هوفمان قوله : « لأول مرة في حياتي رأيت التاريخ من منازله القريبة ، وأعرف الآن أن ما يحدث في الواقع يختلف كل الاختلاف عما يمثل للأجيال القادمة » .

وينتقد في ختام الرسالة نظرية أن الغاية تبرر الواسطة ، ويقول : « إذا كان هناك درس واضح في التاريخ ، فهو أن الوسائل السيئة تشوه الغايات أو تنحرف بها عن اتجاهها الأصلي ، وإذا نحن عنينا بتحري الوسائل فإن الغايات ستعنى بنفسها وتتجه في طريق تحقيقها » .

ورسالة ليدل هارت حافلة بأمثال هذه الأفكار المستنيرة والخواطر المعتدلة التي ترشدنا في الاستفادة من التاريخ والانتفاع بدروسه وعبره .

علي أدهم

تهذيب اللغـــة

للإمام الأزهري

للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار

الإمام الأزهري : أبو منصور ، محمد بن أحمد بن أزهر ، طلحة ابن نوح بن أزهر ، الهروى اللغوى الشهير ، وليس الأزهرى نسبة إلى الجامع الأزهر — كما يظن كثير من الناس — إنما هو نسبة إلى « أزهر » أحد أجداده ، وقد ولد سنة اثنتين وثمانين ومائتين من الهجرة ، وتوفى فى أواخر سنة سبعين وثلثمائة ، وقيل : إحدى وسبعين .

والأزهرى : إمام عظيم من أئمة اللغة المصطفين ، وحجة من حججها ، وعلم سامق رفيع الذرى ، ولم تكن اللغة كل علمه ، بل اشتهر بها لأنها غلبت على علومه الأخرى كالفقه والحديث والتفسير .

والإمام الأزهرى من أولئك العباقرة الفلائل الذين أدركوا أسرار اللغة العربية وفهموا فوارقها الدقيقة وسبروا أغوارها ، وانتهوا إلى معرفة شواردها وفُصَحها معرفة عالم خبير واسع الثقافة والعلم سليم الذوق صحيح الإدراك واضح التعبير والتفسير عظيم الفهم والاستيعاب ، وكتابه الضخم الفخم العظيم « تهذيب اللغة » يدل على غزارة علم الأزهرى فى اللغة واستيعابه الشامل .

والتهذيب الذى تقف مقالنا عليه معجم فى اللغة العربية يمتاز بالدقة والاستيعاب والشمول والتحرى فى الأخذ ، وهو يدل على علم الأزهرى الواسع باللغة وعلى ثقافة لغوية لا تتاح إلا لأفراد معدودين ، كما يدل على ذهن خصب وفكر رفيع واستيعاب لمواد لغوية كثيرة كثيرة .

وآية ذلك أنه ما من لغوى جاء بعده إلا اعتمد عليه وورد منهله وأخذ منه ، بل كل لغوى خلفه حتى اليوم كان يعول عليه إلى حد بعيد ، وسبب ذلك أن الإمام الأزهرى استطاع أن يجمع من صحيح اللغة مواد كثيرة لا غنى عنها أو عن أكثرها لكل لغوى جاء بعده ، ولسان العرب للإمام ابن منظور الأفريقى الأنصارى يكاد يضم كثيراً من تهذيب الأزهرى ، كما أن مرتضى الزبيدى صاحب « تاج العروس » اعتمد عليه ونقل منه كثيراً فى كتابه اللغوى العظيم « التاج » .

يقول بعض العلماء : إن صحاح الجوهرى فى اللغة يشبه صحاح الإمام البخارى فى الحديث ، وبعضهم قال ذلك عن « مختار الصحاح » وهذا حق إلى حد ما ، إلا أنى أرى أن « التهذيب » أجدر بهذا الوصف ، لأن الإمام الأزهرى كان ورعاً زاهداً صادقاً فقيهاً شديد الحيطة والحذر فى تلقى اللغة ، كثير التثبت فى أخذها ، وكان يتحرى ويبالغ فى التحرى ، فإذا لم يجد لفظاً إلا عند غير من يسميهم الأثبات يشير إليه خوفاً من حمل التبعة التى لا يود احتمالها أو مشاركة من يحملونها ، وخشية من أن يدخل فى اللغة ما لم يصح وروده عن ثبت من الأثبات الكفاة الراسخين .

وتفضيل « التهذيب » على « الصحاح » أو « مختار الصحاح » يأتى من نواح كثيرة ، أعظمها : صحة روايته وثقة سماعه ، ثم سبقه وصدقه وورعه ، وأخذه اللغة دهراً طويلاً من أصحابها السالمين من اللحن والخطأ ، وأفضل « الصحاح » على « التهذيب » من ناحيـة الترتيب وسهولة الانتفاع به ، وحسن المأخذ ولين القياد بخلاف « التهذيب » ، فإن صعبه لا يُرْوَد إلا لعالم متمكن فى اللغة عارف طرق البحث فى المعاجم التى تشبه التهذيب فى طريقته حتى كاد يهمل ، بل أهمل حقاً .

يقول الإمام اللغوى الكبير صاحب « لسان العرب » رحمه الله فى خطبة معجمه العظيم الرحب الفضفاض : « ولم أجد فى كتب اللغة أجمل من « تهذيب اللغة » لأبى منصور

محمد بن أحمد الأزهري ، ولا أكمل من « المحكم » لأبي الحسن بن إسماعيل بن سيده الأندلسي — رحمهما الله — وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق ، وما عداهما بالنسبة إليهما ثنيات الطريق ، غير أن كلا منهما مطلب عسر المهلك ومنهل وعر المسلك ، وكأن واضعه شرع للناس مورداً عذباً وجلاهم عنه ، وارتاد لهم مرعى مربعاً ومنعهم منه ، قد أخر وقدم ، وقصد أن يعرب فأعجم . فرق الذهن بين الثنائي والمضاعف والمقلوب ، وبدد الفكر باللفيف والمعتل والرباعي والخماسي فضاع المطلوب ؛ فأهمل الناس أمرهما وانصرفوا عنهما ، وكادت البلاد لعدم الإقبال عليهما أن تخلو منهما ، وليس لذلك سبب إلا سوء الترتيب ، وتخليط التفصيل والتبويب ، ورأيت أبا نصر إسماعيل بن حماد الجوهري قد أحسن ترتيب مختصره ، وشهره بسهولة وضعه الخ ... » .

وبإهمال التهذيب ضاع من الناس علم غزير كان في متناولهم لولا ترتيب الكتاب الذي صد طلاب العلم والمعرفة عنه ، ولو وجد من يطبعه مثل « الجمهرة » لابن دريد بفهارس تكون مفاتيح سهلة لأفادت العربية كثيراً بالتهذيب ، ولعل الذين قاموا بطبع الجمهرة وتبويب فهارسها وضبطها يتوجهون بذلك الجهد المثمر إلى « التهذيب » ، فيخرجوه ، وإني سأعينهم بما لدي من علم قليل وجهد ضئيل إذا أرادوا أو أراد غيرهم من الناشرين الغيُر على اللغة العربية ، وإني مستعد أن أبعث إليهم أصح نسخة في العالم من التهذيب إذا صح عزمهم على نشره نشراً علمياً صحيحاً ...

والتهذيب مرتب مثل كتاب « العين » المنسوب إلى الخليل بن أحمد وكتاب « المحكم » لابن سيده و « الجمهرة » لابن دريد ، وهـذا الترتيب على مخارج الحروف وقلب الألفاظ — وهو غير ترتيب التهجي للحروف — مثال ذلك : هيش وشيه في أبواب الهاء والشين ، و « وضام ، ضمي ، مضي ، وضم ، أمض ، أضم » وينبه إلى ما ليس مستعملاً من المواد .

وترتيب الحروف فيـه هكذا : ع ، ح ، هـ ، خ ، غ ، ق ، ك ، ج ، ش ، ض ، ص ، س ، ز ، ط ، د ، ت ، ظ ، ذ ، ث ، ر ، ل ، ن ، ف ، ب ، م ، و ، ا ، ي .

وجعل الهمزة حرف علة وكان حقها أن تذكر بعد العين ، وإن كان الصرفيون يحسبونها أول حروف الحلق .

وكثيراً ما يصل الأزهري المواد بعضها ببعض دون عنوان ؛ ويبتدئ بالفعل الثنائي المضعف ثم الثلاثي الصحيح ثم المهموز ثم المعتل ثم الرباعي المجرد ، ثم الأسماء الخماسية .

ومع أن التهذيب لا يخلو من عيوب ومآخذ فإني كنت حريصاً على دراسته . فبحثت عنه طويلاً فلم أصادف نسخة منه في مكتباتنا ، وسألت كثيراً من أصدقائي العلماء بالمملكة العربية السعودية عن التهذيب فأجابوا : أنهم لا يعرفون عنه شيئاً ، وسألت أصدقائي العلماء من أبناء الأقطار العربية فأجابني أكثرهم : أن التهذيب غير موجود إلا في دار الكتب المصرية .

ورحلت إلى مصر غير مرة . وكنت أختلف إلى دار الكتب أدرس كتب العربية وغيرها ، وأدرس « التهذيب » أكثر من غيره . ولشد ما أسعدني أني وجدت بها منه نسخاً ثلاثا ، إلا أن فرحي لم تتم ولم تدم طويلاً ، لأن ثلاث النسخ لا يكمّلن نسخة صحيحة ، وبكل نسخة منها نقص وتلف ، وفيها تصحيف وتحريف .

فالنسخة الأولى في مجلدين ، وهي مضبوطة بالحركات ، والخط نسخ ، ولكن بآخر الجزء الثاني « خروماً » .

والنسخة الثانية في سبعة عشر جزءاً ، إلا أن الموجود من هذه الأجزاء سبعة ، وهي : السابع والثامن والتاسع والحادي عشر والثاني عشر والسادس عشر والسابع عشر ، وما عدا سبعة الأجزاء مفقود ، وبها جميعها « خروم » .

وستة الأجزاء الأولى من هذه الأجزاء السبعة بخط محمد بن اسماعيل بن حسن بن أبي الحسن بن علي المرقلي ، وفرغ منها في جمادى الآخرة سنة سبع وسبعين وستمائة ، أما الجزء الباقي وهو السابع عشر فقد كتبه محمد بن علي بن محمد الأنصاري ، وفرغ منه يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

أما النسخة الثالثة فلا يوجد منها إلا جزءان هما : التاسع والثاني عشر ، ولا يعرف عدد أجزائها .

وأردت أن أتولى نشر التهذيب بعد تحقيقه ، وحاولت أن أجمع من أجزاء هذه النسخ نسخة كاملة فما استطعت ، وحز ذلك في نفسي ، لأني تيقنت أننا فقدنا التهذيب كاملاً ،

وكان الأسى يستبد بي كثيراً عندما أفكر في أن الزمن سيقضي على هذه البقية من «تهذيب اللغة» إذا لم تصنها الطبعة أو تؤخذ منها نسخ كثيرة.

وعندما قمت بزيارة المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم في السنة الماضية (١٣٦٩ هـ) فرّغت نفسي من كل عمل وشغلتها بأمر واحد هو البحث في المكتبات عن «التهذيب» مع دراسة ما في مكتباتنا من النفائس والنوادر بقدر ما يسمح وقتي وجهدي ومالي.

وبينا أنا أبحث في المخطوطات بمكتبة شيخ الإسلام الإمام الصالح الزاهد «عارف حكمة الله الحسيني» إذا بي أعثر على نسخة من التهذيب كاملة مضبوطة واضحة نظيفة جميلة الخط.

أيها القارئ الكريم، حدث عن سروري ولا حرج عليك، فقد شعرت بغبطة وسرور وسعادة لم أشعر بها في حياتي إلا مرتين أو ثلاثاً. وهذه من أعظمها ولا شك عندي، لأني تيقنت أن الله حفظ لنا علم الإمام الأزهري — حجة اللغة العربية وإمامها وعلامتها — وصانه في مهاجر رسوله عليه السلام.

وهذه النسخة التي عثرت عليها بين ثمانية آلاف من الكتب المخطوطة، النسخة الوحيدة في العالم كما أظن مالم يكن في مكتبة من المكتبات الصغيرة المهملة أو مكتبة من المكتبات التي لم أطلع على فهارسها نسخة أخرى كاملة، وأعتقد أنه لو وجدت نسخة أخرى كاملة فلن تكون لها خصائص نسخة المدينة المنورة التي تمتاز بجودة الخط ووضوح القلم وضبط الكلمة بالحركات ضبطاً دقيقاً.

وأذكر أن صديق العالم المراكشي الجليل الشيخ «محمد عثمان المراكشي» أخبرني عندما قدم إلى مكة للحج سنة ١٣٥٤ هـ أن بالاسكوريال بإسبانيا نسخة كاملة من التهذيب، وسمع ذلك من بعض تلامذته الذين سافروا إلى إسبانيا، وقال الشيخ المراكشي: إن بتلك النسخة أخطاء من الناسخ كما حُدّث، ولكني علمت أخيراً أنه لا وجود للتهذيب في الأسكوريال، ولعل صديقنا الشيخ المراكشي توهم ذلك أو توهم تلامذته.

أما «تهذيب اللغة» الموجود بمكتبة الشيخ عارف حكمة الله فنسخة كاملة صحيحة جد سليمة، ورقمها هناك ٤٣ قسم اللغة وعدد أوراقها ٩٠٠ وصفحاتها ١٨٠٠ وتقع في مجلدين منفصلين، وتسطيره ٤١، وفي كل سطر ٢٠ كلمة إلى ٢٥ كلمة.

وكاتب هذه النسخة: ياقوت بن عبد الله الرومي الأصل البغدادي المنشأ الحموي المولد، وهو مؤلف كتاب «المشترك في ضبط أسماء البلاد».

وفرغ من كتابتها صبيحة يوم الجمعة الثامن من ذي الحجة سنة ست عشرة وستمائة للهجرة المباركة أي بعد وفاة الأزهري بخمس وأربعين ومائتي سنة.

وخط هذه النسخة يمثل النسخ الجميل المضبوط بالحركات ضبطاً دقيقاً، سليماً من الخطأ في الشكل وقواعد الإملاء.

وقد قرأت في هذه النسخة مائتي صفحة قراءة نقد وتمحيص فلم أعثر على خطأ في الشكل، كما أني قرأت مئات الصفحات أثناء المراجعة والبحث فلم أجد إلا ضبطاً في الكتابة والحركات لامثيل له إلا ضبط القرآن الكريم.

والواقع أن ياقوت بن عبد الله هذا أنفق جهداً عظيماً في نسخ «التهذيب» ولولا أنه تفرغ للنسخ، وتحرى الصواب، وبالغ في توخي الصحة والضبط لما استطاع أن يجنب كتاب التهذيب — الضخم الفخم العظيم — الخطأ في الحركات وقواعد الإملاء، حتى لا تعثر فيه على خطأ من ناحية الكتابة والشكل.

وهذه النسخة التي وجدتها مصادفة نسخة فريدة نادرة ذات ميزات كثيرة لا تشاركها فيها نسخة من نسخ دار الكتب الثلاث، وقد صانها الله من الضياع بأن جعلها في زاوية مظلمة، وكثيراً ما تصان الكنوز بالظلام أو التراب أو الغبار الذي يرد عنها العين ويصد عنها اليد.

وهكذا بقيت هذه النسخة من التهذيب التي لاتقوم بثمن مادي سليمة لم تمتد إليها أيدي السارقين والخونة، ولو عرف هؤلاء أن وراء الظلام فجراً مشرقاً، وتحت التراب كنزاً ثميناً مخبوءاً لسرقوه كما سرقوا كتاب «الشاهنامة[1]» ذا الصفحات الفضية والحروف الذهبية الذي يقوم بملايين من الدولارات، وكان قبل الحرب العظمى الثانية ببرلين، ولا أدري أين موضعه الآن!

(١) سيعرف القراء نسخة الشاهنامة هذه التي تعدّ كتابتها وإغرابها سحراً من السحر وعجيبة من العجائب.

مأســـــاة كيركجورد

للأستاذ عبد الفتاح الديدي

في سنة ١٩١٣ قام أديب فنان بعمل تمثال نصفي لكيركجورد. كان هذا الأديب معجباً بكيركجورد ، وكان مؤمناً بالصورة التي كوّنها في ذهنه عن الرجل . فكل ما وصل إليه من المعلومات وكل ما عرفه من الأوصاف قد تجسمت في التمثال بصورة مساوية لما في قلبه من حب لكيركجورد وما في داخلية نفسه من إعجاب به .. وحمل صاحبنا تمثاله إلى الهيئات وأصحاب الشأن يذكرهم بأن كيركجورد قد مضى على ميلاده مائة عام ، وأنه من المناسب أن تحتفل الجماعات الأدبية بهذه الذكرى الرائعة . ولكنه فوجئ بعدم إنصات من الجميع ، ولم يكد يقابل واحداً من أصحاب الأمر في الموضوع حتى صرخ في وجه تمثاله : لا ياسيدي .. ليس هذا كيركجورد .. لقد كان كيركجورد أحدب .. أحدب ..

وعاد الأديب الفنان إلى بيته ليعمل أصابعه وأزميله من جديد ، وليضع حدبة للتمثال لم تكن معروفة لديه . ولكنه لم يكد يضع هذه الحدبة في مكانها حتى رأى نفسه مضطراً إلى العبث في وجه الرجل .. أحس بأنه ملزم بأن يغير من معالم الوجه ما يكفي لإشعار الناظر بأن هذا الوجه صاحبه أحدب .. نعم .. فليست المسألة مسألة حدبة تضاف إلى ظهر الرجل ، ولكنها مسألة تاريخ بتغير ووجود يختلف . لقد كانت هذه الحدبة شبيهة بأنف كليوبطرة في مجرى التاريخ

إن التهذيب ليس الكتاب النادر الوحيد الموجود بمكتبة شيخ الإسلام ، بل هناك كتب قيمة نفيسة نادرة مخطوطة في كل فن ، ولكن من الذي يقوم بنشر هذا الحشد من الأسفار الرائعة الكريمة ؟ .

إني عندما وجدت « التهذيب » شعرت بارتياح عظيم ، ولكن سعادتي لن تكمل وفرحتي لن تتم إلا يوم أن أرى التهذيب مطبوعاً ، وطبع التهذيب يحتاج إلى زمن طويل إذا يسر الله من الغُيُر على العربية من يطبعه .

وإني أخشى أن يفقد التهذيب حتى يأتي يوم طبعه كما فقد من الحجاز آلاف الكتب النادرة ، ولهذا عزمت أن أصور منه بضع نسخ أهدي منها إلى بعض المكتبات حفظاً لهذا التراث الخالد من الضياع ، لأن هذه النسخة إن فقدت أو تلفت أو تمزقت — لاقدر الله — ضاع التهذيب الذي يقول عنه صاحب لسان العرب : « لم أجد في كتب اللغة أجل من تهذيب اللغة » .

وإني حققت جانباً من التهذيب ، وأرجو الله أن يوفقني لإنجاز تحقيقه كله تمهيداً لنشره وطبعه .

• • •

وبعد أن كتبت هذا المقال وتمنيت أن يوفق الله لمعجم «تهذيب اللغة» للأزهري من يطبعه ، قابلت حضرة صاحب المعالي الدكتور طه حسين باشا عميد الأدب العربي ، وتحدثت إليه عن المكتبات في بلادنا وعن تهذيب الأزهري ، فطلب إليّ أن أتولى تحقيق التهذيب ، واستعد بأن تطبعه الحكومة المصرية على نفقتها .

وأنا إذ أشكر الدكتور طه على غيرته على أصل من أصول اللغة العربية واستعداده لطبعه ونشره ، فإني أحمد الله الذي وفق لي من يحقق إحدى أمنياتي الغالية ، ألا وهو طبع تهذيب اللغة للإمام الأزهري .

وأرجو الله أن يجعلني عند حسن ظن عميد الأدب العربي ويوفقني لتحقيق التهذيب تحقيقاً يرضي المشتغلين بالعربية .

حيا الله طه وأجزل له الثواب على ما قدم للعربية من خدمات عظيمة .

أحمد عبد الغفور عطار

القديم وملامحه السياسية . فلئن كانت الحدبة شيئاً عابراً بالنسبة إلى الناس ، فكم أثرها كلفت الرجل : كيركجورد الأحدب !.

بل نستطيع أن نقول : كم كلفت هذه الظاهرة كل من تناول القلم ليكتب حرفاً عن كيركجورد ؟ ولأول مرة — بعد سقراط — يأتي في تاريخ الفكر إنسان يجبر الكتاب بحياته أكثر مما يشغلهم بأفكاره . وأكثر من ذلك أن هذه الحياة نفسها التي عاشها كيركجورد تحولت على صفحات الكتب إلى فكرة من الفكر . ولم ينتج ذلك عن غنى تلك الحياة ووفرتها وامتلائها بما يشجع الكتاب على الحكاية والسرد ، وإنما نشأ عن التعارض الشنيع الذي أحدثه كيركجورد في حياته بين الزمنية والأبد .. بين الله والإنسان .. بين الشعور والتفكير . وليته حاول أن يثير هذه الإشكالات على مائدة الفكر .. إذاً لهان الأمر . ولكنه أراد أن تتجسم أمامه في الواقع معالم الإيمان الباطني وآثار وجدانه الداخلي . أراد أن يبني وجوده الظاهر على إلهام الغيب ، وأن يحقق مشيئة الرب في مصيره الجزئي ، وأن يجعل نهر الأبد يصب في جدول معاشه المحدود .

ولو كان كيركجورد مفكراً عادياً لما أثار في نفوسنا الفضول لمعرفة شيء عن حياته الخاصة . ولكننا نجد أنفسنا منساقين انسياقاً نحو تفاصيل حياته من أجل أن نلم بمأساة وجوده كما تمثلت في الكتب التي تناولته ، والتي عنيت باهتمام صلة فكره بواقع معاشه ، والتي أعطت أهمية للرابطة الحيوية التي مزجت تكوينه العضوي بتكوينه الروحي .

ولد سورين كيركجورد من أبوين مسنين في مدينة كوبنهاجن عام ١٨١٣ . ولم يتأثر الولد بأمه بقدر ما تأثر بأبيه الذي بث في نفسه وازعاً دينياً عنيفاً ، وولّد عنده ما سماه بالقلق أمام المسيحية ، وأشعره بجلال الواجب ودنس الخطيئة . واجتاز في سنة ١٨٤٠ امتحانه في علوم الدين بنجاح ، ولمس حاجته إلى الاستقرار بين العواصف النفسية التي تثيرها في خاطره مباحث الدين . فقرر الزواج .. وكان في هذا القرار بدء ما سميناه بمأساة كيركجورد ، وانبنى عليه تيار جديد في التفكير الفلسفي ، ويُعد في رأي الكثيرين أول عتبة في المذهب الوجودي المعاصر . قرر الزواج .. وبدأ بهذه الخطوة مغامرة تمتاز بالجرأة والشذوذ معاً ، وكان لصداها في حياته وكتبه أعمق الأثر . إذ لم تكد تمضي على خطبته من رجينا أولزن بضعة أشهر حتى أخذ يناقش موضوع زواجه ويبحث في مدى قدرته على إتمام هذا المشروع . وأحس — وهو المرهف الحس — بالخطورة التي تكمن في زواجه من شابة حسناء في سن السابعة عشرة ، تتطلع إلى حياة الشباب وتتمنى أن تجد في زواجها معنى الفرحة العيش ! أحس بأن ثمة فاصلاً يحول بينه وبين مجاراتها في هذه الآمال العراض ، وفي هذه الرغبات المتفتحة ، وقدّر بأنه سيكون من عوامل التعاسة في مصير الفتاة التي أسلمت له عنان الجواد الذي يحملها وبجداف القارب الذي هبطت إليه . لقد أحبها ولا شك .. أحبها حباً عميقاً ملك عليه قلبه وفؤاده ، وشغل منه عقله وتفكيره ، وهز منه الروح والوجدان .. أحبها حب الفتى الوهاج وحب الرجل المخلص وحب الإنسان العطوف .. ولذلك استحال عليه أن يرتكن على شعوره في محاولته العبور من فوق الهوة التي تفصل بينهما ، ولم يستطع أن يتغاضى عن الفروق الطبيعية الكامنة في كل منهما . فهو في السابعة والعشرين وهي في السابعة عشرة ، وهو إنسان محزون مكروب ، وهي فتاة مستبشرة مرحة ، وهو مفكر غارق في امتيازه وهي عادية مفرطة في البساطة ، وهو أحدب أعرج ، وهي جميلة مستقيمة التكوين ، وهو أب اتخذ من الدين صناعة وطبيعة ، وهي امرأة بعيدة عن هواية الدين ، ولا تستطيع أن تجد في نفسها الرغبة أو القدرة على اتباع سبيله .. ولا يمكن بالإضافة إلى هذا كله أن يكتفي الأزواج بالعلاقة الروحية وأن يكونوا مثاليين في العالم بعض .. ولو أمكنه أن يحقق الرابط الوجداني وحسب بينه وبين رجينا ، لاستمر في مشروعه . ولكن من أين يملك الحق في حرمان فتاة من حياتها الطبيعية لتعاشره هذه

المباشرة الفنية وأثمنه على حياة الروح وطريق الله !!.

وبدت المشكلة عسيرة الحل في نظره ، وشعر بأن العوائق الموضوعة في سبيله أشد من أن تعمل فيها تحليلات العقل وتبريرات الشعور . فقرر القطيعة .. ولم يكد يأتي أغسطس من سنة ١٨٤١ حتى بعث إلى رجينا بطاقة يقول في نهايتها : « ... إنسي خصوصاً كاتب هذه السطور واغفري لإنسان ، على الرغم من أنه استطاع عمل أشياء كثيرة ، لم يكن قادراً — مع ذلك — على إسعاد فتاة شابة » . ولم تحصل القطيعة عقب ذلك مباشرة ، إذ ساء رجينا أن يحدث هـذا وعانت كثيراً من قرار كيركجورد حتى قبل أن يعود إليها .

قبـل أن يعود إليها وهو أشد إصراراً وتمسكاً برأيه في القطيعة ، واعتقد أن سبيله الوحيد هو العمل على بعث الكراهية في نفسها نحوه . وذلك لـكي تكون القطيعة هينة الوقع على إحساسها قليلة الأثر في عواطفها . فعمل منذ عاد إليها كل ما من شأنه أن يثير الاشمئزاز في نفسها من جهته ، وأن يضعف من هذه المحبة التي كنت في قلبها بإزاء رجل مستقبلها وشريك حياتها . وبدا كذلك بارداً في معاملته لها بحيث ظنت أنه لايعنى بها ولا يشغل باله بأمرها ولا يكاد يهتم بشيء مما تبديه نحوه . فلم يأت أكتوبر من نفس السنة حتى كانت أسهم الصبر قد نفدت وكان حلم الخلاص الذي أراده قد تحقق . وحدثت القطيعة من الجانبين ، وبدأت الأزمة الحقيقية في باطن كيركجورد ، وظهرت بوادر ذهنه جلية واضحة في هذه الكلمات من يومياته : « لقد كانت أمنيتي الوحيدة هي القدرة على البقاء بجانبها . ولـكن في اللحظة التي شعرت عندها بأن الأمر سينحرف انحرافاً سيئاً — وياله من لحظة ، فقد جاءت متأخرة جداً — أزمعت أن أدفعها إلى الاعتقاد بأني لا أحبها . وها أنذا الآن مكروه من الجميع لعدم إخلاصي .. وهو سبب ظاهر في شقائها .. بينما كنت مخلصاً في قراري هذا تماماً كما أني معها دائماً » . ويقول أيضاً : « يمكن أن نطلق على قصتي معها هذا الاسم (حب يائس) .. إذ أنني أحبها وهي لي وأمنيتها الوحيدة هي أن أظل بالقرب منها وترجو الأسرة مني ذلك ، وهو أملي الأسمى ، ومع ذلك يجب علي أن أرفض . ومن أجل أن يسهل الأمر عليها جهدت نفسي من أجل حملها على الاعتقاد بأني لست سوى مخادع وضيع قليل الأهمية .. وذلك حتى يكون من السهل أن تكرهني » .

ولم تمض سنتان على هـذا الحادث حتى تحققت أمنية كيركجورد في زواج رجينا أولسن من شاب يرضيها ويسعدها ويكفل لها حياة أرضية لائقة . خطبها اشليجل الذي كانت تعرفه وتحبه قبل أن يتقدم لخطبتها كيركجورد ، ومن ثم أحس كيركجورد براحة أمام ضميره وبقلق عنيف أمام مصيره . أما الراحة فلأنه لم يفسد على فتاته مستقبلها ، وأما القلق فلأنها قد استحالت في خاطره إلى صورة ترمز إلى ماضيه وتشعره في كل لحظة من لحظات حياته بأن عاطفته هي عملية تذكر مستمر . وأتيح له أن يراها للمرة الأخيرة في صيف سنة ١٨٥٥ عندما تقرر انتقال زوجها ليشغل وظيفة حاكم في مكان آخر . ودنت هي ذلك اللقاء العابر وهمست في أذنه تقول : « فليباركك الله ، وليجعل كل شيء على ما تروم » . ولـكنه لم يملك أن يجيب بشيء ، واقتصر على أداء التحية ثم انصرف .

وكان هذا آخر عهده بها في عالم الواقع ، ولـكن قصتها لم تنته عند ذلك ، وإنما امتدت على نحوين : أولهما أن كتابات كيركجورد لم تكن أكثر من تحليل تفصيلي دقيق لخطرات ذهنه وقد تشبعت بصورة رجينا . فعاشت من جديد في فكره وعلى قلمه ، وحاول أن يستدل من تلك الحادثة على أشياء كثيرة ، وأن يجعلها موضوع تجربة حية ، وأن يصوغها كعنصر أساسي في النزعة الفكرية المقابلة لأنصار الفلسفات العقلية . وثانيهما أنها صارت موضع بحث الـكتاب والفلاسفة الذين شاءوا اتخاذها نقطة بدء حقيقي للمذهب الوجودي . فأخذ هؤلاء يفيضون في الـكتابة والتحليل لهذه التجربة التي حولت أفكار الناس إلى داخلية الذات الإنسانية ، وأقاموا الأدلة على أنها دعامة أولى في فلسفات الحياة التي تقرن

بين الفكرة وواقع الأمور ، بين العقيدة وأسلوب المعاش ، بين الرأى والعمل .

ومن نتائج هذه الفلسفة الحيوية التى اعتنقها كيركجورد أنه أراد إقحام إرادة الله فى وجوده الفردى ، وأحب إشراك السماء فى تحويل مصيره ! فقد اعتقد فى خيرية الرب وبقى على ذلك الاعتقاد إيمانه بأن قوة عليا ستتدخل فى الوقت المناسب من أجل إعطائه ما يشاء وإعفائه من هذه الهموم التى ركبته . ونجد التحليل الوافى لهذه المشاعر فى كتابه عن الخوف والارتعاد حيث قرن بين موقفه وموقف ابراهيم الخليل عندما تقدم بابنه قرباناً على مذبح الآلهة . فقد أوقف الخليل تضحيته بابنه على إعلان السماء ، وأوقف هو زواجه من رجينا على تدخل الإرادة الإلهية . وانتظر الإشارة .. وكانت عنده الشجاعة الكافية لأن يتقصى الفكرة التى يعتنقها إلى النهاية .. فلم يُجْدِه الانتظار . وقد يجوز القول بأنه سعد بزواج رجينا من اشليجل ! ولكن من المؤكد — كما يقول هايكر فى تعليقه على الحادث — أنه كان يكون أسعد لو أنها اتخذت قراراً بعدم التأهل ، وبقيت مخلصة لخطبته منها ، ورضيت بكل ما ينشأ عن ذلك من التعاسة والشقوة فى الحياة ! ذلك هو شعور كيركجورد فى قرارة نفسه ، وتلك هى نيته الباطنة ! ولو ملك الحق فى أن يتصرف أقل تصرف فى مصاير الآخرين لباح بهذا الرأى وأعلن هذه الرغبة . وإنه لمما يؤيد هذا الترجيح عثورهم على خطاب بعد موته باسم أخيه يطلب إليه أن تكون خطيبته السابقة رجينا ضمن ورثته استناداً إلى أن خطبته منها لا يمكن أن تنفصم بالنسبة إليه — شأنها شأن الزواج تماماً — وأنها ممتدة امتداد الظواهر الأبدية فى عالم اللانهاية .

ومما يوقفنا على مدى إيمانه بالسماء قوله فى كتابه (عقبات فى طريق الحياة) هذه العبارة : « اليوم . انقضى عام ، إنى أحصى اللحظات ؛ لو أن فرصة أتيحت لى كما أتحدث إليها ثم يتلى الصبر على هذا اللقاء ... ! لقد فكرتُ فى الأمر من جديد : فإما هى أو لا أحد ، ولكن على شرط أن ننتظر ذلك الآن من أجل سعادتنا بإله السماء ! ولن أجرؤ على طلب يدها إلا مع التحفظ اللانهائى بأنها ليست يدها هى ما أطلبه وإنما بعض ما يعيننى . ولم أجرؤ قط على طلب شىء آخر من الله .. فالله لا شك هو أقرب شىء إلى الإنسان عندما يكون فى سبيله إلى معبر التسليم والاتكال ، هذا السبيل هو رحلة كاملة حول الوجود . وبمعنى واحد ، إنى أكاد أخشى أن يقبل الله رجائى أكثر مما أخشى رفضه ... أخاف أن يقول لى « نعم » أكثر مما أخاف قوله « لا » .. »

وهنا هو أجلى تعبير عن الشعور النفسى الذى كان يحسه وعن القلق العنيف الذى كان يعتريه . فقد كان يخيفه تحقيق الله لما يرجوه وقضاؤه لمطلبه أكثر من رفضه وعدم سماحه ! فلماذا ؟ .

لقد كان طابع وجود كيركجورد الأصيل — فيما يبدو — هو الأسى والمعاناة ، وتشربت حياته بمعنى الحزن وارتسمت على أيامه معالم التعاسة ، كان الهم جوهرياً فى معاشه المنطوى ، وأدى به ذلك إلى إشفاقه من السعادة وخوفه من دواعى الفرح وتردده أمام الأبواب المتفتحة ! كان يحس بأنه صاحب رسالة ، وأن أى بذل من جانب الحياة له هو إعدام لهذه القوى الكامنة فى داخلية ذاته . وما من حياة تظهر هذا التعارض وتبدى هذه المحنة قدر ما تظهرها وتبديها حياة أصحاب الفكر المكلفين برسالة المحتملين أمانة ، إذ لا ينبغى أن تبزغ فى حياتهم من الشواغل ما يلهيهم عن أداء عملهم الأسمى ، ولا ينبغى أن تعوقهم المتع الأرضية عن تبليغ رسالة السماء ! .

وهنا تكمن مأساة كيركجورد .. تلك المأساة التى عاشها بنفسه فجعلت من حياته فلسفة وصبّت فلسفته فى قالب حياة . ولعلها لا تقتصر على كونها مأساة بالنسبة إلى كيركجورد وحده ، وإنما تعد كذلك بالنسبة إلى الفرد .. إلى كل فرد على حدة .. فلا تكاد تخلو حياة تتسم بالفردية من صراع عنيف بين الرغبات الخاصة ووقائع الأمور ، ولا تكاد تتوفر لحياة ما صفة الفردية إذا لم يتوفر لها ذلك التعارض القوى بين الإرادة الجزئية وأحداث الوجود . وهنالك — فى مأساة كيركجورد — سيلتمس المفكرون دائماً عناصر التفكير التى أدت إلى بروز هذا الاتجاه الوجودى الحديث ، وسيعثرون على مقومات أصيلة لكل منحى تأدى إليه أنصاره الجدد .

عبد الفتاح الديدى

مع الفكر الأوربي المعاصر

١ — ملاك من ملائكة الرحمة

أو فلورنس نيتنجيل الثانية أو الممرضة اليزابث كني

كتاب من تأليف : مونيكا ديكنز

(من حفيدات شارلس ديكنز ، وقد ولدت عام ١٩١٥)

ولدت المترجم لها عام ١٨٨٤ على الأرجح ، وهي ممرضة استرالية ، وقد أنكر الأطباء عليها طريقة علاجها لشلل الأطفال ، ثم اعترفوا آخر الأمر بصلاحية تلك الطريقة ، وهي طريقة يعالج بها هذا المرض اليوم في مستشفيات استراليا والولايات المتحدة الأمريكية .

قال لها يوماً جرّاح من مشاهير الجراحين : « إن الطريق أمامك يا فتاة محفوفة بالصعاب ، وإنك ستلاقين الضيق والحرج ، وسوف يكون الحزن نصيبك منذ اليوم ، ولكنك لو تدرّعت الشجاعة ، وتذرعت بالصبر فسوف تلقين ألسنة العارفين بحسن صنيعك تهتف بمدحك وتشيد بالثناء عليك في مشارق الأرض ومغاربها » .

هذه نبوءة تنبأ لها بها رجل له مكانته في علمه وفنه ، وكانت هي لا تزال فتاة غضّة الإهاب ، وقد جاءت من بلاد الأدغال الاسترالية لتلق نجاحاً يكاد يسمو سمو المعجزات بعلاجها الحديث لمرض « شلل الأطفال » الذى أحدث عند المشتغلين بعلاج هذا المرض ثورة وانقلاباً .

وقد كتبت هي قصة حياتها ورأيت كيف صحت تلك النبوءة ، وسمت كتابها : « إنهم سوف يمشون » ! وهو عنوان تنطق حروفه بالصدق ، ذلك لأنها كانت قد نذرت لله على نفسها أن تبرىء الكسيح والمقعد ، ومن تشوّهت منه المفاصل ، وكانت قد أحست بأن وسائل العلاج التي كان يؤمن بها أصحاب المهنة الطبية ولا يحيدون عنها حولاً إنما هي وسائل خاطئة ؛ فقد كان الظن سائداً أن التشوهات الشنيعة التي يحدثها التهاب المادة الرمادية في الحبل الشوكي إنما ترجع إلى شلل في العضلات ؛ فإذا تقلصت تلك العضلات أعاقت العضلات الأخرى التي تقابلها من أن تؤدي وظيفتها .

وأيقنت الممرضة « كني » أن ليس هناك شلل وأن التشوه والألم هما آتيان من آثار تشنج العضلات .

والمترجم لها كانت منذ طفولتها تعنى العناية كلها بمسائل التشريح ، وبخاصة ما يتعلق منها بوظائف العضلات وبنائها ، فقرأت الكتب التي تعنى بشرح هذه المسائل بنهم شديد يشبه نهم لداتها بقراءة قصص الحوريات .

ولما بلغت الرابعة عشرة من عمرها كانت تعالج أخاها الصغير الذي كان يشكو ضعفاً في الساقين .

ولما بلغت أشدها أبدت رغبتها في أن تكون ممرضة بين أقوام استراليا الأصليين ، وكانت معرفة فن التمريض شرطاً لازماً لمن أراد أن يحترف تلك الحرفة ، فما لبثت أن برعت في فنها ، فتكاثر عليها طلاب معونتها الطبية ، وكان مرضاها يحبونها ، ويثقون في البرء على يديها .

وظهر في أفق حياتها رجل قد تيمته حباً ، فألحّ عليها في أن تترك تلك المهنة السخيفة ، مهنة التمريض ، وأن ... تتزوّجه ...

ولو تم هذا الزواج لكان كارثة ، ولحرم آلاف من الناس من نعمة المشي بين مشاركيهم ، أقوياء معافين ، ولعاشوا حياتهم كسحاناً مقعدين .

وعملت المصادفة عملها في الوقت المناسب ، فقد جاء يوم « السباق » السنوى وقالت لنفسها : يحق لي أن أستمتع بالراحة يوماً بعد ذلك الجهد المضني الطويل بين ساكني الأدغال . وجاء خطيبها ووراءه كوكبة من خيل السباق ، وكان يركب عربته الأنيقة الجديدة ، وأراد أن يصحبها إلى حلبة السباق ، وتقول هي : إنه قرأ في عيني الرغبة في الاستمتاع بالتفرج هذا اليوم فقال لي : سيكون هذا اليوم يوماً عظيماً عندى يا إليزابث ! وكنت على وشك أن أركب

القرية إذ جاءنى صبى يمتطى حصاناً قد أجهده طول السير ، وأعطانى ورقة قرأت فيها أن جارة من جاراتى تعانى أوجاع ولادة عسيرة . فقال خطيبى : إن هناك أناساً غيرك يستطيعون أن يقوموا على العناية بأمر تلك المرأة ، وإلا فماذا كانوا فاعلين لو لم تكونى ؟ قلت : مادمت قادرة على إسداء المعونة فلن يكون هناك أحد غيرى ... فقال : عليك أن تختارى الآن بين الزواج وبين مهنتك ، فأدرت وجهى وأنا أغالب الدموع ، وقلت له : لابد لى من ارتداء ملابس التمريض ...

وكانت « إليزابث كى » فى الثالثة والعشرين من عمرها يوم صادفتها لأول مرة حالة من حالات ذلك المرض الذى أعيا المداوين منذ أيام الفراعنة . وظل هذا المرض شغلها الشاغل وميدان حربها وكفاحها طوال حياتها .

والقصة الآتية منقولة من « يومياتها » قالت :—

دعيت ذات مساء من أمسية الخريف إلى زيارة بيت رجل من أوساط الناس لأرى بنته الصغيرة وقد برحت بها العلة وأضناها السقم ، فرأيتها وقد امتدت فوق سرير وإحدى ركبتيها قد رفعت فى اتجاه وجهها ، وقدمها قد تدلت ، وأحد ذراعيها قد مال على الصدر . وكانت كل محاولة لتقويم طرف من الأطراف تحدث لها ألماً بالغاً لا طاقة لها على احتماله ، وأرسلت برقية شرحت فيها مشاهداتى فجاءنى الرد بأن المرض هو شلل الأطفال ثم أضافت البرقية تقول : وليس لهذا المرض علاج معروف فاعملى ما وسعك الجهد وفقاً لما يبدو من سير المرض .

وكنت يومئذ أجهل الرأى الصحيح من هذا المرض ، ولكن الضيق الشديد الذى كانت تعانيه المريضة الصغيرة قد كان يتطلب علاجاً سريعاً أياً كان نوع هذا العلاج ، وشاهدت الفتاة وهى تحاول جهدها أن تمنع العضلات المتقلصة من أن تمتد وذلك حتى لا تزداد آلامها .

وكنت أعرف فائدة الحرارة فى إحداث الاسترخاء فجئت ببطانية ومزقتها مزقاً . وأغرقتها فى الماء وهو فى درجة الغليان ثم عصرتها عصراً خفيفاً ولففتها — فى رفق — حول عضلات البنت المعذبة . فما لبثت أن كفت عن البكاء ، وبعد أن كررت لها هذه العملية نامت البنت ، وبعد لحظة قصيرة صحت من نومها وهى تصرخ : أريد البَرْق مرة أخرى فقد أفادت ساقى ! .

وهكذا أصدرت بنت صغيرة من سكان الأدغال فى أستراليا حكمها فى صالح علاج طال حوله الجدل فى عالم الطب . وبرئت البنت من علتها . ومشت مشى الأصحاء .

وتهافت المرضى بهذا المرض وازدحموا حول الممرضة « كى » وجاءوا من كل فج عميق ، وقد راحوا يكفرون بالتدليك ، وبالجهاز التى كان يعالج بها هذا المرض ، وطفقت « كى » تعالج مرضاها على طريقتها فى كوخ لها اتخذته داراً للشفاء . وقد برئوا جميعاً إلا قليلاً منهم .

وظلت منذ ذلك الحين — على الرغم من أنها كانت تشكو مرضاً فى القلب — تمطر الحكومة والأطباء وابلاً من البيانات تدافع فيها عن طريقة علاجها ، وترجو الاعتراف بتلك الطريقة ، ولكن الأطباء كانوا عنها ، وعن طريقتها ، فى صمم ، وقد آلوا على أنفسهم أن يخرجوها من فريتهم أو لتمودنّ فى ملّتهم .

ولكن كان لها فى غير محيط الأطباء أنصار بعيدو النظر قد أعجبوا بفرط غيرتها ، وبالأدلة الناطقة بنجاح طريقتها ...

وقد وقفت الحرب العالمية الأولى عائقاً فى سبيل تلك الطريقة ، ذلك لأن « كى » كانت قد ألحقت بالخدمة فى إحدى السفن — المستشفيات . وما إن أعلنت الهدنة حتى افتتحت أول عيادة لها ، وكانت على بساطتها تؤدى الغرض من إقامتها .

وقد شكت هى كما شكت من قبل زميلتها « فلورنس نيتنجيل » من قصر نظر القائمين على إدارة المكاتب الحكومية . ونجحت آخر الأمر كما نجحت زميلتها من قبل .

وفى عام ١٩٣٤ ظفرت بأول عيادة معانة من الحكومة . وفى تلك العيادة بدأت تعلم معاونيها أصول طريقتها ليرثوا كل مريض بشلل الأطفال فى جميع أنحاء العالم .

ويفخر الإنجليز بأنهم أول من اعترفوا اعترافاً رحباً بسلامة طريقتها فى العلاج ، وفى مستشفى « سانت مارى » أقامت عيادتها التى أصبحت اليوم فى أوج ازدهارها .

وسافرت إلى أمريكا . وهناك لقيت « كى » الذيع مترجماً

إلى لقمة العيش . وأقامت عيادة كبرى في مدينة « ملبورن » ثم عادت إلى بلادها وقد كسبت المعركة . وعالجت طفلاً ذاق الأطباء الأمرين في علاجه .

وقد جاءت الحرب العالمية الثانية فعوقت انتشار طريقتها ولكنها لم تقفها . وقد أمطرها القوم في أستراليا وأمريكا وانجلترا وابلاً من الثناء . وهي تلك المرأة المغمورة المجهولة .

ولم تكافح في حياتها يوماً من أجل المال . ولكنها كانت وما تزال تكافح من أجل الأطفال .

وطالما قالت لنفسها : وماذا علي لو رفهت بنفسي عما ألاقيه من تعب واضطهاد ؟ وعمدت إلى بيتي لأظفر بالراحة من كل هذا العناء . ولكن ما إن تذهب إلى عيادتها وترى وجوه الأطفال وتسمعهم ينادونها : صباح الخير يامستر « كي » ! إننا سعداء بلقائك ! حتى تنسى كل شيء ، وحتى تستعيد قوتها المعنوية فتسير قدماً في طريقها السوي ...

٢ — ثلاثة كتب

للكاتب الانجليزى « ماى هيو »

ألف هذه الكتب الكاتب الصحفي الإنجليزي « هنري ماي هيو » (١٨١٢ — ١٨٨٧) وهي : « لندن مدينة الفقراء والكادحين » ؛ وشخوص « ماي هيو » « ومجرمو لندن » . كما ألف بمشاركة أخيه « أوغسطس سبتموس » قصصاً منها قصة « شر أوبئة الحياة » وقصة العفري الذي أحال كل شيء « ذهباً » . وقد قام اليوم أستاذ من أساتذة الأدب الإنجليزي فهذب هذه الكتب الثلاثة . وأخرجها للناس في ثوب جديد . ذلكم هو الأستاذ « بيتر كوينل » (١٩٠٥) الذي كان مدرساً للأدب الإنجليزي في إحدى جامعات اليابان . وهو اليوم المحرر لمجلة « كورنهيل » .

ولهذا الكاتب مؤلفات منها : « بيرون في إيطاليا » و « بيرون في إبان شهرته » .

كان « ماي هيو » في حياته يرجو ويأمل أن يكون كتابه « لندن مدينة الفقراء والكادحين » باعثاً من البواعث التي تحمل الأغنياء أكثر دراية وعطفاً بما عليه الفقراء من سوء الحال ، وبما يعانونه من شر الفاقة ، والتي تزيد في عوامل الخير والإحسان في العالم . وهما الخير والإحسان اللذان يراد بهما وجه الله .

وكان « ماي هيو » رجلاً من رجال الخير في عصره تغمر نفسه عاطفة البر والرحمة . وكان رائداً من الرواد الذين كشفوا للناس عن المستوى السيء المظلم الذي كان يعيش فيه المجتمع في منتصف القرن التاسع عشر . والمعلومات التي جمعها هو ومعاونوه قد كان لها الفضل في تضخيم الإحساس بالجريمة ، وهو ما ساعد على المسارعة إلى الإصلاح .

وهو بعمله هذا قد كان نداً « لديكنز » الذي كان يسعى إلى إيقاد جذوة الغضب والإشفاق ليحرق بها سيئات المجتمع

وقد جاء اليوم الأستاذ « كوينل » فأتم مجموعة منتخباته من هذه الكتب الثلاثة . وهي منتخبات يشع منها الضوء على شخصية « ماي هيو » ذلك الكاتب الذي كاد يكون لدى القراء شخصاً من أشخاص الأساطير . ذلك لأنه من الكتاب الذين يتحدث الناس عنهم ، لا الذين يقرأون كتبهم

وهذه المنتخبات تقرب « ماي هيو » إلى عقول القراء المحدثين أكثر مما تقربه إليهم تلك الكتب لو أنها نشرت وفقاً لما يريده أنصار النصوص الكاملة من أتباع القديم .

وقد خص « كوينل » جزءاً من منتخباته من كتاب « لندن » بفقراء الكادحين ، أو بمن كان يسميهم (ماي هيو) « القوم الذين يشرون بالثمن البخس » ، أو « الأيدي التي لا يعترف بها المجتمع » . وهم الذين تتألف منهم الجمهرة الغالبة من الصعاليك والمتسولين .

وخص « كوينل » ثلثي منتخباته من كتاب « الشخوص » بالمهرجين والباعة الجائلين .

و« ماي هيو » يوم بدأ يكتب كتابه هذا (ذا الثلاث شعب) ونشره لأول مرة لم يكن يفكر إلا في تأليف كتاب ضخم يظهر أجزاء متتابعة ، على أن لا يزيد ثمن الجزء الواحد منها عن شلن واحد . وكان يريد أن يشمل كتابه وصف مختلف المشاهد في مدينة لندن ، وكأنه — زيادة في السخاء — قد ركب منطاداً حلق به فوق تلك المدينة وأرضى غروره ، بل أشبع غروره ، بل أتخم غروره بوصف العالم المتدفق من الجو .

وكان « ماي هيو » يغلب عليه طابع أهل عصره ، وهو مل‌ء الصحائف ، وإرضاء الطابع والناشر ، دون أن يلتفت إلا إلى ضرورة الملاءمة بين مواد كتابه وموضوعاته .

وقد أعانه على المبالغة في ملء الصحائف أن القوم في زمانه لم يكونوا يشكون « مجاعة ورقية » كما يسميها أستاذنا الدكتور زكي نجيب محمود .

وقد حق لقراء هذه المنتخبات أن يشكروا للأستاذ « كوتيل » حسن صنيعه ، فقد أراحهم من قراءة جداول إحصاءات « ماي هيو » المديدة . ومن مقاله الطويل عن تاريخ البغاء وما يلحق به من انحرافات .

أما الموضوعات الخاصة بالفقر والفقراء فلم يعتورها حذف ولا نقص ، ويبدو أن « ماي هيو » كان يجوب المدينة كلها يصف جماهير الشوارع والأزقة ، فهو يصف مهرجاً من مهرجي « السيرك » ، ورجلاً يمشي على أرجل خشبية طويلة ، وهو يصف أماكن اللهو الرخيصة كما يصف رجال الطبل والزمار ، كما يصف مشعوذاً من المشعوذين ، وجماعة « قره — قوز » ، وجماعة « خيال الظل الصيني » ، وهو يصف المحتضرين ويذكر آخر كلمات نطقوا بها ، وهو يصف ذلك « المونولوجست » الذي يؤدي لك حواراً يدور على ألسنة رجال جيش كامل ، كما يقص عليك قصة ممثل من الممثلين الذين يذرعون فضاء الأرض .

وهو يصف كل أولئك وصفاً شاملاً تتبين فيه الدقة والأمانة . وقد كتب « ماي هيو » أكثر ما كتب عن القوم الفقراء الذين كان يستطيع الاتصال بهم .

و « ماي هيو » ، وهو ذلك الساخر بفطرته ، وقائل القولة المشهورة :

« إني لأنصح كل مقدم على الزواج أن يحجم ! « ماي هيو » هذا كان يرى أن « لندن » ليست في حاجة إلى ساخرين يسطون عليها من عل ، فهو قد سمع صبياً من صبية الشوارع يقول : « إني سمعت أن الأرض تدور حول الشمس ، ولكن مشاهداتي تجعلني أنكر هذا القول ! ... » .

وهو قد سمع صبياً آخر ، وقد سئل مرة عن اسم ملكة الانجليز يقول : « إني لأظن — أكبر الظن — أن اسمها (وكتوريا وألبرت) ، وهو يريد أن يقول : (فكتوريا) أما (ألبرت) فكان اسم زوج الملكة » .

وهو قد سمع واحداً من منظفي البلاليع وقد قارن بين عمله هذا وبين عمله الذي كان يعمله فوق متن البحار يقول : « إني أفضل العمل في البلاليع على العمل على شواطئ الجزر اليونانية ... »

ومن مواهب « ماي هيو » كرجل واقعي براعته البالغة في معرفة كيف تحدث الأشياء ، وكيف تحترف الحرف ، وهو في هذه الناحية لا يقل عن « دانيل ديفو » مؤلف « روبنسون كروزو » وصاحب « مول فلاندرز » بل قد يفوقه ، فتراه مثلاً يذكر في دقة بالغة طرق تزييف النقود ...

وإن ديفو ليغبطه على معرفته بحيل القوم المجرمين ، ومنهم النشالون ، واللصوص ، والنهابون ، وآكلو النار .

• • •

٣ — الأدب الهندي الحديث

لا ريب أن الأدب الهندي الحديث هو من صنع كتاب تثقفوا بالثقافة الانجليزية ، والمعروف أن التعليم الانجليزي قد أدخل إلى الهند في النصف الأول من القرن التاسع عشر ولكنه لم يثمر ثمره إلا في النصف الثاني من ذلك القرن .

وعلى هذا يكون هذا العام عام ١٩٥١ هو أكثر الأعوام مناسبة لمراجعة حساب محصول الثمار التي أثمرها ذلك التعليم في المائة سنة الأخيرة . وهو كذلك أكثر الأعوام مناسبة للتنبؤ بالآمال والمخاوف التي يحملها المستقبل القريب في ثناياه .

والمعنيون بهذه الدراسات يرون أن الشبه جد قريب بين دخول التعليم الغربي إلى الهند ، وبين دخول التعليم على أيدي رجال النهضة الفنية إلى أوربا ، والأثر المباشر في الحالتين هو حفز الهمم إلى الإنتاج الأدبي .

ومن مميزات الأدب الذي أنتجته الهند منذ عام ١٨٠٠ أنه أكبر في الكمية من كل ما أنتجته تلك البلاد في الستة قرون السابقة على ذلك التاريخ . وكان هذا بالطبع أثراً من آثار إدخال المطبعة التي كان لها الفضل في نشر الآثار الأدبية بين الجماهير العديدة ، كما كان لها الفضل في أن تبلغ تلك الآثار آفاقاً لم تكن ببالغتها لولا المطبعة .

كذلك كان من آثار المطبعة أنها أبطلت تلك التقاليد التي كانت تعتمد في تخليد الآثار الأدبية على رواية الرواة .

وكذلك كانت المطبعة سبباً في ظهور الآثار النثرية ، ذلك لأنه عسير على الرواة أن يجيدوا حفظ المنثور إجادتهم لحفظ الآثار المنظومة .

وقد أدى ميلاد النثر إلى ميلاد المقالة ، وإلى ميلاد الكتابة الصحفية ، كما أدى إلى ظهور القصة القصيرة ، والرواية ، كما أدى إلى ظهور « الدراما » الحديثة (تمييزاً لها عن « الدراما » السنسكريتية القديمة) .

وانقضاء عهد حفظ الآثار الشعرية بطريق الرواية والرواة قد كان له الأثر الحسن في ثوب الشعر ومظهره ، فقد أصبحت القصائد نتناً لتقرأ وتحفظ ، لا لترتل وتنشد ، وقد أصبح الشعر يحيا حياته الخاصة ؛ فتأصلت جذوره ، وامتدت فروعه ، وكشف عن منابعه التي تفيض جمالاً من حيث الألفاظ والقوافي ، واخترعت قوالب شعرية جديدة ، وعرف الشعر البنغالي القصائد غير المقفاة ، كما عرف المقطعات ، وذلك على يدي : « مادهو سودان دت » ، كما عرف التجديد في أغراض الشعر على يدي « رابندرانات طاغور » .

(ومادهو سودان دت — ١٨٢٤ — ١٨٧٣ — شاعر وروائي بنغالي ترك دين آبائه وتنصر ، وقد درس القانون في انجلترا) ، أما طاغور فأشهر من أن يعرف .

ويبدو أن اختفاء اللغة الانجليزية كلغة رسمية ، وكلغة للتعليم ، مؤد حتما إلى إعاقة نمو الأدب الهندي الذي يستمد قوته ونماءه من الآداب الغربية .

ولا نكران أن بعض الآثار البالغة الحسن في الأدب الهندي الحديث ترجع إلى أصل أوربي ، وكذلك لا نكران أن بعض الآثار البالغة القبح ترجع كذلك إلى أصل أوربي .

وكذلك مما لا ريب فيه أن أحسن عناصر الأدب الأوربي لم تغرس بعد في أرض الهند ، والقليل الذي غرس لم تتأصل جذوره في تربة تلك الأرض ؛ والدليل على ذلك أن أحسن كتب الأدب التي عرفت طريقها إلى الهند ، ولقيت رواجاً وانتشاراً ، إنما هي الكتب التي لا تجدها في أوربا إلا في مكتبات القرى والضواحي ، وإلا في محطات السكك الحديدية .

والذي يثير الأسى والأسف ليس هوان قدر تلك الكتب ، بل هو النظر إليها على أنها أحسن ما أنتجه الأدب الأوربي ، وأبدع ما أخرجته المطابع في تلك البلاد .

هذا وإن التقاء الثقافتين الأوربية والهندية على ما بينهما من فروق قد أدى إلى نتائج حسنة لا تذكر بجانبها تلك المثالب السيئات .

وإن الهند لمدينة في هذه الناحية لانجلترا ديناً ثقيلاً ، ولكن هذا الدين قد قام بقضائه — على أقساط صغيرة — قلة من المثقفين الهنود الذين كتبوا كتباً بالانجليزية ، وإن كانوا لم يبلغوا في كتابتها حد الإجادة ، فهم كالذين وقفوا بين الكراسي ، فهم في حساب الانجليز ليسوا انجليزاً ، وهم في حساب الهنود ليسوا هنوداً .

وعلى الرغم من هذا فإن قصص « ملك راج أناند » (روائي هندي ولد في مدينة بيشور إحدى مدن الباكستان وحصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة لندن ، وقد ولد عام ١٩٠٧) قد نالت بعض الرواج في انجلترا .

وكذلك المقالات والرسائل الفلسفية التي أنشأها « أوروبندو غوز » (أحد فلاسفة الهنود البوجيين ، وقد ولد عام ١٨٧٢) ، وتلك التي أنشأها « سير سارفا بالي رادها كرشنان » (فيلسوف هندي ولد عام ١٨٨٨ ، وهو مدرس الديانات والآداب الشرقية في جامعة أكسفورد منذ عام ١٩٣٦) تستحق كل مديح وثناء .

وكذلك قصائد الشاعر « طاغور » والشاعرة « سارو جيني نايدو » قد لا تقل في سموها عن كثير من قصائد الشعر الانجليزي .

وبعد فهذه إلمامة خاطفة عن الأدب الهندي الحديث ، ومن شاء أن يلم إلماماً تاماً بهذا الموضوع فليقرأ « أدب الهند » ، وهو فصل ممتع من كتاب « قصة الحضارة » (الجزء الثالث) للدكتور زكي نجيب محمود .

مبارك ابراهيم

الصحافة العربية فى لبنان اليوم

الصحافة مرآة الضمير الحى فى أى قطر من أقطار العالم .. والصحافيون رجال فكر وقلم حيثما كانوا وأينما رحلوا .. والصحف السيارة سجل لتاريخ الشعوب والحكومات المتعاقبة ، ومنبر للأدب والفن . فأين مكانة الصحافة العربية فى لبنان اليوم .

هذه دراسة قصيرة تأخذ بيد القارىء المتصفح ، والكاتب الناشىء ، والمراقب الواعى ليكونوا فكرة عن جرائدهم المحلية وأصحاب تلك الجرائد (ولا يدخل فى هذا الباب المجلات الأدبية) .

لقد شكا إلىّ صديقى الشاعر صبحى محمود سعيد عن ركاكة الصحف السيارة وانصراف أصحابها إلى الحزبية والأخبار المحلية والدعاية الأجنبية ، ناهيك عن تعنت رؤساء التحرير وانصرافهم عن الكتّاب المجيدين والشعراء المتحررين إلى المطبلين والمهرجين ، وأكثر ما يكون أولئك المطبلون والمهرجون خطباء حفلات وشعراء مناسبات ! وبمعنى آخر ، يرقصون بالأفراح ويندبون بالأتراح . وهكذا تتحول الصحف السياسية والاجتماعية إلى وكالات للإعلانات ومكاتب للدعاية .

هؤلاء هم كتاب ناشئون (ناكثون) يوسع لهم المجال أصحاب مجلات وصحف لامبدأ لهم فى الغالب . لقد دأب كتاب العربية فى سوريا ولبنان ومصر والعراق على تجاهل الحقائق وتشويهها والنيل من منزلة كل فنان أو باحث له آراء بيّن ، وما أكثر ما يبدون من آراء فى كيفية التحرير والمواضيع التى يترتب أن يتناولها التحرير ، فإذا بهم أول المتنكرين لتلك الآراء .. إنهم لايفهمون الفن العميق والفن السطحى الذى ليس بفن . وأؤكد أنهم يهتمون بإعلان تجارى أكثر مما يهتمون بمقال علمى أو بحث اجتماعى .

ففى مصر اليوم ما يقارب خمسمائة صحيفة ومجلة ، ويلى مصر مباشرة لبنان ، إذ أن عدد الصحف والمجلات فيه يربو على ثلاثمائة وعشرين . وفى كل من العراق وسوريا نيف ومائة صحيفة ومجلة ، بينما لاتزيد على ثلاثين فى المملكة الأردنية الهاشمية .

على أن أكثر هذه الصحف نشرات تصدر منتظمة حيناً وتنقطع حيناً آخر . ويحضرنى هنا رأى نقيب الصحفيين المصريين الأستاذ فكرى أباظة باشا — أن الصحافة العربية فى مصر تأتى فى المرتبة الأولى ، وتليها صحافة فلسطين فلبنان فالعراق فسوريا فالأردن .

والصحف القوية قليلة ، وكذلك هم الصحفيون الناشئون فى هذا الحقل ، ولا نريد التوسع فى هذا الصدد ، فنأتى على ذكر ما تيسر من الصحف العربية فى لبنان اليوم :

الحياة : هذه الصحيفة هى أرقى صحف لبنان ومن أوسعها انتشاراً وأجملها تبويباً وتنظيما ، وهى عربية قومية تدعو إلى الاتحاد العربى المرموق ، وتمتاز عن بقية الصحف اليومية بمعالجات سياسية وتاريخية مستكتبة أقلاماً معروفة ، كالعلامة ساطع الحصرى والخطيب المصقع أكرم زعيتر .. عدا أبوابها الأدبية والاجتماعية ، ويرأس تحرير الحياة صاحبها الأستاذ كامل مروه ويؤازره كتاب آخرون هم قلم التحرير .

العمل : لسان حال حزب الكتائب اللبنانية أو « الاتحاد اللبنانى الكتائبى » صحيفة حزبية لاتختلف عن جريدة « النداء » إلا أن الأخيرة قومية عربية . والأولى مركزية انعزالية يرأس تحريرها رئيس الحزب المشار إليه الشيخ بيار الجميل و « العمل » طائفية ذات نزعة استقلالية ظاهرة وفى الباطن يعلم الله السر وما أخفى .

بيروت المساء : إن هذه الجريدة ، جريدة بالمعنى الحقيقى ، ويبدو لى أن فى قلم تحريرها من يدرى على الوجه اليقينى ماهى الصحافة اليومية وكيف يترتب أن تكون أنباؤها .

إن التقارير التى تنشرها من حياة لبنان وبيروت اليومية لهى تقارير عالية لاتسمو إليها أى جريدة عربية يومية أخرى

ومديرها المسئول هو الأستاذ عبد الله الشنوق وهو صاحبها أيضاً، ويشترك معه الأستاذ محمد النقاش في بابه، حفر وتنزيل.

كل شيء: مجلة أسبوعية سياسية اجتماعية تنشر المواضيع الأدبية والتاريخية وأبحاثاً مختلفة بأقلام «الشلة» التي عسكرت فيها كما ألمنا في السطور الأولى من هذا المقال، وصاحباها هما الأستاذان محمد البعلبكي، ومحمد سربيه.

و «كل شيء» من الصحف المعارضة، كانت تعطف على الحزب القومي السوري فيما مضى، بينما زميلتها «الأنباء» مجلة اشتراكية حزبية ذات منهج خاص ومبدأ تسير عليه.

وهناك عدد غير قليل من الصحف الجديدة والقديمة لما تتوطد أقدامها ولم ترسخ كعوب كتابها في هذا الميدان.

ولابد من الإشارة إلى عدد من هذه المجلات والصحف الاجتماعية والسياسية.

مجلات: الوجدان، المكشوف، الدبور، الجمهور، الأحد، الصياد، والطريق الشيوعية وغيرها.

صحف: التلغراف، الزمان، النهار، اليوم، الهدف، بيروت، الإنشاء، الصرخة، الشرق، الطيار، البلاغ وغيرها.

ونحن نستثني المجلات الأدبية كالأديب والألواح والعرفان على أنه يؤلمني أن أقولها كلمة صريحة مع الأديب المصري سيد قطب: أن هناك شبه عصابات في دور الصحف تعسكر كل منها في صحيفة أو مجلة، وأصبح محرماً على أي كاتب لا ينتمي إلى «شلة» معينة أن يجد له من صفحات تلك المجلات والصحف نصيباً يذكر.. وهذا هو جهد البلاء.

[طرابلس] إبراهيم عبد الستار

الحروب الدولية

عُرفت الحروب الدولية منذ القديم، إذ نشأ عن تجاور البلدان بعضها إلى جوار بعض تنافس وتنازع من أجل المصالح وتعارض في الاتجاهات، فلم يكن من سبيل لفض هذه المنازعات إلا سبيل القوة.. ولما كان الفرد البشري مطبوعاً بفطرته على الأنانية والسيطرة والاستعلاء، ولما كان البلد الواحد أو المجتمع الواحد ما هو إلا مجموعة من أفراد البشر، كان لا مناص من أن ينطبع هذا البلد أو ذلك المجتمع بتلك الطبائع الفطرية التي لا مناص من التسليم بوجودها.

هذا الفرد البشري بتلك الفطرة الطبيعية اللاصقة بشخصه يندفع لإرضاء غريزته وإشباع نهمه وترضية نزعاته الوحشية، فيرتطم بغرائز الآخرين من أبناء جنسه، ويصدم نهمهم، وتدهمه نزعاتهم الطبيعية، فينشأ من هنا العراك والنضال المستمر الذي لا يخمد إلا بانتصار فريق وانهزام فريق، إلا إذا تدخل بينهما من يفصل في نزاعهما أو يحد من وحشيتها، سواء أكان هذا الحاد فرداً اجتماعياً أو حكماً بشرياً أو كان عرفاً أصولياً أو قانوناً ملزماً.

وبالمثل يحدث ذلك بين الدول والأقطار، ويمكن أن نجمل أوجه الشبه بين الحروب الفردية والحروب الدولية فيما يلي:

١ — من حيث الأسباب والدوافع: تتشابه الأسباب والدوافع التي تدعو إلى قيام الحرب، سواء بين الأفراد أو بين الدول.

٢ — من حيث التأهب والمعدات: نجد أن التأهب ملحوظ في كلتا الحربين. أما المعدات فقد تتشابه في كلتيهما، وقد لا تتشابه نظراً لكبر حيز الحرب الدولية عنه في حرب الأفراد المحدودة.

٣ — من حيث النتائج: فقد تكون النتيجة في الحالين هدنة أو صلحاً أو نصراً لفريق وهزيمة لآخر! ويلاحظ هنا أن حرب الأفراد قد تؤدي إلى حرب بين العشائر والجماعات، وبالتالي إلى قيام حرب دولية! أما هذه الأخيرة، فالمفروض أنها تمثل حروب الأفراد، ولكن في صورة مكبرة.

٤ — من حيث الأدوار: لحروب الأفراد مرت بأدوار، كان الدور الأخير لها دور التهذيب وسطوة القانون، وكذلك الحروب الدولية مرت بأدوار، من أهمها دور التحكيم الذي يتشابه مع التحكيم في الحروب الفردية، وكذلك وصلت إلى مرحلة راهنة هي آخر ما وصل إليه «القانون الدولي» إلى الآن، كما سنبين فيما بعد! ولكن المرحلة الحالية للحروب الدولية لم تصل بعد إلى مرتبة

المرحلة الأخيرة التي توصلت إليها حروب الأفراد من حيث سمو هذه الأخيرة ومن حيث تهذيبها .

● ● ●

والحروب الدولية على ضروب متباينة ، مما يمكن من تقسيمها تقسيماً دقيقاً من حيث نوعها ومن حيث كمها وكيفها ومن حيث اتجاهها وحدودها ، ثم من حيث أغراضها

فأما من حيث النوع ، فتنقسم إلى :

١ — حرب أعصاب : كالحرب الحالية القائمة بين المعسكرين : الشيوعي وتتزعمه الروسيا ، والرأسمالي وتتزعمه أمريكا وبريطانيا ، وهذه لا نهتم بها هنا ، بيد أننا نكتفي بالإشارة إلى أن هذا الصنف من الحروب يعتمد أول ما يعتمد على وسائل فعالة ، منها الدعاية والتهيئة والتعبية ، كما يعتمد على لم الشعث واجتذاب التابعين والأنصار ، وغير ذلك من وسائل .

٢ — حرب عسكرية : كالحرب العالمية الأولى والثانية ، وهي عسكرية لاعتمادها على وسائل الحرب من عدد ومعدات ، ولاعتمادها على الجيوش بكل مناحي اختصاصها .

ومن حيث الكم ، تنقسم إلى :

١ — حرب ثنائية : تقع بين دولتين متجاورتين أو متباعدتين ، ومن أمثلتها الحرب التي وقعت بين اليابان والصين في عام ١٨٩٤ من أجل كوريا ، وكذلك الحرب التي وقعت بين اليابان وروسيا في عام ١٨٥٤ من أجل منشوريا

٢ — حرب عالمية : تشمل دولاً كثيرة من العالم ، كما حدث في الحربين الشهيرتين الماضيتين . ويلاحظ أن الحرب العالمية يمكن وصفها بأنها ثنائية ، بمعنى أن الاشتباك فيها قد يكون بين معسكرين اثنين يضم أحد المعسكرين أو كلاهما عدداً من الدول كبيرة كانت أو صغيرة ، كما حدث في الحرب الماضية .

ومن حيث الكيف ، تنقسم إلى :

١ — حرب عصابات : ومن أمثلتها تلك الحرب الكبيرة التي قامت في Ireland بين رجال الحكومة البريطانية وأنصار حزب Sinn-Fein بعد ظهور نتيجة انتخابات سنة ١٩١٨ وعقد مندوبي سين فين لاجتماع دبلن سنة ١٩١٩ ، تلك الحرب التي اضطرت البرلمان البريطاني في عام ١٩٢٠ أن يمنح أرلندة حكمها الذاتي . وكذلك من أمثلتها حرب العصابات الوحيدة التي قامت بها ألمانيا ضد إحدى قبائل الهوتنتوت في أفريقيا الجنوبية الغربية .

٢ — حرب منظمة : كأغلب الحروب الدولية المعروفة ، وتكون منظمة من حيث القيادة والهجوم ووسائل الدفاع ، وقد تكون حرب العصابات منظمة هي الأخرى ، ولكن هذا لا يمنع كونها ضرباً معيناً من ضروب الحروب .

ومن حيث الاتجاه ، تنقسم إلى :

١ — حرب دفاع : كالحرب الأخيرة التي وقعت بين العرب واليهود عام ١٩٤٨ في فلسطين للدفاع عن الأراضي العربية .

٢ — حرب هجوم : كحرب نابليون التي شنها على روسيا عام ١٨١٢ ، وكأغلب حروب البطل الفرنسي ، ويلاحظ أن حرب الهجوم قد تنقلب إلى حرب دفاع ، إذا حدث أن أخفقت .. كما أن حرب الدفاع قد تنقلب إلى حرب هجوم ، إذا حدث أن نجحت وانهزمت أمام المدافعين جيوش المهاجمين ، فهز النصر الأولين ، ووجدوا أن باستطاعتهم الهجوم بعد أن وقفوا موقف الدفاع ؛ ومن أمثلة النوع الأول اضطرار نابليون لحرب الدفاع عن باريس بعد أن قامت في وجهه حرب الأمم المعروفة ، وقد كانت حروبه قبل ذلك هجوماً مضاداً أشاع القلق في أوربا ؛ ومن أمثلة النوع الثاني ما حدث أيضاً لنابليون في حياته الحربية الأولى ، إذ دفعه نجاحه في الدفاع إلى شن حرب الهجوم على الدول الأوربية واحدة فواحدة ...

ومن حيث الحدود ، تنقسم إلى :

١ — حرب محلية : ومثالها القريب الحرب التي قامت في أواخر شهر أكتوبر عام ١٩٥٠ بين الصين الشيوعية والتبت ، ويلاحظ أن الحرب المحلية إذا ما ترتب عليها اشتباك الدول والبلدان القريبة فيها ، صارت حرباً إقليمية ؛ وتعد

حرب كوريا أيضاً حرباً محلية ، بالرغم من اشتباك عناصر جيدة أو عالمية كأمريكا ، نظراً لأنها لم توجب إعلان الحرب العالمية الرسمي ، مع أنها تمثل الاشتباك الفعلي القائم بين معسكرين في سبيلهما إلى حرب عالمية ..

٢ — حرب شاملة : وتلك هي الحروب العالمية التي تشمل جزءاً كبيراً من العالم الأرضي ، وذلك كالحرب الماضية ...

وأما من حيث الأغراض ، فتنقسم إلى أقسام كثيرة نذكر منها :

١ — حرب توسع واستعمار : وتتمثل في الحملات التي تشن على البلدان الغنية بالموارد الطبيعية والضعيفة من الناحية العسكرية أو من ناحية المدنية بقصد الاستعمار والاستغلال ، وقد كثرت بوجه خاص في القرن التاسع عشر ؛ وأمثلتها كثيرة نذكر منها حرب فرنسا لأنام عام ١٨٦٢ وحرب إيطاليا لأرتيريا عام ١٨٨٣ ، وحرب نابليون الثالث للمكسيك في حملته التي بعث بها إليها في عام ١٨٦١ .

٢ — حرب لفرض النفوذ : كالحرب التي شنتها في ١٨٥٧ — ١٨٥٨ فرنسا وإيطاليا على الصين ، وأرغمتاها فيها على قبول ممثلين للدول الأجنبية في بلاطها وفتح بلادها للتجار والمبشرين .

٣ — حرب للحد من سيطرة المنافسين : وذلك كالحرب التي أعلنتها انجلترا على فرنسا في ٣١ يناير سنة ١٧٩٣ طبقاً للسياسة التي انتهجتها تجاهها منذ العصور الوسطى ، وهي عدم السماح لها بأن تسيطر على البلجيك وأنفرس ؛ لأن ذلك يعرض انجلترا نفسها للخطر .. وأيضاً كالحملة الفرنسية على مصر تلك التي عهدت بها حكومة الإدارة في فرنسا إلى نابليون بونابرت في ١٢ أبريل سنة ١٧٩٨ .

٤ — حرب تحرير أو إنقاذ من الحكم الأجنبي : مثال الأولى الحرب الأمريكية المعروفة ، ومثال الأخرى حرب الأمم الأوربية لنابليون بعد صراعه المعروف في أيبريا سنة ١٨١٠ .

٥ — حرب النعرات القومية : كحرب ألمانيا بقيادة هتلر للحلفاء منذ سنة ١٩٣٩ ، وكالحروب التي شنها نابليون بونابرت على أوربا منذ تولى قيادة فرنسا ...

أحمد طه السنوسي

منطقة أسيوط التعليمية

قسم التغذية

إعلان إعادة مناقصة توريد الأغذية

تقبل العطاءات بديوان المنطقة لغاية الساعة الثانية عشرة ظهراً يوم الاثنين الموافق ١٥ / ١٠ / ١٩٥١ عن توريد الأغذية اللازمة للمعاهد ومراكز التموين التي لم يتم ترسيتها في المناقصتين السابقتين عن العام الدراسي ٥١ / ١٩٥٢ وذلك نظراً لارتفاع الأسعار ، ويمكن الحصول على كراسة الشروط وكشوف المدارس من المنطقة مقابل ٥٠٠ مليم (خمسمائة مليم) خلاف مائة مليم أجرة البريد ، ويقدم طلب كراسة شروط التوريد على ورقة تمغة فئة الثلاثين مليماً ، ويجب أن يكون كل عطاء مصحوباً بتأمين ابتدائي طبقاً للشروط ، ويراعى أن يكون مظروف العطاء مختوماً بالشمع الأحمر ثم يوضع داخل مظروف آخر يكتب عليه اسم مقدم العطاء ونوع العطاء .

وللمنطقة الحق في قبول أو رفض أي عطاء بدون إبداء الأسباب .

٩٤٣٠

نقد

من شعراء الثقافة :

الحيرة

في ديوان « ظلال حائرة »

للشاعر محمد العديسى

.. إن قلت إن هذا الديوان الذى أكتب عنه اليوم .. هذه الكلمة اليسيرة التى لا تتوائم مع جلال قدسيته ... لم تشهد له نظيراً المكتبة العربية والشعر العربى منذ زمن بعيد .. لم أكن فى هذا مغالياً أو مدعياً ... ولو قلت إن صاحب « ظلال حائرة » لم تجبله يد الفنان الأعظم إلا من الشعر والشعر .. لم أكن واهماً أو متجوزاً ، بل يشهد معى فى هذا كل من شاهده أو تعرف به .. فهو قصيدة موهومة حائرة ... تسير على الأرض ومع الناس من غير وعى منها ، أو إدراك .. وإنما تسير لأنها قد ألقى بها إلى هذا الكون وقيل لها سيرى فى قافلة الحياة .. حتى إذا دعيت .. صعدت إلى نايها الأول الذى أرسلها للوجود ...

فصاحب هذا الديوان شاعر فى تفكيره وتخيله وإحساسه وشروده .. وفى حياته الفوضوية التى لا حدود لها ولا قيود ولا أقانيم .. وفى أعصابه وقوته التى تراها فيخيل إليك أنها أعصاب عملاق من عمالقة الجن .. أو مصارع من مصارعى الثيران فى أوربا .. حتى إذا دنوت منه .. لمست فى أعصابه ضعف الشعراء ورقة عواطفهم ... ورأيته إنساناً تذيبه نظرات الألم الدامعة فيجود بكل ما معه من دراهم قليلة من غير وعى أو شعور .. فإذا ما ثاب إلى رشده وأدركه الجوع .. ندم قليلاً على اندفاعه .. ثم صبر وانتظر الغيب الذى لا يحرمه والذى أسعده بكثير من عشاق فنه ومريديه ... ولست أنسى يوماً .. وقد التقيت به فى شارع من شوارع القاهرة يقطعه فى ذهول .. وكأنه لا يمشى على الأرض .. حتى إذا نبهته من غفوته وذهوله إلىّ .. قادنى إلى مقهى متواضع قريب وأخذ يسمعنى بصوته الشاعرى قصيدته « سمراء » وهو فى نشوة عجيبة دونها نشوة الخمور.. فلما فرغ منها دفع ثمن « الطلبات » وواصل سيره .. ولم أكن أدرك أن هذين القرشين هما كل ما معه فى جيبه .. فقد قابلنى بعد يومين تقريباً وقال : ألم تعلم بأنى لبثت هذه الليلتين جائعاً ، فلم أطعم زاداً .. فقلت له : لم ؟ فقال : لأنى دفعت كل ما معى فى المقهى .. وخرجت وليس معى شىء ... فقضيت ليلتى من غير عشاء ..

هذا هو العديسى صاحب الديوان الذى نتكلم عنه .. والذى لم يكتب عنه أحد لأنه ديوان شاعر عاش لنفسه وخاصته .. ولم ينتم إلى من يأخذ بيده إلى طريق الشهرة التى ينفر — والحمد لله — هو منها نفاره من الجرب .. وقد شاء حظه أن يكتب عنه كاتب مغمور مثله .. قرأ الديوان كثيراً وأعاد قراءته فكان يجد فيه كلما أعاده لذة وحلاوة تزداد بكثرة تكراره وقراءته .. فهو شعر صادق التصوير صادق الفن .. لايمس قلب القارىء .. دون أن يعلق به ويستحوذ عليه وينقله معه إلى أجوائه الفسيحة السامية .. والشعر لاتتوفر له هذه الخاصية .. إلا إذا كان شعراً صادقاً يترجم ترجمة صحيحة عن إحساسات صاحبه وعواطفه .. ونستطيع أن نقول إن مقياس الجودة : هو قوة تأثير الشعر فى قارئه .. فإذا كان يترك فى نفس القارىء أو السامع أثراً وجدانياً وهزة نفسية عميقة وحلاوة تدركها الروح الشاعرة والقلب المرهف الحساس .. فهو الشعر الصادق فى فنه ونسجه وترجمته عن إحساسات صاحبه .. وهو الشعر الذى نجله ونقدره ونضعه فى قمة الفنون ...

و « ديوان ظلال حائرة » هو ترجمة صادقة لكل ما تنبض به إحساسات صاحبه .. حتى لو تيسر لفن التصوير أن يرتقى فيستطيع تصوير خلجات النفس واهتزازات الأعماق وإظهارها للعين .. لما استطاع أن يصور أكثر مما

صوّره الشاعر بقلمه .. والشاعر يجعل مقياس الصدق الفنى هو القياس المعتبر الذى يجب أن يؤخذ به .. ويختبر الشعر الردئ من الجيد .. لهذا نراه يقول فى مقدمته عن شعره : « .. ويكفينى أن أقول إنه شعر يمضى محلقاً بك فى سماواته دون أن تحس معه أنك فقدت جزءاً من إنسانيتك .. فهو لاينطلق بك فى وادى التيه .. على شراع مجروح الرؤى حالم الألوان كما يقولون .. ولـكنه يمس جناحيك السماء .. وأنت .. أنت .. فى أحاسيسك الواعية وإدراكاتك البصيرة .. وهو .. هو .. فى نسجه العربى وفطرته الصادقة .. وعندى أن شرط الصدق فى الفن — هو روح الفنان .. ولا أذكر أبداً أن كلمة قد تساقطت من قلمى ولم يكن لها فى خلجات نفسى صدى وفى أحاسيس روحى رنين .. والله يشهد أنه جهد أعصاب احترقت فى معبد الحياة .. بما فيها من خير وشر وحيرة ويقين .. » .

وإذا كان لـكل شاعر سمة يتسم بها شعره أو لون خصوص تصطبغ به عواطفه .. فالسمة الغالبة على شاعرنا هنا هى الحيرة .. الحيرة القلقة بضباب الشك .. التى تجعل الـكون كله فى نظر الشاعر لغزاً غامضاً وسراً عميقاً .. تجرى الأجيال المتعاقبة وراء حله ، ولـكنها ترجع منهوكة القوى مصفرة اليدين ...

فالحياة كلها فى نظر الشاعر « قصيدة حائرة .. من الشعر الإلهى . وما أنا وأنت إلا أنغام انطلقت من مزهر الخلود .. ولا تزال نفسى جاهدة فى حنين .. مندفعة فى شوق إلى أن تصل إلى معرفة حقيقتها وإدراك سرها .. وما عرفت الحقيقة طريقاً أقرب فى الوصول إليها من الحيرة .. وما عرف الإيمان سبيلاً أجدى فى بلوغ مراميه من الشك ، والحقيقة بنت الحيرة .. والشك بدء اليقين .. » .. لهذا أطلق الشاعر على ديوانه « ظلال حائرة » .. لأن الحيرة هى سمته الأصيلة التى تتجلى فيه واضحة .. وللشاعر قصيدة بهذا الاسم .. يبدؤها بقوله :

حيران أضرب فى الظـــلام بلا هدايه

أأقول ليس لخطوتى فى الأرض غايه

قد جئت فى هذا الوجود ولست أعلم

حرفاً ماللمصير ولست أدرى ما البدايه

ومضيت يرفعنى الحنين إلى اكتنا

ف المشهد المجهول فى هذى الروايه

موت وميـــلاد وأسرار .. تردّ

العقل منتكساً وغـــلاءه .. عمايه

ثم يمضى الشاعر فى حيرته مهوّماً متأملاً .. يحلق فى السماء لعله ينفتح له باب الغيب المغلق فى دنياه فيطلع على ما يجهل .. ولـكنه يعود من رحلته الطويلة فى مجاهل الفكر والتأمل باليأس والقنوط فيستسلم لحيرته ويأسه .. ويدعو الحاصد الذى بات بمنجله الدامى أرواح البشر ليقطف غرسة عمره .. فلعله تتكشف له حقيقة ما يجهله فى العالم الثانى بعد الموت :

يا حيرتى أأظل عمرى تائهاً

وأعيش كالأعمى وقد ضلت عصايه

إنى سئمت العيش أين منيتى

فلقد يبين الموت ... أسرار الروايه

.. وكأن هـذه الحيرة قد تملكت قلبه وعقله وكل جارحة فيه .. فهو لايرى شيئاً إلا ويدرك أن وراء سره الظاهر سراً خفياً .. فالجمال والحسن سر عميق لايدركه أبناء الفناء وعبيد الحفر .

ولـكن سرك فوق النهى وهيهات يدرى مداك البشر

وهيهات يدرك كنه الخلو د وليد الفناء .. وعبد الحفر

وتقسيم الأرزاق بين الناس فى هذه الحياة — سرّ تسوقه الحظوظ وتوزعه الأقدار ، وإلا فماذا يحتى الجاهل ويجوع الفيلسوف .

وما نحن فى الأيام إلا قصيدة رتلها الأقدار شهداً وعلقماً

فهذا سعيد يقطر الزن .. حظه وذاك شقى يقطع العمر نائماً

تصارعت أقدار وأحكام قادر فسيان أن ترضى وأن تتألما

وحبيبته « سمراء » التى تعرف بها فى حلقة من حلقات الذكر التى تقام فى مولد السيدة سكينة .. سر غامض وأعماق بعيدة .. وهو لا يعشق فيها إلا هذا الغموض .. الذى يبحث لاستجلائه الصـوفية بأذكارهم وتهاويمهم ..

سمراء يانجوى صباى وأحلامى وشعرى

يا من لعبت بخاطرى وشغلت بالأوهام فكرى

وتركتنى حيران أضرب فى الوجود ولست أدرى

إنى عرفتك فى الهوى وجهلت فى حبيك أمرى

وعشقت فيك التائه المجهول من أسرار عمرى

وفى قصيدته « فلسفات » يكشف لنا عن سر حيرته وشكوكه .. فالعلم والبحث والمعرفة هى التى خلقت فيه هذه الروح القلقة الحائرة التطلعة إلى اكتناه المجهول .. ووُدّ

التيجانى شاعر الجمـــال

تأليف الأستاذ عبد المجيد عابدين

للأستاذ إحسان عباس

الشعر السودانى الحديث خفقات تريغ الحياة أو تعلن عنها ، ولكنها لا تزال كالتتمة المبهمة ، تفعم بالأمانى الفردية والجماعية فى شىء من التردد والفتور ، ويتساب فيها وهى نابض لايلبث أن يقف به الأسى الدفين فيخنقه بين الزفرات والدموع ! ولعل من أقوى تلك الخفقات الغنائية شعر التيجانى فى ديوانه المسمى « إشراقة » ، والذى درس الأستاذ عبد المجيد عابدين جانباً منه مشرقاً بالشاعرية فى كتابه « التيجانى شاعر الجمال » .

وقد كنت أخشى قبل أن أقرأ هذا البحث ألا أجد فى هذا العنوان ما يفرد التيجانى بشىء يميزه عن غيره ، لأنى أحسب أن كل شاعر فإنما هو شاعر بمقدار تعلقه بالجمال وتأثره بالجميل ، وأن الشاعرية ترادف — فى رأيى — ذلك التوجه الشعورى إلى نواحى الجمال فى الكون ، ولكن هذه القراءة الممتعة استطاعت أن تقنعنى بأن حظوظ الشعراء من الوقوف عند مواطن الجمال متفاوتة ، وأن حظ التيجانى كان فى هــذه الناحية كبيراً ، بل استطاع الأستاذ عابدين أن يفلسف نظرة التيجانى إلى الجمال ، ويجعل لها فى حياته تاريخاً متدرجاً متكاملاً بدأ به محباً للجمال البشرى ، وانتهى به إلى عبادة الجمال للخالق وإلى الإيمان بوحدة الوجود .

وفى هدوء ولباقة لحظ الأستاذ أن التيجانى فى إقباله على الجمال البشرى يكاد لايعنى إلا بفاتن العيون ، والعيون تحمل المعانى . فكأن هــذا الميل هو الذى ارتفع بالتيجانى إلى الشعور بجمال المعنى الأسمى أو الألوهية الكامنة فى الكون ، وهو رأى طريف يغرى متأمله باعتناقه . ولكنى أحس فى نفسى ميلاً إلى مخالفة الأستاذ عابدين فى هذا الرأى — على مافيه من طرافة وإغراء — ومرد هــذه المخالفة إلى قلة إيمانى بتصوف التيجانى . فقد يكون هذا الشاعر عشق الجمال البشرى ، وكانت رغباته الإنسانية المتدينة المهذبة تصور له فتنة الجسد فى أشكال مسحورة ملفوفة بالقداسة . ولكن التيجانى — فيما أرى — لم يستطع أن يعشق الجمال الإلهى ، أو بعبارة أخرى ، لم يستطع أن يكون صوفياً من طريق التجربة البشرية أو الحرمان الجسدى .

كان التيجانى متصوفاً مؤمناً بوحدة الوجود من طريق الكتب والثقافة ، كان يعلن زهده بتأثير من دراساته الخاصة ، ولذلك عرف الإله معرفة الخشية لا معرفة الحب ، وأحس بقوة الألوهية وعظمتها فى الكون ، ففزع منها وخالها ، ولكنه لم يستطع أن يحبها ولم يستطع أن يذوب فيها ، بل ظل حيث هو صغيراً ضعيفاً خائفاً ، وظلت الألوهية حيث هى قوية جبارة مفزعة ، وكان التيجانى يثور

من صميم قلبه .. لو خلق جاهلاً فطرياً يعتصم بدينه من الزلل ويرضى بالقليل من العيش ..

كل شىء فى عرف عقلى بجلا ت وبحث وحكمة ومعانى
فشعاع الصباح سر خفى ونجوم السماء والفرقدان
ومياه البحار والريح والغيم ودنيا الهواء .. والنيران
وخلود الأرواح والموت والبعـ ـث وحشر العباد والميزان
كل هذا وغير هذا كثير فيه للعقل مبحث الحيران

ثم يقول :

ليتنى كنت جاهلاً فطرياً هازئاً بالعلوم والعرفان
تلفح الشمس سحنتى وأغنى بين تلك الحقول والغيطان
يشرق الفجر حول زرعى ودارى فأصلى .. للواحد الديان

هذه هى الحيرة التى جعلت الشاعر يطلق على ديوانه .. « ظلال حائرة » وحسبى هذه الكلمة اليسيرة عن هذا الديوان الكبير الذى لم تشهد له المكتبة العربية والشعر العربى نظيراً منذ زمن بعيد ...

(كلية اللغة العربية) كيعولى عيسى سند

أحياناً على ضعفه وصغره ، فيتسرب الشك إلى نفسه ويتألم بهذا الشك ، ولو أنه تصوف عن طريق الجمال والعشق لما بقي في قلبه موطن لذلك الشك :

ما كنت أوثر في ديني وتوحيدي
خوادع الآل عن زادي ومورودي
أشـك يؤلمني شكي وأبحث عن
برد اليقين فيفني فيـه مجهودي

وهذه النظرة إلى صوفيته تفسر لنا الضعف الذي يغلب عليه حين يحاول أن يتعاطف مع الطبيعة . لست أدعي أن التيجاني لم يحب الطبيعة ؛ فني قصائده تغزل بالنيل ، وبالمناظر الجميلة حوله ، وبمدينة الخرطوم ؛ وفيها شعوره بجمال الفجر في الصحراء ، وهي صورة تكفي وحدها لتعلن عن تذوقه للجميل ؛ ولكن هذا الحب للطبيعة ليس هو حب الصوفي الذي يرى في الطبيعة ألوهية ويفنى فيها ، إنما هو حب إنسان عادي . وإذا خلا المنظر الطبيعي من إنسان محبوب لم يستطع التيجاني أن يتعاطف معه ؛ فالنيل الذي يجلس عنده المحبوب (كما في قصيدته أنت أم النيل) يستخرج من نفسه أصدق الشعر ؛ أما النيل — دون حبيب على شاطئه — فهو ثقيل واجم كما في قصيدته التي مطلعها :

أنت يا نيل يا سليل الفراديس نبيل موفق في مسابك
مل‍ء أوفاضك الجلال فرحى بالجلال الفيض من أنسابك

فماذا في هذا الوصف من إحساس بجمال النيل ؟ أما البيت الأول فترديد لما قرأه الشاعر في بعض الكتب عن النيل الذي ينبع من الجنة ، وقد تكون صفة النيل لائقة بابن الفراديس ، ولكن قوله « موفق في مسابك » يفضح هذا الإحساس المدرسي بعظمة النيل ؛ وأما البيت الثاني فليس إلا هتافاً ينقل إعجاباً سطحياً ساذجاً . ولعل فقدان المشاركة العاطفية العميقة بين الشاعر والمنظر هو الذي أحسه الأستاذ عابدين في قصيدته وصف الخرطوم حين قال عنها : « فيها بهرج كثير وأخيلة متشابكة يغلب فيها التكلف على البساطة » .

ومهما يكن في رأيي هذا حول صوفية التيجاني من مخالفة لما ذهب إليه الأستاذ عابدين ، فإن ذلك لا ينقص من قيمة هذه الدراسة التي استوفت حظها كاملاً من الوحدة الموضوعية ، والانسجام المتدرج ، والقدرة على معالجة المثل إيضاحاً للحكم . ولعل من أجمل ما عرض له الدارس تلك التفرقة بين شاعر كشوقي وشاعر كالتيجاني في الطريقة الفنية ؛ والحق أن التيجاني يمكن أن يدرس من هذه الناحية ممثلاً للشعور بالفردية التي استيقظت مع يقظة القومية ، إذ يكون الشاعر في تلك الحال جزءاً من مجتمع يلتفت إلى الماضي وهو يحاول أن يحطم الأغلال — والتيجاني في ذلك كـكثير غيره من الشعراء المحدثين في نواحي العالم العربي ؛ فـكل شاعر منهم يمثل عند نفسه البطل المعذب ، لأن كل وطن لم يظل بهذا المعنى إذا شاءت له القومية أن يقرن بين ماضيه وحاضره ، فإذا خشي الشاعر من هؤلاء على فرديته انحاز إلى تلك الأصداف التي خلقها لنفسه من الطيب والظلال والأضـواء والألق السحري . أما تأثر التيجاني بشعراء المهجر فأراه — إن وجد — تأثراً سطحياً .

وقد كنت أحب لصديق الأستاذ عابدين لو أنه تحرى عن واقع حياة التيجاني — وهو على مقربة من نشأته في المكان والزمان — وإذاً لأغنى هذه الدراسة القيمة بما يستمده من الواقع القريب الذي وجه التيجاني في حياته وفنه

إحسان عباس

كتب وردت إلى المجـلة

١ — فلسفة العرب (الجزء الثاني) :

تأليف الدكتور ألبير نصري نادر ، أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب ببغداد . ويقع الكتاب في ١٦٨ صفحة مقسمة إلى ثلاثة أبواب : الأول عن الإنسان ، والثاني عن الأخلاق ، والثالث عن السياسة .

والكتاب مُصدَّر بكلمة للأستاذ يوسف كرم .

٢ — صلوات على الشاطئ :

بقلم الأستاذ أحمد الشرباصي . وهي مذكرات أدبية استوحاها الكاتب شاطئ رأس البر .

ويقع في ١٢٢ صفحة من القطع الصغير .

٣ — دعوة الأحمدية وغرضها :

بقلم إمام الجماعة الأحمدية ميرزا بشير الدين محمود أحمد . وفيه شرح لعقيدة هذه الجماعة ومذهبهم . ويقع في ٤٤ صفحة من القطع الصغير ، وقد صدر في دمشق .

من بريد الثقافة

إلى الدكتور زكي نجيب محمود :

ثرت على أكثر من وضع . ولا شك أنك تحب أن يقبل من ثرت عليهم ثورتك . فهل تقبل ثورة من يثور عليك ؟. إن كنت قابلها فاشرهذا الكلام ورد عليه ؛ إذ أنا أنتقد مسلكك في الكتابة ، ومسلكك في اختيار المواضيع التي تثور عليها .

فأنت ياسيدي تثور على هذا الشعب الذي يقضي عمره بعيداً عن العلم ، منقطع الأسباب بالغرب وما ينتج من كتب وأبحاث . وأنت ياسيدي تثور على هؤلاء الكتاب يداهنون ويتملقون ويسعون إلى إرضاء دور الصحف لا تعرف لها مقياساً إلا مقياس إقبال الجماهير على القراءة .

وأنت ياسيدي تثور — ولو أن هذا منطقياً لا يدعو إلى الثورة ، وإنما يدعو إلى راحة اليأس ، لأن بارقة أمل لا تبدو للإصلاح .

ولكنك ياسيدي لا تفعل إلا أن تثور ... بمعنى أنك تذكر المشاكل وبجانبها عواطفك التي تتدفق من روح لاشك وثاب ، ونفس مليئة بحب الإصلاح ، تفعل هذا ولا تقدم ، وأنا أعلم أنك قادر على الإقدام ، على الإصلاح بنفسك .

والإصلاح يقتضي أن تترك الكتابة عن فساد في الأمة متفشٍّ بين كتابها ، وقوم يفرض أنهم من مفكريها ، وبين غير الكتاب وغير المفكرين ، تترك هذا بعد أن أعدت كتابته مرات ومرات حتى لأحسب أنك أفرغت مافي نفسك كله ، وإلا فنفسك أكبر من نفس المتنبي التي بها أتعب أن تسكن اللحم والعظم . تترك هذا لتكتب فيما تعتقد أنه حري بالكتابة من روائع العلم والفن الغربي . فلك أن تعرفنا بكبار الكتاب والمفكرين ، ولك أن تسرد لنا بعض نظريات لهم ، ولك أن تعلق على ما يكتبه هؤلاء المفكرون الأوربيون ، ولك أن تختار غير هذه الطريق أو تلك وأنت أكثر اطلاعاً مني — أو هكذا ما أعتقد — مما يفيد في تزويد من يطلع بما يكتب الغرب ووصلهم بأفكاره .

أما أن تظل هكذا بعيداً عن العلاج ، وأنت مستطيع أن تكون معطيه ، فذلك ما يدخل تحت عموم قول المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس عيباً   كعجز القادرين على التمام

سعد أبو السعود

رثاء النفس :

طالعت في العدد الأخير ٦٦٤ من الثقافة بحثاً للأستاذ علي أدهم في رثاء النفس وهجاء النفس ، وقد جاء فيه ذكر حافظ إبراهيم من الشعراء المعاصرين كالشاعر الوحيد الذي رثى نفسه في رثائه للأستاذ الإمام .

وإني أذكر أن الشاعر اللبناني فؤاد بليبل قد رثى نفسه قبيل وفاته بأيام قلائل في أبيات بلغت منتهى الروعة والقوة وفاضت باليأس من الحياة ومن في الحياة وما في الحياة ، والأسى على سوء حظه من الحياة والإشفاق على شبابه الذي أذبله المرض وعصف به ، بل والإشفاق من الموت السريع الباكر ؛ وكأني به برغم ما يقاسي وما يعاني وما واجهته به الحياة من آلام يشفق من هذا الفراق السريع :

أنا ! من أنا ؟ يا التعا   سة ! من أنا ؟ .. شبح الشقاء

بـــل زهرة فواحـــة   عبثت بها أيدي القضاء

عنـــد الصباح تفتحت   وذوت ولم يأت المساء

وطغى الفناء على الشباب   فنـــاله قبل الفنـــاء

بالأمس كانت ملعب الـ   ـعصفور في ذاك العراء

يشدو البلبل أريجهـــا   وبهاؤها — يحيي الرجاء

بسامة لا تعرف الجـــذ   ل ولا معـــنى الفنـــاء

والـــيوم بات ، بالتعـ   ـس نصيبها ، هدف البلاء

قد حولوا عنهـــا الغديـ   ـر فلا خرير ولا دواء

فذوت على أكمامهـــا   عطشاً وبعثرها الهـــواء

إن هذه الأبيات تشبه قصيدة مالك بن الريب في رثاء نفسه ، فكلتاهما حصيلة اليأس من الحياة بعد أن أيقن صاحبها من دنو الأجل وانتهاء العمر فراح يبكي نفسه أحر البكاء ؛ لكن شعر فؤاد بليبل يمتاز بالإفراط في الرقة التي عرف بها في حياته القصيرة ، وبالنظرة البعيدة المدى التي لا تهتم بصغائر الأمور كالأرض والقبر والنادبات بعد أن أوشك أن يفقد أعز ما يملك في الوجود .

إن فؤاد بليبل يتحدث عن معركته القصيرة الخاسرة مع الفناء ، ويشبه مجهوده في هذه الحياة ، الذي يشبه مجهود الزهرة في تزيين الكون بجمالها حتى تعدو عليها الأيدي فتقتلها كما عدا عليه الفناء فاختطفه في صدر شبابه .

عبد السميع المصري

إلى الدكتور زكى نجيب محمود .

إن تسعة وتسعين قارئاً من كل مائة ، بعد قراءتهم مقالكم المنشور فى عدد الثقافة المؤرخ ٢٧ أغسطس ١٩٥١ ، بأنك جاهل لا يعرف قيمة الدر النفيس ، فذلك لأن الأموات أكثر من الأحياء فى كل زمان وفى كل مكان ؛ ويوم تتفق معك هذه النسبة من القراء فيما ترى من « نشر القديم » ، فلنا أن نقول بأننا نسير على الدرب ومن سار على الدرب وصل .

إنى أحد الذين قلت عنهم إنهم يضحكون سخرية من هذا الإسراف فى نشر الكتب القديمة ، وأنا أيضاً من أولئك الذين لا يقرءون صفحة واحدة من هذه الكتب لو أهديت إليهم دون مقابل ؛ وأزيدك علماً أنى من الشباب الذين لا يقرءون غير كتاب واحد من مجموع ألف كتاب مما تصدره مطابعنا هذه الأيام ؛ وإن قرأه فلأن له اتصالاً بذلك المجرى العميق الذى تسير فيه الثقافة الغربية الإنسانية .

إنى أعلن معك أن أدباءنا ومفكرينا — إن وجدوا حقاً — يجرمون كل ساعة تجاه ملايين النفوس الفتية اليائمة ، بكل حرف يخطونه وهم يشعرون شعوراً أكيداً أن لا فائدة فيه ولا طائل وراءه . وأخص بالذكر منهم أولئك الذين لهم اطلاعهم الواسع على ثقافة الغرب وحضارته . إنهم يعلمون إلى أين تتجه هذه الحضارة ، ولكنهم مع ذلك يستمرون على محاولاتهم المجرمة لحشو أدمغة القلقين من الشباب بكل غث سخيف لا حياة فيه . إنك لا تبيع سمعتك العالية بغير ثمن ؛ لقد أدخلت الطمأنينة إلى قلوب لا تعد ولا تحصى من شبابنا ، طمأنتهم إلى أن الحق معهم وأن « هؤلاء المشاهير » على خطأ مبين . وأقسم إن هذا المن ليس له نظير .

إن شعوراً قاسياً يعصر قلبى كلما رأيت الكتب الحديثة التى تصدر هذه الأيام ، شعوراً بأن كتابنا يسعون عن قصد سيء إلى إماتة كل بذرة حية تريد أن تنشق الهواء النقى وأن تتابع نموها الطبيعى الذى تدفعها إليه حيويتها الدافقة الكبوتة . إننا — نحن الشباب المثقف — داخل طوق حديدى من الإهمال وانتقاص القيمة والجحود ؛ وإنى — وأنا أحد هؤلاء الشباب — لن أغفر مطلقاً لهؤلاء الذين يحاربوننا بكل ما يملكون من حقد وحقارة وفراغ عقل ، إنى أعلم أنهم يدافعون عن أنفسهم تجاه التيار العنيف الجارف الذى يريد أن يتدفق نحو وجهة معينة لا يرتضونها ؛ وإنى أعلم أيضاً أن هذا لن ينجيهم يوماً من الاندثار والفناء عن قريب .

لا أدرى أتعدنى من أولئك المتحمسين الذين يفقدون رشدهم لأقل بادرة ، أم أنك ستقدر هذا الشعور بالضيق الذى يتملكنى وأنا عائش فى دنيا من الثقافة تجهد بكل قوة لتميتنى ؟ .

وعلى كل حال فأنا لا آمل شيئاً كثيراً من فرد واحد ، بل لعلى لا آمل حتى فى أن تنشر كلمتى هذه وأن تصل إليك ؛ لكنها صرخة أردت أن أطلقها — دون انتظار مجيب — فى وجه أولئك المشاهير الفارغين ؛ وهى إن دلت على شيء فلن تدل إلا على حيوية شديدة وثقة بالنفس لا حد لها .

(بعقوبة — العراق) نزار الشكرجى

جامعة فاروق الأول

كلية العلوم — إعلان

بمواعيد تقديم طلبات الإعفاء من الرسوم لكلية العلوم بجامعة فاروق الأول

تقدم طلبات الإعفاء من الرسوم الدراسية للطلاب الجدد مع طلبات الالتحاق . أما طلبة الكلية الذين نجحوا فى امتحان الدور الأول فيقدمون طلبات الإعفاء قبل بدء الدراسة بأسبوعين على الأقل ، والطلبة الذين ينجحون فى الدور الثانى يقدمون طلبات الإعفاء عقب ظهور نتيجة الامتحان مباشرة .

وكل طلبات ترد بعد هذه المواعيد لا يلتفت إليها .

٩٤٥٣

الثقافة

العدد ٦٦٧
٨ من أكتوبر ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

صفحة

غروب ...

— ١ —

ذلك النجم الذي أقلق سهدي ...
هل له بالشوق والأحزان عهد مثل عهدي ؟ .
أنا قد ضيعت عمري ...
يا ترى هل ضيع الكوكب عمره ؟ .
وأنا سودت شعري ...
بمداد الحزن بينا يعشق العالم سحره ...

— ٢ —

ذلك النجم الذي يبدو بعيداً ...
خائفاً خلف السحاب ...
ليت شعري هل به مثل الذي بي ؟ ...
أنا أمشي متعباً نحو الغروب ...
وهو في أول أيام الشباب ...
خالد كالأزل الخالد في دنيا الغيوب ...
يرسل الومض كما ترمي العذارى ...
بسهام ناشبات في القلوب ...
ليت شعري هل به مثل الذي بي ...
من جروح ورزايا وخطوب ؟ ...

— ٣ —

ذلك الأفق الذي يبدو حزيناً ...
غربت شمسه فاعتاد السكونا ...
مستهاماً ينقل النظرة من سهل لسهل ...
يرمق الأرض كما يرنو لطفل ...
ليت شعري هل أحس الأفق بالوحشة قبلي ؟ .
يا ترى هل كان محبوباً سعيداً ؟ .
ثم مات الأمل المشبوب في قلبه مثلي ...
ومضى ينتظر العهد الجديدا ...
لست يا أفق يلوك وحيدا ...
فعلى الأرض ألوف حالهم تشبه حالك ...
قد مضوا يستلهمون السحر والفن جمالك ...

— ٤ —

ليت شعري ما لهذا الكون محزوناً كئيباً ؟ .
ما لعيني لا ترى إلا ضحايا وخطوبا ؟ .
ما لأذني لا تعي إلا صراخاً ونحيبا ؟ .
لست أدري أي معنى لبقائي ...
غير أني اليوم في أسر الفناء ...
حائر أمثل قدام القضاء ...
وهو لا يحكم إلا بالشقاء ...

— ٥ —

ما لهذا الروح يمشي مسرعاً نحو الغروب ؟ .
ما لنفسي تدفن الآمال في قبر غريب ؟ .
وتواري الترب أحلام شبابي ؟ .
يا لها أحلام أيام عذاب ...
رخصت حتى غدت لا تساوي بالتراب ...

(دهوك)　　　　نازك الملائكة

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | الإدارة | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | | محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٦٧ — الاثنين ٧ من المحرم سنة ١٣٧١ — ٨ من أكتوبر سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

نموذج المتمـــدن

للدكتور زكي نجيب محمود

يقول « إِدْنُ سترِيتشي » — الأديب الإنجليزي الحديث — عن نفسه هذه العبارة : « أما المدنية التي نحاربون من أجلها » .

وقفت عند هذه العبارة متفكراً متدبراً ، فكان أول ما استوقف نظري منها ، هو أنها تطبيق جيد لمبدأ فكري آخذ به ، وأحاضر فيه ، وأدعو إليه طلابي كلما سنحت لذلك فرصة مناسبة ؛ وهو مبدأ غاية في البساطة والوضوح ، لكنه بعيد النتائج عميق الأثر ، وهو كفيل لصاحبه أن يهديه سواء السبيل في كثير مما يشغل الناس من خلاف واختلاف .

وخلاصة هذا المبدأ ، هي أن كل كلمة من كلمات اللغة ، تكون صوتاً فارغاً من المدلول ، إلا إذا كانت تدل على أفراد جزئية مما يمكن أن يشار إليه ، أو يقع لحاسة من الحواس المعروفة ؛ فلفظة « كتاب » — مثلاً — دالة على معنى ، لأني أستطيع أن أشير لك إلى فرد أو أفراد من الأشياء التي أضمها جميعاً في حزمة واحدة ، وأطلق عليها كلمة « كتاب » ؛ أما لفظة مثل « عدم » فهي بغير معنى ، ولا فرق بين أن تكتبها أو أن تخط مكانها خطوطاً مهوشة كالتي يخطها الأطفال الصغار على الورق ؛ هي علامة مرقومة على الورق — أو موجة صوتية إن كانت منطوقة — لا دلالة لها بين الأشياء ؛ فليس هنالك الشيء المفرد الذي يمكنك أن تشير إليه قائلاً : « هذا عدم » ؛ إنك لا تستطيع أن تشتري من السوق « عدماً » تأكله أو تشربه ، ولا أن تطلب إلى الخياط أن يحيك لك « عدماً » تتقي به برد الشتاء ؛ وقل مثل ذلك أيضاً في لفظة مثل « وجود » فلهما بحثت في عالم الأشياء ، فلن تقع يداك على شيء اسمه « وجود » ؛ إنك ستقع على نهر وشجرة ، وبناء وكتاب ، ومقعد وسيارة ، ونملة وطائر ، وكلها « موجودات » ؛ لكنك لن تجد بين الأشياء شيئاً قائماً بذاته اسمه « وجود » .

ولقد ضربت لك المثل بكلمتين الله أعلم كم ملأتا من صحائف وكم شغلتا من عقول ، فما أكثر ما كتب أو قيل في « الوجود والعدم » مع أنهما لفظتان فارغتان جوفاوتان ليس وراءهما شيء ، فالأمر كله غير ذي موضوع كما اعتاد الناس أن يقولوا اليوم .

كذلك ضربت المثل بهاتين الكلمتين ، لأن أستاذنا العقاد ، حين تفضل مشكوراً بنقد كتابي « المنطق الوضعي » قال في سياق الحديث : « إن الإنسان يستطيع أن يجزم بحقيقة لاصورة لها في الخارج على الإطلاق ، لأنه يستطيع أن يقول (إن العدم مستحيل) ، ولا يمنعه من تقرير ذلك أن المحسوسات خلت من شيء يسمى العدم أو شيء يسمى المستحيل » . ونحن نرد على أستاذنا في هـذا بقولنا : إن أمثال هـذه العبارات ليس مما يجوز قوله ولا تقريره ، لأن كلتيها فارغة من الدلالة ؛ ولتصور مثلا عالماً من علماء الكيمياء أو الطبيعة أو ما شئت من علوم ، وقف أمام مجمع علمي يقرر لزملائه « أن العدم مستحيل » ؛ وزملاؤه ممن يسارعون إلى المعامل والأنابيب ، وممن يطالبون بإقامة التجارب ؛ فأي تجربة يستطيع القائل أن يثبت بها لزملائه مثل هذا الادعاء ؟ ماذا يضع في الأنابيب وماذا يلاحظ ليقبل الدعوى أو يرفضها ؟ ... فإن كانت العبارة ليست مما يقوله العلماء ، فمن إذاً يجوز له قولها وهو آمن مطمئن ؟ أولئك الذين لا يرضون أن يُسألوا عن معنى ما يقولون ، فضلا عن أن يُسألوا عن إثبات صدقه — هذه الألفاظ وأمثالها قد اكتسبت « معانيها » من كثرة تكرارها ؛ كررنا النطق بها ، وتكرر سمعها ، حتى توهمنا أنها كانت « مشروعة » ، والحقيقة أنها أصوات أو علامات زائفة لابد من حذفها .

لكن ذلك استطراد قد طال ، فلعله يلقي لنا ضوءاً على الكلمة التي نحن الآن بصدد الحديث فيها ، وهي كلمة « المدنية » — فهي الأخرى من الكلمات التي يقوم فيها الجدل ويعنف ويشتد ، فتراهم يسألونك : هل نأخذ بالمدنية الغربية أو لا نأخذ ؟ وإذا أخذنا بها ، فإلى أي حد وبأي مقدار ؟ أو ليس الأصلح لنا أن نتمسك بمدنيتنا الشرقية ؟ ومنشأ الإشكال كله ألفاظ غامضة لم يحددوا معناها ؛ « فالمدنية » — كأي كلمة أخرى — لا يكون لها معنى إلا إذا وجدنا في عالم الأشياء أشياء بذواتها ، نشير إليها بأصابعنا قائلين : هذا وهذا وذلك « مدنية » ؛ وأنا أؤكد للقارئ أنه لو أمسك بقلمه ومذكراته ، وخرج إلى الشوارع ، وتنقل بين المدن والقرى ليسجل قائمة بالأشياء التي يعدها مدنية ، لانحسم كل خلاف ، لأنه لن يجد ما يسجله في قوائمه إلا ما يثبت له أن مدنية العالم الحاضر في صميمها واحدة لا تعدد فيها ، وما عداها فواقع من جهل وخرافة خلفها جزر الأيام على شاطئ الحياة .

ولست أدري إن كان « لتن ستريتشي » حين قال عن نفسه : « أنا المدنية التي تحاربون من أجلها » قد قصد إلى شيء من هذا التحليل الذي أسلفته لك ، أي أنه قصد إلى أن الكلمة لا تكون ذات مدلول ومعنى إلا بمفردات مسمياتها ، وأنه لذلك أشار إلى نفسه على أنه هو الفرد الجزئي الذي يحدد معنى كلمة « مدنية » ومدلولها ، حين رأى أن في شخصه قد تجمعت عناصر ، هي التي نريدها باستخدامنا لهذه الكلمة — أقول إني لا أدري إن كان « ستريتشي » قد قصد إلى شيء من هذا ، لكنه على كل حال هو ما نطالب به إذا أردنا أن تكون الكلمة ذات مدلول ومعنى .

* * *

وهنا ننتقل إلى الجانب الهام من موضوعنا ، وهو : ماذا عسى أن تكون العناصر التي إذا ما اجتمعت في شخص ، استحق أن يوصف بالتمدن ؟ .

أول ما نذكره في الإجابة عن هذا السؤال هو أن هذه العناصر متغيرة مع تغير الزمن ، فلكل عصر « مدنيته » التي قد تعد همجية في عصر آخر ؛ « فالتمدن » في العصور الوسطى الأوربية — مثلاً — هو المسيحي المتبتل المنقطع لصلاته وعبادته في الصومعة أو الدير ؛ فلما جاءت النهضة تغيرت عناصر « التمدن » وأصبح « المتمدن » رجلاً آخر غير راهب العصور الوسطى .

وإنه لمما يقال في هذه الناحية ، أن « سير فيليب سدني » (١٥٥٤ — ١٥٨٦) كان عند الإنجليز إبان نهضتهم نموذجاً للرجل المتمدن بمقياس ذلك العصر ؛ فقد كان شاعراً وناقداً وعالماً وجندياً محارباً ورجلاً من رجال السياسة ؛ فكان يصور بهذه العناصر في شخصه ما كان يصبو إليه الناس من مثل أعلى في الرجل الواحد ؛ لأنهم لم يعودوا عندئذ يرون المدنية — كما كان يراها أسلافهم

الآخرون — في المسيحي المتبتل الزاهد ، بل أصبح مثلهم المنشود فناناً ينتج الفن أو يقدره ، أو عالماً يدرس ظواهر الطبيعة ، أو مغامراً يركب الصعاب ، أو رجلاً يستمتع بلذات الحياة ؛ فإن اجتمعت هذه الصفات لرجل واحد ، فكان مشغوفاً بالفن ، محباً للعلم ، مقاتلاً باسلاً ، مغامراً يمعن في ألوان الرياضة والصيد ، عاشقاً توافرت فيه شروط الحب كما يعرفه عشاق زمنه ، كان ذلك الرجل صورة للمثل الأعلى ؛ وقد جاهد الأدباء في عصر النهضة أن يصوروا ذلك المثل الأعلى ، ورأى الناس أن هذه الصفات قد تجسدت وتجمعت في « سير فيليب سدنى » فجعلوه نموذجاً يحتذى في عصره .

وإننا لنضل سواء السبيل ، إذا ما جاهدنا بصورنا في تصوير نموذج « للتمدن » في عصرنا ، فالتمسناه في أبطال الماضي ؛ فهؤلاء الأبطال أبطال في عصورهم ، بمقاييس أهل زمانهم ؛ وإني لأجني على الشباب الذين يعيشون اليوم جناية كبرى ، إذا رحت أزخرف لهم حياة الزهد ، والعصر يريد المتعة بالدنيا والفرحة بالحياة ؛ وأجني عليهم جناية كبرى إذا رحت أزخرف لهم حياة التأمل النظرى ، والعصر يريد الصناعة والنشاط والعمل ؛ إني يستحيل أن أجد للشباب نموذجاً من بين أبطال الماضي بكل عناصره ، فذلك يكون بمثابة أن تدعوهم إلى العيش في غير عصرهم ، والتمدن بغير مدنيتهم .

ونعود من جديد فنسأل : ماذا عسى أن تكون العناصر التي إذا اجتمعت في شخص استحق أن يوصف بالتمدن ؟ .

سأحاول الجواب موجزاً في غير إسهاب وتفصيل ، ومعترفاً منذ الآن أنه جواب أسوقه على سبيل « الرأى » لا على سبيل الحصر والتوكيد ؛ إذ الموضوع أخطر وأعمق من أن يفصل في أمره بمقال يكتب في ساعة ليملأ ثلاث صفحات في مجلة .

وسأحاول الجواب على هذا النحو الموجز ، مهتدياً بالتقسيم الثلاثي الذي اشتهر في علم النفس التقليدي ، حتى أصبح عموداً من أعمدة هذا العلم ، لا يثور عليه الثائرون إلا ليؤكدوه ، وهو أن كل حالة من سلسلة الحالات الشعورية التي تتألف منها حياة الإنسان الواعية ، يمكن تحليلها إلى جوانب ثلاثة : إدراك ووجدان ونزوع ؛ فأنت في كل موقف من مواقف حياتك الشعورية الواعية ، تدرك شيئاً ما أو فكرة معينة ، ثم تحس إزاءها وجداناً معيناً ، ثم تتصرف بناء على ذلك حسب نزعتك وتدريبك على الرد على المواقف المختلفة بألوان معينة من السلوك (وقد يكون الامتناع عن السلوك في موقف ما ، ضربا من التصرف) .

ولاشك أنك قد رأيت كلمات « الحق والخير والجمال » متجاورة في كثير جداً من المواضع ، كلما أراد المتكلمون أن يعبروا بعبارة موجزة عن أحلام الإنسانية وأمانيها ؛ فهذه الكلمات الثلاث تستطيع أن نجعلها تعبيراً آخر للجوانب الثلاثة نفسها التي ذكرناها : « فالحق » هو ما ننشده في حالات الإدراك ، و « الجمال » هو ما نبتغيه في حالات الوجدان ، و « الخير » هو ما نقصد إليه في جانب السلوك .

١ — وأهم ما يميز الإدراك عند « المتمدن » في عصرنا هذا ، هو التقيد بالواقع ، وإدراك الواقع كما هو يتطلب القضاء على الخرافة بكل ما يتصل بها من لواحق وأتباع ؛ والتخريف مظهران أساسيان في طريقة تعليلنا للحوادث والظواهر ؛ الأول أن نعلل حدوث الأشياء المحسوسة بأشياء غير محسوسة ، والثاني أن نعلل شيئاً محسوساً بآخر محسوس ، لكنه لا يرتبط معه ارتباطاً يدل عليه طول الملاحظة ودقة التجربة ؛ فلو قلت مثلاً إن المرض في جسم المريض سببه شيطان حل في الجسم ، أو إن السماء ترعد وتبرق لأنها غاضبة ، فأنت مخرف من النوع الأول ؛ ولو قلت إن السفر يوم الأحد مشئوم ، ونعيق الغراب نذير بالموت ، فأنت مخرف من النوع الثاني — وفي كلتا الحالتين أنت خارج بإدراكك للأشياء عن منهج « التمدن » في هذا العصر الذي أبرز ما فيه هو العلم وما يؤدي إليه وما ينتج عنه .

حتى الآداب والفنون قد أصبح معيارها هو الواقع ،

ولا أقصد بذلك أن الأديب أو الفنان يقف حيال الظاهرة المعينة موقف العالم الذي يحللها ويصفها بالمقاييس والأرقام؛ بل أريد أن أقول إن الآداب والفنون في ميدانها — ميدان التعبير عن النفس وما يدور فيها من مشاعر — أصبحت تنزع بقوة نحو إثبات الواقع بغير حياء ولا خجل، فما قد كان يستحي منه أسلافنا لا يتحتم أن يكون عندنا نحن كذلك موضع استحياء؛ ومن ثم ترى اليوم أدباء لا يتورعون عن تصوير مجرى شعورهم كما هو، فيكون بين ذلك رغباتهم الجنسية وانحرافاتهم الإجرامية وما إلى ذلك؛ وترى اليوم مصورين لا يجلسون أمام الشيء يصورونه كما يبدو، بل يصورونه كما يختلط بأفكارهم في لحظة التصوير؛ فإذا جلست مثلا إلى طائر تصوره، وأثناء ذلك دق جرس شغل بؤرة شعورك، وجب أن تدخل هذه الصورة الطارئة على نحو ما، لأنها جزء منك في اللحظة التي أردت تصوير نفسك فيها، ومن هنا كان كثير مما نعده «خلطا» في التصوير الحديث — وهكذا.

٢ — وأهم ما يميز الجانب الوجداني من «التمدن» في عصرنا الحديث، هو التأثر بما ينتجه رجال الأدب والفن المحدثون. فأنت متخلف عن عصرك ومدنيته إذا لم تأخذ بنصيب — قليل أو كثير — في تقدير ما ينتجه هؤلاء الرجال من أدب وتصوير ونحت وموسيقى وتمثيل ورقص وغناء، مهما يكن عملك وموضوع اختصاصك؛ فقد تكون طبيباً أو مهندساً أو رجلا من رجال الأعمال، لكنك لكي تكون إلى جانب ذلك «متمدناً» فلا بد من إضافة عنصر آخر، هو التمتع بنتاج الفنون.

أقول إنه لابد من أخذك بنصيب في تقدير هذه الأشياء كلها، ولا أحتم عليك أن تحب كل ما تراه منها أو تسمعه؛ فلك أن تحب أو أن تكره، على شرط أن يكون حبك وكرهك قائمين على معيار هذا العصر نفسه، لأن الآداب والفنون كلها تعبير عن روح العصر، ويستحيل أن تتشرب روح العصر وتتمرد في الوقت نفسه على كل آدابه وفنونه.

لقد رأيت أناساً هم في مكان القيادة من طليعة «المثقفين» عندنا، لا يعرفون الألف والباء في أمهات الإنتاج الأدبي في العالم المتحضر الحديث، ولم يشهدوا في حياتهم معرضاً لتصوير أو النحت، وحتى لو شهدوا ذلك لما كان لهم فيه رأي ولا فهم؛ فاذكر — مثلا — اسم «بيكاسو» في جماعة من «المثقفين» عندنا، وانظر كم يعلمون عنه وكيف يقولون القول فيه؛ وأكرر القول بأني لا أحتم على كل إنسان أن يحب فن «بيكاسو» — فكثيرون من الأوربيين لا يحبونه — لكنهم لكي يحبوه أو يكرهوه، لا بد لهم أولاً أن يحسوه ويعرفوه — ولا أقول شيئاً عن الغناء والرقص، فتلك عندنا فنون «حرام» ليس لأصحاب الوقار أن يأخذوا منها بنصيب كبير أو صغير!

٣ — وأهم ما يميز السلوك عند المتمدن الحديث هو مقدرته على ضبط زمام نفسه، فليس من اليسير عليك أن تميز فيه الغضب الذي يطير بصوابه، وهو لا يغلو في مظاهر الفرح ولا مظاهر الحزن، فأنت «متمدن» بمقدار ما يتصرف «الإنسان العاقل» فيك لا ما يتصرف «الحيوان» منك؛ والحيوان منك هو الغرائز تنطلق كما هي بغير ضبط ولا تعديل — وأعجب العجب أننا نفخر بسرعة انفعالنا وشدة هيجان شعورنا، ونصف الأوربي المتمدن في هذه الناحية «بالبرود» لأنه لا ينفعل ولا يهيج!

كذلك من أميز ما يميز سلوك المتمدن الحديث — طريقته في ملء فراغه، فهو متخلف عن عصره إذا قضى فراغه نائماً أو جالساً، لأن الفراغ في المدنية الحديثة أنواعاً من النشاط كثيرة معروفة، ليس منها النوم والقعود؛ ففي لعب وارتحال وتغيير لمجرى الحياة المألوفة على نحو ما؛ بالقدر الذي تسمح به قدرة الناس المالية على تناولها؛ ويستحيل أن يبلغ الفقر بإنسان حداً يمنعه من المشي وطلوع الجبل!

إن في خاطري الآن اسماً أو اسمين لرجال أراهم بيننا أقرب الناس تمثيلا للمدنية الحديثة في نزعتها العلمية وفي استمتاعها بألوان الفن، وفي ضبط النفس عند السلوك وفي ألوان النشاط عند الفراغ من العمل، لكني أمسك عن ذكر الأسماء، وأكتفي بوضع القواعد، وللقارئ أن يطبقها على نفسه وعلى من حوله كيف شاء.

زكي نجيب محمود

٢٩ - خاطـــرة

للدكتور أحمد أمين بك

قال بعض المصريين في هذه الأيام : « إن الكوكا كولا والبيبسي كولا حرام ، لأن بهما عصارة معدة الخنازير » والمصريون يكرهون الخنزير وما أتى منه ، كراهة تامة .

ولذلك أعرضوا عن شربهما ، ثم أحست الشركة بضعف الإنتاج فاستوحت العلماء ، وعقلاء العقلاء ، واستنجدت بهم لإعلان طهارتهما وحلهما . ولكن ظل كثير من المصريين رغم ذلك ينفرون منهما ، لأنهم خشوا أن تكون الفتوى لغير الله ، وما أتى من طريق الدين صعب إزالته . لكن هناك وجهاً آخر لتحريمهما ، وهو حرمتهما من الناحية الوطنية .

فأكثر الأرباح تدخل في جيوب الأمريكان ، مع أنه عمل سهل ، ليس من الصعب على المصريين أن يقوموا به ، كل مزيتهما الوثوق بنظافتهما في التعبئة ، وعثور الشاهر عليهما حيث كان .

فماذا على المصريين لو ألفوا شركة تصنع الخروب والعرق سوس والتمر هندي ونحو ذلك من نوع الأشربة الوطنية ، وعبأوها تعبئة نظيفة ، وكان الربح لهم ؟.

إني أؤكد أنها تنجح بالإدارة الحسنة أكثر من نجاح الكوكا كولا والبيبسي كولا ، لأن هذه الأشياء المصرية التي ذكرتها حلال دينياً ، وحلال وطنياً . كذلك هي أربح من مال يودعونه في البنوك ، وأطيان وعمارات يشترونها ، فما هذا الخوف الميت ؟.

ورأيي أن الحل والحرمة ليسا مقصورين على النجاسة والطهارة ، بل إن خروج المال إلى يد الأجانب ، ولو كانت العملية طاهرة ، حرام من الناحية الوطنية . فهل في المصريين من يسمع ؟.

إن الكوكا كولا والبيبسي كولا لم ينجحا في الممالك الأوروبية مع اعترافها بطهارتهما ، لأنهم كرهوا أن تخرج أموال الشعب من أيديهم ، وفضلوا الصناعة الوطنية مهما كانت أردأ من الصناعة الأجنبية .

فهل المصريون وحدهم هم المغفلون ؟ وهم الذين لا ينظرون في حلٍّ وحرمة إلا لنجاسة وطهارة ؟.

أحمد أمين

هذا .. أنا

إذا دافع الشاعر عن نفسه فإنما يدافع عن الشعراء جميعاً .

فإلى صديقنا الذي كتب في الثقافة يقول : « ولكنني أنظر من حولي فأجد سوق الشعر قد اقتصر على الإنشاد الصوتي بين جماعة من الناس » .. أقدم هذه القصيدة تكشف له من حالة شاعر من هؤلاء الذين يتهمهم بالإنشاد الصوتي والخلو من العاطفة ...

هذا أنا أصيح ... من أعماق
في ولولات التائه ... الأفاق
بين مجاري النفس والإرهاق
أخط شعري بدمي المهراق
مما تبقى ... بعد الاحتراق
بالريشة الصفراء في الأوراق
والشعر .. مثل الدمع في الآماق
رجع شعور .. صاخب .. دفاق
ونوح روح شد في وثاق
من قبضة الكيان .. والأطواق
وفرحة المحب بالتلاق
للقلب .. مثل الهم والضاق
وترجمان النفس .. في الفراق
خالو من التدجيل ... والنفاق
والشعر هذا المرهفي الباقي
لا يشترى .. كالوحي والإشراق
بل من فيوض الواهب الخلاق
فلا لم .. مشارب ... الأذواق
لكل فيض شارب وساق

[من شعراء الثقافة] كيهوف عيسى مشد

أمـــانى ...

للأستاذ حسن جلال بك

كنت وأنا صبي صغير أسكن مع والديّ في منزل لا نملكه ، ولكنا كنا سعداء فيه ، ندفع أجره في سهولة ويسر ، ولا نتحمل من أعبائه شيئاً من تلك الأشياء الكثيرة التي تقع على عاتق المالك دائماً .. وكنت في طريق إلى المدرسة التي كنت أتلقى فيها علومي في ذلك الحين أمر بمنزل أنيق وجيه — ولست أدري لماذا كانت تحدثني نفسي كلما مررت بهذا المنزل بأننا سوف نكون أسعد حالاً لو أتيح لنا أن ننتقل من منزلنا الذي كنا نقيم فيه إلى هذا المنزل الجميل ، الذي يأخذ جمال منظره بالألباب — ولكن هذا الحديث لم يكن يعدو أن يكون نجوى خافتة ، تسرها نفسي إلى نفسي ، كالخاطر الخاطف ، يومض برهة في الذهن ثم ينقضي ، ولا يترك أثراً من بعده .

وذات مساء سمعت والدي يتحدث إلى والدتي — رحمة الله عليهما — فيزين لنا أن يكون لهما منزل يملكانه ، ويقيمان في بعضه ، ويؤجران بعضه الآخر ، بدلاً من السكن في بيوت الناس ، والالتزام بدفع أجر شهري لهم — ولم تكن والدتي ترى رأي والدي في أول الأمر في هذا الشأن ، ولكنه ما زال بها يلح عليها ، ويبدي لها ويعيد في هذا الحديث حتى انتهت إلى الاقتناع بوجاهة فكرته — ولم يكونا يشركاني في أمثال هذه الشئون لحداثة سني ، ولكني استطعت أن أتابع من بعيد مجادلاتهما ومحاوراتهما ومشاوراتهما ، وأن أعرف في النهاية ما استقر عليه رأيهما — فلم أهتم بشيء للقرار الذي اتخذاه لأنه سيان عند طفل مثلي أن يكون من ذوي الملك واليسار ، أو أن يكون إنساناً على باب الله كبقية عباده . ولكني اهتممت أشد الاهتمام عندما تمت صفقة البيت الجديد الذي وقع عليه اختيارهما ، وعندما دعواني أنا وإخوتي لمعاينته بعد أن أخلى من سكانه استعداداً لاستقبال ملاكه الجدد — فإذ رأيتهما يسيران بي في طريق مدرستي الذي أسلكه كل يوم ، ثم يقفان بي أمام باب ذلك المنزل الذي طالما تمنيت على القدر آمال طفولتي أن يجعله ملكاً لي — ولم أر بأساً ونحن ندخل من الباب أن أستوقف والديّ برهة لأروي لهما قصتي مع هذا البيت الجديد ، وكيف أني تمنيته في أعماق نفسي ، وكيف أن الله حقق فيه آمالي ... !.

ولبثنا في هذا المنزل عاماً وبعض عام ، ثم طولب والدي بدفع حكره ... فقد خدعنا البائع ولم يلفتنا إلى أن أرض المنزل ليست مملوكة له ؛ ولم يكن الناس — أو كثير منهم — في ذلك العصر الأول قد اعتادوا أن يستخرجوا شهادات عقارية عندما يشترون أرضاً أو داراً ، ما دام الشرف يسود المعاملات ، وما دامت النزاهة تغلب على تصرفات الناس .

ومهما يكن من شيء فهذا هو الذي كان من أمرنا مع هذا المنزل — ولم يرق والدي تصرف البائع معه ، وضايقه أن يرى نفسه مخدوعاً ، واستبد برأيه في ضرورة فسخ العقد ، واسترداد الثمن والتخلي عن المنزل — وبعد نضالاً قضائياً عنيفاً مع المالك والوسيط كلفه كثيراً من المال وأرهق أعصابه ، وكان سبباً في إتلاف صحته وإفساد أعصابه ، مما دعاني إلى كراهية هذا المنزل ، والتضرع إلى الله من جديد أن يخرجنا منه بسلام ، كما أدخلنا فيه من قبل بسلام ... رحم الله والدي ، ورحم الله ذلك المنزل الأنيق .

●●●

ومنذ ذلك اليوم عرفت معنى تلك الكلمة المأثورة التي كنا نحفظها في المدرسة : « رب متمن حتفه في أمنيته ! » ومنذ ذلك اليوم أيضاً تلقيت تطبيقات عملية عدة لهذه الحقيقة الخالدة — فقد حدث بعد أن بلغت دور الفتوة ، وخرجت من دور الصبا ، أن كان لي صديق حبيب إلى قلبي أطلعه على سري ويطلعني على سره — فأفضى إليّ ذات مساء أنه يحب ابنة خالته حباً يكاد يطيش له عقله — وكنا إذ ذاك طالبين في مدارسنا العليا لم نفرغ بعد من دراساتنا ، ولم نحصل على إجازاتنا ، فرأيت أن أشير عليه بالتريث حتى ننتهي من مدارسنا ، ثم يسأل والديه أن يخطباها له ، فقال لي : وما الذي يضمن لي بقاءها خالية حينذاك ؟ فسألته إن كان يشعر منها بشيء من الميل إليه لقاء كل هذا الحب الذي يحبها إياه ، فقال : ومن لي أن أعرف منها سر ذلك ؟ وهل أنا أستطيع أن أتحدث إليها ؟ إني أراها من بعيد ، فإذا

اقتربت منها فاضت عيناى فلا أعود أقوى حتى على النظر إليها ، كأنما أحاول التحديق فى قرص الشمس وهى فى أوجها ، فهل تريدنى — وهذه حالى — أن أفهم منها إن كانت تحبنى أو لا تحبنى ؟!.

وكان صاحبى وسيم الخلقة ، ذكياً ناجحاً ، ولكنه كان شديد الحياء ، فرأيت أن أشجعه بإبراز مزاياه التى قد يكون غافلاً عنها بحكم هذا الحياء الشديد ، فجعلت أكرر أمامه كيف أن مركزه الاجتماعى لا يقل عن مركزها ، وكيف أنه فتى تهفو إلى منظره قلوب الفتيات ، وكيف أنه لاشك أن يحصل على شهادة من أعلى الشهادات العليا فى هذه البلاد — وأنه سواء علم من ابنة خالته أنها تهواه كذلك أم لم يعلم ، فإنها ولا شك سترحب بأية إشارة منه إلى رغبته فى الزواج منها — فقال لى : ياصاحبى ما أسلم قلبك ! إن آلافاً من الشبان لابد أن يكونوا قد سبقونى إليها ، فإنها فتاة على فرط جمالها جريئة لا تهاب شيئاً ، ويسرها أن تلعب بعقول أكبر عدد ممكن من الشبان لتلهى بتهافتهم عليها ! فأوجست من كلامه هذا وأجفلت ، وقلت له : وهل أنت تحبها على الرغم من أن هذا هو طبعها ؟ فقال : إن هذا طبع كل فتاة ، وليس يضيرها فى شىء أن تكون مثل غيرها . إنى لن أستطيع أن أعيش بغيرها ، ولن أستطيع أن أنجح هذا العام إلا إذا اطمأننت على مصيرى معها ، إذ ما فائدة النجاح إذا لم أجدها فى انتظارى عند نهاية الطريق ؟!.

فعدت أشير عليه بضرورة أن يفضى بسره إلى أمه لتتولى هى تدبير أمره على الصورة التى تراها — وسرنى أن أراه هذه المرة يأخذ بمشورتى . .

وبعد ذلك بأيام جاءنى صاحبى عشاء وهو يبكى قال : إنى عولت على أن أنتحر ! وكان جادا فى كلامه حتى لقد وقع فى روعى أنه سيقتل نفسه أمامى ، فتولانى الذعر وأمسكت بيديه وناشدته الله أن ينتظرنى حتى أرتدى ثيابى لأخرج معه فى الهواء الطلق حيث نستطيع أن نتكلم بغير حرج من وجودنا على مقربة من أهلى فى داخل البيت ...

وأسرعت إلى ثيابى كأنى أحد جنود المطافئ فارتديتها فى مثل لمح البصر ، ورأيتنى أجذبه من يده خارج غرفتى ، ثم ما لبثت أن خرجت به من البيت ، ثم التفت إليه أسأله ما خطبه .

فقال إن أمه قصدت إلى أختها — أم صاحبته — وعرضت عليها أمره فاستمهلتها حتى تتحدث إلى ابنتها لأنها تعرف أنها شديدة الاعتداد بنفسها ولا تحب أن يفرض أحد إرادته عليها — وأن الفتاة لم ترحب بالفكرة كما كنا نرجو وقالت إن مثل هذا الحديث سابق لأوانه ، فلا هى أتمت دروسها فى المدرسة السنية ولا صاحبى أتم دروسه فى كليته — وبذلك تركت الأمر معلقاً — ولكن صاحبى لشدة حساسيته فى هذا الشأن فسر تصرفها بأنه رفض مكسو فى هذه الصيغة المهذبة حتى لا تجرح كرامته — وأنه لذلك عول على الانتحار ...

ولست بصدد سرد التفاصيل التى انتهت بزواج صاحبى من ابنة خالته ، ولكنى أذكر مع الأسف البالغ أنه إن كان قد نجا من الانتحار حينما توهم أنها ترفض الزواج منه ، فإنه — عليه رحمة الله — قد انتحر أخيراً لأنه .. تزوجها !

فإنها بعد زواجها ظلت تنظر إلى صاحبى على أنها صاحبة الفضل عليه فى أنه حى يرزق — واستمرت فى خطتها الأولى ترى أنها إنما خلقت لتتلهى بقلوب العباد وتحطيم أفئدتهم ، ونسيت أن ما كانت تستبيحه لنفسها من ذلك وهى حرة عذراء أصبح محرماً عليها بعد أن دخلت حظيرة « الزوجية » وارتبطت بروابطها « المقدسة » — وكان صاحبى يلاحظ سلوكها الشائن ويتعذب ، ثم لم يطق عليها صبراً آخر الأمر ، ولكنه ظل على ضعفه أمامها فى كل ما ترى وما لا ترى — وكانت تلك السكارثة التى خيل إليه فى ساعة من ساعات خوره وضعفه أنها المخرج الوحيد من ورطته ...

مرة أخرى ... رحمة الله على صاحبى !

• • •

وهناك تطبيقات أخرى غير هذه التى رويتها طفت كلها فى ذاكرتى وأنا أقرأ صحف هذا الصباح ...

فقد قرأت فيها أن بعض رجالنا الكبار الذين بلغوا أسمى المراتب والذين يحسدهم الناس على كراسيهم العالية خلفوا هذه الكراسى وراءهم شاغرة وولوا مذعورين عنها لا يلوون على شىء ... منهم من استخفى فى داره ، ومنهم من أوغل فى الصحراء يستخفى فى أغوارها السحيقة حتى لا يدركه أحد ولا يعلم مقره أحد ...

ومع ذلك فهناك عشرات غيرهم يقفون تجاه هذه الكراسى وأفواههم تتحلب إلى جلسة واحدة فوقها ...

هكذا الحياة .. وهكذا سرابها ... لا يحسه الإنسان إلا بعد أن يهلك فيه من جوع ومن ظمأ ... أما قبل ذلك فلا تستطيع قوة على الأرض أن تصده عن التطلع إليه والتهالك عليه !

محسن مجهول

النظرية والتطبيق

قد أصاب الكاتب الفاضل التوفيق حين قال إن « النظريات العلمية المجردة والشطحات الفكرية الحائرة أخذت تفقد في العصر الحالي قيمتها على التوالي ، واهتم الفكر الحديث المتتبع بالبحوث الفلسفية والأدبية والعلمية التي تهتم بالحياة والإنسان وترمى إلى رفع مستواها المادى » « الثقافة »

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

منذ انقسم البشر إلى فريقين ، فريق أتيحت له منادح من وقت الفراغ للتفكير ، وفريق استغرق العمل اليدوى طوال وقته ، ظهرت أرستقراطية الفكر إلى جانب أرستقراطية المحتد ، واستعلى أهل الفكر ، وازدروا أهل العمل والإنتاج ، وقطعوا كل صلة بين الفكرة وتطبيقها ، فتباعد الإنتاج النظرى عن الإنتاج المادى ، بدل أن يستعين كل منهما بالآخر في سبيل التقدم والازدهار .

لم يكن انفصال التفكير النظرى عن الحياة العملية إلا رد فعل للعقيدة الاجتماعية التي سادت العصور الغابرة ، وفرضت على السوقة حينذاك أن يعملوا ليعولوا سادتهم الأشراف ، وجعلت من حق السادة الأشراف أن يظلوا عالة على السوقة ! ولم يلبث اللهو والبطالة أن صارا من مفاخر اللاهين العاطلين ، كما صار العمل الشاق من مخازى الأشقياء الكادحين . ووقع فلاسفة اليونان تحت تأثير هذه الوجهة من النظر ، فأخذوا يؤيدونها بدل مناهضتها . ولم تغنهم أصالة رأيهم ولم تبصرهم بالصواب ، فنادوا بأن الفلسفة وهى أسمى ما أنتج العقل البشرى ، جديرة بأن تقتصر على تناول معضلات الوجود العليا دون مطالب الحياة التافهة ، فهى أشرف من أن تسخر في سبيل تحقيق مكسب ، أو توفير منفعة عامة ، كان أولئك الفلاسفة يعتنقون مذهب العلم للعلم لا للحياة ، كما كان معاصروهم من أهل الفن يعتنقون مذهب الفن للفن لا للإنسان . أما سد مطالب الحياة فتترك لأهل الحرف من سوقة وعبيد . وهكذا أصرت الفلسفة اليونانية على أن تقطع كل صلة تربطها بالواقع ، وأن تظل رياضة عقلية بحتة ، فلا تسف على زعمها إلى معترك الحياة ، ولا تمد يد العون إلى الإنسان فتحاول فض مشاكله المادية ، وتحسين ظروفه الدنيوية .

كانت الصلة إذاً مبتورة بين النظرية والتطبيق عند قدماء اليونانيين ، فلم يكن للعلم من هدف هناك يخرج عن نطاق البحث المجرد ، على أننا نستطيع أن نقرر في شيء من التجاوز أن مشيدى هياكل يونان القديمة ومعابدها ، ومبدعى تماثيلها ، أنزلوا علم الهندسة إلى ميدان التطبيق العملى ، والخلق المادى ، في سبيل إبداع تحفهم الفنية . ولكنهم لم يجدوا في ذلك أية غضاضة ماداموا لم يقصدوا من وراء ذلك إلا تطبيق مذهب الفن للفن أو للجمال . وحين نزل فن كتابة التمثيليات إلى ميدان الحياة ، وحاول أن يعرض مشكلاتها على المسرح ، أنف أن يهتم بعامة الناس ، واقتصر على تصوير مغامرات الملوك والأبطال ، وما وقع بينهم وبين الآلهة من أحداث .

على أن ازدراء فلاسفة اليونان لكل إنتاج مادى بلغ من التطرف الحد الذى أدخل معه أفلاطون الفنون في عداد الإنتاج التافه . وقد قال في ذلك ما معناه إن المثال الذى يبدع تمثالاً جميلاً يبدع حسناً معيناً ، وهذا عمل تافه لأن ألوان الحسن لا تحصى ، فعمله قطرة من بحر . أما الفيلسوف الذى يدرك خصائص الحسن على إطلاقه ، فهو الذى يدرك من حقائق الكون المطلقة ما يؤهله للسيادة ، على أن هذه الوجهة المتطرفة من النظر لا تحتاج في هذا العصر إلى فيلسوف لدحضها ، فمن المعلوم اليوم أنه لا يوجد حسن مطلق ، وكل فكرة نكونها عن الحسن نستمدها من المحاسن المشاهدة ، وما الفكرة وتطبيقها إلا صنوان يتولد كل صنو منهما على التوالى من صنوه .

أما مصر القديمة فلم تنهج هذا النهج ، ولكنها اتجهت إلى العلم لتذلل به مصاعب الحياة ، وتوفر أسباب الراحة للإنسان . ولعل نهر النيل كان السبب في توجيه مصر إلى

ذلك الاتجاه ، فلم تزدهر حينذاك علوم الحساب والفلك والهندسة إلا بقصد الهيمنة على فيضان النيل والاستفادة منه على خير وجه وتحديد مواعيد دقيقة للزراعة . وترتب على ارتباط العلم بالتطبيق العملي أن امحت التفرقة بين النظرية والتطبيق ، فلم ينعزل الفكر ، ولم تزدد الحياة . وإذا كان قدماء المصريين لم يحفلوا بنظرية العلم المجرد أو العلم للعلم ، فإنهم لم يتجهوا كذلك في فنونهم إلى نظرية الفن للفن ، فلم تنحت تماثيلهم إلا لغرض إنسانى ، إذ كانوا يؤمنون بخلود الروح ، ولكنهم كانوا مع ذلك يدركون أن الروح لا يعيش إلا متصلا بجسمه المادى ، فلا روح خارج المادة ، ولذلك نحتوا التماثيل لأمواتهم حتى تتقمصها أرواحهم فتنعم بالحياة الخالدة . وما قيل عن تماثيلهم يقال كذلك عن نقوشهم وزخارفهم وتحنيطهم الجثث وتأكولات وغير ذلك من مختلف فنونهم وعلومهم .

وحين دالت الحضارة المصرية القديمة دالت معها فكرة ربط النظرية بالتطبيق . وظلت أوربا حتى أوائل القرن الحديث خاضعة للفلسفة القديمة ، فأبقت على الحاجز الكثيف الذى يفصل الفكر عن الحياة . وعمد المفكرون فى محاولة حل المشاكل اليومية التى تعرض لهم إلى التفكير المجرد أو إلى مراجعة مصنفات أرسطو لعلهم يهتدون فيها إلى الحل المنشود . أما محاولة حل مشكلات الحياة عن طريق دراسة الواقع فكانت تعد جهلا أو قصوراً فكرياً لا يقمن بالسادة المفكرين أن يوصموا به . وهكذا ظل الفكر منقطع الصلة بالواقع ، أى ظلت النظرية منفصلة عن التطبيق حتى تغيرت ظروف الحياة المادية فى أوربا التى شعرت بحاجتها الماسة إلى رفع مستوى الصناعة ، فظهر العلماء الذين نادوا بضرورة اتصال الفكر بالواقع ، واستقراء الحقائق من صفر الحياة . وكان الفيلسوف الإنجليزى بيكون فى مقدمة هؤلاء .

أخذ العلم ينقلب فى أوربا منذ ذلك الحين من رياضة عقلية مجردة إلى قوة فعالة تعين الإنسان على ترويض الطبيعة وتحقيق حاجات الإنسان ورغباته . ولم يلبث هذا الاتجاه الجديد أن حمل ثماره ، وأسفر عن ازدهار الصناعة ووصولها إلى ذلك المستوى الذى حقق للأوربيين حضارتهم المعاصرة . ولكن ليس معنى هذا أن النظرية فى مختلف نواحى النشاط الحضارى اتصلت كل الاتصال بالتطبيق على أثر تطلب التقدم الصناعى ذلك ، فوضحت الأمور لأول وهلة فى نصابها ، وانحسم كل إشكال . فإن الذى وقع غير ذلك ، إذ مر إشكال النظرية والتطبيق بمراحل جديرة بالتتبع والتمحيص . ولم يدرك ذوو الرأى أهميته الخطيرة على حقيقتها إلا ابتداء من الشطر الثانى من القرن الماضى .

بدأ العلم فى انجلترا يقترب شيئاً فشيئاً من ميدان الصناعة وينتقل إلى معاملها على أثر النداء الذى وجهه إليه بيكون فى أواخر القرن السادس عشر حين احتاج توسع انجلترا التجارى إلى تقدم صناعتها ، ولكن نزول العلم إلى المجال العملى حينذاك لم يتم إلا بمقدار محدود ، وظل الرأى العام فى انجلترا ، ثم فى أوربا بعد ذلك يستخف بالعلم العملى ، ويمجد العلم النظرى ، حتى إن أوربا احتفت بمؤلفات نيوتن النظرية بعد ذلك بقرن من الزمان احتفاء منقطع النظير ، وحسبنا رسالة أوحت إلى مؤلفها أو أنزلت عليه . أما الفلسفة فقد ظلت تحلق فى السبحات الفكرية المترفعة عن الواقع .

وحين أسفر تقدم الصناعة وانتقالها من المرحلة اليدوية إلى المرحلة الآلية عن ظهور الطبقة البورجوازية التى تدين بحياتها وازدهارها للتقدم المادى ، أبت تلك الطبقة الجديدة بعد علو كعبها إلا أن تحاكى الأرستقراطية الدائلة ، وتتظاهر بالترفع عن الماديات ، والاستهانة بالعلوم المستمدة من التجارب الواقعية على الرغم من استعانتها بها فى مصانعها ، وظلت تشيد بالبحوث الفكرية المجردة . وجاء فلاسفتها وأدباؤها فحققوا وجهة نظرها ، وأوغلوا فى الابتعاد عن الواقع ، فازدهرت فلسفة ما وراء الطبيعة وظهر الأدب الرومانسى الذى طغى على سائر ألوان الأدب الأوربى إذ ذاك .

ولكن نهضة أوربا الصناعية الكبرى استتبعت يقظة سواد الشعب الأوربى . فأخذ العمال والصناع يشعرون بأهمية طبقتهم ويدركون خطر شأن العمل الذى يضطلعون به . وما ازداد وعيهم نضجاً حتى طفقوا يستخفون بالنظريات العقلية ، ويحسبون أن القائمين على الإنتاج المادى هم وحدهم الجديرون بالتقدير . وما زال هذا الوعى الجديد يفعل فعله حتى أتت حوالى منتصف القرن الماضى نظر بعض الفلاسفة الذين حاولوا دراسة موضوع النظرية والتطبيق من جديد على أساس علمى صحيح .

فطن هؤلاء الفلاسفة أول ما فطنوا إلى العلاقة الوثيقة التى تربط بين كل من النظرية والتطبيق ، ووجدوا أن استحالة كل منهما بالآخر هى وحدها التى تتيح الوصول إلى

أيهم التابع . وقد تعمقوا فبحثوا في كنه كل منهما ، وأيهما السابق على الآخر في الوجود ، أي هل يستمد الإنسان نظريته من وحي خاطره ثم يطبقها على الواقع أم يستمدها من ذلك الواقع ثم يطبقها عليه ؟ ولما كان الرأي العلمي الصحيح أن أفكار الإنسان مستنبطة جميعها بلا استثناء من العالم الواقع المادي المحيط به ، فقد انتهى الرأي في موضوعنا كذلك إلى أن التطبيق سابق على النظرية . فالإنسان في نشأته الأولى كان مدفوعاً فيما يأتي من أعمال بدافع مطالب الحياة وضروراتها ، وهو لم يرق في مدارج الرقي الحقيقي إلا حين أخذ يفكر في تحسين حاله ، فاستنبط نظرياته الأولى التي كانت ترمي إلى تحسين طرق معيشته من دائرة تلك الطرق نفسها ، فزاده ذلك فهماً وحسن إدراك ، وجعله أقدر على استنباط نظريات جديدة ، وهكذا اتبع الرقي الإنساني ذلك الأسلوب حتى وصل إلى ما وصل إليه في عصرنا الحاضر .

ظلت النظريات العقليـة المجردة والشطحات الفكرية الخاوية تفقد في العصر الحالي قيمتها على التوالي . واهتم الفكر الحديث المستنير بالبحوث الفلسفية والأدبية والعلمية التي تهم الحياة والإنسان ، وترمي إلى رفع مستواهما المادي والمعنوي من طريق مباشر . وحين اهتدى الفكر البشري إلى نظرية تطور المجتمعات عرف الأسلوب الذي تسلكه الحياة في تطورها ، وأصبح لزاماً على كل مفكر ، إذا ما أراد اجتناب الزلل ، أن يبني كل نظرية جزئية لنفسه أو لغيره في الحياة على أساس تلك النظرية العامة . فهو إذا حاول أن يتصرف في أمر من الأمور فلا بد أن يدرس موضوعه دراسة واقعية من طريق تجميعه والإحاطة بظروفه وملابساته ، والبحث عن تاريخه وكيف كان في ظروف وملابسات أخرى ، ثم مقارنته بما يماثله واستقصاء أوجه المشابهة والاختلاف بينهما ، والبحث عن أسبابها . وعدم إغفال أي ناحية من نواحيه أو من المؤثرات التي تؤثر فيه . فإذا ما تم له ذلك وضع خطة العمل وسار على مقتضاها . وما خطة العمل هذه إلا النظرية ، وما السير على مقتضاها إلى التطبيق . وواضح هنا أن النظرية مستمدة من الواقع وعائدة إليه .

وآن لنا قبل أن نختم هذا المقال أن نمتحن النشاط الأدبي على ضوء ما قدمنا ، أي على ضوء النظرية والتطبيق ، فإننا مازلنا نجد نقاد الأدب منقسمين إلى فريقين : فريق يرى أن العمل الأدبي لا يقوم إلا على فكرة وتصميم ، وفريق آخر يرى أن ينزل الكاتب إلى الواقع ، وما عليه إلا أن يعمل على تسجيله تسجيلاً صادقاً ليبدع عملاً فنياً قيماً ؛ والذي اتبع شرحنا لموضـوع النظرية والتطبيق واقتنع به لا يلبث أن يدرك أن تقدير العمل الأدبي على ضوء ذلك الشرح جدير بأن يسدد خطانا صوب الحكم الصحيح ؛ فالأديب الذي يبتعد عن الواقع حين يمسك بالقلم ، ويعمل على ابتداع معانيه بتوليدها مما قرأ ، أو مما علق بذهنه من تجارب قديمة بهتت ألوانها ، وشاهت معالمها ، لا يستطيع أن ينتج إلا أدباً مصطنعاً لا حياة فيه ولا رونق له ، أو أدباً فردياً قاصراً على تسجيل خوالج الكاتب الخاصة ، وأطماعه الشخصية ؛ ومن الواضح أن هذا النوع أو ذاك من ألوان الإنتاج الأدبي لم يستطع أن يحتفظ في العصر الحاضر بأية قيمة بعد أن نضج وعي الشعوب ومهد السبيل لظهور الأدب الفني بحياة المجتمعات ومشاكلها ، لا بحياة الأفراد المحدودة ، ومشاعرهم الخاصة الرخيصة ؛ وما يقال عن الأديب المبتعد عن الواقع يقال كذلك عن الأديب الذي يحسب أن النزول إلى ميـدان الواقع والاغتراف منه كاف وحده لتحقيق أربه ، فإن إنتاج مثل هذا الأديب الأخير لابد أن يخلو كإنتاج سابقه من خصائص الأدب الممتاز ، لأن تصـوير الواقع كما هو أشبه بالتصوير الفوتوغرافي ، وأين التصوير الفوتوغرافي من اللوحة التي تنقشها ريشة فنان ؟...

إن النجاح في الأدب وفي غير الأدب لا يتاح إلا لمن يوفق في مزج النظرية بالتطبيق ؛ فالأديب الممتاز يحتاج فوق الثقافة العالية الواسعة إلى دراسة المجتمع الذي يحاول الكتابة عنه دراسة واقعية ، أي عليه أن يدرس ظروفه وملابساته ، وأن يحلل ميوله وعاداته على ضوء تلك الظروف والملابسات ، وأن يدرس تاريخه ومراحل تطوره ، وكيف انتهى إلى المرحلة التي انتهى إليها من ذلك التطور ؛ فإذا ما استوعب الكاتب الأديب كل هذا من الناحية النظرية ، نزل إلى ميدان الواقع . وعاش بين ظهراني أولئك الناس الذين سيكتب عنهم ، ودقق في دراستهم واتهمهم على هدى ما عرف عنهم ؛ وحين يتم له ذلك تتم له معرفة كل ما ظهر وخفي من أمر أولئك الناس فيستطيع تصويرهم على الوجه الصحيح ، وبث الحياة والنشاط في صورهم ، وإبراز نواحي تقدمهم ، وتبيين المرحلة الجديدة التي سيرتقون إليها . ولا يكون هدف أدبه في هذه الحالة مقصوراً على إبداع صور فنية حية لأولئك الناس . ولكنه يتعدى هـذه الدائرة إلى إعانتهم على سرعة التطور .

محمد مفيد الشوباشي

ابن عبد ربه

للأستاذ على أدهم

كتاب العقد الذى اشتهر باسم « العقد الفريد » للأديب الأندلسى أبى عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه من الأصول الأدبية المعدودة ، ومن المراجع التاريخية المأثورة ، ويمتاز بغزارة مادته ، وحسن تبويبه ، وجودة اختياره ، وقدم عهده ، وتطالعك من وراء أخباره المنوعة ومختاراته الممتازة شخصية مؤلفه الأديب المطبوع ، والناقد البارع ، والشاعر المجيد ، والفقيه العالم المتمكن . وكتاب العقد من الكتب القلائل الجديرة بالعناية والخليقة بالدرس ، وقد أحسنت لجنة التأليف والترجمة والنشر فى محاولة إخراج هذا الكتاب القيم إخراجاً علمياً مصححاً جهد الطاقة ، فقد كانت الطبعات القديمة كثيراً ما تنفر من قراءته ، وتصد عن الاستفادة منه ، لرداءتها ودمامتها وامتلائها بالتحريف والتصحيف ، ومن مقومات النهضات الأدبية الحقة دراسة الأصول الأدبية واصطناع النهج التاريخى من أقوم السبل وأصح الأساليب فى تلك الدراسة ، والأمم التى لا تربط ماضيها بحاضرها تصبح من الأمم المتقلقلة السطحية ، وكتاب العقد فى طليعة تلك الأصول الحافلة بالمختار ، ومن الطرف النفيسة التى خلفها لنا السلف المجد الصالح .

وقد ولد ابن عبد ربه مؤلف هذا الكتاب الجامع أو الموسوعة الأدبية التاريخية فى قرطبة سنة ٢٤٦ هجرية ، وكان جده الأعلى سالم من موالى الأمير هشام بن عبد الرحمن ابن معاوية المعروف بالداخل مؤسس الأسرة الأموية بالأندلس .

وأخبار ابن عبد ربه التى بين أيدينا قليلة ، فليس عندنا بيان موجز أو مفصل عن العمل الذى كان يباشره أو المنصب الذى كان يشغله . وقد مدح بعض أمراء الأندلس الذين عاصروه مثل الأمير محمد والمنذر وعبد الله ، وله فى مدح الناصر طائفة من المدائح ، والظاهر أنه كان على شىء من الصلة الوثيقة به ، وقد أصيب فى آخر حياته بالفالج ، وكانت وفاته فى سنة ٣٢٨ هجرية ، وروى الضبى له ستة أبيات ذكر أنها آخر ما قاله من الشعر ، وقد أشار فيها إلى استطالة حياته ، واستنفاد عمره ، وما أصابه فى آخر أيامه ، قال :

كلانى لما بى عاذلىّ كفانى ... طويت زمانى برهة وطوانى
بليت وأبلتنى الليالى وكرها ... وصرفان للأيام معتوران
وما لى لا أبلى لسبعين حجة ... وعشر أتت من بعدها سنتان
فلا تسألونى عن تباريح علتى ... ودونكما منى الذى تريان
وإنى بحول الله راج لفضله ... ولى من ضمان الله خير ضمان
ولست أبالى من تباريح علتى ... إذا كان عقلى باقياً ولسانى

ويمكننا أن نستخلص من النوادر والقصص التى تروى عن ابن عبد ربه أنه كان من الأدباء الظرفاء النازعين إلى طلب النعمة واقتناص اللذة ؛ وللبيئة التى نشأ بها أثر واضح فى ذلك ، فقد كانت قرطبة حينذاك أعظم مدن الأندلس ، وكانت تضارع بغداد من وجوه كثيرة ، وكان أهلها من الأثرياء الموسرين ؛ وتكاثر الثروة يجعل أسباب الترف والنعمة وضروب اللهو موفورة ميسورة ، وكان الغناء شائعاً فى قرطبة ، وكانت تفد إليها الجوارى والمغنيات من سائر الأقطار الإسلامية ، وقد نهض زرياب بالغناء الأندلسى وطبعه بطابعه ، وكان أكثر المغنين والمغنيات من تلامذته والآخذين عنه والمتأثرين بمذهبه ؛ وكان ابن عبد ربه مشغوفاً باستماع الغناء . روى الفتح بن خاقان فى كتاب المطمح عن أبى محمد بن حزم أن ابن عبد ربه مر بقصر من قصور قرطبة لبعض الرؤساء ، فسمع منه غناء أذهب لبه ، وألهب قلبه ، فبينا هو واقف تحت القصر إذ رش بماء من أعاليه ، فاستدعى رقعة وكتب إلى صاحب القصر بهذه الأبيات : —

يا من يضن بصوت الطائر الفرد
ما كنت أحسب هذا الضن فى أحد
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة
أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

فلا تضن على حمى ومت به
صوتاً يجول مجال الروح فى الجسد
أما النبيذ فإنى لست أشربه
ولست آتيك إلا كسرتى بيدى

وذكر المقرى أن هذه الجارية كانت تسمى مصابيح ، وكانت عند الكاتب أبى حفص عمر بن قلهيل ، وقد أخذت الغناء عن زرياب نفسه ، وروى أنها كانت غاية فى الإحسان والنبل وطيب الصوت ، وأن سيدها عند قراءة أبيات ابن عبد ربه خرج حافياً وأدخله إلى مجلسه فتمتع من سماعها .

وقد خصص ابن عبد ربه من عقده كتاباً للغناء واختلاف الناس فيه وهو كتاب « الياقوتة الثانية » وذكر فيه كثيراً من الروايات التى احتج فيها الناس بإجازة الغناء ، وذكر بعض الأحاديث التى تجيزه ، وقد استهل هذا الكتاب بقوله : « وكرهنا أن يكون كتابنا هذا بعد اشتماله على فنون الآداب والحكم والنوادر والأمثال عطلاً من هذه الصناعة التى هى مراد السمع ، ومرتع النفس ، وربيع القلب ، ومجال الهوى ، ومسلاة الكئيب ، وأنس الوحيد ، وزاد الراكب ، لعظم موقع الصوت الحسن من القلب وأخذه بمجامع النفس » . ويقول فى موضع آخر من هذا الكتاب : « وقد يتوصل بالألحان إلى خير الدنيا والآخرة ، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الأرحام والذب عن الأعراض ، والتجاوز عن الذنوب ، وقد يبكى الرجل بها على خطيئته ، ويرقق القلب من قسوته ، ويتذكر نعيم الملكوت ويمثله فى ضميره » .

وهذا كلام يستوقف النظر ، ويستدعى الملاحظة ، ويمكننا أن نتبين منه حسن تقدير الأندلسيين للغناء والموسيقى ، وإدراكهم لوظيفتهما السامية وأثرهما فى صقل النفوس ، وتهذيب العواطف ، وترقيق القلوب .

والظاهر أن ابن عبد ربه لم يقتصر على الاستمتاع بسماع الأصوات الجميلة ، بل كان مولعاً كذلك باجتلاء الوجوه الجميلة أينما كانت ولمن كانت ، وربما يكون قد أسرف فى ذلك ، فقد قال حينما آثر التوبة :

يا رب غفرانك من مذنب   أسرف إلا أنه نادم

ولم يكتف — على ما يظهر — بالاستمتاع بسماع الغناء واجتلاء الوجوه الحسان بل أكثر من الشراب ، والأرجح أنه ظل يشرب حتى تقدمت به السن ، قال فى شيخوخته :

ألهو بين باطية وزير   وأنت من الهلاك على شفير
فيامن غره أمل طويل   به يردى إلى أجل قصير
أتفرح والمنية كل يوم   تريك مكان قبرك فى القبور

والظاهر من الأبيات التى قالها فى الزهد والتوبة أنه لم يمل إلى الزهد ويشرع فى التوبة إلا حينما اعتلت صحته ، وضعفت بنيته ، وكلّت حواسه ، فهى مثل توبة أكثر الحسيين الذين لا يعرفون الزهد أو التوبة بدافع من التقوى أو قوة الإرادة ، وإنما يعرفونها حينما تضعف حواسهم ، وتخذلهم بنيتهم ، وهم فى هذه الحالة يكثرون من التظاهر بالورع والإفراط فى الزهد والعبادة ، وفى الوقت نفسه يكثرون من التحسر على أيام الشباب وعهود اللهو ، ومن أشعاره فى ذكرى الشباب قوله :

شبابى كيف صرت إلى نفاد   وبدلت البياض من السواد
فراقك عرّف الأحزان قلبى   وفرق بين عينى والرقاد
زمان كان فيه الرشد غيا   وكان الغى فيه من رشادى
فكم لى من غليل فيك خاف
وكم لى من عويل فيك بادى

ويعترى الحسيين حينما يقعد بهم عجز الشيخوخة والهرم عن مباشرة اللذات نوع من التشاؤم فيرون أن لذات الحياة ومتعها فانية ، وأن أحزانها وهمومها باقية ، وأنها قصيرة المدى ، سريعة الكر ، ولا تخلف فى النفس سوى اللوعة والأسى ، ولذا يميلون إلى ذم الدنيا حتى يتشبه أمرهم بأمر العباد الناسكين ، من ذلك قول ابن عبد ربه :

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة
إذا اخضر منها جانب جف جانب
هى الدار ما الآمال إلا فجائع
عليها ولا اللذات إلا مصائب
فكم أسخنت بالأمس عيناً قريرة
وقرت عيوناً دمعها الآن ساكب
فلا تكتحل عيناك منها بعبرة
على ذاهب منها فإنك ذاهب

وقد أجاد ابن عبد ربه دراسة علوم عصره من تاريخ

وشعر ونحو ولغة وفقه ودين ، وأثر هذه الدراسة العلمية المتنوعة الشاملة يتجلى فى كل باب من أبواب كتابه ، وهذه الثقافة الكثيرة الجوانب أكسبته اعتدالا فى التفكير ، وسعة فى الرأى والنظر ، وتجافت به عن الضيق والتعصب والتزمت ، وهو يعوّل فى مراجعه على علماء المشارقة ، ويكثر من النقل عنهم ، وعمدته أمثال المبرد والأصمعى والمدائنى وأبى عبيدة وابن المقفع والجاحظ وابن قتيبة ، وقد لحظ ذلك الصاحب بن عباد حينما اطلع على كتاب العقد فقال فيه كلمته المشهورة « هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم ، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا ، لاحاجة لنا فيه » .

وقد كان ابن عبد ربه مولعاً بالهجاء ، محباً للدعابة والفكاهة ، وقد ذكر لنا المقرى فى نفح الطيب بعض ما حدث بينه وبين أبى محمد يحيى القلفاط الشاعر ، وقد كان هذا الرجل صديقاً لابن عبد ربه فقسد ما بينهما بسبب أن ابن عبد ربه مرّ به يوما وكان فى مشيه اضطراب ، فقال له : « يا أبا عمر ما علمت أنك آدر إلا اليوم لما رأيت مشيك » . فقال له ابن عبد ربه : « كذبتك عرسُك أبا محمد » فساء القلفاط كلامه ، وعز عليه هذا الرد ، وقال له « أتتعرض للحرم ؟ والله لأرينك كيف الهجاء » ، ثم صنع فيه قصيدة أولها :

يا عرس أحمد إنى مزمع سفراً
فودعينى سراً من أبى عمرا

وتهاجيا بعد ذلك ، وكان القلفاط يلقبه « بطلاس » لأنه كان أطلس اللحية ، ويسمى كتاب العقد « حبل الثوم » .

وأثر ميل ابن عبد ربه إلى الهجاء والدعابة والفكاهة ظاهر فى كتاب العقد ، ومن سخريته بالمبرد فى كتابه قوله عنه : « ما أحسبه لحقه هذا الاسم إلا لبرده » ، وهو بارع فى فن الهجاء لأنه يحسن الوقوع على المساوى ويصبها فى القالب المضحك ، فيضطرنا إلى أن نشترك معه فى الضحك والسخرية ؛ من ذلك قوله فى الأبيات التى مطلعها « ما لى بابك محروساً ببواب » ، وقد يمزج الهجاء بشكوى الزمن مثل قوله :

وأيام خلت من كل خير ودنيا قد تدرعها الكلاب
كلاب لو سألتهمو تراباً لقالوا عندنا انقطع التراب

وقال شاكياً الشيب والحكام :

جار الشيب على رأسى فغيره
لما رأى عندنا الحكام قد جاروا

وكان فى بعض الأحيان يفرط فى الإقذاع ، شأن أكثر شعراء العرب الذين شغفوا بالهجو ، ويظهر أن آداب عصرهم كانت تسمح لهم بذلك .

ومن أبياته المؤثرة قوله فى رثاء ولده :

واكبدا قد تقطعت كبدى وأحرقته لواعج الكمد
ما مات حى لميت أسفاً أعذر من والد على ولد
يا رحمة الله جاورى جدثاً دفنت فيه حشاشتى بيدى
ونورى ظلمة القبور على من لم يصل ظلمه إلى أحد
لا صبر لى بعده ولا جلد فجعت بالصبر فيه والجلد
يا لوعة لا يزال لاعجها يقدح نار الأسى على كبدى

وشعر ابن عبد ربه مثل نثره يمتاز بعذوبة الألفاظ وسهولتها ، ووضوح المعنى ، والبعد عن التكلف ، وترك استعمال الغريب النافر ، وإيثار الجزالة والسلاسة ، وفى بعض أشعاره تتغلب ثقافته الواسعة على عواطفه ومشاعره ، فيجىء شعره غثاً فاتراً لا روح فيه ولا حياة .

وفى كتاب العقد أخبار كثيرة ، وطرف ونوادر عن كبار رجال الإسلام ، سواء من الخلفاء والقواد والحكام ، أو من الحكماء والمتكلمين والشعراء والكتاب ، وفيه كثير من المعلومات التاريخية ، والفوائد الأدبية ، وأخبار عن أحوال العرب فى الجاهلية والإسلام ، وألوان معيشتهم ، وأساليب حياتهم ، وقد جعله وجوده بالأندلس بعيداً عن نفوذ حكام الشرق ، ومكنه ذلك من أن يكون أقدر على الصراحة ، وإبداء الرأى ، ولكنه مع ذلك لم يستطع التغلب على أهوائه وميوله . وابن عبد ربه مؤرخ بارع ، واسع الإحاطة ، جيد السرد للأخبار والوقائع ؛ ولكن يلزم أن نتلق أخباره وروايانه بشىء من التحفظ ، لأنه حذف ذكر الإسناد ، وبعض الأخبار التى رواها لانعرف من أين استقاها ؛ وهو يصارحنا بطريقته فيقول : إنه عمد إلى بعض الأخبار فاختصرها أو اختار منها ما يلائم كتابه ويرضى ذوقه ، وقد لحظ نقاده أنه ينقل بعض الأخبار على علاتها دون غربلة أو تمييز ، ودون عرضها على محك النقد ووزنها بميزان

أين هى ؟!

[صفحات من يوميات]

يسر « الثقافة » أن تقدم لقرائها هذه القطعة الأدبية الممتازة التى تشهد بأن لصاحبها لفتة الفنان

للأستاذ إدوار منسى

٢٥ فبراير ١٩٥٠

منتصف الليل . سكون . هدوء . لقد نام أهلى جميعاً ولم يبق مؤرقاً إلاى . كنت حتى دقائق أقرأ فى كتاب ، ولكنى مللت القراءة فوضعت الكتاب جانباً . وجعلت وأنا مستلق على فراشى أسبح بفكرى بعيداً ، إنى فى السابعة والعشرين ومازلت عزباً . لماذا ؟! كنت أفكر فى الزواج ، لقد تزوج كل أصدقائى واطمأن كل واحد منهم إلى شريكة حياته . وقد أنجب بعضهم أولاداً ... أما أنا ، هكذا همهمت بشفتى ، فمازلت وحيداً !

وهأنذا أدون يومياتى عن هذا اليوم . ولكن ماذا أكتب ؟ لقد مللت الكتابة عن الأشياء العادية ، متى أكتب شيئاً عن « خطيبتى » مثلاً ! إنها كلمة حبيبة إلى النفس ، جميلة الوقع على الأذن . حتى وأنا أكتب كلمة « خطيبتى » أشعر كأن قلبى يهتز فى يدى منتشياً ملتذاً ! ولكن لا . يلوح لى أن حظى فى الزواج ضئيل . خذ مثلاً : فمنذ أربع سنين وأنا أبحث عن فتاة واحدة بالذات ، دون جدوى . لقد رأيتها ، أو تراءت لى بمعنى أصح ، ذات ليلة من صيف ١٩٤٦ . كان حلماً جميلاً . أليس جميلاً أن أحلم أنى أستيقظ من نومى فيملأ عينى نور الصباح ، وأرى نفسى فى فراش وثير وبجانبى امرأة ... بل فتاة ، لم يظهر من جسدها غير وجه صبوح وردى ملائكى شفاف ! لقد عجبت للأمر ، وتساءلت : من تكون ؟! ولكن سرعان ما ذهب عجبى وانهارت دهشتى عندما وقعت عيناى على إصبع من يدى اليسرى ورأيت خاتماً ذهبياً .. دبلة ! كانت الفتاة زوجتى .

رأيت زوجتى منذ أربعة أعوام ! فهل الرؤية أن تتحقق ومع نفس الفتاة ؟ ترى كيف تكون زوجتى ، وأين ، ومتى ألقاها ؟ لم يوضح لى الحلم من تكون ومن يكون أبوها وأين تعيش حتى تسهل علىّ مهمة البحث عنها ! إن صورتها عالقة بذهنى ؛ إنها ذات وجه صبوح وردى ملائكى شفاف .

ولكن ماهى الصفات العامة التى أرجوها فى زوجتى ؟ لأحاول أن أبسطها فى كلمات قليلة مختصرة ، فيما يلى :

إنى أحب البساطة فى المرأة ، أحبها على فطرتها وسجيتها ، ولا أميل إلى المتحذلقات منهن . ليس أجمل عندى من امرأة تفكر بقلبها ، أما التى تحب بعقلها فهى أقرب عندى إلى الرجل فى حياتها وتصرفاتها ، فمنذ بدء الخليقة تعلم الرجل أن يعمل عقله ، لأن وظيفته كانت تدعوه إلى

التفكير الدقيق ، وقد كان هدف الرجل قبل كل شىء أدبياً محضاً ، أى أنه كان يريد تسلية القارئ وإمتاعه والترفيه عنه بالأخبار المونقة ، والروايات المستجادة ، والأقوال البليغة ، والحكم والأمثال والأشعار ؛ وقد أشار فى المقدمة إلى ذلك فقال : « وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجواهر ولب اللباب ، وإنما لى فيه تأليف الأخبار ، وفضل الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش فى صدر كل كتاب ، وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء ، واختيار الكلام أصعب من تأليفه ، وقد قيل اختيار الرجل وافد عقله » .

وربما لا يكون اختيار الكلام أصعب من تأليفه كما يحاول أن يعتقد ابن عبد ربه ، ولكن الاختيار مهما يكن أمره دليل عقل المرء ، وعنوان ذوقه . وقد أحسن ابن عبد ربه الاختيار فى كتاب العقد ، فدل على سلامة ذوقه ، ورجاحة عقله ، وغزارة علمه .

علی أدهم

التفكير والابتكار ، بعكس المرأة ، فقد وجدت نفسها عاطفية لأن وظيفتها كانت تدعوها إلى الحب . لقد أملت الطبيعة على كليهما أسلوب حياته ومناهجه ، فمهما حاولنا التقريب بين الطرفين نجد دائماً أن الرجل يقوده العقل ، أما المرأة فيسيطر عليها القلب ، كل ما يطلبه الرجل من المرأة .. العاطفة لأنه يكفيه عقله . لذلك أحب المرأة الفنانة لأنها في فنها تعبر عن طبيعتها ، وأفضلها على المرأة العاقلة التي أدخلت مشكلات العقل في حياتها الخاصة . إن « المرأة » إذ توقع أمامي على البيانو مثلاً قطعة من الموسيقى الرقيقة لهي أقرب إلى مزاجي وذوقي وقلبي من امرأة تشرح لي قانون الجاذبية أو النظرية النسبية . أحب جداً رؤية فتاة أغرمت بالفن ، ولا أميل إلى الفتاة التي هويت العلم . أحب المرأة التي لا تحاول الخروج على طبيعتها والتي تعرف حدود استعداداتها فتقف عندها . لذلك طالما أردت أن يوفقني الله إلى فتاة تهوى الفن : موسيقى أو رسماً ، وتمارس أحدهما .. وهذا لا يمنع قط أن تكون على قدر من الثقافة العامة بحيث يؤهلها للدخول في المحادثات والمناقشات الممتعة الحية .

٢٠ مايو ١٩٥٠

خطب ابن خالتي فتاة منذ ما يقرب من شهر ، ومنذ أن تمت خطبته بدأ اسم غريب يدخل في أحاديث عائلتي ، فقد صرت أسمع والدتي تردد اسم « مارجو » . واليوم إذ نفد صبري من الحديث أمامي عمن لا أعرف سألت أمي :

— من تكون مارجو يا أمي ؟

فقالت وهي تغمز بعينها :

— مفاجأة ستفاجئك بها .

— أهي تؤكل أم تلبس ؟

— لا تتباله ! إنها عروسك المنتظرة .

وكنت قد أخبرتها على العجيب عن زوجتي المجهولة ووصفت لها وجهها ، فسألتها :

— أهي ذات وجه صبوح وردي ..؟

ولم تمهلني :

— ملائكي شفاف !

— وما درجة تعليمها ؟

— الثقافة العامة .

— عظيم . ألا تعرفين إن كانت تهوى فناً ما ؟

— أعرف أنها تلعب على البيانو ...

فقفزت من مكاني متهللا :

— إنها هي يا أمي ، فتاة أحلامي ! متى أراها إذاً ؟ إني لفي شوق إلى أن أرى زوجتي المستقبلة !

قالت مبتسمة :

— لا تكن عجولا . انتظر حتى ليلة زفاف ابن خالتك ، فسوف تكون في الحفلة التي ستقام لهذه المناسبة .

— ولكن من هي مارجو ، وما علاقتها بزفاف ابن خالتي ؟!

— إنها ابنة خالة خطيبة ابن خالتك (١)

٨ يونيو سنة ١٩٥٠

أهي التي ستكون عروسي حقاً ؟! إني والله لا أرى بها عيباً : فهي مرحة . إنها فتاة الحلم . إنها ذات وجه صبوح وردي ملائكي شفاف !

لم تكن هذه أول مرة أرى فيها مارجو . فلقد رأيتها يوم السبت قبيل إكليل ابن خالتي ، رأيتها مارقة وهي تسلم باليد بينا كان يقدمها إلينا ، ثم رأيتها يوم زفافه ، فامتلأت عيني منها . ثم رأيتها للمرة الثالثة اليوم ... حقاً أني مرتبك ، إنها تكاد تكون الصورة التي رأيتها لزوجتي ذات يوم في حلم . أهي زوجتي هذه التي كانت جالسة أمامي اليوم على المائدة — في هذا الحفل العائلي الصغير — في فستانها الأحمر القاني ذي الصدر الواسع ، صغيرة الفم جميلته ؟! أهي زوجتي هذه التي كانت تلحظني أرقبها وأرمقها من طرف خفي فتتظاهر بعدم رؤيتها إياي وملاحظتها لي ! أهي زوجتي هذه التي ...

٩ يونيو سنة ١٩٥٠ .

« مارجو » ! إنه اسم جميل حقاً ، مودرن ، عصري ! صاحبته كل ما كنت أصبو إليه وأبحث عنه . ولكن للأسف ، بي عيب يجعلني أتردد في الأمر ، هذا العيب صعوبة تآلفي بغيري من الناس ؟ فأي شخص لا أعرفه أهابه ، وأي عائلة لا أعرفها أخافها ، فإذا زال خوفي منها واختلطت بها واندمجت فيها ، فبشيء من الكلفة والتحفظ ، فإذا زالت الكلفة وذهب التحفظ فبعد زمن قد يطول ولا يقصر !

ولكن ما الجماعة ؟ أليست مجموع أفراد ؟! ألست فرداً أنا نفسي ؟ فكيف أتراجع أمام أفراد مثلي ؟ لا . لن أسمح لنفسي بالتراجع أمام أفراد مثلي من طبقتنا ووسطنا . فأم مارجو طيبة بسيطة لا تكاد تفوه بكلمتين اثنتين في جلسة

طويلة ! ويمتاز أبوها بالرجولة الكاملة ، والتؤدة ، والتفكير الطويل قبل الشروع فى الكلام ، فإن تكلم فبكلمات موزونة قاطعة . وهو يعمل بإحدى المصالح الحكومية . أما أولادها فستة : ثلاث فتيات زوجت كبراهن من موظف لا أذكر فى أية مصلحة أو شركة : شاب ذرب اللسان ، ذو شارب يحاول به تقليد كلارك جيبل ! ثم الفتاة الثانية ، مارجو ، التى أرى فيها عروسى ، تذوب رقة وحلاوة ، ثم فتاة ثالثة دون العشرين ، ساحرة العينين ثرثارة . ثم يأتى دور الذكور ، وهم ثلاثة : أحدهم فى بعثة بإنجلترا لاستكمال علومه البكتريولوجية ، الثانى بالكلية الحربية ، بينما الثالث بإعدادى الطب ! آه . نسيت أن أذكر أن زوج الفتاة المتزوجة يحمل بكالوريوس الهندسة التجارية .

عائلة مشرقة يفخر بها من ينتسب إليها .

ترى هل ستكون مارجو زوجتى حقاً ؟ إنى لأعجب ، وما أشد عجبى . فأنا أكاد أتم السابعة والعشرين من عمرى ، ولا بد والأمر كذلك أن تكون « زوجتى » فى نفس سنى إن لم تكن أقل ببضع سنوات ... بمعنى آخر أنها لابد أن تكون حية ترزق فى نفس الوقت الذى أكتب فيه هذه اليوميات ، إن لم تكن مارجو هى زوجتى ، فزوجتى المستقبلة لابد أن تكون الآن فى مكان ما لا أعرفه . أهذا عدل أن يفصل بيننا ، أو بمعنى أدق : أن يضل أحدنا عن الآخر ، وقد تكون على بعد خطوات ، أو على مدى « ترام » أو فى نهاية رحلة « قطار » !

١٠ يونيو ١٩٥٠ .

إنى لأعجب ! كيف يتزوج الشخص شخصاً آخر لا يعرفه ، بمعنى أن الصلة بينهما لا تعدو أن تكون صلة مصلحية فقط ، ليس فيها شىء من الحب الذى يجب أن يربط الزوجين قبل الزواج والذى به يتم هذا الزواج ، لأنه الأصل وهو السبب ! كثيراً ما فكرت كيف يكون الأسبوع الأول (وكنت أقول اليوم الأول !) بعد الزفاف ! فى حالة الزواج من غير حب لا يعرف أحد الطرفين الطرف الآخر ، أو بمعنى أصح لا يحب أحدهما الآخر ، فكيف بهما يتركان فى حجرة واحدة — رسمياً طبعاً ، بإذن من الكاهن أو المأذون ! — ليبدآ حباً كان الأفضل أن يبدأ من قبل ، ويستهلا عطفاً وودا كان الأجدر أن يكونا منذ زمن !

يجب أن يكون الزواج نتيجة الحب . أود أن أقول : على الزواج أن يتبع الحب ، لا الحب الزواج . هذا منطق ومعقول . ولكن هناك آراء تخالف هذا الرأى : آراء الكبار والعجائز . فالمتزوجون يقولون إن طول العشرة يولد حباً ، أى أن العادة تخلق حباً ، وإن « شيئاً » غامضاً يدفع الزوجين إلى حب لا يمكن تعريفه ، أجمل وأصل من هذا الحب الذى يتحدث عنه الأغرار من الشبان . لا أدرى أأصدق هذا الزعم أو أشك فيه . ولكن ما باليد حيلة . فهأنذا أرى عروسى . وقد كان يمكن أن أراها قبل أن تنتسب إلى عائلتها عن طريق ابن خالتى ، وقد كان يمكن أن أحبها عندئذ وأتزوجها تبعاً لذلك . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . وهأنذا أتوهم ، أو أزعم لنفسى أنى رأيت عروسى أول أمس وما قبله فوقعت من نفسى أجمل موقع ، واحتلت مكاناً . لا أقول من قلبى ، بل من فكرى أى مكان . وأنا لا أنكر قط أنى وقعت فى حبها من النظرة الأولى أو الثانية ، ولكنى أقول إنى لا أعرفها المعرفة التامة التى أعتقد أنه عن طريقها يقوم كل زواج كامل موفق . ولكن ما العمل ؟ إنها فتاة الحلم . إنها زوجتى المستقبلة .

ولكن ... لنفرض أنها على غير استعداد لأن تحبنى ! آه . ألست كفيلا ببذر بذور الحب فى قلبها فتشعر بحبها لى كما أحبها أنا الآن فعلا ! إنه إذاً الإيحاء الذى سيلعب دوراً هاماً فى هذا الزواج ، والذى يلعب الدور المهم فى كل زواج ... فى مصر .

١١ يونيو ١٩٥٠ .

يلوح لى أنى سريع التأثر بكلام الناس . فكلمة يقولونها عنى تسعدنى ، وكلمة أخرى تشقينى . أغلب الظن أنى لم أكون من نفسى بعد فكرة ثابتة أو رأياً ثابتاً . وأغلب الظن أيضاً أنى أفتقر كثيراً إلى الثقة بالنفس .

فقد كنت حتى اليوم صباحاً سعيداً بما أزمعت من خطبة مارجو ، كلى ثقة من فوزى بها ، وكلى أمل فى موافقة أهلها على طلبى يدها . وإذ كنت هذا الصباح بغرفتى سمعت « طراطيش كلام » تبلغنى من الخارج . كانت والدتى تتحدث مع أختى بشأن هذه العروس ؛ فسرعان ما لحقت بهما وجعلنا نتناقش فى هذا الموضوع ... ثم تطرق الحديث إلى احتمال رفض عائلة الفتاة طلبى ! هنا أسقط فى يدى وشل تفكيرى . فلم تكن فكرة الرفض هذه قد مرت بخاطرى قط . وكان أساس هذا الاحتمال أنى لا أحمل شهادة جامعية تطمئن بها

عائلة الفتاة على مستقبل ابنتها (كما قد يفكر أهلها) . أجل فإخوة الفتاة كلهم ، كما ذكرت من قبل ، جامعيون ، كذا زوج ابنتهم الأولى ، وقد علمت اليوم أنه يعمل بمصلحة المباني .

أيكون أهلها من ضيق العقل والغفلة بحيث يعترضون على هذه النقطة !؟ أرجو أن يخيبوا ظنى فى هذه المسألة . ليست قيمة الرجل فى الشهادة التى يحملها بقدر ما هى فى العمل الذى يؤديه .

لقد مر علىّ اليوم كئيباً حزيناً من أجل هذا الاحتمال الذى أثارته والدتى وأثاره أخى . وجعلت أفكر فيما سأفعله إذا ضاعت منى هذه الفرصة . أأضطر إلى البحث عن فتاة من عائلة أقل من هـذه مكانة اجتماعية أو أدبية !؟ أأضطر إلى قبول فتاة « زى مايجى والسلام » !

ولكن ما الذى يجعلنى أتشاءم هذا التشاؤم . وأقفل الطرق أمامى هذا الإقفال ! من أدرانى ، فقد لا تنظر عائلة الفتاة إلى هذه الاعتبارات ؟ غاية الأمر أنها ستتقصى أخبارى وتستعلم عن أخلاقى وتستفسر عن راتبى ... عندئذ ستعلم :

— أنى أحمل دبلوم معهد الدراسات العليا التجارية .

— أنى أعمل ببنك التسليف العقارى منذ عامين ، أى منذ حصولى على دبلوم معهد الدراسات العليا التجارية ، وكنت قبل ذلك أعمل بشركة الغزل والنسج بالمحلة الكبرى كاتباً بسيطاً نظراً لشهادتى البسيطة إذ ذاك (شهادة التجارة المتوسطة) .

— أن راتبى بالبنك أربعون جنيهاً — تزيد بعد الزواج ثلاثة جنيهات ونصف : علاوة اجتماعيـة . فيكون المجموع ثلاثة وأربعين جنيهاً .. ونصف جنيه .

— أنى مستقيم جداً ... لا أدخن ولا أشرب ولا أرتاد القهوات .

هذه هى مؤهلاتى ؟ وأحسب أن عائلة عاقلة لا يمكن أن ترد طالب يد ابنتها وعنده هـذه المؤهلات . آه . وهناك مؤهل آخر لم أذكره وإن كان أهمها جميعاً ، وهو أنى أنوى العيش بعيداً عن عائلتى عنـد الزواج ، فلا تتدخل والدتى فى شئون زوجتى . وأظن أن فى هـذا راحة للطرفين معاً فضلاً عن السـعادة التى ستشعر بها زوجتى إذ ترى نفسها مستقلة فى بيتها الجديد لا شريك لها فيه .

شىء مضحك ! أبكل هـذه الميزات أخاف أن ترفضنى هذه العائلة ! إنى أسبق الحـوادث أو أحاول أن أسبقها !

فالحديث فى هـذا الصدد لم يجر بين أحـمد وبينى ، أو بين عائلتى وعائلة مارجـو . كل ما فى الأمر أنى رأيت الفتاة ورآها أهلى فأعجبت بها كما أعجبوا بها ، ثم رشحوها لى فقبلت ترشيحهم إذ صادف عنـدى هوى أيضاً . أعنى أن أية خطوة مباشرة فى تحقيق هـذه الخطبة لم تؤخذ بعد . فإلى أن يدخل الموضـوع فى دوره النهائى الحاسم يجب ألا أفـكر فى كل ما بإمكانه زعزعة ثقتى بنفسى وإقلاق راحتى النفسية ، يجب أن أدخل فى رأسى أنى « كفء » لها .

١٢ يونيو ١٩٥٠

خرجت اليوم بعد الظهر وحيـداً أمشى دون غرض ، فقادتنى قدماى إلى جهة الجزيرة ، ثم قبالة المعرض ، فى هذا الشارع الساكن كنت أجرجر قدمى على الرصيف الفارغ من الناس إلا منى ، وأدور بعينى فى طول الشارع وعرضه : لا حركة بعيدة ولا صـوت قريب ، إلا اطراد قدمى تدقان الطريق الصلد ، وزحف السيارات الهادئة دون انقطاع .. ومن خلفى سمعت خطى نسائية وئيدة ، وأقدام خفيفة تدب جوارها ، وصوت عجلات صـغيرة تدور فى مهل وبطء . ولكنها كانت أسرع منى على أى حال : فقد حاذتنى وتعدتنى . وسمعت صوت المرأة وهو يقول : « ... رسمها دافنشى فيما يقرب من عشر سنوات ... » . لم أسمع غير هذه العبارة ، فقد كنت أفـكر فى نفسى من جهة ، ولأن الصـوت كان يتنائى ويتلاشى شيئاً فشيئاً .

كانت المرأة شابة لا تعـدو الخامسة والعشرين ، تدفع أمامها عربة يد تحمل وليداً رضيعاً ، وإلى جوارها كان يمشى صبى لم يجاوز الثامنة أو التاسعة . وجال بذهنى أن هذه العبارة التى قيلت فى لهجة فرنسية عذبة لابد أنها تتصل بهذه اللوحة الخالدة : « الجوكونده » التى صرف ليوناردو دافنشى فى التفكير فيها ورسمها أعواماً طوالاً ... فجعلت أتساءل : كم من امرأة مصرية مثقفة يمكنها أن تلقن ولدها مثل ما تلقن به هذه الفرنسية طفلها ؟ هـذه امرأة أجنبية تحادث ولدها الصغير كأنها فى مثل سنه ، أو كأنه فى مثل سنها ، حـديث الند للند ، حديث الكبير للكبير ، يسمع منها وتسمع منه فى تفاهم مشترك وتبادل فى الأفـكار جميل . كم امرأة مصرية تعنى بتلقين ولدها وتربيته بنفسها كما يجب !؟ كم امرأة مصرية لها من الفهم ما يجعلها قادرة على ألا تخرج

عندما تقف موقف التلميذ الرتيب أمام وقعها المتيقظ ... الراغب دائماً فى أن يسأل وأن يعرف ؟! لا ترى الأم المصرية فى ولدها غالباً غير مخلوق يأكل ويشرب ، حتى تأتى السن التى يذهب فيها إلى المدرسة فتنقطع بينه وبينها كل صلة إلا الصلة المعيشية ، وكأن وظيفة الأم هى حشو بطون أطفالها بغذاء الجسم . حبذا لو عنيت بحشو أدمغتهم بشىء من الثقافة .. أى ثقافة عقلية مهما تكن ، ولكن كيف وأمهاتنا جاهلات للأسف !

إنهم يصفون البيت دائماً بالمدرسة الأولى . أجل ، فى الشرق والغرب البيت هو المدرسة الأولى ، ولكن فى الشرق ، والمدرسة دون معلم ، ينشأ الطفل « شيطانياً » كما تنبت « الملوخية » فى حقل القطن دون أن يتعهدها بارى متعهد ، بينما فى الغرب ، والمدرسة يقوم فيها معلمان هما الوالدان ، يشب الطفل على أنه سيكون يوماً ما رجل مجتمع كامل ، ورب بيت كامل ؟ ينشأ فيجد حوله والدين فى تمام الانسجام والوئام ، يتبادلانه تماماً وكأنهما فى طفولته أستاذان يربيان فى نفسه أمنية جميلة يجب أن تتحقق — أو على الأقل يسعيان إلى تحقيقها — وهذا تبدأ يجدان فى السعى إليه .

ليس لى أمل إلا أن أرى زوجتى فى نفس موقف هذه السيدة من وليدها .. موقف الأستاذ والمربى والأم والصديق ، وهل أجد غيرك ، أى مارجو ، أماً مثالية لأولادى ؟!.

١٥ يونيو ١٩٥٠ .

إنى أقسم أمام الله أنى لن آلو جهداً فى إسعاد « زوجتى » مارجو وفى حبها ورعايتها والسهر على راحتها وجعلها أهنأ مخلوقة على الأرض ، كما أنى سأجعل منها نصفى الكامل الذى له من الحقوق والواجبات مثل ما لى تماماً ، أى أنى سأصنع منها إنسانة كاملة لا مجرد زوجة .

ما الذى أهذى به ؟ ولماذا أتزوج إذاً إذا لم يكن كل هدفى فى الزواج إسعاد زوجتى وحبها ورعايتها والسهر على راحتها وجعلها أهنأ مخلوقة على الأرض ؟! لماذا أتزوج إذاً إذا لم يكن كل هدفى أن أجعل منها نصفى الكامل الذى له من الحقوق والواجبات مثل ما لى تماماً ؟!.

١٨ يونيو ١٩٥٠ .

ماذا أقول وماذا أكتب ؟ أهناك شىء أقوله الآن أو أكتبه بعد أن انهارت كل أحلامى وتحطمت كل أمانى ؟ مارجو ! لقد ذهبت مارجو وتسربت من حياتى كما يتسرب الماء من راحة اليد . لقد كانت الصورة التى أعددتها لتشغل الإطار الفارغ : إطار حياتى ، فأبت علىّ الظروف إلا أن تحرمنى من الصورة التى جاءت أخيراً وفق أحلامى !

ماذا أقول وماذا أكتب ؟ أأقول : فقدتها ؟ أأكتب : أضعتها ؟ وهل كانت مارجو لى حقاً فى يوم من الأيام ؟ إنى لم أفقدها ولم أضيعها . كل ما فى الأمر أنى خدعت نفسى وخيلت لها أنها عروسى . أجل ، كم كنت أبله أحمق أن أصور لنفسى الأشياء وفق رغباتى وأمانى !

ليت ابن خالتى لم يزرنا اليوم ، وليتنى لم أفاتحه فى الموضوع ... إذاً لظللت أحلم بمارجو أياماً أخرى : تارة أصورها وأتخيلها خطيبتى ، وتارة زوجتى ، وتارة أماً لأطفالى !.

ليت ابن خالتى لم يزرنا اليوم مصطحباً زوجته ، وليتنى ما ألححت عليه فى أن أنفرد به : « هناك موضوع مهم أود أن أحدثك فيه » ! ليته لم يطعنى ، وليته تغاضى عن رغبتى فى الانفراد به ، إذاً لظللت حتى الآن ، وحتى غد ، وحتى بعد غد ، أرسم لنفسى المشاريع مع هذه الفتاة الحلوة اللطيفة التى جاءت صورتها مطابقة لما رأيته فى حلمى ذلك القديم الغريب .

ولكنى انفردت به وقلت له مستبشراً خيراً : يا ابن الخالة لى عندك مطلب . فقال جاداً : مجاب ، وإن عز . قلت : إنها ابنة خالة زوجتك ؟ إنى أريدها زوجة .

عندئذ ارتسم على محياه الجد وقال : ألم يعجبك غيرها فى عائلة زوجتى ؟ قلت : هى التى ملأت قلبى وأخذت على مسالك فكرى . قال وهو يضحك : إنها ... فاستعجلته الحديث : ماذا ؟ قال : تكاد تكون مخطوبة لابن عمها !

هذه هى الحقيقة جابهنى بها ابن خالتى !

ولكن ... ما ذنبه ؟

ألا سامح الله ابن عم مارجو .

وهل بيدى الآن إلا أن أبحث عن فتاة أحلامى من جديد ؟!

إدوار مقسى

مع الفكر الأوربي المعاصر

للأستاذ مبارك ابراهيم

١ — رابليه زعيم الساخرين

كتاب من تأليف : ماري باريشيا ويلكوكس

لقد ولى عهد العصور الوسطى قبل أن تغزو العالم قوى مختلفة كثير عديدها . ومن بين تلك القوى نذكر : الإصلاح الديني ، ونهضة العلوم والآداب ، ونشر العلوم والمعارف عن طريق للطبعة ، ثم الكشف عن قارة جديدة ، وأخيراً وليس آخراً نذكر غزو الضحك ، وهو ذلك الغزو الذي لا يستطاع صد هجومه ، وكان سلاح هذا الغزو نبوت من النبابيت القوية أمسكت به يد عملاق ، هو زعيم الساخرين الفرنسيين ، واسمه « رابليه » .

(وقبل أن نخوض في هذا الحديث نذكر أن « رابليه » (١٤٨٣ — ١٥٥٣) كاتب من الكتاب الفرنسيين ، كان قد أبدى منذ فجر شبابه ميلا إلى العلوم ، فدرس اليونانية واللاتينية ، كما درس التاريخ الطبيعي ، والتاريخ العام ، والقانون ، والرياضيات . واشتغل مدرساً للعلوم الطبية في جامعتي « مونبليه » و « ليون » . وله مكتشفات معروفة في علم التشريح .

ومن مميزات أسلوبه صراحته وقدرته العجيبة على إبراز الفكرة وتوضيحها ، تعينه في ذلك روح نفاذة ، عنصراها السخر وقلة الاحتشام .

وقد كان لرابليه أثر أي أثر في كتابات الكتاب الساخرين من الإنجليز : « فيلدنج » و « سموليت » و « سويفت » .) .

وتقول الآنسة « ويلكوكس » إن أبا « رابليه » كان محامياً ، ولم يكن صاحب فندق كالظن السائد بين الناس . والرأي عندها أن هذه الأسطورة قد كان مبعثها أن البيت الذي ولد فيه « رابليه » قد صار — فيما بعد — إلى فندق ، وتضيف إلى ذلك قولها إنها لا تستمسك كل الاستمساك بقولها إن أباه كان رجلاً من رجال القانون .

والصبي « فرانسوا رابليه » تلقى تعليمه في دير من الأديار وأصبح بعد حين واحداً من رهبان « الفرنسيسكان » . وبقي كذلك إلى أن ركبه العار وأزمته الفضيحة ، وذلك لقراءته كتباً كان لا يراد له أن يقرأها ، وكان هو يصر على قراءتها . واستتبع هذا أن يترك شيعته وأن ينضم إلى شيعة « البندكتيين » تحت رعاية أسقف صديق .

ثم درس « رابليه » الطب في جامعات مختلفة ، وظفر أخيراً بالشهادة من جامعة « مونبليه » وهي الجامعة التي اشتهر عنها بالطب في جميع أنحاء فرنسا ، وعمل زمناً كطبيب في مستشفى مدينة « ليون » مشرفاً على علاج مائتي مريض ، وكانت مدينة « ليون » يومذاك مدينة المستنيرين ذوي الثقافة ، وكانت ذات شهرة واسعة بكثرة مطابعها ، ولم يلبث « رابليه » الطبيب أن أحيط بجماعة من ذوي الفضل الذين كانوا يحفزونه إلى التزود من العلوم والمعارف .

وفي يوم من أيام للوالد في مدينة « ليون » بعث أول قصة من القصص الشعبية المرلية . وكانت تؤرخ حوادث عملاق اسمه « جارجانتوا » ، وهو ذلك الاسم الذي أوحى إليه بفكرة كتابه الضخم الذي سماه بهذا الاسم ، وهناك بدأ يكتب قصصه عن العملاقين « جارجانتوا » و « بانتاجريل » . وهناك أيضاً لقي الكاردينال « جان دو بلاي » الذي كان مسافراً إلى « روما » في مهمة سياسية . فدعا « رابليه » إلى أن يصحبه كطبيب خاص . واتفق أن كان لهذه المهمة صلة بالخلاف الذي كان على وشك أن ينشب بين البابا وبين الملك هنري الثامن فيما يتعلق بمسألة تطليق الملك من الملكة كاترين « داراجون » .

ولم يكن الكاردينال إلا واحداً من أصحاب « رابليه » ذوي السطوة والنفوذ ، وكان دائماً من كبار حماته ، وكان

« رابليه » حسن الحظ في هذه الناحية ؛ ذلك أنه على الرغم مما كان يقترفه من أمور تجافي الحكمة وتنافي الحياء ، وعلى الرغم من مصادرة كتبه ، فإنه لم يذق يوماً طعم العذاب الذي ذاقه أتباعه له من قبل .

وكان « رابليه » يُزَنُّ بالفحش والبذاء ، ولم يكن هذا مستغرباً منه ، وكذلك كانت آراؤه تخالف رأي الجماعة ، إن لم تكن هي في ذاتها آراء زنديق ، وفي ذلك تقول الآنسة ويلكوكس :

« إنه عند الكاثوليك كان يحسب بروتستانتيا ، وعند البروتستانت كان يحسب منكراً وجود الله ، وعند الجماعتين كان يحسب العدو الذي لا تلين قناته لكل فضيلة واحتشام .

ولكنه على الرغم من ذلك كله قد أوتي موهبة كبرى . هي موهبة القدرة على إضحاك الناس » .

وقد وصفه « ولز » في كتاب من كتبه بقوله : إنه كان كالبركان الذي يقذف من فوهته سيلاً من الحمم التي تدمر كل ضلالات المتحذلقين الذين ركبهم الغرور .

وكانت « السيل » هي أنسب السكابات لوصف تلك الفيوض من المبالغات الضخمة ومن السخرية الجافية اللاذعة التي كان يهاجم بها تلك الخاقات المتحجرة التي كانت سائدة في دنيا القرون الوسطى .

ولم يكن « رابليه » يصطنع اللاتينية في كتاباته ، إنما كان يستعمل اللغة الفرنسية التي كان يفهمها عامة القوم ، مثله في ذلك مثل « تشوسر » عند الإنجليز ، وقد كان يكتب بأسلوب العامة .

وكان « رابليه » يرى أن الضحك نافع للصحة ، وأنه علاج للسوداء ، وأنه خير علاج للعقول المريضة .

وكان كذلك لا يرجو للاحتشام وقاراً ، ويكفي للدلالة على هذا أن يقرأ المرء وصفه للجحيم حيث يجعل « فرسان المائدة المستديرة » يعملون كاهنين وخدم ، وحيث يجعل بعض الباباوات يعملون أعمالاً يدوية ! ويجمل القول أنه كان لا يوقر أحداً من الناس ، ولا شيئاً من الأشياء .

وقلة المال عنده هي إحدى الكبر ، وكان نهماً ، وكان محباً للمائد والشهوات ، وهو في تصويره لأشخاصه أشبه الناس بوالتر ديزني . مخرج الصور المتحركة المعروفة باسمه اليوم عند رواد السينما .

وفي كتابها « الفيلسوف الضاحك » تجيء المؤلفة بتحليل دقيق نافع لمؤلفات « رابليه » ، وهو تحليل له قيمته الخاصة لدى أولئك الذين لم يكن لهم عهد بنصوص كتبه من قبل ، وهي ببراعة وصفها تصور للقارئ فرنسا القرن السادس عشر بجباتها الخافقة فوق أرض القرى ، وبأعياد زهورها في مدينة « تولوز » ، وبشوارعها المزدحمة الضيقة في مدينة باريس .

ثم تجيء المؤلفة بتفصيل لسيرة « فرانسوا فيون » شاعر الرعاع والسفلة ، وهو الذي كتب عليه — وإن يكن قد تقدم به الزمن فمات قبل مولد رابليه — أن يكون رائداً له في كل ما كتب .

وكلا الرجلين كان ساخراً مستهزئاً ، وكان صادقاً فيما أخذ نفسه به ، وكلاهما كان يكره النفاق ويمقت التفاخر ، وكلاهما قد أسكره سحر الكلمات ، والفرق بينهما أن « فيون » كان شعاره : « إني أضحك من خلال الدموع » وأن « رابليه » كان شعاره « إني أضحك في غير دموع » .

ومن اسم « رابليه » اشتقت صفة من الصفات التي زادت في ثروة اللغة . وهذه الصفة هي « الرابليهية » نعتاً للمزحة الجافية ، وللسخرية اللاذعة .

وقد اشتهر « رابليه » في العالم أجمع كواحد من أذكى الشخوص ، ومن أشدهم غلظة ، ومن أكثرهم مرحاً في تاريخ الآداب الأوربية .

ويرى البعض أن كتابي « جارجانتوا » و « بانتاجريل » إنما أراد بهما « رابليه » أن يصور آراءه في المسائل المتعلقة بالحرب ، وبتعليم الأطفال ، وبتنظيم حياة الأديار .

وقد نشر كتابيه هذين تحت اسم مستعار هو : « الكوفريباس نازيه Alcofribas Nasier » وهما كلمتان اجتمعت فيهما حروف اسمه « François Rabelais » وقد عولجت تلك الحروف بطريقة القلب والإبدال ...

٢ ـ الصحيح من أخبار «لورنس»

كتاب من تأليف «دافيد جارنت»

إذا ذكر «توماس إدوارد لورنس» المعروف بلورنس البلاد العربية . قالت كتب التراجم : إنه ولد عام ١٨٨٨ ومات عام ١٩٣٥ ، وأنه استبدل اسم «شو» باسمه عام ١٩٢٧ ، وأنه كان من المشتغلين بالكشف عن الآثار القديمة ، وأنه كان جندياً ، وكان كاتباً من الكتاب ، وأنه من أهل «ويلز» ، وأنه تلقى تعليمه فى جامعة «اكسفورد» ، وكان من رجال البعثة البريطانية التى أرسلها المتحف البريطانى للكشف عن مدينة «كركيش» الواقعة على نهر الفرات ، وظل يعمل هناك أربع سنوات (١٩١٠ — ١٩١٤) ، وأنه خدم فى الحرب العظمى حتى عام ١٩١٧ ، والتحق حينئذ بمعية الجنرال «ونجت» فى حملة الحجاز ، ثم ألحق عام ١٩١٨ بمعية الجنرال «اللنبى» ، وأنه كان من قواد الثورة العربية ضد الأتراك ، وهى الثورة التى وصفها فى كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» ، وفى المختصر من ذلك الكتاب الذى سماه «الثورة فى الصحراء» ، وأنه دعى لحضور مؤتمر الصلح الذى عقد فى باريس عام ١٩١٩ ، وأنه عمل مستشاراً فى المسائل العربية فى القسم الخاص بالشرق الأوسط بوزارة المستعمرات البريطانية ، وأنه أقال نفسه من هذا العمل فى عام ١٩٢٢ والتحق بفرقة الطيران كطيار عادى ، متخذاً لنفسه اسم «روس» ، وكان ذلك — فيما يبدو — بدافع من الرغبة فى الاختفاء عن أعين الجماهير .

وأنه نشر ترجمته للأوذيسيه عام ١٩٣٢ ، وأنه قتل فى حادث تصادم يوم ١٩ من مايو عام ١٩٣٥ .

واليوم يجىء مؤلف كتاب «الصحيح من أخبار لورنس» فيقول :

نشرت صحف الأخبار أنه فى اليوم الثالث عشر من مايو عام ١٩٣٥ بينما كان «توماس إدوارد شو» يقود سيارته بسرعة هائلة وهو فى طريقه إلى بيته الريفى ، رأى أمامه صبيين من صبية «المراسلات» يسدان الطريق بمجلتيهما فراغ إلى الجانب الآخر ليقيهما شر الاصطدام ، وتلقى هو الصدمة ، وكانت صدمة قوية قضت على الأثر ، وبعد خمسة أيام أعلن نبأ وفاة «لورنس البلاد العربية» ، وهذا الخبر عار من الصحة . ذلك لأن «توماس إدوارد لورنس» المؤرخ ورجل الآثار ، والذى أصبح فيما بعد قائداً للثورة العربية ، كان قد مات من قبل ، وكان موته فى اليوم الثلاثين من أغسطس عام ١٩٢٢ . بينما الطيار «جون هيوم روس» (وهو الاسم الذى قيل إن «لورنس» كان قد اتخذه لنفسه) كان أثناء الحرب العالمية الثانية لايزال حياً يرزق ، وكان يعمل فى مصلحة المخابرات البريطانية .

وقص «جارنيت» قصة حياة «لورنس» ذلك الرجل الذى راح ضحية العراك بين حياته العامة ، وحياته الخاصة ، مبتدئاً بصورة نسج أصدقاؤه خيوطها ، ولفقوا ثوبها لفقاً ، ومعتمداً بعد ذلك على نتف اقتبسها من كتب «لورنس» وذلك ليصور للناس نفسية «لورنس» الكثيرة التعقيد .

ويقول المؤلف إن «لورنس» فى صباه كان متسلقاً بارعاً من متسلقى الجبال ، وكان قوى البنية ، وكان رياضياً ممتازاً ، ولكنه ما كان يوماً من لاعبى «الكريكيت» وكرة القدم اللتين يشترط فيهما اتباع أدق شروط النظام ، وفى هذا مايدل على ما كان كامناً فى نفسه من الميل إلى حرب العصابات ، وعزوفه عن الحرب النظامية .

وكانت هوايته دراسة التاريخ ، والكشف عن الآثار ، وقد حفظ عن ظهر قلب — يوم كان صبياً — كتاب «لاى يارد» عن حفريات «نينوى» . وقد درس يوم كان طالباً فن بناء الحصون فى فرنسا ، وفى «ويلز» وفى سوريا . وقد نال أول شهادة له فى «التاريخ» عن بحث قدمه عن حصون الصليبيين ، كما أظفره هذا البحث بعضوية بعثة «هوجارث» فى حفريات مدينة «كركيش» ، (على نهر الفرات) .

ومن دراسته لمشكلات الحروب الصليبية أتقن استراتيجية المعارك التى قدر له فيما بعد أن يخوض غمارها ضد الأتراك .

ويقول المؤلف إن «لورنس» قد رأى — يوم كان طالباً — فتى يافعاً يتعارك مع صبى صغير على الرغم من عدم تكافؤ الندين ؛ فما راح يأخذ بناصر الصبى الضعيف أصابه كسر فى مفصل القدم ، ولكنه لم يشك ولم يتأوه ، وصفة الصلابة هذه هى التى جعلته قادراً على احتمال أخطار الحيات

وآلام الجروح التي أصابته فيا استقبل من أيام حياته .

وقد أخذ « لورنس » نفسه منذ فجر شبابه بإتقانه اللغة العربية ، والتعود على عيش التقشف والخشونة ، ليكون في هذا كالعرب أو أشد احتمالا ، وبأن يروض نفسه على أن يعمل أي عمل يوكل إليه أحسن مما يعمل الآخرون ، وأن يفطم نفسه عن كل مشتهياتها ، وأن يجعلها قادرة على احتمال شدائد الحروب .

وكان « لورنس » كزميله الرحالة « شارلس مونتاج دوتي » (١٨٤٣ — ١٩٢٦) متدلهاً في حب الصحراء ، مسحوراً بفتنتها وجمالها ، ومغرماً بصمتها وسكونها ، وبطريقة العيش التي فرضتها على أبنائها .

ولو لم تكن هناك حرب لفضل « لورنس » أن يعيش بين العرب كواحد منهم ، على أن يعاملوه كرجل انجليزي يحبهم ويحنو عليهم ، وعلى أن يلقى منهم التوقير والتكريم كرجل من جنس يخالف جنسهم .

والحرب عند « لورنس » كانت أم الرزايا ، فقد كان رجلاً إنجليزياً يريد لأمته أن تكسب الحرب بأى ثمن . وكان يوقر العرب ، ويحترم رغبتهم في الاستقلال . وكان يعرف أكثر من أي إنسان آخر كيف يستخدم القوات العربية غير النظامية في سرعة الانقضاض على العدو ، وفي تعويق سير جحافله ، ووقف تقدمها .

وسياه الفتى على رسم الخطط قد كان يملؤه غبطة وسروراً ، ذلك لأنه كان بفطرته فناناً عبقرياً .

وفوق ذلك فقد كان يعرف أن الوعود التي قطعتها على نفسها الحكومة البريطانية هي وحلفاؤها قد كانت وعوداً جوفاء ساخرة .

وكذلك كان يعرف أن بريطانيا وروسيا وفرنسا قد بيتوا الأمر على أن يشققوا البلاد العربية تشقيقاً ، وأن يخلقوا منها مناطق نفوذ ، وكذلك كان يعرف أنه يتخذ من غيرة العرب وتضحيتهم بأنفسهم وسيلة يلقون بها عن كواهلهم سيداً واحداً ، ليحل محل ذلك السيد ثلاثة أسياد آخرون .

وكانت كل لحظة من الزمن الذي تولى فيه القيادة تنطوي على التضحية من جانبه بنزاهته وميول نفسه في سبيل سياسة القوة التي كان يمقتها ويبغضها . فلقد كان يحب الأمة التركية — التي أثار عليها ثائرة العرب — حباً قد يفوق حبه البلاد العربية . ولكم راعه ، وأثار همه وحزنه أن يرى الشبان الأتراك يلقون حتفهم وتتناثر أشلاؤهم فوق الرمال .

وعلى الرغم من أنه كان زعيماً عبقرياً من غير النظاميين فإنه كان يكره احتمال أعباء القيادة والزعامة . كما كان يكره الإمعان في التقتيل ، كما كان يكره خيانة المقودين بزعامته والمؤتمرين بأمره .

وهذه الكوارث التي أسلفنا القول عنها مضافة إلى التعب الجثماني الذي قاساه عدة سنوات ، في جو يجمع بين القيظ القائظ والبرد القارس ، مضافة كذلك إلى الجروح التي أصابته ، وهي جروح تكفي لقتل ستة من الرجال الأقل احتمالاً .

كل هذا قد أدى إلى انهيار إرادته القوية ، وذلك فور انكسار حدة الحرب ، وقبل انفراج أزمتها .

وقد قال واحد من المتحدثين عنه : إن « لورنس » في ساعة الخطر يرى نفسه مقوداً إلى أن يخون حتى نفسه ، وذلك في سبيل إنقاذ بلاده وأمته .

٣ — كتابة التراجم الذاتية

للكاتب ستيفن سبندر (١٩٠٩ —)

كاتب هذا الكتاب لا يعد من الغرباء في هذا الفن ، فن كتابة التراجم . فجده لأبيه هو الروائي « هيولاند سبندر » (١٨٣٨ — ١٨٩٥) .

وأبوه « إدوارد هارولد سبندر » (١٨٦٤—١٩٢٦) كان صحفياً ومن كتاب التراجم والروايات . وقد ترجم لحياة « اسكويث » و « لويد جورج » . وعمه الصحفي الإنجليزي « جون ألفرد سبندر » (١٨٦٢ — ١٩٤٢) وكان من حزب الأحرار .

وقد قال مؤلف هذا الكتاب الشعر وهو في الخامسة عشرة من عمره . ولما دخل جامعة اكسفورد كان يرعاه الشاعر الإنجليزي « أودن » . ثم ذهب إلى ألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ورحل منها إلى النمسا .

وعاش في مدينة « فينا » . وذاق فيها كئوس الحب مترعة . ثم خطب زوجته الأولى بعد ثلاثة أيام من اللقاء الأول . ثم تزوجها بعد ثلاثة أسابيع .

وهو يقول في كتابه : إن فن التراجم الذاتية هو أصعب

فنون الكتابة كلها . ذلك لأن شعاره القولة المشهورة : « إعرف نفسك » . وهى قولة تنسب حيناً إلى « طاليس » ، وحيناً إلى « صولون » المشرع اليونانى ، وحيناً إلى « فيثاغورس » وحيناً إلى أناس آخرين ..

والذى لا جدال فيه أن كل الناس يحاولون أن يعرفوا أنفسهم ، وهم يعبرون جسر الحياة . وإن كان مما لا شك فيه أنه فى نهاية العمر قد يرى كل إنسان أنه لم يبذل فى سبيل معرفة نفسه إلا أقل القليل ؛ ذلك لأن الناس سواء أكانوا رجالاً أم نساء يكتفون فى هذه الناحية بالسير وسط الطريق .

وكتاب التراجم الذاتية لا يعرفون حد الاعتدال ؛ فهم يعنون العناية كلها بأنفسهم ، حتى لقد يبلغون فى ذلك حد الجنون ، جنون الأنانية .

وإلا فما بالهم يرهقون أنفسهم بمحاولة تذكر كل شىء مرّ بهم فى حياتهم ؟ فهم يتذكرون صنوف الكفاح القديم ، وهم ينكأون القروح التى اندملت منذ سنين ، وهم يتدبرون مسراتهم التى فقدوها وظلوا على اجترارها عاكفين .

ومحاولة الكتابة — والنفس هادئة — كتابة موضوعية عما يحيط بنا من أحوال هذه الدنيا ، إنما هو أمر جد عسير ؛ ذلك أن الكلمات قد لا تواتى الكاتب ، بل هى كثيراً ما قد تخونه ، فكيف بها إذا كان موضوع الكتاب خواطر قلب الكاتب ، وأحوال حياته ؟

إن الكتابة فى هذه الناحية إنما هى كالجنون ، أو هى الجنون بعينه ، والناس لا يحاولون هذه المحاولة إلا إذا جن جنونهم ، وإلا إذا أحيط بهم .

« وستيفن سبندر » لم يشذ عن هذه القاعدة ، فقد قبل تحدى الأيام ، واتخذ الصراحة التامة سبيله إلى كتابة قصة حياته .

وكان مثله فى ذلك مثل الكيميائى الذى وقف فى معمله ممسكا فى يده بأنبوب الاختبار ، وهو ينظر إلى أثر أحماض الشخصيات الأخرى ، وإلى فعل قلويات الظروف والأحوال فى السائل الغالى الثمين — وهو النفس — القائم فى ذلك الأنبوب .

واتباعاً لهذه السنة ، سنة الصراحة ، قد صور نفسه فى كتابه كواحد بين مجموعة من أنداده ولداته ، وقد أزاح نفسه عن نفسه .

وهو يقول واصفاً نفسه :

« إن الانفعالات كانت تسيطر على ، وكانت هذه الانفعالات غاية فى القوة ؛ حتى لقد تغمرنى بفيضها ، وحتى أعاقتنى عن التفكير السليم ، وعن رسم خطة لحياتى ، فتوالتنى الوساوس ، وظللت لا أستقر على حال من القلق ، حتى ظفرت بالعلم والتجربة ، وبفضل هذا العلم ، وهذه التجربة أصبحت قادراً على أن أنظر إلى مدى أبعد من مدى تلك الوساوس » .

وهو يقول أيضاً :

« كان بى ظمأ شديد إلى معرفة قانون أخلاقى ، وكان ينتابنى خوف دائم مما تسفر عنه تلك المعرفة التى قد تواجهنى بالحقائق فى يوم من الأيام ، وإن كنت آخر الأمر قد توالتنى رغبة ملحة فى أن أعرف ما هو الخير وما هو الشر .

« والشىء الذى كنت لا أطيق احتماله هو أنى كنت أرى أن ليس هناك موقظ وجدانى ، وأننا نزحف فى طريقنا زحفاً ، وتزحف معنا ساعات العمر ودقائقه ، ونحن نخدع أنفسنا ، سواء فى ذلك أكنا خاطئين ، أو نادمين ، أو هائمين ، ولكننا لن نعرف أبداً كيف نجيب ، ولن نستطيع أبداً النظر إلى الأشياء كوحدة كاملة ... »

مبارك ابراهيم

المهـــدى والمهدوية

تأليف الدكتور أحمد أمين بك

- ٢ -

للأستاذ سعد محمد حسن

١٣ — وفى صفحتى (٤١ و٤٢) يحدثنا أستاذنا الكبير عن ثورة الزنج ، كإحدى الثورات التى نجمت فى الشرق عن فكرة المهدى .

والحق أن ثورات الزنج لم تكن قط قائمة على هـذه العقيدة ؟ فمصادر التاريخ الإسلامى ومراجعه ، تحدثنا أن صاحب هذا الأمر — الذى يسميه الطبرى بالخبيث ، والذى روّع العراق وما كتبه ، فأهلك الحرث والنسل فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى — لم يقل أبداً إنه المهدى ، ولم يدع قط هـذه الدعوى ، ولقد اصطنع « الخبيث » لنفسه — وهو من ولد عبد القيس — نسباً يعلو به إلى الحسين بن على ، ليخرق به على الجماهير الساذجة ، ولكن المؤرخين ينكرون عليه هـذا النسب ؟ فالطبرى يقول : «زعم أنه على بن محمد ... إلخ» ، وابن واضح اليعقوبى يسميه « المدعى إلى آل أبى طالب » ، وابن طباطبا يقول : « فأما نسبه فليس عند النسابين بصحيح وهم يعدونه من الأدعياء » .

ومهما يكن من شىء فقد زعم هذا الرجل « الخبيث » أنه من آل على ، وأخذ يدعو الناس إلى إمامته ، ليتقدم بما يلقونه من بؤس وعنت ، فاستجابت له جموع غفيرة من هذه الطبقات الكادحة العاملة الناصبة ، وتجمع الرجل إلى حين ، وأكبر الظن أن علويته هـذه التى اصطنعها ودعوته الناس إلى إمامته ، هما اللتان حملتا مؤلفنا الكبير على أن يسلكه — دون حق — فى سلك الثائرين باسم المهدية .

وما كل ثائر صح نسبه إلى آل على — دع عنك المختلقين المزورين والمخرقين المشعوذين — قد ادعى فى ثورته أنه المهدى ، فلم يزعم ذلك الحسن ولا الحسين ولا حفيده زيد بن على .

١٤ — وفى صفحة (٤٣) وما بعدها ، يحدثنا المؤلف عن القرامطة ، ولقد كانت طبيعة البحث تفرض عليه ، أن يتحدث عن هذه الطائفة الخطيرة من ناحية اعتقادهم بالمهدية موضوع الكتاب الذى يكتبه للناس ؛ فالقرامطة يرون فى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق مهديهم المنتظر ويترقبون رجعته ، ويزعمون أنه مختف ببلاد الروم ... ! كما اختفى ابن الحنفية بجبال رضوى ، وليس محمد هذا بمهدى فحسب ، ولكنه رسول أيضاً وسينسخ شرعه شريعة محمد ... إلخ .

ولقد آسفنا أن يترك المؤلف تفصيل الحديث عن هذه المعتقدات التى تفرضها عليه طبيعة البحث ، ثم يروح يحدثنا حديثاً طويلاً عن الحلاج والمتنبى كأثرين من آثار القرامطة ... ! أو حديثاً طويلاً آخر عن مبعث قيام القرامطة : هل هو اقتصادى أو غير اقتصادى ... ؟ وهى دراسات تعرض لها على نطاق واسع وأثارها من قبل العلامة « برنارد لويس » فى كتابه المطبوع بالقدس بعنوان « من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام » .

ولست بالطبع أقلل من قيمة هـذه الدراسات التى استطرد إليها مؤلفنا الكبير ، ولكنى فقط أنكرهنا محلها ، فمكانها الطبيعى كتاب عن القرامطة ، أو دراسة مستفيضة عن المهدية ، لا كتيب صغير عنها ، لم يستوف بعد مادته الأساسية الأصيلة .

١٥ — وفى صفحة (٤٩) أورد المؤلف للمتنبى قوله :

على قلق معتقل صعدة يعلها من كل وافى السبال

والصواب : « من كل واقي السـبال » ، ولعله من خطأ الطبع .

١٦ — وقد أورد المؤلف المتنبي بعد ذلك قوله :

يا أيهـا الملك المصفّى جوهراً
من ذات ذي الملكوت أسمى من سما
نور تظـاهر فيـك لاهوتيه
فتكاد تعـلم علـم ما لم يعلما

وصواب البيتين :

يا أيهـا الملك المصفى جوهراً
من ذات ذي الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيـك لاهوتيه
فتكاد تعلم علـم ما لن يُعلما

وأما ما أورده لأبي الطيب (ص ٥٠) من قوله :

« أنا مبصر وأظن أني نائم » ، فهو خطأ مطبعي ، صوابه « وأظن أني نائم » .

١٧ — وفي صفحة (٥١) أورد لأبي الطيب أيضاً قوله :

ليس يحيق الملام في همم   أقربها منك عنك أبعدها

ولو ذهبت تستقرىء كل ما ليحيق هذه من معنى ، لما استقام لك في هذا البيت معنى !

والصواب « ليس يحيك » أي يؤثر .

١٨ — وفي صفحة (٥٩) يحدثنا أستاذنا عن ثورة « البساسيري » ، كإحدى الثورات الصغيرة التي قامت على عقيدة المهدي وأخمدت في مهدها .

والحق أن ثورة البساسيري ، كما يرويها لنا المؤرخ الكبير العلامة ابن الأثير ، لم تكن قائمة هي الأخرى على عقيدة المهدي ، فالرجل لم يزعم لنفسه هذا الزعم ، ولم يزعمه لأحد ، وكل ما حدثنا به ابن الأثير أن هذا الثائر قد خرج على ولي نعمته ، الخليفة العباسي القائم بأمر الله — بعد أن مكنه هذا من شئون الدولة وجعل له الصولة والسلطان — وأخذ يدعو الناس ويقاتلهم ، ليخرجوا على خليفة بغداد ، ويدينوا بالولاء والطاعة لخليفة القاهرة ، المستنصر بالله أبي تميم معد ، فليس ثمة مهد ولا مهدوية !

١٩ — وفي صفحة (٦٣) يقول المؤلف :

« في نهاية القرن التاسع عشر ظهرت فرقة جديدة متطرفة تدين بالتشيع والإسماعيلية وبفكرة المهدية وهي فرقة البابية » .

والحق أن « البابيـة » لا تدين بشيء من ذلك أبداً ، إذ هي دين جديد ، لا يؤمن بالإسلام أصلا ، بله التشيع والإسماعيلية والمهدية ...! ، ولكن هذه الطائفة — ولعل هـذا هو ما يقصده أستاذنا الكبير — قد أخفت في بدء أمرها — وهي تدين بالإسلام الشيعي — المهدية وسيلة للظهور ، وحينما تم للبابيين الأمر ، كفر الباب ميرزا علي حسين بالإسلام علانية ، وأعلن ميلاد ديانته الجديدة ، التي لم تلبث هي الأخرى إلا قليلا ، حتى أعلن سقوطها تابع من أتباعها هو بهاء الله صاحب الديانة البهائية .

ولم تكن « البابية » حينما قامت بدعوى المهدية ، واتخذت هذه الأسطورة وسيلتها للظهور ، تدين بالإسماعيلية كما يحدثنا المؤلف ، ولكنها كانت تدين بالإثنى عشرية ، إذ هي في بدء تكوينها من أبناء الطائفة « الشيخية » ، المنتسبة للشيخ محمد الإحسائي ، والشيخية هذه إمامية إثنا عشرية ، كدين الدولة الرسمي في إيران ، وليست أبداً إمامية إسماعيلية .

٢٠ — وفي صفحة (٦٧) يقول المؤلف :

« وأما بهاء الله فقد نفي إلى أدرنة » .

والقارىء لهذه العبارة ، لا يشك أن مدينة « أدرنة » كانت المنفى الأخير لصاحب الديانة البهائية ، ولكنها في الحق لم تكن كذلك ؛ إذ نفي إليها صاحبنا هـذا عام ١٨٦٤ م ، ومكث بها أربع سـنوات فقط ، نفي بعدها عام ١٨٦٨ م إلى مدينة « عكا » التي تعتبر بالنسبة إليه معتقله الأخير .

٢١ — وفي صفحة (١٠١) يقول المؤلف :

« في القرن الثاني الهجري حينما ترجمت كتب الفلسفة إلى اللغة العربية ، اندس من بعض الجهات أو تسربت فكرة من الأفلاطونية الحديثة من مثل نظرية الفيض الإلهي والفناء في الله » .

فأستاذنا المؤلف يرجع نظرية « الفناء » إلى الأفلاطونية الحديثة ، وأكبر الظن أنها تنتسب إلى الهند أكثر من انتسابها إلى الإسكندرية ، ولقد فرغ الباحثون من بيان تسرب هذه النظرية من « النرفانا Nirvana » الهندية ، وحسبك

أن الصوفي الكبير أبا يزيد البسطامي ، هو الذي تلقاها عن شيخه أبي علي السندي ، وكان أول من بثها في البيئة الإسلامية ؟ يقول العلامة « نيكلسون » Nicholson :

« كان الصوفي الفارسي أبو يزيد البسطامي ، أول من استعمل كلمة الفناء بمعناها الصوفي الدقيق ، أي بمعنى محو النفس الإنسانية وآثارها وصفاتها ، حتى ليمكن أن يعد هذا الرجل بحق أول واضع لهذا المذهب » .

ويؤيدنا فيما ذهبنا إليه « ماسنيون » Massignon و « جولدزيهر » Goldziher و « بارتولد » Barthold وكثير من الباحثين .

٢٢ — وفي صفحة (١١٦) أورد مؤلفنا لأبي العلاء قوله :

خذوا في سبيل العقل تهدوا بهديه
ولا يرجونّ غيرَ المهيمن راجِ
ولا تطفئوا نور المليك فإنه
ممتع كل من حيي بسداد

ولا شك أنك قد أدركت معي هذا الاضطراب الذي لحق ببيتي الشيخ ، وقد كان يلتزم ما لا يلزم ... !

وصواب البيتين كما في « اللزوميات » (طبع عزيز زند ١٨٩١) :

خذوا في سبيل العقل تهدوا بهديه
ولا يرجونّ غيرَ المهيمن راجي
ولا تطفئوا نور المليك فإنه
ممتّعٌ كل من حجّي بسراج

أما ما أورده المؤلف لشيخ المعرة من قوله :

« بصاحب حيلة يعظ النساء » ، فهو خطأ مطبعي ، صوابه « يعظ النساء » .

٢٣ — أوجز أستاذنا الكبير كثيراً في ثنايا البحث ، وأكبر الظن أنك عذيره في ذلك فهو ينشر كتيباً ، بيد أنه في الحق قد أسهب وأطال في أشياء ، هي في ذاتها قيمة ، ولكن لا تفرضها عليه طبيعة البحث ، أو على الأقل لا يتحملها هذا الكتيب ، فغيرها مما لم يحدثنا عنه المؤلف من لب الموضوع ، أحق بمكانها وأمس وأجدر .

أما هذه الاستطرادات كتحليله لرسائل إخوان الصفاء ، وتحدثه عن الأمير الحمداني سيف الدولة كتشيع ، وعن الصوفي الكبير أبي الحسين الحلاج ، والشاعر الفحل أبي الطيب المتنبي كأثرين من آثار القرامطة ، ودوافع قيام هذه الطائفة هل هو اقتصادي أو غير اقتصادي ؟ وتحليله لقصة ابن الطفيل « حي بن يقظان » ، لسكان ذلك كله — فيما أرى — البحوث الكبيرة والدراسات المستفيضة .

وبعد فهذه مآخذ وملاحظات ، أبديتها على كتاب أحمد أمين ، ونشرتها في مجلة أحمد أمين ، لأعطيك بذلك صورة واضحة المعالم لخلق الرجل وشخصيته ، في عصر يعج بالفوضى والتهريج والرياء والنفاق ، حتى في ميدان العلم الذي اكتسحته الديماجوجية ، وانحط مستواه حتى في الأوساط الجامعية .

وأكبر الظن أني لست أبالغ كثيراً إذا ما حدثتك أن أحمد أمين ، ونفراً قليلاً من رفاقه ، يعيشون اليوم أمة وحدهم .

(تم النقد)

سعد محمد حسن
المدرس بوزارة المعارف

---

١ — الأغلال

طوبى لكم ! طوبى لكم إنا   بقية عادت من المجزره
تمين خوفَ الله أكبادُها   خبزاً ، وفي أعماقها مقبره
بيوتنا ، آلامنا ، أمسنا   عاثت به أيديكم الخيّره
نُسق ولا نَسقي ، وخماركم   يشد في أرجلنا المعصره
يا طفل ! يا إنسان ! يا امرأةً   ما أعظم الإنسان ! ما أكبره
كنتَ ، فكان الحب ، لا أوحشت
أطلاله ، لياليك المقمره
خطيئة ما برحت نارها   تطلب من موقدها المغفره
لو عاد للعالم أمواته   لاحتقروا أصنامنا المنكره
الليل قد ولى ، وما زلنا   نهيم في صحرائه المقفره
يا إخوتي شدوا على جرحكم   إنا بلغنا آخر المجزره
الواحة الخضراء — لا تيأسوا —
لم يبق إلا دونها قنطره
دخان يبقى ، صوت أطفالنا   والشارع الصاخب والمقبره .
حتى أبي بالدمع مخضلة   عيونه للطفلة المبصره

● ● ●

طوبى لكم ! طوبى لكم إنا   بقية عادت من المجزره ...

(بغداد)   عبد الوهاب البياتي

بين المجلة وقرائها

وجودية توفيق الحكيم

في أكثر من قصة من قصص توفيق الحكيم استطعت أن أقف على بذور مما تسمونه بالأدب الوجودي . ولمحت هنا وهناك في أعماله ما يصح أن يكون عناصر لفكرة وجودية كاملة .. هل تعتقدون ذلك ؟ وهل يمكن أن نحاول دراسة أدب الحكيم تحت هذا المنظار ؟..

(وزارة المالية) — أحمد علي حسين

توفيق الحكيم رجل فنان ، وليس رجل دعوة . كان من الممكن أن يظهر توفيق الحكيم في حياتنا الأدبية رجلاً ضخماً ، واضح المذهب ، بيّن السمات .. ولكنه لا يستطيع أن يخرج على طبيعته كفنان ليحمل قلمه في اتجاه نقدي يفسر به أعماله ، ويعطي به معاني وتعليلات لجملة ما كتب . لم ينصرف عن فنه ساعة من الساعات ، واقتصر على توسيع الأدوات الأدبية التي يبني بها تراكيبه الفنية ، ويشيد عليها قصصه وتمثيلياته .

لقد شغل توفيق الحكيم طيلة أيام حياته بتعميق الوسيلة الفنية وعناصر التكوين الأدبي للقصة ، ودراسة التفصيلات الدقيقة والجزئيات الصغيرة التي ينسج الكاتب منها أعماله ومؤلفاته . ولكنه لم يحاول استعراض مذهبه الفني الخاص ، ولم يسع لتفسير أعماله وتنويرها التقويم اللازم . فعلاً لم ينتظر النقاد شراحاً ومفسرين لأعماله الشعرية ولكتبه المؤلفة .. وإنما قام هو نفسه بعمل كل ما يلزم من التوضيحات ، وكل ما من شأنه أن يقيم البناء المذهبي الكامل لأفكاره وفنونه . أما الحكيم فعلى عكس ذلك ، ظل قابعاً ينتظر الحللين والمفسرين ، ولم يحرص على الدعوة لفنه بقدر ما حرص على التكوين والإبداع .

ولا شك أنه مما يضر بالكاتب أن يبقى على هذا النحو طالما كان هو نفسه قادراً على أن يكشف لنا من أسلوب فنه ، ومن داخلية ذاته ، ومن باطن فؤاده ، ما يلقي ضوءاً على جملة مؤلفاته . بل تستطيع بهذه الطريقة أن تحصل على مذاهب نقدية مماثلة للاتجاه الأدبي الخالص عند المؤلف .

ولا أدري ماذا سيكون رأي الأستاذ توفيق الحكيم فيما سأقوله تأييداً لفكرتك عن وجود وجودية عنده ، وأكون شاكراً لو تبرع بالرد على ما سوف أسرده من كلام في هذا الصدد .

لست أنا شخصياً ذلك الاتجاه منذ وقت بعيد ، فحسبته مجرد تأثر بالأدب الفرنسي الذي أقبل على دراسته الحكيم منذ بكر حياته . ولكنني بالربط بين جملة من الظواهر استطعت أن أجد مبررات وشواهد على هذا الحكم . على أننا إذا استطعنا أن نتحسس هذه البذور الوجودية في أعمال الحكيم ، فعلى أساس أنه من طراز آخر سوى ذلك الطراز الملحد في فرنسا . ذلك أن الوجودية نوعان : وجودية ملحدة يتزعمها سارتر ، ويمضي تحت لوائها سيمون دي بوفوار ومارلو بونتي وألبير كامو ، ووجودية مؤمنة على رأسها جابرييل مارسل ، ويعمل في اتجاهها مارتن بوبر وكارل بارث . ولو أنني حاولت أن أتحسس اتجاهاً وجودياً معيناً لدى الحكيم ، فعلى أساس أنه من الطائفة الأخرى ، وأنه أميل بذوقه ومزاجه وشعوره إلى أن يوضع في قائمة المؤمنين .

هذه أول خطوة في سبيل الكشف عن المقومات الوجودية في أعمال الحكيم . والخطوة الثانية هي ألا تنتظر منه شروحاً فلسفية ، وكتابات فكرية تحليلية في الأسس التي قامت عليها الوجودية ، لا تنتظر شيئاً من هذا .. بل لا تحاول أن تجد عنده تحليلاً لأفكاره هو نفسه ولو كانت من صميم الوجودية . وإنما لابد إذا شئت التماس لمحات وجودية أن تجمعها جمعاً من مؤلفاته . فيمكنك مثلاً أن تقف وقفة طويلة عند قوله في أهل الكهف على لسان مارنوش : « إن الوجود المطلق هو العدم » ، وقد صدرت منه هذه العبارة حين لم تكن الوجودية الفرنسية الحديثة قد انتشرت هذا الانتشار الواسع .

كذلك نلاحظ أن الإنسان يعمل في الوجودية الفرنسية حسب الظروف والمواقف التي تحيط به ، ويكون متجاوباً مع الأوضاع من حوله . إن الإنسان في وجودية فرنسا حريص على أن يكون ابنا العصر والزمن الذي ينشأ فيه ، ويستحيل أن يتجاوب مع الأزمنة الأخرى التي لم يتفق معها بتجاربه وروحه وشخصيته . وشيء من هذا نلمسه بوضوح في أهل الكهف عندما جاء الفتيان الثلاثة إلى المدينة ولم يمكنهم أن يستمروا في حياتهم مع الأهالي المقيمين هنالك . فقد جاءوا بتكوين شخصي مغاير لما يتطلبه الوضع الزمني من حولهم .. جاءوا ليعيشوا في عالم آخر ليس بينه وبين ما في نفوسهم من التجارب أدنى رباط .. إن هذا الزمن الذي جاءوا ليعيشوا فيه لم يخلق لهم ، ولم يكن زمنهم ، بل هو زمان قوم آخرين . وفكرة الالتزام في الوجودية الحديثة إنما نبعت من هذه المطابقة بين مسئوليات الإنسان وظروف العصر . وقد كانوا هم شيئاً آخر .. شيئاً غريباً على هذا الزمن ، فلفظهم في النهاية ولم يتقبلهم . ويسرى نفس الخيط من أهل الكهف إلى آخر مسرحية من مسرحيات « مسرح المجتمع » وهي الملهاة « لو عرف الشباب » فتجد فيها عين الفكرة بادية بائنة .

ونستطيع أن نحس من جملة أعمال الحكيم أنه أخذ موقفاً مقابلاً لموقف سارتر ... فسارتر يقول إن الإنسان حر وإن وجود الفرد ملزم بأن يخضع لهذه الحرية ... بل إن تجاريب الشخص هي التي تحدد معالمه وترسم خطوط حياته وتكون نسيج وجوده . أما عند الحكيم فحرية الإنسان وهم ... إن الإنسان ليس حراً ولكنه سجين زمانه وزمنه هو الذي يصنع وجوده . ووجود أي إنسان مرهون بالزمن الذي يظهر فيه .

كذلك نشعر أن الحكيم لم يستطع أن ينزع نفسه من الوسط الشرقي الذي عاش فيه ، وكانت عقيدته مرهونة بما يسرى الآن بيننا من النزعات الدينية . وجاءت أفكاره الوجودية متمشية مع أديان الشرق التي تؤمن ببعث الإنسان ولا تحرم الإنسان من آماله في حياة أخرى . هذا بينما وجودية سارتر ملحدة إلحاداً تاماً قوياً عنيفاً وتذهب إلى حد تأليه الإنسان . ولو أخذنا نعدد بذور الوجودية في أعمال الحكيم لكان واجباً علينا أن نكون حذرين بحيث نضعه إن أمكن بين الوجوديين المؤمنين .

ويحاول الحكيم أن يكون متفائلاً في وجوديته ... إذ يبدو لأول وهلة أمام الرائي كما لو كان يحاول تضييق الخناق على الإنسان بوضعه داخل إطار زمني يوحي بالتقاعد والتواكل ، ولكنه فيما أرى قد أحس بأن الوجودية الأوربية جرّت الوبال على أوربا ، إذ يظن أن الإنسان الحر عند الأوربيين قد اندفع في حربه ضد الإنسان بعد أن شعر بحريته المطلقة وبأن شيئاً ما لا يحده وأنه فوق كل شيء ، ولا يقوى كائن ما كان على صراعه ! فهي إذاً نظرية نتيجتها تدمير الإنسان لذاته . هكذا خيّل إلى توفيق الحكيم ، فأراد وضع وجودية مقابلة تشعر الإنسان بأنه ليس وحده صاحب السلطان ، وإنما هو موضوع في دائرة الوجود أمام كائن جبار هو الزمن ، وكان لزاماً على الإنسان أن يكافح الزمن ، وأن يجد وسيلة ذلك في العمل المتصل لقتل أسلحته وبتر عوامل الفناء . فقام يناضل ويسعى لبناء كل ما من شأنه أن يحول دون تأثير الزمن فيه بكل ما يكفل له البعث من جديد سواء مادياً أو معنوياً . وهكذا يفتح الحكيم أبواب التفاؤل في الإنسان ويدعم إحساسه بحرارة الحياة ، ويأخذ آمال الإنسان وأعماله مأخذ الجد . ويتهيأ لنا ما يصح أن نسميه وجودية مصرية إذا سلمنا بالمقدمات . والرأى بعد هذا للأستاذ الحكيم نفسه . وأرجو أن يتفضل ببيان .

ع . د .

مختارات لسنيكا

- من يجهل أنه اقترف إثماً ، لا يرغب في الإصلاح .
- لم أعد إلى بيتي أكثر جشعاً وطموحاً وشهوة ، بل وأكثر قسوة وظلماً ، إلا لأنى كنت وسط الناس .
- لن تجد ما هو أقوم من الاستقامة نفسها ، وما هو أصدق من الصدق ذاته ، وما هو أعف من العفة عينها .
- لا تقلد الأشرار لأنهم كثرة ، ولا تمقت الكثرة لأنهم لا يشبهونك .
- خير عندى أن أفتقر إلى النجاح من أن تنقصنى الثقة .

بريد الثقافة

رد على خطاب :

جاء فى بريد الثقافة فى العدد الماضى خطاب وجهه إلىّ حضرة الأديب الفاضل الأستاذ سعد أبو السعود ، يأخذ علىّ فيه أنى أدور على الأوضاع ولا أقوم بما فى وسعى أن أقوم به من الإصلاح ، ويطلب إلىّ أن أكتب فيما أعتقد أنه حرى بالكتابة فيه من روائع العلم والفن الغربى ، وأن أعرف الناس بكبار الكتاب والمفكرين ، وأن أسرد لهم بعض نظريات هؤلاء الكتاب والمفكرين ، وأن أعلق على ما يكتبه المفكرون الأوربيون الخ .

ولست أدرى يا سيدى ماذا كنت أصنع مدى خمسة وعشرين عاماً إلا هذا ؟ لقد كتبت ما يربى على ثلاثمائة مقال فى المجلات الأدبية ، ونشرت حتى الآن تسعة عشر كتاباً ليس فيها إلا تعريف بفلسفة الغرب وآدابه وتعليق على تلك الفلسفة والآداب ... أما أنك لم تكن قد سمعت صوتى بعد ، فذلك ما لا أعجب له ، لأنى لم أكتب سطراً واحداً منذ بدأت الكتابة وأنا على يقين أنه سيلتق بجبين قارئ ، فإن ضمير قلمى — كما قلت فى مقدمة كتابى أدب المقالة — لا يكاد يبلغ سمع صاحبه .

والسلام عليكم ورحمة الله .

زكى نجيب محمود

حول مقتل الفتح ابن خاقان الأندلسى :

قرأت فى عدد ٦٦٣ من الثقافة الغراء مقالا للأستاذ الكبير على أدهم . فاستفدت منه معلومات تاريخية قيمة ، إلا أن الذى لم تطمئن إليه نفسى هو تعليل الأستاذ أدهم ومن قبله من قدماء الكتاب مقتل الفتح بصرامة على بن يوسف فى أمور الدين .

فالانتصار للدين أو إرضاء العامة لا يكونان إلا بشهود جمع غفير من الناس ردعاً للغير عن إتيان ما أتاه ذلك المذنب.

وإنى لأقولها فى غير خشية ولا رهبة معتقداً أحقيتها أن مقتل ابن خاقان ليس إلا وليد غل أكنه الأمير على من أجل إقذاعه فى مقدمة كتابه (قلائد العقيان) الذى ذكر فيه أنه ذاد إبراهيم ، فتربص على له الفرصة حتى سنحت فدس له فى الخفاء بدءاً آثمة أطفأت جمرة من جمرات الأدب فى قطر مظلم بالتأخر والتعصب والجمود. فسامح الله علياً ورحم الفتح ، وجزاه عن الأدب العربى خير الجزاء .

محمد المختار

الطالب بالأزهر برواق المغاربة

- إذا أقسمت حبيبتى أنها خلقت من الصدق ، أصدقها وأنا أعرف أنها تكذب . [شكسبير]
- شك أن الأنجم نار ، وأن الشمس تسير ، وأن الصدق كاذب ، ولكن لا تشك أنى أحب .
  [شكسبير « هملت »]
- قد مات الرجال من وقت إلى وقت وأكلتهم الديدان ولكن بدون حب . [شكسبير]
- يجب أن أكون قاسياً لأكون رحيماً .
  [شكسبير]
- أقبل أيتها الأرواح الشريرة ، واملأينى .. من رأسى إلى قدمى بالقسوة .. جمدى دمائى .. ، أقبل وازحمى من ثدى الأم الرءوم لبنها ، أيتها الزبانية القاتلة .
  [من مكبث — شكسبير]
- تختلط النافورة بالنهر ، والأنهار بالمحيط ، ورياح السماء تمتزج إلى الأبد بعاطفة حلوة ؟ فليس فى العالم شىء وحيد ؟ إذ مزجها كلها قانون إلاهى . لم لا وقد امتزجت بالروح ؟
  [من فلسفة الحب — شيلى]

الثقافة

العدد ٦٦٨
١٥ من أكتوبر ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

المصير

أتاك الخريف .. فلا تجزعى — إذا شاع فى وجنتيك الذبول

ورف عليك رفيف الردى — يؤذن ناقوسه .. بالأفول

فذلك ما تقتضيه الحياه
وتلك تصاريفها فى البشر
فلا تجزعى واخضعى يا فتاه
لحكم الإله وسوط القدر !

وخلى دموعك .. لا تأسى — فتاك .. إذا ما اعتراك التحول

* * *

أتاك الخريف فلا تنظرى — إلى ما مضى من ربيع الوجود

فإن التأمل فيما .. مضى — من العمر يضنى عليك الشرود

فلا تأملى فى ربيع سعيد
ولا تجزعى من شتاء قريب
وقرى بذاك الخريف الوليد
إلى أن يجئ المصير الرهيب

وإن طاف بالذهن ذكر الربيع — كحلم .. فلا تحسبى أن يعود

* * *

بربك قولى إذا ما شدا — على الغصن طير بلحن الخريف

وران على ناظريك الأسى — وخف إليك المصير المخيف

أنا !! من أنا ؟؟ غير نبت جميل
نما فى ظلال الضنى والألم
مضى بعد ذلك الصراع الطويل
إلى حيث وادى الردى والعدم

تعالى .. تعالى إلى مضجع — هناك حيث الضباب الكثيف

* * *

بربك إن الدمن .. زهرة — يرف عليها الجفا والهزال

تطيل التأمل ... فى ذلة — إلى السحب تبغى قليل الزلال

ولكن يمر عليها ... الغمام
فيرنو إليها بطرف خفى
ويمضى بعيداً بغير اهتمام
يردد لحن الحياة ... الشجى

فقى واسكبى عندها دمعة — ولكن .. أتجدى لرد الجمال

* * *

أتاك الخريف فلا تسألى — عن الزهر كيف احتواه الفناء

ولا تسألى عن زهور ذوت — وفيها من الحسن كل البهاء

فذلك لو تعلمين .. المصير
وتلك نهاية هذا البشر
فهيا فتاتى وحى المصير
إلى حيث شاءت صروف القدر

عجيب !! أتلك نهاياتنا — أتينا هباء .. ورحنا هباء

عبد المنعم مراد يوسف
بشبين القناطر

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | الإدارة | رئيس التحرير المسئول

الدكتور أحمد أمين بك | | محمد عبد الواحد خلوف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٦٨ الاثنين ١٤ من المحرم سنة ١٣٧١ — ١٥ من أكتوبر سنة ١٩٥١ السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

شيوخ الأدب وشبابه

للدكتور زكي نجيب محمود

عندما تلقيت من صديقي الأستاذ أنور المعداوي كتابه « نماذج فنية من الأدب والنقد » ، وأدرت غلافه لأجده منذ فاتحة الكتاب يعلن الثورة ويتعجل الإصلاح في ميدان الأدب والنقد ، شاعت في نفسي النشوة وقلت هامساً : هذا ثائر يلتقي بثائر وساخط يصافح ساخطاً ! فكلانا على السواء « يضيق بأضواء الشموع ، هذه الأضواء الضئيلة المريضة ، التي لا تستطيع أن ترد عادية الظلام » ، وكلانا على السواء يريد « هدماً للقيم البالية المتداعية يعقبه بناء على ركام الأنقاض » .

فالصديق الأديب قد نظر — كما يقول في مستهل كتابه — إلى أدبنا ، فوجده في أكثر حالاته « أدب المحاكاة الناقلة ، لا أدب الأصالة الخالقة ، أدب الترديد والتقليد ، لا أدب الإبداع والتجديد ! ليس له طابع خاص وليست له شخصية مستقلة ، وإنما ضاع طابعه واختفت شخصيته في زحمة الجلوس إلى موائد الغير بغية الاقتباس من شتى الطعوم والألوان ... » .

كلام جميل ! ولعل صديقنا الأديب قد أشفق علينا من هذه الحال التي يستحيل ألا يشفق منها قلب شاعر حساس !

وهو يقول هذا الكلام الجميل مقصوراً على الأدب ، وأقوله أنا مطلقاً بغير قيد ؛ فليس في حياتنا الفكرية كلها ذرة من أصالة خالقة ، فلا العالم يكشف كشفاً جديداً ولا الأديب يخلق خلقاً جديداً ؛ وإني لأنظر إلى تاريخنا وأعجب كيف استحالت الرءوس عندنا إلى جماجم خاوية ، تنفذ إلى أجوافها أصداء غامضة لما يقوله سوانا ، فتتردد الأصداء في جنبات الجماجم لتخرج على الألسنة والأقلام هشيماً هو أقرب إلى فضلات النفاية ! ولقد كتبت منذ أربعة أعوام سلسلة من ثلاث مقالات كان عنوانها « لماذا لا نَخْلُق » بسطت فيها تفصيلاً ما أوجزه هنا : كيف أننا لا نخلق شيئاً جديداً ، وأذكر أني حاولت التعليل لهذه الظاهرة ، فرددتها عندئذ إلى علة ، لا أزال أعتقد في صدقها ، وهي أننا نتخلق بأخلاق العبيد ، والخَلْق لا يكون إلا لأحرار — لأنه إن كان العبد هو من يأتمر في حركته وسكونه بأوامر تأتيه من خارج نفسه ، فنحن نحن العبيد في أخلاقنا وفي تفكيرنا على السواء ، فالخُلق الصحيح عندنا هو ما أرضى السلطة

الخارجية — أياً كان نوعها — والتفكير عندنا هو قطرات تسربت إلينا من أرصفة الجمارك .

لذا أحرانى أن تشيع النشوة فى نفسى إذا ما صادفت كتاباً كتبه ثائر على ما يحيط بنا من قيم وأوضاع ، ويضع لنا « نماذج » جديدة لعلها تهدينا فى مجاله — مجال الأدب والنقد — سواء السبيل ؛ وإن النشوة لتشتد فى نفسى حين أعلم أن صاحب هذه الثورة « شاب » بكل معنى الشباب الفتى الطموح ، فلم أكن أعلم أنه « لم يتخط الثلاثين » بعد إلا حين قرأت الكتاب ؛ وهو كذلك « شابٌ » فى الأدب كما شممت من مقدمة كتابه ، بمعنى أنه جاء — على حد قوله — والمعول فى يده يحطم القيم كما هى فى أيدى الشيوخ .

ففى مصر بدعة أدبية لا أعرف لها نظيراً فى الآداب الأوربية ، وهى أن يقسموا الأدباء إلى شيوخ وشباب ، على أساس الأعمار ؛ فهؤلاء شباب لأنهم صغار فى السن ، وأولئك شيوخ لأنهم كبار فيها ؟ ولست فى الحق أدرى أى عام على وجه التحديد يجعلونه فاصلاً بين القسمين ، لأنى أعرف كثيرين ممن يشتغلون بالأدب تتراوح أعمارهم بين الأربعين والخمسين ، ولا أدرى أين أضعهم ؛ فلو وضعتهم مع الشيوخ كما ينبغى ، ألفيت الشيوخ الأقحاح من أدبائنا يستنكرون أن يدخل فى زمرتهم دخلاء لم يأذنوهم أعضاء فى أسرتهم على سفوح الأولمب ، ولو وضعتهم مع الشباب جافيت طبيعة الحياة ، وظلمت أبناء العشرين والثلاثين .

وكان الأمر يستقيم بين أيدينا ، لو فهمنا الشباب والشيخوخة فى الأدب بمعنى آخر ؛ فشيوخ الأدب هم من ساروا على نهج معين فى فهمهم للأدب ومعايرهم للإبداع الفنى ، حين يكون ذلك النهج قد استقرت به القواعد منذ حين ؛ ولا فرق عندئذ فيمن ينهج هذا النهج بين من تقدمت بهم السن أو تأخرت ، فكلهم « شيوخ » فى الأدب لأنهم يلاحقون الزمن من قفاه ، ويترسمون السلف فى الأهداف والوسائل ؛ وشباب الأدب هم من خلقوا مدرسة جديدة يناهضون بها النهج القديم السائد ، ولا فرق عندئذ بين من تقدمت بهم السن أو تأخرت ، فكلهم « شباب » فى الأدب لأنهم نبات جديد تتفتح أكمامه للشمس والهواء .

إن أدباء الابتداع فى الأدب الإنجليزى فى أول القرن التاسع عشر — مثلاً — كانوا فى مجرى الأدب شباباً نضراً تتفجر الحياة الجديدة من سطورهم ، ولسنا نسأل بعد ذلك كم كان عمر « وردز ورث » — حينئذ — أو « كولردج » — فليكن عمره ما يكون فى حساب السنين ، لكنه « شابٌ » فى خلقه وإنتاجه .

وأعود فأقول إن تشوقى بكتاب الصديق المعداوى قد اشتدت فى نفسى ، حين لمحت فى مقدمته بوادر الشباب بمعناه الأدبى ، فضلاً عن شبابه الذى « لم يتخط به الثلاثين » ، ورجوت أن أقرأ الكتاب فأجد المعول فى يده قد حطم القديم فعلاً ، وقد أقام « النماذج الفنية » الجديدة فعلاً ، وألا يكون الأمر كلاماً فى كلام ووعوداً فى وعود ، فنقرأ البشرى على الغلاف ، ويشتد بنا الحنين فى المقدمة ، ثم لا شىء ! .

وسأكون فى هذه الكلمة صادقاً ، اعتماداً على رحابة صدر الأديب صاحب الكتاب ، فهو هو نفسه الذى هاجم رأياً للدكتور طه حسين فى عنف ، وقال معتذراً عن هجمته العنيفة : « إنى لا أعرف فى النقد صداقة ولا مجاملة » (ص ٩٤) .

إن للموضوع عندى أهمية وخطراً ؛ فهذا كتاب يكتبه كاتب « ثائر » ، يقول به للناس هاكم « النماذج الفنية » التى تستطيعون منذ اليوم أن تحتذوها بعد أن ضقتم وضقنا ذرعاً بما كان يكتب الشيوخ ؛ وأنظر فى الكتاب وأقرؤه حرفاً حرفاً ، فيفتننى سحر أسلوبه ؛ ثم إن لهذا الكتاب أسلوباً حلواً تنزلق عليه انزلاقاً وكأنما تحيط بك طول الطريق أنغام تشجيك وتسحرك وتفتنك ؛ ولست فى ذلك بالذى ينثر الأوصاف نثراً بغير حساب ، لأن ذلك ما قد لقيته أنا — على أقل تقدير — لقيت فيه السحر الذى خيل لى معه أن الكاتب قد صدق وعده حين وعد القارئ على الغلاف وفى المقدمة بأنه مهيء له « نماذج » جديدة من الأدب ؛ ولم أثب إلى رشدى ، وأستعد قواى العاقلة المحللة إلا بعد حين ، وعندئذ فقط — وقد زال عنى كثير من سحر النغم الذى يفتن اللب ويغلب السمع — قلت لنفسى : أين هى « النماذج » الموعودة ؟ .

فالكتاب إذن مجموعة مقالات ، ولقد جف ريقي من كثرة ما قلته في مواضع كثيرة من أننا لا نكاد نستطيع أن نكتب في الأدب إلا المقالة ! مع حين أن أدب الدنيا المتحضرة بأسرها لا يجعل للمقالة في دولة الأدب إلا ركناً ضئيلاً ، تراه بالمجهر إذا أردت أن تراه ، والأدب بعد ذلك عندهم — إذا استثنينا الشعر — قصة ومسرحية « تخلق » أشخاصاً من لحم ودم تنطق وتتحرك ! وهذا هو يا سيدي الخلق الأدبي بمعناه الصحيح ، أن تخلق رجالاً ونساء يفكرون ويسلكون ، ويجيئون من صدق التصوير بحيث نستشهد في حياتنا بما يقولون وما يعملون ، كما ترى الأوربيين يستشهدون — مثلاً — بـ « هاملت » وغيره من مئات الأشخاص الذين خلقتهم أسنة الأقلام هناك خلقا

إنك يا سيدي قد ذكرت في غضون كتابك أسماء كثيرين من أدباء الغرب ذكر من درس آثارهم ووعاها : ذكرت — مثلاً — شو ، وسمرست مينشل ، وبلزاك ، ودستويفسكي ، وأوسكار وايلد ، فهل وجدت « نموذج » الأدب عند هؤلاء أن يكتبوا المقالات ؟ هل وجدت الأدب هنا خطفات يخطفها الأديب من هنا وهناك ؟ إن المقالة يا صديقي — في الأعم الأغلب — حيلة العاجز ، حيلة من لا يسعفه الخيال القوي والخلق البديع ! ولقد كانت هي القسط الأكبر من بضاعتنا ، لأننا جميعاً نكتب الصحف ، ونقول : « هذا أدب » ، بل قد نقول : « هذه نماذج » يحتذيها من أراد أن يكتب أدباً ، والأمر بعد ، لا يعدو مقالات يكتبها الكاتب عندنا : القلم في يمناه ، وفنجان القهوة في يسراه ، ليسرع بها إلى المطبعة قبل أن يحين حين صدور المجلة أو الصحيفة التي يكتب لها ؛ وأنت — فيما أرى — أعلم مني بآيات الأدب الأوربي ، ولابد أن تكون قد علمت عنها أنها نتاج فكر طويل وخيال قوي ، وأناة وصبر ، لأنها « تخلق » للدنيا كائنات جديدة .

وإذاً فالشاب الثائر في حقيقته شيخ معمر ، لا يختلف في شيء عن سائر الشيوخ في الأدب إلا بأسلوبه ، فلكل كاتب أسلوبه ، وصديقنا العداوي كاتب لا شك في روعة ما يكتبه ؛ لكنا مع ذلك لا نحب أن يفهم ناشئة الجيل الجديد أن كتابه يحتوي على « نماذج » لما ينبغي أن يكون عليه الأدب الجديد .

ثم يزول عني السحر مرة أخرى ، ذلك السحر الذي خلق من نفسي عند القراءة الأولى ، وأثوب إلى قواي العاقلة الحالة لأجد أديبنا الشاب في عمره ، شيخاً في مجراه وراء السنة التي استنها الأدباء الشيوخ في أدبهم بوجه الإجمال ، وهي أن يكتفوا بفتات الموائد !! اسمح لي يا صديقي أن أكذبك فيما تزعمه لنفسك من خلق ينبذ الترديد والتقليد ، لأني استعرضت فصولك كلها بعد أن زال عني سحر أسلوبها ، لأجدها — في أغلبها — تعليقاً على رجل أو كتاب ، وهذا هو ما أشبه بفتات الموائد التي قنعنا بها قناعة الأذلاء ! ترى ماذا كنت تكتب لو لم يكن الله قد خلق برنارد شو ، ولورد بايرون ، ومدام ريكامييه ، وتوفيق الحكيم ، وأبا العلاء ، ورابعة العدوية ، وعمر بن الخطاب ، وعلي محمود طه ، والمازني ، ولين يوتانج ، وبيكاسو ، وأوسكار وايلد ، وجميل بثينة ، وجمهرة أخرى كبيرة من أدبائنا المعاصرين الذين كتبت من كتبهم ؟ — هبنا قد رضينا بما قسم الله لنا من نصيب قليل في الأدب ، وهو أن نكتب المقالة القصيرة ، وتقبلنا كفنا بعدها حمداً لله وشكراً على فضله العميم ، أفتكون هذه المقالة القصيرة نفسها تعليقاً على رجل من الفحول أو كتاب حديث أو قديم ، ولا تكون — إلا في القليل النادر جداً — عن مشكلة من المشاكل الحية التي يعج بها الهواء من حولك ؟ ثم أتكون هذه حالنا من حيث الصورة ومن حيث المادة : مقالة قصيرة مرتكزة على إنتاج الآخرين ، ونقول لناشئة الجيل القادم : هاكم « النماذج » التي تحتذونها في الأدب إن قصدتم إلى حمل الأقلام ، وأردتم أن تكتبوا في تاريخ الأدب صفحة جديدة ؟

لا ، لا تصدقوا الأستاذ العداوي في ثورته ! إنه ليس بالثائر كما رجونا الشباب الفتي الطموح أن يكون ، إنه لا يزال يسير على النهج الذي لا بد من الثورة الحقيقية على أسسه وأوضاعه ؛ إنه لا « يخلق » جديداً على نحو ما يخلق الأدباء الفحول ؛ إنه لا يزال — مثلنا — عبداً من العبيد الذين يقنعون بما يلقى عليهم من خارج نفوسهم .

إن في هذا الكتاب لسحراً ، وإني لأخشى على قرائه من سحره ، لأنه سيشدهم في فهم الأدب إلى الوراء ، ويمنعهم أن يتقدموا خطوة إلى أمام .

زكي نجيب محمود

٣٠ - خاطـــرة

للدكتور أحمد أمين بك

مقياس رقى الأمم وانحطاطها فى نظرى تقويم الأشياء. فإن رأيتها تقوّم الرجل لماله، أو منصبه أو جاهه، وتحتقر الرجل لفقره أو بؤسه، فاعلم أنها منحطة. وإذا دخلت بلداً وأردت أن تعرف قيمته، فانظر إلى تقويمه للأشياء.

قد يكون الرجل عندنا نصّاباً أو وضيع الخلق أو بخيلاً، ولكنه يحترم لماله أو جاهه، وقد يكون عندنا عالم كبير أو أديب كبير، ولكنه فقير، وليس ذا جاه، فلا يؤبه له.

مصداق ذلك الجريدة تفتحها، فترى فيها كثيراً من أخبار أغنياء سافروا أو أغنياء حضروا، أو ذوى جاه وُلِد لهم، أو مات قريبهم، ثم لا ترى شيئاً من ذلك لعالم فقير، أو أديب معدم.

وتفتح صحيفة انجليزية أو فرنسية، فترى بعض أعمدتها خصص لأديب أخرج كتاباً، أو عالم اكتشف دواء، أو نحو ذلك.

إن كل ما فعله «ديوجينس» من الفلسفة أنه قلب القيم المعروفة فى زمانه، فقرّب بائساً إليه، وأبعد غنياً من مجلسه. وأسوأ ما فى هذا التقويم المصرى أنه يسمح للغنى وذى الجاه أن يكسر القوانين والأوامر، ثم لا تطبق إلا على الفقراء عديمى الجاه.

لو قوّمت الأشياء قيمتها، لكان كثير من سائقى السيارات أحق بركوب السيارة يسوقها لهم أصحابها. وكان كثير من السيدات أحق أن يكنّ خادمات لخادماتهن. ولكنها الدنيا لم تخضع لمنطق، ولا سارت على عقل.

أحمد أمين

شكاة :

أبا الأدباء...

تسلقت الحواجز والسدودا   وجئتك حاملاً لحناً وعودا
ومن لى غير «طه» أرتجيه   وألقى عنده الخبر الأكيدا
أبا الأدباء لى ولد ذكى   أبىّ يرقب النجم البعيدا
صغير فى عنايته كبير   وقد يوفى على العمر المزيدا
يرجّى أن يكون له شئون   تحقق فى مطالعها السعودا
تربى فى مجالسك الأوالى   يهز المهد والقرم العتيدا
فكان لبابه أدباً وشعراً   وفناً راضه غضاً وليدا
أتيت به إلى الديوان يوماً   فأغرقنا الكبار به وعودا
وفتشت المناطق مستغيثاً   لعلّ أن أرى رأياً حميدا
فلم ألق السماح ولا العطايا   ولكن التمنع والصدودا..
وجئت الرياض فقيل كلا   فلا تعصى الوزير ولن تحيدا
ألا خفف أبا الأدباء عنا   ومن أكبادنا تلك القيودا
حملت أمانة التعليم دهراً   وجئتك أنشد اليوم القصيدا..
تحقق لى لديك منىً عذاباً   رقاقاً قد غرسن لى الورودا
وهب لى من حنانك ما تشاء   يرد اليأس إيماناً جديدا
فذاك يدل الأشجان شدواً   ويدل شقوة الدنيا جدودا!
أبا الأدباء سقت لكم شكاتى   نشيداً خارجاً عن النجودا
أأمنع زهرة الطلاب نفسى   وآمالى وذا الشعر النضيدا..
ولا أستطيع أن أحيا الثانى..   ولا يستطيع طفل أن يفيدا!!
أريد لطائرى ماء وزهراً   وأحلاماً وخلاناً وعودا
أريد له مع الأقران حظاً   سعيداً يملأ الروض السعيدا..

محسن الطائي

رواية وليام مايستر وحكمة جيتى

للأستاذ على أدهم

جيتى هو كبير شعراء الألمان غير مدافع وأسمى أدبائهم مكانة، وأبعدهم شهرة، وهو عندهم نظير شكسبير فى الأدب الإنجليزى، وصنو دانتى فى الأدب الإيطالى، وروايته المسماة «وليام مايستر» التى أعرض لها اليوم لمجرد التعريف بها والإشارة إليها فى طليعة أعماله النثرية، وأكبر قصصه ورواياته، ومن أدلها على تفكيراته الفلسفية، وحكمته العملية، وموقفه إزاء الحياة وتجاربها ومختلف أحوالها؛ وليست هذه الرواية من أقوى رواياته جاذبية وأشدها تشويقاً بالرغم من أنها أكثرها احتواء على حكمته، وأدلها على شخصيته؛ وهى ليست من الروايات التى يطالعك جمالها من أول نظرة، ولا من الكتب التى تستسلم لك وتبيحك أسرارها وكنوزها لأول وهلة، وبغير كد ولا تعب؛ ولا بد للإنسان أن يتمهل ويتريث فى قراءتها، ويطيل النظر فى مضامينها حتى يستطيع أن يستشرف آفاقها، وترفع له الحجب عن روعتها وبهائها، ويتجلى له ما بها من غوالى الدر، ومنثور الحكم، وناضج التجارب، وعميق الآراء والنظرات.

ولقد تعذر فهمها والتوى سرها على بعض كبار الكتاب والنقاد، فعابها وسخر منها الكاتب الإنجليزى القدير البارع دى كوينسى، ولم يتحمس فى الدفاع عنها جورج هنرى لويز أول من كتب ترجمة حياة جيتى كتابة مفصلة مستوفاة حافلة شائقة؛ وقد ترجم هذه الرواية إلى الإنجليزية ترجمة مثالية الرجل الذى أبلى أعظم بلاء فى الإشادة بأدب جيتى، وأكد علو مكانته وجلالة شأنه ودافع عنه أحر دفاع وأقواه؛ وهذا الرجل هو الكاتب البريطانى العظيم توماس كارلايل؛ والرسائل التى كان يكتبها كارلايل لزوجته السيدة جين ولش أثناء إقباله على ترجمتها تدل على تبرمه ببعض مناحيها، وضيقه بها، ولكن لم يمض على ذلك خمس سنوات حتى تبين مزاياها، وأثنى عليها ثناء مستطاباً فى أحد فصوله الأدبية الذائعة الممتعة.

وموضوع هذه الرواية هو اختيار الوظيفة التى يضطلع بأعبائها الإنسان، ويتوفر عليها، ويقف جهوده على إجادتها وإتقانها. والدرس الذى نتعلمه من هذه الرواية هو أنه من ألزم ما يلزم لنا أن تكون حياتنا وحدة متصلة، ونغمة منسجمة، وذلك بأن نوقفها على تحقيق غاية من الغايات، وإصابة هدف من الأهداف، بحماسة ومثابرة وصبر ومطاولة حتى ينقاد لنا المستصعب ويقرب البعيد، وفى مستطاعنا أن نلمح هذه الغاية من خلال إدراكنا المواهب والملكات والاستعدادات والقابليات التى جادت بها علينا الطبيعة، ومنحتنا إياها لتعيننا على أداء هذه الأغراض، إذا أحسنا الاختيار، وأجدنا اختبار قوانا، وتعرف ملكاتنا. وليست الحياة فى رأى جيتى وسيلة المتعة، وإنما هى وسيلة لإشباع القابليات المركوزة فى نفوسنا، وهى تختلف باختلاف الأشخاص ومدى استعدادهم.

وقد كانت الكلمتان السحريتان اللتان أثارتا شباب القرن الثامن عشر فى ألمانيا هما كلمة «الحرية» وكلمة «الطبيعة» وكان جيتى فى شبابه من قادة تلك الثورة، وكانت هذه الثورة ترمى إلى الحصول على الحرية التى لا حد لها سواء فى الأدب أو الحياة، وكانت تحاول ذلك بوثبة واحدة، وهذه الوثبة هى العودة إلى الطبيعة التى تغنى بها روسو وأفاض فى الحديث عنها، ولكن كلمة الطبيعة مزدوجة المعنى، فهناك العالم الذى يحيط بنا بما فيه من جبال وتلال، وأودية وأنهار، وبحار وسماء، وشمس ساطعة، ونجوم زاهرة لامعة، وهناك العالم الداخلى المستتر فى نفوسنا؛ فالعودة إلى الطبيعة إذاً معناها مناجاة قوى الطبيعة الخارجية وكذلك الاستماع إلى وحى نفوسنا، وقد فسرت العودة إلى الطبيعة فى أول الأمر بمعنى الشعور بالطبيعة، والتفطن لجمالها وروعتها، ثم فسرت بعد ذلك بمعنى الإعراض عن التقاليد المتبعة، والتعويل على وحى النفس وفيض الخاطر، فلننظر إلى نفوسنا ونكتب، ففى قلوبنا ونفوسنا أصول الفن

الصادق وقواعده ، لا في كتب أرسطو وهوراس وبوالو ، ولنقتصر على استشارة شعورنا الداخلي بالجمال .

وثورة القلب والإرادة في طلب الحرية الحقيقية أو الحرية الوهمية أخذت مظهرين ، مظهر القوة العارمة والأنانية الطاغية الطموحة العالية ، ومظهر الأنانية العاطفية المفرطة الحساسية الموكلة بالرغبات البعيدة والآمال العسيرة التحقيق ؛ وقد عبر جيتي عن هذين المظهرين في طرائفه الأدبية ، فتمثل في تمثيلية الشباب « جوتز فون برليخنجن » المثل الأعلى لمظهر القوة في طلب الحرية والانطلاق ، وصور فيها الإرادة الصارمة التي تغالب الظروف ، وتعلو على الضرورات ، ممثلة في شخصية بطل التمثيلية ، وفي رواية أحزان ورتر مثل لنا الأنانية العاطفية أو الجانب السلبي للإرادة الذي يتأثر بالظروف ، وتهزمه ملابسات الأحوال .

ثم طويت أيام الشباب المضطرب الثائر وأدرك جيتي أن الحرية التي كثر الكلام عنها لا تنال بوثبة واحدة وضربة مفردة ، وأن العودة إلى الطبيعة إن كانت لازمة فإن دراسة فن الحياة كذلك أمر لازم لا محيد عنه ؛ وتكاثرت واجباته وتبعاته ، وأصبحت رغبات ورتر غير المحدودة لا تعينه على مواجهة الحياة وتثبيت أقدامه ، وأصبحت كذلك يد فون برليخنجن الحديدية لا تسعفه في حل خيوط المشكلات التي يستدعي موقفه معالجتها وحلها ، وتراءى له أن حماسة ورتر وقوة برليخنجن إذا استعملتا باعتدال واتزان فقد يأتي ذلك بالخير والنفع ، وأنه يمكن تحقيق الحرية بطريق أضمن وأوفق وهو طريق العمل المتواصل ، والصبر الغالب ، ومن ثم الانتقال من رواية ورتر وتمثيلية جوتز فون برليخنجن إلى « رواية ولهلم مايستر » ، وهو بمثابة الانتقال من مثل أعلى يبني على الرمال ، ويخبط في الظلام وعوالم الأحلام ، إلى مثل أعلى يبني في الضوء ، ويقوم على أساس متين ثابت .

وقد بدأ جيتي كتابة رواية (ولهلم مايستر) في السنوات الأولى من حياته في بلاط ڤيمار ، ولكن صرفته عن المضي في تأليفها وإنجازها الشواغل ، وقد أرجأ إتمامها إلى ما بعد عودته من رحلته إلى إيطاليا ، ولما استأنف العودة إلى كتابتها كانت ثورة القرن الثامن عشر السياسية قد بلغت الذروة ، وكانت كلمة الطبيعة وكلمة الحرية ما زالتا تترددان ، ولكن أصبح لها معنى رهيب ، فقد كان دانتون قد خر صريعاً في باريز الثائرة ، وأصبح روبسبيير تلميذ روسو المعجب به هو كاهن الثورة الأعلى ، ونفر جيتي من الاتجاه العنيف الذي اتجهت إليه الثورة ، وأصبح يرى أن الحرية السياسية لكي تتحقق ولأجل أن لا تكون وهماً من الأوهام الباطلة وادعاء زائفاً ، لابد أن يتقدمها تحرير الأفراد من ميولهم الوضيعة ومحاولاتهم العابثة الطائشة ؛ وقد شاركه في هذا الرأي ضريبه في الأدب الألماني وصديقه شلر ، فالحرية لا تنال بالعنف والشدة والإمعان في المطالبات والمكرات ، وإنما تنال عن طريق التربية الصحيحة والتثقيف ؛ وقد تبدو هذه التربية شديدة الوطأة كابحة ضاغطة ، ولكنها تخدم الحرية في النهاية لأنها تنقذنا من الاضطراب والتورط في الأخطاء .

ورواية ولهلم مايستر تكاد تكون رواية بلا بطل ، يبدو فيها ولهلم مايستر فلا يجذبنا نحوه ولا يثير اهتمامنا كما أثاره ورتر بطل رواية (أحزان ورتر) ، وولهلم أقل خيالاً من ورتر وأقل شاعرية ، ولكنه يماثل الأحداث مثل ورتر ، منطو على نفسه ، ضعيف الشعور بواجباته نحو غيره من الناس ، يقضي وقته في الأحلام غير المجدية ، ولكن يمكن أن تصقل شخصيته ويستخرج منه رجل نافع لنفسه وللناس ، لأن فيه عناصر التقدم وقابلية النماء ، ولكن الطريق طويل شاق والخدع والأضاليل تطالعه من منعطفاته ، والإغراءات التي تعدل به عن الطريق السوي كثيرة ، ولا مفر له من الوقوع في الخطأ ليعرف الخطأ ويأمن غائلته ؛ وقد بين جيتي في رواية أحزان ورتر سوء عاقبة المثالي الحالم الذي لا يريد أن يتنازل عن أحلامه المسرفة ويترك رغباته غير المعتدلة ؛ وفي رواية تاسو أظهر لنا جيتي كيف استطاع الرجل الحازم المستقيم أنطونيو إنقاذ الشاعر المثالي الحالم تاسو الذي عجز عن إنقاذ نفسه . أما في رواية ولهلم مايستر فإن الرجل المستغرق في الأحلام السادر في الأوهام يذهب لشأنه ، ويحل محله في نفس ولهلم مايستر الرجل الذي هذبته التجارب ، وقومت اعوجاجه الحوادث ، وهو لم يتعلم ذلك في المعاهد والجامعات ، وإنما تعلمه من دروس الحياة العملية ، وتجاربها وعبرها ؛ وبذلك استطاع أن يخرج من سجن الأوهام المضلة والأحلام الفارغة .

وقد نشأ ولهلم غلاماً حالماً يبني القلاع في الهواء ، فأبى أن يعمل مع أبيه في تجارته ، ورأى أنه أكبر من أن يشغل نفسه بالاهتمامات المنزلية وشئون الحياة العائلية الصغيرة ، وأحب الفتاة ماريانا ، وظن أن هذا الحب قد ارتفع به إلى السماوات وأدخله الجنات ، ولكن سرعان

ما تخونه أحلامه ، وتخذله خيالاته . فقد داخله الشك فى سلوك ماريتا ، فانهارت أمانيه . وربما جيق إلى جانب وليام صديقه ورز ، وهو فى مثل سنه ، ولكنه رجل عمل وحزم ، يقبل على عمله فى التجارة بهمة وعزيمة ، ويجد متعة فيما يضيفه إلى رصيده ورأس ماله . وحينما توازن بين حياة وليام وحياة ورز ، نرى أن ورز يفوق صاحبه وليام من نواح عدة ، وأن نصيبه من الرجولة أوفر ، ولكننا نرى من ناحية أخرى أن ورز قد ظن وسائل الحياة غاية ، فهو غير سائر فى طريق التقدم السوى .

ثم يلتقى وليام شخصاً غريباً ليس لديه سابق معرفة ، وكان هذا الشخص يبحث عن حانة يبيت بها ، ويتجاذبان فى الطريق أطراف الحديث ، ويتضح لوليام أن هذا الشخص الغريب يعلم الكثير من أموره ويعرف ماضيه ؛ ويحاول الغريب أن يوضح لصاحبه الشاب الناشئ خطر المعيشة المعلقة بالمصادفات ، ويسترعى نظره إلى أهمية تحديد الغرض ، ووضوح التفكير ، وقوة الإرادة والاعتزام ، ويقول له هذا الغريب فى خلال الحديث : « إنى ليعجبنى الرجل الذى يعرف ما ينفعه وما ينفع الناس والذى يعمل على وضع حد لنزواته وما تنزع إليه نفسه ، وحظ كل إنسان فى يديه كالفنان الذى يملك المادة الخامة التى يستطيع أن يصنع منها الصورة التى يريدها ، ولكن فى هذا الفن — كما فى سائر الفنون — تولد معنا القدرة والقابلية ، ولكن القدرة لا تتقدح شرارتها ولا تؤتى ثمرتها إلا بالمثابرة وطول الممارسة » . ويمضى الغريب فى طريقه وينسى وليام نصيحته ، وتؤثر فيه خيانة مريتا وتهز نفسه هزاً عنيفاً ، ولكن البقية الباقية فى نفسه من الفضيلة تجعله يتماسك ويتغلب على الصدمة ، ويسترد العافية ، ويترك الاهتمام بأمر المسرح ، ويقبل على العمل مع والده فى تجارته ؛ ولكن هذا التحول لم يكن لأنه عرف الواجب الإنسانى وقدر رسالته فى الحياة ، وإنما كان باعثه اليأس ، ولذا أخذت تنبت فى قلبه أوهام أخرى ، ولكن لم تكن لها قوة الأوهام الأولى ، كانت من الأوهام التى يمكن العمل على تحقيقها ، فقد علمته تجارب الحياة أن يلائم بين آماله وبين قدرته ، وما زال جيق ينتقل ببطله فى ميادين التجارب حتى يتعلم علماً ليس بالظن أن الحياة الحقة هى الحياة التى تقوم على العمل والتجارب ؛ ويعى درس ما يسميه جيق الأنواع الثلاثة من الاحترام ، وهى احترامنا لمن هم أسمى منا ، واحترامنا لمن هم حولنا ، واحترامنا لمن هم دوننا ، وينشأ من هذه الأنواع الثلاثة النوع الرابع من الاحترام وهو احترام النفس .

وبعد فهذه إلمامة سريعة بهذه الرواية التى تعد من أهم مؤلفات جيق ، وبدائع الأدب الألمانى لا تخفى بطبيعة الحال عن قرائها ، وإنما تسترعى الالتفات لأهميتها بين مؤلفات جيق بوجه خاص وبين الروايات العالمية الشهيرة بوجه عام .

على أدهم

---

٢ – العائدون

... وشحذت سكينى وسرت بركبهم

ومقابرُ التاريخ تملأ بفقلق

... صوراً كأوراق الخريف على الثرى

الريح تنثرها ، كعينٍ ميت

تهناك فى الإيوان ذابلُ ظله

يلهو الفناء بتاجه المتفتت

وحجارة الإيوان عابقةُ الشذا

من وردة ... تهب الخلود لوردة

وعيون « هولاكو » يجف بريقُها

والقيد يكسره العبيد بصخرة

وعلى الطريق مقابرٌ مأهولة

حفارُها المجنون يدفن جثق

والعائدون مع الربيع ، قلوبهم

لبعث تفتح أبوابها فى لهفة :

« أختاه ! عاد ، فضمخى أبوابنا

بالطيب ، واحتفلى إليه بخافق

الباب موصود ، فقومى وافتحى

فالقبض العابرُ أوهن قبضق

إنى من الوادى أتيت ! فمَنْ هنا

غيرى وغير الصخرتين لخطوق

● ● ●

نهر الحياة وكان آخر منظر

روحى له اضطربت ، وسرت ومديق

وعيون هولاكو يجف بريقها

والقيد يكسره العبيد بصخرة

(بغداد) عبد الوهاب البياتى

مكانة المدح فى الشعر العربى

للأستاذ سعد أبو السعود الحامى

خيل إلى كثيرين من دارسى الأدب العربى وناقديه فى العصر الحديث ، بصدد محاولة استقصاء أسباب تخلفه عن الآداب الغربية ، أن السبب راجع إلى إفراط الشعراء فى المديح إفراطاً غطى على غيره من الأغراض الشعرية ، حتى لتكاد تقدر المدح فى الشعر العربى كله بنصفه إن لم يزد ، وذهب هؤلاء الدارسون والنقاد إلى تقدير الجناية التى أصابت الشعر العربى من جراء طغيان المدح عليه بمقدار ما تجنى المادة على كل شىء يستلزم فيه الروح والبعد عن المادة .

وقد يبدو أن مزعم هؤلاء الناقدين مزعم سليم فى مقدماته وفيما انتهى إليه من نتائج . ذلك أنه ليس بمجحود أن الشاعر حين يمدح لا يمدح عن شعور صادق أو إحساس قوى يجيش بصدره ، وإنما يمدح لحاجته إلى عطايا الممدوح أو خوفه من بطشه ، وأن هذا الشعور ليس من شأنه أن يخرج لنا شعراً تتبدى فيه روعة الشعور الحى وجمال الإحساس الفياض ، وكيف تتبدى وليس شعور وليس إحساس ؟ ... وليس صعباً على مطلع على الشعر العربى أن يورد لك من الأمثلة ما يؤيد هذا الزعم ويقوى تلك الحجة ؛ فكم من شاعر مدح شخصاً حتى لتخال أنه بطله الذى يتخيله وتصوره له الأحلام ، ثم طلب منه العطاء طلباً صريحاً ، فإن تأخر عنه العطاء أو انقطع عاد طريقه ليتخذ طريق المدح علها مجدية فى ابتزاز الأموال وسد مطالب العيش . وغير بعيد عن الذهن قول جرير :

سأشكر إن رددت إلى ريشى وأنبت القوادم فى جناحى

من قصيدته التى مطلعها :

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالرواح

والتى عد النقاد كثيراً من أبياتها عيوناً من عيون الشعر العربى ، وهى بعد ليست إلا أبياتاً يريد بها صاحبها أن يصل إلى ما صرح به مما يرد إليه الريش وينبت فى جناحيه القوادم والخوافى ...

هذا ما ذهبت إليه طائفة من النقاد والأدباء منذ كانت فى مصر دراسة حديثة للأدب والنقد . وجاء الأستاذ أحمد أمين فكتب فى عدد من أعداد الثقافة دفاعاً عن مسلكه فى دراسة الآداب وعقيدته التى لم تتغير طوال فترة عالج فيها الكتابة نرجو أن نعد حين قال : « وفى الأدب ناديت بأن أكثر أدبنا من باب المديح هو أدب معدة لا أدب روح . »

وقد فرع هؤلاء الناصرون لهذا الرأى على رأيهم وجوب نبذ المدح من الشعر العربى ، وعنوا لو خلص الشعر من هذا الباب السقيم ، إذ سيكون عندهم خالصاً من باب كله نفاق ، خال من الروح الشاعرى السليم والإحساس الفنى الجميل .

نقول إن هذا القول قد يبدو سديد المنطق عند الوهلة الأولى ، إلا أننا فى الوقت نفسه لا نجد له عند التمعن فى دراسة النصوص العربية ما يؤيده ، بل على النقيض نجد ما يؤيد سواه . ذلك أننا مع تقديرنا لما يحتويه المدح فى الشعر العربى من نفاق لا نستطيع أن نتجاهل حقيقتين :

أولاهما : دراسة البيئة العربية .

ثانيتهما : حصر أبيات المديح فى قصائد المدح العربية .

والحقيقة الأولى تدلنا على أن تلك البيئة لم تكن لتساعد على تقدم الفن الشعرى على سبيل آخر غير سبيل المدح ، وأن المدح قد ساعد هذا الفن مساعدة جليلة .

والحقيقة الثانية تدلنا على أن الشاعر حين ينظم القصيدة فى المدح كان يجدها متنفساً له يضمنها أحاسيسه المختلفة ، ولذلك ضمت قصيدة المدح العربية أغراضاً غير المدح ، ضمت غزلا ، وضمت وصفاً ، وضمت دفاعاً عن مذاهب ودعاوى لمبادئ . وأن مكان المدح فيها كان قليلا بحيث نستطيع أن

لسقطه فنجد أمامنا شعراً مليئاً بالتعبيرات الحية والأحاسيس الصادقة . انظر إلى قصيدة أبي الطيب المتنبي التي ابتدأها بقوله :

أرق على أرق ومثلي يأرق   وجوى يزيد وعبرة تترقرق
جهد الصبابة أن يكون كما أرى   عين مسهدة وقلب يخفق
ما لاح برق أو ترنم طائر   إلا انثنيت ولي فؤاد شيق

أو استمع إلى قصيدة البحتري التي يبتدئها بقوله :

أأفاق صب من هوى فأفيقا   أم خان عهداً أم أطاع صديقاً
إن السلو كما زعمت لراحة   لو راح قلبي للسلو مطيقاً

أو إلى قصيدته في عزاء ابن حميد الطوسي التي يبتدئها بقوله :

ظلم الدهر فيكم وأساء   فعزاء بني حميد عزاء

والتي فيها :

ولعمري ما العجز عندي إلا   أن تبيت الرجال تبكي النساء

وأبيات أخرى يشرح بها وجهة نظره في هذا الصدد .

أو إلى قصيدة مروان بن أبي حفصة التي مطلعها :

طرقتك زائرة فحي خيالها   بيضاء تخلط بالدلال جمالها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها   قاد القلوب إلى الهوى فأمالها

والتي يدافع فيها عن حق العباسيين في الخلافة ، ويطلان مزاعم العلويين فيها .

انظر إلى كل هذه القصائد وهي لشعراء من عصور مختلفة وبيئات مختلفة ، وانظر إلى كثير غيرها من قصائد المديح ولاحظ ما فيها من أبيات المديح وما فيها من أبيات لم تكن داخلة في باب المدح ، ثم قارن بين أبيات الطائفة الأولى وأبيات الطائفة الثانية ، ستجد أن هذه الطائفة الثانية كافية لأن تسمى القصيدة باسم آخر غير اسم المدح وبأن فيها من الفن الشعري ما هو قمين بتقدير القصيدة كلها والتجاوز عن أبيات جاءت فيها خالية من الإحساس الصادق والشعور الحي .

فعلى الذين يحاولون أن يحكموا على المدح في الشعر العربي أن يقدروا هذه الحقيقة وأن يحكموا عليه بعد استقراء النصوص وفرز ما كان منها مديحاً خالصاً وما كان منها حاشية للمدح وليس هو من المدح في شيء ! وهم حين ذاك لابد مقدرون أن المدح في الشعر العربي ليس كثيراً وإنما هو ذو نطاق ضيق ومكان محدود ، وإن يصير كبير النطاق فسيح المكان إلا إذا أصررنا على عد القصيدة كلها مديحاً لأنها قيلت في المدح ، غير مقدرين أبياتها بيتاً بيتاً ولا مقدرين أن الشاعر حين يتغزل في مطلع القصيدة أو يصف مثلاً إنما يكون مستقلاً في شعوره عن المدح ، ويجيء شعره في الغالب مستقلاً عن ذلك الذي قاله في المديح .

أفلا أن نقول إن المديح كان مفيداً وجوده في الشعر العربي ، وأنه لولا وجوده لما وجد في الشعر العربي من الفن الشعري ما وجد فيه ؟ .

نحن لا نشك أن الطاقة الشعرية الكامنة في نفس الشاعر لابد باحثة عن متنفس لها ، وأنها لا تطيق أن تقبع في تلك النفس مكتومة الأنفاس لا تستطيع ولا تملك حراكاً ، فإن أنت سددت عليها باباً من أبواب الخروج فإنها واجدة لها باباً آخر تخرج منه في صورة قصيدة تغير غرضها ، ونحن على عدم شكنا فيما قدمنا لا نستطيع أن نذهب إلى أن الحال ستكون واحدة وإن اختلف المحيط الخارجي ضيقاً وسعة ! فتبقى الطاقة على ما هي عليه كثرت بواعث القول أو قلت ، فيستمر الشاعر ذا إنتاج واحد وإن قلت دواعي القال واستجابة الجمهور لما يقول ! فإن الشاعر ككل فنان يجب أن يجد من غيره من الناس استجابة لما يقول ، وهو حين ذاك يتأكد لما نه بدفعه لأن يكثر من إنتاجه ويتجه به اتجاه الكمال والإتقان ، وعلى العكس هو يحاول أن يكبت دواعي القول وإن وجدت إن لم يجد من الناس مستمعيه استجابة لما يقول وحسن تفهم واستماع .

عقد الأستاذ العقاد في كتابه (ساعات بين الكتب) فصلاً نقل فيه عن مجلة إنجليزية استفتاء عقدته بين كبار الكتاب والشعراء عما دفعهم إلى التفنن في إنتاجهم وشجعهم عليه ، فكان إجماعهم على أن الدافع هو تشجيع الجمهور من القراء والناقدين لهم ، وإلى أن الفنان حين يحس من جمهوره تشجيعاً ومساعدة تتفتح أمامه آماد الإنتاج ويجاهد في سبيل الإتقان والوصول إلى ما يرنو إليه من ذؤابة المجد الفني .

ويكفينا هذا الاستطراد لتقرير ما نريد تقريره من أنه

ولو أن الطاقة الشعرية كانت ستظل على ما هي عليه في نفوس الشعراء العرب رغم اختفاء فن المديح لعدم التشجيع عليه ، من جانب من يجوز مدحهم ، إلا أن الإنتاج لم يكن سيستمر بنفس القوة ونفس الغزارة . فالمديح من هذه الناحية لم يخلق الروح الشعري في نفوس الشعراء ، ولكنه قواها وأخذ بيد إنتاجها إلى الإتقان والكمال .

بقي أن نجيب عن سؤال لابد متردد الآن على ذهن القارئ ، وهو : لماذا لم يكن الذين شجعوا المدح وأغدقوا على الشعراء الذين مدحوهم بالعطايا والهبات مشجعين غير المدح من الأغراض الشعرية ما يعين الشعراء إذا قالوا فيها هباتهم وعطاياهم ؟

نجيب على ذلك بتفصيل ما أشرنا إليه في صدر هذا المقال ، من أن البيئة العربية لم تكن لتساعد على هذا التشجيع والبذل لغير المدح أو الهجاء من الأغراض ؛ ذلك أن العرب وقد كانت لهم عصبياتهم كانوا مشغوفين بالافتخار بها . وكانوا يلتمسون من الوسائل ما يعين على هذا التفاخر ، وأهمها الشعر ، وقد كان سريع الانتشار بين الخاصة يجدون فيه إرضاء لذوقهم الأدبي الذي كانوا يعنون بتربيته عناية شديدة ، وبين العامة الذين كانوا يجدون فيه مادة للتهكم أحياناً أو مادة للدراسة أو مادة لاسترضاء جانب الحاكم والخروج من المآزق أمام أصحاب النفوذ .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الممدوحين لم يكونوا يبذلون العطايا على روعة الشعر بقدر ما كانوا يبذلونها على المدح ، لأنهم لم يقصدوا أن يشجعوا الشعر عامة ، وإنما قصدوا أن يشجعوا المدح ويملأوا الأسواق والمجتمعات بأشعار تتغنى بمحامدهم والافتخار بما يمتازون أو بما هو مفروض أنهم يمتازون به .. روى الأغاني أن مروان بن أبي حفصة حين أراد أن ينشد المأمون قصيدته التي مطلعها :

طرقتك زائرة فحيِّ خيالها ... بيضاء تخلط بالدلال جمالها

لم يقبل منه الإنشاد أولاً ثم سمح له بالدخول والإنشاد غير مصغ إلى ما يقول حتى إذا سمع قوله :

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها

إلى آخر الأبيات التي يدافع بها عن العباسيين وحقهم في الخلافة ، أخذ يحسن الإصغاء ، واستعاد إنشاد القصيدة من أولها ، فلم يكن دافع المأمون تقديره لروعة الشعر وجماله ، والقصيدة في مطلعها جميلة تستحق الإصغاء ، ويجمل بمن يسمعها أن يقدر كل بيت من أبياتها ؛ وقد أخذ الشعراء بدافع الحسد يتقولون على ابن أبي حفصة بزعمهم أنه اشتراها من أعرابي وأخذ يصلح من أبياتها عاماً كاملاً . وإنما استمع المأمون إلى القصيدة حين رأى فيها ما يؤيد ملكه ورضي غروراً عنده وحباً للفخر والازدهاء . وقد كان كل أصحاب السلطان والممدوحين على وجه العموم مأخوذين ، همهم أن يسمعوا الإطراء قبل أن يكون همهم سماع الشعر الجيد .

نحن لا ننفي عن كثير من الخلفاء ذوقاً شعرياً حساساً جميلاً وتفهماً للأدب وبصيرة نافذة في النقد ، ولكننا نقرر أن ذوقهم هذا كان يتوارى حتى يظهر مدح في الشعر الذي يستمعون إليه فيتعدى في الظهور ذوقهم وفي التأثير في يدهم حتى تسخو وتكثر من السخاء .

وهذه الصفة في ذوي المال والنفوذ خلقت طائفة من الشعراء لا دخل لهم في الحياة إلا من قصيدة يقولونها مدحاً أو بيت ينشدونه هجاء ، يستدرون به عطفهم أو يخيفون به ذاك . حتى لقد بلغ الأمر بأبي دلامة أن أنشد معن بن زائدة عند عودته من صيد قوله :

إني حلفت لئن رأيتك سالماً ... بقرى العراق وأنت ذو وفر

لتصلينّ على النبي محمد ... ولتملأنّ دراهماً حجري

هذه الطائفة تفرغت للشعر ، ولم يكن ممكناً أن تتفرغ لولا عطايا الممدوحين ، الذين لم يكونوا ليعطوا وهم أصحاب الأموال في المجتمع إلا إذا مدحوا .

فكيف ، في مجتمع كهذا يمكن أن يتجه الشعراء لأغراض غير المدح فيجدوا المساعدة ممن تنتظر منهم المساعدة

وكيف كنا نتوقع في الشعر العربي الجمال والرقي الفني إذا كان قد خلا من المديح ؟ ...

سعد أبو السعود الحماصي

النســـيان

حبذا لو وقف كل إنسان من نفسه مرة في العام هذه الوقفة التي وقفتها الـكاتبة من نفسها .

« التحرير »

للآنسة الزهرية

عشرة شهور تألق فيها الحياة ، متنوعة مسالك طويلة ، ومراحل كثيرة ، مثقلة بالأعباء والتجارب وتصاريف الأيام . واليوم وقد جاء التمار ليقطع أعذاق النخل ويضم لي محصولها السنوى من التمر ، يجب أن أناقش النفس وأن آخذ العتاد لاستقبال الشهور والمواسم الآزفة . ولقد سعيت إلى نفسى منذ ساعة ، وخلوت بها بضع دقائق ، استعرضت في غضونها تلك الشهور العشرة التي أمست الآن في ذمة التاريخ ، فعادت إلىّ دفعة واحدة . ثم تذكرت للقديس « بولس » عبارة ثالثة بلغت في الحكمة حد الإعجاز . وذلك حين قال « إذ أنسى ما هو وراء ، وأمتد إلى ما هو قدام ، أسعى نحو الغرض » وإننا لنقرأ في هذه الأيام ، كثيراً من الإعلانات المغرية عن وسائل ناجعة لاكتساب ذاكرة قوية ، لقاء مبلغ زهيد من النقود ، ولـكن ما أحرانا لأن نسعى إلى اكتساب « ناسية » قوية ، سعينا إلى تقوية ذاكرتنا !! وإنى قد خلوت بنفسى ، أثبت فيما يلى بعض الذكريات التي تعلقها حافظتى وقلبي ، من تلك الشهور ، وأحب أن أنساها . أجل . فى مثل هذا اليوم فرغت من الإشراف على تنظيف حديقتى الصغيرة ، التي تطل عليها حجرة نومى ، ثم عمد بعض الصغار إلى شحنها بحجارة حادة قذفوا بها النخيل الباسق ، فكسروا لوحة من زجاج نافذتى ، فأبطر عبثهم حلمى واستفز طيشهم غضبى ، فلم أتمالك سخطى ، ولم أقوَ على حبس لسانى .. والصبية جهلة صغار ، وقد خبيت من الحنكة والرصانة ، ومفروض أنى مثقفة .. ترى ماذا ظنوا بثقافتى ووقار سنى فى ذلك اليوم ؟!

وأريد أن أنسى تلك الساعة التي نبهت فيها صاحبتى ، إلى واجب لازب توانيت فى أدائه . فرجوتها أن تشتغل بالها بأحوالها ، وأن لا تعنى ذاتها بالدخول فى شئون غيرها .. وكم أريد أن أعرف أن المعرفة التي بدرت منى فى تلك الساعة ، قد تسربت من وعاء ذاكرتها ، فما من مرة ألقاها فيها ، إلا تمثلت أمامى حماقتى بوضوح .

وذلك الصباح الذى يعود إلىّ ، والأسف يعتصر قلبي — ذلك الصباح الذى فقدت فيه إحدى الرفيقات والدها فاستغرقت معها فى رثائه وأحجمت من لفت أفكارها إلى الله ذى الجلال والرحمة والحنان . ورفيقتى خابة ، ليست متدينة ، وقد استحييت من التحدث إليها بحديث الدين ، حتى فى ساعة افتقارها إلى ما يوحيه الدين من عزاء وسلوى وتفريج للـكرب ، وتفصية من الهم ، وإطفاء لحرالأكباد . وإنى لأتوق إلى نسيان ذلك الجبن الذى ملـكنى يومذاك ..

والمساء الذى زارتنى فيه طائفة من الأخوات ، أعضاء جمعية منع المسكرات التي كنت أرأسها ، فترامى الحديث إلى ذكر صديقة غائبة بارزة ، فأمسكت بعض الإمساك عن إظهار محامدها ، والتشهير مناقبها والتنويه بصالحاتها ، واتخذ الأخريات من سكوتى الضنين ما شجعهن على بسط ألسنتهن فيها ، وتناول تكثرها بمجهوداتها ونشاطها ، والتشنيع عليها واتهامها بالزهو والغطرسة والتنفج ... وقد اتصل إليها ماجرى فى تلك الزيارة فباعدتنا جميعاً ، وانفصلت عن جماعتنا ، وعن الرسالة الـكريمة التي نزعم أننا نديها لرفع شأن الأسرة والوطن .

وهذه التي سردتها قطرة ، من بحر الذكريات التي أودّ أن أنساها ، والتي يجب ألا أعود إلى مثلها ، إذ أواجه عهداً جديداً وموسماً جديداً ، بفسح المجال « للفرصة » ويسنح بها جديدة طيّبة . وقد قال القديس بولس : « فإذ حَسْبَنا ، لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع » . ترى ما الذى يعنيه بالفرصة ؟ لقد رأى فى بعض المدن الإغريقية التي زارها تمثالاً اسمه « الفرصة » . وللإغريق أسطورة يتناقلونها عنه ، ومؤداها أن نزيلاً قصد يوماً إلى ذلك التمثال ، وسأله قائلاً :

مع الفكر الأوربي المعاصر

للأستاذ مبارك ابراهيم

١ — كتابان عن روسيا

(١) السوفيتيون والشئون العالمية

كتاب من تأليف « لويس فيشر »

مؤلف هذا الكتاب صحفي أمريكي في الخامسة والخمسين من عمره ، وهو المراسل الخاص في أوربا لمجلة « ناشن » الأمريكية منذ عام ١٩٢٢ ، وقد عمل أكثر ما عمل في البلاد الروسية .

ليس من المغالاة أن يوصف هذا الكتاب بأنه الكتاب الذي روعي فيه الجد في القول ، وأنه الكتاب الشامل لوصف السياسة السوفيتية الخارجية في العشر السنين الأولى من العهد السوفيتي . وهي تلك الفترة التي كانت فيها مواد مثل هذا الكتاب في غير متناول الأيدي .

وميزةٌ أخرى لهذا الكتاب أنه سجل الحوادث التي يصفها فور وقوعها .

وقد ظهر هذا الكتاب أول مرة عام ١٩٣٠ ، واليوم تظهر طبعته الثانية . والمؤلف يقول في مقدمتها : إن ما جاء في هذا الكتاب إنما هي مدونات تاريخية ، لا تحليل للحوادث التاريخية ، ولكن على الرغم من هذا القول الذي يقوله المؤلف في موقف الاعتذار ، فإن الكتاب يقدم للناس صورة واضحة تمشي حوادثها على الأرض . وقد يمكن أن يضاف إلى تلك الصورة لحقٌ أو ألحاقٌ . ولكنه لن يمكن القص من أطرافها ، أو محو بعض معالمها .

والمؤلف في مقدمة الطبعة الأولى من كتابه يقرر بأنه مدين في تأليف كتابه لأشخاص القادة السياسيين في العهد السوفيتي الأول من « تشيشرين » فنازلاً ، فهم الذين أمدوه بمعلومات لم تكن قد أذيعت ، وبوثائق لم تكن قد نشرت من قبل ، وقد راجعوا كل صحائف النسخة المخطوطة أو كادوا .

واليوم وقد مضى أكثر من عشرين سنة على صدور الطبعة الأولى ، واليوم وقد طوى الموت أكثر الأشخاص الذين عني بآرائهم هذا الكتاب ، فإن المؤلف قد أصبح قادراً على أن يذكر في مقدمة الطبعة الجديدة بيانات أدق وأكثر تفصيلاً . فهو يقول : إن « تشيشرين » قد قرأ النسخة المخطوطة يوم كان في « ويزبادن » في شهر أغسطس من عام ١٩٢٩ ، وأنه أمده يومئذ بتعليقات وإضافات .

وهو يقول إن زيارته عام ١٩٢٨ لرا كوفسكي وهو في منفاه كواحد من شيعة « تروتسكي » قد كانت له مصدر استفادة كبرى . وكذلك كان « كاراخان » (أحد الشيوعيين الروس من الأرمن ، وقد أعدم مع سبعة آخرين عام ١٩٣٧) أحد مصادر الأخبار الذين انتفع بأخبارهم .

وقد دون المؤلف في كتابه تفصيلات جديدة لأول مرة في هذه المقدمة الجديدة . فهو يقول : لما أرسل « شيانج كاي شك » إلى موسكو في شهر أغسطس من عام ١٩٢٣

— ما اسمك ؟ .

— اسمي « القرصة » .

— ومَنْ الذي سماك ؟ .

— ليسيوس .

— ولماذا تقف على أصابع قدميك ؟ .

— لكي أريك أني لا أبقى غير لحظة واحدة .

— ولماذا جعلوا أجنحة على قدميك ؟ .

— لكي أريك كيف أمرّ مرّاً سريعاً متكرراً .

— ولكن لماذا يطول شعرك ويتدلى على جبهتك ؟ .

— لكي يمسك الناس بتلابيبي فور التقائهم بي .

— ولماذا أصبح قفا رأسك أصلع ؟ .

— لكي ترى أنه لا يمكن إدراكي بعد مروري .

بقي أني أرغب إلى الله الكريم أن يعينني على الإفادة من تقصيراتي ونقائصي ويقويني على نسيان الأخطاء التي توهن العزم مني ، لكي أتمكن في الشهور المقبلة من انتهاز كل فرصة — مهما تكن خاطفة — كي أعمل الخير للجميع .

الزهرة

كان يحمل معه خطاباً سرياً جداً من « صن يات سن » إلى كل من « لنين » و « تروتسكي » و « تشيتشرين » يطلب إليهم أن يمدوا الصينيين الوطنيين بالأسلحة ، وأن كلية « هوامبوا » الحربية التي أصبح « شيانج » رئيساً لها فيما بعد ، كانت تمدها الحكومة السوفييتية بالمال .

وهو يقول : إنه في نهاية الحرب الأهلية في عام ١٩٢٠ رغب « فرنز » و « وفورد شيلوف » أن يستردا إقليم « بسارابيا » من رومانيا ، ولكن « لنين » بعد استشارته لرا كوفسكي لم يوافق على الاقتراح على اعتبار أنه مشروع خطير العواقب جداً .

وفي العام التالي رغب « تروتسكي » و « ولتفينوف » في الاعتراف بسيادة رومانيا على إقليم « بسارابيا » فعارضهما في ذلك « تشيتشرين » و « راكوفسكي » .

وهو يقول إنه يوم ضيق اليونانيون الخناق على تركيا في عام ١٩٢٢ طلبت هذه إلى روسيا أن تمد لها يد المعونة فعارض في ذلك « ستالين » و « وأورجونيكيدز » وآخرون من الرفاق الجورجيين والقوقازيين بحجة أنهم لا يريدون أن تبعث تركيا قوية مرة أخرى ، ولكن « لنين » و « تروتسكي » قد غلبا آراءهما على آراء المعارضين وبعث الإمدادات من عدة وعتاد ، كما بعث مستشارون حربيون سوفييتيون إلى تركيا ، يشدون أزرها ويأخذون بناصرها .

والمؤلف وقد انتقل من محب للسوفييت يوم كتب هذا الكتاب أول مرة ، إلى عدو للبولشفية لا تطاق عداوته لم يعن العناية الواجبة بتبيين الفروق في سياسة السوفييت في عهدهم الأول وعهدهم الحالي ، وهو لا يزال مستمداً أن يسمى العهد السوفييتي الأول الذي يجعل نهايته عام ١٩٢٩ (وهو اليوم الذي اختتم فيه قصص كتابه) بعهد « الفرص التي ضاعت » وهو لا يزال يميل إلى تعليلاته الأولى لحوادث ذلك العهد ، وهي أنها حوادث حدثت تحت تأثير رد الفعل الذي له ما يبرره ، وتحت تأثير التدخل العسكري الأجنبي ، وتحت تأثير العداوة الضيقة التي لقيتها روسيا السوفييتية من الدول الأخرى .

ويقول أحد المعلقين : يوم يجيء اليوم الذي يحرق فيه العابد صنمه الذي كان يعبده ، ويوم يعبد ما كان يكفر به من قبل ، فلا بد من أن يعرض للخاطر سؤال يتطلب جواباً وهو : أكان التبدل في الصنم الذي كان يعبد ، أم كان في العابد الذي كان يعبد ؟ وإلى أي مدى كان ذلك التبدل ؟ ..

(ب) العدالة في روسيا

الأستاذ هارولد برمان

يمكن تلخيص هذا الكتاب في جملة واحدة ضمنها المؤلف كتابه وهي :

إن الحاكم في روسيا السوفييتية تقوم بواجباتها كاملة وفي غير انحراف عن جادة العدل والحق ؟ وذلك إذا لم تكن القضايا المعروضة تمس من قريب أو بعيد مسألة الولاء السياسي .

ويقول المؤلف أيضاً : إن الثورة البولشفية كانت ثورة اشتراكية تجمع بين الماركسية والروسية ، وهي يوم نشبت بها للناس أن تحطيم القانون القائم تحطيماً لا هوادة فيه كان كافياً لتيسير التحول إلى نظام جديد من الحرية والمساواة . ولذلك فقد كان حتماً أن يخضع القانون للثورة . وإلى أن جاء عام ١٩٣٥ كان رجل مثل الرفيق « فيشنسكي » يستطيع أن يكتب فيقول :

قد يمكن أن تقع ألوان من التصادم ، وصنوف من التباين بين ما تقضي به القوانين وبين ما تقضي به وصايا ثورة « البروليتاريا » (طبقة الكادحين الذين لا يملكون شيئاً والذين يعولون في كسب عيشهم على بيع كدحهم) . والفصل في قضايا هذا التصادم يجب أن ينزل القانون على حكم السياسة الحزبية .

وهذا القول يبدو غريباً لدى الناس الذين جبلوا على احترام ما تقضي به القوانين . ولكن على أولئك المعترضين أن يعرفوا أن الثورة هي مصدر القوانين الجديدة . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن عليهم أن يعرفوا أن القانون الروسي مشتق من التاريخ الروسي .

والثورة الروسية هي — في صميمها — ثورة روسية المناصر . مثلها مثل ثورة « البيوريتان » (الأصفياء المتزمتون) التي قاموا بها في انجلترا عام ١٦٤٠ وكانت — في صميمها — ثورة انجليزية العناصر .

ومن ناحية ثالثة فإن القانون السوفييتي يقوم مقام السلطة التي كانت للآباء والمعلمين والأوصياء الذين كان عليهم أن يقوموا على تعليم وتدريب وعلى إرشاد وهداية الذين يخضعون لسلطانهم .

والمؤلف يقول : إن هناك تغيرات قد حدثت في غضون الثلاثين سنة الماضية . ولكن الدولة لم تضعف ولم تهن ، بل زادت قوة عن ذي قبل . وكذلك لم تزل الأسرة من

الوجود كوحدة ذات وجود ذاتي . بل كان عليها أن تسترد وجودها كاملا .

وكذلك فإن إلغاء النظام الرأسمالي وإيجاد نظام تأميم وسائل الإنتاج لم يستطيعا أن يحتلا نظام الملكية أو يطيحا بنظام العقود .

وقد كان « لينين » يحذر حزبه من شرور « الوباء اليساري » والناس اليوم يرون كيف تعود روسيا تدريجاً إلى التزام جادة القانون في أقسى زمنه . وإلى صيانة استقلال القضاء . وإلى احترام العقود .

والمؤلف يقول : إن تاريخ القضاء الروسي يقتضينا أن ننظر في التطورات التي حدثت في عهود السوفييت ، محاولين أن نفهمها في ضوء تاريخ السلالات والأجيال ، موقنين أن « ستالين » ليس هو المسيطر على أقدار روسيا . بل العكس هو الصحيح . فإن روسيا هي المسيطرة على أقدار « ستالين »

وعلى أولئك الذين يجادلون في هذه القضية المنطقية أن يذكروا أن تطور التشريع الروسي قد ظل مقطوع الصلة عن التشريع الغربي من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر ! والمعروف أن النظام القيصري قد بني فوق أطلال حكم التتار المستبد الجائر . وأن نظام الإقطاع الذي عرفه الغرب لم تعرفه روسيا . وكان بديله عندها وحدة قامت بين الدولة والكنيسة تحت سلطان القياصرة .

وظلت روسيا حتى منتصف القرن التاسع عشر لا تعرف من ألوان التشريع ما يصح مقارنته بالتشريع في الغرب . ولما أدخل في روسيا نظام المحلفين في القضايا الجنائية كان لم يمض على روسيا غير خمسين عاماً منذ اتباعها المثل القضائية الغربية . وهي فترة قصيرة جداً لا تكفي لإيجاد نظام قضائي يسير ثابت الخطو على منهاج نظم القضاء في الغرب بالمعنى الأول لهذه الكلمة . ولكن بعض الأسس كانت قد وضعت . ولذلك فليس مستغرباً أن الحكومة السوفييتية — بعد أن تخلصت من غمرة « الوباء اليساري » بعد السنين الأولى من معاناتها لحمى ذلك الوباء — لم تستطع أن تتجاهل ما أخذت به الحكومات التي سبقتها من أساليب الغرب . ولذلك فإن القانونين السوفييتيين المدني والجنائي قد تأثرا إلى حد كبير بالميول التقدمية التي جاء بها الفقه الغربي . وإن كانت روسيا السوفييتية قد احتفظت في نظامها القضائي بقدر كبير من مثلها القضائية السابقة على تاريخ الثورة . فقد أبقت على نظام النيابة العامة . وهو نظام مأخوذ عن الفرنسيين .

وقد انتقلت روسيا من نظام عقود الزواج غير المسجلة ونظام الطلاق من جانب واحد . ونظام حرية الإجهاض ، إلى فرض نظام عدم تعدد الزوجات ، وإلى فرض حماية الطفولة . وإلى جعل الحاكم هي المختصة وحدها بالبت في مسائل الطلاق .

ويختم المؤلف كتابه بقوله : إن الرأي السائد بأن الحكومة السوفييتية هي حكومة بوليسية تديرها عصبة من ثوار محترفين لا تحوط أعمالهم إلا الرغبة في امتداد سلطانهم . إنما هو من أنصاف الحقائق التي هي أشد خطراً من الحقائق الكاملة ...

٢ — السعوط والمساعط

كتاب من تأليف هيوز ماك « كوسلاند »

كان السعوط والساعط في بلاد الإنجليز ، لا بل في بلاط ملوكهم شأن أي شأن ، حتى لقد مدحه بأبيات من النظم ، الكاتب « جورج دير » (وهو رجل من رجال الدين كان ينكر عقيدة التثليث) وذلك على الرغم من أنه لم يكن ممن يجيدون قرض الشعر .

والناس واجدون دائماً من يدفع عن ملذاتهم نقد الناقدين ، وزراية الزارين . ومن أولئك المدافعين « بيرون » و « لام » و « كالفرلي » (وهو شاعر كان يلبس الجد ثوب الهزل) . وقد كانوا ينظمون الأناشيد في مدح الدخان .

ومن أولئك المدافعين « شسترتون » و « بيلوك » وكثيرون غيرهم وقد كانوا يشيدون بذكر الخمر . ويلحق بهم من شعراء العربية « أبو نواس » بخمرياته التي طغت على ديوانه . ومنها أبياته التي يقول فيها :

هلا استعنت على الهموم ... صفراء من جلب الكروم
ووهبت العيش الجديـ ... ـد بقيـة العيش القديم
بمجالس فيها المزا ... هر والأواني كالنجوم

ومن أولئك المدافعين من نظم الأغنيات التي تستنهض بها الهمم وذلك في الثناء على « الشواء » وملحقاته .

أما السعوط فلم يقل في مدحه القائلون إلا جملا منثورة هنا وهناك .

واليوم يجيء مؤلف هذا الكتاب فيدرس دراسة وافية موضوع السعوط ، والساعط ، والمستعطين متتبعاً قصة تلك الذرات الحريفة اللاذعة منذ أيام « كولمبس » إلى أيامنا هذه .

وهو يقول : إن واحداً من رهبان الفرنسيسكان واسمه « روماو بان » كان أول من رأى الهنود الأمريكيين وهم يشفقون مسحوق الدخان من قصبات جوفاء ، وجاء يقص على قومه أنباء ما شاهد في الدنيا الجديدة .

وانتشر « جنون السعوط » في أوربا . وكان أول من أولع به ملكة فرنسا كاترين دي مديتشي (١٥١٩ — ١٥٨٩) وكانت تنشقه من قصبة جوفاء على طريقة هنود أمريكا .

وقد ظلت انجلترا بمنأى من السعوط حتى القرن الثامن عشر ، وسرعان ما غزا أنوف الصفوة المختارة من القوم . وسرعان ما أزاح الدخان عن أوجه ، وأصبحت له الغلبة .

وجاء بلاط الملكة « آن » (١٦٦٥ — ١٧١٤) يعلن تحريم الدخان وتبعه في ذلك العلية من القوم . كما سارت على سنته النوادي والمقاهي ، وبيوت الحلوى .

وكان من صفوة المستعطين رجال الأدب من الكتاب والشعراء نذكر منهم «دريدن» و «أديسون» و «سويفت» و « ستيل » و « بوب » و « فيلدنج » و « جولد سمث » و « هوجارث » و « جيتر بورو » و « جونسون » و « جاريك » و « لام » و « لي هنت » . ومعهم المعجبون بهم من رواد ناديهم .

وكان من عشاق السعوط أيضاً الوزير الفرنسي « تاليران » الذي قال يوم زار انجلترا في عام ١٧٩١ : إني لأحسب السعوط شيئاً لا بد منه للرجل السياسي ، فهو إذ يفتح سعطه ، وهو إذ يأخذ قبضة منه يكسب وقتاً يستطيع أن يفكر فيه في الجواب عن سؤال محرج ، أو يخفي فيه أثر قول ثقيل من أقوال خصمه ومعارضه .

والروائي المؤرخ « سكوت » قد ذر أحمالا من السعوط في ثنايا رواياته .

« وكوبر » الشاعر كان يرى أن ذلك المسحوق العطر يثير الفكر ويلهبه .

وليس كل هذا الثناء بمانع من أن يكون السعوط مذموماً ! فقد كان « الدكتور جون برتش » — وكان من مشاهير الجراحين — يذمه أشنع الذم .

سئل مرة : هل يضر السعوط بالعقل ؟ فأجاب : هذا لا يمكن ! ذلك لأن من كان له عقل فلن يفكر يوماً في تناول هذا السعوط ...

وبلغ السعوط قمة مجده في القرن الثامن عشر ، ثم بدأ نجمه في الأفول . وارتقى الدخان مكان الصدارة مرة أخرى على الرغم من أن الملكة شارلوت (١٧٤٤ — ١٨١٨) قد بذلت أقصى الجهد لتبقى للسعوط مكانته . فبينما جلالتها — وكانت تسمى شارلوت السعوطية — كانت تأمر بإمداد مقادير من السعوط ، كانت حاشيتها الملكية تطلب مزيجاً من التبغ وغلايينه .

ولقد بنت الملكة وابنها من بعدها مخزناً خاصاً لحفظ السعوط . وكان في سعته كتلك الأقبية والكهوف التي كانت تتخذ لحفظ الخمور . وكان إذا رآه راء ظن أنه أعد لإمداد الأجيال الآتية . وبلغ من كثرة المقادير التي اختزنت أنه بعد وفاة المالكين لم يكن هنالك بد من بيعها ...

واليوم إذا سأل سائل : ما أمر السعوط ؟ فقد لا يجد المجيب ما يجيب به السائل . ذلك لأن بائع السعوط اليوم قد أصبح نكرة من النكرات . فإذا مشى السائر اليوم في لندن ساعة كاملة فلن يعثر على بائع واحد من بائعيه . وإنما هو واجد عشرات من بائعي الغلايين ومئات من المدخنين . فهل أصبح السعوط شيئاً لا يستحب الجهر به ؟ وهل بات المستعطون يجوبون الأزقة المظلمة ليظفروا بنشقة يختلسونها اختلاساً ؟ كلا ! فلا يزال للسعوط عشاقه وهواته . تجدهم بين أصحاب وظائف خاصة . وبين محترفي حرف بعينها . ومن تلك الوظائف والحرف التي يكون عسيراً على أصحابها أن يدخنوا أثناء ساعات العمل . فأنت واجد بين المستعطين وحاملي المساعط فريقاً من الطرزيين ، وطائفة من حائكي الثياب . وأنت واجد بينهم لفيفاً من قضاة المحاكم وموظفيها . وجماعة من رجال المطافئ .

وكذلك أنت واجدهم بين سائقي السيارات . بل أنت واجدهم في مجلسي العموم واللوردات ، وكذلك أنت ملاقيهم بين الطابعين وصفافي الحروف والمشتغلين بدور الصحف ليلاً . واتباعاً لقانون العرض والطلب يجد السائر في لندن أشهر مكانين يباع فيهما السعوط بالقرب من دور المحاكم .

والمؤلف يسمى شارع « فليت » في لندن « الشارع السعوطي » .

هذا وللسعوط آداب يجب مراعاتها لدى متذوقي آدابه وأصوله . فإذا التقى اثنان من العارفين بتلك الأصول اقترب كلاهما من صاحبه ثم أدخل إبهامه في جيب صدريته وأخرج

« المعط » . وخبط خبطتين فوق غطائه ثم فتحه ، وقبض كلاهما قبضة صغيرة من مسعط أخيه . ثم نشقها . وهذا التقليد يمكن تفسيره بأنه كقول كلا الرجلين لصاحبه : صباح الخير ! وكيف حالك ؟ أما الخبطتان فهما لكي يهبط من السعوط ما كان عالقاً بالغطاء ، حتى لا تضيع ذرة من ذرات ذلك المسحوق الغالي الثمين .

والمؤلف يقول : ولو أن الاستعاط قد أصبح عادة عند قلة من الناس ، فإن نجمه اليوم في صعود ، حيث يتخذه كثير من الناس بديلاً من الدخان الذي غلا ثمنه غلاء جاوز المدى . وبذلك أصبح بعيداً عن متناول جيوب الكثرة من المدخنين ...

٣ — باريس ذات السحر

كتاب ضم صوراً فوتوغرافية صورها مصور شهير .
كما ضم كلمات كتبها بخطهم كتاب فرنسيون معاصرون .

في عام ١٩٠٨ جمع كاتب باريسي باقة يانعة جادت بأزهارها قرائح وأقلام كتاب وشعراء من الإنجليز والفرنسيين والألمان والأمريكيين ، « وجعل من تلك الباقة كتاباً سماه سحر باريس » . أما أولئك الكتاب والشعراء فنذكر منهم على سبيل المثال : « ماتيو أرنولد » و « لورد بيرون » و « توماس كارليل » « ووليم كوبر » و « شارلس ديكنز » و « إدوارد جيبون » و « لنجفلو » و « ألكسندر بوب » و « سير والتر سكوت » و « تاكراي » و « وليم وردزورث » من الإنجليز ، ثم « ألفونس دوديه » و « ألكسندر دياس » و « تيوفيل جوتييه » و « مدام دي سيفينيه » و « بول فرلين » و « إميل زولا » من الفرنسيين . و « هيتريك هيني » من الألمان . و « مارك توين » من الأمريكان .

وأما الموضوعات التي كتبوا فيها فنذكر منها : « شوارع باريس » . « بعض صور باريسية » . « باريس في بوهيميتها » . « باريس في العصور الخالية » .

ثم جاء شوقي بقصيدته الخالدة التي جعل عنوانها « باريس » والتي قال فيها :

جهد الصبابة ما أكابد فيك ... لو كان ما قد ذقته يكفيك
حتام هجراني وفيم تجنبي ... والام في ذل الهوى يغريك
جفناك أيهما الجرى على دمي ... بأبي هما من قاتل وشريك
بالسيف والسحر المبين والطلا ... حملا علي وبالقنا المشبوك
زعموك دار خلاعة ومجانة ... ودعارة يا إفك ما زعموك !
إن كنت للشهوات رياً فالملا ... شهواتهن مروءات فيك

واليوم يجيء مصور بارع فيصور أبدع مناظرها وأروعها ، ويستكتب الكتاب الفرنسيين المعاصرين كلمات خطتها أيديهم ، ويجعل من ذلك كتاباً سماه « باريس ذات السحر » .

وباريس ماثلة دائماً في أعين الناس كافة سواء من رآها أو قرأ عنها ، ولكن يبدو أنه لكثرة العشاق قد تكاثرت الصور فطمس بعضها بعضاً ، ومحا بعضها آثار بعض . ولذلك جاء هذا المصور البارع واسمه « إزيس بيدرماناس » فصور بفنه البارع صوراً لباريس تنوب مناب المشاهدة .

وقد عمل على أن تكون الصور على هوى باريس ، لا على هوى المصور ، فصور مثلاً « حوريات الماء » منقولة عن لوحة في دار « الأوبرا الباريسية » ، وصور طفلاً يرنو بعينيه إلى السماء وهي تمطر . كما صور رجلاً بائساً قد جفاه الأهل والولد . وقد وقف على عتبة بيت في أحد الشوارع الجانبية ، كما صور نافذة لإحدى « العليات » وقد فتحت على مصراعيها لترى الرائون فيها ثم السقوف على اختلاف أشكالها ، كما صور « فوارات ميدان الكونكورد » وقد جرت فيها وفود الماء معجلة ، كما صور شحاذاً يتحين الناس ويستجديهم في قطار « المترو » ، كما صور قطة في حانوت خمار ، كما صور مجموعة من أقفاص الطيور وقد رصت إلى جانب جدار يريد أن ينقض ، كما صور « برج إيفل » وكنيسة « نوتردام » . و « الساكركير » ، كما صور بائع زهور واقفاً تحت مظلته المخططة ، كما صور أحد الزجاجين يحمل ألواحاً من الزجاج فوق ظهره .

وكلها صور تستحضر في ذهن رائيها صور الحياة اليومية كما تستحضر عظمة المناسبات التي صورت فيها بعض تلك الصور .

ومن الكلمات التي قيلت تعليقاً على هذه المجموعة من الصور نذكر ما قاله الشاعر والكاتب والروائي والممثل « جان كوكتو » :—

« إن باريس مجهولة القدر والمكانة ، شأنها شأن كبار الشعراء . وإن بعض الغرباء عنا يحبونها فيعرفونها ويكشفون لنا عن أسرارها ، ويفسرونها لنا » .

مبارك إبراهيم

الإسلام : عقيدته وعباداته

تأليف الأستاذ تريتون — ١٩٥١ — ٢٠٠ صفحة — لندن

Islam, Belief and Practices, by Tritton.

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

صدر هذا الكتاب فى المجموعة الحديثة المعروفة باسم مكتبة هتشنسون ، وهى مكتبة جديدة بدأت نشاطها منذ عامين على وجه التقريب ، وتضع على كتبها غلافاً أحمر اللون ، يلفت النظر إليه ، وجعلت ثمنها موحداً هو سبعة شلنات وستة بنسات ، ومؤلفاتها منوعة تشمل الدين والفلسفة وعلم النفس والأدب والتاريخ ، وجعلت على رأس كل فن عالماً مشهوراً يتولى الإشراف على إصدار الكتب الخاصة بفنه . مثال ذلك فرع علم النفس يرأسه الأستاذ فلوجل المعروف . أما القسم الدينى ، أو أديان العالم كما سموه ، فنجد على رأسه الأستاذ جيمس أستاذ تاريخ الأديان وفلسفتها بجامعة لندن .

وقد أصدرت الدار خلال هذين العامين الأخيرين بضعة وعشرين كتاباً ، أقلام جلة العلماء المتخصصين فى بابهم ، نذكر منها على سبيل المثال كتاب « المدخل إلى علم الجمال » للأستاذ كاريت Carritt الذى نقلت بعض كتبه إلى اللغة العربية من ترجمة زميلنا الدكتور عبد الحميد يونس . وقد أحدثك عن هذا المدخل فى المستقبل القريب لأن آراء صاحبه فى علم الجمال وما يتصل بذلك من البحث فى الذوق والأحكام الأدبية ذات خطر ، كما تدعو إلى التفكير والتأمل والنظر .

وصاحب كتاب الإسلام الذى نقدمه اليوم إلى القراء ، كان إلى عهد قريب أستاذ اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية الملحقة بجامعة لندن . وله عدة مؤلفات فى اللغة العربية والديانة الإسلامية ، منها « ظهور الأئمة فى صنعاء » و « الخلفاء وأهل الذمة » و « كيف تعلم نفسك اللغة العربية » و « العقائد » الإسلامية . فنحن نرى من النظر إلى المنصب الذى كان يشغله المؤلف فى الجامعة ، ومن الكتب التى ألفها ، أنه على صلة وثيقة بالموضوع الذى يعالجه على الرغم من وعورته .

أما الباعث الذى دفع المؤلف إلى كتابة هذا الكتاب عن الإسلام وتقديمه إلى قراء الغرب الناطقين باللسان الإنجليزى ، فهو ما لاحظه من ظاهرة تاريخية بدأت بظهور الإسلام ديناً وحّد بين القبائل العربية الضاربة فى قلب الجزيرة حتى جعل منها أمة موحدة ودولة ثابتة موطدة الأركان ، زلزلت قواعد الفرس ، وورثت دولة الروم ، ونقلت علوم اليونان وفلسفتهم ، حتى أصبحت الحضارة الإسلامية وما خلفته وراءها من فنون مختلفة من أسمى الحضارات وأرقاها . ثم أضاف المؤلف يقول : « بدأ العرب ينقلون عن الشعوب المتغلبة على أمرها ، ثم صاغوا ما نقلوه صياغة جديدة موحدة ولو أنها تبيح كثيراً من التعدد فى الألوان . كما أنشأوا مذهباً فى الفقه جديراً بالموازنة مع القانون الرومانى ، وأقاموا حضارة لا تقل عن أى حضارة معاصرة فى أوربا ، وخضع للإسلام باعتباره قوة حية الملايين من الناس ، فلا غرابة أن يكون هذا الدين جديراً بالدرس »

الحق أن علماء الغرب ومفكريهم فى حيرة شديدة من أمر هذه الظاهرة التاريخية العجيبة ، ونعنى بها توحيد كلمة العرب مع أن التنابذ والشقاق والعداوة من طبعهم ، ثم تغلب العرب وهم الحفاة العراة على أقوى دولتين متحضرتين فى ذلك الزمان ، وهما الفرس والروم ، ثم اتساع رقعة الدولة الإسلامية حتى امتدت أطرافها من الصين فى الشرق الأقصى ، إلى الأندلس وشمال أفريقية فى المغرب الأقصى ، مع ما تميزت

به الدول الإسلامية شرقاً وغرباً من علوم وفنون لا يستطيع أحد إنكار ما لها من منزلة ، والأغرب من ذلك كله حيوية الإسلام الشديدة التي تظهر في بقاء المسلمين متمسكين بدينهم على الرغم من محاولات الدول الغربية المستعمرة بشتى الوسائل تحويلهم عن دينهم .

وإذا صح في العقول أن التفسير المادي للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً في تعليل معظم الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فإن هذا التفسير المادي يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم . فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، فرأوا أنها تقع في هذا الشيء الجديد ألا وهو الإسلام .

رأوا أن الإسلام قوة هائلة ، فيه حيوية دافقة ، وديناميكية محركة ، وهو علة العمران وسبيل الحضارة ، وهو الطريق إلى جمع الكلمة ، ونشر السلام ، وتحقيق العدل بما يؤلف بين القلوب ويربط بين الشعوب . فانبرى علماء الغرب يبحثون في الإسلام وأركانه وعقائده وعاداته .

في ضوء هذا الهدف أقدم الأستاذ تريتون على تأليف كتابه ، ورتبه في عشرة فصول وخاتمة . تحدث في الفصل الأول عن محمد والقرآن ، وفي الثاني عن قواعد الإسلام (الإيمان ، الصلاة ، الزكاة ، الصوم ، الحج ، الجهاد) ، وفي الثالث عن الحديث والسنة ، وفي الرابع عن المعتقدات وتطورها وما يتصل بذلك من آراء الفرق ، وبخاصة المهدي والفلسفة الإسلامية ، وفي الخامس عن الفقه وأصوله وفروعه وفي السادس الفرق الإسلامية ، وبخاصة في العصر الحاضر ، وهي الشيعة والزيدية والإسماعيلية والقرامطة والنصيرية والدروز والبكطاشية وأهل الحق والحروفية والبوهورا والوهابية . وحدثنا في الفصل السابع عن التصوف والزهد وطريق التصوف ، وتكلم عن ابن العربي والغزالي . وانتقل في الفصل الثامن إلى الكلام عن الدولة ، فحدثنا عن الخليفة والقاضي والمفتي والمحتسب والشرطة والمحدث ، وعن الوقف وبيت المال والتعليم . أما في الفصل التاسع الذي جعل عنوانه « الحياة الاجتماعية وبعض الآراء الشعبية » فقد تناول فيه الكلام عن الأخلاق والنجاسة والزواج والزنا وغير ذلك . وطاف في الفصل العاشر ببعض الحركات المعاصرة في الإسلام ، كالبابية والبهائية والأحمدية ، كما عرض لبعض المجددين في الإسلام مثل الشيخ محمد عبده وإقبال .

ونحن لا نتوقع في هذه الصفحات المحدودة من الكتاب أن يستطيع المؤلف توفية جميع هذه المسائل التي أشرنا إليها في الفصول المذكورة .

وقد اعتذر المؤلف في مقدمته بهذا العذر وقال : إن التفصيل يحتاج إلى مجلدات ، وإنه لا يستطيع في هذه العجالة إلا أن يبرز الظواهر البارزة فقط .

والكتاب ملائم كل الملاءمة لقراء الإنجليزية الذين يجهلون الإسلام ولا يعرفون شيئاً عن مبادئه وعقائده وتاريخه وعوائد أهله ، ولكن القارئ المسلم لن يجد فيه جديداً لا يعرفه فيما يختص بالعقيدة والعبادات والعادات . ومع ذلك ففيه ولا ريب جديد على المصريين لأنه يحدثهم عن عقائد المسلمين في بقاع من الأرض لا نعرف عنهم إلا اليسير ، كالجماعات التي ظهرت في سومطرة وفي الهند وإيران . وقد نشأ هذا الجهل لاعتناقنا مذهب أهل السنة الذي يعارض أغلب المذاهب الأخرى . ومع ذلك فقد ظهرت في مصر جماعة على رأسها فضيلة الأستاذ القمي اسمها جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، ولها مجلة تصدرها بالعربية ، ولها مقر في الزمالك ، ولو أنني لم أطلع على مجلتهم ولم أشهد مقرهم ، على الرغم من معرفتي برئيس الجماعة وبعض أعضائها .

ومع أن الكتاب يدل على سعة اطلاع مؤلفه إلا أنه قد وقعت فيه بعض أمور ، نعتقد أن المؤلف على استعداد لتصحيحها إذا اطلع عليها . مثال ذلك أنه يذكر أن صلاة العشاء ركعتان (ص٢٤) وهي أربع ركعات . ويقول في نفس الصفحة إن الأذان للصلاة قد يقع قبل موعد الصلاة بنصف ساعة ، وليس هذا صحيحاً لأن لكل صلاة موعداً معيناً .

وذهب في صفحة ٢١ إلى أن النبي حين طالبه الناس بمعجزة أشار إلى القرآن . وهذا حق ، إلا أن المؤلف وصف إعجاز القرآن بعد سطور بأمور ثلاثة ، الأول ما فيه من حكمة مستمدة من كلام الله ، والثاني أنه ينبئ عن المستقبل

in its fortelling the future

والثالث بلاغة الأسلوب وصفاء اللغة . وهنا يتعارض المؤلف مع ما ذهب إليه في أول الفقرة حين قال إن القرآن هو معجزة الإسلام . وليس في القرآن إنباء عن المستقبل ، فقد سئل النبي عن الساعة فنزل عليه الوحي « قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (الأعراف ١٨٨) . وجاء في سورة لقمان « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً . وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير » .

وهناك أشياء يوردها المؤلف وهي صحيحة ولكن إيرادها وحدها مع إغفال الجوانب الأخرى مما يصور الإسلام على غير صورته الحقيقية . ذلك أن المؤلف يأخذ بالخرافات ويهجر آراء المتثبتين في العلم ، فقد ذهب معظم المسلمين إلى تأويل كثير من الآيات التي تؤذن بالتشبيه مثل « الرحمن على العرش استوى » كناية عن القدرة الإلهية . ولكن المؤلف يأخذ في وصف الكرسي والعرش وما جاء في الروايات الشعبية عن ذلك . ولست أدري كيف استطاع أن يجزم بأن عدد الرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده هم ١٢٤٠٠٠ (ص٤٨) فالقرآن لم يذكر عدداً معيناً بالذات !

ويذهب المؤلف كذلك إلى عدم وجود فلسفة إسلامية ، مع أن هـذه القضية التي ثارت منذ القرن الماضي قد انتهى البحث فيها إلى إثبات وجود فلسفة إسلامية لها مميزاتها ولها خصائصها ، وسوف يظهر ذلك جلياً عندما يتم الاحتفال بالعيد الألفي لذكرى مولد الشيخ الرئيس ابن سينا .

ولست أحب أن أمضي في مناقشة الجزئيات الكثيرة التي وقفت عندها واختلفت فيها مع مؤلف الكتاب ، وهي على كل حال لها ما يبررها . وهي وجهة من وجهات النظر لا تدل على جهل صاحبها ، وإنما تدل مع شيوعها وتكرارها على الروح التي أقبل بها على التأليف ، وعلى الصورة التي ارتسمت في ذهنه عن الإسلام ، وهي في جملتها صادقة الصدق الكثير عن حالته في العصر الحاضر .

وهنا نخرج بقضية ولو أن المؤلف لم يذهب إليها إلا أنها تستفاد من الطريقة التي عالج بها الموضوع . وهذه القضية لا تتصل بالإسلام فقط بل بكل دين آخر . وهي : أيمكن أن يفهم دين من الأديان مجرداً عن أتباعه الذين يدينون به ؟ أيمكن أن نفهم معنى الإسلام وما فيه من عقائد وعبادات بغير أن ننظر إلى المسلمين الذين يعتنقون الإسلام .

أما أنا فقد انتهيت في هذه القضية إلى رأي أستطيع أن أطمئن إليه ، وهو أن الإسلام مستمد من المسلمين الذين يتبعونه ويدينون به . حقا القرآن كتاب الله ، وهو دستور المسلمين ، وهو كتاب لا ريب فيه ، لا مبدل لكلماته ، ومع ذلك فقد اختلف المسلمون في فهمه وفي تفسيره على مر العصور اختلافاً عظيماً في المسائل الجوهرية الأساسية . انظر إلى الخلاف بين الناس على تحديد المؤمن والكافر أيام عثمان ، وكانوا قريبي العهد من موت الرسول ، ولم تبلبل الأفكار الأجنبية عقولهم ، حتى لقد ذهب بعض المسلمين إلى تكفير عثمان فاستحلوا دمه . وانظر إلى الخلاف بين علي ومعاوية ، وكلا الفريقين مسلم ، وكيف طلبوا تحكيم كتاب الله ، ومع ذلك لم يحلوا مشكلتهم إلا بالسيف ، وبقي النزاع بين الشيعة والسنة حتى اليوم . وانظر إلى الخلاف بين المعتزلة وأصحاب الحديث ، وكيف ذهب المعتزلة في تفسير الإسلام بعقولهم إلى أبعد الحدود ، حتى قالوا إن القرآن مخلوق ، ودفعوا المأمون إلى اعتناق هذا المذهب ، ونشبت الفتنة التي ضرب من أجلها أحمد بن حنبل .

ولا نريد أن نمضي مع التاريخ نستقي الأمثلة المؤيدة للقضية التي نذكرها ، ولكننا نختم القول بعرض بعض المشكلات التي تجددت في العصر الحاضر . هل الإسلام دين فقط ، أم دين ودولة ؟ هل يمكن أن تعطل بعض الحدود التي وردت نصاً في كتاب الله كقطع يد السارق ، وهي معطلة بالفعل في جميع الشعوب الإسلامية ماعدا الحجاز ؟ إلى آخر هذه المسائل التي تبرز بين حين وآخر ويختلف عليها الرأي .

ونحن نرى أن الإسلام يجتاز اليوم فترة حاسمة من فترات التاريخ ، بعد ذلك الجمود الذي أصاب أهله ، وسوف تشهد الأجيال المستقبلة تغييرات عجيبة تشبه تلك التي شهدها هذا الجيل ، وهي تغييرات سوف ترفع من شأن المسلمين بعد خفض ، وتبدل أحوالهم إلى عز بعد ذل ، مادام المسلمون قد تنبهوا إلى أنفسهم ، واشتد فيهم الوعي ، « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

أحمد فؤاد الأهواني

جون ستيوارت ميل وهاريت تايلر

J. S. Mill & H. Taylor

من أروع ما خلفه لنا الأدباء الإنجليز فى القرن التاسع عشر ، قصة جون ستيوارت ميل عن تاريخ حياته ، التى نشرت بعد وفاته بقليل ، وأهم مايلفت النظر فى هذه القصة هى أنها بالرغم من كونها صورة واضحة لتطور حياة ميل الفكرية منذ نعومة أظفاره إلى أن وافاه القدر فى سنة ١٨٧٣ ، إلا أنها لا تحتوى على شىء من قصة غرامه الذى دام عشرين عاماً لعشيقته هاريت تايلر ، اللهم إلا بعض الإشارات إلى ما كان لها من أثر على كتاباته وعلى تطوره الذهنى والنفسى ، وإلى تأثيرها على ولعه بالفنون ، كالشعر والموسيقى والتصوير . كما لم تحو القصة أية إشارة إلى والدته أو إلى شقيقاته الخمس إلا تلك الإشارة السريعة إلى تدريبه اللغة اللاتينية لإحداهن وهو فى سن الثامنة ! وكذلك خطابات ميل التى نشرت فى سنة ١٩١٠ كانت تفتقر إلى ذكر تلك الناحية العاطفية التى كان لها أكبر الأثر على مؤلفاته وعلى تطوره من وجهة نظره الفردية البحتة إلى آرائه الناضجة عن ضرورة سيطرة الدولة على الفرد أحياناً لصالحه الخاص أو لصالح المجموع .

ولكن أعضاء أسرة ميل والمجتمع الذى كان يعيش فيه ، وحتى أصدقاؤه المقربون إليه لم يستطيعوا أن يتغافلوا عما كان بينه وبين هاريت من علاقات سببت انقطاعه عن المجتمع وانزواءه عن العالم ، وقطع الصلة بينه وبين والدته وإخوته وأصدقائه .

كان من بين هؤلاء الأصدقاء كارليل ، الذى وصف مقابلة ميل الأولى مع هاريت تايلر بلسانه اللاذع المعهود : « كان تايلر رجلاً محترماً جداً ، ولكن زوجته شعرت بغبائه . وقد كانت لها عينان سوداوان ولها نظرة عميقة ، وكان عندها ميل إلى الاستطلاع ، وإلى التفكير فى مسائل كثيرة ... وبصعوبة كبيرة أحضر ميل لزيارتها ! وذلك الرجل الذى لم يك حتى ذلك الوقت قد نظر فى وجه أية أنثى، ولا حتى بقرة ، وجد نفسه أمام هاتين العينين الواسعتين السوداوين اللتين انبعث منهما ما لم يمكن النطق به ، بينما كان هو يناقشها فيما يمكن ذكره فى شأن شتى ألوان الموضوعات الجدية » . .

مثل هذه الكلمات تدعو الباحث إلى الكشف عن سر تلك العلاقة وعن تطورها حتى وفاة جون تايلر ، ثم زواج ميل من هاريت بعد ذلك بعامين . وقد سد هذا الفراغ الكبير فى حياة ذلك الأديب الفذ الكتاب الذى ظهر هذا العام بعنوان « جون ستيوارت ميل وهاريت تيلر » : صداقتهما ثم زواجهما ، لمؤلفه الأستاذ الكبير فردريك آرثر هايك F. A. Hayek الأستاذ بجامعة لندن .

يروى لنا الأستاذ هايك أنه منذ عهد قريب أجرى بحث عن النبغاء من الأطفال حصل فيه جون ستيوارت ميل على أعلى معامل ارتباط للذكاء I.Q. بين كل الأطفال الموجود عن تاريخ نبوغهم أية معلومات ، فلا عجب أن جذب ميل إليه قلب هاريت التى كانت قد اضطرتها ظروفها العائلية القاسية وحالة المجتمع وقتئذ إلى الزواج من جون تايلر الأقل منها ذكاء . أما عن ميل نفسه فقد أعطانا الأستاذ هايك فكرة من حالته النفسية قبيل مقابلته لهاريت ، كما بدت فى خطاب من ميل إلى صديقه جون سترلنج J. Sterling فى ١٥ أبريل سنة ١٨٢٩ . فقد شكا ميل فى هذا الخطاب من شعوره بالوحدة وبأنه كان فى حاجة إلى رفيق يعمل معه إلى الوصول إلى غاية موحدة ، صديق يشجعه ويعاونه على أداء الرسالة التى كان يعتقد بوجوب أدائها إلى المجتمع .

وقد وجد هذا الصديق فى هاريت ، ففى سنة ١٨٣٤ نراها تشجعه ، وتحاول القضاء على خوفه من أن يصبح « غير معروف أو قليل الأهمية » . وفى خطاب منها لزوجها فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٣٧ تذكر هاريت كيف عملت على

لقاء ميل بالزعيم الإيطالي مازيني ، وكيف أعجب به ميل ونصحه بتأليف كتاب عن السياسة الإيطالية منذ سنة ١٨٣٠ ، ثم تلو ذلك فترة يقل فيها ما تركه ميل وهاريت من خطابات ، وذلك عند انقطاعهما عن المجتمع وشدة احتياطهما في المكاتبات لتجنب الإشاعات ، وكان ذلك من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٤٧ . ومنذ سنة ١٨٤٨ بدأ بحثهما المشترك في الحالة الاجتماعية والسياسية للمرأة المعاصرة وعن موضوعات أخرى مثل الاشتراكية والشيوعية والدين وحرية الشعوب المستعبدة والانتخابات البرلمانية وامتحانات المتقدمين لشغل الوظائف الحكومية .

وقبل زواجه من هاريت أعلن ميل في أحد خطاباته (٦ مارس سنة ١٨٥١) عن عزمه في حالة زواجه منها على أن تحتفظ هاريت بكل ما لها من حرية السلوك وحرية التصرف في نفسها وفي كل ما تملك كأنها لم تتزوج منه ، ولذلك يرفض ميل أن يتمتع بأي حق يخوله له القانون يترتب على هذا الزواج .

وليس من العجيب أن يستمر أثر هاريت على جون ستيوارت ميل حتى بعد وفاتها . فبالرغم من أنه عاد بعض الشيء إلى بعض أفكار أيام صباه ، إلا أنه لم يلبث أن عرف واعترف بقدرها وأثرها العظيم على تطور أفكاره وعلى كتاباته . وسنختم المقال بفقرتين مما كتبه ميل عن هاريت بعد وفاتها : نقتبس الفقرة الأولى من إهداء كتابه عن الحرية « إلى ذكرى العزيزة والمأسوف عليها التي كانت الوحي ، وإلى حد ما المؤلفة لكل جليل في كتبي » . أما القطعة الثانية فنقتبسها مما كتب على قبرها في ٣ نوفمبر سنة ١٨٥٨ « إن قلبها الكبير المحب وروحها النبيلة وعقلها الذكي القوي ذا القدرة على التجديد وعلى التفهم قد جعل منها مرشدة ومساعدة ومعلمة في الحكمة ومثلاً في الطيبة ، كما كانت منبع السرور الدنيوي الوحيد لكل من سعد بالقرب منها ، كما كانت حريصة على المصلحة العامة ، كريمة ، محبوبة من جميع من أحاطوا بها .. لقد كان أثرها ملموساً في كثير من التحسينات العظيمة في عصرها ، وسوف يكون كذلك في العصور التالية .

ولو كان هناك عدد قليل من القلوب والعقول مثل قلبها وعقلها لأصبحت الدنيا الجنة المنشودة » .

بهجة عبد المجيد محمد
مفتشة اللغة الإنجليزية بوزارة المعارف

الكلاب بين الحرب والاقتصاد

[هناك على حد من حدودنا استطاع أناس من البشر أن يستفيدوا من كل شيء مهما بدا حقيراً .. حتى الكلاب عرفوا كيف يفيدون منها في الحرب والاقتصاد بإفادة عملية موفقة .. وصفة الكلاب عندنا لا تعدو أن تكون مجرد مادة للشاعر إذا شعر ليشبه بها في الإخلاص والوفاء .. ونحن هنا لم نستطع أن نفيد من شيء مهما بدا ثميناً مبذولا .. فأين هنا من هناك !]

قد يكون عجباً أن أكتب عن الكلاب في دائرة الاقتصاد ، وقد يتساءل البعض : ما هي الصلة بين هذه الحيوانات وبين علم كعلم الاقتصاد يدير اليوم هذا العالم كله إدارة السيطرة والتوجيه ؟ أهو السهو الذي يدفعني إلى ذلك أم الشرود الذي يأخذني إليه ..

وأؤكد أن المسألة ليس بها سهو ولا شرود ، وإنما هي حقيقة علمية وعملية برغم أن منا من لا يسلم بالتفكير فيها ، تلك الحقيقة هي أن « الاقتصاد » ما هو إلا علم يبحث فيما يبحث كيفية الاستفادة من أي شيء تافه يوجد بين أيدينا في هذه الحياة ؛ فقد تبدو قشور الفاكهة الملقاة في « القمامة » لعابر سبيل شيئاً مهملاً لا يسترعي انتباهاً ولا يستوجب أقل اهتمام ، ولكن الاقتصاد لا يمر عليها مر الكرام ، بل يجمعها ويقيم من أجلها معامل ومصانع وشركات ، تخرج منها صناعة ضرورية تفيد المنتجين وتفيد المستهلكين على حد سواء ، فضلا عن إفادتها المجتمع الذي يعيش فيه هؤلاء وأولئك من الفتات ، وكذلك قد تبدو نفايات القصب والفول وغيرها وغيرها أشياء لا تطالبنا بعمل إيجابي لها سوى إهمالها وإلقائها في دائرة المهملات .. ولكن الاقتصاد لا يدعها تدخل هذه الدائرة ، بل يخرج منها أشياء ما كان مجتمع في غنى عنها لأنها من الضروريات .. حتى رأينا أخيراً أنهم في ألمانيا قد صنعوا من الرمال خيوطاً ...

هذا وقت السلم ، فإذا ما قامت الحرب ، فليس منا أحد يجهل ما يستوجبه قيامها أو حتى التفكير في قيامها من اهتمام بالموارد والثروات القومية واستغلال كل الكنوز الاقتصادية ، والاستفادة من كل شيء مهما كان تافهاً . والبحث عن كل ما يمكن أن يكون ذا أثر في الحرب مهما كان ضئيلاً محدوداً ،

وهنا تظهر براعة علم الاقتصاد السياسي ليعمل على تحقيق أهداف الحرب من نصر وظفر ما وسعه الجهد وما تهيأت له الظروف ...

وقد فهم الغرب هذه الحقائق وآمن بها ، فجند كل جنوده واستنهض كل ثرواته ، حتى لم يكفه تجنيد الأشخاص الطبيعيين كما تواتر على ذلك العرف الدولي من قديم الزمان ، بل جند كذلك الحيوانات واستغل اللازم منها ، وخصها بالأساتذة والمختصين ، وفتح لها المدارس والمنشآت ، وأغدق عليها المال ومنحها مزيداً من عنايته ! فلا عجب إذاً أن نال بعد ذلك ما هدف إليه من رقي وظفر هو حقيق بهما جدير بكليهما ...

تلك مقدمة رأيت أن أقدم بها لهذا المقال ، حتى أزيل اللبس وأبدد العجب الذي قد يبديه البعض للخلط بين الكلاب والاقتصاد والجمع بين الحرب والكلاب ..

• • •

تمتاز الكلاب بمزايا خاصة أدت إلى إمكان الاستفادة منها وقت الحرب ، فضلا عن الاستفادة منها وقت السلم ، فمن المعروف أنه في أوقات السلم تقوم الكلاب بمهمة الحراسة في المنازل والحقول ليلاً ، بما لها من قدرة وفراسة وذكاء .

وتقوم كذلك بمهمة هامة في التعرف على المجرمين ، بما لها من حاسة شم نافذة قوية تتبع بها الأثر ، ومنها كلاب نالت كثيراً من الشهرة في القيام بهذه المهمة ...

ومن الصفات المعروفة في الكلاب صفة الوفاء ! وذلك ما يجعل أصحاب المزارع والحدائق والدور يعتنون بها العناية الكافية ، فتقوم بواجب الحراسة أتم أداء ، والمفهوم أن اللصوص يخشون أول ما يخشون كلاب الحراسة في الليل ، ويعملون جهدهم لتحاشيها .

وقد استخدمت الكلاب كذلك في جمع التبرعات للأغراض الإنسانية ، فيربط في أعناقها صناديق التبرعات ، وتمر بها في الأماكن المختلفة من بيوت ونواد وقطارات ، ومن بلد لآخر ، حتى تجمع النقود وتصرف في أوجه البر التي تسعى إليها الجمعيات الخيرية ...

وقد تبين أن صفة الوفاء هذه أيضاً كان لها أطيب الأثر في الحرب ، مضافا إليها صفة الطاعة العمياء ، فقد دربت الكلاب المختارة على الأساليب القتالية ، وخصص لكل كلب سيد يرافقه ويقوم بخدمته والعناية به وإرشاده وتثقيفه وتوجيهه ، والطريق الذي يتبعه السيد مع كلبه هو طريق « الإشارة » فبمجرد أن يشير السيد لكلبه إشارة من الإشارات التي مرنه على فهمها ، يقوم الكلاب بمضمونها خير قيام ، وعلى هذا استطاعت الكلاب المدربة على تلك الأساليب القتالية أن تقوم بالهجوم المضاد على أي شخص مواجه غير أسيادها .

وفضلا عن ذلك دربت الكلاب على الحراسة وقت الحرب فاستطاعت أن تقوم بحراسة المنشآت والمباني الحربية ، فضلا عن حراستها السواحل .

ولم تقتصر مهمة الكلاب وقت الحرب على مهمة الحراسة والهجوم طبقاً للأساليب القتالية ، بل كان منها فرق الكشافة ، وفرق الصليب الأحمر ، وفرق المراسلات ، وفرق المركبات الجليدية . ومهمة كلاب الكشافة معرفة مكان العدو ومكامن جنوده المختفين بما لها من قدرة عجيبة على الشم والتتبع الدقيق . وكلاب الصليب الأحمر تقوم بالبحث عن الجرحى المتناثرين هنا وهناك في الميدان وترشد الفرق الطبية إليهم لنقلهم إلى حيث تضمد جروحهم ! حتى إن من هذا النوع كلاباً تستطيع التمييز بين جرحى بلادها وجرحى العدو ، فلا تهتم إلا بالأولين . وكلاب المراسلات تقوم بنقل الرسائل والخرائط من مكان إلى آخر . أما كلاب المركبات فهي التي تجر الأسلحة والذخيرة والمؤن في الأرض والمسالك أو المناطق الجليدية التي لا يستطيع الجنود أن يجتازوا بها . وثمة كلاب تقوم بحمل الأطعمة والمؤن من أماكن خطرة ، لا يستطيع الجندي أن يقوم بها إلا وتعرض حياته للخطر .

ولن تدرب هذه الكلاب جزافاً ، بل إن ثمة إخصائيين فنيين يفحصون الكلاب تلو الكلب ! ليقفوا على ما يليق به من عمل ، وليقدموا له نوع الخدمة الذي يكون أكثر لياقة لها ، والذي يكون أشد صلاحية للقيام بها .

ويلاقي المدربون كثيراً من العنت في تدريب الكلاب وقت الحرب ، إذ من مهمتهم أن يدربوها على اعتياد الأصوات التي تحدث وقت القتال كأصوات القذائف والقنابل والمفرقعات ، فيضطرون إلى إطلاق مجموعة كبيرة فارغة منها

على مقربة منها لتعتاد أصواتها ، كما يشترط فى هؤلاء المدربين أن يكونوا على قدر وافر من الذكاء والصبر والدقة والأمانة .

وفى الحرب العالمية الثانية اهتم البريطانيون بتدريب الكلاب وإعدادها للقيام بالأعمال الهامة فى الحرب أبلغ اهتمام ، وأقاموا ثكنة خاصة بالكلاب الحربية فى Walking — وهى تبعد بعض الشىء عن لندن — وعهدت إلى اللفتننت كولونيل (ا . ه) . ريتشاردسون — وهو خبير إخصائى — بتدريبها ، فاستطاع أن يدرب آلافاً منها ، استخدمت فى الميدان الحربى وسواه من الميادين .

واستطاع الكولونيل ريتشاردسون أن يتبين أن لدى الكلاب غريزة موروثة فى اعتيادها على السكاكات ، فأخذ يجرب تدريبها على المناطق الواقية اعتماداً على هذه الغريزة .

وقد تبين أن فصيلة (إردبل) من الكلاب أصلح الفصائل للتدريب الحربى ، بيد أنها بالرغم من ذلك تتطلب كثيراً من الصبر والحزم ، كما تحتاج إلى دراسة ومتابعة دقيقة واهتمام بالتمشى مع نفسياتها التى تتطلب مزيداً من الخبرة .

وقد توصل المختصون إلى تدريب الكلاب على حمل السلال التى تحوى الحمام الزاجل بقصد توصيله إلى أماكن معينة ، يستطيع منها أن يطير قاصداً أبراجه ، وفى كل الأعباء التى تلقى على الكلاب فى الحرب ، تستطيع هذه الكلاب بما وهبت من فراسة وذكاء أن تخترق كثيراً من الصعاب وأن تعرض لكثير من الإصابات التى لابد منها ، ومهمة الطبيب البيطرى بعد ذلك هو تضميد جراحها والاهتمام بأمرها ؛ وإذا ماقدر لأحد الكلاب الحربية المدربة أن يقتل فى أثناء قيامه بعمله ، فلا تدرك إذاً مبلغ التأثر الذى يعترى مدربه وسيده الذى يقوم بأمره وتوجيهه ، ولا تدرك مبلغ الاهتمام الذى تبديه السلطات الحربية بهذا الاستشهاد فى ميدان الحرب ، فتقوم على الفور بتعزية السيد المدرب تعزية رقيقة تزيل مايشعر به من ألم وحسرة .

وقد أمكن أخيراً أن تدرب الكلاب على حمل أجهزة الرادار ، فقد جاء فى جريدة الأهرام (٣/٤/١٩٥١) أنه قد « تخرج من إحدى مدارس التدريب الامريكية فى ألمانيا الغربية ٢٧ كلباً بعد أن تم تدريبها على حمل أجهزة الرادار ، والتجول فى مناطق معينة ، بحيث يمكنها الاقتراب من أماكن العدو ، والتسلل خلال حواجز الأسلاك الشائكة ثم العودة إلى فرقها » .

أحمد محمد السنترسى

بداية الموسم المسرحى

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

يحسن بنا وقد بدأ الموسم المسرحى الجديد أن ننظر قبل كل شيء فيما جنيناه من الموسم الماضى . كذلك يفعل نقاد الغرب ، فهم يسترشدون بالماضى ليعملوا على تلافى ما يمكن تلافيه من أخطاء ، وبهذا يستقبلون مواسمهم الجديدة ، وهم أكثر ما يكونون تهيؤاً للتطور والنماء .

وكذلك ينبغى أن نفعل لا لمجرد التقليد ، بل التماساً للفائدة . غير أنه من الصعب أن نتوصل إلى ذلك بمثل ما يتوصلون به عادة من « إحصائيات » تهديهم المقارنة بين أرقامها إلى ما يريدون الاهتداء إليه ، تبعاً لما تسجله مثلاً من زيادة أو نقصان ، أو تغير فى عدد دور المسارح وأشكالها ، وعدد المتفرجين واتجاهاتهم ، وعدد التمثيليات وأنواعها ، وعدد المؤلفين ومذاهبهم .. الخ ... فالأمر بينهم وبيننا جد مختلف لسبب واحد ، هو أنهم — على العكس منا — قد فرغوا منذ زمن بعيد من توطيد دعائم الفن المسرحى فى بيئتهم ، وتأصيل مراتبه ومعانيه فى أنفسهم .

ولست أنكر مع هذا أننا نحاول جهد المستطاع تحقيق ذلك ، بل لو أننا أخذنا فى الاعتبار ضآلة إمكانياتنا وحداثة عهدنا بهذا الفن ، لوجدنا — بلا شك — أننا قطعنا فى هذه السبيل شوطاً لا بأس به . إلا أننا يجب أن ندرك أنه من العسير علينا فى بيئة لم تعرف المسرح إطلاقاً قبل أن تنقل إلينا بعض أوضاعه فى أواخر القرن الماضى ، وبين قوم ليس فى أنفسهم موضع أصيل للشغف به ، أن نتخذ من مجرد « إحصاء » مقارن لبعض مظاهر النشاط المسرحى معياراً دقيقاً نزن به إنتاجنا فى هذا المضمار . وإنما ينبغى أن تكون معاييرنا والحالة هذه من نوع آخر ، بحيث نسجل أول ما نسجل ثلاثة أمور فى غاية الأهمية :

الأمر الأول : مدى اقتراب إنتاجنا من الأوضاع الفنية الصحيحة .

والأمر الثانى : مدى قدرته على تقريب هذه الأوضاع لأذهاننا .

والأمر الثالث : مدى تأثيره فى البيئة تأثيراً إيجابياً يهيئها لتقبل هذه الأوضاع .

وذلك لأنه وإن يكن من المقطوع به أن فن المسرح يقوم على المحاكاة ، وأن المحاكاة — وهى أصل الإحساس الدرامى — غريزة فطرية عامة ، بل إن الإحساس الدرامى ذاته إحساس إنسانى عام لا يختلف فى جوهره باختلاف الأفراد ولا باختلاف العصور ، إلا أن ازدهار المسرح فى عصر دون عصر ، وفى شعب دون آخر ، يدلنا على أن حصيلة هذا الإحساس وتلك الغريزة لا تستوى « فناً » إلا إذا تكاملت عوامل ومهيئات وظروف معينة فى بيئة مكيفة تكييفاً معيناً .

وغنى عن البيان أن بيئتنا ليست مسرحية ، إذ أن هناك جفاء موروثاً لأسباب لا يتسع المقام لتفصيلها بين الفنون التصويرية والتمثيلية بصفة عامة ، وبين البيئة الشرقية كلها ، جفاء يصل إلى حد الكراهية ، وأحياناً إلى حد التحريم .

ولئن كان ذلك غير واضح كل الوضوح بالنسبة للفنون التى تقوم على الزخرفة بالألوان والخطوط ، أو بمجرد المشابهة بين الصورة والمثال ، فهو واضح تماماً بالنسبة للفن المسرحى الذى يقوم على « التقليد الفنى » ويتخذ أداته الأولى من العنصر البشرى .

ومعنى ذلك أننا إذا أردنا تقويم إنتاج الموسم الماضى

تحتم علينا أن ننظر إليه من حيث مدى قدرته على النهوض بالأمور الثلاثة التى أسلفناها .

ولما كان هذا الموسم لاحقاً لعشرات المواسم السابقة عليه ، فقد أصبح لزاماً علينا أن نتحرى أولاً : ما استطاعت تلك المواسم أن تنهض به ليتسنى لنا معرفة المرحلة التى أوصلتنا إليها ؛ وبالتالى معرفة المرحلة التى بدأ منها الموسم الذى نحن بصدده ، ثم المرحلة التى انتهى إليها .

والواقع أن المواسم السابقة كلها يمكن اعتبارها موسماً واحداً مستطيلاً خلال حقبة واحدة بدأت فى أواخر القرن الماضى وانتهت عام ١٩٤٩ ، أى يمكن القول بأن المسرح المصرى ظل من أول هذه الحقبة إلى آخرها على قدر واحد دون تقدم أو تطور ملحوظ .

فقد بدأ فى أولها بداية افتعالية ، بمعنى أنه لم ينبت نبتاً طبيعياً كما حدث عند الإغريق ، ولم يُستنبت استنباتاً سليماً كما حدث فى أوربا ، وإنما نقلت بعض أوضاعه ونقلت نقلاً ساذجاً متناسباً مع سذاجة أهل ذلك الجيل ... وانتهى فى آخرها نهاية مؤسفة اختلف النقاد فى تعليلها ، فمنهم من علّلها بغلبة السينما عليه ، على اعتبار أنها أكثر منه ملاءمة لروح العصر ، ومنهم من علّلها بانصراف الناس إلى أمور معاشهم لقسوة وطأة الحياة المادية ، ونسوا جميعاً أن المسرح فى لا يزال يعيش ويزدهر عند الأوربيين ، وهم أكثر منا اشتغالاً بالسينما ، وأكثر منا تكالباً على الأمور المعاشية .

والحقيقة أن علة انحطاط المسرح فى بداية هذه الحقبة هى علته فى نهايتها ، ومبعثها الرئيسى أننا لم نستطع أن نمهد له البيئة التى يعيش فيها ، والعقلية التى تحركه . فكما أن فكرة الجيل القديم عنه لم تخرج عن اعتباره إحدى وسائل التسلية والتلهية والتنفيس ، كذلك ظلت فكرة الجيل الأخير عنه مع اختلاف فى التفاصيل دون الصميم .

والروايات ذاتها خير شاهد على ذلك .

ففى الجيل القديم راجت الهزليات الغنائية أكثر من غيرها ، لدرجة أن الروايات التى لم تكن ذات مضمون هزلى كانت لا تمثل وحدها ، بل لابد من أن تعقبها إحدى هذه الهزليات . كذلك راجت الروايات التى تدور حول البطولة الخارقة أو التضحيات المثالية وما شابه ذلك . فإذا رأينا مثلاً أنهم كانوا مولعين برواية (هملت) بعد تشويهها ومسخها كعادتهم بما يسمونه التعريب أو التمصير لها ذلك لأنهم فهموا مضمونها الشكسبيرى ، بل لأنهم حسبوا أنها مثل رائع من أمثلة البطولة كما يتصورونها .

وربما كان أصدق تعليل لهذا أن ذلك الجيل كان شديد الشبه بشعوب القرون الوسطى — ولا أقول الطاقة — فى أوربا . لذلك أحبوا مثلهم الهزليات لأن حياتهم مليئة بالضيق والكبت ، وأحبوا المثاليات لأن فيها تحقيقاً لأحلام وأوهام بعيدة المنال .

ونحن إذا نظرنا إلى الروايات التى راجت عند الجيل الأخير لوجدناها أيضاً امتداداً مباشراً لهـذه الاتجاهات . فعلى الرغم من وفرة الروايات الغربية الممتازة التى تنهج نهجاً واقعياً ، أى تهتم بالحياة وتزرى بالغيبيات وتحض على الوعى وتبصر الحقائق وتعتمد على التحليل والاستقصاء والتغلغل فى النفس البشرية ، وتعالج الفرد والمجتمع معالجة حيوية ، نجد أنهم لايترجمون أو يقتبسون إلا روايات لا تمت للواقع بصلة ، ولايؤلفون إلا روايات « تاريخية » هى فى حقيقتها هروب من نطاق الواقع .

فنرى رواية (تاج المرأة) مثلاً وهى أصلاً رواية اسكندر دوماس المعروفة باسم Denise أن العاشق المخلص يتجاوز عن كل الفوارق التى قد توجد بينه وبين عشيقته ويغفر كل أخطائها بالغة مابلغت من الهوان .

ورواية (فى ظلال الحريم) تحض على التمسك بأهداب الشرف تمسكاً مثالياً بعيد التصور .

ورواية (الغيرة) تصـور أثر الشيطان فى تحطيم السعادة العائلية .

ورواية (عفريت مراتى) تقوم على افتراض إمكان استحضار الأرواح وبعثها لعالم الحياة الدنيا .

ورواية (الموت فى إجازة) تؤكد أن الحب أقوى من كل شىء حتى من الموت ذاته .

والروايات التاريخية على وجه العمـوم لاغرض لها — كما يقول مؤلفوها أنفسهم — سوى « إظهار صفحات مشرقة من تاريخنا » ... إلخ ... إلخ ...

وهكذا نجد أن مجرد تساؤلنا عن أسباب اختيار مترجمات

ومقتبسات ومؤلفات تحض على الفضيلة أو تدور حول قدسية الحب أو تستعين بالأرواح والأشباح والشياطين أو تغرق في أحلام الماضي وأوهامه ، لبدا لنا أن تلك الفترة من آخر تلك الحقبة تشبه الفترة الأولى منها ، وأن الجيل الأخير لا يزال كالجيل القديم من حيث الشغف بالحزليات والبطولة الخارقة والاستغراق في الوهم .

إلى هذا انتهت كل المواسم المسرحية حتى حـل الموسم الماضي . فهل يعتبر أيضاً امتداداً لها أم مختلفاً عنها وإلى أي حد ؟!

لقد تميز هذا الموسم بميلاد فرقة جديدة في طابعها وتكوينها وأهدافها ووسائلها ، وهي فرقة المسرح المصري الحديث . فقد قامت على أسس معهدية وأعرضت عن عالأة النزعات السطحية ، ولذا عمدت أول ما عمدت إلى إرجاء المؤلفات المحلية لخطوة تالية وآثرت الترجمات الممتازة من روائع المسرح الأوربي ، فقـدمت ثلاث روايات لموليير ورواية لتشيكوف وأخرى لبرستلي ، دون أن تمسخها أو تشوهها بالتمصير والتعريب ، وأخرجتها جميعها إخراجاً إيجابياً ممتازاً وأعلنت اعتزامها تقديم غيرها من هذا القبيل لجان بول سارتر وبيراندللو وشكسبير ومن إليهم .

وإذاً تكون بذلك قد قدمت نماذج مختلفـة للأوضاع المسرحية الصحيحة وحاولت — بالإصرار على هذا النهج الجدي — تقريبها لأذهاننا .

ولـكن هل معنى هذا أنها قد استطاعت أن تغير البيئة والعقلية تغيراً يجعلها أهلاً لفهم هذه الأوضاع ؟! .

إن واجب الإنصاف يقتضي أن نقرر أن تحقيق ذلك تحقيقاً كاملاً في موسم واحد ضرب من المستحيل ، وأن المسرح لم يصبح ناضجاً في أي أمة من الأمم إلا بعد جهد طويل ، فـكيف به في مثل ظروفنا وأوضاعنا ومسـتوانا الفكري والاجتماعي ؟ إنما المهم أن نحاول النهوض بادئين بداية صحيحة لنسير في طريق صحيح . ويستلزم ذلك ويستتبعه في نفس الوقت أن ننهض بحياتنا لننهض بمسرحنا وأن ننهض بمسرحنا لننهض بحياتنا . فكما أن المسرح مرآة الحياة فـكذلك الحياة مادة المسرح . ولـكن من المحتم طبعاً أن يتطرق إلى تفكيرنا مثـلاً أن نرجئ مسرحنا إلى أن ترتقي حياتنا ، وإنما علينا أن نعمل على رقيها بإيقاظ الوعي والتفكير والاهتمام بالواقع والمحسوس وطرح الغيبيات والخرافات والتوسل بالعلم والتجربة ، وأن نعمل — فيما يتصل بالمسرح — على استخدامه في ذلك كله على نحو ما استخدمه إبسن وشو مثلاً في النهضة الأوربية الراهنة .

واعتقادي أن خير ما يعين مسرحنا على ذلك أن يجتاز ثلاث مراحل لا مناص من اجتيازها .

المرحلة الأولى : مرحلة الترجمة عن الغرب ترجمة حرفية ، وربما يكون الاعتراض الوحيـد على ذلك أن الآداب عامة والآداب المسرحية خاصة مرتبطة بحياة الشعوب التي صدرت عنها ارتباطـاً يصعب معه تعمق غيرهم في فهمها وتمثلها . وهذا صحيح إلى حد بعيد . غير أن الذي يعوضنا أن في الثقافة الرفيعة — كما يقول ديهاميل — رياضة عقلية هي الهدف الأول لـكل تربية صحيحة ، كما أنها عميقة الفهم لـكل ما يمس الإنسان ، وأن الأدب المسرحي بصفة خاصة لا يعتبر ممتازاً إلا إذا توفر فيه العنصر الـكوني من جهة وكان إنساني الصبغة من جهة أخرى . فلا ضير علينا إذاً من أن ننتقل عن الغربيين فيما امتازوا فيه في إخلاص وتواضع وصبر وبغير غش أو تمويه .

وإذ تهدينا هـذه المرحلة إلى فهم المسرح وأوضاعه وطبيعته ووظيفته فهماً تطبيقياً ، ننتقل بعد ذلك إلى مرحلة أخرى هي مرحلة التجربة والممارسـة التي تحتمل الخطأ والصواب ، ومعلوم أن هـذه مرحلة سابقة على مراحل الخلق والابتداع في تاريخ المسرح كله .

ثم ننتقل تدريجياً بعد ذلك وتبعاً لذلك إلى مرحلة الخلق والابتداع ، أي المرحلة التي تتحدد فيها اتجاهاتنا والموضوعات التي نتناولها وطرق أدائها عن وعي وبينة .

من أجل ذلك كله يمكن تمييز الموسم الماضي وحده عن كل المواسم السابقة ، لأننا حاولنا السير فيه على هدى وبصيرة . صحيح أنه لم يبرح المرحلة الأولى ولـكن صحيح أيضـاً أن هذه المرحلة مرحلة شاقة ومن الخطورة أن نسرع في اجتيازها ، وحسبنا أننا بفضل هـذا الموسم قد انتقلنا من الارتجال والعبث إلى منهج واضح المعالم والحدود .

وكل ما نرجوه أن نرى في الموسم الجديد تأكيداً لهذا المنهج .

عبد الفتاح البارودي

حول فلم مكبث

للأستاذ سامي أمين

أعتقد أن النقاش الذي ثار على صفحات هـذه المجلة حول فلم مكبث لم ينته بعد ، إذ أن الأستاذ الناقد عبد الفتاح البارودي عندما حاول تفنيد آرائي في العدد ٦٦٠ من هذه المجلة لم يعرض هو من ناحيته آراء سليمة مقبولة تفيدنا في فهم مغزى الرواية وتقربنا من جوهرها ، وإنما ثار عدة أسئلة من شأنها الإرباك والتشكيك لا الإفهام والتقريب .

ومن هذه الأسئلة أن الأستاذ بعد أن يزعم بأن شكسبير : « يؤمن بأن القدر هو المتصرف في الحياة الدنيا ، إذ أنه يرمز له برموز مرئية ، كالأشباح والأطياف والساحرات وما إليها ، ويجعل لها نصيباً كبيراً في تكييف تراجيدياته » ، يعود فيقول متشككاً مرتاباً : « كما أننا نستطيع في نفس الوقت أن نقول إنه لا يؤمن بالقدر ، لأنه يقصر رؤية هـذه الرموز على أبطاله أحياناً ، وأحياناً أخرى يشرك غيرهم في رؤيتها دون أن ندرى سبباً لهـذا أو ذاك » ؛ ومن هـذه الأسئلة أيضاً أن الأستاذ الناقد يخلص إلى القول بأننا : « لا نستطيع الجزم بأن هـذه الرموز القدرية موضوعية أو ذاتية ، وبالتالي لا نستطيع تحديد مسئولية مكبث عن مأساته » و « أقصى ما يستطاع — ولعل هـذا هو مغزى الدراما — أن نتساءل : هل نحن ألعوبة في يد القدر ، أم نحن المسئولون عن أعمالنا ؟ وهل للإنسان أن يختار ؟ وهل يصرعه القدر أم خطاياه ؟ الخ .... الخ .... » .

كل هذه الأسئلة التي أثارها الأستاذ وزعم بأن الفلم يحث عليها ويوحى بها ، أساسها شيء واحد هو إدخال القدر في موضوع بعيد عنه بعد الأرض عن السماء . فإن شكسبير لم يشر إلى القدر بروايته هذه لا من بعيد ولا من قريب ، وجميع مشاهد الفلم تؤكد رأيي هذا ، وأن زعم الأستاذ بأن الساحرات الثلاث إن هن إلا رمز القدر لا يقبله المنطق السليم ، لأن شكسبير من الدقة والفهم بحيث لا يرضى لنفسه بأن يرمز للقدر وهو المتسلط العاتي الجبار بساحرات ثلاث يمثلن قمة الضعف والعجز والانحلال فضلاً عن أن الأستاذ الناقد نفسه قد عجب لانفراد « البطل — في مشهد الوليمة — برؤية شبح بانكو ، بينما — في مشهد الساحرات — يشترك معه بانكو في رؤيتهن » ، فلو أن الأستاذ حاول فهمي بقدر ما حاول تفنيد آرائي في الفلم ، لما اضطر إلى هذا التساؤل والتعجب ، بل لوجد أن أي تغيير في وضع الرواية ومشاهدها الحالية كان من شأنه أن يربك المتفرج المتتبع ويضيع عليه القصد الذي توخاه شكسبير ، والمغزى الذي تفصح عنه الرواية .

فإن الأستاذ لو سلّم معي — جدلاً — بأن الساحرات الثلاث رمز الخرافة ، لما وجد ضيراً في أن يشترك بانكو مع مكبث في رؤيتهن ؛ فالخرافة شائعة بين الناس في عصر شكسبير ، والإيمان بها وبإيحاءاتها ليس مما يعاب المرء أو يؤاخذ عليه ؛ فأما في مشهد الوليمة حيث يتفرد مكبث برؤية شبح بانكو ، فذلك لأن مكبث هو المجرم دون غيره ، وظهور الشبح لا يعني أكثر من تذكيره بفعلته وإحساسه بجريمته ، وهـذا المشهد من شكسبير إشارة إلى الضمير الإنساني الحيّ الذي لا تطمره الشرور والآثام والمظالم ؛ وتصوير فنه لنبل الإنسان ويقظته الخالد ، فالإنسان لن يغفو غفوة أبدية عن شرفه ومعنوياته ومثله العليا التي ترفع من شأنه وتزيد من قيمته ، فيعيش في مادية بحتة وحيوانية منحطة لا إحساس فيها ولا تنبه معها ، وإلا ما كان الإنسان ينتشل نفسه من أغوار تلك الغابات التي عاش فيها أجداده قروناً لا عدّ لها ، فلم يكن بوسع شكسبير أن يتيح

صدى بريد الثقافة

من قارئ إلى قارئ :

معذرة يا سيدى إذا اضطررت نقدك للدكتور زكى نجيب محمود أن أشبهك بطلابنا فى أول عهدهم بالجامعة ، وقد جهلوا تماماً أن رسالة الأستاذ الجامعى تنحصر فى التوجيه دون التلقين ، وراحوا يطالبونه بصب العلم فى عقولهم صبا . فأنت تريد من أستاذنا الجليل أن يصب لك روائع العلم والفن الغربى فى مقال أدبى قصير ، ليعرض على من يريد الاطلاع ومن لا يريد ؟ وأنت لا تقدره حق قدره حينما يكتفى بتوجيه قرائه ، وكلهم فى مستوى عقلى يتيح لهم الاطلاع على ما يرغبون . ومع ذلك فمن يستطيع أن يحكم بأن مقالات هذا الكاتب القدير صفر من مثل هذه الروائع ، وكيف لم تفطن إلى سيادة هذه الروح العلمية والفنية فى كل مقالات المجلة ، وما ذلك إلا بفضل توجيهه ، وحسن اختياره ؟.

أنت ، يا سيدى ، تطالبه بسرد النظريات سرداً ، وكأن المقالة الأدبية فصل علمى فى كتاب مدرسى .. وهنا أرجو معذرتك مرة أخرى إذا صارحتك بأنك لا تعرف شيئاً عن أستاذنا الجليل .. لا تعرف أنه حين يهوى كتابة المقالة الأدبية لا يترك قلمه يتخبط على غير هدى ، وإنما هو ما يزال يبحث آراء كبار كتابها ، ويفحص مذاهب كبار نقادها ، حتى يخلق لنفسه آخر الأمر مذهباً جديداً يسير على هداه ، وقتاً مكباً يتغلغل فى نفسه ويوجه قلمه ... ولو أنك كلفت نفسك الاطلاع على مؤلفه القيم « جنة العبيط أو أدب المقالة » ما تجشمت قلمك مطالبته بالكف عن الثورة ، لأنك كنت ستعرف أن (شرط المقالة الادبية أن يكون الأديب ثائراً) . ثم ما حملت نفسك سؤاله السقيا بروائع العلم والفن ، لأنك كنت ستتبين أن المقالة الأدبية يجب أن تكون (أقرب إلى الحديث والسمر ، منها إلى التعليم والتلقين) .

وأخيراً ألتمس معذرتك — يا سيدى — إذا اتهمتك بأنك لم تسمع عن إنتاج علمى أو فنى لأستاذنا الجليل ، ولو أنك ألممت بشىء منه لعلمت أنه حين فرق بين المقالة الأدبية والكتابة العلمية لم يفعل ذلك تهرباً من عدد الراسخين فى العلم أمثالك ، وإنما فعله ليفصل بين الاثنين : فيبدع فى تلك ، ويتنج فى هذه أعظم الإنتاج . فاقرأ له — ياسيدى — كل ما ترجم عن الحضارة الغربية .. ، اقرأ له منطقه الوضعى الحديث الذى ضمنه نقداً دقيقاً لنظريات كبار الفلاسفة ومناهجهم ... اقرأ كل هذا ثم اخدع نفسك إذا شئت وقل : إنه لا يفعل إلا أن يثور .. ، أو ابغ الحق واهتف مع ذلك القارئ الذى علق على مقالاته ، وكان فى تعليقه أكثر منك توفيقاً : « إذا هذا هو الرجل الذى عرف بحق كيف يفرق بدقة بين حدود الأمور ، أين ينتهى كل منها ؟ وأين يبدأ ، وكيف يمتد ، وما علاقته بغيره ، وعلى أى أساس يقوم » .

القارئ : م . ع

لمن كان مع مكبث فى مشهد الوليمة رؤية شبح بانكو ما دامت معالم الجريمة مخفية إلا عن مكبث نفسه ، لا يدرى بها أحد سواه .

هذا عن إنسانية مكبث وعن الخرافة التى وجهت خطواته بإيحاءات الساحرات الثلاث وإيمانه بها ، ومن ثم سعيه لتحقيقها ، فبلغ العرش ، ولكن بعد أن اقترف الآثام وأثقلت حياته وتنغص عيشه ؛ فأما فيما يخص الدين ، فإن مكبث بعد أن تستقر شئونه وتصفو أموره ، يتلفت وراءه فيجد ماضيه حافلاً بالمظالم والقبائح ، وتتململ فيه عقائده الدينية ، فيبدأ يتساءل عن الجحيم وكيف هى : أهى ذات لون أسود حقاً أم أحمر ؟! ... ثم لا يدرى كيف يسترضى ربه الذى أغضبه بأفعاله المنكرة ، وكيف يكفر عن سيئاته ، فيتساءل هو وزوجه ، شريكته فى الجرائم : ترى هل تستطيع كل عطور الشرق غسل ذنوبه وتطهير يديه الملوثتين ؟! ...

ويصل مثل هذا التساؤل الذى يدفع الدين إليه ويحث عليه تصبح حياة مكبث فيما بعد ، إلى آخر الفلم ، جحيماً لا يطاق .

فلو لم تكن حياة مكبث متأثرة بالخرافة من ناحية وبالدين من ناحية أخرى ، كما كانت حياة العامة المتأخرة فى عصر شكسبير ، لسار مكبث فى غير هذا الاتجاه ولعاش عيشة غير معقدة هذا التعقد العنيف الذى أشار إليه شكسبير ، ووجه أنظار الناس نحوه كأنه يحذرهم من نتائجه ، وعرض على العقلاء من الناس والمتحررين ، من ناحية ثانية ، هذا الصراع الجبار الذى عانته الأجيال السالفة فكانت فى عناء دائم ونزاع نفسى قتال .

ولولا هذه الميزات فى فلم مكبث لسقطت أهميته ولكان من الأفلام العادية التى لا تستحق إلا القليل المألوف من الالتفات ..

(دمنهور) سامى أمين

قالـــوا

مختارات لشكسبير :

● إن الأمل سريع يطير بأجنحة الخطاف فيخلق من الملوك آلهة ، ومن قليلي الشأن ملوكا

● لا أحسب نفسي سعيداً في شيء كما في تذكري أصحابي الأخيار .

● الأمانة كالبخيل تقطن في بيت حقير ، وكاللؤلؤة توجد في المحارة .

● الاعتدال في البكاء من حق الموتى ، أما الإفراط فيه فعدو الأحياء .

● إن حب المرء السموات يجعله سماوياً .

● لا يأوه الحب عبثاً .

● الحب أعمى فلا يوافقه سوى الليل البهيم .

مختارات للجاحظ :

● الحسد — أبقاك الله — داء ينهك الجسد ويفسد الأود ، علاجه عسر وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض وأمر متعذر ، وما ظهر منه فلا يداوى ، وما بطن فمداويه في عناء .

● ما رأيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه وتخوص عينه وإخفاء سلامه والإقبال على غيرك والإعراض عنك والاستثقال لحديثك والخلاف لرأيك .

● وأنا أقول حقاً ، ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه ، ولا قدر على إخفائه وكتمانه حتى يتمرد عليه بظهوره وإعلانه ، فيستعبده ويستمليه ويستنطقه لظهوره عليه ، فهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل على زوجته ، ومن الآسر على الأسير .

الثقافة

العدد ٦٦٩ ٢٢ من أكتوبر ١٩٥١	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	الثمن ٢٠ مليما

صفحة

أغنية الكفاح

فجر .. ونور .. !

أقبل الفجر وغنى في الذرى طير الأماني
فانتشى النيل ، وأسماع الورى والشاطئان
بهجة في الأرض تنشى كل أفق ومكان
والمشام ساحر رف على ثغر الزمان

إنه يا نيل عيد .. تنشق الأرواح زهره
هتفت في غمرة البشرى ! فما أروح عطره !

اصدحي يا طير .. هذا العيد عيد الكائنات
كم ترقبناه شوقاً فهو أحلام الحياة
بقلوب ظامئات وعيون المهجات !
فإذا بالغد في جنبيه فجر الأمنيات

إنه يا نيل عيد .. تنشق الأرواح زهره
هتفت في غمرة البشرى ! فما أروح عطره !

هاهو العيد تثارت بأحضان الرياح
فارقصي يا بهجة النيل على لحن الكفاح
وغني نشوة الدنيا وأفراح الصباح
فالمنى ملء يدينا والسنى خافق الوشاح

إنه يا مصر عيد .. تنشق الأرواح زهره
هتفت في غمرة البشرى ! فما أروح عطره !

خمدت نارك يا أمس خموداً فصحونا
فإذا بالركب لا يشكو على البيداء أينا
فرحة يا رب .. ! عيد ملأ الأكوان لحنا !
ما علينا رضي « العرب » فأشتفى أم تجنى ؟

إنه يا شرق عيد .. تنشق الأرواح زهره
هتفت في غمرة البشرى ! فما أروح عطره !

(القاهرة) محي الدين فارس السوداني

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | الإدارة | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | | محمد عبد الواحد خلوف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٦٩ الاثنين ٢١ من المحرم سنة ١٣٧١ — ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٥١ السنة الثالثة عشرة

إلغاء المعاهدة

للدكتور أحمد أمين بك

كان أهم حادث في مصر هذا الأسبوع إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ واتفاقيتي السودان . ومع أن دين الإسلام يؤكد عدم إلغاء المعاهدات ، والمحافظة على تنفيذها ، فيقول الله تعالى : «فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم» ، اضطر المصريون إلى هذا الإلغاء ، بعد أن ضاقت صدورهم من معاملة الإنجليز لهم .

وقد ظلوا ستة عشر شهراً بعد عدة سنين يفاوضونهم ، والإنجليز يحاورونهم في إحلال لفظ مكان لفظ ، وصيغة مكان صيغة ، أما جوهر المعاهدة فباقٍ لم يتغير . أضف إلى ذلك أن الإنجليز كانوا أول من نقضوها ؛ فقد نص في المعاهدة على تحديد عدد المقاتلين فتجاوزوه بأضعاف ، ونص فيها على تدريب المصريين وإمدادهم بالسلاح الكافي فلم يفعلوا ، فلما لم تُجدِ أية محاولة ، اضطر المصريون إلى الإلغاء ، وحسناً فعلوا . فقد ضاقوا عن الطوق ، ولم تعد تجوز عليهم الحيل .

لقد غيروا الاحتلال بالانتداب ، ويريدون أن يغيروا الانتداب بالدفاع المشترك . وكل ذلك في القاموس السياسي سواء .

وهذا الاحتلال بغيض كل البغض عند المصريين ، يخدش شرفهم ، ويقف في سبيل عزتهم ، وكان مقبولاً في الزمن الماضي أيام الغفلة وضعف النفس ، ولكن تطور الزمن ، وأصبح ممقوتاً وبدعة قديمة . وقد تحررت منه أمم أوربية مسيحية كثيرة ، ليس شأنها ولا مركزها أعلى شأناً من مصر ، وكان الإنجليز أنفسهم يساعدون في تحررها ، ويحاربون بالسلاح من أجلها كما فعلوا في اليونان . أكان ذلك لأن مصر بلد إسلامي ولا تزال معاني الحروب الصليبية متغلغلة في نفوس الأوربيين مع دعواهم التحرر منها ؟ أم لشيء آخر ؟ .

على كل حال ألغيت المعاهدة ، وبقي النظر فيما يتبع الإلغاء . وربما كان ما يتبعه أصعب منه . فهو يحتاج إلى رسم خطط دقيقة وتنفيذها في حزم .

وهناك فرضان قد تسلك أحدهما انجلترا : الأول أن تضبط عواطفها وتملك نفسها وتجاري الظروف ، وتسوس الأمور في حكمة ، وتعلم أن السياسة التي كانت تسير عليها قديماً لا يصلح تطبيقها اليوم ، فقد كان ظهور مركب حربي في المياه المصرية كافياً للقضاء على كل ما يعارضها كما حدث ذلك من قبل مراراً ، ولكن اليوم لو ظهرت أساطيل بأكملها ما غيرت موقف مصر . والحكمة تقضي بأن يواجه كل أمر

بالأساليب التي تتفق مع زمنه ، وأن يغير منهج كلية « إيتون » التي تخرّج السياسيين كما تغيرت الظروف ، ولا تجمد على أساليب القرون الوسطى .

ولئن كانت إيران تعتز بمعاهدتها مع روسيا ، فنحن نعتز بدقة موقفنا الحربي ، ونصرة العالم العربي لنا ، وحاجة العالم الغربي إلى مصادقتنا .

والفرض الثاني أن تركب انجلترا رأسها ، وتعتز بقوتها وتضرب ضرباتها من غير حكمة ، وتشمخ بأنفها ، ويحاول الحزب الإنجليزي الذي يتولى الحكم أن يظهر قوته ، لينفعه هذا الموقف في الانتخابات القادمة ، ولكن سواء كان هذا أو ذاك فالمصريون لا يتغير موقفهم . ويجب أن يثبتوا على خطتهم ، ولا يتراجعوا عنها قيد شعرة ، فقد علمتنا الحوادث أنه بعد الشدة المصطنعة تكون المسالمة ، لأنهم في أشد الحاجة إلينا ، وبعد شد الحبل يكون إرخاؤه ، وإلا انقطع .

ثم لنرجع إلى الأساس ، ماذا يكسبون من وراء هذه المشادة والمخاصمة ومن هذا الاحتلال ؟ إنه في الحق لا يساوي مجهوداً . والطبيعي أن تملك الأمة أمر نفسها ، ومن غير الطبيعي أن تكون الحرب والخصام لأجل منفعة ظاهرية لا تساوي ما يذهب من أجلها . وليضع الإنجليز أنفسهم موضعنا ، هل كانوا يقبلون احتلالاً أجنبياً ، أو يرضون بالمذلة النفسية كهذه ؟ أو أنهم يأنفون من ذلك كل الأنفة ، ويضحون بكل تضحية ؟.

لقد أحس الإرلنديون هذا الإحساس الذي نشعر به ، وبذلوا من التضحيات ما لم نبذل ، مع أنهم من الإنجليز بالمعنى الواسع . فكيف بهم إذا احتلهم شرقي . ومع ارتباطهم بالإنجليز لحاجة الإنجليز إليهم مكنتوهم من الاستقلال ، وخضعوا للواقع أمام التضحيات المتعددة ، واعتقادهم أن إرلندا ألزم لهم من مصر . ولكن قرب التجانس ، وقرب اللغة ، وقرب الدين ، جعلتهم يسمحون لهم بما لم يسمحوا به لنا .

لسنا ننكر أن قوة الإنجليز أكبر من قوتنا ، ولعبهم في السياسة أمهر من لعبنا ، ولكن ليست القوة واللعب بالسياسة كل شيء ؛ فهناك الحق ، وهناك الظروف التي يقتضيها العصر ، وهناك الملابسات التي تحتم أن تجاريها السياسة وتذعن لحكمها .

إن الانجليز في سياستهم الداخلية تعلموا من موج البحر الذي حولهم كيف يتموّجون ، وكيف يجارون الزمان ؛ فبعد أن كانوا رأسماليين إلى الحد الأقصى أصبحوا اشتراكيين إلى الحد الأقصى أيضاً ، وبعد أن كانوا جامدين متزمتين أصبحوا عمالا متسامحين ، وبعد أن كانوا لا يرضون بتأميم المنافع العامة أصبحوا يرضون بتأميمها في الغالب ، فما بالهم يتأقلمون في السياسة الداخلية ، ولا يتأقلمون في السياسة الخارجية أي تأقلم ، بل يسير الخلف على آثار السلف من غير أي تحوير ، والتأقلم في السياسة الخارجية أدق وألزم .

لقد اضطرهم الاستمرار على سلوك واحد في المسائل الخارجية إلى استقلال إرلندا ، واستقلال الهند ؛ وسيضطرهم إن شاء الله إلى استقلال إيران واستقلال مصر ، فالظروف واحدة أو متشابهة ؛ فلا بد أن تكون النتيجة واحدة أو متشابهة . وبدلاً من أن تستقل إيران ومصر والعراق بالإكراه ؛ خير من هذا أن تستقل هذه البلاد بالرضا والاختيار لحفظ الجميل . إن الحكيم هو من رأى الأمور من بُعد ، فتأقلم لها وجاراها ، لا من لم يرها حتى تحدث ثم واجهها في عماء .

وليس ينفعها في ذلك مسايرة فرنسا وأمريكا في سياستها ، لأن لهؤلاء مصالح في الاستعمار لا تخفى ، ويوم تستقل مصر يشتد طلب المغاربة للاستقلال عن فرنسا ، وهكذا .

والاستعمار نغمة واحدة ، إذا أبطلت في ناحية ، أبطلت في النواحي الأخرى .

هذا في مصر . أما في السودان فنحن نعلم أن الاستقلال الذي يمنّيه الإنجليز السودانيين ليس إلا نوعاً من الخديعة ، فهم يريدون في الحقيقة الاستقلال بأنفسهم في السودان ، لا استقلال السودانيين أنفسهم .

ولو كنا نعلم أن السودانيين سينالون حقاً استقلالهم لا أن الاستقلال للإنجليز ، لتغير موقفنا إزاء السودان . والحق أننا لقينا من المكر والألاعيب والدسائس ما علمنا كيف يلعبون .

إذاً فهم بين أمرين ، إما أن يؤمنوا بالحق في صراحة ، أو يبحثوا عن ألعاب جديدة أخرى لا نفهمها ، وكل ما نرجو أن يثبت المصريون ويفهم الإنجليز .

أحمد أمين

ندوة الخميس

للدكتور زكى نجيب محمود

لو كان الله قد أتاح لندوة الخميس التى تنعقد فى دار لجنة التأليف والترجمة والنشر كل أسبوع ، والتى لبثت على هذا النحو قرابة أربعين عاماً ، وكثيراً ما ضمت نفراً من أئمة الأدب وقادة الفكر فى مصر ، بل وفى بعض الشقيقات العربية أحياناً ، أقول لو كان الله قد أتاح لهذه الندوة عاملين : عنصر المرأة المثقفة والقلم الذى يسجل ، لكان لنا بذلك « صالون » أدبى قل أن يكون له نظير ، ثم لكان لنا كذلك ديوان من أخصب دواوين الأدب والفكر المعاصرين ؛ فالحديث فى هذه الندوة يجرى على غير نسق معلوم ، ولا يتقيد المتحدثون فيه بشىء من التحفظ والتزمت اللذين يلازمان الكتاب إذا كتبوا للناس ، ولذلك تراهم يرسلون أنفسهم إرسالاً ، هو أصدق ما يعبر عن خواطرهم ومشاعرهم ، وهو بالتالى — لو رصده الراصد — مرآة لجانب حى من حياتنا الفكرية والأدبية على السواء .

وسأسوق القارىء هنا خلاصة لحديث الندوة يوم الخميس الرابع من شهر أكتوبر الحالى ، ذاكراً من أسماء المتحدثين أحرفها الأولى ، لأنى لم أستأذنهم فى هذا النشر ؛ على أنى إذا استطعت أن أنقل أمهات الأفكار التى دارت فى الحديث ، فلست بمستطيع أن أبث خلال ذلك ما يسود المجتمعين فى هذه الندوة دائماً من روح الفكاهة العابرة أحياناً ، والساخرة أحياناً ، فكأنما أنقل للقارىء هنا « رأساً » بغير « قلب » ، و « عقلا » بغير « وجدان » ، إنى أسوق هنا إطاراً ، والقارىء أن يملأه بما يسعفه به خياله من نبضات الحياة .

أ . أ — زارنا فى هذه الندوة أديب صينى منذ سنوات ، وأراد أن يعلم شيئاً عن الاتجاهات الأدبية فى مصر ، فسأل عن كبار الأدباء الذين يكتبون الأدب « الكلاسيكى » — إذا صحت هذه الكلمة — ثم سأل عمن يكتبون للجمهور ويتصلون به اتصالاً مباشراً ، وعجب وأسف حين أنبأناه أن ليس بين أدبائنا من يتصل بالجمهور الشعبى هذا الاتصال المباشر الذى يريد .

ت . أ — إنه كان على خطأ ، لأن الأديب الحق لا يتصل أبداً بجمهور الناس اتصالاً مباشراً ؛ إن هذا الاتصال المباشر مهمة الصحفى لا الأديب ، وينبغى أن نفرق بينهما تفرقة واضحة .

ح . ج — لماذا لا نقول عن (م . أ) وأمثاله من « الصحفيين » إنهم هم الأدباء الشعبيون ؟ إنهم يكتبون فى جرأة تلفت لهم أنظار الناس .

ز . ن . م — ومن الذى هيأ لهم هذا الجو الذى يستطيعون أن يكتبوا فيه بهذه الجرأة التى تستوقف لهم معظم الجمهور القارىء ؟ الذى هيأ لهم هذا الجو هم أدباء ممن بينهم الأستاذ « ت . أ » .

أ . أ — يظهر أننا قد وصلنا إلى شىء من التحديد ، فالأديب يخلق الجو الفكرى والصحفى يكتب فى هذا الجو الجديد لجمهور القراء ، فيتصل بهم اتصالاً مباشراً .

ت . أ — هذا صحيح ، فالتأثير فى الناس يتم على درجتين : الأديب يؤثر فى الصحفيين ومن إليهم من الكتاب ، وهؤلاء يكون لهم التأثير المباشر ؛ والأمر فى ذلك شبيه بأستاذ الجامعة الذى لا يتصل بتلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية ، إنما يخلق الشبان الذين يكون لهم هذا الاتصال ، وهذا الاتصال بطبيعة الحال يجىء فى نفس الجو الفكرى الذى تلقاه الشبان عن أستاذ الجامعة .

ز . ن . م — أظن أن هذا هو المقصود دائماً « بتأثير » الأدب فى الناس ، أعنى أن الأديب الكبير دائماً ينحصر تأثيره فى الطبقة المستنيرة وحدها ، ومن هذه الطبقة ينتقل الأثر إلى من دونهم ؛ فلا أظن — مثلاً — أن برنارد شو يقرؤه الفلاح والعامل فى انجلترا .

م . م — وماذا تقولون فى شيكسبير الذى كان يعرض مسرحياته على طبقات الشعب رأساً ، وفى هومر الذى كان

ينشد أشعاره في حلقات من الجماهير الدنيا ؟ أليس ذلك دليلاً على أن الأديب بأجل معانيه ، قد يكون اتصاله بالشعب مباشراً وبغير واسطة ؟ .

ت . أ — لا ، ليس ذلك بدليل على هذا ؛ فلئن كانت طبقات الشعب قد استمعت لهومر أو شكسبير ، فما ذاك إلا لأنه لم يكن فيهم من يستمعون إليه غير هؤلاء ، ولو وجدت لهم الصحافة أو ما يشبهها من الكتابة ، لانصرفوا عنهم إليها — أظن أن امرأ القيس حين كان يقول شعره في الناس كان يفهم عنه من الناس إلا الفئة المستنيرة ؟ لقد كان الناس يقولون عنه إنه مجنون ؛ أظن أن المتنبي وأمثاله كانوا يهدفون بأشعارهم إلى غير طبقة الحاكمين ؟ فإن استمع الناس لما ينشده امرؤ القيس والمتنبي ، فلأنه لم يكن هناك من يستمعون إليه عن فهم . أما الآن فقد تغير الموقف ، إذ وجد الفرو، الذي يصلح للشعب إلى جانب الأدب الرفيع ، فاقتصر الأدب الرفيع على الطبقة المستنيرة ، وقصد الشعب إلى حيث يفهم ويتأثر .

ز . ن . م — يخيل إليّ أن « الطبقة المستنيرة » عبارة تريد شيئاً من التحديد ، من هم أفراد هذه الطبقة . ؟ .

ت . أ — نستطيع أن نقول إنهم خريجو الجامعات ومن إليهم .

م . م — أظن أن الأمر هنا لا يتوقف على التعليم الجامعي ؛ فالطبقة المستنيرة هي أولئك الذين يتغذون بالأفكار ، فلا تناقض بين أن يكون الشخص بائعاً في متجر أو عاملاً في مصنع ، لكنه إذا ما فرغ من عمله التمس الأفكار النظرية في الكتب أو المحاضرات — وأمثال هؤلاء كثيرون في أوربا — وعندئذ نقول عنهم إنهم من « الطبقة المستنيرة » .

ز . ن . م — ستيفن سبندر له مقالة في مجلة إنجليزية صدرت الشهر الماضي ، يحاول فيها تحديد الطبقة المستنيرة ، ويكاد يشترط للداخل فيها أن يكون كاتباً ، ليعبر بكتابته عن فكره .

أ . أ — وماذا يقول مثل هذا الكاتب الذي يعبر عن فكره ؟ هل ينبغي أن يتصرف إلى الكتابة فيما يُصلح المجتمع ، أم الأمر مقصور على مجرد التعبير ؟ بعبارة أخرى : هل يجب على الكاتب أن يلتزم حدود الأخلاق فيما يكتب ؟ .

ت . أ — لا ، لا شأن للأديب بالمعايير الخلقية ؛ إنه يفكر ويعبر ، ومقياسه الجمال وحده ؛ ولعلك تسمعهم يقولون لك عن بعض الأدباء إنهم كانوا في مجتمعهم كالأفاعي تنفث السموم ، أي أنهم كانوا يفسدون في بناء المجتمع ، ومع ذلك فهم أدباء ؛ الحقيقة أن الأديب الحق كالنحلة تعطيك الشهد ، لكنها قد تلسع .

ز . ن . م — إن مجرد ذكرنا للكلمتين « السموم » و « اللسع » يبين أننا ما زلنا متأثرين في تقدير الأدب بمعيار الصلح الاجتماعي ؛ والأدب الخالص لا يهدف إلى الإصلاح الاجتماعي المباشر ، ولا يعنى بعقابه .

ت . أ — هذا صحيح ؛ لكنك من ناحية أخرى تستطيع أن تقول إن الهدف في النهاية البعيدة هو هذا الإصلاح المنشود ، حتى الذين يكتبون أدباً مكشوفاً عن الشئون الجنسية ، يريدون أن يضعوا تحت أعين الناس حقائق قد أغمضوا أعينهم عنها على خطرها وأهميتها ؛ هذا د . هـ . لورنس يرى الناس في انجلترا قد أهملوا غرائزهم إلى حد الخطورة ، فراح بكتابته في تمجيد الغريزة الجنسية السليمة ينبه الناس إلى ما قد غفلوا عنه ؟ إن الرجل إذا ما تحفظ في طعامه تحفظاً يؤذي معدته بحيث لا تعود صالحة إلا لهضم « اللبن الزبادي » هو بحاجة إلى من يستثير شهيته للطعام بالتوابل القوية — ولورنس كان في مجال الغريزة الجنسية عند الطبقة المستنيرة أشبه شيء بالتوابل التي تحرك الغريزة السليمة .

ز . ن . م — الغريب في هذا هو أن الطبقة المستنيرة في انجلترا انتقلت في نظرتها إلى الأمور الجنسية من النقيض إلى النقيض ؛ كان « المستنير » في العصر الفكتوري (القرن ١٩) يستبشع كل ما له اتصال بهذه الأمور من بعيد أو قريب ، وأصبح « المستنير » في هذه الأيام أقرب إلى العقيدة بأنها لا تقل ولا تزيد عن سائر ضرورات العيش التي لا ينبغي أن يكون فيها شيء من الخجل — ولعل هذا الانتقال قد جاء بسبب ما كتبه لورنس ومن إليه .

... ...

... ...

أ . أ — إن العرب لم يقولوا أدباً عن الطبيعة فيه جدة .

أ . ز — لماذا تعيبون على العرب أنهم لم يقولوا عن الطبيعة جديداً ، والطبيعة نفسها لم تخلق الجديد ، فالأزهار العطرة ما تزال هي الأزهار العطرة ...

م . ش — أراك بذلك تخالف كلة أذعتها عن الجديد والقديم .

أ . ز — وهل من شك في أننا لا بد أن نبقى من القديم على الطيب ؟

ز . ن . م — على شرط أن تحدد ما هو « الطيب » — ماذا تعده طيباً ؟

أ . ز — هو المشهور المعروف بأنه كذلك ، فشعر المتنبي « طيب » .

ز . ن . م — لا يكون طيباً إلا إذا وافق عليه الناقد الأوربي الحديث بمعياره في فهم الشعر وتقديره .

أ . ز — أنا لا أنتظر الناقد الأوربي الحديث ليحدد لي ما أطرب له — أنا أقرأ شعر المتنبي وأطرب له ، وفي هذا الكفاية .

ز . ن . م — وإذاً فلا بد أن تعطي هذا الحق لسائر الأطفال حين يطرب لشريات « المربة » ، لأنه هو الآخر يستطيع أن يقول : إني أطرب لهذه الشريات وفي هذا الكفاية ... الأمر نسبي في كل ما يتعلق بالمدنية إذا استثنيت العلوم وحدها ؛ فما يعد « طيباً » هو ما يعده أهل المدنية القائمة كذلك ، وقد يتغير الأمر بعد كذا من السنين ، فتعد عوامل المدنية القائمة الآن علامة همجية عندئذ ...

أ . أ — (وقد أمسك كتاباً في يده) هذا كتاب كتبه أوربي عن « إقبال » فهل يكون ذلك إلا دليلاً على أنه قدره حق قدره بغض النظر عن عصره ؟

ز . ن . م — وهذا ما أقوله ، فالمتنبي شاعر يعد من يطرب له « متمدناً » لو وافق عليه نقدة هذه المدنية القائمة ، وإلا فهو ليس كذلك بالنسبة لهذه المدنية أيضاً ؛ فالقديم الذي يستطيبه أصحاب الرأي من أهل العصر الحاضر ، هو الذي يدخل في جملة العناصر التي لا بأس في أخذها والإبقاء عليها .

أ . أ — أنا أطرب للمتنبي وأعده شاعراً عظيماً ، و« نيكلسن » لم يعجبه شعر المتنبي . فماذا تقول ؟

ز . ن . م — الأقرب منكما إلى تشرب روح هذا العصر وذوقه في الأدب هو الذي يعبر برأيه عن رأي العصر وذوقه .

م . أ . د — قل لي ، هل تطربك أنت موسيقى فاجنر ؟ .

ز . ن . م — إذا لم أطرب لها فلأني لم أنشأ النشأة الصحيحة ، فالعيب عيبي أنا ، ولا أعتد في هذه الناحية بين المتمدنين ؛ لأني لو أصررت على أن الأمر متوقف على ما أطرب له ، بغض النظر عن أهل المدنية الحاضرة هل يطربون معي أو لا يطربون ، فلا بد كذلك أن أعطي أهل الغابات هذا الحق نفسه حين يفضلون « المربكة » على فاجنر .

أ . أ — أو ليست « المربكة » خيراً من موسيقى « الجاز » التي يطرب لها أهل هذا الزمان ؟ .

ز . ن . م — ولو أخذ العالم المتمدن بهذه « المربكة » نفسها لانتقلت إلى عناصر المدنية — الأمر كما قلت اعتباري صرف ، والعبرة بما يقوله أهل الخبرة الذوقية في كل عصر .

أ . ز — لقد التقيت اليوم مع صديق قص علي قصة فتاة فرطت في نفسها فثار عليها أهلها ، وكان هذا الصديق ساخطاً على هؤلاء الناس الذين يتدخلون في شأن الفتاة ، فهي وحدها المسئولة عن نفسها ما دامت قد بلغت الحادية والعشرين — أي أنه يريد لنا أخلاق أوربا في ذلك .

ز . ن . م — وما وجه الخطأ في ذلك ؟ إن كانت هذه هي « أخلاق » المدنية الحاضرة ، فهل يعيبها أنها ليست « كأخلاق » المدنيات السابقة ؟ إن القياس هو ما يقرره أهل هذا الزمان لا أهل الأزمان الماضية .

أ . أ — وجه الخطأ هو أن هذا فساد محقق .

ز . ن . م — الفساد هو ما يخرج على ما تواضع عليه أهل الزمن المعين ، وقد يصبح فساد زمن صلاح زمن آخر ثم يعود فساداً ، وهكذا تتغير النظرة مع تغير ظروف العصر — الحكم على السلوك بالصلاح أو الفساد في عصر ما ، متوقف على هذا السؤال فيه : هل يسود هذا السلوك في هذا العصر المعين أو لا يسود ؟

أ . أ — وهل تريد أن يكون الشرق كالغرب فيما يسود وما لا يسود ؟ .

ز . ن . م — ليست التفرقة بين شرق وغرب ، وإنما تكون التفرقة بين من أخذ بنصيب من المدنية ومن لم يأخذ .

وانفضت عند هذا ندوة الخميس .

زكي نجيب محمود

هيني ودون كيشوت

للأستاذ علي أدهم

يروى عن ملك فرنسا المتعاظم الفخم لويس الرابع عشر أنه سأل مرة أحد رجال بلاطه قائلاً « أتعرف اللغة الإسبانية ؟ » فأجابه الرجل « لا يا مولاى ، ولكنى سأشرع فى تعلمها » وأقبل الرجل على دراسة اللغة الإسبانية لأنه ظن أن الملك يريد اختياره سفيراً فى البلاط الإسبانى ، وبعد فترة من الزمن قال الرجل مخاطباً الملك « مولاى ، لقد تعلمت اللغة الإسبانية » فأجابه الملك « حسن جداً ، إنك تستطيع الآن قراءة دون كيشوت فى لغتها الأصلية ! » .

ورواية دون كيشوت التى أشار إليها هذا الملك المتأدب ونوه بها طرفة من طرائف الأدب العالمى الخالدة ، وأعظم الآثار الأدبية التى أخرجها الأدب الإسبانى ، وقد ظفر هذا الكتاب بالشهرة الواسعة المترامية وارتفع إلى المكانة السامية بين الكتب الأدبية المأثورة فى حياة مؤلفه ، وترجم إلى جميع اللغات الأوربية ، وأصبح عنوان الأدب الإسبانى وممثله بين الأمم .

وشخصية دون كيشوت من الشخصيات المحبوبة التى نعطف عليها ونؤثرها لنيل غايته وسلامة طويته ، وقد تضحكنا حماقاته وأوهامه وتسرنا سخافاته واندفاعاته ، ولكنه ضحك يتخلله تساقط الدموع ، وسرور يشوبه الأسى والحزن ! وقد جرب مؤلف الكتاب — سرفانتيز — الفقر والحرمان ، وتجشم الصعاب ، وركب الأهوال ، واستهدف للأخطار ، وعرف السجن والتشريد ، وعانى الجوع والجروح ، ومن هذه التجارب الأليمة المرة أفاد هذا الفهم لحياة النافذ الهادئ الساخر ، وهذا الفهم النافذ الساخر هو أساس هذه القصة الممتعة النادرة .

ورواية دون كيشوت من أعجب قصص المناظرات فى التاريخ العالمى ، وتبرز فيها شخصيتان فاتنتان ، وهما شخصية دون كيشوت وشخصية تابعه سانكوبانزا ، وهذان الرجلان يسحراننا لأن فى كل منا جانباً من دون كيشوت وجانباً من سانكوبانزا ، وكل منا مزيج من الاثنين ، وبطبيعة الحال يتغلب فى أكثرنا جانب سانكوبانزا على جانب دون كيشوت . ويكاد يخفيه ويمحوه ، وصوت سانكو الذى يدوى فى نفوسنا هو صوت الحذر وطلب السلامة والجرى وراء المصلحة واغتنام الفرص العارضة ، وأكثر الناس لا يحبون أن يكسر لهم ضلع من الأضلاع أو أن تنهال عليهم الطعنات والصفعات أو أن يسلب ما زرت عليه جيوبهم ، وهو النصيب الذى تدخره الدنيا لأهل الشجاعة والإقدام والبطولة والصراحة الذين لا يقبلون أن ينحنوا للعاصفة ، ولا يرضون أن يقبلوا اليد التى قد يعجزهم قطعها ! بل أكثر الناس يخشون السخرية والاستهزاء ، أكثر مما يخشون الفقر والحرمان وتكسير الضلوع وظلام السجن وقسوة الأغلال ، ولكن كلاً منا مع ذلك فى نفسه دون كيشوت المكبوت المعتقل فى طبائعنا ! وهذا الدون كيشوت رهن المحابس والقيد بالأصفاد والأغلال يعجب من وراء القضبان بالنبل والشجاعة والإقدام على جلائل الأعمال ، ويكبر مواقف البطولة ومشاهد التضحية ، وقد يسخر الناس بدون كيشوت ، ولا يكتفون بتركه يعانى مرارة الإخفاق وآلام الجروح والطعنات ، ولكنهم مع ذلك يحبون أن يلبوا دعوة دون كيشوت ويستجيبوا لندائه ، ولكنهم يتبعون سانكوبانزا لأنهم يؤثرون الراحة وتجنب الأخطار ، ويخشون أن يسخر بهم ، ويضحك منهم ، ويرموا بالجنون والهوس ، وهم برغم ذلك يظلون يضمرون الإعجاب لدون كيشوت ، ويحبونه ويعطفون عليه ، ويؤلمهم مصابه ويشجيهم مصرعه .

وقد قرأ هذا الكتاب الشاعر الألمانى هنريك هينى فى أول نشأته ، فبلغ منه وأثر فى نفسه ، ويشير الكتاب الذين عنوا بدراسة حياة هينى إلى ثلاثة كتب كان لها فى نفسه أعمق الآثار وأبقاها ، وهذه الكتب الثلاثة هى رواية دون كيشوت والرحلة العاطفية لستيرن ورحلات جلفر لسويفت ؟ وقد حدثنا هينى نفسه عن الأثر الذى تركته فى نفسه رواية دون كيشوت فقال : « أول كتاب قرأته حينما أصبحت غلاماً ناشئاً يقوى على الفهم ويستطيع القراءة هو « حياة الفارس الأديب دون كيشوت ولامانشا وأعماله » الذى كتبه ميجويل سرفانتيز دساقدرا ، وإن أنس من الأشياء لا أنس ذلك العهد

حينما تسللت بكرة من الدار أسترق الخطى إلى ساحة الحديقة لأقرأ دون كيشوت دون أن أستهدف للإزعاج . وكان اليوم من أيام شهر مايو الحسان . كان الربيع الناضر يستدفىء في ضوء الصباح الصامت مصغياً لإطراء هذا المتملق العذب ، الهزار ، الذي كان يغني في رقة ولطافة وفي حماسة مؤثرة جعلت أشد البراعم خفراً تتفتح وتزدهي . وجعلت الأشجار والأزهار تهتز من نشوة الطرب . ولكني جلست على مقعد حجري قديم قد علاه الطحلب فيما يسمى « طريق التنهدات » القريب من منحدر المياه . وأخذت أغذو قلبي الصغير بمخاطرات الفارس الجريء التي تهز النفس وتثير الخاطر . وجعلتني براءة الطفولة آخذ كل شيء مأخذ الجد ! ومهما كانت النكبات التي كانت تصيب هذا البطل البائس مضحكة فإني كنت أعتقد أنها بلا جرم أن تكون كذلك . وكنت أتخيل أن السخرية بالإنسان والضحك منه جزء من البطولة مثل ما يصيب البطل من الجروح والطعنات . وكانت السخرية به تثير غضبي كما كانت الجروح التي تصيبه تحزن قلبي . كنت طفلا لا يعرف شيئاً من السخرية التي بثها الله في الدنيا والتي حاكاها الشاعر الكبير في عالمه الصغير . وبكيت بكاء مراً حينما وجدت أن الفارس النبيل لم يجن سوى إنكار الجميل والضربات والطعنات . ولما كنت حينذاك غير متدرب على القراءة لذلك كنت أنطق كل كلمة بصوت مرتفع . وكانت الأطيار والأشجار والجداول والأزهار تسمع كل ما أقرأ . ولما كانت هذه الكائنات البريئة مثل صغار الأطفال لا تعرف شيئاً من سخرية الدنيا فهي كذلك أخذت المسألة مأخذ الجد ، وشاركتني في البكاء على أحزان الفارس المنكوب . وبلغ التأثر بإحدى شجرات البلوط التي طال عليها الزمن إلى حد أنها انتحبت وبكت ، وهز منحدر المياه لحيته البيضاء هزاً عنيفاً ، وبدا لي أنه يبكي على الدنيا وشرورها . وشعرنا بأن بطولة الفارس ليست أقل استحقاقاً للإعجاب ، لأنه انسحب من الميدان ، وأنه إذا كان جسمه ضعيفاً هزيلاً وكان سلاحه قد علاه الصدأ ، وكان فرسه هجيناً حقيراً فإن ذلك كله يجعل أعماله أخلق بالثناء وأجدر بالتقدير . وازدرينا الغوغاء الذين أمعنوا في ضربه وإيذائه بقسوة وحشية ، واحتقرنا احتقاراً أشد من ذلك هذا الصنف من الغوغاء الأعلى ، طبقة الذين كانوا يرفلون في الحرير ويحملون الألقاب الضخمة ويسخرون بالرجل الذي كان أسمى منهم عقلا وأنبل نفساً . وكنت كلما مضيت في قراءة الكتاب ازداد قدر فارس « دلشينا » ارتفاعاً في نظري وتزايد حبي له وتعلقي به . ولبثت مثابراً على ذلك أياماً في الحديقة نفسها . فلما أقبل الخريف كنت قد وصلت إلى نهاية الكتاب ... ولست أنسى يوم قرأت عن المعركة المخزية التي خرج منها البطل يجرر أذيال الهزيمة الشائنة.

كان يوماً عبوساً . وكانت السحب القاتمة تنساب في سماء غبراء . وكانت الأوراق الصفراء تتساقط من الأشجار في حزن وأسى . وكانت قطرات الدموع الثقيلة معلقة على آخر الأزهار التي أمالت رءوسها الصغيرة الميتة . وكانت البلابل قد ماتت منذ زمن طويل . وكانت صور الفناء تطالعني من كل ركن . وكان قلبي قد كاد يتصدع وأنا أقرأ كيف انطرح الفارس النبيل على الأرض مثخناً بالجراح مهشم الأضلاع . وقد أخذ يقول في صوت خافت واهن كأنه مقبل من القبر : « دلشينا هي أجمل فتاة في العالم . وليس من اللائق أن يبطل هذا الحق ضعفي — فاطعن برمحك يا سيدي الفارس » .

فوا أسفاه ! لقد كان هذا الفارس اللامع فارس القمر الفضي الذي هزم أشجع رجل وأنبل رجل عرفته الدنيا . كان هذا الفارس حلاقاً متنكراً !

لقد كان ذلك منذ عهد عهيد . ولقد ازدهرت منذ ذلك العهد أربِعَةٌ كثيرة . ولكن كان ينقصها جميعاً أقوى أسباب فتنتها وجمالها . لأني أصبحت واأسفاه لا أومن بخداع الهزار الذي يتملق الربيع ويطريه . وإني لأعلم أنه سرعان ما تذهب بشاشته . وفي كل مكان أرى سناه متنكراً مستخفياً .

ورغم ذلك ما زال قوياً في صدري ذلك الحب المشتعل الذي تسامى على الأرض في حرارته وحماسته وبلغ السماء ، وتنقل في أعاليها الشاسعة مرحاً طروباً . ولما رأى النجوم فاترة غير حافلة به ارتد إلى الأرض الصغيرة واضطر إلى أن يعترف في حسرة وانكسار أن أجمل ما في الخليقة كلها وأحسنه هو قلب الإنسان . وهذا الحب هو الإلهام الذي يملأ شباب نفسي . وهو مقدس دائماً سواء أحسن الصنيع أو أساءه . ولما لم تذهب سدى الدموع التي أراقها الغلام الناشئ على أحزان الفارس الأبله . كما لم تذهب سدى الدموع التي أراقها في شبابه خلال الليالي الكثيرة وهو يقرأ عن مصارع أبطال الحرية المقدسين ، آجيس ملك اسبارطة وكايوس وتايبرياس جراكاس في روما ويسوع في أورشليم وروبسبير وسانت جست في باريس . والآن وقد تسربلت سربال الرجولة الفضي عهد

إراقة الدموع ، وأصبح لزاماً عليّ أن أحمل عمل الرجال مقتدياً بقدوة أسلافي العظماء . وإذا شاء الله في المستقبل فسيريق الأطفال والشبان الدموع من أجلي ، وفي هذا العصر الذي فترت حماسته أستطيع الاعتماد على هؤلاء الأطفال والشبان لأن الشبهات التي تهب عليهم من الكتب القديمة مازالت تستوقد حماستهم ، ومن ثم يستطيعون أن يفهموا القلوب المشتعلة في العصر الحاضر ، والشباب يتجرد في تفكيره ومشاعره من الأثرة ، ولذلك يشعر بالحق شعوراً عميقاً ، ولا يضن بعطفه الجريء في المواقف التي تستدعي العطف ، والمتقدمون في السن يؤثرون أنفسهم وآفاقهم الفكرية ضيقة ، وهم يفكرون فيما يعود على رأس مالهم من الأرباح أكثر مما يفكرون في مصلحة الإنسانية ، وهم يتركون زورقهم الصغير ينساب هادئاً في مجرى الحياة ولا يحفلون قليلاً بالملاح الذي يصارع الأمواج في البحر المكشوف الواسع أو يزحفون في مثابرة وإصرار إلى أعلى منصب محافظة البلد أو رئاسة النادي الذي ينتسبون إليه ، ولا يعبأون بهؤلاء الشجعان الذين تقذف بهم العواصف من فوق أعمدة الشهرة ، ثم يتحدثون بعد ذلك عن ماضي شبابهم وكيف أنهم كذلك ركبوا في رؤوسهم ونطحوا الحائط ، ولكنهم هادنوا الحائط بعد ذلك وصالحوه لأنهم عرفوا أن الحائط هو المطلق ، وهذا المطلق قد وُجِدَ بنفسه ولنفسه ، وأنه لما كان قد وجد فهو من ثم معقول ، والذي لا يحتمل هذا المطلق المعقول الذي لا مندوحة عنه يعد من غير العقلاء » .

ثم يوجه هيني الكلام إلى عبيد المصلحة وأنصار الرجعية ودعاة الحكم المطلق فيقول : « ربما كنتم بعد كل شيء على حق ، وربما كنت أنا دون كيشوت وقد أحالت عقلي قراءة الكتب العجيبة كما أفسدت عقل فارس لامنشا . والحقيقة أن جنوني والأفكار الغالبة عليّ التي استنبطتها من الكتب تخالف كل المخالفة جنون فارس لامنشا والأفكار التي غلبت عليه ؛ فهو قد أراد أن يعيد عهد الفروسية الذي ذهب وانقضى ، أما أنا فعلى نقيض ذلك أريد أن أقضي على البقية الباقية من ذلك العهد ، ولهذا فإننا نعمل بوجهتي نظر مختلفتين ، وقد كان زميلي يرى طواحين الهواء عمالقة ، وأنا على خلافه أرى عمالقة هذا العصر مجرد طواحين هواء مزهوة متبجحة ؛ وكان يخال الحانات قلاعاً وساقة الحمير فرساناً وموسمات الزرائب من سيدات البلاط ، وأنا على عكسه أرى قلاعنا حانات وفرساننا ساقة حمير وسيدات بلاطنا موسمات زرائب عاديات ؛ ولكني مثل فارس لامنشا أوجه إليها الضربات والطعنات ؛ ومثل هذه الأفعال ، وأسفاه يتوخى منها مثل ما نابه ؛ وأنا مثله ألقى ما ألقى في سبيل الدفاع عن شرف محبوبتي ، وإذا أنكرتها من الخوف أو ياعث حب الربح الوضيع فإني حينذاك أستطيع أن أعيش عيشة راغدة في هذا العالم القائم على العقل كما يعيش صغار العبيد ! ولكني بدلاً من ذلك أخوض غمار معارك كل منها تكلفني دماء القلب ، وقد تحسبون ذلك أوهاماً مثل أوهام دون كيشوت ، ولكن الآلام المتوهمة توجع كغيرها من الآلام » .

ولكن هل كان هيني حقيقة مثل دون كيشوت مفتوناً بالمثل الأعلى ، مناضلاً من أجل الحرية ، ومجاهداً في سبيل تقدم الإنسانية ؟ أما هو فيقول نعم ، ويوصي قائلاً : « إنني لا أعلم هل أستحق أن يوضع على كفني يوماً ما إكليل الغار ، ولم يكن الشعر عندي — على حبي له — سوى لهو مقدس ، ولم أعلق قط أهمية كبيرة على الشهرة في الشعر ، ولست أبالي أمدح الناس أشعاري أم عابوها ، ولكن ضعوا على كفني سيفاً لأني كنت جندياً جريئاً في حرب تحرير الإنسانية » .

أما الناقد الإنجليزي الكبير ماثيو أرنولد فإنه يرى في هيني غير ما رآه هيني في نفسه فيقول عنه : « لقد كان لهيني حظه الموفور من حب الشهرة ، وقد كان مثل سائر البشر يعنى بمدح الناس لأشعاره أو ذمهم لها ، ولم يكن سوى بطل صغير جداً ، وسيزين الجيل القادم قبره برمز إكليل الغار لا بشارة السيف » ثم يتبع هذا الرأي بقوله : « ولقد كانت له مكانته الملحوظة لأنه إن لم يكن قد تميز بالشجاعة فإنه كان مع ذلك جندياً لامعاً قوي الأثر في حرب تحرير الإنسانية » .

ولست أدري هل انتقص أرنولد من بطولة هيني لأن هيني كان شديد الوطأة على الإنجليز أو أنها صراحة النقد وأمانته ، ودقة الوزن والتقدير ، وتحري الصدق والصدع بالحق ؟ ومهما يكن من الأمر فإن مواهب هيني الأدبية وآثاره في الاستثارة والتثقيف ، من وراء اختلاف الأفكار في مواقفه السياسية وسلوكه الأخلاقي وفوق الريب والظنون .

علي أدهم

تيـــــانو

للأستاذ إدوار مقبس

[يقدم لنا الكاتب الفاضل هذه الصورة الجميلة ليؤيد بها فكرته أن الفنان إما أن يبلغ من فنه درجة الكمال فينجح فيه نجاحاً تاماً ، أو أن ينفض يده من فنه — فماذا يرى القارىء فى هذا الرأى ؟] « الثقافة »

تسألنى يا صديقى رأيى فيما اعتزمت ؛ ولكنى أعرف سلفاً أنك إنما تسألنى لا لتنتصح برأيى ولكن لأوافقك على رأيك . لن أجيبك بـ « لا » أو بـ « نعم » . وماذا تريدنى أن أقول لك وأنت تصر على أن تعيش للفن ؟ لقد وضعت الموسيقى أمامك هدفاً ، ولم تختر آلة موسيقية سهلة الأداء ، سريعة التعلم ، مضمونة النتيجة ، ولكنك اخترت الكمان ! لماذا ؟ لأنك معجب بموسيقى المرحوم باجانينى الخالدة ! لن أوافقك ولن أعارضك . لن أشجعك ولن أثبط من عزمك ؛ ولكنى فقط سأعرض عليك حياة رجل أراد مثلك أن يكون باجانينى آخر ... وانتهى إلى ... ولكن ابدأ من البداية .

***

حدث هذا منذ أعوام ... كان الفصل صيفاً والوقت مغرباً عندما كنت أمر بعد طول مسير على قهوة « على بابا » بميدان قصر النيل ، فأوحت إلىّ موائدها المنتشرة على الرصيف بأن تعب . فعرجت على إحداها وطلبت كوباً من شراب البرتقال ونشرت صحيفة كانت بيدى وجعلت أتصفحها . ومضى الوقت وأضيئت الأنوار وازداد المكان ازدحاماً حتى لم يبق مقعد خال لقادم جديد . وكنت أجلس إلى مائدة لشخصين ، ورأيت شاباً يتردد فى أن يطلب منى السماح له بمشاركتى مائدتى ، فدعوته مبتسما ، فجلس فى صمت بعد أن ابتسم لى شاكراً . وعدت إلى جريدتى أتصفحها أو أختلس نظرة سريعة إلى الزبائن الذين كان قد ازداد صخبهم وضجيجهم ، وإلى الجرسونات الذين كانوا يسعون بصعوبة بين الموائد والكراسى التى تكاد تسد عليهم مواطىء أقدامهم .

وسمعت ، رغم ضوضاء العربات والترام ، صوت كمان آت من بعيد بلحن أعرفه ، وهو مقطع مشهور لباجانينى : « رومانس » ، وظننت أحد المبتدئين لرداءة التوقيع ، يعبث بقوس الكمان على أوتاره فى منزل قريب . ولكن الصوت كان فى اقتراب حثيث ، مما جعلنى أصيخ السمع محاولا معرفة مصدره . ولاحظ مشاركى فى المائدة أنى أتلفت يمناً وشمالاً ، فانفرجت شفتاه لأول مرة :

— إنه آت من هذه الناحية .

وأشار إلى يمينى . وقلت :

— من ؟

— ألا تعرفه ؟!

قالها مستغرباً وكأنى فى نظره المتأخر فى معلوماته العامة !

— لا .

— يخيل لى أنك هنا لأول مرة . إنه « تيانو » يا سيدى .

ولم يلبث تيانو أن ظهر .

كان طويلا نحيفاً فى بذلة سوداء لا بد أنها كانت فى يوم ما سموكنج رغم هذه الرقعة الكبيرة البنية اللون فوق ركبته اليسرى ، والفتق الطويل فى جانب سترته الأيمن ، وكان قميصه فى الأصل أبيض ولكن وقد سقطت عليه قطرات من الشارب وقتات الآن كل ترقتى هنا وهناك بقع سوداء وداكنة . وكانت تتدلى من عنقه المزرق ربطة سوداء ضخمة كالتى يلبسها الفنانون العظام ! أما وجهه فكان مستطيلا جداً ، وخداه متهضمين ، وجبهته منقضة وعيناه غائرتين . أما شعره ، الذى امتزج « فلفله بملحه » كما يقول الأوربيون ، فكان أملس طويلا يتهدل دون ضابط على قفاه وعلى شاربيه اللذين أطلق شعرهما بغزارة حتى منتصف خديه . وكان حليقاً ذا شفتين رقيقتين حساستين ... جافتين .

آه . لو أنك رأيت تيانو هذا المساء . أو أى مساء آخر ! لو أنك رأيته يحرك وجهه وحاجبيه ، ويغمض عينيه أو يفتحهما ، ويمط شفتيه . ويثنى ويتمايل مع كمانه القديم الذى وضعه بإعزاز تحت ذقنه ! إنك لتظن أوتار قلبه تهتز باهتزاز أوتار كمانه . فقد كانت تنطلق أسارير وجهه عندما كان يؤدى لحناً لطيفاً ضاحكاً . وكأن اللحن قد مسه مساً رفيقاً . ولكن عندما كان يقوى اللحن ويتحمس يلوح كأن شيطاناً قد ركبه . فيتعقد وجهه ويندفع رأسه إلى الأمام أو إلى الخلف بقوة ، فينتفش ويتطاير شعره الطويل فى كل سبيل فيغطى جبهته وعينيه ، بينما جسمه كله يتلوى وأصابعه تتشنج على القوس وعلى الأوتار ، بينما يدق الأرض بحذائه الأسود البالى دقاً ، كأنه مارد يدك الأرض دكا .

كان وجهه على العموم حزيناً ، يعبر كل خط فيه عن الألم . وكنت ألمح فى عينيه آثار الدموع . إنك لترى فى أصابعه النحيلة المعروقة الجوع والفاقة ، وفى قوامه الهزيل الدقيق الحرمان والحاجة .

وانتهى اللحن ودلى تيانو كمانه من رقبته فى كردون مثبت فى طرفيه ، وأخرج من جيبه قبعة مطوية دس فى تجميدتها قبضة يده ، فانتفخت ، وأمسكها فى يد بينما أمسك بالأخرى قوس كمانه ، وجعل يطوف بين المقاعد ماداً قبعته بين الجالسين بساعد منكمش متردد وقامة منحنية فى ذلة وانكسار ، وعلى شفتيه ابتسامة مستعطفة كمن يود أن يسأل « حسنة لله » . وكان كلما ألقى فى قبعته بقرش أو بنصف قرش ينحنى لملقيه ويثنى رقبته إلى اليمين وإلى الشمال امتناناً ويبتسم — ابتسامة مؤلمة — وهو يقول : مرسى مسيو ! مرسى مدام ! وانتهى طوافه بقبعته فطواها بما ألقى فيها وأعادها إلى جيبه ، وتسرب من زحمة الرصيف إلى الشارع ثانية . عندئذ خلع كمانه من رقبته وأعادها إلى ذقنه ومضى فى طريقه يلعب نفس المقطوعة التى كان يلعبها منذ قليل ، حتى تلاشى صوت الكمان شيئاً فشيئاً فى ضجيج الترام والعربات .

وكان زميل على المائدة برفيق .

— أعرفت تيانو ؟.

— إنه يجيد لحن « رومانس » !.

— ويجيده كل دقيقة وكل ساعة وكل يوم من أيام حياته . إنى من رواد هذه القهوة منذ عشر سنوات . ولابد أن تيانو كان يطوف هنا من عشرين سنة ، إذا صدق الجرسون ، وفى كل يوم من هذه الأعوام العشرين كان تيانو يعزف نفس اللحن ، لا يكاد يلعب سواه . إنى أعرف قصة الرجل ، فقد قصها على الجرسون .

— يسرنى أن أسمعها .

قال رفيق :

« كان تيانو ، وهو إيطالى المولد ، واحداً من هؤلاء الحيارى فى الحياة الذين يحيدون عن معنى لحياتهم ، وعن الغرض الذى من أجله ولدوا . كان فى البدء صرافاً ناجحاً فى تورينو بإيطاليا ، ولكنه كان يحس فى قرارة نفسه أنه لم يخلق لإحصاء النقود ! وكان لهذا برماً بكل شىء ، ضيقاً بكل شىء ، فدفعه شبابه فى الخامسة والعشرين إلى المغامرة . وكان قد ادخر من عمله مالاً ، فرحل إلى ميلانو ليبدأ حياته من جديد . وقد كان منذ طفولته يهوى الموسيقى ، وكان عضواً فى فرقة المدرسة الموسيقية . ولكن هوايته القديمة كانت قد انطمرت عندما انتظم فى مدرسة التجارة ليصير بعدئذ صرافاً . وعندما ظهرت هوايته القديمة من جديد أحس أنه لابد من العودة إلى الموسيقى ليشبع حاجته إلى الفن ، كما كان لابنفأ يقول . وهكذا رحل تيانو إلى مدينة الفن الإيطالية ليدرس الكمان ، رغم معارضة أهله وتثبيطهم إياه ، يحدوه الأمل ويدفعه الرجاء . وابتاع كماناً جديداً ، واختار فى ميلانو غرفة حقيرة على السطح تكاد تخلو من الأثاث ليدخر كل ليرة « للبروفيسور » الذى فاجأه عند أول لقاء بقوله : « عزيزى ، إنك لا تصلح للكمان . حقيقة أنك تهوى الموسيقى ، ولكنها ليست فى دمك ، لن تكون موسيقياً قط » .

« ومضت خمسة أعوام عاشها تيانو متقشفاً بعيداً عن مباهج الدنيا ، لا يعرف غير الطريق بين دار معلمه وغرفته العارية . وافتقد مدخره ذات يوم فإذا هو قد نفد عن آخره ، ولم يكن قد أتقن غير مجموعة من التمارين الموسيقية ومقطوعة « رومانس » لباجانينى ! وصد نفسه عن طلب إعانة من أهله ، وقد غذاه الفن بعزة النفس والترفع عن السؤال . فانقطع عن معلمه أياماً لا يكاد يجد ما يقتات به ! ولكنه

عاد إليه يطلب منه النصيحة . فقال له البروفيسور : « عزيزى ، يخلق كل إنسان وبه هبة خاصة يعمل على تنميتها وتغذيتها . ولكن موهبتك لم تكن قط فى الموسيقى . كل ما أشير به عليك الآن هو أن تعود إلى مهنتك صرافاً حيث كنت تكسب كما يكسب الناس عامة ، وتعيش كما يعيشون » . ولكن تيانو سخر من أستاذه وقال : « إنى فنان . سأناضل » .

« بدأ تيانو يعيش حياة الدرجة الثالثة من الموسيقيين ، وجعل يطوف بالبلاد مع فرق جوالة تقيم الحفلات هنا وهناك ، لايملك من حطام الدنيا غير كمانه الذى بلى وقوسه التى تقطعت شعراتها ، ورداءه الأسود الذى كان قد ابتاعه منذ حل بمدينة الفن تقريباً ... ليكمل مظاهر الفنان (!) وعقدة عنقه السوداء المنتفخة الضخمة ..! ولاح له ذات مساء ، وهو يتناول قسطه من أرباح الفرقة التى كان يعمل بها ، أنه لا يكسب كثيراً فى إيطاليا ، وفيها من الفاشلين مثله كثيرون . وفكر فى أن مصر ، وهو القطر الذى لم يكن قد وعى الفن كما يعيه الآن ، يمكن غزوه « كموسيقار كبير » فيتثال عليه المال انثيالاً . وجعل المسكين يحلم بالنيل والثروة التى سيجمعها على ضفافه ، وبالمعجبات اللائى سيلتففن من حوله ويملأن لياليه بالسعادة والحب . كان آنئذ قد بلغ الثانية والثلاثين من العمر ، ولم يكن بجيبه حين فكر فى الرحيل جدياً ليرة واحدة ، فالتحق خادماً على إحدى البواخر القادمة إلى مصر ، مصطحباً كمانه البالى وعقدة رقبته السوداء الضخمة ، هذه العقدة التى كان يعتقد أنها كفيلة بأن تجلب له السعادة والمجد .

« وصلت الباخرة الإسكندرية ، وتسرب « الفنان العظيم » ذو ربطة العنق الضخمة السوداء إلى وادى النيل ليجمع « ثروته » التى طالما حلم بها وهو فى إيطاليا . ولكنه دون أن يتوقع ، وجد مصر فى غير حاجة إلى « فنه » ، إذ وجد فيها ما يكفيها ممن خانهم الحظ ، ممن لم يعرفوا مثله استعداداتهم الطبيعية ، ممن ألقوا أنفسهم فى الموسيقى إلقاء دون دافع أكيد فى النفس ورغبة أصيلة فى القلب . وكما كان يلعب فى إيطاليا مطوفاً بالمحال العامة ودور اللهو والشوارع ، بدأ صاحبنا حياته فى الإسكندرية يلتقط فى قبعته قرشاً من هنا وقرشاً من هناك . وقد تغيرت فيه أشياء معينة ، إذ بدأت شعرات تطل من شعره الأسود فى رأسه وفى عارضيه ، وخطوط الألم والأمل الضائع ترتسم على وجهه وجبينه ، وحل الانكسار محل شموخ الأنف ، ونسى طموحه القديم ، وتعلم كيف يحنى هامته ورأسه بذلة عند كل قرش يلقى فى قبعته .

« على هذا الحال عاش تيانو فى الإسكندرية حيناً من الزمان ، ثم انتقل إلى القاهرة حيث استقر به فيها المقام : دائماً تمس الطواف بالمشارب والمقهوات ، ثم يأوى آخر الليل إلى غرفة صغيرة على السطح فى حى السبتية ، يجمع إيجارها بعرق جبينه ودموع عينيه ودماء قلبه . إنها الحياة بآمالها وآلامها ، بوجهها الضاحك ووجهها الباكى . هذه هى حياة الرجل ! وعندما يسمع أحدنا يقول له مشجعاً بعد أن ينتهى من عزفه : برافو بروفيسور تيانو ، ينظر إليه والدمع يكاد يطفر من عينيه ولا يجيبه بغير انحناءة ذليلة وابتسامة باهتة ترى فيها مأساة حياة سطرتها الأيام بخطوط من الآمال الضائعة والأطماع المخذولة . إذا انتظرت هنا قليلاً فسوف يعود المرة الثانية يلعب على كمانه الذى شهد أحلامه العراض فى ميلانو ، نفس المقطوعة ، نفس النغمة التى أتقنها منذ عشرين عاماً أو تزيد ، ولم يتقن غيرها ، بل لعله لم يلعب غيرها فى حياته « الفنية » كلها . أجل ، إنه آت ، فاستمع إليه هذه المرة ولعلك ستشعر نحوه بإحساس آخر ، وقد علمت من قصة حياته طرفاً ... طرفاً قاتماً ما كنا . الآن أستأذنك فى الانصراف . لقد سعدت برفقتك . وداعاً » .

وانصرف رفيقى بينما كان تيانو المسكين الشيخ قد وقف المرة الثانية على الرصيف يعيد نفس النغمة التى كان يوقعها منذ دقائق : رومانس ، بنفس الروح وبنفس التعابير . فقد كانت تنطلق أسارير وجهه عندما كان يؤدى لحناً لطيفاً ضاحكاً ، وكأن اللحن قد مسه مساً رقيقاً ، ولكن عندما كان يقوى اللحن ويتحمس ، يلوح كأن شيطاناً قد ركبه فيتعقد وجهه ويندفع رأسه إلى الأمام أو إلى الخلف بقوة فينتفش ويتطاير شعره الطويل على جبهته فيغطى عينيه ، بينما جسمه كله يتلوى وأصابعه تتشنج على القوس وعلى الأوتار بينما يدق الأرض بحذائه الأسود البالى دقاً كأنه مارد يدك الأرض دكاً . حركات تمثيلية (أو كانت تمثيلية أول الأمر

وصارت بالتكرار تلقائية) يقوم بها دائماً أوتوماتيكياً ويكررها ليرضي مستمعيه ، وليرضي نفسه قبل أن يرضي مستمعيه .

عندئذ شعرت بالألم الذي يوحي بالعطف عليه والرثاء له ولم أحتمل أكثر من ذلك فرحت متسرباً « على بابا » في نفس اللحظة التي كان تيانو يتهيأ فيها لإخراج قبعته من جيبه ليدور بها على الزبائن .

• • •

صديقي ، يا من أحببت ياجانيني أيما حب وشغفت بموسيقاه أيما شغف ... ليست هذه كل قصة تيانو ، فاستمع لما تبقى منها وهو قليل :

جعلت أتردد على قهوة « على بابا » وقد جذبتني حالة « الموسيقار » التعس ، وبدأت أشاركه من القلب بؤسه ، ولو عن بعد . ولكني ذهبت ذات مساء إلى « على بابا » ومضى الوقت ولم يظهر تيانو . فأحسست بالقلق عليه وكنت قد اعتدت رؤيته والاستماع إليه كلما ذهبت إلى هناك . فسألت الجرسون — وقد كان يعرف أين يسكن ، وكان يزوره من آن لآخر — فأخبرني أن تيانو مريض ، وأنه ملازم غرفته منذ أيام لايبرحها ، فأبديت رغبتي في أن أرى هذه الضحية التي التهمها الفن بعد أن غرر بها فلم يبق منها غير بقية واهية لا تبشر بخير . وعرفت أين يسكن المسكين من حي السيدة ، فذهبت إليه في نفس المساء .

صعدت سلماً حجرياً ضيقاً « مبرياً » في وسط كل درجة منه بحيث كدت أتزلق مراراً في صعودي . ولم يكن هناك غير مصباح غازي « نمرة ٥ » قد انطفأت زجاجته ، معلق بحبل قذر من ردهة الطابق الثاني . فتحسست موطئ قدمي على الدرج حتى انتهيت إلى السطح وكان معتماً لا تنيره غير نجوم السماء ، تموء فيه قطة وتنعق بومة ، ولمحت في طرفه نافذة ينبعث منها ضوء أصفر ضعيف . كانت هذه هي غرفة تيانو ، قديمة متداعية اسودت شقوقها الواسعة في ظلام الليل ، وظهر بابها الذي مال أحد مصراعيه على الآخر لانفصاله إلى « مفصلة » تقيمه . ولعل الغرفة كانت تستعمل في يوم ما للغسيل أو لتربية الدواجن .

تقدمت متعثراً فيما كان ملقى على السطح من أشياء قديمة ، وطرقت الباب الخشبي مرة ، ولكني لم ألق رداً . فأعدت الطرق ... ولما لم أسمع حركة أو نأمة لهول فكرة مرت فتى برأسي ، ودفعت الباب برفق ، فانفرج ، ودخلت . كان الرجل مستلقياً على فراش قديم عليه حشية بالية ، وحسبت أنه كان نائماً ، فلم أشأ أن أوقظه ، وجعلت أتلفت في الحجرة : كان الكمان وقوسه معلقين إلى مسمار في الحائط ، وكانت بذلته السوداء بقطعتيها : البنطلون والسترة ، معلقة على مسمار آخر جوار الكمان وقوسه ، بينما قميصه الذي كان في يوم ما أبيض ملقى على الأرض الترابية ، وقبعته ملقاة على كرسي خيزران أعرج في ركن الغرفة بجوار نافذة تطل على الطريق المظلم الموحش . وحدثتني نفسي أن ألقي نظرة على ما قد يكون في القبعة : كان فيها ثلاثة قروش مفرغة ومليم أحمر وفردة رباط حذاء قديمة . أغلب الظن أنه عثر عليها في الطريق ذات يوم وظنها تصلح لحذائه إذا ما بليت أربطته ، ووقعت عيني أخيراً على الأثر الوحيد الباقي للأحلام الضائعة .

فقد رأيت ربطة عنقه السوداء الضخمة معلقة وحدها بإعزاز على مسمار بجدار سقط طلاؤه الجيري وعشش في جوانبه العنكبوت . وفي ركن من أركان الغرفة ، فوق فراش تيانو ، كان هناك مصباح غازي يتلاعب نوره الواهي من خلال زجاجته الكالحة المكسورة فوهتها .

في هذه الغرفة ، ياصديقي ، كان يعيش الرجل .

اقتربت من تيانو وقد نعمت لنومه الطويل ، كان متدثراً بدثار قديم ممزق يطل منه وجه مجهد تتابل عليه ظلال صفراء شاحبة . وسمعت خلفي ، بينما كنت أتقدم من الرجل ، خطوات متعثرة ، فاستدرت لأرى الداخل ، كانت امرأة زرية الهيئة والملبس .

— من أنت ؟؟ .

قالتها بصوت خفيض متردد ، فقلت : جئت أعود تيانو . فأطرقت وقالت : لقد فات الأوان ياسيدي . فصحت مذعوراً : مات المسكين ؟؟ ولكن من أنت ؟؟ قالت ودموعها تتدحرج على خديها الباهتين :

— صاحبة البيت . كم كنت أشفق عليه . لقد مات منذ ساعة . ترى من يكون هذا المسكين ؟؟ إني لم أسمعه يتكلم قط !

— لا أدري ياسيدتي . إنه ... لا شيء ! لا شيء ! .

رثاء الضرس

للدكتور عبد الله الطيب

كان قد هاج بي أحد أضراسي عام ١٩٤٣ هيجاً شديداً ، حتى إن كنتُ أدع له مضجعي يتجافى من الليل — والشتاء قارس — وأوسّدُ خدي البلاط البارد رجاء أن تطفأ ثائرتهُ ، فلما عالني أمره شكوتُ ذلك إلى صديق الطبيب البارع (الآن لا آنذاك) حُسَيْبَةَ بن المُتَنَطِّسِ (١) ، وكان حينئذ طالباً بمدرسة كتشنر الطبية بالخرطوم ، فأشار عليّ — لا بل أمرني — أن أذهب معه إلى عيادة أم درمان الخارجية ليتولى قلعه هو بنفسه ، فترددتُ قليلا ، فأخذ يحذّرني سوء العقبى إن أنا لم أتبع رأيه ، وشرع يمزج التحذير بشرح مطول لهيئة الضرس وتكوينه ، وغشائه الصلب الخارجي ، وباطنه اللين الرخو ، وجذوره التي إن سرى إليها السوس أو غيره من الأوبئة أعدَتْ جاراتها فَيَذْوِينَ كلهن ، وجعل يهوّل عليّ بكلمات لاتينية بعضها ينتهي بميم ساكنة ، وبعضها ينتهي بياء ممدودة ، وبعضها من الشناعة بحيث لا يشبه إلا طلاسم شهورش وأبي هدرش ، وطفق يستشهد على صحة ما يقول بمجلة « لانسيت » البريطانية وأخياتها من برنستون وهارفرد ، ولو كان حُسَيْبَةُ يتقن الفرنسية أو الألمانية لما فاته أن يستشهد بمجلات باريس وبرلين ؛ فلعمري قد راعني ، ولكني لم أملك أن ذكّرتهُ بما تحتّمه قوانين المستشفيات من أن الطلبة الطبيين لا يجوز لهم أن يباشروا العمل ثم أنفسهم في غير ساعات العمل ومن دون مراقبة ذوي الخبرة ، الألى رسخت أقدامهم في هذا الفن ، فبكّتني على مقالتي هذه أيما تبكيت ، واتهمني بجُبْن الدرسيين وورعهم ، وأفهمني أن صناعة الطب إنما أبناؤها كالبنيان المرصوص ، « يقوم بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على من سواهم » ، وأن الطبيبَ من لدُن دخوله في المدرسة إلى أن يتخرج ويتدرب ويمسك بالمبضع على أوفاض (١) العمليات ويجري به بطون الأشقياء الساكين ، إنما هو بعين قبيلته الطبية وتحت رعايتها ، تدافع عن ذماره

(١) اسم خيالي كسائر ما في هذه الكلمة من أسماء الأعلام.

(١) الأوفاض هي الأخشاب التي يقطع عليها الجزار اللحم .

وغادرت المكان وكلي ألم وحسرة .

* * *

هذه يا صديقي قصة رجل أراد أن يحول مجرى حياته في سن الخامسة والعشرين . أنا لا أعترض في أن تحول مجرى حياتك في أي سن وإن كنت في الأربعين أو حتى في الخمسين ، ولكني أود أن أهمس في أذنك بكلمة واحدة قبل أن أختم خطابي هذا ، وهي : أني لا أقر ، كما أن العالم كله لا يقر ، نصف النجاح ، إني لا أحب لك يا صديقي مبدأ « بعض الشيء ولا شيء كله » ، في الفن على الخصوص إن لم يكن النجاح كاملاً والانتصار فيه كلياً شاملاً فقد ضاع وضاع صاحبه ، آلاف غيرك وغير نيانو تعلموا الكمان وأتقنوه ، ولكنهم لم يصلوا كما وصل باجانيني ، فضاعت حياتهم هباء كموسيقيين درجة ثانية أو ثالثة . قد تكون لك مواهب وقد تكون مشغوفاً بالموسيقى وبالكمان خاصة ، ولكن هناك شيئاً غير الموهبة والشغف ؛ هناك العمل المتواصل ، هناك التضحية الكاملة بكل شيء . قد يضطر الفنان الحق إلى أن يضحي بأهله أو بوطنه أو بدينه ... وحتى حياته نفسها قد يضطر إلى التضحية بها على حساب فنه ، يضحي بها سعيداً راضياً ؛ فهل تشعر بهذا في قرارة نفسك ؟ أنت أدرى مني بشخصك ، لن أجيبك إذاً ، كما لم أجبك في مستهل هذا الخطاب ، بـ « لا » أو بـ « نعم » . فقط اقرأ قصتي مرة ومرة ، إقرأها بإمعان ، ثم قارن ما تحلم به بالمركز الذي تحتله كمهندس وأنت في الثلاثين الآن في شركتك ، ولك أن تصنع بعد ذلك ما تشاء .

إدوار منسي

وتكلل بغشاء جميع أوطاره . ثم أضاف أنه على صغر سنه يستجهل كثيراً ممن يبدون فى أعين العامة أمثالى ، ذوى معرفة وخبرة وحذق فى هذه الصناعة التى هو أدرى بها ، فلم يسعنى إلا الإذعان . وليعزز حُسَيْنَةُ حُجَّتَه أشار على أخى الفاضل حُباب بن بلباع أن يصحبنا إلى المستشفى ، فربما احتاج ضرسه هو أيضاً إلى قلع ، أو أذنه إلى قطع ، أو أنفه إلى جدع ، أو معاه إلى جرع ، من كل حامض ذى لذع . وكان أخى حباب بن بلباع يومئذ مدرساً فى صدق وحياء وأمانة . لمّا تغشّه الصحافة بعد (كاهى الحال الآن) بِزاع الحجة بالحجة ، ودرء الخصومة بالخصومة ، وفوتَ المُغالب ، وروغان الثعالب ، فاستطاع — كما يقول النحويون أى أطاع — واستسلم . ومضينا ثلاثتنا بقودنا زعيمنا إلى العيادة ، فما إن وصلنا وقرعنا بابها حتى تلقانا أمرٌ نكرٌ بمجرّ عصيبٌ ، إذ استقبل « الترجمن » المسئول صديقنا حسينة بفتور ، وطرف مكسور ، وأبى أن يسمح له بالدخول ، وجعل حُباب يكتم ضحكاً خبيثاً ، واستشيط طبيبنا غضباً :

— افتح لى فأنا حسينة .

— وكيف أعرف أنك حسينة ؟ .

والتفت حبابٌ إلى صديقنا يلومه : « إنك قد فرّطت يا أخى حين تركت عباءتك البيضاء المشقوقة من وراء ، وحضرت معنا بملابس العفاء » .

وانبريت أنا قائلاً : « أين ذلك الطوق السحرى الذى تستمع به وجيب القلوب ؟ » .

وأخرج حسينة سماعته من جيبه الأيسر ، وجعلها عِلاطاً(١) على رقبته . وما إن رأيناها عليه حتى استشعرنا هيبةً له . وقوى أملنا فى أن « الترجمن » سيفتح له الباب ، وأدرك « الترجمن » أيضاً أن صاحبنا ليس من السوقة والدهماء . وأنه وإن لم يكن طبيباً حقاً ، إلا أنه تلبد على فى عامه الثانى أو نحو من ذلك . ومن الحكمة مداراته .

(١) العلاط هو السمة على العنق ، ثم قد يطلق على الطوق مجازاً فتقول : حمامة حاء العلاط أى ذات طوق أسحم أسود . وورد فى الأخبار أن عبد بن الحسحاس الشاعر كان مُعلطاً ، أى كان يلبس طوقاً — وكذلك عادة كثير من الأحباش . وقد رأيت كثيراً منهم يلبسون خيوطاً حول أعناقهم وحبالاً ونحوها يلفونها كسلا .

ففتح الباب بين كارهٍ ومعتذرٍ . ودخلنا . وأخذ صاحبى يبحث عن عذر يخفف به ألم القلع عنى . ولكنه لم يجد شيئاً . فسألنى وهو يبتسم ابتسامة ذئب كمترّس : « أعندك من « الشجاعة الجسدية » كما يقول الإنجليز ، ما تحتمل به ألم انتزاع ضرسك ؟ » فذكرت فى نفسى ذلك الشيخ الجبلى(١) الذى بتر طبيب القرية رجله اتأ كلة بلا « بنج » سوى زغاريد النساء ! فلما سمعها ملأته نشوةً وحماسة وفتوةً فمد رجله الصحيحة وصاح بالطبيب : « امرأتى طالق إن لم تبتر هاته الأخرى أيضاً » . ذكرته ووطنت نفسى المكروب ، وأجبت : أن نعم .

وشرع حسينة ينتخب من الآلات ما يصلح لتعذيبى . وإذا كلثوبٌ كأنما كان يُستعمل لقلع المسامير . وأقعدنى على كرسى ، سواء من كرسى . ومازال يجذب وينزع حتى شرّم أعلى الضرس تشريماً ، وحطمه تحطيماً ، وغادرنى — لولا الجلادة — مكلوم الفؤاد ، وصب الرأس ، منقطع الأنفاس . وأشفق حُباب من أن يصيبنى ضرر بليغ . فأخذ يصيح بصاحبنا أن يكف . وصاحبنا لا يزيد إلا انغشمراً وشراسة . ثم أخيراً وجد لأى أدرك أن الأمر أعسر من أن يفرغ منه فى ساعته تلك . وأنه « رب عجلة تهب ريثاً » . فأمسك . وأنشد :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه　　　وجاوزه إلى ما تستطيع

واكتفى من اقتلاع الضرس بتنظيفه ووضع بعض المكاويات فيه . ونصحنى أن أحضر من الغد إلى الطبيب الأرمنى المتخصص فى الأسنان « برنتو » . وخرجنا إلى محل قهوة قريب . فلقينا بعض المتطرفة فألقى علينا نظرة ثم قال بالإنجليزية ما معناه : « تبدو مساوىء البشاشة اليوم » . فأجبته بلسانه ولم أنغض رأساً : « إنى راض أن لست إلا مساوىء البشاشة » . فقال لى حسينة وهو يضحك : « لقد أنطقتك الأعجمية فصيحة » . والحق أقول ، إن قضيت ليلتى تلك أروح من ذى قبل ، إذ لم يكن جهد طبيبى وتنظيفه عبثاً ، لا زال سعيه مشكوراً . ومن الغد مضيت إلى « برنتو » فأزاح جذم الضرس كلمح البصر . فقلت

(١) الجبلى نسبة إلى الجبليين وهم من أكبر قبائل السودان الشمالى .

أرثيه مقترباً سبيل متمم بن نويرة اليربوعي في قصيدته التي رثى بها مالكاً أخاه :

لقد بان ذاك الخل منا ووِدَّها
فصُدِّع شعب لم يكن قبل صُدِّعا
فياليت ضرساً كان سيد ربعه
أقام فلم يسترك لى الغم بلقعا
تمكن فى مَعْشر(١) مكين جذوره
تمكُّن عَشِيّ العشيرة أزوعا
وكان جديراً أن يقيم مكانه
ويحمل فى السلطان كسرى وتبعا
ولكن بنات الدهر فرّق شملها
تخيّره فى الأمن الخوفَ الروعا
فلم يقتنع بالخبز واللحم مطعماً
وأغرىَ بالسيساء(٢) والتمر مطمعاً
هو الطمع الباغى وبالُ عقبيه
فقصرك(٣) ألا تجعل البغى مرتعا
فقدماً أطاح الظلم هامة قيصر
ومزق عن دارا الستار المتّعا
وأنزل ربّ الصُّغد عن عرش عزه
قتيبة(٤) لما حمل القوم مُفظِعا
وأحرق فى نار الصواعق أربداً(٥)
فأمسى لبيد بعده الحزن جزّعا

أظل عليه(١) السوس ينخر عظمه(٢)
وما كان قبل السوس يوما ليجعا(٣)
يظل نهارى ساكناً فإذا دجت
دجى(٤) الليل عاطانى الأذى والتوجعا
ويطلعنى قدماً ترى الصبر عنده
ضعيفاً كبيت العنكبوت مزعزعا
وأسقيه ماء الملح مراً فيرعوى
قليلاً ولكن ربما أن يتوعرعا
ألح علىّ الليل ينفث سمه
وناولنى كأس السهاد فأترعا
فلأياً طعمت النوم حتى تثورت
نوائره تذكى لىَ النار مضجعا
تشكَّ إلى إخوانه وقبيله
تخبّ بها داعى السقام وأوضعا(٥)
ففى العين أوجاع وفى الرأس مثلها
كما أنّ الشرقُ الإمام المودّعا(٦)

... ...
... ...

تمتد القصيدة إلى ما يساوى صفحتين أخريين من هذه المجلة ، لكننا نكتفى بنشر هذا القدر منها .

الدكتور
عبد الله الطيب
مدرس معهد اللغات الشرقية — جامعة لندن

(١) السر يسكون اللم : اللحم المركبة فيه الأسنان .

(٢) السيساء : الحشف البالى والردئ من التمر ، قال الراجز : يا لك من تمر ومن سيساء ينشب فى المسعل واللهاء .

(٣) فقصرك أى كفك . ألا : لا فيها زائدة كما هى فى قوله تعالى : « لئلا يعلمَ أهل الكتاب » وإنما تزاد للتوكيد وليست هى بلا النافية ، وكل ما هناك أن القوم أشبعوا فتحة لام التوكيد .

(٤) هو قتيبة بن مسلم الباهلى وكان كتب الكتائب من مرازبة الترك والصغد وتكبر وتجبر وحمل عليه وإخوته على رؤوس الناس فأتيح له جبار مثله هو وكيع بن أبى سود التميمى فقتله .

(٥) أربد بن قيس أخو لبيد بن ربيعة الشاعر لأمه . وكان هو وعامر بن الطفيل حدثا أنفسهما بقتل النبى صلى الله عليه وسلم فأرسل الله على عامر الطاعون وعلى أربد الصواعق فرثاه لبيد أحر رثاء . والمستشرق كرنكو بحث فى قصة عامر بن الطفيل كما ترويها السير ، وهذا بحث يطول .

(١) و(٢) ينخر عظمه أى يصير نخراً متفتتاً من السوس . والفعل لازم من باب فرح . أما النخير فحدّه بابا نصر وضرب . — والضمير فى « عليه » يعود على الضرس ، وهذا استئناف للكلام .

(٣) تقول وَجِعَ يَوْجَعُ وَاجِعُ ويَيْجَعُ ، وبعضهم يقول ييجع . وكسر حرف المضارعة إن كان غير الياء مطرد عند العرب فى هذا الباب .

(٤) دُجّى جمع دُجية أى ظلمة وهذا أنثنا الفعل ، ولك أن تذكره وتجعل الدجى بمعنى الليل .

(٥) الخبب والإيضاع ضربان من السير السريع .

(٦) فى هذا البيت محاكاة وإشارة لكلمة المرحوم حافظ بك إبراهيم :

فى الهند محزون وفى الصين جازع   وفى مصر باك دائم الحسرات

يد الإنســـــان

في هذه المقالة فكرة جديدة جريئة صادقة في كثير من نواحيها، لولا أن الكاتب قد أسرف وبالغ في ازدرائه الطبيعة، ناسياً أن الإنسان الذي نعلي من شأنه هو نفسه طبيعة. «الهلال»

للأستاذ عبد الفتاح الديدي

اعتدنا في حياتنا أن نمتدح شيئاً ونطريه فنقول: إنه طبيعي، وإن يد الإنسان لم تعبث به. ولكن هذا الإطراء — لو تعلم — لا يدل على فهم صحيح لحقائق الأمور، ولا يبعث على الإحساس بصدق دعوانا. فإن نظرة يسيرة إلى نظام الحياة وأساليب المعيشة في جملة من الدول الراقية تشعرنا بأن هذا الحكم خاطئ من أساسه، وأنه لا معنى على الإطلاق لدعوى الطبيعية في شيء إلا إذا أحسسنا بخموله وكساده. ولو كنا من ذوي الفهم الصادق لما يجري على الأرض من أحداث، لأطرينا الشيء واستحسناه على أساس أنه وليد التفكير الإنساني، وناتج عن العبث اليدوي بأطرافه. أعني أنه من الضروري — وقد وصلنا إلى هذه الدرجة من التحضر — أن نفطن إلى قيمة التدخل الذي تقوم به يد الإنسان في ضبط الحياة من حولنا، وفي نظام الأشياء والموجودات الماثلة. فكأنما قد تركز السحر في أصابع الإنسان وأنامله، حتى لا يكاد يلمس شيئاً من الأشياء إلا ويحيله إلى كيان له قيمته وجدواه، ولا يكاد يعبث بمشاهد الطبيعة إلا ويجعلها ذات فائدة وذات معنى محلي مفهوم.

كنت أجلس في ليلة من ليالي الربيع الماضية مع أسرة فرنسية على سطح إحدى العمارات الكبيرة بالقاهرة. وكان المنظر رائعاً حقاً.. سطوح واقية ومآذن تحت أشعة القمر الفضية.. خلاء من كل جانب تموج به أشباح أغصان وأشجار باسقات.. سكون لا هو المطبق فيوحش الليل، ولا هو الضائع بين دواعي السمر واللهو البريء. فقالت السيدة: ألا تشعرون بنعمة الله عليكم! إذ منّ عليكم بهذه النسائم العاطرة، وبهذا السماء الصافي، وبهذا القمر المتلألئ فوقكم، كأنه رب لأمسياتكم الجميلة. قلت: إني لا أجد في هذا المنظر — البديع في رأيك — أي داع من دواعي المسرة، وتكون نعمة الله أكبر إذا استبدلت لي بهذا القمر المتلألئ مصنعاً للأدوية، وأقمت لي محل هذه النسائم مداخن تملأ أنفي برائحة الحديد المصهور، ونصبت لي في هذا الخلاء ورشة أو معملاً أو آلة ضخمة لتفتيت الحجارة! قالت: وَيْ وَيْ.. لو أنك رأيت ما تعانيه شعوب أوربا من المتاعب والآلام بسبب القاذورات التي تقذفها المصانع، والغبار الذي تثيره المداخن، والقلق الذي يعانيه العامل... لو أنك لمست عن قرب هموم الأهلين في القرى الصناعية لآثرت أن تعيش هنا إلى الأبد بجانب الصحراء الترابية، وخلف أشجار الزيتون والبرتقال، وقريباً من مياه النيل الصافية العذبة.

قلت: هذا صحيح ولا شك، ولكن بقدر ما تدفعون وتبذلون تحصلون على الكرامة والسكينة اللائقة بأمتكم. وما من إنسان يقول إنه سيحقق الكرامة لبلده، وسيرفع من شأن أمته، وهو جالس يحصي ما بينه وبين الرمال الصفراء والبحر التراني والشمس الساطعة والهواء المنعش الجميل. فبقدر ما يضع الفرد من نفسه ترتفع أمته، وبقدر ما يبذل من الجهد والنشاط تنال بلاده ثمرة أعماله. ثم إني لا أعتقد في الطبيعة بقدر ما أعتقد في الصناعة.. أحب التكلف لأنه عنوان الجهد المبذول، وأحب التصنع لأنه دليل على التدخل البشري، وأفضل المدنية على الفطرة. وأعتقد في أن ما لم تمسه يد الإنسان هو مجرد طاقة خالية من المعنى وقوة هوجاء تبعث على القرف والاحتقار.

ولا أدري إلى أي حد يشاطرني القارئ رأيي فيما ذهبت إليه عندئذ! ولكني متيقن من صدق دعواي، وأنه ما من شيء يفسد علينا حياتنا، ويحول بيننا وبين التقدم،

وحرمنا من الحياة البكرية سوى جنوحنا الغريب إلى مظاهر الطبيعة ، وغرامنا الشديد بمشاهد الكون ، واحترامنا العميق لكل ما لم يمسسه بشر . إننا أنانيون .. نحب البكارة في كل شيء ، ونتمنى أن تبقى هذه البكارة دون أن نفضها ! كأنما نحرم على أنفسنا أن تغير ما رسمته يد الطبيعة على صفحة هذا الكون ، من معالم وخطوط . وهذا يدل أول ما يدل على انعدام الروح العلمية في نفوسنا وعلى أننا أقرب إلى الخرافة منا إلى العمل العقلي السليم . فلا زالت الأوصاف البلدية سارية عند معظم الناس بحكم اعتقادنا في أن المواد الطبيعية أدعى للشفاء من تلك الأدوية الطبية التي ركبتها يد الإنسان ، وعبث بها الكيماويون ! ولا زلنا نفضل الهواء النقي على الدخان المتناثر في الجو بحكم الكراهية الكامنة فينا للصناعة وما تتطلبه من تغيير . ولا زالت الراحة والهدوء وجمال الطبيعة يغرينا بالإبقاء على مظاهر الحياة كما هي ، وعدم إدخال المدنية في القرى والريف حتى يظل أمام الإنسان متنفس ، وحتى يجد الحماية من آثار المدن المتعبة للأعصاب الخانقة للروح .

إن الغربيين يأتون للسياحة في بلادنا ، ويستمتعون بالهواء والصحراء والمزارع والهدوء ، فيوهموننا أن هذه الأشياء لها قيمتها ، وأنها تساوي ما يتكلفه السائح من جهد ومال في سبيل الحضور إليها من أقصى بقاع الأرض . وإلا فهؤلاء السائحون مجانين يلقون بأموالهم في سبيل أشياء خرافية ! والواقع أن الأمر بالنسبة إليهم في غاية المعقولية ، ومن صالحهم دائماً أن تظل هذه المعالم قائمة في بلاد غير بلادهم حتى لا تتعلق برقابهم مسئولية هذه الأوطان ، ويستمتعون ، في الوقت نفسه ، بما يتوفر لها من دواعي المسرة والبهجة وهدوء البال . أما بالنسبة إلينا فعار ، فيما أعتقد ، أن نباهي بهذه المناظر الفريدة ، وأن نفخر بالأرض الخلاء ، وأن نشيد بمعالم الطبيعة في كل جانب . بل يحس الإنسان بالحسرة والألم عندما يجد من بين مواطنيه من يحارب المدنية ويكفر بالأدوات الصناعية ، وينظر بعين الشك إلى الأساليب الحضارية في المعاش اليومي . وقد جعلنا السائحون ، لكثرة ما رددوه عن جمال مصر وبهائها ، نشعر بقيمة أشياء ، لو أنها كانت في بلادهم لاحتقروها غاية الاحتقار ، ولأسرعوا إلى تبديلها وتحويلها إلى مصانع وورش ودور عمل وتجارة . ولكننا بسطاء إلى حد كبير ، ونصدق الأكاذيب ولو كانت في غير صالحنا ، لا لشيء إلا لأنها توافق ما في نفوسنا من ضعف وخمول ورغبة في الراحة والبلادة !

وأنا شخصياً لا أكره شيئاً قدر ما أكره هذه المجالي الطبيعية التي لم تتدخل في تحويرها يد الإنسان ولم تعمل على تغييرها إرادة الأفراد . وعلى أساس هذه الكراهية أوجه حياتي .. فتجدني مثلاً أنفر من شاطئ البحر الذي أعدته الطبيعة ولم يتكلف الإنسان جهداً من أجل تجميله وتزيينه ، وأشعر بالاشمئزاز أمام الصحراء الممتدة بغير أن تظهر على رمالها أقدام بشر ، وآنف من حياة البدو الذين يتأثرون في مزارعهم بما يهبط من الغيث ، وأبتعد عن كل ما يتطلب استسلاماً وارتكاناً إلى شيء خارج عن إرادتي الشخصية .

وليتنا نستطيع أن نجول بهذه النظرة بين أنواع النشاط عندنا لندرك إلى أي حد هي تافهة عقيمة . ليتنا نقوى على مصارحة أنفسنا بأن هذه « الطبيعة » التي نفضل على أساسها الأشياء ، ونفرض بمقتضاها القيم ليست سوى أكذوبة ضخمة ، وأننا أحوج ما نكون إلى إقحام أيدينا في إمكانيات الطبيعة حولنا كيما تصبح مصبوغة بصبغة الفرد مدموغة بدمغة الإنسان . ونكون مقصرين في حق أنفسنا بقدر ما نرى في بلادنا من الأراضي المترامية بغير استثمار ، والأيدي العاملة بغير تشغيل ، والقوى الكامنة بغير استغلال ، والمظاهر الطبيعية بغير تحويل . بل ننظر بهذا القياس في أخص خصائصنا لنرى كيف أن هذه النظرة الضيقة أفسدت علينا استطعامنا للفنون وتذوقنا للأدب والشعر . نرى النقاد عندنا يستملحون القصيدة لأنها جاءت نفحة موحاة بدون أن يتكلف صاحبها عملية الإخراج . وأفسد الشعر فيما أعتقد هو ذلك الذي يأتي عن طبيعة ولا يحاول صاحبه تجويده وإتقانه . فالصنعة ضرورة لازمة في العمل الأدبي ، ولا تعدو الروح الطبيعية أن تكون أسطورة لدى الكتاب والشعراء . وأصحابنا المتطربون الذين يجدون اللذة في قراءة الآداب المطبوعة

ليسوا منافقين ، وإنما جهلاء بحقيقة العمل الأدبي الذي يتطلب درجة شديدة من الوعي وقدرة فائقة على الصناعة وامتيازاً كبيراً في استخدام العناصر والأدوات البيانية .

وفي الفنون نراها تكره المذاهب الجديدة في الرسم لبعدها الكبير عما تعودناه في مشاهد الطبيعة الخارجية . لازلنا حتى الآن نرتاح لمشهد الشجرة والوردة والبحر والسماء والسحاب .. لازلنا نؤله قوى الطبيعة ونسخر من قدرة الإنسان ونحارب روح الابتكار ونتفنن في التصغير من شأن أنفسنا . لازلنا نكبر قواعد الوجود الطبيعي ونسخر من الأخلاق الفردية ، ونرفع قوانين العالم الطبيعي على قوانيننا الشخصية ، ونضحك ملء أفواهنا من الفنان الطائش الذي يريد إخضاع الحياة لإرادته ويفرض على الوجود قانون فكره . ويجب أن نتكاتف من أجل أن نعلى كلمة الإنسان في الأرض . حارب كل منا الآخر وهزأ منه وحاول أن ينال من آرائه بشأن الطبيعة الخارجية التي لا يصح في رأيه أن نعادى طالما كانت صاحبة الحول والطول في حياتنا . والحقيقة هي أن الإنسان مضطر إلى مواجهة الطبيعة ومعاداتها في كل حين وعدم مهادنتها بحال من الأحوال .. فلو تمكنت منه لأزالت به أبشع ألوان البلاء وأشد ضروب المحن . ولو لم يسع لمقاومتها وتسخيرها لفرضت قوانينها عليه وأخضعته لظروفها وجعلته رهن إشارة من سحاب مار أو جبل منهار . ولعلنا نلاحظ بهذه المناسبة أن الإنسان موجود في الكون رغم أنف الطبيعة .. فهي تحاول إفناءه بشق السبل وتسعى لإبادته وتبدع الوسائل المختلفة لمحوه ، ولكنه — بفضل المخلصين من البشر — قد وقف على رجليه وصار يقاوم مظاهر الفناء في جوانب الكون ، ويقحم إرادته في الظروف المحيطة به ، ويحاول التحكم في القوى الغاشمة التي يناله منها الأذى .

فالفن إذا خالف الطبيعة صاحبه التوفيق وامتاز بالشذوذ والغرابة وأثار الدهشة في نفسية المتأمل . وذلك هو الأصل الأول في تقدير العمل الفني . ولا تحاول أن تثير في قلبك الشك بشأن ما أزعمه هاهنا قبل أن تحاول النظر في الأمر بعقلية مستنيرة ومزاج متحرر . فما من شيء يدعو إلى النفور مثل رؤية صورة الشجرة مائة مرة ، ملقاة في أحد جوانب اللوحة ، ولا يختلف شكلها إلا في عدد الأوراق ومقدار الميل في الأغصان وعدد العصافير المعششة عليها . أما الفن الحديث — خصوصاً الرسم — فيحاول إعطاء فكرة ولا يهمه أن يأتي الشيء مطابقاً لما هو قائم بالعالم الخارجي ، وإنما يهمه أن يبرز فكرته الشخصية من باطن روحه وأن يجسمها عناصر حية ، وأن يطلب من الطبيعة محاكاة ما يرسمه ولا يجعل رسمه محاكياً للطبيعة .. إذ يكون عمله في هذه الحالة مجرد تقليد باهت .

يد الإنسان هي رمز لقوى الفرد ودليل على ما يفعله في نطاق الوجود . هي العصا السحرية التي أمكنها أن تهب الحياة معنى الجمال وأن تسبغ على الكون روحاً سامية وأن تخفف من وقع المأساة على الأفراد في معاشهم المحدود . وصرنا الآن نحس يد الإنسان في كل شيء . والحياة الطوبوية إنما تتحقق بأن يمتد النفوذ البشري إلى كل ما يدور في داخلية هذا العالم الأرضي المرذول .

عبد الفتاح الديدي

ثورة فى دراسة التراث المصرى القديم

– ١ –

للأستاذ محمد عبد الحليم محمود

لم تحظ دراسة التراث المصرى القديم إلا بقسط ضئيل جداً من عناية الباحثين عندنا ؛ حتى تركنا للغربيين من مختلف الأجناس هم تعقب آثارنا من عهد الفراعين والتوفر لشرحها وتحقيقها فى شىء غير قليل من الشقة والجهد .

وأمامى الآن مجلتان من خيرة المجلات الأوربية : الأولى فرنسية اسمها « الميركور الفرنسى Mercure de France » وبها مقال للكاتب الناقد « أندريه روسو André Rousseaux » عنوانه (الصراع بين أنصار التجديد والمحافظين فى دراسة التراث المصرى القديم) ، وهو مقال مطول دقيق فى حوالى ٣٠ صفحة من القطع الكبير ... والثانية مجلة انجليزية اسمها « ذى كورنهيل The Cornhill » ، وبها بحث للكاتب « والتر سمارت Walter Smart » ، فى عشر صفحات ، عنوانه (نحو تجديد فى الدراسات المصرية القديمة) .

وسوف أحاول أن أنقل ، فى شىء من التلخيص للقراء صورة من هذين البحثين القيمين على صفحات « الثقافة » ، عسى أن يكون فى ذلك لفت للأنظار إلى بعض الجوانب الفنية والأدبية من تاريخنا القديم تستحق العناية والتأمل ...

***

المقال الأول

لأندريه روسو

لقد شهد زوار الأقصر والكرنك خلال السنوات القليلة الماضية اكتشافات عجيبة بفضلها أصبحت آثار مصر القديمة تبين علماً من المعارف الجديدة . وإذا كتب لهذه الاكتشافات الثبات النهائى فسوف يكون من شأنها أن تتخذ لها مكاناً فى صف الاكتشافات الخطيرة التى جددت تاريخ الحضارات . وفى إمكاننا أن نقول إن المعابد والتماثيل والرسومات والنقوش التى كنا نشهدها فى مصر قبل الاكتشافات الجديدة كان الفضل فى إظهارها للعلم الحديث ، أما حقيقتها فلم يكن أحد قد توصل إلى فهمها فهماً صحيحاً . ولم تكن قراءة الكتابات الهيروغليفية سوى حل سطحى لرموز لغة غريبة . أما عالم الأفكار والعقائد التى تدل عليها هذه الرموز الغريبة ، فقد كان بعيداً عنا فى حقيقته العميقة كل البعد . ويزيد الأمر صعوبة إذا علمنا أنه يجب علينا التأمل فى عقليات تختلف تمام الاختلاف عن عقلياتنا ، والتسليم بأن الشواهد والآثار التى خلفها المصريون القدامى تتحدث إلينا بلغة غير تلك التى طبعتنا عليها عاداتنا الفكرية ومناهج بحثنا .

لهذا ، على الأرجح ، رفض عدد كبير من علماء الآثار — وعلى الأخص أسنهم وأكثرهم درجات — تقرير قيمة هذه الاكتشافات ، واتباع أصحابها فى الطريق الذى رسموه للوصول بالدراسات المصرية القديمة إلى مرحلة جديدة خصبة . وبينما يزداد عدد المفكرين — على اختلاف ثقافاتهم — المؤمنين بأهمية هذه التجديدات وبأثرها المنتظر فى توجيه الفكر ، نرى هؤلاء العلماء المحافظين يترفعون عن أن يعتبروا مثل هذا المجال البكر للبحث شيئاً تصح فيه الدراسة العلمية : إنهم لا يرون فى مصر القديمة شيئاً يفهم غير الذى فهموه . ويعتقدون أن « الإجيبتولوجيا »[1] يكفيها أن تستمر فى سيرها البطىء خلال الطرق المرسومة من قديم ، وأن هذه الاكتشافات الجديدة المزعومة ليست إلا من قبيل المغالطة والوهم ... والإجيبتولوجيا الصحيحة أرفع من أن تعير أهمية لمثل هذه السفسطات .

ذلك هو النزاع بين علماء الآثار المصرية القديمة .

ولننظر الآن فى أهداف ذلك النزاع ، وفى أثره فى مجال الفكر عامة .

---

(١) Egyptologie : أى دراسة الآثار المصرية القديمة .

المذهب الرمزى :

ونبدأ بحثنا بإثبات بعض المؤلفات التى تشرح هذه الاكتشافات ، وهى مؤلفات قليلة ، أهمها :

(١) أربع رسائل للأستاذ ألكسندر فاريل(١) فى موضوعات مختلفة مثل مميزات المعبد الفرعونى وأهرامات سقارة .

(٢) كتاب للأستاذ شوالير دى لوبكز عنوانه « المعبد فى الإنسان »(٢) .

(٣) مؤلف فى أسلوب قصصى للسيدة قرينة الأستاذ شوالير دى لوبكز عنوانه « حير — باك »(٣) .

وعلماء الإجيبتولوجيا « الرمزية » — وهذه هى الصفة التى يمكن إطلاقها على المذهب الجديد فى دراسة الآثار المصرية — يقولون إن المعبد فى الحضارة الفرعونية يحمل فى تصميماته ونقوشه ومدوناته معانى منسجمة تتجاوب مع نظم الطبيعة . ولا نعنى النظم التى يحسها بحواسه ، بل تلك التى يعقلها بفكره . ونظام الطبيعة مسجل فى حركة الأفلاك . لهذا يقول الرمزيون إن المعبد المصرى مشيد على هيئة السماء ؛ إذ هو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بدورات الأجرام السماوية وانقلاباتها ... إن المعبد المصرى فى تطور مستمر ...

ومعنى هذا أن الفرعون عندما يهدم معبداً من المعابد لا يهدمه ويبنى غيره لسبب إنسانى يسهل على المؤرخ فهمه : مثل الغرور أو حب السيطرة والظهور ... إن التفسير الرمزى لظاهرة الهدم والبناء يختلف عن هذا كل الاختلاف : فهو يزعم أنه عندما يأتى دور جديد من أدوار الزمن — يحدده علماء الفلك — يجرأ الملك الذى يسعده الأمر على هدم معابد أجداده ليقيمها على صورة جديدة ... إنه أحياناً يهدم هياكل فخمة عظيمة ، ولكنه فى ذلك لا يأتى أمراً نكراً ، لأنه يحتفظ بعناصرها الأولى فى أساس الهياكل الجديدة ... لذلك يجب أن لا نتخذ المصادفة علة لوجود قطع من معبد قديم خلال أساسات معبد أجد ، فلكل قطعة من مثل هذه القطع لها مكانها الملائم فى تصميم المعبد : إنها تكون فى أساسات البناء نوعاً من « التكتيكات السرية » ينظمها الحكماء . (هذا التشبيه أبدعه فكر الأستاذ ألكسندر فاريل) ... ثم هى خير شاهد على النظام الفلسفى الغريب الذى يتحكم فى تطورات المعبد وتغيراته خلال الزمن .

وليس هذا بالطبع سوى دليل واحد بين الأدلة التى يحتج بها الرمزيون ... وقد كان المحافظون يعتقدون ، ولا يزالوا ، أن محو المدونات من جدران المعابد أو تجديدها وزيادتها يرجع إلى رغبة الفرعون فى انتحال مكانة سلفه وإحلال اسمه محل أسماء أجداده لكى يفوز بأمجاد غيره . ويرد الرمزيون على ذلك بأن هذا الاعتقاد يرجع إلى طبيعة تفكيرنا نحن أهل العصر الحديث ، ولا صلة له بتقاليد وتفكير المصريين القدامى ... فنحن لا ندرك التقاليد التى كانت تدفع بالملك إلى التعبير عن تطورات الطبيعة بأسرها فى المعابد التى يبنيها ثم يجدد بناءها بعد مدة ، قد تطول وقد تقصر ، من الزمن ، وبالتالى فالمدونات المختلفة المتلاحقة لا تبين التناقضات بين الأسر المتعاقبة على العرش ، ولكنها تعبر عن حركة الطبيعة وتنسجم كل الانسجام مع مختلف أطوارها .

والأستاذ ميساك فى مجلة كريتيك(١) يشرح هذه النظرية ، فيقول :

« المعبد المصرى على صورة السماء ... أجل ، إنه تعبير صادق عن المعارف الفلكية لبناته ، وهو يسمح بترجمة الناموس الكونى إلى لغة الإنسان ... والإنسان فى تلك الأزمان لم يكن مصاباً بالغرور الذى يدعوه إلى الاستقلال بما خلق ، وإنما كان يسره أن يرى أعماله ذائبة فى الانسجام الكلى للكون ... وكل شىء فى المعبد المصرى كامل موضوع لغاية ، وليس فيه مجال للمصادفة بتة ... وكان الحكماء الأولون يعملون على التحقيق التاريخ المستقبل لعالم الأجرام والأفلاك ، وكيف يكون تطور العمارة حسب تطور الأحداث فى السماء ...

وإذا كنا أحياناً نعجب ونأسف للتعقيد والتناقض الظاهرين فى غرفات المعابد وأعمدتها ومصلياتها ، فما أسفنا وعجبنا إلا لأننا لم نعد ندرك القانون الذى بمقتضاه نُسّق المعبد وصممت أجزاؤه .

الإجيبتولوجيا والباطنية :

من الجلى أن هذه الأسرار ، التى كانت تميز العقيدة المصرية ، مرتبطة بمذهب باطنى . والأستاذ لوبكز وقرينته

(١) Alexandre Varille .

(٢) Schwaller de Lubicz : Le Temple dans L'homme

(٣) Mme. Shwaller de Lubicz : Her-Back

(١) P. Missac : Critique (Décembre 1948)

يقرران أن دراستهما الباطنية كانت أساس بحثهما في الآثار المصرية ... ولا يخفى علينا أن هذا الاتجاه نحو الباطنية هو العامل الأول في نفور المؤرخين « العقليين » من الإجيبتولوجيا الرمزية .

والحق يقال أن الإيمان بالباطنية في دراسة الإجيبتولوجيا ، أي الإيمان بأن المبادئ التي كشف عنها البحث في الحضارة المصرية صالحة لأن تطبق على كل حضارة ، أقول إن هذا يجر على الإجيبتولوجيا الرمزية أوخم العواقب .

وقد فطن أنصار النظريات الجديدة إلى هذا الخطر :

فقال الأستاذ ميساك : « ليس هنا مجال لمناقشة قيمة الباطنية أو صلاحيتها ... وعلينا أن نقول للأستاذ ڤاريل إن كثيراً من العقول المتعطشة مثله للمعرفة تخشى الوقوع في متاهات التصوف ونظريات الاتحاد ... » .

وقال الأستاذ دى جانديالك[1] : « لسنا بطبيعة الحال بصدد البحث في القيمة الموضوعية لتلك العقائد ذات الصبغة الباطنية » .

ومن المفيد أن تقرر هذه الحقائق تقريراً قوياً . ولكن أليس لنا بعد ذلك أن نقول بأن الحضارة المصرية المبنية على أسس الباطنية الحق في الظهور والسيادة في تاريخ الحضارات مادامت ناتجة عن أدلة علمية قيمة ؟ . . ولماذا ننكر على العلم عامة وعلى الإجيبتولوجيا خاصة أن يوجد في مصر القديمة عالم من المعتقدات لم يدركه الفكر المصرى إلى الآن ؟ ..

تاريخ النزاع :

وكان موقف العلماء المحافظين من النظريات الجديدة موقفاً غريباً : لقد رفضوها في احتقار وترفع دون إبداء الأسباب والحجج المناقضة لها .

وكان دليلهم في هذا الاتجاه الخطير الأستاذ إتيين دريوتون ، مدير مصلحة الآثار المصرية ، في رده على مقال الأستاذ ميساك بمجلة كريتيك : فهو في هذا الرد يزعم أن أبحاث الأستاذ ڤاريل خارجة تماماً عن نطاق علم الإجيبتولوجيا ، وأن النظرية الرمزية « نظرية غامضة لايمكن إثباتها » . ووجد الناس في حديث المدير رفضاً للمناقشة يؤسف له في هذا النزاع العلمى . فالنظريات الخاطئة لايمكن هدمها بمجرد القول بأنها غير مقبولة ، بل يجب تبرير رأينا فيها بحجج واضحة معقولة ...

... وكانت حجج أنصار القديم في عمومها تعتمد على غير أساس علمى صحيح ؛ فهم يدعون أن ليس للعلماء المجددين الخروج عن النظريات التى قررها الباحثون ذوو الصفات الرسمية ؛ وأن كل من حاول هدم الآراء المثبتة من قديم فهو رجل خيالى قد كفر بالعلم الصحيح ؛ وأن الاكتشافات الجديدة ثورة عقيمة يأسف لها كل عالم ؛ وأن « رأى الأغلبية » في هذا الموضوع هو الرأى الصحيح ... خلاصة القول أن الإجيبتولوجيا القديمة تصادر مصادرة تامة مايدعوه علماؤها بالآراء الخيالية والنظريات غير العلمية ...

وقد تدخل الأستاذ دى جانديالك في النزاع وطالب العلماء بالبحث العلمى الصحيح ، فقال : « آمل أن يستعمل المتنازعون أساليب عقلية علمية في المناقشة ، وأن لايعمدوا إلى الآراء التعسفية ، كي يستنير عامة القراء ويفهموا حقيقة الموضوع ... وإذا فرضنا أن النظرية الرمزية نظرية خاطئة ، فإننا نحب أن تعلن البراهين المؤدية إلى خطئها على الملأ بطريقة سهلة ميسرة ... » .

وقدّر للآراء الرمزية أن تنتشر وتستقر في الأذهان ، لأن أعداءها لم يقابلوها بالعناية والتمحيص اللازمين ...

وقد بدأ الدكتور دريوتون ، بعد لأى ، يناقش هذه الآراء ، فقال : « هذه الآراء ليست مطلقاً بآراء المصريين القدماء ، لأنها لا تتفق مع عقليتهم التى تثبتها النصوص » ... ولقد شاقنى أن أعرف مضمون هذه النصوص التى يشير إليها الأستاذ دريوتون في حديثه ... ورأيت أنه مادامت تحت يده نصوص يقابل بها ملاحظات الأستاذ ڤاريل ، ففى الميدان متسع المناقشة ، وصممت على أن أطالب حضرة مدير مصلحة الآثار المصرية بتوضيح حججه والتعمق فيها ...

... وقد أجاب الأستاذ دريوتون طلبى ، وبعث إلىّ بخطاب وافٍ أنشره هنا بأكمله ، شاكراً للأستاذ فضله ...

محمد عبد الحليم محمود

ملحوظة : في المقال التالى ننشر خطاب مدير مصلحة الآثار ، ورد العلماء الرمزيين عليه .

(١) Maurice de Gandillac : Figaro Littéraire (12 août 1950)

مع الفكر الأوربي المعاصر

للأستاذ مبارك ابراهيم

١ – الأطباء فيما بينهم

كتاب من تأليف « دكتور إدوارد جريفث »

هذا كتاب جمع فيه مؤلفه كلمات لتسعة وستين وثلاثمائة طبيب ممن عاشوا في قديم الأزمان وحديثها . مبتدئاً بقراط (المتوفى في القرن الرابع قبل الميلاد . وصاحب ما اصطلح الناس على تسميته بقسم بقراط) ومنتهياً بلورد « هوردر » أحد أطباء ملك الإنجليز الحالي .

وقد دون فيه وصايا « حورابي » ملك « أشور » التي يرجع تاريخها إلى عام ألفين قبل الميلاد . كما دون فيه أحدث ما قيل عن استقلال مهنة الطب .

وقد بدأ كتابه بتتبعه لتقدم الطب وانتشاره خلال الأجيال الغابرة معتمداً في ذلك على ما قاله الأطباء عن أنفسهم . ومن أفواههم وأقلامهم أمد المؤلف قراء كتابه بوصف الأسس التي قام عليها الطب . وبأنباء المستشفيات وكيف قامت وانتشرت . وببيان الاكتشافات التي قامت على أكتافها معلوماتنا الطبية .

وبوصف العلاقات بين الطبيب والمريض . وبذكر المراحل التي ظهرت فيها الأمراض والأسقام . وبإلمامة خاطفة عن حياة وتعاليم أكبر الأطباء ، وأشهر الجراحين ، الذين عاشوا في مختلف العصور .

وإن قراءة هذا الكتاب لتلذ لكل قارئ . ولا تستثنى هواة دراسة تاريخ الطب . فإنهم سيجدون فيه البهجة والمتعة . وسيقرأون فيما يقرأون كيف أدى التفكير بالدكتور « وليم هارفي » (المتوفى عام ١٦٥٧) إلى اكتشافه للدورة الدموية .

وكيف عثر دكتور « وليم وذرنج » على فوائد نبات « الديجيتال » الذي يقال له (كف الثعلب) . وذلك من وصفة أخذها من إحدى الأسر ، وكانت هذه قد أخذتها عن امرأة عجوز من أهل شروبشير .

وكيف ذهل « لورد ليستر » يوم عرف أثر حامض الكربوليك في مجاري مدينة « كارليل » .

وسيقرأ فيه الهواة أيضاً وصف تجارب الجراح الإنجليزي « جون هنتر » (المتوفى عام ١٧٩٣) التي أجراها على السمك المعروف « بالشبوط » كما يقرأون فيه دراسة الدكتور « سير رونالد روس » (مكتشف ميكروب الملاريا — المتوفى عام ١٩٣٢) للبعوض .

والذي يضاعف من سرور قراء هذا الكتاب أن هؤلاء الأساتذة العظماء يحدثوننا ، وقد تطاول بيننا وبينهم الدهر ، حديث الإخوان والخلصاء ، فترى الدكتور « أوليفر وندل هومز » (المتوفى عام ١٨٩٤) والذي جمع بين الطب والأدب ، وقد ترك كتابه الذي سماه « حاكم مائدة الفطور المستبد » جانباً ليحدث سامعيه في عام ١٨٤٣ عن عدوى « حمى النفاس » وعن طرق الوقاية منها ، وهي تلك الطرق التي ظلت « متبعة » حتى حل محلها دواء الصيدلي .

وفي زمان أكثر تغلغلا في القدم يعود بنا الكاتب فيبهرنا ويملؤنا إعجاباً بالطبيب الإغريقي الذي عاش في القرن الثاني للميلاد وهو « روفس إفسوس » الذي عرف كيف يشخص مرض الكلب .

كذلك يعود بنا الكاتب فيخلب لبنا بالحديث عن أول سلف من النساء لطبيبات اليوم ، وهي الطبيبة « أجلودس » التي كانت تدرس الطب وهي مستخفية في زي رجل ، متتلمذة على الجراح الإغريقي « هيروفيلوس » ، الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد ، والذي أنشأ مدرسة للجراحة بالإسكندرية .

وهو يقول إنه لما أتمت تلك الفتاة دروسها ورحت في

فنيا ، كشفت عن شخصيتها لبنات جنسها وصدعن ، فاتفقن جميعاً على أن لا يرضين بديلاً عنها من الرجال ، فثارت ثائرة الرجال من الأطباء ، وشكوا أمرها إلى القضاء ، متهمين إياها بإفساد النسوة ، ولكي تبرئ نفسها كشفت عن شخصيتها النسوية ، وعندئذ أصر الأطباء على طلب محاكمتها بحجة خرقها القانون ، وذلك باعتدائها على حقوق الرجال ، والتزيي بزيهم .

وهذه الطبيبة زميلة أخرى كانت أحسن طالعاً وأشد تعساً وهي « مارجريت جونس » التي اتهمها الكائدون لها بالسحر والشعوذة ثم أدينت ثم شنقت عام ١٦٤٨ .

وليست قصص المؤلف كلها من هذا الصنف القاتم اللون ، فهناك قصص طابعها المرح ، ومنها قصة الدكتور « كارلين » الذي عاش في العصر الفكتوري ، والذي كان من عادته أن يطوف ببيوت مرضاه مستطعماً ، ورائداً من رواد الشراب ، فأدى به هذا التدلي وعدم عرفانه قدر نفسه ، إلى أن يكون ضحية خدعة جعلته يتجرع مقداراً كبيراً من دواء مسهل كان قد وصفه لأحد مرضاه ، وهو مزيج من « الكالوميل » و« السنامكى » .

ويقول المؤلف : ولعلنا في الزمان القليل يقدر لنا أن نرى وصايا « حمورابي » ، مطبقة تطبيقاً كاملاً ، وهي التي تقضي بقطع أيدي الجراح إذا تسبب بإهماله في موت مريضه .

وفي الجزء الثاني من كتابه يحدث المؤلف قراءه عن المأثور من أقوال الأطباء في غير الموضوعات التي اختصوا بها كموضوع « عبور المانش » ، وكموضوع « النفس والخلود » ، وكالقضاء بالموت المريح على المرضى الذين لا يرجى شفاؤهم ، وكالحديث عن الرحلة إلى القطب الجنوبي ، وكالحديث عن مباراة كرة القدم بين انجلترا وإرلندة ، وكالكلام عن الامتحان والممتحنين بكسر الحاء وفتحها .

والمؤلف يحدث قراءه كذلك عن « متاعب الأطباء » كما يحدثهم حديث تقدم الخدمة الطبية في الجيوش ، بادئاً بذكر الدكتور « البارون لاري » (المتوفى عام ١٨٤٢) وهو أشهر الأطباء وأكبرهم شأناً في خدمة الجيوش البونابرتية . وهو الذي رافق « نابليون » إلى مصر وروسيا . وهو صاحب فكرة المستشفيات المتنقلة التي تتيح سرعة نقل الجرحى من ميادين القتال إلى مكان أمين يلقون فيه العناية والرعاية ...

٢ — هموم الكاتبين

من مقال رئيس تحرير مجلة « جون أو لندن »

ليس يلقى الكاتب من صناعته إلا قليلا من العناء ! فما عليه إن أراد الكتابة إلا أن يمسك بالقلم ثم يجريه على الورق ساعة أو ساعتين . فإذا انتهى هذا الزمن فقد انتهت نوبة العمل في يومه ... !

والكاتب في نظر الكثيرين يكتب كتابه ، ثم لا يخاف بخساً ولا رهقاً ، ثم يجيء إليه الخراج من كل بلد فيه قراء ، ثم تأتي إليه الشهرة تجرر أذيالها ثم يحوطه « الملق » من كل مكان ، ثم تتدله في حبه العذارى الفاتنات ، بل قد يقطعن أيديهن . ثم يحييه الطابعون والناشرون والمعجبون تحية الإعجاب . وذلك كله لقاء كلمات قليلة تسود بها صحيفة من الصحف . بينما الناس حوله يحملون الأثقال ، ويستخرجون الفحم من مناجمه ، ويمتطون متن بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب .

والوصف كما ترى وصف عجيب . ولكنك لن تجد له مثالا فيما تقرأ من تراجم رجال الأدب الذين يقضون حياتهم وهم يصارعون المرض . ويروغون من دائنيهم ، أو يذودون الذئاب عن أبواب دورهم . يستوي في ذلك « بن جونسون » و « ديفو » و « جولد سمث » و « هازلت » والشاعر « جورج كراب » .

ويستوي في ذلك من كان من الوزن الثقيل ، ومن كان من الوزن الخفيف ، إلا من كان منهم يلوذ بحمى واحد من أصحاب الجاه والسلطان ، أو من كان منهم ذا وظيفة مقررة .

أما من سواهم فقد كتب عليهم أن يعملوا كما يعمل العبيد الأرقاء ، وأن يعيشوا عيش الكفاف ، وأن يردوا حملات النقد ، وهجمات الشانئين . لا فرق في ذلك بين من أوتي البراعة ، وبين من كان من الظالعين . فكلاهما يلقى العناء ، وكلاهما ينفق من سعته .

وهذا الرأي صحيح ، ويؤيد كلمات قالها الروائي « سير والتر بيزانت » (المتوفى عام ١٩٠١) وهي : « عندما أفكر في مقدار العمل الذي تتطلبه كتابة رواية — حتى لو كانت

رواية سخيفة — يتعثر لسانى قبل أن يجرى بذم كاتب من الكتاب » .

وليس يعرف كاتب من الكتاب معرفة يقينية أهو كاتب مجيد أم هو كاتب لا تعرف الإجادة السبيل إليه . فن الناس من يقول له أحسنت ! ومنهم من يقول له أخفقت ! وهو دائماً يظن ظن الخير فيحسب نفسه من المجيدين . بل قد يظن نفسه أحياناً — كما كان برناردشو يظن نفسه — أنه أكثر براعة من شكسبير .

وهو قد ينتابه الخوف أحياناً من أن يصبح من أنداد « وليم هايلى » ذلك الشاعر الذى كان لا يلق الثناء .

ومن الكتاب من يعمل منفرداً ، وهو فى حاله تلك يخيل إليه حيناً أنه فرح مستبشر ، ويخيل إليه أحياناً أنه مغتم كئيب . فإذا فرغ من تأليف كتابه أحس — وهو البعيد جداً عن الساحل — أنه قد حيل بينه وبين اجتياز المحيط الأطلنطى سبحاً ...

وإذا لقى الكتاب رواجاً ثم هو حيناً يتألق الشمس ، وإذا لقى كتابه كساداً التمس لنفسه المعاذير فقال إن كساد كتابه راجع إلى أنه — وهو الكاتب الأدبى الحر — قد أبى أن يساوم على ضميره الفنى .

أما عن المكافأة والجزاء وقوامهما الشهرة ، والملق ، والمعجبون الذين لا ينفضون من حولك ، والثراء الذى يجىء فى غير نصب أو عناء ، فإنا قائلون رأينا فى كل واحدة منها :

أما الشهرة فإن الكاتب الأصيل يرى الشهرة قذى فى العين وشجىً فى الحلق .

والكاتب فى شبابه قد يكون فى حاجة إلى الشهرة ، وهو إذ ذاك يحسب نفسه — وهو ظن خاطئ — أنه من كتاب القصص الخالدات ، فإذا انتصف العمر كان همه ووكده أن يتقن عمله ، غير ملق بالاً إلى الشهرة ، فإذا واتته الشهرة بعد حين كانت إحدى منغصاته ، فهو إذا مجافاة نومه واتته الرسائل تطلب كتبه هدية فى سبيل الخير ، ومنها ما يقول فيها كاتبها : إن كتابك هو أبدع كتاب قرأته وإنى لأستأذنك فى أن أقص عليك قصة متاعبى وهمومى ، وهى فى الغالب هموم ومتاعب مالية .

ومنها ما يشير إلى أخطاء مطبعية ، ومنها ما يطلب فيها أصحابها الرأى فى الحرفة التى يحترفون ، وفى الطابعين والناشرين الذين يوصى بأن يلجأوا إليهم .

ومنها ما يطلب أصحابها الرأى فى مخطوطة يرسلون بها ، ومنها ما تطلب فيها جماعة من الجماعات فى أقصى أنحاء البلاد أن يزوا المؤلف أو يسمعوه محاضراً أو خطيباً ، وهم غافلون عن أن المحاضرات والخطب لا بد لها من جهود تبذل فى التحضير والتحبير .

ومنها ما يبعث بها مجنون يقترح على الكاتب أن يعقد بينه وبينه صداقة قلبية .

ومنها ما تجىء غفلاً من الإمضاء ، وهى تلعن المؤلف وتسبه ، ومنها ما يرسل بها معهد من معاهد البر يطلب فيها قصة أو مقالة لم تكن قد نشرت من قبل .

ومنها رسالة من « مفتش الضرائب » يطلب فيها أن يرسل المؤلف بياناً موثقاً بحساباته .

أما عن الثراء فقد روى عن « الشاعر ملتون » أنه ربح عشرة جنيهات — على قسطين — فى كتابه « الفردوس المفقود » .

كما روى عن أرنولد بنيت أنه اشترى قبعة جديدة من دخل كتاب من كتبه .

كما روى أيضاً عن « ج . هـ . ولز » أنه كان يكسب قليلاً فى مستهل حياته الأدبية . حتى لقد فكر فى أن يبيع قلمه لواحد من الناشرين لقاء ثلثمائة جنيه فى العام ، ولكن هذا الأمر لم يتم لحسن الحظ .

وأنا أرجو أن أكون بهذا قد أزلت الغشاوة عن العيون ، فيعرف الناس أن طريق المجد الأدبى محفوف بالصعاب ، وأنه ليس بساطاً من الورد ، وأنه طريق تحيط به ضروب من التناحر وصنوف من الغيرة ، وإحساس بالغبن ، وخيبة أمل لا تنقطع .

والكاتب إذا كان شاباً ألفى الميدان قد احتله أساتذته السابقون ، وإذا لم يرقه لقى المحظوظين قد نالوا مالم ينله هو . فإذا بلغه الكبر حسب أنداده وتلاميذه وأنصار السوء يحاولون تنحيته وإبعاده .

والحق الذى لا مرية فيه ، أن قليلاً من الكتاب هم الذين يستطيعون أن يحصوا النعم التى ينعمون بها . وحتى هؤلاء ، قد يدركهم الموت قبل أن يعرف الناس فضلهم ، وقبل أن يقدروهم حق قدرهم ...

٣ – الشاعر وليم هايلى

كتاب من تأليف مورشارد يشوب

المعروف أن « روبرت سذى » و « لورد بيرون » قلما اتفقا على رأى من الآراء ، فلا غرابة إذاً أن تلقى عالم الأدب بالرضا والقبول حكمهما الذى أصدراه على هذا الشاعر ، إذ قال عنه (سذى) : « إن كل شىء منه حسن ، وعلى البيتين مقبول ، إلا شعره ، وإن آخر قصيدة من قصائده هى أسوأ قصائده . وتظل كذلك حتى تحتل مكانها قصيدة جديدة من أخواتها ! وهو حكم قاس على شاعر بلغ من شهرته أن عرض عليه أن يكون شاعر الدولة فصد وتأبى جانبه .

أما « بيرون » فقد قال عنه :

« وسواء أكتب شعراً ركيكا فى صورة قصص تمثيلية ، أو كتب « قبريات » على قبور أصحابه تقوم لهم مقام « المطهر » الذى يتطهر فيه الميتون . فإن أسلوب شعره سواء فى شبابه أو فى مشيبه هو الشعر الركيك دائماً ، السخيف أبداً ! » .

ولكن ثالثة الأثافى هى أن يهجوه صديق من خلصائه هو الشاعر « وليم بليك » إذ يقول : « إن صداقتك لى قد جعلت نفسى تئن ، وقلبى يذوب غماً وأسى . فكن عدوى بحق ما بيننا من صداقة ! » .

ويبدو أن « المستر يشوب » قد أخذ على عاتقه القيام بعمل لا يبغى من ورائه جزاء ولا شكورا ، وذلك بتأليفه هذا الكتاب الذى آلى على نفسه فيه أن ينظر إلى المترجم له نظرة الرضا التى تستر القبيح وتظهر الحسن . وقد ملأ المؤلف صحائف كتابه — وقد بلغت أربعمائة — بتمجيد فنال رجل ظل النقاد خمسين ومائة عام يسلقونه بألسنة حداد .

وكأن المؤلف قد خطر بباله أن الناس سوف يتساءلون : وعلام هذه الضجة الكبرى ؟ وما الذى يدعو إلى الترجمة لحياة شاعر هو من وصفنا ؟ فرد عليهم بقوله : إنما فعلت ذلك لأن الدرارى والأعقاب مدينون لفضله ديناً كبيراً . فقد كان الصديق الوفى لكتاب أذكياء فضلاء . وهؤلاء قد ورثوا أعقابهم آثار فضلهم وذكائهم ...

ولقد عرف « وليم هايلى » الشاعر « وليم كوبر » وأعانه على نوائب الدهر فى أشد الأيام حلوكة . وقد أحب « وليم الأول » « وليم الثانى » فمحضه الوفاء ، وأخلص له الود . وبفضل « وليم الأول » ظفر « وليم الثانى » بمعاش ثابت ظل يتقاضاه ثمانى سنين . كذلك جمع « هايلى » رسائل « كوبر » بعد موته ، ولولاه لضاعت تلك الرسائل ، وعفى عليها النسيان .

وقد ولد « وليم هايلى » قبل أن ينتصف القرن الثامن عشر ، وما كاد القرن يوشك على نهايته حتى كان « هايلى » أشهر شاعر بين الشعراء الأحياء ، وقد ظل فى مقام الصدارة عشر سنوات كاملة . ولابد لمن يبلغ هذه الرتبة أن يكون كفؤاً لها .

وكان « هايلى » أول أمره ككثير من شباب زمانه مولعاً بكتابة الرسائل ، وكان قد درس على التعاقب القانون ، والطب ، واللاهوت .

وأخيراً قر قراره على أن يكتفى بدخله — وإن كان قليلا — وأن يعيش عيش الشعراء الصوفيين القانعين . ثم تزوج فزاد دخله قليلا . ثم اعتزل العالم وعاش فى بيت ريفى ليرعى عرائس الشعر .

وكان « هايلى » من رجال القانون الهواة . وقد لعب دوراً فى قضية « وليم بليك » يوم اتهمه جندى من الجنود فى قضية من قضايا الشغب .

وكان كذلك من الأطباء الهواة . وكان يملك جهازاً كهربائياً يداوى به الأمراض كلها ... وقد كسب — على الأقل — ثناء « كوبر » بعلاجه لإحدى صديقاته .

والحق أن « هايلى » قد نفع بماله وبجاهه كثيراً من أصدقائه . فقد أعان « بليك » كما أعان « كوبر » . وكما أعان « رومنى » المصور . و « فلاكسمان » صانع التماثيل . كما أعان كثيرين غيرهم ...

مبارك ابراهيم

من بريد الثقافة :

استدراك

نشرنا فى العدد الماضى خطاباً تحت عنوان : من قارئ إلى قارئ ، بتوقيع م . ح ، وفاتنا أن نذكر أن الخطاب موجه إلى الأستاذ سعد أبو السعود العامى .

نقد

حول رســـــالة الغفران

للأستاذ عبد الرزاق الحصان

من حسنات الدهر أن تقدم السيدة بنت الشاطئ على تحقيق رسالة الغفران وإخراجها بثوبها الزاهي هذا .

ولو أن للأدب قيمة عند القائمين بشئون الأمة العربية لعملوا برأي ابن الأثير الرامي إلى إقامة محتسب على الكتّاب(١) تجنباً للفوضى ، ولنالت السيدة الجائزة التي تستحقها من قبل المحتسب ، كما يحرز كثيرون ممن نالوا الألقاب الضخمة دون استحقاق لها .

قرأت الرسالة قراءة شخص يفتش عن نصوص أدبية تكون مرجعاً لتاريخ الأمة العربية التي لما يكتب تاريخها .

وأي نص أقوى من النصوص التي تأتي عن طريق أبي العلاء ؟

إن أبا العلاء رجل جاهس ، وقد اتصل برجالات بغداد سنة ٣٩٩ في عهد يعده الأدب عهداً زاهياً ، ويعده التاريخ القومي العربي من العهود السيئة التي طوحت بالعرب إلى العبودية والذل حتى يومنا هذا ، وهو عهد البويهيين الفرس .

لهذا إن لهذه الرسالة قيمة أدبية تفوق ما يتذوقه الأدباء ، كما أن للأديب مركزه الاجتماعي ؛ فهو قد يأتي ببيت شعر لنكتة ، وقد يأتي بقصة أو حادثة أو خبر ، يريد من وراء ذلك العبرة أو الزجر أو الوعظ والإرشاد .

فالأديب الألمعي ذلك الذي يستغل الظروف لإظهار ما عنده من الآراء والأفكار والغايات والأهداف .

والأديب الألمعي ذلك الذي يخلق من شيء تافه أشياء كثيرة فيجسمها كما يريد ويبني من مادتها قصوراً وصروحاً .

ومن أحق من أبي العلاء بذلك ؟

فرسالة الغفران حوت الشيء الكثير مما نعرف ، كما أنها حوت أشياء مما لا نعرفها ولم نستطع العثور عليه ، على الرغم من وقوع حوادثها في العراق أو في البلاد الشرقية التي تتصل به .

(١) المثل السائر ص ٦٨

إن السيدة المحترمة قد أجادت كل الإجادة في تحقيق النصوص ، ومع تقديم الشكر لها فإني أريد أن أعين القارئ على معرفة بعض ما ورد فيها من النصوص ، وبذلك أكون قد أعنت السيدة — إن أصبت بذلك — وأشركت القارئ فيما أشعر به .

أولا : إني وقفت عندما قرأت قصيدة عديّ بن زيد العبادي الصادية في (ص ٧١) فتذكرت ما يقوله التاريخ : إن عدي بن زيد العبادي قد قرأ كتب العرب والفرس(١) وتذكرت أيضاً قوله : إن العرب كانوا يسجلون الأحداث التي تقع عندهم ، إذ يذكر : وكان أمر آل نصر بن ربيعة ومن كان من ولاة ملوك الفرس وعمالهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق عند أهل الحيرة متعالماً مثبتاً عندهم في كنائسهم وأسفارهم(٢) .

فالقصيدة التي تحوي البيت الآتي :

أو من نسور حول موتى معاً   يأكلن لحماً من طري الفريص

أخذتني إلى بومباي الهند حينما كنت أتاجر بالخيل فيها ، وكنت أمر بمكان مطل على البحر في جبل (والى كيسر) شيده المجوس لعرض جثث موتاهم إلى النسور ، وكان ذلك المكان يسمى بالإنجليزية (the tower of Silence) أي برج السكون ، ثم عدت إلى مذكرته في إحدى رسائل فوجدت ما يأتي : ذكر الأستاذ برون في سياحته في بلاد الفرس أن ثمة (في طهران) برجاً أو ما يسمى في لغتهم (دخمه) ويطلق على (دخمه) اسم برج السكون ، ثم يقول : ويقع برج السكون هذا في جنوب مدينة طهران على إحدى قمم جبل (كوهي — بيبي — شهر — بانو) وإن شهر بانو هذه هي ابنة يزدجرد الثالث الذي كتب له طالعه

(١) الطبري ج ٢ ص ١٤٦
(٢) الطبري ج ٢ ص ٣٧

أن يرى سقوط الامبراطورية بعينيه ، ثم يقول أيضاً : إن شهر بانو تزوجت من (الحسين بن علي) فتوحد بذلك الدم الساساني ودم الأئمة الذين هم أقرباء النبي .

ويقال : إن بيبي شهر بانو هربت إلى بلاد الفرس بعد وقوع كارثة آل علي ، وإنها اختفت في هذا المكان الذي احتفظ باسمها .

ويقال أيضاً : إن المكان الذي اختفت فيه يضم الآن (مزاراً) تحوطه معجزة لا تسمح للذكور أن يروه أو يصلوا إليه عدا النساء .

ثم إني عدت إلى السياحة نفسها فوجدته يذكر : أن في إيران في الوقت الحاضر خمسة أبراج السكون ، واحد منها في طهران ، واثنان في يزد ، واثنان في كرمان ، يستعملها المجوس لعرض جثث موتاهم إلى النسور وأنها تسمى (داخمه)(١) .

إن ما تقدم يرينا ما عناه العبادي بقوله :

أو من نسور حول موتى معاً يأكلن لحماً من طرى الفريس

ومما لا شك فيه أنه قد كان في العراق أبراج كما في بلاد الفرس ، وأن وجود عظام مبعثرة في نوع من أنواع مقابر الفرس في العراق لما يجعلنا نعتقد أن تلك العظام المبعثرة هي بقية من بقايا آثار برج السكون أو (داخمه) .

ثانياً : رأيت في القصيدة التي عملها أبو بكر بن دريد في ص ٧٤ ما يأتي :

جيفر الوهاب أودى به دهر على هدم العالي حريص

وابن دريد أزدي وهو عربي ، ومن عادة العرب أن يذكروا مآثر أسلافهم ويخلدوها في بطون الكتب لتكون عبرة لمن يخلفهم .

وبما أن ابن دريد ذكر جيفراً ، وأن أبا العلاء الذي زار العراق زمن سيادة البويهيين فيه نقل ذلك فإني أنقل من التاريخ ما ذكره فيهم .

يذكر التاريخ أن الأزد — وهم قوم ابن دريد — كانوا الأغلبين على عمان ، وفي سنة ثمان بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا زيد الأنصاري وعمرو بن العاص السهمي إلى عبيد وجيفر ابني الجلندي بكتاب منه يدعوهما فيه إلى الإسلام(١) .

وقد بقيت عائلة الجلندي هذه حتى زمن أبي بكر الأزدي ، إذ يذكر ياقوت أن الهيكمان قلعة عظيمة على سيف البحر قريبة من جزيرة هرمة المقابلة لجزيرة قيس بن عميرة ، تعرف بقلعة بني عمارة وتنسب إلى الجلندي .

ثم ينقل ياقوت ما ذكره الإصطخري في بيوتات فارس ، حيث يقول : منهم آل عمارة يعرفون بآل الجلندي ، ولهم مملكة عريضة وضياع كثيرة على سيف البحر بفارس متاخمة لحد كرمان ، ويزعمون أن ملكهم هناك قبل موسى بن عمران عليه السلام ، وأن الذي قال الله تبارك وتعالى (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) هو الجلندي ، وهم قوم من أزد اليمن(٢) ...

ثالثاً : عند ذكر البيت الوارد في ص ٣٩٦ وهو :

رأيت رئل يمشي بلالكة في سوق يحيى فكدت أنفطر

وكان التعليق ما يأتي : ما يزال قوله [بلالكة] غامضاً علينا رغم الذي بذلنا من جهد . إلى آخر ما هنالك .

كان الدكتور مصطفى جواد قريباً مني حين قرأت البيت وما علق عليه ، فسألته عن الكلمة فأجاب حفظه الله فوراً : إنه نوع من الخفاف وقد نسب إلى صنعتها عالم متقدم ، وأشار علي بمراجعة التاج .

ففتحت التاج فوجدت فيه ما يأتي : واللك نبات يصبغ به ، واللكاء الجلود المصبوغة باللك ، وجلد ملكوك مصبوغ باللك ، واللكلوك بالضم هو الولك الذي يلبس في الرجل عامية .

ثم يقول : اللالكائي هو أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الرازي الطبري المحدث المشهور مؤلف كتاب السنة .

وبينما كان الدكتور يتصفح مختصر تاريخ الإسلام للذهبي قال : سبحان الله إن حسن النية تسوق صاحبها إلى النجاح ، إن في حوادث سنة ٥٣٦ من الكتاب هذا يوجد : أحمد بن

---

(١) سياحة برون ٩٦ والتاريخ الأدبي للفرس ج ١ ص ١٣٠ — ١٣٣ .

(١) البلاذري ص ٨٣ .

(٢) معجم البلدان ج ٤ ص ١٨٢ والإصطخري ١٤٠ .

محمد بن الحسين أبو الفائز ابن البزوري سمع محمد بن هبة الله اللالكائي وعنه أبو سعد السمعاني .

ثم خطر لي أن أعيد النظر في معجم الأدباء من أوله إلى آخره ، فلما شرعت في إعادته — وكانت النسخة التي عندي هي التي طبعت تحت إشراف الدكتور أحمد فريد الرفاعي — جمع الله موجة الحر في صيف ١٩٥١ التي كانت فوق المعدل ، كما يعبر بذلك علماء الأنواء الجوية ، وتلك الطبعة التي يطبق عليها المثل العامي البغدادي (راد يكحلها عماها) فصار الشغل شغلين والهم همين : اقتناء الفوائد من الكتاب أولاً وتصحيح ما فيه من الأغلاط حسب الإمكان ثانياً .

لقد وجدت ذكراً للخف هذا في معجم ياقوت في ثلاثة مواضع :

الأول : في اسم أحمد بن علي أبي الحسن البتي الكاتب الذي كان يكتب القادر بالله عند مقامه بالبطيحة حين وصف لباس البتي الكاتب قال : ثم لبس من بعد الدراعة وسلك في لبسه مذاهب الكتاب القدماء ، وكان يلبس الخفين والبطنة ويتعمم العمة التفرية ، وإن لبس لالكة لم تكن إلا مربعة[1] .

والثاني : عند ذكر اسماعيل بن عباد الوزير حيث ذكر عادة الأعاجم حين يحضرون مجالس التعزية لكبارهم حفاة حسّراً ، ثم قال : فلما أراد القيام من العزى بعد الثالث كان أول من أمر أن يقدم إليه اللالكة ، منوجهر بن قابوس[2] .

والثالث : عند ذكر الحسن بن محمد المهلبي الوزير في حادثة له مع أبي النجيب شداد بن ابراهيم الجزري (لا كما ذكر الدكتور بأنه شداد) : أن الوزير أنفذ إلى أبي النجيب جبة وقميصاً وعمامة وسراويل ... وقال : فإن كنت غسلت التكة واللالكة فمرفق[3] .

وقد رأيت في قاموس ريشاردسن أن لالك خف أو لالكة . وإذا شاءت السيدة المحترمة المزيد من المعرفة لهذه الكلمة واستعمالها فإنها تجد ذلك في كتاب النشوار وكتاب الصابي .

رابعاً : إن التعليق الوارد في (ص ٤٠٥) على عبارة (ومن لك بزنج في دكر) لاتفي بما يريده أبو العلاء ، لأنه ذكر الدكر في معرض البحث في الزنادقة وعباداتهم وعقيدة التأله الموجودة في الزط ، كما قال في (ص ٤٠٣) فتفسيرها بكلمة (لعبة الزنج والحبش) لا يلائم الموضوع ، وإنما هي رقص ديني للتعبد كما شاهدته عند الهنادكة في الهند .

كان رجل التحقيق الفذ الأب انستاس ماري الكرملي الخالق كتب بامضائه المستعار (امكح) في مجلة المقتطف مقالاً تحت عنوان (عبادة الدكاكير عند العرب) قال فيه : إنها إكرام بعض العروض أو الأشياء المنحوتة والسجود لها والاعتقاد أنها آلهة ، وهي في أغلب الأحيان تشبه بعض المخلوقات الأرضية من نبات وحيوان .

ثم قال : وهي غير الوثنية ، لأن الوثنية هي عبادة الأصنام التي يعتقد عبادها أنها صورة الآلهة أو الآلهة قد حلت بها .

ثم قال : وقد سمى علماء الافرنج هذه العبادة الغريبة باسم فتشيسم Featichisme ... إلخ .

ثم قال : إلا أن العرب كانوا قد سبقوا الافرنج إلى معرفة هذه الديانة وملاحظتها في أهل الغرب ، وسموا هذه المعبودات (الدكاكير) . وممن ذكرها عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي في كتابه المسالك و ... الخ[1] .

خامساً : إن التعليق على شاباس الوارد في (ص ٤٤١) غير جدير بأن يكون علمياً ، لأنه قد ذكر أن شاباساً كان بالبصرة والبصرة في جنوبي العراق ، فالواجب العلمي يحتم البحث عن شاباس في المصادر العراقية إلا إذا فقدت تلك المصادر ، فحينئذ يجوز اللجوء إلى ابن حزم الأندلسي .

ذكر ابن الجوزي في كتابه المنتظم في حوادث سنة ٤٤٤ ما يأتي : فمن الحوادث فيها أن أبا الحسن علي بن الحسين ابن محمود البغدادي المعروف بالشباس توفي بالبصرة ، وكان هذا الرجل هو وأبوه وعمه مستقرين فيها ومستوطنين بها ، وكانت الظنون تختلف في المذهب الذي يعتقدونه ، إلا أن الأول في أنهم من الشيعة الإمامية والغلاة الباطنية أغلب ، وكانت لهم نعم واسعة وأملاك كثيرة وضيعة من سواد البصرة

---

(١) معجم الأدباء ج ٣ ص ٢٥٥ ثم يشرح الدكتور كلمة لالجة بقوله : هي كلمة فارسية تكتب لالكه .
(٢) معجم الأدباء ج ٦ ص ٢٣٩ .
(٣) معجم الأدباء ج ٩ ص ١٤٢ .

(١) المقتطف ج ٤٢ ص ٥٣٧ — ٥٤٢

والقرامطة والبطون المتفرقة يسرون طاعتهم ، ويحملون إليه ما يجرونه مجرى زكواتهم …

وقد نقل ابن الجوزى من خط أبى الوفاء ابن عقيل شيئاً من استعماله الطيور لنقل الأخبار والحوادث تمويهاً على شيعته بأنه يعلم الغيب ، وأنه يعلم ما يحدث فى ديارهم …(١) .

وذكره ياقوت فى مادة الصيمرة فقال : جاءهم فى حدود سنة ٤٥٠ رجل يقال له ابن الشباس (يلاحظ غلط فى الرقم لاختلافه عما ذكره ابن الجوزى) فادعى عندهم أنه إله ، فاستخف عقولهم بترهات فانقادوا له وعبدوه ، وقد ذكرت من خبره جملة فى كتاب المبدأ والمآل عند ذكر فرق الإسلام(٢) .

وبالختام فإن فى إمكان السيدة المحترمة بعد أن أخرجت النص الأصلى صحيحاً ، أن تجعل من هذه الطرفة الأدبية رسالة توجيهية تبني دعائمها على الأدب العربى والخلق الإسلامى .

فمثلاً تقف عند الكلام الوارد فى ص ٩٣ : إن الملوك يأنفون من تسمية نسائهم ، فتكتب ما شاءت بالنظر إلى ما يجرى يومئذ .

وعند قوله فى ص ٩٩ : وأهل الجنة أذكياء لا يخالطهم الأغبياء .

وعند قوله فى شفاعة قريش الذين هم عشيرة النبى صلى الله عليه وسلم الأقربون للحطيئة ، ودخوله الجنة لصدقه ، والصدق رأس الفضائل .

وعند قوله فى عقوبة الزنديق ، وما كتب فى الزندقة والزنادقة ، وكثير من ذلك .

عبد الرزاق المصانه

(١) المنتظم ج ٨ ص ١٥٢ .
(٢) المعجم ج ٥ ص ٤٠٦ .

الثقافة

العـدد ٦٧٠
٢٩ من أكتوبر ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

صفحة

إلغاء المعـــاهدة

أطالت صدها وشبعتُ ذلاً ! وطال بي الهوان فقلت كلا !
وكنت أظنه دلاً ولكن وجدت فعالها غدراً وختلا !
وأنفقت السنين لها كريماً فما كن لى من الإحسان أهلا !
وعاودت الألى نظروا إليها بشرٍّ واستبحت الأهل قتلا !
رضيتُ بأهلها صهراً وأهلاً وقد نخلتْ من الأعداء جهلا !
إذا أحببت فاجرة فأبشر بأنك لن ترى فى الحب عدلا

• • •

إليك انجلترا عنا فإنا رفضنا بين أظهرنا محتلا
إليك انجلترا عنا جميعاً فلن تجدى بوادى النيل ظلا !
عزمنا أن نعيش حياة حر يرى فى الموت دون العز نبلا
وقد فنيَ الكلام فلا تُراعى إذا كان الخطاب لعاتٍ وبيلاً !
(ألا لا يجهلن أحد علينا) فنجهل مثله وأشدّ جهلا !
ومن ينزل بنا ضيفاً ثقيلا يكن إطعامه ضرباً وقتلا !

• • •

بنى وطنى دعا الفجر داعٍ فلبى الله والحق استهلا
فلا تهنوا ولا تلقوا سلاحاً وثلّوا راحة الأعداء ثلا
ومن يمنع جداً(1) وحمًى وعرضا فإن الله ناصره وجلّا
ومن يهلك فما فى العيش خير إذا ما كان مر العيش ذلا
ومن يهلك فدى حق شهيداً سباق فى حمى الرحمن فضلا
يُقاد الفيل إن يرضى بطفل ويأبى الذئب ضيماً فاستقلا !

• • •

إذا (الفاروق) كان زعيم قوم وكان (المصطفى) السيف الأجل
فإن الله ناصرهم جميعاً وهازم خصمهم مهما تولى

فؤاد السيد خليل

---

(١) الجدا : العطية ، وهى هنا بمعنى كل ما ينفع الأعداء .

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـدد ٦٧٠ الاثنين ٢٨ من المحرم سنة ١٣٧١ — ٢٩ من أكتوبر سنة ١٩٥١ السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

الفكرة الواضحـــة

للدكتور زكي نجيب محمود

« ستيوارت تشيس » كاتب معاصر ومصلح وفيلسوف ، يروي لنا عن نفسه قصة تستوقف النظر ، لها دلالة بعيدة المدى ، خلاصتها أنه قد بدأ حياته العاملة مصلحاً اجتماعياً متحمساً ، لكنه ما لبث أن وجد وسائل الإصلاح « بالكلام » لا تجدي فتيلا ، فأخذه العجب : لماذا لا يتأثر الناس بما يقوله وما يكتبه ، مع أنه واضح صادق ؟ وسرعان ما وجد لنفسه الجواب ، وهو أن الأفكار التي يظنها هو ، ويظنها معه الناس واضحة ، ليست كذلك ؛ فلا بد له — إن أراد إصلاحاً حقيقياً — أن يبدأ بأبحاث تحليلية يوضح بها الألفاظ التي يكثر دورانها على الألسن ، حينما يتحدث الناس عن إصلاح العالم ؛ واسمع إليه يقول : « لما كنت في سن الشباب أحاول الإصلاح ، أخذت أنظم الاجتماعات ، وأكتب النشرات ، وألقي المحاضرات ، وأرسم الخطط ، وأنشر الدعاية على نطاق واسع في حماسة حارة ؛ لكن رجائي قد خاب ، حين نظرت فوجدت أن الناس ما زالوا على حالهم ، لم يتحولوا قيد أنملة عما كانوا عليه حين بدأت حملتي ؛ وكلما مضت بي الأعوام ، ازددت يقيناً ، بأنني فيما كنت أبذل فيه جهدي ، إنما كنت أضيع وقتي سدى ؛ فرسالتي — التي لا أزال أعتقد أنها رسالة رحمة وإنسانية — لم تبلغ القلوب ، إذ الطريق بيني وبين من أخاطبهم مغلق مسدود » .

وصادف هـذا الذي قرأته عن « ستيوارت تشيس » هوى في نفسي ، لأنني في أعوامي الأخيرة ، قد انتهيت في شدة وحماسة ، إلى أن غموض الأفكار عند الناس هو أس البلاء ؛ فالرءوس ملأى بالأشباح بسبب ما فيها من أفكار غامضة ، والتعصب لهـذه العقيدة أو تلك قد أنزل بالناس الكوارث ، بسبب أفكارنا الغامضة ؛ وحدّة الغضب التي تأخذنا عند اختلافنا في الرأي ، سببها الأفكار الغامضة ؛ ومجهودات المصلحين تذهب صيحة في واد بسبب الأفكار الغامضة ؛ ولو وضحت الأفكار ، لاختفت الأشباح من الرءوس « المسكونة » ، وزال التعصب للرأي والعقيـدة تعصباً أعمى ، وخفّ الغضب وهدأ الانفعال حين يختلف الناس في وجهة النظر ، ووجـدت أقوال المصلحين أرضاً خصبة صالحة للنماء والإثمار .

فما هي الفكرة الواضحة ؟

أول ما أسارع إلى إثباته في الإجابة عن هذا السؤال ، هو أننا كثيراً ما تخدعنا الإلف والعادة ، فنألف كلمة معينة ونعتاد نطقها وسماعها ، حتى ليخيل إلينا أنها فكرة واضحة ، مع أنها قد لا تكون من الوضوح في شيء ، ولا تزيد على كونها «صوتاً» مألوفاً لأسماعنا ؛ وإني لأحسب أن ديكارت نفسه — وهو على رأس من نادوا في التاريخ الحديث بالتزام التفكير الواضح — قد أخطأ هذا الخطأ الذي أشرت إليه ، وهو أن يظن الكلمة المألوفة فكرة واضحة ؛ بدليل أنه قد جعل عبارته المشهورة « أنا أفكر » مقياساً للفكرة الواضحة ؛ فقد حسب — أولاً — أنها عبارة واضحة بذاتها ، وأنها — ثانياً — يصح أن تتخذ مقياساً لما ينبغي أن يكون عليه الوضوح في غيرها من العبارات ؛ أي أن الفكرة التي تبلغ عنده من درجة الوضوح ما بلغته هذه الفكرة ، تؤخذ على أنها هي الأخرى واضحة .

مع أن عبارته هذه تحتوي على كلمتين : كلمة « أنا » وكلمة « أفكر » هما أبعد ما تكون الكلمات عن الوضوح ! ومن ذا الذي يستطيع حتى اليوم أن يقول إنه قطع برأي يقيني جازم في حدود الشخصية الإنسانية وعناصرها التي نجمعها جميعاً تحت كلمة « أنا » ، أو يقول إن « التفكير » قد عرف معناه على وجه التحديد الذي لا إبهام فيه ولا غموض ؟ — كلا ، إنما خُدع ديكارت بالإلف والعادة ؛ فما دامت كلمة « أنا » مألوفة ، وما دامت كلمة « تفكير » معهودة مكرورة ، فهما — في ظنه — واضحتان ، والعبارة التي تتألف منهما واضحة لا تحتاج إلى مزيد من بيان .

ولديّ من التعليق على معنى الوضوح عند ديكارت كلام طويل عريض ، لا أجد هنا مكاناً لذكره ، لأني لا أحب أن أدخل القارئ في مناقشة فلسفية قد لا يكون به ميل إليها ، وكل ما أردته هو التحذير من هذا الخطأ الذي سرعان ما يزل فيه الإنسان ، حين يظن أن الفكرة واضحة ، ما دامت الكلمة المعبرة عنها مألوفة للأسماع .

إذاً فمتى تكون الفكرة واضحة ؟

الفكرة الواضحة هي التي يمكن تحويلها إلى عمل ، فكل فكرة لا تدلك بذاتها على ما يمكن عمله ، بحيث يكون هذا العمل هو معناها الذي لا معنى لها سواه ، تكون « صوتاً » فارغاً ، مهما قالت لنا القواميس عنها ؛ الفكرة الواضحة هي ما يمكن ترجمته إلى سلوك ، وما لا يمكن ترجمته على هذا النحو لا ينبغي أن نقول عنه إنه فكرة غامضة وكفى ، بل ليس هو بالفكرة على الإطلاق ؛ وليس هنالك في الدنيا شيء اسمه « فكرة نظرية » لا شأن لها بالعمل والتطبيق ، إذ الفكرة النظرية هي الخطة التي يمكن تنفيذها ، وما لا سبيل إلى تنفيذه عملا وسلوكا ، ليس من الفكر في شيء ؛ ولذلك لا فرق بين الفكر النظري والفكر العملي إلا في الترتيب الزمني ، فما هو الآن فكرة عملية كان منذ حين فكرة نظرية ؛ وما هو اليوم فكرة نظرية يمكن أن يصبح غداً فكرة عملية .. « النظر » من جهة و « العمل » من جهة أخرى ، طرفان لشيء واحد — هو الفكرة — ولا عبرة بعد ذلك بالأسماء ، فنحن نقول عنها اصطلاحاً إنها « فكرة » حين نشير إلى طرفها الداخلي ، ونقول عنها إنها « عمل » حين نشير إلى طرفها الخارجي .

وفيما يلي أمثلة توضح ما نريد :

« الصلابة » في الجسم فكرة واضحة إذا كنت أعرف ماذا أعمل في الجسم لأتبين فيه ما أسميه بالصلابة ؛ كأن أحاول خدشه بأجسام أخرى كثيرة ، فلا ينخدش ، فأقول عندئذ إنه «صلب» وأعدّ نفسي قد فهمت فكرة « الصلابة » فهماً « واضحاً » لأني عرفت ما نوع السلوك الذي أسلكه حين أريد ترجمة الفكرة إلى عمل ؛ أما إذا وصفت شيئاً بأنه «جميل» فلست أعرف ماذا أعمل بحيث يكون عملي هذا هو ما أسميه في الشيء بالجمال ؛ وإذاً فالفكرة غامضة ، أو قل إن « الجمال » ليس فكرة على الإطلاق ؛ وكل مناقشة في جمال الشيء أو عدم جماله عبث لا يؤدي إلى طائل ؛ فإذا رأيت الفلاسفة على خلاف لا ينقضي في تحديد معنى « الجمال » ، فاعلم أن ذلك لا يرجع إلى « صعوبة » في الفكرة ، بل يرجع إلى أن أصحابنا يحاولون أن يقبضوا الريح ، إذ هم يناقشون في غير موضوع .

و « الثقل » في جسم من الأجسام فكرة واضحة ، لأني أعرف ماذا أعمل في الجسم لأتبين فيه ما أسميه ثقلا ، وهو أن أزيل الحوائل التي تمنع سقوطه على الأرض ، فإن سقط كان « ثقيلا » ، وكانت فكرة « الثقل » واضحة ، لأنها قد انتقلت إلى عمل منظور ؛ أما إذا قلت عن شيء ما إن له حقيقة وراء ظواهره المحسوسة ، كأن أقول مثلا إن الكهرباء شيء كامن وراء آثارها الظاهرة ، كان قولي هذا هراء ، بمعنى أنه ليس «فكراً» على الإطلاق ، دع عنك أن

يكون فكراً واضحاً ، ذلك لأنى لا أعرف ماذا أعمل بحيث أتبين في الشيء حقيقته الخفية المزعومة .

الفكرة الواضحة مشروع لعمل يمكن أداؤه إذا شئنا ، ولا شيء غير ذلك ؛ حتى الأفكار الرياضية مشروعات لأعمال يمكن أداؤها : لقد طلبت إلى خادمتى يوماً أن تشترى لبناً بثلاثة قروش ونصف قرش ، وأعطيتها لذلك ورقة ذات عشرة قروش ؛ فلما أرادت حسابها ، قلت لها : لقد اشتريت اللبن بثلاثة قروش ونصف قرش ، وكنتُ مديناً لك بقرشين ، فهاتى أربعة قروش ونصف قرش ؛ فبدا عليها الاضطراب ؛ فقلت : ضعى ها هنا ما بقى لديك من القروش العشرة ؛ فوضعتْ على المنضدة ستة قروش ونصف قرش ؛ قلت لها خذى منها قرشين كنت مديناً لك بهما ، ففعلت وانتهى الإشكال . . كانت العملية الحسابية غامضة في ذهنها أول الأمر ، لأنها لم تكن بعد قد تحددت في صورة سلوكية يمكن إجراؤها عملا ، وكانت العملية « واضحة » في ذهنى لأنى كنت أعرف كيف أترجمها إلى عمل .

ولئن كان بين الناس خلاف شديد في المذاهب السياسية والاجتماعية ، فما ذاك إلا لأن الألفاظ الشائعة في هذا المجال لم تتبلور أفكاراً واضحة بعد ، أعنى أن الأفكار المتداولة لا يُعرف لها طريقة معينة محددة للتنفيذ ؛ إننا نفهم كلمة « جمهورية » فهماً واضحاً إذا عرفنا ماذا نصنع في المجتمع بحيث يجيء ما نصنعه شيئاً هو الذى نسميه بهذا الاسم ؛ لكن ألفاظاً مثل «ديمقراطية» و «حرية» و «شيوعية» و « اشتراكية » تعبر عن أفكار غامضة ، ومن هنا كان الخلاف ، بل كان القتال ؛ لأن الديمقراطية — مثلا — لا تكون فكرة واضحة إلا إذا عرفنا ماذا نعمل ، وعلى أى وضع نقيم الناس والحكومة ، وبأى صورة نجرى الصناعة والزراعة والتجارة ، حين يكون هنالك ما نسميه الديمقراطية؟ — وما دامت الفكرة غير محددة في طريقة تنفيذها ، فليست هي بالفكرة الواضحة ؛ وقل ذلك في سائر أخواتها .

لكن قائلاً قد يقول : إنك قد اخترت لأمثلتك أفكاراً بسيطة مما يمكن أن يحقق رأيك في الوضوح ، لكن هنالك أفكاراً « عميقة » يستحيل أن ينطبق عليها هذا القياس . والحق أنى ما كتبت هذا المقال إلا لأمحو كثيراً جداً من هذه الأفكار « العميقة » محواً . أيها القارىء الكريم : لا يخدعنك هؤلاء « المتعمقون » لأنهم لا يفهمون لما يقولونه معنى ، ثم يجاوزون بشرهم حدود أنفسهم فيدفعونك في خلط يفسد عليك حياتك الفكرية والعملية على السواء . إنهم يريدونك أن تكتفى من دنياك بالكلام ، ولقد شبعنا كلاما حتى التخمة ، ونريد العمل ، نريد العمل ، نريد العمل .

فمثلاً يقول لنا هؤلاء « المتعمقون » في تفكيرهم : كونوا يا أهل الشرق « روحانيين » . وتسألهم عن معنى « الروحانية » التى يقصدون فلا تدرى بماذا يجيبون ؛ فإنى — كما قلت يوماً في كلمة ألقيتها — « لا أرى بين ضلالاتنا ضلالة أشد تضليلاً من هذا الذى يكثر ترديده على ألسنة المتكلمين وأقلام الكاتبين — وهو أننا شعوب روحانية بالقياس إلى الغرب المادى ؛ يقولون لنا ذلك وكأنما يريدوننا أن نفكر ونعمل ونربى أبناءنا على هذا الأساس . ولست أتمنى شيئاً بمقدار ما أتمنى أن يتفضل علىّ فاضل من هؤلاء فيوضح لى ماذا يريدوننا أن نفعل وكيف يريدوننا أن نفكر ، لأنى حاولت جهدى أن أرى كيف تأكل الشعوب الروحانية وكيف تشرب ، كيف ترصف الطرق وتبنى الجسور ، كيف تداوم أمراضها وتجرى صناعتها وتجارتها ، كيف تحارب أعداءها ، بل كيف تلهو في ساعات الفراغ ، حاولت جهدى أن أفهم كيف تتم هذه الأشياء عند الشعوب الروحانية كى تجىء مخالفة لما يصنعه الماديون في الغرب ، فلم أفهم » — فإذا كانت فكرة « الروحانية » كما ترى ، يستحيل ترجمتها إلى سلوك ، إذاً فليست هي بالفكرة على الإطلاق ، بل هي لفظة فارغة يجب حذفها حتى لا تفسد علينا الحياة .

إننا في صراع مع ما يسمونه غربا ولن نظفر من صراعنا بنصر إذا كانت عدتنا كلاما لا يتحول إلى عمل .

وأحسب أن القارىء الذى اعترضنى منذ حين ، سيعود إلى اعتراضى قائلا : لكنها تُعدُّ بالمئات ، تلك الألفاظ التى نقولها دون أن يكون في مضمون معناها عمل ممكن الحدوث ؛ ومنها ألفاظ عزيزة جداً على نفوسنا ، نحبها ونرددها في الصباح وفى المساء ... فأجيبه مطمئناً واثقاً : إنها لغو لن تتقدم به الإنسانية قيد أنملة ولا شبراً ؛ إننا نعيش ونحيا بالأفكار القليلة الواضحة ، أى أننا نعيش ونحيا بالأفكار التى يمكن أن تتحول عملا وسلوكا ، فأما تلك التى لا تغير من دنيانا شيئاً فشر يجب أن نتقيه .

إننا نريد العمل ، نريد العمل ، نريد العمل .

زكى نجيب محمود

الحضـــــارة والأدب

وأيهما ينهض بالآخر ؟

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

لم يزل الكتاب يحاولون الوقوف على كنه الصلة بين الحضارة والأدب ، ويتساءلون أيهما السابق على الآخر في الوجود ، والحافز له إلى التقدم ؟ ...

وقد مالت الكثرة من أولئك الكتاب ، وهم من الأدباء ، إلى إرجاع الفضل في رقي الجماعات ، وازدهار الحضارات إلى الأدب ، فهم يرونه قوة فعالة تحتل الأذهان وتنمي المدارك ، وتوقظ المشاعر ، وتحفز الهمم . فالشعراء على حد قولهم لم يكفوا في مختلف العصور عن التغني بالحرية وغرس حبها في النفوس ، وتمجيد البطولة ، وحث الناس على التسامي إليها والإشادة بالجمال وإبراز خصائصه ومزاياه ، وظل الأدباء المعنيون بالمذاهب السياسية وقضاياها الفلسفية والفقهية يعيطون اللثام في بحوثهم عما يشوب الأوضاع الاجتماعية القائمة في وقتهم من ظلم وعنت ، ويذكرون الشعوب بحقوقهم المهضومة ، ويدعونهم إلى انتزاعها من أيدي المستبدين والمتعنتين حتى تتحقق العدالة والمساواة بين الناس ، ولم يزل كتاب القصة يصورون الحياة في قصصهم ويتناولون بالدراسة والتحليل طباع الناس وسلوكهم ، ويبرزون مجالبهم وعيوبهم فيعينونهم على فهم أنفسهم وفهم الحياة فهماً صحيحاً ، ويبصرونهم بما خفي عليهم من حقائق يكشفون لهم عن وجه كل من الحق والباطل ، فيهدونهم إلى السبيل القمينة بالاتباع ؛ فالأدب وهو يؤدي رسالته على هذا الوجه يرسم لمتذوقيه طريق الرقي الحضاري ، ويبث فيه الخلال التي تؤهله للصعود في معارجه ؛ ثم إن مثل هذه الخلال الأدبية في نظر أولئك الكتاب هي التي أحدثت الثورات الأوربية التي تعد مراحل انتقال رئيسية من نظام حضاري إلى نظام حضاري أرقى منه ؛ وكان إبراهيم عبد القادر المازني يؤيد هذا الرأي في مصر ، ويرى أننا لا بد واجدون نهضة أدبية وراء كل ثورة سياسية ، تورى زندها ، وتزودها بالوقود ، ولا تنفك تلهبها حتى تصل بها إلى تحقيق أهدافها ، واستند الكاتب في تأييد هذا الزعم إلى النهضات الأدبية التي سبقت الثورات الانجليزية والفرنسية والإيطالية في تاريخ أوربا الحديث ، ثم إلى نهضتنا الأدبية التي سبقت ثورة عام ١٩١٩ .

أما الفئة التي تعارض هذا الرأي وقوامها بعض الفلاسفة والمؤرخين فترى أن الحضارة هي التي تهيء الظروف والملابسات لظهور الأدب ، وهي التي تفسح له في مجال النهوض والازدهار .

وقد أخذ « توماس بإكل » بهذا الرأي وهو يؤرخ الحضارة الانجليزية ، فزعم أن الجماعات الإنسانية وهي تعيش في طورها البدائي المعتمد على الصيد والقنص ، تظل على خوف دائم من المجهول ، فهي تخشى غائلة الجوع ، وفتك الضواري ، وغضب الطبيعة حين تثور .

وهي في هذه الحالة لا تفكر إلا في سد حاجاتها الوقتية الملحة ، ودرء المخاطر عنها ، أما التفكير فيما وراء ذلك من أمور الحياة فيتعذر عليها وهي تعاني ما تعانيه من خوف متصل وقلق مستديم ، فإذا ما تخطت طور الصيد والقنص إلى طور الزراعة واستئناس الحيوان ، توصلت بذلك إلى توفير أقوات زائدة عن حاجتها وتخزينها ، فأمنت شر الجوع وأتيحت لها حياة مستقرة نوعاً ، تتسع فيها مندوحة من الوقت للتفكير في أمور الكون المحيطة بها ودراستها ؟ ..

وحينئذ يظهر بين أفرادها الأدباء والعلماء ، وتنشأ فنون القصة والشعر والنحت ، وعلوم الفلسفة والطبيعيات ، وغير ذلك من ألوان الفنون والعلوم ... ثم يستمر ازدهار العلوم والفنون على قدر ازدهار الحضارة .

وينحو « وول ديورانت » هذا النحو في كتابه « قصة الحضارة » ، ويؤيد رأي توماس بإكل من طريق غير مباشر

إذ يقول : « لا تتوقف المدنية على جنس دون جنس ، فقد تظهر في هذه القارة أو تلك ، وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرة أو ذاك ... فليس هو الجنس العظيم الذي يصنع المدنية ، بل هي المدنية العظيمة التي تخلق الشعب ... فلو تهيأ لجنس بشرى غير الإنجليز نفس ظروفهم المادية ، ألفيت النتائج نفسها تتولد عنها » . ومعنى هذا أن حضارة أى شعب من الشعوب لا تخلق ثقافته الفنية والعلمية فحسب ، ولكنها تخلق مقوماته الفكرية والنفسية والخلقية كافة .

ونحن إذا استعرضنا هذه الاتجاهات الفكرية وعصناها ، نجد أنها لا تثبت للنقد الذي يتخذ من الواقع محكا يفرّق به ما بين الصحة والزيف . فالقول بأن النهضات الأدبية تخلق النهضات الحضارية العامة ينظر أصحابه إلى هذا الموضوع المعقد من زاوية واحدة . فإنك إذا سألت دارس التاريخ عن أسباب أية نهضة من نهضات الحضارة ، أو أية ثورة نجحت في تحطيم نظام سياسى عتيق واستبدال ما هو خير منه به ، تراه لا يذكر لك أثر أهل القلم إلا في ذيل قائمة أسبابه ، بل قد ينسى أثر أهل القلم وهو يعدد لك ما يسميه أسباب الحضارات المباشرة . ثم إن الأخذ بهذا الرأى ، أى بالرأى الذي ينسب إلى القلم فضل بناء الحضارات ، يستتبع التسليم بأن فكرة الحضارات تنشأ من العدم في أذهان الكتاب ، فيعمد هؤلاء إلى بثها في الصدور بما يدبجون من الصفحات الأدبية الرائعة . وبديهى أن هذا الزعم الشاطح بعيد كل البعد من حقيقة الواقع ، لأن اتجاهات الكتاب الفكرية مستمدة من الاتجاه الفكرى العام في العصر الذي يعيشون فيه ؛ فهم لا يستمدون إنتاجهم الأدبى من عالم الغيب ، ولكنهم يقتبسونه من عالم الواقع ، ولولا ذلك لما صادف هوى في أى فؤاد .

أما القول بأن الحضارات تخلق النهضات الأدبية فمنحرف عن الصواب انحراف الرأى الذي سبق شرحه ، ذلك لأن القائلين به يحسبون أن الاستقرار والاطمئنان كفيلان وحدهما بنشوء الأدب وتقدمه ، في حين أن الواقع يناقض هذا الحسبان . فالأدب تعبير عما يجيش في صدر الإنسانية من مشاعر ، وما يدور في خلدها من خواطر . وهو لم ينشأ إلا حين مست الحاجة في بعض المجتمعات إلى نشر بعض العقائد وتثبيتها . وكانت تلك العقائد في بادئ الأمر دينية ، ثم تطورت إلى وطنية فإنسانية . وعلى ذلك سار تطور الأدب في موكب التطور العام وظل وثيق الصلة به ، يؤثر فيه على قدر ما يتأثر به . ولزيادة هذا الرأى شرحاً نقول إنه ما دام الأدب الحى تعبيراً صادقاً عن الإنسانية المتطورة في طريق الرقى فهو لا بد مغترف من نبعها . وهو إذ يسجل ميولها ومعتقداتها ومثلها يعمق تلك الميول والمعتقدات والمثل ، ويضاعف قوتها ، ويزيد سرعة انطلاقها في طريق النمو والتقدم . فإذا ما تم ذلك عادت ، بعد بلوغها مستوى جديداً من التقدم ، إلى التأثير فيه ومعاونته على بلوغه هو الآخر مستوى أعلى مما كان عليه . وهكذا يدور هذا التأثير والتأثر في حلقة مفرغة ، ويتم التوالى على هذا التساند غير المنظور في خطوات بطيئة قصيرة في مراحل تطورها ، ولكن تلك الخطوات تنقلب وثباً في فترات الانتقال من طور إلى طور .

وقد يعترض علينا القارئ المدقق بأننا حاولنا حل الإشكال المتقدم بالتورط في إشكال أعقد منه ، فما دمنا ننكر نشوء الآيات الأدبية في خلد الأدباء من العدم ، ونقول إنها وليدة المعتقدات والخوالج العامة ، فكيف نشأت هذه الخوالج والمعتقدات ؟ أنسلم بأنها تنشأ من العدم ؟ أم نصر على القول باستحالة نشوء شيء من العدم ؟ وإذا أخذنا بهذا الرأى الأخير ، وهو الرأى الذي يؤيده العلم ويقره الواقع ، فكيف تنشأ المعتقدات الاجتماعية إذاً ؟...

إن كل شيء في الوجود يخرج من صلب غيره ، وينمو ويشتد على حساب غيره ، ثم يضعف وينهار مفسحاً المجال لغيره ، ثم يصبح غذاء لغيره فيعينه على النمو والاشتداد بدوره . هذه هي الخطوات التي يسير عليها الكون في تقدمه . ولا يظن أنها مقصورة على الأجسام المادية ، فإن النظم والمذاهب والمعتقدات والأفكار تخطو هي كذلك نفس الخطوات في تقدمها ، ونحن لا نستطيع أن نشرح تلك الخطوات الشرح الكافي إلا إذا ألممنا بنظرية التفسير المادى للتاريخ ، فعلى ضوء تلك النظرية نستطيع أن نصل في دراستنا للأدب وغير الأدب من نتاج القرائح إلى ما لا يمكن أن نصل إليه بدونه . ولذلك نأمل أن نشرح تلك النظرية بالتفصيل في فصول تالية لنتمكن من دراسة نهضتنا الأدبية على أصول صحيحة ، ومنهج سليم . ونكتفى

هنا بالقول إن حاجات الإنسان ، سواء فى ذلك الضرورية والكمالية ، تدفعه إلى الإنتاج ، والعمل على تحسينه ووفرته ، وهذا يؤدى إلى تطور وتجويد فى وسائل الإنتاج والعلاقات القانونية بين أصحاب العمل والمنتجين ؛ وهكذا يرتفع على توالى الزمن مستوى الحياة المادى ، وتتبدل طبيعة العلاقة بين كل من أصحاب العمل والمنتجين والمستهلكين ، وتتطور النظم والقوانين ، وتتغير طرق توزيع الإنتاج ، فتظهر المعتقدات والمثل الجديدة المستمدة مما سبقها ، ولا يتم تطور كل ناحية من هذه النواحى على حدة ، ولكنه يتم فى تناسق وتآزر وارتباط بينها جميعاً . . .

نعود ، بعد الذى قدمناه ، إلى مناقشة رأى وول ديورانت فى الحضارة ، وإصراره على أنها تخلق شعوبها . هذا الرأى يستند إلى المذهب المادى فى تفسير تطور المجتمعات ، ولكنه يتطرف فيه إلى الحد الذى ينحرف قليلاً عن جادة الصواب . ولا بد لنا من الرجوع إلى تفسيره للحضارة حتى تبنى مناقشاتنا على أساس واضح . يقول ذلك الكاتب : « الحضارة نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة فى إنتاجه الثقافى ، وتتألف الحضارة من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون . . . » ويبدو من هذا القول أن الكاتب فى تعريفه للحضارة لم يفرق بينها وبين مقوّمات شعوبها ، فكيف يقول إن الحضارة تخلق تلك المقومات !؟ ثم إننا نأخذ عليه كذلك قوله الذى أشرنا إليه فى صدر هذا المقال : « لو تهيأت لجنس بشرى غير الإنجليز نفس ظروفهم المادية ، ألفيت النتائج نفسها تتولد عنها » . هذا الرأى مؤسس على المذهب المادى البحت الذى أخذ به فلاسفة القرن السابع عشر ، وهو المعروف باسم المذهب الآلى ، أو الميكانيكى الذى يحسب حساب تأثير الظروف المادية فى المجتمعات ، ويغفل تأثير أفراد الجماعات فى الظروف المادية ، وعملهم على تطويرها بعد تأثرهم بهم ، واختلاف هذا التأثير حسب درجة وعى الشعوب لظروفها المادية ، وتأثرها بثقافات غيرها تأثراً يحوّر درجة وعيها لتلك الظروف . ومما لاشك فيه أن ظروف انجلترا المادية من الناحية العامة ظلت على ما هى عليه منذ زمن قديم ، فما الذى أخر وعيها لها حتى القرن السادس عشر ؟! . .

نستخلص مما تقدم أن كلا الرأيين اللذين عرضنا لهما خاطئ ، فلا الأدب يخلق الحضارة ، ولا الحضارة تخلق الأدب . والذى يقول بهذا الرأى أو ذاك ينظر إلى الموضوع نظرة فردية ، أو نظرة ميتافيزيقية بالية ؛ ذلك لأنه يفرق بين نواحى النشاط الفكرية المختلفة ، وبين الظروف المادية تفرقة لا أساس لها من الواقع ، فكلها وحدة متشابكة متفاعلة يؤدى تشابكها وتفاعلها وحدها إلى تقدم الشعوب . وما من سبب لهذه النظرة الفردية الميتافيزيقية إلا أن أصحابها ينظرون إلى الحياة ، إذ يحاولون فهم معضلاتها ، نظرة الفاحص الواقف خارج نطاق ذلك المعترك . فهم إذ يعزلون أنفسهم عن الحياة وهم يدرسونها ، ويحسبون أنهم يتتبعون تطوراتها من بعيد ، يعزلون كل شىء فيها عن سواه ، ويقسمون أجزاءها متأثرين بعزلتهم ، على أنهم لو فطنوا إلى حقيقة الواقع ، أى إلى أنهم جزء من الحياة مندمج فيها ، لأدركوا على التو أن الحياة وحدة لا يؤثر جزء منها فى الآخر وهو منعزل عنه ، ولكن التأثير والتأثر بين أجزائها المندمجة متداخلان متشابكان لا يجوز التفريق بينهما كذلك .

وإذا أردنا أن نفيد مما تقدم ونحن نفحص نهضتنا الأدبية ، ونحاول تسديد خطاها فى سبيل النهوض والتقدم ، فلا بد أن نلفت نظر أدبائنا إلى أهمية تقدمنا الحضارى ، وإلى أن قيمة أدبهم تتوقف على درجة وعيهم لذلك التقدم وتأثرهم به ، فعلى قدر ذلك التأثر سيكون تأثيرهم فيه تأثيراً يدفعه إلى الأمام دفعة أخرى .

يظن بعض المهتمين بأدبنا الحديث أنه فى طليعة نواحى نشاطنا الثقافى ، ولكن الواقع على نقيض ذلك فيما نزعم ، فالأدب عندنا فى ذيل نهضتنا العامة ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن تقدمنا المادى يطرد إلى الأمام فى سرعة فائقة أبعدت الشقة بينه وبين غيره من ألوان التقدم . ولما كنا فى أشد الحاجة اليوم إلى تضافر القوى حتى نتمكن من تحقيق ما نصبو إليه من نهضة حقة ، فقد وجب على كل أديب يدرك هذا أن ينتبه ، وينبه غيره ، إلى أن الأوان قد آن لتحويل الأدب من معرض التنميق والتزويق إلى قوة فعالة وثيقة الصلة بنهضتنا العامة ، تتأثر بها وتؤثر فيها ما وسعها . . هذه هى مهمة الأدب الرئيسية ، ونحن أحوج ما نكون الآن إلى إدراك هذا حتى نستطيع تحطيم قيود الجهل والرجعية ، والارتفاع إلى مستوى الحياة الكريمة الراقية .

محمد مفيد الشوباشى

الصـورة الخفيـة

للأستاذ علي أدم

في البشر على اختلاف أجناسهم ناحية أصيلة من نواحي الضعف ، وهي أنهم يحاولون دائماً أن يظهروا في مظهر يخالف حقيقتهم ، ومن ثم كان أصدق اعتراف لا يخلو من الكذب والتلفيق والزيف ، سواء كان ذلك مقصوداً أو غير مقصود ، وكان أصح تصوير للنفس لا يسلم من المبالغة والإسراف ، سواء في التجميل أو التشويه ، والمتنبي يقول معتذراً عن تعاظمه على بعض معاصريه :

وما التيه طبي فيهم غير أنني بغيض إليّ الجاهل المتعاقل

وإذا صح أنه كان يبغض الجاهل المتعاقل فلا بد أنه قد عاش في غربة وعزلة عن الناس ، لأن الناس جميعاً — وآسفاه — هم هذا الجاهل المتعاقل ! والمتنبي نفسه كان من هؤلاء الجهلة المتعاقلين ، أنظر إلى قوله :

وما تسع الأزمان علمي بأمرها
ولا تحسن الأيام تكتب ما أملي

فمن هو المتنبي أو غيره من كبار الشعراء والفلاسفة والمفكرين الذي لا تسع الأزمان علمه بأمرها ولا تحسن الأيام أن تكتب ما يمليه عليها ؟ أليس هذا كلام رجل جاهل مغرور يتظاهر بواسع العلم ويدعي غزير المعرفة ، مثل سائر الناس الذين يحاولون أن يخالفوا من حقيقتهم ويظهروا بمظهر يخالف ما يعرفونه من أمر نفوسهم ؟

وقد روى لنا هيريك هين نادرة عن ملك أفريقي تبين في صورة مضحكة هذا اللون من ألوان الضعف البشري ، وذلك أن حاكم رأس الرجاء الصالح الإنجليزي أرسل القائد بوديتش سفيراً في بلاط هذا الملك الإفريقي القوي النفوذ ، وحاول القائد أن يكسب عطف رجال البلاط وحاشية الملك وخاصة السيدات ، وذلك بأن يتولى تصويرهم ، وأعجب الملك بدقة التصوير وصدق تمييزه من الملامح والسمات ، فطلب إليه أن يقوم بعمل صورة له ، وجلس للملك جلسات عدة ، واقترب الفنان من إتمام الصورة ، ولكنه لحظ في الجلسات الأخيرة نوعاً من القلق يعلو محيا الملك وتنم عليه أساريره ، وأدرك أن الملك يريد أن يفضي إليه بشيء يشغل باله ولكنه يتردد في ذلك ، فسأله الفنان عما في نفسه ، فقال له الملك الإفريقي المسكين في صوت خفيض : « أتستطيع أن تجعلني في الصورة أبيض اللون ؟ » وكلنا مثل هذا الزنجي الأسود الذي أراد أن يظهر أمام العالم في مظهر الأبيض اللون !.

والقصة الآتية من الأدب البلجيكي ، وهي للكاتب البلجيكي شارل تيودور دي كوستر الذي يكنى « أبا الأدب البلجيكي » وعنوانها « الصورة الخفية » ، وهي — إذا لم أكن قد أخطأت في فهم مضمونها — تقوم على الفكرة التي أوضحتها في هذه الكلمة الموجزة :

وصل تيل أولنشبيجل أخيراً إلى قصر الأمير ، وكان هناك ضابطان من رجال المدفعية يلعبان النرد على درج القصر ، أحدهما أصهب الشعر ضخم الجثمان ، وقد لحظ أولنشبيجل وهو قادم في تواضع على حماره ، وقد أبصرهما وهما يلعبان .

وقال له هذا الضابط : ماذا تريد أيها الرجل الذي يحمل وجه حاج قد برّح به التعب ؟ .

فأجابه أولنشبيجل : لقد بلغ مني الجوع كل مبلغ ، وإذا رأيتني حاجاً فما كان ذلك عن رغبة مني .

فأجابه الضابط : أنت جوعان ، اذهب وكل حبل المشنقة التي تصادفك ، لأن أمثال هذه الحبال معدة لمن هم على شاكلتك من الصعاليك والقوّان .

فأجابه أولنشبيجل : سيدي الضابط ، لا تعطني سوى الحبل الذهبي اللطيف الذي تضعه على قبعتك ، وسأذهب في التوّ والحظة وأعلق نفسي بسنة من أسناني في هذا

الفخذ السمين من أفخاذ الخنزير المملح الذى أراه معلقاً هناك فى حانوت الطاهى .

وسأله الضابط قائلاً : من أين قدمت ؟ .

فقال له أولنشبيجل : من الفلاندرز .

— وماذا تريد ؟ .

— أريد أن أرى سموه إحدى الصور التى رسمتها ، لأنى مصور .

فقال الضابط : إذا كنت مصوراً وقد قدمت من الفلاندرز فإنى سأصحبك إلى مولاى الأمير .

ولما مثل أولنشبيجل بين يدى الأمير حياه ثلاثاً ، وأعاد التحيات وقال : أرجو أن يسامحنى مولاى على اجترائى على القدوم إليه لأضع تحت قدميه إحدى الصور التى رسمتها لسموه ، وكان لها شرف تصوير سيدتنا العذراء فى ثوبها الملكى .

وتوقف عن الكلام لحظة ، ثم استرسل يقول : وقد تسر صورتى مولاى ، وفى هذه الحالة أجد ما يسوغ لى أن أجترئ على التطلع إلى هذا الكرسى النفيس المغطى بالمخمل الذى كان يجلس عليه فى أثناء حياته المصور الذى مات أخيراً والذى ستظل سموكم تأسفون لفقده .

وكانت الصورة التى عرضها أولنشبيجل على جانب كبير من الجمال ، ولما عاينها الأمير وتأملها أمر أولنشبيجل بالجلوس على الكرسى لأنه نوى أن يتخذه مصوراً لبلاطه ، وقبله فى وجنتيه بسرور وارتياح ، وجلس أولنشبيجل على الكرسى .

وصوب الأمير نظره فيه وصعّده وقال له : فى الحق أنك إنسان كثير الكلام .

فأجابه أولنشبيجل : قد يسر مولاى أن يعلم أن حمارى (جف) قد أكل من العوسج حتى شبع وامتلأ ، أما أنا فإنى لم أعرف فى الأيام الثلاثة الماضية سوى البؤس ، ولم أذق شيئاً سوى رذاذ الانتظار .

فقال له الأمير : ستذوق طعاماً أشهى من ذلك فى القريب العاجل ، ولكن أين حمارك ؟ .

فقال أولنشبيجل : لقد تركته إزاء القصر ، وسأكون شاكراً إذا آويتموه هذه الليلة وقدّم له بعض القش وقليل من العلف .

وأصدر الأمير على الفور أمره إلى أحد الخدم بأن يعامل الحمار كما تعامل حميره ، وجاء أوان العشاء ، وقدم من ألوان الطعوم ما يقدم فى إحدى الحفلات ، وكان اللحم الساخن يرتفع دخانه من الأطباق وكان النبيذ يتدفق تدفق الماء ، حتى احمرّ وجه الأمير ووجه أولنشبيجل وصارا مثل النيران المشتعلة ، واستخف السرور أولنشبيجل ، أما سمو الأمير فقد ظل مفكراً مهموماً حتى وهو يحتسى الكئوس .

وقال الأمير فجأة : سيقوم مصورنا بعمل صورة لى ، لأنه مما يسر الأمير الفانى أن يترك لخلفه ذكرى ملامحه وهيئة وجهه .

فأجاب أولنشبيجل : إن مشيئتك هى سرورى ، ولكنى أشعر بما يخالج نفسى من الحزن حينما أفكر فى أنى إذا صورتك وحيداً فإنك ستظل تستشعر الوحدة خلال العصور القادمة ، ومن الخير أن يصحبك فى الصورة زوجتك النبيلة وحاشيتها من النبلاء والنبيلات وضباطك وحماة رجالك ، وستكون يامولاى أنت والأمير فى وسط هذا الجمع الحاشد مثل ثمينين تراءين حولهما المصابيح .

— حسن يامصورى ، وكم تريد أن أدفع لك من المال لقاء هذا العمل الضخم ؟

— مائة فلورن يامولاى عاجلاً أو آجلاً كما تريد .

فقال له الأمير : خذ هذا المبلغ مقدماً .

فأخذ أولنشبيجل النقود وقال : لقد ملأت أيها الولى الكريم السماح مصباحى بالزيت وسيزداد اشتعاله توهجاً تكريماً لكم .

وفى اليوم التالى طلب أولنشبيجل من الأمير أن يريه هؤلاء الذين يود أن يشرفهم بتصويرهم معه ، فجاء فى الطليعة دوق لنبرج ، قائد فرقة المشاة ، وكان رجلاً قوى البنية يحمل بصعوبة كرشه الكبيرة التى امتلأت بالطعام ، وقد اقترب الرجل من أولنشبيجل وهمس فى أذنه قائلاً : عندما ترسم صورتى احذف منها نصف ما أحمل من الشحم ، وإذا لم تفعل ذلك فإنى سآمر جنودى بشنقك .

ومضى الدوق لسبيله ، وفى اليوم التالى جاءت سيدة من

السيدات النبيلات لها حدبة على ظهرها وصدرها مستو مثل حد السيف .

وقالت له : ياسيدى المصور إذا لم تُخف الحدبة التى تجثم فوق ظهرى وتجعل لى نهدين حيث كان يجب أن يكونا فإنى سآمر بسجنك كأنك أحد الأسرى .

وذهبت السيدة لشأنها ، وظهرت بعدها شابة إحدى وصيفات الشرف وكانت حسناء ناضرة رشيقة ، وكان لا ينقصها سوى ثلاث أسنان تحت شفتها العليا .

وقالت له : ياسيدى المصور ، إذا لم تصورنى ضاحكة وقد ظهرت أسنان شفتى العليا كاملة فإن رفيقى سيمزقك إرباً إرباً ، انظر إليه فإنه واقف هنالك . وأشارت إلى ضابط المدفعية الذى كان يلعب النرد على درج القصر ، وانصرفت .

وتوالى الموكب على هذا النمط حتى وجد نفسه فى خلوة مع الأمير ، وقال له الأمير : إنى أحذرك ياصديقى . إنى إذا وجدت أنك لم تكن دقيقاً فى تصوير ملامح هذه الوجوه التى رأيتها أو زوّرت فى رسم أى لمحة من اللمحات أوسمة من السمات فإنى سأقطع رأسك كما لو كنت فروجاً .

ففكر أولنشبيجل فى الأمر وقال لنفسه : إذا كان لابد من قطع رأسى أو سحبى إلى السجن أو تقطيعى إرباً إرباً أو شنق فالأجمل بى أن لا أرسم شيئاً ، وعلىّ أن أفكر فى خير ما أعمله .

وسأل الأمير قائلاً : وأين القاعة التى سأزينها بهذه الوجوه ؟ .

فقال له الأمير : اتبعنى . وأوصله الأمير إلى حجرة كبيرة عارية الحيطان وقال له : هذه هى الحجرة .

فقال أولنشبيجل : سأكون شاكراً إذا وضعت بعض الستائر وضعاً محكماً على الحيطان وذلك لحماية الصورة من الذباب والغبار .

فقال له الأمير : مؤكد .

ولما وضعت الستائر كما أراد أولنشبيجل طلب أن يستحضر لمساعدته فى مزج الألوان ثلاثة من المساعدين وأجيب طلبه ، وأمضى أولنشبيجل هو ومساعدوه ثلاثين يوماً فى لهو وقصف ، وأسرفوا فى أكل اللحوم وتعاطى الشراب ، والأمير يرى ذلك كله ، ولكن أخيراً فى اليوم الخامس بعد الثلاثين جاء الأمير ودس أنفه فى باب الحجرة الذى طلب منه أولنشبيجل أن لا يدخلها .

وقال : حسن ياتيل أولنشبيجل أين الصور ؟ .

فأجابه أولنشبيجل لم تنته بعد .

— متى أستطيع أن أراها ؟ .

فقال أولنشبيجل : لم يحن الوقت بعد .

وفى اليوم السادس بعد الثلاثين عاد الأمير ودس أنفه داخل باب الحجرة واستفسر قائلاً : كيف حال العمل ياتيل ؟ .

فقال أولنشبيجل : لقد تقدمنا فى عمل الصور .

وفى اليوم الستين اشتد غضب الأمير وقصد إلى الحجرة تواً وصاح قائلاً : أرونى الصور .

فقال أولنشبيجل : إنى سأريك الصور ، ولكنى أرجو يامولاى أن لا ترفع الستائر إلا بعد أن تدعو أعيان البلاط وضباطه وسيداته .

فقال الأمير : حسن جداً .

وظهر هؤلاء الأعيان جميعاً تلبية لأمره ، ووقف أولنشبيجل أمام الستارة التى كانت لا تزال مسدولة بعناية وقال : مولاى الأمير وسيدتى الأميرة وسيدى الدوق لينبرج وأنتن أيتها السيدات الحسان وأنتم أيها الضباط الشجعان ، اعلموا أنى قد صورت خلف هذه الستارة بأقصى ما أستطيع من الإتقان وجوهكم حسب ملامحكم ، ففيها الوجوه التى يظهر فيها الميل إلى الحرب والوجوه التى تبدو فيها الرقة ، وسيكون من السهل على كل منكم أن يعرف نفسه ، واهتمام كل منكم بأن يرى نفسه اهتمام طبيعى ، ولكنى أرجو أن تصبروا قليلاً وتسمحوا لى بكلمة أو كلمتين قبل أن ترفع الستار ، واعرفوا هذا أيتها السيدات الحسان وأيها الضباط الشجعان ، فكل من كان نبيل الأصل شريف المحتد فإنه سيرى الصور ويسر بها ، ولكن إذا كان بينكم من هو من أصل وضيع فإنه لن يرى شيئاً سوى الحائط .

والآن التفتوا وافتحوا عيونكم النبيلة جيداً .

ورفع أولنشبيجل الستار وقال : اذكروا أن صورى لا يراها إلا من كان نبيل الأصل ، سواء كان من الوردات أو كان من السيدات ، واذكروا أن من كان وضيع الأصل

فإنه لن يبصر صورى ، وإن من يرى الصور بوضوح وجلاء لا يشك فى نبل أرومته .

وفتح كل إنسان من الحاضرين عينيه جيداً مدعياً أنه يرى الصور ، وأنه يستطيع تمييز الوجوه المختلفة ؟ ولو أنهم كانوا فى الحقيقة لا يرون شيئاً سوى الحائط ، وكانوا لذلك قد أدركهم الخجل جميعاً ، ووثب مضحك الملك الذى كان حاضراً ثلاث وثبات فى الهواء وهز أجراسه وصاح قائلاً : قولى عنى إنى وغد حقير ، بل قولى إنى من أحط الأوغاد السفلة ، فإن هذا لا يمنعنى من أن أعلن وأؤكد وأرفع الصوت عالياً مجلجلاً بأنى لا أرى سوى الحائط ، فليساعدنى الله والقديسون !.

فقال أولنشبيجل : حينما يبدأ الحمق فى الكلام يحين وقت انسحاب العقلاء .

وهم بترك المكان ، ولكن أوقفه الأمير وقال : أيها الأحمق فى حماقته ، إنك تفخر بأنك تسير فى الدنيا مادحاً الخير والصالح وساخراً من الحماقات والسخافات ، وقد اجترأت على أن تسخر بالكثيرين والكثيرات من السادة والسيدات وتجعل كبرياء نبلهم موضع الضحك والاستهزاء ، وإنى أقول لك حقاً إن اليوم الذى ستشنق فيه من أجل انطلاق لسانك سيأتى .

فقال أولنشبيجل : إذا كان الحبل من ذهب فإنه سينقطع من الخوف حينما أدنو منه .

فقال له الأمير : انتظر هنا ، وهاك القطعة الأولى من هذا الحبل . وأعطاه خمسة عشر فلورينا .

فقال أولنشبيجل : أشكركم جميعاً ، وأعدكم بأن كل حانة فى الطريق سيكون من نصيبها خيط من هذا الذهب الذى يجعل من كل صاحب حانة حقير فاروناً .

وركب حماره رافعاً رأسه فى الهواء عالياً وقد هزت النسمات الريشة المعلقة فى طاقيته .

على أدهم

١ - أين نحن اليوم ؟!

نعم أين نحن اليوم ، من عالم اليوم ؟ ولكي أجيب على هذا السؤال الذي دار بخلدي زمناً طويلاً يجب أن ألم بحقيقة الواقع لأعرف بالضبط أين نحن من عالمنا ؟

إنني فرد من هذه الكتلة الضخمة التي يقال لها العالم الإسلامي . ولكل فرد في هذه الكتلة حق التفكير فيها وفي مصيرها . ومعرفة موضعها بين مواضع مثيلاتها من الأمم المتكتلة .

وذلك الحق من الحقوق التي منحها الإسلام لكل فرد من أبنائه « فالمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » وما دام الإسلام أعطاني هذا الحق فلماذا أمتنع عن أخذه .

إن الذين يثبطون العزائم بقولهم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » لم يفهموا هذا الحديث النبوي الكريم حق الفهم أو أنهم يفهمونه ولكنهم يموهون على الناس الحقائق متخذين من الحديث الشريف أداة للتمويه والمغالطة . كيف يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص إذا كان إخوانه في العقيدة ووضعهم في الحياة لا يعنيه ؟ إن « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » لا يعني أكثر من الحث على حسن سلوك المسلم مع إخوانه المسلمين في حياتهم الداخلية الخاصة ، فإن ذلك لا يعنيه حقيقة في كثير أو قليل ما لم يطلبوا إليه العناية والاهتمام بذلك .

أما حياة المسلمين العامة فيجب أن يعنى بها كل فرد من أفراد المسلمين بدافع من نفسه ، ويفكر فيها ويهتم بها ويساهم في خدمتها وتقوية بنائها والذب عنها . وإلا كان مقصراً في حق دينه وأمته وأبناء ملته .

* * *

إن السياسة العالمية قد انتهت من تقسيم العالم إلى قسمين لا ثالث لهما : القسم الشرقي وتعني به الاتحاد السوفيتي ، والقسم الغربي وتعني به أمريكا وحليفاتها . أما الكتلة الإسلامية فلا تتحدث عنها إلا أنها تبع لإحدى الكتلتين . ولم ترض السياسة العالمية أن تجعلها قسماً ثالثاً ، بل أسقطتها من هذا الحساب . وهي على حق فيما ذهبت إليه — كما هو منطقها — أو كما هو منطق الواقع — لأن كتلتنا لم تثبت جدارتها لأن تكون معسكراً ثالثاً له ما للمعسكرين من قوة تدعو إلى الاحترام .

وكلا المعسكرين الشرقي والغربي عدو لدود للآخر بحكم نظامه الإداري والاقتصادي ، فالنظام الرأسمالي لا يمكن أن يهادن النظام الشيوعي ، والحكم الأوتوقراطي عدو الحكم الديموقراطي ولا يمكن أن يلتقيا بوجه من الوجوه ، وكلا المعسكرين مخلص لفكرته ومبادئه إخلاصاً لا يرده شيء عن التضحية في سبيل رسوخه وانتشاره بأغلى ما يحرص عليه الإنسان . ولذلك فقد كلا المعسكرين حياة الاستقرار والهدوء حتى صار الناس في الاتحاد السوفيتي كما قال « فيكتور كرافتشنكو » في كتابه آثرت الحرية : « يعيشون في مطحنة ويموتون في مجزرة » وهو قول لا يصدق على الاتحاد السوفيتي وحده ، لكنه يصدق على الأمم الغربية ، وعليها أيضاً من حيث الجملة وإن كان من حيث التفصيل يختلف باختلاف نظم الحكم التي تسير عليها كل مجموعة في فلكها ، لأن الناس ، إما في حرب أو في استعداد للحرب ، وكلتا الحياتين حياة الحرب وحياة الاستعداد للحرب لا تدعو للطمأنينة مطلقاً ، وإن كانت الحياة في الشرق وفي الغرب — كما هي عندنا زاخرة بالمنغصات مخلوطة بالمآسي إلا أنها حياة تختلف عن حياتنا اختلافاً بيناً ؛ فهي حياة الفكرة ، حياة واعية عاملة لا تنقصها اليقظة في جميع مرافقها ، حياة الذين يملكون أمورهم ويعرفون مواضع أقدامهم ولا يتخطون أهدافهم ، ولا يسمحون للغش والخداع والزيف أن يغشى أبصارهم فيعميها عن الغرض الذي يسعون له والفكرة التي يعيشون لأجلها . ولم يسمحوا لبريق الحياة الزائف أن يلهيهم كما ألهانا .

* * *

إن المجموعة الإسلامية تقدر بأكثر من ثلثمائة مليون نسمة تنتشر في بقعة كبيرة مترامية الأطراف ولهذه البقعة شأن خطير من حيث موقعها الممتاز وخصب تربتها وغناها

بمناجم الفحم وآبار الزيت وكنوز الذهب والفضة وكافة الخامات التي لا تستغني عنها مطالب الحياة الحديثة بوجه من الوجوه في زمن السلم وزمن الحرب . ومع هذا فقد ألقتها السياسة العالمية من حسابها كمعسكر ثالث يخشى خطره أو له خطره على الأقل . فلماذا ألقتنا من الحساب ؟ والجواب على هذا السؤال سهل ميسور لوضوحه وبداهته : المجموعتنا لا تعتنق مبدأً من المبادئ المتطاحنة ، فليس لها روح الحماس الذي يدفع للأخذ بأسباب القوة التي تفرض الاحترام والخشية على الغير . وليست هي كذلك متحمسة للدين الذي تحمل اسمه وتزعم أنها من أبنائه ومعتنقيه أو أنها صاحبته وحاميته . وكيف تتحمس لدين تجهله جهلاً فاضحاً بالرغم من انتسابها إليه ؟ إن مجموعتنا كما يبدو لنا ، لا تعرف من هذا الدين إلا اسمه ، ولا تفهم من تعاليمه إلا طقوساً كطقوس النصارى ، وإلا رسوماً شكلية لا تغني في بناء الأمم فتيلاً .

وإن أي مجموعة في الدنيا لا تحمل فكرة تعمل لها ولا تتخذ مبدأً تعيش من أجله لا يمكن أن يكون لها في الحياة خطر أو شأن . ومثل هذه المجموعة التي افتقدت روح الحماسة لدينها ولم تتحمس لأي شيء آخر لا تصلح إلا لأن تساق إلى ميادين القتال دفاعاً عن أي مبدأ من المبادئ ، التي يدين بها الأقوياء من ذوي الحماسة للأفكار والعقائد . فإذا استطاع الأتحاد السوفييتي امتلاكها جندها راغمة للدفاع عن المبدأ الشيوعي ؟ ويصبح العكس فيما لو استطاع المعسكر الذي يقابله امتلاكها ، وقد استطاع كلا المعسكرين أن يقبض على ناصية الجماعة التي تعاليه من الكتلة الإسلامية ويسخرها لأهوائه ويقذف بها في أتون الحرب المشتعلة دفاعاً عن فكرته . ووقف الصيني المسلم والتركي المسلم يصوب رصاصه إلى أخيه الكوري المسلم والمغولي المسلم والسوداني المسلم في ميادين القتال ، كما رأينا ذلك في الحربين العالميتين .. وكما رأينا الجنود المسلمين يقمعون الحركات الوطنية المسلمة في العراق . والمقاتل المسلمين يقمعون إخوانهم المسلمين في سوريا ولبنان ليخضعوهم لفرنسا وبريطانيا ، فخطرنا من حيث إننا وقود لحروبهم وجنود لقمع الحركات التحررية لهم غير منكور عند راسمي السياسة العالمية العليا .

* * *

فنحن إذا ادعينا الإسلام فإن كلا المعسكرين : الغربي والشرقي يعرف مدى ما في هذا الادعاء ، من حق وصدق ، فما هو بالجاهل حقيقة دعوانا ، وما هو بالجاهل أيضاً حقيقة ديننا وما ينطوي فيه من نظم وتعاليم . فكلا المعسكرين يعرف الإسلام حق المعرفة ، كما يعرف المسلمين معرفة تامة . فقد كان بين الشرق والغرب من جهة ، والعقيدة الإسلامية وأصحابها الأولين من جهة أخرى ، تاريخ طويل لنضال عنيف استمر أجيالاً طويلة . وقد أضنى هذا النضال — الذي لا يكاد ينتهي حتى يبتدئ — الغربيين والشرقيين على السواء . فلماضي الشرق مع قياصرة الروس ملاحم عنيفة مازال التاريخ محتفظاً بها ، ولماضي الغرب ملاحم أكثر عنفاً مع أوربا كلها ، مازالت ذكراها ماثلة في الأذهان .

وقد رأى الغرب أن يتجه — بعد هذه الملاحم — اتجاهاً آخر لهدم العقيدة الإسلامية في قلوب معتقديها يكون أسهل منالاً وأبعد أثراً . وكان هذا الاتجاه هو مهاجمة العقيدة في معاقلها من قلوب المسلمين مهاجمة لينة ولكنها خبيثة فتاكة ! وفعلاً فقد كانت أفتك من الجيوش الفتاكة التي كانت تساق لقتالنا في حرب وحقد في عقر بلادنا أيام الحروب الصليبية الطاحنة . لقد هاجمونا في تؤدة وصبر وأناة هجوماً ليناً رقيقاً هادئاً بكل طرائق اللين والرقة والهدوء حتى استطاعوا قتل الحماس الديني في نفوسنا وإبادته إبادة تدريجية مفزعة ، فلم يعودوا يخشون سلطانها . وقد أصبحت نتيجة لذلك الهجوم الرقيق الهادئ الذين عودة الحماسة للدين رجعية وجموداً ودعوة إلى الهمجية ، والاستمساك به استمساكاً بالعادات القديمة التي لا تصلح إلا للعرض في المتارض والمتاحف ، وصارت أصوات القائلين بالعودة إلى الإسلام أقوالاً لا تصلح إلا لأن تتبدد في الهواء .

لقد عمد الغربيون إلى الدعائم الأولى في الإسلام والتي هي مبعث الحماسة في القلوب وأجلبوا عليها بخيلهم ورجلهم حتى دكوها في قلوب أجيال منا ، واستطاعوا أن يستهووا ببريق مدنيتهم جماعة من كل مجتمع إسلامي ويكونوا منها طبقة من الحكام والعظماء لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، وإلا هذه الأطلال الدارسة من هذه البنايات التي أقيمت تحت ستاره ، وجعلوهم حفظة عليها وسدنة لها ، وأمدوا هذه الطبقة المختارة بكل أسباب القوة وأحاطوهم بكل أنواع الإغراء ، وبذلك صرفوهم عن معاناة البحث عن جوهر الإسلام وروحه ، فاكتفى هؤلاء الحفظة بالاقتصار على إنشاد القرآن تراتيل

وأنغاماً يتغنى بها في المآتم والأفراح ، وافتتاح الحفلات واختتامها ، وجعلوا مقامات الأولياء وقبور الصالحين محل عنايتهم واهتمامهم لتكون هذه الأماكن وما يقام فيها من مراسيم ملهاة تتلهى بها الجماهير المؤمنة بذلك إيماناً تقليدياً ، ولتساق الجموع بهذه المراسيم المختلفة بها إلى حيث يراد لها أن تساق باسم الإسلام وتحت ستاره ، وقالوا : هو هذا الإسلام ، والويل لمن خرج عن ذلك ، ومهدوا للخرافة والأضاليل الطريق لغزو الأفكار والأفئدة ، واعتنت بالقشور وحظر على المسلمين السلوك في طريق الحياة الصحيح بالفهم السليم والعقل المتبصر لتعاليم الإسلام الصحيحة ، ومن سلك بغير ذلك الحظر المضروب طريق الصواب وجاهر به رمى بالخروج على الله والمروق من الدين .

وأمدت الطبقة الحاكمة طبقة العلماء السائرة في موكب الهدم بكل ما يجعل هؤلاء العلماء في الطليعة ، والجمهور تخدعه الظواهر ، فصارت الزعامة الروحية ملكاً لهم لا تتعداهم إلى غيرهم ودانت لهم المجتمعات حتى ساقوها إلى هذا المصير المحزن .

لقد تآمر هؤلاء العلماء ، وهؤلاء الحكام — أو هكذا يبدو لنا وما زال يبدو لنا أنهم متآمرون مع أعداء الإسلام الصرحاء في الشرق والغرب على اغتيال الإسلام واغتيال بنيه ، وقد تم هذا الاغتيال منذ أمد بعيد ، ولم يبق إلا اغتيال بلاده وخيراتها واستصفاء ما فيها استصفاء نهائياً ، واغتيال تلك القلوب التي لم يزل فيها شيء من الحنين إلى حياة الإسلام الصحيحة ؟ وها هي بلادنا بفعل هذه الحرب الخبيثة الماكرة آلة تتنازعها أيدي الأقوياء المسيطرين على زمام السياسة العالمية يحركونها كيفما شاء لهم الهوى وكيفما شاء لهم الطغيان ، ينتقصون من أطرافها ويعطونها لمن شاءوا كيفما شاءوا ، وصرنا في ديارنا كالخول والأجراء ! أستغفر الله كالأرقاء في ضيعة كبيرة ، نشقى بالعمل الدائب لسعادة مالك الضيعة ، ولا يهمنا من مالك الضيعة ، لأننا لسنا أصحاب عقيدة تجعلنا نحب ونكره ونعمل أو لا نعمل ، وكيف ينبغي لنا أن نهتم بالسؤال عن صاحب الضيعة التي نعمل فيها بعد أن غزت عقولنا الضلالات وقبضت على أعناقنا أيدي التآمر والمؤامرات ؟ وما أشبه حكامنا بالحارس الذي لا يهمه إلا إرضاء من هيأ له العيش الناعم والكرسي الوثير والتحكم في الجماهير ؟ تلك هي حالة كتلتنا أو مجموعتنا الإسلامية في كل بقعة من بقاعها دون أن تستثنى شبراً من هذه البقعة المترامية الأطراف التي تسكنها ؟ ذلك هو موضوعنا اليوم من عالم اليوم .. ولم يبق لنا محل لأن نسأل — بعد هذا السؤال الذي بدأنا به كلمتنا — أين نحن اليوم ؟ .

(يتبع)

(القاهرة) ابن الحسن

تحيـــــة

يا بورسعيد إلى رباك تحية وإلى البطاح
وإلى ثراك وقد تعطر في المساء وفي الصباح
بأجل ما يهب الفداء وخير ما تهب السماح

* * *

وإلى شبابك لم يطق صبراً على حرم تباح
فمشى إلى جحر الذئاب وضج من غضب وصاح
ما عاقه الموت المقدر في الغدو وفي الرواح

* * *

وإلى نسائك لم يرعن وقد تفجرت الجراح
ومشت إليهن الحتوف من البنادق والرماح
من أجل مصر واسم مصر دماؤهن ندى مباح

* * *

وإلى طفولتك البريئة بين أنياب السلاح
واهاً على طير الكنانة لو يطاوعه الجناح
لم يلق إلا روحه فسخى وجاد بها وراح

* * *

هذي الدماء زكية أغلى وأثمن ما يتاح
هي دعوة الشعب الأبي إلى النضال إلى الكفاح
هي صرخة التحرير من طاغ تحكم واستباح

(اسكندرية) عبد العليم محمد القباني
(فوزي عرب)

محكمة مينوس

للأستاذ أمين سلامة

تقديم :

حدثنا التاريخ أن ظروفاً جمعت بين هانيبال وسكيبيو القائد الروماني الذائع الصيت ، فسأل الأخير الأول : « من أنبغ القادة ؟ » ، فأجاب هانيبال : « الإسكندر » فابتسم سكيبيو ساخراً وقال : « إذاً من أنبغهم لو لم أقهرك ؟ » ، فأجاب هانيبال على الفور : « أنا » — ونستعرض الآن ذلك الحوار الفنى الممتع الذى أنطق فيه لوسيان الأديب المؤرخ أبطال تلك الحروب القديمة بعد مماتهم ، وكيف فضل مينوس الإسكندر على هانيبال وسكيبيو .

• • •

الإسكندر : ألست ترى أيها الإفريقى أن التاريخ يؤثرنى عليك لأنى أبزك نبوغاً وعبقرية .

هانيبال : كذبت ، فأنا الذى أبزك نبوغاً وعبقرية .

الإسكندر : إذاً ... هيا نحتكم إلى مينوس .

مينوس : من أنتما ؟ .

الإسكندر : هـذا هانيبال القرطاجى ، وأنا الإسكندر ابن فيليب المقدونى ...

مينوس : ما أشهركما حقاً ! ! ولكن عـلام الخصام بينكما ؟ ! .

الإسكندر : إننا نختصم على الرياسة ، فهو يزعم أنه يفضلنى فى قيادة الجيوش وجمعها ، أما أنا فأردد ما يعلمه الناس جميعاً بأنى لا أبذ هذا الرجل فى فن القتال فحسب ، بل وجميع الرجال السابقين له والذين أولعوا بهذا الفن .

مينوس : إذاً ليدل كلاكما بحجته فى تأييد وجهة نظره ، وليبدأ هانيبال أولاً .

هانيبال : ليس من العدل يا مينوس أن يفضلنى الإسكندر لأنه يعرف اللغة اليونانية ، فها أنا قد تعلمتها هنا فى عالم الأموات . وإن أجدر الناس بالإطراء فى نظرى لهو ذلك الرجل الذى بدأ حياته شيئاً منسيا ، ولكنه بالرغم من ذلك استطاع أن يقوّى نفسه بنفسه فتفوق على أترابه ، وفرض عليهم عبقريته فأضحى أهلاً بأن يسوس مقاليدهم ، وهذا وصف لحالى ، فقد دخلت أيبيريا مع حفنة من الرجال ، ومع أنى بدأت حياتى العسكرية ضابطاً بسيطاً تحت إمرة أخى ، فقد كنت أكثر الضباط استحقاقاً لأرفع الرتب وأسمى المناصب لأنى كنت أنبغهم ، فقد كنت — على حد قولهم — من استولى على أيبيريا وأسر جميع سكانها ، ولما انتصرت على بلاد الغال الغربية وعبرت جبالها الشماء غزوت الأقطار التى حول نهر إلبو ، وجعلت أكثر البلدان يباباً بلقعاً ، ووضعت يدى على سهل لمباردیا فى إيطاليا ، ومن ثم توغلت فى الداخل حتى اقتربت من أبواب العاصمة بعد أن سفكت دماء ألوف عديدة من الرجال فى يوم واحد ، حتى أضحى لزاماً علينا أن نحصى خواتيمهم بالويبة ونلق بأجسادهم فى الماء لكى نعبر فوقها الأنهار ...

بيد أنى قمت بجميع هذه الأعمال دون أن أدعى بأنى ابن آمون ، أو أزعم للجيش أنى إله قدير أو أحدث الناس عن الطيف المبارك الذى زار والدتى فى نومها ... ثم لقد زعم الإسكندر كل هذه المزاعم مع أنه كان يحارب الميديين الذين جبلوا على الفرار والإدبار والتسليم الوشيك لكل من أوتى قدراً ضئيلاً من الشجاعة ... أما أنا فقد اعترفت بعدنى البشرى ونار الحرب مستعرة بينى وبين أذكى القادة وأشجع الجنود .

لقد ورث الإسكندر تاج الملك عن أبيه وواتاه الحظ الطيب فاتسع ملكه وزاد نفوذه كثيراً ، ولكنه عندما

هزم دارا في إسوس وانتصر عليه في أربلا ثأر على تقاليد أجداده وحسب نفسه إلهاً جديراً بالعبادة ، واتخذ لنفسه في الحياة الدنيا أسلوباً فارسياً ، طارحاً بأسلوبه اليوناني عرض الحائط . وأقبح من هذا فإنه اعتاد قتل الأصدقاء على موائد الشراب والقبض عليهم لقطع الفضلة رءوسهم . أما أنا فقد وزعت العدل على أبناء وطني توزيعاً مرضياً ، وأسرعت إلى تلبية نداءهم وعرضت نفسي على الوطن مخلصاً عندما هجم الأعداء بأسطولهم الضخم على شمال إفريقيا ، بل ولم أحمل لهم في قلبي ضغينة أو بغضاً يوم حكموا بإدانتي .

تلك هي النواحي التي أقول إنني بذذت الإسكندر فيها . أما إذا فضل الإسكندر علي لأنه يحمل فوق كتفيه رأساً متوجاً فرعا أرضى هذا العمل أهل مقدونيا لأنهم يقدسون هذه التفاهات ... ولكن الشيء الذي لا ريب فيه أن التفاهات لا يمكن أن تكون أساساً عادلاً لتفضيل الاسكندر على قائد نبيل اعتمد على حكمته في كثير من الأحيان وعلى حظه في القليل منها .

مينوس : هذا دفاع مجيد لا غبار عليه ، ولا يمكن أن يصدر من إفريقي ، فما رأيك ، أيها الإسكندر ، في هذه المزاعم والأقاويل ؟؟ .

الإسكندر : أيها الحاكم ، ليس ضرورياً أن أدفع عن نفسي ما افتراه علي هذا الوقح المغرور ، إذ يكفي أن تحرك من شهرتي إلى أي الملوك ينتمي الإسكندر ، وإلى أي لون من اللصوص ينتمي هذا الرجل ، وحسبي أن تعرف إذا كنت قد تفوقت عليه في قليل أم كثير ، لقد عركت الحياة وأنا مازلت شاباً يافعاً ، إذ ورثت مملكة مضطربة ، وانتقمت لوالدي من سافكي دمه ودمرت طيبة فألقيت بذلك الرعب في قلوب اليونانيين فاتخذوني قائداً لهم ؛ غير أنني لم أكتف بعرش مقدونيا وما تركه لي أبي من البلدان ، بل عقدت النية على امتلاك العالم برمته وأن أصير له السيد المطاع ؛ لهذا غزوت آسيا بزمرة من الجنود وقهرت حشد سكانها في موقعة كبرى بالقرب من نهر جرانيكوس ، واستوليت على ليديا وأيونيا وفريجيا وغيرها من البلدان التي مررت عليها ، ثم تقدمت إلى إسوس حيث كان ينتظرني دارا وعشرات الألوف من الجنود .

أما من هذه الأعمال وما أسفرت عنه وما ترتب عليها فأنت به أعلم العالمين ؛ ولعلك تذكر أني أرسلت إليك ذات يوم عدداً كبيراً من القتلى حتى إن رجل القارب اعترف وكذلك بضيق قاربه ، واضطر أكثر القتلى إلى إقامة الرموث لأنفسهم ، ولقد اجتزت هذا المشروع مجازفاً بحياتي غير عابئ بالجروح التي ستلحقني . هذا وإن كنت لا أشتهي أن أحدثك بما حدث لي في صور وأربلا ؛ ولكن مما لا ريب فيه أنني تقدمت حتى وصلت إلى الهند وجعلت المحيط الهندي حداً لإمبراطوريتي بعد أن قهرت أصحاب الفيلة ووضعت يدي على بوروس ، وزيادة على ما تقدم فإني عبرت نهر السيثي وأذللت إسكيثيا وانتصرت على فرسانها في موقعة كبرى .. هذا فضلاً عن أني أحسنت معاملة الصحاب وأذقت الأعداء العذاب الأليم .. والناس البشر إن حسبوني إلهاً ، فقد دفعتهم أعمالي الجليلة إلى إنزالي في نفوسهم منزلة الإله القدير ..

وفي ختام حياتي ذهبت روحي إلى بارئها وكنت مليكاً معززاً مكرماً . أما هو فقد مات منفياً في قصر بروسياس كأن الآلهة رأت أن تجازيه على خبثه ودهائه الشكر وعلى وحشيته وفظاظته ... بيد أني لن أتحدث إليك عن الأسلوب الذي اتبعه هذا الرجل في فتح إيطاليا ، لأنه لا ينطوي على شيء من النظام أو الصراحة ، بل على كل معاني الخبث والخيانة والغدر ؛ ومن الغريب أن هذا الفاجر يعيب علي انغماسي في الترف كأنه نسي أعماله في كبوا ، وكيف تخلف عن القتال ليستمتع ببعض العاهرات هناك ؛ ويهمني أن تعرف أنه لولا إيماني بتفاهة شأن الأقطار الغربية لما توانيت في إثبات أنه من المستطاع الاستيلاء على إيطاليا بغير قتال والتغلب على إفريقيا والتقدم على أرض جادبرا ؛ ولكني كنت أثق دائماً بأنها لا تستحق مني هجوماً لما كانت تعانيه هذه البلاد من ذل ومسكنة يجبرانها على الاعتراف فوراً بسيادة أي مهاجم مهما كانت قوته ، أو شجاعته .

هذا هو دفاعي ، فأصدر حكمك يا مينوس ، لأني أكتفي مشيراً إلى هذا القدر اليسير من أعمالي الكثيرة .

سكيبيو : هل لمينوس أن يؤجل حكمه إلى ما بعد الاستماع إلي ؟؟؟ .

(البقية على الصفحة التالية)

ثورة في دراسة التراث المصري القديم

— ٢ —

للأستاذ محمد عبد الحليم محمود

خطاب الدكتور دريوتون مدير مصلحة الآثار :

القاهرة في ٢٧ مارس ١٩٥١

إنه يكون عملاً شاقاً وغير مجد أن ندخل في نزاع مع الأشباح والأوهام .

فتلك النظريات التي تدهش كل عالم من علماء الآثار ، والتي تختمر الآن في دائرة مغلقة حول معبد الأقصر ، لم تصل حتى الآن إلى درجة التبلور في كتاب ذي قيمة علمية ، يعرض الوقائع ، ويبين الحجج ، ويوضح النتائج ... وعندما تأتي هذه المرحلة سوف نكون نحن أول من يدرس الآراء الجديدة في عناية وتمحيص . ولكن كيف نستطيع أن نناقش مذاهب وتقريرات يقال عنها إنها تعتمد على عدد عديد من الحجج والبراهين ، وإن كانت هذه الحجج والبراهين لم يُكشف عنها بعد ؟.

أما الكتابات التي نشرت حول هذا الموضوع ، وأما الشروح التي تكرم بها علي أصحاب النظريات الجديدة أنفسهم — وهم أناس تربطني بهم خير العلائق الشخصية — فلم تزدني إلا وثوقاً من شيء واحد : ألا وهو أن هذه النظريات ، مهما كان من حسن مظهرها ، لم تكن أبداً من نظريات المصريين القدامى ...

صمت مصر القديمة :

لن نكون مغالطين إذا اعتمدنا في بحثنا على حجة تعد في رأيي ذات أهمية كبرى : تلك هي أنه لايوجد في التراث الهيروغليفي العظيم المعروف أية إشارة إلى مايشبه هذه النظريات ، بل لايوجد فيه مايدل أيضاً على عقلية قادرة لفهمها واستساغتها . ولو أن الأمر اقتصر من جانب المصريين القدامى على عدم الكتابة في هذه العقائد التي تنسب إليهم ، لبقيت المشكلة قائمة وحجتنا غير مقنعة ! فقد يعترض المعترضون ... بقولهم إن مراسيم الملك لويس الرابع عشر مثلاً لم تعرض لعقيدة التثليث ، ومع ذلك فلا نشك في أن هذه العقيدة كان الفرنسيون ، وما زالوا ، يؤمنون بها ... ولكن الأمر يختلف بالنسبة للمصريين القدامى : فهم قد كتبوا كثيراً في المسائل التي هي الآن قيد البحث ، دون أن نرى في كتاباتهم أثراً للنظريات المنسوبة إليهم نسفاً ! فلا بد إذاً من القول بأن هذه النظريات ليست نظرياتهم ... أجل ، فإننا إذا درسنا نصوص دين ما ولم نجد فيها أية إشارة إلى عقيدة التثليث ، لوجب علينا أن نعترف عندئذ أن هذه العقيدة لاتدخل في مقومات هذا الدين .

وننتقل من هذا إلى صميم موضوعنا ، فنقول : إن الصالحين من علماء الإيجيبتولوجيا ، الذين تسموهم بالرمزيين ، ينسبون إلى المصريين القدامى نظرية مؤداها

مينوس : ومن تكون أيها الرجل الطيب ؟ ومن أي أقطار الدنيا تنتمي ؟ وماذا تريد أن تقول ؟ .

سكيبيو : أنا سكيبيو قائد روما الذي دمر قرطاجنة بعد أن قهر الإفريقيين في مواقع عظيمة .

مينوس : وماذا تريد أن تقول ؟.

سكيبيو : إنني لا أرتفع إلى مكانة الإسكندر ، ولكنني أفوق هانيبال لأنني تعقبت آثاره وانتصرت عليه ، وأجبرته على الفرار ، ويدهشني كيف يقارن هذا السفيه نفسه بالإسكندر ويدعي السيادة عليه ، في الوقت الذي أرى أنه من واجبي أن أقر شخصياً بأفضليته علي .

مينوس : صدقت يا سكيبيو . إذاً ليكن الإسكندر أولكم ، ولكن أنت من بعده ، وليكن هانيبال — إن شئت — ثالثكم ، على أن تعترفا بأنه لايستأهل منا الاحتقار .

أمين سلامة

أن كل معبد بناء حى من شأنه أن تتغير صورته فى أوقات معينة كى يبقى على وفاق تام مستمر مع التغيرات والانقلابات الكونية ، وأن ما نجد فى المعبد من أحجار منقوشة آتية من أبنية معابد سابقة ، إنما دفنت فى مواضعها المعينة كى تكون الدليل إلى الحقائق العليا الثابتة ، وتصبح بمثابة مكتبة سرية حقيقية للعارفين .

ولنصرف النظر عن الفكرة الساذجة التى تحول بمكتبة لا يستطيع إنسان الوصول إليها إلا بعد نقل أطنان عديدة من الأحجار والأنقاض .

ولو أن نظرية المعبد هذه قد سيطرت حقيقة على عقول المصريين القدماء ، لعبروا عنها بالضرورة فى صنفين من النصوص : النصوص التقليدية التى تكتب عند بناء المعابد ، والنصوص التى يتحدث فيها البناة من الملوك عن إصلاح وتجديد المعابد القديمة ؛ ففى الأولى كان يجب أن نجد ذكراً لفكرة تجاوب المعبد مع أحداث الكون ، ولفكرة اتصاله الوثيق بالمعابد السابقة ؛ وفى الثانية كنا ننتظر أن نعثر — على الأقل — على إشارة تنبهنا إلى العهد الكونى الجديد الذى استلزم تغيير أبنية قديمة وإصلاحها ، إن لم يكن هدمها ...

بيد أن المدونات الكثيرة التى تتحدث عن الموضوع لا تذهب إلى مثل هذا ، بل هى قبل ذلك تدل على عقلية معنية بأمور تختلف كل الاختلاف عما ينسبونه إليها ...

تقاليد البناء :

إن التقاليد والطقوس الخاصة ببناء المعابد قد وضحتها لنا كل التوضيح الرسوم العديدة على جدران الآثار والمدونات التى تشرح هذه الرسوم . والقارئ يستطيع أن يجد تفصيلها الوافى فى كتاب « موريه » الرائع « الخصائص الدينية للملكية الفرعونية »[1] ، الذى ظهر سنة ١٩٠٢ ولكنه مازال يحتفظ بقيمته العظيمة ، والفصل الرابع منه (ص ١١٥ — ١٤٥) عنوانه : « الملك مؤسس المعابد » .

(١) Moret : du caractère religieux de la royauté pharaonique [Annales du Musée Guimet, Bibliothèque d'Etudes, Tome XV]

ونحن نقرأ فى الصفحة ١٣١ منه كيف كان معبد إدفو ، فى القرن الثالث قبل الميلاد ، يفتخر بأنه يحقق فى دقة متناهية تعاليم كتاب الحكيم إمحتب الذى عاش قبل ذلك بستة وعشرين قرناً ؛ وكيف كان معبد دندرة ، الذى بدأ تشييده فى أواخر عهد البطالسة ، يتيه عجباً بنفسه لأنه بنى حسب تصميم قديم يرجع إلى عهد الأهرامات . ومثل هذه النصوص تنفى بالضرورة فكرة العناية بتصميم المعبد حسب التطورات الكونية . وفى صفحة ١٣٢ نجد قصيدة صغيرة تلخص طقوس التشييد[1] :

« لقد تناولت الوتد ، وأخذت المطرقة .
« وأمسكت خيط البناء ، بمعاونة الإلهة سفخت .
« وتتبعت بنظرى مجرى النجوم .
« وأدرت بصرى نحو الدب الأكبر .
« وحسبت الساعة وأحصيت الوقت بالساعة المائية .
« ثم ثبتت الجوانب الأربعة لمعبدى » .

ويتضح من هذه الأبيات أن معاينة الكواكب والنجوم لم يكن لها من علة سوى تعيين الوقت والساعة المحددة ... وأخيراً ، نجد فى صفحة ١٣٣ أن وصف تأسيس معبد سيتى الأول بأبيدوس ينتهى بالجملة التالية : « وتحيل يداك ملكيتك فى هذه الأبنية التى شيدت للخلود » .

وإن هذا الخلود المفروض لأبنية المعبد ليتنافى تماماً مع النظرية القائلة بالتجديد المستمر الضرورى للمعبد فى المستقبل .

فتعاليم طقوس البناء ليس فيها مكان لفكرة أخذ بعض المواد من المعابد القديمة لوضعها فى المعابد الجديدة كى تستمر الأولى فى الحياة حياة رمزية خلال الأبنية التى تقوم مقامها ، وكل المواد التذكارية التى أوجدتها الحفائر فى أحجار الأساس للمعابد ، كقوالب الطين النىء وسبائك الذهب وقطع الأحجار الكريمة ، والتى تنص عليها التعاليم صراحة (ص ١٣٥) ... هذه المواد كانت فى الواقع جديدة كل الجدة ، استعملت فى البناء للمرة الأولى . ونعود فنقول إن التعاليم الخاصة بطقوس البناء لا تذكر أبداً عملية استخدام المواد القديمة فى المعابد الجديدة ، تلك العملية التى يعلق عليها الرمزيون أكبر الأهمية ويستخلصون منها أخطر النتائج

(١) ترجم الكاتب هذه القصيدة إلى أبيات فرنسية موزونة

فنحن إذاً أمام فرضين لا ثالث لهما : الأول أن يكون استخدام المواد القديمة ناجماً عن المصادفة المحضة والاتفاق المرضى ، فيكون المذهب الذى عليها مذهباً بعيداً عن الواقع ، والثانى أن يكون دليلاً على خرافات يؤمن بها عمال البناء من أفراد الشعب ، ولا علاقة لها بالعقائد والعلوم التى كان يؤمن بها رجال الدين .

إصلاح بناء المعبد :

وهناك فرصة أخرى كان القدماء يستطيعون انتهازها للتعبير عن نظرية المعبد الحى : تلك هى المدونات التى فيها يفخر الملوك بعملهم على إصلاح المعابد السابقة . وسوف تجدون إحصاء بكل تلك المدونات وترجمة لها فى الأجزاء الخمسة من كتاب برستد « سجلات مصر القديمة »(١) ، وهو كتاب واف بموضوعه وإن كان صدر منذ حوالى نصف قرن . وسوف ترون منه أن الأسباب التى كان يتذرع بها الملوك فى تجديدهم وإصلاحهم لمعابد أسلافهم تقتصر على كون هذه المعابد قد أصابها التلف أو أصبحت غير لائقة لصغرها وفقرها . والهدف الوحيد الذى أعلنه هؤلاء الملوك البناة هو إنشاء معابد جديدة بمقام الآلهة تكون أجمل من سابقاتها وأبقى فى سجل الخلود .

ولنتأمل مثلاً ، خلال الجزء الثانى من كتاب برستد ، كل المدونات الخاصة بالملك تحوتمس الثالث والتى لها صلة بموضوعنا .

فنقرأ فى ص ٦٦ ، رقم ١٥٧ ، الكرنك :

« ولقد وجدت ، أنا صاحب الجلالة ، هذا المعبد مبنياً من الطوب ، وقد تهدم الكثير من أجزائه ، وهو من عمل أسلافنا . فأتممت ، أنا صاحب الجلالة ، بيدى عملية شد حبل البناء (لإصلاح المعبد) . »

وفى ص ٢٣٩ ، رقم ٦٠١ ، الكرنك :

« وأما ما وجد مهدماً ، فقد قامت جلالتنا بإصلاحه » .

وفى ص ٢٤٤ ، رقم ٦١١ ، معبد فتاح بالكرنك :

« لقد أقام هذا الهيكل من أجل أبيه فتاح .. لقد أقام من أجله معبد فتاح من جديد ، صنعه من الحجر الأبيض الجميل ، وجعل له أبواباً من خشب الأرز الشامى الجديد .

« إن هذا البناء أجمل مما كان عليه قديماً ، لأن جلالته وجد المعبد القديم مصنوعاً من الطوب .. صنعه الأجداد » .

وفى ص ٢٤٥ ، رقم ٦١٤ ، معبد فتاح بالكرنك :

« ولقد وجدت جلالتنا أن هذا المعبد المصنوع من الطوب بأعمدته وأبوابه الخشبية بدأ يتهدم ، فأمرت جلالتنا بإعادة مدّ خيط البناء من جديد فى هذا المعبد ، فأقيم بالأحجار البيضاء الجميلة ، وجُعِلَ له سور من الطوب ، وكان العمل فيه بحيث يستطيع مقاومة الفناء ويبقى للخلود ... لم يُنشأ من أجل فتاح معبد مثل هذا أبداً قبل عهد جلالتنا » .

وفى ص ١٢٤ ، رقم ٣٠٠ ، كوزى (Cusae) :

« أما معبد سيدة كوزى الذى بدأ يتهدم ، وتحل الأتربة والرمال فى ساحته ، وأصبح بحيث يلعب الصبيان فوق أبنيته ... فقد زيّنته أنا وصنعت له الزخارف عندما أعيد بناؤه » .

ولعلكم تدركون الآن كيف أن الدراسة المباشرة لآراء المصريين القدامى — فهم قد أعلنوا صراحة أهدافهم ولهم بالتالى حق الفصل فى المناقشة — أقول : لعلكم تدركون أن هذه الدراسة تجعلنا نميل إلى عدم الاهتمام بتلك النظريات الوهمية التى يدعيها الرمزيون ويأتون لها بالحجج المتعبة ... وهذا هو الرأى الصحيح على أقل تقدير فيما عُرض علينا حتى الآن من شروح وتفسيرات .

إن كل حضارة ما هى إلا وحدة كاملة لا تتجزأ ، ومحاولة إحياء عقلية شعب من الشعوب عن طريق براهين باطنية نستخلصها من منشآته دون النظر فى النصوص التى عبر بها عن آرائه ومعتقداته ، تلك المحاولة تعتبر خطأً جسيماً ومنهجاً غير سليم للبحث ، إنها لا يمكن أن تؤدى إلا إلى أغاليط وأوهام سقيمة .

إتيين دريوتون

مدير عام مصلحة الآثار المصرية

(محمد عبد الحليم محمود)

(١) Breasted : Ancient records of Egypt (chicago, 1906)

بايرون وأخته

حوار للأستاذ حسين أحمد أمين

[ننشر هذا الحوار لطرافة فكرته ، ولعل مراد الكاتب هو أننا إذا أردنا تثبيت فضيلة من الفضائل ، فلابد أن نلجأ في ذلك إلى بذر بذورها في دخيلة النفس ، فكما حرمنا الأخت على أخيها بحكم التربية والعادة ، لا بحكم الطبيعة والغريزة ، نستطيع كذلك أن نلجأ إلى الطريقة نفسها في تحريم ما نشاء من رذائل .]

(الثقافة)

ب — لا .. أنا لا أصدق أنك تعتقد فيما تقول .. إنما تبغى من وراء ذلك أن تحفظ الحديث وتقطع الوقت .. أليس كذلك ؟ .

ا — لا .

ب — إذاً فأنت متبذل مستهتر مثله .. ولا أظن أن هناك من يشاركك رأيك أو ينظر إلى فعلة هذا الرجل بعين التسامح .

ا — ليس في هذا القول دليل على خطأ بايرون ..

ب — حسناً ! دعني أسألك : هل تقبل أنت أن تعاشر أختك معاشرة الأزواج ؟

ا — لا .

ب — لماذا ؟

ا — لأني لا أشعر برغبة في معاشرتها كذلك ..

ب — وهل لو وجدت لديك الرغبة فعلت ؟ .

ا — لو وجدت لديّ الرغبة ولاقت عندها القبول لأقدمت على ما فعل بايرون ..

ب — يا إلهي ! ! .

ا — لا تستنكر الأمر .. الناس جميعاً يفعلون ما فعل بايرون .. لا فارق سوى أن المرأة التي رغب فيها وعاشرها هي أخته ، والمرأة التي يرغب فيها الناس ويعاشرونها ليست كذلك

ب — وهذا الفارق لا قيمة له عندك ؟.

ا — الناس جميعهم إخوة ..

ب — أتريد إذاً أن تحجب الأخ عن أخته ؟.

ا — هذا رد خليق برجال الدين ، ومع ذلك فالحجاب لم يكن أبداً علاجاً للرذيلة .. علاج الرذيلة في باطن النفس ..

ب — إذاً فأنت تبيح اتصال الأخ بأخته جنسياً ؟.

ا — أنا لا أبيح الاتصال الجنسي بين رجل وامرأة ، اللهم إلا في حالة واحدة .. وهي أن توجد الرغبة لديهما معاً (وفي هذه الحالة يخرج الاتصال بالعاهرات عن النطاق) .

ب — لقد مر بذهني خاطر .. ألم تقل في الجلسة السابقة إن الميول الطبيعية للنفس هي وحدها المؤدية إلى الحقيقة ؟.

ا — نعم .

ب — إذاً فعدم وجود ميول جنسية عند الأخ تجاه أخته وعند الأخت تجاه أخيها بين عامة الناس دليل على عدم ارتكاز الاتصال الجنسي بين الأخ وأخته على أساس من الحقيقة ، فيكون خاطئاً ..

ا — وماذا إن وجدت الرغبة عند رجل في معاشرة أخته ..

ب — فهو رجل شاذ ..

ا — وما حكمه ؟

ب — أن نقمع في نفسه هذه الرغبة ..

ا — قمع الرغبة الشريرة ليس إصلاحاً ولا هو دليل على نظافة النفس ..

ب — في قمع الرغبة الشريرة تجنيب المجتمع من مظاهرها الضارة .

ا — خطأ .. فإنك إذا أحكمت سداد الوضع الذي سيخرج منه الماء من باطن الأرض فسيخرج من موضع آخر

ب — ماذا تعني من وراء ذلك كله ؟

ا — ما أعنيه هو ما عناه المسيح إذ يقول لأصحابه : « من نظر إلى امرأة واشتهاها فقد ارتكب معها الزنا في قلبه » فالرغبة إذاً لا الإقدام على معاشرة المرأة هو ما اعتبره المسيح الحكيم زنا .. والنيات — أي بواطن النفس وخلجاتها — لا الأعمال ، هي مقياس الحكم على المرء كما يقول محمد .. فاشتهاء المرأة في نظر المسيح زنا لأنه ضعف في النفس ؛ وما معاشرتها إلا امتداد ومظهر لهذا الاشتهاء .. فالاشتهاء هو الأصل ، والمعاشرة لا قيمة لها .. والإصلاح يكون باستئصال الاشتهاء من باطن النفس لا في كبح المعاشرة ..

ب — وما علاقة ذلك ببايرون ؟.

ا — علاقة ذلك ببايرون هي أن زناه بأخته شيء تافه من الجهة الأخلاقية ، أما الأصل فهو اشتهاء الأخت وهو ما ليس له حيلة حياله .

حسين أحمد أمين

مع الفكر الأوربي المعاصر

للأستاذ مبارك ابراهيم

١ — أسطورة كومنيوس أو قصة حياته

كومنيوس هي الصيغة اللاتينية لاسم المؤلف ، أما اسمه الأصلي فهو : أموس كومنسكي (١٥٩٢ — ١٦٧٠) ، وهو رجل من أمة « التشك » كان من رجال الدين ، وقد نذر نفسه للعلم والدرس ؛ فقضى عمره دارساً ومعلماً ، وقد ذاع صيته لتجديده في طرائق التعليم ، وبخاصة ما كان منها متعلقاً بتعليم اللغات ، وهو أول من عمل كتاباً لتعليم الأطفال مزوداً بالصور .

وحياة « كومنسكي » قد قصتها في سطور قليلة : « الآنسة دوروثي براين » في المقدمة التي كتبتها لهذا الكتاب ، وهي تقول : « إن قليلاً من الناس من رأى البؤس والشقاء كما رآهما كومنسكي » .

وهي تقص علينا نبأ اليتم الذي أصابه وهو صغير ، وتقول : إن أباه كان تاجراً في « مورافيا » وإن المترجم له قد فقد بيته ومكتبته أثناء فظائع حرب الثلاثين سنة ، ثم تنبئنا أنه فقد بعد ذلك زوجته وأبناءه .

ثم تحدثنا أنه لما كان في « بوهيميا » مشى في ركاب « الأمير شارل » ، وأنه لما نزل في بولندة نادوا به رئيساً للأساقفة ، وهناك أيضاً خسر بيته ومكتبته بتحريض من رجال السوء .

واستدعته انجلترا في عام ١٦٤١ للاستفادة من خبرته وتجاريبه في مسائل التعليم وأجرلت له الوعود ، ولكن زيارته لم تدم طويلاً فقد غادر انجلترا عام ١٦٤٢ على أثر هياج وشغب .

واستقر المقام آخر الأمر بهذا اللاجئ العجيب في مدينة أمستردام عاصمة « هولندا » ، وكان ذلك أثناء اشتداد الخلاف المذهبي .

وقد تنبأ هو بأنه لن يجيء عام ١٦٧٢ حتى يبعث الله من مراقدهم بعضاً من الشهداء ، فيكون العالم مع السيد المسيح ، ولكن عجز هو من أن يمتد به العمر حتى ذلك الحين لكي يعرف أن أملاً آخر من آماله العديدة قد خاب ولم يكتب له التوفيق .

ويبدو أن شهرته في انجلترا قد قامت على ولعه بمسائل التعليم وعلى أنه صاحب فكرة تكافؤ الفرص لكل راغب في العلم ، وأنه صاحب نظريات أخرى في مسائل الجامع العلمية ، وأنه كانت له اليد الطولى في إنشاء الجمعية الملكية .

وفي الكتاب الذي بعث به الشاعر « ملتون » إلى صديقه « صمويل هارتليب » ، (وهو كذلك صاحب رسائل في مسائل التعليم ، توفي حوالي عام ١٦٧٠) يثني على كومنسكي — في غمز خفيف — آراءه التقدمية .

وأحسن كتب كومنسكي وأبدعها هو كتابه الذي سماه « التيه أو المفازة » ، وقد كتبه باللغة البوهيمية عام ١٦٢٣ ونشره عام ١٦٣١ ، وبقي في لغته الأصلية حتى ترجمه إلى الإنجليزية في عام ١٩٠١ « الكونت لتزو » ، وقد أعيد طبعه هذه الأيام طبعاً أنيقاً مصوراً .

ويقول العارفون إن هذا الكتاب يذكر القارئ بكتاب اسمه « رؤيا لانجلاند » نعى فيه كاتبه على أهل زمانه شرورهم ومثالبهم .

« ولانجلاند » هذا رجل ولد ومات في القرن الرابع عشر ، وكذلك يذكره بكتاب « رحلة الحاج » لجون بنيان (١٦٢٨ — ١٦٨٨) ، وفيه يقص بنيان قصة رجل أثقلته ذنوبه وأخافه وعيد يوم الحساب فارتحل إلى مدينة صهيون أو أورشليم ، وهي التي يسميها بنيان في كتابه « المدينة السماوية » ، وهناك بعد عناء كثير وبعد أن لقي كثيراً من الخاطئين ، وبعد أن عبر نهر الموت فتحت له المدينة المقدسة ذراعيها تستقبله .

ويقولون أيضاً إن هناك شبهاً قريباً بين ما جاء في هذا الكتاب من سخرية وتهكم وبين سخرية سويفت وتهكمه .

وكومنسكي يخاطب القارئ بقوله في مقدمة ديوانه : أيها القارئ ... إن ما تقرأه في هذا الكتاب ليس شعراً وإن كانت فيه من الشعر مشابه وملامح .

ثم يستطرد فيقول : إن في هذا الكتاب مادة قوامها الصدق ، فإذا أحسنت الفهم أيقنت أني لا أنطق عن الهوى .

ورحلته التي ضمنها كتاب التيه أو المفازة تنتهي في الجنة التي أزلفت للمتقين حيث لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً ...

٢ — صحفي عجوز يقص قصة الأيام الخالية في كتاب عنوانه «أول من أمس»

هذا الصحفي العجوز هو «روبرتسون سكوت»، وهو اليوم في الخامسة والثمانين من عمره. وقد بدأ يعمل في الصحافة يوم كان عمره عشرين عاماً، وهو يعنى أكثر مايعنى بالكتابة في الموضوعات الخاصة بالريف.

وقد جعل لكتابه هذا — من باب التواضع — عنواناً مكملاً هو «مذكرات رجل من الأميين» وجعل في صدر الكتاب صورته يوم كان يرفل في ملابس الطفولة.

وقد كان أبواه من قوم اشتهروا برجاحة الرأى وأصالته، فشب الولد مهذباً قوى البنية، وكان فوق ذلك وسيماً قسيماً.

أما أسلافه الأقدمون فكانوا سلالة آباء من البستانيين والرعاة والزراع، فورث منهم حب الزراعة والأرض وأصبح حجة ثقة في كل موضوع يتصل بالريف والأرض والزراعة.

وهو لم يذق الخمر أبداً، ولم يدخن يوماً من الأيام، وكان نباتياً لا يأكل اللحم إلا إذا اضطر غير باغ.

وقد بدأ الكتابة وهو مايزال طالباً في المدرسة فكان يكتب مقالاً قصيراً في مجلة أسبوعية لقاء نسخة مجانية من تلك المجلة.

وظلت الكتابة في الصحف والمجلات هوايته المحببة، بل هوايته الوحيدة. وقد أوتى أذناً «إخبارية» تلقف كل ما يهمس به الهامسون. وقد درس طبائع الناس كلهم في مشارق الأرض ومغاربها. فقد عاش زمناً في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي اليابان، وطاف حول الأرض مرتين.

وهو يصور لقارئ كتابه — فيما يصور — الحياة في قرية هادئة منعزلة يوم كان يستطيع أن يشترى ثماني عشرة بيضة بشلن واحد. وهو يعلق على ذلك بقوله: ومن حديث الأكل يرجع المرء، أو يتقدم، إلى حديث الشراب في تلك الأيام، أيام الخشونة والجلافة، أيام كان الناس المتقدمون ذوو المناصب والرياسات يشربون الخمر بالكبير وبالصغير، ولسان عربيدهم يقول:

إسقني قهوة بكوب كبير ودع الــــناس كله للحمير

وأيام كانت مدينة «جلاسجو» تقوم الحانات فيها في كل زاوية وركن، وأيام كان عدد السكارى في تلك المدينة لايقلون ليلة الأحد عن خمسة عشر ألفاً، ويوم كانت لاتعقد الصفقات إلا على رنين الكئوس. ويوم كان الكاتب الإنجليزي «شارلس ديكنز» يبدأ يومه بكأس من «الروم» وهو ما يزال في سريره. فإذا انتصف النهار شرب النبيذ الإسباني، وشرب خمر «شمبانيا» عند الأصيل، وأما قبيل النوم فكل خمر تحب.

وهو يقول إنه لما كان في الثامنة من عمره كتبت إحدى المجلات النسائية تقول إنه لاحرج على المرأة أن تشرب الخمر على أن لاتزيد المقدار عن ثماني كئوس كل يوم.

وكان رعاش السكارى مرضاً شائعاً يومئذ. وكان مرض السل ثمانية أضعافه اليوم.

ومن الغريب أن إحدى شركات التأمين قد رفضت أن تؤمن على حياة أحد الأفراد بحجة أنه كان لا يذوق الخمر.

وقد عقد المؤلف فصولاً من كتابه على الأزياء والعادات التي كانت شائعة يوم كان شاباً، فيصف المرأة في ثوبها المتفخ، وهو ماقد يجوز تسميته بالقبة أو «العظامة» أو «الخشبة» وهو يقول إن المرأة التي تحرص على حسن سمعتها ونقاء سيرتها ما كانت تجرؤ أن تركب بمفردها في عربة مقفلة ذات مقعد خلفي للسائق.

وهو يقول إن الرجال كانوا يتخذون من شعور نسائهم سلاسل لساعاتهم.

وفي فصل عقده عن ذكرياته في أيام الدراسة يقول: إن تعلم «الخط» كان عنده أمراً عسيراً غاية العسر، وإن مدرساً من المدرسين كان مرذول السيرة فانتهى به الأمر إلى أن يصبح كاتباً في مضلة من المفاسل، وإن التلاميذ في زمانه كانوا يربطون حول أكفهم بعض شعرات من شعر الخيل على أمل أنهم إذا ضربوا تكسرت العصى، أو على الأقل فقدت الضربة حدتها.

ثم يستطرد فيقول: إنه لم يتعلم في المدرسة نظم القوافي، وهذا ما جعله لايتذوق طعم الشعر فيما استقبل من سنى عمره الطويل.

وفي الفصل الذى عقده عن أضواء الأيام الخالية يحدثنا عن قطارات السكك الحديدية، وعن المطاعم التي تقدم «المرق» ولا شيء غير «المرق»، وعن الرسائل الغرامية المنمقة المعطرة، وعن الجلادين الذين كانوا يتولون

شنق المذنبين ، وعن « جمال النور » ، وعن السادة الأمجاد الذين كانوا لا يرون بأساً فى امتطاء الدراجات . وعن عدم اختلاط الجنسين فى حمامات الشواطىء . وهو يقول : إن كل امرأة كان حتماً عليها أن ترتدى رداء يغطى جسمها من الرقبة إلى الركبتين ، وذلك فوق سراويلات قصيرة . وكذلك كان حتماً على الرجال أن يرتدوا رداء كاملاً إذا نزلوا البحر يستحمون .

وهو يقول : إن ذلك العصر كان عصر وقار واحتشام بالغين إلا عند أفراد الطبقة الدنيا .

وهو يقول : إن نساء العلية من القوم قد حرقن مسودات كتاب « دليل النبلاء والأشراف » ؛ ذلك لأن ذلك الدليل قد نشر تواريخ ميلادهن (والمعروف اليوم — كما يقول مؤلف الكتاب — أن هذه التواريخ تنشرها مجلات يوم الأحد نقلاً عن أقرباء أولئك السيدات) .

وهو يروى حكاية لطيفة عن جماعة من رؤساء الأساقفة فى انجلترا تقدموا إلى الملكة بشكاية يعلنون فى نهايتها أنهم لن يستطيعوا أن يكونوا فى حضرتها فى حفلة افتتاح مهرجان قصر البلور (الذى أقيم عام ١٨٥١) إلا إذا غطيت جميع التماثيل العارية تغطية كاملة شاملة .

وهو يقول : إن النساء فى القرن التاسع عشر كن ينزلن للعمل فى المناجم وهن مقيدات بالسلاسل ، وإن الأطفال كانوا يعملون كذلك فى المناجم وهم فى سن الخامسة أو أقل .

وكان رؤساء منظفى المداخن يدلكون أيدى الصبية بماء شديد الملوحة لتخشن جلودهم قبل أن يسمحوا لهم بالصعود إلى قمم المداخن . وكانوا إذا تسلخت ركبهم غطست فى الماء الشديد الملوحة مرة أخرى . ولكن الأحوال تحسنت تدريجاً بعد ذلك بفضل مساعى المصلحين .

وهو يقص على القارىء أن « جون رسكن » كان ينعى على السكك الحديدية وجودها . فقد كتب رسالة إلى واحد من أصحابه وذلك عام ١٨٨٧ ، وهو العام الذى احتفل فيه بيوبيل الملكة فكتوريا يقول :

لست أريد أن أكتب أكثر مما كتبت عن السكك الحديدية ، فإن نفسى لتنق كلما مر ذكرها بخاطرى ، وهى أسوأ عمل عمله الشيطان ، فهى زلزال متنقل ، وهى المدمرة لكل جمال بالغت الطبيعة فى خلقه وإبداعه ، وهى عندى ليست تزيد عن عربات تحمل أرواحاً ملعونة فى طريقها إلى قبورها ، أو فى طريقها إلى جهنم ...

وفى فصل من أواخر فصول كتابه يقول : إنه تعلم فن الاختزال وإنه لقى « سير إزاك بتمان » صاحب طريقة الاختزال المعروفة باسمه . وقد كان مثله نباتياً ، وقد أهداه كتاباً له يعتبر أهم مرجع فى فن الاختزال .

وهو يقول إن هذا الكتاب قد أفاده فائدة كبرى يوم كان يعمل تحت إمرة الصحفى المجاهد الجرىء « وليم توماس ستيد » (١٨٤٩ — ١٩١٢) الذى كان من أنصار السلام العالمى ، ومن دعاة الإصلاحات التشريعية ومن المصدقين بمناجاة الأرواح ، والذى غرق مع الذين غرقوا فى الباخرة « تيتانك » .

٣ — لست أستعذب طعم القعود

كتاب من تأليف « ويلارد برايس »

اختار المؤلف لكتابه هذا الاسم ، ذلك لأنه يرى نفسه كأنه خلق موكلاً بقضاء الأرض بذرعه ، وهو يقول : إنه لا يعدم فى تطوافه أن يرى مشهداً يستحق وصفه أن يدون ، أو قصة مستملحة تقص وتروى .

وهو رجل كأنه خلق لملاقاة المخاطر ومعاناة المشاق ، وكأنه أوتى القدرة على أن يجمل من أية خيوط يلقاها ثوباً جيد الحبك . وليس كتابه هذا بقصة رحلة إلى إقليم بذاته أو إلى بحر بعينه ؛ إنما هو مجموعة من الذكريات دونها . وقد جلس فى بيته جلسة يجتر فيها ما مر به من حادثات فى كثير من أنحاء الدنيا مذ كان طفلاً .

والكتاب كذلك ليس ترجمة ذاتية وإن كان ينحو هذا النحو . وقد كان المؤلف صحفياً تخصص فى كل فرع من فروع الصحافة . بعث مرة ليرتاد صحراء « جوبى » فى « منغوليا » وارتحل مرة إلى جزيرة « سومطرة » ، وسافر مرة ليلاقى المهاتما غاندى . وركب مرة « فلوكا » فى النيل من بلاد النوبة .

ورجل هذا شأنه إذا جلس يوماً يشرب الشاى فى ركن هادىء من أركان حديقة بيته كان أمره عجباً .

فإذا فتحت فصلاً آخر من هذا الكتاب لم تعرف أين طاف بك المؤلف وأية طريق سلك ، حتى تفيق على وصف

شيء من الأشياء . وقد يكون هذا الشيء جملاً ، وقد يكون قاطع طريق من قطاع الطرق الصينيين . وقد يكون هذا الشيء شلالاً في « كندا » .

وأروع قصة وردت في كتابه هي قصة اجتيازه قناة « ين هو » وهي أكبر قناة في الصين ، وهي التي تخترق أقدم بلاد العالم ، وطولها ألف ميل . وقد جمعت على ضفتيها بين حضارتين ، حضارة الرجل الصيني ، النحيف ، البادي العظام ، آكل الذرة في شمال الصين ، وبين ذلك الصيني الأنيق ، آكل الأرز في جنوب الصين .

وقد قام برحلته هذه يوم كان قطاع الطريق هم أصحاب الأمر والنهي في تلك الرقعة من الأرض . وقد كان يلقاهم المؤلف بين آونة وأخرى .

ولا أدل على قدرة المؤلف وبراعته ، وكذلك على ما أوتي من الجراءة والجسارة ، من زيارته لجزائر اليابانية المحرم دخولها على الأجانب ، وهي « جزر مارشال » ، و « كرولين » و « ماريانا » . ولم يكتف بالزيارة العابرة بل حط الرحال وأطال الزيارة ، ثم عاد وقد رزق السلامة والإيابا

٤ — الشاعر وليم كوبر

كتاب من تأليف نورمان نيكلسون

يلخص تاريخ هذا الشاعر الذي ولد عام ١٧٣١ وتوفي عام ١٨٠٠ في أنه درس الحقوق ، وأنه ظهرت عليه في سن مبكرة علامات الضعف العقلي فحرم بذلك من الحياة المستقرة ومن المهنة المستقرة ، ثم اعتزل حياة المدن وعاش في قرية « أولني » حيث آنست وحدته ، وجعلت لياليه السود بيضاً صديقة محبة ، هي أرملة صديق له اسمها « ماري أنوين » ، وهي التي ناداها « يا مريمي » في قصيدته التي عنوانها : « إلى مريم » .

وقصائده تعد الثمرة التي تمثل فترة الانتقال بين الشعر الكلاسيكي الذي يمثله شعر الشاعر « بوب » وشعر الطبيعة الذي يمثله شعر الشاعر « وردزورث » .

وهو فوق ذلك كاتب من أقدر كتاب الرسائل ، وكان مخالطوه وعارفوه يرونه يوماً إنساناً رقيقاً مهذباً ، محبباً إلى كل قلب مولعاً بالمسرات البريئة ، وله قدرة على الابتسام إذا شاء ، بل على الضحك أيضاً إذا شاء .

ويرونه يوماً مسرفاً على نفسه في مسائل التدين ، بل يرونه متزمتاً زمناً قاتماً . وقد جاءته هذه القتامة من مصدرين هما : ضعف صحته واعتناقه لمذهب « كالفن » .

وقد وجد في عيشه بين أحضان الطبيعة برءه وشفاءه ، وكان إيمانه بالريف لا يقل عن إيمان « جان جاك روسو » الذي كان يرى أن الريف من صنع الله وأن المدينة من صنع الشيطان .

وقد لخص كوبر رأيه في هذا فقال : إن الله خلق الريف وإن الإنسان بنى المدن .

هذا وقد كتب الكاتبون وأطالوا القول في جنون كوبر ، كما كتب الكاتبون وأقلوا القول في سلامة عقله .

واليوم يجيء « نورمان نيكلسون » في كتابه الذي سماه « وليم كوبر » فيمس حياة المترجم له مس أديب يجد في القول ولا يحابي ، فهو إذ يذكر قول « شارلس لام » وهو يتحدث عن كوبر : « إن الإشفاق عليه قد أكسبه حب الناس له » ، يقول : إن العكس هو الصحيح ، أي أن حب الناس لكوبر هو الذي أدى إلى أن يبالغوا في العطف عليه ، وهو يقول : إنه لا شك أن « كوبر » قد لاقى السقم والمرض ، ولكن كثيرين غيره قد لاقوا أشد مما لاقى ولم يظفروا بمثل ما ظفر به من حب وحدب وحنان .

وهو يقول إن مرضه العقلي قد يكون وراثياً ، وقد ذكر هو في إحدى رسائله التي كتبها أثناء نوبة من نوبات الجنون أنه لم يفقد حواسه ولكنه فقد القدرة على استعمال تلك الحواس .

وهو يقول إن كوبر كان شبيهاً بالبارومتر الحساس الذي يسجل أقل تغير في الطقس .

وهو يبرئ « جون نيوتن » الذي قيل إنه كان السبب فيما أصاب كوبر من هوس ديني ؛ فيقول : إنه على فرض أن اعتناق كوبر لمذهب « كالفن » هو الذي كان نكبة عليه ، وهو فرض لا ينطوي على التحليل الدقيق . فإنه كان من أتباع هذا المذهب قبل أن يلقى « نيوتن » وإن « كوبر » كان من غلاة أتباع هذا المذهب ، بل كان أشد غلواً من صاحبه « نيوتن » ...

مبارك ابراهيم

من بريد الثقافة

إلى الدكتور زكى نجيب محمود :

سيدى الأستاذ زكى نجيب محمود .

أكتب إليك لتكون حكماً فى نظرية أختلف فيها أنا والأستاذ إدوار منسى فيما كتبه فى عدد الثقافة الأخير حول « تيانو الموسيقى » ولست أدرى أكانت شخصية « تيانو » شخصية خيالية أراد بها أن يقنع صديقه الفنان أو أنها شخصية حقيقية . إنما المهم فى هـذا الموضوع الذى أثاره الأستاذ إدوار منسى يتناول الفنان الذى يصل إلى الكمال فى فنه والفنان الذى يحترف الفن ويعيش بائساً وكان الأولى به أن يشق طريقه صراعاً فى بنك . كما كان « تيانو » فى مستهل شبابه مادام لا يستطيع أن يجعل الناس ينحنون أمامه إجلالاً لفنه ولعبقريته ويجعل من فنه مايشبه الدوى فى سمع العالم ، وهو بهذا يريد أن يقول إن الفنان الناجح هو الفنان الأصيل الواصل حتى بوسائل منحرفة ، ونسى أن الناس يقبلون على أكل الرغيف المخلوط كما يقبلون على الرغيف الأبيض مادام هذا الرغيف قد فرض عليهم وأن الناس يسيرون فى الدنيا كما يرسمها لهم آباؤهم وأمهاتهم وحكوماتهم وتقاليدهم وقيمهم المتأرجح بين زحل وبين الزهرة ، وأريد أن أقول للأستاذ إدوار إن العيب عيب الزمن الذى يعيش فيه الفنان البائس .

فقد ترى حماراً خفيف الظل والحظ يركبه إنسان ركب وجهه على الشمال كما يقولون . وقد ترى زوجة تفيض رقة وحنواً أسيرة كلب قذر من الذين يعدون آدميين ، وقد ترى إنساناً ملاشأنه وهو حقير وإنساناً آخر تجثو أمامه الجباه ويقبلون يديه بينما هو لص أثيم أو قتال زنيم . هذا فى الحياة العامة . أما الفن فهو جنون ابتلت به الطبيعة أناساً أحبوه والحب أعمى كما يقولون فهم أشبه بالفراشة تحوم حول النور إلى أن تحترق ، أوهم « تيانو » يعيش فى حيز « باجانينى » ولم يسعده الناس أن يعزف ويشرق ويتألق ، وإذا نحن حسبنا حساب الوصول أو عدم الوصول والكمال أو عدم الكمال فإننا سينتهى بنا الأمر أن لا ننصح محباً للفن أن يحترف الفن .

لا ياسيدى فإن الفنان المحكوم عليه بهذا الوعد الجبرى قد ركب فيه حب الفن فلا مناص له ولا حيلة .

قد يكون بين الناس نقاد يعرفون بمواهبهم المبدعين من الفنانين ، ويستطيع هؤلاء النقاد أن يوجهوهم فى كل سبيل ولكن لا يستطيعون أن يعزفوا قطعة « لباجانينى » فرحمة بهذا الفنان « تيانو » الذى كبا به الحظ فأصبح يتسول بكمانه وهو هو نفسى « تيانو » صراف البنك ولكنه أحب كمانه وكره عد النقود .

من قال إن الفنان الأصيل كانت له كرامة فى وطنه إلا بعد موته ، فيبنون له مقبرة كان يتمناها سكناً له فى حياته .

لا ياسيدى . إن الكمال ليس له حدود ، وليس هناك كمال ، إنما الفن بحر خضم ليس له شاطئ ، لكنه يعجبك فى غنائه كما يعجبك تغريد البلبل الذى لا يغير غناءه ، فكيف « بتيانو » وهو يعزف قطعة الرومانس بهذا الفن الأخاذ الذى وصفته فى قصتك .

وشخصية « تيانو » شخصية منكسرة ، وهى شخصية الفنان الأصيل الذى لا يعجب بنفسه ويقيم الدوى حوله .

هـذه الفراشة التى أخذت بمجامع نفسى ووددت أن أكون أنا نفسى هذا الفنان فإنى لست خيراً منه وعقباى لن تكون خيراً من عقباه ، والإنسان لن يبلغ الجبال طولاً ، وحسبك منه تغريدة يغردها بطبيعة فنان بسيط والبساطة هى الفن وهى القرين للنفس التى يخبلها الالتواء والتعقيد ويجعلها عقدة يحث الإنسان الناظر إليها على أنها عقدة ، ولكنها ليست فناً تحتوى كل ما هو غريب يربك النفس ولا يهزها ، ويجعل الفن غريباً عنك .

حسبك أنك أعجبت به كفنان وأنك ذهبت إلى حجرته لتسأل عنه وأنت غريب عنه ، وأنك دونت قصته فكتبت له الخلود ، وإن كان شخصاً حقيقياً ، فرحمة الله على تيانو .

تيانو آخر

سيدى الأستاذ زكى نجيب محمود . كنت أود أن أرى مظهرك كما أقرأ مخبرك ، وربما نلتقى ، ولو أننا نلتقى دائماً فى الفن ، والسلام عليكم ورحمة الله ، وإلى التلاقى .

إلى الدكتور زكى نجيب محمود :

سيدى الدكتور زكى نجيب محمود .

بعد التحية : لقد صادفنى أثناء قراءتى فى الأساطير الإغريقية أسطورة لا أقول إنها غريبة — فكل الأساطير ، فى نظرنا نحن الآن ، خرافات غريبة — ولكنها جعلتنى أتأمل قليلاً ...

لقد كانت حياة الإنسان فى وهم الإغريق القديم معلقة بمزاج الأقدار ... والأقدار فى الأساطير الإغريقية تمثلها ثلاث نسوة مسنات يقمن فى ركن من أركان كهف هيد يعمل لايتوانين فى أدائه : أولاهن ، « كلوتو » ، وهى صغراهن ، تضم مندوفاً بين أصابعها ، فتتناوله منها « لاشيزى » فتغزله خيطاً ، فتقيس « أتروبوس » من الخيط بعضه وتقصه بمقصها وتلقيه إلى العالم السفلى ، عالم الأموات ، مملكة بلوتو . تخيل كل ذلك ميخائيل أنجلو وأثبته فى لوحته « الأقدار » وقد رأيتها فى صيف هذا العام فى إحدى قاعات متاحف فلورنسه بإيطاليا .

فكلوتو مسئولة عن العناصر التى تشترك فى تكوين الإنسان : فهى تنتقى المندوف من هنا ومن هناك ، فتضم بعضه إلى بعض ؛ وهى بهذا قادرة على أن تجعل من مخلوقها جميل الوجه أو قبيحه ، طويل الجسم أو قصيره ، ذكى العقل أو غبيه (مثلاً) ؛ وبإمكانها أن تعطى مخلوقها شعراً أصفر أو أحمر أو أسود مثلاً ... ولا أظن الإغريق القديم يظن أنه كان يلوم كلوتو دون لاشيزى ويثور عليها . فقد كان يرهب الأخيرة أيضاً ويخشاها ، ألم تكن لاشيزى تعنى بهذا الإنسان طيلة حياته ؟ ألم تكن تأخذ مندوف كلوتو فتغزله خيطاً ... وقد تقصر أصابعها عن إتقان هذا الغزل فلا ينضبط سمكه بين أصابعها ، فيأتى هنا ضعيفاً متخلخلاً ، وهنا قوياً متماسكاً ، وتبعاً لهذا يأتى المخلوق وبه نواح من الضعف وبه نواح من القوة ، فيرى نفسه قسمة بين التخاذل والتماسك ، بين الإحجام والإقدام ، بين النجاح والسقوط ... ثم يأتى دور أتروبوس ، ونصيبها من لوم الناس أكبر ومن ثورتهم عليها أعظم ؛ أليست المهيمنة على عمر الإنسان ، تطيله إذا أرادت له الطول ، وتقصره إذا أرادت له القصر ، لا قانون عندها لإطالة هذا العمر أو تقصيره ، إنما هى القانون والقانون هى ، لا أحد رقيبها فى عملها ، فلا تخشى لومة لائم ولا ثورة ثائر . أليست هى المتحكمة فى أعمار الناس ، تهب السنين من تشاء وتقتطع السنين ممن تشاء .

هذا هو الإنسان فى عين الإغريق ، لا حول له ولا طول أمام هذه الأقدار التى كانت تسيطر على حياته منذ يولد حتى يموت ؛ فهو لعبة فى يدها ليس له حق التفكير فى حياته ، ولكن عليه فرض الخضوع والخنوع لما تمليه عليه هذه الأقدار .

ولكنى برغم ذلك ياسيدى أجد أسطورة أخرى من أساطير الإغريق تحاول التمرد فيها على حكم الأقدار والتهرب منها بالجوء إلى الحيلة . تقول هذه الأسطورة : عندما كان « ميلياجر » — وهو ابن ملك وملكة كاليدون — طفلاً ، قالت الأقدار : إن حياته لن تطول أكثر مما تعمر قطعة معينة من الحطب فى المدفأة ، وهذا يعنى أن حياة هذا الطفل لم تكن لتطول أكثر من بضع ساعات ، ولكن أمه وكانت حاضرة البديهة فائقة الذكاء ، اختطفت قطعة الحطب من النار ووضعتها فى إناء من الفخار وعملت على أن تحتفظ بها هناك أبداً ؛ وهكذا نمى الطفل — برغم الأقدار — وصار رجلاً قوياً جميلاً وماهراً فى الرياضة والصيد ، كما كان مرموقاً من أهله وعشيرته ... لم تنفذ رغبة الأقدار ! وأصبحت ملكة كاليدون ، وهى المخلوقة المادية متحكمة فى مصير ابنها تتصرف فى حياته كيفما يحلو لها ، لقد تغلبت على حكم الأقدار بإرادتها ... أعنى أنها نحت الأقدار جانباً وبقيت هى ، الإنسانة « العاجزة » وحدها تقرر مصير ابنها ...

وحدث أن ذهب ميلياجر للصيد وهو رجل قوى فى مجموعة من الصائدين فى ضمنهم خالان له — أخوان لأمه الملكة — ولكن ميلياجر اختلف مع خاليه على أثر إجهازه على وحش مفترس وقتلهما بسيفه ، وعندما علمت الملكة بمقتل أخويها على يدى ابنها ثارت وأسرعت إلى إناء الفخار تخرج منه قطعة الحطب المعينة التى كانت تحتفظ بها هناك وتلقيها على كومة من الأخشاب الجافة وتشعل فيها النار ، عندئذ أحس ميلياجر بالخوف وحاول أن يبعد عن نفسه هذا الإحساس ، الموت الذى أخذ يسرى فى أوصاله ... ولكن قطعة الحطب تشتعل وتحمر ثم تتحول إلى رماد ... وفى نفس اللحظة تفارق روح ميلياجر جسده وتدعه جثة هامدة لا حراك بها .

دعنا ياسيدى من انتقام الأقدار الذى تمثل فى مقتل أخوى الملكة على يدى ابنها ؛ دعنا من أنه لولا تمرد الملكة أول الأمر وعملها على أن يعيش ابنها برغم الأقدار ... لعاش

أخواها ولم يقتلا على يد ولدها ... دعنا من هـذا فهذا موضوع آخر ، والنظر ياسيدى إلى فكرة تمرد الثكلى ، فكرة تمردها على الأقدار ونجاحها فى هذا التمرد ... !

أعتقد أن الإغريق القديم لم يفكر فى فكرة التمرد هذه عبثاً ولم يجعلها عفواً . فإذا كان الإنسان قد خضع للأقدار فى بدء الأمر وخنع فلابد أن جاء الوقت الذى فيه ثار عليها وحاول تحطيم هذا السيف الذى كان مسلطاً على رقبته دائماً ، ليعيش عيشة حرة بعيداً عن أى تأثير خارجى ، لابد أن جاء الوقت الذى بدأ فيه يشك فى وجود من يتسلط عليه ويخضعه ، لابد أن جاء الوقت الذى شعر فيه أنه المتصرف الوحيد فى حياته ، المهيمن عليها : أى أنه كل شىء فى هذه الحياة .

والناس فى هذه الحياة — برغم تقدم العالم وتمدينه — فريقان : فريق كبير يفكر بعقلية الإغريق القديم الذى كان يخضع للأقدار كل الخضوع ، وفريق صغير يفكر بعقلية الإغريق القديم الذى بدأ يشعر بكيانه الفرد القوى البعيد عن أى تأثير خارجى .

عقلية الفريق الأول : القسمة والنصيب ، وعقلية الفريق الثانى : الرغبة والإرادة ، تحاول إنهاض الأول فيقول : هذا ما كتب لى ؛ أما الثانى فتجده يؤكد كيانه الفرد بما يدور فى رأسه من أفكار وما يقوم به من أعمال . الأول نائم مستكين ، والثانى نشط متحضر ...

وتفضلوا حضرتكم بقبول فائق شكرى وتقديرى .

إدوار منسى

تفسير وتعقيب :

إلى الأستاذ م . ح .

حينما كتبت كلمتى إلى الدكتور زكى نجيب التى نشرت فى عدد أول أكتوبر من الثقافة لم أكن أقصد الإقلال من قيمته العلمية أو الحط من قدرته الأدبية ، كل الذى قصدت إليه حينذاك ، عتب لايصل إلى مرتبة النقد .. والعتب فيه إلى جانب الانتقاد ، الثقة من رجوع المنتقد عن مسلكه محل النقد

وحينما رد علىّ الدكتور زكى أيقنت أن كلمتى لم تفهم على وجهها الصحيح من حيث المعنى ؛ ولكنى أيقنت فى الوقت نفسه أن الروح التى أملتها قد بلغت نفس الدكتور زكى ففهمها

إلا أن قوماً يريدون أن يكونوا ملكيين أكثر من الملك فى كل منحى من مناحى الرأى وفى كل آونة من الزمان .

فليكن هؤلاء القوم ما يكونون ، وليتعرضوا لى بما شاءوا ، موقنين أن نصيبهم من الصفح دائماً عما يحاولون أن يسندوه إلىّ

وقديماً نقل المبرد فى كامله أبياتاً خمسة كتبها عبدالله بن محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم . لابد أن مثل الأستاذ م . ح . وهو من يحكم على الأدباء يكون قد وعاها فليتمثل بالشطر الأخير من بيتها الثالث .

وكلمتى إلى الدكتور زكى تفسيراً لكلمتى السابقة هى أنى لا أنكر أنه قام بمجهود كبير فى نقل الآداب الغربية واستعراض تيارات الفكر للمطلعين على الأدب العربى ، ولكنى أنكر أنه يواصل هذا المجهود الآن ، ولا أحب له أن يسكت عما بدأ به

ولعل الدكتور يوافقنى على أن خير طريقة للثورة على وضع قائم هى أن يعمد الثائر إلى الوضع الذى يريد إحلاله محله فينشره . هذا خير من العمل على تقويض الوضع القائم مباشرة .

فإن كان الملل قد تسرب إلى نفس الدكتور زكى فعله موافقنى أيضاً على أن حياة الفرد لا تذكر فى حياة أمة ، فما بالك بحياة أفكار ومذاهب .

ألا مد الله فى حياتك أيها الدكتور مكللة بالصبر والدأب .

عمر أبو السعود

دردشـــــة

دردشة :

دردش يدردش دردشة ، فهو مدردش . والدرداش كثرثار كثير الدردشة . والدردشة أن تجلس فتتحدث ويتحدثون في غير جهد ، وبغير عنت ، وعلى غير نظام سابق أو ترتيب متفق عليه ، حتى مواضيع الحديث تأتى عفواً : فإذا أنت اضطجعت في جلستك وسالت بين رجليك كان هذا في معنى الدردشة أدخل . وإذا كان عن يمينك فنجان قهوة كان هذا على الدردشة أعون .

والفرق بين الدردشة والثرثرة أن الأولى محمودة ، بينما الأخرى مرذولة ؛ فالثرثرة كثرة الكلام في ترديد وتخليط ، ومنه قول النبي « أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيهقون » ، وهم الذين يكثرون الكلام تكلفاً ، أما الدردشة فغير ذلك .

و « الدردشة » من سواقط القيد ، فلن تجدها في قاموس ، ولكنها حيّة ترزق ، على ألسن الناس ، ولها كل مقومات الحياة ، وقد احتلت موضعاً لايمكن أن يحتله سواها ، وحتى لو قال متقعر إنه لم يثبت بعد أنها ولدت عربية ، إذاً لقلت إن قانون الجنسية في أكثر الأمم يقضى بجواز قبول الغريب فيها بعد عشر سنين من إقامته ، وهذه لاشك عاشت بيننا مئات من السنين .

وإذاً فهى عربية أو متعربة .

ومن أمثلة الدردشة هذه الدردشة في لفظ الدردشة .

دورة الخميس :

هل نحن متمدنون ؟ .

الجواب : لا . حتى المثقفون منا غير متمدنين : فأحمد أمين غير متمدن لأنه يقرأ الأدب القديم ويتذوقه ؛ وأحمد زكى غير متمدن لأنه يقرأ المتنبي ويتذوقه . وسألت في سبيل زيادة الاستيضاح ، لعلى أسترد اعتبارى بأنى مدنىّ ولو غير كامل ، سألت : هل حتى إذا تذوقت من المتنبي قوله :

للدكتور أحمد بك زكى

زودينا من حسن وجهك ما دا
م فحسن الوجـــوه حال يحول
وصلينا نصلك في هـــذه الدنـ
ـيا فإن المقـــام فيها قليـــل

فقيل لى : نعم . أو على الأقل أظل كذلك حتى يأتينى خبير من أهل المدنية ، أهل الغرب ، يقرأ هذا الشعر للمتنبي فيقره ، وعندئذ فقط أعطى جوازى إلى المدنية .

والموسيقى كذلك ، لن تكون ياصاحبي مدنيا إلا إذا سمعت موسيقى « فجنر » وطربت لها ، وأقول : ولكن سبعون أو ثمانون في المائة من الغربيين لا يفهمون « فجنر » فيقال لى : فهؤلاء إذاً غير متمدنين . والويل لك إن تستسغ غناء أم كلثوم خشية أن تسلك ما لا بد من سلوكه لتثبت أنك مدنى ، فتأتى بخبير غربىّ في الموسيقى يستمع إلى أم كلثوم فلا يرضى لها غناء ، فتبوء أنت بالفشل ، وهى طبعاً ، وتصبحان غير مدنيين . لا بد من شهادة على كل حال .

والأخلاق قد اتسعت في هذه المدنية الحاضرة اتساعاً ، فلا بد أن لا تضيق أخلاقك عما اتسعت له المدنية ، فإذا كانت لك بنت ، وبلغت السن التى حددتها المدنيـــة للاستقلال ، وهى الحادية والعشرون ، وأرادت أن تبيع من عرضها ما تبيع ، وتدخلت في إرادتها تدخل القدماء المتيقين من الآباء ، فأنت غير مدنىّ . وإذا قلت لهم إن الآباء في الغرب لا يزالون يتدخلون رغم هذا ، قيل لك فهؤلاء لم يتشربوا روح المدنية .

فهذه بعض الآراء التى لخصها حضرة الدكتور زكى نجيب محمود في مقاله بالعدد الماضى من الثقافة ، وهو يحكى عن ندوة لجنة التأليف وما جرى فيها ، وكان هو في طرف منها وكنت في طرف . وقد لخص وأساء تلخيصاً ، وجعل لنفسه وهو الواحد من جماعة خمس هذا الحديث ، فكسب لنفسه من حيث خسر الآخرون ، وهو لم يستشر في النشر أحداً كما قال ، ولعل هذا من بعض المدنية .

إنى أضيق بالقديم ، غير الصالح ضيقاً كبيراً ، وأعجب بالحديث الصالح أيما إعجاب ، ولكنى لن أفقد وعيى ، وأنق عقلى ، بتكسير آلهة أعبدها شرقية ، لأقيم مكانها آلهة أعبدها غربية . إن الأصنام لا بد أن تحطم كلها ، فإن كان لا بد من عبادة صنم ، فصنم معصَّم أحب إلىَّ من صنم مقبَّع .

وفى صميم الأشياء أمور ثابتة القيم لا يغير منها الزمان ، فإذا جاءت مدنية تقول لى لن تكون مدنياً إلا إذا كشفت عورتك ، لِتثب عليها الناس ، ولتثب بها على الناس ، فهذا النابع فى الأفق ، إذاً قلت لها إنه النابع ، ولكن فى غير الأفق ، وإذاً قلت لها لستُ منك ولست منى .

إن المدنية الحاضرة أكثرها الجيل ، ولكنها قد تشق أكبر الشقاء بعض من يترجمون عنها .

متى يحمد الصفع ومتى يذم :

أما الصفع الذى أقصده فهو تماماً ذلك الذى فهمته بالفارق ، الضرب بجمع الكف وهو منبسط . وما كنت أحسب أن للصفع منافع إلا تفريج الهم عند الصافع ، وما كنت أحسب له مضار إلا ثورة المصفوع ، ولكل ثورة أعقاب ...

ولكن سيدة اجتمعت بها علمتنى غير ذلك . كانت تشكو من خادماتها والخدم . كانت تعطيهم الفطور بيضاً مقلياً مع البسطرمة ، ومعه الفول بالزبد ، ومعه السلطة ، وكل ما يشاءون من خبز وإدام . وفى الظهر تؤكلهم مما تأكل ، والفاكهة المطبوخة تقدمها لهم ومن فوقها القشطة (القشدة) ، و و و ... ومع كل هذا لا تلق منهم إلا تعباً . وشكت هذا الحال أمامى لسيدة ثانية بأمور الخدم والخادمات أخبر ، فقالت لها : إن سبب تعبك من البسطرمة والقشطة ، فهذه تسبب عسراً فى الأخلاق ، والرأى عندى أن تعودى إلى الفول والطعمية والخبز بغير زبد ، وقالت : وشىء آخر ، وصفة ناجعة عرفتها من تجربتى الخاصة لم أجد أفضل منها . وتطلعنا جميعاً لنسمع هذه الوصفة العجيبة . فبعد تردد قالت السيدة : صفعةٌ ألقىّ بها الخادمة كل صباح . قلت : من غير سبب ؟ قالت : نعم من غير سبب ، هى تحية الصباح تستقيم معها الخادمة طول النهار ، كما يصمد مفعول حبة الدواء تماماً فى الجسم ساعات ، ثم لا بد من أخذ حبة أخرى .

وانفض المجلس ، وبعد حين لقيت السيدة الأولى ذات الأشجان مع الخدم ، وسألتها : كيف صنعت بالوصفة ، قالت : لم تنفع . قلت : ماذا حدث ؟ قالت : خرجت الخادمة من أول صفعة . قلت : والقشطة والبسطرمة ؟ قالت : كنت أبقيت عليهما ، قلت : آه هـذا هو سر الفشل ، كان لا بد أن تبين ، فالصفعات جوها الطاوب . فوعدتنى بأن تفعل ، وأنا فى انتظار نتيجة التجربة بشوقنى إليها مزاجى العلمى .

أحمد زكى

٣ – سنلتقي

... وكان أن عدت إلى قريتي
أهيم في أحراشها وحدي
أغسل جرحي في ينابيعها
وأنطوي حزناً على وجدي
إن هبط الليل وران الكرى
ناديتها – نائمةً – تهدي
تضم في أحضانها طفلة
تشبهه – لولا حبها – حقدي
يارحمة الله ! ألم تتركي
شجيرة مزهرة بعدي ؟
هذي حقول النور مهجورة
يلتف في أشواكها وردي
« سنلتقي ! » أكذوبة لم تزل
كالحية كالحجر الصلد
وحدي أناديها ، ولكنها
أعجزُ أهل الأرض عن ردي

* * *

.. وكان أن عدت إلى قريتي
أهيم في أحراشها وحدي
أغسل جرحي في ينابيعها
وأنطوي حزناً على وجدي

(بغداد) عبد الوهاب البياتي

ورد إلى المجلة

١ – كتاب « النقد واللغة في رسالة الغفران » :

تأليف الدكتور أمجد الطرابلسي ، الأستاذ بكلية الآداب في الجامعة السورية وهو يقع في ٢١٦ صفحة من القطع المتوسط .

وأبوابه هي : المعري العالم اللغوي ، والنقد الأدبي في رسالة الغفران ، والاستطرادات اللغوية في رسالة الغفران .

وهو مذيَّل بقائمة وافية بالمراجع الهامة في الموضوع .

ويطلب الكتاب من ديوان كلية الآداب بدمشق ، وثمنه ٦ ليرات سورية .

٢ – بقايا شباب :

وهو كتاب قوامه خمسون صفحة من القطع الصغير ، ويحتوي على ست قصص قصيرة ، بقلم عبد الله نيازي ، وطبع بمطبعة الرابطة ببغداد .

٣ – مجلة العصبة :

العددان الخامس والسادس ، في مجلد واحد .

و « العصبة » مجلة أدب وفن يصدرها أدباء المهجر في مدينة سان باولو بالبرازيل – وإنه لمن دواعي فخر العربية حقاً أن تصدر في أمريكا هذه المجلة الأنيقة القوية التي يدل كل ما فيها على غزارة علم وسعة اطلاع وقوة أدب وجمال ذوق .

الثقافة

العـــدد ٦٧١
٥ من نوفمبر ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليم

من أغاني الجهاد :

يامصر ...

يامصر أنبتِّ آساداً غطارفة ‏ ‏ إن هيّجوا زلزلوا الآباد والحقبا
عاشوا على شامخ من مجدهم وبنوا ‏ ‏ من فوقه .. مايزّ النجم .. والشهبا
من نسل رمسيس أو خوفو ومنحتب ‏ ‏ من كل فرعون هزّ الكون إن غضبا
إن خاض سيفه كانت عزيمته ‏ ‏ سيفا .. يقدّ حديد الدرع واليلبا
كانوا .. وما كان غير الله يرقبهم ‏ ‏ من عرشه يصنعون النصر والغلبا
كانوا فراعين ركب الكون إن فعلوا ‏ ‏ أمراً .. رأيت له التاريخ .. مرتقبا
هذي صحائفه الغرّاء .. واضحة ‏ ‏ إن تقرءوها تروم معشراً نجبا
تروي أعمالهم مجداً، شامخة ‏ ‏ كأنها صنع جنّ يصنع .. العجبا

• • •

وأنجبوا فتية صيداً جبابرة ‏ ‏ لايصبرون على المكروه إن حزبا
كواسر كنسور الطير إن جنحت ‏ ‏ نحو الفريسة سامت روحها العطبا
قد حلّقوا في الفضاء الرحب تحملهم ‏ ‏ طوائر إن سرت قد أحدثت .. صخبا
قبا من الموت آلات .. مدمرة ‏ ‏ فوق العدو تصب الموت واللهبا
تراهم ولظى النيران يصهرهم ‏ ‏ مثل الفراش يظن ـ الجذوة ـ الهربا
إن أطلق المدفع الجبار قنبلة ‏ ‏ من جوفه صيّرت أجسادهم حطبا
والأرض تزخر بالأجناد تحسبهم ‏ ‏ من جند فرعون ـ يزجي الجحفل اللجبا
تراهم يطلبون الموت في لهف ‏ ‏ إن كان ـ المجد ـ موت الأنفس السببا

• • •

ياأيها الإنجليز الغفل قد ذهبت ‏ ‏ أرواحكم ... إذ حباكم قبلها ذهبا
بين القنال قبور لست أحصرها ‏ ‏ مفتوحة .. تبتغي أجسادكم .. قرّبا
عما قريب تدوّي خلف أنفسكم ‏ ‏ قذائف تحمل التدمير .. والحرّبا
من خلفها فتية من نسل منحتب ‏ ‏ كانت لآذانهم .. في قصفها ـ طربا

كيوان حسين سند

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتيـاز — الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٧١ الاثنين ٥ من صـفر سنة ١٣٧١ — ٥ من نوفمبر سنة ١٩٥١ السنة الثالثة عشرة

فى ضوء المصباح :

عـــالم قلِق

للدكتور زكى نجيب محمود

ترى هل شهد التاريخ كله فترة اشتد فيها القلق كما يشتد فى هذه الفترة التى يجتازها العالم اليوم ؟ لست أدرى ، فليس يعيش الآن على وجه الأرض إنسان واحد قرير العين مطمئن النفس هادئ البال .

إنها فترة كفاح وجهاد وحرب وقتال ! فالشعوب الناهضة تحاول أن تقف على أقدامها ، والشعوب الغالبة تريد الثبات فى مواقفها ، والدول القوية بعضها مع بعض تصطرع ابتغاء السلطان والسيادة ... والغالب والمغلوب والبيض والسود جميعاً قد ضاقت نفوسهم ، واكفهرت الدنيا من حولهم ، فاشتدت بهم الرغبة فى شىء يؤمنون به — أىّ شىء كان ما كان ؛ فلذلك كثرت بيننا المذاهب الفكرية ، والمعتقدات السياسية ، كثرة لا نحسب أن قد سبق لها نظير فى عصور التاريخ الماضية .

فقد يحس الفرد منا إزاء ما شمل العالم من قلق واضطراب أنه لا ينبغى له أن يجلس أمام مسرح الحوادث رائياً سامعاً لا يعمل شيئاً ، وأن نفسه لا تستريح وضميره لن يرضى إلا إذا قام بنصيب — مهما يكن ضئيلاً — فى إعادة البناء المنهار ؛ لكنه إذا ما همّ بالعمل أدرك من فوره أنه لا بد من جماعة ينضم إليها ، لأن مجهود الفرد الواحد هباءة لا تغنى ولا تسمن ، ولا يعدو أن يقع على أقرب جماعة منه دون أن يفكر طويلاً فى هل تعمل هذه الجماعة التى ينضم إليها فى سبيل ما ينشده هو لنفسه ولسائر الناس ، أم أنها تعمل فى طريق يعكس له أهدافه المنشودة ... لكنه قلق يريد أن يعمل شيئاً وحسبه ذلك ، لأن النار قد أوشكت أن تأتى على الحياة كلها ، أخضرها ويابسها على السواء ؛ فكثرت الأحزاب والهيئات والجماعات فى أنحاء العالم ، كثرة — كما أسلفت — منقطعة النظير .

إن النفوس القلقة تدفع أصحابها إلى العمل ، تدفعهم إلى العمل السريع ، فتراهم يجدون السير ويحثون الخطى ، لأن السير المتمهل لا يكفى ، والخطو البطىء مضيعة للفرص ؛ ولذلك امتلأت أركان الدنيا بالنظريات المتطرفة والمشروعات الجريئة ، والانقلابات السريعة ... قل ذلك فى الأمم وفى الأفراد على السواء ؛ إن الربح البطىء المطرد الثابت لم يعد يرضى النفوس المتعطشة المتعجلة . انظر إلى عالم التجارة والأعمال تجد ألوفاً من الناس ينزلقون على السفوح المتموجة انزلاقاً سريعاً ، إنهم لا يقنعون بالخطوات الوئيدة على

الأرض الصلبة الثابتة ؛ فالحياة قصيرة المدى والجو مكهرب من حولهم ، فنيم الوقوف والتمهل والانتظار ؛ إن السلامة لم تعد فى التأنى ؛ فإلى الغاية المنشودة أزلاقاً ، ولئن سقط فى المضمار رجل فإلى جانبه ألف رجل بالغون المدى .

إن العالم اليوم فى لحظة محيرة يكتنفه الظلام ، فينشد الضوء مهما يكن مصدره ؛ فلكل صائح أتباع أيًّا ما كانت صيحته ، ولكل داع مستجيبون مهما تكن دعوته ؛ لقد تقسمت الدعوات الكثيرة سكان الأرض بصفة عامة ، وأهل أوربا المعاصرة لنا اليوم بصفة خاصة ، فيها الآن مائة مذهب ومذهب ؛ هذا داع يدعو إلى الرجوع إلى حظيرة الدين فيستمع إلى دعوته فريق ، وذلك داع يدعو إلى طرح الإيمان الساذج والاستمساك بالعقل وحده فيستمع إليه فريق آخر ، وذلك ثالث يهيب بالناس أن عودوا إلى غرائزكم فأشبعوها ، لأن الحياة الطبيعية هى أسلم الحياة ، فيستجيب له فريق ثالث ؛ ثم هذه ديمقراطية وتلك اشتراكية ، وهذه شيوعية وتلك دكتاتورية عسكرية ، وهلم جرا ... ذلك كله لأن الناس قد ضاقوا ذرعاً بما هم فيه ، ويريدون التغيير — أى تغيير .

وكان مما زاد مرارة طعم الحياة فى أفواه الناس ، أنهم فتحوا أعينهم على الواقع ، بعد أن كانت أعينهم مغمضة لسبب أو لآخر ؛ أقول لسبب أو لآخر ، لأن السبب لم يكن واحداً بالنسبة للناس أجمعين ؛ إذ كان العالم حتى عهد قريب ينقسم قسمين رئيسيين ؛ فإما أغنياء قد طمحت عيونهم بأسباب النعمة والرخاء ، وإما فقراء يكدحون فى سبيل اللقمة العيش وخرقة الثياب ؛ فأما الأغنياء فقد ألهاهم التكاثر وأعماهم الغنى ، فلم يروا من الحياة إلا مطاعم تفوح وصالونات تتألق ؛ وأما الفقراء فقد أشقاهم الكدح المتصل عن التفكير فى أنفسهم أوفى غير أنفسهم ، فالدنيا كلها فى أعينهم فأس تضرب الأرض بياض النهار ، وكوخ معتم سواد الليل ؛ ومن ثم استقرت الحياة بهؤلاء وأولئك ورضوا عليهم الرضى ؛ أما اليوم فمعظم الناس — فى أغلب أنحاء الدنيا — طبقة متوسطة ، ليس لديها الثراء الذى يُلهى ويُعمى ، ولا الفقر الذى يهلك ويحطم ؛ فوقفوا بين بين ، يعملون ساعة وينظرون إلى ماحولهم ساعة ، فتفتحت عيونهم على الواقع كما هو ، فإذا الواقع مظلم ومختل ، وإذا الضرورة الملحّة تقضى بتغيير ذلك الواقع المرير فى أسرع وقت مستطاع ... فنشأت بذلك عند الناس لهفة نحو انقلاب الأوضاع ، ومن ثم كثرت الأحزاب والجماعات ، وتنوعت الآراء والمذاهب .

ألا تسمعهم يصفون لك هذا العصر بأنه عصر السرعة ؟ إنها ليست سرعة القطارات والطائرات وكفى ، بل هى السرعة التى انتابت النفوس فى لهفتها على تغيير حالها ؛ ولذلك تراه عصراً يتميز بكثرة المعايير الخلقية والجمالية ، إنه لا يستقر على معيار واحد يرضى الناس جميعاً ، لأنه عصر قلق وتغيير ؛ فهذا يأخذ بمعيار جديد ، وذلك يظل مستمسكاً بمعيار قديم ، وثالث يأخذ بالقديم تارة وبالجديد طوراً ؛ وكلهم مخلص فيما يأخذ به ، فهم جميعاً متفقون على شيء واحد ، هو ضرورة تغيير الأوضاع الراهنة لأنها لا ترضى أحداً .

إننا نعيش فى عالم قلق ، يجزع أهله أن تضيع من وقتهم لحظة سُدى ، لأنهم مسرعون ، متلهفون ، يغذّون السير ويحثون الخطى ؛ وكان حتماً أن يساير التفكير هذه السرعة ويماشيها ؛ فلم يعد الوقت يتسع عند الكثيرين لقصة طويلة يكتبها لهم أديب هادئ الفكر طويل البال ؛ لأن الأمر لم يعد تسلية ولهواً ، بل هو جدٌّ وعزم وصرامة ؛ وإذاً فأجدى على أصحاب الفكر أن يتجهوا بفكرهم نحو شيء آخر غير الأدب الذى خلق للفراغ والمتعة ؛ فإن كان حتماً أن يكتب لنا أديب ، فلتكن كتابته أقصوصة قصيرة للترام أو القطار ؛ فإن أطال فليتجه بإنتاجه نحو السينما ، لترى فى ساعة استرخاء ، بأقل مجهود ممكن ... لكن الله قد أراد لنفر من الناس أن يكونوا أدباء على رغم هذا الصراع كله وهذه الضجة كلها ؛ فماذا عساهم يكتبون ليرضوا أنفسهم ؟ إن العالم من حولهم قلق مضطرب فوار ؛ فإما أن يندفعوا فى تيار الحوادث الدافق ، فيكونوا من رجال الصحافة لامن رجال الأدب بمعناه الصحيح ، وإما أن يلتمسوا مرحلة أخرى من مراحل حياتهم ، كانت أنعم روحاً وأهدأ عيشاً ؛ فلا عجب — إذاً — أن نسمع أن كثيرين من أدباء أوربا اليوم قد انصرفوا نحو ماضيهم يؤرخونه ويسجلونه ، لأنهم يجدون فى ذلك الماضى حياة مستقرة هادئة بعض الشيء ، تصلح للتصوير الذى يرضى عشاق الجمال .

خواطـــــر

للدكتور أحمد أمين بك

— ٣١ —

أروع ما في الحركة الوطنية الأخيرة حركة العمال الذين رفضوا أن يتعاونوا مع الإنجليز في عمل أو تفريغ أو شحن مراكب ، أو إمداد السفن الإنجليزية بالطعام .

وإذا علمنا أن هذه الطبقة فقيرة لا تدخر شيئاً وتعيش برزق يومها ، وأنها إذا فقدت أجرتها عدمت قوتها ، أدركنا جلال موقفها . وهذا المنظر يؤكد لنا أن لا رابطة بين الأخلاق والعلم . فقد يكون عالم كبير ومثقف ثقافة واسعة ، وهو مع ذلك لا يصدر عن عاطفة نبيلة ولا غضبة جميلة . ولقد حدثني صديق قال : « ركبت تاكسي ليوصلني إلى عملي ؛ فمررت في الطريق على مظاهرة فانتقدتها وانتقدت تصرفها ، فما راعني إلا سائق السيارة وقد حملق إليّ وتهيج وأنهمني بفقد الشعور ، وكاد ينزلني من سيارته لو أطلت الكلام قليلاً . وربما كان هذا السائق لا يحمل في جيبه قوت يومه » .

ومن نعم الله أن وزع الجمال والقبح على الأغنياء والفقراء ، فقد يكون غني قبيح ، وفقير جميل . كما وزع الفضائل والرذائل والنبل على الموسرين والفقراء على السواء .

والفضائل والنبل في الفقراء أجمل ، ومنهم أنبل ، لأنه يصدر منهم وليس لهم رصيد ، وهم لا يرمون إلى عوض من نبلهم ، ولا غنيمة من حربهم . وألطف ما فيهم أنهم لا يأتون بالخير عن منطق ولا بحث ولا جدال ، إنما يصدرون عن فطرة غريزية وذوق سليم . أما المثقف فقد يحار بين العقل والعاطفة ، وبين المنطق والشعور ، ومما يؤسف له أن العقل والمنطق قد يؤديان إلى أسوأ النتائج ، بينما تؤدي الفطرة إلى خيرها .

— ٣٢ —

كل ما أرجو هذه الأيام العصيبة أن يصبر المصريون على الشدائد ، فقد صبروا كثيراً يوم كان الصبر رذيلة ، إذ صبروا على ظلم الحكام ، وعلى غطرسة المستعمرين ، وعلى جبروت الأغنياء ، ولم يتحركوا حركة تدل على الأنفة .

أفيصبرون يوم يكون الصبر رذيلة ، ولا يصبرون يوم يكون الصبر فضيلة ؟ ذلك ما أستبعد أن يكون ، لأنه قلب للأوضاع ، وسوء كبير في التقدير .

أحمد أمين

عالم قلق هذا الذي نعيش فيه ، ينهار فيه بناء ليقوم مكانه بناء ، وينحلّ فيه نظام ليحل محله نظام ، والدعوات فيه متلاحقة متتابعة ، لا تكاد الدعوة منها تبلغ الأسماع حتى تنسخها دعوة ... هل رأيت حركة الهدم والبناء من حولك في بلد كالقاهرة — مثلاً ؟ فقد تغيب شهرين عن حي من أحيائها ثم تعود لتجد عمارة شاهقة أقيمت ، أو لتجد بناء مألوفاً لك قد أبيد ؛ ففي كل حي ، بل في كل شارع ، بل في كل ركن هدم وبناء ؛ والسمة التي تسم الحركة كلها هي السرعة اللاهثة ، و « الفرجلة » التي لا تعبأ بشيء من ترتيب أو تنسيق .. وهكذا العالم كله الذي نعيش فيه اليوم ، ففيه الهدم والبناء ، ثم الهدم وإعادة البناء ، يتلاحقان في مثل هذه السرعة اللاهثة المحمومة ، وهذه « الفرجلة » التي لا تجد الفراغ للروية والتأني لعلها توفق إلى شيء من ترتيب يدوم أو تنسيق يرضي .

لكن هذا العصر القلق الثائر الفائر المتغير المتحول ، هو عصرنا الذي خلقنا له لنعيش فيه ؛ فلنضرب على نفس الأوتار التي يضرب عليها سائر العازفين ؛ فلنأخذنا حمى القلق التي أخذت بسائر أنحاء العالم المتحضر ، ولتهتز أعصابنا بما اهتزت به أعصابه من دعوات ومذاهب ، وأفكار ونظم ؛ إن كان عالماً مدججاً بسلاحه فلنأخذ في التسلح ، أو كان عالماً جشعاً فلنندفع الناس إلى النهم الذي لا يشبع ...

حرام يا أصحاب الأقلام أن تهدهدوا الناس بأناشيد الهادئة التي تجلب النعاس ، بل أوقدوها تحت الجنوب جمرات حتى تستيقظ العيون وتأرق القلوب ، في هذا العصر القلق المضطرب اليقظان .

زكي نجيب محمود

الشعر التاريخى

للأستاذ على أدهم

بين التاريخ والأدب علاقة أكيدة ونسب لاصق حتى قيل إن التاريخ والأدب توأمان ، وقد اشتهر كبار المؤرخين قديماً وحديثاً وفى مختلف الآداب الأممية بقوة الأداء ، وعلو البيان ، وسخروا اللغة أداة طيعة لرواية الحوادث ، وتصوير الأشخاص ، ووصف المواقف والمشاهد ، وقد مرت فترة حدث فيها رد فعل يرمى إلى إنكار علاقة الأدب بالتاريخ ، ويحاول أن يجعل التاريخ علماً خالصاً لاشأن له بالأدب ، وكان من أكبر أسباب هذه النزعة الانتصارات الباهرة التى أحرزتها العلوم الطبيعية ، وقد أغرى ذلك فريقاً من المؤرخين بمحاولة الاستفادة من المناهج العلمية فى دراسة التاريخ وكتابته وإسباغ الصفة العلمية على التاريخ فى جملته ، وقد أكسب ذلك المؤرخين بعض الدقة العلمية والميل إلى التجرد ، ولكن اتضح لهم بعد ذلك أن دراسة النوع الإنسانى شىء يختلف عن دراسة النباتات والحشرات أو خصائص المادة والذرات ، فلكل فرد له حياته الخاصة المتميزة التى لانستطيع أن تتخذها قانوناً عاماً لسائر حيوات الأفراد الآخرين ، وليس فى المستطاع أن تحلل حياة أى إنسان تحليلاً علمياً يستنبط منه القواعد وتستخرج النظريات ؟ فالإنسان أكثر تعقيداً وتراكباً وأشد تنوعاً وأوفر روحانية من أن تستقصى تحليله الأساليب العلمية ، ومجال التاريخ هو الحدس الموفق والنظر الملهم الذى يوجبه الإحاطة بالحوادث واستيعاب الروايات المختلفة ، والتاريخ يتناول القوى العقلية والبواعث الروحية والدوافع النفسية ، وهى أشياء لايسهل إخضاعها للبحث العلمى الخالص ، لأنها لاتوزن بالمعايير ولاتوضع فى أنابيب الاختبار .

وقد أشار شوبنهاور إلى العلاقة بين الشعر والتاريخ فقال : «وحقيقة أن التجربة والتاريخ يعلماننا أن نعرف الإنسان ، ولكنهما يجعلاننا نعرف «الناس» لا «الإنسان» أى أنهما يقدمان لنا ملاحظات عن سلوك الناس يمكن أن نستخلص منها قاعدة أكثر مما يقدمان لنا لمحات عميقة عن طبيعة الإنسان الداخلية كالشعر ، على أن هذا لايمنع أن التاريخ والتجربة فى بعض الأحيان يقدمان لنا هذه اللمحات ، وعند شوبنهاور أن الشعر هو الذى يقدم للبشرية صورة صحيحة عن «فكرة الإنسان» وأن المؤرخ قد يستطيع ذلك إذا نظر إلى التاريخ نظرة فنية واستطاع أن ينفذ إلى الفكرة المستترة خلف الظاهر العارضة المتقلبة ، أما كارلايل فإنه يخالف شوبنهاور فى ذلك بعض المخالفة ويرى أن التاريخ هو الشعر الحقيقى ، كما فى قوله «إن التاريخ بعد كل شىء هو الشعر الحقيقى ، والحقيقة الواقعة إذا فسرت تفسيراً صحيحاً أعظم من مبتكرات الخيال ، بل إن الشعر الحقيقى الخالص لايكون إلا فى التفسير الصحيح للحقيقة» .

فالتاريخ ليس لوناً من ألوان الأدب فحسب ، بل هو وثيق العلاقة بأسمى ضروب الأدب وهو الشعر ، وقريب الشبه به ! والواقع أن حاضرنا النثرى فى كل لحظة من اللحظات يتساقط ويهوى فى ليل الماضى الشعرى ، والمؤرخ الذى يستطيع أن ينشر لنا صحف الماضى المطوية لا بد أن يستميله هذا الماضى ويثير عواطفه وشجونه ويأخذ عليه مسالك خياله وسبحات أوهامه ، أى لا بد أن يصبح شاعراً إلى حد ما ، ومن ثم ميل الشعراء إلى الثقافة التاريخية وحرصهم على استحضار صور الماضى واستطلاع أخباره وحوادثه ، فنى كل شاعر يكمن المؤرخ ، وفى كل مؤرخ يتوارى الشاعر ، والذى يقرأ كتاب الثورة الفرنسية للمؤرخ توماس كارلايل يعجب كيف انقلب المؤرخ شاعراً ملتهب الخيال رائع البيان ، يعرض عليك الصور النابضة بالحياة ، والمشاهد الحافلة بالحركة ، كما أن من يقرأ رواية إجمونت للشاعر جيتى ، أو رواية أنطونى وكليوبطرا لشكسبير ، أو رواية والنستاين للشاعر شلر ير كيف تحول الشاعر إلى مؤرخ يقدم لنا لباب التاريخ وجوهره لا قشوره الفانية أو تفصيلاته القليلة القيمة العديمة الجدوى .

فالشعر كثيراً ما يختلط بالتاريخ فى آداب الأمم المختلفة ،

وكذلك التاريخ كثيراً ما يمتزج بالشعر ، ويتجلى ذلك فى تاريخ الأدب العربى فى صورة واضحة ، بل ربما كانت هناك أسباب اجتماعية وسياسية جعلت ذلك أوضح فى الأدب العربى بوجه خاص ، فالكثير مما نعلمه عن حوادث عهد الجاهلية وأخباره مستمد من الشعر ، والكثير من حوادث العصر الأموى والعصر العباسى لا نستطيع أن نقترب من تصورها وفهم حقيقتها دون الاستعانة بالشعر .

وأثر الثقافة التاريخية باد فى كبار الشعراء الممثلين للأدب العربى ؛ فالمتنبى مثلاً فى القصيدة التى نظمها بمناسبة اصطلاح الأستاذ كافور والأمير أبى القاسم بعد الوحشة التى جرت بينهما يقول :

أتمت الحلف بالشراة عداها ... وشفى رب فارس من إياد
وتولى بنى اليزيدى بالبصـ ... ـرة حتى تمزقوا فى البلاد
وملوكا كأمس فى القرب منا ... وكطسم وأختها فى البعاد

ويظهر أثر ثقافة أبى تمام التاريخية فى القصيدة التى عزّى بها مالك بن طوق عن أخيه القاسم بن طوق ، وهو يخاطبه قائلاً :

فإن تك مفجوعاً بأبيض لم يكن
يشد على جدواه عقد التمائم
بفارس دعمىّ وهضبة وائل
وكوكب عتاب وجمرة هاشم
ففى قيسه ما قد أصيب شبيبنا
أبو القاسم النور المبين بقاسم
وخبر قيس بالجلية فى ابنه
فلم يتغير وجه قيس بن عاصم
وقال علىّ فى التعازى لأشعث
وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة
فتؤجر أم تسلو سلو البهائم
وللطرفات يوم صفين لم يمت
حفاظاً ولا حزناً عدى بن حاتم

ويختم هذا العرض التاريخى بهذين البيتين الحكيمين :

خلقنا رجالاً للتصبر والأسى
وهن نساء للبكا والمآتم
وهل من حكيم ضيع الصبر بعدما
رأى الحكماء الصبر ضربة لازم

وثقافة أبى العلاء التاريخية تتجلى فى رسالة الغفران ، وتكاد تظهر فى كل صفحة من صفحات اللزوميات ، وأبو العلاء هو القائل :

ما كان فى هذه الدنيا بنو زمن
إلا وعندى من أخبارهم طرف

وفى مفاخرات الأخطل والفرزدق كثير من الإشارات التاريخية ، أنظر مثلاً إلى قول الفرزدق يخاطب مناظره الشاعر جريراً ويفاخر بأجداده :

لولا فوارس تغلب ابنة وائل
دخل العدو عليك كل مكان
ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا
نارين أشرفتا على النيران

وهو فى هذين البيتين يشير إلى يوم خزاز الذى انتصر فيه العدنانيون على اليمنية ، وكان كليب وائل من الأبطال البارزين فى ذلك اليوم المشهور .

والتاريخ من الموضوعات التى شغلت حيزاً كبيراً فى آداب اللغة العربية ، فالمؤرخون فى تاريخ الأدب العربى كثيرون والمؤلفات التاريخية كثيرة موفورة ، وقد كان أول مؤلف فى التاريخ هو السيرة النبوية التى جمعها ابن إسحق وقد ظهرت فى أوائل عهد الدولة العباسية ولم تكتب سيرة النبى فى عهد الأمويين لأنها بطبيعة الحال كانت تهز ولاء الناس للأسرة الأموية وتضعف مركزها ، لأنها تذكر أشياء كثيرة لا يروق الأمويين إذاعتها وترديدها ؛ وقد كان من أقوى البواعث على نشأة التاريخ عند العرب العناية بتفسير القرآن والحرص على تعرف معانيه ومضامينه ، فقد تناول القرآن حوادث شتى من الحوادث التى كانت جارية فى عهد نزوله ؛ ومن ثم وجبت معرفة مناسبات نزول الآيات ، وقد كانت الصحابة تعرفها ولكن الأجيال التالية كانت تجهلها ، والقرآن نفسه لا يذكرها مفصلة مستوفاة ، وإنما يوجز فى الإشارة إليها ويكتفى باللمحة الدالة ، وفيه كذلك إشارات إلى الأمم القديمة وتاريخها ؛ والدارس المتفقه يسره أن يزيد علمه بتلك الحوادث ويلم بأطرافها ويستوعبها ، والحاجة إلى

التشريع كذلك جعلت البحث التاريخي ضرورة من الضرورات ، وقد استلزم ذلك الاجتهاد في جمع الأحاديث وتحرى أخبار رواتها ونقلتها ، واهتمام المسلمين بمعرفة أخبار النبي وأبطال الإسلام استلزم بذل مجهود كبير ، ويُعزى إليها نشوء الجغرافيا وكتابة التراجم .

ونرى من ذلك أن التاريخ قد نشأ إلى حد كبير باعتباره شرحاً لآيات القرآن من ناحية ومعيناً على التثبت من صحة الأحاديث وأخبار النبي من ناحية أخرى ، على أنه كان كذلك شرحاً للشعر من وجوه كثيرة ، وقد كان الشعر عند العرب في جاهليتهم طريقة قبلية لتسجيل التاريخ ، والمؤرخون المتقدمون يذكرون الشعر لبيان بعض الحوادث الهامة وتوضيح ما غمض من أخبارها ، والشعر العربي بطبيعته لا يمكن الناظم من عرض المعلومات الدقيقة المفصلة ، ويكتفي الشاعر في العادة بذكر أسماء الأمكنة والأشخاص الذين برزوا في الحوادث وأبلوا فيها بلاء حسناً ووقفوا مواقف مشرفة في النضح عن القبيلة ومدافعة أعدائها ، ولما كان من اللازم الاستعانة بالتاريخ للاستزادة من معرفة هذه الحوادث التي يشير إليها الشعراء إشارات سريعة موجزة ؛ وقد أشار زهير بن أبي سلمى في معلقته المعروفة إلى ذلك الخلاف الخطير الذي وقع بين عبس وذبيان وأدى إلى نشوب حرب طاحنة بينهما ، ونوه بالسيدين اللذين سعيا في رأب الصدع ، وهما الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، ويقال إنهما خارجة ابن سنان والحارث بن عوف فقال عنهما :

يميناً لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

ولكنها إشارات تستوجب التعليق والشرح والتفصيل لتوضيحها وجلاء غامضها ، لأن الشعر العربي — على الأقل في تلك الفترة — لم يكن يتسع لمثل هذا التفصيل ، ومعظم الأشعار التاريخية التي تشير إلى الحروب التي وقعت بين القبائل المختلفة في الجاهلية أو صدر الإسلام لا تطيل السرد ولا تفصل الحوادث تفصيلا يغني عن الاعتماد على المؤرخين ؛ ولما كان لابد من الاستعانة بالتاريخ على فهم الشعر وتكوين صورة واضحة عن الحوادث التي يشير إليها .

وفي القرن الثالث الهجري ظهرت محاولة جديدة في الشعر التاريخي تحاول التفصيل والإطالة وبيان الحوادث سلسلة متتابعة ، وقد قام بهذه المحاولة عبد الله بن المعتز الشاعر الذي ولي الخلافة يوماً وليلة ، فنظم أرجوزة أسماها « كتاب سيرة الإمام » فصّل فيها أخبار الخليفة العباسي المعتضد حتى وفاته في سنة ٢٨٩ وهو يقول في مطلعها :

باسم الإله الملك الرحمن ذي العز والقدرة والسلطان
الحمـــد لله على آلائه أحمده والحمد من نعمائه
أبدع خلقاً لم يكن فكانا وأظهر الحجة والبيانا
وجعل الخاتم للنبوة أحمد ذا الشفاعة المرجوة
الصادق المهذب المطهرا صلى عليه ربنا فأكثرا
مضى وأبقى لبني العباس ميراث ملك ثابت الأساس
برغم كل حاسد يبغيه يهدمه كأنه يبنيه
هذا كتاب سير الإمام مهذباً من جوهر الكلام
أعني أبا العباس خير الخلق للملك قول عالم بالحق
قام بأمر الملك لما ضاعا وكان نهباً في الورى مشاعا

وهو يمضي في القصيدة على هذا النسق مشيراً إلى كثير من الحوادث التي وقعت في عهد المعتضد واصفاً موقفه منها وأسلوبه في علاجها .

وقد نحا نحوه أبو فراس في قصيدته الرائية المشهورة ومطلعها ..

لعل خيال العامرية زائر فيسعد مهجور ويسعد هاجر

وقد ذكر فيها أعمال أجداده ، وعدد مآثرهم ، ومفاخر عواقبهم ، ونوه ببطولتهم وكرمهم ، ثم عرج على سيف الدولة فمدحه قائلاً :

ألا قل لسيف الدولة القرم إنني
على كل شيء غير وصفك قادر
فلا تلزمني خطة لا أطيقها
فمجدك غلاب وفضلك باهر
ولو لم يكن فخري وفخرك واحد
لما سار عني بالمدائح سائر

ويذكر أفراداً آخرين من أقاربه مادحاً لهم مثنياً على شجاعتهم وإقدامهم ، ويختم القصيدة الطويلة بقوله :

نطقت بفضلي وامتدحت عشيرتي
فما أنا مداح ولا أنا شاعر

والحقائق التاريخية التي أشار إليها أبو فراس في قصيدته تستلزم الرجوع إلى المؤرخين واستشارتهم في تقدير صحتها ،

فقد كان الرجل شاعراً مفاخراً ، فمن المحتمل إلى حد كبير أن يصنع من الحبة في أعمال أجداده قبة ، وأن يضيف إليهم مفاخر لا يستحقونها وينسب لهم مواقف لم يكن لهم فيها شيء من الفضل ، ومن الطبيعي أن يغفل ذكر عيوبهم ومساوئهم وأخطائهم .

ومن هذا القبيل أرجوزة ابن عبد ربه التي ذكر فيها مغازي الخليفة الأموي الأندلسي عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر ويقول في مطلعها :

سبحان من لم تحوه أقطار ولم تكن تدركه الأبصار
ومن عنت لوجهه الوجوه فما له ند ولا شبيه
سبحانه من خالق قدير وعالم بخلقه بصير
وأول ليس له ابتداء وآخر ليس له انتهاء

ثم يبدأ الدخول في الموضوع فيقول :

أقول في أيام خير الناس ومن تحلى بالندى والباس
ومن أباد الكفر والنفاقا وشرد الفتنة والشقاقا
ونحن في حنادس كالليل وفتنة مثل غثاء السيل
حتى تولى عابد الرحمن ذلك الأغر من بني مروان
مؤيد حكّم في عداته سيفاً يسيل الموت من ظباته

والقصيدة مقسمة حسب السنوات ، فهي على نمط الحوليات التاريخية ، وهي حافلة بمدح عبد الرحمن وإكباره والإعجاب بمواقفه وأعماله ، وذكر الأماكن التي انتصر فيها عبد الرحمن وأخضع أعداءه ، وفل شوكتهم ، وفرق جموعهم ، ووصف غزواته ونسفه للحصون المنيعة وفرضه الشروط الشديدة على أعدائه الثائرين ، ونغمة المدح التي التزمها ابن عبد ربه في أرجوزته تجعله بطبيعة الحال يجور على الحقائق التاريخية خشية أن يجرح شعور الخليفة ، وذكر الوقائع على حقيقتها يقتضي الإشارة إلى مواقف قد يسوء الخليفة ذكرها أو ذكر أعمال قد يروقه إغفال أمرها ، فهي مثل أرجوزة ابن المعتز وقصيدة أبي فراس لا تغني عن استشارة المراجع التاريخية للتثبت مما ورد فيها .

وربما كانت قصيدة أبي فراس أقرب هذه القصائد الثلاث إلى الشعر وأجدرها بأن تسمى قصيدة ، ففيها أبيات ممتازة قوية النظم بليغة الأداء ، وتمتاز أرجوزة ابن عبد ربه بالسلاسة والسهولة ، أما أرجوزة ابن المعتز فلها قبل كل شيء فضل السبق والتقدم وإخضاع الشعر العربي لهذا النوع من السرد التاريخي .

وقد سار على هذه الطريقة أديب أندلسي آخر من شعراء الذخيرة وهو أبو طالب عبد الجبار من أهل جزيرة شقر ، وكان يعرف بالمتنبي ، ويقول عنه ابن بسام : « إنه أبرع أهل وقته أدباً ، وأعجبهم مذهباً ، وأكثرهم تفنناً في العلوم ، وأوسعهم ذرعاً بالإجادة في المنثور والمنظوم » ، ولعبد الجبار هذا أرجوزة في التاريخ يقول في مقدمتها : إنها في معنى ما تضمنته كتب التاريخ ، وإنه « قطف عيون زهرها ، والتقط مكنون دررها ، واقتصر على أقلها دون أكثرها ، مما لا يسع جهله ، وحذف كل حديث يتطفل وخبر يتسلسل » ، وقد ذكر فيها تاريخ فتح الأندلس وما اتصل بذلك من أخبار أملاكها إلى وقته وهو القرن الخامس الهجري ، وذكر من وليها من بني أمية وغيرهم ، وذكر كذلك خلفاء بني العباس في الشرق ، ومن قوله فيها عن دولة المرابطين :

فإذ أراد الله نصر الدين استصرخ الناس ابن تاشفين
بجاءهم كالصبح في إثر غسق مستدركاً لما تبقى من رمق
وانقض أبو يعقوب كالعقاب جرد السيف عن القراب

وهذه الأرجوزة قوية النظم حسنة السرد تلخص حوادث التاريخ تلخيصاً لا يخلو من نفحة الشعر وجمال الفن وتستحق أن يلتفت إليها ويرجع لها في القسم الأول من المجلد الثاني من كتاب الذخيرة .

وفي قصيدة ابن عبدون التي رثى بها بني الأفطس إشارات تاريخية بارعة في أسلوب شعري مؤثر ، وأحسبها من أجمل القصائد التاريخية في الأدب العربي ؛ ودواوين أكثر الشعراء تلقي ضوءاً باهراً على تاريخ العصور التي عاشوا بها ، وكثيراً ما نجد بها أوصافاً بارعة للمواقف السياسية ، والوقائع الحربية ، والحوادث المعاصرة ، وقد كانت تخدم الغرض الذي تخدمه الصحافة في عصرنا الحاضر ، وقد كان الشعراء إلى حد كبير يعبرون عن الحوادث المعاصرة ويصفون أثرها في عواطف الشعب ، وليس ذلك بالغريب ، لأنهم ألسنته الناطقة وقلوبه الخافقة ، والعلاقة بين الأدب والتاريخ بوجه عام وبين الشعر والتاريخ بوجه خاص علاقة أكيدة لا انفصام لها ، فهما يتعاونان على تصوير الحياة ووصف تجاربها واستخلاص عبرها وتفهم أسرارها .

علي أدهم

والآن .. ما رسالة الأدب ؟؟ ..

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

نشب النزاع على رسالة الأدب منذ قرن من الزمان حين طلع الرأى الذى دعا الأدباء إلى النزول من برجهم العاجى إلى ميدان الحياة . وعلى الرغم من أن هذا الرأى الذى يدعو إلى الأدب الملتزم ، أى الأدب المكافح فى ميدان الحياة بغية معاونة الشعوب على التقدم ، أخذ ينمو ويشتد ، والتف حوله الأنصار ، فإن معارضيه مازالوا أقوياء الشكيمة ، ينافحون عن وجهة نظرهم بدعوى لاتزال تلقى آذاناً مصغية ، دعوى ظاهرة الوجاهة ، واهية الأساس ، تستند إلى ضرورة ترك الأدباء أحراراً فى اضطلاعهم بمهمتهم ، تضرب أقلامهم خبط عشواء فى الميدان الذى تدودهم إليه أهواؤهم . فحرية الأديب فى زعمهم جوهر أعماله الأدبية ، والمصدر الذى ينبع منه فيض خاطره ، ومحاولة الحد من تلك الحرية تجتث لا محالة جذور دوحة الأدب ، فتجف أعوادها ، وتذبل أوراقها ، ولا يلبث أن يدركها الموات .

ونحن نؤمن مع هؤلاء بأن الأدب لايزدهر إلا إذا تم بالحرية ، وأنه يستحيل تسييره كالقطار على قضبان حديدية . ولكننا نؤمن مع ذلك بضرورة نزول الأدب إلى معمعان الحياة ، ولانرى تعارضاً بين ذلك الالتزام وبين الحرية ، فالأدب الملتزم وليد العطف والرحمة ، والتعصب للحق ، ومناجزة الظلم ، والمشاركة العاطفية . فى حين أن أدب البرج العاجى وليد الانطواء على النفس ، والاستغراق فى الأنانية ، ونضوب خوالج النخوة والمروءة والنجدة ، ومن الواضح أن السجايا الأولى ليست إلا سجايا الحرية والانطلاق ، بينما الخصال الثانية خصال الرق والانزواء . فالحر الأبى لا يستطيع أن يسكت على الظلم فلا يعمل على دفعه ، وعلى الشقاء فلا يعمل على تبديده ، وهو لايستطيع إلا أن يشارك من حوله فيما يشعرون به من أتراح وأفراح ، فإذا شارك شعبه فى ذلك كانت نخوته وطبعه الحر أوسع مدى ، وإذا شارك شعوب الأرض العانية الشقية بلغ تمكن الحرية منه المدى الأوسع ، وإذا كانت المشاركة فى مشاعر الغير تمدداً وانطلاقاً ، فإن الأثرة رق واحتباس ، لأنها تحصر صاحبها فى نطاقه الضيق بعد أن تحجب عنه فسحة الإنسانية وطلاقتها . ليست حرية الفنان فى تركه منغمساً فى ذاته يتطلع قلبه وراء أهوائها الرخيصة الفانية أنّى شاء ، وكيفما أراد ، ولكنها طبيعة فيه تخلع صفاتها السابغة على أعماله .

ليست الدعوة إلى الأدب الملتزم دعوة إلى التحكم فى رقاب الأدب ، ولكنها لفت لنظر الأدباء الغافلين إلى ما يدور حولهم من صراع بين كل من الخير والشر ، وكل من الحق والظلم ، فمن كان منهم حراً أبياً ، دفعته نخوته إلى الميدان ، ومن كان ذليلاً تافهاً ظل يبكى على ليلاه ، وليس هناك على الحالين قسر أو إرغام . والأديب الذى تتصل مشاعره بمشاعر شعبه والشعوب الناهضة فى سبيل تحسين حالها ودفع الحيف عنها ، تتسع حياته اتساع الإنسانية ، وتخلد فيها . أما الأديب المنزوى فى برجه ، فلا تعدو حياته محيط نفسه ، ولا يستطيع أن يخلص من الضيق والملل والخوف من الفناء الذى يتهدده من كل جانب . ونحن لن نطلب من مثل هذا أن ينزل إلى الناس ويعيش كالناس ليجيبنا بأنه حر طليق لا يجوز لأحد أن يمس حريته ، ولكننا نبصره وهو مكبل بما يسميه الحرية ، بأن أدبه التافه الذى لا يقرأه إلا من هم على شاكلته ، سوف تذروه الشعوب هباء حين تستطيع تحطيم قيودها ، ورفع الشقاء الذى أسدله المستبدون على عيونها .

إن النوائب تبصر الناس بالحقائق . وأحسب أن المحنة التى تمر بها مصر اليوم جديرة بأن تحسم الخلاف الذى نشب بين أدبائنا على مذهب الأدب الملتزم . فما من شك أن كل حامل قلم فى مصر قد أفاق اليوم ، وأدرك الواجب الملقى على أكتافه ، ولم يعد ينظر إلى الأدب التافه الذى لا يعنى فيه الكاتب إلا بذاته أو بأفراد آخرين أترين على شاكلته ، لم يعد ينظر إلى مثل ذلك الأدب إلا نظرة استخفاف واستهجان . لقد كشفت محنتنا الحاضرة عن تفاهة ذلك اللون من الأدب ...

إننا لم نكف قط عن مطالبة أدبائنا بتحويل أدبنا الحالم إلى قوة فعالة تتأثر بحياة الشعب المصرى تؤثر فيه ، وتعينه

على رفع مستواه الفكري والأدبي والمادي . وإذا كانت هذه الدعوة لم تلق فيما مضى ما هي قمينة به من رعاية وعناية ، فإن الظرف الحاضر قد هيأ الأسماع للإنصات إليها ، وهيأ النفوس لأخذها مأخذ الجد .

وكم من أديب أخطأ في فهم هذه الدعوة على حقيقتها ، فظن أن الأدب الملتزم هو الذي يصور شقاء الطبقة الفقيرة من المجتمع تصويراً آلياً ، أو يردد صيحات سخطها شعراً أو نثراً ... لا ، ليست هذه رسالة الأدب الملتزم ، ولكن رسالته تنحصر في تصوير كفاح المجتمع لنيل حريته ورفع مستواه ، ثم في تبصير ذلك المجتمع بمواطن قوته ومواطن ضعفه ، وفي تمكينه من مضاعفة قوته ومعالجة ضعفه ، ثم تمهيد سبيل تطوره ، ودفعه إلى الأمام في تلك السبيل ، ونستطيع أن نختصر ذلك فنقول : إن على أدبائنا أن يكونوا في طليعة التطور ، وأن يقودوه إلى الأمام .

وكم من كاتب أو شاعر وقف نفسه على استثارة المظلومين وإلهاب حماستهم بتصوير فداحة الظلم وبشاعته ، وحسب أن في الاقتصار على هذه الناحية العاطفية الكفاية ، ولكن العاطفة التي لا تقوم على أساس من الإدراك والفهم تخمد في مثل السرعة التي يستغرقها اشتعالها ، ولذلك كان من حق الشعوب على الأدباء أن يعمل هؤلاء على تنوير الأذهان ، والتبصير بالحقوق والواجبات ، والتحذير من حيل الغاصبين والنهازين ، وأن يكون الدعم في ذلك إقامة عواطف الشعوب على أسس من الحق والعدل الواضحين ، فالعاطفة التي يبررها العقل ويؤيدها ، تزداد على مر الأيام قوة واشتعالا ...

إن آدابنا وفنوننا تطفئ على الأغلب جذوة الحياة في القلوب ، وتخمد نسمها في الصدور ، فالمستمع إلى أغنية من أغنياتنا لا يلبث أن يذهل عن نفسه ، فهي تعزله عن الحياة ، وتبعده عن الواقع ، وتشطح به في عوالم من الأحلام الغريبة والأوهام الخادعة ، وليس تأثير ألحاننا وأشعارنا وقصصنا يختلف عن تأثير أغانينا ، فكلها سواسية في تغليب الأوهام على الحقائق ، أما آداب الأمم الحية وفنونها فلا تنفث الحياة في صدور أبنائها فحسب ، ولكنها تضاعف قوتها وفتوتها ، إن تلك الآداب والفنون تعبير صادق عن الحياة المتدفقة المتطورة المتقدمة ، ولذلك نراها تساعد في رد فعلها على تدفق الحياة وتطورها وتقدمها ، وإذا كنا قد غفلنا فيما مضى عن شدة حاجتنا إلى مثل تلك الآداب والفنون ، فلا عذر لنا اليوم إذا ظللنا غافلين ... لا عذر لنا إذا لم نبذل قصارى جهدنا في سبيل توجيه الأنظار وتهيئة الظروف لازدهارها .

وأختم هذا النداء ، أو هذه الصيحة ، بنداء آخر عبرت به شعراً عما جاش في صدري ، ولا أحسب إلا أن كثيرين غيري يشاركونني فيما شعرت به ، ولا بد أن يدفعهم هذا الشعور إلى ضم صوتهم إلى صوتي في الإهابة بالأدب أن يؤدي واجبه المحتوم .

ضقت ذرعاً بانفرادي   ضقت ذرعاً بخيالي
أنزلوني من سماوا   تي إلى دنيا الفعال
شئت نفسي دنيا الـ   ـوهم أو دنيا الضلال
ضقت ذرعاً بخيالي

لمَ لا أمشي كغيري   وكما تهوى الحياة ؟
أأنا منقطع السـ   ـند (م) كما قال الغلاة
غردوا بي وأضلو   ني فإذا عيشي فلاة
صفرت من الحياة

أنزلوني من ذرا الوهـ   ـم إلى دنيا الحقيقه
أنا لا أحفل بالوا   قع وحسي ورفيقه
باطل هذي الخيالا   ت وأوهام عتيقه
عشت وجداً بالحقيقه

كيف لا أهتم إلا   بأراجيفي وذاتي ؟
وجموع الناس تشقى   وتعاني في الحياة ؟
أأنا الشاعر والنا   س بيأسو وبواتي ؟
كيف أهتم بذاتي ؟؟

كيف ألهي الناس بالزخـ   ـرف والحرب تدور ؟
في سبيل العيش والدنـ   ـيا بأهليها تمور ؟؟
كيف ألهيهم وقد هدّ (م) دم خسف مثير ؟؟
إنما الدنيا تمور ...

إنما الحسن هو الحق (م) ولا حسن سواه
إنني أعبده عشـ   ـقاً وأجفو ما عداه
ليس لي في عالم الحسـ   ـن هوى غير هواه
ليس لي غير هواه

أنزلوني من سمائي   أشركوني في الكفاح
إنما الشاعر رب الـ   ـحق والقول الصراح
وهو لم يخلق للهو   ومجون ومراح
أشركوني في الكفاح

محمد مفيد الشوباشي

ثورة فى دراسة التراث المصرى القديم

— ٣ —

للأستاذ محمد عبد الحليم محمود

رد الأستاذ فاريل :

اليوم وقد أوشك عهد عقائد الجبرية على الانتهاء ، تعاد جميع المشاكل إلى مائدة البحث ، سواء فى ميادين دراسة الحضارات الشرقية القديمة ، أو التنقيب فى العلوم الكيميائية ، الطبيعية أو البيولوجية ، يجدر لنا إذاً أن نتأمل فى تؤدة بين النظريات المختلفة فيما يختص بمصر القديمة ، ويسرنى أن أبين رأيى الشخصى فى الموضوع ، بيد أن خطورة المسألة تضطرنى إلى تحديد موقفى فى دقة تامة ؛ وأنا أرفض قبل كل شىء تصور فكرة المعبد المصرى كما يريد تقريرها الأستاذ دريوتون .

فالهياكل الكبيرة المتلاحقة على ضفاف النيل لم يبنها الفراعين بطريقة تعسفية ومحض اختيارهم ، بل هى قد أنشئت حسب خطة عامة شاملة ترجع إلى أوائل عهود الأسرات بمصر . فالملوك المصريون لم يتكلفوا مشقات الإنشاء والعمارة فى سبيل إشباع ذوق جمالى خاص أو إطفاء نزعة غرور طارئة ... ولم يتمادوا فى التعدى على تراث أسلافهم وفى محو مخلفات العهود الماضية لمجرد لذة شخصية أو منافسة مؤقتة . ولكنهم ، على النقيض من ذلك ، حاولوا التمسك بأهداب سُنّة عُرِفَتْ منذ أول عهود حضارتهم ، تلك الحضارة التى بدت ناضجة مكتملة العناصر منذ بدئها . ولقد أعلن الأستاذ دريوتون رأيه الصريح فى هذه المسائل المختلفة . وسوف أشرح ، معتمداً على المراجع التى لجأ إليها الأستاذ ، أن استنتاجاته وتقريراته تحتاج إلى مراجعة شاملة ...

الفرعون والصفات الإلهية الكونية(١) :

أريد قبل الدخول فى صميم الموضوع أن ألخص الاستنتاجات التى عرضناها فى كتاباتنا السابقة حول العقائد المصرية الخاصة بالله وبالصفات الإلهية الكونية وبالملك . وإن تجارب عشرين عاماً خلال مناطق الحفائر قد أظهرت لنا أن المعبد الفرعونى مصمم باعتبار أنه « هيكل حى » ، وأنه تعريف مادى المبدأ الطبيعى « نيتير » الذى يحتوى عليه وينبغى له إظهاره . والنيتير مجمل الصفات الإلهية الكونية التى يمثلها الملك . ففرعون فى مدوناته (Cartouches) ونظمه (protocole) خلاصة النيتير فى عصر من العصور ؛ وتاريخ الأسرات جميعه ماهو إلا نقل رمزى بارع لهذه الفكرة للملكية خلال الزمن ، والمعبد إن هو إلا تجسيم للمبادئ المجردة التى تؤثر على تاريخ الأسرات . وإذا كانت قوى النيتير المركزة فى معبد تتفاعل وتتطابق فى دورات معينة ، فإن الأزمنة الخاصة المقابلة لهذه التطورات تستوجب تغييرات هامة فى مبنى الهيكل .

ويجدر بنا فى مثل هذه المناقشة أن نقدم حججاً ، وأن لانقتصر على إبداء الآراء ، لذلك فسوف نعمد إلى تطبيق ماسبق على الأمثلة التى اتخذها الأستاذ دريوتون من معبدى إدفو ودندرة . والأول مخصص لعقيدة حوريس الشمسية ، والثانى لعقيدة حتحور القمرية .

كان معبد إدفو فى القرن الثالث قبل الميلاد يفتخر بأنه قد حقق فى تصميمه تحقيقاً دقيقاً نظريات « كتاب الخطط المسيِّرة لمعبد النيتير(١) ، ألفه الرئيس الديني إمحتب ، ابن بتاح الكبير » ، الذى كان يعيش فى عهد زوسر (الأسرة الثالثة ، حوالى سنة ٢٧٧٠ قبل الميلاد) ... وقد اكتشف العلامة « برسانتى Barsanti » ، فى عام ١٩٠٦ ، عند الناحية الشرقية لفناء معبد إدفو ، أول آثار عرفت لمعبد يسبق فى تاريخه عهد البطالسة ، وبه مدونات لملوك يحملون اسم رمسيس ، وهم مثال الفراعين المؤمنين بالعقائد الشمسية

والمهندسون الذين أعادوا بناء معبد دندرة فى أواخر عهد البطالسة يذكرون « خطة تحوتمس الثالث الكبرى

(١) ويسميها « نتير » « Neter » .

(١) Livre du programme conducteur du Temple du Neter.

التجديد والإصلاح » (١٤٥٠ — ١٥٠٤) ، تلك الخطة التي تعتمد على كتابات قديمة ترجع إلى عهد خوفو (حوالي ٢٦٩٠) . ولا نستطيع الشك في أن توتموزيس كان يمثل العقيدة القمرية ، لأن اسمه يعني « ابن توت » أي تيتير القمر ومقدر الأزمنة القمرية .

ففي كلا الحالين إذاً نجد الهياكل قد جددت حسب خطة سابقة وضعها الأسلاف في عهود فراعين يمثلون أكمل تمثيل مجموعات التيتير الخاصة بكل زمن من الأزمان ، في المجالات المحددة للشمس أو القمر .

حول « الدب الأكبر » :

إن أهمية اختيار « الزمن الكوني » المناسب لإقامة مبنى المعبد تتضح لنا جلية في المراسيم الخاصة ببناء معبد دندرة الذي ذكره الأستاذ دربوتون ، وذلك على شريطة أن لا نلتجئ إلى ترجمة موريه (Moret) القديمة ، بل نرجع مباشرة إلى المدونة الأصلية . والنقوش تظهر لنا كلاً من الملك والإلهة سيشات (Sechat) يغرس في الأرض وتداً ، وبين الوتدين خيط للبناء ممدود بحيث يكون على شكل دائرة، وهذا الخيط قد لف بحيث يسمح بنقل أحد الوتدين بالنسبة للاخر المثبت في الأرض ، مع مراعاة أن تبقى المسافة بينهما عند القياس واحدة . وعنوان المنظر هو : « مد حبل البناء في المعبد بين الوتدين » . والعبارات التي تجري على لسان الملك أثناء الحركة التقليدية هي : « قل : إني أمسك بالوتد وأقبض (لكي أغرسه) بنواع المطرقة . وآخذ بطرف خيط البناء مع الإلهة سيشات . وألتفت بوجهي نحو مدارات النجوم ، وأرى بصري نحو برج نجم الثور (وهو الدب) . والإله سيخ آهاو (أي توت) يقف بجانب الساعة ميرخيت (Merkhet) . وأعين الجوانب الأربعة لمعبدك (معبد حوريس) . » فالملك يختار إذاً لتعيين الأركان الأربعة من المعبد زمناً خاصاً يعرفه بمراقبة أفلاك نجوم الدب التي تعتبر عقرباً كبيراً لساعة إلهة « تحدد التاريخ بواسطة الساعة » . فالفرعون في الواقع يبحث عن « الزمن الفلكي » بالنسبة للزمن الأرضي الذي تعينه الآلة المذكورة ميرخيت ، فالمسألة ليست إذاً مسألة تصميم هندسي يُحدَّد بالنظر إلى الدب الأكبر ، كما زعم الأستاذ دربوتون في بعض مقالاته ، ولكنها مسألة قياس دقيق لزمن فلكي معين ، وهذه النظرية لا غبار عليها ، بل لا جدال فيها من ناحية علم الفلك .

خلط في الترجمة :

ولنأخذ الآن في دراسة النصوص التي فيها يفتخر بعض الفراعين بإصلاحهم وتجديدهم لمعابد قديمة . والأستاذ دربوتون يذكر لنا خمسة من هذه النصوص ترجع إلى عهد توتموزيس الثالث ، معتمداً في ذلك على كتاب بريستيد الذي مرّ عليه منذ ألفه قرابة نصف قرن من الزمان . وأنا أدعو الأستاذ دربوتون إلى الرجوع إلى ترجمات أحدث لهذه النصوص كي يرى مدى الخطأ الذي يوقعنا فيه استعمال الترجمات القديمة المعتمدة على نقل غير صادق للنقوش وللمدونات ، وقد نشر العالم الألماني بورشاردت Borchardt إحدى الجمل المذكورة ، من بعد بريستد ، فرأينا أنها لا صلة لها بتاتاً بالموضوع الذي نناقشه . أما الأمثلة الأخرى فهي مليئة بأغلاط الترجمة . وإذا نحن رجعنا إلى الوثائق الأصلية فسوف نجد أن الكتابات التي ذكرها الأستاذ دربوتون ليست في الواقع إلا عبارات قليلة جُزّئت بطريقة تعسفية من نصوص مطولة ومبهمة ، ولا يمكن أن تقرأ على حدة . ودراسة هذه النصوص المطولة لا يمكن نشرها في هذا المجال الضيق ، ولكننا على استعداد تام لمناقشتها مع الأستاذ دربوتون في نشرات علمية ، إذا رأى في ذلك فائدة ترجى . وسوف أقصر اهتمامي في هذا المقال على بعض تلك المدونات ، كما سوف أستخرج منها الخطوط الرئيسية والنقاط الهامة في مجال البحث .

وهي تبتدئ قبل كل شيء بمجموعة من كلمات المديح تبين جانباً خاصاً من شخصية الفرعون صاحب العبارة ، إذ تصل بينه وبين مبادئ التيتير التي يعمل من أجلها . وهذه المدونات تصف بعد ذلك معبد التيتير القديم في إبان زواله . ثم تعمد إلى سرد خصائص للمعبد الجديد ... وتعين المواد التي سوف يبنى منها ؛ مثل الحجر الرملي (رمز العنصر الأرضي) الذي يحل محل الطوب (المتخذ من طمي النيل ... أي العنصر المائي) . ويطلق على هذا الحجر الرملي اسم الحجر

الأبيض (روجيت ، Roudjet) . وأحد مقاطع هذه الكلمة يدل على معنى النمو النباتي . وأخيراً تنتهي المدونات بتقرير أن الهيئة الجديدة للعمارة التامة لم يكن لها مثيل من قبل .

ومن الواضح إذاً أن هذه النصوص تدل على الاتصال والتجاوب بين تصميمات الملك وخططه وبين المراحل المعينة لدورات الأفلاك التي تنطوي على أسرار مستقبل الملوك والأسرات . وبالتالي فنصوص المدونات الخاصة ببناء المعابد لا تدل على معان رمزية فحسب ، وإنما هدفها الأول أن تحفظ في قالب رمزي علماً رقيباً .

فبناء معبد التيتير هو في الحقيقة تجسيم لفكرته — بكل معانيها — في حدود المواد البنائية الخاصة والمقاييس الملائمة والشكول والنصوص المبينة . وإن تلك الفكرة المجسمة في هذه الصورة ، قد سجلت بذلك للأبد في جوهر الكون .

... وسعة الحلود التي تفرض لهيا كل القائمة لا تتنافى أبداً مع فكرة التجديد الضروري لهذه الهياكل نفسها في المستقبل ، كما يزعم الأستاذ دريوتون ... فالعمل الذي تم في مرحلة فلكية معينة سوف يبقى ويسجل في كل تجديد يطرأ وكل عمارة تقام ...

شهادة النيل :

وهناك ظاهرة طبيعية كان البناءون في عهد الفراعين يستطيعون بواسطتها تعيين عمر الهياكل التي يقيمونها : تلك الظاهرة هي ارتفاع مستوى مياه النيل . وفي أغلب الحالات كان ارتفاع المياه إلى مستوى أساسات المعبد هو السبب المباشر لتجديده . ونحن نعلم أن مياه النيل تحمل في كل سنة طبقة معلومة من الطمي ترسبها في الوادي والمجرى فيزداد ارتفاع المياه تدريجياً . وهذا الازدياد المطرد في الارتفاع كان يمكن حسابه بسهولة . وإننا نعلم جيداً مقدار الأهمية التي كان المصريون يعلقونها بالمقاييس النيلية التي تكثر في المعابد . فلا عجب في أن ينتفعوا بها لمثل هذه الأغراض .

وتخبرنا النصوص الخاصة بتقاليد البناء أن العادة جرت على حفر الأرض في المكان المزمع إقامة المعبد عليه حتى مستوى الماء . وأظهرت الحفائر الحديثة التي قام بها الأستاذ روبيشون Robichon بالكرنك أن أساسات البناء كانت تقام على هذا المستوى المذكور .. وبواسطة بعض العمليات الهندسية في هذه الأساسات كان البناء يستطيع أن يحسب بدقة المدة التي يبقى فيها المعبد بعيداً عن المياه ، فيجعل تاريخ انهيار البناء بالمياه موافقاً لتاريخ الانقلاب الفلكي الذي يحبه علماء الفلك ... وهكذا يأخذ النيل على عاتقه مهمة تنبيه الناس (إذا كان فيهم من ينسى) إلى أوامر السماء ...

ملاحظات أثرية :

ولننظر الآن في النتائج التي أدت إليها اختبارات علم الآثار : إذا ما تأملنا في بناء معبد « مُجَدَّد » ، وجدنا فيه عناصر قديمة من معابد سابقة « وأعيد استعمالها » حسب مبادئ تتكرر في كل الحالات . ولا سبيل إذاً إلى إنكار أهميتها . فهناك قطع من الحجر المزخرف في نقوشها ذكر مبدأ التيتير للمعبد ، نقلت من البناء القديم ووضعت في زوايا خاصة من البناء الجديد ، بينما وضعت قطع أخرى منها عند تقاطع الجدران . وإذا كان الحجر القديم قد استعمل بحيث يبدو الموضوع المنقوش على وجوهه مقلوباً فمعنى ذلك أنه يراد به الرمز إلى الجذور القبلية للمعبد الجديد . وقد استعمل المصريون بعض أجزاء الأبواب القديمة في عتبات الأبواب الجديدة كما وضعوا قطعاً من الأعمدة السابقة كبذور رمزية في أساسات « البراكن » اللاحقة . ونستطيع أن نقول في تعبير عام : إن المواد البنائية المتخذة من الأجزاء العليا للمعابد القديمة كانت توضع في المباني السفلى للمعابد الجديدة . والمعنى الرمزي الذي نأخذه من هذا المبدأ هو أن بذرة النبات الذي انقضى أجله قد غرست في الأرض لتنتج نباتاً بكراً . وقد تصنع في جوف البنيان الجديد مجموعات صغيرة من الأحجار القديمة المنقوشة .. ولا غرض من هذه الأحجار سوى مجرد « وجودها » في هيكل البناء . وهذه الرغبة المستمرة في إخفاء بعض اللوحات والنقوش تحت أطلال متراكمة من المواد البنائية تدل دلالة قاطعة على فكرة تصميم المعبد في الأذهان . الفكرة المشبعة بالسحر والباطنية . وليست هي بالفكرة الساذجة ، كما يزعم الأستاذ دريوتون ، إذا قورنت بفكرة إخفاء الأشياء التذكارية والتمائم في جدران المقابر (وذلك يحدث في كثير جداً من الأحيان) . والمهم في كلتا الحالتين هو عملية وضع الحجر المنقوش أو التميمة

السحرية في صميم البناء ، وليس كيفية انتفاع الأجيال بهذه الأشياء .. ويتحتم علينا هنا أن نتخلص كلية من تصورنا العصري لفنون البناء . فنتتبع الوقائع وننظر فيما تكشف عنه الحفريات ثم نخلص بعد هذا إلى خصائص العقلية المدبرة لكل ذلك ، مهما كانت تلك العقلية مغايرة لعقليتنا نحن أبناء القرن العشرين . ولا نستطيع أن ننكر أن الكتابات المصرية القديمة تذكر دائماً العمل السحري على أنه العمل الذي ينبغي في الزمن الذي ينبغي ! وإزاء هذا ، وفي ضوء الملاحظات الأثرية العملية ، تظهر لنا هندسة البناء المصرية في جوهرها كأنها ضرب من « التسجيل » أو كأنها « كتابة » من نوع خاص ...

حفريات الأستاذ روبيشون Robichon : وخير مثل أسوقه لتطبيق المعلومات السابقة هو ما توصل إليه الأستاذ كليمنت روبيشون من نتائج باهرة خلال دراسته لمعبد مونتو Montou بالكرنك . والبناء الظاهر الآن من هذا المعبد ليس في الواقع إلا تجديداً لأبنية معابد سابقة ، وهو من إنشاء أمينوفيس الثالث (١٤٠٥ — ١٣٧٠) ، الذي وسعه في مرتين متتاليتين . ثم جاء الملك الأثيوبي طهرقة Taharka (٦٩٠ — ٦٦٤) فأضاف إليه مجموعة من الأعمدة ، ظلت قائمة زهاء خمسة قرون ، فعمد أولو الأمر في عصر البطالسة إلى « طيّها » ، وإدخالها في أساسات مجموعة جديدة من الأعمدة .

وفي سنة ١٩٤٣ كنت قد عثرت على مدونة غريبة لهذا المعبد ترجع إلى عهد أمينوفيس الثالث ، وقد نشرتها في إحدى الرسائل(١) . وهذه المدونة تذكر اسم الهيكل وخصائصه ، وتصف غلافه ، وبلاطه المطلي بالفضة ، وأبوابه المكسوة بالذهب ، ومسلاته العظيمة ، ثم تتحدث أخيراً عن ذبح الآلاف من الثيران قرباناً لإله المعبد .

وفي سنة ١٩٤٩ عمد الأستاذ روبيشون بطريقة علمية ناجحة إلى دراسة الأساسات التي أنشأها البطالسة لهذا المعبد عندما جددوه لآخر مرة ، فاكتشف في صميم هذه

(١) Karnak,I, P. 61.

الأساسات مجموعة أحجار من عهد الملك طهرقة « أعيد استعمالها » ، وشكلت بحيث تكون لوحة معينة تصور حفل التضحية بالثور(١) . وفوق هذه اللوحة مباشرة وُجِدَ حجر آخر « أعيد استعماله » هو أيضاً ، ونقشت عليه صورة التضحية تماماً كما في اللوحة المذكورة ، ويحمل هذا الحجر المنقوش آثاراً حمراء تدل على السكاب الدم فوقه . وهذا يعني أن الثور قد ذبح قرباناً للإله مونتو في عهد البطالسة عند التجديد الأخير على حجر من أحجار المعبد القديم تمثل نقوشه طقوس القربان .

ثم قضت التعاليم المقدسة بترك هذا الحجر فوق اللوحة التذكارية ليكون الاثنان شاهدين يدلان على إتمام الواجب المفروض ، وهكذا — بعد مضي ثلاثة عشرة قرناً على عهد أمينوفيس الثالث — ظلت الأعمال السحرية التي يحتمها التبشير الحق ، تقام وتسجل بمختلف الطرق في صميم بناء المعبد الذي أنشيء لهذا التبشير .

المغزى المستفاد من المعبد :

كل معبد يعرض في زخارفه ونقوشه مجموعة مختارة من المناظر ، وكل المغزى الباطني للمعبد كامن وراء الاختيار الخاص لهذه المناظر ، فكل منظر من المناظر المصورة على الجدران يجب اعتباره رمزاً معيناً . وتتابع هذه المناظر يسمح بالتعبير عن فكرة فلسفية جيدة ...

وقد جُعِلَ المعبد ليكون مقراً للتبشير . والتبشير ليس سوى صورة للمعنى « الكلي » المتفرد : فالمغزى العام الذي يستفاد من المعبد هو أنه سفر خالد لتاريخ تكوين العالم ؛ وعلى أن يسجل كل فصل من فصول هذا السفر تسجيلا معمارياً دقيقاً بواسطة التجديدات أو الإصلاحات المتتالية في بناء المعبد .

وإن الطقوس التقليدية التي يقيمها الفرعون عند إنشاء معبد باسمه قد تختلف في التفاصيل حسب العصور المتتابعة ، ولكنها في جوهرها لا تخرج عن أركان ثلاثة : (١) صناعة قالب من طمي الأرض ، يشبه في صورته جسم الإنسان ،

(١) Leclant, Orientalia, Vol. 19 (48 et 49).

واتخاذه تذكارا رئيسياً بين الحفلات التي تتركز في أساس البناء — (٢) إنشاء المعبد من مواد بنائية جديدة تتخللها مواد وأعيد استعمالها ، بحيث تدل على « أصول » البناء الجديد — (٣) « إهداء العمارة إلى ربها » ، أى تلاوة عزائم سحرية لدعوة الإله إلى الدخول في صميم معبده كي « يحييه » …

خفايا الأشياء :

إن عقلية القدماء الفلكية تنازع بأنها تربط ربطاً مستمراً بين مظاهر وصور ذات صلات تقليدية معلومة . وكان الناس في عهد الفراعنة يرون في الكون سلسلة من الرموز تتجاوب بعضها مع البعض الآخر …

وعندما يقدر الرجل الغربي أن يخشى المعبد « الحي » الذى أنشأه الفكر الفرعوني ، سوف يحار لاشك قليلا أمام التعقيدات التي يعرضها هذا القصر الأرضي للإله … ولكن حيرته مصيرها إلى زوال … أما العالم الغد بمنطقه ومنهجه العلمي ، والذى يتكر ما كان باستير Pasteur يسميه « خفايا الأشياء » ، فسوف تظل حقائق المعبد مغلقة أمامه أبداً …

ولم أكن أسمح لنفسي بأن أقف أمام مدير مصلحة الآثار الذى أكن له كل الاحترام مثل هذا الموقف المضاد لو أن الأمر اقتصر على خلاف مدرسي بسيط في بعض التفاصيل ، مما لا يندر قيامه في المجال العلمي بين جيلين من الباحثين ، ومما يتكفل الزمن بإصلاح المعوج فيه . ولكن المشكلة التي نحن بصددها ليست أمراً بسيطاً ، وإنما هي ذات أهمية كبرى وينبغي لها علاج سريع ناجع ، فلا أقل من أن يثار الجدل حولها في مناقشة عامة شاملة ؛ ذلك لأن حل المشكلة تتوقف عليه مناهج البحث والحفر في المعابد ثم طرق المحافظة عليها .

وعلى علماء الإجيبتولوجيا اليوم أن ينتزعوا من فكرهم سائر النظريات القديمة في جميع ميادين البحث ؛ لا انتقيص من قيمة جهود سابقيهم المشكورة ، ولكن للتأمل في المسائل المختلف عليها دون هدف سوى الوصول إلى الجواهر الدقيقة . وعليهم أن يتجرأوا فيتخلصوا من كل تحفظ جبان وعلم تقليدى أجوف ، وأن يتحرروا من سائر الأفكار الاصطلاحية الضيقة … وبذلك فقط يكون في إمكانهم أن يقدروا حق قدرها قيمة المعارف والعلوم التي توصل إليها المصريون القدامى ، وحجبوها بطرق متعددة سرية في معابدهم … وبذلك فقط يستطيعون أن يبحثوا بحثاً علمياً صحيحاً في التراث المصرى القديم ، وأن يعملوا على نشره وحمايته

(الأقصر في ٢٠ من إبريل سنة ١٩٥١) الكستندو فاريل

محمد عبد الحليم محمود

مع الفكر الأوربي المعاصر

للأستاذ مبارك ابراهيم

تكوين الباكستان

كتاب من تأليف ريتشارد سيموندز

The Making of Pakistan By Richard Symonds.

الباكستان وعدد سكانها ثمانون مليوناً هي خامس دولة كبرى في العالم ، وقد قامت على أساس من الوحدة الدينية أكثر مما قامت على الوحدة الاقتصادية أو الجنسية .

وهذا الكتاب هو أول كتاب يبحث بحثاً مفصلاً في نشوء الباكستان وفي وصف نهضتها وارتقائها منذ تم تكوينها عام ١٩٤٧ .

ومؤلف هذا الكتاب كان يعمل في مشروع الإغاثة في إقليم البنجاب أثناء اضطرابات عام ١٩٤٧ ، ثم عمل بعد ذلك مع لجنة هيئة الأمم المتحدة التي بعثت بها إلى الهند والباكستان .

وكتابه هذا صورة صادقة ركبت أجزاؤها إثر زيارات المؤلف لأقاليم الباكستان ، واستمدت حياتها من أبحاثه التي أجراها مع أناس لهم مكانتهم في مختلف البيئات .

وهو يقول في فصل من فصول كتابه جعل عنوانه : « المسلمون في الهند » :

قد يكون المسلمون الأولون الذين جاءوا إلى الهند قد أبحروا من الجزيرة العربية في حياة النبي محمد (ص) ؛ ذلك لأن التجار من العرب قد كانوا يعرفون منذ أجيال سابقة على الاسلام المواني التي تقوم على سواحل الهند الغربية .

وقد اتخذ بعضهم من تلك البلاد مستقراً له ومقاماً ، بل قد يبدو أن بعضاً من راجوات « مدراس » الذين كانت تقوم ثرواتهم على التجارة البحرية قد كانوا يحضون الشباب من رعاياهم على اعتناق الإسلام وعلى دراسة فنون الملاحة .

وذريات أولئك العرب ومن أسلموا على أيديهم ما زالوا يقيمون في البلاد التي تقع على ساحل « ملبار » .

ثم يستطرد فيقول : ولا يظن الظانون أن انتشار الإسلام في الهند كان — في الكثير أو القليل — بدافع من الخوف ، ذلك لأن الجيوش الإسلامية التي غزت الهند منذ أيام السلطان « محمود الغزنوي » كان يصحبها ، بل كان يسبقها دعاة إلى الإسلام قد تحلوا بالجرأة والإقدام ، بل إن كثيراً من علماء المسلمين وصلحائهم قد هاجروا إلى شمال الهند يوم كان « المغول » يغزون قلب آسيا .

ويبدو أن أولئك الرجال الأتقياء قد نذروا لله على أنفسهم أن يجعلوا الناس الذين ظلوا عاكفين على عبادة الأوثان في تلك الأقاليم الهندية يدخلون في دين الله أفواجا ، كما يبدو أن الفضل في اعتناق أقوام « البنجاب » الغربية للإسلام لا يرجع إلى السيف ، بل يرجع — أكثر ما يرجع — إلى قوة حجج أولئك الأتقياء الصالحين .

ثم يستطرد المؤلف فيقول : إن الغزاة المسلمين يوم جاءوا إلى الهند لم يجيئوا معهم بنساء ، فكان لزاماً عليهم أن يتزوجوا من نساء الهند ، وقد تزوجوا — بزواجهن — عادات الهنود .

ثم يقول المؤلف في هذا الفصل من كتابه : إن السلطان « أكبر » (١٥٥٦ — ١٦٠٥) قد أخضع لحكمه كل أنحاء شبه القارة الهندية ما عدا الطرف الأقصى الجنوبي ، وإنه قد حكم « أفغانستان » أيضاً وإنه في أواخر عهد حكمه وبعد جدال طال أمده بين علماء المسلمين والهندوكيين والمسيحيين ، قد أسس هو ديانة جديدة كان هو شارح طقوسها ، ومفسر آياتها .

ولا شك في أنه كان يزعم بوضعه هذه الديانة أنه يجمع رعاياه كلهم في دين واحد ، ويرى المؤرخون من الهنود ، ويشايعهم في رأيهم جمهرة المؤرخين من البريطانيين أن « أكبر » هو أعظم أباطرة « المغول » وأكثرهم عطفاً .

ولكن بعض المؤرخين من المسلمين يصفونه بأنه كان كافراً مرتداً ، وأنه استباح المساجد ، وجعل منها مستودعات

البضائع ، وجواسيق تعزف فيها الموسيقى ، وأنه حرم على الناس أن يسموا أطفالهم باسم « محمد » ، وأنه نادى في الناس أن كل مخالفة عن أمر من أوامره سوف يجزى مرتكبها بعذاب جهنم في الآخرة .

وقال المؤلف في فصل من كتابه عنوانه : « المسلمون والقومية الهندية » :—

في عام ١٩٠٥ قام المسلمون يدفعهم الأمل المرجو في إصلاح سياسي جديد تقوم به الحكومة البريطانية المؤلفة من حزب الأحرار الذى تربع يومئذ في دست الحكم . قام المسلمون يومئذ باتخاذ خطوتين مهمتين ليصونوا مصالحهم ؛ أما الخطوة الأولى فكانت بقيادة « أغا خان » إذ ذهب على رأس وفد لمقابلة نائب الملك الجديد « لورد منتو » ، وذلك لإبداء الرغبة في حماية المسلمين حماية خاصة إذا كانت الحكومة النيابية سوف يمتد رواقها ، وطالب الوفد بدوائر انتخابية منفصلة يستطيع المسلمون بواسطتها أن ينتخبوا من يمثلونهم في المجالس البلدية ، والمجالس الزراعية ، والمجالس الإقليمية ، والمجالس التشريعية المركزية ، وهى المجالس التى توحدت وألف بينها عام ١٩٠٩ مشروع إصلاحات « مورلى — منتو » .

ثم اتخذوا الخطوة الثانية في نفس العام ، إذ قام نواب « وقار الملك » ، ونواب « دكا » فأعدا العدة لاجتماع يعقده زعماء المسلمين في « دكا » ، وهناك كونت العصبة المسلمة .

ثم يقول المؤلف في حديثه عن « مولانا محمد على » (١٨٧٨ — ١٩٣٠) إنه شخصية من ألمع الشخصيات وأكثرها جاذبية بين زعماء النهضة الإسلامية . وقد تلقى تعليمه في جامعة « عليكره » ثم في جامعة « أكسفورد » . وقد أنشأ صحيفته التى سماها « الرفيق » ، وهى صحيفة أسبوعية كانت تصدر باللغة الإنجليزية ، وكانت تطبع عشرين ألف نسخة ، وكان « مولانا محمد على » رجلاً جريئاً صريحاً لا يعرف أحابيل السياسة ، وكان يحسب علاج الأمور بالمداورة والمصانعة جرائم خلقية تعيب صاحبها وتشينه .

وكانت حياته تستمد فيوضها من منبعين وصفهما هو بقوله :— إذا كان الأمر أمر فريضة من فرائض الإسلام فأنا مسلم أولاً ، ثم مسلم ثانياً ، ثم مسلم آخراً ، ولا شىء غير مسلم .

وإذا كان الأمر يمس الهند فأنا هندى أولا ، ثم هندى ثانياً ، ثم هندى آخراً ، ولا شىء غير هندى .

وهو بوصفه مسلماً قد ناصر الأتراك ضد الإيطاليين ، وضد أمم البلقان ، وبقى هو على ولائه للأتراك طوال الحرب العالمية الأولى ، وفى أثنائها اعتقلته الحكومة ، ولما وقفت رحى الحرب ، خاض غمار معركة الخلافة ، وذلك لكى يستبقى سلطة سلطان تركيا كخليفة للإسلام .

وهو بوصفه وطنياً هندياً قد عاون « غاندى » أصدق المعاونة في معركة عدم التعاون ، وفى مقاطعة البضائع الإنجليزية وفى معركة المغزل ، وهو لم تفته فرصة أبداً في الكلام ، أو الكتابة ، أو في أن يحل به عقاب السجن في سبيل نصرة حرية الهند ، وكان هو زعيماً للمؤتمر الذى عقد عام ١٩٢٤ .

وفى عام ١٩٣٠ شهد مؤتمر المائدة المستديرة ، وفى كتابه المشهور الذى بعث به إلى رئيس وزراء انجلترا في ذلك الحين ، وهو الكتاب الذى كتبه قبل وفاته بيومين ، قد أوضح له أنه حتى لو اضطر إلى مخاصمة « غاندى » فهو لابد له من الدفاع عن حقوق المسلمين ، وأنه مالم تجب مطالب المسلمين السياسية فإن الحرب الأهلية في الهند لابد واقعة .

وقال المؤلف في فصل من كتابه سماه « المسلمون كأمة » وهو يتحدث عن المغفور له القائد الأعظم :—

توفى القائد الأعظم عام ١٩٤٨ . وولد في مدينة كراتشى عام ١٨٧٦ . وكانت أسرته من أسر التجار الأغنياء ، وفى السادسة عشرة من عمره سافر إلى انجلترا ، وهناك صعد نجمه كمحام من أبرع المحامين ، ولما عاد إلى الهند عمل محامياً أمام محكمة « بومباى » حيث درت عليه مهنته الكسب الوفير ، وكان طبيعياً أن يوجه التفاته إلى المسائل السياسية . وتفقه في السياسة على أصحاب الآراء المعتدلة من رجال المؤتمر القومى .

وفى عام ١٩٠٩ انتخبه مسلمو « بومباى » ممثلاً لهم في مجلس الحاكم العام التشريعى حيث لفت إليه الأنظار ، وكان أول عضو ظفر لتشريعه بمشروع قانون يحمى حقوقهم .

ولما كان القائد الأعظم من المدافعين عن استقلال الهند فكذلك أصبح في عام ١٩١٣ واحداً من أعضاء العصبة المسلمة ، وقد صار فيما بعد رئيساً لها ، وذلك في عهد اتفاقية « لكنو » التى عقدت عام ١٩١٦ .

وكانت خطبة الرئاسة التي ألقاها في تلك المناسبة ذات أثر بالغ في مستقبل حياته السياسية ، كما كانت الدعامة التي ارتكز عليها خصومه من الوطنيين الهنود في توجيه تلك التهمة الباطلة ، تهمة التقلب .

ومن أقواله يوم قام يطالب — في إصرار بالغ — بدوائر انتخابية مستقلة للمسلمين :—

لقد كنت طوال حياتي السياسية مخلصاً أشد الإخلاص كرجل من رجال المؤتمر ، وما كنت يوماً من دعاة الصراخ الطائفي ، ولكنه يبدو لي أن تهمة الانفصالية التي تلصق أحياناً بالمسلمين هي تهمة سخيفة كل السخف ، وهي تهمة في غير موضعها ، ذلك لأني أرى تلك المنظمة الشعبية الكبرى تشق في سرعة بالغة طريقها لتصبح عاملاً قوياً من عوامل بعث أمة هندية متحدة .

وإن أقلية من الأقليات لها الحق قبل كل شيء آخر أن تحس إحساساً كاملا بالطمأنينة والأمن قبل أن يستثار شعورها السياسي إلى التعاون ، وإلى الجهاد المتوحد إزاء المطالب القومية .

والطمأنينة لا تحل في قلوب مسلمي الهند إلا بتوفير الضمانات الكافية ذات الأثر الفعال ، وذلك فيما يتعلق بوجودهم السياسي كطائفة لها وجودها ولها كيانها .

ثم يجيء المؤلف بعد ذلك فيقول :

بعد انهيار حركة الخلافة قام القائد الأعظم بإحياء العصبة المسلمة ، والفضل يرجع إليه — إلى حد كبير — في وضع البنود الأربعة عشر ، وذلك عام ١٩٢٩ .

ولما انفض مؤتمر المائدة المستديرة بقي هو في انجلترا يمارس المحاماة بعد أن أعيته هذه المؤتمرات المشتركة التي لا فائدة منها ولا ثمر .

ولم يعد إلى الهند إلا في عام ١٩٣٤ وذلك ليهيء العصبة المسلمة للتوجه إلى ناحية الدستور الجديد .

ولو كان القائد الأعظم قد مات عام ١٩٣٧ لذكره الذاكرون كعضو من القوميين الهنود البارزين ، وكرجل برلماني من الطراز الأول . وفي الحق أنه لا يزال حيا بهذه الصفة في نفوس أهل بومباي حيث تقوم في بناية المؤتمر « قاعة جناح » التي شيدت تكريماً له أثر معارضته للورد « ولنجدون » عام ١٩١٨ .

ولكن في المدة الواقعة بين عامي ١٩٣٧ ، ١٩٤٠ تبدلت الأمور تبدلا واضحاً ، ذلك لأن « جناح » — وكان قد بلغ الستين من عمره — قد أصبح « القائد الأعظم » . ولا شك أنه قد تأثر إلى حد ما بأقوال « إقبال » الذي كان دائم الاتصال به ، والذي كتب إليه مرة يقول :—

« لا شك عندي أنك على يقين تام بحرج الموقف فيما يتعلق بالهند المسلمة . وعلى العصبة أن تقرر آخر الأمر إما أن تبقى ممثلة للطبقة العليا من الهنود المسلمين أو للطبقات الجماهير من المسلمين الذين لم يبدوا حتى الآن — ولهم الحق — أي اهتمام بأمرها » .

وكان المال لا قيمة له عند « جناح » ، فقد كانت تدر عليه مهنة المحاماة في « بومباي » أرباحاً طائلة ، وكان لا يبالي كثيراً بوظائف الحكم ، لم يقبل في حياته أية وظيفة رسمية إلى أن أصبح أول حاكم عام للباكستان .

ولا يستطيع ألد خصومه أن يتهموه بأنه كان يتبع هواه يوم تحول إلى ناحية « العصبة المسلمة » .

ولقد كان من صحابته طوال حياته جماعة من رجال المؤتمر من أمثال « خالق الزمان » ، ورجال من أشرف الأرستقراطيين من أمثال « نظام الدين » ، ورجال من أذكى رجال السياسة من أمثال « فضل الحق » .

وسوف يبقى الباكستانيون يحبون ذكراه دائماً ، ويعترفون بفضله ، بأنه قادهم وسار في طليعتهم ، وعبر عن رغبات الشعب الكامنة في تكوين وحدة سياسية مستقلة ، واضحة المعالم والحدود .

ويقول المؤلف في فصل من كتابه عنوانه « مولد الباكستان » :

لما تفاقم الخلاف بين الهنود والمسلمين حول قيام الباكستان قام رجل من رجال المؤتمر القومي البارزين الذين اتصفوا بالشجاعة ورجاحة العقل ، وقد هاله أمر الخلافات المستمرة في الهند ، كما هالته حاجة البلاد إلى حكومة ترضى عنها البلاد في الوقت الذي كانت فيه جيوش اليابان وأساطيلها على الأبواب ، قام ذلك الرجل وهو « راجاجوبا لاتشاري » وهو رئيس من رؤساء المؤتمر السابقين ، وكبير وزراء « مدراس » ، قام ذلك الرجل في مايو سنة ١٩٤٢ يطرح على بساط البحث أمام لجنة مؤتمر « جميع الهند » مشروعين :

الأول يسلم بنظرية وجود الباكستان. والثاني يهدف إلى تكوين عصبة اتحادية في «مدراس» تكون تابعة المؤتمر. فلقي الرجل هزيمة منكرة. وأصدرت اللجنة قرارها بأن أي اقتراح يرمي إلى تمكين الهند بمنح الحرية إلى أية ولاية أو وحدة إقليمية بقصد الانشقاق عن الاتحاد الهندي أو الحكومة الفدرالية يجب أن ينظر إليه كأنه ضار بأهم مصالح الشعب في مختلف الولايات والأقاليم، بوصفها وحدة قائمة بذاتها. والمؤتمر لا يستطيع أن يقر مشروعاً كهذا.

وفي جرأة وشجاعة استقال «راجا جوبالاشاري» من المؤتمر. ولما أطلق سراح غاندي من سجنه عام ١٩٤٤ أقنع «راجا جوبالاشاري» بأن يتباحث مع «جناح» على أساس إيجاد حل يقر الأمور في نصابها. ويوفق بين المؤتمر الهندي القومي. وبين «العصبة المسلمة للهند كلها».

وجوهر هذا الحل وخلاصته هو أن تتعاون العصبة مع المؤتمر في حكومة مؤقتة. وأنه بعد وقوف رحى الحرب يعمل استفتاء عام في الأقاليم التي تقطنها أكثرية من المسلمين بقصد السماح لهم في تكوين حكومة مستقلة إذا رغبوا هم في ذلك.

وفي سبتمبر من عام ١٩٤٤ فشلت المحادثات التي جرت بين «غاندي» و«جناح». إذ لم يقبل «غاندي» أن يسلم بالنظرية القائلة إن المسلمين هم أمة قائمة بذاتها. وكان يرى أنه يجب أولاً الحصول على استقلال الهند. حتى إذا رغبت الأقاليم التي تقطنها أكثريات مسلمة أن تكون — فيما بعد — حكومة منفصلة، فإن اتفاقات يجب أن تعقد لتنظيم شئون الدفاع والتجارة والمواصلات والشئون الخارجية والجمارك.

ونظر «جناح» إلى الوجهة التي يولي «غاندي» وجهه شطرها، فرأى فيها سلباً لحقوق الباكستان. وأنكر على «غاندي» حق التكلم باسم المؤتمر.

وبعد أن سرد المؤلف مراحل الجهاد الذي جاهده القائد الأعظم قال: — وفي ١١ من أغسطس سنة ١٩٤٧ انعقدت الجمعية التأسيسية للباكستان في العاصمة المؤقتة كراتشي، ونودي رسمياً بجناح حاكماً عاماً في اليوم الخامس عشر من ذلك الشهر.

وكان من أنسب الأمور وأليقها أن يكون رئيس وزرائه «لياقت على خان» الذي عمل سكرتيراً للعصبة المسلمة طوال الأعوام التي تولى فيها «جناح» رئاستها. وقد كان «جناح» يسمي «لياقت على خان» ساعده الأيمن طوال أعوام الكفاح من أجل الباكستان.

ويقول المؤلف في ختام الفصل الذي سماه «باكستان والهند» — إن الباكستانيين المثقفين يقولون إن كوارث الحرب وويلاتها بين الهند والباكستان لن تكون أكثر سوءا، وأشد نكبة على اقتصادياتهم من تلك الخسارة التي تقع عليهم إذا خسروا كشمير. ويقول المثقفون من الهنود إن الهند سوف تكون — بغير كشمير — أسعد سياسياً. وأهنأ اقتصادياً إذا كسبت صداقة الباكستان.

وقد يمكن القول بأن النزاع حول كشمير يستطاع أن يسوى. وأن الصداقة يمكن أن تتوثق بين الهند والباكستان إذا أحست الهند أنها قادرة على أن تبذل شيئاً من السخاء، ذلك لأن خسارتها إذا حيل بينها وبين كشمير هي أقل من القليل.

ويقول المؤلف في الفصل الذي سماه «المواطن والدولة» قال (الشفور 4) لياقت على كبير وزراء الباكستان وهو يخطب في جمع حاشد متحدثاً عن الاشتراكية الإسلامية: ليس عندنا من الكلمات الإنجليزية التي تنتهي بالمقطع Ism إلا كلة واحدة هي Islamic Socialism (الاشتراكية الإسلامية) وهي التي تقول لنا في لفظ موجز إن كل الناس في هذه البلاد متساوون في الحقوق المتعلقة بالغذاء، والكساء، والمأوى والتعليم والعلاج، والدول التي لا تستطيع أن تضمن لشعوبها المساواة في هذه الحقوق لن تظفر بالنهوض والتقدم أبداً، ونحن إذا أردنا أن نسير قدماً في سبيل الإصلاح في أية ناحية من النواحي فإننا سنهتدي في نهجنا بهدى الشريعة الإسلامية، وسنسير على ضوئها.

وقبل أن نقتبس أي لون من ألوان الإصلاح سنعنى العناية كلها بأن نستوثق أن لا شيء فيما نقتبسه يتعارض مع ما تقضي به الشريعة الغراء. فإذا قيل إن العقوبات التي فرضتها الشريعة في الجرائم الاجتماعية إنما هي عقوبات صارمة، إذ هي تقضي بقطع يد السارق عن عمد، وبجلد الزاني والزانية! فإننا نقول إن هذه العقوبات يمكن أن لا تطبق إلا في ظروف قد لا تقوم إلا في القليل الأقل. فالعقوبة القصوى في جريمة السرقة يمكن أن تطبق في حالة

مدخل إلى علم الجمال

للأستاذ كاريت – مكتبة هتشينسون – ١٥١ صفحة

An Introduction to Aesthetics - by E. F. Carritt

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

يذكرنى مؤلف هذا الكتاب بفيلسوف عربى مشهور هو أبو نصر الفارابى ، فكلاهما فيلسوف ، وكلاهما ألف فى الجمال ، وطريقتهما فى التأليف واحدة . ذلك أن الفارابى على وفرة كتبه كان موجز العبارة ، قصير النفس ، يكتب على طريقة « الفصوص » أى يضع الفكرة فى عبارة موجزة يسميها فصاً . وهذه الطريقة هى التى اصطنعها ابن سينا فى كتاب « الإشارات » .

وهـذا الكتاب الذى نقدمه اليوم إلى قراء العربية يجرى على طريقة الفصوص ، أو الإشارات ، قسمه صاحبه ستة عشر فصلاً ، لا يزيد الفصل الواحد عن بضع صفحات ، ثم جعل تحت كل فصل فصوصاً تحيط بالفكرة التى يريد أن يسجلها ، ولذلك كانت محاولة تلخيص هذا الكتاب ونقل سائر ما بثه صاحبه من أفكار من أشق الأمور . وإنى أوثر إذا كنت تقرأ الإنجليزية أن تطلع عليه ، أو أن ينقله الجامعة الذين نقلوا له كتاباً من قبل بعنوان « فلسفة الجمال » وللمؤلف كتاب ثالث بعنوان « ما الجمال » لم أطلع عليه .

وليس الأستاذ كاريت صغير السن ، فقد كان أستاذاً للفلسفة فى أكسفورد ، وهو الآن أستاذ فخرى ، وهو على اطلاع واسع بسائر الفلسفات التى ساهمت فى تشييد بنيان علم الجمال ، فهو يحدثك عن أفلاطون وأرسطو فى العصر القديم ، كما يحدثك عن كانط وهيجل وبوزانكويه ، ثم عن سنتايانا وكروتشى من المعاصرين . فلا غرابة أن يعرض لنا القواعد التى ذهبت مجرى المقاييس الثابتة للآثار الفنية ، ومبلغ ما فيها من جمال . كانت القاعدة فى جمال المأساة اليونانية وهى أرقى الفنون عندهم وحدة الزمان والمكان مع ما يصحب ذلك من اتجاه نحو القضاء والقدر ، ومما قيل أيضاً إن الأثر الفنى يجب أن يكون ذا حجم معين ، وأن يجتمع من مقدمة وموضوع ونهاية مع وحدة الأثر ، ومن القواعد المشهورة القول بالتماثل والتناسب والائتلاف ، وهذه كلها من القواعد الغامضة فضلاً عن اضطراب الفكر فيها وعدم الاطمئنان إليها ، فقد يكون التماثل والتناسب والائتلاف من المعانى الخلقية والرياضية التى توجد ومع ذلك تخلو من الجمال .

الحق أن معنى الجمال مما لا يمكن تعريفه ، فهو تجربة أولية للنفس .

ومن طبيعة هـذه التجربة الجمالية التى تحدث فى أنفسنا

واحدة وهى التى يثبت فيها أن السارق لم يعمد إلى السرقة بدافع من الجوع ، أما فى جريمة الزنا فلا بد لثبوتها أن يشهد على وقوع الجريمة أربعة شهداء .

وهو يقول فى ختام كتابه :

إن الباكستان قد برهنت على أنها أمة حية ناهضة ، وأنها تتبوأ فى العالم مكاناً عليا ، ولكنها فى الوقت نفسه تحس أن كيانها الحقيقى مهدد من ناحية جارتها القوية ، ذلك لأن الهند تسيطر على كثير من الأنهار الكبرى التى تجرى فى أخصب أراضى الباكستان ؟ فإذا استولت الهند على كشمير فإن تلك الأنهار تكون تحت رقابتها وفى قبضة يدها .

والهند كذلك هى السوق الطبيعية لأكثر المواد الخام التى تنتجها الباكستان ، وهى كذلك المصدر الطبيعى لتوريد أكثر ما تحتاجه الباكستان لصناعاتها ...

مبارك ابراهيم

من الاتصال بالأشياء الجميلة أن يصحبها « لذة » غير أنها تختلف عن اللذة التي تحسها بالحواس الحس عند إشباع الشهوات . ولا فرق في الأشياء الجميلة بين ما هو طبيعي ، وما هو صناعي ؛ فالطبيعي كغروب الشمس وشروقها ، والأنهار الجارية ، والجبال الشاهقة ، وزقزقة العصافير ، ونقنقة الضفادع وما إلى ذلك ؛ والصناعي هي هذه الفنون المختلفة التي تقوم على الألوان والأشكال والأصوات كالتصوير والنحت والموسيقى والشعر .

الأشياء التي توصف بالجمال هي تلك التي تدل على « معنى » ولها « تعبير » ، الحق أن الشيء في ذاته لا يدل على معنى ، وإنما نحن الذين نخلع عليه هذه الدلالة .

هذه هي النظرية الأساسية التي يعتنقها كاريت ويقيم عليها فلسفته في الجمال ، وما يتصل بذلك من مسائل كثيرة كالأذواق واختلافها ، وتقسيم الفن إلى شكلي وتعبيري ، وما إلى ذلك .

ويشترط في التجربة الجمالية إلى جانب دلالتها على معنى ، أن تكون « حسية » أي تعتمد على الألوان وترتيبها والأصوات وائتلافها ، فنحن نسمع الموسيقى أو نشهد المناظر فتوحي إلينا بأخيلة جديدة ومعان كثيرة ، إلا أن مرجع الأخيلة والمعاني إلى الحس .

ومع ذلك فليست كل تجربة حسية أو كل خيال قائم على الحس جميلاً . ولا يزال تقسيم أفلاطون للأشياء صحيحاً ، منها مايهدف إلى الحق ومنها ما يبلغ الخير ومنها ما يصور الجمال .

وقد انقسم المفكرون في الكلام على طبيعة الجمال قسمين ، فريق يذهب إلى أن الإحساس بالجمال يملأ جوانح النفس ولكنه يحتاج إلى إيضاح من الروية والفكر ؛ ومن ثم كانت التجربة الفنية حجر الزاوية في الفلسفة ، وعلى هذا الرأي نجد أفلاطون وهيجل . وفريق ، وهم في الأغلب الفنانون والصوفية ، يرون أن الجمال سبيل إلى معرفة الحق ، وهو « أسمى » من الفكر ، أي ليس في مقدور العقل معرفته .

ولكن المؤلف يرفض الفكرة القائلة بأن الفن ، والأدب بوجه خاص ، لا يكون صحيحاً إلا إذا كان خادماً للفضيلة وداعياً إلى الخير ، كما ذهب إلى ذلك أفلاطون من أن تكرار النظر إلى المشاهد الجميلة يهذب النفوس ويدفعها إلى طريق الخير ويباعد بينها وبين الشر ، ولهذا نصح كثير من القدماء والمحدثين أن يكون الأثر الفني هدف يرمي إلى الفضيلة ، وهو المذهب الذي ساد خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ودعا إليه تولستوي في كتابه « ماهو الفن » ، والواقع من التاريخ يدلنا على أن سيرة الفنانين والشعراء والموسيقيين كانت أبعد الأشياء عن السيرة الفاضلة .

بقيت النظرية الثانية وهي التي لاتجعل الفن خادماً للأخلاق ، ولكنها تزعم أن الإحساس بالجمال أسمى من الحق ومن الخير . ذلك أن التجربة الجمالية تشيع في النفس شعوراً يختلف عن الشعور الحسي بالحرارة أو البرودة مثلاً ، لأنه شعور يصحبه معنى ويثير مع الفهم والإدراك اهتماماً وميلاً ، وليس المقصود « بالتسامي » أنه شعور يتجه إلى شيء كلي ، أو إلى الواجب الأخلاقي ، أو إلى الله ، وما أشبه ذلك من الأمور العالية الكلية .

ومما ينبغي أن نخرجه من الحساب أن يمثل الفن الطبيعة ، أو يقوم الشعر على الواقع ، أو يعبر عن حقائق التاريخ والعلوم ، فالمصور البارع هو ذلك الذي لا يحكي صورة الشخص الذي يصوره بمقدار ما يبرز منه عواطفه وأحواله وميوله ورغباته .

وليس صحيحاً كذلك ما يذهب إليه بعض المفكرين من أن كل فن يجب أن يكون معبراً عن العواطف ناقلاً لها ، لأن بعض الفنون كالطراز العربي في النقش ، وهو عند كانط الفيلسوف أعلى الفنون ، لا يعبر عن أي عاطفة ، ولا يقوم إلا على خطوط هندسية .

أما المذهب الذي يرتضيه المؤلف باعتبار أنه جامع مانع لكل أصناف الشعور بالجمال ، فهو أن كل إنسان يحس بالجمال من النظر إلى شيء أو من تخيله ، إذا كان هذا الشيء يرتبط في نفسه بتجارب ماضية ، ولذلك اختلفت تقديرات الشعوب للأشياء الجميلة ، واختلف الأفراد فيما بينهم لهذا التقدير تبعاً لاختلاف التعليم والبيئة والمزاج . أما الذي يتفقون فيه فهو هذا القدر المشترك الذي يعم جميع الناس من الثقافة والحضارة ، ومع ذلك فليس لنا أن نتوقع أن الناس رجالاً ونساء ، أحراراً وعبيداً ، كهولاً وشباباً ، أوربيين وأفريقيين وأسيويين ، متمدنين وأميين ... يفهمون من الخطوط والأشكال والألوان والأصوات والكلمات نفس الفهم وتعبر لهم نفس التعبير ، بل إنك لتجد الأخوين في الأسرة

الواحدة يختلفان في الأشياء والمزاج والإحساس والآمال والأخيلة والذكاء والثقافة ، وكل أولئك يؤثر دون ريب في معنى ما يدركانه ويحسان به من مناظر جميلة .

وكان القدماء يقسمون أنواع الجمال بالنسبة لرأيهم في الجمال ، من حيث إنه صفة موجودة في الأشياء ، ولذلك كان أعلى درجات الفن محاكاة الأصل ، ورفع ما في الأشياء الطبيعية من عيوب . مثال ذلك أن شعر الملاحم كان يصور عظماء الرجال يعملون أعظم الأعمال التي لا يمكن صدورها فعلا في حياتهم . وكان التصوير دينياً أو تاريخياً وما إلى ذلك . هذا هو الفن التمثيلي Representative . ولكن النظرة الحديثة للجمال لا تجعل لتمثيل الأشياء محلاً في الفن . وهناك النظرة الأخرى التي تجعل الفن الجميل في الأوضاع والأشكال ، وهو الفن الشكلي Formal ، وعلى هذا المذهب كانط الذي يرى أن أعلى الفنون هو الطراز العربي ، أو « الأرابيسك » ، لأنه يتكون من الشكل فقط . وهذا الضرب من الفن عند كانط الفيلسوف وغيره ممن يتابعونه هو الفن « المطلق » أو « الحر » ، الذي يوجد في الطبيعة في الفواقع مثلا ، وفي الصناعة في الأرابيسك ؛ أما الفن النسبي فهو الذي يعتمد على شيء آخر ، كجمال الجسم الإنساني .

وهذان القسمان للفن ، نعني التمثيلي والشكلي ، ينطبقان على الشعر والنثر ، ويتشيع لكل منهما أنصار . فالبعض يذهب إلى أن الجمال يقع في الأسلوب (الشكل) ، والبعض يزعم أن الجمال الحق في المعنى وخاصة ما كان ممثلا للواقع . وهذا هو رأي أرسطو الذي قسم الشعراء قسمين تبعاً لنزعتين غريزيتين في الإنسان ، المحاكاة والإيقاع .

وما دام المؤلف قد ارتضى أن يكون الإحساس بالجمال ناشئاً عن تجربة نفسية وما يصحبها من معنى وتعبير ، فلنا أن نتوقع أن تنقسم أنواع الجمال تبعاً للتجارب النفسية والعواطف المختلفة كالخوف والرجاء والحزن والنشوة والحب والبغض وما إلى ذلك . ومع ذلك فهو لا يرضى عن هذا التقسيم ، ويستمر في عرض الأقسام التي وردت في مباحث الفنانين والفلاسفة كالقول بالفنون البسيطة والمركبة ، وأعلاها تركيباً السينما إذ يدخل في صناعتها كثير من الفنون الأخرى كالموسيقى والتصوير والأدب وغير ذلك . والفائدة التي تحصل عليها من النظر إلى تقسيم الفنون هو اكتشاف « قواعد » كل فن منها .

وقد أفرد المؤلف فصلين للكلام عن التعبير والانفعال ، لما لهما من أهمية كبرى في نظريته الجمالية . وهو يميز بين التعبير وبين العلامة والرمز للمؤثر . النقطة السوداء علامة الانتقام ، والعرق علامة الألم ، ولكننا لا نسمي العرق تعبيراً عن الألم ، مع أننا نعد الابتسامة التي تظهر على الوجه معبرة عن حالة نفسية ، وقد تدخل في التعبير الجمالي .

وصوت الإنسان أكثر تعبيراً من وجهه على الدلالات ، ويهمنا في الصوت الألفاظ التي تسمى باللغة . ومهما يكن الأصل الذي صدرت عنه اللغة فإنها في نهاية الأمر رموز اصطلاحية ، وهذا هو الفرق بين العلامة والرمز ، فالعلامة أمارة والرمز دلالة عقلية اصطلاحية . فاللون الأسود يعبر عندنا عن الحزن ، ولسنا ندري إن كان الأمر كذلك ، فلعل له تأثيراً خاصاً على العين ، ولعله يرتبط في الذهن بالشتاء والظلام والليل . أما إشارة الجند بالأعلام ، ورفع القبعة للتحية والسلام فهي من جملة الرموز التي اصطلحت عليها جماعة من الناس ولا يمكن أن تفهم إلا بالتعلم . وكذلك ينبغي التفرقة بين التعبير عن الانفعالات والعواطف والبواعث إليها من مؤثراتها . فقد أبعث الشفقة في نفس إنسان عند اصطحابه إلى مستشفى ، وقد أثير في نفسه الرغبة الجنسية بعرض صور عارية ، ولكن شيئاً من هذه المؤثرات لا يعبر عن انفعال ، فالمؤثر شيء والانفعال شيء آخر . والأمر كذلك في نقل الانفعال الذي يحس به شخص إلى شخص آخر ، فهو شيء مختلف عن الانفعال والتعبير عنه . الحق أن نقل الإحساس بالجمال إلى شخص آخر من أصعب الأمور ، وبيانه أشق ؛ وفي ذلك يقول المؤلف ص ٥٩ « إني لأجد صعوبة في بيان كيف أعبر عن تجربة جمالية ، أعني التعبير عن صورة حسية تنشأ في نفسي إلى شخص آخر . وإني لأوثر أن أستعمل في ذلك لفظة « العدوى » . ويخيل إليّ أن معظم الفنانين يعدلون بعض التعديل من صورهم الباطنة بأن يحسموا بعض التفصيلات حتى يلفتوا النظر ... » ومع ذلك فمن الصعب التمييز بين التعبير عن الإحساس بالجمال ، وبين نقل هذا الإحساس إلى شخص آخر ، ذلك لأن « التعبير » في جوهره سواء أكان بالألفاظ أو بالإشارة

أو بالكتابة أو بالنقش أو بالصوت ، هو خروج عن الذات ، حتى إذا رأى شخص آخر هذا التعبير أثر فى نفسه وأحدث فيها ما أحس به الفنان . لهذا السبب لا يكتفى الفنان عند خلق أثره الفنى بحفظه داخل نفسه بل يميل إلى إبرازه وعرضه ، كما يلجأ الشاعر إلى نشر قصائده .

وقد نهض المؤلف يدفع اعتراضين على مذهبه القائل بأن جوهر الجمال هو التعبير عن انفعال . وهذان الاعتراضان هما أن كل انفعال ليس يقبل التعبير عنه ، والثانى أنه ليس كل شعور بالجمال انفعالا .

يقول أصحاب الاعتراض الأول إن بعض الانفعالات الكريهة كالقرف مثلا ، أو المنافية للأخلاق ، تتعارض أصلا مع الذوق السليم ومع الشعور بالجمال ، ومع ذلك فإن بعض المذاهب الحديثة فى الفن لا تحفل بهذا الاعتراض الأخلاقى ويقول أصحاب الاعتراض الثانى إن الأشكال الهندسية جميلة ومع ذلك لا تثير انفعالاً ، ويرد عليهم المؤلف بأن كل تجربة جمالية لابد أن يصحبها انفعال ما ولو كان باهتاً ، أو من ضرب آخر كالشعور بالراحة أو الضيق أو التطلع وما إلى ذلك .

وهناك مذهبان فى الفن يتعارضان مع مذهب المؤلف : أحدهما الفن التعليمى didactic والثانى الفن النفعى Protreptic — الأول يخضع الفن فيجعله بوقاً للتاريخ والأخلاق والحكمة ، والآخر يجعل الفن خادماً للسياسة والدين . والواقع أن كثيراً من الشعراء يهتمون بالمسائل الأخلاقية والتاريخية والسياسية والدينية ، لأن هذه الموضوعات مشتركة بين سائر الناس ، وقد زعم وودورث أن له فلسفة ، كما نجد فى تمثيليات شكسبير كثيراً من الحكمة ، إلا أن إعجابنا بهذا الشعر لا يرجع إلى ما فيه من فلسفة أو حقائق تاريخية أو آراء سياسية ، بل إلى ما فيه من حلاوة الوزن وحسن النغم وبراعة الاستعارة ، أو إلى ما فيه من انفعال تابع للاعتقاد ، لا إلى ما فيه من اعتقادات ، ولم يكن هذا هو رأى النقاد فى القرن السابع عشر ، ولايزال كثير من الناس اليوم يخلطون بين اللذة التى يحصلون عليها من الاطلاع على المعرفة أو الآراء الخلقية وبين الآثار الجميلة . هذا الخلط هو الذى يدفع بعض الكتاب إلى مطالبة الشعراء بأن يكون لهم « رسالة » ، فيخدمون السياسة أو الفكر ، ويوجهون الأذهان بقصائدهم إلى مختلف الاتجاهات التى تجرى مع الهوى السائد . ومثل هؤلاء القوم معذورون حين يشهدون الشعراء أنفسهم يسخرون فنهم للأحزاب السياسية التى ينتمون إليها ، وهذا هو السبب الذى من أجله يسمى مثل هذا الفن شعبياً ، ومما ينتقد به أصحاب هذا المذهب خصومهم ، أى القائلين بأن الفن هو التجربة الجمالية الخالصة ، قولهم إن هؤلاء الفنانين يعيشون فى « أبراج عاجية » وأطلقوا على زعمهم « مذهب الهرب Escapism » . حقاً أنه هرب من تيار السياسة ، ولكن الهرب الصحيح ما كان من أداء الواجب . وقد سأل جون ستيوارت مل نفسه ذات مرة فى مدينته الفاضلة : كيف يقضى الناس أوقات فراغهم ، وأجاب عن ذلك بأن يقرءوا الشعر ويستمتعوا بالطبيعة .

إذا كانت نظرية المؤلف أن تقدير الجمال شىء شخصى ، فما منزلة « الناقد » وما وظيفته ؟ ذلك أن الناقد فى ظل هذا المذهب إذا أعجب بقصيدة مثلاً فإعجابه بها تابع لمزاجه ، ولن يستطيع نقل هذا الإعجاب إلى غيره . ومع ذلك فللناقد ثلاث وظائف : الأولى أنه توسيع مملكة تقدير الجمال ، والثانية تنبيه الأذهان ، والثالثة تهيئة الجو الفنى . فالناقد بما يحصله من قيم فنية وما يحلله من مسائل تاريخية وسياسية واجتماعية ، يصقل الذوق ويرهف الحس ويزيد فى تقدير الجمال . وهو إلى ذلك يأخذ بيد القارئ إلى مواطن الإبداع ، يشير إليها فينبه الأذهان . ولما كان تقدير الأثر لايتم على كماله إلا بأن نضع هذا الأثر فى محيطه وأن ننقله بيئته ونرفعه إلى جوه ، فالناقد هو الذى يهيئ لنا هذا الجو ، فيبرز لنا لغة الفنان ، والاصطلاحات والرموز التى يستعملها ، وغير ذلك يبعث فى النفس حالة خاصة تستعد بها لاستقبال قصيدة الشاعر أو لوحة المصور أو تمثال المثال ، وهذا هو المقصود بتهيئة الجو الفنى .

هذه خلاصة وجيزة سريعة لبعض الموضوعات التى عرضها كرت فى مدخله ، وهى تعبر عن جملة رأيه ، ولم أستطع أن أنقل إليك بقية الموضوعات التى تناولها حتى لا أطيل ، وخوفاً من الإخلال مع الإيجاز . ولكنه على كل حال كتاب سوف يعجبك لأنه يثيرك ، وسوف يفيدك لأنه يعلمك ويبصرك .

أحمد فؤاد الأهوانى

نقد

دراســـة الأغانى

كتاب للأستاذ شفيق جبرى بك عميد كلية الآداب فى دمشق

للدكتور أحمد أمين بك

عرفنا الأستاذ شفيق جبرى بك منذ قرأنا له بحثيه عن الجاحظ والمتنبى فرأينا فيه باحثاً دقيقاً ومنقباً مستقصياً. وقد أهدى إلينا كتابه الأخير « دراسة الأغانى » بحث فيه كتاب الأغانى بحثاً مستفيضاً بعد دراسة طويلة استغرقت نحو ثلاثين سنة، تتخللها فترات راحة.

وأهم ميزة الكتاب استخراجه موضوعات كثيرة، وجعل بعضها بجانب بعض. فقد دأب صاحب الأغانى على أن يهرجل كتابه، ويستطرد حين يكتب. فخرج كتابه فوضى: كلة فى الشرق وكلة فى الغرب. فجاء الأستاذ شفيق بك جبرى، ورتب كثيراً من الموضوعات المتناسبة بعضها بجانب بعض، مثل ما جاء فى الكتاب عن قصور الخلفاء، وعن الملاهى وعن العامة وعن الحياة الاجتماعية، وعن العادات القديمة فى الأفراح والأحزان، وعن النقد الأدبى فى الأغانى.

هذه ناحية. والناحية الأخرى أنه ألقى نظرة عميقة على موضوع الكتاب والسبب فى تأليفه. ومقدار الثقة به وكيف يترجم الشعراء، وميزته فى الترجمة. واستنتاج أخلاق أبى الفرج من كتابه، إلى غير ذلك، فى أسلوب متدفق فياض. وحبذا لو عمد إلى الأغانى كله، فرتبه ترتيباً حديثاً حسب الموضوعات كما ذكر. واستقصى الموضوعات المتناسبة وجمعها فى موضع واحد، وأعاد طبع الكتاب على هذه الفكرة؛ إذاً لكان لنا من كتاب الأغانى كتاب مرتب، تنسجم حكاياته بعضها مع بعض، يُغنى الباحث عن قراءة الكتاب كله لاستخراج موضوع منه. ولكن لعل الأمانة والإخلاص للمؤلف جعلاه يحجم عن هذه الفكرة. فنشكره ونرجو له التوفيق.

أحمد أمين

شـــقاء ...

آه من لوعتى وسر شــقائى
حطــمتنى الشجون بالأرزاء

وغدا الموت حائماً فوق كوخى
يــد عمر قضيته بالشــقاء

لست أخشى الممات حــقاً فإنى
ما جرعت الآلام لولا حيــاتى

ليس خوفى من ظلم دهرى ولكن
أنا أخشى من هول ظلم القضاء

أى هنء هذى الحياة وجبر
لم يزل قائماً على الفقراء

وترى دمعة الفقير بعين
هى تهوى البأساء والضراء

تخذت وجنة اليتيم كطرس
ومحى دمع مقلتيه كماء

غدوات الأيام أخنت علينـا
وسراعاً مرت ليـالى الهناء

رب ليــلٍ سهرت أنظم فيه
كل بيت قد هــدّ من إعياء

ورأيت الجوع أيقــظ منى
كل بؤسٍ فى غدوة ومساء

هكذا بت فى حشـاى بكمد
وبعثت الأحزان للشــعراء

فأتى الفــجر بالفوادح تترى
من عــذاب ولوعة وعناء

(بغداد) عبد الخالق الهاشمى

من بريد الثقافة

إلى حضرة الدكتور أحمد زكي بك :

أرجو أن تسمح لي بالتعقيبات الآتية على ما ذكرته عني في « دردشة » العدد الماضي من « الثقافة » .

١ — لك رأي في المعايير الخلقية والجمالية ، ولي رأي ، وعندك — كما هو ظاهر من كلامك — أن رأيي موضع السخرية لا يكفي فيه مجرد التفنيد برأي آخر ، فلماذا يغضبك يا سيدي أن نشرتُ لك رأيك الصواب في الناس ، والحق أولى له أن يشيع ؟ .

٢ — قررت أني في « ندوة الجبس » قد لخصتُ فأسأت تلخيصاً ، وجعلت لنفسي وأنا الواحد من جماعة خمسٍ هذا الحديث ، فكسبت لنفسي من حيث خسر الآخرون .

(ا) وإساءة التلخيص لا تكون إلا بانتحال ما لم يحدث ، أو بحذف مما حدث ، أو بذكر ما حدث مكذوباً شائهاً — ولن أكتفي هنا بالدفاع عن أمانة تلخيصي ، بما قاله لي جميع من لقيتهم في الجبس التالي من حضرات الشاهدين ، بل سأضيف إلى ذلك أنك في كلامك لا تشكو من انتحال ، ولا تشكو من كذب ؛ وإذاً فموضع الإساءة الذي سمعت تذكره هو أني حذفت بعض ما قلته ، فلم أذكر عنك بيتين المتنبي قلتهما استشهاداً ، ولم أذكر نسبة مئوية من الأوربيين لا تفهم فاجنر ، وأن الآباء في أوربا لا يزالون يتدخلون في شئون بناتهم (وهذه الأخيرة لا أذكر أنك قلتها ، على أنه إذا صح ذلك فأين يكون موضع الشكوى من الأخلاق الغربية ؟) .

وأنا أسألك : هل تتغير صورة رأيك بإضافة هذه التفصيلات ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك فأين تكون الإساءة التي زللتُ فيها فاستحققت منك تأنيبي وتأديبي ؟ .

(ب) وأما أني جعلت لنفسي وأنا الواحد من جماعة خمسٍ هذا الحديث ، فلست أدري كيف كنت لأتغلب على هذه الظاهرة بغير انتحال أقوال الناس ، ولو فعلت لاستحققت منك تأديباً آخر على إساءة أخرى .

(ح) فإذا كنت قد كسبت لنفسي من حيث خسر الآخرون فإذا كان الكسب وكانت الخسارة نتيجة لما وقع — على أن فكرة الكسب والخسارة هذه فكرة غريبة حين يكون الأمر حديثاً في ندوة عن رأي معين .

٣ — لو كان اعترافي بأني لم أستكثر القائلين في نشر أقوالهم وأني لذلك لم أذكر من أسمائهم إلا الأحرف الأولى ، هو علامة على بعض المدنية التي أدافع عنها ، فإن كشفك عن بعض الأسماء هو كذلك علامة على بعض المدنية التي تدافع عنها .

٤ — حين ذكرت لي في سياق الحديث أن سبعين أو ثمانين في المائة من الغربيين لا يحبون فاجنر ، أجبتك بأن « فاجنر » إذاً لا يكون ممثلاً للمدنية الحاضرة ، ولم أقل إن الغربيين هم الذين يكونون بذلك غير متمدنين .

٥ — قلت في نهاية الكلمة متحمساً : « إن المدنية الحاضرة أكثرها الجميل ، ولكنها قد تشقى أكبر الشقاء ببعض من يترجمون عنها » .

وأنا أوافقك على الشطرين جميعاً .

٦ — أما حديث العورات المكشوفة التي يثب أصحابها على الناس ويوثب على أصحابها من الناس ، فأنا أترك الحكم فيه لأصحاب الأقلام الأدبية جميعاً ، ليقولوا إن كانت تجوز كتابته على هذا النحو أو لا تجوز .

٧ — وبقيت يا سيدي هذه السياسة العجيبة التي جئت مبشراً بها ، سياسة الصفع ! فالمدنية الصحيحة — في رأيك — تسود ، إذا انتزع الغبط من نفسه بصفع من أثار فيه الغيظ ! وفاتك أن الصافع قد يصبح مصفوعاً في مثل لمح البصر .

وتفضل يا سيدي بقبول فائق احترامي .

زكي نجيب محمود

صدى قصيدة «أيها العربي» للشاعر كاظم جواد :

أخىَّ ولا تبتئس إننـــا ... على رغم ما نالنا من وَنَى
سنبعثها من بطون الفلاة ... وزهر البطاح، وفى المنحنى
مدوية كدوىِّ الرعول ... منورة كعجيب الســنا
سنبعثها كالتماع البروق ... تملأ أسماعهم : ها أنا
أخى ولكل أخ موعد ... وموعدنا فى رحاب القنا

(بغداد) ... فضول نادى المعاضى

تعقيب على نقد :

قرأت فى المقال الذى نشره الأستاذ سعد محمد حسن فى عدد ٦٦٤ من الثقافة حول كتاب المهدى والمهدوية للعلامة الكبير أحمد أمين تناول فيه البيتين اللذين ذكرهما الأستاذ أحمد أمين منسوبين لكثير عزة، وذكر أنهما على الأصح للسيد الحميرى، وإنى لأنبه بأنهما مذكوران فى الجزء السابع من كتاب الأغانى فى ترجمة السيد الحميرى، وفى الجزء التاسع من نفس الكتاب منسوبين لكثير عزة. وقد ذكرها البغدادى فى كتابه الفرق بين الفرق لكلا الشاعرين على حدته. وإنى لأذهب إلى رأى الدكتور أحمد أمين فى نسبتهما لكثير عزة، لأنه من كبراء الكيسانية القاطعين بالرجعة، إلى حد أنه أوصى أهله بعدم البكاء عليه، ووعدهم بالعودة إليهم بعد أربعين يوماً من موته. وما أظن الحميرى أخذها إلا تضميناً واستشهاداً على صحة مذهبه فى الرجعة.

وفى الختام أرجو من الأستاذ الناقد أن يستعمل شيئاً من التروى والاتزان عندما يلاحظ على أمثال الدكتور أحمد أمين، لأنهم لا يقررون ما يقررون، إلا وهم على عمد مرتكزة مستندون.

محمد المختار
طالب بالأزهر برواق المغاربة

حول مقال «تيانو» :

سيدى الأستاذ رئيس تحرير الثقافة :

قرأت فى العدد ٦٦٩ من الثقافة الغراء مقالاً للأستاذ الفاضل إدوار ملبس بعنوان (تيانو) أراد أن يخلص منه بنتيجة أنه خير لمن لا يعرف فى نفسه القدرة على أن يصبح فناناً أن يترك الفن ويلجأ إلى عمل آخر. إنى أوافق الأستاذ على رسم هذه الصورة التى رسمها — وإن كنت أختلف معه فى النهاية — لأنى كثيراً ما أرى مثل هذا الفنان — الذى صوره الأستاذ خير تصوير، ولكنى أختلف معه فيما ذهب إليه من نتيجة كما قدمت ذلك. إنى أعتقد أن كل إنسان يلجأ إلى فن من الفنون يعتقد فى قرارة نفسه أنه سيكون فناناً عظيما، خصوصاً إذا كان قد ضحى بعمل يربح منه كسباً مضموناً، كأن يكون صرافاً، لأنه لو فرض وقاوم رغبته فى الفن يرجه فلا يمكن أن ينجح فى عمل آخر. ذلك أن فكره يكون موزعاً بين عمله وبين فنه الذى يهواه. إن النتيجة الطبيعية هى فشله فى الحالتين! ولكن خير له أن يفشل فى فن يقبل عليه بروحه وفكره، من أن يفشل فى عمل لا يرضاه. هذا ما أراه، وللأستاذ الفاضل تحياتى.

السيد عبد الحى الشريف

مسمار جحـــا

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

هذه رواية ألفها الأستاذ الفاضل على أحمد باكثير ، وأخرجها الأستاذ الكبير زكى طليمات ، وافتتحت فرقة المسرح المصرى الحديث موسمها الحالى بها ، وبذلك تكون قد بدأت عامها الثانى بالاتجاه نحو الروايات المحلية بعد أن استنفدت الروايات الغربية معظم عامها الأول .

وإنى وإن كنت أرحب بهذه الخطوة على أساس أنها تتيح لمؤلفينا فرصة التطبيق العملى ، إلا أنى أخشى أن نستطرد فى ذلك استطراداً مطلقاً ، فنحن لانزال فى حاجة قصوى إلى فهم الأوضاع المسرحية وهذا لايتأتى إلا بتمثيل المترجمات الممتازة .

على أنى أرجو ألا يفهم من هذا أنى أقصد أى مساس بقيمة الرواية التى نحن بصددها . فكلامى ينصب على المبدأ . وهذه الرواية بالذات من أكثر رواياتنا صلاحية — على الأقل — لإثارة التفكير فى التأليف وفى بواعثه وغايته وكيفيته ... إلخ ... إذ أن مؤلفها قد نحا منحى جديداً ، سواء فى المادة أو الموضوع أو الهدف . فقد أخذ إطارها من نوادر وحكايات متوارثة ، وصب فى هذا الإطار مضموناً يخالف مضمونها الأول ، واصطنع فى ذلك أسلوب الرمز والتورية والتعمية ، كل هذا ليصل إلى غاية « وطنية » هى كل ماهدف إليه ، لأنه — كما يقول — قد شعر بأن على الأديب العربى رسالة لايستطيع أن يقوم بها غيره فى معركة التحرير لتخليص الوطن العربى من الاحتلال الأجنبى ، وظل يحوزه الاهتداء إلى الموضوع الذى يصلح أن يتخذه إطاراً فنياً لهذه الفكرة الجليلة ، إلى أن تصفح ذات يوم كتاباً عن نوادر جحا ، فما إن بدأ فى تفهم هذه الشخصية من خلال نوادرها المتعارضة المتناقضة حتى وجد فيها ضالته التى كان ينشدها .

وهكذا ارتسمت فى ذهنه الخطوط الأولى لشخصية بطل مسرحى فأقام عليها روايته .

وبديهى أن هذه كلها أمور تستلزم المناقشة الدقيقة .

أما من حيث الفكرة فليس فينا نحن الشرقيين من يمارى فى أنها فكرة جليلة حقاً فى ذاتها وغاياتها وبواعثها ، غير أننا يلزم أولاً أن نعرف إلى أى حد تصلح للأداء المسرحى ، ثم إلى أى حد استطاع المؤلف إخضاعها لمتطلبات هذا الأداء .

ومع أننا قد نجد ناقداً مثل هكسلى يقسم الحقائق إلى حقائق كبرى سرمدية وحقائق صغرى عابرة ، ويقصر المعالجة المسرحية على الفصيلة الأولى ولايدخل الأمور الطارئة ضمن نطاقها .. ومع أنه من الواضح أن استعمار الغرب للشرق ليس إلا أمراً طارئاً ربما يحدث عكسه غداً مثلاً ، وهو بهذا الوضع لايصلح مادة مسرحية ... إلا أن إحساسنا الشديد بنكبة الاستعمار يجعلنا نعرض عن رأى هكسلى هذا ، ونتشبث برأى غيره من النقاد ممن يرون أن « أى شىء » يصلح مادة للمسرح مادام يحس به المؤلف إحساساً يبلغ به عنده إلى درجة عميقة تؤهله لأن يكون « تجربة » بشرية .

وبذلك يمكننا أن نقرر أن فكرة مؤلفنا صالحة للمسرح ، ولكن يجب أن نضع نصب أعيننا ألا شىء مطلقاً يعفينا من محاسبته على مدى إخضاعها للأوضاع المسرحية .

وصحيح أن ليس للمسرح أوضاع محددة تحديداً يحتم على المؤلف أن يلتزمها التزاماً صارما ، فقوالبه وأشكاله مثلاً تختلف باختلاف أغراضه وهذه تختلف بين عصر وعصر أو بين جيل وآخر باختلاف العقائد والآراء والإيديولوجيات .. لكن المسرح على التحقيق — كما لكل فن — قيوداً فنية تحددها وتحدد بها خصائصه وأدواته وأهدافه الخاصة به

وحده ، وهذه هي التي تكيف الصورة النهائية التي تبدو فوق خشبة المسرح . والمهم أن هذه القيود — إن صحت هذه التسمية — ليست مفروضة عليه ، وإنما هي مستمدة من طبيعته ، ولذلك لا تتغير في جوهرها باختلاف العصور أو الأجيال ، ومن ثم يتعين على المؤلف حتماً كان أن يتقيد بها بحيث يبدو أثرها في صورته النهائية أي فوق خشبة المسرح .

ومؤلفنا قد صور لنا (جحا) واعظاً في مسجد يحاول أن يبصر عامة الناس بسوء حالتهم بأسلوب فيه جانب كبير من الرمز والتورية ، لأن البلاد رازحة تحت وطأة حاكم أجنبي يحكمها حكماً استبدادياً بواسطة أعوان من الخونة والانتهازيين ؛ وسرعان ما يوشى به ويعزل فيدبر ثورة شعبية لا يجد الحاكم وسيلة لإخمادها سوى ترضيته وتوليته (قاضي قضاة الدولة) . يعيش بعد ذلك منعماً مترفاً ، لكنه في دخيلة نفسه يشعر بالندم وما زال يؤنبه ضميره لإيثاره المنفعة الشخصية على مصلحة الشعب ، فيحتال على إثارة الجماهير مرة أخرى بتدبير قضية وهمية يمثلها أمامهم ليبين لهم أن البلاد مغتصبة وأن المستعمر يسوغ بقاءه فيها بذريعة واهية فيثورون وينتصرون .

هذا مغزى ما تصوره (مسمار جحا) . ونحن إذا قارنا ذلك بما ينبغي أن يصوره المسرح لانتهينا — كما يخيل لي — إلى أن مؤلفها الفاضل قد أخلص إلى إبراز فكرته أكثر مما أخلص لوضعها في إطار فني ؛ وكأنه — بدافع من حبه وتجاوبه مع الظروف الراهنة — لم يرد شيئاً سوى إبرازها .

فالمسرح يصور — كما يقول تشارلتن — « القوانين الكونية العليا التي تتحكم في أقدار البشر ويضع الفرد على محك الأبدية المطلقة ليرى إن كان متفقاً مع روح الكون بأسره .. أو يصور مجتمعاً بشرياً خالصاً ، ويضع الفرد على محك الإدراك الفطري والبديهة السليمة ليرى كيف يتصرف بما يتفق مع أوضاع ذلك المجتمع .. أو يصور — كما يقول وليم أرتشر — إرادة إنسان يصارع القوى التي تحده وتقلل من شأنه . « إنسان — وليكن أحدنا — يلقى به حياً على المسرح ، وهناك يناضل ضد القضاء أو ضد القوانين الاجتماعية أو ضد مجتمع حوله أو ضد نفسه إن دعت الحال أو ضد شهوات الذين يعيشون معه » ...

وليس في رواية مسمار جحا من ذلك شيء ملحوظ .

وعلة هذا أن مؤلفها (أولاً) قد وضع في ذهنه النتيجة التي يريد الوصول إليها قبل أن يضع المقدمات . أي وضع في ذهنه أن (جحا) لابد من أن ينتهي في الرواية إلى إشعال ثورة على الاستعمار ، ثم تحايل على وضع أحداث تؤدي إلى ذلك . وهذا عكس الوضع المسرحي الصحيح . فالرواية المسرحية يجب أن تبدأ ثم تتطور ، بحيث تكون كل نقطة فيها نتيجة حتمية للنقطة التي قبلها ، وهكذا حتى تنتهي إلى نهاية حتمية لا مفر منها ، لأنها مترتبة منطقياً على ما قبلها .

وثانياً : حاول أن يحل تعقيدات الرواية بحلول افتعالية ؛ فمثلاً أدار مناقشة بين جحا رمز الوطنيين وبين الحاكم رمز الاستعماريين ، وجعل كلا منهما يسوغ موقفه ، إلى أن قال الحاكم : إن الاستعمار يعصم الشرق من المبادئ الهدامة ؛ فعندئذ أجابه جحا بأن ديننا هو خير عاصم لنا منها . وطبعاً هذه حقيقة ، وأنا مؤمن بها . ولكن وجه الافتعال هنا هو في ذكرها دون تمهيد لها ، ودون أن يستنطق الحوادث بها .

وثالثاً : قصر معظم اهتمامه على شخصية (جحا) ، فلم يكد يخلو منه مشهد واحد ، ولم يكد ينطق إلا بالحكمة وفصل الخطاب ، فضلاً عن أنه احتفظ له بنكاته ونوادره التي يرويها عنه الرواة ، وبذلك صور لنا (جحا) الذي تعرفه عامة الناس بدلاً من أن يصوره مسرحياً .

ورابعاً : أكثر من سرد العبارات الفكاهية والخطب الحماسية والمونولوجات الوعظية والمناظرات التي يدور الصراع فيها نكتة ونكتة ، أو بين خطبة وخطبة دون أن يعير اهتماماً كبيراً لما يقوم عليه المسرح من « فعل » و « رد فعل » .

كل هذا ونحوه وما عساه أن يكون مفهوماً من قبل ، وهو أن الفكرة أصلاً ذات مضمون محلي ، وأن المقصود هو إبرازها دون أي اعتبار آخر — كل هذا قد صبغ الرواية بصبغة محلية ، وأنزلها إلى حيث لا تعتبر سوى مجرد وسيلة لإبراز فكرة خاصة ، وأضعف بناءها الفني حتى يجعلها أقرب ما تكون إلى تابلوهات وحكايات ومشاهد موصولة بعضها ، وليست موصولة بالكون أو المجتمع البشري الكبير .

ومؤلفنا بلا جدال يعلم أن مثل هذا مما ينال من قيمة العمل المسرحي . وكلنا نعلم مثلاً أن المسرح الفرنسي قد

أخفقت فيه في القرن الثامن عشر عنها في القرن السابع عشر ، لأن المؤلفين وقتئذ أخذوا منه وسيلة لنشر المعرفة وتفسير النظريات السياسية والاجتماعية .

وصحيح أن برنارد شو استخدم مسرحه في نشر أفكاره ، حتى لقد سميت رواياته comedy of Purpose ، أي الكوميديا ذات الهدف ، ولم يضعف ذلك من قيمته الفنية ؟ لكن السبب في هذا أنه التزم الأوضاع المسرحية وأخلص لها واستوفى كل عناصرها ، في حين أن مؤلفنا لم يستوف معظمها ، حتى الصراع الذي — وهو أهمها — قد خلت روايته منه خلواً تاماً .

ومع هذا لا نستطيع أن ننكر أنه عالج موضوعه الشائك وأدار حواره وسلسل مشاهده ببراعة ، وفضلاً عن ذلك فإنه — وهذه هي ميزته الكبرى — قد شارك الوطن المريض محنته وحقق الترابط الذي ينبغي أن يكون بين المسرح والناس ، من هنا نجحت روايته نجاحاً لم يعهده مسرحنا من قبل .

على أني مع ذلك أعتقد أنها ما كانت لتلاقي هذا النجاح لولا ذلك الجهد الفني الذي بذله مخرجها الكبير في تقريب مراميها للناس . إننا نعلم نزعته الإيحائية ، ولكننا لم نكن نعلم أنه سيستطيع بها أن يفسر للجماهير معانيها الرمزية ، وأن يحرك فوق خشبة المسرح هذه الجموع من الممثلين الذين زخرت بهم . فالمفروض في الإيحاء أنه يرمز ويشير فقط .

ويديهي أنه من الصعب في رواية رمزية الحوادث فكاهية الحوار تاريخية الإطار واقعية المدلول أن تتجسم على هذا النحو الذي أعطانا مغزاها حيًّا ، فرأينا أنفسنا في (جحا) بدهائه ومكره وضعفه وشجاعته وفي (أم الغصن) زوجته بسلاطتها وشراستها . ووداعتها وفي (الغصن) ولده وهو يهزل في جده ويجد في هزله .

بل لقد بلغ من يقظة المخرج أن خالف المؤلف في رسم شخصية (الوالي) ؛ فالمؤلف قد أراده داهية محنكاً بينما أخرجه المخرج جامد العقل آليّ التفكير ، واستقامت بذلك أحداث الموضوع وأمكن تصورها وتسلسل سياقها منطقياً .

والعجيب أن الأستاذ زكي طليمات لم يصطنع غير بضعة أستار وبضع أرائك ومقاعد لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، ومع هذا أقام بذلك ميداناً وقصوراً وعقائل ومسجداً وسجناً ومحكمة ، ووضح لنا كيف تحاك الدسائس وكيف تشعل الثورات وألقى الأضواء مركزة في غير تضييق أو إسراف على معنويات المشاهد وبواطن النفوس وأعماقها ، وطابق النتائج على مقدماتها في غير افتعال .

وكيفما كان الأمر فهذه الرواية تعتبر تجربة عملية موفقة وموافقة لمنهاج فرقة المسرح المصري الحديث التي أعلنت منذ نشأتها « أن إشعال شمعة واحدة أجدى وأنفع من قضاء العمر في لعن الظلام » .

عبد الفتاح البارودي

سراب

(إلى التي ألقت روحي ظلالك على نفسي)

لي لا بصبري قد جُزيت ثوابا
لما فتحت بقلبي الأبوابا

فرأيت أحلامي التي ضيعتها
بالأمس عادت لي تحث ركابا

واسترجعت روحي مواضي سعدها
فإذا النعيم يصب لي الأكوابا

هيهات يروي الأمس ما دمت أذ
ـبت على الحياة لهيبي محرابا

لكأننا جئنا على وعد لكي
نمضي الحياة مدى الحياة شبابا

يا غادة البسفور إني شاعر
وهب الجمال فؤاده وأنابا

نحت الهوى دستوره حتى إذا استشف
ـرى به ألق الصلاح وذابا

غذي من الدنيا سلافة لحوها
مثلي ترى بريقها خلابا

كوني على ديني نشيداً دائماً
فوق الحياة يعمها تطرابا

من كان يُخدع بالسراب فإنني
حققتُ حلمي مذ رأيت (سرابا)

(الموصل) عبد الخالق لط

إلى (م...)

* [إلى التي لم تطلق قلبها المحبوبة ادعت خلاف ذلك ، لأنها سمحت للعاطفة دون العقل أن تحكم في قضية حبها ومصير قلبها] .

هل الحياة سوى حب وأشعار
فدونك الحب ، ما في الحب من عار

وهل على القلب من لوم ومن حرج
إن ذاب شوقاً إلى صحب وسمار

الحب يا قلب لحن تردده
في الروض أطياره والجدول الجاري

والحب أنشودة غنى الزمان بها
وراح يعزفها لحناً بقيثار

والحب من لم يعش يوماً بنشوته
ما كان والله إلا صم أحجار

والحب نعمة هذا الكون أسبغها
على العباد جميعاً ربنا الباري

والحب أبهج ما في العيش من متع
رغم الذي فيه من ضر وأخطار

والحب ينبوع نور يهتدى أبداً
في ظلمة الليل فيه المدلج الساري

والحب لو لم يكن كانت معيشتنا
صحراء مقفرة رمضاء كالنار

والحب قدس من الأقداس راح له
يسبح الكون في صبح وأسحار

فالعمر من غير حب لا يطيب كما
لا تستطاب رياض دون أزهار

إني — وإن كنت يا حسناء ناكرة
للحب — باق عليه دون إنكار

فتحت للحب قلبي يوم أن نظرت
عيني إليك بإعجاب وإكبار

وعشت للحب لم أكفر به أبداً
فما الحياة سوى حب وأشعار

المقدادية — العراق
عبد الكريم مجيد عطار

الثقافة

العدد ٦٧٢ ١٢ من نوفمبر ١٩٥١	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	الثمن ٢٠ مليما

صفحة

في المنفى

المسجد المهجور والليل الموشح بالنجوم
تتثاءب الأشباح في إيماده وغيوم يوم
طلل وبوم ..
ولهيب تنورٍ تراقص في وجوهٍ ، في وجوم
— ماذا تروم ؟
« منى ومن طلل سدوم !
الشوك يورق كالصنوبر والكروم
إن باركته يد رؤوم »
— ماذا تروم ؟
نمشي ستحمله الرياح مع الغيوم
عبر القفار مع الغيوم
وأنا وأحلامي الكسيحة والنجوم
— الشوك والصحراء والطلل المصدع والنجوم
نبكي ونضحك ثم يدركنا النهار
فنلوذ في ظل الجدار ، ظل الجدار
عبثاً تحاول — أيها الموتى — الفرار !
اليوم تنعب والغروب الموحشات[*]
على انتظار ...
نبقى هنا ؟ يا للدمار !
نبقى ! — لتجني الشوك للأحرار — في هذا البوار
اليوم تنعب والذئاب الجائعات
على انتظار ...
اليوم تنعب في احتقار
بالأمس كان لنا على القدر انتصار
كان انتصار !
واليوم نخجل أن يرانا الليل في ظل الجدار
هذي القفار بلا قرار
الليل في أودائها الجرداء يفترس النهار
نبقى هنا . . ؟ يا للدمار !
عبثاً تحاول — أيها الموتى — الفرار
من مخلب الوحش العنيد
من وحشة المنفى البعيد
الصخرة الصماء للوادي يدحرجها العبيد
« سيزيف » يبعث من جديدٍ ، من جديد[*]
في صورة المنفى الشريد
— ماذا تريد ؟
« القمح من طاحونة الأسياد يسرقه العبيد »
— ماذا تريد ؟
« الورد لاينمو مع الفحم والحديد »
... طلل وبيد
تقضي بقية عمرك المنكود فيها تستعيد
حلماً لماضٍ لن يعود !
حلم العهود الذابلات مع الورود
كانت حياتك من جليد
والنبض — رغم أشعة الحب المذيبة — من جليد !
في وحشة المنفى البعيد
في وحشة المنفى البعيد

(بغداد)

عبد الوهاب البياتي

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | الإدارة | محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٧٢ الاثنين ١٢ من صفر سنة ١٣٧١ — ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٥١ السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

غرور

للدكتور زكي نجيب محمود

الإنسان مغرور بطبعه ، وهو كذلك عاقل بطبعه ، ومن شأن العقل أن يحد من الغرور ، فلا تكون بين الناس خصومة وقتال — لكن هذا كلام يحتاج إلى شرح وتحليل .

إن أساس السلوك كله هو أن يحتفظ الإنسان ببقاء نفسه أولاً ، فهو يأكل ليبقى ، ويرتدي الثياب ليبقى ، ويسكن البيوت ليبقى ؛ وهو كذلك يخاف الله ويعبده ليبقى ، ويحاول الكشف عن قوانين الطبيعة ليبقى ، ويقاتل الأعداء ليبقى ؛ إنه يقيم لنفسه الحكومات ليبقى ، ويسن لنفسه التشريع ثم يجعل عليه القضاة ليبقى .

وبديهي أنه كلما ازداد الإنسان قوة ، كان أقدر على حفظ بقائه ؛ والقوة قد تكون قوة العضلات المفتولة التي تصفع ، لكنها كذلك قد تكون شيئاً آخر أو أشياء :

فالفضيلة قوة ، بمعنى أنك إن سلكت السلوك الذي يعده الناس فاضلاً ، وعرف الناس فيك هذه الصفة ، شملوك بحمايتهم ، يذودون عنك فلا تكون هدفاً للمعتدين ، لا عن حب لسواد عينيك ، بل لأنهم عرفوا فيك شخصاً مأمون الجانب لا يخشى منه عدوان على ما لهم من حقوق ؛ ألا تسمعهم يقولون : إن حب الثناء طبيعة الإنسان ؛ ذلك لأن طبيعة الإنسان الأصيلة هي أن يحافظ على بقائه ، فإذا عرف أنه في الناس موضع ثنائهم ، عرف بالتالي أنه موضع حمايتهم ، وأنه في مأمن من شرهم .

وهل المجد بكل أنواعه وضروبه إلا أن يثني عليك الناس ويمدحوك ؟ إنك تنشد المجد لتظفر بالثناء ، ولست تريد الثناء لأن له في الأذن وقعاً منغماً جميلا ، بل تريده لأنه دليل على أنك قد اتقيت الشر والخطر ، فضمنت بذلك البقاء لنفسك .

حتى الجمال ، تنشده المرأة لأنه لها مصدر قوة ، فإن حازت نصيباً منه ، ضمنت لنفسها البقاء بمقدار ما حازت .

إن الإنسان ليسعى ليحقق لنفسه أكبر سعادة ممكنة في ظروفه القائمة من حوله ، وأكبر السعادة هو بعينه أكبر الضمان لاستمرار البقاء : فالصحة سعادة ، والمال سعادة ، والجاه سعادة ، والبنون سعادة ، لأنها جميعاً ضمانات البقاء المستمر الآمن ؛ وإذا رأيت الناس يلتمسون ما يجيء لهم

المتعة واللذة ويفرون مما عساه أن يؤلم . فما ذلك إلا لأن اللذة والألم في حقيقة أمرهما إن هما إلا قوة الإنسان وضعفه : يسير الإنسان نحو القوة في عافية أو مال أو جاه ، فيسير بنفس الخطوات نحو الشعور باللذة ، ويسير نحو الضعف في عافية أو مال أو جاه ، فيسير بالخطوات نفسها نحو الشعور بالألم ... لكن الإنسان إذ ينشد القوة — ليضمن لنفسه البقاء — لا تراه يشبع بمقدار معين منها ، بل يمضي في السعي وراء اكتنالها قوة على قوة : فهو يريد مالاً على مال ، وجاهاً على جاه وفتوة في الجسد فوق فتوته ! إنه في ذلك كله لا يريد الزيادة لذاتها ، لأنه قد يعلم حق العلم أن ما لديه يكفيه ، لكنه يريد هذه الزيادة ليزداد ضمانه ببقاء هذا الذي يكفيه ، فيضمن بالتالي ألا تتعرض حياته لخطر أو فناء .

وإن كانت هذه طبيعة الإنسان ، كان من طبيعته تبعاً لذلك أن تشتد به الرغبة في أن يخشاه الناس ويطيعوه ؛ لأنه بمقدار ما يجد عندهم من خشية وطاعة ، يتحقق له ما ينشده من ضمان وجوده ! إن الإنسان بطبعه المغرور يريد أن يكون له السبق على غيره في ميادين التنافس ، وهو يريد السبق لهذا السبب نفسه ، وهو أن يكون في موقف حصين فلا يسهل الاعتداء عليه والنيل منه ! إنه لا يهتم بالسبق ذاته ولذاته ، بل يهتم به لأنه وسيلة الغاية التي لا غاية له بعدها ، وهي أن يبقى ! ولذلك كثيراً جداً ما يكفيه أن يعترف له الناس بالسبق ولو لم يكن سابقاً بالفعل : يكفيه أن يعترف له الناس بأنه أقوى أبناء البلد عضلاً ، أو أكثرهم مالاً ، أو أعزهم نفراً ، أو أغزرهم علماً ، أو أبرعهم فناً ، حتى لو لم يكن كذلك في حقيقة أمره ، لأن اعتراف الناس بسبقه عليهم يصرفهم عن تناوله بالأذى ، فيأمن بذلك ما يخشاه على بقائه من خطر .

فإذا كان تعريف الغرور هو أن يظن الإنسان بنفسه التفوق على الآخرين ، عرفنا في وضوح أجلى الوضوح لماذا يجيء الإنسان مغروراً بطبعه ، إنه يولد وفي جبلته وهْمٌ بأنه خير من سواه ، ولذلك تراه يتصرف على هذا الأساس ، حتى تعلّمه ظروف الحياة أنه ليس في الحقيقة كذلك — وهنا يأتي دور العقل الذي من شأنه أن يحدّ من الغرور ، وكلاهما — الغرور والعقل — من طبيعة الإنسان .

فالعقل هو الآخر أداة عند الإنسان يحفظ بها بقاءه ؛ وهو لا يبدأ عمله إلا إذا شط الغرور وشطح ، وأوشك أن يودى بصاحبه إلى مواضع الخطر .

وتفصيل ذلك أن الإنسان متروكاً على فطرته — فطرته الغابة — يأخذ في التصرف على أساس أنه سيد مسيطر ، ولا بد لغيره من الناس أن يعترفوا له بماله من سيادة وسيطرة ، حتى إذا ما خرج هذا الواهم من كهفه إلى حيث الناس ، وجد أحد أمرين : فإما أن يأخذه الناس في زعمه مأخذ الجد ، فتثور في أنفسهم هم الآخرين فطرة السيادة ، ويكون بينهم وبينه قتال يُظهر الأقوى حقاً وفعلاً ، لا خيالاً ووهماً ، وإما أن يأخذه الناس في زعمه مأخذ المزاح فيهملوه ، وبذلك يثور غروره فيقاتلهم حتى يتبين هنا أيضاً من هو الأقوى حقاً وفعلاً ، لا خيالاً ووهماً ... ففي كلتا الحالتين يقع القتال حتى يعلم الناس بعضهم بعضاً أيهم أقوى .

فماذا يكون موقف المغلوب في هذا القتال ؟ موقفه هو الشعور بالدافعين معاً ، فالغرور ما يزال يملي عليه استئناف القتال حتى يسترد ما كان له في وهمه من سيادة وسلطان ؛ لكن العقل — وهاهنا يبدأ عمله في حفظ البقاء — يحدّ من ذلك الغرور الشاطح ؛ فيتمكن هذا المهزوم مكتفياً بنظرة الكراهية إلى من أنزل به الهزيمة .

لكن يستحيل على الهازم والمهزوم معاً أن يعيشا حياة الأمن والطمأنينة والدعة ، لأن الهازم يريد أن يكون على أهبة الاستعداد دائماً احتفاظاً بنصره ، والمهزوم يظل يتربص بهازمه الدوائر .. ومن ثم — في رأى توماس هُبْز — تم الاتفاق بين الفريقين — الهازم والمهزوم معاً — على أن يكبح كل من غروره الفطرى ، وأن يحتكم كل إلى إملاء عقله وهو فطرى أيضاً ؛ ومن ثم كذلك بذرت المدنية الإنسانية أول بذورها .

هاهنا بذرت المدنية الإنسانية أول بذورها ، لأن العالم قد أخذ يجمع علمه حتى أصبح عالماً يهدى بعلمه ويهتدى ، ولأن الفنان قد أخذ في خلق فنه ليستثمر المتعة ويُشعر بها سواه .

لكن الطبيعة المكبوتة لم تزل ، فهى هناك تحت الجلد خبيئة كامنة ، بل هى غلابة من حين إلى حين ، فترى الغرور الطبيعى قد كسر الأغلال — أغلال العقل — وطفح على

صاحبه ، فأعاده متكسناً إلى الوراء حيث كان أجداده ! ثم يعود العقل فيكبح الغرور من جديد ، حين يدرك أنه قد أزلق بصاحبه إلى مهاوى الخطر . وهكذا دواليك .

ليس الإنسان متمدناً على طول الخط ، ولا هو همجي على طول الخط ، بل تراه ساعة هنا وساعة هناك ، والأمر بعد ذلك متروك للحساب جمعاً وطرحاً ، إذا ما أردنا الموازنة بين إنسان وإنسان في مدى ماظفر به كل منهما من مدنية : فكم ساعة لهذا هناك ، وكم ساعة لزميله ؟ ثم كم له هنا وكم لزميله ؟ كم يعيش هنا في غروره وكم يعيش في عقله ؟ وزميله كم يعيش في هذا وفي ذاك ؟ ومن حاصل الجمع وباقي الطرح يكون لنا الحكم بين الرجلين .

* * *

ياليت شعري لماذا يكتب الكاتب مايكتبه إذا لم يكن في عزيمته — من قريب أو من بعيد — أن يثبّت أوضاعاً تعجبه ويمحو أوضاعاً لاتعجبه ؟ وموضوعنا الآن هو العلاقات بين إنسان وإنسان كيف تكون في جماعة متحضرة ؟ أحقيقة ينبغي أن تقوم تلك العلاقة على أساس الصفع والركل والعض وإعمال الأظفار والأنياب ؟!

أما أنا فلا أدعو إلى ذلك ، وعندى أن العلاقة المثلى بين الناس هي أن يكون إمساك بمعروف أو تسريح بمعروف ؛ عندى أن كرامة الإنسان باعتباره إنساناً — خادماً كان أو مخدوما — يجب أن تنزل منا منزلة العبادة أو نحوها ؛ ولقد كتبت في ذلك ألف مرة ومرة — وليسخر منى الساخرون ماشاءوا ، فتحت أبصار الناس ما أكتبه وما يكتبون لأنى لحظت في أخلاقنا ما أنكره على الآخرون ، إذ لاحظت أن الطغيان يجرى في دمائنا ، وأن مبدأنا المتأصل في طباعنا هو أن يصفع الإنسان زميله مادام الصفع في مقدوره ، ثم يجعل الصافع صفعه هذا موضع فخره ، لأنه علامة قدرته ! وبالطبع قد يكون الشخص الواحد عندنا صافعاً حيناً ومصفوعاً حيناً آخر ، حسب نسبته إلى من يعامله .

وليأذن لى القارىء أن أعيد له فقرة من مقالة كتبتها منذ سنوات ، كتبتها ساخراً ، وأجريتها على لسان رجل ينظر إلى أوربا فلا تعجبه أخلاقها بالقياس إلى أخلاقه هو — وأخلاقه كما رأيت قائمة على ألا يكون الإنسان زميلاً لأخيه الإنسان إلا إذا تساوت بينهما القدرة على الصفع والبطش ؛ قال المتكلم وهو ينظر إلى الجماعة الأوربية :

« في هذا الخليط (يقصد الفوضى الخلقية في أوربا !) لا يؤمن الناس بأن الليل لاينبغى له أن يسبق النهار ، ولا الشمس أن تدرك القمر ، وأن كلا في فلك يسبحون ؛ فهم يريدون لأجرام السماء كلها أن تسبح في فلك واحد ، ثم تختلف بعد ذلك أوضاعها وأشكالها ما شاءت أن تختلف ؛ وذلك الفلك الواحد عندهم هو صفة الإنسانية التى تجعل الإنسان شيئاً غير الكلب والحمار ، فكن عندهم فقيراً ما شئت أو كن عندهم غنياً ماشئت ، لكنك إنسان ؛ كن عندهم جاهلاً ماشئت ، أو كن عندهم عالماً ماشئت ، لكنك إنسان ؛ كن عندهم ضعيفاً ماشئت ، أو كن عندهم قوياً ماشئت ، لكنك إنسان ؛ كن عندهم زارعاً أو صانعاً ، فأنت إنسان ؛ كن عندهم خادماً أو مخدوماً وأنت في كلتا الحالتين إنسان ؛ كأنهم جماعة من النمل لاتختلف فيها نملة عن نملة ! ... وأقــرِنْ فوضاهم هذه بالنظام في جنتى ، فأحمد الله على سلامتى ؛ أرادت زوجتى في جنتى أن تستخدم خادمة :

— إسمك ماذا ؟

— بثينة ياسيدتى .

لكن زوجتى كانت بثينة كذلك ، فأبى عليها حب النظام إلا أن تفرق بين الأسماء حتى لاتختلط خادم بمخدوم ، وقالت في نبرة كلها مرارة ، ونظرة تشع منها الحرارة :

— ستكونين منذ اليوم زينب ، أتفهمين ؟

— حاضر ، سيدتى .

وبثينة بالطبع لم تفهم لماذا تكون منذ اليوم زينب ، لأنها جاهلة صغيرة ، لم تفهم بعدما الفضيلة وما الرذيلة .. »

ثم ليأذن لى القارىء مرة أخرى أن أختم هذا المقال بما ختمت به ذلك المقال منذ سنوات ، إذ أجريت على لسان المتكلم شيئاً قليلاً من القلق ، بعد أن جعلته يرضى بكل ماعنده في جنته من نعيم ، فقال :

« لكن لكل جنة إبليسها ، وإبليس جنتى وسواس خناس ، ماينفك يوسوس في صدرى هاتفاً : ياويح نفسك ، لقد ضَلَلْتِ ضلالين ، ضلالاً بغفلتها ، وضلالاً بتضليل قادتها ».

زكى نجيب محمود

من التعديد إلى التوحيد

للدكتور أحمد أمين بك

علمنا التاريخ أن الأمم بدأت فى تعديد الآلهة ، فعبدوا الأحجار والأشجار ، وعبدوا الأنهار والحيوانات ، ولما جاء العهد اليونانى ، جعلوا لكل شىء إلهاً . فإله الجبال ، وإله البحار ، وإله الرعد ، وإله البرق ، وإله الحرب ، وإله الحب ، وهكذا . واختصر النصارى الآلهة فى ثلاثة : الأب والابن وروح القدس ، إلى أن انتهى الدين إلى إله واحد : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » .

ويظهر أن الإنسان جرى أيضاً فى هذا السبيل ، فتعدد فى كل شىء ، ثم توحد فى كثير ، وسينتهى أمره إلى التوحيد .

كان الناس قبائل ، فتوحدت كل مجموعة من القبائل فى أمة . وكانت هناك فى كل أمة أجزاء نابية ، فعمل المصلحون على توحيدها ، فقد جاء بسمارك ووحد أجزاء ألمانيا وجعلها دولة واحدة ، وجاء جاريبالدى فوحد إيطاليا ، ولنكولن وحد الولايات المتحدة . وإنما نجح هؤلاء لأنهم مشوا مع التيار لا ضد التيار .

وكل حرب من الحروب تقدم العالم خطوة نحو هذا التوحيد ، وكل الدلائل تدلنا على هذا الاتجاه ، وإنما كانت الحرب ، لأنها أشبه ما تكون بالرعد يجمع بين سحابتين . ولذلك نتوقع أن تندمج كندا والمكسيك فى الولايات المتحدة ، كما اندمجت السوديت فى ألمانيا .

وكذلك الشأن فى الأنظمة ؛ فمثلاً كان القضاء الشرعى عندنا متوزعاً بين قضاء شرعى وأهلى ومختلط ، فزال المختلط ، وسيتوحد القضاء لا محالة ؛ وكان التعليم عندنا ينقسم إلى أزهرى ومدنى وأجنبى ؛ وسيتوحد كل ذلك ، ومن أجل هذا كان الاحتلال على العموم كالقذى فى العين . أو كامتداد اللسان فى البحر ، ليس طبيعياً ، فبدأ يأخذ فى الزوال ، لأنه ضد الطبيعة ، فزال من الهند ، وزال من سوريا ولبنان ، وسيزول لا محالة من مصر والعراق والمغرب .

ولا يعكر على هذه النظرية إلا ما حدث أخيراً من انقسام الهند إلى هند وباكستان ، ومن انقسام انجلترا إلى انجلترا وإرلندا ، فهذا انفصال لا توحيد ، وربما كان الجواب عن ذلك ، أنها انفصلت وتحددت ليقوى كل جزء نفسه ، ثم يتوحد .

ثم فى عصرنا هذا تقسمت الأمم الحكومات ، فلكل أمة حكومة ، انجلترا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة واليابان . فبناء على نظريتنا ، ستصبح للأمم كلها حكومة واحدة . وكل واحدة من هؤلاء عضو فيها ، وهذه الحكومة العالمية ستواجه ثورات فى كل أمة ، ولكنها تقضى عليها ، كما قضت كل حكومة على ثورات أممها . وقد ظهرت طلائع ذلك فى توحيد نظام البريد والتلغراف والسكك الحديدية ، والراديو وغير ذلك . ولم تبق إلا خطوة واحدة على النهاية ؛ فبعد هيئة الأمم الفاشلة ، ستكون الحكومة الواحدة الناجحة . بل أكثر من ذلك ستكون للعالم كله لغة واحدة ، ودين واحد .

وستتكسر الحدود بين الأمم تبعاً لاختراع الطائرات ، والغواصات ونحو ذلك ، مما كان يحجز السرعة ، ويعوق الاختلاط .

كل هذا سيقدمنا إلى فهم الإنسانية . وعلى هذه النظرية ، إذا سألت : ماذا سيحدث فى هذا الشأن ؟ أمكنك الإجابة بأن هذا الشىء ضد التوحيد ، أو موافق للتوحيد ، فإن كان ضده فسيفشل ، وإن كان معه فسينجح .

ثم ، إن ما هو ضد التوحيد قد ينجح ، ولكنه نجاح مؤقت ، سينتهى عاجلاً أو آجلاً بالفشل . وما كان مع التوحيد قد يفشل . ولكنه فى النهاية سينجح . وإن الطبيعة لا تعرف الطفرة ، وإنما تعرف التطور التدريجى ؛ حتى ليمكنك أن تعرف أن هذا ظل ، وأن هذا شمس ، ولكن هناك خطاً فاصلاً بين الشمس والظل من الصعب أن تتبينه ، وأن تقول هذا ظل وهذا شمس . ولكن سيأتى وقت قريب ، فتحكم على هذا الخط بأنه ظل بحت ، أو شمس بحت . فشأن العالم شأن العقيدة فى الإله ، يسير إلى توحيد ، وسيكون شعاره « إله واحد ، لإنسان واحد » .

أحمد أمين

الباشـــا أبو زر

ليست هــذه قصة رحلة فحسب ، بل هي أيضاً قصة لرجــل عاش لسنين عاماً مختبئاً وراء صخور الطور أشد مناطق سيناء وعورة وعزلة .

لحضرة الأستاذ الدمرداش محمد بك

في فجر أحد أيام شهر مارس سنة ١٩٣٧ غادرنا القاهرة في رحلة طويلة قاصدين سيناء ، وغرضنا الوصول إلى جبل سربال[1] من ناحية مشارفه الجنوبية عن طريق وادي حبران ، وذلك بعد أن فشلنا في رحلة سابقة في الوصول إلى هــذه الناحية بالالتفاف حول سربال من ناحية مشارفه الشمالية بوادي فيران لوعورة المسالك وصعوبة اجتيازها .

كنا خمسة في سيارتين ؛ فطوينا المسافة من القاهرة إلى السويس ، ومن السويس إلى بلدة أبو زنيمة في خمس ساعات ، وبعد راحة قصيرة استأنفنا السير نحو الجنوب واجتزنا سهل المرخاء ، وقطعنا عرض وادي فيران عند مصبه بخليج السويس ودخلنا سهل القاع المؤدي إلى مدينة الطور ، ثم مال بنا الطريق إلى الشرق ودخلنا وادي حبران ، وفي أحد الأخاديد ألقينا معسكرنا وقضينا ليلتنا .

في صباح اليوم التالي غادرنا المعسكر راجلين بعد أن تزودنا من الماء والطعام ما يكفينا يومين ، ثم أخذنا نرتقي هضبة الطور جهة الشرق من وادي الملاحة في اتجاه جبل سربال .

كان تقدمنا بطيئاً والسير عسيراً ، وكنا كلما تخطينا عقبة واجهتنا عقبة أصعب منها وأشد وعورة ، وعانينا شدة كبيرة في التصعيد في الجبال والهبوط إلى الوديان ، ولم يأت علينا نصف النهار حتى كان قد بلغ بنا الإعياء حداً كاد يثنينا عن التقدم إلى الأمام ؛ فتوقفنا لنستريح بعد هذا العناء الطويل ، وأخذنا نتطلع إلى سربال أمامنا على مرحلة منا بقلوب واجفة خشية النكوص من غير أن نبلغ الغاية ونحقق الغرض . وفي هذا الوقت الحرج : ساعة الفصل بين التقدم أو النكوص ، لاح لنا في اتجاه سربال واد عميق ، تكسو مجراه وسفوحه خضرة وفيرة ؛ فجدد هذا المنظر فينا النشاط وبث فينا العزيمة ، فتقدمنا نحو الوادي ونزلنا فيه ، وكان



الوقت قبيل العصر ؛ فراقنا كثرة الشجر والعشب فيه ونضارته ، وتنوع المناظر وروعتها ؛ فابتهجت نفوسنا ، واطمأن خاطرنا ؛ فحثثنا السير نبتغي قطع المرحلة الباقية قبل أن تغيب الشمس ويحل الظلام — ويظهر أن طريقنا منذ الصباح كان يتبع دروباً ومسالك غير مطروقة ، فلم يصادفنا طيلة هــذا الوقت إنسان أو حيوان ، حتى ظننا أن المنطقة خالية من السكان ؛ ولهذا كانت دهشتنا كبيرة عندما أبصرنا على غير انتظار قطيعاً من المعز يرعى في بطن الوادي ، وما أبصرتنا حتى نفرت منا وتفرقت في عرض الوادي

(١) جبل سربال من أشهر جبال سيناء وأجلها منظراً ، تتوج هامته القاعدة حتى لم تكن تاجاً عظيماً على شكل نصف دائرة ، ويبلغ ارتفاع أعلاها ٦٨٠٠ قدم . ويطل جبل سربال على مدينة الطور في الشمال منها ، ويمر وادي فيران الشهير تحت سفوحه الشمالية . وكان الناس يقدسون هذا الجبل ويحجون إليه قبل النصرانية ، بل قبل خروج موسى من مصر بأجيال ، وقد أقيمت على سفوحه في وادي فيران الأديرة والكنائس ومقاور النساك ، ولا تزال آثارها باقية في الوادي إلى الآن .

وطوله ، ثم شاهدنا بعض الصبيان والصبية من رعاة القطيع يتسللون نحونا من بين الصخور ، ويقفون على كثب ينظرون إلينا نظرة توجس واستغراب ، ثم يتوارون مسرعين في الشقوق وخلف الجلاميد ! فداخلتنا الريبة من أمرهم ، وخشينا أن يلحقوا بنا أذى ! فحاولنا استدراجهم للتحدث إليهم ، ولكنهم أمعنوا في الابتعاد عنا وولوا الأدبار . فاستأنفنا السير على حذر ، ولم نمض طويلاً حتى التقينا وراء إحدى الثنيات في مضيق من الأرض بشيخ يلبس قميصاً قصيراً أبيض ، ويحمل في منطقته سيفا ، وهو يقف معترضاً الطريق . فبادرناه السلام مأخوذين فرد التحية ، وأخذ يتفرس فينا محاولاً كشف حالنا ، ثم خاطبنا مستفهماً عن هويتنا ووجهتنا ؟ فأجبناه أننا قادمون من مصر ، ووجهتنا المشارف الجنوبية لجبل سربال . فسأل : هل أنتم من رجال مركز الطور ؟ فأجبناه بالنفي . فسأل : أين دليلكم ؟ فقلنا له إننا لا نصطحب دليلاً في رحلتنا ، بل نهتدي إلى الطريق بالخرائط التي نحملها ؛ فأنكر علينا هذا الوضع وقال : أخشى أن تضلوا الطريق وينقطع بكم الاتصال بالعمران فتهلكوا في هذا الخضم من الجبال ، وأنصحك إليكم أن تعودوا من حيث أتيتم ولا تجازفوا بسلامتكم في هذا التيه العظيم . وقد رآنا وهو يحدثنا منصتين لكلامه لا يبدو علينا قلق أو اضطراب أو خوف ؛ فلما انتهى من حديثه شكرناه على نصيحته . وطلبنا منه أن يدعو لنا بخير في هذا المسعى الشاق إلى جبل سربال ؛ فتعجب من طلبنا وسألنا : هل أنتم من حجاج النصارى ؟ فأجبناه : بل نحن من الحجاج المسلمين . فقال كيف !! إنكم إذاً ضيوفنا في هذا الوادي وفي حمايتنا . ثم إنه استوقفنا لحظة غاب فيها عنا ثم عاد إلينا يصحبه رهط من الشبان والرجال ، وقد تبدلت لهجته وأصبح أكثر لطفاً وتوددا ، وقال : إن والدي الشيخ يدعوكم إلى خيمه بالوادي الصغير ، فقبلنا الدعوة شاكرين ، واستقبلنا الشيخ وحده في ظاهر المخيم بالغاً رحباً مهوناً كمن يتوقع مكروهاً ، ثم قادنا إلى خيمة من الشعر فرشت أرضها بالبسط ، وجعلت فيها المساند من قماش من صوف مصبوغ أحمر وأخضر مطوى على نفسه عدة طيات ، واجتمع حول الخيمة بعض الرجال ، ثم أوقدوا النار وعملوا القهوة في (بكرج) كبير وقدموها لنا في فناجين من الصيني الثخين .

كان مضيفنا شيخاً هرماً ، ضئيل الجسم ، محني الظهر ، تحيط بذقنه لحية خفيفة بيضاء ، وكان يتطلع نحونا مختلساً النظرات بعينين صغيرتين تلمعان في وجه صغير شديد السمرة ، وكان يلبس قميصاً طويلاً من « البفتة » ويتدثر بعباءة سوداء قديمة ، ويضع على رأسه العمامة والزربة (المنديل والعقال) ويضع في إصبعه خاتماً كبيراً من الفضة بفص من العقيق .

بعد نحو ساعة غابت الشمس فقدموا لنا الطعام في طبقين مستديرين واسعين من الخشب ، وضع في أحدهما الأرز المسلوق ، وفي الآخر الخبز وقطع اللحم ، وأخذ مضيفنا يقسم اللحم والخبز علينا ، ويدعونا إلى طبق الأرز . وبعد أن أكلنا دعا الشيخ أولاده الكبار لتناول ما بقي من الطعام معه ؛ فلما انتهوا من ذلك قعدوا حولنا . وأخذنا وإياهم نتجاذب أطراف الحديث . وحانت مني التفاتة نحو الشيخ الهرم ، وكان جالساً بجواري مشغولاً بنفسه عما يدور حوله ، مستغرقاً في التفكير . فقلت له : ما بالك لا تشترك معنا في الحديث . فأجاب مأخوذاً وبصوت خافت أجش : هل لا يزال الباشا أبو زر عندكم ؟ فضحك أولاد الشيخ لسؤاله . فقلت : هل تقصد محمد باشا الباسل . فقال لا : بل أقصد الوالي أبو زر . وبعد تفكير أدرك أحد الزملاء ما يعني ، فقال إنه يشير إلى عباس باشا الأول والي مصر . فقد كان من عادته لبس الطربوش المغربي ذي الزر الطويل . فأمّن الشيخ على كلامه . فقلت : ولكن ما علاقتك بالباشا أبو زر ، فأجاب : بالله عليك يا أخي أصدقني هل لا يزال عندكم ؟ فقلت لا : بل مات من زمن بعيد . فبان البشر على وجهه ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة حزينة بان من خلفهما صفان منتظمان من الأسنان العاجية البيضاء السليمة ، ثم شرع يروي لنا قصته مع الباشا أبو زر فقال : في عهد هذا الوالي طُلبنا نحن أبناء العربان سكان الصحراوات للخدمة في الجهادية . وبعد أن اجتمعت شراذم المجندين من سيناء في السويس واكتمل عددهم ، ساقونا إلى مصر وأنزلونا بمعسكرات الجيش بالعباسية ، وأخذوا يدربوننا على فنون القتال ، ومكثنا في هذا التدريب نحو السنة ، وكنت في أثناء إلتحاقي بالمعسكرات أعاني حالة نفسية شديدة لفرط الحنين لأهلي وعشيرتي ووطني ، وحياة البداوة التي كنت أعيشها فيه ، وكان من الصعب علينا نحن أبناء الصحارى أن نخضع

لقيود الحياة العسكرية وسكنى المعسكرات فى المدن ؛ فكنا دائماً فى عصيان وثورة على نظام الحياة الجديدة التى لم نألفها فى مواطننا . وبعد أن تم تعليمى نقلت للحراسة فى البرج رقم ١١ على الطريق الصحراوى بالقرب من السويس ، فكان هذا النقل فرجاً نزل من السماء أزاح عن نفسى بعض الكرب ، فكنت من أعلى البرج أرى أرض سيناء حبيبة القلب ، وأتنفس أريج هوائها ، وفى إحدى الليالى كانت نوبتى فى الحراسة ؛ فشاهدت القمر يبزغ من وراء جبال سيناء ، ويشرق بنوره على الهضاب والربى ! فاهتاجت نفسى لهذا المنظر ، وانتفض جسمى ، وغاب عنى عقلى ، وفى حركة عصبية أسندت بندقيتى إلى جدار البرج وتسربت من سترة الميرى وحذائه ، وقلت ياواحد يادّيان ، وانطلقت أعدو بكل مالى جسمى من قوة نحو الشرق لا أحس بما أفعل ، واجتزت أطراف مدينة السويس ودخلت أرض سيناء ، واعتليت هضابها ، واختبأت فى أحد الوديان — حصل كل ذلك ولم تكن قد أشرقت شمس اليوم التالى ، ولما اطمأنت نفسى إلى عزلتى ، أخذت أفكر فيما سيلحق أهلى وعشيرتى من الأذى والمعرة بسبب هروبى ، وأخذت أراجع نفسى وأحاسبها على هذا الطيش ، وكدت أغير رأيى وأعود إلى البرج ، ولكن إرادة الله كانت الغالبة فقد التقيت فى هذه اللحظة بأحد الأعراب مختبئاً فى الوادى ، وكان هو كذلك مثلى هارباً من الجندية ، فترافقنا وأخذنا طريقنا نحو بلاد الطور ، مبتعدين عن تجمع القبائل ودروب القوافل حتى وصلنا وادى « إسلا » فى أقصى الجنوب واحتمينا بإحدى المغائر هناك وأقمنا عندها زمناً ، ثم اقترنت منها بزوجتى الأولى ورزقت منها بولدى الأول « صالح » هذا ، وأشار إلى رجل هرم يجلس معنا — ثم نزحت بعائلتى إلى هذا الوادى المجهول وأقمت به منذ ذلك الحين مختفياً لم أبرحه ولم أر الدنيا خارج جدرانه ، تعاودنى فى كل يوم ذكرى هروبى ومسألة البحث عنى ، فأتخيل أن كل عرب سيناء قد جندهم الميرى لتعقبى وتقصوا عنى ، ويتقصوا أخبارى ، فيتولانى الأسى والوجل من معرة الهرب من جهة ، ومذلة العودة مقبوضاً علىّ من جهة أخرى . ولما كبر صالح وأخذ يتنقل فى المنطقة وينزل إلى مدينة الطور فى المواسم ويتعرف أخبار الدنيا ، بحث له بهمى وقلقى ؛ فأكد لى أن الباشا أبو زر قد مات ، وأن الميرى قد كفّ عن ملاحقتى ، فلم أصدقه ، وظننت أنه يخادعنى ... ثم إنه تنهد ليفرج عن نفسه وسكت . فسألته عن عمره فقال : أربعون سنة . فقلت له : كيف ذلك والباشا أبو زر قد مات من منذ نحو تسعين عاماً ، فقال وهو يبتسم « طيب إذاً خليها خمسة وأربعين » ثم ضحك وضحكنا ، واستدرك ابنه صالح وقال إن الشيخ لا يزال متزوجاً ينجب أطفالاً ، وهذا الصغير — وأشار إلى طفل لم يتجاوز الخامسة — إنه أصغر أبنائه من زوجته الخامسة ، ولا تزال على ذمته زوجتاه الثالثة والرابعة أيضاً ، وأما أمى والزوجة الثانية فقد توفيتا — فتنهد الشيخ ونظر إلى ابنه مؤنباً معاتباً وقال : لاتذكرنى بأمك ياصالح فقد كانت أعز نسائى إلى قلبى رحمها الله .

ثم إننا قضينا ليلتنا بالوادى بجوار مخيم الشيخ ، وفى الصباح رأينا اختصار الرحلة والعودة إلى معسكرنا ، بعد أن تأكدنا من صعوبة الوصول إلى سربال من هذه الجهة أيضاً .

الدمرداش محمد

مؤرخو الطليعـــة

للأستاذ علي أدهم

يشعر الناس بأنهم يقضون حياتهم في الدنيا بين أبديتين ، وهما أبدية الماضي وأبدية المستقبل ، ولما لا يكفون عن التلفت إلى الماضي ، ولا يسأمون التطلع إلى المستقبل ، وكل إنسان إلى حد ما مؤرخ ، يحتفظ في ذاكرته بطوائف من الذكريات السارة والمحزنة ، وما ينفك ينشر صحائفها ويطويها ، والتاريخ للأمم بمثابة الذاكرة للفرد ، وكل أمة مهما كانت متخلفة في مضمار الحضارة لها نصيبها المقسوم من الذكريات الحلوة والمرة ، وهذا النصيب المقسوم هو ما يسمى تاريخها ، وحينما انبثقت أنوار الإسلام في شبه الجزيرة العربية كان للعرب نصيبهم المقسوم من الأخبار التاريخية التي تختلط فيها الحقائق بالأساطير اختلاطاً يجعل التمييز بينهما من أشق الأمور ، وكان أكثر هذه الأخبار يدور حول ما يسمى « أيام العرب » وحروبهم قبل الإسلام وأنسابهم وأخبار بعض القبائل البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس وشذرات مما سمعوه من حوادث التوراة والتلمود .

ولما ظهر الإسلام شغل المسلمون بالفتوح والحروب حتى توطدت مكانة الإسلام وعلت كلمته ، واستوسق له الأمر . ولما هدأت فورة الفتوح بدأوا يتجهون إلى إثبات الأخبار ، وتسجيل الحوادث ، وكتابة التاريخ ، وأقبلوا على جمع الأحاديث النبوية وتفسير القرآن .

وقد نشأ التاريخ الإسلامي نشوءاً طبيعياً استجابة لحاجة المجتمع الإسلامي . والظاهر أن مؤرخي العرب لم يعرفوا كتب التاريخ اليونانية أو الرومانية ، لأن شيئاً منها لم يترجم إلى اللغة العربية ، ولما نشأ التاريخ الإسلامي على غير مثال سابق ، وكشف عن خصائص الأمة الإسلامية ، وأغلب مؤرخي المسلمين لم يكونوا من المؤرخين الرسميين الذين تكلفهم الدولة الرجوع إلى الوثائق وجمع الأسانيد وكتابة التاريخ ، وإنما كانوا يتقدمون بمؤلفاتهم التاريخية إلى المجتمع الإسلامي برمته ، ولا يعيشون في كنف الأمراء ، ولا يعتمدون على معونة الدولة ، ولم تخل كتاباتهم بطبيعة الحال من التأثر بنزعاتهم المذهبية ، وعقيدتهم السياسية ، ولكن حظهم من النزاهة مع ذلك كان موفوراً إلى حد كبير ، فهم لم يكتبوا التاريخ إرضاء للخلفاء والأمراء ، وإنما كتبوه بدافع من ميلهم إلى البحوث التاريخية ، وخدمة المجتمع الإسلامي بوجه عام .

وفي أول الأمر كان التاريخ ممتزجاً برواية الحديث وتفسير القرآن ، وذلك لأن المسلمين لما اشتغلوا بجمع القرآن وتفسيره واستقصاء الأحاديث احتاجوا إلى تحقيق المناسبات التي نزلت فيها الآيات ، والمشاهد التي وردت فيها الأحاديث ؛ ولما عمدوا إلى جمع أخبار السيرة النبوية قبل كل شيء . ويقال إن أول من صنف في السيرة والمغازي هو عروة ابن الزبير المتوفى سنة ٩٣ هجرية ، وقد كان أبوه الزبير أحد الصحابة المقدمين البارزين وأمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين ، وهو شقيق عبدالله بن الزبير ، بخلاف أخيهما مصعب فإنه لم يكن من أمهما ، وقد روى عن عائشة أم المؤمنين ، وكان عروة رجلاً معروفاً بالصلاح والتقوى والعلم ، وقد أصابته الأكلة في رجله وهو بالشام أثناء زيارته الوليد بن عبدالملك ، وقطعت رجله فأظهر جلداً عجيباً وقوة احتمال نادرة ، ولم يقبل أن يسق الخمر ليستعين بها على احتمال الألم ؛ والظاهر أنه توفر على دراسة الآثار والعناية بالأمور الدينية ، وابتعد عن السياسة والأمور الدنيوية ، ولما اتصل بالأمويين بالرغم مما كان بينهم وبين أخيه عبدالله ، وحاز إعجاب عبدالملك ، وظفر بتقديره حتى قال فيه عبدالملك : « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة » . وممن يروى عنه كذلك أنه كان من السابقين إلى رواية أخبار السيرة والمغازي وهب بن مُنَبِّه المتوفى سنة ١١٤ هجرية ؛ والمعروف عن وهب أنه كانت له معرفة بأخبار الأوائل وأحوال الأنبياء ، وهو من أهل يمن ، ويقول عنه ياقوت إنه « كان من خيار التابعين ثقة صدوقاً » . وكان وهب فيما يقال كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة

الإسرائيليات ، وله كتاب في الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم . وقد مات وهو على قضاء صنعاء بعد أن بلغ التسعين من عمره ، ويروى من كلامه قوله : « العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل دليله ، والصبر جنوده ، والرفق أبوه ، واللين أخوه » وهو كلام يدل على أن الرجل قد استفاد على ما يظهر من دراسة التاريخ وكثرة التجارب وطول العمر .

ومن الذين اشتهروا كذلك برواية الأخبار أبان بن عثمان ويعرف باللؤلؤى البجلي ، وأصله من الكوفة ، وكان يتردد في الإقامة بين البصرة والكوفة ، وقد أخذ عنه من أهل البصرة أبو عبيدة معمر بن المثنى ومحمد بن سلام الجمحي وغيرهما ، وأكثروا الحكاية عنه في أخبار الشعراء والنسب والأيام ؛ ويقول عنه ياقوت « وما عرف من مصنفاته إلا كتاب جمع فيه المبدأ والبعث والمغازي والوفاة والسقيفة والردة » .

وروى كذلك أن محمد بن مسلم الزهري ألف كتاباً في المغازي وقد كان من كبار الفقهاء والمحدثين وأعلام التابعين وروى عنه جماعة من الأئمة ، وقد اشتهر بسعة العلم حتى كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق يقول : « عليكم بابن شهاب فإنكم لاتجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه » وهي شهادة لها قيمتها ، وقد توفي الزهري سنة ١٢٤ هجرية .

وما كتبه هؤلاء المؤرخون المتقدمون قد فقد وضاع ولم يصل إلينا مما كتب من السير إلا سيرة عبد الملك بن هشام المعروفة بسيرة ابن هشام ، وهي مختصرة من سيرة ابن اسحاق المتوفى سنة ١٥١ ، وابن اسحاق هو محمد بن إسحاق بن يسار ، وكان جده يسار من سبي عين التمر ، ويقال إنه أول سبي دخل المدينة من العراق ، وهو من أقدم الذين جمعوا مغازي الرسول إن لم يكن أقدمهم جميعاً ، وكان يروى عن الكثيرين ، وكان قصد أبا جعفر المنصور بالحيرة فكتب إليه المغازي فسمعها منه أهل الكوفة ؛ وسمعها منه كذلك أهل الجزيرة حينما كان مع العباس بن محمد ، وأتى الري فسمع منه أهلها ، واستقر أخيراً ببغداد ومات بها ، ويقال عنه إنه كان يتشيع ويقدم علياً على عثمان ؛ وإنه كذلك كان قدرياً ، وكانت له صلة وثيقة بعبد الله بن الحسن بن الحسن ، ويقال إنه كان يأتيه بالشيء ، فيقول له « أثبت هذا في علمك فيثبته ويرويه عنه » ؛ وكان بينه وبين مالك بن أنس خلاف ، وقد اتهمه مالك بالدجل ، والآراء بوجه عام مختلفة في علمه والثقة به ؛ فعاصم بن قتادة يقول عنه « لايزال في الناس علم ماعاش محمد بن إسحاق » وقيل عنه إنه كانت تعمل له الأشعار فيضعها في كتب المغازي فصار بها فضيحة عند رواة الأخبار والأشعار ، وأخطأ في كثير من النسب الذي أورده في كتابه ، وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم في كتبه أهل العلم الأول ، وأصحاب الحديث يضعفونه ويتهمونه ، وابن سلاّم يقول عنه إنه ممن هجّن الشعر وأفسده وحمل منه كل غثاء ، وكان من أعلم الناس بالسير فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول لاعلم لي بالشعر إنما أوتى به فأحمله ؛ وقد كتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وجاوز ذلك إلى عاد وثمود ، ولم يسأل نفسه من حمل هذا الشعر ومن أداه ، منذ ألوف السنين ، ويقول عنه ابن خلكان في وفياته : « وكان محمد المذكور ثبتاً في الحديث عند أكثر العلماء ، وأما في المغازي والسير فلا تجهل إمامته » .

أما ابن هشام الذي روى لنا سيرة محمد بن إسحق فهو محمد بن عبد الملك بن هشام وأصله من البصرة وكان مشهوراً بعلم النسب والنحو وقد توفي بمصر سنة ٢١٣ هجرية .

ومن أقدم نقلة الأخبار عبيد بن شرية الجرهمي ، وقد أدرك النبي ولم يسمع منه شيئاً ، ووفد على معاوية وكان قد استحضره من صنعاء اليمن ؛ وقد عمّر طويلاً حتى بالغ الرواة في تقدير سنه مبالغة تخرج من حدود المألوف والمحتمل ، فزعموا أنه عاش ثلثمائة سنة ، وقد ولد في الجاهلية وأدرك الإسلام وعاش إلى أيام عبد الملك بن مروان . ويروى ياقوت حديثاً طويلاً دار بينه وبين معاوية ، وله من الكتب كتاب الملوك وأخبار الماضين وكتاب الأمثال ، وهما بطبيعة الحال من الكتب التي لايعرف منها شيء .

ومن أشهر نقلة الأخبار المتقدمين أبو مخنف ، واسمه لوط بن يحيى ، وكان جده من أصحاب علي ، وكان راوية أخبارياً صاحب تصانيف في الفتوح وحروب الإسلام ، وهو كوفي الأصل ، وكان يعد مرجعاً في أخبار العراق وفتوحها ، وله كتب كثيرة يدور أكثرها حول الحوادث

التي وضعت في العراق . وقد توفي سنة ١٥٧ ، وهو ممن اعتمد عليهم الطبري في تاريخه المشهور .

ومن ثقة الأخبار الذين اشتهروا قبل رواج الكتب عوانة بن الحكم ، وهو رجل من أصل متواضع ، كان أبوه عبداً خياطاً ، وكانت أمه أمة سوداء ، وقد عاب شيئاً من شعر ذي الرمة فهجاه بأبيات يقول منها :

فلو كنت من كلب صميم هجوتها
ولكن لعمري لا إخالك من كلب

وقد توفي عوانة سنة ١٤٧ هجرية وقيل سنة ١٥٨ ، وكان عوانة ضريراً ، وهو يعد من علماء الكوفة بالأخبار خاصة والفتوح مع علم بالشعر ، وعامة أخبار المدائني منقولة عنه ، وروى عنه أنه كان عثماني النزعة وكان يضع أخباراً لبني أمية ، وفي رواية أخرى أن ميوله كانت علوية وأنه لما بلغه الخبر بأن محمد بن عبد الله بن الحسن قد قتل بالمدينة ترحم عليه وذكر فضله وأثنى عليه . وكان الأصمعي ممن يسمعون عوانة وينقلون عنه وكذلك الهيثم بن عدي وكثير من أعيان أهل العلم .

ومن أوسع مؤلفي القرن الثاني الهجري علماً وأكثرهم مؤلفات في التاريخ والسير والأخبار علي بن محمد المدائني ، وقد ولد سنة ١٣٥ وتوفي سنة ٢٢٥ وأصله من البصرة ، وسكن المدائن ثم انتقل عنها إلى بغداد فلم يزل بها إلى حين وفاته ، واتصل فيها بإسحاق بن إبراهيم الموصلي ، وقد أسبغ عليه إسحق عطفه وشمله برعايته ، وكان ثقة في روايته وحجة في أخباره ، وقد مثل مرة بين يدي المأمون وتناول الحديث ذكر علي بن أبي طالب فحدثه المدائني بأحاديث عنه إلى أن ذكر المأمون لعن بني أمية له ، فروى له المدائني عن أبي سلمة المثنى أن رجلاً أخبره بهذا الخبر قائلاً : كنت بالشام فجعلت لا أسمع أحداً يسمى علياً ولا حسناً ولا حسيناً ، وإنما أسمع معاوية ويزيد والوليد ، قال : فمررت برجل جالس على باب داره ، وقد عطشت فاستسقيته ، فقال : ياحسن أسقه ، فقلت له : أسميت حسناً ؟ فقال : إي والله ، إن لي أولاداً أسماؤهم : حسن وحسين وجعفر ، فإن أهل الشام يسمون أولادهم بأسماء خلفاء الله ، ولا يزال أحدنا يلعن ولده ويشتمه ، وإنما سميت أولادي بأسماء أعداء الله ، فإذا لعنت ألعن أعداء الله ، فقلت له : « ظننتك خير أهل الشام وإذا جهنم ليس فيها شر منك » ، وقد ذكر له ياقوت من مؤلفاته عدداً كبيراً من الكتب أكثرها يكاد يكون أقرب إلى فصول قائمة بذاتها منه إلى أن يكون كتباً كاملة مبوبة ؛ فمنها كتاب عن أمهات النبي وآخر عن صفته ، وكتاب عن أخبار المنافقين وكتاب عن عهود النبي ، ومنها كتب عن أخبار قريش ، ومجموعة أخرى من الكتب في أخبار الخلفاء ، وكتب أخرى في الأحداث ، منها كتاب الردة وكتاب الجمل ، وسلسلة أخرى من الكتب عن الفتوح منها كتاب فتوح الشام وكتاب فتوح العراق ، ومنها كتب في أخبار العرب ، وكتب أخرى في أخبار الشعراء ؛ وظاهر أن جهوده الأدبية كانت ضخمة هائلة ، وأن اطلاعه كان واسعاً شاملاً ؛ وقد انتفع بما كتبه المدائني المؤلفون الذين جاءوا بعده فأكثروا من النقل عنه ، وقد اعتمد عليه ابن عبد ربه في كتاب العقد ، ويقال إنه نقل كثيراً عن عوانة الأخباري .

ويشبه المدائني في مادته وطريقته وتناوله الموضوعات هشام بن محمد بن السائب الكلبي ؛ وقد نشأ هشام في الكوفة وكان نسابة عالماً بأخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها ، ومؤلفاته كثيرة بعضها فيما قارب الإسلام من أمر الجاهلية ، وبعضها في أخبار الإسلام وأخبار البلدان وأخبار الشعر وأيام العرب ، وقد ضاعت أكثر كتبه ولم يبق إلا الروايات المنقولة عنها ، وهو مؤلف كتاب الأصنام ، وهو كتاب صغير الحجم ، والأرجح أن أغلب كتبه كانت من هذا الحجم الصغير ، وقد ألف هشام للمأمون كتاب الأنساب ، وصنف لجعفر البرمكي كتاب الملوكي في النسب ، وكان جعفر يعطف عليه ويصطنعه ، وقد توفي هشام سنة ٢٠٦ هجرية .

والمؤرخ الذي حاز شهرة واسعة في هذه الفترة — وهي القرن الثاني الهجري — هو الواقدي واسمه محمد بن عمر ، وكان عالماً بالحديث والمغازي والفتوح ، وقد قربه المأمون وولاه القضاء بشرقي بغداد ؛ وقد عرف الواقدي بغزارة العلم ، وكان ثقة في أخبار الناس والسير والفقه وسائر الفنون ، وقد ولد سنة ١٣٠ هجرية وتوفي سنة ٢٠٧ ؛ ويذكر عنه ياقوت وابن خلكان أخباراً تدل على نبل أخلاقه ووفائه لأصدقائه وسماحة نفسه ، ومؤلفاته كثيرة منها كتاب تاريخ المغازي وكتاب أخبار مكة وكتاب السيرة

وكتاب فتوح الشام . ويمكن أن يستدل من عناوين كتبه على عظيم قيمتها لو كانت حفظت لنا . وبالرغم من أن طائفة من المحدثين قد ضعفوه ، فإنه فى أخبار الناس والسير والفقه وسائر الفنون ثقة بالإجماع .

ومن مؤرخى ذلك العصر البارزين الهيثم بن عدى ، وكانت ولادته قبل سنة ١٣٠ هجرية وتوفى سنة ٢٠٧ ، وقيل سنة ٢٠٩ . وكان واسع الاطلاع ووعاء من أوعية العلم ، وأصل أسرته من منبج ، ولكنه ولد بالكوفة ، وقد اشتهر بالرواية ، ونقل من أخبار العرب وأشعارها ولغاتها شيئاً كثيراً ، ولكنه لم يكن ثقة فى الحديث ، وإنما هو صاحب أخبار . وكانت جاريته تقول عنه : « كان مولاى يقوم عامة الليل يصلى ، فإذا أصبح جلس يكذب » . وقد أذاع عنه بعض خصومه أنه ذكر العباس ابن عبد المطلب بشىء ، فحبس لذلك . وقد حضر مجلسه مرة الشاعر أبو نواس فى حداثته فلم يستدنه الهيثم ولا قربه فقام أبو نواس مغضباً ، فسأل الهيثم عنه فعرفوه به ، فقال : « إنا لله ! هذه والله بلية لم أجنها على نفسى ، فقوموا بنا إليه لنعتذر » ، وأظهر أبو نواس قبول المعذرة ولكنه لم يعفه من الهجاء ، وقد قال فيه من أبيات :

يا هيثم بن عدى لست للعـــرب
ولست من طيء إلا على شغب
إذا نسبت عديا فى بنى ثعل
فقدم الدال قبل العين فى النسب

والظاهر أن حب الاستطلاع والرغبة فى جمع الأخبار والحرص على الإحاطة بها كانت تصل بالهيثم إلى حد التجسس على أحوال معاصريه ومحاولة معرفة أسرار حياتهم الخاصة وعيوبهم الخفية ، وكان يروى تلك الأخبار على وجوهها ويشيع ما كتموا ، فكرهه الناس من أجل ذلك ، ووشوا به إلى الولاة وأغروا به الشعراء فهجوه ! وقد بلغت كراهيته والحقد عليه من الدعو أبى يعقوب الخريمى إلى حد أنه ذهب إلى شاعر يسمى على بن جبلة وسأله أن يهجو الهيثم ، ولما قال له ابن جبلة : « ومالك أنت لا تهجوه وأنت شاعر؟ » أجابه « إنى قد فعلت فما جاء لى شىء كما أريد » . فقال له ابن جبلة : « كيف أهجو رجلاً لم يتقدم إلىّ منه إساءة ولا له إلىّ جرم يحفظنى ؟ » فقال : « فرضنى فإنى مَلِىّ بالوفاء

والقضاء ! وقبل ابن جبلة ذلك ، وهجا الهيثم بأبيات قاسية موجعة . والرجل الذى يتعارض الشعراء هجاءه لا بد أنه كان فيه ما يثير الكراهة ويحمل على الضغينة ، ويقال عنه إنه كان يرى رأى الخوارج . وقد اختص بمجالسة المنصور والمهدى والهادى والرشيد وروى عنهم . وله من الكتب كتاب المثالب وكتاب المعمرين وكتاب بيوتات العرب وكتاب أخبار الفرس ! وثبت مؤلفاته حافل يشمل كتباً عن الحكام والقضاة وحوادث الإسلام المبكرة .

وكثير من الروايات التى جمعها هؤلاء المؤرخون المتقدمون محفوظة فى مؤلفات المؤرخين الذين جاءوا فى أعقابهم ، فقد فقدت معظم مؤلفاتهم ، وبالرغم من ضياع مؤلفات هؤلاء المؤرخين فإن جهودهم لم تذهب عبثاً ، وقد أدى أمثال المدائنى والهيثم وابن السائب وأبى مخنف وابن إسحاق وسائر مورخى الطليعة خدمة كبيرة للأدب العربى والتاريخ الإسلامى بما جمعوا من أخبار الحوادث الهامة ، والروايات الطريفة ، ومهدوا السبيل لظهور كبار المؤرخين أمثال الطبرى واليعقوبى والمسعودى وغيرهم من المؤرخين البارزين الذين أفادوا من المادة الضخمة التى جمعها هؤلاء الرواد والتراث القيم الذى تركوه .

على أدهم

شيوخ من الأزهر

فى خدمة حركة الترجمة فى عصر محمد على

للدكتور جمال الدين الشيال

كانت الطائفة الأولى التى تولت الترجمة فى عصر محمد على هى طائفة السوريين ، ولم يكن أفراد هذه الطائفة على علم واسع متين باللغات التى يترجمون عنها أو باللغة العربية ، وذلك لأن معرفتهم بهذه اللغة كانت معرفة ممارسة لا معرفة دراسة ، ولأنهم كانوا جميعاً مسيحيين ، فلم يقوّم القرآن لسانهم أو أسلوبهم .

ولما كانت حكومة محمد على ترى أن هذه الكتب المترجمة هى صفحة جديدة فى نهضة علمية جديدة ، سينسبها التاريخ إلى صاحب هذه النهضة ، فقد فكرت فى الطريقة التى تقوم بها ما اعوج من أسلوب هؤلاء السوريين ، وهداها تفكيرها إلى اختيار جماعة من شيوخ الأزهر ليتولوا مراجعة هذه الكتب بعد ترجمتها ويصححوا ما بها من أخطاء ، ويقوموا ما بأسلوبها من اعوجاج .

وقد كان من تقليد ذلك العصر أن يترك الشيخ المحرر أو المصحح كتابة مقدمة الكتاب المترجم وخاتمته ، واختيار عنوان عربى جديد له ، واعتاد هؤلاء الشيوخ — متأثرين بالكتب القديمة التى قرأوها — أن يلتزموا السجع فى اختيار العنوان ، وعند كتابة المقدمة والخاتمة ، وقد كان لهذه الطريقة فى اختيار العنوان عيبها ، وفى كتابة المقدمة والخاتمة فائدتها ، وذلك أنهم بعدوا بالعنوان المسجوع عن العنوان الأصلى للكتاب بعداً كبيراً ، فإذا حاول الباحث إرجاع هذه الكتب إلى أصولها لمعرفة عناوينها الأجنبية عزّ عليه ذلك ، بل واستحال ، فكيف يمكن تحقيق الأسماء الأصلية لكتب هذه عناوينها : « نزهة الأنام فى التشريح العام » أو « منتهى الأغراض فى علم الأمراض » أو « رضاب الغانيات فى حساب المثلثات » أو « منتهى البراح فى علم الجراح » ... الخ ...

أما المقدمات والخاتمات فهى ذات فوائد جمة ، فقد اعتاد كل شيخ أن يذكر فى مقدمة كل كتاب يراجعه كلمة عن فضل « ولى النعم » — أى محمد على باشا — فى إحياء النهضة العلمية الحديثة ، ثم يشير إلى جهود ناظر المدرسة التى ترجم فيها هذا الكتاب ، مع مبالغة ملحوظة فى مدحه والثناء عليه وعلى جهوده وعلمه ؛ فكلوت بك فى نظر الشيخ محمد عمر التونسى هو « أبقراط زمانه ، وأفلاطون أقرانه ، أشهر من قال أنا طبيب ، من يكاد الداء إذا رآه بدون معالجة يطيب » ، والشيخ مصطفى حسن كساب يصف « المسيو آمون » ناظر مدرسة الطب البيطرى بأنه « الطبيب النجيب ، الأوذعى اللبيب ، ذو اللطائف والفنون ، الحاذق الماهر آمون » ... وهكذا ...

فإذا انتهى الشيخ من هذا التقريظ ذكر اسم المترجم مثنياً على نبوغه ومقدرته ، وقد يذكر السبب الدافع لترجمة الكتاب أو الشخص الذى أوصى بترجمته ، وقد يشير أخيراً إلى الطريقة التى اتبعت فى ترجمته .

وفى خاتمة الكتاب كان يشير الشيخ إلى أن الكتاب قد « تم ... على يد مصحح مسائله ، ومنقح دلائله » ، أو أنه « كمل حسب الطاقة تصحيحاً ، وتم تهذيباً وتنقيحاً » أو أنه « هذب عباراته ومبانيه ، وحرر بعد السؤال معانيه ، وبذل فيه غاية المجهود ، ونظمه نظم اللآلى فى العقود ... » أو أنه روجع « على يد مصحح كله عند الترجمة ، محرر جمله لدى القراءة والمقابلة ، مفرغه فى قالب التصانيف الأولية ، صائغه على مثال التآليف العربية ، مؤاخيه حال القراءة والجمع ، مراقبه عند التمثيل والطبع ، مفتقر المساوى ، محمد الهراوى » ... الخ ...

فإذا انتهى الشيخ من مدح نفسه والثناء على مجهوده ،

ذكر اسم الكتاب ، ونص على أنه هو الذى اختاره ، ثم أشار إلى تاريخ الانتهاء من الترجمة ، وتاريخ الانتهاء من طبعه ، وكان بعض النساخ يؤرخ لكتابه بأبيات من الشعر — كتقليد العصر — ثم يذكر فى هذه الأبيات — أحياناً — عدد النسخ التى طبعت من الكتاب ، وقد كان المعتاد أن يطبع من كل كتاب ألف نسخة ؛ وفى النهاية كان يشير الشيخ إلى المطبعة التى طبع بها الكتاب .

من هذا كله يتضح أن هذه المقدمات والخاتمات هى فى الواقع وثائق هامة جداً لتاريخ الحركة الفكرية فى ذلك العصر ، فمنها يستطيع الباحث أن يعرف الشىء الكثير عن الكتب ومترجميها ومصححيها ، وطريقة الترجمة والمراجعة والتصحيح ، وعدد الطبعات ، وسنى الطبع ، وأغراض الترجمة ، وموجهيها .

والشىء الوحيد الذى كان يغفله الشيوخ — رغم أهميته — هو أسماء المؤلفين ، فقلما كانوا يشيرون إلى هذه الأسماء ، ولم يحدث هذا إلا فى الكتب التى وضعها مدرسو المدارس ، أو فى الكتب التى ترجمت فى مدرسة الألسن وألفها رجال عظام ، أمثال : « فولتير » أو « روبرتسون » الخ . وكانت هذه الأسماء تكتب بحروف عربية ، ولم يحدث أبداً أن كتبت بحروف لاتينية ، مع وجود هذه الحروف فى مطبعة بولاق منذ إنشائها ، بدليل استعمالها فى طبع القاموس الإيطالى العربى الذى وضعه الأب روفائيل زاخور راهبة .

وقد اتبع هذا التقليد فى الكتب التى ترجمها خريجو الألسن ، فأصبح المترجمون يكتبون المقدمات والخاتمات بأنفسهم ، غير أن الشىء الوحيد الذى كان يعانى منه الشيوخ المحررون كثيراً ، ثم عانى منه خريجو الألسن أيضاً — وهم يتبعون طريقتهم — هو السجعات التى تتفق وأسماءهم ، فكانوا يتحايلون على هذه الأسماء تقديماً وتأخيراً ، وتبديلاً وتغييراً ، حتى تتفق أخيراً مع ما يكمل السجعة ؛ وفيما يلى أمثلة طريفة لما كان يبذله هؤلاء الشيوخ من جهد لنظم أسمائهم فى سجعات مختلفة :

فالشيخ إبراهيم الدسوقى يعانى من لقبه ، وأخيراً يوفق إلى أنه « المتوسل إلى الله بالقطب الحقيقى ، إبراهيم عبد الغفار الدسوقى » ، ثم لا تعجبه هذه السجعة ، فيبدل من وضع أجزاء اسمه ، وينتهى إلى أنه « راجى غفر الأوزار — أو أسير الأوزار — إبراهيم الدسوقى عبد الغفار » ؛ أما الشيخ التونسى فهو دائماً « المتوكل على عفو المنان ، محمد التونسى بن سليمان » فإذا صححها فهو « مصحح كتب الطب الآن ، محمد التونسى بن سليمان » ؛ أما الشيخ محمد الهراوى فكانت مهمته سهلة ، لأنه دائماً « مغفور المساوى ، محمد الهراوى » ؛ وكذلك الشيخ مصطفى كساب فهو دائماً « المفتقر إلى رحمة ربه الوهاب — أو راجى حسن المآب — الشيخ مصطفى حسن كساب » .

وقد حذا حذو النساخ فيما بعد خريجو مدرسة الألسن ، فالتزموا — مثلهم — السجع فى مقدمات كتبهم ، ولعلنا عانوا مثلما عانى الشيوخ ، ورأينا فى كتبهم أمثال هذه السجعات : « راجى رحمة ربه على الدوام ، الفقير إلى الله سعد نعام » و « راجى رحمة الملك الودود ، عبده خليفة محمود » و « راجى رحمة ربه المتعال ، السيد عمارة بن عبد العال » ، وأخيراً أستاذهم « المؤيد برعاية الملك المبدى ، السيد رفاعة بدوى » أو « الراجى فضله الواسع ، رفاعة بدوى رافع » ... الخ .. الخ .

وقد حاول جورجى زيدان أن يصنف هؤلاء الشيوخ إلى محررين ومصححين ، وذكر أن « التحرير فى الأصل هو الإصلاح والتقويم ، فيقولون : حرر الكتاب أى قوّمه وحسّنه وخلّصه بإقامة حروفه ، وإصلاح سقطه ، والمحرر الذى يقوم بذلك » ، أما المصحح فى رأيه فهو الذى « يتولى تصحيح الكتاب فى أثناء الطبع » ، وذلك « لأن المحررين يشترط فيهم معرفة العلم الذى يعهد إليهم بتحريره ، وفهم مصطلحاته العلمية ، وغير ذلك ، فضلاً عن معرفة اللغة ؛ أما المصححون فيكفى فيهم معرفة قواعد اللغة وشواردها لضبط العبارات حسب القواعد » .

والواقع أن الشيوخ الذين قاموا بمراجعة الكتب المترجمة فى ذلك العصر كانوا يقومون بالعملين معاً ، بل كان لهم جهد مشكور — وخاصة الشيخ التونسى — فى إحياء المصطلحات العلمية العربية القديمة ، ومحاولة التوفيق بينها وبين المصطلحات الأوربية الحديثة بعد مراجعة كتب العرب فى الطب والهندسة والرياضيات ؛ ولفظ المحرر لفظ

(البقية على الصفحة التالية)

تفاعل الأجيـــــال

[... لقد أطريتم كثيراً انطلاق عنصر المرأة المثقفة في خوض الحياة الأدبية . ولكنكم نسيتم — ياسيدي — كم تقيد التقاليد البالية حرية المرأة المصرية ، وإلى أي حد حرمتها من حاجاتها العقلية والروحية ، حتى خنقت على صوتها فلم يسمع لها من ذكر ، اللهم إلا حين يتشدق مناهضوها بالحط من شأنها وإهدار كرامتها .

لذلك رأيت أن الأولى بها أن ترفع صوتها عن طريق القلم قبل أن تنزل الميدان ، وأن تقدم نفسها أولا إلى الأوساط الأدبية الرفيعة ، لعل الإنصاف أن يأتي على يديها . وبناء عليه ، رحت أفتش بين ثنايا ذهني الهزيل عن شيء أخطو به هذه الخطوة الجريئة ، وأكتسب به هذا الحق للمرأة ، فلم أجد مما يليق موضوعه بمجلتكم الموقرة سوى مذكرات لمدرسة ناشئة ... ...] .

« من خطاب الكاتبة إلى المحرر »

يعلم الله ، وتشهد زميلاتي ، أنني ما كرهت مهنتي ولا أكرهت عليها ، وإنما شاء تحكم الآباء أن أفتتح حياتي العملية ثائرة ناقمة محطمة النفس والآمال ، وأن أقدم عليها وما أعددت عدتي لغير الرحيل إلى الخارج حيث أرادت لي وزارة المعارف أن أجني ثمار جهدي بمواصلة الدراسة والبحث ...

ووقفت أمام تلميذاتي أقهر الألم وأصطنع الثبات ، ثم أستلهم علمي كلمة الافتتاح ، فلم أنس كيف أمهد لدراسة مادتي ، وكيف أجتذب بجرس القول إليها في النفوس ، وإثارة حب استطلاعها في العقول ، ثم أنسى أن خير طريق لبلوغ هذه الغاية هو عرض فائدة دراستها ، وتبيان مسيس الحاجة إليها في الحياة العملية ، ثم أنسى شيئاً من هذا ، وإنما نسيت نفسي كمدرسة حين اندفعت مبتدئة بقولي : « ولا شك أن التقاء آراء الجيل الماضي بآراء هذا الجيل يحدث تفاعلاً ، وأن هذا التفاعل قد يكون له من القوى ما يهدد هدوء الأسرة ويهدد سلام العلاقات بين الآباء والأبناء . فلو أتحنا لهم ، آباء ثم أبناء ، معرفة نزعات النفس وحاجاتها عن طريق دراسة علم النفس ، لخلقنا فيهم روح التقدير لرغبات الغير وحاجاته ، ورسمنا لهم حدود السيطرة التي يجب أن تتراجع أمامها الدوافع الخاصة ، وبذلك يعرف كل منهم كيف يقف عند حده ، ولا يتخذ من القرارات إلا ما يلتقي بآراء الآخر في مزيج ساكن مستقر لا أثر فيه لثوران التفاعل ، ولا يسود فيه عنصر على حساب عنصر آخر ويدفع به عابثاً في الهواء » .

ما كنت أتوقع أن مقدمة كهذه تصدر عفواً من وحي الشعور سوف تلقى من الهوى ما لاقته في نفوس أولئك الصغيرات ، وما نطقت به علامات الرضى على الملامح ، وهتفت به نظرات التأييد في العيون . بل ما كنت أظن أنها ستهيج من كامن الشجون ما يدفع تلك الفتاة الصغيرة لتتساءل في يأس ولوعة : « ولكن ما جدوى هذه الدراسة إذا تم الانفجار وصدع النفس وحطم الآمال ؟ » ولم أدر كم أمضيت من لحظات الشرود قبل أن أنطق بما يطمئن نفسها الثائرة ويقنعها وزميلاتها بفضل دراسة علم النفس في تماسك الأسرة وسلامة المجتمع .

وغادرت الفصل مطأطئة الرأس أسائل نفسي : هل يمكن حقاً تدارك ما كان ؟ أو ليس موقفي اليوم بشاهد على تأجج ثورة البركان ، وأن أبخرته ما تزال منبعثة تلفظ بخار الأعماق المنصهرة فتحيط حديثي بجو قاتم أشفق أن تفتح عليه أعين أولئك الصغيرات ؟ ولم تدعني الصغيرة أحار طويلاً في أمري ،

حديث شاع استعماله بعد نشأة الصحافة وانتشارها ؟ أما وثائق عصر محمد علي فكانت تسميهم دائماً مصححين ، فإذا فرقت بينهم سمت هذا مصححاً أول أو باشمصحح ، وسمت الآخرين مصححين والشيخ الوحيد الذي أطلقت عليه كتب العصر لفظ « محرر » هو الشيخ محمد عمر التونسي .

وكان المصحح يمنح في العادة — حسب تقاليد العصر — رتبة اليوزباشي ، وبذلك يكون راتبه ٤٥٠ قرشاً في الشهر ، أو رتبة الملازم فيكون راتبه ٣٠٠ قرش .

جمال الدين الشيال

إذ تبعتني مستنجدة برأيي ، ومستلهمة السلوى من حديثي ، وكأنما استشعرت تلك الوشيجة القوية التي تربط بين نفسينا ، واستشفت عمق مشاركتي الوجدانية لثورتها ، فاندفعت شاكية : « ... سيلبون غداء روحي ممثلاً في فني حين حرموني الالتحاق بكلية الفنون الجميلة ، ثم ما زالوا يحقرون لي هذا الفن حتى سئمت العيش معهم ... » ، ولم أجد عليها بسرد ما كان من أمري ، لعل شكاتها أن تتضاءل أمام شكاتي فتمتثل لظروفها ما دام في الإمكان تداركها .. ثم رحت أسري عنها مداعبة : « بل لعلها أرادت لك كل الخير حين هيأت لك دراسة الفلسفة قبل دراسة الرسم حتى تخلقي لنا هذا الفن في المستقبل » .

لكم لاحقتني عبارات هذه الصغيرة طول يومي ، وكم سبحت في بحر من ثائر الخواطر ، أتحسس الرسى ، فلا أكاد أدركه حتى تجتذب أذيال موجات صيوتها الناقم ، فأعود من حيث بدأت ، وأظل أتساءل : « هل حقاً هناك أمل في تماسك الأسرة ؟ ومتى نرى الأب الذي يعامل ابنه معاملة الشكيم فيعهد إليه بالمسئوليات ، وأولها مسئولية تصريف شئونه الخاصة وفقاً لميوله ؟ وكيف نجد الأب الذي يعرف كيف يعهد رغباته في نفس ولده فيمليها عليه في صيغة أقرب إلى الاستشارة منها إلى الإلزام ؟ ومتى يعلم الآباء أن المراهق من أبنائهم يعاني من آلام الشعور بالوحدة ، والقصور عن تحقيق الآمال ما يكفيه منغصاً لحياته ، وأنه بحاجة إلى من يأخذ بيده ويغدق عليه من عطفه ما يجعله يركن إليه كزميل يعينه على حل أزماته النفسية .. ؟ من لنا بإعداد الأب الذي لا يعكس مشاكله الحاضرة ، وما لاقى في الماضي من ضغط آبائه ، على نفوس صغاره الناشئة ؟ من لنا بإعداد هذا الأب ما دام الجد ينفث سموم غضبه في نفس الأب ، فلا يلبث هذا أن يصبها بدوره على رأس الابن ، حتى إذا تمثل ضغطها على نفسه ورثها الحفيد ... وهكذا دواليك .. وإذاً فلابد للإصلاح من استئصال الداء من أساسه .. ولكن من لنا بهذا الاستئصال ؟

تلاحقت هذه الأسئلة تدوي في كياني ، واشترك في تناولها عقلي ووجداني ، فتماديت في حنقي وثورتي حتى كدت أصدق أن هذا السيل من الاحتجاج والوعيد موجه إلى حقاً ، وصعدت بصري إلى حيث ارتفع من أسفل الدرج ، فإذا بالضابطة تصر على توعدي بالثبور وعظائم الأمور إن أنا سلكت هذا الطريق ... باركها الله هذه الضابطة ، لقد بعثت إلى شفتي بابتسامة عريضة كانت قد خاصمتني من عهد بعيد . وما بلغت مكانها حتى تداركت الأمر معتذرة ثم راجية ألا أرتدي زياً يشبه زي التلميذات بعد اليوم . وتركتها وأنا أتساءل : « أي زي تقصد ؟ أما كان الأولى بها أن ترجوني اقتلاع هذا اللون الوجداني الصارخ من أعماقي ، فوالله إنه لأقوى مظهر يجمع بيني وبين صغيراتي » .

وغادرت المدرسة وأنا أتحسر على هذه النفوس الناشئة تعاني الأمرين من الآباء في المنازل ، ومن تقييد حريتها على هذا الوجه بالمدارس ، وهي في كلتا الحالتين ضحية مشاكل الكبار يعكسونها عليها ، ويحيلونها إليها .

فاللهم قني شر عكس مشاكلي وتحويلها ضغطاً على هذه الأكمام الرقيقة التي لم تتفتح بعد للحياة .. اللهم أعني على إحاطتها بجو مشرق الآمال ، وإمدادها بمزيج من منسجم الآراء والأفكار .. اللهم اجعل من عقلي وآلامي سلاحاً قوياً أعاونها به على مقاومة آفتها : وما آفة تلك الأكمام الرقيقة إلا تفاعل الأجيال .

منيرة علي

٢ - أين نحن اليوم ؟!

لقد عرفنا مما تقدم أين موضعنا من عالم اليوم . وليس أمامنا إلا الاعتراف بهذا الواقع المر الأليم ، وعدم المكابرة فيما آلت إليه حالنا من سقوط هيبتنا ، واستصغار لشأننا . وإن كان يعز علينا الاعتراف بذلك والجاهرة به خشية الفضيحة والهوان ، فإن المكابرة لا تغير من الحقائق أو تبدل فيها ، بل تزيدنا هوانا على هواننا وفضيحة تضاف إلى سجل فضائحنا الكثيرة ، لأننا نبدو أمام أعيننا وأعين الناس فاقدى الإحساس والتمييز . وتلك مصيبة كبرى لا تبتلى بها إلا الشعوب الميتة .

وعلينا إذا أردنا أن نبعد عن أنفسنا هذه الوصمة ونثبت أننا مازلنا أحياء أن ننظر إلى أمرنا نظرة جادة عاملة تبدأ الخلاص من الوهدة التى تردينا فيها والخلاص لا يكون إلا إذا كنا نعيش لفكرة ونحيا من أجلها ونعمل لها ونتفانى بكل غال ورخيص فى سبيلها — كما هى حياة الأقوياء من حولنا فى المشرق والمغرب ؛ وأمامنا فكرة الشيوعية ، وفكرة الديموقراطية الغربية ، وفكرة الإسلام . فلننظر إلى أقرب هذه الفكر الثلاث ، وأسهلها متناولا . ثم بعد إمعان النظر فيما نتخذها عقيدة نجاهد دونها بالنفس والنفيس ، ونحميها بالدماء والأرواح ، متساندين متكاتفين ، بحيث لا ندع فى صفوفنا ثغرة واحدة يتسلل منها الضعف إلينا . إن كل فكرة من الفكر الثلاث — الشيوعية والديموقراطية والإسلام — لها مقوماتها وتعاليمها كعقيدة لا يمكن لجوهرها أن يتجزأ . وليس من الأصالة فى الرأى أن نأخذ من كل فكرة جزءا لنقيم لنا بناء وثيقاً شامخا ؛ ذلك لأن البناء الشامخ الوثيق لا يقوم على مواد متنافرة ليس من طبيعتها التلاؤم والاندماج . وأى بناء يستقيم بالترقيع والتلفيق والتنافر بين أجزائه ؟؟ . والعقائد لا تصل إلى القلوب ولا تتغلغل فى النفوس إذا لم تنتظم الحياة بكل ألوانها فى نظامها وتعاليمها ، لتكون حياة الأفراد والجماعات منسجمة فى ظواهرها ومظاهرها ودقائقها وجلائلها .

ونحن إذا نظرنا إلى الشيوعية فلا نجد فيها ما يستهوينا أو يغرينا إلى الميل إليها ذلك ؛ لأن قلوبنا وأرواحنا تنبذها نبذها للعار والإثم . ومع ذلك فإنها كفكرة فهى غير واضحة لأنها فكرة غير عملية . وقد وقف القائمون على تنفيذ تعاليمها موقف العاجز من التطبيق ؛ وأمام هذا العجز عدلوا عن كثير من تعاليمها إلى تعاليم أخرى . وقد أحدث ذلك تذمرا واستياء بالغين فى نفوس المحكومين على الحاكمين . وأصبحت الجنة الموعودة جحيما يحترق فيه المؤمنون بالشيوعية قبل الكافرين فى الاتحاد السوفيتى نفسه .

أما فكرة الديموقراطية ، فهى على ما فيها من خلابة مغرية فقد صحبناها واختبرناها مدة غير قصيرة ، وقد انصرفت نفوسنا عنها وامتلأت قلوبنا حقداً وموجدة عليها ، لأننا وجدناها منافقة تخفى خلابتها المغرية خداعاً قتالاً فى ضعفها وجبروتاً وبطشاً عند قوتها ، فهى كاذبة فاجرة داعرة لا ضمير لها ولا عهد ولا ذمة ؛ تدعى حب الإنسانية ، وحب المساواة والعدالة ، ولكنها عند القضاء ذلك منها لا تضع الناس فى ميزان واحد ، وإنما هى ذات موازين مختلفة ؛ فالجنس الأبيض هو الجنس المفضل فى منطقها ، وهو الذى يجب أن يسود وأن يتحكم ؛ أما الأجناس الملونة فهى لا تستحق الحياة إلا إذا كانت مربوطة فى عجلتها كما يربط أى حيوان أعجم فى المركبات والمحاريث ، ولا عليها بعد ذلك أن تتهم النازية بهذا الخلق فى الوقت الذى تصنع فيه صنيع النازية ؛ وفى جنوب إفريقيا يظهر هذا الخلق فى أبعد مظاهره وأبشعها ، وزنوج أمريكا وهنودها شهود على مبلغ ما ينالهم من عدالة هذه الديموقراطية وإنسانيتها ؛ وللمرتادين أوربا من الأجناس الملونة قصص وحكايات تدل على مبلغ ما وصلت إليه الإنسانية الديموقراطية من التدلى والانحطاط اللذين يبدوان كمظهر من مظاهر الاعتزاز والاستكبار اللذين تمتلئ بهما قلوب البيض الديموقراطيين .

وليست هذه الأعمال أعمالاً فردية يقوم بها الأفراد فيسيئون بها إلى سمعة الديموقراطية ، ولكن الديموقراطية تشرع هذه الأعمال فى أنظمتها وقوانينها ، وهى مطمئنة القلب مرتاحة الضمير ، متمتعة الشعور بأن ما تأتيه عمل فاضل لا غبار عليه من غمص أو نقيصة ؛ فالقانون يعاقب الرجل الأبيض إذا عامل الهندى معاملة المثل بالمثل ، وقاتل الهندى

الأحمر والزنجي الأسود في أمريكا لا يقع تحت طائلة القانون ؟ ولا أبين من إباحة الديموقراطية اقتتال الشعوب . فإن ذلك لا يحتاج إلى تدليل أو برهان . بل هو حقيقة ماثلة أمام أعيننا بأبشع ما تمثل به الحقائق الكريهة للعيان . فلا أظن أن نفوسنا بعد هذا تقبل على فكرة الديموقراطية الغربية راضية مختارة . وإذا أرغمناها على قبولها فإنها تكون دنباً في جسم موبوء . وما هي الدواعي أو المغريات التي تحملنا على أن نختار مكان الذنب ونضع أنفسنا فيه مرغمين ؟ .

لقد كنا روحاً وألفنا حضارة . وإن لنا تراثاً . وليس في طبعنا استخذاء أو تواكل . ولا ينقصنا الفهم وحسن التقدير . ولا نشكو من قلة في العدد . أو جدب في الأرض أو ضيق في الساحة . وكل ما تحتاجه الأمم لبناء دولتها موفور بصورة لم تتوفر بمثل ما توفرت لنا .

والديموقراطية كفكرة مجافية لطبائعنا ، لأنها فكرة مادية بحتة لا مجال فيها لروحانية الشرق . فليس فيها تسامح عند المقدرة ، وليس عندها شفقة عند النقمة ، وليس محافظة بالعهد ؛ بل ربما تعد كل ذلك من تجديف المرفين ، وأوهام الحالمين التي تنافي مقتضيات الحياة على وجه الأرض ! وقد تجد الفكرة المادية مجالاً أو مرتعاً خصيباً تنمو فيه وتثمر إذا كانت في الغرب ! ولكنها لا تجد مثل ذلك المجال في الشرق ، لأن الشرق ألف تربية الأديان السماوية وتهذيبها ، ولم يسبق له في تاريخه الطويل أن بنى حياته على الفكر الفلسفية المجردة ، ولم يكن الشرق كيان أو شخصية إلا بالدين ! ومن ألف تربية الأديان من العسير عليه أن يتحول إلى تربية لا تلائم طبائع الأشياء فيه ! وحينما أنزل الله كتابه وبعث نبيه لم يغفل تذكير العرب بأن مايدعوهم إليه إنما هو ملة أبيهم (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) .

فلم يكن الإسلام شيئاً جديداً عليهم لم تعرفه آباؤهم وأجدادهم ، وإنما هو شيء عرفه أسلافهم ودانوا به . وقد اتخذ أسلافنا الإسلام عقيدة جاهدوا في سبيلها وماتوا لها فنجحوا في حياتهم نجاحاً باهراً .

لكل ذلك فإن فكرة الإسلام والعودة إليها هي الفكرة الوحيدة التي لا يمكن أن تنقبض نفوسنا منها أو نرى في طبعنا جنفاً عنها ، وهي فكرة واضحة لأنها عملية قد حققها المتقدمون لها وجعلوها شيئاً ملموساً فترة طويلة من الزمان .

فهي جديرة منا بنظرة فاحصة وفطنة متعمقة . وأقول نظرة فاحصة وفكرة متعمقة لأن الإسلام مني بأناس باعدوا بين الناس وبين مافيه من إشراق وسماحة . وهو الآن تحت ركام من الأغراض الدنيئة والأفهام السقيمة يجب أن ينقذ منها ليبين واضحاً جلياً للعقول والأنظار .

(يتبع) ابن الحسن

إلى شمعة

أيها الشمعة الكئيبة ذوبي

فصباحي مضى وجاء غروبي

وزهور الآمال عادت رماداً

جمرته الرياح بين الدروب

والشباب الوريف أضحى طلولاً

دارسات على بقايا كثيب

أيها الشمعة الكئيبة ذوبي

وتلاشي مع الحريق الكئيب

وتناسي عمري وحبي وأحلا

مي النشاوى ولوعتي ونحيبي

فأنا الآن في نهاية عمري

بائس الروح مفعم بالكروب

ضاع قلبي في هوة اليأس والسا

في غشاء نحو الفناء الرهيب

إيه يا شمعتي لقد ذاب قلبي مذ تولى عن مقلتي حبيبي

ضائع شارد العيون كئيب

حائر القلب تائه كالغريب

ملء روحي الشقاء واليأس مكـ

ـتوب رهيب على جبيني الكئيب

بالهوان الثقيل بالدمع بالآ

لام بالهم بالأسى بالشحوب

فاسهري نفسك الحزينة والفي

كاحتضار المنى قبيل المغيب

وأرسلي من شعاعك المتلاشي

ما تبقى من الضياء وذوبي

(بغداد) زهير أحمد

بشـــــار بن برد

التفسير النفسي لشخصيته وشعره

— ١ —

للأستاذ يوسف خليف

« تنفعل نفس الأديب بما يحيط بها ، ويظهر تأثير هـذا الانفعال فيما تنتجه من آثار أدبية ، ونحن حين نذكر هذه الحقيقة المقررة المعروفة لا نريد أن نكرر شيئاً مقرراً معروفاً ، وإنما نريد أن نلفت الباحثين في الأدب العربي إلى أهمية الدراسة النفسية في فهم « شخصيات » هذا الأدب ، وما أنتجته من آثار فنية ، بل نريد أن نلفت هؤلاء الباحثين إلى أن الدراسة النفسية ليست شيئاً مهماً في دراسة الأدب العربي فحسب ، بل هي القاعدة التي يجب أن تقوم عليها هذه الدراسة . فالأدب — والشعر خاصة — ليس إلا تعبيراً نفسياً ليس من اليسير أن يخلص من آثار تلك الموجات النفسية التي تموج بها نفس منتجه ، مهما يحاول هذا المنتج أن يلونه بتلك الألوان التي تعرفها علوم البلاغة ، ومهما يحاول أن يخضعه لتلك القوالب الصناعية التي يحرسها النقد الأدبي .

ومن الحق أن رواة الأدب العربي لم يقدموا لنا المادة الكافية التي تعيننا على تلك الدراسة النفسية ، لأن الزمن قد تقدم بهم عن أن يدركوا فكرة « التجربة النفسية » التي يمر بها الأديب ، وأهميتها في فهم عملية « الخلق الفني » لنماذجه الأدبية ، ولكن من الحق أيضاً أن المادة التي بين أيدينا إن لم تكن كافية تماماً فإنها على كل حال تضع أيدينا على أطراف الخيوط التي تعيننا على تلك الدراسة النفسية ، ومن الحق أيضاً أننا لا نعدم في هذا الأدب « نماذج نفسية » تصلح تماماً لتلك الدراسة النفسية .

ولعل بشار بن برد من أصلح الشخصيات في الأدب العربي لتلك الدراسة النفسية ، فإن العوامل التي أثرت في شخصيته وشعره — سواء أكانت عوامل خارجية تتصل بمجتمعه أم عوامل داخلية تتصل بنفسه — واضحة وضوحاً كافياً يهيئ لنا تلك الدراسة .

ومن الممكن أن نرد هذه العوامل إلى مجموعتين : مجموعة اجتماعية ، ومجموعة نفسية ، أما المجموعة الاجتماعية فهي تلك البيئة التي وجد فيها بشار ، وأما المجموعة الأخرى فهي تلك النفسية التي كان بشار يعيش بها .

عاش بشار في تلك الفترة التي اصطلح مؤرخو الأدب العربي على تسميتها فترة مخضرمي الدولتين ، فقد ولد في أواخر القرن الأول للهجرة ، سنة ٩٥ على الأرجح ، وشهد انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ ، وامتد به العمر حتى قتل في خلافة المهدي . ومعنى هذا أن بشاراً قضى أيام حياته في فترتين مضطربتين : أواخر أيام الدولة الأموية ، وأوائل أيام الدولة العباسية ، أدرك من أيام الدولة الأموية تلك الفترة التي أخذت أمورها فيها في الاضطراب ، وأدرك من أيام الدولة العباسية تلك الفترة التي لم تكن أمورها فيها قد استقرت بعد ، وكل ما أدركه بشار من العهد الأموي كان مضطرباً لا استقرار فيه . ويكفي أن نعرف أنه أدرك تلك الفترة التي كان دعاة العباسيين يعملون فيها على تقويض أركان الدولة الأموية ، هذا إلى جانب ما كان يثيره الخوارج في أرجاء الدولة الإسلامية من شغب واضطراب ، وما كانوا يبثونه فيها من مبادئ ثورية وآراء متطرفة . ثم حدث الانقلاب السياسي والاجتماعي بسقوط الدولة الأموية العربية وقيام الدولة العباسية الفارسية . ولكن قيام هذه الدولة لم يكن معناه استقرار الأمور ، وإنما كان معناه مرور فترة من الزمن حتى تستقر الأمور وتأخذ طريقها الطبيعي في ظل السلطان الجديد . وأدرك بشار من أيام هذه الدولة أياماً

مضطربة غير مستقرة ، شهد فيها خروج أعوان الأمويين على السفاح في الشام والعراق ، وشهد فيها الثورات تنتشر في أنحاء متفرقة من الدولة على أثر مقتل أبي مسلم الخراساني ، وشهد فيها عبد الله بن علي عم الخليفة المنصور يشق عصا الطاعة عليه في الشام وينادي بالبيعة لنفسه ، وشهد الشيعة يحملون محمداً وإبراهيم ابني الحسن يشعلان نار الثورة في المدينة والبصرة ، وشهد الراوندية يثورون ضد الخليفة المنصور ويكادون يقتلونه ، وشهد اجتياح أهل الديلم الحدود ، واختراق الجيوش البيزنطية الحدود الشمالية للدولة الإسلامية وتوغلهم فيها ، وشهد ثورة عرب البادية ضد الإسلام وتعطيلهم الصلاة ونهبهم قوافل الحجاج في عهد المهدي ، وشهد فوق ذلك كله اضطراباً اجتماعياً خطيراً نتيجة لسيطرة الفرس على الدولة العباسية ، فقد أخذت المبادئ الإباحية تمتزج بالفلسفة المانوية الفارسية وتنتشر في خراسان وفي فارس وفي العراق نفسه ؛ وشهد الخليفة المهدي يقاوم هذه الحركة ولكنه لا يستطيع القضاء عليها .

٤ فبشار إذاً شهد انهيار دولة وقيام دولة ، وعاش في فترتين مضطربتين اضطراباً سياسياً واضطراباً اجتماعياً ، فلم يكن من الطبيعي أن تمر به هذه الاضطرابات السياسية والاجتماعية دون أن يكون لها أثر في نفسه .

وشخصية بشار نفسها كانت شخصية ثائرة مضطربة تنطوي على مجموعة كبيرة من عوامل الثورة والاضطراب ، فهو قد ولد أعمى ، وكان فوق ذلك قبيح العمى ، بل إن الأصمعي يصفه بأنه كان أقبح الناس عمى وأفظعه منظراً ، وكان إلى جانب ذلك دميماً مجدوراً ضخم الجثة ضخامة بشعة . ثم هو كان من الموالي ، وكان قد ولد على الرق ؛ والروايات المختلفة التي تروى عن نشأته الأولى تختلف في بعض تفصيلاتها ولكنها تجمع على أنه ولد على الرق ثم أعتقته سيدته العقيلية ، ولم يكن بشار راضياً عن هذا الولاء ، بل كان من الموالي الساخطين الناقمين ، بل إنه جعل من رسالته في الحياة تحريض الموالي على التمرد .

وإلى جانب ذلك لم تكن أسرة بشار بالأسرة التي يفتخر الإنسان بالانتساب إليها ، فإذا كانت المعلومات التي وصلت إلينا عن أمه معلومات قليلة أو في حكم المعدومة ، فإننا نعرف من أبيه أنه كان طياناً يضرب اللبن في البصرة ، وأنه كانت فيه — على ما يبدو — سذاجة وجهل ، ونعرف أنه كان لبشار أخوان : بشر وبشير ، وأنهما كانا — على ما حققه الجاحظ — أخويه لأمه لا لأبيه ، وأنهما كانا يعملان قصابين ، والأخبار التي تروى عنهما وعن صلة بشار بهما تشعرنا برقة حالهما وقذارتهما وجهلهما .

٨ ومن الطبيعي أن يكون لكل هذه الجوانب من حياة بشار الشخصية أثر في نفسه ، فقد أوجدت فيها مرارة مرة كونت فيها عقدة نفسية مستحكمة ، كانت حياته كلها أثراً من آثارها ، ومحاولة متطرفة في سبيل التغلب عليها ، وعلى ما خلفته في نفسه من الشعور بالنقص .

وقد أصبحت شخصية بشار ، نتيجة لهذا كله ، مضطربة مرتبكة ، متطرفة في الأخذ بمتع الحياة ، والاتصال بالمبادئ المتحررة فيها .

وقد حاول بشار أن يتغلب على ضعة أسرته وهوان منزلتها الاجتماعية ، فلم يجد وسيلة لهذا سوى أن يفتخر بأصوله البعيدة في الفرس ، وفي الروم أيضاً ، وهو يعبر عن هذا تعبيراً عاماً واسعاً فيه ادعاء مكشوف ، ومحاولة واضحة لتجنب الحديث عن أسرته القريبة ، فيزعم أن جده كسرى ، وأن أباه ساسان ، وأن خاله قيصر :

جـــدي الذي أسمو بـه ... كسرى وساسانُ أبي
وقيصرٌ خالي ، إذا ... عددتُ يوماً نسبي[1]

وطبيعي أن هذه ليست أسرة بشار ، أما أسرة بشار القريبة فإنه لا يعرض لها بشيء ، على الرغم من أن صاحب الأغاني يذكر له سلسلة طويلة من النسب تضم أكثر من عشرين جداً فارسياً فيهم جماعة من ملوك الفرس ، وهذا يجعلنا في شك من صحة هذه السلسلة من النسب ، وخصوصاً أن صاحب الأغاني ينقلها عن رجل شعوبي[2] . ومن هنا نستطيع أن نسجل على فخر بشار بأسرته أنه فخر بالجنس العام ، لا بالأسرة الخاصة ، بل هو فخر بأكرم من هذا الجنس العام ، وهو فخر لا يتقدم كثيراً بمنزلة بشار الاجتماعية .

---

(١) ديوان بشار ج ١ ص ٣٧٧ (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٠) .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ١٣٥ (طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩) .

— ولكن العقدة النفسية التي تسيطر على نفس بشار لا تقنع بهذا في سبيل محاولة التعويض ، بل تدفعه إلى هجاء العرب فيعقد في هذه القصيدة نفسها(١) موازنة بين الفرس والعرب يرتفع بالفرس فيها فيجعلهم كلهم ملوكا ، وينزل بالعرب فيجعلهم كلهم بدواً ، وهي موازنة جنسية أيضاً ، لم تخرج منها بشيء عن آراء بشار الأخرى ، ثم هي ، إلى جانب ذلك ، تعتمد اعتماداً كبيراً على السفسطة ، إذ أن طرفي الموازنة ليسا متكافئين ، فليس كل الفرس ملوكا ، وليس كل العرب بدواً ! وتعتمد سفسطة بشار في هذه القصيدة على اختياره للزوايا التي يلتقط منها صوره بحيث يركز الضوء على بعض جوانب الصورة دون بعض ، وكل ما يقصده بشار من هذا هو أن يخرج قصيدته إخراجاً معيناً في أوضاع معينة تحقق فكرته ! ولهذا نلاحظ أن بشاراً حين أراد أن يصور الفرس ركز الضوء على قصورهم الفخمة ، فإذا الفرس ملوك تلمع التيجان على رءوسهم ، وتلتهب الجواهر على ثيابهم الفاخرة ، يغدون إلى مجالسهم فيركع الناس لهم ، ويحتجبون خلف أستارهم فلا يتطلع أحد إليهم ، والغلمان يسعون لهم بالأواني الذهبية يشربون فيها .

وحين أراد أن يصور العرب ركز الضوء على باديتهم الفقيرة ، فإذا العرب بدو رُحَّل ، يحدون خلف إبل جرباء ، ويأكلون الحنظل والمرقط من الجوع ، ويسعون خلف ضباب الصحراء وأورالها ليتخذوا منها طعامهم ، وإذا ما اشتد عليهم البرد أوقدوا النار بأنفسهم ، والتفوا حولها يصطلون وقد باعدوا ما بين أرجلهم .

هكذا كانت سفسطة بشار في سبيل الارتفاع بالفرس والنزول بالعرب ، ومع ذلك فإننا نلاحظ أن بشارا في قطعة أخرى من شعره يفتخر بالعرب ، فيذكر أن فروعه نمت في « الكرام بني عامر »(٢) ، بل إنه يفتخر بولائه في قيس عيلان ويمدحهم مدحاً قوياً :

أمنتُ مضرة الفحشاء أني
أرى قيساً تضرّ ولا تضارُ

(١) القصيدة موجودة في ديوان بشار ج ١ ص ٣٧٧ — ٣٨٠
(٢) الأغاني ٣/١٣٨ .

كأن الناس حين تغيب عنهم
نبات الأرض أخطأه القطار(١)

ولكنه يعود مرة أخرى فيتبرأ من الولاء ، ومن العرب قاطبة ، فيجعل ولاءه لله لا للعرب :

أصبحتُ مولى ذي الجلال ، وبعضهم
مولى العريب ، فخذ بفضلك فافخر
مولاك أكرم من تميم كلها
أهل الفعال ومن قريش المشعر
فارجع إلى مولاك غير مُدافع
سبحان مولاك الأجل الأكبر(٢)

وهذه أيضاً سفسطة من بشار ، فمنذا الذي ينكر أن الله أكرم من العرب جميعاً ؟ ولكنه سبحانه أكرم من الفرس أيضاً ومن الناس أجمعين .

ونحن نفسر هذا الاضطراب في شعر بشار بأن إحساسه بعزلته في ذلك المجتمع المضطرب الذي كان يعيش فيه كان إحساساً مضطرباً متقلباً لم يستطع بشار أن يستقر به إلى ناحية من النواحي . وقد يمكن أن يقال إن هذه الأبيات اختلفت تبعاً لاختلاف المقامات التي قيلت فيها ، ولكن أليس اختلاف المقامات مرجعه إلى اضطراب نفسية بشار في ذلك المجتمع المضطرب ؟

(للبحث بقية)

يوسف خليف

(١) ، (٢) المصدر السابق / ١٣٩ .

مختارات نابليون

● بالنسبة للإنسان : إن أقل الأمراض خطراً تكفي لإخلال جميع أجزاء جسده . فيالها من آلة عجيبة تلك الثياب الطينية التي تكسونا .

● تنحصر ثروتي في المجد والشهرة .

● الجدارة وإن كانت مهضومة الحق يجب البحث عنها ومكافأتها .

● الجميلة تبهج العيون وأما الصالحة فالقلب : الأولى حلية ، والثانية كنز .

● يدافع الجشع عن الطعام كالبطل تماماً .

روح العصر والتيارات الأدبية

[إن كل تقدم آلى يحد من النشاط الإنسانى]
(ديهاميل)

للأستاذ عز الدين إسماعيل

من الممكن أن يحاول كاتب من الكتاب أن يبين فلسفة معينة لعلم من أعلام الفلسفة فى عصر من العصور قد أثرت فى الحياة الأدبية المعاصرة، ووجهت التيارات المختلفة وجهة معينة.

وبحث العلاقة بين الفلسفة والأدب ليس مقصودنا فى هذا البحث بخاصة وأنه قد صار من المبتذل — فى بحوث النقد الأدبى — بيان ميدان كل منهما الخاص. ولكن اهتمامنا فى هذا البحث سيقتصر على تبين الأصل الذى يكمن خلف المظاهر أو الظواهر المختلفة المعاصرة فى الأدب والفلسفة والاجتماع والعلوم على اختلافها؛ فكل ما يقال عن التفاعل بين الأدب والفلسفة فى فترة معينة يمكن أن يقال عن التفاعل المتبادل بين الأدب والاجتماع والأدب وعلم النفس والأدب والعلوم الطبيعية .. الخ.

أصحاب كل ميدان من هذه الميادين يستطيعون أن يتطوعوا — عند اللزوم — بتقديم التفسيرات المختلفة المتضاربة أو المتفقة لاتجاه أدبى سائد فى عصر من العصور. ويمكن أن نرى من هذه التفسيرات أن المذهب الفلسفى المعين هو الذى يسيطر باتجاهه على التيارات الأدبية فى فترة زمنية معينة. ونستطيع أن نضع مكان «المذهب الفلسفى» فى العبارة السابقة «المذهب الاجتماعى» أو «المذهب الطبيعى» أو «المذهب النفسى» أو ما شئت من ضروب المذهب. وتبقى حقيقة التفاعل فى كل حالة من هذه الحالات ظاهرة تحتاج إلى التفسير.

ولعله من حقى هنا — إن لم يكن من واجبى — أن أضع أمام القارئ أمثلة مختلفة من عصور لا نجد صعوبة فى اعتبارها مستقلة بطوابع خاصة.

فى القرن السابع عشر، وفى إيطاليا، يبدأ العهد الكلاسيكى بالنزعة الإنسانية Humanism. وقد كانت حركة عقلية امتدت إلى الحياة الاجتماعية. وكان لحملة هذه النزعة يعيشون فى بلاط الأمراء وأعوانهم. وكان لهم بحكم أعمالهم كمثقفين وندماء وسكرتيرين — تأثير كبير، على كل عناصر المجتمع. وسرعان ما امتد هذا اللون الحضارى إلى فرنسا فى بلاط الأمراء، وتمثل بخاصة فى بلاط مرجريت دى نافار. وطبيعى أن هذا الاتجاه كان أولاً وقبل كل شىء اتجاهاً اجتماعياً واضحاً، ولم تكن له علاقة مباشرة بالأدب. وهو وإن كان حقاً لم ينتج أدباً من الطراز الأول، فإنه لولا هذه الحركة لما كان من الممكن أن تكتب القطع الفنية الكلاسيكية الرائعة. ويستطيع الباحث أن يجد فى حركة مدام دى رمبوييه أثراً واضحاً للاتجاه الاجتماعى خاصة الذى انتهجته السيدة فى بلاطها، واتخذت من الأدب وسيلة لتحقيقه، وكان الأدباء الذين مثلوا هذا الاتجاه هم: ماليرب وبلزاك وفوجلاس وشابلان.

وفى القرن الثامن عشر نجد نزعة فلسفية عقلية واضحة تمتد، لا لتجرف الأدب فى تيارها، بل تتعدى ذلك إلى البحوث الذوقية الجمالية البحتة. فمنذ النصف الثانى من هذا القرن تدخل البحوث الجمالية ضمن مباحث الفلسفة، ويكون الجمال والقبح والذوق موضوعات فلسفية النزعة عقلية الطابع. وإذا كان بومجارتن فى ألمانيا قد مهد لهذا الاتجاه العقلى فى البحوث الذوقية الفنية، فإن الاتجاه يبلغ قمته عند كانت وهيجل وشوبنهور؛ وهى الأسماء اللامعة فى الميدان الفلسفى لذلك العصر. وهكذا تخرج المبادئ الجمالية من كتب «الفن الشعرى Poetics» التى تسلسلت بأقلام كتاب يعملون فى الميدان الفنى أكثر من أى ميدان آخر — باستثناء أرسطو — لكى تكون جانباً رئيسياً من موضوعات الفلسفة، وتبحث وتناقش بأقلام كتاب يعملون فى الميدان الفلسفى أكثر من أى ميدان آخر. فمباحث الأستطيقا مظهرها قبل هذا العصر غير مظهرها فى هذا العصر، غيره فى العصر الحاضر؛ فالأستطيقا الحديثة تقف فى وجه الماضى

تعبر عن صور الأشياء بشكل لم يسبق لها أن ظهرت فيه[1] .

وفى القرن التاسع عشر تظهر الرومانتيكية . وكان بعض النقاد يصفها بأنها مرض العصر . ونحن إذا تأملنا هذه التسمية — رغم ما يمكن أن يقال من أنها صدرت عن ناقد يمالئ الحركة الكلاسيكية المقرضة ويهاجم النزعة الرومانتيكية ، أقول إذا نحن تأملنا هذه التسمية وجدناها صادقة تنفذ بنا إلى « روح العصر » السائد والمتمثل بوضوح فى الأدب باعتباره أصدق مظهر قابل للتعبير عن النفسيات المريضة . .

وعلى الإجمال من الممكن الكلام عن الأدب الكلاسيكى باعتباره أدب العقل ، والرومانتيكى باعتباره أدب العاطفة والخيال والتحرر الوجدانى . ولم يكن بطريق المصادفة أن يخفت صوت مذهبيهما ليتلوه مذهب آخر ؛ فالبحث على نطاق واسع يمكن أن يضع أصابعنا على كل خيط من خيوط النسيج الذى يمثل هذه الحركة ، وعندئذ سنجد هذه الخيوط تمتد إلى كل مقوم من مقومات الحياة المعاصرة . ولا يحدث انقلاب العالم من اتجاه أدبى ما إلى اتجاه آخر اعتباطاً ، وإنما يمكن أن يقال إن خيوطاً أخرى محكمة الفتل قد أخذت تتشابك وتلتحم لتخرج نسيجاً آخر له خطوط وألوان وأصباغ أخرى . وإذا كان نسيجا الكلاسيكية والرومانتيكية قد بليت خيوطهما فثم نسيج آخر هو نتاج القرن العشرين منذ بدايته إلى قيام الحرب العالميـة الثانية . وليس معنى هذا التحديد أن خيوطه لا تمتد فى الزمن إلى أبعد من هـذا ، أو أنها بليت بحورها ، لأن لوناً جديداً كاملاً يزاحمها فى الميدان لم يقف بعد ثابتاً على قدميه .

أما بالنسبة لهذه الفترة من القرن العشرين ، فإن بعض المشتغلين بالفلسفة والمشهورين بحسن الملاحظة يقرر أنه لا يوجد انسجام دائماً بين ميول الأدب الحديث وبين العلم والفلسفة . ومثله على ذلك أن علماء النفس — فى هذه الفترة على الأقل — يعارضون فى محاولة فصل الشعور ووضعه فى عزلة واعتباره نوعاً من المعرفة أو حالة من التأثر النفسى . هذا — كما يقولون — تمزيق وإفساد للحقيقة . وما دام العالم المعروف لنا أيضاً عالماً واحداً ، فإن الحياة النفسية ممتدة ، وتنطبع شريط هذه الحياة فقدان لوحدتها وقيمة حركتها . ولعله بهذا المثل يشير إلى الاتجاه الخاص فى فهم الزمن عند جماعة المحدثين من الأدباء .

ولقد قرر دنيس سورا فى السطور الأولى من مؤلفه « المحدثون Modernes » (١٩٣٥) أنه من المعتاد وصف الأدب الكلاسيكى بأنه أدب العقل ، والأدب الرومانتيكى بأنه أدب العاطفة ؛ فما هى خصائص الأدب فى هذه الفترة ؟ لا شك أنها القصد إلى المعانى التى تحصل فى النفس عن طريق الحس .

وإذاً فلهذا العصر طابع جديد ليس بالكلاسيكية ، وليس بالرومانتيكية ، لأن الأدباء فقدوا ثقتهم بالعقل فلم يعد يثير اهتمامهم ، كما كفوا عن الاعتقاد فى العاطفة ، ولم يبق لهم سوى المتعة التى آمنوا بها طالما كانت ممتدة . وعندما تفنى متعة أو لذة فإنهم يبحثون عن أخرى .

ونود أن نوجه اهتمامنا الآن إلى هـذه الفترة الخصبة المتميزة بروحها الخاص ، وأهم ما يلفت النظر فى هذه الفترة هو تلك المدارس المختلفة والمتعارضة ، فإن هناك عاملاً واحداً يكمن وراءها هو الوعى الباطن Subconcious ، وهذا الاصطلاح دخيل فى المجال الأدبى لأنه ألصق بميدان الفلسفة وعلم النفس .

ولهذا لا بد أن نقدم هنا — وبالنسبة لهذا العصر بالذات — كلمة تحذير من وصف نظرية أدبية بما هو فلسفى أو سيكولوجى ؛ فقد كان من الشائع مثلاً فى القرن الثامن عشر — وكما سبقت الإشارة — أن نزعته العقلية امتدت إلى كل شيء ، كما راج الحديث فى القرن التاسع عشر عن ديكارت ومذهب العقل Rationalism باعتباره قد أثر فى أدب القرن السابع عشر أو لونه ، إلى أن أصبح من المحقق أن ديكارت وأدب القرن السابع عشر كلاهما كان مظهراً لاتجاه عقلى أوسع ، وهـذا الاتجاه العقلى الأوسع المسيطر على العصر كله هو ما أردنا تسميته بروح العصر .

ومثل ذلك ما هو معتاد من الكلام عن الفترة التى وقفنا أخيراً عندها ، والإشارة إلى أن فلسفة برجسون بفهمها الخاص للزمن ، وتأكيدها للبديهة intution كمصدر للكثير — إن لم يكن الغالب — من الإنتاج الأدبى فى هذا العصر . وليست فلسفة برجسون كافيـة فى ذاتها بحيث تشرح

---

(١) G. Truc, Quelques Peintres de l'Homme Contemporain, P. 31.

أدب العصر ؟ إن الخطر الكلام عن الفلسفة وربطها هكذا بالفنون الجميلة ، كما أن هذه الفنون لا يمكن — في معنى من المعاني — أن تشبه الفلسفة ، وكل ما يمكن قوله هو أن فلسفة برجسون ، والأدب بين الحربين العالميتين الناشئتين لها — وبالنظر إلى ما رأينا من مظهر خادع لسيطرة الفلسفة على التيارات الأدبية في القرن السابع عشر — مصدر عام يتمثل في « روح العصر » الذي يميل إلى البعد عن العالم الخارجي والفرار منه إلى العالم الداخلي ، إلى الذاكرة والرغبات الإنسانية بخاصة في صورها الأقل وعياً . هذا المظهر العام أو « روح العصر السائد » هو ما قدم له برجسون الصورة الفلسفية ، وقدم فرويد له الصورة النفسية ، ولم يكن الفنان بمنأى عن « روح العصر » فأحس بالدافع إلى التعبير عنه في صورة فنية .

ومن المعروف أن حقيقة الفن ليست هي حقيقة الفيلسوف أو العالم النفساني ، فالفنان لا يستطيع أن يلحظ وعيه الباطن ، ولكنه يستطيع فقط — تحت إلحاح إثارة معينة — أن يسمح لذاكرته اللاواعية أن تعمل وتسجل أفكارها الغريبة ، أو أن يحاول نوعاً من الكتابة الآلية التي تقترب بدرجة تختلف قلة وكثرة من عمل عقله الباطن ، أو أن يمثل ذلك العمل بواسطة ترابط الأفكار .

وقد كان الاتجاه الرمزي صورة لهذه العملية في الميدان الأدبي ؛ فقد أظهر فرلان وملارميه ترابطاً بين الكلمات والأشياء التي خرجت على السجية دون إثارة .

ولكن هذا الجانب من تأليفهما لم يكن مفهوماً بوضوح قبل سنة ١٩١٤ ، ولم تأت سنة ١٩١٨ حتى كان المذهب الجديد معروفاً تمام المعرفة رغم أن أصله يمتد في السنين الماضية .

ويمكن أن نلاحظ بسهولة أن الفنون التشكيلية في هذه الفترة ، وبخاصة فن الرسم ، تعرض نفس التطور ، ونفس الظاهرة ، ونفس النظريات .

وإذا كانت حقيقة فلسفة برجسون والأدب المعاصر قد اتضحت أمامنا ، وأن الاتجاه إلى الوعي الباطن هو المظهر المشترك بين الاثنين ، فيجدر بنا أن نعرض أيضاً المذهب الاجتماعي المعاصر لنرى التفاعل الظاهري بينه وبين الأدب ؟ فقد كان رومان تلميذاً لدوركيم العالم الاجتماعي المشهور ، وقد حاول رومان أن يستغل نظرية دوركيم ويربط بينها وبين اتجاهه الأدبي ، والنظرية الاجتماعية لدوركيم تقول بأن الأفراد المكونين لمجموعة أو جمهور يفقدون فرديتهم ويرتبطون كالخلايا ليكونوا وحدة جديدة لها شخصيتها وروحها ، فحاول رولان أن يعبر عن هذه المجموعة ؟ والذي يقرأ هذا الكلام لا يتردد برهة في أن يفهم أن النظرية الاجتماعية هنا هي التي وجهت رولان إلى لون أدبي معين ؛ ونحن لا نعمم هذا الفهم ، ولكن من الأحسن أن نقول إن كلا من نظرية دوركيم الاجتماعية واتجاه رولان الأدبي يتفق اتفاقاً تاماً مع ما سميناه بروح العصر أو الاتجاه العام السائد أو الكامن خلف فلسفة برجسون ونظرية دوركيم واتجاه رولان .

فالذي لا شك فيه أن نمو المجتمع الصناعي له أثر ما في هذه الفلسفة وهذه النظرية وهذا الاتجاه الأدبي . وإذا كنا رأينا اهتمام الفلسفة البرجسونية بالوعي الباطن فإن محاولة رولان — المتمشية أيضاً مع نظرية دوركيم — في التعبير عن المجموعة لا تبعد عن الوعي الباطن كثيراً إن لم تكن تعمل في محيطه ؛ التعبير عن الوعي الباطن — لا للفرد ولكن للمجموعة — تعبيراً محرراً .

وأحب أن أضع بين يدي القارئ الكريم مثالاً أومثالين من الاتجاهات الأدبية لهذه الفترة التي تمشي فيها الهروب من الواقع الخارجي إلى الداخل النفسي — إذا صحت هذه التسمية . وهاهو ذا مارسيل بروست في كتابه « في البحث عن الزمن الضائع A la Recherche du Temps perdu » ، يعطينا مثالاً رائعاً لذلك الاتجاه السائد ، أي الوعي الباطن . فإذا كان بروست يحاول أن يستجمع الزمن الضائع فليس ذلك إلا لأنه يعتقد أن الماضي دائماً حاضر في مكان ما من ذاكرة الوعي الباطن ، ولا يحتاج إلا لما يثيره ويخرجه إلى السطح . وهنا نجدنا مع بروست وهو يستوحي ذلك الوعي الباطن الذي ادخر له زمنه الضائع ، فتتمثل بذلك في أدبه النزعة العامة .

ومن الممكن أيضاً تلمس خيوط الاتجاه إلى الوعي الباطن بتأسيس مذهب الدادايزم Dadaism على يد تسارا Tzara في زيوريخ سنة ١٩١٦ والذي انتقل إلى فرنسا بواسطة

فيليب سوبول . وقد ظهرت أصول هذه الحركة عند رمبو[1] ؛ والحلقة السابقة لسنة ١٩١٤ بين رمبو والدادازم توجد فى المذهب التكعيبى وفى مدرسة المستقبليين التى يرأسها مارينتى الإيطالى . وقد ظهرت الحركة الدادية فى هذه المدارس ظهوراً عملياً بخاصة عند جيوم أبولينير آخر الرمزيين الفرنسيين وأبى « الدادا » ، الذى حاول أن ينقل إلى الشعر النظريات التى كانت قد استخدمت فى فن الرسم فخرجت أعماله ذات طابع بهلوانى غريب لأنه كان يسجل مشاعره كما تأتيه .

وقد صحب هذه الحركة (وهنا لابد من الالتفات إلى التقدم العلمى والآلى الذى صحبه تقدم صناعة السينما والعرض السينمائى السريع) ، صحب هذه الحركة اختفاء القافية والوزن والإيقاع المنتظم والتحلل من كل قيد قديم . فخطا الشعر بذلك خطوات واسعة فى سبيل التحرر .

وعلى العموم فقد خطا مذهب الدادازم شوطاً بعيداً فى اتجاه الوعى الباطن والاتجاه السوريالى ، ويمكن فهم الدادازم بعدُ من الصورة التى عبر بها سوبول عن هذا الاتجاه بقوله : « ضع الألفاظ فى قبعة ، ثم أخرج منها ما يعن لك ، فبهذا يصنع الشعر العادى ! » . وإذا نحن اعتبرنا هذه المحاولة أمكن بعيدين عما سماه الأدباء المحدثون « اللحظة النفسية » . وهى اللحظة الواقعة التى ينصب فيها كل وجود الفنان وشعوره ، فيعبر عن هذا الشعور تعبيراً تلقائياً . وما دامت اللحظة النفسية هى حالة الشعور الحالى فقد صارت بالنسبة لنا الحقيقة الوحيدة الباقية . ومن هنا سمى الأدباء أنفسهم « المحدثين » ، وهم لا يقولون مع هوراس « لأتمتع بهذا اليوم » أو مع كاتب هذا المقال فى قصيدة له نشرت بالثقافة بعنوان « تورية الوجيد » حيث يقول :

بالأمس كنت .. فأين راح الأمس ؟! فى جوف الفنا .
كذا يضيع العمر ... فلنأسف لماضى عمرنا .
ولنبتهج فى يومنا ... فغداً سيمضى أمسنا .

ولكنهم يقولون : « لنتمتع بهذه الساعة ، بهذه الدقيقة ، بهذا الحاضر » . ولهذا كان أدب اللحظة النفسية لا يعترف بالعقل ولا بالعاطفة ، وإنما كان تعبيراً شعورياً تلقائياً أو بديهياً أو على السجية أو ما شئت من لفظ يؤدى هذا المعنى .

وأخيراً نقف لحظة عند الناحية الفنية . فقد لوحظ على مر الأيام أن الكتاب الذين بدءوا حياتهم شعراء قد ازداد تحولهم سواء قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة أو بعدها إلى القصة . فإذا بحثنا عن السر فى ذلك وجدنا أن القصة كانت الموضوع فى يد صغار الكتاب ليستطيعوا تحليل كثير من مظاهر الوعى الباطن تحليلاً أحسن . فالارتماء فى أحضان الوعى الباطن هو الذى جر الكتاب إلى سوق الشعر والرواج إلى سوق القصة . ثم تقدمت صناعة السينما كما تقدمت الصناعات الأخرى ، التى حدثت من النشاط الإنسانى — كما قال ديهاميل — وطبعت الحياة بطابع السرعة ، فصار متلقى الفن يكسل عن القصيدة وعن القصة بصورها ، لأن السينما حققت عليه التعب وجعلته يرى القصة ويسمع حديثها فى وقت وجيز[2] . وهذا هو المعنى الذى نريد أن نؤكده بالنسبة للأدب فى تلك الفترة ؛ وهو أنه كان — من جانب الفنان — تعبيراً عن الشعور الباطن تعبيراً حراً ، يجتهد ليوصله إلى نفس متلق فيه من طريق الحس .

وهكذا نرى أن الفلسفة وحدها أو الاجتماع وحده أو علم النفس وحده أو العلوم الطبيعية وحدها لا تكفى لإعطاء تفسير كامل للاتجاهات الأدبية المختلفة والمتعارضة فى ظاهرها فى تلك الفترة من القرن العشرين ، لأن الفلسفة والاجتماع وعلم النفس والعلوم الطبيعية والاتجاهات أو المذاهب الأدبية كلها تشترك فى الكشف عن « روح العصر » فى الجوانب المختلفة ؛ فهى مظاهر لهذا الروح . وليس من السهل القول بأن بعضها هو الذى سيطر على البعض الآخر وجرفه فى تياره ووجهه وجهة معينة .

وإذا كان لكل عصر روحه وسماته الغالبة فإن روح هذا العصر وسماته العامة المركزة هى : فقدان التوازن والتحلل والتخبط .

عز الدين إسماعيل

---

(٢) وتقدم صناعة السينما من صور متحركة بهيمة إلى صور متحركة مميزة ، ثم ناطقة ثم ملونة .. كل هذا ليس إلا توفيراً لجميع عناصر القصة وعرضها التناسب ، ومخاطبة حاستى الإبصار والسمع . ومن يدرى فلعل صناعة السينما فى سبيلها إلى إثارة حاسة الشم أيضاً .

(١) ظاهر له « الإشراقات Illuminations » .

فى الفكر الأوربى المعاصر

للأستاذ مبارك ابراهيم

١ ــ انتعاش الزراعة

كتب ثلاثة من الكتاب الإنجليز كتباً ثلاثة يندرج موضوع كل واحد منها تحت هذا العنوان ، وهم « أنتونى هرد » Anthony Hurd وسمى كتابه « فلاح فى هويتهول » A Farmer in White Hall ، وت. و. إيفانز T.W. Evans وسمى كتابه « طاقة الأرض » Land Potential . ثم « فرند سيكس » Friend Sykes وسمى كتابه « الطعام والفلاحة والمستقبل » Food, Farming and Future .

وكتب أحد المعلقين على هذه الكتب كلها قال فيها :

يوم يكتب تاريخ إنجلترا فى القرن العشرين لن يجد المؤرخ ظاهرة أكثر وضوحاً وأحق بالتدوين والتسجيل من ظاهرة تلك الردة التى ارتدتها إنجلترا فكفرت بما وجدت عليه آباءها الذين جعلوا من إنجلترا داراً كبرى من دور الصناعات العالمية . وآمنت بمبدأ إحياء الزراعة وانتعاشها .

وكان الفضل فى ذلك لفئة قليلة من الرجال والنساء تولوا إيقاظ الشعب الإنجليزى من سباته ، وأخذوا بيده إلى تحقيق ما كان يظنه مخاطرة ليس يرجى لها إلا أسوأ ما يرجى .

من تلك الفئة القليلة « لورد بورتسموث » بكتابه الذى يعد نذيراً من النذر ، والذى سماه المجاعة فى إنجلترا Famine in England ، ولورد نورثبورن Lord Northbourne بكتابه الذى سماه « انظروا إلى الأرض » Look to the Land ، وسير ر . جورج ستابلدن Sir. R. George Stapledon بكتابه الذى سماه « الأرض اليوم وغداً » The Land Now and to Morrow . وقد جمع هذه الكتب . وعلق عليها رسالة جزيلة الفائدة كتبت أثناء الحرب العالمية الثانية « مستر إدموند » بلندن Edmond Blunden وسماها « عودوا إلى الفلاحة » Return to Husbandry . والاستجابة إلى نداء هؤلاء الرواد كانت استجابة تبعث على الدهش والانذهال . إذ مما لاريب فيه أن ليست هناك بلاد أخرى غير انجلترا تساندت فيها القوى المختلفة من ثقافية وروحية وفنية وتنظيمية على إنهاض الفلاحة من كبوتها . فقامت تنتج النتائج الحسنة ، وأنبتت من كل زوج بهيج .

ولولا حض الناس بعضهم بعضاً حضاً قد جاوز المدى لبات الزراعة البريطانية الحديثة حقلاً يتناهبه المهندسون والكيمائيون ورجال الاقتصاد .

والذى لاريب فيه أن المعركة مازالت دائرة الرحى بين القادمين والتاليين . وإن المرء ليرى الناس من كل صنف يجيئون من كل مكان بعيد ليشهدوا ذلك العراك .

وكل الجماعات التى تعنى بهذه الأبحاث تشير إلى ذلك القلق البالغ الذى يساور بعض النفوس خشية أن يضحى بمناظر الريف الإنجليزى على مذبح التضمين قصار النظر ، وأن تسيطر على ذلك الريف قواعد العد والحساب ، وهو ذلك الريف الذى كانت مشاهده العين الذى طالما متع منه الشعراء والموسيقيون ورجال الفنون .

ومن جهة أخرى فإن الفلاحين ينادون اليوم بالويل والثبور ويقولون إن أمراضاً كثيرة مختلفة الأنواع تصيب التربة الإنجليزية ، وذلك من جراء الوسائل المستحدثة التى تستعمل فى معالجة الأرض ومحصولاتها . وهم يقولون إن رجال التخصص العلمى ، ومنتهزو الفرص من رجال الاقتصاد إنما يسعون إلى حتفهم بظلفهم ، وإن القوم فى إنجلترا قد باتوا على شفا الهلاك لفقدانهم الأناة والصبر ، ولتأبى أنفسهم عن اتباع الوسائل الطبيعية فى الزراعة .

وعلى الرغم من ذلك فإن مؤلف كتاب « فلاح فى هويتهول » يجىء ببيانات تمس شغاف القلوب حين يصف الروابط التى تربط بين « هويتهول » وبين العدد الأكبر من الزراعيين المحترفين ومن لف لفهم من المتطوعين الذين

زادوا بمجهوداتهم مساحة الأرض المزروعة في بريطانيا من ثمانية ملايين ونصف مليون فدان إلى ثلاثة عشر مليوناً ونصف مليون فدان ، والذين استصلحوا مساحات واسعة من الأرض كانت إلى اليوم بطاحاً ماحلة وجبالاً جرداء ، والذين رفعوا في أعين الأمة من قدر الفلاحين ومن قدر العاملين في الزراعة .

والمؤلف يقول إنه للاستفادة أحسن الاستفادة من فلاحة الأرض ، ومن مجاري الماء والقنوات ، ومن الطرق الثانية ، يجب أن يقوم تعاون أساسه التناسق التام بين سائر المشتغلين بمسائل الزراعة المختلفة ، وهو تعاون لانعرفه — مع الأسف — مكاتب الإدارات الحكومية .

وبعض هذه الخواطر يطوف بعقل مؤلف كتاب « طاقة الأرض » . والقارئ كتابه يلقاه معنياً أشد العناية بالطرق التي تسود نظام فلاحة المراعي والمروج في إنجلترا ، ويلقاه معنيًّا كذلك بالنقص الشاهد في نظام الناويات ، كما يلقاه معنياً بنقد ذلك التعليم السطحي الذي يقول بأنه لا خطر على خصب التربة من إنهاكها بكثرة استعمال المخصبات الصناعية ، وهو يعالج كل هذه المسائل بعقل منظم وبنقد يدعمه المنطق .

ثم يجيء مستر « فرند سيكس » في كتابه « الطعام والفلاحة والمستقبل » فيعنى بمعالجة الموضوعات التي تبحث في المخصبات المعدنية التي تحتويها الطبقات التحتية للأرض ، والأثر النافع الذي تحدثه الحشائش والنباتات الكامنة في أعماق التربة .

وهو يعرض هذه الموضوعات عرضاً يمتاز بالجلاء والوضوح ...

٢ — حديث عن الرجال والجبال

كتاب من تأليف القاضي وليم . و . دوجلاس

Of Men and Mountains By
Judge William O. Douglas

وكتاب القاضي « دوجلاس » هذا يعني بالحديث عن أيام الطفولة التي تقضى بين الجبال أكثر من عنايته بالحديث عن التصعيد في الجبال ، والجبال التي يعنيها في كتابه هي جبال « كسكيد » في ولاية « وشنطن » ، وقد أمضى القاضي أيام طفولته في مدينة « ياكيا » إحدى مدن تلك الولاية ، وكان إذا صعد فوق سطح بيته استطاع أن ينظر إلى قمتي جبلين من تلك الجبال .

وهو يقول في كتابه : في أيام القيظ الشديد الحر كنت كثيراً ما أنظر في لهفة وشوق إلى تلك القمم التي يكسوها الثلج ، وكنت أتخيلها كأنها أقداح من حلوى الفواكه المثلجة ...

أما الذي حدا بالمؤلف إلى ارتياد الجبال فكان مرضه بشلل الأطفال ، وذلك لما في تلك الجبال من فائدة ونفع لمرضى بذلك المرض ، وقد برئ من مرضه ، ولكنه ظلّ في نظر أمه ، وفي نظر لداته وإخوانه هشاً ضعيف البنية ، ثم شدّد عزمه باحتذائه مثال واحد من أنداده فأجمع أمره على أن يتخذ المشي وسيلة للتقوية ، وقال : إني لمعتزم أن أقوي ساقي بالسير في سفوح الجبال ، فكان يغدو إلى هناك راكباً مرة ثم يتخذ السير في سفوح الجبال وسيلة لمعالجة ضعفه ، كما يتخذ حاملو الأثقال رفع قضبان الحديد وسيلة لمرانهم في ملاعبهم الرياضية .

وسرعان ما أصبح يستطيع أن يمشي أربعين ميلاً كل يوم في شعاب الجبال ، حاملاً فوق ظهره حملاً ثقيلاً ، ثم قافزاً عبر الجبال قفزات تكاد تودي بالرجل القوي المتين ، وهو الذي ما امتطى صهوة جواد أبداً .

وهو يقول إن من الحديث المعاد القول بأن الجبال إنما هي مدرسة يتعلم فيها مرتادوها الاحتمال والجلد ، ولكنه إيماناً بهذا القول قد استطاع أن يتغلب على ضعفه ، وأن يتسلق جبل « آدمز » ، وكانت سنه قد ناهزت الخمسين ، وكان يومذاك قاضياً منذ بضع سنين .

وهو يقول : هنا في الجبال يستطيع المرء أن يتغلب على كل ضعف ينتابه في الجسم أو العقل .

وهنا في الجبال يتعلم المرء أن يسيطر على مخاوفه الطبيعية التي تنبعث من الظلام ومن الوحشة ومن الحيوانات الآبدة .

وهنا في الجبال يتعلم المرء كيف يقاوم أخطار الجبال ، ومنها الانهيارات في الجبال ، والحرائق في الغابات .

وهذا الشعور نحو الجبال باعتبارها حقلاً من حقول التجارب هو إحدى الفوائد التي تعود على المرء من ارتيادها .

والمؤلف يقول إن للجبال فوائد أخرى منها صيد السمك فى بحيرات تلك الجبال وأنهارها ، ومنها صيد السمك المسمى بسمك « سليمان » بوساطة الرماح وبإرشاد خبير من خبراء الهنود .

وقد كتب المؤلف فصلاً عن الطعام أبان فيه كيف يطهى الصيد فى مختلف ألوانه . وهو يقول إنه لإجادة طهى سمك « سليمان » يجب أن تشق السمكة وأن تثبت فوق لوح يوضع على نار وقودها الخشب الشديد الجفاف .

وهو يقول عن الأزهار التى تنبت فوق الجبال إنها منبع سرور دائم بمختلف ألوانها ومباهجها .

وهو يختم كتابه بفصول كتبها عن شخصيات حية مختلفة . منها شخصية مكافح جرئ من مكافحى النيران ، ومنها شخصية قناص قد برع فى قنص القصص عن الدببة ، ومنها شخصية راع من رعاة الغنم ، ومنها شخصية حارس بوابة خزان من الخزانات ، وهو رجل اشتهر بكرم الضيافة ، وبراعته فى التزحلق أثناء هبوب العواصف الثلجية .

وأولئك هم الرجال الذين اتخذوا من الجبال بيوتاً ، كما اتخذوا منها ميداناً يصارعونها فيه وتصارعهم ، ويجدون فى هذا الصراع اللذة كل اللذة ، والمتعة كل المتعة ...

٣ — إيران ورجال العصر الفكتورى

كتاب من تأليف الآنسة مرزيه جيل

Persia and the Victorians
By Miss Marzieh Gail

قال أحد المعلقين من الإنجليز :

هذه رسالة تفيض وضوحاً وجلاء . وقد جاءت فى الوقت المناسب . تذكر الناس بأن الانتكاس الذى أصاب العلاقات الإنجليزية الإيرانية بسبب أزمة البترول ، ليس له مثيل من ألوان الخلاف التى كانت تحدث بين البلدين فيما غبر من الزمان ، وإن كان من المسلم به أن الأمور قد تحرجت مرة فى عام ١٨٥٧ يوم أسىء إلى الرعايا البريطانيين فى أنفسهم وأموالهم وأبنائهم ، ويوم حيل بين الساسة البريطانيين وبين حضور بعض الحفلات .

ولكن سوء الظن فى الأزمنة الغابرة لم يكن من جانب واحد ، فقد أثر عن « ماكولى » أنه قال : إنى أستطيع أن أؤكد القول أن الآداب الشرقية كلها من سقط المتاع !!

وقد روى أنه فى عام ١٨٠٠ قال الشاه ذات يوم لسير « جون ما لكولم » المتوفى عام ١٨٣٣ والذى بعثته دولته لعقد حلف مع إيران ضد « بونابرت » ، ومؤلف « تاريخ إيران » :— إن رؤساء الدولة الذين تراهم هنا أستطيع أنا أن أقطع رءوسهم ، فقل لى أيها السفير أستطيع أنا أن أفعل ذلك أم أنا غير قادر ؟ وكان الجواب : بل ! إنك لقادر بابهجة الدنيا وزينتها !! .

وهذا الكتاب الذى ألفته الآنسة « جيل » يعتبر مدخلاً إلى كتب أخرى كثيرة . وقد كتبته صاحبته فى أسلوب امتاز بالسلاسة والانسجام .

وهو يصور لنا فى غير تحيز أو محاباة كيف لعبت العاطفة دورها بين البلادين فى عهد التوسع « الفكتورى » .

ولكى تبرهن الكاتبة على شدة اندفاع التيار بين الشرق والغرب من الناحيتين العقلية والروحية ، جاءت الكاتبة فألحقت بكتابها لحقاً ضمنته أسماء الكتب التى تبحث فى هذا الموضوع ، وقد ملأ ذلك اللحق خمس صحائف ونصف صحيفة من صحائف ذلك الكتاب .

وقد حشدت المؤلفة فى كتابها أسماء كل الرجال السياسيين الذين اشتغلوا بالآداب الفارسية فى القرن التاسع عشر ، أولئك الذين لهم دين فى ذمتنا بما أمدونا به من معرفة وعلم بآثار الفكر الفارسى .

ولقد وصف « إمرسن » الفارسيين بأنهم فرنساويو القارة الأسيوية ، والمعروف أن للفارسيين « جان دارك » أخرى فى شخص الشاعرة الشهيدة « قرة العين » التى استشهدت فى سبيل إعلانها عقيدة « الباب » .

وتقول المؤلفة إن إيران هى — إلى حد كبير — مهد الآراء الدينية التى تكاد تصل بأغلب الديانات والمعتقدات التى تستطيع أن تسد حاجة الأقوام كلها اليوم ، وأن مملكة مثل إيران تقوم بجسر بين الغرب والشرق لا بد لها أن تتفاعل فيها المعتقدات الدينية فتحور إلى عالم تريد أن تشتمل الأمم كلها فى عقيدة واحدة ، وأن تزول الخلافات الجنسية التى تفرق بين الناس .

وقد أعان على التقريب بين الاتجاهات الفكرية في الشعر والقصص الانجليزي والفارسي الشاعر « فتزجيرالد » بترجمته لرباعيات الخيام ، تلك الترجمة التي أعجب الناس بها إعجاباً شديداً وما زالوا معجبين ، وتجيء بعد الرباعيات قصص « حاجي بابا الأصفهاني » للكاتب « موريه » .

ومن ناحية أخرى نرى الفارسيين يبدون دهشتهم إذ يرون أن الانجليز (في العصر الفكتوري) لا يجلسون فوق البسط كما يجلس أهل فارس ، وأنهم بدلاً من ذلك تراهم يسكنون في أروقة وكهوف مظلمة ينقبون عن الجثث والموميات التي احتوتها المقابر منذ أربعة آلاف عام ، ويفضلونها ألف مرة ومرة على أجمل نماذج الجمال الحي الذي يمشي على الأرض .

ومن ناحية ثالثة نرى المستشرق إدوارد جرانفيل براون (١٨٦٢ — ١٩٢٦) يرى في شعر الشعراء الصوفيين ترياقاً ناجعاً لسموم الشقاء والألم .

وفي عصر الملكة « فكتوريا » كانت العناية بالأدب الفارسي تمشي جنباً إلى جنب مع العناية بالقاطرات البخارية . فبينما كان المهندس المخترع « بروئل » (١٧٦٩—١٨٤٩) يعني بتركيب القاطرة البخارية التي سماها « قاطرة الشرق السكبرى » ، كان « إدوارد كويل » (١٨٢٦—١٩٠٣) عاكفاً فوق دراسته للغة السنسكريتية يجاهد ويكافح ليمهد الطريق أمام المذاهب الشعرية الفارسية ، وهو الذي علم فتزجيرالد اللغة الفارسية ، وذلك ليوقظ ذلك البركان النائم ، كما كان يسمي « فتزجيرالد » ، وهو بعمله هذا لا يقل براعة عن ذلك المهندس الذي جعل البخار يجر عجلات القطار .

وكان كذلك من تلاميذ « إدوارد كويل » الشاعر تنيسون ، ولكن تنيسون كان قليل الصبر والجلد .

وفي سبيل مشروع كبير يقوم على طبع قاموس ضخم للغة الفارسية أدرك الإفلاس والخراب المالي رجلاً من رجال المال اسمه « فينسك » .

ومن المأثور عن « سير وليم جونس » المستشرق الإنجليزي (١٧٤٦ — ١٧٩٤) والذي ترجم المعلقات العربية إلى اللغة الإنجليزية أنه قال : إن شعرنا الأوربي قد طال به الركود ، فلابد لنا من صور جديدة ومن تشبيهات جديدة لتزول آثار ذلك الركود » .

و « سير وليم جونس » هذا هو الذي غيرت قراءته لشعر الشاعر الفارسي « حافظ » مجرى حياته .

والآنسة « جيل » تتابع خطوات السياسيين الإنجليز الذين أرسلوا إلى إيران دعاة سياسة فانقلبوا إلى أعلهم دعاة ثقافة فارسية ، على الرغم مما قام بينهم وبين حكام تلك البلاد من جدل وخلاف .

والآنسة « جيل » قد أوتيت موهبة الابتعاد عن الماء الضحل غير ذي العمق ، وموهبة التعمق إلى حيث تلتقط الدرر من أعمق أعماق البحار .

وهي بكتابها هذا وبما أوتيت من مقدرة أدبية ومن ظرف وذكاء ، تذكر الناس بالصلات الروحية التي تعلو فوق مستوى هذه الخلافات السائدة اليوم بين البلدين .

مبارك ابراهيم

الثقافة

العـدد ٦٧٣ ١٩ من نوفمبر ١٩٥١	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	الثمن ٢٠ مليماً

صفحة

مسافر بلا حقائب

« مهداة إلى أخي في الغربة فؤاد التكرلي »

مِن لا مكانْ
لا وجه ، لا تاريخ لي ، من لا مكان
تحت السماء وفي عويل الريح أسمعها تناديني : « تعال ! »
لا وجه ، لا تاريخ ... أسمعها تناديني : « تعال ! »
عبر التلال !
أطفالها الموتى ، ومعبدها المخرب والخراب
في الأفق تلمع والسراب
— ظمأ التراب —
أبداً سيبقى فاغراً ظمأ التراب
فمه — هناك — ولا جواب !
عبر التلال !
مستنقع التاريخ يعبره رجال
عدد الرمال
والأرض مازالت ، ومازال الرجال
يلهو بهم عبث الظلال
مستنقع التاريخ والأرض الحزينة والرجال
عبر التلال !
ولعل قد مرت عليّ ... عليّ آلاف الليالْ
وأنا — سدى — في الريح أسمعها تناديني : « تعال ! »
عبر التلال !
وأنا وآلاف السنين
متثائبٌ ، ضَجِر ، حزين
من لا مكان
تحت السماء ،
بلا رجاء !
في داخلي نفسي تموت بلا رجاء !
وأنا وآلاف السنين
متثائبٌ ، ضَجِر ، حزين
سأكون ! لا جدوى ، سأبقى دائماً مِن لا مكان

لا وجه ، لا تاريخ لي ، من لا مكان
الضوء يصدمني وضوضاء المدينة من بعيد ...
نفس الحياة يُعيد رصف طريقها سأم جديد
أقوى من الموت العنيد
سأم جديد
... وأسير لا ألوي على شيء ، وآلاف السنين ...
لا شيء ينتظر المسافر غير حاضره الحزين
— وحل وطين —
وعيون آلاف الجنادب والسنين
وتلوح أسوار المدينة ، أي نفع أرتجيه ؟
من عالم مازال والأمس الكريه ...
يحيا ... وليس يقول : « إيه ! »
يحيا على جيفٍ معطرة الجباه
نفس الحياه
نفس الحياة يُعيد رصف طريقها سأم جديد
أقوى من الموت العنيد
تحت السماء
بلا رجاء !
في داخلي نفسي تموت
كالعنكبوت
نفسي تموت
وعلى الجدار
ضوء النهار
يمتص أعوامي ويبصقها دماً ضوء النهار
أبداً لأجلي لم يكن هذا النهار
الباب أغلق ! لم يكن هذا النهار
أبداً لأجلي لم يكن هذا النهار
سأكون ! لا جدوى ، سأبقى دائماً من لا مكان
لا وجه ، لا تاريخ لي ، من لا مكان

(بغداد)

عبد الوهاب البياتي

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٧٣ — الاثنين ١٩ من صفر سنة ١٣٧١ — ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

إرادة شعب

للدكتور زكي نجيب محمود

هذا الموج الزاخر من الجموع البشرية ، التي ماجت بها شوارع القاهرة يوم الأربعاء الماضي ، هو الدليل — أوضح الدليل — على أن شعباً قد صمم العزم وعقد الإرادة ، على أن يضرب الضربة الأخيرة من سلسلة كفاحه الطويل وجهاده المتصل ... ويستحيل على شعب أن يريد ثم لا يحقق ما أراد

يستحيل على شعب أن يريد ثم يعجز عن تحقيق إرادته ، حين لا تكون إرادته هذه سبحاً في الوهم وشطحاً في الخيال ! فالشعب الذي زخرت بموجه شوارع القاهرة — وغيرها من أنحاء البلاد — لم يقل ، حين انعقدت إرادته ، إني أريد أن أزحزح أجرام السماء عن أفلاكها ، وأن أدك رواسي الجبال فإذا هي هشيم بين عشية وضحاها .. إنه يريد أن يطرد شرذمة من رجال أقامت على أرضه بالغصب حيناً ، وقد صمم ألا يجعل لها بين ظهرانيه منذ اليوم مُقاماً مستطابا .

إنه لا غرابة في أن يأخذ الآخذ ويطمع الطامع ، إنما الغرابة كل الغرابة في أن يرضى المأخوذ منه والمطموع فيه ، وليس يكفي أن يقول الساخط عن نفسه : إني ساخط ! يقولها وهو مسترخ في مقعده مغمض العينين مفتوح الشفتين !

إن النهضة الحقيقية عمل وسلوك وحركة ونشاط ، وليست هي بالكلمة التي تقال أو الخطبة التي تُلقى ، والله بعد ذلك غفور رحيم .

إنا نبتغي لأنفسنا ما ينبغي أن يتحقق لكل إنسان في الدنيا من حرية وكرامة ، فاقرأ فيما يلي هذه المقدمة التي تبدأ بها وثيقة إعلان حقوق الإنسان — التي قررتها الجمعية العمومية للأمم المتحدة في باريس في اليوم العاشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٨ — اقرأها واسأل نفسك في عجب : هل كان المتكلمون عندئذ يخاطبون أهل هذه الأرض ، أم كانوا يوجهون الخطاب إلى سكان المريخ وزحل ؟

جاءت تلك الوثيقة بما يأتي :

« بما أن اعترافنا لكافة أعضاء الأسرة البشرية بما لهم من كرامة فطرية وحقوق يتساوون فيها بحكم طبيعتهم ، هو أساس الحرية والعدل والسلام في العالم .

وبما أن التنكر للحقوق الإنسانية وازدراءها ، قد كان من نتائجه أعمال وحشية أثارت ضمير الإنسانية ، فكان ذلك إيذاناً بعالم جديد يتمتع فيه بنو الإنسان بحرية الكلام

والعقيدة ، والتحرر من الخوف والعوز ، وهو أسمى ما تطمح إليه الشعوب .

وبما أن حقوق الإنسان لابد لها من حماية القانون ، حتى لا يضطر الإنسان مرة أخرى إلى الثورة على الطغيان والظلم ثورة لا يجد له محيصاً عنها .

وبما أن العلاقات الودية بين الأمم ، لابد لها أن تزداد إحكاماً ، وبما أن الشعوب المشتركة فى الأمم المتحدة قد أكدت فى ميثاق الأطلنطى إيمانها بالحقوق الإنسانية الجوهرية ، وبكرامة أفراد الناس وأقدارهم ، وبمساواة الرجال والنساء فى الحقوق ، وصممت على أن يطرد التقدم الاجتماعى ، وأن يرتفع مستوى الحياة فى نطاق من الحرية أوسع .

وبما أن اشتراك الناس فى فهمهم لهذه الحقوق والحريات هو على أكبر جانب من الأهمية ، حتى تتحقق لنا هذه العهود تحقيقاً كاملا .

فإن الجمعية العمومية تعلن الآن :

وجوب أن تعمل الشعوب جميعاً والأمم جميعاً ، بحيث يكافح كل فرد وكل عضو من جماعة ، كفاحا يهتدى فيه بهذا «الإعلان لحقوق الإنسان» فلا يغيب عن بصره أبداً — يكافح بالتعليم والتربية حتى يزداد احترام الناس لهذه الحقوق والحريات ، ويكافح بكل ما يسعه من وسائل تقدمية — قومية أو دولية — فى سبيل تحقيقها ومراعاتها فى أنحاء العالم أجمع ، وبصفة فعالة منتجة ... »

وبعد ذلك تجيء ثلاثون مادة تفصل للإنسان حقوقه وحرياته الشخصية والسياسية والمدنية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية — مهما يكن جنس الإنسان وديانته ولونه ...

وفى عيد من أعياد الأمم المتحدة ، وضع الحجر الأساسى للبناء الجديد الذى شيدوه فى نيويورك مناطحاً للسحاب ، ليكون مقراً لجمعية الأمم ، فى ذلك العيد الإنسانى من عام ١٩٤٩ ، أمسك السكرتير العام للأمم المتحدة بنسخة من ميثاق الأطلنطى ، وبنسخة من « إعلان حقوق الإنسان » الذى ذكرنا لك مقدمته ؛ أمسك بهاتين النسختين ، ووضعها مع الحجر الأساسى ، وخطب قائلا :

« إن هذا « الإعلان » (إعلان حقوق الإنسان) ، إنما يضع ناموساً تهتدى به الحكومات حين يلجأ إليها بنو الإنسان وبناته من كل جنس ولغة ولون وعقيدة ، كلما اعتُديت لهم على حقوق » !!

وها هى ذى حقوقنا قد اعتُدى عليها وديست تحت الأقدام بإسكرتير الأمم المتحدة ، وها هوذا « إعلان حقوق الإنسان » مازال قائماً مطبوعاً يترنم بأنغامه المترنمون ، فإلى أى الحكومات نلجأ حتى تسمع الشكاة ؟ الحكومة الأمريكية أم الإنجليزية أم الفرنسية ؟

إن جمعية الأمم قد أعلنت هذه الحقوق فى اليوم العاشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، وهى منعقدة فى باريس ، أعلنتها بموافقة ثمان وأربعين دولة ، ولم تعارض فيها دولة واحدة ، وامتنعت عن التصويت ثمان . . . والمهم أن دولة واحدة لم تعترض على أن الإنسان من كل جنس ولون وملة وعقيدة ، له هذه الحقوق بحكم فطرته وطبيعته ، فهى ليست حقوقاً مكسوبة تمنح حين تشاء الأهواء ! وعندئذ قام رئيس الجمعية العمومية — وكان إذ ذاك مستر إيفات مندوب أستراليا — فقال : « إن جمعية الأمم تعلن الآن المرة الأولى حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ، ويؤازرها فى ذلك الرأى العام فى كل الأمم ، ويؤيدها ملايين الناس من رجال ونساء وأطفال ، فى أنحاء العالم أجمع ، يعيشون على بعد أميال طويلة من باريس ونيويورك » .

ومنذ ذلك الحين ، عملت جمعية الأمم جهدها ، أن تبث فى الناس هذه القواعد المقررة لحرياتهم وحقوقهم ، فعملت على ترجمتها إلى ست وثلاثين لغة ، وأذاعتها بكل الوسائل : أذاعتها فى الراديو وعلى شاشة السينما ، والنشرات والبحوث والصور ، وفى المعارض وحلقات الدرس والمناقشة ؛ ثم جاءت اليونسكو فجعلت هذا اليوم المشهود — العاشر من ديسمبر — عيداً تسميه « يوم حقوق الإنسان » . وقد احتفلت به فى العام الماضى ست وأربعون دولة ، وها نحن أولاء نسمع أنهم يعدون العدة للاحتفال به احتفالاً قوياً هذا العام — وهو عيد مولده الثالث .

علام هذه الضجة الكبرى مادمتم لاتريدون من الأمم

إجابة عن سؤال

للدكتور أحمد أمين بك

سألني الأستاذ موسى صالح شرف بالجامعة الأزهرية :

« لماذا نرى الذين ذاقوا مرارة الحرمان وعذاب الفقر وألم الشقاء يتربعون على عروش الصحافة والأدب ويقودون الحركة العقلية ، ثم إن منهم المفكرين العاملين ، والأدباء النابغين ، والقادة العظماء ، والزعماء الوطنيين ، والسياسيين المحنكين ، على حين أننا نجد أكثر الأغنياء ومن أوتوا حظهم من الدنيا جهلاء ، فقراء في الأدب ، لا يعرفون شيئاً ذا خطر ، بل همهم الأكبر إشباع غرائزهم الجسدية ، وتمتع أنفسهم فقط ؟ »

والجواب أن ذلك طبيعة كل عصر ، وكل زمان ومكان ، والعلة فيه أن أولاد الفقراء يجربون الحياة أكثر مما يجرب أولاد الأغنياء . فهم لفقرهم وقسوة الزمان عليهم ، يمارسون أعمالا أكثر مما يمارس أولاد الأغنياء من تحضير ما كلهم ومشربهم ومنامهم ، بينما يجرب أولاد الأغنياء تجارب محدودة في شهواتهم وتحصيل لذاتهم .

وأيضاً فأولاد الأغنياء يعتمدون على أموال آبائهم أو أمهاتهم فلا يجدّون في تحصيل علم ، ولا لإدراك معرفة ، لأنهم يعتقدون أنهم إذا فشلوا في العلم فوراءهم مال آبائهم يعتمدون عليه . أما أولاد الفقراء فلا شيء يعتمدون عليه ، فيجدّون إذ أمامهم الحصول على الشهادات ليتوظفوا بها ويكتسبوا من ورائها .

وبجانب ذلك يعيش أولاد الفقراء عيشة فيها خشونة وفيها بؤس ، وكل ذلك يشحذ هممهم ، لاستعمال الحيل للخلاص من هذا الشقاء . أما أولاد الأغنياء ، فيعيشون عيشة ناعمة ، لا تحثهم على عمل ، ولا تحملهم على التفكير في الخروج من هذه المآزق .

ومن نعم الله أن جعل الذكاء والجدّ والمثابرة ديمقراطية لا أرستقراطية . فقد يمنح الفقير من الذكاء ما لا يمنحه أولاد الأغنياء . فإذا اجتمع ذكاء الفقير وجدّه ، كانا أجدى نفعاً من ذكاء ابن الغني مع كسله وإهماله .

وأعرف صديقاً لي رئيس محكمة وابنه يرسب كل سنة في كليته ، بينما ابن حاجبه يكون الأول عليه ، لأن ابن رئيس المحكمة اعتمد على شهرة أبيه وثروة أبيه ، فتكاسل وأهمل ، وابن الحاجب لم يجد شيئاً يعتمد عليه ، فاعتمد على نفسه . وشتان بين من يعتمد على مال موفور ، وجاه موروث ، ومن يعتمد على ذكائه الخاص ، وجدّه الخاص .

على أن ابن الغني إذا نجح في دراسته لم يصلح للحياة بعد أخذ الشهادة صلاحية ابن الفقير ، لأنه لا يحتمل المكاره ولا يستطيع أن يهين نفسه . أما ابن الفقير فصبور يحتمل الشقاء إذا صادفه ، لأنه اعتاده . والفرق بينهما كالفرق بين غصن ناعم من شجرة مزروعة في الحدائق بين جدران أربعة ، وغصن قاس من شجرة قاسية ، قد نبتت في الصحراء واعتمدت على نفسها .

وهناك قلة من أولاد الأغنياء أدرك آباؤهم سوء هذه العاقبة فحرموهم وعلموهم احتمال الشدائد ، وكانوا حائزين على فضائل أولاد الفقراء ، ومزايا أولاد الأغنياء . وقليل ما هم .

أحمد أمين

كله إلا أن يكون كلاماً في كلام ؟

إن العالم المتمدن قد ظفر بشيء من الأخلاق المنشودة في هذا العصر . وينقصه منها شيء ؛ ظفر بتنظيم التعامل فيما بين أفراد الأمة الواحدة تنظيماً يقوم على كثير من صيانة الكرامة الإنسانية للأفراد ، وينقصه هذا التنظيم نفسه فيما بين الأمم بعضها مع بعض .

لكن ها هو ذا شعب قد رأيتموه بأعينكم زاخراً يموجه في أرجاء قطر بأسره ، قد أراد أن ينتزع حقوقه وحريته انتزاعاً ... ويستحيل على شعب يريد ثم لا يحقق ما أراد .

زكي نجيب محمود

حقائق عن الشيوعية

يجب أن يتدبرها الشباب

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كثر في المدة الأخيرة ضبط « الخلايا الشيوعية » في القاهرة والاسكندرية . والذي يلفت النظر قبل كل شيء أن معظم المقبوض عليهم في هذه الحوادث هم من الشباب المثقف ، وبخاصة من طلاب الجامعة ، وأن الأحكام التي أصدرها القضاء في المدة الأخيرة بالإدانة في قضايا الشيوعية ، قد بعثت إلى السجن بعدة من أولئك الشباب الجامعي .

وهذه ظاهرة خطيرة تدعو إلى أشد الأسف ، ولكنها تدعو في نفس الوقت إلى التفكير العميق . وقد كان عهدنا من قبل أن الدعاية الشيوعية لم تكن تتجاوز صفوف الطبقة العاملة ، التي تقع تحت صنوف من الإغراء والتضليل ، ولا ترقى إلى اجتذاب الشباب المستنير . أما اليوم فانا نرى هذه الدعاية تنساب في نفس الوقت إلى الأوساط المثقفة ، ويقع ضحيتها كثير من الطلاب والطالبات ، فهل يمكن أن يكون ذلك دليلا على أن هذا الرهط من الشباب المثقف أصبح يؤمن حقاً بالمبادئ الشيوعية ، ويرى أن يكافح في سبيلها عن فهم وعن عقيدة ؟..

أكبر الظن أن خديعة الشباب المثقف في ذلك لا تقل عن خديعة الطبقات العاملة ، التي تعتبر عادة مهداً صالحاً لبث الدعاية الشيوعية وإغرائها ، بما تزعمه من العمل على سيادة الطبقات العاملة وتحريرها من استغلال طبقة « البورجوازي » التي تستأثر في زعمها بالسلطان وبالثراء بوسائلها الطاغية ، وأن تحقيق المثل الشيوعية يكفل للطبقات العاملة أن تنتزع لنفسها هذا التراث المزدوج من السلطان والثراء . وقد يجذب مثل هذا التصوير الخاطئ ، لمثل الشيوعية بعض العناصر القلقة المتبرمة ، الساخطة على ظروفها وظروف المجتمع الذي تعيش فيه ؛ ومن المعروف أن الشباب كثيراً ما تنتابه أزمات نفسية تفسد عليه سلامة التفكير ، وتجعله أكثر تأثراً بعوامل الإغراء والتضليل .

وفي اعتقادنا أن بعض عناصر شبابنا المثقف تجوز اليوم أمثال هذه الأزمات النفسية لأسباب أو عوامل كثيرة لا يتسع المقام للخوض فيها .

ولهذا نرى أن نبسط للشباب ، والشباب المثقف بنوع خاص ، الحقائق الآتية لكي يتدبرها ويعيها كلما هتف به ذكر الشيوعية وغاياتها .

أولا : إن الشيوعية مذهب ثوري محض يرمي إلى تغيير النظم الاجتماعية القائمة بالفوضى ، ولا يعترف بأية وسيلة أخرى لتحقيق أهدافه .

ثانياً : إن هدف الشيوعية الأساسي هو أن تقضي على نظام الإنتاج الفردي الذي يتمتع في ظله كل فرد بحرياته الطبيعية في أن يستخدم مواهبه وثرواته ووسائله المشروعة . وهي لذلك ترمي إلى إلغاء الملكية الشخصية ، وتأميم سائر مواد الإنتاج بحيث تغدو الدولة وحدها مالكة لسائر المواد القومية من أراض وغابات وأنهار ومناجم وأبنية وغيرها ، ويغدو سائر المواطنين على اختلاف مواهبهم ومهنهم أجراء في ظل الإنتاج الجماعي الذي تشرف عليه الدولة وحدها .

ثالثاً — إن ما يجول بخاطر بعض الذين أضلتهم الدعاية من أنه يترتب على تطبيق النظام الشيوعي أن توزع أموال الأغنياء وأملاكهم على العمال والفقراء ، وبذلك تنقلب الآية ويتحقق أمل المعدمين في الثراء والنعماء هو محض هراء وخرافة ؛ ومع ذلك فان الدعاة لا يتورعون من التلويح للسذج والجهلاء بأمثال هذه الأباطيل إغراء لهم واستثارة لأحلامهم المريضة .

رابعاً — إن التجربة الشيوعية قد فشلت في روسيا

السوفيتية ذاتها ، وهي التي يتخذها الدعاة دائماً مثلاً عملياً حياً للتدليل على تحقيق مثل الشيوعية وغاياتها ، وعلى إمكان تحقيق سيادة الطبقات العاملة في ظل المساواة التامة بين الأفراد في الفرص الاقتصادية . ويعرف الذين درسوا تاريخ الثورة البلشفية وتاريخ النظام السوفيتي أن روسيا السوفيتية قد عانت في ظل النظام الشيوعي الأول (سنة ١٩١٨ — ١٩٢٤) شر الأزمات الاقتصادية والاجتماعية ، وأنها كادت تنزلق إلى هاوية الخراب والمجاعة من جراء التطرف في تطبيق سياسة التأميم المطلق ، وأنه لم ينقذها من هذه المحنة سوى العدول عن المضي في تطبيق التجربة الشيوعية المطلقة واتخاذ سياسة جديدة معتدلة ، عدلت فيها عن كثير من الأصول الشيوعية المتطرفة ، وعادت فأباحت الملكية في حدود خاصة ، ثم جاء الدستور السوفيتي الجديد أو الدستور الأستاليني (١٩٣٦) فتوسع في إباحة الملكية الخاصة ، وحقوق الميراث . وقد كانت هذه السياسة المعتدلة التي باعدت بين النظام السوفيتي وبين الشيوعية المطلقة وجعلته أقرب إلى نوع من اشتراكية الدولة من رأى لينين ذاته ، وقد أيدها وأوصى باتباعها قبل وفاته (١٩٢٤) وسار في تطبيقها من بعده ستالين وزملاؤه « المعتدلون » وقضى على الجناح الشيوعي المتطرف الذي يتزعمه تروتسكي وزملاؤه نهائياً .

هذا فيما يتعلق بسير التجربة الشيوعية في روسيا ، وأما فيما يتعلق بالنتائج الاقتصادية والاجتماعية التي انتهى إليها النظام السوفيتي ، فإنه لا مراء في أن روسيا السوفيتية ليست جنة الطبقات العاملة كما يقال أحيانا ، وأن هذه الطبقات العاملة التي جعلوها في الدستور مصدر السلطات ، فضلا عما تعاني من انحطاط مستوى العيش بالنسبة للطبقات العاملة في الأمم الغربية ، لا تملك شيئاً من السلطان ولا تتمتع بشيء من الحريات الفعلية . ولا مراء في أن النظام السوفيتي هو نظام دكتاتوري شديد الوطأة لا يسمح للفرد في ظله أن يتصرف أو يفكر بأية صورة مستقلة ، وإذا كان هذا النظام قد نجح في إنهاض روسيا وتقويتها ، فذلك لظروف خاصة بروسيا والشعب الروسي ، ولنجاح السياسة التي وضعها زعماء الكرملين . وقد دلت الحوادث على أنه من المستحيل أن ينفذ العالم الخارجي إلى شئون روسيا وظروفها الحقيقيـة ، وذلك من جراء النطاق الحديدي المطبق الذي يحيط به زعماء الكرملين كل شيء في روسيا والأمم الواقعة تحت سلطانها ، والذي لا يسمح لإنسان أن يقف على شيء من أحوال العالم السوفيتي .

• • •

هذه طائفة من الحقائق نبسطها لأولئك الذين تنفث إلى عقولهم الفتية وإلى أفهامهم الغريضة سموم الدعاية الشيوعية ، وتخلب ألبابهم مزاعمها ودعاويها المغرية ، فيتورطون في شراكها دون تدبر ولا تمحيص ، ثم لا يلبثون أن ينزلقوا إلى مهاويها الخطيرة .

إن واجب الشباب المثقف ، وهو الذي نحرص أشد الحرص على سلامة تكوينه العقلي والنفسي ، أن يمحص كل دعوة وكل فكرة تلقى إليه ، وألا يخدعه بريقها الخلاب من تدبر كل ما يحيط بها من العوامل ، ومن الاحتمالات والعواقب الخطيرة .

محمد عبد الله عنان

من أغاني الحرية

هناك ، هناك ، وراء الظلام ، على مسرح الفلك الدائر
صروح تزال ، تزال ، عليها ، يؤجج لظى اللهب الثائر
وأضواء تجر الغد المشرئب إلى الأرض من كوة الغابر
وهذى ، وتلك ، طلوع الشعوب إلى الشمس من ليلها العاثر
وأصداء يرجزها المدلجون ، إذا عرّسوا في الضحى الناضر
دماء على الأفق لما تزل ينابيع للأمل الساحر
ستبق تخضب جفن الصباح ، لينشق عن عالم . . . ظافر
به يرجم الأعون الطغاة ، وأسطورة الزمن الداعر

●●●

ستنسل من هبوات الدهور ، أناشيد تتلو لحون الصباح
على الليل زمرها سامر ، فتحملها لجموع الرياح
. . . خلائق عبر الدجى تستحث مزاغمها ذكريات النواح
إلى الفجر ، حيث مقارى الغدير بها ظما للهوى ، والمراح
وحيث تؤم ظلال القرى بلابل في الهضبات الفساح
يرددن ترنيمة الكادحين ، حيال الأذى ، آهة في الجراح
ستمسح آلامها المتعبات ، أنامل مخضلة بالأقاح
خريف الدنى ، أغنيات الربيع ، ستغسل أدرانه بالصداح

●●●

عرائس كالأنجم الحالمات ، يرتلن همس الكفاح الجليل
إلى سفح غاباتها ، فالبحار ، إلى الأفق ، فالظل تحت النخيل
ضحايا تبعثرن فوق التراب ، حزانى مضرجة بالعويل
عليها ، عليها ، تجيع يسح عطور الدماء ، طيوب الأصيل
على مغرب الشمس حيث اللصوص ، تشوه مجد الجمال الأثيل
سوى حارس ، لن يصد الجناة ، سوى النار والثور ، والمستحيل

●●●

ضياء من الأعين المطفئات ، يناجى قلب الظلام الضرير
وأفئدة ظامئات تجف ، لتسكب في الأرض ذوب الضمير
إذا زلزلت واحتواها السعار ، ودوى على الأفق رجع النذير
فمن للجماهير أن أطلقت ، نداء يشق عنان الأثير

. . . جبابرة في المكان القصى يغنون لحن الوداع الأخير
إلى الموت يحدوهمو مأمل ، به عاديات الردى ، لن تضير

●●●

ستصخب كالمائج المستبد ، إذا جلجلت صرخة الذكريات
. . . جماجم مصوبة بالأكف مخضبة صفحة الأمسيات
مودعة في خيال السنين ، أحاديث سوف تعيها الرواة
. . . صراخ ، وإعوال كوخ أتت ، على ما كنيه ذئاب الفلاة
وسنبلة في الحصاد الرهيب ، تطوف على زارعيها السراة
لتسليم جهد ما يزرعون ، سوى الشوك محصولهم ، والحصاة
خرائب للبوم أطلالها ، يعمد منها بناة الحياة
لقد ضمخت في مداها السجون ، وأسواط آلهة مجرمات[1]

●●●

معابدها لشتة العابثين ، بأحبارها ، إن طوام مصاب
وأصلابها من تراب حقير ، من الطين أرواحها ، والإهاب
تشد بأفكارها البائبات ، على صخرة من غباء يعاب
تبوح إلى الظلم أسرارها ، لينزل بالكافرين العقاب
. . . خلائق لا يطلبون الحياة ، ولا يتقون الهدى من تراب
يساقون إما شكوا من طوى ، قرابين آلهة للخراب
بطون مكرشة أتخمت — كأوداجهن — بأخزى رغاب
تباركها آكلات اللحوم ، وتحمدها جائعات الذئاب

●●●

وحتى القبور إذا أيقظت ، ذبائحها ضجة الآيبين
. . . من الحقل بعد العناء المض يساقون للموت كالمجرمين
ستخلع أكفانها البائبات ، لتفضح سر الطغاة اللعين
يخافون حتى من الذكريات ، ومن أمل في الفؤاد الحزين
شريعتهم أن تظل الحياة عليها يدب الأسى . . . والأنين
لتستعذم دمعة في الجفون ، وحسرة مستعبد مستكين

(بغداد) كاظم جواد

---

[1] (١) آلهة الإقطاع .

بين الأخلاق والسياسة

للأستاذ علي أدهم

كان خروج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على الدولة المروانية وخلعه طاعة الخليفة عبد الملك ومحاربته الحجاج ابن يوسف في العراق من الثورات الخطيرة التي هزت أركان تلك الدولة هزاً عنيفاً ، وكادت تطيح بها ، وقد لقي الحجاج من هذه الثورة ما أطال همه ، وأقض مضجعه ، وقد أظهرت كل ما كان مدخراً في نفسه من الصبر والجلد والثبات وقوة الاحتمال ؛ فلما وفق في القضاء على هذه الثورة واسترد مكانته وهيبته شفى غليل نفسه من الذين ناصروا عبد الرحمن وقاتلوا تحت لوائه ، فقسا عليهم قسوة شديدة ، ومثل بهم تمثيلا فظيعاً ، ولم يجد بعفوه إلا على أفراد معدودين منهم .

وقد علمته هذه الثورة الرهيبة درساً لم ينسه بعد ذلك ، وهو الحذر من إسناد الأمر في الولايات النائية إلى الأمراء الذين يعتزون بعصبيتهم القوية وجاههم العريض ؛ ومن ثم لم يكن له هم بعد الخلاص من ثورة ابن الأشعث سوى خلع يزيد بن المهلب من ولاية خراسان ؛ وكان يزيد رجلا شجاعاً مقداماً ، ومن الأسخياء المعدودين ، وكان له من ماضي أبيه المهلب في مكافحة الخوارج ورد عاديتهم وفل جموعهم ومن قومه أزد عمان ما يرفع من شأنه ، ويعلي من قدره ، ويجعل له مكانة مرموقة ، ومنزلة مرعية بين رجالات الدولة البارزين وأعيانها المعروفين ؛ وقد اختير حاكما لخراسان بعد موت أبيه المهلب في سنة ٨٢ هجرية ، وكان يزيد من ناحيته ينظر إلى الحجاج نظرة تنطوي على شيء من الاستهانة بأمره ، والاستخفاف بأصله ونشأته ؛ فيزيد كان يعد نفسه رأس قبيلة الأزد التي تأتمر بأمره ، وتدين بطاعته ، يؤيدها في ذلك أنصارها وأحلافها من سائر القبائل ، والحجاج في رأيه أحد القيسيين الذين خلقهم عبد الملك بن مروان ، وبوأهم المناصب العالية ، وجعل لهم مكانة وذكراً بين الناس ؛ ولم يكن الحجاج يجهل حقيقة شعور يزيد بن المهلب نحوه ، وكان يرى في سلوك يزيد وأقواله وأعماله ما يقوي سوء ظنه به ، ويزيده شكا في ولائه .

ولما ساورته هذه المخاوف ، وطافت برأسه الظنون لم يجد بداً من الكتابة إلى عبد الملك يطلب عزل يزيد بن المهلب عن خراسان ، ولكن عبد الملك لم يكن — برغم ثقته الشديدة بالحجاج — الرجل الذي يقبل الآراء والمقترحات بغير نظر ولا مراجعة ؛ وكان الحجاج حينما طلب عزله وأراد أن يضم عبد الملك إلى رأيه قد اتهم يزيد بأنه يميل إلى آل الزبير خصوم عبد الملك وبيته ومنافسيه على الخلافة ؛ ولم يقتنع عبد الملك بهذا الكلام ، ولم يرقه هذا الاتهام ، فكتب إلى الحجاج يقول : « إن ذلك وفاء لآل الزبير من آل المهلب ، وإن وفاءهم لأولئك يدعوهم إلى الوفاء لنا » فلم يصرف هذا الكتاب الحجاج عن طلبه ، وأعاد الكتابة إلى عبد الملك يخوفه غدر يزيد وآل المهلب ، فوقع هذا الكلام في نفس عبد الملك ، واستصوبه ، فكتب إلى الحجاج يقول : « قد أكثرت في يزيد فسم لي رجلا يصلح لخراسان » ، فسمى له الحجاج رجلا يدعى « مُجاعة بن سعر » ، وإنما جعل ذلك دهاء منه حتى لا يعرف عبد الملك حقيقة ميوله ، لأن هذا الرجل لم يكن يصلح ، وكان الحجاج يعلم العلم كله أن عبد الملك سيرفض اختياره ، وكتب إليه عبدالملك يسفه رأيه في اختياره ، وهنا لاحت الفرصة ليعرض على عبد الملك اسم الرجل الذي كان الحجاج يقدره ويثق به ويطمئن إلى إخلاصه وكفايته ، وكان هذا الرجل هو مسلم بن قتيبة الباهلي ، ولما سماه الحجاج لعبد الملك أقر اختياره ووافق عليه .

وكره الحجاج أن يواجه يزيد بن المهلب بالعزل ، ولعله خشي أن يحدث حدثاً ويخالف أمره ، فكتب إلى يزيد يستقدمه ويوصيه أن يستخلف أخاه الفضل ، وأبطأ يزيد على الحجاج ، فكتب الحجاج إلى أخيه الفضل : « إني قد وليتك خراسان » فجعل الفضل يستحث أخاه على الذهاب

إلى الحجاج ، ولم يغب عن يزيد سر هذه الحيلة فقال لأخيه : « إن الحجاج لا يقرك بعدى ! وإنما دعاه إلى ما صنع مخافة أن أمتنع عليه ! » ولكن أخاه كان قد فرح بالولاية وطمع فيها فأجابه : « بل حسدتنى » فقال له يزيد : « أنا لا أحسدك ولكن ستعلم ! » .

وخرج يزيد من خراسان ، فعزل الحجاج المفضل ، وولى قتيبة بن مسلم ، وكان قتيبة عامل الحجاج على الرى ، فكتب إليه الحجاج ليستوثق من المفضل وبنى أبيه ويشخصهم إليه ، فلما قدم قتيبة مَرْوَ أخذ المفضل وسائر ولد المهلب وأشخصهم إلى الحجاج ، فحبسهم جميعاً ، وطالبهم بمال كثير ، وأمعن فى إذلالهم وتعذيبهم حتى اضطرهم إلى الهرب من وجهه ، ولاذوا بسليمان بن عبد الملك الذى شفع لهم عند الخليفة الوليد وأظلهم برعايته وحماهم من سطوة الحجاج .

وكان قتيبة بن مسلم الذى اختاره الحجاج حاكما لخراسان قد نشأ بالبصرة ، وكان أبوه مسلم كبير القدر عند يزيد بن معاوية ، وهو من باهلة ، وكان يعير بهذا ، لأن العرب كانت تستنكف من الانتساب إلى هذه القبيلة ، وترميها بالضعة والمهانة ، حتى قال فيها الشاعر :

ولو قيل للكلب يا باهلىّ
عوى الكلب من لؤم هذا النسب

ولكن هذا الرجل الذى كان يعاب بباهليته من أعظم رجال الدولة الروانية وأقدرهم وأجرأهم وأشجعهم ، وقد ظهرت بوادر شجاعته فى مواجهة الحجاج نفسه على عظيم هيبته وشدة عنفه ، بالقول الصريح والكلمة الصادعة ؛ فقد روى الطبرى فى تاريخه أنه لما فض شبيب الخارجى كتائب الحجاج وكاد يغلبه على أمره ، استدعى الحجاج بعض الرجال البارزين فى العراق ليستشيرهم فى الموقف ، ويبادلهم الرأى ، وقال لهم عن شبيب : « لقد تبحبح هذا الرجل بحبوحتكم ، ودخل حريمكم ، وقتل مقاتلتكم ، فأشيروا على » ، فأطرقوا جميعاً ، ولكن قتيبة تقدمهم وخاطب الحجاج قائلا : « إن الأمير والله ما راقب الله ولا حفظ أمير المؤمنين ولا نصح الرعية » وغضب الحجاج وقال : « من المتكلم » فأعاد قتيبة كلامه . والظاهر أن الحجاج أعجب بشجاعته وصراحته ، فاستشاره فى الموقف ، وأخذ برأيه ، وعمل بنصيحته ، وربما كان من الأسباب التى دعت الحجاج إلى اختياره والتعلق به — علاوة على ما كان يعلمه من كفايته وجزالة رأيه وشجاعته ونزاهته — أنه لم يكن ينتمى إلى قبيلة قوية النفوذ منيعة الجانب ، وأمثاله يضمن الخلفاء وكبار الولاة ولاءهم ولا يخشون بأسهم ، لأنهم يستمدون قوتهم من الدولة وسلطان الخليفة ، لا من عصبيتهم القبلية .

وكان قتيبة خطيباً قديراً حاضر الخاطر سريع البديهة ، وحاكما نهاضاً بالأعباء عارفاً بواجباته مقدراً لتبعاته . ويروى أنه لما دخل خراسان وصعد المنبر ليخطب الناس سقطت العصا من يده ، فتطير الناس من ذلك ، فأخذها قتيبة وقال : « ليس الأمر كما ساء الصديق وسر العدو ، ولكن كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقرت بها النوى
كما قر عينا بالإياب المسافر

ولما ولى قتيبة خراسان كانت الأقاليم الواقعة فى شمالها وشرقها لم يحسن فتحها ولم يتم إخضاعها لمناعتها ووعورتها وشدة بأس أهلها ، فقام قتيبة بهذه المهمة خير قيام ، ووثب لغزو ما وراء النهر وتوغل فى تلك الأنحاء وبلغ من افتتاح القلاع واستباحة البلاد وقتل القتلى ما لم يبلغه أحد قبله ولا بعده ، وقد فتح خوارزم وسمرقند فى عام واحد .

وكان من أمراء الأتراك البارزين نيزك طرخان ، وكان لنيزك هذا قلعة حصينة فى باذغيس وصفها أحد الشعراء بقوله :

محلقة دون السماء كأنها
غمامة صيف زل عنها سحابها
ولا يبلغ الأروى شماريخها العلى
ولا الطير إلا نسرها وعقابها
وما خوفت بالذئب ولدان أهلها
ولا نبحت إلا النجوم كلابها

وكان فى يد هذا الرجل عند قدوم قتيبة إلى خراسان بعض أسراء المسلمين ، فكتب إليه قتيبة فيمن بين يديه من هؤلاء الأسرى ليطلقهم وهدده فى كتابه ، فخافه نيزك وأطلق الأسرى وبعث بهم إليه ، فأرسل إليه قتيبة أحد رجاله ، وكان اسمه سليما الناصح ، ليدعوه ويؤمنه ، وحلف بالله لئن لم يقدم إليه ليغزونه وليطلبنه حيث كان . وكان لنيزك معرفة قديمة بسليم الناصح ، فقال له نيزك : « ما أظن عند صاحبك خيراً ، فلقد كتب إلى كتاباً لا يكتب إلى مثلى »

فقال له سليم : « إن هـذا رجل شديد فى سلطانه سهل إذا سوهل ، صعب إذا عوسر ، فلا يمنعك منه غلظة كتابه إليك ، فما أحسن حالك عنده » وقبل نيزك نصيحة سليم ، وقدم معه على قتيبة ، وصالح قتيبة أهل بالدغيس على أن لا يدخلها .

وأوقع قتيبة بأهل بخارى وفض جمعهم ، وفصـل من بخارى ومعه نيزك ، وقد أخذه الذعر واستولى عليه الخوف لما رأى من الفتوح وباهر الانتصارات التى أحرزها قتيبة ، ولم يكتم مخاوفه عن أصحابه وخاصته ، فقال لهم : « إنى لا آمن هـذا الرجل ، وذلك أن العربى بمنزلة الكلب إذا ضربته نبح وإذا أطعمته بصبص واتبعك ، وإذا غزوته ثم أعطيته شيئاً رضى ونسى ما صنعت به ، وقد قاتله طرخون مراراً ، فلما أعطاه فدية قبلها ورضى ، وهو شديد السطوة فاجر ، فلو استأذنت ورجعت كان الرأى » ووافقه أصحابه على رأيه ، وقالوا له : « استأذنه » ، فلما انتهى قتيبة إلى مدينة آمل استأذنه نيزك فى الرجوع إلى طخارستان ، فأذن له قتيبة ، فلما فارق عسكره متوجهاً إلى بلخ قال نيزك لأصحابه « أغذوا السير لأنى لا أشك أن قتيبة قد ندم حين فارقنا عسكره على إذنه لى ، وسيقدم الساعة رسوله ، ولست أريد أن يلقانا الرسول إلا حين نبلغ طخارستان وندخل شعب خلم » وقدم الرسول ومعه جماعة من الجند لإرجاع نيزك ، ولكنه كان قد دخل الشعب ، وهو ناحية منيعة لا يسهل متابعته بها واسترداده منها ، فانصرف الرسول عائداً لقتيبة ، وأظهر نيزك خلع الطاعة ، وراسل بعض ملوك الترك يحرضهم على الخروج من طاعة قتيبة ، وواعدهم أن يجتمعوا به فى الربيع لمحاربة قتيبة ، فأجابوه إلى ذلك ، وأخرج عامل قتيبة من طخارستان .

وبلغ قتيبة خلعه قبل قدوم الشتاء ، وكان ملك الطالقان وملك الفاریاب وملك الجوزجان من ملوك الأتراك الذين أجابوا دعوة نيزك ، وأعلنوا خروجهم على قتيبة ، فسار إليهم قتيبة فأذعنوا له وأقروا بطاعته ، ثم مضى حتى أتى شعب خلم وقد خلف نيزك مقاتلة على فم الشعب ومضايقه ليمنعوه ، ووضع مقاتلة فى قلعة حصينة وراء الشعب ، فأقام قتيبة أياماً يقاتله على مضيق الشعب ولا يقدر منه على شىء ، فكبر على قتيبة الأمر ، وبينما كان قتيبة يعانى ألم هذه الحيرة قدم عليه ملك الروب مستأمناً ، ودله على مدخل القلعة التى وراء الشعب ، واستطاع قتيبة بعد الاستيلاء على القلعة أن يدخل الشعب ، ومضى نيزك هارباً حتى نزل ناحيـة جبلية حصينة وهى ناحية الكرز ، واعتصم بمضايقها ، ولم يكن إليه مسلك إلا من وجه واحد صعب لا تطيق الدواب السير فيه ، فحصره قتيبة شهرين حتى قل ما فى يد نيزك من الطعام ، وخاف قتيبة قدوم الشتاء ، فدعا سليما الناصح وقد دارت فى نفسه معركة حامية بين مقتضيات الصدق والوفاء والمحافظة على العهود وصدق الوعود ، وبين ما تفرضه ضرورات السياسة وممارسة الحياة العملية من الانحراف عن قواعد الأخلاق ، والتحلل من قيود العهود المقطوعة ، والوعود الممنوحة ، ومجانبة التزام الصدق ؛ وكانت المعركة رهيبة لأن قتيبة كان رجل جد وإقدام ، فهو يكره الإخفاق ، ويأبى أن يعود مغلوباً على أمره ، ويخشى على صيته ومكانته إن هو عاد خائباً ، وظل نيزك حياً يرزق وثائراً خارجاً على الطاعة لا يعرف عقوبة ارتداده ، ولا يحسب حساباً لسطوة قتيبة ولا لمكانته وجلالة خطره ؛ وكان يعلم أن عجزه عن هزيمة نيزك وأسره والقضاء عليه قد يغرى غيره من ملوك الترك وأمرائهم بخلع الطاعة والتمرد والعصيان ، وكان من ناحية أخرى لا يحب أن يوصم بالغدر ، ورمى بنقض العهد وهو الرجل البطل المقدام المعروف بالصدق والصراحة والنزاهة والسماحة ؛ وهداه تفكيره إلى طريقة الخروج من المأزق ، فاستدعى سليما الناصح وقال له : « انطلق إلى نيزك واحتل لأن تأتينى به بغير أمان ، فإن أعياك وأبى فأمنه ، واعلم أنى إن عاينتك وليس هو معك صلبتك ، فاعمل لنفسك » . والظاهر أن هذه الحيلة أرضت ضميره ، وهدأت وساوسه الأخلاقية ، فهو لم يرتبط بشىء ، ولم يعد نيزك بالأمان ، وإذا أعطاه سليم الأمان فإن سليما هو المسئول عن ذلك ، ولا شأن لقتيبة فى أمان يعطيه سليم لنيزك . والظاهر أن قتيبة أقنع نفسه بسلامة هذا المنطق وبراعة هذه الحيلة .

فقال له سليم : « ابعث رجالاً ليكونوا على فم الشعب فإذا خرجت أنا ونيزك فليعطفوا من ورائنا فيحولوا بيننا وبين الشعب » ومضى سليم ، وقد حمل معه من الأطعمة التى تبقى أياماً أوقاراً حتى أتى نيزك ، فقال له نيزك لما رآه : خذلتنى ياسليم ، فقال له سليم : إنى ما خذلتك ، ولكنك عصيتنى وأسأت إلى نفسك ، وخلعت وغدرت ، فقال نيزك : فما الرأى ؟

فأجابه سليم : الرأى أن تأتى قتيبة فقد أمكنه ، وهو

ليس ببارح موضعه هذا ، وقد اعتزم على أن يشتو بمكانه هلك أو سلم .

فقال نيزك : آتيه على غير أمان ؟

فأجابه سليم : ما أظنه يؤمنك لما في قلبه عليك ، فإنك قد ملأته غيظاً ، ولكني أرى أن لا يعلم بك حتى تضع يدك في يده ، فإني أرجو إن فعلت ذاك أن يستحي ويعفو عنك .

فقال نيزك : أترى ذاك ؟

فأجابه سليم : نعم .

فقال نيزك : إن نفسي لتأبى هذا ، وهو إن رآني قتلني .

فأجابه سليم : إني ما أتيتك إلا لأشير عليك بهذا ، ولو فعلت لرجوت أن تسلم وأن تعود حالك عنده إلى ما كانت ، فأما إذا أبيت فإني منصرف .

فقال نيزك : فنغديك إذاً .

فأجابه سليم : إني لأظنكم في شغل عن تهيئة الطعام ، ومعنا طعام كثير .

ودعا سليم بالغداء ، فجاءوا بطعام كثير لا عهد لهم بمثله منذ حصروا ، فانتهبه الأتراك لذلك ، وغم ذلك نيزك وأحزنه وأخافه وأرعبه ، وأدرك سليم هذا فقال له : إني لك من الناصحين ، وأرى أصحابك قد جهدوا ، وإن طال بهم الحصار وأنت على حالك لم آمنهم أن يستأمنوا بك ، فانطلق معي وأت قتيبة .

فقال نيزك : ما كنت لآمنه على نفسي ، ولا آتيه على غير أمان ، فإن ظني به أنه قاتلي ، وإن أمنني ، ولكن الأمان أعذر لي وأرجى .

فقال سليم : قد أمنتك أفتتهمني ؟

فقال نيزك : لا .

فأجابه سليم : انطلق إذاً معي .

وأشار عليه أصحابه بقبول قول سليم لأنه لا يقول إلا حقاً .

فدعا نيزك بدوابه ، وخرج مع سليم ، فلما انتهى إلى الدرجة التي يهبط منها إلى قرار الأرض عاودته مخاوفه فقال لسليم : من كان لا يعلم متى يموت فإني أعلم متى أموت ، أموت إذا عاينت قتيبة .

فقال سليم مطمئناً له : أيقتلك مع الأمان . وهو يعلم أن قتيبة غير مرتبط بهذا الأمان لأنه لم يصدر منه مباشرة لنيزك وإنما احتمل سليم تبعته مرغماً مأموراً .

وصحب نيزك بعض رجاله ، فلما خرج من الشعب عطفت الخيل التي خلفها سليم على فوهة الشعب ، وحالوا بين الأتراك وبين الخروج ، فقال نيزك لسليم : هذا أول الشر . فقال له سليم : تخلف هؤلاء عنك خير لك . ولما قدم نيزك على قتيبة أمر بحبسه ، وكتب إلى الحجاج يستأذنه في قتله ، وأتاه كتاب الحجاج بالموافقة على ذلك بعد أربعين يوماً ، فاستدعى قتيبة نيزك للمثول بين يديه وقال له : هل لك عندي عهد أو عند سليم ؟

فقال نيزك : لي عهد عند سليم .

فقال له قتيبة : كذبت . ورده إلى حبسه ، وتكلم الناس في أمر نيزك ، فقال بعضهم ما يحل له أن يقتله ، وقال بعضهم ما يحل له تركه ، وكثرت الأقاويل فيه وتعارضت الآراء ، ومرت ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع أذن قتيبة للناس ، وقال لهم : ما ترون في أمر نيزك ؟ فاختلفوا فيه . فقال قائل : اقتله . وقال قائل : أعطيته عهداً فلا تقتله . وقال قائل : ما نأمنه على المسلمين . ودخل عليه رجل من خاصة رجاله اسمه ضرار ، فقال له قتيبة : ما تقول يا ضرار ؟ قال : أقول إني سمعتك تقول أعطيت الله عهداً إن أمكنك منه أن تقتله ، فإن لم تفعل لا ينصرنك الله عليه أبداً .

فأطرق قتيبة طويلا ثم قال : والله لو لم يبق من أجلي إلا ثلاث كلمات لقلت : اقتلوه اقتلوه اقتلوه . وأرسل إلى نيزك فأمر بقتله .

وهكذا تنتصر الضرورات السياسية على الاعتبارات الأخلاقية في أمثال هذه المواقف ، وتفرض إرادتها حتى على أصحاب الأخلاق القويمة المطبوعين على الوفاء والصدق . وقد أحس الباهليون في مصرع نيزك شيئاً يمس سمعة رجلهم الكبير وبطلهم الذي يفخرون به ، فقالوا « إنهم يؤمن نيزك ولم يؤمنه كذلك سليم » . ولكن الروايات التاريخية الراجحة لا تؤيد ذلك ، بل تضيف إلى ذلك أنه لما أراد قتله دعا به ، ودعا بسيف حنفي فانتضاه ، وطول كمه ، ثم ضرب عنقه بيده . ومما يؤسف له أن توطيد الملك في كثير من الأحيان قد استدعى الإقدام على أمثال هذه الكبائر . والأوربيون يقولون في أمثالهم « صنع العجة يستلزم كسر البيض » أي أن الضرورات تبيح المحظورات ، والغاية تبرر الوسيلة .

علي أدهم

رفقـــــاء الرحلات

للأستاذ الدمرداش محمد بك

لم يقتصر مجهود أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر على نشاطهم الفكري في ميادين العلم والأدب ، بل كان لهم أيضاً في ربيع حياتهم نشاط رياضي ملحوظ ، فقد تكونت من بينهم جماعة كانت هوايتها الرحلات ، وكانت هذه الرحلات إما قصيرة مشياً على الأقدام إلى جبل المقطم وإلى صحراء الأهرام في أيام العطلات وفي أيام الجمع من كل أسبوع أثناء شهور الشتاء من كل عام ، أو رحلات طويلة بالسيارات إلى شبه جزيرة سيناء وإلى الصحراء الشرقية وإلى صحراء ليبيا ، وكانت للجماعة قيادة بصيرة يطيع الأعضاء تعليماتها بما يكفل لهم أسباب الإعاشة والسلامة والراحة والاطمئنان في الحل والترحال في جميع الأحوال ، وكانت تسود رحلاتهم هذه روح رياضية طيبة من الوفاء والإيثار والصبر على احتمال التعب والمشقة .

وكانت العادة أن تبدأ الرحلات القصيرة في الصباح الباكر فيلتقي الأعضاء في المكان المعين — وهو في الغالب محطة السكة الحديد بباب اللوق أو قهوة الثلث بالجيزة — وفي الوقت المحدد يبدأ سير الجماعة من غير تلكؤ أو إبطاء . وكان من عادة بعضنا أن يبكر في الحضور لمكان الاجتماع فيبقى زمناً طويلاً « ملطوعاً » في انتظار الباقين ، وبعضنا كنت تراه مقبلاً يجري وهو يلهث من شدة الإعياء ليدرك القطار وهو على وشك القيام من المحطة .

ونكون في أول الرحلة مبطئين خاملين ، ولكن سرعان ما تنشط أجسامنا بالحركة فنقبل على المشي ونثابر عليه حتى منتصف النهار ، وفي هذا الوقت نكون قد بلغنا الهدف فنجلس للراحة وتناول الغداء .

وبقدر ما نكون مقبلين مرحين في الذهاب نكون متثاقلين منقبضين في العودة خصوصاً في المرحلة الأخيرة من الطريق .

وبالرغم مما كان يلقاه الأعضاء في هذه الرحلات من مشقة وتعب فإن معظمهم كان يحرص على ألا يفوته الاشتراك في جميع رحلات الموسم مدفوعاً لذلك برغبة صادقة لما كان يجده فيها من متعة وتسلية وتجديد لحيويته وتنشيط لجسمه وتفريج لهم نفسه وجلاء لصدأ عقله ، وكان من عادة الأعضاء متى بدءوا في الرحلة أن ينسوا مشاغلهم الخاصة بهم فلا يدور حديثهم طيلة الرحلة إلا حول ما هو عام من أمور يتخيرون موضوعاتها بحيث يتسنى للجميع أن يشتركوا في الحديث .

وكنا إذا جلسنا لتناول الغداء ساد مجلسنا جو حافل من المرح والبساطة فنتلازم على الطعام ونتخاطفه أحياناً ونتراشق بالنكات ونروي النوادر والحكايات ، فإذا انتهينا من كل ذلك تفرقنا في الوادي جماعة هنا وجماعة هناك وانصرف كل منا على حسب هواه وسجيته : ففريق يخلد إلى الراحة ويستهويه السكون والدفء فيتمدد في الشمس ويستغرق في النوم ، وفريق ينزوي في ركن لبحث مسألة أو مناقشة رأي ، وفريق يلهو بإشعال النار في العشب الجاف ويبتهج لمنظر اللهب ، وفريق يقطف أزهار الوادي ويصيد حشراته ويجمع عينات من رماله وصخوره ، وفريق لا يهدأ له حركة فيصرف الوقت في تسلق الجبال وارتقاء القمم وهكذا .

وكنا إذا توغلنا في الجبل ووصلنا إلى الهضاب العالية والوديان الضيقة والسهول الواسعة وانفسح أمامنا مجال النظر وتعددت المشاهد ورق النسيم وطاب الهواء ، وانفتحت نفوسنا وتباينت انفعالاتنا باختلاف أمزجتنا ومشاعرنا وعبرت حركاتنا وسكناتنا وأسارير وجوهنا عما يختلج في نفوسنا من شتى الأحاسيس ، فبعضنا كان يبدو مكتئباً كأن لحناً حزيناً يشجيه ، وبعضنا كانت تأخذه نشوة من الابتهاج فيطرب ويغني ، وبعضنا كان ينسى نفسه فتراه محملقاً مشدوهاً لا يعي ما حوله كأنه في غيبوبة وهكذا .

ومع أن أفراد الجماعة كانت تجمعهم هواية واحدة

ومأرب واحد إلا أنه كان لكل منهم عقلية خاصة بهذه الرحلات يتجلى مظهرها في طريقة إعداد نفسه لها وسلوكه أثناءها واستجابته لمؤثراتها . وكان كذلك لكل منهم « لازمات » لا تفارقه ونوادر يتميز بها .

وكانت تتجلى الفوارق بين هذه العقليات بوضوح في طريقة الإعداد للرحلة والتهيؤ لها ؛ ففريق كان يأتي للرحلة متأنقاً في ملبسه حالقاً ذقنه مصففاً شعر رأسه متبختراً في مشيته كأنه مدعو إلى حفلة عرس . بينما يأتي فريق آخر مهرولا « مبهدلاً » في ملبسه وفي هيئته كأنه مضروب « علقة » على الصباح ومطرود من بيته .

وكان بعضنا يقبل علينا جاداً وقوراً وبعضنا يقبل مازحاً مستهتراً « سايب » المفاصل يهز جسمه ويحرك أطرافه .

وكنا نتعرف على أشخاص الجماعة من بعيد حين يقبلون بما يأتونه من حركات ويعملون من أعمال .

فها هو أستاذنا الرئيس أحمد أمين ! إنه قادم يمشي وئيداً في وقار سادرا في صمته غارقاً في تفكيره لا يلتفت يميناً أو شمالاً .

وها هو الأستاذ حسن جلال ! إنه قادم يمشي متحفزاً والابتسامة ماكرة في عينيه وعلى فمه ، ونكتة مفاجئة « حرشة » يحرص على أن يبادرنا بها قبل أن يقرئنا السلام .

وها هو الدكتور محمد عوض محمد ! إنه قادم بقامته الطويلة وشعر رأسه « المنكوش » المنفوش وعصاه الطويل وهو يتمسح بجدران الشارع .

وها هو الأستاذ محمد بدران ! إنه قادم يتدحرج في مشيته مهرولاً في بنطلونه « الشورت » الواسع وسترته الضيقة وقبعته البيضاء وعصاه الأسود .

وكان من عادة أستاذنا الرئيس ألا يكلف نفسه عناء أي إعداد خاص للرحلة . فلابسه هي نفس ملابسه اليومية من طربوش وبدلة وحذاء وعصا ، وطعامه يشتريه من أقرب دكان بقال وخباز وفاكهاني لمكان الاجتماع من غير مراعاة لملاءمة نوعه للرحلة أو عدم ملاءمته لها ، ويضع ما يشتريه في كيس من الورق يحمله بين يديه أو يدسه في جيوب سترته ، وكان لا يضيره أن يتبرع بعض الأعضاء بحمل طعامه في جيابهم حتى لا يتكلف مشقة حمل الكيس هكذا طول الطريق ولو أدى ذلك — كما كان يحصل أحياناً — إلى أن يسطو عليه أثناء الطريق بعض أولاد الحلال من أعضاء الرحلة . وكان الجميل فيه أنه يقابل هذا العبث « بتقل » ورزانة وابتسامة رقيقة ساخرة كأن الأمر لا يعنيه فيدعونا مسلكه هذا إلى التناهي في إشراكه في طعامنا مختارين مسرورين ، ومن حسن الحظ لم يكن الأعضاء الذين على شاكلة الرئيس كثيرين ، ويقابل ذلك « حزلقة » بعضنا في إعداد الطعام حتى إن بعضهم كان يحضر معه الشوكة والسكين وأطباق الورق .

وكان من عادة الأستاذ بدران أن يوزع علينا في الرحلات عجوة من نوع الفرين محشوة بالسمسم ، وكانت الأعضاء يستطيبون طعمها ويلحون في طلبها ولا يكتفون منها بالقليل بل يطمعون في أكبر نصيب ، فإذا « شخط » فيهم الأستاذ بدران وأنكر عليهم هذا النهم الذي لا يليق بالمهذبين هجموا على جيبه وأخذوا العجوة منها قسراً وتركوه من غير نصيب ! والجميل فيه أنه لا يغضب ولا يثور بل يهزأ بهم وهو يقول : « وإيه يعني ، والنبي عندنا من هذه العجوة في البيت ملء عدة بلاليص » فيضحك الأعضاء لهذا الكلام ويقهقهون .

وفي إحدى الرحلات أخطأت ساعتي فغادرت منزلي قبل قيام القطار بساعة وثلث وفي بهو المحطة رأيت الأستاذ بدران جالساً على مقعد خشبي وهو يغط في النوم ولما أيقظته تلفت مندهشاً وقال : أين باقي الإخوان ؟ . فقلت له : إنه لا يزال على موعد قيام القطار خمسون دقيقة . فقال : إيه ، يظهر أني جئت اليوم مبكراً قليلاً . ثم عاد يغط في النوم .

وكان الأعضاء في رحلاتهم يعالجون المشكلات التي تعرض لهم بأنواع من الحلول تثير أحياناً كثيراً من الضحك والسخرية

ففي إحدى الرحلات اشتاق الأعضاء إلى شرب القهوة فأحضر بعضنا الكنكة والبن ونسي السكر فاستعان الأعضاء على تحلية القهوة بقطع « الكرملا » وعصير البرتقال . وفي إحدى الرحلات انزلق أحدنا على منحدر من الصخر وتدحرج فتمزق بنطلونه من الخلف وبرزت سراويله من الخروق فتحايلنا على رتق الخروق بشوك حصلنا عليه من شجرة

سنط في الوادي فكان إذا مشى أو انحنى تخسه الشوك في جسمه ويسبب له ألماً فيأتي بحركات تثير فينا الضحك والسخرية فيرمقنا متوعداً وهو يقول « طيب ! بس لما أطلع البنطلون » فيزيدنا ضحكاً .

وفي مرة زرنا الطور في رحلة وذهبنا إلى مبنى الكورنتينا لمشاهدة الاستراحات التي ينزل فيها الحجاج في موسم الحج ، فوجدنا الحكومة قد جعلت عنابر الدرجة الثالثة معتقلاً للخارجين على القانون من أبناء وادي النيل وأحاطتها بالأسلاك الشائكة ، فوقفنا على مرتفع من الأرض نتفرج على المعتقلين ، فوقف شاب من بينهم وسيم الوجه يخطب فيهم شاكياً إلى الله ظلم الحكام وقسوة الحراس بعبارة مؤثرة موجهاً الكلام إلينا ، ثم تعرى من ملابسه وأبان في جسمه من القروح والجروح وآثار الضرب بالكرباج — والتفت إلى الأستاذ أحمد أمين فوجدته مهتاجاً يبكي ثم لم يلبث أن ثارت ثائرته وأخذ صوته يدوي عالياً في فضاء المكان حاثاً المعتقلين على تحطيم الأغلال وقطع الأسلاك وقتل الحراس والفرار من الاعتقال ! واسترسل في هذا القول والمعتقلون من خلف الأسلاك يهللون له ويصفقون ويضجون .

وتحرج الموقف ، وجاء قومندان المعتقل يجري مرتاعاً وتوسل إليه في أن يكف عن الخطابة وتعهد له بمعاملة المعتقلين مستقبلاً بالرفق والحسنى ، ثم شيعنا إلى خارج الحجر ترمقنا عينه بالعجب والاستغراب .

وكان الأعضاء يتعرضون أحياناً في الرحلة لبعض المتاعب فلا يسوءهم ذلك بل يقابلونها بالصبر والجلد وسعة الصدر .

فمن ذلك ما حدث للأستاذ محمد فريد أبو حديد في وادي دجلة في إحدى الرحلات فقد عقره الحذاء في قدمه وسبب له ألماً مبرحاً ، ولكنه أخفى عنا ما به وتجلد ومشى معنا وهو على هذه الحال اثني عشر كيلو متراً حتى وصلنا محطة المعادي بخط حلوان ، فلما كشف عن قدمه في استراحة المحطة وجدنا قدمه قد انتفخت وتشققت من شدة الورم ، حتى إنه فقد الشعور بها .

وفي إحدى الرحلات نزلت والأستاذ عبد الحميد العبادي في قلعة معان بشرق الأردن لنقضي بها ليلتنا ، وكانت الليلة شديدة البرد غزيرة المطر ، وكانت مباني القلعة قديمة وليس بها سوى حجرتين صالحتين للمبيت ، وتصادف أن جاء بعدنا للقلعة فوج من طلاب الرحلات فتزاحموا على المبيت بالحجرتين واحتلوهما ، ووقفت والأستاذ العبادي أمام هذا حائرين لا ندري ماذا نفعل ، ثم رأيته بعد قليل يأوي إلى بهو مهجور ويضع فراشه في جانب منه على حصير قديم وينام ، ورأيته في صباح اليوم التالي فكان كعادته هادئاً لا يشتكي ولا يتبرم ، ويحكي أنه بات ليلته ساهداً من شدة القر .

وبمرور الزمن أخذت تختفي رويداً من مسرح هذه الرحلات وجوه الكثيرين من الأعضاء القدامى الذين كان لهم فضل السبق في تكوين الجماعة ورعاية الهواية ، وذلك بعد أن قعد بهم ضعف الشيخوخة عن متابعتها فانصرفوا عنها لا باختيارهم ، ولكن قسراً عنهم نزولاً على ما تقضي به سنة الحياة ، حتى إذا ما جاء موسم سنة ١٩٤١ كان عدد الأعضاء الذين حضروا رحلة الافتتاح ثلاثة فقط : الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني ، والأستاذ بدران وأنا ، وكانت هذه الرحلة آخر رحلات الموسم كذلك ، بل كانت آخر ما قامت به الجماعة من رحلات ، فقد شغلت مداخل الوديان ودروب الصحراء بمعسكرات الجيوش وأصبح المرور فيها ممنوعاً ، وطالت فترة الحرب ففترت همتنا ، ولم نستأنف الرحلات بعدها ! وهكذا أصبحت رحلات الجماعة في خبر كان بعد حقبة طويلة امتدت على صفحة الزمان اثنين وعشرين سنة لم ينقطع لهم فيها دبيب على صخور المقطم وفوق رمال الصحراء في الشرق والغرب .

لقد كانت الرحلات هواية الرفقاء المفضلة ، وكانوا يقدمون عليها بشوق وحرارة ، لا يثنيهم عنها مشقات الارتحال ولا عوائق الطبيعة ولا صعوبات الانتقال ، بل كانوا يستعذبون كل ذلك بغبطة وإيمان ، ولكن لقدرة الإنسان حد ولنشاطه نهاية ، فسبحان من له دوام الحال ؟

الدمرداش محمد

شيوخ من الأزهر

فى خدمة حركة الترجمة فى عصر محمد على

— ٢ —

للدكتور جمال الدين الشيال

كانت أول مدرسة خصوصية شهدت نظام المحررين والمصححين هى مدرسة الطب البشرى ، غير أن هذا النظام أصبح تقليداً فيما بعد ، فألحق بكل مدرسة خصوصية مصححون لمراجعة الكتب التى ترجم بها ، وحتى مدرسة الألسن فإنها خضعت لهذا النظام ، وذلك لأن الكثيرين من خريجيها لم يكونوا من أبناء الأزهر ، بل جمعوا من مكاتب أو كتاتيب — الأقاليم ، فكانوا — رغم دراستهم اللغة العربية فى مدرسة الألسن على قطاعاتها فى ذلك العصر — فى حاجة إلى من يراجع كتبهم ، ويصحح لغتها ، ويقوم أساليبها ؛ وسنحاول فيما يلى أن نتحدث عن هؤلاء المصححين وأبرز جهودهم :

فى مدرسة الطب البشرى :

١ — الشيخ محمد عمران الهراوى :

هو أقدم وأول من عين من المصححين بمدرسة الطب ، ولا نستطيع أن نحدد الضبط فى أى سنة عين ، ولكنه عين قطعاً قبل سنة ١٢٤٨ (١٨٣٢ م) وهى السنة التى طبع فيها أول كتاب طبى ترجم فى مدرسة أبى زعبل ، وهو كتاب « القول الصريح فى علم التشريح » ، وترجمه المترجم السورى يوحنا عنحورى ، وقام على تصحيحه الشيخ الهراوى بالاشتراك مع الشيخ أحمد حسن الرشيدى .

وقد قام الشيخ الهراوى بتصحيح كل الكتب الطبية التى ترجمها المترجمون السوريون : عنحورى ، وفيدال ، وسكاكينى ، فلما عاد أعضاء البعثة الطبية الأولى من المصريين بدأ يراجع ترجماتهم كذلك ، فكان أول كتاب راجعه من هذه الكتب هو كتاب « الأربطة الجراحية » الذى ترجمه الدكتور ابراهيم النبراوى ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٤ هـ .

وكان كلوت بك قد أنشأ — فى السنوات الأولى من تأسيس مدرسة الطب — مدرسة تجهيزية لإعداد الطلاب لمدرسة الطب ، وأسماها « مدرسة المارستان » ، وقد ظلت هذه المدرسة قائمة حتى أواخر سنة ١٢٥١ أو أوائل سنة ١٢٥٢ (١٨٣٦) حيث تعرضت لعوامل الضعف والأضمحلال ، وأهم هذه العوامل عدم توفر المدرسين من الأطباء لتدريس العلوم التمهيدية للطب لتلاميذ تلك المدرسة ، حتى لم يعد « بها من المدرسين إلا ناظرها الشيخ » — أى الشيخ محمد عمران الهراوى .

وعند وضع لائحة سنة ١٨٣٦ لتنظيم التعليم رؤى الاستغناء عن هذه المدرسة ، وكتب « شورى المدارس » إلى كلوت بك يسأله رأيه ، فاقترح إلغاء المدرسة ، ثم رأى الشورى أن يستطلع رأى ناظر المدرسة الشيخ الهراوى ، فكتب الشيخ إليهم « إنه لا يمكن الاستفادة من هذه المدرسة وهى على حالتها الحاضرة ، ولكن لو عين لها مدرسون وما تحتاج إليه ، ونظمت أسوة بالمدارس الأخرى تصبح مفيدة ؛ أما إذا تركت على ما هى عليه الآن من الفوضى فلا يمكن أن يتعلم طلبتها شيئاً ، وتكون قد صرفنا مبالغ طائلة فى غير محلها » . ولكن كلوت بك أصر — رغم هذا البيان — على إلغاء المدرسة ، لأنه كان يعلم — كما يقول الدكتور عزت عبد الكريم — أن « إعداد المدرسين من الصعوبة بمكان ، وأن تنظيمها يحتاج إلى مصروفات باهظة » .

ويبدو أن هذا الموضوع كان مثار خلاف شديد بين الرجلين — كلوت والهراوى — ، وأن الشيخ اعتد برأيه وأصر عليه ، ووصل خبر هذا النزاع إلى محمد على باشا ،

وكانت الشيخ لديه سابقة أخلاقية ، فأصدر أمره في الحال إلى وكيل الجهادية بأنه « علم من اطلاعه على الضبطة المؤرخة في غرة الجارى (جمادى الآخرة ١٢٥١ هـ) حصول المفارضة من الشيخ المراوى في أمور لا تعنيه ، والنسبة لمقابلته بآرائه لم يقابل بشىء من شورى الأطباء ، ويشير بأن المذكور ليس ممن يجب احترامهم ، بل من الأشرار المحتاجين للإيقاظ ، وحتى إن تزويره معلوم لديه من قبل ، وأن التزامهم السكوت وعدم إدراكهم كيفية المذكور أوجب استغرابه ، فيلزم بوصول أمره هذا استحضار المذكور ، والتنبيه عليه مؤكداً بعدم تداخله في شىء خارج عن وظيفته ، وبأنه ينفى ويطرد لو حصل إقدامه ثانياً على ما يوجب التشكى منه » .

وفي الحادى عشر من نفس الشهر كتب محمد على أيضاً إلى مأمور ديوانه « حبيب أفندى » بأمره أن يستدعى الشيخ وينبه عليه « بتجنب التدخل في أمور ولوازم مدرسة المارستان وشئون تلامذتها ، بل يحصر اهتمامه في تصحيح ترجمة الكتب المحولة إلى عهدته فقط ، وإذا لم ينتصح يرمى في غرفة خالية ويشغل خاطره بالعصا » .

ولقد استقر الرأى نهائياً على إلغاء المدرسة ، واكتفى الشيخ المراوى بأن « يحصر اهتمامه في تصحيح ترجمة الكتب المحولة إلى عهدته فقط » . وظل يمارس هذا العمل نحو ست أو سبع سنوات أخرى ، فقد توفى في أواخر سنة ١٢٥٧ أو أوائل سنة ١٢٥٨ . يقول الشيخ محمد عمر التونسى في مقدمة الجزء الأول من كتاب « الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية » تأليف وترجمة « الدكتور برون » الذى طبع في بولاق سنة ١٢٥٨ : « وكان الأمر قد صدر بطبع هذا الكتاب على يد ملتق الفاضل ، حاوى كمالات الفضائل والفواضل ، المرحوم برحمة من يغفر ، الشيخ محمد المراوى ، فطبع منه على يده في ظرف سنتين ثمان وخمسون ملزمة ، ودعاه داعى الحمام فلباه ولما آنه ، فتوليت طبعه من بعده ، واقتفيت أثره في قصده ، ونحوت نحو إصابه ، وإن لم أكن من أضرابه ... »

وبهذا يكون الشيخ المراوى قضى في مدرسة الطب نحو عشر سنوات ، كان يقوم خلالها بوظيفة المصحح الأول ، وكان يساعده في بعض الأحيان مصححون آخرون ، هم :

٢ — الشيخ محمد محرم :

ويبدو أنه التحق بمدرسة الطب حوالى سنة ١٢٥٠ ، فقد قام بتصحيح كتاب « إسعاف المرضى من علم منافع الأعضاء » الذى ترجمه الدكتور عنحورى ، وطبع في سنة ١٢٥٢ ، وقد اشترك كذلك مع الشيخ المراوى في تصحيح « نبذة كلوت بك » التى ترجمها الدكتور إبراهيم النبراوى ، وطبعت في سنة ١٢٥٣ .

٣ و ٤ — الشيخان أحمد حسن الرشيدى وحسين غانم الرشيدى :

هما من طلاب الأزهر أصلاً ، ثم ألحقا مصححين بمدرسة الطب في السنوات الأولى من إنشائها ، وعملا بها تحت إشراف المصحح الأول الشيخ محمد عمران المراوى ، واشتركا معه في تصحيح بعض الكتب الأولى التى ترجمت في المدرسة ، وكانا يحضران دروس الطب مع تلامذة المدرسة فأظهرا نبوغاً وتفوقاً ، ولهذا اختارهما كلوت بك ليكونا عضوين في البعثة الطبية الأولى التى أرسلت إلى فرنسا سنة ١٨٣٢ (١٢٤٨) ، فلما سافرا قرر مجلس الجهادية في ٢٦ صفر سنة ١٢٤٨ « انتخاب اثنين مصححين بمعرفة الشيخ المراوى رئيس مصححى مدرسة الطب البشرى من المشايخ : عبد الرحمن الصفتى ، ومحمد هدهد ، ومحمد عياد الطنطاوى ، وعبد المنعم الجرجاوى ؛ بدلاً من كل من الشيخ السيد أحمد حسن الرشيدى ، والشيخ السيد حسين غانم ، من مصححى الترجمة بالمدرسة المذكورة نظراً لسفرهما إلى أوربا صحبة كلوت بك » .

وهؤلاء المرشحون جميعاً من خيرة شيوخ الأزهر في ذلك العصر ، فقد عاون الشيخ محمد هدهد الطنتدائى الشيخ رفاعة الطهطاوى في مراجعة الجزء الأول من « جغرافية ملطبرون » .

أما الشيخ محمد عياد الطنتدائى (أو الطنطاوى) فكان من أنبغ تلاميذ الشيخ حسن العطار — شيخ الأزهر — وممن نهجوا نهجه في تجديد الحركة الفكرية ، فبدأ بتدريس كتب الحماسة في الأزهر ، ولكنه لم يلبث أن اتهم من

زملائه بالكفر والإلحاد ، وانفض المستمعون عن دروسه ، فانصرف من دروس الأدب إلى غيرها .

وقد كان الطنطاوى — كأستاذه — كثير الاتصال بعلماء الفرنجة الموجودين فى مصر ، فتلقد عليه كثير من المستشرقين من جنسيات مختلفة ، أمثال « دكتور برون » و « فرسنل » و « ج . فيل G. Weil » و « دكتور برنر Dr. Pruner » و « ر . فراهن R.Frahn » وكان أشد هؤلاء إعجاباً به الدكتور « برون » ، فهو إذا ذكره — وكثيراً ما يذكره — لا يقول إلا : « شيخنا محمد عياد Notre Schaykh. M. Ayyad » .

وقد أشاد تلميذه المستشرق الروسى « فراهن » بذكره عند عودته إلى الروسيا ، فقررت وزارة الخارجية الروسية دعوته لتدريس اللغة العربية فى معهد اللغات الشرقية « بسانت بطرسبرج » فسافر إليها فى سنة ١٨٤٠ (١٢٥٦) ومعه زوجته وابنه ، وظل يشغل منصب الأستاذية فى جامعة « بطرسبرج » حتى عاجلته المنية فى سنة ١٨٦١ ، فمات ودفن فى لينجراد ، ولازال قبره موجوداً بها ، وقد خلف بعد موته مكتبة كبيرة بها كثير من تآليفه بخطه ، وهى محفوظة الآن فى مكتبة الجامعة بالروسيا .

أما الشيخ عبدالمنعم الجرجاوى فقد اختير فيما بعد ليكون مدرساً بمدرسة الألسن .

هؤلاء هم الشيوخ المرشحون ليختار منهم المراوى مصححين لمدرسة الطب ، ولكنه لم يختر واحداً منهم . أو لعله اختار وكان الرفض من قبلهم ، فإن وثائق العصر ، والكتب الطبية المترجمة بعد سنة ١٨٣٢ لا تشير إلى اشتغال واحد منهم بالتصحيح بالمدرسة ، وليس صحيحاً ما ذكره « مستر دن » فى مقاله عن الطباعة والترجمة من أنهم اشتغلوا جميعاً — لفترة ما — مصححين بمدرسة الطب ؛ أما من وقع عليه الاختيار فاثنان غير هؤلاء ، هما : الشيخ سالم عوض القنياتى ، والشيخ محمد عمر التونسى .

وفى المقال التالى نتحدث عن هذين الشيخين وعن زملائهما الذين أسهموا فى خدمة حركة الترجمة فى المدارس المصرية الأخرى .

جمال الدين الشيال

ذكرى شباب . .

يا ليلة ذكرتنا بعض ماضينا
يا ليلة الصفو كونى من لياليا
ذكرى شباب وأيام تطاردنا
ونشتكى لنجواها فتشجينا
ذكرت عهداً مضى فالتاع خاطرنا
ورقرق الدمع يجرى فى مآقينا
تمر بالقلب تأسوه فتجرحه
وقد يهيج الأسى بعض الواسينا
إنى لأعرف فى نفسى تعشقها
سحر الغرام وأحوال التجنينا
أصبحت أنكر منها ما يلازمنى
هذا الفتور وأطوار الحلينا

أين الذى كان يشجونا ويسحرنا
قد راح راح وما ألقاه يجدينا
يا قلب إنا فقدنا بعض حاضرنا
فهل يعز علينا بعض ماضينا
هل الزمان الذى قد راح ناقدنا
أم الشباب الذى قد ضاع بأيدينا
وهل يرد من الأيام ذاهبها
من بات فى الهم مكدوداً ومحزونا
فاخطف سعادة يوم قبل حسرته
وأترك مآسى ما فيه وماقينا

(كفر الشيخ) دكتور سالم محمد

أمراض الشتاء

للدكتور مصطفى الديواني

لقد مضى الصيف بناره ومضايقاته ، ثم تبعه الخريف فبدأت أوراق الأشجار تتساقط من فروعها وقد غشتها صفرة قاتلة نالت من خضرة الربيع المنصرم . فلا أسف على الصيف بلياليه الحسان ! فكم سهرت لياليه الجميلة القمرة على صريع يحتضر ، ولا أهلا بالشتاء ، فهو منهم هو الآخر بأهواله وأخطاره ، يقدمها لك فى باقة غير مزدهرة ، وورودها صفراء تمثل السقم ، وزهورها ذابلة لا تغرى على الإعجاب ، فيها من الأسماء كل ضخم غير مطرب ، كالدفتريا والسعال الديكى والإنفلونزا والحصبة وشلل الأطفال والجديرى والتهاب الغدة النكفية والتهاب اللوزتين والحمى الروماتزمية والالتهاب الرئوى . ولقد بدأت أشعر أثناء جولاتى اليومية بين مرضاى الأطفال ببعض هذه الزعانف تنساب فى نعومة الأفعى وكأنها تجس طريقها استعداداً للمعركة السنوية التى لا تمل من تكرارها والتى نبذل نحن كل الجهود فى سبيل كسبها ، والتى ستظل سجالا إلى أبد الآبدين ! فهى لا تنتهى إلى انتصار فريق على آخر ! ولكننا بوسائلنا الحديثة أمكننا الإقلال من خسائرنا فى الأرواح إلى حد أدنى قد تغتبط له نفوسنا ، ولكننا لا نزال نأمل فى المزيد من النصر ، فهناك أمراض قد تمكنا فعلا من الكسر من حدتها كالدفتريا مثلا .

لقد كان هذا المرض فيما مضى يفتك بالأطفال فتكا ذريعاً حتى اكتشفت الوسائل الوقاية منه وعلاجه . وليس بين أمراض الطفولة ما يوازيه فى الخبث والخداع ، فقد تبدو أعراضه بسيطة فى أول الأمر — وخاصة فى الأطفال الذين سبق تطعيمهم ضد المرض — فيأتى الطفل إلى عيادة الطبيب بادى النشاط يمارس ما اعتاد عليه من التهريج والشقلبة ويحرك أهله أنه يذرع طرقات المنزل دون ملل وبغير أن يشك هو وأهله أن ضيفاً ثقيلاً حل عليهم دون استئذان ! ولكن ما هى إلا أيام حتى ينضب هذا المعين الفياض من النشاط والحيوية فتستسلم الفريسة فى استرخاء واضح إلى جلادها ، ويبدو الطفل ذليلا ذابلا أصفر الوجه لا يكاد يقوى على الصراخ أو الحراك ! وبهذه المناسبة أقول إن هناك اعتقاداً خاطئاً شائعاً وهو أن مرض الدفتريا لا يصحبه سوى ارتفاع بسيط فى درجة الحرارة . والواقع أنها ترتفع فى بعض الحالات إلى أربعين درجة أو أكثر .

وأكثر ما تحدث الدفتريا بين السنة الثانية والخامسة من العمر ولو أنها قد تصيب الأطفال فى مختلف الأعمار ؛ والغالب أن يرث الطفل بعض المناعة عن طريق أمه ، لهذا تقل الإصابات فى الستة الأشهر الأولى من العمر حتى إذا بلغ الطفل نهاية السنة الأولى من عمره كانت قابليته للعدوى بالمرض حوالى التسعين فى المائة — لهذا يجب حقن الطفل بالطعم الواقى قبل أن يتم السنة الأولى من عمره ، وليس عند تمامها كما هو المتبع فى بلادنا . ولكن الحقن بها فى الشهر السابع أو الثامن مثلا . ولا بد من الإشارة إلى أن المناعة التى تحدثها هذه الحقن لا تلبث أن تزول وتخبو مع مرور الوقت ، لهذا يجب إعطاء الطفل حقنة واحدة مقدارها نصف سم من الاناتوكسين كل عام وبهذا تتنبه الأجسام المضادة للدفتريا وتصبح على تمام الاستعداد لاستقبال الجرثومة الغازية فى أى زمان أو مكان .

ولا بأس من الإشارة إلى أن الإصابة بمرض الدفتريا لا تعطى الطفل مناعة ضد المرض لمدة أطول من الشهرين يصير بعدها عرضة للعدوى مثنى وثلاث ورباع . ويجب أن نذكر أن خطورة الدفتريا ليست مقصورة على دور المرض الحاد لأن دور النقاهة لا يخلو من مفاجآت يتميز بها عن أى مرض آخر ، إذ قد يصاب الطفل فى أثنائه بهبوط مفاجئ فى القلب إذا قام بأى مجهود حتى مجرد الجلوس فى السرير أو التقلب فيه دون مساعدة والدته أو مربيته .

وهذا هو السر فى جعل مدة الراحة فى الفراش طويلة رغم تحسن الحالة وزوال الحرارة . وهذه المدة تتراوح بين

ثلاثة أسابيع في الحالات البسيطة وستة أسابيع في الحالات الشديدة . وكم من طفل فقد حياته بعد اجتياز دور المرض الحاد بسلام بسبب الإهمال في إلزامه بالبقاء في فراشه دون حركة .

وثمة مضاعفة أخرى تحدث في دور النقاهة وهي شلل الأعصاب ، وهي تبدأ خلال الأسبوع الثاني بعد انتهاء الدور الحاد ، ويلاحظ نتيجة حدوثها تغير في صوت الطفل فيبدو وكأنه يتكلم من أنفه ، وكلما تناول سائلا أرجعه من فتحتي الأنف نتيجة شلل أعصاب الحلق . ويتبع ذلك بأيام ضعف الساقين فيفقد الطفل القدرة على الوقوف أو المشي ، والويل المسكين إذا امتد الشلل إلى عضلات التنفس فإنه يتعذب عذاباً كبيراً وهو يكافح في سبيل الإبقاء على حياته العزيزة عليه وعلى من حوله .

وليست مضاعفات النقاهة علاقة بشدة الدور الحاد . فهناك حالات شديدة تنتهي بسلام ويقضي الطفل نقاهة سهلة ميسورة . وقد تعقب الحالات الخفيفة نقاهة عاصفة يلقى المريض وأهله خلالها أهوالا تفوق الوصف . والواقع أن ملاك زمام الموقف يتوقف على التشخيص المبكر والعلاج السريع ، وبذا لا نسمح لسموم الدفتريا أن تؤثر على القلب والجهاز العصبي . فهذه السموم تنساب من موضع الإصابة في الحلق أو غيره إلى دم المريض وتسبح فيه مختالة تتهادى حتى يستقر بها المطاف إلى مكانها المختار من القلب والأعصاب ، ومتى رابطت هناك فإن المستحيل زحزحتها مهما حقن الطفل بالمصل المضاد . والغرض من العلاج المبكر هو إلقاء القبض على هذه السموم السابحة قبل أن تصل إلى غايتها الحيوية من جسم المريض فتصير بعيدة عن متناول الطب والطبيب . وكلما كان الحقن بالمصل مبكراً كان الأمل كبيراً في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من قلب المريض وأعصابه .

● ● ●

إذا كان بالمنزل أطفال يختلطون بالطفل المريض فيجب حقنهم بالمصل الواقي بمقدار ١٠٠٠ وحدة ، لأن هذا يكسبهم مناعة سريعة ولو أنها قصيرة الأجل فهي لا تدوم أكثر من شهر . ويجب حقنهم في الوقت نفسه بالطعم الواقي (الفاكسين) فهو يكسبهم مناعة طويلة الأجل ، إلا أن أثرها لا يظهر قبل خمسة أسابيع أو ستة . كما يجب عزل المريض عزلا تاما وعدم السماح للجرثومة بالانتقال إلى من حوله عن طريق الكوب أو الفنجان أو الملعقة أو الحيوانات المستأنسة كالقطط والكلاب ، فهي عوامل هامة في نشر المرض . ولا بد أننا سمعنا بشخص يسمى حامل الميكروب وهو الذي يبدو سليما رغم كونه يحمل الجرثومة في أنفه وفمه . وقد يكون حامل الجرثومة شخصاً حبيباً إلى الطفل كأمه وأبيه أو قريباً إليه كالخادمة أو المربية .

هذه قصة الدفتريا وهي قصة مرض مراوغ خداع يدلف في نعومة الأفعى إلى السراديب العليا من جسم الطفل ثم يرسل سمومه إلى أنسجته الحيوية لكي يحطمها تحطيماً لولا أن نسعف بالعلاج . فخذوا حذركم منه واطلبوا من الله أن يوفقنا وإياكم إلى حماية طفلكم من هذا الداء الوبيل .

(للبحث بقية)   دكتور مصطفى الديرانى

مع الفكر الأوروبي المعاصر

للأستاذ مبارك ابراهيم

١ — ابن سينا

العيد الألفي لمولده : لكاتب أوربي

The Millenary of "Avicenna"

قال الكاتب :—

لم يبلغ أحد من رجال الفكر السلفيين مابلغه « ابن سينا » من قوة الأثر في عالمي الشرق والغرب ، وهو ذلك العالم الذي يحتفل اليوم بمرور ألف سنة على مولده (ولد ابن سينا سنة ٣٧٠ هجرية وتوفي سنة ٤٢٨) . وهو ذلك الرجل الذي لم يبلغ شهرته أحد ، ولم يحي حياته المليئة بالحوادث أحد . فقد كان طبيباً وفيلسوفاً ، وكان نديماً من ندماء الملوك ، وكان شاعراً من الشعراء ، وشارك في أمور السياسة مشاركة فعلية . وكتب نيفاً ومائة وستين كتاباً ، وعاقر الخمر ، وأولع بالنساء ، حتى لقد قال واحد من أخلص خلصائه إن الخمر والنساء قد عجلت بموته .

وقد سئل « ابن سينا » مرة : كيف يسرف في صحته وشبابه هذا السرف . فقال — كما روى الراوون — إنه يريد بذلك أن يحيا حياة تقاس بالعرض لا بالطول .

ولما كان « ابن سينا » قدولد بقرية من قرى « بخارى » فقد ادعاه الترك . أما وقد أصبحت بلاده تابعة لروسيا فقد قام الروس يدعونه . ولما كان « ابن سينا » قد عاش الجزء الأكبر من حياته في « إيران » ، وقد ضمت رفاته أرض « همذان » فإن الإيرانيين يفخرون بانتسابه إليهم . ولما كانت تآليفه تكاد تكون كلها باللغة العربية فإن العرب يصرون على أنه واحد من علمائهم . ولو كان « ابن سينا » اليوم حياً لضحك ملء شدقيه من تزاحم الأضداد .

أما قومه فلا مراء في أنهم كانوا قوماً يتكلمون الفارسية ، وليس غريباً أن يتسمى قوم فارسيون بأسماء عربية ، ولكن قد يكون أمراً ذا فائدة أن يعرف الناس لماذا سمي « ابن سينا » : « أبو علي حسين بن سينا » ، وهو الاسم الذي اصطلح اليهود على تحريفه فجعلوه « أفيسينا » .

أما أبوه فكان من أتباع « الطريقة الإسماعيلية » ، ولكن ليس هناك ما يدل على أن « ابن سينا » كان من معتنقي ذلك المذهب .

وكان « ابن سينا » متضلعاً في علوم القرآن ، وفي الآداب العربية . وقد تتلمذ على عالم من العلماء المتجولين ، كان أبوه قد استضافه في بيته ، ولكن « ابن سينا » سرعان ما فاق أستاذه .

وقيل إنه لما بلغ السادسة عشرة من عمره كان قد برع في الطب ، الذي يقول عنه هو إنه ليس بالعلم العسير تعلمه ، ثم درس الفلسفة دراسة واسعة ، وخصص لدراستها عاماً ونصف عام ، فكان يقل النوم ، ويطيل السهر ، وقد كان يستعين بالخمر على طول السهر !

وقرأ « ابن سينا » مؤلفات « أرسطو » التي تبحث فيما وراء الطبيعة أربعين مرة مستعيناً على فهمها برسالة واحدة للفارابي الذي كان أستاذاً لابن سينا ومرشداً له ، ثم دعي لتطبيب أمير « بخارى » (هو الأمير نوح بن منصور الساماني) فكانت هذه فرصة ظهرت فيها براعته كطبيب ، كما كانت هذه الفرصة بدء حياته العامة ، فقد أذن له هذا الأمير في الدخول إلى دار كتبه ، وكانت تحوي كل ثمين وغال من الكتب . ويحدثنا « ابن سينا » في ذلك — وقد بلغ به الزهو مبلغه — فيقول : إنه فرح أشد الفرح بهذه الفرصة التي أتاحت له قراءة كتب لم يسمع بأسمائها أحد .

ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره بدأ يكتب ويؤلف وظل كذلك حتى وافته منيته . والمتتبعون لسيرته لايعرفون إلا القليل من سياحاته في إيران حيث كان يذهب في طلب الرزق ، وكذلك لايعرفون إلا القليل عن حياته السياسية في بلاط البويهيين ، وكل مايعرفون عنه أنه كان وزيراً لأمير همذان ، وهي قصة في حاجة إلى من يجلوها ليعرف الناس

أى دور قام به هذا الفيلسوف كواحد من أهل الشورى عند السلطان .

ويبدو أن « ابن سينا » لم يكن يلقى فى اشتغاله بالسياسة توفيقاً كبيراً ، فقد احتمل فى سبيل سياسته النكد والأذى والسجن ، وكاد يقتله الجند الثائرون ، ولكنه من ناحية أخرى لقى أحسن المعاملة عند علاء الدولة أمير أصبهان ، وهو الذى أمره بتأليف كتاب فى الفلسفة باللغة الفارسية . وقد نشر هذا الكتاب فى الهند وفى طهران .

وكان من عادة « علاء الدولة » أن يدعو إلى مجلسه ليلة الجمعة من كل أسبوع جماعة من خاصة المثقفين يحاضرهم « ابن سينا » فى الموضوعات العلمية ، وكانت هذه الفترة من حياته هى الأوقات التى تم فيها بالطمأنينة ، والتى صعد فيها نجم عظمته ومجده .

ولما مات « ابن سينا » فى الثامنة والخمسين من عمره كان قد وهن عظمه ، وأنهك المرض جسمه .

والعلماء الثقات يعدون « الرازى » أقدر طبيب بين الأطباء المسلمين . ولكن « ابن سينا » قد فاقت شهرته شهرة « الرازى » . وقد يرجع ذلك إلى أن كتابه « القانون » قد جمع خلاصة ما كان يعرفه الناس فى عصره من المعلومات الطبية التى جاء بها علماء الإغريق والفرس . وزاد من قدر الكتاب وجعله المرجع الوحيد الذى جب ما قبله ، ما أضافه إليه هو من تحقيقاته .

وكان هذا الكتاب من أول الكتب التى عرفت طريقها إلى مدارس الغرب ، والتى ترجمت إلى اللغة اللاتينية . فتدارسه الطلاب فى جامعات أوربا ، وظل يتدارسه إلى وقت قريب طلاب جامعتى « مونبليه » و « لوفان » . وهو لا يزال يدرس فى بعض بلاد الشرق ، وقد يحتمل أنه ليس هناك كتاب آخر قد ظفر بمثل ما ظفر به هذا الكتاب من ذيوع ومن قراء كثيرين .

ومن مؤلفات « ابن سينا » التى يشك فى أمر نسبتها إليه رسالة موضوعها « النبض » ، وهى رسالة نشرت فى طهران .

و « ابن سينا » هو صاحب مذهب فلسفى اختص هو به وسماه « المعقولات » . وقد أعد العالم المستشرق الفرنسى « كونت جوزيف جوبينو » ١٨١٦ — ١٨٨٢ (وهو صاحب النظرية « الجوبينية » التى تقول بتفوق الجنس الآرى أو التيوتونى على كل الأجناس الأخرى) قائمة بأسماء من دان بمذهب « ابن سينا » الفلسفى من بين الإيرانيين من القرن السادس عشر إلى العصر الحديث ، وكذلك نجد من بين أتباع مذهبه الفلسفى العالم المصرى « الشيخ محمد عبده » ، وهو آخر من يمثل الرأى الإسلامى فى مصر ، وهو مدين لابن سينا بالشىء الكثير .

أما فى أوربا ، وفى أيام القرون الوسطى ، فإن شهرة « ابن سينا » تقوم على كتابه « الشفاء » ، وعلى كتابه الذى جعله موجزاً لهذا الكتاب وسماه « النجاة » .

وهذا الكتاب الضخم يعتبر دائرة معارف فلسفية تجمع بين المنطق والطبيعيات ، وعلم ماوراء الطبيعة ، ولكن المشارقة يفضلون كتابه « الإشارات » الذى قال عنه أحد تلاميذه إنه كتب فى زمن متأخر ، وإنه يحتوى زبدة آرائه ، وليس كذلك كتاب « الشفاء » .

وهناك كتاب آخر من كتبه آثار كثيراً من الجدل يوماً ما ، وهذا الكتاب هو « منطق المشارقة » ، ويقول العلامة « نللينو » إن هذا الكتاب هو جزء من كتابه « فلسفة المشارقة » الذى خلفه « ابن سينا » قبل أن يتمه .

ولما كان « ابن سينا » قوى الصلة بالفلسفة الإغريقية فقد عد واحداً من أولئك القوم الذين سماهم « المتكلمون » أو « المفكرون اللاهوتيون » بالفلاسفة ، وهى تسمية أريد بها الحط من قدر أولئك « المتكلمين » .

وبينما كان أولئك الفلاسفة — الذين لم يستنكروا هذه التسمية — معنيين باستخدام الحجج والأسانيد الفلسفية لدعم الدين ، كانوا فى الوقت نفسه يطمحون فى القيام بمحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة ، وفى هذا الميدان الفكرى تبدو أصالتهم ومكانتهم الممتازة .

والفكرة عند « ابن سينا » هى أرسطوطالية فى شكلها وصورتها ، وأفلاطونية فى موضوعها ومادتها ، وأفلاطونية حديثة فى أهدافها ومقاصدها .

وقد ساعد المنطق على الإعلاء من مكانة أرسطو ، وجعل الناس يسمونه « المعلم الأول » .

ولابن سينا أيضاً مؤلفات مشهورة فى التصوف ، وهذا

عادها بعض الناس إلى صباه، صوفياً مفكراً. وكذلك كان «ابن سينا» ذا مواهب في الأدب، ورباعياته باللغة الفارسية قد وجدت طريقها فانبثت في رباعيات «عمر الخيام» المشهورة.

وقد أمد «ابن سينا» العلوم الطبية والفلسفية بمفردات في اللغتين العربية والفارسية. فعلى الذين يريدون الاستزادة في هذه العلوم أن يدرسوا هذه المفردات ليجنوا منها أكبر الفائدة.

و «ابن سينا» عند المسلمين هو في المقام الثاني بعد «الفارابي» الذي كان مقلاً، ولكنه كان ذا عقل قوى نفاذ

٢ — صورة من الحياة في باريس
كتاب من ترجمة إيثن ولكنز

A Picture of Life in Paris Translated By "Eithne wilkins"

المؤلف الذي يدور حوله موضوع هذا الكتاب هو «ألفونس دوديه» (١٨٤٠ — ١٨٩٧) وهو روائي وشاعر فرنسي، ولد في مدينة «نيم»، إحدى مدن الجنوب في فرنسا، وجاء باريس ليعيش فيها عام ١٨٥٧.
وذاق طعم النجاح يوم أصدر كتابه المسمى «رسائل إلى طاحونتي». وله عدة مؤلفات أخرى، وديوان شعر.
وكانت امرأته «جولى روزالى سيلست» تعاونه كثيراً وقد تركت من بعدها ديوان شعر لها، وكتاب حوى مذكراتها.

يبدو «ألفونس دوديه» لأول وهلة المثل الكامل للكاتب الذي أضر به الترف والتأنيس! وهو قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، كان قد كتب كتباً ثلاثة، تفيض بالفكاهة وتعبر عن ذاتيته. وقد تنبأ له المتنبئون يومذاك بأنه سوف يكون «ديكنز» الفرنسي، وإن يكن خصومه — والحق أولى أن يقال — قد اتهموه بالسرقة من «ديكنز الإنجليزي».

ولكن ماذا في هذا؟ ألم يقل القائلون إن «شكسبير» قد سرق من «مارلو» و (كريستوفر مارلو، روائي إنجليزي ١٥٦٤ — ١٥٩٣، كان أبوه إسكافاً).

وعلى هذا فليس بالناس حاجة إلى أن ينكروا على «دوديه» نسبة كتبه الأولى إليه بسبب بضع سرقات.

ونحن إذا ذكرنا «دوديه» فأول ما يخطر بالبال كتابه المسمى «رسائل إلى طاحونتي» أو روايته المسماة «تارتاران

التاراسكونى» (وهو رجل من شيمته الفخر الكاذب والتباهي الباطل. فقد كان يدعى أنه ملك الصيادين في إقليمه، ولكنه لم يصطد في حياته — على الرغم من محاولاته العديدة — أي صيد، اللهم إلا أسداً اصطاده في بلاد الجزائر بعد أن تكلف في سبيله ما تكلف. وكان هذا الأسد أسداً نحيلاً، قد وهن العظم منه، وقد بلغه الكبر وحطمته السنون. وكان أسداً مستأنساً، بل كان أسداً أعمى...).

ونعود إلى «دوديه» فنقول إنه بينا هو قد أصدر فيما بين الثلاثين والخامسة والأربعين من عمره تسعة كتب، فقد كانت تلك الكتب توحي لقارئها بأسماء مؤلفيها الأصليين، كبلزاك أو «فلوبير» أو «تورجنيف» أو «زولا»، وإن يكن غير خاف أن نجاح هذه الكتب هو الذي أدى إلى أن تجد كتبه الأولى قراء ومشترين.

ولكن الزمن قد دار دورة عكسية، فنحن اليوم إذا وجدنا عشرة يقرأون كتابيه «رسائل إلى طاحونتي» و «تارتاران» فإننا لسنا واجدين من سمعوا بكتبه الأخرى (سافو ونواب وجاك) غير اثنين.

أما التغير فقد حدث فور زواجه. وصاحبنا «دوديه» يوم جاء «باريس» كان في السابعة عشرة من عمره (١٨٥٧)، وكان يعيش عيشة الفرادية، كما كان بوهيمياً في حياته.

وفي عام ١٨٦٠ أزاله «دوق دى مورنى» عن الرفاهية، وذلك بأن جعله صاحب دخل ثابت يوم سعى له في تعيين في قصر «بوربون». ولكن الفضل أكبر الفضل يرجع إلى «جوليا دوديه» التي جعلته يحيا حياة الطبقة الوسطى، والتي بفضلها طلق «دوديه» حياة الثرثرة طوال النهار في القهوات، وبفضلها عرف الأكل في مواعيد منظمة رتيبة، وبفضلها عرف الدؤوب والعكوف على العمل ساعات طوالا، وبفضلها عرف صحبة الكتاب من ذوى المكانة في الأدب، بدلا من أولئك الكتاب الهواة الذين كان يمشى في ركابهم، وبفضلها أصدر الكتاب بلغو الكتاب في سرعة الآلة الميكانيكية.

واستقر «فتى الجنوب» في بيت ريفى على شواطئ «السين». وكانت «مدام دوديه» من أوفى الزوجات

إخلاصاً ، وأكثرهن صبراً على نسج المخطوطات لأزواجهن ! وإذا كانت هي قد أقسمت « دوديه » بإزالته طعم الترف فإنها — على الأقل — قد جعلته هانئاً سعيداً .

هذا رأي من الآراء . ولكن الباحث النفسي للأمور يرى صورة أخرى تختلف عن تلك الصورة التي أسلفنا بيانها .

والباحث النفسي يرى أن تغير الحال عند « دوديه » لم تجمع الصداقة بينه وبين زوجته ، بل « إن هذا التغيير » يرجع إلى حصار باريس ، وهذا الحصار هو من الحوادث الجسام التي تحيل كل كاتب إلى صورة من الجد ، وإلى التعمق في النظر إلى الأمور ! وقد تدعمت هذه الحالة عند « دوديه » بصحابته لأولئك الكتاب الذين يحسبون سدنة وشراحاً للمذهب الواقعي ، وهم « فلوبر » و « جونكور » و « زولا » .

وإذا كان كتابا « دوديه » اللذان سبقا كتبه الأخرى قد لقيا أكثر الرواج (والمقصود بذينك الكتابين « رسائل إلى طاحونتي » ، و« تارتاران ») فلم يكن ذلك إلا لأنهما اتخذا وسيلة إلى تعليم الأطفال اللغة الفرنسية .

و « دوديه » — على أية حال — تنقصه الأصالة الفكرية ، والقدرة الموهوبة ، والشخصية المتسلطة المتحكمة ، وهي الصفات والمواهب التي يمثلها « فكتور هوجو » . وحتى مدام « دي ستايل » (١٧٦٦ — ١٨١٧) — على ما تلاقيه بعض كتبها من قلة الإقبال — فإنها بقوة شخصيتها لا تزال إلى اليوم تسيطر على عقول قرائها .

وهناك كتاب آخرون من أمثال « ستندال » (١٧٨٣ — ١٨٤٢) وتولستوي (١٨١٧ — ١٨٧٥) كانوا يعملون في تآليفهم وفق نظرية متضامة ، لا تعرف التخلخل ! ولذلك فقد كانت آراؤهم في الحياة آراء أناس ثقات .

ولكن « دوديه » لم يوهب ما وهب أولئك الأفذاذ . ولقد جعلته رغبته في إرضاء قرائه ، والترفيه عنهم ، أشد الكتاب قابلية لآثار العقول القديمة . وقد كان هو على الرغم من ذلك كله له ذوق في الأدب ، إذ كان قادراً على أن يخلق مواقف وشخوصاً وأن يصف تلك المواقف ، وأن يرسم تلك الشخوص ، في أسلوب هو غاية في الدقة ، وآية في السلاسة والوضوح . وأقرب كتبه تمثيلاً لمذهبه هذا هو كتاب « رسائل إلى طاحونتي » . فقد سار فيه على سجيته لولا أنه كان أقل تشبثاً بالخيال ، وأكثر حيلة ودهاء .

وكان « دوديه » لا يلقي بالاً إلى المسائل السياسية ، بل قلما كان يقرأ صحيفة من الصحف التي تدور موضوعاتها حول تلك المسائل .

و « ألفونس دوديه » يتناقض مع الكتاب الواقعيين . ذلك لأنهم قوم لا يعرفون غير العمل الفني ، ولا يعرفون إلا التعمق في الدرس ، وإلا الاهتمام بكل شيء مهما يكن دقيقاً أو ضئيلاً ! فلا فرق عندهم بين الكتابة عن مناجم الفحم مثلاً ، وبين الكتابة عن الرسوم اليابانية . وإنه لمن اليسير على من أراد وصفهم أن يلخص عاداتهم ، من أن يأتي بتعريف لمبادئهم ! ذلك لأن صفة « الواقعيين » قد لحقت بكتاب هم جد مختلفين ، حتى لقد أصبحت تلك الصفة كالقاعدة النحوية التي كثرت فيها الاستثناءات .

وقد كان « فلوبير » يكره أن يلقب بالواقعي ، وهو الذي كان يسميه « زولا » بموسى الواقعية . وكان « زولا » نفسه يتسمى « بيهوذا الواقعيين » . وأحد هذين الكاتبين يتابع الفن ويقتفي آثره ، وذلك حباً في الفن لذاته ، والآخر يتابع الفن من أجل العلم لذاته ، وكلاهما — فيما يبدو — كانا متفقين على أن يحاولا وصف الحوادث وصفاً موضوعياً كما يراها شخص سليم العقل ، غير منفعل بأثر من آثار تلك الحوادث .

وكان « دوديه » يحسن الإحسان كله إذا كتب في الموضوعات التي يألفها ، سواء أكانت تلك الموضوعات تقوم على تجاربه الخاصة ، أو على الحوادث التي تجري في باريس بين سكان بلاد الجنوب ، وهي البلاد التي أحبته ، والتي لم يزرها بعد أن تخطى الشباب إلا قليلاً .

والحق أن باريس كانت عند « دوديه » الملجأ والملاذ التي تؤوي كل الأقوام الأذكياء ، والتي يلقى فيها الناس الرفاهية الحقة والعيش الرغيد . فإذا جاء « دوديه » وأتى مرة على بلاد الجنوب ، فإنه إنما يقصد بهذا إلى الحط من قدر باريس ! وذلك عند ما تنتابه ثورة من ثورات الغضب على تلك المدينة ...

مبارك ابراهيم

حزب الأحرار البريطاني

أسفرت نتائج الانتخابات البريطانية التي أجريت أخيراً عن أن « الأحرار » في بريطانيا قد نالوا خمسة مقاعد فقط في مجلس النواب . فهل معنى ذلك أن أنصار « الحرية » في بريطانيا أصبحوا يعدون على الأصابع ، وأنهم كحزب سياسي قد آن لهم الأوان أن يتلاشوا ؟ لقد تقلد زعماء هذا الحزب مقاليد الحكم في انجلترا زهاء نصف قرن على فترات كان يتخللها حكم المحافظين ، فهل مات الحزب كما يموت الأفراد بسبب الشيخوخة أم بسبب حوادث جانبية أو علل أصابته دون أمل في الشفاء ؟ .

أخذ الحزب في النشوء بعد أن هدأت الثورة الفرنسية وبعد أن أخذت المخاوف من آثارها تضمحل ، وتحل محلها رغبات جديدة وميل إلى الإصلاح والتقدم . وتغير معنى « الحرية » تبعاً لذلك ؛ فبعد أن كان النداء بالحرية والإخاء والمساواة ، مرتبطاً في أذهان الناس بالثورة ضد النظم القائمة ، أصبح معنى الحرية أوسع من ذلك بكثير ، فشملت حرية الشعوب والحرية في السياسة الداخلية والحرية الاقتصادية والحرية الشخصية في الدين وفي السلوك الفردي ، وفي اختيار نوع العمل الذي يمكن للفرد أن يخدم به أمته . ومن العسير أن نعين بالضبط متى تم تطور معنى الحرية ، بعد أن كانت تعتبر فضيلة سلبية يفهم منها المقاومة لكل ما يعوق الفرد في تصرفه فقط حتى أصبحت فضيلة إيجابية تتضمن قيام كل مواطن بواجبه كفرد في المجتمع الذي يعيش فيه ، ولكن يمكننا أن نذكر أن هذا الاتجاه الجديد نفسه لأول مرة في كتاب « On Liberty » لمؤلفه جون ستيوارت ميل ، ثم في كتابات T.H. green و B. Bosangnet في أواخر القرن التاسع عشر ، وفي مؤلفات L.T. Hobhouse و R. Muir في أوائل القرن العشرين .

وقد سمي « حزب الأحرار » لأول مرة بهذا الاسم في سنة ١٨٤٧ ، إلا أن المبادىء التحررية كان يعتنقها الصناع والتجار منذ القرن السابع عشر ، وكان غرضهم الأول من الحرية هو مقاومة الملكية والكنيسة وكبار الملاك . ولتحقيق هذا الغرض الأساسي طالب هؤلاء بحقوق سياسية كتمثيلهم في البرلمان ، وحرية الصحافة والعبادة ، والقضاء على الامتيازات التي كانت تتمتع بها بعض الطبقات . وقد استنكروا أي تدخل من الحكومة القائمة في شئونهم الاقتصادية أو في حرية التجارة ، ولكنهم رأوا وجوب تدخلها في القضاء على الرقيق وفي نشر التعليم .

وبالرغم من قوة الحزب في القرن التاسع عشر إلا أن أعضاءه لم يكونوا على اتفاق بشأن الإصلاحات التي كان يجب أن يضعوها نصب أعينهم ، وتلك التي سوف تتعارض مع حرية الأفراد ، خصوصاً بعد أن أعطى الشعب حقوقه الانتخابية في سنة ١٨٦٧ وتعددت العناصر والطبقات الممثلة في البرلمان .

وكانت أولى الصدمات التي تلقاها الحزب طرح مسألة ايرلنده على المجلس في سنة ١٨٨٦ ، عندما كان جلادستون رئيساً للوزراء . فقد انقسم حزب الأحرار بسبب هذه المسألة إلى قسمين انضم أحدهما إلى حزب المحافظين مستنكراً فكرة منح ايرلنده الحكم الذاتي ، ولم يستعد الحزب قوته إلا في سنة ١٩٠٦ عندما نال أغلبية ساحقة في الانتخابات التي أجريت في ذلك العام ، قام بعدها بسن قوانين أهمها القوانين الخاصة بالمعاشات والضمان الاجتماعي .

وكانت الصدمة الثانية هي اتحاد لويد جورج مع المحافظين فيما بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩٢٢ . فليتمكن من التغلب على آسكويث Asqwith اضطر لويد جورج إلى أن يستعين بالمحافظين ، وسبب بذلك لحزبه الانحلال . فبالطبع رفض آسكويث وأتباعه الانضمام إلى حكومة لويد جورج ، كما أن المحافظين شعروا في الوقت نفسه بقوتهم في الجبهة التي تكونت لحكم البلاد . وحتى بعد خروج لويد جورج من الوزارة ، ظل الحزب منقسماً ليس الآن بسبب الاصلاحات فقط ، ولكن

لم يعد أفراده يثق بعضهم ببعض بعد أن خدع أحد زعمائهم زعيمه وزميله آسكويث .

وقد حدثت علاوة على هـذا الانقسام السياسي حركة اجتماعية لم يكن منها بد ، عملت على إضعاف الحزب الذى كان يمثل الطبقة المتوسطة . فإنه بعد اندماج الطبقة المتوسطة العليا من الأحرار مع الطبقة الأرستقراطية من المحافظين فى التعليم ثم فى الثروة والتزاوج ، أصبح حزب الأحرار يمثل الطبقة المتوسطة الدنيا ، وعمل منـذ ذلك الوقت على جذب أصوات الناخبين من طبقة العمال ، وعلى تحسين حال معيشة هؤلاء بوساطة تدخل الحكومة ، بعد أن كان الأحرار لا يوافقون على سن القوانين التى تحـد من حرية التصرف عنـد الأفراد . وأصبح المقصود من كلمة « الحرية » ليس استقلال الوطن أو الحكم البرلمانى فحسب ، بل تحرير الشعب من الفقر والجهل والمرض . وبذلك أوجد الحزب لنفسه أعداء ثلاثة : أولهم بعض الأحرار أنفسهم الذين لم يتحملوا كل ما نادى به الحزب من إصلاحات جديدة ، فانضموا إلى المحافظين ؛ وثانيهم منافسو الحزب وهم الاشتراكيون وحزب العمال الناشئ ، والذى قوى تدريجياً وأصبح ممثلا للمبادئ التحررية بمعناها الواسع ؛ وثالثاً انفصلت عن الحزب هيئات الموظفين والمدرسين وأصحاب المهن الحرة الذين اعتنقوا تدريجياً مبدأ التشريع الحكومى للعمل على ترقية الشعب ورفع مستوى المعيشة ، وأصبحوا مضادين للمبدأ الأساسى لحزب الأحرار وهو الحرية التامة للأفراد خلقياً وعقلياً .

وربما يعتقد البعض أن حزباً قويا مثل حزب الأحرار كان يمكن أن يجمع شمله مرة أخرى بالرغم مما اعترضه من صعوبات ، وما حل به من انقسامات ، ولكن الفرصة قد فاتته لأن يصبح مرة أخرى حزباً عاملا فى السياسة البريطانية ؛ وذلك لأحد أسباب ثلاثة : إما أن يكون الحزب قد تلاشى بعد أن نجح فى مهمته الأولى وهى إيجاد التوازن بين التاج والبرلمان ، وبعد أن قام الشعب بحكم نفسه بنفسه ، وتم تحقيق حريته — غير أنه من المستبعد أن يكون النجاح سبب اضمحلال حزب من الأحزاب — وإما أن يكون المثل الأعلى للحرية قد أصبح المحافظة على كيان الدولة وليس تحقيق الحرية الفردية أو الشخصية ، وبذلك يكون الفرد قد حرم من أثمن ألوان الحرية لديه ، وتكون الدولة بدورها قد فقدت أهم ما ترتكز عليه وهو قوة شخصيات أفرادها .

وهناك سبب ثالث ربما يكون أقرب إلى الحقيقة من السببين السابقين ، وهو احتمال نجاح الحزب فى إقناع الحزبين الآخرين — حزبى المحافظين والعمال — بصحة آرائه حتى اقتبس كل من الحزبين ما يتمشى ووجهة نظره ويجارى مطالب العصر الحديث فى الوقت ذاته ، وبذلك يكون الشعب البريطانى بأجمعه قد اعتنق المبادئ التحررية ، وأصبح الخمسة أعضاء الممثلين لحزب الأحرار فى البرلمان البريطانى اليوم معنى أسمى من مجرد تمثيلهم لبقايا حزب لا يزال يكافح سدى للبقاء بجانب حزبين يفوقانه عدداً وقوة أو حزب كل مهمته أن يضم صوته إلى الجانب المنتصر كلما اقتضت الظروف .

بثينة عبد الحميد محمد

الشعور بالألم

الألم نوع من الشعور يخشاه الناس جميعاً ، ويجهلون كنهه على وجه التحديد ، وإذا اشتدت وطأته تنغص عيش صاحبه وتبغض إليه الحياة .

وللألم نوعان : يأتى أحدهما من تلقاء نفسه ، كالألم الذى يصيب المعدة ، ويكون الآخر أثراً لأحد المؤثرات ، كالألم الناشئ عن الصفعة أو اللطمة ، والألم الناشئ عن العضة أو القرصة ، وكألم السن المريضة .

ولنبدأ باستعراض النوع الثانى من نوعى الألم :

إنك إن وخزت جلدك وتدرجت فى وخزه نحو الشدة لا بد أن يأتى وقت يلحق بك الضرر فيه ، ولو حدث أنك بدلاً من وخز جزء سليم منه وخزت منه جزءاً رقيقاً كجرح أو موضع كدمة (والكدمة هى زرقة فى الجلد تسببها ضربة أو صدمة) فإن هذه الوخزة تضرك أكثر مما لو كانت فى مكان عادى ، ولذلك يكون شعورك بالألم أسرع وأشد .

حقاً أن مبلغ الألم لا يقاس بقوة الإيذاء فحسب ، بل يقاس بموضعه ووقته أيضاً ، وهو فى يوم بارد أشـد منه فى يوم حار لأن البرد يجعل الجلد رقيقاً يسهل إيذاؤه .

إن إدراك علة هذا النوع من الألم سهل ميسر إذا علمت أن ما يحدث حقيقة لا يعدو أنك تجرح خلايا جلدك الرقيقة فلا تملك هذه الخلايا سوى الصياح طلباً للنجدة ، وما يصل صوتها إلى المخ حتى يلبي نداءها ويهب مسرعاً إلى نجدتها ، ويتم كل ذلك عن طريق الأسلاك البرقية ، أى الأعصاب التى توصل بينهما ، ومسارعة المخ إلى نجدة هذه الخلايا يجعلك تتألم وبذلك توقف الوخز ، وإذا كانت تلك الخلايا الدقيقة قد اعتراها الشر من قبل كإصابتها بضربة أو كدمة أو برد فإنها تكون مرهفة الحس سريعة الاستجابة إلى الشعور بالألم والشكوى منه وهى إلى الصراخ والعويل أسرع .

هذا عن الألم الخارجى . أما الألم الداخلى فما يشق فهمه ، ويعتقد كثير من الناس أنه إذا كان وخز الجلد يسبب ألماً فوخز اللحم الملاصق له يسبب ألماً أشد ، وهذا خطأ شائع ، لأن وخز اللحم الذى تحت الجلد نادراً ما يؤلم . وهاك ما يؤيد ذلك :

أصيب أحد الأشخاص بمرض باطنى استلزم إجراء جراحة له ، ولما أراد الجراح تخديره رفض ذلك بحجة أنه قادر على تحمل الألم ، فاستولت الدهشة على الطبيب واعتقد أن مريضه على قدر كبير من الغباء ، وقد تردد فى إجراء العملية له ، ولكنه اضطر إلى مباشرتها فى النهاية فشق فتحة صغيرة بجلد المريض تألم لها أشد الألم ثم لم يحرك ساكناً بعد ذلك ، وقد تجاسر الطبيب وأدخل يده خلال هذا الشق إلى داخل جسمه وأمسك بعض أحشائه الداخلية وسأله عما إذا كان يشعر بأى ألم فكان جوابه بالنفى ، مما أثار عجب الطبيب لتوقعه عكس ما رأى ورؤيته عكس ما كان يتوقع من ألم المريض ، ثم جذب جزءاً من أمعاء الرجل وخاطه ، ومع ذلك لم تبد من المريض أية بادرة للشعور بالألم ، وما إن تمت العملية حتى خاط الطبيب جلد الرجل ثانية ، ووقتئذ فقط عاود الرجل الشعور بالألم .

من هذا نعلم أن مركز الشعور بالألم كائن بالجلد ، وليس بالأمعاء ، وأن المرء لا يحس بأجزائه الداخلية كما يحس بجلده ، ومع ذلك فإن كل امرئ يعلم أن الألم قد ينتاب أعضاءه الداخلية ، ولكن كيف يحدث ذلك فى حين أنه لا يحس بها ؟ .

لاستطاعة فهم الإجابة عن ذلك دعنا نلق هذا السؤال أولاً ونجيب عنه :

ما الذى يجعل الطعام يسير داخل الأمعاء ؟ .

لا شك أن الطعام لا يستطيع السير وحده بغير مساعد ، وهو يسير مسرعاً ، فما القوة التى تدفعه ؟ .

إنك إن أخذت أنبوبة من المطاط وأدخلت بها جسماً كروياً صغيراً ثم بدا لك بعد ذلك إخراجه منها فماذا تفعل ؟

إن تفكيرك يتجه فى بادئ الأمر إلى اتخاذ النفخ داخل الأنبوبة وسيلة لإخراج الجسم منها ، ولكن لو فرض أن هذه المحاولة باءت بالفشل ولم يأت النفخ بنتيجة ، فماذا أنت فاعل ؟ .

إنك عندئذ تضطر إلى إخراج ذلك الجسم بالضغط على الأنبوبة بأصابعك ، وتلك هى الطريقة التى تجعل الطعام يسير داخل الأمعاء ، وما مثل الأمعاء فى الحقيقة إلا مثل الأنبوبة ، ولكنها مزودة بعضلات جانبية تيسر لها أمر الدفع والانكماش ، ومثلها فى ذلك مثل الخيط المعلق بحق الحقيبة يغلقها ويفتحها وفق الحاجة ؛ وطبيعى أن الأمعاء لو ضغطت نفسها قريباً من كتلة الطعام لاندفعت تلك الكتلة فى طريقها إلى الأمام ، ويتضح لك ذلك الأمر بشكل أوفق إذا وضعت بفمك إحدى قطع الحلوى المستديرة ، فإنها سرعان ما تندفع خارجة بمجرد ضغطك عليها بشفتيك ؛ وعقب تناول طعامك تعمل أمعاؤك طوال الوقت فى دفعه إلى الأمام ، وليس فى ذلك بطبيعة الحال ما يؤلم طالما سارت الأمور سيرها الطبيعى ؛ ولكن لو حدث أن تلكأ الطعام والتصق بجدرانها وهو محتم عليها أن تدفعه ، فإنها تدفعه بشدة ، فعندئذ يعتريك الألم الذى لا يذهب عنك إلا بانتهاء الدفع .

وكذلك قد يصيب معدتك الريح فيسبب لها ألماً ، وهذا الريح يمدد الأمعاء ويشق عليها طرده ، ومثله فى ذلك مثل الجسم المستدير الذى يمدد أنبوبة المطاط ؛ ومن هذا نرى أن الأعضاء الداخلية يمكن أن تشعر أى تحس بالألم ولكنه من نوع يخالف النوع الذى يحس به جلدك ، وأن وخز هذه الأعضاء إن تحقق لا يؤلمها بقدر ما يؤلمها التمدد أو شدة الدفع .

ولكن ماذا يعنى ما تقدم وماذا نستنتج منه ؟ .

(البقية على الصفحة التالية)

من بريد الثقافة

بين هواية الفن واحترافه :

[إلى الفنان « بانو آخر »]

قرأت كلمة الفنان « بانو آخر » في عدد سابق من الثقافة تعقيباً على قصص « بانو » التي نشرت أخيراً بالمجلة ، ولم أكن أظن أن قصة بسيطة كقصص هذه ستثير آراء تخالف رأيي الذي نادت به في هذه القصة ومازلت أنادي به .

قلت : إني لا أقر ، كما أن العالم كله لا يقر ، نصف النجاح ، إني لا أحب لك بأصدق مبدأ « بعض الشيء ولانقصه كله » ، في الفن على الخصوص إن لم يكن النجاح فيه كاملاً والانتصار كلياً شاملاً فقد ضاع وضاع صاحبه .. إلى آخره .

فأنا لاأسيغ مطلقاً أن أضيع عمري في فن لن أصل به إلى الحد الذي يجعله يبقى بعد موتي مثلاً قرناً من الزمان أو قرنين على الأقل ، وله بعد ذلك أن يندثر أولا يندثر ، فأنا أقيس نجاح الأثر الفني بمدى تأثيره في الناس من حولي وتأثيره في العصر الذي أعيش فيه ، أعني بذلك تأثيره خارج حدود بلادي بالإضافة إلى بلادي في الأصل ، فإذا ذاع الأثر الفني في محيط الفنان ، وإذا ذاع في بلد هذا الفنان (دعنا من ذيوعه حتى بوسائل منحرفة ...) كان الفنان ناجحاً ، وكان بغنه قد « وصل » (وفي هذه الكلمة شيء كبير من التجاوز) . ولكن إذا ذاع هذا الأثر الفني ذاته في قطر آخر وبلد آخر ، أي إذا تعدى حدود بلاده كان نجاحه أعظم ، وإذا ذاع هذا الأثر نفسه في العالم أجمع كان نجاحه كلياً شاملاً .

أنظر إلينا في مصر . كم من الكتاب كتبوا ، وكم من الموسيقيين وضعوا الألحان ، وكم من الفنانين رسموا الصور ونحتوا الحجر ! أنظر كم من المهندسين المعاريين أقاموا الأبنية ، وكم وكم .. أيمكن أن ندعى أن أثراً من هذه الآثار سواء في الكتابة أو الموسيقى أو التصوير أو النحت أو العمارة سيبقى ؟! وأنا أعني بكلمة « سيبقى » كما قلت ، قرناً من الزمان أو قرنين على الأقل .. ! كل هذا الجهد مآله إلى الاندثار ، لأن نجاحه نجاح عصر واحد من العصور وبيئة واحدة من البيئات .

إن أدباءنا — باستثناء أديبين أصبحا الآن عالميين — لايكتبون إلا لأنهم قد « تعودوا » الكتابة ، وهم يعرفون أن إنتاجهم لافن فيه ، ولكنهم ماضون في هذا الإنتاج ، لاتدفعهم غير عادة إمساك القلم « عمال على بطال » ، إني أقول في هؤلاء إنهم يضيعون حياتهم هباء ، ويهدرون وقتهم في باطل .

وإن موسيقيينا — وأستثنى منهم واحداً أو اثنين تعدى نجاحهما حدود هذا القطر — لايؤلفون ألحانهم إلا لأنهم قد « تعودوا » التلحين ، وهم يعرفون أن إنتاجهم غث فارغ لاقيمة له ولافن فيه ، ولكنهم ماضون في هذا الإنتاج

إنه يعني أننا لا نحس بالألم إلا إذا كان في الإحساس به نفع لنا ! فإذا وجد ما يلحق الضرر بجلدك فإن شعورك بالألم الناشيء عنه يدفعك إلى إيقافه أو منعه أو الابتعاد عنه ، وإذا كانت أمعاؤك لا تدفع الطعام إلى غايته المحتومة بسرعة كافية فإن ما ينشأ عن ذلك من ألم يدفعك إلى دعك معدتك وأمعائك أو إلى تناول عقار يساعدها ويذهب عنك ذلك الألم .

وبينا يشعر جلدك بالوخز لا تشعر به أمعاؤك ، ولكنها تتألم مما يمددها أو يضطرها إلى الدفع بعنف ، ويشعر الفم بالألم عندما يلحق به الضرر كما يشعر به داخل الأنف ، وتشعر به العينان أيضاً ، وفي كل ذلك نفع لك أي نفع ، إذ يدفعك ألم فمك إلى إخراج عظم السمك الذي قد يكون لاصقاً به ويسبب لك ألماً موجعاً ، كما أن العطاس يخرج من أنفك ما يسبب إيلامه ؛ وإذا دخل عينك جسم غريب فإن الشعور بالألم الناشيء عنه يسترعي انتباهك ويدفعك إلى العمل على إخراجه .

عبد الباعث نعمت

لا تدفعهم غير عادة « الدندنة » على أوتار آلاتهم « عمّال على بطّال » إنى أقول فى هؤلاء أيضاً إنهم يضيعون حياتهم هباء ، ويبعثرون وقتهم فى باطل .

وهكذا أقول فى مصورينا ومثالينا ومهندسينا المعماريين . قد ينفق أحدهم عشر سنين أو خمس عشرة سنة فى فن من الفنون وهو متيقن أنه لن ينتهى به هذا الجهد إلى شىء ولكنه يمضى ذليل الفن حتى يموت وينسى كأن لم يكن .

لاتؤاخذنى بإصديق « تيانو آخر » فيما أقول كما أرجو ألا يغيب ذلك فى ، فأنا أيضاً محب للفنون أهواها بكل قلبى ، إن معرضاً للتصوير والنحت لايقام بالقاهرة إلا وأ كون فى طليعة زائريه ، وقد أختلف إليه مرتين أو ثلاث مرات ، وإن حفلة موسيقية لايقيمها عازف عالمى أو فرقة عالمية لايقيمها — أولا تقيمها — إلا وأ كون فى طليعة حاضريها ، وإن فرقة أوبرا إيطالية أو فرقة تمثيل فرنسية لا تأتى القاهرة إلا وأ كون فى طليعة من يتمتعون بها ، وإن كتاباً عمماً عالمياً لا أسمع بظهوره إلا وأبحث فى طلبه من ناشره رأساً إذا لم أجده بالقاهرة . أجل ، إنى أهوى الفنون ، ولكنى لا كما يهواها المتحمس المتهوس ، بل كما يهواها المتحمس العاقل ، أقول الحق يا أستاذ « تيانو آخر » ! لقد بدأت أنا نفسى ، كاتب قصة « تيانو » ، أتعلم العزف على البيانو ، وكنت قد تجاوزت العشرين ، وكنت متحمساً ودءوباً على التمرين اليومى حتى بدأت قبل نهاية العام الأول أعزف بعض مقطوعات بتهوفن وموزار المبسّطة والبسيطة فى نفس الوقت ، ولكنى توقفت بعد عام ونصف ، وقد أدركت — وكنت مازلت أعمل بوظيفتى لحسن الحظ ! — أن هذا عبث . تقول لماذا هذا عبث !؟ فأقول إنى شعرت باستحالة وصولى إلى شىء ، وإن غاية ما كنت سأصل إليه هو أن أ كون عازفاً محباً متواضعاً . وهذا لا أرضاه ، على الأقل لنفسى .

لنأخذ مثلاً آخر . كنت قبل عشر سنين من هواة جمع طوابع البريد وكنت أراسل عدة أشخاص بأوربا وأمريكا حتى اجتمع عندى عدد « وافر » من الطوابع العالمية ! وذهبت ذات يوم إلى محل لبيع الطوابع معروف لأبتاع منه طابعاً مصرياً قديماً رأيته فى كتالوج قديم ، وإذ كنت أساوم الرجل فى قيمة الطابع لينزل من قيمته خمسة قروش أو عشرة ، دخل المحل وجيه تدل هيئته على الثراء ، فتركنى البائع ورحب بمقدم الرجل ، وعرفت من حديثهما أن الرجل زبون دائم من زبائن المحل ، سمعت الرجل يقول : أوصلتك مجموعة الطوابع التى سألتك عنها فى الأسبوع الماضى ؟ فقال البائع : أجل ، وصلت أمس فقط . إنها مجموعة فريدة . إن « ... » (نسيت اسم البلدة التى ذكرها الرجل) نائية جداً ويندر أن تجد هذه الطوابع بمصر . وأتى إليه بمجموعة الطوابع الفريدة فتناولها الوجيه شاكراً وأعطاه ثمنها عشرين جنيهاً نقداً وعدداً أمامى ، عشرين جنيهاً فى مجموعة طوابع لم يتجاوز عددها خمسة ... خمسة طوابع بعشرين جنيهاً ، بينما كنت أساوم الرجل فى قروش خمسة أو عشرة فى طابع مصرى قديم ! . .

منذ هذا اليوم تركت هذه الهواية غير آسف ، فقد قلت لنفسى : ماذا أ كون أنا بجانب هذا الثرى الذى يبتاع الطوابع القديمة والحديثة بجنيهات يبعثرها بثروة دون حساب ؟ من أنا الذى أجمع طابعاً بطابع بشق النفس ! .

لا أدرى أتوافقنى على هذا المبدأ أم لا . ولكنى أحب النجاح الكامل ، أحب إن تناولت شيئاً فإما أنجح فيه كل النجاح أو أتركه غير آسف إنى لا أحب الماء الفاتر الذى ليس هو بالساخن ولا بالبارد . لا أحب المبنى المتوسط الارتفاع ، ولكنى أحب الشاهق . لا أحب المرأة المعتدلة الأنوثة ، ولكنى أحب هذه التى كلها أنوثة . لا أحب الشارع المتوسط النظافة ، ولكنى أحب الشارع الذى لا أرى فيه ذرة من تراب أو قصاصة من ورق (وأظننى أطلب المستحيل من مصلحة التنظيم ! كان الله فى عونها !) لا أحب المدرس المعتدل النشاط ، ولكنى أحب المدرس الذى هو مائة فى المائة مدرس ... إلى آخره . ولكنى مع ذلك لا أحكم على الفنان بهذا الوعد الجبرى . هذا الفنان الذى ركب فيه الفن فلا مناص له ولا حيلة ... ولكنى أرجو منه أن يكون أ كثر حكمة ، أرجو منه أن يحكم عقله كما يجرى وراء عواطفه فيما ينهج من سبيل .

فتيانو لم يكن حكيما عندما ترك وظيفته كصراف ناجح فى بنك ، ولكنه كان يكون حكيما حقاً إذا كان درس الموسيقى فى وقت فراغه وهو وقت طويل يصرفه الناس عادة فى القعود فى القهوات والذهاب إلى السينما . كان تيانو يكون حكيما حقاً إذا كان اتخذ الفن فى مبدأ الأمر « هواية »

لا « حرفة » حتى إذا نجح فيه — وهو ما زال هاوياً — ترك عمله الأصلي وهو متيقن من أنه لن يجوع باحترافه الفن . فكثير من الهوايات يمكن أن تنقلب إلى حرف إذا نجح أصحابها فيها . وكثير من فناني العالم المشهورين بدأت فنونهم هوايات .

لا . أنا لا أحكم على الفنانين بهذا الوعد الجبري ، هذا الفنان الذي ركب فيه الفن فلا مناص له ولا حيلة ... ولكني أرجومنه ألا يتخذ الفن حرفة في مبدأ الأمر وأن يتخذه هواية يقتل بها وقت فراغه . أقول الحق يا أستاذ « بيانو آخر » إني أعجب كل الإعجاب بالموسيقيين درجة ثانية وثالثة ، ولكني لا أحب لهم الجوع . ولقد أتيح لي هذا الصيف أن أعبر البحر إلى أوربا لأول مرة ، فتجولت في بعض مدن إيطاليا وسويسرا ثم في أحياء باريس ، وأعترف أني كنت أستمع في إعجاب ونشوة وأنا جالس في بعض القهوات أو إلى مائدة الغداء أو العشاء في هذه البلاد إلى عازفين درجة ثانية وثالثة ، عازفين كتبانو أخطأهم الحظ . أجل كنت أستمع إليهم في إعجاب ونشوة . هؤلاء حقاً هم الفنانون الأصيلون ، لأن ألحانهم تصدر عن قلوبهم مباشرة ، ولأنهم ضحوا من أجل الفن بكل شيء في حياتهم ... ولكني لم أكن أنسى وأنا أستمع إليهم أنهم سيمدون إلى بعد ذلك يداً لألقي فيها ما أجود به من ليرات أو سنتيمات أو فرنكات . إني أحب هؤلاء الموسيقيين بكل قلبي ، ولكني أضيق برأى بؤسهم وحاجتهم وعوزهم .

لا تنس يا صديق أننا نعيش في القرن العشرين ، قرن المادة ، وأن شغل الناس الشاغل في هذا العصر « المكهرب » هو كيف يحصلون على لقمة العيش ، لا باعتدال ولكن بوفرة ... لا كيف يعزفون على القيثارة أو البيانو مثلا أو يستمعون إليهما . كان الفنان في القرون الخوالي لا يهتم بلقمة العيش حيث كان من السهل عليه الحصول عليها ، وربما كان لا يهتم بمظاهر الحياة كما يهتم بها أخوه في هذا العصر . القرن العشرون هو قرن « المادة » ومن انصرف عن المادة في هذا الزمن فهو شاذ . أنا لا أقول بترك الفن ، أناساً أو فنانين ، تركاً تاماً ، فهذا هو الخطأ عين الخطأ . ولكني أقول بوضع الفن في المحل الثاني بعد لقمة العيش : الحرفة التي تملأ « المعدة » أولاً ثم الهواية التي ترضي « القلب » ثانياً . أما عكس ذلك فلا أحبذه . فالفنان الذي يرى أنه سيشحذ متسولا بفنه بينما بإمكانه الحياة كريماً كما يحيا الناس ، هذا الفنان أعده بائساً مسكيناً ... وإن كنت أعذره . أعذره لأنه لم يستطع تكييف نفسه بالزمن الذي يعيش فيه ! أعذره لأنه يود اللحاق بقوس قزح أو الوصول إلى ما يراه سراباً ! أعذره لأنه يحلم وأنه في حاجة إلى من يوقظه .

أمامي مثل فريد أرجو الانتباه به مقرراً وجهة نظري في وجوب تبعية القلب للمعدة ... هو ما نعرفه عن توفيق الحكيم . فهذا الفنان ، هذا العلم من أعلام النهضة الأدبية بمصر في العصر الحديث ، كان إلى عهد قريب جداً بسلك القضاء ، وكان الفن عنده هواية ، ورغم أن فنه كان منذ البدء ناجحاً كل النجاح فقد آثر أن يمضي في عمله بسلك القضاء حتى استقال منه أخيراً لينصرف بجمعه إلى فنه . هذا الفنان الأصيل الذي نجح منذ كتبه الأولى لم يغره النجاح في مبدأ الأمر بترك الوظيفة . ولكنه صبر ، وبطول صبره ، حتى اطمأن إلى أنه بترك هذه الوظيفة لن ينام ومعدته خاوية .

توفيق الحكيم فنان أصيل منذ شبابه الباكر ، ولكن لم يمنعه فنه الأصيل من أن يحكم عقله فلا ينساق وراء نوازع قلبه ! لم يترك الوظيفة حال رواج كتبه ... فما بالك ببيانو الذي طلق وظيفته كصراف في بنك ليبدأ حياته من جديد والمستقبل أمامه مجهول ... أقول : يبدأ ... يبدأ من لا شيء ، من الصفر ! ..

إني أحبذ الفن كهواية ، على الأقل في أول الأمر ، أما احترافه فمسألة تحتاج إلى المناقشة ... متى ؟ بعد أن يكون « الهاوي » قد نجح « كل النجاح » في فنه بحيث إنه إذا احترف هذا الفن بعد هوايته له ضمن ملء معدته ولم ينم على الطوى .

أحب لك يا صديقي « بيانو آخر » أن تكون فناناً ، بل وأشجعك على أن تحب الفن ... ولكني لا أشجعك قط على أن « تحترفه » وأنت مازلت على أولى درجاته ، بل أشجعك على أن « تهواه » وتمارسه في وقت فراغك ، حتى إذا تيقنت من نفسك كل التيقن تحولت إليه بجمعك فترضي قلبك وترضي معدتك في نفس الوقت .

أظنني الآن على حق ؟ ولكني أرحب بمناقشة جديدة

ادوار مقسى

كتب وردت إلى المجلة

(١) أرض الشهداء :

وهي ملحمة شعرية عن مأساة فلسطين للشاعر الأستاذ إبراهيم العريض .

وقد نشرتها دار العلم للملايين ببيروت ، وتقع في ١٣٦ صفحة من القطع الصغير .

(٢) براكين :

ديوان شعر للشاعر الأستاذ نجاح جمال الدين ، وقد طبع بمطبعة الرابطة ببغداد ، ويقع في ثلاث وأربعين صفحة من القطع المتوسط .

(٣) علاج الطفل بالتحليل النفسي :

تأليف « آنا فرويد » وترجمة الأستاذ سمير بولس التداوي ؛ وقد راجع الترجمة وقدم لها الدكتور أبو مدين الشافعي ، ويقع الكتاب في ١٧٦ صفحة من القطع المتوسط ويطلب من مكتبة الأنجلو المصرية .

(٤) أشقياء في الحياة :

للأستاذ عصام محمد سليمان ، وهي قصة شائقة ، وتقع في ١٥٩ صفحة من القطع المتوسط .

وتطلب من دار الفكرة قرب ميدان الاسماعيلية بالقاهرة

الثقافة

الثمن ٢٠ مليماً	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	العدد ٦٧٤ ٢٦ من نوفمبر ١٩٥١

صفحة

المصرى الجـــديد ...

طلعت على دجى الباغى صـــبوحا ... يبارك فجرك الوطنَ الجريحا
دعاك لمجـــده ، فنهضت تعلو ... كفرخ النسر ، تحتقرُ السفوحا
وفى شفتيك تصطخبُ الأغانى ... يحن إلى الكفاح هوى جموحا
وحولك فى القتـــال دمٌ ، ودمعٌ ... وصرعى تستثير بك الطمـــوحا
وآمالاً لنـــــا عانقن صبحاً ... يبددُ ضـــوءه الجفنَ القريحا
وضجت فيك حنجـــرةٌ صداها ... على الأفقِ البعيد يعصرُ ريحـــا
هتاف ما وعاه النيـــــلُ حتى ... كساهُ المـــوجُ من لهبٍ مسوحا
أخى يا أيهـــــا العربى ... إنى ... وجدتك إنْ دعا أملٌ صريحا
هناك على الذرى الأعـــلام تعلو ... وأهل إن صرخت لهـــا سَبوحا
فبادر للوغى ، لا كنتَ إنْ لم ... تشـــلّ دماه ثورتك الصروحا
غريب حينْ آوينـــاه منا ... ـــــلا أوطانه ، وأبى النزوحا
أتى والظلم لوّحَ وجنتيـــــه ... ظلاماً ، فالطمْ الوجـــه الكلوحا
أخى وطن العروبة وهو شـــلوٌ ... مُدمى ، حينْ نرمقه طريحـــا
أهانتـــه الذئابُ فكيف نمسى ... ونرضى أن يكون لنـــــا ضريحا
على الوطنِ المُهان بكيت دهراً ... وآنْ كرامـــــةً ألا تنوحا
إذا السودان كانْ لمصر جسماً ... فقـــد كانت له مذ كان روحا

(بغداد) ... كاظم جواد

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٧٤ الاثنين ٢٦ من صفر سنة ١٣٧١ — ٢٦ من نوفمبر سنة ١٩٥١ السنة الثالثة عشرة

فى ضوء المصباح :

أبنـــاء الظلام

للدكتور زكى نجيب محمود

ينقسم العصر فى تاريخ الأمة جيلان : جيل صاعد وجيل هابط ؛ أما الصاعدون فهم أولئك الذين ما يزالون من أعمارهم دون الأربعين أو نحوها ، لا تزال خطاهم ترقى بهم — فى حساب الحياة — من درجة أسفل إلى درجة أعلى ؛ وما تزال أبصارهم أثناء السير شاخصة إلى قمة تحجب عنهم نهاية الطريق ، فيحسبون أن ليست للطريق نهاية ! كنت أتحدث إلى شاب فى الخامسة والعشرين ، جاءنى يستشير فى أمر مستقبله ، فقلت له إن الطريق القلاية أضمن لك حين تبلغ الستين . فابتسم قائلا : إن هذه الستين لا تطوف لى ببال ، كأنما خلقت الشيخوخة لغيرى من الناس ، وكأنما يخيل إلى أنى سأعيش أبداً فى شباب يتجدد له إهاب كلما أبليت منه إهاباً .

قال لى ذلك ، فذكرت من فورى كيف كانت حالى أيام الصعود ، من عمل متصل فيه الجد والحرمان ، لا أبالى بنتائج عملى كيف تجىء . أتكون كسباً أم وبالاً ؛ فكنت أبذل من طاقتى وجهدى بذل المسرف المتلاف ، الذى ينفق الألوف بغير حساب ، مستنداً إلى رصيد لا يفنيه تبذير ، كنت أعمل الليل والنهار ثم النهار والليل ، حتى لقد سألنى أستاذ كبير كريم ذات يوم ، حين رأى ما أكتبه أكداساً تتلاحق حملا بعد حمل ، على الرغم من عمل مضن لكسب العيش يطول ما طال النهار ، سألنى : من ذا يعاونك فى هذا كله من جماعة الجن ؟ ... فوا أسفا ، كأنما كنت أصب الماء فى إناء مثقوب ، أو أبذر البذور فى حقل يثمر الحنظل ! لقد أكلت من عمرى سبعة وأربعين عاماً ، تركتنى كالأسطوانة الجوفاء ، فزرعٌ ولا حصاد ، وحركة ولا سير ، وشيخوخة ولا نمو ...

وأما الهابطون فهم أولئك الذين قد جاوزوا قمة الأربعين وأخذوا ينحدرون على السفح خطوة خطوة فى سير وئيد ، يرون النهاية بأعينهم هنالك فى أسفل الجبل ؛ لم تعد فى الطريق قمة تحجبها ؛ كانت الأبصار إبان الصعود شاخصة إلى السماء ، وهى الآن منحدرة إلى الأرض تتبين مواضع القدم ؛ إنه لم يعد فى الرصيد المخزون ما يحتمل إتلافاً وإسرافاً ؛ إن شمعة الضوء قد ذهب أكثر من نصفها ، فينبغى أن يحيطوا شعلتها بالحواجز الواقية حتى لا تتعرض للأنواء والعواصف ؛ ذهب

زمان المخاطرة وجاء وقت الحذر ؟ لم يعد في طريق الحياة غيب مجهول يستحق المغامرة والمخاطرة ، فكل شيء قد وضح واتجلى عنه الدخان والقتام ، ستكون كيت وكيت بعد كذا وكذا من السنين إن طال بك أمد السنين …

والعادة — إذا كانت حياة الأمة قوية سليمة — أن يسلم الجيل الدابر مصابيحه إلى الجيل التالي عند قمة الجبل التي تفصل بين الصعود والهبوط ؛ فتظل المشاعل الهادية عند القمة العالية يتسلمها جيل بعد جيل ، فتزيدها الأجيال المتعاقبة وهجاً ونوراً ؛ وبهذا وحده يصعد الصاعدون على ضوء فلا تزل لهم قدم في شعاب المرتقى ، ويهبط الهابطون وقد خلفوا وراءهم مشاعل الطريق ، تطرح أمامهم الظلال التي تزداد طولا كلما أمعنوا في الهبوط ، فيزدادون بطول ظلالهم ثقة واطمئناناً بما صنعوا لمن جاء بعدهم في مراحل الطريق .

وإني لأستثني حياتنا السياسية وحدها ، وأسأل بعد ذلك : هل حمل جيلنا الدابر في أيديه المشاعل ليهتدي بضوئها الجيل الصاعد ، أم أن أبناء هذا الجيل الصاعد يضربون بأعناقهم عبثاً ، ويشخصون بأبصارهم سدى فلا يجدون أمامهم إلا ظلاماً يتخبطون فيه على غير هدى ؟ — بعبارة أخرى : هل رسم الجيل الدابر لخلفه المثل العليا التي يترسمها في شتى جوانب حياته ؟ وقد استثنيت الحياة السياسية ، لا لأني راض عنها كل الرضا ، بل لأن رجال السياسة — إلى جانب نقائصهم الفادحة وعيوبهم البشعة — قد رسموا المثل الذي ترسمه : وهو أن نعمل في سبيل تحرير أنفسنا من الغاصب ، وها نحن أولاء ماضون فيما دعونا إليه ؛ وكأنما ينظر شبابنا فلا يرون أمامهم أفكاراً تنتظر التحقيق ، إلا الأفكار التي يدعوهم الساسة إليها ، فينصرفون بكل جهدهم نحو هذه الغاية وحدها ؛ ولا عجب ، فلم يقم غير رجال السياسة بوضع غايات أخرى أمام الشباب إلى جانب تلك الغاية ؛ فيستحيل أن يلوم اللائم كله على الشباب ، إذا رأيناهم قد ذابوا في مجرى الحياة السياسية ذوباناً يختل معه توازن الحياة .

• • •

إني رجل قد أصيب في عقله بمرض اسمه « تحديد المعاني » ؛ فماذا يراد بعبارة « المثل الأعلى » ؟ لأنه من الخير — قبل المضي في حديثنا — أن نحدد في أي شيء يقوم الحديث .

المثل الأعلى فكرة يؤمن بها صاحبها وتشتد به الرغبة في تحقيقها ، لكنها رغبة تختلف عن رغبته في تحقيق راحته الشخصية ومتعته ؛ فقد تكون لدي فكرة أن يكون لي منزل أملكه في نهاية مراحل عمري لأتخذ منه مأواي الهادئ عندئذ ، وقد تشتد بي الرغبة في تحقيق هذه الفكرة ، لكنها مع ذلك لا تكون « مثلا أعلى » ؛ وقد تكون لدي فكرة أن أبلغ منصب الوزارة ، وقد تشتد بي الرغبة في تحقيق هذه الفكرة ، لكنها أيضاً لا تكون « مثلا أعلى » — لماذا ؟ لأن المثل العليا أفكار تؤمن بها وترغب في تحقيقها ، ثم يشترط فيها إلى جانب ذلك ألا تكون قاصرة على العنصر الشخصي ، بحيث تصلح أن تكون موضع اشتهاء أبناء المجتمع جميعاً ؛ « فالمثل الأعلى » فكرة مرغوب في تحقيقها ، لكنها لا تتصل بذات الراغب اتصالا يحصرها في مصلحة تلك الذات وحدها ، بل تصلح إلى جانب ذلك أن تكون هدفاً للجميع على السواء .

فإذا رغبت في أن يكون لدي ما يكفيني من الطعام ، فليس ذلك « مثلا أعلى » ، أما إذا رغبت في أن يكون لدى كل إنسان ما يكفيه من الطعام ، ثم عملت على تحقيق تلك الرغبة بأية وسيلة مؤدية ، كان ذلك « مثلا أعلى » ؛ وإذا رغبت في أن يعاملني الناس بالحسنى ، لم يكن ذلك « مثلا أعلى » ، وإنما يكون كذلك لو رغبت في أن يعامل الناس جميعاً بعضهم بعضاً بالحسنى ، ثم عملت على تحقيق هذه الرغبة ؛ وإذا رغبت في أن أكون عالما يتقصى في الطبيعة حقائقها ، فليس ذلك « بالمثل الأعلى » وإنما يكون كذلك لو رغبت في أن يكون العلم هو الأساس السائد في حياة الناس بحثاً وكشفاً ، أو عملا وتطبيقاً ؛ وإذا رغبت في أن أستمتع بنحو معين من ألوان الفن ، كائن ما كان ، عمارة أو نحتاً أو تصويراً أو موسيقى أو ضرباً من ضروب الكلام ، فليس ذلك وحده « بالمثل الأعلى » ، ولا يكون كذلك إلا إذا تمنيت لهذا اللون المعين من الجمال أن يشيع تذوقه بين الناس أجمعين .

ولا بد لي أن ألاحظ هنا ، أن الأمر كله قائم على

« الرغبة الشخصية » في نهاية الأمر . لكن هذه الرغبة الشخصية لا تكون مثلا أعلى إلا إذا جاوزت حدود صاحبها بحيث تمناها صاحبها للناس جميعاً ؛ ومن ثم تختلف « المثل العليا » في العصور المختلفة ، لاختلاف أهل تلك العصور في رغباتهم التي يسعون إلى تحقيقها تحقيقاً شاملا ؛ فيصح أن نقول عن عصرنا هذا إن الحرية الفردية من بين مثله العليا لأن هنالك من أبنائه من أرادوا لأنفسهم هذه الحرية الفردية ثم أرادوها للناس أجمعين ؛ لكن هذه الحرية الفردية لم تكن هي المثل الأعلى في كثير جداً من العصور السابقة ، حين كانت عضوية الفرد في جماعة ، وانطواءه في أسرته أو في قبيلته ، هي المثل الأعلى المنشود — ولعل هذا المثل الأعلى الذي ينشد الحرية الفردية ، هو نفسه الذي انبثق منه مثل أعلى آخر لعصرنا ، وهو أن تمحى الحواجز التي تفصل بين الأمم ، لتعيش الدنيا كلها مجتمعاً واحداً ، لأن الفرد لا يتحرر حقاً باعتباره فرداً قائماً بذاته ، إلا إذا أزيلت عن عاتقه الروابط السكانية التي تجعله تابعاً بالضرورة لهذا الوطن أو ذاك .

ثم تتغير المثل العليا من عصر إلى عصر ، فجمهورية أفلاطون كانت صورة للمثل الأعلى كما أراده للناس في حياتهم الاجتماعية . وفي رأيي أنه يستحيل على كاتب معاصر أن يتمنى للناس مثل هذا النظام ، الذي لا يعنيهم إلا بالانتصار في الحروب الخارجية ، وبتوفير الطعام في الداخل ؛ إنه مجتمع يخلو من البحث العلمي ومن الفنون ، فأين هذا المفكر اليوم الذي يرسم لنا مثلا أعلى لتحقيقه ، فيرسم لنا حياة لا علم فيها ولا فن ؟ الحقيقة أن هذه الجمهورية الأفلاطونية قد أزاغت الأبصار عن حقيقتها قروناً طويلة ، وحسبوها نموذجاً لزمانها ولغير زمانها ، ولو أصدق الله بقوة أحقق بها مشروعات كثيرة أتمنى أداءها ، فسيكون من بينها تحليل هذه الجمهورية تحليلاً يبين مواضع النقص فيها باعتبارها مثلا أعلى يصلح لزماننا ، كما يقع في وهم كثير جداً من شبابنا الذين يتاح لهم أن يلموا بطرف منها — لكن ذلك لا ينفي إمكان صلاحيتها مثلا أعلى لزمانها .

• • •

ولنا في ضوء هذا التحليل أن نسأل : هل طافت برءوس الجيل الدابر أفكار ، اشتدت بهم الرغبة في تحقيقها ، بحيث تصلح كذلك أن تكون موضع الرغبة عند الناس جميعاً ؟

هل بينهم مثلا من أخذ ينادي بفكرة في النظام الاقتصادي على نحو مفصل بحيث تحمس لها وراح ينشرها بكل وسيلة ممكنة ؟ فإذا شخص الجيل الصاعد بأبصاره ليهتدي في هذه الناحية من حياته ، ألفاه واجداً عند الجيل السابق ما يهتدي به ، بحيث يتحمس بدوره لهذا المذهب الاقتصادي أو ذاك تحمساً بصيراً مستنيراً ؟

هل بينهم من جعل ينادي بطريقة معينة في المعيشة الفردية ، يحياها هو أولاً ، وينشرها بكل وسيلة ممكنة حتى يجد الجيل المقبل نماذج يتخير منها ما يشتهي ؟ إن غاندي بطريقة عيشه كان ينشر « مثلا أعلى » لأنه تمنى لنفسه وللناس . و « سارتر » برأيه في الوجودية ينشر « مثلاً أعلى » لأنه كذلك يتمنى لنفسه وللناس ؛ ولقد تعمدت أن أضرب هذا المثل الأخير ، لأني أعلم أن كثيرين ممن يسيئون فهم وجودية سارتر ، سيقولون : أين « العلو » في هذا المثل ؟ فأجيبهم بأن أية فكرة كائنة ما كانت ، تصلح أن تكون « مثلاً أعلى » مادام صاحبها « يعيشها » ويحاول أن يشرك معه الناس فيها — والفرض هو بالطبع ألا يتمنى الإنسان لنفسه إلا ما يراه مؤدياً إلى الحياة السعيدة .

أين بيننا « المدارس » الفكرية على النحو الذي تراه في الأمم الحية ؟ ضع أمامك قائمة بعشرة من أئمة الفكر في جيلنا الدابر ، وحاول أن تستفهم شيعاً مختلفة من فلسفات أو مذاهب في طرائق العيش ، فلن تستطيع ؛ ذلك لأن تفكيرهم لم يقم على أساس المذهبية التي تصدر عن عقيدة وإيمان ، وبالتالي لم يكن لديهم « مثل عليا » بالمعنى الذي حددناه .

إننا أمة بغير مثل عليا ، إن قادة الجيل الماضي — من غير رجال السياسة — لم يمهدوا لمن يجيء بعدهم المشاعل ، لجاء هؤلاء ، وهم يتخبطون في الظلام .

زكي نجيب محمود

بين مصر وتركيا

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تركيا عدوة مصر التاريخية : هذه حقيقة يجب أن يعرفها ويؤمن بها كل مصري ، وقد أبدت تركيا الكمالية هذه الحقيقة التي لبثت تركيا العثمانية عنواناً لها مدى قرون ، لنا من مرة أثير فيها الحديث حول مطالب مصر القومية وحول استمساك مصر بجلاء المستعمر الغاصب عن قناة السويس ، إلا وأبدت الدوائر السياسية والصحف التركية معارضتها لهذه الأماني ، بحجة أن هذا الجلاء يضير قضية الدفاع عن الشرق الأوسط ، وتركيا تزعم أن لها مصلحة مباشرة في الدفاع عن القناة وعن الشرق الأوسط الذي تنتظم بين دوله ، ولكن تركيا لم تبد في نوبها الحقيق ، ولم تكشف عن نفسها المريضة ، وعن بغضها التقليدي لمصر منافستها القديمة ، بأكثر مما كشفت عنه في الآونة الأخيرة حينما وضعت يدها في يد الدول الاستعمارية ، أو بعبارة أخرى حينما جرتها الدول الاستعمارية إلى أن تمثل معها ذلك الدور الممقوت باشتراكها معها في عرض مشروعها المتعلق بالدفاع الرباعي عن الشرق الأوسط على مصر ، ومحاولتها أن يستبدل الاحتلال الانجليزي لمنطقة القناة باحتلال رباعي من أمريكا وبريطانيا وفرنسا وتركيا ! وذلك باسم الدفاع المشترك وبحجة الحرص على سلامة الشرق الأوسط ، ودعوة مصر إلى أن تشترك بنفسها في وضع هذه الأغلال الجديدة في عنقها.

وقد كنا نفهم دائماً أن تقوم بريطانيا وفرنسا الدولتان الاستعماريتان القديمتان ، وأمريكا وهي الدولة التي نزلت حديثاً إلى ميدان الاستعمار ، بتمثيل هذا الدور حرصاً على مالها من مناطق ومصالح استعمارية شاسعة في مختلف أنحاء هذا العالم ، ولكن الذي لا نفهمه ولا يمكن أن ننسيه هو أن تقحم تركيا الكمالية نفسها ، وهي التي برزت من غمر العدم بعد كفاح شاق ضد الاستعمار والمستعمرين ، في مثل هذه المحاولة المكشوفة التي يراد بها أن تحكم الأصفاد في عنق أمة تكافح من أجل استكمال استقلالها ، وتعلم تركيا ويعلم العالم كله مالها من مكانة تاريخية عريقة .

ولكن تركيا هي عدوة مصر التاريخية ، ولا يهمها أن يستمر عدوان الانجليز على مصر ، بل وقد يسرها أن تبقى مصر ، وهي « الإيالة » التركية القديمة ، بعيدة عن تحقيق أمانيها في النهوض والقوة ، وهي تنفس دائماً بما تشهده من نهوض مصر وتقدمها ، وتشعر شعوراً قوياً بأن مصر هي منافستها الوحيدة في الهيبة والنفوذ في الشرق الأوسط وفي العالم الإسلامي .

والحقيقة التي لا ريب فيها هو أن مصر لم تنكب في تاريخها الطويل الحافل بمثل ما نكبت به على يد الترك العثمانيين ! فقد فقدت مصر استقلالها التالد وامبراطوريتها العظيمة التي كانت تمتد إلى جنوبي آسيا الصغرى على يد أولئك الغزاة البرابرة في سنة ١٥١٧ م بعد أن لبثت قرونا زعيمة الإسلام والدنيا الإسلامية ، ولم تفقد مصر يومئذ عظمتها واستقلالها التالد فقط ، ولكنها كانت في ظل الحكم التركي الغاشم ، تفقد كل مقوماتها القديمة ، وكل ما كان يزدهي بها من علوم وزراعة وتجارة وصناعة ، ولولا بقية من حيوية أصيلة في الأمة المصرية استطاعت أن تحتفظ بها دائماً أيام المحنة ، لما استطاعت أن تبقى إلى اليوم من محنة الحكم التركي .

وقد خرب الترك العثمانيون مصر والعالم العربي والإسلامي ، واستصفوا كل ما فيها من ثروات مادية وأدبية ، وقضى الترك العثمانيون على الحضارة الإسلامية التي ازدهرت بمصر والشرق الإسلامي مدى قرون ، كما قضوا من قبل على الحضارة البيزنطية حينما افتتحوا قسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، ولم يستطيعوا بعد أن خربوا تراث العالم القديم أن ينشئوا خلال عهدهم الحربي الطويل أية حضارة جديدة . وقد حاول الترك أن يتشحوا بما انتزعوه من مصر والشرق

الإسلامي من أثواب زاهية نسطعت إمبراطوريتهم حيناً ولكن في أثوابها المستعارة فقط ، فلما استنفدت ما جمعت من تراث الأمم المغلوبة ، ولما أفل نجمها المستعار ، ظهرت في أثوابها الحقيقية البالية مريضة مهيضة ! ومع ذلك فإن مصر والبلاد العربية التي استشهدت على يدها قروناً لم تنسها أملم المحنة ، ولم تنس أخوة لها في الدين ، ولم تتقاعس عن مؤازرتها كلما استطاعت : في حرب البلقان ، وحرب طرابلس وحرب التحرير وغيرها وغيرها ! ولكن تركيا الكمالية ما كادت تشعر بشيء من الحياة يدب فيها حتى تنكرت للعالم العربي والإسلامي ، واعتقدت أنها بانسلاخها عن هذا العالم القديم الذي أفاض عليها أثواب مجدها السالف ، تستطيع أن تزعم أنها دولة أوربية ، وأن تشتري بخلع ثوبها الإسلامي القديم عطف أوربا النصرانية وحسن ظنها ، وزعم قادتها الجدد ، أن صفتها الإسلامية القديمة هي التي جلبت عليها محنة التعصب والقطيعة واجتماع كلمة الغرب على خصومتها ومقاومتها ! بيد أنها نسيت تلك الحقيقة التاريخية ، وهي أن فتوح تركيا وأساليبها المخربة في البلاد المفتوحة ، وقصورها عن إبداء أية مقدرة إنشائية أو أية أساليب حضرية أو إنسانية ، هي التي جمعت ضدها كلمة الغرب المتمدين ، ولم يكن للإسلام أو تعاليمه في ذلك أي دخل ، بل كان من سوء الطالع أن وقع ذلك كله في ظل صفتها الشرقية والإسلامية ، فأصيبت سمعة الإسلام بذلك على يد الدولة العثمانية بما لم تصب به إلا على يد الغزاة المخربين أمثال آتيلا وجنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك ، وهم في الواقع أسلاف الترك العثمانيين وأبناء عمومتهم في المنشأ والجنس والوطن الأصل .

وإذا كانت تركيا تسيغ اليوم لنفسها أن تقف إلى جانب الدول الاستعمارية في معارضة حقوق مصر وأمانيها المشروعة ، فإنها لا تشذ في ذلك عن السياسة المكيافيلية التي تتبعها باستمرار ، وهي سياسة الاستغلال وانتهاز الفرص التي واتت عليها ! وهل نسي أحد أنها خلال الحرب العالمية الثانية كانت تلعب على مسرحين وتتناول الأعطية من الفريقين ، وأنها لما أيقنت وتحققت من أن ألمانيا النازية قد خسرت الحرب نهائياً أعلنت عليها الحرب في أواخر سنة ١٩٤٤ ؟ وهي اليوم تجد فرصة سانحة في الانضواء تحت لواء الدول الاستعمارية التي تتزعمها أمريكا ، وتمدها أمريكا بالسلاح والقروض المجانية ، لأنها تقع بجوار روسيا فيما تعتبره أمريكا خط الدفاع الأول عن حقول البترول في الشرق الأوسط ، وبحجة الحرص على سلامة البوسفور والدردنيل ! وتركيا تلعب دورها الجديد مغتبطة بما تحصل عليه من غنائم ومزايا ، ولا تجد بأساً في أن تمالئ أمريكا والدول الاستعمارية فيما ترغبه من تمكين استعمارها حيث تريد ، ولا تجد بأساً من أن تؤازر إسرائيل وتصادقها على حساب الدول العربية ، دون النظر إلى شيء من مقتضيات الحق والعدل ومبادئ الخلق القويم .

ولكن الذي نود أن تعرفه تركيا هو أن مصر لم تجزع لموقفها ومؤازرتها للدول الاستعمارية ، فهي تعرف روح تركيا ومراميها الحقيقية . وتعلم أن قيام مصر الحرة القوية ليس من الأمور المستحبة للسياسة التركية ! ومصر تعتبر هذه الفترة الحرجة من حياتها فرصة طيبة لتمييز العدو من الصديق . وسوف تجوز مصر أزمتها قوية عزيزة بإذن الله ، وسوف ينتصر حقها على باطل الدول الاستعمارية .

محمد عبد الله عنان

ما الأدب الحي الحر ؟!.

وكيف الوصول إليه ؟

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

اهتدت الفلسفة الحديثة ، مسترشدة بالكشوف العلمية ومعتمدة على استقراء التاريخ ، وتمحيص الواقع المادي ، إلى كنه النهج الذي ينهجه عالمنا الأرضي في تطوره . وإذا استثنينا الجامدين الذين صرفهم التشبث بالقديم عن إدراك الحقائق التي تتكشف يوما بعد يوم على ضوء تقدم العلم وازدهار المعرفة ، نجد أن الرأي قد استقر على التسليم بالحقيقتين التاليتين :

الأولى : أن كل ما حوى عالمنا الأرضي من حيوان ونبات وجماد ، ومن معتقدات ونظم ومثل ، متحرك متغير متجدد لا يستقر لحظة على حال . وأن حركته قد تدق فتخفى ، وقد تبدو واضحة للعيان . وأنها تبطيء أو تسرع وفق الظروف والملابسات . وقد سبق لنا أن أفضنا في شرح هذه الحقيقة مسهبين في فصل سابق .

والحقيقة الثانية : أن التطور لا يحدث إلا لأن كل ما في الوجود ، سواء في ذلك المادي منه والمعنوي ، يشتمل على نقيضين متعارضين ؛ يحاول الأول منهما ، وهو الموجب ، أن يمنع التطور ، ويستبقي الحال على ما هي عليه . بينما يعمل الثاني ، وهو السالب ، على استهلاك مضمون تلك الحال ، وإحلال مضمون آخر محله . وقد ضرب هيجل مثلا لذلك عملية التفريخ التي تستهلك المضمون القديم وهو مضمون البيضة ، لتخرج بمضمون جديد وهو الفرخ أو الكتكوت

ومن الواضح أن التطور لا يتم بهذه الوسيلة إلا إذا سارت الأمور في مجراها الطبيعي دون أن تتدخل فيها قوة عارضة أجنبية تؤثر في التطور أو تحوله إلى وجهة أخرى ، والتطور الذي يتم على الوجه الطبيعي ديناميكي تلقائي ، أي يتم بنفسه مدفوعاً بالنقيض السالب الكامن فيه ، وإلا فهو ميكانيكي ، أي مدفوع بقوة أخرى أجنبية تدفعه إلى طريق لم يرسم له من قبل ، ويكاد التدخل الأجنبي ينحصر في سعي الإنسان للاستفادة من خيرات الطبيعة ، أو التسلط عليها وتسخيرها في سبيل تحقيق غاياته ؛ فالشجرة التي تثمر تتطور هي وثمارها تطوراً طبيعياً ، فإذا اقتلعها الإنسان لينتفع بخشبها ، فإن تطورها يصبح رهناً بمشيئة مقتلعها ..

وإذا حال ضيق المجال بيننا وبين الاسترسال في شرح نظرية التطور المركبة المتعددة الحواشي ، فإننا نرجو أن يجد القارىء في كلمتنا الوجيزة عنها ما يعينه على فهم ما نحاول بيانه في هذا المقال . فنهضتنا الأدبية المعاصرة تنطوي على النقيضين المتصارعين الكامنين في الموجودات جميعاً . ومن الواضح أن نقيض نهضتنا الموجب هو الذي يحاول استبقاءها على ما هي عليه دون أن يعتورها أي تغيير ، والنقيض الموجب هو الذي يدفعها إلى الأمام فيتم بذلك التطور .

ويخطىء من يظن أن نهضة أوربا الأدبية قوة أجنبية حولت تطورنا عن مجراه الطبيعي إلى مجرى آخر خادع له ، لأن النهضة الفكرية الأوربية وليدة التطور الإنساني العام الذي يرفع مشعله مجتمع بعد مجتمع ، وتحاول الشعوب ذات الوعي أن تستضيء به وتشترك في حمله ، ونحن لم نحاول الاسترشاد بالأدب الأوربي في سبيل النهوض بأدبنا إلا بعد أن تفتح الطريق بيننا وبين الغرب ، فتطلعنا إلى أولئك الذين ساروا شوطاً بعيداً في مضمار التقدم ، وأخذنا نهتم أول الأمر بما بهرنا من مظاهرهم الحضارية ، وطفقنا نحرس من علومهم ما يمكننا من إحاطة أنفسنا بمثل ذلك المظهر ، فشيدنا دور التعليم العالي ، ثم دور التمثيل ، ثم المنشآت الثقافية المختلفة ، واتسعت مدننا ، وتطورت طرق معيشتنا ، وتطورت معها عقليتنا . وسادت مجتمعاتنا المتقدمة في تلك السبيل معتقدات جديدة ، ومثل جديدة . فكان من الطبيعي

أن نتطلع بعد ذلك إلى أدب تلك البلاد التى اقتبسنا منها ما اقتبسنا من علوم وأفانين ؟ فالتفت إلى أوربا جاء طبيعياً ، والتطور الذى أعقب ذلك التفت طبيعى كذلك ؟ وعلى هذا تكون نهضتنا ديناميكية تلقائية ، وليست نهضات الأمم الأخرى إلا ظروفاً وملابسات تعيننا على سرعة التطور .

على أن الباحث الدقيق يستطيع أن يتبين ظاهرة اختصت بها نهضتنا المعاصرة ، هى بعد الشقة بين النقيضين اللذين تشتمل عليهما ، فالطليعة التى تحاول اللحاق بالركب الحضارى العالمى قد قطعت شوطاً واسعاً فى ذلك المضمار ، فبعدت المسافة بينها وبين النقيض الذى يحاول ما استطاع أن يتشبث بالوضع الذى ألفه ، وأسفر ذلك التباعد عن التخلخل الذى اعتور نهضتنا فلم تجد طريق التقدم سهلاً معبّداً .

وقد كان شيوخ أدبائنا المخضرمين يقومون بمهمة تمهيد الطريق ، وكانوا المرشد الوحيد الذى يستطيع أن يقود معسكر الرجعية إلى المعسكر التقدمى ، ولكن اهتمام هذين المعسكرين بهم ظل يضعف بنسبة اتساع الخلف بينهما ، أى بين المعسكرين ، ولم تلبث طليعة النهضة أن اتهمتهم بالرجعية ، وكذلك لم يلبث المعسكر الرجعى أن اتهمهم بالانحراف عن الطريق القويم ، ورجع تقلص سلطانهم إلى انقطاع الصلة بينهم وبين الواقع . فقد وقفوا لم يسايروا الزمن الذى بدل فى نظرهم وجه الحياة فأنكروه ، واعتادت أقلامهم فى العهد الأخير أن تخوض فى مباحثات جدلية لا تستهدف إلا إظهار البراعة المنطقية المجردة ، أو أن تعبر عن عواطفهم الخاصة ، وخواطرهم التى تعن لهم أثناء تأملاتهم فى أوقات الفراغ ؛ فهم يفتقرون إلى الوعى السليم لما يدور حولهم ، وما يجد من معتقدات ، ومن اتجاهات فكرية وعاطفية ؛ فإذا استطاعوا أن يتنبهوا لهذا ، سهل عليهم أن يرسموا طريق التطور فيعينوا النقيض المتأخر على سلوكه ، ويجنبوا الفريق المتقدم على الإسراع فى الخطى ، ويصبحوا عاملاً فعالاً فى نهضتنا المعاصرة .

وإذا أنكر علينا منكر صحة مانقول ، فإننا نستشهد بكاتب برّز على غيره من كتابنا المرموقين ، باتباعه الطريق القويم الذى نقول به . ذلك هو طه حسين الذى لم يدفع قلمه إلى خوض معترك التطور إلا بعد أن خاض ذلك المعترك بنفسه ؛ فنظرة إلى حياته التى صورها لنا فى كتابه « الأيام » تدل على أن تلك الحياة كانت صورة مصغرة لحياة الأمة المصرية فى العهد الأخير .. اشتملت حياة ذلك الأديب الكبير على نقيضين اشتبكا فى معركة حامية الأوار ، انتهت بتغلب النقيض المتقدم على النقيض المتشبث بالقديم ، ودفعت صاحبها إلى مركز الصدارة من الطليعة الناهضة ، ولم يخف على صاحب هذه الحياة الفذة أن يصورها بقلمه المبدع ليرى قراؤه طريق التطور السريع واضحة المعالم أمامهم ، فيشجعهم ذلك على سلوكها ؛ لقد تعاونت حياته مع آياته الفنية على حفز هذه الأمة إلى الأمام ، لا بالوعظ الأجوف ، أو باللفظ الطنان الذى يرمى إلى إشعال الحمية المصطنعة ، ولكن بدفع النقيض المتقدم إلى الأمام ، وبالتعبير عن الحياة الحية المتطورة تعبيراً يتغلغل إلى الصدور ، ويسرى فى الدماء ، فيدفع الركب الحضارى إلى الأمام ؛ وإننا لم نعد ندرى أمنيتنا أن يعود ذلك الزعيم الأدبى إلى تناول القلم سريعاً ليواصل المهمة التى لم يستطع غيره أن يسد الفراغ فيضطلع بها من بعده ، أم أن يبقى شاغلاً لمركزه الخطير حتى يستطيع بمواصلة جهوده التعليمية أن يتم تبديد غشاوة الجهل التى رانت على عقول شعبنا الذى عانى ربقتها آماداً طوالاً ..

ونعود إلى مناقشة رأى الذين لا يزالون يتشبثون بضرورة ابتعاد الأدب عن معترك الحياة ، واقتصاره على اصطياد الصور الجميلة وتسجيلها . يقول هؤلاء إن الأديب الذى ينزل إلى ميدان الحياة ليعبر بقلمه عما يدور فيها من أحداث يخلط بين مهمة الأدب ومهمة الصحافة . فعلى الأدب فى حالة اهتمامه بحياة الناس أن يعالج مشكلاتها العليا ، ثم يترك مشكلاتها اليومية للصحافة . ويبدو أن الذين يقولون بهذا الرأى قد غفلوا عن حقيقة لا يحتاج ظهورها إلى تفكير طويل . وهى أن المشاكل العليا التى يتحدثون عنها لا وجود لها . إذ مشاكل الإنسانية هى المشاكل الواقعية التى تحدث كل يوم ، وهى دائمة التغير والتبدل ، ومهمة الصحافة أن تسجلها تسجيلاً حرفياً أو فوتوغرافياً . أما الأديب الموهوب فهو الذى يستطيع أن يختار من تلك الأحداث اليومية

ما يحل في الاتجاه الفكري المعاصر ، ومدى تقدمه .. وأهمية الأديب تظهر في إدراكه المغزى العام الذي تشتمل عليه الواقعة التي اختارها موضوعاً لكتابته ، وفي قدرته على التعبير عن ذلك المغزى بأسلوب فني جميل حيّ غير مشوب بالحذلقة والصنعة والادعاء .

وقد يقال إن خواطر الأديب وخوالجه ليست إلا خوالج طبقته وخواطرها ؛ فهو إذا عبر بصدق عما في نفسه فلا يعبر إلا عن طبقته . ونحن لا ننكر وجاهة هذا القول ، ولكنه يصدق على الأديب الجامد الضيق الأفق ، لأن الإنسان ابن جيله قبل أن يكون ابن بيئته أو ابن طبقته . وهو إذا اتسع وعيه ، ورق حسه ، لم تستطع بيئته أن تصرفه عن الاهتمام بسواد أمته ، فإذا ازداد اتساع وعيه ودقة إحساسه ، تجاوز اهتمامه نطاق أمته وامتد إلى الإنسانية جمعاء . وهو إذا ارتبط ببيئته جمد ، ولم يستطع مسايرة ركب التقدم . أما إذا حطم تلك القيود فهو قمين بأن يخلق الأدب الإنساني الحيّ المتجدد .

إن الأدب الذي يعبر عن انفعال صاحبه لأسباب خاصة به ، أو يسجل خواطر صاحبه المنطوي على نفسه في عزلته ، ولا يكون لتلك الخواطر أو ذلك الانفعال مغزى عام أو سبب عام ، إن مثل هذا الأدب فرديّ لا تتجاوز قيمته قيمة قائله وهو فرد من الناس ، منفصل عن المجموع ، يتهدده الفناء من كل جانب معها عز جانبه وسمت مكانته . ولا يهم أن يتحلى ذلك الأدب بجدوة اللفظ وطرافة المعنى ، وأن يقبل عليه أفراد مرت بهم تجارب خاصة شبيهة بتجارب قائله ؛ ذلك لأن الشعوب بدأت تستيقظ ، وهي لن تسمح بعد اليوم لأدب بالخلود إلا إذا شاركها صاحبه في أحزانها وأفراحها .

أما الأدب الذي ينفعل صاحبه بانفعال أمته ، ويشاركها في اتجاهاتها الفكرية ، ويعمل على تحقيق تقدمها ، فهو أدب يضاهي في قوته وعمقه وقيمته قوة أمة بأسرها وعمقها وقيمتها ، وهو خالد لأنه متصل بحياة تلك الأمة ، والأمم لا تموت .

أنا لست إلا غرس مجتمعي
فغــذاءي منــه وتفكيري

إن خلت فيض الفضل من بدعي
فهــو الغرور أضلّ تقديري

●●●

في عزلتي أنا حائر مائر   تنتابني أوهامٌ مخمور
في عزلتي أنا بائس خائر   متعثر في قيد مقدوري

●●●

لكنني إن عفت أوهامي
وخـــرجت من ذاتي إلى الخلق
فتبينت بارعي وآلامي   في الحرب بين الظلم والحق

●●●

وإذا حطمت قيــود أطماعي
وخــرجت من ذاتي إلى الناس
كابدت من منع وأوجاع   ما كابدوا .. فأملح إحساسي

●●●

أنا في سبيلك أيها الشعب   أعرضت عن لهوي وعن متعي
أنا بين جمعك مارد صعب   أنا قوة في بحر مجتمعي

●●●

فإذا انفصـــلت أمضى يأسي
وغدوت وحـــدي قطرة صغرى
وإذا اتصلت بسائر الناس   أصبحت في مجموعهم بحرا

●●●

أنا قطرة إن عفت مجتمعي   أنا قطرة معها تسامت
أفنى ويفنى ما اختلفت معي   ويموت ما قدست إن مت

●●●

لكنني إن عشت للناس   وطويت أفراحي وآلامي
فمبادئي المثلى وإحساسي   ستعيش بعدي بين أقوامي

●●●

سأعيش بين الصحب والشيع   سأعيش في مثلي وأفكاري
سأظل إن شاركت مجتمعي   حياً وإن أفنيت أعماري

●●●

جسمي وفكري خالدان به   إن عشت جزء أمته موصولا
وأنا هباء فوق غاربه   ما دمت فرداً عنه مفصولا

محمد مفيد الشوباشي

قصص من الصحراء

للأستاذ الدمرداش محمد بك

كان دليلنا قاطع طريق :

هذا الرجل الأعور الذي يرى في ظلام الليل بعينه الوحيدة مثلما يرى الإنسان بكلتا عينيه في ضوء النهار ، ذو الوجه الصغير المجدور والجسم النحيل والقامة القصيرة . إذا رأيته تزدريه لحقارة منظره وضآلة هيئته ، ولكنك إذا جالسته استهواك بعذوبة حديثه وفصاحة بيانه وحدة ذكائه وحلاوة شمائله ورقة عواطفه ، ثم لا تلبث أن تصير له صديقاً يشعرك في جميع الظروف والأحوال بصدق إخلاصه وجميل وفائه .

لهذا الرجل قصة :

كان في شبابه قاطع طريق لا يرحم ، ثم تاب وطلب العلم بالأزهر ، ثم عاكسته الأقدار فتحول إلى التجارة وفتح حانوتاً للعطارة . ثم تزوج وأصبح رب أسرة ووالداً لفتاة جميلة . ثم كان لحقبة طويلة جليسنا الحبيب ودليلنا في المنزل والصحراء والجبل ثم اعتزل الناس والدنيا جميعاً .

رأيته لأول مرة في إحدى ليالي شهر يناير سنة ١٩٠٨ بمنزل عائلة رشيد بشارع الحجر بالدرب الأحمر حينما قدّمه لنا عبد الله بك كبير الأسرة وهو يقول : الشيخ محمد دليلنا في الرحلة إلى « بئر جندلي » (1) قال ذلك بزهو وإعجاب إطراء للرجل وتعريفاً بمكانته . وغادرنا القاهرة في نفس الليلة ووصلنا بئر جندلي بعد يومين ووافق اليوم الثالث من رحلتنا أول أيام العيد فنحرنا غزالة وقضينا اليوم في الوادي نلعب ونتسابق ونمرح ونمزح كأننا الأطفال الصغار ، وبعد الغداء جلسنا إلى الشيخ محمد كعادتنا في كل يوم ، وكان قد أسند ظهره إلى حجر كبير ، واسترخى بجسمه على الأرض ، وعقد يديه على رأسه ، وأسدل جفنه على عينه ، وشرع يحدثنا فقال : في مثل هذه الأيام من خمس وعشرين سنة كنت شاباً شقياً أجوب الصحراء من أقصاها إلى أقصاها أعيث فيها فساداً لا أستقر على حال ، وفي مرة نزلت السويس وقت موسم الحج للنشل والسرقة فاحتككت بشيخ مغربي يحمل خرجين كبيرين ينوء بثقلهما فظن أني أسدي إليه المعونة فمد يده إلى رأسي ودعا لي بالهداية ودعاني لمرافقته إلى الحجاز ، وقد كان . فأديت الفريضة واستقبلت الكعبة وبصوت عميق خلته يخرج من كل جوانحي دعوت الله أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر . فاستجاب الله دعائي ، وعدت من الحج صالحاً طاهر القلب شديد الإيمان ، والتحقت بالأزهر . فمكثت فيه خمسة عشر عاماً إلى أن قطعت عني الجراية في عهد الشيخ محمد عبده ، فتحولت إلى التجارة ، وشغلت بعرض الدنيا ، ولكني — وقد ناهزت الخمسين — لا زلت شديد الحنين إلى الجبل ، فأخرج إليه كلما سنحت الفرصة فأقضي فيه أياماً قريباً من الله بعيداً عن هرج المدينة وكدرها ثم أعود ، وقد تطهرت نفسي ، وهدأ عقلي ، واستراح جسمي . ثم إنه على غير انتظار أمسك عن الكلام وترقرقت دمعة في عينه ، وتحول ببصره عنا وأطرق برأسه ثم أطبق عينه ونام .

لقد توطدت صلتي بالشيخ محمد بعد هذه الرحلة فكنت أزوره أحياناً بحانوته المتواضع بشارع باب الوزير ، كما كان يأتي لزيارتي بالمنزل في بعض أيام الجمع ، وغبت بعد ذلك عن القاهرة سنتين ، فلما عدت ذهبت لزيارته كالمعتاد ، فوجدت حانوته مغلقاً ، وعلمت من أحد أصدقائه بأنه قد اعتزل العالم إثر وفاة ابنته الوحيدة . فهجر القاهرة ، ورحل إلى الجبل هائماً على وجهه ، تاركاً أثاث منزله وتجارته وكل ما ملكت يداه من غير أن يوصي به لأحد .

ثم علمت بعد ذلك بأن الرجل بعد أن كفّ بصره ، وثقل سمعه ، وانهد كيان جسمه ، عاد إلى الحضر فاستقر في عشة حقيرة على حدود الصحراء بالقرب من بلدة السكريات

(١) بئر جندلي بوادي جندلي بالصحراء الشرقية في الشرق من حلوان وعلى بعد ٥٠ كيلو متراً منها .

حيث يقضي أيامه متعبداً لا يكلم أحداً ولا يستقبل أحداً ولا يزور ولا يزار .

وهكذا انتهى المطاف بالشيخ محمد — مسكين إنه كان يخشى هذا المصير .

ضيفتنا أفعى :

في عصر أحد أيام شهر أبريل سنة ١٩٣٠ كنا نجتاز وادي « بلي » بالصحراء الشرقية في طريقنا إلى مناجم الحجر السماقي الإمبراطوري[1] بوادي جبل الدخان بالقرب من البحر الأحمر ، وقد حدث بعد أن عبرنا منطقة السعود الجرانيتية وقطعنا نحو عشرة كيلو مترات أن تعطلت إحدى سيارتينا لعطب أصابها ، فتوقفنا لإصلاحها ، وأمضينا في ذلك وقتاً طويلاً ثم دهمنا الظلام ، واختلطت معالم الطريق ، ففضلنا أن نبيت في الوادي ، فانتحينا جانباً وراء إحدى التبات ، ونصبنا خيامنا ، وكانت ثلاثاً من النوع الصغير الذي لا يتسع لأكثر من شخصين معاً ، وانفرد أحدنا في خيمة وحده ، وبعد العشاء أوينا إلى الخيام ونمنا ، وعند شروق الشمس في اليوم التالي استيقظنا جميعاً ماعدا رفيقنا الذي استقل وحده بالخيمة ، فذهب أحدنا لإيقاظه ولكنه لم يكد يزيح باب الخيمة ويطل داخلها حتى بادره النائم بإشارة فهم منها بأن أفعى كبيرة ترقد في الفراش بجانبه ، ورأسها في صدره ، فارتد إلينا رفيقنا وهو مرتاع يروي لنا الخبر . فتولانا هلع شديد ، وتراكضنا إلى الخيمة . ووقفنا حولها ، ونحن في حيرة لاندري ماذا نفعل لانتشال صاحبنا من هذه الورطة — كانت لحظة رهيبة كاد يضيع فيها صوابنا . ولكن تداركتنا رحمة الله — في الوقت المناسب — فمر بنا في هذه الأونة أعرابي من سكان المنطقة ، فاستوقفناه ، وأحطناه علماً بما نحن فيه ، فطيب خاطرنا ، وأشار علينا بالتزام الهدوء وبالانتظار حتى تملأ الشمس فضاء الوادي ، ثم تسلل بحذر إلى الخيمة ورفعها برفق فظهر صاحبنا من تحتها راقداً على جنبه تحت غطائه ووجهه متجه نحو الأفعى جامد لا يتحرك له جفن وجسمه ساكن لا تختلج فيه عضلة ، ووقفنا في سكون حوله ، ونحن في أشد حالات الوجدة . وقد جفت حلوقنا ، وزاغت أبصارنا ، ننتظر بإشفاق وقلق ما يجيء به القدر . ومر الوقت بطيء شديد ، ثم امتدت أشعة الشمس إلى فراش صاحبنا ، وسطعت عليه ، فبان وجهه مصفراً كوجه الموتى ، فاشتد بنا الجزع وكاد صبرنا أن ينفد ، وهم بعضنا أن ينقض على الفراش لاستخلاصه منه ، ولو تعرض لعض الأفعى ، ثم شاع الدفء في الوادي فتحركت الأفعى وأطلت برأسها من تحت الفراش ، فصاح الأعرابي : « أبشروا ياقوم لا تخافوا إنه أبو السيور ثعبان وديع لا يؤذي » .

كان وقع هذه البشرى في نفوسنا عجيباً غريباً فتملكتنا حالة عصبية مفاجئة لم أشهد لها مثيلاً من قبل ، مع كثرة ماتعرضت له من مفاجآت في الصحراء ! فأحدنا تصلب جسمه وانعقد لسانه ، يحاول الكلام أو المشي ولا يقدر ، وآخر أخذ يضرب رأسه بيديه ، ويرفس الأرض برجليه ، وهو يهذي ويقهقه ، وثالث ارتمى بطوله على الأرض وأخذ يبكي وينتحب ، ورابع اندفع يجري هنا وهناك من غير قصد ، وهو يتمتم : الحمد لله ! الحمد لله !

وفي هذه الأثناء كانت الأفعى قد تخلصت من طيات الفراش ، وخرجت تسعى لحال سبيلها ، ولم تكد تبتعد إلا قليلا حتى انحنينا بلهفة على صاحبنا نتعرف حاله ، ونحن لا نصدق بسلامته ، وتولى بعضنا إنهاضه ، وتولى البعض الآخر تدليك جسمه وإسعافه ببعض المنعشات ، حتى أفاق ، فوجدناه بخير ، لا يشتكي إلا ألماً خفيفاً وضعفاً . وما إن جاء وقت الظهر حتى كان قد استرد عافيته ، ونهض معنا ، لنتابع السير إلى جبل الدخان .

أفعوض معركة :

هكذا بدا لي هذا الحادث في ظلام تلك الليلة . وهكذا تخيلته وقتئذ بخيال شاب في ميعة الصبا . وهكذا حفظته الذاكرة طيلة هذه المدة في هالة مثيرة من الاعتزاز والفخار ، وهكذا أرويه اليوم لقراء الثقافة بعد أن انقضى على حدوثه أربعة وأربعون عاماً .

خرجنا في صباح ذلك اليوم البعيد من القاهرة في قافلة يتقدمنا الدليل ، وتتبعنا الجمال ، حاملة الزاد والخيام ، قاصدين جبل القطامية[1] ، لصيد الأرنب والغزال ، وبعد

(١) نوع من حجر الجرانيت الأحمر .

(١) يقع جبل القطامية على بعد ٦٥ كيلو متراً من حلوان جهة الشرق .

سير حثيث دام يومين ، نزلنا عند الغروب في واد لنبيت فيه

كان البرد في تلك الليلة شديداً ، فأوينا إلى مضاجعنا مبكرين ، وأشعلنا ناراً كبيرة لنصطلي . وفي أول الليل اكفهر الجو ، وعصفت الريح ، وأبرقت السماء وأرعدت ، وانهمر مطر غزير ، ثم فاض الوادي بسيل جارف عنيف ، فكان المشهد رائعاً ، ثم انقشعت السحب ، وصفت السماء ، وأضاء الوادي بنور القمر ، ثم استغرقنا في نوم عميق . وقبل الفجر بقليل استيقظت على صوت حركة غير عادية بمعسكرنا . فوجدت الجماعة يتقلدون السلاح ، وعلامات الاهتمام بادية على وجوههم ، وأبصرت الدليل ينزل إلى وهدة ، ويقف وراء صخرة ، ويتجه ببصره نحو قاع الوادي ، ثم يتبعه أحدنا ويهمس في أذنه بكلمات ويختفي هو الآخر وراء حجر كبير ، ثم يصدر الأمر فنتفرق على الصخور المجاورة ونتخذها متاريس نكمن وراءها ، وننصب بنادقها على جوانبها ، ثم نرى شبحين ، ومعهما بعير ، يهبطان به إلى الوادي ثم يزحفان نحو مربط جمال القافلة ملتزمين جانب الجبل .

وبعد دقائق من الصمت الرهيب صاح الدليل « ها » أ كنوا لا تطلقوا النار ، ثم إنه أطلق عياراً في الهواء ، فبرز الرجلان إلى عرض الوادي واندفعا عدواً نحو الجبال ، فصاح الدليل : جماعة ! أطلقوا النار في الهواء ، فدوى في سكون الليل صوت البنادق ثم زمجرة المدافع ، فدهش الرجلان لهذه المباغتة ، ووقفا مكتوفي اليدين علامة التسليم ، فانتقل إليهما الدليل وتبعناه واستوضحهما الأمر فقالا : إنا قادمان من الرج قاصدين وادي المجيل على البحر الأحمر في أمر مستعجل ، وفي المساء كنا نجتاز اليحموم ، فشاهدنا ناركم فعرجنا عليكم لنستدفئ ، وما قصدنا بكم سوءاً ، ولكنها مداعبة على عادة البدو .

وبعد أخذ ورد أمّن الدليل على قولهما ، فانصرفا بسلام وقد تنفس الصبح ولاح .

الدمرداش محمد

يا مصر ..!

خفقت لموقفكِ القلوبُ ومضت تؤيدكِ الشعوبُ
وارتاعَ منكِ منـاوئٌ وارتاع مُهتضَمٌ حريب
وسرتْ بأدنيةِ والحليـفة دهشةٌ وسرى وجيب
يامصرُ ! والأحداث قد أجيال مُمتَحَنٌ رهيب
وعواقب الأحـداث منتـصر بهـا الشعب النجيب
فلئن وعا ليـل الكفا ح فجره الآتي قشيب
أوضاقَ يومُكِ بالحـوا دثِ جمة فغدٌ رحيب
ولئن طغى (مستعمرٌ) فلأن مصرعَهُ قريبُ !

●●●

يامصر ، لاتهني وإنْ نزلت بساحتك الخطوب
ودهتْكِ من غدر (الحليـفة) أمسِ داهيةٌ قطوب
وسقى صعيدكِ من شبيبتـك الأباةِ دمٌ صبيب
وتضرجت رصف الشوا رع من قنالك والدروب
وطغى أزيز (القاذفات) مـدوياً ، وطغى اللهيب
وتساقط المتظـاهرو ن وضجت بهم القلوب
من كل محمود الخصـال كأنه الغصن الرطيب
فدمُ الضحايا لايضيع ، وكم تضـوّع منه طيب !
ومفاخر التـاريخ يمليهـا المناضل ، لا الخطيب !
والحق يدركه الدم المسفوك ، لا الدمع السكيب !!

●●●

يامصـر ، ذا شعب (العراق) وإنه شعبٌ حريبُ
هذا شقيقك الذي يجري عليك وماينوب
عاني من الأهـوال ما يُصمي القلوبَ وما يُشيب
أودى بحرمته وعـز ة رأيهِ البطرُ الكذوب
وطغى به (الإرهاب) حـين تغطرس الباغي المريب
وأتى على حـرم (الكرامة) فيه ظالمٌ لايتوب
وجنت على (الدستور) كف سوف تقطعها الذنوب !!

●●●

يامصر تزدحم الخطوبُ ومصائبُ الدنيا ضروب
وطريق كل منـاضل وعر ، ومسلكه عصيب
لكن ما يأسـو الجراحَ ويسـتريح به الأديب
أن الطغاةَ وإن جنت تفنى ، ولا تفنى الشعوب !

[بغداد]

علي جليل الوردي

أفلاطون والشعر والشعراء

للأستاذ على أدهم

أفلاطون من الفلاسفة القلائل الذين انعقد الإجماع على قوة شاعريتهم وسمو ملكاتهم الأدبية ، وقد اتفقت في ذلك آراء الفلاسفة والشعراء ونقاد الأدب ، ولا أعرف أن أفلاطون قد قرض الشعر مثل الفيلسوف المعاصر سانتايانا أو مثل الفيلسوف الروماني لوكريتاس ، وإنما تجلت شاعرية أفلاطون في محاوراته المشهورة ، فهذه المحاورات لا تمتاز بالتفكير الصارم والمنطق المتماسك وحدهما ، وإنما تمتاز كذلك بجمال الأسلوب ، وحسن اختيار الألفاظ ، والاستطرادات الشائقة ، والفكاهة اللاذعة ، والتشبيهات الرائعة ، والاستعارات والمجازات والأساطير والخرافات التي لا يجمعها ويؤلف بين شواردها سوى مخيلة شاعر قوى الحس وثاب الخيال .

وكان المنظور والمأمول أن يكون هذا الفيلسوف العظيم الذي أوتى الملكات الأدبية الممتازة ورزق الحس الدقيق والخيال النشط والذي كان واسع الاطلاع على الشعر كثير الاعتماد عليه في توضيح أفكاره وترصيع كلامه ، كان المنظور أن يكون عظيم التقدير للشعراء ، جم العطف عليهم ، والبر بهم ، عاملاً على التنويه بهم ، والإشادة بفضلهم ، ولكن الظاهر أن لكل شيء آفة من جنسه ، فأفلاطون الذي كان من أوفر الفلاسفة شاعرية كان أشدهم وطأة على الشعراء ، وأقساهم حملة عليهم ، وقد بلغ به الأمر إلى حد إخراجهم من جمهوريته صوناً لها من الفساد وإشفاقاً عليها ورعاية لها .

وحماسة أفلاطون في الدفاع عما اعتقد أنه الحق جعلته لا يرى بأساً في التنكر لأصدقائه الشعراء وانتقاص الشعر ، على إعجابه به وحبه له ، وكأنه في حملته على الشعر والشعراء قد جمع من نفسه ضحية ، وضحى بجزء من كيانه على مذبح الفلسفة ، ولم يستطع في جمهوريته أن يغالب الاعتراف بحبه للشعر ، وكأنه بهذا الاعتراف كان يحاول التكفير عن هذه الخطيئة ، فيقول على لسان سقراط « يجب أن أصرح بفكرى رغماً عن احترامي هوميروس الذي أحببه ، منذ حداثتي ، أمير ناظمي المآسي والرائي الأعظم ، على أنه من الخطأ تضحية الحقيقة إكراماً للإنسان ، لذلك يجب أن أقول قولى[١] » .

فما هو الباعث على هذه الحملة الشعواء ، والسر في هذا الانقلاب الشديد على الشعر والشعراء الذي آلم الشعراء والفنانين ، لأنه من رجل لا يمكن أن يرمى بفتور العاطفة أوضعف الشعور الجمالي أو سطحية التفكير وتفاهته ، ولا أن يوصف بمجرد حب الشذوذ والخروج على الإجماع ومخالفة ما تواضع عليه الناس ؟ .

كان الشعراء الذين سبقوا عهد أفلاطون يزعمون أن الشعراء يوحى إليهم ، وأن الآلهة هي التي تلهمهم الأفكار الناضجة ، وتلقنهم الحكمة وفصل الخطاب ، وكان دليلهم على ذلك ما تتضمنه أشعارهم أو أغانيهم من الحق والصدق والأفكار النيرة والخواطر المشرقة ؛ وقد تناول أفلاطون نفسه هذا الموضوع في إحدى محاوراته المشهورة ، وهي المحاورة المسماة « إيون » فقال في خلالها على لسان سقراط « كل الشعراء المجيدين سواء كانوا ينظمون الشعر الغنائي أو الشعر القصصي يقرضون أشعارهم الجيدة لأنهم ملهمون ومستولى عليهم لا بالفن » .

ولكن مثل هذه الفكرة لا تستهوى مفكراً مثل أفلاطون ، ويكاد الإنسان يلمح خلال هذه المحاورة التي اختص بها أفلاطون هذا الموضوع سخريته الخفية من تلك النشوة التي تستولى على الشعراء فتذهل عقولهم ، وتميع تفكيرهم ، وتجعلهم ألسنة معبرة عن هذا الإلهام ؛ فأفلاطون يؤمن بالعقل في صفائه ونقاوته وبراءته من تأثير الحواس وأخطائها اللاحقة ، والمعرفة التي لا تجيء عن هذا الطريق معرفة مضللة مشوبة بالأوهام ، فوحى الشعراء لا يلائم فلسفته وآراء الشعراء لا توافق نزوعه للأخلاق .

---

(١) جمهورية أفلاطون (ترجمة الأستاذ حنا خباز) . صفحة ٢٩٣

وفى عصره كان تقدير الشعراء قائماً على أنهم يعلمون الشعب ويهذبونه ، وكما كان الشاعر شاعراً مجيداً كان كذلك معلماً قديراً ، وقد كان هوميروس عندهم أعظم الشعراء ، فهو لابد أن يكون أعظم المعلمين ، ونرى من ذلك أن النظر إلى الشعر من الناحية الأخلاقية والوجهة التعليمية التربوية كان هو النزعة الغالبة على عصر أفلاطون .

ولم يسأل أفلاطون نفسه هل هذا هو التقدير الصادق للشعر ووظيفته ، وإنما اكتفى بأن يبحث هل هذا التقدير للشعر نافع للفضيلة والأخلاق أو ضار بهما ، وهذه هى الناحية التى تناول منها الموضوع فى جمهوريته ، وأوقف الجزء العاشر منها على تناوله وتفصيل رأيه فيه ، وقد وضع أفلاطون كتاب الجمهورية ليوضح فيه مثله الأعلى للدولة من ناحية ومثله الأعلى للفرد من ناحية أخرى ، وحاول إخضاع كل شىء بما فى ذلك الفنون والآداب لخدمة المجتمع والفرد من الناحية الأخلاقية ، وحاول أن يزيل من طريق الدولة والفرد كل ما يعترض تحقيق المثل الأعلى للدولة والفرد ، ويقيم فى سبيله العقبات والحواجز .

فهو من أول الأمر قد نظر إلى الموضوع من الناحية الاجتماعية ، وأظهر أنه لا يحفل بالفنون والآداب إلا من ناحية تأثيرها الحسن فى تكوين حياة المواطن الصالح ، فجودة الشعر وإتقانه وبراعته لا تشفع له إذا رأى الحكام منعه من الإذاعة والانتشار وتحريمه لأنه يسىء إلى كيان الدولة ويهبط بمستوى أخلاق الفرد .

لذلك لم يحجم أفلاطون عن مهاجمة هوميروس وهسيود ومن إليهما من الشعراء اليونانيين الذين ساروا فى آثارهم ونهجوا نهجهم ، وكيف يسمح الحكام بتمثيل الآلهة تمثيلاً سيئاً وإظهارهم فى مظهر الحريصين على الانتقام والذين غلبتهم الشهوات على أمرهم ، أو فى صورة الأشخاص الغلاظ القلوب الذين يسفكون الدماء ويستحلون الحرمات ويحارب بعضهم بعضاً لأتفه الأسباب ؟ وكيف يسمح الحكام لهؤلاء الشعراء بأن يصفوا الله وهو مصدر الخير والنعم بأنه موجد الشر ؟ وكيف تترك للشعراء حرية إظهار الآلهة فى صور مختلفة والتحدث عنهم بالباطل والافتراء عليهم والحط من أقدارهم ؟ ولا يليق كذلك بالشعراء أن يتحدثوا عن الأبطال أمثال أخيل وبريام بما يكشف ضعفهم ويظهرهم فى صورة من استبد به الحزن أو من تملكه الغضب وحب الانتقام .

فهوميروس وهسيود متهمان إذاً بأنهما يفسدان الأخلاق ، وشعراء المأساة وشعراء الملهاة يؤخذ عليهما كذلك أنهما ينقلان أشياء غير جديرة بالتقليد ، فلا مكان لهم جميعاً فى جمهورية أفلاطون ودولته المثالية ، ولا مانع من أن نكرمهم ونمدحهم ونضع على رؤوسهم أكاليل الغار ، ولكن ليكن ذلك كله فى ناحية بعيدة عن الجمهورية التى يجب أن لا يدنسها حضورهم ، وهكذا نجد أن أفلاطون قد وقف فى صف بعض المتشددين من العباد والزاهدين الذين يرون فى الفنون والآداب ما يغرى بالفساد ، ويهيج الشهوات ويحرك ميول الشر الجامحة ، ونزوات النفس الساكنة .

ولكن أفلاطون لا يقف عند هذا الحد ، فهو قد انتقص الشعر من وجهة نظر الأخلاق المتشدد ، أما من وجهة النظر الفلسفية فهو يرفض الشعر لأنه فى رأيه قائم على الباطل ، وأفراد جمهوريته ينشدون المثل الأعلى الأخلاق فى سلوكهم ويطلبون الحق فى تفكيرهم ، فما حاجتهم إلى الفنون للرغبة فى الباطل ؟ .

والفنان عند أفلاطون موكل بالمظهر ، بل الأمر أدهى وأمر من ذلك ، لأن الفنان فى الواقع موكل بمظهر المظهر ، فهو يتناول الدنيا التى نعرفها عن طريق حواسنا ، دنيا المظاهر العارضة المتقلبة التى تروح فيها الأشياء وتغدو وتبدو مرة صغيرة ضئيلة وأخرى تبدو ضخمة كبيرة ، وتكون مرة حلوة مستعذبة وأخرى تكون مرة مجتواة ، ولكنها فى تغير دائم ؛ على حين أن الشىء الحقيق ثابت لا يتغير وواحد لا يتعدد ، فهناك مظاهر كثيرة نصفها بأنها حمراء أو صفراء أو خضراء ، ولكن هناك لون واحد أحمر ولون واحد أصفر ولون واحد أخضر ، وهو فكرة اللون الأحمر أو الأصفر أو الأخضر الكامنة خلف المظاهر المتعددة لهذه الألوان الأصلية ، وهناك أشياء كثيرة نصفها بأنها أشياء جميلة ، ولكن الجمال المطلق واحد يدرك العقل حقيقته ، وأما ما تراه العين فإنه من صور الجمال ، وهى صور منقولة من هذا الأصل ، والفنان يقلد أمثال هذه الصور ، فهو لا ينقل من الأصل وإنما ينقل التقليد .

والكرسى الذى يصنعه النجار ليس هو حقيقة ، وإنما هو مظهر ، وذلك لأن الكرسى المثالى واحد ليس غيره ، لأنه لو تعدد لكان وراء كل صورة كرسى الكرسى المثالى المطلق ، وهذا المثالى المطلق لا يتعدد ، فالنجار إذاً يحاكى

الحقيقة ويتخذها أنموذجاً ، ومحاكاة الحقيقة مهما بلغت من الإتقان ليست الحقيقة ، فالكرسي الذي يصنعه النجار إذاً غير حقيقي ، والمصور الذي يصور هذا الكرسي إنما يصور خيال الحقيقة أو ظلها ، فصورته في الواقع هي خيال الخيال أو ظل الظل ، فهي من ثم أبعد عن الحقيقة لأنها محاكاة المحاكاة .

والشاعر مثل المصور إلا أنه يستعمل الألفاظ والأسماء والأوزان التي تستجيب لها الأذن ، كما تستجيب العين للصور ، وهو مثل المصور لا يستحضر سوى الأشباح المحكية ، والصور المرددة المكرورة ، وعمله مثل عمل المصور محاكاة المحاكاة ، وموضوعه باطل وطريقته ضلال في ضلال ، لأنه لا يستجيب للعقل ، وإنما يستجيب للعواطف أي للأهواء والنزوات ، وهو يغذي أتفه أجزاء النفس ويثيرها ويقويها ويحرك العواطف التي لا كابح لها ، والتي نخجل في حياتنا العامة من أن نطلق لها العنان ونلبي مشيئتها ؛ ومن أجل هذه الأسباب القوية لا مندوحة عن إبعاد هوميروس وهسيود من الجمهورية المثالية ، وإذا سمح فيها بتلاوة شيء من الشعر فليقتصر ذلك على القصائد الدينية التي تمجد الآلهة وتسبح بحمدها .

هذا هو موجز رأي أفلاطون عن الشعر والشعراء الذي بسطه في جمهوريته ، ومن السهل أن نلمس فيه ناحية الخطأ وجانب الضعف والانحراف ، ولكن خطأ أفلاطون مثل خطأ سائر كبار الفلاسفة والمفكرين ينطوي في ثناياه جانباً من الحق الذي قد ينفع المفكرين ويرشدهم إلى الطريق السوي ؛ فأفلاطون على حق حينا يقول : إن الشاعر أو الفنان يأتي بشيء ينقص عن الحقيقة التي يريد تمثيلها ، وأقدر الناس على التصوير لا يجيء بالصورة المطابقة للأصل تمام المطابقة ، ولكنه إن كان من ناحية يرسم صورة أقل من الحقيقة ، فهو من ناحية أخرى يضيف في صورته إلى الحقيقة شيئاً من عنده لم يكن في الأصل الذي نقل عنه ، أي أنه يخلق شيئاً ويضيف جديداً ، فهو يبث فكرته ، ويضيف إحساسه الخاص ، ويكشف لنا من إدراكه الخاص للصفات الأصلية الجوهرية ، والجوانب المميزة البارزة في الأشياء التي يتناولها ، وكأنه يحاول أن ينقي الصورة من التفصيلات التي لا لزوم لها والحواشي غير الجوهرية ليبرز لنا الفكرة في صفائها ونقائها ، وهو بذلك قد استطاع أن يسبغ على القطعة الصغيرة التي استخلصها من الدنيا صفة الوحدة والنظام والبقاء والدوام التي يكثر أفلاطون التحدث عنها .

وقد أوضح أفلاطون الخلاف بين الفن والأخلاق ، والكثيرون من مفكري العصر الحاضر لا يقرون أفلاطون على وجود هذا الخلاف . فالمذاهب الأخلاقية تهذب وتعظ ، والفن لا يحاول أن يعظ ، وإنما يحاول أن يصف الحياة كما يحسها الفنان ، ومن حقنا أن نقبل ذلك الوصف أو أن نرفضه ، وإذا أردنا أن نستخرج منه درساً فهذا عملنا نحن وليس للفنان شأن في ذلك ، فهو لا يعظ ولا ينظ ولا يبشر ! وإذا تلقفنا منه ووعظنا بآرائه وبشرنا بها فالتبعة في ذلك علينا ، وليست تبعته ، فهو قد وصف لنا رؤياه وأحلامه وأوهامه وعواطفه وأحاسيسه فلنسمها ما نشاء ، فإن هذا لا يعني الفنان . أما الفنان الذي يحاول في فنه أن يبشر بمذهب أو يدعو إلى فكرة فإنه يسمى داعية أو مصلحاً أو ما شئت من الأسماء ، ولكنه لا يسمى فناناً بالمعنى الأصيل الكامل .

ومن الأسباب التي جعلت أفلاطون يحمل على الشعراء والفنانين أن أهل عصره أصروا على أن ينظموا الشعراء في سلك المعلمين والهداة ، فلما حاول أفلاطون أن يزنهم من هذه الناحية لم ترجح بهم كفة الميزان ووجد نفسه مضطراً إلى طردهم من جمهوريته ، وقد كان تفكير أفلاطون متجهاً إلى إبعاد العقل عن عالم الحس ليتعرف إلى عالم الحقيقة ، والفنان يصل إلى عالم الحقيقة عن طريق عالم الحس ، فطريقته تخالف صميم مذهب أفلاطون الفكري ، ولا غرابة إذاً في أن يناصب أفلاطون الفنون العداء ، وقد لمح أفلاطون أن الفنان يحاول تصوير الحقيقة أو ما يسميه أفلاطون المظهر ، أي أنه يحاول تصوير الحياة وهو يعمل على أن يسرنا هذا التصوير ويمتعنا ، وهذا هو مصدر خطر الفن عند أفلاطون ، وقد لحظ أفلاطون أن المصور لا يستطيع أن يحاكي الأصل كل المحاكاة ، ولكنه لم يفكر في النواحي التي قد ترجح فيها الصورة الأصل الذي حاولت محاكاته . ومهما يكن من الأمر فإنه قد أدرك الصلة بين الفنون المختلفة ، فالشاعر الذي يقرض الشعر يقوم بمحاولة كمحاولة المصور الذي يعمل على رسم الصورة ، وكلاهما عنده يحاكي الصورة ولا ينقل من الأصل ، وكلاهما يحاول أن يمتع ويسر ويثير العواطف ويحرك الأهواء ، وقد صرفته مشكلات السياسة والأخلاق عن تسليط أشعة فكره القوي على مشكلات الفن والأدب .

علي أدهم

يد الله

[مهداة إلى صاحب « يد الإنسان » !]

للأستاذ محمد محمود عماد

لست أدرى أهى مقالة أدبية ، أم مقال علمى ، أهى صادرة عن أديب أم عن رجل عالم ، إنى أستطيع القول — مع الاعتذار للدكتور طه — بأنها مقالة أدبية ، وأستطيع القول بأنها مقال علمى ، وأستطيع القول بأنها مقالة أدبية علمية ، أو علمية أدبية ، ولكن الذى لاريب فيه أنها مكتوبة بقلم أديب ، وبروح عالم !

لاشك أنك توافقنى على تنوع الأذهان ، واختلاف المشارب ، وتباين الأذواق وتضارب العقول ؟ ولقد عرفنا هذا منذ اجتيازنا لمرحلة الثقافة العامة فى المدارس الثانوية ، عندما خيرونا بين الأقسام الثلاثة : الأدبى ، والعلمى ، والرياضى ، واضعين نصب أعيننا ما حصلنا عليه من درجات فى مختلف المواد ، عرفنا أن منا من خلقه الله بعقل رياضى يحكم على الأشياء وفقاً لمقاييسه الخاصة ، وطبيعته التى تتشكل المعايير وفقاً لها وتبعاً لطريقتها فى تذوق الأشياء ، فيرضيه ما يرضيها ، وينفر مما تنفر منه ، ومنا من خلقه الله بعقل لايطيق التفكير فيما هو رياضى أو يمت إلى الرياضة بصلة من بعيد أو قريب ، ولكنه يميل كل الميل ويرغب كل الرغبة فى أن يخوض بحار الأدب واكتشاف مجاهله والعثور على كنوزه والتفرقة بين جيده ورديئه ، وحلوه ومره ، والتجوال فى حدائقه والتطلع إلى ثماره ، وهذا إنما يحكم على الأشياء وفقاً لما تهديه إليه روحه الشاعرة وذوقه الأدبى .

فإذا عرض مشهد من مشاهد الطبيعة — مثلاً — لهذين الشخصين ، فلا ريب فى اختلاف تقدير كل منهما له ، حيث ينفرد بالنظر إليه من زاويته الخاصة ، فيستسيغه صاحب الميول الأدبية لأنه يتفق مع اتجاهه الطبيعى الذى جبله الله عليه ، فيجد فيه متنفساً لرغائبه ومسرحاً لملكاته ، وحافزاً لإظهار مواهبه الكامنة فى دخيلة نفسه ، والتى تكون فى حاجة دائماً إلى ما يثيرها ويدفعها إلى مسرح الحياة ، وحيز الوجود .

أما الآخر — صاحب الميول الرياضية أو العلمية ، إذ أنى لا أفرق بينهما — فلا عجب إذا حقر لنا ذلك المشهد الذى لم يصادف هوى فى نفسه ، مفضلاً عليه أنبوبة من أنابيب الاختبار يتصاعد منها غاز الأيدروجين أو ثانى أوكسيد الكربون ، أو نظرية هندسية يجد فى حلها لذة وفى كبح جماحها نشوة ! وأنت ياصاحب « يد الإنسان » جندى فى ميدان الأدب ، هكذا أردت أو هكذا أراد الله لك ، بدليل اتجاهك الأدبى فى التعليم ، وبدليل ما تكتبه من آثار أدبية قيمة نطالعها لك بين حين وحين ، فإذا أنت أصدرت حكمك على شىء من الأشياء فإنما تنتظر منك حكم الأديب ، لاحكم العالم أو الرياضى ، لذلك كان عجبى — ولا أقول عجبنا — شديداً عندما طالعنا لك هذا المقال الذى حملت فيه على الطبيعة التى تهيم بها كل نفس ذواقة للأدب ، لأنها إذ تنظر إليها لا « تفكر » فيما سيعود منها على « الدولة » من « نفع » وعلى « أفرادها » من « مادة » !

ليست هذه هى الزاوية التى ينظر منها الأديب إلى منظر طبيعى ، إنها زاوية « العالم » الذى يشرح هذا المنظر على مشرحة العقل ، ويحكم عليه بمقاييسه المادية الخالية من الشعور ، لأنه لايقيم وزناً للشعور ، ويخضعه لمبضع والفكر المجرد » لأنه لا يقيم وزناً للعاطفة ، ويقيسه بالمنفعة الظاهرة لأنه لايعرف معنى للإحساس الداخلى .

لا عجب إذا حقر العالم هذا المشهد لأنه لا يملك « الأدوات » التى يستعملها فى إدراك جماله ، كما أنه لا عجب فى تحقير الأديب لأنابيب الاختبار ومداخن المصانع لأنه يعوزه المجهر الذى يسلطه على هذه الأشياء فيبدو له نفعها ، وتتضح له أهميتها بالنسبة له .

لكل منهما ذوقه ، ولكل منهما حكمه على الأشياء ، فلا تنتظر منهما وحدة النظرة أو وحدة القياس .

إن مقالك صحيح — فى جملته — لو أنه صدر من أديب !

لهذا نستكره منك حتى تعلن براءتك من الأدب والأدباء وانضمامك إلى هيئة العلماء الأجلاء ! على أن هؤلاء بدورهم

يـكرونك لأنك تعوزك المؤهلات الدراسية التى تثبت انتماءك إلى « حظيرتهم » ! فلا أنت صرت عالماً ، ولا أنت بقيت أديباً ! غفر لك — ولنا — أن تطمئن بالاً مما ذكرت ، فتعود إلينا معززاً مكرماً ، فإنك لن تجد نفوساً أكرم ولا أصفى من نفوس الأدباء !

إنى أحيى فيك يا أخى نزعة التجديد فى كل ما تحاول أن تكتب ، والميل إلى الخروج من الإجماع والثورة على الأوضاع البالية ومحاولة الإتيان بالجديد ، ولكن .. حذار من الشطط ! لقد ذلت « الشجاعة » فى تقديم كتابك إلى القراء ، وفى هذه المقالة فكرة جديدة جريئة صادقة فى كثير من نواحيها . لولا أن الكاتب قد أسرف وبالغ فى الازدراء بالطبيعة ، ناسياً أن الإنسان الذى يحط من شأنه هو نفسه طبيعة » . ويذكرنى هذا القول بعبارة الأستاذ توفيق الحكيم فى كتابه « القصر المسحور » بالاشتراك مع الدكتور طه حسين — حيث يقول : « ومالى أفرق بين الطبيعة و « فينوس » كأن الانسان شىء مستقل عن الطبيعة . إنه جزء منها .. » !

لقد كان ذلك يهون قليلاً لو اقتصرت على تمجيد « يد الانسان » دون أن تلجأ إلى تحقير الطبيعة والغض من شأنها ، ولكنك آثرت هذا ، كأنما لا يتأتى تمجيد الأولى إلا بتحقير الثانية !!

لئن كان هناك معدة وأمعاء ومصران ، فهنالك أيضاً حس وشعور ووجدان ! لذلك أخطأت يا أخى فى الرد على السيدة الفرنسية التى قالت لك : إنه من منظر جميل . فبدلا من أن تشاركها الرأى أنكرت جماله ووددت لو استبدلت به مصنعاً للأدوية !! لقد كانت السيدة فى واد ، وكنت أنت فى واد آخر ، كما يقولون ! ومعذرة إذا قلت لك بأنك قد خلطت بين الأشياء ! ولو أنصفت وآثرت الدقة لأجزت قولها ثم عقبت قائلا « ولكنى كنت أفضل بجانبه أن يكون بالقرب منه — وليس بدلا منه — مصنع للأدوية » فتكون بذلك قد تمنيت لبلدك الجمع بين جمال المنظر وحسن المخبر ، وتمنيت لمواطنيك التوفيق بين « المادة » و « الشعور » وبين « الجسد » و « الروح » وكلاهما لازم للإنسان .

إنك تبدى إعجابك فى ثنايا السطور بالغرب ومصانعه وآلاته وعقلانه ؛ ولكنك نسيت أن تبدى إعجابك بالغرب وفنانيه وشعرائه وكتابه . أعجبت بمداخنه ومبانيه الكبيرة ، ولكنك لم تعجب بغاباته ومباهجه الصافية ... أعجبت بالقاطرة ولم تعجب « روميو وجولييت » ... وأعجبت بالدبابة ولم تعجب « بالبؤساء » ... وأعجبت بالطائرة ولم تعجب « بفاوست » ..

إنى لا أستطيع أن أحط من قدر الأول ، ولكنى كذلك لا أستطيع أن أحط من قدر الثانى .. فكلاهما مجتمعين كان منهما « الغرب العظيم » . إن انجلترا بإصاحى كانت تتخلى عن امبراطوريتها فى الهند ، ولا تتخلى عن شكسبيرها لو خيرت بينهما . كما جاء على لسان أحد رؤسائها .

ونأتى بعد ذلك دور النقاد فى مقالك ، فتستغرب منهم إعجابهم بالقصيدة التى جاءت نفحة موحاة بدون أن يتكلف صاحبها عملية الإخراج !

وهذه مغالطة ولا شك ، لأن القصيدة الموحاة يتكلف صاحبها فعلا عملية الإخراج ! فالنفحة هنا هى « الشعور » والإخراج هنا هو « التعبير » ولا بد من الاثنين معاً لكيما تكون هناك « قصيدة » . بعكس ما تفرضه أنت من أن وجود أحدهما يتطلب عدم وجود الآخر !

ثم نراك تستمر فى ثورتك التى لم تستطع أن تقلل من حدتها ، فتعرج على الرسم متعجباً لنكرهنا المذاهب الجديدة فيه لبعدها الكبير عما تعودناه من مشاهد الطبيعة الخارجية ، ولأننا مازلنا حتى الآن نرتاح لمشهد الشجرة والوردة والبحر والسماء ... وأنا أعجب بدورى من هذا الذى تقول ! إنى لا أكتفى فى الفن — أياً كان مظهره — بالفكرة المجردة إن الفن فى نظرى عماده الجمال ، وأنا إذ أحكم — مثلا — على لوحة فنية فإنما أحكم عليها بمقدار ما فيها من جمال .. جمال فى « الفكرة » .. وجمال فى « التعبير » . فإذا نظرنا إلى المذهب السريالى — مثلا — فى الرسم ، وهو أحد المذاهب الحديثة فيه ، نجد أنه يهتم فقط بالفكرة .. الفكرة المجردة ، مظهراً إياها فى صورة ، قد تكون لمحة ، وقد تكون منفرة ، وقد تكون معقدة ، ولكنها فى جميع الأحوال بعيدة عن « الجمال » بعد الخير عن الشر ، والفضيلة عن الرذيلة !

لقد سبق لك أن أبديت استنكارك « التجريد » فى الشعر فى صفحات الثقافة عند نقدك لديوان « عماد » فكيف تنكره فى الشعر وتجيزه فى الرسم وكلاهما مظهر من مظاهر الفن ، والتجريد ظاهرة ينطبق الحكم عليها فى فرع من فروعه ، على سائر الفروع !!

أين نحن اليـــوم

— ٣ —

للأستاذ ابن الحسن

قد تحس بعض النفوس المسلمة وغير المسلمة في داخلها بالنفور من الإسلام كلما ذكرت الدعوة إلى الإسلام . وقد يدفعها ذلك الإحساس لمحاربة الإسلام . وتجنيد القوى المادية والأدبية لمحاربته . وأخذ الداعين إليه بكل أنواع العنف والقسوة . ولذلك نرى في المجتمعات الإسلامية مآسي دامية تتفطر لها القلوب أسى وحزناً زلزلت بكل نبتة إسلامية قبل أن تؤتي ثمارها الطيبة ، بل قبل أن تشتد سوقها ! والقائمون بكبر هذه المآسي من الذين ينتسبون للإسلام ويعتقدونه ...

ويتخذ هؤلاء الذين يئدون هذه النبتات الطيبة قبل اشتداد عودها مبررات شتى يبررون بها شذوذهم وقسوتهم . ولسنا بصدد تفنيد هذه المبررات . ولكننا بصدد البحث عن علة هذه الظاهرة في مجتمعاتنا ... فما الذي يؤلب قوى الشر كلها على الجماعات الإسلامية التي تنبت في المجتمعات لإصلاحها إصلاحاً يرتكز على العقيدة التي لا يمكن لبناء الأمم والشعوب أن يقوم بدونها ؟؟

إن السبب الصحيح — على ما يبدو لي — لا يكمن في الحقد على تلك الجماعات ، وإنما هو كامن في الحقد على الإسلام نفسه متمثلاً في تلك الجماعات . والدعايات المنظمة ضد الإسلام التي تثيرها أوربا وترصد لها الأموال والرجال بكرم وسخاء ، ووسائلها الخفية التي تدسها دساً متقناً في آدابها وعلومها . والقوة العلمية والعقلية التي امتاز بها الغربيون . وانتشار النفوذ والسلطان وإتقان فن الحياة في حالي السلم والحرب ، كل ذلك عمل عمله في النفوس والأفكار . حتى زعزع موضع الإيمان من قلوبنا . وما كان لهذا الإيمان أن يتزعزع لولا أن هناك ما هو أهم من ذلك . وهو الذي مهد لهذا الغزو القتال الفاتك طريقه إلى مكمن العقيدة . لقد أطل الإسلام علينا بعد عصوره الأولى بصورة لا يمكن أن تهش لها النفوس ، وليس فيه ما يجري على الاستمساك به كدين ودولة ، لأننا رأيناه في صورة طوائف مستبدة تصادر الحرية وتحتكر الفكر . وتتحكم في الضمائر . وتسفك الدماء البريئة . وترتكب أشنع أنواع الظلم ، وإذا قيل لها اتق الله أخذتها العزة بالإثم . وأطل علينا في صورة دويلات ممزقة تقوم هنا وهناك ترتكز على النعرات الطائفية أو الإقليمية النتنة ، وتؤجج نار الأحقاد والضغائن بين أبناء الملة الواحدة ، أو الوطن الواحد بأعمالها وتصرفاتها . وأطل علينا في صورة أشخاص يظهرون بمظهر المخشن للدين الناب عنه القائم عليه ويجعلون وجه الحياة أسود قاتماً وآفاقها خانقة قاتلة تحت ظلالهم ... وأطل علينا في صورة طرائق صوفية تصرف الناس عن الحياة ، ولا تعنى بشئونها ، وتغمس أتباعها في لجة سحيقة من الشطحات والأوهام والأحلام المنافية لحكمة وجود الإنسان على وجه الأرض . وأطل علينا في صورة مؤلفات صفراء تطمس العقول وتأكل الأعمار دون أن تفيد الحياة والأحياء بشيء ينفعهم . وأطل علينا في صورة تكايا وأربطة تغص بجموع الكسالى والمتبطلين يزيدون المجتمع أثقالاً على أثقاله بالإنفاق عليهم ، بحجة أنهم صلحاء المسلمين وخيارهم . وأطل علينا في صورة علماء ضيق الصدور والعقول واسعي الأردان والعمائم ممزقي السيرة والأخلاق ، لا يألون أن يحكموا بالكفر على كل مخالف لهم .

ولم نزل في مجتمعاتنا من هؤلاء بقايا يحرمون علوم المنطق والفلسفة والجغرافيا والفلك والكيمياء والتشريح والرسم والنحت والتصوير والموسيقى والشعر . وأطل علينا في صورة

وأنت تغالط عندما تقول « والفن إذا خالف الطبيعة صاحبه التوفيق وامتاز بالشذوذ والغرابة . وأكثر الدهشة في نفسية المتأمل ... » ، فالدهشة كما تكون مظهراً من مظاهر الإعجاب ، فإنها تكون أيضاً علامة من علامات النفور !

وأنت تتهم الذي يحافظ على جمال الطبيعة في لوحته بأنه مقلد ، وتنسى أن الفنان الأصيل يودع اللوحة — المنقولة بأمانة عن الطبيعة — طابعه الخاص ، وطريقته في الأداء ، وشخصيته الفنية . وهذه لا يتفق فيها رساماً مطبوعان ، وليس لنا شأن بالمقلدين .

لئن كانت يد الإنسان هي ... « العصا السحرية التي أمكنها أن تهب الحياة معنى الجمال » فيد الله هي التي أمكنها أن تهب الحياة يد الإنسان !

محمد محمود عماد

جعل ملعبي عقيم لولا ما ينتجه من البغضاء بين الناس وما يصلحهم . وأطل علينا صور عديدة كثيرة كلها تجعل الحياة جحيماً لا يطاق فليس بدعاً — بعد هذا كله — أن يتسلل الشعور بالنفرة إلى بعض القلوب إذا ما ذكر الإسلام أو ذكرت الدعوة إليه . وليس بدعاً بالتالي أن تنمو بذور الحقد والكراهية على الجماعات التي تنادي بالعودة إليه ... وليس بدعاً أن يكون لعمل الدعايات والمسائل الشاذة للإسلام تأثيرها البالغ فينا .

وليس بدعاً أن يقوم بيننا فريق يدعو إلى فصل الدين عن الدولة متفقاً في ذلك أوربا حينما فصلت الكنيسة عن الدولة ومتأسياً بها . وليس بدعاً أن يقوم بعض العلماء المسلمين من المسلمين ، ويؤلفون — مساندة لتلك الرأي — مؤلفات ، تجد رواجاً وتحدث ضجة . وليس بدعاً أن نجد دعاة المذاهب الغربية المختلفة بيننا محيذين ومروجين لدعواتهم ودعاياتهم . وليس بدعاً أن تنتشر في مجتمعاتنا ظواهر غريبة مزعجة كالاغتيالات وما يعقب هذه الاغتيالات من مجتمع مدمرة .. إن كل أولئك معاول هدامة مسلطة علينا من الداخل والخارج . ونحن في حلبة هذا الهدم المروع مدفونين تحت الغبار والأنقاض ، وإن كنا نسير فإنما هو سير الذاهل لا يعرف لسيره وجهة معينة .. مع أننا إذا رجعنا إلى منابع الإسلام الأولى وأزلنا ما حولها من ركام تكاثف عليها بمرور العصور المظلمة والأجيال المنحرفة ، فإننا نجده من البساطة والوضوح والإشراق بحيث لا تجد فيه النفوس ما يصدها أو يصرفها عن الإقبال عليه والإخلاص له ، فضلاً عن الحقد والكراهية وتأليب القوى لمناهضته .

* * *

وهنا يجمل بنا أن نستعرض خطوط الإسلام الأولية التي رسمها لبناء دولته ومجتمعه .

وأول ما يجب أن نعرفه عن الإسلام أنه دين الفطرة . والفطرة في التعبير الحديث الطبيعة ، ولا يمكن للفطرة أن يكون ديناً مضاداً لها في شيء ، أو تكون تعاليمه مناقضة لطبائع الأشياء ، بحيث تكون تعاليم غير عملية أو غير قابلة للتنفيذ إلا بإرهاقها وتحميلها ما ليس في طاقتها ووسعها .

وللإنسان في تكوينه استعداد جعله أكرم ما في الطبيعة من كائنات حية . ولا يستقيم في العقل أن تأتي الفطرة بدين فاية تحطيم هذا المخلوق الكريم بالاعتساف والإرهاق ؛ لأن الإسلام يعترف بهذه الكرامة «ولقد كرمنا بني آدم» .

ومن هنا نعرف أن الإنسان ليس شيئاً تافهاً في الإسلام ؛ وبمعرفتنا هذه الحقيقة الأساسية نستطيع أن نعرف التعاليم الإسلامية معرفة لا تتجافى مع هذه الحقيقة في شيء ، وما تجافى منها نستطيع بسهولة أن نتبين زيفه أو عدم أصالته في الإسلام ، ونستطيع أن نعرف أنه من الأشياء الدخيلة على دين الفطرة الذي يكرم الإنسان ولا يعتده شيئاً تافهاً .

وحقيقة أخرى يجب أن نلم بها قبل أن يلتهمنا الحديث عن الخطوط الأولية التي رسمها الإسلام لبناء دولته وسياسة مجتمعه ؛ هذه الحقيقة هي أن للإنسان عقلاً يفكر وللتفكير أثره البالغ في وجدان الإنسان ، والوجدان القلق الثائر المضطرب عديم الجدوى لا يستطيع أن ينتفع بأطايب الحياة ، ولا يستطيع أن يؤدي رسالته في الحياة على الوجه المطلوب . والفطرة تواقة إلى الطمأنينة الوجدانية لتصرف طاقة الإنسان إلى كل ما هو مجد ونافع ؛ فكان الإيمان من أولى الواجبات في الإسلام ؛ وإذا امتلأ الوجدان بالإيمان اقتلع الشك والحيرة والخواء من النفس الإنسانية ، واقتلع إلى جانب ذلك كل ما تزخر به النفس من أوهام ومخاوف وخرافات وأضاليل ووساوس تبدد الطاقة ، وتشوب التفكير السليم والفهم الناصع بالعوج والتعكير ؛ وليس معنى هذا أن الإيمان يصادر التفكير أو يقف به عند حد ، لا بل يجعل من هذا الإيمان نقطة ارتكاز يستند عليها التفكير ليؤدي إلى نتيجة تدفع إلى العمل والتحمس له . أما التفكير الذي لا يبنى على قاعدة فهو لا ينتهي إلى شيء دائماً ، ولذلك نجد كل تفكير أدى إلى نتيجة كان مرتكزاً على قاعدة ولو فرضاً . والتفكير عند الإسلام لا يبنى على الفروض والتخمينات ، ولكنه يبنى على إيمان جازم لتكون نتائجه غير قابلة للشك الذي لا نهاية له ولا نفع فيه .

لقد اضطر أفلاطون لبناء مدينته الأفلاطونية الفاضلة أن يبني تفكيره على خرافة حتى يستقيم له البناء المنطقي ، فكانت مدينته مدينة خرافية غير عملية ؛ ولذلك لم تتحقق في عصر من العصور . ولكن الإسلام لا يلجأ إلى الخرافات في إقامة بنائه ؛ ولذلك قامت دولته الفاضلة ردحاً من الزمان أضاءت بها تاريخ الإنسانية إضاءة وهاجة غير منكورة ، وما زالت تلك الأضواء واضحة الأشعة تنير لنا الطريق وتجذبنا بقوة إلى سلوكها ..

(يتبع) أبو الحسن

شيوخ من الأزهر

فى خدمة حركة الترجمة فى عصر محمد على

— ٣ —

الدكتور جمال الدين الشيال

أشرنا فى نهاية المقال السابق إلى أن الاختيار قد وقع على الشيخين سالم عوض القنياتى ومحمد عمر التونسى للقيام بتصحيح الكتب المترجمة فى مدرسة الطب البشرى . وفيما يلى عرض موجز لجهودهما ولجهود شيوخ آخرين خدموا حركة الترجمة فى المدارس الخصوصية الأخرى فى عصر محمد على .

٥ — الشيخ سالم عوض القنياتى : من بلدة القنايات بمديرية الشرقية ، ومن شيوخ الأزهر تلاميذ العطار ، بدأ عمله فى الحكومة المصرية واعظاً لأحد الألايات التى سافرت إلى الشام فى سنة ١٨٣٢ (١٢٤٨) .

ولسنا نعرف بالتحديد متى ألحق بمدرسة الطب ، ولكنا نعرف أنه التحق والشيخ التونسى بها فى وقت متقارب ، وأنهما كانا يتعاونان — فى أكثر الأوقات — على مراجعة الكتب المترجمة وتصحيحها ، وشركان معهما فى هذا العمل « الدكتور برون » ! فقد قام الشيخ التونسى بتصحيح كتاب « روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى » الذى ترجمه الدكتور محمد على البقلى ، وطبع سنة ١٢٥٩ ، فلما طبع منه ما يتوقف على ثلاثين ملزمة — كما يقول الشيخ القناياتى : « سلمه إلىّ لكونه مشغولا بغيره من الكتب المحتمة الطبع ، والمدرسة لازمة ، فشمرت الذيل فى تصحيحه وترتيبه ، واستنهضت الرجل والخيل فى تنقيحه وتهذيبه ، واجتنبت فيه الإسهاب والإطناب ، والتزمت فيه جزالة العبارة ليسر أولى الألباب »

ويقول الشيخ القناياتى بعد ذلك فى نفس المقدمة : « ولطالما كنا (أى هو والتونسى) نقابله على أصله بحضرة وملاحظة من بلغ ذروة تلك العلوم ، وعلى أقصى درجة فى منطوقها والمفهوم ، الماهر اللبيب ، اللوذعى الأديب ، الحكيم الكباوى ، حائز فرائض تلك الفنون ، ناظر مدرسة الطب البشرى الشهير بيرون ، ولكونه يحسن اللغتين الفرنساوية والعربية ، وله بهذا الفن خبرة وحسن روية ، صار يقتنص إلى هذا الكتاب كل عويصة شاردة ، ويرد إليه كل فريدة دقيقة الفهم نادرة آبدة » .

كذلك اشترك الشيخان فى تصحيح كتاب « التنقيح الوحيد فى التشريح الخاص الجديد » الذى ترجمه الدكتور محمد الشباسى ، وتم طبعه فى بولاق سنة ١٢٦٦ ، وهو كتاب ضخم فى ثلاثة أجزاء كبار ! يقول الشيخ التونسى فى مقدمته : « ولما تم ترجمة وإتقانا ، وتهذيباً وإحسانا ، وكل أمر تصحيحه إلى حضرة المصحح الأول ، من كان عليه فى مساعدتى المعول ، الأخ الواثق ، الشيخ سالم عوض القنياتى ، فصحح منه الجزء الأول ، وعاقه الرمد عن الثانى ، فشرعت فى تصحيح ما بقى منه بدون توان » .

ويبدو أن مقام الشيخين كان واحداً ، فقد كان لهما الصدارة بين بقية المصححين ، ولكن وثائق العصر تلقب الشيخ سالما « بالمصحح الأول » بينما تلقب التونسى « بالباشمصحح » .

٦ — الشيخ محمد عمر التونسى : وهو نابغة المصححين والمحررين ، وزعيمهم جميعاً فى ذلك العصر ، وقد أهلته لهذا المنصب ثقافة واسعة جناها من الكتب أولا ، ومن رحلاته العديدة ثانياً .

وحياة هذا الرجل عجيبة من عجائب ذلك العصر ، فهو تونسى أصلاً ومولداً ، وإن كانت أمه مصرية ، وقد عشقت أسرته الرحلة ، فعاش هو وأبوه وجده فى مصر وبلاد العرب والسودان أكثر مما عاشوا فى وطنهم الأصلى تونس .

ولد الشيخ محمد عمر فى ٢٧ يوليو سنة ١٧٨٩ (منتصف ذى القعدة ١٢٠٤) ، ثم نشأ نشأته الأولى فى مصر ، وكان أبوه قد رحل إلى السودان باحثاً عن أبيه (أى جد محمد عمر) ، فأعجبته الحياة هناك واستقر بتلك البلاد ، ونال الحظوة الكبرى عند سلطان دارفور عبد الرحمن بن أحمد (توفى ١٢١٤ — ١٧٩٩) ، ولما ضاقت سبل الرزق

في وجه محمد رحل هو أيضاً إلى دارفور باحثاً عن أبيه، وقد أقام هناك مدة طاف في خلالها بأرجاء دارفور ووادای ثم عاد إلى مصر في الوقت الذي كانت تتأهب فيه حملة المورة بالمسير، فعين واعظاً للآلاى الثامن من آلايات تلك الحملة.

وفي سنة ١٨٣٢ (وهي السنة التي سافر فيها الرشيديان إلى باريس) عاد إلى مصر مع الحملة، فاختير مصححاً بمدرسة الطب، وهناك تعرف على الدكتور برون، وأعجب كل منهما بالآخر، واتخذ برون على التونسي، وقرأ عليه كتاب كليلة ودمنة وكتباً أخرى، وتعاونا معاً على مراجعة الكتب الطبية العربية لاختيار المصطلحات التي تيسر للمترجمين ترجمة الكتب الفرنسية، وفي جلساتهما الخاصة تحدث التونسي إلى صاحبه عن مشاهداته في بلاد السودان، فأوعز إليه أن يسجلها في كتاب خاص. يقول التونسي: «وقد كنت له بعض ما رأيته في أسفاري من العجائب، فحملني على أن أزين وجه الدفتر بإيضاح ما شاهدته، فامتثلت أمره لما له علي من اليد البيضاء».

وأذعن الشيخ فعلا لمشورة صديقه، فزين وجه الدفتر بكتابين قيمين، سجل فيهما مشاهداته في: دارفور، ووادای؛ وهي الكتاب الأول: «تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان» وضمنه رحلته إلى دارفور؛ وهي الكتاب الثاني «الرحلة إلى واداى».

وقد قام الدكتور برون بنشر النص العربي للرحلة الأولى في باريس سنة ١٨٥٠، ثم ترجمها إلى الفرنسية، ونشر الترجمة كذلك في باريس سنة ١٨٥٥ تحت عنوان: (Voyage au Darfour). أما النص العربي لرحلة واداى فلم ينشر، وإنما نشرت ترجمته الفرنسية التي قام بها برون في باريس سنة ١٨٥١ تحت عنوان (Voyage au Ouaday) والكتابان من أحسن المراجع التي وصفت السودان في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وقد قام التونسي في مدرسة الطب بتصحيح الكتب الآتية:

١ — الدر اللامع في النبات وما فيه من الخواص والمنافع، تأليف الدكتور فيجرى بك، وترجمة السيد حسين غانم الرشيدي، وطبع في بولاق سنة ١٢٥٧.

٢ — واشترك مع الشيخ التباني في تصحيح كتاب «روضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى» الذي ترجمه الدكتور محمد علي البقلي، وطبع في سنة ١٢٥٩.

٣ — واشترك مع الدكتور برون في مراجعة وتصحيح كتاب «كنوز الصحة ويواقيت المنحة» الذي ترجمه الدكتور محمد الشافعي، وطبع في سنة ١٣٦٠.

٤ — وقام على تصحيح كتاب «الدرر الغوالي في معالجة أمراض الأطفال» تأليف كلوت بك وترجمة الدكتور محمد الشافعي، وطبع في سنة ١٢٥٠.

٥ — واشترك مع الدكتور برون في ترجمة وتصحيح كتابه الأخير «الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية» الذي طبع سنة ١٢٥٨ — ١٢٦٠.

٦ — واشترك أخيراً مع الشيخ التباني في تصحيح كتاب «التنقيح الوحيد في التشريح الخاص الجديد» تأليف «كروليه» وترجمة الدكتور محمد الشباسي، وتم طبعه في سنة ١٢٦٦.

والتونسي فوق هذا جهود مشكورة في السعي لطبع قاموس المحيط، وترجمة قاموس (Fabre) الطبي.

وقد شارك التونسي كذلك في حركة نشر الكتب العربية القديمة، فأشرف على نشر مقامات الحريري، والمستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي.

وفي السنوات الأخيرة من حياته كان يدرس الحديث بمسجد السيدة زينب في يوم الجمعة من كل أسبوع إلى أن توفي في القاهرة في سنة ١٢٧٤ (١٨٥٧).

٧ و ٨ — الشيخان رفاعة الطهطاوي وإبراهيم الدسوقي عملا فترة كمصححين بمدرسة الطب، ثم نقل رفاعة إلى مدرسة المدفعية، ونقل الدسوقي إلى مدرسة المهندسخانة.

(ب) في مدرسة الطب البيطري:

١ — الشيخ مصطفى حسن كساب: ألحق مصححاً بمدرسة الطب البيطري منذ إنشائها في رشيد، وقد قام بتصحيح جميع كتب الطب البيطري التي ترجمها المترجم السوري يوسف فرعون، ثم المترجمان المصريان محمد عبد الفتاح وعطيه أفندي من بعده؛ فكان أول كتاب قام على تصحيحه كتاب «التوضيح لألفاظ التشريح» تأليف «جيرار» وترجمة يوسف فرعون، وطبع في بولاق سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤)، وآخر كتاب راجعه هو كتاب «مجمع الغرر في سياسة البقر» تأليف «روبينيه» وترجمة عطيه أفندي أحد خريجي مدرسة الألسن، وطبع في بولاق سنة ١٢٦٤.

٢ — الشيخ عبد المنعم: وقد ذكر الدكتور عزت

عبد الكريم أنه كان بالمدرسة مصحح آخر يدعى الشيخ عبدالمنعم ، وقد نقلها بعد « بالشخوجيه » بمدرسة البنديان ، غير أني لم أعثر على كتب الطب البيطري المترجمة على كتاب واحد صححه هذا الشيخ .

(ح) في مدرسة الزراعة :

الشيخ نصر أبو الوفا الهوريني : كان المصحح الوحيد بمدرسة الزراعة ، ولم أعثر إلا على كتاب واحد قام على تصحيحه الهوريني وهو كتاب « أجل الأسباب في أجل الاكتساب » ، وقد أثبت في آخره أنه انتهى من كتابته سنة ١٢٥٩ ، وفي نهاية تلك السنة نقل الشيخ مصححاً بقلم الترجمة الملحق بمدرسة الألسن ؛ وفي سنة ١٢٦٠ (١٨٤٤) اختاره محمد علي باشا بنفسه ليكون إماماً لبعثة الأنجال التي أرسلت في تلك السنة إلى فرنسا ، ولما عاد إلى مصر اشتغل بالتدريس في الأزهر ، ثم نقل مصححاً بمطبعة بولاق ، وهناك أشرف على طبع كثير من كتب اللغة ، وله عليها حواش وتعليقات قيمة ، وخاصة القاموس الفيروزابادي ، والصحاح للجوهري ، والمزهر للسيوطي وغيرها كثير ؛ وله مؤلفات كثيرة طبع منها كتاب « المطالع النصرية للمطابع المصرية » .

ويقول الأمير عمر طوسون في كتابه عن البعثات « ومع أنه لم يرسل إلى فرنسا للتعلم إلا أنه تعلم اللغة الفرنسية هناك وكان يتكلم بها ويقرأها جيداً ، كما أخبرنا بذلك حفيده عباس افندي نصر » ؛ وقد ظل الشيخ على نشاطه إلى أن توفي سنة ١٨٧٤ .

(ط) في مدرسة الهندسة :

الشيخ إبراهيم عبد الغفار الدسوقي : كان المصحح الوحيد بمدرسة المهندسخانة ، ولد في دسوق سنة ١٢٢٦ ، ثم أتم علومه في الأزهر ، وفي سنة ١٢٤٨ عين مصححاً بمدرسة الطب ، ولكنه لم يلبث بها إلا قليلاً ثم نقل إلى مدرسة المهندسخانة .

وقد قام بتصحيح جميع الكتب الرياضية والهندسية التي ترجمت بها في عهدي محمد علي وعباس الأول ، فلما ألغيت المدرسة في عهد سعيد باشا نقل مصححاً بمطبعة بولاق ، وقد شارك في أوقات مختلفة في تحرير « الوقائع المصرية » ، ومجلة « اليعسوب » الطبية .

وفي عهد إسماعيل رقي إلى رئيس مصححي مطبعة بولاق ، وقد اتصل الدسوقي اتصالاً وثيقاً بالمستشرق الإنجليزي « المستر لين » واشتركا معاً في قراءة « القاموس وتفهمه » فإذا اتفقا ترجم « لين » ما قرآه إلى اللغة الإنجليزية ، وظل على ذلك سنوات حتى أتم تسعة أعشاره ، ثم سافر إلى لندن حيث أعد العشر الأخير ، وطبع القاموس المترجم لأول مرة في لندن سنة ١٨٦٣ تحت عنوان Lane's Arabic English Lexicon ، وقد عاش الدسوقي نحو أربع وسبعين سنة ، وتوفي سنة ١٣٠٠ .

(ى) في مدرسة الألسن :

كان رفاعة الطهطاوي يشرف بنفسه على مراجعة وتصحيح الكتب التي تترجم في المدرسة أول إنشائها ، فلما كثر إنتاجهم أشرك رفاعة معه في هذا العمل بعض مدرسي الألسن ، وخاصة المشايخ محمد قطة العدوي ، وأحمد عبدالرحيم الطهطاوي ، ومحمد الفرغلي .

● ● ●

هؤلاء هم الشيوخ المصححون والمحررون ، وهذه لمحة من جهودهم تبين في وضوح أنهم أفادوا حركة الترجمة والنهضة العلمية الحديثة فوائد جمة ، فخرجت الكتب المترجمة سليمة من الركاكة والعجمة ، خالية بقدر الإمكان من الأخطاء ؛ وقد حاول الكثيرون منهم قدر استطاعتهم التوفيق بين المصطلحات العلمية الحديثة والمصطلحات العلمية القديمة ، وجمعوا لكتبهم مجموعة كبيرة منها تصلح لأن يتخذها المجمع اللغوي أساساً طيباً لجهوده في هذا الميدان .

وفي نفس الوقت أفاد بعض هؤلاء المحررين — وخاصة الشيخ التونسي — الكثير من اشتغالهم بهذه الحركة ، ففهموا بعض ما جاء في الكتب العلمية المترجمة ، وكسبوا لأنفسهم معارف جديدة واسعة ، وأضافوا إلى ثروتهم اللغوية ثروة جديدة لكثرة ما قلبوا الكتب باحثين ومنقبين ، ولكثرة ما نحتوا واشتقوا واقتبسوا من ألفاظ ومصطلحات جديدة ، ولهذا كانوا يحاولون دائماً — فيما يكتبون من مقدمات — أن يفخروا من هذه المعرفة الجديدة التي كسبوا . وفي المقدمة التي كتبها الشيخ التونسي لكتاب « الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية » — تأليف وترجمة الدكتور برون — مثال طيب لبرهنة على ما نقول .

جمال الدين الشيال

فكرتان ... باستير .. وارليخ *

للدكتور أحمد بدران

في السابع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٩٢ ، أقيم احتفال كبير في باريس ، فازدحمت القاعة الكبرى في السوربون الشهيرة ازدحاماً شديداً ، ذلك أن جمهورية فرنسا وعلماء العالم كانوا يحتفلون بعيد ميلاد لوى باستير السبعين ، وقد حضر وزراء وسفراء وأعضاء البرلمان الفرنسي ومندوبون من الخارج وعلماء مشاهير ليقدموا إليه احترامهم ، وكان مساعدو باستير وبينهم بيير أميل رو وجول بوردیه وشارل تشابرلاند وإيلى متشنكوف ، يحتلون مقاعد الشرف ، وكان باستير ذلك الرجل القصير الملتحي بشعره الرمادي وملامحه المتعبة بالغ التأثر ، وقد اهتز ذلك الرجل الذي لا يكاد يقوى على الكلام لمرضه ، من فرط التأثر حين قام رجل شيخ يقرب عمره من عمر باستير نفسه ليخطب في الحاضرين ، وكان ذلك الرجل ذو الملامح التي تدل على التميز والشعر المتموج والسوالف الثقيلة هو الدكتور جوزيف ليستر الجراح الإنجليزي الشهير .

قال لباستير : « لقد بددت الغموض الذي أحاط بالأمراض المعدية قروناً عدة » فقام باستير على قدميه بمشقة واحتضنه ، ولم يستطع باستير أن يلقى خطابه ، فقد أصبح صوته الذي كان قوياً آمراً ، ضعيفاً واهناً ، فقرأ ابنه رسالته : « سواء كانت الحياة تؤيد مجهودنا أو لا فمن وسعنا أن نقول حين نقترب من الهدف الأعظم : لقد بذلنا ما نستطيع » .

وكان هذا المشهد الحزين مؤثراً ، فها هنا رجلان قاتلا جنباً إلى جنب من أجل العقائد ذاتها ، وقد اضطهد كلاهما وتعرض للنقد ، ولكنهما انتصرا ، فوضع أحدهما أسس علم البكتريولوجيا — فإن باستير هو الأب المعترف به وخالق ذلك الفرع من فروع العلم — وهو رجل تفوق خدماته للإنسانية كل تقدير ؛ وأرسى ليستر أسس ذلك العلم التطبيقي علم المطهرات ، فقد كان أول من أشار باستعمال المطهرات للجروح والإصابات ؛ وبينما كان تقدم البكتريولوجيا سريعاً وباهراً كان نمو علم المطهرات بطيئاً وأليماً ، وكانت النتائج التي وصل إليها في بعض الأحيان سطحية وأحياناً متناقضة .

ففي عام ١٨٦٧ نشر ليستر الذي كان في ذلك الحين أستاذ الجراحة في جامعة جلاسجو في الجريدة الطبية البريطانية بحثاً بدا في ذلك الحين انقلاباً عنوانه « في مبدأ التعقيم في ممارسة الجراحة » وقد كتب ليستر في مقدمته : « عندما أظهرت بحوث باستير أن قدرة الجو على تلويث الجروح تعتمد لا على الأكسجين أو أي غاز آخر بل على كائنات دقيقة معلقة فيه تعتمد في نشاطها على حيويتها ، بدا لي أن التعفن في الجزء المصاب ربما أمكن تجنبه دون استبعاد الهواء ، وذلك بأن نضع كضمادة مادة لها القدرة على القضاء على حياة هذه الجسيمات السابحة ... » ثم وصف بالتفصيل كيف نجح في أن يحتفظ بالجروح نظيفة غير ملوثة .

لقد راعته وهو الجراح العظيم والرجل ذو البصيرة ، نسبة الوفيات العالية بين المرضى الذين يجتازون العملية الجراحية بسلام ولكنهم يموتون نتيجة تسمم الدم ؛ وقد أعجب بأعمال باستير وقرر أن يطبق اكتشافات العالم الفرنسي ، وقد آمن دون تحفظ بأن تلوث الجروح والكسور تسببه الكروبات رغم أن ما كان معروفاً عن الجراثيم المسببة للمرض كان قليلاً ؛ وقد فكر : لو استطعنا أن نبعد عوامل التلوث الحية عن جسد الإنسان لأمكن للجروح أن تلتئم دون تأخير أو مضاعفات مؤلمة .

ولكن كيف الوصول إلى هذا الغرض ؟ كيف نجعل الجروح بمنأى عن الجراثيم الضارة ؟ ذات يوم وجه كثير من أصدقائه نظره إلى مقالة في مجلة عن استخدام حمض

(*) فصل من كتاب « العقاقير المعجزة » للدكتور بوريس سوكولوف .

الكربوليك (الفنيك) لتطهير المواد البرازية فى كارليل ، وقد سر" ليستر ، فإذا كان حمض الكربوليك يمنع التعفن فقد ينفع أيضاً مطهراً للجروح ، ولذا قرر أن يستخدم هذه المادة فى جراحاته .

ولكى يزيد من نفع هذه الطريقة ويتيقن أن أى مكروبات لن تلوث الجروح استخدم ليستر محلول حمض الكربوليك على نطاق واسع ، فلم يقتصر الأمر على غسل جلد المريض ، بل غسل أيضاً الآلات والضمادات والأربطة وغمسها فى هذا المحلول ، كما نالت أيدى الجراح حماماً من حمض الكربوليك قبل العملية ، وقد أثمرت هذه الطريقة — التى تعتبر اليوم مبالغاً فيها وغير مثالية تماماً — نتائج سريعة ، فقد انخفض عدد حالات التلوث عقب الجراحات وبالتالى عدد الوفيات عند ليستر بطريقة معجزة من خمسين إلى عشرة فى كل مائة ؛ وكانت كل حالة جراحية تتخذ فيها الاحتياطات فى التطهير تجعل ليستر أكثر اقتناعاً ، فدافع عن استخدام حمض الكاربوليك فى الجراحة بحماس جعل كثيرين غيره من الجراحين يستخدمون طريقته بعد قليل ؛ وقد ظل حمض الكربوليك يستخدم على نطاق واسع فى الإصابات ، بل وحاولوا أن يستخدموه كمطهر داخلى بحقنه تحت الجلد ، واحتل مركز الصدارة فى الجراحة أكثر من عقدين من السنين . ولم يكن ليستر أول جراح استخدم حمض الكربوليك فى حجرة العمليات ، فقبل ذلك بأعوام قليلة بحث الدكتور جورج ديكلات الجراح الفرنسى خواصه المطهرة لا فى الجراحة فحسب ، بل فى علاج كثير من الإصابات الموضعية فى الجلد والحنجرة أيضاً ، بل لقد نشر بحثاً شاملاً فى هذا الموضوع عنوانه « استخدامات جديدة لحمض الفنيك فى الطب والجراحة ١٨٤٦ » ولكن ليستر هو الذى استطاع بإقدامه العظيم وإيمانه المطلق بالإضافة إلى قدرته العجيبة على الإقناع ، أن يجعل هذه الطريقة تتبوأ مركزها كخطوة لاغنى عنها فى كل عملية جراحية ؛ فإليه يجب أن يرجع الفضل فى إنشاء ذلك الفرع من فروع العلوم الطبية : الجراحة التطهيرية .

ورغم أن حمض الكربوليك كان ذا أثر فى الجراحة فقد ظهرت نواحى قصوره كمطهر شيئاً فشيئاً . فبتقدم الطرق البكتريولوجية ثبت أن حامض الكربوليك الذى يضر محلوله الذى يحتوى على ٣ ٪ بالأنسجة الحية إلى حد ما ، غير قادر على قتل كل الجراثيم ، وبدا جلياً أنه لا يمكن اعتبار هذا المحلول مطهراً مثالياً حتى للاستعمال الخارجى .

واقترحت مواد ومركبات كثيرة ، وجربت واستخدمت بعد ذلك ونالت درجات مختلفة من النجاح ، ولكن واحدة منها لم تستوف شروط المطهر المثالى ؛ فبينما كانت محاليلها المخففة إلى حد كبير قاتلة للجراثيم فقد كان الكثير منها ضاراً أيضاً إلى حد ما بالأنسجة الحية ؛ ورغم أن بعض هذه المطهرات واسع الانتشار إلى اليوم فإنها كلها فى حقيقة الأمر سامة للجسم البشرى إذا كانت مركزة إلى الدرجة اللازمة لقتل الجراثيم ؛ ولهذا السبب فلا يمكن حقن أى واحد منها فى الجسم كمطهر داخلى ، ولكن بمضى الأعوام ازداد شوق علماء الطب إلى أن يجدوا مادة تثبت من جدارة أنها للمطهر الداخلى الناجح .

وفى الوقت الذى كان ليستر يضع فيه أسس استخدام المطهرات فى الطب وخطا بالفعل الخطوة الأولى فى اتجاه العلاج الكيميائى ، كان العالم الطبى فى أوربا يعانى اضطراباً ، فقد كانت نظرية التوالد الذاتى ما تزال تسيطر على عقول الثقات من رجال الطب الذين يدافعون عنها بحماس ويحمونها فى غضب من تلك الجماعة الصغيرة من الجاهدين وعلى رأسهم ليستر وباستير وتندول . حتى فى عام ١٨٦٧ حاول ا . هالير من جينا أن يثبت أن الفطر يمكن تحويلها إلى بكتريا ، مستخدماً ملاحظاته كشاهد على نظرية التوالد الذاتى . وكانت أعمال باستير ودى بارى وروبرت كوخ دون غيرها هى التى وجهت الضربة الأخيرة إلى تلك الخرافات العتيقة التى نشأت فى الأيام السوداء فى العصور الوسطى .

وما كاد العلم يتحرر نهائياً من تأثير هذه النظرية حتى مضى تقدم البكتريولوجيا فى سرعة عجيبة ، والآن إذ عرف العلم طريقة عزل البكتريا وزرعها تركز اهتمام باستير ومساعديه على السؤال الأساسى : كيف يمكن للكائنات أن تحمى نفسها من الجراثيم الهاجمة ؟ فكان باستير وقد صار الآن رجلاً شيخاً يهتم بشفاء الحيوانات المختلفة من الأمراض ، وكان يعجب كيف يمكن أن يزيد المرء من مقاومة الحيوان والإنسان للجراثيم المسببة للمرض ؟ وكانت تجربته الأولى فى هذا المضمار أن يحقن الأفراخ بمزارع قديمة فقدت نشاطها من كوليرا الدجاج بحيث تستطيع الكائنات أن تحمى نفسها

منها بنجاح أكثر ، فكان مرض الفرخ الصغير المخنون حقيقاً وسرعان ما شفي من مرضه . فسمى هذه الزرعة المهكلة « الفيروس المخفف » وأدرك على الفور أساس هذه العملية وهي إيجاد مناعة ضد هذه الجراثيم ، وسمى هذه الزارع المهكلة بالطعم ، وبعد أعوام قليلة استحدث « فيروسات مخففة » ضد مرض الكلب ! لكن كيف يحمى الكائن الحي نفسه من الجراثيم الهاجمة ؟ ما هي أسس الحصانة ؟ وما هي طبيعتها الحيوية ؟ لم يجب باستير بنفسه على هذه الأسئلة ؛ ولكن تلامذته بورديه ومتشنكوف ورو ويسردكا أولوها عظيم عنايتهم ؛ وقد لاحظ متشنكوف أثناء دراسته لبرغوث الماء العادي المسمى « دافنيا » ظاهرة عجيبة ، فعندما حقن في جسم ذلك البرغوث بعض الجراثيم الشبيهة بالفطر لاحظ أن جسم البرغوث ، قد حمى نفسه ، بأن أرسل خلايا صغيرة متحركة لتهاجم الجراثيم ، وقد استمر في هذه التجربة مستعملاً الفئران والضفادع ، فوجد نفس الحرب الوحشية بين الهاجمات — الجراثيم — وبين الحاميات ، تلك الخلايا المتحركة ، فإذا لم تكن البكتريا كثيرة العدد شديدة القوة سقطت صريعة تحت أقدام الحاميات وابتلعتها حارسات الجسم المتحركة ؛ وقد سمى متشنكوف هذه الخلايا المدققة بالخلايا الملتهمة ، وبدأت نظرية الالتهام هذه تحظى بالقبول كمظهر صحيح من مظاهر نظام الدفاع الطبيعي للجسم الإنساني أو الحيواني . وقد رأى تلاميذ باستير ومتشنكوف اتباع العقائد الأساسية لأستاذيهم أن الصراع ضد المرض يستدعي اتخاذ أساليب تحطم الجراثيم الهاجمة بمساعدة طرق المقاومة الطبيعية للجسم ، واعتقدوا في ثقة أن علم الطب يجب أن يتبع هذا الطريق من طرق البحث الذي تشير إليه هذه القوى الطبيعية المسيطرة على الجسم الإنساني ، تلك القوى التي لا يمكن تغييرها ولا يصح تجاهلها ، فكانت زيادة المقاومة الطبيعية للجسم وتحضير أنواع مختلفة من الطعم وتطبيق التحصين على كل ما يستطاع من أنواع البكتريا — هذه كانت مجال البحث الذي اختطه باستير وأتباعه في إخلاص .

وفي سنة ١٨٧٧ لاحظ باستير أن لبعض البكتريا القدرة على الحد من نمو جراثيم الجمرة ، وقد اشتهرت فكرة أن بعض البكتريا التي توجد عادة في الجسم الإنساني دون أن تصيبه بضرر قد تفرز مواد لها القدرة على قتل الجراثيم المسببة للمرض ، اشتهرت تلاميذ باستير ، وجرت محاولات عدة في معهد باستير ، ولكنها لم تؤت نتائج عملية تذكر ؛ على أنه رغم فشلهم في استخراج مادة مضادة للبكتريا من الفطر والبكتريا فقد ظل العاملون في المعهد يأملون أنه في يوم من الأيام سنكتشف هذه المادة التي لا تضر بالجسم البشري ولكنها تهلك الجراثيم ؛ غير أنهم لم يعتقدوا قط أن تكون هذه المادة قادرة على إهلاك الجراثيم مباشرة إذا ما وصلت إلى مجرى الدم . فقد كانوا يرون أن هذه المادة المضادة للجراثيم مادة تتعاون مع قوى المقاومة في الجسم وتقويها .

وقد اتجه العلماء في ألمانيا في هذا السبيل اتجاهاً آخر فقد كان بول ارليخ ومن ينهجون نهجه يعتقدون في ثقة أن « رصاصة سحرية » تقتل كل الجراثيم يمكن اكتشافها . وقد بحث ارليخ في إصرار وصبر عن هذه الرصاصة السحرية ؛ أي عن مركب كيميائي مضاد للبكتريا ، وذلك على هدى نظريته الشهيرة (نظرية السلسلة الجانبية لتفسير الحصانة) واعتقاده في أن الحصانة ظاهرة كيميائية ، ولم يعر التفاتاً كبيراً إلى قوى المقاومة الطبيعية للجسم .

وكانت مركبات السلفا هي نتاج وخلق مدرسة إرليخ . أما المواد الطبيعية المضادة للجراثيم مثل البنسلين وغيره من المواد المستخرجة من الفطر والبكتريا ، فإنها تظهر إلى حد كبير فكرة المادة المضادة للبكتريا التي سيطرت ولا تزال تسيطر على أبحاث معهد باستير ، ولكن العجيب أن هاتين الفكرتين المتعارضتين إزاء الطريقة المثلى لقتال الجراثيم لم تحقق واحدة منهما ! فمركبات السلفا ليست رصاصات سحرية تقتل الجراثيم مباشرة ، والمواد الطبيعية المستخرجة من الفطر والبكتريا لا تزيد من المقاومة الطبيعية للجسم .

ويقع أساس العلاج الكيميائي الحديث في مكان ما بين هاتين الفكرتين ، فكما يحدث كثيراً في الأبحاث العلمية ، ينتج الاختلاف بين فكرتين مختلفتين — وأحياناً متعارضتين — في النهاية نجاحاً باهراً تساهم فيه كلتا المدرستين إلى حد كبير . وفي الحقيقة أنه لم يثبت بعد كيف تقتل مركبات السلفا والبنسلين وغيره من المواد الطبيعية الجراثيم . ولكن رغم ذلك فالحقيقة باقية ، وهي أنها حقاً « عقاقير معجزة » .

أحمد [illegible]

تعقيب على نقد :

مسمار جحــــا

للأستاذ علي أحمد باكثير

نشرت « الثقافة » الغراء في عددها (رقم ٦٦٨) نقداً لمسرحية « مسمار جحا » بقلم الأستاذ الفاضل عبد الفتاح البارودي ، وإني لأشكره على ما أولاها من عناية واهتمام . وقبل التعقيب على ماورد في مقاله من المآخذ على المسرحية أحب أن أشير إلى الشطط الذي يقع فيه من يتصدى لنقد مسرحية من المسرحيات فيعمد إلى الأحكام العامة والنظريات الفنية فيوردها في عبارات مقتضبة كأنها الخلاصات التي يقيدها القارىء للتذكرة ، ثم لا يكلف ذلك الناقد نفسه دراسة العمل الفني الذي ينقده ، ليستخرج من موضوعه القواعد الخاصة بذلك الموضوع ، غافلا عن الحقيقة الكبرى وهي أن لكل موضوع منطقه الخاص .. حتى القواعد الأولية المتفق عليها والتي يجب على الكاتب المسرحي أن يخضع لها حتى هذه القواعد تتشكل بتشكل الموضوع .

وقد أثار الناقد في مقاله عدة مسائل .

١ — فالمسألة الأولى تتعلق بالفكرة التي تصلح للعلاج المسرحي والفكرة التي لا تصلح لذلك ، وهنا أورد رأي هكسلي القائل : إن الحقائق الكبرى السرمدية وحدها هي التي تصلح بخلاف الحقائق الصغرى العابرة ، ثم قال « إن إحساسنا الشديد بنكبة الاستعمار يجعلنا نعرض عن رأي هكسلي هذا ونتشبث برأي غيره من النقاد ممن يرون أن أي شيء يصلح مادة للمسرح مادام يحس به المؤلف إحساساً يبلغ به عنده إلى درجة عميقة تؤهله لأن يكون « تجربة بشرية » ... إلخ

والمفهوم من هذا الكلام وما بعده أن الناقد يعد الفكرة التي تدور عليها مسرحية مسمار جحا من الحقائق العابرة التي لا تصلح عند هكسلي لأن تكون مادة للمسرح ، وأنا أخالف الناقد فيما زعم ، فأقرر أن فكرة المسرحية هي من الحقائق الكبرى السرمدية ، لأنها في مدلولها الواسع تصور الصراع الأزلي الخالد بين الحق الأعزل والباطل المسلح ، بين الظالم المغتر بقوته والمظلوم المتمسك بحقه المطالب به .

إن النظرة السطحية وحدها هي التي تقصر مدلول « مسمار جحا » على استعمار الغرب للشرق وإنه ليس إلا « أمراً طارئاً ربما يحدث عكسه غداً مثلاً » . أما العين البصيرة التي لا يحجبها ضباب الأحوال الراهنة التي تمر بها بلادنا اليوم عن حقيقة فكرة المسرحية في صميمها الإنساني الخالد فمن حرية أن ترى هذه المسرحية صالحة لكل زمان ومكان ، فهي تصور الصراع بين إنجلترا وإرلندة الحرة مثلاً كما تصوره بين إنجلترا ومصر ، وكما تصور أي صراع بين دخيل يريد أن يتحكم ، وصاحب حق مغلوب على أمره يريد أن يتحرر ، في أية بقعة من بقاع الأرض ، ومن أي جنس من أجناس البشر ، وفي أي زمن من أزمنة التاريخ ماضيه وحاضره ومستقبله ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها !

وإذا كان مدلولها الأقرب ينطبق على قضية احتلال قنال السويس ، ومدلولها القريب يشمل غيرها من قضايا الشرق العربي ثم الشرق الإسلامي فإن مدلولها البعيد الواسع يشمل كل قضية من هذا القبيل في الشرق والغرب وفي الحاضر والماضي والمستقبل .

إذاً فكل ما أورده الناقد من آراء هكسلي وغيره ، غير ذي موضوع في الكلام على هذه المسرحية .

٢ — حاول الناقد بعد ذلك تلخيص المسرحية في سطور

ولم يسلم في تلخيصه هذا من الخطأ في فهم شخصية جحا ودوافعه ، وذلك حين ظن أن جحا يوم دبر الثورة الأولى — ثورة الفلاحين على ملاك أراضيهم — قد ساوم الحاكم الأجنبي على أن يوليه قاضي قضاة الدولة ليسعى لقاء ذلك في إخماد تلك الثورة .

وهذا الخطأ منشؤه القصور عن تفهم نفسية بطل المسرحية والخطوط الأساسية في تكوين شخصيته ، وعدم التتبع لمنطق الأحداث التي دفعت به إلى هذا الحادث . فإن جحا لم يدبر مع ابن أخيه حماد ثورة الفلاحين عقب كارثة الجراد إلا مدفوعاً برغبة الانتصاف لهؤلاء المنكوبين حتى ينالوا حقوقهم ؛ وما ذهب إلى مقابلة الحاكم في الوقت الذي يتزعم ابن أخيه قيادة الثورة إلا ليقنع الحاكم بأن يأمر بإنصافهم ، مبيناً له أن في ذلك مصلحته هو لئلا تنقلب تلك الثورة الاجتماعية إلى ثورة سياسية شاملة . وقد كان في كل ذلك مخلصاً للفلاحين من بني وطنه دون أي اعتبار لمصلحة الحاكم الدخيل ودون أن يطمع منه في مكافأة لشخصه هو بمال أو بمنصب .

ولكن الحاكم الدخيل هو الذي رأى أن يصطنع صاحب هذا العقل الكبير والكفاية الممتازة لعله ينتفع به في توطيد أركان نفوذه في المستقبل ، وقبل جحا المنصب لأنه يرى نفسه كفؤاً له ، وهو كذلك في الحقيقة ، فهو من حقه ، وعسى أن يستطيع خدمة قومه وبلاده من هذا السبيل ، غير أنه لم يلبث أن ضاق بهذا المنصب وأخذ ضميره يؤنبه — لا لإيثاره المنفعة الشخصية على مصلحة الشعب كما توهم الناقد — بل لأن سعيه الذي تكلل بالنجاح في إنصاف الفلاحين — وهو الخير الذي هدف إليه — قد نتج عنه استتباب الحال للحاكم الدخيل من حيث لم يقصد هو ذلك قصداً . وكان في استطاعته إذ ذاك أن يستقيل من هذا المنصب ، لو أراد السلامة لنفسه ، فيعيش في سلام كما اقترح عليه ابن أخيه حماد ذلك ؛ ولكن جحا — منذ كان — لا يعيش لنفسه قدر ما يعيش لغيره ، فآثر أن يكون خروجه من هذا المنصب محققاً لما يأمله لقومه وبلاده في الخلاص من ربقة الاحتلال . وهكذا ضرب ضربته الكبرى غير مبال بما قد يناله في ذلك من عنت واضطهاد .

وليس هذا جديداً على تكوينه الذي فطر عليه ، فلا فرق بين جحا الواعظ حين كان يرسل سهام نقده اللاذعة على والي الكوفة وبين جحا حين رأى نكبة الفلاحين بعد عزله من وظيفة الوعظ ، فدبر ثورتهم على الملاك رغبة في إنصافهم ، ولا بين جحا قاضي القضاة الذي ضاق بمنصبه فقام بثورته السياسية الكبرى ، وقصارى ما هنالك اختلاف الظروف التي تحدد نوع الثورة ، أما روحها فإنه في صميمه واحد .

وكان على الناقد — وقد فهم الدافع لجحا هذا الفهم الخاطئ — أن يأخذ ذلك على المؤلف باعتباره اهتزازاً في رسم هذه الشخصية ، إذ لا يستقيم سعيه لتولي منصب قاضي القضاة مع عدم مبالاته بوظيفة الوعظ أن تطير منه بالرغم من قعود زوجته السليطة له بالمرصاد لتناقشه الحساب العسير . أم ظن الناقد أن جحا إنما رمى بوظيفة الوعظ احتقاراً لها ليسعى بعد ذلك إلى هذا المنصب الكبير ؟ إن ظن ذلك فقد ركب مركباً وعراً واعتسف فلاة تنطمس فيها الصوى ويضل فيها الدليل !

٣ — ثم قال الناقد بعد ذلك : « إن مؤلفها الفاضل — كما يخيل إليه — قد أخلص إلى إبراز فكرته أكثر مما أخلص لوضعها في إطار فني ، وكأنه بدافع من حميته وتجاوبه مع الظروف الراهنة لم يرد شيئاً سوى إبرازها » .

ولا حاجة إلى القول بأن هذا على ضوء ما أسلفنا بيانه قد أصبح غير ذي موضوع . على أن في هذا الكلام وهماً واضحاً ، إذ جعل الإخلاص في إبراز الفكرة سبباً للنقص لا للكمال ، وذلك غير صحيح ، فالمعروف أن الإخلاص والتحمس للموضوع والتجاوب مع ظروفه أحرى أن يجعل العمل الفني أقرب إلى الكمال . ومنشأ هذا الوهم أن الناقد خلط بين الدافع للمؤلف إلى كتابة أثره وبين الصورة التي يريد أن يبرز بها ذلك الأثر . وبين هذين الأمرين بون شاسع ، فالدافع هو ذلك العامل النفسي الذي يختلج بين جوانح الكاتب ويحمله على التنفيس عنه في صورة ما . وأما الصورة فيعينها الموضوع الذي اختاره لذلك ، والهدف الذي يرمي إليه .

وقد يكون الدافع حزناً عميقاً مبرحاً ، وتكون الصورة ملهاة فكاهية ضاحكة . وقد جربت أنا ذلك بنفسي ، إذ كتبت

مسرحية « أبو دلامة » وأنا على أشد ما كنت من الحزن والقنوط لمصرع فلسطين الشهيدة ؟ وتحت هذا العامل نفسه كتبت أيضاً « مأساة أوديب » الشبيهة الباكية .

ولعل الناقد — وهو على صلة بفرقة المسرح المصرى الحديث — يعلم أنى كتبت مسرحية « مسمار جحا » هذه فى العام الماضى أى قبل الظروف الراهنة التى يشير إليها .

٤ — ثم يعود الناقد فينقل عن لشارلتن قوله : « إن المسرح يصور القوانين الكونية العليا التى تتحكم فى أقدار البشر ، ويضع الفرد على محك الأبدية المطلقة ليرى إن كان متفقاً مع روح الكون بأسره ، أو يصور مجتمعاً بشرياً خالصاً ويضع الفرد على محك الإدراك الفطرى والبديهة السليمة ليرى كيف يتصرف بما يتفق مع أوضاع ذلك المجتمع »

وينقل عن وليم آرتشر قوله : إن المسرح « يصور إرادة إنسان يصارع القوى التى تحده وتقلل من شأنه ، إنسان — وليكن أحدنا — يلقى به حياً على المسرح وهناك يناضل ضد القضاء ، أو ضد القوانين الاجتماعية أو ضد مجتمع حوله ، أو ضد نفسه إن دعت الحال ، أو ضد شهوات الذين يعيشون معه . »

وليعذرنى القارئ إنا اضطررت لإيراد هذا النص كله لأعقب على قول الناقد بعد ذلك : « وليس فى رواية مسمار جحا من ذلك شيء ملحوظ » .

ما أصنع بالله لأضع يد الناقد على ما فى المسرحية من كل هذه العناصر التى وردت فى هذه الأقوال المنقولة ؟ هل على أن أورد أمثلة لذلك ؟ لا بأس إذاً . فالقوانين العليا التى تتحكم فى أقدار البشر ... ألسنا نرى مثالا منها فى ذلك الإخفاق الذى لازم جحا فى كل عمل يزاوله مع وفور عقله وسعة حيله ، وذلك لفرط إيثاره وشدة مثاليته ؟ ومثالا آخر فى هذا الشعب الخانع المستسلم لتحكم الدخيل ما شاء الله أن يبقى كذلك ، حتى إذا برز من بينهم فرد واحد له الشجاعة الكافية ليرفع صوته : حى على الجهاد ، مضحياً بكل شيء فى سبيلهم ولو بحياته ، إذا بالقطيع الخامد ينتفض قضه بقضيضه ، وإذا بالطاغية الحاكم بأمره يدرك أنه قليل لا سلطان له على الكثير .

وأما قوله : أو يصور مجتمعاً بشرياً خالصاً ... إلخ فاندراج هذا فى مسرحية مسمار جحا لا يحتاج إلى بيان . وكذلك قول وليم آرتشر : إن المسرح يصور إرادة إنسان ... إلخ ، فجحا هو ذلك الإنسان الذى ناضل ضد القضاء ، « يارب لِمَ جعلت لسانها كأنه قلم القدر يخط على لوح الغيب كل ما سينزل على رأسى من المصائب والنكبات ؟ »

— ليت شعرى ! أنحن الوظيفة بحق أم بفقل ؟

— بحقك لا ريب

— ما الفرق بين هذا وذاك ؟ النتيجة واحدة !

سبحان الذى أخرج هذا الولد من صلبى !

وضد القوانين الاجتماعية والمجتمع حوله . وهذا واضح ، وضد نفسه :

حماد : ألم تزل يا عمى ضائق الصدر بهذا المنصب ؟

جحا : أكاد أختنق !

وضد شهوات الذين يعيشون معه : هل يحتاج هذا إلى بيان ؟ فلتكن شهوات أم الغصن زوجته مثالا واحداً من أمثلة كثيرة .

٥ — ثم أخذ الناقد يعلل ما زعمه من خلو رواية مسمار جحا من هذه الأمور السابقة بالأسباب الآتية :—

أولا : أن المؤلف قد وضع فى ذهنه النتيجة التى يريد الوصول إليها قبل أن يضع المقدمات ... إلخ . وهذا كلام عجيب ، وتكفى نظرة بسيطة على أحداث الرواية ليظهر القارئ أو الشاهد « أن كل نقطة فيها نتيجة حتمية للنقطة التى قبلها » فليأتى الناقد الفاضل بنقطة واحدة فى المسرحية ليست « مترتبة منطقياً على ما قبلها » .

ويظهر لى أن الذى أوقع الناقد فى هذا الوهم خلطه بين أمرين مختلفين هما : فكرة المسرحية The premise of the play وخطوات خلقها فى ذهن المؤلف The process of its creation

ثانياً : أن المؤلف « حاول أن يجعل تعقيدات الرواية بحلول افتعالية » . وضرب الناقد مثلاً لذلك ما جاء فى الحوار بين جحا والحاكم من الإشارة إلى المبادئ الهدامة وأن الدين خير عاصم منها ، وزعم الناقد أن وجه الافتعال

هنا هو في ذكر هذه الحقيقة دون تمهيد لها ودون أن يستنطق الحوادث بها . فواعجبا من الناقد كيف غفل عن أمر واضح وهو أن المشهد الأول كله يعتبر هذا التمهيد الذي التمسه الناقد فلم يجده ! على أن ورود هذه الحقيقة في سياق الحوار بين جحا والحاكم لا يمكن اعتباره حلاً لعقدة مّا على الاطلاق . فهل أراد الناقد أن يقول إنها مقحمة إقحاما فخانه التعبير فقال إنها حلّ مفتعل ؟ إن كان هذا ما يقصده الناقد فالجواب على ذلك ألاّ إقحام البتة هنا ، فإن الحاكم يحاول أن يقنع جحا بدعوة الشعب إلى السكينة والرضا ببقاء الاحتلال لحماية البلاد من أولئك الفوضويين ومن مذهبهم الذي قد يعصف بتراثها المجيد ، وهذا طبيعي من الحاكم ، وكان جواب جحا بألا خوف علينا ما ابعنا دينا الخ طبيعياً أيضاً .

ثالثاً : أن المؤلف قصر اهتمامه على شخصية جحا الخ .. وهذا غير صحيح ، ويكفي ما تقيه « القصر » مثلاً من عناية المؤلف بسيكولوجيته الحقيقة داحضا لهذا الزعم . وأنكر الناقد على المؤلف « أنه احتفظ لجحا بسماته ونوادره التي يرويها عنه الرواة » . وهذا في رأيي ينبغي أن يعد من حسنات التأليف لا من سيئاته ، بشهادة الناقد نفسه ، إذ قال في أول المقال : « إذ أن مؤلفها قد نحا منحى جديداً سواء في المادة أو الموضوع أو الهدف ، فقد أخذ إطارها من نوادر وحكايات متواترة وصبّ في هذا الإطار مضموناً يخالف مضمونها الأول » الخ .

أما قوله بعد ذلك : « وبذلك قد صور لنا جحا الذي يعرفه الناس بدلا من أن يصوره مسرحيا » فهذا زعم غريب وليس لي من رد عليه إلا أن أطالب الناقد بأن يحدّد لنا ما هية جحا الذي تعرفه عامة الناس لنرى مبلغ صحة ما الادعاء من أن المؤلف لم يصوّره مسرحياً .

رابعاً : أن المؤلف أكثر من سرد العبارات الفكاهية والخطب الحماسية والمونولوجات الوعظية والمناظرات التي يدور فيها الصراع نكتة ونكتة أو بين خطبة وخطبة دون أن يعير اهتماما كبيراً لما يقوم عليه المسرح من فصل ورد فعل .

ماذا يقصد من إنكار العبارات الفكاهية ؟ هل يقصد أنها مقحمة إقحاماً ؟ والخطب الحماسية أين هي ؟ أتلك الخطبة التي ألقاها جحا في المشهد الأول بأمر الوالي الذي أراد أن يضبطه متلبساً بجريرته المزعومة ؟ وهذه الخطبة لم تستغرق غير بضعة سطور إذ قطعها الوالي بعد ذلك . أفيقترح الناقد إلغاء هذه الخطبة ؟ إذاً فكيف يعرف المشاهد أسلوب جحا في وعظه ؟ وهذا الأسلوب عنصر أساسيّ في تكوين شخصيته . أم يقترح إلغاء تلك المناظرة بين جحا وأبي صفوان ؟ إذاً فقد غاب عن الناقد أن أبا صفوان هذا قد جيء به لإيقاع جحا في الفخ الذي نصبه الوالي . أما قول الناقد : بين خطبة وخطبة فلعل الناقد يتحدث عن رواية أخرى غير « مسمار جحا » إذ لا وجود فيها لهذه السلسلة في الخطب . أما مازعمه الناقد من أن المؤلف لم يعر اهتماما كبيراً لما يقوم عليه المسرح من فعل ورد فعل فهذا غير صحيح ، إذ ليست مسرحية مسمار جحا من أولها إلى آخرها إلاّ هذا الفعل ورد الفعل .

٦ — ثم قال الناقد : « إن برنارد شو استخدم مسرحه في نشر أفكاره إلاّ أن ذلك لم يضعف من قيمته الفنية ، وذلك لأنه التزم الأوضاع المسرحية وأخلص لها واستوفى كل عناصرها ، في حين أن مؤلفنا لم يستوف معظمها حتى الصراع الفني — وهو أهمها — قد خلت روايته منه خلوا تاما » .

وأجمل تعقيبي على هذه الجملة فيما يأتي : —

ا — أن الناقد زعم أن مسرحية مسمار جحا خلت من الصراع الفني خلوًّا تاما . ولا أدري كيف غفل الناقد عما تزخر به المسرحية من هذا الصراع . فهناك صراع بين مثالية جحا وماديّة أم الغصن استمر من أول الرواية إلى آخرها ، وهناك صراع بين جحا الذي لا تحتمل نفسه الضيم أو الظلم أن يقع عليه أو على غيره وبين القابضين على أزمة المجتمع الذي يعيش فيه وأذنابهم وردادهم ، وصراع بينه وبين الأوضاع الاجتماعية الفاسدة التي يتمثل بعضها في تعاطي أبي سحتوت الربا ووجود علماء السوء الذين يضلون الناس بدلاً من أن يهدوهم كأبي صفوان .

ب : يفهم من هذه الجملة فيما يختص ببرنارد شو أن

الثقافة

العـــدد ٦٧٥
٣ من ديسمبر ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

صفحة

الجهــــاد

أبناءَ مصرَ إلى الهيجاء فانطلقوا — أنيابُ أعدائكم قد كُشّرت لكمُ
واللهِ واللهِ لا نُبـــقي لهم أثراً — أو أن يُوَلّوا فِراراً ذلكَ القَسَمُ
مَنْ ذا يُخَوِّلُ للأعداء وطأتهم — في أرضِنا بعدَ ما حَلّوا وقد ظلموا
بالأمسِ ميثاقُهم ألغتهُ دولتُنا — إلغـــاء بَتٍّ كما لِلحُرِّ بحتكمُ
عُدّوا لهم ما استطعتم فوقَ طاقتكم — واستمطروا صَيِّباً منهم فينتقمُ
يا مُرْسِلَ الطيرِ بالأحجارِ إفنِهِمُو — كما رَجَمْتَ صِحابَ الفيلِ فانهزموا
أهرامُ أجدادِكم كادتْ تخاطبُكم — شُدّوا الصفوفَ مع النحّاسِ تعتصموا
يا حَرَّ قلبي على الأبرارِ إذ قُتلوا — فالدمعُ يغلبني والجرحُ منكتمُ

أحمد على الحولى
بمعهد القاهرة الدينى

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٧٥ — الاثنين ٤ من ربيع الأول سنة ١٣٧١ — ٣ من ديسمبر سنة ١٩٥١ — السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

الكراهية الصامتة

للدكتور زكي نجيب محمود

عجيبة هذه الكراهية التي قد يحملها الناس أحياناً بعضهم لبعض بغير سبب ظاهر معقول ! فترى رجلاً وقد اتخذ موقف الكراهية والمعارضة من رجل آخر ، مع أنهما بعدُ لم تصلهما صلة من حديث أو عمل ! لكنه يحس من نفسه استعداداً لرفض ما عسى أن يقوله هذا الآخر قبل أن يقوله ؛ لأن رفضه في الواقع منصبٌ على شخصه ، فإذا رأيته معارضاً لأقواله مفنداً لآرائه ، فإنما جاء ذلك عن كراهية لاحقة لكراهية سابقة ؛ إنه قد بدأ برفضه للشخص ذاته ، ثم عقّب على ذلك برفضه لأقواله وآرائه كائنة ما كانت ؛ فإن قال هذا عن شيء إنه أبيض رأى هو أنه أسود ، أو قال هذا عن شيء إنه أسود ، رأى هو أنه أبيض ، لا إخلاصاً في التعبير عما يراه حقاً وصدقاً ، بل رغبة في نبذ هذا الشخص المكروه بكل ما ينطق به من نبأ أو حديث .

وكثيراً ما تكون هذه هي نفسها العلاقة بين جماعة وجماعة ، أو بين جيل وجيل ، فترى الكراهية بينهما صامتة قائمة متحفزة متأهبة تتحين الفرص والظروف ، حتى إذا ما سنحت لإحداها اللحظة المواتية تنفث سمومها على الخصيمة الكريهة دفعة واحدة ، كأنما سيل حبيس وجد الثغرة فاندفق ! إنك لتعجب أحياناً كيف تكفي الحادثة التافهة لإثارة حرب طاحنة بين شعبين ، أو لإعلان خصومة حادة بين أسرتين ! والواقع أن قد كانت الكراهية بين الجماعتين قائمة وإن تكن صامتة ، ثم سنحت فرصة إعلانها ، كأنها المرض الخبيث المزمن ، يكمن حيناً حتى ليُظَنّ بصاحبه الشفاء ، فإذا لفحة خفيفة من البرد تثير كوامنه وتشعل خوامده .

وبين أبناء الجيلين المتعاقبين تقوم مثل هذه الكراهية الصامتة العجيبة ، فأبناء الجيل المقبل — في أغلب الأحيان — ثائرون ثائرون على أبناء الجيل المدبر ، الأبناء لا يعجبهم سلوك آبائهم ، والأدباء لا يرضيهم أدب شيوخهم ، والمشتغلون بالسياسة يرون في القادة قوة رجعية لابد من زوالها ! وكذلك أبناء الجيل المدبر — في أغلب الأحيان — مستخفون بأولئك الصغار الناشئين ، حتى ليكاد يستحيل عليهم أن يتصوروا أن من هؤلاء الناشئين أحداً هيأه الله لملء فراغهم ، فلا الوالدون يرون في أبنائهم ما عهدوه في أنفسهم من متين الخلق وحميد الخصال ، ولا الأدباء يحسون

فى أدب الناشئين شيئاً ذا غناء وبال . ولا قادة السياسة يطمئنون إلى أن هذا الشباب الغر قادر على تسيير السفينة بمثل ماسيروها ؛ الجيل القبل والجيل المدبر . كلاهما ينظر إلى الآخر نظرة المرتاب . فإذا هو عند الأول سائر إلى أمام ، وإذا هو عند الثانى منزلق إلى وراء ... وهكذا ترى ثورة أولئك على هؤلاء ، واستخفاف هؤلاء بأولئك ، مظهرين الكراهية الصامتة القائمة بينهما — الكراهية التى ترفض القول نتيجة رفض قائله ، ولا تنتظر حتى تسمع مايقوله القائل قبل أن تنتهى إلى رفض أو قبول .

هكذا قد تكره شخصاً من الناس ولا تدرى لماذا ، أو لعلك تستطيع أن تدرى لو أخذت فى تحليل الموقف على نحو مايفعل علماء التحليل النفسى فى أمثال هذه الحالات ؛ فهم يزعمون أن الكراهية سبباً قد طمرته الأحداث فاختفى من العين السطحية العابرة ، لكنه لايخفى على العين الفاحصة التى تنبش حتى تزيح عن العقدة الخفية ركام الحوادث ، فتخرجها إلى ضوء الشمس من جديد .

وإلا فقل لى بربك ماذا ترى بينى وبين هذه البائعة الصغيرة لأوراق النصيب ؟ إنها بنت فى نحو العاشرة من عمرها ، كثيراً ماتطوف بأوراقها فى مشارب القاهرة ، أراها مقبلة فكأنما رأيت الحية الخبيثة تسعى ، وأسمعها تنطق فكأن الصوت هو الفحيح الذى تقشعر له الجلود ؛ إنها فى أغلب الحالات تجىء مصبوغة الشعر فى أصفر فاقع لايلائم وجهها ، وقد ألبسها ذووها ثوباً ذا بريق عجيب ، فصّلوه لها — فى أرجح الظن — من ستار نافذة قديم ، وعلى قدميها حذاء أبيض خفيف ، والوجه بين هذه البقع اللامعة مُطيلّ وقد علته غلالة من قذارة لاصقة ببشرته .. يا إلهى من هذه البنت الصغيرة حين تُقبل ، ناظرة بعينيها الضيقتين من ذلك الوجه الكريه ! إذا رأيتها أشحت بوجهى أو أسرعت إلى صحيفة أو كتاب أدسّ فيه عينىّ فلا أراها ؛ وكثيراً مانادبت أقرب خادم لأصبّ عليه انفعال غضبى أن أذنوا لها بالدخول فى مثل هذا المكان ، فتتخلل صفوف موائده ، ولاترحم حتى هذا الركن الهادىء البعيد الذى أحِبُّ عادة أن أختبىء فى ظلامه ... إنها مسكينة تسعى إلى رزقها ، وأنا أعلم ذلك ، لكنى أعلم ذلك بعقلى ، أما شعورى الذى لاحيلة لى فيه فهو شعور الكراهية الشديدة التى يستحيل أن أجد لها سبباً ظاهراً معقولا ، اللهم إلا أن يكون السبب هو هذا الذوق البشع الفظيع فى طريقة لفّها وطلْيها ، لتبدو — فى ظن من لفّها وطلاها — « للذوات » بنتاً من « الذوات » أخنى الدهر على أهلها ، فترحم قلوبهم ؛ وليتنى ألتقى بذويها يوماً ، لأنبئهم أن أرحم القلوب قمين أن ينقلب جلموداً من الصخر لهذه الكتلة المتحركة من الكذب والزيف .

إنها الكراهية الصامتة القائمة بين الناس أفراداً وجماعات ، وليقل فى تحليلها وتعليلها أصحاب البحوث النفسية ماشاءوا من أسباب دفينة خبيئة ، لأن ذلك لايغير من الأمر شيئاً ، فلا يزال الأمر الواقع هو أنك قد تحمل لهذا أو لذاك كراهية لغير ماسبب ظاهر ، فتوحى لك الكراهية أن تتخذ الأهبة لرفض مايقوله الكريه قبل أن ينطق به — وإلى جانب هذه الكراهية التى تحملها لبعض الناس ، حب تحمله لبعضهم الآخر ، يميل بك إلى قبولهم وقبول كلامهم وآرائهم ، كأنها فى أذنك النغم الجميل ، وعلى ذوقك العسل المصفى .

فكأنما تسير بين الناس وفى جعبتك عدة شعورية تقابل بها مايقولونه وما يفعلونه بالقبول أو بالرفض ، لا لأنها مقبولة لذاتها مرفوضة لذاتها ، بل لأنك تكره هنا وتحب هناك ؛ إن من أقوى الدعابات الفكرية التى قرأتها ، لمحة لنيتشه ، يقول فيها إن منطق الناس لايسير من المبررات العقلية إلى إرادة أداء الأفعال التى تترتب عليها ، بل يسير على عكس ذلك من إرادة أداء أفعال معينة يشتهيها الفاعل بعاطفته ، ثم يبحث لها بعدئذ عن مبرراتها العقلية ؛ أى أنك لاتقول : إن عقلى يرى الصواب من الأمر كذا وكذا ولذلك فإنى فاعل كيت وكيت ، بل تقول : إنى فاعل كيت وكيت ولذلك فإن عقلى سيجد له من المبررات كذا وكذا .

العاطفة من حب وكراهية تأتى عند الناس أولاً ، ثم يأتى بعد ذلك قبول الآراء ورفضها فى ظل تلك العاطفة ؛ وقد تخفّ هذه الشدة الشعورية عند فرد حتى لا تبدو آثارها إلا لماما وفى لمسات رقيقة ، لكنها قد تشتد عند فرد آخر فتصبح عاطفة جارفة كعاطفة العاشق الولهان أو الوطنى المتحمس أو صاحب العقيدة الذى ملأه الهوس نحو عقيدته — وعندئذ تعمى العيون وتصم الآذان ، فلا يرى صاحب العاطفة ولا يسمع إلا ما يغذى فيه عاطفته تلك ،

فعين الرضى — كما يقول الشاعر — عن كل عيب كليلة ، ولكن عين السخط تبدى المساويا .

فلا شك في عين الكاره أبالسة وشياطين ؛ وعبثاً تحاول إقناع الكاره بتغيير رأيه فيمن يكره ، إلا إذا انتزعت أولا منظاره الأسود من فوق عينيه . أما أن يظل منظاره ذاك أمام عينيه ، ثم تحاول بعد ذلك أن تريه بياض الأشياء ونقاءها وطهرها ، فأنت عندئذ كمن يحاول أن يجمع النقيضين معاً ! والظاهر أن الجماعات الإنسانية قد أدركت ذلك منذ زمن بعيد ، فحرصت عليه في تربيتها لأفرادها ؛ فالجماعة المعينة تريد لأبنائها أن يحبوا شيئاً ويكرهوا شيئاً ، فحسبها أن تلبسهم مناظير فوق أنوفهم باللون الذي تريد لهم أن يروه ، وهي بعد ذلك على يقين من أنهم سيسوقون لمشيئتها سوق الأغنام الراضية .

ولعلك تلاحظ هنا أن الإنسان لا يرى زجاج منظاره ، وإن يكن ينظر خلاله إلى كل شيء عداه ؛ ومن ثم لا يدرك التعصب أنه متعصب ، لا يدرك ذلك أبداً إلا إذا جاءته رحمة الله تخلع منظاره الملوّن من عينيه ؛ فتعدد الآراء في الشيء الواحد هو في الحقيقة اختلاف في ألوان المناظير ، لا في الشيء ذاته ، ولا في العيون التي تستطيع أن ترى الشيء على حقيقته لو تُمكّن لها أن تراه مباشرة وبغير منظار .

قد أنظر إلى الجماعة من الأصدقاء ، وقد أستمع إليهم يديرون المحاورة حول موضوع ، فيقول الواحد منهم رأيا ليدحضه صديقه ، فأهمس لنفسي عندئذ : ترى كم بين هؤلاء الأصدقاء من كراهية صامتة لا تعلن عن نفسها ؟ إن الحب محمود عند الناس ولذلك فهم يسرعون إلى إعلانه إن كان بينهم منه شيء كثير أو قليل ، أما الكراهية فمرذولة ممقوتة ، ولذلك فهي مضطرة إلى التستر في صمت وراء أقنعة الرياء ؛ ثم أسأل نفسي عندما تخلص جماعة الأصدقاء في حديثها بدحض بعضهم آراء بعض : ترى إلى أي حد صدر الرافض للرأي عن صدق مخلص ، وإلى أي حد صدر عن كراهيته المكنونة في صدره ، التي يحرص على إخفائها حرص تاجر المخدر على إخفاء بضاعته ؟

وإنما جاءتني هذه المقارنة بين الخبيئين ، لأن كليهما قد يثرى صاحبه من وراء الستار ، ولست أدرى كم جمعت تجارة المخدر لأصحابها من ثراء ، لكني أستطيع أن أدلك على طرف يسير مما جاءت به الكراهية الخفية على الكارهين من ربح نفسي موفور ! فبمقدار كراهيتك للناس والأشياء والأوضاع من حولك ، تكون مقاومتك لها ومحاربتك إياها ، ثم بمقدار هذه المقاومة والمحاربة يكون التقدم بالحياة من حال إلى حال : كره الناس حكامهم الطغاة فقاتلوهم حتى ظفروا بحريتهم من سياط طغيانهم ، وكره الفقراء أن يتمتع الأغنياء بكل شيء من دونهم فطالبوا بالإصلاح حتى رأينا الضرائب تجبى بكثرة على الأغنياء ليعيش الفقراء ... فهذه وأمثالها كراهيات منتجة ، لكنها أنتجت حين أعلنت عن نفسها ، ولو لبثت على صمتها كامنة في النفوس لظلت على عقمها .

آه لو شُقّت الصدور وفُتحت القلوب ، لترى كم اختبأ فيها من عناقيد المضرم المر — مضرم الكراهية التي يحملها الناس بعضهم لبعض ، ثم لا يكشفون ! ورحمك الله يا « فرويد » حين وضعت أصابع الناس على حقيقة عالمهم وأمزجتهم ، وهي هذا العداء المستحكم بين الابن وأبيه منذ الطفولة ، ولو أدرك الآباء هذه الحقيقة على حرفها كله ، لساسوا أبناءهم بما يخفف حدة هذه الطبيعة البشعة بدل أن يزيدوا النار لهباً وسعيراً ... هل تصدق أن هذه البسمات التي يتبادلها الزوجان لا تخفي وراءها كراهية وضيقاً ؟ هل تصدق أن هذا الود يتقارضه الصديقان لا يطوى في أحشائه غلا وحسدا ؟ ... إنه البشر وإنها طبيعته .

وما كل طبيعي مقبول ، فالطبيعي للماء النيل أن يأتي ممزوجا بالطين ، لكننا ننقيه ونصفيه في الصنابير والمواسير قبل شربه ، والطبيعي للطرقات أن تكون رمالاً وأحجاراً ، لكننا نمهدها ونرصفها ليسهل السير فيها ... فإن كان من الطبيعي للبشر أن تسكن الكراهية قلوب الناس ونفوسهم ، فلابد من التنقية والتصفية والتمهيد والرصف حتى يتم التعامل بين إنسان وإنسان .

فلنعلن من الكراهية التي نحملها في صدورنا عما عساه أن ينتج خيراً بإعلانه ، كهذه الكراهية التي أعلنتها الشعوب ضد حكامها الطغاة ، والتي أعلنها الفقراء على الأغنياء ؟ أما ما عدا ذلك فالخير في حبسه في الصدور ، حيث تظل الكراهية هناك بين جدرانها صامتة ، لا أثر لها ولا خطر ، اللهم إلا ضيق الصدور الحابسة وكنمة النفوس الكارهة .

زكي نجيب محمود

ضرب الإسكندرية ، وضرب الإسماعيلية

للدكتور أحمد أمين بك

في ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ دبر الإنجليز مؤامرة ظهر أثرها فيما بعد ، فقد تشاجر رجل مالطي مع حمّار مصري في الإسكندرية ، لأن المالطي ركب الحمار ، وأبى أن يدفع أجرته لتمالئ وجهت إليه ، فلما طالبه الحمّار ، وكان المالطي ثملاً من الخمر طعن الحمّار بمدية ، فاجتمع مع الحمار قوم مثله يساعدونه ومع المالطي قوم مثله يعاونونه ، وبدأ الأوربيون يطلقون النار من نوافذ بيوتهم على المصريين ، فأراد بعض الرعاع أن يثأر منهم ، وعظم القتال بين الفريقين وعجزت الحكومة أو تعاجزت عن فض هذا الشكل ، وكان من نتيجته كثرة الهياج ، وإعلان سيمور أنه سيضرب الإسكندرية إن لم تسلم إليه قلاعها ، ولم يكن من المعقول أن تسلم أمة قلاعها طوعاً واختياراً ، وكل ذنبها أنها كانت ترمم قلاعها لما رأت الشر بادياً من أعدائها ، وزاد الهرج والمرج واضطرب الأهالي لما رأوا أن قلاعهم قد دكت ، حتى بلغ أن كثيراً منهم فرّ من الإسكندرية ، وسموا هذه السنة سنة « الهوجة » ونزل الإنجليز الإسكندرية ، ولما خرجوا منها إلى داخل البلاد المصرية أشعلوا فيها النار ، وأتبع ذلك ثورة عرابي واحتلال الإنجليز مصر .

هذا ما كان في سنة ١٨٨٢ ، وتغيرت الدنيا بعد ذلك تغيراً كبيراً ، ففي هذه السبعين سنة كانت مصر منعزلة ، فاتصلت بالعالم ، وتعلمت دسائس الإنجليز ومكرهم ، وكان المصريون يرتاعون من أي قنبلة ، فإذا هم بعد تلك السنين يصنعون القنابل ، ويرمونها على أعدائهم كما ترمى عليهم ، ومهروا في ذلك مهارة كبيرة ، وتنبه الوعي القومي تنبهاً كبيراً ، وصمموا على جلاء الإنجليز ، وقالوا : « إننا عشرون مليوناً فليذهب منا مليون بالقنابل وأمثالها ، وليبق بعد ذلك من بقي ، متمتعاً بحريته » .

وبعد كل هذا يأتي تشرشل ووزارته فيعالجون الأمور كما عالجها أسلافهم منذ سبعين عاماً ، غير حاسبين حساباً لكل هذه العوامل والتغيرات ، فيقررون ضرب مدينة الإسماعيلية معتقدين أن هذا سيحل مشكلتهم كما حل ضرب الإسكندرية مشكلتهم من قبل ، وهو شيء يستوجب السخرية حقاً ، والضحك من أعماق الصدور ، فما ينفع في حين ، قد لا ينفع في حين آخر ، بل قد يكون الأمر على العكس ، فتغير الزمن القليل جعل السفور فضيلة ، والحجاب رذيلة ، لتغير الظروف ، وما كان يفعله الأب في بيته أمس مع أبنائه لا يستطيع أن يعمل عشره اليوم ، والكلمة التي كانت تعد مؤدبة أمس ، تعد نابية اليوم ، والحجاز التي كانت تركب الجمال ، أصبحت تركب السيارات والطيارات ، والحمير التي كانت تملأ القاهرة ، حل محلها السيارات ، والقطارات التي كانت تعد موضة جديدة ، أصبحت تعد موضة قديمة ، وهكذا من آلاف الأمثلة التي تدل على أن للزمان أحكاماً وعلاج المشاكل اليوم غيره بالأمس ؛ ولكن مع الأسف ، كل شيء في الدنيا تغير إلا عقلية ساسة الإنجليز ، يرون أن علاج الأمس صالح اليوم ، ويرون أن شيئاً قليلاً من التهويش على الأمم المستعمرة ، يحلها لهم كما كان يحلها من قبل ، وأن ضرب قنبلة أو قنبلتين على الإسماعيلية يجعل مصر كلها من أولها إلى آخرها تسجد أمام الإنجليز وتطلب منهم الأمان .

لقد ضلوا ضلالاً بعيداً ، وتبين أن سياستهم هذه لم تنفع في الهند فجلوا عنها ، ولم تنفع في إيران ومصر ، فسيجلون عنهما ، وسيعلمون من هذا أن برامج السياسة القديمة لا بد أن تعدل وتحل محلها سياسة جديدة بمقتضاها يلغى الاحتلال والاستعمار والانتداب ، وتحل الألفة والصداقة محل القنابل والنفاثات والطرادات ، وإلا فقدوا البلاد وفقدوا الصداقة .

إن ما كان حقيقة أمس ، أصبح رواية هزلية اليوم ، وما كان يستخرج من المصريين والإيرانيين والهنود ، ذلهم وسجودهم ، أصبح يستخرج منهم ضحكهم . بل أصبحوا يلتذون من القنابل لذتهم من الموسيقى ، إذ يعتقدون أنها تقربهم من غايتهم . والزمن قد استدار . فالعنف يفيد

مع « توفيق الحكيم »

[أما أنا فليس لى خط ماض قريب ... أملى أن أمد أيضاً إلى ذلك الماضى السحيق الذى كادت تدرس معالمه تحت رمال الزمن .. وأن أمتد إلى حياء المستقبل من خلال غيوم الحاضر ...]

« توفيق الحكيم »

كانت الساعة العاشرة والنصف حينما وصلت إلى دار الكتب المصرية . ولم أكد أخطو بداخلها ، وتحتوينى جدرانها ، حتى أحسست بأنى لم أعد غريباً على هذا المكان مثلما كنت أشعر من قبل . فمديرها رجل أديب فنان يعرف قيمة الثقافة ويشارك فى المعرفة ، ويضيف إلى كتب الدار كتباً هى عصارة فنه وفكره ... فليس حسبه أن يأتى لها بالكتب من الخارج .

ولم أكد أطل عليه برأسى من وراء باب مكتبه حتى قام محيياً باسماً وقال : إنك لم « تكذب خبراً » فأسرعت لأخذ الحديث . قلت : والله خشيت أن « تنسى » اتفاقى معك . قال : وهل لديك أسئلة معينة ؟ قلت : آمل فى ذلك لولا خشيتى من مزاجك الشخصى . قال : إذاً فابدأ . قلت : هل يذكر الأستاذ مقالا كتبته فى مثل هذا الشهر من العام الماضى فى « الثقافة » تحت عنوان « الأسطورة فى الأدب العربى » فقد جاءت فيه عبارة خاصة بك إذ قلت : « لقد حاول الأدباء أن يتخذوا من القرآن مثلا أعلى فى أعمالهم ، وجعلوا يقتبسون منه الحكاية تلو الحكاية من أجل أن يقصوها على طريقتهم وحسب ما تمليه عليهم أفكارهم العصرية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يأخذوا الإذن بالتصرف الذى يوائم اتجاههم الفنى . ومن ثم أخفقت الأسطورة فى الأدب العربى سواء فى رسالة الغفران لأبى العلاء ، وأهل الكهف وسليمان الحكيم و « محمد » لتوفيق الحكيم » فماذا ترى فى قولى ذلك ؟

وهنا حلقت عيون توفيق الحكيم فى أرجاء الغرفة . ثم فى النافذة التى يدخل منها الضوء إلى حجرة مكتبه وقال : لماذا لا تحاولون التماس تيار خفى للكاتب يجرى من تحت هذه الظواهر التى تبدو أمام أعينكم فى العمل الفنى . فأنا مثلا لم أقصد أن أتبع اتجاهاً أسطورياً صرفاً أو قصصياً بحتاً . ولكنى عنيت بأن أرسم فى داخلية هذا الاتجاه خطاً متصلا ينبع من فكرة معينة بالذات ، يمكن للناقد البناء أن يتقصى عليها خطه .. ولكن هذا الخط قلما يلتفت إليه أكثر الباحثين .. ذلك لأننا لم نزل فى عهد لم يظهر فيه بعد — إلا نادراً — تلك الطبقة من كبار النقاد الذين يعكفون على أدب بلادهم ، كما يفعل النقاد فى أدب الأوربيين ، ليخرجوا منه الاتجاهات ويخلقوا النظريات ، ويصلوا الأدب العربى الحديث بأرضه وسمائه وما يحيط به من مؤثرات وحضارات حتى يصبح أدباً مدروساً مبحوثاً كالآداب الكبرى .

هذا هو السر فى أن معظمنا يسأل قبل أن يبحث ! . إنك تسألنى عن رأيى فى قصصى القائم على الأساطير ؟ .. الجواب الصريح تجده فى كتابى « تحت شمس الفكر » . ولأجنبك المشقة . أقول لك الآن بسرعة : إنى أومن بوجود رواسب الآلاف من السنين باقية فى أعماقنا دائماً . وما عملى فى ناحية الأساطير سوى مجرد محاولة لمد حبل يربط حياتنا الروحية والفكرية فى أطوارها

القلوب ، ولا يفيد القالب ، وما كان مرهباً أصبح لا يرهب . وعبثاً ما يحاولون أن يملأوا البحار بالأساطيل والأرض بالجنود والسماء بالطائرات . فكل هذا لا يؤثر فى القلوب التى عمرت بالوطنية . واتخذت الجلاء عقيدة كعقيدة الدين ، والله مع الصابرين .

أمرٌ من أمرين : إما أن يتمسك ساسة الإنجليز بمناهجهم القديمة فيضيعوا ما فى أيديهم كرهاً بعد أن أضاعوا صداقة الأمم ، أو يغيروا من سياستهم فيخسروا البلاد ، ويكسبوا الصداقة ، وليست الصداقة بقليل ..

أحمد أمين

المتلقة ، كما يربط الإنسان طفولته بصباه بشبابه بكهولته في كائن واحد وروح واحد . إن روحنا الكامن لايتغير بتغير الأزمان ولايختلف كثيراً باختلاف العصور والأديان .

لقد جاء على لسان إيزيس في تمثيلية « شهرزاد » : « أنا كل ما كان ، كل مايكون ، كل ما سيكون » ! ..

لقد رأيت صلة خفية بين إيزيس الفرعونية وشهرزاد التي ظهرت في العصور العربية .. واقتبست من القرآن الكريم أفكاراً رأيت لها حقيقة غائرة في فلسفة مصر القديمة .. بل كنت فيها بذرة عن الوجود والعدم تتصل بمذهب الوجودية ، كما لاحظ بعضهم ، قبل أن تظهر الوجودية نفسها بسنوات .. فالماضي والحاضر والمستقبل يمكن أن تتحد في تفكيرنا وروحنا على هذه الأرض وفي هذه البلاد ، على الرغم من اختلاف العصور والأساطير والأردية والأزياء .. إن مصر قد حاربت الزمن منذ الأزل . وإنها لتنتصر دائماً على الزمن بروحها المتجدد .. إن مصر هي البعث الدائم لروح خالد . هذا الروح أو هذا القلب الدائم التجدد ، هو الذي أوحى إلى بربكا أن تقول في « أهل الكهف » : القلب قهر الزمن ! ...

ربما كان هذا أيضاً هو ما رأيت أن أجعله أساساً للتراجيديا العربية ، إن التراجيديا على وجه العموم هي التعبير عن صراع الإنسان ضد قوى أخرى ... وهذا سر من أسرار أهميتها .. هذا الصراع عند الإغريق يقوم بين الإنسان وآلهته ، وعند الأوربيين مثل (كورنى وراسين) ، يقوم بين الإنسان وعاطفته . ولقد رأيت أن الصراع في التراجيديا العربية أو المصرية يجب أن يقوم بين الإنسان وزمنه ..

الصراع بين الإنسان والزمن .. وما أدى إليه من فكرة البعث واللجوء إلى التسلح المادي بالتحنيط والتشييد عند المصريين القدماء ، والتسلح الروحي بالإيمان بجنة الخلد في المسيحية والإسلام . هذا الصراع بين الإنسان والزمن .. أي عوامل الفناء التي تهدد كيانه وتحلل شخصيته وتحطم بنيانه .. ألا يجوز أن نتخذ منه أساساً لنا في إقامة « تراجيديا مصرية عربية » ؟.

وسكت توفيق الحكيم ..

وهنا أخذت لنفسي قليلاً . وأخذت أتأمل في هذا الوجه المعمر بوقدة الفكر وفي ذلك الجسم الذي لا يكف عن الحركة مع ألفاظه وكلماته التي يخرجها في تقطع يشعرك بأنه يرسم الحديث الذي يلقيه ولا يكتفي بسرده .

وسألته قبل أن يتمادى في صمته من جديد سؤالاً آخر . قلت : ألاحظ حقاً — خصوصاً في مسرحياتك الفلسفية أنها تسير في هذا الاتجاه ؛ فالملاحظ أنك لا تؤلف للمسرح ، لمجرد إثارة العواطف السطحية . بل لمتابعة فكرة تؤمن بها في أعماق نفسك وتبنى عليها عملك .. ولكن هل يستطيع مسرحك أن يصل إلى الجماهير الحاضرة ؟ . .

— ينبغي ملاحظة أني بدأت العمل للمسرح كرجل مسرح فقط ، وحاولت تقديم شيء للجمهور أيام فرقة عكاشة التمثيلية منذ أكثر من ربع قرن . وأنتجت حينذاك رواية العريس وعلى بابا والمرأة الجديدة وخاتم سليمان . وكانت على بابا وخاتم سليمان أوبريت . أما تمثيلية المرأة الجديدة والعريس فقد أردت بهما معالجة مشاكل اجتماعية . ولا أنسى أن المراد من وراء تلك المسرحيات كان مجرد تسلية الجمهور المقبل على المسارح في ذلك الوقت . ولكن عندما أردت وضع المسرح على أساس جدى متصل بثقافتنا الأزلية وجدت أن حالة المسرح في مصر حتى اليوم لا تشجع على تمثيل هذا النوع من الروايات . ذلك أن اللون الغالب على مسارحنا الناجحة اليوم هو السيطرة على غرائز الجماهير بإغراقها في هذيان من الضحك أو سيل من الدموع . وقد أدت هذه النزعة التجارية الاستغلالية لغرائز الشعب إلى تحلل قواه الكامنة وتحطيم شخصيته الواعية وسلب إدراكه للمعاني والأهداف العليا التي يجب أن ينشط لها ويتهذب بها ليقفز ويثب إلى أعلى ... فالمسرح باعتباره أداة لإيقاظ عقل الشعب وتنبيه إدراكه وترقية فكره وتهذيب روحه وتكوين شخصيته لم يسخ عليه أحد بالمال والجهد ليؤثر في الشعب تأثيراً فعالاً .. ولكن المال أنفق وينفق بسخاء في تأسيس دور اللهو التي تخدر أعصاب الشعب . وهذا هو سر النجاح الخاطف الخارق للملاهي الاستعراضية وما هو على شاكلتها من مسارح الترفيه . لذلك أعتقد أنه لم يحن الوقت بعد لتمثيل روايات من النوع الذي تتحدث عنه . وعندما تكثر وتعم المسارح بمعناها الذي تفهمه وتقدم غذاءها النافع إلى الجماهير ... فإن من المحتمل

الروح الحـــديثة

للأستاذ على أدهم

بدأت تظهر سمات الروح الحديثة منذ أخذ عالم العصور الوسطى فى التصدع والانهيار ، وقد نمت هذه الروح الحديثة نمواً سريعاً خلال القرن الماضى ، ولكنها مع ذلك ليست خلقاً جديداً الجدة كلها ، ولم تستكمل بعد نواحيها المختلفة ، وقد استمدت الكثير من روح العصور الوسطى ، وقد كان تقدمها بطيئاً فى بادئ الأمر ، ولكن سرعة التغيرات التى اتاتها فى العهد الأخير مما يلفت النظر .

ولم تكن العصور الوسطى عهود ظلمات بعضها فوق بعض كما يتوهم بعض الناس ، بل لعلها فى إبان نضجها كانت أقل نكراً ووحشية من الحضارة الحديثة ، وإن كان المستقبل قد يجئ بحضارة أسمى تهذيباً وأرقى إنسانية من حضارة العصور الوسطى .

وما نسميه الروح الحديثة نتيجة تطورات تاريخية أسفرت عن وجود وجهات النظر السائدة فى العصر الحاضر ، وهذه الروح قد نمت وتطورت منذ تهدم بنيان عالم العصور الوسطى ، وقد نخلت مظاهر هذه الروح الحديثة واضحة غير منكورة وشملت نواحى العلم جميعها ، ولكنها مع ذلك لم تقطع كل صلاتها بعالم العصــور الوسطى الذى ظهرت على أنقاضه واستمدت قوتها من ضعفه وانهزامه وتخاذله ، وهى لا تزال محتفظة ببقايا من العصور الوسطى عالقة بها ، ويمكن القول بأنها تحول تدريجى لروح العصور الوسطى ، ولكنه ليس تحولاً كاملاً شاملا . وقد علينا أن نوضح سمات روح العصور الوسطى ونبين المراحـل المتوالية التى تنقلت فيها لتصبح بعد هذا التغير والتبديل الروح الحديثة ، ولعلنا نجد فى ذلك ما يعيننا على تفهم ما يحدث حولنا من التغيرات ومعرفة العناصر التى ظلت ثابتة على حالها والعناصر التى تغيرت .

كانت العصور الوسطى فى عهـد اكتمال قوتها قد استكملت جوانبها الثقافية ، وعناصر الثقافة فى العادة منفصل بعضها عن البعض الآخر ، بل فى بعض الأحيان تتصارع عناصرها المختلفة وتتعادى ، ولكن السر فى اكتمال ثقافة العصور الوسطى هو أن العناصر المختلفة المكونة لها اتحدت وتوحدت فى ظلال المعتقدات الدينية السائدة ، فكان الدين

أن هـذه التمثيليات تلعب دورها ؛ على أن هنالك روايتى الاجتماعية وخصوصاً فى كتاب « مسرح المجتمع » الذى يضم أكثر من عشرين مسرحية ، مستوحاة من مشكلات مجتمعنا الحاضر ، وما يجرى فيه من أطوار حياتنا اليومية ، الزاخرة بشتى الصور والأوضاع والاتجاهات المصرية ، خصوصاً بعد الحرب الأخيرة ... هـذا التصوير لحياة الشعب فى حاضره له فائدة كبرى فى الكشف عن حياته الماضية . ولأسوق لك مثلاً صغيراً : بعد أن ترجم كتابى « يوميات نائب فى الأرياف » ، ونشر فى الخارج ، وصلنى خطاب من عالم أثرى فى الآثار يخبرنى دهشاً أن علاقة الحكام بالمحكومين فى الريف المصرى الحاضر كما صورت فى كتابى تكاد تطابق تلك العلاقة نفسها فى حياة الفلاحين فى مصر القديمة ، وإن طريقة قيامهم بالشكوى والتظلم من حكامهم مشابهة لما حدث منهم قبل الميلاد بألف عام !... من ذلك يتضح أن التصوير الصادق لحياة الشعب الحاضرة يمكن أن يكشف النقاب عن حياته الماضية ، كما يمكن أن ينم عن اتجاهات حياته المستقبلة .. هذا الربط بين الماضى والحاضر والمستقبل فى حياة الأمة وروحها هو من أهداف الأدب التى اعتنقتها وحاولت تحقيقها .. ذلك أن شخصية الأمة هى وحدة لا تتجزأ تضم أمسها ويومها وغدها .. والأدب فى عقيدتى هو المنوط به عملية الكشف والربط والبعث والدفع لهذه المراحل فى شخصية الأمة . وبعبارة أخرى أقول لك :

« الأدب كان له معين تكشف الغطاء عن روح الأمة ، ويد تربط بين أجزاء شخصيتها ومراحل تطورها ، وقدم تسعى بها إلى غد أرقى ومستقبل أعدل .. »

وعندئذ قمت واقفاً وحييت الرجل تحية إنسان يشعر بما لهؤلاء الكبار من حق فى رقابنا نحن الشباب .

عبد الفتاح الجمل

والفلسفة والفن والعلم والسياسة والأخلاق تعبر جميعها عن الروح العامة الغالبة ، ولم يكن هذا يمنع وجود خلاف بين الناس في التفصيلات ، ولكن وراء تلك الخلافات كانت هناك الروح العامة الشاملة التي يستمد منها الجميع أفكارهم وتصوراتهم ، وكانت وحدة الثقافة هذه وحدة دينية ، والجانب الديني من الثقافة هو وحده الذي يستطيع توحيد الروح الإنسانية في الأفراد والجماعات ، وضعف العنصر الديني في ثقافة العصر الحديث هو الذي يجعل من الصعب إيجاد الوحدة الثقافية المنشودة والتي استطاعت العصور الوسطى إيجادها في ظلال الأديان الكبيرة مثل المسيحية والإسلام .

ولا نزاع في أن أهم ما أنتجه العصر الحديث هو العلم ، والقدرة على تطبيق هذا العلم لإنماء الحضارة ، والعلم الحديث ليس من تراث الماضي ، وإنما هو انتصار باهر أحرزته العصور الحديثة ، وميزة تفوقت بها على العصور السابقة . وامتداد سيطرة العلم على أحوال الحياة الإنسانية ، وبخاصة الأحوال المادية ، هو ما نسميه تقدم الحضارة الحديثة ؛ ويحسن أن أفرق هنا بين الثقافة والحضارة ، فالثقافة تتناول حياة الإنسان والأسلوب الذي يتبعه فيها ، أما الحضارة فإنها تتناول البيئة التي يعيش فيها ، وبين الثقافة والحضارة اتصال وثيق ، فلا حضارة بغير ثقافة ولا ثقافة بغير حضارة ، ولكن الفرق بينهما ظاهر برغم ذلك ؛ فقد تكون ثقافة أمة من الأمم نامية مزدهرة في حين أن حضارتها تكاد تكون بدائية ، فاليونان مثلاً لم تكن حضارتهم في المستوى السامي الذي بلغته ثقافتهم ؛ وقد تكون حضارة أمة من الأمم نامية متقدمة وثقافتها مع ذلك بدائية ؛ ومن أمثلة ذلك الأمة الرومانية ، فقد كان نصيبها من الحضارة موفوراً ولكن نصيبها من الثقافة لم يكن في مستوى حضارتها ؛ وأوربا الحديثة قد قطعت حضارتها أشواطاً بعيدة في سبيل التقدم ، ولكن ثقافتها مع ذلك متخلفة عن حضارتها ، أي أن قدرتها على السيطرة على أحوال الحياة قد بلغت مبلغاً لم تصل إليه الحضارات السابقة ، ولكن قدرتها على أن تحيا حياة جميلة مقبولة حتى في هذه الظروف المواتية لا تزال ضعيفة ؛ ومعنى هذا أن جوانب الحياة الداخلية لم تتوحد ، والسبب في ذلك عدم وجود العامل الهام في توحيد عناصر الثقافة المختلفة وهو المعتقد الديني .

والعامل الهام في تقدم الحضارة الحديثة هو العلم ، فتقدم العلم هو ميزة الروح الحديثة البارزة الملموسة ، ولذلك كان تقدم العالم الحديث تقدماً حضارياً قبل كل شيء ، فهو تقدم في زيادة السيطرة على قوى الطبيعة وتذليلها وإخضاعها وتسخيرها إلى حد كبير لمشيئة الإنسان ، وهو ليس تقدماً في الثقافة أو في القدرة على أن نحيى عيشة إنسانية صادقة سامية مهذبة .

وإذا نظرنا إلى الجانب الثقافي نظرة عامة وجدنا أن تقدم الروح الحديثة يكاد يكون من جميع الوجوه قصة تهدم البناء العالي الذي خلفته ثقافة العصور الوسطى ، فقد خلفت تلك العصور ثروة روحية ضخمة ، ولكن تقدم العلم لم يترفق بهذا التراث العظيم ، وعمل بالتدريج على تبديده وإنقاصه ، وقد ظل العالم الحديث يعيش على هذا التراث دون أن يزيد عليه شيئاً ، وليس معنى ذلك أنه لم تقم حركات ثقافية منذ العصور الوسطى ، فإن الأمر على نقيض ذلك ، ولكن الواقع أن الحياة الثقافية في العالم كانت على الدوام في موقف المدافع الذي يظهر بطولته في الدفاع ، ولكنه يخرج مع ذلك من كل معركة مدحوراً مهزوماً في سبيل الدفاع عن تراث تتناثر أجزاؤه شيئاً فشيئاً ؛ وكانت الحضارة الحديثة القائمة على العلم تحرز الانتصارات المتوالية ، وقد أرغمت الثقافة على ترك قلاعها الحصينة قلعة بعد قلعة حتى أصبحت في النهاية على مقربة من الهزيمة الساحقة . وتقدم الحضارة وانهزام الثقافة مظهران من مظاهر تقدم الروح الحديثة ، فتحلل الثقافة وتقدم الحضارة هما نتيجة محتومة لتقدم العلم ، لأن العلم من شأنه أن يوهن الثقافة ويقضي عليها دائماً ، لأن العلم الحديث هدم الأسس التي قامت عليها ثقافة العصور الوسطى الوروبية .

والسبب في ذلك واضح ؛ وذلك أن العلم يختص بالحقائق الواقعة ، والثقافة توجه عنايتها إلى القيم ، ونحن حينما نعنى بمعرفة الحقائق عن شيء من الأشياء نعمل على مقاومة ميولنا وعواطفنا لنجيد المعرفة ، واهتمام الروح الحديثة بإنماء العلم معناه أنها صرفت جهودها عن مسألة التقويم وحاولت أن تعرف الأشياء معرفة موضوعية خالصة غير متأثرة بالأهواء والميول ، فالعالم في العصر الحديث إذاً يعيش على ثقافة لم يشترك في إقامة أسسها ، ويأخذ بأذناب حضارة قائمة على العلم الذي وفق في ميدانه توفيقاً غير مسبوق وأتى فيه بما لم تأت به الأوائل .

ولكن الحقيقة وتنوعها لا يمكن أن يظلا منفصلين انفصالاً تاماً ، والقيم التي نود أن نعيش عليها هي القيم التي نستمدها من الدنيا التي نعرفها ونألفها . وقد كانت ثقافة العصور الوسطى مرتبطة ارتباطا وثيقاً بالمعتقدات التي كانت سائدة حين ذاك عن طبيعة الكون . وقد أظهر لنا تقدم العلم الحديث أن الكثير من هذه المعتقدات عن طبيعة الكون مصدرها الوهم والخطأ والخلط ، وهذه المعتقدات نفسها التي كشف العلم بطلانها هي الأسس التي قامت عليها الثقافة الموروثة عن العصور الوسطى ؛ والصورة العلمية التي كوّنها مفكرو العصر الحديث تختلف عن الصورة العلمية للدنيا التي قامت عليها ثقافة العصور الوسطى ، ولذا يلاحظ أن القيم الثقافية الموروثة عن العصور الوسطى قد انفصلت عن الأسس التي قامت عليها ، وليس معنى ذلك أنها أصبحت باطلة زائفة ، وإنما معناه أنها لا علاقة لها بالدنيا كما كشفها لنا العلم الحديث ولا صلة لها بالظروف والأحوال التي نعانيها في العصر الحديث ، فهي كأشياء سابحة في الهواء لا مستقر لها ولا أساس .

ومنذ نهاية العصور الوسطى اطرد تقدم العلم ، وصحبته زيادة السيطرة على أحوال الحياة ، وتطبيق هذه المعرفة النامية التدريجي كان معناه تقدم الحضارة المستمر ، وهذا هو الجانب الإيجابي في الروح الحديثة . أما الجانب الثاني في الصورة فهو الجانب السلبي ، وذلك أن التصور الحديث للدنيا قد هدم شيئاً فشيئاً أساس الثقافة الموروثة ، وقد قلل هذا بطبيعة الحال من قيمتها وأنقص قدرها . وقد بذلت محاولات جبارة لإنقاذها وإقامتها على أسس جديدة ، ولكن العصر الحديث لم يخلق بعد ثقافة جديدة ملائمة لحضارته العلمية ، ولذا كانت محاولة إنقاذ الثقافة الموروثة محاولة غير مجدية ، وبالرغم من كل ما بذل فإن الثقافة الموروثة عن العصور الوسطى في أزمات مستمرة وهزائم متوالية ، وانهيار جوانب الثقافة الموروثة هو الجانب السلبي في الروح الحديثة .

وقد مرت هذه الحركة ، حركة ظهور الروح الحديثة ، في ثلاث مراحل : مرحلة تقدم العلوم الطبيعية ، ومرحلة تقدم علوم الحياة ، ومرحلة تقدم العلوم النفسية ؛ والمرحلة الثالثة ما تزال في البداية ، وفي كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث كان الجانب الإيجابي في تقدم ، والجانب السلبي في تأخر ، والصلة بين تقدم الحضارة وتأخر الثقافة نتيجة التوتر بين الجانبين ، فالثقافة كانت دائماً تقاوم الهجوم على تصور الدنيا الذي يكون الأساس الذي قامت عليه واستمدت منه قيمها ؛ ولذا حاولت إقامة العراقيل في طريق البحث العلمي ، ولما أعجزها ذلك حاولت أن تحدد ميدانه وتحصر نطاقه . ومما يلاحظ أن بعض مناطق المعرفة من وجهة النظر الثقافية أهم من المناطق الأخرى ، والثقافة تعنى بالقيم التي نعيش عليها ، وهذه القيم متصلة بعواطفنا وميولنا اتصالا وثيقاً إلى حد أننا يمكن أن نعرف ثقافة أي مجتمع بأنها « تنظيم حياته العاطفية » ، والإنسان قوي الشعور بأشياء ولا يكاد يشعر بأشياء أخرى ، وهذه الفروق البارزة في نظرة الأقوام العاطفية تظل ثابتة إلى حد ما في كل مجتمع من المجتمعات البشرية بالرغم من أنها قد تتباين تباينا كبيراً في المجتمعات المختلفة أو في الأزمنة المختلفة ؛ ويمكن أن يقال بوجه عام إن عواطفنا تتأثر تأثراً أقوى بالأشياء التي تمس حياتنا الشخصية ؛ والبحث العلمي يتطلب النظرة المجردة غير المتأثرة بالعاطفة أو الهوى ، ومن ثم فإن البحث العلمي كلما تناول ناحية من نواحي البحث بعيدة عن مجال عواطفنا لقي مقاومة أقل ، وكلما اقترب من منطقة حياتنا الشخصية اشتدت المقاومة ، ولذلك كانت العلوم الطبيعية أسبق في التقدم وحركة التطور العلمي من العلوم التي تتناول الحياة ، وكانت كذلك علوم الحياة أسبق من العلوم الاجتماعية والنفسية ، وما تزال العلوم النفسية تلقى من المقاومة ما يعرقل سيرها ويعطل نموها ، وذلك لأنها أقرب إلى عواطفنا وأمس بحياتنا الثقافية ، والكثيرون حينما يفكرون في علم النفس لا يستطيعون الاحتفاظ بهدوئهم العلمي لأن نتائج هذا العلم تمسهم من قريب ، وتجعل عقلهم يفقد القدرة على التزام الحياد العلمي ؛ وقد يحملنا ذلك على الاعتقاد بأن بين العلم والثقافة شيئاً من الخلاف والنزاع ، وبأن العلم لا يتقدم إلا إذا قاوم الثقافة وقهرها في المعركة الناشبة بينهما ، ولكن هذا التفسير غير صحيح ، فالعلم الحديث إنما يقاوم الثقافة الموروثة لأنها قائمة على أسس قد زعزع أركانها وهدم جوانبها ، وحينما تنمو ثقافة جديدة على الأسس العلمية الحديثة يبطل هذا النزاع وينتهي عهد الصراع ، ويتعاون العلم والثقافة على تنظيم حياة الإنسان الداخلية والخارجية أو الثقافية والحضارية ؛ وأحسب الإنسانية سائرة في سبيل هذه الملاءمة المنشودة بين العلم والمعتقدات ، أو بين الحضارة والثقافة .

علي أدهم

تأثير الاستعمار

فى الاتجاه الفكرى الحديث

للأستاذ محمد مفيد الشوباشى

من الواضح المعلوم أن الاستعمار يقوم على الاستغلال ، وأن بقاءه متوقف على إبقاء الشعوب المستعمَرة مشغولة عن حقوقها باستغراقها فى السعى الشقى وراء الرزق ، ثم بما يبثه دعاة الاستعمار فى روعها من معتقدات ومثل خلقية تحبب إليها الصبر والقناعة والطاعة والرضا بالواقع والتعلل بآمال ليست فى الحقيقة إلا أضاليل أوهام ، وأضغاث أحلام .

والاستعمار لا يستغل البلاد التى يستعمرها فحسب ، ولكنه يستغل شعوبه كذلك . فمستعمراته تزوده بالخامات التى يحتاج إليها ، ثم تشترى أسواقها جل منتجاته الصناعية بأفدح الأثمان . أما شعوب البلاد المحتلة بجيوشه فتستنفد جهدها فى إدارة دولاب مصانعه لتوفر له ما يطمع فى إنتاجه من بضائع ، وتحقق له ما يحلم به من أرباح ، دون أن تستفيد هى بشىء مما تنتجه وتبذل فى سبيل إنتاجه صحتها وأعصابها ، بل وحياتها فى بعض الأحايين .

ومن الواضح كذلك أن الاستعمار يتوق إلى بقاء هـذه الحال ما بقيت الأيام ، وهو لذلك لا يحاول استبقاءها بجيوشه ونفوذه وماله فحسب ، ولـكنه يحاوله بما يبثه فى نفوس الشعوب من عقائد تخدم غرضه ، مستعينا فى ذلك بالمدارس والمعاهد والجامعات والمنشآت الثقافية . وهكذا استطاع أن يخلق البيئة التى تمده بنوع من رجال العلم والأدب والفن يحققون له من حيث يعلمون أو لا يعلمون أغراضه بما ينشرون بين الناس من إنتاجهم الثقافى "الميتافيزيقى" . وكلما ازداد الاستعمار ثروة وقوة ، وازدادت الشعوب المستغلة نتيجة لذلك فقرا وذلة ، اشتدت الحاجة إلى تجريع تلك الشعوب جرعات جديدة من تلك الثقافات الزائفة أقوى مفعولا حتى لا تفيق مما هى عليه من غفلة ...

ويسهل على من يفحص تاريخ أوربا خلال القرنين الأخيرين أن يتبين العلاقة بين إنتاج البلاد الأوربية الصناعى وبين إنتاجها الثقافى . فكلما ازدادت الصناعة ازدهارا ، وترتب على ذلك استشراء النزعة الاستعمارية ، ازداد ميل الإنتاج الثقافى إلى النوع الباطنى أو الروحانى أو الفكرى المجرد الذى يدعو إلى احتقار مطالب الحياة المادية ، والاستعاضة عنها بالمتع الروحية .

ظل الفريق الأكبر من حملة الأقلام ، خادعين أو مخدوعين ، يحاولون منذ نشأة النهضة الصناعية الغربية الحديثة ، تزهيد قرائهم ، والشعوب التى تتأثر بقرائهم ، فى خيرات الوجود ، وحملهم على احتقار الحاجات الدنيوية وتقديس الروحانيات والغيبيات . ولم يتركوا أسلوبا من أساليب الفصاحة المضللة ، أو حيلة من الحيل البيانية الخادعة إلا لجأوا إليها ليصرفوا الأقوام المستغلة ، بقصد أو بغير قصد سىء ، عن المطالبة بحقوقهم المادية المشروعة المهضومة . وكانوا يلقون من سادة الاستعمار ومن يدورون فى فلكهم كل تقدير وإعجاب ، وكل إجلال وإكبار . كانت تفتح لهم أبواب القصور ، ودور البيوتات ، والمحافل المؤسسات . وتبذل لهم الخيرات ، وتهش لهم الوجوه ، وتفترّ الثغور . وهكذا وجدوا ما يحفزهم على قطع شوطهم حتى آخره . أما الـكتاب الأحرار فلم يكتب لهم فى عالم الاستعمار إلا الفقر والحرمان والاحتقار ، وهكذا لم يجدوا إلا إنكار الفضل ، وتثبيط الهمة .

ولم يكتف المستعمرون بتلك الحملة الفكرية التى هيأوا لها سبل النشوء والازدهار ، ولـكنهم خشية من افتضاح أمرهم ، وظهور الحق سافرا ، اضطروا إلى النزول مدفوعين الميدان بأنفسهم . فإنك لتسمع من هنا أو من هناك صاحب جاه عريض ، أو صاحب مال وفير ، أو سياسيا خطيرا ، أو وزيرا كبيرا ، أو رئيس دولة عظمى ، تسمع هؤلاء ينادون متباكين بأن خطر النزعة المادية الحديثة يهدد تراث الحضارة الغربية ويكاد يودى بها . ويناشدون شعوبهم أن

تدفع ذلك الخطر باحتقار ماديات الحياة ، والاستمساك بالقيم المعنوية السامية ، والصفات الروحية النقية ، زاعمين أنها هي التي ترقى بالإنسان من مستوى البهيم ، وتتيح له الحياة الرضية الكريمة . ولم يحملهم أن يتكالبوا ، وهم يرددون هذه النزام المفرضة ، على متاع الدنيا ، وأن يحاولوا الاستئثار به لأنفسهم دون الشعوب المخدوعة التي استرقوا دماءها ، وامتصوا نخاعها . وتمادوا في التغرير بها ليصرفوها بزخرف الأوهام عن المطالبة إلى حقها المهضوم والمطالبة به . . . . لم يحملهم تمثيل هذا الدور المكشوف وهم يهضمون حقوقها عنتا ، ويجردونها حتى من مقومات الحياة الضرورية ، ويضربون حولها غيابة كثيفة من الجهل لتظل في غفلة عن حقها ، مخدوعة بتلك الأكاذيب ، وتضليل رجال الفكر ، سواء في ذلك الضالون منهم والضالون . على أن تلك الجرع المخدرة التي تعاطى سادة الاستعمار ، ودعاتهم من الكتاب والفنانين ، في تجريعها الشعوب المستغلة ، لم تحل دون استيقاظ فريق كبير من مهضومي الحقوق بعد طول الركود أو الرقاد . ولم تحل كذلك دون هبوب الأحرار من الكتاب والفنانين للتعبير عن إرادة تلك الشعوب المكبوتة ، ومعاونتها على فهم حقيقة وضعها ، وسلامة حقها ، وحفزها إلى تحطيم ما يكبلها من قيود . ومن ثم بدأ الصراع بين ثقافة البرج العاجي ، وبين الثقافة الواقعية المكافحة . وأخذت الشعوب تحرك لحوى رسالة الأدب الحر رويدا رويدا ، وتفهم معنى ما يردده الكتاب الأحرار من أن الاستعمار يحيى ويستفحل على المادة بينما يتظاهر باحتقارها . وأنه يخادع ويرائي إذ يتغنى بالعهد السابق على اختراع الآلة حيث كانت السيادة للمعنويات دون الماديات ، فهو يمقت ذلك العهد الذي كان سادة المال فيه عبيدا للأشراف ، ويزهى بنفسه لما حققه من ازدهار مادي . وهو إذ ينادي بوجوب استمساك الشعوب بالمبادئ الشريفة يحطم كل مبدأ شريف في سبيل تمكنه من المضي في استغلاله المادي . وهو لا يعترف إلا بالمادة ، ولا يؤمن بغيرها حتى أصبحت علاقات الناس في نظامه لا تقوم إلا عليها ، وقيم الناس لا تقاس إلا بها . وسارت أنبل العواطف خلف ركابها حتى لم يعد هناك حب أو تقدير ، أو أبوة أو بنوة ، أو غير ذلك من صلات الدم أو العاطفة النبيلة ، إلا وقد أثرت المادة فيها ونالت منها . فالاستعمار هو النظام المادي الخبيث الذي يتخذ من القوة المادية وسيلة للاستغلال والاستثراء على حساب الشعوب المقهورة التي تعدمه بتلك القوة .

حين استيقظت الفلسفة الأوربية من سباتها إبان القرن السابع عشر ، وأرادت التحرر من ربقة العقائد الفلسفية القديمة التي استعبدتها حقبة طويلة ، ومن تحكم رجال الكنيسة الذين حاولوا باسم الدين المسيحي أن يمنعوا حدوث أي تطور وتغيير ، ونادت بضرورة فهم الحياة على ضوء العقل المفكر دون النصوص القديمة ، على أن تكون الحواس دون الفكر المجرد هي أداة تمحيص الواقع وإدراكه على حقيقته ، شعر رجال النفوذ والسلطان حينذاك بالخطر الذي يتهدد نظام الحكم في ذلك العصر من جراء انتشار تلك النزعة الفلسفية الناشئة التي تحاول تحرير الجماهير من أسر الجهل ، وتبصيرها بالحقائق التي كانت تبدو مشوهة من وراء ضباب الأوهام . وكان لزاما أن يلجأوا إلى من يمالئونهم من المتفلسفين المتهالكين على منافعهم الشخصية لدحض المذهب الجديد الذي يحاول تنوير أذهان الناس ، لهدم نور المعرفة عهد الاستغلال الذي لا يترعرع إلا حيث يتفشى الجهل والضلال . ولم يكن محيص لأولئك المتفلسفين من تشكيك الناس في الحقائق الواقعية الملموسة الفلسفية ، وراحوا يعطرون ميدان الفلسفة بالبراهين الكاذبة على أن الحقائق المادية ليست غير أوهام ، وأن الأوهام هي حقيقة الوجود !! ... واشتدت حملات فلاسفة الأوهام على العقول التي تحاول التفتح وتنشد الفهم الصحيح ، حتى ظهر بركلي الذي شيد صرحا لتلك الفلسفة ضخم البناء ، فاستحق عن جدارة أن يسمى أبا الفلسفة الميتافيزيقية الحديثة .

أنكر بركلي الوجود المادي الذي لا تعترف الفلسفة الواقعية إلا به . وقال إن مشاهده التي نراها ونلمسها قائمة داخل ذهننا . وليس ما نشاهده ونلمسه إلا صورا لما في ذهننا . فالوجود كائن داخل ذهن الإنسان ، وليس له وجود حقيقي خارجه . فالكون المنظور الملموس ليس إلا خدعة من خدع الحواس ...

ولن نخوض في تفاصيل نظرية ركلى ونناقشها ، فليس هذا موضوع مقالنا . ولكننا نكتفي بالإشارة إلى ما ترمي إليه هذه النظرية من محاولة صرف الناس عن عالم الواقع إلى عالم الأوهام حتى يظل الضلال الجاثم على الأذهان حائلاً دون انتشار الفلسفة الواقعية . وقد اتخذ أعلام الفلسفة الأوربية الحديثة من تلك النظرية الوهمية مورداً يستقون منه شطحاتهم الفلسفية التي تقوم على إهمال الواقع الثابت ، والبحث عن الحقائق في ذهن الإنسان أو في قلبه أو ضميره أو شعوره أو إرادته أو عقله الباطن أو غير ذلك من الغيبيات المفلتة الزمام . ولو فطن أولئك الفلاسفة أو لو خلصت نيتهم لأدركوا أنه لا يوجد في باطن الإنسان شيء غير مستمد من العالم الواقع المحيط به .

وكثيراً ما يتردى هؤلاء الفلاسفة المتأثرون في مهاوي التفكير فيبدو اعوجاج مذهبهم وإضراره بالمجتمع العيان . ومن أمثلة ذلك قول شوبنهور إن الحياة الدنيا سلسلة من الرغبات يحاول الإنسان تحقيقها ، ولكن السعي إلى تحقيقها متعب ، والرغبة متى تحققت ماتت ، وموتها متعب ، وهكذا لا ينتهي الإنسان من تعب إلا إلى تعب . وهو يتعب بغير جدوى لأن رغباته أوهام تتبدد كلما أدركها ، وعلى ذلك لا يكون في هذا الوجود شيء جدير باهتمام الإنسان ، ومحرى بأن يوفر السعادة للإنسان ، غير الفنون الجميلة التي تطارد الخيال لتصطاده وتسجله ...

وهناك فلاسفة آخرون غير الذين يحاولون صرف الناس عن حياتهم الواقعية الحقيقية إلى الحياة الوهمية القائمة في أذهانهم أو عقولهم الباطنة : أولئك هم الفلاسفة الذين يناصرون الفردية ، ويمجدون القوة ، فيزيدون القوى ضراوة ، ويبررون الصراع في سبيل الحياة ، واستغلال القوى للضعيف ، ولا يلبثون أن يجدوا أنفسهم ، شاءوا ذلك أم لم يشاءوه ، من أنصار الاستعمار والاستغلال وسفك الدماء .

وما يقال عن الفلسفة يقال عن علم النفس الذي يوهم الناس أن شقاءهم يرجع إلى عقد نفسية متى تمكن الفرد من حلها بواسطة طبيب نفسي أو رياضة روحية كان في ذلك نهاية لشقائه ، وبداية لعهد في النعيم المقيم . فالشقاء عند علماء النفس نابع في نفس كل فرد ، والشفاء لا يلتمس إلا من طريق معالجة كل نفس على حدة ، حتى لكأن الشعوب لا تشقى في مجموعها بسبب استغلال الاستعمار لها !..

وكذلك يحاول علم الاجتماع النبيل من كل مذهب واقعي يحاول كشف القناع عن وجه الاستعمار . ولم يتخلف الأدب والفن كذلك عن السير في ركاب الاستعمار ومالأته بتحويل الأنظار عن الواقع الذي أصبح مسرحاً لفتك المستعمرين بالشعوب المهضومة الحق ، إلى مواطن المتعة ، أو إلى مسارح الخيال .

إن أهل الفكر وأهل الفن هم المدافعون الطبيعيون عن حقوق الشعوب ، وهم الأعداء الطبيعيون للاستعمار الذي لا يقوم إلا على استغلال الشعوب ، وقد استطاع الاستعمار أن يضللهم حتى اليوم ، وحسب أنه قد آن أن يتضح لهم الواقع على حقيقته فيجردوا أقلامهم أو أدوات فنهم ليحاربوا من ضللهم إحقاقاً للحق المهضوم . وإذا كانت فلسفة الأوهام وأدب الأوهام قد أخذا حيناً كانا خطوة من خطوات التقدم وحلقة من حلقات التطور ، فإن الفلسفة الواقعية والأدب الواقعي هما اللذان يعقد هذا العصر عليهما آماله .

محمد مفيد الشوباشي

مجـــــانية التعليم

للآنسة منيرة حلمى

كان طبيعياً أن يكثر الجدل حول مشروع المجانية بالمدارس ، وأن تشهد حجرة المدرسات مناقشات حامية بين المحبذات له والساخطات عليه . واتخذ موضوع المناقشة يوما هـذا الوضع : أى الاتجاهين أسلم ؟ أن يكون البدء برفع مستوى الشعب مادياً ، أو يكون برفع مستواه عقلياً ؟ وانبرت بعض الزميلات تؤيدن سبق الإصلاح المادى ، وتدعمن رأيهن بضرورة محو الفروق الاجتماعية الشاسعة بين الطبقات قبل محو الأمية وقبل الجمع بين أبنائها جميعاً على قدم المساواة فى المدارس . ثم رحن يعددن ما ينتج عن التسرع فى تعميم المجانية من انتشار ذميم الخلق وتفشى سيئ العادات بين التلاميذ .

قلت محتجة : « أما أنا فلا أرى هـذا الرأى . فلماذا لا نفترض بقاء الأصلح من الخلق عند احتكاك هذه الطبقات بعضها ببعض ؟ لماذا لا نتوسم الخير فى طبيعة هؤلاء الصغار ، فنتوقع أن يستقيم الخلق المعوج بمعاشرة الخلق السليم لا العكس ؟ وعلى أى حال سوف يفوق الربح الخسارة ، إذ نحن نتيح الرقى لطبقة ما كان لها أن ترقى فى محيطها الضيق الأفق ، فى حين أن ما قد يصيب الطبقة الأخرى من انحراف خلق أمر عارض من الممكن تداركه وعلاجه ... »

فقاطعتنى زميلة بقولها : « إن الواقع يثبت عكس ذلك ، فهاهم أولادى يعودون من المدارس وقد حصلوا من بذىء الألفاظ واكتسبوا من منحرف السلوك ما يفوق كل ما اكتسبوا من مواد علومهم » .

قلت : « إذاً على الآباء أن يتداركوا الأمر ، ويساهموا فى الإصلاح ، فالأمر محتاج لتضحية . وهذه التضحية يستحيل تجريباً أن تطالب بها الطبقة الأمية ، وإنما تكون التضحية منك ومن مثيلاتك ؟ وليس وقف الآباء لبعض وقتهم على ملاحظة الأبناء وهدايتهم بالشىء الكثير فى سبيل التغلب على هـذه الفترة الخاصة فى حياة مجتمعنا . ولـكنى ، للأسف الشديد ، أرى من الآباء إحجاما عن رعاية أبنائهم فى الوقت الذى اشتدت فيه حاجة المدرسـة إلى رقابة المنزل علمياً وخلقياً . ومع ذلك — لو فرضنا أسوأ الفروض ، وهو إفلات الزمام من أيدى الآباء بالنسبة لأخلاق أبنائهم — فليست التضحية بأخلاق طبقة من هـذا الجيل بالشىء الكثير فى سبيل رفع المستوى العقلى لأفراد الشعب جميعاً ، بل ورفع المستوى الخلقى أيضاً كنتيجة لهذا الاختلاط الذى تنكرنه جميعاً وينكره الكثيرون ممكن ، ووالله لو لم يكن فى تعميم المجانية سوى الجمع بين طبقات الأمة هكذا فى صعيد واحد ، لكان فيه الكفاية ، ولكان أعظم مرجح لتقدم النهضة العقلية على النهضة المادية . »

ليس هذا هو الجانب المستعصى من المشكلة يا صديقى ، وإنما الجانب الجدير حقاً بالتفكير والتدبير هو الجانب النفسى ؟ ذلك أن أفراد هذه الطبقة المستجدة فى المدارس يعانون أزمات نفسية شديدة من جراء اختلاطهم بطبقة تفوقهم مالاً وجاهاً ، وأن هذه الأزمات النفسية ذات نتائج بالغة الخطورة ، ولو وقفت على بعض منها لما أشفقت على غير هؤلاء من هذا الوضع ، ولما اتجه تفكيرك كله ، وقبل كل شىء إلى الناحية الخلقية من هذه المشكلة .

خذى مثلا شعور الفتاة المحدودة الدخل حين ترى زميلاتها يلعبن بالنقود لعباً ، ويتهافتن على مقصف المدرسة يبتعن ما لذ وطاب . أو شعورها حين تسمع عن حياة زميلاتها وما يحيطهن من أسباب الترف ووسائل الترفية ، وهى لا تملك إلا أن ترمقهن فى لهفة وحسرة ، وتستمع إلى أحاديثهن فى عجب وحقد . ثم تخيلى أثر هذا كله فى نفسها ، وما يورثها من شعور بالنقص تضيق به حيناً ، ثم لا تلبث

أن تدفعها الحاجة الملحة لعوضه إلى التفكير في وسائل غير مشروعة لحيازة ما بأيدي زميلاتها . ولقد لمست هـذه الظاهرة كثيراً في فصولي ، وشكا إلى كثير من الصغيرات ثقل وطأتها عليهن .

هذه ، يا صديقتي ، هي الناحية التي استولت على كل تفكيري ، واهتزت لها في عنف أوتار وجداني . وهذا هو الجانب الذي جعلني أتوقف عن التصحيح يوم لمسنا سوياً أقوى مظهر له في ورقة للإجابة ، نسيت صاحبتها كل شيء إلا أنها فتاة بائسة في حاجة إلى مساعدة الغير مادياً ومعنوياً فراحت تبث الورقة شكاتها ، وتُملي القلم أناتها ، لعلها تجد من المصحح سامعاً ومجيباً ... لعلك تتبينين الآن ما غاب عنك حينذاك فأدهشك من تصرفي ، ودفعك لتتساءلين عن سر توقفي عن العمل واشتغالي بنقل ما خطت هذه الصغيرة البائسة في مفكرتي ، وربما جعلك تستخفين عملي حين أجبتك أني أفعل ذلك حتى أحتفظ بأصدق صورة لهذا الوضع ، وحتى تكون لي نعم الحافز على العمل جدياً للتخفيف من وطأته . واليوم أذكرك بما قرأناه سوياً ، وما أصبح مطبوعاً في ذاكرتي فوق مفكرتي ، وكنت قد استكثرت سطورها المستقيمة على مثل هذا السلوك المعوج . أذكرك الآن بقول الفتاة : « ظلم طغى وهو أن حق اليتامى جار عليهم الزمان ، ولو كان يخفى بأسهم ما عابهم إنسان .. لو تعرفون قلوبهم ، بقلوبهم نيران ... لقد أصبحنا في حزن وبكاء ، ولا من أحد يعطف علينا أو يرعانا ... »

هـذا الجانب الخطير من المشكلة — يا صديقتي — قد لمسته واضحاً ، وشعرت بخطورته شعوراً عميقاً ، ولكنني مع ذلك لم أيأس مثلك ، وإنما آمنت كل الإيمان بإمكان إصلاحه والتغلب عليه تدريجياً ، إما عن طريق الأخذ بأيدي المحتاجين وتوجيههم إلى استغلال أوقات فراغهم فيما يعود عليهم بالكسب المادي ، وإما عن طريق عمل الحكومة على رفع المستوى المادي لأفراد هذه الطبقة ؟ أما الطريق الأول ففي استطاعة كل مدرسة أن تسير فيه آمنة حتى تبلغ هدفها إذا توفرت لها المساعدة الجدية من المشرفين الاجتماعيين ، والتوجيه السديد من المربين المصلحين ، وإذا شعر كل فرد منهم أن عليه واجباً وطنياً بل إنسانياً يجب أن يؤديه في هذه الفترة العصيبة وإن اقتضاه الأمر التضحية بالوقت أو بالمال . وأما الطريق الثاني فأرجو أن توفق الحكومة إلى السير فيه حتى النهاية .

حقيقة — ياصديقتي — لا تكون النهضة صحيحة إلا بتعميم مبدأ تكافؤ الفرص في كل النواحي ، اقتصادية كانت أو اجتماعية أو سياسية أو تربوية . إلا أننا لو تتبعنا تاريخ تطبيق هذا المبدأ في كل دولة ، لما وجدناه قد طبق كاملاً في جميع النواحي منذ البداية . فقد ابتدأت كل من انجلترا وأمريكا بتطبيقه في الناحية السياسية ، فساوت كل منهما بين أفراد شعبها في حق الاشتراك في الحكم . بينما ابتدأ الاتحاد السوفيتي بتطبيقه في الناحية الاجتماعية ، فمحا الفروق بين الطبقات . ولكن المساواة السياسية وحدها لا تكفل المساواة الاقتصادية والاجتماعية ، وبالتالي لا تكفل المساواة في التعليم ؟ وهـذا ما حدا بدولة عريقة في الديمقراطية السياسية كانجلترا إلى إقرار وجود نوع خاص من المدارس ذات التكاليف الباهظة لتعليم أبناء الطبقة الثرية . وجعل أمريكا تفرق في التعليم بين زنوج وبيض ، وبين فقراء وأغنياء . كما أن المساواة الاجتماعية وحـدها قد دفعت الاتحاد السوفيتي إلى احتكار الثقافة وحصر التعليم في دائرة العقائد السياسية التي تخدم الحزب الشيوعي وحده .

إذاً ، فلا المساواة السياسية وحدها ضامنة للنهضة العقلية في الأمة ، ولا المساواة الاجتماعية وحدها محققة لهذا الهدف ؟ وإنما هي جميعها اتجاهات متكاملة تختار كل أمة منها ما تراه الأولى بالابتداء ، لكنها جميعاً سائرة بخطى واسعة نحو تحقيق التكامل بينها وتعميم مبدأ تكافؤ الفرص في جميع النواحي .

ونحن — ياصديقتي — قد تغاضينا عن تحقيق هذا المبدأ اجتماعياً واقتصادياً ، كما أهملنا شأنه سياسياً إلى حد ما ، ما دمنا لم نعترف بعد بحق المرأة في الانتخاب . لكننا جعلنا بدايتنا هـذه الخطوة الجريئة ، وكان تطبيقنا لمبدأ تكافؤ الفرص في التعليم أولاً وقبل كل شيء . أما أننا سننجح في تطبيق ما بقي من نواحي هذا المبدأ ، فنقيم بذلك دعائم النهضة الصحيحة ، فهذا ما آمل أن يتحقق قريباً بعون الله وجهاد المصلحين .

منيرة حلمي

أمراض الشتاء

— ٢ —

للدكتور مصطفى الديواني

يحتاج اليك في الوقت الحاضر وباءان : وباء الدفتريا ووباء شلل الأطفال ، وقد حدثتك من قبل عن أعاجيب الدفتريا وألاعيبها ، وكنت إذ ذاك غارقاً لقمة رأسي في بحيرة من الدماء الغالية ، لحمها فلذات الأكباد ، آخذ بيد هـذا ، وقد أصـل به إلى بر السلامة إذا بقي فيه من آثار المقاومة ما يعين ساعدي المنهك وهو يحمله حملا ! أو منتشلا ذاك من قاع اليم ، وقد شرق منه الحلق أو سدت منه المناخير ، فأعينه أو لا أعينه على بلواه ! وكانت أم الضحية تدخل على بطفلها في أغلب الحالات وهي مغمورة بفيض زاخر من الغفلة غير المتكلفة أو غير المقصودة إذا شئت أن تسميها ! فالطفل غالباً ما يكون مرحا نشطاً لا يغريك مظهره بالشك في الداء الكامن ! وأنت في حيرة كيف تقنع الأم بحقيقة المرض وما يلزمه من علاج وتحليل لإفراز الحلق للعثور على الجرثومة المزعومة . ومعظم الأمهات يقتنعن بسهولة ، وقد تحاورك الأم وتداورك محاولة إقناع نفسها وإقناعك بأن الأمر أسهل مما يوجبه إليك تدقيقك وفحصك ! وأذكر أمًّا من هـذا النوع تظاهرت بالاقتناع وذهبت إلى طبيب التحليل الطبي الذي قام بأخـذ عينة من إفراز الحلق وماطلته في الدفع مؤجلة إياه للغد ، وأتى الغد وما بعده بخمسة أيام ، وقد تناست أن عليها لطفلها حقوقاً وللطبيب التحليل حقاً ، وكاد طبيب التحليل يجن لا خوفاً على ماله ، ولكن لأن نتيجة التحليل أثبتت وجود الجرثومة ، وهذا يتطلب علاجاً سريعاً . وكان يتصل بي يومياً مستفسراً عن مريضي ومريضه ، ويعجب كيف تتهاون الأم إلى هذا الحد في صحة طفلها

فذكرني ذلك بقصة الذي ذهب إلى طبيب الأسنان ليخلع له ضرساً ثم نقده جنيهاً بعـد أن أنهى مهمته ، فعيره القوم كيف يدفع مثل هذا المبلغ مع أن هذا الطبيب يتقاضى على خلع الضرس ريالا واحداً . فاغتاظ المريض وأسرها في نفسه ، ثم ذهب إلى نفس الطبيب بعد أسبوع وجلس على كرسي العمليات وطلب منه أن يخلع له الأربعة الأسنان الأمامية ، ولما اعترض الطبيب بأنها سليمة نهره المريض وقال : ليس هذا شأنك ، فافعل ما أطلبه منك دون نقاش ، فاستسلم الطبيب وأخذ يخلع الأسنان الواحدة بعد الأخرى ، حتى إذا ما انتهى من عمله نظر إليه المريض الماكر نظرة تنم على التشفي والانتقام ثم قال : « نبقى خالثين » (أي خالصين بعد قلب الصاد ثاء ، نتيجة زوال الأسنان الأربع البريئة) . وهـذا بالضبط ما فعلته تلك السيدة التي هربت من طبيبها لكيلا تدفع له أتعابه مقابل تحليل إفرازات طفلها ، والله أعلم ما الذي جرى له نتيجة رعونتها واستخفافها !

هـذه لمحات طريفة يجب ألا تلهينا عن خطورة المعركة الدائرة بين الجرثومة والطفل المريض والطبيب المعالج . وقد نبهت في حديثي السابق إلى وجوب أخذ الأهبة ونحن في بدء الموسم ، وذلك بحقن أطفالنا بالطعم الواقي بمقدار ٢ سم لكل طفل مهما كانت أسنانهم ، ويجب ألا نعتمد على الحقن التي يأخذها الطفل في آخر السنة الأولى من عمره ، بل يجب تجديد المناعة بحقن الطفل كل عام مرة واحدة كما أسلفنا .

* * *

انتقل بعد ذلك إلى هذا الغول الأكبر الذي يسمونه شلل الأطفال . ويؤسفني أن أقول إن هذا المرض أصبح مرضاً وبائياً في مصر بعد أن كان حدوثه في حكم النادر فيما مضى . فقد لوحظت زيادة كبيرة في نسبة عدد الإصابات في الأعوام الأخيرة ! وهـذا المرض إذا تمكن واستحكم فإنه لا يعرف جاهاً ولا مالا . يدخل الأكواخ والقصور ، ويصيب الفقير والغني على حد سواء . ويدهشني ساكن القصر الشامخ كيف تطاولت الجرثومة على عتبة داره وهو المنزه عن تهمة الإهمال أو التراخي في اتباع أصول النظافة في الملبس والأكل والشرب . وقد تدهش معي وأنت تضرب كفاً على كف مواسياً ، غير عالم أن هـذه الجرثومة الهوائية تتبع نفس الطريق الذي اتبعته لنفسها أختها التيفود ، أي من طريق الذباب والبراز واللبن ومياه الشرب وحامل الميكروب .

فلقد ثبت أن جرثومة شلل الأطفال تعيش في براز المريض بعد انتهاء الدور الحاد لمدة طويلة قد تصل إلى أربعة أشهر . ولو اقتصر الأمر على حالات الشلل الصريحة لهان الأمر . ولكن هناك حالات خفيفة لا تتعدى في مظهرها البرىء أعراض الانفلونزا العادية دون أن تصل إلى دور الشلل ، فتبدأ بأعراض وشحية في الأنف والحلق مع ارتفاع في الحرارة ، ثم تختفي الأعراض بعد يومين أو ثلاثة دون أن يصاب الطفل بالعلامة المميزة للمرض وهي الشلل ، فينظر إليه وكأنه ناقه من انفلونزا حادة أو رشح بسيط . كل هذا والجرثومة كامنة في سراديب الأمعاء تنطلق منها مع دفعات في البراز ناقلة العدوى إلى كل من تجده في طريقها ، إما مباشرة عن طريق الفم أو بوساطة الذباب عندما يحط على البراز الموبوء . هذه الحالات الخفيفة هي المسئولة عن نسبة كبيرة من حاملي الميكروب وهم الذين يندسون بين الأصحاء ناقلين المرض بلا رحمة ولا هوادة .

وقد تنتقل الجرثومة عن طريق الرذاذ المتطاير من الأنف والفم . وقد ثبت أنها لا تبقى في هذه الإفرازات إلا أياماً قلائل تختفي بعدها تماماً .

وتبدأ أعراض هذا المرض فجأة ؛ فقد يذهب الطفل إلى فراشه سليماً معافى فإذا به في الصباح قد فقد القدرة على تحريك أحد أطرافه . ولكن العادة أن يبدأ المرض بارتفاع في الحرارة ورشح وصداع والتهاب في اللوزتين ، وقد يصاب الطفل بقيء وإسهال أو إمساك ، وهذا يشير إلى وصول الجرثومة إلى الأمعاء ، ومن هناك تنتقل إلى النخاع الشوكي وتحدث تأثيرها شللا في الأطراف . أما الحالات القليلة التي تنتقل فيها الجرثومة عن طريق الأنف فإنها تنتشر من هناك بوساطة عصب الشم إلى المخ حيث تغزو مراكزه الرئيسية كمركز التنفس والدورة الدموية فتقضي على الطفل في ساعات أو أيام .

وتشخيص المرض في دوره الأول الذي يسبق الشلل يكاد يكون في حكم المستحيل ، وكثيراً ما يدهش أهل المريض لأننا لم ننذرهم بالحقيقة المرة قبل وقوعها . فالغالب أن يشخص المرض على أنه التهاب في اللوزتين أو انفلونزا معوية إذا صحبه قيء وإسهال .

* * *

يمكننا أن نستنتج مما ذكرنا أن الوقاية من شلل الأطفال تتلخص في عزل المريض وإعدام إفرازاته سواء الأنفية منها أو البرازية . وقد أبرزنا أهمية الذباب واللبن ومياه الشرب في إحداث الأوبئة المحلية أو العامة . فلذا تجب مكافحة الذباب بنفس الشدة التي نتبعها في أوبئة التيفود أو الكوليرا . كما يجب أن يغلى اللبن جيداً ولمدة عشر دقائق على الأقل .

أما علاج شلل الأطفال ، فأهم عناصره الراحة في الفراش حتى تختفي الأعراض الحادة ، ووضع الساق أو الذراع في وضع مناسب يقلل من تمدد العضلات المشلولة التي تعالج بالكهرباء والتدليك لتنشيط الدورة الدموية فيها وإنقاذ ما يمكن إنقاذه منها بعد ما أصيب مركز الحياة منها ، ثم التذرع بالصبر وترقب الحوادث عن كثب حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا .

دكتور مصطفى الديواني

بقايا حلم

إنها يا قلب حلم ضائع ... من خيالات الفؤاد الشاعر
حلم ملء جفوني ودمي ... وبقايا من غرام غابر
حلم ماج بجنبي لحظة ... وتولى كالخيال العابر
موقظاً في الصدر ذكرى خمدت ... في فؤادي للحبيب الغادر
كان بالأمس لروحي جنة ... ونعيماً لشبابي الحائر
حلم ولى ولم يبق سوى ... بعض ذكرى في دمي ، في خاطري
لحبيب صغته من أدمعي ... بخيالي ، بنشيدي الساحر
ثم ولى بالتلاقي بالأسى ... كيف ولى كالشرود النادر
نسي الماضي جميلا حالماً ... إنه الحب بثوب ناضر
ثم ولى تاركاً في مقلتي ... ومضة الشك الريب الثائر
إنها يا قلب حلم ضائع ... من خيالات الفؤاد الشاعر

(بغداد) زهير أحمد

بشـــــار بن برد

التفسير النفسي لشخصيته وشعره

— ٢ —

الأستاذ يوسف خليف

وكما اضطرب بشار في إحساسه بعزلته الاجتماعية ، اضطرب أيضاً في عقيدته ؛ فقد كان في أول أمره متشيعاً ، من شيعة إبراهيم بن الحسن بن علي ، ثم اتصل بعد ذلك بالمعتزلة وأصحاب الكلام ، وكان يجتمع بهم فيتجادلون ويختصمون ، وقامت بينه وبين واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد زعيمي المعتزلة في عصرهما صداقة قوية ، ولكنه مع ذلك ظل مضطرباً ، أو كما يقول صاحب الأغاني « بقي متحيراً مخلطاً[1] » ، ثم انتهى به تحيره وتخليطه إلى التمرد على أصحاب الكلام وهجاء صديقه القديم واصل بن عطاء أو « عنق الزرافة » كما يسميه[2] ، وتتابع على واصل ما يشهد بإلحاد بشار ، فكفره ، وخطب في الناس معلناً أنه ملحد ، بل حرض الناس على قتله ليتخلص العالم من « هذا الأعمى الملحد[3] » ، وفسدت الصلة بينهما فساداً شديداً ، واستطاع واصل ، بما كان له من مكانة وكلمة ، أن يكون سبباً في نفي بشار عن البصرة ، ولم يستطع بشار دخول البصرة إلا بعد وفاة واصل ، ولكن عمرو بن عبيد كان له بالمرصاد ، فنفى مرة أخرى عنها ، ولم يستطع دخولها إلا بعد وفاة عمرو .

ثم انتهى الأمر ببشار ، بعد فساد ما بينه وبين رجال الدين ، إلى الزندقة والأخذ بالمانوية التي تجعل للعالم إلهين : إلهاً للنور ، وإلهاً للظلام ، ويذكر الجاحظ عنه أنه كان يدين بالرجعة ، أي رجعة الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة وأنه كان يكفر جميع الأمة ، ويفضل النار على الطين ، ويصوّب رأي إبليس في أن النار خير من الأرض[1] ، وليس هذا تحاملاً من الجاحظ على بشار ، فقد كان شديد الإعجاب به من الناحية الفنية ، دائم الثناء عليه[2] ، وهذه الآراء الزائفة التي رواها الجاحظ عن بشار إنما هي أصداء لما كان يتردد في مجتمع بشار حول عقيدته الدينية ، وقد روى الجاحظ[3] قصيدة طويلة لشاعر معاصر لبشار هو صفوان الأنصاري ، يهجوه بها ، وينشر على الملأ معتقداته الفاسدة الضالة ، ويصفه فيها بأنه « أبعد خلق الله عن طرق الرشد » . ويروي المعري في « الغفران »[4] بيتين من شعر بشار يفضل فيهما إبليس على آدم ، النار على الطين ، ويصفه في موضع آخر منها بأنه أحسن في مقاله وأساء في معتقده[5] ، ويرسم له صورة فنية رائعة وهو في الجحيم « في أصناف العذاب ، يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم ، فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نار »[6] ، ويذكر ابن الفارح أن المهدي قتله على الزندقة[7] ، وإن يكن الرواة مختلفين في سبب مقتله .

ويشك بعض الباحثين المحدثين في صحة كثير مما روي عن زندقة بشار[8] ، ويميل آخرون إلى ما يشبه مذهب الإرجاء الذي كان يذهب إليه بعض أهل الكوفة فيتركون المسألة لله مادام بشار لم يصرح بكفره[9] ، ولكننا ، مع

(١) ٣/١٤٧ (ط دار الكتب) .
(٢) المصدر السابق /١٤٥ — والبيان والتبيين ١/١٦ (ط لجنة التأليف) .
(٣) المصدران السابقان : الأغاني /١٤٦ — والبيان /١٦

(١) البيان والتبيين ١/١٦ ، ٢٤ ، ٢٧ .
(٢) انظر على سبيل المثال : البيان والتبيين ١/٥٠ ، ٥١
(٣) المصدر السابق /٢٧ — ٣٠ .
(٤) ج ٢ ص ١٣٧ (ط المعارف — شرح كامل كيلاني)
(٥) المصدر السابق /١٣٩ .
(٦) المصدر نفسه /١٣٧ — ١٣٩ .
(٧) المصدر نفسه ج ١/٢٤ .
(٨) انظر مقدمة ديوان بشار (ط لجنة التأليف) .
(٩) المازني : بشار /٥٤ (ط الحلبي — سلسلة أعلام الإسلام)

إيماننا بأن الدين لله ، لانستطيع أن نجاريهم فيما يذهبون إليه من شك أو إرجاء ، لا لأننا نأخذ كل ما يذكره القدماء قضية مسلماً بها ، ولا لأننا نجد في أخبار بشار مايؤيد اتهامه بالزندقة ، ولكن لأن نفسية بشار المضطربة القلقة وما كانت تنطوي عليه من عوامل التمرد والسخط والاجتراء على التقاليد كفيلة بأن تدفعه إلى هذا الجانب اليساري في عقيدته ، لأنه يجد في هذه الزندقة التي كان الخلعاء في عصره يصفونها بالظرف[1] مجالاً للتعويض عما كان يعانيه من إحساس بالنقص وشعور بالضعة ، لأنها — ولا شك — ستلفت إليه الأنظار ، فالتفسير النفسي لشخصية بشار هو الذي يحل لنا — فيما أعتقد — هذه المشكلة .

وعلى كل حال فالأمر الذي لاشك فيه هو أن بشارا كان مضطرباً في حياته ، متحيراً في طريقه فيها ، ونحن لانذكر هذا استنتاجاً ، وإنما نذكره لأن بشارا نفسه ذكره ، فهو يصرح في أبيات له بأنه حائر في حياته ، عاجز عن فهمها :

طبعت على مافيّ غير مخيّر
هواي ، ولو خُيِّرتُ كنتُ المهذّبا
أريد فلا أعطى ، وأعطى ولم أرد
وقصر علمي أن أنال المغيّبا
فأصرف عن قصدي ، وعلمي مقصّر
وأمسي وما أعقبت إلا التعجبا[2]

فهو يصرح في هذه الأبيات الرائعة بتلك الحيرة النفسية التي كانت تسيطر على نفسه ، والتي حاول أن يجد لها تفسيراً يستقر إليه ، فكان قصارى ما استقر إليه — إن صحت عبارة الاستقرار هنا — هو أن يرد كل شيء في حياته إلى فكرة « الجبر » ، وهي فكرة أغلب الظن أنها تسربت إليه من اتصاله بالمعتزلة ، وهو يستسلم لهذه « الجبرية » التي فرضت عليه سبيله في الحياة ، لأنه يجد فيها حلاً لمشكلاته النفسية . وانظر إلى قوله « ولو خيرت كنت المهذبا » كيف يعبر تعبيراً نفسياً قوياً عن تلك العقدة التي ضاقت بها نفسه ، وكيف يفسرها تفسيراً نفسياً أغلب الظن أن نفس بشار قد رضيت به على أنه حل للمشكلة التي طالما حيرتها .

والطريف أن بشارا ينقل هذه الفكرة ، فكرة الجبرية ، إلى ميدان آخر من ميادين حياته ، وهو الميدان الغرامي ، فيصور حبه لصاحبته على أنه قضاء مقضيّ لا يستطيع أحد دفعه :

لم تلقها يدي بحولي ، ولكن
قضيت لي ، وهل يرد القضاء[1] ؟

ومع أن بشارا قد تمرد على أصحاب الكلام ، وثار عليهم ، وهجا أئمتهم ، فإنه لم يستطع أن يتخلص من تأثره بطريقتهم في التفكير ، ومذهبهم في البحث ، فهو يكثر في شعره من التعليل والتدليل والاحتجاج العقلي ، وهو يعرض أفكاره عرضاً عقلياً دقيقاً ، فيه المقدمات والنتائج ، وفيه الأسباب والمسببات ، والأمثلة على ذلك كثيرة في شعره[2] ، ومن هنا كثر في شعره مايسميه علماء البلاغة « الفصل للاستئناف » الذي يقوم على شبه كمال الاتصال بين الجملتين حيث تكون الجملة الثانية بمثابة جواب عن سؤال متوهم اقتضته الجملة الأولى ، وهو مايصح أن نسميه « الأسلوب الجدلي في العملية الفنية » .

والطريف — مرة أخرى — أن بشاراً يستخدم هذا التدليل العقلي أو هذا الاحتجاج المنطقي في غزله ، فيتحدث في بعض قصائده[3] إلى صاحبته حديثاً منطقياً ليقنعها بألا تستمع إلى ما يقوله فيه أعداؤه ، فإن كل إنسان يقال فيه ، وليس فينا من لا يعاب ، وهو رجل كريم لا ينكث العهد ، لأن نكث العهد من الكريم شيء معيب ، فلتطمئن صاحبته إليه ، ولتعد إليه ، فإن الحياة قصيرة لا تحتمل هذا الصدود وهذا الهجر .

ومما يتصل بهذا تطور الفكرة عنده إلى فكرة عقلية دقيقة ، فهو يأخذ الأفكار القديمة البسيطة فيطورها إلى أفكار جديدة معقدة عميقة ، فهو مثلا يعرف أن الشعراء القدماء يقولون : إن ممدوحيهم يعطونهم لأنهم يطمعون في ثنائهم أو لأنهم يخشون هجاءهم ، ولكن هذه فكرة

(١) أبو نواس : « إنه مفن وظرف زنديق » .
(٢) الأغاني ٣/٢٢٧ .

(١) ديوانه ١/١١٩ .
(٢) انظر على سبيل المثال : القصيدة البائية في الأغاني ٣/٢١٤ .
(٣) انظر عينيته في ديوانه ١/١١٥ .

بسيطة لا يقنع بها عقل بشار المتأثر بتلك المذاهب الكلامية السائدة في عصره . وإذاً فلابد له من أن يطوّر هذه الفكرة البسيطة إلى فكرة عميقة . فإذا الممدوح عنده يعطي سائليه لا رغبة في ثنائهم ولا رهبة من هجائهم ، وإنما لأنه يلذ طعم العطاء . فالعطاء عنده للعطاء لا لأي شيء آخر :

ليس يعطيك للرجاء ولا الخو
ف ، ولكن يلذّ طعم العطاء[1]

وهو مثلا يعرف أن الشعراء القدماء يذكرون أنهم يقصدون ممدوحيهم فيعودون بالغنى والثراء . ولكن هذه الفكرة الساذجة لا ترضى عقل بشار العميق ، فلابد له من أن يطورها إلى فكرة عميقة معقدة . فصلته بممدوحه لم تعد عليه بالغنى ، وإنما عادت عليه بالفقر . وذلك لأنه لمس كفه يبتغي منه الغنى . فأعداه كرمه . فإذا هو مسرف متلف ما عنده :

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى
ولم أدرِ أن الجود من كفه يُعدي
فلا أنا منـــه ما أفاد ذوو الغنى
أفدت ، وأعداني فأتلفت ما عندي[2]

ونحن نفسر هذا التأثر من بشار بأصحاب الكلام رغم تمرده عليهم وانفصاله عنهم ، بأنه « رد فعل لا واعٍ » لفساد الصلة بينه وبينهم ، كأنه يريد أن يثبت لهم أنه لا يقل عنهم مقدرة عقلية على الجدل والتعليل العقلي والاحتجاج المنطقي .

٥ وقد عملت العقدة النفسية المستحكمة في نفس بشار ، من ناحية ، وتلك الزندقة التي كان يأخذ نفسه بها لتلفت إليه الأنظار ، من ناحية أخرى ، عملهما في شخصية بشار ، فاتجهتا بحياته إلى الإباحية المكشوفة ، والاستهتار المفضوح ، ونقول « المكشوفة » و « المفضوح » لأن بشاراً لم يكتف بأن يكون إباحياً أو مستهتراً بينه وبين نفسه ، وإنما كان حريصاً أشد الحرص على أن يعرف الناس عنه أنه إباحي وأنه مستهتر ، وعلى أن ينشر على الناس صفحات حياته الحمراء الماجنة ؛ هذا الحرص من بشار على أن تكون إباحيته مكشوفة واستهتاره مفضوحاً ، هو الذي يجعلنا نقف أمام ذلك الجانب من حياة بشار فنفسره تفسيراً نفسياً على أساس

(١) الأغاني ٣/١٨٩ .
(٢) المصدر السابق /١٥٠ .

أنه « محاولة للتعويض » يثبت بها بشار لأولئك الذين يتقصونه أن هذا النقص الذي يرونه عيباً فيه لا تأثير له في حياته ، وأنه يستطيع أن يستمتع بحياته متعة لا ينالها كثير من المبصرين المترفين الحسان الوجوه[1] .

وعلى هذا الأساس النفسي نستطيع أن نفهم السر في إلحاح بشار على التصريح في شعره بتلك الحياة المتحللة التي كان يحياها ، تلك الحياة الخارجة على التقاليد ، المستهترة بما تعارف عليه المجتمع من قيم أخلاقية ، تلك القيم التي تفرض على الإنسان ألا يغسل ثيابه القذرة أمام الناس ، كما يقول المثل الإنجليزي .

ولكن بشاراً كان حريصاً على أن يغسل ثيابه القذرة أمام الناس ، بل كان حريصاً على أن ينشر ثيابه القذرة على الناس دون غسل . فقد جعل مذهبه في الحياة عدم الحرص على شعور الناس في سبيل الوصول إلى متعه الحسية ، وهو يصرح بهذا المذهب في بيت من شعره يقول فيه :

مَن راقب الناس لم يظفر بحاجته
وفاز بالطيبات الفاتك اللهجُ

فهو يجعل وصوله إلى متعه الحسية ظفراً وفوزاً ، ويصف هذه المتع الحسية بأنها « الطيبات » ويجعل الحرص على شعور الناس ومراعاة تقاليد المجتمع مراقبة يضيق بها صدره ، ويجعل سنته في الحياة الفتك والإلحاح . والحق أن بشاراً قد أودع في هذا البيت خلاصة تجاربه في الإباحية والخلاعة ، وسجل فيه فلسفته الحسية الماجنة ، وقد بلغ من إعجابه بهذا البيت الذي جعله شعاراً لحياته أن غضب غضباً شديداً على سَلْمٍ الخاسر أحد تلاميذه ورواة شعره لأنه سرق هذا المعنى منه[2] .

ونستطيع أن نفهم غضب بشار هنا على أساس نفسي ، فهو غضب من أجل تلك المحاولة الأساسية التي يحاولها في حياته في سبيل التعويض من عقدته النفسية .

٦ وقد ظهرت هذه الإباحية في شعره ظهوراً واضحاً . ولعل من أقوى الأمثلة عليها رائيته المشهورة التي يقول في أولها :

(البقية على الصفحة التالية)

(١) انظر قصته مع أبي دلامة عند المهدي في الأغاني ٣/١٣٨ .
(٢) انظر هذه القصة الطريفة في الأغاني ٣/١٩٩ ، ٢٠٠ .

قد لامنى فى خليلتى عمر
والذى فى بعض كنه ضرر[1]

وراثيته الأخرى التى يقول فى أولها حسب رواية الأغانى :

درة بحرية مكنونة
مازها التاجر من بين الدرر[2]

فى هاتين القصيدتين وأمثالها نلاحظ أن بشارا قد اتخذ مذهباً غزلياً جديداً فيه مجون وفيه صراحة مكشوفة ، خارجاً بذلك على ما ألفناه من الغزل فى الشعر العربى حتى عند امرىء القيس وابن أبى ربيعة .

يوسف خليف

(١) الأغانى ٣/١٨٣ ، ١٨٤ .
(٢) المصدر السابق / ١٢١ ، ١٢٢ .

أيها الانجلـــــيز !

إجر — يا نيل — بالبشائر واسعد
هـــذه مصر مجـــدها يتجدد
هب وادبك غاضباً يكسر القيـ
ـد ... وكم كان بالقيود مصفد !!
ضاق بالغاصب المشوم وقد عا
ث فساداً بين البلاد ... وعربد
نزل القوم أرضنا نزلة النـــذ
ل يؤاس فإن تملك أفســد
أجزاء الضيف أن يهرق الضيـ
ـف دماء .. ويستبد .. ويجحد ؟؟
أجزاء الضيف أن يسلب الدا
ر — وبغيا فى أرضه مستعبد ؟؟
عجباً .. ينهب الدخيل .. ويطغى
فى ربانا — والسلاح تهـــدد

* * *

أيها الإنجليز ... يا طغمة النـــا
س — رويداً — جموعكم ستطرد
كنتم — الأمس — صحبة خلتنا
من أذاكم ما كان أسود أنكد
لكم الطيب اللذيذ طعـــاماً
ولنا الخبز كالحجارة أســود !!
تلبس البالى المهين — وأنتم
تتهادون فى حـــرير وعسجد !!
قد قطعتم موارد الرزق عنا
واحتكرتم من أرضنا كل مرقد
بعد سبعين حجة نطلب العيـ
ـش كريماً ، فقيل : شعب تمرد
أنكروا الود والجميل — وأمسى
« أكسهام » بجيشه يترصـــد
يقتـــل الصبية الضعاف ، ويودى
بنساء القتال : يا رب فاشهـــد
أمن الفخر والشجاعة أن يغـ
ـدر طفل من السلاح مجرد ؟؟
هـــذه « أم صابر » قصة الغد
ر — دماها قد سطرت كل مشهد
سوف تبقى على الزمان لتروى
جبنكم للعصـــور عاراً مؤبد

* * *

أيها الغادرون : نحن بنى النيـ
ـل عرفنا الحياة عزاً وسؤدد
لا نهاب الأحداث ... أو نرهب المو
ت ... فما نحن فى الوغى نتردد
أى جيش جلبتموه إلينـــا ؟؟
كم خبرناه فى المعامع يهـ
ـرب عند « دنكرك » كالأرانب قد فر
وفى ضفة القنال استأســـد
سوف تلقون من « كتائبنا » الويـ
ـل نكالا مجتماً ليس ينفـــد
كم خدعتم .. وما الخداع بمجد
كفر الشعب بالخداع . وألحـــد
إن هـــذا الشباب فى السلم قد قا
م .. وفى الحرب للكفاح مجند

[القاهرة]
محمد أحمد سالم

ندوة القلم

الذاتية والموضوعية فى السلوك

يتحدث جملة من المفكرين عن الذاتية والموضوعية فى الأدب والنقد والعلم منذ أكثر من قرن ... ولكن أحداً من هؤلاء لم يعن بالتحدث عن الذاتية والموضوعية فى السلوك والأخلاق ، وهو موضوع غاية فى الخطورة .. إذ يعنى بطبيعته موقف الفرد من نفسه وموقفه من الجماعة التى يعيش بينها .. وقد ظلم الفرد أشد الظلم خلال تاريخ الإنسانية الطويل حين طلب إليه أن ينسى فرديته وأن يلائم بين مصالحه ومصالح سواه فى الحياة ... وقد اشتط البعض فى الظلم حين قدروا له تقديراً موضوع تفكيره وحصروه فيه . وليس فى ذلك نفع له أو لواحد سواه ، إلا ما يتصوره هذا البعض من ضرورة السيطرة على البشر ، وتحقيق سطوته فى طريق إعلان المبادىء الخالية والدعوة إليها .. ومن ثمة ترتفع دعوة الموضوعية فى الأدب ووجوب عرض المشاهد البهيجة فى الحياة .. لأن زمن الخلوص إلى الذات ، بزعم أصحاب هذه الدعوة ، واستلهامها روائع الشعر والقصص ، قد مضى مع مامضى من خرافات وأساطير الأولين .. وهذا خطأ محض .. تأباه طبيعة الإنسان وغرائزه وتكوينه العضوى .. فلا يمكن أن تغفل فى تفسير السلوك الإنسانى جانب الذاتية فيه ، إذ هو الباعث الذى لا تتعداه طبيعة الفرد فى سائر العصور .. ولعل الحضارة القائمة لم تبلغ الرقى الذى بلغته اليوم لولا بعض المحاولات الفردية التى قصد بها أولاً ثبوت الذات واجتناء المنفعة ، والتحقق من وجود الشخصية التى تلفت إليها الأنظار

والذاتية فى السلوك معناها التحرر من الأصول السائدة ، والعرف الذى يشل إمكانيات الفرد ويضيق صلاحيته فى التصرف بقواه وتوجيه نشاطه الوجهة التى يراها هو ملائمة لميوله وأخلاقه .. ولابد قبل ذلك من تصحيح نظرتنا إلى الأخلاق وتعديل إيماننا ببعض القيم التى ذهب على تمكنها فى أذهاننا حقب وآباد .. إذ أثبتت هذه عجزها عن مسايرة الواقع وفشلها فى تحقيق الحاجات الجديدة التى اقتضتها الحضارة الآلية الحاضرة .. ولست بصدد الإعلان عن هذه القيم والإشارة إليها .. وحسبى أن أحيل القارىء الكريم على أخلاقه ليلمس بنفسه كم من القيم التى يقيم عليها حياته لاجدوى فيها ولا حاجة إليها .. ولم يضطره إلى الاعتراف بها سوى « الموضوعية » التى يريدها لأدبنا ولنشاطنا الذهنى جماعة الموضوعيين .

والموضوعية هنا معناها الخروج على الذات فى تقدير الحقائق التى تمس الفرد والتى تمس الجماعة أيضاً ، والأخذ فى ذلك بالسائد من الآراء والقواعد التى لا يعرف مصدرها على التحقيق .. والعالم اليوم فى أزمة عصبية من جراء الصراع بين المذاهب والتضارب بين الدعوات ، ومن جراء طغيان الاجتماعية التى تذهب إلى اضطهاد الفردية وكبت نشاطها فى مجال الأدب والعلم والسياسة والفكر بصورة عامة .. ولا يرد للفرد اعتباره غير حركة مقابلة يكون غرضها التقليل من شأن القوة الاجتماعية فى العالم وحمل الناس على التخفف من قبولهم لمبادئها وأخذهم بآرائها . ومن ثمة نستطيع أن نخطو خطوتنا الكبرى التى تقفنا وجهاً لوجه أمام ما ينبغى لنا كأفراد أفذاذ قبل أن نكون أفراداً فى زمرة أو أعضاء فى جماعة .

وأول ما يلازمه بعث الذات فى زحمة الصراع الاجتماعى العالمى الحالى هو الشعور بكفاية الفرد فى تحقيق وجوده وقدرته على مقاومة التيارات التى تهدف إلى صده فى سبيله أو إيقاف نشاطه فى مجاله ذاك .. وبذلك تجنب قواه من الانهيار وتحيى رغبته فى السعى إلى مثله والاهتداء إلى نفسه .. ويكون ذلك بحفظ الفرد خلقه من العادات الشائعة فى عصره وتأمين سلوكه من التأثر بحركات الجماعات التى تجاوره ، ومذاهبها فى الحكم والأخلاق ونظام المعيشة ونظام الإتيكيت

لقد بلغت البشرية اليوم مرحلة حاسمة فى تاريخها يلزم أن تفصل بها بين المبادىء الخلقية القديمة وبين حاجاتها ومنافعها ، وأن تخلى الاجتماعية أولاً مكانها للفرد ليرى

رأيه في التكتلات التي يراد بها ضم الأفراد إلى بعضهم وفرض الحصار على تفكيرهم وسلب حقوقهم في أن يعملوا لأنفسهم ويسعوا لمصالحهم .. فليست الغاية من وجود الفرد أن يعمل لغيره ضمن نطاق مذهب من المذاهب أو فئة من الفئات ، أو على رأي خلق شائع منذ قديم العصور ، بل غاية وجوده في حقيقة الأمر أن يحقق نفسه ، وأن يكون حراً في سلوكه ، لا يغلب عليه خلق أو عرف أو مذهب اجتماعي خاص .

ويؤسفني أن يحسن بعض الناس الظن بالمذاهب السياسية المعاصرة .. فيخولون زعماءها البت في تقرير مصير الفرد ، وتعيين مجاله في الحياة .. أو يوكلونهم في حل المشاكل التي يستدعيها تحفز فرديتهم إلى الانطلاق وحاجتهم هم إلى العيش على نحو اختياري حر .

وقد بلغ الضعف في بعض الفئات أن تتخلى عن حقوقها الطبيعية الخالدة لرؤسائها ، أملاً بأن يعد هؤلاء الرؤساء لتحسين أحوالها المعيشية وتأمين مستقبلها من الطوارئ ، وإنقاذ الفرد من هذا الضعف رهن بتنبهه إلى ذاته وحمله على الإيمان بها والصدور عنها وحدها فيما يذهب إليه من رأي وبعتنقه من معتقدات .

إن أمراً واحداً يمكن أن يتبث به الفرد أمام التكتلات الطاغية التي تهدد وجوده ، هو أن يحيا لنفسه .. وسبيله إلى ذلك أن يتحرر من الخوف .. الخوف من الموت والخوف من الحياة والخوف من المستقبل ، والخوف من الجوع ، وشعوره بتفاهة هذه جميعاً .. ولا يعدم في ذلك كله مبرراً له في واقعه وواقع المجتمعات القائمة الآن .. ولعل هذا الاصطدام المباشر وغير المباشر بين القوى الطاغية والمذاهب الكبرى في الحكم ، ومنزعها الحقيقي الذي يهدف إلى تكبيل البشرية في أوهاق من المعتقدات والخرافات وحصر كونها الخالد فيما يرضي حاسة الطعام بها ، هو في مقدمة ما يزهدنا بالقيم الإنسانية ويؤيسنا من قيام العدالة الحقة التي يتساوى في ظلها الأفراد والشعوب في حق الحياة الراقية الرضية .

وحين يعدم الفرد أسباب الحياة الكريمة بحكم شهوة بعض الكتل القوية إلى حجز النعمة في منطقتها ، وتطاولها على حقوقه الطبيعية ، ومحاولتها بخس قيمته وإهمال فرديته ، حين يكون ذلك يتحتم على الفرد أن يتسلح ضد هذه الحركة بأن يستخف بمعتقداتها ، ويعلن زيفها ، ويذيع استهتارها بمقدرات الإنسان وكفايته وإرادته .. والشعوب الضعيفة اليوم بحاجة إلى أن تقوى الفردية في أبنائها وتركز معناها فيهم ليحاولوا ثلم الاستغلال وتطلب الحرية ويشيع فيهم الحرص على ضمانها من الاعتداء والطغيان .

[بغداد] عبد المحسن الحكيم

أوسكار وايلد

لعل أوسكار وايلد من الأدباء القلائل الذين نالت لهم الشهرة قبل أن يقرأ له الناس حرفاً واحداً . فلقد ذاع صيته في أوربا وأمريكا بأنه محدث بارع ، إذ اشتهر عنه بأنه ذو لباقة وبديهة وذكاء رائع ، فهو يستطيع أن يتنقل بالحديث كما يحلو له فيفاجئ ما شاءت له المفاجأة ، فيبهر سامعيه ويستحوذ عليهم ويسيطر على المجلس بمهارته الفائقة في الحديث ، ثم إنه يستطيع أن ينتقل من موضوع إلى آخر في غاية السهولة ، وتظهر مهارته عندما يفاجأ بسؤال لا يمت إلى ما يتكلم به من حديث بصلة فيجيب عنه بسرعة ، وقد أصاب ما أراد في إجابة تدل على بديهة حاضرة وذكاء خارق .

ولقد اتخذ من مهارته في إرسال النكات والفكاهات سلماً للشهرة ، فذاع صيته وأخذ رجال المجتمع الإنجليزي يتسارعون في دعوته ، وكانت هذه الطبقة آنذاك تمثل برجالها خلاصة المستعمرين الإنجليز ؛ فمنهم رشح حكام المستعمرات وقواد الجيش ، ومنهم أيضاً رجال القضاء والإدارة ، فكان يسيطر عليهم بأحاديثه ويستحوذ على ألبابهم ، ويدعهم مع نسائهم حائرين مأخوذين ، لذلك وجد لنفسه الحق أن يقول « إن من يسيطر على مائدة عشاء في لندن يستطيع أن يحكم العالم » . وهو يقصد بهذا أنه خير من هؤلاء السخفاء الذين يرون أنفسهم حكام العالم . وكان هؤلاء النبلاء يتسارعون بدعوته إلى حفلاتهم ، وكانوا يفخرون بذلك ، حتى إن بطاقات الدعوة كان يكتب عليها ... « ملاحظة هامة ... سنستمتع بأحاديث أوسكار وايلد ... »

ولد أوسكار وايلد في إرلندة عام ١٨٥٦ وكان أبوه طبيب عيون ، أما أمه فقد كانت تشتغل بالكتابة وعلى الأخص ما يتصل منها بالشئون السياسية ، وهي كأي مواطن إرلندي

تكره الإنجليز غاية الكراهية ، لذلك امتازت مقالاتها بشدتها على الإنجليز الذين انتهكوا حرمة بلادها .

وعرف عن أوسكار وايلد أنه كان يمقت الألعاب الرياضية في المدرسة . ولكنه كان قوى الجسم حتى إنه استطاع أن يبطش بأربعة من الطلاب في أكسفورد حيث أرادوا الإيقاع به . وقد اهتم أوسكار وايلد أثناء دراسته بأكسفورد بالآداب القديمة وحصل من بحوثها جوائز ثمينة .

ثم أراد أوسكار وايلد أن يكون شيئا ما فلم يجد خيراً من أن يلفت إليه الأنظار . فأعلن وهو طالب في الكلية ... « أن إصلاح الملابس خير من إصلاح الدين » وأخذ يدعو إلى تقويم الجمال وتربية الذوق وجعل من نفسه راعيا وأستاذاً لعلم الجمال ، وصار يلبس ملابس غريبة الشكل ذات ألوان زاهية وأخذ يتجول بها في شوارع لندن ، وكان الناس يشيرون إليه قائلين : « أنظروا هذا هو السخيف أوسكار وايلد » فيلتفت أوسكار وايلد إلى صاحبه قائلا : —

« ما أسرع أن يصبح المرء مشهوراً في لندن . »

كان مزهواً بنفسه محبا للدعاية ، حتى لقد لقب بملك وأمير الدعاية . كان رزينا متزنا فيما لا يقسو على الأشخاص وإنما على المجتمع . فلقد اختلط بالمجتمع الانجليزى وعلى الأخص الطبقة الارستقراطية فعرفها معرفة الخبير المطلع فعرف حقيقتها فكتب وتحدث عن عهرها وفجورها ، فإذا هو مجتمع منحل متفكك يتحكم فيه الهوى والنزق . لهذا كان يحاربهم بصراحة عن حالهم . وإنك لتقرأ دعاباته وفكاهاته عن ذلك المجتمع فتضحك وتغرق في الضحك ، ولكن ما إن تنتهى منها حتى تجد أن لنكاته التى أضحكت منها معنى أكثر من الضحك يثير فيك التأمل ويدعوك إلى التفكير في سلامة تلك الأوضاع الاجتماعية .

وقد اتهموه بالفجور ، فقالوا عنه إنه لا يتورع أن يأتى منكر الأعمال ، فهو لا يتحرج أن يوقع بمن يعرف من النساء والفتيات اللاتى كن يتكالبن عليه . بل لقد اتهموه بالشذوذ الجنسى . وقد سببت له هذه أيضاً مضايقات سآتى على ذكرها . واتهموه أيضاً بأنه كاتب فاجر ، لإثارته أحاديث ليس من اللائق ذكرها .

أما عن فجوره فتلك أحوال شخصية يتفق كثير من النقاد على أنها ملك للفنان ، وأنها مشكلة لا يتسع المجال لمناقشتها . ولكن المتفق عليه أن أكثر النقاد المحدثين يعتبرون أوسكار وايلد خبير من نقد المجتمع الإنجليزى فكشف عن أسراره وفضائحه ، وهم يعتبرونه الآن من المصلحين الاجتماعيين أراد أن يطهر ذلك المجتمع مما فيه من مفاسد مخزية ، فإن آراءه التى كتبها والتى تحدث بها في قسوتها وصراحتها لم يكن يقصد بها إلا إثارة انتباه الناس إلى حقيقة حالهم . وإننا عندما نقرأ ما كتب نلتمس عنده آراء صريحة لم تخف عليه في حال القوم ، وهاك بعض ما أورده في مسرحياته .

يقول : « إن الفرق الوحيد بين الأعزب والمتزوج هو أن أولاد الأعزب في بيوت المتزوجين » ، ثم إنه يبين لنا رأى الإنجليز في الزواج فيقول : « الرجل يتزوج حينما يتعب ، والمرأة تتزوج للفضول ، وكلاهما مخطئ وفاشل » . ثم هو يقول عن النساء الإنجليزيات : « إن النساء في انجلترا أصبحن ذوات مزايا عجيبة شاذة بحيث تجعلنا لا نستغرب إلا من الزيجات الموفقة » . ويكشف لنا أيضاً عن حقيقة الفتاة الإنجليزية المقبلة على الزواج على لسان إحدى بطلات مسرحياته : « أوه إنى خدعت بأرنست ، فهو عندما خطبنى أقسم لى وهو راكع عند قدمى أنه لم يحب فتاة غيرى وكنت فتاة آنذاك ولهذا لم أصدقه ولا أرى داعياً لذكر السبب » .

وهو يقول على لسان شبابهم الداعر : « إن السمعة الجيدة هى إحدى المتاعب التى لم أمن بها ... » . ويقول أيضاً عن أحدهم عندما سئل : لماذا لا يتزوج ؟ « لا أريد الزواج الآن لأنى لم أحب بعد ، ولو أنى متيقن بأنى لن أجد فيمن أعرف من الفتيات من تصلح أن تسمى فتاة بالحقيقة » .

إذاً فهذا هو المجتمع الإنجليزى يكشفه لنا هذا الكاتب الإيرلندى العبقرى ، فإذا هو مجتمع فساد وانحطاط في الأخلاق .

ولقد تأثر برنارد شو بأوسكار وايلد في كتاباته ، فاتخذ من النكتة وسيلة في التعبير عما يريد . ولكن الفرق بينهما أن برنارد شو كان جاداً غاية الجد ، أما أوسكار وايلد فلم يقصد إلا أن يضحك الناس من ذلك المجتمع ...

وأوسكار وايلد لم يهتم بالكتابة بادئ الأمر ، وإنما كان يعتمد على نكاته في المجتمع التى هيأتها له ذلاقته وبديهته ، فقد كان يدعى كما قلنا إلى الحفلات والولائم مع ذوى النفوذ . ثم دعى للسفر إلى أمريكا لإلقاء سلسلة محاضرات عن علم الجمال ، والفدائق منظم حفلاته عنه كبرأمه ، واعتمد أوسكار وايلد في رحلته هذه على الدعاية لنفسه بمختلف الوسائل ، فطار صيته ، وكانت المجلات والصحف الأمريكية تتبع أخباره

بلهفة ، وكان لهذه النكتة البارعة أثر كبير في الدعاية له ، فإنه عندما سأله موظفو الجمارك عما يملك أجابهم : « لا شيء سوى عبقريتي ... » وقد أرسل إليه أهالي بلدة جرجزفيل طالبين منه إلقاء محاضرة عن الذوق فأرسل إليهم قائلا : « غيروا اسم مدينتكم أولاً ... » . ثم دعته جامعة هارفارد لإلقاء محاضرة فيها ، وقد أراد طلبة الجامعة أن يعاملوا الضيف الكبير ، فلبس ستون طالباً الملابس الملونة الزاهية التي كان يلبسها وايلد وجلسوا في المقاعد الأمامية وقد ضجت القاعة بالضحك حين ظهر أوسكار وايلد بملابس السهرة الكاملة متعمداً ، ولم يكتف بهذا ، بل قال كلمته المشهورة مشيراً إلى الطلاب : « إن التقليد هو تحية الموهبة للعبقرية ... » .

وكان يحلو له أحياناً أن يدخل في مساجلات حول الفن مع بعض الكتاب ، ولكنه لم يكن يقسو على معارضيه . وقد أسكت ناقداً كبيراً كان يدعي دائماً أنه يعرف كل شيء ، إذ قال له وايلد في وليمة عشاء : « لا تقل إنك أعرف عن الفن وإنك أعرف عن الجمال ، فإن هذه أشياء ليس لك فيها نصيب . وإنما قل إنك أعرف أن آكل لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي تعرفه ... » .

ثم اشتغل وايلد محرراً في مجلة « دنيا المرأة » ، وكان يحلو له أن يتمدد في كرسيه مظهراً العظمة ، ويتلقى أحياناً من توسلات الكتاب لنشر ما يكتبون . ولكن ميله إلى الكسل وعدم رغبته في التقيد جعله يفشل في الصحافة ، ثم اشتغل في « بال مال جازيت » فأخفق أيضاً . ثم اضطر أخيراً أن يكتب ويؤلف ليضمن مورداً لعيشه أولاً ، ثم لتهيئة بيت لزواجه ، فقد تعرف بفتاة جميلة ، وكانت « كونستانس » فتزوجها . وكان يقول : « إني تزوجتها لأنها لا تنبس ببنت شفة » ، والواقع أنها كانت قليلة الكلام تحب زوجها وتخلص له ، ومن الغريب أنها كانت متدينة بينما أحاطت بسلوكه الظنون ، ولهذا قال : « إن سوء التفاهم المتبادل هو أساس السعادة الزوجية » . وقد رزق منها بولدين جميلين أحبهما غاية الحب ، وكان يروي لهما حكايات وقصصاً لطيفة ، اعتبرت من أروع حكايات الأطفال المشوقة . ثم اشتغل بالتأليف ليضمن له ولعائلته مورداً منظماً ، فكتب « مروحة الليدي وندرمير » . ثم نشر « صورة دوريان جراي » تباعاً . ثم جمعها وأصدرها في كتاب ، ثم كتب أيضاً « أهمية أن تكون أرنست » و « دوقة بادوا » و « فيرا أو الفوضوية » ، وكتب أيضاً « سالومي » و « الزوج الكامل » ، ونشر بعض القصائد الشعرية ومقالات عديدة عن الفن والجمال . أما « امرأة لا أهمية لها » فهي مسرحية ألفها لتلت في أكثر من عاصمة ومدينة ولاقت نجاحاً كبيراً ضمنها بصراحة آراءه في المجتمع الإنجليزي . وهذا بعض ما يقول فيها على لسان أبطال المسرحية : « النساء الجميلات وقتهن ثمين . إنهن معنيات بأزواج النساء الأخريات » ، « العمل الوحيد الذي يعرفه أفراد الطبقة الارستقراطية ... هو ألا يعملوا شيئاً .. » ثم يقول : « الإنسان يحصل في هذه الأيام على كل شيء ما عدا السمعة الجيدة » . وهذه إحدى نساء المسرحية تقول : « إن الرجال يريدون دائماً أن يكونوا أول حبيب للمرأة وهذا سر غبائهم ، أما نحن النساء فلنا دهاؤنا المعروف ، ونحن نريد من الرجل أن نكون آخر غرام له » .

هذه وغيرها من آراء كشف بها أوسكار وايلد بصراحة عن أخلاق المجتمع الإنجليزي . ويخيل إلى أن أكثر اللدعات والفكاهات التي تتناقلها المجلات ، أخذت من هذا الكاتب العبقري ، ويقال إن ما يباع من كتبه سنوياً يفوق أي مؤلف آخر ، اللهم إلا شكسبير .

ولقد تعرض أوسكار وايلد في أواخر أيامه إلى أزمة شديدة . إذ ظنت بعلاقته بألفرد دوغلاس الظنون ، أما ألفرد دوغلاس هذا فهو فتى جميل الصورة تعلق بأوسكار وايلد وصار يلازمه فنهاه والده عنه فلم يمتنع ، وطلب والده من وايلد أن يمنع ولده من صحبته فأغضبه ، فأصر الوالد اللورد دوغلاس على أن يرفع الأمر إلى القضاء ، ولكن أحد أصدقاء الطرفين تدخلوا فيما بينهما فتنازل اللورد دوغلاس ، ولكن أوسكار وايلد أصر على الالتجاء إلى القضاء لبعيد اعتباره ، فكانت ورطة كبيرة إذ كانت نتيجة المحاكمة أن حكم عليه بعامين ، وقد عانى كثيراً من سجنه فأثر في صحته وأظهر الندم ، وصار يمني نفسه بحياة معتدلة بعد خروجه من السجن ، ولكنه ما إن خرج منه حتى عاد إلى حياة العربدة والمرح التي اعتادها .

وتوفي أوسكار وايلد عام ١٩٠٠ بعد أن بلغ من الشهرة ما يصبو إليه .

عبد الغني الأنباري

مع بريد الثقافة

إلى الأستاذ إدوار حنين :

« إن تيانو آخر » قد رثى نفسه حينا توجع و « ضفضف » وزفر بوجيعته قصة « تيانو » ، فنفض عن نفسه لما كتب غباراً تراكم في حيزه كما تراكم في حيز « تيانو » عاماً وهو في غرفته فوق السطوح في حي السيدة .

إني في خريف العمر وأظنك تجهل ذلك يا أستاذ إدوار ، وأنت تمثل مبدأ القوة والشباب . فنقول كما قال الدكتور زكي نجيب محمود كل فكرة لا تحول إلى عمل ليست فكرة ويجب إبعادها ، وتريد أن تضمن النجاح في معبد الفن قبل ترك معبد المال فإن لم تخلد قرناً أو قرنين من الزمان بعد موتك فلا يجب أن تحترف الفن إلا لهذا الضمان . لا يا سيدي إن محراب الفن به جنود مجهولون ولكنهم هم الواصلون الذين خلدوا أنفسهم قروناً طويلة . نحن يا سيدي نردد عبادتنا التي تهدف للخير والجمال والتي ورثناها عن آبائنا الروحيين ممن سبقونا وكانوا أساتذتنا وأصواتهم مازالت ترن في آذاننا وهم في القبور — وكذلك الأحياء — وإن التعاسة التي يحيا بها حواريو الفن لهي السعادة لمن يحب الله والخير والجمال والمثل العليا .

على الفنان أن يتفرد لأن سعادته في هذا التفرد حتى لو كان بلا طائل ، فأعاظم القوم لا يشبعون من زمانهم إلا نصيفاً هو كل حياتهم وأجرهم وما فيه سرورهم ورضاهم من أحلامهم ، كما أن آخرتهم تسوى بين أميرهم وحقيرهم ، إن لذة الفنان هي في الفن نفسه كما أن السعادة لا تنبع إلا من نفس الإنسان ، والفن السامي هو كلمة الحق والخير والجمال التي يعذب فيها كل عذاب يراه الفنان إذا قسا عليه الزمان وكان سابقاً لأوانه كمن يضرب في حديد بارد ، والفنان متصوف بطبعه لا يخدم سيدين ، إما طريق الفن أو الوعد الجبري وإما طريق المال . قال قائل من أهل أوربا حينا سئل عن الفن « الفن يبحث عن القمة » ولكنه ، رغم ذلك يوجه الشعوب وهو مجروح محزون ، وقد يموت بعده شهيداً في معبده كذلك الجندي المجهول « تيانو » لكنه يموت مبتسماً ابتسامة الأبرار الذين عشقوا الفن وماتوا في سبيل المثل الفنية التي كرسوا أنفسهم سدنة لها ، فإن لم تكن السعادة فالعبادة ولا يشترط أن نكون كلنا خالدين .

هذا هو الفن الذي نعبده والذي هو عنوان الشعوب ، فإن جاء زمان غلبت فيه الغرائز وطغت على الفن السامي فمعنى ذلك أن الشعب قد أغلق أخلاقه .

وليس العيب عيب الفنان إذا الشعب قد أغلق أخلاقه فأصبح تعساً بائساً مثل « تيانو » ، ولكن هو الرجيع الزمن من الزهرة إلى زحل ، ألست تقول إن الزمان زحل إذا تطاحن آلهة الفن وحطموا أنفسهم وتحطم معهم ما أتموه من جهد في سبيل هذا الخلود الذي يحارب بعضهم البعض من أجله ، ومصير « تيانو » ومصيرهم واحد لو كانوا يعقلون ، ولكنه الاستعلاء ، كلنا نشتعل ونفرح بصفع بعضنا لبعض وهذا هو نجم زحل ، أما نجم الزهرة فهو رمز الحب والحب هو الخلود الإنساني يتساوى فيه الناس فلا يتخاصمون .

قلت إني في خريف العمر ، ولقد رأيت كثيراً من التقلبات التي رفعت والتي هدمت ، وأقول للأستاذ إدوار حنين إن الخادمين دائماً هم الذين أرادوا لأنفسهم الخلود قرناً أو قرنين من الزمان وأن يصل صيتهم إلى خارج حدود بلادهم ، ورأيت الفن دائماً يرفعه الجنود المجهولون أمثال « تيانو » المحب لفنه القانع بقمته والذي خلدته على صفحات الثقافة إن لم تكن الصورة من خلق خيالك .

لقد أحببت بعض الموسيقى في أوروبا وهم هم « تيانو » ينتظرون منك فرنكا كما في مصر على قهوة قصر النيل .

هناك فنان كبير مازال يعيش إلى الآن منطوياً على نفسه مع أن آثاره الفنية تشهد له أنه أبلغ الكتاب ولكنه يقيم في غرفة حقيرة في الدور الأرضي وإن « تيانو » لأسعد منه حظاً ، ولولا كرامة الرجل في نظري لصرحت لك بآثاره وباسمه ، لكنه سعيد بينه وبين نفسه التي تعيش في محراب الفن .

من قال إن الفنان الأصيل يكون ذا مال ومدخر ؟ إنه إذا حتى يجمع المال فارقه الفن لأن الفن غيور .

هل يكون فناناً من يكتب فناً ويدور به ليبيعه ويتاجر به ؟ هل يكون في فترة البيع والتجارة فناناً ؟ لا . إنه نصب وتعب لايطيقه الفنان . فإذا لم يجد من يبيع له ويتاجر فقد بارت بضاعته . وهنا يتدخل الحظ عند أناس من أهل الفن ويتنكر لآخرين . فيسكن أحدهم في عمارة شاهقة ويسكن الثاني فوق سطوح البناية . وكثيراً مايكون ساكن السطوح هو الفنان الكبير وساكن القصور هو المهرج الذي يخدع الناس ويحلس عليهم .

وثق يا أستاذ إدوار أن الاثنين عنوان يغمرها فيض ماقدمت أيديهما إلى الفن ؟ فلا تنخذ المجد والغنى والخلود « ترمومتراً » للفنان الذي يحب الفن وإلا أجدب الفن ، إذا راعينا القياس الذي حددته بين الهواية والاحتراف والذي أشرت إليه من الجنود المجهولين أمثال « تيانو » ومن الخالدين الذين تدعو لهم .

تيانو آخر

حول مقال حزب الأحرار البريطاني :

حضرة الأستاذة المحترمة نبيلة عبد المجيد محمد

تحية وسلاماً وبعد . رداً على مقالك الممتاز عن حزب الأحرار البريطاني ... يؤسفني أن أقول إن المدخل إلى البحث لم يتعرض لنشأة الحزبين القديمين الهويج والتوري . ولو أعدت دراسة موضوع البحث بالاستعانة بكتاب أمبريه موروا عن دزرائيلي والدراسات الخاصة بموضوع تاريخ مذاهب الفكر السياسي ... بل وكتب الاقتصاد السياسي العميقة في موضوع حرية التجارة بين المد والجزر ... لتبين لك أنه ما كان من حقك مطلقاً بتر مدخل البحث هكذا .

على كل حال لمعلومات المقال صحيحة وعرضه ممتع .

وأسألك أن تتفضل فتجيبي ... مارأيك في المأساة الأخلاقية الكبرى التي تثيرها حادثة خيانة لويد جورج لرفيقه السياسي Asqwith واستعانته بخصومه الألداء في التفكير السياسي وأعني بهم المحافظين ؟ ! هل من الواجب أن يغدر الأصدقاء بعضهم ببعض في سبيل سياسة الدولة ؟ ! وأليست هذه المشكلة صورة أحدث لمأساة يوليوس قيصر وصديقه الحميم جداً بروتس الذي قتله بدعوى مصلحة مستقبل روما ؟ ! وفي أي نقطة ينتهي وفاء الصداقة ويبدأ مصلحة الدولة حتى تضحى الأصدقاء في سبيلها وتغدر بهم من أجلها ؟ وهل يملك الفرد حق الحكم في هذا الموضوع فيطيح زميله ورفيقه في سبيل المصلحة العامة المزعومة ؟ أم أن المصلحة العامة درع ومجرد تبرير ؟

وأخيراً .. ما السبب الذي دفعك إلى عدم مناقشة الفكرة السائدة عن تاريخ الأحزاب الإنجليزية ، والقائلة : إن الإنجليز ... خلال تاريخهم الطويل لا يحبون تعدد الأحزاب كما في فرنسا ومصر ... وإن المدرسة السكسونية في الحركات السياسية لاتقبل ولا تهضم أكثر من حزبين ؟؟ وختاماً تقبلي احترامي .

محمد الشرقاوي

بين كثير والحميري :

قلت (في العدد ٦٦٤) : إن أبيات نسبها أستاذنا أحمد أمين لكثير عزة هي في أكبر الظن للسيد الحميري . فجاء ناقد يقول في العدد (٦٧١) :

« وإني لأذهب إلى رأي الدكتور أحمد أمين في نسبتهما لكثير عزة ؛ لأنه من كبراء الكيسانية القاطعين بالرجعة ... » الخ .

والحق أن شاعر الكرية الكيسانية غير منازع هو السيد الحميري ، وله في الرجعة أشعار لم يقلها صاحب عزة ، فهو بهذه الأبيات — فيما أرى — أحق ، ومصادر الأدب تخلط في نسبتها إليهما ، وقد جعلها ناشر ديوان كثير — المطبوع بالجزائر — من الشعر المنحول إليه .

أما قوله : « وأرجو من الأستاذ الناقد أن يستعمل شيئاً من التروي والاتزان عندما يلاحظ على أمثال الدكتور أحمد أمين ، لأنهم لا يقررون ما يقررون إلا وهم على عهد من تذكرة مستندون » ، فهو قول إن دل على شيء فإنما يدل على جهل بالنقد عامة وبأخلاق أحمد أمين خاصة .

سعد محمد حسن

مسرح

رواية النسر الصغير

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

على الرغم من أننا لا نزال ندعو القائمين على أمر المسرح عندنا إلى إيثار المترجمات الممتازة على غيرها ، إلا أننا نتردد كثيراً قبل أن نهنئ (الفرقة المصرية) على اختيارها هذه الرواية « المترجمة » فى موسمها الحالى بعد أن ظلت طوال مواسمها الماضية تقدم روايات مؤلفة أو مقتبسة أو منتحلة غالباً .

ذلك لأنه وإن يكن من المقطوع به أن التأليف المحلى لم ينضج بعد نضجاً يؤهله للاعتماد عليه وأن الاقتباس فى عرف كبار النقاد ليس إلا تشويهاً للآثار الفنية ، وأن الانتحال يحمل فى ذاته سوء صفاته ، فكذلك من المقطوع به أيضاً أن اختيار المترجمات اختياراً جدياً ليس أمراً يسيراً بل هو أمر جد عسير ، إذ يتطلب كثيراً من الخبرة والدقة والفهم وسلامة التقدير لضمان صلاحيتها للنقل .

لهذا يتعين علينا قبل أن نحكم على مدى صلاحية هذه الرواية لمسرحنا أن ننظر إلى قيمتها الفنية ، وإلى جدواها ، وكذا إلى قدرة الفرقة التى قدمتها على النهوض بتمثيلها وإخراجها ، وإلى الجهود التى بذلتها لتعريف الجمهور بدقائقها ومغزاها ... الخ .

فلا جدال فيه أن الروايات الأوربية تتفاوت فى قيمها . فكما أننا نجد من بينها روايات تكاد ترتفع إلى الذروة الإغريقية كذلك نجد من بينها روايات تكاد تهبط إلى حد يصعب معه نسبتها إلى الفن إطلاقاً . زد على ذلك أن من الروايات الجيدة ما قد تعزى جودتها إلى دقة تعبيرها عن عصرها . فهذه لا يجوز نقلها من بيئتها إلا إلى بيئة شبيهة بها . وإذا اتفق — وهذا هو الغالب عندنا — أن نقلت إلى بيئة مغايرة لها ، فلا أقل من أن يشرح لجمهور المتفرجين ما بين البيئتين من فوارق ليتسنى لهم فهمها وتذوقها وتمثلها :

غير أننا نحب أن نتجاوز عن هذا كله حين النظر إلى رواية (النسر الصغير) على اعتبار أنه من المهم لدينا الآن بالنسبة لبدائيتنا فى الفن والمسرح أن ننقل من الروايات ما يزيدنا تمرساً بالأوضاع المسرحية ، وليس لنا أن نطمع فى أكثر من ذلك . وإذاً يكفى أن ننظر إلى هذه الرواية من هذه الزاوية وحدها وعلى هذا الأساس وحده قبل كل شىء .

معلوم أن المسرح الفرنسى بعد ما بلغ قمته فى العصر الكلاسيكى أى فى القرن السابع عشر ، بدأت تضعف قوته ودوافعه الخالقة فى القرن الثامن عشر ؛ وذلك لأن الكتاب وقتئذ انحرفوا به عن وجهة أسلافهم الفنية وأهدافهم الإنسانية الخالصة ، وأصبحوا يستخدمونه استخداماً مباشراً كوسيلة من وسائل الإصلاح ونشر الأفكار والمعارف حسبما قضت به ظروفهم . فلما اشتعلت الثورة عقب ذلك زادته ضعفاً على ضعف وأطاحت فيما أطاحت بالبقية الباقية من مقوماته نتيجة لما أصاب البلاد من اضطراب عنيف حوّل النشاط والإنتاج الأدبى كله إلى الجدل السياسى .

ومعلوم أيضاً أن الفترة (١٨٠٠ — ١٨١٥) شهدت ميلاد الرومانتيكية الفردية التى حالت دون العودة إلى المسرح الكلاسيكى ، إذ أن هذا المسرح كان معبراً عن المجتمع الارستقراطى الذى دمرته الثورة ، بل حالت دون العناية بالمسرح بصفة عامة ، لأن « الفرد » قد أحس بفرديته إحساساً تلاشى معه الإحساس بمجتمعه وبما حوله ، فانطلقت مشاعره التى كانت مكبوتة فيما مضى ووجدت انفعالاته

متنفساً رحباً وتبدل الشعور بالطمأنينة التي تلازم المجتمعات المستقرة على وضع رتيب إلى شعور بالتشاؤم والشك ؛ ومن ثم توالت وتكاثرت ميكروبات ذلك المرض الذي يسمونه مرض العصر mal du siècle ، وترتب على هذا جميعه أن أصيب المسرح بهزال شديد جداً كاد يودي به لا سيما في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

صحيح أن بعض الكتاب حاولوا كتابة تمثيليات مختلفة ، غير أن هدفهم الأول لم يكن سوى مجرد تحطيم مواضعات المسرح الكلاسيكي وتعمد مخالفتها ، وهي مواضعات ذات قيمة كبرى . هذا فضلا عن أنهم — لوقوعهم تحت مؤثرات عصرهم الفردي الانفعالي — كانوا مفتقرين دائماً إلى قوة الملاحظة والقدرة على خلق الشخصيات وإدارة الحوار وتصميم البناء المسرحي بصفة عامة ، حتى إنهم لم يستطيعوا أن يصوروا في رواياتهم سوى أنفسهم دون أن يقصدوا ذلك . وصحيح كذلك أن الإمعان في هذا الاتجاه أحدث أكثر من رد فعل ، فظهرت خلال هذه الرومانتيكية وبعدها اتجاهات واقعية ورمزية ورتاسية وميلودراماتيكية وغيرها ، لا سيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ولكن كان من الصعب أن يجد الفن المسرحي في ذلك مجالا صحيحاً أو أسساً وطيدة ينهض عليها من رقدته الطويلة ، لأن هذه الاتجاهات جميعها تلوذ بالفردية على نحو ما ، في حين أن المسرح فن اجتماعي الغاية والوسيلة .

من هنا شهدت هذه الفترة روايات تمثيلية كثيرة نسبياً ، لكنها كانت غير ذات كيان فني وكانت معاييرها بأيدي ممثليها لا مؤلفيها ، لدرجة أن النقاد والجمهور وأصحاب المسارح لم يكونوا يهتمون أو يتحدثون أو يفاضلون بين موضوعاتها بل بين القائمين بأدوار البطولة فيها من أمثال : ساره برنار ولوسيان وجويتري وريجان .

ورواية (النسر الصغير) ليست إلا إحدى هذه الروايات . فقد كتبها إدمون روستان E. Rostand في تلك الحقبة الجدبية . ومع أنه يعتبر من أشياع الرومانتيكية الحديثة المتأزين وروايته هذه تمثل هذا الاتجاه خير تمثيل إلا أن النقاد لا يكادون يذكرونها إلا ليذكروا فقط أن بطلتها وممثلتها الأولى هي ساره برنار .

وإذاً فنحن لا نظلم (الفرقة المصرية) إذا قلنا إنها — وقد اختارتها في مستهل موسمها — لم تحسن الاختيار .

لكننا مع هذا نؤثر أن لا نتسرع في الحكم عليها بسبب رواية لم تتبين بعد هدفها ، فلعل فيه ما يسوّغ اختيارها على أي نحو من الأنحاء . ولذا يتحتم علينا أولا أن نوجز موضوعها :

في قصر شامبرون بالقرب من فيينا عاصمة النمسا يعيش النسر الصغير — وهو ابن نابليون بونابرت — أسيراً أو شبه أسير تحت حراسة شديدة دبرها وأحكمها وزير النمسا السياسي الداهية مترنيخ ، لكي لا يعلم الابن شيئاً عن سيرة أبيه وبطولته وعبقريته ، فربما يستوحيه حين يشب عن الطوق ويعيد سيرته الأولى ويزلزل عروش أوربا عامة والنمسا خاصة ، ورغم هذه الحراسة تتسرب إليه بعض الأنباء الصحيحة كما يوحي إليه أن شعب فرنسا لا يزال يتشبث به ، فيحاول الهرب مع المخلصين من أتباعه ، لكنه يفشل ثم تشتد عليه وطأة المرض الذي أصابه منذ طفولته ويموت ، والمهم أنه في مختلف أحواله يلهج بذكر فرنسا وعظمة أبيه وامبراطوريته .

والخلاصة أن هذه الرواية عبارة عن « حكاية » تتضمن سرداً تاريخياً لحياة ابن نابليون من وجهة نظر مؤلف رومانتيكي يذهل عن الواقع ويحلم بالماضي وأمجاده ، وكل ما يهدف إليه هو تمجيد الجنس الفرنسي والإمبراطورية البونابرتية ، ولاشيء أكثر من ذلك .

وقد سبق أن أوضحنا أن مثل هذه الموضوعات لا يمكن أن تكون صالحة مسرحياً إلا — وهذا مع التجاوز الشديد — إذا توفرت فيها إمكانية التأثير في الجمهور لدرجة قصوى .

وبديهي أن ذلك إذا كان متوفراً في هذه الرواية بالنسبة

الجمهور الفرنسي فإنه ليس كذلك بالنسبة لجمهورنا ، بل هو على التحقيق عكس ذلك ، وبصفة خاصة فى مثل ظروفنا الراهنة التى تضطرنا فيها فرنسا إلى كراهيتها نتيجة لموقفها المعروف إزاء قضينا الوطنية وقضية شعوب المغرب الشقيقة ! فإذا أضفنا إلى ذلك أن مؤلفها الفرنسي أيضاً لم يحسن صياغتها الفنية من حيث إنه لم يوضح مغزاها إيضاحاً مسرحياً ، إذ لم يستنطق الحوادث به ولم يستخدم الأدوات والوسائل الدراماتيكية من حوار وشخصيات وصراع وحبكة وعقدة فى إبرازه . وإذا أضفنا إلى هذا وذاك أن هذه الرواية سبق أن مثلتها الفرق المصرية المختلفة مراراً حتى ليتعذر أن نجد مبرراً معقولا لإعادة تمثيلها ، وضح تماماً أننا نورط أنفسنا فى حيرة شديدة ودهشة أشد إذا نحن حاولنا معرفة الباعث أو البواعث التى دفعت المسئولين عن الفرقة المصرية إلى اختيار هذه الرواية بالذات .

يقولون إن نجاح الترجمات التى شهدها المسرح المصرى فى العام الماضى كان له أثره فى هذا . ويخيل إلى — علاوة على هذا — أن (حب الظهور) الذى يستبد بمعظم الممثلين القدامى من جهة ، وشغفهم بالأداء الرومانسى الذى يعتمد على التفخيم والتضخيم والتهويل فى الصوت والحركة من جهة أخرى ، هما سبب ترحيبهم باختيار رواية من هذا الطراز الذى لا يجيء سوى إبراز بطولة الممثلين ولا يصلح له سوى الأداء الرومانسى .

وإلا فقد كان من الممكن أن تتخير هذه الفرقة أى رواية من أى طراز آخر من المسرح الفرنسي ذاته .

كان من الممكن أن تتخير حتى إحدى روايات العصور الوسطى كنموذج للمواضعات الفنية البدائية التى تتشابه مع مواضعاتنا .. أو إحدى روايات عصر النهضة كنموذج لكيفية التطور والانتقال والارتقاء .. أو إحدى روايات القرن السابع عشر كنموذج ممتاز يصح أن نتطلع إليه يوماً ما .. أو إحدى روايات القرن الثامن عشر التى مهدت للإصلاح لعلنا ونحن نمهد للإصلاح أيضاً أن نستفيد منها .. أو إحدى روايات العصر الحديث الذى تمثل مذاهبه وفنونه مكاناً ما فى أذهاننا . إذ أننا نسمع بها أو نقرأ عنها على الأقل بحكم الترابط الفكرى العالمى .

لكن يظهر أن الفرقة المصرية بقدر ما كانت سطحية فى محاولاتها المحلية السابقة التى عرفت بها ظلت كذلك فى محاولاتها الجديدة .

ولعل مما يؤيد ذلك أنها لم تفكر مطلقاً فى تعريف الجمهور برواياتها ومذاهب مؤلفيها وطرائق إخراجها — سواء فى الماضى أو فى الحاضر ، بل إنى لأخشى أن أقول إن بعض ممثليها أنفسهم لا يحاولون التعمق فى فهم ذلك أو بحثه ، فقد كنت أشهدهم فى روايتهم هذه — مع الأسف الشديد — يتحدثون عن قصر شامبرون والجمهورية الأولى والثانية ولويس فيليب بطريقة تدل على أنهم يحفظون — أو يلقنون — هذه الأسماء أكثر مما يعرفون مدلولاتها ومسمياتها .

ومع الأسف الشديد كذلك تجلت هذه السطحية فى الإخراج أيضاً ، فلم يكد يتحرر المخرج الفاضل من محاكاة (الفرقة الفرنسية الكوميديا) التى مثلت نفس هذه الرواية فى العام الماضى بدار الأوبرا وقامت بدورها الرئيسى « جان بوال » مع فارق ملحوظ بين « الأصل » و « التقليد » !! وقد يكون لضآلة أدوات واستعدادات الإخراج عندنا أثره . ولكن هذا لا يدعو إلى إغفال مطابقة الحوادث والحوار للمشاهد والمناظر إغفالاً تاماً ، فكنت تسمع (النسر الصغير) مثلا يقول : « ها أنا فى هذه الحجرة السوداء ... » بينما الحجرة ليست سوداء ، وكنت ترى مخدع نابليون وكأنه مخدع رجل متوسط الحال . وكنت ترى الأضواء فى منظر تحاك فيه الدسائس كالأضواء فى منظر تشيع فيه البهجة ! فإذا عرفنا أن معالم القصر الذى جرت فيه أحداث الرواية وتفاصيله وأثاثه وسرره قد أفاضت السجلات التاريخية فى وصفها بدقة بحيث يصعب تجاهلها أو تبديلها على المسرح .. وعرفنا أن معانى الرواية لا عمق فيها بحيث يسهل فهمها .. إذاً لعرفنا إلى أى حد لم يوفق مخرجنا ، مع أنه — كعادته — قد نحا فى إخراجها نحواً واقعياً مألوفاً لا يتطلب جهداً كبيراً .

عبد الفتاح البارودى

الثقافة

العـــدد ٦٧٦
١٠ من ديسمبر ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠ مليماً

صفحة

نشيد مولد النبي

« ينشده طلبة المدارس في حفلات مولد النبي عليه السلام »

اليومَ مولدُ النبي   أَكرِمْ بهِ وأَحْبِبِ
نوراً لكلِّ مُجْتَبي   أهلاً وألفَ مَرْحَبِ!

لمّا تجلّى نورُهُ وأشرقا   عمَّ البرايا مغرباً ومشرقا
في كلِّ قلبٍ هديُهُ تدفّقا   بالأمنِ واليُمنِ ونيلِ المأربِ

اليومَ مولدُ النبي   أَكرِمْ بهِ وأَحْبِبِ
نوراً لكلِّ مُجْتَبي   أهلاً وألفَ مرحبِ

محمدٌ هو الرسولُ المُصطفى   هدى إلى الحقِّ وسنَّ المُرتقى
يا سعدَ مَنْ بدينهِ تشرّفا   ونال بالإسلامِ أسمى مَطلبِ

اليومَ مولدُ النبي   أَكرِمْ بهِ وأَحْبِبِ
نوراً لكلِّ مُجْتَبي   أهلاً وألفَ مَرْحَبِ

يا مانحَ الإسلامِ كلَّ مُسلمِ   بكَ اهتدينا للإلهِ الأعظمِ
فخرُ الإنسانِ ما لم يَفخرِ   ونوّرَ الدنيا بمولدِ النبي

اليومَ مولدُ النبي   أَكرِمْ بهِ وأَحْبِبِ
نوراً لكلِّ مُجْتَبي   أهلاً وألفَ مَرْحَبِ

أحمد أحمد العجمي

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز		رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك	الإدارة	محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٧٦ الاثنين ١١ من ربيع الأول سنة ١٣٧١ — ١٠ من ديسمبر سنة ١٩٥١ السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

سيئات الموتى

للدكتور زكي نجيب محمود

يقول شكسبير في رواية يوليوس قيصر ، والقول هناك يجري على لسان أنطون ، في الخطبة المشهورة التي ألقاها عند جثمان قيصر :

السيئات يقترفها الناس ، فيمضي فاعلوها وتبقى
وأما الحسنات فغالباً ما تدفن مع رفاتهم تحت الثرى

أما أن تبقى السيئات بعد أن يمضي فاعلوها ، فأمر من الوضوح بحيث لا أتخذه موضعاً للشك والريبة ؛ على أني تاركه الآن لأعود إليه بعد قليل ؛ لكن الذي قد تخطئه العين العابرة ، هو ذهاب الحسنات في جوف الأرض مع رفات المحسنين .

وإني لأعترف أني قد لبثت حيناً طويلاً ، أنكر على الشاعر العظيم رأيه هذا كلما ذكرت سطريه السابقين ؛ كنت أعجب كيف يقول إن حسنات المحسنين غالباً ما تدفن مع رفاتهم وتُنسى ، مع أن الناس — فيما كنت أرى — ما ينفكون لاهجين بمآثرهم ، مخلدين لذكرياتهم ، بما يبنون لهم من أنصاب وتماثيل ، وما يكتبون عنهم من مقالات وكتب ، وما يقيمون لهم من حفلات يُحيون بها أسماءهم كلما مضى على موتهم كذا عاماً ... ألا يكفي ذلك كله دليلا على أن حسناتهم لم تذهب — كما زعم الشاعر — مع رفاتهم تحت الثرى ، بل بقيت حية في ذاكرات الأحياء ؟

هكذا كنت أعجب لنفسي من قول الشاعر ، حتى كان الأمس ، حين جلست من داري في ركن دافئ ساعة الغروب ، أشرب الشاي في صمت وعلى مهل ، سارحاً بفكري فيما أساء لنا الأسلاف بما ألقوه على ظهورنا من أعباء ثقال — أعباء التقاليد التي أقعدتنا عن الحركة الخفيفة والسير السريع ؛ وكان طبيعياً عندئذ أن تتوارد الخواطر ، فتثب إلى ذهني عبارة شكسبير : « السيئات يقترفها الناس فيمضي فاعلوها وتبقى ؛ وأما الحسنات ... » .

ولكني هذه المرة — ولأول مرة — وقفت وقفة المتأمل ، بعد أن تعودت فيما مضى أن أوافق على الشطر الأول وأرفض الشطر الثاني ، موافقة ورفضا هما أقرب إلى الحركة الآلية منهما إلى التفكير المتروي ؛ لم أرضَ لنفسي هذه المرة أن تتعجل الإنكار والنفي ، فالأرجح أن يكون الشاعر الذي صدق القولَ في شطره الأول ، قد صدق القولَ كذلك في شطره الثاني — فلأفكر من جديد ؛ أحقيقة تُدفن الحسنات غالباً مع رفات المحسنين ؟

وكأنما قد أشرق عليّ هذه المرة ضوء جديد ، إذ نظرت إلى الموضوع من ناحية جديدة ؛ قلت لنفسي : دع عنك ما يقيمه الناس لموتاهم المجيدين من تماثيل وما يكتبونه عنهم من كتب ، لأن ذلك كله قد يكون سداً من الإنسان لنقص أدركه في نفسه ، فربما أدرك الإنسان في نفسه سرعة نسيان الجميل ، فعالج نسيانه هذا السريع بما يُذكّر ... إنه إذا ثبت أن طبيعة الإنسان تمنعه من الاعتراف بالجميل لصاحبه ، وتدفعه إلى طمس معالم الفضل الذي أسدى إليه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، إذا ثبت ذلك في طبيعة الإنسان ، إذاً فلا شك في صحة قول الشاعر ، بأن الحسنات كثيراً ما تدفن مع رفات المحسنين ، فلا يكاد المدين بفضل أن يُهيل التراب على المتفضل ، حتى يتناسى الدين فينسى ، وينسى الناس معه ، وبذلك ترقد الحسنة مع رفات صاحبها في قبره إلى الأبد .

وحسبك وقفة لا تطول ، لتدرك على الفور أن الطبيعة البشرية تأبى على الإنسان أن يعترف بفضل أسدى إليه ، فإن أخذنا أنفسنا بهذا الاعتراف ، فلأننا قد أخذنا طبيعتنا بالتهذيب والتدريب ، وإذاً فليس يحفظ الجميل إلا من اكتسب القدرة على قمع طبيعته والإمساك بزمامها ... ذلك لأن من أعطى أقدر ممن أخذ العطاء ، ومن أحسن أقوى ممن تقبل الحسنة ؛ ولما كان الإنسان بطبيعته أميل إلى إظهار جوانب قوته وإخفاء جوانب ضعفه ، كان من العسير عليه أن يعترف بما بدا من عجزه حين تقبل المعونة ممن أعانه .

في العطاء قوة وفي الأخذ ضعف ، حتى ليركع الآخذ أمام معطيه — حقيقة أو مجازاً — وإذا ما حدّثته جاء حديثه خافتاً ، ووجدت عينه « مكسورة » حسيرة ... إن من الكتب التي أقامت لي ركناً ركيناً من ثقافتي ، قصة « راس ويكفيلد » لـ « أولفر جولدسمث » ؛ هذا الكتاب العجيب الفريد ، الذي ينفذ في الطبيعة البشرية نفاذاً يصل إلى أعماقها ، والذي له في كل صفحة ، بل في كل فقرة ، بل في كل سطر من سطوره ، ملاحظة صادقة في تحليل طبيعة الإنسان ؛ في هذا الكتاب يقص عليك الكاتب في سياق قصته ، أن مسافراً التقى براس ويكفيلد واستدانه قليلا من المال يرده له عند بلوغه غايته ؛ ثم حدث أن أقام الرجلان ليلة في نزل في الطريق ، ودارت بينهما مناقشة احتدّ فيها المسافر ، فأخذ العجب من الراس كيف استباح ذلك الرجل الجرىء لنفسه أن يحتدّ معه في المناقشة مع أنه مدين له بمال !؟

ولما كان العطاء قوة والأخذ ضعفاً ، كان عسيراً كل العسر على من به كبرياء ، أن يضع نفسه موضع الآخذ ، لأنه يعلم أن ذلك سيصحبه اعتراف لغيره بالفضل ، وفي ذلك ما فيه من جرح ؛ ويزداد هذا الجانب وضوحاً ، حين يحس المحسن عن شعور بقدرته ، فيثير في الآخذ إحساسه بنقصه وعجزه — وقد يعطى المعطى عن شعور بالعطف على من أعطى ، كما يفعل الوالد مثلا نحو ولده ، وعندئذ يجب أن يبادله الآخذ عطفاً بعطف .

وانظر الآن في قولهم : « اتق شر من أحسنت إليه » ، أفلا ترى القول قد ازداد وضوحاً وبياناً ؟ كم من مرة سألت نفسي حائراً : كيف يمكن أن يكون لمن أحسنتُ إليه شر أتقيه ؟ لكنني أرى الآن كيف يثير فيه شعوره بنقصه وعجزه شعوراً بالمرارة نحو من أعطى ؛ خصوصاً إذا اختلط العطاء بالمنّ ، فعندئذ يستحيل على الآخذ ألا يحس نحو من أحسن إليه بالكراهية والمقت ؛ فلا يزول الشر ممن أحسنت إليه إلا إذا أعطيته الإحسان في عطف خالص ، لا تكبر فيه ولا شموخ .

ولولا أن سرعة نسيان الحسنة من طبيعة الإنسان ، لما كان بالقائل حاجة أن يقول للناس « اذكروا حسنات موتاكم » — وإذاً فلم يخطئ شكسبير كما ظننت ، حين لاحظ أن الحسنات كثيراً ما تدفن مع رفات المحسنين .

•••

والحق أني ما قصدت الى الكتابة في الحسنات التي تذهب مع الموتى في قبورهم ، وإنما أردت الكتابة في السيئات التي يقترفها الناس فتبقى بعد موتهم على وجه الأرض حية لسنى ينوء بحملها الأحياء بعد ذهاب أصحابها ، وأعجب العجب أن ترى هذه السيئات الباقيات على وجه الزمن ، قد اكتسبت جلالا من جلال الزمن ، فإذا هي في الأعين مقدسات مصونات تجرحها بَغي ومسّها حرام .

كان لأسلافنا ظروف تحيط بهم ، وكان لهم سلوك يستجيبون به لتلك الظروف ؛ فوفقوا في حياتهم أو أخفقوا بمقدار ما جاءت استجابتهم ملاءمة لظروفهم ؛ وقد مضى الأسلاف وجئنا ، فأية قوة في الأرض هذه التي تشدنا إلى سلوك أسلافنا ، نستجيب لظروفنا بمثل ما استجابوا

ظروفهم ، تغيرت الظروف أو لم تتغير . ووفق هؤلاء الأسلاف أو أخفقوا ؟.

كانت لأسلافنا حرية الاختيار فاختاروا لأنفسهم وجهة النظر التي ارتضوها ورضوها . وليست هنالك قوة لا في الأرض ولا في السماء ، تلزمنا باصطناع وجهة نظرهم إلا بمقدار ما تتفق ظروفنا مع ظروفهم .. لكننا مشدودون إلى منظارهم شداً ، لا نرى الأمور إلا بأعينهم ، كأنما هم وحدهم الرجال يُجرِّبون ، ونحن الأطفال نعمل وفق ما شرعوا — لقد قام علماء النفس المعاصرون بتجارب على الأطفال في لعبهم ، فانتهوا إلى نتائج علمية في نشأة الطفل من حيث وجهة نظره إلى القواعد الموضوعة للسلوك ؛ فأما الصغار فيما دون العاشرة ، فلو سئلوا : من الذي وضع لكم قواعد الألعاب التي تلعبونها معاً ؟ أجابوا بأنهم وجدوها كذلك ، ولا يجوز لهم أن يتناولوها بتحوير أو تبديل ؛ فإذا ما ضيّق القائم بالتجربة عليهم سبل الفرار ، وحاول أن يظفر منهم بجواب محدد عن واضع القواعد التي يتبعونها في ألعابهم ، قال بعضهم إنه الله ، وقال آخرون إنها الحكومة ، وقال فريق ثالث إنهم آباؤهم أو أجدادهم ... حتى إذا ما تقدم هؤلاء الأطفال في أعمارهم قليلا ، وجاوزوا العاشرة إلى الثالثة عشرة أو نحوها ، وأعيد عليهم نفس السؤال : من الذي وضع لكم قواعد الألعاب التي تلعبونها معاً ؟ أجابوا عندئذ بأن واضعها هم أطفال مثلهم ، وأن في مقدورهم أن يغيروها إذا شاءوا وكيف شاءوا .

وأظننا نستطيع أن نستخدم هذا القياس نفسه في التمييز بين المجتمع في طفولته وفي نضجه : فأبناء المجتمع الطفل ينظرون إلى أنواع السلوك التي يسلكونها في مواقف حياتهم المختلفة نظرتهم إلى التراث المقدس الذي لا ينبغي بل لا يجوز أن يتناوله أحد بتغيير ، وأما أبناء المجتمع الناضج فيدركون أن الأمر لا قدسية فيه ، وأن التغيير مرهون بمشيئتهم ، لأن الحياة حياتهم هم ولا بد أن يعيشوها على أكمل وجه مستطاع ؛ فإن كان السلوك الموروث عن الآباء صالحاً لهم فأهلاً به ، وإلا فمن حقهم بل من واجبهم أن يغيروا منه ما شاءوا وما شاءت لهم ظروفهم — وأظنك تستطيع أن ترى في وضوح ، أن روح الاستبداد والطغيان أقرب إلى الشيوع في المجتمع الأول ، وأن روح الحرية والديمقراطية أقرب إلى السيادة في المجتمع الثاني ، ذلك لأن حرية التصرف حرام هناك حلال هنا .

إن احترام التقاليد الموروثة في ذاته أمر لا عيب فيه ولا غبار عليه ، مادمت آخذها أخذ السيد المسيطر لا أخذ التابع المطيع ، فهاهي ذي أرقى الأمم تحافظ على بعض تقاليدها على شرط ألا تعرقل لهم شيئاً من سياسة أو تجارة أو صناعة أو تعليم أو غير ذلك من شئون الحياة ؛ وكثيراً ما تراهم — إذا وجدوا التقليد عائقاً في سبيلهم — يبقون على صورته ويفرغون مضمونه ومحتواه ، كأنما هم ينتزعون من الأفعى سمومها ليبقى لهم جمال ظهرها الأرقط .

ولست أول من يتكلم في جناية أسلافنا بما فرضوه علينا فرضاً من وجهات نظرهم وأنواع سلوكهم ، فقد سبق إلى ذلك منذ زمن طويل أستاذنا الجليل أحمد أمين بك ، حين فصل القول تفصيلاً في جناية الشعر الجاهلي على الأدب العربي ... لكنك تستطيع أن توسع من نطاق هذه الجناية حتى تشمل كثيراً جداً من تفصيلات حياتنا ، فمنهم أخذنا حب الظهور بكل ماله من ذيول ، ومنهم أخذنا الوضع الاجتماعي للمرأة بكل ما يستتبع من نتائج ، ومنهم أخذنا غير ذلك وغير هذا .

لكني أريد أن أترك تفصيلات ما جنوا به علينا ، لأغوص إلى ما تحت السطح من أعماق ؛ فهنالك في العمق البعيد أمٌّ تفرعت عنها هذه التفصيلات كلها ، وهي وجهة نظر معينة تصبغ كل شيء بلونها ، فورثناها عنهم كما هي وجعلنا ننظر ؛ وإنما أقصد بذلك نظرة وصفها الشهرستاني في عبارة نقلها عنه المغفور له الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا في كتابه « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » (ص ٣٢) إذ قال : « من الناس من قسم أهل العالم ... بحسب الأمم فقال : كبار الأمم أربعة : العرب ، والعجم ، والروم ، والهند ، ثم زاوج بين أمة وأمة ، فذكر أن العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير خواص الأشياء والحكم بأحكام الماهيات والحقائق ، واستعمال الأمور الروحانية ؛ والروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير طبائع الأشياء ، والحكم بأحكام الكيفيات والكميات ، واستعمال الأمور الجسمانية . »

ولو فهمنا عبارة الشهرستانى على أن العرب والهند من ناحية يمثلون ما يسمى بالشرق ، وأن العجم والروم من ناحية أخرى يمثلون وجهة النظر الغربية ، كان مؤدى كلامه بلغة يألفها قارئنا ، هو أن أهل الشرق يميلون إلى الأحكام الكلية التى تطمس الفروق التفصيلية بين الأجزاء ، وأن أهل الغرب يميلون إلى الأحكام الجزئية التى تلحظ ما بين تلك الأجزاء من فروق ؛ والأولون روحانيون لا يستشهدون فى أحكامهم بمشاهدات الحواس ، والآخرون جسمانيون يحتكمون فى معارفهم إلى ما تدلهم عليه الحواس من مشاهدات .

ولو كان هذا هكذا ، ثم لو كان الأسلاف قد ألبسونا منظارهم ، فقد جنوا علينا الجناية التى أودت بنا وستودى إلى مهوى الهلاك ؛ فالبس المنظار الذى يطمس لك الفروق بين الأجزاء ، تجد أفراد المجتمع قد أصبحوا فى عينك كتلة واحدة ، لا شخصية لزيد ولا فردية لعمرو ، ولا وجود لخالد ؛ ومن ثم استبداد المستبد وطغيان الطاغية ؛ ثم عد فالبس المنظار نفسه تجد النمل والبعوض والذباب كلها حشرات ، والصقر والغراب والعصفور كلها طيور ، والحجر والرمل والبازلت كله صخور ، وإذاً فلا مشاهدات ولا تجارب ولا علوم ، ثم عد مرة ثالثة والبس المنظار الموروث الذى يطمس لك الخصائص الجزئية بين يوم ويوم وساعة وساعة ، تر الزمان كله قد انحصر فى امتداد من فراغ وعدم ، ومن ثم فلا تعلق بالدنيا الفارغة ولتضع الرجاء فى عالم آخر ...

فالجناية الكبرى التى جنى بها أسلافنا علينا ، هى هذا المنظار الذى أورثونا إياه ، فاستمسكنا به وتشبثنا كأنما نفقت سوق المناظير ، فلم يعد منظار سواه .

تعالوا نجرب منظار « العجم والروم » — على تعبير الشهرستانى — لتتبدل الدنيا فى أنظارنا ، فالعجينة المطمومة تصبح أفراداً متباينة الصفات والخصائص ، والكون الخلاء يمتلئ أمام أعيننا ألواناً وأصواتاً فيعمر خرابه ؛ وهذه الحياة الزائلة الفانية تنقلب حياة خصبة مليئة تستحق أن نعمل لها كأننا سنعيش فيها أبداً .

زكى نجيب محمود

من جحود الأبناء :

عقـــوق ...!

لعلك تدهش حينا تقرأ هذه القصيدة وتظن أنها من نسج الخيال — كلا يا سيدى ... أقسم لك أنها حقائق مرة رأيتها بعينى فأنكرها عقلى . ولكنى أدركت أخيراً أن من الأبناء من يصفقون لموت الآباء ، ويشمتون شماتة الأعداء .

وهكذا كان صاحبى ، لم تثنه رهبة الموت وقدسيته من سفاهة الابن الجحود .

أنشرها يا سيدى علّه يقرؤها فيندم ساكباً بعض الدموع .

[من خطاب الشاعر المحرر]

يا سادراً .. تهوى قتونك   والصحب حولك يرمقونك
الليـــل لوح بالحنا   د ... وأنت لم تفتح عيونك
صرخت بســـاحتك النو   ن . فلم تدع — أسفاً — مجونك
أودت بوالدك الذى   كم كان يأنف أن يهينك
تبكى الديار فقيـــدها   والبشر لم يترك جبينك
لم ترتجع لمـــا دهـا   ك الخطب ، أو تظهر شجونك
تهذى .. وتسخر من أنا   س قد أتوا يستخبرونك
تزهو إلى النعش الرهيـ   ـب بفرحة ملأت جفونك
تلهو وتطرب فى الدجى   والكأس لم تبرح يمينك
وجمعت ســـار « الحشيـ   ـش » إلى الصباح يخدرونك
وظللت حول النار تضـ   ـحك ، لاتنى من يخفرونك
فكأنما هـــذى الفجيـ   ـعة مغنم يحلو سنينك
وكأن صوت النائحا   ت بلابل سرت غصونك
وكأن .. ما قد كان .. حلـ   ـم ، طاف لم يقلق سكونك
أوّاه من هـــذا الجحو   د — طغى فما أبقى حنينك
أنكرت من قطع الإبا   ء ساهياً .. يرعى شئونك
بغـــض لئيم فى الحيا   ة .. وتجتنى منها فنونك
وبكى فى صـــمت إذا   أبديت ، من وجع ، أنينك
وإذا تجهمت السنيـ   ـن ، تراه ، فى البؤسى معينك
جازيته هـــذا العقو   ق ، فبات قومك يلعنونك

(القاهرة)   محمد أحمد سالم

خواطــــر

للدكتور أحمد أمين بك

— ٣٣ —

إذا قال الشيخ أريد في الأدب كذا، فهو معذور لأنه فقد قدرته على العمل، وخلفه من بعده من الشبان المتوثبى العضلات، القويّ العقل والإرادة. ولكن لا أفهم من الشاب أن يقول أريد، وإنما أفهم منه أن يقول أعمل، لأن مزيته على الشيخ القدرة على العمل! وأسمع في هذه الأيام كثيراً من الشبان يقولون «نريد» فممن يريدون؟ أمن الشيوخ وقد فقدوا قوتهم وتركوا الميدان فسيحاً أمامهم، أم ممن يريدون وعليهم ملء الميدان بعد أن تخلى عنه الشيوخ؟ إن الطبيعة جعلت التطور قانون الإنسان، وقانون الأحياء. وقد أدى الشيوخ واجبهم حسب طاقتهم، ولم يبق إلى أن يؤدي الشباب واجبهم بالعمل لا بالقول.

وقد علمتنا التجارب أن خير إنسان من استطاع أن يحول إرادته وعقيدته إلى عمل: فإذا أراد الشاب نوعاً من الأدب خاصاً، فلينشئ فيه قصيدة، أو ليضع فيه رواية، أو نحو ذلك، ولا يتكل على الشيخ الفاني، فقد كفته شيخوخته. وفي المثل الإنجليزي «إن جهنم مرصوفة بالرغبات الطيبة، والإرادات الصالحة»، وحقاً أنها في جهنم لأنها لم تترجم إلى عمل، وإلا كانت في الجنة.

— ٣٤ —

سمعت عن أسرة ما، حالها لسكناها بأكثر مما تحتمله ميزانيتها، وتعتذر عن ذلك بأن الضرورة اضطرتها إلى ذلك، وليس ذلك عذراً مقبولا، وفي الإمكان استرجاع هذا الخطأ، وتوزيع ميزانية الأسرة توزيعاً عادلا بين الأكل والشرب والسكن وما إلى ذلك، وإنما جاءهم هذا النقص من ناحية نقص العقل وضعف الإرادة، وهناك أسر أخرى وقعت في مثل هذا العيب واشترت سيارة وهي لاتستطيعها، أو تضخمت في الأكل والشرب وهي لاتستطيعه؛ وعلاج هذا كله الخضوع للحكمة، وعدم المبالاة بكلام الناس والتصرف الدقيق على مايقتضيه العقل.

أحمد أمين

قالـــوا

● السعادة هي راحة القلب وعافية البدن، والخير الكامل هو اجتماع هذين الشيئين في آن واحد.

● قصر الحياة مع الهناء خير من طولها مع التكدر.

● إنما يحتج الحرية استواء سائر الأشياء، خيراً كانت أو شراً عند الإنسان.

● إن الآلهة لا تتأثر بشيء من أعمالنا، فلا ترضيها طيباتنا ولا تغضبها سيئاتنا.

● إن معرفة الإثم بداية الخلاص.

● يجب قبل أن تفكر ملياً فيما تأكله وتشربه، أن تفكر فيمن تأكل وتشرب معهم، لأن وليمة دسمة الطعام عديمة الصديق أشبه بحياة الأسد أو الذئب.

● إن السكر والخراب سيان.

● لاتجعلوا الحكمة الحية في الجلود الميتة.

● إذا أردت أن تنظر إلى الشيء بقدر موضعه فجرد بصيرتك عن الهوى.

● الخطأ في التدبير هو أن تصرف الأشياء على خلاف ماتصرفه الطبيعة.

● الحكمة طب الأرواح.

ضللنا الطريق!

[يا لها من صيحة منكرة فى الصحراء]

للأستاذ الدمرداش محمد بك

فى هذا الأسبوع كنت أقرأ فى كتاب « فى صحراء ليبيا » لمؤلفه الرحالة المرحوم أحمد محمد حسنين باشا ، فلفتت نظرى العبارة الآتية :

« ... وعند الظهر اجتزنا علم « جبيل الفضيل » . وهذا العلم شأنه شأن أكثر أعلام الصحراء ، يحمل اسم من فقد حياته بالقرب منه ، تذكاراً له — كان الفضيل من خيرة أولاد الصحراء . وبينما كانت قافلته فى طريقها من « جالو »[1] إلى « الكفرة » ، قامت عاصفة شديدة ، سفت الرمال فى وجه القافلة ، وآذت عينى الفضيل كثيراً ، فعصبها . ولم يستطع رؤية الطريق ، بل اعتمد على وصف من كانوا معه ، للأعلام التى مرّوا بها . ولكنهم كانوا قليلى الخبرة ، فأخطأوا آبار « الظيغن » ، وحاولوا الانحدار إلى الكفرة ، ولكنهم ضلوا فى الصحراء ، وفنيت القافلة ، إلا جملا واحداً ، فاستطاع أن يرجع إلى الكفرة ، تقوده غريزته التى لا تخطئ ، فوصلها ، وعرف سكان الواحة ، أنه من جمال الفضيل ، بما على عنقه من وسم ، وقامت قافلة لنجدته ، فتبعت أثر الجمل فى الصحراء . ولكن الوقت كان قد فات ، فإنهم عثروا بجثث الرجال ، متصلبة فوق صعيد الصحراء » .

ولم أكد أنتهى من قراءة هذه العبارة حتى انتفض جسمى واهتزت مشاعرى وتذكرت على الفور حادثاً مشابهاً لهذا وقع لنا فى نفس هذه الصحراء فى ربيع سنة ١٩٢٥ ونحن فى طريقنا إلى الواحة البحرية .

لم أكن فى ذلك الوقت حديث عهد بالصحراء ، بل كنت قد طوفت فى كثير من أرجائها ، وبلوت مشقاتها ومتاعبها ومكارهها ، ولكن هذا الحادث كان أشدها على نفسى وقعاً وإيلاماً .

فقد حصل ، بعد أن توغلنا فى الصحراء مسيرة يومين ، أن أصيب دليل القافلة وقائدها الحاج مصطفى بمرض شديد أعجزه عن متابعة السير ، فترك قيادتها لوكيله الشيخ نوفل ، وركب هو أحد الجمال فى المؤخرة . وكان الشيخ نوفل طاعناً فى السن ، ضعيف النظر .

وكان من عادة القافلة أن تسير معظم الليل ، وتستريح معظم النهار . وقد حدث فى تلك الليلة المشئومة أن اختلط الأمر على الشيخ نوفل فحاد عن الدرب ، ودخل بالقافلة فى تيه عظيم من غرود الرمال ، ولم يتنبه أحد من قادة الجمال الآخرين لهذا الخطأ ، لعتمة الليل وتشابه المسالك ، ولحداثة عهدهم بالصحراء ، فأوغلت القافلة بين كثبان الرمال ، وبقينا نضرب فى هذا التيه ، على غير هدى ، حتى ضحى اليوم التالى ، حينما اعترض سيرنا واد عميق ، وتقدم الشيخ نوفل ليستطلع الوادى — وهنا كانت وقفة لا أنساها ما حييت — فقد شاهدت الرجل يقف على حافة الوادى ، ويتطلع إليه ملياً ، ثم ينقلب إلينا مهرولا مذعوراً كالمجنون ، وهو يصيح بصوت أجش مخنوق : لقد ضللنا الطريق يا حاج مصطفى !.

كانت صيحة منكرة ، انخلعت لها قلوبنا ، وهلعت لها نفوسنا ، وكادت تجنّ لها عقولنا . صيحة معناها فى الصحراء الموت على أبشع صورة ، واستيقظ الحاج مصطفى — وكان لا يزال محمولا على الجمل — على صياح الشيخ نوفل ، فقفز عن ظهر البعير كالمخبول ، وجسمه يرتجف من شدة الحمى ، واندفع نحو الوادى يجر جسمه جراً .

وعلى حافة الوادى وقف هو الآخر ، ونظر إليه نظرة فاحصة ، ثم ارتمى على الأرض وأخذ يندب سوء الطالع ، متوجعاً وكأنه بأشد أنواع العذاب . وأصاب الجمالة مسّ من الجنون ، فهاجوا وثاروا ، وأخذوا يسبون بعضهم

(١) جالو والكفرة والظيغن أسماء واحات فى صحراء ليبيا .

بعضاً ، ويكيلون الشيخ نوفل أقذع السباب واللعنات ، ثم اشتبكوا في مشاحنات وعراك ، واستمروا هكذا نحو ساعة ، حتى استفرغت أعصابهم الهائجة حدتها ، وهدأت ، فسكنوا واستسلموا للقدر . وأفاق الحاج مصطفى من هول الصدمة وتذكر واجباته نحو القافلة كقائد لها ودليل ، فتجلد وتقوى ، ودعانا حوله واعتذر إلينا عما حصل ، وطمأننا على السلامة ، ثم وقف فجأة ، وقد تقلصت عضلات جسمه ، وتجهم وجهه ، وجمدت عيناه ، وأشاح بوجهه نحو السماء كمن يستلهم المعونة وسداد الرأي والهداية .

وبعد أن مكث على هذه الحال نحو دقيقة ، لا يتكلم ولا يبدي حراكاً كأنه في غيبوبة ، عاد إلى حالته الطبيعية ، وقد زال عنه الاضطراب والقلق . ثم قال : إنه قد أصبح منهوك القوى ضعيفاً ، وإن رأسه يلف لا يقوى على تعيين الاتجاهات ، ولهذا فقد عول على تسليم قيادتنا لبعيره الخاص . وقال وهو يقدمه لنا : إنه بعير أصيل ، ولد في هذه الصحراء ونشأ فيها ، وإنه جربه في أسفاره السابقة في الصحراء ، فكان بعيراً موهوباً ، يهتدي من تلقاء نفسه إلى عيون الماء ، ولو كانت على مسيرة خمسة أيام ، فتقبلنا قراره بالإذعان والتسليم ، فلا حول لنا ولا حيلة ولا عنه محيص ، ثم عاونناه على ركوب البعير ، فاستلقى على ظهره كما كان ، بعد أن أرخى للبعير الزمام .

وشخصنا بأبصارنا إلى دليلنا الجديد ، وأملنا المرتجى في النجاة ، نتتبع حركاته وسكناته بلهفة واهتمام ، ونظرت إلى البعير فرأيته مرفوع الرأس ، شامخ الأنف ، يجول بعينيه في جميع الآفاق ، وقد بدا عليه الجد وقوة العزم . ولما صدر الأمر بالسير على بركة الله ، تقدمنا البعير وحده ، حراً طليقاً ، فسار الهوينا على حافة الوادي نحو ساعة ، ثم وقف ووقفنا . ورفع رأسه عالياً وأخذ يشم الهواء بشهيق عميق ، ثم تحول نحو الشمال ، وأوغل بين كثبان الرمال ، وبعد نحو ساعتين وقف مثل وقفته الأولى وشم الهواء ، ثم اتجه نحو الشمال الغربي ، وأخذ يهرول ، والجمال الأخرى في إثره تتبعه كظله ، لا تحيد يمنة أو يسرة ، غافلة عما نحن فيه من حرج وشدة .

وتابعنا السير في هذا اليوم من غير توقف ، ونحن في غم وهم لا ندري ما خبأه لنا القدر ، مستسلمين لحيوان أعجم ، يقودنا منذ الصباح حيث شاء ، من سهل إلى نجد ، ومن نجد إلى سهل ، في فيافي صحراء شاسعة واسعة جرداء لا نبات فيها ولا ماء .

وقبيل الأصيل خرجنا من منطقة القرود ، ثم أخذنا نرتقي هضبة ، وعند الغروب — وقرص الشمس يحتجب وراء الأفق البعيد — في تلك الساعة — وقد أدبر النور ، وأقبل الظلام — كنا نجاهد للحياة جهاد اليائس البائس ، قد حفيت أقدامنا ، وجفت حلوقنا ، وكلت أجسامنا ، وعميت أبصارنا ، وأظلمت نفوسنا ، وأحاق بنا الكرب من كل جانب ، نتبع البعير خطوة خطوة ، من غير أن يكون لنا إرادة أو عقل أو تفكير — في تلك الساعة كنا قد بلغنا سطح الهضبة ، وانكشف أمامنا السهل من تحتنا . فأبصرنا شريطاً طويلاً أبيض يمتد عرض الصحراء من الشرق إلى الغرب ، ولم تكد الجماعة تتبينه حتى هاجوا وماجوا وصاحوا وهللوا وكبروا ، وفاض بهم الفرح ، فبكوا للنجاة والخلاص — إنه الدرب الذي أضاعه الدليل منذ أن حل مساء الأمس — ثم تدافعوا مقبلين على البعير يقبلونه ، ويتبركون به ، وعلى الحاج مصطفى يقبلون يديه ورأسه .

وأدرك البعير أنه قد أنجز مهمته ، فبرك على الأرض ليستريح . . .

ولله در شوقي حين قال :

كم في الحياة من الصحراء من شبه
كلتاهما في مفاجأة الفتى شرع

وراء كل سبيل فيهما قدر
لا تعلم النفس ما يأتي وما يدع

ولست تأمن عند الصحو فاجئة
من العواصف فيها الخوف والهلع

ولست تملك من أمر الدليل سوى
أن الدليل وإن أرداك متبع

الدمرداش محمد

متزيني والشعر والشعراء

للأستاذ علي أدهم

يرى المؤرخ البحاثة بلتن كنج — وهو من أسبق الكتاب إلى ترجمة حياة الزعيم الوطني العظيم جوزيف متزيني — أن حياة متزيني الملأى بالشواغل لو كانت تركت له متسعاً من الوقت أكثر مما كان يملك لصار من أعظم نقاد القرن التاسع عشر، ثم يستدرك ويشير إلى أن الفصول الانتقادية التي كتبها متزيني ربما كانت ترفعه إلى هذه المكانة، وما أتيح لي قراءته من كتابات متزيني في النقد الأدبي تجعلني أميل إلى الأخذ بهذا الرأي.

ولا نزاع في أن متزيني بحكم ظروفه الخاصة وحياته القلقة العاصفة كان ينقصه في فصوله الأدبية الانتقادية الدقة المستوعبة والصرامة الشاملة المستفيضة، ولكنه كان مع ذلك نافذ النظر، قوي الملاحظة، يدل نقده على الأصالة والطرافة وقوة الفطنة وحسن التهدي وسلامة الذوق، ومع قوة إحساسه بجمال اللفظ وروعة التعبير، فإنه لم يكن من هؤلاء النقاد الذين يقصرون همهم على تصيد العيوب، والتماس الأخطاء، سواء في حياة المؤلف أو في كتبه، وكان يؤثر أن يقرأ المؤلفين الممتازين بروح الإكبار والإعجاب متغاضياً عن عيوبهم ونواحي ضعفهم، محاولاً أن يتغلغل إلى صميم أفكارهم، وأن يتعرف جوهر رسالتهم! ومن أقواله في هذا الصدد ضمن مقاله البديع عن دانتي: «في العصر الحاضر لا نعبد العبقري عبادة عمياء، ولا نسيء إليه أو نتجنى عليه، وإنما نحاول أن نفهمه ونحلل حبه، والقوالب في نظرنا أمر ثانوي ومظهر زائل، والفكرة وحدها هي الشيء المقدس، ونحن نحاول أن نرفع الحجاب الذي يسترها» وكان يشبه العبقرية بالشجرة، ورسالة النقد هي هز أغصان تلك الشجرة لا محاولة اقتلاعها واجتثاث أصولها.

والشعراء في رأيه أهمية كبيرة وشأن عظيم، والأدب في رأيه كهانة أخلاقية، ومن كلامه عن الشعر: «الشعر هو الحياة والحركة والحرارة المتقدة في صميم العمل، والنجم الذي يضيء طريق المستقبل، وعمود النيران الذي يقود تقدم الناس عبر الصحراء، والشعر هو الحمامة بأجنحة من النار، وهو تلك الأفكار السامية التي توحي إلينا قوة التضحية، كلا إن الشعر لم يمت، والشعر خالد لا يموت مثل ينابيع الحب والحرية التي يستمد منها إلهامه، ولقد هجر الشعر أوربا العجوز القديمة ليبث الحياة في أوربا الشعوب الشابة الجديدة، لقد هرب مثل الطائر الفرد من البناء المتداعي مأواه السابق، ليبحث عن عالم أزهى وسماء أصفى، ولقد هجر العرش الملكي المنهار إلى ساحة الشعوب وإلى صفوف الشهداء في سبيل أمتهم وإلى سجن البطل الذي غُدر به ونكث عهده، وإلى المشنقة التي تنصب للمواطن، فيأيها الشعراء! أنتم إخوة النسور، فلماذا تديرون الطرف إلى الخلف؟ أنظروا حولكم وأمامكم، إن الشعوب الأوربية تنتظركم ... إرفعوا أبصاركم وكونوا رسل المستقبل ... وانظروا قبل كل شيء للمستقبل والشعب».

وفي مقال له عن «الأدب الأوربي» يخاطب شعراء القرن التاسع عشر من الشبان قائلاً: «أيها الشبان! إن الإنسانية تعهد إليكم برسالة جليلة الشأن، ففي الأيام الغابرة كانت الأمم تأتمن الشعراء على الأسفار التي استودعتها قوانينها وديانة آبائها، ويقول الشاعر «لتكن مهمتك صيانة هذه الوديعة في قلوب أبناء شعبك، واعلم أن إلهاماتك لا تقدس ولا تحترم إلا في داخل حدود وطنك» ولكنكم سيكون أمامكم العالم جميعه مسرحاً لمخاركم، وكل نبضة من نبضات قيثارتكم ستكون تراثاً للبشرية، وكل وتر تحركونه سيرن صداه ويتراحى إلى ما وراء أقصى حدود المحيط، وقلوب سكان أوربا الراهنة تستجيب لروح الحب ولكن استجابة مختلطة مضطربة متفاوتة في قوتها، وقرون من الخطأ قد أزالت طابع أصولنا المتحدة العامة، ولكن الله أعطانا الشعر ليؤلف ما بين الإخوان المشتتين المتباعدين، وعملكم هو إيقاظ روح الحب وإذاعته في كل ناحية، وكسر الحواجز القائمة في سبيل الأخوة البشرية، وأن تقتلوا العواطف

العامة الشاملة والحقائق الأبدية الخالدة . ومن ثم كان لزاماً عليكم أن تدرسوا الآداب العالمية . والذى لا يعرف سوى أدب أمة واحدة لم يقرأ سوى صفحة من الكتاب الذى احتوى أسرار البشرية . فأمعنوا فى مناجاة صامتة لهؤلاء الذين يعانون أحزاناً مثل أحزانكم وشاركوهم فى أفراحهم ، وجاهدوا لبلوغ الغرض الذى يقصدونه . وليس مهمّاً أكانت الشمس ترسل أشعتها فى خلال السماء الصافية الأديم أم كانت ترسلها خلال السماء المثقلة بالسحب ، فقلوب الناس جميعاً يسرع نبضها إذا تنسمت أنفاس الجمال ، ولكل إنسان دمعة وكلمة عزاء موقوفتان على صرخة المحزون الشقى . وهل يوجد إنسان لا تتجدد روحه فى داخله حينما يذكر اسم الحرية ؟ لكن ذلك مصدر وحيكم ، وستكون أشعاركم معبرة عن صوت الكون ، وإن شجرة الخلود تزدهر فى نهاية طريق الحياة الممتدة أمامكم ، وستغرسها الشعوب على قبر الذى يصل إلى الهدف فى الطليعة ، احتراماً له وإكباراً لشأنه ، وستخط الأبدية على ضريحه « هنا يرقد شاعر الطبيعة الذى أحسن إلى الإنسانية » .

والشعر فى رأى « متزينى » ينقذ الدنيا من المحنة التى تعانيها ، لأن الشاعر يستطيع أن يخلص الإنسانية من إسار الشكوك وأغلال المثل الوضيعة ، « ويكشف لها عن واجباتها ويبعث أشواقها » وهو الذى يرفع الناس فوق تفاهات الحياة ومغانمها ، ويسمو بهم إلى الحقائق الخالدة . ومن كلامه فى هذا الصدد « لقد نضبا الشعر من الحياة ومن اليقين وتولّت الحماسة وافتقدنا الحب بالمعنى الذى أفهمه ، والثبات على التضحية ، وعبادة الأعمال العظيمة ، والرجال العظماء » .

وكان يعتقد أن إيطاليا ليس بها سوى القليل من الحياة القومية الناهضة . والشعر لا يزدهر إلا فى ظلال الحياة القومية الناهضة القوية . والعصور التى يضعف فيها الإيمان تسلب الشاعر غناءه . « والعصر عصر النقد . النقد البنّاء ، والناقد الفيلسوف هو المعلم الأدبى ، وهو الذى يمهد السبيل لشاعر المستقبل ويرسم له خط سير الشعر الحديث الديمقراطى ، ويهيئ ذهن الجمهور لفهمه وتقديره . والناقد هو الواسطة بين كبار الكتاب والجماعات . وهو الذى يزود أحوال العصر ويتعرف حاجاته ويشرحها للأمم لتستثمرها وتطلبها ؟ وصفوة القول أن تكهناته تمهد جمهور الكتاب . وهو أمر أهم مما يقدر الكثيرون وقلّما يظهر كاتب قبل وقته » .

ومن آرائه أن الفن الصادق عليه أن يتجنب خطرين : خطر النظرية القائلة بالفن للفن . وهى نظرية كان يمقتها متزينى ولا يحمل عليها بالطعنات والضربات . ومتزينى لم يكن يهاجم اكتمال الأداة التعبيرية ولا جمال الصياغة وحسن الأسلوب . وقد كان يحب الدقة فى اختيار الألفاظ وتحرى الصحة . ولم يكن يعيب الأسلوب ما دام لا يستر فقر الأفكار . وإنما كان يذهب بنقده إلى أعمق من ذلك ؟ فالشاعر فى رأيه يجب أن لا يعيش فى فنه منعزلاً عن الحياة التى تموج وتصطخب حوله . وأن لا يلتمس الوحى فى أوهامه ونزواته . وهو لا يعبر عن شخصيته بهذه الطريقة . وإنما يصبح مرآة للانطباعات العابرة . وبدلاً من أن يفتخر بالحرية فإنه يضرب فى الفوضى ويسير على غير هدى ؟ وعنده أن نظرية الفن للفن تحرم الفن من الاتصال بحقائق الحياة العظيمة وتقطع علاقاته المثمرة بالشعب المكافح الدائم التقدم والمعرفة . وهى تجعل الفنان شارداً حائراً لا غرض له ولا هدف . وتنزل به من مستوى المفكر والمعلم إلى مستوى المغنى غناء فارغاً تافهاً ؟ ومن أقواله : « الذى أرجوه ليس الفنان فحسب . وإنما الفنان الرجل . والكاهن الأعلى للمثل الأسمى . لا عابد الأوهام والخزعبلات . ويلزم أن يكون الأدب وسيلة لشىء أعظم منه وأسمى » .

وكان كذلك لا يروقه الواقعية ، وخاصة الواقعية فى تصوير الطبيعة . وقد انتقد من هذه الناحية شعر فكتور هيجو ووردزوورث . ومن أقواله فى نقد فكتور هيجو : « جمال هذه المقطوعة من الشعر يقوى شعورنا بالخطأ الذى كثيراً ما يقع فيه فكتور هيجو ، سواء كان ذلك خلال تفكيره أو خلال تصويره . فأعطه ركناً قد خيم عليه الهدوء أو حديقة أو جناحاً فى قلعة قديمة تره ينطلق من أول الأمر متحدثاً عن كل زهرة وكل شجرة وكل جدول وكل حصاة ، ويتبع ذلك بالحديث عن السقف والأروقة والكرانيش والأبواب والعوارض الراكزة على الأعمدة وتماثيل النساء التى تحمل على رؤوسها أثقال البناء . ثم ماذا بعد ذلك ؟ الطحلب

والقلاب والأشنة والطير الذى يبنى عشه والعنكبوت الذى ينسج خيوطه هناك . وأعطه فكرة تره يظل يبدأ فيها ويعيد وينصرف عنها ويكر عليها وينظر إليها من كل وجهة ويعاينها من فوقها ومن تحتها ويحللها إلى عناصرها ويقتلها بحثاً وشرحاً حتى لا يستطيع أحد أن يقول له « لقد تركت جزءاً من هذه الفكرة فى ظلمة الخفاء » وهو يكشف ويرود ويخبر ويفصّل ويشرّح ويحلل ، ويترك موضوعه — إذا صح لى بالموازنة — كما يُترك المنزل بعد أن تفتشه الشرطة تفتيشاً دقيقاً .

وهذه الطريقة مستهدفة للنقد الشديد من ناحيتين ، فهى من ناحية لا تترك للقارئ شيئاً يعمله ، وفى كل انطباع شعرى قوى فإن الفهم الحق يطلب له مكاناً متسعاً ، وهذا الخفاء الذى يحسن أن لا نخلط بينه وبين الغموض هو ميدان الروح وطريقها إلى اللانهائى حيث تقيم الروح عقود الجسر الذى يوصلها إلى الله . وسر الشعر العظيم أو قوة الشعر العظيمة فى قدرته على أن يضع الروح تلقاء هذا الخفاء، وأمام هذا الميدان اللانهائى ، وذلك بأن يمنحها أجنحة تحلق بها هناك ، والشعر المكتوب مثل الموسيقى التى تعزف يلزم أن يكون من بعض النواحى مقدمة لشعر آخر ، هو الشعر الذى تنشئه روح القارئ المهتاجة فى صمت داخل نفسها ، أو بلفظ آخر : إن أحسن الشعر هو الذى يجعل القارئ أعظم شاعرية ، كما أن أحسن أنواع التربية ليست التربية التى تعطينا أعظم تعليم ، وإنما هى التربية التى تمنحنا أعظم القدرة على التفكير .

وفكتور هيجو بتحليله الدقيق يقضى على عالم الخفاء واللانهائى فى نفوسنا ، بل يقضى الرغبة فيهما ، وهو يمحو التأثرات الشعرية من نفوسنا لأنه يتخمنا بها ، وبعكوفه على التعريف والتحديد والإسهاب والتفصيل يحصر ويحد ، ويترك ملكات القارئ متبلدة متعطلة ، وليس هذا كل ما فى الأمر ، فإن الأنكى من ذلك أنه قد يفسد الفكرة بمحاولة إتيانها كلها واستنفاد قوتها ، ويصرف أنظارنا عن الكل إلى الأجزاء ، ومحاولته «مضاعفة التأثيرات يضعفها» .

وهو قد يخيل إلىّ أنه قد أصاب الحز ، فإن إطالة الشاعر فى بسط المعانى وإسهابه فى الشرح والتفصيل يضعف شاعريته ويزهدنا فى شعره ، وما أصدق قول البحترى :

والشعر لمح تكفى إشارته ... وليس بالهذر طولت خطبه

ويؤكد متزينى لمعاصريه أن الشاعر الحق هو الذى يعبر عن الأفكار التى تختلج بنفوس الجماعات ، والخواطر الكامنة فى نفوس الشعوب ، والتطلعات التى تعمل فى عقلها الباطن ، والشعراء هم كهنة الحركات السياسية والاجتماعية ، ولا مكان عنده للشعر الفردى فى العصر الحديث عصر الشعوب والأمم والجماعات ، والفن الصادق المقدس فى رأى متزينى يرمى إلى كمال المجتمع وتطهيره وتنقيته من الشوائب ورفع مستواه ، وهو يوافق القادة الألمان شليجل فى قوله : «إن الشعر يجب أن يكون قومياً» أى يجب أن يكون نافعاً متصلاً بالموقف السياسى والمدنى ومؤثراً فى المجتمع ؛ والشاعر بيرون الذى ذهب ليدافع عن حرية اليونان وقضى نحبه هناك قد مثل لنا فى رأى متزينى الاتحاد المقدس بين الشعر وقضية الشعوب .

ويشير متزينى إلى علاقة الشعر بالفلسفة فيقول : « للشاعر أن يتناول مبتكرات الفيلسوف ويمنحها الحياة ويضفى عليها اللون ليكشف الحق الكامن تحت الواقع وينيره بنور العبقرية ويفسر القوانين العامة المسيطرة على التاريخ البشرى » .

ولا يكفى فى نظره أن يثير الشاعر أفكارنا ، فإن عليه أن يستحثنا على أن ننقل أفكارنا إلى عالم العمل ، وشعراء التأملات مثل وردزورث وكولردج فى رأى متزينى شعراء ناقصون ؛ وكما أن الدين يعطى الحياة والقوة للفلسفة فكذلك الفن يستطيع أن يجعل الأفكار معتقدات مؤثرة عن طريق الصور والرموز ، والشعر الحق فى رأيه هو الذى يضع فى يد الناس سيفاً أو قلماً أو خنجراً ويعلم الشباب التضحية والثبات والمثابرة والصمت والشعور بالعزلة بغير يأس ، واحتمال الآلام سنوات طويلة ، واليقين بالمستقبل والكفاح من أجل هذا اليقين .

وعنده أن الفن يجب أن يكون جريئاً وحافلاً بالأمل « يعلم الناس ما فى نفوسهم من قوة ، لا ما تنطوى عليه من ضعف ، ويلهمهم القوة والإقدام والإرادة الصممة لا الضعف والخور والإحجام » .

ويكره متزيني شعراء التشاؤم والحزن ولا يترفق بهم ، وقد انتقد مواطنه الشاعر الكبير جيا كومو ليوباردى ، وأخذ عليه يأسه وولعه بالأطلال الدارسة واستمتاعه بمعاقرة الأحزان ، وعلل حزنه بيأسه من نيل السعادة الفردية ويأسه من وجود من يحبه ويعطف عليه .

وكان متزيني يقسم الشعراء إلى شعراء موضوعيين وشعراء ذاتيين ، فالشاعر الموضوعي يمحو معتقداته ويعكس الانطباعات الخارجية ولا يمازجها بعباره الذى يفرق بين الحق والباطل ، ولا يقدم لنا طريقة للعمل ولا يمدنا بوحى للأمل . أما الشاعر الذاتى فإنه يطبع موضوعاته بطابع فرديته ، ويجلس مجلس من يصدر الأحكام ، ويمدح أو يذم ، وبذلك يساعد الغير على تكوين القانون الأدبى ويخلق المستقبل .

والنوع الأول من الشعراء يثير إعجابنا ولكنه لا يحرك حباً ، ومن هذا الطراز شعراء اليونان باستثناء شاعر واحد ، وهو الشاعر اسكيلاس ، ومن هذا الطراز شكسبير وجيق ، ومن شعراء الطراز الثانى اسكيلاس ودانتى وميشيل أنجلو وبيرون وشلر ؛ وعند متزيني أن دانتى هو أسمى نوع من أنواع الشعراء الذاتيين ، وقد تأثر متزيني بدانتى إلى حد كبير ، وكان يعده الشاعر الذى لم يأخذ من الناس سوى القليل وأعطاهم الكثير ، والبطل الذى كانت حياته حرباً طويلة ، والذى كان يحمل القلم والسيف ، والذى لم ينتسب إلى طائفة من الطوائف المتنافسة فى عصره ، وإنما كان إيطاليا قبل كل شىء ؛ وكان يوازن بينه وبين شكسبير شاعر الفردية والمؤلف المسرحى العظيم والذى خلق شخصيات لم يخلق مثلها فرد ، وكان يمنح شخصياته حرية اختيار الخير والشر ومتابعة مصائرهم إلى النهاية ؛ وعنده أن شكسبير رجل تلقى الحياة كما وجدها فلم يفكر فى المستقبل ولم تمسه العواطف الأخلاقية القومية ، ولم يعرف الشعور بالواجب ، فهو من ثم رجل كلبى النزعة متشكك شديد الشعور بزوال أمور الدنيا ، لا يقين له فى مصير الإنسان ومجده .

وقد عقد متزيني موازنة بين جيق وبيرون ، وكان يكبر عقل جيق ويعجب إعجاباً شديداً بسعة إحاطته ؛ والظاهر أنه درس رواية فاوست دراسة وافية وألم بسائر مؤلفات جيق ، وهو يقول عنه : «جيق عقل يخلق ويعمل ويمثل كل صورة ممكنة من صور العواطف الإنسانية والنزوع الإنسانى ، وهو فى خلال الخلق يظل مشرفاً معتزلاً يراقب ويفحص بنفس النقاد وبين الاهتمام أعماق المحيط وبرعوم الزهرة .. ويعرض فى رواية فاوست مشكلة العصر فى تجردها التام الرهيب ، وهو أقدر الشعراء الممثلين لعصرهم الذين أخرجتهم أوربا منذ عهد شكسبير » ولكن عقل جيق على سموه واعتلائه لايصل إلى أسمى القمم لأن الفنان تغلب فيه على الرجل ، وليس عنده معيار أخلاقى ولا إحساس بوحدة الحياة ، فهو شاعر التفاصيل والتحليل ، يشعر بكل شىء ولكنه لايشعر بالأشياء فى كليتها ومجموعها ، ويعيش بمعزل عن الدين والسياسة ، يراقب حركات الدنيا وهى تميج حوله وتمور فى برود وفتور ولا يحاول أن يقدر الناس أو يجعلهم أحسن حالاً أو يقاسمهم همومهم وشقاءهم ، ولا يشعر بحاجة إلى العمل ولا يشعر بالحزن المقدس أو بأى حب حار عميق ، وهو يوصى الناس بالهدوء والتأمل والنظام والاستسلام ، وينصحهم بأن يلائموا بين أنفسهم وبين الظروف المحيطة بهم ، وأن يؤدوا واجباتهم الصغيرة على أن لا يستهدفوا للأخطار ولا يعكروا صفو مواهبهم ولا يخلوا بموازينها .

ويقول إننا إذا تحولنا من مراقبة جيق إلى مشاهدة بيرون رأينا الرجل نفسه وهو يؤمل ويجاهد ويشقى لأجل الشعب كما فعل دانتى من قبله وكما فعل اسكيلاس ، وهو يشبه جيق فى أنه شاعر له فرديته وفى أنه طراز من القوة التى ليس لها هدف ولكنه لا يشبه جيق فى شعره ، فشعر بيرون ليس مجرد انعكاس لأفكار الغير وأعماله ، وإنما هو يطبع صوره بطابعه وينظر إلى العالم من زاويته الخاصة ، ويبصره فى ضوء أشعته الداخلية ، وهو أعمق ، وجيق أوسع ، وبيرون ينشد الجلال لا الجمال ، ويعبد القوة والعمل ، ويقوم بنصيبه فى المعارك السياسية والاجتماعية الدائرة حوله ، ويضرب فى مناكب الأرض محزوناً مكتئباً قلقاً نافر النفس ، حاملاً السهم فى جراحه .

وواضح من آراء متزيني فى الشعر والشعراء أنه ينظر إلى الشعر من الناحية الاجتماعية الأخلاقية ويزن الشعر بميزان المصلح الاجتماعى والزعيم الوطنى السياسى .

على أدهم

من مناهج التاريخ الإسلامي

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

حينما كتب المؤرخ الإنجليزي المعاصر . ا — ل — راوس — « A-L.Rowse » كتابه الأخير عن العصر الأليزابيثي استقبلته الدوائر الأدبية الناقدة بتقدير كبير وأثنت على منهجه في البحث التاريخي ، حتى قالت فيه مجلة شهيرة مشهورة : « إن المؤلف في هذا الكتاب لم يرض لنفسه أن يكتفي بالكتب والوثائق المكتوبة فحسب .. ولكنه انتقل في البلاد من مكان إلى مكان لعله يعثر على بعض الدلائل الباقية الدالة على الحياة في العصر الذي يؤرخ له ، محاولا أن يصل إلى صورة حقيقية لأهل العصر الأليزابيثي » .

ولقد ذكرني هذا الكلام الذي نشر من أشهر قليلة العدد بكلام آخر لمؤرخ عربي لمصر والحضارة الإسلامية نشر من أكثر من نصف قرن كمنهج للبحث التاريخي عند هذا المؤرخ العربي الذي زود تاريخ الأدب العربي والتاريخ الإسلامي بكتب لا تزال إلى اليوم تعد مراجع عظيمة الخطر في هذه الموضوعات .

ففي مقدمة الطبعة الأولى لكتاب « تاريخ مصر الحديث » المرحوم جورجي زيدان نراه يضع خطة واضحة لهذه المعاينة التاريخية للآثار التي لا يتم بدونها بحث تاريخي ، والتي تجعل من تاريخ الموتى قوما أحياء ، فتخلع الحياة على هذه الآثار والمواقع التي شهدت هؤلاء القوم وكانت مسرحا لأعمالهم ، ومغدى ومراحا لحركاتهم . فنراه يقول في عبارته : (وقد عنيت إتماما لمعدات التأليف بتفقد الآثار العربية بنفسي ، بإذن من نظارة الأوقاف الجليلة . فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ، ولا سيما ما كان منها قديما كجامع عمرو ، وجامع ابن طولون ، والجامع الأزهر ، وجامع السلطان حسن ، وجامع برقوق ، وجامع قايت باى ، وجامع الغوري وغيرها . وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها ، وتسلقت ما صعب مسلكه منها ، لا سيما أسوار القاهرة القديمة وأبوابها ، كباب النصر ، وباب الفتوح ، وباب الشعرية وغيرها .

ومن هذه الأماكن ما قد تداعت أركانه ، وصعب الصعود إليه إلا بالمخاطرة ، فكثيرا ما كنت أخاطر بحياتي لهذه الغاية . ومن الآثار العربية التي تفقدتها ما عدا الجوامع والمشاهد والتكيات والشوارع قصر الشمع أو دير النصارى في مصر القديمة ، ودار التحف العربية في جامع الحاكم بشارع النحاسين ، وغير هذه من الأماكن في القاهرة وضواحيها كالقناطر الخيرية وغيرها .

أما الآثار المصرية القديمة فقد تفقدتها كلها أيضاً ولا سيما ما هو منها في مصر العليا ، مبتدئاً من أهرام الجيزة بجوار القاهرة إلى ماوراء وادي حلفا آخر حدود مصر ...... كل هذه الأماكن تفقدتها جيداً إتماماً لمعدات التأليف)

ومنهج « المعاينة التاريخية » قبل الشروع في كتابة التاريخ هو المنهج السليم الذي تهدى إليه الحاسة التاريخية السليمة التي تتحرى الحقائق بلمس « الأشياء » التاريخية قبل الرجوع إلى الكتب ، لأن هذه « الأشياء » منبعها من صدق الواقع ما قد تخلو منه عبارة مكتوبة لغرض معين أو لهوى في النفس ، وقد تكون الكتب واقعة في خطأ مقصود أو غير مقصود ، فلا يصحح الخطأ إلا « المعاينة » التي تقطع قول كل خطيب .

وإذا أشاد نقاد التاريخ الإنجليزي الحديث بمنهج المؤرخ « راوس » في كتابه الحديث عن العصر الأليزابيثي ، فإن لنا أن نشيد بمنهج المؤرخ جورجي زيدان الذي يعتمد على المعاينة ، والذي يقلب كل حجر في سفح المقطم أو قلته ، والذي يتسلق أماكن صعبة المرتقى ليرى مواقعها الحقيقية وليقرأ في صفحاتها التي عفاها البلى بعض سطور حية تعين أكبر العون على تصحيح حقيقة تاريخية ، أو تنفخ الحياة في الحوادث المسطورة في الكتب والمؤلفات فتحيلها إلى قطع من التاريخ الحي المتحرك .

على أن هذا المنهج الذي ارتضاه المؤرخ جورجي زيدان لنفسه حين أخذ يكتب تاريخ مصر وتاريخ الحضارة الإسلامية

كان منهج بعض مؤرخي المسلمين الذين لم يكتفوا من الأخبار بالقراءة والسماع ، ولكنهم شاهدوا وصححوا بالمشاهدة والمعاينة كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها غيرهم ممن لم يأخذوا أخذهم ، ولم ينهجوا نهجهم .

فهذا المؤرخ المسعودي صاحب كتاب « مروج الذهب » ينادي منذ أكثر من ألف عام بمنهج « المعاينة » ، ويعتمد في المناقشة على المشاهدة والرحلة ، ويحتاط في السماع ، فتراه مثلاً يقف أمام الجاحظ — وهو من هو — فيناقشه في بعض الحقائق الجغرافية التي ذكرها الجاحظ غير معتمد على رؤية ، ولا مستوثق من خبر فيقول : (وقد زعم عمرو ابن بحر الجاحظ أن نهر مهران — الذي هو نهر السند — من النيل ؛ ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه .. فلست أدري كيف وقع له هذا الدليل ؟ وذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصار ، وهو كتاب في نهاية الغثاثة ، لأن الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ، ولا يعرف المسالك والأمصار ؛ وإنما كان حاطب ليل ، ينقل من كتب الوراقين ، أو لم يعلم أن نهر مهران السند يخرج من أعين مشهورة من أعالي بلاد السند من أرض القنوج إلى مملكة بوروه وأرض قشمير « كشمير » والقندهار ، والطافر حتى ينتهي إلى بلاد الولتان ، ومن هنالك يسمى مهران) .

ولعل الحاسة التاريخية قد جاءت إلى المؤرخ المسعودي من ناحية رحلاته وأسفاره العديدة ، فهو قد يسمع الحكاية هنا والحكاية هناك ، وقد تختلف الحكايات عن شيء واحد ، فإذا وقع له أن يرى الشيء بنفسه فهنا ينقض الخلاف وتتقرر الحقيقة التي تؤكدها في النفس قوة المعاينة . وهنا يدرك المسعودي مبلغ تخبط أصحاب الأخبار في أخبارهم ، ويقف للجاحظ مرة أخرى وفي موضع آخر كأنما هو راصد له ، فيناقشه فيما زعمه وأورده في كتاب « الحيوان » من أن الكركدن يحمل في بطن أمه سبع سنين ، وأنه يخرج رأسه من بطن أمه فيرعى ... ثم يدخل رأسه في بطنها .. ويقول المسعودي بعد إيراد قول الجاحظ : (فبعثني هذا الوصف على مسألة من سلك تلك البلاد من أهل سيراف وعمان ، ومن رأيت بأرض الهند من التجار ، وكل يتعجب من قوله — يعني من قول الجاحظ — إذا أخبرته بما عندي من هذا وسألته عنه ، ويخبرونني أن حمله وفصاله كالبقر والجواميس ؛ ولست أدري كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ ؟ أمن كتاب نقلها ؟ أو مخبر أخبره بها ؟) .

• • •

على أن هنالك مؤرخاً إسلامياً آخر من رجال القرن السادس الهجري قد اهتم بالآثار وقيمتها في كتابة التاريخ والاستدلال منها على حوادثه ، وهو عبد اللطيف البغدادي الذي زار مصر في العصر الأيوبي ودون ملاحظات تدل على الفطنة والوعي التاريخي ، والعقلية العلمية في كتابة التاريخ ، فقد لاحظ إهمال المصريين للآثار المصرية وإغفال القيمة التاريخية العظيمة لها ، وانصرافهم إلى البحث عن الكنوز المخبوءة فيها ، طمعاً في المال ، وتحصيلا للغنى ، ولو كان ذلك على حساب هذه الذخيرة التي لا تقوم بمال مهما عظم ، فقد شاهد بعينيه المعابد تحطم ، والحنايا كل تخرب والتماثيل تكسر رءوسها أو تقطع أطرافها ، ويصف الذين يفعلون ذلك بأنهم متلصصون يدخلون البيوت من غير أبوابها .. ويفسدون صور الآثار إفساد من يرجو عندها المال ويخاف منها التلف ، ويقول في ذلك بنص عبارته : (ومازالت الملوك تراعي بقاء هذه الآثار وتمنع من العبث فيها والعبث بها ، وإن كانوا أعداء لأربابها .. وكانوا يفعلون ذلك لمصالح : منها لتبقى تاريخاً يتنبه به على الأحقاب ، ومنها أن تكون شاهدة للكتب المنزلة ، فإن القرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها ، ففي رؤيتها تَخْبِير الخَبَر ، وتصديق الأثر ، ومنها أنها مذكرة بالمصير ومنبهة على المآل ، ومنها أنها تدل على شيء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء فكرهم وغير ذلك . وهذا كله مما تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه .. وأما في زماننا هذا فترك الناس سدى ، وسرحوا هملا ، وفوضت إليهم شئونهم ، فتحركوا بحسب أهوائهم ، وجروا نحو ظنونهم وأطماعهم ، وعمل كل امرىء منهم على شاكلته .. فهم يحسبون كل علم يلوح لهم أنه علم على مطلب ، وكل شيء مفطور في جبل أنه يفضي إلى كنز ، وكل صنم عظيم أنه حاصل للمال تحت قدميه وهو مهال عليه ، فصاروا يعملون الحيلة في تخريبه ، ويبالغون في تهديمه) .

(البقية على الصفحة التالية)

فجر جديد

شع في الوادي سناه .. وأضاء ... شعب الأرض وآفاق السماء
خشع الصبح لإشراقته ... وجثا النيل ، جلالاً ، ولماء
ذاك فجر .. لم يلده كوكب ... من بني الأفلاك . أو أم الضياء
لم تلده الشهب .. إلا أنه ... أكبرت أضواءه حتى ذكاء
ذاك فجر شفق .. سكبت ... ضوءه القانى جراحُ الشهداء
فارفعوا الهام .. وحيوا أنجما ... أطلعتها قطراتٌ من دماء
كلما لألأ منها قبس ... آذن الليلُ العمى بانتهاء

* * *

أيها الغاصب خان الشرق ... لوداع أبدي .. لا لقاء
أيها والضيف ، الذي أوسعنا ... من فنون الغدر ما فاق الوفاء
قد تحملناك سبعين .. فهل ... لك عنا .. في رحيل وجلاء ؟
أسلم النيل بنيه .. تحتم
حب وادي النيل موصول البقاء
حب وادي النيل أجدى لكمو
من حصون وقلاع وبناء
كادت الأغلال يا عاقدها ... يد الأحرار يبليها الحياء
ما كفانا منك قيد واحد ... جئتنا اليوم بما ساء .. وساء
الطلا والجام والساقي همو ... هذه الجرعة من ذاك الإناء
كل حلف لك — لا نحلف لنا
دون جدوى — حلف سرحان وشاء

خدعُ الذئب . وما أكثرها ... والأعاليل شقيقات الهباء
والمواعيد .. وما أكذبها ... والأماني الخزينات الظّماء
واشتهاء النيل مفصوم العرى ... رغم صنع الله .. مهدورُ الإخاء
كل هذا .. وعديد مثله ... عرّف الشاة أفانين الدهاء
فاجلُ عنا .. أو نخذها طعنة
من يد الأحرار من كف القضاء

* * *

يا أخي في النيل .. في الله .. وفي ... لغة المختار .. خير الأنبياء
داؤك العاتي ودائي واحد ... وسواء نحن في الخطب سواء
نمْ من تحرك أقداح العدى ... إن كل السم في ذاك الوعاء
قسمة الوادي بلاء كلها ... لبني الوادي جميعاً .. وفناء
ثم نكفكف صرخة الجرح بنا ... ثم نعالج ذلك الداء العياء
ثم نطهر شاطئ النهر معا
من خطى البغي .. ونير الدخلاء
الأفاعي الحمر .. ديدان الورى
ناهشي الأعراض مصاصي الدماء
لو خضبنا الأرض طرا بالدما
في سبيل النيل .. لم يغلُ الفداء
سدد الله خطانا .. وهدى ... زورق النيل إلى بر النجاء

عبد الرحيم عثمان صارو

وقد يكون المؤرخون المحدثون أو مؤرخو العرب الذين اعتمدوا على عنصر « المعاينة الأربة » قلة لا تعادل هذا العدد الجسيم من مؤرخي الإسلام الذين اعتمدوا على الكتب أو الروايات التاريخية التي قد تتضارب في الواقعة الواحدة تضارباً يوقع القارئ في حيرة ... ولكن قليلا أيضاً من مؤرخي الغربيين هم الذين اعتمدوا على عنصر المعاينة في كتابة التاريخ ... فإن أغلب اعتمادهم على الكتب والوثائق المحفوظة . وقد أشار المؤرخ « راوس » نفسه إلى هذه الحقيقة حينما قال في اعترافاته المنشورة حديثاً : (أغلب الذين يكتبون التاريخ — كما يبدو لي — إنما يسطرون كتبهم نقلا عن كتب غيرهم .

ولهذا لم يكن غريباً أن هذه الكتب يلوح عليها من سمات الموت ما يلوح على الضأن البارد .. كما لاحظ « وايلد » « ليتش » في بعض المناسبات) .

ولكن هذه القلة القليلة من مؤرخي العرب في القديم والحديث تؤكد لنا أن وراء الحقيقة والحق طلاباً يلتمسونها حتى في حفنة من تراب ، بدلا من أسطر في كتاب ...

محمد عبد الغني حسن

مع الفكر الأوربي المعاصر

للأستاذ مبارك ابراهيم

١ – رأى فى ثاكيراى

بين « ثاكيراى » و « ديكنز » صلة من نواحى المعانى ، فإذا ذكر أحدهما ذكر الآخر ، وكلاهما كاتب ملىء بروح السخرية والتهكم ، مع فرق واحد : هو أن « ثاكيراى » قد اختص بنقد ما يراه مستحقاً للنقد من أخلاق الطبقة العليا من القوم ، ومن لف لفهم ، وأن « ديكنز » قد تفرد بنقد ما يراه مستحقاً للنقد من أخلاق السفلة من القوم .

وقد أثار هذه الخواطر عندى مقال قرأته اليوم للكاتب الإنجليزى « آرثر كوفير مارشال » جعل عنوانه : « رأى فى ثاكيراى » قال فيه :

أريد أن أبدأ القول بأنى يوم كنت فى الرابعة عشرة من عمرى قرأت كل مؤلفات « وليم ماكبيس ثاكيراى » كما قرأت كل مؤلفات « شارلس ديكنز » ، ثم أثنى بالقول أنى اليوم — وقد جاوزت سن الأربعين — قد عقدت العزم على إبداء رأى هو أكثر سداداً ، وأوفر نضجاً .

وإنى لأعلن أنى فى صباى كنت أحب « روايات ديكنز » كما أحب « الحليب المثلج » ، أما روايات « ثاكيراى » فما أحببت منها حباً صادقاً إلا روايته « سوق الغرور » .

وفى هذه الأيام التى مرض ألزمنى الفراش ستة أسابيع قلت لنفسى : إنى لحاول أن أتقصى الأسباب التى جعلت اسم « ثاكيراى » يذكر كلما ذكر اسم « ديكنز » أو بعبارة أخرى : إنى لحاول أن أتقصى الأسباب التى جعلت مؤلف « سوق الغرور » يكتب كل كتبه الأخرى التى لا تقرأ ..

وفى إبان وعكة الحمى التى انتابتنى أعدت قراءة « سوق الغرور » كما أعدت قراءة « الجورجيون الأربعة » (وهم ملوك إنجلترا المسمون بهذا الاسم والذين تولوا حكمها من عام ١٧٢٧ إلى عام ١٨٣٠) ، ثم قرأت لأول مرة روايته « هنرى إزمند » ، وروايته « بارى ليندن » كما قرأت بعض رواياته الأخرى ، وكانت قراءتى لكل تلكم الروايات قراءة دارس يعنى العناية كلها بأن يجيد فهم ما يقرأه .

وأول ما خطر ببالى بعد تلك القراءات أن « ثاكيراى » قد ولد فى زمان غير زمانه ، ولكن لا حيلة فى هذا .

وقد كان مولده فى الهند ، ثم أرسل إلى إنجلترا ليتلقى علومه ، وكانت أسرته فى أحوال غير مستقرة ، حكمها فى ذلك حكم البلاد التى ولد فى ربوعها . فقد كان له زوج أم يوم كان لا يزال صبياً .

وكان « ثاكيراى » ألصق بالروائى « هنرى فيلدنج » (المتوفى عام ١٧٥٤ ومؤلف « توم جونس » ، ومقتبس الكثير من روايات موليير) أكثر من لصوقه بأى كاتب آخر ، وأكثر رواياته نجاحاً ، كانت تعتبر فى عرف كتاب العصر الفكتورى أنها من ذلك الصنف الذى كتب فى ذلك العهد البائد البغيض عهد « الجورجيين » ، ذلك لأن الناس فى العصر الفكتورى كانوا يرجون لكل شىء وقاراً ، حتى لقد قيل إنهم كانوا يلبسون أرجل المناضد جوارب ، ذلك لأن أرجل المناضد العارية كانت تعتبر آية من آيات التهتك والخلاعة .

أما روايته « بارى ليندن » فكانت أول رواية دلت على عبقريته ونبوغه ، وهى ترجمة ذاتية لمقامر دنىء من الأرذال ، وثاكيراى مدين فى كثير من أجزائها لرواية « فيلدنج » المسماة « جوناثان وايلد » وهى إلى ذلك أدق تعبيراً فى سخريتها وأوفى بياناً .

ولست أقول شيئاً عن رواية « سوق الغرور » ذلك لأن هذه الرواية قد ظفرت بالخلود فى سجل الأدب الحديث ، وذلك على الرغم مما بها من أخطاء تبدو اليوم مستعصية على الفهم ولكن على القارئ أن يعرف أن « سوق الغرور » قد كتبت أجزاؤه منجمة ، ولذلك فقد يكون الكاتب قد نسى أحياناً فى جزء من أجزاء الرواية ما كان قد قرره فى جزء سابق .

ولم يكن « أنتونى ترولوب » (١٨١٥ — ١٨٨٢)

ذلك الكاتب الفنان الجد الدقيق ، راضياً أبداً عن عمل « تاكيراى » ، إذ كان يعرفه معرفة شخصية ، وكان يعرف فيه رجلاً كسولاً معجباً بنفسه مغروراً ، وكان يعرف فيه أنه كان دائب السعى لبلوغ مرتبة أصحاب النفوذ ، وهى مرتبة لم يستطع « ترولوب » بلوغها بالكد الدائم ، والكدح المتصل .

وكان « ترولوب » على حق فيما ارتأى . فقد كان « تاكيراى » يحب المال حباً جماً ، ولا غرو فى ذلك ولا عجب ، فقد كانت امرأته مجنونة ، وكانت فى حاجة إلى مزيد من العناية ، كذلك كان عليه أن يدخر مالاً لابنتيه ! وقد كان هو فوق ذلك يحب الاستمتاع بالملذات والخمر ، مثله فى ذلك مثل « ديكنز » .

أما وقد جاء ذكر « ديكنز » فلنذكر أنه كان من خصائصه أن يستنشق محاسن الأفراد فى زمانه ومساوئهم مع الهواء الذى يتنفسه ، كما كان من خصائصه أن يختار لبطولة قصصه شخوصاً تمثل البساطة فى أجلى معانيها .

أما « تاكيراى » فكان واقعياً ، وكان يرى الناس على طبيعتهم مزيجاً من الخير والشر ، ومن أشياء أخرى كثيرة . ولقد كان يحدوه طموح لاحد له أن يواتيه النجاح كما واتى « ديكنز » فكان يصدر روايات طويلة فى أجزاء متعاقبة ، تفصل بينها فترات من الزمن ، دون أن يعنى بمعرفة كيف بدأت تلك الأجزاء ، وكيف يجب أن تنتهى .

ولقد كان « ديكنز » يحب كل مخلوق يعرف فيه الطهارة والصفاء ، وكان يحبه إلى الناس كلهم ، ولقد برع البراعة كلها فى وصف الحياة الشعبية ، أما معرفته بالطبقة من القوم فكانت معرفة ضئيلة ، وكان إذا أراد أن يصور فرداً من أفراد تلك الطبقة تولاه العىّ والحصر ، حتى لتجىء الصورة وليس بينها وبين الحقيقة إلا نسبٌ مشوبٌ غير صريح .

وأما « تاكيراى » فكان يجيد وصف أفراد الطبقة العليا ، وأفراد الطبقة التى تجىء بين هذه الطبقة وبين الطبقة الدنيا ، وكان أستاذوه فى الأدب « أديسون » ، و « جولدسمث » ، « وفيلدنج » ، وهو أبعدهم أثراً فى أدبه .

وكانت لتاكيراى دراية بالآداب القديمة ، كما كان متضلعاً فى الآداب الفرنسية والألمانية ، وهى الآداب التى كان ديكنز لا يعرف منها إلا النزر اليسير .

وكان « تاكيراى » يبغى على الناس . ويبغض منهم أنهم يميلون إلى اتخاذ ذوى الجاه قدوة لهم وإماما . وأنهم يعيشون عيالاً عليهم . كما كان يبغى على الناس أن يعبدوا أصنام زمانهم التى لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً .

ومن الفروق التى تقوم بين « تاكيراى » و « ديكنز » أن شخوص « تاكيراى » قد لا يكون لها من مظاهر القوة الحيوية ما تتسم به شخوص « ديكنز » ، ولكن شخوص « تاكيراى » قد ظفرت دائماً بدراسة وافية عميقة .

هذا ويقتضينا سياق الكلام أن نذكر كلمة موجزة عن كلتا الروايتين : « بارى ليندن » لتاكيراى ، و « جوناثان وايلد » لفيلدنج .

أما رواية « بارى ليندن » فقد صدرت أجزاء متتابعة على هامش مجلة « فريزر » ثم جمعت فى كتاب صدر فى عام ١٨٤٤ . وهى رواية صيغت فى قالب ترجمة ذاتية .

وبطل الرواية مغامر دنىء من إرلندة . وطالب من طلاب الثراء عن طريق الزواج . ومقامر من كبار المقامرين ، وهو فوق ذلك وقح ، قليل الحياء ، وهو فوق ذلك أيضاً مداور متقلب ، وهو يقص قصته فى أسلوب مبسط عادى ، فى غير مغالطة أو سفسطة ، وهو يصف فى أسلوب استطرادى وقائع قد يراها الناس مما يخجل من ذكرها الضمير فى أقصى بداوته .

وهو يصور نفسه فى صورة رجل من أعلى الناس قدراً وأنبههم ذكراً ، قد نال الناس بعداواتهم فظلموه ظلماً شديداً

وأما رواية « جوناثان وايلد » فقد ألفها « هنرى فيلدنج » وجعل منها صورة ساخرة ، وقد كتبها فى ذلك الحين الذى كان قد أعفى نفسه فيه من كتابة التمثيليات ، وذلك عام ١٧٤٣ يوم منع تمثيل رواياته لاحتوائها تلميحات ساخرة تشير إلى بعض الأشخاص من ذوى القدر والجاه .

وفى تلك الآونة كان الكاتب — الذى ينحدر من قوم عظماء ، والذى نشأ فى بحبوحة من العيش — قد أذله القدر وهبط به إلى الدرك الأسفل من الذل والفقر . ثم زاد فى بأسائه كيد أعاديه وحساده ، وكان مرض زوجته الذى استعصى على البرء ثالثة الأثافى .

وكان « فيلدنج » ينقم من زمانه اضطراب أحوال المجتمع ، حيث كان الأكفاء يلقون الأمرين ، وحيث كان

الناس يلقونهم بالهزء والسخرية ، وحيث كانت البلادة والحقارة تلاقيان كل توقير وتكريم في أولى الأندية قدراً وأرفعها مكانة .

كل أولئك قد لقي متنفساً في الثلاثة مجلدات من كتابه الذي سماه « متنوعات » . والذي نشره عام ١٧٤٣ والذي ضمن آخر جزء من تلك الأجزاء قصته هذه .

ورواية « جوناثان وبلد » تصور حياة فاجر من الفجار وفاسق من الفساق ، كما تصور حياة صحبه الأرذال الأدنياء رجالاً ونساء ، في صراحة من القول جامحة ، لا يعوقها عائق ، ولا تقف في سبيلها الأسداد .

وبطل الرواية الذي يمثل العظمة التي تقاس بمقياس النجاح في الإجرام والشر ، قد جيء به إلى « لندن » وهو حدث ، وقد ألقي به في أحضان رجل فرنسي ، وهو الكونت (La ruse) وعلى يديه تعلم الغش في ألعاب القمار فبذ معطه وغلبه ، حتى لقد كان « الكونت » يوماً ضحية من ضحاياه .

ثم تآمر بطل الرواية مع رجل اسمه « باجشوت » ومع طغمة من الأرذال والأوغاد . وتعاونوا تعاوناً آثماً على رجل بريء وعلى أسرة ذلك الرجل حتى كان نصيب هؤلاء جميعاً السجن .

وتزوج « وبلد » امرأة فاسقة كانت له في الخديعة والشر نداً . وكان مصيرها آخر الأمر إلى السجن ، كما كان مصير جمهرة أشخاص الرواية إلى المشنقة .

أما زيارة قسيس السجن لوبلد في سجنه ، وما دار بينهما من حديث في الليلة السابقة ليوم إعدامه فسخرية مريرة لاذعة ، تهزأ بما يقدمه الدين من عزاء ، كما كان ينظر إلى الدين يومذاك .

وتتضمن فصول الرواية أحاديث عن العظمة كما علوها « فيلدنج » في مراحلها المتعاقبة ؛ وذلك في الأدوار التي تقلبت فيها شرور « وبلد » ومساويه ...

٢ — شارلس كنجزلي

ليس من يجهل قدر « شارلس كنجزلي » ككاتب ومؤلف لكتب الأطفال ، وقد ردد القوم اسمه اليوم بمناسبة المهرجان القومي « لبريطانيا » الذي أقيم في لندن من مايو إلى سبتمبر من هذا العام .

و « كنجزلي » شاعر وروائي ، وكاتب اشتهر بوصفه الطبيعة ، وبكتبه التي ألفها للأطفال . وقد ولد عام ١٨١٩ وتوفي عام ١٨٧٥ ، وتلقى علومه في كيمبردج . وكان اشتراكياً في مسيحيته . وابنته ماري (١٨٧٢ — ١٩٣١) روائية مثله ، وكانت تكتب مستخفية تحت اسم « لوكاس ماليت » .

وكأن حياة « شارلس كنجزلي » الخاصة كانت قصة من قصص الأطفال ، جمعت بين الحقيقة والخيال ؛ فقد كان الشعر وحب الطبيعة من مكونات نفسه ، والقارئ لكتبه يلمس فيها نفحة من نفحات السماء ، كما يلمح فيها بركة من بركات الأرض .

وقد كان هو محارباً ومجاهداً في سبيل الخير العام ؛ ذلك لأن انجلترا في العصر الفكتوري كانت ملأى بالآثام التي كانت تتطلب أن تقتل ؛ فما بطل جهاده ، ووقفت رحى حربه ، سمعه الناس يدمدم — وهو يحتضر — ويقول : لم يبق أمامي حرب أحاربها . ذلك لأنه وإن تكن سنه لم تجاوز الخامسة والخمسين ، فقد كانت الحرب التي حاربها قد هدت منه القوى ، وكان قد كسب كثيراً من المعارك التي خاض غمارها

وتقول امرأته : إنه في جهاده كان يستند إلى دعامتين هما الإيمان بالزمن وبالضوء ، ولابد أنه كان يحس أن الزمن يجوز له صنوف الصراع التي صارع بها نفسه والقوى التي حوله ؛ ولابد أنه كان يحس أن نور الإصلاح لابد مؤد إلى إخراج المجتمع الفكتوري من ليل داج إلى نهار مشرق ضاح

ولا شك في أن حياته القصيرة لم تكن كافية لعمل كل ما كان يريد أن يعمله ؛ فقد كان كاتباً ، وقسيساً ، واشتراكياً ، وروائياً ، ووطنياً من غلاة الوطنيين ، وعالماً من علماء الطبيعة ، وواحداً من المعنيين بالإصلاحات الصحية ، وشاعراً ، ومؤرخاً ، وواعظاً من الوعاظ ، وخطيباً قوي العارضة ، متين الحجة ؛ وعلى الرغم من هذا كله لم يشتهر إلا بكتبه التي ألفها للأطفال .

وكانت حياته ومؤلفاته تؤلف وحدة متينة الحبك . وهي وحدة كسبها كسب الظافرين ، على الرغم مما في طبيعته من تنافر وتباين ؛ ذلك لأنه كان يجمع في نفسه بين اللين والعنف ، وبين الأمن والخوف ، وبين الرجل الجد الثابت الخطى ، وبين الرجل الواثب المتقلب ، وبين الرجل الذي لا يعرف الخيال السبيل إليه ، وبين الرجل الذي لا يعرف إلا سبيل الخيال .

وكتبه للأطفال تعرض على قارئها عرضاً كاملاً كل هذه الجوانب المتعددة . ولا مرية في أن اختلاف جوانب ذكائه وتنوعه قد أضفت عليه صورة حية ككاتب للأطفال .

وكأن الطبيعة قد جاملته فخصته ببنية غير قوية ، وبميل إلى العزلة ، وبحبسة في لسانه ، فوقاه الله بذلك شر الاندماج في المدارس العامة التي كانت تفيض في زمانه بالجفوة والقسوة ، وقد ظل طوال حياته لا يميل إلى زحمة الناس .

وكان منذ نشأته قوى الملاحظة . فقد جلس إلى والده أمام المدفأة يوماً — وكان في السادسة من عمره — وإذا به يقول لأبيه : « إني لأعتقد أن الفحم يحتوى على كبريتور الحديد » .

ولما شب أحس بأنه نسيج وحده ، وأنه يختلف الاختلاف كله عن لداته وأنداده .

وكان منذ صباه يثور ثورة جامحة على كل مظهر من مظاهر الظلم . وقد ظل طوال حياته يخترع طرقاً جديدة ثم يهجرها ، ثم يشق طرقاً أخرى مختلفة المقاصد والنواحي .

وكان رجلاً قد طبعه الحزن بطابعه . وكانت فترات النشاط عنده تعقبها فترات من انتهاك القوى ، ومن انقباض وغم مبعثهما اليأس من بلوغ أهدافه في الإصلاح .

وكانت أسعد أيامه تلك الأيام التي كان يقضيها مع أطفاله تحت شجرة في حديقته ، أو في الكوخ الذي بناه بيديه ، أو ممسكاً بأيديهم وهو يماشيهم مماشاة اللدات ، في طرق القرى إلى جوار النهر ، أو على شاطئ البحر .

ولم يكن « كنجزلي » أول من ألف الكتب لتعليم الأطفال وتسليتهم ، فقد سبقه كتاب آخرون منهم « شارلس » و « ماري لام » ومنهم « سارة ترمر » ، ومنهم « آن » و « جين تايلور » ، ومنهم ماريا « إدجورث » .

وقد امتاز « كنجزلي » بأنه كان مبسطاً للكتب قبل أن يكون منشئاً لها . كما امتاز أيضاً بأنه كان محبباً بفطرته إلى الأطفال .

وهو أول كاتب نجح النجاح كله في جعله التعلم عند الأطفال مسلياً ومشوقاً ، وكان النظر إلى التاريخ نظرة إنسانية يحسبه قصة الرجال والنساء يوائم خياله . وقد أعانته هذه النظرة على جعل قص القصص طوع بنانه .

ومن خصائصه المميزة أنه كان ينظر إلى الرجال والنساء كأفراد أولاً ، ثم ينظر إليهم كجماعات وجماهير بهم ظمأ شديد إلى المعرفة وبهم شوق بالغ إلى العلم .

وكان إذا كتب للأطفال متخذاً سبيل المزاح ، لم يكن يقصد المزاح لذاته ، وقد كان يرى أن للأطفال زماناً يجتاحهم فيه الانقباض البالغ ، وكان ينصح للآباء بأن لا يلقوا بالاً لمثل تلك الفاجآت ، وكان همه ووكده أن يوقظ في الأطفال حاسة الإعجاب والروعة ، وأن يستثير فيهم قوة الملاحظة وأن يعلمهم دون أن يعرفوا أنهم يتعلمون ، وكان يرى أن لا فائدة في الاستعانة بالعصا في تعليم الأطفال وتقويمهم .

وآراؤه تبدو اليوم كأنها المرام الحديثة الصنع ، وقد كانت في زمانه يوم كتب كتبه آراء مذهبية خطرة .

وينسب العارفون براعته في الكتابة للأطفال إلى المشابهة التي بين أخلاقه وبين أخلاق الطفولة . فأعانته هذه المشابهة على التغلغل في عالم الأطفال ودنياهم .

و « كنجزلي » كان يعتقد اعتقاداً لا يرقى إليه شك أن الحيوانات أو « الخلائق البكماء » كما كان يسميها ، لها أرواح ، وأنها قد تدخل الجنة .

وكثير من كتبه التي كتبها للكبار قد تكون أصلح للأطفال ، وقد كان من عادته أن يهدى كتبه التي يؤلفها إلى أولاده ، فقد أهدى أحسن كتاب له وهو : The Water Babies إلى الأطفال جميعاً وإلى أصغر أولاده « جرنفيل آرثر » . وكان في الخامسة من عمره عند ظهور الكتاب ، وقد لقى هذا الكتاب الترحيب كله فور ظهوره ، وطبع أكثر من مرة وترجم إلى عدة لغات . وهو كتاب جمع طرفاً من كل فن وعلم . ففيه قصص ، وفيه خيال ، وفيه شعر ، وفيه « تاريخ طبيعى » .

أما الحيوانات التي أنطقها ، وأجرى على ألسنتها المواعظ والحكم فأشهر ما كتب في هذا الفن منذ عهد « إيسوب » .

وأما كتابه « الأبطال » الذى كان ظهوره سابقاً على ظهور الكتاب السالف الذكر بسبع سنوات ، والذى أهداه إلى الثلاثة الكبار من أولاده ، فهو كتاب سهل العبارة يكاد يكون أبرع كتاب في فن الحكاية .

ويبدو اليوم أنّ مؤلفي كتب الأطفال قد أفرطوا في النزول إلى مستوى الأطفال ، وذلك بالمبالغة في تسليتهم ، وإدخال السرور على قلوبهم ، ونسوا أنّ المبالغة في التسلية قد تؤدى إلى عكس المقصود منها .

أبو شامة صاحب كتاب الروضتين[1]

٥٩٩ – ٦٦٥هـ (١٢٠٣ – ١٢٦٧م)

للدكتور محمد حلمي محمد أحمد

يعتبر «كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية» لأبي شامة المقدسي من المصادر الهامة لتاريخ الحروب الصليبية. وقد اتصل المؤرخون الأوربيون بهذا المصدر منذ عصر مبكر، وكان طليعتهم في هذا «دي ساسي» (de sacy) في سنة ١٨٠٩ في مناقشته لكلمة (assassins) من الناحية التاريخية ومحاولته إثبات صلتها بكلمة «الحشاشين» التي يطلقها أبو شامة بصراحة على بعض فرق الباطنية. وقد نجح «دي ساسي» في إثبات هذه الصلة مستعيناً بنصوص صريحة من كتاب الروضتين تؤيد رأيه، ووضع بهذا حداً لنقاش طال أمده حول هذه النقطة، ومنذ ذلك الحين وضحت أهمية «كتاب الروضتين» لدى المستشرقين كمصدر عظيم القيمة للحروب الصليبية وخاصة في عصري نور الدين وصلاح الدين.

وكتاب الروضتين واحد من ضمة مؤلفات لعبد الرحمن ابن اسماعيل بن ابراهيم المعروف بأبي شامة المقدسي، الذي اشتهر بكتابته التاريخية رغم تعدد إنتاجه وتنوعه حتى شمل الحديث والفقه الشافعي واللغة والنحو والعروض والقراءات وغيرها من العلوم التي كانت تدرس في مصر والشام في عصري نور الدين وصلاح الدين ومن بعدهما من الأيوبيين بصفة خاصة، والتي اصطلحت على تشجيعها المدارس السنية المختلفة. أما علوم الفلسفة والمنطق فليس لأبي شامة فيها إنتاج ولا نعرف أنه درسها أو اهتم بها، وليس إعراضه عنها إلا مظهراً من مظاهر الدراسة السنية التي أهملتها وتجنبت — إلى حد كبير — من اشتغل بها من العلماء.

والواقع أن كتب التراجم التي تتحدث عن أبي شامة لاتعنى بإبراز أهميته كمؤرخ عنايتها بالنص على براعته في الفقه أو الحديث أو الإقراء أو النحو، وإن كان المترجمون يذكرون مؤلفاته في التاريخ مع غيرها في الفنون الأخرى، فنجد الكتبي صاحب «فوات الوفيات» يقول في صدر ترجمته له: «الإمام العلامة ذو الفنون شهاب الدين المقدسي الأصل الدمشقي الشافعي المقرئ النحوي». ويتحدث عنه السيوطي في بغية الوعاة قائلا: «اعتنى بالحديث وأتقن الفقه ودرس وأفتى وبرع في العربية». وليس هذا إلا مظهراً آخر للاتجاه العلمي في ذلك العصر، ذلك الاتجاه الذي عبر عنه أبو شامة بصراحة حينما اعتبر التاريخ مادة مساعدة تكمل الثقافتين الدينية والعربية، إذ يقول في مقدمة الروضتين: «... أما بعد فإنه بعد أن صرفت جل عمري ومعظم فكري في اقتباس الفوائد الشرعية واقتناص الفرائد الأدبية، عنّ لي أن أصرف إلى علم التاريخ بعضه، فأحوز بذلك سنة العلم وفرضه». وليس هذا التعبير في الفقرة السابقة مجرد خضوع للسجعة، إذ أن الدراسة التحليلية لإنتاج أبي شامة في التاريخ والأدب تؤكد أن هذه النظرة قصد بها أبو شامة

(١) طبع هذا الكتاب مرتين. وقد نفدت النسخ الموجودة منه أو كادت. وقد قطعت خطوات كبيرة في سبيل إعداده للنشر نشراً علمياً نقدياً، وأرجو أن أوفق لإخراجه في القريب.

وهناك كتابان من كتب «كنجزلي» لهما مكان الصدارة من حيث التبسيط، ومن حيث فائدتهما التعليمية، وهما كتاب: «عجائب الشاطئ»، وكتاب «قصص الأرض القصي» أو كتاب: Madam How and Lady Why، وهما كتابان يقصر المادح عن توفيتهما حقهما من الثناء، فقد فتحا آفاقا واسعة في عالم الدراسات الطبيعية أمام جيلين على الأقل من الفتيان والفتيات، وقد خلقا قالباً صبت فيه آراء كوكبة كبيرة من الكتاب المحدثين...

مبارك ابراهيم

— متأثراً بالطابع العلمي لعصره — وضع التاريخ في مرتبة تالية لدراسة الدين والعربية .

ولد أبو شامة في دمشق سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٣ م) وبقي بها حتى وفاته في سنة ٦٦٥ هـ ١٢٦٧ ، عن ست وستين عاما ، لم يفارقها إلا في مناسبات أربع ولمدد قصيرة : للحج مرتين ، ولزيارة القدس مرة استغرقت أربعة عشر يوماً ، ولزيارة مصر استزادة من العلم ، وقد كانت غيبته عن دمشق في زيارته العلمية لمصر أطول هذه الغيبات الأربع ، إذ مكث فيها سنة كاملة تنقل فيها بين دمياط والقاهرة ومصر (الفسطاط) والإسكندرية . ومن الملاحظ أن هذه الرحلات الأربع تمت في فترة شبابه وقبل بلوغه الثلاثين ، فقد حج في سنتي ٦٢١ ، ٦٢٢ ، وزار القدس في سنة ٦٢٤ ، ورحل إلى مصر في سنتي ٦٢٨ — ٦٢٩ ، وبعد عودته من رحلته الأخيرة انصرف إلى الدرس والمحاضرة والتأليف ؛ وهكذا كان الشطر الأول من حياته فترة تكوين وتثقيف عميقين مهدت لما وقف عليه نفسه في شطر عمره الثاني من نشاط إنتاجي أثبت مقدار استفادته مما تلقته نفسه من فنون العلوم ، كما تشهد له بذلك كتب التراجم التي تحدثت عنه وعددت مؤلفاته .

والواقع أن استعراضاً معجلا للشطر الأول من حياة أبي شامة يدل على استعداده الفطري للعلم وعلى رغبته في المعرفة ، فهو يحدث عن نفسه أن والده لم يشعر إلا وقد قدم عليه يخبره بإتمامه حفظ القرآن ، وكانت سنه إذ ذاك عشر سنوات ، ثم انصرف بعد هذا إلى مصاحبة العلماء والاستفادة بهم حتى برّز في القراءات وعدّ من أعلامها المشهورين ، وقد ألف فيها شرحين كبيرين للقصيدة الشاطبية بالإضافة إلى دراسات أخرى صغيرة ، كما أنه برع في الإفتاء وفي الفقه الشافعي حتى قال فيه الفزاري : « عجبت لأبي شامة حيث قلد الشافعي » ، و « عجبت لأبي شامة كيف بلغ رتبة الاجتهاد » ، وإن إشارة لبعض الأساتذة الذين تتلمذ لهم أبو شامة لكافية في الدلالة على صبره وحسن استعداده للاستفادة والتعلم ، فقد صحب السخاوي الذي تخصص في القراءات واعتنى منها بالقصيدة الشاطبية فشرحها ، واتصل بالإمام ابن عساكر الصغير ودرس معه الفقه الشافعي ، ولعلاقة ابن عساكر لنشاط علمي في دراسته وفي دراسة الحديث أشهر من أن يحتاج إلى تعريف ، كما صحب الإمام عز الدين بن عبد السلام الذي يترجم له السبكي قائلاً إنه شيخ الإسلام بلا منازع ، ولم تقتصر صحبته لهؤلاء الأعلام الثلاثة على مجرد التلقي العلمي ، بل كان لهم تأثيرهم المؤكد في تكوين شخصيته ومثله الاجتماعية ، ويكفي أن نعرف أنه أنهى دراسة القراءات مع الإمام السخاوي سنة ٦١٦ ، ومع هذا ظل ملازماً له في روحاته وغدواته حتى توفي السخاوي سنة ٦٤٣ . والسخاوي هذا هو الذي يقول عنه ابن خلكان إن الناس كان لهم فيه اعتقاد وإنهم كانوا يجتمعون حوله للقراءة فلا يتأتى لأحدهم ذلك إلا بعد طول انتظار . أما عز الدين بن عبد السلام فهو الذي يقول عنه السبكي : « شيخ الإسلام والمسلمين ، وسلطان العلماء ، وإمام عصره بلا منازع ، لا يستطيع أحد رآه أن يدعي أنه رأى مثله في العلم أو في الشجاعة في الدفاع عن الحق » . وهو نفسه الذي وضعت وفاته حداً لقلق الظاهر بيبرس البندقداري على ملكه خشية أن يثور الناس لنصرته ، وقد عبر عن هذا بقوله وقد بلغه نبأ وفاته (اليوم سلم لي ملكي) .

أما الشطر الثاني من حياة أبي شامة ، فيدل على اعتزازه بنفسه ، واعتداده بشخصيته ، وتطبيقه الصحيح لما أخذه عن أساتذته الثلاثة أنفة وكرامة . كان كثير من العلماء يتولون التدريس بالمدارس التي أنشأها السلاطين والوزراء والحكام وغيرهم من ذوي النفوذ أو الجاه ، وكانوا يرتزقون من وراء هذا ويجمعون الثروات الطائلة ، وسبيلهم سهل ميسر على أمثالهم : التقرب إلى ذوي السلطان . تحكي كتب التراجم عن الشيخ زين الدين بن نجا الواعظ أنه خلف ثروة كبيرة ، وترك وراءه عشرين جارية للفراش خاصة . ويحدث المترجمون أن ابن خلكان ولي منصب قاضي القضاة وأضيف إليه النظر في أمر سبع مدارس ، والتصرف في أوقافها صرفاً وإيراداً ، حتى عيب عليه ذلك ، وقيل فيه شعر كثير . وغير هذين تمتلئ بهم كتب التراجم والتاريخ . أما أبو شامة فقد تحاشى هذا كله ولم يُرَ متقرباً من ذوي السلطان ، اللهم إلا مرة واحدة ، ذكر فيها اسمه مقترناً باسم الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، ويدل النص على أنه « حج في المحمل السلطاني » ولا شيء وراء هذا . والمناصب الحكومية التي تولاها لم تتجاوز منصب عدل من عدول

دمشق ، وهو منصب قضائى قليل الأهمية إذا قورن بمنصب القاضى . كما أنه اشتغل بالتدريس الحكومى قبل وفاته بست سنوات — أى عندما بلغ الستين — فى المدرستين : الركنية والأشرفية بدمشق ، وإن كان قد ألقى كثيراً من المحاضرات — تطوعاً — قبل هذا بجامع دمشق والمدرسة العادلية بها .

والواقع أن أبا شامة كان يتعفف عن الالتجاء إلى أموال الأوقاف ليرتزق منها أو ليستغلها فى جمع الثروة . وقد كتب قصائد عدة يعيب فيها على العلماء مسلكهم فى هذا الشأن ، وحث طلاب العلم على الكد والكدح فيهما حفظ الكرامة وعزة النفس ، وطهارة اليد . ومن بعض ما قاله فى هذا مخاطباً طالب العلم :

اتخـذ حرفة تعيش بها يا … طالب العلم إن للعلم ذكرا
لا تهنه بالاتكال على الوقـ … ـف فيمضى الزمان ذلا وعسرا
إنما تحصل الوقوف لشريـ … ـر وتلك من العلوم مُبَرّا
أو لمن يلزم الأكابر لا يبـ … ـرح فى خدمة لهم ومدح وإطرا
طالباً جاههم سعياً إلى كـ … ـلّ أمور لهم فكونوا مُيسرا
فترى قاضى القضاة ومن يذ … كر درساً يرجاه سراً وجهرا
قاصــداً قربه فيمضى إليه … فاعلاً ما يريد نفعاً وضرا
والضعيف المشغول بالعـلم يلقى … من ولاة الأمور تحيراً وهجرا

وهى قصيدة طويلة فى عشر ومائة من الأبيات .

وكتاب الروضتين نفسه ليس إلا دليلا آخر على اتجاه أبى شامة الاستقلالى فى حياته ، وثمرة لسلوكه الاجتماعى الفذ بين أمثاله من علماء العصر ، كما تثبت ذلك مقارنته بكثير منهم . فابن الأثير — مثلا — كتب « الكامل فى التاريخ » وأبقاه فى صورة مسودة حتى رجاه أصدقاؤه وتلاميذه أن يحاضرهم فيه ، فاعتذر بقصوره وحاجته إلى المراجعة والتنظيم . وتكرر رجاؤهم بعد مدة ، وتكرر تعلله بنفس الحجة ؛ ثم سمع بدر الدين لؤلؤ الملك الرحيم صاحب الموصل بخبر الكتاب ، فطلب منه نشره ، فأسرع فى إخراجه تحقيقاً لهذه الرغبة ، إذ صدرت عمن « طاعته واجبة وكلمته نافذة » . وقد كتب ابن الأثير كتاباً آخر فى التاريخ قصره على تاريخ أتابكة الموصل ، ولكنه كتبه ليهديه إلى أحد سلاطينهم اعترافاً بفضل أجداده على عائلة ابن الأثير وتوجيهاً له إلى مواصلة هذه الرعاية . وهكذا كان الدافع إلى كتابة « تاريخ الأتابكة » ونشره التاريخ الكبير التقرب من ذوى السلطان والتودد إليهم . وكذلك فعل غير ابن الأثير كمال الدين بن واصل الذى كتب « مفرج الكروب » لأحد ملوك حماه .

أما أبو شامة فقد تأثر بفترة الاضطراب والنزاع الداخلى اللذين سادا فى عصر الأيوبيين بعد الوحدة والتكتل والجهاد ضد الفرنج فى عصرى نور الدين وصلاح الدين ، ذلك الجهاد الذى لم يشغل السلطانين عن الالتفات إلى صالح الشعب والعمل على ترقية مستواه : اجتماعياً بإلغاء الضرائب الجائرة وتنظيم الإدارة المالية والأوقاف ، وعلمياً بنشر المدارس وتشجيع التأليف والنشاط العلمى ، ودينياً بتقديم العلماء والاعتماد عليهم أحياناً كثيرة فى إدارة شئون الدولة والمساهمة فى تبصير دفة الحكومة — انفعل أبو شامة بهذا كله وقارنه بالفوضى التى سادت حكم بنى أيوب فى زمنه . وأراد أن يقدم لهم المثل الصالح للحاكم المسلم الذى يهتم بشئون الدولة والدين معاً ، وأراد أن يكون هذا المثل الصالح من بين الملوك المعاصرين ، فوجده فى نور الدين وصلاح الدين ، فدون تاريخهما الجيد فى « كتاب الروضتين » مشيراً إلى هذا الدافع الإصلاحى فى مقدمته قائلاً : « ... فلعله يقف عليه من الملوك ، من يسلك فى ولايته ذلك السلوك ؛ فلا يبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين ، وذكرى منه — سبحانه — فإن الذكرى تنفع المؤمنين ؛ فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين ، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين ؛ ويقولون نحن فى الزمن الأخير ، وما لأولئك من نظير ... » . ورغم هذا فقد استمر الأيوبيون فى فتنتهم ، بل تحالف بعضهم مع الفرنج ، وسلم الملك الكامل مدينة القدس لإمبراطورهم فردريك الثانى فى الوقت الذى واصل فيه حروبه ضد ابن أخيه صاحب دمشق . ويبدو أن أبا شامة يئس من صلاح الحال ، فتغير هدفه من كتابة التاريخ وتواضع ، وجاء كتابه « الذيل » صورة لهذه الروح المتعبة ، فكتبه مسجلا فيه من يموت « من الأصدقاء ، والمعارف ، لعل أجد بمطالعتهم قلباً على الآخرة بساعف » وكانت خاتمة حياة أبى شامة فى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) خاتمة لكتابه الذيل .

ولنا عودة إلى هذا فى القريب إن شاء الله .

(دكتور) محمد حلمى محمد أحمد

ندوة القلم

شيخنا موجود

عندما وصلت إنجلترا سكنت مع سيدة إنجليزية في لندن، لها بنت في العاشرة وابن في السادسة، وهي تؤجر بقية حجرات المنزل لتعيش بما تناله من إيجار، فضلا عما يأتيها من بعض المال من عملها كسكرتيرة في إحدى المؤسسات.

وكانت السيدة — لكثرة أعمالها في الداخل والخارج ولتغيب زوجها — تترك الولدين في أوقات كثيرة من غير أن تعطيهما شيئاً من وقتها (الذي تعتبره ثميناً). ومع ذلك فهي تهيء لهما كل ما يطلبان، ولكن على شرط واحد، هو ألا يطلبانها هي نفسها لتلاعبهما أو تقضي معهما بعضاً من وقتها.

ورغم ما في الأطفال الإنجليز من رجولة ورزانة . فقد كان « بيل » — طفلها — كثير البكاء والمشاغبة، وكان كثيراً ما يخلي بيتنا فيأتي بحركات عجيبة فيها كثير من الخطورة، أو بأصوات غريبة تفسد اجتماعاتنا ومناقشاتنا، فكنا نتناوب تأنيبه وتهديده، وكانت أمه تشترك معنا في هذا التأنيب والتهديد، ولكن الطفل يصر على هذه المشاغبة دون أن يرضخ لتهديد.

وكنت كثيراً ما أسائل نفسي : ما الذي يسبب هذا في نفس الطفل فيجعله مشاغباً هكذا ؟ فهو ينال كل ما يطلب، وهو لا يحصل من مناوشاته هذه إلا على غضبنا عليه وعقابنا له، وهو — بالطبع — لا يبغي غضباً أو عقاباً ... لا بد إذاً من أنه يبغي شيئاً هاماً جداً بحيث لا يهمه بعد ذلك غضبنا وعقابنا .... ما هو هذا الشيء ....؟ ذلك ما عرفته من جملة تفوه بها الطفل مرة بعد أن زاد تأنيبنا له ... إذ قال : « وماذا أفعل، مادمتم تتكلمون في شيء لا أعرفه ؟ » .

إذاً فهو لا يشاغب حباً في المشاغبة، بل هو يشاغب رغم عدم حبه للمشاغبة، وإنما السبب هو أننا نتكلم في شيء يجعله يعتقد أنه «مهمل»، وأننا لا نحس وجوده، فلا بأس إن صاح وصرخ وأتى بحركات تجعلنا نلتفت إليه ونحس وجوده، حتى لو كان هذا الوجود ثقيلا ... ولكن — لا بأس — فهذا أفضل من أن يحس بأنه غير موجود على الإطلاق .

وتساءلت : أإلى هذا الحد يضحي الإنسان بحب الناس له لكي يشعر بأنه موجود ؟ وإلى هذا الحد يقبل الإنسان أشد العقوبات ويضحي بكثير من القربات لكي يرضي في نفسه نزعة الوجود، حتى لو اعتمد هذا الوجود على الصياح والصراخ ؟ إذاً فقد فهمت مشكلة ذلك الصديق الذي أتاني يوما يقص علي مشكلة حار في تفسيرها وحرت معه، وفكرت فيها كثيراً وأمعنت في التفكير، حتى حلها ذلك الطفل الإنجليزي .

قال صديقي : لقد لاحظنا على والدنا، في السنوات الأخيرة، أن صياحه وصراخه قد ازدادا بشكل جعلنا لا نفكر إلا في كيفية علاجه منهما، والبحث عن مسبباتهما، فقلنا أحياناً إن المرض يجعل النفس حزينة متشائمة تنظر إلى الأمور بمنظار أسود، فلا ترى إلا الفاسد من الأمور، فإن أردنا علاجا لهذا فلنعالج المرض . فإن يئسنا صبرنا وسلمنا أمرنا لله . وقلنا أحيانا هو الشعور بالشيخوخة وعدم القدرة على العمل . والنقص في الإنتاج يؤثر في النفس التي أحبت العمل والإنتاج . وهذا شيء طبيعي ليس له علاج إلا أن نسلم أمرنا لله .

قلت لصديقي : إن صياح والدك هذا سببه هو نفس السبب الذي يصيح من أجله ذلك الطفل الإنجليزي، إنه لا يريد إلا أن يذكر من حوله « أنه موجود » .

إن هذا الصراخ لا يمكن أن يكون غرضه إصلاح شيء فلا بد لمن كان في سن والدك أن يدرك تمام الإدراك أن صياحه لن يصلح شيئاً . بل وربما حافظ على الشيء الفاسد ليكون سبباً من أسباب تبريره لصياحه .

قصص

ناطحة سحاب سليمان أفندى

للأستاذ إدوار مفسى

سليمان أفندى رجل طيب القلب جداً ، فى الخامسة والثلاثين ، لايعرف فى حياته غير الذهاب إلى عمله والإياب إلى داره ، ولايذوق من ملاهى الحياة ونعيم الدنيا غير العكوف على قراءة القصص والروايات أياً كان نوعها ، وهو لذلك لا يعرف الناس كما يجب أن نعرف الناس ، وإن ظن إنه بقراءاته الطويلة هذه قد لمس الحياة وخبر الأحياء .

كان يعيش وزوجته فى غرفتين متواضعتين ، راضياً بحياته ، سعيداً بعمله البسيط فى إحدى المصالح الحكومية وراتبه المحدود الذى يكفيه وزوجته فى سعة ، إذ أنهما لم ينجبا ولداً ولا بنتاً يضطرانهما إلى العمل على زيادة الدخل والبحث عن المزيد من المال .

ولكن القدر كان يخبئ لسليمان أفندى مفاجأة لم يكن ينتظرها قط ، فقد توفى له أخيراً أخ عاش حياته أعزب ، وكان مغامراً مقداماً ، فترك عند موته ثروة ليست ضئيلة بلغت حصة سليمان أفندى منها عند تقسيمها بينه وبين إخوته الآخرين ألفين من الجنيهات .

وفكر سليمان أفندى : ما الذى يمكن أن يصنعه بهذا المال وهو الزاهد فيه ، الكاره له ؟ فهداه تفكيره ، أو هدته نصيحة زوجته على وجه الدقة ، فقد كانت حريصة تنظر إلى المستقبل ، إلى شراء قطعة من الأرض وابتناء بيت بما يتبقى من مال ، وكان فى شارع المرجان ، حيث يسكنان فى شبرا ، قطعة من الأرض فضاء متوسطة المساحة متوسطة السعر ، لايفصلها عن مسكن الزوجين غير بيتين متجاورين ، ابتاعاها ؛ وقال لهما المقاول إن ما يتبقى من مال بعد شراء الأرض يكفى بالتمام لبناء طابق واحد ذى أربع غرف .

* * *

لم تمض شهور ستة حتى تسلم سليمان أفندى المبنى الجديد ولم يستقر له قرار حتى علق على واجهته لافتة « شقة للإيجار » كما أعد عقود التأجير والإيصالات المطبوعة التى سيوقع عليها عند استلام قيمة الإيجار ، ذلك أنه وزوجته قد قررا ألا يتخليا عن مسكنهما القديم الذى يستأجرانه بجنيهين اثنين ، وهو إيجار قبل الحرب ، وأن يؤجرا بيتهما الذى أصبحا يمتلكان بالسعر المرتفع الذى فرضته ظروف الحرب ، فيدخران بذلك مبلغاً شهرياً معيناً ، وهما لم يكونا يتمكنان من ادخار شىء فى الماضى قط نظراً للغلاء الفاحش الذى عم البلاد .

لقد كانت كثرة أعماله فى الماضى تشعره بأنه موجود ، فلما زال العمل زال بعض هذا الشعور . وكان احترام الناس له ، بسبب مركزه الاجتماعى أو بسبب شخصيته القوية ، يشعره بأنه موجود ، فلما زال هذا الاحترام زال بعض آخر من هذا الشعور ... وهكذا أخذ يفقد وجوديته شيئاً فشيئاً حتى اضطر أن يخدع نفسه ليشعر أنه موجود فلم يجد غير الصياح .

سألنى صاحبى : فإذا كان هذا هو سبب المرض فأى دواء تعتقد أن فيه العلاج ؟ .

قلت : إن الشيخ ربما أن يشعر أنه موجود ، إذاً فلتشعروه بوجوده ، ولكن ليس فى وقت صياحه ، وإنما فى وقت هدوئه ، فإن وجدتموه فى وقت ما هادئاً لطيفاً اجتمعتم حوله وأشعرتموه بأهميته بينكم ، فإذا صاح تجنبتموه وتظاهرتم بأنكم لا تعبأون بكلامه ولا صياحه . هنا سيشعر بأن وجوده سيكون فى شىء آخر غير الصياح والصراخ . وإنما فى تجمعكم حوله يقص عليكم تجاربه فى الحياة بكلام مملوء بحكمة الشيخوخة الهادئة .

حافظ أحمد أمين

قال سليمان أفندي لزوجته وهما يتفقدان المبنى الجديد :

— لم أكن أحلم قط أن أصبح صاحب ملك ! أرجو أن أؤجر هذه الشقة بعشرة جنيهات . فانتفضت زوجته :

— عشرة جنيهات !

— ولم لا ؟ أتستكثرين عشرة جنيهات في أربع غرف واسعة وصالة ودورة مياه ومطبخ لا يوجد مثله في بيوت الأغنياء ! عشرة جنيهات هي أقل ما يمكن قبوله إيجاراً لهذه الشقة الجميلة .

قالت المرأة متأكرة :

— ولم الطمع ياسي سليمان ؟ انظر إلى أنفسنا كيف نكسب معاشنا ، ثم ... ألم تكن حتى عهد قريب جداً تزدري المال ؟!

— ياشيخه ، دعينا نتمتع بالفلوس ، ما ألذ أن يجمع الإنسان المال ! ما أروع أن يشعر الإنسان أن له عقاراً ! كل من يتظاهر بكراهية المال والزهد فيه إنما قصر همته عن نواله ...

وقبل أن يطفئ سليمان أفندي نور مخدعه لينام هذه الليلة تناول ورقة وقلماً وهرش جبينه مفكراً ، ثم جعل يجري بقلمه على الورقة رموزاً وأرقاماً :

— عشرة مضروبة في اثنى عشر ، كم تكون يازوجتي ؟

— مائة وعشرون .

— عظيم !

— ماهو العظيم ؟!

— انتظري قليلا حتى أتم حسابي ، لقد تكلف بناء الطابق الأرضي سبعمائة وخمسين جنيهاً ... فبعد كم من السنين يمكننا بناء طابق ثان ؟ إيه ... بعد ست سنوات ، عندئذ يكون لنا طابقان للإيجار ، نؤجر الواحد منهما بعشرة جنيهات ، وبهذا يمكننا بناء طابق ثالث بعد ثلاث سنوات أخرى ، ورابع بعد ...

وكان النعاس قد أثقل جفني سليمان أفندي ، فأطفأت زوجته النور ، ونام الزوج حالماً بالطابق الأرضي الذي صار يعلو ... ويعلو ...

وطلع صباح اليوم التالي بمستأجر جذبته اللافتة ... طاف بالشقة وسأل عن قيمة الإيجار .

— عشرة جنيهات ... فقط .

— عشرة جنيهات ! في هذا الشارع الضيق ! في شبرا ! إن هذا لكثير ...

— إنها جديدة لم يسكنها أحد من قبل . لقد تسلمتها أمس فقط من المقاول .

— ولو ! ما رأيك في ثمانية جنيهات ؟ .

— عشرة جنيهات لا تنقص مليماً واحداً .

وذهب المستأجر ولم يعد .

وعاد سليمان أفندي إلى أرقامه يدونها وإلى مشاريعه يرسمها .

وجذبت اللافتة مستأجراً طلب الشقة بثمانية جنيهات .

— عشرة جنيهات لا تنقص مليماً واحداً .

وانهال سيل المستأجرين وكانت آخر قيمة وصلوا إليها هي ثمانية جنيهات « لا تزيد مليماً واحداً » ، بينما كان يصر سليمان أفندي على أن قيمة الإيجار « لا تنقص مليماً واحداً » .

وهكذا كان يصر سليمان أفندي . ولكن إذا انقطع سيل المستأجرين ، وضاع عليه إيجار شهرين ، لم ير بداً من تنزيل قيمة الإيجار إلى ثمانية جنيهات . وبهذا أخبر سمساراً إذ لم تعد اللافتة تجتذب جديداً ، ومزق الأوراق التي كان يدون عليها أرقامه ويرسم مشاريعه ، وقال لزوجته : لنبدأ من جديد . وبنفس العمليات الحسابية المسيرة التي لا تهضمها امرأته وصل سليمان أفندي إلى أنه بعد خمسة عشر عاماً وستة شهور ، أي عندما يكون قد وصل إلى قبيل الواحد والخمسين من العمر (١) — سيكون بيته مكوناً من ستة طوابق !

ووافاه سمساره بمستأجر جديد . ولو أنه كان لسليمان أفندي شيء من المكر والحيلة وبعض العلم بالطبيعة الإنسانية لا ستمر على النغمة الأولى : عشرة جنيهات ، إذ أن المستأجر لابد أن ينزل من هذه القيمة ومن أي قيمة أخرى ولو على سبيل الانتصار على المؤجر ، فتكون القيمة التي يطلبها المؤجر هي القيمة التي يعرضها المستأجر بالفعل ! ولكن سليمان أفندي ابتدر المستأجر الجديد :

— ثمانية جنيهات ... فقط .

— ثمانية جنيهات ! في هذا الشارع الضيق ! في شبرا ! إن هذا كثير ...

— إنها جديدة لم يسكنها أحد من قبل .

— ولو ! ما رأيك في سبعة جنيهات ؟ .

— ثمانية جنيهات لا تنقص مليماً واحداً .

وذهب المستأجر ولم يعد .

وأضاع سليمان أفندي باستسلامه لجنيهاته الثمانية إيجار شهرين آخرين أغلقت الشقة خلالهما « بالضبة والمفتاح » .. واتفق الزوجان فيما بينهما ، إذ رأيا انصراف المستأجرين عن الشقة ، على أن يؤجراها بسبعة جنيهات لأول قادم بعد الآن متخذين حكمة « إرض بما قسم » !

ولم تمض أيام قلائل حتى تقدم مستأجر جديد قبل على الفور ودون جدال أن يدفع سبعة جنيهات . وكان يمتاز عن كل من سبقوه بأناقة ملبسه وطلاوة حديثه : شاب في الثلاثين ممتلئ حيوية وتلوح عليه مظاهر النعمة واليسر ، قال إن زوجته وأولاده سيلحقون به « من البلد » حالما يستقر في مسكن جديد مناسب . وكتب العقد بين « عبدربه الجوهري تاجر بالمانيفاتورة » و « سليمان حمدان ، صاحب ملك » ، ووقع المستأجر الجديد إمضاء لا يكاد يقرأ ، وأبرز حافظة نقوده المنتفخة وأخرج منها سبعة جنيهات من أوراق البنكنوت الجديدة أعطاها لسليمان أفندي الذي لولا بقية من الذوق لاختطفها من عبدربه الجوهري اختطافاً ... ثم تفحصها جيداً بعينين شرهتين ودسها في جيبه بإعزاز وأعطى الجوهري أفندي عنها إيصالاً ممهوراً بإمضاء تأنق في توقيعه .

إنها المرة الأولى التي يدفع فيها سليمان أفندي إيصالا عن إيجار شقة ، وهو الذي لم يعتد إلا أن يتسلم مثل هذا الإيصال طيلة حياته ! لقد شعر بلذة غريبة إذ كان يتفضل على أحد « الغلابة الساكنين » بسكنى داره لقاء جنيهات سبعة ... أجل ! جنيهات سبعة !

ولم ينم سليمان أفندي في ليلته إلا لماماً ، فقد كانت زوجته تسمعه بين الحين والحين يتمتم ويهمهم بما لم تكن تفهم منه شيئاً ؟ وما انبلج صبح اليوم التالي حتى ابتدر سليمان أفندي زوجته وهو يفرك عينيه :

— أتعلمين أنه بعد عشرين سنة سيكون بيتنا ذا ستة طوابق ! .

عندئذ أدركت زوجته فيم كان زوجها يتمتم ويهمهم في ليلته .

●●●

انقضى الشهر الأول على سكنى الجوهري أفندي دون أن تحضر زوجته ولا أولاده « من البلد » كما كان يقول ؛ وهذا ، وإن كان مدعاة لاغتباط سليمان أفندي الذي كان يخشى على بيته الجديد الاتساخ « والبهدلة » ، إلا أنه استغرب الأمر ! ومضى اليوم الأول من الشهر الثاني ، وأعد سليمان أفندي الإيصال باستلام الإيجار ... ولكن السبعة جنيهات التي كان ينتظرها لم تجئه ، فظن أن الجوهري أفندي قد نسي أن شهراً جديداً قد بدأ ومضت على أوله أربعة أيام ، فأرسل خادمه ليذكره أن أياماً أربعة قد انصرمت من الشهر الجديد ! فعاد الخادم يقول لسيده إن الجوهري أفندي يعلم تمام العلم أن الشهر الجديد قد بدأ منذ أربعة أيام ولكنه في ضائقة مالية هذا الشهر وإنه سيتدبر الأمر بحيث يفي بالإيجار في أيام قلائل . عندئذ مزق سليمان أفندي الإيصال الذي كان قد أعده ، وجعل ينتظر .

وكان سليمان أفندي في هذه الأثناء يرى أموراً غريبة تجري في شقة الجوهري أفندي وحركات غير عادية تخالط بالكتمان الشديد . فقد لمح ذات مساء رجلا غريباً يدخل شقة ساكنة فلا يخرج منها طيلة المساء ! وظنه حينئذ أحد زائري الجوهري أفندي ، ولكنه تيقن بعد أيام أن هذا الغريب قد استأجر غرفة عند « الساكن » وبطريق أو بآخر عرف سليمان أفندي أن الرجل يستأجرها بثلاثة جنيهات .

فكر « صاحب الملك » في الأمر وقلبه على جميع وجوهه ، وانتهى إلى التغاضي عن هذه السكنى من الباطن مادام الجوهري أفندي سيدفع إيجاره « على داير المليم ! » ولكن لم تمض أيام أخرى حتى لمح « صاحب الملك » ، سليمان أفندي ، غريبين آخرين يقيمان إقامة دائمة عند الجوهري أفندي

هنا نفد صبر سليمان أفندي ، إنه يعرف أن التأجير من الباطن مخالف للقانون ، ولكنه لا يعرف ماذا يصنع ! إنه رجل مسالم لا يعرف طريق المحاكم ولا يحب الالتجاء إلى المحامين ، ولا يدري شيئاً عن هذه المشاكل التي قد يضطر إليها « صاحب الملك » مع « المستأجر » ، فاضطر لأول مرة إلى أن يتصفح كتاباً في القانون المدني بعد أن ظل حياته كلها يتم بقراءة القصص والروايات ، وفي كتاب القانون عثر على النص الذي يريد : « كل من ضبط متلبساً بتأجير شقته أو غرفة من شقته أو منافع شقته من الباطن إلى ساكن آخر يحكم عليه بالإخلاء السريع ... » عظيم جداً ! هكذا صاح سليمان أفندي فرحاً : هانحن قد وصلنا . ولكنه لمح سطراً يكمل مايقرأ ، فتابع النص : « ... على أن

يقدم الشاكي دليلاً قاطعاً على صحة مزاعمه » . صحة مزاعمه ! هنا أسقط في يده ! فهو لم يكن يعرف عن الغرباء الثلاثة شيئاً ، بل لم يكن يدري عن الجوهري أفندي شيئاً أيضاً ، إذ أنه لم يتحقق من شخصيته عندما أجر له الشقة ! وجعل سليمان أفندي يقلب صفحات كتاب القانون المدني عله يجد فيها استثناء ما يعفيه من مهمة البحث عن دليل قاطع ، ولكن بدلاً من أن يجد هذا الاستثناء عثر على بند آخر يقول : « كل من تأخر عن سداد الإيجار شهراً واحداً لصاحب الملك يكون له الحق في الحجز على ممتلكات المستأجر والاستيلاء على حقه من قيمة المحجوزات » .

هنا تذكر سليمان أفندي أنه لم يبق من الشهر غير أيام معدودات ولم يؤد الجوهري أفندي ما عليه ! فذهب إليه :

— أرجو أن تكون ضائقتك المالية قد خفت ياجوهري أفندي .

— لن أدفع مليماً واحداً حتى تخفض قيمة الإيجار إلى ثلاثة جنيهات .

— لقد وقعت عقداً .

— « بله واشرب ميته » .

— ليس هذا عمل رجال .

— ماذا تريدني أن أعمل وأنا خالي شغل ؟!

— كيف ! ألم تقل إنك تاجر بالمانيفاتورة ؟!

— وهل كنت تؤجر لي شقتك إن كنت أخبرتك أني عاطل ؟

— لما أجرت « شقتك » لثلاثة غرباء من الباطن بتسعة جنيهات لتعيش على حسابي !

— هذا شأني .

— أريد أن أعرف : من صاحب الملك ؟ أنا أم أنت !

— أنا أملك الشقة التي أسكنها .

— أنت لاتعرف القانون .

— القانون ! « شيء في القانون » !

— ياجوهري أفندي ، أنا رجل مسالم لم أعرف ماذا يصنعون في المحاكم ولم أر محامياً قط .

— اطمئن ياسليمان أفندي ، لقد عرفت منذ دهر طويل ماذا يصنعون في المحاكم وتعاملت مع معظم المحامين .

— إنك رجل غير شريف .

— ولو !

وغادره سليمان أفندي وقد ثارت ثائرته .. وتحامل على نفسه كارهاً وقصد أول محام لمح لافتته في الطريق وقص عليه قصته وطلب رفع قضية على الجوهري أفندي (تماماً كما ذكر كتاب القانون المدني) وتوقيع الحجز على ممتلكاته لامتناعه عن تسديد الإيجار ... أما قضية التأجير من الباطن فقد أرجأها لافتقاره إلى أدلة قاطعة تؤيد شكواه . ودفع المحامي مقدم أتعاب خمسة جنيهات .

تحددت الجلسة في يوم ما بعد شهرين ! وكان الجوهري أفندي لا يدفع إيجاراً لـ « صاحب الملك » بينما كان يتسلم من ساكنيه الثلاثة تسعة جنيهات شهرياً ! وجعل سليمان أفندي يترقب هذا اليوم المشهود في حياته ، حياة الفأر الذي اضطر كارهاً أن ينازل قطاً وهل يأمل أن يتغلب عليه ! هذا اليوم الذي ستطلب فيه المحكمة ممثلة في ثلاثة قضاة وقورين من الجوهري أفندي أحد أمرين : إما أن يدفع ما تأخر عليه من إيجار فوراً وإما توقيع الحجز على ما يملك من أثاث وبيعه بالمزاد العلني ! كما تذكر سليمان أفندي كلمة « المزاد العلني » وثب قلبه فرحاً واهتزت أعطافه طرباً . كيف لا وهو قد ضمن بهذا الإجراء ماله من إيجار متجمع عند هذا المجرم أو المحتال الأثيم ... كما كان لا ينفك يقول .

وانقضت الأيام بطيئة كأنها دهور ! وحل يوم الجلسة أخيراً وهرع سليمان أفندي إلى المحكمة التي كانت ستنظر أمامها قضيته ، وعبر مدخل القاعة مرتبكاً متعثراً في خطواته ، فما كان يظن قط أن تطأ قدماه يوماً أرض هذا المكان .

ونظرت أمامه قضيتان أو ثلاث قضايا وهو قابع في مكانه مع جمهور المتفرجين قبل أن ينادى عليه ... حينئذ ظهر محاميه قائلاً : موجود يا بيه ! ثم نودي على المتهم ، فظهر الجوهري أفندي وقال : موجود يا بيه !

وبدأت الجلسة وقلب سليمان أفندي ينتفض من الانفعال ، فقد كان دخوله قاعة المحكمة وشهوده مرافعة المحامين وهيبة هيئة القضاء ، وهي تتداول خبرة جديدة في حياته . وجعل يتتبع مراحل هذه القضية البسيطة التي لم تكن تحتاج إلى محام ما في اهتمام ولهفة ، حتى سمع الحكم يخرج من بين شفتي القاضي : « حكمنا بتوقيع الحجز على أثاث المتهم ، وبيعه بالمزاد العلني ؟ غيره ... » .

وكاد سليمان أفندي يقبل يدي محاميه الذي كان يتأبط

إعجاباً بأظافيره التي بليت من طول تناولها ، وزحلق طربوشه الذي السخت جوانبه دفعاً للتعب الذي كان يتظاهر به عند الدفاع في قضية موكله التي لم تستغرق أكثر من خمس دقائق لتفاهتها ووضوحها كالحق ، ودس في جيبه ثلاثة جنيهات « مؤخر أتعاب » أعطاها له سليمان أفندي الذي انطلق يعلن زوجته بأنه كسب القضية وأن حقه قد أصبح محفوظاً مؤكداً مضموناً .

وعند ما رأت زوجة سليمان أفندي المحضر والشاويش وشيخ الحارة يطرقون باب شقة الجوهري أفندي بعد أيام قليلة لم تتمالك نفسها من الفرحة وطفقت تزغرد حتى صاح بها زوجها محاولاً اصطناع التعقل :

— احتفظي بزغاريدك حتى يوم المزاد العلني ، حينئذ ستوضع لافتة على ناصية الشارع تعلن عن المبيعات ، ويقف « الدلال » يدق بجرسه دقاته المتخاذلة صائحاً بأعلى صوته « هنا المزاد العلني ! هنا المزاد العلني ! » دنج دنج دنج ! ها ها ها !

ورقص سليمان أفندي مع زوجته طرباً .

وغاب المحضر لدى الجوهري أفندي نصف ساعة خرج بعدها مزهواً كأنه يقول : « أنا ... الحكومة » .

ثم تحدد يوم البيع بعد هذا بشهر لم يدفع الجوهري أفندي خلاله مليماً واحداً لـ « صاحب الملك » بينما تسلم من ساكنيه الثلاثة تسعة جنيهات ! ولم تبق على الساعة المشهودة التاريخية إلا أيام تعد على أصابع اليد الواحدة . وبحث سليمان أفندي عن النوم أثناء هذه الفترة دون جدوى : كان يفكر في المبلغ الذي تجمد عند ساكنه وأتعاب المحامي ومصاريف القضية ... وخلافه ...

« هنا المزاد هنا ! هنا المزاد هنا ! دنج دنج دنج » .

هكذا افتتح « الدلال » صباح اليوم التاريخي المشهود عند باب « ناطحة سحاب » سليمان أفندي . فأقبل الناس من كل فج يتسارعون ، وتجمهروا حول المدخل كل يحلم بالقطعة التي سيصيبها في هذا المزاد ! وأقبل المحضر بعد قليل يحف به عن يمين وعن شمال شيخ الحارة وشاويش مبروم الشاربين . ودق المحضر باب الجوهري أفندي مرة ومرة ، وهو يزهو معجباً بالسلطة التي يتمتع بها . لا حس ولا خبر ! وأعاد الدق مرات ومرات . لا حس ولا خبر ! فاضطر ، وهو الذي يمثل الحكومة ، إلى أمر الشاويش بكسر الباب لتنفيذ حكم البيع غيابياً . وضرب الشاويش من كتب بندقيته الخلع لها قلب سليمان أفندي كان الشاويش قد حطم الباب .

كانت الشقة تعششهم خواء ، لاقطعة فيها من الأثاث !

كيف بدّد الجوهري أفندي أثاثه ، لا أحد يدري حتى الآن !

وبينما كان سليمان أفندي يضرب كفاً بكف ويكاد ينفجر من الغضب ، كان « الدلال » يصيح في الخارج بأعلى صوته داقاً جرسه العتيد :

« هنا المزاد هنا ! هنا المزاد هنا ! دنج دنج دنج ! »

وأحس سليمان أفندي في كل دقة كان يسمعها معنى السخرية من أرقامه التي كان يضعها على الورق والضحك على مشاريعه التي كان يرسمها في الهواء .

***

وقبل أن يطفىء سليمان أفندي نور مخدعه لينام هذه الليلة ، تناول ورقة وقلماً وهرش جبينه مفكراً ، ثم جعل يجري بقلمه على الورقة رموزاً وأرقاماً :

— أربعة أشهر مضروبة في سبعة جنيهات ، كم تكون يا زوجتي ؟

— ثمانية وعشرين جنيهاً .

— فإذا أضفت إليها ثمانية جنيهات مصاريف قضية ومحاماة

— أصبحت ستة وثلاثين جنيهاً .

— وإذا أضفت إلى هذا جنيهين — على الأقل — لتصليح باب الشقة وقد تحطم ؟

— صار المجموع ...

— لم يأت المجموع بعد ...

— إذاً : صار المبلغ ثمانية وثلاثين جنيهاً .

— وأخيراً خمسة جنيهات لأعمال الترميم والزيت ؟

— صار المجموع ثلاثة وأربعين جنيهاً ...

وكان النعاس قد أثقل جفني سليمان أفندي ، فأطفأت زوجته النور ، ونام الزوج تحت وطأة الكابوس الذي بدأ يهدم من « ناطحة سحابه » طابقاً بعد آخر .

إدوار مشي

بريد الثقافة

إلى حضرة الدكتور زكي نجيب محمود :

تحية حب وإعجاب ...

إذا كنا موقنين أن « الثقافة » وهي التي تكاد تكون أجمل التثقيفي في البلاد العربية ، لا تمنح الشعر ، ذلك الفن الجميل ، المكانة اللائقة به كبقية المجلات ، فلا أقل ما دامت تعودت نشر بعض المقطوعات أن تكون لهذه العلاقة الوثيقة بالفن من ناحية التجربة والصدق والغاية — وإلا دعني أسألك : ما هي قيمة قصيدة كقصيدة « إلى شمعة » في العدد ٦٧٣ وما قيمة زميلاتها من الوجهة الفنية الخالصة في العدد ٦٧١ ..؟ اللهم لا تدفعني إلى اتهام مجلة أحترمها ، وأحترم وأحب بكتابها ، بأنها تؤيد الأدب الأعلائي للميت ، وأنها تشجع أدب الآهات . . . والتأوهات والنواح ، ذلك الأدب الرخيص الميت ، ونحن نواجه حراب البغي والعدوان وجهاً لوجه ...

(كلية الحقوق — بغداد) محسن كريم

« الثقافة » إننا نشكر الناقد الفاضل على رسالته ، ونرحب كل الترحيب بنقد تفصيلي يقوم على أسس فنية ، للقصائد التي لم يجد فيها جمالاً شعرياً ، لأن كتاب الثقافة وشعراءها وقراءها أسرة واحدة ، يتبادلون الرأي على صفحاتها في إخاء وود ، ونحب أن نؤكد له أن « الثقافة » تفسح من مجالها ما استطاعت ، لكل شعر جيد ، بل تحاول ألا تهمل قصيدة فيها ما يبشر لصاحبها بالجودة إن سار على الطريق .

إلى الأستاذ إدوار حنفي صاحب قصة « تيانو » :

لا تدهش ياسيدي إذا كثرت الآراء والأسئلة حول فنانك « تيانو » فمأساته خليق بها حقاً أن تروع نفس كل فنان ناشئ يمتلئ قلبه بالأمل وتفيض نفسه بالحرارة ... وله عذره في ذلك ، فمن يدري ؟؟؟ لعله تيانو آخر .

ولكن من بين هذه الآراء والأسئلة يلوح لنا سؤال واحد أعتقد أن جوابه قد يعيد الطمأنينة إلى القلوب اللهفة والنفوس المروعة : هل كان تيانو فناناً حقاً ؟.. فناناً يمتلئ قلبه بالنغم ويفيض بالألحان ، أم مجرد هاو أخذ برأسه سحر الفن ومجد الفنان .

إني أشك — ولعلك أنت أيضاً تشك — في أن تيانو كان فناناً حقيقياً ، كل ما كان عليه هو نفس فتية سحرها الفن وبراعة في الأداء كانت عليها اليد التي مرت على أوتار الكمان ، حمل تيانو كمانه كما أمسك دون كيشوت سيفه ، ولكن كليهما في الجهل سواء بطبيعة القوة التي اعتزم كل منهما أن يقف أمامها ليناضلها .

كتب شوبرت « السمفونية الناقصة » وهو فقير محطم ضائع ، ولم تشفع لبيتهوفن عبقريته فكتب أغلب موسيقاه وهو في شبه فاقة ، وانطلق شكسبير إلى لندن ليقف أمام المسرح يعمل كسائس خيل ، وقضى برنارد شو تسع سنوات عجاف قبل أن يصل إلى شيء في الفن ، محتملاً قسوة الفقر للدفع على وظيفته كصراف في محل أقمشة بدبلين .

أ كان من الممكن أن يظل هؤلاء — وأضيف إليهم عشرات غيرهم من العباقرة الفنانين — انتظاراً للنجاح ؟ ولكن حذار أن نرضى بنصف النجاح ، فكل شيء في الفن يختلف ؛ فالقلب إما فارغ خاو أو فياض ممتلئ ، وهو حينما يكون فارغاً خاوياً ، فإنه حتماً قد يبدأ من الصفر ولكنه ينتهي إلى الصفر أيضاً .

من حقك ياسيدي أن لا ترضى ولا تقر نصف النجاح ، وكل فنان حقيقي لا يقبل لنفسه هذا الوضع المتوسط الذي تأباه الطبيعة البشرية السليمة .

هكذا أحس « ليست » الموسيقي العظيم على الرغم من أنه كان النجم اللامع في سماء الفن وسط صالونات باريس .. أحس أنه ليس إلا مجرد عازف ، وأن هذه الشهرة التي حظي بها سرعان ما يخبو بريقها بمجرد أن تقف يده عن العزف على البيان ، ومن يومها راح يؤلف موسيقاه التي ضمنت له الخلود .

أيها الفنان تيقن أولاً من قلبك ، أما بعد ذلك فلا يهم .

(هندسة السكة الحديد بالبارى) الظفر صبري أحمد

في ذكرى المولد النبوي :

أنوار النبي المختار

قيلَ لي وابتسامةُ الأملِ الوضّاء تجلو غواربَ الظلماتِ
والليالي سرى إليها من الآ فاقِ نورٌ مجنّحُ الومضاتِ
وعلى الفجر من وجوه الأماني قسماتٌ يا حسنها قسماتِ!
والروابي إلى الينابيع تهفو بحنينٍ يضوعُ في الزهرات
وعلى القفر والرمالِ أناشيدُ سلامٍ تفيض بالبشرياتِ
أيُّ نورٍ ذاك الجديدُ الموشّى الرؤى بأطيبِ الطيّبات ؟
ذلك النورُ نورُ «أحمدَ» يزرا من الدياجي مبددُ الشبهات !
وُلِدَ الحِلْمُ والهدى والمروءا تُ وطيبُ الصفات والمكرمات
عجبًا لليتيم ينشأ أمّيا وبها يعلّمُ الكائنات !
عجبًا للفقير يأبى الثراء الضخمَ والفقرُ آفةُ الآفات !
عجبًا للوحيد تسعى له الدنيا لتحظى لديه بالبركات !
يا رسولَ الله اصطفاك لنا اللـهُ بدينٍ أسمى من النيّرات
هذّبتَ العقولَ للواحدِ الفرْ دِ وحررتها من النزعات
وأنرتَ القلوبَ بالمشعل الحا لِ بنور الإيمان والإخبات
ورسمتَ الطريقَ في القفر للجنةِ للسالكين عبرَ الحياة !
أين أين الطريقُ ؟ مالي أرى الأكوانَ غشّتْ سماءه بالظلمات ؟
أين أين الطريق في ساحة الأهوال بين الآمال والرغبات ؟
عالمٌ ضلَّ نهجه وتردّى في ظلام الآثام والنزوات !
أرأيتَ الرؤوس والقممَ الشمَّ تهاوت لأوضع الدركات ؟!
أرأيتَ الوهادَ في موطئ النعل تعالت لأرفع الدرجات ؟!
أرأيتَ الصخورَ منبجسات ؟ أرأيتَ الثلوجَ محترقات ؟
أرأيتَ الشموسَ في الظلمات ؟ أرأيتَ المياهَ في الجمرات ؟
عالمٌ هكذا يعيشُ ودنيا تجعلُ السيئات كالحسنات !!
الفرار الفرار للدين والديا نِ والصالحاتِ قبلَ الممات !
كلُّ ذي غايةٍ يسيرُ إليها وإلى الله غايةُ الغاياتِ

أحمد أحمد العجمي

الثقافة

العــدد ٦٧٧
١٧ من ديسمبر ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

فجـــــر التحرر

[إلى الشعب المصري الأبي ، الذي أبى إلا أن يعيش حراً مستقلا]

هـــذي الشعوب تثور كالبركان
فتدك صرح الظـــلم والطغيان
وتقوم معلنــــة على دخلائها
حرباً تقوض شـــامخ البنيان
وتسير نحو النور دون تلكؤ
وإلى حيـــاة العز دون توانِ
وتقيم من أشـــلائها ودمائها
للمجـــد صرحاً ثابت الأركان
إن الذي تبني الشعوب بعزمها
أبداً يظـــل على مدى الأزمان

* * *

فجر التـــحرر أشرقت أنواره
فغـــدا الضياء يعم كل مكانِ
وانجاب ليـــل الظلم بعد تطاولٍ
ومشت فلول الشر للخـــذلان
وتقـــدم الأحرار لا يثنيهمو
موت وتعذيب ، إلى الميدان
هيهات ما وضع الطغاة بصـــدهم
في الدرب من شوكٍ ومن نيران
أو أن يلوذوا منقـــا لاذ الأُلى
بالصبر طول العمر والســـلوان
بذلوا النفوس رخيصـــة وتسلحوا
بالعـــزم مدرعاً والإيمان
وتكاتفوا عنـــد الجهاد كبعضهم
أبداً يشـــد البعض كالبنيان

* * *

يا مصرُ إن طال الرقاد وأوغلت
بالأمس فيـــك يد الأثيم الجاني
وأقيم حكم للدخيـــل وسُخر الـ
إنسان ظلماً فيـــه للإنسان
وعلت يدٌ للأجنبي وما درت
أن سوف تعـــلو للشعوب يدان
وتجـــزأ الوادي فقامت دولتا
نِ بمصر واحدة وفي الســودان
وتحكم المســـتعمرون وسخروا
لهمو شـــعوب الشرق كالعبدان
فاليوم والشرق الهيض جناحـــه
يأبى الحيـــاة بذلةٍ وهوان
بدأت به تسري الحياة فقام مُنـ
تفضاً على الدخلاء كالبركان
ومضى يحرر أرضـــه ودياره
مما بها للغرب من سلطان

* * *

بوركتِ يا مصر الأبيـــة بالذي
حققت من نصرٍ على العدوان
أثبتِّ أن الجور لن يقوى على
شعبٍ أبيٍّ مؤمنٍ متفانِ
شعبٍ يُضحي بالحيـــاة رخيصة
كيما يدافع عن حمى الأوطان
وبدأتِ عهداً يفخر الوادي به
بين الشعوب ويشـــمخ الهرمان

(القادسية — العراق) عبد الكريم محمد عطار

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٧٧ الاثنين ١٨ من ربيع الأول سنة ١٣٧١ — ١٧ من ديسمبر سنة ١٩٥١ السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

مقومات الحيـــــاة

للدكتور زكي نجيب محمود

كان برنارد شو في زيارة جار له عندما جاءه نبأ اغتيال غاندي ، فقال — وقد تأثر قلبياً — « لقد قلتها مراراً ، إن الرجل الطيب دائماً في خطر » .

وأذكر أني لما قرأت ذلك في حينه ، جعلت أفكر لنفسي : من ذا يكون الرجل الطيب الذي تجيء طيبته خطراً عليه ؟ وأذكر كذلك أني لم أجد سبيل الجواب عن هـذا السؤال مُيسَّرا ، لأني كلما قلّبت في رأسي هـذه الصفة أو تلك ، مما عساه أن يحدد لي معنى هذه « الطيبة » المشئومة الخطرة على صاحبها ، وجدتها هي بذاتها صفة مطلوبة محمودة ، ويستحيل — من الوجهة البيولوجية على الأقل — أن تُطلب الصفات التي تؤدي بأصحابها إلى التهلكة .

لكنه ما من شك في أن هنالك نوعاً من « الضعف » ينعتونه في لغة الحديث الجارية « بالطيبة » — ولغة الحديث في هـذا مؤدية للمعنى المراد أبلغ الأداء ، حين يصف لك الناسُ هـذا الشخص أو ذاك بأنه « رجل طيب » في نغمة صوتية خاصة ، تبين لك على الفور بأن المقصود هنا ، هو أن بالشخص الموصوف سذاجة أو بلاهة أو سرعة تصديق ، تجعله في خطر من الناس ، وتجعل الناس في مأمن منه ... لكن غاندي « الطيب » لم يكن هذا الساذج الأبله ، فأين يكون العنصر المشترك بين الطيبة هنا والطيبة هناك ؟

للهنود في ذلك قصة لطيفة ربما أنارت أمامنا بعض الطريق ؛ فهم يحكون أن ثعباناً راح ينفث سمومه في الناس هنا وهناك بلا حساب ، فيلدغ من يستحق ومن لا يستحق بغير تمييز ، حتى كانت ساعة تحرك فيها ضميره ، فندم على هذا الشر كله الذي يصيب به الناس أخياراً وأشراراً ، وصمم على التوبة ، فقصد من فوره إلى راهب متعبد يستفتيه نوعَ الحياة التي يحياها ليرضى عنه الله والناس ، فأفتاه الراهب بأن يعيش كما يعيش هو ، أعني أن ينتبذ من وجه الأرض مكاناً معزولاً ، فيكتفي بالقوت اليسير ، بعيداً عن الحياة ومغرياتها ؛ فعاد الثعبان يبحث لنفسه عن ركن مهجور ، ووجد بغيته في منطقة خلاء من العمران ، وهنالك تحوّى هادئ البال راضي النفس ؛ لكن ذلك لم يدم له طويلاً ، إذ جاءت جماعة من الصبيان تلهو ، وأبصر أحدهم بالثعبان متكوّماً في ركن الخرابة ، فصاح صيحة الدهش وجرى وتبعه الباقون ؛ ثم عادوا

فى اليوم التالى ليجدوا الثعبان على حاله هناك ، فأمسك صبى بحجر من بعيد وألقاه وجرى وتبعه بقية الإخوان ، وعادوا فى اليوم الثالث ليجدوا الثعبان على استكانته ، فألقوا عليه بدل الحجر حجرين ، وأخذت القذائف تكثر فى كل يوم عن سابقه ، حتى هان أمر الثعبان فى أعينهم ، واقتربوا منه فى غير خوف ، وراحوا يمطرونه وابلا من حجارة كل يوم ، فكادوا يرجمونه رجماً يمزقه ويقضى عليه .

فلم يسع الثعبان إلا أن يعود إلى الراهب يستفتيه فى هذا الموقف الجديد ، فها هو ذا قد تاب وأناب ، وانزوى عن الناس واعتكف ، لكن شرار الناس لم يتركوه ، واعتدوا عليه بما لم يعد به احتمال عليه ، فماذا عساه صانع حتى لا يُغضب الله والناس ؟ فقال له الراهب : إنى لم أقصد حين أرشدتك إلى طريق الهدى ، أن تتلقى الاعتداء بغير عدوان يجيئك آناً بعد آن ، فلا بدّ لك فى الأسبوع مرة من نفثة تنفثها فى الهواء ، ليعلم هؤلاء الصبيان الأشرار أنك تستطيع — إن أردت — أن تجيبهم إيذاء بإيذاء .

أقول إن هذه القصة الهندية تنير أمامنا بعض الطريق فى التفرقة بين « طيبة » و « طيبة » — بين الطيبة التى تُرضى الله والناس فى غير ضعف ولا خطر ، والطيبة التى تستعدى على صاحبها عوامل الضر والأذى ؛ فالطيب من الصنف الأول هو من لا يعتدى بادئاً بالاعتداء ، لكنه لا يسكت عن رد اعتداء وقع عليه ؛ والطيب من الصنف الثانى هو من لا يعتدى ، ثم يسكت عن رد الاعتداء — وإذاً فلغة الحديث الجارية على صواب ، حين تنعت الناس بالطيبة فى نغمتين مختلفتين : نغمة تدل على أن الشخص الموصوف على خلق قويم ، لكنه فى الوقت نفسه ذو لحم مُرّ لا يسهل أكله التهاماً ، ونغمة أخرى تدل على أنه إلى جانب استقامة أخلاقه يمكن أن يكون نهباً للطامعين .

إنى لا أحسن دراسة طبائع الحيوان ، فلعلى لا أكون بعيداً عن الصواب إذا زعمت أن الليث والذئب والحمَل تمثل ثلاثة ضروب مختلفة من الطبائع فى ميدان العدوان وردّه ، فالليث — فيما أعلم — يردّ الاعتداء إذا وقع لكنه لا يبادئ به ، والذئب يصنع الصنيعين معاً ، فيبدأ بالعدوان وردّه ، والحمل لا يفعل هذا ولا ذاك ، فلا اعتداء ولا رد اعتداء ، ومن ثمّ وداعته التى ذهبت بذكرها الأمثال ؛ فإن كان لنا أن نختار من هذه الطبائع الثلاثة واحداً ، فهو طبع الليث ، لأن الذئب شر والحمل ضعف ؛ ففى الليث « طيبة » بالمعنى القوى — إن صح هذا التعبير — وفى الحمل « طيبة » بالمعنى الضعيف ، وأما الذئب فكله خبيث .

وأساس القوة فى الطيبة القوية ، هو أن مقومات الحياة الصحيحة تتوافر فيها ؛ وأول هذه المقومات للحياة ، بل تعريف الحياة وتحديد معناها — فى رأى هربرت سبنسر — هو استمرار الموائمة بين ما يحدث فى باطن الكائن الحى وما يحدث فى محيطه الخارجى ؛ الحياة — فى صميم معناها — هى أن يستجيب الكائن الحى لما يقع حوله ، والموت هو أن تقف هذه الاستجابة للمؤثرات الآتية من خارج ؛ الكائن الحى يردّ على المنبهات المحيطة به ردوداً ملائمة ليوفق بين داخله وخارجه . والجسم الميت تأتيه المنبهات فلا ينتبه ولا يجيب .

الفرق بين الفاعلية والقابلية هو نفسه الفرق بين الحياة والموت ، الحى فاعل والميت قابل ؛ الحى يتلقى عوامل الجو — مثلا — من حرارة وبرودة ، فيتخذ منها موقفاً ملائماً ، وأما قطعة الحجر الملقاة فى الفلاة ، فتتلقى هى كذلك عوامل الجو نفسها من حرارة وبرودة ، فتفعل فيها تلك العوامل فعلها من تفتيت وتحليل وتهديم وبعثرة ، وهى إزاء هذا كله قابلة وكفى ، لا حيلة لها ولا سبيل .

والحياة — بهذا المعنى — تكون درجات يتفاوت بها الأحياء ، فليس كل ما هنالك من فرق هو أن يكون هذا حياً وذلك ميتاً ، بل هنالك فروق فسيحة بين الأحياء أنفسهم فى نصيبهم من الحياة ، لأن هنالك فروقاً فسيحة بينهم فى القدرة على إجابة المنبهات الخارجية بما يلائمها ؛ وهاهنا أيضاً نرى فى لغة الحديث الجارية بلاغة فى الأداء ، حين تصف شخصاً بأنه « ملىء بالحياة » ؛ إذ أكواب الأحياء تتفاوت — كما رأينا — فى مقدار ما بها من الحرارة الحيوية ؛ فكوب ملىء إلى حافته ، وكوب فيه الحرارة إلى نصفه

أو ربعه . وثالث فارغ ، يعدُّ صاحبه بين الأحياء بهتاناً وزوراً ، حين يجيء أوان التعداد وإحصاء السكان .

بين اليقظة الواعية في طرف ، والموت البارد في طرف آخر ، هنالك حالات متدرجة من الغيبوبة والنعاس ، التي إن أدركت فيها الحواس شيئاً مما حولها ، فأخلاط مهوشة لا تعي شيئاً من حركة الجسم ونشاط الأعضاء ! وسيأخذك العجب حين أزعم لك أن قلة ضئيلة من الناس هي اليقظانة الواعية . وأما الكثرة الغالبة منهم ففي غيبوبة ونعاس ، في وجوههم أعين مفتوحة ، لكنها تنظر ولا ترى .

والأمم في هذا كله كالأفراد سواء بسواء ، فما الأمة إلا مجموعة أفرادها ، وقد تشيع في هؤلاء الأفراد يقظة للعالم من حولهم ، فتكون أمتهم بذلك أمة حية ، أو قد تشيع فيهم حالة الغيبوبة فتكون أمتهم بذلك نعسانة غافلة ! وفي إغفاء الأمة النعسانة معنى النهوض ! فإذا قلنا إن أوربا قد « نهضت » في القرن السابع عشر ، حين تنبه فيها نفر من أبنائها إلى عالم الأرض والسماء ، كان معنى ذلك اعترافاً منا بغيبوبة سابقة ، شاعت في أبنائها ، فأغمضت أعينهم وأصمّت آذانهم عن مشاهد الدنيا وأصواتها ! وإذا قلنا إن مصر قد بدأت « نهضتها » في أول القرن التاسع عشر ، كان المراد بذلك أنها ظلت غافلة عن أحداث العالم الخارجي حتى ذلك الحين ، ثم جاءها من أيقظها ففتح عينها ! وإني لأذكر أستاذنا الجليل « . . . » وهو يحاضرنا أيام الطلب في الحملة الفرنسية على مصر ، بجده المتزن وفكاهته البارعة ، كيف أخذ يرسم لنا صورة حية للمصريين عندئذ ، وهم في نعاسهم غارقون ، حتى إذا ما جاءهم « نلسن » بأسطوله باحثاً عن نابليون — لأن نابليون وهو في طريقه إلى مصر ، قد أخفى عن العالم هدفه المقصود — فسألهم : ألم يمرّ ببلادكم نابليون بمراكبه ؟ فقال له من أجابه : أي نابليون وأية مراكب ؟ إننا لا ندري من أمر ذلك شيئاً ، نحن بلاد تتبع السلطان . . . إلى آخر الصورة الفكهة البديعة التي رسمها لنا أستاذنا عندئذ . ولم يطل بهؤلاء الراقدين الغافلين زمن الانتظار ، حتى جاءتهم الحملة النابليونية توقظهم ، فعلموا عندئذ أن أوربا قد قامت بالثورة الفرنسية على قدم وساق ! واتصلت مصر بذلك العالم الصاخب منذ ذلك الحين ، فقيل — والقول مغزاه — إن مصر قد « نهضت » فاستيقظت من نعاسها ! وهي ما تزال ماضية في هذا النهوض المبارك ، حتى تستكمل يقظتها ووعيها ، فتكمل لها بذلك مقومات الحياة .

إن هذه الأحداث الدامية التي تقع في أرضنا اليوم هي من علائم البشرى ، لأننا قد أخذنا نرد على المؤثرات من حولنا بما يلائمها ، فحياتنا القوية المليئة مرهونة بقدرتنا على الاستجابة السريعة للمؤثرات الخارجية ، استجابة نؤقلم بها أنفسنا على نحو يوفق بيننا وبين العالم المحيط بنا بكل ما فيه من خير وشر ! إنه لا يجدينا شيئاً أن نكمش في قواقعنا الفكرية والسلوكية ، ظناً منا بأن تلك القواقع قمينة أن تصون لنا شخصية مستقلة متميزة قائمة بذاتها ! فلنفتح النوافذ والأبواب على مصاريعها للهواء ، بل للزوابع والعواصف ، حتى تتعادل درجة الحرارة داخل الدار معها في الخارج ! ولا يكفي أن نتلقى ونحن في قابلية الحجر الأصم ، بل لا بد أن نردّ على العوامل الآتية في فاعلية تثبت وجودنا وتؤكد للعالم أننا جزء من جسمه متنبه حساس .

زكي نجيب محمود

ألوان من التفكير

للأستاذ حسن جلال بك

سمعتهم يتجادلون فى أمر مساواة المرأة بالرجل — وكان فيهم رجل الدين الذى يميل إلى المحاجة بالقرآن ، ورجل الاجتماع الذى يستمد حجته من التاريخ والمجتمعات ، كما كان فيهم من يجادل معهم بغير علم ولا هدى .. وبقيت بينهم حيناً أسمع وأرى ... وأسجل !.

* *

قال رجل الدين :

إن أولئك الذين يثيرون منا هـذه الموضوعات إنما يسايرون فى هـذا العالم تطوراً طبيعياً فى نظم المجتمعات المتحضرة — ذلك التطور الذى يريدون أن يكون لهم من نتيجته نصيب . ومصر من قديم الزمان ديار حضارة وسوق فلسفة ومعرض زينة ، فلا عجب أن تميل رءوس المصلحين فيها والمصلحات بخيلاء التحضر ونظرياته . وأن تجرى على الورق أقلام الكتاب والكاتبات بهذه النظريات السائدة فى حياة المتحضرين — وقد يكون ذلك كله مفهوماً على أساس أنه بحث فلسفى نظرى يستحق الجدل — ولكن لا ريب أنه من النفاق المرذول والتكلف البغيض إقحام كلمة « الإسلام » فى هـذه الجلبة حول « تحرير المرأة » — كما يقولون — أو « تأمير المرأة » — كما هو الواقع — رغبة من هؤلاء المتظاهرين للمرأة فى أن يجعلوا لحكمها وسلطانها سنداً من الدين عند العامة ، وشبهة من الحق عند المتربصين .

فالقرآن الكريم برىء فى سننه وأحكامه من موضوع يسمى « المساواة » بين الرجل والمرأة — لأن هـذا الموضوع الوهمى ليس إلا بدعة مختلقة فى ذهنية المتحضرين المضطربة ، وقد يصاب بعض الناس بما يسمونه « عمى الألوان » ، ولكن الأكثرية الساحقة من المتحضرين وخاصة بين أدعياء الإصلاح — مصابة بما يسمى « عمى الاتجاهات » — إذ ما هى العلاقة بين الإسلام الذى حدد الصلة واضحة بين الرجال والنساء ، وجعل الولاية والوصاية للرجل على المرأة فى كل الشئون ، وبين هذه « الامتيازات » التى يراد تسجيلها اليوم للمرأة فى القانون من تسوية فى المجتمع وفى الإرث وفى شئون الزواج والطلاق ...؟!

* *

وكأنما اهتزت أريحية صاحبنا الذى يزعم العلم بالتواريخ واستخفه الطرب لهذا الكلام الجميل ، فعقب عليه مؤيداً بقوله :

— إن المجتمع المريض كالفرد المريض إذا زاغ شىء منه عن مجرى النواميس الطبيعية والقواعد الصحية ظهر الخلل فى جوانبه وشاع الاضطراب فى نواحيه . والقانون الطبيعى الأزلى أن للرجل على المرأة الكلمة العليا فى كل شىء — ولكن هذه الكلمة لا تعلو إلا بحقها ... فيكون الرجل رجلا حقيقياً فى ظاهره وفى باطنه مبيناً فى كل أمره ، يرخص من نفسه وماله عن المروءة والرجولة والشجاعة ، ويمضى فى حياته مضاء الشهب إلى غاية معلومة وطريقة واضحة مقتدياً بآبائه الصالحين متأبياً على هوان الجبنين . فهذا هو الرجل الحق الذى جبلت المرأة لتشرح صدرها ، وتخفض جناحها له . تهتز بشراء اهتزاز الأرض للغيث ، مستظلة دهرها بظله ، ناعمة فى عدله ، فخوراً بقوله وفعله أياً كان هـذا الرجل أباً أو ابناً ، وأخاً أو بعلاً ...

فإذا ما لحقت الشيخوخة والخور طبيعة هـذا الرجل أو أدركها الموت فى مجتمع كهذا المجتمع المتعفن (يقصـد مجتمعنا هذا الذى نعيش فيه) أصبحنا لا نرى إلا هذا النوع من الرجال المتهالكين المتهافتين ما بين ذليل صاغر أو لص فاجر — أو وضيع متجبر ، أو غوى داعر ، لا هم للواحد منهم إلا العمل على تغطية القصور البادى فى رجولته باسترضاء المرأة والتخاذل أمامها والترويج لها — وإن المرأة نفسها لا تقف مكتوفة الأيدى أمام هذا النوع من الرجال ، إذ كيف ترى نفسها مزدهرة قد آتتها الأرض زينتها ثم تستطيع هى أن تصبر على مثل هؤلاء الخائرين المتهدمين يسودونها أو يقودونها — إن عذر المرأة فى نشوزها على مثل هذا الرجل عذر مقبول وثورتها عليه وميراثها لسلطانه نتيجة حتمية ..

إن هذه الثورة النسوية الحالية هى الدلالة الحاسمة على التصدع الخطير الذى أصاب المجتمع فى أقوى ركن من أركانه ، وإن من أقوى العلامات على حصول هذا الاختلال هو ما نراه اليوم من قيام المرأة بجمع شملها وتكتلها فى وجه الرجل لتصيح به أن يخلى مكانه لها ...

ولكن المرأة التي لا تزال طبيعتها القديمة تشعرها بسلطة الرجل تستحي اليوم أن تقول له في صراحتها : « خل مكانك لي وازل عن حقوقك ! » — ولكنها تحوّر صيحتها بما يناسب طبيعتها فتصرخ في وجهه قائلة : « إني مساوية لك لأعيش معك ! » .

* *

فأخذ رجل الدين سمة الإنسان العليم ببواطن الأمور وقال :

— قد يحسب بعض الناس أن هذه « الاتحادات النسوية » بدعة مستحدثة ، والواقع أنها قديمة . فقد نشأت في هذه البلاد ، وفي بلاد الحضارة كلها الجمعيات والاتحادات النسوية لمثل هذه العلة — وهي (تداعي الرجل وسقوطه) — فلا وجه للغرابة إذاً في قيام هذه الجمعيات والاتحادات التي نراها الآن تعمل دائبة على شرح نظرياتها وتدعيم سلطانها .

وفي قصص القرآن نطالع قصة يوسف الذي أدخلته امرأة العزيز على اتحادها النسوي لتعرض على أفراده من النساء أعظم مفاجأة لها ولهن . فإنها اكتشفت « الرجل » — أول « رجل » استحق عندها وعندهن هذا الاسم — « فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » .

إنهن لم يكنّ رأين قبله « رجلا » يفرض نفسه عليهن ويؤثر بشخصيته وعزمه في نفوسهن . وإلا فأين كان « الرجال » عندما قضى ذلك الاتحاد النسوي على يوسف بالسجن ، لأنه أبى لمروءته ورجولته أن يخر ذليلا على خطيئة امرأة ... لقد كان الرجال كعهدنا بهم اليوم في نعيمهم يرفلون . وفي لهوهم يلعبون . وفي حمأة ضعفهم وخورهم يتمرغون . وما أبلغ حسرة المرأة التي لم تر من قبل رجلا فلما رأته قالت : « ما هذا بشرا » — ذلك لأن الرجل الذي عرفته وألفته كان غير هذا الطراز الجديد الحق من الرجال . إن رجلها كان ماثلا أمامها دائما في صورة شوهاء ، أخرجته لها الحضارة وفي عنقه مقود اعتادت أن تسحبه به ...

* *

وكان بين الحاضرين شاب لا يزال أخضر العود ، فاعتدل في مجلسه ورفع أنامله إلى ربطة عنقه كأنه يحاول إصلاحها ، ثم قال معترضا :

— ولكن يوسف كان شاباً جميلا — وكان جماله سبب تعلق امرأة فرعون به !

فأجابه رجل الدين في حدة :

— إن جمال يوسف لم يكن ذلك الحسن الجسدي الذي اعتاد العامة أن يفهموه به . فإن يوسف البدوي ابن يعقوب لم يكن جميلا جمال الغلمان والمماليك من صبية الروم والأعاجم ، بل كان جماله جمالا في شخصية كاملة متزنة قوية — وهو إلى سماحة وجهه كان ثابت الأركان ساحي القلب عالي النفس — لقد كان وريث نبوة وحمال أمانة وتبيع كتاب وعابد إله واحد لا يبتغي غير وجه الله في كل ما يعمل ولا يخشى سواه — وقد أسبغ الله عليه وعلى أمثاله من نعمة الفتوة وأثواب العافية ورواء الصحة وهيبة المروءة ما يجعل المرأة تقف حياله في مكانها الطبيعي منه . وتبلغ المدى في التعبير عن شعورها حين تعرض عليه ما قد تعرضه النساء قرباناً لسلطانه وانصياعاً لرجولته ...

* *

قال شيخ من الحاضرين :

— إن الحجة الحقيقية في موضوع المرأة هو « الرجل » وغياب هذه الحجة وانهيارها في صور رجال الحضارة المهمشين الخاليين لا سبيل معه إلى معالجة الموضوع بالجدل . فالمرأة في دعوتها الحاضرة لا عتب عليها ولا ملام ، لأنها لا تفعل شيئاً أكثر من أن تتبوأ مقعداً وجدته خاليا — ولقد كان بينها وبين الرجل حبل اعتاد هو أن يجذبها به ، فلما أرخاه لم يعد لها مندوحة من أن تتولى هي جذبه وشده .

* *

قال بعض الحاضرين لسيدنا رجل الدين :

— نحن نريد ثبتا من آيات القرآن نرجع إليه في دعم هذه الحجج التي تسوقونها في هذه القضية حتى لا يكون الكلام مرسلا بغير دليل ديني نستند إليه .

فقال رجل الدين :

— اجعلوا لنا جلسة قريبة وأنا آتيكم بهذا الثبت اليقين فإن البديهة قد لا تسعف المرتجل ، وإنما تأتي الإحاطة بعد التدبر وإعمال الفكر .

* *

واشترط عقدنا على أن تكون لنا جلسة أخرى نستمع فيها إلى ما جاء في هذا الموضوع من آيات الكتاب — فلينتظر معنا من لا يقتنع إلا عن طريقه . ومن لا يرى الحجة البالغة إلا في آياته .

محسن جمول

المناقشات البيزنطية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

سألني سائل عما يراد بالضبط بقولهم « مناقشات بيزنطية » ومن الأصل التاريخي لهذه العبارة التي توالت عليها القرون ومازالت تحتفظ بمعناها ومغزاها المحزن ، فقلت لسائلي : إن المناقشات البيزنطية لاتعني فقط المناقشات العقيمة التي لاتجدي ، بل هي تعني في نفس الوقت المناقشات الخطيرة التي قد تفضي إلى الكوارث والمحن .

وأما الأصل التاريخي لهذه العبارة ، فهو مستمد من صفتها البيزنطية ، وهو يتعلق بتاريخ الدولة البيزنطية وسقوط قسطنطينية في يد الترك العثمانيين في سنة ١٤٥٣م. ففي خلال فترات ومواطن عديدة من التاريخ البيزنطي ، كان الجدل الديني يضطرم بين أنصار الكنيسة البيزنطية (الكنيسة الشرقية) والكنيسة الرومانية ، أحياناً حول عبادة الصور والأيقونات المقدسة ، وأحياناً حول الاتحاد بين الكنيستين ، وإعلان ولاء الكنيسة الشرقية لرومة ، وكانت هذه المناقشات والخصومات الدينية تفضي أحياناً إلى متاعب كثيرة وأحياناً إلى ثورات وانقلابات خطيرة ، بيد أنها اتخذت أدق وأخطر مظاهرها أثناء حصار الترك العثمانيين لقسطنطينية في شهري إبريل ومايو سنة ١٤٥٣ .

ففي هذه اللحظة الدقيقة الحاسمة من تاريخ الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية ، كانت عاصمة الدولة الرومانية الشرقية بالرغم من تعرضها الواضح لخطر السقوط في يد الغزاة تموج داخل أسوارها المنيعة بفتنة دينية مستعرة ! وكان الشعب « البيزنطي » بالرغم مما يبديه في الدفاع عن حاضرته من البطولة والتفاني ، وبالرغم من تصميمه على الدفاع عنها إلى آخر لحظة ، ينساق كل يوم إلى هذه المناقشات القديمة الخطرة ، ولا يثنيه عنها قصف المدافع التركية خارج الأسوار ، وكان الإمبراطور قسطنطين باليولوجوس — الذي كتب القدر أن يكون آخر القياصرة — قد فكر حينما شعر بالخطر الداهم على حاضرته في تجديد الاتحاد القديم مع الكنيسة الرومانية اكتساباً لعطف البابوية والكثلكة واقتناصاً لمؤازرة الأمم الغربية ، التي طالما وجه القياصرة إليها الصريخ كلما دهمتهم فورة الخطر الإسلامي ؛ فأرسل إلى البابا يعلن إليه خضوع الكنيسة الشرقية ، ويطلب إليه أن يبعث بمندوب من قبله ، فأجيب إلى طلبه ، وفي يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٤٥٢ ، أعني قبيل وقوع الحصار التركي بنحو أربعة أشهر ، أقيم في كنيسة أياصوفيا الشهيرة قداس مشترك من الطائفتين ، كرست فيه الوحدة المنشودة ، ولكن هذا الاتحاد كان أمراً ظاهرياً فقط ، وبدلا من أن يعاون في جمع الكلمة وتهدئة الخواطر ، كان بالعكس عاملاً في إذكاء الفتنة ، وكان معظم الشعب ساخطاً على الإمبراطور لاعتناقه الدعوة والطقوس اللاتينية ، وكان الجدل يضطرم وراء الأسوار المغلقة حول هذا الاتحاد الذي لم يقصد به في الواقع سوى استثارة عطف البابوية والأمم الغربية ، وفي كل يوم يتجدد الجدل والخصام بين الطائفتين . وكما انقسم الشعب بين مؤيد وساخط ، فكذلك انقسم الأحبار ، وانقسم البلاط واشتدت الفتنة ، وكان الغلاة من أولياء الكنيسة الشرقية يقولون إن الترك أفضل من اللاتين (أتباع رومة) ويقول المتداولون إن اللاتين أفضل من الترك لأنهم نصارى على الأقل ! وهكذا تفاقم الخلاف بين الطائفتين ، وتفرقت كلمة الشعب ، وهجر الناس الكنائس ، وغلب التعصب على الحكمة ! ولم يأبه الناس بخطر الغزو الداهم يحيط بمدينتهم ، وسيطرت هذه المحنة الكلامية على عقول المدافعين وراء الأسوار ، فزادت قوامهم المادية والمعنوية ضعفاً على ضعف ، واستمرت على اضطرامها حتى سقطت قسطنطينية في أيدي الغزاة العثمانيين .

تلك هي قصة المناقشات البيزنطية ، التي مازالت حتى يومنا مضرب الأمثال للجدل العقيم الذي يضطرم وقت الجد والخطر الداهم ولا ينتهي إلا في غمر المحنة ، تعصف بالمتجادلين وتسحقهم ؛ ومن بواعث الأسف أن يكون تاريخ الأمم الشرقية والإسلامية حافلا بمواطن الخصومات والخلافات التي تضطرم حولها « المناقشات البيزنطية » . ويقدم لنا تاريخ الأندلس ومحنتها الغامرة أسطع مثل لهذا

الأدب الضـــال

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

كثيراً ما التقطت أذناي ، وما لمحت عيناي أمثال هذه العبارات :ـ أجمل الشعر أكذبه .. ولكل شاعر شيطان يملى عليه الشعر إملاء ... والأديب الموهوب لا يعيش فى عالم الواقع ، ولكنه يطير على جناح الفكر إلى العالم الخيال . وكانت هذه العبارات وأمثالها تؤثر فى نفسى تأثير السحر فتحملنى على ازدراء الحقائق ، والإعجاب بالزيف ، والبهرج المبالغات والمفارقات وألاعيب الألفاظ والمعانى ، وغير ذلك من الأباطيل التى تضلل الذهن ، وتفسد الذوق ، وتعطل ميزة التقدير السليم .

وإذا كنت قد بليت أثناء دراستى للأدب العربى فى صباى بمن غرس فى نفسى بذور هذه الأراجيف التى أينع نبتها وأثمر ، فإنى لم أعدم بين أدباء الغرب ونقاده من تفنن من ضروب الباطل ماهو أشد إمعاناً فى الضلال . فلطالما قرأت للنقاد الغربيين أمثال هذه العبارات : .. ليس للأدب أو للفن غاية دنيوية ، فهما لا يعنيان إلا بالمطلق ، وتقاس قيمة العمل الأدبى أو الفنى بمقدار سموه عن أغراض الحياة واقترابه من المطلق ... ولا يجوز أن يصبح الأديب داعية لمذهب ما ، أو يشتمل أدبه على مغزى أخلاقى أو مرمى سياسى ، وإلا كان مصلحاً أو مهذباً أو سياسياً ، وشتان بين الأديب وهؤلاء .. وإذا هبط الأديب من سماواته إلى دنيا الواقع فقد حريته وهى جوهر أدبه !!...

قضيت حقبة من الزمن وأنا مأخوذ بهذه التعاليم الساحرة التى تداعب زهو الأديب وغروره ، إذ توهمه أن أدبه سما به عن مستوى الناس ، وميزه عن سوادهم ، ودهمتنى نوائب الدهر فاستصغرت شأنها ، ولم آبه لها مترفعاً شامخاً بأنفى ، ولم ألبث كذلك حتى ضعضعنى الغبن والخسران أنا السابح فى مراقى الملأ الأعلى .

ثم أفقت فجأة على صوت أمين الريحانى وهو يهيب بالشرق أن يهب من سباته ، وينزل من سبحات فكره إلى عالم الواقع . ودعا الشرقيين أن يبيعوا فلسفات الشرق وروحانياته بدبابات وطائرات ، ومصانع وآلات . وتعالت الصيحات إثر الصيحات تدعو إلى ما دعا أمين الريحانى إليه . وبلغ من إيمانى بصدق تلك الدعوات أن رفعت عقيرتى منادياً مع المنادين بتحويل المدارس الثانوية إلى مدارس صناعية ، والاهتمام بالإنتاج الصناعى على حساب الآداب والفنون

ولكنى لم ألبث أن أدركت مرة أخرى أنى لم أنج من خطأ إلا لأقع فى خطأ أفضح منه ، فما كان الأدب والفن والفلسفة بالهنات التى يستغنى عنها ، أو يمكن الاستغناء

الفناء الوبيل الذى أودى بكثير من الدول الإسلامية وهى فى ذروة قوتها . ومن يستعرض بالأخص تاريخ دول الطوائف الأندلسية ، ثم تاريخ مملكة غرناطة آخر الدول الإسلامية فى أسبانيا ، يرى كيف كانت « المناقشات البزنطية » أو بعبارة أخرى كيف كانت « المناقشات الأندلسية » وقت الخطر الداهم ، أعظم عضد لأسبانيا النصرانية فى تغلبها تباعاً على الإمارات والقواعد الأندلسية ، وكيف أن هذه الخلافات الأندلسية لم تنته إلا بإنتهاء دولة الإسلام فى أسبانيا .

ثم ألا يدل حاضرنا على أن « المناقشات البزنطية » مازالت تعصف بوحدة الأمم الشرقية والإسلامية ، وأنها مازالت فى مصر بنوع خاص ، من أبرز خواص حياتنا العامة ؟ إن هذه الظاهرة المحزنة مازالت جرحاً لا يندمل فى كياننا ، ومازالت الثغرة الخطيرة التى ينفذ منها الغرب المستعمر إلى صفوفنا ، فيصرعها تباعاً ، ويصل إلى غاياته المدمرة بفضل هذا الشقاق الأبدى .

كم فى التاريخ ، وكم فى تاريخنا من عبر ، تتكرر على مر الأيام ، فلا نذكرها ولا نعتبر بها ، أفلا تكون هذه الساعات الحرجة الناسفة فى مصايرنا مذكرة لنا بعبر الماضى ومواعظه ، فنذكر قصة المناقشات البزنطية ، وقصة المناقشات الأندلسية الوبيلة مرة أخرى فنحذرها ، ونحاول اجتنابها ما استطعنا ، ونرسم بذلك لمستقبلنا ومصيرنا تاريخاً مشرقاً مجيداً ؟

محمد عبد الله عنان

عنها ، فهى من لوازم كل مجتمع ، وهى تتأثر بدرجة رقيه الحضارى ، ثم تعود وتؤثر فيه فتحفزه إلى الأمام . ومن ثم أخذت الحقيقة تتجلى أمامى فى غير لبس ، فالآداب والفنون تعبر عن مجتمعاتها ، أو تعبر ، فيما إذا تحرينا الدقة ، عن الطبقة التى ينتمى إليها الأديب أو الفنان ؛ ولما كان كل مجتمع فى تطور مستمر ، وواقع تحت تأثير قوتين متناقضتين تتجاذبانه ، إحداهما تحاول أن تعوق تقدمه ، والأخرى تدفع به إلى الأمام ، كانت الآداب والفنون التى تعبر عن القوة الأولى رجعية ضارة ، أما التى تعبر عن الثانية فنافعة ، بل حيوية للمجتمع المناضل فى سبيل التقدم .

ونحن إذا فحصنا آدابنا على ضوء ماتقدم نجد أنها رجعية تشدنا إلى الوراء ، فهى على نوعين ، نوع يحتذى أصحابه تراث العرب الأدبى ، ولاجدال فى أن تقليد الأدب القديم يعين على الاحتفاظ بالعقلية القديمة والروح القديم ، ونوع يحتذى أصحابه الأدب الغربى ، ومن الأسف أن احتذاءهم الأدب الغربى مقتصر على الرومانسية المتبقة التى استهوت المراهقين وغيرهم من شيوخنا الذين لم يزالوا على عهد المراهقة رغم ابيضاض لممهم ، وليس احتذاء رومانسية القرن التاسع عشر بأهون ضرراً من تقليد الأدب العربى القديم والاجترار بين شفتيه ، ذلك لأن الأدب الرومانسى الأوربى ضلل شعوب أوربا ردحاً من الزمن ، وعاقها عن التقدم ، والذى يرجع معنا إلى الظروف التى لابست ذلك الادب ووجهته وحددت له أهدافه يستطيع أن يتبين صحة مانقول .

قام الشعب الفرنسى بثورته المعروفة فى أواخر القرن الثامن عشر ليفوز هو وشعوب الأرض بالحرية والإخاء والمساواة ، وقد حاول زعماؤه ومثلوه أن يحتفظوا بزمام الحكم ، ولكن الأهواء التى لايكبح لها جماح حفزت ذوى القدرة من أفراد الطبقة المتوسطة للوثوب إلى كراسى الحكم ومراكز النفوذ ، وبدأت بذلك سيطرة الطبقة المتوسطة التى امتهنت الصناعة والتجارة ، ونجحت فى بناء الصرح الاقتصادى الأوربى ، فكبر شأنها ، وتضخم عديدها ، وعظم سلطانها ، وخرج فلاسفة أوربا وكتابها من صلب تلك الطبقة صاحبة السيادة ، فكان من الطبيعى أن يعبروا عن ميولها وأطماعها وأحلامها ...

احتاج التوسع الصناعى الأوربى إلى حشد الجزء الأكبر من شعوب أوربا فى المناجم والموانئ ، وبين جدران المصانع والمعامل ، واحتاج كذلك إلى مستعمرات تمده بالمواد الخام ، وتشترى إنتاجه بأفدح الأثمان ، وشعرت الطبقة المتوسطة التى تهيمن عليه أن بقاءها ، وازدياد ثروتها ونفوذها يتوقفان على بقاء الشعوب المستغلة والمستعمرة خاضعة لها ، راضية بحالها ، غافلة عن حقوقها ، صابرة على ماتعانيه وراء جدران المصانع والمعامل والمناجم وغيرها من ميادين الأعمال ؛ فهب الشعراء والكتاب ينظمون الشعر ، ويدبجون البحوث الفلسفية والأدبية ليعاونوا طبقتهم على بلوغ غاياتها ، وذلك بحث الشعوب على مواصلة الكد والجهد فى صبر وجلد وإنكار لذاتهم وإهمال لحقهم حتى تدوم الأوضاع التى تحفظ لتلك الطبقة نفوذها وجاهها وسيادتها ، وتفسح لها فى مجال الازدهار .

كان لابد من تبرير الحروب التى شنتها تلك الطبقة فى سبيل الاستعمار ، فنشط الشعراء والكتاب ، واسودت بيض الصحف والمجلات والكتب بآرائهم المنظومة والمنثورة التى تحيى جيوشهم الظافرة ، وتمجد بطولتها فى ميادين الشرف ، وتشيد بالعز الذى حققته لوطنها . وضاعت الحقيقة المرة فى تيار بلاغة البلغاء ، فلم تغفل شعوب أوربا الغانية الغبينة عن خسة تلك الحروب الاستعمارية فحسب ، ولكنها انخدعت فى الدعاية لها ، فحسبت انتصاراتها مفاخر وطنية . وهكذا حققت تلك الحروب العدوانية هدفين : أولهما فتح المستعمرات واستغلالها ، وثانيهما شغل الشعوب الكادحة المرهقة عن شقائها ، بإشباع نفوسها الكليمة الشقية بالزهو الباطل والفخر الزائف ...

وكان لابد كذلك من غرس نوعين من الصفات الناقصة فى الشعوب : أولهما الجد والصبر على الشدائد والجلد على العمل ، وثانيهما الزهد فيما تحققه من إنتاج ومن أرباح ، ولذلك راح شعراء أوربا وكتابها يؤلفون القصص والملاحم والقصائد التى تشيد بتلك الفضائل لتصل إلى الفرض المرموق ، واستطاعت أن تشغل البطون الخاوية ردحاً من الزمن بغذاء الأوهام والأحلام .

أما المهمة الكبرى التى اضطلع بها أدباء أوربا ومفكروها ووفقوا فيها إلى تحقيق أهداف طبقتهم ، فهى تقوية النزعة الفردية والأثرة بين الأفراد حتى لاتفطن الشعوب إلى قوتها الجارفة وهى متحدة متكتلة فتتحد وتتكتل . وقد بينا فى فصل سابق كنه الأدب الرومانسى ، أو أدب البرج العاجى ، وقلنا إنه يحمل القارئ على الانصراف

من الواقع ، والانشقاق عن المجموع ، والانطواء على ذاته ، فتظل الشعوب بذلك مفككة ضعيفة خاضعة لسيطرة المسيطرين عليها ... وبينا في فصل سابق أيضاً أن الفلسفة الميتافيزيقية سارت على درب الأدب في هذا المضمار ، إذ حاولت أن تنكر الواقع المادي تارة ، وأن تحقر من شأنه تارة أخرى ، فتصرف الناس عن الاهتمام به ، وتترك ميدانه نهباً للمنتهزين المستغلين ، وتشغل الأذهان بالأوهام التي ليس وراءها طائل . وقد قام من وراء شعراء أوربا وكتابها نقاد حاولوا أن يصونوا الأدب الرومانسي والفلسفة الميتافيزيقية من مهاجمة الكتاب الأحرار الذين يحاولون كشف سترها وتقويض أركانها ، فراحوا ينادون بالآراء الضالة التي ذكرنا طرفاً منها في صدر هذا المقال ؟ ولا يقال إن الأدب المعبر عن طبقة ما لا ينتشر إلا بين أفراد تلك الطبقة ؛ لأن الأدب البليغ يتجاوز نطاق القراء إلى سواد الناس يتداول الآراء والعقائد التي يبشر بها ؟ فإن كان رجعي الأهداف كان له أثره في إعاقة التقدم وعرقلته ، وإن عبر عن العقائد الجديدة المتطورة أعانها على الظهور والحلول محل العقائد البالية الناكصة على أعقابها . وقد استطاع أدب أوربا المنتشر اليوم بيننا أن يعين المستعمرين على بلوغ أهدافهم بإعاقة الشعوب من اليقظة وسلوك طريق التقدم ، ولذلك وجب على نقادنا أن يقفوا في سبيل انتشاره حتى لا نزداد غفلة فوق غفلة ، ورضا باستغلال المستعمرين فوق رضا .

ولسنا ننكر روعة القصائد الحارة والفصول الضافية التي تغنى فيها شعراء أوربا وكتابها بالحرية ، وأفاضوا في تمجيدها وتقديسها ، ولكن لا يجمل بنا أن ننسى أن الحرية التي أشادوا بها لم تكن إلا حرية طبقتهم الناهضة التي استطاعت أن تحطم قيودها ، وتفلت من براثن السادة الأشراف . وقد مسخوا معنى الحرية حين قصروها على لون واحد دون سائر ألوانها . فإنك لا تكاد تسمعهم اليوم يتحدثون إلا عن الحرية الفردية ، وحرية التجارة والملاحة . ولن يحتاج التأمل إلى كبير عناء ليدرك أن ذلك اللون من الحرية يمكن القوي من الضعيف ، ويبرر الاستغلال والاستعمار . إن الحرية التي يتحدثون عنها هي حرية الأقوياء في ممارسة سلطانهم الغاشم ، في حين أن الحرية الحقة هي التي تنشدها الشعوب من طريق القضاء على سلطان الأفراد الأقوياء المستبدين بها ...

وليس القصد من مهاجمتنا للأدب الرومانسي الغربي ، أو الفلسفة الرومانسية الغربية أننا نطالب بمحوها ، أو حتى بإغفال أمرها ، فإنهما كانا حلقة من حلقات التطور بعد الثورة الفرنسية ، وقد ساعدا حينذاك على دفع الركب الحضاري إلى الأمام . ولكنهما اليوم يعرقلان سبيل التقدم . ولا بد للأدباء والفلاسفة المصريين من دراستهما لاستفادة الخبرة والمعرفة ، فما من خطوة في ميدان الفكر إلا وهي لاحقة للخطوة السابقة عليها ، ومستمدة منها ولو كانت نقيضها . ولكن دراسة الماضي لا تكون إلا على سبيل الإفادة منه لا التقيد به ، والانكماش في حدوده ، ومسايرة تياره الرجعي .

ويسهل علينا أن نحدد الأدب الذي تحتاج إليه مصر في الوقت الحاضر بعد بيان الأخطار التي تنطوي عليها النزعة الأدبية الرومانسية المستوردة من الخارج . إن مصر في حاجة إلى الأدب الذي يثأر نهضتها ويحثها على سرعة التقدم . وهذا لا يكون إلا بتجريد القلم وحمله على مناهضة الفردية والأثرة والجري وراء النفع الرخيصة . ثم باستنهاض سواد الناس ، وتبصيرهم بحقوقهم ، وإشعارهم بقوة اتحادهم وتكتلهم ، وبأن تحقيق المصلحة العامة أجدى على الفرد نفسه من تحقيق مصلحته الشخصية ؟ ولسنا نطالب الكتاب أن ينخرطوا في سلك الوعاظ والمرشدين والمدنين ، فيلقوا على الناس دروساً ومواعظ ، ولكننا نقول إن الأديب الموهوب الذي لا يفوته شيء من الأحداث التي تدور حوله يستطيع أن يجد من بينها ما ينطوي على معان تؤيد ما أشرنا إليه ، وهو إذا سجلها في قصيدة أو قصة أو مقالة تسجيلاً فنياً صادقاً أتحف بلده بلون جديد من الأدب الحي هي في أشد الحاجة إليه ... إن الأديب الشاعر أو الكاتب لا ينقلب إلى واعظ أو مصلح ، كما يقول نقاد الغرب ، إلا إذا خلت كتابته من خصائص الفن أسلوباً ومعنى وروحاً ؟ فلا يعد أدباً ، بل لا يعد عبثاً ، ذلك النوع الشائع عندنا من الكتابة المنظومة أو المنثورة التي يضمنها كاتبها المعاني الدارجة المتداولة بين الناس في الطرقات ، ويحسب أن جودة أسلوبها وحسن سبكها كفيلان بزجها في عداد روائع الأدب .

إن الأديب هو الذي يستطيع أن يدرك الجديد الذي سيطرد القديم ليحل محله ، وحين يعبر عنه ، ويعينه على الظهور والغلبة ، يحسب الناس أن ذلك الأديب سابق لعصره .

محمد مفيد الشوباشي

الصراع بين الكتلة الغربية والكتلة الشرقية

هل هو صراع مبادئ وعقائد أو صراع مصالح ومطامع ؟

للأستاذ علي أدهم

يرى بعض المفكرين السياسيين أن الأساس النظرى السياسى الذى تقوم عليه حكومة الاتحاد السوفيتى هو « نظرية الدولة العضوية » والدولة بموجب هذه النظرية أجل شأناً من الفرد ، والأفراد ليسوا عندها أكثر من آلات ووسائل لتوطيد الدولة وإعلاء شأنها والمحافظة على كيانها ، وأعمال هؤلاء الأفراد وأخلاقهم ومواهبهم وملكاتهم لا تقاس إلا بهذا القياس . فحياة الأفراد وقف على خدمة الدولة ؛ وتذهب هذه النظرية إلى أن رعايا الدولة ليس عليهم أى التزامات أدبية لدولة أخرى من الدول ، والكثير من الأساليب السياسية التى تتبعها حكومة السوفيت تثبت صحة أخذها بهذه النظرية ، فهى تبدى استخفافاً ملحوظاً بحياة الأفراد ، وتظهر قسوة فى اقتضاء مطالب الدولة وصيانة مصالحها ؛ ويرى البحاثة السياسى المستر ولدون — فى كتابه عن الدولة والآداب — أنه ليس هناك فرق بين الأفكار النازية عن الدولة والأفكار الشيوعية ، فإذا وضعنا لفظة « روسيا » فوق الجميع بدلاً من لفظة « ألمانيا » وجدنا نفس الأفكار والأهداف .

ولكن الواقع أن الدولة فى ألمانيا النازية لم تكن غاية فى نفسها ، وإنما كانت الدولة وسيلة لتحقيق سيادة الشعب الألمانى ، وكانت النظرية الغالبة على التفكير الألمانى هى فكرة « الشعب السيد » وكان هتلر يعد نفسه قبل كل شىء زعيم الشعب الألمانى فى كل مكان ثم بعد ذلك رئيساً للحكومة الألمانية .

ولا نزاع فى أن هناك شبهاً بين الحكومة النازية والحكومة السوفيتية ، مثل الاكتفاء بالحزب الواحد وإقصاء الأحزاب الأخرى والقضاء عليها ، وفرض الرقابة الشديدة على الصحف والمطبوعات ، والاستعانة بالجواسيس وبث العيون والأرصاد والعناية البالغة بالدعوة والقيام بحركات التطهير من الحين إلى الحين . وهذا أمر طبيعى ، فإن هتلر نفسه كان يقتبس من روسيا السوفيتية ويقلدها ، ولكن هناك فرقاً جوهرياً فى نفس الغاية التى كانت ترمى الحكومة النازية إلى تحقيقها ؛ ففى ألمانيا كان الهدف المنشود هو توحيد الشعب الألمانى وتمكينه من السيطرة على العالم ؛ أما الحكومة السوفيتية فليس لها مثل هذا الهدف ، ولا نزاع فى أن الروسيين قد اضطروا فى أثناء الحرب الكبرى الثانية إلى أن يحركوا العاطفة القومية والنزعة الوطنية ليردوا غارة النازيين على بلادهم ؛ ولكن زعماء الشعب الروسى بوجه عام لم يلعب برؤوسهم هذا الهوس العجيب والغرور السخيف الذى كان يغرى الألمان بادعاء أنهم الشعب الذى خلق ليسود العالم ويستعلى على جميع الشعوب والأقوام ، والروسيون يشعرون بقوميتهم ، ولكنهم مع ذلك لا يدعون قصر المزايا والمحاسن على أنفسهم ، ولا يزعمون أنهم منبع الحضارة ومصدر الثقافة وقادة الرقى والاستنارة ، وهى الآراء التى طالما تعلق بها الألمان وحاولوا إثباتها بالشواهد التاريخية والأدلة العلمية .

وليست الدولة كذلك فى روسيا غاية فى نفسها ، فما هى غايتها إذاً ؟ ربما كان الجواب الواضح عن ذلك هو أن غاية الدولة فى روسيا هى توطيد النظام الشيوعى . ولنفرض أن هذا هو الجواب الصحيح ، فهل يهدد النظام الشيوعى السلام كما هددته نظرية التفوق الشعبى وطلب المجال الحيوى التى قال بها النازيون والفاشيون ؟ .

الواقع أن الشيوعية فى جوهرها نظرية اقتصادية ترمى إلى السيطرة على وسائل الإنتاج ، وهى بهذه الغاية ليست من النظريات التى تدعو إلى العدوان وإثارة الحروب الدولية ، على أنه يمكن أن يكون هناك أمران يجعلانها تميل إلى العدوان ، وهما أن تتخذ الدولة الشيوعية عقيدة دينية وتعدها رسالة من الرسالات المقدسة ، وتحاول إخضاع العالم لقبولها ، وفى هذه الحالة لا تكون الشيوعية هى المسئولة عن ذلك ، وإنما

المسئولية تقع على الدولة التي اتخذتها وسيلة للعدوان . والديانة المسيحية مثلاً ليست بطبيعتها نزاعة إلى إثارة الحروب ، بل هي على النقيض من ذلك ، فهي تدعو إلى السلام ، ولكن حينما تعمد دولة من الدول إلى نشرها بالقوة والإرهاب فهنالك تقع الحروب الصليبية . وفي الأيام الأولى من حياة الاتحاد السوفييتي كانت هناك علامات تنذر باتخاذ الشيوعية وسيلة لإثارة الحرب ونشر المذهب بالقوة والعدوان . والمعروف أن الخلاف الذي وقع بين تروتسكي واستالين كان سببه إصرار تروتسكي على أن تكون الشيوعية مقدمة لثورة عالمية . أما استالين فكان من القائلين بالاشتراكية في الدولة الواحدة . وقد قامت حركات التطهير لتأييد الأخذ بهذه الفكرة . ولكن إذا فرضنا أن استالين يهدف إلى الثورة العالمية بعد تثبيت أركان الشيوعية في روسيا فإنه في هذه الحالة لا يكون المبدأ الشيوعي هو المسئول عن ذلك ، وإنما المسئول عن ذلك السياسة التي آثر اتباعها حكام روسيا .

وهناك سبيل آخر قد يتخذه الشيوعيون لتسويغ الاعتداء ، وذلك أن من الأشياء التي تلجأ إليها بعض الحكومات للخلاص من متاعبها الداخلية وعجزها عن معالجة مشكلاتها تحويل التفات الرأي العام إلى الغزو الخارجي لتهدأ ثورته وتأمن غضبه ؛ وإذا كان الأمر كذلك في روسيا فإن حكومة السوفييت في هذه الحالة تتخذ الشيوعية وسيلة من الوسائل السياسية لبسط النفوذ ؛ وقد يظن الشيوعيون أن الشيوعية في دولة منفردة مهددة بالهجوم والاعتداء من الدول الرأسمالية المحيطة بها ، وفي هذه الحالة تعمل الحكومة الروسية على مساعدة الأحزاب الشيوعية في الخارج وإقامة حكومات موالية لها ، وتوسيع حدودها لتنجو من نفسها المخاوف وتتقي هجوم الأعداء ؛ وظواهر الأحوال تدل على أن الحكومة الروسية قد أقامت في بولندة ورومانيا حكومتين مواليتين لها وستعترض هاتان الدولتان طريق كل من يريد مهاجمة روسيا وتكونان بمثابة حدود أمامية لها .

ولكن هذا كله لا يدل على أن الفكرة الشيوعية تنطوي على العدوان وتتطلب التوسع وبسط النفوذ ، وإنما يدل على أن الحكومة الشيوعية تتخذها وسيلة لذلك التوسع أو ذلك العدوان أو طلب تأمين موقفها وحماية نفسها .

والعقيدة الدينية الغالبة على الكتلة الغربية هي الديانة المسيحية ، والفكرة السياسية السائدة في الغرب هي الفكرة الديمقراطية . فهل بين الشيوعية والمسيحية عداء مستحكم وخلاف شديد يستدعي نشوب الحرب وإراقة الدماء ؟ حقيقة أن الشيوعية الماركسية كانت في بادىء أمرها تناصب المسيحية العداء ، وكانت هناك أسباب تاريخية تستوجب ذلك في روسيا بوجه خاص . فقد كانت العلاقات وثيقة بين الحكومة القيصرية وبين الكنيسة ، وذلك لأن الكنيسة كانت تؤيد الحكومة التي تمثل المحافظة ومقاومة التجديد ، وكان لا بد للشيوعية في هذه الحالة من مقاومة الكنيسة وتقويض نفوذها . ولكن أهداف الشيوعية لا تنافي المسيحية ، فالسيطرة على المصانع وتوحيد الملكية والإشراف العام على الإنتاج والأخذ من كل إنسان حسب قدرته وإعطاء كل إنسان حسب حاجته ليس فيه شيء ضد المسيحية ، بل لعله أقرب إلى جوهرها . فمقاومة الشيوعية إذاً للمسيحية يُعَد في حكم الحوادث العرضية التي تنشأ من ملابسات الظروف لا من الأسباب الداخلية القومية .

وقد يقال إن الشيوعية عقيدة مادية محضة تتطلب الولاء التام والإيمان العاصف المستغرق الذي لا يقبل وجود أي عقيدة أخرى في طريقه . ولكننا إذا تدبرنا الأمر وجدنا أن الملابسات التاريخية كان لها أثر في ظهور الشيوعية بهذا المظهر ، فقد تأثر ماركس زعيم الشيوعية في تكوين مذهبه بفلسفة هيجل وأسلوبه الديالكتيكي في التفكير والمادية السائدة في عصره . ومن شأن العقائد الثورية في طليعة أمرها أن تتطلب الولاء التام المستغرق والإيمان الثائر العاصف ، ولما كانت الشيوعية تتطلب من أنصارها أن يكونوا شيوعيين قبل كل شيء ، وشيوعيين ليس غير . ولكن الشيوعيين قد تسلموا مقاليد الدولة وتسنموا مقاعد الحكم ، وبذلك أصبحوا في غير حاجة ماسة إلى مثل هذا التعصب الشديد الضيق ؛ وحينما يصبح إيمان الإنسان هو الأمر الواقع فليس من المعقول أن يظل الإنسان مسرفاً في التعصب له . ومن ثم تضعف ثورة الشيوعية كعقيدة دينية تستلزم إقصاء العقائد الأخرى وتقل حدتها وهذا هو ما حدث في روسيا .

والمسيحية التي تدين بها الكتلة الغربية في جوهرها ديانة مسالمة ، وعقيدة روحية خالصة . وحينما تنزل إلى المعترك

(البقية على الصفحة التالية)

أمراض الشتاء

[مهداة إلى الدكتور سعيد عبده]

— ٣ —

الدكتور مصطفى الديواني

أتذكر ياصديقي سعيد عندما تساجلنا منذ عامين على صفحات مجلة حبيبة إلى قلبينا ؟ أنت تقول إنها القرمزية وأنا أصمم على أنها الحصبة الألمانية ! وإني لأضحك من نفسي كلما تذكرت كيف كاد يودي هذا النقاش برباط الود بين صديقين عزيزين امتدت صداقتهما إلى ربع قرن منذ أيام التلمذة في مدرسة الطب ، فكم كنت آخذ من قلمك الشائق مثلاً يحتذى ، ومن حسن خلقك وكريم طبعك مثالاً لما يجب أن يتحلى به الزميل . حز في نفسي إذ ذاك أن يحاول الزمن خدش هذا الجو الصافي بيني وبينك . ولأجل ماذا ؟ كنت تقول إن الغالب في وباء ذلك العام كانت الحمى القرمزية ، وأنا أقول إنها الحصبة الألمانية . ولعنة الله على الاثنين ! .

ولا يمكن أن ينكر أحد أنه كانت هناك حالات حمى قرمزية لاشك فيها ، ولكنها كانت حالات فردية تلاشت بجانب وباء الحصبة الألمانية الذي اجتاح كل منزل تقريباً . ولم أكن إذ ذاك محايداً يرقب المعركة من خيمته السكائنة على التل البعيد ، بل كنت — حفظكم الله — في الميدان أخفف الآلام وأعالج الجراح . فأدركت بعد نظرة طويلة أن العدو الأكبر في المعركة كانت الحصبة الألمانية . أما القرمزية فلم تكن أكثر من حليف — بالنيابة وقف محايداً — لأنه لم يتطوع بأكثر من شرذمة من جنده أرسلهم على سبيل إظهار الشعور لا أكثر . فاختلط الأمر علينا جميعاً ، فمن قسم له أن يرى الميدان من زاوية واحدة حيث دقت القرمزية أسفينا ، خيل له أن هذه المعركة ملء السمع

السياسي والصراع العملي يهبط مستواها الروحي ! فالاستعانة بها على محاربة الشيوعية من الأمور التي تدعو إلى الشك وتثير التعجب ، وفضلاً عن ذلك فإن الكتلة الغربية لاتستطيع أن تجاهر باستصراخها المسيحية في محاربة الشيوعية في الوقت الذي تعمل فيه على ضم الأتراك وحكومات الشرق الأوسط للوقوف في صفها والانضواء تحت رايتها في محاربة الشيوعية ، فإن الدين الغالب على أكثر سكان هذه المنطقة هو الدين الإسلامي .

ولننظر الآن في العقيدة الديمقراطية : فهل بينها وبين النظام الشيوعي من الخلاف الشديد ما يسوغ وقوع الحرب والالتجاء إلى القوة والعنف ؟ إن الديمقراطية لم تخرج عن كونها صورة من صور الحكم ، وصور الحكم لا تصلح لاتخاذها وسيلة لإثارة الحماسة ولسعر نيران الحرب ، والشيوعيون أنفسهم من القائلين بالديمقراطية ؛ والواقع أن أكثر السمات التي نعدها من خصائص الديمقراطية إنما هي وسائل لتحقيق أهداف ، في طليعتها إظهار إرادة الشعب ؛ فالتصويت العام والانتخاب ونظام تعدد الأحزاب وترجيح الأغلبية ، كل ذلك وسيلة من وسائل الديمقراطية . والديمقراطية نفسها تدعو إلى الاعتدال وعدم التدخل في شئون الغير ، فهي غير صالحة للتحريض على الحرب وإثارة البغضاء بين الأمم .

والذي يستخلص من ذلك أن الصراع بين الكتلتين ليس صراع عقائد وأفكار ولا تصادم مثل عليا مختلفة ، وإنما هو صراع سياسي خالص وخلاف على بسط السلطان وتوسيع النفوذ ، وكونه كذلك قد يبشر بالأمل في انقشاع السحب السوداء الثقيلة وصفاء الجو ، فليس أخطر من الخلاف الذي يثيره اختلاف المذاهب والعقائد وصراع المثل العليا المتعارضة ، ووراء هذا الخلاف للنذر الواضح في الأفق السياسي الرغبة في تغطية الإخفاق في معالجة الأحوال الداخلية وتحويل الأنظار إلى العدوان الخارجي والعمل على كسب الأسواق والحصول على الخامات ، وما أخلقنا أن نقف من هذا الخلاف على « الحياد » كما يقولون موقف المحايد ، لأننا في الواقع لاناقة لنا فيه ولاجمل .

علي أدهم

والبصر . ومن قدر له أن يجول جولة أكبر — ولو قليلا — حانت له الفرصة ليرى الألمانية فى ميدانها تسعى ولا ينازعها فى زحفها منازع .

ومرت الأيام وهى التى يداولها الله بين الناس ، فما بالك بالجراثيم التى تعيش فى عالم لا يستظل كالذى يقانون يحول دون طغيان أحد منها على الآخر ثم بدت جحافل الربيع الماضى من بعيد وقد ملأ غبارها الجو فأخذنا نتساءل : من القادم يا ترى ؟ وإذا بالقرمزية تتقدم الصفوف فى ثوبها الأحمر الزاهى ، والفرط لحقتها على قيادة المركة لأول مرة فى تاريخ غزوها لوادى النيل تراها وقد نشرت جرابها ذات اليمين وذات اليسار ، فى نفس الوقت مع زميلاتها مثل الحصبة والغدة النكفية والجديرى وغيرها ، محاولة ، وهى الأنثى من اسمها ومن اصطباغ وجنات ضحاياها باللون الوردى الجميل أن ترفع رأسها حباً فى الظهور ، غير عالمة بأن فى الفت الأنظار قضاء على حركتها على أيدى الطب العلاجى والوقائى وهما المتحفزان دائماً لهذه العناصر الفاتحة الواردة من عالم الجراثيم .

نعم ياصديقى سعيد ! إنها القرمزية هذه المرة بحق ! وإنى أقولها إقراراً لواقع لاشك فيه .

وكأنى بالحالات المتناثرة التى شاهدناها منذ عامين كانت طلائع حية للوسم الماضى وما سوف يكون عليه الوسم الحالى ، فما استوثق الميكروب السبحى من الميدان الذى سوف يطرقه ، لم يتردد فى الزحف نحو الأرض الموعودة التى تطلع إليها منذ زمن بعيد . فالذى كنا نعلمه عن القرمزية فيما مضى أنها نادرة الحدوث فى البلاد الحارة . بل لقد مضت سنوات عديدة بعد اشتغالى بالطب قبل أن أرى حالات قرمزية صريحة كالتى شاهدتها فى الوباء الماضى ، والغريب أن بياض البشرة الذى طالما ربطوه بها لا يسرى كقاعدة ثابتة ، لأنى شاهدتها فى أطفال من ذوى البشرة السمراء . وقد لاحظت أن ظاهرة القىء فى بداية المرض موجودة فى جميع الحالات . ويفاجأ أهل الطفل — والطفل نفسه طبعاً — بارتفاع سريع فى الحرارة مصحوب بقىء شديد ورعشة قد تتطور إلى تشنج عام . وإذا نظرنا إلى حلق الطفل رأيناه شديد التهابه ، فاللون أحمر قانٍ ، واللوزتان متضخمتان غاضبتان تكاد تنفر عروقهما من شدة اللهب .

وبعد مضى يوم أو أكثر قليلاً يظهر الطفح الوردى فيعم الجسم كله ما عدا فروة الرأس وما حول الفم . وقبل اكتشاف السلفا والبنسلين كانت الحرارة والطفح يستمران على أشدهما مدة تتراوح بين خمسة وثمانية أيام يعانى المريض خلالها آلاماً شديدة ويتعرض لمضاعفات عدة ، أهمها التهاب الأذن والتهاب غدد الرقبة والتهاب المفاصل ، وقد تصل الجرثومة فى الحالات الشديدة إلى الدم محدثة تسمماً دموياً حاداً قد يودى بحياة المريض ! وقد اختفت هذه الأساطير القديمة تقريباً مع التحسن المطرد فى وسائل التشخيص والعلاج المبكرين ، وبفضل ما ينعم به ابن آدم فى هذه الأيام الرائعة الجميلة من طرق فى العلاج لم يكن يحلم بها آباؤنا .

ويتميز دور النقاهة بمضاعفة هامة هى التهاب الكليتين ، ويشك فى وجودها إذا تغير لون البول إلى أحمر أو بنى ، وقد ترتفع درجة الحرارة قليلاً أو كثيراً ، وعند فحص البول بواسطة المجهر نجد فيه كريات حمراء وأسطوانات بكثرة .

وبعد انتهاء الطفح يبدأ دور التقشر ، فتنفصل طبقات الجلد السطحية على هيئة قشور رقيقة قد يمضى الشهران قبل انفصالها كلية . وقد يشخص المرض على حقيقته فى هذا الدور فقط عندما يشاهد الطبيب مريضاً ناقهاً من التهاب شديد باللوزتين ، وقد يتقشر جلده دون أن يلاحظ من حوله وجود الطفح أثناء الدور الحاد .

وتأتى العدوى فى هذا المرض عن طريق الرذاذ المتطاير من حلق المريض أو حامل الجرثومة ، أو عن طريق اللعب والحيوانات المستأنسة والأدوات المنزلية كالكوب والملعقة والفنجان . لذا يجب عزل المريض وأدواته عزلاً تاماً .

وهكذا أدرجت القرمزية نفسها فى قائمة الشهيات المزعجة التى يقدمها خادم الجراثيم إلى مائدة الطفل كل صباح وكل ظهيرة وكل أمسية ، فعلينا أن نعمل لها ألف حساب فى طبنا الوقائى ، وإلى خطورتها ألفت نظر إدارة الصحة المدرسية بوزارة المعارف العمومية .

دكتور مصطفى الديوانى

بشـــــار بن برد

التفسير النفسي لشخصيته وشعره

— ٣ —

الأستاذ يوسف خليف

— والشيء الذي يلفت نظر الدارس النفسي لشعر بشار لفتاً شديداً هو تأثير فقده لبصره في معانيه وتعبيراته ، فقد كان بشار شديد الإحساس بعاهته ، وفي أخباره إشارات كثيرة إلى هذا الإحساس الشديد(1) ، وقد انفعلت نفس بشار بهذا الإحساس انفعالاً قوياً ، ولما كان التعبير الأدبي صدى نفسياً لما تنفعل به نفس الأديب ، فمن الطبيعي أن يظهر انفعال بشار بهذا الإحساس في شعره .

ويعبر بشار عن هذا الانفعال في أسلوبين : أسلوب مباشر ، وأسلوب غير مباشر .

أما الأسلوب المباشر فيظهر حينما يحس بشار هذا النقص إحساساً واعياً يصدر عن عقله الواعي الذي يدرك أنه فعلا ينقص عن المبصرين شيئاً ، وأنه مهما يحاول أن يهون من شأن هذا النقص أمام الناس(2) فإن هذا لا يغير من الحقيقة الواقعة شيئاً ، فيتحدث عن هذا النقص حديثاً مباشرا صريحاً ، ولكنه يحاول أن يدافع عنه ! وهو يدافع عنه عادةً دفاعا عقليا منطقيا ، يخاطب به عقول الناس ليقنعهم برأيه ، ولا يحاول أن يستدر عطفهم عليه من طريق مخاطبة عواطفهم ، حتى ليشعر المرء أن بشاراً مغرور بهذا النقص مرتاح إليه ، فهو قد عمي جنينا ، هذه حقيقة لا يحاول إنكارها ، ولا يجد ضيراً عليه من أن يصرح بها ، ولكن هذا العمى لم يضره شيئاً ، بل إنه أفاده ، إذ أنه قد كان سبباً في ذكائه ، وتعليل ذلك عنده أن ضياء عينيه قد انتقل إلى قلبه يحمل له العلم والمعرفة ، ومن هنا جاء نابغة عبقريا :

(1) انظر على سبيل المثال : الأغاني /٣ ، ١٤١ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٤٧ (ط دار الكتب

(2) كان يقول : « الحمد لله الذي ذهب ببصري كلا أرى من أبغض » الأغاني ٣/١٤١

عميت جنينا ، والذكاء من العمى
فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للعلم رافدا
لقلب إذا ما ضيّع الناس حصّلا(1)

وهذا التعثر الأسلوبي الذي نلاحظه في البيت الثاني يرجع — فيما أعتقد — إلى صراع نفسي بين عقل بشار وعاطفته حول هذا الدليل الذي يدافع به عن عاهته .

وأكثر ما يتحدث بشار عن هذه العاهة في غزله ، حيث يتجسم إحساسه بها تجسماً قويا ، فإذا هو حريص كل الحرص على أن يدافع عن نفسه ، ودفاعه هنا أيضاً دفاع عقلي منطقي ، تدور معانيه دائماً حول فكرة واحدة ، هي أن العين ليست الوسيلة الوحيدة للحب ، وهو يستغل هذه الفكرة استغلالا واسعاً ، ويعبر عنها بأشكال متعددة ، ويستخلص منها كل ما يمكن استخلاصه من معان ، فيقول أحياناً إن العين في حالات الحب ليست هي التي تبصر ، وإنما الذي يبصر هو القلب ، فالقلب وسيلة الحب الأساسية ، « فبالقلب — لا بالعين — يبصر ذو الحب »(2) والعملية الفنية هنا — وهي التي يسميها علماء البلاغة « القصر » — ليست ، من وجهة نظر الدارس النفسي ، إلا محاولة نفسية ، يحاول بشار بها إقناع نفسه وإقناع سامعيه بهذه الفكرة التي يدافع بها عن موقفه . ولكن بشاراً لا يكتفي بهذا ، وإنما يحاول أن يثبت هذه الفكرة وأن يقيم الدليل عليها ، فيذكر في موضع آخر من شعره أن القلب هو الوسيلة الأساسية للحب لأنه يرى ما لا تراه العين ، « والقلب راءٍ ما لا يرى البصرُ »(3) ، أو « إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر »(4)

(1) المصدر السابق /١٤٢
(2) ، (3) ، (4) الأغاني ٦/٢٤٣ (ط دار الكتب) .

ثم يستمر بشار فى استغلال هذه الفكرة الأساسية فيستخلص منها معنى آخر ، فإذا كانت العين وسيلة من وسائل الحب ، فإن هناك وسيلة أخرى مثلها هى الأذن :

قالوا : بمن لا ترى تهذى ؟ فقلت لهم :
الأذن كالعين توفى القلب ما كانا(١)

وهو هنا يعتمد على طريقة من طرق الجدل الخطابى ، وهى أن يسلم للناس بما يعتقدون على أن يسلموا له بما يعتقد .

وهو يعبر عن هذا المعنى بطريقة أخرى ، فالعين وسيلة من وسائل الحب حقاً ، ولكن إذا فقدت هذه الوسيلة فإن الأذن تقوم مقامها ، فيقول متحدثاً عن صاحبة له :

يُلمت منها شكلاً فأعجبنى والسمع يكفيك غيبة البصر(٢)

بل إن الفكرة تصل عنده فى بعض الأحيان إلى ذروتها ، فإذا الأذن لا تعشق كما تعشق العين فحسب ، وإنما قد تعشق قبلها أحياناً :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحياناً(٣)

وبراعة بشار فى هذا البيت تعتمد على قوله « أحياناً » . فهو لم يذكر هذه الكلمة ليكمل بها بيته لأن القافية أعوزته كما يتبادر إلى الذهن ، وإنما ذكر هذه الكلمة ليقطع الطريق على معارضيه ، حيث وضعهم فى موضع لا يمكن فيه الرد عليه ؟ وهذه براعة جدلية من بشار اكتسبها — بدون شك — من اتصاله بالمعتزلة أصحاب الجدل البارع فى التفكير الإسلامى . ولكن بشاراً لا يقتنع بهذا ، وإنما يعود مرة أخرى إلى فكرته الأولى وهى فكرة أن القلب هو الوسيلة الأساسية للحب ، وكأنه يخشى — كما يخشى أصحاب الجدل — أن يتهم بالتناقض فى قوله ، فيذكر أن الأذن ، وإن تكن وسيلة من وسائل الحب ، فإن القلب هو الوسيلة الأساسية فى هذه الحالة ، حالة « الحب السمعى » ، كما أنه هو الوسيلة الأساسية فى الحالة الأخرى ، حالة « الحب البصرى » :

فما تبصر العينان فى موضع الهوى
ولا تسمع الأذنان إلا من القلب(٤)

(١) المصدر السابق /٢٤٢ .
(٢) الأغانى ٣/٢٢٩ .
(٣) الأغانى ٦/٢٤٢ .
(٤) المصدر السابق /٢٤٣ .

وهو هنا أيضاً يعتمد على « القصر » فى سبيل إقناع نفسه وإقناع سامعيه بفكرته .

ولكنه يحدث أحياناً أن يتحدث بشار عن عاهته دون أن يحاول الدفاع عنها ، وإنما يصرح بما فى نفسه من مرارة نتيجة لها ، دون محاولة منه لإخفائها أو التقليل من شأنها ، فحين ينهاه الخليفة المهدى عن الغزل يعلن فى شعره أنه ترك الغزل مرغماً إطاعة لأمر الخليفة ، وإن يكن فقد النساء عنده كفقده عينيه ، كلاهما مر فى نفسه :

هجرت الآنسات ، وهن عندى
كما العين ، فقدهما سـواء(١)

كأنه يستعطف الخليفة أن يترك له المتعة الباقية فى حياته ، متعة النساء ، بعد أن حرم المتعة الأخرى ، متعة النظر ، والتفسير النفسى لهذا البيت هو أن بشاراً ، حين منعه الخليفة من الحديث عن قدرته على إصباء النساء وإغوائهن أحس أنه قد حيل بينه وبين محاولة التعويض ، وأنه قد جرد من سلاحه الذى كان يستخدمه فى هذه المحاولة ، وإذاً فلا مفر له من أن يرفع راية التسليم ، ويعترف بأن فقد عينيه نقص فيه .

وأما الأسلوب غير المباشر الذى يعبر فيه بشار عن إحساسه بعاهته فيظهر فى إلحاحه على وصف الحديث وتأثر نفسه به إلحاحاً شديداً ، ولكن الشىء الذى يلفت النظر هو أن بشاراً ينقل ما يسمع إلى ما يرى ، فيحول الأحاديث التى تسمع بالأذن إلى مناظر ترى بالعين ، فحديث صاحبته ، عنده ، أحياناً قطع الرياض الزاهرة :

وكأن رَجْعَ حديثها قطع الرياض كُسين زهرا(٢)

وهو أحياناً أخرى ثمار الحدائق الشهية :

ودماء الطائر من مُتَحَدِّرٍ كأن حديثها ثمر الجنان(٣)

وهو أحياناً أخرى البرود الموشاة :

ولها مضحك كغر الأقاحى
وحديث كالوشى ، وشى البرود(٤)

بل إنه يحرص على تسجيل الألوان فى هذه المناظر التى يشبه بها الأحاديث ، كأنه مبصر يرى هذه الألوان المختلفة :

(١) ديوانه ١/١٠٤ . (ط لجنة التأليف) .
(٢) الأغانى ٣/١٥٥ .
(٣) المصدر السابق /١٥٤ .
(٤) المصدر نفسه /١٨٧

وحديث كأنه قطع الرو ض زهته الصفراء والحمراء[1]

والعملية الفنية هنا وفي مثل هذه الأبيات عملية معقدة تتم على مرحلتين : مرحلة تعتمد على السمع ، ومرحلة تعتمد على البصر ، فبشار يسمع أولا ، ثم يصور مايسمع بما يرى ، ولكن بشاراً لايرى شيئاً وإنما اعتاده في تصوير مايرى على السماع أيضاً ، وإذاً فبشار يسمع ثم يصور ما يسمعه هو بما يسمعه من غيره ، وواضح أن هذه العملية الفنية المعقدة إحدى مرحلتيها ، وهي المرحلة الثانية ، تجربة كاذبة ، لايصدر بشار فيها عن نفسه ، وإنما يصدر عن غيره .

ولكن يبدو أن بشاراً كان يرتاح إلى هذه التجارب الكاذبة كأنما يجد فيها اطمئناناً نفسياً إلى أنه لاينقص شيئاً عن المبصرين من حيث إحساسهم بالمرئيات ، ومن هنا كثرت هذه التجارب الكاذبة في شعره .

ومن هذه التجارب الكاذبة أيضاً استعماله لما يسمعه من تعبيرات شائعة في عصره أو لما استقر في ذهنه من تعبيرات من سبقه من الشعراء ، مما لايصلح إلا للمبصرين ، فيتحدث بهذه التعبيرات كأنه شخص مبصر ، فهو يذكر مثلا أنه إذا نظر إلى أحبابه بكى :

ألا حيّ ذا البيت الذي لست ناظراً
إلى أهله إلا بكيت إلى صحبي
وإنّي لأمن الشوق واجهت بابها
بإنسان عين مايفيق من السكب[2]

والعجيب هنا أن بشاراً يكذب ويستمرئ الكذب ، فيذكر أنه نظر إلى أحبابه ، ويعلو له الكذبة فيؤكد أنه واجه باب صاحبته بإنسان عينه !!

وهو يذكر في قصيدة أخرى أنه رأى منظراً جميلا في وجه جارية جميلة فأعجبه :

يامنظراً حسناً رأيته من وجه جارية فديته[3]

ويذكر في قصيدة أخرى أن عينه تشتاق النظر إلى صاحبته :

أنت التي تشتاق عيني رؤيتها
وهي عندي كالماء غير مشروب[4]

---

(1) ديوانه ١/١١٩ .
(2) ديوانه ١/١٨٧ .
(3) الأغاني ٦/٢٤٦ .
(4) ديوانه ١/١٩٧ .

والأعجب من هذا أن بشاراً يخاطب صاحباته كثيراً بقوله « يانور عيني » !!

نور عيني أصبحت عيني بسكب
يوم فارقتني على غير ذنب[1]

أو يخاطبهن بقوله « ياقرة عيني » :

ليتني مت قبل حبك ياقر
ة عيني أوعشت في غير حب[2]

حدثيني فأنت قرة عيني
هل تحبينني ، فهل لك في حبي[3]

ولسنا ندري أكانت صاحبات بشار يرتحن إلى مثل هذه الغزلات ويجدن فيها إرضاء لغرورهن أم أنهن كن يضقن بها ويضحكن من صاحبها « العلم عندهن » !!

(البحث بقية) يوسف خليف

---

(1) ، (2) ديوانه ١/٢٧٤ .
(3) ديوانه ١/٢٦٢ — وهل في البيت بمعنى قد (انظر المغني في معاني هل) .
وقد أخطأ ناشر الديوان حين ظن أن « هل » في البيت خطأ في المخطوطة .

مع الفكر الأوربي المعاصر

للأستاذ مبارك ابراهيم

١ — الناس والسعادة

كتاب من تأليف الكاتب النرويجي

« جا أورج بروشمان »

"Humanity and Happiness" by
"Georg. Brochmann"

كتب كاتب من الكتاب مقدمة لهذا الكتاب نظر فيها إليه نظرات ملؤها التقدير والإعجاب ، ووصف فيها الفلسفة التي يتقدم بها مؤلفه بأنها أحسن ما جادت بها تجارب هذا الجيل . وقال إن المؤلف قد كشف عن حقائق هي غاية في الأصالة . وهي حقائق موضوعها : الوجود الإنساني .

وقد جاء المؤلف في كتابه بدراسات سيكولوجية حلل فيها الغرائز وضروب النشاط عند الأطفال والمراهقين ، وعند الشباب والكهول .

وهو في كل مرحلة من تلك المراحل قد وجد شيئاً يقوله من تلك الأشياء التي تبعث في نفس صاحبها الثقة والأمل .

ولكنه — وقد اتخذ الأمانة في القول رائداً له وإماماً — قد بيّن لقارئ كتابه أن تفاؤل الإنسان في كل مرحلة من مراحل حياته يشوبه دائماً — من حيث لا يدري — شيء من التشاؤم .

وقد عقد المؤلف فصلا من فصول كتابه على « الأحلام والألعاب والسعادة عند الأطفال » . كما عقد فصلا على « الحب والمراهقة » . فلما أراد أن يكتب عن الشباب ، كان قد بلغ لبّ المشكلة التي ألف كتابه من أجل دراستها وبحثها . فقد تخيل « يوتوبيا » أو « مدينة فاضلة » يجد المرء فيها كل ما يريد ويشتهي ، وفيها يستطيع كل شاب أن يكسب من المال ما يعينه على الزواج وهو في سن الشباب .

وفي تلك المدينة الفاضلة يستطيع أن يجد الناس عملا كلٌّ على قدر ذكائه ومواهبه ، وفيها يستطيع كل واحد أن يجد متنفساً لكل ضرب من ضروب نشاطه . وذلك بأن يخدم أمته والحضارة العالمية خدمة تتميز بالجرأة والإقدام .

ولكن بعد ذلك كله تبقى « السعادة » ... وهي — مع الأسف — شيء قائم بذاته . . . فهي لا يمكن أن تمنح أو توهب . ولكنها شيء يكتسب اكتساباً ، والطريق إلى بلوغها هو الجهاد في سبيل مثل أعلى .

وإن من فرط الرخاوة أن يتجاهل المرء تلك الحقيقة التي تنبئنا أن الحرب ... نعم الحرب ... هي أليق عمل بالشباب ، وأنها هي التي تجعلهم سعداء ... وهذه الحقيقة هي التي عرفها « موسوليني » حق المعرفة ، فاهتدى بهديها ومشى على ضوئها ...

والمؤلف يقول : إن التحليل النفسي قد زادنا معرفة بأنفسنا ، وبفضله عرفنا أننا نتميز بشيئين هما : أننا لسنا آلات تتحرك حركات آلية ، وأننا جميعاً نعاني — إلى حد ما — حالات من الكبت والهياج العصبي .

والرجل البدائي — والمؤلف يسميه « السيد الهمجي » — كان يشكو الهياج العصبي ، مثله في ذلك مثل حفدته الذين يعيشون اليوم . فإن ولائمه الدينية ، وقرابينه ، ولهوه ، وتهتكه ، إنما هي ألوان من التعبير عن إحساسه بأنه قد أجرم في حق الطبيعة . وذلك بزرعه للأرض ، وتأنيسه للحيوان .

ثم يعود المؤلف فيعرف السعادة بأنها تقوم أو تتوقف على ترقية الغرائز ترقياً يلازمه الانسجام ، ثم السير بها نحو مثل أعلى . وهي وصفة قد تكون ناجعة جداً ، وهي لا تخرج

من تلك الوصفة التى قال بها « أرسطو » منذ زمان جيد . ولكن تبقى مسائل طاقات النشاط . فما دامت ليست هناك عوالم جديدة يتخذها الناس ميادين للحروب والغزوات . وما دامت ليست هناك — على حد تعبير المؤلف — حوائط يستطيع المرء أن يدق فيها المسامير ، وما دامت ليست هناك أهداف يحيى المرء حياته وهو يسعى لبلوغها ، وما دامت ليست هناك مُثل يحارب المرء من أجلها ويقاتل ، ما دام الأمر كما أسلفنا ، فإن السعادة التى يلقاها المرء تكون سعادة ليست من الطراز الأول .

وهذا الكتاب كتبه مؤلفه فى خفية ، يوم كانت بلاده « النرويج » تحتلها ألمانيا . وقد انتهى منه بانتهاء آخر يوم من عام ١٩٤٢ . ثم لحق بالنسخة المخطوطة بعض التلف ، كما لقى المؤلف نفسه بعض العسر والضيق ، وعرف الطريق إلى معسكرات الاعتقال .

وقد وصف المؤلف فى كتابه أثر الاحتلال الألمانى فى نفوس قومه ، وعدّه نوعاً من الإحياء الروحى ، إذ انتعشت بفضله الآداب ، وبدا الكتاب الكبار عظماء حقاً ، ودبت فى المدارس روح الحياة .

وتحدث المؤلف فى خاتمة كتابه عن « البطولة » ، فوصفها بأنها نعمة من نعم الله ، كما تحدث عن نعمة الاستشهاد . ثم عاد إلى التحدث عن السعادة فقال : إنها تقوم على كفاح المرء بكل ما أوتى من قوة لينجو بنفسه ويمن يحب ، ثم هى الشعور بالغبطة عند زوال الخطر ، وعندئذ يسترخى الجسد ، ثم يستلقى المرء فى كرسيه ، وهو يمسك بقهوته وسيجارته ...

٢ — نشأة مرض الخوف من روسيا عند الانجليز

كتاب من تأليف

جون هوس جليزن

The Genesis of Russophobia in Great Britain by Jhon Howes Gleason.

يبدو أن هذا العنوان قد قُصدَ به أن يوجه إلى الجمهور ذى العقلية المحدودة المدى ، وهو عنوان لا بد مؤدٍ إلى تضليل الغنيين بالتاريخ ، وهم المراد توجيه الكلام إليهم ، ولذلك يحسن أن نقول منذ البداية إن هذا الكتاب قد استغرق تأليفه خمسة عشر عاماً ، وإنه دراسة متصلة ، مدعمة بالوثائق المستقاة من منابعها الأصلية ، وهى وثائق لم تنشر — فى الأعم الأغلب — من قبل .

والكتاب تدور موضوعاته حول العلاقات الإنجليزية الروسية فيما بين عامى ١٨٢٩ ، ١٨٤١ مع الإشارة — كما يقول المؤلف — إلى التفاعل بين « السياسة والهوى » من الجانب البريطانى .

وعيب هذا الكتاب أن وثائقه كلها بريطانية ، ولكن هذا العيب تقلل من آثاره ومساوئه دراسة المؤلف دراسة دقيقة لكل ما صدر فى بريطانيا فى تلك الحقبة من صحف ونشرات دورية ومذكرات وكتب .

والمؤلف يقول : إن مؤتمر فينا (الذى ظل منعقداً من سبتمبر ١٨١٤ إلى يونيو ١٨١٥) لم يبت فى أى الدولتين — بريطانيا أوروسيا — وكل إليها أمر السيطرة على شرق البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط ، وهما المدخل المؤدى من أوربا إلى الشرق .

وحوالى عام ١٨٣٠ دب النزاع بين الدولتين حول عدة مسائل كانت تحسب مسائل ثانوية ، ثم تطور هذا النزاع فأصبح نزاعاً سافراً له صفة الدوام .

وبلغ النزاع أقصاه عام ١٨٣٣ يوم أفلحت روسيا فى عقد معاهدة Unkiar Skelessi فاستخلصت لنفسها أن يكون لها النفوذ القوى والسيطرة الفعالة على الإمبراطورية العثمانية التى كانت تعانى الاحتضار .

وظلت العلاقات بين انجلترا وروسيا أشد ما تكون قتامة حتى نهاية الحلقة الرابعة من القرن التاسع عشر . وقد بدا للناس يومئذ أن نشوب الحرب بين الدولتين قد أصبح أمراً لا مهرب منه ولا مفر . والحق أن الحرب كان ينادى بها علناً رجال كثيرون من رجال الدولتين .

وفى عام ١٨٤٠ تغيرت الظروف . وكان من عوامل هذا التغير ذلك الانتعاش الجزئى الذى أصابته فرنسا ، والذى كان مصحوباً بظهور مطامع لها فى الشرق الأوسط .

وقد أدى ظهور فرنسا بهذا المظهر أن بدا لساسة الدولتين — إنجلترا وروسيا — وبخاصة ساسة انجلترا . أن العالم مازالت رقعته ممتدة وأن في تلك الرقعة الممتدة متسعاً لكلتا الدولتين .

وجاءت معاهدة المضايق في عام ١٨٤١ فكانت بدء النهاية لعهد العداوة والبغضاء الذى ظل مستعر الأوار في العشر السنين السابقة .

وفي الحلقة الخامسة من القرن التاسع عشر عادت العلاقات الإنجليزية الروسية ودية كما كانت ، ونام عنهما شيطان الحوادث .

ولكن في الحلقة السادسة بدأت العلاقات تسوء مرة أخرى ، ونشبت بينهما الخلافات التى مهدت السبيل إلى نشوب حرب القرم .

ويقول المؤلف إنه يرجو ويأمل — في خشوع وتواضع — أن تساعد دراساته التى قام بها على إيجاد جو من الثقة المتبادلة ، ومن التسامح والتساهل بين الاتحاد السوفيتى وبين الشعوب الناطقة بالإنجليزية ، وذلك بالاستعانة بالتفاهم الذى كان قائماً في الماضى على المساهمة في إيجاد تفاهم أدوم وأبقى ، وذلك بتسليط الأضواء الكاشفة على ما يكمن في نفوس الأمتين من بواعث المخاوف ، وحوافز الميل مع الهوى . وأن ينظر نظرة فاحصة إلى كل حماقات الماضى وأخطائه ، وأن تكون نظرة الإنجليز إلى عيوب أنفسهم أبعد مدى وأكثر تحديقاً .

ولكن القول بأن النظر إلى الماضى قد ينفع وحده في إصلاح ما أفسده التوتر الحادث بين البلدين إنما هو نزول بعلم التاريخ إلى الدرك الأسفل من أباطيل التنجيم وترهات المنجمين ...

٣ — التعلق بالوطن الأصغر
أو البيت الذى بناه سكانه بأيديهم

لكاتب أغفل ذكر اسمه

The house made with hands by
An Anonymous Author

ألا أيها الركب المخبون عرجوا
علينا فقد أضحى هوانا يمانيـــاً
نسائلكم هل سال نعمان بعدنا
وحب إلينا بطن نعمان وادياً
فإن به ظلاً ظليـــلاً ومشرباً
به ينقع القلب الذى كان صادياً

قرأت هذه القصة فخطرت ببالى هذه الأبيات التى قالتها فتاة أعرابية احتملها زوجها إلى مكان قصى . (وبعد) فقد قيل إن هذه القصة هى — إلى حد كبير — ترجمة لحياة مؤلفها ، وهى قصة فتاة مرهفة الإحساس إلى أبعد مدى ، وهى تحكى فيها قصة حياتها منذ طفولتها حتى أصبحت امرأة نصفا .

وكانت « إيث » ، وهذا هو الاسم الذى أضفته عليها القصة ، أصغر إخوتها . وكانت هى الطفلة الوحيدة التى ولدت في البيت الذى بناه سكانه بأيديهم . وقد أحبت هى ذلك البيت حبًا خالصاً ، وآثرته بإعزازها . فكان البيت وقطانه هم الدنيا وما فيها . وكان فراق البيت أو فراق سكانه عذاباً يمزق حشاشتها ، ويضوى به جسمها . ويوم بعث بها أهلها إلى مدرسة داخلية في قرية مجاورة كانت جد تعسة ، حتى لقد مرضت مرضاً شديداً ، فلما أبلت طارت إلى ذلك البيت تلتمس الحماية في حماه .

وقد بنى لها أهلها في ذلك البيت محراباً تتعبد فيه لربها وتسجد ، فلزمت ذلك المحراب وما فارقته بعد ذلك أبداً .

ولما بلغت مبالغ النساء جاء يخطبها فتى ممن اتصفوا بالصلاح والتقوى . وكان هذا الفتى معروفاً بين قومه بلقب « يوليوس قيصر » فردته رداً جميلاً ، وأبت عليه أن يشاركها حب ذلك البيت .

وضرب الدهر ضرباته فمات أبواها ، وتزوجت أختها . وقتل أحد إخوتها في الحرب . ولكنها ظلت في البيت ، مقيمة على الوفاء له . وكأنها كانت تخاطبه فتقول : إنى أقيم بين جدرانك لأبحث في جوانبك الأمن ، ولتطمئن إلى وجودك كما كان آبائى يفعلون ...

وحتى الحرب العالمية بويلاتها وأهوالها ، وحتى الغارات الجوية التى كانت تدك البيوت المجاورة دكا ، لم تكن بقادرة على أن تنزع حب ذلك البيت من قلبها .

ولما اشتد الخطب وساد الرعب مدينة لندن كلها كانت « إيث » أكثر الناس طمأنينة وأمناً . وحدث ذات ليلة أن

أصبحت الغارات من بينها قاب قوسين أو أدنى . وعندئذ بدأ الرعب يدب في قلبها . وكان قد وصلها في اليوم السابق لتلك الليلة خطاب من يوليوس قيصر . فجال بخاطرها أن يكون لها بيت جديد تقيم فيه معه . . . ثم زادت غارات العدو اقترابا من بيتها . فما زادت بأيت على أن كانت تنتقل من غرفة إلى غرفة . وهي كلما فارقت إحدى الغرف طافت بخاطرها أطياف الذكريات . فلما خر السقف من فوقها هربت — واليأس يملؤها — إلى الحديقة . ثم نظرت فرأت شيئاً أسود ينقض من السماء فيغوص في أرض الحديقة وكان هذا الشيء الأسود شظايا قنبلة من القنابل المدمرة . ثم رأت الأرض وهي تميد . وعندئذ ... أحست أن لا بد لها من بيت غير ذلك البيت ... الذي بناه سكانه بأيديهم ...

٤ — شعاع من الضوء على بقاع مجهولة

أو محور القارة الأسيوية وقطبها

كتاب من تأليف أوين لاتيمور

Pivot. Of Asia By Owen, Lattimore.

هذا كتاب ضمنه مؤلفه دراسات قيمة لإقليم « سن كيانج » وهو الإقليم الكائن في الطرف الأقصى الغربي من تلك الأمبراطورية الصينية التي كانت لا حد لامتداد رقعتها وهو الإقليم المعروف بالتركستان الصينية .

وقد انتهز مؤلف هذا الكتاب الفرصة لجمع إليه نخبة من العلماء المنتمين إلى جنسيات مختلفة والذين أوتوا العلم في مسائل آسيا الوسطى . فكان هذا الكتاب ثمرة بحثهم وخلاصة دراستهم لإقليم قل من يعرف عنه شيئاً .

وهو كتاب وإن يكن قد كتب بأسلوب يرضى عنه القارىء المحدود الثقافة . فهو مع ذلك كتاب لا معدى عنه لمن أراد التخصص في مسائل آسيا الوسطى .

والمؤلف يقول : إن العنصر الصيني في إقليم « سن كيانج » لم يتجاوز في يوم من الأيام تلك الجماعة من كبار الموظفين الرسميين ، والكثير الغالب من السكان المختلق الألوان والنحل هم ممن يتكلمون إحدى لهجات اللغة التركية .

وقد عقد أحد الذين شاركوا في تأليف الكتاب ، وهو مستر دي غرانس ، فصلا على أقوام « سن كيانج » ضمنه خلاصة الأبحاث الحديثة والإحصاءات . وهو يقول : إنه لا مفر للباحث من قبول الرقم « ثلاثة ملايين وسبعمائة وثلاثين ألفاً » — وهو الرقم الذي أثبتته إحصاءات البوليس من عشر سنوات — كعدد لسكان ذلك الإقليم .

وهو رقم جاء حداً وسطا بين رقمين مختلفين ارتفاعاً وانخفاضاً . إذ قال قائل إن عدد السكان مليونان . وارتفع بهم آخر إلى ثمانية ملايين .

والروابط الجنسية واللغوية التي تقوم بين أقوام « سن كيانج » وبين أقوام التركستان السوفيتية تجعل القرابة بينهم وبين هؤلاء أقرب منها إلى أقوام الصين أصحاب السيادة الاسمية على بلادهم . وكذلك تساعد طرق القوافل التجارية التي أوجدتها الطبيعة على توثيق أواصر تلك القرابة .

ولقد كان الضغط الروسي ثقيلاً جداً على تلك البلاد زمان الحكم القيصري . وكان يقابله ضغط آخر ، لم يكن يجيء من ناحية الصين ، بل من ناحية الهند البريطانية ... التي كانت تغار من تفوق روسيا التجاري ومن غلبتها السياسية .

وبعد ثورة من ثورات الصين وقعت في عام ١٩١٢ أقامت الصين حاكماً على تلك البلاد قوى الشكيمة ، عظيم المقدرة . هو « يانج تسنج سن » . وقد أدار هذا الحاكم دفة الأمور بمهارة فائقة . وسار بسفينة الحكم بين تيارات الحكومتين المتزاحمتين مستقلا بحكومة ذلك الإقليم استقلالاً تاماً عن حكومة « بكين » المركزية التي كانت قد خسرت هيبتها وفقدت كفايتها .

وقد وصف الكتاب هذا الحاكم وصفاً لم يغادر فيه صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها . وهو أول وصف وأوفاه عن هذا الحاكم في اللغة الإنجليزية .

ثم يقول المؤلف : ولما قامت الثورة البولشفية تقلص سلطان الروس في آسيا الوسطى . وظل الأمر كذلك ثلاث سنوات على الأقل . فقد كانت قوات روسيا البيضاء وقوات القوزاق تحول بين الاتصال بين موسكو والتركستان . وفي تلك الحقبة كانت مدينة كاشجار مركزاً هاماً من مراكز النشاط البريطاني في آسيا الوسطى .

ولكن ما إن جاء عام ١٩٢١ حتى بدأ رقاص الساعة يتأرجح إلى الوراء . واستعادت روسيا سيطرتها على ذلك الإقليم . وظلت تلك السيطرة تزداد توثقا كل يوم من

الوجهتين السياسية والاقتصادية .

ومن ناحية أخرى فقد تلقت السيطرة البريطانية ضربات متلاحقة قاتلة فى إيران وأفغانستان . كما بات النفوذ البريطانى فى الهند وقد أصابه الضعف والوهن .

وكانت الصين يومئذ لا تزال ميداناً للحرب الأهلية ، ومساقاً إلى الانحدار والانحلال ، فبعدت الشقة بينها وبين تركستان الصينية بعد الشرق عن الغرب .

أمّا اليابان فكانت بين حين وآخر تلقى نظرة ملؤها الشره والطمع إلى ناحية تلك البلاد . ولكن انسحابها النهائى من سيبريا تحت الضغط المزدوج الذى قامت به روسيا وأمريكا فى نهاية عام ١٩٢٢ وما تبعه من الزلازل المدمرة فى العام التالى قد قضى على كل ما يسبب القلق لبلاد تركستان .

ومنذ ذلك الحين حتى نهاية الحلقة الثالثة من القرن العشرين استعادت روسيا تدريجا نفوذها ، واسترجعت هيبتها فى « سن كيانج » .

ويقول المؤلف : إن عام ١٩٤٠ وما بعده قد جاء بفترة ساد فيها القلق وعم فيها الاضطراب فى « سن كيانج » ، وذلك على أثر تهديد هتلر لروسيا السوفيتية .

وكان من نتائج هذا التهديد أن انسحبت القوات الروسية كما انسحبت الأموال الروسية من آسيا الوسطى .

ولما انتهت الحرب بفوز الجيوش السوفيتية تبدلت وجهة النظر فى « سن كيانج » . ولما رأى القائم بالأمر فى البلاد — وكان ضالعاً مع هتلر — أنه كان يقامر على الجواد الخاسر ، غادر البلاد عائداً إلى الصين .

واستقرت الأمور بعد ذلك . وعادت روسيا إلى الظهور على مسرح الحوادث مرة أخرى . ولما قام الحكم الشيوعى فى الصين ألفت « سن كيانج » نفسها واقعة بين روسيا والصين ، وكلتاهما قد أصبحت تجمع بينهما أواصر متينة من وجهة السياسة ، ومن وجهة المثل العليا الموحدة . وكلتاهما جد راغبة فى استقرار الأمور فى « سن كيانج » بالطرق السلمية . ولم تر الصين بأساً فى تصنيع « سن كيانج » تحت سمع روسيا السوفيتية وبصرها .

ثم يقول المؤلف : إن « سن كيانج » هى قطب القارة الأسيوية ومحورها بأوفى ما تؤديه هذه الكلمة من معنى ، من الوجهة الطبوغرافية ...

بيارق ابراهيم

كتب وردت إلى المجلة

١ — ديوان ابن حيوس :

وهو من مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ، وعنى بنشره وتحقيقه الأستاذ خليل مردم بك ، ويقع فى جزءين كبيرين ، قوامهما ٦٩٣ صفحة من القطع الكبير ، على ورق جيد وفى طبع أنيق .

ويبدأ الجزء الأول منهما بمقدمة تاريخية تحليلية للأستاذ الناشر ، تقع فى ٤٩ صفحة ، يتحدث فيها عن حياة ابن حيوس ، وعن علمه وأدبه ، وصفاته وأخلاقه ، وعن خصائص شعره ، ومميزات لغته وأسلوبه ، ثم عن ديوانه الذى هو بصدد تحقيقه ونشره ؛ وبعد ذلك تأتى قصائد الديوان مرتبة حسب القوافى ؛ فالجزء الأول ينتهى بقافية العين ، ويبدأ الجزء الثانى بالفاء .

وفى نهاية الجزء الثانى فهارس وافية شاملة ، فهرس بما اشتمل عليه الكتاب ، وفهرس بالمراجع ، وثالث للأعلام ، ورابع للبلدان والأمكنة وخامس لترتيب القصائد فى الديوان حسب القوافى .

٢ — الخطر اليهودى :

للأستاذ محمد خليفة التونسى : وهو أول ترجمة عربية كاملة لما يسمى بروتوكولات حكماء صهيون ؛ وقد قدم المترجم للكتاب بمقدمة جيدة فى ٤٤ صفحة ، فصل فيها القول تفصيلا دقيقاً مفيداً عن خطورة هذا الكتاب الذى نقله إلى العربية ، والذى يصف مؤامرة خطيرة للصهيونيين يراد بها أن ينتهى حكم العالم كله إلى أيديهم .

ويقع الكتاب فى ١٨٠ صفحة من القطع الصغير ، ويطلب من مكتبة الخانجى بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ، وثمنه ١٥ قرشاً .

٣ — بالبل الصب :

للأستاذ محيى الدين رضا : وهو كتيب صغير ، ذكرت فيه قصيدة أبى الحسن الحصرى وجمعت معها معارضاتها لكبار شعراء العرب ، وقدم له بمقدمات توضيحية ، بأقلام خليل ثابت بك وجبران خليل جبران ، وصاحب الكتاب .

أدب المهجر

بعد الرابطة القلمية

في مدينة « نيويورك » حيث تجور المادة على الروح ويتسابق الناس في شيء كثير من الأنانية للبحث عن الدولار، في هذه المدينة التي وصفها المرحوم نسيب عريضة بقوله :

هذه كعبة يحج إليها كل يوم ولبس فيها محرّم
إن أصبت النجاح كاد لك القبر وإن خبت لم تجد من يرحم
وعلى مذبح القاذورات يُنسى
شرع موسى وشرع عيسى بن مريم

أجل في هـذه المدينة الغارقة في صخب المادة ، التأم شمل فئة من أبناء العروبة الذين وهبهم الله مواهب فكرية وروحية متباينة في القوة ولكنها متحدة في الهدف ، فولدت « الرابطة القلمية » في ليلة العشرين من نيسان عام ١٩٢٠ وانتخب المرحوم جبران خليل جبران عميداً لها وميخائيل نعيمه مستشاراً والمرحوم وليم كاتسفليس خازناً . وأما الأعضاء الآخرون فهم المرحوم نسيب عريضة والمرحوم رشيد أيوب والمرحوم ندرة حداد والمرحوم إلياس عطاالله والمرحوم وديع باحوط ، وإيليا أبوماضي وعبد المسيح حداد

وقد وفقت الرابطة القلمية — على قصر عمرها — توفيقاً منقطع النظير في مجال إيجاد مقاييس ومفاهيم جديدة للأدب ، فلقد ندد أعضاؤها بالجمود الذي أصاب الأدب العربي ، إن في الفترة المظلمة أو في بداية عصر الانبعاث ، وقد أثارت النافحة آذاناً صاغية لصرخاتهم المدوية ، ولقد أثر عميدها المرحوم جبران على الأساليب البيانية في العالم العربي لهذا حذوه الكثير من الشبان وهاموا بصوره الشعرية وبموسيقى ألفاظه هياماً غريباً .

ولقد شق مستشار الرابطة الطريق للذين كرهوا الجمود والتقليد الأعمى — بكتابه « الغربال » الذي يعد بحثاً في طليعة الكتب التي عالجت النقد الأدبي في الربع الأول من القرن العشرين ، ويطول بي البحث إذا ما أردت أن أعدد المزايا التي امتازت بها هذه الرابطة المباركة ، وحسب المرء أن يقرأ ديوان « الأرواح الحائرة » لنسيب عريضة و « الجداول » لأبي ماضي و « أغاني الدرويش » لرشيد أيوب وغير هذه الدواوين ليدرك أي أدب حي هو أدب الرابطة القلمية .

وقد ظلت الرابطة القلمية حية بأعضائها العشرة نحو إحدى عشرة سنة أي إلى عام ١٩٣١ حيث توفي عميدها جبران عليه الرحمة ، فتشتت شملها ، لاسيما بعد عودة ميخائيل نعيمة إلى مسقط رأسه في لبنان عام ١٩٣٢ ، وكم كانت خسارة الأدب العربي فادحة بوفاة رشيد أيوب ونسيب عريضة وغيرهما من أعضاء هذه الرابطة المباركة .

لقد تشتت شمل الرابطة ولكن بعد أن أدت رسالتها كاملة غير منقوصة ، ويقيني أنه ستذكرها الأجيال بكثير من التقدير والإكبار .

وخير من يمثل الرابطة الآن من الأحياء القلائل : ميخائيل نعيمه — في سكنتا لبنان ، وإيليا أبو ماضي — في نيويورك الولايات المتحدة .

● ● ●

ولقـد أسس نفر من إخواننا العرب في البرازيل بعد تشتت الرابطة ، جمعية أدبية أطلقوا عليها اسم « العصبة الأندلسية » التي سلخت إلى الآن عشر سنوات من الزمان وهي تكافح في سبيل العروبة وفي سبيل إيجاد أدب عربي حي يقوى على السير في موكب الأدب العالمي .

وإذا كانت الرابطة القلمية قد حظيت بعميد عبقري شديد الغيرة على الأدب الجديد وعلى الرابطة التي يترأسها ، فقد من الله على « العصبة الأندلسية » بعميد عبقري بكل معنى الكلمة ، لاتفتر له همّة في مجال خدمة أدبنا الحديث ، هو الأستاذ الشاعر شفيق المعلوف صاحب ديوان « عبقر » الذي هو ثمرة يانعة من ثمرات مخيلة خصبة استلهمت الأساطير

الأولى وخرافات الأجيال وجعلتها أنغاماً فيها من العذوبة والعمق ما يحمل كل ناقد منصف على أن يهتف من أعماق قلبه أن عبقر ديوان فريد تمخض عن عبقرية تعاون في تكوينها فكر غني بالثقافة ، وقلب غني بالإحساس العميق والخيال الطليق ! ولشفيق دواوين شعرية عديدة تحت الطبع منها « لكل زهرة عبير » و « مجامر الصندل » و « نداء المجاذيف » و « شموع في الضباب » وكلها زاخرة بأحاسيس تلك الروح الحالقة التي تنظر من عل إلى أرواح الشعراء المتزاحمة فوق السفوح !!

ومن ذا الذي يجهل مكانة الشاعر رشيد سليم الخوري الملقب بالشاعر القروي ، بين شعرائنا المعاصرين ، بل حتى بين المجاهدين المخلصين ، فلقد نذر القروي نفسه وشعره لوطنه وعروبته ، وقد وهب ريع مجموعته الشعرية « اللاميات الثلاث » لمساعدة إخوانه المنكوبين في فلسطين . ومن الجدير بالذكر أن وطنيات « القروي » ليست مجرد فخر أجوف واعتزاز باطل مما عودنا عليه شعراء الفترة المظلمة وبقاياهم في عصر الانبعاث ، وإنما هو عاطفة مشبوبة تحرق نياط القلوب ، وتلهب مكامن الأفكار ، فتجعل من حياة العربي يقظة سخية بعد السبات الشحيح ، وحسبك أن تقرأ له « الأعاصير » لتدرك أي قلب جريح بناجيك من ضباب الغربة ويستحثك للنضال في سبيل طرد المستعمر الجائر ، وتحطيم السدود والحدود التي أقامها بينك وبين الحرية والسعادة الحقة ، وإذ ذاك تتوطد أركان السلم العالمي ، فهو القائل :

لا ســـلم حتى تستريح الأرض من
شعب بإرهـــاق الشعوب موكل
في نفســه عطش وجوع للأذى
لا يستطيب العيش إن لم يقتل
أعدى على أمل الســـلام ذرية
لم تبق منـــه ذررة لمؤمـــل

ومن أعضاء العصبة البارزين الأستاذ الأديب حبيب مسعود رئيس تحرير مجلة « العصبة » لسان حال العصبة الأندلسية ومؤلف كتاب « جبران حياً وميتاً » الذي يعد بحق تحفة فنية وأدبية نادرة في عالم الأدب العربي الحديث . وهو اليوم يتابع كتابة سلسلة مقالاته النفيسة « ما أجملك يا لبنان » في مجلة العصبة . وهي مقالات يصف فيها كاتبها طبيعة لبنان وآثاره القديمة وحياته الاجتماعية بلغة خالية من التعقيد ، معصومة من الركاكة ، يصبها في قوالب عربية متينة ، تطبعها ألف إبداع التشابيه المبتكرة والاستعارات الساحرة ، فيصف لك أوراق الأرز الدقيقة القصيرة قائلاً : « كأنها النغم خارجاً من الأوتار » ثم يصف غابة الأرز قائلاً كأنها « ختم الزمان على جبين الأرض » .

وفي العصبة أعضاء منتجون منهم الأديب المفكر يوسف أسعد غانم الذي لا يبخل على مجلة العصبة بتأملاته الفلسفية ومقالاته النقدية التي تدل دلالة واضحة على عمق ثقافته العربية والغربية ، وعمق إدراكه ودقة إحساسه ...

و « اسكندر كرباج » القاص البحاثة الذي ترجم في مجلة العصبة حياة بعض كبار أدباء الغرب ترجمة تشهد له بطول باعه في تفهم أدب الغرب .

وفي العصبة شعراء مبدعون أذكر منهم المرحوم حسني غراب الذي سطا عليه الموت مؤخراً ، وقيصر سليم الخوري الملقب بالشاعر المدني الذي يذكرنا شعره بجزالة شعرنا العربي وقوة سبكه .

وبالرغم من أن العصبة تحمل الآن على كاهلها حاضر الأدب العربي في المهجر فهنالك شعراء آخرون ممن يغردون على غير أيكة العصبة ، في المهجر الجنوبي ، وقد تركت أغانيهم أثراً عميقاً في قلوب أبناء الشرق العربي ، منهم إلياس فرحات ، صاحب التأملات الشعرية الفلسفية ، والنفثات الوجدانية الملتهبة التي تهدف إلى إيقاظ العرب .

ومن هؤلاء الشعراء نعمة الحاج صاحب الشعر التأملي الرقيق العميق ، وشعراء آخرون من الشبان العرب الذين نبغوا في العالم الجديد .

وقصارى القول أن الأدب العربي في المهجر الجنوبي ينمو في ازدهار يبعث الأمل في قلوب قراء العربية الذين يعشقون الأدب الحي المجنح والحكم الخالدة العميقة .

(بغداد) حارث طه الراوي

نقد

ثورة الخيام

للأستاذ عبد الحق فاضل

أخرجته لجنة التأليف والترجمة والنشر في ٣٦٠ صفحة من القطع المتوسط

نقد الأستاذ الشاعر محمد عبد الغني حسن

كنا في ندوتنا المألوفة وفي ليلة من ليالي الصيف حين جاءنا الأديب العراقي الكبير الأستاذ روفائيل بطي ومعه صديق له من أهل العراق ومن رجال السلك السياسي. وظننا أن هذا الدبلوماسي الرقيق الحاشية سيجتذبنا إلى أحاديث السياسة التي تصدع الرءوس وتزهق النفوس... فإذا به يسوقنا في رقة ولطف إلى الحديث عن الشاعر «عمر الخيام» وعن رباعياته.

ورأينا هذا الدبلوماسي العراقي يتحدث عن «الخيام» حديث العارف الخبير، ويتحدث عن رباعياته كأنما يتحدث عن مسألة قتلها بحثاً. وعرفنا من أمر هذا المحدث السياسي الأديب أنه ترجم من رباعيات الخيام ٣٧٦ رباعية، وأنه بسبيل إخراجها عن طريق لجنة التأليف والترجمة والنشر مقرونة بدراسة واسعة للرباعيات ولصاحبها.

وعرفت من لهجة المحدث أنه ثقة فيما يقول، وعرفت من روايته لبعض الشعر العربي للخيام أنه جميل الذوق، سليم النقد، دقيق الحس، خبير بأسرار اللفظ العربي ونسق الكلام في استقامة وحسن نظام.

وكان مجلس هذا السياسي الحيي بجانب مجلسي حين أخذ يسمعني بعض الرباعيات التي ترجمها شعراً إلى العربية، فأحسست في شعره — أو على الأصح في ترجمته الشعرية للخيام — هزة عربت كياني كله، وأيقنت أنني أجلس مع شاعر عربي كبير كان لعمر الخيام فضل تعريفنا به، وتعرفنا إلى قدرته الشعرية التي لا يظاهرها قدرة على الترجمة فحسب، ولكن تظاهرها طاقة شعرية وجدت في الخيام متنفساً للتعبير عن القوة الكامنة فيها، كما تظاهرها حاسة مرهفة خارقة استطاعت أن تصل إلى بعض أغوار الخيام فتسبرها سبراً.

ودارت الأيام بعد هـذا اللقاء دورة كنت أعد الأيام خلالها لعلي أظفر بترجمة هذا الأديب العراقي لرباعيات الخيام التي أسكرني في تلك الليلة ببعض نماذج منها، وكنت أخشى أن يطول بي الانتظار، وأنا رجل أتعجل الخير لنفسي وللناس. وقد أقنعني المترجم بأن ترجمته فيها للأدب العربي والعرب خير كثير. ولم يكن هذا الإقناع عن دعاية يصطنعها الأستاذ عبد الحق فاضل لنفسه؛ فقد كان ساعة لقيته أبعد الناس عن الادعاء، وعن غرور كثير من الشعراء... وكان — شهد الله — يسمعني ترجمته للرباعيات وهو أشد حياء من فتاة حيية... وكان في صمته وهدوئه ووقاره وثقته بنفسه وهو يلقي، غير هؤلاء الشعراء الذين يتعالون على الناس بشعرهم وحركاتهم ليتنزعوا منك أذناً للسمع وليرغموك على ذلك إرغاماً لا مفر لك منه، ولا محيد لك عنه..

وظهر كتاب «ثورة الخيام» من أيام؛ فإذا هو ليس ترجمة صادقة قوية دقيقة لرباعيات عمر الخيام فحسب، ولكنه دراسة عميقة رصينة للرباعيات ولصاحب الرباعيات، وإذا بهذه الدراسة الطلية الدقيقة تطول حتى تكاد تدنو من نصف الكتاب؛ وإذا بالأستاذ عبد الحق فاضل لا يبدو شاعراً قوياً أميناً في نقل الرباعيات فحسب، ولكنه يبدو باحثاً يحمله الصبر، وتزينه الأناة التي تحتاج إليها حين تريد أن تنتج نتاجاً فكرياً يستحق أن يكتب له البقاء، وأن يلقى من تقدير الدنيا ما تشاء.

وإذا كان الأستاذ عبد الحق فاضل يستهويك محدثاً وراوياً، فهو في هذا الكتاب القيم يستهويك كاتباً وباحثاً وشاعراً، حتى ليحملك على المضي في الكتاب منذ اللحظة التي تهم فيها بمطالعته؛ وقد أحس هذا الشعور نفسه الأستاذ

سعيد نفيسي أستاذ الأدب وتاريخه بجامعة طهران . وأنا على ثقة أن كل قارئ لهذا الكتاب سيحس هذا الإحساس وسيرى فيه نوعاً من التعاطف الفكري الذي يؤلف نسباً قوياً بين القارئ والمؤلف ويجمعهما في إخاء روحي نادر . . .

وهناك من المؤلفين وأصحاب الكتب من يشعرك بالاستعلاء وأنت تقرؤه ، ويحاول التعالي على قرائه بفرض الأحكام ، واعتساف الآراء اعتسافاً ، وبالدعوى العريضة السمجة التي تعافها النفس وتجعل بينها وبين صاحبها سداً . .

ولكن الأستاذ عبد الحق فاضل ليس من ذلك الطراز من الناس ! فهو لايتعالى حين يبدي الرأي ! ولا يتشامخ حين يناقش المسألة ، ولايفرض عليك أحكامه ونتائجه ! ولكنه يناقشك في تواضع ، ويعرض لك وجوه الرأي في هدوء ، ويدخل عليك بحسن مدخله في الكلام ولطف تأتيه للأمور ، فلا تشعر إلا وأنت معه في الرأي ، ولا تحس في هذه العملية اللطيفة الدقيقة ثقلا ولا معاناة .

وعندنا على هذه الروح عشرات الأدلة من دراسته ، فهو حين يعالج موضوع التمييز بين صحيح الرباعيات وفاسدها يقول : (أما أنا فأعترف بعجزي عن تمييز رباعيات الخيام مما عداها تمييزاً تطمئن إليه نفسي ، لهذا أنفض يدي من هذه المهمة التي تبدو أقرب إلى المحال) ص ٤١

وهو حين يبحث المرأة في رباعيات الخيام تصادفه عقبات من قلة المراجع من حياة الخيام ، وعن المجتمع الإسلامي في عصره ، ويصادفه ذلك الحجاب الكثيف من الصمت المطبق عن حياة شاعر كبير اتصل بالملوك والأمراء فيقول : (إن الموضوع بكر لم يتصد له أحد من الباحثين الخياميين فيما أعرف ، ولعل البحث سيكشف فيه عن جديد . ومهما يكن من الأمر فإن إخال حياته الجنسية لم تكن طبيعية راوية . وإنما كان يغلب عليها الحرمان ، وقد أثر ذلك من غير مراء في نفسه وأطواره على نحو ما) ص ٨٨ .

وهو حين يتحدث عن فلسفة الخيام يقول : (ولي على تأثر الخيام بالمعري دليل غير دامغ . . . ولكنه لا يخلو من وجاهة . ولعلك لاحظته معي . وهو انتهاج الخيام طريقة المعري حين التزم مالا يلزم في قافية المقطوعتين الأوليين من شعره العربي الذي مر بنا آنفا . ومن يدري ؟ لعله انتوى أن يؤلف كالمعري ديوانا من اللزوميات ، ثم أقلع) ص ١٢١

وهو حين يتصدى لموضوع الصهباء عند الخيام يستعرض القضية من جميع أطرافها ثم يقول بعد وقوع الحيرة على الشواهد : (وقد لحظت من غير شك أني لم أجزم بأن الخيام كان يشرب الخمر ، ولكني لا أتفق مع من يجزم بأنه لم يشربها) ص ٨٦ .

فنحن في الحق أمام هذه الأمثلة مما ذكرنا ، وأمام غيرها مما لم نذكر ، نجد أنفسنا مع باحث من طراز وقور لا يخف حلمه أمام رأي لا يوافقه ، ولا يحاول أدنى محاولة لكي يقسرك على آرائه قسراً ، فهو « يخال » و « لا يجزم » و « له دليل غير دامغ » وغير ذلك من هذه الأساليب الديبلوماسية التي قد يكون صاحبها تعلمها من السلك السياسي الذي يشغل مكانا كريما فيه .

ولعل هذا الهدوء لم يفارق الأستاذ عبد الحق إلا مرة واحدة في الكتاب كله . . . تم مرة واحدة حين حاول جاهداً أن يقيم الدليل على إلحاد الخيام . . . فهنا نرى المؤلف ينزع عن نفسه ثوب الظن والشك ويلبس ثياب اليقين بأن عمر الخيام ملحد . وهنا نراه يقف وجها لوجه أمام البحاثة المرحوم « فروغي » فيعجب من أنه أثبت إيمان الخيام وسلامة عقيدته .

وليس عجيباً أن يدافع الأستاذ فروغي عن إيمان الشاعر الخيام ، ولكن العجيب أن يثبت الأستاذ عبد الحق فاضل الإلحاد والكفر لهذا الشاعر الحائر بكل ما أوتي من قوة .

فيقول بعد إيراد أبيات عربية من شعر الخيام أو من الشعر المنسوب إليه : (فكفره في البيت الأول صراح لا لبس فيه) . ص ٧٥

والبيت الذي يقصده المؤلف هو :

تدين لي الدنيا بل السبعة العلا

بل الأفق الأعلى ، إذا جاش خاطري

وهو من أبيات أربعة لا يطمئن على وجه اليقين نسبتها إلى الخيام . وقد وقف أمامها الأستاذ أحمد حامد الصراف المحامي ومترجم الرباعيات ترآ موقفا يكاد ينكر هذا التفاخر على شاعر الطين والصلصال والتراب فيقول : (لم أجد الخيام متفاخرا بل عرفته آية في التواضع) . انظر كتاب « عمر الخيام » ص ١٠٦ الطبعة الأولى .

وأعجب ما في كلام الأستاذ عبد الحق في هذا المقام أنه يطمئن إلى صحة نسبة هذه الأبيات وأخواتها القليلة إلى الشاعر الحكيم . وهو اطمئنان لا أوافق المؤلف عليه ، وخاصة بعد أن دلل عليه بقوله : (فأسلوبها كما يرى القارئ أشبه

بالعلماء منه بالشعراء ، وإن ما فيها من استعارات وتشابيه ، وذكر الأفلاك ، والناحس والساعد ، وانقضاض القواعد ، وانقلاب الريح ، وانتقال الظل ، يشير إلى أن قائلها من المشتغلين بالطبيعة والأفلاك) . فذكر الطبيعة والأفلاك ، والنحس والسعد ، في تلك الأبيات هو دليل الأستاذ عبد الحق على أنها للخيام . وهو دليل لا يستقيم معنا إذا حاولنا تطبيقه على شعراء آخرين . فهل يعد ذكر البحترى لليالى والكوكب والمشترى والنحس في قوله في وصف إيوان كسرى :

عكست حظه الليالى وبات ال

مشترى فيه وهو كوكب نحس

هل يعد هذا دليلا على اشتغال البحترى بالفلك وعلم الهيئة ؟

ثم من قال إن اشتمال تلك الأبيات على الطبيعة والفلك والنحس والسعد والريح والظل هو الدليل على أنها لعمر الخيام لمجرد أنه كان مشتغلا بالطبيعة والفلك ؟ فقد تكون لشاعر آخر غير الخيام ممن كان له اشتغال بمسائل علم الطبيعة والأفلاك ...

وإخال أن الأستاذ عبد الحق فاضل شديد الوطأة على الخيام في ناحية الدين والإيمان ، حتى لقد حمله الاتهام له على أن يتعرض للعروضى السمرقندى وهو يروى لنا حكايتين عن كهانته وتنبئه . فقد زعم العروضى أن الخيام تنبأ بصفة القبر الذى سيدفن فيه فصحت نبوءته كما روى حكاية أخرى عن « تنجيم » الخيام فيما يتصل بالصحو والمطر .

ولقد كان موقف المؤلف هنا موقف صاحب العقل الذى لا يدع للوهم سبيلا إلى اعتقاده . فناقش حكاية التنبؤ بصفة القبر عن طريق الفهم لفعل فارسى هو « بلشد » ؟ وناقش حكاية التنبؤ بالجو عن طريق معرفة الخيام بعلم الأرصاد الجوية . على أن الأستاذ عبد الحق قد ظن أن وصف العروضى السمرقندى للخيام بالإمام طورا وبحجة الحق طورا هو من دلائل توهمه بأن الخيام من الأولياء أرباب الكرامات . ولا أدرى متى كان الوصف بالإمام وحجة الحق دليلاً على الولاية ؟ ومن أين أخذ الأستاذ عبد الحق هذه الدلالة ؟ فإذا صح هذا المنطق الجديد جاز لنا أن نقول إن المسلمين اليوم توهموا الشيخ محمد عبده من أرباب الكرامات والأولياء لأنهم وصفوه « بالإمام » ! ولم يقل قائل إن الشيخ محمد عبده كان وليا لأنه سمى بالإمام ! كما لا يجوز أن يقال إن الخيام ظن أنه من أهل الكرامات لأنه لقب من لقبه العروضى السمرقندى بالإمام ...

● ● ●

قلت لك إن ظهور « ثورة الخيام » فيها خير كثير للأدب العربى . لأنها دراسة جادة عميقة للخيام ورباعياته ، ولأنها ترجمة جميلة دقيقة لعدد من الرباعيات لم تظفر به المكتبة العربية منذ بدأ البستانى والسباعى وأحمد رامى والنجفى والصراف ترجماتهم . فإذا تركت البحث فى الخيام إلى معانيه نفسها وإلى الطرق المختلفة لترجمة شعراء العربية وكتابها لها وجدت نفسك أمام باقة من الزهر ، تحمل فيها كل زهرة طابعها الخاص وعطرها الخاص . فتسمع « وديع البستانى » يقول :

قصر جمشيد مجمع الندمان

صار كِنًّا للخِشْفِ فى الصَّحْصحان

ومَقيلا للضب والثعلبان

(وابن جور) الصياد صيد وأردى

ومن العرش حطَّ حطَّ الحَشْرِ ...

وتسمع « أحمد حامد الصراف » يقول فى الرباعية نفسها نثرا :

« إن القصر الذى كان جمشيد يتعاطى فيه الأقداح ، قد ولدت فيه الظبية ، واطمأن فيه الثعلب . وبهرام الذى كان يصيد حمار الوحش طول عمره ، أرأيت كيف صاد القبر بهراما ؟ » .

وتسمع اليوم صاحبنا « عبد الحق فاضل » وهو يقول فى الرباعية نفسها :

ياجمشيدُ وقصر كان فيه يَشربُ

ولدت فيه ظباءٌ واستكن الثعلب

يابهرامُ الذى كان يصيد العير عمرا

أرأيت القبر كيف اصطاده لا يرهب؟

● ● ●

إن أسماء كثيرة قد ظهرت فى اللغة الإنجليزية بجانب اسم « فتزجرالد » الذى أبدع ترجمة الرباعيات ، كما ظهرت فى الفرنسية بعض الأسماء . فإذا أضاف الأستاذ الشاعر عبد الحق فاضل اسمه إلى حفنة الأسماء العربية الكريمة التى ترجمت الخيام إلى لغة الضاد ، فذلك ربح نرجو أن ينال حقه من التقدير الصحيح ، وهو فى ذمة الزمان الفسيح ...

محمد عبد الغنى حسن

رواية دنشواى الحمراء

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

يرفع الستار فإذا بنا فى منزل شاب يدبر مع أعوانه خطة لمهاجمة الإنجليز فى منطقة القنال . وما يكادون ينصرفون ويهم هو باللحاق بهم حتى تحاول أمه أن تمنعه من الخروج وتستعين على ذلك بخطيبته تارة وبأبيه تارة أخرى خشية أن يصاب بسوء ولكن محاولتها تذهب هباء . ذلك لأن خطيبته تقتنع بعد محادثته بوجهة نظره بل تلتحق كذلك بكتائبه . وأما أبوه فعلى الرغم من أنه يحبه ويحرص على حياته إلا أنه يحب قبل كل شىء وطنه ويمقت الإنجليز ويؤمن بضرورة مكافحتهم لا سيما وأنه قد شهد الحلقة الأولى من مأساة دنشواى فى صباه وكادت تطيح به فيمن أطاحت بهم من قريته ، ثم لا يزال يشهد الآن حلقتها الأخيرة فى القنال ويجد فيها فرصة سانحة للأخذ بالثأر . هكذا يحدث زوجته

ويسدل الستار ويرفع فإذا بنا فى دنشواى عام ١٩٠٦ حيث استقر المطاف بضعة جنود من الإنجليز وقد أخذوا يطلقون بنادقهم على أبراج الحمام لا يبالون بما تسببه نيرانها من خسائر وحرائق ، وأخيراً يصيب أحدهم امرأة وادعة فتخر صريعة بين جمع من ذويها ، ويفر هو هارباً فيطارده بعض أبناء القرية ولكنه لا يلبث أن يموت من فرط الإعياء نتيجة لضربة شمس لم يحتملها .

ويسدل الستار ويرفع عن مشهد محاكمة أهالى دنشواى بتهمة قتله ويسفر الأمر عن إعدام طائفة منهم شنقاً وجلد طائفة ثانية وسجن طائفة ثالثة سجناً مؤبداً .

ويسدل الستار ويرفع عن مشهدين : أحدهما يصور المشانق التى نصبت وسط القرية ذاتها تنفيذاً لذلك الحكم على مرأى من أهلها إمعاناً فى النكاية بهم ، ويتميز هذا المشهد بخلوه من الأحداث والحركة والحوار بحيث لا يسمع فيه مطلقاً إلا صوت قوى النغم يسترجع تفاصيل المأساة من خلف الميكروفون ، ويربط بين حلقتيها الأولى والأخيرة ويستمطر الرحمة على شهدائها بقطعة من الزجل الحماسى . وأما المشهد الآخر فيصور بوضوح مدى إمعان السلطات البريطانية فى تعقب الهاربين .

ويسدل الستار ويرفع فإذا بنا مرة أخرى فى عام ١٩٥١ وفى المشهد الأول ذاته وإذا بالشبان المجاهدين يعودون وفى آثرهم زعيمهم جريحاً ومن خلفه الجنود الإنجليز يحيطون بالمنزل من كل جانب ، فلا يجد أبوه بداً من أن يفجر قنبلة تهدم المنزل عليه وعلى الإنجليز معه ، بعد أن يشق لولده وصحبه وأهله طريق النجاة مؤثراً التضحية بنفسه فى سبيل الوطن الخالد .

هـذا موجز للرواية الوطنية الثانية التى قدمتها فرقة المسرح المصرى الحديث بعد روايتها الوطنية الأولى (مسمار جحا) . وواضح أنهما بصفة عامة متشابهتان من حيث البواعث والأهداف . فهل معنى ذلك أننا سنسلك فى نقدنا نفس الطريقة التى سلكناها من قبل ؟ .

أحب أن أقول : « نعم » لسبب واحد ، هو أنى أوثر فى نقد مؤلفاتنا المسرحية المحلية أن أقيسها بالمقاييس الثابتة والنظريات والأحكام العامة التى وضعها — بعد فهم عميق وممارسة طويلة — نقاد المسرح الغربيون لأوساط الكتاب المسرحيين .

لذلك لم يكن يدهشنى أن يغضب شيوخ مؤلفى المسرح عندنا من طريقتى لأنهم جميعاً (عباقرة !!) وإنما أدهشنى حقاً أن يغضب أحد الحدثين كذلك وهو صاحب مسمار جحا ، وأن يزعم أن من الشطط الالتجاء إلى الأحكام الغربية وأن الواجب علينا أن ندرس العمل المنقود ذاته على اعتبار أن لكل موضوع منطقه الخاص ... إلخ .

أدهشنى هذا (أولاً) لأنه — بدوره — رأى ناقد غربى هو : مانزونى Manzoni وضعه : « أن كل أثر فنى

يبسط لمن يريد أن يفحصه المبادئ اللازمة للحكم عليه » .. وأدهشني هنا (ثانيا) لأن كل شراح هذا الرأي أجمعوا على استحالة تطبيقه إلا « على شرط أن تتحقق في الآثار الفنية المقصودة دلائل إدراك مؤلفيها لأصول الصناعة وطبيعتها ووظيفتها التي تؤديها ، وهذا كله لايتسنى إدراكه إلا بتفهم نظرية الفن ، إذ أن أحكام النقد ليست إلا تطبيقاً للنظرية العامة في الأحوال الخاصة » .

وأظن أن هذا كله — فيما يبدو لي — لا يتجلى في مؤلفاتنا أولى مؤلفات المحدثين منا على الأقل إلا بقدر ضئيل جداً ، وأظن إذاً أن لي العذر حين أوثر أن أتقدم لا بأفضل الطرق بل بأنسبها لهم وأجداها عليهم ! وذلك بالنظر قبل كل شيء إلى فكرة الرواية ومدى صلاحيتها للأداء المسرحي ، وقدرة كل منهم على إخضاعها لهذا الأداء ، فلا لاجدال في أنهم لم يصلوا بعد إلى درجة من النضج تمكننا من استنباط قواعد الحكم عليهم من موضوعاتهم ذاتها .

ولكن يظهر أنهم يريدون أن يكونوا كالآخرين (عباقرة !!) أيضاً . وليس أدل على ذلك مما جادلني فيه هذا المؤلف ذاته حول بديهيات لاتحتمل الجدال :

فنحن نقول مثلاً إن المسرح لا يتناول — أصلا — سوى الحقائق السرمدية الكبرى وأن الاستعمار — على فظاعته — من الأمور الطارئة التي لاتدخل في هذا النطاق ولاتمتد إصابتنا به في ظروفنا الراهنة .. لكنه رغم هذا لايتحرج من أن يزعم العكس بحجة أن قضية الاستعمار هي قضية الصراع الخالد بين الحق الأعزل والباطل المسلح . وواضح أن هذا فهم غير عميق ، فمن الممكن ولو فرضا أن نتصور احتمال تطور المجتمع الإنساني إلى درجة من الرقي يختفي فيها التعامل بمنطق القوة المادية ولو في قارة واحدة أو قطر واحد أو قرية واحدة أو أسرة واحدة ، وإذاً فالاستعمار ليس حقيقة كبرى ولا سرمدية ولا شاملة ، وإنما تتوافر هذه السمات في حقائق من طراز معين كصراع الإنسان ضد الموت أو القضاء أو القوى الكونية العليا أو ما يحل محلها من حيث القوة والجبرية .

وأعجب من هذا أن نقول إن المسرح يجمع الفرد على تلك الأبدية المطلقة أو يضعه على محك الإدراك الفطري في مجتمع ما ، أو يصور إرادة إنسان يصارع القوى المختلفة التي تحده .. فإذا به لايتحرج من أن يقول إن روايته تستوفي ذلك كله ، مع أن ما أوردناه من أقوال كبار النقاد في هذا الصدد إنما هي تعاريف « مختلف » أنواع المسرحيات ، ولايمكن بحال من الأحوال أن تنطبق على رواية واحدة .

وأعجب من هذا وذاك أن نقول إن الصراع الفني من أهم عناصر المسرحية ، فإذا به لايتحرج من أن يقول إن روايته تزخر بأنواع مختلفة من الصراع قوامها مثالية جحا ضد مادية زوجته أو ضد ظلم الناصحين أو ضد مفاسد المجتمع كالربا وضلال علماء السوء .. وغفل عن أن هذا كله ليس من الصراع الفني في شيء . وإلا فلماذا نقول عن العرب إنهم لم يعرفوا فن التمثيل مع أن قصصهم حافلة بما حفلت به روايته من صراع ؟ ولماذا نقول إن روايات العصور الوسطى غير ذات قيمة فنية بسبب افتقارها إلى عنصر الصراع الفني مع أنها زاخرة بالصراع بين الرغبات الخيرة والرغبات الشريرة أو بين ماديات الحياة الدنيا ومثاليات الحياة الأخرة أو بين شهوات الجسد وإشراقات الروح كما يتجلى ذلك في رواية .
Everyman

بل تمادى عناده إلى حد الافتراء على برنارد شو واتهامه بأنه من أقل كتابنا المسرحيين عناية بالصراع ، والاستشهاد خطأ برأي ناقد معاصر لم يقل ذلك ، وما أحب أن أشرح له النصوص قبل أن أطالبه بمراجعتها وفهم مغزاها الصحيح ، وحسبي — مؤقتاً — أن أقول إن (شو) ذاته هو القائل :

"The conflict is indispensable : no conflict, no drama"

ومؤدى هذه العبارة أن وجود الصراع في المسرحية أمر لامفر منه ، فإذا لم يكن صراع فلا وجود للمسرحية ذاتها .

فماذا بعد ذلك !!

الحق أنه ما كان لي وأنا من أشد الناس عزوفاً من المجادلة أن أستطرد هكذا لولا أني أريد أن أؤكد أن غرضي من النقد إنما هو التعاون مع مؤلفينا على استكمال وجوه النقص الكبيرة الواضحة في إنتاجهم والتي لا يمكن أن تستكمل إلا بإبصار تام بأصول الصناعة وطبيعتها ووظيفتها ، وهذا كله — كما قلنا — لا يتسنى إدراكه إلا بتفهم نظريات الفن ومحاولة تطبيقها .

وهكذا نعود إلى روايتنا (دنشواي الحمراء) لنتحدث عنها في حدود هذا المنهاج . وقد كان من اللازم حسبما يقتضي ذلك أن نتحدث أولاً عن فكرتها ومادتها وهدفها من حيث مدى صلاحيتها للمسرح ، لولا أنها في هذه النواحي

شديدة الشبه بالرواية التي سبقتها والتي سبق أن أدلينا برأينا فيها وفي هذا الطراز من الروايات إجمالا .

وإذاً بقي بعد ذلك أن نتحدث عنها من حيث الأداء المسرحي الذي يختلف فيه كل مؤلف عن غيره .

إن النظرة الأولى لهذه الرواية كما أوجزناها تدل على أن مضمونها يكاد يتفق في جزئياته من حيث التفاصيل والسرد والاستطراد والتتابع مع مضمون الحادثة التي استمد منها مؤلفها مادته ، أي أننا شاهدنا فيها قصة نتداولها كما يتلوها الناس ، وكما يحفظها التاريخ ، وكما ترويها الصحف منقولة في سجعها وحوشيها بلا شبه تو توضراق . وهذه غلطة تتكرر من مؤلفها رغم وضوحها ، وغني عن البيان أن الحياة شيء والمسرح شيء آخر ، أو بعبارة أخرى هناك فارق كبير بين أحداث الموضوع كما جرت في الواقع وبينها كما ينبغي أن تجرى على المسرح مكيفة تكيفاً مسرحياً ، وطبيعي أن للمؤلف مطلق الحرية في محاكاة الواقع ، ولكنه مسئول آخر الأمر عن التأثير النهائي في الجمهور ، ولا يتأتى ذلك إلا بوضع مضمونه في إطار فني .

هذه مسألة واضحة جداً ومعروفة جداً ، ولكن مؤلفنا — فيما يظهر — قد اضطر إلى الإسراع في إنجاز روايته ليرضي مزاج الجمهور في الظروف الراهنة التي يجوز أن تنتهي وشيكاً ، فاستعاض عن تكييف الواقع تكييفاً مسرحياً بتضخيم بعض أحداثه البارزة تضخيماً عنيفاً ثائراً ، ومن ثم ضمن التأثير في الجمهور ، ولم يعد في حاجة شديدة إلى العناية الدقيقة بالالتزامات الفنية .

وقد ترتب على ذلك أن تصدع البناء الفني في روايته إلى حد غير ضئيل .

فنحن نلاحظ بسهولة أن التناسب بين فصولها ومشاهدها يكاد يكون معدوماً ، لا من حيث سياقها ، بل من حيث وحدتها . فالمفروض أن تبدأ الروايات من بداية نعقلها إلى نهاية نعرف أن لا مفر منها ، وتتطور الأحداث والأعمال والشخصيات والمغزى خلال ذلك تطوراً حتمياً ومنطقياً ، وليس في روايتنا هذه من ذلك شيء ملحوظ ، ولعلها أشبه ما تكون بحكاية ذات مشهد واحد بدأت بنصفه وانتهت بنصفه الآخر وتتابعت بين النصفين مشاهد أخرى تختلف عما قبلها وما بعدها واتصلت جميعها بفواصل يسمونها Bridge passages ، في حين أن مشاهد المسرحيات الممتازة تبدأ ثم تنمو وتنمو حتى تبلغ الذروة .

كذلك نلاحظ بسهولة كثرة « المسموع » من الأحداث دون « المحمول » منها ، ففي البداية نسمع مونولوجاً نقص فيه أنباء الإنجليز وخيانتها . وفي النهاية نسمع بطل الرواية يروي ما كان في وثائق وقد بعد تمزيقها ، وبين البداية والنهاية ، وهو صلب القصة ، نسمع لب الموضوع كله ، وخلال ذلك نسمع الميكروفون يلقي علينا زجلا يستغرق مشهداً كاملا ، ومعظم الأحداث الباقية نسمعها من الخارج بين طلقات الرصاص وأزيز الطائرات ... الخ ... الخ .

على أننا رغم كل شيء لا ننكر ما بذله المؤلف الأستاذ الرحيمي من جهد في وضع ذلك كله في إطار واحد ورسم الشخصيات بوضوح . ولئن كان قد عمد إلى إبرازها كنماذج نوعية مما لا يصح غالباً إلا في الكوميديا ، إلا أن هذا لا ينفي أنه وفق في تجسيدها ، وربما كان مما يؤخذ عليه هنا أنه صور بعض هذه الشخصيات تصويراً كاريكاتورياً كشخصيتي (الشيخ) و (العامل) بحيث دفع الجمهور إلى الضحك منهما في مشاهد تستوجب أحداثها البكاء ، ولست أدري إن كان هذا راجعاً إليه وحده أم إلى المخرج أم إلى ممثلي هاتين الشخصيتين اللذين التزما مظهريهما المضحك على طول الخط . حقاً أن المآسي لا تخلو كلها من مضحكات ، وكثيراً ما نجد في التراجيديات الكبرى فترات من الترويح الضاحك (Comic relief) تدعو إلى الضحك العابر لكي يتاح المشاهدين شيء من الراحة ، ولكي يكونوا أكثر قدرة على متابعة المأساة بعد ذلك . ولكن ليس من المناسب أن تزيد هذه الفترات عن الحد المعقول .

ولي أخيراً على المخرج (الأستاذ زكي طليمات) ملاحظتان :

الملاحظة الأولى أنه أخرج المشهد الأول وهو عين المشهد الأخير إخراجاً واحداً ، مع أنه حمل لواء الإخراج الإيحائي منذ عاد من أوروبا وبشر بمزاياه دون غيره .

والملاحظة الثانية أنه استعمل الميكروفون في مشهد كامل ، ومعلوم أنه ليس من أدوات المسرح الأساسية .

وأغلب الظن أنه اضطر إلى هذا وذاك لضرورة ربما تكون خافية علينا ، ولكن مثلي في مثل هذه الحالات لا يستطيع أكثر من أن يطالب أستاذه الجليل بشيء من التفسير والإيضاح .

عبد الفتاح البارودي

الثقافة

العدد ٦٧٨
٢٤ من ديسمبر ١٩٥١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليما

صفحة

ذكرى الشهداء

يا أيها الموتى ، ويا من خلّدوا   في الموت حين الحيّ رهنُ تبابه
لم يبلغ الغدرُ اللئيمُ منالَهُ   منكم ، ولكنْ نال مِنْ أربابه
هي قصّةُ الوحشِ الضريرِ ، وما درى   بطشَ الزمانِ بظفرِه وبنابه
دوّى وزمجرَ وهو غيرُ محاذرٍ   بغيظٍ فهيّاً كهمهمة غرابه
يحيي الضحايا الذكرياتِ ، وإنّها   لأجلُّ مِنْ ذكرى ومِنْ أنصابه
لأجلُّ من عتقٍ تجدّد يومه   وأعزُّ من حبٍّ لدى أحبابه
اليومَ قدّسه الأُلى رُزِئوا به   مِنْ قبلُ واحتشدوا لدى محرابه
وَرَثَتْ له أمٌّ بدمعةِ حائرٍ   وَجِلٍ تحسُّ مصابها بمصابه
فالغدرُ ما برحَ المسيطرَ ، ضارباً   بالعدلِ ، لا يُعنى بغير طِلابه
متبختراً ، منشدُّا بجميع ما   جعل السلامَ خرافةً الغابه
فليحذرِ الأحرارُ ، وليتكاتفوا   فالعدلُ غيرُ الظلمِ رغمَ خضابه
والناسُ مهما خُودِعوا لن يرضخوا   للعنفِ والجبروتِ يومَ حسابه !

(نيويورك)   أحمد زكي أبو شادي

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٧٨ الاثنين ٢٥ من ربيع الأول سنة ١٣٧١ — ٢٤ من ديسمبر سنة ١٩٥١ السنة الثالثة عشرة

في ضوء المصباح :

عنـــد سفح الجبل

للدكتور زكي نجيب محمود

هو جبل سامق شاهق ، يعلو بقمته على مستوى السحاب ، فلئن اعتاد أهل الأرض أن ينظروا إلى السحاب منسابا فوق رءوسهم ، فأهل تلك القمة العالية ينظرون إليه صاعداً أو هابطاً تحت أقدامهم ، إذ لايجاوز ثلاثة أرباع الجبل صعوداً ، حتى إذا ما كثف الغمام نظر الواقف هناك ، فإذا هو على جزيرة تائهة حولها بحر من دخان ، تتدافع أجزاؤه في صمت ، كأنه الموج الأخرس ، يرتفع حيناً ويهبط حيناً ، وهو في معظم الحالات من الكثافة بحيث يستحيل على ساكن القمة العالية أن يرى شيئاً من السفح ، وقليلا مايصفو الفضاء فيتبدى سفح الجبل من أعلاه إلى أدناه ، بصخوره البارزة الغليظة ، وشعابه الخفية المزوقة .

فالقمة مشمسة طيلة النهار ، صحاؤها صحو أبدا ، وعليها قامت قرية صغيرة أمرها عجيب ، فهي نظيفة البيوت نظيفة الشوارع ؛ ثم إن شوارعها ملتوية كالأفاعي ، تكاد لاتستقيم في موضع ، إلا أنها مرصوفة كلها ، نظيفة كلها ، وعلى جوانبها صفوف من المنازل الجميلة الأنيقة ، مختلفة الطرز منسقة البساتين ؛ وأهل القرية على درجة ملحوظة من نظافة الثياب وسلامة الذوق ، وإن يكن مما يلفت النظر فيهم بدانة وترهل وبطء حركة .

ولست ترى هنالك خدماً ولا دكاكين ، فتعجب من أين تأتيهم حاجاتهم ، ومن ذا يعاونهم على تنظيف الشوارع والبيوت ؟ وهنالك قلما تسمع في طرقاتها صوتاً ، ومن النادر أن ينبعث صوت من هذا البيت أو ذاك ، بل قليلا مايصادفك في أنحائها رائح أو غاد ، كأنهم جميعاً قد قروا في بيوتهم لايبرحونها لنزهة أو عمل .

هكذا كانت الحال كما وصفها محدثي الرحالة ، وكما بدت له عند أول صعوده ذلك الجبل إلى قمته ، ثم مالبث أن التقى من أهل القرية برجل ، قصد إلى لقائه بتوصية من صديق ، حتى تبين له — بهداية هذا الزميل — نشاط عجيب حاد عنيف داخل الجدران ، ذلك أن هذه القرية كثيرة النوادي ، كثرة ليس لها نظير فيما نعرف من مدن الأرض الواقعة في مستوى البحر ، ومن تلك النوادي ماهو خاص ، ومنها ماهو عام ، لكن النوادي الخاصة هي التي كانت موطن النشاط العجيب الذي أشرنا إليه ؛ وهي صنوف مختلفة ،

منها النوادي السياسية ، والاجتماعية والثقافية ، والرياضية وغير ذلك ، بل قد يتخصص النادي الواحد بناحية غريبة واحدة لايتعداها بنشاطه ، فمن أمثلة ذلك نادٍ لسباق الأرانب ونادٍ لتدخين الترجيلة ، ونادٍ لصيد البط ، وآخر لصيد الإوز وهكذا .

وأخذ يصف لي محدثي الرحالة ماتلقيه في نوادي القرية وهو بصحبة دليله ! فهذا نادٍ سياسي ، تدخل من بابه الخارجي إلى البهو ، فلا حركة ولا صوت ، صمت شامل وهدوء جميل ، حتى إذا ما انفتح لك باب غرفة الاجتماع ، جاءتك الأصوات كالرعود ! ويقول محدثي : إن أول مالفت نظري حين دخلت مع دليلي متسللا على أطراف قدمي ، أني رأيت أصحاب الأبدان السمينة والحركات البطيئة والأطراف المترخية ، قد دبت فيهم حرارة المناقشة كأنها شعلة من نار ، فالوجوه محتقنة ، والعيون محمرة ، والأجسام متحفزة ، والأطراف مرتعشة ! وكانت كلمة « الشعب » أكثر الكلمات وروداً في مناقشاتهم الحادة الحارة ! وقد سألت نفسي عندئذ : أي « شعب » ياترى يقصدون ؟ لأنني لم أجد في القرية شعباً بقدر ماوجدت سادة ! أفيكون هذا المجتمع الغريب رأساً بلا بدن ؟ لكنني لم أطل التفكير في هذا ، وما كنت لأستطيع أن أطيله ، لأن شدة التحمس ترغم السامع إرغاماً على مسايرة الحديث وهم يتراشقون فيه بالحجج كأنها الحجارة أو أشد صلابة ! ويظلون كذلك حتى يفوتهم أوان الغداء إن كان الوقت نهاراً ، وأوان العشاء إن كان الوقت ليلا ، وهنا كذلك سألت نفسي : من أين لهؤلاء الزاهدين في الطعام هذه الأبدان السمينة ؟ لكنني مرة أخرى لم أطل التفكير في هذا ، وما كنت لأستطيع أن أطيله ، لأنني إزاء تيار دافق من الكلام ، يستحيل معه لإنسان أن يقف لحظة واحدة يفكر أثناءها لنفسه في هذا أو ذاك مما عساه أن يستوقف نظره أو سمعه .

ومضى محدثي الرحالة يقول : الحق أنهم في تلك الندوة السياسية التي زرتها ، كانوا يناقشون موضوعاً طريفاً طريفاً وهو : هل يستوردون الإصلاح الدستوري « للشعب » — قلت إن كلمة « الشعب » كانت كثيرة الورود — من فرنسا أو من بلجيكا ؟ فالبضاعة الفرنسية — بما في ذلك الدستور والقوانين — فيها جمال لكنها رقيقة إلى حد الهزال والضعف ، والبضاعة البلجيكية على شيء من متانة البناء ، لكنها عسرة الهضم متعذرة القبول ! و « الشعب » عندنا — هكذا روى الرحالة محدثي عن خطباء الندوة السياسية في قمة الجبل — لا ترضيه الرقة الفرنسية ولا تقنعه الغلظة البلجيكية . وقال قائل : لماذا لا نمزج عناصر من هنا بعناصر من هناك ؟ فجاءت فكرة مزج العناصر كالقنبلة المدوية ، لأنها نقلت الحديث كله إلى موضوع جديد هو : هل يمكن للعناصر أن تمتزج ؟ وأي المقادير يجعل النسبة صحيحة مناسبة للمزج ؟ ولبثوا في ذلك حتى انفض الاجتماع ليعود إلى البحث مرة أخرى .

وزار محدثي الرحالة ندوة ثقافية في تلك القمة العالية التي لا تعكر صفو سمائها سحابة في نهار أو ليل ، لأن القمة تعلو على مستوى السحاب ؛ وها هنا — بداهة — لم يجد صخباً ولا ضجيجاً ؛ كان البهو صامتاً ، وانفتح الباب عن غرفة الاجتماع فإذا فيها صمت هامس ؛ وجلس الزائر على أقرب مقعد من الباب يستمع ؛ وكان موضوع الحديث هو : ماذا يكون أساس الفن كله بما في ذلك الأدب ؟ أيجعلون الفن للفن ، أم يخدمون به « الشعب » — كانت كلمة « الشعب » هنا أيضاً دائرة على ألسنة المتكلمين في كثرة ملحوظة — وكانت كثرتهم الغالبة مع « الشعب » ؛ لا بد أن يصور المصور للشعب ، وأن يعزف الموسيقي للشعب ، وينشد الشاعر شعره للشعب ، وينحت المثال تماثيله للشعب ، ويقيم المهندس المعماري عمارته للشعب ؛ وعبثاً حاول منهم فريق ضئيل أن يبين للحاضرين أن القطعة الفنية مخلوق قائم بذاته ، ولا يقال عن المخلوق الذي كنت خلقته ماذا يحقق من أغراض ؟ لأنه لا غرض من الكائن التام التكوين إلا أنه كائن تام التكوين وكفى ! هل تقول ما الغاية من هذه الفراشة ، وما الغاية من هذا العصفور وما الغاية من هذه الوردة ؟ كذلك لا ينبغي أن تقول ما الغاية من هذه القصيدة وما الغاية من هذه القطعة الموسيقية وما الغاية من هذه الصورة أو التمثال ؛ إنها جميعاً كائنات خلقها خالقوها فأحسنوا خلقاً ، وفي ذلك الكفاية .

لكن فكرة « الشعب » — كما قلت — كانت لها الغلبة والرجحان ، ففي سبيل الشعب ما يخلق الفنان .

وخرج محدثي الرحالة — كما روى — من الندوة

الثقافية معجباً أشد إعجاب ، لأن تبادل الرأى قد تم فى هدوء ورحابة صدر ؛ أين منه ما شهده فى الندوة السياسية من نيران مستعرة فى الأعين والوجوه والأطراف — وقصد إلى ندوة اجتماعية ولم يشأ أن يرجىء الزيارة ليوم آخر لقصر مقامه هناك ، فقد كان لا بد له من الهبوط إلى السفح فى صبيحة اليوم التالى .

وكانت الندوة الاجتماعية فى منتصف نشاطها عندما زارها صاحبى ، لم يشهد الحديث من أوله ، لكن المصادفة قد شاءت أن تكون أول كلمة يسمعها عند انفتاح الباب ، هى كلمة « الشعب » ، ولم يسعه عندئذ إلا أن يعاود السؤال من جديد : أين يا ترى هذا الشعب الذى يشير إليه كل متحدث إذا ما انفرجت شفتاه عن حديث مهما قصر ؟ إنها — فيما رأى — قرية صغيرة ، كلها منسق نظيف ، لا تجد فيها ولا باعة ولا مارة إلا فى القليل النادر ، لكنه سرعان ما طرح هذا التيار الداخلى فى نفسه لينصت .

كان الخطيب الذى يتكلم فى نحو الثلاثين من عمره ، تميزه حركات بذراعيه وجذعه تتناسب مع المعانى التى يعبر عنها فى حديثه ؛ وخلاصة كلامه أنه متألم لحال الشعب لأن حياته تكاد تخلو خلواً تاماً من أسباب اللهو البرىء ؛ فهل عملت الحكومة فى القرى على الترويح عن هؤلاء العاملين الشوكى القوى ؟ هل أعدت لهم شيئاً مما يدفىء فى الشتاء ويخفف عناء الحر فى الصيف ؟ .

وما إن خرج محدثى الرحالة — هكذا روى — من تلك الندوة ، حتى سأل دليله فى حذر وتلعثم : أين الشعب هنا ؟ فقال الدليل — الشعب ؟ ليس هنا ، إنه هناك ، هناك عند سفح الجبل ، هاهنا القمة ، قمة الصفوة الممتازة ، ألم تصعد إلينا من سفح الجبل حيث أفراد الشعب يعملون ويقيمون ؟

فأجاب الرحالة فى ارتباك واضطراب : نعم ، نعم ، رأيتهم هناك ، لكنى ظننت أنهم . . .

فسأل الدليل : ظننت ماذا ؟

فقال الرحالة : ظننتهم أفراد شعب لا ينتمى إلى هذه القمة وأهلها ؛ كانت غفلة منى وكان سهواً لأن العلاقة بين القمة والسفح واضحة ، واضحة لا تحتاج إلى بيان ؛ فما على السائر إلا أن يصعد مجتازاً حاجز السحاب فإذا هو فى القمة الشمسية أو يهبط مجتازاً حاجز السحاب فإذا هو عند سفح الجبل .

وفى ضحى اليوم التالى ، هبط رحالتنا إلى السفح فى طريق عودته فكان أول من لقيه من الناس هناك امرأة عجوزاً متهدمة جلست على جانب الطريق ، وأمامها صندوق خشبى صغير تناثرت على ظهره سبع قطع من الحلوى ، فأما المرأة فكومة من أسمال سوداء ، تكاد لا تميز فيها رأساً من صدر ، حتى إذا ما رفعت وجهها ، رأيت شيئاً قريب الشبه بجماجم الموتى ، غطاه جلد داكن متغضن ، وكأنما كانت ترتعش بجسدها كله رعشة متصلة ، وأما حلواها فسل عنها أقذر الذباب .

ترى كم مليماً تربح هذه المسكينة فى يومها ؟ أين تسكن وعلى أى كومة من التراب والحصى تضع جنبها سواد الليل ؟ ماذا تأكل ، وكيف تغطى جسدها إذا ما اشتد برد الشتاء ؟ أين وكيف تغسل جسدها ؟ من ذا يجيبها إن تأوهت من ألم كما شاء الله لعباده المرضى أن يتأوهوا كلما اشتد بهم الألم ؟

وأبطأ صاحبى الرحالة خطاه أمام بائعة الحلوى ، وهو يفكر فى أمرها ، ويسأل نفسه هذه الأسئلة عنها ، فظنته المسكينة شارياً لبضاعتها ، فقالت فى أنفاس متقطعة واهنة : « حلاوة يا زباين » .

قال الرحالة : بكم تبيعين القطعة يا أمى ؟

فقالت : القطعة بمليم .

قال : سأشترى منك حلواك كلها لأولادى .

وكأن « البائعة » لم تصدق قول « زبونها » فراحت — قبل أن تجمع له « البضاعة » — تدعو له ولأولاده بطول البقاء ، ناظرة إلى السماء ، باسطة كفيها النحيلتين المعروقتين المرتعشتين . . .

فقال لها صاحبنا وهو يدفع لها قرشاً كاملا ثمن حلواها — وحقها سبعة مليمات — لا تنسى يا أمى أن تطلبى من رب السماء رحمة بأولئك الذين يرعون مصالحك فوق قمة الجبل ؛ لقد رأيتهم هناك بعينى رأسى ، يتحمسون لك ولا يدخرون من وسعهم وسعاً ، فقد كانوا يتجادلون فى نوع الإصلاح الدستورى الذى يستوردونه لك من فرنسا وبلجيكا ، وكانوا يتناقشون فى هل يخلق الفنان فنه لنفسه أو يصوغه ويوجهه إليك ، ورأيتهم يبحثون كيف يهيئون لك مصيفاً تستمتعين فيه بهواء عليل حين تشتد الحرارة هنا فى يوليو وأغسطس . . .

فرفعت المرأة عينيها مرة أخرى نحو السماء ، وبسطت كفيها ، وقالت « يارب بارك لنا فيهم أجمعين » .

زكى نجيب محمود

ألوان من التفكير

— ٢ —

للأستاذ حسن جلال بك

كنت قد حضرت مجلساً يتناقش أفراده في أمر « المرأة » و « الرجل » — والدعوة التي يدعو بها بعض الناس من أن الطبيعة تسوى بين الرجل والمرأة في المواهب مما يقتضى أن تستوى معه في الحقوق ، وقد لجأ بعض أصحاب هذا المذهب إلى تأييد دعوتهم بأن الإسلام لا يفرق بين المرأة والرجل — وكان بين الحاضرين رجل من رجال الدين يدفع هذه الدعوى بعنف ويقول إن الإسلام ينكر هذه المزاعم الباطلة وإن القرآن برئ من موضوع يسمى « المساواة » بين المرأة والرجل — ووعدنا في آخر المجلس بأن يعد لنا ثبتاً من آيات القرآن يبين أحكامه في هذه القضية ويضع حداً لمجاجة المتجادلين فيها على أساس الدين . .

فلما انتظم عقدنا في الجلسة الثانية ، أقبل علينا يفيض البشر والاطمئنان من قسمات وجهه ، ومشى إلينا مشية الواثق من أمر نفسه فيما هو بسبيله . وما كاد يأخذ مجلسه بيننا حتى اضطجع وقال :

— « لقد جئتكم من سبأ بنبأ ... » إنكم طلبتم منى حكم القرآن في أمر « المرأة والرجل » — وحكم القرآن في أمر « المساواة » واضحٌ ناصعٌ إذ تتحدث آياته عن آدم الرجل الذي استخلفه الله في الأرض ، وعلمه العلم ، وكرمه بسجود الملائكة له ، ووهبه المرأة ، لتكون سكناً له فيما بعده ووعاء لتجدد نوعه — ولم يذكر الله اسم هذه المرأة التي أخرجها من نفس آدم ، وإنما أشار إليها بكلمة « الزوج » فحسب ، دلالة على أنها منه وإليه ، وفي ذلك يقول الله :

— « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء »

— « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » .

— « وعلم آدم الأسماء كلها » .

— « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا » .

— « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » .

فكل هذا واضح الدلالة على من يكون « الرجل » في هذا الوجود ، ومن تكون « المرأة » .

ثم أتى ذكر المفاضلة بين الرجال والنساء عرضاً في القرآن الكريم عند زجر أولئك الذين لم يستحوا في شركهم فسموا الملائكة بأسماء النساء :

— « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذاً قسمة ضيزى ! »

فأى توبيخ أبلغ من ذلك لمن سولت لهم نفوسهم أن يقرنوا الأنثى بالذكر ، ويجعلوهما بمنزلة واحدة ، مع أن مجرد تسمية الملائكة بأسماء الإناث كان من الأعمال التي استحق الكفار من أجلها التقريع :

— « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى » .

— « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ! » .

— « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون ! » .

• • •

ولقد أورد القرآن في قصصه العالي رأى امرأة طاهرة في هذه القضية وهو أول ما يستشهد به الإنسان في هذا المقام لأنه قضاء امرأة في القضية الوحيدة التي يجوز لها أن تقضى فيها — إنه رأى « امرأة عمران » — أم مريم وجدة المسيح — إذ نذرت ما في بطنها لله وهى تحسبه ذكراً ، فيكون أعظم ما يعمله ولدها هذا أن ينقطع لله وعبادته ، ويكون أعظم ما عملته هى أنها ولدت هذا الذي يعبد الله بحق ، فلما وضعته أنثى قالت ضارعة إلى الله :

— « رب إني وضعتها أنثى — والله أعلم بما وضعت — وليس الذكر كالأنثى ... »

فامرأة عمران في ضراعتها وصدقها تقول للرجال والنساء قولاً عظيماً حين تقول لله : « وليس الذكر كالأنثى » — تقول هذه الحقيقة كاسفة البال ، لأن الأنثى التي

وضعتها — وهى مريم — لاتفى بنذرها ولاتعمل كالرجال أمثالها — ولكن الله الذى استجاب دعاءها كان أعلم بما وضعت ، إذ أنه أخرج من بطنها تلك التى ستلد من بعدها آية من أعظم آياته ونبياً ينزل عليه بواحد من كتبه ، ذلك هو عيسى بن مريم رجل الصدق ، وجيهاً فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين .

واسترسل صاحبنا فى كلامه يقول :

وأمضى بكم إلى ثبت الأحكام القرآنية التى طلبتموه منى ، فأذكر لكم من جهة الولاية العامة مايقضى على حجيج المراسين حيث يقول :

— « الرجال قوامون على النساء ! » .

ومن جهة المفاضلة يقول الله :

— « وللرجال عليهن درجة ! » .

ومن جهة الوعى العلم والصلاحية للشهادة يقول الله :

— « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » .

ومن حيث الميراث يقول الله :

— « للذكر مثل حظ الأنثيين » .

ويشهد الله سبحانه فى قرآنه أن الرجل هو خليفته .. إياه يوصى ، وإليه يوجه الخطاب حين يملى النظم التى يريدها أن تسود على هذه الأرض ، ومن ذلك قوله :

— « فانكحوا ماطاب لكم من النساء ... وإذا طلقتم النساء ... فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف .. واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » .

لم يقل الله للنساء إذاً ...

— « إنكحن ماطاب لكن » ولا « طلقن » ولا « عظن واهجرن واضربن فإن أطاعوكن ... »

وما أعجب هذا لو أن الله أمر به — ولكنه سبحانه يمسخ بعض الرجال فى بعض البلاد فيصيرون إلى ذلك حيث النساء ينكحن ، ويطلقن ، ويهجرن ، ويضربن ، ثم يقمن على رءوس الرجال مقام القضاء والحكومة والحكم والموعظة ..

كذلك أوضح الله لأهل الطبائع السليمة مقام المرأة فى القرآن الكريم حيث جعلها رحمة للرجل وسكناً . فهى تجدد نشاطه حين يستمتع بها ، وهى تجدد ذاته وصفاته حين يستولدها .

● ● ●

وكان بين أعضاء الندوة رجل لغوى لاهم له فى هذه الدنيا إلا الصرف والنحو والاشتقاق وما إلى ذلك . وهو لا شك من سلالة ذلك الرجل الصالح الذى مات وفى نفسه شىء من « حتى » وطريقة إعرابها . قال — لافُضّ فوه :

— جلاء لآيات الله التى ساقها لنا الآن سيدنا الشيخ ، ترى أن هذه الحكمة فى مقام المرأة وموضعها من الرجل ظاهرة فى قوام هذه اللغة العربية التى أنزل الله بها كتابه والتى هى انعكاس لأفكار الناس ومعتقداتهم — شأنها فى ذلك شأن جميع اللغات .

إن الله سبحانه وتعالى يقول فى آية من آياته التى يجىء فيها ذكر الأزواج وزوجاتهم :

— « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا .. »

أى كانتا — زوجتين — لهما ...

فما الذى يجعل اليوم كلمة « تحت » بمثابة « فوق » أو « يساوى » فى لغة هؤلاء المصلحين المفسدين إلا أن يكون الله قد مسخ أفهامهم لجعلهم يفسرون النقيض بنقيضه .

● ● ●

قال الرجل الذى يدعى أنه خبير بأدواء المجتمع :

— ألست ترى تلبيس هؤلاء المصلحين الكاذبين فى قولهم إن « أطفال الشوارع » و « الطفولة المشردة » آفتان فى المجتمع أتاح بهما عليه تعدد « الزوجات » و « الطلاق » الذى تيسر سبيله الشريعة الإسلامية ؟

والحق أن هؤلاء الكاذبين يرمون الشريعة بجرائرهم ويتجنون عليها بذنوبهم وخطاياهم . والأطفال المشردون إنما هم ثمرة خطايا هذا المجتمع الذى لاعدل فيه ولا رحمة به . إنهم أفراخ الفاقة قد انشقت عنها البيوت الصغيرة الكئيبة تحت ضغط الأحوال العامة السيئة . وما العمال العاطلون إلا

أطفالٌ متمردون ، أيوم المجتمع الفاسد ، في حين أن بلادنا خصبة وجوها صحو ، فالمسي أن تكون علة هذا والتمرد »؟.
إن العلة هي جهل العلة أو تجاهلها ! ومن ذلك نسبة الفساد إلى « تعدد الزوجات » . والحقيقة أن هــذا الفساد راجع إلى فشو الجهل والفقر . ولو عمــل المصلحون على رفع المستوى الثقافي والاقتصادي لاجتثوا هذا الفساد من جذوره وأتوا بنيانه من القواعد . ولكنهم يجدون أهون من ذلك عليهم وأيسر أن يحرفوا كلام الله ويفسروه بما يشتهون . .

● ● ●

وانبرى من بين الحاضرين رجل يعيش في جو الماضي دائما ولا يستطيع الفكاك من تقاليده . فقال معقباً :

— يا إخواني ! إننا بحكم خضوعنا اليوم للحضارة الأوربية أصبحنا نتأثر بقوانين بلادها وأحكامها في شئون الزواج والطلاق ، كما نتأثر بعدوى مفاسدها الإباحية ، ومنها تهذيب المرأة وتقديمها في المجالس والرقص بها وتقبيل يدها وما إلى ذلك من بقية العادات والتقاليد .

إننا بحكم ضعفنا وفشو الأمراض في كثرتنا وتأثرنا بالانكلستوما والبلهارسيا والأسكارس ، واعتلال قوانا بأمراض البلاجرا والسل والملاريا ، والتفاء ذبالة حياتنا بعلل الكبد والمرارة والطحال والضغط والأفرنجي . . .

وبحكم اختلال قوانا العقلية بإدمان الشاي والدخان والخمر والأفيون وباقي المخدرات . . .

وبحكم استهتارنا بالأخلاق الفاضلة وتردينا في مهاوي السرقة والاختلاس ، والزنا واللواط ، والكذب والنفاق ، والمخادعة والغش والغرور . . .

بحكم ذلك كله أصبحنا والمرأة خير منا حالاً وأرجح عقلاً . فلتدع المرأة إذاً تفعل بنا ما شاءت ، ولتعلن في القانون شريعة سلطانها بما أحبت . ولتعش في ركابها أشباه الرجال منا خدماً خاضعين وأسرى متذللين — ولا لوم على النساء قط في ذلك ولا تثريب ، فإن من حق المرأة على « الرجل الميت » أن تضعه تحت وصايتها وأن تتجه به كيفما اتفق لمشيئتها . . .

● ● ●

وكان الحاضرون « يمصمصون » شفاههم حسرة ، حين كان هذا الرجل الفاضل يستعرض أمامهم حالة المجتمع الراهنة كما يراها هو في هذه الصورة الفنية الرائعة ، ولم يبد لأحد منهم أن يعقب على كلماته التي كان فيها عندهم فصل الخطاب .

● ● ●

هذا ما تم في مجلس هؤلاء السادة رأيت أن أعرضه في أمانة على قراء الثقافة ليتبينوا فيه « ألواناً من التفكير » وفنوناً من القول ، وليرى كل واحد منهم رأيه فيه . . .

وقد كان يشهد من هذا المجلس صديق شاب أتم دراسته في أمريكا وعاد ورأسه مشحون بالتجارب الكثيرة التي جمعها أثناء إقامته في تلك الأقطار ، فكان بيني وبينه حديث عقب هذه الجلسة ، أرجو أن ألخصه في الكلمة التالية إن شاء الله ، لأختم به هذا البحث .

عيسى متولى

استهوتنا مخاطر الصحراء

للأستاذ الدمرداش محمد بك

يذكر الرحالة المرحوم أحمد حسنين باشا في كتابه « في صحراء ليبيا » الصحراء فيصفها بقوله :

« الصحراء ساحرة جذابة . إذا عرفتها تعلقت بها نفسك أبد الدهر ، ولكن ليس من السهل أن تدرك سر سحرها ، ولا سبب خلابتها . بل كل ما تعرفه أنها تناديك فينفذ نداؤها إلى صميم قلبك . وتدعوك فلا تلبث أن تشد الرحال إليها صاغراً . . . . . وفي تلك اللانهاية الساكنة يصفو الجسم والعقل . وتنقى الروح . فيشعر الإنسان بأنه أقرب إلى الله عز وجل . ويحس وجود قوة قاهرة ليس لقوة أخرى أن تحول قلبه عنها . ويشرب إلى نفسه الإيمان بالقدر الغالب . والاعتقاد بحكمة ما كتب الله . . . . . . أجل قد يكون للصحراء متاعبها . ولها أيضاً ملاذها . وهي التي تستهوي عشاقها . وتجذبهم إليها . إفتتن بها كل من جاب فيافيها . إفتتن بعظمتها المتمثلة في فضائها الواسع . وسكونها العميق . وحياة التنقل المحفوفة بالمخاطر . بل هي تلك المخاطر نفسها التي تفتنه . بل يفتنه الموت المنتشر في كل بقعة من بقاعها » .

هكذا كان شأننا وحالنا ، عندما عزمنا على زيارة دير الأنبا انطونيوس(1) في شهر ديسمبر سنة ١٩٣٢ — فتنكبنا الطريق السهل السوي . وأبينا إلا سلوك الدرب المجهول الوعر . لقد جذبتنا إليها الصحراء ، فكانت الغادة الفاتنة الساحرة القاسية الجذابة كما وصفها الرحالة حسنين باشا . تعبست لنا فما كان أقسى عبوسها . وتبسمت لنا . فنسينا متاعبها وآلامها . وقبلنا عذرها . ثم لم نلبث أن عاودنا حبها .

لا أدري الآن ، وقد انقضى على قيامنا بهذه الرحلة تسع عشرة سنة كاملة كيف أمكننا الوصول إلى الدير سالمين ، كما لا أدري كذلك لماذا خالفنا نصيحة الرجل الطيب المجرب صول الهجانة بنقطة المعصرة في ذلك الوقت . فقد قال — وهو يحذرنا من مغبة هذه المجازفة — إنكم لتقدمون على رحلة طويلة شاقة . فالمنطقة بين حلوان والدير صحراء جرداء ، يغطي سطحها رمال تغوص فيها عجلات السيارات وترتفع في أرجائها سلاسل من جبال وتلال . تذهب طولا وعرضاً في جميع الجهات . تخترقها وديان وأخاديد لا حصر لها يضل في مسالكها الهجان الخبير . وستعوق تقدمكم كثبان الرمال . ورخاوة الأرض في بطون الوديان . والصحراء بعد بهذه المكريات غير ممسوحة . والطريق فيها غير مرسومة . فالخرائط لا تنفعكم . ووادي العربة نادر الماء . شديد الحرارة . كثير المنعطفات والحزون ، يجهد السيارات . والدير تحجبه مشارف جبل القلالة القبلية . ويدق على النظر البعيد ، فالاهتداء إليه عسير . ونصيحتي إليكم ألا تغامروا بأنفسكم وسياراتكم في هذا التيه العظيم .

قال لنا الصول هذا الكلام وأكثر منه . ولكن من الغريب أن يكون لتحذيره هذا في نفوسنا نتيجة عكسية . فبدلا من التقاعس والتروي ، اندفعنا في إعداد الرحلة بحماسة وشوق شديدين . وكأن وادي العربة — هذا التيه العظيم كما قال الصول — قد استهوانا فبتنا دائبين على إتمام الرحلة ، غير آبهين لنذير أو تحذير .

وتم الاستعداد للرحلة ، فخرجنا من حلوان والساعة نصف الليل ، نشق طريقنا وسط ظلام دامس وسكون

---

(1) يقوم دير الأنبا انطونيوس في بقعة نائية غير مطروقة في وادي العربة وسط الصحراء الشرقية ، ويمكن الوصول إليه بطريقين طريق السيارات من السويس على شاطئ خليج السويس ، وطريق القوافل من جهة الكريمات على النيل وهو درب طويل شاق يتعذر على السيارات السير فيه .

شامل ، وضباب كثيف مخيم على الوادي . وكنا خمسة في سيارتين . وبعد قليل وصلنا الطريق الرئيس المؤدي إلى بلدة الصف جنوبي حلوان . وقبيل الفجر وصلنا بلدة الكريمات . ثم مال بنا الطريق نحو الشرق . ودخلنا منطقة الرمال . ثم أخذنا نرتقي هضبة القطم . ثم أشرقت الشمس . وانقشع الضباب وانكشفت الصحراء . وعند الضحى ظهرت جبال الجلالة القبلية في الأفق البعيد جهة الجنوب الشرقي ، ثم انحدرنا إلى واد عميق .

كان كل شيء حتى هذه الساعة وفق المرام . ولكن لم نكد ندخل الوادي ونتقدم فيه ، حتى قامت أمامنا العراقيل وتوالت المشقات والمتاعب . وأصبحنا لا نخرج من مأزق إلا لنقع في غيره أشد منه وأصعب . وغرزت منا السيارات عدة مرات . واحتاج إخراجها في كل مرة إلى مجهود وإضاعة وقت ، وإسراف في البنزين والماء . ثم دخلنا منطقة من الوهاد ، والهضاب والنجاد ، وكثبان الرمال ، بقينا نضرب فيها طولا وعرضاً على غير هدى مدة ساعتين . وأخيراً انتهينا إلى جرف ضيق ، تعذر على السيارات المرور فوقه . فحاولنا الرجوع . ولكن تعذر ذلك أيضاً . وكادت السيارات في هذه المحاولة تسقط في الهاوية .

كان قد أنهكنا التعب ، وأضنانا الجهد ، فارتمينا على الأرض بجانب السيارات ، خائري القوى من شدة الإعياء ، وكان حال السيارات كحالنا ، قد أجهدها السير الطويل الشاق أيما إجهاد ، فحديدها ساخن يطقطق ، ومقدمها جائش يزفر ، وجسمها يرتجف كالمحموم .

أصبح التقدم بعد ذلك مستحيلا ، والتراجع كذلك مستحيلا . وقد استنفدنا نصف ما كان معنا من البنزين ، وضاع معظم ما كنا نحمله من الماء في مبردات السيارات ، وانتصف النهار ، وأضنانا التعب ، ولا ندري أين نحن في هذه الجبال والقفار ، ونهار الشتاء قصير ، ومكاننا مجهول ، والدير في تلك الوادي مستور ، والصحراء قاسية ، والحياة غالية ، واليأس قاتل ، ولكن عابر الصحراء كراكب البحر ، متوكل على الله ، ملحوظ برعاية الرحمن ، فتهدي العناية من روعه ، إذا ما اضطرب جنانه وحاق به الكرب ، وتلهمه سداد الرأي ، إذا ما راحته الحيرة ، واختلط عليه الأمر ، وتقوده في سبيل السلامة ، إذا ما ضل الطريق ، وانقطع به حبل الرجاء ، وتبث فيه القوة ، إذا ما خارت عزيمته ، واستولى عليه القنوط .

لم تكن إلا دقائق معدودات ، حتى صاح بنا العريف : يا رفاق الحركة بركة ، والقعود خور ، والنكوص هزيمة ، فهيا إلى العمل ، فتفرقنا في الوديان ، نبحث ونستكشف ، ثم عدنا بعد ساعة ، وقد وطد عزمنا على تخليص السيارتين ، ومواصلة السير ، مهما كلفنا الأمر .

كان لا بد — لتخليص السيارتين — من إدلائهما إلى الوادي من ارتفاع خمسين متراً أو يزيد . لجأنا بحبل متين كان معنا . وربطنا طرفه بمؤخر إحدى السيارتين . ثم ركبها أمهرنا قيادة . ودفعنا بها إلى المنحدر . على جانب الجبل فأخذت تترنح ذات اليمين ، وذات الشمال ، مرة تنزلق ، ومرة تنحدر ، ومرة تهوي . ونحن من خلفها متشبثون بالصخر . ممسكون بالحبل . بعزم شديد . بين جذب وشد مرة تنكفئ على وجوهنا . ومرة ننتصب واقفين . ومرة ننسحب على ظهورنا . ودام الحال على ذلك مدة نصف ساعة حتى وصلت السيارة . ووصلنا معها إلى قاع الوادي سالمين . وقد تسلخت أيدينا وسواعدنا . وتقرحت أرجلنا . وتمزقت ملابسنا ، ثم عدنا إلى السيارة الأخرى غير مبالين بما أصابنا ففعلنا بها مثل ما فعلنا بالسيارة الأولى . ثم استأنفنا السير .

شاءت الأقدار بعد هذا الحرج أن تصلح الأمور ، فنصل إلى مجرى الوادي الكبير ، من غير كبير عناء ، ونعثر على الدرب اتفاقاً . وينكشف لنا الدير على غير انتظار ، ونهتدي إلى الطريق المؤدي إليه بأسرع مما توقعنا . ثم وصلنا الدير في الأصيل . بعد خمس عشرة ساعة ، وكانت من أشق ساعات العمر وأصعبها ، فرحين بالسلامة ، وبالوصول إلى الغاية .

الدمرداش محمد

الحياة التجارية فى المدينة

بعـــد الهجرة

للأستاذ إحسان عباس

لم يكن خروج النبي وأصحابه إلى بدر أول حادث قصد به محاربة قريش فى حياتها الاقتصادية القائمة على التجارة ، بل إن أكثر السرايا التى خرجت قبل بدر كانت غايتها ترصد عير قريش — كذلك كانت أول سرية خرج فيها حمزة ، ومن أجل هذا الغرض نفسه كانت غزوة ودان وذى العشيرة ؛ ومن المؤكد أن هنالك نوعاً من السرايا — على الأقل — خرجت تحاول التعرض لعير قبل معركة بدر وترصد القوافل فى رجوعها من بلاد الشام أو فى ذهابها إليها ، والعير التى من بعدها نشبت معركة بدر ترصدها المسلمون فى ذهابها وإيابها ونجت منهم فى الحالين .

وكانت تلك القوافل المكية لا تزال على ما كانت عليه قبل البعثة من كثرة فى عدد الجمال ووفرة الأدلاء والخفراء وسعة فى رءوس الأموال ، ونسمع أن إحداها كان يرأسها أبوجهل ومعه ثلاثمائة رجل ، وأن قافلة أخرى كان يسير بها أمية بن خلف الجمحى ومعه مائة رجل وعدد الجمال فيها ألفان وخمسمائة بعير ، ويقال إن العير التى نجت من المسلمين قبل بدر كانت ألف بعير ، ورأس مالها خمسين ألف دينار . وكانت هذه القوافل لا تزال تحمل إلى سورية التمر والأدم وزبيب الطائف ، وتعود من الشام محملة بالخمر والزيت والقمح وغيرها .

والحق أن بدراً لم تستطع أن تحطم التجارة القائمة بين مكة والشام ، ولذلك تلتها محاولات كثيرة جرب المسلمون فيها أن يضربوا الاقتصاديات القرشية ؛ وفى السنة السادسة من الهجرة استطاعت سرية يقودها زيد بن حارثة أن تستولى على عير لقريش راجعة من الشام وتحرز ما تحمل من سلع . وكان من نتيجة هذه السياسة أن تحققت قريش من أن المسلمين فى المدينة يهددون أمن ناحية لديها ، وقد عبر أبوسفيان عن هذا الشعور بالشعور الاقتصادى فى قوله : « كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصدتنا حتى نهكت أموالنا »(1) .

غير أن الحرب فى الحقيقة لم تكن خطراً على المكيين وحدهم ، بل كانت خطراً على مصالح الفريقين معاً . ولعل الرسول أبدى تساهلاً فى صلح الحديبية لأنه كان يدرك ببعد نظره حاجة المدينة إلى استقرار يكفل لها حياة اقتصادية نشيطة . كما أن القرشيين رحبوا بهذه الهدنة ترحيباً عملياً ، إذ عادوا يجددون رحلاتهم التجارية إلى الشام . وفى هذا يقول أبوسفيان : « فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله خرجت فى نفر من قريش إلى الشام وكان وجه متجرنا غزة(2) » . وفى السنة نفسها — أى بعد عقد الهدنة — نرى أهل المدينة أيضاً يجهزون قافلة إلى الشام على رأسها زيد بن حارثة ، ولكن هذه القافلة لم تعد بفائدة لأن ناساً من فزارة تعرضوا لها فى الطريق وضربوا زيداً وأصحابه وأخذوا ما كان معهم(3) .

ولم تكن هذه أول مرة يظهر فيها خطر هذه القبائل المقيمة على جانبى الطريق التجارية . فقد كانت من قبل خطراً على القوافل المكية ، وكانت المصالح التجارية تفرض على قريش أن تستعمل سياسة التلطف معها . فلما اعتنق بعض هذه القبائل الإسلام أو دخل فى معاهدات صداقة مع المدينة أصبحت طريق الشام أمام القرشيين محفوفة بالمخاطر . ولذلك كان من خطأ القرشيين أنهم ضربوا أباذر الغفارى وعذبوه حين أسلم حتى لقد نبههم العباس بن عبد المطلب

---

(1) الأغانى ط . الساسى ٩١/٦ .

(2) المصدر السابق .

(3) طبقات ابن سعد ج ٢ القسم الأول ، ص ٦٥ .

إلى خطئهم ذلك بقوله : « فقتم الرجل يامعشر قريش ، أنتم تجار وطريقكم على غفار ، أفتريدون أن تقطع الطريق » .

وقد ساعد إسلام أبي ذر على تهديد التجارة المكية فعلاً لأنه كان يخرج بقومه فيكمنون لعير قريش وهي تحمل الطعام فيغزونها حتى يضطروها إلى إلقاء حملها ثم يهجمون عليها فيجمعون الحنطة ؛ وكان أبوذر إذا استولى على الحنطة أقسم أنه لا يصيب أحد من قومه حبة منها حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها أخذوا الغرائر .

ولكن هذه السياسة التي أفادت المسلمين في المدينة أول الأمر عادت فأصبحت خطراً عليهم ، لأن السكوت عن عدوان هذه القبائل زاد في جرأتها وتماديها ، حتى أصبحت تتحكم في التجارة الوافدة إلى المدينة نفسها ، وتعرقل خطوات التجار الأجانب الذين يزودون المدينة بالمؤن ، حتى اضطر الرسول أن يخرج في أوائل السنة الخامسة للهجرة كي يؤدب جموعاً من البدو وقفوا في طريق الضافطة (التجار الأنباط) الذين كانوا يحملون إلى يثرب الدقيق والزيت .

بالإضافة إلى هذه السياسة الخارجية القائمة على إضعاف قريش في النواحي الاقتصادية وعلى محالفة القبائل وإخضاع بعضها ، شهدت المدينة بعد الهجرة نشاطاً داخلياً في حياتها التجارية ، فقد جاءها المهاجرون المكيون وفي صدورهم تلك الحماسة التجارية والمقدرة الاقتصادية التي اكتسبوها من بيئة مكة ، وزادهم نشاطاً رغبتهم في أن لا يكونوا عالة على إخوانهم من الأنصار ؛ وربما كان عبد الرحمن بن عوف من أبرز الأمثلة على مقدرة تجارية فذة ، فإنه حالما حل في المدينة قال دلوني على السوق . فدلوه وذهب فتاجر وعاد يحمل معه ما ربحه من سمن وأقط . ولم تمض عليه إلا مدة قصيرة حتى تزوج من المال الذي حصله بالتجارة وأصبح له على عهد الرسول قافلة تتكون من سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام .

وفي بدر الصغرى خرج الرسول مع أصحابه يحملون بضائع وتجارات ، وكانت بدر مجتمعاً للعرب وسوقاً تنعقد لمدة ثمانية أيام من شهر ذي القعدة فباع المسلمون بضائعهم وتجاراتهم وربحوا الدرهم درهماً . وكانت المدينة أيضاً مقصداً للتجار الغرباء ، وخاصة من الشام . وفي الأخبار أن أبا الحصين الأنصاري كان له ابنان ، فقدم تجار من الشام فتنصرا ولحقا بهم . وكذلك نجد من الغرباء في المدينة سبحونة البلقاوي النباطي الذي جاء في جماعة من التجار الغرباء يحملون القمح إلى المدينة ، وأرادوا أن يشتروا منها تمراً فتشدد عليهم أهل المدينة واشتطوا في الثمن ، ولم يعدل بهم عن تشددهم إلا تدخل الرسول فإنه قال لهم : أما يكفيكم رخص هذا الطعام بغلاء هذا التمر ؟ .

وكان للنساء حظ من هذا النشاط ، إذ نسمع عن نساء كن تاجرات ، ولكن لا كتاجرات مكة اللواتي كن ينفقن على إعداد القوافل وتخرجها إلى الشام ، بل تاجرات محليات وخاصة من كان منهن يزاول بيع العطور .

وقد عبر أبو هريرة عن هذا النشاط التجاري معللاً لزومه للرسول بقوله : « إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم » . فقد قضت الحياة على الفريقين من مهاجرين وأنصار أن ينصرفوا إلى العمل ، وشهدت المدينة بتزايد عدد السكان وربما بتزايد المنافسة ، حيوية مبكرة في الميدان التجاري . ولكن علينا أن لا ننسى جوانب أخرى تأثرت منها الحياة التجارية في المدينة ، فقد جاءت الهجرة لها بطبقة من الفقراء الذين لم يكونوا يجدون ما يأكلون ولا ما يحملون ، وكان القضاء على اليهود فيها قد أظهر بوضوح أهمية النهوض بالنواحي الاقتصادية . أضف إلى ذلك أن التشريعات الإسلامية التي حرمت الخمر قد أسقطت جزءاً هاماً من السلع التي كانت تجلب من الشام . كما أن بعض أهل المدينة انصرف عن تجارته لأنه رآها تعوقه عن العبادة ، ومن أمثلة هؤلاء أبو الدرداء الذي يقول : « كنت تاجراً قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم (المقصود أن يهاجر) فلما بعث زاولت التجارة والعبادة فلم تجتمعا ، فأخذت العبادة وتركت التجارة[1] » .

إحسان عباس

---

(1) طبقات ابن سعد جـ ٢ القسم الثاني ص ١١٢ .

الشرق فى أدب الغرب

— ١ —

للأستاذ محمد عبد الحليم محمود

ليس ما أكتبه اليوم بحثاً بالمعنى الصحيح ، فلم أتبع فيه منهجاً خاصا ولم أحاول الوصول إلى نتائج معينة ... وإنما هو سياحة فى مجموعة من كتب غربية شتى ، فيها حديث قد يطول أو يقصر عن الشرق والشرقيين . وقد أردت أن أجلو بعض صور الشرق التى رسمها المؤلفون الغربيون فى كتبهم هذه ... أجل ، وهى صور عديدة قد يبدو الكثير منها غريباً بالنسبة إلى القارئ الشرقى نفسه ، لأن الكثير منها بعيد عن واقع الحياة ، ولكنها فى مجملها تعبر عما كان ، وما زال يختلج فى ضمائر الغربيين من أفكار وتخيلات عند ذكر الشرق وأهله ووسائل الحياة فيه .

ولم أراع فى اختيار المؤلفات التى أتحدث عنها خطة معلومة ؛ وإنما هى كتب ورسائل ، وقعت تحت يدى اتفاقاً فطالعتها ، ثم رأيت فيها شيئاً يستحق النقل والنشر ...

فى « الرسائل الفارسية »

للكاتب الفرنسى مونتيسكيو

نحن فى هذا الكتاب ننتقل إلى العقلية الغربية فى القرن الثامن عشر الميلاد ، فنرى كيف كانت تنظر إلى الشرق بمنظار ساذج فى مظهره وإن كانت هذه السذاجة تخفى أغراضاً بعيدة وأهدافاً لا يدركها إلا القارئ اللبيب . أراد الفيلسوف مونتيسكيو أن ينقد فيه حياة أهل فرنسا وتقاليدهم وفكرهم فاتخذ أسلوباً قصصياً بسيطاً هو أن يتخيل زيارة رجلين من أعيان الفرس لمدينة الفرنسيين الكبرى باريس ... ولا يهمنا هنا فى كثير أو قليل ما لاحظه الشرقيان من متناقضات فى هذه المدينة الغربية عنهم بنظامها الإدارى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى إلخ ... وإنما نحب أن نعرض تلك الصورة التى قرت فى أذهان كتاب القرن الثامن عشر عن الشرقيين ، والتى أثبتها الفيلسوف فى فصول شتى من كتابه ...

والحق يقال أن هذه الصورة ليست من الصور المشرقة ، وإن كانت هى الصورة التى استحوذت على العقول زمناً طويلاً ... فأحوال الشرق نفسها فى هذا القرن الثامن عشر لم تكن على خير ما يرام . والقاص يبدأ حكايته بوصف الحالة السياسية لمجموعة دول البلقان والبلدان التابعة لسلطة الأتراك ، وهذه الأقطار كان قد دب فيها الفساد وطغى عليها الحكام بشكل يدعو للعجب والسخط ، هذا على ما كانت تتصف به بعد ذلك من الضعف والانهيار . والكاتب يستعمل فى تحليله للدولة العثمانية كلمة « الجسم المريض » ، ويقول عنها : « فى هذه الأقطار نرى الباشوات يحصلون على إمارة الولايات لا بالكفاءة ولكن ببذل المال ، فيعمدون إلى تخريب ولاياتهم ونهبهم لتعويض ما دفعوا مقابل الاستيلاء عليها ... الشرطة لا يعملون إلا حسب أهوائهم ، والحصون مهدمة مهجورة ... ولقد أعرض هؤلاء البرابرة عن كل فن حتى فن الحرب ... »

ولكن الفكرة التى لا تزايل رأس المؤلف فى كل فصل يخطه من الكتاب هى فكرة « حياة المرأة فى الشرق » . وهنا يجدر بنا أن ننبه القارئ إلى أن هذه الفكرة عن المرأة الشرقية مازالت إلى يومنا هذا عالقة بأذهان الغربيين حتى المثقفين منهم ؛ فهم يعتقدون أن كل رجل فى الشرق مهما كان مركزه تافهاً لابد له من حريم ضخم وأغوات يخدمون نساءه . وفى « الرسائل الفارسية » التى نحن بصددها نرى بطل القصة الفتى أوزبيك لا ينفك يذكر نساءه وقصره الملئ بالجوارى ، ولا ينفك فى خطاباته يوصى رئيس الأغوات بصيانة هذه الدرر الغالية ويحذره من التفريط فى حراستهن . ونقرأ وصفاً دقيقاً لهذا الحريم ، فتراه كالبوتقة الكبيرة تغلى فيها العواطف الحبيسة على نار الحرمان واليأس ، ثم نرى تلك العواطف تنفجر بغتة فلا تستطيع قوة على الأرض أن تضبطها ...

وناحية أخرى من الشرق يتعرض لها المؤلف هى الناحية الدينية ، وأظنه لم يفهم الإسلام على حقيقته ، لأنه اتخذ

فقط وسيلة ميسرة لنقد الديانة المسيحية ، ولذلك فقد وقع في كثير من الخلط والإسفاف .

وهناك بعد ذلك مقارنات طريفة بين الحياة في مدينة أصبهان ومدينة باريس ، وتعليلات مختلفة للخلافات الكثيرة بين الشرق والغرب .

في قصة « تاييس »

للكاتب أناتول فرانس

الإسكندرية ... في عصر سطوة المسيحية الأولى وسيطرتها على العقول ، رغم وجود الكثير من المشركين الذين ما زالوا مؤمنين بعقائد الأجداد : فهناك فريقان متقابلان متنافسان ... فريق المؤمنين بالمسيح وعلى رأسهم الكهان ورهبان الصحراء ؛ وفريق المشركين بالله ومن بينهم أغلب رجال الوظائف وأصحاب الثراء . والبون شاسع بين كلا الفريقين : فالمسيحيون ما زالوا في فورة الحماس الأول لدينهم ، يؤمنون به أقوى الإيمان ويضحون في سبيله بالنفس والنفيس ؛ والمشركون المترفون من السادة الأغنياء ، لا تهمهم آلهتهم بقدر ما تهمهم المحافظة على أموالهم وسلطتهم وحياتهم الناعمة الرخية .

ولا بد ، والحال هذه ، أن يكون الصراع سجالاً بين أصحاب المسيح وبين المشركين ؛ وقد عمد هؤلاء المشركون في أول الأمر إلى اضطهاد المسيحيين والتنكيل بهم ، ولكن أعياهم أمرهم ، فكفوا عن تعذيبهم بعد أن أصدر الإمبراطور الروماني ، صاحب السيادة على الإسكندرية في ذلك العصر ، قراراً بوقف الاضطهاد الديني . بيد أن الصراع انتقل إلى حيز الجدل والمناقشة ... وكان الرهبان المسيحيون قد اعتزلوا في الصحراء الغربية وأسسوا لأنفسهم هناك شبه دولة قوية لها قوانينها ولواؤها ورؤساؤها ، وهي بعد ذلك ترسل إلى المدينة بين الفينة والفينة رجالاً من أتباعها يدعون للدين الجديد ويعملون على تقوية سلطانه ...

وكان بافنوس من رؤساء الرهبان الذين اعتزلوا في الصحراء ، وكان مشهوراً بالتقوى والجد والزهد . وقد راوده خياله في يوم من الأيام أن يذهب إلى الإسكندرية ليحاول هناك أن يهدي إلى دين الله فتاة مشهورة من بائعات الهوى تعيش في المدينة عيشة فسق وفجور . ورحل الرجل إلى حيث تعيش الفتاة وتنجح محاولته في هدايتها ، وتستقر أخيراً في دير من أديرة الراهبات تحيا فيه حياة القديسات وتموت مبتهجة ، ولكن الله لم يثب بافنوس على هذا العمل الجليل ، بل أوقعه في شرك الشيطان الذي جعله يحب فتاته حباً جنونياً ويكفر بالله وبالمسيح في سبيل الوصول إليها .

وريشة الكاتب قد أبدعت حقاً تصوير المناظر المصرية خلال وصفه لخوالج النفوس وصبوات القلوب . فنحن نرى آيات شتى من جمال النيل والصحراء ، تنطق بالروعة في سحرها الساذج البسيط ، ونحن نرى وصفاً دقيقاً لمدينة الإسكندرية في عهد الرومان بفخمها الفاخر في قصور السادة وفقرها المدقع في الأحياء الشعبية ، ثم نشهد أطرافاً من حياة شعبها في دور اللهو وفي الأسواق ... ويعطينا الكاتب نماذج من البشر في ذلك العصر البعيد : منها الراهب المتبتل الثائر الذي هجر أسرته وماله ووطنه ليحيا في دين المسيح حياة خشنة عسيرة ؛ ومنها الفيلسوف الذي لا يؤمن بشيء ، ولا يريد أن يؤمن بشيء ، فيغرق في اللذات ويحاول إمتاع جسده في غير حياء أو تحفظ ، ومنها الفتاة التي بدأت حياتها بائعة للهوى وختمتها قديسة في دير وسط الصحراء ، ومنها الموظف الكبير الذي ينظر إلى كل شيء من ناحية فائدته للدولة أو عدم فائدته ... كل ذلك في إطار جميل يخلب لب القارئ : سماء مشرقة وصحراء مترامية الأطراف وآثار قديمة نثرت هنا وهناك ، وحياة لهو زاخر تقابلها حياة زهد شديد ...

خلاصة القول أن الإسكندرية في قصة « تاييس » مثال حي للمدينة الشرقية إبان حكم الرومان في العصور الأولى لانتشار المسيحية ...

« في الشرقيات »

للشاعر فيكتور هوجو

ديوان من الشعر نظمه الأديب الفرنسي الكبير في مستهل حياته ، فنفخ فيه من حماس الشباب وفورة الصبا ... في هذا الديوان الذي أسماه « الشرقيات » جمع هوجو قصائد عدة تجمع بينها ما فيها من حديث الشرق . والشرق عند الشاعر يشمل بلاد اليونان وبلاد الإسبان وما بينهما من الأقطار الإفريقية والأسيوية الخاضعة للعرب أو للأتراك .

ويعترف الشاعر أنه لم يهدف من وراء ديوانه هذا إلى غرض معين ، وإنما هي « نزوة طارئة » ورغبة غير مسببة من رغبات النفس دفعته إلى أن يسيح في بلاد الشرق المختلفة

الحلم

للأستاذ أمين سلامة

[هذا لوسيان الأديب يقص على نفر من صحبه ، الحلم العجيب الذي قرر مصيره] :

لما دخلت في طوق الصبا ، انقطع اختلافي إلى المدارس ، وبدأ والدي يفكر هو وصحبه فيما ينبغي أن يعلمني بعد ذلك ، وارتأى الكثير منهم أن التعليم العالي يتطلب جهداً كبيراً وزمناً طويلا ، ونفقات طائلة وحظاً اجتماعيا ملحوظاً ، يختلف عما نحن فيه من حال متواضعة تحتاج إلى مساعدة متصلة .

ثم إنهم رأوا أن من اليسير — لو تعلمت فناً يدوياً — أن أحصل على ما يكفيني من المال فلا أظل عالة على أسرتي بعد أن قطعت من العمر هذا الشوط ، وفضلا من هذا فإن دخلي سيسر الأمر لوالدي فتقر عيناه من حين إلى حين .

وبعدئذ طرح على بساط البحث هذا السؤال : « ما هي أنبل الحرف شأناً ، وأسهلها تعلماً وأليقها بشاب وله حراً بحيث تستنفد نفقة يسيرة وتدر دخلاً كافياً ؟ » .

امتدح كلٌّ حرفة وفق رأيه الشخصي أو تجربته الذاتية ، وكان خالي ضمن الحضور وكان مثالاً ذائع الصيت ، فرنا إليه والدي وقال : —

« ليس من الحق في شيء أن حرفة أخرى ستفوق حرفتك ما دمت حياً ، خذ بيدك هذا الصبي ، مشيراً إلي ، وعلمه فن الحفر والنحت فإنه كما تعرف ممن ينزعون إليه » .

صدر عن والدي هذا القول مستمداً حجته من نزوعي إلى الحفر كلما انتهيت من الدرس وصرفني الأساتذة ، فقد كانت عادتي أن أزيل الشمع عن لوحي وأشكّل منه دمى

وتخرج منها بصور شعرية فنية تتصل بأسباب إلى الواقع وبأسباب أخرى إلى الخيال . والكتاب في جملته يعبر عن التيار القوي الذي بدأ في أوائل القرن التاسع عشر يجذب الأنظار إلى الشرق ، وإلى مشاهده المختلفة وحضاراته الباهرة . ويقول الشاعر في مقدمة ديوانه : « وإذا تدبر القارئ الأمر — إن كان أمر ديواني يستأهل التدبر — لوجد أن إخراج كتاب من الشعر عن الشرق ليس بالشيء الغريب كما قد يخطر على البال لأول مرة . فالاهتمام بالشرق في عهدنا الحاضر قد بلغ حداً لم يبلغه في أي قرن من القرون السالفة .. كان العلماء في عهد لويس الرابع عشر يفخرون بمعرفتهم لآداب اليونان وحضاراتهم ، واليوم يفخرون بكونهم مستشرقين ! وهذا تقدم لا جدال فيه ... ولقد كان من جراء ذلك أن أصبح الشرق فكرة ثابتة في عقول الناس أجمع وتياراً قوياً في ثقافاتهم ربما خضع له كاتب هذه السطور دون أن يشعر ... »

وهناك أنواع ثلاثة من الصور يعود إليها الشاعر في أغلب « شرقياته » . وهي : صور حرب الاستقلال اليونانية ، وصور الصراع العنيف الذي كان بين المسيحيين والمسلمين في إسبانيا ، ثم صور الترف والنعم في حياة السلاطين الشرقيين . وطبيعي من الشاعر أن يحمل في كل هذه الصور على العرب والمسلمين ، وطبيعي أن يحاول بيان بطولة الغربيين المسيحيين وشجاعتهم في مكافحة أهل الشرق ... وبعض عناوين القصائد قد تعطي القارئ فكرة عن محتويات الديوان ، وهاك طرفاً منها : « نفارينو ، يأس الباشا ، صرخة القراصنة ، الأسيرة ، النقاب ، السلطانة المحظية ، الدرويش ، المعركة الخاسرة ، غرناطة ، الناقوس الغاضب ... إلخ ... »

ولكن إلى جانب هذه المقطوعات الكثيرة التي يحمل فيها الشاعر على أهل الشرق ، نجد قصائد أخرى ترسم في روعة وقوة أجواء الشرق وصور جماله ، ومن هذه القصائد أخص بالذكر قصيدة « الجن » التي بلغت من سمو الفن وإتقان الصناعة حداً يثير العجب ...

(المقال بقية)

محمد عبد الحليم محمود

على هيئة البقر والخيل أو على هيئة الإنسان . وما كان أحيا هذه الدمى فى نظر والدى ، ولكن دفع نزوعى إلى الحفر أساتذتى فساموني مختلف ألوان العقاب ، بيد أنه فى هذه المرة دفع والدى إلى امتداح قطعتى وانتظار الخير على يدى ، ظناً منه أن هذا النزوع إلى الحفر سييسر لى الأمر فأستوعب فن النحت فى زمن قصير .

وفى يوم حسن قاله تسلمنى خالى . والحق أنى لم أحزن لهذا التسليم ، بل على النقيض من هذا كنت قرير العين مغتبط الفؤاد لأنى حسبت أن فى صناعتى الجديدة لذة ومتعة ، وأن الفرصة قد حانت لأظهر لأقرانى طاقتى فى صنع التماثيل النصفية على هيئة الآلهة أو على صورة الأخيار من أصحابى .

وهنا اعترضتنى العقبة الأولى التى تعترض المبتدئين جميعاً فى الكثير من الأحيان .

ذلك أن خالى قدم إلىّ أزميلاً ووضع بيننا لوحاً من الحجر ، ثم أمرنى أن أطرق هذا اللوح طرقاً خفيفاً ، وذكر القول المأثور « البداية الحسنة إتقان لنصف العمل » .

ولكن قلة مرانى جعلت طرقى صعباً ثقيلاً ، فانكسر اللوح تواً ، وأخذه الغضب فهرع إلى عصاه وأمطرنى ضرباً لا يعرف حناناً ولا يرجى منه تشجيع . بيد أنى لذت بالفرار مولياً وجهى شطر الدار فوصلت إليها ذارف العينين لهثان ، وإذ ذاك طيرت الخبر إلى أمى وأريتها آثار الضرب على جسدى ، ثم رميت أخاها بقسوة القلب وغلظة الكبد ، وقلت إنه فعل ما فعل حسداً منه وغيظاً ، خشية أن أبذه فى صناعته ، ولكنها هدأت من روعى ، ولعنت أخاها لعناً شديداً خفف عنى شيئاً من الألم ، ولما أرخى الليل سدوله آويت إلى مضجعى دامع العينين مفكراً فى العصا .

• • •

حقاً إن الحديث حتى الآن لحديث أطفال فيه طرافة وفكاهة وليس فيه من الفكر ما يدعو إلى الانتباه . ولكن مهلاً ، أيها الرفاق ، فلن تسخروا من الحديث بعد الآن ، ولكنكم ستسمعون سحراً حلالاً يعقل الأفئدة ، ويأسر الألباب .

ذلك أنى — كما يقول هومير — رأيت فى المنام طيفاً مباركاً فى ليلة خالدة ، وكان الطيف حياً ناطقاً كما كان واضحاً بيناً ، كأنه حقيقة لا لبس فيها ولا إبهام ، ثم إن هذه السنين التى ولت لم تمح من الطيف شيئاً ، فهأنذا الآن أرى كل ما رأيت مرتسماً أمام عيونى ، وهأنذا الآن أسمع كل ما سمعت إذ ذاك يرن فى آذانى .

أجل رأيت فى المنام سيدتين ، أما الأولى فقبضت بكلتا يديها على ذراعى اليمنى ، وأما الثانية ففعلت بذراعى اليسرى ما فعلت الأولى بذراعى اليمنى . ثم إذا بهما تختلفان فيما بينهما ، وأخذت كل واحدة منهما تجذبنى نحوها جذباً مرهقاً كاد يمزقنى إرباً ، وأرادت إحداهما أن تظفر بى عنوة ولكن القدر خذلها ، ورغبت الأخرى لو حظيت بما لم تحظ به الأولى ، ولكن قدر لها أن تخفق . . واستمرت الحال هكذا مدة من الزمن ، أتبع هذه حيناً وأتبع تلك حيناً آخر ، وهكذا دواليك مثنى وثلاث ورباع إلى أن أخذهما التعب ، فصرخت كل منهما فى الأخرى ، وقالت إحداهما : « إنه لى ، فماذا تبغين منه ؟ » . فأجابتها الأخرى : « بل هو لى ، فكيف تحاولين اغتصاب من لا علاقة لك به ؟ » :

وكانت إحداهما خشنة قذرة دميمة الخلقة كأن الحظ قد سطا عليها فسلبها أنوثتها فأصبحت ذكراً بينه وبين الجمال عداوة لا تزول ، لها رأس عليه شعر مجعد غير ممشط ، ويدان مشوهتان معروقتان ، وتلبس ثياباً مهلهلة تعلوها طبقة كثيفة من الجير ، وتلف نفسها بمنطقة ، كأنها خالى وقد أعد نفسه لحفر الأحجار .

وكانت الأخرى فاتنة الوجه جميلة الهيئة ذات ثياب أنيقة فاخرة .

وأخيراً أذنتا لى أن أختار منهما واحدة أقضى معها بقية العمر ، ثم بدأت المرأة القبيحة البغيضة تقول :

« أنا ، أيها الفتى العزيز ، فن النحت والحفر الذى شرعت تتعرف به أمس . وإن بينى وبين أهلك لمودة قديمة لا تمحى ، فجدك كان مثالاً ، وهنا ذكرت اسم جدى لأمى ، وكذلك كان عماك ، ولولاى ما سار بذكرهما الركبان ، فإن شئت الخلاص من هذيان هذه المرأة ، مشيرة إلى الأخرى ، فهلم إلىّ واقض معى بقية عمرك ، وستجدنى إن شاء الله مربية

صالحة أشد أزرك وأطهر نفسك من درن الحقد والحسد، وما دمت معى فلن تركب اليم إلى الخارج، بل سيسعى الناس إليك سعياً حثيثاً متسابقين فى طرح الثناء عليك. لا تتقزز من هيئتى المتواضعة، ولا تتأفف من مئزرى القذر! فعلى هذا النحو بدأت حياة فيدياس الذى صنع تمثال هيرا، وعلى هذا النحو استحق ميرون ثناء الناس، ونال براكستيليس إعجابهم. وحقاً إن لهؤلاء يسجد الناس خاشعين كما يسجدون للآلهة. فلو قدر لك أن تكون واحداً منهم سنحت لك فرصة ذهبية لتصير ناراً على علم، ولحسد أبوك أقرانه، ولأصبح وطنك كعبة للمعجبين.

فاهت صناعة النحت بهذا الكلام وبأكثر من هذا الكلام، ولكنها كانت تتعثر فى إخراج مقاطع الكلمات، كأنها بربرية بينها وبين الفصاحة حجاب كثيف. ومع كل فليس يحضرنى الآن من حديثها إلا ما ذكرت، لأن مضى الزمن أنسانى من أمرها الشىء الكثير.

وما فرغت صناعة الحفر من كلامها حتى راحت الأخرى تقول: « أما أنا أيها الصبى، فمن التعليم، ومع أنك لم تذقه من سبر غورى حتى الآن، فإن بينك وبينى ألفة ومعرفة. لقد حدثتك هذه المرأة عن الخير الذى سوف تجتنيه لو أصبحت حفاراً، ولكنها نسيت أنك يوم ذاك لن تكون إلا عاملاً يشقى جسمه، ويحرق أعصابه. ثم لن تكون يومئذ إلا نكرة يرتدى ثياباً بسيطة زهيدة الثمن لخمول ذكره وبلادة ذهنه. فلن يسعى إليك صديق ولن يخشى بأسك عدو، ولن يحسدك قرين، لأنك لن تكون إلا عاملاً أو واحداً من الغوغاء، أو صعلوكاً يستجدى العطف بذلة ومسكنة أو تابعاً لمن أوتى القدرة على الكلام أو مطية يمتطيها النابهون من القوم. وحتى لو أصبحت فيدياس أو بوليكليتس، وأتيت الكثير مما هو عجيب أخاذ، فالناس سيمتدحون فنك ولكن أحداً من الناظرين إليك — لو قدر وكان له شعور نبيل — لن يقبل أن يكون شبيهاً بك، لأنه مهما قدر لك أن تكون، فلن تكون إلا عاملاً لا يملك غير يديه ولا يرتزق إلا بعرق جبينه.

بيد أنك لو اتبعت نصحى فسوف أطلعك قبل كل شىء على مؤلفات النابهين من الكتاب، وسأريك أعمالهم الجيدة وحكمهم الغالية، وسأجعل منك شخصاً مثقفاً ملماً بألوان المعرفة كلها. هذا فضلاً عن أنى سأجمل روحك وهو أعز ما تملك بأنضر أنواع الحلى، كالعفة والعدل والتقوى والفطنة والصبر وحب كل ما هو جميل والغيرة على كل ما هو مقدس، وغير ذلك من حلى الروح الأصيلة! كما أنك لن تجهل الماضى ولن تغفل عن الحاضر، بل وستعرف المستقبل أيضاً ما دمت رفيقاً لى. وقصارى القول سأعلمك كل شىء فى زمن قصير سواء فى ذلك ما يخص الآلهة وما يخص المجتمع.

ورغم الفقر المدقع الذى أنت غارق فيه الآن، ورغم أن أباك قد بلغ من الشحة أنه وطد العزم على احترافك مثل هذه الحرفة الدنيئة — فإنك ستتبوأ فى القريب العاجل مركزاً سامياً يحسدك عليه الناس جميعاً. ولسوف تحترم ويثنى عليك وتعظم خلالك الحسنى فى أعين النبلاء والأغنياء، فيعرفون قدرك ويعجبون من أمرك. ولسوف ترتدى ثياباً فخمة (وأشارت إلى ثوبها الجميل الفاخر). ولسوف تسعى إليك الوظيفة راضية والزعامة مختارة. ولسوف تتطلع إليك جميع العيون لو أن حدثاً ذا بال واجه صحبك أو ألم بوطنك! وإذا شاءت الأقدار أن تلقى خطاباً فى وقت ما فسوف ينصت الشعب إليك فاغراً فاه معجباً، ولسوف يهنئك على بلاغتك ويهنئ والدك على حظه السعيد.

يقولون إن بعضاً من الرجال حقاً لا يموت، لكننى سأجعل منك رجلاً خالد الذكر، وسأحفر لك صورة فى أدمغة أساطين العلم فتصبح حديثاً شهياً يردده كبار الناس فى المجتمع الإنسانى.

أنت تعرف من هو ديموستين ومن كان أبوه، وكيف خلقت منه شخصاً عظيماً. وتعرف أيسخينيس، وكيف أن فيليب كان يسعى يتردد إليه، مع أنه كان ابناً لإحدى الراقصات. وتعرف سقراط الذى تربى على يدى صديقتنا صناعة الحفر، ثم أقبل إلىّ مسرعاً حالما ثاب إلى رشده وميز الخبيث من الطيب، وأظنك قد سمعت أن سقراط أضحى أغنية يرتلها الناس أجمعين.

أما إذا أعرضت عن هؤلاء العظماء والنبلاء، وعن الأعمال الجليلة والألفاظ المقدسة والهيئة الفخمة، وعن الشرف والشهرة والإطراء والزعامة والقوة والوظائف، وعن

الصبت بالبلاهة والتبجيل من أجل الذكاء والعبقرية . فسوف ترتدى ثياباً قذرة تماماً كما لو كنت عبداً خسيساً ، وسوف تقبض بيديك على القضيب والعتلة والأزميل والسكين وتعمل وأنت محنى الظهر . ولن ترفع رأسك فى وجه عدو أو حبيب ، ولن تسلك فى التفكير مسالك الأحرار الشجعان ، ولو أتيح لعملك أن يكون رشيقاً منسقاً ، فلن يتاح لك أن تكون كذلك ، بل ستكون دائماً أقل قيمة من الحجر .

وبينما كانت هذه الألفاظ تتراقص بين شفتيها أسرعت الخطى إليها دون أن أترك لها فرصة لتنتهى من إسداء النصح إلى ، عازفاً عن المرأة البغيضة المشفقة ، مقبلاً على التعليم صادق النية قوى العزم ، سيما وقد تذكرت إذ ذاك أمر العصا وآثارها على جسدى فى بداية العمل أمس .

بيد أن عزوفى عن صناعة الحفر أغضب مراجل غضبها وأكثر من حفيظتها ، فراحت تصفق بكفيها وتضغط على أسنانها ، وأخيراً حدث لها ما حدث لنيوبى واستحالت إلى قطعة من الحجر .

بعد هذا رنت الأخرى إلىّ وقالت : « أما وقد حكمت بيننا بالعدل فسأجزيك خير الجزاء . أسرع إلىّ واركب هذه العربة — وأشارت إلى عربة تقودها جياد مجنحة — لتعرف ما قدر لك أن تجهل لو أنك رفضت الانضمام إلىّ » .

ولما استويت على مقعدى بالعربة شدت صناعة التعليم على اللجام وألهبت ظهور الجياد بالسوط فارتفعت العربة إلى عنان السماء ، وطافت بى من الشرق إلى الغرب ، فشاهدت مدناً وقبائل وشعوباً ، وفرشت الأرض طولاً وعرضاً بنوع من البذور ، ومع أنى لا أذكر الآن نوع البذور التى بذرتها إلا أنى أذكر أن كل من حلقت العربة فوق رؤوسهم طفقوا يصفقون لى ويصيحون نحوى بعبارات المديح والتقريظ .

وبعد أن استعرضت جميع هذه الصور ورآنى كل من صفق لى من الرجال عدنا إلى حيث كنا ، وقد خيل إلىّ أنى دخلت فى ثوب جميل رشيق مزركش بعد أن خرجت من الثوب الذى كنت أرتديه عندما بدأت العربة تطير .

ثم تقدمت صناعة التعليم إلى والدى — وقد كان ينتظرنى — وبينت له البون الشاسع بين الثوب الذى خلعته والثوب الذى رجعت فيه وذكرته فى رفق بعزمه على أن يجعل منى حفاراً .

* * *

هذا هو الحلم الذى أذكر أنى رأيته فى عهد الصبا ، وهو فى أكبر الظن راجع إلى الرعب الذى استحوذ على نفسى بسبب العصا وما تركته من آثار على جسدى .

وما كدت أنتهى من تلاوة حلمى حتى مال علىّ أحد الحضور وقال : « رباه ، ما أطول هذا الحلم وما أثقله » ! فتشجع زميل له وقال ساخراً : « أكبر الظن أن هذا الحلم قد وقع فى فصل الشتاء عندما يبلغ الليل منتهى الطول ، أو لعله استمر ثلاث ليال متوالية كما حدث لهرقل . ولكن ما الذى حدا به إلى أن يقص علينا شيئاً من ترهاته ويحدثنا عن ليالى صباه ويوقفنا على أحلام قديمة أكل عليها الدهر وشرب . إن الثرثرة أمر كريه . ألا يؤمن بأننا لا نستطيع أن نفسر حلماً » .

قلت : مهلاً أيها الرفيق العزيز ، ليست هذه بغيتى ، وما كانت بغية زينوفون حين قص على الناس حلمه الذى رأى فيه صاعقة تهبط على منزل أبيه فتحرقه ، إلى آخر ما تعرفون جيداً . نعم ، ما كان زينوفون يبغى لحلمه تفسيراً ، وما كان يبغى أن يظهر الناس على بعض ترهاته خصوصاً وأن الوقت كان عصيباً بسبب الحرب واضطراب الأحوال والتفاف العدو حول الوطن . أجل ، ما كان زينوفون يبغى هذا أو ذاك ، وإنما كان يبغى من قصته فائدة معينة .

أما أنا فقد رويت لكم هذا الحلم لكى ينتهج الشباب الطريق القويم فينزعوا إلى التعليم دون اعتبار إلى الفقر الذى يرهق أهلهم ويشين معدنهم الكريم ، ويبث فى نفوسهم حب الخنوع والرضا بكل ما هو حقير دنىء ، وإنى لأعلم علم اليقين أن الشباب سيقوى كما استمع إلى حلمى ونسج على منوالى وتذكر فقرى والحال التى كنت عليها ، وكيف أنى أقبلت على التعليم بقلب لا يتطرق الضعف إليه ، ثم تذكر الحال التى أنا عليها الآن وكيف أنى وإن كنت لم أبذ الحفارين فلست أعتبر نفسى أقل منهم قدراً .

أمين سلامة

وثيقة حقوق الإنسان

مكتوبة بلغة الأطفـــال

[مأخوذة من نشرة اليونسكو صادرة في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٥١]

إن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، الذي أذيع أصلا باللغات الخمســة الرسمية لهيئة الأمم المتحدة ، ونشر فيما بعد بلغات أخرى لا تقل عن الثلاثين والأربعين لغة ، قد ترجم أيضاً إلى لغة إضافية أخرى هي لغة الأطفال . فلقد أدرك الناس في بلاد أخرى أن صياغة المبادىء التي ينطوي عليها هــذا « الإعلان » ونشرها ما بين الجماهير إنما يتوقفان ، في النهاية ، على الشباب . ولذلك عمد المربون في جميع أنحاء العالم إلى وضع نصوص سهلة المأخذ للاعلان المشار إليه بغية استعمالها في المدارس ، وقد رفعت طائفة من هذه النصوص إلى المؤتمر العام للاتحاد العالمي لجمعيات الأمم المتحدة ، الذي انعقد مؤخراً بمدينة « ستوكهولم » .

ونورد فيما يلي النص المبسط للاعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي تستعمله مدارس الفيلبين الابتدائية والثانوية في دروس التاريخ ، والشئون الاجتماعية والمدنية .

المادة : ١ — كل من في هذا العالم ، إخوان وأخوات ، تضم شملهم عائلة واحدة ، ولذا ينبغي لك أن تكون لطيفاً مع الآخرين محباً لهم مؤدباً معهم .

المادة : ٢ — إن حقوقك لا شأن لها مطلقاً ، بثروتك أو نسبك ، أو دينك ، أو جنسك ، أو لونك ، أو معتقداتك السياسية .

المادة : ٣ — إن من حقك أن تعيش وأن تبقى على قيد الحياة .

المادة : ٤ — ليس في استطاعة أحد أن يجعل منك عبداً .

المادة : ٥ — لا يمكن أن يفرض عليك أي أذى أو عقاب بأية طريقة من الطرق الشينة .

المادة : ٦ — إن حقوقك كإنسان ينبغي أن تكون موضع احترام أينما اتجهت .

المادة : ٧ — إنك تتمتع في نظر القانون بنفس الحقوق التي يتمتع بها أي شخص آخر .

المادة : ٨ — إذا ما غصبك غاصب حقاً من حقوقك ، فباستطاعتك أن تراجع القضاء لكي يعيده إلى نصابه .

المادة : ٩ — إذا لم تخرق القانون ، فليس في استطاعة أحد أن يعمد إلى توقيفك ، أو سجنك ، أو إبعادك عن مدينتك أو نفيك من بلادك .

المادة ١٠ — إذا اتهمت بإتيان عمل ينافي القانون ، يمكنك أن تطلب مقاضاتك علناً أمام محكمة عادلة .

المادة : ١١ — لا يجوز أن تعتبر مذنباً إلا إذا أثبتت عليك التهمة . ولا يجوز أن ينالك عقاب على عمــل لم يكن ينهى عنه القانون حينما أقدمت على إتيانه . ولا يجوز أن تفرض عليك عقوبة أشد من العقوبة التي حددها القانون يوم اقترفت الذنب .

المادة : ١٢ — لا يسوغ لأحــد أن يفض الرسائل الواردة إليك أو أن يقرأها ، أو أن يخرق حرمة مسكنك دون استئذان ، إلا في الحالات التي يبيحها القانون .

المادة : ١٣ — أنت حر في التجول في بلادك ، ولك أن تغادرها وأن تعود إليها متى شئت .

المادة : ١٤ — إذا شعرت أنك غير آمن في بلادك أو أنك تسام فيها سوء المعاملة ، فلك أن تهجرها وأن تعيش في بلد سواها . على أن لا تكون قد اقترفت إثماً يحول دون ذلك .

المادة : ١٥ — من حقك أن تكون منتمياً إلى أمة

من الأمم ، وليس في استطاعة أحد أن ينتزع منك هذا الحق ، أو أن يحول دون انتمائك إلى أمة أخرى إذا ما شئت ذلك .

المادة : ١٦ — يحق للرجال أو النساء ، أن يتزوجوا عمن يختارون متى بلغوا سن الرشد ، وأن يعملوا على تكوين أسرة لهم . ولا يحملن أحد على زواج يأباه .

المادة : ١٧ — من حقك أن تتملك الأملاك بمفردك أو بالاشتراك مع الآخرين ، ولا يمكن نزع هذه الملكية منك ، إلا بمحض إرادتك . على أنه يمكن انتزاع أي ملك منك إذا احتاجت الحكومة إلى استخدامه لمنفعة الشعب عامة .

المادة : ١٨ — من حقك أن تكون حراً في تفكيرك وأن تختار لنفسك ديناً تدين به ، وأن تبدل هذا الدين ، وأن تفصح عن رأيك فيه .

المادة : ١٩ — من حقك أن تقول ما تشاء ، أو تكتب ما تشاء ، وأن تتبادل الأفكار مع غيرك بأية طريقة تختارها

المادة : ٢٠ — من حقك أن تحضر الاجتماعات أو تنشئ الجمعيات ما دمت لم تخل بالطمأنينة والأمن . وليس لأحد أن يرغمك على حضور اجتماعات أية جمعية ، أو على الانتماء إلى هذه الجمعية .

المادة : ٢١ — من حقك أن تقترع وأن تتقلد الوظائف وأن يكون لك نصيب في كل عمل تعمله الحكومة للشعب . وعلى الحكومة أن تحترم رغبات الشعب .

المادة : ٢٢ — يحق للشأن تعيش شريفاً وأن تتمتع بكل ما يتوافر لوقاية الشعب من الجوع والمرض .

المادة : ٢٣ — من حقك أن تبحث عن أي عمل تستطيع القيام به ، وأن تتناول أجراً طيباً ، وأن يكون أجرك عن أي عمل تأتيه مساوياً لما يتقاضاه غيرك عنه . ومن حقك أن تنال شروطاً طيبة للعمل وأن تكون في نجوة من البطالة . ومن حقك أن تنشئ النقابات الصناعية أو أن تلتحق بها .

المادة : ٢٤ — من حقك أن تنال راحة في عملك وأن تكون ساعات عملك عادلة ، وأن تتمتع ما بين الآونة والأخرى بعطلة ذات أجر .

المادة : ٢٥ — من حقك أن تنال غذاء جيداً ، وكساء ومأوى ورعاية طبية وأن تعال إذا أقعدك المرض أو السن عن العمل ، ومن حق الأمهات والأطفال أن تخص بمثل هذه الحماية وأن تنال رعاية خاصة .

المادة : ٢٦ — من حقك أن تتعلم في المدارس الابتدائية بدون مقابل ، وأن تتاح الدراسة في معاهد التعليم التي تليها إذا كنت كفؤاً لذلك .

المادة : ٢٧ — من حقك أن تنال نصيباً من الاستمتاع بالفنون والعلوم وأن تتناول الأرباح التي تعود بها مؤلفاتك وأي عمل آخر تقوم به في حقل الفنون والعلوم .

المادة : ٢٨ — من حقك أن تعيش في عالم مطمئن سعيد ، تتوافر فيه جميع هذه الحقوق .

المادة : ٢٩ — عليك أن تقوم من جانبك بما يترتب عليك نحو المجتمع من واجبات ، وإنما ينبغي عليك أن تحرص وأنت تقوم بهذا الواجب على عدم الإجحاف بحقوق الآخرين .

المادة : ٣٠ — لا يحق لأحد ، فرداً كان أو أمة ، أن يتعدى على أي حق من الحقوق التي ينطوي عليها هذا الإعلان .

على محمود طه

للأستاذ عبد السميع المصرى

يا مرسل النغم العالى صدًى وروًى
يصبُّ فى أذن الدنيا وينساب
غنّت به ضفتا الوادى ورجّعه
من ألسن الشرق أشهاد وغياب(١)

أى على ! يا شاعر الجندول الحزين ! ما زالت أغانيك تملأ فراغ الكون وتتردد على كل لسان ، وما زالت ذكراك ماثلة أمام قلبى فى كل وقت تزكيها هذه الأغنيات الخالدة التى ترددها إذاعات العالم فى كل ساعة من نهار وليل ، ومازلت تحتل مكانك من مدرسة الشعر العربى الحديث التى كنت أحد دعائمها وتلاميذها المخلصين ، بل كنت أبرزهم طرآ وأعمقهم أثراً وأبعدهم ذكراً !

وكم نفس عليك هذه المكانة من عالم الشعر ، الكثير من الشعراء والأدباء وغيرهم ، وكم من قال : « كيف يسلك هذا الدخيل مسالك الشعراء ! » وكأن العاطفة الفياضة وقف على قوم دون آخرين أم كأنه ليس للمهندس أو الطبيب أو غيرهما من أصحاب المهن فى الحياة أن يعبروا من مشاعرهم أدباً أو شعراً .

وكم من الناس حالت دونهم ظروف الحياة ، وبين ما يبتغون من عمل فى الحياة أو طريق ... وهل على طه إلا أحد هؤلاء الذين حولتهم ظروف العيش إلى غير وجهتهم الأولى !

لقد ولد بمدينة المنصورة فى شهر يوليه سنة ١٩٠١ فى بيت من بيوتها العريقة ، إلا أن أباه كان تاجراً غير ذى ثراء ، وقد توفى عنه وهو فى التاسعة من عمره ، فكانت وفاته صدمة أليمة للطفل ولأسرته ، إذ أثرت على مورد دخلها تأثيراً كبيراً ، ولعلها أذاقته ضروباً من الحرمان الباكر الذى أثر فى حياته وشعره ... وأول هذه الآثار وأعمقها التحاقه بعد أن نال شهادة الدراسة الابتدائية بمدرسة الفنون والصناعات الخديوية ببولاق ليختصر طريقه إلى الحياة العملية

وقد عمل بعد تخرجه فيها كمهندس للمبانى بمصلحة المبانى الأميرية ثم مديراً لقسم المبانى والمعارض بوزارة التجارة والصناعة ، فوكيلا لمتحف فؤاد الأول الزراعى ، فمديراً لمكتب رئيس مجلس النواب .

كانت شخصية الشاعر المرحة الجذابة تضفى على كل وظيفة تقلدها مركزاً ممتازاً مهما صغرت ، وتحيطه هو بالإكبار والتقدير لما امتاز به من خلق جميل وتواضع عف وحديث عذب .

وكان عمله كوكيل لدار الكتب المصرية آخر منصب تقلده فى حياته الدنيا ، ولم تنقض على التحاقه به أشهر معدودات حتى اختطفته يد المنون فى السابع عشر من نوفمبر سنة ١٩٤٩

بيئة الشاعر

ولد على طه ومات فى النصف الأول من القرن العشرين وما إن شب عن الطوق وبدأ يتلمس طريقه فى الحياة حتى وجد أن كل ما حوله فى الوطن ثائر على وضعه ... هذا خليل مطران يتزعم ثورة فى الشعر ، وهؤلاء طه حسين والعقاد والمازنى يحاولون هدم ما تواضع عليه القوم وما قدسوه من وظائف الأدب العربى وأوضاعه ، بينما قاسم أمين يتزعم ثورة اجتماعية داعياً نصف الأمة للخروج إلى العمل والسفور بعد طول حجاب ... وها هى ذى أصداء دعوة محمد عبده التجديد فى المجال الدينى ، بل ها هى ذى الأمة كلها تثور ضد الغاصب الفتاك على حقوقها ، وجميع قيم الحياة فى القطر تتغير وتضطرب أمام ناظريه .

يرى الشاعر كل ذلك ويحسه ويدركه بعقله وعاطفته

(١) من رثاء حسن كامل الصيرفى للفقيد .

حيرة بيئته وتذبذبها بين الأخذ بمدنية الغرب وتقاليد الغرب وعادات الغرب وبين الاحتفاظ بمقوماتها الشرقية وتقاليدها الموروثة، وبين الاندفاع في تيار اللادينية الغربية أو الإبقاء على روحانية الشرق الكريمة، ويرى النساء المصريات يحاولن نزع الحجاب عن وجوههن لكنهن يشفقن من ذلك حياء، ويخشين النقد والتجريح .. فيقع هو نفسه في حيرة أو بالأحرى تنعكس على وجدانه الحساس صور هذه البيئة.

وحين يتحدث الدكتور طه حسين باشا عن ديوان «الملاح التائه» يصور لنا حيرة الشاعر قائلاً: «وأما أن ديوان الشاعر المهندس قد أرضاني فلأن شخصيته الفنية محببة إلى جدًّا، فيها عناصر تستحق كل الإعجاب، وتكاد تفتنني وتستهويني فيها خفة الروح وعذوبة النفس وفيها الحيرة العميقة الطويلة المريضة التي لا حد لها، كأنها محيط لم يوجد على الأرض .. ولقد صحبت الملاح التائه في قصيدة «الله والشاعر» فأحسست كل هذا الذي صورته لك آنفًا، ورأيت رجلاً لا هو بالشاك المطمئن إلى الشك ولا هو بالمتيقن المطمئن إلى اليقين، ولا هو بالمنكر المستريح إلى الإنكار! وإنما هو رجل مضطرب حقاً، مضطرب أشد الاضطراب، يؤمن بالقضاء والقدر، ثم يثور بالقضاء والقدر، يرضى أحكام الله ثم يجادل فيها .. يشكو ثم يستسلم، ويستسلم ثم يشكو .. رجل حائر بائر هائم لا يستطيع أن يستقر، وأكبر الظن أنه لو استقر لكان أشقى الناس، فهو سعيد بحيرته مغتبط بهولها مبتهج بهذا الحب الذي دفعته إليه نفس طموح جداً، لأنها نفس شاعر، عاجزة جداً لأنها نفس إنسان»[1].

يبدأ علي طه قصيدته «الله والشاعر» التي تمثل حيرته أروع تمثيل بطلب المغفرة من الله لما زل به الإنسان في سورة الغضب وآلام الحيرة.

لا تغرقي يا أرض لا تغرقي   من شبح تحت الدجى مارق
ما هو إلا آدمي شقي   سموه بين الناس بالشاعر
طغى الأسى الداوي على صوته   بالصدى من قلبه الناطق
مضى يبث الدهر في خفية   شكاية الخلق إلى الخالق

لا تعدني يارب في محنق   ما أنا إلا آدمي شقي
طردتني بالأمس من جنتي   فاغفر لهذا الغاضب الحانق
حنانك اللهم لا تغضب   أنت الجليل الصفح جم الحنان
ما كنت في شكواي بالمذنب   ومنك يارب أخذت الأمان

ثم يمضي يلتمس الأعذار لأخطائه وزلاته فيقول: —

تمردت روحي على هيكلي   وهيكل الجسم كما تعلم
ذاك الضعيف الرأي لم يفعل   إلا بما يوحي إليه الدم
وبتلقاها قدرت صورتها
فروحك الصوت وروحي الصدى

طبيعة في الخلق ركبتها   وما أرى لي في بناها يدا
لكنها روحك من جوهر   صاف وروحي ما صفت جوهرا
أولا، فما الخير لم يشعر   بها؟ وما الشر قد أثمرا ..
تقول روحي إنها ملهمه   فهي لما تدركه متبعه
مقودة في سيرها مرغمه   وإن ترامت حسرة طيعه

ومع كل هذا فلست بأول مخطئ، بل إن الخطيئة إرث في دمائي قديم: —

ولم أكن أول مغرى بما   أغريت حواء أو آدما
إرث نمى في دمي منهما   ميراثه يتظلم العالما

لكن هذه الثورة في القصيدة تنتهي بالشاعر إلى أن يعود إلى ربه فهو الملجأ من كل أمر عسير: —

ما غرقوا في صفقات الردى   إلاك من غوث ومن منجد
ولا سرى في الأرض منهم صدى
إلا ودوى باسمك الأمجد

- يقف طه حسين باشا عند هذه المقطوعة من الشعر ليستنتج لنا أن حيرة علي طه منشؤها تردده بين الشك واليقين، بين الإيمان وبين الثورة على هذا الإيمان! بينما يذهب الأستاذ أحمد حسن الزيات بك في تحليل هذه الحيرة إلى ما كان يعانيه الشاعر في صدر حياته من آلام الكبت والحرمان، الحرمان من الحب والمرأة في سن لا يجد فيها الشاب غير الحب ولا يبصر سوى الجمال ولا يحس إلا إلى اللذة ولا يحس الوجود إلا قصيدة من الغزل الداوي الرقيق يهتز لها الكون طرباً.

[1] الجزء الثالث من حديث الأربعاء للدكتور طه حسين باشا

ومرجع هذا الكبت والحرمان إلى ظروف البيئة في الربع الأول من هذا القرن ؛ فهذه البيئة سواء في محيط الأسرة أو المدرسة أو المجتمع تبعث على الانطواء وتدعو إلى التكبيل بكل قيد من القيود ؛ فالتقاليد الموروثة تفرض على الشباب فرضاً بما فيها من نظم عتيقة وأساليب صارمة ؛ وكل عبث بهذه التقاليد عبث بقواعد الشريعة والعرف والآداب والأذواق ؛ حتى إذا اخطر الشباب شيء من التجديد في وسائل العيش ومظاهر الزي وطرائق التفكير كان ذلك في رأي القائمين على أمرهم خروجاً على النظام وثورة على الاحتشام واندفاعاً إلى هاوية الغي والفساد ، وانحرافاً عن معاني الفضيلة ومناهج الأخلاق .

وكانت بيئة انعدم فيها الاتصال الكامل بين الرجل والمرأة حين وقفت التقاليد الموروثة وبقايا الحجاب سداً حائلاً وجداراً منيعاً بين الشباب من الجنسين[1] .

ولم يجد علي طه ما يفرج من آلام نفسه سوى إرسال قصائده الحزينة التي يعرضها إلى مجلة « السفور » التي كان يشرف عليها الأستاذ الزيات في ذلك الوقت ؛ ولقد تلقى أولى قصائده وعنوانها « الأمسية الحزينة[2] » غفلاً من الإمضاء[3] فصحح ما فيها من أخطاء وقدم لها بضعة أسطر تنبأ فيها بنبوغ الشاعر ونصح له أن يرفد قريحته السمحة بمادة اللغة وآلة الفن ، وأخذ عليه هذا الروح الحزين الذي يحمل عليه قيثارة المرح والشباب ؛ لكن أنى للشاعر أن يظفر بهذا المرح والزيات نفسه الذي ينصحه لم يستطع الظفر به في ظروف البيئة المشابهة .. هذه البيئة الانطوائية ذات المزاج الحزين ، فالزيات يصف هذه البيئة وآثرها في نفسه في المجلد الأول من « وحي الرسالة » فيقول :

« تسألني : لماذا رجعت قرتر ... والجواب عن هذا السؤال حديث والحديث غداً سيكون قصة وليس يعنيك اليوم منها إلا ما نجم عنها ، قال جيته يوماً لصديقه أكرمان : « كل امرئ يأتي عليه حين من دهره يظن فيه أن (قرتر) إنما كتبت له خاصة » .

وأنا سنة ١٩١٩ كنت أجتاز هذا الحين . شباب طرير حصره الحياء ، والانقباض والهرس وغط التربية وطبيعة المجتمع في حس مشبوب يتوقد شعوراً بالجمال وقلب رطيب يتحرق ظمأ إلى الحب ، ونوازع طامحة ماتنفك تجيش ، وعواطف سيالة ما تكاد تتماسك .. فالطبيعة في خيالي شعر ، وحركات المجتمع نغم ، وقواعد الحياة فلسفة ، وكان فهمي لكل شيء وحكمي على كل شخص يصدران عن منطق أفسد أقيسته الخيال ، وزور نتائجه المثل الأعلى . ثم مر هذا الحال التي وصفت هوى دخيل هادئ ولكنه ملح ، فسبحت منه في فيض حاوي من النشوة واللذة ، وأحسست أن وجودي الخالي قد امتلأ وقلبي الصادي قد ارتوى وحسي الثائر قد سكن ، وتخيلت أن حياتي الحائرة قد أخذت تسير في طريق لاحب تنتثر على مدارجه نواضر الورود ، وترف على جوانبه نوافح الريحان ، وتزهو على حواشيه ألوان عبقر ، وترقص على حفافيه عرائس الحور ، وذهبت أسلك هذا الطريق السحري محمولاً على جناح الهوى كأني (فوست) على جناحي (ميفستو فاليس) حتى ذكرني الزمان الغافل فأقام فيه عقبة اصطدم عندها الخيال بالواقع والحبيب بالخاطب والعاطفة بالنعمة ، على أني بقيت على رغم الصدمة حياً ولابد للحي أن يسير !

تطلعت وراء العقبة أنظر الطريق فإذا الأرض قفر والورد موسج والريحان حمض والعرائس وحوش . فشعرت حينئذ بالحاجة إلى الرفيق المؤنس ، ولكن أين أنشد ما أبغي وحولي من الفراغ نطاق مخيف ، وأمامي على أسنة الصخور أشلاء وجثث ؟ هذه أشباح صرعى الهوى تتراءى لعيني ، وهذه أرواح قتلاه تتهافت علي ، وهذه سجلات مصارعهم بين يدي ، فلم لا أحدو بأحاديثهم رواحلي وأقطع بمناجاتهم مراحلي ، وألتمس في مواجعهم لهواي عزاء وسلوة ؟

قرأت : هيلوز الجديدة ورينيه وأتالا وأدولف ودمينيك وماريون دلورم وماتون ليسكو وغادة الكاميليا

---

(١) بحوث الأستاذ أنور المعداوي في الرسالة عن علي طه .
(٢) من رسالة شخصية من الأستاذ عبد الحميد طه شقيق الشاعر .
(٣) كان ذلك عام ١٩١٨ .

وجرازيلا ورفائيل وجان دكريف .. وتوثقت بأشخاصها صلاتي، وتصعدت في زفراتهم زفراتي وتمثلت في نهاياتهم المحزنة نهايتي، ولكنهم كانوا جميعاً غيري تختلف في الموضوع وتفترق في الوضع كالنساء النوادب في مناحة تندب كل واحدة منهن فقيدها وموضوع الأسى للجميع واحد .. هو الموت.»

فلما قرأت «آلام فرتر» سمعت نواحاً غير ذلك النواح ورأيت روحاً غير هاتيك الأرواح وأحسست حالاً غير تلك الحال.

فنيت في «جيته» وفادتني إلهامه وروحه، وأعجبت بلغة القرآن والوحي أن تتسع لهذه النغمات القدسية فأستعير بيانها الذي يتجدد على الدهر ويزهو على طول القرون. ثم أصبح فرتر بعد ذلك لنفسي صلاة حب ونشيد عزاء ورقية هم!! كأنما كان (جيته) يناديها من وراء الغيب حين يقول في تقدمته لفرتر: «وأنت أيتها النفس .. إذا أشجاك ما أشجاه من غصة الهم وحرقة الجوى، فاستمدي الصبر والعزاء من آلامه، وتلمسي البرء والشفاء في أسقامه، واتخذي هذا الكتاب صاحباً وصديقاً إذا أبى عليك دهرك أو حظك أن تجدي من الأصدقاء من هو أقرب إليك وأحنى عليك».

وكان علي طه أحد أفراد تلك البيئة، فراح في صدر شبابه ينفث شكاته الملحة في أشعاره، فهو يقول:

أيها الشاعر الكئيب مضى الليـ
ـل ومازلت غارقاً في شجونك(1)
مسلماً رأسك الحزين إلى الفكـ
ـر وللسهد ذابلات جفونك
ويد تمسك اليراع وأخرى
في ارتعاش تمر فوق جبينك
وفم ناضب به حر أنفا
س يطغى على ضعيف أنينك
أنت أذبلت قلبك الغض
وحطمت من رقيق كيانك

(1) ديوان الملاح التائه.

ولعل أبلغ ما قاله معبراً عن شعوره بالوحدة في مجتمعه قوله:

والأرض ضاق فضاؤها الرحب
وخلت فلا أهل ولا سكن(1)
حال الهوى وتفرق الصحب
وبقيت وحدك أنت والزمن

ولقد كان علي طه يعاني في صدر شبابه حرماناً آخر أشد إيلاماً لنفس الشاعر الموهوب الذي يحس بقدرته ونبوغه! ذلك هو الحرمان من التقدير الذي يزكي مواهبه ويدفعه إلى الإجادة والإنتاج، ومرجع هذا الحرمان إلى قلة القراء، لاسيما هؤلاء الذين يحفلون بالشعر، حتى خيل إليه أن الأمر مرجعه إلى جحود العبقريات في الشرق:—

أيجحد في الشرق النبوغ وتزدرى
ويشقى بمصر النابهون الغطارف؟(2)
يجوبون آفاق الحياة كأنهم
رواحل بيد شردتها العواصف

كما أن بيئة الشاعر كان لها أثر كبير في توجيه مطالعاته، فلقد وجد كبار أدباء هذه البيئة ممن نهلوا من الثقافة اللاتينية ومعظمهم حينما سافر في طلب العلم قصد إلى فرنسا ورجع إلى مدينة النور كما يزعمونها، وكانت ترجمة أعمال الأدباء الفرنسيين تغمر سوق الأدب العربي لاسيما الاجتماعيين منهم أصحاب المذهب الرومانتيك، وهو المذهب الذي مهدت البيئة نفس الشاعر لقبوله بل زادته به تعلقاً، لأنه مذهب يغلب فيه الشعور والخيال على العقل والتفكير مع روح من اليأس والتشاؤم والامتزاج بالطبيعة الخالدة — كعوض عن شعور الوحدة — إلى حد التفاني.

أما اليأس فقد تغلغل في قلب الشاعر الشاب إلى أغوار عميقة لاسيما بعد أن وقف ليواجه الحياة بمفرده فهالته حقيقتها البشعة وقسوتها العاتية التي لم تأخذها الرحمة فيما صنع له خياله الحالم من عالم مثالي جميل تقوضت دعائمه حقائقها المرة.

(البحث بقية)

عبد السميع المصري

(1) المرجع السابق.
(2) الملاح التائه.

مع الفكر الأوربي المعاصر

للأستاذ مبارك ابراهيم

١ — مشكلات السكان

أو نمو السكان وتكاثرهم

كتاب من تأليف « روبرت . س . كوك »

"Population Problems" or "Human Fertility"
By "Robert C. Cook."

إن الذي يبعث الحيرة ، ويثير دواعي القلق من أمر نمو الناس وتكاثرهم إنما يجيء من أن هذا النمو وهذا التكاثر مؤديان في النهاية إلى وجود سكان فوق ظهر هذا الكوكب يضيق بهم سطحه ، وتنوء بحملهم رقعته .

وكذلك من أسباب الحيرة والقلق أنه إذا دام الميل إلى النمو والتكاثر ، فإن الكثير الغالب من جماهير الفقراء الذين يعمرون اليوم فأرضهم لن يكونوا قوماً تدفعهم رغبة إلى التثقيف والتحضر ، بل لن يتاح لتلك الكثرة أن ترث أو تورث أحسن الصفات العقلية والجسمانية .

هذا هو محور الحديث الذي يدور حوله موضوع هذا الكتاب . والمؤلف يقول :—

هناك عوامل متعددة تعمل عملها دائبة لخلق هذا الموقف الذي ينذر العالم بالويل والثبور . فالمخترعات الطبية المدهشة التي جاد بها عقل الإنسان تهيء اليوم القدرة على إطالة أعمار الأطفال الذين لم يكونوا يعدون من قبل أن تمتد بهم آجالهم حتى يروا عيد ميلادهم الثاني ! ونحن نرى من ناحية رجالاً طالت أعمارهم حتى لقد شاهدنا معمرين يعدون بيننا هم أكثر عدداً من أسلافهم في الأجيال السابقة ، ونحن نرى من ناحية أخرى السيطرة على الأمراض والحد من فتكها تنمو وتطرد . فهناك أناس كان أسلافهم لا يجاوزون منتصف العمر ، وهذان العاملان قد زادا عدد السكان من طرفيهم : طرف الطفولة ، وطرف الشيخوخة .

ويقول المؤلف : إن العلم قد خلق حالة من حالات عدم الاستقرار بين الولادات والوفيات . وما دام لن يخطر ببال أحد أن يفكر في العودة بالناس إلى حالتهم يوم كانت نسبة الوفيات بين الشيوخ عالية جداً ، فإنه ليس هناك حل المشكلة سوى أن يلجأ الناس إلى تحديد النسل .

وهذا الحل ليس من الحلول السهلة اليسيرة . والمؤلف يناقش الاعتراضات التي تثار حول هذا الحل فيقول : من هذه الاعتراضات اعتراض يكتمه الناس ولا يبدونه ، وهو اعتراض قوي قوامه الطقوس الدينية التي تقول بالتناسل ، وتحض على التكاثر . وهذا الاعتراض لا يزال يقول به علماء الأجناس البشرية من أهل الغرب .

ومن هذه الاعتراضات تلك الكراهية التي يحس بها الأقوام غير الغربيين لكل ما يقول به الغربيون في مسائل تحديد النسل .

ومن هذه الاعتراضات ما يقال من أن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لا تزال — بصفة عامة — من المعارضة في الموافقة على تحديد النسل ، وهذا — فيما يعلم المؤلف — فهم خاطيء لتعاليم تلك الكنيسة .

ومن هذه الاعتراضات أيضاً أن الفقر وانخفاض مستوى المعيشة يؤديان حتماً إلى ارتفاع نسبة المواليد لسببين جوهريين هما : القذارة والازدحام السكاني ازدحاماً غير عادي ، وهما العاملان اللذان يجعلان تطبيق القواعد الحديثة لعلم الصحة في مسائل تحديد النسل أمراً غير ميسور .

وهناك أيضاً عقبة كبرى هي الجهل بشقيه : الجهل بمسائل التشريح ، والجهل بآثار النتائج — من الوجهتين الشخصية والاجتماعية — فيما يتعلق بمسائل التناسل غير المحددة النظام .

ويضاف إلى كل ذلك ما يراه كثير من الناس من أن هذه المسائل ليست من المسائل التي تناقش مناقشة علنية .

والمؤلف يقول : ولو أن من المسلم به أن ارتفاع مستوى المعيشة قد يؤدي آخر الأمر إلى نقص في نسبة المواليد ،

غير أنه يرى أن هـذا العامل قد لاينتج نتائجه في سرعة تستطيع أن تقاوم المد أو تصده .

وهو يرى أن اللجوء إلى موانع الحمل أمر لامعدى عنه ، ولـكنه يقول إن هذا أمر لايمكن أن يتم قبل أن تؤمن تلك الجماعات التي تقول بتكثير النسل ، بأن لا بد لأفرادها من الحد من عدد الأولاد ، وقبل أن تشيع في الناس الرغبة في اللجوء إلى موانع الحمل التي يشار عليهم بها .

وهو يقترح على العلماء أن يجهدوا جهدهم فيوفقوا إلى تركيب « قرص صغير » يسبب لآكله عقماً مؤقتاً ، وأن يجعل هذا « القرص الصغير » في متناول كل من هو في حاجة إليه ، وأن يسبق انتشار التداوى به دعاية واسعة يكون هدفها إقناع الجماهير بضرورة الحد من تكثير النسل .

وفي الوقت نفسه يجب أن يرتفع مستوى المعيشة لدى الطبقات الفقيرة ، وأن تكون مساكنهم أحسن مما هي عليه اليوم ، وأن تمهد لهم السبل لهوايات نافعة مفيدة .

وكل هذا القول الذي أسلفنا هو تبسيط لما جاء به المؤلف في كتابه من حجج ، ولـكن الكتاب يجب أن يقرأ ، فهو كتاب يفيض حيوية وبساطة .

والمؤلف يرى أن كتابه يمس موضوعات يرى بعض الناس أنها موضوعات لايليق الخوض فيها ، وهو لذلك قد مس تلك الموضوعات مساً رفيقاً فيه تحفظ وفيه حساسية .

وهو — على الرغم من ذلك — قد أخرج للناس دليلاً ينير لهم الطريق في مشكلات السكان ، وهي طريق كثيرة المزالق ، وعرة المنحدرات .

والمؤلف يسائل نفسه : من أين تبدأ حقوق الفرد في هذا الميدان ؟ وما حد النهاية لتلك الحقوق ؟ .

وهو يسائل نفسه : هل هناك شيء اسمه « الحق في الحياة لمن لم يولد ؟ » وأي هؤلاء الذين لم يولدوا كان له الحق في الحياة ؟ ذلك لأن كوكب الأرض لا يستطيع أن يحمل فوق ظهره كل من يولد .

ثم يعود فيسائل نفسه : هل لـكل مخلوق آدمى الحق في أن يكون أباً أو أماً ؟ وهل هذا الحق — إن وجد — يشمل حق هؤلاء الآباء والأمهات في أن يكون لهم مايشاءون من أولاد بغير قيد أو شرط ؟

وإذا كان حق الأبوة والأمومة سوف ينكره المنكرون على بعض هؤلاء ، أوسوف يحدون عدده لآخرين ، فمن ذا الذي تكون بيده القدرة على تقرير هذا الإنكار أو هذا الحد .

وإذا قرروا فمن تكون بيده القدرة على التنفيذ ؟ . .

٢ — دولة « الفنج » في « سنار »

كتاب من تأليف أو . ج . س . كروفورد

"The Fung Kingdom of Sennar" by "O.G.S. Crawford"

السودان عند المؤلف هو ميدان تخصصه الفني ، إن لم يكن هو غرامه الأول . فقد خرج في عام ١٩١٤ ليلحق بعثة حفريات كانت تعمل في « جبل موية » و « أبو جيلي » بالقرب من « سنار » . وقد كشف هو في « أبو جيلي » عن مقبرة يرجع تاريخها إلى عهود « الفنج » .

وهو بكتابه الذي يخرجه اليوم يعود إلى دراسة هذه الحقبة من تاريخ السودان ، وهي الحقبـة التي يحيط بها الغموض ، ويغشيها غشاء من الخفاء والإظلام . وهي الحقبة الواقعة بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر . والحـكام الزنوج المسمون « بالفنج » كانوا يسيطرون على حكومة فدرالية قوامها عـدة إمارات تمتد شمالا إلى الشلال الثالث ، وتمتد شرقاً إلى البحر الأحمر ، وغرباً — إلى زمن ما — إلى كردوفان .

وكانت دولتهم دولة مسلمة ، وهي دولة جمعت بين العناصر العربية والأفريقية ، وهي العناصر المميزة لـكثير من بلاد السودان اليوم .

وبالرغم من إسلامية تلك الدولة فإن الظلام قد غشاها فجعلها بعيدة من نطاق العالم الإسلامى .

وكان عصر دولة « الفنج » في تاريخ السودان من العصور التي انحسر فيها — كما يقول المؤلف — مد الحضارة عن البلاد . كما حصل في عهد البطالسة . وكما حصل أيضاً بعد تخريب الجيوش الحبشية — جاوتهم أقوام من أشباه الزنوج جاءوا من كردوفان — لإقليم مروى . وكما فعل المحاربون من « الفنج » أنفسهم يوم استأصلوا شأفة الدولة المسيحية النوبية إبان أفول نجمها .

أما منابت « الفنج » وأصولهم فيحيط بها الغموض أيضاً . فمن قائل إنهم يرجعون إلى أصل « شلوكي » . ومن قائل إنهم ينتسبون إلى أصل « دارفوري » . ومن قائل إنهم يردون إلى أصل حبشي .

ولكن الرأي عند مؤلف الكتاب أنهم من أصل شرقي . وأنهم قد جاءوا من شمال غرب إرتريا . وهو يصارح قراءه بأن هذه الشهادة في حاجة إلى ما يؤيدها . وأنها مشكلة تستعصي على الحل . وستظل كذلك حتى تكشف الحفريات عن قبس جديد .

وتاريخ « الفنج » كثرت فيه الوثائق . ولكنها وثائق غير مدعمة بالأسانيد التي يؤمن جانبها . فهناك تقارير الرحالين الذين عاصروا دولة « الفنج » من أمثال Reubeni و du Roule Brevedent Poncet ، وهناك المكتبة الغنية بمؤلفاتها . وهي مكتبة القسيس الفرنسيسكاني « ثيردورو كرمب » وهناك تقارير الرحالين الحديثين من أمثال . James Bruce المتوفى سنة ١٧٩٤ ، وهو مؤلف كتاب « رحلات لاستكشاف منبع النيل » و Johann Ludwig Burkhardt المتوفى عام ١٨١٧ وهو رحالة سويسري طاف بمصر وبلاد العرب وبلاد الشرق ، وهو مؤلف كتاب « رحلات في بلاد النوبة » وكتاب « البدو والوهابيون » .

وأولئك « الرحالون » هم من زاروا دولة « الفنج » في أيام انحطاطها واضمحلالها . وكل ما جاءوا به قد حلل تحليلا دقيقاً . وضم كل لفق إلى لفقه . ثم نوقش وروجع على ما قاله المؤرخون العرب . وقورن بالتقاليد القبلية التي سجلها الموظفون السياسيون بحكومة السودان من أمثال « سير دوجلاس نيوبولد » فخرجت من كل ذلك صورة رسمت بمهارة ووضوح . وأصبحت بذلك المرجع الذي لا مرجع سواه للتاريخ الاجتماعي والسياسي لدولة « الفنج » .

وكذلك احتوى الكتاب خلاصة وافية لتاريخ وطبوغرافية بلاد النوبة في العصر المسيحي . كما احتوى على نتائج استكشافات شخصية في رقعة كبيرة من السودان الشمالي ، وهي رقعة لم تلق إلى اليوم إلا القليل من عناية رجال الآثار .

٣ – التنقيب في حفائر « أذربيجان »

كتاب من تأليف . ت . برتون برون

"Excavations in Azarbaijan"
by "T. Burton Brown"

جاء في « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع » (تحقيق الأستاذ مصطفى السقا) : —
« أذربيجان ، وأزربيجان ، وزنجان ، كور ، تلي الجبل من بلاد العراق . وتلي كور إرمينية من جهة المغرب .
وجاء في كتاب « إعجام الأعلام » للمرحوم الأستاذ محمود مصطفى : — أذربيجان : أرض واسعة الأرجاء بين بلاد الجبال جنوباً ، وبلاد الكرد غرباً والديلم وبحر قزوين شرقاً ، وإرمينية وموقان شمالا . وأشهر مدنها أردبيل ، ومراغة ، وتبريز . والنسبة إليها أذري .

هذا الكتاب جعله صاحبه أقساماً أربعة . درس في القسم الأول منه الأمكنة الواقعة في شمال فارس والتي سبق وجودها التاريخ المدون . كما بحث فيه المعلومات الأركيولوجية الخاصة بأذربيجان إلى ما قبل عام ١٩٤٨ .

وفصل في القسم الثاني مسائل سبر الأرض وجسها . وخص القسم الثالث بدراسات مستوفاة للتحف واللقط التي عثر عليها الخبراء من مختلف الأجناس . وجعل القسم الرابع ملخصاً تاريخياً للعصر البرونزي في تلك الرقعة من الأرض .

فالكتاب إذاً ليس سجلا عادياً تافهاً لحفرية من الحفريات ، إنما هو خلاصة مجهود جبار درست فيه كل تحفة ولقطة دراسة علمية كاملة . وليس هذا فحسب ، بل إنه جاء لكل تحفة ولقطة بأشباهها ونظائرها في هذا القسم من العالم ، وفي كل بلد خارج عن بلاد ذلك القسم .

وهذا القسم من العالم يبدأ — في نظر المؤلف — من البلاد التركستانية ، وينتهي ببلاد القوقاز ، ثم يجتاز الأناضول إلى بحر إيجة ، ثم ينحرف إلى سوريا ومصر .

وهذا عمل شاق يتطلب من صاحبه علماً واسعاً وجهداً مضنياً ، ولكنه عمل يستحق كل ما يبذل في سبيله من جهد ومشقة .

وقد أصبح الكتاب بفضل عناية مؤلفه مرجعاً من

أصح المراجع وأكثرها نفعاً وفائدة في موضوعه . والمؤلف يقول إن دراسة طبقات الأرض قد أثبتت أن تلك البقعة قد مرت بعصور عديدة ، وأن كل عصر من تلك العصور قد تميز بنوع من الخزف اختص به .

وهو يرى أن عهد حوراني يرجع إلى ألف وسبعمائة وخمسين عاماً قبل ميلاد المسيح . ومن المؤرخين من يجعل عهده بعد ذلك التاريخ بمائتي عام .

وقد أثبت التنقيب أن الأغنام والأبقار قد وجدت في تلك البقعة منذ أقدم العصور . ولكن الغزلان لم تظهر قبل ألفين وأربعمائة عام أو ألفي عام قبل ميلاد المسيح .

وقد أثبت التنقيب أيضاً وجود حبوب من القمح يرجع تاريخها إلى ثلاثة آلاف ومائة وخمسين عاماً قبل المسيح . وبهذا الكشف أضيفت عينة جديدة إلى عينات القمح التي اكتشفت من قبل .

وقد أثبت التنقيب كذلك أن الموتى كانوا يدفنون في قبور شبيهة بقبور أوربا في العصر الحجري القديم .

ومما تحسن الإشارة إليه أنه وجدت في تلك القبور وإلى جوارها صنوف من الخرز ذي اللون الأزرق المائل إلى الخضرة . وهي مصنوعة من الزجاج العادي ، ومن الزجاج المصقول . وهذا ما يذكر الباحثين بتلك القلائد المرصعة المصنوعة من الفيروز والتي وجدت في حفريات العصر الحجري القديم في قبور « البرتغال وبريتاني » وفي جهات أخرى من فرنسا . . .

٤ — قصة الحاج ويليمسون

كتاب من تأليف « ستانتون هوب »

"The Story of Hoji Williamson"
by "Stanton Hope"

قد يكون شيئاً مفيداً نافعاً أن يعرف المرء كم من الإنجليز قد اعتنقوا الدين الإسلامي . وكم من هؤلاء قد صهرتهم الحياة العربية في بوتقتها ، دون أن يكتبوا لهم قصة ذلك الاعتناق وحديث ذلك التحول ، ودون أن يكتب تاريخهم راوية من الرواة أو كاتب من الكتاب . ذلك لأن الانتقال من دين إلى دين هو تحول كامل . وهو تحول له خلابة الشيء الذي يخالف القياس ويشذ عن الطبيعة .

ومن أجل ذلك فإن اسم ذلك التارك لدينه يصبح وقد سار مسير الشمس ، وقد تردد على ألسنة كل رائح وغاد . وإذا هو عاهد نفسه أنه لن يقص على الناس قصته فإن الحديث عنه سوف تزداد عليه الحواشي ، وتضفى عليه الذيول حتى ليصبح وكأنه أسطورة من الأساطير .

و « الحاج ويليمسون » موضوع هذا الكتاب هو واحد من هؤلاء ، وهو واحد قد جمع الغموض كله في شخصه .

وهو قد ولد في مدينة « بريستول » ونشأ بين ربوعها ، وترك إنجلترا في الحلقة التاسعة من القرن التاسع عشر . ولم تطأ قدماه أرض انجلترا بعد ذلك أبداً . وفي أواخر القرن التاسع عشر استقال من عمله كجندي من جنود البوليس في عدن .

ولكي يبتعد من أعين السلطات الإنجليزية التي كانت تحاول إقناعه بالارتداد عن الدين الإسلامي ، فقد عاش عشرين عاماً كواحد من رجال القبائل الرحل في شرق بلاد العرب . ثم أتى عليه حين من الدهر كان يعمل كوسيط بين الإنجليز والعرب في الحربين العالميتين . وكان يعيش في تلك الحقبة عيشة تنوعت ألوانها . فتارة تراه مخاطراً يتاجر في الأسلحة تجارة غير مشروعة . وتارة تراه تاجراً يتاجر في اللآلئ والزيوت في الأراضي الواقعة حول الخليج الفارسي . وقد ظل مقيماً في بلاد العرب خمسين عاماً وهو لا يقص على الناس شيئاً من أمره .

وفي عام ١٩٤٧ رأى المؤلف نفسه أمام رجل يعيش عيش المرفه بالقرب من مدينة البصرة . وقد أقنعه أخيراً بأن يخرج من صمته . وأن يستعمل تلك الأداة التي خلقها له الله للإبانة والإفصاح . فعرف منه أن الحياة التي كان يحياها قبل اعتناق الإسلام كانت حياة الهائم على وجهه . وهي حياة تشبه في مظاهرها الخارجية حياة المخاطرين الذين تحاك حولهم الحكايات وتؤلف القصص .

ولكن شيئاً هو في المقام الأول من الأهمية قد فات مؤلف الكتاب أن يذكره . وذلك الشيء هو أن يبين لقارئ كتابه ما الذي حدا بالحاج « ويليمسون » أن يبدل دينه ، وأن يسلك طريق العيش الذي سلكه . . .

مبارك ابراهيم

النشاط الثقافى فى أسبوع

للأستاذ عز الدين إسماعيل

الحركات الاستقلالية :

من أهم الموضوعات التى تشغل أذهان أغلبية المثقفين فى مصر الآن موضوع الحركات الاستقلالية العالمية . والباحثون فى هذا الموضوع يهدفون — فى الغالب — إلى أمرين : أولهما توضيح الأصول التى قامت عليها هذه الحركات وتبينها فى وضوح وجلاء ، وثانيهما التوجيه الرشيد لحركتنا الاستقلالية التى هى فى إبان نشاطها .

وقد حاول الدكتور محمد صبرى أن يجلو صورة لحركة استقلالية اعتبرها من أهم الحركات الاستقلالية فى أوربا ، وهى حركة استقلال إيطاليا ، حاول ذلك فى محاضرته التى ألقاها فى مؤسسة الثقافة الشعبية فى الأسبوع الفائت . وقد اعتمد فى تصويرها على السرد التاريخى أكثر من اعتماده على التحليل الدقيق لمقومات الحركة المختلفة ، ولعل أكثر هذه المقومات ظفرا منه بالتوضيح هى الناحية الدينية ، ولا شك أن الدين عامل أساسى إذا ما أراد المؤرخ أن يصور لنا حقبة معينة من تاريخ أمة ، وأنه لاضير عليه إذا أعطى هذه الناحية أهمية خاصة ؛ لذلك كان للكلام عن هذه الناحية بالنسبة للحركة الإيطالية قيمته إذا ما أردنا تتبع مراحل تطور هذه الحركة ، وتبقى هذه الصورة بعد ذلك تاريخية أيضاً وليست اجتماعية ، كما لانستطيع أن نصفها بأنها صورة دينية ، بمعنى أنها تصف لنا العوامل الدينية التى تُبعث — أو تخمد — حركة من حركات التحرر والاستقلال .

وقد بين الدكتور صبرى كيف كان البابا فى أول الأمر عدواً لكل تقدم ، وكيف كانت الرجعية الدينية تبسط سيطرتها التامة ، ومنذ القرن الثالث عشر يبدأ بصيص من الأمل . حاول مارتن لوثر أن يعيد النظر فى تلك العقائد التى تحتضنها البابوية وتقسر الناس عليها ، فظهرت بذلك روح نقدية لاتؤمن بالمسلمات وإنما تبحث كل شىء ، هذه البدع التى أدخلتها البابوية لابد من القضاء عليها ، والرجوع إلى النصوص ذاتها ، وكل ماهدف إليه لوثر هو التوفيق بين الدين والمدنية ، وأن يخلص الدين مما علق به من بدع وأوهام وأباطيل كان يقترفها البابا نفسه .

هذا التحرر الوجدانى الذى هدف إليه لوثر لا أدرى إلى أى حد يستطيع — أو استطاع — أن يستغله الدكتور صبرى فى تصويره لحركة الاستقلال ، ومن جانبى فإنى لا أكاد أعتقد به مقوماً من مقومات الحركات الدولية بوجه عام إلا المقوم الفكرى ، وقد يكون للعامل الاقتصادى أهمية ، ولكننى أعتقد أن العامل الاقتصادى أو الوعى الاقتصادى ليس من الأهمية فى هذا المكان بحيث نسند إليه إثارة شعب نحو التحرر والاستقلال ، وأرجو هنا أن لانخلط بين ماهو استقلال وتحرر من الاستعمار وبين ماهو فقر وثورة من أجل البطون الخاوية .

على أن الدكتور صبرى لم يعط الجانب الفكرى أهميته ، واكتفى بأن يذكر بعض الأسماء التى لمعت بين القرنين ١٣ و١٥ فى عالم الأدب والفن كدانتى وبترارك وميكل انجلو وروفائيل . ولكن ماذا أفاد دانتى هذه الحركة ؟ ماهو التحرر الفنى الذى أخذه دانتى على عاتقه ؟ ماقيمة التحرر الفنى إذا صحب التحرر الدينى فى إذكاء فكرة التحرر فى كل جانب من جوانب الحياة ؟ . وهكذا نستطيع أن نضيف مزيداً من الأسئلة التى لم نظفر لها بجواب أو حتى بإشارة من الدكتور المحاضر .

* وقد كان الحضور من طبقة المثقفين وأنصاف المثقفين ، مما لايدع مجالاً للاعتذار عن عدم الإشارة إلى هذه الأمور .

التطور الدينى :

قلت إن حركة الاستقلال التى تقوم أوتضح فى مصر الآن تشغل الأذهان فى كل مكان . وقد رأت المدرسة الأدبية المصرية التى تربط بين الفن والحياة وهى مدرسة الأمناء ، أن تشارك فى الميدان ، وأن تبحث المسائل الحيوية

التي تهم المواطن في وقتنا الحاضر . وقد كانت محاضرة الأحد السابق في الكلام عن التجديد والتطور الديني . وليس هذا الموضوع ببعيد عن مجال مدرسة الفن والحياة ، لأن الدين — كما قال المحاضر الأستاذ أمين بك الخولي — يلتقي بالفن في هدفهما البعيد وغايتهما السامية .

وقد حاول الأستاذ المحاضر أن يتتبع بعض مراحل التطور في الدين الإسلامي ، واقفاً وقفات سريعة أمام الصدمات التي كان يصطدم بها الدين وتضطره إلى نوع من التلون .

وقد كان لوقوف الدين بجانب السياسة أثره الكبير في تعرضه لهذه الصدمات . ولعل أهم مايلفت النظر في هذا العرض هو حركة التجديد والتطور التي قام بها محمد بن عبدالوهاب في نجد والتي ما زال ابن السعود يسير وفقها — إلى حد ما . وقد فسر ظهور هذه الحركة كأثر من آثار اصطدام الشرق بالغرب في الحروب الصليبية وغير الحروب الصليبية ، مما جعل بين الشرق والغرب هوة سحيقة وشوطاً طويلاً بين التقدم الغربي والتأخر الشرقي .

حتى إذا كنا في مصر ، وفي العالم الإسلامي بوجه عام ، ظهر جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده . ويمكن أن تفسر حركتهما التجديدية بوضوح بأنها صدى للواقعية التي سادت في العالم الغربي في أواخر القرن الماضي بخاصة ، تلك الواقعية التي اقترنت بالتجربة ولم تأخذ بالمسلمات . فلذلك كانت محاولة الأفغاني ومحمد عبده هي تخليص الدين من تلك الغيبيات ، وتفسير كل شيء دق أو كبر .

ولعلنا هنا نلمح نوعاً من التشابه بين هذه الحركة وحركة مارتن لوثر التي أشرنا إليها في إيطاليا .

وقد وقف المحاضر بعد العرض التاريخي — أي بعد إنتهائه من القطاع الطولي للموضوع — ليعرض في محاضرته القادمة القطاع العرضي الذي ربما كان هو المقصود أولاً وأخيراً .

ولكنه عاد في النهاية ليؤكد أن بحث الدين على أنه ظاهرة اجتماعية — كما يرى بعض علماء الاجتماع ، ولعله يقصد دوركيم — لا يتعارض مطلقاً مع بحثه على أنه علاقة السماء بالأرض ! فهذه وجهة نظر وتلك أخرى ، ولكن المهم هو أن الناحية الدينية عضو حي من أعضاء الجسم البشري ، وتجدده رهن بإحساسه فقط إلى حاجته إلى التجدد .

عز الدين إسماعيل

ورد إلى المجلة

١ — فضائل الشام ودمشق :

لأبي الحسن علي بن محمد الربعي المالكي المتوفى سنة ٤٤٤ هـ وقد حققه ووضع ملاحقه وفهارسه الأستاذ صلاح الدين المنجد

والكتاب من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، ويقع في مائة وخمسين صفحة من القطع الكبير — وقد قدم له الأستاذ المحقق بمقدمة تحليلية طويلة ، تقع في أربع وعشرين صفحة .

٢ — النصوص السائرة :

للأستاذ كمال اليازجي أستاذ الأدب العربي بالجامعة الأمريكية في بيروت ، وهي مجموعة مختارة من آثار العرب الفكرية في علوم الكلام والفلسفة والاجتماع والأخلاق ، مع خلاصات تمهيدية لأهم مايتصل بذلك كله من المذاهب اليونانية القديمة .

ويقع الكتاب في ٢٣٠ صفحة من القطع المتوسط .

٣ — بيان من « رابطة الكتاب السوريين » :

يطلعون فيه على تكوين رابطتهم وبرنامج عملهم ! وتكون المراسلات مع هذه الرابطة باسم الأستاذ مواهب الكيالي بدمشق .

٤ — المجلد الأول من صحيفة الجمعية المصرية المستشفيات

وهو يحتوي على سبع محاضرات طبية .

٥ — العدد الأول من مجلة « المثقفون » :

وعنوان إدارتها ٣٢ شارع النيل بالروضة القاهرة .

٦ — مجلة العصبة :

التي تصدرها العصبة الأندلسية من أدباء المهجر ، في سان باولو بالبرازيل .

يامصر الحرة لا تهنى !..

(يامصر) الحرّة .. لا تهني   فالبغيُ الآثم يحتضر ! .
وشهابُ الفجر له وهج   يجتاح الشر ، ولا يذر
وفلولُ الغاشم ما برحت   تتأد الويل . وتنحدر
صرعى الفرسان .. مكفّنة   بالعار الأسود تأتزر
وشعوب « الضاد » وقد خفقت   أجنادُ الموت بها الخطر
لوحات ساعة حمأتها   لارتاب الوعد . والقدر
والزورُ الفج بما شهقت   أنفاس الثورة . والشرر
وترى الحشر فى حرد   يصطاد الغاوى . ويندثر
محموم الشهقة .. منطلقاً   يغشى النيران ، ويحتضر

* * *

(يامصر) الحرة : لا تهني   مغناك السحر به السمر
حياك الفنُ .. بدوحته   فهواك الريشة والوتر ..
وشذاك العبقة — فاغمة —   تألفها الهيدب . والقطر
« النيل » الهادئ يحسبه   بعروس الفتنة .. يزدهر
وشراع الزورق مئذنة !.   بالنور الأبلج .. تنحدر !!!
وضفاف الشاطئ وشيها   الوشى للمرج ، لا الشجر !.
وتراك الجوهر — مؤتلقاً —   بالآل السكب ينصهر ..
وربايا « الجيزة » آلهة !!   وإليها الناسك يختصر !!.

* * *

(يامصرُ) الحرة : لا تهنى   فجناح الذل سينكسر ..
إن غام النور بهالته   فالليل الداجى سينحسر
والرعب العاصف ينهمر   وشظايا الترف تستعر
وزئير الشعب سينتشر   وأتون الصبر سينفجر !! .

* * *

(يامصرُ) الحرة : لا تهنى   مذ عاث الأحقر . والأشر
هشمت « القيد » فلا ندمى   « جزار » الأمن .. ينتصر
وبلغت القصد باسلة   والمجدُ الأمثلُ يختكر ..
هاك العصيان ، لديه   تُردى « المحتل » ، وتنهصر
لا الوعد المنكر يحجبنا   من نيل الحق ، ولا الحذر

والسفح الظامئُ ... « بجزيرة »
بأضاحى الفاتك ... تنهمر
وزفير الثأر حشرجةٌ   — من روح الحاقد — تنتحر
ودماء الشعب — جرت علقاً —
تروى الوديانَ ، وتنغمر
كالسيل العارم .. يجرفه   بالموج الصاخب ... منحدر

* * *

ياشعب (الوادى) : مضى « التترُ »
وعهود السطوة .. تندحر !
ينهال العسفُ ... بموطننا   أوحوش الغابِ أم بشر ؟!
أبقايا « البربر » قد زحفت !   أجرادُ المرعى ينتشر ؟!؟
تغتال الشعبَ .. محقرةً   وتشيعُ الشر ، وتعتذر

* * *

(يامصرُ) الحرة ... لا تهنى
فشباب العزة مقتدر
يسق الإيمان جوانحه
بأزيز الدامى ، ويدخر
ولظى الإقدام بلهبته
يزرى بالعسف ، ويبتدر !!
« .... وهنا ! ... التحرر كتائبه
مرت ! ... » والحارس ينتظر !.
وسنان الطرف .. ينغصه   الويل المحدق . والخطر

* * *

(يامصر) الحرة : لا تهني   فالبغى الآثم يحتضر
طوق للنصر ، ونشوته   برعيل القوة يأتمر ! ...
فاستبق « الوحدة » عاصمةً
يحضنك السؤدد . والظفر

* * *

(بغداد)   على الحلى

الثقافة

العـــدد ٦٧٩
٣١ من ديسمبر ١٩٥١

مجلة أسـبوعية للآداب والعـلوم والفنون
تصدرها لجنـة التأليف والترجمـة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

صفحة

الشهيــــــد

الليــل خيّم والشهيد دماؤه فوق الثرى
والنجم يخفق من أسى يرناحه مما يرى
وتطــول زفرته وفي أعماقه شجن ثقيــل
يمضي على الآفاق نيراناً تفحّ من الغليــل

* * *

الأرض والهــة تضج حتى وإن هــدأت بنا
أرض الفراعــين الألى ســادوا وشــادوا للدنا
كم صــابرت أعداءها فشــوا عليها ظــالمين
فطوتهم في مثــل لمح الطــرف طيّ الهالكين

* * *

الريح تعول والهضوب لكنـــه قــد يغول
والسحب تبكي ثم تبكي والبروق تنقّــل

والكون أنشد تطوّف بالشهيــد الراقــد
متــوشحاً دمــه مهيباً كالملاك الســاجد

* * *

وهناك أتراب جلوس مطــرقون يفكّرون
قد أقســموا لا يرقدون والعــراء لهم قرين
صُبّت عليه من العــدا نيرانهم لم ترحــم
فقضى وبسمته على وجــه تخضّب بالدم

* * *

الخلــد أبواب تفتّح والزغاريد انهمــار
هــذا شهيد روحــه تسمو إلى دار القــرار
ومــلائك يدعــونه متلهّفــين مكبّرين
هــذا فدى أوطــانه فله مقــام الآمنــين

(إسكندرية) أحمد محمود عرفة

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك | الإدارة | رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـدد ٦٧٩ الاثنين ٢ من ربيع الثانى سنة ١٣٧١ — ٣١ من ديسمبر سنة ١٩٥١ السنة الثالثة عشرة

فى ضوء المصباح :

عروس المـــولد

للدكتور زكى نجيب محمود

أرسلت إلىّ قائلة : « لقد أعجبنى كثيراً وصفك للكراهية الصامتة ، حتى تمنيت لو استطاع « الحب الصامت » أن يحظى من قلمك بمثل هذه اللفتة . . . » وتمنيت بدورى لو استطاع قلمى أن يجيب الصديقة الأديبة إلى طلبها ؛ لكنى أحسست فى أعماق نفسى بأنى إذا ما أجريت قلمى فى هذا الميدان ، تعثر وكبا ، فلا أكون جديراً منها بإعجاب آخر .

ترى أين عساى أن أوجه النظر ، لأبصر بالحب صامتاً لا يفصح عن نفسه ولا يبين ؟ إن الناس إذا ما أحس أحد لأحد حباً ، أسرع إلى إعلانه فرحاً مخوراً ، كأنما وقع فى ثنايا الطبيعة الإنسانية على كنز نادر نفيس ؛ إنهم إذا ما أثنى أحد منهم على أحد فى غيبته ، تمنى لو بلغ هذا الثناء صاحبه ، لأنه يعلم أن الفطرة البشرية قلما تجود بهذه اللحظات التى يثنى فيها إنسان على إنسان ، ثناء صادقاً مخلصاً لا ملق فيه ولا رياء .

أتذكر يوم جاء أبوك إلى غرفتك ساعة الفجر يصلى — فما رأيته مقصراً قط عن أداء الصلاة منذ شبيت فوعيت حق مات — أتذكر وقد أخذ يدعو لك الله فى صوت جهير ، وكنت عندئذ مستيقظاً فى فراشك ، لكنك ظللت مغمض العينين ؟ أتذكره وهو ينبئك على مائدة الإفطار كيف دعا لك وعاذا دعا ؟ فلما قلت له إنك قد سمعت دعاءه ، لأنك كنت بين اليقظة والنعاس ، تهلل وجهه وانتشى نشوة لم تفارقه طيلة يومه ؟ إنه والد أحب ولده حباً خالصاً ، لكنه لم يطق أن يظل حبه خبيئاً صامتاً ؛ وانظر — إن شئت — كيف يفرح الآباء إذا ما جاءوا لصغارهم بالحلوى ، أنظر كيف يفرحون فرحة مضاعفة إذا كانت الأمهات على مرأى منهم أو مسمع ! إن الوالد حين يعطى صغاره الحلوى ، إنما يعطى أبناءه الذين يمحضهم الحب نقياً خالصاً لوجه الله ، لا شبهة فيه ولا شائبة ؛ لكنه مع ذلك يود لو رأت أمهم علائم حبه لهم ، لأنه لا يريد للحب أن يمضى خفياً صامتاً ، غير مرئى ولا مسموع .

كلا ، لست أجد المكان الذى أقف فيه لأنظر فأرى الحب صامتاً ، وإذاً فلا مجال بى أن أجيب الصديقة الأديبة إلى طلبها ، فليس المهم أن يكتب الكاتب ليملأ الصفحات ، إنما المهم أن يكون صادقاً فيما يكتب وليقل بعد ذلك من شاء ما شاء .

إنهم يقولون إن الأدب خيال ، وإنهم لصادقون ، فماذا لا تنسج بخيالك نسيجاً ترضى به الأديبة فيما طلبت ، وترضى به غرور الناس فى آن معاً ، حين تنبئهم بأن قلوبهم مفعمة بالحب ، بعضٌ إزاء بعض ؟ ماذا عليك أن تتخيل زهداً

وقد أحب عمراً حباً لم يعلنه بإشارة أو عبارة ؟ ... لا ! إن خيال الأديب ليس معناه أن يطير في الهواء بلا جناح ! والجناح الذي يطير به هو الواقع الذي يحسه ويراه .

إن « سرفانتيز » لم ينظر بعينيه إلى فارس يظن من رأى من الفرسان ، اسمه « دون كيشوت » فرآه يصنع لنفسه خوذة من ورق ، ثم يضرب الخوذة بسيفه فتمزقها ضربة السيف ، فيعود إلى صنع خوذة أخرى من الورق ، ويأبى هذه المرة أن يضربها بسيفه خشية أن يمزقها ، حتى يظل رافلاً في خياله الجميل ، بأنه — كسائر الفرسان — يغطي رأسه بخوذة تحميه من ضربات الأعداء إذا ما التقى بالأعداء في قتال . . . إن « سرفانتيز » لم ير شيئاً من هذا رأي العين ، لكنه خلقه بخياله ، وكان معنى الخيال هنا أن العين يجوز أن ترى أشباهه في الحياة الواقعة ؛ ولا أحسبنا — نحن المصريين — بحاجة إلى غوص عميق في لجة الحياة الواقعة لنستخرج منها أمثلة شبيهة بهذا الذي وقى رأسه بخوذة من الورق ، موهماً نفسه بأنه قد أصبح كسائر الناس الذين يضعون الخوذات الصلبة فوق رءوسهم لتحميها .

ولم يكن « لير » ملكاً حقيقياً من أصحاب العروش الذين عرفهم التاريخ وسجلهم في كتابه ، بل خلقه شكسبير بخياله ليصور ما يمكن أن تكون عليه حالة الوالد إذا ما قسم ملكه بين أبنائه أو بناته قبل موته ، معتمداً على حب الولد لوالده ؟ فهنا « لير » قد قسم ملكه بين اثنتين من بناته الثلاث ، حتى إذا ما طرق باب الواحدة منهما بعد ذلك ليعيش في كنفها ، ضاقت به أولاً ثم نهرته ثانياً ، ثم طردته ثالثاً ؛ فراح المسكين — من هول الصدمة — في الأرض العراء يهذي ، ومالبث هذيانه أن أصبح جنوناً صريحاً ... إن شكسبير لم ير ذلك بعينيه ، لكنه خلقه بخياله خلقاً ، وكان معنى الخيال هنا أيضاً أن العين يجوز أن ترى أشباهه في أي زمان أو مكان .

فلئن كان الأدب خيالاً ، فهو هذا الخيال الذي يستمد من الواقع جناحه ، فلا بد لي — إذاً — قبل أن أكتب في « الحب الصامت » أن أراه ... ...

بالسعدي ! وقلما شاءت لي الأيام سعداً ! لقد وقعت عيناي ليلة المولد على مثل عجيب من الحب الصامت ، وإذاً فسأكتب للصحيفة الأدبية ما أرادت ! .

هــذا صبي في العاشرة وقف أمام بائع العرائس — عرائس المولد — وقفة تضيق بالمعاني ؛ وقف على بعد ثلاثة أمتار أو نحوها ، مثبتاً ناظريه في عروس كبيرة ، والأعجب من هذا أن راحت العروس « الحلوة » بدورها تنظر إليه لا تزيغ عنه البصر ! ... والله لن أمضي في طريقي حتى أتبين حقيقة هــذا الغزل النادر ؛ إن الصبي ينظر إلى معشوقته وعلى فمه ابتسامة خفيفة كلها هيام ، والأعجب من ذلك أن راحت العروس « الحلوة » بدورها تبتسم له في حنان ظاهر لمن شاء ! ريب في أن العروس قد وقفت هنالك على شرفتها العالية من دكان البائع تصوب نحو الصبي نظراتها وتبعث إليه ابتسامها ؟ ألا إنهما عاشقان صامتان ، ولولا أن حبه هو قد كان ممتزجاً باشتهاء الحلوى ، وأما حبها هي فصادر منها عن عطف وإشفاق ! ترى شهوته في عينيه ولعاب شفتيه ، وترى عطفها في ابتسامتها ...

لكن أوجه الخلاف بين العاشقين الصامتين بعد ذلك فسيحة المدى ! إنه صبي فقير وقف هنالك في هلاهيله رغم البرد الشديد ؛ وقف مرتعش الأطراف تريد عضلاته الصغيرة أن تزحم بعضها بعضاً ليدفئ بعضها بعضاً ؛ ورأيته يرفع إحدى قدميه فيقف بها على أطراف أصابعها ، ونظرت إلى القدم المرفوعة فإذا آثار جرح كبير في عقبها ، تعرفه جرحاً بحواشيه القرمزية المتفتحة ، وأما فجوة الجرح نفسه فقد ملئت بالطين الجاف ، كأنه بركان ثار وأرسل الحمم ثم خمد مؤقتاً ليثور من جديد بعد حين ! لكن الصبي الولهان ظل واقفاً هنالك يرتعش ويرقب معشوقته المشتهاة في شرفتها العالية ، إنها إذاً به الثراء . لبست ثوباً نظيفاً جديداً لامعاً ، عليه « الترتر » اللامع الساطع .

شعر الصبي ملبد فوق رأسه خشن بأوساخه غليظ ، وشعر العروس ممشط ناعم مرسل ! وجسد الصبي ملطخ ببقع بيضاء من ملح ، وجسد العروس كله في حلاوة السكر وأشهى ! شتان ما كان من فرق بين العاشق الفقير ومعشوقته الثرية : إنه بقعة سوداء في محيط لامع من الأضواء المختلفة الألوان والبريق ؛ كان المكان كله يتوهج بالنور ليلة المولد ، وكان الهواء كتلة من الصوت ، فاختلط الصوت بالضوء اختلاطاً يكاد يخيل لك معه أنك ترى الضوء بأذنيك وتسمع الصوت بعينيك — إلا هذا الصبي العاشق الولهان ، فقد وقف وسط الضوء اللامع بقعة سوداء من قذر ، ووقف وسط الصوت المدوي قطعة ساكنة من ذل ، ترتعش أطرافه من برد ديسمبر ، وترتفع قدمه الجريحة تخفيفاً للألم ،

وذراعاه ساقطتان على بطنه ، إما طلباً للدفء أو دفعاً لجوع ، وقف هنالك بقمة سوداء ساكنة ، رافعاً رأسه قليلا إلى أعلى ، شاخصاً ببصره إلى عروسه لا يتحول عنها يميناً أو يساراً ولا يتقدم خطوة ولا يتأخر .

فأين ذلك كله من عروسه اللامعة مع محيطها اللامع ، الزدانة في اتساق مع ما حولها من زينة ؟ إنها وقفت هنالك تنظر إليه وتبتسم ، لماذا لا تنزل الدَّرَج ساعية إليه ؟ إن الفقير والغنية إذا تحابا ، كان على الطبيعة أن تغير مجراها ، فتخطب الأنثى ود الذكر ، لأن الذكر هنا عاجز مهيض الجناح منتوف الريش ! لقد كان محالا على الصبي أن يتصور أن عروسه تلك المزدانة ، قد وقفت هنالك في هودجها ، أمةً رقيقة معروضة في السوق للبيع ، ولا تتحرك إلا بإذن صاحبها الذي يتقدم لشرائها ، كان محالا أن يطوف بباله أن هذه «الحلاوة» كلها تباع بمال ، وأكثر من ذلك استحالة على تصوره أن يكون بين الناس من يملك المال الذي يستطيع به الشراء !.

كيف كان يمكن الصبي في فقره وخبرته أن يتصور أن عروسه تلك مما يؤكل ؟ كيف يأكلها آكلوها ، هل يبدءون بالرأس أم يبدءون بالقدم ؟ وهذا الشعر المنساب الناعم على رأسها ، وهذا الثوب المزخرف الجميل اللامع . . .

طاخ ! نزلت صفعة الشرطي على الصبي إذ هو شاخص ببصره إلى عروسه يحلم ؟ والشرطي معذور ، لأنه مطالب بحفظ النظام ، وليس من النظام في شيء أن يشتهي مثل هذا الصبي مثل تلك العروس ؟ إن في ذلك خلطاً كريها لطبقات الأمة غنيها وفقيرها ، وقد كان العشق منذ أقدم العصور مقيداً بقيود الطبقات ، فلا يكون عاشق من طبقة ومعشوقة من أخرى . . . طاخ ! صدمت ركلة الشرطي قدم الصبي الجريحة ، فجرى المسكين صارخاً من الألم في صوت يشبه عواء الكلب الجريح ، وظل يحجل على قدم واحدة وهو يصيح ، حتى أوى إلى فجوة باب مغلق خلف حظيرة الحلوى التي عرضت فيها عروسه ، وجلس هنالك في الظلام باكياً ، يهز جذعه إلى خلف وإلى أمام ، ممسكا قدمه الجريحة بين كفيه .

ونظرتُ إلى الصبي في ظلامه نظرة أخيرة ، ثم نظرتُ إلى عروسه في زينتها وضوئها ؟ نظرت إليهما بعد أن فرق قانون الدولة بينهما إلى الأبد ، فإلى الأبد سيظل حب الصبي لحبيبته مكتوماً في قلبه ، وسيظل حب العروس لفتاها حباً صامتاً ؟ لكن ابتسامة الصبي قد حولها قانون الدولة بكاء وأسالها على وجهه البائس دموعاً ، وأما ابتسامة العروس فستبقى ابتسامة — وإن تبدل معناها من عطف إلى سخرية — ستبقى لها ابتسامتها لأنها في السوق لا تباع بغير ابتسامة

ومضيت في طريقي وأنا أحمل بين جنبي قلباً من حجر ؟ وهل أدعى غير ذلك ما دمت قد رأيت وسمعت ، ثم مضيت في طريقي ؟ وما هو إلا أن رأيت قوماً تحلقوا يذكرون الله في ورع وتقوى ، فهل كان يسعني عندئذ إلا أن أتذكر « فيفيكا ناندا » — من رسل الإصلاح الديني في الهند — إذ يقول : « أسمى الحقائق هي هذه : الله كائن في الأشياء كلها ؛ إنها صوره الكثيرة . . . إننا نريد عقيدة دينية تعمل على تكوين الإنسان . . . اطرح هذه التصوفات المنهكة للقوى وكن قوياً . . . ولتمح من صفحات أذهاننا — في الخمسين عاماً المقبلة — كل ما عدا ذلك من آلهة ؟ جنسنا البشري هو الإله الوحيد اليقظان ، يداه في كل مكان ، قدماه في كل مكان ، أذناه في كل مكان ، إنه يشمل كل شيء . . . إن أولى العبادات كلها هي عبادة من حولنا ، ليس يعبد الله إلا من يخدم سائر الكائنات جميعاً » .

لم يكن يسعني وقد رأيت الذاكرين يذكرون الله بعد رؤيتي لذلك الصبي يتألم ويعوي ، بكل ما فيه : بقدمه الجريحة وبطنه الجائع ، وجسمه المرتعش ، وقلبه الولهان ! لم يكن يسعني وقد رأيت أولئك بعد هذا ، إلا أن أذكر قول « فيفيكا ناندا » على نحو ما يتوارد الضدان في الذهن ؟ والحق أني ظللت أذكر ذلك الصبي المتألم الولهان ، كلما فتحت بريد «الثقافة» ووجدت قصائد «الشعراء» تترى في ذكرى المولد النبوي الكريم : ترى هل لهؤلاء « الشعراء » قلوب حساسة حقاً كما يتوهمون ويوهمون ، أم أن قلوبهم — مثل قلبي — قدت من حجر ، فيرون أمثال هذا الصبي المسكين ليلة المولد ، ثم يمضون إلى مكاتبهم الدافئة ينظمون و« يشعرون »؟!!

ولكن مالي الآن ولهذا كله ؟ لقد كتبت إليَّ صديقتي الأديبة متمنية لو استطعت أن أكتب عن « الحب الصامت » كما كتبت عن « الكراهية الصامتة » ، وتمنيت بدوري لو استطاع قلمي أن يجيب ، وحسبت تحقيق أمنيتي هذه — في أول الأمر — محالا لاستحالة أن يكون في العالم حب صامت يقع عليه البصر فيجري به القلم ؟ ثم شاءت لي الأيام سعداً وقلما تشاء ، فأطلعتني ليلة المولد النبوي على حب صامت عجيب ، سيظل إلى الأبد قائماً بين صبي فقير عاشق وعروس من الحلوى .

زكي نجيب محمود

من مطالعات الكتب

للأستاذ الدمرداش محمد بك

تحتفل العدة في هذه الأيام ، لإعلان قيام مملكة ليبيا الجديدة ، وتنصيب سيدي محمد إدريس المهدي السنوسي ملكاً عليها ، وهذا حدث لاشك له أهميته ، وأظن أنه سيكون له في مستقبل الأيام أثر بالغ في مجرى الحياة ، التي يعيشها غالبية سكان هذه المملكة الناشئة منذ آلاف السنين ، وأعني بهم البدو القاطنين بصحراء ليبيا ، المتوطنين في واحات منعزلة ، متباعدة ، متناثرة كالجزر في محيط خضم من الرمال ، وهؤلاء البدو يكوّنون ، في الوقت الحاضر ، وحدة متجانسة ، متحدة في العقائد ، والاعتقادات ، والتقاليد ، والعادات . وذلك بالرغم من اختلاف السلالات التي انحدروا عنها ، إذ يرجع أصل غالبيتهم إلى القبائل الليبية القديمة ، التي استوطنت الصحراء قبل عصر التاريخ بزمن طويل ، كما لايزال يجرى في عروق فريق كبير منهم دم العرب ، الذين اجتازوا شمال أفريقية ، في طريقهم إلى مراكش والأندلس ، في عهود الفتوحات الإسلامية .

في سنة ١٩٢٣ — وهو عهد ليس ببعيد — رحل المرحوم الرحالة أحمد حسنين باشا إلى صحراء ليبيا ، واخترقها من أقصى الشمال ، إلى أقصى الجنوب ، على ظهور الجمال — من البحر الأبيض المتوسط إلى بلاد كردفان بالسودان ، وقضى في ذلك مدة طويلة ، اختلط في أثنائها بسكان الصحراء ، وعاشرهم واطلع على الكثير من تقاليدهم وعاداتهم ، ثم دون مشاهداته وتجاربه ، وملاحظاته عن هذه الرحلة في كتابه « في صحراء ليبيا » — وقد رأيت أنه من المفيد أن أنقل لقراء الثقافة — بمناسبة قيام هذه المملكة — بعض ماجاء في هذا الكتاب خاصاً بذلك .

في الوقت الذي زار فيه الرحالة الصحراء ، كان لا يزال للسنوسية فيها شأن كبير ، وكانت تدين الصحراء لهم بالولاء ، و « للإخوان » بالطاعة . وفي ظل هذا الولاء وهذه الطاعة أمكن لرحالتنا أن يخترق الصحراء ، ويطوّف بها ، وأن يُستقبل في كل مكان حل فيه بالترحاب ، وأن تقضى حاجاته بالرضى والإذعان ، وذلك بفضل ما كان يحمله من توصيات « الإخوان » لأصحاب النفوذ والسلطان من رؤساء العشائر وزعماء القبائل .

ويعجب الرحالة بالتنظيمات السنوسية ، وبالخدمات الجليلة التي يقدمونها للبدو ، والتمكين للدعوة الإسلامية بينهم فيقول :—

لايكوّن السنوسيون شعباً أو مملكة أو وحدة سياسية ، وإن كان فيهم من هذه الأشياء خواص كثيرة ، على أنهم من البدو الذين يسكن معظمهم صحراء ليبيا ، ويبسطون نفوذهم على مساحة عظيمة من تلك النواحي ... ويعتبرون قوة حقيقية في شئون أفريقية الشمالية الشرقية ... وتقوم السنوسية على ثلاثة أركان : الزاوية . والإخوان . والوكيل . أما الزاوية فهي عبارة عن ثلاثة أبنية رئيسية : المدرسة حيث يتلقى صغار البدو الدروس عن الإخوان ، والمضيفة حيث ينزل المسافرون لتمضية ثلاثة الأيام التي يقضي بها كرم البدو — والمنزل حيث يسكن الإخوان ... أما الإخوان فهم الأعضاء العاملون في هذه الطائفة ، وهم الذين ينشرون تعاليمها وأغراضها — وأما الوكيل فهو ممثل شيخ السنوسيين والقائم عنه بالأمر ... وأهم تعاليم شيخ السنوسيين الدعوة إلى الدين الإسلامي الحق ، والتمسك الشديد بأوامر الله سبحانه وتعالى ونبيه الكريم ، وتقوم دعوته في سبيل رضاء الله وخدمة الدين على الأركان الآتية : تنبيه الغافل وتعليم الجاهل ، وهدى من ضل سواء السبيل .... وأعظم أعمال السنوسية كانت في الصحراء بين البدو والقبائل السود القاطنة جنوب الكفرة . فقد جعل من السنوسيين قوة روحية في تلك الأصقاع ، وعاملاً قوياً على بث السلام والإخاء بين القبائل ، بل جعل منهم فوق هذا هيئة تجارية كبرى ، بفضلهم نمت التجارة وازدهرت .

ويعتقد البدو أن لمؤسس الطائفة السنوسية ، وخلفائه ، وكبار الإخوان ، قوة خفية ومعرفة بالغيب ، ينسبها البدو

« كرامات » . وقد أخبرني أحد الإخوان في جغبوب بقصة عنه قال :

« كنت مسافراً مع جماعة من الرفقاء من بنغازي إلى جغبوب لزيارة السيد المهدي . فأخطأنا موضع بئر في الطريق ، وشعرنا بضيق شديد لنفاد الماء ، وأمسى المساء ، فالتفت إليّ أقل رجال القافلة رغبة في زيارة المهدي وقال : « أما وقد أحضرتنا لزيارة ذلك الرجل التقي ذي الكرامات فهلاّ سألته أن يرسل إلينا مايبل أوامنا إن كان من التقوى والصلاح بحيث تقول » ... وحدث في تلك الليلة بجغبوب أن السيد المهدي استيقظ من نومه . ونادى عبدين من عبيده ، وأمرهما أن يقوما في الحال فيحملا الزاد والماء على خمسة جمال ، وأن ينطلقا إلى الصحراء ، ويأخذا السبيل التي أشار إليها . فلا يقفا حتى يلتقيا بقافلة في الطريق ، فضيا في سبيلهما . والتقيا بقافلتنا . وقد أشرف رجالها على الهلاك » .

وأعجب الرحالة بتقاليد السفور السارية بين عامة البدو ، وفي هذا يقول :

وشباب البدو وعذاراهم مطلقون في الاختلاط بعضهم ببعض . ولا تحتجب المرأة إلا في الأسر الكبيرة ، ويعرف الشاب موضع أمله في الزواج . فيقصد خباءها ، ويغنيها من شعره ، فإن مالت نفسها إليه ، خرجت وساجلته الغناء من مقولها ، أومن منقولها . ويقصد الشاب أهلها بعد ذلك ، ويدفع المهر ، إن تم الاتفاق ، ثم يعود إليها في حفل من أصحابه ، ويأخذها إلى داره . تحف بهما الفرسان المتخطرة ، وتدوي فوق رؤوسهما طلقات البنادق .. وقد يفر الحبيب بحبيبته فينتهي الأمر بين قبيلتهما بسفك الدماء لأن البدو يعدون الفارّ بحبيبته سارقاً لها .

ولقي رحالتنا في جغبوب وجالو والكفرة من ضروب الكرم الحاتمي ، ماجعله يلهج بذكرها بإطناب ، ويخصّ مضيفيه في هذه الواحات ببالغ المدح والثناء . وفي هذا الصدد يقول :—

إنما يبين كرم البدوي في كثرة ألوان الأطعمة التي يقدمها لضيفه ، فإن الطعام في الصحراء ، أهم مظاهر الكرم ، وهو في تلك الأصقاع الساذجة كل مايتحدث به الناس — ثم يقول : كان يقيم بجالو نساء كثيرات من الأسرة السنوسية . وقد أرسل إليّ أولئك السيدات الكريمات بعد وصولي جالو بقليل ، يدعونني للعشاء . وهذا حادث غير عادي ، لأن نبيلات الصحراء لايولمن الولائم للرجال ، وأدركت ، بطبيعة الحال ، أني غير مدعو لتناول العشاء مع داعياتي ، ولكني قدرت هذا العطف من ناحيتهن ، فقبلت دعوتهن راضياً شاكراً . وجاءني السيد الزروالي والحاكم في الوقت المحدد لمرافقتي إلى دار الضيافة . فأدخلنا إلى غرفة فسيحة ، ينبعث في جوها بخور ذكي الرائحة . وينتشر فيها نور ضعيف . من سراج نحاسي أحمر . وشموع كثيرة ، ويلقي أشعته الذهبية على ما في الغرفة من سجاجيد ثمينة ، وطنافس حريرية ، فيرسل عليها أضواء بهيجة ... وكان القائم بإكرامنا سيدي صالح ، وهو بعل سيدة من سيدات الأسرة السنوسية ، فأشرف على نفر من العبيد قدموا لنا مالذ وطاب من طعام وشراب ، وبعد أن نلنا من كل ماقدم إلينا جرياً على عادة البدو جاءنا العبيد بطسوت من النحاس ، فغسلنا أيدينا ، ثم تناولنا الثلاثة أكواب الشاي المعتادة . ونُثرت علينا قطرات الورد ، وأطلق ذكي البخور ، وبعد ذلك تقدم إليّ رئيس العبيد باحتشام وهمس في أذني سائلاً إن كنت أحب أن أسمع شيئاً من الأغاني ، فأبيت شاكراً على تلطفه .

واستعدت قافلة رحالتنا في منتصف شهر مارس لمغادرة جالو والسفر إلى الكفرة ، واجتمع أعيان الواحة لتوديعها وفي هذا المقام يقول :—

بعد أن حملنا الجمال بدأت حفلة « الوداعة » التي اعتادها العرب ، فوقفت مع رجالي على شكل نصف دائرة . وواجهنا شيوخ جالو وإخوانها . وقد وقفوا على شكل نصف دائرة أخرى ورفعنا الأكف خاشعين . مبتهلين أن يبارك الله رحلتنا ، وأن يسدد خطانا ، ويرجعنا سالمين إلى الأوطان وقرأنا الفاتحة . وأمّن عليها أكبر الإخوان سناً ، ثم تبادلنا الشد على الأيدي وبدأنا السير بين صراخ الرجال تستحث الجمال . وزغردة النساء تدوي في الفضاء .

ويمتدح الرحالة جمال البدويات ورشاقتهن فيروي القصة التالية :—

وزاد إقبالنا على السفر ماحدث لنا عند اختراقنا « البقية »

(البقية على الصفحة التالية)

بين كارلايل وإمرسن

للأستاذ علي أدهم

من مأثور أقوال المتنبي في شكوى الدهر قوله :

أبى خُلُقُ الدنيـا حبيباً تديمه
فمـا طلبي منها حبيباً ترده

وخلق الدنيا الذي يأبى دوام الأحبة والصحبة ، يأبى كذلك دوام الأصدقاء وبقاء الصداقة ، وخاصة بين رجال الآداب والفنون . ولذا تعد الصداقات الطويلة المدى القوية الأواصر في التاريخ الأدبي من الأشياء النادرة . وفي سنة ١٨٣٣ نشأت صداقة أدبية من أمثال هذه الصداقات القليلة النادرة بين الكاتب البريطاني الكبير توماس كارلايل والكاتب الأمريكي الجليل الشأن الذائع الصيت رالف والدو إمرسن . ولو لم يقع في تلك السنة من الحوادث الهامة الجديرة بالإشارة إليها سوى هذا الحادث لكان وحده جديراً بتخليد ذكرى تلك السنة !.

وكان كارلايل في السنة السابقة قد فجع بفقد والده ، وفجع بعد فقد والده بفقد أستاذه جيتي . وأقام مع زوجته في ناحية موحشة منعزلة في أسكتلندة تسمى « كراجينبتك » وفي يوم من أيام الخريف ، وقد جلس كارلايل في داره يجيل فكره في موضوع « العقد الماسي » الذي جمع مواده وأخذ يتأهب للكتابة فيه ، ولكن رغم محاولته وإحاطته تفصيلا ، لم يتسق له الموضوع ولم يسلس قياده ، وقد ضايقه ذلك ، وساءه أن يتأبى عليه الموضوع وتستعصي الكتابة ، وبينا هو يعاني هذه الحيرة التي يعرفها أصحاب الأمزجة الفنية حينما يشرعون في تناول موضوعاتهم قبل أن تختمر بها خواطرهم وتتمثل شعاب نفوسهم حتى أطلت عربة تقف عند باب داره . وينزل منها شاب أمريكي — يحمل كتاباً من ستيوارت مل — وكان في هذه الفترة من أصدقاء كارلايل المعدودين إذ لم تكن النبوة قد وقعت بينهما بعد — يقدمه فيه لكارلايل ، وكان هذا الشاب الوافد على كارلايل في

وهي قرية بجالو . فقد لاح لنا على جانب الطريق بدوية رشيقة القوام ، قد انفردت وهي مسدلة نقابها على وجهها ، فلما مررنا بها أدار رجالي الأبصار إلى الغادة وصرخوا بصوت واحد : « وجهك ! » « وجهك » ، فعطفت البدوية وأزاحت نقابها ، وهي خفرة ، فكشفت عن وجه بديع القسمات ، صافي الأديم ، ينم عما عرف في غواني البدو من حياء وجلال ، وبهر جمالها رجالي ، ومست أدبها نفوسهم فأرسلوا عبارات الإعجاب والسرور ، ولم يسعني أمام ذلك ، إلا أن أسير على عوائد البدو ، في مثل هذه الظروف ، فأمرت رجالي أن يفرغوا البارود عند قدميها ، فتقدم حامد ورقص أمامها رقصاً رشيقاً ، وهو يمسك بندقيته فوق رأسه بكلتا يديه ، جاعلا فوهتها إلى الأمام ، ثم اقترب منها ، وهو يغني أنشودة بدوية من أناشيد الغرام ، حتى إذا صار قبالتها هوى على ركبة واحدة ، وصوب بندقيته إلى موطئ قدميها ، ثم أطلق النار على قيد شعرة منهما . وكان هدفه من القرب والدقة بحيث أصاب لهب البارود حذاء الصبية ، فتناثرت جوانبه ، ولم تجفل عند إطلاق النار ، بل ظلت منتصبة القامة ، مغرورة بالشرف العظيم الذي نالته ، لأن الحذاء التالف في قدمي الغادة البدوية ، دليل فخر تسمو إليه فتيات الصحراء .

وسارت المطايا بالرحلة شهوراً ، واجتازت في سيرها أقطاراً . وظن البدو برحالتنا الظنون ، وفي هذا يقول :—

وأهل الصحراء سريعون إلى التكهن بمقاصدك ، إن أمكنهم ذلك ، فإن عجزوا ظنوا الظنون في كل ما تعمل ، أو تريد أن تفعل . وكان أكثر متاعنا في صناديق ، والأعراب لا تفهم من الصناديق إلا أنها تحوي كنوزاً . وليس عجيباً منهم . وقد ظنوا أني مخترق الصحراء بهذه الثروة الطائلة ، لسبب خاف عنهم ، ففكروا مرة في سرقتي ونهب القافلة .

الدمرداش محمد

هذه الناحية النائية المهجورة هو إمرسن ، وكان قد قرأ وهو في أمريكا الفصول الأدبية التي أذاعها كارلايل في بعض المجلات الإنجليزية وأعجب بها وتركت في نفسه أثراً بالغاً ، فلما جاء لزيارة أوربا عنى بزيارة انجلترا ، وحرص بوجه خاص على لقاء كارلايل ، وقد كتب كارلايل عن هذه الزيارة في يومياته يقول : « لقد غودرت هنا أشد الناس وحشة وأقلهم ناصراً ، مهجوراً من الأصدقاء كما كنت مدة سنوات ، ثم جاء هذا الرجل ليراني ، ولست أدري ما الذي بعثه على المجيء ، وقد أبقيناه عندنا ليلة ثم غادرنا بعد ذلك ، ولقد رأيته وهو يصعد الجبل ولم أذهب معه حتى لا أراه وهو ينحدر من فوق الجبل ، فلقد آثرت أن أراقبه وهو يصعد ويغيب عن ناظري كما تختفي الملائكة » .

وبعد أن مرّ على هذا اللقاء سنتان كتب كارلايل إلى إمرسن ضمن رسالة « سنظل طويلا نذكر يوم الأحد من ذلك الخريف الذي زرتنا فيه في كراجينبتك النائية الموحشة ، ولقد غادرتنا ، ولكنك لم تتركنا كما وجدتنا » .

وفي نوفمبر سنة ١٨٣٨ كتبت السيدة جين ولسن — زوجة كارلايل — في حاشية كتاب من زوجها لأمرسن تقول : « إذا لم يكن هناك شيء يذكرنا بك فإننا لن ننسى ذلك الزائر الذي نزل علينا وكأنه هبط من السحاب وكان اليوم الذي قضاه عندنا يوماً ساحراً جعلني أذرف الدمع لأنه لم يكن سوى يوم واحد » .

وقد تركت هذه الزيارة في كراجينبتك أثراً لا يزول في نفس كارلايل ، ففي رسالة كتبها إلى إمرسن بعد مرور ثلاث عشرة سنة على هذه الزيارة كتب كارلايل إلى إمرسن يقول : « آه يا صديقي أي حقيقة عجيبة خيالية عالمنا هذا الضخم الهائل وحياتنا ! أتذكر كراجينبتك والأمسية الهادئة التي قضيناها بها ؟ إن الدموع لتطفر من عيني إذا كان هذا من عادتي : ولكن هذا غير مجدٍ » .

وأول كتاب في سجل هذه الصداقة النبيلة كتبه إمرسن في ١٤ مايو سنة ١٨٣٤ بمدينة بوسطن وفيه يقول : « بعض الأغراض التي نرمي إلى تحقيقها نرجئها طويلا لمجرد أنها أسمى مكانة في نفوسنا من أغراض أخرى ، وقد كنت أريد تحقيق أحد هذه الأغراض منذ أسابيع ، بل منذ أشهر ، وهذا الغرض هو كتابة رسالة إليك ، وقد حملت إليّ أجنحة بعض رياح الشهرة ، وربما كان ذلك منذ عامين ، باعتبارك كاتب فصول في مجموعة من المجلات الدورية الإنجليزية ، وهذه الفصول هي أعمق ما قرأت في هذا العصر وأكثر طرافة وأصالة ، وهي كتابة رجل له يقين وله عقل . . . وقد جذبتني جواذب الرغابة والاحترام لأحد أساتذتي فذهبت لأرى شخصه . . . ولما عدت إلى وطني أعدت على الكثير من الآذان الصغية ما رأيت وما سمعت ، وقد تلقوه بسرور وارتياح . . . وقد تسلمت أربعة أعداد من كتاب « فلسفة الملابس » وأشكر لك دائماً ما أفاضه علينا من النور . . . وإنه لمن الخير أن يكون عندنا عين جديدة تبحث أحوالنا الاجتماعية والسياسية ومدارسنا وديانتنا » .

وبعد كتابة هذه الرسالة بزمن قليل كان كارلايل قد انتقل من كراجينبتك إلى لندن ، ومن لندن أرسل في ١٢ أغسطس سنة ١٨٣٤ الرد على هذه الرسالة ، وقد تناول فيه الحديث عن كتابه « فلسفة الملابس » وفيه يقول لإمرسن : « من الجانب الإنجليزي لمياه المحيط الأطلسي لم ألق سوى استجابة واحدة واضحة صادقة ، ولو أنها متحمسة مثل استجابتك » ، وفي ختام الرسالة يقول له : « أرجو أن تظل محباً لي أنت وغيرك من أصدقائنا » .

وكان إمرسن يعتقد أن الشبان في أمريكا وفي انجلترا قد يرون في حياتهما ما يشجعهم ويرفع من مستواهم ، ولما كتب في ١٧ أكتوبر سنة ١٨٣٥ إلى كارلايل يقول : « لنعتقد حينا ينال منك الكلال والإعياء أنك وأنت الذي تبعث القوة في نفوس أفاضل الشبان ، وتدخل السرور على نفوسهم ، لا يمكن أن تكتب سطراً واحداً عبثاً ، ومهما يكن ما يصيبنا في المستقبل فليس هناك خير من أن نكون قد أيقظنا حاسة الجمال العذبة في نفوس الكثيرين وأن نكون قد ضاعفنا عندهم شجاعة الفضيلة » .

وكان إمرسن يشعر بنجدته في الحرب القائمة على نزعة العصر المادية ، وكان يشجعه على البقاء في الميدان استجابة الكثيرين لدعوته ، وتقديرهم لجهده ، وكان يرى في كارلايل أخاً له يجاهد في الميدان نفسه ، ويحارب مثله النزعة المادية ، ولكن إمرسن كان قانعاً بالحياة راضياً عنها ، على خلاف

كرلايل الذي كان دائم السخط والتشكي ! وفي إحدى رسائل إمرسن إليه تنبع الطمئنان إمرسن إلى حياته المنزلية وحبه لأسرته وثناءه على زوجته وتعلقه بطفله الصغير « والدو » الذي يقول عنه في تلك الرسالة : « إن ابني قطعة من الحب والضوء ، تستحق أن أراقبها من الصباح حتى إقبال الليل » وهو يعيد الكلام عن هذه القطعة من الحب والضوء في رسائل أخرى ، وفي إحدى هذه الرسائل يقول : « لقد بلغ طفلي الصغير الخامسة من عمره اليوم ، وهو يرسل إليك تحية الحب » . ولكن لا ينقضي على كتابة هذه الرسالة أربعة أشهر حتى يصاب هذا الوالد الحنون العطوف في ابنه العزيز فتعظم فجيعته ويشتد حزنه فيكتب إلى صديقه وهو في غمرة الأسى قائلاً : « لا أستطيع أن تصدق وتواسيني ، ولا تستطيع أن تعرف كم أخذ مني مثل هذا الطفل ، وطالما أملت نفسي مسروراً بأني في ذات يوم سأرسل إليك نجم صباحي هذا وأظل في داري فرحاً وراء هذا الذي يغلي عندك ، وزوجتي البائسة تئن وتتوجع آناء الليل وأطراف النهار ، وأنت كذلك ستحزن من أجلنا على بعد الشقة ونأي المزار » .

وقد أثر في نفس كارلايل مصاب صديقه فكتب إليه مواسياً : « لقد نزع منك ابنك الأبلج الصغير ، وهو أثمن ما تملك ، ولكن في الحق أنه مع الله ، فهو حي مثلنا ، ومن المؤكد أنه يعيش على خير ما يراد له ولك ولنا جميعاً ، وإني أعرف ما تعاني والدته من الحزن ، ولا أستطيع أن أقول لها كلمة عزاء ، وفي اعتقادي أن مثل هذا الحزن الشديد الصامت لا يزور سوى الأمهات اللواتي أصبن بفقد أبنائهن ، وإن فقد العصفور الصغير في عشه لصغاره ليثير عطفنا ، فما أشد فجيعتنا لمصاب أصدقائنا في أبنائهم ! إني لا أستطيع أن أنصح والدته بالتسلي والسلوان ، وعسى الله أن يلطف من حزنها ويرزقها العزاء ، وكما قال داود : « إننا سنذهب إليه وهو لن يعود إلينا ... » .

وأرسل إمرسن أحد كتبه الجديدة التي تجلت فيها بوادر عبقريته إلى كارلايل ، فتلقى منه رسالة تشجيع يقول فيها : « لقد ذكرت في كتابك أنه الفصل الأول من شيء أكبر وأوفى ، ولكني أقول إنه الأساس والتصميم الذي تستطيع أن تقيم عليه ما أعطى لك من الأشياء الصادقة العظيمة ، ولقد سرّت نفسي نظرتك الفاذة لهذه الدنيا العجيبة التي نعيش فيها معاً » . وأعجب كارلايل بإحدى المحاضرات التي ألقاها إمرسن وأرسل إلى كارلايل صورة منها ، فكتب إليه يقول : « يا صديقي ! إنك لا تعرف ما صنعته من أجلي ، لقد مضت عشرات السنوات وأنا لا أسمع حولي سوى اللغط والثرثرة والكلام الغث التافه المملول ، حتى سئمت نفسي وبشمت من استماع الكلام اللين ، وها قد نمى إلى سمعي من ناحية الغرب الصوت الواضح الجلي ، صوت رجل عرفت فيه القرابة والأخوة فالحمد لله على ذلك ، لقد بلغ حديثك من نفسي مبلغاً ، ورن صداه في قلبي ، وقلت لزوجتي : « إليك أيتها المرأة ، فقرأت المحاضرة ، وقد كلفتني أن أقول لك إنها لم تقرأ مثلها منذ وفاة شلر ، فلله درك من رجل ! وإني لأرجو الله أن يهبك القوة لأنك تروم عظيماً ، وتحاول أن تنهض بعمل خطير ! » .

وقد رد إمرسن على هذه الرسالة يقول : « لقد أزعجني ثناؤك على محاضرتي حتى استخفني السرور ، وخشيت أن يكون قلبك قد خدع عقلك في هذه المرة ، ولقد أرسلتها إليك وجلاً متوجساً ، ولما أدهشني ثناؤك الكريم وتشجيعك العظيم ، وقد عني بأمرها شبابنا الناشئون ، ووزع منها في مدى شهر خمسمائة نسخة ، وتعد منها الآن طبعة أخرى جديدة ، وسأرسل إليك بعض أعداد منها ، لتعطيها لمن تشاء » .

ولما أتم كارلايل كتابه عن « الماضي والحاضر » كتب إلى إمرسن يقول له : « إنه نبذة حارة ملتهبة يصح أن تكون موضع التساؤل ، ولا أدري هل تصلح لتكون مقدمة للكتاب الذي أنوي كتابته عن أوليفر كرومويل ، ولكن مهما يكن من الأمر فإن هذا الكتاب قد نما بالتدريج ليكون مقدمة لكل ما أريد عمله » . ولما اطلع إمرسن على هذا الكتاب كتب إلى كارلايل ضمن رسالة « ولكن هذا الكتاب بما فيه من فكاهة وغلو وإشارات جريئة قد ولد ليعمر طويلاً ويعيش سنوات لا أستطيع الآن عدها » .

وقد كانت مؤلفات كارلايل التاريخية ثمرة الجهود المضنى والعمل الشاق ، وكانت رسائله إلى إمرسن في بعض

الأحيان تنم على ما يعانى من الألم وما يبذل من الجهد . أما إمرسن فقل أن تجد فى رسائله نظيراً لهذه الشكوى ، وقد أدهش كارلايل صبره هذا حتى قال فيه : « إنى أعلن أننى فى بعض الأوقات يعروني الخجل وأعجب من أين استحضر إمرسن الطيب كل هذا الصبر » . وقد كتب إلى إمرسن فى أثناء عكوفه على إنجاز كتابه العظيم عن الثورة الفرنسية يقول : « إنك لا تستطيع أن تتصور الحالة النفسية التى أعانيها ، وفكرة واحدة قد تملكتنى ، وهى « هذا الكتاب » هذا الكتاب المتعب الذى يشغلنى بغير انقطاع . . . وفى الوقت الراهن إنه فى الواقع مثل قميص نساس الحراق يكاد يجن لابسه ، وهو لذلك مثل الدرع السابغة يحملك عنجاة من الطعنات ولا يشعرك بسائر الأضرار الأخرى ، وسأنتهى من هذا الكتاب غير المبارك فى مدى شهرين وأصبح رجلا حراً ، ويبدو لى أننى سأجد حينذاك سعادة لم أشعر بمثلها ، ومع ذلك فإنه يجب أن لا أقول عن هذا الكتاب إنه غير مبارك ، فلقد تمنطقت به مثل الدرع مدة سنتين وجعلنى أتلقى الطعنات غير مبال بأشياء كثيرة » .

وقد أصيب هذا الكتاب الذى زف كارلايل إلى صديقه إمرسن بشرى قرب الانتهاء منه بكارثة لم تكن فى الحسبان ، وقد قابل كارلايل هذه الكارثة بصبر عجيب وجلد غير عادى ! وهذا ما كتبه لصديقه إمرسن عن هذه الكارثة غير المنتظرة : « استعار أحد الأصدقاء أصول الكتاب — وهو صديق عطوف رفيق ولكنه صديق مهمل — ليكتب ملاحظاته عليه ، وفى ذات مساء منذ شهرين جاءنا هذا الصديق مرتبكاً والهاً مستطار اللب فقد ترك الأصول بغير عناية ، لمزقت جميعها على أنها نفاية أوراق لا لزوم لها ولم يبق منها سوى ثلاث أو أربع ورقات ، ولم يكن هناك مجال للشكوى ، فقد بدا لى الرجل المسكين فى حالة من يهم بقتل نفسه ، وكان من واجبنا أن نجمع إلينا أطرافنا ونلين منه ونطيب خاطره ، ولحسن الحظ أننا استطعنا ذلك برغم ما فيه من صعوبة » .

وهذا الصديق الذى كان إهماله سبب هذه الكارثة هو الفيلسوف الإنجليزى المعروف والمفكر الممتاز استيوارت مل ، وكان حينذاك من أصدقاء كارلايل المقربين .

وفى خلال الرسائل التى تبادلها كارلايل وإمرسن إشارات كثيرة إلى معاصريهما من مشاهير الكتاب والشعراء والمفكرين والسياسيين البارزين والزعماء المعروفين ، مثل براونج ووردزورث وشوزى وغلادستون ولاندُر . ومما يؤسف له أن كارلايل كان كثير الوقوع فى معاصريه ولم يسلم من سخريته وتهاتفه فى هذه الرسائل ويظفر بالتقدير الخالص والثناء المحض من معاصريه سوى الفرد تنيسون وصديقه جون استرلنج الذى رأى كارلايل أن يفرد كتاباً للحديث عن مناقبه وذكر أخباره وحوادث حياته ! وفى بدء معرفته لجون استرلنج كتب إلى إمرسن يقول : « يوجد هنا رجل اسمه جون استرلنج أحببته أكثر من حبى لأى إنسان منذ هبط إلى رسول خاص من السماء فى كراجينتك (يشير فى ذلك إلى زيارة إمرسن له) واختفى فى السماء الزرقاء بعد ذلك ، وقد تملك هذا الرجل بحب والهو إمرسن ، وهذا كل ما يمكن أن يقال ، وقد رأى عندى كتيبك عن « الطبيعة » وأخبر ماقيه ونقله إلى أصحابه وحمله معه إلى ماديرا التى نصحه الأطباء بالذهاب إليها » .

وفى سنة ١٨٧٣ التقى الصديقان اللقاء الأخير ، وانقطع تبادل الرسائل بينهما بعد ذلك ، وقد شغل كل منهما بمتاعب شيخوخته وأصبح يجد صعوبة فى كتابة الرسائل ، وقد مات كارلايل فى يوم ٥ فبراير سنة ١٨٨١ ، وتبعه إلى القبر إمرسن فى يوم ٢٧ إبريل سنة ١٨٨٣ ، وبالرغم مما كان بينهما من اختلاف فى الأمزجة والطبائع والخلائق والشمائل ، ظل ما بينهما عامراً طوال حياتهما ، ولم يشب ودهما شائبة ، ولم تغش صفاء صداقتهما سحابة حزن ولا سحابة صيف ، وما أندر ذلك فى الصداقات الأدبية ، بل فى الصداقات الإنسانية بوجه عام ! فهل السر فى بقاء هذه الصداقة سليمة نقية خالصة أن المحيط الأطلسى — بحر الظلمات — كان يفرق فى أكثر الأوقات بين الصديقين ؟ وهل قلوب الأصدقاء لا تتقارب ونفوسهم لا تتصافى إلا إذا شط المزار وتباعدت الديار ؟ قد يكون ذلك وقد يكون فى البعد جفاء وقطيعة كما يقول أكثر الناس .

على أدهم

روح النقـــد

عند بعض المؤرخين المسلمين

— ١ —

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

آفة التاريخ حين يكتب أن يتعرض لأمور تفسد صحته وتشوه وجه الحق فيه ! كأن يحابي المؤرخ أميراً أو وزيراً أو صاحب سلطان فيتقرب إليه بتاريخ يكيل له فيه المدح، ويتغاضى له فيه عن السيئة . أو كأن يخشى المؤرخ صاحب سلطان لأنه في ملكه سيدركه منه الأذى وإن خال أن المنتأى عنه واسع . أو كأن تميل بالمؤرخ دواعي الهوى فيتعصب لقوم على قوم ، ويفضل جماعة على جماعة ، كما نجده عند أصحاب المذاهب المختلفة ، سواء أكانت تلك المذاهب مما يتصل بالدين أو بالسياسة . فقلّ أن نجد أموياً أنصف علوياً ، وندر أن نجد عباسيا أنصف أموياً . وحسبنا ماتراه اليوم في أمهات كتب التاريخ ومصادره من الميل لقوم على قوم ، حتى بتنا نسمع أن هـذا المؤرخ متعصب للشيعة ، وأن ذاك المؤرخ متعصب للأمويين مثلاً . .

وقد يبلغ الهوى عند بعض المؤرخين — ولو كانوا مؤرخي أدب — إلى إهمال بعض الأشخاص وتحاشي الحديث عنهم وإسقاطهم من الحساب التاريخي ، ظناً أن ذلك قد يطمس وجودهم أويضيع كيانهم ... وإذا صح مافعله أبو الفرج الأصبهاني من إغفاله ترجمة الشاعر ابن الرومي في كتابه الواسع « الأغاني » فإن ذلك عمل لا يدل على الحقد وحده ، ولكنه يدل على الجهل .. لأن ابن الرومي لم يخط النسيان على ذكره حين قصد الأصبهاني أن يغفله من كتابه . ولا تزال الدنيا إلى اليوم تتحدث عن ابن الرومي بعد ألف عام أو تزيد . . . ولا تزال الكتب والدراسات توضع فيه مهما حاول محاول أن يطمس نجمه من سماء الدنيا بكفيه ....

ومن أوائل المؤرخين المسلمين الذين أسقطوا جانب المجاملات والاعتبارات قليلاً من حسابهم ، المؤرخ الأخلاقي المشهور « مسكويه » أو « ابن مسكويه » من رجال القرن الخامس . فقد كان الرجل متصلا ببني بويه وهم ملوك الدنيا في زمانهم ؛ ولكن ذلك لم يمنعه أن ينتقد بعض الأعمال ويعلق على بعض التصرفات . فأرانا بذلك نموذجاً جديدا للمؤرخ المسلم الذي لا يكتفي بالسرد والرواية — ولو من طريق الإسناد — بغير تعليق أو موازنة بين الروايات ، أو تحقيق بين الأسانيد . وأرجو أن يوفق الله إلى أن يكون هذا المؤرخ موضوع بحث في هذه المجلة حين تتيسر السبل للاطلاع على كتابه الجليل « تجارب الأمم » الذي كان للمستشرق الإيطالي الكبير « كايتاني » فضل التنبيه على خطره ، ولفت أنظار العلماء إليه .

وإذا كان روح الانتقاد والحاسة التاريخية الواعية لم تظهر كاملة بمعناها الحديث عند مؤرخ واحد من مؤرخي المسلمين ، فإن من الحق أن نقول إن لمعات وضيئة من هذه الروح قد ظهرت في أمثال مسكويه ، والمسعودي (كما أشرت إلى ذلك في مقالي بالثقافة عدد ٦٧٦) وابن الطقطقي ، وابن خلدون الذي وسع الميدان في كتابة التاريخ بهذه المقدمة التي فلسف بها التاريخ ونقله نقلة واسعة من مجرد السرد للحوادث إلى استنباط الأحكام العامة من أحداث التاريخ .

وابن الطقطقي — أو ابن طباطبا أيضاً — طراز نادر من مؤرخي المسلمين في القرن السابع الهجري ، وإن كان شهد في الحق بعض أضواء من القرن الثامن ... فإنهم يذكرون أنه توفي سنة ٧٠٢ هـ ، على حين أن الأب لويس شيخو اليسوعي ذكر في « مجاني الأدب » أنه توفي في

سنة ٧٠٩ هـ وهذه رواية تفتقر إلى إثبات ، فقد أنكرها كثير من المستشرقين ، ورفضها صاحب « معجم المطبوعات » وارتضى صاحب « الأعلام » الرواية الأولى ، ووقف المستشرق الفرنسي « هيوار » موقف المعترف بعدم علمه سنة الوفاة فقال : « ولا نعرف عام وفاته » ولم يتعرض لإحدى الروايتين بتصديق أو تكذيب .

على أنه يعنينا من ابن الطقطقي أن نتعرف إلى منهجه في التاريخ من خلال كتابه المشهور « الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية » . فقد أرخ فيه لدول الإسلام منذ عهد الخلفاء الراشدين إلى عهد المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس ، والذي كان على يديه مصرع دولة إسلامية عظيمة حمت خلافة المسلمين أكثر من خمسة قرون .

والكتاب قسمان : قسم جعله كالمقدمة للتاريخ ، وفيه تحدث عن أمور الملك وسياسة الدول ، والحقوق والواجبات المتبادلة بين السلاطين والرعايا ، حتى يستقيم الأمر « وينتظم صلاح أمور الجمهور ، ويتمكن الملك من الإنصاف للضعيف من القوى ، والقسمة بالحق » . والقسم الثاني يتحدث فيه عن الدول الإسلامية ، موجهاً اهتمامه إلى أخبار الوزراء لأنهم أداة السلطان وأعوانه على إقامة العدالة بين الناس . ومن هنا كان كتاب « الفخري » سجلا لأخبار الوزراء المسلمين ، يضيف إلى قيمة كتاب « الجهشياري » الذي جمع فيه طائفة من أخبار الكتاب والوزراء إلى عصره . ويقرر المستشرق « هيوار » أن ابن الطقطقي استفاد من كتابي الصولي والصابي في تاريخ الوزراء . على أن ذلك لا يطعن في قيمة الكتاب من هذه الناحية ، فإن مؤرخي المسلمين قد جرت عادتهم أن يأخذ بعضهم من بعض ، وأن يفيد لاحقهم من سابقهم . وليس الأخذ — وخاصة في التاريخ — بعيب ... ولكن العيب أن لا يتصرف الآخذ ، وأن ينقل النص كما هو بدون تمحيص أو تحر للحق أو أدنى تدبر إلى وجه الخطأ أو الصواب في الرواية .

ونعود إلى « منهج » صاحب الفخري في التاريخ — إن صح أن يسمى ما التزم به الرجل نفسه منهجاً ... فقد أعلن الرجل في المقدمة التحليلية للدول وسياسة الحكومات قوله :

« والتزمت فيه — يعني الكتاب — أمرين . أحدهما أن لا أميل فيه إلا مع الحق ، ولا أنطق فيه إلا بالعدل ، وأن أعزل سلطان الهوى ، وأخرج من حكم المنشأ والمربى ، وأفرض نفسي غريباً منهم وأجنبياً بينهم . وثانيهما : أن أعبر عن المعاني بعبارات واضحة تقرب من الأفهام لينتفع بها كل أحد ، عادلا عن العبارات المستصعبة التي يقصد فيها إظهار الفصاحة وإثبات البلاغة » .

وفي الحق أن هذين الأمرين — أو الالتزامين — هما ركنا منهج تاريخي سليم . فآفة التاريخ أن يضيع بين الهوى من ناحية ، وبين الغموض وعدم الإبانة من ناحية أخرى . وهل هناك أسلم لتدوين التاريخ من أن « يجرد » المؤرخ نفسه من نوازع البيئة والعصبية ، وأن « ينسلخ » انسلاخاً من حكم المنشأ والمربى ، حتى لا يتأثر في أحكامه التاريخية بالمؤثرات العاطفية ، أو يستجيب لنداء بعض الروابط التي قد تغطي على الأبصار في ساعة الأحكام . فإن إغراق المؤرخ مع التزامات الوسط ومجاملات النشأة مما يجور على رأيه حين يحكم ، فلا تتفتح عيناه على حقائق الأمور ، ولكن عينه تكون كليلة من كل عيب إذا رضي ، ومبدية المساوئ إذا سخط ... ؟

وهل هناك أبين وأنفذ إلى الفكر والقلب من الحقيقة التاريخية وهي تعرض في أوضح ثيابها ، وفي أظهر ملامحها . فكثيراً ما يجني الغموض على الحقيقة فيذهب بفحتها أو يضيع أثرها ، أو يضيع الوقت في متابعتها .

ولما كان وكد ابن الطقطقي أن يصل إلى الحقيقة مجردة عن كل ما يحجب نورها ، ولو أدى به ذلك إلى تجرده من صلات القربى أو المنشأ أو الخدمة — فقد رأيناه يعدل إلى الحق متى ما لاح له سطعه ، ويميل عن الباطل متى ما تبين له وجه البطل فيه . ولم يكن ذلك شأنه حين يكتب ، وإنما كان شأنه حين يلتقي مع الناس ويعاشرهم ، ويأخذ بأطراف الأحاديث بينه وبينهم . فقد كان هناك جمال ببغداد في زمن الخليفة المستنصر ، توصل حتى صار براجا في بعض أبراج دار الخلافة . وكان فيه فطنة وحسن تأت للأمور ، فتوصل إلى ولد المستنصر — وهو الخليفة المستعصم — آخر خلفاء بني العباس ، وأسدى إليه من الخدمة وهو

محبوس ما جعله يحفظ له اليد حين صارت إليه الخلافة بعد أبيه . فعرف له حق الخدمة وجعله حاجباً له في خاص داره ، واختصه وقدمه ، حتى كان الوزير ينهض له إذا دخل عليه ويخلي له المجلس إجلالا له من ناحية ، ومراعاة لما قد يكون حاملا له من مشافهات الخليفة من ناحية أخرى . ولقب هذا الجمال البراج في نهاية المطاف بلقب « نجم الدين » ، وكان الوزير وصاحب الديوان يترددون إليه ليزكيهم في حضرة الخليفة .

وجرت بين ابن الطقطقي المؤرخ وبين جمال الدين المستجردانى مناظرة حول الذي فعله المستعصم مع ذلك الجمال... ودع مؤرخنا يتحدث قائلا : (فصوبت أنا رأي المستعصم في الإحسان إليه ، وقلت إنه خدمه وأثبت عليه حقاً ، وقد كافأه فلا عيب في هذا . وقال جمال الدين رحمه الله ما معناه : إن تسليطه لمثل ذلك الأحمق على أعراض الناس وأموالهم ، وإدخاله في المملكة ، حتى كاد أن يولي الوزراء ويعزلهم ، قبيح من المستعصم دليل على جهله ... وإلا فإن كان مراده الإحسان إليه مكافأة له على سابق خدمته ، فقد كان يجب أن يكون ذلك بمال يعطاه ، أو برفع منزلة لا يختل بسببها أمر في المملكة ، ولا يتطرق بها قدح في عقل الخليفة... وكان نظر جمال الدين في هذا المعنى أدق من نظري ، والحق في جانبه رحمه الله) .

أليس هذا الرجوع إلى الحق بعد بيان الوجه فيه ، في مناظرة بين عالمين من علماء القرن السابع ، دليلا على استقامة منطق جمال الدين من ناحية ، ودليلا آخر على إنصاف مؤرخنا لنفسه وللحق من ناحية أخرى . فقد أذعن لكلمة الحق القوية التي قالها جمال الدين ، وكانت المناظرة بينهما حول هذه المسألة في كتب تبودلت بينهما ، فشاء ابن الطقطقي أن يسجل هذه المناظرة في المقدمة التحليلية لكتابه ، ولم يتردد لحظة في أن يعترف بالحق ، لأنه رجل إنصاف لا يماري ولا يجادل حباً في الجدال ، وشغفا باللجاج .

وقد يظن بعض الناس أن صاحب كتاب « الفخري » قد حمل على بعض أعمال العباسيين لأنه شيعي ، ولأنه علوي ، فإن سلسلة نسبه تنتهي إلى إسماعيل بن إبراهيم طباطبا من أحفاد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقد انتهت إليه نقابة العلويين في بغداد والكوفة بعد مقتل والده تاج الدين أبي الحسن علي . ولكن المنصف لا يسعه إلا أن يعترف بخلو هذا المؤرخ من التعصب الكريه ، ووجه الحق — فيما يظن من تشيعه أو تعصبه — أن الرجل كان مؤرخاً ناقداً ، ولم يكن شيعياً متعصباً . فأي مؤرخ لا يلوم الخليفة هارون الرشيد على ما فعله بالعلويين ؟ وإذا كان صالح الدولة أو ما يسمونه اليوم (Raison D'etat) يسوغ ما فعله الرشيد بآل علي توطيداً لأركان دولته ، فإن الناقد لا يسعه أن يسكت عن هذه الأعمال من ناحية الخلق والوفاء . فلقد زاد الرشيد على القتل نقض العهد الذي أعطى ، كما فعل مع يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ، حين كتب له أماناً بليغاً بخطه ، وأشهد عليه القضاة والفقهاء... ثم قتله بعد ذلك .

ولهذا لم يكن مؤرخنا ابن الطقطقي متجنياً ولا متعصباً على الخليفة الرشيد حين قال : (وما أحسن قول أبي نواس لهارون الرشيد :

قد كنت خفتك ثم آمنني

من أن أخافك خوفك الله

ولم يكن الرشيد يخاف الله ، وأفعاله بأعيان آل علي — وهم أولاد بنت نبيه ، لغير جرم — تدل على عدم خوفه من الله تعالى ... ولكن أبا نواس جرى في قوله على عادة الشعراء) .

هذا ما قاله مؤرخنا العلوي الشيعي المنصف حين أراد أن ينتقد الرشيد في أعماله مع العلويين ، وهو ليس في هذا متجنياً ولا متحاملا ... بل كان منصفاً .. وآية إنصافه أنه وهو يترجم الرشيد في موضعه من الكتاب قال فيه وفي دولته : (وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً ، وأوسعها رقعة مملكة ..... وكان فاضلا شاعراً راوية للأخبار والآثار والأشعار ، صحيح الذوق والتمييز ، مهيباً عند الخاصة والعامة) .

هذه بعض نواحي صاحب كتاب « الفخري » في تاريخه المحقق ، على أن بقية نواحيه وسيرته التي أمكننا الحصول عليها سنكشف عنها في العدد القادم إن شاء الله .

محمد عبد الغني حسن

عمل المرأة ومهنة التدريس

للآنسة منيرة حلمي

قالت زميلتي في تأثر : « كم يسيطر عملنا على كل تصرفاتنا وأحاديثنا حتى ليكشف عنا أينا حللنا . لقد كنت البارحة في الترام حين سألتني زميلة : هل ستنزلين هنا ؟ فكان جوابي : كلا ، بل الحصة الآتية » . وابتسمتُ ، ثم تطلعت إلى محياها أنتظر ابتسامة فما راعني إلا الندم يرتسم على ملامحها ثم يتصرف في هذه الكلمات : « لقد ظللت آسفة طول يومي ، إذ لابد أن جميع ركاب الترام قد عرفوا أني مدرسة » .

وكاد التعجب أن يحرك لساني حين ردت زميلة أخرى بوصف حالها يوم ركبتْ القطار قاصدة مكان عملها ، فإذا بمجالستها تسألن عن وجهتها ، وإذا بها تتخذ كل الحيطة لإخفاء شخصيتها كمدرسة ، ولولا استمارة الحكومة التي كادت أن تفضح أمرها حين طالبها بها المفتش ، لكن بديهتها أنقذتها مرة أخرى حين أضافت إلى القصة التي كانت قد ابتدعتها أن أخاها الذي تقصده مهندس بالسكك الحديدية ، وأن هذا يخول لها حق استعمال هذه الاستمارة الحكومية . وهنا بلغ التعجب مني مداه فصحت متسائلة : « ولماذا هذا التنكر يا زميلاتي ؟ والله إني لأسعى لإعلان مهنتي والفخر بها أينما حللت ، ولا أدري أيهما أشد خطأ وتعضيداً لهذا الوضع الشاذ ، أولئك اللاتي تظلمن بين احتقار هذه المهنة ، أو صاحباتها اللاتي تنكرنها . فلو أننا التمسنا للفئة الأولى من جهلها عذرا ، فماذا نلتمس لكن مربيات النفوس ومهذبات العقول حين تتخلصن من مهنتكن السامية ؟ إن في هذا التنكر منكن اعترافاً بما يراه هؤلاء القوم فيكن ، وكان الأولى بكن أن تعلن من أنفسكن وتبدين اعتزازكن بهذه المهنة السامية ، لأن في هذا أقوى دفاع عنها ... » وقاطعتني زميلة بقولها : « ما أراك إلا مندفعة بحماس الابتداء ، ولسوف نرى ما يكون عليه رأيك بعد بضع سنوات ، بل بعد انتهاء هذا العام » .

أقسم يا زميلتي ما دفعني للثورة على هذا الوضع حماس ولا تعصب ، وإنما هو الإيمان العميق بسمو رسالتي . خبريني بالله ، لأي شيء يتجه هذا التنكر منك ؟ أهو موجه إلى عمل المرأة عموماً لأنك ما زلت في قرارة نفسك تعتقدين أن ميدان المرأة هو المنزل وحده وإن أبديت غير ذلك ، أو هو موجه إلى مهنة التدريس بالذات ؟

أما إذا كان اعتراضك موجهاً إلى عمل المرأة بوجه عام فأنا أعرف من أين استقيت هذا الرأي ، ولكني أربأ بعقلك عن التسليم بآراء فئة فاتها ركب الحياة عند المرحلة البدائية ، فما زالت غرائزها فردية ، وما زال تفكيرها منحصراً في دائرة ذاتها ، أو إن تعداها قليلاً ففي دائرة الأسرة ، ولا شأن لها بالمجتمع الواسع . هذا إذا شعرت بأن هناك ما يسمى بمجتمع ، اللهم إلا حين يدعوها هذا المجتمع إلى الترفيه عن نفسها . إن غاية ما تنصرف إليه غريزة السيطرة عند هذه الفئة هو الظهور بفاخر الثياب ، وأقصى ما يبلغه استطلاعها تسقط أخبار الغير والخوض في سير الناس . لا تعرف من التقدم سوى ناحيته المادية ، فهي تسارع إلى ملء منازلها بمستحدث الآلات ، أما أنها تعرف أن هذه الآلات قد احتلت مكانها القديم بالمنزل ، وأنها تدفعها من حيث لا تدري إلى خدمة أسرتها الكبرى ، أسرة الوطن ، فهذا ما لا يبلغه تفكيرها البدائي ، إذ ما لها وكل ذلك والوقت أثمن من أن تقضيه في مثل هذه الأمور الثانوية بالنسبة للمرأة . إنما الأجدر بها ، لو كان لديها فسحة من الوقت ، أن تقضيها أمام المرآة ، أو في دور التجميل ، أو في التجول بين أرجاء المحال التجارية لتتبع أحدث الأزياء . فإذا لم يستطع كل هذا أن يملأ فراغها ، خرجت إلى المجتمعات تحاول لفت الأنظار إليها بإعلان رأي تافه أو الهتاف بصوت عال : أن أغلقوا أبواب الجامعة أمام الفتيات وخلوهن عن العمل ، لأن مخالطة الفتاة المحتشمة للفتى في قاعات العلم تقليد غربي وجريمة

لا تقتصر ، بينما مراقصة الفتاة المتبرجة للفتى في دور اللهو تقليد شرقي وفضيلة سامية !! فإذا ساءلنا هذه الفئة بعد ذلك : خبرونا إذاً إلى من تعهدون بتعليم أبنائكن في المرحلة الأولى وبناتكن في كل المراحل ، هزت أكتافها ، وتلمظت ألسنتها ، وكأن الأمر لا يعنيها في كثير أو قليل . وما يهمها تعلم الأبناء أم جهلوا ما دامت هي قد تبرجت وتزينت وظهرت في المجتمعات تجذب الأنظار بمثل هذه الآراء الخطيرة على حساب العاملات في صمت وحشمة واتزان .

نؤمن جميعاً — يا زميلتي — ويعلم كل عقل مستنير ، أن ليس الأمر جرءة ولا تقليداً ، وإنما هو دافع نفسي يحتم على المرأة أن ترى نفسها كياناً يتكافح مع المجتمع في سبيل الحياة والرقي ، شأنها في ذلك شأن الناس جميعاً في سلم التطور ، تكون غايتهم في البداية إشباع ذاتهم الشخصية ، ثم يتطور الهدف برقي العقل إلى إسعاد الأسرة ، حتى إذا بلغوا مرحلة أعلى من التقدم لم تهدأ نفوسهم ، أو على وجه الدقة ، لم تقنع عاطفة اعتبار الذات لديهم إلا بإسعاد المجتمع الواسع مجتمع الوطن ، بل ربما المجتمع الإنساني كله . وهكذا ألح هذا الدافع على المرأة المثقفة حين رأت أن المجتمع يفتقد طبيعتها الحانية في بعض المهن كمهنة الطب ، النفسي منه والجسمي ، كما يتطلع إلى حسها المرهف وبصيرتها النافذة وحسن تفهمها لطبيعة الطفولة وطبيعة بنات جنسها في مهنة التعليم ، ألح عليها هذا الدافع فلم تجد سبيلاً إلى إرضاء عاطفة اعتبار الذات لديها إلا بالعمل الجدي في سبيل إسعاد الوطن والإنسانية ، لأن في ذلك وحده تحقيق ذاتها وإثبات شخصيتها المستقلة مادياً ومعنوياً .

أربأ بك إذاً ، يا زميلتي ، عن التسليم بآراء هذه الفئة التي ما زالت في مرحلة إشباع رغباتها الشخصية ، والتي لها من تأخرها كل العذر . وأحب أن يملأ الإيمان قلبك بسمو رسالتك كعاملة على رقي المجتمع وإسعاده ، حتى تستحق الشكر العاطلات أمام إيمانك واعتزازك بعملك لا العكس .

أما إذا كان اعتراضك على مهنة التدريس بالذات ، فلي معك حديث آخر . ذلك أني لن ألقي بالاً إلى ما تراه هذه المدلل التافهة فيها ، وإنما أدعوك أن تضربي بآرائها عرض الحائط ، وتتحرري من تأثيرها تماماً ، ثم تناقشي معي هذا الموضوع بعقلك المستنير وعلى ضوء معلوماتك الصحيحة وخبرتك الواسعة .

تعلمين ، يا زميلتي ، أن أهم ما يميز طبيعة المرأة من الناحية الاجتماعية ، هو غريزة السيطرة من جهة ، والحاجة إلى الحب والتقدير من جهة أخرى . ولو راجعت معي كل المهن التي يمكن أن تقوم بها المرأة لما وجدت مهنة تشبع هذه الدوافع مثل مهنة التدريس . فهذه السيطرة التي تصرفها بعض السيدات في سب الخدم وتعذيبهم ، أو التحكم في رغبات الأطفال ، تأبى المرأة المثقفة التي أنت بطبيعة نفسها وطبيعة غيرها ، أن تصرفها على هذا الوجه ، في الوقت الذي تدفعها فيه ثقافتها إلى توسيع الدائرة التي تؤثر فيها وتسيطر عليها . ولا شك أن موقف هذه المرأة المثقفة بين عدد من الفتيات قد يبلغ الأربعين ، وقد شخصت إليها أبصارهن ، ورحن يتبعن حديثها في شغف وكأنما شدت آذانهن إلى شفتيها .. ثم هذه المعرفة حين تلمع بها العيون ، وهذا الرضا يشيع على الوجوه ... لا شك أن هذا الموقف لما يشبع في المرأة كل رغبة في السيطرة ، ولا غرو فقد سيطرت فيه على أسمى جانب من الطبيعة الإنسانية ألا وهو العقل . ثم موقفها بين الصغيرات وقد حملت إليها كل منهن مشكلة مستعصية ووثقت أن لن ينبعث حلها إلا على ضوء هذا العقل الراجح لمدرستها وتلك الخبرة الواسعة التي تتمتع بها . هذا الوضع فوق إشباعه لكثير من حاجات المرأة ، من شأنه أن يزيح جانباً مشاكلها الخاصة لتحل مشاكل الصغار مكانها ، ويخفف من بؤرة الشعور آلامها الشخصية ليُحل آلام الغير التي قد تهون إلى جانبها آلامها . ولا يخفى عليك ما تكسبه النفس من تنحية همومها ، وما تستشعره من السمو والارتفاع فوق دائرتها الخاصة ، ثم ما تجد عليه روحها من صفاء يمكنها من التغلغل في نفوس الصغيرات والوقوف على مشاعرهن ، ووضعها موضع الدراسة والتفكير منها .. كلا لا يمكن أن يخفى عليك ما يبعث كل هذا في النفس من لذة آسرة لا تعدلها لذة أخرى .

أما حاجة المرأة إلى الحب والتقدير ، فنادراً ما يتهيأ لها إشباعها في دائرة المنزل المحدودة ، لا سيما وأن هذه الحاجة تشتد بازدياد ثقافتها التي ترهف منها الحس وتضاعف عندها الاعتزاز بالنفس . لكن خبريني كم من مرة شاقت الغبطة

فى أرجاء نفسك وقد التفت حولك تلميذاتك ، فرحات بلقائك فى الصباح ، تترن عليك تحيات الطفولة البريئة ؟ .

كم من مرة لمست عمق مشاركتهن الوجدانية لما يلم بك من ألم أو يعكر صفوك من مرض ؟ أما أنا فوالله لقد كن لى خير معين على تحمل آلامى . كان يكفينى أن أقبل فى الصباح على هذه الفصول المتراصة فى صف طويل ، فألمح مجموعاتهن تنطلق من أبوابها متجهة نحوى كأنها جميل الطير يحوم حول حامل الحب إليه ، فلا يسعنى إلا أن أحمل لها كل الحب وأودعها فى إخلاص كل ما يجعنى من غذاء العقل . كان يكفينى هذا ، يا زميلتى ، حتى أشعر بضآلة همى ، وعظم شأنى المستمد من نفوس أولئك الصغيرات ، أشعر أننى فى مملكة أخرى غير هذه المملكة الخارجية التى تل فيها شأنى ، وهان أمرى . مملكة مشرقة باسمة ، فقد كن لى إشراقة صبحى وربيع عامى ، لا أستشعر إشراق الصباح بغير بسماتهن ، ولا أتبين فترة الربيع إلا بإقبال مجموعاتهن كأنها باقات الزهور المتفتحة للحياة ، والعجيب أنهن كن يحملن إلى أحياناً بعض الزهور ، فيا روعة زهور تحمل زهوراً !

أين هذه المهنة من مهنة أخرى فى دواوين الحكومة ، تضيق على المرأة الخناق ، وتحاسبها على كل حركة ، وتدعوها إلى تصنع الخشونة طمعاً فيها .. أين هذه الحياة الجافة المتصنعة من طبيعتنا التى نطلقها على سجيتها ونشبع كل حاجاتها ونروى فيها تلك الناحية الوجدانية الغالبة عليها ، فإذا بها تسمو وتؤتى أحسن الثمرات فنفذى بها صغيراتنا اللاتى يحترقن لنا بهذا الجميل ، ويغطتنا بدورهن بوارف من ظلال محبتهن وتقديرهن ، وتبقى الحياة هكذا ربيعاً دائماً .

إذا نظرت للتدريس على هذا الوجه يا زميلتى ، وتأكد لك أنه ليس عطاء منك فحسب ، وإنما هو أخذ لك وكسب لطبيعتك ، أو هو تبادل بين طبيعتين ، طبيعة صغار تحترق شوقاً إلى طبيعتك الحانية ، وطبيعة نفس المرأة التى فى مسيس الحاجة للحب والتقدير ، لو نظرت إلى التدريس هذه النظرة لآمنت أننا لن نستطيع الحكم على المرأة المصرية بأنها قد صارت عضواً عاملاً فى مجتمعها ، وأعنى بالعمل هنا العمل الذى يوافق طبيعتها حقاً وتفيد به وتستفيد منه ، لن يمكننا أن نحكم هذا الحكم حتى نرى مدارس البنات جميعاً قد خلت من الرجال ، بل نرى إشراف المرأة قد امتد إلى مدارس البنين فى المرحلة الابتدائية من التعليم .

دعى ، يا زميلتى ، كل هذه الأقاويل التى تصدر عن عقول محدودة الثقافة ، وعن نفوس فقيرة لا تجد ما تستجيب به لظروف جديدة يفرضها التطور والرقى . دعى كل هذا ولا تنظرى إلى مهنتك بغير عقلك المستنير ، ووعيك الإنسانى وطبيعتك المتعطشة إلى إرضاء اعتبارها لذاتها وإرواء حاجاتها الاجتماعية والوجدانية . ثم ليكن ديدنك رأى « مكدوجال » القائل إن السعادة تتحقق فى العمل الذى يحفظ على المرء تكامل شخصيته ويضمن له تحقيق ذاته وإرضاء نزعاته . فلست أرى مهنة أقدر على تحقيق سعادة المرأة بهذا المعنى كمهنة التدريس .

منيرة حلمى

الشرق فى أدب الغرب

— ٢ —

للأستاذ محمد عبد الحليم محمود

فى قصة «الواثق»

للكاتب الإنجليزى بكفورد

فى هـذه القصة الغريبة لعب الخيال والخرافة بعقل المؤلف إلى درجة تثير الدهشة . فرغم أن بكفورد يعد من أكثر الناس اطلاعاً فى عصره (القرن الثامن عشر) ، إلا أنه فضل فى حديثه عن الشرق أن ينساق وراء الأوهام ، وأن يتبع خطرات عقله الواسع الخيال فيخرج لنا قصة لا صلة لها بالواقع ولا حتى بالـ «معقول» . . . قصة تشبه حكايات «ألف ليلة وليلة» فى كثير من أركانها . . .

وبطلها هو «الواثق» ، «الخليفة التاسع من بنى العباس ، وابن الخليفة المعتصم ، وحفيد هرون الرشيد» . وقد اتخذ من بلدة سامرا عاصمة للملك فبنى قصراً بها يفوق فى فخامته وبذخه كل القصور التى أقامها أسلافه . وكان القصر مكوناً من أجنحة يصفها لنا الكاتب بإيجاز ، فيقول :

« فى الجناح الأول أقيمت موائد تغطيها دائماً أغلى صنوف الطعام وأطيبها ، وتقوم فرقة من الطهاة على تموينها ليل نهار ، بينما تتفجر خير أنواع الخمور والأنبذة من ينابيع مائة لا تنفد خيراتها أبداً . وقد أطلق على هذا الجناح من القصر اسم «المأدبة الخالدة» . . . .

« كما أطلق على الجناح الثانى اسم «معبد النغم» ، أو «خمر الروح» . ويقيم فيه أبرع الموسيقيين وأنبغ شعراء العصر ، فيردد كل ركن من أركانه ألحانهم الشجية . . . .

« ويعرف الجناح الثالث باسم «بهجة الأعين» ، أو «عماد الذاكرة» . وقد جمعت فيه الأشياء والكائنات الغريبة من سائر أنحاء الأرض . . .

« وكان هناك أيضاً الجناح المسمى بقصر العطور أو قصر روائع اللذة . . . .

« أما الجناح الخامس فقد كان معروفاً باسم «صومعة البهجة» أو «الجناح الخطر» ، وتؤمه جماعات من الحسان الصبايا ، فى جمال حوريات الجنة وفتنتهن . . . »

وإن هـذا الوصف لقصر الخليفة ليدل فى وضوح على ما كان يتخيله الغربيون من تهالك حكام الشرق على اللذات وإسرافهم فى إمتاع أجسادهم بكل أطايب المعمورة : أحسن أنواع الطعام ، وخير صنوف الخمور ، وأذكى العطور ، وأجمل النساء ، إلخ .

لكن الواثق لا يرضى بهذه الحياة المترفة المتعمة ! فهو مصاب بداء شفاؤه محال : داء حب الاستطلاع والفضول الذى لا حد له . ولذلك لجأ استعصى عليه حل بعض الرموز السحرية الغريبة وقع فى حالة من اليأس الشديد أتت على صحته وعقله ! حتى جاء لنجدته عفريت شديد البأس يعرض عليه من فنون الجن ما يفتنه عن دينه ، ويلهيه عن شعبه ، ويدفعه إلى ارتكاب أشنع الجرائم . وأخيراً ينقاد الخليفة لغريزة الفضول ولغواية الشيطان ، فيرحل عن عاصمته ليغزو بلاد الجن فى باطن الأرض ، ويفتح كنوز الملك سليمان ، ويستولى على سلطنته . وفى إحدى مراحل هذا السفر الشاق يلجأ الواثق إلى ضيافة الأمير «فخر الدين» صاحب «الوادى السعيد» ، ويقع فى غرام ابنة أخيه الأميرة الطموح «نور النهار» التى تحثه على تنفيذ مشروعه العجيب للسيطرة على عالم الأسرار . فيمضى الواثق فى طريقه حتى يصل إلى أبواب المملكة السفلى . . . ويستقبله الشياطين ويقودونه إلى كبيرهم إبليس . . . يقول الكاتب :

« كانت هناك منصة ضخمة يسجد حولها عدد كبير من الشيوخ والعفاريت ، ويعلو عليها إبليس القوى البأس : أما مظهره فكان مظهر فتى تم محاه النبيلة وقسماته الجميلة عن شر دفين ، وفى عينيه الواسعتين يبدو الغرور واليأس ، وشعره المرسل يسبغ عليه شيئاً من صورة ملائكة النور ! وكان يمسك فى يده ، التى سودتها نار البرق ، عصا الملك الشعبية التى ترتعد لها أوصال العفاريت والشياطين وسائر قوى العالم السفلى . . . »

وهنا يعلم الخليفة البائس مصيره المفزع : لقد أدى

من الخدمات لإبليس على الأرض ما جعله يرضى عنه ويرغب في مكافأته . ولذلك فهو يسمح له بارتياد أركان العالم السفلي والتفرج على كنوزه التي لا يحصيها خيال . ولكنه بعد ذلك مقضى عليه بالعذاب الخالد المحتوم لكفره مما أجرمه في دنياه .

خلاصة القول أن الواثق صورة خيالية مبتكرة من صور « فاوست » ، عقد معاهدة خاسرة مع الشيطان ، ولم يدرك خطأه إلا بعد فوات الأوان . وذلك في إطار شرقي يمتاز بالابتعاد عن الواقع والضرب في الخرافة إلى أبعد مدى ...

في « قصة راسلاس »

للكاتب الإنجليزي صامويل جونسون

هذه قصة تدور حوادثها في أقصى جنوب وادي النيل وفي القاهرة . وبطلها هو الأمير « راسلاس » الابن الرابع للملك الحبشة المعظم الذي يسيطر على منابع النيل أو « أبي المياه » على حد تعبير المؤلف .

وكان من عادة هذه البلاد البعيدة أن يحبس أولاد الملوك وأفراد الأسرة المالكة (ماعدا الملك طبعاً) في حديقة واسعة تحوطها الأسوار الجبلية من كل ناحية ، ولا يفتح بابها إلا مرة في العام ، وقد وضع هذا النظام الغريب لمنع التنافس والتناحر بين الطامعين في الملك . وقد استخدمت جميع الوسائل التي يمكن أن توفر الراحة لهؤلاء السجناء حتى لا يشعروا بالقيد المضروب حولهم ، ونظمت الحديقة المغلقة على صورة جنة أرضية رائعة لا يشبع المرء من نعيمها .

ولكن الأمير راسلاس كان يمتاز بروح شديدة الحساسية تواقة إلى الحرية والمعرفة : فلم يرض بهذا القفص الذهبي الذي فرض عليه أن يعيش فيه ، وراح يبحث عن وسيلة للخروج والانطلاق في هذا العالم الواسع الذي لا يصله منه إلا نتف من أخبار . ويحاول معلمه أن يثنيه عن رغبته هذه قائلاً : « لو عرفت بؤس الحياة الدنيا لقدرت النعيم الذي أنت فيه حق قدره » . فيرد الأمير عليه رداً مفحماً : « إني إذاً أرغب في رؤية هذا البؤس لكي أعرف قيمة ما أنا فيه من نعيم ، فأعيش سعيداً ! » ...

وكان في حاشية الأمير رجل شاعر ، دمث الأخلاق ، جرب الحياة في مختلف البلاد وطاف بالكثير من أقطار الأرض ، اسمه « إملاك » . وتتصل أسباب المودة بين الشاعر والأمير ، فيتعاونان على الخروج من الجنة ... وفعلاً يتوصلان بعد مشقة إلى خرق سور الحديقة ، فتلحق بهما الأميرة « نقية » فيخلص الجميع إلى العالم الخارجي حيث يتوجهون إلى مدينة القاهرة المشهورة ...

ويستقرون بعد رحلة موفقة في عاصمة مصر . ويبدأ الأمير في البحث عن نوع الحياة التي ينبغي أن يحياها . وهذا في الحقيقة هو جوهر القصة : « كيف يختار الإنسان الحياة المثلى ، وما هي هذه الحياة المثلى » أو على حد التعبير الإنجليزي — The Choice of Life — وأظن أن الدكتور جونسون لم يكتب القصة إلا لدراسة هذا الموضوع الإنساني العميق الذي يشغل بال كل مفكر منذ كان الفكر .

يقول إملاك الشاعر للأمير راسلاس :

« قليل من الناس يعيشون الحياة التي يرغبونها . وكل إنسان فرضت عليه أنواع معيشته تبعاً لظروف خارجة عن إرادته ... لذلك يندر أن تجد رجلاً لا ينظر بعين الحسد إلى نصيب جاره من الدنيا » ...

ويروح الأمير القلق يبحث عن المثل الأعلى للحياة ! فيجرب العيش في جميع الأوساط والبيئات ، ولكنه عاد بعد كل تجربة أكثر إيماناً بأنه لا يوجد على الأرض حياة مثلى ...

جرب حياة الشباب المترفين فوجدها إسرافاً وفساداً وفراغاً ... وعاشر الفلاسفة ، فوجدهم كسائر البشر يتألمون ويحزنون ! ورحل إلى الريف فلم يجده أحسن حالاً من المدينة ! وتحدث مع راهب يعيش في صومعة منعزلة ، فألفاه ساخطاً على حياة العزلة يريد العودة إلى القاهرة ! واختبر العظماء فلم يجد إلا حيرة وبلبلة ... إلخ !

وأخيراً تولاه اليأس بعد هذه التجارب الفاشلة المتتابعة . فوجد أنه ليس أمامه إلا سبيل واحد : ألا وهو العودة إلى مسقط رأسه في أقصى الجنوب ...

هذه القصة قصة فلسفية قبل كل شيء ، لم يقصد بها المؤلف وصف الشرق أو دراسة أحواله ، وإنما أراد أن يطرق أفكاراً وفلسفات تشغل بال الناس جميعاً سواء أكانوا في الشرق أو في الغرب . ولكنها مع ذلك لا تخلو من وصف طريف لبعض البلاد الشرقية التي تدور فيها حوادث الرواية : مثل سوريا ومصر وفلسطين .

محمد عبد الحليم محمود

علي محمود طه

– ٢ –

للأستاذ عبد السميع المصري

فاستمع إليه يقدم لقصيدته « التمثال » نثراً فيقول : « الإنسان صانع الأمل ينحت تمثاله من قلبه ومن روحه ، ولا يزال عاكفاً عليه يبدع في تصويره ، وصقله متخيلاً فيه الحياة ومرحها وجمالها ، ولكن الزمن يمضي ولا يزال تمثاله طيناً جامداً أو حجراً أصم ، حتى تخمد وقدة الشباب في دم الصانع الطامح وتشعره السنون بالعجز والضعف ، فيفزع إلى معبد أحلامه هاتفاً بتمثاله ، ولكن التمثال لا يتحرك ولكن الحلم الجميل لا يتحقق ، وهكذا تجتاح الليالي ذلك المعبد وتعصف بالتمثال فيهوي حطاماً ، وهنا يصرخ اليأس الإنساني ويقضي القدر في حكمه » .

ويصرخ الشاعر حقاً في ختام القصيدة مصوراً أقصى درجات اليأس من هذه الحياة الدنيا : —

مر نور الضحى على آدمي مطرق في اختلاجة المصعوق
في يديه حطامه الأمل الذا هب في ميعة الصبا المرموق
واجماً أطبق الأسى شفتيه غير صوت عبر الحياة طليق
صاح بالشمس : لا يرعك عذابي
فاسكبي النار في دمي وأريقي
تلك الشهادة أهدى على القلب وأحنى من الفؤاد الشفيق ،
تغتذى الجسم حفنة من رماد وتخلى الروح شعلة من حريق
جن قلبي فما يرى دمه القا ني على خنجر القضاء الرقيق

وفي هذه البيئة المظلمة على نفسها المترددة في خطوها وتهويضها المتخطلة في أوضاعها يلجأ الشاعر إلى الطبيعة يبثها آلامه ويشكو لها أحزانه ويتخذها رفيقاً حناناً يجمع بين أحضانها وينسى أشجانه بين رياضها وأفنانها ويتفانى في حبها . فاستمع إليه في نفس القصيدة يقول وقد اتخذ من الطبيعة رفاقاً وشهوداً وأصحاباً بل وأماً حانية عليه : —

أقبل الليل واتخذت طريقي لك والنجم مؤنسي ورفيقي
وتوارى النهار خلف ستار شفقي من الغمام رقيق
مد طير المساء فيه جناحاً كشراع في لجة من عقيق
هو مثل حيران يضرب في الليـ ـل ويجتاز كل واد سحيق
عاد من رحلة الحياة كما عد ت وكل لوكره في طريق
شهد النجم كم أخذت من الرو عة عنه ومن صفاء البريق
شهد الطير كم سكبت أغانيـ ـه على مسمعيك سكب الرحيق
شهد الكرم كم عصرت جناه وملأت الكئوس من إبريق
شهد البر ما تركت من الأثـ ـار على معطف الربيع الوريق
شهد البحر لم أدع فيه من در جدير بعقربيك خليق
ولقد حير الطبيعة إسرا ئي لها كل ليلة وطروقي
واتحاس الشمس عليها كراع أسيوي أو صائد إغريقي
أو إله مجنح يتراءى في أساطير شاعر إغريقي
قلت لا تعجبي فما أنا إلا شبح لج في الخفاء الوثيق
أنا يا أم صانع الأمل الضا حك في صورة الغد المرموق

أما الخيال فهو من أدوات الشعر التي لا يستغني عنها شاعر في الوجود ، غير أنه يختلف قوة وضعفاً من شاعر لآخر ، وقد كان عند علي طه في أوج قوته وروائع عظمته ، يسبح به في عوالم من الرؤى والأحلام الجميلة ، ويحلق به في آفاق رحبة من دنيا الابتداع فيأتي لنا بالعجيب من الصور والمبتكر من الفنون كملحمته الشعرية « أرواح وأشباح » وهي كتاب أفرده لحوار من الشعر بين آلهة الإغريق القدماء في عالم الأرواح وبين شخصيات خرافية وآلهة شرقية وحد بينها هذا الحوار الذي يرمى إلى تصوير حياة الشاعر ومصادر إلهامه .

وفي ديوانه « زهر وخمر » يقدم لنا في قصيدته « حانة الشعراء » صورة كاملة رائعة الخيال تجمع بين الشعراء والبيضاء وبين ساكنة الأرض وساكنة السماء ، وقد تعمد أن يجعل أهل الفن يقبلون على فن راقصة زنجية معجبين فتحنق « فينوس » ربة الجمال لانصرافهم عنها ، وهو

فى كل ذلك رمز إلى الصراع القائم والذى لزداد عنفا فى عصرنا الحالى بين أرستقراطية الفن والاتجاه به نحو الجماهير لمحاولة السمو بأذواقها ... فاستمع إلى بعض ماقال : —

هى حانة شق جانبها معروشة بالزهر والقصب
فى ظلة باتت تداعبها أنفاس ليل مقمر السحب
والخوس فيها وهو صاحبها لم يخل حين أفاق من عجب

• • •

إبريقه حلى من البلور يزهى به قدح من الماس
وكأن ما حوليه من صور متحركات ذات إحساس
تركت مواضعها من الأطر ومشت فى شبه أعراس

• • •

أو تلك حانة ؟ فواعجبا أم صنع أحلام وأهواء ؟
ومن الجبال أطل واقتربا « ڤينوس » خارجة من الماء
فى موكب يتمثل الطربا ويطل من سحر وإغراء
وبكل ناحية فتى وثبا متطلعاً بذراع حسناء

٨ — ولم يقتصر أثر البيئة على شاعرنا فى توجيه مطالعاته نحو الثقافة اللاتينية ومتابعة كبار أدباء عصره كطه والزيات وغيرهما ، بل نراه يبالغ فى اقتفاء آثار هذه الثقافة وخطوات هؤلاء الأدباء ، فيحن إلى ارتياد منابع هذه الثقافة والنهل منها ؟ وما إن تتيسر له أسباب الرحلة حتى يبادر بالسفر إلى أوربا فيرتادها عام ١٩٣٣ ويعاود السفر إليها أربع مرات أخر فى عام ١٩٣٦ و ١٩٣٩ ، ١٩٤٦ ، ١٩٤٨ وقد أعلنت الحرب العالمية الثانية وهو فى ألمانيا عام ١٩٣٩

ولعله فى رحلاته إلى أوربا قد فكر أيضاً فى الابتعاد عن قيود البيئة والتطلع إلى ماقاته فى وطنه من أسباب اللهو والملذات التى تحوطها فى مصر بعض القيود والمواضعات .

ولقد ظهرت آثار هذه الرحلات فى شعره وانتشرت صورها فى دواوينه ، وأول ما انطبع فى مخيلة الشاعر هو الفارق فى نظره بين ما رأى من جمال الطبيعة والإنسان هناك وما خلفه وراءه فى وطنه، فذهب يقارن بينهما فى قصيدته عن بحيرة كومو بوادى اللمباردى الإيطالى .

شاعر النيل طف بها عنها كل مبكر
الثلاثون قد مضت فى التفاهات والهذر
فتزود من النعيم لأيامك الأخر

أين وادى النخيل أم قاهرياته الغرر
لا تقل أخصب الثرى فهنا أورق الحجر[1]

وتنتهى به هذه المقارنة إلى تمنى الهجرة من وطنه إلى هذه الروابع الجميلة لولا أحبة بشاطىء النيل حبهم أقوى من هذه الأمنية وآثار راحلين أعزاء .

آه لولا أحبة زلوا شاطىء النهر[2]
ورفات مطهر وكريم من السير
لجنيت شرفة لى فى هذه الحجر
أقطع العمر عندها غير وان من النظر
فلقد فاز من رأى ولقد عاش من ظفر

أجل لقد فاز من رأى ، لكن الذى يظفر ببغيته هو الذى عاش حياته حقاً . . . وعلى طه يحس وقد تخطى الثلاثين أنه قد أضاع العمر فى وهم باطل وخيال لا طائل وراءه . . . بينما هناك فى أوربا حياة ومتعة ، فليسرع باغتنامهما قبل أن تضيع البقية الباقية من العمر ، ويكفيه ما قاساه من حرمان :

ليالى البحر فى « كورى » أم الفتنة فى البحر
وجنات بحر الروم أم دنيا من السحر
على شط من الأحلام والأنغام والزهر
تنفس جوها عطراً يفضضه سنا البدر
أريج البرتقال به وتفح العنب النضر
أم الآلهة العشاق بين الموج والصخر
أهلوا تحت أشرعة تقل عرائس الشعر
نشاوى الحسن والنور وبعض النور كالخمر
تهد حيل أجسرهم محب موقظ الصدر
أقام الدهر موتورا من الحرمان والهجر

وإذا كان جمال « كابرى » قد شغل جانباً من هذا القصيد فإنا نراه فى أنشودة أخرى يفرغ نفسه كلها للحب ولشوته ويدعو رفاقه لاغتنام ساعته : —

يا رفاقى هذه الساعة من حلم الزمان
إن هذا زمن الحب فضجوا بالأغانى
ارفعوا الأقداح ملأى واشربوا نخب الحسان

---

[1] ، [2] (١ ، ٢) ليالى الملاح التائه .

فالربيع السمح يدعوكم إلى أطرب حال

* * *

الربيع المرح الجذلان يختال غروراً
إنه الحسن الذي يملأ بالحب الصدورا
كيف لا نقطف منه الزهر الحلو النضيرا
أنت أيتها الشمس املأى الآفاق نورا[1]

ورغم هذه النشوة الغامرة التي يحسها الشاعر في تلك البيئة الجديدة والانطلاق إلى تحصيل المرح والحب فهو لا ينسى مصريته، بل نراه يعتز بقوميته ووطنه فيخاطب صاحبته على بحيرة كومو بإيطاليا وهي أمريكية بقوله: —

يا ابنة العالم الجديد سلي عني العالم الجديد سلي عالماً غيره في ذرى من تراه نفحة البدو والحضر
وأغاني لمن شدا ومعان لمن شعر

لكن علي طه الشاعر يرى في هذه البيئة الجديدة عليه أشياء أخرى غير ذلك . . . إنه يحس أن هذه البيئة تطغى عليها المادة وتصبغ المادة جميع مظاهرها حتى أدبها . . . لقد نحى المذهب الابتداعي الذي يسود في وطنه الأصلي عن مكان الصدارة هنا وتغلب عليه مذهب جديد يوائم هذه البيئة بعد عام ١٩٣٠ . . . لقد كانت الواقعية هي الغالبة في الأدب الأوربي عامة .

ولعل علي طه قد اقتنع بأن المذهب الواقعي في الشعر والأدب هو الأنسب لتلك البيئة المادية، وهو الأفضل لملاءمة التطور العصري في مصر أيضاً لأنه تطور نحو المادية يسير في اتجاه مضاد للخيال الابتداعي، لكنه ظل بعدها متردداً بين الطريقين حتى إن القصيدة الواحدة نحس إذا قرأتها بحيرة كاتبها هذه ! ففي قصيدته «راقصة الحان» نراه يصف الراقصة وصفاً واقعياً رائعاً وينقل لنا صورة حية لرقصتها فيقول: —

تضم الوشاح وتلقى به ... وفي خطوها عزة واختيال
تمد يديها وتثنيهما ... وترتد في موج واختيال
ككورة النبع تطوى الرشاء ... وتجذب مختلفات السجال
مجيرة الطيف في مائج ... من النور يغمرها حيث جال

على إصبعي قدم ألهمت ... هبوب الصبا ووثوب الغزال
وتجرى ذراعين متساندين ... كغصنين من جدول في اشتبال
كأنهما حولها زورقان ... تطايح جسم فريد المثال
تثور وتلهو كلهاية ... ترامى قبل فناء الذبال
وتعلو وتهبط مثل الشراع ... رمى الجنوب به والشمال
وتبدو كأن نبأ خلفهما ... تمددها بسياط طوال
وتخضب رائعة وجهها ... ضراعة مستغفر في ابتهال
وتسقط عابسة الجبين ... كقمرية وقعت في الحبال[1]

والراقصة في انطلاقها في تمثيل هذا الدور لا تحس الواقع حولها وما يختلج في صدور النظارة من نهم ورغبة:

فلبست تحس اشتهاء النفوس ... وليست تحس عيون الرجال

لكن الشاعر وسط هذا الواقع وفي هذا المشهد الحسي يرى بعين خياله ويعتقد أن لهذه الراقصة رسالة روحية سامية فيقول لنا: —

وليست ترى غير معبودها ... على عرشه العبقري الجلال
دعاها الهوى عنده للمثول ... وما الفن إلا هوى وامتثال
وفي روحها نشوة حلوة ... كمهجورة منيت بالوصال

ومع هذا فالشاعر يلح في هذه الواقعية الجديدة ويلق بروحه في أتونها ويجد لذة في استجلاء صورها، فنراه يقول في قصيدته «الحية الخالدة[2]» واصفاً هذا اللقاء الجسدي العارم:

ولفت ذراعين كالحيتين ... على وفق نشوة لم تطر
وقد قربت لهما من فمي ... كقطفين من قبس مستعر
أشم بأنفاسها رغبة ... وهتف بي جفنها المنكسر
تبينت في صدرها مصرعي ... وآخرة المستلذ الخطر

هو الحب ؟ لا . . . بل نداء الحياة
تلبيه أجسادنا الظامئة
يخف دبي لنداء الحبيب ... وتدفعني القدرة الطارئة

لكنه بعد هذا الاندفاع نحو الواقعية ونحو النهل من اللذات يحس اقترابا من بيته الحقيقية وتنكراً لطبعه الأصيل، ويستشعر ندماً بعد أن تأثر فيه حين عب من الخمر وتغلب شعوره حين اقترب من النار، فيصيح:

(1) «أغنية الحب» من ديوان زهر وخمر .

(1) زهر وخمر .
(2) أرواح وأشباح .

ندوة القلم

وادى الريان

من المشروعات الكبيرة التى تشغل بال وزارة الأشغال الآن مشروع وادى الريان . وهذا المشروع قديم سبق بحثه وأثيرت حوله — وما زالت — اعتراضات كثيرة تقف عقبة فى سبيل تنفيذه .

وسأعرض هنا فى كلمة موجزة وصفاً للمشروع .

وادى الريان عبارة عن منخفض عظيم واقع فى الغرب والجنوب الغربى من مديرية الفيوم ، وأوطى نقطة فيه يبلغ منسوبها حوالى ٥٩ متراً تحت سطح البحر . وتفصله عن الفيوم حدبة من الحجر الجيرى طولها حوالى ١٥ كيلو .

الأغراض التى تصلح لاستعمال الوادى :

١ — استعمال الوادى كخزان .

٢ — استخدامه كحوض لاستقبال مياه صرف الوجه القبلى

٣ — لصرف منطقة الغرق .

٤ — استخدامه فى الحد من ذروة الفيضانات العالية .

وأهم الاعتراضات التى أثيرت حول المشروع هو خطر الرشح على مديرية الفيوم ، وذلك لأن تربة الوادى مكونة من حجر جيرى ، ومن خواص هذا الحجر أنه يرشح الماء . ليس هذا فقط ، بل إن جميع الصخور الجيرية بدون استثناء قابلة للذوبان ، بل قد تحتوى الفواصل بين الأحجار وبعضها على الجبس أو الملح . والملح بطبيعته قابل للذوبان فى الماء مباشرة ، وتتبادل المياه المالحة والجبس التفاعلات الكيمائية فتكون أملاحاً قابلة للذوبان ، فالجبس لا يقف حائلاً أمام المياه بالمرة ، وتكون النتيجة الحتمية تفتح الفواصل فتسير فيها المياه وتعمل على توسيعها بالإذابة . ويستشهد المعارضون بالخزان الذى بنى فى حلوان على طبقة من الصخور الجيرية مباشرة على اعتبار أنه صخر لا يرشح ، ولكن التجربة أثبتت أن الخزان كان يرشح الماء بمعدل ٢٠ سنتيمتراً فى اليوم عندما يملأ إلى ارتفاع نصف متر فقط ، وذلك رغم الطين الذى وضع فى قاعه فإنه لم يحتفظ بالماء بتاتاً وكان البلل تحت هذا الخزان ظاهراً من الخزان إلى منخفض الوادى ، مما أدى إلى شكوى أصحاب البيوت المجاورة .

من هذا المثال يمكن معرفة خطر الرشح إذا بنى خزان وادى الريان ، علماً بأن منسوب وادى الريان حوالى ٥٠ متراً تحت سطح البحر ، ومنسوب الحجر مصمم على ٢٥ متراً فوق سطح البحر ، أى أن هناك ٧٥ متراً من الماء سيقوم حائط الخزان بحجزها . حتى على فرض أن الأرض لن ترشح فإن خطر الرشح من الحوائط ما زال قائماً .

أخمر ونار ؟ لقد شاق لى   كيانى وأوشك أن أختنق
أرى ما أرى ؟ لحبا أبل أشم   رائحة الجسد المحترق ! !

» ولقد كانت رحلاته إلى أوربا نقطة تحول فى اتجاهه الشعرى لا شك ، وبدءاً لإيغاله فى الواقعية الفنية التى انتهجها فى الفترة الأخيرة من حياته ، إلا أنه كثيراً ما يغلبه الطبع الأصيل فيرتد شاعراً رومانسياً فى الكثير ، كما تجهده محاولة استحداث الاتجاه الواقعى فيأتينا بشعر تغلب عليه روح الصنعة والتهافت كقوله يحدث زهرات هيأها فى بيته وكان على موعد مع فاتنة أخلفته : —

طال انتظارى ومضى موعدى   وأنت مثل ترقبين المساء[1]

كم لك عندى فى الهوى من يد   يا زهرتى أنت رمز الوفاء
عما قليل سوف تلقينه   أجمل ما تصبو إليه العيون
يطرق بابى معلناً أنه   كل اصطبار فى هواه يهون

أو كقوله :

تسائلنى حلوة المبسم   متى أنت قبلتنى فى فمى ؟[1]
تحدثت عنى وعن قبلة   فيالك من كاذب ملهم
فقلت أعاتبها : بل نسيت   وفى الثغر كانت وفى المعصم
سل شفتيك بما جئته   من خفق شاعر مغرم

(البحث بقية)

عبد السميع المصرى

(١) زهر وخمر .

(١) زهر وخمر .

المشروعات التي قدمت :

١ — مشروع سنة ١٩٣٧ .

وضع هذا المشروع على أساس مجرى يتسع لتصرف مقدار ٣٠٠ مليون متر مكعب يومياً .

ويتلخص المشروع في إنشاء قناة طولها نحو ٦٠ كيلو متراً تبدأ من النهر قبل بني سويف بنحو ٨ كيلو ، ثم تمر مخترقة مديرية بني سويف بطول ٢٠ كيلومتراً ومنحرفة قليلا نحو الشمال الغربي مارة جنوبي بلدة « أهناسيا » حتى تصل حافة الصحراء ، ثم تخترق الجبل الذي يفصل وادي الريان عن مديرية بني سويف بطول ٤٠ كيلو متراً حتى يصل إلى المنخفض .

مشروع سنة ١٩٤٣ :

لما كان مشروع سنة ١٩٣٧ ضخماً جداً رأت الوزارة أن تعمل مشروعاً آخر ماراً ببحر بلاما بعيداً عن حافة مديرية الفيوم .

مشروع يوسف بك سعد :

يتلخص في استخدام حوض مجرور قشيشة بدل هذه القناة الضخمة .

أما عن التكاليف فهي كالآتي :

مشروع الوزارة سنة ١٩٤٣ بمبلغ ٥ ملايين جنيه .

معدّل هذا المشروع بمقايسة بمبلغ ٨ر٥٠٠ر٠٠٠ .

مشروع يوسف بك سعد عن طريق عزبة أبو حامد ٨ر٧٥٠ر٠٠٠ جنيه .

مشروع يوسف بك سعد المؤقت بمبلغ ٣ر٥٠٠ر٠٠٠ جنيه .

* * *

وبالرجوع إلى الأغراض التي عمل من أجلها المشروع نجد أن الغرض الأول مرغوب فيه ؛ وربما كان أصلح الآراء الوفاء بهذا الغرض هو استعمال مجرور قشيشة الحالي ، أما عن الغرض الثاني فواضح أن الصرف بالراحة ممكن على مدار السنة ما عدا فترة محدودة يتوقف أمرها على طبيعة الفيضان ودرجة علوه ، وقد لا تطول هذه الفترة عن شهرين في الفيضان العالي .

أما عن الغرض الرابع فقد وجد أن صلاحية المنخفض لتأدية هذا الغرض تتوقف إلى حد كبير على سعته وقدرته على استقبال كمية المياه المطلوبة ، وقد تبين مع الأسف أن هذا الخزان لن يستطيع استقبال كل الكمية المطلوبة لعدم إمكان تفريغه إلى الحد اللازم خصوصاً في حالة تعاقب فيضانات عالية .

ولهذا أصبح من المتعين صرف النظر عن الغرض الرابع وتحديد وظيفة الخزان وإعداد المشروع على أساس تصريف جزء من مياه الفيضانات العالية إلى الحد العادي الذي لا تتولد منه خطورة بالغة .

* * *

هذا هو مجمل المشروع أتينا عليه باختصار داعين الله أن يوفق المشرفين عليه إلى الحل الصحيح حتى تتمكن البلاد من استغلال كل قطرة من ماء نيلها ، وبالتالي كل شبر من أراضينا البور حتى نرتفع بالمستوى الاجتماعي للبلاد إلى الدرجة التي نرجوها لها .

توفيق الشنارى

« دفاع عن الجاحظ »

قرأت في مقال للأستاذ محمد عبد الغني حسن بالعدد (٦٧٦) أقوالا خطيرة ينسبها للمؤرخ الجغرافي الكبير أبو الحسن المسعودي ، إلى علامة العربية ومالك ناصيتها ورب فصاحتها وبيانها ، أبي عثمان الجاحظ ، هالني أمرها فأكبرتها بحق وأنكرتها .

فالمسعودي — ومن ورائه كاتب المقال يردد دعواه — يتهم الجاحظ بأنه يزعم أن نهر السند يستمد ماءه من النيل بدليل وجود التماسيح فيه .

ونحن مع تقديرنا لأبي الحسن ، لا يحق لنا من وجهة النظر العلمية إلصاق هذه الدعوى بالجاحظ ما دام قد وردت في كتاب « الأمصار » وهو كتاب أصابه ما أصاب التراث

الإسلامي من الضياع والفقدان ، وأكبر الظن أن ليس في كتب أبي عثمان التي تحت أيدينا ما يؤيد هذا الزعم من قريب أو بعيد ، ثم ينقد المسعودي أبا عثمان مرة أخرى ، وهنا يقول الأستاذ محمد عبد الغني حسن دون حق :

« ويقف (المسعودي) الجاحظ مرة أخرى وفي موضع آخر كأنما هو راصد له فيناقشه فيما زعمه وأورده في كتاب « الحيوان » من أن الكركدن يحمل في بطن أمه سبع سنين ، وأنه يخرج رأسه من بطن أمه فيرعى . . . ! ثم يدخل رأسه في بطنها » .

ثم يؤيد كاتب المقال مزاعمه هذه بقول المسعودي .

« فيحكي هذا الوصف على مسألة من سلك تلك البلاد من أهل سيراف وعمان ، ومن رأيت بأرض الهند من التجار ، وكل يتعجب من قوله — يعني من قول الجاحظ — إذا أخبرته بما عندي من هذا وسألته عنه ، ويخبروني أن حمله وفصاله كالبقر والجواميس ، ولست أدري كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ ؟ أمن كتاب نقلها ، أو مخبر أخبره بها ؟ » .

والحق أنه إذا جاز للجاحظ أن يخطئ ، فيزعم أن نهر السند يستمد ماءه من النيل ، وذلك لقلة معارفه الجغرافية ، فأكبر الظن أنه لا يسف هذا الإسفاف الذي يزري بعقليته في موضوع تحت نصب قراءته ، إذ وضع في « الحيوان » موسوعته الكبرى ذات القيمة الكبيرة في العلم والأدب والتاريخ ، والتي تمتاز بطابع النقد والرجوع إلى المشاهدة والعيان والاحتكام إلى العقل فيما عزت فيه التجربة والمشاهدة .

وترديد كاتب المقال لدعوى المسعودي على الوجه الذي ذكره ، يشكك القارئ في عقلية الجاحظ ويطعن في موسوعته « الحيوان » . ولقد كان لزاماً على الكاتب الفاضل — وهو يكتب عن منهج « العناية » في التاريخ الإسلامي — أن يلتزم هو أيضاً هذا النهج ولو في مقالته هذه على الأقل ، فكان عليه من وجهة النظر العلمية ألا يقبل من المؤرخ الكبير أبي الحسن المسعودي — مع احترامنا له — اتهاماً لأبي عثمان في موضوع نهري السند والنيل ، ما دام ذلك ليس في كتبه التي تحت أيدينا ، وما دام هو لم يقرأه له ، وكان عليه ثانياً أن يرجع إلى ما كتبه الجاحظ في « الحيوان » حول « الكركدن » ليقارن بنفسه بين دعوى المسعودي وكتابة الجاحظ ، ليكون مقاله على المنهج العلمي القويم ! ومع أن الكاتب لم يشأ — مع الأسف — أن يقرأ ما كتبه الجاحظ في هذا الصدد ، فإنه قد أغفل عبارة هامة للمسعودي حينما نقل عنه دعواه ، فالمؤرخ الكبير يقول :

« وهذا القول أورده (الجاحظ) في كتاب الحيوان على طريق الحكاية والتعجب ، فيحكي هذا الوصف الخ » .

فالمسعودي يحدثنا أن الجاحظ روى الخبر على طريق الحكاية والتعجب ، لا على طريق الرأي والعقيدة ، وأكبر الظن أنه كان يربأ بأبي عثمان وبكتابه عن أمثال هذه الأساطير حتى ولو كانت على سبيل الحكاية .

والعلامة كمال الدين الدميري يعرف لأبي عثمان قدره وحقه فيقول في كتابه « حياة الحيوان » بعد أن أورد لنا أسطورة « الكركدن » هذه : « وقد أنكر الجاحظ هذا »

ثم أنكره الجاحظ فهو يقول :

« ولكن العجب كل العجب ما ذكروا من إخراج ولد الكركدن رأسه واعتلافه ، ثم إدخاله رأسه بعد الشبع والبطنة ، ولا بد — أكرمك الله — لما أكل من نجو ، فإن كان بقي ذلك الولد يأكل ولا يروث فهذا عجب ، وإن كان يروث في جوفها فهذا أعجب . . . !

« ولا أنكر أن الولد يخرج رأسه من . . . أمه حتى يأكل شيئاً ، ثم يدخل رأسه من . . . أمه ، ولست أراه محالاً ولا ممتنعاً في القدرة ولا ممتنعاً في الطبيعة ، وأرى جوازه موهوماً غير مستحيل ، إلا أن قلبي ليس يقبله .

ثم يقول أبو عثمان وقوله الحق :

« والله هو القادر دون خلقه ، ولست آتي بإنكاره وإن كان قلبي شديد الميل إلى رده ، وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس ، ولا يعرفونه إلا بالعيان الظاهر والخبر المتظاهر »

رحم الله أبا الحسن وأبا عثمان بقدر ما أفادت الإنسانية من تراثهما العظيم ، تراث العربية الزاخر بالمفاخر .

سعد محمد حسن

نقـــد

متنـــــوعات

للدكتور محمد كامل حسين بك

طبع بمطبعة مصر في نحو ٢٢٠ صفحة . وهو كاسمه موضوعات متنوعة ، بعضها أدبي كالكلام على المتنبي ، وجو الإصلاح ونحو ذلك . وبعضها علمي كتاريخ الكيمياء القديمة وتاريخ الطب عند العرب ، وكلها ظل لصاحبه ، إذ مزج العلم بالأدب ، والأدب بالعلم . ولعل أروع هذه المقالات مقالة عنوانها «أقدم رسالة علمية» ، وصف فيها فلاحاً مصرياً لم يتجاوز العشرين من عمره ، كان منذ نيف وخمسة آلاف سنة ، حينما كان فرعون مصر يبني أهرام الجيزة ، ويعمل في بنائها آلاف من الناس ، وفي كل يوم ، يجرّ من بين هؤلاء العمال كثير ، منهم صرعى أو جرحى . وعهد إلى هذا الفلاح أن يعنى بأمرهم ، فكان يدرس كل حالة يراها ، أما رجال الدين فكانوا يعالجونهم بالتعاويذ ، وأما العوام فكانوا يرون أن الجن لبستهم ، وأما هذا الفلاح فكان يضع يده على القلب ليعلم إن كان ينبض أولا ينبض ، وفيه أمل أو ليس فيه أمل ، ويعالج كل حالة بما يناسبها ، ومن طول ما مارس من التجارب ، أصبح طبيباً ماهراً ، لا تخيب فراسته ، فهذا قابل للشفاء ، وهذا سائر إلى الفناء .

وقد دوّن تجاربه هذه كلها في رسالة ، لعب بها التاريخ زمناً طويلاً ، يخفيها ويبديها ، حتى عثرت في الأيام الأخيرة جمعية أمريكية للآثار على نسخة ناقصة من هذه الرسالة ، وضعت في قبر قديم من قبور قدماء المصريين ، لعلهم حسبوها تعويذة ، أو كتاب الموت ، ثم وجهت هذه الجمعية عنايتها بها وترجمتها من لغة قدماء المصريين إلى اللغة الإنجليزية ، وعنيت بترجمتها عناية كبيرة . وكان كل من قرأها أعجب بها إعجاباً بالغاً ، وعجب كيف يصل فلاح جاهل إلى مثل ما وصل إليه .

لقد ظلّ العالم قروناً طويلة يسير في طبه ومعالجته على قول أبقراط اليوناني وطبه الذي يمتّ بالفلسفة أكثر من العمل ، وسار على نمطه ابن سينا والرازي وغيرهما من الأطباء ، إلى أن رأى الطب الحديث كثيراً من الفشل في هذه الطريقة ، واهتدى إلى أن أحسن علاج هو الاعتماد على الطب العملي الذي سار عليه هذا الفلاح المصري . ولم يهتدوا إلى هذه الطريقة إلا في الحرب العالمية الأولى ، فغيّروا عقليتهم ، وغيّروا علاجهم .

والنص على القارئ نوع العلاج العملي الذي وضعت له هذه الرسالة ، فيقول هذا الفلاح مثلاً :

إذا فحصت رجلا عنده جرح في رأسه ، نافذ إلى عظم جمجمته ، دون قطع ، فيجب أن تضع يدك عليه ، فإذا وجدت جمجمته سليمة دون نفاذ أو شق أو كسر فيجب أن تقول : إنه رجل عنده جرح في رأسه ، وجرحه ليس له شفتان ، وليس به شق ، وتقول إنه مرض سأعالجه ، ويجب أن تربط عليه لحماً طرياً في اليوم الأول ، وتعالجه بعد ذلك بالدهن والعسل والكتان كل يوم ، حتى يبرأ .

وهكذا يصف في بساطة كل حال وعلاجها ، ويشرح هذه الحالات حتى يبلغ إلى ما ينيف على أربعين حالة في مثل هذا الوضوح وهذا العلاج العملي . وقد أصبحت هذه الرسالة محوراً للطب الجراحي الحديث ! ومن أجل هذا الطبيب وأمثاله شهرت مصر بالطب ، كما وصفها هيرودوت ، وكم في الزوايا من خبايا . فلعل كثيراً من العلوم الرياضية والفلسفية سيكشف عنها التاريخ ، فيعلم أن مصر كان لها الحظ الأوفى في ذلك كله .

والكتاب كله على هذا النمط مع التنوع ، ينقلك من المتنبي إلى ترجمة علي باشا إبراهيم ، إلى الكلام في محنة خلق القرآن ، وما يقابلها عند المسيحيين ، إلى تاريخ العلوم عند العرب ، وهكذا ؟

حول « ثورة الخيام »

للأستاذ عبد الحق فاضل

تفضل الأديب الشاعر ، الأستاذ محمد عبد الغني حسن فكتب في « الثقافة » الغراء مقالة عن كتابي « ثورة الخيام » جاءت آية مفصحة عما يتحلى به كاتبها من أدب رفيع ، وذوق فني مطبوع ، ونقد نزيه . وإني إذ أزجي إليه خالص شكري على ما أولاني من حسن ظنه وكرم نفسه ، أود أن أجيب على بضعة أمور أخذها علي . ويبدو أنه لا مفر من خلاف في الرأي بين ناقد ومؤلف ، كلاهما مخلص للحقيقة صادق في الدفاع عنها . وما أنفعه من خلاف .

أظهر الأستاذ تعجبه لاقتناعي بصحة مقطوعات عربية ذكرتها للخيام ، وشك في نسبتها إليه . وقد ظن فيما يبدو أن دليلي على صحتها ما ورد فيها من ذكر الطبيعة والأفلاك ، والسعد والنحس ، وحسب . على حين أني دللت على صحتها بقولي إنه قد « خلص إلينا شعر عربي للخيام لم يطعن أحد في صحته ، فيما أعلم . »

فما الداعي إلى الشك في شعر يرويه الأقدمون للخيام ولم يطعن أحد في صحته ، أعني أن أحداً لم ينسبه إلى غير الخيام ، خصوصاً إذا كان « أسلوبه أشبه بالفلاسفة منه بالشعراء » وكان ما فيه من استعارات وتشابيه وذكر للأفلاك والسعد والنحس وأدل على الخيام حتى من رباعياته الفارسية !؟ — (ص — ٤٥ و ٤٦) .

على أني لا أبرئ نفسي من خطأ ، فأنا أعترف للأستاذ محمد عبد الغني حسن بأني سهوت عن ذكر سند هذا الشعر العربي . وأقول الآن إن المقطوعة التي ناقشها الأستاذ قد رواها الشهرزوري (شمس الدين بن محمود) في كتابه « نزهة الأرواح وروضة الأفراح » الذي تم تأليفه ما بين عامي ٥٨٦ و ٦١١ هـ — وهو أقدم عهداً ، وأقرب إلى عصر الخيام ، وأوثق سنداً من معظم رواة الرباعيات الأصيلة « المعتمدة » . فإن شككنا في صحة هذه المقطوعة العربية فلننفض أيدينا من كل الرباعيات الفارسية أيضاً .

والذي دعا الأستاذ الناقد إلى الشك في صحة نسبة الشعر العربي إلى الخيام هو فخره بنفسه في المقطوعة المذكورة إذ يقول :

تدين لي الدنيا ، بل السبعة العلى
بل الأفق الأعلى إذا جاش خاطري

فهو يحسب الخيام متواضعاً لأنه « شاعر الطين والصلصال » . أما أنا فلا أعرف الخيام متواضعاً ، وإنما أعرفه تياهاً فخوراً — على طريقته — تأرّأ على كل شيء لم يطأطئ إلا حيال (الموت) الذي عجز عقله عن فهمه والاحتيال له . وقد فخر الخيام في بعض رباعياته أيضاً ، ومنها :

قد حللنا مشكلات الكون طراً للملل
من حضيض الأرض تالله إلى أوج زحل
ووثبنا من أحابيل خداع وحيل
فقضضنا كل سر . . (ماعدا سر الأجل)

إني أكتفي بهذه الرباعية شاهداً ، لأنها من الرباعيات المعتمدة التي لا يشك الباحثون في نسبتها إلى الخيام ، ولأنها — باستثناء الجملة الأخيرة — تؤدي عين المعنى الذي أفصح عنه الخيام في هذا البيت العربي ، بكل ما فيه من تطاول وشموخ على الأرض والسماء . ولو استبدلنا الجملة الأخيرة من هذا البيت بالجملة الأخيرة من هذه الرباعية ، فقلنا :

تدين لي الدنيا ، بل السبعة العلى
بل الأفق الأعلى ، (وما دان لي الأجل)

لكنا قد ترجمنا الرباعية ترجمة موجزة ، ولكنها صحيحة ! فالفخر إذاً لا يصلح حجة لنفي شعر عربي عن الخيام . بل إني لا أتردد طويلاً في اتخاذ « التواضع » حجة على بطلان نسبة مقطوعة أو رباعية إليه إذا وجدت فيها شيئاً من التواضع !

النشاط الثقافي في أسبوع

للأستاذ عز الدين إسماعيل

وصية حلقة دراسات اليونسكو :

أوصت حلقة دراسات اليونسكو الدولية في التربية الفنية ، والمنعقدة في برستل في يوليو الماضي خاصاً بمدرسي الفنون بما يأتي :

« لابد لمدرس الفن الذي يؤدي وظيفته على الوجه الأكمل أن يكون : ١ — إنساناً ! ٢ — ومربياً ! ٣ — وفناناً . ولهذا وجب أن ترسم له المناهج التربوية التي تعده إعداداً يضمن تحقيق هذه الجوانب الثلاثة . »

وقد حاول الدكتور محمود البسيوني في محاضرته التي ألقاها في المعهد العالي للتربية الفنية للمعلمين أن يفصل ماانطوى عليه هذه الوصية . وأن يعرض نماذج واقعية ملموسة ليستدل بها على أن رسالة المدرس لاتؤدى على الوجه الأكمل ، لأن كل مدرس لم يُعِدّ نفسه الإعداد الكافي ، وإذا فقد المدرس جانباً من هذه الجوانب الثلاثة خرجت ثمراته غير ناضجة ، أو ملتوية أو بها علة باطنة لاتظهر على السطح إلا في أوقات معينة ، أو لنقل إنها تخرج على العموم وبها آفة . فإذا كنا نريد السلامة لأبنائنا من تلك الآفات التي يصابون بها في دور تكوينهم ، وجب علينا أن نعنى أولاً وقبل كل شيء بالمدرس الذي يتعهدهم . ووصية اليونسكو تضمن إخراج للمدرس الذي تستقيم به الأمور ، وإن كانت صعبة التحقيق ، وتحتاج إلى زمن طويل .

أما مدرس التربية الفنية كإنسان فإن أهم مايجب توفره له هو « عادة التعاون » . والمقصود بالتعاون — كما يقول المحاضر — هو الانغماس في عملية ابتكارية إنسانية تفقد فيها الفردية صفاتها الأولى وتكتسب صفات جديدة ؛ ونتيجة التقاء العقول في هذه العملية التعاونية و الابتكارية الإنسانية » هو محصلة الآراء وجهود الأفراد المشتركين في هذه العملية ، وليست نتاج فرد واحد . يريد المحاضر أن يقول إن إعداد مدرس التربية الفنية ليكون إنساناً ينبغي أن يقوم على أساس فكرة التعاون الجمعي ، وليس التعاون المفهوم خطأ — كما قال — على أنه متركز في الفرد .

ويرى الأستاذ الناقد كذلك أني أخطأت في أن وصف العروضي السمرقندي للخيام بالإمام طوراً ، وبحجة الحق طوراً هو من دلائل توهمه بأن الخيام من الأولياء أرباب الكرامات » .

والحقيقة أن هذه ملاحظة أزجيتها تعقيباً على حكايته الأولى ولم أقل إنها الدليل . وما كل ملاحظة يوردها كاتب في معرض إيضاح رأي له تعد دليله على ذلك الرأي . وأما دليلي على وهم السمرقندي فهو حكايته نفسها ، وياله من دليل ! وقد قلت عند مناقشة حكايته الثانية ، إن عقله وعقل خرافي كما يتضح من بعض حكاياته في مقالاته الأربع » — (ص — ٣٠٠) . فهذا دليل آخر ! .

ويقول الأستاذ محمد عبد الغني حسن : « فإذا صح هذا المنطق الجديد جاز لنا أن نقول إن المسلمين اليوم توهموا الشيخ محمد عبده من أرباب الكرامات والأولياء لأنهم وصفوه بالإمام ! » .

إني أرجو الأستاذ أن يلاحظ الفرق بين عقلية المسلمين اليوم في عصر الذرة والتدمير وعقلية العروضي السمرقندي الذي كان منحطاً عن الأذكياء حتى من أبناء جيله . وها أنا أعترف ، للمرة الثانية ، أني لو وجدت اليوم قوماً يلقبون الشيخ محمد عبده بالإمام وحجة الحق ، وهم يعتقدون أنه كان يرجم بالغيب ويتنبأ بالتنجيم ، بمثل السذاجة التي اعتقد بها السمرقندي ذلك في الخيام — لما تمالكت نفسي من القول بأنهم يتوهمون أنه من الأولياء أرباب الكرامات ! .

وفي الختام أعود فأقدم للناقد أصدق آيات الشكران عن نقده وإطرائه جميعاً . فإن الأول يدل على أنه تعمق في قراءة الكتاب وفحصه فلم يقتنع بما يقتنع به أوساط القراء من مطالعة سادرة عابرة ، والثاني يدل على أنه استحسنه ورضي عنه . وهل يطمع مؤلف بأكثر من هذا من قارئ ممتاز وأديب كبير كالأستاذ محمد عبد الغني حسن ؟ .

عبد الحي فاضل

وأما المقصود بإعداده كمرب فإن ذلك يقوم على أساس فكرة أن المدرس حزمة من العادات الفردية والجماعية، وكل صفاته وعاداته الخلقية هي الزاد الذي يتزود منه الناشئ، فإذا كنا نريد لناشئتنا أن يتصفوا بصفات خلقية معينة، وأن يتعودوا عادات معينة، وجب علينا أن نوفر لهم هذه الصفات والعادات في المرآة التي يجتلونها كل يوم ويعيشون معها فترة طويلة، ونعني المدرس. وليست مهمة المدرس أن يقدم لتلامذته المادة التي يحفظونها ويسمعونها، وإنما مهمته أبعد من هذا، وهي أن يلقنهم الصفات والعادات المهذبة كالتعاون والشجاعة والصدق والعفو وغير ذلك، وهي العادات التي ستتكون فيهم كأفراد وكمجموع نتيجة لعملية التعلم. وبعبارة أخرى فإن المعلم في هذه الحالة يكون وسيلة ينتقل خلالها إلى الناشئ الصفات والعادات التي لمدرسه والتي نرجو أن ننتفع بها لنضمن تكوين عادات اجتماعية حية نامية من شأنها أن ترقى الفرد والمجموع معاً.

وأما المقصود بإعداده كفنان فليس ذلك معناه تلك الصورة الراسبة الراسخة في أذهاننا من الفنان بلحيته الطويلة وشعره المتهدل المبعثر في أماكن كثيرة من رأسه، تلوح عليه مخايل الجنون والانطلاق من عالم الواقع — وإنما المقصود بالفنان يتعادل تماماً مع ما هو مقصود من كلمة عالم، أي أنه شخص مبدع يعرف كيف يدرس الأشياء ويبحثها ويصل إلى نتائج ينفرد بها، وهذا معنى أنه مبدع. وبجانب ذلك لا بد له من الاطلاع على المأثور اطلاع الفاهم الدارس ليعينه ذلك على أن يكون ذواقة على أسس سليمة بجانب أنه مبدع؛ فالخلق والابتكار والتذوق المبنى على أساس معرفة بالحديث والمأثور في الفن هي التي تكون معنى الفنان.

وأخيراً فكيف نعد المدرس هذا الإعداد؟ يلزم أن يرتب في إعداده خطة دراسية مكونة من مجموعات ثلاث: (أ) مجموعة الإنسانيات: وفيها يتوفر على دراسة كل ما هو خاص بالإنسان. (ب) المجموعة التربوية: من علم نفس وتربية ووراثة وأجناس... (ج) المجموعة الفنية: من فنون ذات بعدين وفنون ذات ثلاثة أبعاد وفنون أخرى صوتية كالأدب والموسيقى... ليعرف كيف يوجه فنه ويحدد موقفه.

التعصب الديني:

كان الاثنين الماضي ليلة ميلاد عيسى عليه السلام. وكان طبيعياً — إن لم يكن بديهياً — أن تحتفل جمعية الشبان المسيحيين بعيد ميلاد المسيح. ولكنها لم تصنع، بل دعت الدكتور إبراهيم ناجي ليحاضر عن النبي محمد. وإذاً فالمسيحيون في عيد ميلاد المسيح يذكرون محمداً. مظهر جميل وجذاب، ينطوي على معنى كريم أخاذ. فليس هناك إذاً عصبة ولا عصبية، وليس هناك نظر إلى دين من الأديان نظرة ازدراء أو حقد أو كراهية. وكأن هذه المعاني الدينية السامية قد صارت — في أذهان الطبقة المثقفة على الأقل — معاني بعيدة عن الشبهات، بل صارت معاني يقتبس منها، بغض النظر عن الدين الذي دعا إليها. بل أليست الأديان كلها — كما تردد في هذه المحاضرة — تدعو إلى المحبة والخير والسلام.

ترى هل تقتضينا الظروف أن نرقى بفهمنا المسألة الدينية بحيث لا نجعلها إشكالنا المعضل الذي لا نفتأ نتناقش ونتباحث فيه، ويحاج بعضنا بعضاً، ويتعصب هذا لعقيدة وذاك لأخرى. لعل هذه الصورة التي رأيتها في جمعية الشبان المسيحيين تحمل هذا المعنى، ولعلنا قد صرنا نهتم بالمسائل الكبرى ولا تعنينا الجزئيات. بل هذا ما أوده وأعناه: أن نصطدم بالحقائق الكبرى، وأن نواجه الأصول الموصلة، ونطرح جانباً تلك الجزئيات التي تملأ علينا الفراغ ولا نكاد نصل معها إلى شيء يجد في فهمنا لحقيقتنا ورسالتنا في الحياة. نريد أن ننسى كل مسألة جزئية فلا نتناقش في زيارة قبور الموتى والأولياء، بل نتناقش في الموت ذاته. وقد نصل منه كظاهرة حيوية إلى إدراك أمور كثيرة على قمتها إدراك وجود الله.

وقد كان لتعقيب ذلك الشيخ الأزهري على المحاضرة ما يترك الجمال لحاجة تلك تساورني. لقد انتفض رأسه عن كلام جميل يعلن فيه أن واحداً لم ينصف المسيح كما أنصفه محمد، وكما أنصفه القرآن، فإذا ذكرت جمعية الشبان المسيحيين محمداً في ليلة ميلاد عيسى، فإنما هي بذلك تحيي ذكرى عيسى أجمل تحية، وتستمد لها من الأصل الذي قدرها حق قدرها.

قلت في مستهل هذا الكلام إن هدف الأديان المحبة والخير، وهنا أعود لأقول إن هذا المعنى قد تردد كثيراً في جو المحاضرة وجعل يلح إلحاحاً على محو الفروق وإظهار التسامح بين الأديان.

عز الدين إسماعيل

من بريد الثقافة

حول مقال حزب الأحرار البريطاني

حضرة المحترم الأستاذ محمد الشرقاوي :

بعد التحية ، فإني أشكر لكم اهتمامكم بمقالي عن حزب الأحرار البريطاني (الثقافة ٦٧٣) كما أقدر نقدكم لعدم تعرضي لبعض النقط المتعلقة بالموضوع والتي ترونها في حاجة إلى الإيضاح أو التعليق .

أما من جهة نشأة الحزبين القديمين (الهويج) و (التوري) ، فإن السبب في عدم التعرض لها يرجع أولا إلى أن الغرض من مقالي لم يكن سوى محاولة عرض الأسباب التي عملت على إضعاف الحزب تدريجياً ، ولم يكن لحزبي التوري والهويج صلة بذلك ؛ وثانياً لأن كثيراً من كتب الاقتصاد السياسي والكتب التي تعالج تاريخ الأحزاب البريطانية (وأذكر بعضها هنا)(*) تتفق على أن « حزب الأحرار » ليس مطلقاً اسماً آخر لحزب الهويج ؛ لأن حزب الهويج كان يتألف من كبار الملاك والتجار ، أي من طبقة أرستقراطية . في حين أن حزب الأحرار الذي لم يتكون سوى بعد الانقلاب البرلماني في سنة ١٨٣٢ ودخول عناصر أخرى في ميدان السياسة ، كان هذا الحزب يتكون من أقلية من حزب الهويج علاوة على أكثرية من المتطرفين الذين عارضوا الهويج ، ومن الصناع وأتباع الفيلسوف بنتام ، ومن المنشقين على المعتقدات الدينية والطبقة المتوسطة على العموم .

أما عن مسألة غدر لويد جورج زعيمه أسكويث فإني لا أعتقد مطلقاً أن ذلك التصرف كان في سبيل مصلحة الدولة ، وعلى ذلك فالمشكلة ليست شبيهة بمشكلة بروتس المعروفة ، لكنها مسألة فردية بحتة ، أي تضحية بالصديق وبالحزب السياسي معاً لتحقيق رغبة شخصية خاصة ، ويدلنا التاريخ على أن لويد جورج نفسه قد فطن إلى خطئه وحاول الاتحاد مرة أخرى مع asquith بعد انسحاب المحافظين في سنة ١٩٢٢ ، ولكن أنصار الحزب لم يعودوا يثقون به . وأصبح عمل لويد جورج بعد ذلك مقصوراً على الاحتفاظ بزعم معارضة قليلة الشأن في مجلس العموم خصوصاً بين سنتي ١٩٣١ ، ١٩٣٥ .

والسبب الذي دفعني إلى عدم مناقشة النقطة الأخيرة هي أنها لا تتصل مباشرة بموضوع مقالي السابق إلا أني سأحاول الإجابة عليها هنا بإيجاز . إن هناك فعلا فكرة سائدة عن أن انجلترا لا تميل إلى تعدد الأحزاب كما في فرنسا ومصر وأنها تفضل الاحتفاظ بحزبين فقط . وهنا نقطتان تحتاجان إلى الإيضاح : الأولى هي أن وجود حزبين فقط لا يكشف لنا عن سر اضمحلال حزب الأحرار بالذات دون أي حزب ناشيء منافس له كحزب العمال أو الحزب الاشتراكي . وثانيهما ، أن وجود حزبين أساسيين فقط في انجلترا لم يكن في بادئ الأمر مسألة اختيار ، وإنما نشأ نتيجة لموقف سياسي معين ، وهو انقسام السياسيين بخصوص التصرف بإزاء الملكية أثناء وعقب الثورة الإنجليزية الأهلية في عام ١٦٨٨ إلى قسمين : قسم يعضد الملكية وهم المحافظون ، وآخر يعارضها ولا يوافق على تولي شارل الثاني مقاليد الحكم وهم الهويج . وأصبح « عرفا » أن يختار الملك حكومته من الحزب الأقوى في البرلمان من بين هذين الحزبين اللذين أصبح من « المعتاد » وجودهما في البرلمان الإنجليزي .

ولكم شكري واحترامي .

بثينة عبد الحميد محمد

(*)
Burns, D.C. History of Political Ideals.
Davidon, W.L. Political Thought in England :Berthan to J. S. Mill.
Doyle, P. History of Political Thought.
Hobhouse, L.T. Liberalism.
Laski, H.J. The Rise of Europaen Liberalism.
Slesses, Sir H. History of the Liberal Party.

نداء النيـــــل

يا ابن البطولة من قديم زمانه
والبأس يوم البأس في أردانه
النيل نادى للنضـــال فلبّه
وأجب نداء ثار من وجدانه
وتجاوبت أصداؤه في يثرب
فالنيـــل غذّى يثرباً بلبانه
ما مصر إلا موئل لشعوبه
وكنانة — خلقت — لحفظ كيانه
أفلا يفدّيها ، ويحـــمي نيلها
ويجيب دعوتها بنو عدنانه ؟

• • •

مهلا ، فهذي بغـــداد ثائرة على
جند الدخيل ولم تُرَعْ لسنانه
واللاجئون بكل قطر أعلنوا
خوض الوغى ، والحدّ من طغيانه
ودمشق تغلي في مراجل غيظها
والأسد زأر في ربى شمسانه
واليمن أنذر بالوعيد ، وهزهزت
صنعاء سيفاً في يدي قحطانه

• • •

وعليك يا ابن النيل ترتكز القوى
فاصنع له صنع الحفيّ بشأنه
وحّد صفوفك كي تنال أمانيا
جاشت بصدر النيل في جريانه
وجرت بها النسمات تحملها إلى
خضر الضفاف بمصر أو سودانه
وحنا لهـــا الفلاح بين حقوله
وهفـــا لها الملاح في شـــطآنه
متحمّس على أخذ الأماني عنوة
تأتي التي منقـــادة لبنـــانه
فالنيـــل يأبى أن يذوق رحيقه
عاثٍ شكا الثقـــلان من عدوانه
والنيـــل يأبى أن يفيض نميره
عذباً ، وفي شطّيه رمز هوانه
يأبى على القرصان نسمة روضه
يأبى عليـــه الفيء بين جنانه
والحر شيمته الإباء ومن يكن
حرّاً يجد بالنفس عن أوطـــانه

• • •

عبّئ كتائبك الرهيبة إنها
لغة تهز الكون من أركانه
وبها تحدّث للدخيل وجنده
فالسيف للمظـــلوم بعض بيانه

• • •

لا تطلب الحق المبـــين بقولة
فالعصر ألغى الحقّ من ميزانه
والحق لا يعطاه غير مناضـــل
عشق النضـــال الحرّ طول زمانه

[القاهرة]   ابو الحسن

سراب ... !

ناجيت في الليل — لما طال — أشجاني
وبتّ والنجـــمُ أرعاه ويرعاني
ناجيت في الليل روحي أين مهبطها
بعد الشرود وفيها قبض أرســـان
وهـــل تعود بآمال فتســـعدني
أم قد تعود بأوهام وخـــذلان
عادت تلوم حظوظي غير راضـــية
حتى السراب تنـــادى رغم إمعان
فضاق صدري وعاد القلبُ حسرته
وغاب نجمي وليت النجم عزّاني
وجئت كأسي — على شوق يغالبني
ورب كأس مضى بالصفو روّاني
فقلت في لوعة المحزون والهفـــا
لا الكأس كأسي ولا الندمان ندماني

(كفر الشيخ)   دكتور . سالم محمد

الثقافة

العـــدد ٦٨٠
٧ من يناير ١٩٥٢

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

ذكرى الشهداء

« إلى أحرار مصر الذين استشهدوا فى معركة الحرية »

جددى يا « مصرُ » ذكرىٰ الشهداء ... واملئى التاريخ نوراً وسناء

وارفعى فى كل درب لهمو ... نصباً يوحى إلى الجيل البقاء

أنت لولا دمهمْ لم تسحبى ... فوق هام النجم ثوبَ الخيلاء

الضحيات التى قدمتِها ... فى نضال الحق عنوانُ السخاء

بالدم المسفوك خطت صفحة ... ملئت فخراً وعطراً وإباء

فتيـة قد نذروا أرواحهم ... ودماهمْ لك فى يوم « الجلاء »

صدق المجد لهمْ فاستبقوا ... يَردونَ المجد من حوض الفناء

وإذا الأحرار ما صدوا المدى ... مَنْ ترىٰ يرجع ذاك الاعتداء

(بغداد)

عبد القادر رشيد الناصرى

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٣٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٨٠ الاثنين ٩ من ربيع الثانى سنة ١٣٧١ — ٧ من يناير سنة ١٩٥٢ السنة الرابعة عشرة

في ضوء المصباح :

ابتسامة الساخر

للدكتور زكي نجيب محمود

كان يبتسم لي كلما رآني ، وكنت أحس القشعريرة كلما ابتسم ! فواعجبا لابتسامة مسمومة تشيع في النفس فزعاً ورعباً ! إن هنالك ابتسامة وابتسامة : هنالك ابتسامة الطفل التي لا تنطوي أبداً على خبث وسوء ، كلها براءة وسذاجة وطمأنينة ورضى ؛ وهنالك ابتسامة تنفرج عنها الشفاه « لتكشر » عن أنياب الشر والغدر ؛ تُرى هل كان ذلك ما قصد إليه « دانتي » حين وصف البسمات التي يلاقيها أصحاب النعيم في الجنة بأنها بسمات الرُّضَّع الأبرار ؟

أقول إن هناك ابتسامة « يكشر » فيها صاحبها عن أنياب الشر والغدر ؟ هل تعلم أن الضحك في حقيقة نشأته « تكشير » مكبوت محبوس ؟ إن الطبيعة لا تعرف الضحك والمزاح ، إنها طبيعة متجهمة عابسة ؛ إن السماء لا تضحك بالضحك وهي تزمجر بالرعود ؛ والحيوان إذا ما التقى في الغابة بحيوان ، فإما هو لا يأبه به إذا لم يكن به حاجة إليه ، وإما أن يكشر له عن أنيابه بالفراجة في عنقه ؛ فلما أراد الإنسان على تطور المدنية أن يخفي تكشيرة الحيوان ويحبسها في صدره ، نشأ الضحك ؛ ولا زال وجهه يتحرك في حالة الغضب أو الفزع بنفس العضلات التي يتحرك بها في حالة البهجة والمرح !

ابتسامة الضاحك وتكشيرة الغاضب — في الطبيعة — صنوان ؛ وهنالك الحالات التي يختلط عليك فيها الأمر ، فلا تدرى أيهش لك الضاحك حقاً بقلب خالص ، أم يعبس لك بابتسامته ويتجهم ، كما تحير أبو العلاء في هديل الحمامة أهو بكاء أم غناء ... إن الهجاء في الأدب عبوس في هيئة الضحك ، أو ضحك يعبر عن عبوس ؛ كان شاعر الهجاء عند العرب في حروبهم كحامل الرمح : هذا يقذف برمحه ، وذاك يرمي بضحكاته الساخرة ، وكلاهما يفتك بالعدو على حد سواء .

الضحكات الساخرة في الأدب قذائف من اللفظ تلقيها على العدو كما ترميه برصاص البنادق ، ذلك لأنك في كلتا الحالتين « مكشر » له عن أسنانك ، ولا فرق بين أن تكون ضاحكاً أو غاضباً ؛ إن ابتسامة الساخر لطمة على الوجه أو ضربة في الرأس ، لعلها أفعل من ضربات العصيّ ولطمات الأيدي .

ويغلب أن نلجأ إلى « قذائف » البسمات ، حين يكون « العدو » داخل حدودنا ومن عشيرتنا ؛ فعندئذ يحسن أن نهاجمه بالضحك منه ، ومتى يكون الرجل من أهل العشيرة عدواً ؟ يكون كذلك إن شذ عن المجموعة ونشز ، فعندئذ تأخذنا النقمة الممزوجة بالخوف من هذا الشذوذ الطارئ ؛ إننا لا نريد لحياتنا الآمنة أن تتغير ، ونبرز أنياب الأذى لكل من يحاول إخراجنا عن مجرى حياتنا المألوف .

ترانا نرسل الابتسامة الساخرة إلى كل « غريب » عن مألوفنا : نرسلها إلى من يتكلم بلهجة مختلفة عما ألفنا سماعه ، ومن يلبس ثياباً غريبة ، ومن يأكل بطريقة غريبة ، ومن يتخذ في سكناه مكاناً بعيداً عنا ، أو ينحو في تفكيره نحواً غريباً ؛ إن صاحب الفكرة الغريبة التي لم نألفها حقيق منا بالحجارة — بالقذائف الضاحكة — كمن يلبس على رأسه طربوشاً أخضر ، أو يتكلم في القاهرة بلهجة الريف ، أو يهجر المكان المعمور ليسكن في بيت في الخلاء بعيد عن مساكن الناس ... كل هؤلاء « غرباء » يحثوننا على الضحك — أو بعبارة أخرى يحملوننا على العبوس ، مادام الضحك والعبوس عند الطبيعة لغتين مترادفتين في الخوف والتخويف ! وإنه لمن عبقرية اللغة أن تضغط في لفظة « الغريب » معنيين يتلاقيان على اختلافهما الظاهر ؛ « فالغريب » الذي يجيء إلينا من خارج بلادنا ، هو في الحقيقة « كالغريب » الذي يشذ عن أوضاع بلادنا بالخروج عليها ؛ الأول « غريب » بمعنى أنه أجنبي دخيل يدعو إلى الحيطة والحذر ، والثاني « غريب » بمعنى أنه باعث على العجب ، لأنه منا وليس منا ؛ وكلا « الغريبين » يتطلبان أن نكون منهما على أهبة المطاردة بالعبوس الساخر أو بالعبوس المقنع بالضحك .

إننا بضحكات السخرية نُسَوِّي أرضنا حتى لا يكون فيها مرتفع ومنخفض ، وننسق نفاياتنا حتى لا يكون فيها نشاز ؛ فما زال « بالغريب » عنا غمزاً ولمزاً حتى يعتدل ويجرى معنا في فلك واحد ؛ وإنه ليُقلق الغريب أن يعلم أنه هدف لابتسامة الساخرين ؛ وكثيراً جداً ما يشذ الشاذ وهو لا يدرى ، حتى إذا ما لحظ الناس ينظرون إليه بابتسامة ساخرة ، أخذ يتحسس ملابسه ويتلفت حوله التماساً لما عساه أن يكون شاذاً فيه فيصلحه ؛ أما إن ابتسمنا للشاذ ، فظل على شذوذه وهو يعلم ، فما أسرع ما تنقلب له الابتسامة إلى « تكشيرة » حقيقية ، وما أيسر هذا التحول فينا ، لأن حركة الوجه التي ابتسمنا بها ، هي نفسها التي نكشر بها تكشيرة الغضب ... لكن أين هذا الذي يضحك الناس من شذوذه فيصمد لضحكاتهم ؟ إنه إذا استطاع فهو العظيم ، أو من فيه بوادر العظمة ، وهل رأيت في التاريخ كله عظيماً واحداً لم يكن موضع السخرية أول ظهوره ، ثم صمد للسخرية حتى اجتمع الساخرون أنفسهم تحت لوائه ؟!

وليست ضحكات السخرية دائماً موجهة نحو الجديد ، بل هي أحياناً تصب « غضبتها » على القديم إذا لم يعد هذا القديم مألوفاً مرغوباً فيه ، إننا نضحك من متعالم يستخدم لنا كلمات عربية قديمة يستخرجها من القواميس كما تستخرج الأجساد المحنطة من القبور ، ولن يصرفنا عن الضحك أن اللفظ المهجور القديم صحيح بحجة القاموس ؛ فلئن أفلح المتعالم مرة في حمل الناس على بعث لفظ قديم ، فقد أفلح الناس ألف مرة على رده إلى حظيرة الاستعمال المألوف ...

إن الابتسامة الساخرة ترتسم على الشفاه ، لهي مقياس أدق مقياس لما ينبو عنه ذوق الجماعة ؛ وأنت بعد ذلك حر في أن تصانع هذه الجماعة لتعيش بينها هادىء البال ، أو أن تخرج عليها متحدياً ، علماً بأن النقلة من الابتسامة إلى العبوس ، هو عند الناس أهون الهنات .

لست أدرى لماذا يستبد « دون كيشوت » بتفكيري إلى هذا الحد البعيد ؛ فكلما طافت برأسي فكرة ، ورد « دون كيشوت » على خاطري ؛ فقد أراد « سيرفانتيز » أن يقلع أهل عصره عما أغرقهم إلى آذانهم من حب الفروسية وتقدير لما كانوا يسمونه « شرف » الفرسان ؛ فماذا صنع ؟ خلق لهم بخياله « دون كيشوت » هذا ، يفعل نفس أفعالهم ؛ لكنه عرف كيف يجعله باعثاً على الضحك ؛ وما دمت قد أضحكت الناس من شيء ، فقد خطوت أوسع خطوة إلى محوه ؛ ومن هنا نفهم قول « بايرون » الشاعر الإنجليزي : لقد أزال سيرفانتيز الفروسية عن أرض أسبانيا بابتسامة .

ابتسامات السخرية وغمزاتها يحز بها الناس من أبناء الأمة الواحدة بعضهم بعضاً ، ليجتمع شملهم على سلوك واحد

وفكر واحد ؛ ولذلك كانت الضحكات إقليمية تقف موجاتها عند الحدود الجغرافية ، فما يضحك الناس هنا لا يضحك الناس في بلد مجاور ؛ ومن ثم كانت ترجمة النكتة من لغة إلى أخرى أمراً متعذراً أو مستحيلا ، فالنكتة محكوم عليها ألا تعبر حدود بلادها إلا في القليل النادر ؛ إنها لا تحمل جواز المرور ، ولا يسمح لها بتغيير الجنسية ، فما هو مصري — مثلا — يظل مصرياً ، ولا يرحل أبداً عن أرض الوطن ؛ لا بل قد تنحصر النكتة في جيل واحد من أهل البلد الواحد ، فنكتة أضحكت الناس منذ عشرين عاما أو ثلاثين قد لا تضحكنا اليوم ، لتغير الظروف .

وما كذلك البكاء ؛ فالبكاء قوة يتخطى بها الحواجز والسدود ؛ البكاء إنساني عام ، فما يبكي إنساناً في أقصى الأرض من طرف ، يبكي زميله الإنسان في أقصاها من الطرف الآخر ؛ وما قد أسال الدمع في عهد مينا وخوفو لا يزال حتى اليوم قادراً على إسالة الدموع ؛ إنه ليقال عن « ما كولي » — وفي القول مبالغة جميلة — إنه كان يقرأ الإلياذة يوماً وهو سائر في الطريق ، فما طالع موت هكتور سحت عبراته على وجهه ، فهل يمكن أن نسمع عن أديب آخر ، أخذ يقرأ ملهاة لأرستوفان وهو سائر في الطريق فإذا هو يضحك حتى يشق الضحك جنبيه ؟ !

* * *

وإذا كان من علائم الشخصية القوية أن تصمد للهجمات الضاحكة يشنها عليك أبناء الأمة جزاء خروجك على أوضاعهم ، فماذا أنت قائل في رجل يجعل نفسه هو الضاحك الساخر بأبناء بلده أجمعين ؟ .

فلعلك قد رأيت كيف يتفاوت الناس في روح الفكاهة ، فمنهم من إذا « ضحكت منه ومات في جلده » — كما يقولون — ومنهم من يرد الضحك بضحك أقوى ، وما يزال كذلك حتى يرتد سهم السخرية إلى نحر الساخر الأول . . . وهكذا يكون موقف الساخر العظيم من أمته : يشذ عن أوضاع الناس ، فيسخر منه الناس ، فيرد السخرية بسخرية أمضى ، حتى تنتهي المعركة ، فإذا هو واقف وحده في الميدان ، يضحك ويسخر ، وجموع الناس من حوله تضحك معه وتسخر ؛ وإنما يضحكون عندئذ ويسخرون من ذوات أنفسهم ! .

من أمثال هؤلاء الساخرين الأفذاذ فولتير ، وسويفت ، وديكنز ، وشو . . . ومنهم — وكدت أقول على رأس الساخرين جميعا في العالم طرا — أديب يابانى أمره في السخرية عجب ، هو « جبينشا إيكو » — هذا الذي أذاقه الفقر بين قومه ، فهزأ ساخراً بالفقر وبقومه معا ؛ لم يكن في بيته أثاث ، فعلق على جدرانه العارية صوراً للأثاث الذي كان يشتريه لو استطاع ! وفي أيام المواسم الدينية كان يضحي للآلهة بصور فيها رسوم القرابين التي كان يتقدم بها إلى هؤلاء الآلهة لو كان عنده المال ! .

لم يكن « إيكو » يصيب من كتبه مالا ، فكان رقيق الحال رث الثياب ؛ وحدث مرة أن جاءه الناشر يزوره في بيته ، وكان هذا الناشر يرتدي ثوبا جميلا فاخرا ، فما زال به الأديب الفكه حتى أغراه بالاستحمام — وكان اليوم عيدا — وما إن وقع الناشر في الفخ حتى لبس صاحبنا ثيابه تلك الجميلة الفاخرة ، وراح يزور بها كل من عرفهم من أهل وأصدقاء .

ولما كان « إيكو » في فراش موته ، التمس من تلاميذه أن يضعوا على جثته قبل إحراقه بضع لفائف أعطاهم إياها في وقار وجد ؛ وجاءه الموت ، وفرغ المصلون من تلاوة الدعوات ، وأشعل الحطب الذي أعد لإحراق جثته ، ووضعت اللفائف على جسده بين ألسنة النار ، وإذا بها تحتوي على صواريخ ، أخذت تطقطق في مرح ونشوة ، وراحت تنطلق في الهواء رسوما ملونة ؛ فلم يسع الحاضرين إلا الضحك ، بعد أن كانوا من رهبة الموت في حزن وخشوع ؛ كأنما أراد هذا الساخر العظيم أن يلطم الناس لطمة قوية تؤلب عليهم ضمائرهم ، التي أضحكته حيا ، وجاءت الآن تصطنع الهم والاهتمام أمام جثته !

ابتسامة السخرية أداة في يد الأديب القادر ، يصلح بها ما قد فسد عند الناس من طرائق العيش والتفكير ؛ ويكاد يستحيل ألا تسخر من جماعة إلا إذا كنت في أعماقك راضيا عن أساليبها ... ولك أن تسأل بعد ذلك : أين في أدبائنا الأديب الساخر ؟ .

زكي نجيب محمود

خــــواطر

– ٣٥ –

للدكتور أحمد أمين بك

من أعجب ما رأيت منظر بجوار بيتنا يشتمل على سيدة يُسر لها في رزقها ، فهي تدّخر مالا ، وتقتني عقارا ، وتخزن في بيتها من جميع أصناف المأكولات ، من ورز ، وقمح وفواكه ، وما شاء الله . ولكن معها في منظرتها عائلة فقيرة مكونة من أب وأم وأولاد ، يصنعون نوعا من الفطير ، تكلفهم الفطيرة منه أربعة مليمات ثم يبيعونها بخمسة ، فيكسبون مليما في كل فطيرة . وأغرب مايلفت النظر سرور هذه الأسرة وكثرة ضحكها ولعبها ، ولهوها وغنائها ، على حين أن المرأة الغنية صاحبة البيت عابسة دائما ، حاملة الهمّ دائما . لاتحمد الله على نعمة . ولا تسرّ لحادث مهما كان . أذلك لأن الطبيعة أرادت أن تعوّض من الأسرة الفقيرة فقرها فمنحتها المرح والسرور ، ولم تر مالكة البيت مستحقة لشيء من التعويض . أو أن النعم على الإنسان موزّعة توزيعا عادلا ، حتى إن مقدارا من الصحة ومقداراً كبيراً من المرح والسرور ، وفقراً مدقعا ، كلها تساوى غنىً كبيرا وصحة ضعيفة ، وحمَل هم في الحياة !.

لست أدرى .

أحمد أمين

إلى النيــــــل

تهيم على شطك الساحر
أساطيرُ من مجدنا الغابر
أساطير من ذكريات الجدو
د .. تهوّم في ترنمها العاطر
ترامت بأصدائها الحالما
ت لتخضلّ في قلبك العامر
وفي رجعها من غبار العصور
ملاحم من أمسك الباهر
أناشيد من مجدك الخالد
ت رددها في المعبد الطاهر
ومن صرخة في الوجوه الصبا
ح ومن عزمة القائد الظافر
بها من ثرى «طيبة» نفحة
ومن سجدة الكاهن الضامر
بها لحظة من أغاني الرجا
ل ترامت على زورق ماخر
يسيره فتية في الظلا
م .. فراعين .. كالأبد القاهر
يجوبون أمواهك الحالما
ت إلى شاطئ النوبة الساحر
إلى مربع كزرقاق السما
ء يتيه على نخله الشاعر
مواكب من ذكريات الجدو
د ... تصيح بإنذارها الثائر
تصيح وفي صرخات الكفا
ح نعود إلى أمسنا السادر
لنوقظ من عزمات البنا
م على راحة الزمن العابر

كمال نشأت

ألوان من التفكير

للأستاذ حسن جلال

صاحبي الذي عاد أخيراً من أمريكا رجل ساخط . فهو غير راض عن رجالنا الذين يملأون قوارع الطرق على مقاهيهم لا يبتغون وجهاً ... إلا وجه المرأة يتطلعون إليه في غدوها ورواحها . وهو غير راض عن نسائنا اللائي يصبحن فلا يكون لهن من عمل إلا أن يتبرجن ويستكملن زينتهن ثم يخرجن إلى الطرقات ويمشين في الأسواق لا للبيع ولا للشراء ، ولكن « للاستعراض » وبث الفتنة في تلك النفوس الخاوية الجالسة على الأفاريز ..

ولست أدري هل من الخير أن يعود أبناؤنا وإخواننا من الخارج بملء هذا السخط فيتبرّءون وينطوون على أنفسهم ويجلسون يجترون أحزانهم على هذه الطريقة ، أم أنه يكون من الخير لو أنهم عادوا فآثروا الانتشار وبث عدواهم في بيئتهم ليثيروا ما حولهم من العقول الغافلة وليرفعوا مجتمعهم إلى مستواهم الذي ألفوه وتعودوا أن يعيشوا فيه وهم في الخارج .

• • •

قلت يوماً لصاحبي هذا بعد أن قرأت صحف الصباح :

— أبشر ياصاحبي ! فلقد حدث اليوم في كفر الدوار حادث تاريخي عظيم .

قال : وما هو ؟

قلت : لقد كان التلاميذ يختلطون بالتلميذات في مدرستها الابتدائية الأميرية ، فلما أتموا دراستهم الابتدائية تقدمت زميلة معهم إلى المدرسة الثانوية ، وكان محرماً قبول الفتيات في المدارس الثانوية المخصصة للبنين ، ولكن نظراً لعدم وجود مدرسة ثانوية هناك للبنات فقد سمح وزير المعارف الحالي لهذه الفتاة أن تتم دراستها مع زملائها الذين كانوا معها في المدرسة الابتدائية ...

قال : هذا حادث له ما وراءه ! وأؤكد لك أن مصر صعدت بهذا العمل الذي يبدو صغيراً درجة عالية في سلم رقيها ، وخطت خطوة حاسمة في سبيل التقدم الصحيح !

إن معظم رجالنا في هذه البلاد بحكم ظروفنا الاجتماعية الراهنة طائفة من الآدميين ، لا يفكرون إلا على أساس أنهم « ذكور » — كما أن معظم النساء يغفلن عن إنسانيتهن الواسعة ويعشن في دائرة ضيقة ، تستبد بعقولهن في نطاقها فكرة أنهن « إناث » — والذكورة والأنوثة خلتان مقبولتان في قطعان السائمة التي لا تزال تهيم في بعض براري أمريكا . أما في الأوساط الآدمية فيجب أن ترتفع البشرية من هذا المستوى الفطري المنخفض وتسمو قليلا إلى مرتبة الإنسان ... الإنسان كما يليق به أن يعيش وسط هذه الكائنات الأخرى التي تحيط به ... الإنسان صاحب العقل والذكاء والمواهب الفنية الأخرى التي ترتفع به إلى مستواه الخاص الذي من أجله يعتبر سيد هذا الكوكب الذي يحيا فوقه !

ثم استطرد صاحبي يقول :

— لقد أدهشني ظاهرة غريبة شاهدتها عقب عودتي إلى أرض الوطن ، ذلك أني رأيت الناس هنا يعمدون إلى مشاكلهم فيتناقشون فيها ويكون كل جهادهم في سبيل حلها هو ... هذا النقاش ! مع أن الطريقة المتبعة في كل البلاد المتحضرة هي ... « العمل » ... ومواجهة المشاكل باستنباط الحلول العملية للتخلص منها .

• • •

قلت له :

هذا كلام جميل أحب أن أوافقك عليه . إني شخصياً أرى أن مشكلة الرجل والمرأة في مصر ليست من المشاكل الأفلاطونية التي تحل بالجدل ، ولكنها من المشاكل الواقعية التي تحل بالعمل . فلندع الجنسين يلتقيان معاً في كل ميادين الحياة ، وليجتمع « سالبهما » ، « بموجبهما » لتكوين تيار الحياة الدافق السليم . ولنعطهم فرصاً متكافئة ، ثم لندع كل واحد منهما يتبوأ المركز الذي يؤهله له عمله . أما أن نتحكم

بالمجادلات العقيمة في مصير أحد الجنسين فهذا عمل لا يتسم بالعدل ولا نزاهة القصد .

قال :

إني لا أحب أن أغالي فأقول مع غلاة القوالين إن « الرجل » قد فشل في تعمير هذا الكون بسبب عناده وعدم مرونته وتورطه في هذه الحروب الطاحنة التي توشك أن تقوض بنيان الحضارة وأن تصل بالعالم إلى نهايته . ولا أريد أن أقول إن « المرأة » أقدر من الرجل كما يقول بعض الناس لأنها بطبيعتها لا تميل إلى الهدم . ولا تتهافت تهافت الرجل على الموت في سبيل تلك الخرافات التي يسمونها « المجد » أو « الفخار » . وذلك لأنها تحسن تذوق الحياة وتحرص على المحافظة عليها حرصاً غريزياً يظهر جلياً في عنايتها بأشبالها وحبها للادخار .

ولكني أقول إن الخرافة القائلة بأن المرأة لم تخلق إلا للبيت هي إحدى الحيل التي ابتكرها الرجال للسيطرة على الحياة العامة ، لأنهم قد استطاعوا بها إبعاد المرأة عن هذا الميدان ومشا كله طوال القرون الماضية ، فكانت النتيجة أن حركة تقدم العالم كله شلت بمقدار تخلف المرأة عن الظهور في ميدان الحياة العامة — والبلاد التي لازالت تحتفظ بهذا الرأي وتتبع نحو المرأة تلك الخطة العتيقة هي وحدها التي تخلفت عن الركب .

وإني لأذكر أني قرأت أخيرا كلمة في هذا الموضوع لكاتب اجتماعي يستحق كل تقدير ، لأنه أراد أن يعرض لهذه المسألة فلم يعالجها على الطريقة المألوفة — طريقة الكلام الضخم الأجوف — بل تناول المشكلة بطريقة عملية عرض فيها مثلين من واقع الحياة ، فبين كيف تعيش « المرأة الأنثى » وكيف تعيش « المرأة الإنسان » . . .

إني قد لا تحضرني كلماته نصها ، ولكن القصة التي ساقها مازالت عالقة بذاكرتي . قال :

« كنت منذ سنوات أصطاف في الإسكندرية ، وكنا نقعد رجالا ونساء في اجتماعات عائلية على الشاطئ لتجاذب الحديث . وما كان أسخف ما تتحدث عنه النساء . . . عن شئون الخدم وخياناتهم وتمردهم والتماس طرق إذلالهم . . . وزواج هذه الآنسة أو تلك الأرملة وحفلة زفافها وقائمة الطعام المقدم فيها . . . وهذا الخطيب الثري المنتظر لتلك الفتاة وخاتم الخطبة وثمنه وقيمة المهر المدفوع . . . والسكنى في الزمالك . . . والسيارة التي اشتراها فلان . . . وهذه الخياطة البارعة وما تتقاضاه من أجور خيالية وذلك القماش الحديث . . . الخ . . الخ . . . أحاديث تافهة من شخصيات تافهة . واهتمامات زائفة نشأت من حبسة البيت وحبسة النفس ، فلم يكن بين هؤلاء النسوة من كانت تهتم بمسألة عقلية أو بموضوع اجتماعي مما تثيره المطالعة أو ممارسة الحياة العامة . وكان أبعد شيء عن دائرة اهتمامهم التحدث عن شيء من مسرحيات برناردشو مثلا ، أو التعرض للمخترعات الطبية الحديثة ، أو النظريات الجديدة في دراسة نفسية الطفل والتعرف على اتجاهاته السلوكية ، أو التعليق على نهضة المرأة في الهند ومصر ، أو المقارنة بين الأديان في رسم الطريق إلى السعادة ، أو البحث في برامج المدارس وتأثيرها في تكوين الشباب ، أو ما إلى هذه الموضوعات وأشباهها . كأنهن لا يطلعن حتى على الصحف اليومية فضلا عن كتب الأدباء وكبار المفكرين المعاصرين أو الغابرين .

ولكن انضمت في الفترة الأخيرة إلى جماعتنا فتاتان لم تتزوجا وإنما احترفتا التمريض في أحد مستشفيات القاهرة . وكنت عندما أجلس إليهما وأحدثهما أحس أني إزاء شخصيتين عالميتين ، فقد اكتسبت كل منهما نظرة عالمية أوسع من نطاق الخدم والمنزل والمطبخ وأحمر الشفاه والفستان الجديد ... واستمعت إلى حديث إحداهما عن المرضى والأمراض وعن اختلاف الناس في استقبال الموت أو الحكم بالموت عندما يعرف المريض مثلا أن سرطانا قد نبت وتفرع في جوفه . . . وقد وصفت لي إحداهما كيف رأت رجلا قبيل النزع وكيف خففت عنه . . .

وكنا نقيم في سيدي بشر وهي تبعد عن الإسكندرية بنحو عشرة كيلومترات ، فاقترحتا أن تنهض ذات صباح ونسير بحذاء الشاطئ إلى الإسكندرية ، وكنت أحس وأنا أتحدث إلى كل منهما أني إزاء إنسان قد استحال إلى شخصية ناضجة تمتاز بجمال وكرامة وذكاء . . . وذلك لأن اختلاطهما بالمجتمع وخدمتهما له قد زادا ذكاءهما وكونا شخصيتهما . ولو أن كلا منهما قد نشأت النشأة المألوفة عند غيرهن اللاتي

يمشين في المنزل . . . وينتظرن الزوج . . . ثم يتزوجين فيلزمن المنزل أيضاً ويقصرن اهتمامهن على اللباس والخدم وقصص الزواج والثراء . ما كانت لها هذه الشخصية — والذكاء ينهض على أساس طبيعي ويربى بالمجتمع . ونحن الرجال بما نمارس من اختبارات وبما نكابد من كسب أو خسارة ونصادف من أخطار ، بل بما نرتكب من أخطاء ، نتعلم ونسمو ونزيد حكمة . والمرأة كذلك لن تكون إنساناً حكيماً كاملاً إلا إذا مارست جميع الأعمال التي يعملها الرجال واقتحمت ميادينه وتعرضت للأخطار .

وهذه الصورة الجديدة للمرأة قد لا تعجب بعض الرجال الذين يؤثرون جهل المرأة على معرفتها وقصورها على نضجها ، وهم يحسون سيطرة ويمارسون تسلطاً عليها في هذه الحالة ، ويشتهون هـذه الرتبة أو الميزة العالية لهم عليها . ولكن المرأة الرشيدة يجب أن تنتبه وترفض أن تكون لعبة الرجل ، ونحن الرجال نعرف أن المدرسة والجامعة لا تربياننا ، وإنما الذي ربينا هو هذا المجتمع الذي نختلط به ونصطدم بمشكلاته ، ونحن لا نستقطر الحكمة وننضج النضج القلق إلا بعد أن نخطئ ، ونصيب ونخسر ونكسب وننجح ونفشل ، ونتذاق سامة الهوى ثم نفيق منها سنين ، لأننا عرفنا الحقائق الخيرة ومارسنا هذه الدنيا في حرية واستقلال بلا خوف من سلطة أو من تقاليد .

وهـذه الحكمة التي نالها نحن الرجال من اختباراتنا لهذه الدنيا يجب أن تنالها المرأة بمثل الوسائل التي نتوسل نحن بها . . . أي بالعمل والإنتاج والاختلاط والاستقلال والاختبار .

● ● ●

وكان لنا صاحب آخر حضر هذا الحديث من أوله . فلما انتهينا من حديثنا إلى هذه النتيجة قال :

— هذا هو صدى ما في نفسي ونفس كل غيور على مستقبل هذا الوطن — ولقد أطلق وزير المعارف الحالي طلقته الأولى التي وقعت قذيفتها في (كفر الدوار) ، وأظن أن الزحف الشامل سوف لا يتأخر كثيراً ولن يردنا عن جهتنا الجـديدة شيء بإذن الله ، حتى ولو عاد إلى التحكم في شئون المدارس « وزير التقاليد » القديم أو زميله ذلك الآخر الذي كان شرأ منه يوم فكر في تحريم العلم على الطالبات ، وهداه تفكيره التوراتي إلى استدعاء من كانت منهن تتلقى علومها في الخارج ، فعاد بالبلاد في قفزة واحـدة إلى عهد الجاهلية الأولى حين كانوا يئدون البنات . . . خشية العار !

● ● ●

قلت : ياصاحبي سوف أنشر حديثكما إلى جانب ما نشرت من أحاديث أخرى في هذا الموضوع لتكون القضية بين يدي القراء بكل « أوراقها » و « مستنداتها » فإنها قضيتهم ولهم أن يحكموا فيها بما يشاءون .

عيسى عبود

ألِلتاريخ قاعدة يتبعها ؟

أم يسير على غير هدى !

كانت مهمة المؤرخين تنحصر في التثبت على قدر الإمكان من صحة الوقائع التاريخية واستخلاص صحيحها ، ثم تسجيل كل واقعة منها منفصلة عن الأخرى ، وبحث أسبابها ونتائجها على حدة ، والاجتهاد في استنباط الحقائق من طريق الملاءمة والتوفيق بين متناقضاتها . ولكنهم أبوا منذ القرن الماضي أن يقفوا من التاريخ عند هذا الحد ، فقد فطنوا إلى أنه سجل لخطوات الإنسانية ، وأن تتبع تلك الخطوات على مر العصور يتيح الوقوف على اتجاه الركب الإنساني ، فيعين على فهم الحاضر ، وكشف ما في جعبة المستقبل القريب ، وحينذاك يخرج التاريخ عن نطاق السرد القصصي ، ويأخذ مكانه الرئيسي بين العلوم التي تحاول أن تكشف كنه الحياة ؛ ولذلك راح المؤرخون ينقبون من وراء الأحداث التاريخية عن القاعدة التي يتبعها التاريخ في خطاه ، أو الهدف الذي يستهدفه الناس في الحياة ، أو عن محور تدور حوله جهود الإنسانية ، أو دافع عام يدفعها إلى الأمام رغم ما يبدو من اختلاف خطواتها ، وتباين اتجاهاتها .

ولم يكن تحقيق هذه الغاية سهل المنال ، فإننا لا نعرف عن التاريخ إلا ما سجله المؤرخون من وقائعه . وهم لم يسجلوا إلا النزر اليسير الذي ما زال مشكوكا في صحته . وهذا النزر اليسير كفيل وحده بتشتيت ذهن الباحث الذي يحاول أن يستكشف صلة تصل بعض وقائع التاريخ ببعض . فهذه الوقائع تبدو مكدسة متناثرة متدابرة متناقضة إلى الحد الذي يتعذر معه لم شعثها ؛ أو الاهتداء إلى رابطة تربط ما بين بعضها وبعض ، أو إلى وحدة شائعة بينها جميعاً . فهي في الظاهر لا تسلك سبيلا واضحاً مستقيما لا تحيد عنه ، ولكن المصادفات لا تفتأ تحملها على تغيير اتجاهها . وهي في الظاهر كذلك تخضع للقادة والزعماء الذين لا يزالون يرغمونها على سلوك السبيل التي يختارونها لها وفق مشيئتهم المتقلبة الجامحة التي لا تستقر على حال .

اتجه المشتغلون بهذا البحث أول الأمر إلى الجهات الرسمية ، وراحوا ينقبون في سجلات الحوادث الفردية لعلهم يقفون على أثر خطواتها في طريق مراجعة إحصاءاتها . وقد لفتت نظرهم هناك ظاهرة أملوا أن يهتدوا على ضوئها إلى ما يصبون إليه ، وهي أن مجموع كل نوع من أنواع الحوادث التي تقع في بلادهم يبلغ أرقاماً متقاربة في نهاية كل عام . فمن أمثلة ذلك أن عدد الذين يصابون بالجنون كل عام لا يكاد يزيد أو ينقص عن عدد الذين أصيبوا بذلك الداء في الأعوام السابقة . وتجري الحال على هذه الوتيرة فيما يقع من جنح وجنايات ، ومن مصادمات السيارات وما يترتب عليها من إصابات ، ومن سفر السائحين إلى خارج بلادهم ، ومن أمثال هذه الحوادث التي تتعذر الإحاطة بها . فهذه الأحداث لا يزيد عددها ولا ينقص عاماً بعد عام على الرغم من أن كلا منها لا يقع إلا بناء على مصادفات طارئة أو على ظروف وملابسات خاصة كان يمكن أن تتهيأ أو لا تتهيأ . أي أن هذه الأحداث ، وهي وليدة المصادفات الطائشة ، أو الظروف التي لا ضابط لها ، تلتزم في دائرة الإحصاء حدوداً لا تتعداها .

ولكن دوران الحوادث في فلك منظوم ، على حد تعبير أولئك الباحثين ، لم يهد الحيارى إلى أي معلم في طريقهم الوعر . فلقد كان مثل السراب الذي يحسبه الضالون ماء وهو هباء . . . وحين اتضح لهم عبث محاولة الوصول إلى سر التاريخ من طريق إحصاء الحوادث غير محصورة النوع والعدد ، تركوا دراسة الوقائع في ذاتها ، وطفقوا يدرسون الأسباب أو الدوافع التي تدفع الناس إلى ارتكابها ، وخيل إليهم أن الإحاطة بتلك الدوافع يكشف الستر عن السر المنشود .

واختلفت الآراء الناجمة عن هذا الاتجاه الجديد ، فقال فريق من الباحثين : إن الموقع الجغرافي لدولة من الدول يهيمن على مصير شعبها . فخيرات الأرض ومناخها ، بل ومناظرها الطبيعية هي التي تقسم الشعوب إلى أجناس ، وهي التي تغرس في النفوس خصائص كل جنس منها ومميزاته

وهى التى توجه الاقتصاد وتؤثر فيه . وهى التى تحدد فى النهاية الطريق التى يسلكها كل شعب .. وقال فريق آخر : بل إن النظام الاقتصادى المطبق فى كل أمة من الأمم هو الذى يرسم لها طريقها ... وقال فريق ثالث : إن تاريخ الإنسانية سلسلة متسقة من الجهود فى سبيل الوصول إلى الحرية ... وقال آخرون : بل إنه سلسلة متسقة من جهود الفكر البشرى الاستضاءة بضوء المعرفة الحقة .

ولم يثبت مذهب من تلك المذاهب للنقد . فالقول بأن الموقع الجغرافى لأى شعب يطبعه بطابعه ، يستلزم بقاء الشعوب على حال واحدة دون تطور أو تغير ، إلا إذا طرأ على طبيعة بلادها أو مناخها تطور وتغير . فى حين أن الواقع يناقض ذلك . فكم من أمة حدثنا التاريخ عن سبقها على غيرها من الأمم فى ميدان الحضارة ، بل إن آثارها تشهد اليوم بميزات انفرد بها شعبها فى عصر من العصور دون سائر الشعوب . وما هو إلا أن دار الزمن دورته حتى تبدلت تلك الصفات . وتغير ترتيب تلك الأمة فى المباراة الحضارية الجارية بين الأمم . فى حين أن موقعها الجغرافى ومناظر أراضيها ومناخها وطبيعتها باقية على عهدها القديم . وكم من أمة قيل إن طبيعة أرضها تفرض عليها أن تبقى أمة زراعية ، أو إن مواردها الطبيعية تضطرها إلى الاقتصار على إنتاج نوع معين من المصنوعات . ولكننا نراها فى العصر الحاضر الذى تطورت فيه وسائل النقل تحطم النظريات القديمة البالية ، وتذلل كل عقبة طبيعية تحول دون ازدهار الصناعة فيها إلى جانب الزراعة ، وتكاد تسبق فى الميدان الصناعى الأمم التى برزت فيه منذ زمن طويل .

إن محاولة ربط التقدم الحضارى بموقع الأمم المتحضرة الجغرافى محاولة سياسية تمليها رغبة الدول الغربية فى الاطمئنان إلى أن تفوقها الحالى يرجع إلى أسباب طبيعية لا تتغير . وعلى ذلك يبقى لها السبق فى مضمار الحضارة إلى أبد الآبدين . إن أصحاب هذا المذهب يحاولون أن يقووا به معنويتهم ومعنوية شعوبهم ، وأن يتخذوا منه سياجاً لصيانة حضارتهم ومعول هدم لمعنوية الشعوب الشرقية المتوثبة إلى الرقى المادى . فهو أشبه بالدعوى الإغريقية القديمة التى كانت تنسب تفوق الإغريق فى عصرهم الذهبى على أمم الشرق والغرب إلى موقع بلادهم الجغرافى أو إلى مناخ بلادهم . فأمم الشرق الصفت ، فى زعم أصحاب تلك الدعوى ، بالتأمل والتفكير ، لأن مناخ بلادها يقعد بها عن النشاط والحركة ، ويغريها بالكسل والقعود ، فتتسع لها أوقات الفراغ ، ويتاح لها المجال لإعمال الفكر . وأهل الغرب مضطرون إلى العمل المتواصل لدفع غوائل الطبيعة المتربصة بهم ، ومناخ بلادهم يجبرهم على ذلك ، فلا تلبث تلك الظروف أن تطبعهم بطابع الجد والاجتهاد ، ولكنها تحرمهم ميزة التفكير . أما شعب الإغريق القابع بين الشرق والغرب فيستمتع بمناخ معتدل يعينه على كل من العمل والتفكير على السواء ، وعلى ذلك يحتفظ له بقصب السبق فى ميدان الرقى على غيره من الشعوب !! . وقد قال التاريخ قوله فى تلك الدعوى

أما مذهب «تفسير التاريخ الاقتصادى» ، فأبعد عن الصواب من المذهب الجغرافى ، لأن إرجاع كل ما يقع من أحداث فى دولة من الدول إلى الاقتصاد ، أو إلى النظام الاقتصادى السائد فيها ، يؤدى إلى تجانس الدول التى تطبق نظاماً اقتصادياً واحداً ! .. وهذا لا يحدث فى عالم الواقع . ثم إن تحليل هذا المذهب الذى ينكر أثر إرادة الأفراد فى تسيير دفة الأمور ، ينتهى إلى عكس ما يقول أصحاب هذا المذهب ، أى أنه ينتهى إلى التسليم بالمذهب الفردى فى تفسير التاريخ . وبيان ذلك أن الحاكم المستبد الذى يقتبس لبلده نظاماً اقتصادياً ، ويطبقه عنوة واقتداراً ، يقود البلد وفق مشيئته بواسطة النظام الاقتصادى الذى اختاره له . أى أن ذوى السلطان يستطيعون أن يهيمنوا على مصاير الشعوب من طريق فرض النظام الاقتصادى الذى يضعونه لها ، فتصبح إرادتهم الشخصية هى الدافع الذى يدفع التاريخ إلى الأمام . وهذا غير صحيح لأن الواقع ينقضه .

أما القول بأن الذى يدفع الإنسانية إلى الأمام ويرسم لها طريقها هو رغبتها فى تحقيق حريتها ، أو فى الوصول إلى أوج المعرفة ، فمردود بأن سيادة الحرية هى الحالة الطبيعية ، وليست غاية فى ذاتها ، فالشعوب المستعبدة تحاول استرداد حريتها لتحقق بذلك غايات وأهدافاً .. أما الرغبة فى الوصول إلى أوج المعرفة فلم يشعر بها إلا فريق من الناس ، وهى ليست غاية فى ذاتها ، فطلب المعرفة يستهدف غايات أخرى ، ويحقق نتائج لم تخطر ببال أصحابها .

والخطأ الشائع في هذه النظريات جميعاً أن أصحاب كل نظرية منها يقررون أن هناك دافعاً معيناً يدفع الإنسانية إلى الأمام في جميع مراحل التاريخ، ويرمي إلى تحقيق غاية نهائية، في حين أنه لا يوجد في عالم الواقع شيء من هذا! ولم يتضح ذلك الخطأ إلا حين طلع هيجل على العالم بنظريته الجدلية المشهورة؛ فقد كشف الطريقة التي يتم التطور بمقتضاها. وعلى الرغم من أن هذا الفيلسوف كان أول القائلين بأن غاية الوجود هي الحرية، وقد أسس مذهبه الجدلي ليبرهن به على صحة هذا الرأي، فإن الفلسفة رفضت التسليم برأيه في الحرية واعتبارها غاية الوجود، ولكنها علقت بمذهبه الجدلي الديالكتيكي، ووجدت فيه الحل الذي نشده الراغبون في تفسير التاريخ تفسيراً علمياً.

وقد سبق لنا أن فسرنا مذهب هيجل المذكور. ويكفينا أن نقول هنا عنه إنه يقرر أن كل ما في الوجود من ماديات ومعنويات يتطور، لأنه يشتمل على نقيضين، أحدهما الظاهر والثاني الخفي الكامن فيه. ويظل النقيض الخفي يستهلك الظاهر ويحل محله بالتدريج، وإذا هو ينطوي كذلك على نقيض خفي يقوم بالعملية نفسها .... والتسليم بهذه النظرية يقضي على جميع المذاهب التي تقرر وجود دوافع خارجة عن نطاق الحوادث تمسكها بزمامها وتدفعها إلى الأمام.

وقد وجد الباحثون في التاريخ على ضوء تلك النظرية أن هناك أربع مراحل تمر بها الإنسانية في تطورها: الأولى وهي مرحلة العصر القديم تتألف الجماعات من قبائل رحل تعيش على الصيد والقنص، ويتمتع أفرادها بالحرية والمساواة، ولا يعرفون نظام الملكية الفردية أو الزواج أو التدين، ولا يخضعون لقوانين موضوعة، اللهم إلا ما قضى به العرف والتقاليد. وحين تستقر القبائل، وتفطن إلى الزراعة، تنتهي المرحلة البدائية، وتبدأ المرحلة التي تنشأ فيها القرى وتتقدم الزراعة، وتنتعش الحالة المادية، فتتطلب الظروف الجديدة تنظيم الإدارة تنظيماً يلائمها، وسن قوانين تساعد على دوام ازدهارها. ويقتسم الأفراد الأرض ويمتلكونها. ثم يعجز الضعفاء عن الحصول على الغلة التي تكفيهم فيستدينون، فإذا عجزوا عن تسديد ديونهم استعبدهم الدائنون ... وهكذا يظهر الرق، وتتعدد أنواعه، وتتسع تجارته. ويظل حاله يستفحل حتى تنقسم الأمم إلى سادة وعبيد.

ثم تبدأ المرحلة الثالثة التي ينقسم فيها الناس إلى سادة أشراف وعامة. وتأخذ الصناعة والتجارة إذ ذاك في الازدهار. ويكثر عدد الطائفة الجديدة المكونة من الصناع والتجار، ويظل نفوذها يقوى ويشتد حتى يصل إلى الحد الذي يمكنها من القضاء على دولة الأشراف وحلولها محلها . . . وأخيراً تستيقظ الشعوب وتطالب بالإشراف على وسائل الإنتاج ثم امتلاكها.

وحين وقف أهل الفكر على تلك المراحل التي تمر بها الأمم إلا إذا اجتاحتها جائحة خارجية تعرقل تطورها، أدركوا أنهم قطعوا المراحل الرئيسية التي تمر بها الإنسانية على تعاقب الأيام. ومن ثم أخذوا يدرسون أسباب الانتقال من مرحلة إلى أخرى، وطبقوا جدلية هيجل في بحوثهم، فوصلوا إلى نتائج باهرة ألقت أقوى ضوء على مواضع السر من التاريخ.

أما كيف كان هذا التطبيق، وما هي تلك النتائج، فموعد ذكرها مقال تال.

محمد عطية الابراشي

روح النقـــــد

عند بعض المؤرخين المسلمين

— ٢ —

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

بحثنا عند صاحب « الفخرى » مبلغ الخلتين اللتين ألزم بهما نفسه فى مقـدمة كتابه ، وهما التجرد من الرأى والهوى ، والوضوح فى التعبير ، وضربنا المثل على تحريه الحق ورجوعه إليه بحكايته مع الشيخ جمال الدين الدستجردانى ، كما ضربنا المثل على روحه النصفة بموقفه من الخليفة العباسى هارون الرشيد حين لامه على موقفه من العلويين وغدره بهم ، وحين أنصفه — فى الوقت نفسه — بوصفه بالفضل وصحة الذوق والتمييز والهيبة عند الخاص والعام

ولا يقف ابن الطقطقى من رواية الحوادث التاريخية موقف المسجل لها ، المتفرج عليها ، الصامت أمامها . . . ولكنه يتكلم معقباً على الحادثة بما يراه ، ومعلقاً عليها بما يرد من قواعد الخلق . أو سياسة الحكم وغيرها . فقد أورد فى مقدمته ما روى من أن عضد الدولة بن بويه شغفته امرأة من جواريه حباً ، وبلغ به الشغف حداً ألهاه عن تدبير مملكته . فنصحه وزيره مبيناً له طروء النقص على الدولة بسبب اشتغاله عن إصلاحها بهذه الجارية . والصواب فى تركها والالتفات إلى إصلاح ما فسد من شئون الدولة

وبعد أيام جلس عضد الدولة على مشرف من الأرض على نهر دجلة ومعه الجارية ، ثم شاغلها ساعة حتى غفلت عن نفسها . . . ثم دفعها إلى مياه النهر الذى غيبها . . . وبذلك تخلص منها ، وخلص عقله وقلبه لأمور مملكته . . . فاستعظم الناس هذا الفعل من عضد الدولة ، ونسبوه فيه إلى قوة النفس . . . حين قويت نفسه على قتل محبوبه .

هذا هو الخبر الذى ساقه مؤرخنا ابن الطقطقى فى معرض ما يكره الملوك من المبالغة فى الميل إلى النساء . . . ولكنه علق على فعلة عضد الدولة مع الجارية التى أحبها قائلا : (وأنا أستدل بهذا الفعل على ضعف نفس عضد الدولة لا على قوتها ، فإنه لو لم يحس من نفسه بالانفعال العظيم لحبها لما توصل إلى عدمها . . . ولو تركها حية ثم أعرض عنها لكان ذلك هو الدليل على قوة نفسه) .

أليست هذه الروح الناقدة القوية تستند إلى قوة المنطق وصحة الحكم ، والصراحة فى إبداء الرأى بعد عرضه على محك العقل ؟ ولا يقال إن بعد الزمن بين عضد الدولة بن بويه سنة ٣٧٠ هـ ، وبين عصر المؤلف سنة ٧٠٠ هـ هو الذى حمله على هذه الصراحة ، فإن هذه الروح عند مؤرخنا لا تتقيد بزمن ولا تتأثر بشخص . ألم يجرد نفسه من حكم الرغب والخشية حتى يكون نزيهاً فى أحكامه ؟ ومن جرد نفسه من نوازع الخشية ومجاملات البيئة لا يبالى فى النقد بعصر دون عصر .

ودليلنا على تجرد مؤرخنا من التعصب أو التأثر فى الحكم بالعوامل الخاصة أنه لم يتعرض بكلمة جارحة للوزير علاء الدين عطاء ملك الجوينى وزير « أباقا » ابن هولاكو المغولى ، على الرغم من أن هـذا الوزير كان خصماً لأبيه تاج الدين ، حتى بلغت الخصومة حداً اتهم فيه الوزير بالتحريض على قتل والد مؤرخنا سنة ٦٨٠ هـ .

ولقد كان هذا الوزير حاكماً لبغداد فى أوائل العصر المغولى عقب استيلاء هولاكو عليها ، فأعاد إليها الهدوء والازدهار بعد حلول النكبة بها سنة ٦٥٦ هـ . وقد أنفق مائة ألف دينار فى حفر قناة تخرج من الفرات إلى الكوفة والنجف ، ليفتح بذلك أسواقاً جديدة للتجارة . وقام بهذا العمل تاج الدين والد مؤرخنا ؛ ولكن دب بينهما من الخلاف ما حمل تاج الدين على السعى عنـد « أباقا » لإقالة

الوزير الجويني . فعمل هذا الوزير على قتل تاج الدين . ولكنه — تغطية لموقفه — أمر بقتل القتلة ، إلا أنه صادر أموال والد مؤرخنا ! وقد ذكر المستشرق المشهور بارتلد Barthald أن صاحب كتاب الفخري مدح علاء الدين مع أنه كان خصماً لوالده ولم أقع على هذا المدح ، إلا أنه في صفحة ٢١ من الفخري (طبعة دار المعارف بمصر) يذكر واقعة حال لعز الدين بن جعفر مع الوزير الصاحب علاء الدين الجويني ، فقد ادعى النيسابوري — مع عدم علمه بالعلم والأدب والشعر — أنه نظم بيتين في مدح علاء الدين ، وخفي الأمر على هذا الوزير فصدق أن البيتين للنيسابوري مع أنه يعرف جهله بهذه الأمور . ويقول مؤرخنا بنص عبارته : (وما أدرى من أيهما أعجب ؟ أمن الصاحب كيف خفي عنه حال عبد العزيز « النيسابوري » مع أنه السنين الطويلة يعاشره في سفر وحضر ، وجد وهزل ؟ أم من عبد العزيز كيف رضي لنفسه مثل هذه الرذيلة وأقدم على مثل هذا مع الصاحب ، وما خاف من تنبه الصاحب واسترذاله لفعله) . والرذيلة التي ارتكبها عبد العزيز النيسابوري أنه أخذ بيتين من شعر شاعر آخر ونسبهما لنفسه لينشدهما في مدح الوزير الصاحب .

ويرجع مؤرخنا إلى المؤرخين ليروي عنهم ، وقد رجع إلى الوزير الصاحب علاء الدين خصم أبيه الممدود فيما رواه من (أن حلقة جنكيز خان للصيد كان أمدها مسير ثلاثة شهور) . وعلق على هذا الخبر بقوله : (وما أرى هذا إلا مستبعداً) .

ولا بأس هنا أن نذكر أن الصاحب علاء الدين اشتهر فوق الوزارة بالتاريخ ! وله كتاب « تاريخ جهان كشاي » الذي يعد مرجعاً هاماً للعصر المغولي . وقد قام ميرزا محمد قزويني بنشر هذا الكتاب الثمين والتعليق عليه في مجموعة « جب » التذكارية . وهو مكتوب بالفارسية التي كانت لغة علاء الدين . ويقول عنه بارتولد : (ولعل مؤلف هذا الكتاب — يعني جهان كشاي — هو المؤرخ الفارسي الوحيد الذي شد الرحال إلى منغوليا ووصف بلاد شرق آسية) .

ونلاحظ كثرة تعليق ابن الطقطقي على الأحداث والآراء ومناقشته لها في حرية واتزان . فهو لا يقدس الخبر أو الرأي لذاته ، ولكنه رجل عملي واقعي ، يعرض الرأي على الواقع فيجد فيه أحسن مختبر . ولما بلغ تقسيمهم السياسات إلى خمسة أنواع : (سياسة المنزل ، والقرية ، والمدينة ، والجيش والملك ، فمن حسنت سياسته في منزله ، حسنت سياسته في قريته ، ومن حسنت سياسته في قريته حسنت سياسته في مدينته ، ومن حسنت سياسته في مدينته حسنت سياسته الجيش ، ومن حسنت سياسته الجيش حسنت سياسته الملك) لما بلغ هذا التقسيم قال معقباً عليه : (وأنا لا أرى هذا لازماً ، فكم من نافي حسن السياسة لمنزله ليس له قوة سياسة الأمور الكبار ، وكم من ملك حسن السياسة لملكه ليس يحسن سياسة منزله) .

وبلغ من تمكن « روح النقد » من نفسه أن الشعر نفسه لم يسلم من نقداته ، وهو منصف الشاعر ، يعطيه حقه وماله وما عليه . فإذا أحسن الشاعر في معنى وصفه بالإحسان ، وإذا أساء وصفه بالإساءة . وهو لا ينظر إلى الشعر من حيث أساليبه وألفاظه ، ولكن من حيث معانيه وأغراضه ومطابقتها لقواعد الخلق أو مجافاتها لها . وقف مرة عند قول ابن الرومي يمدح الحقد قائلا :

وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى
وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذي إساءة
فثم ترى شكراً على حسن القرض
إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع
من البذر فيها فهي ناهيك من أرض

فلم يعجبه أن يمدح الحقد بمثل هذا الكلام ، فقال معلقاً كعادته : (ولم يسمع بمن مدح الحقد غير هذا . . . وهذا قول لا يعرج عليه ، وإن عرج عليه أحد فليعرج عليه غير الملك ، فإن الملك أحوج الخلق إلى استصلاح النيات واستصفاء القلوب) . ص ٢٥ من « الفخري » طبعة دار المعارف سنة ١٩٢٣ .

ولكنه رأى لابن الرومي معنى آخر في تفضيل الرأي المروي المختمر على الرأي الفطير المرتجل فقال : (وما أعرف أحسن من قول ابن الرومي في تفضيل الرأي المختمر على الرأي الفطير :

نار الروية نار جد منضجة ... والبديهة نار ذات تلويح
وقد يفضلها قوم لعاجلها ... لكنه عاجل يمضي مع الريح)

وبمناسبة نقد مؤرخنا الشعر حين يستشهد به في معرض التأريخ فإننا نلاحظ أنه — في أغلب المواطن — لاينسب الشعر إلى أصحابه ، بل يكتفي بأن يقول : « قال الشاعر » أو « ما أحسن قول الشاعر في هذا المعنى » أو « قال شاعر العرب » وأحيانا يأتي بالبيت أو أكثر من الشعر بعد القضية التي يعالجها من غير أن يذكر عبارة تدل على أنه سيستشهد بشعر . إلا أنه في بعض المواطن يذكر اسم الشاعر ، كما فعل مع النابغة (ص ٤٩) ومهيار الديلمي (ص ٦٤) .

ولقد أراح مؤرخنا ابن الطقطقى — حين لم ينسب الشعر إلى أصحابه — من تعقب القراء له باستدراكاتهم من أن هذا البيت نسبه المؤلف إلى فلان وصحته أن ينسب إلى فلان . . . وغير هذا من التعقيبات التي قد يستغني عنها المؤرخ في أحوال ، ولا يستغني عنها الأديب بحال من الأحوال .

ويظهر أن مؤرخنا لم يكن ينظم الشعر إلا قليلا جدا ، وهو على الرغم من تذوقه الشعر القوي الرصين الجيل الملائم موضعه ، وعلى الرغم من حسن استشهاده به لانعرف له — في القليل الذي نعرف — إلا بيتين ذكرهما في المقدمة الطويلة لكتابه قائلا : (ولمؤلف هذا الكتاب أصلح الله شأنه ، وصانه عما شانه ، في هذا المعنى :

ليس فضل الفتى على الناس في ثو
ب ودار ونعمة وطعام
إنما الفضل في المقعد خطر
ونسيب وصاحب وغلام

وهو شعر لايدل على شاعرية ، ولاصيغ المعنى الذي قصده صياغة تناسب شرفه .

* * *

وابن الطقطقى أو ابن طباطبا هو جلال الدين ، … الدين أبو جعفر محمد بن تاج الدين أبو الحسن علي . … نقل المستشرق الفرنسي « هيوار » عن الزبيدي (أن « الطقطقى » حكاية صوت « طق طق » ويطلق هذا اللفظ كذلك على خفة الكلام وكثرته) . ولكن أحداً من الذين تحدثوا عن ابن الطقطقى لم يذكر لنا السبب في هذه التسمية . أما « طباطبا » فهو جده الشريف العلوي « إبراهيم طباطبا » . ويذكر ابن خلكان جـ ١ ص ٤٩ أن إبراهيم هذا قيل له ذلك لأنه كان يلثغ فيجعل القاف طاء ، وطلب يوماً ثيابه ، فقال له غلامه : أجيء بدراعة ؟ فقال : لا ، طباطبا ، يريد : قباقبا ، فبقي عليه لقباً واشتهر به ، وروى الصفدي في « الوافي بالوفيات » جـ ٢ مثل هذا « ص ٢١١ من الوافي نشر ديدرنغ ، وطبعة استنبول سنة ١٩٤٩ » .

لمؤرخنا عرق من أشراف العلويين ، ومن الطبقة العشرين من حفدة الإمام علي كرم الله وجهه . وقد استوطنت أسرته « الحلة » منذ أيام جده رمضان . وولد صاحبنا فيها سنة ٦٦٠ هـ — كما يذكر « هيوار » — أي بعد سقوط بغداد في يد هولاكو وقومه المغول بأربع سنوات ، وقد عاصر أبوه — وكان نقيب العلويين بالكوفة وبغداد — الحوادث التي لابست سقوط خلافة بني العباس ، وخدم — أعني أباه — في عهد هولاكو ، وعهد « آباقا » سلطان المغول من بعده ، وقتل والد مؤرخنا في عهد أباقا بن هولاكو .

وقد قصد مؤرخنا إلى الموصل ، وكانت في ذلك الحين سنة ٧٠١ داخلة في نطاق الحكم المغولي ، وسلطان المغول حينئذ « غازان » الذي أسلم كذلك ، وكان عامل الموصل حينذاك للمغول « فخر الدين عيسى بن إبراهيم » الذي يثني عليه مؤرخنا ثناء كثيراً ، فقد قصد الموصل ليقيم فيها فترة ينكسر فيها البرد ثم يمضي على وجهه إلى تبريز ، ولكنه سمع بأنباء فخر الدين عيسى وغزارة فضله فاتصل به ، وكان أول وروده عليه في يوم كثير الغيث ، فقال فخر الدين لحجابه : من حضر الباب وله حاجة فعرفونا بها ؛ إن أحداً لايحضر في مثل هذا الوقت إلا لضرورة ، ولا يجوز أن يرد خائبا . . .

وقد أكبرت هذه الكلمة عامل الموصل في نفس مؤرخنا ، وحضرت في هذه اللحظة كثير من صنائع الأصاغر

(البقية على الصفحة التالية)

علي محمود طه

— ٣ —

للأستاذ عبد السميع المصري

شاعريته

حدثني الأستاذ عبد الحميد طه(١) شقيق الشاعر بأنه بدأ يقرض الشعر وهو دون السادسة عشرة من عمره ، ونشرت أولى قصائده في « السفور » عام ١٩١٨ أي وهو دون السابعة عشرة ، وقد أخذ عليه الأستاذ الزيات حينئذ ما جاء في القصيدة من هنات لغوية ونصحه بأن يرفد قريحته بمادة اللغة وآلة الفن ؛ ولعل هذه الأخطاء اللغوية هي أهم ما عابه النقاد من شعر علي طه ، ولقد كان مرجعها ولا ريب بعد ثقافته بعداً كبيراً عما ينمي فيه هذه المادة ، فهو قد تعلم تعليماً صناعياً فنياً لا تعليماً أدبياً ؛ لكنه رغم ذلك قد استجاب لنصيحة الزيات حتى إن شعره الأخير قد انعدمت فيه هذه الأخطاء التي لا تنقص من شاعريته .

وشعر الشاعر مرآة تنعكس فيها نفسه الصافية ذات الطباع الهادئة والخصال اللينة التي تنأى عن العنف حتى في الوقت الذي يحمل فيه العنف والثورة .. ولنتأمل معي هذه الأبيات :

أخي ! جاوز الظالمون المدى … فحق الجهاد وحق الفدا

أنتركهم يغصبون العروبة … مجد الأبوة والسؤددا

وليس بغير صليل السيوف … يجيبون صوتاً لنا أو صدى

فجرد حسامك من غمده … فليس له بعد أن يغمدا

أخي أيها العربي الأبي … أرى اليوم موعدنا لا الغدا

إنها لحظة حاسمة في تاريخ العروبة تلك هي حرب فلسطين ، ومع خطورة الموقف وما يتطلبه من ثورة عنيفة جارفة تهز المشاعر وتستنهض الهمم والعواطف نرى علي طه يدعو العرب إلى الثورة لكنها دعوة رقيقة تحاج العقل والمنطق وتدعوهم إلى القتال لأن الأعداء لن يستجيبوا إلا لصوت السيوف ولا يصح أن نتركهم يغتصبون مجدنا وديارنا ...

يقول الأستاذ أنور المعداوي صديق الشاعر الحميم يصفه :

(١) مدير الثروة المائية بمصلحة الفلاح .

والرجال الذين طوقوا بها أعناق غيرهم » فرأيت أن أخدم حضرته بتأليف هذا الكتاب ليكون تذكرة له ، وتذكرة لي عنده ، يذكرني به إذا غبت عن عالي جنابه ، وانفصلت عن فسيح رحابه » . وفعلا ألف هذا الكتاب وأهداه إلى فخر الدين وسماه « الفخري » نسبة إليه .

ونلاحظ في كتاب الفخري أن مؤلفه يشير إلى « سلطان هذا العصر » ويدعو له قائلا : « ثبت الله قواعد دولته ، وبسط في الخافقين ظل معدلته » . فمن هو هذا السلطان الذي كان في العراق والفرس وما حوالهما بعد سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ ؟ .

إنه السلطان « غازان » ، وهو السلطان السابع من سلاطين المغول الذين حكموا بغداد من أيام هولاكو سنة ٦٥٦هـ . وقد شهد أبو مؤرخنا عصر المستعصم العباسي ، وعصر هولاكو ، وابنه آباقا ، كما شهد ابنه عصور آباقا ، وتكودار الذي أسلم وسمي أحمد ، وأورغون ، وكيخاتو ، وبيدو ، وغازان الذي تولى من سنة ٦٩٥ إلى سنة ٧٠٣هـ والذي أعلن إسلامه فأسلم معه مائتا ألف من المغول كما يروي « وصاف الحضرة » المؤرخ المشهور بوصاف .

هذا هو مؤرخنا العربي المسلم النقاد « ابن الطقطقي » الذي اهتم المستشرق آلوارت Ahlwardt بكتابه الفخري فنشره سنة ١٨٦٠ ، ثم نشره درنبورغ نشراً أكثر تحقيقاً سنة ١٨٩٥ ، ثم نقله المستشرق اميل أمار إلى الفرنسية سنة ١٩١٠ . وكان المرحوم علي الجارم بك ومحمد عوض إبراهيم بك فضل مراجعته وتنقيحه في الطبعة التي أخرجتها دار المعارف بمصر سنة ١٩٢٣ .

محمد عبد الغني حسن

ولقد كان على طه[1] واحداً من هؤلاء الذين يفتحون القلب على مصراعيه أمام الخلص من الأصدقاء، حتى ليخيل إلى من يعرفه منذ شهور أنه يعرفه منذ أعوام وأعوام. كان واضحاً في فرحه كما كان واضحاً في حزنه، وكان واضحاً في سره كما كان واضحاً في جهره، حتى لو أنه حاول أن يصمت لكان صمته فناً من الكلام أو حاول أن يكتم لكان كتمانه ضرباً من البوح والإفضاء. ومن هنا كانت حياته على لسانه سلسلة من الأحاديث وكانت في شعره سلسلة من الاعترافات.. واستمع إلى هذا الاعتراف من كتابه (شرق وغرب) وهو حديث ينبع من قلب أبيض كزهرة الحقل البيضاء:

إن أكن قد شربت نخب كئيـ
ـبات وآنست بالسعادة كأسى
وتولهت بالحسان لأنى
مغرم بالجمال من كل جنس
وتوحدت في الهوى ثم أشركـ
ـت على حالتى رجاء ويأس
وتبدلت في غرامى فلم أحبس
على لذة شياطين رجسى
فبروحى أعيش في عالم الفن
طليقاً والطهر يملأ حسى
تائهاً في بحاره لست أدرى
لم أزجى الشراع أو فيم أرسى
لى قلب كزهرة الحقل بيضا
ء نماها السناء من كل قبس
هو قيثارتى عليها أغنى وعليها وحدى أغنى لنفسى
لى إليها في خلوتى همسات أطلقتها بكل رائع جرس

* * *

كم شفاه بين من قبلاتى وهج النار في عواصف غرسى
ووساد جرت به عبراتى ضحك يومى منه وإطراق أمسى
أيهذى الخدور آوتك الذكـ ـرى كم أضحكت ليالى أنسى
أحرقتهن آه لم يبق منهن سوى ذلك الرماد برأسى

هذا شعر صادق كل الصدق وأصدقه ذلك الوساد الذى جرت به العبرات.. ولابد لك من أن تقف معنا طويلاً عند هذا البيت من هذه القصيدة الاعترافية، لأن فيه مفتاحاً رئيسياً يفصل بين فترتين من حياة الشاعر، فترة تخضل بالدموع وفترة تموج بالبسمات، الأولى فترة الأمس أو ما قبل الثلاثين، والثانية فترة اليوم أو ما بعد الثلاثين. وها هو ذا يعترف بأن يومه يضحك لنظر العبرات في حين يأسى لها الأمس ذلك الأسى المعبر عنه بالإطراق.

وكما أن شعر الشاعر مرآة تنعكس فيها صورة نفسه كذلك نفس الشاعر الحساسة مرآة تنعكس فيها صور بيئته ويتردد في جوانحها صدى أحداث عصره! ولهذا نرى على طه يسجل الفترات الوطنية في تاريخ أمته وقد عاصر ثورة سنة ١٩١٩ التي اشتعلت وهو في فجر شبابه ومقتبل العمر! وكانت له فيها جولات من الشعر موفقة، ولقد ظل ينبه المصريين بل والعرب بل والشرقيين عامة ويدعوهم للأخذ بأسباب القوة:

دعوها منى واركبوه خيالا لما يعرف الحق إلا الضلالا
بنى الشرق ماذا وراء الوعود تطل يميناً وترنو شمالا؟!
وما حكمة الصمت في عالم تضج المطامع فيه اقتتالا
زمانكمو جارح لا يعف رأيت الضعف به لا يوالى

ونرى الشاعر في منى الحرب العالمية الأخيرة، وقد تحقق العالم إلى أى جحيم تقوده هذه المدنية المادية ووقف حائراً يلتمس خلاصاً من سعير المادة، وأخذ يولى وجهه شطر روحانيات الهند والصين والشرق عامة... نرى الشاعر يتيه في مطلع العام الهجرى سنة ١٣٦٣ إلى ما شرعه الإسلام من اغتراب وعذاب وصراع في سبيل المبدأ الحق والعدل الإلهى... ويدعو إلى النهج الإسلامى نهج الأخوة والمحبة:

كن بشير الحب والنور إلى مهج كلمى وأكباد دوامى
صفحات من صراع خالد شنت كل غار ووسام
لم تتح يوماً لجبار طغى أو لباغ فاتك السيف عرام
بل لداع أعزل في قومه مستباح الدم مهدور الذمام
زلزل العالم من أقطاره بقوى الروح على القوم الطغام
وبنى أول دنيا حرة برئت من كل ظلم وآثام
تسع الناس على ألوانهم لم تفرق بين آرى وسامى
حاطم الأصنام! هل منك يد تذر الظلم صديعاً من حطام

---

(1) العدد ٨٦٨ من الرسالة.

لم تطلقها حجراً أو خشبا   ويطلق اليوم أصنام الأنام[1]

وفي الحرب أيضاً ، حد الرقيب من حرية الصحافة والكتاب واختصرت أزمات التموين من حجم الصحف فضاقت بما فيها من مواد ، وأول ما اختصرته الشعر وقد عد من الكماليات في تلك الفترة ، وقد عبر عن محنة الشعر وصورها تصويراً فكهاً لطيفاً في قصيدته « حر »[2] .

يا وحي شعري أين أنت   في أي زاوية ركنت ؟
هل رحت في إجازة   أم بالصدر قد حقنت ؟
أم نمت أم نام الزما   ن أم اعتقلت أم السجنت ؟
أم خفت من قلم الرقيب   فما أشرت وما أبنت
أم هل سقيت (كروزة)   أم هل حسوت (البرمنت)[3]
أم قد شربت زجاجة   من صنع بار (الكونتننت)[4]
أم في البنوك لأزمة   حلت بأهلك قد رهنت

وهو في حرب فلسطين يسجل بطولة الجنود المصريين الذين حاصرهم الأعداء في قرية الفالوجة عدة أشهر فصمدوا للحصار ولم يهنوا ولم يستسلموا فاستحقوا من الشاعر التحية :

هاتوا حديث الحرب كيف تطاحنت
لـكمو منازعها وهان عصيبها
في قرية محصورة كسفينة
في لجة هاجت وماج غضوبها
لم تدر فيها الريح أين قرارها ؟
والشمس أين شروقها وغروبها ؟

ولقد كان لحديث الحرب المتصل أثر في نفس الشاعر وخياله الذي جمح به وسبح في تاريخ العروبة ينقب عن صورة من البطولة تبز ما تناقله الناس في الحرب العالمية الأخيرة من أحاديث مواقع الغزو وفرق المدائيين « الكوماندو » فلم يجد أروع من غزوة طارق بن زياد للأندلس التي قام بها من ميناء طنجة في أفريقيا في أسطول يقل اثني عشر ألف محارب منذ أكثر من ألف ومائتي عام ، وسار به إلى الصخرة الشماء التي نزل بها وسميت باسمه وحقق في غزوته نصراً عظيماً في أغنى وأجمل وأقوى بقاع القارة الأوربية بعد أن حطم أسطوله ليوجد رجاله بين أمرين أحلاهما قتال العدو :

أشباح جن فوق صدر الماء   تهفو بأجنحة من الظلماء[1]
أم تلك عقبان السما وثبن من   قنن الجبال على الخضم النائي
لا بل سفين لحن تحت لواء   لمن السفين ترى وأي لواء ؟
والشرق من بعد حقيقة حالم   والغرب من قرب خيالة رائي ؟
ضحكت بصفحته الليالي وتراقصت   أطياف هذي الجنة الخضراء
ووثبن فوق صخورها وتمست
كقطا قطا ثأر الأهواء
فكأنما لك في ذراها موعد   ضربته أندلسية الغناء ؟
ووقفن والفتيان حولك وانبرت
لك صيحة مرهوبة الأصداء ؟
هذي الجزيرة إن جهلتم أمرها
أمم بها رهط من الغرباء
البحر خلفي والعدو إزائي
ضاع الطريق إلى السفين ورائي
والتفتوا فإذا الخضم سحابة   حمراء مطبقة على الأرجاء
قد أحرق الربان كل سفينة   من خلفه إلا شراع رجاء
وأتى النهار وسار فيه طارق   يبني لملك الشرق أي بناء

ومهما تكن الناحية التي يتحدث عنها الشاعر فإنه لا يتحدث إلا عن شعور صادق وإحساس عميق بخطورة هذه الناحية وأهميتها من وجهة نظره ؛ ولذا نجد في شعر قلة المديح ، ولم يمدح إلا من استحق في نظره المديح ، وكان له في قلبه مكانة ومحبة ، فكان مديحه له آية من آيات الفن الرفيع ؛ ومن أمثلة هذا المديح قصيدته « الشاعر » التي قالها في صديقه الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي ، نقتطف منها هذه الأبيات :

عبقري من النغم   رجعته الحب والألم[2]
نبعه قلب شاعر   شارف النور في القمم
ورأى موكب الحيا   ة على شاطئ العدم
ذوب الحب قلبه   وبرى جسمه السقم
وجلا الغيب سره   بين جنبيه وارتسم
فانظروا أي شاعر   هو في الحفل بينكم

(١ ، ٢) زهر وخمر .
(٣) شراب البيرمنت .
(٤) فندق الكونتننتال بالقاهرة .

(١ ، ٢) زهر وخمر .

ذلك البدع الروائع في صورة الكلم
فاسمعوا الآن شعره وتغنوا عن أم
شاعر الجسم واسمه يسع الكون بالعظم
وقصير وجسمه بالغ كالضحى أتم
ذلك الشاعر الذي فاز بالحب والنعم
خالد بالذي شدا خالد بالذي نظم
ذاك ناجي وحسبه أنه الشاعر العلم

كما أن شعر علي طه يمتاز بخاصة التنسيق التي تنبعث من مزاجه كمهندس يضع تصميم المبنى أولاً ثم يشرف على تنفيذه في حدود هذا التصميم ، فتأتي الصورة الشعرية في نسق هندسي محدد المعالم والأهداف ، وكأنها تسير على أبعاد وزوايا هندسية رائعة لا تحيد عنها ! ولذلك فنا نجد في صوره الشعرية ما ينبو عن الذوق أو يصدم البصر . . . وهاك الغروب كما يصوره وقد توارى النهار خلف ستار من الغمام المخضب بلون الشفق الأحمر ثم الاحمرار المنعكس على الغمام الأفق ، فبدت الطيور في السماء وهي متجهة إلى أوكارها كما لو كانت تسبح في لجة من عقيق . . . تلك لوحة فنية كاملة بجميع أبعادها وألوانها يقدمها لنا الشاعر المهندس :

أقبل الليل واتخذت طريقي لك والنجم مؤنسي ورفيقي
وتوارى النهار خلف ستار شفق من الغمام رقيق
مد طير السماء فيه جناحا كشراع في لجة من عقيق
هو مثلي حيران يضرب في الليل ويجتاز كل واد سحيق
عاد من رحلة الحياة كما عدت وكل لوكره في طريق

ولا تمتاز هذه الصورة بالتنسيق فحسب ، بل والأصالة الشعرية ، لأن علي طه نحا بشعره عن التقليد والمحاكاة واتجه إلى مشاعره وخواطره يبرزها للناس إبرازا يتسم بالبساطة وصدق الأداء .

ولقد كان لعلي طه رقة في الشعور مفرطة ووجدان مرهف سريع التأثر بما يقع من أحداث له أو للناس . . . فيأسى ويحزن ويشتد أساه لو صادف في طريق الحياة بائسا أو توهم أن إنسانا ما ممن يلقاهم يعاني ألما أو شدة . . . فني ذات مرة علم أن رئيسة الفرقة الموسيقية في أحد مطاعم القاهرة التي كان يتردد عليها عمياء ، فحز في نفسه ذلك الخبر وأمضه وأوجعه أنها شقية بفقد بصرها وتستحق رثاء وعطف الشاعر كثيرا ، فذهب يصور ما تعانيه في قصيدته « الموسيقية العمياء » التي تواصل بكاء خطبها . . . ويأخذ هو بيدها ليريها مواضع الجمال في الكون التي تستطيع أن تستمتع بها بحسها بيديها دون حاجة للنظر ، ويدعو الأقدار لترفق بها والطبيعة والكون كله لمواساتها ، ويبكي هو قبل كل شيء لهذا الخطب الفادح :

إذا ما طاف بالأرض شعاع الكوكب الفضي[1]
إذا ما أنت الريح وجاش البرق بالومض
إذا ما فتح الفجر عيون النرجس الغض
بكيت الزهرة تبكي بدمع غير مرفض

* * *

زواها الدهر لم تسعد من الإشراق بالفجر
على جفنين ظمآنين للأضواء والصبح
أسهد النور ما قيل قد أقلك في جنح ؟
أضئ في خاطر الدنيا وزار سناك في جرحي

* * *

بل إن الشاعر أبصر ذات فجر جديد فتاة تسير في الطريق بجوار بيته تتلفت خشية أن يراها رقيب ، فخيل إليه أنها بائسة من نساء الهوى أو فتاة عاثرة الحظ في حبها ، فهم أن يسعى إليها ليخفف عنها آلامها الموهومة وذهب يصور قصتها شعرا رائعا في قصيدته « سارية الفجر » :

عبرت بي في صباح باكر
فتنة العين وشغل الخاطر[2]
وعينيها رؤى حائرة
بين أسرار مساء غابر
صورت من حاضر العيش ومن
أمسها قصة حب عاثر
من تراها ؟ وإلى أين ؟ ومن
أي خدر طلعت أو سامر ؟
تقطع الإفريز من ناحية
كأسير هارب من آسر
تتقي الأعين أن تبصرها
وهي لا تألو التفات الحائر

(١ ، ٢) زهر وخمر .

لايبالي بِحَلّ السرب ولا
لفحة البرد الشفيف الثائر
أو يبالي قدماها خاضتا
مسرب الماء الدفوق الهادر
أنت يا ساربة الفجر اسمعي
دعوة الروح البريء الطاهر
وأنا الشاعر قلبي رحمة
لفريسات القضاء الجائر
إن نأت دارك يا أخت لنا
بعدت دار الغريب العابر

إن قلب علي طه الكبير حمله أكثر مما يحتمل وجعله يعتقد أنه مسئول عن كل بائس أو محزون، بل إن نزعته الإنسانية تتعدى بيئته المحدودة لتشمل العالم كله بيرها ورحمتها . . . ولقد بلغ الذروة في قصيدته « ليلة عيد(١) الميلاد » التي كشف فيها عن الناحية الإنسانية العالية في نفسه وأبرزها كتابا مفتوحا للناس يدعوهم إلى السلم بعد أن ذاقوا من ويلات الحرب العالمية الأخيرة صنوفا وألوانا .

إنها ليلة الميلاد فليذكر الشاعر الناس بتعاليم المسيح عليه السلام التي سداها الرحمة ولحمتها العطف والتسامح مع الباغي والمعتدي والمسيء . . . إنه يسأل السيد المسيح الرجعة إلى الأرض ليعيد على القوم وصاياه، وأخص هذه الوصايا المحبة والإخاء .

وفي القصيدة فوق ذلك تصوير دقيق رائع لبيئة الحرب القبضة وما استحدثته أساليبها من ظلام شامل في المدن وعكوف في الخنادق في انتظار الموت من السماء أو الأرض . . وأخيراً لماذا القتال ؟ وعلام يقتل الإنسان أخاه الإنسان ؟ إنها خدعة كبرى لحساب الزعماء . . .

● إن ما نراه في شعره من الرقة المتناهية والشعور السامي النبيل قد زادتهما الموسيقى عمقا وتأصلا في قلب علي طه الذي شغف بالموسيقى طول حياته وأجادها وكان من العازفين الماهرين على البيان، وطالما أحيا الحفلات في داره يعزف لضيوفه . . . كما كان هو حريصا على حضور حفلات الموسيقى ولو تيار أما كن عزفها، وكان يحب تناول العشاء غالبا في مطعم به فرقة موسيقية .

ولم يكن هذا عجيبا من علي طه لأن من كان في مثل شاعريته ومزاجه يستطيع تذوق الموسيقى وتفهمها، وهي لغة العاطفة العالمية التي يتخاطب بها العالم أجمع دون وساطة أو ترجمان .

والطبيعة موسيقاها، بل كل ما فيها أنغام متفرقة من لحن كبير تتردد أنغامه على قيثارة علي طه فتشيع فيها قوة ويضفي هو عليها من قلبه روحا، فتتحرر من جمودها وتنبض بالحياة وتصبح خليقة بنجوى الشاعر وصحبته بل وبأن تكون له معهدا وأستاذا :

معهدي هذه الروح وأستاذي ربيع الطبيعة الفينانة

وفي بحيرة « كومو » يقول :

هاهنا يشعر الجماد ويوحى لمن شعر

أجل لأن الطبيعة كلها حياة وحركة وهي تتأنق لمرتاديها . . . فهي تارة تتنقب بالغمام وطورا تسفر لمطلع القمر أو هي تلبس حلة السهر وهي تغري الناس وتشجعهم بالقبل :

البحيرات والجبال قد توشحن بالشجر
وتنقبن بالغمام وأسفرن بالقمر
والسيرونات غادة لبست حلة السهر
نثرت فوقها الدنا ركما ينثر الزهر
وهبرنا رحابها فأشارت لمن عبر
هاكها قبلة فمن رام فليرتكب الخطر

بل إن علي طه يبدأ قصائده بالحديث عن الطبيعة بدلا من النسيب الذي كان المتقدمون يستهلون به قصائدهم . . . لأنها هي الرفيق الوفي الذي يستجيب أبدا لندائه، فتراه في قصيدته « الموسيقية العمياء » يستهلها بقوله :

إذا ما طاف بالأرض شعاع الكوكب الفضي
إذا ما آنت الريح وجاش البرق بالومض
إذا ما فتح الفجر عيون النرجس الغض
بكيت زهرة أبكي بدمع غير مرفض

(البقية بعدها)   عبد السميع المصري

(١) زهر وغر .

للأستاذ مبارك ابراهيم

« ميدوبيا » إقليم المراعي في السودان

لسائح أوربي

(Pastoral Meidobia)

قال الكاتب : —

إقليم « دارفور » هو من بين أقاليم السودان كلها الإقليم الذي قل رواده وعارفوه حتى من بين موظفي حكومة السودان .

وليس يعرف الناس من أسماء أماكن ذلك الإقليم سوى « بيلا » و « كتم » و « زالنجي » و « الجنينة » . وإلا « جبل مرّة » . ولكن جبل « ميدوب » لا يعرفه إلا من سيرته الحكومة المركزية ليشغل منصبا من مناصبها في « دار فور » .

ولقد أقمت في مدينة الفاشر عدة أيام — وهي عاصمة ذلك الإقليم — وذلك قبل أن أسمع عن تلك الفتن ، وخاصة تلك اللوحة العجيبة ، وتكوينها الذي جاوز المدى في الغرابة . وهي التي تسمى « لوحة الملحة » . وهي تقوم إلى شمال ذلك الإقليم . واسمها في الخرائط عندهم « بير الملح » .

وإذ أنا أتأهب للصعود صوب « ميدوبيا » ألقيت نظرة على مدينة الفاشر . وهي الوطن القديم للسلطان « علي بن دينار » وهو الذي أزيح عن ملكه عام ١٩١٦ لأنه كان ضالعاً مع الأتراك .

وقصره يحتله اليوم مدير إقليم « دارفور » وهو قصر تحيط به الأبهة ، وتحف به الفخامة . ولقد راعني وملأني إعجاباً تلك الآيات القرآنية المسطورة فوق الأفاريز .

وإذا صعد الصاعدون إلى أعلى القصر رأوا منظراً عجباً لمدينة « الفاشر » وهي مدينة بنيت على حافتي واد عريض ، وهي تستقي من آبار حفرت في مجرى النهر . وكانت أيام زيارتي في موسم الفيضان . ولكن النهر يومئذ كان قد غاض ماؤه بسبب الجفاف الذي كان قد حل بذلك الإقليم في شهر أغسطس وهو — في العادة — من أشهر المطر الغزير .

وتقوم إلى جانب من جوانب القصر دور الحكومة ، وثكنات الجنود ، ثم المستشفى ، ثم بيوت الموظفين . وتقوم إلى الجانب الآخر مسجد بني بالآجر ، وهو بناء يملأ العين مهابة وجلالاً .

ثم سرت في طريق فلقيت الأسواق المعتادة . وهي مجموعات مبعثرة من دكاكين صغيرة جوها خانق . وفيها تباع السلع الصغيرة كعقود الخرز الملون والخلاخل . ومنها الأحمر والأصفر ، ثم البسط المنسوجة من الغزل غير الملون ، ثم التوابل بمختلف صنوفها .

وتقوم إلى جانب تلك الأسواق قصر قديم من قصور سلاطين دارفور السابقين . واسم هذا القصر « خير خناقة » وقد بنيت مقصوراته وأبهاؤه باللبن . وقد اتخذته الحكومة اليوم سجناً من سجونها . وفي جوسق من جواسقه قامت طبلة كبيرة صنعت أسطواناتها الضخمة من نحاس . وقد صبت تلك الأسطوانة في استانبول . وغطيت جوانبها بجلد ثور من ثيران « البقارة » . وكتب على تلك الجوانب : « من أملاك » علي بن دينار . وعليها تاريخ ١٣٣٤ هجرية . وقطر تلك الطبلة يبلغ ست عشرة قدما .

والطبلة عند زعماء القبائل تعد كنزاً من الكنوز ، فقد كانوا يتخذونها قديماً في التحميس للحرب والقتال .

أما مساحة إقليم دارفور فتبلغ ١٤٠٫٠٠٠ ميل مربع ، وأما عدد سكانه فربع مليون ، وبلاد الإقليم من بلاد المراعي وقومه أقرب إلى البدو الرحل .

وقد كانت مطيتنا — صاحبي وأنا — عربة ثقيلة وزنها ثلاثون قنطاراً . وقد سارت بنا في طريق فيه وعورة الصخور ، وفيه وعورة الرمال . وهو طريق كان يصلح لسير القوافل أيام « علي بن دينار » حيث كانت الجمال هي المطايا التي ينقل عليها الملح والصمغ والعبيد وريش النعام من دارفور إلى بلاد الوجه القبلي في مصر . ثم تعود منها محملة بالثياب وبالسلاح .

وبعد أن قطعنا أربعين ميلاً بلغنا مدينة « مليط » في وادي بيضا ، وهو واد قد جفاه الغيث فاستعين على هذا النقص بإقامة خزان يحجز وراءه مليون طن من الماء . ثم عبرنا السد الحاجز . وكان طوله ستين ياردة . وكان ارتفاعه ثلاثين قدماً .

وفي جميع أرجاء هذا الإقليم وأنحائه تعود أصحاب قطعان الماشية ، وهم أقوام من أشباه البدو الرحل ، أن يستقوا من الآبار المحفورة في مجرى النهر أو في أحد الجداول التي يدور حول تقاء مائها الجدل الكثير كالجدول الشمي « مادو » .

وجدول « مادو » هذا مجرى ماء قد شق في الصخر شقاً ، وقد استغرق شقه عدة سنين .

ولما جاوزنا تلك البقاع تبدى لأعيننا واد متسع الأرجاء يكسو أرضه بساط فضي اللون تخالطه زرقة . واسم ذلك الوادي « بياض » .

وهذا البساط تَرقطه أشجار قصيرة شديدة الخضرة . وتجيء الظباء فتخضم الحشيش الأخضر . ثم تجيء الطيور المائية الطويلة الساقين من جنس « اللقالق » فتطير في الجو باحثة عن الجراد .

وقامت أمام ناظرينا سلسلة من القنن في ألوانها المختلفة ، من حمرة دكناء ، إلى حمرة فاقعة . وهي تمثل الأهرام في ضخامتها .

وتلك القنن تقوم على مسافة مائة وخمسين ميلا في شمال شرق الفاشر . وعلى مسافة أربعمائة ميل غرب الخرطوم .

وفي أيام حكم السلطان « علي بن دينار » كان جنود السلطان مأمورين أن يقتلوا كل غاد ورائح في طريق تلك القنن من أفراد قبيلة « ميدوب » .

واليوم تعيش تلك القبيلة عيشة الرضا في مراعيها . وهي في حمى زعيمها وملك « محمد الصباح » . وهو يقيم في « أدرور » وقد تغدينا — زميلي وأنا — على مائدته .

وقد قال لي ذلك الزعيم إن عدد رعاياه يبلغ خمسة عشر ألفاً ، وإنهم جميعاً مسلمون على الرغم من خلو بلاده من المساجد ، ومن علماء الدين .

وكذلك قال لي : إن بعض ما يمارس في بلاده لا يتفق وما تقضي به أوامر الدين ونواهيه ، كاللجوء إلى النساء السواحر ، وكبعض الطقوس التي تؤدى ، والقرابين التي تقدم ، وكالاحتفال بعيد الحصاد في شهر أكتوبر من كل عام ، ولكنه يعلم أن الإنسان في كل مراحله منذ خلق قد عبد الله على طريقته ، ووفقاً لما أوحت به بيئته .

وفي « ميدوب » تقوم الطبيعة واسطة بين الناس وربهم ؛ ذلك لأنهم يعيشون أكثر أوقاتهم في الخلاء ، وهم يرعون إبلهم وضأنهم .

ولهذا الزعيم كاتم سر هو أحد القلة من الذين يعرفون القراءة في قبيلته .

ولما قلت للزعيم إننا نقصد الذهاب إلى « وهة » و« جبل ملحة » ، نقل إلينا الترجم جوابه إذ يقول : إن الوهة قد تخلفت من انفجار هائل في الأرض ، وإن قومه قد أقاموا حولها ، واستقرت بهم النوى بعد كثرة تطوافهم في الصحراء .

وطلب إلينا الزعيم ونحن في طريق عودتنا إلى الفاشر أن نصحب معنا واحداً من أشياخ قومه ، وقال لنا إن هذا الشيخ قد جمع من المال ثلاثة جنيه ليستعين بها على حج البيت . وأضاف إلى ذلك قوله : إنا لنوليه جميلا يجل عن الشكر إذا صحبنا الشيخ في طريقه إلى مكة .

وسألت صاحبي ونحن في الطريق : كيف استطاع صاحبنا الشيخ أن يدخر هذا المال كله ؟ فقال : إن القوم في « ميدوب » موسرون ، فهم يغدون بقطعانهم إلى « أم درمان » ، وهي رحلة تقتضيهم ثلاثة أسابيع عبر الصحراء ، ثم يبيعون ماشيتهم بثمن ربيح في سوق الخرطوم .

/ ونزلنا في طريقنا في محلة من المحلات ، فقدموا لنا قعباً من الحليب . ثم أرونا مكانا تنبجس منه عين ، ماؤها بارد عذب ، فروينا منه أكثر مما روينا من اللبن . وكان طعم الماء أحلى وأشهى .

ونساء القوم — وهن من حوريات الماء — إذا رافك هذا الوصف يغتسلن ويغسلن ثيابهن في ذلك الماء .

ثم سألنا القوم : هل لم سلاح لحا كين ؟ قالوا : نعم ! وإننا لنتلق الأخبار من طبيب الحكومة المقيم في مستوصف مدينة « اللحة » .

وهذا الطبيب يزورهم مرة واحدة في الأسبوع ، وهو الطبيب « المعقم » الذي يجيئهم بأسطوانة ملأى بمسحوق ال « د . د . ت » يطهر بها ضأنهم وجمالهم . وهم يسمون تلك الأسطوانة « قنبلة » .

ولما سألتهم : هل يستطيعون هم أن يطلقوا تلك « القنبلة » أجابوا : نعم . إنا لقادرون . ولكن طبيب الحكومة يأبى أن ينزل عن سلطانه ؛ ذلك لأن « القنبلة » تحتوي على مسحوق من مساحيق الحكومة . . .

مبارك إبراهيم

ندوة القلم

« رأى فى كنجزلى »

حضرة الأستاذ المحترم مبارك إبراهيم .

بعد التحية ، فقد سرنى عرضكم للمنح النواحى و الفكر الأوربى المعاصر » ، وخصوصاً ما نشرتم فى عدد الثقافة (٦٧٦) عن « رأى فى تاكرى و « تشارلز كنجزلى » .

وأرجو السماح لى بأن أبدى « رأياً فى كنجزلى » تعليقاً على هذا المقال الأخير . فقد صور كنجزلى للقراء ككاتب يصف الطبيعة ويخاطب الطفل ، حتى فى كتبه التى كتبها للكبار . لقد ذكرتم فعلا أنه كان مجاهداً فى سبيل الخير العام ، ولكنكم اعتقدتم بأنه « على الرغم من هذا كله لم يشتهر إلا بكتبه التى ألفها للأطفال » . أليس حقيقياً أن أشهر كتبه هو Westward Ho! ، وهو كتاب تاريخ عن عصر الملكة أليزابث قبل أن يكون رواية لتسلية الأطفال ؟ ثم إن هذا الكتاب يصلح « مبسطاً » لأن يقرأه الصغار ، ولكن الكبار لا يشعرون عند قراءته بأن كنجزلى يخاطب من هم دونهم سناً . علاوة على ذلك فإن آراءه التى عرضها فى جميع كتبه عن التربية والمجتمع والاقتصاد والسياسة والدين ، ليس الغرض منها جعل كتبه مسلية للأطفال ، وإنما توجيه أنظار الكبار إلى ضرورة العناية بالتشويق فى التربية ثم إلى إصلاح المجتمع اقتصادياً وسياسياً عن طريق تعاليم الدين المسيحى .

إن كتبه مثل The Heroes الذى نشر فى سنة ١٨٥٦ و The Water Babies (١٨٦٣) و Madam How & Lady Why (١٨٧٠) لم تكن إلا درعاً تكمن من ورائها معتقداته السياسية والاجتماعية بطريقة تشبه إلى حد ما ما جاء فى رواية Alice in Wanderland التى كتبت فعلا لطفلة ؟ ثم إن تلك الكتب التى ذكرتموها ما كانت لتحظى بالمكانة التى حظيت بها لو لم تكن لنفس المؤلف الذى سبق أن نشر Alton Locke فى سنة ١٨٥٠ و Yeast (١٨٥١) و Westwab Ho! (١٨٥٥) التى يعدها بعض النقاد أهم من الكتب سالفة الذكر وأصلح منها كمرآة لآراء كنجزلى المرن والاشتراكى فى مسيحيته ، المبالغ أحياناً إلى درجة تشوه الصورة الحقيقية لبيئته وعصره ، كما يتضح من الكتابين الآتى ذكرهما .

فبطل رواية Alton Locke كان من الطبقة الدنيا فى لندن ، وقد اعتبر من كرمه هذا هبة من الإله ، لأنه جعله يتمكن من مشاركة الفقراء شعورهم فى الطريق والمصانع والحانات والمستشفيات ، بل فى الجهل والخطيئة . وكانت آلمته التى سيطرت على حياته حتى أصبح فى العاشرة من عمره « جهنم ، والعصا ، والوصايا العشر ، والرأى العام » . حتى إذا وثق إلى إصلاح حاله ، فوجد مسألة التربية فى إنجلترا حينئذ مسألة احتكار ، والجامعات ما هى إلا وسيلة لكسب العيش ، فاعتقد أنه إن لم تساعده الحكومة ولا أعضاء البرلمان فليساعد نفسه بنفسه ، إذ أن الاتحاد بينه وبين أمثاله من الطبقة العاملة هو الفرصة الوحيدة لتحقيق آمالهم المنشودة ، وكثيراً ما نادى « أعطونا نفس الهواء ، والماء ، والرياضة ، والتربية والمجتمع الممتاز ، وسوف ترون أن الخشونة التى تبدو على أمثالنا ما هى إلا ظاهرة عرضية » . ولم يعجب بتربية الطبقة الأرستقراطية هى الأخرى التى كان أساسها اللغة اللاتينية وعلم الرياضة ، حتى التعاليم الدينية بدت أمامه كأنها خاوية لا فائدة منها إذا كانت معدة الفرد فارغة لدرجة لا تمكنه حتى من تأدية الصلاة .

وقد أشاد المؤلف بذكر فصل فى كتاب جون ستيوارت ميل فى الاقتصاد السياسى عن « المستقبل المحتمل للطبقات العاملة » ، وثار مع ميل ضد الملكية المستبدة للعامل ، وخصوصاً فى إرلندة — مستثنياً أملاك الكنيسة فقط ، وطالب بإصلاح حال العمال الزراعيين الذين لم يشعروا بطمأنينة فى حياتهم ، والذين كثيراً ما ضمتهم السجون ظلماً وعدواناً ، كما رأى ضرورة إصلاح السجون ، والقضاء على امتيازات بعض الأجناس البشرية دون البعض الآخر !

(البقية على الصفحة التالية)

نقد

« ثورة الخيام »

ترجمة الشاعر العراقي عبد الحق فاضل

للدكتور بديع شريف

هـذا كتاب جديد في عنوانه وموضوعاته ، قديم في مادته وشهرته ؛ فالخيام اسم شائع يعرفه أدباء الشرق والغرب ، ورباعياته عنوان ضخم تتداوله الأسماع ويتعهد مقعد الصدارة بين عناوين الأدب ، وإذا كانت لغات العالم الحية قد ظفرت بنقل هذه الرباعيات إليها فإن حظ العربية منها عظيم .

والفارسية نفسها قد تحرت بهذه الرباعيات واعتزت بها ، فكان في هـذا الفخر إغراء لتدوينها وإغراء روايتها حتى صار الأمر إذا أرادت رباعية أن يكتب لها الخلود تدحرجت على رباعيات الخيام وتدثرت بنجاده ، وألف الناس سماع ذلك وتسابقوا في الانتحال والوضع ، فترا كمت أعدادها واختلفت مجموعاتها ، فهي بين ١٥٨ وبين ألف ، ومجموعها خمسة آلاف رباعية مدونة في مخطوطات محفوظة في مكتبات العالم وفي أسواق الكتب ، هي معين الأدباء والمترجمين ، يقتطفون منها ما يشتهون ويترجمون ما يريدون ، ويتسابقون في إجادة العرض وحسن الاصطفاء . وفي هـذا العرض الجديد إبداع وابتكار وطبيعة صافية وذوق سليم زان هذه الرباعيات فأبرزها تمثالاً رائع الحسن بديع التقويم ، فلفتت روعته أندية الأدب في فارس ، وأقبل الأدباء والفضلاء على

فكان المثل الأعلى له « مملكة الله » التي تمثل في الكنيسة والكتاب المقدس والمدنية والحرية والديموقراطية والتضحية والإخاء . ولقد لخص مبادئه الاشتراكية في بيتين من الشعر على لسان مطربة في ص ٤١٩ من هذا الكتاب الذي يحمل اسم البطل آلتون لوك :

> اعمل للجميع وتمكّن الجميع من العمل
>
> تقاسم كل شيء وتمتع بكل شيء مع الجميع

أما الكتاب الثاني فاسمه يدل على الغرض منه « الخميرة » ويوضح كنجزلي معناه في ص ٣٧٢ من الكتاب : « الخميرة — أي عين صادقة للأفكار — الطيبة أو السيئة — المختمرة في أذهان النشء في الوقت الحاضر » ... إلخ ! ثم في ص ٣٦٦ يصف عقول الشباب بأنها في « حالة مختمرة تشبه البركان الذي يحمل معه أثناء ثورانه الأحجار والحصى والمواد النباتية وبيض القطا الفاسد ، والفريش الذي فارق الحياة غرقاً والأصدة والسموم ... » إلخ .

ومن بين هذه الأفكار المضطربة مسألة وجود الفوارق الاقتصادية بين طبقات الشعب ، وما يصحب ذلك من شدة الفقر والجرائم والتبرم من الحياة من جانب الشعب من جهة ، وعدم مكافأة العامل ، أي سوء تقدير أجور العمال وإهمال الواجب من الطبقة الحاكمة من جهة أخرى . وقد كان هناك اعتقاد بأن في الميدان متسعاً لكل عامل يتوق إلى رفع مستوى معيشته ، ولكن كنجزلي اعتقد أن هذا هراء ، وأن من ولد عاملاً ظل عاملاً إلى أن يموت ، وأن القوانين التي سنت لإصلاح حال الفقراء لم تؤد إلى تحسين حالهم ، بل بالعكس أدت إلى جعلهم لا يستحيون من الإعانات والتسول والعبودية ، كما أن تلك القوانين تؤدي إلى منعهم من الارتفاع فوق مستواهم « الطبيعي » لئلا يمتنعوا عن خدمة الطبقات الأخرى . وكان من رأي كنجزلي أن استخدام رءوس الأموال البريطانية في إصلاح حال الشعب أصلح من استثمارها في الخارج لجلب الربح للعدد القليل .

ويتضح من هذا العرض السريع لما أعتقد أنهما أهم كتب كنجزلي ، أن هذا الكاتب كان قبل كل شيء مسيحياً اشتراكياً ثم مربياً ، اتجه في النصف الأخير من حياته إلى كتابة قصص للأطفال تتضمن هي الأخرى آراءه الدينية والسياسية والاجتماعية والتربوية ، ولكن في لهجة أقل شدة من تلك التي خاطب بها الحكومة والمصلحين في « آلتون لوك » و « الخميرة » .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام . بثينة عبد الحميد محمد

شاعرنا بهتونه ، وحفل به ذوو السلطان ، فقلدته وزارة المعارف في جمع كبير وسام العلم و نيشان فرهنك ، وقررت طبع كتابه بالفارسية . وهكذا قدمت العربية بحثاً علمياً دقيقاً في تمحيص الرباعيات وبناء هيكلها الجديد ، واستقبلت شعراً قرسياً في بلاغتها ووضوحها دون أن افرط في أسلوب الشاعر ومراميه . وإنك إذا قرأت هـذا البحث الممتع وخلصت منه إلى الرباعيات وأنغمتها لا تلبث أن تشترك مع القوم في إعجابهم وتهنئتهم وحفاوتهم في دقة هـذا البحث وفصاحة هذه الترجمة . وإذا طويت الكتاب وتركت لخيالك أن يستعرض صور الماضي رجع يحمل إليك ما يضعه بين يديك ، فإذا هذا الذي تراه صورة لذلك التراث الذي بثه الصراع العلمي والأدبي على سهول الرافدين في أيام العباسيين الزاهرة بفنون الأدب والترجمة ، ورأيت في هـذا الهيكل الذي بناه عبـد الحق توفيقاً يغبط عليه ، ولم يكن هذا التوفيق وليد المصادفة ، إنما هو وليد البحث والاستقراء والتمحيص وطول التأني والقدرة على تمييز الأفكار وتوافقها حتى خلص إلى هـذه الصورة التي تمثل ما كان يدور في أفكار الشعراء والأدباء وتحفل به أندية العلم وأسواق الأدب وما يبعث المراء والجـدل في زندقة ابن المقفع ومزدكية بشار ومانوية أبي نواس وأبي العتاهية وحلول الحلاج مع معاني المتنبي وأبي العلاء وبقية من آثار شعراء الصحراء التي انحدرت في أصلاب الزمن ولم تغيرها طراوة الحضارة .

في هذه الرباعيات إيمان وتوحيد وفيها إلحاد وإنكار للبعث والجنة والنار ، وفيها غزل وإقبال على اللذات ، وفيها شك وحيرة ، فيها عزوف عن الدنيا واعتكاف في الزوايا ، فيها جبرية وخضوع للقضاء والقدر ، فيها ثورة نفس أرادت أن توجد شيئاً فاصطدمت وتراجعت ، ثم انهزمت ، ثم أعادت الكرة ، فهي في كر وفر وثورة واستسلام ، فإن الخيام في ثورته على السماء لا يختلف عن معارضـة ابن المقفع للقرآن إلا في أسلوب العرض . فقد كان ابن المقفع عنيفاً في مناقشة العقاب والثواب . أما الخيام فإنه هادئ رفيق بالسؤال ومناقشة الرأي ، وهي إحدى الطرائق التي تسلكها المانوية في إثارة الشك في العقيدة والتغلغل فيها لتنسفها من أساسها .

وهو في جبريته التي يرى فيها « كل ما يحـدث قد قدر من يوم القدم » لا يختلف عن بشار بن برد الذي يرى أنه طبع على ما هو عليه غير مخير هواه ، وأنه يريد فلا يعطى ويعطى ولم يرد ، ويتفق معه في إباحيته المطلقة ويختلف معه بالإيمان بالرجعة ، فإن بشاراً يؤمن بها والخيام يجحدها . وقد اتهم الاثنان بالزندقة ، واتخذ كل واحد منهما الحجج وقاية لإبعاد التهمة فلم ينفعهما ، وهو وأبو نواس صنوان متعاونان في إغراء الناس بمعاقرة الصهباء ، فذاك ملأ بها ديوان شعره ، وهذا بنى رباعياته عليها ، هذا يقول لأصحابه ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة من مات أو في نار ، والخيام يقول : لم ير الجنة والنار بشر ، ولم يأت من العالم الثاني آت يخبر ، وأن ما نخشاه لا حقيقة له .

وقد لعب الخيام لعباً جميـلاً في بيت أبي العلاء المعري المشهور في قصيدته المعروفة ، بل اتخذ من هـذه القصيدة معيناً صافياً يصور منه ما تشاء لغته الجميـلة التي أفرغها عبد الحق مرة ثانية في آنية الضاد .

فإذا كان أبو العلاء أجمل كل معانيه في استلطاف الناس أن يخففوا الوطء على الأرض ، فإن الخيام يرى في طين الكواز رءوس آبائه وثغور الفاتنات المحصنات ومحاسن الفتيان وذلة العزة التي كان يتبجح بها الملوك وذوو السلطان ، وعزة الذلة التي كان ينوء بها الفقراء المتكففون و . . .

ولا أريد أن أطيل الوقوف عند موقف الخيام من معاني أبي العلاء وأعرضها مرة ثانية بعد أن كفانا بها مترجمنا الفاضل بهذه المقارنة الشاملة التي ألحقها بثورة الخيام .

وإذا كان الحلاج لم ير في الجبة إلا الله فإن الخيام لم يكتف في هذا الرأي ، بل هدته عقليته الرياضية أن يتخذ من هذا المعنى سبيلاً لتبرير أعماله التي سوف لا يجد عليها عقاباً ، وكيف يجوز العقاب وأين تكون النار والخيام مطمئن واثق أنه لن يكون عقاب في مكان يكون الله فيه . وهذا المكان الذي لا تحيط بقدرة الإله لا وجود له ، وبذلك يخرج من مقدماته ونتائجه أن الله في كل مكان ، وإذا كان الله في كل مكان فإن النار لا وجود لها . وإذا امتنع وجود النار امتنع وجود العقاب . والخيام كما روى : عالم مثقف رياضي ذكي العقل ، أو كما يقول مريدوه إمام تفتح له الولاية والتقوى مغاليق

المستقبل ، عالم بالعربية ضليع بآدابها ، يقع على محاسنها فيصوغ من معانيها ما يجمل معانيه ، فهو يأخذ البيت البليغ من المتنبي فيبني منه رباعية أو أكثر من رباعية ، وهو في زهده وعزوفه عن الدنيا تلميذ أبي العتاهية ووريث الناويين في هذه الفكرة التي دخلت على الأدب العربي دون استئذان .

أعود إلى الرباعيات مرة ثانية وأقف من صديق عبد الحق موقف السائل المستفسر : هل هذه الرباعيات نتاج فلسفة الخيام ، وهل الخيام فيلسوف أم شاعر ! إننا نعلم أن المشتغلين بالبحث والعلم حددوا ما ينطوي عليه أديم الشاعر وما ينطوي عليه أديم الفيلسوف ، ووضعوا مقاصد الفلسفة ومقاصد الشعر ، ولكل فيما يراه من الحق نصيب ! على أن بعض الناس قد جمع بين الشعر والفلسفة في صعيد واحد ؛ ولست راغباً في فتح هذا الباب على مصراعيه ، فإني هنا لا أعدو تقدير كتاب جملت به المكتبة العربية وأعجبت في بحثه وترجمته .

ويجمل بي أن أعرض هنا مثلاً متواضعاً أوجهه إلى هذه الرباعيات ، لعل فيه توضيحاً وتحديداً لمعنى الفيلسوف والشاعر ، ومعيناً على رأي أرتئيه ولا أقيد به غيري ، وهو :

هب أن فتاة جميلة في فتاء السن وضعت على فراش التشريح لإجراء عملية فيها موت أو حياة ، والفتاة بين يدي الحبيب والطبيب ؛ فالطبيب يفتح الجرح أو يشق العضو ، وقد يبتره ويتحرك مشرطه في يده ليصل إلى نتيجة تحفظ هذا الكائن . أما الحبيب فإن عينه وقلبه يتبعان المشرط في خوف ورهبة ، وقد تدمع العين ويخفق القلب ويغيب عن الصواب ؛ فالطبيب يعمل عمله في المريض من حيث هو كائن حيّ يقطع عضوه ليستمر وجوده . أما الحبيب فإنه ينظر إليها أنها إنسان من لحم ودم يجب أن تعيش وتمتد بها الحياة وتخرج دون أن يبتر العضو — فنظرة الطبيب نظرة الفيلسوف ، ونظرة الحبيب نظرة الشاعر ، ذاك عقل هادئ مطمئن يريد أن يصل إلى قرارة المعين ، وهذا عاطفة جامحة عنيفة ، وقد تكون هادئة ، تنظر إلى صفحة المعين فيروقها صفاؤه فتطرب وتكتفي ، وقد يخيفها منظر آخر في مثل آخر فتهرب ، والذي وجدته في رباعيات الخيام إنما هو من طراز شعراء العصر العباسي ، فيه عاطفة جامحة ثائرة ، ومستسلمة هادئة رخائلة واجفة متراجعة وهاربة ! وفي كل صورة من هذه الصور استطاع صديقي عبد الحق أن يبرز الخيام شاعراً واضحاً له كل ما للشعراء السالفين من العشاق بلغة رقيقة الطلبة ذات جرس ورنين ومهارة فائقة تعطيك ما للشاعر الموهوب من ذكاء وطبع صاف ! فله مني تهنئة الأخوة وله من المكتبة العربية الحمد والثناء .

محمد بديع شريف

كلمات دالات

في عظمة نبي الإسلام

فوق البشر ، ودون الإله ، فهو محمد صلى الله عليه وسلم

لامرتين

كانت الإنسانية دهرها بين اثنين : أحدهما فتح لها طريق المجيء من الجنة ، والثاني فتح لها طريق العودة إليها ، كان في آدم سرُّ وجود الإنسانية ، وكان في محمد سر كمالها

جاء آدم ليعطي الأرض ناسها من صلبه ، وجاء محمد ليعطي الناس قوانينهم من فضائله ! فآدم بشخصه هو دنيا بدئت لتتسع ، ومحمد بشخصه هو دنيا بدئت لتنتظم .

مصطفى صادق الرافعي

لم يكن الإصلاح أعسر ، ولا أبعد منالا منه قبيل ظهور محمد ! ولا نعلم نجاحاً وإصلاحاً تم كالذي ترك محمد عند وفاته .

وليام موير

كانت فترة غار حراء الحد الفاصل بين محمد بشراً ، ومحمد بشراً رسولا . . . لقد صعد إليه إنساناً حائراً ، وهبط منه إنساناً نبياً ، مهتدياً مطمئناً .

صعد شاكاً ، وهبط مؤمناً . . .

لمع في قلبه النور الإلهي فإذا كل شيء حوله شفاف يراه بقلبه ، ويكشفه بنوره . . . نزل من الغار يدعو الناس أن يستضيئوا بضوئه ، وأن يحيوا قلوبهم من حياة قلبه ، وأن يسمعوا لصوت الله على لسانه ، وأن يروا عظمة الله في كل أثر من آثاره .

أحمد أمين

مسرح

الإيحائية والواقعية :

فى مسرحية دنشواى الحمراء

للأستاذ زكى طليمات

فيما يجريه قلم الأستاذ عبد الفتاح البارودى نقداً لنتاج المسرح المصرى فى هذه الآونة ، لمسات لطيفة وجسات حاذقة وتأملات تنبئ بأن مجريها يحاول أن يسير بالنقد المسرحى إلى مرحلة غير التى كان عليها فى أكثره ، ولاسيما ما هو خاص بموضوع المسرحية وأسلوب معالجته وسياقه .

وقد أخذ علىّ فى نقده رواية (دنشواى الحمراء) ، وله الشكر ، مأخذين جديرين بالاعتبار وهما :

١ — أنى أخرجت المشهد الأول من الرواية ، وهو عين المشهد الأخير ، إخراجاً واقعياً ، مع أنى أحمل لواء الإخراج الإيحائى فى مصر وأشيع مزاياه دون غيره .

٢ — أنى استعملت الميكروفون فى مشهد كامل وهو مشهد المشنقة مع أن الميكروفون ليس من أدوات المسرح الأساسية .

وشاء أن يكون الناقد لبقاً ودمثاً كعادته فى نقده — ولا أقول مجاملاً — فنسب ما أخذه علىّ إلى (ضرورات ربما تكون خافية عليه) وطالبنا بشىء من التفسير والإيضاح وإنى أبادر بتحقيق مطلبه ليفيد القارئ وتخلص ضمير النقود .

الإيحائية والواقعية :

لست أزعم أن أحاضر فى هذه أو تلك ، فالمقام يضيق بها ، ولكنى سأورد من جوهريهما ما أتخذه تكأة أستند إليها فى معالجة ما يسأله الناقد .

أخذت بالإيحائية وناديت بها وأجريت تطبيق قيمها فى الأكثرية الغالبة من المسرحيات التى قدمتها بين (الفرقة المصرية) و (فرقة المسرح المصرى الحديث) لأنها تماشى روح العصر الذى نعيش فيه وهو عصر يتسم نتاجه الأدبى والفنى بالبساطة فى التعبير ، وينشد الاتجاه إلى تقديم أكبر الأثر بأبسط الوسائل وأسرعها ، كما يميل إلى الأخذ بالتركيب والإجمال synthèse بعد أن سأم التحليل والتفصيل (analyse) وأمضه الزخرف والفضول .

ومرجع هذا تغير المزاج العام ، بفعل التقدم الآلى ، وإفلاس المذهب الواقعى بعد أن عجز (المفصل) عن الانتهاء إلى جوهر الأشياء بتحليلها وتفصيلها ، ثم جنوح إيقاع الحياة إلى السرعة فى كل شىء ، ونشاط المخيلة بفعل ارتقاء النشاط الفنى والثقافى بوجه عام .

وتطبيق الإيحائية فى الإخراج المسرحى من ناحية المناظر والأستار تجرى عن طريق استعمال أستار مخملية ذات لون واحد (محايد) ، أى لون غير صارخ ، وليست له قيمة لونية تجتذب نظر المشاهد إليها ولا تؤثر على غيره من الألوان التى تتجلى فى لباس الممثلين والأثاث وغيره من المهمات ، أقول استعمال هذه الأستار بدلاً من المناظر المرسومة طبقاً لقواعد المنظور والملونة تلويناً ينسخ الواقع فى دقائقه وفى تفصيله ، كجدران الحجر وأسوار الحصون وغيرها ، لدى الإيحائيين ، هى تلك الأستار ذات اللون السائد الواحد ، وقد يستعان على تنشيط مخيلة الجمهور لتحسن تخيل ما توحى به هذه الأستار ، قد يستعان ببعض إطارات مرسومة وملونة بحيث تمثل كائنات من الواقع ، ولكن فى غير إسراف ولا تفصيل فى الرسم والتلوين .

فالبهو الفرعونى مثلا لدى المخرج الإيحائى إنما هو أستار

مخلية ، ثم بعض أعمدة أو مدخل باب ، وقد رسمت هذه أو ذاك رسماً إجمالياً طبقاً للطراز الفرعوني ، وقد يختلف الطراز باختلاف الصبغة المحلية للمسرحية .

والحديقة كذلك أستار في المؤخرة وعلى الجانبين ، وهنا وهناك قامت إطارات ملونة تمثل جذوع أشجار سامقة مجردة من كل تفصيل ، وهكذا دواليك .

وهكذا يتضح أن الإيحائية تعمد إلى التركيز ، إلى تركيز الواقع وليس إلى إيراده مفصلا ، ولعل ما جعل رجال المسرح يأخذون بالإيحائية في الإخراج هو أن المناظر التي تشاد طبقاً لنظريتها لا تأخذ انتباه الجمهور ، هذا الانتباه الذي يجب أن يحظى به الممثل وحده ، باعتبار أنه الوحدة الرئيسية التي يجب أن تحظى بكل انتباه من جانب الجمهور ! فالأخذ بالإيحائية في الإخراج ليست ضرورة (اسطيقية) ولكنها ضرورة مسرحية أيضاً .

بيد أن هذه الإيحائية لم تبرز إلينا من غير أصل تستند إليه ، إذ أن بينها وبين الواقعية وشائج قربى ونسب ، بحيث يصح أن تقول إن الإيحائية إنما هي واقعية متواضعة مبسطة خلت من الدقائق والتفاصيل . وهذه الإيحائية تؤثر في الجمهور باعتبار أن الجزء يوحي بالكل ، والجزء كما هو معلوم شيء من الواقع ! فلا ضير والحالة هذه عند تطبيق هذا المذهب على فن تصوير المناظر المسرحية وإنشائها أن تكون بين (جزء) يوحي (بكل) ، وبين (كل) يقدم الجزء ، ما دمنا نعمل بمبدأ توخي البساطة في التعبير واجتناب التفصيل الممل ، وأخذنا بالجوهر دون الحواشي ومساوقة روح العصر في جنوحه إلى السرعة .

وقد كان هذا شأننا في إيراد المنظر الأول من المسرحية وهو نفس المنظر الذي جاء في ختامها ، فقد جاء مؤلفا من إطارات تمثل جدراناً رمادية اللون عارية من كل زخرف أو تفصيل ، صريحة في تفردها بالإيحاء إلى الجمهور بأنه يشاهد حجرة متوسطة الحالة ، كما خلت من المرئيات ما يشغل ذهن الجمهور ويجعله ينصرف عن شخوص المسرحية وما يجري على ألسنتهم من حوار .

ومثل هذا المنظر سواء أكان من أستار مخلية موحدة اللون ، أم من إطارات من قماش ذات لون واحد يسودها ، يتفق ولاشك مع الإيحائية التي تقوم على التركيب والإجمال ، أي أنها تسير من الشيء الصغير إلى الكبير وتوحي بالجزء عن الكل .

وقد كان يصح أن نستبدل هذه الإطارات بأستار من المخمل كما تجري عادة الإيحائيين في الإخراج المسرحي ، وكما أخذنا بها في المشهد الأول من الفصل الثالث ، لولا أن حال دون هذا ضيق إمكانيات مسرح حديقة الأزبكية وعدم توافر هذه الأستار بحيث تؤلف منظرين متتالين من غير فاصل زمني بينهما .

ولو أننا جرينا في إخراج هذه المسرحية على الأستار المخملية دون الاستعانة بالأستار الملونة فحسب ، لكان المأخذ علينا صارما ، إذ نكون قد أخللنا (بالوحدة) الفنية التي يجب أن تسود جميع مناظر الرواية . ولكن الأستاذ البارودي يذكر أن بقية فصول الرواية كانت تقدم في مناظر تجمع بين الأستار المخملية وبين الإطارات المصورة بالألوان ، كما يذكر أنني دائماً في إخراجي مسرحياتي ، أجعل الأستار الجانبية القائمة في المستوى الأول من المسرح مصنوعة من المخمل أو من أي قماش ذي لون واحد ، إرادة أن أذكر الجمهور بأن ما يراه على المسرح من المناظر ، ليس نسخاً للواقع ولا صورة فوتوغرافية منه ، وإنما هو شيء يوحي بالواقع ، إذ لاسبيل إلى إحياء الواقع بحذافيره فوق المسرح مهما بلغ تأنقنا في إيراده ، ويكفي أن تفلت حركة من يد أحد الممثلين وترتطم بأحد الأستار المرسومة رسماً واقعياً ، فإذا هذا الستار الذي رسم عليه جدار حصن منيع ، يهتز ويترنح وتنهار واقعية هذه المناظر دفعة واحدة .

الميكرفون عامل معبر :

والملاحظة الثانية التي أبداها الأستاذ الناقد أني استعملت الميكرفون في مشهد كامل . ومعلوم أن الميكرفون ليس من أدوات المسرح الأساسية .

حق أن الميكرفون ليس بين أدوات المسرح الأساسية ، وإن شئت فقل ليس الميكرفون عاملا إيحائيا في التعبير فوق المسرح ، باعتبار أنه لا يبادل الحوار مع سواه — وسواء هو الممثل . ولكنه على الرغم من هذا قد يكون عاملا مؤثراً في التعبير ، تبعا للمناسبة التي يستعمل فيها .

وفي المشهد الذي أبرزت فيه الشنقة برواية (دانشواي الحمراء) كان كل شيء يتراءى فوق المسرح يعتبر تعبيراً

النشاط الثقافى فى أسبوع

توحيد الزى والقومية المصرية :

أول مايلفت نظر الناقد بالنسبة للموضوعات التى يشغل بها الناس أدمغتهم هو مقدار صلة هذه الموضوعات بما يمس حياتهم من قريب ، ولذلك كان من الأمور الواجب مراعاتها عند التفكير فى موضوع من موضوعات التناظر أو الاشتداء الثقافى أن يكون الموضـوع من واقع مايشغل الأذهان ، ويمس المسائل الكبرى التى تمس الأمة بأسرها .

وقد كان موضوع توحيد الزى وأثره فى القومية المصرية هو الموضوع الذى اختارته مؤسسة الثقافة الشعبية ليكون مدار حديث المتندين ، ولا أدرى مقدار توفيقها فى اختيار هذا الموضوع فى وقتنا الحاضر ، وإن كان ظاهر الأمر يوحى بأنه ليس الموضـوع الذى تشغل الأمة به بالها ، ولعل كل ما يغتفر لهـذا الاختيار هو محاولة تبين أثر توحيد الزى فى القومية .

كان المتندون أربعة ، واحد — أو على الأصح واحدة هى السيدة كريمة السعيد — فى جانب تأييد فكرة توحيد الزى فى مصر ، والباقون : السيدة دولت صادق والأستاذ محمد سعيد العريان والأستاذ محمود العزب موسى ، يعارضون الفكرة كلٌّ من وجهة نظر معينة .

وقد قامت فكرة توحيد الزى عند المؤيدين — أو المؤيدة — على أساس أن التوحيد لون من ألوان النظام . واختلاف الأزياء بين المصريين هـذا الاختلاف الشنيع هو أوضح دليل على الاضطراب والفوضى ، ولذلك نلاحظ أن الجيوش — لأنها وحدات منظمة — كان لابد لها من توحيد الزى إتماماً لصورة هـذا النظام . وليست المسألة هى نظام الصورة حسب ، فإن هـذا التوحيد للزى يشعر كل فرد بأنه فرد فى جماعة ، وأنه مرتبط بها وبمصالحه مصالحها ، وبذلك تنشأ الألفة بين أفراد المجموعة ، وسيقتضينا توحيد الزى توخى البساطة فى الشكل والنوع ، وهذا يحد من المنافسة .

ومن المعروف أن الهند لا تتمسك بشىء تمسكها بدينها إلا الزى ، وربما كان تمسكها بالزى أكثر وضوحاً . ولا شك أن تمسك الهند بزيها القومى فى شكله المعهود وعادته التى تتبعها أيد هنـدية وطنية — أثر واضح فى حركتها الاستقلالية الأخيرة . أما فيما يختص بمصر فإن المسألة تتعقد

(سلبياً) أو هو يعبر بذاته لانعدام تبادل الحوار بينه وبين ما هو قائم فوق المسرح .

فالشنقة منصوبة ، ولكنها جامدة لاتعمل ، وجنود الإنجليز جمود حوالها لايتكلمون ، وليس فوق المسرح شخص من شخوص المسرحية . . . صمت صارخ وظلام دامس . فالتعبير هنا يدخل فى باب (الصمت) أو الحال التى هو عليها من غير كلام . وقد نظمت الإضاءة بحيث أضفت على هذا المشهد مسحة اللوحة الحية ، بما توحيه فى غير همس ولاتبس . فهو تعبير ، والحالة هذه ، معنوى خالص ، وذلك باعتبار أن الكلام الذى يجرى على لسان الممثل فوق المسرح يعتبر تعبيراً مادياً فى هذا الصدد .

وكان لابد لتحقيق الاستثارة التى ينشدها المؤلف من صوت يرتفع بذكر المصريين بدنشواى وبما ارتكبه الإنجليز فى دنشواى ، حتى تنسج هذه اللوحة أثرها البالغ على الجمهور . فلم يكن هناك مندوحة عن أمرين ، إما أن يدخل ممثل فوق المسرح ، بلحمه وعظامه ، ويرفع صوته بالكلام وسط عناصر تعبر عن نفسها بغير الكلام ، وفى هذا إقحام المادى على المعنوى ، وإما أن يرتفع صوت من جهة غير مرئية وكأنه صادر من أعماق الزمن ، هذا الزمن الذى توحى بقسوته تلك المشنقة المنصوبة فى ساحة القرية المصرية ، وأولئك الجنود الإنجليز الذين قاموا حولها يعدون لها ضحاياها من المصريين .

فآثرنا أن نأخذ بالأمر الأخير حتى نبقى على هذه اللوحة مسحتها المؤثرة من التعبير المعنوى فى حدود الاستثارة التاريخية .

هذه هى وجهة نظرى قد شرحتها ، وقبل هذا أوجزت رأيى عن (الإيحائية) وأرجو أن أكون قد أفدت القارىء فى شىء .

زكى طليمات

كثيراً ؟ فأى زى هو زينا القومى ، ونحت أنظارنا أخلاط متباينة من الأزياء ؟ لا سبيل إلى تحديد ذلك الآن ، ولكن الذى لا شك فيه أننا إذا حاولنا جادين توحيد الزى فإن ذلك سيكون خطوة موفقة فى الحد من الفوضى الضاربة وتربية روح النظام والانسجام ، وهذا يجيئنا على الظهور بمظهر المجموعة المؤتلفة المنظمة المنسجمة ذات الشخصية المتماسكة ، وهذه هى القومية .

ثم بدأت حجج المعارضين تنهال ، فذكرت السيدة دولت أن توحيد الزى عملية تحكمية بحتة ، ولا يمكن تحقيقها فى الواقع ، لأن أذواق الناس تختلف من شخص إلى آخر وانتقاء الشخص لزى معين لا يأتى اعتباطاً ، ولكن له علاقة وثيقة ببيئته وشخصيته . وإذاً فتوحيد الزى — فضلا عن أنه تحكم فى أذواق الناس — فإنه أيضاً تحكم فى أذواق الأقاليم وطابعها الخاص بها . ولا يمكننا أن نتصور أن المصريين من الإسكندرية إلى أسوان — أستغفر الله ، إلى الخرطوم — يلبسون جميعاً نمطاً واحداً من اللباس ، فإن عوامل تفريق الزى طبيعية ومادية ومن الصعب جداً التغلب عليها .

وإذا كنا نريد لنا جميعاً زياً واحداً فإن فى عودتنا إلى نشأتنا الأولى توحيداً للزى أى توحيد . إنه من الخطأ أن نشبه الأمة بالجيش ، فإن هذا يخالف وطبيعة الناس ، ومن الخير أن نشبهها بالحديقة الغناء تختلف فيها ألوان الزهور وأشكالها لتكون منظراً بديعاً فيه جمال للعين ، لا رتابة مملة للنفس . وكل ما يمكن أن ننادى به من توحيد معقول ومقبول هو أن يكون الزى جميلا ، محتشما ، اقتصادياً .

وأعقب ذلك الأستاذ سعيد العريان ليقرر أن مصر ليست وحدها التى تختلف فيها الأزياء ، وأنها هى وغيرها فى ذلك سواء . فإن الزى يتطور ككل الأشياء ، ولسنا نستطيع أن نفرض على الأحياء أن يخلعوا فى وقت من الأوقات زيهم ليستبدلوه جميعاً بزى واحد . ولو فرضنا جدلا أن الناس رضخوا لهذه الدعوة ولبسوا جميعاً زياً واحداً ، فإن هذا الزى نفسه سيتطور ، وسيؤدى تطوره إلى وجود بعض الفروق والاختلافات ، وليس فى اختلاف الزى ما ينفى معنى القومية ، فإن الجندى حين يحيى زميلا له لا يضرب مثلا عالياً فى القومية ، وإنما المثل العالى هو فى إدراك كل منهما بأن عليه واجباً ، وليس توحيد الزى فى الجيش إلا شارة فقط من شارات عصبيتهم التى هى وقود حربهم .

وإذا كانت البيئة بكل مقوماتها هى التى تحدد نوع الزى وشكله لكل فرد منا ، فإن الدعوة إلى توحيد الزى تقتضى توحيد البيئة أيضاً بكل مقوماتها ، فننزل مطراً حيث لا ينزل المطر ، ونزيل جبالا من أماكنها لنشق مكانها الوديان الخ .

أما الأستاذ العزب فقد لاحظ أن الجيش نفسه ليس موحــد الزى ، فالمشاة يلبسون غير ما يلبسه الركبان « السوارى » ، وجنود البحرية يلبسون غير ما يلبسه جنود الطيران . . . وهكذا ، مما يدلنا على أن التوحيد مستحيل . وقد قال شكسبير : إنه ليس كل من وضع على نفسه مسوح القساوسة فهو قسيس ، فإذا وحدنا الزى ولبسنا جميعاً زى الشيوخ أشكل الأمر ، تماماً كما لو لبسنا أى زى آخر موحد .

وقد قال تعالى فى هذا الصدد : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، ولم يقل حتى يغيروا ما على أجسامهم

الذرة وخير الإنسانية :

لا يروع الناس من نبأ ما يروعهم من نبأ القنبلة الذرية ، ولم يحمل الناس على العلم والعلماء يوماً حملتهم عليهم يوم أخرجوا القنبلة الذرية إلى الوجود ، ولم تفزعهم صورة مثل ما فزعوا من صورة هيروشيما ، وقد تركتها القنبلة قاعاً صفصفاً .

ولقد أحس العلماء بعظيم جرمهم فى حق العلم والبشرية — كما قرر الدكتور صلاح الوقاد فى محاضراته التى ألقاها فى نادى الخريجين المصرى — وأدركوا أنهم كانوا أدوات مسخرة فى أيدى الساسة يوم قدموا على فعلتهم ، فعادوا إلى معاملهم ، وعكفوا على بحوثهم الأكاديمية البحتة ، موجهين مجهوداتهم إلى خير البشرية .

وقد بين المحاضر أن الطاقة الذرية مادة متحولة ، بمعنى أن الطاقة تتولد من تحرك المادة من صورة إلى أخرى . فإذا اصطدم حجر بحجر مثلا انقسمت طاقة الحجر الأول ثلاثة أقسام ، قسم ظل كامناً بالحجر ، وقسم فتت جزءاً من الحجر الثانى ، والقسم الأخير هو الذى حرك الحجر الثانى ؛

وبهذه الطاقة ، أو القوة ، التى اكتسبها الحجر الثانى يستطيع أن يحرك فى اتجاهه حجراً ثالثاً يعترضه فى طريقه ؛ وهكذا هذه الطاقة الكامنة فى المادة هى التى حاول العلماء الكشف عنها واستغلالها ، وقد وجدوا أنهم يستطيعون الحصول على هذه الطاقة كاملة إذا هم أفنوا المادة وصيروها طاقة كلها ، وقد أمكن تفتيت ذرة المادة — هذه الذرة التى هى آخر صورة من صور المادة تتحول بعدها إلى طاقة صرفة ، وفى هذه الحالة تكون الطاقة هائلة القوة ، لأن المادة لم تعد تحتفظ بالجزء الأكبر منها كما هو فى حالة الحجر السابقة .

على أن تفتيت الذرة مازال يكلف كثيراً ، والأفران الذرية تكلف ملايين الجنيهات ، ويوم يتيسر إنتاج الطاقة الذرية فإن تفتيت جرام واحد من المادة سيعطى من الحرارة ماتعطيه ثلاثة ملايين طن من الفحم . حرارة هائلة ولا شك ، تستطيع إذابة الثلج فى القطب الشمالى وتحويله إلى أرض زراعية . وتستطيع تبخير أكبر قدر من المياه وإسقاطه مطراً على صحراء مثل الصحراء الكبرى الأفريقية مثلا .. وهكذا سيمكن التحكم بصورة خارقة فى الطبيعة ، وإخضاعها للإنسان الجبار إخضاعاً تاماً ، وإلى تحقيق رفاهية هذا الإنسان تتجه البحوث الذرية الآن ، وكل الذى يؤخذ على العلماء حتى الآن هو تكتمهم الشديد ومحافظتهم على سرية هذه البحوث ؛ فإن إذاعة النتائج وسير الخطوات يساعد العلماء فى العالم كله على الوصول إلى نتائج باهرة وبسرعة .

عز الدين إسماعيل

معرض زوريان :

فى صالة آدام بالقاهرة معرض الرسام زوريان ... وإذا كان القول بأن الفنان يستوحى بيئته منطبقا على الواقع فزوريان برسومه خير مثل على صدقه .

لقد ولد فى الأناضول ودرس فى فرنسا وإيطاليا وطاف باليونان وعاش فى الإسكندرية والقاهرة ؛ كل هذه الأطوار من حياة الفنان تجدها أمامك فى لوحاته التى تعرض حياة صاحبها .

ولقد أعجبنى من هذا الرسام أنه لم يفعل كغيره من الرسامين غير المصريين بمصر ، الذين يهيمون برسم المناظر الشرقية فى الأحياء الوطنية إشباعا لنزعة التطلع فى نفوسهم وترويجا للوحاتهم فى الأوساط الإفرنجية ؛ بل إن زوريان رسم ما أحبه هو باحثا عن إشباع إحساسه الفنى ؛ ومن هنا كان صدق الفنان فى تعبيره عن أحاسيسه بفرشاته وألوانه .

وإن طريقته فى التصميم وتوزيع النظر على فراغ اللوحة لاتختلف عن المألوف فى المدرسة الحديثة التى وضع أسسها سيزان ، ولكن ألوانه هى التى تعبر عن شخصيته ، وهى تأخذ طابع الرزانة والبروز وإحساسه بالطبيعة يكاد يستوعب كل آثاره ، فلم يسمح إلا بلوحتين فقط من البورتريه فى المعرض .. يتسمان بنفس طابع الفنان ، وهو إبراز الواقع خلف ستار من الأحاسيس الملونة باللون الأخضر غالبا ، والذى يدل على صفاء نفس هذا الفنان وبعده عن العنف .

وإن دراسته للنحت تظهر بوضوح فى بعض لوحاته التى تقرب من البارليف أو توهمك بذلك مما أعطاها خاصية تميزها عن غيرها من إنتاج الرسامين ؛ ويبلغ الرسام القمة فى بعض لوحاته حتى لتشعر أمامها بهزة فى النفس ليس من السهل نسيانها .

محمد فهمى

من وحى القناة ..

فلول الغاصبين لقد ركبنا ... فما يجدى النباح ولا السباب
أقمتم فى ربوع النيل دهراً ... وحظكم مدى الدهر اغتصاب
فمهلاً إنعام الحرب مهلاً ... بدأتم فالمنون لكم عقاب
غروركم وبغيكم سعير ... ودونكم وخلفكم عباب
سينبئكم غداة الروع أنا ... رجال فى الكريهة لا نهاب
وأنا لا تدانينا جبال ... وأنا الهول والجن الغضاب
وأنا للعدا رصد مقيم ... وأنا الموت يكمن والعذاب
لقد ضجت ربوعكم وحقت ... لنا فيها الغنيمة والثواب

حسن لطفى

الثقافة

العدد ٦٨١ ١٤ من يناير ١٩٥٢	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	الثمن ٣٠ مليماً

ياضميرى ..!

ياضميرى .. لقد جحدت غوايى
ياضميرى .. لقد نبذت صحابى
من شباب يقتات من جسد الإثـ
ـم — إذا ماسطا — بظفر وناب
جمعتهم على الدنيئة أهـوا
ء ذئاب ... بالاجتماع الذئاب !
عبـدوا الشهوة الدنية فى الليـ
ـل ، وصـلوا صلاتهم للشراب
وعذارى أخلاقهن وكأمشا
ر ه — تراهن دائماً فى اضطراب
قد يذلن الأجساد للنكر والرجـ
ـس قرابين فى ليـالى التصابى
أيوسع الشحرور أن يألف البو
م .. ويشتاق جيفة — كالغراب ؟؟
لا — وربى سأقطع العمر وحدى
بخمر الطهر ، والسـنا محرابى
مع فنى ، ومزهرى ، ونشيدى
وربابى .. وما أجمـل ربابى !
أستشف الجمال إن يسم الفجـ
ـر وليداً يختال بين الشـعاب
أرسل اللحن فى الوجود تسابيـ
ـح نبى تهـز قلب الروابى
ملء نفسى الرضا ، وسجن ضميرى
حال بينى وبين زيغ الشـباب

[القاهرة] محمد أحمد سالم

حزينة

كالمن الدمع من عيونك ينساب
انسـياب الندى على زهراته
والسنا مطرق على وجهك السا
جى وشـاع العبوس فى لحظاته
والشذى عطله أنفاسك الحرّى
وشـلّ التعب من نفحاته
وتندّى الجبين من نار قلب
خامر الحزنَ وانطوى فى ثُباته
وأذاب الحنـين روحك حتى
فاض كأس الأسى على جنبـاته

أحمد عبد الحفيظ سلوم

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك
الإدارة
رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٨١ الاثنين ١٦ من ربيع الثاني سنة ١٣٧١ — ١٤ من يناير سنة ١٩٥٢ السنة الرابعة عشرة

في ضوء المصباح :

عزمات الإرادة

للدكتور زكي نجيب محمود

ما أسرع وما أهون أن تسرى الفكرة الخاطئة في الناس ، فلا يستطيع بعدئذ أن يشير إلى بطلانها إلا فيلسوف كبير أو طفل صغير ! ذلك لأن الحقيقة كثيراً ما تكون واضحة ناصعة جلية ، يراها كل ذي بصر لم يُعْشه الهوى ، لكن إعلانها — مع ذلك — قد يحتاج إلى فيلسوف جرىء أو طفل برىء ! .

إن من أقاصيص « هانس أندرسن » قصة مشهورة معروفة ، خلاصتها أن حاكما كان مولعاً بالملابس الجديدة ، فأقبل ذات يوم على مدينته محتالان زعما له أنهما يحسنان نسج قماش رقيق جميل ، فيه ميزة عجيبة ، وهي أنه يَخْتفِى على عيون العاجزين والبلهاء ! ففرح الحاكم بما سمع ، وأمرهما أن ينسجا له ثوبا من هذا القماش العجيب ، لأنه عندئذ يستطيع أن يميز في رجال حكومته بين القادر والعاجز ، وأن يعرف من ذا يكون من الناس عاقلا ومن لا يكون .

وأخذ المحتالان ما طلباه من مال ، ثم أخذا يخبطان بالأنوال نهاراً وليلا ، ليوهما الحاكم أنهما جادان في العمل ، والحقيقة أنهما لا يعملان شيئاً ! وبعد أيام أرسل الحاكم وزيره إلى النساجين ليرى كم نسجا ، فأخذ هذان يلوحان بأيديهما في الفضاء ، زاعمين أنهما يشيران إلى قماش منسوج مزخرف ، ولم ير الوزير شيئا ، لكنه لم يجرؤ على إعلان ذلك حتى لا يوصم بالعجز والبلاهة ، وراح يؤيد المحتالين في جمال القماش وجودته .

وسرى نبأ القماش الجديد العجيب بين أهل المدينة ، وأعلن الحاكم أنه سيسير بين شعبه في موكب رسمي يوم يرتدي حُلّته الجديدة ! فلما حان اليوم ذهب الحاكم مع حاشيته إلى مكان النسج ، وخلع ملابسه ليرتدى الثوب الجديد ، وجعل النساجان يحركان أيديهما في الهواء كأنهما يُلبسانه شيئاً ! إنه لم ير في الهواء ثوبا ولا شبه ثوب ، لكنه لم يجرؤ على إعلان ذلك فيوصف بالبلاهة والعجز ، مع أنه صاحب جلالة وفخامة ، وراح بدوره يبدى إعجابه بما لبس ، وينظر إلى نفسه في المرآة مزهواً مغروراً .

وبدأ الموكب الرسمي ، وسار الحاكم بين الناس « عارياً » إلا من أوهامه وأوهام شعبه ، فمن ذا يجرؤ على القول بأنه لا يرى شيئاً ؟ . . . إلا طفلاً صغيراً كان يقف إلى جانب أبيه ، فصاح لأبيه قائلاً : لكن الحاكم لا يرتدى شيئاً !

نقلها أبوه إلى جاره ، وهذا الجار إلى جاره ، حتى ساد الرأى بأن الحاكم عريان الجسد لا يرتدى شيئاً .

والطفل الذى أخرج الناس من ضلالهم حين رأى الحقيقة الواضحة ببداهته الطبيعية التى لم يفسدها له الناس بأوهامهم ، هو كالفيلسوف الذى يرى للناس رأياً واضحاً يسيراً ، فلا يكون فضله عليهم هو أنه أدرك ما لا يستطيعون إدراكه ، بل فضله هو جرأته فى إعلان ما يدركه ويدركونه معه . . . وأى عسر فى أن يقال إن الإنسان من حقه أن يعيش حراً فى رأيه وعقيدته ؟ لكن إعلان هذا الحق قد تلكأ مئات السنين إن لم نقل أُلوفها حتى يعلنه الجرىء فى وجه الطغاة ؛ أى عسر فى أن يقال إن الإنسان من حقه أن يأكل ما يشبعه ويكتسى بما يقيه ؟ لكن إعلان هذا الحق قد تلكأ وما زال متلكئاً . . . . وهكذا قل فى بدائه كثيرة يراها كل إنسان ، أو يستطيع أن يراها إذا أراد ، لكنه ينتظر أول ناعق .

وهل تصدق أن الأمر قد احتاج إلى فيلسوف من أضخم الفلاسفة ليقول للناس : « أنا موجود » ؟! هل تصدق أن وجود الفرد — على بداهته — قد تلكأ إعلانه حتى جاء فيلسوف ؟ لا ، بل إننا حتى هذه الساعة بحاجة إلى فيلسوف وفيلسوف وفلاسفة كثيرين ، ليصيحوا فى الناس بأن الفرد موجود وجوداً حقيقياً ، وليس هو بالشبح أو الظل ، ولا هو مجرد اسم يكتب بالمداد على شهادة الميلاد ، أو مجرد رقم يسجل فى دفاتر هنا أو دفاتر هناك ؛ نحن إلى هذه الساعة بحاجة إلى فلاسفة كثيرين ليقولوا إن الفرد موجود وجوداً مادياً ، وإنه من لحم ودم ، وإن له بطناً يجوع وجلداً يشعر بالبرد ويرتعش ...

لكن الفكرة قد تكون واضحة ناصعة جلية ، ومع ذلك فلا يستطيع إعلانها إلا فيلسوف جرىء أو طفل برىء !

إنه ليروى عن مدام دى ستايل أنها طلبت من فيلسوف ألمانى أن يلخص لها فلسفته فى عشر دقائق ، فلما أجابها الفيلسوف بأن ذلك مستحيل لصعوبة الفكرة وكثرة تعقيدها قالت فى اعتداد : « إن ما لا أستطيع فهمه فى عشر دقائق لا يكون عندى جديراً بأن يُفهم » — وتلك بالطبع مبالغة منها ، لكنها مبالغة تفيدنا فى لفت أنظارنا إلى أن مجرد إدراك الحقيقة النظرية ليس دائماً هو موضع الصعوبة ، بل الصعوبة فى الانتقال من رؤية الحقيقة إلى إعلانها ، أو بعبارة أخرى ، الانتقال من الفكرة إلى العمل ، وفى مضاء العزم يكون الفرق بين إنسان وإنسان ، وبين أمة وأمة .

ما كان أجدر ديكارت أن يقول : « إنى أريد فأنا إذاً موجود » بدل قوله : « إنى أفكر فأنا إذاً موجود » لأن جوهر وجود الإنسان عمل يريده وينجزه لا فكر يديره فى رأسه ؛ فالإنسان فى حياته أشبه ما يكون بالتائه فى جوف غابة كثيفة ، لا يدرى كيف يكون الطريق إلى الخلاء المكشوف ؛ وخير له ألف مرة أن يعقد إرادته على خطة ينفذها ، مهما طالت ؛ كأن يسير مثلاً ناحية الشمال أو ناحية الجنوب بغير ذبذبة ولا تحول ، من أن يظل واقفاً فى مكانه ، أو أن يدور فى دائرة مغلقة ، أو أن يبدأ طريقاً لا يخطو فيه إلا خطوات قليلة ، ثم يحاول طريقاً ثانياً فثالثاً ...

لقد رأيت منذ أيام قليلة مجموعة من أطفال صغار أربعة أو خمسة ، ولا أدرى ماذا أرادوا أن يصنعوا ، لكنى لاحظت أنهم لم يعرفوا كيف ينجزون ما أرادوا ، فسرعان ما اعتركوا وأخذ بعضهم يشد بعضاً من شعر رأسه أو أطراف ثوبه ، فى انفعال شديد ؛ فلم يسعنى إلا أن أرى فى هؤلاء الأطفال صورة مصغرة لنا ، لكنها على كثير من دقة التصوير لحالنا ؛ فلست أعلم كم قضينا من القرون لا نعمل لأنفسنا شيئاً ؛ فلما نهضنا حديثاً وأردنا أن نعمل ، أرتج علينا ، فأخذنا انفعال الأطفال ، وما لبثنا أن اعتركنا بعضنا مع بعض شداً للشعر وجذباً لأطراف الثياب ؛ ذلك لأننا نعرف ماذا نعمل ، لكننا لا نملك الإرادة التى تنفذ ، فلا عجب ألا نجد اختلافاً بين أحزابنا على الأهداف ؛ لأن الأهداف « فكرة » لا يصعب على الطفل إدراكها ، وهل يعجز الطفل عن إدراك الفكرة البسيطة القائلة بأننا نريد أن نستقل عن المستعمر لنكون دولة ذات سيادة كاملة ؟ الفكرة بسيطة واضحة ، بل والطريق إليها قد يكون « معروفاً » كذلك — معروفاً كفكرة ؛ ولكننا حين بدأنا نخطو نحو التنفيذ ، حل بأبداننا خلل تراكم على مر

الصور وطول القعود والركود ، فانتقلت الفاعلية من الأقدام التي تسير ، إلى الحلوق تصيح والأذرعة تلوح في الهواء وتضرب .

تنقصنا الإرادة ، والإرادة لا تكون إلا في شخص يريد . ليس هنالك « إرادة » سابحة في الهواء مع السحاب ، أو « إرادة » تسكن الكهوف مع الأشباح والأرواح ؛ إنما الإرادة تراها في فرد يريد ، فقم الآن واعمل — إنه لتعجبني هذه الأسطر الآتية في رواية « ميديا » لـ « كورني » — ولتلاحظ أن « كورني » في مسرحياته قد جعل عظماءه هم أصحاب الإرادة التي تنفذ وتمضي في غير ضعف أولين — فهذه « ميديا » قد زال عنها كل ما تركن إليه في حياتها ، لكنها تستحضر في نفسها العزيمة والثقة بالنفس :

الوطن يمقتك والزوج خائن

فماذا بقي لك في هذه المحنة السوداء ؟

بقيت لي نفسي .

نفسي وحدها وفيها الكفاية .

ولا نحسبه من فعل المصادفات العابرة أن ينطق أديب فرنسي بهذه الأسطر في نفس الوقت الذي يتحدث فيه فيلسوف فرنسي بمثلها ، وذلك هو ديكارت ، الذي لم يتردد في هدم كل شيء بشكه ، وكأنما ألقى على نفسه مثل السؤال الذي ألقته « ميديا » على نفسها : هأنت ذا واقف بين ركام وأنقاض فماذا بقي لك ؟ فأجاب أيضاً بمثل ما أجابت به « ميديا » بقيت لي نفسي ، « فأنا موجود » .

وتلك بعينها هي وقفات الأبطال في التاريخ الإنساني كله : الأنبياء والمصلحون وزعماء الثورات وقادة الحروب الكبرى ؛ فكل من هؤلاء كان ينطق بلسان حاله ولسان أفعاله ، ينطق في وجه الظروف القائمة قائلا : هذا هو كل شيء قد فسد من حولك ، فماذا بقي لك ؟ وقد كان كل من هؤلاء يجيب لنفسه : بقيت نفسي . وما هو إلا أن يأخذ في التنفيذ والعمل ، البطل الحقيقي لا يملى عليه بل يملي ؛ ومهما صغرت الدائرة التي يفرض فيها الإنسان إملاءه وإرادته ، فهو على كل حال أوفر حياة ممن يتلقى عن غيره ؛ فلو كانت « جان دارك » رأت رؤاها وسمعت أصوات قلبها ثم وقفت عند هذا الحد ، لما كان منها بطلة ولا شبهها ، لأن الراءين والرائيات بأمثال تلك الرؤى والأصوات لا يكاد يحصرهم العد في كل جيل من كل أمة ، والناس يسلكونهم — بحق — في عداد المخرفين ؛ لكن الذي نقل « جان دارك » من هذه الدائرة الدنيا — دائرة التخريف — إلى دائرة البطولة والعظمة النادرة ، هو أنها راحت تعمل وفق أحلامها ورؤاها ؛ قالت لها الكنيسة : تعالي نحقق صدق دعواك ، فأبت أن تذعن لقضاء الكنيسة ، لأن جانب البطولة منها قد أبى عليها أن تنصت لما يقوله الآخرون .

أول خطوات الرجاء — إذاً — أن نطمئن إلى سلامة بناء الأفراد في قوة إرادتهم وقدرتهم على العمل والإنجاز ، أول خطوات الرجاء أن نبث في كل فرد عقيدة قوية بأن الإنسان أقوى ما في الوجود ، إنه أقوى من الوجود كله ، هذا الإنسان الذي يبدو كأنه القصبة النحيلة تهزها الريح ، في يده العصا السحرية التي تتحكم في الطبيعة من أولها إلى آخرها ، وما عصاه السحرية هذه سوى عزيمة ماضية إلى هدفها بالعمل الدءوب .

زكي نجيب محمود

جناية الرِّجل اليمنى

للأستاذ الدمرداش محمد بك

كنت في هذا الأسبوع، أتابع القراءة في كتاب أحمد حسنين باشا، « في صحراء ليبياء » فاستوقف نظري عبارة، وردت ضمناً في سياق وصفه لطريق رحلته بين جبال العوينات وبئر اردى، إذ يقول :—

سحاب صبير. وريح ساخنة قوية من الشمال الشرقي تهب طول النهار، ثم تنقلب عاصفة رمل شديدة في الليل. وأراد محمد، دليل القافلة، أن نسير في هذا اليوم مبكرين، نظراً لوجود « غرد » وعر في سبيلنا، لا يمكننا اجتيازه في الظلام. فقمنا الساعة الرابعة وربعاً مساء. نسير في سرورة منبسطة، خالية من الأعلام، وهب علينا نسيم بليل، من الشمال الشرقي، وشعرت فجأة في الساعة الثامنة بريح تهب في وجهي، فدهشت، لأن الريح لا يتغير اتجاهها في العادة بغتة بهذه الصفة، أضف إلى ذلك أن درجة حرارة الريح لم تتغير. وبالرغم من هبوبها من الجنوب، فإنها لم تكن دافئة، وهكذا كان في الأمر شيء من الغرابة، فرفعت بصري إلى النجوم، ولكن السماء كانت متلبدة بالغيوم من جميع نواحيها، وأخرجت « بوصلتي » وفزعت، إذ رأيت أننا نسير صوب الشمال الشرقي، بدلاً من الجنوب الغربي، فوضح لي أن محمداً طاحت رأسه، كما يقول العرب. فقادنا في الاتجاه المضاد وكانت ساعة عصيبة، تتطلب حذقاً، وحسن تصرف، فإن من الخطر، أن تهدم الثقة في نفس الدليل، ونزلت عن جملي، ثم امتطيت جوادي، وعدوت إلى محمد في طليعة القافلة، وأدركت في طريقي إليه أن رجال القافلة، وبينهم الكثيرون ممن اعتادوا السير في هذا النوع من الصحراء، وألفوا هذا الضرب من الطقس، كانوا يشعرون بأننا أخطأنا الطريق، ولكن آداب الصحراء، تقضي أن لا يتداخل أحد في شأن الدليل، بأية حالة من الحالات، لأن الدليل في الصحراء، كربان السفينة، مطلق التصرف في اختيار وجهة السير ... ولكني كنت أعرف خطر هذه السياسة، فإن الحائرين في مثل هذه الحال، يقضون الساعات يفكرون في حظهم، ويزدادون ضعفاً ويأساً ... وسكنت الريح لحظة، فقلت لمحمد بصوت هادئ فيه نبرة اليقين: « إن هذه الريح تهب من الشمال، شأنها في الأيام الماضية، لأنها لو كانت تهب من الجنوب لوجب أن تكون دافئة، وهذا هو نجم القطب، وهذا طريقنا السوي » وأشرت إلى الموضع الذي يجب أن يكون فيه « الجدي » ما لم تكن البوصلة غير صادقة، ثم درت وأشرت إلى الطريق التي يجب اتباعها، فجمع محمد ما تفرق من نفسه، وقال: « جزاك الله خير الجزاء، إن الصدق ما تقول ».

وما انتهيت من قراءة هذه العبارة، حتى قلت في نفسي، لا والله إن رأس محمد مظلومة، فإنها لم تطح كما ظن حسنين باشا، بل الذي طاح به، وجعله يتخبط هكذا هو رجله اليمنى! — نعم رجله اليمنى، فقد دار المسكين في قوس واسعة — من غير أن يشعر — راجعاً إلى الوراء، وذلك عندما غمّ عليه، بسبب حلول الظلام، واحتجاب نجم القطب الذي يهتدي به في سيره بسبب تراكم السحب.

قلت هذا في نفسي، وأنا أكاد أجزم بصحة هذا الزعم، لسبب واحد وهو أن ما حصل لدليل أحمد حسنين باشا في صحراء ليبياء سنة ١٩٢٣، حصل لي مثله تماماً في رحلتنا إلى الغابة المتحجرة في جبل المقطم قبل ذلك بخمس سنوات. وكادت رجلي اليمنى تودي بي وبصاحبي إلى الهلاك، لولا لطف الله.

ففي أحد أيام شهر فبراير سنة ١٩١٩، خرجت أنا وصديق لي من القاهرة مبكرين في رحلة إلى الغابة المتحجرة الكبرى، كان الجو مشرقاً، والهواء ساكناً، وكل شيء على ما يرام، ووصلنا الغابة الساعة العاشرة، ولم نكد نتأهب للعودة في منتصف الساعة الواحدة، حتى شعرنا بريح شمالية غربية باردة تهب في وجوهنا، ثم تلبد الأفق بسحب كثيفة، وانتشر في الجو ضباب كثيف، ثم سقط رذاذ خفيف وبدأت الشمس تحتجب وراء السحب، فعجلنا بالعودة صوب القلعة في اتجاه الشمال الغربي.

وبعد نحو ساعة بالسير الحثيث ، لحظت أن معالم الطريق قد تغيرت ، فلم أهتم لذلك ، وقدرت أننا ربما نكون قد انحرفنا قليلاً عن الطريق السوى جهة الشرق أو الغرب ، وحاولت عندئذ أن أتبين معالم الطريق جيداً خلال الضباب فلم يتسن لى ذلك لشدة كثافته ، وبعد ساعة أخرى ، أدركت أنى أسير فى طريق لم آلفه من قبل ، فساورنى القلق .

كنا قد وصلنا فى هذا الوقت إلى واد صخرى عميق ، ظننته وادى عيون موسى ، ولكن تبين لنا بعد أن نزلنا فيه أنه غيره ، وهنا أمطرتنا السماء مدراراً ، فتبللت ملابسنا ، وتوحل الطريق ، فتعسر السير ، وبعد ساعة أخرى ، أدركت تماماً أنى أسير على غير هدى . فتملكنى ضيق شديد ، ولكنى وجدت من الحكمة أن أخفى الأمر عن صاحبى ، فكتمت كربى ، وتكلفت الاطمئنان تكلفاً ، ولحظ صاحبى فى وجهى شدة الحيرة والقلق ، فأخذ يشكو الجوع والبرد والتعب ، وزاد الطين بلة أن ثارت فى وجوهنا فى تلك اللحظة زوبعة رملية شديدة ، وهطل المطر كأنه يصب من أفواه القرب ، فعميت عيوننا ، وأصبحنا نرى فى لجة من الماء والوحل .

كنا نسير حينئذ على ظهر جبل عال ، وعن شمالنا واد ، وعن يميننا واد آخر ، وكان الظلام مخيماً فى كل مكان ، وكانت الريح باردة عاتية ، تسفى فى وجوهنا الرمل والتراب باستمرار ، فتعذرت الرؤية ، واشتد بنا الكرب ، وتوقعت فى كل خطوة ، أن نهوى فى هوة ، أو نسقط على الأرض من شدة الإعياء .

طلب منى صاحبى ونحن فى هذا الموقف الحرج أن نأوى إلى ملجأ ، وشكا ما حل به من الإعياء ! فرجوته أن يصبر ، وقلت له إن الليل قد دهمنا ، وليس لنا واق فى هذه الجبال إلا رحمة الله ، وإن الوقوف عن الحركة ضار بنا ، فملابسنا مبللة ، وبطوننا خاوية والبرد قارس ، ثم رأيت أن أهبط إلى الوادى فراراً من شدة الريح ، وبعد أن سرنا فى الوادى قليلا ، أدركت أن لى به معرفة سابقة من بعض الشواهد والعلامات ، ولم ألبث طويلا بعد ذلك حتى تبين لى أنه وادى دجلة ، فأخذتنى نشوة سرور بالغ لا يشعر بمثلها إلا من كان فى مثل موقفنا وحالتنا ، واطمأن خاطرى ، واشتدت عزيمتى ، فأخذنا بطن الوادى طريقنا نحو مخرجه مسرعين الخطى ، وخرجنا من الوادى والساعة التاسعة ، واتجهنا صوب بلدة البساتين ، وأخذنا نجد فى السير ، نشق طريقنا فى ظلام دامس ، وطال بنا السير ، وانتصف الليل ، ولم أصل بعد بلدة البساتين ، فوقفت أنظر حولى ، فإذا نحن لا نزال أمام مدخل الوادى ، حيث كنا منذ كانت الساعة التاسعة ، فاهتاجت نفسى ، وصرخت صرخة عالية مدوية : لقد ضللنا مرة أخرى .

لم يكد صاحبى يسمع هذه الصرخة حتى خارت قواه ، وسقط على الأرض ، وهزته رعدة شديدة ، وأقسم ألا يبرح مكانه . ثم استولى عليه النعاس فنام ، وجلست بجانبه تائهاً حائراً لا أدرى شيئاً . ثم بدا لى أن أعود إلى الوادى ، ملتمساً فيه ملجأ نأوى إليه حتى الصباح ! بيد أنى رأيت ، قبل تنفيذ هذه الفكرة أن أقوم بمحاولة أخيرة ، فخلعت سترتى وألبستها عصاى ، وغرست العصا فى الأرض بجانب صاحبى لأستدل بها على مكانه . ثم صعدت إلى أعلى قمة بالقرب منا وأدرت بصرى فى الجهات الأربع ، فلمحت جهة الغرب وراء الأفق ضوءاً ساطعاً ظننته ضوء مصانع شركة الأسمنت « بالمعصرة » . فهرولت نازلا لأزف إلى صاحبى هذه البشرى ، ولكنى أضعت مكانه . فأخذت أصرخ وأصيح وأنادى كالمجنون ، وأخذت الجبال تردد صدى الصياح بنغم عجيب ، حتى خلت الفضاء حولى يدوى بأصوات الجن والشياطين ، فتملكنى رعب شديد ، وانتابتنى حالة عصبية ، فصرت أبكى وأنتحب بعويل وحرقة . ثم أخذت أعدو على غير هدى ، أتخبط بجوانب الصخور ، وأتعثر بالجلاميد ، فأكبو وأقوم ، وطال بى هذا الحال ، وأخيراً اشتبكت رجلى بجسم صاحبى ممدداً على الأرض ، فارتميت عليه ، فقام مذعوراً ، فقلت له : لقد أبصرت ضوءاً شديداً جهة الغرب سوف يهدينا سواء السبيل . فلم يكترث لقولى ، ويظهر أن النوم كان قد أعاد إليه بعض نشاطه ، فنهض وقال : هيا بنا — ثم اعتمد على كتفى بإحدى يديه ، واستأنفنا السير ، وقد عولت هذه المرة أن ألزم مجرى السيل من غير انحراف ، وبعد سير طويل آخر ، وصلنا محطة « طره » ونحن فى أسوأ حال ، فركبنا القطار إلى محطة باب اللوق وقد انتصفت الساعة الثانية صباحاً .

(البقية على الصفحة التالية)

مصارع الأحرار

قدستُ ذكر مصارع الأحرار
وقبست شعرى من دم الثوار
الذائدين عن الحمى بدمائهم
والشاجبين بها أثرَّ قرار
الحاطمين قيودهم بأكفهم
والآخذين حقوقهم بالنار
من كل « بدرى » الجهاد بهمة الليـ
ث الهصور وعزمة الجبار
يفدى المواطن بالدماء ولا أرى
مثل الدماء مزيلة للعار

* * *

يا أيها الوطن الذى بشبابه
قد شاد صرح خلوده المنهار
لولا القرابين التى قدمتها
لغدوت طعمة « عصبة » أشرار
الواضعين القيد فى أعناقنا
والسائرين بفلكنا لدمار
والكاسبين الخزى بعد عنائهم والصابغين وجوههم بالقار

* * *

قلْ للضحايا الرائدين بحفرة
لم تعدُ غير النسمة الأخيار
الخالدين على الزمان وذكرهم
باقٍ بقاء الكوكب السيار
لولا نضالكمو وسفك دمائهم
لم تنج أمتكمْ من استعمار
قد كان موتكمو الحياة لأمة
تأبى حياة مذلة وإسار

* * *

حرية الأمم الضعيفة دوحة
تسقى ولكن بالدم الموار
وأرى الممالك لا يشادُ كيانها
بسوى جماجم فتية أحرار
جثث الضحايا الطاهرات هى التى
نشرت لواء العدل فى الأمصار

[بغداد] عبد القادر رشيد الناصرى

وفى القطار ، بعد أن هدأ خاطرى قليلا ، أخذت أستعرض ما حلّ بنا فى تلك الليلة السوداء ، وحرت فى تعليل سبب هذا التيهان ، خصوصاً وأنى لم أكن حديث عهد بالمنطقة التى ضللنا فيها .

بعد هذا الحادث بسبع سنين ، كنت أتصفح كتاباً فى الرحلات لأحد الأمريكان ، فوجدته يقول : « من الغريب أن يضل الطريق أدلاء القوافل فى صحراء « جوبى » إذا ساروا فى ليلة مظلمة ، مع أن هؤلاء الصينيين من خير أدلاء العالم ، وقد علل أحد أصدقائى الأطباء الذين عاشوا طويلاً بالصين ، هذه الظاهرة فأرجعها إلى خطأ فى الرِّجل اليمنى ، فقال إن الرجل اليمنى للإنسان والحيوان على حد سواء ، أطول قليلاً من الرجل اليسرى ، أى أن خطوتها أوسع قليلاً من خطوة زميلتها ، فإذا عصبنا عينى الإنسان أو الحيوان بحيث أصبح لا يرى ، وتركناه يمشى فى أرض فضاء ، فإنه لا يسير فى خط مستقيم ، بل يسير فى قوس واسع ، تكون رجله اليسرى نحو مركزه ، ورجله اليمنى على محيطه ، أى أنه يتخذ اتجاهاً دائرياً فى سيره مضاداً لاتجاه حركة عقرب الساعة — ثم أردف قائلا : ويظهر أن هذه الظاهرة قد عرفها الفلاحون من قديم الزمان ، بدليل أنهم يشدّون الماشية معصوبة العينين إلى الساقية ، بحيث يكون وضع أجسامها مساعداً للدوران ، فتكون الرجل اليسرى فوق حافة « المدق » من الداخل ، والرجل اليمنى فوق حافة المدق من الخارج » .

هكذا وضح السبب : إنه رجلى اليمنى قد حرفتنا — من غير أن نشعر — من اتجاه الشمال الغربى ، إلى اتجاه الجنوب الغربى ، بعد أن احتجبت عنى معالم الطريق ، بسبب الضباب والظلام ، ففقدت الاتجاه الصحيح ، وضللت الطريق .

الدمرداش محمد

الشجاعة والحرب

للأستاذ علي أدهم

لاشك في أن الحرب نكبة من أفدح النكبات، وكارثة من الكوارث الكبرى، فهي تجر الويلات على الغالب والمغلوب معاً، وتكبدهما الخسائر الفادحة في المال والعتاد، وتستنزف مواردهما، وتضيع جهود الأعوام الطوال، وتخلف الخراب والدمار، وتفقد الأمم شيئاً أثمن من ذلك كله وأعز وأغلى وهو النفوس البشرية الغالية، وتثكل الآباء والأمهات وترمل الزوجات وتيتم الأطفال وتؤلف الأحزان الموجعة في القلوب! ولكن الحرب برغم هذه الشدائد والنكبات تظهر جوانب في النفس سامية نبيلة، مشرقة بهية، ترفع من شأن الإنسانية، وترد على الإنسان ثقته بها وأمله فيها! فإذا كانت الحرب تطلق الغرائز الهمجية من عقالها وتتيح الفرصة لارتكاب الفظائع والمحرمات، فإنها من ناحية أخرى قد ترفع الإنسان إلى مستوى من الشجاعة والبطولة ونسيان النفس يندر أن يبلغه في الأوقات العادية وفي ظلال الأمن والسلم والاستقرار! ولولا الحرب لخلا سجل الإنسانية من كثير من الصفحات الناصعة والمواقف المشرقة والذكريات التي تثير الحماسة وتهز النفوس، والكثير من حوادث التاريخ وأخباره تروى لنا أنباء الشجاعة وأخبار البطولة والتضحية بالنفس! ولقد أظهرت الحروب المختلفة في الأزمنة المتتابعة إلى أي حضيض من القسوة والوحشية والنكر والفظاعة يمكن أن تنحدر الإنسانية، ولكنها في الوقت نفسه أظهرت المستويات العالية التي يمكن أن يرتفع إليها الإنسان، وطالما أهابت بالصغير المغمور فأصبح كبيراً مشهوراً، وطالما نهضت بالمحب لنفسه المشغول بمصالحه ومنافعه فأنسته حبه لنفسه وأذهلته عن مصالحه ومنافعه وصنعت منه رجلاً عاماً وبطلاً مقداماً، وكثيراً ما تكشف الحرب ما يكمن من النبل والسمو في نفس الرجل العادي فضلاً عن الرجال الأعلياء الممتازين البارزين.

وأخطار الحرب الماحقة ومواقفها الحرجة وشدائدها وآلامها الدامية هي التي تتيح الفرصة لظهور هذه المواهب الدفينة وتثير هذه القوى المدخرة، والحياة كما قال المتنبي في رثائه غلام سيف الدولة:

لا فضل فيها للشجاعة والندى
وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

ولذا يلاحظ أن أكثر صفات المدح التي تخلع على الناس متصلة بالحرب ومستعارة منها، وأسمى الصفات التي يرددها المادحون من الشعراء في الأدب العربي ويشيدون بذكرها هي الشجاعة قبل كل شيء ثم الكرم، والكرم نفسه في رأي بعض هؤلاء الشعراء ضرب من ضروب الشجاعة كما في قول مسلم بن الوليد:

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وفي معظم آداب الأمم القديمة كانت الشجاعة في طليعة الصفات المحبوبة التي يشار إليها وينوه بها ويتغنى بذكرها. والشعر بطبيعته كلف بالمثل الأعلى، موكل بكل مظهر من مظاهر السمو النفسي، وليس أحب إلى الشعر من الشجاعة لأنها تطلق الإنسان من إسار الهموم الصغيرة والمطالب التافهة الحقيرة، وتسمو به فوق الضرورات والشهوات، وتثبت أن الروح أسمى من الجسد وأجل منه شأناً، وأن الإنسان أفضل من الحيوان، والشجاعة تنتصر على الخوف من الموت وبخاصة حينما يدافع الإنسان عن كيان بلاده وشرف أمته ومنزلة قومه، ونحن جميعاً نحب أقاصيص الشجاعة والإقدام وروايات البطولة والحب، واهتمام الإنسانية بهذين النوعين من أنواع القصص والروايات لا ينتهي ولا ينفد ولا يفتأ يتجدد.

وفي الجماعات البدائية كان هذا اللون من ألوان الشجاعة أول مظهر من مظاهر الشجاعة، وكان الحب كذلك في أول طور من أطواره، وفي افتخار الرجل البدائي بشجاعته وقتله للأعداء والخصوم واحتماله للشدائد وتمرسه

بالصعاب نفحة من نفحات الأخلاق ، وذلك لأنه يدافع عن قبيلته ويتعصب لها ويفنى نفسه من أجلها . ولما تقدمت الحضارة ظهر نوع أسمى من أنواع الشجاعة ، وهو دفاع الإنسان عن أمته ؛ وفي تاريخ اليونان أمثلة باهرة رائعة لهذا النوع من أنواع الشجاعة ، فقد دافع اليونان جموع الفرس الحاشدة وجيوشهم الجرارة ، وردوا غاراتهم على بلادهم ، وصانوا حريتهم وحافظوا على استقلالهم ، وفي معركة ماراثون وبلاتيا وسلاميز استبسل اليونانيون في الدفاع عن وطنهم ، وقدموا للإنسانية أمثلة مجيدة خالدة في الدفاع عن الأوطان وهزيمة الطغيان ؛ وفي تاريخ نشأة الإسلام أمثلة سامية في الدفاع عن العقيدة والإيمان بالمبدأ ، وقد استطاع المسلمون الأوائل بقوة الإيمان وتأثير العقيدة الاستيلاء على جزء كبير من العالم القديم في أقصر مدى مستطاع ، مما لا يزال موضع دهشة المؤرخين ومثار تساؤلهم وحيرتهم .

وقد جاءت الديانة المسيحية ودعت إلى السلام والمحبة في الأرض ، وخلقت لونا خاصا من ألوان الشجاعة ، وهي شجاعة الحب والاحتمال والصبر والجلد والتضحية ، لا شجاعة المقاومة وهزيمة الاعتداء والانتصار على الخصوم ، وعندها أن الناس أخوة في الحب لا يفرق بينهم الجنس ولا اللون ولا اللغة وليس فيهم خصم ولا عدو ، والذي يريد الانتصار يناله عن طريق الاحتمال الصامت والصبر على المكاره والقدرة على معاناة التضحية ، وأكدت المسيحية في مبدأ أمرها هذه الفضيلة وأكبرت أمرها واعتبرت جهاد الجندي — حتى الجندي الذي يحارب في الدفاع عن بلاده ومناصرة أسمى الأهداف — مباشرة لعمل غير مقدس ، ولقد أمر الناس بإلقاء السلاح فكيف يشهرونه ويخوضون الحرب ؟ وقد سار على ذلك تولستوى وذهب هذا المذهب وقال في العصر الحديث إن الشر لا يدفع ولا يقاوم وإنما يحتمل ويصبر المبتلى به على احتماله في غير مدافعة ولا مقاومة ولا محاربة ولا منازلة .

وقد ظهرت في العصور الوسطى شجاعة الفروسية ، وقد تأثر فيها المثل الأعلى الفارس بالمثالية المسيحية ، فكان على الفارس أن ينتصر للفضيلة ، ويدافع عن الضعفاء ، ويحمى النساء ، ويأخذ بيد المظلومين ، وكان هذا المثل الأعلى الفارس مما ساعد على ظهور « السيد » أو « الجنتلمان » في العصر الحديث .

وبانقضاء العصور الوسطى هبطت قيمة المثل الأعلى للفروسية وأصبح الفارس مثاراً للضحك والسخرية ، ورواية دون كيشوت تمثل هذا الطور من أطوار الانتقال .

وظهرت الدول الحديثة على أنقاض العصور الوسطى ، فطالت مع ظهورها النزعة القومية على النمط اليوناني والروماني ، وأصبح دفاع الجندي عن بلاده من أسمى ألوان الشجاعة ، وذلك لأن القوميات الجديدة لها أهدافها المتنافسة ومصالحها المتعارضة ، ومطالبها المتنافرة ، ومطامعها وتطلعاتها ، فلا بد لها من الاحتكاك والتصادم والحرب ، والدولة على الفرد حق حمايتها وإعلاء شأنها والدفاع عن مصالحها وتحقيق أهدافها والذود عن حقوقها ، وعلى الفرد أن يلائم بين واجباته للإنسانية وخدمتها وواجباته للوطن والقومية .

ولكن هل يمكن الملاءمة بين الاثنين ؟ وهل يمكن التوفيق بين مبدأ القومية ومبدأ محبة الإنسانية والإخلاص لها ؟ أما تولستوى فإنه يرى استحالة الملاءمة بين المذهبين ، وقد أراد الرجوع إلى مسيحية خطبة الجبل التي تنصح الناس بأن يحبوا أعداءهم ويمتنعوا عن مقاومة الشر بالشر ، ويدعو تولستوى إلى استسلام الفرد والأمة ، ويعارض في التسليح وتكوين الجيوش ، ويرى أن أوربا قد نبذت المسيحية لأنها نبذت فكرة الواجب واستمسكت بفكرة المطالبة بالحق ، وما دامت الحياة الاجتماعية والحياة السياسية والحياة الأممية بوجه عام تقوم على المنافسة والتسابق بين الأفراد والأمم ، وما دامت تفسح مجال الفرص للحرب والعنف والطغيان فإنها قائمة على أساس وثنى وليست من المسيحية في شيء .

فكيف نوفق بين فكرة الإنسانية والفكرة القومية ؟ إن روابط القومية مثل صلات الأسرة في محيط الحياة الاجتماعية تستلزم حماية الوطن والقومية ورد هجوم الأعداء عليه والتضحية بالراحة والمال والحياة من أجله ، ولكن الأسرة والقومية جزء من الإنسانية الشاملة ، والكل أعظم من الجزء ، وأجدر منه بالرعاية والاهتمام ، ورقى الإنسانية وتقدمها وتوفير أسباب الخير لها هي أسمى الأهداف ،

ولكن لامفر لنا من أن ننتظر هذا اليوم الذى تصبح فيه الحرب وسيلة بغيضة غير مشروعة من وسائل تسوية أسباب الخلاف وحسم دواعى النزاع والصراع ، وأن نعمل تحقيق ذلك غاية من غاياتنا وأملاً من أعز وأسمى آمالنا ، ولكن السعى لهذه الغاية لايمكن أن يقوم به جماعة من الناس قد فقدت حريتها واستقلالها وأصبح زمامها فى يد غيرها وصارت تساق سوق الأغنام والأنعام ، والذى يعمل لتحقيق آمال الإنسانية لابد أن يكون حراً غير مغلوب على أمره ، وقد اشتبكت المصالح فى عصرنا هذا وقربت المواصلات مابين الأمم المتباعدة المختلفة ، وأصبحت نكبات الحرب وأزمات الاقتصاد وكوارث الأحداث الطبيعية التى تصاب بها أمة من الأمم تؤثر فى سائر الأمم ؛ وحقيقة أن هذا التقارب من ناحية أخرى قد أظهر الفروق بين العادات والتقاليد وأساليب الحياة والتفكير فى أول مراحله ، ولكن أغلب الظن أنه فى المدى المتطاول سيكون مدرجة لقضاء على أسباب سوء التفاهم ووسيلة لتأكيد العلاقات الحسنة ، ويكشف لنا أن مابين الأمم المختلفة من دواعى التفاهم والتقارب والاتفاق أكثر مما بينها من أسباب التقاطع والتدابر والتناكر ؛ والأمم تحيا مادام أبناؤها مستعدين للقاء الموت فى سبيل حمايتها ، وهذا هو معنى الوطنية الحقة ، وقد لاتمحى جميعا للتضال ، ولكن لا أقل من أن نجعل مصلحة الوطن والأهداف القومية فوق المصلحة الخاصة والغايات الشخصية ، وإنما يذود الناس عن بلادهم ويحمون حوزتها لتصبح عاملاً صالحاً فى خدمة الإنسانية ، أما القومية المتدنية المزهوة المنحرفة عن الأهداف الإنسانية فإنها نكبة على نفسها وعلى العالم ، وربما كان العالم اليوم فى مفترق الطريق بين القومية المتطرفة الطامعة الجشعة والقومية المستنيرة المتحدة الإنسانية النزعة . ويرى تولستوى أن واجب الإنسان نحو الإنسانية يقتضى أن لا يحارب من أجل وطنه وقومه ، ولذا يبشر بفكرة عدم المقاومة والامتناع عن العدوان ، ويدعو إلى الاستمساك بشريعة الحب العام الشامل ؛ والواقع أن القومية ليست غاية فى نفسها ، وإنما هى وسيلة لغاية أخرى أتم وأعظم وهى الوحدة الإنسانية ، ولكن مادامت هناك خلافات تعوق قيام هذه الوحدة فإن مصلحة الإنسانية نفسها تقتضى العناية بشئون الوطن والدفاع عن القومية . والمخلصون للإنسانية ينتظرون الوقت الذى تتحد فيه الأمم وتبطل الخلافات بينها ، ولكن هذا لايتم ولا يتحقق إلا عن طريق الحرية والكرامة والاستقلال ، وتمسكنا بقوميتنا وكرامتنا واستقلالنا هو الذى يمكننا من أن نكون عاملاً فعالاً وقوة مؤثرة فى خلق هذه الحكومة العالمية الشاملة . والعالم يسير بخطوات بطيئة متعثرة فى هذا السبيل ، وإخفاق المحاولات الأولى قد لا يكون معناه الإخفاق النهائى ، فإن المطلب جسيم والغاية كبيرة . وكلما تقدمت الحضارة وازداد خطر الحرب وعظمت كوارثها أصبحت الأسباب التى تدعو إلى التوحيد والترابط والتماسك أكثر من الأسباب التى تدعو إلى الفرقة والشتات والنزاع ، وينبغى أن لا ننسى أن الأمم تطول حياتها وتسمو مكانتها حينما يستعد أفرادها للموت ويستعذبونه فى سبيل الحق والواجب .

على أدهم

تطبيق نظرية التطور

على الاحتلال البريطانى لمصر

للأستاذ محمد مفيد الشوباشى

يضطرنا تطبيق نظرية التطور على الاحتلال البريطانى لمصر إلى تناول أساس هذه النظرية بالشرح المقتضب مرة أخرى حتى يسهل على القارئ تتبع هذا البحث .

سبق أن قلنا فى بحوث سابقة إن الموجودات ، ماديها ومعنويها ، تشتمل جميعاً على تناقض لا تكف لحظة عن التفاعل والتصادم اللذين يتهيآن دائماً بتغير الأوضاع ... وهكذا يحدث التطور . ولزيادة هذا القول بياناً وتحديداً نقول إن كل موجود مادى أو معنوى ، يشتمل على نقيضين ، أولهما البادى للعيان ، وثانيهما المستتر الذى يكافح الأول ليقضى عليه ويحل محله ، ويظل الكفاح ناشباً بينهما حتى يتغلب الثانى ، ويسمى النقيض السالب ، على الأول ، ويسمى النقيض الموجب ، ويستهلكه ويحل محله ، فيقع عندئذ التطور . ثم يظهر نقيض جديد اشتمل عليه النقيض المنتصر ، وتتجدد بينهما المعركة على غرار ما سبق ، وينتصر النقيض الجديد فيقع تطور جديد ... وهكذا تسير الأمور .

وكل موجود مكون من شكل ظاهر ، ومن لب يشتمل عليه ذلك الشكل . وقد جرى المشتغلون بالفلسفة على تسمية اللب « المضمون » . فالقالب هو المظهر الخارجى للنقيضين المتصارعين ، والمضمون هو ازدواج النقيضين وتصارعهما . وحين ينتصر النقيض السالب على الموجب ويقع التطور ، يتحتم على القالب أن يعدل وضعه أو يتبدل ليلائم مضمونه ...

لست أنكر الغموض الذى يكتنف هذا الشرح المقتضب ، ولكنى زعيم أن تطبيقه على الواقع سيجلى غوامضه ... فإذا حاولنا أن نتبين من الاحتلال البريطانى لبلادنا قالبه ومضمونه ، فلعل من السهل أن نرى أن قبضة النظام الاستعمارى هى القالب ، وأن الكفاح الناشب بين قوى الاستعمار وبين مقاومتنا الشعبية هو المضمون ، ولن يخفى علينا كذلك أن محاولة الاستعمار الاحتفاظ بنفوذه هى النقيض الموجب المقضى عليه بالزوال ، وأن مقاومة الاستعمار هى النقيض السالب الذى لا بد أن يعقد له النصر فى النهاية ... على أن هذا القول مقتضب بدوره ، وفى حاجة إلى شرح مسهب لتتضح معالمه كل الوضوح .

إن التناقض بين الكبت الاستعمارى وبين ما يتولد عنه من التألب عليه لرفع نيره ، ودفع غوائله ، هو التناقض العام الذى يكتنف مشكلة الاستعمار الرئيسية . ولكن هناك تناقضات أخرى تتصادم فى نطاق المشاكل الجزئية المتفرعة عن تلك المشكلة الرئيسية . وسنقصر هذا البحث على بيان بعضها .

من البديهى أن الاستعمار البريطانى لمصر ينوى استغلالها على أوسع نطاق ممكن ، وعلى ذلك يجد نفسه أمام نقيضين متضاربين : أولهما العمل على الحيلولة دون خلاص البلاد من الفقر والجهل ليطمئن إلى بقائها فى حوزته ، وثانيهما تنمية مواردها ، والاستعانة بأهلها على ذلك حتى يحقق ما يصبو إليه من استغلالها على الوجه الذى يرضى جشعه . وهكذا وجد نفسه منذ أول عهده باحتلال البلاد أمام مشكلة هذين النقيضين اللذين لا محيص من تصادمهما . فلم تر حيلة إلا أن يعمل على تأجيل وقوع ذلك التصادم ، ثم التخفيف من حدته حين وقوعه على قدر إمكانه .

وجدت بريطانيا أن أغنى ما يمكن الحصول عليه من خامات مصر ، وأيسره منالا ، هو قطنها . وكانت المصانع البريطانية فى أشد الحاجة إلى قطن مصر الذى لا تجود تربة غير تربتها بمثله . فلم يلبث الاستعمار أن ظاهر حركة استصلاح الأراضى المصرية ، وشق الترع الجديدة ، وبناء القناطر ، وجلب آلات الفلاحة وأرى لزيادة التوسع الزراعى إلى أقصى ما تحتمله طاقة البلاد .

وعلى الرغم من تحكم بريطانيا فى تجارة القطن المصرى ، وشرائها ذلك المحصول بأبخس الأثمان ، فقد أخذ النقيض السلبى يبدو للعيان ، إذ لم يكن بد من أن يسفر التوسع الزراعى

من الازدهار الاقتصادى الذى يخشاه الاستعمار . ثم نشبت الحرب الكبرى ، وأعقبتها الحرب العالمية . وأدت نفقات هاتين الحربين الجنونية إلى ارتفاع ثمن القطن ارتفاعاً فاحشاً ، فزاد ذلك من رخاء مصر الاقتصادى برغم ما أقيم فى سبيله من عقبات .

فلما إن حياة الاستعمار تتوقف على بقاء البلاد المستعمرة فى ربقة الجهل والفقر . وقد حاول الاستعمار البريطانى أن يبقينا فى أسر حليفيه الذكورين . ولكن سنة التطور أفسدت خططه . وانتهت إلى المأزق الذى حاول تلافيه ، وهو وشك خلاص مصر من نير الفقر وما يترتب عليه من خلاصها كذلك من نير الجهل . فعمد إلى التخفيف من حدة ذلك المأزق على قدر إمكانه . ولذلك أخذ الأمر أهبتـه من بادئ الأمر ، فشجع تجار القطن وسماسرته الأجانب على استغلال ملاكه واستخلاص نصيب الأسد من أرباحه لأنفسهم ! ثم إنه عمل على إبقاء الجانب الأكبر من ثروة البلاد فى أيدى نفر قليل من الأغنياء . وتوقع من وراء تجمع الثروة فى أيدى التجار الأجانب والسراة المصريين أن ينال تأييد هؤلاء ، وأن يزداد سواد الشعب فقراً وعجزاً . وأن يساعده غنى الأغنياء على فتح سوق مصرية تستطيع أن تستوعب أكبر كمية مستطاعة من إنتاجه الصناعى . فيوفق بذلك بين النقيضين السابق الذكر على قدر الاستطاعة . فيتم له تحقيق هدفه الاستعمارى المصور فى استيراد الخامات المشتراة من المستعمرات بأبخس الأثمان ، ثم إعادة تصدير السلع المصنوعة منها إلى تلك المستعمرات وبيعها فى أسواقها بأبهظ الأثمان . ويظل متمكناً فى الوقت نفسه من ضرب نطاق فولاذى من الفقر والجهل حول سواد الشعب .

وقد اعترض سبيله تناقض آخر ، فقد ألفى نفسه فى حاجة إلى مساعدة فئة من أبناء مصر للوصول إلى ما كان يستهدفه من تنمية موارد خاماتها ، وتهيئة جو من الاستقرار لتحقيق تلك الغاية . ورأى ضرورة تعليم أولئك الذين سيحتاج إلى عونهم ، فطالعه نقيضان يستحيل التوفيق بينهما ، وهما ضرورة خنق التعليم من جهة . وضرورة التوسع فيه من جهة أخرى . وقد حسب أنه يستطيع الخروج من المأزق الجديد بوضع منهج للتعليم فى مصر لا يؤدى إلا إلى إمداد الدواوين بما تحتاج إليه من كتبة وفنيين .

ولكن سنة التطور حطمت السدود التى أقامها الاستعمار فى سبيلها . فتجاوز الازدهار اقتصادنا الحدود المرسومة له ، وأخذ الموسرون منا يشعرون بوطأة النير الأجنبى ، ويدركون مدى عرقلته لاطراد يسارهم ، ومدى نيله من نفوذهم وسلطانهم . وحطه من أقدارهم وكراماتهم . فهو يستغل موارد بلادهم ، ويحتس خيراتها فلا يترك لهم غير النفاية ، وهو يكاد ينفرد بالحكم فلا يترك لهم منه غير ألقاب الشرف ، وهو لا يكتم استهانته بأمرهم ، واستصغاره لشأنهم . ولم يطل صبرهم على ذلك الضيم والغبن ، فأخذوا أول الأمر يقاومونه خفية ، ثم قاوموه جهراً ولكن فى حذر وتهيب . ولم تزل مقاومتهم له تقوى وتشتد حتى انتهت أغلبيتهم إلى الهبوب فى وجهه ، مجاهرة بعدائها له ، مصممة على الخلاص منه . وتجاوبت نزعتهم هذه مع نزعة سواد الشعب الذى هب من رقاده ، مطالباً بحقه فى الحياة الحرة الكريمة . وأخذ نفوذ الأجانب يتقلص على أثر ازدياد الوعى القومى ، ومنافسة المصرى الأجنبى فى كل ميدان من ميادين العمل والإنتاج ، ثم لم تلبث الجاليات الأجنبية أن شعرت بالضعف الذى اعتورها ، لا سيما بعد تصدع سندها ونصيرها ، وهو الاستعمار ، فلبثت تماشى مصلحتها ، وجارت الوضع الجديد ، فتخلت عن حليفها القديم ، وانحازت إلى الوطنيين الذين ناصبوه العداء ... وهكذا رجحت كفة النقيض السالب فى هذا الكفاح على النقيض الموجب ، فسار اقتصادنا وثقافتنا فى طريق التقدم برغم مناهضة الاستعمار لها .

واشتمل موقف شعب مصر حيال الاحتلال البريطانى فى أول عهده على نقيضين كذلك : أولهما وهو الموجب كان يبدو فى استسلام المصريين الغاصب ، والثانى وهو السالب كان يكمن بين الجوانح ، ويتمثل فى التشوف إلى الحرية والاستقلال ؛ ولم يكن بد أن يحدث بطش الغزاة بالمصريين أثره ، وأن يحملهم ، وهو فى إبانه ، على مسالمته إيثاراً للعافية والسلامة ، فقد كان يبدو أن مقاومته غير مجدية ، وأن التسليم بالواقع خير من التعرض لمكاره ليس من ورائها طائل ، فسلس الأمر حينذاك للمستعمرين ، ولم يغب عنهم أن تلك الحال لن تدوم إلا إذا احتفظوا برهبتهم ورعب المصريين منهم . فحرصوا على التنكيل بالمصريين بين الحين والحين توخياً لتلك الغاية . وفاتهم أن سياسة البطش تشتمل هى كذلك على نقيضين متعارضين ، فهى

قد تخمد المقاومة فى الظاهر ، ولكنها تضرم أوارها وتعدها للانفجار .

وقد بلغ من تسليم المصريين بالأمر الواقع فى بدء الاحتلال أن كرهوا الجندية ، وتحايلوا للخلاص من انتظامهم فى سلكها . وكرهوا التعليم حتى إنهم كانوا يساقون إلى دور العلم كرهاً . ولم يعد لهم هم إلا أن يظلوا على الحال السيئة التى كانوا عليها .

ولكن النقيض السلبى أخذ فى الظهور والاشتداد شيئاً فشيئاً . فقد أخذ الخوف الذى تملك المصريين فى إبان الاحتلال يفقد حدته ، وظلت مظالم الاستعمار ومخازيه تتكشف وتزداد وضوحاً يوماً بعد يوم ، وأدت سياسته الاستعمارية إلى ازدياد فقر الشعب برغم تضخم ثروات الأجانب وفئة من الأهلين . ثم وقعت الحربان الكبريان فبلغت الأزمة أخطر مراحلها ، إذ اضطر المستعمرون إلى استغلال مصر استغلالاً مباشراً بعد أن كانوا يستغلونها من طريق غير مباشر . ولم يكتفوا بالاستيلاء أثناء تينك الحربين على الغلات والدواب والمساكن ووسائل النقل وغير ذلك من حاجياتنا ووسائل عيشنا ، ولكنهم ساقوا الألوف المؤلفة من أفراد شعبنا إلى معسكراتهم حيث اتخذوا منهم خدماً وعبيداً . وقد تطور الوعى الوطنى وازداد حدة تحت ضغط تلك الظروف . وما تولى القرن التاسع عشر وهلت بشائر القرن العشرين حتى ظهرت بوادر الثورة على الاستعمار بين الجيل الناشئ من طلبة كلية الحقوق ، وعبر مصطفى كامل عن العواطف والخوالج التى كانت تضطرم فى صدور شبابنا ، إذ طالب بحق مصر فى استرداد حريتها وسيادتها . وسرعان ما التف حوله أبناء مصر شيوخاً وشباباً ، وضموا أصواتهم إلى صوته ، منادين الغاصب أن يرحل إلى دياره ، ويترك البلاد لأهلها .

وما تحولت الوطنية المصرية من عاطفة مكتومة إلى جهاد سافر فى سبيل تحقيق غاياتها حتى أخذت عقلية المصريين تتطور ، وميولهم تتبدل ، وما هى إلا سنوات حتى طفق أبناء مصر يقبلون على دور العلم اختياراً ، ثم يتزاحمون على أبوابها ، حتى اضطر القائمون على أمر التعليم ، تحت وطأة ذلك الضغط ، إلى زيادة عدد المدارس وتنويع الدراسات ؛ ثم أنشئت الجامعة ، وتعددت كلياتها ، واتسع نطاقها ، وكبر شأنها . ثم أنشئت جامعات أخرى لا تقل شأناً عن الجامعة الأولى . واندفع شباب مصر إلى الجندية كما اندفعوا إلى التعليم ، وظلت حماستهم تزداد تأججاً حتى انتهت بهم إلى ما نشاهد اليوم من الإقبال على التطوع فى كتائب التحرير ؛ وبذلك يكون النقيض السالب قد تغلب هنا أيضاً على النقيض الموجب ، واستهلكه وحل محله .

ولا يحسبن قارئ من القراء أن اضطرارنا فى هذا البحث إلى تجزئة موضوعه إلى أجزاء توخياً للوضوح ، يعنى انعزال كل نقيضين من النقائض الأخرى ، واصطراعهما على حدة ، فإن التصادم والتفاعل بين النقائض يشملها جميعاً ، وكل ناحية من نواحى الصراع تؤثر فى غيرها ، ومجموع النقائض يكون وحدة غير منفصلة ، والصراع الرئيسى فى نهضتنا الوطنية يدور بين الشعب المصرى والقوات المحتلة ؛ والمصادمات الجزئية بين المتناقضات التى تحدثنا عنها متصلة اتصالاً غير منفصم بالصراع الرئيسى ، وقد أدت إلى نشوب ثورة عام ١٩١٩ ، ثم إلى الكفاح الدموى الذى استمر بعد ذلك بين الشعب المصرى وقوات الاحتلال .

وقد قلنا فى أول هذا المقال إنه إذا بلغ تطور المضمون مرحلة التغير فإن القالب يجب أن يتغير هو كذلك ليلائم المضمون الجديد ، وقد اضطر النظام الاستعمارى ، وهو القالب فى موضوعنا هذا ، أن يعدل نفسه مرتين ليلائم المضمون المتغير ، وأولى المرتين حين اضطر إلى الإدلاء بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، وثانيتهما حين أبرم معاهدة ١٩٣٦ ؛ ولكن المضمون قد تغير اليوم تغيراً كلياً وآن أن يتحطم قالب الاستعمار تحطماً كلياً ، ليحل محله استقلال البلاد استقلالاً كاملاً .

ونستطيع على ضوء ما تقدم أن نقول إن الذين ينسبون إلى المحتلين أنهم أفادوا البلاد ، وأن عهدهم كان عهد عدل وإنصاف ، قوم مغرضون ، أو مغرقون فى السذاجة ، وأن الذين يزعمون ألا قبل لنا بمقاومة الاستعمار البريطانى ، وأنه أولى بنا أن نهادنه ونتفاهم معه اتقاء لشره ، وأملا فى تخفيف وطأته ، يمثلون النقيض الرجعى ، والذين يقاومون الاستعمار ، ويعملون على تخليص البلاد من قبضته ، ولا يكنون له غير البغض الناجع يمثلون النقيض التقدمى ؛ ولعل كل فريق من هذين الفريقين قد ازداد بعد قراءة هذا المقال معرفة بنفسه وبالفريق الآخر .

محمد مفيد الشوباشي

روسو وعقيدته الدينية

للأستاذ إدوار مقسى

[قرأت أن أسقفاً حكيماً وجد فى أبرشيته أثناء زيارته لها امرأة عجوزاً كانت ، لتصلى ، لاتعرف من القول غير « أوه ! »... فقال لها : « أيتها الأم الطيبة ، داومى على الصلاة هكذا ، فإن صلاتك تفوق صلواتنا فى القوة . إن هذه الصلاة هى أيضاً صلاتى .]

روسو (١)

أصدر برلمان باريس مرسوماً بتاريخ ٩ يونيو عام ١٧٦٢ بالقبض على جان جاك روسو وإحراق مؤلفه « إميل » . فهرب روسو فى ليلة ٩ — ١٠ يونيو متجهاً صوب سويسرا ، أرض الحرية ، كما قال ، ومزق « إميل » فى الحادى عشر وأحرق علناً فى سراى العدل بباريس ، وفى التاسع عشر من نفس الشهر صادرت جمهورية جنيف نفس الكتاب وأحرقته ، وحذت برن حذوها ! فكان لزاماً على المفكر المظلوم أن يلجأ إلى فردن ، ثم إلى فال حيث استقر به المقام فى العاشر من يوليو ، ولكن تأبى الأقدار إلا أن يشقى هذا الرجل ويلقى عنتاً ! فقد هاجمه رئيس أساقفة باريس ، كريستوف دوبومون ، بمنشور أشار فيه إلى خطورة هذا الرجل ! وكان هذا فى الثامن والعشرين من أغسطس ، مما حدا بروسو فى مارس من العام التالى إلى كتابة « رسالة إلى كريستوف دوبومون » ليبرئ نفسه ليس أمام رئيس أساقفة باريس وحسب ، ولكن أمام معارضيه ومهاجميه جميعاً ، ثم جاء دور النائب العمومى ترونشان فى أكتوبر عام ١٧٦٣ حينما كتب ضد روسو « خطابات مكتوبة من الريف » ، وعليها رد روسو بـ « خطابات مكتوبة من الجبل » فى عام ١٧٦٤ ، ولكنه اضطر بعد عام ، وقد طرد من موتييه مرجوماً بالحجارة ، إلى الهرب إلى جزيرة سان بيير ، ثم إلى ستراسبورج ، ثم إلى باريس ومنها إلى لندن ، فوصلها عام ١٧٦٦ ، حيث استضافه لما يقرب من العام دافيد هيوم الفيلسوف الإنجليزى المعروف .

* * *

واضطهاد الفكر لا يقتصر على زمان دون زمان ولا على بلد دون بلد . فطالما أن هناك تفاوتاً فى التفكير ، فهناك تفاوت فى الفهم . وليست عقول الناس سواء حتى تقبل شيئاً بعينه أو ترفض شيئاً بذاته . ومن هنا جاء امتياز بعض الناس على بعضهم الآخر ، وهم قلة ، وتفوقهم عليهم . ولكن الذى يدعو إلى التأمل ، التأمل الممزوج بالأسف والإشفاق حقاً ، هو شقاء هذه القلة الممتازة المتفوقة التى وهبها الله عقلا طليقاً وتفكيراً حراً بين قوم لا يريدون أن يعقلوا ولا أن يفكروا ، وكأنهم فى تعودهم رأياً قديماً أو عقيدة قديمة قد اكتسبوا مناعة ووقاء ضد ما يظهر عليهم من جديد الآراء والعقائد . فمن الصعب بمكان حقاً أن تفاجئ قوماً بوجهة نظر جديدة فيما تواضعوا عليه من آراء وعقائد ، وتسألهم لا الأخذ بها ، فهذا بعيد الاحتمال كل البعد ، ولكن مجرد العلم بها وبحثها . إن البطل حقاً هو من لا يهاب معارضيه فى الرأى والعقيدة ، من لا يتخاذل وينكص أمام تسفيههم إياه وسخريتهم به واضطهادهم له .

أما روسو فقد كان بطلا حقاً . فلقد أعلن إقرار إيمانه وهو يمثل أكثر الكتاب الرابع من مؤلفه « إميل » الذى كان السبب فى تشريده خارج فرنسا ثم خارج سويسرا ، أعلنه صريحاً واضحاً جلياً وهو يعلم أنه يعارض به رجال الدين فى زمانه كما يناهض به آراء الفلاسفة أو من كانوا يحشرون فى زمرة الفلاسفة والفلسفة منهم براء .

أتعرف أيها القارئ ، أنسب تشبيه يمكن أن ينطبق وتصوير « المعتقدات القديمة » ؟ لقد بحثت كثيراً عن هذا التشبيه فلم أوفق إلا إلى الذى ورد فى رأسى على الأثر : إذا مررت بطريق مقفر ساكن وصادفت فيه بيتاً قديماً مبنياً على طراز عتيق ، عششت فى زواياه العناكب وحلقت حوله الخفافيش وسقط عن جدرانه الطلاء ، ولم يبق من نوافذه إلا بعضها ، ووقفت فى شرفاته الآيلة للسقوط نسوة عجائز صامتات يرتدين السواد ، إذا رأيت هذا المنظر فى مجموعه

(١) الكتاب الثانى عشر من الاعترافات

قبل للتو ، دون أن تتورط في الخطأ ، إن هذا البيت بمن فيه يشبه إلى حد كبير : المعتقدات القديمة !

وروسو في بحثه عن « معبوده » ، في بحثه عن معتقد يلوذ به ويأوى إليه ، لم يلجأ ، كما يصنع الناس عادة ، إلى هذا البيت القديم الذى حدثتك عنه والذى لولا ترميمه الدائم لتداعى وانهار ، ليأمن أعاصير الشك التى تنتاب البشرية جمعاء في ساعة من ساعات قلقها وحيرتها ؛ لا ! فلم يلجأ روسو إلى معتقدات سابقيه ، هذه المعتقدات التى تضافرت الأجيال في بنائها حجراً حجراً ، والتى تذهب أسسها في الأرض إلى عمق سحيق .

ومع كل ، فلم يهدم روسو هذا البيت القديم المتداعى ، بل تركه كما هو غارقاً في ظلامه وظلاله ، واتخذ لنفسه قطعة من الأرض فضاء في جوار، تغمرها الشمس ، وبدأ يبنى لنفسه بيتاً خاصاً على ذوقه ومزاجه : بدأ يبنى فوق صفحة قلبه البسيط النقى معتقده الجديد ، بعيداً عن تأثير معاصريه ، ساخراً من غطرستهم ولغوهم .

أجل . فعندما أراد روسو أن « يؤمن » تخشى جانباً اتصاله بالصوفة التى ينتمى إليها ، وتناسى العقيدة التى يدين بها ناسها ، وتجاهل الأرض التى يعيش عليها معهم ، كما أشاح بوجهه عن الفلاسفة الذين ينشرون آراءهم في وجود الله وخلود النفس وهم متبجحون ، يدافعون عن آرائهم وإن كانوا في شك من صحتها غالباً ؛ ولقد قصر روسو أبحاثه على ما يهمه مباشرة مستنيراً في ذلك النور الباطنى ؛ عندئذ وجد روسو أن أولى الأفكار وأكثرها ذيوعاً هى في الوقت نفسه أبسطها وأكثرها موافقة للعقل ، المسألة كلها إذاً هى مسألة اختيار ، كل ما نحن في حاجة إليه هو الإيمان ، العقيدة .

أمام عينى ، كما يقول روسو ، أو أمام قلبى ، حقيقتان : إنى موجود ، في هيئة كائن يشعر ويفكر ويريد ، هذه هى الحقيقة التى لاتقبل مناقشة ولا جدالاً ، إنى أشعر بكينونتى ؛ فأنا أسعد وآلم ، أحب وأكره ، أفكر وأجزم ، ألا يجتمع كل هذا في كلمة ديكارت الجامعة : إنى أفكر ، إذاً أنا موجود !

ولكن روسو لايجد نفسه وحيداً في هذا العالم ، فهناك خلائق أخرى تصطخب من حوله وتعيش كما يعيش وتتوالد وتملأ الدنيا بالحركة الدائبة .

من أين يأتى هذا الـ « أنا » الذى هو نفسى وهذا العالم الذى تدركه بالحركات التى نلاحظها فيه ؟ إن التفكير في « أصل الحركة » قد يعطينا الجواب الشافى لهذا السؤال .

يرى روسو في الأجسام ظاهرتين أو حالتين : حالة الحركة وحالة السكون ، فهى أحياناً تسكن وأحياناً أخرى تتحرك ، ولكنها لاتبدى حراكاً إذا تركت دون أن يؤثر فيها ما يدفعها إلى الحركة . إذاً ، فالحركة ليست جوهرية الأجسام ، ومن هذا استنتج روسو أن الجسم ، أى جسم ، لاحركة فيه أصلاً ، إنما يستمد حركته من مصدر خارجه . ولكن ، أيتحرك الحيوان والإنسان تبعاً لمؤثر خارجى ؟ لا . ففى الحيوان كما في الإنسان حركات تلقائية spontanés أى تنبث من تلقاء نفسها دون أن يكون لأى عامل خارجى دخل فيها ، في الحيوان إرادة تملى عليه الحركة فيتحرك ؛ وفى الإنسان إرادة تملى عليه الحركة فيتحرك ، وتملى عليه القول فيتكلم ، وتملى عليه التفكير فيفكر ، بينما الأجسام ، وهى جماد ، تفتقر إلى هذه التلقائية ، إذاً فهذا الكون : هذه الشمس وما يدور حولها من أفلاك ، وهذه الكواكب وما يدور حولها من أقمار ... أى هذه المواد والأجسام التى في ذاتها لاتملك لنفسها حولاً ولا طولاً ... ما الذى يحركها ؟! هنا يقول روسو : « لايمكننى أن أرى الشمس تدور دون أن أتخيل قوة تدفعها » . فالكون في نظر روسو جسم ضخم تحركه إرادة قوية . ويقول : « أعتقد إذاً أن هناك إرادة تحرك الكون وتحيى الطبيعة ،

Je crois donc qu'une volonté
meut l'univers, et anime la nature.»

وهذه هى أولى خطوات روسو في طريق إيمانه .

* * *

ما معنى « الحركة » أليست تعنى الانتقال من مكان إلى آخر ؟ ولكن كيف ينتقل الجسم من مكان إلى آخر دون توجيه ؟! أيمكن أن يتحرك جسم في كل الاتجاهات في نفس الوقت ؟ بديهى : لا . فهو يتحرك في اتجاه واحد معين . فلئن فرضنا الكون كله كتلة واحدة غير متجزئة ، مكونة من ذرات ... إذاً لوجب انتظام هذه الذرات في اتجاه واحد ، وإلا اختلطت وتصادمت واختبطت وفسدت حركتها ؛ فأول شرط لانتظام حركة الكون إذاً أن تدور أجرامه

في اتجاه واحد ، تماماً كالذرات التي تحتويها الكتلة الواحدة غير المتجزئة ، وهي في الواقع تدور في اتجاه واحد معين .

فلقد لزم وجود إرادة تحرك الكون ، فهناك حتماً عقل يوجهه . وفإذا كانت المادة المتحركة تدل على إرادة ، فهكذا يقول روسو ، فالمادة المتحركة تبعاً لقوانين معينة تدل على عقل
Si la matière mue me montre une volonté, la matière mue selon certaines lois me montre une intelligence

وهذه هي ثاني خطوات روسو في طريق إيمانه .

وروسو يجهل غاية الكون ويجهل السبب في وجوده ، ولكن هل يمنع هذا الجهل من أن يعجب بنظامه ؟ أفإن فاجأنا رجلاً بساعة مفتوحة لم ير مثلها من قبل ، أننتظر منه غير أن يعجب بها ؟ إنه لا يعرف فيم تستعمل هذه المجموعة من « الأشياء » الدقيقة التي تحتويها العلبة ، ولكنه يرى ، برغم جهله بها ، أن كل قطعة تتعاون مع القطعة الأخرى في أداء « شيء » ، وأن « الكل » يعمل معاً عملاً مشتركاً لا بد أن له غاية وغرضاً ... وإن غابا عنه .

حركات هذا العالم أو هذا الكون مرسومة ، ليس فيها شيء وليد المصادفة ؟ ليس من السهل تصور قوة عمياء تنظم شئون هذا الكون . يقول روسو : « فلو أنهم أثبتوا قائلين إن حروف الطباعة وقد ألقيت بالمصادفة فأخرجت ملحمة الإنيادة ، بكامل ترتيبها لما تنازلت وخطوت خطوة واحدة لأحقق هذا الكذب . وقد يقول قائل : إنك تنسى عدد الرميات (jets) . ولكن كم من هذه الرميات تلزم لتجعل التجمع محتملا ؟ أما أنا ، الذي لا أرى غير رمية واحدة أراهن بما لا نهاية له إلى واحد أن ثمرتها ليست قط وليدة المصادفة » فإذا كان نظم الإنيادة عقلا ، فكيف بنظم الكون ! .

ينتهي روسو بهاتين الخطوتين في طريق الإيمان إلى أن هناك كائناً يدبر شئون هذا الكون ، فيقول : « هذا الكائن الذي يريد ويقدر ، هذا الكائن الفعال بذاته ، وأخيراً هذا الكائن أيا كان ، الذي يحرك الكون وينظم الأشياء ، أسميه : الله » .

● ● ●

ولكن أين الله ؟ وما هو ؟ وما جوهره ؟ لا يدري روسو من هذا شيئاً . وهو مقتنع بقصوره . وهو لذلك لا يملك إلا العودة إلى نفسه باحثاً عن مكانه في نظام الأشياء ، فيرى نفسه في الصدارة بمقتضى نوعه بلا مراء . أجل ، فلقد اجتمع في الإنسان ما يتفوق به على الحيوان والجماد . فهو بإمكانه أن يرقب كل شيء ، وهو بمقدوره أن يتسلط على ما يريد وعلى من يريد من الجماد والحيوان دون أن يكون لهما أي تأثير عليه . يستعمل الإنسان النار ويعجب بالشمس ويراقب الكائنات وعلاقاتها ، ويشعر بماهية النظام والجمال والفضيلة ، ويتأمل الكون ويسمو بنفسه إلى ماهية اليد التي تهيمن عليه ... فأين هذا كله من الحيوان ، بله الجماد ؟! إن الإنسان سيد مخلوقات الأرض بلا منازع . ولهذا يحق لروسو ، كما يحق لكل من خلق إنساناً ، أن يغتبط ويهنئ نفسه على شغله هذا المكان أو المركز المشرف ، ولكن ...

ولكن عندما يلقي روسو بنظره على ما يحيط به يرى تناقضاً تاماً بين « الطبيعة » و « الجنس البشري » . فبينما يرى الطبيعة متناسبة متسقة على اتفاق ووئام ، يرى الجنس البشري متخبطاً مرتبكاً ؟ الحيوان سعيد ، والإنسان شقي إذاً أين القانون الذي يحكم العالم ؟! يقول روسو هنا : إني أرى الشر على الأرض .

يرى روسو أن كل أفعال الإنسان ، وما به من تلقائية ، تصدر عنه مباشرة . تسألون : « كيف أعرف أن هناك حركات تلقائية ؟ أقول لكم : إني أعرف هذا لأني أحسه . فأنا أريد تحريك ساعدي فأحركه دون أن يكون لهذه الحركة أية علة غير إرادتي » . إن الإنسان مخير : فهو يريد وهو لا يريد ، وهو يحس نفسه حراً وعبداً في نفس الآن ؟ وهو يأتي الإثم ثم يندم عليه ؟ وهو كما يقول أوفيد : « إني أرى الخير وأحبه ولكني أقترف الشر » . وهو بهذا يصور الإنسان الذي يشير له العقل طريق الحق والخير والجمال ، ولكن يزل به الضعف وتجذبه شراك اللذة إلى الشر .

الإنسان نفسه هو صانع الخير ، والإنسان نفسه هو صانع الشر . بيده أن يأتي الخير وبيده أن يقترف الشر ، الفضيلة والرذيلة أمامه وليس له إلا أن يختار . والدليل على أن الإنسان « يريد » الخير أو على النقيض « يريد » الشر هو أنه إذا أتى الأول رضي واغتبط ، وإذا اقترف الثاني عذبه ضميره ومزقته نفسه ندماً . كيف يكون الله عادلاً خيراً ، في نفس الوقت الذي يعمل بإرادته فينا ، من بعضنا شريراً ؟! لا . إن الإنسان حر فيما يفعل . إن له الإرادة ، قوة دافعة

ذاتية : في الإنسان تلقائية spontanéité ، جوهر غير مادي ، باطني ، فعال ، يفتقر إليه الحيوان ، تدفعه إلى أن يفعل ما يريد وإلى أن يريد ما يفعل . وعندما أفعل شيئاً أحس في نفسي تماماً أ كنت أفعل ما أريد أن أفعله ، أم كنت لا أفعل غير الاستسلام لشهواتي » . ويخلص روسو من هذا فيقول : « الإنسان إذاً حر في أفعاله ، وهو بوصفه هذا ، يحييه جوهر غير مادي .

L' homme est libre dans ses actions, et, comme tel, animé d'une substance immatérielle

" وهذه هي ثالث خطوات روسو في طريق إيمانه .

" الإنسان حر إذاً فيما يأتي وما يدع ، لا شأن للعناية الإلهية بسوء استعماله للحرية التي منحتها إياه . لقد خلق الإنسان حراً ؛ وهي ، أي العناية الإلهية ، من أجل تدعيم حريته لا تتدخل في تصرفاته ، فهي تتركه وشأنه ، يحصد من الشر الذي يقترفه شراً يماثله ، ومن الخير خيراً يفوقه .

« أيها الإنسان ، لا تبحث عن مبدع الشر ، فمبدعه أنت نفسك » .

ولكن أمر هذه الدنيا عجيب ! فبينما كان يجدر أن يكون العادل سعيداً ، نراه يظلم ويضام ، بينما الشرير يفلح ويتم ! وها هو العادل يسخط ويتبرم من هذا الضيم وهذا الظلم اللذين ألحقا به . ولكن لا . فهناك عناية إلهية ترعى هذا الكون ، عناية إلهية عادلة وحكيمة ! وهذا ما يدعونا إلى التأمل : إن الفوضى التي نحن فيها ليست إلا فوضى مؤقتة . كانت تكون فوضى كاملة حقاً إذا كانت حياة الفرد تنتهي بموته . ولكن من قال إن حياة الفرد تنتهي بموته ؟ ! إن الفرد يبقى بعد انحلال جسده ، وإن الظلم الذي يأخذ بخناقنا في هذه الحياة سيتدارك بعدها . « كلما عدت إلى نفسي ، استشرتها ، فقرأت هذه الكلمات محفورة في روحي : كن عادلا فتصبح سعيداً . » ومن هنا يمكنك أن تقول للشرير باستصغار : « لن تنتهي حياتك بموتك » . فهناك وجود آخر يتم فيه العدل ويتدارك الظلم .

أجل . كان روسو يعتقد اعتقاداً جازماً بأن لنا حياتين ، وأن كياننا كيانان : مادي وروحي . أما المادة فتفنى بفناء الجسد ، وأما الروح فتستأنف حياتها بعد موت الجسد . وكان جزمه ببقاء الروح يرجع إلى أنه يقبل كل القبول أن تتفكك وتنحل المادة التي تكون الجسد ، ولكنه لا يقبل قط فكرة تفكك الروح ، وانحلالها ، وهي هذا الجوهر الذي يميز الكائن الحي عما عداه . .

الخير والشر أمام الإنسان ، وهو لا بد واقع في حيرة بينهما ! فكيف يفرق الإنسان بين الخير والشر ؟ كيف يعرف أن هذا خير فيسلك سلوك الخير وأن ذاك شر فيدعه ؟ يقول روسو : « كل ما أحس أنه خير فهو خير ، وكل ما أحس أنه شر فهو شر » ليس هناك غير الضمير في الإنسان ، وهو وحده الكفيل بأن يرشدنا إذا رجعنا إليه . كثيراً ما يخدعنا العقل ، أما الضمير فهيهات أن يخدع . إنه للروح بمثابة الغريزة للجسد . إنه صوت الطبيعة ، ومن يتبع الطبيعة لا يضل .

إذا أردت التفريق بين الخير والشر عليك باستشارة ضميرك لا عقلك . والإنسان يولد ومعه ضميره ، كما يولد وفيه غرائزه . وقد قال بعض المفكرين المعاصرين لروسو إن الغريزة تكتسب بالتربية والمران . وليدلل روسو على عكس ذلك مثل بحالة كلب وليد : « كيف أحمي هذه الحيّة التي يحارب بها كلبي الماجد التي لا يأكلها قط ، والصبر الذي به يترصدها ساعات كاملة أحياناً ، والمهارة التي بها يقتنصها ويطرحها أرضاً حالما تخرج من جحرها ، ثم يقتلها ويتركها طريحة ، كل هذا ولم يدربه أحد على الصيد أو يعلمه أن هناك مناجذ . . . ثم لماذا ، عند ما هددت هذا الكلب لأول مرة ، استلقى على الأرض في هيئة متوسلة أثارت الشفقة في نفسي ، هيئة لم يكن ليرضى أن يبقى بها لو أني ضربته دون أن يرق له قلبي . ماذا ! هل اكتسب كلبي ، وهو جد صغير لم يكد يولد ، أفكاراً أخلاقية ؟ »

نحن نرى هذا في الحيوان ، فكيف ندهش إذا وجدنا مثله في الإنسان ؟ يقول روسو إن الملاحظة الدقيقة تكشف فينا طبيعتين متعارضتين تظهران في مجموعتين من الغرائز أو المصالح المتعارضة ؛ فهناك المصالح أو الغرائز المادية ، ومنها المحافظة على الذات وتنميتها مهما كلفنا ذلك من ثمن ، حتى وإن كانت على حساب الآخرين ، السعي لتقوية الذات ، تجنب الألم ، الحصول على اللذة . . . هذه هي القاعدة . وهذا هو جزؤنا السافل الحيواني من طبيعتنا . وهناك مجموعة من المصالح أو الغرائز الأخرى تولد بها كغريزة

الكتب التي يولد بها والتي يطلق عليها روسو اسم الصالح أو الغرائز الأخلاقية ، وهي غرائز تتصادم تماماً مع الغرائز المادية . وتنقسم الغرائز الأخلاقية إلى قسمين : أولا عاطفة الشفقة ، الشفقة التي يشعر بها حتى المتوحشون من الناس ، والتي تدفعهم ، ليس فقط إلى تجنب القسوة ، ولكن إلى إعانة من هم في حاجة إلى العون . ثانياً : الضمير الأخلاقي

« أيها الضمير ! أيها الضمير ! أيتها الغريزة الإلهية ، أيها الصوت السماوي الخالد ! أيها المرشد الأمين لكائن جاهل محدود الأفق ، ولكنه ذكي وحر ! أيها القاضي المعصوم من الخير والشر ، الذي يجعل الإنسان شبيهاً بالآلهة ، إنه أنت الذي تجعله يسمو بطبيعته وخلقية أعماله ! بدونك لا أشعر بشيء في ذاتي يرفعني على الحيوان إلا امتيازي المؤسف في تخبطي من ضلال إلى ضلال بمساعدة فهم دون قاعدة ، وعقل دون مبدأ » .

هذه كلمة جان جاك روسو الخالدة في الضمير ، وهي تعني بهذه اللهجة المتحمسة اعتقاده الراسخ العميق أن العاطفة أسمى من العقل ، لأنها غريزة طبيعية ، وأما العقل فاكتسابي . وعند روسو : كل ما يصدر عن الطبيعة حق معصوم من الضلال لأنه يصدر عن دوافع أصيلة في النفس الإنسانية . وكل ما يصدر عن العقل قد يبعد عن الصواب لأنه قلب لا يستقر على شيء . « والضمير يحدثنا بصوت الطبيعة » وطبيعة الإنسان خيرة في الأصل ، فهو قد ولد على صورة الله خالقه . الإنسان خير بطبيعته وولد في عالم يشمله العدل والخير أصلا ، ولكن عقل الإنسان قلب الخير شراً والعدل ظلماً .

وقد كان خليقاً بالإنسان أن ينعم بهذه الحياة في ظل حكمة الله الصادقة وعطفه الدائم الفريد لو أنه تعهد الخير الذي في قلبه بالري والإنماء وشبع بالحب الذي كان قميناً أن يتوجه به إلى الله العلي القدير . وروسو يتأمل نظام الكون ، لا ليفسره على ضوء نظريات باطلة ، ولكن ليعجب به إعجاباً لاحد له . وليعبد الخالق الحكيم الذي يوحي بوجوده فيه ، إنه يبادله الحديث فتمتلئ كل قدراته بجوهره الإلهي ، وإذا قلبه يرق لمنه وأنعمه ويحمده على هباته ومنحه .

دين روسو طبيعي . فكل ما عليه ليرقى إلى مشيئة الله هو أن يستشير نوره الباطن فيرى نفسه على هديه في طريق الخير والسلام . ليس على الإنسان إلا أن يتأمل ذاته ويدرسها بإخلاص ، فمن مطالبه الطبيعية تصدر رغباته ، وعلى ضميره الباطن يتوقف الخير الذي بثه الله في قلبه .

بقيت نقطة أخيرة ، وهي عدم اعتراف روسو بأديان الرسل والأنبياء الذين يبشرون بها على الأرض ، وقد اقتبس روسو هذه الكلمة من أحد المفكرين : « إن العقائد تحافظ عليها أيد ووسائل بشرية ، وأول دليل على هذا أن الأديان قد تلقاها في هذه الدنيا ولا يزال يتلقاها في كل زمان أفراد ! إنما الشعب والدولة والمكان هي مصدر الدين : فدين المرء هو الدين الذي يعتنقه المكان الذي نشأ وتربى فيه . فنحن نختتن أو نعمد ، أو نكون يهوداً أو مسلمين أو نصارى قبل أن نعرف أننا أناس . فالدين ليس من اختيارنا واختبارنا . » ثم يقتبس روسو كلمة أخرى من مونتاني تحمل نفس المعنى : « نحن مسيحيون لعين السبب الذي نحن من أجله فرنسيون أو ألمان » .

فإذا كان في إمكان روسو الاتصال مباشرة بالله ، فلماذا ينضوي تحت هذا الدين أو ذاك ؟ إذا كانت كل الأديان والعقائد في جوهرها الاتصال بالله وتمجيده — وهذا حق — فلماذا ينتظر روسو أن يصله بالله نبي أو رسول بينما بإمكانه الوصول إلى خالقه مباشرة ؟!

إن الأديان في هذا العالم متعددة . كل نبي يأتي يبشر بدين جديد ، يحاول به هدم الدين الذي بشر به النبي الذي سبقه . آراء متعارضة ، أفكار متباينة ، إيحاءات مختلفة ، يكون نتيجتها على مر العصور أناساً متعارضي الآراء متبايني الأفكار مختلفي الاستجابات لهذه الإيحاءات المختلفة ، وهم ينتهون بهذا التعارض والتباين والاختلاف إلى التعصب في الدين ، وينتهون تبعاً لذلك إلى الدفاع عن مبادئ هذا الدين أو ذاك ، وينسون الله نفسه في خضم هذا الاضطراب .

إن روسو يرى جمال الكون فيعجب بخالقه ، إنه يتأمل الزهرة على الجبل وفي الحقل فيرى فيها الله ! يرى الأشجار والأنهر والينابيع .. يرى الطبيعة عموماً . فيعجب بهذا كله ويرقى بهذا الإعجاب إلى خالقها وخالقه : الله ! لماذا يبحث عمن ينبهه إلى وجوده وهو يراه في نظام الكون وجمال الطبيعة ؟!

إدوار مفصى

علي محمود طه

— ٤ —

للأستاذ عبد السميع المصري

الغزل في شعره

سألت شقيق الفقيد الأستاذ عبد الحميد طه عن مكانة المرأة في حياته فكتب إليّ يقول (كان ينفر من الزواج وإن كان فكر فيه مراراً لأنه يحتمه . كقيد قد يحد من هويته وعبقريته وحريته ، فعاش حياته العذبة كالطائر الطليق يحلق في أجواء الطبيعة ويستشف أسرارها ومكنوناتها يتمتع بأطايبها حتى إذا ارتوت نفسه أخرجها ألحاناً وسحراً) .

ولم أجد أي دليل على أن علياً قد أحب الحب العنيف الذي يبتغيه الشاعر لذاته ولذعاته الروحية ، أو هذا الحب العفيف الذي يهدف إلى رباط مقدس ؟ بل كل ما عرفت أنه خطب ابنة عم له ماتت قبل أن يقترن بها وليس لها في شعره أثر ، ولعل هذه الخطبة تمت وفق تقاليد البيئة حينئذ ، أي خطبة رسمية يقوم بها سيدات الأسرة ولا دخل للزوجين بأمورها ، فكان طبيعياً ألا يتأثر علي طه بشخصية خطيبته تلك وألا تؤثر في شعره .

وكل ما عرفته من علاقاته الغرامية أنه كان على صلة لفترة ما بإحدى الممثلات اللائي اشتغلن بالسينما المصرية ، كما أنه استقدم معه في إحدى رحلاته إحدى بنات الهوى من أوربا ، ولا أظن أن مثل هذه العلاقات كانت تروي روح الفقيد الظامئة إلى الحب .

إني أعتقد أن علياً لم يلق في حياته المرأة التي تملأ فراغ قلبه وتشغفه حباً فيعشقها العشق العنيف ويسعى إليها سعياً حثيثاً ويطلب الاقتران منها ؛ وكانت البيئة هي العامل الأول في هذا ، إذ استشعر فيها الحرمان ورأى فيها الحجب المضروبة بينه وبين المرأة ، فانصرف عنها وظل يروض نفسه على هذا الحرمان المقيت حتى إذا ما تخطى الثلاثين انطلق ينهل من اللذات ، وضاعف رحلاته إلى أوربا من سفره الذي لم يعد يرى في المرأة إلا جسداً ولذة ، وحتى عندما يحاول أن يتسامى في شعره عن هذه المادية تجذبه متع الجسد إليها فيهوى من حالق يتغنى هذه اللذة :

يا حبيبي أقبل الليل وناداني الغرام[1]
أي سر لحب لم يصوره الظلام
كل نجم مهجة تهفو وعين لا تنام
وشعاع البدر مشوق به جن الغمام
يا حبيبي كل عيش ما خلا الحب حرام
وحرام يا حبيبي

يا حبيبي سئم الليل شكوى واكتئابي
أنا أهواك ولكن أنت لا تعلم ما بي
لحظة بين ذراعيك فقد طال عذابي
لحظة أمزج أنفاسك بالقلب المذاب
وأغني وشقي لك حبي وشبابي
وسلام يا حبيبي

لكنه عند بحيرة كومو لا يرى في صاحبته إلا كل ما يثير في نفسه الرغبة الجامحة وإلا نداء صارخاً للمتعة :

نحن روحان عاشقا … ن وجسمان من صقر
فاعذري الروح إن طغى … واعذري الجسم إن ثار
تشربت خمر بابل … وهوى الكأس والسكر
وهنا كرمة الخلو … د قطوفي لمن عصر
فيم والنبع دافق … يشتكي الظامئ الصدر ؟
ولمن هذه العيون … تعمرن بالحور ؟
ولمن توشك الثدى … وثبة الطير في السحر ؟
كل إلف لإلفه … ضم بالصدر وابتدر
عض في الثوب والتشكي … وطأة الحز والور
حة الطائر المعذ … ب في قيده نفر

(1) زمر وحو .

ولِنْ رفّت الهـــا سم واسترسل الشعرْ ؟
ثمر ناضج الحسن كيف لا تقطف الثمر
ما أبى الخلد آدم أو غوى فيه أو عثر

وفي شاطيء لوسرن بسويسرا يتحدث عن صديقته في حوار شعري جميل معترفاً بأن الحرمان هو سر ثورته العاطفية المشبوبة .

أغانيــــه

إن أغاني على طه تسلكه في عداد كبار الشعراء ، وفي مقدمة الشعراء المعاصرين ، لما ظفرت به من نجاح عظيم ، مرجعه ما امتازت به من سهولة التراكيب وعذوبتها وموسيقيتها ولما اتسمت به من طابع حزين يوائم البيئة .. مثل هذه الأسطر من أغنيته المشهورة « الجندول »

أين من عيني هاتيـــك المجالي
يا عروس البـــحر يا حلم الخيـــال
أين عشـــاقك سمار الليـــالي
أين من واديك يامهد الجمـــال
موكب الغيد وعيـــد الكرنفال
وسرى الجندول في عرض القنال

* * *

. . . .

. . . .

أنا من ضيـــع في الأوهام عمره
نسي التاريخ أو أنســى ذكره
غير يوم لم يعـــد يذكر غـــيره
يوم أن قابلتـــه أول مره

إن الموسيقار[1] الذي لحنها موسيقار حزين النغم دائماً يشارك علي طه في الاستجابة لمزاج البيئة ، وقد وضع ألحان أغنية أخرى لعلي طه « كليوبترة » وهي صورة خيالية لحلم جميل لليلة من ليالي الملكة العظيمة :—

حلم عذراء دعاها حبها ذات مساء
فتغنت بشراع من خيال الشـــعراء

---

١ — الأستاذ محمد عبد الوهاب

يا حبيبي هـــذه ليـــلة حبي
آه لو شـــاركتني أفراح قلبي !
يا ضـــفاف النيل بالله ويا خضر الروابي
هل رأيتن على النهر فـــتى غض الإهاب
أسمر الجبهـــة كالخمرة في النور المـــذاب
سابحاً في زورق من صنع أحلام الشباب ؟
إن يكن مر وحيّا من بعيد أو قريب
فصفيه وأعيـــدي وصفه فهو حبيبي
يا حبيبي هـــذه ليلة حبي
آه لو شاركتني أفراح قلبي !

كما تمتاز هـــذه الأغاني بالرقة المفرطة ، فاستمع إليه في قصيدته « عاشقة » يعرض شكاتها على لسانه في رقة تهز أوتار القلوب :

يا حبيبي عمت الفرحة في كل مكان
فهنا البلبل يشدو وهناك العاشقان
غير أني أشتكي الوحشة في ظل التداني
إنما روحك في الكون وروحي توأمان
لا تدعني أقطع الأيام وحـــدي وأعاني
غرام يا حبيبي

وعلي طه بعد ذلك يقدم للناس في هذه الأغاني صوراً عصرية مما يعرفونه ، ويشاهـــدونه ويفهمون مراميه ويتذوقون حلاوته ويتمنون الظفر بها :

إذا لألأ البدر صفحة النهر
وضمنا فيه زورق يجري
وداعبت نسمة من العطر
على جبينك خصلة الشعر
حسوتها قبلة من الخمر
من جفون لها وما أدري :
أي معاني الفتون والسحر
تترك أوحي بها إلى ثغري

أعمــاله

كان علي طه شاعراً مقلا لكن القليل الذي قاله إذا وزن بميزان الشعر رجح الكثير مما قاله غيره .

وقد عني علي طه في نشر دواوينه يطبعها طبعاً أنيقاً

ندوة القلم

صناعة الألمنيوم ومستقبلها فى مصر

لو وفق العالم إلى عصر هادىء تزدهر فيه المدنية دون حروب لسكان الألمنيوم بين المعادن بعد الحديد الشأن الأول ؛ فهو يدخل فى جميع الصناعات المدنية والمنزلية والكهاوية ، وفى كثير من الصناعات الميكانيكية والكهربائية برغم ارتفاع ثمنه نسبياً .

معظم إنتاج الألمنيوم حتى الآن متوقف على حجر البوكسيت الموجودة منه كميات محدودة فى أنحاء العالم كما هو فى منطقة « بوكس » بفرنسا التى سمى تبعاً لها ، وكذلك فى غيانا الجديدة بامريكا الجنوبية وفى المجر وفى روسيا والولايات المتحدة . وقد بلغ ما أنتج من هذا المعدن فى العالم عام ١٩٣٧ نحو ٦٫٦١٠٫٠٠٠ قدم مكعبة . وكان ثمن القدم المكعبة فى ذلك الوقت حوالى ثمانية جنيهات ووزنها حوالى ثمانين كيلو جراماً ، أى أن الطن يساوى مائة جنيه بينما كان طن الحديد حسب الإحصاء نفسه بحوالى خمسة جنيهات .

ومن هنا يتضح الفرق الشاسع فى إمكان استعمال أى منهما فى الصناعة . ويرجع ذلك لسببين جوهريين :

١ — قلة وجود الألمنيوم فى الطبيعة فى أحجار مركزة .

٢ — عدم سهولة اختزاله من أحجاره .

فبينما يستغل النحاس من أحجاره إذا بلغ تركيزه فيها ١ ٪ والزنك ٣ ٪ والرصاص ٥ ٪ لا يستغل الألمنيوم فى تركيز أقل من ٣٠ ٪ أكسيد ألمنيوم .

ومن الإحصائيات التى عملت عن الإنتاج نجد أن استخدام الألمنيوم سواء فى السلم أو فى الحرب يتقدم بخطوات سريعة ، فبعد أن كان استغلال العالم يعادل ٥٠٠ مليون طن من الخام سنة ١٩٣٧ بلغ فى عام ١٩٤٧ من غيانا الجديدة وحدها ١٠٠٠ مليون طن مترى ، وهذا يظهر بجلاء ازدياد فائدة الألمنيوم كمعدن وكسبائك فى الصناعات .

ولما كان استخلاص الألمنيوم فى جميع خطواته يحتاج إلى

وإخراجها إخراجاً فنياً رائعاً من حيث تنسيقها وتصويرها ؟ ومن الممكن ضم جميع أعماله فى مجلد واحد ، وإنى لأرجو أن يتحقق ذلك حتى يسهل على من يريد دراسته الإلمام به فى يسر وسهولة .

وما أرجوه ليس بدعاً ، بل كثير من الشعراء جمعت أعمالهم فى كتب موحدة ، ومهما بلغت ضخامة أعمال على طه ، فلن تكون فى حجم أعمال شكسبير مثلا وقد ضمتها دفتا كتاب واحد .

لقد كتب على طه من دواوين الشعر :

١ — الملاح التائه .

٢ — ليالى الملاح التائه .

٣ — أرواح وأشباح .

٤ — زهر وخمر .

٥ — أغنية الرياح الأربع .

٦ — شرق وغرب .

٧ — الشوق العائد .

٨ — أرواح شاردة وهو يحتوى على نثر وشعر .

كما نشرت له دار النداء بعد وفاته كتاب « حب وحرب » وهو مجموعة من المقالات والقصائد والمقطوعات المترجمة التى نشرت بمجلة النداء .

والكثير من شعره ترجمه : المستشرق الأستاذ براكنبرى Pr. Brackenbury إلى الإنجليزية .

رحم الله على طه ذلك الشاعر الذى صور بيئته أصدق تصوير وعاش حياته كما رسمها فى شعره .. فى حيرة دائمة : هو الروح الشارد المستهام شرود الفراشة عند المساء

عبد السميع المصرى

الكثير من الكهرباء ، إذ يحتاج الكيلوجرام من الألمنيوم إلى نحو ٢٩ كيلووات ساعة في استخلاصه ، وجب توفر الكهرباء ورخصها في البقاع التي يستخلص فيها المعدن ، ولذا نجد أن غينا الجديدة لا تستخلص الألمنيوم بل تصدر خامها إلى كندا ، وكذلك فرنسا تستغله في سويسرا ، وكذلك المجر تصدره إلى ألمانيا أو روسيا ، وهكذا لرخص الكهرباء في تلك البقاع .

ولما كانت كمية الكهرباء التي ستستغل من خزان أسوان في بدء المشروع تزيد عما يصنع من السماد ، ولما كان في النية زيادة إنتاج الكهرباء المنتجة من خزان أسوان بعد ذلك ، كان من الممكن البحث في استغلال خام الألمنيوم سواء محلياً أو المستورد من الخارج لاستخلاص الألمنيوم .

خام الألمنيوم في مصر :

١ — أهم أنواع خاماته الموجودة في مصر هو الطمي والكاولين في منطقة قنا وإن كان غير نظيف تماماً ، وهي وإن كانت صعبة الاختزال مباشرة إلى الألمنيوم ، ولكن من الممكن معاملتها معاملات في حدود اقتصادية لتحويلها إلى الأكسيد ومنها إلى المعدن .

٢ — الشبة أو كبريتات الألمنيوم ترد في مصر في مناطق الواحات وبكميات لا بأس بها ، وهي تصلح إن سهل نقلها بأجر قليل لتكون خاماً جيداً للألمنيوم المعدني .

وهناك من الأحجار الطينية الأخرى الموجودة بمصر ما يسمح بالمساعدة لاستخلاص الألمنيوم أو أكسيده من الأحجار الطينية مثل الجبس وكربونات الصوديوم والكالسيوم وكلورور الصوديوم .

صناعة الألمنيوم :

يصنع الألمنيوم كما بينا من البوكسيت أي أكسيد الألمنيوم المائي بعد تنقيته من الشوائب التي فيه ، وهي عادة أكسيد الحديد والسليكا ، ويكون هذا عادة بصهره مع كربونات الصوديوم في أفران دائرية فلا تتأثر السليكا إلا قليلاً ، وإنما يتكون من تأثيرها مع أكسيد الألمنيوم ألومنيات الصوديوم الذائبة في الماء ، ويؤخذ هذا المصهور إلى أحواض يضاف إليه فيها ماء كثير فتتشقق ألومنيات الصوديوم إلى هيدروكسيد ألمنيوم وهيدروكسيد الصوديوم ، فيرسب الأول في حبيبات أول راسب هلامي في مدة ٣٤ ساعة ، بينما يذوب هيدروكسيد الصوديوم الصلب الذي يستعمل بعد ذلك في العمليات القادمة بدلاً من كربونات الصوديوم ، فيمزج مع البوكسيت الجديد ويدخل إلى فرن الصهر الدائري ، وهكذا .

أما هيدروكسيد الألمنيوم المأخوذ بعد ترشيح السائل في المرشحات الضاغطة فيجفف في أفران أخرى ويمزج في أحواض مع الكريوليت والفلورسبار لخفض درجة حرارة الانصهار ؛ ولما كان الكريوليت غير متوافر في مصر فيمكن تحضيره بإضافة حامض الفلوردريك (وهو مستخرج جانبي من صناعة السماد) الطمي أو سليكات الألمنيوم والصودا وكلها في مصر .

ويدخل هذا المزيج الصلب من هيدروكسيد الألمنيوم والكريوليت إلى فرن كهربائي مبطن بكتل من الجرافيت ، وبمرور التيار الكهربائي في هذا المزيج يتحلل هيدروكسيد الألمنيوم إلى أيون الألمنيوم ويذهب نحو القطب السالب الذي هو البوتقة الجرافيتية نفسها ، وإلى أيون أكسجين ، ويذهب إلى القطب الموجب ، ويتجمع الألمنيوم المنصهر على جوانب القطب السالب ويطفو على سطح السائل المنصهر . أما الكريوليت وهو العامل المذيب فلا يتأثر بالتيار الكهربائي .

ويؤخذ الألمنيوم السائل المتكون على جوانب البوتقة من فتحة جانبية ويؤخذ توا المصبات .

وتبلغ نقاوة المعدن المحضر بهذه الطريقة ٩٩ — ٩٩٫٥ ٪ . أما الشوائب التي يحتويها فهي قليل من الحديد والسليكون والآزوت ، وإذا أريد التخلص منها صهر المعدن مرة ثانية مع قليل من السيريوم الذي يتفاعل مع السليكون ويطفو كخبث .

خواص المعدن :

معدن الألمنيوم يمكن طرقه وضغطه وشده وسحبه وقطعه في البرودة والحرارة ، وكذلك يمكن التحامه . والمعدن يتقلص بشدة عند صبه ، وصفائحه تبلغ صلابتها ٧ أضعاف صلابة نفس صفائح الحديد .

وهو يقاوم كثيراً تأثير الأكسجين والآزوت في الجو ،

وكذلك تأثير الماء وحامض الكربونيك ، وكلوريدور الإيدروجين .

ويستعمل الألمنيوم في سبائك كثيرة لخفة وزنه وزيادة صلابته ؛ فأهم سبائكه مع النحاس مايسمى « برونز الألمنيوم » وهو يحتوي ١٠ ٪ ألمنيوم وهذه السبيكة تقاوم ماء البحر وتحمل الشد .

أما مع الزنك فيمكن إضافة الألمنيوم بنسبة ٥ ٪

ويذوب المغنسيوم في الألمنيوم التي بحوالي ٨ ٪ ، ولهذه السبيكة أهمية خاصة في الصناعات المعدنية لخفة وزنها وصلابتها ، وقد استعملها العلماء الألمان أثناء الحرب في صناعة محركات الطائرات من طراز « مسر شميدت » .

ويستعمل الألمنيوم — عدا هذا — في بناء هيا كل الطائرات وأجزاء ما كيناتها وفي السيارات وفي الطباعة وفي الصناعات الكيماوية والأدوات الكهربائية والأدوات المنزلية والآلات الجراحية وأدوات الموسيقى والتصوير الخ .

ومن كل ما تقدم يتبين لنا أهمية هذا المعدن في الصناعات المعدنية وعدم استغناء مصر عنه في صناعاتها إذا اهتمت بصناعة الحديد ، ولذلك لنا كبير الأمل في إدخال هذه الصناعة ضمن الصناعات الكهربائية التي ستعمل على أساس استغلال الكهرباء من خزان أسوان .

نرفين الشاذلي

الحياة الراكدة

إن الخطر الأكبر الذي يهدد شباب هذا الزمن لا يأتيهم من القنبلة الذرية أو الإيدروجينية ، بل ينبعث من ميلهم إلى أن يحيوا حياة خالية من العوائق والأحداث ، في دنيا حافلة بالمطالب الحائلة والضرورات المروعة والمسائل الملحة والطوارق الفادحة . والواقع أن الخطر الثاني من أشد ما يبتلي الإنسان بالعذاب والنكير وسوء المصير ؟ إذ ما من شك في أن الرجال العاملين الجادين الذين يعيشون في خطر يزيدون خصب الحياة ويجنون أحلى معانيها ، ويحركون في نفوسهم نعمة الإحساس بذاتيتهم ، والاعتزاز بوجودهم وامتداده وخلوده . أما الرجال الذين لا يمدون أيديهم إلى عمل ، ولا ينقلون أقدامهم إلى درك ويطمئنون إلى الفراغ فلا بد أن تخمد حسهم فلا ترقى همتهم إلى منقبة ولا يدفعهم طبعهم إلى مكرمة .

ما ساد ملكا أو أعز قبيلة   من آثر الإخلاد والإذعانا

ومن المعلوم أن مر الزمن لا يعاجل الناس بالشيخوخة بقدر ما يعاجلهم بها الانزواء عن مجاهدة الحياة الناشطة ، والخلو من مكافحة شوادها . حقاً أن الوهاسة التي كانت تدار بالهوس لتعذيب المذنبين لا تختصر إلا الضجة التي تشكا على هامش الحياة ، والشباب الذي يتقمع ويترك أيامه بين التؤباء والطواء ، لا بد أن يشل نشاطه وتختل قوته وينحني صلبه كالشيب ، والطوارئ ، التي تستنزف قوانا وتضنينا يجب أن تستتبع التجديد لطاقتنا وتزيدنا ارتباطاً بالروح الكلي وتضاعفه تمكيناً وتوثيقاً . ويقول « جيته » « لا شيء مثل الشدائد الفاجعة ، إنها تحرر النفس من الأغلال وتطهرها من الأوضار ، وتصقل الروح من الضعف وتفتح البصر على الحقائق وتؤمن القدم من الهاوية » . وتجدد الإيمان بالحياة وحينذاك نملك ثروة من التثبت والاجتهاد وضبط النفس والرضى وقوة الإرادة . وإننا لنستطيع أن نعزز كيان الآخرين ونسامي بمصائرهم إلى الأوج ونبث فيهم روح الإقدام لو أطلقنا لهم نصيباً من هذه الثروة التي جعلنا مستخلفين فيها ... روى أن سيدة نبيلة كانت تستعرض مجموعة من الأواني الفضية الثمينة الموروثة من أجدادها الأكرمين ، وإذ كانت تستخرجها من مستودعاتها قالت : « إنها صدئة وما أنظفها ، ولكني لن أقدر على الاحتفاظ بلمعانها وبريقها ما لم أستعملها كل يوم » ! وكذلك يجدر بنا أن نصقل مواهبنا ونتمرس بها كل يوم ، لكي يشرق الوجود ببهائها ويسري بمنافعها . وغير خاف أن العقل الخامد كالعلية المهجورة التي يخيم على أركانها نسيج العنكبوت . بل إن ضغط النار والبخار لا يؤذي مراجل عقولنا كما يؤذيها الصدأ والرين . إن ضوء الشمس الذي يسطع على الغدير أو الجدول البطيء في جريانه لا يمكن أن ينقي مياهه ، ولكن الجنادل والشلالات ومساقط المياه المتدافعة ، هي وحدها الكفيلة بأن تجعله صافياً كقضيب البلور — إذا مسته يد النسائم حكى سلاسل الفضة وصار ماؤه كالزجاج الأزرق المتألق . إن الله تعالى يهيب بنا أن نذهب إلى جميع أرجاء الأرض

رسالة الحياة ، ومعنى هذا أنه يجب بنا أن نعمل — فى دأب وجد وتروٍ وتفكير ونظر وتحر ، واستقصاء واحتياط واستيقان وحزم واستيفاء ؛ ثم إن يوضح أمامنا النهج ويستقيم لنا القصد حتى ننفض سبل الطلب إلى غايتنا فى غير ريث ، وتركب كل صعب وذلول فيها ، ونعالى كل مرتقى وعر ، وكل منخفض وعث وكل درك منيع ! ونحن أمضى من الصارم عزماً وأقوى من الطود رسوخاً وأشد من النسر قوة . إن الواجب الذى يتحتم علينا النهوض به يتطلب منا التحمس والحمية ، لا الفاترة الخامدة والجازفة الطائشة أو الإيواء إلى ستر ظليل يقينا لفحة الرمضاء أو يسترنا من تحرج الشتاء ؟ ولن يتوافر لنا التغلب على العقبات وتنفيذ أى مشروع صالح ما بقى العزم منا من الأساطير الهائمة فى الهواء ، أو الطافية على زبد القول والمراء ، وما لم تمزق بكدحنا البتار حجب الصعاب الكثيفة . إن عواطفنا لا بد أن تضعف وتتحجر إذا لم تحركها من الأعماق البواعث الطيبة والدوافع الحافزة الناهضة التى ترجّع صدى خواطرنا وتلبى دواعى نياتنا وخوالجنا ، ولن يستطيع الشباب أن يكونوا «شباب الساعة» إذا ارتضوا أن يحيوا حياة راكدة خافضة تخالف الدعة ، وتستوطىء العجز وتستمهد الراحة . ولمثل هذه الساعة نريد الشبيبة الحقة أن تدعوهم إلى القيام إعانتهم بحقهم فى الحياة الكريمة الحرة مع الآخرين . لمثل هذه الساعة نريد الشبيبة الحقة أن تكون فعالة صادقة صميمة ! وهناك الأدواء التى تطالعهم فى كل لحظة بجراح إنسانية قاسية تجعل شباب النبوة أول من يطالب بتقديم العلاج . هذا وإنى لأشهد صادقة ، بأن من أيسر الأمور أن نكون كالجمل الذى يعصبون عينيه ليدير ترس الساقية ، فيلف حولها لفات محتومة تشتغل بها حوافره ، ولكنها لا توصله إلى مكان .

وما أكثر العمل الذى ينتظر كلاً منا ؛ فلنذكر أن الجد والكدح والاجتهاد وسعة الحيلة والساعات الطويلة فى السعى المطرد المرهق يجب أن تؤلف جزءاً من مطالب هذا العمل المقدس ومقتضياته . لسنا ننكر أن « فرانكلين » قد عرف ماهية الصاعقة بالطيارة والمفتاح ، ولكن « أديسون » هو الذى استخدمها لإجراء عشرات الآلاف من التجارب ومنحنا آخر الأمر بكلة النور الكهربائى الذى انتصر على الظلام ، ولله در « كارلايل » الذى قال : « إن الصخور تسد طريق الضعفاء ، أما الأقوياء فيتخذون منها مرقاة يركزون أقدامهم عليها ليصلوا إلى القمة » ، وليس أدل على ذلك من قصة « بول فتجنشتاين » عازف البيان النمسوى الشهير ، الذى اصطنع من عاهته مصعداً للمجد ، فقد فقد ذراعه اليمنى فى الحرب العالمية الأولى ، فأسف محبوه العديدون ورثوا لحاله ، لأنهم توهموا أن حياته الفنية قد انتهت بهذا الحادث ، ولكنه بعد أن غادر المستشفى ، عكف على تحسين مقدرة يده اليسرى وتدريبها على العزف فى يسر ، ثم بدأ فى إعداد طائفة من روائع النغم وتقييد رموزها الموسيقية من جديد لتعزف باليد اليسرى فقط . ولم تنقض أشهر قليلة ، حتى عاد إلى المسرح واستعاد شهرته الأولى ، ولم يكتف بذلك ، بل حقق المعجزة فأصبح عازف البيان ، ذا الذراع الواحدة ، علما يبز عازفى البيان فى العالم بأسره ، مما حدا بفريق من كبار المؤلفين والملحنين والموسيقيين إلى إعداد معزوفات خاصة لا تعزف إلا باليد اليسرى . فيا شباب الناطقين بالضاد ويا شباب مصر ، هيا إلى العمل . إنكم لوقت مثل هذا وصلتم إلى ملكوت العمل المقدس . اذكروا أن الشاعر الفلاح المصرى « توفيق العوضى » قد صدق حين قال :

لا بأس فى سعينا فالنصر منتظر
وإن تلاحقت الأحداث والغير
إنى أرى هذه الأحـــداث بوثبة
فى نارها عزمات الشعب تختبر
والشعب يدفعه عزم ويضبطه
حزم فإن ثار لا يبقى ولا يذر
وفى سبيل أمانينا وعزتـــنا
لمجـــد مصر يهون الخطب والخطر

فيا شباب ، هيا احيوا حياة الحب والعظمة والفداء والأخطار ، وحذار أن تبددوا رصيد العمر فى الخمول والعبث والاستنامة والرخاوة : « ولكن الآن عدوا العمل أيضاً ، حتى إنه كما أن النشاط للإرادة ، كذلك يكون النعيم أيضاً حسب مالكم » .

الزهرة

فى موكب الشمس

تريثت بضعة أشهر قبل أن أقرأ هذا الكتاب ، مؤثرة أن أنتظر به حتى أفرغ له فأتلو صفحاته — التى قاربت ألفاً — على مهل وفى اطمئنان ، ثم جذبتْ هذه الأحداث الحاضرة التى تؤرخ فترة من أدق الفترات فى تاريخنا القومى ، فأغرتنى بمطالعة هذا السفر التاريخى الذى يحدث عن ماضينا العريق ، ويصلنا بجدود لنا عظام ، فرضوا مجدهم على الزمان وقهروا الفناء !

ولم أقصد بقراءته إلى التماس شىء من المتعة الفنية ، إذ أن الكثرة المطلقة من الكتب التاريخية عندنا تُرهقنا بجفافها وإملالها ، وإنما هى العاطفة القومية دفعتنى دفعاً إلى صاحبته تحتماً لعناء الإملال ، فى سبيل أن أزداد علماً بتاريخنا القديم...

غير أنى لم أكد أتلو مقدمة الكتاب حتى ألفيتنى أمام أسلوب أدبى لا عهد لنا بمثله فى الكتب التاريخية إلا قليلا ؛ فالدكتور بدوى هنا يحلم ، ويتأمل ، ويتخيل ، ويستحضر لنا من أعماق الماضى السحيق ، طيفاً مصرياً وقوراً يحدثنا فى صوت ملؤه القوة والجلال ، عن أمسنا كيف كان ، ويكشف لنا فى قسوة الأب الرحيم عما يشوب حياتنا اليوم من عناصر الضعف !

وخيل لى ، أن « الدكتور بدوى » هنا يوشك أن ينحرف عن أسلوب المؤرخين ويصطنع أسلوب الأدباء ، وأن شخصيته الفنية سوف تجور على شخصيته العلمية ، فى الوقت الذى يوشك فيه التاريخ أن ينتصر فى كفاحه الطويل لكى يصبح علماً ؛ ينفر من الظنون ، والتصورات ، والتأملات ، ويستبدل بها « مستندات ووثائق وآثاراً » هى — وحدها — أدوات المؤرخ المحقق ، ومادة التاريخ الحق .

هل أقول إنى أشفقت على « الدكتور بدوى » المؤرخ ، من شخصية الأديب التى تجلت فى المقدمة ؟ أجل أشفقت ، ثم مضيت أقرأ ، فإذا بالدكتور ينتزع نفسه — فى سرعة مفاجئة — من تأملاته وأحلامه ، ويخلص للبحث التاريخى العلمى فى جد ورزانة ويقظة ، حتى كادت تختفى ملامحه الأولى ، اللهم إلا أثراً باقياً فى أسلوبه العالى ، وصياغته الأنيقة للمادة التاريخية .

وتابعته وهو يعرض علينا قطعة من ماضينا ، يستنطق فيها الآثار ويستقرئ النصوص ويفحص الوثائق ، حذراً بالغ الدقة والحذر ، وهو — غالباً — يترك تلك الآثار والنصوص أن تتحدث فى ثقة وحزم يعبّر عنهما « بلا شك ، وليس من شك » : ١١٧ — ١٢٣ ، ١٢٦ — ١٣٠ ! فإن بدا له أن يعلق على شىء منها أو يستنتج من بعضها أكثر مما يحتمله الأثر أو النص ، ألفى كلامه فى احتياط جدير بالعلماء الذين يقدرون حرمة العلم ، فقليلا ما يورد تعليقاً أو رأياً أو استنتاجاً ، دون أن يستهله بقوله : (من الجائز ، لعل) ص ١٠ ، ٥٣ ، ٢٤ ، ١٣٧ ، ١٦٦ ، ١٨٣ ، ٢١٢ (وربما) ١٧ (ما نكاد نعرف) ١٩ (ونكاد) ٢٢ (وغالب الظن) ٢٣ ، ٤٣ (والظاهر)٣٦ ، ١٦٠ ، ٢١٣ (استطيع أن أستنتج) ٣٦ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ٢٢٥ (من المحتمل) ٣١ ، ٥٣ (إذا صح) ٤١ ، ١٥٣ ، ٢٠٥ ، ٢٣٣ (ولست أستبعد) ٤٤ (ومن الرجح) ٤٩ ، ١٤٤ ، ١٥٢ (يستطيع الباحث أن يستنتج) ٧٩ (ما أظن) ١٢٥ (أكاد أشعر) ٢٠٨ (ليس من الثابت) ٢٣٤ الخ .

والدكتور بدوى بهذا ، يدعم النهج الصحيح المقرر للدراسة التاريخية . ولقد قرأتُ أكثر ما كتب عندنا عن التاريخ المصرى القديم ، وأبيح لنفسى أن أبارك هذا الكتاب الذى استطاع أن يستبدل بترجمة ما كتبه الغرب عنا ، مصادر أصيلة من الدرجة الأولى ، فى الوقت الذى نرى فى مكتبتنا مجلدات وأسفاراً عن التاريخ المصرى ، كل جهد المؤلفين المصريين فيها أن يجمعوا ما كتب مؤرخو الغرب جمعاً لنا ، غير متحرجين أن ينقلوا — وهم

المصريون — تاريخ مصر من مراجع أجنبية ، في هذا الوقت ، نقرأ « في موكب الشمس » حديثاً أصيلاً تَرويه آثارنا ومتاحفنا ، تلك التي قهرت الزمن ووصلت إلينا بالغة الروعة والجلال .

تلك هي مأثرة الكتاب عندنا ، وعند كل حريص على سلامة المنهج التاريخي وأصالته ، وللأدب بعد هذا أن يعتز بهذا العرض الفني للمادة التاريخية ، دون عدوان عليها أو مساس بها .

بنت الشاطىء

النشاط الثقافي في أسبوع

للأستاذ عز الدين إسماعيل

معرض جماعة الفن الحديث :

هذا هو العرض الرابع لجماعة الفن الحديث ، أقامته الجماعة بصالة متحف الفن الحديث تحت رعاية محمد بك حسن مدير عام الفنون الجميلة ، والمعروف أن محمد بك حسن رجل معتدل في موقفه من مذاهب الفن المعاصرة والقديمة ، وقد درسها دراسة العالم قبل أن يدرسها دراسة الفنان ، وأذكر أنه صاحب المذهب المجتمع ، وهو جمع بين الاتجاهات الفنية المعتدلة القريبة من طبيعة الفن سواء في القديم والحديث .

ثمانية من أعضاء جماعة الفن الحديث عرضوا أكثر من أربعين لوحة ، وسأقف بك قليلا مع كل من الفنانين الثمانية

أما جاذبية سري فتدلك لوحاتها على أنها دارسة واعية ولكنها أحياناً تعلو وأخرى يخونها التوفيق . في لوحتها للدرسة (صورة شخصية) أداء يدل على تمكن ، ووضوح في الفكرة والتعبير يدل على أصالة ، وقد استغلت الخطوط المتكسرة في تنسيق الشعر ، إلا لمسة الهندام التي تبدو على المدرسة ، وقد كان في احتضان الكتاب وإسناده إلى القلب ، وفي ملامح الوجه تعبير قوي عن الإخلاص في العمل وحب الدرس . أما الظلان الجانبيان (البروفيل) ففي استقامة الرقبة والشعر والجسم ، وفي استقامة النظرات دلالة واضحة على الاستقامة بوجه عام ، وهكذا نرى الفنانة قد ظفرت بالتعبير الروحي أكثر من اعتمادها على الخطوط الشخصية لتشخصا حقيقياً دقيقاً .

أما صبرة عبد الرازق فلعلها قد تخصصت في دراسة اللون الأحمر ، وللون الأحمر دلالة معينة معروفة ، ولكن الفنانة قد استطاعت أن تستغله دون أن يبدو نافراً ، ولن تفوتك لوحة لها لم تتمتع بالقدر الأوفر من هذا اللون ، وإذا كان من الفنانين الثمانية من أخذ بالمذهب التكعيبي Cubism في لوحاته فلم يكن فيهم أكثر هضما وتمثيلا لهذا المذهب من الفنانة صبرة خاصة في لوحتيها (صيادو السمك) و (الغسالة) . أما لوحات السوق الثلاث (حديقة النزهة) و (غابة) و (طريق) فلم تكن تقصد منها إلى نوع معين من أساليب التعبير أكثر من وضع صحيح للطبيعة كما هي ، ولكن بترك المجال للخيال في اختيار الألوان وخلق جو من الانسجام بينها رغم أنها في الحقيقة (أي في الطبيعة) لا تكون هكذا ، هو مزج الحقيقة بالخيال ، أصدق من الحقيقة وأعجب من الخيال .

أما الفنانة صفية أمين فننها قريب المنال جداً ، بمعنى أن الفكرة عندها لا تدل على العمق ، ولعل أصدق شاهد على هذا هو أنها مالت إلى الموضوعات لا إلى الفكرة ، والفرق بين الموضوع والفكرة هو أن الإحساس في الأول ينتقل من الخارج إلى الداخل وفي حالة الفكرة ينبع الإحساس من الداخل — أي من داخل نفس الفنان — أو على الأقل لا يكون الموضوع الخارجي للوحي موجوداً وملموساً . والفنانة في لوحتيها (مهاجر وكفر عبده) و (عمال) تمثل هذه الفكرة . وإنك لتحس بفقر الألوان عندما تقف أمام لوحاتها ، اللهم إلا لوحة (عمال) . وأقصد بفقر الألوان قلة الخبرة بمزجها واختيارها وتوزيعها . وإنك لتجد كل ما تتصور وما لا تتصور من الألوان جميعاً محتشدة في لوحتها (في الحديقة) احتشاداً لا ائتلاف فيه ، بحيث تجد اللون قد احتل مكاناً محدداً واضحاً بجانب أخيه ، وإن كان التنافر بينهما على أشده . ثم تبحث عن الفكرة أو الشعور فيعييك البحث دون جدوى . ولست تستطيع آخر الأمر أن تردها إلى إيحائية ناجحة ، أو واقعية صادقة .

أما الفنان صلاح يسري فيتضح الاتجاه السوريالي عنده خاصة في لوحتيه (الإنسان) و (بيت محمد أفندي) . فأنت

ترى هذا البيت فتسأل نفسك : لماذا هو بيت محمد افندى وليس بيت ابراهيم أفندى ؛ ذلك أن ابراهيم أفندى قد يكون فكرة فى نفسك كما أن محمد أفندى فكرة فى نفس الفنان . وتبقى اللوحة فى الحالتين هى هى دون تغيير ؛ فليس البيت ذاته صلة بشخص اسمه محمد أو آخر اسمه إبراهيم ، وإن كان مظهره هو مظهر بيوت الطبقة الوسطى التى يعيش فيها محمد أفندى وابراهيم أفندى وعلى افندى ... الخ . وتتضح بجانب الاتجاه السوريالى عنده طريقة التقسيم بالخطوط المتكسرة غالباً والمنحنية فى القليل . وقد تمثل ذلك بوضوح ونجاح فى لوحتيه (الشعب) و (الحاوى) .

وأما الفنان عبد الفتاح الجيلى فأصدق مثل على التخلل الطيب للمذهبين السوريالى والتكعيبى . وفى ألوانه طابع الهدوء . ولعل مرجع ذلك إلى تمكنه من اللون وغناه فيه . وجميع لوحاته تشهد بذلك ، بخاصة لوحته (قوت اليوم) ؛ فالعناصر فيها معبرة فى قوة ... كان قوت اليوم هو السمكة ، سيغتذى منها الرجل وزوجه فى مأواهما تحت تلك الشجرة الكبيرة . كانت السمكة حصيلة مجهود الرجل فى اليوم ، ومنها سيقتات وستقتات زوجه ليدر ثدياها لبناً للطفل الرضيع . أما اللون الأزرق فقد أضفى على الصورة جو الحزن . ولعله أن يكون الحزن الذى أحس به الفنان فأبى إلا أن يظلل اللوحة بشعوره .

وأما الفنان محمد عويس فإنه وإن كان قد لجأ فى بعض لوحاته (أخبار القتال) إلى الموضوع فإنه كان أكثر توفيقاً فى استخدام الألوان وتوزيع الشعور فى أشخاصه ، بحيث يجعلك تحس بحيوية الموضوع ، ولعل نجاحه فى هذا اللون لايقل عن نجاحه فى لوحتيه السورياليتين (ماسح الأحذية) و (أم) .

وأما الفنان نبيه عثمان فيتمثل دائماً فى رسم الأطفال ، وسورياليته لاتنفر له هنا . ونستطيع أن نسمى لوحته (طفلة) أو لوحته (طفل) جدة أوجد . فى اللوحتين تعبير لاشك ، ولكن لا علاقة له مطلقاً بالطفولة ، ولعل أحسن لوحاته لوحة (طبيعة صامتة) .

وأخيراً يأتى دور الفنان وليم إسحق ؛ وكان أحق بالتقديم إذا كان فى التقديم معنى الأحقية . فهو لا يتبع المذهب السوريالى كما لايتبع المذهب التكعيبى ، وإنما هو أقرب إلى طبيعة أستاذه محمد بك حسن ، يشعرك برسوخ قدمه فى فنه واعتزازه ؛ طابعه الصدق فى الأداء ، والاعتماد على الضوء والظل اللونى ، دون تحديد للخطوط والملامح ، مع هدوء الألوان وتناسبها ، ولوحته (الدرس) مثال على ذلك ؛ فصدق الأداء والتعبير واضح فى علامات الرضوخ والاستسلام والطاعة فى متلقية الدرس ، وفى وضع الكتاب مفتوحاً على حجرها ، وفى جلستها المستقيمة ، وعلى العموم فالعناصر دائماً متناسقة ، وكذلك الألوان ، وموزعة توزيعاً مريحاً على جميع أجزاء اللوحة دون اضطرار إلى الزحمة مطلقاً .

هذه لمحات عن هذا المعرض ، ولعل كل من شاهده يوافقنى على أن فى مصر فنانين .

عز الدين إسماعيل

ميلودراما «الذهب»

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

قدمت الفرقة المصرية هذه الميلودراما مترجمة عن قصة شارلز ديكنز (دافيد كوبر فيلد).

والميلودراما طراز خاص من الروايات التى سادت المسرح الإنجليزى فى منتصف القرن التاسع عشر، والتى يلخص «نيكول» رأيه فيها، وفى عصرها، وفى كتابها، فيقول: ليس فى هذه الحقبة رواية واحدة ذات جدارة فنية، فإن كتاب الميلودراما قد أمعنوا فى إثارة المشاعر بما صوروه فى رواياتهم من أحداث عنيفة ومفاجآت مفزعة وصخب مزعج معتمدين كل الاعتماد على المؤثرات الرخيصة والمونولوجات ذات الحوار السوقى ..

فهل معنى هذا أن الفرقة المصرية باختيارها هذه الرواية المترجمة لم تكن أسعد حظاً منها فى اختيارها روايتها المترجمة الأولى (النسر الصغير)؟ وهل يجوز لنا أن نستنتج من ذلك أنها ليست على دراية كبيرة بما ينبغى تقديمه من المترجمات المسرحية؟!.

الواقع أن الأمر كذلك، لكننا رغم هذا نظلمها ظلماً مبيناً إذا نحن ألقينا عليها وحدها تبعة إخفاقها فى هذا المضمار. فالحق أن نقادنا أيضاً مشتركون معها فى هذه التبعة، ولعلهم — لو أردنا ترتيب المسئولية ترتيباً حقيقياً — مسئولون قبلها، بل مسئولون وحدهم عن كل ما يشوب إنتاجنا المسرحى من نقص أو انحراف. ذلك لأننا قوم مصابون بالارتجال والتسرع وتعجل النتائج، فما كاد يتبين لنا أن الفن التمثيلى يعانى طفولة كسيحة فى بيئتنا، وأن الطريقة المثلى لمعالجته وإنهاضه هى الاعتماد أولاً على المسرحيات الغربية حتى هرعنا إلى تقديم ما نلقيه و المصادفة » أمامنا منها. وقد كان خليقاً بنقادنا بدلا من تهالكهم على تعقب الأخطاء النحوية واللغوية، أو التشبث بالنقد الشكلى، أو التهافت على نقد رواياتنا المحلية وحدها، أن يفطنوا إلى خطورة المرحلة التى يجتازها مسرحنا، وأن يرشدوه إلى كيفية الاستفادة من المسرح الغربى، لا بمجرد النقل والاحتذاء والاستيحاء، بل كذلك بإدراك مراميه وأوضاعه وظروفه المختلفة فى ذاتها من جهة، والمختلفة بالنسبة إلينا من جهة أخرى! فالفهم — كما يقول ديهاميل — علة المفهوم، ولا ضير علينا بعد ذلك أن نعتمد على المسرحيات الغربية وأن نتخير من طرزها المختلفة ما نشاء، سواء أكانت رفيعة أم تافهة، بل لا ضير علينا أن نتخير أدناها قيمة ما دمنا نفهم أسباب الامتياز أو التفاهة فى كل حالة.

ولست أغالى إذا قلت إننا بهذا يمكن أن نستفيد من رواية غير ذات قيمة كبيرة كميلودراما (الذهب) أضعاف ما قد نستفيده — الآن — من أروع المسرحيات.

والدليل على ذلك أننا نشكو وسنظل نشكو ليس غير من قلة دور المسارح الجدية، وتكاثر المسارح الهازلة العابثة، ومن ابتعاد موضوعاتنا عن الواقع والحياة وانسياقها وراء نزعات الجمهور العامى، ومن ضآلة خبرة معظم مؤلفينا ونقادنا بأسرار الأداء المسرحى... الخ.. فما الرأى فى أن هذه كلها، وما إليها، مشكلات يمكن أن نثيرها بيننا وأن تدفعنا إلى إمعان النظر فيها، هذه الميلودراما، لو أننا انتهزنا فرصة عرضها وتوخينا معرفة الظروف التى كيفتها على النحو الذى هى عليه، وتدارسنا الحقائق الواضحة التى أدت إلى انحطاط المسرح الإنجليزى فى العصر الذى أنتجها؟!.

ولكي نقرب ذلك إلى الأذهان نضرب أمثلة لبعض هذه الحقائق :

فالحقيقة الأولى أن انجلترا لم يكن بها منذ أواخر القرن الثامن عشر سوى مسرحين أساسيين ، وأن ذلك أدى إلى تضخيم حجميهما أكثر من اللازم ، وهذا بدوره أدى إلى الاستعانة بالمؤثرات الصاخبة التي تجذب العين والأذن دون اهتمام كبير بما يرضي العقل والشعور ، وإلى حشد الزخارف في المناظر واصطناع التفخيم والتضخيم في الحوار والإلقاء ، وإلى إحلال الموسيقى على النصوص الأدبية ، مما انتهى إلى ضياع مغزاها .

والحقيقة الثانية أن تطورات ذلك العصر الاجتماعية أسفرت عن ظهور البرجوازيين وانتشارهم ، وهؤلاء لم يكونوا يغشون دور التمثيل إلا للترويح والتسلية والتهريج أحياناً ، وكان لهذا أثره الكبير جداً في تكييف الموضوعات المسرحية بما يتلاءم مع مزاجهم كضرورة مادية لا مناص من مراعاتها .

والحقيقة الثالثة أن كبار المؤلفين انصرفوا نتيجة لذلك عن التأليف للمسرح ، وآثروا تأليف قصص تقرأ ولا تمثل ، فانفرد صغار المؤلفين بالإنتاج المسرحي ، وتجلى في هؤلاء وهؤلاء — لانعدام الممارسة الصحيحة — ضعف القدرة على إخضاع الأفكار لمتطلبات الأداء المسرحي وأصوله الفنية ، كما تجلى نفس الأمر لنفس السبب في كبار النقاد ، فكان (لام) مثلا ينظر إلى التمثيليات نظرة جزئية باعتبارها مجموعة من « المقطوعات » أي ينظر إلى كل مقطوعة منها على حدة كما لو كانت منفصلة عن غيرها ، وكان (كولردج) ينظر إليها نظرة ميتافيزيقية أو يتعمق سيكولوجية أشخاصها . . . وبالجملة لم تظفر تمثيليات ذلك العصر من نقاده بنظرة نقدية عميقة إلى قيمتها الدرامatيكية .

وكان طبيعياً أن يتمخض ذلك جميعه عن طراز مسرحي مستحدث يناسب روح العصر ومزاج الجمهور ، فظهرت أول الأمر الميلودراما التي تغلب عليها العاطفية والنزوع إلى الماضي والانفعالات العنيفة ؛ وإزاء شغف عامة الجمهور بهذا اللون ، وإقبالهم عليه ، ولازدياد انتشار المسارح الصغيرة الكثيرة التي تقدمه ولا تقدم سواه ، لم تسنح للمؤلفين — وهم كما نعلم من حيث الافتقار إلى المواهب الفنية — فرصة التروي والإتقان ، فاضطروا إلى الاستعانة بما يصلح في عرفهم من قصص ذلك العهد وانتحالها ووضعها في إطار مسرحي . على أن هـذا الإجراء قد أفاد المسرح ولو لم يقصدوا إلى ذلك . إذ أن وضع القصص في إطار مسرحي استلزم تقييدها بقيود الزمان والمكان التي يتقيد بها مؤلفوها ، ومن ثم اقترب هذا اللون من الحياة والواقع ؛ وهكذا تهيأ الطريق لظهور نوع آخر من الميلودراما وهي : (الميلودراما الطبيعية Naturalsitic Melodrama) وإليها تنتمي روايات ديكنز التي تشترك مع نظائرها في كثرة الأحداث المثيرة والانفعالات العنيفة وتمتاز عنها — غالباً — بالاقتراب من الواقع لا سيما وأن مؤلفها كان أكثر من غيره شغفاً بتصوير الطبقة السفلى من الناس ، ولهذا نجد أن ميلودراما (اللعب) تدور حول غلام مات أبوه فاحتال زوج أمه من بعده على التماس ثروته بإقصائه عن منزله إلى حظيرة رجل غليظ القلب يصطنع الغلمان في تدبير جرائمه ويدربهم على السرقة ، ولا يتورع من أن يميتهم جوعاً لقاء أجر يتقاضاه .

كل هذه دقائق تقع في مسرحنا ما يشبهها في جوهرها مع اختلاف في التفاصيل (ولعل أقرب برهان على ذلك أن معظم مؤلفاتنا من نوع الميلودراما) ، ولذا كان من الممكن أن تنير السبيل لمسرحنا لو تدبرناها ، وكان يجدر بنقادنا أن يتناولوها تناولا جدياً ، كما كان يجدر بالفرقة المصرية أن تنيرها أو تلفت النظر إليها في النشرات التي قدمتها خلال تمثيلها ، فليست هذه النشرات كما تظن — ويظن كثيرون معها — وسيلة من وسائل الإعلان أو ضرباً من الكماليات ، وإنما هي جزء من الرواية ذاتها ، إذ هي بالتحديد — كما يقول موريس ويتز Morris Weiz الجزء الذي يوازي (البرولوج) في المسرحيات الكلاسيكية الأولى .

وأحسب أننا لسنا الآن في حاجة إلى تلخيص الموضوع أو التحدث عن التمثيل والإخراج ، فليس في ذلك جديد

يؤديه له . ولقـد عودتنا الفرقة المصرية نمطاً معروفاً من التمثيل والإخراج لم يتغير وما أظنه سيتغير .

وإنما نحن في حاجة قصوى إلى مطالبة نقادنا بفهم رسالتهم وتغيير أسلوبهم التقليدي الذي لا يمكن أن يشارك في إنهاض المسرح المصري طالما ظل على تلك الوتيرة .

ونحن كذلك في حاجة قصوى إلى مطالبة الفرقة المصرية — ما دامت قد وقفت عند وضع فني معين — بترك هذه المحاولات الغريبة عليها والتي لا قبل لها بها . وأولى لها في اعتقادي أن تقصر نشاطها على الحليات التي تتناسب مع طبيعـة تكوينها وطاقتها الفنية . . فما لا شك فيه أن معظم أفرادها قد عرفوا فن التمثيل بالممارسة العملية أكثر مما عرفوه بالدراسة الفنية ، وخبروا الجمهور منذ عهد غير قصير ، وبذلك تسنى لهم أن يفطنوا إلى مزاجه ونزعاته ؟ وإذاً فلا بأس من أن يظل منهاجهم قاصراً كما عهدناه من قبل على تقديم الروايات المؤلفة التي ترضى هذا المزاج وتلائم هذه النزعات ، مع محاولة الارتقاء بهذا المزاج والمباعدة بينه وبين الإسفاف أو الجمود بقدر الإمكان ، وليس في هذا ما يحط من شأنهم ، فالجمهور عنصر أساسي في المسرح ، والممارسة — إذا صلحت — شرط أساسي من شروط ازدهاره ، والاستقراء التاريخي خير شاهـد على ذلك . فما قامت النهضة المسرحية في أوربا بالدراسة وحدها ، ولا باحتذاء المسرح الإغريقي أو الروماني وحدهما ، ولكن بالممارسة والاستجابة لرغبات الشعوب كذلك .

وما ازدهر المسرح الفرنسي في عصره الكلاسيكي إلا لأنه كان مرحلة تالية لمرحلة سابقة تنازعتها اتجاهات عامة الشعب وموروثات القرون الوسطى ، وأوضاع المدرسيين وطفرات المحدثين ، وتصارعت كلها فأسفرت عن اتجاهات جديدة سديدة بزغت عند جوديل Jodelle ومن إليه من مؤلفي القرن السادس عشر ، واكتملت بعد ذلك عند مؤلفي القرن السابع عشر ؟ والأمر كذلك بالنسبـة للمسرح الإنجليزي . فما نهض المسرح الإليزابيثي إلا بعد أن جمع بين الاتجاه الكلاسيكي والاتجاه الشعبي أيضاً . إذ ظل الكلاسيكيون يحتذون سينيكا وبلوتس ويلتزمون القيود والقواعد ويقسمون الدراما إلى تراجيديا وكوميديا تقسيماً صارماً ، ويهتمون بالأسلوب البليغ والتعبير الفخم والمحسنات الجمالية ، بينما كان الشعبيون لا يأبهون لذلك كله ، بل لا يأبهون لشيء سوى الجمهور الذي ينشد المتعة والتعبير عن انفعالاته كاريد وخيرفيود ؟ وبالطبع كان لكل اتجاه مزاياه ونقائصه ، إذ برع الكلاسيكيون في الشكل والقالب ، ولكن كانت تعوزهم الحرارة ؛ وبرع الشعبيون في تصوير وجدانيات الجمهور ، ولكن كانت تنقصهم الصياغة الفنية . وظلت الدراما تترجح وتتطور في نفس الوقت بين هذين الاتجاهين إلى أن جاء (لودج وناش وبيل ...) ومن إليهم أو جاء بهم التطور الطبيعي فحاولوا التوفيق بين مزاياهما ، ومعالجة نقائصهما ومهدوا بذلك للنهضة المسرحية الشكسبيرية .

وكذلك نهض المسرح في أوربا كلها بعد أن جمع بين الدراسة والممارسة ، وبين إرضاء الخاصة وإشباع نهم العامة ، وبين الاتجاه الأكاديمي والاتجاه الشعبي الخالص .

والخلاصة أن الممارسة — وهـذا هو المهم — أمر لا يستهان به في توطيد دعائم المسرح في شتى عصور ازدهاره ، وإذاً فلا جناح على الفرقة المصرية أن تظل محتفظة بوضعها الملائم لطبيعتها ووظيفتها ، وأن تقصر إنتاجها على ممارسة الحليات عسى أن تشارك بذلك في التمهيد لنهضتنا المسرحية المرجوة . وبديهي أننا لا نريد أن نحتم عليها أو على غيرها وضعاً من الأوضاع ، وإنما لكي نسير على بصيرة ينبغي أن ينتهي عهد الفوضى الذي نعانيه الآن ونبدأ عهـداً واضح المعالم واضح النتائج .

لقد آن أن ندرك أن التخصص أجدى من الارتجال ، وتبعاً لذلك يجب أن تحدد لكل فرقة رسالتها الخاصة بها حسب طبيعة تكوينها وأن نحصر مجال التفاضل والتنافس بينها في مدى إخلاص كل منها لمنهاجها إخلاصاً يستنفد كل إمكانياتها ، وإلا فلا أمل في ارتقائنا إذا ظللنا مكتفين على مناهجنا الساذجة الراهنة التي لا تلزم فرقنا التمثيلية بأكثر من تقديم ما يتسع الوقت لتقديمه من روايات تتخيرها كيفما اتفق ولا تلزم نقادنا بأكثر من سرد موضوعاتها والتحدث عمن أجاد أو أساء من مخرجيها وممثليها كيفما اتفق كذلك .

عبد الفتاح البارودي

الثقافة

العـــدد ٦٨٢
٢١ من يناير ١٩٥٢

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

نشـــــيد الثوار

[إلى أبطال الحرية جنود الكتائب]

اعصـــفى يا رياحْ   وابرقى يا رعـــودْ
بعد فجـر الكفاح   ليلنـــا لن يعود
ويل هـــذى القيود   من سجين حقود
فازحفى يا جـــموع
مالنـــا والهجـــوع   فى ظلام الخنـــوع
واعصــــفى يا رياح
قد شربنا الشــقاء   فى كئوس الألمْ
وافترشـــنا الفنــاء   والتحفنـــا العـــدم
ويل ليل الســـأم   من صـــباح الهمم
فازحفى يا جـــموع
ما لنـــا والدمـــوع   مات عار الخضـــوع
واعصــــفى يا رياح
زمجرت فى الصدور   صرخـــةُ الذكريات
يا دماء تمـــور   فى شغافِ القنـــاة
ربع قلب الطغـــاة   من ضحايا الحيـــاة
فازحـــفى يا جموع
فالأمانى تضـــوع   والأضـــاحى شموع
واعصــــفى يا رياح
اعصـــفى يا رياح   واهدرى فى الكونْ
وانشـــدى يا جراح   للدماء اللحونْ
واعزفى بالمنون   واثأرى يا شجون
وازحـــفى يا جموع
نحن آه وجـــوع   جرحه فى الضلوع
واعصــــفى يا رياح

[بغداد]   كاظم جواد

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٨٢ الاثنين ٢٣ من ربيع الثاني سنة ١٣٧١ — ٢١ من يناير سنة ١٩٥٢ السنة الرابعة عشرة

في ضوء المصباح :

مولد أمـــــير

ليست الأيام كلها سواء في صناعة التاريخ ، فمنها ما يجيء ويمضي وكأنه العدم ، لا يضيف شيئاً ولا يغير شيئاً ؛ ومنها ما يجيء مليئاً مترعاً ولوداً ، ما تنفك آثاره باقية على مر الزمن ، تخلق الأحداث خلقاً وتوجهها يمنة ويسرة ؛ حتى إذا ما نظرت إلى التاريخ بعدئذ كيف سار وفي أي طريق تحركت خطاه ، رأيت هاتيك الأيام الزواهي لائحة كالقمم الشوامخ متناثرة هنا وهناك فوق سهل منبسط ، تطرح ظلها مديداً يتفيؤه الناس وينعمون بثماره .

وهذه الأيام الأخيرة تجتازها مصر ، فترة حاسمة في تاريخها ، فليست هي كسائر الأيام تجيء وتمضي ، بل إنها تملي إرادتها على الزمان الذي جلس ناشراً صفحاته ، ليسمع ويسجل بأسطر من نور ونار ؛ إنها أيام تقع من تاريخنا الحديث موقع الذروة في المسرحية ؛ تظل تصعد إليها الحوادث منظراً بعد منظر ، وفصلا في إثر فصل ، لكي تسير بعدها الأمور التي تعقدت نحو الحل الموفق السعيد .

وشاء الله أن تزداد هذه الأيام الفذة الفريدة أهمية وخطراً ، فجعل من بينها يوماً فذاً فريداً ، هو يوم الأربعاء السادس عشر من شهر يناير سنة ١٩٥٢ حيث ولد فيه لوادي النيل أمير يتولى عهده ، هو حضرة صاحب السمو الملكي الأمير أحمد فؤاد أمير الصعيد فجاء مولده السعيد بمثابة البشرى تألق نجمها في سماء اكفهرت آفاقها ، واسودت جوانبها بالسحاب الأدكن القاتم .

إنها مشيئة الله أن ترتبط النهضة المصرية الحديثة المباركة منذ فجرها بالأسرة العلوية الكريمة منذ قيامها ونشأتها ؛ فتفجر النهضة هو بذاته قيام ساكن الجنان المغفور له محمد على باشا الكبير على حكم البلاد وإصلاحها ، إذ فتح لها بيديه الكريمتين في أول القرن الماضي باب الحضارة على مصراعيه وأمدها بروح من روحه ، ومضى من القرن ثلثاه ، فجاءها إسماعيل العظيم الذي أراد لها أن تكون قطعة من أوربا ؛ ثم خيمت على البلاد غمامة ثقيلة من الاحتلال البريطاني البغيض فلبثت تنتظر فؤاداً صاحب المجد في صفحة الخلد ، لينزع عنها ما جثم فوق صدرها ورفع لها راية الكفاح والجهاد ، ثم جاء ميلاد الفاروق المعظم صيحة الثورة بمثابة الصيحة المباركة التي انطلقت بها أفواه المصريين تطلب للوطن عزه ومجده ؛ وها نحن أولاء ماضون في جهادنا وجلادنا مستظلين بظله الوارف ، مستلهمين رشده وهداه ...

ولقد خط القدر بالأمس في صفحة تاريخنا سطراً جديداً مشرقاً بالأمل والرجاء ، إذ من الله علينا بمولد أمير أغر الطلعة مبارك القدوم ، فأراد الله العلي القدير بمولده أن يبعث رسالة البشرى إلى أبناء الوادي بالنصر المؤزر في ظل مليكنا المفدى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، أقر الله عينه بولي عهده ، وجعل مولده مطلع خير شامل وبركة سابغة للناس أجمعين .

زكي نجيب محمود

الغـــلام الطبّال

للأستاذ علي أدهم

جاهد الإيطاليون خلال القرن الماضي جهاداً شاقاً طويلاً لإجلاء النمساويين من بلادهم ، واستكمال استقلالها وتحقيق وحدتها ، وقد منوا في أثناء هـذا الجهاد بخسائر فادحة وهزائم منكرة ، فلم يثن ذلك عزمهم ولم ينل منهم ، وظلوا يواصلون الجهاد ، حتى ظفروا بالاستقلال التام ، وحققوا الوحدة الكاملة الشاملة في سنة ١٨٧٠ ، ومن المعارك التاريخية التي خسرها الإيطاليون في حرب الاستقلال معركة كاستوزا التي حدثت في سنة ١٨٤٨ ، وقد اختار الكاتب الإيطالي الروائي إدموندو دامتشي أحد مواقف هـذه المعركة ليصور لنا بطولة غلام إيطالي يافع لم يقعد به صغر السن وشدة ما كان يعانيه من الألم في ساقه بعد إصابته برصاص الأعداء عن أداء واجبه وتبليغ الرسالة التي كلف حملها.

ففي يوم ٢٤ يوليو سنة ١٨٤٨ ، وهو اليوم الأول من أيام واقعة كستوزا كانت قد صدرت الأوامر إلى ستين جندياً من إحدى فرق المشاة الإيطالية بحراسة منزل منعزل على ربوة دانية ، ولكنهم فوجئوا بهجوم كتيبتين من كتائب الجيش النمساوي من شتى الجهات ، حتى إنهم وجدوا صعوبة كبيرة في الوصول إلى المنزل والاعتصام به وإحكام إقفال بابه وإقامة الحواجز والسدود خلفه ، ولما وثقوا من تحصين الباب أسرعوا إلى النوافذ في الطابق الأرضي والطابق الأعلى ، وأخذوا يصبون النيران على محاصريهم ، وكان المحاصرون يردون على ذلك بعنف وقوة وهم يتقدمون من المنزل في شكل نصف دائرة ، وكان يقود الستين جندياً ملازمان وضابط طويل القامة متجهم عبوس قد ابيض شعره واسترسل شاربه ، وكان معهم غلام يافع من سردينيا يحمل الطبل ، ولا تتجاوز سنه أربع عشرة سنة ، وكانت عيناه سوداوين غائرتين متوقدتين ، وكان أسمر البشرة ، وكان الضابط يدير حركة الدفاع من إحدى غرف الطابق الأعلى ، وكان كل أمر يصدره يُستمع له صوت كطلقة المسدس ، وكان وجهه الحديدي لا ينم بأقل أثر من آثار العاطفة ، وكان حامل الطبل قد شحب وجهه ، ولكنه وضع قدمه على المنضدة وثبتها بها وأمسك بالحائط ومدّ رأسه لينظر من النافذة ، وقد أبصر في الدخان المتصاعد والنقع الثائر النمساويين وهم يتقدمون تقدماً متصلاً في ساحات القتال .

وبعد دقائق قلائل جاء جندي إلى حامل الطبل وطلب منه أن يتبعه .

فجرى الغلام على درج السلم خلفه ودخل عُلّيّة متهدمة رأى فيها الضابط وفي يده قلم رصاص وورقة ، وكان مستنداً إلى سُدّة النافذة وعنـد قدميه حبل ملقى على الأرض من حبال البئر ، وطوى الضابط الورقة ، وحدج الغلام بعينيه الجامدتين الرماديتين اللتين كان كل جندي ينتفض فرقاً حينما يصوبهما إليه ، وقال في خشونة وعنف :

ــ أيها الطبال !

فارتفعت يد الغـلام إلى قبعته الصغيرة .

وقال الضابط : هل أنت شجاع ؟ .

فبرقت عينا الغلام وأجاب : نعم يا حضرة الضابط .

فصحبه الضابط إلى النافذة وقال له : أرسل طرفك رائداً إلى هنالك حيث تلتمع الحراب في الأرض القريبة من منزل فيلافرنكا ، إنها فرقتنا واقفة بغير حراك ، فخذ هـذه الورقة وأمسك بهذا الحبل وتدل من هـذه النافذة واعبر الحبل مثل البرق وانطلق مسرعاً خلال الحقول حتى تصل إلى رجالنا وأعط هـذه الورقة لأول ضابط تلقاه ، واحمل معك حزامك وحقيبتك .

فحمل الغلام الطبال حزامه وحقيبته وخبأ الورقة في جيب صداره ، وألقى الجندي الذي يساعد الضابط الحبل من النافذة بعد أن أمسك بطرفه ، وساعد الضابط الغلام على تسلق النافذة وأوصاه قائلاً : « كن حذراً فإن خلاص الفرقة متوقف على شجاعتك وعلى ساقيك » .

فقال الغلام وهو ينحدر من النافذة : « ثق بي يا حضرة الضابط » .

وبعد دقائق قليلة كان الغلام يسير فوق الأرض ، ورفع الجندي الحبل واختفى ، وأسرع الضابط إلى النافذة الصغيرة ، ورأى الغلام وهو يعدو منحدراً من فوق الربوة ، وأمّل أن العدو لا يبصر الغلام ، ولكن سرعان ما تصاعدت سحب من الغبار ، وأدرك الضابط أن الأحباش قد رأوا الغلام وأطلقوا عليه النيران من فوق الربوة ، ولكن الغلام استمر يعدو بأقصى سرعة يستطيعها ، وبعد دقائق صاح الضابط في خوف وهلع : « لقد مات الغلام » ولكن لم تكد تنطلق هذه الكلمات من فمه حتى رأى الغلام ينهض من كبوته ويستأنف الانطلاق .

فقال الضابط ، وقد اطمأنت نفسه : « آه إنها كانت عثرة » .

وانطلق الغلام في طريقه ، ولكنه كان يظلع في مشيته فقال الضابط : « لقد التوت قدمه » ، وثار الغبار حول الغلام من هنا ومن هناك ، ولكنه كان على مسافة منه ، وقد ابتعد الغلام عن مرمى قذائف الأحباش ، فأرسل الضابط صيحة فرح ، ولكن عينيه كانتا تتبعان الغلام وهو يرتجف لأن مصير رجاله كان متوقفاً على هذه الدقائق القليلة ، فإذا لم يصل الغلام إلى الفرقة في الحال واللحظة ومعه الرسالة التي يحملها لطلب النجدة السريعة ، فإن جميع رجاله سيقتلون أو يضطر إلى التسليم ويصبح أسير حرب عند الأحباش .

وأخذ الغلام السير لحظات ، ثم تعثر في السير ، وعاد واستأنف الجري ، ولكنه كان يتوقف عن السير كلما مرت بضع دقائق ، وكان الضابط يراقب ذلك من النافذة ، وخطر بفكره أنه ربما يكون الغلام قد أصيب في قدمه ، وأخذ يراقب حركات الغلام وهو مضطرب الخاطر مهتاج النفس ، وكان في كل دقيقة يقيس بنظره المسافة الباقية بين الغلام وبين موقع الأسنة اللامعة من بعيد في وسط حقول القمح .

وفي خلال ذلك كان يسمع أزيز طلقات الرصاص المنهمرة في غرف المنزل وصيحات الغضب التي يرسلها الجنود وأنات الجرحى وصوت تكسر أثاث المنزل وتساقط البلاط الذي يغطي حيطانه ، وتابعت عيناه خطوات الغلام وأخذ يصيح بالغلام كأنه كان على مقربة منه : « تشجع ! إلى الأمام ! ها قد وقف الغلام ، ها هو ينطلق » .

وجاء إلى الضابط أحد اللازمين مبهور الأنفاس ليخبره أن العدو قد لوح لهم بمنديل أبيض دون أن ينقطع عن إطلاق الرصاص وطلب منهم الاستسلام .

فصاح به الضابط وعيناه تراقبان حركات الغلام الذي كان قد توقف عن السير في تلك اللحظة : « لا تردوا عليهم » وأخذ يصيح بالغلام كأنه كان منه بمسمع قائلاً : « تقدم إلى الأمام ! أسرع ! وتقدم قدمك واتلقى الموت ، ولكن بلغ الرسالة للفرقة ! » ثم صاح صيحة يأس :

« آه لقد قعد عن الجري هذا الملعون الكسول ! » .

والواقع أن رأس الغلام الذي كان يُرى فوق حقول الغلال اختفى ولم يظهر ، فظن الضابط أنه قد سقط من الإعياء ، ولكن بعد دقائق شاهد رأس الغلام ثانية ، ثم غاب الغلام وراء حقل القمح ولم يظهر بعد ذلك .

وأسرع الضابط إلى الطابق الأرضي ، وكان الرصاص يتوالى دراكا ، وامتلأت غرف المنزل بالجرحى ، وكان بعضهم يترنح من الألم ، وكانت الحيطان وأرض الغرف والأثاث قد غطيت بالدماء ، وكانت جثث القتلى ملقاة عند مدخل المنزل .

وصاح الضابط برجاله قائلا : « تشجعوا » ، اثبتوا في أمكنتكم فإن النجدة آتية ! تشجعوا واصبروا قليلا .

ودنا الأحباش من المنزل وبانت سحنهم المشوهة خلال الدخان المعقود حول المنزل ، وسمعت أصواتهم المزعجة وهم يسبون الجنود ويهددونهم إن امتنعوا بقطع الرقاب ، وضعفت عزيمة المدافعين ، وأحسوا أن المقاومة غير مجدية وضاعف الأحباش جهدهم ، وطالبوهم بالتسليم ، فصاح الضابط من إحدى النوافذ قائلا : « كلا » ، واشتد هياج الأحباش ، واقتربت اللحظة الحاسمة ، وكاد صوت الضابط يختنق وهو يقول : « إن النجدة لم تأت بعد »

وإذا بأحد الجنود يقبل من العلية قائلا في صوت عال : « لقد جاءت النجدة » وشد ذلك من عزم المدافعين ، ورده في نفوسهم الأمل فضاعفوا جهدهم ، وسرعان ما تداعت صفوف الأحباش وشاعت الفوضى بينهم ، ورأى الضابط خلال الدخان قبعات الجنود الإيطاليين الذين أسرعوا للنجدة ، فجمع البقية الباقية من رجاله ، وقادهم خارج المنزل وهم شاهرو الأسنة ، فلم يستطع الأحباش الثبات ، وأخذوا

يتراجعون ، وأنقذ التل ، ووضعت كتيبتان من الجيش الإيطالي مدفعين فوق الربوة .

وانضم الضابط إلى فرقته ، وخاض غمار معارك أخرى وأصيب بجرح خفيف في يده ، وبالرغم مما أظهره الإيطاليون من ضروب الشجاعة فقد اضطرهم النمساويون بكثرة عددهم إلى التراجع نحو نهر منشيو ، وبالرغم من أن الضابط كان جريحاً فإنه كان يسير في طليعة كتيبته متعباً منهوكاً صامتاً حتى وصل إلى جويتو الواقعة على نهر منشيو عند الغروب ، وما لبث أن أخذ يبحث عن الملازم مساعده ، وكان قد أصيب بكسر في ذراعه وحملته النقالة . فدلوه على كنيسة قد أقيم فيها مستشفى للجرحى . فذهب إليها ، وكانت غاصة بالجرحى ، وكان هناك اثنان من الأطباء الجراحين منهمكين في العمل ، ولم يكن يسمع سوى أنات الجرحى وتوجعهم .

ولما دخل الضابط الحجرة أخذ يدير طرفه في الموجودين ليرى الملازم . وفي تلك اللحظة سمع صوتاً ضعيفاً يناديه : « يا حضرة الضابط » فاتجه ناحية الصوت ، وإذا به يرى الغلام الطبال ، وكان قد مدد على سرير خشبي وغطى إلى عنقه بقطعة من القماش الغليظ منتزعة من ستارة حاجز قديمة ، وكانت ذراعاه الهزيلتان ممدودتين خارج الغطاء ، ولكن عينيه كانتا كشعلتين من النار .

فقال الضابط وقد أخذته الدهشة : ما هذا ؟ أنت هنا ! لقد أحسنت القيام بواجبك .

فقال الغلام : لقد بذلت غاية ما في وسعي .

فسأله الضابط وهو يدور بعينيه باحثاً عن الملازم : هل جرحت ؟ .

فقال الغلام : لقد جريت بأقصى سرعة أستطيعها ، وبالرغم من انحناء رأسي فإن النمساويين رأوني على الفور ، ولو لم أجرح لوصلت إلى الفرقة قبل ميعاد وصولي بعشرين دقيقة ، ولحسن الحظ قابلت في الطريق ضابطاً من ضباط القيادة العامة وأعطيته الرسالة ، ولكن بصعوبة شديدة استطعت السير بعد ذلك ، وكان الظمأ قد برح بي ، وكنت أخشى أن لا أصل في الوقت المناسب ، وكنت أصيح غاضباً حنقاً لأنني كنت أفكر في أن كل لحظة تمر من لحظات التأخير ترسل أحد رجالنا إلى العالم الآخر ؛ ولكني لم آل جهداً ولم أدخر وسعاً ، وأنا مغتبط لذلك . ثم التفت إلى الضابط وقال له : معذرة إن الدم يتساقط من يدك .

والواقع أن يد الضابط كان يتدفق منها الدم لأنها لم يحكم لفها ، وقال له الغلام : دعني أشد رباطها . فأعطاه الضابط يده ليشد عليها الرباط ، وهم الغلام بشد الرباط وإحكامه فخذلته قوته وارتمى على الفراش . فقال له الضابط : كفى كفى ! وسحب يده الملفوفة التي أراد الغلام الطبال أن يوثق رباطها ، وقال له الضابط : إعتن بنفسك بدلا من التفكير في غيرك ، والجروح الخفيفة إذا أهملت تكون لها عواقب وخيمة .

فهز الغلام رأسه . والتفت إليه الضابط وقال له : لا بد أنك قد فقدت الكثير من دمك .

فأعاد الغلام ضاحكا : فقدت الكثير من دمي ؟ لقد فقدت شيئاً أكثر من الدم . أنظر ! . وأزال عن نفسه الغطاء .

فتراجع الضابط مذعوراً .

لم يكن للغلام سوى ساق واحدة ، وكانت الساق اليسرى قد بترت إلى ما فوق الركبة ، وكان الجزء الباقي من الساق ملفوفاً في قماش قد علته الدماء .

وفي تلك اللحظة مر أحد أطباء الجيش ، وكان رجلا بديناً صغير الجرم ، فقال في لهجة سريعة مشيراً إلى الغلام الطبال : آه يا حضرة الضابط ، إنها حالة من حالات الحظ السيء ، فإن هذه الساق كان يمكن إنقاذها بسهولة لو لم يكن قد أجهدها فأحدث ذلك التهابا بها ، وصار من اللازم بترها ، ولكنه شجاع ، وأؤكد لك ذلك ، فهو لم يذرف دمعة ولم يرسل صرخة ، ولقد كنت فخوراً وأنا أقوم بالعملية حينما كنت أفكر أنه غلام إيطالي ، وإني أقسم لك بشرفي على هذا ! ويقينا أن هذا الغلام من أصل كريم .

ومضى الطبيب الجراح في طريقه .

وغضّن الضابط جبينه الأبيض الشعر الشكلاته ، وأثبت عينيه في الطبال الصغير وهو يسدل عليه الغطاء ، وفي بطء وتمهل ودون أن يدري ما هو صانع اتجهت يده إلى قبعته ورفعها . فدهش الغلام وصاح قائلا :

يا حضرة الضابط ! أهذا من أجلي يا حضرة الضابط .

فأجاب هذا الجندي الخشن المرم الذي لم يفه قط بكلمة رقيقة لمن هم دونه في صوت رقيق يفيض عطفاً وحناناً : « لست سوى ضابط ، أما أنت فإنك بطل ! » .

وطوق بذراعيه الطبال الصغير وقبله بجماع قلبه .

علي أدهم

الشـــعر والحياة

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

الصلة بين الشعر والحياة وثيقة شديدة الاتصال ، بل إنك إذا أردت أن تفسر طبيعة الشعر وأن تزنه لمعرفة قيمته ومنزلته ما استطعت إلى ذلك سبيلاً إلا إذا اتخذت من الحياة أساساً لهذه الموازين .

ولعلك تسأل : ماذا نقصد بالحياة ، أهى الحياة النفسية ، أو الاجتماعية ، أو الطبيعية ، أو الحيوية ؟ إنها أولئك جميعاً ، لأن الإنسان كائن حى ، له حياته الباطنة الخاصة به الذاتية له التى هى الصندوق المغلق أشبه ، والتى ينفرد بها عن غيره من الناس فى عواطفه ومشاعره ، وآلامه وأحزانه وخوفه ورجائه ؛ وله إلى جانب ذلك حياته الاجتماعية التى يتصل فيها بالناس ويتعامل وإياهم ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم ويشاطرهم حماستهم ويأسهم ، وملاعبهم وملاهيهم وما يحبون به وما ينفرون منه . غير أن حياة الإنسان الباطنة إن هى فى الواقع إلا صورة للحياة الاجتماعية تنعكس على مرآة النفس ! وإنما جاء الخلاف بين ما يشعر به أحدنا من اختلاف الظروف التى يعيش فيها ، والزاوية التى ينظر منها إلى الأمور

وقد شاع فى الناس هذه الأيام مذهبان يتعصب لكل منهما فريق : أما المذهب الأول فهو أن الفن للفن ، يريدون بذلك أن الفنان كالشاعر مثلا ينظم قصائده للفن فى ذاته لا يخضع فى أدائه لحاجات الحياة وضرورات المجتمع حتى لا يكون فنه تابعاً لغاية أخرى غير آلها مسخراً فى خدمتها ، وفى هذا إسفاف بالفن ونزول به من عليائه الأسمى إلى حضيض هذه الحياة المادية ، فإذا أضفت إلى ذلك أن الفن الصحيح ينبغى أن يصدر عن الطبع دون كلفة أو تصنع ، فإذا تصنّع فقد رونقه وروحه وذهبت عنه طلاوته وحلاوته وولى ما فيه من سحر وتأثير ، وأصبحت الفنون المختلفة أشكالا فارغة من الروح الصحيح ، فإذا بالشعر ينقلب نظماً ، والموسيقى وزناً ، والرسم شكلاً ولوناً ، وهكذا .

أما أنصار المذهب الثانى ، وهو أن الفن للحياة ، أو الفن للمجتمع ، فيقولون : وما حاجتنا إلى هؤلاء القوم الذين يعيشون فى أبراجهم العاجية ، إنهم يعيشون عنا ، وقد حكموا على أنفسهم بالعزلة والهرب من الحياة ، وقطعوا الصلة بينهم وبين أهلهم الذين أخرجوهم إلى هذه الدنيا ، فنكصوا عن أداء الواجب ، وآثروا أنفسهم . وإنما الفن الصحيح هو ذلك الذى ينبع من معين الحياة ، ليستمد قوة من قوتها ، والذى تكون صوره معبرة أصدق تعبير عن هذه الحياة الاجتماعية التى يشارك فيها الناس ويحسون فيها بمختلف المشاعر والأحاسيس . وليس الفنان إلا الناطق بلسان هذا المجتمع ، المعبر عما يشيع فيه من مشاعر .

وليس بين المذهبين هذا التناقض الحاسم الذى يصوره أنصار كل مذهب منهما . بل الحق أن الفنان يبدل من نفسه الفن ، وليست نفسه إلا صورة من المجتمع . فهو إذ يعبر التعبير الفنى الذى يخيل إليه معه أنه قد تجرد عن المجتمع تجرداً تاما ، وانقطع تمام الانقطاع للعمل الفنى الذى يقوم به ويؤديه ، إنما يعبر فى الوقت ذاته عن الصورة التى انعكست فى مرآة نفسه من هذا المجتمع الذى يعيش فيه ، أو البيئة التى يوجد وسطها .

ومن شروط الفنان أن يكون حراً ، تفيض نفسه إذا امتلأت بشعور ما ، فيصوغ هذا الشعور فى ثوب من الفن الذى يحسنه وسبق له أن تعلمه كالشعر أو الموسيقى أو النحت والتصوير ، أو القصة والتمثيلية ؛ وأقرب ما نسمعه هذه الأيام أن يطلب الطالب من الفنان أن يصنع له قطعة فنية ، كأن الفنان نجار ما عليه إلا أن يمسك بالمنشار والقدوم ويصنع بهذه الآلات من الخشب قطعة من الأثاث .

إنما غرضنا أن نتكلم عن الفنان الأصيل كالشاعر المطبوع مثلا ، فإنه حين يبدع قصيدة أو بيتاً ، يكون فى ذلك متأثراً بالحياة ، عاكساً للبيئة فى نفسه ، ثم هو لا يدرى فى الواقع كيف ينظم ، بل تتفاعل المشاعر والعواطف فيما نسميه باللاشعور ، فإذا هو يجد نفسه يترنم وينظم .

وأستطيع أن أطبق هذه المبادىء التى ذكرتها على

ديوان الأسمر الذي جمع بين دفتيه معظم ما نظمه خلال حياته ، حتى الوقت الحاضر ، فهو سجل أودع فيه رأيه في هذه الدنيا شعراً ، أو هو تاريخ مصر منذ الحرب العظمى حتى اليوم ولكنه منظوم ، وكما شعر به محمد الأسمر .

وقدم لهـذا الديوان بثلاث صفحات صور فيها كيف ينظم الشعر بعد أن تأمل نفسه ، على طريقة علم النفس السهلة بالتأمل الباطني أو الاستبطان .

يقول : « وليس لنظم الشعر عندي وقت خاص أو مكان خاص ، فإنه حينما تحضر شياطينه أو ملائكته ، يأخذ على كل وقتي حيثما كنت ، فأقول وأنا في المنزل ، وأقول وأنا في الطريق ، وأقول وأنا وحدي ، وأقول وأنا مع الناس ، كل ذلك وأنا في شبه غيبوبة » .

فانظر إلى تعبيره « وأنا في شبه غيبوبة » تجد أنه ينظم عن اللاشعور . وقد عاد إلى هـذا المعنى نفسه فكرره في تشبيه طريف ، فقال : « وإنه ليخيل إليّ أن عملي في أول عمل القصيدة إنما هو « ساعة » أملؤها ، وهو بعد ذلك يؤدي عمله بنفسه ، ولا سلطان لي عليه ، كما تؤدي الساعة عملها بعد ملئها » . وقال في موضع آخر : « ولقد أفرغ من القصيدة ، أو تفرغ هي مني ، فأقرؤها بعد ذلك ، وأعجب لها بها ، وكيف تمت صياغتها ، حتى كأني لست بصاحبها » .

وليس غرضي الآن تفصيل عمـل العقل في اللاشعور حتى يبدع ، فهذا شأن آخر ، وإنما أود أن أنبه إلى هـذه الظاهرة الغريبة التي يعترف فيها الشاعر بأنه يصـدر عن اللاشعور ، ومعنى ذلك عن حياته الباطنة الخاصـة . ومن هذا الوجه يرضى أصحاب مذهب الفن للفن ، ويُرضي أولئك الذين يطلبون أن يكون الشعر تصويراً للعواطف الشخصية فقط ، ومن ذلك ما يقوله في قصيدة بعنوان (وقفة بين المنى واليأس) :

وأسبح في لُجٍّ عريض من المنى
وأقبع في جُحْر من اليأس ضيق

غير أن هـذا الشعر ، وأمثاله مما نجده في الديوان ، إنما هو صدى للحياة الخارجية ، التي أحس بها الأسمر ، فوقع في الحيرة ، ولم يستطع أن يفهم السر في الشقاء والسعادة على الوجه الصحيح . ففي قصيدة بعنوان (دموع شاعر) يقول :

ألا حدثوني هل جرى الرزق عادلا
أم الرزق لم يفتأ يحـابي ويظلم
قنعت بحظي ، واتهمت فضـائلي
ولو أنها شمس تضيء وأنجم
وطلقت آمالي وقلت لهـا اعزبي
فإن سبيل اليأس أهـدى وأقوم

ونحن نجد الشاعر يكثر من ترداد معنى الحظ العاثر ، والرضا بعد ذلك بهذا الحظ ، وهـذه فلسفة تشيع في الشرق ، وفي مصر بوجه خاص . فهو يحدثنا في قصيدته : « بملكتي » أن الدنيا حظوظ مقسومة ، وأن حظه منها البؤس والعذاب :

وما نحن إلا كالنبات فناضرٌ
وآخر في صحرائه جـد يابس
حملتُ لواء البؤس في مصر وانضوى
مطيعاً لأمري تحته كل بائس

غير أن الجانب الآخر من ديوان الشاعر ، الذي يمثل الحياة الاجتماعية لا الحياة الشخصية ، زاخر بالقصائد الطوال . وفي هذا الجانب يجد أصحاب الفن للمجتمع بغيتهم ، ولو أننا نختلف وإياهم ، لأنّ الفن — فيما نرى — ذاتي وموضوعي في آنٍ واحـد . وقولنا إن الفنّ للحياة أصدق دلالة على ذلك . فالشاعر يتأثر بالحياة الاجتماعية في شتى مظاهرها ، السياسـية والاقتصادية والعمرانية والإخوانية ، ثم ينظم ما تشعر به نفسه .

له في المناسبات السياسـية الكبرى قصائد كثيرة . من ذلك ما نظمه بعد عودة سعد زغلول من مفاوضة ملكدونالد بالفشل ، فذهب إلى بطلان المفاوضات والاعتماد على السيف ، وهو من المعاني التي تدور في خلد المصريين اليوم ، أي بعد ثلاثين عاماً :

حرىٌ بمن لم يصحب السيف والقنا
إذا ما سعى أن يقبل الذل صاحبا
عليك بصدق الطعن والضرب في الوغى
وخـلّ أكاذيب البراعة جانبا
فمن حمـل الأقلام أصبح خاشعا
ومن حمـل الأسياف أصبح غالبا
وأي شـعوب الأرض نال لبانةً
ولم يك طمـاعاً ولم يك ضاريا

وعاد إلى هذا المعنى نفسه في قصيدة قيلت في بعض المظاهرات الوطنية ضد الاستعمار الإنجليزي ، وقد استشهد فيها كثير من الجماهير ، جاء فيها :

إذا أنت لم تحمل قناةً وصارماً
فما لك نحو المكرمات سبيل
رأيت صليل السيف أبلغ منطقاً
إذا قام بعض القائلين يقول .

وكلنا نذكر الجلائية التي تغنيها أم كلثوم ، وهي التي نظمها الشاعر بمناسبة توقيع ميثاق الأمم العربية الميثاق العربي سنة ١٩٤٥ :

زهر الربيع يرى أم سادة نجب
وروضة أينعت أم حفلة عجب

وقد سجل الأحداث السياسية التي هزت نفسه شعراً ، سواء أكانت عالمية أم وطنية . قال يرثي البطل أحمد عبد العزيز :

مصرع القائد في ميدانه هو للقائد عيش بل خلود

ونظم في الحرب العالمية الثانية عدة قصائد :

أقلب طرفي في الوجود فلا أرى
سوى الشر والأهوال أنى أقلب
فتلك شعوب للقتال تأهبت
وتلك شعوب لم تزل تتأهب
وأدركت حرباً كنت إلى عهدها
وها تشكو أخرى ورأس الحبب

ولا أود أن أنقل إليك نماذج من سائر ما قاله الشاعر في ديوانه الكبير الذي يزيد على سمائة وخمسين صفحة ، فهو بحق سجل الحياة المصرية في مختلف مناحيها خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة .

بل لم يرفع الشاعر من ديوانه « الإخوانيات » التي تجري بين أصدقائه من قبيل الملح والفكاهات ، وقد اختلف رأي النقاد في أمر هذا الشعر ، أيعدونه من جملة الشعر أم من سبيل النظم . ونحن نرى أن الشعر إذا استكمل أدواته ، الظاهرة والباطنة ، أي الموسيقية والشعور الصادق والإحساس الدقيق ، والخيال البديع ، فهو شعر . خذ مثلا ما نظمه في مسبحة أهداها إليه أحد أصدقائه :

مسبحة كأنها من عنبر وعسجد
ضمت تباشير الصبا ح للظلام الأسود
. . . .
كم صائم مسبح لسانه كالمبرد

***

ليس غرضي أن أدرس الديوان دراسة مستفيضة إلا بمقدار ما يوضح النظرية التي أذهب إليها ، وخلاصتها أن الشعر ضرب من ضروب الفن ، وأن الشعر كسائر الفنون ظاهرة حيوية ، تشمل الحياة الباطنة النفسانية ، من جهة أنها تعبر عن الحياة الاجتماعية الخارجية ، حقاً الشعر تعبير عما يدور في خلد صاحبه ، وما يشعر به ، ولكنه يعلو ويسمو إذا كان هذا التعبير الشخصي معبراً كذلك عما يدور في خلد الناس ، وهذا سر إعجاب الناس بالشعراء حين يكون نظمهم عاماً خالداً يحكي ما في أنفسهم جميعاً ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان متصلا بالحياة وصورة صادقة لها .

أحمد فؤاد الأهواني

أبو شامة صاحب كتاب الروضتين

٥٩٩ – ٦٦٥ هـ (١٢٠٣ – ١٢٦٧ م)

– ٢ –

للدكتور محمد حلمى محمد أحمد

[فى المقال السابق تحدثنا عن حياة أبى شامة وعن ثقافته ، ثم بينا تأثير هذه الثقافة فى إنتاجه المتنوع وبخاصة فى كتابته التاريخية ، وذكرنا أن أبا شامة اشتهر بين المستشرقين بتأريخه الصليبيات فى عصرى نور الدين وصلاح الدين ، وأن إنتاجه التاريخى يتمثل فى كتابى الروضتين والذيل على الروضتين ... وفى مقال اليوم نعرف بكتابته التاريخية كما يمثلها هذان الكتابان]

وقد جاءت الكتابة التاريخية لأبى شامة فى صورة حوليات منظمة ، تبدأ بسنة ٥٤٢ هـ ، وهى السنة التالية لتولى السلطان نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى شئون الشام ، متخذاً من حلب عاصمة له ؛ وتنتهى فى سنة ٦٦٥ هـ ، وهى السنة التى شهدت وفاة أبى شامة . على أن القيمة التاريخية لما كتبه مؤرخنا فى هذه الفترة التى استغرقت أربعة وعشرين ومائة عام ليست متكافئة ، كما أنه لم يتحدث عنها جميعاً فى كتاب واحد ، بل اختص الشطر الأول ، وهو الذى انتهى بوفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٨٩ هـ ، بجزءين أطلق عليهما اسم « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » ؛ وأتبع هذا الكتاب بآخر سجل فيه تاريخ الفترة التالية — أى من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٦٥ هـ — وأطلق عليه اسم « الذيل على الروضتين » . والدراسة التفصيلية للكتابين تبرر اختيار أبى شامة لسنة ٥٨٩ لتكون حداً فاصلاً بين الإنتاجين ، وتدل على مقدار اختلافهما موضوعاً وقيمة ، مما يجعل من كل منهما نوعاً مستقلاً من الكتابة التاريخية التى عالجها أبو شامة ، له مميزاته وعناصره ؛ وسنعرض هنا لكل من النوعين عرضاً مستقلاً بتحليل كتابى الروضتين والذيل تحليلا نحاول فيه إبراز العناصر المميزة لكل منهما .

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية :

يعرض أبو شامة فى هذا الكتاب — كما يدل عنوانه — تاريخ البلاد الإسلامية التى خضعت لحكم السلطانين : نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبى . وقد بدأ هذا العرض بتمهيد طويل تحدث فيه عن عصر عماد الدين زنكى وعن جهاده فى محاولة توحيد الولايات الإسلامية المتفرقة فى العراق والشام ، تلك المحاولة التى استفاد فيها زنكى من تفكك القوات الإسلامية فى الشام ومن النزاع بين سلطان السلاجقة وخلافة بغداد فى العراق ، كما انتفع فيها بالفرقة والشقاق اللذين وقعا بين الإمارات الصليبية ، وبوفاة زنكى فى سنة ٥٤١ خلفه نجلاه : سيف الدين غازى بالموصل ، ونور الدين محمود بحلب . وقد وقع على الأخير — لقرب عاصمته من الإمارات الصليبية — عبء جهاد الفرنج . فبدأ هذا الجهاد منذ اللحظة الأولى لولايته ، واكتسب بهذا نفوذاً عظيماً بين العامة من المجاهدين مكنه من تثبيت سلطانه ومن القضاء على الدويلات الصغيرة المتفرقة ، وساعده على مقاومة الفرنج بالقوة المتوحدة المندفعة بعقيدة الجهاد .

وإذا كان عماد الدين زنكى قد فشل فى الاستيلاء على دمشق رغم حصاره المتكرر لها ، ورغم محاولاته السلمية ، فقد نجح ولده نور الدين ، بمهارته السياسية ، وعاطفته الدينية ، وصبره الحكيم ، فى اتخاذها عاصمة ثانية له ، تحالف بينها وبين حلب طبقاً لظروفه فى الجهاد . وإذاً فقد خضعت دمشق لنور الدين واستسلمت لجيوشه استسلاماً فيه ترحيب بالأمير الصالح ، وفيه عزم على مساعدته فى جهاده ضد الفرنج .

تولى نور الدين إمارة حلب سنة ٥٤١ ، وخضعت له

دمشق سنة ٥٤٩ ، وتوفى سلطاناً عليها فى سنة ٥٦٩ . وفى السنة التالية — سنة ٥٧٠ — قدمت جيوش صلاح الدين الأيوبى من مصر ودخلت دمشق ، ثم استولت فى مراحل متقاربة على معظم بلاد الشام ، فيما عدا حلب التى بقيت مقراً للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين حتى سنة ٥٧٧ . وقد ربى صلاح الدين فى بلاط نور الدين وتشبع بسلوكه الدينى وتأثر بروحه الحربية ؛ وهو لم يسر إلى مصر حينما سار إليها فى المرات الثلاث إلا رجلا من رجال نور الدين يخدم غرضاً نبيلا من أغراضه ، وهو تخليص مصر من تهديد الفرنج . وقد نجح فى هذا كما نجح فيما بعد فى تقويض سلطان الفاطمية ، فنشاطه الحربى ضد الفرنج وسلوكه الدينى مكنّا له فى مصر ، ثم فى الشام ؛ فلا عجب أن ترحب به دمشق التى خضعت لنور الدين من قبل تحت تأثير هاتين العاطفتين . وقد ساعد دمشق فى اتخاذ هذا القرار أن الصالح إسماعيل نجل نور الدين ، كان لصغر سنه ألعوبة فى يد قواد أبيه الراحل الذين هددوا الوحدة السياسية والتكتل الحربى ضد الفرنج بالفرقة والانقسام .

وقد كانت دمشق موطن أبى شامة ، بها ربى وتعلم ، ثم اشتغل بالتربية والتعليم ، فلا عجب أن يتأثر بهذا التاريخ المجيد لجهاد دمشق والسلاطين المجاهدين ؛ ولذا جاء كتاب الروضتين سجلا تفصيلياً شاملا لحروب نور الدين وصلاح الدين اللذين تمكنا من توحيد الكلمة ضد الفرنج الغاصبين ، الذين أصيبوا على يديهما بهزيمة ساحقة مهدت لاستئصال قوتهم استئصالا كاملا فيما بعد ، وقد تتبع أبو شامة بسجله هذا جيوش المسلمين واصفاً ومعلقاً ومبشراً . ويلاحظ أن هذا التقرير يبدأ بمساحة ضيقة من بلاد الشام والعراق ، وهى التى كانت خاضعة لنفوذ زنكى ، ثم تتدرج هذه المساحة فى النمو والاتساع بفتوحه المستمرة ، ويتسع تبعاً لهذا مجال الوصف أمام أبى شامة ، حتى إذا ولى نور الدين حلب نجد أبا شامة يخرج عن اختصاره وإشاراته إلى التفصيل والتطويل ، كما يكثر حديثه عن مناطق أكثر اتساعاً من بلاد الشام ، ثم من مصر التى خضعت لسلطان دمشق ، وبوفاة نور الدين يتغير اتجاه الفتوح وتصبح القاهرة مركزاً للنشاط الذى يقوم به صلاح الدين ، فتخرج منها جيوشه إلى الشام لتضم معظم بلادها ، ثم إلى شمالى العراق حيث تبسط سلطانه وتنشر لواءه ، ثم تتجه إلى الأراضى الساحلية وإلى سائر الإمارات الصليبية فتزلزل قواعدها وتهز عروشها ، وأبو شامة لكل هذا واصف مدقق .

أما التاريخ الاجتماعى والاقتصادى لمصر والشام فى هذه الفترة فليس له نصيب من عناية مؤرخنا إلا فى بعض أخبار متفرقة لم يقصد بها إلا تمجيد السلاطين والإشادة بعدلهما فى إلغاء الضرائب الجائرة ، وزيادة الأوقاف وتنظيمها إيراداً وصرفاً . وليس النشاط العلمى لنور الدين وصلاح الدين بأسعد حظاً ، إذ اقتصر حديث أبى شامة عنه على نتف يسيرة هنا وهناك تتعلق ببناء مدرسة أو تجديد زاوية أو تمجيد عالم أو إشادة بقصيدة قيمة قيلت فى مناسبة دينية أو حربية يمدح بها منشئها جهود السلطانين .

ولم يكن أبو شامة — وقد ولد سنة ٥٩٩ — معاصراً لنور الدين أو صلاح الدين ، كما أنه لم يكن الوحيد الذى أرخ لهما ، وإن كان كتابه فى صدر تواريخ هذه الفترة ومن أعظمها قيمة ، وقد استفاد فى كتابه بإنتاج المؤلفين السابقين له والمعاصرين للسلطانين ، مراعياً أن يعتمد على المصادر المحلية فى تقرير الحوادث حتى تكون تقريراته مأخوذة عن الشهود المعاصرين ، وفى مقدمة الكتاب الذين اعتمد عليهم القاضى الفاضل فى رسائله ، وابن شداد فى النوادر السلطانية وابن الأثير فى تاريخ أتابكة الموصل ، والعماد الأصفهانى فى كتابيه البرق الشامى والفتح القدسى ، وقد استخدم هذه المصادر استخداماً واسعاً يتمثل فى الفقرات الطويلة التى يقتبسها ويوردها واصفاً أو معلقاً ، ومن السهل فى كثير من الحالات مقارنة تقريرات أبى شامة بمصادره الأصلية وتتبعها كلمة كلمة ؛ ويبين على هذه المقارنة أمانة أبى شامة نفسه حين يذكر المصادر التى يستمد منها معلوماته .

ويمدنا أبو شامة فى حولياته بتقريرات مطولة ومفصلة متعددة ، وهو فى هذا لا يكتفى برواية واحدة لما يتحدث عنه من الوقائع ، بل يؤيدها ويؤكدها بروايات أخرى يقتبسها من المصادر المختلفة ، غير مبال بتطويل أو تكرار ، ففيها أحياناً تأكيد وتفصيل ، كما أنها يهيئان فى أحيان أخرى فرصة الوقوف على بعض الاختلاف الذى لا يملك له أبو شامة تأييداً

كما لا يستطيع له رداً . على أن التطويل الممل الذي تتصف به كتابة مؤرخ كالعماد الأصفهاني مثلا لا نجد له مجالا في تقريرات أبي شامة الذي أخذ على نفسه مهمة اختصارها اختصاراً يذهب بإملالها ويبقى على زبدتها وروحها محتفظاً — في الكثير الغالب — بألفاظها وكلماتها .

ويبرز تحقيق أبي شامة العلمي وعنايته بصحة ما يكتب من التقريرات عندما يلجأ إلى الوثائق الرسمية التي تعتبر مصدراً أولياً لكتابة التاريخ . وقد أورد أبو شامة في « كتاب الروضتين » ما يزيد على مائتي وثيقة كتب معظمها العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل . وأهميتها لحكومة صلاح الدين ليست في حاجة إلى تعريف . وقد تنوعت موضوعات هذه الوثائق فشملت شئون الحرب والمال والأوقاف والإدارة . واستخدمها أبو شامة استخداماً علمياً دل به على حسن فهمه لمعنى الكتابة التاريخية وعلى تقديره لأهمية الوثائق في تقرير الوقائع وتحقيقها .

وهكذا نجد أن مؤرخنا قد عالج في « كتاب الروضتين » تاريخاً خاصاً بزمان ومكان محدودين . كما أنه كان يرمي بكتابته إلى هدف واضح هو تمجيد الوحدة التي جاهد في سبيلها نور الدين وصلاح الدين والدعوة إلى تأكيد هذه الوحدة باستخدامها في رد الفرنج الغاصبين . وكانت وسيلته لتحقيق هذا الهدف هو تفصيل الخطوات التي رمت إلى هذه الوحدة فأنتجتها ثم استفادت بها فأكدتها . وفي الوثائق الرسمية خير مؤيد لما يقدمه في كتابه من تفصيل .

« كتاب الذيل على الروضتين »

وقد أراد به مؤلفه أن يكمل به كتاب الروضتين . ويرشد تصفحه إلى أنه يتحدث عن فترة أطول من تلك التي كانت موضوعاً لسابقه . إذ يبدأ بالسنة التالية لوفاة صلاح الدين وينتهي بوفاة أبي شامة (أي من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٦٥) .

والواقع أن هذا الكتاب يمثل العصر الأيوبي ، بعد وفاة صلاح الدين ، ولكنه تمثيل سلبي خالص ، وسر هذا ما ساد من الفوضى ، والتفكك في شئون السياسة والحرب في الأمبراطورية الأيوبية التي كانت وفاة مؤسسها نذيراً بتداعيها .

حقيقة في عصر الأيوبيين ظهر بعض الشخصيات القوية التي كان لها فضل عظيم في توحيد جزء كبير من ممتلكات صلاح الدين تحت راية واحدة ، كالملك العادل الأول والملك الكامل ، ولكن التفكك والحروب الأهلية كانا ظاهرين حتى في عهد هذه الشخصيات القوية .

وقد آلمت هذه الفوضى أبا شامة ، ودفعته أولا إلى تصنيف « كتاب الروضتين » ليحث هؤلاء الأمراء على التكاتف ضد العدو المشترك . فشلت دعوته ولم يعبأ بها من يهمهم الأمر ، فانزوى على نفسه واكتفى في تذييله على الروضتين بموقف سلبي أضرب به عن تسجيل هذه الفوضى إلا في القليل وبتفصيل غير مقنع . وخير دليل على هذا الموقف ما سجله في حوادث سنة ٦٢٦ عن تسليم القدس لفردريك الثاني إذ يقول : « وفي أول ربيع الآخر جاء الخبر بأن الملك الكامل أخلى بيت المقدس وسلمه إلى الفرنج وصالحهم على ذلك وعلى تسليم جملة من القرى ، فتسلموه ودخلوه مع ملكهم الإنبرور (الإمبراطور) ، وكانت هذه من الوصمات التي دخلت على المسلمين ، وكانت سبباً في أن توعرت قلوب أهل دمشق على الكامل ومن معه ، ووجد بها الناصر طريقاً في الشناعة عليهم » ولا شيء وراء هذا .

وهكذا جاء كتاب الذيل — على طول الفترة التي يعالجها مخيباً لآمال المؤرخين الذين يقدرون لأبي شامة دقته وتحقيقه في كتابه الكبير ، ويزيد في خيبة الأمل أن أبا شامة نفسه — وقد ولد في سنة ٥٩٩ — يعتبر شاهداً لمعظم الحوادث التي جاءت في « الذيل » ، أو قريباً من مسرحها إن لم تتح له فرصة مشاهدتها بنفسه ، وبهذا حرمنا من إنتاج كان من المتوقع أن يكون على درجة كبيرة من الأهمية تحقيقاً وتفصيلا ودقة .

على أن أبا شامة قد اتجه اتجاهاً آخر في هذا الكتاب ، إذ اتخذه سجلا للعلماء والأمراء والأعيان والأصدقاء الذين توفوا في هذه الفترة ، يترجم لهم ويعرف بهم ويذكر بعض ما يمتازون به ، ومرة أخرى نجده مقصراً في تقريره منطوياً على نفسه ، فجاءت تراجمه — في الجملة — عاجزة غير وافية ؛ ويبدو هذا التقصير من أبي شامة مقصوراً واضحاً حين يكتفي في تسجيل الحوادث التي وقعت بين سنتي

مع الفكر الأوربي المعاصر

للأستاذ مبارك ابراهيم

كتاب «كاشير»

أو كتاب «تاريخ كشمير»

من تأليف «غلام محي الدين صوفي»

الدكتور في الآداب من جامعة السربون بباريس

"Kashir" By "G.M.D. Sufi" M.A.D. Litt. (Sorponne Paris)

أهدى المؤلف كتابه هذا إلى ذكرى «محمد إقبال» شاعر الباكستان ، وصدّره بصورة الشاعر العظيم . وقد اعتمد المؤلف في تأليف كتابه على ما كتبه الإخصائيون في تاريخ كشمير . وعلى أقوال شهود العيان في كل ما يرويه من حادثات ، وهو يقول : إنه لم يشأ أن يترجم المقطوعات الشعرية التي وردت في كتابه ، بل أوردها كما جاءت في لغتها الفارسية أو الأردية ، وذلك إبقاء على حلاوة جرسها .

والكتاب يقع في مجلدين كبيرين يبلغ مجموع صفحاتهما نيفاً وألف صفحة . وقد زوّده بكثير من الخرائط والصور الملونة ، كما زينه بمجموعة من الصور الفوتوغرافية التي بلغت غاية الإتقان .

والمؤلف يروى كيف دخل الإسلام «كشمير» . فيقول :

يقول «سير أوريل مارك ستين» العالم بالآثار (١٨٦٢ — ١٩٤٣) ومؤلف «تاريخ ملوك كشمير» : لم يتخذ الإسلام طريقه إلى «كشمير» مستعيناً بالقوة والقسر . ولكنه سار إليها في خطى متئدة . وكان الرجال الخاطرون الأولون من أولى القوة وذوى البأس الذين جاءوا من جنوب آسيا ووسطها قد مهدوا له السبيل . ثم بدأ الناس يدخلون في دين الإسلام أفواجاً أيام آذنت شمس الحكم الهندى بالأفول . ثم أصبح الإسلام أمراً واقعاً في النصف الثاني من القرن الرابع عشر .

ويقول المؤلف : إن «محمد بن قاسم» بعد أن فتح «السند» قد جاء إلى «ملتان» — إحدى مدن البنجاب — فاستولى عليها وأنشأ فيها مسجداً ، وبنى له منارات ، وأقام عليها حاكماً من العرب . ثم سار «ابن قاسم» إلى حدود «كشمير» . وكان ذلك حوالى ٨٦ — ٩٦ هجرية و ٧٠٥ — ٧١٥ ميلادية .

والمتتبع لتاريخ كشمير في العصر الذى سبق عصر الحكم الإسلامى يلتقي بحاكم كشمير واسمه «لالتيا دينا مكتابيدا» الذى حكم تلك البلاد من سنة ٧٢٥ إلى ٧٥٣

---

٦٢٧ ، ٦٣٥ — وهى السنوات التى انقضت بين تسليم القدس إلى فردريك الثانى ووفاة الملك الكامل بطل التسليم — في بضعة أسطر لكل سنة .

وطبعى بعد هذا ألا يلجأ أبو شامة في الذيل إلى توسيع تقريراته ، كما أن الوثائق لا تجد لها مجالا في «الذيل» إذ ليست هناك تقريرات تفصيلية في حاجة إلى تأكيد أو تحقيق ، وكل ما جاء منها في «الذيل» لا يزيد على سبع وثائق معظمها يتعلق بالنار البركانية التى شبت في المدينة المنورة سنة ٦٥٤ .

وبعد فيعتبر «كتاب الروضتين» أهم إنتاج تاريخى حفظته لنا الأيام من أعمال أبى شامة ، وإليه يرجع الفضل في شهرته بين المستشرقين كمؤرخ عربى للحروب الصليبية في أهم مراحلها ؛ ولا عجب بعد هذا ألا تتحدث كتب التراجم العربية عنه كمؤرخ بين الإنتاج . إذ أن كتبه في فنون العلم الأخرى ، عربية ودينية ، كانت أوضح أثراً في الحياة العقلية لعصره من إنتاجه التاريخى .

محمد علي محمد أحمد

ميلادية ، وهو يلجأ إلى إمبراطور الصين ، يستعينه على وقف توغل العرب الذين يتقدمون من قواعدهم في « السند » و « ملتان » .

ويقول « ستين » : إن اسم هذا الحاكم كما ينطق به العرب هو « متير » ويشير الرحالة البندقي « ماركو بولو » إلى وجود المسلمين بكشمير حوالي سنة ٦٧٦ هجرية و ١٢٧٧ ميلادية .

ويقول « ستين » أيضاً : إنه في القرن الثاني عشر الميلادي تحولت القبائل التي كانت تقيم على شواطئ نهر « الأندس » إلى الدين الإسلامي . وهذا التاريخ يسبق بقرنين تاريخ اعتناق « رينشان » الذي أصبح فيما بعد (السلطان صدر الدين) للإسلام . والذي أصبح بذلك أول حاكم مسلم من حكام « كشمير » .

ولم يؤثر دخول الإسلام إلى « كشمير » على استقلالها ، بل لم يغير — أول الأمر — من أحوالها السياسية والثقافية ، فظلت الإدارة — والقائل « ستين » — كما كانت من قبل في أيدي طبقة الموظفين من البراهمة الذين لم يكونوا يرون في البقاء على دينهم ما يفقدهم شيئاً مما كانوا يتولونه من أعمال بطريق التوارث .

ويقول المؤلف نقلاً عن « سير هربرت » : إن الدوافع التي حفزت الناس في الهند إلى اعتناق الإسلام هي :

١ — الاقتناع الصحيح بنقاء الدين الإسلامي وبساطته ، كما تبينوا ذلك من قراءة كتب المسلمين ومن سماعهم خطب فقهائهم الذين كانوا يجوبون أنحاء القرى .

٢ — الرغبة المتزايدة لدى الطبقات الهندوكية الدنيا في رفع مستواهم الاجتماعي ، وهو ما ييسره لهم ذلك الدين .

٣ — المثل الذي يقول : إن الحب يهزأ بنظام الطبقات .

٤ — عدم تحريم أواني الطعام والشراب التي يأكلها ويشربها الأقوام الآخرون . إذ رأى الهندوكيون أنهم إذا مرضوا أو أصابتهم مصيبة سهر على راحتهم المسلمون وأكلوا من طعامهم وشربوا الماء من أيديهم ، فبدا لهم الدين الإسلامي دين رحمة وتسامح .

والمؤلف يقول في الفصل الذي عقده على « العلم » و « العلماء » أيام حكم المسلمين لكشمير :

في حياة النبي وضعت النواة الأولى لمعاهد العلم ، وهي التي نمت وازدهرت فيما بعد فأصبحت جامعات كبرى كان مقرها في بغداد والقاهرة وقرطبة .

وقد بدأ نشاط المسلمين في ميادين الآداب والعلوم يبدو بصفة جدية في القرن الثاني للهجرة . وفي هذه الناحية يتألق نجم بغداد كمنارة تشع منها أضواء العلوم والآداب ، فتضيء القارة الأسيوية كلها .

ويقول « سيد أمير علي » في كتابه « روح الإسلام » : إن المسلمين في عصر أمراء المؤمنين الأمويين كانوا يمرون بفترة تجربة واختبار . إذ كانوا يعدون أنفسهم للعبء الثقيل الذي كتب عليهم أن يحملوه .

وفي عصر أمراء المؤمنين العباسيين كانت صدور المسلمين قد أصبحت مستودع علوم العالم وآدابه ، وذلك إلى جانب حمايتهم لذلك الدين العالمي .

وطالما شب المثقفون أيام حكمهم — وهم يأتمرون بأمرهم — في سائر أنحاء الدنيا بحثاً وراء الكنوز العلمية القديمة المخبوءة ، ثم جاءوا بها إلى بغداد ، وقدموها غذاء شهياً لأمة ترحب بالعلم ، وتقدره حق قدره .

وقامت المدارس والجامعات ، وامتد بنيانها في كل ناحية ، وأسست دور الكتب العامة في كل مدينة من المدن الكبرى ، ودرست تآليف الفلاسفة العظام القدماء إلى جانب دراسة القرآن .

وكانت هناك علاقات متبادلة — وهي علاقات سافرة حيناً ، وهي علاقات خافية أحياناً — بين علم الكلام عند المسلمين ، وبين لاهوت فلاسفة المسيحية في القرون الوسطى ، ثم بين الأفلاطونية الحديثة وبين الصوفية ، وهو ما يبين للناس كيف كانت الآثار الدينية تعمل عملها بين الشرق والغرب .

ولما آذنت شمس بغداد بالمغيب قامت مدينة « غزنة » تفتح صدرها كريمة مضيافاً ، ترحب بالعلماء والأدباء ، الذين أضفوا أشعة نورهم على الحكم الوضاء ، حكم السلطان « محمود الغزنوي » ، وحكم خلفائه من بعده . وهم الذين

ازدهرت الآداب والفنون في أيامهم ازدهاراً كاملاً .

ورعاية الأمراء السلجوقيين للآداب والفنون ، تلك الرعاية التي قوامها البذل والسخاء ، قد بذت رعاية العباسيين لتلك الآداب والفنون ، ولكن غارات المغول ، المتميزة بالهمجية قد حدت من ازدهار العلوم حيناً ، كما أعاقت تقدمها في آسيا إلى حد ما . وظل الحال كذلك إلى أن دخل كثير من أولئك القوم في دين النبي العربي ، فغير اعتناقهم لهذا الدين من نظراتهم إلى الحياة ، وتحولوا — بفضل هذا الدين من هدامين لمراكز العلوم والفنون إلى مؤسسي جامعات ، وإلى حماة ورعاة للعلماء والأدباء . فكان «تيمور» راعياً للعلم والشعر ، وكان محباً للعلماء ورجال الفنون وكان هو عالماً ، كما كان رجلا من رجال التشريع ! ومن الناس من ينسب إليه أنه هو ، المؤلف لكتاب « الفتوحات التيمورية » وهي نسبة إن لم تصح ، فهي تدل على أن « تيمور » كان على قدر من العلم يجعل الناس يعدونه كاتباً يستطيع أن يؤلف ويصنف .

وجاءت كشمير فشربت شرباً روياً من تلك الموارد العذبة ، وبلغت بعد ذلك أوج الشهرة حيث أصبحت مباءة للعلوم الإسلامية .

ثم يستطرد المؤلف فيقول : إن السلطان شهاب الدين (١٣٥٤ — ١٣٧٣ م) هو أول من أنشأ مدرسة للقرآن ، (وهي كلية كانت تعنى بدراسة علوم القرآن) وقد تعلم في تلك المدرسة « أبو الشاعر الشيخ سليمان » — وكان في الأصل هندوكياً ثم أسلم — وأصبح بعد ذلك إماماً من أئمة المفسرين ، وكان يلقب بإمام القراء . ثم تتابع بعد ذلك إنشاء المدارس للقرآن والحديث في كل قرية من القرى الكبرى .

وجاء من بعده السلطان قطب الدين (١٣٧٣ — ١٣٨٩) فأسس كلية في مدينة « سريناجار » وسماها باسمه وظلت هذه الكلية قائمة تؤدي رسالتها إلى أن استقر حكم « السيخ » في ذلك الوادي فأغلقت أبوابها بسبب نضوب المورد وقلة الرعاية .

ثم جاء السلطان اسكندر (١٣٨٩ — ١٤١٣) وكان رجلا آية في الجود والسخاء ، واشتهر بحمايته للعلوم والآداب ، فجاءت إلى واسع رعايته وفود العلماء من العراق وخراسان وما وراء النهرين ، وبنى بالقرب من مسجده الجامع كلية عرفت باسم كلية المسجد الجامع ، وألحق بها داراً للضيافة ووقف على الكلية ودار الضيافة خراج عدة قرى .

ثم أشرق بعد ذلك العصر الذهبي عصر « بادشاه زين العابدين » (١٤٢٠ — ١٤٧٠) الذي كان صديقاً لوالي مصر من المماليك البرجيين ، وكانا يتبادلان الرسائل والهدايا ، وفي هذا ما يدل على قدم الصلات بين مصر وكشمير . وقد أنشأ « زين العابدين » في مدينة « نوشهر » جامعة سماها « دار العلوم » ، وجعل بنايتها إلى جوار قصره الملكي ، وازدهرت تلك الجامعة بفضل العالم الكبير « ملا كبير نحوي » ، وكان هذا العالم شيخاً للاسلام عرف بعلمه وفضله وتقواه ، وكان يعاونه جماعة من العلماء جاءوا من سائر أنحاء الدنيا .

وترجمت في تلك الجامعة الكتب العربية والسنسكريتية إلى اللغتين الفارسية والكشميرية . كما ترجمت — بأمر من زين العابدين « المها بهاراتا » (وهي ملحمة تدور أبياتها حول أحوال الهند القديمة ، وهي تبلغ ثمانية أضعاف الإلياذة والأوذيسه مجتمعتين) .

كذلك ألف عالم آخر اسمه « ملا أحمد » — بأمر منه — تاريخاً لكشمير باللغة الفارسية وسماه بحر الأسمار ، وقد شملت كذلك حماية « زين العابدين » العلماء الهندوكيين فقد كان يسخو عليهم بالمال سخاء كبيراً ، وذلك تقديراً لعلمهم وفضلهم ، وقد اتخذ واحداً منهم — هو أوتاسوم — مديراً للتعليم أو وزيراً للمعارف ، وكتب هذا العالم سيرة لهذا السلطان العظيم .

ولم تكن زوجته الملكة بأقل منه سخاء وجوداً في هذا السبيل ، فقد وهبت للعلم أثمن عقد من عقودها .

وفي عهد السلطان « حسن شاه » شيدت السلطانة الوالدة « جول خاتون » مدرسة ، كما بنى ابنها السلطان داراً للشفاء .

وكذلك بنت « شاه بيجوم » زوجة ملك أحمد رئيس الوزراء ، مدرسة أخرى ، وبنى ولدها « نوروز » مدرسة للتعليم الديني .

ثم استطرد المؤلف إلى ذكر بعض شهيرات النساء الكشميريات اللاتي نبغن أثناء الحكم الإسلامي ؛ فبدأ بذكر « ملا عارفة » (أي عارفة بنت السلطان) وقال إن لها مكان الشرف ، فقد كان لها الفضل أكبر الفضل على قوم كشمير سواء أكانوا مسلمين أو هندوكيين ؛ وقد بلغ من إعزازهم لقدرها وإجلالهم لشأنها أن ادعاها كل فريق منهم ؛ فقال المسلمون إنها مسلمة . وقال الهندوكيون إنها هندوكية ، وهي وإن كانت هندوكية إلا أنها تشبعت بتعاليم الصوفيين المسلمين ، ويؤكد المسلمون أنها اعتنقت الدين الإسلامي على يدي « شاه همدانى » يوم زار كشمير ، وأنها تمت إلى الشيخ نور الدين بصلة القوم . وتبين من أشعارها أنها كانت متشبعة بالفلسفة اليوجية . وقد كان مولد هذه السيدة عام ٧٣٥ هجرية وعام ١٣٣٥ ميلادية .

ثم ثنى المؤلف بذكر « بيبي تاج خاتون » وهي ابنة « السيد حسن بهادور » أحد قواد السلطان شهاب الدين وكان « السيد حسن » من عائلة كريمة الهند . وكان ابن « السيد تاج الدين همداني » ، وتزوجت « بيبي تاج خاتون » من « مير محمد همداني » وهو ابن « شاه همداني » وكانت لهذه السيدة أخلاق النساء الصالحات . فكانت تقضي ليلها ونهارها في الصوم والصلاة وهي جالسة في مقصورة لها بنتها في حديقتها . وقد دفنت — يوم ماتت — في تلك الحديقة .

ثم ذكر متون « بيبي حورية » وهي أم « السلطان اسكندر » وزوجة « السلطان قطب الدين » وكانت امرأة فاضلة كاملة ، وكان لها على زوجها ثم على ابنها من بعده سلطان نافذ ، وقد كانت وصية على ملك ابنها فترة من الزمان ، ولما علمت أن ابنتها وزوجها قد تآمرا على حياة ابنها لم تتوان في التخلص منهما معاً فور علمها بالمؤامرة ، وهكذا وأدت في المهد تلك الجريمة التي كانت سوف تودي بالحكام من سلالة « شاه مير » .

وكانت فوق ذلك عابدة تقية . وكانت من تلاميذ « شاه همداني » .

ثم استطرد المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن اللغة الكشميرية فقال : حينما ظهر الإسلام كان له الأثر البالغ في لغة البلاد التي يحل بها وفي كتابتها ، ولا أدل على ذلك من اللغة الفارسية المستعملة اليوم ، ومن اللغة التركية التي كانت سائدة في تركيا قبل ظهور « أتاتورك » ، وكلتا اللغتين قد تأثرت إحداهما بالأخرى . كما أن كلتيهما قد تأثرتا بالإسلام إلى حد كبير .

وإن يكن الإسلام في الهند لم يخلع على أهل البلاد ثوب لغة جديدة ، إلا أنه أحال اللغة الهندية القديمة إلى اللغة الأردية أو اللغة الهندوستانية السائدة في أيامنا هذه .

وكذلك كان للإسلام شأن في تطور اللغة في كشمير ، فكانت اللغة الأصلية القديمة الهيكل العظمي ، وجاءت اللغة السنسكريتية فكست العظام لحماً . وجاء الإسلام بعد ذلك فأضفى على اللغة الحياة .

واللغة الكشميرية الحديثة قد أقامت الدعائم لبنيان الآداب الحديثة في ظل الحكم الإسلامي .

وقد ظل الناس إلى زمن قريب يظنون أن اللغة الكشميرية إنما ترجع إلى أصل من أصول اللغة السنسكريتية ، ولكن البروفسور « إرنست كون » (١٨٤٦ — ١٩٢٠) وهو عالم من علماء اللغة الهندية قد يكون أول من أشار إلى أن لهجات لغة « الهندوكوش » قد كونت — باتحادها مع اللغة الكشميرية — مجموعة من اللهجات تندرج في مجموعة اللغات « الهند الآرية » واستدل على ذلك ببعض خصائص ومميزات صوتية .

واللغة الكشميرية هي اللغة السائدة اليوم في وادي كشمير وفي الأودية المجاورة له .

ولغة الحديث في كشمير تختلف عند المسلمين عن تلك التي يتكلمها الأسفة الهنود . وليس الفرق قائماً فقط في أن اللغة التي يتكلمها المسلمون مليئة بكلمات مستقاة من اللغات الفارسية والتركية والعربية . بل إن هناك فروقاً أخرى — وإن كانت ليست بذات خطر — في نطق الحروف ، كذلك تختلف لهجات المدن عن لهجات القرى ، وكذلك أيضاً تختلف لغة النثر عن لغة الشعر .

ثم استطرد المؤلف يقول إن من أبرع الكتاب المسلمين محمود جامي نسبة إلى مدينة « جام » وهو الذي كتب قصة « يوسف وزليخا » . ثم تحدث المؤلف عن الأمثال في اللغة

الكشميرية قد ذكر بضعة منها نذكر منها مايلي :—

١ — إن زوجة الرجل الأعمى هي في رعاية الله .

٢ — إن قطرة واحدة من الندى تمثل لدى النملة طوفاناً جارفاً .

٣ — الإنسان يُزجى بخطيئته .

٤ — الأعزب يرغب في أن يصبح متزوجاً ، والمتزوج يأسى ويأسف على وقوعه في الفخ .

٥ — الطفولة لاتعرف الهموم .

٦ — إنه حلو عند المذاق ، ومرّ عند دفع الحساب .

وعقد المؤلف فصلاً عن « الطب في كشمير » قال فيه : يقول الدكتور « وز » T.A. Wise في كتابه الذي سماه « شرح طرق العلاج في الهند » : إن مختلف طرق العلاج عند مختلف الأمم من نهر السند شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً تشتق كلها من منبع مشترك هو علوم « بقراط » الذي كان أول من شرح للناس طبيعة الأمراض وطرق علاجها ، والذي كان أول من ردّ كل ظاهرة من ظاهرات الجسم الإنساني إلى أصل من الأصول .

ولكن العلماء الهنود يرون أن العالم الهندي « شراكا » قد سبق « بقراط » أو على الأقل كان معاصراً له (وتقول كتب التعريفات إن « شراكا » هذا له مؤلفات في العلوم الطبية ، وإن تلك الكتب قد ترجمت في القرن الثامن الميلادي إلى اللغة العربية . وإنها أصبحت بعد ذلك مرجعاً من أهم المراجع الطبية في أوروبا ، وإن هذا العالم قد عاش في القرن الثاني من الميلاد) .

ويقول المؤلف : — إنه في عصر « بوذا » لقي الطب الهندي أكبر المعونة من القائمين بالأمر ، ولكن « علم الجراحة » قد أصابه الوهن ، ذلك لأن « بوذا » وأتباعه كانوا لايجيزون تشريح الحيوان .

ولما جاء الإسلام إلى الهند تلقى العلاج الطبي الهندي ضربة مثبطة كتلك الضربة التي تلقتها طرق العلاج الهندية واليونانية في العصور الحديثة على يد الطريقة الأوربية المستحدثة ، حيث أزاحت أدوية البلاد عن مكانها لتفسح الطريق أمام المستحضرات المستوردة من أوربا .

ويقول المؤلف : إنه قد عثر على مخطوط عنوانه « شفاء الأمراض » لمؤلفه « شهاب الدين بن عبد الكريم » وهذا المخطوط اليوم في حوزة حكيم (طبيب) في مدينة « سرينا جار » .

ويذكر المؤلف من بين الذين نبغوا من أهل كشمير « خوجه عبد الله غازى » . ويقول إنه بعد أن أتم « خوجه عبد الله » هذا دراساته الطبية أبدى تفوقاً عظيماً في تشخيص الأمراض . وألف كتباً في العلاج . واستنسخ مخطوطات قديمة لينتفع بها الناس من أبناء عصره . وقد علق تعليقات عديدة على كتب الطب التي كان يتدارسها الطلبة في زمانه ومنها كتاب « القانون » .

وكان من تلاميذ هذا الطبيب الذين نبغوا بفضل إرشاده وعطفه طبيب اسمه « بابا مجنون نارقارى » . وكان هذا الطبيب يفحص عن علل المرضى ، ويصف الدواء لهم ويركبه ويقوم بإسداء المشورة الطبية وكل ذلك بغير أجر .

وكان من تلاميذ هذا الطبيب « الحكيم عبد القادر جانى » وقد وضع شرحاً للكتاب المسمى « الطب النبوى » ونبغ أيضاً من أطباء كشمير « الحكيم محمد شريف جانى » وقد كان « نباضاً » أى خبيراً بمسائل النبض .

مبارك ابرهيم

بشـــــار بن برد

التفسير النفسي لشخصيته وشعره

الأستاذ يوسف خليف

– ٤ –

وكما اتخذ بشار الغزل وسيلة يعوّض بها شعوره بالنقص ، كذلك اتخذ الهجاء وسيلة أخرى لهذا التعويض . وقد عرف بشار بكثرة شعره في الهجاء ، ويحدثنا أبو الفرج في أغانيه(١) أن جماعة انطلقوا إلى بشار يسألونه أن ينشدهم « شيئاً من هجائه في حماد عجرد أو في عمرو الظالمي » فأنشدهم قصيدة له « جعل يخرج من وادٍ في الهجاء إلى وادٍ آخر » . والعبارة هنا قوية الدلالة على كثرة شعره في الهجاء ، فهؤلاء الجماعة يسألونه أن ينشدهم « شيئاً من هجائه » كأن هجاءه شيء كثير ، أكثر من أن يتسع الوقت ليستمعوا إليه كله ، فهم لا يطمعون إلا في نماذج قليلة منه ، وهذا الهجاء الكثير في شخص واحد من بين شخصين تركوا لبشار حرية الاختيار بينهما ، فهم لا يطلبون نماذج قليلة من هجائه مطلقاً ، وإنما يطلبون نماذج قليلة من هجائه في شخص واحد ، ثم يأخذ بشار في إنشاده فيظل « يخرج من وادٍ في الهجاء إلى وادٍ آخر » كأنما هجاؤه صحراء واسعة الأرجاء مترامية الأطراف ، يظل الضارب فيها يخرج من وادٍ إلى وادٍ آخر . والواقع أن هجاء بشار صحراء شاسعة ذات دروب وشعاب ووديان ؛ فمع أن أكثر شعر بشار قد ضاع ولم يصل إلينا إلا أقله ، فإن قصائده ومقطوعاته الهجائية ، فيما بقي لنا من شعره ، كثيرة كثرة تلفت النظر ، وأخباره التي يرويها أبو الفرج في أغانيه تمتلئ بأحاديث بذاءته ، وتقحمه على الناس ، وتعرضه لهم بالهجاء ، حتى ليخيل للناظر أن بشاراً لم يترك أحداً من المتصلين به ، سواء أكان من أعدائه أم من أصدقائه ، دون أن يتعرض له بما يؤذيه ، وقد شهَر بشار لسانه في وجوه الناس يقذف به مَنْ يقع في مرماه بحمم هجائه البذيء الفاحش ، كما يشهر قاطع الطريق سلاحه يرمي به من يسوقه سوء حظه إلى ميدان مغامراته ، ولم يكن بشار يبالي أصاب عدواً بهجائه أم أصاب صديقاً ، وفي أخباره مجموعة من أصدقائه صب عليهم سياط هجائه ، ولم تغنِ عنهم صداقتهم شيئاً ، وما أكثر ما يقابلنا في أخباره « كان بشار صديقاً لفلان وهو مع ذلك يكثر هجاءه(١) » ، أو « كان فلان صديقاً لبشار فقال يهجوه(٢) » ، أو « هجا بشار فلاناً وكان صديقه(٣) » ، حتى لقد قال له بعض أصدقائه بعد أن صب عليه سوطاً من سياط بذاءته : « عليك لعنة الله ! فما عندك فرق بين صديقك وعدوك(٤) » .

وقد مضيت إلى هجاء بشار أستعرضه ، فانتهيت إلى أن أكثر ما وصل إلينا منه كان دفاعاً عن نفسه أو انتقاماً لها ، فقد أنكر عليه واصل بن عطاء بعض شعره فهجاه ، وأغضبه أعرابي وأنكر عليه أن يقول الشعر وهو مولى فهجاه ، وعبث به هلال الرأي فهجاه ، وقيل له إن رجلا سبه عند الأمير ووضع منه فهجاه ، وتعرض له رجل من بني زيد بما أغضبه فهجاه ، وعاب سيبويه شعره فهجاه ، واستمنح العباس بن محمد فلم يمنحه فهجاه ، وسأل يزيد بن مزيد أن يذكره للمهدي فسوّفه فهجاه ، ومدح يعقوب بن

(١) ٣/٢٢٣ (ط دار الكتب) .

(١) الأغاني ٣/١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) المصدر السابق / ١٦٧ ، ١٨٨ .

(٣) المصدر نفسه / ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٤) المصدر نفسه / ١٧٤ .

داود وزير المهدي فلم يحفل به ولم يصله شيئاً فهجاه ، ومدح الخليفة المهدي فلم يحظ منه بشيء فهجاه[1] .

وهـذه النتيجة التي انتهيت إليها من السهل تفسيرها تفسيراً على ضوء ما عرفناه من شخصية بشار ونفسيته ، فقد رأينا أن بشاراً كان يعاني عقدة نفسية مستحكمة ، وأن حياته كلها كانت أثراً من آثارها ، ومحاولة متطرفة في سبيل التغلب عليها وعلى ما خلفته في نفسه من شعور بالنقص[2] ، ومن هنا كان بشار شديد الإحساس بالإهانة ، لأن أية إهانة تلحقه فإنما تمس ذلك الوتر الحساس في نفسه وهو شعوره بالنقص ، وتثير فيها تلك الحرارة التي يحاول جاهداً أن يدفنها ، وعلى هذا الأساس النفسي نستطيع أن نفسر ذلك العنف الذي كان يلجأ إليه في هجائه ، والذي كان يستعين عليه بالبذاءة والإفحاش ، لأن موقفه في هذه الحالة موقف المنتقم الثائر لنفسه .

وقد رأى بشار أن هـذا الموقف الانتقامي لا يكفي ، وإنما يجب عليه أن يتخذ إلى جانب ذلك موقفاً اعتدائياً ، حتى يحمل الناس على خشيته والبعد عنه استكفافاً لشره ، وحتى يفرض نفسه على مجتمعه الذي كانت نفسه تغلي سخطاً عليه وتبرماً به[3] ، وهكذا اندفع في « هجائه الاعتدائي » كما اندفع في « هجائه الانتقامي » .

وهو يصرح بمذهبه هذا في الحياة ، فقد قيل له : إنك لكثير الهجاء ، فقال : إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضَبْع الشاعر من المديح الرائع ، ومن أراد من الشعراء أن يُكرَّم في دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر ، وإلا فليبالغ في الهجاء ليُخاف فيُعْطى[4] . هـذه هي فلسفة بشار في الحياة : مجتمع لا يقدره ولا يبالي به ، بل يحتقره ويسيء

(١) انظر في هـذه الأخبار على الترتيب المصدر السابق / ١٤٥ / ١٦٦ / ١٦٧ ، ١٦٨ / ١٩١ / ٢٠٣ ، ٢٠٤ / ٢١٠ / ١٩٥ / ٢١٣ / ٢٤٠ ، ٢٤٦ / ٢٤٣ ، ٢٤٥ .

(٢) انظر المقالة الأولى من هـذه السلسلة في الثقافة العدد ١٧٢ .

(٣) يذكر الأصمعي أن بشاراً كان من أشد الناس تبرماً بالناس (الأغاني ٣ / ١٤١) .

(٤) المصدر السابق / ٢٠٧ .

إليه إذا عاش فيـه عيشة مسالمة ، لأن ناسه لئام يخافون ولا يستحون ، وإذاً فليفرض نفسه عليه بالقوة ، وليتخذ من الاعتداء وسيلة لتحقيق هذا المذهب القوي في الحياة .

وهو يعلل هـذه الفلسفة الاعتدائية بأنها وسيلة لبلوغ الغنى ، ولكن الواقع النفسي لبشار يكذب هذا التعليل ، ويرى أنه مغالطة ، فليس هدف بشار الأساسي من هجائه هو الغنى ، وإنما هدفه الأساسي هو فرض نفسه على المجتمع ! ومن الحق أن بشاراً كان يريد الغنى ، ولكن الغنى ليس كل ما كانت نفس بشار تصبو إليه ، وإنما هو بعض ما كانت نفسه تصبو إليه ! ومن الممكن أن نعلل هـذه المغالطة على أساس نفسي ، فبشار حريص على عدم كشف نفسه للناس ، أو كما يقول علماء النفس على عـدم إتاحة الفرصة للناس ليحللوه تحليـلاً نفسياً ، وهو يدرك أن التعليل الصادق لفلسفته هذه سيتيح للناس الفرصة لتحليل نفسيته ومعرفة سرّ عقدته النفسية ، وإذاً فليُخْفِ عنهم التعليل الصادق لهـذه الفلسفة ، وليوجه تفكيرهم بعيداً عن سره الدفين الذي يعانيه ، وليزعم أن هدفه منها هو الغنى ، ولأنْ يفهم الناس أنه يعاني فقراً مادياً خير عنـده من أن يفهموا أنه يعاني فقراً نفسـياً . ولم يكن بشار يدرك أن علم النفس سوف يكشف عن سره الدفين بعد حوالي ثلاثة عشر قرناً من الزمان . ألا غفر الله لعلم النفس ما كشف من سرائر الناس ، وما فضح من أسرارهم ! .

وقد رأينا أن بشارا كان مضطرباً في إحساسه بمنزلته الاجتماعية ، وأنه كان يعاني من هذا الاضطراب شيئاً كثيراً ، ويقرر أصحاب علم النفس الاجتماعي أن الذين يعانون اضطراباً في إحساسهم بمنزلتهم الاجتماعية ، إذا لم يستطيعوا التغلب عليه ، يفقدون « توافقهم الاجتماعي » their Social Adjustment ، وأن هذه الظاهرة ، ظاهرة « اللاتوافق الاجتماعي » تدفع أصحابها إلى أحد أمرين : إما إلى اعتزال المجتمع والنفور منه ، وإما إلى الاصطدام به والصراع معه[1]

(١) انظر في دراسة هذه الظاهرة .

R.M. Mac Iver, Society (New York, 1944), & Ernest R. groves, Personality and Social Adjustment U.S.A., 1931).

وقد أصيب بشار — نتيجة لاضطراب إحساسه بعزلته الاجتماعية — بهذا « اللاتوافق الاجتماعي » ، كما أصيب به من بعده أبو العلاء المعري ؛ ولكن بشارا لم يعتزل المجتمع ولم ينفر منه ، كما فعل أبو العلاء ، ولم يحبس نفسه في « السجون الثلاثة » التي حبس أبو العلاء نفسه فيها[1] ، وإنما اصطدم بالمجتمع وفرغ للصراع معه ، وأطلق قوى الشر من عقالها في نفسه ؛ وربما كان من الممكن أن نرد هذين الاتجاهين المتعارضين عند خليع العراق وحكيم المعرة ، إلى عوامل عضوية ، وإلى عوامل نفسية ؛ فقد كان بشار قوي الجسم متين البنيان ، موفور الحظ من الحيوية الجسدية والنشاط الجسدي ، كما كان إحساسه بمجتمعه إحساس الناقم عليه ، الراغب في أخذ ثأره منه ؛ أما أبو العلاء فلم يوهب هذا النصيب الموفور من قوة الجسد ، وحيوية الجسد ونشاطه ، كما أن إحساسه بمجتمعه إحساس الآسف له ، اليائس منه ؛ ومن هنا اتجه بشار إلى الصراع مع مجتمعه ، ومحاولة فرض نفسه عليه بالقوة ، في حين اتجه أبو العلاء إلى اعتزال مجتمعه والنفور منه ، والارتفاع بنفسه عن النزول إلى حضيض شروره وآثامه ونقائصه .

ولكن بشارا لم يكن يستطيع — بحكم عاهته — أن يفرض نفسه على مجتمعه عن طريق قوته الجسدية ، وإنما كان يستطيع — نظراً لموهبته الفنية — أن يفرض نفسه على مجتمعه عن طريق قوته اللسانية ، ومن هنا اتجه بشار إلى الهجاء ، وجعله سلاحه في الحياة يدافع به عن نفسه إذا اعتدى عليه ، ويهاجم به من لم يعتد عليه حتى يخشى الناس أمره ، ويخافوا مغبة التعرض له ؛ فيبتعدوا عن طريقه ، ويخلوا بينه وبين سبله يضرب فيها كيف يشاء .

والظاهر أن بشارا أدرك قيمة هذا السلاح اللساني في فرض نفسه على مجتمعه منذ أيامه الأولى ، فقد بدأت براعم هذه الفلسفة الهجائية تتفتح منذ وقت مبكر من حياته ، فقد هجا جريراً في صباه فاستصغره وأعرض عنه ، وظل

(١) هي السجون الثلاثة التي أشار إليها أبو العلاء في قوله :

أراني في الثلاثة من سجوني ... فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي ... وكون النفس في الجسد الخبيث

بشار يردد هذه الحادثة آسفاً ، ويقول : لو أجابني جرير لكنت أشعر الناس[1] ، وفي هذه العبارة التي كان بشار دائماً يعقب بها على هذه الحادثة تلمح آثاراً من الحسرة على تلك المعركة الهجائية التي كان يتمنى أن تنشب بينه وبين جرير شاعر الهجاء العظيم في العصر الأموي ، حتى يشتهر أمره ويعرف شأنه بين الناس . وهكذا كان بشار يشعر منذ وقت مبكر في حياته بقيمة هذا السلاح في الارتفاع بمنزلته الاجتماعية . ولكن بشارا لم ييأس بعد هذه الهزيمة الأولى ، وإنما شهر سلاحه في وجوه معاصريه ، واستطاع أن يكسب به نصراً بعد نصر ، ولم يبلغ الحلم حتى كان « يخشى معرة لسانه »[2] . واستمرأ بشار هذا النصر المبكر ، فشحذ من لسانه ، واستمر يناصب مجتمعه الهجاء حتى قتل ؛ ويظهر أن سلاحه هذا الذي طالما طعن به معاصريه كان من أسباب مقتله[3] .

وقد تباشر الناس بمقتله ، « وهنأ بعضهم بعضاً ، وحمدوا الله ، وتصدقوا ، لما كانوا منوا به من لسانه »[4] ، وشيع بشار إلى مقره الأخير مغضوباً عليه من مجتمعه بل لم يشيع ، فقد « أخرجت جنازته فما تبعها أحد إلا أمة له سوداء سندية عجماء ما تفصح »[5] ، وإلا لعنات مجتمعه تتابعه ، وهجاء معاصريه من الشعراء ينهال عليه[6] . ولم تحقق الأيام لبشار ما كان يقدره من حزن الناس عليه ، ذلك الحزن الذي صوره في بيتين رائعين من شعره كان كثيراً ما ينشدهما :

ستري حول سريري ... حسرا يلطمن لطما
يا قتيلا قتلته ... عبدة الحوراء ظلما[7]

ويعلم الله أن « عبدة الحوراء » مظلومة ، فما قتل بشارا مثل لسانه .

(تم البحث) — يوسف خليف

(١) الأغاني ٣ / ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥
(٢) المصدر السابق / ١٤٣ ، ١٤٤
(٣) انظر المصدر نفسه / ٢٤٣ — ٢٤٧
(٤) ، (٥) المصدر نفسه / ٢٤٨
(٦) انظر المصدر نفسه / ٢٤٨ ، ٢٤٩
(٧) المصدر نفسه / ٢٤٨

الصاروخ الألمانى

للأستاذ توفيق الشناوى

مقدمة :

لم يكن التفكير فى الصاروخ وليد الحرب الحالية ، بل كانت الفكرة كامنة فى خيال المهندس من زمن بعيد .

فلقد اقترح المهندس الإنجليزى وليم كونجريف أن يتخذ من فكرة الصاروخ سلاحاً سرياً لقهر نابليون ، فهزأ منه رؤساء البحرية المحافظون . ولكن سرعان ما تحقق حلم كونجريف واستخدم الصاروخ لتدمير ثغر « بولون » بنوع من القنابل الصاروخية من قوارب صغيرة ، كما لجأت قوة إنجليزية عند النزول بشواطئ بوغوسلافيا إلى استعمالها أيضاً .

وقد ظل الصاروخ سلاحاً بحرياً هاماً إلى أواسط القرن التاسع عشر حين صرف الأهتمام إلى المدافع ذوات الماسورة .

ولم يكن للمدافع الصاروخية أى شأن فى الحرب العالمية الماضية ، ولكنها لم تكد تنتهى حتى تألفت جمعيات من الهواة فى ألمانيا والنمسا وروسيا والولايات المتحدة ، واشتغل بعض أعضائها بتجربة إرسال صواريخ جوية لتكون الخطوة الأولى للاتصال بالكواكب والسيارات ، ولقد لقى بعض المتحمسين منهم حتفهم فى تلك المحاولات ، ومن الطريف أن مهندساً نمساوياً أنشأ صاروخاً لحمل البريد ، فكان يرسل قذائفه لتتخطى الجبال ، حتى إذا ما نفد الوقود انفتحت مظلة وهبطت بالبريد إلى الأرض .

ولكن الذى استأثر بفضل هذه النهضة العالية فى تجارب الصاروخ هو الدكتور روبرت جودارد أستاذ الطبيعة فى جامعة كلارك . فقد أعاد الدكتور جودارد تصميم الصاروخ الضخم القليل الإحكام على أسس علمية صحيحة ، فوضع جهازاً يحفظ توازنه بطريقة آلية ونبذ الوقود الصلب المسحوق واتخذ منه خليط من البنزين والأكسجين السائل ، وبذا زاد سرعة الصاروخ من ١٠٠٠ قدم فى الثانية إلى حوالى سبعة أمثال ذلك .

وفضلاً عن كون الصاروخ قذيفة فإنه أيضاً آلة محركة عظيمة الطاقة غنية بما يرجى منها ؛ فالألمان يستعملون آلات صاروخية ليرفعوا بها قاذفات القنابل الثقيلة الحمولة ، كما أن طائرات القتال التى تنطلق من فوق السفن « حاملات الطائرات » تقذف فى الهواء بقوة الصاروخ ، واستعمل الروس الصاروخ كمدفع مضاد للطائرات ، واستعمله الأمريكان كمدفع مضاد للدبابات « البازوكا » ، واستعمله الألمان كطوربيد جوى .

والعامل الأساسى فى سرعة الصاروخ هو مروره فى طبقات الجو العليا المسماة « استراتوسفير stratosphere » ؛ ولما كانت هذه الطبقة خالية من الهواء ، فإنا نجد أن الصاروخ بمروره فى هذه الطبقة لا يجد مقاومة على الإطلاق تسبب نقصان سرعته .

الصاروخ الألمانى ف ٢ :

أدت زيادة المعرفة بالوقود والاحتراق والدراسات الخاصة فى المعادن والآلات وعلم طبقات الجو فى السنوات الأخيرة إلى محاولة تطبيق هذه التجارب عملياً كان من نتيجتها أن أخرج الصاروخ الألمانى من حيز التجربة إلى النطاق العملى . ولقد كان العلماء الألمان فى خلال العشرين عاماً الماضية وراء احتمالات إيجاد صاروخ كبير ، فوضعوا التصميمات وعملوا الحسابات له ، ولكن لم يكن هناك من مجد أوحفظ إخراجه للوجود ، ويمكن تصور ضخامة هذه المحاولات إذا علم أنه لم ينته جدياً من حل جميع المعضلات الخاصة بالصاروخ إلا فى عام ١٩٤٣ ، وحتى الآن فهناك من الأدلة ما يشجع على التفكير بأن الصاروخ ف ٢ قد استعمل عملياً قبل أن يكمل تماماً .

أما المسئول الأول عن إتمام وإظهار كل من القنبلة الطائرة والقنبلة الصاروخية فهو الأستاذ أورث العالم الألماني الذائع الصيت . فمنذ سنة ١٩٣١ والأستاذ أورث يتخذ الصاروخ الضخم البعيد المدى هوايته المفضلة ، وقد تمكن من حساب الزمن الذى يقضيه أحد هذه الصواريخ من برلين إلى كل من نيويورك وموسكو ولندن ، فظهر أنه يقطع المسافة إلى الأولى فى ٢٤ دقيقة وإلى الثانية فى ١١ دقيقة وإلى الثالثة فى ٦ دقائق فقط .

والصاروخ الألمانى ف ٢ يحتوى على الأجزاء الرئيسية الآتية كلها داخل غلاف هيكلى يشبه إلى حد كبير جسم الطائرة : فالمقدمة تحتوى على ما زنته طن من المفرقعات يليها غرفة تحتوى على أدوات التحكم فى مسار القذيفة ، ثم وعاءين كبيرين من الألمنيوم أحدهما يحمل ما زنته ٣/٥ طن من الكحول والآخر ه أطنان أكسجين سائل ، ثم غرفة تحتوى على التربين والضخات وتنتهى بغرفة الاحتراق ، وفتحة خروج العادم .

ويبلغ طول القذيفة ٤٦ قدماً وقطرها ه أقدام ، وتزيد الزعانف الأربع الكبيرة المركبة على الذيل كثيراً من ضخامة القنبلة ، كما يزن الصاروخ عند بدء إطلاقه ١٣ طنا .

التحكم فى سير الصاروخ :

طريقة التحكم فى الطيران تكون بواسطة تحريك بعض أجزاء فى زعانف التوازن الخارجية ، وكذلك بواسطة ألواح خاصة فى طريق خروج الغازات التى تدفع الصاروخ ، وهذه الألواح مصنوعة من الكربون كى تتحمل حرارة الغازات العالية . وتحرك هاتين المجموعتين وكذلك صمام ماسورة الكحول آلات كهربائية هيدروليكية .

ويقذف الصاروخ ف ٢ عمودياً من على مصطبة خرسانية ، ولا يحتاج إلا إلى آلة بسيطة لاستعداله فى الوضع الرأسى . وعند إدارة التربين تقوم الضخات بضغط الوقود لغرفة الاحتراق حيث يتم الاشتعال كهربائياً بواسطة جهاز موجود فى غرفة بعيدة على مسافة حوالى ١٠٠٠ قدم من القنبلة ، ومن ثم تخرج نتائج الاحتراق من فتحة خروج العادم باندفاع شديد مكونة دفعاً قوته ٢٦ طناً كافياً لدفع الصاروخ عمودياً إلى أعلى بعجلة تزايدية لمدة ٦٠ ثانية . ثم يبدأ عمل الجيروسكوب ، إما بواسطة آلة زمنية تتحكم فيه أو آلة بارومترية أو بالراديو ، وهذا بدوره يحرك الآلات التى تتحكم فى الأجزاء الخاصة من الزعانف الداخلية والخارجية لتغير زاوية الطيران من الوضع الرأسى إلى زاوية ٤٥° فى اتجاه المرمى ، ويقدر المدى بكمية الوقود المستهلكة والتى تتحكم فى السرعة النهائية للصاروخ ، فعند نقطة معينة تنقطع قوة الصاروخ المحركة بانقطاع دخول الوقود ، ويكون ذلك بواسطة جهاز خاص أو بواسطة الراديو ، ثم يستمر الصاروخ منطلقاً بتأثير عزم دفعه ، وتبلغ أقصى سرعة له عند منع الوقود حوالى ٣٠٠٠ ميل / ساعة ، ومن ثم يتخذ مساراً كأى قذيفة منطلقة من مدفع على نفس الزاوية .

ابتداء الطيران :

فى أثناء صعود الصاروخ يقل وزنه تبعاً لاستهلاك الوقود ، ولما كانت قوة الدفع تظل ثابتة ، فإن الصعود يكون بعجلة تزايدية وفى نفس الوقت تقل كثافة الهواء فتقل كذلك المقاومة ، مما يترتب عليه زيادة أكبر فى العجلة التزايدية فى أثناء صعود الصاروخ تحت قوة دفعه .

وهذا يبين لنا بدون شك الفكرة فى إطلاق الصاروخ عمودياً ، وذلك لكى يقطع أقصر طريق فى الجزء الأكثر كثافة نسبياً وهو القريب من سطح الأرض ، وتظهر أهمية ذلك جلياً عند معرفة أنه عند ارتفاع ١٢/٥ ميلا من سطح الأرض يقل الضغط من ٧٦٠ م إلى ٤٤ م زئبق .

وعلى العكس من ذلك فإن مقاومة الهواء تقلل كثيراً من سرعة الصاروخ أثناء نزوله مرة ثانية إلى الأرض ، ولما كانت جميع هذه السرعات عالية فإن قوة الاحتكاك تبلغ مبلغاً كبيراً بدرجة أنه قد شوهد فعلا الصاروخ ف ٢ أثناء نزوله أحمر قانياً .

هذا هو الصاروخ كما استعمل أيام الحرب . أما فى السلم فيتنبأ لهذه الصواريخ بمستقبل حافل . فنقل البريد الجوى السريع عبر القارات بصواريخ كبيرة سيصبح مسألة دقائق معدودة ، كذلك يمكن استخدام هذه الصواريخ فى جمع المعلومات الكافية للرصد ، والتنبؤ عن حالة الجو ، وذلك بإرسالها فى طبقات الجو العليا مجهزة بأجهزة إرسال لاسلكى متصل بجهاز آخر على سطح الأرض لتلقى الإشارات .

ونحن نرجو أن يتجه التقدم العلمى نحو خدمة الإنسانية بدل أن كان متجهاً نحو التدمير ، حتى يصبح كوكبنا الأرضى جنة من جنات الله بعد أن أصبح مقبرة البشرية .

توفيق الشارق

نقد

كتاب حلية الفرسان وشعار الشجعان

لعلى بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسى

نشر وتحقيق الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

للدكتور شوقى ضيف

هذا كتاب سبق أن نشره بطريقة « الفوتوتيب » الأستاذ لويس مرسييه ، ومعروف أن هذه الطريقة فى النشر تتيح للقراء الكتاب المنشور كما هو فى صورته الأصلية بدون تبديل أو تغيير ، ولكن الأستاذ مرسييه لم يكتف بذلك فقد راجع النسخة المنشورة على نسخة أخرى وجدها بمكتبة الإسكوريال واستعان بها فى إصلاح نسخته وما وجده بها من بعض الأخطاء ، ولم يودع هوامشها ذلك ، وإنما أودعه فهارس ذيّلها بها .

وهذا الجهد الذى بذله الأستاذ مرسييه جهد مشكور ، ولكنه لم يحلّ به حلاً نهائياً مشاكل الكتاب ، لأن النسخة المنشورة من جهة كُتِبَت بخط مغربى ، ومن جهة ثانية تكثر فيها الأغلاط والتصحيفات كثرة مفرطة ، فكانت فى حاجة إلى من ينشرها على الباحثين نشرة تذلل صعوباتها وتحل مشاكلها ، وتعود بعباراتها إلى الصحة والضبط واستقامة الأسلوب .

وهذا هو ما نهض به صديقنا الأستاذ محمد عبد الغنى حسن نهوضاً يستحق التقدير والشكر على ما وهب من وقته مخلصاً فى تصحيح عبارات هذا الكتاب ، وهى ليست عبارات سهلة ، لا من حيث كتابتها بالخط المغربى ، ولكن من حيث إن الغريب يكثر فيها ، إذ دار الكتاب على الخيل والسلاح . وكل من يتصفح الكتاب يستطيع أن يتبين الجهد الضخم الذى بذله صديقنا فى تحقيق كلماته وردها إلى صوابها عن طريق كتب اللغة وكتب الخيل المشهورة لأبى عبيدة وغيره .

وقد أعجبنى فيه أنه إذا شك فى كلمة أو لم يجد حلها أثبت ذلك فى الهامش ، وتركه لقرائه ، لعلهم يستطيعون حله ؟ وهذه الطريقة تدل من جهة على تواضعه ، ومن جهة ثانية على أنه يقدر البحث والتحقيق ويعرف خطرهما .

وكان أول ما حاولت أن أصنعه حين قرأت الكتاب أن أجد حلولاً لبعض ما وقف فيه ، ثم تصادف أنى كنت أبحث عن كتاب فى المكتبة التيمورية ، فرأيت أن أتثبت هل فيها نسخة من كتاب ابن هذيل هذا ، وإذا بى أعثر على نسخة منه تشتمل على هذا القسم الذى نشره الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، وهو قسم أول خاص بالجهاد .

فرجعت أقارن بين هذه النسخة الجديدة والنسخة المنشورة ، وعرفت عن طريق هذه المقارنة مدى الصعوبات التى واجهت الأستاذ محمد عبد الغنى حسن وتوفيقه فى حلها ، وتمنيت لو أنه اطلع على هذه النسخة لأنها كانت تغنيه فى أحوال كثيرة عن البحث فى المراجع الكثيرة التى وضعها لتصحيح نسخته .

وأنا أعرض عليه بعض تصحيحاتها لعله يوافق عليها ، فمن ذلك ما جاء فى ص ٣٣ حين تعداد أنواع الخيل بحسب غاياتها ، فخيل للجهاد وخيل للرهان وثالثة للإنسان ، والعبارة فى الأصل « وأما فرس الإنسان فما استطرق عليه » والعبارة فى نسخة التيمورية « وأما فرس الإنسان فما استفرد عليه » أى لم يتخذه للجهاد ، بل انفرد به لنفسه .

وفى ص ٤١ « وروى أبو الحسن الإسكندر » وذكر الأستاذ فى الهامش أنه ليس فى طبقات الحفاظ اسم كهذا ،

وفي نسخة التيمورية « وروى أبو علي الإسكندراني » . وفي ص ٤٣ « ومن قيس بن باباه » وفي الهامش : هكذا بالأصل ولم أعثر له على ترجمة . وفي نسخة التيمورية « ومن قيس ابن زيد » . وفي ص ٤٩ « من الوضين بن عطاء » وفي الهامش أنها كانت في الأصل « ومن الرعين بن عطاء » . وفي نسخة التيمورية « ومن الأعين بن عطاء » .

وفي ص ٧٦ أثناء الحديث عما يستحب في أعضاء الفرس « ومنها ضيق وقبه واحتشاؤهما وبعد عينيه من أذنيه » وقبله : التقرتان اللتان فوق عينيه » . وفي نسخة التيمورية « وبعد وقبيه من أذنيه » .

وفي ص ٧٦ « عترت » أي اشتدت وفي الهامش : أن هذه الكلمة كانت محرفة في الأصل هكذا « تفرت » . وفي نسخة التيمورية « تفوت » .

وفي ص ٨٠ في وصف الفرس « وعظم وركيه وشدة متنه وظهره » وفي نسخة التيمورية « وشدة "شِبَيْتِه" » وهي القوائم . وفي ص ٨١ « ومما يستحسن في خلقه من وصف النعامة طول وظيفها وقصر ساقها وعري أيبسها » وفي الهامش : أن كلمة أيبسها كانت في الأصل « تسبها » وفي نسخة التيمورية « تَسْتَيْبها » .

وفي ص ٨٣ في ألوان الخيل وما عليها من نقط ، وأسماء ذلك « فإن كانت شبهة طرائق فهو مجزّع » وفي الهامش : في الأصل شبهة وهو تحريف ، والصواب ما ذكرناه أو لعلها شبه . وفي نسخة التيمورية « فإن كانت "شهبته" طرائق » والشهبة بياض يصدعه سواد .

وفي ص ١٠٣ « الشثم الحنّاق » وفي الهامش في الأصل الشم . وفي نسخة التيمورية « الأشم الحنّاق » وهو ذو المنكب الرافع الشاخة . وفي ص ١٠٥ « فإذا كان عضيم أعالي الضلوع فهو أعضم » وفي الهامش : أن الأصل « فإذا كان مضم أعالي الضلوع » وهو تحريف . وفي نسخة التيمورية « فإذا كان منضم أعالي الضلوع » .

وفي ص ١٢٠ « وإن كان قدر ذلك سبعة أقدام فهو بطيء » . وفي الهامش أن الأصل « وإن كان ذرع ذلك سبعة أقدام » وهو صحيح ومطابق لنسخة التيمورية فلا داعي لإصلاحه .

وفي ص ١٢٣ « وإذا كان منتشال الحلق فيحه » ، وفي نسخة التيمورية : « وإذا كان منتشر الحلق فيحه » ، وأرى أن صوابهما مُشْتَبَأ الحلق ، وهو القبيح . وفي ص ١٣٦ في الفرس أيضاً « وهو صلبه في عجزه » ، وفي الهامش : هكذا بالأصل . وفي نسخة التيمورية « وتَمْتُر صلبه في عجزه » .

وفي ص ١٣٦ عن الفارس وفرسه « وليقصر عنانه في يده لتحلىء رأس الفرس ، ومتى لم يحس الفرس عند ذلك اللجامَ ربما اضطرب فلم يكن من ركوبه » ، وفي الهامش : لعلها لم يكن من ركوبه ، وهي هكذا في التيمورية .

وفي ص ١٤٣ « غدا الناس (إلى الرهان في الخيل) وخرج سفاف فيمن خرج ، فقال قوم لتمتحنه ، اليوم » وفي الهامش : هكذا بالأصل ، وفي نسخة التيمورية « لتمتحنه اليوم » .

وفي ص ١٦١ « وكان مالك بن عمرو جبانا فأذاق إذا شهد الحرب كان منها مدى النبل » وفي الهامش تعليقاً على كلمة فأذاق هكذا بالأصل ، وهذه الكلمة ليست في نسخة التيمورية ، وكأن الكاتب كتب فإذا مرتين ، ووُضعت القاف سهواً .

وفي ص ١٦٧ « الصهيل صوته في أكثر أحواله » ، وفي الهامش أن بين الصهيل وصوته كلمة غير متبينة ، وفي نسخة التيمورية « الصهيل أول صوته . . » . وفي ص ١٦٨ « كما يسمع الوعيق من فرج الرمكة » ، وفي الهامش أن الأصل كان « من ثفر الرمكة » ، وفي التيمورية « من ثفر الرمكة » .

وفي ص ٢٠٧ « ومما جاء من الشعر في الرمح قول العري » ، وفي الهامش : أن في الأصل قال العري ، وهو مطابق لما في التيمورية . وفي ص ٢١٣ « والمرذال » ، وفي الهامش : لم نجد المرذال باللام بل وجدنا المرذار ، وفي نسخة التيمورية « المرذار » .

وفي ص ٢١٤ « والأصل هو أحسن النضبان » وفي الهامش لعلها والنصل ، وهي هكذا في نسخة التيمورية .

وفي رأيي أن هذه التصحيحات كلها ليست شيئاً مذكوراً بجانب ما بذله الأستاذ محمد عبد الغني حسن في إصلاح هذا

مسرح

المسرح للملايين

للأستاذ حمدي غيث

أثار بعض الكتاب في الأيام الأخيرة مشكلة قديمة من مشاكل الفن ، وهي مشكلة « الفن للفن والفن للمجتمع » وأنا كرجل من رجال المسرح أحب أن أدلي في هذا الصدد برأيي ، وأود أن أذكر من تناولوا هذا الموضوع ببعض وجوه المسألة عسى أن نتفق جميعاً في النهاية ، وعسى أن تتضح المشكلة على حقيقتها فنهتدي إلى طريق الصواب ونضع أيدينا على حقيقة المسألة .

ويعنيني قبل كل شيء أن أسوق بعض الحقائق العلمية التي أعتبرها أساساً لبحث هذه المشكلة وهي حقائق ثابتة واضحة لا سبيل إلى إنكارها أو جحودها أو التشكك فيها .

وأولى هذه الحقائق أن الإنسان حيوان اجتماعي . وفي ذلك يقول الفيلسوف تارد Tarde : « إن الإنسان كائن اجتماعي مركب في كائن حيوي » ويتفق معه كل من كونت ودوركايم في أن العقل الإنساني يتزج ويختلط ويتأثر في كل زمان ومكان بعوامل اجتماعية .

إن الإنسان اجتماعي إلى حد أن الوحدة تجعله عاجزاً كعضو مبتور ضعيف متروك لأخطار الطبيعة ولأخطار أعدائه ولأخطار نفسه على وجه الخصوص . ويذهب بلوندل Blondel في هذا الرأي إلى حد أن يقرر أن الذاكرة نفسها ليست شيئاً فردياً ، وإلى أن المجتمع في كل زمان ومكان لا يمكن أن ينفصل عما تعودنا أن نظنه فردياً فينا ، لأن المجتمع يؤثر فينا تأثيراً قوياً مباشراً ، ويعتبر في حضور دائم مستمر بالنسبة لنا .

أما الحقيقة الثانية فهي أنه من المحقق أن مجرد تعبير الإنسان عن نفسه ينطوي على الشعور بوجود الجماعة ، أو على الأقل بوجود فرد آخر ، بينه وبين من يعبر عن نفسه صلات ومشابه ، إذ أن كل تعبير يبحث عن إثارة رد فعل عند الآخرين . فالجريح إذا كان وحده « يئن » من الألم الجسماني ، هذا الألم الذي لا علاقة له بالغير . أما إذا كان محوطاً بالناس أو إذا كان يتصور إمكان السعي إليه بالنجدة والعون من الآخرين فإنه « يصرخ » .

والحقيقة الثالثة هي أن عواطفنا وانفعالاتنا نفسها — وليس مجرد التعبير عنها — تقوى وتتغذى بمشاركة الناس فيها ، إذ كلما كانت مألوفة لدى الوسط الذي يحيط بنا وليست غريبة عليه ، وكلما كان هذا الوسط يشاركنا إياها مشاركة صريحة واضحة ، كانت هذه العواطف أكثر شبوباً

النص الذي كان مليئاً بالأخطاء . وإذا كان لي ملاحظة على عمله فهي كثرة استخدامه للأقواس الصغيرة ، وأيضاً قوسا الحاصرتين اللتين تصطلح بهما على وضع الساقط من الكلام بينهما ، استخدمهما أحياناً لذلك ، وأحياناً وضعهما لما ينبغي أن ينقص من سياق الكلام .

ولاحظت في الصفحة الأولى من الكتاب عبارة شغب عليها الناسخ ، فكان ينبغي أن تحذف حتى يستقيم السياق ، إذ نقرأ في وصف بعض ملوك بني نصر أصحاب غرناطة « ذو الجهاد المقبول والغزوات الشهيرة ، الحسن السيرة ، السليل السريرة بل الصالح السيرة » وقد ضرب الناسخ على كلمة السليل السريرة ، فكان ينبغي أن تحذف .

وهذه الملاحظات التافهة لا تغض من قدر العمل الذي قام به الأستاذ محمد عبد الغني حسن في نشر هذا الكتاب وما عاناه في إخراجه وتحقيقه ، فله منا أجمل الشكر والثناء .

شوقي ضيف

واضطراباً . ومن هنا كانت الوحدة الروحية أشق على نفوسنا من الوحدة المادية . إنه لا يمكننا حقاً أن نتخيل إنساناً يعيش في وحدة كاملة ، ولكنه يخلق لنفسه مع ذلك مجتمعاً يتكيف معه ؛ وذلك إما بواسطة الحيوانات والأشياء التي تحيط به ، وإما بمجرد التخيل . فإن لم يفعل فإنه يفقد صفاته الإنسانية نفسها ليصير إنساناً آلياً أو بطلاً خرافياً أو حيواناً ، أي شيئاً غريباً علينا لا نعرفه .

ويقول برجسن (Bergson) في كتابه الضحك : « إننا لا نستطيع أن نتذوق الضحك إذا كنا وحدنا ، يخيل إليّ أن الضحك في حاجة إلى صدى . أنصت إليه جيداً . إنه ليس نغمة واضحة متميزة منفردة ، بل شيء يريد أن يمتد متصل في انعكاسات متوالية . شيء يبدأ بفرقعة ويستمر في تهزم كتهزيم الرعد في رءوس الجبال . إن ضحكنا هو على الدوام ضحك جماعة ما » .

ويضيف بوندل إلى ذلك قوله : « إن ملاحظة برجسن تمتد إلى كل ما يتصل بالحياة الانفعالية . وإن المجتمع هو البيئة الطبيعية للحالات الوجدانية ، وشرط من شروط نموها وتطورها ؛ وإذا كان يحدث أحياناً أن تتبدى عواطفنا وانفعالاتنا بغض النظر عن وجود من يشاركنا إياها ، فذلك لأن خيالنا يعج بالنظارة الوهميين . ولأن شعورنا يمكننا من أن نباشر ضرباً من «التثنية» "De doublement" الباطنية ، فنقيم من أنفسنا أصدقاء أو أعداء لأنفسنا ، ونبتهج ونحزن ونبث الشكوى لأنفسنا ، ونقدم لها صوراً من آلامنا ودموعنا وانفعالاتنا » .

هذه هي الحقائق التي حرصت على إيرادها ، ويمكن تلخيصها على هذا النحو :ـ

١ ـ الإنسان حيوان اجتماعي حتى أعمق ما في حياته العقلية والنفسية .

٢ ـ التعبير الإنساني بطبيعته تعبير جماعي يتطلب أو يفترض لوجوده مشاركة أو وجود الجماعة .

٣ ـ الفن وهو الصورة الرفيعة لهذا التعبير يعتبر تبعاً لذلك ظاهرة اجتماعية .

وبذلك يسعنا أن نقول إن الفن لا يتولد من انفعال فردي غريب علينا يحاول شخص نقله إلى غيره ليصطنع به خلق انفعال مشابه ، بل الفن هو رد فعل طبيعي متشابه متكامل لعدة أفراد يكونون جماعة واحدة ؛ ومن هنا يبدو جلياً أن دعوى «الفن للفن» دعوى باطلة ظاهرة البطلان ، لأنها لا تنهض على أساس علمي ولا تستند إلى حقائق ثابتة ، إنها دعوى الفرديين المرقين في الفردية إلى الحد الذي يجعلهم منفصلين عن المجتمعات الإنسانية ، مما يضطرنا أحياناً إلى أن نتشكهم مع المرضى وإلى أن نقرر أنه من الأفضل أن تقدم أعمالهم إلى علماء النفس لا أن تقدم إلى الجماهير .

والآن أبدأ حديثي عن المسرح . فالمسرح باعتباره فناً هو بالضرورة ظاهرة اجتماعية ، وأزيد على ذلك أن المسرح جماعي لا في جوهره فحسب ، بل جماعي في شكله أيضاً . هذا لأن الجماهير عنصر أساسي من عناصره . إذ لا يمكن أن يتحقق له وجود بدونها . وهـذا أمر بديهي لا يحتاج إلى كلام كثير . غير أني أحب أن ألفت النظر إلى ميزة من ميزات المسرح وخاصة من خواصه التي ينفرد بها عن سائر الفنون . وهي قدرته على خلق الروح الجماعية . وأعني بذلك أن المسرح عندما يخلق الحياة لا يخلقها على خشبته فقط بل يخلقها أيضاً في الصالة بين مقاعد المتفرجين . والدراما كما تهب للممثل شخصية جديدة غير شخصيته التي يعيش بها مع الناس ، تهب الجمهور كذلك شخصية أخرى . فكل متفرج عندما يشاهد المسرحية «الجيدة» إنما ينسلخ في الحقيقة من ذاته ليكون مع غيره ذاتية واحدة مشتركة . إن المسرح عندما ينسينا الواقع ينسينا أنفسنا معه ، لأنه يحطم الأفكار الفردية ليحل محلها أفكاراً جماعية . فالانفعالات والمشاعر المختلفة من خوف وقلق ، وألم وأمل ، وإعجاب واشمئزاز تسري في جميع المتفرجين كما لو كانوا كلهم فرداً واحداً ذا وجوه عديدة . إن المسرح عندما يمحو الذاتية يحل محلها الروح الجماعية ، وعندما يصل المتفرج بالشخصيات التي تتحرك على المسرح يصله كذلك بغيره من المتفرجين . ومن هـنا يتبين أن نجاح المسرح يتوقف على مدى اتصاله بكل ما هو إنساني في الإنسان . فإن أغرق في الفردية وتطرف في النزعة الذاتية ، واحتبس نفسه في هذه القوقعة المغلقة تجافى عن طبيعته كفن أولاً وكفن مسرحي ثانياً .

وما دام المسرح فناً جماعياً في جوهره وصورته ، فعليه

أن يجتذب الجماهير إليه بكل ما لديه من وسائل حتى لا يفقد مقومات وجوده وعناصر بقائه. عليه أن يقدم إليها غذاءها الطبيعي. وذلك بأن يتخذ من حياة هذه الجماهير مادة له، وبأن يحرص على أن تكون بينه وبين الإنسان كـكائن اجتماعي وشائج وصلات. فكل مسرحية يجب أن تمثل لحظة من لحظات الحياة وحدثاً من أحداثها. وما يجرى على المسرح من الكلمة التي تخرج من بين شفتي الممثل إلى أتفه ما يقدم على خشبته يجب أن يكون ممتلئاً بالحياة وبالتعبير عنها. إن المسرح يجب أن يعالج الحياة الإنسانية ويعبر عن كل ما يجيش فيها. وكلما استطاع أن يبرز لنا بتقديم مشاكل الجنس البشرى كان أقرب إلى قمة الفن.

ولقد يقول قائل: «إنه مع تسليمنا بهذا واتفاقنا عليه يجب ألا يحفل المسرح بالجماهير إلى حد الإسفاف والهبوط إلى مستوى الذهن العامى. بل يجب أن يظل المسرح محتفظاً بجلاله وكماله كفن غايته أن يرفع الناس إليه لا أن ينحدر إليهم. والخير للمسرح أن يقدم «روائع» الفن مع قلة الإقبال عليها من أن ينحط ليستجدى عواطف العامة. والخير له أن يكون جمهوره من صفوة المجتمع المختارة من أن يكون جمهوراً من الرعاع».

وأحب أن أقرر أن من يسوق هذا الاعتراض رجل لم يفهم طبيعة المشكلة. إن المشكلة يجب أن تعرض على هذا النحو: «هل على الفن أن يكون صادراً عن كل ما هو إنسانى فى الفنان متجهاً إلى كل ما هو إنسانى فى الناس، أى: هل عليه أن يكون صادراً عن المجتمع متجهاً إليه؟ أم عليه أن يكون فناً انطوائياً ذاتياً يصدر عن الفنان كما يصدر الشعاع عن الشمس».

ولا حاجة بى إلى القول بأن ما سقته من الحقائق السالفة لا يدع مجالاً للشك فى أن الفن يجب أن يخرج من المجتمعات الإنسانية وأن يصير إليها. إن المشكلة إذاً ليست مشكلة إسفاف أو ارتفاع، ولكنها مشكلة الباعث الفنى والغاية من الفن La fin et le mobile. ولقد تبين لنا بوضوح أن الباعث أو المحرك الفنى يجب أن يكون انفعالاً اجتماعياً ليس غريباً عن الإنسان، وأن غاية الفن أيضاً هى أن يشرك الناس فيما يحسه الفنان من عواطف وانفعالات وأحاسيس. ومن هنا لا يصح أن ندعى أن الجماهير عاجزة عن تذوق العمل الدرامى والإحساس به. ولكن علينا تقع تبعة تقديم ما يمكن أن يجد له صدى فى نفوس الناس. علينا أن نقدم إليهم ما يصور آلامهم وآمالهم وما يدعوهم إلى التفكير فى مشاكلهم. إننا نعيش فى مجتمع تصطرع فيه المذاهب وتقتتل الأفكار وتتعقد المشاكل وتثقل فيه وطأة الحياة على جماهير الناس وتضطرهم إلى ألوان من المكاره. وعلى الجملة تقدم لنا الحياة دائماً مادة جزلة سخية. فما بال بعض الناس يريد للمسرح أن يطير فى الفضاء البارد بدلاً من أن يلتصق بالأرض الساخنة؟ ما بالهم يريدون له أن يحلق فى الهواء وأن ينازل الطواحين بدلاً من أن يلابس الواقع ويعب من صميم الحياة وقلب المجتمع؟ ما بالهم يلحون فى أن يفنى المسرح جوهره ويتنكب غايته ويسعى إلى غير هدف؟.

إن أصحاب دعوى الفن للفن، أو الفن لخفنة من الناس، مخطئون عمون فى الخطأ. إذ الفن كما قدمت ظاهرة اجتماعية ووسيلة تعبر بها المجتمعات عن نفسها لنفسها. ومن يستقرئ تاريخ الفنون، ويمعن النظر فى طبيعتها، تصفعه هذه الحقيقة الناصعة.

ثم... من يستطيع أن يدعى أن جماهير الناس لا تفهم الفن؟ إن الفن لونان: لون يتوخى فيه الفنان التزويق والتجويد والإغراب فى الأسلوب وطرائق العرض، أى فى الشكل، وهذا اللون ربما احتاج إلى ثقافة فنية خاصة، وربما صعب على عامة الناس أن يفهموه بالرغم من بقائه إنسانياً، ومثال ذلك تلك المدارس الحديثة كالرمزية والإيحائية والتصويرية، وما إلى ذلك من أساليب التعبير، ولون آخر لا يقل روعة ولا عمقاً ولا جمالاً عن سابقه، ولكنه يختلف عنه فى أنه يخاطب الناس على قدر أفهامهم ويقدم لهم الأشياء فى صور لا يستغربونها، ونحن فى المسرح نريد أن يفهم الناس ما يقدم إليهم لأننا لا نهيم بالأحاجى والألغاز.

أما ما عدا هذين اللونين من «الأعمال» التى قد

تكون مفعمة بالأفكار والمذاهب والفلسفات . فبالرغم مما يمكن أن تتصف به من جمال الأسلوب أو نبالة الموضوع فلك أن تسميها بأي اسم تشاء ، إلا أن تسميها فناً إذا كانت تفتقر إلى نبض الحياة وحرارتها . ومن ثم فهذه الأعمال لا يعنينا في كثير أو قليل أن تقدم إلى الناس ما دمنا قد أخرجناها عن نطاق الفن .

ثم . . . ما معنى كلمة « الإسفاف في الفن » إن الفن لا يمكن أن يكون مسفاً ولا منحطاً . إنما ما دمنا نصف العمل بأنه عمل فني نسلم بداهة بأنه عمل رفيع ، لأن الفن رفيع بطبيعته . رفيع لأنه ليس تقليداً أحمق للطبيعة وليس نقلا فوتوغرافياً للواقع . رفيع لأن الفنان يضيف إليه عصارة مشاعره وأحاسيسه . ويضع فيه خلاصة تجاربه وملاحظاته . رفيع لأن الفنان يذهب في النظر إلى الأشياء إلى أعماقها البعيدة ومجاهلها المستخفية ، فيقول ما لا يقال ويرى ما لا يرى . لا يمكن إذاً أن نقول (هذا فن رفيع وذاك فن مسف) بل يمكن أن نقول هذا فن وهذا سخف أو هذا فن وهذا تهريج .

وصفوة القول أننا عندما ندعو إلى أن يكون الفن للجماهير ندعو الفنان إلى أن يهبط إلى الشارع ويلابس الواقع ويستشعر آلام الناس وآمالهم ، ويذوق معهم حلو الحياة ومرها ، ثم يقدم لهم بعد ذلك عملا فنياً رفيعاً تكون صياغته في متناول أفهامهم ومداركهم الصافية ؛ فالعمل المسرحي تقاس رفعته بمقدار ما في جوفه من الأفكار والمواقف الإنسانية وبمدى قدرته على تقديم علاج بشرية صادقة ، وعلى تحليلها تحليلا عميقاً يكشف عن أسرارها ويشق الأستار عما يتمشى في بواطنها السحيقة . إننا عندما ندعو أن يكون المسرح للملايين لا نعني قط أن ندعوه إلى أن يعالج الأمور علاجاً ساذجاً أو أن يتناولها تناولا صبيانياً معتمداً في ذلك على المواقف الملفقة والخطب الرنانة والانفعال والمبالغة والقوالب الكلامية أو النكتة اللفظية .

كلا . إننا نحتقر هذا اللون ونخرجه من دائرة الفن ، كما نلفظ كل عمل قد يتمتع بصفات النبالة في الأداء والسمو في التعبير والعمق في التحليل إذا كان لا يمس الحياة الإنسانية ولا يلم بها ، وإذا كانت تغلب عليه برودة (النزعة الفردية) وأحلامها .

الآن نخيل إلى أن المسألة قد كشفت عن نفسها ، فلا يمكن تصور وجود الفن من أجل الفن ، كما أن دعوى الفن للمجتمع لا تعني الهبوط والإسفاف ، ولا تعني حصر المسرح في مشاكل بيئة بعينها أو في علاج موضوعات المناسبات .

وإنما نقصد إلى أن يعد المسرح كلما يعده للناس وأن ينزل إلى حياتهم يستلهمها ويصورها في كل جوانبها وآفاقها تصويراً إنسانياً حاراً ، رفيعاً ، عميقاً ، إذ العبرة أولاً وأخيراً بقدرة الفنان على العلاج واستيعاب الموضوع وعلى ألا ينحرف إلى ما وصفناه بالتهريج والسخف .

محرى فيث

النشاط الثقافي في أسبوع

للأستاذ عز الدين إسماعيل

رسالة الشعر في الكفاح الشعبي :

ألقى صاحب السعادة الأستاذ عزيز أباظة باشا محاضرة بهذا العنوان في جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة ، بدعوة من إدارة النشاط الثقافي والاجتماعي بمؤسسة الثقافة الشعبية ؛ وقد جاءت هذه المحاضرة في الوقت الذي يسأل كل فرد منا نفسه عن رسالته في الحياة ، وأهمية هذه الرسالة وقيمتها بالنسبة لوطنه أولاً وله ثانياً . وإذا كانت الأمة الآن قد ركزت جهودها لتحقيق هدف واحد مهما كلفها من عمل ، فإن الشعر والشعراء في هذا المضمار جزء لا يستغنى عنه ، وجانب من الجوانب ، أو لون من ألوان الكفاح له قيمته .

وقد ذكر سعادة المحاضر أن الشعوب إنما تكافح لبناء صرح الحضارة ، وتخليص البشرية من البربرية ، والنهوض بها إلى مستوى الإنسانية الراقية ، أو هي تكافح من أجل التحرر . وقد كافح الشعر عندنا في الطريق أو من أجل الغرض الأول ، وكافح كثيراً ، وآن له الأوان أن يكافح من أجل الغرض الثاني . وهذا الكفاح ليس غريباً عليه من حيث طبيعته ؛ فإن الشعر لغة الشعور ، والشعور هادئ وثائر ، والشعر — أو الشعر الحماسي بوجه خاص — تعبير عن ذلك الشعور الثائر ، شعور المكافح . ولأمر ما سمى أبو تمام مجموعته المختارة بديوان الحماسة ، ولأمر ما كان أغلب المختار من الشعر الحماسي . وقد كان هذا الشعر الحماسي في كل عصر من العصور ، يعمل في النفوس ما لا تعمل السيوف ، وربما استطعنا أن نطلق على مهمته حرب الأعصاب ، قبل أن تكون حرب ، وأن نشبهها بمهمة الموسيقى العسكرية في أثنائها ، فهو إلى جانب أنه يلقى الهلع والرعب في نفوس الأعداء ، فإنه يبعث الحمية في نفوس المحاربين ، وقد يخلق من الجبان الرعديد شجاعاً باسلاً .

منذ قديم باشر الشعر هذه المهمة ؛ باشرها في العصر الجاهلي بصورة واضحة في الحروب والأيام العربية ، وباشرها في عهد الإسلام ، فكان لوناً من ألوان الجهاد مع الرسول بجانب الجهاد بالسيف ، وكان حسان بن ثابت فارس هذا الميدان ، وباشرها فيما بعد فيما كان بين البيت الأموي والبيت الهاشمي من حروب ومنازعات ... وهكذا وقف الشعر في كل الحالات يؤدي رسالته .

وقد يخيل للبعض أن الفنون ليس لها مجال في ميدان الكفاح ، وأن ذلك متروك فقط للرجل المحارب ؛ والواقع أن للفنون شأناً كبير الأهمية في مجال الكفاح ، وأثرها في الثورات الحديثة واضح لا نزاع فيه . والثورة الفرنسية والثورة الروسية وغيرهما شاهد على ذلك ، ولعلها قد حققت غاية النصر .

وفي الشرق نجد الزهاوي والرصافي بالعراق يحاولان أداء هذه الرسالة للشعر في إيقاظ الشعب وإثارة حميته إلى التحرر . وفي الشام لون آخر أحدثته الغربة والبعد عن الوطن مثله جبران وإيليا أبو ماضي وميخائيل نعيمة وغيرهم . وفي المغرب علا صوت الشاب أبي القاسم الشابي مدوياً كأنه الصور يوم البعث . وفي مصر كان البارودي شاعر الثورة وملهب جذوتها ، كما قام شوقي وحافظ ومطران بدورهم فكانوا لسان مصر المعبر عن آلامها وآمالها ، وكان لشعرهم السياسي أو الحماسي أثر في النهضة الحديثة .

وأخيراً فهذه هي رسالة الشعب ، يحملها الشعراء في أعناقهم ، والشعب — في هذه الفترة ، وفي كفاحه المرير — أحوج ما يكون إلى النشيد الملهب للصدور ، الحافز للهمم .

معرض السجيني :

في متحف الفن الحديث عرض الأستاذ جمال سجيني معرضه الثاني ، وفي هذا المعرض ثورة واضحة ، وهي ليست ثورة على الفن وأوضاعه فحسب ، وإنما هي ثورة فكرية أيضاً ، وإذا لقيت السجيني فستجد فيه الشاب المتحمس للتحرر ، وثورته الفنية والفكرية نتيجة لهذا الحماس والحرية .

قد ترتاب في أهدافه ولكنك لن ترتاب في مدى توفيقه ، وبلفظ آخر : إنه يقدم لك الأسباب الوجيهة التي حدث به — سواء في التصوير ، أو النحت — إلى التخلي عن بعض الأساليب الفنية المعهودة واصطناع أساليب أخرى جديدة قد انفرد بها ؛ فهو لا يتحرر بقصد الخروج على القديم فحسب ، وإنما ليفسح الطريق أمام العملية الابتكارية التي هي أهم خاصية في الفنان . وهو لهذا لا يتبنى مذهباً معيناً من المذاهب الفنية المعاصرة في أوربا ، بل يعتقد أننا في غنى عن تبني هذه المذاهب لأننا نستطيع أن نحمل شيئاً ، ولدينا الإمكانيات الكافية لإبراز الفن والفنان المصري . ولهذا كانت المصرية واضحة في أعماله (مصري ، مصرية ، السوق ، الأفق المصري ، ليالي رمضان ، كوبري إمبابه ، إلى فايد ، النيل من أسوان . . .) الخ .

أما ثورته الفكرية فتتضح أصولها في بعض الأعمال ، وتظهر نتيجتها في البعض الآخر ؛ ففي (تمثال السلام ، السلام — في التصوير وفي النحت .) الأصول الفكرية ، وفي لوحته (قانون الثعالب) ، وهي لوحة رمزية ، يحقق الفكرة المعروفة في بعض المذاهب من أن رجال الدين يغررون بالناس ويخدعونهم ويقفون بجانب الحكام الأثرياء الذين يملأون لهم جيوبهم بالمال في الوقت الذي يمتصون فيه دماء الناس ويكتمون أنفاسهم ؛ وفي لوحته الرمزية الأخرى (زهور الأشواك) يكمل الفكرة ، إذ رمز بالصبار (وهو النبات الشوكي) إلى الصبر المعروف عن المصريين ، ولكن مهما طال الأمد فإن هذا الصبر سينفد ، وتكون زهوره هي تلك الوجوه الغاضبة الثائرة .

قلت إنك قد ترتاب في هذه الأفكار ، وقد تردها إلى أصول أجنبية ، ولكنك لن تستطيع أن تنكر أن المصرية واضحة وغالبة فيها ، وفي ذلك تظهر مهارة الفنان وإحساسه العميق بمصريته وواجبه إزاءها .

أما ثورته الفنية فتتضح في أنه يبيح لنفسه أن يجمع في اللوحة الواحـدة وسيلتين من نوع مختلف . فهو مثلا يستخدم الورق اللامع (القص ، واللزق) في اللوحات المرسومة بالألوان ، وقد يبيح له الفن ذلك ، ولكن هناك شيء أعتقد أن طبيعة فن التصوير تأباه ، هو الكتابة على اللوحة . ولم يكن يكتب على اللوحة عنوانها مثلا ، وإنما المكتوب هو الإحساس أو المعنى الذي كان من الواجب أن تستغني عنه اللوحة بما هي عمل تصويري ، وأن تكتفي عن هذا المكتوب بإمكانياتها الخاصة كاللون والحركة والخطوط الخ ، لإشاعة ذلك المعنى في نفس المتفرج ، وفي تمثاله (من أسوان) لون جديد من ألوان التعبير ، فإنه لم ينحت طاقية الرأس من نفس المادة ، وإنما جاء بهذه الطاقية الحقيقية من أسوان ، وعليها زخارف تحمل الطابع الأسواني وألبسها الرأس ، ثم ركز عمله في نحت وتلوين هذا الرأس ؛ ودفاعه عن هذا الأسلوب هو أنه لم تكن به حاجة إلى نحت طاقية ما دامت الطاقية الأصيلة موجودة ، والمهم أنه نجح في نحت الوجه وتلوينه وتخطيطه بصورة منسجمة مع طابع هذه الطاقية ، أي أنه صنع تماماً ما يصنعه الكاتب حين يصدر مقالته بعبارة لشخص آخر أوحت إليه الأفكار التي ضمنها مقاله ، وكان بينها وبين المقال في جوهره اتفاق . وربما كان هـذا النوع من التحرر الفني ميلا إلى التقدم في شق الطريق .

معرض الفن الهندي :

الفن الهندي فن أصـيل وله أصوله القديمة . وهذا المعرض يقدم بجانب أعمال المدارس الفنية الحديثة في الهند ، أعمالاً تمثل اتجاهات المدارس القديمة . وأبرز خواص الفن الهندي القديم خاصـية اللون وخاصية الخطوط الدقيقة والزخارف . فالألوان دائماً هي الألوان الصارخة التي يمتاز بها الشرق بوجه عام . والخطوط تمتاز بالوضوح التام مع الدقة البالغة ، وهذه الدقة تظهر في أعمال العمارة ، كما تظهر في الزخارف التي تحلى بها أغلفة الكتب وصفحاتها .

أما عن المدرسـة الفنية الحديثة فيرجع تاريخها إلى خمسين سنة عندما أسسها الدكتور تاجور ، ابن أخي الشاعر الهندي المشهور رابندرانات تاجور ، والذي يرجع إليه وإلى أسرته بوجه خاص الفضل في بعث القديم والفني من

ميراث الهند في ميدان الحضارة ، بعد أن كان هذا القديم قد نسي قليلاً في أثناء فترة الركود التي أعقبت سقوط الامبراطورية المغولية في القرن الثامن عشر . وقد درس الفن الأوربي بجانب دراسته لخصائص التصوير والنحت في الفن الهندي . وبعض أساتذة الفن الهندي اليوم هم تلاميذ الدكتور تاجور . وقد رحل كثير منهم إلى الخارج خاصة إلى فرنسا وانجلترا وإيطاليا ، فلما عادوا أضافوا إلى الفن الهندي ثروة إلى ثروة . وقد قدم المعرض منهم ١٥٠ فناناً عرضوا ٢٦٥ لوحة ، يصورون فيها حياة الناس وميراثهم القديم من الأساطير والثقافة . كما صوروا المناظر الطبيعية في البلاد . وهم في ذلك يعطون فكرة واضحة عن المدارس الفنية الهندية المعاصرة .

ومن السهل أن نلاحظ أن هذه المدارس الحديثة لم تستطع أن تتخلص من أهم خاصيتين في الفن الهندي القديم ، هما — كما قلت — اللون الصارخ والخط الدقيق ! فالألوان ما تزال تحمل نفس الطابع وإن كانت الأساليب الأوربية التي درسها أولئك الفنانون قد غيرت في كثير من أعمالهم من طابع الخطوط . وفي لوحة (المراحل الثلاث الأخيرة للحياة الطبيعية) التي تصور نهاية حياة فاندي آر مقوس لحياة الفن الهندي في كنف الأفكار الهندية ، والإبقاء على الطابع المعهود للخطوط . وربما كان الفنانان سيد أكبر علي حسيني ، وسيد بن محمد ، ألمع فنانين في هذا المعرض . والتأمل يقف طويلاً أمام لوحة الفنان سيد (رأسمالي) فيدرك مدى النجاح الذي أحرزه ، سواء في فهمه وتبنيه للأساليب الأجنبية ، أو في استخدامه الألوان الشرقية بطابعها المعروف .

وعلى العموم فقد كان في هذا المعرض ثقافة بجانب ما كان فيه من فن .

عز الدين إسماعيل

كلمات دالات

لعظمة نبي الإسلام

● إن نجم أحمد طالع في كل لحظة يشع نوراً من بداية الكون .. لو أن للكون بداية .. إلى نهاية الزمن . لو أن للزمن نهاية ...

نجم أحمد هو الحق ، والحق لا يبدأ ولا ينتهي ، ولا يظهر ولا يختفي .. إنه موجود .

[توفيق الحكيم]

● ● ●

● ذُعرت (قريش) .. هل يحمل دينها

رجل ضعيف في العشيرة مملق ؟

لا المال ينصره ، ولا هو إن دعا

خفق اللواء له ، وخف الفيلق

ينعي عن الأصنام وهي بموضع

تهمي حواليه النفوس وتحدق

[أحمد محرم]

الثقافة

العـــدد ٦٨٣
٢٨ من يناير ١٩٥٢

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

صفحة

الدكتور زكى مبـــــارك

نعى الثقافة أديباً من أدباء مصر هو الدكتور زكى مبارك . قد بدأ حياته العلمية مجاوراً فى الأزهر كسائر المجاورين ، ولكنه رحمه الله كان طموحاً ، فتميز عنهم برغبته فى تعلم الفرنسية ، فالتحق بمعهد أقامه الفرنسيون لتعليمهم الفرنسية بأجر اسمى ، ولما شدا بعض الشىء سافر إلى باريس لاستكمال تعلم هذه اللغة ، وكان فقير الحال لا يواتيه مال للانفاق على نفسه فى باريس ، فتعاقد مع جريدة البلاغ ، أن يمدها بمقالاته ، وتمده بمالها ، وكان له ذلك حتى نال الدكتوراه على كتابه الذى نشره فيما بعد باسم النثر الفنى ، وربما كان هذا أقوم كتبه وأجودها ؛ فلما عاد لم يقنع بذلك ونال الدكتوراه من جامعة فؤاد ، وكان رحمه الله يفاخر بأنه جملة دكتوراهات ، وألف كثيراً ، وكتب مقالات كثيرة فى الجرائد . فكان من هذه الناحية ، حركة لا تخمد

وانتدب للتدريس فى العراق ، فدرس فيه ، وأوجد صلات مع بعض أفراده ، وأعاد لنا حديث ليلى المريضة بالعراق ، وإن أخذ عليه شىء فعدم ضبطه ثقة مع رواته الوقتية ، وقد سبب له ذلك خروجه من وظيفته فى وزارة المعارف المصرية ، وتعرضه للبؤس وقتاً ما ، حتى أعيد إلى مثل وظيفته . ومع ذلك فقد كانت له فضائل كثيرة من جد ونشاط وطموح ، وكثرة تأليف أكسبته شهرة فائقة

هـذا إلى أنه ساهم فى الحركة الوطنية المصرية سنة ١٩١٩ حتى كاد يسجن . وكان إلى قدرته فى النثر عنده ميل إلى الشعر يقوله ويجيده . وقد خلف لنا من نثره وشعره ثروة كبيرة ، فرحمه الله بقدر ما أدى لأمته من خدم جليلة ، وعزى العالم العربى وعوضه خيراً .

أحمد أمين

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز	الإدارة	رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك		محمد عبد الواحد خلوف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٨٣ الاثنين ١ من جمادى الأولى سنة ١٣٧١ — ٢٨ من يناير سنة ١٩٥٢ السنة الرابعة عشرة

ثورة مصر على الاستعمار

تقترب من مرحلتها الحاسمة

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

ينكر كثيرون منا الثورة الصادقة التي يشنها شعب مصر في سبيل استرداد حريته وكرامته ، مدّعين علم مالا يعلمه سواد الناس ، فهم يسخرون بالمتفائلين على زعم أن هؤلاء يبنون تفاؤلهم على العاطفة الجامحة التي تبعد بأصحابها عن الحقائق ، إذ كيف تنجح الثورة المصرية والقائمون بها يواجهون ، وهم قلة ضعيفة غير معدة للقتال ، جيشاً محترماً دوّخ الأمصار وكوّن بأسه الذي لا يفل إمبراطورية لا تغيب عن أصقاعها الشمس .

يحسب أولئك القوم أنهم قلة من العقلاء المتازين محاطة بشعب جاهل جُنّ جنونه ، وطاش صوابه ، فصار لزاماً عليها أن تلتمس السبل لترد ذلك الشعب عن غيه ، وتعيد صوابه إلى نصابه ، وتبصره بالواقع الواضح الذي طمس الطيش الجامح الجائح معالمه ، يحسب أولئك القوم أنهم واقعيون لا تخدعهم زخارف الأهواء . وأن غفلة الشعب الثائر عن الواقع توشك أن تنحدر به إلى محنة لا يدرك أهوالها غير الذين أوتوا مثلهم البصيرة الواعية النفاذة .

ونحن نود أن نحسن الظن بنيتهم ، فلا نتهم وطنيتهم ، ولكننا لا نستطيع أن نبرئهم من وصمة الغفلة ، فهم غافلون عن حقيقة الواقع ، وترجع غفلتهم إلى انخداعهم في ظاهر الواقع ، فالحقيقة تكمن على الأغلب وراء الظواهر الخداعة ، ومادمنا نفترض فيهم حسن الظن فسنحاول هنا إقناعهم بخطئهم الجسيم ، ولن نلجأ إلى المقارنة بين قوة شعب يتجاوز عدده عشرين مليون نسمة ، أفاق بعد رقاد طويل ، وأدرك ما لحقه من غبن ، فهب يطالب بحقه المهضوم ، ويدفع عن نفسه الذلة والضيم ، ويحطم أغلال الاستعباد ، وبين قوة جيش محتل يجد نفسه محاطاً بأعداء صمموا أن يقضوا مضاجع رجاله ، فيقطعوا خطوط تموينهم ، ويمنعوا عنهم الزاد ، ويتصيدوا منهم من تصل إليه أيديهم ، ويحرموهم الراحة والطمأنينة ... لن نلجأ إلى هذا القول المعاد الذي يصح أن يكون موضع جدل ، ولكننا سنلجأ إلى تاريخ الصراع الذي نشب بيننا وبين المستعمرين ، وسيعلم الذين لا يعلمون من استعراض مراحل ذلك الصراع مبلغ توفيقه ، ومقدار الشوط الذي قطعه في سبيل الغاية المنشودة . وستظهر

لنا بمقادير المستقبل من وراء ذلك الاستعراض الدال على ما تخبئه الأيام .

إن كل موجود متطور ، ومعنى ذلك أن لكل موجود تاريخاً ، ونحن لا نستطيع أن ندرك أى موجود على الوجه الصحيح إلا إذا أدركنا تاريخه ، والخطأ الذى يقع فيه الناس لدى حكمهم على الأشياء أنهم يغفلون تاريخها ، ويعزلونها عن ماضيها ، وعن ملابساتها ويحسبونها على أنها قائمة بذاتها لايعتورها تبديل أو تغيير ، وهذا الخطأ يقع فيه أولئك الذين يدعون المعرفة ، ويتوقعون لثورتنا الصادقة الإخفاق ، وللاستعمار الغاشم الانتصار .

إن الذى يحكم على الظاهر دون التغلغل إلى ما وراءه لا يقل غفلة من الذى يحكم على الحاضر دون الإلمام بماضيه ، فما دام كل شىء يتطور ويتبدل كل لحظة ، فالحكم عليه فى لحظة من اللحظات دون ما التفات إلى تطوره لا يمكن أن يصيب الحقيقة ، لأنه يقع على مظهر كان متغيراً قبل الحكم ، وسيعتوره تغير جديد بعده ... وليس إلحاحنا على القارىء فى سبيل إيضاح هذا الرأى إلا لما له من أثر حاسم فى تصويب حكم الناس على الأشياء ، ولعل المحاولة التى سنبذلها فى هـذا المقال لندرك حاضر ثورتنا من استعراض المراحل التى مرت بها ، والتغيرات التى طرأت عليها ، ستؤيد ما نقول .

استبد اليأس بقلوب المصريين فى أول عهدهم بالاحتلال البريطانى البغيض . فقد أحدث احتراق الإسكندرية بمدافع الأسطول المعتدى ، وانهزام الجيش المصرى بفعل الخديعة والخيانة أثرها البليغ . لقد حسب أهل مصر بعد احتلال الغداة الغزاة البغاة للقلعة ، وبعد قبضهم على زمام الحكم فى البلاد أنهم أصيبوا بغمة لا أمل فى انكشافها ، وراق الطغاة المعتدين أن يروا الجزع مستولياً على الأهلين فزادوهم تخويفاً وإرهاباً ، واطمأنوا إلى أن ذلك العسف والجور سيحول دون انبثاق أمل جديد ...

ولكن خيوط الأمل الجديد أخذت تنبثق رغم حيطة المستعمرين ، فإن السخط المكبوت على الاستعمار وجد بعد قليل متنفساً بين طلبة الحقوق . ولم يلبث أن قام من بينهم مصطفى كامل مطالباً بحق بلاده المهضوم فى الحرية والاستقلال ، ومعبراً عما يجيش فى صدور زملائه الطلبة ، بل ومواطنيه أجمعين من تبرم بالاحتلال ، وتطلع إلى رفع نيره وتحطيم أغلاله . ولن نطيل فى الحديث عن تلك الحركة الوطنية الرائعة ، فلا نحسب أحداً يجهل أمرها ، ولكننا نلاحظ أنها انحصرت فى التعبير عما كان يختلج صدر كل مصرى ، أى أنها قامت على الخطابة والكتابة فلم تمتد حدودها . وقد حاولت أن تفوز بعون فرنسا وتركيا لتحقيق أهدافها ، ولكن محاولتها فى ذلك الميدان لم تكد تحرز نجاحاً .

وما حل عام ١٩١٩ حتى كانت نواة تلك الحركة قد أثمرت وأسفرت عن الثورة التى خضدت شوكة الاستعمار وصدعت أركانه . لم تقم بتلك الثورة الطبقة المثقفة وحدها ، بل قامت بها الأمة جمعاء ، ولم يكتف القائمون بتلك الثورة الشاملة الجارفة بإلقاء الخطب وتحبير الصحف ، ولكنهم قطعوا المواصلات ، وخربوا المنشآت ، وأضربوا عن العمل ولجأوا إلى التجمع والسير فى مواكب صاخبة تهتف متوعدة الاحتلال ، ومطالبة بالاستقلال ، ولم يلجأوا إلى دولة أو دولتين يستجدون منهما العون . ولكنهم أوفدوا وفدهم إلى مؤتمر الصلح بعد الحرب الكبرى معلناً على الملأ حق مصر فى استرداد حريتها الكاملة .

ولم يعدم ذلك العهد عقلاء الذين لم يكفوا عن الإهابة بالشعب المصرى الثائر أن يقلع عن ثورته التى توشك أن توغر صدر الاستعمار فيبطش به ويقضى عليه ! ولكن الشعب لم ينصت حينذاك للعقلاء البلهاء ، واستسلم لجنونه الذى ظهر فيما بعد أنه عين الرشد ، وظلت ثورته على أشدها حتى أسقط فى يد الاستعمار المجهز بالجيوش الجرارة ، فاضطر إلى بذل جهد الجبابرة لإرضاء الثائرين بعد عجزه عن أخذهم بالشدة والبطش ، وحين اصطدم بإصرارهم على نيل حقوقهم كاملة اضطر إلى التسليم ببعض تلك الحقوق بإعلان صادر من جانب واحد ، أى منه دون المصريين ، ذلك الإعلان الذى عرف بتصريح ٢٨ فبراير .

وظلت الثورة الوطنية تشتد وتستفحل حتى وصلت إلى مرحلة جديدة من مراحل التطور ، فلم يعد المصريون يتخيرون الوسائل لتحقيق أهدافهم ، بل لجأوا إلى كل وسيلة دون ما نظر إلى سلامتها من الناحية الخلقية أو الشرعية ، وظهر الفدائيون الذين طفقوا يتصيدون من يصل إليه رصاصهم من رجال الاستعمار ، وبلغ بهم الأمر كما هو معلوم إلى قتل السردار ! وما وصل الأمر عند هذا الحد حتى تجاوز هلع العقلاء كل مدى ودوت صيحاتهم المتشنجة في الفضاء تندد بالفدائيين ، وتكيل لهم أقبح النعوت ، وتحملهم مسئولية الكوارث التي ستحل بالبلاد على يد الاستعمار الغاشب . وكان غضب المستعمرين قد بلغ بالفعل غايته ، فدفعهم إلى ارتكاب سلسلة من الحماقات زادت وطنية المصريين اشتعالا ، وزادت موقف الغاصبين حرجاً ، وقد وقع أولئك الغاصبون في نفس الخطأ الذي وقع فيه عقلاؤنا ، فلم يلتفتوا إلى التطور الذي طرأ على المصريين ، وحسبوا أنهم سيرهبون الأسطول البريطاني كما رهبوه على أثر إطلاق قنابله على الإسكندرية وإحراقها ! ولكن تردد البوارج والمدمرات البريطانية على الموانيء المصرية مهددة متوعدة لم يبعث الرعب إلا في قلوب السادة العقلاء .

ومن السذاجة أن يظن أن الاستعمار ينكص خطوة إلى الوراء غير مرغم ! فالاستعمار لا يرحم ، ولا يجامل ولا يعقل ، لأنه يقوم على استغلال الشعوب وامتصاص دمائها ، وهو لا يجهل أن خطوة واحدة يخطوها إلى الوراء تعرضه للانهيار التام ، بل إن توقفه عن توسيع دائرة استغلاله يعرضه للانحلال . ولذلك نراه يزداد جشعاً ، ولا يكف عن الجري وراء مغانم جديدة ، فإذا صدر منه تصريح ٢٨ فبراير فقد صدر ولا شك قسراً عنه . وفي عام ١٩٣٦ اضطر تحت وطأة عباب الوطنية المصرية إلى إبرام تلك المعاهدة التي لم تكن هي كذلك إلا حلقة من حلقة تطور النهضة المصرية ، أو حلقة من حلقات التدهور الاستعماري .

ظلت ثورة الشعب المصري في مد ، وسيطرة المستعمرين الإنجليز في جزر ، حتى انتهى الأمر إلى نهوض مصر لتخطو الخطوة النهائية في سبيل استقلالها . فبدأت بإعلان إلغاء المعاهدة المبرمة عام ١٩٣٦ ومعاهدتي السودان ، فقطعت كل صلة تربطها بإنجلترا . وأخذت تستعد لمناجزة جيش الاحتلال لتجليه عن أراضيها ، فهرع شبابها إلى المعسكرات لينالوا قسطاً من التدريب العسكري ، ثم لم يلبث من استعد منهم أن سار إلى القنال ليقاتل جيش الاحتلال . وكلما علمنا ما جرى اليوم هناك بين الفدائيين وبين الغاصبين . وكلما نرى حماسة المصريين تزداد ، وإقبالهم على التدريب يشتد ، وتصميمهم على طرد جيش الغاصب من أرض الوطن يتضاعف . فالذي يريد أن يحكم اليوم على الصراع الناشب في القنال ، وأن يستشف نتائجه لا يستطيع أن يصل إلى الحقيقة المقارنة بين قوى الفريقين المقتتلين العسكرية . ولكنه يستجليها إذا رجع إلى تاريخ ذلك الصراع وتتبع مراحله على نحو ما فصلناه في هذا المقال ، وتبين منها ما يأتي :

أن عسف الاستعمار ، وخنقه للروح الوطنية المصرية بالحديد والنار ، لم يحل دون ترعرع تلك الروح واشتدادها إلى درجة أنها توشك اليوم أن تقضي عليه .

وأن المظاهرات التي بدأت عام ١٩١٩ ، وما أعقبها من تدمير وتخريب ، انتهت إلى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ .

وأن الاغتيالات السياسية واشتداد الروح الوطنية انتهت إلى معاهدة ١٩٣٦ .

وأن المظاهرات الدامية التي أسفرت في كثير من الأحيان عن اشتباك المتظاهرين بالقوات الإنجليزية انتهت إلى انسحاب جيش الاحتلال من المدن المصرية إلى القنال .

وأن الذي يجري اليوم في منطقة القنال ليس مجرد خطب ومقالات ، أو صخب ومظاهرات ، أو حفنة من الاغتيالات ، ولكنه قتال ينشب كل يوم بين أبناء مصر وبين أعدائها ، وأن عدد المشتركين فيه من أبناء مصر يزدادون ، وأن شدته تستفحل .

(البقية على الصفحة التالية)

كتـــاب

للدكتور أحمد أمين بك

عثرت فى هذه الأيام على كتاب قيم ألفه أبو بكر بن العربى وهو غير محيى الدين بن العربى ، وقد قرأته فأعجبت به واستفدت منه فوائد كثيرة ، وهذا الكتاب اسمه (العواصم من القواصم) ، ولعله أخذ هذا الاسم من أبى حيان التوحيدى إذ سمى أحد كتبه (الهوامل والشوامل) .

واستدللت من هذا الكتاب على أنه فى النصف الثانى من القرن الخامس كان بعض العلماء الناشئين يحارون فى أمرهم أين الحق وما منهج الوصول إليه . أهو التصوف أم الفلسفة أم التشيع أم الاعتزال . . . إلخ . ودعاهم إلى ذلك ما كان فى عصرهم من كثرة الجدل حول هذه المسائل كلها مما أدى أحياناً إلى القتال ، وقد حار هذه الحيرة فى زمنه الغزالى أيضاً وابن فورك وغيرهما ، وقد دعته هذه الفكرة إلى أن رحل من بلده إشبيليه بالأندلس إلى سائر الأقطار العربية ليلتقى بجهابذة العلماء ويباحثهم ويعرف أين الحق .

وفى أثناء رحلته التقى بالغزالى فى دمشق وكان قد تصوف منذ خمس سنوات ، فسأله وناقشه وسمع عليه بعض كتبه جرياً على الطريقة المتبعة فى زمنه .

وكان مما قاله الغزالى فى شرح طريقته أن القلب إذا تطهر عن علاقة البدن المحسوس وتجرد للمعقول انكشفت له الحقائق ؛ وهذه أمور لا تدرك إلا بالتجربة لها عند أربابها ؛ وذلك أن القلب جوهر صقيل مستعد لتجلى المعلومات فيه عند زوال الحجب عنه ، كالمرآة تتراءى فيها المحسوسات عند زوال الحجب من صدأ وغيره .

وقد كتب له الغزالى هذا بخطه ، ولكن كان ابن العربى مستقل الفكر ، فلم يرضه هذا الكلام من الغزالى ، ورد عليه رداً بديعاً بأنه لا يصح قطع العلاقة بين الروح والبدن ،

هذه هى خطوات التطور ، وهذا هو اتجاه سيره .

فكيف يفلت إنسان فى النهاية التى سينتهى إليها بعد أن وضحت هذا الوضوح !!..

وإذا كنا لا نستطيع أن ندرك أى شىء على حقيقته إلا إذا امتحناه على أنه متطور ، فإن علمنا به يظل كذلك ناقصاً إذا لم نمتحن ظروفه وملابساته إلى جانب تطوره التاريخى . وإن الظروف والملابسات التى تحيط بنا اليوم تلائم الصراع القائم بيننا وبين الغاصب ، وتشد من أزرنا ، وتقرب إلينا النصر . وبيان ذلك أن الدول لم تبد فيما مضى أى اهتمام بمقاومتنا للاستعمار ، بل إنها كانت تؤيده فى أكثر الأحيان تحقيقاً لمصالحها ، وقد أصمت آذانها فلم تنصت إلى توسلات مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، أو نداآت سعد زغلول... وعلى الرغم من ذلك فقد استطاعت مقاومتنا للاستعمار أن تنال منه .

ولكننا نلفت اليوم حولنا ، فنرى غيرنا من الأمم الواقعة فى قبضة الاستعمار تناليه وتصارعه ، فيشد ذلك من أزرنا ، لأن اتساع الجبهة المقاومة للاستعمار تزيده ولا شك ضعفاً... إننا ننادى اليوم فيتردد صدى ندائنا فى أصقاع الدول الشقيقة ، والدول الشرقية المحبة للسلام . لقد دوخنا الاستعمار البريطانى يوم قاومناه وحدنا مقاومة سلبية ، فكيف يكون حاله اليوم ونحن نقاومه بالسلاح متكاتفين مع الدول الأخرى المناضلة مثلنا فى سبيل الحرية ، ومع الدول المحبة للسلام !!..

ولعل الحقيقة تكون قد وضحت للذين يخلطون بين الظاهر الخادع وبين الواقع ، ويتهمون غيرهم بالغفلة وهم الغافلون .

محمد مفيد الشوباشى

وقد كان النبي (ص) والصحابة يباشرون أمور الدنيا كما يباشرون أمور الدين، ولا يقطعون العلاقة بين الروح والبدن.

ومن الفوائد التي استقيناها من هذا الكتاب تاريخ المذاهب المختلفة. ثم نصه على كتاب إخوان الصفا، وقوله قولا يغاير ما عرفنا من قبل، فقد كان اعتمادنا في معرفة مؤلفيها على مارواه أبو حيان التوحيدي في كتابه الإمتاع والمؤانسة وتعديده لأسمائهم. أما ابن العربي فقد قال إن مؤلفيها أربعة من القضاة لقبوا أنفسهم إخوان الصفا وجمعوا خمسين رسالة في كل علم رسالة، ومن الأسف أنه لم يسم لنا أسماء هؤلاء القضاة الأربعة، ولو سماهم لجلى لنا كثيراً من الغوامض.

ومن رأيه أن محاولة الجمع بين الدين والفلسفة — كما فعل إخوان الصفاء في رسائلهم، وكما فعل ابن رشد وابن سينا في بيانهم أن الفلسفة لا تنافي الدين — محاولة فاشلة، إذ لكل من الدين والفلسفة مسلك خاص؛ هذه تعتمد على العقل المحض، وذاك يعتمد على القلب المحض، وهذه تعتمد على المنطق والحجج العقلية، وذاك يعتمد على النظر في الكون والإصغاء إلى القلب، فمحاولة الجمع بينهما لا تؤدي إلى نجاح.

ومن ألطف ما في الكتاب استقلاله في تفسير بعض الحوادث التاريخية واعتقاده أن المؤرخين يروون بعض الحق ويضيفون إليه كثيراً من الباطل، لا فرق في ذلك بين المسعودي وابن قتيبة وغيرهم؛ فعنده مثلا أن السبب في نكبة البرامكة أن زعامتهم كانت زعامة مجوسية يبثونها بين المسلمين؛ ومن وسائلهم أنهم كانوا يطلقون البخور الكثير في المساجد بعد أن كانت تطيب بالخلوق، قصداً منهم إلى إشعال النار في المباخر تعظيما لها كعادتهم المجوسية، ومن وسائلهم أيضاً عقدهم مجلساً منتظما يحضره من ينتحل علم الكلام من أصحابهم، وقد اختاروا لهذا المجلس أربعة عشر عضواً ثمانية من المعتزلة كأبي هذيل العلاف والنظام وبشر بن المعتمر وعلى رأسهم للوبذان قاضي المجوس، ويتحادثون في أشياء قد لا يكون لها علاقة بالدين كتعريف العشق وأسبابه، وأشياء فلسفية عويصة كمناقشتهم في هل الله قادر على ما لو وقع منه كان ظلماً ونحو ذلك، ومن رجالاتهم ابن المقفع والجاحظ وابن الراوندي وأمثالهم.

ومن وسائلهم ترجمة الكتب اليونانية الفلسفية ودسهم فيها أشياء لا تتفق والدين. وهذا هو السبب في أن هارون الرشيد قضى عليهم وقتلهم.

وكرأيه المستقل في مدة خلافة معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد؛ وبناء عليه لخروج الحسين ثورة على الدولة الشرعية ليس له حق فيها، وأنه إنما قتل بشرع جده عليه السلام.

وهكذا إلى غيره من الآراء الجريئة المبثوثة في الكتاب.

ثم بعد هذه الرحلة الكبيرة والاستفادة منها رجع إلى بلاده مطمئنا إلى ما اعتقده من الحق وما وصل إليه عن طريق بحثه المستقل.

استقبله أهل بلده استقبالاً حسناً وأكرموا عودته وولوه القضاء، ففعل ما كان ينتظر منه: صرامة في الحق وشدة على الظالمين ولو كانوا من الأمراء والأعيان، وحزم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن أعماله أن سور إشبيلية احتاج إلى بنيان جهة منه تهدمت، ولم يكن بالخزينة مال، ففرض على الناس التبرع بجلود ضحاياهم في عيد الأضحى وبيعها لبناء السور، فقدموها كارهين، ثم ثاروا عليه ونهبوا داره وطلبوا عزله من القضاء. وقد رويت عنه أحكام قضائية تدور كلها حول ذلك، واضطر أخيراً إلى الخروج من بلده، فقبض عليه الموحدون في مراكش وحبسوه نحو سنة، ثم سرحوه. فمات بعد قليل سنة ٥٤٣ وحمل ميتاً إلى فاس فدفن بها. رحمه الله

أحمد أمين

من مطالعات الكتب

للأستاذ الدمرداش محمد بك

البجاة ! البجاة !

مازرت مرة بأحد أديرة طور سيناء للفرجة أو المبيت إلا وتحدث إليّ الرهبان عن غارات البجاة في الزمن الغابر أحاديث طويلة مثيرة يصنعون في إلقائها نغمات حزينة لاستدرار العطف على من ذهبوا من نساك طور سيناء ورهبانها، ضحية طغيان هؤلاء القوم.

وكنت أعجب من شأن هؤلاء الرهبان، وهم يحاولون جاهدين برطانتهم الأعجمية، تذكير السامعين، بمآسي قديمة، قد نسيها الناس جميعاً، رغبة منهم في أن يشتركوا معهم، في صب اللعنات على هؤلاء البجاة.

ويظهر أنه من كثرة ما ردد الرهبان هذه الأحاديث وأعادوها، أن أصبحوا يروونها آلياً، من غير تفكير أو تبديل أو تعديل ! فألفاظها وطريقة إلقائها واحدة، لا يحاول الرهبان تغيير شيء فيها خشية أن يأتي مخالفاً لما حفظوه منها أو ألفوه.

وكان أول ما سمعت من هذه الأحاديث وأكثرها تفصيلاً ما رواه لي وكيل دير جبلة الطور، فقد مكث مدة ساعة، يقص عليّ بنغمة حزينة رتيبة، ما وقع لرهبان ديره، على يد هؤلاء البجاة، من قتل، وسطو، وتعذيب، وتشريد، وكان يترجم لي إحدى هذه القصص، من كتاب موضوع أمامه، من تأليف راهب اسمه أمونيوس الإسكندري، شاهد بعينيه إحدى غارات البجاة على دير الراية[1] في نهاية القرن الرابع للمسيح، وقد نجا أمونيوس هذا من القتل باختفائه تحت كومة من سعف النخيل، كانت موضوعة في ركن من أركان حديقة الدير، قال الراهب أمونيوس: « كان الآباء القديسون، في هذا الدير، نابهين بكل فضيلة، راضين بالمسكنة، وعدم القنية، من أجل الرب، مصابرين التعب والشقاء، مشتغلين بالصلوات والطلبات، عابدين

المسيح الإله ... وفيما نحن كذلك، إذ جاءنا جماعة من الأماكن التي على البحر[1]، وقالوا إن طائفة كبيرة من البجاة، قد عبروا اللجج، على أطواف من خشب، من جهة الحبشة، فلما سمعنا هذا، احتطنا لأنفسنا، وصلينا إلى الله أن يفعل معنا، ما يوافق نفوسنا، وكان الفارانيون[2] الساكنون بجوار الدير، قد صمموا على محاربة البجاة، من أجل نسائهم وأولادهم وقطارات جمالهم، فاصطفوا فوق النخيل، أما نحن فقد هربنا إلى كنيستنا، التي كان يحيط بها سور ارتفاعه قامتان ! ولما وصل البجاة إلى العيون، التقاهم الفارانيون للحرب، واشتبكت واقعة قرب العيون بين الجبال، وكان رشق النشاب من الفريقين غزيراً كالمطر، ولما كان البجاة أكثر عدداً، ومرتاضين القتال، فإنهم تغلبوا على الفارانيين، وقتلوا معظمهم، وفر الباقون إلى الجبال، وأسر البجاة النساء والأولاد، ثم أقبلوا علينا عدواً كالوحوش الضارية، ظانين أنهم يجدون عندنا أموالاً جزيلة مخبوءة، فطافوا بالسور، وجلبوا وصاحوا بأصوات بربرية، فحصل لنا كآبة عظيمة، وحرنا فيما نعمل، فرفعنا عيوننا إلى الله، وبكينا بقلب موجع، وهتفنا كلنا بصوت واحد : يارب ارحم، ثم وقف أبونا القديس بولس في وسط الكنيسة وقال : أيها الآباء والإخوة لا تحزنوا، ولا تجبنوا، ولا تأتوا أمراً يشينكم، بل انشطوا، وصابروا للموت، فيقبلكم الله في ملكه بفرح ومحبة.

أما البجاة فقد اقتحموا السور، وفتحوا الباب، ودخلوا إلينا كذئاب برية، وسيوفهم مجردة بأيديهم، فصادفوا أولاً راهباً على باب الكنيسة، فسألوه : أين رئيسكم، فأبى أن يخاطبهم، لأنهم أعداء الله، فاغتاظوا من جرأته، فربطوا يديه ورجليه، وأقاموه مجرداً،

---

(١) كانت الطور قديماً تسمى ريثو أي الراية.

(١) شاطئ خليج السويس.

(٢) سكان وادي فيران المشهور بطور سيناء.

ورشقوه بالنشاب حتى لم يبق فى جسمه موضع إلا أصابته سهامهم . فلما رأى أبونا بولس هذه الأمور تقدم إليهم ، وقال أنا هو الذى تطلبونه ، فقبضوا عليه ، وسألوه أين أموالك ؟ فقال صدقونى يا أولادى ! إنى لم أقتن فى عمرى كله سوى هذين الثوبين الشعريين العتيقين ، اللذين تعاينونهما على جسدى . فشرعوا يضربون عنقه بحجارة ، ويحزون وجهه بمزاريقهم قائلين : هات أموالك . وبعد أن عذبوه ساعة ، ولم يجدهم ذلك نفعاً ، ضربوه بالسيف على رأسه ، فانشق ذلك الرأس المقدس فلقتين ، وتدلى على كتفيه من الجانبين ، وطعنوه طعنات أخرى فى بدنه . ثم دخلوا الكنيسة وهم يصيحون ، ضاربين الهواء بسيوفهم ، ثم أعملوها فى الرهبان بصور تقشعر منها الأبدان.

ثم إنهم بعد أن قتلوا جميع الرهبان ، وكان عددهم ثلاثة وأربعين ناسكا ، فتشوا كل مكان فى الدير ظانين أنهم يجدون أمتعة وأموالاً ، ولكنهم لم يجدوا شيئاً ، فانصرفوا .

ولما انتهى وكيل الدير من سرد هذه القصة سألته : هل لا يزال هؤلاء البجاه يغيرون على الأديرة ؟ فقال : لا . لقد انقطعت غاراتهم من زمن بعيد جداً . قلت : ولماذا إذاً تروون الآن أمثال هذه القصص ؟ فأجاب : ليعلم رهبان الأجيال الحاضرة ، حيث يسود الأمن والسلام ، ما نزل بأسلافهم فى الزمن الغابر من شقاء وعذاب فى هذه البقاع المقدسة ، من أجل سيدنا وربنا يسوع المسيح .

هذه القصة وأمثالها ، أثارت فى نفسى رغبة فى معرفة أخبار هؤلاء البجاه ، ومنذ ذلك الوقت لم يقع فى يدى كتاب ، أجد فيه ضالتى المنشودة . ففى كتاب السلوك للمقريزى شذرات عن البجاه لا تغنى . وفى رحلة ابن بطوطة أخبار مقتضبة جمعها عن قتال كان ناشباً بين المماليك والبجاه ، عندما ذهب إلى عيذاب ليسافر منها إلى الحجاز ؟ ولكن حانت الفرصة فى هذه الأيام وأخرجت لجنة التأليف والترجمة والنشر ، كتاب « السودان الشمالى — سكانه وقبائله » لمؤلفه العالم الجليل الدكتور محمد عوض محمد بك ، فقرأت فيه فصلاً طويلاً عن أخبار هؤلاء البجاه أو « البيجه » كما يسميهم الكتاب أحياناً ، وفى هذا الفصل بحث واف ، وشرح مفصل لتاريخهم وعقائدهم واعتقاداتهم وعاداتهم . وقد رأيت إتماماً للفائدة ، أن أعرض على قراء الثقافة مقتطفات موجزة لما جاء بالفصل المذكور .

يقول المؤلف : « لقد لعب هؤلاء البجه دوراً هاماً فى تاريخ مصر القديمة والسودان ومصر الحديثة ، والساحل الغربى للبحر الأحمر ، والبجه منحدرون من أصل حامى ، ومواطنهم اليوم تتألف من الأراضى الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً ونهر عطبرة ثم النيل الأكبر غرباً ، وتمتد من المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية فى الجنوب إلى نهاية مديرية أسوان فى الشمال . وهذه المواطن أراض فسيحة شاسعة ، وبيئة فيها تنوع كثير فى التضاريس الأرضية والمناخ والنبات ، والبيئة قاسية فى جملتها ، وفى هذه البيئة تعيش جماعات البجه منذ عصور عديدة ، ومن أشهر جماعاتهم البشاريون[1] فى الشمال الذين يعيشون فى بيئة جبلية صخرية قليلة الماء والكلأ ، ثم يليهم جنوباً « الأمرار » ثم « الهدندوه » ثم جماعة بنى عامر .

ويقول بعض علماء الأجناس ، إن البجه والمصريين القدماء من سلالة واحدة ، أو سلالات متقاربة ، وعلى الأخص سكان مصر الجنوبية ، فالشعبان من جنس واحد وإن كانت طبيعة البيئة قد سلكت بالمصريين طريقاً وأسلوباً فى الحياة ، وسلكت بالبجه طريقاً آخر . وقد ساهم البجه فى بعض نواحى الثقافة المصرية ، ومنها الديانة ، التى ظلوا متمسكين بها إلى العهد المسيحى .

وكانت قبائل البجه على صلات ودية مع مصر ، وقد استعان بهم المصريون القدماء فى مختلف الأعمال ، وعلى الأخص كانوا يؤلفون منهم فرقاً عسكرية تستخدم للبوليس أو الحرب ، وكانوا من الجنود الذين أعانوا المصريين فى طرد الهكسوس من مصر .

وعلى الرغم من أن البجه ظلوا محتفظين بطباعهم فى العهد العربى ، فإن رؤساءهم ، وكثيراً من عامتهم قد اتصلوا بالعرب ، وشارك الرؤساء — على الأقل — فى النشاط التجارى ، وتزوج كثير من التجار العرب بنساء

(١) يعمل فى الوقت الحاضر كثيرون من البشارية جنوداً فى سلاح الحدود المصرى .

من البجه ، وأقاموا بينهم ، حتى اندمجوا فيهم ، ولم يكن بد من أن يتأثر البجه بالإسلام ، والثقافة العربية تأثراً شديداً . فلم يلبثوا أن أصبحوا جميعاً مسلمين لا يدينون بأي دين آخر ، وتأثروا أيضاً بالثقافة العربيـة فأصبح أكثرهم يعرف العربيـة معرفة تامة مع احتفاظهم بلغتهم الحامية الأصلية ، كما أن اتصالهم بالعرب قد أثر في حالتهم النفسية التي جعلتهم يفتخرون بنسبهم العربي على حداثته ، ويرجحونه على نسبهم البجاوي العريق القديم .

والبجه جلد كبير على تحمل الشدائد وشظف العيش ، ويصبرون على الحرمان إذا جاءت سنوات الجهد والشقة ، ومظهرهم الطبيعي يتفق مع هذه الظروف القاسية ، فقامتهم تمتاز بالنحول والرشاقة ، متوسطة الارتفاع ، والبشرة سمراء تضرب إلى الحمرة ، ووجوههم بالجملة حسنة التقاسيم .

والبجه بوجه عام شعب لا تزال تغلب عليه الصفة العسكرية ، والطبع الحربي الذي أملته البيئة والكفاح للمحافظة على النفس والمال ، وشجاعتهم وقوة احتمالهم مضرب الأمثال ، وسلاحهم الرئيسي هو السيف للهجوم ، والدرقة للدفاع .

والرعي هو الحرفة الأساسيـة لجميع البجه ، ولهذا لا يمارسون الزراعة بوجه عام ممارسة جدية ، ولا شك أنهم منذ زمن طويل جداً عرفوا فائدة الغلات الزراعية ، وعلى الأخص الحبوب ، وحصلوا عليها ، واستخدموها في غذائهم دون أن يفكروا في استنباطها بأنفسهم ، وحسبهم أنهم كانوا يحصلون عليها بإحدى وسيلتين : إما بالإغارة ، وإما بالبيع والشراء ، والإبل هي أهم الحيوانات عندهم ، وأعلاها شأناً . واتجه البجه في تربية الإبل وجهتين : الأولى تربية الإبل السريعة جداً (الهجن) والأخرى تربية الإبل القوية الثقيلة للحمل .

والأمر الذي يلفت النظر في البجه جميعاً أنهم لا يلتفتون إلى البحر بالا ، فلا تصلهم به أدنى صلة ، فليست لهم سفن أو قوارب ، ولا يعرفون حرفة الصيد البحري .

والبجاوي جاف الطباع شديد النفور من الناس ، وهم لا يميلون إلى إنشاء قرى أو مساكن مجتمعة في ساحة كبيرة . وعزلتهم في جبالهم وفيافيهم تحبب إليهم الحرية وتبغض إليهم أي تدخل في شئونهم ، وكان المرأة عندهم فيما مضى مكان ممتاز ، ولكنها لم تصبح لها اليوم المنزلة الممتازة التي كانت لها من قبل ، وإن بقيت لها من ذلك بقية في بعض النواحي الاجتماعية . وغذاء البجه الرئيسي اللبن والحبوب وقليل من اللحم والسكر في زمن الرخاء ، وعلى اللبن وحده تقريباً حينما ينتابهم الجدب ، والقهوة عنـد البجه شأن أي شأن ، فهي بمثابة الغذاء ، ولها قواعد وأصول يحافظون عليها أشد المحافظة . ولعل مجاورة البجه للحبشة جعل القهوة تلك المنزلة التي نجدها للشاي عند القبائل الليبية .

الدمرداش محمد

إعلان

« مجلس مـديرية الغربيـة بطنطا يعلن عن الترميمات اللازمـة لمؤسسة البنين والبنات وملجـأ العجزة بطنطا ومؤسسـة الأمـير فاروق بالمحـلة الكبرى وتطلب المقايسـات من إدارة المجلس نظـير ١٠٠ مليم لكل مقايسـة عن عمليـتى مؤسستى البنين والبنات و٥٠ مليما لكل من ملجـأ العجـزة ومؤسسة المحـلة ، وتطلب المقايسات على عنـوان بعنـاية ثمنـه الخمسين مليما يضاف إليـه ٥٠ مليما أجـرة البريد ، وقـد تحـدد ظهـر يوم السبت ١٦ فبراير سنـة ١٩٥٢ آخـر ميعاد لقبـول العطاءات وللمجلس الحـق في قبـول أو رفض أي عطاء بدون إبداء الأسباب . » ٥٦٤

قضية وطنية شهيرة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ١ —

في فاتحة القرن التاسع عشر كان يسود أوربا نوع من القلق العام ، وكانت غزوات نابليون وفتوحه قد بثت الجزع والاضطراب إلى معظم أنحاء القارة ، وكان صرح ألمانيا الوحدة القومية قد تحطم تحت ضربات الفاتح ، وانضوت معظم الإمارات الألمانية الجنوبية والغربية تحت لوائه . وكانت الشبيبة الألمانية كباقي شبيبة القارة الأوربية ، تجيش يومئذ بالآراء الحرة ، وتذكي الهمة القومية في نفوسها أعظم الأماني لإنقاذ الوطن وإقالته من عثرته . ولم يجد الشباب أمامه ، في ظل النظام الخانق الذي فرضه الفاتح ، وفرضه الأمراء الألمان ، سوى العمل المستتر ، والاحتشاد في الهيئات والجماعات الوطنية السرية التي انتشرت يومئذ في سائر أنحاء ألمانيا ؛ وكان طلاب الجامعات بالأخص عماد هذه الحركة الوطنية الخفية التي كان شعارها العمل على تحرير الوطن من النير الأجنبي ، وتحرير الأمة من أغلال النظام القديم .

في هذا الأفق الفياض بالمثل القومية والأماني التحريرية ، نشأ الفتى كارل لودفيج ساند ؛ وكان مولده في سنة ١٧٩٥ في فونزيدل على مقربة من فيار ، مفرجيته شاعر ألمانيا الأكبر يومئذ ، وكان أبوه قاضياً بروسيا ، وأمه سيدة نبيلة الخلال ، ربته على مبادئ الفضيلة والتقشف والزهد . وكان كارل أصغر إخوته الخمسة ، وكان عليلا في صباه ، يغلب عليه الضعف والكآبة ؛ ولهذا بدأ دراسته متأخراً ؛ وتلقى دراسته الثانوية في مدرسة هوف . وكان خلال حداثته ، كباقي الفتية الألمان يغشى اجتماعات الطلاب ، ويخوض معهم أحاديث الوطنية الملتهبة ؛ ويروى عن حداثته قصة تدل على اتجاهه المستقبل . وذلك أنه حينما مر نابليون ببلدة هوف في سنة ١٨٠٩ ، غادر كارل مدرسته لجأة إلى منزله ؛ ولما سئل عن السبب أجاب والديه ، أنه لم يستطع أن يبقى في مكان يوجد به نابليون دون أن يحاول قتله ، وهو يشعر أنه ما زال أضعف من أن يقدم على مثل هذه المحاولة .

وكان الطالب كارل لودفيج ساند رضي الخلق عذب الخلال ، محبوباً من أساتذته وإخوانه . وكان يمتاز بالشجاعة والإقدام ؛ وكانت أبرز صفاته الوطنية الملتهبة التي ملكت عليه كل مشاعره ؛ ومما كتب لأمه معلقاً على حوادث سنة ١٨١٣ ، التي كانت مقدمة لانهيار سلطان نابليون في ألمانيا : « لا أستطيع أن أعبر لك عما أشعر به من السكينة والسعادة منذ بدأت أعتقد أن تحرير الوطن قد أضحى على وشك التحقيق ، ذلك الوطن الذي أعتقد أنه سيغدو بحول الله حراً قوياً ، والذي أحتمل في سبيله كل ألم ، بل أجود في سبيله بحياتي » .

وقد حققت موقعة ليبزج في سنة ١٨١٤ ، أمل ساند وأمل الشبيبة الألمانية . فهزم نابليون واستردت ألمانيا حريتها ومكانتها ؛ وكان لجماعات الشبيبة الوطنية التي أشرنا إليها أكبر فضل في الوصول إلى هذه النتيجة ، وكان ساند ما زال من أعضائها العاملين المتحمسين . وكان قد التحق يومئذ بجامعة تبنجن ليدرس العلوم الدينية ليغدو قساً ، وهي المهنة التي تاقت إليها نفسه ، ودفعته إليها أمه التقية الورعة .

بيد أنه لم تمض بضعة أشهر حتى كان نابليون قد فر من منفاه في جزيرة إلبا ، وزحف على باريس ، واسترد عرشه ، وأخذ يتأهب للصراع من جديد . وعادت ألمانيا تتأهب مرة أخرى لمقاومة الفاتح المتحدي . وهرع الشباب الألماني إلى الصفوف ، وتطوع كارل مع أخيه فرتز في فرقة مانهايم ، وكتب إلى والديه بهذه المناسبة يقول : « سوف نلتقي إذا انتصرنا . أما إذا هزمنا — وحاشا لله أن نهزم — فإن أعز أمنية لي أن تغادروا هذا الوطن الذي يصفده الاستبداد إلى وطن آخر يكون حراً » . وقاتل ساند في موقعة واترلو ، ودخل باريس مع الجيوش الظافرة في شهر يوليه سنة ١٨١٥ ؛ ثم عاد إلى ألمانيا مع أخيه في شهر ديسمبر ، وقضى أعياد الميلاد مع أسرته ؛ ثم غادرها إلى ارلانجن ، ليتم دراسته .

ومن ذلك التاريخ يدون لنا ساند وقائع حياته وخلجات نفسه في مذكرات خاصة ، وفي هذه المذكرات يكشف لنا عن تطوراته النفسية ؛ وفي هذا الوقت بالذات بدأ يقرأ كتب جيته ، وفي مقدمتها فاوست التي تركت في نفسه أعمق أثر ؛ وكان أحب الكتاب إليه لسنج وشلر وهردر أقطاب الأدب والشعر في هذا العصر ، وكانت تنتابه في ذلك الحين فترات حزن وكآبة كان يقطعها أحياناً بوعظ إخوانه الطلاب وحثهم على الفضيلة ؛ وكانت هذه الفترات المظلمة تتطور لديه أحياناً إلى رغبات غامضة في الانتحار والموت ؛ وهو يشير في مذكراته إلى هذه اللحظات ويسميها « مرض عالم الروح » .

وقضى ساند عام ١٨١٦ ، وهذه النوبات النفسية المظلمة تزيد لديه وتتفاقم ؛ وهو يكتب في مذكراته في أول يناير سنة ١٨١٧ داعياً ربه أن يبقى عليه شجاعته لامتحان نفسه ، وأن يقويه على ضبط شهوات الحس ، وضلال العقل ، وأن يهبه ضميراً نقياً تقياً مخلصاً لله وللعود إليه .

وكانت الجمعيات الوطنية الألمانية ، التي لعبت أكبر دور في الحركة التحريرية تضم يومئذ بعض الشباب ولا سيما طلاب الجامعات ؛ وكان الأمراء الألمان أثناء معركة التحرير يشجعونها ويغضون الطرف عن نشاطها وحركاتها ، إذ كانت يومئذ عضدهم ضد الفاتح الأجنبي ؛ فلما تحققت الأماني الوطنية ، وحطم النير الأجنبي ، أخذ الأمراء الألمان يوجسون شراً من قيام هذه الجمعيات ونشاطها ، خصوصاً لما بدا من تحولها يومئذ إلى العمل ضد الحكومات الألمانية القائمة ، ومطالبتها بالإصلاحات الدستورية وحقوق الإنسان ، وكانت الحكومات تخشى أن تتعرض لهذه الجمعيات بصورة ظاهرة ، إذ كان معظم أعضائها من طلاب الجامعات ، فكانت تقنع بالعمل على إذكاء الخلاف فيما بينها ، وكان ساند ، كمعظم زملائه ينتمي إلى إحدى هذه الجمعيات الوطنية السياسية وهي جمعية الفتية « Burs chenschaft » وتوجه نشاطها مع زميل له يدعى دتمار ؛ وكانت هذه العصبة تجتمع فوق تل في ظاهر ارلانجن ، وتضع القرارات والخطط ؛ فحدث ذات مساء أن غرق دتمار في النهر ، فكان لموته أسوأ الأثر في جماعة الفتية ، إذ كان من أنشط وأذكى زعمائها ، وحزن ساند لفقد صديقه الحميم أيما حزن ، وكتب إلى أهله يصف الحادث وصفاً يشف عن عميق جزعه وتأثره .

ورحل ساند إلى يينا عقب الإجازة الصيفية ليتم دراسته فيها ، وفي أوائل سنة ١٨١٧ ، أخذ ضغط الحكومة يشتد على الجمعيات الوطنية وفي مقدمتها جماعة الفتية « البورشن » ؛ وظهرت يومئذ رسالة تحمل عليها بشدة وتعدد أضرارها ومثالبها ؛ فكان لظهورها أسوأ وقع في يينا وفي سائر أنحاء ألمانيا ؛ وقيل إن الذي أعد هذه الرسالة هو الكاتب المسرحي الأشهر أوجست كوتسبوى ، وإن كانت قد صدرت بتوقيع آخر . وكان كوتسبوى من أعظم كتاب القصة والمسرح في أواخر القرن الثامن عشر — عصر جيته وشلر — ؛ وكان مولده في مدينة ڤيمار التي كانت يومئذ مركز الحركة الأدبية في أواسط ألمانيا ، وكانت مستقر جيته شاعر ألمانيا الأكبر ؛ وكان قد خاض حياة متنوعة مضطربة ، فاشتغل بالمحاماة في البداية ، ثم ذهب إلى روسيا حيث عين بوساطة الكونت جيرتز سفير روسيا سكرتيراً لحاكم بطرسبرج ، وتدرج بعدئذ في سلك الوظائف القضائية في روسيا حتى عين رئيساً لمحكمة ريڤال وتزوج هنالك ابنة قائد روسي . وظهر عندئذ بإنتاجه الأدبي الممتاز فأخرج عدة قصص كبيرة ، واشتهر بالأخص بقطعه المسرحية وفي مقدمتها « أدلهايد فون ڤولفنجن » و « البغض والندم » و « الهنود في انجلترا » وغيرها . ولما توفيت زوجته الأولى اعتزل منصبه ، وعاش حيناً في ألمانيا وفي باريس . ثم استقر في ضيعته في ريڤال . وأخرج عندئذ مجموعة كبيرة من المقالات والقصص عنوانها « أصغر أولاد هواي » ، وتلاها عدد كبير من المسرحيات ترجم إلى معظم اللغات . ومنها عدة يشهر فيها بنابوليون . ثم عين أخيراً مستشاراً للدولة بوزارة الخارجية الروسية ، وأرسل في سنة ١٨١٦ إلى ألمانيا ليقوم بمهمة التجسس لحساب الحكومة القيصرية بمرتب ضخم ، فنزل في ڤيمار ، وكان قد أقام بها من قبل غير مرة ، وترك فيها أثراً سيئاً ، إذ نشبت بينه وبين جيته خصومة أدبية حمل فيها على المدرسة الرومانطيقية حملات شديدة . وبدأ مهمته الريبة بأن نشر صحيفة أسبوعية أخذ يحمل فيها على جمعيات الشباب وعلى الحركة التحريرية بأسلوب عنيف لاذع ، فامتعض الرأي العام لحملاته ولا سيما الطلاب . واضطر أن يغادر ڤيمار ليعيش في مانهايم بعيداً عن أعراض المهانة والسخط .

(البحث بقية) محمد عبد الله عنان

من يوميات كاتب

اللغة العامية في الحوار القصصي

الأستاذ إدوار مقسى

أعترف أني ما من مرة شرعت في كتابة قصة أو صورة أدبية تحتم وجود حوار بين أشخاصها إلا وقعت في حيرة كبيرة : أأجرى هذا الحوار باللغة الفصحى كما يقرها مجمعنا اللغوي الموقر وكما دأب أغلب القاصين عندنا على الكتابة بها في هذا المجال ، أم أجريه باللغة العامية التي يتكلم بها الناس عادة ويتفاهمون ؟ ! حوار بين رجل وامرأة في الطريق أو في البيت ، حوار بين صبيين ، حوار بين سيد وخادم ، حوار بين متحضر وفلاح ، حوار بين عالم جليل وطباخ ، حوار بين حشاشين ، حوار بين متهم ومأمور قسم . . . بل حوار بين لغوي ولغوي آخر أو بين أديب وأديب أو بين أديب وشخص آخر لا يمت إلى الأدب بأية صلة ... ألا بد أن تجرى هذه المحاورات ، في القصص التي تحتويها ، باللغة العربية الفصحى ؟ ! إني لأعجب ! ويجعلني هذا العجب أتساءل في الدور الذي « يجب » أن تلعبه اللغة الفصحى في حياتنا الأدبية فلا تتعداه .

أنا أفهم أن يكتب كتاب أدبي يقصد به البحث الأدبي أو التحقيق الأدبي باللغة العربية الفصحى ، فهذا مجالها ، وأفهم أن يكتب كتاب علمي يقصد به البحث العلمي أو التحقيق العلمي باللغة العربية الفصحى ، فهذا مجالها أيضاً ، وهكذا في كتب التاريخ والفلسفة والفنون وما إليها ؛ ولكني لا أفهم مطلقاً أن تكتب قصة ، طويلة كانت أو قصيرة ، فيدور فيها حوار بين أب وابن مثلا في بيئة مصرية خالصة باللغة العربية الفصحى كما يقرها مجمعنا اللغوي الموقر وكما دأب أغلب القاصين عندنا على الكتابة بها في هذا المجال .

ولأمض في التساؤل فأقول : ماذا تعني القصة وما المراد منها ؟ القصة عندي هي تصوير مجتمع ما ، أو فرد أو أفراد ما ، في مكان ما ، في زمن من الأزمنة تحت ظرف من الظروف ؛ هذا تعريف أرجو أن يكون كاملا شاملا ، وهو على ما هو عليه واضح لا يحتاج إلى شرح . القصة هي « صورة » ... تصور ماذا ؟ تصور مجتمع ما ، أو فرد أو أفراد ما . . . أين ؟ في مكان ما ... ومتى ؟ في زمن من الأزمنة ... تحت ظرف من الظروف ، فماذا نجد إذا حاولنا تطبيق هذا التعريف على قصصنا اليوم ؟ لن نجد أركان هذا التعريف كاملة ، وقد أهمل واحد منها أرى أن له أهمية كبرى في الآداب العالمية كلها ، ألا وهو اللغة العامية في الحوار القصصي .

إذا طالعت قصص وروايات تشارلز ديكنز مثلاً لقرأت نفس اللهجة واللغة العامية الدارجة التي كان يتحدث بها أشخاص هذه القصص كما نطقوها ، كما خرجت من أفواههم في الحقيقة ، لا كما كان يمكن لديكنز نفسه أن يستنطقهم إياها بلغة صحيحة فصحى . عند ديكنز ، وعند أمثاله من القصصيين نجد أركان هذا التعريف الذي أوردته منذ حين كاملة ؛ فالقصة تصور مجتمعاً وأفراداً ، مجتمع وأفراد « يتكلمون » بلغة معينة في مكان معين وزمن معين . . . تحت ظرف من الظروف .

أمامي خمس من أقاصيصنا وقصصنا ورواياتنا المصرية ، لم أخترها اختياراً ولكني انتزعتها من رف كتبي بالمصادفة بقصد البحث الخفيف والمقارنة . سأقلب في صفحاتها وسأنقل هنا بعض مقتطفات منها كما تأتي بالمصادفة أيضاً .

١ — من أقصوصة : فتاة القطار . محمود تيمور . مجلة الهلال ، عدد فبراير ١٩٥١ :

بين غلام المراسلة ووكيل البريد :

— ألم تسمع بالخبر يا أفندي ؟

— أي خبر يا ولد ؟

— نقل حضرة الناظر .

— نقل حضرة الناظر ؟ كيف ؟ ... من أين علمت الخبر ؟

— من المحطة .

ثم : بين وكيل البريد وناظر المحطة :

— أي خبر هذا الذي سمعته ؟

— هذا ما كان .. تلقيت أمراً بنقل عاجل .. سأرحل في الغداة .

٢ — من أقصوصة : الباب الذهبي . إبراهيم المصري ،

فى كتابه نفوس عارية :

بين موظف وزوجته :

— أليس هذا حقها ؟

— ألا لم أقل إنى ما آكل حقها .

— إذاً كان يجب أن تمضى .

— كنت أريد أن أربيها .

— وماذا فعلت ؟ هل سرقت ؟ هل طلبت أكثر من حقها ؟ لقد اتفقنا أمامى على أجرة الفساتين ، ولقد أعطيتك المبلغ ، ولعلك تذكرين ، فأين ذهب ؟

٣ — من قصة : من النافذة . إبراهيم عبد القادر المازنى . مجموعة اقرأ :

بين صبى حلاق وعاملة فى مصنع :

— أين كنت ؟

— يا له من سؤال ! وأين أكون إلا حيث تعلم ؟! وأين كنت أنت ؟ ولماذا تركت الدكان ؟ وما هذا العرق المتصبب ؟!

٤ — من رواية : دعاء الكروان . طه حسين :

بين فتاتين فلاحتين من الأقاليم :

— ماذا فعلت إذاً ؟ وما هــذا الشر الذى دفعت إليه ؟ وما هذا اليأس الذى تغرقين فيه ؟ وما هــذا الهم الثقيل الذى صب علينا صباً ولم نكن ننتظره ولم نتوقع له مقدماً .

— لست أدرى أأحدثك بذلك أم أكتمك إياه ! إنى لأعتدى على سنك إن تحدثت إليك ، وإنى لأعرضك لمثل ما أنا فيه إذا كتمتك الحديث .

٥ — وأخيراً ، من رواية : الرباط المقدس . توفيق الحكيم :

بين كاتب مفكر وامرأة عابثة :

— هناك أمر يحسن أن أنبهك إليه .

— ما هو ؟

— سوف يدعوك بالضرورة زوجى إلى زيارتنا ... حيث يقدمك إلىّ ، فحذار أن يبدو عليك ...

— أيتها السيدة ! لن أسمح لهذا العبث أن يمتد إلى أبعد من هــذا . إنك من غير شك تعبثين وتلعبين ، وأنا الذى أحسنت الظن بتصرفك ...

— ما الذى حدث منى ؟ ما الذى أغضبك ؟

— عجباً ! ألا تعرفين ماذا أغضبنى ؟

— أتتهمنى بالعبث واللعب ؟

— وماذا أمنى طلبك إلىّ أن أمثل دوراً روائياً يوم يقدمنى إليك زوجك ؟ أتظنين أن رجلاً جاداً مثلى خليق أن يعمل ذلك ؟

هذه خمس مقتطفات قصيرة نقلت الاثنتين الأوليين منها من أقصوصتين والثالثة من قصة والاثنتين الأخيرتين من روايتين . ولأمدّ من عمرى خمسين سنة أخرى ، أى لأسبق الزمن بنصف قرن ولأتوجه إلى دار الكتب ، ولعلها أن تكون عندئذ قد نقلت إلى مكان قريب بوسط البلد وفى مبنى آخر أكثر لياقة وفخامة واتساعاً مما هى عليه الآن ، ولأستعر كتاباً لتوفيق الحكيم وليكن « الرباط المقدس » مثلا ، ولأقرأ هذا الأثر القديم الباقى . ماذا سأجد ؟ سأجد الكاتب المفكر ، بطل الرواية ، يتكلم العربية الفصحى — وله العذر — ولكنه يتكلمها مع من ... مع امرأة متزوجة لعوب . عندئذ سأتساءل : أكان الناس يتكلمون هكذا فى سنة ١٩٥٠ أو ما حولها : الأديب والمرأة اللعوب وزوجها والبكباشى والخادم وغيرهم وغيرهم ، بلغة عربية فصحى ؟ عجب ! عندئذ سأقول : ربما وجدت بغيتى عند طه حسين . هات كتابه « دعاء الكروان » ! وعندئذ سأرتد فى دهش . هذا أعجب ! فيلوح لى أن كل سكان مصر من بنين وبنات وشباب وشيوخ من مختلف الطبقات ومتباين المهن كانوا يتلقون علومهم على ما أرى فى القسم العربى بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ! أترى إلى هاتين الفلاحتين من الأقاليم تتحدثان فى لغة عربية فصحى مغالية فى الفصاحة ! وسأعرج على رواية من رواياته الأخرى : « شجرة البؤس » لأرى أنى ما زلت فى موقفى حائراً . فسأجده يصور طبقة متوسطة من الناس بالقاهرة قبل قرن من الزمان يدور الحديث أو الحوار بين شخصياتها بنفس اللغة العربية الفصحى التى قرأتها فى الرواية السابقة ... عندئذ سأعود ولم أعرف كيف كانوا يتكلمون حقيقة أبطال هذه الروايات فى الواقع فى منتصف القرن العشرين أو منتهاه مثلا .

إنى لأتساءل : ماذا لو أن المازنى أجرى الحوار الذى نقلته إلى هذه الصفحات . باللغة العامية الدارجة كما حدث فعلا أو كما كان يمكن أن يحدث فعلا بين صبى الحلاق والعاملة فى المصنع ، فيكون كالآتى :

— كنتى فين ؟

— أما سؤال ! وحكون فين إلا فى المحل اللى أنت

عارفها (أو : ف الـكان اللى انت عارفه) ؟ ! وأنت كنت فين ؟! وليه سبت الدكان وإيه العرق ده كله اللى نازل منك !

أتسم أنى كفارى ، أحب هـذه اللغة العامية الدارجة التى تدور هكذا بين هذين الشخصين دون كلفة ، ولا « تقعر » والتى أقرأها فأحس بأنى أقرأ عن أناس حقيقيين عاشوا حقيقة أو كان يمكن أن يعيشوا حقيقة فى زماننا وفى مكاننا .

وماذا لو أن إبراهيم المصرى أجرى الحـديث القصير الذى نقله إلى هذه الصفحات . . . باللغة العامية الدارجة كما حدث فعلا أو كما كان يمكن أن يحـدث فعلا بين زوج وزوجته ، فيكون كالآتى :

— هو ده مش حقها !

— أنا ما ألقش أنى حكله عليها .

— معنى كده أنك كان لازم تدفعى .

— كنت عاوزه أربيها .

— وإيه اللى عملته ؟ هل سرقت ؟ هل طلبت أكتر من حسابها ؟ إنتو إتفقتو أداى على أجرة الفستانين ، وأنا أديتك المبلغ ، ولعلك فاكره ، فراح فين ؟

أتسم المرة الثانية أنى كفارى ، أحب هـذا الحوار البسيط « المصرى » الذى يجرى بين زوج وزوجته دون أن يتكلف عند « هنا ، وماذا ، واتفقنا . . . » هـذا الحوار الذى أقرأه فأقول إن هذين الزوجين موجودان فعلا ويعيشان حقاً بين ظهرانينا .

وماذا لو أن محمود تيمور أجرى الحوار القصير الذى نقله إلى هذه الصفحات باللغة العامية الدارجة كما حدث فعلا أو كما كان يمكن أن يحـدث فعلا بين غلام المراسلة ووكيل البريد وبين الأخير وناظر المحطة ، فيكون كالآتى :

— مادرتش يا أفندى ؟

— إيه يا ولد (أو : واد ، أو : وله) ؟

— حضرة الناظر اتنقل .

— حضرة الناظر اتنقل ؟ إزاى ؟ . . . منين عرفت (أو : مين اللى آل لك) ؟

— م المحطة . .

ثم :

— خير إيه ده اللى سمعته ؟

— أهو ده اللى حصل . . إتلقيت أمر بنقل عاجل (ولنترك كلمة « نقل عاجل » كما هما دون أن تمسهما أى مس لأنهما أصبحتا « كليشيه » انطبع على ألسنة موظفى الحكومة واندمج دون أن يدروا فى لغتهم العامية الدارجة) مسافر بكره .

وأتسم أيضاً هنا أنه لا أحب عندى كفارى ، من هذا الحوار الساذج الطبيعى الذى يجرى بين غلام المراسلة ووكيل البريد وبين الأخير وناظر المحطة دون أن يتعثر ، أى الحوار عند « لم ، تقيل ، كيف ، من أين ، هذا الذى ، سارحل فى الغداة . . » هذا الحوار الذى أقرأه فأقول إن هؤلاء الأشخاص موجودون فعلا ويعيشون حقا بين ظهرانينا .

ولنحاول نفس المحاولات فى حوار طه حسين وحوار توفيق الحكيم على التوالى :

— يعنى إيه اللى عملتيه ؟ وإيه الشر ده اللى وقعتى فيه ، وإيه اليأس ده اللى انت غرقانة فيه ؟ وإيه الهم التقيل ده اللى نزل علينا ومكناش مستنيينه ومكناش متوأعيله ؟

— مش عارفة أقول لك عنه والا أخبيه عليك ! فأنا أعتدى على سنك لو قلت لك ، وأنا أعرّضك للى أنا فيه إذا خبيت عليك . (كل هذا فى لغة عامية تظهر فيها لهجة الإقليم الذى عاشت فيه الفتاتان والطبع بها لساناهما .

ثم :

— فيه حاجه يبأى أحسن إذا نبهتك لها .

— إيه هى ؟

— بالضرورة حيدعوك زوجى (أو : جوزى ، إذا أردت الدقة) لزيارتنا . . . وطبعاً حيتأدمك لى ، فأوعى يبان عليك حاجة . . .

— أيتها السيدة (كما هما ، أولاً لأن قائلهما كاتب مفكر ، ثانياً لأنى لم أجد مايقابلهما بالعامية) أنامش حسمح العبث ده أنه يتعد لأبعد من كده . أنت من غير شك بتعبق ونفسى ، وأنا اللى كنت أحسن الظن بتصرفك . . .

— إيه اللى حصل منى ؟ إيه اللى غضبك ؟

— عجبة ! يعنى مش عارفة إيه اللى غضبنى ؟

— بتتهمنى بالعبث واللعب ؟

— وإيه معنى طلبك أن أمثل دور روائى يوم متيأدمنى جوزك ؟ هل تظنى أن راجل جد زيّى ممكن يعمل كده ؟

* * *

تعجبنى هذه المحاورات العامية الدارجة لأنى أرى فيها الناس حقيقة وأتصورهم على هداها . أعتقد أن لغة التحدث

ولهجته في الحوار الفصيح تساعدنا على فهمه أكثر مما يساعدنا وصفه بقلم القاص نفسه .

هذه مشادة وقعت بين بائعي جرائد في الطريق العام وتدخل فيها عسكري المرور ليفرق بينهما :

— إيه الحكاية انتو لتنين ؟

— الواد ده شتمني مرتين من غير سبب .

— آل لك إيه ؟

— يابن الكلب .

— طب معلش ، وكل واحد يروح لحاله والسامح كريم !

عندي أن السؤال « إيه الحكاية انتو لتنين ؟ » به معنى يحكي الإحساس » على حقيقته أكثر مما يحكي الإحساس بمعنى السؤال « ماذا هناك من الأمر يا أنتما ؟ » كما يمكن أن يقول طه حسين ، أو « ماذا حدث بينكما ؟ » كما يمكن أن يقول محمود تيمور وإبراهيم المصري والمازني وتوفيق الحكيم . « إيه الحكاية إنتو لتنين ؟ » سؤال بسيط لا تعقيد فيه ولا التواء ، لأنه خرج على لسان شخص غير مثقف لم يسمع باسم سيبويه ، ولم يقرأ الجاحظ ، لأنه يعيش في بيئة متواضعة جداً ، ولا يقرأ غير جريدة شعبية جداً وقد لا يقرأها ! ولكنه يمضي وقت فراغه في لعب الطاولة في « قهوة السعادة » أو « يكركر » في الشيشة مع زملائه بائعي الجرائد . كيف أتوقع خروج « ماذا هناك من الأمر يا أنتما » أو « ماذا حدث بينكما ؟ » من بين شفتي رجل عادي كعسكري المرور مثلاً ، وكيف أتوقع خروج « شتمني هذا الصبي مرتين ، دون سبب » على لسان صبي لم تجنه أخبار المجمع اللغوي ولم يقرأ أشعاره ولم يسمع بمختار الصحاح ولا بالمصباح المنير . وماذا كنت أظن ؟! أكنت أظن أن يسأل عسكري المرور « ماذا قال ؟ » ثم كيف بالله سأضع ، أو يضع المؤلف ، عبارة « معلش ، وكل واحد يروح لحاله ، والسامح كريم » في لغة عربية فصحى على شرط أن يحافظوا على معناها وحلواها ! إني أحاول . لن أحاول وضع هذه الجملة في عربية فصحى ، لأني لن أصل إلى ما أريد من معناها .

ولكن لا يجب هنا أن أنسى أن لبعض هؤلاء الكتاب الذين ذكرت إنتاجاً أدبياً رائعاً رغماً دارت محاوراته باللغة العامية الدارجة ، ويكفي أن أذكر تمثيلية توفيق الحكيم « رصاصة في القلب » .

ونحن القاصين ، الحديثين منا والقدماء ، حائرون : فنحن نكتب الحوار بالعامية حيناً وبالفصحى حيناً آخر ، وقد يختلط علينا الأمر في إنتاج واحد من إنتاجنا فنمزج العامية بالفصحى ، والنتيجة : أقصوصة أو قصة أو رواية لا تمثل أشخاصها ولا تصورهم تمام التمثيل والتصوير ، لأنهم لم يعبروا عن أنفسهم ولا عن أفكارهم ولا عن حياتهم بلغتهم الطبيعية ، أي بلغة الناس في الواقع .

لماذا نخاف كتابة الحوار في قصصنا المصرية باللغة العامية إذا كانت هذه اللغة العامية أصدق في التعبير وأدعى إلى الفهم والتصور بطريقها من اللغة الفصحى ! أكان تشارلز ديكنز يصل إلى ما وصل إليه من البراعة في التصوير ودقة الأداء ، لو أنه أنطق شخصياته — التي كان ينتقيها في الأغلب والأعم من الطبقة الدنيا والوسطى — لغة إنجليزية فصحى ؟ أعتقد أن نجاح القصة ، إلى جانب توقفه على الموضوع وطريقة العرض ، يرجع إلى اللغة التي تصاغ بها والحوار الذي يدور فيها ! فإذا كان الحوار مخلصاً أي مطابقاً تمام المطابقة ما كان يمكن أن يدور فعلاً بين متحاورين عاديين ، أي إذا تحدث الفلاح في القصة بلغة الأرياف كما هي بدون تزويق حضري ، والمدني بلغة المدينة كما هي بدون تزويق لغوي ، والصعيدي بلغة أهل الصعيد كما هي بدون تصحيح ... لكان إنتاجنا الأدبي أقرب إلى الكمال منه الآن .

يجب أن ننظر إلى القصة من جميع نواحيها وننقدها على هدى التعريف الذي ذكرت من قبل . فلكل مجتمع لغة ، ولكل فرد لغة ، ولكل مكان لغة ولكل زمان لغة أيضاً ... هذا فضلاً عن اللهجات . ولكنا للأسف حتى الآن لم نهتم بتفاوت الطبقات بين الناس ، كما لم نهتم بالمكان ولا بالزمان ، فننطق شخصياتنا كلها دون استثناء لغة واحدة لا تتغير . فيتكلم الجاهل ويتكلم القروي ويتكلم الصعيدي ، ويتكلم الخادم ويتكلم البغي ويتكلم ماسح الأحذية .

إن اللغة العامية كفيلة أن تضفي على أشخاص القصة المتحدثين بها طابعاً قد يظل عالقاً بذهن القارئ سنين طويلة . إني إذ أكتب هذه الكلمات أتذكر « العوالم » لتوفيق الحكيم كما لو كنت قرأتها منذ ساعة فقط ، وإن كنت قرأتها آخر مرة منذ سنين ، وأتذكر أشخاصها واضحة الخطوط : « الأسطى حميدة العلاوية » و « لابس البدلة » و « الحاج محمد » مثلاً . ترى لو أن حوار هذا العرض كتب باللغة العربية الفصحى أكان يعلق بذهني على هذا النحو ؟ أغلب الظن أن لا .

إدوار منصى

صناعة الشـــــعر

[أنا لا أكره من أنازل ، ولا أحب من أدرس]
(بيلى)

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

تعلو أصوات الكتاب والنقاد فى تأييد نظرائهم حتى ليحسب القارئ من هول ما يراه أن كل باب فى الشعر والأدب محل للشك وموضع للريبة . وتعلو أصواتهم مرة أخرى لتقرير الحقائق المتصلة بمذاهبهم وتزكية أنصارهم إلى حد أن أقوالهم تبدو فى أعين القارئ ثابتة ، وأن كلامهم يغدو جديراً بالإيمان العميق . ويظل الحال بهذه الصورة دون أن تستفيد الآداب شيئاً يستحق الذكر طالما ظلا كلام هؤلاء وفهم هؤلاء من التأييد المطلق ومن الأساس النظرى وطالما كانت موجات الرأى منساقة من الهمسات الحائرة واللفتات العابرة . وأود أن يرتد الكاتب أو القارئ إلى نفسه قليلاً ليتبين حقائق الأشياء ، وليناقش نفسه قبل أن يقدم على مناقشة سواه ؛ وأجمل شىء بالنسبة إلى مشايعى الآراء النقدية المختلفة هو أن يعتادوا الشك فيما يقولون ولو بلغ بهم الإيمان أقصاه . أجمل شىء فى المسائل التى تتطلب غيرة وتعصباً هو أن يسائل المرء نفسه من حين إلى حين عن مدى صحة الحقائق التى صار يطمئن إليها ويعوّل عليها ... وذلك لكى يلائم تطور العقل والروح فى غير تصلب ولكى يجارى تكوينه الزمنى فى غير عناد .

قد قلت فى مقال « بودلير وفن الشعر » الذى نشرته بالرسالة (فى ديسمبر سنة ١٩٤٩) إن الأساس الوضعى الذى يرتكن إليه النقد الأدبى عند كتاب الغرب يقوم على أمرين : نظرية فى الجمال ونظرية فى الخيال ؛ وحاولت فى شتى المناسبات أن أخرج بفكرة واضحة عن الأعمال النقدية عندنا لألتمس من ورائها أساساً نظرياً يتشكل به بناؤها وتتم به أركانها ، فلم أتمكن من ذلك وكنت أرتد عن ذلك ردا عنيفاً فى كل مرة ؛ وتعجبت من ذلك خاصة وأنى لم أقرأ لناقد غربى كلاماً متصلاً بالشعر والأدب والفن إلا وجدته فى جملة هذا شبيهاً بالبناء الذى يضيف حجراً جديداً إلى بنائه .

وهناك مشكلة من المشاكل التى تعرض لكل ناقد والتى يصعب على ناقد أن يشتغل بهذه الصناعة دون أن يتعرض لها . مشكلة شغلت العقول والأذهان واستولت على الأرواح والمدارك زمناً ليس بالقصير .. مشكلة تجددت فى كل عصر وناقشها المفكرون من كل جيل وتحدث عنها الأدباء إبان كل حضارة .. هل هذا الشعر .. هل هذا الفن الجميل الذى يتغنى به الشعراء — قدماء ومحدثين — ناشئ عن صناعة أم نابع من طبيعة ؟ هل هذا العمل الأدبى الذى يتغنى به الشاعر على أغصان الحياة تم فطرى يخرج فى غير تكلف أو احتفال أم أنه لحن مصنوع يصدر عن رغبة واهتمام وإرادة ؟

وقد يبدو لأول وهلة أن الكلام فى هذا الموضوع غير مجد وأن طرقه لا يعود بفائدة ؛ ولكنى أصبحت أحس خطورة هذا الموضوع منذ زمن بعيد وأعنى أن أجد مناسبة لتناوله حتى أدفع شراً مستطيراً يوشك أن يودى بالأدب . ذلك أن بعض النقاد قد اتخذ من كلتى الصناعة والطبيعة أساساً لتقسيم الصور الأدبية . وأنه لم يكتف بذلك وآثر أن يجعل الصناعة دالة على الانحطاط وقلة الشأن وأن يجعل كلمة الطبيعة قرينة للازدهار والقوة . وأخذ يجر مقاييسه ذلك على عصور الأدب العربى قديمها وحديثها حتى جعل عاليها سافلها ، وحتى أتى على عناصر الجمال برمتها زاعماً أنها تبعث على الضحك ! كذلك نلاحظ أنه قد وقر فى أذهان الكثيرين — حتى الشعراء أنفسهم — أن محاولة الإقدام على إنشاء عمل فنى وصياغته وتجويده وإتقانه لا تليق بمقامه وأنه لا بد مفطور على إبراز هذا العمل فى هدوء وبدون تكلف وفى غير اجتهاد !

من الجائز ولاشك أن يصدر الشعر أو النثر عن صاحبه صدوراً تلقائياً وأن يخرج الأديب عمله دفاعا وأن يرتجله

لرجالاً .. وقد شاهدت بنفسي أعمالا شعرية غريبة يقوم بها شعراء العرب في بادية سيناء ، وحضرت مساجلاتهم التي تدل على مقدرة غريبة في باطن الشاعر ليظهر عمله بالبداهة وفي غير استعداد ، ورأيت أشياء من هذا القبيل تكفي لإقناع أشد المنكرين بوجود ملكة عجيبة في باطن الشاعر تجعله يأتي بالكلام الموزون في غير مناسبة وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح . فالشاعر يتمتع بمقدرة فائقة من هذا القبيل ولديه من المران ما يكفي لأن ينظم لك أبياتاً عشرين وأربعين دون تلجلج أو تلعثم ودون تحضير أو إعداد . ولكنني مع هذا كله أومن في قرارة نفسي بأن الشعر وليد صناعة فنية وأن العمل الأدبي لا بد وأن يخضع لعمليات شعورية ولعمليات عقلية ولعمليات أدائية حتى يستحق أن يطلق عليه اسم العمل الفني ؟ بل أستطيع أن أذهب إلى عكس ما يقوله الناس من أن العمل الأدبي الممتاز يأتي عن طبيعة . فأصرح بأن أي نوع من أنواع الفن والأدب لا يوصف بالامتياز إلا عند ما يخضع لصناعة فنية معينة وتجرى عليه قواعد الصياغة .

وبذلك أتخذ من التكلف والعمق دليلا على الامتياز والجودة وأعدهما مبرراً كافياً لرفع وتفضيل عمل أدبي على سواه .

أما ما يقال من أن أدباً ما هو من نتاج العقل وأن لوناً آخر هو من نتاج الشعور فليس له أي سند من فكر أو واقع ؛ لأن الأديب ينتج عمله بغير أن تكون لملكة في ذهنه غلبة على سواها ، وإذا أخرج فناً فإنما يخرجه بكيانه كله .. بعقله وروحه ووجدانه ، بشعوره ، وفكره وعاطفته ، بلحمه ودمه وعظامه . فالعمل الأدبي النابغ ، إنما هو مزيج من عاطفة وعقل وخليط من شعور وفكر ، وهو بعد هذا كله — أو قبل هذا كله — تركيب ماثل من عظام وروح .

ولهذا يصعب القول — ولعله مستحيل — بأن الذوق شيء والفهم شيء آخر .. فهما في الحقيقة عملية واحدة ، بحيث يمكن أن أتذوق قصيدة بالعقل وأن أفهم قصيدة بشعوري . وخذ لذلك مثلاً .. من ذا يمكنه أن يقيم تفرقة ظاهرة بين العقل والشعور أو بين الذوق والفهم عندما يقرأ شاعراً مثل شكسبير أو ابن الرومي ، وعندما يتطلع في تمثيلية من تمثيليات جان أنوي أو برنارد شو .. هنالك في قمم الآداب الرفيعة يستحيل على الإنسان أن يجد نفسه منقسماً بين نوازع ودوافع شتى ، وإنما يعتمد على ملكة واحدة من ملكاته البشرية لتقدير الأعمال الفنية ومعرفة قيمتها الصحيحة .

والشيء الذي أقطع به هو أن تقديري لعمل أدبي لا يبدأ في الهبوط إلا عند ما أجد نفسي مضطراً إلى الاستغناء عن قوة من قواي الروحية وملكة من ملكات ذاتي أثناء تمعني فيه وقراءتي له .

وتستطيع أن تأخذ لنفسك مثلاً من أشعار الشعراء لترى مصداق هذه التجربة الفنية . فشتان بين أبيات تستثير فيك معاني الطرب وتلهب فيك وقدة الشعور وتؤلب عليك دواعي الفكر ، وأبيات لا تعدو أن تحرك شجناً أو تهيج عاطفة . خذ مثلاً أبيات بشار المشهورة في ربابة جاريته :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

ثم تمعن بعد ذلك في أبياته التي يقول فيها :

وعيش أحب من متعة قبل رقدة
تكاد لها نفس الشفيق تزول
وإني لآتي الأمر أعرف غبه
مراراً ، وحلمي في الرجال أصيل
ولما رأيت الدار وحشاً بها المها
رود ، وخيطان النعام تجول
ذكرت بهـا عيشاً وقلت لصاحبي
كأن لم يكن ما كان ، حين يزول
بدا لي أن الدهر يقدح في الصفا
وأني بناق ، حين شبت ، قليل
أقول لقلبي وهو يرنو إلى الصبا
علام التصابي والحوادث غول
لعلك ترجو أن تعيش مخلداً
أبى ذاك شبان لنا وكهول

وأقل نظرة إلى الأبيات الأولى والأبيات الثانية من شأنها أن تكشف لك حقيقة الإحساس الذي يشتمل على نفسية القارئ ساعة اطلاعه على أثر فني . ويبدو واضحاً أن مقدار ما يعتمد عليه القارئ من قوى ذاتية لفهم الأبيات الأولى وتذوقها ليس هو نفسه الذي يعول عليه بإزاء الأبيات الثانية . فهاهنا في الأبيات الأخيرة تجد عاطفة وتجد فكراً وتجد نغماً أسياناً وحيرة روح . وإذا شئت أن تنظر إليها بمقياس القائلين بالذوق أو بالفهم ، بالذهن أو بالعاطفة ،

بالعقل أو بالشعور ، فتيقن من أنك لن تصل إلى شيء ذى قيمة ، وأنك ستظل حائراً بهذه التقسيمات التى لا تصلح لتقويم أثر فنى إلا من وجهة النظر البسيطة الساذجة .

وأمْرِرْ بعد هذا على الآثار الشعرية المشهورة وانظر كم تحتاج من المعارف والملكات كيما تزنها الوزن الصحيح وتقدرها حق قدرها ، وتساءل معى عما يصير إليه شاعر كأبى العلاء أو المتنبى أو بول فاليرى أو العقاد أو كولريدج أو إليوت إذا أقبلنا على دراسته بالعاطفة وحدها أو بالعقل وحده أو بملكة خاصة من ملكات الدماغ ؟ ! يصعب على الخيال — فضلا عن الفكر — أن يتصور إخضاع أمثال هؤلاء الشعراء لقاعدة بعينها ووزنهم حسب ميزان خاص وتقديرهم تبعاً لوجهة نظر بالذات .

وليست المسألة — كما قد يبدو من المثالين السابقين — مسألة مجال تنصب فيه القصيدة أو معنى تدور حوله أو غرض تُذاع من أجله ، ثم ليست المسألة مسألة موضوعات وأبواب يتناولها الشاعر دون سواها ويطرقها دون غيرها ! فمن السهل جداً أن نلمس عناصر الفكر فى أبسط الأغراض وأرقها عند الشاعر الذى يوزع نفسه بين عقل وعاطفة أو لا يدعى — بمعنى أصح — أنه من أنصار العقل أو أنصار العاطفة ، وقد يتناول الشاعر أبسط الأغراض وأقربها إلى عقول الناس وأفهامهم ، ولا يقصر مع ذلك فى الموازنة بين ملكاته وفى إيجاد التناسق بين قواه عند ما تتبدى فى تعبيره الفنى ، ها هنا مثلا قصيدة عابرة تحت عنوان «امرأة» لهينى الشاعر الألمانى :

لقد أحب كل منهما الآخر حباً يفوق التصور .
كانت بغير عمل منتظم ، أما هو فلص
عند ما كان يخدع الجمهور بألاعيبه .
تقلبت فى فراشها .. وضحكت بصوت عال .

* * *

ثم ذهب اليوم بلهوه ومتعته .
وفى الليل رقدت فوق صدره !
وعند ما ساقوه إلى السجن أكدت
أن هذه هى أروع النكات .. وضحكت بصوت عال .

* * *

وبعث إليها خطاباً يقول : «آه تعالى
إنى أرنو إليك فى النهار والليل .
وأبكى من أجلك إذ خبا قلبى »
فهزت رأسها .. وضحكت بصوت عال .

* * *

فى السادسة صباحا شنقوه عالياً .
وفى السابعة كان يرقد فى القبر العميق ؛
ولم تمض عليه أكثر من ساعة فى أكفانه .
حتى احتست النبيذ الأحمر .. وضحكت بصوت عال .

يتعذر عليك تذوقها بالعاطفة وحدها ويصعب عليك فهمها بالعقل وحده ؛ وعليك أن تواجهها مواجهة ذاتية باذلا جهودك بأكملها كيما تقف على جمالها المعنوى وتدرك روحها وتعرف مدى براعة الشاعر فى صياغتها وسبكها .

يبقى بعد هذا أن نشير إلى مدى خطورة هذه الآراء التى يذيعها بعض النقاد فيما يتعلق بالعمل الفنى ، فهم يصنعون مقابلات لا معنى لها فى صناعة الشعر إلا من حيث تخيل إليهم أنهم وحدهم أصحاب السلطان فى دولة الأدب . فكلمة الصناعة والتكلف إنما وضعوها خصيصاً لتخويف الشاعر المسكين وليشعروه دائما بأنه تحت رحمة مقالاتهم فى التأييد أو الانتقاص من حيث يدرى ولا يدرى ، وكلمة الذوق والعاطفة وكلمة الفهم والذهن لا محل لها فى الصناعة الشعرية الفنية طالما دخلت فى حدود التعريف الخاص بالأدب البحت . والناقد هو الرجل الأمين الذى استطاع أن يزود بأكبر طاقة ممكنة وأن يعد ملكاته إعداداً يؤهله لأن يتذوق ، ويفهم ويشعر فى وقت واحد . ومن الملاحظ — ولعله ليس مصادفة — أن عباقرة العالم جميعاً ، ولو لم يكن الأدب صناعتهم الخاصة ، قد اشتركوا فى النقد الأدبى وأثر عنهم كلام كثير فى هذا المضمار . والقراء يذكرون ولا شك كتاب الناقد المعروف الأستاذ لاسل أبر كرومبى .. ذلك الكتاب الذى ترجمته ونشرته لجنة التأليف والذى يكاد يتعرض — فى أغلب صفحاته — لنظريات أرسطو عن الشعر . فأرسطو وشوبنهور ونيتشة كلهم مفكر وكلهم — مع ذلك — قد اشترك فى النقد الأدبى ، وخلف تراثا خالداً فى وزن الأعمال الفنية وتقديرها .

ومن ذلك يتبدى لنا أولا أن الاعتداد بالعاطفية لدى الشعراء لا يمنع من لومها الابتذال والتفاهة ، ولا يحول دون مؤاخذة أولئك الذين تغلب عليهم موجة الطراوة ، بحجة أنهم

(البقية على الصفحة التالية)

مع الفكر الأوروبي المعاصر

للأستاذ مبارك إبراهيم

١ — السخرية على الطريقة الرومانية
أو « موت كارلو سالستري »

"Roman Satire" or "The Death of Carlo Salustri"

مات الشاعر « كارلو سالستري » المشهور باسم "Trilussa" وهو اسمه معالجاً بطريقة القلب والإبدال . وهو الاسم الذي كان يضعه في ذيل قصائده الساخرة .

وبموته فقدت روما أحب شاعر إلى قلوب قومها ، بل فقدت بفقده جاحظها ، وفولتيرها . وقد عرفه سكان « روما » منذ خمسين عاماً ، يوم كان رواد قهوة « أراليو » إذا مر بهم يتغامزون ، وهو قادم عليهم بقامته المديدة ، وجسمه النحيل ، وقبعته العريضة الجوانب ، ليتخذ مكانه إلى جانب إحدى الموائد .

وفي ذلك الحين قد كان يدفع ثمن شرابه — وهذا قول يقوله القائلون على سبيل الاحتمال لا التوكيد ، فلما تقدم الزمن كان كل مقهى وكل مطعم لا يعترف بتقديم الطعام والشراب إلى هذا الشاعر بغير أجر يرى ثمنه في عداد الحاضرين الذين فاتهم شرف عظيم .

وقد كاد يكون هو الشاعر الوحيد الذي تفرد بالإجادة في نظم القصائد بلغة أهل « توسكانا » منطوقة كما ينطقها أهل « روما » .

وقد كان أسلوب قصائده وما ضمنه إياها من اللمحات أسلوباً لا يمكن أن يبارى فيه أو يجارى . وكانت مقطعاته الشعرية تفيض بالعاطفة القوية التي تبعث كل ما يثير الشجن .

ومن الأساطير القديمة التي اقتبسها هذا الشاعر وألبسها رداء عصرياً أسطورة « أندروكل والأسد » . وقد جعل فيها مكان « أندروكل » ضابطاً من الضباط الإيطاليين في « أريتريا » وقد أسدى الأسد إليه جميلاً ، وذلك بأن افترس رئيسه فظفر الضابط بالترقية إلى الرتبة الأعلى التي مات عنها ذلك الرئيس ...

ولما تولى « موسوليني » الحكم ، وساد النظام الفاشستي في إيطاليا ، زاد الشاعر على قيثارته الساخرة وتراً جديداً ، فوصف مرة في إحدى مقطوعاته رجلاً كان جالساً يتغدى في مطعم من المطاعم فدخل عليه أحد الموسيقيين المتنقلين ، وأسمعه على قيثارته لحناً من أحسن ألحانه ، فصاح في وجهه : إليك عني فإني لا أطيق سماع هذا الطنين ! ولكن هذا الرجل الصاخب لم يلبث أن رفع يده إلى رأسه بالتحية ساعة أن أسمعه الفتى لحن الفاشست ...

وكان « تريلوسا » محبوباً جداً ، حتى لقد رأى موسوليني أن من الخير أن لا يذيقه مرارة الاعتقال على الرغم من غضب الفاشستيين ، بسبب ما كان يصدر عنه من سخرية بهم وزراية عليهم ، فلما صرح الشر وبان ، وقال قائلهم إن من الخير أن تنحى عن رأس النسر الروماني كل نباث الطير ، رأى شاعرنا أن يشترى حريته الشخصية بالسكوت النسبي .

وعلى الرغم من ذلك فقد نشر في عام ١٩٣٥ ديواناً سماه « الكتاب الأصم » وضمنه سخطه على النظام الفاشستي وألف أقواله في ملاءة من الغطاء .

وقد أصابه في أخريات أيام حياته شيء من الاضطراب

يحاولون إرضاء الذوق وحده . كذلك لا معنى — ثانياً — للخوف من دعوى الصنعة والتكلف .. فهي دعوى مشرفة ، بل ولعلها أدعى إلى الزهو والافتخار طالما كانت تعني جهداً مبذولا وعناية معطاة ! ومن جهة ثالثة أريد أن ينفض بعض الناس ما علق بأذهانهم من الأوهام فيما يتعلق بالأدب وصناعة الشعر . فإنهم موغلون بذلك في اتجاهات ليس لها سند من رأي أو من نظر ، وأشد ما يحتاجون إليه في هذه الآونة هو التبصر في نتائج ما يذهبون في تأييده أو في إنكاره . ومسئولية الناقد إنما تظهر كلما انحرفت الأفهام في تقديرها إلى هذا الحد أو ما يشابهه .

عبد الفتاح الديدي

العقل فنظم قصيدة عنوانها « جنون الاضطهاد "Mania de Persecuzzione" » أشار فيها إلى أنه أصبح يخاف من خياله ، وذلك مخافة أن يكون واحد من أعدائه مختبئاً في ظلال ذلك الخيال .

وفى ذلك الحين لم يكن « زيلوسا » يظن أن القدر قد كتب له فى سجله أن يصبح يوماً ما عضواً فى مجلس الشيوخ ، وذلك يوم تحررت إيطاليا . وقد صح وعد القدر وأصبح عضواً بالفعل . ولكنه لم يحضر جلسة من جلسات ذلك المجلس مكتفياً بالانتفاع بالمكافأة البرلمانية ليستعين بها على إنقاذ نفسه من العسر المالى .

ولقد بكته روما ، كما شاركتها البكاء مدن أخرى فى إيطاليا . والكل آسف على موته . أو على انتهاء الطريق كما كان هو يصف الموت .

٢ — فن تورجنيف أو مجموعة آثاره

كتاب من ترجمة كونستانس جارنيت

" The Art of Turgenev " or
"Constance Garnett's Complete Turgenev"

قبل التحدث عن هذا الكتاب نجيء بترجمة مختصرة لحياة الكاتب ، وبكلمة موجزة عن روايته « الآباء والأبناء » . أما ترجمة حياته فهاك إياها .

قال « إرنست رينان » : كان تورجنيف عظيماً ككاتب ، كما كان فى الوقت نفسه عظيماً كرجل ، وكأنما قلبه الكبير كان ينبض بما تنبض به قلوب جميع أفراد الأمة .

وقال عنه « جورج براندى » المؤرخ والناقد الدنماركى : إن كلمات التحقير التى يجرى بها قلمه ليست كلمات باردة جوفاء ، بل هى كلمات تنبض بالحياة نبضاً .

وقال عنه « جورج مور » : إن « كتاب القصة من الروس هم أبطال حقاً ، وأرفع أولئك الأبطال قدراً ، وأعظمهم أثراً ، هو تورجنيف » .

وتورجنيف هو « إيفان سرجيفتش تورجنيف » المولود عام ١٨١٨ والمتوفى فى ٤ من سبتمبر عام ١٨٨٣ .

ولد فى مدينة « أوريل » وتلقى علومه فى موسكو ، وسان بطرسبرج ، وبرلين .

ومات فى مدينة « بوجيفال » بالقرب من باريس ، وقد ثبت من تشريح جثته أن مرضه كان سرطاناً فى الحبل الشوكى .

وتورجنيف الذى كان يفخر بأنه يستطيع أن يجس بإصبعه نبض الجمهور ، وأنه قوى الإحساس باتجاهات عصره ، تورجنيف هذا هو الذى أخرج للناس روايته « الآباء والأبناء » .

ومهما يختلف القول فى بناء الرواية من وجهة الأدب ومن حيث دلالتها التاريخية فإن لها أهميتها الكبرى فيما كان لها من أثر بالغ فى حياة مؤلفها . فقد دفع مؤلفها بسبب تأليفه لها ما يدفعه الرسل من ثمن غال ، قوامه احتمال ألوان الأذى ، وضروب القصاص . وقد احتمل هو بسبب تأليفه لتلك الرواية أذى لا تزول آثاره . وكيف تزول آثار فى مؤيد لم ير المؤلف بلاده خلال سنى ذلك النفى إلا قليلاً .

وقد كتب تورجنيف — فيما كتب — رواية باللغة الفرنسية ، وجعل واحداً من الروسيين ينقلها إلى الروسية . كما أنه أملى — وهو على فراش الموت — رواية كتبها بالفرنسية . ثم أملاها مرة أخرى مترجمة إلى الألمانية ثم إلى الإيطالية ...

أما رواية الآباء والأبناء ، فهاك كلمة موجزة عنها :

نشرت هذه الرواية أول مرة عام ١٨٦١ فى مجلة كانت تصدر فى موسكو واسمها « الرسول الروسى » . وموضوع الرواية — كما يدل عليه اسمها — حرب بين القديم والحديث . تدور رحاها فى المجتمع الحديث . والقوى التى تتقاتل كانت قوى بادية العيان . وكانت قوى لا ينتابها نصب ، ولا يمسها لغوب .

واتخذ المؤلف من البلاد الروسية مسرحاً لروايته حيث كانت تقوم السلطة ذات اليد الحديدية إلى جنب التحرر العقلى المتخفف من أثقال الأغلال والقيود .

وقد خلق « تورجنيف » فى روايته تلك شخصية « بازاروف » فكان خلقاً جديداً فى عالم الشخصيات الروائية . وقد كان « تورجنيف » يرجو ويأمل أن يلقى من قرائه الإعجاب والرضا ، ولكنه لم يلق منهم إلا الضرب والرجم .

ومما زاد فى غيظه وغضبه أنه لقى الأذى لا من أعدائه وخصومه ، بل من مريديه وأوليائه .

وقد جاء « تورجنيف » فى تلك الرواية بكلمات جديدة مثل Nihilism, Nihilist ، ولم يكن يعنى بتينك الكلمتين أن يكون المتصف بهما عدمياً إرهابياً . ولكنه كان يريد أن يكون صاحبهما رجلا مادياً ، خشن الطبع ، وأن يكون

واقعياً ، وأن يكون محطماً للأصنام ، وخارجاً على العادات ، وأن يكون من الملاحدة . (في أحد فصول الرواية يقول والد لولده إنه قد أمكن حطبة من حطايا، في بيت من بيوته ، وأنه قد أولدها ولداً . فلا يغضب الولد ولا يثور ، ولا يرى أن أباه قد أتى شيئاً نكراً ...)

وقد وصف « تورجنيف » بطله وصفاً قوياً ، وقد أضفى عليه من الواقعية ثوباً كأنه قد حيك على قده .

ثم جاء بشخصية « أركادى كرسانوف » وهو ابن آخر من الأبناء، جعله مشيناً لبازاروف فى ضيعة أبيه .

ثم جعل من والد « أركادى » وعمه ممثلين للجيل القديم. وجعلهما يحاجان « بازاروف » ويحاورانه .

وقد جعلت هذه الرواية القوم فى روسيا ينقسمون إلى معسكرين . فمنهم من ناصر الآباء ، ومنهم من ناصبهم العداء .

وقد أخذت الحكومة الروسية على المؤلف استعماله لكلمة Nihilist ، وقد حسبته يرمى بها إلى تأويلها وإعلانها .

والرواية بعد كل هذا فى المكان الأول بين أبرع ما كتب فى الأدب الروائى الروسى .

وهاك حديث الكتاب موضوع هذا المقال :

تظهر ترجمة هذا الكتاب اليوم فى طبعة جديدة تأنق الناشرون فى تبويبها وتنسيقها ، وهى منحة جزيلة يدين بفضلها أبناء هذا الجيل . كما دان بفضل الطبعة الأولى أبناء الأجيال الماضية . ذلك لأن « تورجنيف » وإن كان قد بدأ الكتابة منذ قرن مضى ، وجعل رواياته تدور موضوعاتها حول الإنسان ، وهو ذلك العالم الأصغر الذى جعل من خلائقه وخصائصه الكبرياء ، والتكبح ، واحتمال الألم . فإنه كان أيضاً أول كاتب من كتاب الرواية فى أية لغة من اللغات ، عنى بدراسة المسائل الأخلاقية دراسة سيكولوجية .

وكان أبواه من أرباب الغنى وأصحاب الجاه ، وكانوا يملكون أرضاً واسعة فى إقليم « أوريل » إلى الجنوب من موسكو ، وإلى الشمال من أوكرانيا .

وكانت أيام طفولته أيام عزلة موحشة . حتى لقد حفظ عن ظهر قلب موقع كل ركن من أركان ذلك الإقليم .

ولما بعث به أهله ليتلقى العلوم فى جامعتى « سان بطرسبورج » و « برلين » عب ونهل من أفاويق المثل العليا فى العلوم السياسية والفلسفية ، وذلك على أيدى أبرع المعلمين ، وأقدر الأساتذة . وقال له أولئك الأساتذة والمعلمون إنه خاص ، وصدقهم هو حيناً ، ثم ألفى نفسه ذات يوم محباً من تيمهم الحب . فقد دله فى حب مغنية مشهورة ، ولكنها لم تبادله حباً بحب . وهو الذى عادى فى سبيلها أمه وخاصمها لجزيته أنه على هذه المعاداة والخصومة بأن منعت عنه رفدها وعونها .

وفى عام ١٨٥٢ أصدر أول كتاب له ، وهو الذى سماه « صور موجزة لرجل رياضى » ، وغضبت عليه الحكومة الروسية لأنه أشاد — فى حماسة بالغة — بما كتبه « جوجول » (كاتب روسى عاش معظم حياته فى إيطاليا وتوفى عام ١٨٥٢) من كتابات سخر فيها بحياة المجتمع الروسى . وكان جزاء تورجنيف على هذا أن نفته الحكومة إلى ضيعته . وأعقب هذا النفى الذى دام سنتين نفى مؤبد من روسيا ، وكان ذلك باختياره .

وقد جعلته رواياته كاتباً عالمياً ، وهى تلك الروايات التى ضمنها وصف مشاهد البلاد الروسية وطبقات الأقوام فيها ، وهم الأقوام الذين عرفهم وخالطهم فى أيام الطفولة والصبا ، وهم الذين عكف على دراسة الكتب التى تبحث فى مسائلهم ومشكلاتهم ، دراسة رجل كثير التطلع شديد النهم ، بل دراسة رجل قد بات صدره ضيقاً حرجاً .

أما لدى القراء من غير الروسيين فهو الروائى الأوحد بين جميع الروائيين فى العالم كله الذى كان فناناً لا يباريه فى فنه أحد ، ولا يبلغ شأوه أحد .

وأما لدى النقاد الروس فقد كان رافضياً من الروافض ، وكان لذلك محيباً لظنونهم ، وهو عندهم — إذا قيس إلى تولستوى ودستويفسكى — قزم من الأقزام .

وأما فى فرنسا حيث كانت الانقسامات السياسية أقل خطراً ، وحيث كان القوم ينظرون إلى فن « الرواية » نظرة جدية ، فقد كان تورجنيف يستمتع بنفوذ قوى .

وأما فى الولايات المتحدة الأمريكية فقد كان القوم يوقرونه ويعظمون جانبه . وقد سار على نهجه من كتابهم وشعرائهم « هنرى جيمس » المتوفى عام ١٨٨٢ ، وهو ابن الفيلسوف « هنرى جيمس » و « وليم دين هويلز » المتوفى عام ١٩٢٠ .

وأما فى انجلترا فكانوا يعدونه سيد مؤلفى الأقصوصة .

وقد ذاع صيت تورجنيف فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وكانت تلك الفترة من الزمن فترة العيش النضير التى بعد فيها صوت « تورجنيف » ، وطارت

شهرته كل مطار . ثم أعقبت تلك الفترة فترة أخرى أحس فيها الكتاب بأن الحياة قد بدأت تصبح كثيرة التعقيد . وبدأ الناس يسمعون أشياء عن الأبراج العاجية التي لجأ إلى حماها الفنانون المزعومون ، الذين باتوا عاجزين عن رياضة أنفسهم على السكون إلى الحقائق .

وقد بدا للناس على أثر ذلك أن « تورجنيف » قد ذهب زمانه وانقضى أوانه ، ولكن كبار الكتاب ككبار القواد لا يموتون أبداً ، وهم إذا تصل لوتهم فإن مؤلفاتهم تكتسب بمضي الزمن حلاوة كتلك الحلاوة التي اختصت بها رسائل الحب القديمة ، ثم يجيء الناس فيجيئون من مؤلفاتهم ما درس ، ويلبسون شخوصهم التي ابتدعوها ملابس العصر القائم ، ثم تنبعث التنهدات من أعماق النفوس أسفاً على أن الحياة التي جاء بوصفها أولئك الكتاب القدماء قد كانت أقل عقماء وأكثر هناءة من الحياة الراهنة التي يحيونها .

ثم يستيقن الناس أن المسائل التي كان أولئك الكتاب يعنون بدراستها وبحثها كانت أقرب إلى قلوبهم من الألاعيب السياسية ، ومن مسائل « البترول » وإن كانت هذه المسائل مما لا يستطاع ، بل مما لا يجب تجاهلها وإنكارها ، إذ هي المسائل التي وصفها أحد النقاد الفرنسيين بقوله : « إنها جلبة الحياة وضوضاؤها » .

وقد اختص تورجنيف بموهبة ، وهي إجادته لرسم صور الشابات من النساء اللائي يمثلن في النفس التطلع والتوقر ، واللائي لسن بالتافهات ولا السخيفات .

أما الشخوص الأخرى الأقل وزناً وقيمة فهو يذكرها — في وضوح وإيجاز — في جملة أو جملتين ، وذلك لكي تتم الصورة ، دون أن يبعد بالقارىء عن الصورة الاجتماعية الكاملة ، ودون أن يصرف الأنظار عن صور الشخوص الأصيلة .

وكان « تورجنيف » قوي الملاحظة إلى حد يشبه الإعجاز ، حتى لتجيء صوره التي يرسمها في غير حاجة إلى مزيد من الشرح والتفصيل .

وكان « تورجنيف » يجعل شخوص رواياته تتحدث عن آرائها حيناً ، وتحل بالصمت على تلك الآراء أحياناً ، وكان كل مشهد من مشاهد رواياته يتعاون مع سائر المشاهد على إبداع الصورة الكاملة للرواية وعلى إتقانها .

مبارك إبراهيم

انعكاسات Réversibilité

قصيدة لبودلير Baudelaire

من ديوانه « زهور الشر »

أيها الملاك الطروب هل عرفت رعدة الخوف ،
الخوف من العار والندم والبكاء والسأم ،
والفزع المبهم في تلك الليالي الحالكة
التي تهصر الفؤاد فتحيله هشيماً ؟
أيها الملاك الطروب هل عرفت رعدة الخوف ؟

أيها الملاك الرحيم هل ذقت طعم الحقد ،
إذ تتحفز الأيدي المتصلبة في الظلام وتسيل دموع الغل المرة ،
وتدق طبول الثأر الجهنمية ،
فتقودنا حيث تريد ؟
أيها الملاك الرحيم هل ذقت طعم الحقد ؟

أيها الملاك القوي هل قاسيت ذلة المرض ،
المرض الذي يمضي متباطئاً ، كالشريد ،
حول الأسوار العالية للملاجىء الكئيبة ،
باحثاً عن الشمس الخابية ، وهو يهمهم بكلمات غير مسموعة ؟
أيها الملاك القوي هل قاسيت ذلة المرض ؟

أيها الملاك الجميل هل عرفت الذبول ،
ورهبة الشيب ، والألم البشع
الذي يجده المرء عند ما يرى في عين الحبيب انكسار الرضى المقوت ،
بعد سكرة الهوى الجامحة ؟
أيها الملاك الجميل هل عرفت الذبول ؟

أيها الملاك السابح في السعادة والبهجة والضياء ،
لو قدر لأيوب العليل أن يراك
لكان طلب البرء من إشعاعات جسمك المسحور ،
ولكني ، يا ملاكي ، لا أسألك سوى الدعاء المبرور .
أيها الملاك السابح في السعادة والبهجة والضياء !

ترجمة محمد عبد الحليم محمود

جوزة الهنـــــد

للأستاذ عبد البارى نعمت

جوز الهند هو ثمرة شجرة النخيل التي تحمل هذا الاسم ، وهى جميلة المنظر فارعة الطول تنمو إلى ارتفاع يتراوح بين ٦٠ ومائة قدم ، وهى ذات جذع مستدير تبلغ ثخانته نحو قدمين ويعلو قمة هذه الشجرة تاج من الأوراق الجميلة ذات التموجات البديعة الفتانة ، ويبلغ طول الورقة أحياناً عشرين قدماً ، وهى تنثنى إلى أسفل فيجعل منها ذلك شبه مروحة ضخمة من الريش وتتجمع ثمارها فى عناقيد يتراوح عددها بين عشرة وعشرين .

ولو استطعت قطف إحدى الثمار الناضجة من نخلتها الرفيعة الباسقة بنفسك ، فإن الدهشة تستولى عليك فى بادئ الأمر ، إذ تراها بعيدة الشبه عن الجوزة المعروفة كبيرة ككرة القدم ، وأشبه ما تكون بها لولا أنها مستطيلة الشكل ، ويبلغ طولها من ١٢ إلى ١٨ بوصة ، وعرضها من ٦ إلى ٨ بوصات ، وتتكون من غلاف خارجى ذى قوام ليفى بداخله جوزة الهند المعروفة فى التجارة ، وهذا الغلاف الخارجى صلب ناعم الملمس يحوى بداخله كتلة مبكلة من الألياف التى يصل طولها أحياناً إلى بوصتين ، وهى تحيط بالغلاف الخشبى الصلب الذى يضم قلب الجوزة ، أى لبها ، وهذا يحوى عصيراً لبنياً يعرف باسم «لبن جوز الهند» .

والجوزة وهى مازالت عالقة بنخلها ذات غلافين ، ولكنك عندما تبتاعها تجدها بغلاف واحد ، إذ تكون قد نزع عنها أحد غلافيها . وتنمو أشجار نخيل جوز الهند بالمناطق الحارة ، وتنجح على الخصوص بسواحل جزر الهند الشرقية وجزائر الهند الغربية وأمريكا الاستوائية ؛ وأحسن ما تكون هذه الأشجار بجزائر المحيط الهادى ، ولما كانت مصدراً لكثير من المنتجات التجارية الهامة توجه إلى زراعتها بمختلف الجهات عناية فائقة ، وهى تنمو بسواحل الهند وسيلان وأرخبيل الملايو بأعداد هائلة تقدر بما لا يقل عن عشرين مليون شجرة .

ونخلة جوز الهند من أنفع النباتات ، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن كل جزء منها نافع للغاية ؛ فجوزة الهند وهى ثمرة هذه الشجرة تمدنا بالطعام والشراب ، ويحوى اللحم أى اللباب من ٣٠ إلى ٤٠ ٪ زيتاً و ٥٠ ٪ ماء ، وغلاف الجوزة وورقها اللذان يحيطان بالثمرة الحلوة أى قلب الجوزة عظيما النفع أيضاً كما تنفع أوراقها وخشب ساقها المستديرة ، فمنافع هذه الشجرة يكاد لا يحصيها العد ، ويتخذ الوطنيون من ثمرتها غذاء لهم ويتخذ من عصيرها شراب سائغ منعش ، ويمكن تخميره وإحالته إلى خل ، كما يمكن أن يستخرج من أزهار هذه الشجرة غير المتفتحة نوع من السكر أو يستخرج منها نوع من الخمر ، وكما هو الحال بالنسبة لجميع أنواع النخيل إذا قطعت البراعم الصغيرة النامية بأعلى الشجرة أمكن الحصول منها على نوع جيد من الخضر ، وساق الشجرة مصدر لنوع من الخشب الجيد الصلب ، يعرف تجارياً فى أسواق أوروبا باسم Porcupine Wood وهو يستخدم فى أعمال البناء وفى صناعة الأثاث والتحف ، وكذلك لا تخلو أوراق هذه الشجرة من النفع إذ تصنع منها بعد أن يتم جفافها السلال والحصر وأنواع من المراوح كما تستعمل فى تسقيف الدور والأكواخ .

وغلاف الجوزة يمكن صقله وصنع الملاعق وآنية الماء منه وتستعمل الألياف فى صناعة الحبال والحصر وبعض أنواع الفرش والدواسات التى توضع بأبواب الحجرات ، أو تفرش بها الممرات والدهاليز والردهات ، كما أنها تستعمل فى جلفطة ألواح السفن لتحفظها من تسرب الماء ، وتستعمل كذلك فى حشو الوسائد والحشيات ، وتعتبر ألياف جوز الهنـــد من

السلع التجارية الهامة ولذلك يشتد الطلب عليها لصناعة ما ذكرنا من الأشياء .

وجوزة الهند مصدر لكثير من المواد المهمة في التجارة ، ويقف الزيت في رأس قائمتها ويحصل عليه بعدة طرق من اللب بعد تقطيعه قطعاً صغيرة وتجفيفها للتخلص من الماء الذي تحويه فيمتنع نمو الفطريات عليها ، فيتحول زيتها ؛ ويطلق الوطنيون على لباب جوز الهند المجفف عبارة 'Copperah' ؛ ويتم التجفيف إما بواسطة أشعة الشمس أو بواسطة النار ، ولكن دخان النار يؤثر على اللباب فيخرج زيته رديئاً بسبب تبيضه . والشائع الآن هو طريقة التجفيف بإمرار تيار من الهواء الساخن .

وأقدم الطرق لاستخراج زيت جوز الهند كان يتم بتقطيع قلوب الثمار إلى قطع صغيرة وتعريضها لأشعة الشمس في أكوام كبيرة فيأخذ الزيت يسيل منها تدريجاً ، ثم تطور الأمر إلى استعمال آلات ضاغطة لاستخراج الزيت ، ومن بين الطرق الوطنية التي كانت تستخرج بها أنقى أنواع الزيت كان بوضع أجزاء اللباب في ماء مغلي فيطفو الزيت في أعلى الإناء ويتم جمعه أولا فأولا ، وكانت المتخلفات تستعمل غذاء للماشية . ويستخرج الزيت الآن في المصانع الحديثة بطريق الضغط المائي بآلات خاصة . وألف جوزة من الجوزات متوسطة الحجم تنتج من ٤٤٠ إلى ٥٥٠ رطلا من لباب جوز الهند وتحتوي هذه الكمية ما يقرب من ١٠ ٪ ماء ويستخرج منها نحو ٢٥ جالوناً من الزيت .

وزيت جوز الهند بالحرارة العادية أبيض غير سائل ورائحته غير مقبولة كثيراً لاحتوائه على بعض الأحماض الدهنية الطيارة إلا أن طعمه لطيف مقبول ويتحول تحت ضغط معين إلى سائل ، وإلى جزء صلب يطلق عليه اسم استيرين أي دهنين جوز الهند ، وهذا يستعمل في صناعة الشمع ؛ وزيت جوز الهند يستعمل أساسياً في صناعة الصابون والسمن الصناعي ، ويستعمله الوطنيون في الإنارة والطهي من قديم الزمان ، ويدخل مبشور لباب جوز الهند في صناعة بعض أنواع الحلوى وليس هذا هو كل ما تمدنا به شجرة جوز الهند من منافع ، بل نجد أنه بعد أن نحصل على آخر نقطة من الزيت يحويها اللباب نحول المتخلفات إلى أقراص من الكسب تتغذى عليها الماشية عندما يقل العلف الأخضر .

وإذا كانت الألياف التي تتوسط بين غلاف جوزة الهند الخارجي وغلافها الداخلي ذات نفع كبير لنا كما رأيت فإن نفعها يمتد أيضاً إلى الجوزة نفسها ؛ فشجرة جوز الهند تنمو بمحاذاة شواطئ البحار ، وعند ما تنضج الجوزات التي هي في الواقع أطفال نخلة جوز الهند تسقط في البحر أو فوق الشاطئ ، وتحملها الماء في وقت المد وهي لا تغرق لأن الألياف الكائنة بين غلافي الجوزة تتخللها كمية من الهواء تجعل من الجوزة جسماً طافياً ، ولما كان الغلاف الخارجي مصقولا فهو لذلك مانع للماء لا يدعه يصل إلى الداخل ، وهكذا تبدأ أطفال نخلة جوز الهند رحلتها وغالباً ما تحملها تيارات المحيط بعيداً عن موطنها الأصلي وتلقي بها سالمة في النهاية على بعض الشواطئ البعيدة حيث تنمو بأرضها ، وتكون نواة لأحراش نخل جوز الهند الكثيفة ؛ وهكذا نرى أن هذه الأشجار التي كان نموها في وقت من الأوقات مقصوراً على شواطئ بحار الهند نجدها اليوم قد نمت في جميع أنحاء المناطق الحارة وأقطارها .

ونخلة جوز الهند لا تخلو من أعداء ، ومن بين أعدائها الأشداء الخنفساء الكبيرة وسوسة النخيل ، وهما حشرتان ضارتان تصنعان ثقوباً بجذع الشجرة وتضعان البيض فيها ، وعندما تخرج صغار هاتين الحشرتين تتغذى على أنسجة النبات وبذلك تعمل عملها المخرب ، وكذلك يوجد سرطان أرضي من نوع ضخم كبير يغرم كثيراً بجوز الهند ويصل إلى قلب الجوزة الحلو بحيلة ماهرة تنم عن بالغ الذكاء ، وهو لا يكسر الغلاف الصلب بمخالبه القوية بل يقشره ويصل إلى الطبقة الليفية ، ثم يطرق بالجزء الحاد من مخالبه البقع السوداء الكائنة بالغلاف الداخلي للجوزة وهي أقل أجزائه صلابة ، وينجح في الحفر عن طريقها ، ثم يمد أحد أرجله في الحفرة التي عملها ويجذب بها لب الجوزة قطعة قطعة مستعيناً بمخالبه القوية ثم يلتهمها التهاماً ، ولا يقتصر أذاه على أكل قلب الجوزة الشهي ، بل يمتد إلى استعمال الألياف لفرش أرض مسكنه وتبطينها ، ويتخذ منها فراشاً يجلس فوقه ناعماً بالراحة والطمأنينة .

عبد البارى نعمت

النشاط الثقافي في أسبوع

للأستاذ عز الدين إسماعيل

الإصلاح الاجتماعي

يذهب الكثيرون — ومنهم الدكتور شكري الراضي — إلى أنه ليس هناك إصلاح غير مقترن بثورة . حقاً أن الثورة هدم والإصلاح بناء ، ولكن الثورة الاجتماعية لا يكون هدفها مطلقاً الهدم فحسب ، وإنما هي تهدف — من وراء ذلك — إلى البناء الأحسن . فالإصلاح دعوة ارتقائية مستقبلية . وعندما تقرر في ميثاق هيئة الأمم المتحدة العمل على رفع الأمم الناهضة إلى الرقي ، كان ذلك استلهاماً للمبادئ الإنسانية ، مبادئ الحرية والإخاء والمساواة . وإذا كانت بعض الأمم في سبيل تحقيق هذه المبادئ لأفرادها فإنها ستصطدم بعقبات كثيرة ، يقتضيها التخلص منها هدماً للقديم — وهذا من معاني الثورة — وبناء للحديث ، وهو ثمرة الإصلاح .

وفي مصر حركة إصلاح اجتماعي لبست بنت اليوم ، ولم تقم بقيام لجنة الدراسات العليا للخدمة الاجتماعية سنة ١٩٣٧ ، بل إن المتتبع للتاريخ يجد أن قيامها كان مقترناً بثورة سنة ١٩١٩ ؛ فكما نادى سعد زغلول بتحرير الوطن سياسياً فقد نادى طلعت حرب بالتحرر الاقتصادي . وربما كان الهدف من هذا وذاك هو الرقي الاجتماعي ، هو التحرر من الفقر والجوع ، والمرض والحرمان . ثم أعقب ذلك حركات أخرى ، وبدأت الثورة الصناعية المصرية بمؤسسة شركة بنك مصر ، وأعقب ذلك تعديل التعريفة الجمركية بصور تحمي الإنتاج المحلي . وكل هذه المقدمات قد اقترنت بوعي جديد وصيحة جديدة تبلورت في لجنة الدراسات العليا للخدمة الاجتماعية ، التي افتتحت مدرسة الخدمة الاجتماعية القائمة الآن في أكتوبر سنة ١٩٣٧ . وهذه المدرسة بمثابة عمود من الأعمدة الفقرية للإصلاح الاجتماعي .

ونحن نعرف أن هناك وزارة ، هي وزارة الشئون الاجتماعية ، من مهامها السهر على رعاية هذا التقدم والرقي الاجتماعي ، والعمل على تحقيقه بكل الوسائل . والحق أن المشاريع الإصلاحية من جانب الحكومة لا تعدو أن تكون حبراً على ورق ؛ لأن المشروع لا يستمد قوته من الموظف بما هو موظف فحسب ، وإنما باعتباره نفسه خادماً للإنسانية . فالمرجع إلى الروح التي يعمل بها القائمون بحركة الإصلاح لتحقيق هذا الإصلاح .

ولكي نستطيع السير في حركة الإصلاح لا بد من ثلاثة عناصر أساسية : المال والرجال والزمن . وإذا كان المال متوفراً للحكومة فإنه يعوزها الرجال ، أولئك الذين يعملون في هذا الميدان عن عقيدة ثابتة وإيمان عميق بمبادئ الإنسانية ووجوب تحقيقها . وتستطيع بعض المنظمات والجمعيات أن تكمل للحكومة هذا الجانب ، فتمدها بالرجال من جهة ، كما تعمل على إيقاظ الوعي في نفوس الأفراد ، فيستعدون لقبول كل إصلاح ، وفي ذلك تقصير لعنصر الزمن . حقاً أن أمراض مصر مزمنة ، ومن التجني تبسيط هم القائمين بالأمر ، فمازال مجتمعنا يحتاج إلى سنين طويلة لتقبل فكرة الإصلاح .

الأساليب الحديثة في تعليم الفن :

قامت في أوائل القرن العشرين حركة تنادي بالفردية في التعليم ، أي اعتبار الشخصية من حيث مكوناتها ونواحيها المختلفة ، ومعاملتها بالطريقة التي تنميها ، وقد تمثلت هذه المحاولة في البلاد الديمقراطية فقام التعليم فيها على أساس تربية الفرد ، إيماناً منهم بأن لكل فرد رسالة ، وأنه من الواجب إتاحة الفرص وتكافؤها أمام كل فرد ، ولذلك كان التعليم إجبارياً حتى سن السادسة عشرة والمجان .

وقد مررنا في مصر بمراحل مختلفة ، فاختلفت نظرتنا إلى أساليب التعليم في كل حالة ، ونحن الآن نطور بالمناهج حسب الأساليب الحديثة .

وقد حاولت السيدة عزيزة عزب في محاضرتها التي ألقتها بالمعهد العالي للتربية الفنية للمعلمين أن تعرض لهذه الأساليب الحديثة — وفي تعليم الفن خاصة — فذكرت أن الاستعداد

أنا الشعب!

أنا الشعب ... أزمعت أن أسترد
مكان الأعزاء بين الأمم
مكاناً تربعت في عرشه
على هامة الشهب منذ القدم
سلوا عنه .. يا غاصبون .. الزمان
سلوا عنه .. يا جاهلون .. الحرم
لعمر الأبية لن تستذل ولكن ستخسفكم .. للعدم
تدك الحصون .. وتأبى العجاب
إذا الغيظ في صدرها ما احتدم

•••

أنا الشعب .. والشعب إذ ما أراد
فلا بد .. لا بد .. من أن يصل
ولكن .. كفاحاً .. وعزماً نريد
فأين الكفاح ؟ وأين العمل ؟
وأين النضال ؟ وأين القتال ؟
وأين التوثب .. نحو الأمل ؟
فإن اليوم .. نمض .. لنيل الحقوق
وحل النقاش .. وهذا الجدل
فإما نعيش .. كراماً .. أباة
وإما نموت .. إذا لم ننل

•••

أنا الشعب .. فليعلم الغاصبون
بأنى إلى الذل .. لن أركنا
ولكن .. سأمضى إلى غايتى
قوياً .. بأعماقها مؤمنا
غداً .. يعلم الكون أنا وصلنا
إلى حقنا عن طريق القنا
غداً .. يعلم الناس أن العدو
مضى يستحث الخطى .. موهنا
غداً .. يرقص النيل بشراً وتيهاً
وتزهو الطبيعة من حولنا

عبد المنعم مراد يوسف

الفني مشترك عند الأفراد ، وقد قال بذلك رال في كتابه The new art education ؛ فعند ما يمسك الطفل بورقة ويلعب فيها بالمقص ليعطيها شكلا معيناً إنما يدل على إحساسه بجمال هذا الشكل ، واعتناء البعض بتصفيف الشعر أو اختيار الكرافات ، أو وضع الكتب على المكتب في نظام معين ، كل ذلك يدل على الاستعداد للتذوق الجمالي ؛ ولهذا كان تعليم الفنون ضرورياً للأطفال ، وهو ضروري من ناحيتين : من ناحية أنه يعطى الطفل فرصة للتعبير عن رغباته ومشاعره أولا ، ومن ناحية أنه — لكل أنواع التعليم — يكسبه خبرة ثانيا ، والمقصود بالتربية الفنية في الواقع هو الإكثار من التجارب الفنية التي تعمل عملها في نمو الطفل وجدانياً ، هذا النمو سيجعله يتذوق الحياة تذوقاً فنياً : في أكله ، في ملبسه ، في كلامه ، الخ ، فيحقق العبارة القائلة بأن الفن أسلوب الحياة Art is a way of life . ولكي نأخذ بيده يجب أن نوفر له الرضاء النفسي Satisfaction ، ولا نشعره بأنه عمل خطأ بالقياس إلى القواعد الفنية المقررة ، بل لا حاجة بنا مطلقاً إلى تعريفه بهذه القواعد ، فنترك له الحرية الكاملة في طريقة التعبير ؛ وبذا يكتسب لوناً من الثقة والاطمئنان .

وسنلاحظ أن في تعبيره الحر الطليق اللاشعوري تنفيساً عن كثير من الرغبات المكبوتة والعقد النفسية ، يتبين ذلك من طفل يرسم مجموعة من المدمات ، أو آخر يترك الصفحة كلها ليرسم تخطيطاً ضئيلا في أحد أركانها ، فالأول ينفس عن رغبة ، والآخر يشعرك بوضعه في البيت مثلا .

وقد تعرضت المحاضرة لأساليب الفن الحديثة فأنها تعرضاً سريعاً فذكرت أن القرن التاسع عشر قد امتاز بالتأثرية impressionism بينما لجأ الفن الحديث إلى التجريد ، وينقسم إلى : dramatism وفيه يتغاضى الفنان عن بعض العناصر لإبراز بعضها ، ورمزى symbolic ، وواقعى realistic ، وفن الدعاية وفيه تبرز بعض الصفات المعينة ؛ ثم هناك أسلوب ترتب فيه الأشياء الواقعية ترتيباً جديداً ويطلق عليه : design reality . أما التجريد abstraction ففيه يلعب الفنان بالمساحات وفق رغبته الخاصة ، وقد كنا نود من السيدة المحاضرة أن تقف ملياً أمام هذه الأساليب الحديثة ، وأن تعرض لها بنظرة نقدية لنتبين معها إلى أى حد تعد هذه الأساليب مسايرة وموافقة لطبيعة الفن التشكيلي plastic .

عز الدين إسماعيل

تمثيلية «سيد قلبه»

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

نستريح قليلاً من عناء الموسم المسرحى المحلى ، ونتنقل إلى الموسم المسرحى الأجنبى الرائع الذى بدأت بإحيائه فرقة (جان مارشا) بدار الأوبرا الملكية خلال الشهر الماضى .

والواجب أن نتحدث أولاً عن بعض ما يثار حول هذا الموسم والمواسم التى تحييها الفرق الأجنبية بصفة عامة ، لأسباب ليست من الخفاء بحيث يصعب معرفتها ، وليست من التفاهة بحيث يمكن التغاضى عنها . فهذه الفرق لا يشهدها سوى القادرين على شراء تذاكرها الباهظة ، وغنى عن البيان أن هؤلاء ليسوا وحدهم أحق من غيرهم بشهودها ... وهذه الفرق تقدم إنتاجها بلغات أجنبية لا تحذقها أغلبيتنا ، ومن ثم لا يستمتع بها إلا نفر قليل ... وهذه الفرق تشغل أهم مسارحنا طوال فصل الشتاء ، ويترتب على ذلك تعطيل نشاطنا الفنى فى أنسب الأوقات صلاحية للإنتاج ...

فهل معنى ذلك أن المواسم الأجنبية لا تحقق الغرض المنشود من إحيائها تحقيقاً كاملاً ؟

الواقع أن الأمر كذلك ، وسيظل كذلك ما لم نهيء أنفسنا لها ، وليس هذا على الدولة بعزيز . فلو شاءت لأسهمت فى تخفيض أسعار تذاكرها ، وفى ترجمة وشرح تمثيلياتها ، وفى بناء مسارح تكفى لاستيعابها ، ولكن يظهر أن الدولة لا تشاء !!

• • •

بدأت فرقة (جان مارشا) موسمها بتمثيلية فرنسية هى (سيد قلبه Le maitre de son Coeur) ألفها بول رابنال عام ١٩٠٩ وأخرجها جان مارشا .

ولعله من تحصيل الحاصل أن نقول إن مثل هذه الفرقة لا تستطيع أن تجازف بسمعتها فتقدم تمثيلية غير ذات جدارة . والمعروف عن تمثيليتنا هذه بصفة خاصة أنها حظيت بنجاح كبير ، منذ عرضت أول مرة عام ١٩٢٠ بمسرح الأوديون بفرنسا . ولكن هذا قد لا يكفينا للحكم بامتيازها ما لم نعرف مقومات هذا الامتياز بجلاء ! وإذ ذاك سيتبين لنا أنه يرجع — أكثر ما يرجع — إلى قدرة مؤلفها على إحكام إطارها الفنى لا إلى قيمتها الموضوعية .

(هنرى) شاب لا يطلق لشهواته العنان ولا ينساق وراء الغانيات . وليس ذلك صادراً عن كراهيته للعنصر النسائى ، ولا راجعاً إلى شذوذ فى تكوينه الجسمانى أو مزاجه النفسى ، وكل ما فى الأمر أنه واسع الخبرة دقيق التفكير قوى الشخصية ، وهو لذلك شديد الحذر من المرأة وإغرائها ، بحيث لم تستطع أن تغزو قلبه أو أن تستعبده إحدى بنات حواء . وعلى العكس منه صديقه الحميم (سيمون) الذى يعشق (إلين) عشقاً يصل إلى حد العبادة . ويجتمعون جميعاً فى الفصل الأول ، فإذا بالعاشقين (سيمون وإلين) يتبادلان النجوى ، وإذا بهما وقد ضمتهما قبلة واحدة يكاد يخيل للرائى أنهما أسعد حبيبين ، وأن حياتهما ستظل إلى الأبد موصولة الهناءة .

لكن الأمر فى حقيقته لم يكن كذلك ، فإن (إلين) سرعان ما فتنت بصديقه (هنرى) من حيث لم تكن تحتسب واستهوتها جاذبيته استهواء ملك عليها مشاعرها ! وما يكاد يبدأ الفصل الثانى حتى نراهما منفردين ، ونرى كيف تحاول إغراءه بسحر حديثها ، وقوة منطقها وروعة جمالها ، وكيف يأبى عليه إخلاصه لصديقه أولا وتفكيره ثانياً أن يستجيب لها ، وكيف يحاول ردها إلى عادتها على الرغم منها . وينتهى هذا الفصل الهادىء فى أحداثه ومشاهده ، العنيف فى حواره ، وفيما احتمله هذا الحوار من جدل

ومضمون ، ونحن لا يخامرنا شك في أن (هنرى) بذاته وشجاعته قد وضع لهذه المشكلة حداً حاسماً ، وأن (إيلين) ستقف عند هذا الحد راضخة لما أصابته وأصابها من خيبة ومرارة ، عائدة إلى (سيمون) طائعة أو كارهة .

لكن الأمر في حقيقته لم يكن كذلك . فما يكاد ثلاثتهم يجتمعون مرة ثانية في الفصل الثالث حتى تسفر مناقشاتهم عن شيء في غاية العجب . ذلك أن (هنرى) لم يكن قد صمد حقاً إزاء (إيلين) بل لقد استمر في دخيلة نفسه لهواها وإن ظل يقاوم ذلك مقاومة قطيعة . . . وحتى لم تكن قد عادت حقاً إلى صديقه ، بل لقد ظلت ترقب انتهاء مقاومته ، وأخيراً لم تجد بداً من أن تعلن عما يختلج في قلبيهما ! وعندئذ لم يستطع (سيمون) أن يواجه هذه الخيانة المزدوجة من عشيقته وصديقه ، فأطلق على نفسه رصاصة قاتلة سقط على أثرها صريعاً لاحراك به . ولولا أن الموتى لا ينظرون كما ننظر ولا يسمعون كما نسمع لرأى معنا صديقه (هنرى) وهو يندفع نحوه متلهفاً وينحني عليه بكل جوارحه المثقلة بالشجون ولسمعه معنا ، وهو يقول له في ألم وتأثر وخشوع « أنا لم أخنك . »

وهكذا انتهى الفصل الثالث وانتهت التمثيلية كلها وخرج الناس جد مختلفين : بعضهم يفيض أسى على (سيمون) وبعضهم يرميه بالضعف أو يعجب كيف آثر أن يخلى وحده لصاحبيه الطريق دون أن ينتقم أولاً منهما مثلاً ! وبعضهم يعذرهم جميعاً ، إذ أنهم لا حيلة لهم فيما صاروا إليه أو فيما صيرتهم إليه العاطفة الجامحة القاهرة ! وبعضهم يتساءل عن سر انهزام (هنرى) وهو الذى لم يعشق في حياته مرة واحدة . . . وهكذا .

واختلاف الناس حيال تمثيلية ما دليل قوى على نجاحها غالباً ، ولكن هذا النجاح لا يرتقى إلى درجة الكمال إلا إذا كان ذلك الاختلاف منبعثاً من إثارة حقيقية لمشكلة حقيقية كتلك التى نعهدها فى المسرحيات المسماة (مسرحيات المشكلات Problematical Plays) حيث تكون المشكلة جدية وحيث لا يكون الاختلاف فى التفاصيل ، ولكن فى النتائج والبواعث وفى استقبال الناس لمضلاتها ومحاولة حلها فكرياً . أما هنا فالمشكلة عاطفية — إن جاز أن نسميها مشكلة — والاختلاف فى التفاصيل والمظاهر ! ومن ثم لا تمت من الأصالة أو الروعة إلى حد كبير ، وحتى لو أمكن تأصيلها ، وتضخيم قيمتها بالنسبة لمفهوم البيئة الفرنسية واهتمامها بأثر العاطفة فى الحياة اهتماماً بالغاً ، لما أدى ذلك إلى أكثر من اعتبارها مشكلة محلية أو محدودة .

غير أننا إذا انتقلنا إلى ناحية الأداء أى إلى التحدث عن مدى نجاح المؤلف فى إخضاع موضوعه لمتطلبات الفن التمثيلى لوجدنا أنه بلغ غاية التوفيق . فقد وفق إلى أبعد الحدود فى إقامة دعائم البناء المسرحى وتوطيده وفى اصطناع التركيز والوضوح والانسجام حتى بدت تمثيليته من هذه النواحى كالسبيكة المصبغة .

فنحن لا نرى فيها شططاً ملحوظاً فى اجتياز الزمان والمكان ، بل إنه من الممكن أن نتصور وقوع أحداثها جميعاً فى مكان واحد وفى زمان قصير من غير أن يخل ذلك بتساوقها ونتائجها أو يؤثر فى بلوغها (الذروة) التى بلغتها وفى (الحل) الذى انتهت به .

ثم إن عدد الممثلين لم يزد فى مشهد من المشاهد عن ثلاثة ، بل إن ممثلاً واحداً وممثلة واحدة هما اللذان اضطلعا وحدهما بالفصل الثانى من أوله إلى آخره .

ثم إنه قد استطاع منذ بداية الفصل الأول إبراز أبطال تمثيليته على خشبة المسرح وإبراز صفاتهم وعلاقة كل منهم بالآخر ، كما استطاع إسدال الستار النهائى عليهم جميعاً دون أن يضطر أحدهم إلى الاختفاء ، ودون أن نحس فى ذلك كله بشذوذ أو إقحام ، ودون أن يكون للمصادفة أدنى أثر .

ثم إننا إذا نظرنا إلى الفصول نظرة جزئية لوجدنا أن كلا منها يكون وحدة كاملة قائمة بذاتها تستنفد أحداثها أقصى مكوناتها ، حتى تصل إلى نهايته فلا يتسع بعد ذلك لغيرها ولا لمزيد منها . . . ولوجدنا فى نفس الوقت أن كلا من هذه الفصول مرتبط بالآخر ارتباطاً حياً ، بمعنى أنه يمكن الاستدلال مثلاً على بداية فصل ما من نهاية الفصل الذى يسبقه ، كما يمكن ترتيب النتائج ترتيباً حتمياً ، حتى الفصل الثالث الذى يبدو كأنه انقلاب مفاجئ يمكن أن نتصور توقعه من فحوى الفصل الثانى وتسلسله ؛ إذ أن المؤلف البارع وإن يكن قد عمد إلى تحديد موقف (هنرى) و (إيلين)

تحديداً صارماً فى نهايته إلا أنه برغم ذلك ألقى عليهما شيئاً من الذهول والارتباك حتى إذا ما كاد يسدل الستار عليهما وهما فى لحظة الوداع وجدنا (هنرى) يهرول نحو الباب هرولة تشكك فى وثوقه من قدرته على مواجهة (إلين) .

كل هذه أمور بسيطة فى ذاتها كما قد يخيل إلينا ، ولكنها بالغة الدلالة على براعة المؤلف وسلامة التأليف .

بقى أن نتحدث عن الصراع ، وأظن أنه من الواضح بعد ما قدمنا من موجز الموضوع ذاته أنه غير دراماتيكى ، إذ لا نستطيع أن ندعى أن هناك صراعاً دراماتيكياً رهيباً أو غير رهيب بين أبطال هذه التمثيلية وبين قوة جبرية ، إلا إذا وضعنا فى اعتبارنا أن الأدب الفرنسى — كما يقول بيسون — يقوم فى أكثره على أساس الملاحظة المحكمة للحياة المألوفة المدققة فى الواقع النفوس الناعسة فى مناط الشعور بهما ، وأن المسرح الفرنسى يعتمد — لذلك — على الإيضاح أكثر مما يعتمد على الاستمالة والإقناع ؛ ومن ثم يهدف إلى النظرة النقدية ، أى إلى الملاحظة النقدية لسلوك الإنسان .

هذا من حيث موضوعية الصراع . أما من حيث قدرة المؤلف على تصويره فيأ بحالته هذه فلا مراء فى أنه كان كعادته قديراً على أداء هذا التصوير ؛ وآية ذلك أننا نلحظ بوضوح أثر احتكاك الشخصيات ببعضها حتى صارت فى آخر التمثيلية على غير ما كانت عليه فى أولها ، ومعلوم أن هذا من أدق الفوارق بين « الحكاية » و « التمثيلية » . فأبطال الحكايات يظلون على حالة واحدة على الرغم مما يصادفهم من أحداث ، فى حين أن أبطال التمثيليات التى تتوفر فيها صحة الأداء يتطورون بفعل الصراع من حالة معينة إلى حالة معينة أخرى مختلفة عنها من شتى الوجوه .

فإذا أضفنا بعد ذلك إلى توفيق المؤلف بصفة عامة توفيق المخرج الذى توارى خلف المسرح فلم يشغلنا عن الاستمتاع الكامل بحركات تهريجية أو بهلوانية فى تحريك الممثلين أو زحمة فى الأثاث والمناظر والأضواء ، ولبس قط أنه حقق إنتاجاً تمثيلياً بأدوات مسرحية ، ولم يصطنع الإغراب والتعقيد . . . وإذا أضفنا إلى هذا وذاك توفيق الممثلين فى التعبير البليغ وفى التعاون التام ، سواء فى الإلقاء أو الإصغاء ، أو الحركة أو الإشارة وفى اهتمامهم بالقيم الجمالية فى مختلف أوضاعهم . . . وإذا أضفنا أخيراً إلى ذلك كله توفيق صفوة المتفرجين فى المشاهدة وفى مقابلة أحداث التمثيلية بالتفكير حيناً والتأمل حيناً وبابتسامات حزينة تارة ، راضية تارة أخرى ، دون أن يعبروا عن ذلك كله بأكثر من الاهتزاز الصامت والإيماء الموجز ودون أن تتحرك الأيدى للتصفيق ، خلال التمثيل مطلقاً . . . إذاً لتجلى لنا أمران :

الأمر الأول أن النصوص والألفاظ والعبارات ليست كل شىء فى المسرح ، وإنما هو — كما يقول whitfield — مجموعة أشياء : الموضوع والإخراج والتمثيل ، والأداء والإلقاء والملابس ، والمناظر والبناء والجمهور . وهذه الأشياء لا سبيل إلى نجاح المسرحيات بغير اجتماعها وتكاملها وتضامنها معاً .

والأمر الثانى أن المواسم الأجنبية ضرورة لا غنى عنها إذا أردنا أن نفهم الفن المسرحى فهما تطبيقياً ، بشرط أن تتوفر لنا أسباب هذا الفهم ، وإلا فستظل — بالنسبة لجمهورنا — أشبه ما تكون بمعارض الأزياء !!.

عبد الفتاح البارودى

عيد الميلاد فى نيويورك

لِمَن النجومُ رقصنَ فوقَ خميلةٍ[1] قُبَلاً وأحلاماً ترفُّ طويلاً ؟

وخفقنَ ألواناً حملنَ عــواطفاً وأضأنَ أنغاماً تردُّ جميـــلا ؟

لِمَن التهلّلُ فى الغصونِ نواعماً سَكْرَى فأيقظها النسيمُ بليلاً ؟

لِمَن التوهّجُ ، وقد بَرَزْنَ جواهراً بيدِ الألوهةِ تستحثُّ بخيلاً ؟

لِمَن الحمائمُ قد طلقنَ عرائساً سفرتْ وأرسلتِ النشيدَ هديلاً ؟

كانت مجنّحها الصقيعُ ، فردّها للناس تعبيـــدٌ يعزُّ مثيلاً

ورأتْ صبورَ الناس دفأً منعشاً مِن بعـــدِ ما كان الجليدُ ثقيلاً

لِمَن الطفولةُ فى تحرّرِ بهجةٍ لم ترضَ عنها فى السرورِ بديلاً ؟

غمرتْ حوانيتُ الهدايا حولها بجميعِ ما قد جاوزَ التخيلاً

لِمَن المعابدُ والمسارحُ أشرقتْ أمماً تقدّسُ رائعاً وجميـــلاً ؟

لِمَن الأناشيـــدُ الحبيبةُ ردّدتْ لحنَ السلامِ مسلسلاً وبليلاً ؟

دنيا السماحةِ والتحرّرِ والندى شعّتْ وما خذلتْ بها تأميلاً

وكما منــــازلنا نعيماً سابغاً روحٌ لأشهى الصفوِ كان كفيلاً

* * *

لِمَن المظاهرُ والحقائقُ هذهِ ؟ عجباً ! كأنّ البؤسَ ردَّ قتيلاً !

وكأنّما الظلمُ الرهيبُ قد انتهى والعدلُ أصبحَ كالجمالِ ظليلاً !

هى محضُ وجدانِ الوجودِ يزفُّهُ حبّاً لِمَن هو أطلعَ (الإنجيلا)

مَنْ لا تزالُ على السماءِ عِظاتُه هذى الشموسُ تواكبُ (التنزيلا)

مَنْ روحُه روحُ الإلهِ ، وسرُّهُ سرُّ الحياةِ على الأبودِ نزيلاً

مَنْ علّمَ الإنسانَ قيمةَ نفسه لو شاء حظّاً فى الحياةِ جليلاً !

* * *

بُورِكْتَ (ميلادَ المسيحِ) وبُورِكَتْ مُثُلٌ رفعتَ لنا وجئتَ مُثيلاً

مَنْ عاش يُكْبِرُها فما ضاقت به دنيا ، ولا وجدَ (السلامَ) ضئيلاً !

(نيويورك) أحمد زكى أبو شادى

---

(١) شجرة عيد الميلاد الكبرى (فى ركفلر بلازا) بنيويورك ، وقد ازدانت بمئات الثريات البراقة الساحرة .

الثقافة

العـــدد ٦٨٤
٤ من فبراير ١٩٥٢

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

صفحة

أبحاث ومقالات :

دراسات أدبية :

مع الفكر الأوربي المعاصر :

ندوة القلم :

شعر :

إلى روح الدكتور زكي مبارك

الطائر العابر...

طائر .. عبَر من بني البشر
كان .. دوحة حلوة الثمر
بالظلّها ... نسمة السحر
كم تواكبت تحتها ... زُمر
كل شاعر كل من ، نثر
كان .. باقة زهرها . عطر
غير أنها .. باقة الفكر

•••

لستُ ناسياً ماضياً — غبَر
والهوى . فتى يافع .. العُمر
بين أضلعي يبعث الذكر
كان .. سلوتي ذلك .. الوتر

•••

في .. بيانه رقّة .. الزهر
في .. نثاره بسمة الظفر
في .. خصامه النُّهى — تحتَر
في .. طموحه الورى .. يعتبَر
كيف .. لفّه منجل القدر
وهو شعلة تبهر .. البصر
لم .. يزل لنا بيننا .. خطر
فهو شاعر خالد الأثر
أيُّ شاعر مات .. واندثر
إنّه .. مضى يرفع .. الشُّتُر
من .. عوالم جنّة الشُّعور
غير أنّها دون من نظر .
ليت . يازكي سرُّها . ظهَر
علَّ .. حائراً يعرف .. الخبر .
آه .. إنّها منية البشر

[القاهرة]

كيلاني حسن سند

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلوف بك

الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٨٤ الاثنين ٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٧١ — ٤ من فبراير سنة ١٩٥٢ السنة الرابعة عشرة

قضية وطنية شهيرة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٢ —

وتوالت بعد ذلك حملات كوتسبوى ورسالاته ضد الجمعيات الوطنية وأمانيها وأعمالها ؛ وقد كان يصدر فى ذلك بلا ريب عن خطة مرسومة ينفذها لحساب الحكومة القيصرية . وكان ساند يثور سخطاً لهذه الحملات ويرى فيها خيانة وطنية غادرة . ويبدو من مذكراته أنه قد أخذ من ذلك الحين يتجه إلى عالم جديد ، ويجول فى آفاق جديدة وأنه بدأ يصور لنفسه أنه قد ندب لتحقيق مهمة إنسانية جليلة ؛ فنراه يكتب فى مذكراته فى أوائل سنة ١٨١٨ ، يدعو الله أن يعينه على تنفيذ فكرته فى إنقاذ الإنسانية ، وأن يجعله مسيحاً منقذاً لألمانيا ، وأن يقويه على احتمال الآلام والمحن . ثم يكتب بعد ذلك فى شهر مايو مانصه : « إن فكرة الوطن تقدم الغبطة والشجاعة لأشد الناس حزناً وأكثرهم ضعفاً ، وإنى لأدهش كلما تصورت أنه لايوجد بيننا من تدفعه الشجاعة لأن يغمد خنجراً فى قلب كوتسبوى أو أى خائن آخر »

ونراه فى خاتمة هذا العام يدون فى مذكراته بصراحة ما اعتزمه من أمر خطير ، وهو فى هذه الفقرة يودع الحياة ويقول لنا إنه إذا قدر لقضية الإنسانية أن تنتصر ، وإذا كانت ثمة بقية من العواطف الكريمة فى هذا العصر المجرد من الإيمان ، فيجب أن يزول من الوجود هذا الوغد الخائن كوتسبوى مضلل الشباب ومزيف الوطنية ؛ ثم يؤكد لنا أن عزمه قد استقر على الاضطلاع بهذا العمل العظيم .

وقد كانت هذه خاتمة مذكرات كارل لودفيج ، والظاهر أن هذا المشروع الفظ قد استأثر من ذلك التاريخ بكل تفكيره ، وبالرغم مما كانت تضطرم به نفسه يومئذ من ثورة وطنية ودينية جامحة ، فقد استطاع أن يحافظ على سكينته العادية ، وأن يستمر فى دراسته بانتظام ، حتى جاء شهر مارس من عام سنة ١٨١٩ .

ففى اليوم التاسع من هذا الشهر غادر ساند مسكنه فى يينا ، وكان قد دعا أخص أصدقائه قبل ذلك بيومين ، وأخطرهم بأنه اعتزم السفر لأسباب عائلية ، وسار ساند إلى أرفوت ، فايزناخ ، ثم إلى فرنكفورت فدارمشتات ؛ ووصل فى صباح اليوم الثالث والعشرين إلى الرتفع المشرف على مدينة مانهايم ؛ ثم دخل المدينة ونزل فى فندق فينبرج ، وقيد نفسه فى سجل النزل باسم هنرى ؛ وهنالك سأل عن مقام

كوتسبوى ، وكان الكاتب الكبير يقيم يومئذ فى منزل فخم يقع على مقربة من الكنيسة الكبرى ، فسار ساند إلى هذا المنزل فى نحو الساعة العاشرة ، ولما سأل عن كوتسبوى قيل له إنه يتريض فى بستان مانهايم ، فاستفهم عن صفته وزيه ، ثم ذهب إلى البستان يبحث عنه ، فلم يظفر به ؛ فعاد إلى المنزل يتابع سؤاله ، فأجيب بأن الكاتب يتناول إفطاره ولا يستطيع استقبال أحد .

فعاد إلى فندقه ، وتناول طعام الغداء هادئاً ، وفى العصر قصد إلى منزل كوتسبوى للمرة الثالثة ، وكان الكاتب قد أقام يومئذ مأدبة لبعض أصدقائه ، ولكنه أوصى باستقبال الزائر ، فأدخل ساند إلى غرفة صغيرة ، ولم تمض دقائق حتى ظهر كوتسبوى .

وعندئذ بادر ساند ، فانقض عليه بسرعة البرق ، وأغمد خنجره فى قلبه ، فبدرت منه صيحة واحدة ، ثم سقط على مقعد ، وزهق على الأثر .

وهرعت على الصيحة طفلة فى نحو السادسة شقراء ساحرة وارتمت على القتيل وهى تصيح « أبتاه » ، وكان ساند ما يزال واقفاً بالباب ، فما كاد يرى هذا المنظر ، حتى رفع خنجره وأغمده إلى النصل فى صدره ؛ ولكنه لم يسقط ، ولم يشعر بالموت يسرى إلى أوصاله ، وخشى أن يقع فى يد الخدم الذين هرعوا على الصيحة ، فوثب إلى السلم مترنحاً ؛ ورآى المدعوون فتى شاحباً يقطر منه الدم ، فأفسحوا له الطريق مرتاعين ، وما كاد يخرج إلى الشارع ، حتى لمح ثلة من الشرطة تسير فى طريق المنزل ؛ فاعتقد أنها جاءت للقبض عليه فجثا فى الطريق ، وأغمد خنجره فى صدره للمرة الثانية وسقط مغشياً عليه .

ولكنه لم يمت ، بل حمل إلى المستشفى فاقد الوعى ، ولبث ثلاثة أشهر بين الحياة والموت .

***

ووصل نبأ مصرع كوتسبوى إلى « فينا » بعد أيام قلائل ؛ وفى الحال بدئ التحقيق ، وفتحت الشرطة مكتب ساند وألفت فيه خطابين ؛ أحدهما موجه إلى جماعة الفتية ، وفيه يعلن استقالته منها ؛ والثانى موجه إلى أعز الناس وأقربهم » ، وفيه يقص قصته لأسرته ، ويعتذر فى ألفاظ مؤثرة عن الألم البالغ الذى يسببه لهم ، ويشرح الظروف التى ارتكب فيها عمله والبواعث التى حملته على ارتكابه ، ويصف محنة ألمانيا ، وكيف أنها أصبحت على وشك أن تخسر كل النتائج العظيمة التى أحرزتها بتضحية الآلاف من بنيها ، وكيف أن كوتسبوى يستعمل براعته ومواهبه الخلابة فى إغواء الشباب وإفساده ، ويرتكب فى حق وطنه خيانة بعد خيانة ، ومع ذلك فإنه يبقى معبوداً لنصف الشعب الألمانى ، ويرتدى ثوب الشاعر الكبير ، ويذهب إلى روسيا ليعيش بثمن إجرامه فى بذخ وترف ؛ تلك هى البواعث التى دفعته مضطراً إلى ارتكاب عمله الذى حطم كل أحلامه الجميلة .

وفى هذا الخطاب الذى أرخ فى أوائل مارس يودع ساند والديه وإخوته أحر وداع .

ونقل ساند بعد ثلاثة أشهر من المستشفى إلى سجن مانهايم ، وقد شلت ذراعه ، وضعف صوته ؛ وسارت لجنة التحقيق الملكية فى التحقيق ببطء ظاهر ؛ ولعلها كانت تتوقع وفاة ساند ، وترى من الخير أن يموت ، وألا يقدم إلى النطع ، لأنه لم يكن فى نظرها مجرماً عادياً ، ولكن ساند شفى ، واضطرت اللجنة أن تسير فى مهمتها ؛ وكان قيصر روسيا يطلب إجراء العدالة بإلحاح ، والانتقام لمصرع مستشاره ؛ ولم تر اللجنة مناصاً فى النهاية من إتمام التحقيق ورفعه إلى المحكمة العليا ، ولم تر المحكمة العليا من جانبها بعد أن وقفت على نتائج التحقيق وأقوال المتهم ودفاعه مناصاً من أن تصدر حكمها المحتوم . وصدر الحكم فى الخامس من مايو باعتبار كارل لودفيج ساند مذنباً فى جريمة القتل ومعاقبته بالإعدام ، لكى يكون عبرة لغيره ؛ وصادق أمير « بادن » على هذا الحكم فى الثانى عشر من مايو ؛ ثم أعلن المحكوم عليه فى حجرته بسجن مانهايم فى السابع عشر ، فاستقبله ساند بهدوء وثبات ، وشكر رسولى المحكمة ، ووصفهما بالملكين ، إذ قدما لإنقاذه من آلامه المعنوية القاتلة ، وكتب فى نفس اليوم إلى أسرته يؤكد لها أنه مازال

عند إعلانه بمبادئه ، وأنه يتجه إلى الله ببصره وقلبه ، ويسأله القوة لكي يموت شجاعاً كريماً .

وحدد للتنفيذ يوم العشرين من مايو ، واستقبلت مانهايم وألمانيا كلها الحكم بأسف بالغ ، وقضى ساند أيامه الثلاثة الأخيرة هادئاً رابط الجأش . وسمح له بهذه المناسبة أن يستقبل من شاء من الأصدقاء والمعجبين ، وكان يحادثهم برقة ويشرح لهم مبادئه الفلسفية والأخلاقية ، ثم زاره ثلاثة من رجال الدين وبقى أحدهم معه بضع ساعات ؛ وكذلك زاره الجلاد فندمان تحقيقاً لرغبته ليحادثه فى تفاصيل التنفيذ .

واختارت السلطات للتنفيذ السهل الواقع على طريق هيدلبرج ؛ فنصب النطع هنالك ورأت السلطات أيضاً أن تتفادى ضغط الجماهير الغفيرة التى قدمت إلى مانهايم لتشهد التنفيذ ، فقررت تقديم موعده بضع ساعات ، وقررت إجراءه فى الساعة الخامسة من الصباح ؛ وضاعفت عدد الحراس ، واستقدمت فرقة من الجيش تحوطا لكل طارئ ومحافظة على المحكوم عليه ، وحمل ساند من سجنه فى الصباح الباكر فى عربة يصحبه فيها مأمور السجن والجلاد فندمان ومن حولها الجند ، وكان يرتدى ثياب الطلاب الألمان ، وكان الجو رطباً ، والسماء ملبدة بالسحب ، وكانت مانهايم قد خرجت كلها لرؤيته ، وكانت الأصوات ترتفع متهدجة لوداعه ، وتلقى عليه باقات الزهر من النوافذ ، ولقد تأثر ساند لهذه المظاهر كلها ، فأخذ يذرف الدمع على طول الطريق

وأخذ المحكوم عليه إلى مجلسه من النطع وقرئ عليه الحكم للمرة الأخيرة ؛ ورفع ساند يده قائلا إنه يموت فى سبيل حرية ألمانيا ؛ ثم قص الجلاد شعره ، وأوثق يديه وعصب عينيه ؛ ولم تمض لحظة حتى لمع سيف الجلاد كالبرق وسقط رأس المحكوم عليه ، فخرجت صيحة هائلة من ألوف النظارة ، وهجمت الجماهير الغفيرة رجالاً ونساء على النطع واقتحمته من كل ناحية ، بالرغم من مقاومة الجند ، يغمسون مناديلهم فى دم المحكوم عليه ويتخاطفون حطام الكرسى الذى كان يجلس عليه تذكاراً لهذا اليوم المشهود .

ثم حملت جثة المحكوم عليه ورأسه إلى السجن فى نعش مجلل بالسواد ؛ ودفنت سراً تحت جنح الظلام فى مكان خاص ، غطى بالعشب الأخضر ، فى نفس المقبرة التى دفن بها كوتسبوى قبل ذلك بأشهر ، بيد أن قبره عرف فيما بعد وغدا مزاراً يحج إليه .

واهتزت ألمانيا كلها لتلك المأساة واعتبرت ساند شهيداً وضحية وطنية ، ولبث اسمه دهراً يخبر بين الطلاب وجماعات الفتية رمز الإخلاص والتضحية ، ومازال المكان الذى أعدم فيه فى مانهايم ، يسمى إلى اليوم « موضع صعود ساند إلى السماء »[1]

محمد عبد الله عنان

---

(1) Sands Himmelf ahrt wiese

الغدر البريطاني أمام محكمة التاريخ

جان دارك ونابليون

الباخرة « نورثمبرلند » في ١٧ أغسطس ١٨١٥ .

« أحتج أمام الله والناس على الظلم الصارخ الواقع بي ، وعلى امتهان حقوقي المقدسة . أنا نابليون بونابرت الذي عمدت الحكومة البريطانية معي إلى وسائل ينكرها العرف والشرف للاستيلاء على شخصي ، والحد من حريتي ، مع كوني لست سجينا ولا أسير حرب ، إنما أنا ضيف انجلترا ، وفدت إليها بمحض إرادتي ، وعملا بنصيحة أسدتها إلى بلسان أحد قباطنتها ، وأبلغني معها حسن استعدادها لإكرام وفادتي .. وقبولي مع حاشيتي ضيوفا لديها .. لقد وثقت بهذا الوعد ، وجئت لأضع نفسي في أرض انجليزية بمجرد ركوب السفينة « بليروفون » .

فإذا كانت الحكومة البريطانية ، قد أوعزت إلى قبطانها أن يتلقى ما أبلغنيه وهي تضمر الإيقاع بي فهي قد انحرفت عن مبادىء الشرف ، وأهانت الراية البريطانية أشد الإهانة ، وإذا تنفذ هذا الظلم ، وأصبح أمراً واقعاً فمن العبث أن يتحدث الإنجليز بعد اليوم عن شرفهم وسماحة قوانينهم وعن تقديسهم لمبادىء العدل والحرية ، لأن الكرامة البريطانية والشرف البريطاني قد عدما في هذا الغدر وتلاشيا فيه ، وإني أضع مسألتي أمام التاريخ واثقا من أنه سيحكم بأني — وأنا عدو انجلترا منذ عشرين سنة — قد لجأت إليها طالباً حمايتها ومعتمداً على شرفها وكرامتها فكان جوابها على هذه الثقة .. أن تظاهرت بمد يد الضيافة إلى ، فلما مددت إليها يد القبول قضت على حريتي وشخصي ومستقبلي » .

. . . هذا ما كتبه نابليون بونابرت ، وهو في طريقه إلى سانت هيلانة وهو أبلغ من كل كلام يقال في غدر بريطانيا التقليدي الذي لم يكن أول من كشف عنه نابليون الأثلم منذ قرن ونصف قرن .

هذا بطل مناضل ، قضى عليه حظه العسكري أن يهزم في معركة واترلو بعد أن بذل أقصى الجهد في سبيل التفوق ... وقد رضي بعد الهزيمة أن يتنازل عن العرش حتى لا يثير حرباً أهلية ... وقد نصحه صفوة أنصاره ورجاله وأصدقائه بأن يضرب الحكومة المؤقتة ويستأنف الحرب ويعود إلى السيطرة على الموقف ، غير أنه آثر أن يعتزل الحياة العامة وقبل التضحية في سبيل بلاده وتسهيلا للمفاوضات .

وأخذ بعد الهدنة للسفر إلى أمريكا ، وتظاهرت الحكومة ، بالاتفاق مع بريطانيا بالموافقة على سفره ، وأعدت له سفينة مسلحة .. ثم استبقته عدة أيام ، وهنا شعر نابليون أن في الأمر شيئا .. ، وبدأ يفاوض انجلترا في الأمر ، وقد حاول القنصل الانجليزي إقناعه بأنه لو لجأ إلى بريطانيا لوجد منها كل مظاهر الإجلال والرعاية .. وأكد القنصل لنابليون أن انجلترا هي بلد الشرف والعدل والحرية .. وأنها لا تنحرف عن خلقها التقليدي ، وأنها لن تسلك مسلكا عدوانيا ضد من ألقى سلاحه .... وأخيراً ، قبل الامبراطور الضيافة الانجليزية ..

وكتب نابليون إلى الأمير الوصي على عرش بريطانيا يقول .. « أنا وقد ألقيت نفسي أمام الخلافات الداخلية إلى تقسيم بلادي ، وأمام عداوة الدول الأوربية العظمى المتألبة علي ، فقد قررت إنهاء حياتي السياسية واعتزال كل ما يتصل بالحياة العامة ؛ لذلك رأيت أن ألجأ إلى انجلترا لأعيش في وسط الشعب الإنجليزي واضعاً نفسي تحت حماية قوانينه الحرة ، تلك الحماية التي أنشدها من سموكم بصفتكم أقوى أعدائي وأقدمهم خصومة وأكرمهم نفساً .. » .

وفي الصباح ركب « نابليون » السفينة « بليروفون » وقال لقبطانها الإنجليزي : « إني أركب سفينتك لأضع نفسي تحت حماية القوانين الإنجليزية عالما بأن الشعب الإنجليزي سيقدر هذه الثقة التي يضعها فيه عدو قديم » . .

. . . غير أن « الشرف البريطاني » الذي وصفه القنصل الإنجليزي بأنه تقليد عريق ، قد تبخر وتلاشى .. بعد أن أسلم البطل الذي دوخ أوربا ربع قرن نفسه ، فانتفضت

بريطانيا انتفاضة الغدر بالنسر المهيض ، والأسد الجريح . .

لقد بلغ الدهش منتهاه بنابليون عندما وصلت السفينة إلى « بلايموث » ، وصعد إليها وزير وأميرال . وأبلغاه قرار الحكومة البريطانية بالقبض عليه ونفيه إلى جزيرة القديسة هيلانة مدى الحياة ... وهكذا كشفت بريطانيا عن صورة من الغدر ، لا يمكن أن تشبهها في التاريخ العالمي صورة أخرى .. حقاً ، لو تمثل الغدر في صورة حية لما أمكن أن يكون أسوأ من هذه الصورة بالنسبة لرجل عظيم هزم ، ثم رفع يديه ، وسلم نفسه ، وقال أعتبر نفسي ضيفاً على « الشرف البريطاني » .. واضعاً نفسه تحت حماية الدولة التي تقدس مبادىء العدل والحرية ..

إن نابليون لم يجد بعد ذلك بداً من أن يرفع قضيته ليضعها أمام التاريخ ، واثقاً من أنه سيحكم له ..

الحق أنه ليس « الشرف البريطاني » بل هو « الغدر البريطاني » رمز الدولة التي امتصت حياة الشعوب ، ونكلت بالأبطال والمجاهدين .

● ● ●

ولكن ، هل وقف هذا الغدر التقليدي عند نابليون وعند الأبطال والمجاهدين الرجال وحدهم ؟ كلا ، إن بريطانيا لم تمتنع عن العدوان على النساء .. على العذارى ، على القديسة « جان دارك » .. هذه بطلة أخرى ، قل أن يكون لها مثيل في تاريخ الجهاد والوطنية .. والاستماتة في سبيل الحرية ، لقيت من الغدر الانجليزي أبشع صوره .

... عندما عجز الإنجليز عن هزيمة جان دارك ، وعندما أحسوا أنها قد أصبحت خطراً داهماً عليهم ... ، لجأوا إلى الحيلة والخداع والذهب .. فاستطاعوا أسرها ..

لقد حاولوا إغراءها وإرهابها فلم يستطيعوا ، ولكنهم استطاعوا بالغدر أن يؤلبوا عليها رجال الدين في الكنيسة بعد أن أعلنوا اتهامها بالهرطقة والزندقة والإلحاد .

وعقدت محكمة « إنجليزية » لها كلها .. فهم المتهمون وهم القضاة .. ووقفت «جان» تدافع عن نفسها ، في حجج دامغة .. لقد رفضت حكم القضاة الإنجليز .. وطلبت أن تحاكم أمام البابا ..

ولم يمنع الغدر الإنجليزي من أن يحكم على « جان » ... بالسجن المؤبد ثم يعدل هذا السجن إلى الإعدام حرقاً ...

لقد حرق الإنجليز هذه البطلة المجاهدة التي قادت فرنسا إلى النصر وعلمت الفرنسيين الكفاح من أجل الحرية ..

إن محكمة التاريخ ، ستدين انجلترا وتوصمها بالغدر ، على مواقفها العديدة الآثمة .. في تاريخها الطويل ، وسيكون في مقدمة صور هذا الغدر ، موقفها من جان دارك ونابليون !

أنور الجندي

أنشودة الشتاء

أجل .. أجل .. أقبل الشتاء ولاحت السحبُ .. في السماء
وأقفر الشط .. غير ذكرى تنم من كامن ... الرثاء
وليس في القلب ... يا نديمي سوى الأسى المر ... والبكاء
فقم بنا ... نلتمس ، عزاء فربما ... ينفع العزاء

● ● ●

أجل .. أجل .. أقبل الشتاء ولاحت السحب .. في السماء
وأقبل الطير .. في اكتئاب مردداً .. غنوة المساء !!
يقلب الطرف .. في ابتئاس بروضة .. أصبحت .. هباء
فيلتقي ... واجماً ... حزيناً بلا أماني ... بلا رجاء

● ● ●

أجل .. أجل .. أقبل الشتاء ولاحت السحب .. في السماء
وليس في الروض .. غير صمت فلا سرور .. ولا هناء
ولا زهــور ... ولا ورود تفيض ... بالسحر ... والبهاء
ولا طيــور ... مغردات برائع الشــدو ... والغناء

● ● ●

أجل .. أجل .. أقبل الشتاء ولاحت السحب .. في السماء
وغابت الشمس .. خلف ستر فلا شعاع ... ولا ضياء
ولا بصيص ... من الأماني يحد من شدة الشقاء
وإنما البرد ... ملء روحي يمده الحزن ... والعناء

● ● ●

أجل .. أجل .. أقبل الشتاء ولاحت السحب .. في السماء
فأين ما كان ... من جمال وأين ما كان ... من رواء
وأين ما كان ... من حياة وأين ما كان ... من نماء
مضى .. مع الوهم .. كل هذا من هباء ... إلى هباء

عبد المنعم مراد يوسف

الانسان بين مختلف الدراسات

للأستاذ نزار عبد الباسط الزين

قامت محاولات عديدة من أجل تعريف الإنسان بصورة تجعله متميزاً عن الحيوان ، وتبرز صفاته التي تفرده بين بقية الكائنات وسائر المخلوقات . وقد يبدو ذلك يسيراً سهلاً أمام العقل ، ويُخيل إلى الباحث أنها مشكلة بسيطة الحل . بيد أن الفجوة تظل بعيدة الغور بين ما نراه لأول وهلة وبين حقيقة الأمر ، والهوة تظل عميقة بين فكرتنا النظرية وبين الواقع العملي . فقد يكون في مقدور أي إنسان أن يفرق بين ما ينتسب إليه وما يغايره إذا ما عرضنا الكائنات عليه . بل وفي إمكان الحيوان كذلك أن يميز فصيلته من سائر الفصائل بفعل غريزي لا ندري كنهه على التحديد . ولكن الحد النظري الفاصل يظل رهناً بالآراء المنسوبة إلى أصحاب التفسيرات المختلفة .

فأرسطو ينعت الإنسان بالحيوان الاجتماعي ، وهناك من يذهب إلى حد تسميته بالحيوان العاقل أو الناطق أو الضاحك ، أو بالحيوان القابل للتقدم ، وهناك آخرون يلتمسون في المظهر الفزيائي معالم اختلاف ويقررون أنه حيوان منتصب القامة يمكنه استخدام إبهام يده استخداماً شديد المرونة . ويضيف آخرون إلى ذلك أن دماغه أضخم الأدمغة وأشدها تلافيف ، بحيث تكون القشرة الدماغية أعقد القشور بين المخلوقات الحية .

ولنقبل على هذه النظرات والتعريفات لنرى ماذا سيئول إليه الأمر ، ولندرك مدى الدقة والإصابة في تلك الآراء . فمن جهة النظر إلى الإنسان على أنه حيوان اجتماعي يمكن القول بأن صفة الاجتماعية بغير شك هي أبرز الصفات الإنسانية . ولكن المقصود بكلمة الاجتماع قابل للتأويلات ، ويختلف حسب الألوان التابعة لرغبات الذين يؤيدون كل نظرية على حدة . ويمكن أن نعترض اعتراضاً آخر يجعل هذا المذهب ضعيفاً لا يقف على قوائمه ، فنقول — من وجهة النظر الواقعية — إن ثمة مجتمعات حيوانية لها أسسها وظواهرها مثل مجتمعات النمل والنحل وبعض القوارض كالكاستور . أما من الوجهة النظرية فيمكن الاعتراض على ما يدعيه الاجتماعيون المتطرفون من أن المجتمع هو الذي يخلق الصفات التي يتحلى بها الإنسان ، إذ يقولون إن هناك استجابات مباشرة ترجع إلى طبيعة الجسم المادية ، ومبعثها إثارات اجتماعية بحتة . وهناك استجابات غير مباشرة تتعقد فتؤلف العادات بمرور الزمن .. ومن تداخل العادات يتعين السلوك . والإثارات دائماً اجتماعية ، كما أن الاستجابات تظل مادية مع تعقيدها . ومن زاوية عامة — بخلاف الزاوية الفردية السابقة — تؤثر بعض النظم الاجتماعية في حياة الفرد المادية ، بحيث يصير أداة تحركها التيارات الاجتماعية وتقودها إلى مصيرها المحتوم .

ومن الطبيعي أن نظرية كهذه تسقط من حسابها العوامل الوراثية من ناحية ، والعوامل الروحية من ناحية ثانية . أما العوامل الوراثية فقد تأكد ثبوتها بالتجارب العلمية التي أجريت على التوائم بعد انتسابهم لبيئات مختلفة فكانت العلاقة بين صفاتهم أشد وثوقاً من العلاقة التي تربط أحد التوأمين بإنسان غريب عنه يعيش في نفس بيئته . ويكفينا هذا القدر من التدليل ، لأن هناك تجارب عديدة على الآباء والأبناء تثبت هذه التجربة القاطعة .

وتجاهل العوامل الروحية يعد تعسفاً في البحث ، لأن العلم حين يتخذ موقف المحايد في مسألة لا تصل إليها تجربته ، لا يدل هذا على أن هذه المسألة لا أساس لها من الصحة . وموقف الفيلسوف الألماني كَنْت يُعد موقفاً صائباً إلى حد كبير في هذا المضمار . فقد جعل للعقل إمكانيات ، منها ما يتعلق بالمحسوس والتجربة ، ومنها ما يفلت من هذا النطاق فيتوارى خلف أبواب ما بعد الطبيعة ، ويغيب وراء سحائب الميتافيزيقا بحيث يضل الملاح في سعيه إليها ..

ولنضف إلى هذا أن الحتمية العلمية مسألة تتعلق بالناحية

العملية ولا يمكنها القطع بالقوانين المطلقة ؛ بل إن حتمية السبب والمسبب صارت مزيفة فى المنطق الحديث الذى يقول بالعلاقات والعلية علاقة بالنسبة إلى غيرها . ويجدر بنا القياس أحد أمثلتهم القائلة بأن تتابع الليل والنهار لايدل منطقياً على تسبيب الليل النهار ، أو النهار الليل .

هذا كله فى حدود النظرية الاجتماعية التى تعالج موضوع الإنسان ؛ أما إذا نظرنا إليه من وجهة الفكرة الفلسفية التى تقول إنه حيوان عاقل . فإن أحداً لايستطيع أن ينكر عليه عقله ، وإنما يقع الإشكال فى تفسير معنى العقل : ما هو وماذا نقصد به ؟ لو طرقنا هذه النقطة من هذا الجانب لأفلت الموضوع الذى نبحثه من بين أيدينا دون أن نصل إلى نتيجة يمكن الاطمئنان إليها . فعلينا أن نلجأ إلى افتراضات نناقشها حتى تتبين لنا المشكلة من أطرافها . فهناك افتراض بأن العقل هو الوازن للأحكام المنطقية ؛ ويمكننا أن نقول — ونحن بسبيل التعليق عليه — إن الشعوب البدائية لها نوع من المنطق الخاص الذى ينفى مبدأى الذاتية وعدم التناقض ، فيعتقد الفرد منهم أن له عدة شخصيات وأنه فى أمكنة مختلفة فى نفس الوقت . وعلى العموم فإنه من المستحيل أن يُقارن فى هذا الباب بين عقلية البدائى وغريزة الحيوان . ويزعم افتراض آخر أن العقل مولد الذكاء ؛ ولكن الذكاء كلمة توازى كلمة العقل فى غموضها . وقد وقف علم النفس أمام مدلولها مكتوف الأيدى ثم أخرجها على صورة « العامل العام » الذى درسه سبيرمان عالم النفس الإنكليزى فى بداية هذا القرن . ومهما يكن الأمر فإن « العامل العام » يظل رهناً بالبيئة وبالظرف الاجتماعى ، وبنوع الأفراد الذين يُتخذون كمقياس مقارن . أما تعريف الذكاء بأنه مداراة للموقف واستجابة سريعة صائبة له ، فلا يؤدى إلى أدنى تقدم فى بحثنا ، لأن الحيوان له ذكاؤه الخاص الذى يدارى به موقفه المعين . وهناك افتراض ثالث خاص باعتبار العقل أداة للتقدم . وسنبحثه عندما نعرض لصفة التقدم فى الإنسان .

وننظر بعد ذلك فى القول بأن الإنسان حيوان ناطق وضاحك . فنجد أننا لو فهمنا النطق على أنه « تعبير » لما استطعنا تمييز الإنسان من الحيوان .. فللحيوان تعبيره هو الآخر . ولو أخذناه على أنه كلام لأدخلنا الببغاء فى زمرة بنى الإنسان . أما أن النطق يولد حضارة وينتج ثقافة ، فهذا يتعلق بالتقدم من جهة وبالمذهب الذى سنعتمده أخيراً . لذلك نتوقف عن الحكم مؤقتاً ونترك ذلك لحينه . كذلك نلاحظ أن القردة تشترك مع الإنسان فى صفة الضحك وهو دليل هزيل .. اللهم إلا إذا عنينا بالضحك ما يتصل بالثقافة أو بالنكتة الفكرية . وهذه أيضاً نتركها إلى مناسبتها فى الكلام .

ونصل إلى النظرية القائلة بأن الإنسان حيوان قابل للتقدم . فنتأنى قليلا قبل أن نقطع بأن التقدم هو الحد الواضح الفاصل بين الإنسان والحيوان . . ونتساءل : هل التقدم علاقة زمنية أم هو تحسن القيمة الإنتاجية ؟ أو بعبارة أخرى هل هو صفة ترتبط بالزمن كلما أوغل فى التقدم ، أم أنه حركة ظاهرة تنتاب عملية الإنتاج فى المجتمع ؟

١ — إذا كان علاقة زمنية فالقول باطل من أساسه ، لأن هناك نكسات حضارية وعصوراً ذهبية على حد قول المؤرخين . يضاف إلى هذا ، الوجه الفردى الذى ظهر فى عالم الإجرام وعلم النفس المرضى .. ففى الأول يذهب لمبروزو إلى تعليل الإجرام بنكوص إلى عهد بدائى ، حيث تسيطر شريعة الغاب ، وتبدو آثاره على شكل عاهات عضوية . وقد امتد هذا المذهب إلى علم النفس المرضى ، فذهب بعضهم إلى أن الأمراض العقلية ترجع إلى الضعف الوراثى الذى انضمت إليه مع الزمن عاهات عديدة تظهر على شكل خلل عقلى يستدل عليه من ندوب جسدية . ومع أن هذين المذهبين ضعيفا الحجج والأدلة ، فقد وجدا من يدافع عنهما فى السنة الماضية حينما أقيم مؤتمر علم الإجرام ومؤتمر علم النفس المرضى فى باريس .

٢ — أما لو حكمنا بأن التقدم هو تحسن القيمة الإنتاجية لكان فرضنا صائباً فيما لو توفر لدينا مقياس ثابت نقيس به هذا التحسن . وكلنا يعرف أن القيم لا تقاس بالمعايير الثابتة ، بل تظل نسبية يرتفع مقدارها أو ينخفض تبعاً لوجهة النظر التى ترتكز عليها . فقد يكون التقدم مادياً وهذا نسلم به فيما لو حكم على كمه وتزايدها ، ولكنه لو قيس بالنسبة إلى السعادة الإنسانية لتضاربت الأقوال واحتدمت المناقشات .

ولو كان التقدم روحياً لسمعنا أصواتاً عديدة تعلن عن تنامي الإنسان الحالي في إنتاجه الروحي ومن تأخره المروع في هذا المضمار ، لاحكم لنا إذاً في هذه الناحية إلا بطريقة نسبية لايمكن أن يرتاح إليها مذهب نظري .

ونلتمس من هذا كله لنعرج على نظرية المظهر الفرنسي ، فلا نناقشها هاهنا ، وإنما نكتفي بأن نتتبع المذاهب النظرية . ويقول عارفين إنه لا يمكننا استنتاج شيء حاسم إلى هذه الساعة حين نمر بفكرة نقد الثلاثيف السابقة وصلتها بالمقدرة على التفكير ؛ لأن الصلة بين الدماغ والتفكر لم ينقطع فيها قطعاً طوبوغرافياً .. كما أنه لا توجد هنالك علاقة سبب بمسبب أو شرط لمشروط ، بل هناك علاقة وثيقة واقتران ثابت لم تحل معضلاته بعد . !!

بعد هذا النقد المقتضب للمذاهب الوارده الذكر نحاول عرض مذهب حديث نرى وجاهته ونشعر بأصالته ، وهو مذهب الرمز الثقافي .

يمكننا تصور حياة أي مخلوق كان كتتابع لمواقف مختلفة وفي كل موقف تتحرك بعض الدوافع ، وتبرز بعض الحوافز فتتعين استجابة ما . ويشترك في هذا الإنسان والحيوان .

فالحيوان العطشى يدفعه عطشه لطلب الماء ، فيجده ويشرب منه مطفئاً ظمأه . فالدافع هاهو العطش ، والموقف وجود الماء ، أما الاستجابة فهي الشرب .

والإنسان الذي تأكله الغيرة ، دافعه طرح الخيانة التي تمثل في لاشعوره على محبوبه مثلاً . وموقفه الشائنة بينه وبين هذا المحبوب ، أما استجابته فتختلف بين فرد وآخر ، فهي إما الغضب مع الصراخ ، أو الضرب ، أو قتل معشوقه أو من يظن منافساً له إلخ ...

أما الفرق الأساسي بين الإنسان والحيوان فهو في الرمز للقيمة التي تتعين في الموقف ، رمزاً يتعلق بالثقافة الحضارية . فالقيمة عند الحيوان تطابق الموقف ولا تتعدد ، فالماء للحيوان العطشى قيمته الإرواء . ولكنه للإنسان يختلف في مدلوله اختلافاً واضحاً . فهو يؤخذ بعد تصفيته ويبرد في الصيف وقد يصنع بواسطته بعض المرطبات ، ويكون له وقع مختلف باختلاف الأمكنة والظروف ، إلى آخر ما هنالك من ملابسات .

هذا موقف مادي بسيط تخرج منه رموز ثقافية عديدة . والحال يتعقد بشكل متشابك حين نتعرض لمواقف عاطفية أو فكرية . فلنأخذ موقف المحبوب من محبوبته ولنصورها في نزهة خلوية ، فنجد أن الاستجابات تتعدد بتعدد المحبين ، وتختلف عند اثنين منهم باختلاف الظروف والملابسات ، فهنالك ذكريات تصل وآمال تحوم ، ثم جرأة تستكمع أو ملاطفة تؤثر وتثمر .. إلخ .. إلخ .

وهناك من يذهب إلى أن حياة الإنسان في عصرنا الحديث يمكن أن ترتد إلى بضعة رموز أهمها الساعة — الأحرف — والنقود . أو بتعبير أوضح الوقت والثقافة والاقتصاد .

ففي الزمن ذكريات تتوالى وأخيلة تحيك وآمال تتطلع ، وحاضر يداري ، وهناك ساعات عمل ، ومواعيد محددة وساعات للنزهة والرياضة .. إلخ .

وفي الأحرف المنطوقة أو المكتوبة تنتقل الثقافة على شكل تربية أو بصورة تعليم أو بكتاب أدبي من نثر أو شعر ، أو في بحث علمي ، بها نعبر عن العواطف ونناقش الآراء ، وبواسطتها تتسع المعرفة وتثرى الحضارة .

أما النقود فتسوي علاقاتنا المادية ، وتحل محل التبادل المباشر لتسهيل التجارة والعمل ، وعلى أصوات رنينها ترتفع الأنغام السياسية بمعانيها وأساليبها سافرة في جشعها واستغلالها

فهل يستطيع الإنسان أن يستخدم هذه الرموز التي ابتدعها لصالحه ، أم أن الآلات التي ابتكرها والنقود التي صكها ستقوده إلى نهاية خطرة ؟ .. ! .

المقدمات تلوح بخطورة الطريق ، والعاقبة محزنة إذا طعن الإنسان بالسلاح الذي ابتكره والذي اختال به على أخيه الحيوان ! .

نزار عبد الباسط الترب
طالب دكتوراه في علم النفس بباريس

● فقد ختم السيدة اقتراح محمد يوسف بجابدين وليست مدينة لأحد وإنما ظهر أي شيء بالختم الفاقد يعتبر لاغي .

العمال والمذاهب الاقتصادية

فى القـــرن العشرين

للأستاذ أحمد طه السنوسى

يقوم العمال بالدور الإيجابى فى الإنتاج فى المجتمعات الاقتصادية ، لذا كانت ولا تزال لهم الأهمية الكبرى فى سير هذه المجتمعات وتوجيهها . ولقد ظلت أحوال العمال طيلة العصور الوسطى متدهورة كل التدهور ، تنتقل من سوء إلى سوء ، حتى جاء القرن العشرون الذى يعتبر عصر المدنية الحديثة والتطور العصرى ، فبقدوم هذا القرن تبدلت هذه الأحوال وتغيرت إلى حد بعيد .

فقد ظهر بتقدم هذا القرن كثير من المذاهب الاقتصادية التى أخذت على عاتقها حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التى كانت قائمة فى عهود الانحطاط والرجعية ، وأهم هذه المشاكل دون منازع مشكلة الطبقات وتطاحنها ، وأهم هذه الطبقات طبقة الممولين أو أصحاب رءوس الأموال وطبقة العمال .

ولقد كانت طبقـة العمال هى الطبقة المغبونة المتأخرة المعذبة دائماً ، بالرغم من كثرة عددها ووفرة أفرادها ، بالنسبة لطبقة الأغنياء ، فى حين كانت هذه الأخيرة طبقة محظوظة متمتعة بشتى ضروب التمتع ، على الرغم من قلة عددها بالنسبة لطبقة العمال . ولكن المسألة هنا ليست مسألة عـدد أفراد ، بل تبين بجلاء أن « المال » هو كل شىء فى تنظيم الطبقات ، وعليه قام محور مسألة « تطاحن الطبقات » !

بل نحن لا نعدو الحقيقة إذ نقول : إن هـذه المذاهب والأنظمة الاقتصادية ما قامت إلا من أجل التنظيم الاقتصادى فى المجتمع ووقف التطاحن بين الطبقات ، وإيجاد حل عادل يليق بهذا العصر الحديث لمشكلة طبقة العمال ، تلك الطبقة الكادحة ، التى يقوم عليها البناء الاقتصادى والحياة العامة فى المجتمعات ، وبالرغم من ذلك ترزح تحت كلكل من الظلم والاستعباد والفقر والجهل والمرض وعدم التكافؤ فى المعيشة مع ما تقوم به من دور فى الحياة . !

ومهمتنا هنا أن نتعرض للوجهات التى أبدتها هـذه المذاهب تجاه العمال ، والتنظيمات التى وضعتها لتنظيم طبقتهم وتحقيق أهدافهم وحقوقهم فى المجتمع :

فتقول الاشتراكية : إن العمال يقومون بالإنتاج الحقيقى أى الدور الإيجابى ؛ فهم يقدمون من جهتهم أهم شىء، وهو « العمل » ويشاركهم أصحاب رءوس الأموال بتقديم « رءوس الأموال » ، ولذا كان يجب والحالة هـذه أن يحصل العمال على قدر يشابه بل ويكافىء قدر ما يحصل عليه أصحاب رءوس الأموال ، ولكن حدث أن حاز هؤلاء الأخيرون القسط الوافر فى التوزيع ، أما العمال فلا يحصلون على الضرورى إلا بشق الأنفس .

والمجتمع فى نظر الاشتراكية ، إذ يتكون من هاتين الطبقتين : طبقة رءوس الأموال وهى أقلية فى عددها ، وطبقة العمال وهى طبقة الأكثرية الساحقة فى المجتمع ، ليس بمجتمع عدل يستطيع أن يحقق القوانين والعدالة فى الحياة الاقتصادية ، إذ أن الطبقة القليلة العدد الحائزة للأموال هى الطبقـة التى تقبض على المجتمع ومراكزه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وتسيطر على الأحوال التشريعية والعسكرية ، فتستطيع بذلك أن تعصف بحقوق الطبقات الأخرى ما دامت مثبتة الأموال مهما كثر عددها ! إذاً فقيام الدولة الاشتراكية معناه القضاء على هـذا العبث الظالم وهذه السيطرة الفارغة والفوضى العارمة ، وتحقيق عدالة الطبقة العاملة .

وتقول الاشتراكية فى التوزيع : إن الفرد يجب أن ينال من ثمرات الإنتاج بقدر عمله ووفق جهوده ، بحيث

يكون هذا القدر كافياً لأن يضفى عليه مستوى لائقاً من المعيشة ، وبذلك يتحدد الأجر الذى يحصل عليه العامل وفق مقدار العمل الذى يقوم به :

A chacun selon son travail

وتذهب الاشتراكية المتدلة إلى التخفيف من وطأة المذهب الاشتراكى وتطبيقه رويداً رويداً، على أساس من المصلحة والسلم والتطور ؛ فتقول بإباحة إنشاء النقابات ، وتنظيم مسائل العمل وساعاته وعقوده وتعويضاته ومسائل الإضراب وقيوده ، وغير ذلك من السبل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تحقق للعمال عدالة اشتراكية فى مجتمع راق متوازن ، وقد ذهبت إلى ذلك الجمعية الفابية Fabian Society .

وتضع الاشتراكية الخيالية تنظيمات مجردة عن الواقع لتنظيم مسألة العمل والعمال؛ فهذا الأستاذ Français Fourier يقول بقيام جماعات من الصناع تملك كل واحدة منها مصنعاً بمعداته وآلاته ؛ وفى توزيع الأرباح عليهم ، يراعى تدرج نسبى فى التقسيم ، فى أعلاه نصيب العمال ، وبعد ذلك نصيب المموّلين ثم نصيب الإدارة ؛ وحبذ كذلك قيام المصانع التعاونية على أساس آراء Robert Owen وتنظيماته .

ولو حاولنا أن نستخلص رأياً يخص طبقة العمال فى الاشتراكية الفوضوية L'Anarchisme فسوف لا نجد إلا أن هذه الفوضوية تبغى تحقيق المساواة التامة بين الأفراد جميعاً على حد سواء ، ولكن على أساس من رفض فكرة الدولة ونظامها ، وإلغاء فكرة القانون والدين ، أى على أساس الفوضى ...

وترى الاشتراكية الوطنية ، التى قامت فى ألمانيا National Socialism أن النقابة لا داعى إلى قيامها ، وأن للصنع الواحد وحدة قائمة بذاتها ، تتكون من صاحب العمل ومن العمال ، والأول زعيم هذه الوحدة أو الجماعة ، والآخرون بمثابة حاشيته وتابعيه ، وفى الإدارة ضربان من الأسهم ، الأول له حق التدخل فى شئونها النظامية والمالية ، والثانى ليس له هذا الحق ؛ لأنه لا يعدو أن يكون مرءوساً غير مسئول ، يدخل فى نطاق حاشية الزعامة العملية فى الجو الصناعى ؛ وتشجع هذه الاشتراكية الألمانية العمال الزراعيين الذين يتفوقون فى الإنتاج ، وتوقع على المقصرين المهملين العقوبات ...

أما الشيوعية فتريد أن تقيم الدولة على أيدى العمال والفلاحين فى المجتمع ، فقد ثبت أن تولى الطبقات المالية القوية الحكم ، يبد أنها أوضحت عن فشل وسوء نية تجاه طبقة العمال الكادحة التى بدونها يتقوض البناء الاقتصادى ..

فالشيوعية تسيطر دولتها على رءوس الأموال ووسائل الإنتاج جميعاً — وتقدمها بالتالى إلى العمال ، وهى تفرض العمل على الجميع دون استثناء ، مهما كان العمل الذى يلائم الفرد بدنياً أو ذهنياً ، وليس لديها تفرقة بين الأفراد ، بل الكل فى نظرها سواء ، يقدمون العمل الذى يستطيعون القيام به ، ولكن الأجر لا يتحدد على أساس عملهم وجهودهم كما تقول الاشتراكية ، وإنما على أساس « حاجتهم » !.

ليس على العامل وفق مذهب الشيوعية إلا أن يقدم العمل وينال بعد ذلك ما يحتاج إليه من ضروريات ، ويدع للدولة كل ما تراه كفيلاً بإسعاده مهما كان سبيلها فى ذلك الحد من حريته ، أو حتى القضاء عليها ...

لقد أرادت الشيوعية أن تقضى على طبقة رءوس الأموال ، فتنزع منهم ملكياتهم ، وتنصب العمال والفلاحين ليسيروا أمور الدولة ، فيضحى الحكم آنذاك مصدره السلطة الشعبية العامة المستمدة من الأمة ذاتها لا من الأقلية السعيدة فقط .

والثروة القومية فى نظرها لم تكن موزعة توزيعاً عادلاً ، فهى كلها أوجلها فى يد أقلية من الأفراد ، هم طبقة الأغنياء والملاك فى القديم ، ثم صارت فى يد طبقة المموّلين وأصحاب الأعمال ؛ وبالرغم من أن العمال يقومون بالدور الإيجابى فى الإنتاج وخلق ثماره ، إلا أنهم لا يحصلون إلا على جزء ضئيل يحدده لهم أصحاب الأعمال ، بالرغم من أن ثمة تكافأ بين مهمتى الطبقتين ، فالعمال إن لم يقدموا «العمل» لم يستطع أصحاب رءوس الأموال الربح والكسب ، وهؤلاء

إن لم يقدموا للعمال « رءوس الأموال » لم يستطع العمال العيش ، فوجب أن يكون كل فرد في كلتا الطبقتين معادلاً للآخر ، ولن يحدث ذلك إلا بالقضاء على الملكية وفرض العمل على الجميع وتحقيق المساواة الاقتصادية ، فلا من فرق ولا تمييز بين طبقة وأخرى أو فرد وفرد ...

أما الفاشية فهي تختلف في تنظيمها العمل للعمل والعمال عن المذاهب السالفة والقادمة الذكر ! فهي تقوم على أساس « النقابات » ودولتها هي الدولة التعاونية أو النقابية ! فتشكل نوع من أنواع الأعمال نقابة أو اتحاد يضم ممثليه بشروط معينة ، بالرغم من اعتراف الفاشية بحرية إنشاء النقابات ، وتبغي الفاشية تحقيق صالح العمال وصالح أصحاب رءوس الأموال على حد سواء ! فالدولة وهي المنوط بها القيام على التنظيم والنظام الداخلي يقضي بها أن تجد التنظيم الشامل للعلاقات بين هاتين الطبقتين ، ورأت أن هذا التنظيم لا يكون إلا على أساس قيام حكومة التعاون أو النقابات ، ويشترط للاعتراف بالنقابة قانوناً ، وتمثيلها لأهل الحرفة التي قامت بشأنها عدة شروط ، منها أن تكون محتوية على الأقل على عشر عدد العمال الذين يقومون بتلك الحرفة ، وأن يحتوي برنامج النقابة على رفع المستوى الاجتماعي للأعضاء من الناحية الاقتصادية والخلقية والأدبية ، ويشترط في العضو بعض الشروط ، وفي المديرين كذلك تشترط شروط ...

لم تدع الفاشية للدولة أن تقوم هي نفسها بدور الإنتاج ، فذلك ما تكفلت به الدولة التي تقوم على أساس اشتراكي أو شيوعي ، وإنما منحت الفاشية للدولة تلك الطريقة الجديدة للإشراف على الإنتاج والاستهلاك .

والنقابة في نظر الفاشية هي المنوط بها فض المنازعات التي تقوم بين أصحاب الأعمال وبين العمال ، فإن استحكم الخلاف ولم تستطع النقابة أن تحسمه ، فإن القضاء الأهلي يختص بعد ذلك بالفصل في مثل هذه الأمور .

وعلى الدولة أن تقوم بالتفاهم بينها وبين الأعمال الكبيرة ، حتى يتسنى لكافة يسير بالدولاب الاقتصادي سيراً حسناً على أساس الفكرة النقابية .

وتقول الفاشية إن أعظم المشاكل خطراً في المجتمع هي المشكلة الاجتماعية La Question Sociale ، وهي مشكلة ناجمة عن التطاحن القائم بين الطبقات الاجتماعية في الدولة La lutte des classes ، وترى أن الحل الصحيح لهذه المشكلة أن تعمل الدولة على صفاء الجو بين العمال وأصحاب رءوس الأموال ، وذلك بالتوفيق بين مصالح هؤلاء ومصالح أولئك ، بمعنى ألا يضطر أصحاب رءوس الأموال إلى الخسارة من جراء رفع أجور العمال ، وألا تخفض هذه الأجور ليكون ذلك سبباً في زيادة كسب المولين ، وكذلك بمراعاة المصلحة الاجتماعية العامة : مصلحة جميع أفراد الشعب ، لا مصلحة الطبقتين المذكورتين فحسب ، لأن في الخلاف والمنازعات التي تقوم بينهما ما يهدد الأمن الداخلي وما يقلب الأوضاع ، مما يكون له أسوأ الأثر في المجتمع .

أما مذهب الرأسمالية وموقفه من العمال ، فيحتاج إلى بحث آخر ، نرجئه إلى فرصة أخرى قادمة ، إن شاء الله .

أحمد طه السنوسي

نظرية شوبنهور فى الفنون

[العمل الأدبى كالمرآة .. فلا تنتظر من المرآة أن تعكس صورة ملاك إذا نظر فيها حمار !] .

(شوبنهور)

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

كان شوبنهور فناناً بطبعه إلى جانب ما عرف عنه من أنه فيلسوف . كان فناناً فى أسلوب كتابته كما امتاز بالروح الفنية فى طريقة تفكيره ! ولعله لم يؤثر عن فيلسوف قط جمال أسلوب وحيوية تعبير وروعة أداء ، كما أثر عن شوبنهور (وأفلاطون الذى كان دائماً مصدر وحى لشوبنهور كما يقول هو نفسه) . وإن دل تغلغل الروح الفنية فى عمله الفكرى على شىء ، فإنما يدل على مدى ما تمتع به عقله من قوى وملكات ومقدار ما أثرت فيه ظروف حياته الخاصة . فشوبنهور فيلسوف مفكر ، ولكنه شذ فى الحقيقة عن الطريقة الأستاذية ، التى اتبعها بوضوح كنت ، وهجل ، فى رسم مفاهيمهم الفلسفية ، وبناء كيانهم الفكرى . كذلك لا نعدم لدى شوبنهور ميلاً أدبياً ظاهراً ، ولا يزال أسلوب الكتابة الذى اختص به موضع إعجاب المفكرين والنقاد ، ولا تزال طريقته فى التعبير محل ثناء كل من ألقى نظرة — ولو يسيرة — على مؤلفاته . فهذا عامل أساسى من بين العوامل التى ينبغى أن نتطلع إليها ونحن بصدد الكشف عن مقوماته الأدبية واتجاهه فى تفسير الفنون .

وكان شوبنهور متشائماً كذلك .. ورث التشاؤم بمزاجه واعتنقه بعد ذلك بفكره ، ثم جنح إليه بخياله . ويرد بر تراند رسل تشاؤمه إلى ذوقه ومزاجه الخاص وإلى تكوينه الطبيعى ، ولكن باحثاً مع ذلك لا يستطيع أن يهمل هذه الموجة العامة ، وأن يتجاهل ذلك الاتجاه السائد إبان النصف الأول من القرن التاسع عشر ... موجة التشاؤم والاتجاه السوداوى فى نفوس الشعراء والأدباء ، أمثال بيرون فى انجلترا وألفريد دى موسيه فى فرنسا وهينى فى ألمانيا . كذلك لابد من أن نربط بين روح شوبنهور ونظرته ، وبين نبرات الحزن العميق فى ألحان شوبان وشوبرت وبيتهوفن ، لأن من الصعب أن نقصر تفسير التشاؤم عند شوبنهور على مزاجه الشخصى ، طالما كان من السهل إيجاد بذور كامنة لاتجاه عام فى الإحساس والتذوق . بل يصعب — إن لم يكن من المستحيل — أن نعزل شوبنهور عن الميول الرومانتيكية التى سادت حينئذ ! وقليل من التأمل فى تفكير شوبنهور نفسه سيكون كافياً لأن يردنا إلى عناصر وأصول عديدة من صميم المذهب الرومانتيكى .

وليس من الصعب على الباحث فيما أعتقد أن يقرن بين الحركة الرومانتيكية وبين فلسفات شوبنهور ونظراته وآرائه ، فنحن نعرف من تاريخ شوبنهور ومن وقائع حياته الجارية أنه عمل ، تحت تأثير الرغبة الشديدة التى أبداها والده ، كاتباً فى إحدى المنشآت التجارية فى هامبورج سنة ١٨٠٥ ، ولم يستطع التخلى عن أوضاع حياته على ذلك النحو إلا بعد أن مات والده . كان يمقت تلك الحياة وينزع إلى حياة علمية يحقق فيها رغباته وميوله ، ولكنه تأثر مع ذلك بأشياء هامة ، وتركت هامبورج فى قلبه خيوطاً قوية من نسج شخصيات كبيرة فى الحركة الرومانتيكية مثل إلينيك ونوفاليس وهولدن ، وهناك أيضاً — على أيدى هؤلاء — هام باليونان القديمة وأقبل على حضارتها وعرف كيف يستفيد منها واعتاد — متأثراً برومانتيكى آخر هو إشليجل — أن يجنح إلى تفكير الهنود ، وأن ينظر فى آثارهم ، ويعجب بدياناتهم .

ونحن نعلم من تاريخ الرومانتيكية أنها ليست مجرد نزوع أدبى وميل فنى .. ليست مدرسة شعر ومذهب نقد فحسب ، وإنما هى — بالإضافة إلى ذلك — طريقة خاصة فى الحياة وسلوك ذاتى فى المعيشة ، فهى — إلى جانب كونها

طريقة مذهبية في النظم الفني — عندك منهجاً حياً في الشئون الفردية وتقدم أصولاً وضعية في الحياة ضمن ما تقدمه من أصول نظرية في الأدب . أو بعبارة أخرى يمكن النظر إلى الرومانتيكية على أنها مدرسة فن وحياة بمعنى الكلمة ، وعلى أنها طريقة في النظر والعمل على السواء ؛ ولذلك نجد أن معظم الفنانين والأدباء المتحمسين إلى النزعة الرومانتيكية قد جعلوا من حياتهم نفسها عملاً فنياً وعاشوا أعمارهم بطريقة معينة تلائم نظرتهم وتتفق وميولهم . فإذا كان شوبنهور قد تأثر بالرومانتيكية فهو لم يخضع لها في معالمها ومبادئها فقط ، وإنما اجتذبته ملامحها إلى حد أن اصطبغ تفكيره ، في الفلسفة ذاتها ، بأسلوبها . وتكونت لديه عادة القياس إليها ، وأقل نظرة نرمى بها إلى المدرسة الرومانتيكية وإلى فلسفة شوبنهور ، ستكون كفيلة بأن تكشف لنا عن حقيقة لها أهميتها في هذا المجال ، وهي أن ثمة اتصالاً قوياً وعلاقة واضحة فيما بين آراء شوبنهور عن الفنون وآراء زعماء الرومانتيكية في الحياة . وأعتقد أن الأمر في هذا الاتصال ليس مجرد تشابه أو مجرد تناظر ، لأن العناصر الفكرية المثبوتة في غضون التآليف الرومانتيكية قد برزت بروزاً واضحاً في أعمال شوبنهور وآرائه الفلسفية ، ولأن طبيعة الاتجاه الروحي المستكن في أشعار لامارتين الغنائية الحزينة ، وفي قصائد نوفاليس الأصيلة هي نفسها الغالبة على معتقدات شوبنهور .

يقول فاجيه في بعض كلامه عن الحركة الرومانتيكية في الأدب : إن الأصل فيها هو الإخفاق من الحقيقة ، والرغبة في تحاشيها . ولو أننا تأملنا تفكير شوبنهور وفلسفته الخاصة بالعالم كإرادة ومثال لوجدنا نفس التيار مترجماً إلى لغة العقول وعثرنا على عين الحقيقة معبراً عنها بأسلوب الفلاسفة ؛ فالفن هو نوع من الهرب ، وسبيل من سبل النجاة والخلاص ، ولذلك يقول فيليب مديتش* — في كتابه عن نظرية المثل لدى شوبنهور — إن الهدف المقصود من وراء كل فكرة جمالية عنده هو التأمل ، وحسبنا أن ندرك شروط التأمل لدى شوبنهور كيما نعرف مدى ارتباطه في ذلك التفكير بالنظرة الهندية (النرفانا) ، وبالطريقة الرومانتيكية . ذلك أنه من الضروري في اعتقاده محاولة الانقطاع كلية عن الإرادة الفردية وعن حدود الزمان والمكان وعن لوازم الحياة الدنيوية من أجل الوصول إلى معرفة الأفكار سواء ما كان منها متصلاً بالمسائل العقلية أو بالحالات الوجدانية الجمالية .

وحقيقة الفن كما تصورها شوبنهور مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمذهبه الفلسفي وبفكرته الخاصة في تفسير الحياة والوجود ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تجزئ فكرته عن الفنون وأن تفهمها بمعزل عن صميم اعتقاده في الإرادة . وشأن شوبنهور في ذلك شأن هيجل وشلنج ، فعندهما — كما هو الأمر عنده — يستحيل أخذ نظرية الفن جانباً أو النظر إليها بوصفها شيئاً مضافاً إلى أصول اعتقادهم الفلسفي . ولكن ما هي ملامح ذلك الاعتقاد الفلسفي الذي أدى إلى وجود هذه النظرة التي ارتآها ، وآمن بها شوبنهور في تفسيره للفن ؟

رأى كنت فيما رآه أن حقائق العالم تنقسم إلى نوعين : نوع ظاهر ونوع باطن . فهناك عالم ظاهري ندركه بالحواس والأفكار ، وهناك عالم باطن لا سبيل إلى إدراكه أو التوصل إليه . والحقيقة الباطنة أو الشيء في ذاته لا يقع في حدود التجربة البشرية ، وإنما هو بعيد عن النطاق الذي يؤثر فيه كل من الزمان والمكان ، وقد تناول شوبنهور عالم الباطن أو الشيء في ذاته وأعطاه معنى جديداً واحتفظ له بصفات كثيرة من تلك الصفات التي كان قد أسبغها عليه كنت .. سماه الإرادة وقال إن هذه الإرادة لا زمان لها ولا مكان ، وإنها تختفي وراء كل مظهر من مظاهر الحياة في العالم الدنيوي ، وهي واحدة على الرغم من التعدد البادي في الأمور المرئية الجزئية ، وهي كلية عامة بحيث تشمل الوجود بأكمله وتتمثل في تطورات الطبيعة بأسرها . وكونها إرادة فذلك معناه الشقاء ! فكل إرادة هي مصدر للشقاء ، وسبب من أسباب التعاسة وداع من دواعي الألم ؛ ولذلك فهذه الإرادة التي تعم الوجود شريرة .. وهي أصل* في كل ضروب المعاناة والألم في حدود معاشنا الأرضي* . فالإرادة معناها الرغبة والاشتهاء ، ولا وجود

الرغبة أو الاشتهاء بغير مطلب التحقيق . وهنا تصطدم الإرادة ببعد المسافة بينها وبين الأمل .. وحتى لو تحقق الأمل ، فكم ذا من الآمال قد اندثرت في الطريق إبان النزوع إلى تحقيق هذا الأمل وحده ؟ ولذلك فإن عالم الإرادة هو عالم شقاء ، لأن الرغبة لا حد لها ، بينما يسهل علينا جداً تحديد الأمداد التي تنتهي إليها كل محاولة لتحقيق رغبة وفض إمكانية . وليس هنالك من يستطيع أن يزعم عن عملية التحقيق لأي هدف أو رغبة أنها مرضية ، بل — على العكس من ذلك — نحس في قرارة نفوسنا بأن كل تحقيق هو ضرب من الإفساد للأمل المرجو ، وبأنه ما من شيء يؤدي إلى سخافة المطلب المنشود مثلما تؤدي إليه حيازته وضمانه .

هذا هو العالم الذي تستتر وراء مظاهره إرادة الحياة ! ولكن أين جانب المثال من هذا الوجود ؟ هنا يظهر بوضوح أثر أفلاطون على فكر شوبنهور . فقد استطاع شوبنهور أن يأخذ المثل (أو الصورة إذا شئنا) مكاناً متوسطاً بين الإرادة الخفية وعالم الأشياء الظاهرة ، وقال إن الإرادة تحقق موضوعها فيها مباشرة ، وبذلك نعدها مراحل في طريق التحقق السابق على الكثرة . أو هي عبارة عن الأنواع والصور الأصلية التي لا تتغير وكيفيات الأجسام الطبيعية ؛ وتقف من الظواهر الفردية بمثابة النموذج من النسخ ، وتتصف فيما عدا هذا بالخلود وعدم الخضوع للقوانين التي تتحكم في عالم الظاهر ، وعقولنا — هذه العقول التي ترزح تحت أعباء الإرادة الفردية وتثقلها أشكال المعرفة العادية من زمان ومكان وعلية — لا يمكن أن تتطلع إلى عالم المثال ، ولا تملك القدرة على تقبل المعارف الخالصة البريئة ، وإنما يكون محصولها مجرد أشباح من المعارف العملية . وذلك لأن العقول في هذه الحالة إنما تسيرها الإرادة ... ويغدو جلياً بعد هذا ، أنه ما دام العقل في سبيله إلى أداء وظيفته الطبيعية ، وأنه طالما كان خاضعاً لضرورات الحياة سيكون مستحيلاً بالنسبة إليه أن يتوصل إلى معرفة المثل ، وأنه إذا شاء إدراك هذه المثل فعليه ، أولاً وقبل كل شيء ، أن يتخلى عن المبادئ التي تشتت روحه وتوزع قواه ، وأن يخرج على مؤثرات الزمان والمكان والعلية ، وأن ينزع عن كتفيه مستلزمات الإرادة الفردية . وذلك كله لكي ينفض عن كاهله غبار العلم الواقع .. عالم الإرادة الشريرة .. ويستحيل إلى عقل خالص .

وهذا العقل الخالص بالإضافة إلى المثال يضمان الأسس التي يتركب منها العيان الجمالي ويلتحمان في حالة شعورية واحدة . هذه الحالة هي الشرط الأول والأخير لعملية التأمل حيث لا يحب الإنسان ولا يكره ، وإنما يتأمل فحسب ، يتأمل المثال الخالد وقد تبدى في الشيء القائم أمامه . فالعيان الجمالي أو المشاهدة الذوقية ليست سوى تمثل أو استحضار الصورة (أو المثال) بواسطة العقل الخالص ، لأنه في حالة العيان الجمالي يستحيل الشيء القائم أمام الشخص إلى مثال نوعي جملة واحدة ، كما يستحيل الشخص نفسه (أو الفرد) إلى ذات خالصة عارفة . وهكذا تتحقق للنفس الإنسانية طريقة للخلاص بالحيازة على اللذة الجمالية .

وفي الفنون يمكن — أكثر مما يكون هذا ممكناً في سواها من العلوم والمعارف — أن تتم للنفس عملية التأمل على وجهها الأكمل وأن يتحقق لها الخلاص المؤقت من الزمنية والرغبة ، وذلك لأنه من الممكن في أبواب الفن أن يتجنب الإنسان ما لا أهمية له ، وأن الشيء المدرك — أي العمل الفني سواء كان قصيدة أو لوحة أو نغماً — مبتور الصلة بما يهيج الرغبة ، ولا شأن له بإثارة المطالب العادية ؛ فمن المحتمل مثلاً بالنسبة إلى الإنسان الذي يواجه تفاحة ناضرة أن يشتهي أكلها ، ولكن باب الاحتمال يكون مقفلاً إذا كان ما يواجهه هو لوحة قد رسمت عليها التفاحة نفسها بدقة . فها هنا في الحالة الأخيرة نجد من الوضع نفسه معونة على التأمل بطريقة جمالية خالصة ، ومن الممكن بطبيعة الحال أن يتأمل الشخص تفاحة حقيقية من وجهة نظر جمالية خالصة ، ولكن كونه يعرف أن التفاحة المرسومة على اللوحة غير حقيقية ولا يمكن التهامها ، من شأنه أن يسهل له عملية التأمل الجمالي الخالص وأن يعينه على التحرر من عبودية الإرادة .

فالخلاص إذاً بالفن ؟ ومهمة الفن على هـذا الوجه هي التحرر من عبودية الرغبة وقيود الإرادة عن طريق التأمل الجمالي ؛ وسواء كان التأمل الجمالي متعلقاً بعمل من أعمال الفن أو بمشهد من مشاهد الطبيعة ، فإنه يكفي أن يشير موضوع التأمل إلى دلالة ، أو معنى متميز من الأشكال الطبيعية ، حتى يثير الإحساس بالجمال وحتى يؤدي إلى تمام الشعور بما هو جميل . فالجمال عنده — على هـذا الأساس — هو الشكل الدال أو هو المثال المقدم إلى الإدراك الحسي في حدود الواقع . ولذلك استطاع شوبنهور تعريف العمل الأدبي بأنه تعبير الفنان عن مدى فهمه وإدراكه للمثال (بالمعنى الخاص بفلسفة شوبنهور كما تقدم) . وإذا كان هذا هو اعتقاد شوبنهور في الفنون فسيترتب على ذلك قوله بأن العبقرية ليست موحـدة الاتجاه أعني ليس عملها مقصورا على استيعاب المثل ، وإنما يتطلب بالإضافة إلى ذلك مقدرة على إعادة إنتاج هذه المثل أو إعادة التعبير عنها في الرسم والنحت والشعر وهندسة البناء والموسيقى .

وهاهنا نجد أنفسنا بإزاء صـعوبة أولى مصدرها ذلك التقارب الواضح بين سبيل المعرفة عموماً وسبيل الفن على وجه الخصوص . فإذا كان التأمل المثل سبيل كل منهما — الفن والمعرفة — فكيف يتسنى لنا أن نخلط هـذا السبيل أو ذاك وأن نميز الأول من الأخير ؟ لا نملك والأمر كذلك ، إلا أن نشير إلى تفرقة وضعها شوبنهور بين عمل الفنان وعمل الفيلسوف عند ما جعل خاصية الفنان — كالشاعر مثلا — إبراز الصور (أو المثل) المدركة على نحو تجسيمي وبطريقة واقعية ، بينما خص الفيلسوف بطريقة مجردة في تعبيره عن الصور أو المثل التي يلتقطها أثناء عملية التأمل ، والصلة هنا بين أرسطو وشوبنهور ليست ضعيفة .. كذلك يلاحظ أن الفنون تصل إلى الغاية وتحقق أهدافها ، بينما تعجز العلوم الطبيعية إذ تتوقف مسائلها على ما يجد من اكتشافات وما يرد من المعلومات ، والتاريخ هو الآخر لا يمكن أن يتوقف عند مرحلة بالذات طالما كان الزمن في توالٍ مستمر وطالما كانت الليالي حبالى على ما نرى . ثم إن التاريخ يهتم بالجزئيات ويعنى بالمسائل الفردية ، في حين يتعلق الشعر بالمسائل الكلية ويتزع إلى المثل فيحيلها إلى نماذج مجسمة ، وهكذا يفضل الشعر كل شق من شقوق المعرفة أو هو على الأقل يتفرد بسمات خاصة قلما يتقابل فيها مع ألوان المعارف الأخرى .

أما الصعوبة الثانية فتأتي من كيفية التفرقة بين الرجل العادي والرجل العبقري في هذا المضمار . فالناس سواسية إذاً طالما كان بمقدور كل أحد أن يتطلع إلى المثل وأن يتخلى عن الرغبات في سبيل إتمام عملية التأمل ، ولكن شوبنهور يتخطى هـذه الصعوبة بأن يقول عن ملكة استيعاب المثل بوضوح وإبرازها بوضوح أيضاً في تعبير أدبي ، إنها خاصة بأفراد قلائل .. من الضروري ولا شك أن تكون موجودة ، ولو بدرجة بسيطة ، في كل الأفراد ، وإلا استحال على الناس تذوق الأعمال الأدبيـة ، كما هو مستحيل بالنسبة إليهم أن يعبروا عما يتوصلون إليه في عملية التأمل . اللهم إلا أولئك الذين يصعب عليهم تقدير الجمال وتذوقه بأي معنى ، فمن المستحيل بالنسبة إليهم أن يتجردوا عن الرغبات الحسية ويصعب عليهم بالتالي تقدير أي دلالة من دلالات الجمال . فباستثناء أولئك ، يكون كل الناس مهيئين للنفاذ من دائرة النفس المحدودة وقادرين على الخروج من أبواب ذواتهم الضيقة والتطلع إلى المثل (أو الصور) ومعاينتها وجهاً لوجه أثناء زمن وجيز . ومن الشاهد أن بعض الناس لا يكون مؤلفاً أو شاعراً أو موسيقياً ، ومع ذلك فهو يملك القدرة على تذوق الأعمال الفنية تذوقاً عميقاً ، ويمكنه الاستمتاع إلى حد كبير بالألحان والقصائد واللوحات . ذلك أن الفنان يدعونا إلى استجلاء العالم في بريق عينيه ، ونستطيع — عن طريقه — أن نتوصل إلى ما لا يمكن أن نتوصل إليه بملكاتنا الطبيعية ، وهذه هي حدود الفنان وحدود الشخص العادي .

وأهم من هذا كله تفرقة أخرى يضعها شوبنهور بين الإنسان العادي والرجل الفنان ، وهي أن هذا الأخير يتمتع بمقدرة عملية تمنحه ، على الأداء الفني ، وحرمان الرجل العادي من هذه المقدرة فاصل قوي بين العبقرية وملكة التذوق . لقد زعم كروتشه أن عملية الحكم والتذوق تتضمن التعبير

التنسيق الفقرى فى العمل الأدبى

للأستاذ محمد محمود الدش

التنسيق الفقرى لون من ألوان التنظيم الفنى ، والترتيب الأدبى ، والتنسيق الفكرى فى الأعمال الأدبية .. له أثره وخطره فى جلال الكتابة وروعتها ، وله أهميته فى الدلالة على نفس المتفنن وعقله ، وله قيمته فى حسن الأداء ، وجودة التناول . كما أن له فضله فى التأثير على القارئ ، وتنظيم هذا التأثير .

و « الفقرة » كما يعرفها الغربيون : جزء أو قسم متميز واضح من مقالة أو فصل أو كتاب ، يعالج نقطة خاصة من الموضوع ، سواء كانت الفقرة مكونة من جملة واحدة أو من بضع جمل ، مترابط بعضها ببعض أكثر من ترابطه بما يسبقه أو بما يلحقه .

و « الفقرة » اصطلاح أصيل فى اللغة العربية ، فى دلالته على هذا المعنى ، أو على ما هو منه بسبب قوى : فأجود بيت فى القصيدة كانوا يسمونه فِقرة . وكانوا يقولون : ما أحسن فقر كلامه : أى نكته ، وزدت فى كلامه أو شعره فقرة ، وهى فصل أو بيت شعر . وقيل لآخر كل بيت من القصيدة والخطبة فقرة ...

وكل هذا من المجاز ؛ إذ الأصل فى ذلك أن الفِقرة والفَقرة والفَقارة واحدة فقار الظهر ، وهو ما انتضد من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العَجْب . والجمع فِقر وفقار . وقيل فى الجمع فِقْرات وفِقَرات وفِقِرات .

وقد كان الغربيون أسبق منا فى تعاطى هذا اللون من التنسيق الفنى ، وإن كان العرب الأقدمون فى كتبهم يبوبون ويفصلون . فبينما خلت كتبنا العربية من هذا الطراز من التنسيق تماماً — حتى عهد قريب — نجد الغربيين منذ زمن بعيد يفسقون أعمالهم ، مراعين مسألة « التفقير » ، ومتخذين منها وسيلة وأداة فنية فى أعمالهم الأدبية والعلمية على السواء . ثم انتقل إلينا — كما أظن — مع كتبهم ومؤلفاتهم وأعمالهم ، وأصبحنا نتعاطاه لما له من أهمية على ما سنرى .

الفنى ولو داخلياً ، وعلى هذا القياس يكون التمييز صعباً بين رجل الفن الخالق وبين الذين يستمتعون بفنه ويتفقدونه . ولكن شوبنهور لا يؤمن بمسألة التعبير الداخلى ولا يعترف بحالة الإحساس البحت على اعتبار أنها حالة عبقرية من حالات الفن . إنه أصوب من كروتشه كثيراً عندما يضع حقيقة التعبير الأدبى المصنوع كشرط أساسى فى العمل الفنى وفى العبقرية الأدبية الخالقة . إنه يتفق مع كروتشه — كما يظهر مما سبق — فى استلزامه وجود نوع من الإحساس الجمالى لدى الرجل العادى وفى قوله بأن الاختلاف بينهما ليس اختلافاً فى الكيف ، وإنما فى الكم ، أعنى فى مقدار إحساسه ووعيه ، وليس فى نوع ذلك الإحساس والوعى ؛ ولكنه يختلف عنه فى حالة قوله بأن العبقرية الفنية تحتوى على ملكة المعاينة للصور (أو المثل) وملكة التعبير الخالق معاً ، وعلى ذلك فالملكة الأخيرة هى فاصل قوى واضح بين الرجل العبقرى والرجل العادى ، وهى ملكة لا معنى لها بغير المعرفة المكتسبة والمران العملى والدربة على الأداء .

فرق شاسع إذاً هو ذلك الذى يقع بين تعبيرين أحدهما لإنسان عادى والآخر لإنسان عبقرى عندما يواجهان عاملاً من عوامل الإحساس الجمالى . وهذا الفارق هو الذى أسس بكل قواى من أجل إبرازه للقارئ .. شتان بين تعبير عادى وتعبير مصنوع ، وأصل العبقرية الفنية وشرطها اللازم هو هذه المهارة الصناعية فى أداء الإحساس الجمالى وإبراز المضمون العاطفى وإخراجه من دائرة الشعور إلى عالم الواقع الحى مجسماً على أى نحو من الأنحاء ، قصيدة أو مقالة أو قصة .

عبد الفتاح الديدى

وقد كان الغربيون ، فيما سلف ، يطلقون لفظ الفقرة Paragraph على العلامة التي توضع في بداية كل قسم أو جزء جديد في رواية أو قصة أو بحث . وقد كانت هذه العلامة توضع أيضاً في بدء كل فقرة جديدة في ذلك الموضوع . ولكن بعد ذلك تلاشت هذه العلامة ، كما نلاحظ اليوم ، وأصبحت الفقرة تتميز بالبدء بها في سطر جديد ، مع ترك مسافة في أول هذا السطر ، وبالانتهاء منها دون خلطها في الفقرة التالية . وقد أطلق هذا اللفظ أيضاً على واحدة الفقر المعروفة في مواد القوانين ، وعلى الأخبار القصيرة أو المقالات الموجزة التي تكتب عادة في الجرائد والمجلات بدون عنوان ، أو بعنوان جانبي صغير .

والذي يعنينا من هذا كله إنما هو الفقرة بمعناها الأدبي ؛ وهي تحتاج إلى دراسة فنية دقيقة ، وإلى بحث في صورها وألوانها ، وفي ألفاظها وجملها ، وإيجازها وإطنابها ، وفي تحديد موقعها وتحليله بالنسبة لما قبلها وما بعدها ، ثم موقعها بالنسبة للعمل الأدبي كله . وينبغي أن نقولها إن أحداً من علماء البلاغة والبيان الأقدمين لم يكتب سطراً واحداً عن هذا اللون من التنسيق الفني ، وإن أحداً منهم لم يشر إليه تصريحاً ولا تلميحاً . ولا تثريب عليهم في ذلك ، فهذا اللون إنما ينزع إليه التطور في علوم البلاغة والبيان ، والتجديد فيها . وإن كان ثمة تثريب ، فلعله واقع على علمائها المحدثين ، الذين لم يلتفتوا إلى هذه البلاغة ، وما ينبغي بصددها من ثورة على قيود التقعيد والتقنين القديمة ، وما تدعو إليه من مسايرة التطور الكوني والعلمي والفني .

أقول لم ينظر علماء الأدب والبلاغة المحدثون إلى هذه البلاغة القديمة بنظرة عملية جدية ، ولم يلتفتوا إليها لفتة حيوية تجديدية ؛ وآية ذلك أنها مازالت تدرس على صورتها البالية في المدارس والمعاهد والكليات .. والحق أننا نريد أن نعلنها ثورة عامة لا تعرف الرجعية ولا الوقوف ، ونشنها حرباً لا تعرف الهوادة ولا السكون ؛ فننظر إلى هذه البلاغة نظرة فيها رثاء وإشفاق ، وفيها أمل ورجاء ، ثم نهم بها ، فنحملها أمانة في عنقنا ، ونضطلع بحثها اضطلاعاً ، ما كفيل عليها بالدرس والفحص والتدقيق . نريد أن نكملها ونرعاها ونلبسها ثوب الحياة والنماء .. نريدها فناً جميلاً كما ينبغي أن تكون ، صنواً الموسيقى ، وعدلا للنحت والرسم والتصوير وسائر الفنون الجميلة .

الترقيم اللفظي للجمل في الفقرة الأدبية :

وعملية الترقيم اللفظي في الفقرة هي التي تقوم على أساس من فنية الربط والتعبير ، أو الاتصال والانتقال بين الجمل في الكتابة الفنية ، هي التي عبر عنها الأقدمون — في نطاق ضيق — بكلمتي : الوصل والفصل . فالترقيم اللفظي يشار به إلى استخدام هذه الحروف والألفاظ التي تقوم بوظيفة الربط والاتصال بين الجمل ، أو البدء والانتقال من جملة إلى أخرى .

وإذا أردنا أن نتعمق أصول هذه العملية في النفس ، نصل إلى أنها عملية نفسية دقيقة جداً ، بل هي من أدق العمليات الفنية التي تتكون في النفس . فهي أمر ذهني ، تتكون أسبابه في الشعور قبل مرحلة التعبير ، أي في تلك المرحلة التي تلتقي فيها الفطر والغرائز بالعواطف التي تصاحب الفكرة وترافقها لتنتهي بالخلق والإيجاد .. فعندما تأخذ الفكرة مهيأها في الذهن تأخذ عملية الترقيم اللفظي هيئتها في الذهن معها .. نستطيع أن نقول إنها ضرب من الترقيم الموسيقي ، ولكن أعمق ، أو هي ضرب من الإيقاع في النظم ، يخلق مع الفكرة في الذهن في تلك المرحلة الشعورية العميقة .

ولنضرب مثلا بالواو : فالواو إن وجدت في عملية الترقيم اللفظي فإنما توجد لأن هناك ترقيماً موسيقياً يوجد في الذهن ، قد رافق الفكرة وصاحب الانفعال العاطفي ... توجد الواو لأن هناك قرينة ذهنية أصيلة ، هذه القرينة المعنوية تدل عليها الواو في الخارج ، كلفظ قد يبدو مستقلا ؛ ذلك أن العبارة في الكتابة الفنية تستمد دلالتها وتأثيرها من دلالات عديدة ، منها الدلالة اللغوية للألفاظ المكونة لها ، ومنها الدلالة المعنوية التي يبعثها اجتماع هذه الألفاظ ، وكونها في تناسق خاص ، ومنها الدلالة التي تبعثها الصور والظلال للألفاظ وتناسقها في العبارة ، ومنها دلالة الوقع

للوسيقى الناجم عن تناغم إيقاع الألفاظ مع بعضها .. كل هذا وغيره يدعو لنا دلالة واحدة في العبارة الفنية .

والحقيقة أن التعبير عن وقع وجداني معين لا ينبغي أن ينظر إليه في صورة لفظ ، وإنما ينبغي أن يتلقى في صورته النظمية ، فربما لا تكفي عبارة واحدة لنقل هذا الوقع والإحساس به ، وعندها تلحق بها عبارة أخرى أو عبارات حتى تنقل الشحنة الوجدانية ؟ ومن هنا يتحتم عدم فصل العبارات بعضها عن بعض عند إرادة فهم واحدة منها ؟ ولكن مع ذلك ، فالعبارة الواحدة يمكن أن تستقل إلى حد ما ، وإنما لا تنفصل تماماً . وما أجدر كلام عبد القاهر بالتسجيل هنا عند ما يقول : « والفائدة في معرفة هذا الفرق (بين نظم الحروف ونظم الكلم) أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالتها ، وتلاقت معانيها ، على الوجه الذي اقتضاه العقل ، وكيف يتصور أن يقصد به إلى توالي الألفاظ في النطق ، بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وأنه نظير الصياغة والتحبير والتفويف والنقش وكل ما يقصد به التصوير ، وبعد أن كنا لا نشك في أن لا حال للفظة مع صاحبتها تعتبر إذا أنت عزلت دلالتها جانباً ، وأي مساغ للشك في أن الألفاظ لا تستحق من حيث هي ألفاظ ، أن تنظم على وجه دون وجه ؟ ولو فرضنا أن تنخلع من هذه الألفاظ التي هي لغات دلالتها ، لما كان شيء منها أحق بالتقديم من شيء ولا يتصور أنه يجب فيها ترتيب ولا نظم » .

وبعد ، فهكذا تبدو لنا قيمة الإيقاع الوسيقي في النظم ، وهذا الإيقاع جزء لا يتجزأ من دلالة العبارة النفسية وجمالها الفني ، وتبدو لنا أيضاً قيمة ظهور الترقيم اللفظي الذي هو أدق من ذلك الإيقاع . فالألفاظ التي تقوم بوظيفة الترقيم في التعبير الفني يمكن أن نقول إنها مثل كل الألفاظ ، لها قرائنها المعنوية الذهنية التي أشرنا إليها ، ولها معانيها الأدبية في الذهن ، ولها ظلالها وإشعاعاتها وإيحاءاتها الفنية ، ولها إيقاعها الوسيقي في التعبير .. ولا يمكن بحال أن تقيد لفظة بقيد ، أو تحصرها داخل نطاق ، أو تفرض عليها معنى من المعاني ، ما دامت كل تلك الدلالات المؤثرة بعيدة كل البعد عن التقييد خارجة تماماً عن نطاق الحصر ، وما دامت كل تلك المؤثرات تختلف بالنسبة للفظة الواحدة من عبارة إلى عبارة ، ومن موضوع إلى موضوع ، ومن فن إلى فن ، ومن موجد إلى موجد ، ومن متلق إلى متلق .

بعد هذا كله نستطيع أن ندرك الأصول النفسية ، والملاحظ الفنية ، للترقيم اللفظي للجمل في الفقرة الأدبية ، ونفهم أن الفقرة جزء من العمل الأدبي يتضمن فكرة خاصة ، أو صورة ذهنية معينة ، أو شحنة شعورية ، أو طاقة وجدانية مفردة ، هي جزء من طاقة كبرى تتحمل العمل الأدبي كله . ونستطيع أن نفهم ما يراه بعض العلماء من أن « الفقرة المثالية هي عبارة ممتدة في عدد من الجمل المتتابعة تحمل موضوعاً واحداً » .

يقول بررسون : لمثل هذه الفقرة النموذجية توجد بعض الملاحظات التي ينبغي أن يتمثلها الكاتب ، وأن يتخذ منها عوناً في الكتابة .

أولا — يجب أن يكون موقف كل جملة من التي سبقتها واضحاً غير مشوب بخلط .

ثانياً — عند ما تتوالى عدة جمل توضح معنى بعينه ينبغي أن تكون متشابهة أو متقاربة الصيغ بقدر المستطاع ، ولكن هذه القاعدة يجب أن تراعى باحتراس ، واعتبار لأثر هذه الجمل المتتابعة على الذهن ، وعلى الأذن أيضاً .

ثالثاً — ينبغي أن تكون الجملة الافتتاحية ، أي جملة البدء ، إعدادية أو تمهيدية واضحة بحيث يتوقع القارئ أن تدل بوضوح على الفقرة .

ولعل هذا يقربنا من قول العرب بحسن المطلع ، وبراعة الاستهلال .

رابعاً — كما في الجملة ، يجب في الفقرة أن تحصل على نسبة لائقة بين الأصل والتعلق .

هذه الملاحظات الأربع عظيمة الأهمية ، وهي نصيحة من أجل الكمال . ثم هناك أمران آخران تجب مراعاتهما في الفقرة ، هما : الوحدة ، وعدم الانفصال أو الفسخ ، وهذان في الحقيقة موجودان في تعريف الفقرة الذي سبق .

محمد محمود الدش

الخنســـــاء وأنتيغونة

لحضرة الأب فريد جبر

أما الأولى فقد عرفها التاريخ وعاشت في جسدها مع سائر نساء زمانها ، ولكنها ارتفعت بنفسها عن عصرها وبيئتها ، وتجلت كرمز حيّ للعاطفة تحتلها الإنسانية من تراثها المعنوي مكاناً جليلاً عزيزاً ، جمعت إلى أبرية الجمال والشعور ثبات الواقعية والألا كل يحسلان فيما بيننا وبين تلك المرأة ، فكأنها منا خبير ما فينا ، وكأننا منها أقل ما فيها .

وأما الثانية فبنت الأسطورة نتيجة عمل فني مشترك بين القلب والعقل يحوران في مظاهر الحياة ويجردانها من كل شائبة وعيب . فبدت أنتيغونة آية في المثالية ، كأنها العاطفة نفسها في إحدى نواحيها تجسدت أمامنا ، ولم تعد الفتاة اليونانية نموذجاً ، نادراً نعم ، ولكن نموذجاً على كل حال ، لتلك العاطفة التي ترتكز عليها الأسطورة ويقوم عليها الأثر الأدبي .

ومهما كان من أمر فهما مثالان فريدان لعاطفة الأخت تجاه أخيها ، ظهرا في بيئتين تختلفان كل الاختلاف من حيث الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية ، فتشابها في نواح وتباينا في غيرها .

أما الأولى فقومها من سادات مضر ، وكان لها في أبيها وأخويها من الدلال ما نعرفه . قضت حياة طويلة ، توفرت فيها دواعي الحزن والأسى ، فرزئت بأبيها وشقيت بأزواجها ولجت بينها ، ولكن الحادثة الجلّى التي أثرت في حياتها وحورت مجرى شعورها وأفاضت شاعريتها الحساسة ، هي مقتل أخيها معاوية يوم الحوزة الأول ، ثم ، وخاصة ، مقتل أخيها صخر يوم كلاب أو يوم ذات الأثل . فأصبحت الحياة أمامها كصحراء تهيم فيها ولا تلوي ، مرددة :

أبكي أبي عمراً بعين غزيرة
قليل ، إذا نام الخلي ، هجودها

وصنويَّ : لا أنسى معاوية الذي
له من سراة الحرتين ، وفودها
وصخراً ، ومن ذا مثل صخر إذا غدا
بســـاهمة الآطال قب يقودها

أو :

من حس لي الأخويـــن كالغصنين ، أو من رآهما

وغيره من الشعر ، وهو أشهر من أن يذكر ، وكان لصخر فيه الحظ الوافر .

وأما الأخرى ، أنتيغونة ، فهي بطلة من بطلات الأساطير اليونانية ، من بنات عائلة اللبا كيديس Labacides وهي الأسرة المالكة في بلدة تيبا Thèbes . هي ابنة الملك أوديب والدتها له أمه جوكست Jocaste وكانت الأقدار قد شاءت أن يتزوجها بعد أن قتل أباه ليوس Laius . ولا حاجة في أن نذكر أن كل ذلك كان على غير علم منه . وكان لأوديب من هذا الزواج المشئوم ابنة غير أنتيغونة ، إسميني Ismène وابنان اتيوكليس Etéocle وبولينيكيس Polynice . وما إن اطلع على أمره حتى فقأ عينيه بإصبعيه ، وطرده ابناه وخالها وخاله كريون Créon ، من وطنه ، فصحبته ابنتاه ، وأحبهما وأشدهما حزماً : أنتيغونة ، تهديانه في طريقه ، حتى نزل قرية كولونا Colone قرب أثينا . أما اتيوكليس وبولينيكيس ، فاتفقا على أن يملك كل منهما سنة . فلما أقبل دور اتيوكليس وأحس بلذة الحكم ، أبى أن يتنازل عنه لأخيه في سنته . فخرج هذا من مملكته ثائراً وقصد الأرجيين Argieus يستنجدهم . وقبل أن يسحب جيشهم على وطنه ، قصد أباه الشيخ في كولونا يستغفره ما كان قد سبق وفات منه نحوه من قبح وشناعة . فلعنه الملك الضرير وتنبأ عليه وعلى أخيه بأنهما سيتطاعنان وسيتضاربان ويقتتلان على أسوار مدينتهما ومدينته . وحدث كل ذلك على محضر ومسمع من أنتيغونة . فأخذت تحاول

أن تثنى أخاها عن عمله هذا وإساءته إلى وطنه . ولكنها عبثاً فعلت ، فغادرها الفتى مستخفاً إلى المصير الذى قدره له القضاء .

ويموت أوديب ، فتسرع أنتيغونة مصطحبة أختها إسمينى ، إلى ثيبا لتصلح ذات بين أخويها ؛ ولكن عند وصولها ، كان القضاء قد حم ولعنة الأب قد تمت على ولديه العاقين ، وانهزم الأرجيون . فاستتب الحكم لكريون ، أخى زوجة أوديب وخاله ، فكرم جثة اتيوكليس ودفنها بالأبهة والاحتفال الدينى اللائق ، وأما جثة بوليـنيكيس ، فأمر بألا توارى فى قبر ، بل بأن تترك مكانها حيث وقعت حتى تتغذى منها طيور السماء ووحوش الأرض ، وتتعفر روائحها منها الناس . وكان هذا أكبر عار يلطخ به إنسان فى شخصه واسمه وسمعته فى اعتقادهم ، فإن من كان هذا نصيبه بعد موته ، ولم توار جثته أو تحرق على حطب جزل ، فإن الأموات فى منازلهم تحت الأرض ، لا يرضون بنفسه رفيقة لهم ، بل يطردونها فتصبح لا مقر لها ، تخبط هائمة بين السماء والأرض .

وأعلن كريون إلى كل ذلك ، بأن كل من لا يمتثل لهذه الأوامر ، ليوارنه حياً فى قبر مظلم ، وليدخلنه هكذا عالم الأموات قبل أوانه ، قبل أن تفارق روحه جسده . ولم يكن ذلك لترضى به أنتيغونة ، فإن هذا التشنيع والتنكيل ما كانا ليليقا بأخيها وابن أمها . فأدت نحو جثته ما كانت القوانين الطبيعية السابقة للنواميس الوضعية تفرضه على الأهل من طقوس وواجبات ، وطيبتها ووضعتها فى التراب . وقبلت بالطمئنان وهدوء ، قانعة راضية بما ستئول إليها تلبيتها هذه لعاطفتها الأخوية من عذاب وويلات . فووريت حية ولم تزف إلى رجل ، ودخلت مقرها الأخير وهى تبكى وتنوح لما التصق بها من عيب بسبب ذلك .

وكل هذا الذى أسلفنا وذكرناه ، مادة المسرحيات الثلاث المتتابعة ، للشاعر المسرحى اليونانى المشهور سوفوكليس ، وهى : أوديب الملك ، ثم أوديب فى كولونا ، ثم أنتيغونة . وعقدة العمل فى المسرحية الأخيرة ، ترتكز على ما سردناه من معاملة أنتيغونة لأخيها بوليـنيكيس بعد موته ، وما أدى بها إليه ذلك من مصير .

ولا يسعنا بعد كل هذا ، إلا أن نقارب بين هاتين الراثيتين ، الخنساء وأنتيغونة ، ولو كانت بينهما بعض التباين من وجوه . فإن الخنساء « هرمت ودبت ، من الكبر ، على العصا[1] » ، وأما أنتيغونة ففارقت الحياة غضة فتاة . وأن الخنساء ، وإن توفرت دواعى الحزن والأسى فى حياتها ، فهى لم تشق بسبب أسرتها ، بل كانت عزيزة الجانب فيها ، يدللها أبوها ويعززها أخواها ولا سيما صخر ، الذى كان يشاطرها ماله كلما أتلف زوجها أمواله . وأما أنتيغونة ، فإن عائلتها كانت مصدر مصائبها وعذابها الدائم المستمر ، شقيت فى مولدها ، وشقيت بأخويها اللذين طرداها مع أبيها وأبيهما ؛ ومع ذلك فإنك تراها دائماً مثال الحنان والحب على ذويها من أبيها لأنها خلقت لكى « تقاسمهم وتبادلهم الحب لا الحقد » .

وإلى جانب ذلك ، فإننا نرى الخنساء فى حياتها الاجتماعية ، أعنى فى ناحية اتصالها بالناس ، لا تقيم شأناً لأزواجها ولأولادها . فبينا نعرف لها الأبيات والقصائد عن أخويها ، فإننا لا نسمع منها أو عنها كلمة عن رجالها الأربعة وبنيها ، إلا ، اللهم ، ما ورد عنها من كلام قالته لتعزى به عند ما بلغها خبر استشهاد أولادها الأربعة فى موقعة القادسية . فكأن عاطفة الأخت عندها طغت على عاطفة الأم والزوجة . وها هى أنتيغونة تصرخ ، وهى تساق إلى حيث تحجب عن الناس ويمنع عنها النور والهواء ، إن ما قامت به نحو أخيها ، ما كانت لتعمله لزوج أو لابن ، لأنها تستطيع أن تستعيض بزوج عن آخر بعد موته ، وبابن عن ابن رزئت به . وأما أخوها فكيف السبيل وقد أصبح أبوها وأمها فى عالم الأموات ؟ .

ثم إن الخنساء كان لها « فى نفسها ما ليس لغيرها »[2] كما يصفها أبوها لدريد بن الصمة حين غدا عليه ليخطبها إليه ، والمعروف عنها أنها كانت تشارك الرجال فى شعورها

---

(١) الديوان (نسخة مصر) — فى شيخو ص ٣٠ .
(٢) الأغانى ٩/١١ ، ١٣/١٣٦ .

بعزتها وكرامتها وفي صلابة تمسكها برأيها ونظرتها إلى الحياة والناس . أبت إلا أن تبكي صخرها طوال دهرها ، وبالرغم من أن بعضهم كانوا يرون لها عن ذلك رادعاً علوياً دينياً . حتى إن عمر بن الخطاب ، وكان من العارفين الذين يقدرون النفوس والرجال بما هم له أهل ، امتنع عن لومها على ذلك بعد أن استفهمها وحاول ، ثم رد من شكوها إليه ودعوه إلى عذلها ، قائلا : « خلوا سبيل عجوزكم ، لا أبا لكم ، فكل امرئ يبكي شجوه » . وهذه أنتيغونة تتجاوز حدود قوانين وضعها ساسة أمور وطنها ، فكانت تعبد كقدسة ذات صبغة دينية ، إلى قوانين أسمى وأحق لم تكتب بالمداد ، ولم تنقش على الحجر ، بل كانت تحس بها مطبوعة في ثنايا صدرها ، وتشعر بنفسها مجبولة عليها جبلا ، مفطورة عليها فطراً . فما كانت لترى عيباً وعاراً وإثماً في أن ترعى الحرمة والكرامة لهذا الشخص الذي « خرج من الأحشاء التي خرجت منها هي »[1] ، بعد أن تمشى بالنسا ، وسجاه الموت بجلاله . وهي تمضي في عملها بعزم هادىء واطمئنان ، تذكرنا بتماثيل الإلهات ، تلك التي حفرها فيدياس وتلاميذه فوق أبواب البرتنون ، متجلية بجمال غاب عنا سحره وسره ! فيه الجلال والبساطة ، وفيه العظمة والاستقرار ، وفيه الصفاء والحلاوة ! ولا ترى على وجهها خطوطاً ومعالم تشف عن نفس تضطرب فيها الخواطر البرحة أو تتوهج فيها الأشواق والأهواء والغايات .

إن الخنساء بكت على أخيها وناحت ، وكانت في قلق مستمر لبعده عنها ، وأحبته لأنه أحبها وساعدها وأعزها في حياته . أما أنتيغونة فقد ضحت في سبيل إكرام أخيها ورفع العار عنه وأدت نحوه واجبات الحي للميت الذي من لحمه ودمه ، برغم ما كان يعترضها من عوائق أودت بها ، بعد أن كان لها منه ، في حياته ، ما لم يكن ليرضيها كلاماً وعملا ... فأحبته من دون تبادل ، استجابة منها لمجرد عاطفة الأخت فيها ...

الخنساء ، موقف من مواقف الإنسانية الفذة ، ومصدر أثر أدبي تفاخر به العروبة . أنتيغونة قمة من قمم الأدب الإنساني القوي الرائع . الخنساء نتيجة بيئتها وذويها ، أنتيغونة نتيجة تفكير أبناء بيئتها ومقدرتهم على التحوير والتجريد وضبط التصورات التي يجب الإنسان أن يتغنى بها في جفاف حياته ووحشتها . الخنساء امرأة وأخت عاشت وأحبت أخاها وأبت أن تتعزى عن موته ، أنتيغونة فكرة وعاطفة تعانقتا وتمازجتا واتحدتا وبرزتا كوحدة وجودية حية دبر لها صاحبها ومبدعها كل الوسائل الفنية حتى تبدو كشخص في لحم ودم تتمثل فيها عاطفة الأخت لأخيها ، ظاهرة الخطوط والمعالم ، واضحة الحدود والحواجز ، منفصلة تمام الانفصال عن كل ما قد يصلها من ناحية ، بالضعف وبالا كمال الإنساني .

لا ندري أيتهما تتقدم على الأخرى . فإنا كنا نرتاح ونطمئن إلى واقعية الخنساء ، فإنا نطرب ونبتهج لمثالية أنتيغونة ، ويسرنا على كل حال أن نجمع بين اسميهما وشخصيهما ، حتى يقارن كل منا بينهما ، فتبتل جوانحنا لذكرهما كمظهرين من مظاهر عاطفة الحب الشريف الخالص في الإنسانية ...

فريد جبر

---

(1) كل ما كان من أنتيغونة بين مزدوجين ، مستخرج من مسرحية « أنتيغونة » للشاعر اليوناني سوفوكليس .

مع الفكر الأوربي المعاصر

للأستاذ مبارك إبراهيم

شذرات بقلم فكتور هوجو

جمعها هنري جويلمن

ورسالة من رسائله إلى امرأته

"Some Fragments" By Hugo
Compiled By Henri Gueillemin

هذه شذرات جمعها جامعها ونشرها اليوم لأول مرة ، وهي شذرات اقتطعت مما كتبه « فكتور هوجو » في الحقبة بين عامي ١٨٣٠ ، ١٨٨٢ . أما المصادر التي استقيت منها هذه الشذرات فهي الأوراق المحفوظة لدى عائلة « هوجو » ثم المذكرات المتناثرة هنا وهناك . وقد بوبت تلك الشذرات تحت عناوين مختلفة مثل : « نفسي » و « حقائق معاصرة » و« أشياء منظورة » و« أشياء مسموعة » و« كتاب وفنانون » و« رحلات » ، و« أفكار عفو الخاطر » إلى آخر ما هنالك .

والناشر لهذه الشذرات يذكر القارئ بوصية كان قد أوصى بها « فكتور هوجو » ولده ، وذلك في عام ١٨٥٩ وقال فيها : أوصيك يابني أن تجمع كل أثر من آثاري القلمية مهما عظم أو صغر ، وأن تضم كل إمضاء إلى ألفه ، وأن تنشر هذه الآثار بعد موتي .

وكأن كتاب الشذرات هذا قد تم طبقاً لتلك الوصية ، فلم يغادر حتى الجُمل القصار التي قصد بها « هوجو » إلى اللعب بالألفاظ (في اللغة الفرنسية) كقوله :

Elle S'Appelle "IDA" Elle a Sur sa Fenetre un pot de "Reseda"

وترجمتها : إن اسمها « إيدا » وعندها فوق نافذتها آنية تضم نبتة « الترحنا » والشاهد في الأصل الفرنسي .

ومن النكات التي اقتبست قول « هوجو » : كلما يتعلق بالعمل فلا بد أن يكون الجدُّ طابعه ورائده .

ومن كلماته التي تفيض أسى وألماً وصفه لذلك الوليد الطفل الذي شاهده في حي من الأحياء الفقيرة في جزيرة « جرنسي » حيث يقول : الفتاة الصغيرة (أم الوليد المسكين) ... الفتاة الصغيرة جداً ... التي لقيتها في الشارع وهي تبكي وقدماها عاريتان ، وهي تسير على أرض الشارع التي غطاها الثلج ، وقميصها وقد بانت فيه الخروق ، وعيناها وقد زاغتا ، وهي تصرخ صرخات اليأس والقنوط ، وهي تنظر إلى السماء وكأنما تتوجه إلى القدر بالعتاب واللوم .

ومن كلماته التي تفيض بالسخر والتهكم قوله : لقد أمعنت النظر في إوزة فرأيت شبهاً قريباً يجمع بينها وبين فلان عضو المجمع العلمي الفرنسي .

وقوله : إن ماقط النار الملقى إلى جانب المدفأة ليذكرني بالسيد فلان الوزير السابق ... فكلاهما له رأس صغير ، وساقان طويلتان جداً .

وقوله يصف نهراً من الأنهار : وترى ذلك النهر وهو ينساب في مجراه ، وهو يضرب بذراعيه ذات اليمين وذات الشمال ليشق الطريق ، وهو يجري إلى غايته .

ومن أقوال « جان كوكتو » يصف « هوجو » : إن « فكتور هوجو » كان رجلاً مجنوناً ... إذ كان يظن نفسه أنه « فكتور هوجو » .

وفي المخطوط الذي جعل عنوانه « نفسي » يذكر « فكتور هوجو » ما كان يُغدقه على فقراء جرنسي من خير وبر ، والقارئ لما احتواه ذلك المخطوط يستيقن أن الإحسان والبر كانا آيتين من آيات عظمته ونبله .

وكتاب الشذرات يصور « هوجو » في مختلف صوره وحالاته ، فيراه القارئ في أيام « لوي فيليب » ويراه في عام ١٨٤٨ ، ويراه أيام « نابليون الصغير » كما يراه أيام الجمهورية الثالثة .

وإلى القارئ الرسالة التي أسلفنا القول عنها وهي منقولة عن كتاب « رسائل فكتور هوجو » إلى امرأته ، وعنوان الرسالة : « الفنون في الطرقات » :

أكتب إليك من مدينة « برن » ، وأذكر لك أن غرفة الطعام في الفندق الجديد الذي تضمني اليوم رحابه ، تقوم

فى الصور الأرضى ، وطبقاً لما جرت عليه عادتى قد أمرت أن توضع مائدة طعامى بالقرب من النافذة ، وبينما كنت أؤدى اليوم واجب التكريم والتوقير لطعام الفطور الشهى اللذيذ كانت عيناى لا تملان النظر إلى الميدان المنبسط الفسيح

وأنا — كما تعلمين — أسمى هذه النظرات « بالأكل القارئ » أو « القراءة الآكلة » ، ذلك أن كل منظر من المناظر له فى مخيلة الحالمين من أمثالى دلالة تختلف باختلاف الناظر . فالعينان تنظران ، والعقل يفسر ويترجم ، وعندى أن ميداناً من الميادين العامة إنما هو كتاب من الكتب ، فالمرء يتهجى الصور والبنايات ، كما يتهجى الحروف والكلمات ، وهو يجد فى تلك الصور والبنايات قصصاً من القصص التاريخية ، والمرء يفك رموز من يمرون به من الأشخاص ويجد فى فك تلك الرموز حياة أى حياة .

ولم ألبث إلا قليلاً حتى استرعى انتباهى مرور جماعة صغيرة تفردت بمظهر عجيب ، وقد نصبت (وطاقها) كما يقولون على قيد خطوات من النافذة التى أتطلع منها ، واتخذ عقد هذه الجماعة ، وقد استظل أفرادها بظل خيمة لعبت به الريح ، وكان قوام هذه الجماعة أربعة شخوص : رجل وامرأتان وحمار ... وكانت إحدى المرأتين نائمة . وكان الرجل قد غشيه النعاس . وكان الحمار قد عقد الكرى معاقد أجفانه ، ولم أستطع أن أتبين ملامح المرأة النائمة ذلك لأن وجهها كان يغطيه قناع أسود .

وكان وجه الرجل متجهاً ناحية الشارع فما استطعت أن أرى شيئاً سوى يديه السوداوين ، وأظفاره التى نال منها البلى ، وإلا رأسه بشعره الأشعث الأغبر ، وإلا نعليه اللتين كانتا مزيجاً من التراب والخروق ، وإلا إحدى أصابعه تطل من أحد تلك الخروق .

وكان لباسه زوجين من السراويل مما يلبسه الجنود الفرسان ، وسترة فصلت على الطراز الفرنسى ، ولابد أن تلك السترة قد كانت فى أول عهدها بالوجود مما يتيه بها اللابس ويختال اختيالا .

وكان الرجل يمسك بيده — وهو نائم — عصاً ذات مقبض فضى ، ويبدو أن الزمان قد جار على تلك العصا وأخنى ، فأصبح صاحبها هنا يقلب بها جمرات الفحم التقد فاسود طرفها ، وتشققت أجزاؤها .

أما قبعته القديمة التى كأنها الهرم المتعدد الأوجه والجوانب فقد كان نصفها يغطى جانباً من رأسه ، وكان نصفها الآخر يغطى جانباً من الأرض ، وكان هناك طبق ملقى تحت قدمى الرجل النائم ، وكأنه أعد لتلقى ما يتصدق به المحسنون .

أما الحمار فقد كان شريك العائل الوحيد للجماعة كلها ! فهو يشقى ليسعدوا ، وهو يحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . وكان نصف هذا الحمار مدفوناً فى الرمال ، والناظر إلى هذا الحيوان لا يرى فيه حماراً من الحمير ، إنما يرى ظلالاً تقوم دليلاً على ما يسميه الناس بالكابوس الثقيل .

أما المرأة الأخرى التى لم يدركها النعاس فكانت تجلس إلى جوار الرجل فوق قطعة مهلهلة من بساط قديم ، وإنى لقائل لك إنها فتاة يبدو أنها قد كانت فى ماضى زمانها مخلوقة حلوة ظريفة ، وهى إلى اليوم يبدو على محياها الذكاء ، وتزين فمها أسنان كأنها اللؤلؤ المنثور ، وهى إلى اليوم يبدو فى عينيها بريق صاف عميق ، أما شعرها فقد عقصته ضفائر ، أما التناسب فهو تام فى سائر أنحاء جسمها من حيث الاستدارة والامتلاء ، ومن حيث بعد مهوى القرط ، ويبدو أن تلك الفتاة البائسة الأنيقة قد كانت تتخذ من كل جدول من جداول الماء مغتسلا لها ومرآة .

أما ملابسها وأدوات زينتها فتخبر كل قطعة منها عن اسم البلد الذى جاءت بها منه ، وكان يبدو على تلك الفتاة أنها تهيم بذلك الرجل الذى حدثتك حديثه . وأعيد عليك القول لسيدتى : أنها تهيم بذلك الرجل الهيام كله ، وهذا ما حيرنى وأذهلنى ، وإنى لأعلم علماً ليس بالظن أن النساء كثيراً ما يحسن بالغبطة والمسرة إذا ألفين من أنفسهن أدلة ناطقة من أدلة التناقض ... كذلك لست أجهل أن أجمل الجميلات وأقربهن عهداً بالشباب ، واللائى وهبن السحر والفتنة ، يحببن أزواجاً قد وهن العظم منهم ، وانحنت ظهورهم وبان فيها الحدب ، حباً هو أقرب إلى التقديس والعبادة ، ولكنى لم أكن أصدق قبل اليوم أن فتاة تبالغ فى التأنق

كما تبالغ تلك الفتاة ثم تمشق القذارة فى أبشع حالاتها ، ممثلة فى شخص رجل من الرجال ، ذلك لأنى أعرف أن هناك هوة بعيدة المدى ، وفلاة إلى غير انقضاء تجاب ، بين المخلوق الآدمى الذى يستحم وبين المخلوق الآدمى الذى لا يستحم .

أما اليوم وقد رأيت بعينى ما رأيت فلن أعجب لشىء بعد ذلك أبداً ، فقد رأيت فتاة فى ربيع شبابها ، نظيفة كأنها حبة من حبات الرمل النقى الصافى ، تقبل مرة بعد مرة — فى شغف المتعبدين وهم يطوفون بمزارات الصالحين — رجلا أشعث أغبر وهو يغط فى نومه ، فلا يحس أثر تلك القبلات العذبة ، ولقد رأيتها تنفض الغبار عن ملابس ذلك الأحدب ، ولقد رأيتها تذود الذباب عن وجهه ، وتنحنى على صدره لتستمع إلى دقات قلبه ، ولتنصت إلى ترديد أنفاسه .

وأنا الآن أعلن أنى سوف أهتف باسم الكاتب — مهما يكن اسمه — الذى يستطيع أن يكتب قصة عنوانها « القصة التى تفيض حزناً وإكتئاباً حول حب قام بين حمامة وخنزير » .

والحق أن الطبيعة قد حملت فى طواياها من كل زوجين اثنين . أما المرأة فقد حملت فى خبايا نفسها من كل هوى زوجين اثنين ، وكأنما يخيل إلى المرأة أن كل شىء لديها جائز مقبول .

أما الغم الذى أثارته تلك الجاءة فيكفى فى وصفه أن أطلب إليك أن تصورى لنفسك قطعة من نسيج الجيفى قد صبغت باللون الأزرق ، وكتب عليها بحروف سوداء كلمات هيروغليفية ، وإذا لم تخدعنى معلوماتى القليلة التى تعلمتها من تفسيرات المرحوم العالم الأثرى « شمبليون » فإن هذه الكلمات مصرية تقول : « إن أمسنا كيومنا ويومنا كغدنا ، فلا تغيير ولا تبديل إلى يوم يقوم الحساب » .

ولكن ما دلالة هذا القول عند رجل مهرج وما أثره ؟ أكبر الظن أنها كلمات أراد بها ذلك « الخنزير » أن يعلن عن حبه لتلك « الحمامة » ، ولكن فى لغة هورس « وآمون رع » ، وعندى أن رؤية تلك الفتاة وهى تحنو على ذلك الرجل وتلاطفه وتدلله ، وتداعبه وتلاعبه ، إنما هى غذاء تضوى به الأجسام .

وبينما هذه الملاحظات تجاوب فى خاطرى طرقت سمعى كلمة من كلمات اللغة الفرنسية منطوقة فى أفصح لهجة ، وأندى صوت ، وأحلى جرس ، ولكن يسوءنى أن أذكر لك يا سيدتى أن تلك الكلمة كانت على حلاوة جرسها كلمة بذيئة يمجها الذوق ويغبو عنها السمع . فكان هذا باعثاً لى على أن أنظر إلى ناحية الصوت ، فرأيت المرأة النائمة ، أو الفتاة النائمة وقد استيقظت ، وقد تدلى غطاء رأسها إلى الوراء ، فبان وجه هو أقبح الوجوه بلا مراء ، وكانت هى التى وجهت إلى الفتاة تلك الكلمة البذيئة ، ولم تحر الفتاة جواباً . غير أن فمها قد ارتسمت عليه علامة من علامات الازدراء ، ثم انحنت على الرجل تقبله فى خده وكأنما أثارت تلك القبلة ثائر غضبه فردد على مسامع الفتاة تلك الكلمة الشنيعة .

وقد استخلصت من ذلك المشهد نتيجتين : الأولى أن ذلك الرجل العجوز المتهدم قد أغاظه أن قبلة الفتاة قد أيقظته من نومه ، والثانية أن المرأتين قد تدلهتا فى حب ذلك الرجل أو ذلك الخنزير .

ولا تحسبى يا سيدتى أن هذا اللون من البذاءة وقف على أفراد الطبقة الدنيا . فإن كثيراً ممن يحسبون أنفسهم من الطبقة المهذبين يربطون ألسنتهم بالكلمات البذيئة ليكون حديثهم أنفذ سهما ، وأشد وقعاً . كما يفعل المكارى وهو يغمس سوطه فى جدول الماء لتصبح ضرباته أكثر إيذاء وأشد إيلاماً .

واستنقع لون الفتاة وارتجفت شفتاها ، ولكنها لم تنطق بكلمة . غير أنها ألقت يدها فوق كتف ذلك الخنزير النائم ، وهزته هزاً رفيقاً . وكأنها بذلك تعبر عما يجيش بخاطرها من توقير له وخوف منه ، وعما ينتابها من غم وضيق ، وعما تحس به فوق ذلك كله من حب جد عميق .

ثم استيقظ الرجل ، وتثاءب وهو ينظر فيما حوله ويقول بالاسبانية : يا بنات الشيطان ، ما هذه الضجة الكبرى ؟ ثم وقف وهو ينظر إلى الفتاة نظرة استعلاء ، فلم

تَرُد على أن ردت عليه رداً مهذباً ، فيه من أمارات الحب وعلاماته نصيب موفور .

وفي تلك الآونة كنت أنظر إلى الرجل نظرة دارس ، فتبين لي أنه قد بلغ الخامسة والأربعين من عمره ، وأن وجهه الأسمر يشبه وجوه الملاحين ، وأن ازوراء ما بين عينيه ليدل على أنه كثيراً ما جاب الأرض تحت وهج الشمس المحرقة .

وما لبثت الفتاة أن حدثته مرة أخرى حديثاً أشهى من حديثها الأسبق وأحلى ، وكانت تكلمه بالفرنسية ، وكان هو يجيبها بالأسبانية . وبدا لي أن هذا الحديث الذي يجري بلغتين مختلفتين قد ضايق كلا المتحدثين أشد الضيق !

وبعد قليل جاء أحد الخالين العاملين بالفندق ، فأشارت إليه المرأة العجوز أن يدنو منها . فلم تلق الفتاة ولا الرجل بالاً إلى تلك الإشارة . وهمست العجوز في أذن الخال ببضع كلمات ، فأجابها الرجل بإيماءة تدل على أنه قد فهم قولها ، ثم عاد إلى مكانه من الفندق . وفي الوقت نفسه أشار الرجل العجوز على الفتاة أن تقوم من مكانها ، وقال لها بالأسبانية : هيا بنا إلى الفندق ! ثم سألها : ماذا تغنين اليوم ؟ قالت : سأغني « أغنية الوادي » التي تعرفها ، وأمسكت هي بالطبق ، وأمسك هو بآلة من آلات العزف ، ثم قال للمرأة الأخرى : أنت تبقين هنا أيتها العجوز !

وغنت الفتاة أغنيتها ، وكان الرجل يصاحبها بالعزف على معزفه ، ولكني لم أستطع أن أتبين كلمات الأغنية فقد ضاعت حروفها ونبراتها في ضجيج اللاعق والشوكات .

وإني لأبدي ملاحظة بهذه المناسبة ، وهي أني كلما نظرت إلى هؤلاء المساكين المغنين في الطرقات تولاني قلق وضيق ، فهم عند الناس قوم من المنبوذين ...

وعلى حين غفلة انقطع الغناء ، كما سكت ضجيج الصحاف والأكواب ، وأعقب ذلك ضجيج من نوع آخر لا يمكن وصفه ولا يطاق احتماله ! فصوري لنفسك ألف صرخة وصرخة وأصواتاً منكرة تشبه هزيم الرعد ، ثم صفعات يتلقاها المتلقون من اليمين ومن الشمال ، ثم الكراسي وهي تنقلب رأساً على عقب ، ثم الموائد وكل مائدة تضرب أختها ، ثم الصحاف وهي تتهشم وتتطاير أشلاؤها ، ثم الخدم وقد هاجوا وماجوا ، ثم الفندق وقد أصبح عاليها سافلها ، ثم صرخة عالية تدوي في أرجاء المكان : اللص ! اللص ! فلما سمعت هذه الكلمة أسرعت إلى حيث تقوم الضجة ، ثم نظرت إلى المرأة العجوز فألفيتها تنصت في قلق بالغ إلى الصراخ والضجيج ، وكانت عيناها في تلك اللحظة تلمعان في بريق يثير الرعب ، وقد بانت على محياها الشماتة كما بان على محياها السرور .

وبعد قليل احتشد أمام الفندق حشد كبير فيه الخدم والخادمات ، وفيه المقيمون في الفندق ، وفيه الفتيان والفتيات ، وفيه الشيوخ من رجال ونساء ، وقد تكتلوا جميعاً أمام الرجل وفتاته .

أما الرجل فكانت رقبته في قبضة ثمانية رجال أشداء ، وكان هو يصد القوم عنه ما وسعه الجهد ، وهو أهدأ ما يكون بالاً ، وكأن المقبوض عليه غيره ، ثم سار أمام القوم وهو يلوح بيديه محتجاً .

وأما الفتاة المسكينة فقد بدت شاحبة الوجه وقد أمسك بها ستة من الخدم ، وقد انفرطت عقود حليها ، وتمزقت ملابسها ، وكانت تبكي أحر بكاء وهي ترجو القوم وتستعطفهم ، وكانت تدفع عن نفسها التهمة دفاع من اتهم ظلماً :

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له
ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب
ولم يعتذر عذر البريء ولم تزل
به سكتة حتى يقال مريب

ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى حفت بالمكان شرذمة من رجال الشرطة وكأنهم كانوا على ميعاد ، ثم تبينت أن الرجل الذي كان ممسكاً بذراع الفتاة هو ذلك الخادم الذي دار بينه وبين المرأة العجوز الحديث من قبل . أما تلك العجوز فلم تطرف لها عين ، وكأن الأمر لا يعنيها ، وإنما اكتفت بمراقبة ما يجري أمامها في سكون وصمت . فلما حاذاها الرجل قال لها بالأسبانية : أخرسي من أيتها العجوز الملعونة .

وبعد لحظة انفض الناس ، وتفرق القوم . ثم التفت

مركز المرأة فى التاريخ القديم

اختلف نظر الناس فى الزمن القديم إلى المرأة ، وتباينت نظرتهم إليها ؛ فجماعات منهم أكرمتها وأنزلتها المنزلة اللائقة بها كأم ومربية . وجماعات منهم لم تر فيها غير آلة تسخرها يد الرجل ، وجماعات أخرى بالغت فى تعظيمها حتى كادت أن تبز الرجل . ومركز المرأة بين هذه الجماعات جميعاً إنما كان متأثراً إلى أبعد حد باختلاف البيئات ، وتباين الحضارات ؛ فنجد البيئات الزراعية مثلاً قد أحسنت معاملة المرأة ، وهذا بعكس البيئات الرعوية التى ضنت على المرأة بأبسط حقوقها . ففى البيئة الأولى حيث تقوم الزراعة وحيث تلح الحاجة إلى الأيدى العاملة وحيث يجد الرجل نفسه عاجزاً عن القيام بالعمل وحده دون مساعدة زوجه ، كل ذلك كان سبباً ودافعاً لتقدير المرأة . أما فى البيئات الرعوية فلم ير الناس فى المرأة أهمية تذكر ، ومن ثم أهملوا شأنها وأسقطوها من حسابهم .

وباعتبار البيئات كانت للمرأة فى مصر القديمة أعز جانبا وأوفر كرامة من نظيرتها فى البلاد الأخرى ، فإن أعرق الحضارات القديمة لم تنزل المرأة منزلتها الجديرة بها كما أنزلتها الحضارة المصرية . ففى الآثار القديمة نجد المرأة إلى جانب الرجل وحتى الملوك لايكادون يصورون إلا إلى جانب زوجاتهم ، وليس ذلك إلا لأنهم قدروا المرأة حق قدرها ، فهى شريكة الرجل فى حياته تقف إلى جانبه فى جد الحياة ولهوها ؛ ولكن الرجل بحكم عمله وطبيعة تكوينه كان قواماً على المرأة فى حدود ما يحفظ عليها حقها ويصون عزتها ويدخر وقارها ويوفر كرامتها ، وإذا نحن ألقينا النظر فى الصور المنقوشة على آثار ذلك العصر ، نجد دليل ذلك واضحاً فى لون الرجل إذ يضرب إلى السمرة ، بينما كان لون المرأة يضرب إلى الصفرة ، وذلك بطبيعة الحال كان متأثراً بعمل الاثنين ؛ فالرجل يعمل طيلة يومه خارج المنزل معرضاً لحرارة الشمس ، بينما كانت المرأة سيدة البيت وربة الدار .

أحد الخدم فسألته : أين ذهبوا بالرجل وفتاته ؟ قال : لقد ذهبوا بهما إلى السجن !

وهاك يا سيدتى القصة التى أدت بالرجل وفتاته إلى السجن كما قصها على ذلك الخادم : —

بينما كانت تلك الفتاة ، تغنى وهى رافعة ناظريها إلى السماء . والرجل يصاحبها بالعزف على معزفه ، حانت من ذلك الخادم التفاتة فرأى وراء المكان الذى يقفان فيه قليلا من الملح والفلفل قد انتثر على الأرض ، ورأى الرجل بين آونة وأخرى يميل إلى وراء كأنه متعب ، فأنبأ صاحب الفندق بما رأى وشاهد . فأمر هذا أمره . فجاء الخدم وأحصوا صحافهم فألفوا إحدى آنيات الخل والزيت قد ضاعت ، ولما فتشوا عن تلك الآنية ألفوها بين طيات ثوب الفتاة ، ومن ثم نشأت الضجة ، ونادى النادون : اللص ! اللص !

أرجو أن لا تضحكى منى ياسيدتى إذا قلت لك إن هذا المنظر قد مس شغاف قلبى ، ذلك لأنى أعرف سر القضية .

والناس كلهم يرون فى هذا أن لصاً سرق فسيق إلى السجن ليلقى جزاء ما كسبت يداه . أما أنا فأرى فى الأمر مأساة . فقد سرقت هذه الفتاة — إن صحت التهمة — من أجل الحب .

وإن الفيرة بينها وبين المرأة العجوز هى التى أدت بها إلى حيث تلقى جزاء السارقين .

وهذه قصة كما ترين فيها بؤس وفيها شقاء ، وهى على تفاهة مكوناتها شعرية النسج والحبكة ، وهى قد تكون عند أصحاب فن التمثيل ملهاة أى ملهاة ، وهى عندى مأساة أى مأساة .

ذلك لأنى أقرأ بين سطورها ماذا يفعل الحب بالمحبين .

مبارك إبراهيم

وإذا كانت الآثار تنبئنا بكل ذلك فإن أدب القدماء يحدثنا بما هو أجل وأعظم ، فقد أوصى كاحوتب بالمرأة خيراً فقال : « إذا أصبحت رجلاً فتزوج وأجل وأعظم زوجك وقدم لها الطعام والكساء ، وأعد لها الزيت فإن فيه شفاء لها ، وأدخل عليها السرور ، ولا تسلك معها سبيل العنف والقسوة » .

وكانت المرأة لا تتزوج إلا بمحض إرادتها ، وكان الزواج يقوم بعقد بين أسرة الزوج وأسرة الزوجة ، يتعهد الزوج فيه بتقديم كل ما تحتاج إليه زوجه من طعام وشراب وكساء ، وفي حالة ما إذا طلقها كان عليه أن يدفع لها تعويضاً ، ويبدو أن إتمام الزواج عند القدماء كان متمشياً مع ما تقضي به الشريعة الإسلامية من قبول الطرفين التزوج من بعضهما ، ولكن لإثبات حقوق الزوجة والأولاد كان يتعين تحرير العقود .

وكان تعدد الزوجات معروفاً لدى القدماء لكنه كان شائعاً بين ذوي اليسار والغنى ، أما عند عامة الشعب والسواد الأعظم فكانت قيود الزواج ثقيلة بدرجة جعلت تعدد الزوجات أمراً متعذراً بالفعل وإن كان مباحاً في الشكل . ومن أطرف ما في هذا الموضوع أننا رأينا في أحد عقود الزواج تعهداً من الزوج أن يعطي قرينته خمسين قطعة من الفضة إذا طردها ومائة قطعة إذا اتخذ عليها ضرة .

كل ذلك ينهض من غير شك على احترام المصريين القدماء للمرأة وإجلالهم لها .

ولم تكن المرأة في بابل أقل مكانة من المرأة في مصر ، فكان النساء يتبوأن مكانة لا تكاد تقل عن مكانة الرجل ، فكن يمتلكن وكن يرثن ، وكان للأنثى مثل حظ الذكر في الميراث وكن مع ذلك يتربعن على مناصب الحكم والقضاء ويحترفن مهنة الكتابة ويشتغلن بالوظائف الكهنوتية .

أما الزواج فكان تعاقداً بين الرجل والمرأة ، ولم يكن في وسع الرجل أن يتزوج امرأتين إلا إذا ثبت أن الزوجة الأولى مريضة أو عاقر ، والرجل يعد مسئولا عن كل ما يتعلق بزوجته من قريب أو بعيد ، وكانت المرأة تقف مع الرجل على قدم المساواة في حق الطلاق ، وكان لكل من الطرفين أن يستخدم هذا الحق متى شاء ، لكنه كان من المتعذر على المرأة أن تقاوم الطلاق إذا شاء الرجل ، فإن هي عارضت استطاع الزوج أن يقدمها إلى القضاء فإذا ثبت من التحقيق أنها زوجة معاكسة شريرة حكم عليها بالموت غرقاً .
ولكن ، مع ذلك ، فلا نستطيع أن ننكر أن المرأة في بابل كانت تتمتع بنظام اجتماعي كفل لها حقوقها ، وساواها بالرجل .

أما في أثينا فقد شاع احتقار المرأة ونظر إليها المجتمع نظرة حقيرة ، فكانت تقضي زمانها قعيدة في البيت ، حياتها سلسلة متصلة من الفراغ ، وماذا هي فاعلة ؟! الرقيق يقوم بأعمال المنزل والرجال يشتغلون بالأعمال العامة ، ومن ثم انطوت المرأة على نفسها في دار زوجها واتخذها الرجل للمتعة والتسلية فقط ! وفي الواقع أن نظرة أثينا إلى المرأة تدعو إلى العجب في وقت بلغ فيه العقل اليوناني درجة كبيرة من النضج ووصلت حضارة اليونان إلى مستوى عال رفيع .

حقيقة كانت هناك أقلية من النساء الأجنبيات عشن خارج البيت عيشة باهرة راضية وأقمن أنفسهن في مصاف الرجال ، لكن أولئك النساء كن أقلية ضئيلة وعنصراً غريباً عن المرأة اليونانية التي كان دستورها الجهل والطاعة العمياء ، وكانت النظرية القائلة بأن المكان الوحيد للمرأة الفاضلة هو البيت ، متأصلة في روح العصر ، وبلغ من قوتها أن النساء في عهد يوريبيدس كن يتكلمن لغة محدودة أو حديثاً تافهاً كان مقصوراً عليهن .

وقد أثر ذلك في حضارة اليونان ، إذ لو أن المرأة أخذت بثقافة عصرها لعمرت حضارة اليونان أطول مما عمرت .

وبرغم أن المرأة اليونانية لم تجد مكانها في المجتمع فقد وجدت لها مكاناً سامياً في الأدب والفلسفة ، فيوريبيدس وهو من أكبر المسرحيين كان يضع نفسه دائماً في صف المرأة ، وكذلك كان أفلاطون يشيد بالمرأة في فلسفته ويرى

أما كاتو فقد ازداد حنقه على النساء ، ووجه إلى أعضاء السنا خطاباً نارياً تحدى فيه النساء ، وألقى مسئولية ذلك على الرجال لأنهم هم الذين سمحوا لأزواجهم بالخروج عن جادة الحياة والخوض مع الرجال فى ميدان السياسة ، واختتم خطابه متشائماً من نتيجة ذلك ومؤكداً أن نجاح النساء ومساواتهن بالرجال نذير شر على روما .

لكن لوسيس فلاريس عارض كاتو مؤيداً النساء ومناصراً لهن وأبدى دهشته من موقف النساء مستنداً إلى التاريخ يوم قامت سيدات رومانيات بالمفاوضات يوماً ما ويوم تدخلن فى الغزو الحالى ، وعلل فلاريوس موقف كاتو بحقده على المرأة الأمر الذى دفعه إلى سوء تقديره .

غير أن الزمن وحده كان كفيلا بالفصل بين كاتو وخصومه ، وقد صدق نظره وتحققت أوهامه حين تعالى النساء وتدخلت المرأة المستهترة فى شئون السياسة الأمر الذى هوى بالأمبراطورية الرومانية وصدع أركانها .

محمود محمد عبد

صرخة الحرية

ياصرخة كالصبح فى — وجه الدجى المتدثر
رددى .. كبدرة — شماء .. فى أستر
تحجب فى أطوائها — قوى ربيع أحمر
شدت صمتاً كان يقنا — ت بصبر الضجر
يحنق إحساسى ويغر — ق بجبن الحذر
لا كنت إن أعرضت عن — صوت الجهاد الأكبر
عن صوته الداوى بثا — رات الشباب الهدر
ما مات من فداك بالر — وح التى لم تقهر
ما مات من ضحى الحـ — ياة بعزمة التجبر
هو فى دمى يحيا وفى — روح الشباب الأسود
فى عزمة الأحرار فى — صوت الدم المتثمر
فى ثورة شعبية — على كلاب الجزر

كمال نشأت

أنها مخلوق من الجمال والنور ، لكن ذلك لم يتجاوز الناحية النظرية فقط .

أما فى روما بلد الشرائع والقوانين فكانت المرأة تابعة للرجل فى كل شيء ، فهى منذ ولادتها تابعة لأبيها ، حتى إذا ما تزوجت انتقلت تلك التبعية إلى زوجها ، وأصبح منذ ذلك الحين زوجها هو المسيطر عليها حتى آخر لحظة فى حياتها ، ولم يكن لها أن ترث أو تمتلك ولم يكن لها كذلك حق التوظف أو الاشتغال بالشئون العامة ، بل حيل بينها وبين أداء الشهادة وتوقيع العقود ، وكانت القوانين تعفيها من أخطائها إذا ثبت جهلها .

على أن ذلك لم يطل ، إذ كان لزاماً أن يتطور مركز المرأة فى روما ، وكان الجو ملائماً ، فلم يكن القتال الفردى أهم ما يشغل الرجال وإنما انغمر الناس فى بحر من الحضارة الزاهرة والمدنية الراقية ، وقد كانت المرأة تابعة لأبيها فى الشطر الأول من حياتها ثم تنتقل التبعية فى الشطر الثانى إلى زوجها ، وأدى ذلك إلى قيام الكفاح بين الأب وزوج ابنته الأمر الذى أدى إلى منح المرأة كثيراً من الحرية الخاصة والاستقلال الشخصى ؛ ومن ذلك الحين أخذ مركز المرأة يقوى فى المجتمع الرومانى حتى كاد أن يطغى على مركز الرجل ، وخاف بعض الرجال نتيجة ذلك التقدم السريع من جانب المرأة ، وخشى بعض المشرعين عاقبة الأمر ، فتقدم أحد الترابنة بمشروع قانون يحرم على المرأة أن تمتلك أكثر من نصف أوقية من الذهب ويحدد لها الملابس التى يجب أن تلبسها ، بل الألوان التى ينبغى أن تكون عليها تلك الملابس .

إلا أن النساء يوم ذاك كن أعظم من أن ينقص الرجال من حقوقهن ، وسرعان ما تكون من بينهن اتحاد نسوى للوقوف فى وجه طغيان الرجال . ولما كان عام ٢١٥ ق . م قام كاتو أحد مشاهير الرومان وقدم مشروعاً إلى مجلس السنا لتحديد ملكية المرأة حتى تقلل من زينتها ، وتقتصد فى بذخها ؛ لكن الاتحاد النسوى وقف فى وجه المشروع وقاومه حتى كتب عليه الفشل وتأيدت حقوق المرأة .

ريح الجنوب

عين السجين
من قبوه الأرضي للنجم الحزين
من قبوه الأرضي تضرع – والمصير يروعه – عين السجين
وشذا الخمائل والصخور ...
وصدى القوافل والطيور العائدات من الجنوب
بعد الغروب
تأوي إلى برج المدينة والقوافل في الدروب
بعد الغروب
برج المدينة والقوافل في الدروب
الليل أدركها ، والنجم الحزين
عين السجين
من قبوه الأرضي تضرع والمصير ...
الليل والنجم الحزين على القدير
الريح تلطمه ، وفي القفر الوعير
كنا نسير
كانت قوافلنا بلا نجم ، وقد كنا نسير
ما كان لا – عبثاً يكون
لا ! لن يكون
كانا ستدك جدران السجون
ستضيء أعماق السجون
كانا ! ما كان لا – عبثاً – يكون
يا أرض – يا أم الجميع – ستهرمين ! ولا يكون
ما كان – يا أم الجميع – ستهرمين ! ولا يكون
كانت قوافلنا بلا نجم ، وقد كنا نعيد
صلواتنا الخرساء للصبح البعيد
كنا نعيد
صلواتنا – يا أم – للصبح الجديد

ووراءنا تعوي الكلاب ، ومن بعيد
أرض العبيد
كانت تلوح كما تريد
البرج فيها مائل والأفق تصبغه الدماء
كنا ظماء
حتى نسينا أننا كنا ظماء
وعلى رصيف المرفأ المهجور كانت عمتات
أطفالنا ونساؤنا المتهللات
حتى نسينا أننا كنا عراة
يا أم ! هاذ أتسمعين ؟
نجواه في الريح الحزين
... وتفر من عين السجين
بعض الدموع
تفر من عين السجين
وشذا الخمائل والصخور ...
وصدى القوافل والطيور العائدات من الجنوب
لبيوتنا تأوي ومن تلك الدروب
أصداء قافلة تغني : إنها ريح الجنوب
وشذا الخمائل .. : إنها ريح الجنوب
يا أم ! هاذ أتسمعين ؟
وتفر من عين السجين
بعض الدموع
وفي الدروب
أصداء قافلة تغني :

إنها ريح الجنوب ...!

(بغداد)

عبد الوهاب البياتي

الثقافة

صاحب الامتياز	AL-THAQAFA	رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك	الإدارة	محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـدد ٦٨٥ الاثنين ١٥ من جمادى الأولى سنة ١٣٧١ — ١١ من فبراير سنة ١٩٥٢ السنة الرابعة عشرة

الحكم الصالح

للأستاذ محمود محمود

شعر الناس منذ كونوا الجماعات بضرورة قيام نفر منهم ينظمون العلاقة بينهم حتى يعيش كل فرد مطمئناً على حياته وعلى ملكه لا يخشى أن يعتدى على حقه أحد . هذا النفر الذى أخذ على عاتقه حفظ الأمن وصيانة الحقوق هم من نسميهم أولى الأمر منا أو « الحكومة » . وليس الحكم بالأمر الهين اليسير كما قد يبدو ، فحقوق الناس ليست واضحة محددة ، والحاكم مسوق إلى الطغيان والتمادى فى بسط النفوذ والسلطان بحكم غريزته . والحكم العادل الصالح عبقرية نادرة قل أن يجود بها التاريخ .

وقد سلك الحكام فى كافة أقطار العالم سبلا شتى ، فمنهم من استبد برأيه وزعم أنه وحده أوتى الحكمة فأعلن نفسه دكتاتوراً حاكماً بأمره ، ومنهم من وصل إلى مكانة الحكم باختيار الناس يشاور ممثليهم ولا يبرم أمراً إلا يرضى منهم ، وهو الحكم الديمقراطى الحديث ، وهناك غير أولئك وهؤلاء ، يحكمون الناس أو يتحكمون فيهم لمصلحة الحاكمين أو المحكومين أو مصلحتهم جميعاً . وهم دائماً يحملون فى رءوسهم أفكاراً وآراء يحبون أن يفرضوها على الناس فرضاً ، ويعمدون فى ذلك طوراً إلى طريق العنف والشدة وتارة إلى سبيل الإقناع واللين .

ومن يدرس التاريخ دراسة فحص وتمحيص يجد أن الإنسان لم يتقدم خطوة واحدة فى سبيل المدنية إلا بالعطف والملاينة ، ولم ينجح قط حاكم أخذ الشدة والاستبداد وسيلة ، فإن العنف لا يولد إلا العنف ؛ عنف الحاكم يؤدى إلى عنف المحكوم ويثير فى نفسه الريبة والاستياء والحقد ، والشدة تقابلها الشدة . ولا يبرر الغاية الطيبة وسيلة دنيئة ، ولا يصح أن يكون القتال والفتك بالناس وسيلة لإقرار النظام وإصلاح الجماعة وفقاً لآراء الحاكم التى قد تكون طيبة وقد لا تكون ، وكلنا يدرك من معاملاته مع الناس أن الغضب يثير الغضب ، ولا يفل من حدة الغضب إلا أن تقابله بالحلم والصبر ، ولا تستطيع أن تقسو على رجل يتصف بالإيثار وإنكار الذات .

وكما ينفع اللين فى معاملة الفرد للفرد ينفع كذلك فى حل المشكلات الاجتماعية . وقد أخذ المصلحون منذ قرن واحد فقط يدركون ذلك ، فعاملوا الجانين بالعطف وأنشأوا لهم المستشفيات بعد ما كان الحكام السابقون يعاملونهم بالقسوة فيزيدونهم جنوناً على جنون ، وأصلحت سجون المجرمين فأمست بيوتاً للتهذيب والإصلاح بعد ما كانت منازل للتعذيب تنحط فيها أخلاق السجين ، ويخرج منها المجرم وهو أشد إجراماً مما كان ، وأخذ المربون أطفالهم بالحسنى ، بعد ما كانوا يتهالون عليهم بالضرب المبرح ليخرجوا الشياطين من رؤوسهم — كما كانوا يعتقدون .

ويدلنا التاريخ على أن الثورة نفسها إذا اصطبغت بالعنف الشديد أدت إلى عكس النتيجة التى هبت من أجلها ، فالثورة الفرنسية انتهت بعد حكم الإرهاب بدكتاتورية

بالجيوش العسكرية . وقد قامت الثورة الروسية على وسائل العنف والشدة ، فبدلا من أن توفر للناس حكماً ذاتياً في نواحي نشاطهم المختلفة أخضعت روسيا دكتاتورية حكومتها مركزية ، تتحكم في اقتصاديات البلاد ، وتلجأ إلى الجاسوسية والتجنيد الإجباري ورقابة المطبوعات ، وإخضاع الشعب بالقوة

وما أبعد ذلك عن الوسائل التي لجأ إليها غاندي في جنوب أفريقيا أولا ، وفي الهند ثانياً ، فاستطاع بطريق المقاومة السلبية أن يلغى قانون التمييز بين الهنود والأوربيين في جنوب أفريقيا في عام ١٩١٤ ونجحت حركته في الهند إلى حد كبير وتحقق لبلاده استقلالها في نهاية الأمر ، وكانت وسيلته مقاطعة البضائع الإنجليزية وعدم التعاون مع العدو ، ولم يعمد إلى سلاح أو قتال .

والحاكم الصالح هو الذي لا يثير سخط الجمهور ، والجمهور بطبعه يميل إلى الاحتفاظ بالقديم ، ومن ثم كان من واجب المصلح أن يبقى على تقاليد المجتمع التي ليس من ورائها ضرر محقق ، أو التي لا تضر ولا تنفع ، ولا يدخل في نظام الجماعة تعديلا إلا إن دعت إليه الضرورة القصوى ، وأن يمتنع من إدخال الإصلاح الذي يتقبله الشعب بالضجيج والنفور ، وأن يجعل من النظم القائمة أساساً للتطور الذي يرمى إليه . بذلك ينجو من المعارضة الشديدة التي يقابلها كل إصلاح جديد ، ولا يحس الحاجة إلى استخدام وسائل العنف والشدة

ولعل إلى ذلك يرجع السبب في اطراد التقدم في انجلترا وتحولها تدريجياً إلى النظام الاشتراكي دون أن يقوم الشعب بثورة أو يعمد إلى قلب نظام الحكم ، ودفع أغنياؤها ضريبة الدخل وضريبة الميراث صادقين مخلصين . فخففوا من حدة الفوارق الاقتصادية بين الطبقات والأفراد ، وقررت الدولة زيادة أجور العمال ، وتولت بنفسها الإشراف على كثير من الصناعات فزادت ثروة البلاد وعم الخير الجميع

في حين أن الروسيا أرادت أن تحقق هذه الأهداف عينها ، ولكن بطريق العنف والثورة ، فاستبد الحكام بالسلطة ، ولم تتحسن حال العمال كثيراً ، ولم يتخلصوا من نفوذ كبار الملاك إلا ليقعوا تحت نفوذ الدولة القاهرة .

وقد توهم بعض الحكام أن إصلاح النظام الاقتصادي وحده كفيل بترقية المجتمع ، وغاب عنهم أن إصلاح النظام الاقتصادي يجب أن يسير جنباً إلى جنب مع إصلاح الأداة الحكومية ونظام التعليم والأخلاق والمعتقدات .

فالأداة الحكومية ينبغي أن تتخلص من نظام التركيز ، فلا تتجمع السلطة في أيدي أفراد قلائل ، بل يجب أن توزع على أكبر عدد ممكن من أفراد الشعب ، كما يجب أن يتلاشى كل نظام دكتاتوري من وجه الأرض ، وأن يتمتع كل بلد بالحكم الديمقراطي الصحيح الذي يتحمل فيه الشعب تبعة حكم نفسه بنفسه

ولا يكفي أن تكون الدولة ديمقراطية في نظامها العام ، بل ينبغي كذلك أن تتغلغل هذه الروح الديمقراطية في جميع دوائر الأعمال ، ولكن أكثر هذه الدوائر — في ظل النظام السائد — أشبه ما تكون بدكتاتوريات صغيرة ، بعضها يميل إلى الخير وبعضها يميل إلى الشر ، وطاعة العمال فيها على كل حال لرؤساء فرضوا عليهم فرضاً بغير انتخاب ، محتمة واجبة . هؤلاء العمال يعيشون في ظل دولة ديمقراطية ، ولكنهم — في الواقع — ينفقون حياتهم رعايا لحكام مستبدين هم أصحاب المصانع التي يعملون فيها .

ويرى أولدس هكسلي علاجاً لذلك أن تدخل الروح الديمقراطية في المتاجر الكبيرة والمصانع فينتخب العمال من بينهم رؤساءهم الذين يشتركون اشتراكا فعلياً في إدارة المصنع أو المتجر ، ويشرفون على توزيع الأرباح وتقدير الأجور ، وتكون لهم سلطات تأديبية على الخارجين على النظام الذي وضعوه بأنفسهم .

وفي هذا العصر الذي تشابكت فيه أطراف العالم طراً وارتبطت مصلحة كل دولة بالأخرى ينبغي لنا أن نؤمن بالهيئات الدولية ونعتقد في إمكان الاتفاق بين حكومة وأخرى وفي المؤتمرات العالمية التي تهدف إلى تحقيق الصالح العام .

وأخيراً يجب ألا يغفل الحاكم الصالح إيجاد شيء من المساواة الاقتصادية بين الأفراد ، ولا نقول المساواة التامة فهي ضرب من المحال بل ، ولا يرغب فيها أكثر الناس ، لأنها تمحو الفوارق بين الناس التي بغيرها لا يكون للحياة لذة أو طعم ! ولكن شيئاً من المساواة المادية يحقق التعاون بين جميع أفراد المجتمع ولا يثير سخط طبقة على طبقة ، وقد أخذت بذلك فعلا أكثر الدول المتقدمة فوضعت حداً أدنى وحداً أقصى للأجور ، وجعلت كذلك حداً أقصى للدخل لا يزيد عنه مهما تضخم رأس المال

ولعل التقارب الاقتصادي بين الأفراد والطبقات أيسر من إيجاد التقارب بينهم في النواحي العقلية ، وذلك لاختلاف الناس بالطبيعة في مداركهم ! ولكنا نستطيع بتهيئة التربية الصالحة لكل فرد وفق ميوله واستعداده ، وبإيجاد البيئة المتشابهة التي ينشأ فيها الجميع ، نستطيع بذلك أن نقارب بين

خواطر

للدكتور أحمد أمين بك

وقفت على حقل مزروع ذرة فرأيت عدداً قليلا من العيدان قد نما وترعرع وفاق غيره في الطول وكثرة ما يحمله من الكيزان .

ورأيت كذلك عدداً قليلا من العيدان قصير القامة ضعيف البنية لا يحمل من الكيزان إلا قليلا . أما أغلب الحقل فعيدان متوسطة لم تبلغ درجة الأولى في النضج ولا الثانية في الضعف . أليس كذلك الإنسان ؟

حفنة قليلة من الناس يعدون نوابغ وعظماء أو ماشئت فسمهم ، وحفنة قليلة من الضعفاء ، ضعف عقلهم وضعفت بنيتهم ولم يصلحوا للحياة إلا بشق الأنفس ؛ وأما السواد الأعظم من الناس فأوساط لم يبلغوا ما بلغه الأولون ولا انحطوا كما انحط الآخرون .

وتراهم كذلك في كل جمعية بشرية ، في المدن الكبيرة والمدن الصغيرة والقرى ، وعقتضى نبوغ النابغين ، حملوا أكبر العبء وكانت في يدهم السيطرة ، وعقتضى حقارة الحقيرين كان فيهم الذل والفقر والمسكنة ، أما الباقون فهم جمهرة الناس .

وترى هذا في كل مرفق من مرافق الحياة ، في الفنون والأدب والموسيقى والتصوير ؛ إن كان هذا عمل الطبيعة فكم من السخف أن تنادي بالمساواة لأنها ضد الطبيعة ؛ ولو سويت بين الناس في الرزق يوماً لاحتال الأقوياء على الضعفاء فسلبوهم مالهم بقدرتهم وذكائهم ، وعادت الدنيا كما كانت غنى وفقر وسعادة وشقاء .

قد تكون المساواة في الحقوق معقولة : مساواة أمام القضاء وفي حق الحياة وفي حق الحرية . أما مساواة في الكسب والأجور والقدرة على الأعمال فيستحيل أن تكون وإذا كانت فيستحيل أن تستمر .

والمهارة الكبرى في أن يكتشف أصحاب الأعمال مقدرة العمال ثم يضعوا كلا في موضعه ، وأولياء الأمور أفراد الأمة فيضعوا كلا في موضعه المناسب ؛ لذلك نادى علماء التربية بأن يقسموا التعليم أنواعاً : تعليما زراعياً وتجارياً وصناعياً ونظرياً ثم يتفحصوا حالة كل طالب فيعرفوا ميوله واستعداده ، ثم يوجهونه إلى ما يلائمه ، وبذلك تنمو ثروة البلاد من حيث الاستعداد والاستنتاج ؛ فمن الناس من كفاءته في يده ومنهم من كفاءته في قلبه ومنهم من كفاءته في عقله ، فلو سيرت كلاً في اتجاهه لنجح ، ولذلك ترى في الحياة الواقعية كثيرين خابوا في أول حياتهم لأنهم اتجهوا عكس استعدادهم ، ثم نجحوا لما حولوا اتجاههم حسب كفايتهم

ولو أنصف الناس لمدحوا أي عامل على إتقانه في عمله لا على نوع عمله ، فقد كان من الطبيعي أن يمدح الكناس على إتقانه في كنسه كما يمدح الأديب على إتقانه في أدبه والعالم على إتقانه في علمه ، لأن كلا من الكناس والعالم والأديب يعمل حسب ما خلق له ولا فضل في الطبيعة بين أحد وأحد ، ولكن الناس مدحوا على نوع العمل لا على طبيعة العمل .

ثم من حين إلى حين تجد في حقل الذرة عوداً قد نما نمواً شاذاً لم تكن تراه منذ سنين ، فكذلك الشأن في الإنسان يطلع على الأمة من حين لآخر فرد أو أفراد نبغوا نبوغاً عجيباً لم يكن للأمة عهد به منذ سنين ، وهؤلاء هم زعماء الأمة في سياستها أو علمها أو فنها .

ثم تبحث عن مسببات هذا النبوغ فتجد عجباً ! ليست الحبة التي نبت منها العود الكبير أكبر حبة ، ولا طينتها أحسن طينة ، ولا أم النابغة أحسن أم ولا أبوه أحسن أب ولا بيئته أحسن بيئة ؛ ولكن صدق الله العظيم إذ يقول : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » !

أحمد أمين

العقول فتجعل التفاهم بين الأفراد والأمم أيسر مما هو اليوم .

هذا بعض ما ينبغي للحاكم الصالح ألا يغفل عنه في عصر لعل أهم ما يميزه التفكير في الإصلاح الاجتماعي ومحاولة النهوض بالطبقات الدنيا إلى مستوى معقول والتخفيف عنها بعض ما تعاني من آلام وويلات .

محمود محمود

سُـــــوق النعاج

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

لم يظهر القمر فى تلك الليلة ، فقد أخفته سحابة داكنة جاءت من بلاد بعيدة ، فحجبت ضوءه وحرمت الأعراب من نعمة ذلك النور الشفوق الذى اعتاد أن يرسله إلى الخيام فيظهر بياضها الناصع ويبعث الأنس فى قلوب القادمين إليها من مختلف الأنجاد . وفرح الأعراب بهذه السحابة الداكنة ، شأنهم دائماً فى تلك الحالات ، وأحسوا بأن خيراً كثيراً يوشك أن يعمهم وأن شراً كبيراً يوشك أن ينقشع عنهم . فقد أحزنتهم تلك الفتنة التى كادت تقع بين قبيلتين من أكبر قبائل البدو فى ذلك الجزء البعيد الآمن من جزيرة العرب . أحزنتهم إلى حد أن اقتلعت من نفوسهم معالم الرضا ومحت من قلوبهم طعوم البهجة ، وقضت عليهم بحياة رتيبة خالية من معانى الفرح والسرور . وما من شىء يحزن أبناء البدو قدر ما تحزنهم الحياة الرتيبة الخالية من دواعى البهجة والأنس ، وما من شىء يسوءهم قدر ما يسوءهم الحرمان من تلك السهرة البريئة الممتعة التى يجتمع فيها الشبان والشابات والكهول حول النار يتسامرون ويلهون إلى أن يطرق مسامعهم أذان الديكة فينصرفون وهم أشد ما يكونون ألماً للفراق ، وأقوى ما يكونون أملاً فى عودة اللقاء إذا ما أقبل الليل من اليوم التالى . فى ذلك المجتمع الساذج وحول تلك النار المشتعلة ينفض أبناء الصحراء عن أكتافهم هموماً لم يعرفها أبناء المدينة ، وينفثون متاعب الرحلة والرعى والسعى الحثيث إلى لقمة العيش ، ويلقون مع الحطب بأعباء الحياة التى لا تنى عن تهديدهم والإثقال عليهم . فإذا حرمتهم من تلك السهرة وحكمت عليهم بالابتعاد عن تلك الندوة ، كما حصل فى تلك الأيام التى أوشكت الفتنة أن تقع إبانها ، فقد حرمتهم من كل معانى الفرح وحكمت عليهم أن يظلوا بالهموم على أكتافهم وبالمتاعب فى صدورهم وبالأعباء فوق هاماتهم .

وكانت الريح شديدة والجو عاصفاً ، ولكنهم لم يفرحوا لشىء وهم منطوون فى خيامهم قدر ما فرحوا لهذا الصدى الذى امتزج بصرصرة الريح وبصفير العواصف وهو يعلن إليهم خافتاً مرة ، واضحاً مرة أخرى ، أن الزياد بن سليمان قد هبط إلى الحى منذ الليلة ليفصل فى دواعى الفتنة التى أوشكت أن تقع بين أبناء هذا الوادى الذى رفرفت عليه المحبة جيلين متواليين وزانته الأخوة والألفة منذ زمن غابر ، فلم تعرف لهم خصومة ولم تؤثر لهم ضغينة ، ولم ينشأ الفتى والفتاة منهم إلا على المحبة والوئام . ولعل ذلك كله قد ساعدهم — كما يقول المؤرخون — على أن يتعهدوا كلاً من بناتهم وأولادهم بالرعاية الحسنة والتربية الفاضلة ، وأن يسعوا بهم إلى العلم والمعرفة ما وسعهم ذلك ، وأن يهيئوا لبناتهم من يقرأ عليهن فى خدورهن أبواب الأدب المأثور والحكم الرزينة ، وأن يدبروا لهن من ينشدهن الشعر ويحكى لهن الأقاصيص ويشرح لهن أصول دينهن الحنيف . والزياد بن سليمان رجل حكيم واسع المعرفة ، اشتهر بين القبائل بحبه للخير وإقباله على الصلح ، وشخصيته الأليفة المحببة التى تجمع بين الصرامة فى نصرة الحق والعدالة فى الحكم بين الناس والظرف فى مجالسة الصغار والكبار . ولم يكن الناس فى هذا الرهط قد أحسوا بمقدمه لأنه لم يعتد الإعلان عن نفسه ، ولأنهم لو عرفوا بأنه قد حل منهم ضيفاً لاعتبطوا من أجله النوق ونحروا لمقدمه النعاج وسارعوا إلى خدمته وتحيته ، ولم يمنعهم عن ذلك ريح صرصر أو سحاب مقتم . ولكنه كان حريصاً على ألا يشعر الناس بأنه قد نزل بهم ضيفاً ، واعتاد ألا يأكل شيئاً أو يشرب شيئاً عند قوم استقدموه للفصل فيما بينهم حتى يتسنى له أن يستخلص الحق من أفواههم وأن يتبين مواضع الظلم فى أعمالهم وأن يستقرئ حكمه البرىء الخالص فيما نشب بينهم .

وكان الليل طويلاً من شدة ما صار يتعجله القوم بالرواح ! فبعضهم من الشيوخ يريد أن يتقدم على الزياد فيؤدى له التحية

الواجبة ، وقد خشي أن يَرْجعه بالزيارة أثناء الليل بعد ذلك السفر الطويل ، وبعضهم من الرجال والشبان يود لو حظي بلقاء ذلك الرجل المشهور بالبركة ، وقد مضى وقت بعيد على زيارته لأرضهم ونزوله فيهم . أما الصبيان فلعل هذه هي المرة الأولى التي ستقع أعينهم عليه وتتطهر نفوسهم بقبلة يطبعها على جبينهم وقبلة يطبعونها على يديه .

واستيقظت الشمس في الصباح متعثرة تريد أن تشق لها طريقاً وسط السحاب إلى ذلك الوادي الغريب ، ولم يكد أذان الظهر يعلن على الناس حتى كانت قد توسطت السماء وانتصرت على هذه السحب المتراكمة فأقلتها إلى جانب الجبل . وامتزج الدعاء عقب الصلاة التي أمّها الزياد بدموع المصلين وجلسوا بعد ذلك بين يديه وكلهم خاشع راهب يتمنى لهذا الجو الثقيل أن يزول ولتلك المحنة البغيضة أن تولي . . . وصار الناس يتكاثرون حول الزياد ، وأخذت النساء تتوافد فتقبل يديه وتتراجع من ثمّ إلى ركن متأخر فتقبع فيه . وأمر الزياد بإحضار أم عمر زوجة قاسط ، فوثب على الفور شاب كان يجاوره في المجلس وسار مسرعاً حتى غاب بين الخيام . وعاد الفتى بعد قليل وهو مطأطئ الرأس ووقف بين يدي الزياد فسأله : ما الخبر ؟ قال الفتى : إنها لا تريد أن تحضر إلا إذا سمحت لها بأن تأتي بقاسط في حاله ذلك الذي تعرفه . فمرت الناس دهشة وسرت بينهم الشكايات مكتومة ، فلا هي معبرة عن الرضا ولا هي دالة على السخط ، وضحك الزياد بصوت عطوف رنان غلب على هذه الهمهمة السوداء التي شاعت بين الناس ، وقال للفتى : قل لها أن تحضر وهي حرة من أمرها .

ولم تمض غير دقائق حتى كانت أم عمر وزوجها قاسط في وسط المجلس ، وكاد الضحك يغلب على القوم لولا جموح طبع ، ولولا سوء وقع النظر في نفوسهم ... فما كان لرجالهم أن يقبلوا هذه الأوضاع وما اعتادوا أن يروا الرجل في بيته إلا رباً وسيداً . . . فهذه أجيال العرب كلها تشهد بأن المرأة لم تكن يوماً قادرة على أن تواجه بعلها أو من حولها مواجهة الأنداد ، فضلاً عن أن تسودهم وتعلو عليهم وتسخر منهم . فإذا بزوجة قاسط تخرج على هذه السنن الموروثة ، وإذا بها تتمرد على طبيعة الحياة عندهم ، وترفض أن تكون عبدة ذليلة لقاسط ، وتثور في وجه مجتمع بأسره جرت فيه هذه الأمور مجرى العادة وخضعت شئون معاشهم لها خضوعاً تاماً . . وأغلب الظن أنهم ما صاروا يشعرون بأن هذه الأمور لها ضرورة أو أنها تسري عليهم رغم أنوفهم ، وإنما هي في عرفهم طباع تحفظ لهم الكرامة وتحقق لهم الراحة ، وتحمي ظهورهم من الخزي والمعابة .

وتجهم وجه الزياد . . . وكيف لا يتجهم ، وقد كاد ألا يصدق ما تشهده عيناه ، فقد تقدمت إليه أم عمر في غير ما اعتاد النساء هناك من الحياء والخفر ، وكشفت عن وجهها وذراعيها وتهدل شعرها على جبينها ، وبدت كما لو كانت قد تصدت للأسد الضواري منذ وقت قصير . أما هو ، أما قاسط ، فقد كان مشهده يبعث على الضحك قبل أن يبعث على الأسى ، وكان منظره يدفع إلى السخرية قبل أن يدفع إلى الأسف . . كان مسحوباً من حبل غليظ شدته أم عمر إلى كتفيه بعد أن أوثقت يديه ورجليه ، وكان رأسه عارياً وساقه مكشوفة وعيناه جاحظتين وقد اغرورقتا بالدموع . وكان قاسط في الحلقة الخامسة من عمره ، بينما تتمتع أم عمر بشباب لم تتدثر معالمه بعد ولم تغب عن وجهها دلائل البأس والحصانة ، وكان مرآها يشيع في النفس لوناً من الإعجاب والحب والخوف جميعاً .

وكاد الغضب لمشهد قاسط يوقع فتنة بين الجالسين لولا أن ارتفع صوت الزياد : أقبلي يا ابنتي أقبلي فلن يتدخل أحد فيما تعنين به قبل أن نسمع ونعرف . فاطمأنت قليلا واتخذت سكيناً كان بيدها اليمنى وأقبلت على يد الشيخ تبلله بدموعها وتمسحه بشعرها وتغمره بقبلاتها ، وتراجعت بعد أن رفعت رأسها بهدوء وبدأت تقول : إنك يا سيدي تعلم من أمر هذا الرهط الشيء الكثير ، ولن أسرد لك أقوالا تبرر مسلكي بقدر ما سوف أعنى بأن ألفت نظر قومي إلى أشياء غابت عنهم لطول ما عهدوا من البلادة والخمول في حياتهم . ليس قاسط من قيلتي ولكنه من قبيلة أخرى شاركت قبيلتنا الحياة في هذا الوادي دون أن تتفق معها في الصفات والعادات وإن اتفقت معها في كرم الأصل وجمال الطبع .

قال الزياد : إننا نعلم بذلك ، ولكن ماذا تراه وهالك حتى يقع بينكما ما وقع ؟

قالت أم عمر : لم يقع بيننا ما يسوء المرأة ، ولكن وقع بيننا ما يخدش الكرامة ويذل العنق .

قال الزياد : إذاً هات .

قالت أم عمر : كان قاسط راعياً فلم يشارك في تجارة ولم يسع إلى رزق من غير طريق الرعي ، ورزقه الله مني بأولاد وبنات لم يئن الوقت بعد لرحلتهم في سبيل الرزق ولم يشبوا عن الطوق . فهم يرحون بجانب أبيهم وهو بسبيل الرعي ، أو يجلسون بين يدي ، وأنا أعد العجين وأنفخ في النار .

قال الزياد : فمن أين أتاك السوء ؟

قالت أم عمر : أتانا من حيث لا يخطر على بال واحد من أبناء بموطننا .. أتانا من هذا الضمير الحي في أجدادنا .. أتانا من الروح التواقة إلى الكرامة فينا .. إن بنات حينا جميعاً قد تربين في ظل الحياة الكريمة وبلغن من الثقافة حدا يجعلهن قادرات على معرفة أشياء غابت عن الكثيرين في معاشنا المحدود بهذه البقعة من الأرض .

قال الزياد : فما أوحشك من معاملة قاسط ؟

قالت والدمع يجري في مقلتيها : لقد كان يعامل أهل بيته كما يعامل النعاج التي يرعاها فوق سفح الجبل .

وهنا ضحك الجمع الحاضر ضحكا مرتفعا وشهقت أم عمر بالبكاء ، وابتسم الزياد ابتسامة طويلة غالبها بصعوبة ، وتهامست النساء والشابات همساً رقيقا يوشك أن يحدث نغما .

قال الزياد : أو هذا ما يضجرك يا أم عمر ؟

قالت أم عمر : نعم .. فما كان لمثلنا من بنات الحي أن يساوين النعاج .

قال الزياد : وكيف عرفت ذلك ؟

قالت أم عمر : عرفته من هذه العصا التي طالما ألهبت ظهور النعاج وهو يسوقها إلى الرعي الخصب ، وعرفته من تلك اللعنات التي كان يصدرها من فيه كلما باعدت النعاج عن عيون الماء . فلا يكاد يعود إلى البيت حتى ينظر إليّ وإلى بنيه نفس النظرة وحتى يلدو بنا ويصرخ فينا ، شأنه تماما في رعاية النعاج ، فإلى أي ساعة من العمر تراني سأظل في بيته نعجة ، ومتى أشعر بين يديه أنني إنسانة لها كرامة يجب أن تحفظ ولها مشاعر يجب أن تعرف ولها عقل وروح تمتاز به على هذه النعاج .. متى يفرق زوجي بيني وبين الأرزاق ومتى يدرك هذا الفاصل بين الأشياء التي يبيع فيها ويشتري وبين أشياء لا تباع ولا تشترى ؟ متى يعرف إذا ما حلت الظهيرة أن وقت سَوْق النعاج قد آذن على الفوات وأن وقت الرعاية والعاطفة والرفق قد جاء ؟

قال الزياد : أو هذا يسوّغ لك أن تفعلي بالرجل كما فعلت ؟

قالت أم عمر : نعم ، فإن حقي في أن أعيش يقابله حقه في أن يعيش ، فإما هو وإما أنا . . .

قال الزياد : أنسيت أن المرأة عندنا رزق يبتغى كما يُبْتَغَى النعاج والنوق ؟

قالت أم عمر : فقد آن لها إذاً ألا يختلها راع ظلوم .

قال الزياد : وماذا تَرْجِين من ظلمه ؟

قالت أم عمر : هذا الليل يحرمني من السمر فيه مع بقية بنات الحي بدعوى أن السهر يجلب الضمور .. هذه الكلاب قد أقامها حول البيت لتذود عني مطامع الفتيان .. هذا الرزق الضئيل الذي يأتيني به وهو يظن أن النعاج لا تحتاج لأكثر من حفنة من الشعير .

قال الزياد : كلنا يحتمل إذا ما نزلت به الشدائد وكلنا يعوّد نفسه على اليأس إذا ما اضطرتنا الظروف .

قالت أم عمر : فما بالك بالشدائد التي لا تنقشع وما بالك بالظروف السيئة التي لا تزول . ماظنك بليل ليس له صبح وضيق ما له فرج ، وحياة بغير يوم آخر ..

قال الزياد : لعله فقير بائس ولا يملك لك حياة غير هذه الحياة ؟

قالت أم عمر : بل يملك أن يتحرر من حرفة الرعي هذه وأن يشق لنفسه طريقاً إلى الرزق .. وأن يدع لي حرية الحياة مع بنات الحي وأن أشرب مع الشاربات وألهو مع اللاهيات .. فأتنفس من الهواء الطلق خارج الدار وأعيش مع الناس بإرادتي لا بإرادته ، وأعرف لي حدوداً غير هذه الحدود المحصورة بنباح الكلاب .

قال الزياد : لك بعض الحق فيما تزعمين ، ولكننا

إخنــــاتون

أول داع من دعاة التوحيد

للأستاذ جان موسكاتيلي (1)

[هذه دراسة تحليلية دقيقة لنفسية إنسان عظيم في ساعة من ساعات اليأس ، التي تعترى كل صاحب رسالة عبقرية ، عند ما يتأمل جهوده المضنية ، ثم يرى أثرها الضئيل في عامة الناس ، فيهزّ كيانه قسوة الفشل ، ويهم بالنكوص على عقبيه] .

م ع ٠ ٢

كان الزورق الملكي ينحدر مع النيل ، وشراعاه البيضاوان ممدودان ، ومقدمته معقوفة كمنقار الطائر . والذي يراه يخاله كله طائراً ضخماً ، من تلك الطيور التي يقدسها المصريون ، قد حط على صفحة الماء ، بين الجزر الصغيرة التي تكسوها زهور البردى .

ومن مؤخرة الزورق ، فوق العرش المدرج الذي يشرف على الملاحين وعلى الدفة الكبيرة ، كان الفرعون الشاب يرقب الشاطئ، حيث النخيل كالمراوح الضخمة ترسل نسماتها إلى موكبه الذي يتهادى على النهر .

فهل يذكر اللحظة التي بدأ فيها هكذا ينساب مع الماء رويداً رويداً ؟ أجل . . . إنه يتذكر : لقد خرج من طيبة في عصر يوم من الأيام ذات الشمس الساطعة ترفه الأعلام وجموع الشعب الهائمة .

ولقد استطاع أن يرى خلال الجماهير المتراصة القاتمة كهان المعابد المتملقين يحنون تحت أرديتهم الفضفاضة قلقاً شديداً وحقداً بالغاً .

ومع القسوة يجاهد من أعالي البيوت فلم يدر هل هن يدعون بالخير للملك السابق، أم يبكين على الآلهة المهجورة

ولا عجب ، ففرعون عند ما هجر « المدينة ذات الأبواب المائة » ، كان يهجر أيضاً الآلهة القديمة تاركاً إياها للأيام تفعل بها ما تشاء . إنه لم يرحل في سبيل أمون،

(1) Mr. Jean Moscatelli

لم تألف شيئاً اسمه الحرية ولم تعرف لها طعماً .

قالت أم عمر : فقد آن لكم إذاً معرفته ومعرفتها . .

لقد عرفت سوق النخاسة وقد عرفت غيره ، وعرفت حياة الذل فاستيقظ في خاطري مدلول الكرامة ، واندلعت نار الحرمان في كياني بأكمله ، وويل لمن يطفئها دون أن يهبني ماء العزة ويضمن لي غذاء الروح والبدن جميعاً .

وتبادل القوم نظرات غريبة فيما بينهم ، وضحك بعضهم ! وأحس الزياد بن سليمان أنه لم يأت بمثل هذا ، وأنه لم يقبل لعرض من هذا النوع العجيب . . فما حكم يوما في قضايا « الزوج » قبل اليوم وما اعتاد أن يفصل في هذه الخلافات التي تنشأ عن مزاج ورغبة ، ولا كان في ظنه أنه سيواجه بمثل هذا الإشكال . وأقبلت أم عمر على زوجها تلك وثاقه وتحل أوهاقه وتساعده على أن يقف على رجليه وسط الناس . ثم حدث ما لم يكن في حسبان أحد . . إذ أكبت أم عمر عند قدمي زوجها قاسط تبلل قدميه الحافيتين بدموعها ورضابها وتقول : إغفر لي يا قاسط . . اغفر لي ما صنعته بك ، فقد كانت تلزمك هذه الهزة الشديدة حتى تفيق لنفسك وتعرف أن زوجتك الوفية أم عمر لا تساق سوق النعاج .

وهب الرجال والقضاة وفي عيونهم الدمع حائر وفي وجوههم البشر ظاهر ! أما النساء والبنات فقد صرن يزغردن ويضحكن . وأقبل الجميع على قاسط وزوجته يدعون ويهللون ويكبرون . . وفي وسط هذا الهرج والمرج ارتفع صوت الزياد : هذه الفتنة التي أوشكت أن يندلع لهيبها بين القبائل لا تحتاج إلى قاض يحكم ، وإنما تريد أذناً تصغى ونفوساً تعتبر . إنما قضيتكم للعبرة والعظة ، وليست قضية للاحتكام .

عبد الفتاح الرجبي

أو آتوبيس أو حاتحور ، بل كان غرضه استكشاف بقعة عذراء من شاطىء النيل لم تمسسها طقوس الديانات الأولى ليبنى فيها مدينة جديدة تنبعث منها سعادة الحياة ، كما تنبعث الأشعة من الشمس ، ومن أجل ذلك اختار لنفسه اسماً جديداً فى هذا اليوم ، اسم « إخناتون » ، ومعناه : « الذى به الشمس تبتهج » .

ولقد أشار عليه رجال البلاط ، الذين كان يقلقهم الرحيل ، بأن يفرض الدين الجديد فى مدينة طيبة نفسها ، وذلك بطرق ملتوية متعددة ؛ فيغلق المعابد القديمة ، ويطرد الكهان ، ويمحو اسم آمون من على المسلات والجدران ، لكن الفرعون الشاب كان يعلم جيداً أن الاضطهاد يقوى الإيمان ويحييه ، وأن الإهمال وعدم المبالاة هما خير وسيلة للقضاء على العقائد فى النفوس .

وبقوة ومضاء عزم أدار ظهره للتراث القديم ، ولم يرد أن يهدم شيئاً ؛ ولكنه صمم على أن يشيد فى مكان آخر بين مناظر طبيعية توحى بالحياة الفطرية الساذجة ، مدينة يقيم فيها الدين الحق .

وفى اليوم السادس من رحلته على النهر بان له على الشاطىء الشرقى خليج من الأرض تكتنفه المرتفعات فرفع يديه إلى السماء وفتحها كأنه يستعد لاستقبال الأشعة الوهاجة القوية ، وقال :

« هاهنا سوف أشيد المدينة . لن أبتعد عن هذا المكان قيد أنملة ، لا غرباً ولا شرقاً . هاهنا سوف أشيد المدينة وأقيم فيها قصرى ، وأبنى فيها البيوت الكثيرة ، وأنشىء المتنزهات ، وأجعل للشمس مصدر الحياة معبداً يمجدها فيه الناس » .

وأمر إخناتون بنقش هذه العبارة على الأحجار الأربعة عشر التى وضعت منذ ذلك اليوم لتحديد أطراف المدينة المستقبلة .

• • •

المدينة ؟ أليست هى تلك التى تمتد من تحته ، وهو الذى يبسط عليها سلطانه ؟ لقد استطاع المهندسون فى سنتين فقط من العمل المتصل أن يشيدوها على الصورة التى كانت ترتسم فى مخيلة الملك ، وأصبح الفنانون يبدعون منذ ذلك الحين فى فن يمتاز بالبساطة والحيوية وبصدق التلوين ، وأصبح الشعراء ، ينشدون عن مدينة البهجة مع مصاحبة أعوادهم :

« إن جمالها يملأ النفس مرحاً .

إنها كريمة ترتاح إليها القلوب .

وهى إذا نظر الإنسان إليها بدت له فى روعتها قطعة من السماء » .

لكن القلق كان يزداد حلكة حول الفرعون القلق ، وهو لا يستطيع من مكانه فى أعلى القصر أن يبصر المعبد الذى أنشأه لتعليم القرون والشعوب دينه القيم ، فأغلقت الأسوار التى تحيط به ، وقد حفلت جدرانه التى لا عروش لها بالصمت والظلال ، حتى مركزه حيث يقوم المذبح ، مذبح الشمس ، الذى يرقى الإنسان إليه بدرجات مستديرة .

أى سحر رجيم قلّب هذه البقعة العامرة بالحياة الحارة والضياء إلى بؤرة للفزع والخوف ؟ حتى الأعلام فى أطراف السوارى القائمة على أبواب المعبد ، تبدو فى خفقانها كأنها تختلج من اليأس وسط هذا الليل القاسى عليها .

هل هذه الصورة لمحة من لمحات العدم الذى ينتظر المدينة ؟ ماذا ؟.. أكل هذا الصراع فى سبيل تقويض صروح الخرافات والأكاذيب ، وكل هذا الجهد المضنى فى سبيل إقامة عقيدة جديدة باسمة حية ، يذهبان عبثاً ويكونان كسائر قيم الحياة محتومان بطابع الغرور والسأم ؟.. ماذا ؟ ألا يدوم شىء أبداً ويصح تحت هذه الشمس ، هذه الشمس التى هى برغم ذلك أصل كل حياة ؟!..

لكن إخناتون كان يشعر فى صميم نفسه أن عقيدته هو لا تفتقر إلى « المطلق » ، مهما بلغت سائر العقائد الأخرى من درجات الغرور والعبث ؟ ألم يعلم شعبه كيف يبتعد عن عبادة شكل الشمس نفسه ، ليتفرغوا لتقديس وحب الحرارة التى تبثها فى إشعاعاتها ؟ فهو يرى أن فكرة

الإله لايقابلها سوى عنصر القوة الحيوية التي تنفذ في كل الكائنات فتحركها وتنميها .

وقوة الشمس وحدها هي التي يمكن أن يكون لها مثل ذلك الأثر على الحياة فوق الأرض : نعم ، دون أن تتخذ لها شكلاً أو مثلاً ، تبث في الأشياء حركتها الأولى : إنها القوة المحبة ... إنها الله ، ولذلك أسماها آتون .

ولقد أمر بتشييد المعابد لإلهه في سائر أقطار إمبراطوريته من قمم جبال لبنان إلى أقصى أنهار الحبشة ؛ ثم دعا الشعب إلى الإيمان بالدين الجديد إيماناً عقلياً مجرداً من الطقوس . ونسقت مبانى المعابد بحيث تدعو بنفسها لدين منزه عن الاحتفالات وعن الخرف : فناء واسع لايعلوه عرش تسطع الشمس الوهاجة على أعمدته المنوشة وعلى زهوره المعقودة ، وعلى المذبح المرتفع نحو السماء كأنه قربان جامع من العباد للإله .

ومادام الإله لاشكل له ، فصورته لم تكن تمثل أو ترسم ، ولكن قوته الخيرة يرمز إليها في زخارف قاعات الاحتفالات بضرب خاص من الأيدي تنبعث من أشعة الشمس ممسكة بـ « المنخ » ، وهو علامة الحياة الأولى .

وقد أعطى فرعون بنفسه القدوة للحياة البسيطة التي لاتكلف فيها ، في معيشته كملك ، وفي معيشته كإنسان . فهو يختلط بالشعب في احتفالاته العامة حيث لايجد غضاضة في أن يطوق بذراعه خصر زوجته الملكة نفرتيتي ، التي تصحبه في هذه الاحتفالات وتقبله كما يقبلها على الفم ، وهو عندما يذهب إلى المعبد لإقامة صلاة الصباح يستطيع كل إنسان أن يراه قائداً عربته وسط الشوارع المكتظة دون تكبر أو تعاظم ، وكان العدو الأكبر للقيود الاجتماعية السخيفة والتقاليد غير المجدية ، يحث أصحابه على اغتنام مباهج الحياة الطليقة الحرة وسط ما أبدعه الإله من الجمال البرئ ، الجمال الذي لا يضر النفس ولا يضر الغير .

ولكن الإنسان قد خلق بحيث يميل إلى عبادة من يريد أن يخلصه من الشرك والأصنام ، والرغبة الدينية في تقديس القوى الخفية في صور مادية مرئية دفعت شعب النيل منذ

أن هجروا خرافاتهم المعقدة إلى انعقاد تلك هذه الخرافات في شخص الفرعون الذي يهرهم منه جماله وقوته ، سواء كان بين زهور حدائقه كأنه ثمرة لوتس ضخمة تهتز فوق ساقها ، أو كان راكباً عربته كالإله يجرها جوادان متحفزان تزين رأس كل منهما طاقة من الريش الذهبي ، وهما يدلان على أن صاحبهما ليس من طينة هذه الأرض كسائر البشر .

وكان الشعب يقول عنه في هذه المواقف :

« حقاً ، إنه ابن الشمس ! انظروا ما أروع محياه ! سوف يخلد بيننا في صورته تلك البالغة الجمال فلا يموت حتى يبيض ريش الغراب وتهتز الجبال للمسير ! .. »

وكان الناس يقولون ماهو أكثر من ذلك إغراقاً في الشرك ، وكانوا يريدون أن يتقدموا إلى مليكهم بالقرابين التي لم يعد في استطاعتهم تقديمها لآلهتهم الأولى .

* * *

لذلك كله كان إخناتون قلقاً يتألم في هذه الليلة الحزينة في شرفته التي تهيمن على المدينة النائمة . إنه يشعر بأنه ميت لامحالة دون أن يحقق حلمه الإنساني الواسع : المدينة ، العقيدة ، السعادة . كل أولئك لا بد أن يصبح عدماً من العدم ... وإنه ليخال أن هذا الظلام الذي يطبق على مصر كلها كأنه ثوب حداد ، ما هو إلا صورة رمزية سابقة للمصير المحتوم الذي ينتظر هذه الربوع .

وفي أشد درجات يأسه وغثيان نفسه تعلم من الحياة أن الرجل لا يستطيع إصلاح روح غير روحه ، وكل الأفكار الإنسانية الكبرى لم تعبر إلا نفوس أصحابها ! فهناك سد منيع بين شخصية الفرد المبدع وبين جمهرة الشعب الجاهل . وإن فرعون قد خبر شيئاً من هذا القبيل : فعندما ثارت عليه المقاطعات البعيدة في أطراف مملكته طالبه أصحابه وشعبه بالتهيؤ للحرب كي يخمد الثورة . ولكنه صمم على تطبيق مبادئه الإنسانية التي تدعو للسلام والتآخي ، فرفض كل عمل عسكري ! وبدلاً من أن يشن الحملات على الثوار ، بعث إليهم بفتيان في

أردية بيضاء يدعون الناس في أقصى أطراف المعمورة للإيمان بدين المحبة والبهجة . فما كان من الثوار إلا أن أساءوا معاملة رسله وعذبوهم عذاباً شديداً ، فغضب شعب النيل وطالب في قوة بثأره .

وتذكر فجأة إخناتون أن بعض العيون قد جاءوا بالأمس فقط من التخوم الأسيوية ينبئونه بهجوم الحيثيين على المقاطعات الخاضعة لمصر . وهكذا جلا له في وضوح أن تلك الرحمة التي كان يحلم يبسطها تحت الشمس لم تكن سوى ضرب من الغرور والعبث ...

فليشق بهذه الحقيقة ؟ إذاً هؤلاء الناس الذين لم يرضوا بالرحمة ! أما إخناتون ، فقد صمم وهو في أعماق يأسه على أن لا يحيا إلا لتحقيق سعادته الخاصة بأقرب الوسائل .

بيد أن هذه الأنانية ، المنبجسة من رماد أكرم نفس عرفها تاريخ الإنسانية ، كانت تثقل صدره وتبعث الدموع في عينيه .

آه !.. لو قدر لهذا الإله القلق أن يتخلص قليلاً من ظلماته وأغلاله ...

* * *

وفجأة عادت السكينة إلى تقاسيم وجه الفرعون الساهر ! ففي الشرق ، فوق المرتفعات الحجرية الممتدة في الظلام ، بدأ الليل قليلا قليلا يبهت سواده ، ونظر فرعون بعين الإعجاب والذهول إلى هذا الانقلاب الذي يجدد كل شيء على الأرض .

وبدأت بعض الأضواء تتسابق في الأفق وتتشكل على أطراف السماء الشفافة . أغمض الرجل عينيه طرباً ثم فتحهما فإذا الفجر يطلع على المدينة بألوانه الرائعة ، وعند ما تمخض الأفق أخيراً عن الشمس بقرصها النارى المشرق ، راح إخناتون ، وقد بلغ أقصى درجات الذهول ، يحيي اليوم الجديد بهذا النشيد الذي ينطلق إلى السماء كالنسيم :

« ما أروع إشراقك في آفاق السماء .
أى آتون ، يا أصل الحياة ؟
فأنت عند ما تتجلى لنا .
تملأ الأرض بجمالك .
وأنت ترتفع في أعلى درجات السماء .
ولكن أشعتك تغمر الأرض بالضياء ! »

ولكن الشعور بالحياة وسط هذا التجدد الشامل لقوى الأرض أصبح شعوراً خانقاً بالنسبة له ، شديد الوطأة على صدره .

آه ! ليس في هذه الدنيا إنسان استطاع أن يتذوق مثله روعة هذا الوقف الجديد للأشياء ، لأنه يعلم علم اليقين المصير المحتوم الذي ينتظر كل شيء فان ، وإن الإحساس بأنه موجود هو الآخر في كل يوم بين أحضان نفس العالم الذي كان فيه بالأمس ، يملأ نفسه بالإعجاب والامتنان العميق

وكانت سعادته في هذا الصباح الجديد أعظم من أن يتحملها وحده : إنه يريد إنساناً آخر يقاسمه شعوره ، فنظر إلى الشمس المشرقة نظرة أخيرة ، ثم هبط مهرولا تلك الدرج التي كانت قد صعدت به إلى الشرفة وإلى التأمل في سباحته الليلية السالفة .

وعند ما غشى حجرة النوم الملكية كانت « نفرتيتي » لا تزال نائمة ، وجسدها الفتى تشف عنه غلالتها الرقيقة التي ارتدتها للنوم . واهتز إخناتون من صميم كيانه لهذا المنظر : كيف قدر له أن يهرب من ذلك الجسد الذي يبعث البهجة في النفس ، ليسهر قلقاً وحيداً فوق الشرفة العالية ؟

ماذا ؟ أقد صرفه حب الغير — وما هذا الحب إلا عبث — عن حب صاحبته المفضلة ؟

لن يكون الأمر كذلك بعد هذه اللحظة .

فليعش الناس كما أرادوا : فالسعادة والسلام معان تختلف بالنسبة إلى كل إنسان .

واستلقى إخناتون على السرير ، واحتضن زوجته في قوة ، فاستجابت لندائه الحار . وبينما هو يبثها حبه الزاخر ، إذا بالشمس تتألق وراء النافذة المفتوحة على الحدائق التي تتصل بالنيل ، وإذا بأول شعاع — مثل يد حارة في طرف ذراع مضيء — يحط على الزوجين المتمازجين ! وكأن الشمس تباركهما به .

(ترجمة) محمد عبد الحليم محمود

الدكتور زكي مبارك

للأستاذ محمد سلامة مصطفى

إذا كان نتاج طه حسين غديراً هادئاً جميلا حيناً وعيلقاً مواجاً حيناً آخر ، وإذا كانت كتابات أحمد أمين نهراً رزيناً متفلسفاً ناطقاً بالحق والخير والجمال ، وإذا كان أدب الزيات نسمة لينة الشروق يتبدى فيها الطبع والصنعة بقوة وتماسك ونظام ، فإن روائع الدكتور زكي مبارك — رحمه الله — أشبه بالعواصف الثائرة ... غير أنها تهدم لتبني ، وتقتلع لتنبت شجراً مثمراً طيباً .

وليست الترجمة للفقيد هي رجائي في هذا المجال ، فإني لا أعدو الصواب إذا قررت أن الدكتور زكي مبارك هو العلم الوحيد في العربية على الإطلاق الذي لا يحوج المشتغل بالأدب في الترجمة له إلى شيء من عناء . فلقد سجل في كتاباته كل كبيرة وصغيرة من ذاته وكفاحه وسوانحه ، وإنما هي ذكريات وأصداء يمليها الواجب على نفسي ، ويهز الوفاء بها نفسي ، فأرسلها هدية متواضعة إلى الحقيقة والتاريخ ...

كنت في مطلع حياتي أهيم بالقراءة والتأمل فيما أقع عليه من منظوم ومنثور ، وكان لي في ذلك الحين نتاج لا أعيره التفاتاً ولا أهتم بالاحتفاظ به أقل اهتمام ، وإنما كنت أسجل خواطري في قصاصات لا تلبث أن تتمزق أو تضيع ، وسمعني يوماً شاعر فاضل من البرزين على البرين الخالدين الرسالة والثقافة .. سمعني أنشد شعري .. ومنذ ذلك اليوم عشت في عالم الأدب والأدباء محوطاً بعناية ذلك الشاعر ، وأصبحت أصون كل ما أكتب من شعر ونثر كما يصون الآباء أكبادهم التي تمشي على الأرض !! وفي مكتبته القيمة فهمت الأستاذية الخالصة والثقافة الوفية ، وفي مكتبته عرفت أيضاً مجلة الرسالة وقرأت للمرة الأولى ... أدب زكي مبارك .

ثم ماذا ؟ ثم بدأت قصتي مع زكي مبارك .

« لقد أكببت على كتبه ورسائله ومقالاته وفصوله إكباباً يصعب وصفه ، وحيناً أرنو إلى الماضي أكاد ألمح أمي تبكي وهي تلح علي إلحاحاً أن أطفئ مصباحي لأستريح من السهر والنظر في ذلك « الورق الذي ليس وراءه كسب » !! فإذا كان الشاعر الفاضل أستاذي الأول ، فإن الدكتور زكي مبارك أستاذي الثاني بلا مراء .

كانت الفقيد كثيراً قبل أن أتشرف بلقائه ، وكانت ردوده اللاهبة هي النار التي لا أجحده ولا أنساه ما حييت ... لقد هداني دائماً إلى كريم الغايات ونبيل الأهداف ، وكنت أشكو إلى الفقيد إهمال بعض رؤساء التحرير لكل ناشئ مهما كان في أدبه من سمو ، واحتفاءهم بكل مشهور مهما كان في أدبه من إسفاف ، فكان يشاطرني الرأي فيهم ، ويقرظ شعري ويحتفظ به ويشر بعضه كما ينشر ردوده الفياضة على رسائلي في جريدة البلاغ الغراء وغيرها ، وكان يرشدني ويطمئنني قائلا : إن الشهرة ليست كل شيء ، وإن الشهرة الصحيحة ليست معبدة السبل ولا محفوفة بالأزاهير ، ولكن دونها الصخور والأهوال ، وكثير من الناس باعوا أنفسهم ليشتهروا ، فلا تبع نفسك للتشهير ، وأرهف السمع للقائل :

ليس الخمول بعار على امرئ ذي جلال
فليلة القدر تخفى وتلك خير الليالي

ولما لقيت الدكتور تبينت صدق رأي بوفون « إن الأسلوب هو الرجل نفسه » ولعل الدكتور من أول من يصح فيهم هذا الرأي .

والحق أن الدكتور من القوى التي لا يستهان بها في الفكر الحديث ، وإذا ذكر الأدب والفلسفة والتاريخ واللغة العربية والسياسة والصحافة والمروءة والأزهر والكفاح الشعبي والتعليم ، فإن زكي مبارك يجب أن يذكر في احترام عميق ، فله في ذلك كله جهود غير منسية . أجل .. إن الدكتور أدى رسالة عظيمة ، وأداها في صبر وجرأة وصراحة وإيمان يندر في هذا الزمان ، وحسبه خلوداً — كما كان يردد في فخر — أنه فلاح بهر القاهرة وبغداد وباريس بروعة النبوغ المصري .

ومما هو قمين بالذكر أنه على الرغم من أن الدكتور كان عدواً لدوداً للمرأة ، فقد كان له في الحب فنون وفنون ، وأحاديث ذات شجون ، سواء ذلك في الصبا والشباب .

(البقية في الصفحة التالية)

في موكب العلم

الرصاصة السحرية

— ١ —

للدكتور أحمد بدران

كانت معامل علم الأحياء في ألمانيا في نهاية القرن الماضي في صورة عجيبة ، فكنت تجد في جامعة هيدلبرج وفي جامعة هامبورج الأكثر منها حداثة ، نفس الموقف الشاذ . وفي الحقيقة أن العلماء في كل ألمانيا كانوا منهمكين في بحث الصبغات . ففي كل مكان ، سواء في معمل الأستاذ أرتو بوتشلي الشهير أو في معمل أي مستشفى صغير كان الباحثون يهتمون بدراسة تأثير الأصباغ في الأنسجة الحية والميتة ، فكانت صبغات آزوية مختلفة تجرب في تركيبات مختلفة وصباغة الأنسجة صبغاً نوعياً ، وكذلك يبحث تأثيرها العلاجي .

ولم يكن هذا التجمع مصادفة بحتة ، بل كان نتيجة منطقية للنمو العظيم والاتساع في صناعة ا . ج . فاربن ، فمن الظاهر أن هذه المؤسسة القوية كانت تشجع وتمنح هذه الأبحاث لتستفيد منها في نشاطها التجاري . وتحتوي الموضوعات الطبية التي نشرت في ألمانيا في العشرين سنة الأولى من هذا القرن على مئات من الأبحاث في مختلف الصبغات واستعمالها في علم الخلايا التجريبي وفي الطب .

فعندما التحق بول إرليخ بمدرسة برسلو الطبية كان علم الأنسجة يلاقي عناية عظيمة في ألمانيا . ومنذ أيام دراسته الأولى استرعت طبيعة الخلايا الحية انتباه إرليخ ، وكان ذلك الوقت الذي تلقى فيه النظريات الميكانيكية القبول ، والذي كان يرى فيه الطلاب الشبان الذين يدرسون علم الأحياء أو الطب على حد سواء ، يرون الخلايا الحية والأجسام على أنها آلات كيميائية . وكانت الكيمياء الحيوية على حداثة عهدها تلهب مخيلتهم للآمال الكثيرة التي بعثتها الاكتشافات الجديدة . فأعلن إرليخ الشاب « أن الخلية ما هي إلا نبات كيميائي صغير » ، وكان في ذلك الوقت — إذا شئنا الدقة — أكثر اهتماماً بعلم الخلايا والأنسجة منه بالعلوم الطبية ، وبدلاً من أن يدرس ظواهر الأمراض المختلفة وطرق تشخيصها أعطى طريقة صباغة

والكهولة ، وديوانه الأول مهدى إلى حسناء ترقد في قبر مجهول تحت سماء سنتريس ، وكان يستمهل الربيع الناضر قبل أن يأتي الخريف بالجدب والإمحال ، قال :

لنجواك أستبقي شبابي فعاطني
كئوس الهوى قبل ابيضاض المفارق

وبعد ، فهذه لمحة خاطفة عن فقيد الأدب العربي الدكتور زكي مبارك ، العبقري الذي كرس عمره وطاقته وأعصابه جميعاً لخدمة الفكر والبيان والتعليم ، مجدداً ثائراً غيوراً ، ومع ذلك عاش مهضوم الحق ، ولكم عبر عما كابده من جحود مرير ، ومن ذلك قوله :

أساهر في ليل كتابي ولا أرى
لنفسي حظ الساهرين على النرد !!

فماذا دهى الدنيا وماذا أصابها ؟
أسفّت فأمست وهي في خسة القرد

ولاشك أن المعنيين بالآداب في مصر سيعملون على تخليد ذكراه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وأنسب ما أختتم به هذه النظرة السريعة أبيات من الشعر للدكتور مختار الوكيل قالها في رثاء الفقيد :

مات زكي الفتى الأديب ... والناقد الكاتب الأريب
شاكي سلاح البيان ولى ... فمن ترى ترهب الحروب ؟
ودوحة الشعر طار عنها ... في غدأة الليل عندليب
غنى القوافي فتى معنى ... جارت على فنه الخطوب
أذاب في شعره شجاه ... فرددت لحنه القلوب !

محمد سعودة مصطفى

الأنسجة جل اهتمامه . وكانت أصباغ الأنيلين تستهويه ؛ لحق فى ذلك الحين ، إذ هو مازال شاباً ويجهل علم البكتريولوجيا — كان يشعر بطريق الإلهام ، أن هناك مجالاً واسعاً ومستقبلاً رائعاً لاستخدام الأصباغ فى أغراض العلاج .

وكان باستير قد قام باكتشافاته الهامة حين كان إرليخ يلهو بالأصباغ ، وليست لديه فكرة واضحة عن الغرض الذى تستعمل فيه إلا فى صباغة الأنسجة الحية والميتة . فلا عجب إن كان عنوان رسالته للدكتوراه « إضافات إلى نظريات صباغة الأنسجة واستعمالها » . وكان قد تخطى الثلاثين وهو قلق لأنه لم يصل بعد إلى بغيته حين حضر بطريق المصادفة عرض روبرت كوخ لمكروب السل الذى اكتشفه حديثاً ، فأثر تقرير كوخ فى إرليخ تأثيراً عميقاً ؛ فهاهو ذا أخيراً قد رأى الطريق يفتح أمامه ويعرف ما يجب أن يفعله ، وهاهو ذا مقصده قد دنا : أن يقاتل الجراثيم بأصباغ الأنيلين الحبيبة إليه وأن يجعل لهذه الأصباغ تأثيراً فى الجراثيم ؛ وكانت خطط العمل غامضة لم تتبلور بعد ، ولكنه كان يحس بأنه عما قريب سيتبع طريقاً مباشراً يوصله إلى هدفه ، وقرر أن يعمل مع كوخ وأن يحصل معلومات أكثر عن الجراثيم المسببة للمرض ، وكان هو الذى علم كوخ كيف يصبغ مكروب السل صباغة جيدة ، وفى مقابل ذلك تمكن من ذلك العلم الوليد ، علم البكتريولوجيا .

وكان إرليخ فخوراً بأنه نجح حيث فشل كوخ ، ولقد كان شيئاً صغيراً : صبغ مكروب السل ، ولكنه مع ذلك استطاع أن يثبت للعالم البكتريولوجى العظيم أنه من الخطأ أن تفترض أنه لا يمكن صباغة مكروب السل ، وأعد فى الحال شرائح عدة من نفس المكروب مستعملا صبغة الأنيلين المائية ، فبدت تحت المكرسكوب ذات ظلال بنفسجية ناصعة ؛ وهنا على الأقل وجد إثباتاً حاسماً لما آمن به من أن خلية البكتريا قابلة للاصطباغ ، بصفات خاصة . وقد ظل سنين عدة يعمل فى معهد روبرت كوخ فى برلين ، وكان العمل هناك ممتعاً ولكنه لا يمت بصلة مباشرة إلى فكرته الطاغية عن استعمال الأصباغ الأزوية فى أغراض العلاج .

بين الحين والحين كان يختلس القليل من الوقت ليجرى أبحاثاً قليلة بصبغته المفضلة الميثلين الزرقاء ، وإذ كان متأثراً بأن هذه الصبغة إذا حقنت فى مجرى الدم كان لها قابلية خاصة لخلايا الأعصاب الحية وتصبغها باللون الأزرق ، فقد بدأ إرليخ تجربة جريئة . فسأل نفسه : « لم لا تعالج الآلام بهذه الصبغة ؟ » وصمم فى الحال على أن يحقن الصبغة الزرقاء فى مجرى دم المرضى الذين يعانون الآلام من نمو الأورام ، وقد تحمل المرضى هذه الحقن جيداً ولكنهم لم يتخلصوا من آلامهم .

ولكن من هذا الفشل تبلورت فى ذهنه فكرة جديدة ، فتساءل : « أى نوع من الصبغات الأزوية يجب استعمالها لقتل الجراثيم ؟ » .

لن تكون طبعاً الصبغة التى تصبغ كل خلايا السكائن الحية ؛ لقد أصبح هذا واضحاً الآن ، ويجب البحث عن صبغة تصبغ الجراثيم الحية ولكنها لا تمس أنسجة الجسم الإنسانى ، صبغة مختارة لها ميل خاص للجراثيم ، وهكذا أعد خطته لحل المشكلة ؛ ولكن سنين عدة قد انقضت قبل أن يكون باستطاعته العمل فى هذا الاتجاه ، وفى الآن ذاته انهمك فى بحث الحصانة .

وكان له عقل تحليلى ، فهو يخرج نظرية ويحكم إخراجها ، وكانت هذه النظريات عنده كالمنازل التى يفكر فى بنائها ، فأراد أن يبحث كل التفاصيل مقدماً ، وكانت دقته فى الحساب دقة مطلقة وتبدو لبعض زملائه مروعة ، وكانت مواجهته المسائل العلمية عكس باستير ، فلم يكن العالم الفرنسى يعتمد مطلقاً على نظرياته التنبؤية ، ولكنه يجرى أبحاثه على هدى نظرية افتراضية لا يؤمن بها الإيمان الكامل ولا يكفر بها حتى تثبتها التجارب الإثبات الكافى . أما إرليخ فقد كان دائماً يدافع فى إصرار وعناد عن نظريته التى تنبأ بها قبل أن تتراكم الأدلة التجريبية عليها ، وكانت نظريته عن الحصانة نتاج ذكاء عبقرى ، فلا عجب أن سيطرت على التفكير البكتريولوجى فى العشرين سنة التالية .

ونظريته عن الحلقة الجانبية صعبة الشرح ؛ فبينما هى مقنعة فى تركيبها المنطقى فإنها مليئة بالافتراضات النظرية : لم يقاوم السكائن أنواعاً معينة من البكتريا ؟ وكيف تنتج المناعة لبعض أنواع سموم البكتريا فى أنسجة الجسم ؟ لقد حاول إرليخ أن يجيب عن نفس الأسئلة التى تركها موت باستير ولم تحل ، فمنذ ما كان إرليخ طالباً شاباً كان يعتبر الخلية الحية كأنها نبات كيميائى دقيق ، وقد ظل وفياً لهذا الاعتقاد ، وعليه بنى نظريته عن الحصانة ، تلك النظرية التى

تبدو اليوم ، مبسطة أكثر من اللازم ، وبعيدة عن الإقناع .

وفى سنة ١٩٠١ كان إرليخ وهو فى السابعة والأربعين على رأس معمله الخاص ، فى فرانكفورت ، حيث تقوم صناعات ا . ج . فاربن ، وكان الآن شديد القرب حقاً من مركز إنتاج صبغاته الحبيبة ، ولكن فكرته عن « الرصاصة السحرية » كانت بعيدة عن التحقيق كما كانت منذ عشرة أعوام ، وكان معمله صغيراً وفقيراً فى المعدات وإن حمل ذلك الاسم الرنان « المعهد الملكى الألمانى لاختبار الأمصال » .

ولكن إرليخ لم يكن من الرجال الذين يفقدون شجاعتهم ، فكان مقتنعاً أكثر من أى وقت مضى بأنه فى يوم ما سيكتشف دواء مثالياً لقتل الجراثيم ، وكان فى نفس الوقت منهمكا فى عمله فى اختبار الأمصال ، وسرعان ما نجح فى وضع طريقة دقيقة لاختبار المصل المضاد للدفتريا ، وكان لهذا الكشف أهميته العملية القصوى .

إن عقول بنى الإنسان تعمل أحياناً بطرق غير متوقعة ، فكثيراً ما تحمل هذا الرجل العبقرى بوحى الغريزة كأنما يطيع دافعاً خفياً ، فمنذ عام ١٨٨٠ قبل ذلك بأكثر من عشرين عاماً اكتشف الفونس لافيران العامل المسبب للملاريا ثم وصفه فيما بعد ، وبعدها بقليل وصف العاملون فى معهد باستير كائنات مماثلة هى أيضاً طفيليات وحيدة الخلية تسبب مرض النوم فى الإنسان ، وأمراضاً خطيرة فى الخيل ؛ وكان إرليخ يعلم بهذه الاكتشافات ولكنه لم يعرها اهتماماً خاصاً فى وقتها ؛ فلما علم أن لافيران قد استطاع أن ينقل « التريبانوسوما أكوينم » — الطفيل الذى يصيب الخيل — إلى الفئران تحمس وصاح : « هاهو ذا الكائن الذى يجب أن نستخدمه ، فلننقل « التريبانوسوم » إلى الفئران ونعالجها بالصبغات » وهكذا فى عام ١٩٠٢ بدأ فترة جديدة من نشاطه فى البحث . لقد كان يعمل فى الصبغات بحثاً عن الرصاصة السحرية .

وكانت الكائنات التى يعمل فيها إرليخ قد اكتشفت فى الأصل بجنوب أمريكا من الخيل المحتضرة ، فقد كانت هذه الكائنات وحيدة الخلية ذات الذيل الصغير الجميل تقتل الخيل بالآلاف ، إذ تسبب مرضاً يدعى « مرض الخيل » فإذا نقلت الإصابة إلى الفئران كانت من الخطورة بقدر ماهى فى الخيل ، فقد كانت تقتل الحيوان فى خمسة عشر إلى عشرين يوما إن لم يكن قبل ذلك ، وبدأ سبيل البحث أمام إرليخ واضحاً الآن ، فبدأ بالاشتراك مع الطبيب اليابانى ك . شيجا مهمة البحث عن عقار ناجح من بين مئات الصبغات المختلفة فى معمله ، وهكذا جرب الصبغات الآزوية الواحدة بعد الأخرى وراقب الفئران التى أصيبت بالتريبانوسومات وماتت الفئران التى عولجت والتى لم تعالج على حد سواء من الإصابة المرعبة ، ولم تتأثر الأعراض بالصبغة التى حقنت ، كما أن هذه لم تؤخر عمل الجراثيم المميت ؛ وخلال عامين طويلين جربوا مايقرب من أربعمائة صبغة ليجدوا فى النهاية أن ليس لواحدة منها أثر فى الفئران المصابة ، فقد كان الموت يأتيها سريعاً كأنما لم يقدم لها شىء ينجيها ، ولم ييأس إرليخ فقد كان رجلا لا يفقد الثقة ، فلا بد أن تنتصر نظريته وأخذ يكرر : « فى يوم من الأيام ستوجد الصبغة السحرية » .

وفجأة تملكته فكرة جديدة فقال للدكتور شيجا : « الآن أعلم ماذا ألم بصبغاتنا ، إنها ليس لها انجذاب خاص للتريبانوسومات ، يجب أن نصنع صبغة لها تأثير خاص فيها . لم لا نحسن الصبغة بإضافة مركب كبريتى إليها ؟ » ولم تكن هذه مهمة سهلة . واضطر إرليخ إلى الاستعانة بالكيميائيين فى مصانع فاربن ، وفى الحال أمدوه بصبغة آزوية حمراء تحتوى على مجموعة الكبريت تدعى « التريبان الأحمر » وكانت هذه ذات تأثير ضئيل لا يقوى على شفاء المرض ، فإن بعض الفئران التى أصيبت بالتريبانوسومات وعولجت بالتريبان الأحمر عاشت مدة أطول ، إلا أن بعضها الآخر مات فى وقت واحد مع الفئران التى لم تعالج ، ولم تكن التجارب ناجحة ، وخاصة عندما حاول إرليخ معالجة الكلاب ، فإن الكلاب التى عولجت بالتريبان الأحمر ماتت قبل تلك التى لم تتلق الدواء .

لقد خسر إرليخ الجولة الأولى ولكنها لم تكن خسارة كاملة فقد أثبت أن الصبغات الآزوية التى تحتوى على مجموعة الكبريت لها بعض التأثير العلاجى فى العوامل التى تسبب مرض النوم ومرض الخيل ، وأهم من ذلك أن عمله قد أثار اهتماما كبيراً فى الدوائر الطبية فى فرانكفورت فثارت مناقشات كثيرة عن ذلك الطبيب الذى يبحث عن دواء سحرى لبعض الأمراض الخطيرة ؟

أحمد بدران

مع الفكر الأوربي المعاصر

للأستاذ مبارك إبراهيم

١ – كاتب من كبار كتاب القصص

أو ترجمة حياة ويلكي كولنز

لكاتب « كينث روبنسون »

"A GREAT STORY-TELLER"
or "WILKIE COLLINS" A Biography
By Kenneth Robinson

لقد مضى على وفاة « ويلكي كولنز » اثنان وستون عاماً ، وحياته مازالت يلفها غشاء من غموض ، وإن كان مما لا يستطاع إنكاره أن الناس قد سمعوا كثيراً عن صداقة « ويلكي كولنز » ، « لديكنز » في أخريات حياته ، وهي صداقة لم يكن يرضى عنها « مستر جون فورستر » ، وهو رجل من أصدقاء « ديكنز » الذين اتصفوا بالتوقر والجد .

وقد كانت هناك ألوان من الصداقات « لويلكي كولنز » لم يعرف الناس عنها شيئاً غير تلك الإشارات الخفية التي وردت في قاموس من قواميس التراجم ، وهي صداقات كانت تنعقد أواصرها معه أيام كان لدن العود ، رشيق القد . وهي صداقات كان يضيق بذكرياتها صدره يوم ذاع صيته ، بل هي صداقات كان لذكرياتها الأثر السيء على سلامة عقله .

والمؤلف يقول : « وهناك من النساء من كان لهن أثر كبير في مجرى حياته . ومنهن امرأة مشهورة اسمها « مسز جريفز » . وقد ورد اسمها في « دليل مصلحة البريد » بوصف أنها كانت تساكنه وتعايشه ، ولا بد أن تكون هذه المرأة هي التي أوحت إليه بفاتحة روايته التي سماها « المرأة ذات الثوب الأبيض » ، وهي الفاتحة التي يقول فيها : « طريق موحش ، في ربض من أرباض المدينة . في ليلة قمراء . وامرأة في ثوب أبيض فضفاض ، يعلو صراخها ، وهي تجري هاربة ، أمام رجل من الأرذلين كان يساكنها في بيت ريفي مريب » .

ونحن نلتقي بهذه المرأة وقد ظلت تساكن « ويلكي كولنز » عدة سنين ، وقد أضفى عليها كل ما يضفيه المرء على امرأته ما عدا الاسم . ثم تبدل الحال فجأة فتزوجت من شخص يدعى « جوزيف كلو » ، وشهد كولنز حفل زواجها . ولكن سرعان ما اختفى هذا الزوج ، وسرعان ما عادت هي إلى صحبة « كولنز » ودامت هذه الصحبة طوال حياته .

وعلى الرغم من ذلك فلم نسمع عن هذه المرأة إلا أخباراً قليلة . فنرى « ديكنز » يبعث إليها بتحياته كما يبعث إلى بنتها بقبلاته . ومهما يكن من شيء فإن قصة هذه المرأة قصة غريبة مستهجنة .

والعجيب من أمر « كولنز » أنه كان يتأنق في رسم شخوص رواياته ، ويتوسّع في وصف خصائصهم حتى لتبدو صور حياتهم واضحة ، لا اختفاء فيها ولا غموض . ولكنه يبدو أنه قد نسي هذه الطريقة في حياته الخاصة ، فبدت أطراف تلك الحياة أطرافاً غير محبوكة .

والمؤلف يقول : إن والد « كولنز » كان مصوراً ناجحاً ، وقد أرسل ولده إلى مدرسة من المدارس الخاصة في مدينة « هيبري » ؛ وهناك بدت بواكير مواهبه ككاتب قصصي ، إذ كان يقص كل ليلة على « المشرف على غرف النوم » قصة من قصصه .

وكان أبوه قد أراده على أن يُسلك في عداد رجال الدين فأبى ، ثم خيره في الالتحاق بإحدى الجامعتين « أكسفورد » و « كمبردج » فلم يرض بواحدة منهما . فلم ير أبوه بداً من أن يُلحقه بخدمة بيت من بيوت التجارة . فقال عنه أصحاب ذلك البيت : إنه لم يتميز إلا بالتفوق والبراعة في ترك العمل ...

وكان صاحبنا قد بدأ يومئذ يخوض لجة الكتابة الأدبية ، وكان يرحل إلى باريس بين آونة وأخرى ، وكان يرسل من تلك المدينة خطابات إلى أصحاب العمل يطلب مزيداً من أيام الإجازة . كما كان يبعث خطابات إلى أمه يطلب مزيداً من النقود .

وفي باريس أولع ولعاً شديداً بزيارة « معرض الجثث المجهولة » وقد استوحى ذلك المعرض يوم رسم صورة « فوشكو » (وهو أكبر لمثل من الأوغاد صوره المؤلف في روايته ذات الثوب الأبيض)

وفي تلك الأونة تكاثرت السحاب على « كولنز » وبخاصة بين القانيين . وكتب يومئذ مذكرات عن والده كما كتب رواية سماها « انتونينا » . ولكن الساعة الحاسمة في تاريخ حياته هي تلك الساعة التي لقى فيها « ديكنز » وكان في ذروة مجده . وكان قد بلغ التاسعة والثلاثين من عمره . وكان « ويلسكي » في السابعة والعشرين . وأحب كلاهما صاحبه (ودام عهد الصداقة وتوثقت عراها حتى لقد تزوج أخو « ويلسكي » من بنت « ديكنز » الصغرى) .

وبعد انقضاء سنتين على تلك الصداقة سافر « ديكنز » ومعه « ويلسكي » وصحبتهما ثالث إلى أوربا في رحلة يصفها « ديكنز » وصفاً مرحاً في رسائله . وقال « ديكنز » فيما قاله في تلك الرسائل : إن « ويلسكي » يأكل كل شيء ويشرب كل شيء . وإنه يسلك سلوكاً حسناً في كل مكان . وإنه مرح دائماً .

ويقول المؤلف : إنّ « ديكنز » كان عبقرياً ممتازاً . أما « كولنز » فلم يكن أكثر من روائي قد برع في فنه البراعة كلها . ولكن قد كانت بين الكاتبين مشابه جد واضحة في صنعة الكتابة . فقد أحب كلاهما « الدراما » وبخاصة « الميلو دراما » وكلاهما كان لا يرى في أي كتاب من الكتب إلا لوناً من ألوان الرواية . وكان الحوار في قصصهما يجرى أحياناً بالرطانة القديمة التي كان المسرح — ولا يزال — يرضى عنها .

ويستطرد المؤلف فيقول « إنّ كولنز » في تصوير المكايد وتدبير الخطط كان أستاذاً مرشداً . أما « ديكنز » فكان في هذه الناحية تلميذاً لم يبلغ درجة النبوغ . ثم يقول : إنّ من الطبيعي أن يكون الكاتبان صديقين متحابين يضفيان على صداقتهما ألواناً من البهجة والمرح . وكذلك كان من الطبيعي — وطبيعة النفس الانسانية هي ماهي — أن تنتاب الغيرة « فورستر » صديق « ديكنز » . وكان « كولنز » يلاقي هذه الغيرة بما يصح أن يسمى في

لغة هذه الأيام بسياسة التهدئة . ومن دلائل هذه السياسة أنّه لما ظهر الجزء الثاني من حياة « فورستر » كتب إليه « كولنز » يثني على مجهوده ، ويبالغ في الثناء . وأمضى خطابه بكلمة « المحب الدائم » .

فلما ظهر الجزء الثالث وألقى « كولنز » نفسه وقد عومل بالأهمال والترك ، غلى مرجله ، وثار ثائره فأمسك بالنسخة التي أهديت له وسود هوامشها بالنقد اللاذع المرير .

ويبدو أنّ « فورستر » كان يتهم « كولنز » بأنه هو الذي يغري « ديكنز » بأن يقسوم مسرح اللهو غير البريء .

ويقول المؤلف : لقد نشر « كولنز » روايته « المرأة ذات الثوب الأبيض » عام ١٨٦٠ . ورواية الماسة « مونستون » عام ١٨٦٨ . وهما الروايتان اللتان خلدتا ذكر « كولنز » . وقد يصح أن تضاف إليهما روايته التي سماها « بغير عنوان » .

وقد ظل بعد ذلك يصدر كل عام رواية . ولكنها كانت روايات لا تغرى أحداً بقراءتها .

ولكن من أغرب الأمور أنه في عام ١٨٨٤ استفتت صحيفة (Pall Mall Gazette) قراءها في من يكون أحب الكتاب إليهم . فكان « كولنز » أول الحائزين لقصب السبق . ويقول المؤلف أيضاً : إن « كولنز » كان طوال حياته تقريباً ضعيف البنية ، واهي البنيان ، ولما كبر ذاق العذاب ألواناً من داء المفاصل .

ثم يقول المؤلف : إنّ « ويلسكي كولنز » لم يكن كاتباً عظيماً . ولكن أسلوبه كان أسلوباً جيداً واضحاً يعلو عن مستوى الأرض ، وكان له ذوق بريء من كل عيب .

ومن أقوال « كولنز » إنّ كل الناس اليوم يكتبون القصص . ولكنّ أحداً لا يعرف كيف يقصّ تلك القصص .

وكان « كولنز » يرى في « والترسكوت » السيد المختار في فن الحكاية . وهو في نظره أمير الكتّاب . بل هو ملكهم . بل هو إمبراطورهم . بل هو — لولا التقى — خالقهم ومبدعهم .

وقد قال يوماً لواحد من عداة الأدب — وقد سأله : ماذا يقرأ ؟ — إقرأ رواية "The Antiquary" ثم أعد قراءتها مائة مرّة ومرّة ...

٣ — أعظم الثائرين رقة وظرفا

أو « صولت وناديه »

كتاب من تأليف « ستيفن ونيستن »
وكتب مقدمته « برناردشو »

"The Most Gentle Rebel"
or "Henry Salt and His Circle"
By "Stephen Winsten"
with a Preface By "Bernard Shaw"

هو واحد من أشهر جماعة الاشتراكيين البورجوازيين ومن أرقهم حاشية ، وأكثرهم حلقاً وأقلهم غروراً وزهواً ، وأبرعهم ذكاء وعلماً في غير دعوى أو غرور . وهو يجمع بين متانة الرأى والعدل في الخصومة . وبين الخلق الإنسانى الكامل الذى يقوم على الرحمة والمحبة .

وقد ولد المترجم له في الهند منذ مائة عام . وكان أبوه ضابطاً في الجيش . وقد دبّ الخلاف بين أبويه فارتحلت به أمه إلى انجلترا وقامت على تربيته وهى تعيش وإياه في كنف بضعة رجال من أهلها لا تجمع بينهم صلة الجوار .

ويبدو أنها كانت تتأنق وتتزوّق في لباسها وأنها كانت تستمسك بمقتضيات العرف والتقاليد .

وهناك قصة تحكى أنه لما كان ابناً في كلية « إيتون » لقى هو وواحد من أصدقائه رجلاً جواب آفاق فطلب إليهما أن يتصدّقا عليه بقطعة نقود صغيرة . وتصدّق هو عليهما جزاء إحسانهما إليه بأن قال لهما إنّ واجباً على الطلبة الأمجاد أن يجهدوا جهدهم ليتعرفوا ما يجول بخواطر الفقراء والمعوزين .

وظلت صورة ذلك المتسول ، وظل صدى كلماته عالقين بذهن هذى صولت الصغير ، ويسمعه ، وراح إلى أمه يسألها : أهنالك حقاً أناس قد أتخمهم الغنى والثراء ، وآخرون قد أضناهم الفقر وأذلهم البؤس والإعدام ؟ فقالت له أمه : هكذا الدنيا نعيم وشقاء . فالأغنياء قد بلغوا الغنى بعصامية التبذير والسرف ، وأما الفقراء فقد هبطوا إلى الدرك الأسفل من الفقر بفضل الخمر وويلاتها . . . فلم يقتنع « صولت » بهذا الجواب ؛ ذلك لأنه كان يعرف أن لداته وأنداده في الدرس من أبناء الأغنياء لا يعرفون أى معنى من معانى التدبير ، وأن الخمر لا يشربها إلا الكثرة الغالبة من أولئك الأبناء .

ثم جمعت الصداقة بينه وبين « جيم جونس » وهو ابن ناظر القسم الداخلى بكلية « إيتون » ثم تواصل حبل الود بينهما يوم انتقلا إلى جامعة « كامبردج » ، ويوم عادا إلى كلية « إيتون » ليتوليا التدريس فيها ، ولقد كان لآراء هذا الصديق المتطرفة أثر أى أثر في نفس « صولت » ، وسرعان ما اشتهرا بأنهما من المعجبين بآراء « شلى » وقد كان هـذا يزنّ بالإلحاد (وقد طرد « شلى » هو وصاحب له اسمه « توماس جيفرسون هوج » من جامعة أكسفورد لأذاعتهما بين الناس رسالة عنوانها « ضرورة الإلحاد » .) كما اشتهرا بأنهما من المثقفين لآثار « كارل ماركس » ، (وهو يعتبر مؤسس الاشتراكية الحديثة)

وقد طرد « صولت » وصاحبه من الجامعة كما طرد « شلى » وصاحبه من قبل ، ولكنه على الرغم من هـذا قد ظل طوال حياته يكن لجامعته القديمة الحب أشد الحب .

ثم تزوج « صولت » بالآنسة « كيت » (Kate) وهى أخت صديقه « جيم جونس » وبنت ناظره القديم ، وعاش الزوج والزوجة عيش البساطة في بيت ريفى صغير . فكانا يتعلان الأحذية الرخيصة ، ويقومان بكل الأعمال المنزلية ، وكان ذلك يبـدو أمراً مستغرباً لدى الطبقة الوسطى في القرن التاسع عشر ، وما كان يدور بخلدهما أن عملهما هذا سيكون في القرن العشرين عمل كل زوج وزوجه ، شباباً كانوا أم شيوخاً ، وكذلك ما كان يدور بخلدها أن ركوب زوجـة دراجة ذات عجلات ثلاث سيصبح أمراً لا ينكره المنكرون إذا قيس بما جرت عليه بنات القرن العشرين ونساؤه من التزيى بأزياء الرجال وهو الأمر الذى أصبح العرف يقره ولا ينكره .

وقد كانت « كيت » امرأة ذكية ، ولو أن الزمن كان قد امتد بها لكانت أهنأ بالاً وأسـعد حالا ، وقد كانت صديقة وفية لإدوارد كاربنتر (المتوفى عام ١٩٢٩) وهو الكاتب الذى كان يعنى بالحركات الاشتراكية ، وقد كانت تعمل بغير أجر مع « برناردشو » كسكاتبة سر له ، وكثيراً ما كانا يشتركان في إنشاد الأغانى ، ويبدو أن

« برناردشو » قد قاس على قدها الثوب الذى فصله لـكانديدا بطلة كوميديته التى تحمل هذا الاسم .

وقد حدث واحد من أصحابه فقال : —

إن صدور رسائل عصبة الإنسانيين قد نبه عشرات الآلاف من الناس إلى ما يحدث حولهم من أمور تنافى الحق والعدل ، وتلك الأمور تحدث فى السجون ، وفى المصانع ، وفى المدارس ، وفى المستشفيات ، وفى البيوت ، وفى الحوانيت .

وقد أحس « صولت » بخيبة الرجاء وحز فى نفسه ما لاقته مشروعاته الإصلاحية من قلة العناية على يدى حزب العمال .

وقد كتب قبيل وفاته إلى صديق له يقول : —

أرى لزاماً على أن أقول إن الله قد خذلنى ولم يجعل لى سنداً من عونه وتوفيقه ، فقد فشل مشروع « عصبة الإنسانيين » فشلا سارت بذكره الركبان .

والحق أن « صولت » لم يفشل وإن كان لم يلاق نجاحا كاملا بالمقدار الذى يقيسه الناس بمقاييسهم ، فقد والاه الله نعمة الصحبة مع عصبة من أصحاب الآراء الراجحة الذين كانوا يشاطرونه آراءه ، وكذلك مع عصبة من الرجال العاديين الذين كانت آراؤهم تخالف آراءه .

وكان « صولت » يعنى بمختلف المسائل ومنها مسائل الإصلاح الاجتماعى ، ومنها مسائل الأدب ، ومنها حبه البالغ للطبيعة ، ومنها عطفه على الحيوان والطير عطفاً جاوز المدى

وكان وهو فى الثالثة والثمانين من عمره لا يزال يستمتع برياضة المشى مسافات طويلة وهو يجمع أزهار الجبال ، وكان عظماء الرجال يخطبون وده ، فكان « تولستوى » يبعث إليه برسائله فى الأدب ليرى رأيه فيها ، وقد طلب « غاندى » لقاءه يوم جاء ليشهد مؤتمر المائدة المستديرة فى عام ١٩٣١ . وقد دعا « صولت » يومئذ « غاندى » إلى حفلة شاى لجلس ذلك المعظم المتدى الكثير الحياء بين رجال نزلاء لم يتورعوا أن يسألوا « غاندى » هل تلقى دروساً فى الرقص من قبل ؟ ...

وقد لقى « صولت » العون التالى من « برناردشو » يوم حل بساحته الفقر ، وقد كتب الكلمات التالية وأوصى بأن تتلى ساعة تحريق جثته : —

وإن الأسماء التى يتسمى بها الناس هى أسماء قد تستعصى على الفهم ، ولكنى إذ أقول إنى لابد يوماً أن ألاقى منيتى وإنى قد عشت حياتى رجلا أحتكم دائماً إلى العقل ، وإنى كنت أدين بالاشتراكية والسلام ، وبالعمل لخير الإنسانية كلها ، كما كنت أدين بالأخوة بين الرجل والرجل ، وبين الأمة والأمة ، وبين الناس والعجماوات ، ولكنى إذ أقول هذه الأقوال أكون قد لجأت إلى قول الحق الذى لا خفاء فيه ولا غموض .

« ولو أتيح لآمالى أن تتحقق ولدعواتى أن تستجاب لامتنعت ويلات الحروب ، ولأمن الفقير من أن يسرقه أصحاب الغنى والثراء ، ولقى الحيوان الأبكم رحمة من بنى الناس الذين يذيقون الحيوان ألواناً من العذاب ، وضروباً من الأذى والشقاء ... »

٣ — جولات فى أفريقا

أو « جنة الكونجو »

كتاب من تأليف « مارى ل . جوب إيكلى »

"Travels in Africa" or "Congo Eden"
By "Mary L. Jobe Akeley"

تقول مؤلفة هذا الكتاب :

كتبت السيدة كارل إيكلى كتاباً أودعته بياناً كاملا عن جولاتها فى بلاد الكونجو عام ١٩٤٩ ، وهذه السيدة هى إحدى العالمات بالتاريخ الطبيعى ، وقد أولعت ولعاً شديداً بتدوين تاريخ حيوانات تلك البلاد ونباتاتها ، وهى البلاد التى تعد أكثر بلاد العالم بقاء على الفطرة ، وهى تقص فى مقدمة كتابها كيف تعلمت فى المدرسة الصبر على البحث والجلد على التقصى .

وقد أوكلت إليها فى عام ١٩٢٦ زعامة بعثة الكشف التى بعث بها المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى ، وذلك على أثر وفاة زوجها ولما يمض على زواجهما غير سنتين .

و « السيدة إيكلى » عالمة أمريكية كانت عنايتها كلها

أزمة مساكن العمال

بين القاهرة وفينا

من أهم المشاكل العملية التي حاولت الأمم الغربية علاجها منذ أجيال عديدة مشكلة إعداد مساكن صحية للعمال بأجر ضئيل جداً حتى تضمن لهم عيشاً هنيئاً وحتى تأخذ منهم أكبر قدر ممكن من الإنتاج ، وبذلك تضمن ارتفاع مستوى المعيشة بين السكان وتضمن كذلك مستوى صحياً للجميع ودرأ أخطار الأوبئة والأمراض المعدية .

وبالنظر في الإحصائيات العالمية للوفيات نجد أن مصر امتازت بأكبر نسبة للوفيات في العالم إذ يتوفى من كل ألف شخص سنوياً .

مصر ٢٧٫٢ ، انجلترا ١٢٫٤ ، هولندا ٨٫٨ .

ويتوفى في القطر المصري من الأطفال لغاية سن الرابعة حوالي ربع مليون سنوياً . أما نسبة المواليد في الألف فهي .

مصر ٤٣٫٥ ، انجلترا ١٤٫٩ ، هولندا ١٩٫٨ .

وقد أثبتت الإحصائيات الأخيرة أن عدد السكان في القطر المصري يزيد سنوياً بنسبة ٢٠ ٪ وأثبتت الإحصائيات أيضاً أن عدد السكان زاد في الخمسين سنة الأخيرة إلى حوالي الضعف بينما زادت مساحة الأرض المزروعة بمقدار ١٠ ٪ فقط .

ومن أهم أسباب مشكلة المساكن في مصر أولا فقر سواد السكان وضآلة مواردهم وكثرة تناسلهم ، وثانياً عنايتنا بالزراعة دون الصناعة مما أدى إلى انخفاض مستوى المعيشة . وبالنظر إلى حالة المصانع في مصر نجد أن معظمها مصانع صغيرة لا تستطيع ماليتها أن تتحمل بناء مساكن لعمالها ، بل إن المصانع الكبيرة في الوقت الحاضر مثل مصانع النسيج أصبحت مهددة بالإغلاق نظراً لعدم رواج منتجاتها

ولم تقم في مصر محاولات من جانب المصانع لبناء مساكن صحية لعمالها إلا محاولة واحدة وهي التي قامت بها مصانع المحلة الكبرى ومصانع كفر الدوار وهما من شركات بنك مصر ، وقد بني في كفر الدوار على قطعة أرض مساحتها

موجهة إلى بحث النصوص ومقارنتها . وكانت في مذكراتها التي تدونها يومياً تعنى بتسجيل كل ما يحدث في محيطها من حادثات ، كما تعنى بتسجيل كل ما يعود بالفائدة على الدارسين لعلم النبات .

وكذلك كانت تعنى بأن تصور بالفوتوغرافيا ذلك الحيوان العظيم الجثة ، الكبير الرأس ، القصير القوائم والعنق والذنب ، المسمى «فرس النهر» أو «فرس البحر» . وقد صورت ذلك الحيوان ذات مرة وهو فاغر فاه ، وقد ثار ثائره ، وغلى مرجل غضبه ، وكان بينه وبينها مسافة لا تزيد عن خمس عشرة قدماً .

وقد سحرت تلك السيدة بمفاتن البلاد الأفريقية ، كما سحرت بصفة خاصة بالحدائق والمتنزهات وبمواطن الصيد التي أنشأها زوجها قبيل وفاته في عام ١٩٢٦ يوم هاج بركان «رواند» ويوم قذف من فوهته بالحمم .

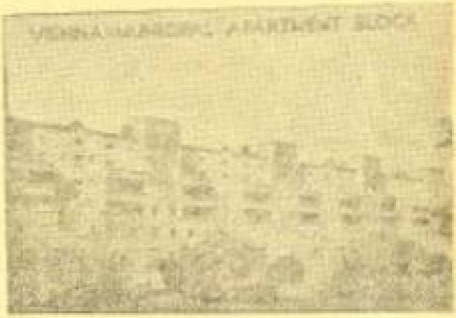
وهي تذكر أنها كانت تلقى من الأفريقيين كل معونة صادقة ، وقد اتخذت منهم أصحاباً لها سوف يظلون يذكرونها حتى يكبر حفدتهم ويستطيعوا أن يقرأوا بأنفسهم قصتها وتاريخها .

وخير عمل قامت به تلك السيدة هو ما أضافته من معارف إلى الثروة العلمية في الجغرافيا وفي علم الأحياء . وهي معارف تفيد الدارسين أعظم الفائدة .

ومن أول ما تحب قراءته في هذا الكتاب تلك الصور الفوتوغرافية التي زينت بها كتابها ، وهي صور تعمل على تعويد عقل القارىء على أن يألف جمال الطبيعة وأن يتذوق ذلك الجمال . وعلى أن يعجب بالسحاب الذي يغشى آفاق تلك البلاد الأفريقية في ألوانه البديعة المرقشة . وهو يعبس تهادياً متيبّس العروس مشت على إستبرق . . . ؟

مبارك ابراهيم

اثنا عشر فداناً مجموعة المساكن الصحية بلغ مجموعها ٣٦٠ مسكناً كل منها يشتمل على طابقين كل طابق مكون من ثلاث غرف ومطبخ ودورة مياه ، وقد بلغت تكاليف بناء المسكن الواحد حوالى ٤١٠ جنيه مصرى ، وفى الإمكان تخفيض هذا الثمن أكثر من ذلك ، وذلك بعد دراسة الخامات الموجودة محلياً وكذلك ثمن الأراضى التى سيبنى عليها ، وسأعرض هنا ما فعلته حكومة النمسا بعد الحرب العالمية الأولى لحل مشكلة مساكن العمال .



نتج من الحرب العالمية الأولى أن أصبحت النمسا مملكة صغيرة المساحة ذات مركز جغرافى غير مناسب وأسواق محلية ضعيفة ، فلا تستهلك الإنتاج ولا تكفى المواد الخامة المحلية لإنعاش الصناعة ، فازداد عدد العاطلين بنسبة كبيرة ، وعلاوة على ذلك كانت الدولة فى حاجة ماسة إلى إنشاء ربع مليون مسكن خلاف ٢٠ ألف مسكن يجب إنشاؤها سنوياً لمسايرة نمو السكان من جهة والاستعاضة بها عن المساكن المتداعية أو غير الصحية من جهة أخرى . لذلك رأى أولو الأمر أن يعالجوا كل هذا بإنشاء مساكن للعمال بإيجارات رخيصة لتقليل نفقات معيشتهم فيمكن من ثم تقليل أجورهم وتقل بالتالى نفقات الإنتاج الصناعى وتتاح بذلك الفرصة لمزاحمة الأسواق الأجنبية ، واتبعوا فى هذا الطرق الآتية :

١ — أصدر قانون سنة ١٩٢٢ وحدد الإيجارات بما يوازى نفقات الصيانة والإدارة فقط ، ثم رفعوا ذلك إلى الضعف بموجب قانون سنة ١٩٢٩

٢ — أعفت البلديات أراضى مساكن العمال من الضرائب بموجب قانون سنة ١٩٢٢ لمدة ٣٠ سنة ، كما أعفت أراضى المبانى المستجدة لنفس المدة بموجب قانونى سنة ١٩٢٢ ، ١٩٢٩

٣ — أقرضت الحكومة البلديات بموجب قانون سنة ١٩٢٦ قروضاً طويلة الأجل بفائدة قدرها ٥ر١ ٪ لعمل مساكن العمال .

٤ — فرضت الحكومة ضرائب تصاعدية على المبانى لتدبير المبالغ اللازمة ، حتى إن ٨٠ ٪ من مساكن مدينة فينا يدفع ربع جملة الضرائب المقررة ، ونصفا فى المائة من المساكن يدفع ٦ر٤١ ٪ من جملة الضرائب المقررة ، وبذلك حمل الأثرياء العبء الأكبر .

٥ — ركزت البلديات العمل فى يدها وحدها ، فهى الممولة والمالكة والقائمة بالبناء وبإدارة المساكن وتأجيرها ، وعملت جهدها على أن تكون جميع مواد الإنشاء محلية من صنع عمالها وفى مصانعها .

٦ — استولت البلديات على أراض رخيصة للبناء عن طريق نزع الملكية للمنفعة العامة .

٧ — عملت على تقليل نفقات البناء وتوصلت إلى تخفيضها بنحو ٣٠ ٪ وذلك عن طريق مشروع السنوات الخمس ، وبه أعطت الفرصة لصانعها المختلفة من مصانع ضرب الطوب والأسمنت والزجاج والصلب والأخشاب وجميع مصانع لوازم البناء لإعداد عدتها ودراسة أرخص الطرق للإنتاج بعمل ماكينات وآلات جديدة وكذلك درست وسائل النقل وركزتها فى يدها .

٨ — درست التصميمات بواسطة الخبراء لتقليل نفقات الإنتاج من توفير الوسائل الصحية — واحتوى المشروع على مجموعات من الحمامات الشعبية وأماكن للغسيل والكى وحدائق وملاعب للأطفال ومطاعم للعمال (رخيصة جداً تتكلف وجبة الغذاء حوالى ٤ شلنات نمساوية أى ما يعادل ٥٦ مليما) وملاجىء نهارية ودور للكتب وعيادات طبية . وبهذا تمكنت فينا من إنشاء أرخص مساكن جديدة فى أوربا ولم تعمل البلديات على تأجير تلك المساكن إلا للحصول على ما يعادل نفقات الصيانة والإدارة فقط .

هذه نبذة مختصرة عما فعلته حكومة النمسا لرفع مستوى عمالها الاجتماعي والمحافظة على صحتهم وراحتهم . وقد قمت بزيارة هذه المساكن وأخشى أن تتهموني بالمغالاة إذا قلت إن هذه المساكن المخصصة للعمال لا توجد عند الطبقة فوق المتوسطة في مصر ، بل أتمنى أن أرى المنزل المصري بهذه النظافة وبهذا النظام . وزرت أيضاً الحمامات الشعبية ويسمونها volks Bad وهي عبارة عن مجموعة من « الكبائن » كل كابين به « دوش » للماء الساخن وبه جزء مخصص لتغيير الملابس ، وأجر الحمام حوالي ٣٥ مليماً وجدار الحمام « مبلط » بالبلاط الصيني وفي منتهى النظافة والنظام .

وكل ما أرجوه أن أرى مصر قد خطت خطوة إلى الأمام ودرست ما فعلته هذه الأمم العريقة في المدنية وتبنى لعمالنا في مصر مبانى تتوفر فيها وسائل الراحة حتى يمكن للعامل أن يجد فيها مكاناً يجلس فيه هادئاً مع عائلته بدل أن يمضي الوقت في « القهوة » خارج المنزل لا يدري من أمر عائلته شيئاً .

(فينا) توفيق الشناوي

الاستيفاء

ليس من الحكمة أن نثق بالناس الذين لم يتعودوا رصين أعمالهم وإحكامها . ومهما تحسن نواياهم وتخلص مقاصدهم ، ويكثر اجتهادهم ، فإنهم غير أمناء حقاً — وذلك لأن دأبهم على عدم استيفاء الأشياء ، والتوغل إلى أصولها واستيعاب دقائقها ، لابد أن يطغى على أقوالهم وبلاغتهم من حيث لا يشعرون . ومثل هؤلاء الناس قل أن يقام لهم وزن في المجتمع الإنساني ، بل قل أن يكون لهم خطر في محيطهم فلئن كانوا من أهل السمت الذين اشتهروا بجمال السيرة ، إلا أنهم ليسوا ممن يمكن أن يعتقد في أقوالهم ، أو يعتمد على حكمهم وإجراءاتهم . فإذا قاموا في القوم خطباء ، انصرفت عنهم الوجوه ، وانقادت عن سماعهم الآذان ، لأن جل بضاعتهم حنجرة صلبة وألفاظ تدق بشقشقتها اللثة ، وتضيق من دونها أصمخة التثبت والتحقيق . وإذا تكلموا فوق منابر الوعظ ليردوا شارد الأهواء ويقودوا حرون الشهوات ويقوموا زيغ النفوس — أعرضت عنهم القلوب وانقبضت عنهم الصدور وشمت أشخاصهم الأبصار ، وكانوا في كل حال على حد منكب مع الجميع . أما إذا مثلوا في دار العدالة ، واتخذوا موقف الشهود ، فإن القضاة يتقبلون شهاداتهم بكثير من الحذر والتحفظ . وكيف يمكن أن تلقى مقاليد الأمور أو يرجع فيها إلى قول رجل مراح أرجل أعقله ، وكان في حركاته وسكناته خفيف الهام سفيه الأحلام نزقاً لقياً !!

حقاً أن الفرق عظيم بين السلوك في الطريق السوي المستقيم ، وبين الانحراف القليل عن جادته . ومن المعلوم أن الناس الذين لا يعرفون الاستيفاء والدقة ممن ، هم الذين لم يستهلوا رحلة حياتهم استهلالاً سالباً . وفاتهم أن يدركوا أن الذي نضعه في بدء حياتنا يتفاعل في جملتها ويستمر إلى نهايتها ، بل إن كل شيء إنما يكون له أصل من هذه البداية ! ! وإن حصاة نضعها في المجرى الصغير ، من شأنها أن تغير مسلك النهر الكبير . وكذلك يفعل عدم الحرص على الدقة في الإتقان ، وكذلك يحول الانحراف من النظام دون نجاح كثير من الرجال ويغير مجرى حياتهم . إن الدقة في مزاولة الأعمال والقدرة على تهذيبها واستكمالها ، وإكمالها على أحسن وجه مستطاع من أهم ما ينبغي أن يتعلمه الوليد في صدر أيامه ، لأنها من أعظم مقومات خلقه ومميزات أمانته ؛ ولسنا ننكر أن الرجال الذين كان يمكن أن يبلغوا ذروة النجاح ، بما أوتوا من الكفايات والمؤهلات ، قد أمسوا من النكرات وغدت المهن التي يحترفونها رخيصة كاسدة ؛ بل إن لم نقل إن إنتاجها تدرك إلى الحضيض ، لأنهم اعتادوا أن يبلغوا في إنجازها إلى منتصف الطريق ، كما اعتادوا الغلو والإغراق في رواية الأخبار . فلتنتبه ولتشحذ العزائم لأمر الخطير في هذا الزمن الذي يدعو الوطن للتصدي إلى المجد ، والجد في طرق الرجال المؤيدين النظارين في الأمور ، المدققين في الأعمال والأقوال .

الزهرة

متنـــــــوعات

تأليف الدكتور محمد كامل حسين مدير جامعة إبراهيم — مطبعة مصر — ص ٢٢٠ من القطع الوسط

عرفت أدب الطبيب محمد كامل حسين فى مقاله الذى نشره بالكاتب المصرى منذ بضع سنوات عن الشاعر المتنبى، فعجبت يومئذ لجراح العظام كيف لم تصرفه هذه الجراحة الدقيقة القاسية عن تحليل الشعر والغوص على معانيه.

وليس هذا بمستغرب ولامستكثر على عالم جمع الله فيه العالم، وهل كان الطب إلا دنيا بعيدة الأغوار مترامية الأطراف لايدرك كنهها إلا الأطباء الذين راح المرء يعجب لشأنهم فى الإدراك والتشريح.

وما يضير الأدب إذا شاركنا فيه العلماء، فإنهم يدخلون عليه بصارم الواعية ويرونه بأعين قد لاتراه بمثلها، وكم من عالم كانت له مشاركة فى الشعر والأدب فأبدع فيما عجز الأدباء عنه وهم بمنأى عن العلم ونظراته ومقاييسه، وينبغى لنا معشر الأدباء أن نتقبل أدب العلماء، فقد يكون فى آثارهم وآرائهم تسديد لفنوننا الضالة وتقويم لمناهجنا المعوجة؟ وعلى هذا القرار نرى فى آداب الأمم المعاصرة علماء إذا خرجوا من مختبراتهم ودور تجاربهم مكدودين مضجرين من طول النظر والتحليل فى أعمالهم، طوفوا تحت ظلال المساء فى دور التمثيل وندوات الفن فشاقتهم الموسيقى وهزهم القصيد أو التصوير.

وهذه ظاهرة جديدة فى شرقنا العربى، فقد طربنا لخفقات الجوندول جاد بها مهندس مصرى شاعر، ونطرب اليوم لطبيب العظام فى كتابه الجديد، إذ يغزو مملكتنا ويتبجح فيها محتلاً مكانته كأديب موهوب.

لقد كتب مؤلف « متنوعات » صفحات عن المتنبى حلل فيها خصائصه النفسية تحليلاً علمياً، وعلل بواعث تعقيده فى شعره تعليلاً منهجياً، فأبو الطيب عند الطبيب الجامس ذو حرص مادى ظهر أثره فى بعض قصيده، فإذا راقت الشاعر فكرة ولو كانت غثة تافهة أخذ يكررها ويعيدها ويخلق لنفسه صعوبات فى صوغها وأدائها لكى يخادع نفسه فى قدرته على التخلص من ورطات الوجود.

وخالف الطبيب ما أجمع عليه نقاد الشعر الذين أشادوا بشجاعة المتنبى وعلو همته، إذ أنه رأى النجاح الذى أدركه أبو الطيب قليلاً إذا قيس بآماله وطموحه، وليس هذا فى رأيه طعناً فى المتنبى وشعره، لأن فيه صفات كامنة غير مادل عليه ظاهر قوله. وقد استطاع المؤلف أن يستعين بعلم النفس التحليلى، فكان موضوعه هذا تجربة موفقة من تجارب هذا العلم فى الأدب، وهو إذ يقوم به لايخرج عن عمله وطبه، ولم يصنع صنع المتزيدين بذكر المنهج والخوض فى دراساته، فإذا تناول أحدهم أثراً أدبياً بالنقد أرسل فيه معوله هداماً زاعماً أنه أدخل فى نقده علم النفس ففتح فيه فتحاً جديداً.

على أن الدكتور محمد كامل حسين جاء بجديد فى تحليل هذا الشعر الذى وضعه على المشرحة لا ليجهز عليه بل ليعالج ضعفه ويتبين أسبابه، ولو تغيرت دورة الزمن فكان أبو الطيب معاصراً بعصر الطبيب المؤلف لخف إليه مداوياً مواسياً إذ أدركته البرحاء، فخفف عنه زوراتها الثقال، بل لبدل مجرى شعره بمصر حين لقى الخيبة عند كافور.

ولست من رأى المؤلف فى أن خير شعر المتنبى ما قاله بمصر، فإن جودة سيفياته وصور الحرب لديه أبق وأروع. ولقد تجنى الطبيب على أبى الطيب حين جرده من الرفق والإبداع، وقال إن شعره عقلى محض ينقصه الشعور الإنسانى الرقيق والصور الحسية التى كان فيها أبو الطيب شاعراً بفكره لا بحسه وخياله.

وفى مقال الطبيب عن أستاذه الجراح العالمى الدكتور على إبراهيم تجلت الصلة الوثقى التى ربطت بين طبيبين أحدثا فى مصر آثاراً مرموقة؛ وإن مجلس التلميذ أول عهده بأستاذه

منذ ربع قرن محتفظاً إعجاباً وتقديراً ، ومجلسه الأخير وهو على سرير الموت مشهد رائع فاجع ، صور فيه المؤلف شعوره في الجالسين ؛ والذي طار بفكرى وأنا أقرأ هذا الموضوع مشهد سقراط وهو على فراش الموت وقد أخذ يحدث تلاميذه وفيهم أفلاطون حديثاً كان درسه الأخير ؛ فلبث المؤلف تبسط في مثل ذلك مع أستاذه الذى أطبق عينيه على دنيا مصر وهو آمن مطمئن بأنه خلف فيها أمداده . ولقد استطاع الطبيب محمد كامل حسين أن يصور لنا إبراهيم في مواهبه ومزاياه ، وفي الجراحة التي رآها صورة من نفسه ، وحسبه أن جعل الطب في مصر مصرياً أعدّ له وسائل الإتقان .

ولم يجد المؤلف وصفاً لهذا الجراح أكثر دلالة عليه من أنه كان بناء ، شيد كثيراً وأقام كثيراً في الطب والعلم والاجتماع ، وكان من رأيه أن يبدأ كل شيء صغيراً ثم ينمو ويترك للتطور الطبيعي ، فكان يكره الطفرة ولا يحب الهدم والتقويض .

وعلة العلل في شرقنا العربي أن كل شيء عندنا يبدأ كبيراً أو متعدداً ثم يصغر أو يموت ضئيلاً عليلاً .

وهنالك في « متنوعات » موضوعات علمية كتاريخ الطب عند العرب والكيمياء القديمة ، تناولها المؤلف بتفصيل مستحب ، وتحليل قائم على تتبع ذاتي وملابسة روحية ، وخير ما يستطيع أهل الفكر والتأليف أن يعالجوه من الموضوعات ما كان لصيقاً بعلمهم وطباعهم ، فإنهم يحصونه ويمارسونه بإتقان وسداد ، ولو أن العلماء انصرفوا إلى مثل هذا لأفادوا الجمهور ، فما من شيء أعدى على العلم من أن يتصدى له غير أهله .

وإذا شاء الناقد أن يحلل هذا الكتاب فإنه يراه جامعاً صفتين هما العلم والأدب ، فإذا جال المؤلف في نطاق الأول فتكلم على القرآن والقصة والمتنبي والحرمان ، لم يكن ذلك في التمكن والتعمق دون جولته في الثاني ، كل ذلك في أداء محكم ، ولغة قوية وتحليل شائق .

أما العنوان فلم يجأ المؤلف باختياره وقد سماه « متنوعات » زهادة منه في التكلف ، ولئن طابق هذا الاسم محواه فخير منه لو جعله بعنوان أدل عليه وأحرى بما تضمنه الكتاب .

(القاهرة) وداد سكاكيني

كتب وردت إلى المجلة

١ – أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢

تأليف الدكتور جاك تاجر .

وقد صدر المؤلف كتابه بالعبارة الآتية ليدل بها على روحه في البحث « لست مسلماً ولا قبطياً ، وقد تعرضت لموضوع العلاقات بين الأقباط والمسلمين بدافع المؤرخ الذى يسرد الحوادث على حقيقتها لا بشعور القاضى الذى يحكم بين طرفين ... » .

والبحث مؤيد بالمراجع ، يجرى على أسلوب علمى رصين ، وهو يقع في ٣٢٨ صفحة من القطع المتوسط ، طبع دار المعارف بمصر .

٢ – سيرة الشاطر :

للأديب الأسبانى فرنسيسكودى كيبدو ، تعريب الأستاذ موسى عبود .

وقد أصدره مكتب الترجمة الأسبانية العربية ، وطبع بمطبعة المخزن بتطوان .

٣ – الكوميديا الكلاسيكية الأسبانية :

بقلم الأستاذ نجيب أبو ملهم ، وقد أصدره مكتب الترجمة الأسبانية العربية ، وطبع بمطبعة المخزن بتطوان .

٤ – مجموعة الفواتيح المغربية :

تعريب الأستاذ موسى عبود الحاجى ، وقد أصدره مكتب الترجمة الأسبانية العربية .

٥ – سرقانطيس :

بقلم الأستاذين نجيب أبو ملهم وموسى عبود ، وقد أصدره مكتب الترجمة الأسبانية العربية ، وطبع بمطبعة المخزن بتطوان .

٦ – مسرحية رابطة المصالح :

للأديب الأسبانى بنافنق ، وتعريب الأستاذ نجيب أبو ملهم ، وقد أصدره مكتب الترجمة الأسبانية العربية ، وطبع بمطبعة المخزن بتطوان .

النشاط الثقافي في أسبوع

للأستاذ عز الدين إسماعيل

الأمية :

كان الأسبوع الماضي وما قبله مسرحاً لحوادث كثيرة عطلت أبواب النشاط في مختلف نواحيها تقريباً ؛ ومع هذا فقد نظم نادي المعلمين محاضرة للأستاذ الدكتور عبد العزيز السيد ، تحدث فيها عن الأمية وعن بعض تجارب في محوها ، وقد ذكر المحاضر أن نصف العالم أميون ، أي ما يقرب من ألف مليون نسمة ، أما النصف الآخر فثلاثة أرباعه لم يبلغوا درجة كافية من الثقافة ؛ ونظم الحكم التي وضعت لهذا العالم وتطورت حتى صارت إلى ما هي عليه الآن — هذه النظم في الواقع قد سبقت الناس في مدارج التقدم إذا نحن قستناها بالمرحلة الفكرية التي تمثلها الغالبية الكبرى من أفراد العالم ؛ فإن هذه الغالبية — فيما يبدو — لم تصل بعد إلى الدرجة التي تتحمل فيها هذه النظم ، ولذلك من الصعب — إن لم يكن من الخطأ — الحكم على نظام من هذه النظم بأنه غير صالح لأنه فسد في أمة بعينها ، أو أنه صالح لأنه نجح في أمة بعينها ، إذ أن النظام في حد ذاته قد يكون صالحاً ، ولكن فساده يظهر نظراً لفساد الأفراد الذين يحكمون به ، وفي حالة كالتي ذكرناها ، تكون فيها الأغلبية العظمى أميين أو أشباه أميين ، فإن أي نظام صالح في ذاته خليق به أن يتحول إلى الفساد .

الجهل هو منشأ الكثير من مشاكل العالم ، وهو الذي جعل الوضع الصحيح في بعض نظم الحكم يتخلف ليقوم مكانه الوضع الخاطئ المعكوس ، فبدلاً من أن تكون الجماهير — مثلاً — هي الحاكمة صاحبة الرأي ، فإنه — نظراً لجهل هذه الأغلبية — قد صار الحكم في أيدي الأقلية المستنيرة ، ومن جهة أخرى فقد وقفت الأمية دون أي إصلاح عمراني وصحي وثقافي .. إلخ ؛ ذلك أن الإصلاح لا يفرض على الناس ، وعندما يفرض ينفرون منه نفوراً ، ولن يقبلوا عليه إلا عندما يشعرون هم أنفسهم بالحاجة إليه .

والأمية في مصر عظيمة الانتشار ، والجهل فيها يأتي — بحسب إحصاءات سنة ١٩٣٧ — في المرتبة الثانية بعد الهند ؛ فقد كانت نسبة الأميين في الذكور في ذلك الوقت ٨ ر ٩٠ ٪ ، وكانت أكثر من ذلك في البنات بطبيعة الحال . وقد حدث تقدم ملحوظ في محو الأمية في هذه الفترة من ذلك التاريخ حتى يومنا ؛ فإن نسبة الأميين في الذكور الآن ٦٠ ٪ وفي الإناث ٩٠ ٪ . وقد كان هذا التقدم بفضل نشر التعليم الأولي وتنفيذ قانون محو الأمية ، فإذا كان سكان مصر الآن ٢٠ مليوناً فإن ستة ملايين فقط منهم متعلمون ، أما الأربعة عشر مليوناً فمنهم خمسة ملايين في سن صفر إلى عشر سنوات ، وثلاثة ملايين في سن العجز والباقون وهم ستة ملايين في حاجة ماسة إلى التعليم ، وإلى هؤلاء الأميين وأنصاف الأميين يمكن أن يعزى كل تأخر سياسي واقتصادي واجتماعي ، إذ أن التعليم عامل مشترك ضروري ولازم لتقدم أي ناحية من هذه النواحي ، وهو شرط أساسي لحل أي مشكلة .

وليس هناك اتفاق على تعريف الأمية بين الأمم ، وكذلك يختلف الأمر بالنسبة لاعتبار السن ، على أن مجرد تعلم القراءة والكتابة فحسب لا يمكن أن يعد محواً للأمية ، إذ لا بد أن يكون التعليم وظيفياً ، بمعنى أن يكون موجهاً للمتعلمين إلى إدراك مشاكلهم الخاصة والاتجاه إلى حلها . فقد يحدث أن يحصل الأمي على قدر من القراءة والكتابة يكفيه للحصول على الشهادة ، ثم ينسى بعد ذلك كل شيء ، فلا بد أن تكون هناك سياسة واضحة في أذهان الكبار والصغار ، والمعلم والمتعلم ؛ فيكون واضحاً في الأذهان ، أن محاربة الأمية ليس غاية في ذاته ، وإنما هو وسيلة إلى تبادل الأفكار والتجارب بين الأفراد ورفع المستوى العام ، والواجب هو تهيئة الوسائل لهم كي يستفيدوا من تعلمهم لا أن يقفوا عند حد القراءة والكتابة .

وقد تكون هناك وسائل أخرى تساعد على نشر الثقافة كالراديو مثلاً ، وفي منظمة اليونسكو حاولوا ترقية الزراعة في مكان ما في أفريقيا بالراديو والسينما ، ولكن لم يحدث أي تقدم محسوس ، إذ لم يكن هناك الدافع الداخلي للاستفادة

من المعلومات ، لذلك كان التعليم أنجح من هذه الوسائل ، نظراً لما للكلمة من أثر يدوم أكثر من السماع أو المشاهدة .

وقد بدأنا في مصر من حيث كان يجب أن ننتهي ، بسن القانون ، فكان الأوجب أن نلجأ إلى الدعاية والترغيب إلى أن يصير الأميون أقلية ، وعندئذ يفرض القانون . على أن مسائل التعليم لا تنجح لأن قانوناً قد سنته الدولة ، وإنما هي تحتاج إلى الدروع ؛ والمكافحة عمل اجتماعي يحتاج إلى الإعلان والدعاية بين الأهالي في المدن والقرى ، حتى يشعر الناس أن هذا العمل لهم ولفائدتهم ، وأنهم فضلاً عن هذا غير مرغمين عليه .

معرض أطفال المجر :

يقول الدكتور عبد العزيز القوصي في كتابه « أسس علم النفس » ص ١٩٣ : « إذا تركز الغرض في النتيجة واعمى من النشاط نفسه ، أصبح العمل عملا في ذاته ، وأصبح جدياً بمعنى الكلمة . أما إذا تركز الغرض في النشاط نفسه واعمى من الناية الخارجية عنه ، فإن النشاط يصبح لعباً ، والغرض الذي يقصد إليه الفرد أثناء قيامه بالنشاط يرتبط بالحالة النفسية التي تصحب هذا النشاط » .

والمعارض الفنية — العالمية بخاصة — لون من ألوان النشاط أولاً وقبل كل شيء ، فالغرض منها متركز في هذا النشاط نفسه . أما فيما يختص بمعرض أطفال المجر الذي أقيم بمتحف الفن الحديث ، باعتباره لوناً من ألوان النشاط ، فقد كان الغرض منه يتركز في النتيجة وليس في النشاط نفسه ! ولست أريد من هذا أنه أخذ صورة الجدية بمعنى الكلمة فأصبح عملا في ذاته ، وإنما كل الذي أريده هو أنه لم يكن معرضاً فنياً بمعنى الكلمة ، تركز الغرض منه في عرض النشاط ذاته ، وإنما كان عملا موجهاً لغرض ، لا أقول هو الدعاية ، فإن كل من زار هذا المعرض لا يرتاب في ذلك ، ولكنه الغرض الذي هدف إليه هؤلاء الأطفال — إذا صح أنهم هدفوا إلى شيء — بحسب التوجيهات التي لا بد أنهم وجهوا بها .

نحن نعرف أن الاستعداد الفني مشترك بين الناس ، والأطفال بصفة خاصة يحبون دائماً أن يعبروا عن إحساسهم بصورة أو بأخرى ، يعبرون عنه تعبيراً أولياً ساذجاً ، وإن كان في الوقت نفسه موحياً ، ومن النقاد من يرى الرجوع بالفن إلى صوره الأولية الموحية ، أو على الأقل يعتبر الفن البدائي تعبيراً صادقاً موحياً ، لا يقل عن إنتاج العباقرة من كبار الفنانين . وعند ما نتيح للأطفال فرصة التعبير الفني فإننا نتيح لهم فرصة المران الفني واكتساب التجربة الفنية ؛ والاتجاه السائد الآن هو ترك الحرية كاملة للطفل (في مجال التصوير مثلا) في أن يخط ما يشاء وأن يستعمل من الألوان ما يريد . هذه الحرية في التعبير وفي اختيار صور التعبير وأدواته هي أهم ما يجب توافره للفنان بصفة عامة ، وللطفل بصفة خاصة .

أقول هذا وأنا أتمثل تلك اللوحات التي غصت بها قاعة العرض . فإن أول ما نخرج به من هذا المعرض دون تردد هو أنه لم يحترم للأطفال — كفنانين — حريتهم ، خاصة في اختيار الموضوع ، فنرى في الموضوع الواحد (وليكن موضوع السلام) أكثر من عشرين لوحة ! ولست أدري هل نضج السلام في نفوس هؤلاء الأطفال كفكرة وكتجربة شعورية بحيث أحسوا جميعاً بالدافع القوي إلى التعبير عنه بصورهم المختلفة المتقاربة مع ذلك ، أم أنها فكرة أمليت عليهم إملاء ، ورسم خطوطها الأولية أيد غير أيدي الأطفال . حقاً أننا لا نعدم اللوحات التي تمثل بيئة الطفل كالمدرسة والبيت وما إلى ذلك ، وحقاً أن الخطوط فيها بدائية الأطفال ، وكذلك الأمر في الألوان ، كل هذا حق ، ولكن الذي أرتاب فيه هو أن تكون الفكرة دائماً بنت التجربة الخاصة بالطفل . فإذا صح أنها لم تكن له ، فإن دور الطفل يكون فقط في التنفيذ .

وقد عرفنا في العبارة التي صدرنا بها هذا الكلام « أن الغرض الذي يقصد إليه الفرد أثناء قيامه بالنشاط يرتبط بالحالة النفسية التي تصحب هذا النشاط » . فإذا صح ما سقناه من أن الفكرة كانت — في الأغلب — خارجية ولم تكن من صميم تجربة الطفل وإدراكه ، عرفنا أن هذه اللوحات التي عرضها الأطفال كنشاط لهم لا ترتبط بالحالة النفسية الخاصة بهم والنابعة منهم ، وإنما ترتبط في أصلها بالحالة النفسية الخاصة بموجهيهم . إن الكبار هم الذين يستطيعون أن يفهموا السلام كمعنى وأن تركب لهم مخيلتهم من الواقع المحسوس ما يصورون به في لوحاتهم الفنية هذا

(البقية على الصفحة التالية)

وليم تــــل

«عن الإنجليزية»

لريشارد شريدان

ترجمة الأستاذ كاظم محمد على الخليفة

الأشخاص

جسلر : الحاكم النمسوى الذى ألقى القبض على كل من (تل) وفتاه .

وليم تل : قائد السويسريين فى محاولتهم تحرير وطنهم من حكم النمسا الجائر .

ألبرت : ابن تل الصغير .

المنظر الأول

وليم تل ، وألبرت : ولده ، وجسلر

* * *

جسلر : ما اسمك ؟

تل : اسمى ؟ . لا فائدة من إخفائه عنك الآن .. إن اسمى هو (تل) .

جسلر : تل !ــ وليم تل ؟

تل : هو بالذات .

جسلر : ماذا .. أهو الذى حاقت ، فى قطره ، شهرته بقدرته على قيادة الزوارق فى البحار اللاَّجة الصخابة ؟ . وهل هو ، مضافاً إلى هذا ، سيد قومه التى قال بأن سهامها لن تخطئ أبداً ؟ .. حقاً .. سأنال منك انتقاماً جد بديع .. ! لا حظ ! . سأبقى لك حياتك .. ولولدك أيضاً !ــ كلا كلا سيصبح حراً .. على شرط ..

تل : وهو ؟

جسلر : اختبار براعتك بقوسك هذه التى تجيد الرماية بها أى إجادة .

تل : وما هذا الاختبار الذى تريد منى أن أؤديه ؟

جسلر : إنك تنظر إلى ولدك كما لو كنت قد أدركته بفطرتك !

تل : أنظر إلى ولدى ! ماذا تقصد ؟ .. أنظر إلى ولدى كما لو كنت قد أدركت ... أدركت الاختبار الذى تريد منى أن أؤديه .. خمنت ذلك بفطرتى ! إنك لا تقصد .. كلا .. كلا .. إنك تريد أن تجعل طفلى موضوع امتحان مهارتى ! مستحيل .. إنى لا أفهم قصدك .

جسلر : أريد أن أراك ترمى بسهمك هذا تفاحة على بعد مائة خطوة .

تل : وهل يكون ولدى هو الذى سيمسكها ؟

جسلر : كلا .

تل : كلا !ــ سأرسل السهم إلى كبدها !

جسلر : يجب أن توضع فوق رأسه .

تل : يا لله العظيم !! لقد سمعت ما قال دون مراء أو شك .

جسلر : ينبغى لك الإصغاء إلى هـذا التخيير الذى تفضلت به عليك ، وإن اختباراً لمهارة كهذا لأنت

الفنى ، وحسبنا أن نقف هنا عند تسجيل هذه الملاحظة ، وهى أن الارتباط النفسى بين الأطفال ونشاطهم الذى قدموه فى هذا المعرض يصعب التماسه .

على أن هناك ملاحظة أخرى جديرة بالتسجيل ، لا بالنسبة لما عرضه الأطفال فقط ، وإنما بالنسبة أيضاً لما عرضه الكبار من أعمال الزخرفة على الخشب والخزف وأعمال النسيج ، فإنها تحمل طابعاً شرقياً يعنى المهتمين بالدراسات المقارنة ، وأول ما يمكن أن يلفتهم فى هذا السبيل هو اختيار الألوان الصارخة (فى التصوير والنسيج على السواء) ، وأيضاً قيام الزخارف — فى كل الحالات — على تكرار الوحدة البسيطة .

عز العرب إسماعيل

الشيء فيه .. هذا العمل .. ينبغي أن تفعله ، وإلا فالموت لكليكما ، لا حيلة أخرى لكما للنجاة .

تل : يا للهول !

جسلر : هل ستفعله ؟

ألبرت : سيفعل ! سيفعل !

تل : وحشية هائلة تلك التي تدفع الأب ليسفح دم مفتره بيده نفسها دفعًا .

جسلر : حلّ القيود عنه إذا كان قد وافق على الذي أردنا .

تل : وبيده نفسها !

جسلر : أتوافق ؟

ألبرت : وافق .. نعم ..

[جسلر يمضي إلى موظفه فيتقدم ليفك من تل القيود ، وتل — أثناء ذلك — واقد الشعور لا يدري ماذا يصنع به .]

تل : وبيده نفسها .. يقتل طفله بيده نفسها !. إنه الهول الجبار الذي ما بعده هول .. يالرعب الموت .. يالحيرة (تسقط عنه قيود الحطمة) ماذلك الذي صنعته لي ! ... أيها الأنذال ! ضعوا قيودي بيدي مرة أخرى .. إني لن أقتل ولدي لجسلر هذا .

ألبرت : أبتاه ! أبتاه !. إن سهمك لن يصيبني أبداً .. أبتاه !.

تل : لن يمسك أبداً !!. إني حين أرسل السهم هذا إليك ، فسيخترق بلاعتك وماقلك ، فإن أخطأ فسيدمل إحدى عينيك ، وإن سلمت عينك فلا بد أنه سيمزق الخد الذي رأيت شفتي أمك تغطيه بقبلاتها !. أصوب نحوك سهمي ؟ أأنال بسوء شعرة من شعور رأسك ؟ أمزق قلب والدتك !.

جسلر : هل وافقت ؟

تل : أعطني قوسي وكنانتي .

جسلر : لأي شيء ؟

تل : لأرمي ولدي !

ألبرت : كلا يا أبي .. كلا ، بل لتنقذني !. ينبغي أن تكون متأكداً من أنك ستضرب التفاحة . ألا تريد أن تنقذني يا أبي ؟.

تل : خذني إلى الأمام .. سأؤدي الاختبار .

ألبرت : شكراً لك !

تل : أتشكرني ! أتدري لأي شيء ؟..

إني لن أؤدي هذا الاختبار المشئوم لأعود به إلى أمه بيدي ، هالكين ، فأسلمه جثة هامدة قبالتها .

جسلر : إذاً يموت ، في هذه اللحظة ، وتكون أنت الذي قتلته حقاً .. إن لديك فرصة تستطيع بها إنقاذ حياته ، ولكنك لا تريد أن تستفيد منها .

تل : حسناً .. سأفعل ذلك .. سأجري هذا الاختبار

ألبرت : أبتاه !

تل : لا تتكلم معي .. لا تدعني أسمع صوتك .. يجب أن تكون أخرس ، وكذلك يجب أن تكون الأشياء جميعاً .. يجب أن تكون الأرض خرساء ، وكذلك السماء ما لم ترسل الرعود القاصفة حانقة على هذا العمل الفظيع البشع وتبعث بما يحول دون وقوعه .. أعطني سهمي وأعطني كنانتي !

جسلر : بل حينما يكون كل شيء حاضراً .

تل : حسناً ! هيا بنا !

المنظر الثـــانى

[يدخل المواطنون رجالا ونساء ، يبطء وأناة ، وكذلك يدخل جسلر وتل وألبرت والجنود . أحد هؤلاء الجنود يحمل قوس تل ، وكنانته ، وآخر يحمل سلة التفاح .]

جسلر : ذلك مكانك ، والآن سيقيسون مائة خطوة .. إليكم المسافة .

تل : أهذا الحد الذي أقف عنده له من المسافة نصيب ؟

جسلر : أله من ذلك أم لا ، ماذا يضيرك .

تل : بل ماذا يضيرك أنت ؟ على أن شيئاً صغيراً ... صغيراً جداً . أمتى ذراعاً أو ذراعين لا أهمية عندي له ، أهذا كان أم هناك ، فأينما يكن الشيء فإني لا بد راميه ! على كل حال .. لا بأس من ذلك .

جسلر : كن شكوراً أيها العبد فلقد أنعمت عليك بالحياة دون أي ولاء لنا منك أو وفاء .

تل : إني لشاكر لك يا جسلر .

أيها الأنذال ، قفوا .. إنكم تقيسون باتجاه الشمس !

جسلر : وماذا يعني ذلك .. أي ضير من أن تكون باتجاه الشمس أو ضدها ؟

تل : بل أريد أن تكون ورائي .. ينبغي ألا تشرق

الشمس على عيني من يتأهب للرمي . . إني لا أستطيع الرؤية كي أسدد السهم إلى الهدف وأنا قبالة الشمس . . . إني لن أرى قبالة الشمس أبداً !

جسلر : دعوه يوجه وجهه شطر الجهة التي يريد . إن لديك لحجة تستدير بها رحىّ !

تل : سأتذكرها . . إني أحب الآن أن أرى التفاحة التي سأصوب إليها سهمي .

جسلر : تمهل ! أترى السلة ! . هناك هي . .

تل : لقد التقطت أصغر التفاحات حجماً .

جسلر : أعرف ذلك .

تل : آه ! أو تفعل هذا . . ثم ألا ترى أن اللون الذي تلتحف به معتم داكن . . إني لا أستطيع أن أراها جيداً إلا إذا كانت شاحبة باهتة .

جسلر : خذها كما هي ! فإن مهارتك ستكون أعظم إذا ما أصبتها بسهمك .

تل : حقاً . . حقاً ! إني ما فكرت بذلك . . إني لمستغرب كيف أني ما فكرت بذلك ، ولكن ألا تتفضل على بشيء من التيسير والتسهيل لأستطيع بوساطتهما إنقاذ ولدي . (يرى التفاحة بيداً بكل قوته) فإني قادر على عدم سفح دمه إذا استطعت أن أنال ذلك منك . . آه ! . بحق شرف رداء الملك الذي ترتديه — إن لم تبق في القلب بقية — تفضل على — على الأقل — بمن أوصيه من الرفقاء .

جسلر : حسناً ، اختر بنفسك من تريد .

تل : ألي صديق بين النظارة هؤلاء ؟

فيرز : (مندفعاً إلى الأمام) ها أنا ذا بإزائك .

تل : أشكرك يا فيرز ! إن فيرز هذا الصديق مندفع في عاصفة . . إنه يحب مصالحنا بلا شك . . يجب أن أكون موجزاً : عند ما تكون القوس منحنية متأهبة للرشق في مرة من المرات فليس بإمكاننا أن ننال الصيد أو نلق عليه القبض مسرعين متعجلين . . فيرز ، مهما تكن نتيجة هذه الساعة فالقضية المعروفة[1] لا ينبغي لها الوقوف والتلكؤ لا تدعوا شمس الغد تغرب على لواء الطغيان والجور !

فيرز ! فيرز ! . الولد ! الولد ! أترى أن له من الشجاعة ما يجعله منتصباً ثابت الجنان في موقف كهذا ؟

فيرز : نعم .

تل : كيف يا ترى يبدو ؟

فيرز : إنه ليبتسم طلق الأسارير ، وإذا كنت بذلك شاكاً فانظر أنت بنفسك إليه .

تل : كلا ، كلا يا صديق ، إن سماعي هذا فيه الكفاية

فيرز : إنه ليحمل نفسه على أداء أمر هو فوق طاقة من في سنه كثيراً .

تل : أعرف هذا . . أعرف هذا .

فيرز : وصمود أي صمود !

تل : كنت متيقنا من أنه سيكون كما وصفت .

فيرز : ويرسل إليك نظرات ملؤها الحب والاحترام والتبجيل .

تل : أيها الرجل ؟ أيها الرجل . أيها الرجل . بربك لا تستطرد ، لا تكثر من هذا الحديث ؛ فإني الأب الذي يستعد لتمثيل دور رجل عادي من الرجال . فيرز ، لا تكثر يا صديق ! ما أكون حجراً . . حجراً . . حجراً . . لا تجعلني أشعر وأحس ، فإني لست كذلك الآن . . لا تكترث أنت بي ! خذ الولد إلى المكان المقرر يا فيرز ، واجعل ظهره نحوى . . أجلسه على ركبتيه وضع هذه التفاحة على رأسه ، ولكن عقبها أمامي ، هكذا يا فيرز ، احمله على أن يحافظ على ثباته وجلده . . أخبره بأني سأضرب التفاحة ! فيرز ، افعل كل هذا بأوجز مما أخبرتك به أنا .

فيرز : هيا ، ألبرت . (يأخذه بيده بعيداً) .

ألبرت : ألا أستطيع التكلم معه قبل أن أذهب ؟

فيرز : كلا .

ألبرت : أود أن أقبل يده فقط .

فيرز : يجب عليك ألا تفعل .

ألبرت : بل أفعل ! . . إني لا أستطيع مغادرته بدون ذلك .

فيرز : إن رغبته هي ألا تفعل .

ألبرت : رغبته ؟ أهي رغبته ؟ إني لقنتع راض إذاً . . هيا .

تل : إن كنت تطيق فراقي أفلا أستطيع أن أطيقه أنا ؟ اذهب . . اذهب الآن يا ولدي ، ولكن عندك ! كيفاً

---

(١) أكبر الظن أن القضية المعروفة التي يقصدها (تل) هي الاتفاق السري على الثورة التحريرية ضد المستعمرين من حكام النمسا ، وقد كان ميعادها في اليوم الأول من سنة ١٣٠٨ م فهو يريد إذاً تنفيذ هذا الاتفاق . (المعرب)

الثقافة

العدد ٦٨٦
١٨ من فبراير ١٩٥٢

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

صفحة

أســـرار...

هناك خلف ظلام الليل أنوار ... وفي الصحارى فراديس وأنهار
وفي الغيوم صفاء ضاحك نبتت ... على يديه رياحين وأزهار
وتحت كل سماء نور ألق ... كأنه كوكب بالسعد سيار
وملء كل فضاء طائر غرد ... غنت بنجواه أسماع وأبصار
ودون كل غطاء عالم لجب ... كأنه عيلم باللج موار
ما دمت ترنو بعين القلب مبتهجاً ... فالكون أجمعه حسن وأنوار
فإن نظرت بعين العقل ثاقبة ... فليس ثم مغاليق وأستار
أليس للفلك الدوار أسرار ... شتى سوى أنه كالنور دوار ؟!!
إن الثلوج على هام الجبال لها ... سر يبوح به البركان والنار !!
وللأزاهير أشواك تذود بها ... منها الشذى وهو بين الشوك معطار
الزهر ينفحنا بالعطر ، يدفعنا ... عن لمس أوراقه والشوك أسوار !
ولا تغرنك الأقمار سافرة ... بحسنها ففي غارات وأحجار
ألا ترى الهرم المرهوب جانبه ... كأنه معقل للدهر جبار ؟
فإن فتنت به ألفيت معجزة ... لها من الصخر مجد ليس ينهار !
يا ويح نفسي أرى الأكوان ظاهرها ... صلد وباطنها كالنبع زخار !!
إذا ادلهمت غيوم النفس لاح لها ... نور النهار دجى تغشاه أكدار
فإن صمت فظلام الليل أنوار ... ورهبة الصمت موسيقى وأشعار !
أليس السراب خداعاً طالما نهلت ... منه نفوس وغاصت فيه أبصار !
والجدب خصب خفي لو نفذت إلى ... أعماقه فأزاهير وأثمار !
هنالك القفر فينان الظلال ندي ... على خمائله شدو أطيار
وباطن الأرض روض كالنواة بها ... براعم وأماليد ونوار !
فغض طرفك عما أنت ناظره ... واضبط لسانك عجزاً فهو ثرثار
لن تعرف السر بالجهر الذي نطقت ... به الحياة ففي الإظهار إضمار
لكل حرية قيد يكبلها ... ومن نسيم الصبا الهفهاف إعصار
إن الحياة وإن لاحت معالمها ... محجوبة لعيون الناس — أسرار !!

احمد احمد العجمي

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٨٦ الاثنين ٢٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٧١ — ١٨ من فبراير سنة ١٩٥٢ السنة الرابعة عشرة

في ضوء المصباح :

اللحظة المسحورة

للدكتور زكي نجيب محمود

هى تلك التى يلتقطها الفنان من مجرى الزمن ، فيخطها على الورق لفظاً ورسماً ، أو يثبتها على الحجر نحتاً ونقشاً... فذلك هو الفن بأدق معناه .

الفن الأصيل الصحيح هو أن تثبت حالة من حالات الوجود بتفصيلاتها التى تجعلها فرداً فريداً بين سائر الحالات ، بحيث تعرف كيف تتخير لها من تفصيلاتها ما يخلع عليها بين سائر أخواتها ذلك التفرد الذى لا يشاركها فيه شريك آخر على امتداد الزمن واتساع الكون وتعدد الكائنات .

فمن سر الحياة هذا التفرد العجيب بين الأحياء ، بحيث يستحيل على فردين أن يتشابها إلى حد التطابق الكامل ؛ فالأم تعرف رضيعها بين ألف آخرين ، لأنه مهما اشتدت أوجه الشبه بينه وبين هؤلاء الآخرين ، فله من الخصائص ما يميزه عند النظرة التى تدفعها الفطرة السليمة إلى الوقوف عند جوانب التباين والاختلاف .

قد ترى جماعة الطير أو البقر ، فيتشابه عليك أفرادها ، حتى لتظن ألا اختلاف بين تلك الأفراد ، وتظل كذلك مادمت لا ترى فى نفسك الدافع الذى يحفزك إلى تدقيق النظر فيما بين الأفراد من فروق ، فإذا ما نشأ فى نفسك ذلك الدافع لسبب ما ، ألفيت لكل عصفور خصائصه الفذة ، ولكل بقرة مميزاتها الفريدة ، ويكون رسم العصفور أو البقرة فناً أو لا يكون ، بمقدار توفيقك فى إبراز المميزات التى قد جعلت ما رسمته واحداً لا شريك له بين سائر الطير والبقر .

ولا غرابة بعد هذا أن يكتب الشعراء من كل جيل آلاف الآلاف من قصائد الشعر فى ظواهر الطبيعة ، فيذهب هذا الزبد كله جفاء ، والقليل جداً هو الذى يمكث فى الأرض ينفع به الناس على مر الزمان ؛ لأن هؤلاء الألوف من الشعراء يحسبون أن الأشجار سواء والرياض سواء والغدران سواء ، وكل شروق للشمس كـكل شروق ، وكل غروب كـكل غروب ؛ ويحسب الواحد منهم أنه ما دام قد أطلق على أشعة الشمس اسم « العسجد » ، وعلى ضوء القمر اسم « اللجين » فقد بات الكلام عن الشمس والقمر شعراً . لكن لكل حالة من كل ظاهرة طبيعية خصائصها الفريدة التى يستحيل تكرارها فى سائر

حالات تلك الظاهرة نفسها ! فالروض الواحد له في كل لحظة حالة خاصة من لمعات الضوء وعطر الزهر وهبوب الريح ، ومن وقع ذلك كله على الحالة النفسية التي تشاء المصادفة أن يكون عليها الشاعر عندئذ . الروض الواحد له في كل لحظة هذه الحالة الخاصة التي تميزها عن سائر حالاته في سائر اللحظات ، ودع عنك ما يكون بين هذا الروض في جملته وبين غيره من الرياض من فروق تجعله بينها واحداً وحيداً ، إذا ما رأيت منه لمحة في صورة عرفت أنها منه ، لأن هذه اللمحة لا تكون إلا فيه من جملة الرياض… ونقول عن الشاعر الذي وقف في الروض وراح ينشد ، نقول عنه إنه شاعر ، لو اهتدى بوحى فنه إلى تلك الملامح فيما يرى حوله ومما يحس في نفسه عندئذ ، الملامح التي تمتزج فتخرج صورة فريدة لا تكرار لها في كل ما يقوله بعدئذ هذا الشاعر نفسه في هذا الروض نفسه ، فضلاً عما يقوله غيره من الشعراء في غيره من الرياض .

ولا غرابة أن يكتب القصصيون من كل جيل عشرات المئات من القصص ، فتذهب كلها مع الريح ، ولا يبقى من نتاج الجيل الواحد إلا قصة أو قصتان ، ذلك إن بقى منه شيء ؛ لأن الأمر هنا ليس مداره على « الحكاية » — فا دمت « تحكى » أن فلاناً ذهب وفلانا جاء ، وفلانة كرهت أو أحبت ، فأنت قصاص … كلا ، بل مدار الأمر في القصة الأصيلة ، هو التوفيق في إبراز هذه الفردية التي حدثتك عنها : فهل لكل شخص من أشخاص القصة فرديته التي تجعله واحداً من الناس لا يختلط بغيره ؟ وإن كانت القصة تاريخية فهل الفترة التاريخية المرسومة بحوادث القصة قد السمت بسمات فذة لا يمكن معها أن تختلط في ذهن القارئ بفترة أخرى ؟… إن وفقت القصة في هذا « التفرد » والتخصيص فهي القصة الباقية .

وقد يحسب القارئ أن ليس في الأمر هذا العسر كله ، لأنه قد يحسب أن الناس يتشابهون في مشاعرهم ، فيكفي — مثلاً — أن تقول إن قيساً أحب ليلى ، لأعرف في أية حالة شعورية كان قيس ، مادام الحب وجداناً معروفاً مشهوراً … لكن لا ، ليس الفرد الواحد يشبه نفسه في حالتين من حالاته التي تتسرع فنطويها جميعاً تحت اسم واحد ؛ إن قيساً في حبه ليلى ، تمر عليه حالات مختلفات ، لكل حالة منها خصائصها ، على أن مجموعة حالاته الوجدانية التي قد أضمها معاً لأسميها باسم واحد — هو حب قيس لحبيبته — تنطبع كلها معاً بطابع يجعلها تختلف عن مجموعة حالات الحب عند أي عاشق آخر مهما يكن عدد هؤلاء العاشقين الآخرين — فمتى يكون الفنان الذي يتعرض لتصوير قيس في حبه فناناً أصيلا ؟ يكون كذلك لو أدرك مميزات الحالة الواحدة من حالات الحب التي يصورها ومميزات مجموعة الحالات عند قيس مما يجعل حبه في جملته مختلفاً عن حب أي عاشق آخر في جملته .

وليس نقدة الآداب والفنون بعابثين ، حين يتخيرون شاعراً فيمجدونه بين آلاف الشعراء ، أو يتخيرون كاتباً من أدباء القصة أو المسرحية فيخلدونه بين آلاف الكتاب الذين يكتبون القصة والمسرحية ؛ لا ، ليس نقدة الآداب والفنون بعابثين حين يقترون علينا في عدد الأدباء ورجال الفن الذين يحرصون على بقائهم ، وحين يسرفون في حذف سائر الأسماء من قائمة الخالدين — لقد خلد شيكسبير بمسرحية أنطون وكليوباتره — مثلا — ولن يخلد شوقي بمسرحيته في الآداب العالمية ، لن يخلد إلا بين جدراننا نحن ، لأن رحاب العالم ستظل متسعة لمسرحية شيكسبير ، وستضيق بزميلتها لشوقي ، لأن شيكسبير كان يبرز أشخاصاً لكل منهم مميزاته ، وكان يبرز وجدانات لكل حالة منها خصائصها الفريدة ؛ وأما شوقي فراح ينظم القصائد على ألسنة أشخاصه دون أن تخرج في النهاية بصورة لكل شخص تفرده وتميزه ، كما يتفرد ويتميز الأشخاص الذين يصادفونك في حياتك كل بشيء أو أشياء .

إن من العبارات التي تلوكها الألسن وتخوض فيها الأقلام بكثرة تستوقف النظر ، قولهم إن الأدب ينبغي له أن يتصل بالحياة ، أو إن الأدب لا بد له أن يصور الحياة ، يقولون ذلك ولست أدرى إن كان ذلك له عندهم معنى محدد مفهوم واضح ، لأني كثيراً ما أجد نفراً من « أدبائنا » يزعمون لأنفسهم هذه الصلة بالحياة ، فيكتبون عما يرون في مركبات الترام وفي المقاهي وما إلى ذلك ، مهما بلغ هذا الذي يكتبونه من التفاهة والسخف ؛ وأحسب أن

صلة الأدب بالحياة ، أو تصوير الأدب للحياة ، لا يكون له معنى مفهوم ذو وزن وقيمة ، ومنطبق على أمهات الآيات الأدبية التي خلدت ، إلا إذا أدركنا أن سر الحياة الأعظم هو هـذا التفرد الذي يكون بين الـكائنات ، وأن مهمة الأديب هي التقاط الحالات الفريدة بما يميزها ، فالأديب متصل بالحياة مصور لها إذا رسم لنا حالة من حالاته النفسية بحيث يبرز فيها ما يجعلها حالة يستحيل تكرارها ، أو رسم شخصية بتصرفاتها وطريقة كلامها بحيث يجعلها عندنا كائناً فرداً يستحيل تكراره ، وعندئذ نستطيع أن نضيف هذا الـكائن الجديد الذي خلقه لنا الأديب إلى زمرة أصدقائنا الذين اتصلنا بهم في الحياة الواقعة ، فنستفيد من حياته — كما استفدنا من حياة هؤلاء الأصدقاء — خبرة تزيد بها أعمارنا غزارة وتتسع أفقاً .

وإن كان ذلك كذلك ، فليس حتما على الأديب أن يركب الترام ويجلس في المقاهي ليتصل « بالحياة » — كما يظن « أدباؤنا » — لأنه قد يجلس إلى مكتبه يقرأ التاريخ ، فإذا به يلمح في أشخاصه أو في عصوره ، شخصاً أو عصراً بميزاته الفريدة ، فيأخذ في تصوير هذا الشخص أو هذا العصر تصويراً يبرز فيه تلك المميزات — وبالتالي لا يتحتم عليه أن يقص علينا تاريخ هـذا الشخص أو ذلك العصر بترتيبه الزمني كما وقع ، لا يتحتم عليه أن يتمشى في تصويره مع دقائق الوثائق التاريخية ، وإلا كان مؤرخاً ولم يكن أديباً ، إنما يتحتم عليه أن « يتخير » من حوادث ذلك الشخص أو ذلك العصر ما شاء ، وأن يرتبها كيف شاء ، ما دامت هذه الحوادث التي اختارها ، وهذا الترتيب الذي نظمها فيه ، ينتهي بنا إلى صورة فريدة لا تكرار لها — عندئذ نقول عنه إنه أديب « يصور الحياة » مع أنه لم يفارق مكتبه ، وما « تصويره للحياة » إلا محاكاة الحياة في تفريد كائناتها بميزات فذة وخصائص تجعل الفرد فرداً لا يشبهه شيء آخر — إذا أردنا بالتشابه تطابقاً كاملا — سواء كان هذا الفرد شجرة ، أو غصناً منها ، أو ورقة من أوراقها ، أو حيواناً أو إنساناً أو حالة نفسية . . .

● ● ●

وإنما كتبت هذا كله ، بل اخترت العنوان لهذا الذي كتبته ، بمناسبة قراءتي لقصة « الوعاء المرمري » التي أخرجها منـذ أيام أستاذنا الجليل الأديب محمد فريد أبو حديد بك .

فعند وعاء من المرمر اعتاد سيف وخيلاء أن يجتمعا ، «ولون الوعاء ونقوشه البديعة تشبه الوشي فوق ثوب الحرير ، وكانت الصورة التي عليه تمثل جانباً من بستان فيه شجر باسق يظلل رقعة خضراء ، تتخللها شجيرات تتدلى أغصانها محملة بعناقيد مرسلة من الزهر ، وكانت الطيور تبسط أجنحتها بعضها يسبح في الهواء ، وبعضها يهبط نحو الأرض ، والقمر الـكامل في أعلى الصورة يبعث أشعته على شابين فتى وفتاة يسيران في الممشى ، وقد تعاقدت إعناه يسراها وهما يسيان نحو القمر » .

هنالك طالما وقفت « خيلاء » مع سيف يتحدثان في إعجاب عن الصورة ونقشها ، وجاء « سيف » ذات يوم ليجد « خيلاء » واقفة وحدها عند ذلك الوعاء المرمري .

— أتقفين وحدك عند الوعاء ؟ أليس هنا موقفنا معاً ؟ ماذا ترين فيه يا خيلاء ؟ . . .

فقالت خيلاء باسمة :

— قطعة من المرمر الوردي الجميل .

فقال سيف : . . . نعم قطعة من المرمر الوردي الجميل كانت يوماً في جوف صخرة ، قد يتخذها حجار ليضعها في جدار بيت ، أو تتخذها عجوز فقيرة لتصنع منها رحى أو تربط بها حبل عنزها .

ولـكن انظري يا خيلاء كيف حولها صانعها إلى تحفة حية ، بل هي أكثر حياة من كثير من الأحياء .

ومضى سيف يقول ، وهو ناظر إلى القطعة المرمرية : كأنها قصيدة .

فقالت خيلاء باسمة :

— هي كذلك إذا شئت ، أو هي كما أسميها أنا فيما بيني وبين نفسي . . . أسميها لحظة مسحورة ، لحظة من اللحظات التي تمر بالأحياء فتهزهم وتأخذ بمشاعرهم وتنقش على قلوبهم ، ثم يثبتها الفنان على قطعة جامدة من الحجر ، فإذا هي مثل هذه الصورة التي تسميها قصيدة أو تحفة حية

فقال سيف في حماسة وإعجاب :

— صدقت يا خيلاء ، وما أبرعها من تسمية ، حقاً

أنها لحظة مسحورة جعلها الفنان تتحدى الزمان والتغير والفناء ، وتبقى خالدة ثابتة وإن تبدل كل ما حولها ! ذهب الفنان الرومى الذى صنعها ، وذهب هذان الشابان اللذان كانا يقفان يوما فى ظلال البستان المزدهر ، ودار القمر دورات لا يحصى عددها ، ولكن هذه الصورة بقيت خالدة على وعائها ، البستان مزدهر أبداً والطير لا يهبط من حالة والشابان يقفان باسمين ويشيران إلى البدر الذى لا يعتريه محاق ، السعادة التى تغمرهما فى مأمن من صروف الدهر . ذهب الجزء الفانى من هؤلاء جميعا وبقيت الصورة تتضمن الجانب الخالد الذى لا يفنى .

وعلى فجأة من خيلاء ، رفع سيف بعصا إلى فمه فاختطف منها قبلة ، وغضت خيلاء فى رفق فأرسلها وقال فى شىء يشبه الاعتذار :

— لو كنت فنانا لخلدت موقفنا هذا .

● ● ●

وهكذا يصور أستاذنا الأديب نفس المعنى الذى قصدت إلى التعبير عنه ، وهو أن الفن بأدق معناه احتجاز لحظة من لحظات الزمن ، أو تثبيت لفرد من أفراد الكائنات ، على أن تجىء تلك اللحظة أو هذا الفرد بخصائصه المميزة التى تجعله فرداً بين الأحياء جميعا لا تكرار له مهما امتد الزمان واتسع المكان وتعددت الكائنات .

وقد كنت أود أن أستطرد فى الحديث عن قصة الوعاء الرمرى ، لأنقل إلى القارئ رأيى فى مدى التوفيق الذى أصابه أستاذنا فريد بك فى تطبيق هذا المبدأ نفسه على كتابه هذا : إلى أى حد استطاع الأديب الفاضل أن يجعل أشخاص القصة أفراداً أحياء بالمعنى الذى شرحناه ، وأن يجعل الفترة التاريخية التى يصورها متسمة بالمميزات التى تجعل من اللحظة الزمنية « لحظة مسحورة » بالمعنى الذى صوره وهو يتحدث حديثه الذى اقتبسناه .

كنت أحب أن أستطرد فى الحديث لأنقل إلى القارئ رأيى فى هذا كله ، لكن الحديث قد طال ، ويكفى أن أقول الآن فى ذلك عبارة واحدة موجزة قد أعود إلى تفصيلها ، وهى أنه قد وفق التوفيق كله فى تصوير الفترة الزمنية التى أراد تصويرها ، أما صور الأشخاص فقد جاء بعضها « مهزوزاً » بعض الشىء — كما يقال فى الصور الفوتوغرافية التى تمحى فيها الملامح — جاء بعض الأشخاص وقد امحت فيهم الملامح المميزة ، فكأنهم ناس قد صادفتهم فى بعض الطريق ، لم أر منهم إلا قليلا على السطح ، ولم أكد أطالعهم لأضطرب فى شئون الحياة ، حتى نسيتهم ... لكن ذلك إجمال فى القول لا يكون له معنى بغير تفصيل .

زكى نجيب محمود

دعنى ... !

[إلى روح الشاعر صالح الشرنوبى .. التى حلقت فى آفاق ألمعى هذه القصيدة .]

دعنى .. فقد أبليت عمرى فى خيال ضائع !
قد ساقنى وهمى إلى حيث السراب الخادع
أمضى بحرمانى .. أكفكف فى الظلام مدامعى
وأحس بين جوانحى حزناً يذيب أضالعى

● ● ●

حتام أضرب فى الوجود — فلا أرى غير الضنى ؟؟
أيدى الشقاء تقودنى نحو التعاسة فى الدنا
والدهر أصبح ملبسى ثوب الخصاصة ، والعنا
الناس حولى ينعمون بعيشهم إلا أنا

● ● ●

إنى حييت .. كراهب .. فى وحدتى بين الكهوف
حتى إذا صرخ الشباب ، وثار منى ألم عنيف
راحت خطاى تجرنى متخاذلاً نحو الرصيف
وأظل فيه محلقاً .. فلعلنى أجد الرغيف

● ● ●

إما تسل عن شقوتى فلأجلها جئت الحياة !
أمشى — ولا أدرى إلى أين المطاف ، ومنتهاه ؟
أنا لست أدرى أى شىء عن كيانى ، أو مداه
لكنى الأفاق فى الدنيا ، كما شاء الإله

● ● ●

دعنى .. فهذا الحان نادى : أقبلن بشاعرى
دعنى .. أعب من الكئوس .. فلا تضيق خواطرى
دعنى .. لأغرق فى دنانى كل حظى العاثر
وإذا سئلت فقل : توارى كالخيال العابر

(القاهرة)   محمد أحمد سالم

ألمانيا وحلف الأطلنطي

أمة تعمل لتحطيم أغلال الهزيمة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ما تزال الدول الغربية — وفي مقدمتها أمريكا — تسعى إلى إقناع ألمانيا الغربية بالانضمام إلى جبهة الأطلنطي والساهمة في جيش الدفاع الأوربي ؛ وهي تعمل في هذا السبيل جاهدة منذ أكثر من عام ، ملوحة لألمانيا بما يمكن أن تحصل عليه مقابل هذا الانضمام من المزايا الخطيرة ، وقد كانت الدول الغربية تعتقد حينما تقدمت بدعوتها إلى ألمانيا أنها تستطيع أن تفرض رأيها وخططها على حكومة أمة مهزومة محتلة ، وأن تساومها بأيسر أمر ؛ ولذلك لم تر بأساً في البداية أن تطلب إليها الساهمة في الجبهة المنشودة بعدد من الوحدات العسكرية تندمج في جيش الأطلنطي دون أن تكون لها قيادة ألمانية خاصة أو وزارة دفاع تشرف عليها ؛ ولكن الدول المحتلة أخطأت تقدير عزم الأمة المهزومة ، وعزم حكومتها الناطقة بلسانها ، ذلك أن حكومة بون وعلى رأسها المستشار أديناور رفضت كل عرض لايكون أساسه المساواة المطلقة بين ألمانيا وبين سائر الدول المنضمة للحلف ، من حيث تكوين الوحدات التي تساهم بها ، ومن حيث مركزها ، وتمتعها بقيادتها المستقلة ؛ ومن جهة أخرى فإن الشعب الألماني ، وهو اليوم أشد شعوب الأرض زهداً في الحرب ونفوراً من الساهمة في أية أعمال عسكرية مهما كان الدافع إليها والغرض منها ، لايمكن إقناعه بالعدول عن موقفه ، وبقبول دعوة الدول المتحالفة ، إلا إذا وثق بأنه سيحصل على الثمن الذي يناسب هذه التضحية العظمى من جانبه ، ولن يكون هذا الثمن أقل من تحرير ألمانيا ، ورد حقوقها إليها ، والسماح لها بأن تتبوأ مركزها الدولي اللائق بها ، ولن يكون ذلك إلا بإنهاء الاحتلال ، وكل ما ترتب عليه من القيود والأغلال .

وقد أدركت الدول الغربية من جانبها ، وفي مقدمتها أمريكا بالأخص ، أنه لابد لها من أن تحقق لألمانيا أقصى ما تستطيع تحقيقه من أمانيها ، إذا أرادت حقاً أن تكسب ودها ، وأن تضمها إلى حظيرتها ؛ فعملت على تعديل نظام الاحتلال ، وذلك بإلغاء الرقابة على المسائل التشريعية الداخلية ، والسماح لألمانيا بأن تستأنف علاقاتها الخارجية بشروط معينة ، وأن تستأنف حريتها التجارية مع بعض التحفظات ، ثم عادت فخطت بعد ذلك خطوة أخرى ، فقررت إنهاء حالة الحرب بينها وبين ألمانيا ، وذلك تمهيداً لوضع معاهدة الصلح معها متى سمحت الظروف بذلك .

وبالرغم مما تنطوي عليه هذه التعديلات من كسب محقق لألمانيا الغربية في الشئون الداخلية والخارجية ، فإن حكومة بون لم تقتنع بها ، ولم ترأنها محققة لكل مايطالب به الشعب الألماني . وطرأت في الوقت نفسه صعاب جديدة ، جعلت حكومة بون أشد تمسكاً بموقفها ، وكان في مقدمة هذه الصعاب مشكلتان : الأولى مشكلة إنتاج الفحم والصلب في منطقة الرور ، ومايترتب عليها من توزيع منتجات الصناعة الألمانية ولاسيما الفحم بنسب لاترضي ألمانيا ولاتتفق مع مصالحها ؛ ومعروف أن الإنتاج الصناعي في منطقة الرور خاضع لنظام خاص فرضته الدول الظافرة على ألمانيا ، وحددت فيه الإنتاج والاستهلاك بنسب لاتتفق مع مصالح ألمانيا . والثانية مشكلة السار التي زادتها فرنسا بتصرفاتها الأخيرة حدة وتعقيداً ؛ ومعروف أن منطقة السار هي أرض ألمانية يسكنها شعب ألماني محض ، ولكن فرنسا قررت ضمها إليها ، وإدماجها في نظامها الاقتصادي لتظفر بما تنتجه من الكميات العظيمة من الفحم والصلب ، وقد عمدت أخيراً فعينت لها سفيراً في مدينة ساربركن عاصمة السار ، مما يدل بأنها تعتبره أرضاً مستقلة ، منفصلة تماماً عن ألمانيا ، وهذا مالاتعترف به ألمانيا ، فهي ما تزال تعتبر السار أرضاً ألمانية ، ومصيره النهائي مرهون بمعاهدة الصلح ، فلا حق لفرنسا في أن تقرر هذا

كنت يوما من بناة الإمبراطورية

للأستاذ الدمرداش محمد بك

قال صاحبي : هل تظن يا صديق أن رجلا مثلي يتمتع بسلامة العقل ، واستقامة التفكير ، قد حنكته التجارب ، وخبر الناس ، وعرف الكثير من ألاعيبهم وخداعهم ، يقع صيداً سهلا في حبائل ذوى الأغراض والمآرب ؟

قلت : لا أستبعد شيئاً ، خصوصاً في هذا الزمن .

قال : إذاً استمع إلى قصتي ، وستقف منها على مبلغ ما وصلت إليه غفلتي « وعباطتي » مع نفر من هؤلاء الماكرين ، الذين تمكنوا بدهائهم ، وطول ألاعيبهم ، من استغلال إخلاصي لهوايتي في الرحلات ، لجرى إلى خدمة أغراضهم باختياري ، مدة أربع سنوات كاملة ، دون أن أفطن لنياتهم ، إلا بعد أن فات الأوان بزمن طويل .

قلت لصاحبي : كفى ، هات ما عندك ، وأوجز فوقتي لا يتسع « للدردشة » الطويلة .

قال : حسناً ! أعدك بهذا ، اسمع يا سيدي : —

في أحد أيام شهر يناير سنة ١٩٣٥ ، خرجت بمفردي في رحلة إلى صحراء الأهرام ، وبعد أن تجولت طويلا بمنطقة « أجران الفول »(١) حول جبل أبو رواش ، حل وقت الظهر ، فجلست في ظل صخرة لأستريح وأتناول الغداء ، ثم تمددت فغلبني النعاس ونمت ، وبعد نحو ساعة استيقظت على صوت سيارة مقبلة نحوى . ثم وقفت حيث كنت ، ونزل منها ثلاثة من الإنجليز ، عرفت منهم اثنين لسابق الزمالة بيننا بوزارة المعارف ، وتقدم إلى الثالث على أنه

(١) أطلق هذا الاسم على هذه المنطقة لتشابه تكوينها لهرم الفول وهي في الأجران .

للصير بمحض إرادتها ، وقد رفعت ألمانيا صوتها أخيراً بالاحتجاج المر على هذه التصرفات ، وأعلنت إنكارها .

وفي الأنباء الأخيرة أن ألمانيا الغربية رأت أن تحدد موقفها من مشروع المساهمة في الدفاع الغربي بصورة جلية ، فأصدر برلمان بون (البندستاج) قراراً يشترط فيه لقبول هذه المساهمة خمسة شروط أساسية هي :

١ — المساواة في الحقوق مع الدول الأخرى حتى يتم انضمام ألمانيا إلى حلف الأطلنطى .

٢ — وإعادة الحرية السياسية إلى شعب إقليم السار وفقاً لميثاق الأمم المتحدة .

٣ — وتحديد نصيب ألمانيا في نفقات الدفاع بنسبة لا تلحق الضرر بمصالح البلاد الاقتصادية والاجتماعية .

٤ — وإطلاق سراح الألمان المتهمين بتهم عسكرية ماعدا أفراداً معينين .

٥ — وإنهاء نظام الاحتلال واسترداد ألمانيا لسيادتها التشريعية كاملة وحل جميع الهيئات العالية التي تقوم بخدمة الحلفاء .

وقد وافق برلمان بون على هذا القرار بأغلبية ٢٠٤ صوت مقابل ١٥٦ ؛ ومن المعروف أن المستشار أديناور قد بذل جهداً فادحاً للوصول إلى هذه النتيجة ؛ وإذاً فمن الواضح أن حكومة بون لا تستطيع أن تقبل أقل من تحقيق هذه الشروط إذا شاء الحلفاء أن يظفروا بقبول ألمانيا الغربية الاشتراك في الحلف الأطلنطى وفي الجيش الأوربي .

لقد مضى إلى اليوم على نهاية الحرب زهاء سبعة أعوام ، فإذا ذكرنا ما لقيته ألمانيا المحطمة الخربة عند نهايتها من محن قاهرة ، وما فرض عليها كأمة مهزومة من الشروط والأغلال المهينة الساحقة ، استطعنا أن ندرك إلى أي حد تغيرت الظروف ، وإلى أي حد استطاعت ألمانيا المهزومة الجريح ، أن تفيق من محنتها بسرعة ، وأن تستجمع قواها المعنوية الزاخرة لتعمل على تحطيم أغلال الهزيمة ، وتملى على أعدائها الظافرين بالأمس والذين يحتلونها بجيوشهم حتى اليوم ، ما تقتضيه حقوق الوطن الجريح من مقومات السيادة والكرامة والعدالة الدولية .

محمد عبد الله عنان

مهندس بالسكة الحديد المصرية ، وبعد أن تبادلنا عبارات المجاملة ، اندمجنا نحن الأربعة فى حديث لطيف ، عن مباهج الصحراء ، وعن الرحلات إليها ، وطاب الحديث فى هذا الموضوع ، وتشعب ، وطالت جلستنا فى هذا اليوم حتى قبيل الغروب . ثم افترقنا .

قامت بيننا بعد هـذه المقابلة صلات من الود ، فكنا نتزاور فى منازلنا ، ونلبى الدعوات على الشاى أو الطعام التى ندعو إليها بالتبادل ، وكنت أصاحبهم أحياناً فى بعض رحلاتهم ، وكان أحـدهم يجيد تصوير المناظر الطبيعية بالألوان ، فكان يلتقط مناظر الصحراء أثناء الرحلات بسرعة عجيبة ويعرضها علينا عنـد اجتماعنا بمنزله . لوحات جميلة فاتنة ، وكان الثانى كاتباً مجيداً ، فكان ينشىء المقالات الشائقة فى وصف هذه المناظر ، ويقرأها علينا ، وكان الثالث يجيد رسم الخرائط ، وخبيراً بإصلاح السيارات ، فكان يتولى إصلاح ما يطرأ على السيارات أثناء الرحلات من خلل .

وطالت عشرتنا ، وزادت صـلاتنا مع الأيام توثقاً ، ودار حديثنا يوماً عن الطرق فى الصحراء ، وعدم وجود الصالح منها لسير السيارات ، ورمينا نادى السيارات المصرى بالتقصير فى هـذا الباب ، لحرمان رواد الصحراء من لذة الرحلة فى هذا الفضاء الواسع الجميل ، فاقترحت عليهم أن نبدأ نحن بمشروع لتحديد طريق من الأهرام إلى وادى النطرون ، فقابلوا هذا الاقتراح منى بالهتاف والتهليل .

وخرجنا يوماً إلى صحراء الأهرام ، فبينا مبدأ هـذا الطريق واتجاهه ، وتطوعت أنا — (ثم أنا) — للحصول من مصلحة الحدود على موافقتها ، فأذنت لنا بذلك ، وجئنا إلى المكان فى يوم جمعة ، وأقمنا عند مبدأ الطريق علمين من الحجر الأبيض على جانبيه ، كتبنا على وجه أحدهما بالبوية السوداء ، باللغتين العربية والإنجليزية « الطريق إلى وادى النطرون » ، ورسمنا على وجه الآخر سهماً يشير إلى اتجاه السير ، ثم أخذ رفيقنا المهندس بمعونة البوصلة وآلة التيودليت فى تحديد اتجاه الطريق . وكان كلما انتهى من تحديد مرحلة منه ، قمنا نحن بإقامة أعلام من الحصى على جانبيه ، واستمر العمل هكذا بنشاط وهمة ، فى أيام الجمع والعطلات طيلة أشهر فصل الشـتاء ، حتى بلغ طول ما مهدناه وحددناه ، فى هذه الفترة ، خمسة كيلومترات . ولا تسل ، ياصديقى ، عما كابدناه ، فى سبيل هـذا العمل ، من مشقة وعناء ، وعما بذلناه من نفقة ومال ، غير مانالنا من « بهدلة » وتمزيق ملابس وإتلاف أحذية ، ثم جاء فصل الصيف فتوقف العمل .

ولما عدنا فى الشتاء التالى وجدنا مجهوداتنا السابقة ، قد ذهبت أدراج الرياح ! فالطريق الذى خططناه ، سفت عليه الرمال وغطته ، وطمست معالمه ! فاستأنفنا العمل مرة أخرى واستعضنا عن أعلام الحصى بأخرى من أعواد الحديد ، التى اشتريناها من وكالة البلح ببولاق بمبلغ عشرة جنيهات جمعناها من بيننا ، وكنت أنا فى هذا أكثرهم سخاء وبذلاً ، ولم تكف الأعواد التى اشتريناها إلا لثلاثة كيلومترات من الطريق ، وقصرت مواردنا المحدودة عن شراء غيرها ، فاقترحت أنا — ثم أنا أيضاً — أن نؤلف جمعية من هواة الرحلات ، يشترك أعضاؤها فى الصرف على هذا العمل وغيره من المشروعات التى كنا قد وضعنا تصميماتها ، فحازت الفكرة موافقة الزملاء وإعجابهم ، وانطلقنا ندعو لإنشاء الجمعية فى الأوساط الرياضية وبين هواة الرحلات ، من مصريين وأجانب ؛ واستجاب الكثيرون لدعوتنا وتكونت الجمعية ، وأسميناها « جمعية الرحلات المصرية » واجتمعت جمعيتها العمومية لأول مرة فى مكتب بعثة التبشير البريطانية بعمارة « ديفز براين » بالقاهرة ، وتم انتخاب مجلس الإدارة ، وحصلنا الرسوم والاشتراكات ، ثم أنشـأنا للجمعية مكتباً بعمارة « شل » بشارع علوى ، وفرشناه بالأثاث اللائق ، وزودناه بالكتب والمراجع ، وبالخرائط التى تبرعت بها مصلحة المساحة المصرية ، وزاد نشاط مجلس الإدارة بعد أن توافرت لديه الأموال من الاشـتراكات ، ومن تبرعات الحكومة المصرية والشركات .

وجاءنا في شتاء سنة ١٩٣٧ ضيف كبير من الأعضاء البارزين في نادي السيارات البريطاني ، ونزل ضيفاً على الجمعية بفندق شبرد ، ثم زار مقر الجمعية واطلع على الخرائط التي رسمناها ، وفحص سجل الجمعية ، وأثنى على مجهوداتنا ، ولحظت أنه يخصني بكثير من الرعاية والتقدير .

ثم توالت بعد ذلك زيارات ذوي النفوذ والمكانة من السائحين الإنجليز لمكتب الجمعية ، وزادت تبعاً لذلك الهبات والتبرعات والتسهيلات ، ولحظت أني قد أصبحت ذا شأن كبير في مجلس الإدارة وفي أعمال الجمعية ، فازددت همة ونشاطاً واستغراقاً في العمل ، ثم تولت مصلحة الحدود تخطيط طريق الأهرام — وادي النطرون — الاسكندرية ، وفتحته لمرور السيارات فتحول نشاطنا إلى جهات أخرى ، فوضعنا في ربيع هذا العام مشروعاً للوصول إلى واحة سيوه عن طريق وادي النطرون ، فخرجنا يوماً نحن الأربعة من وادي النطرون في سيارتين ، واتجهنا صوب الطرف الجنوبي لمنخفض القطارة ، واجتزنا في طريقنا مفازة شديدة الوعورة ، لم يدخلها على الأرجح أحد قبلنا بالسيارات ، وقد وقع لنا في هذه المفازة حادث مروع انقلبت فيه إحدى السيارتين وكاد يقضي على راكبها .

ثم امتد نشاطنا بعد ذلك إلى ما بعد واحة سيوة غرباً حتى حدود برقة ، وتجمع لدينا من هذه الرحلات قدر كبير من المعلومات عن الصحراء الغربية ، فكنا نسهر الليالي في تبويبها وترتيبها وتدوينها في سجل كنا نحتفظ به في مقر الجمعية .

وبينما كانت تسير أعمال الجمعية هكذا في تقدم مطرد ، وتتوالى اكتشافاتها في نواحي الصحراء الغربية ، حدث أمر لم أكن أتوقع أن ينتهي إلى ما انتهى إليه من نتيجة . فقد كان لي صديق ألماني من هواة الرحلات ، وكان على جانب كبير من التثقيف ودماثة الخلق . فدعوته ليكون عضواً في الجمعية ، وقمت بتزكيته لدى مجلس الإدارة . ولما عرض طلبه ، قوبل من الأعضاء بفتور شديد لم أكن أتوقعه ، ثم أجل النظر في قبوله عدة مرات ، بتعلات مختلفة .

ثم لحظت بعد هذا الحادث ، أني أفقد مكانتي في مجلس الإدارة رويداً ، وأن أموراً كثيرة من شئون الجمعية يقضى فيها في ضيق ، وأن الخرائط التي كنا قد رسمنا عليها مسالك الدروب في الصحراء الغربية قد اختفت من مقر الجمعية ! فثارت نفسي لهذه المعاملة ، فقاطعت أعمال الجمعية ، وامتنعت عن حضور جلسات مجلس الإدارة ، وعن تسديد الاشتراكات ؛ كما امتنع كذلك رفقائي الأعضاء عن زيارتي ، وعن دعوتي لمشاركتهم في رحلاتهم ! ثم شغلت عن الجمعية ونسيت كل ما يتعلق بها .

وجاءت الحرب العظمى في سنة ١٩٣٩ ، وهجمت جيوش رومل على مصر . ثم ارتدت ، وانتهت الحرب بانتصار الحلفاء .

ودارت الأيام ، وجاء لزيارتي بمكتبي بوزارة المعارف في سنة ١٩٤٨ أحد الرفقاء الثلاثة في أمر مصلحي ، وجلسنا نتحدث عن ذكريات رحلاتنا في الصحراء ، وعن الجمعية ، وعن الحرب ؛ فذكر لي أنه هو ورفيقاه الآخران ، قد قاموا بدور هام فيها ، وأنهم الثلاثة كانوا قواداً لفرقة « جرذان الصحراء » التي عاونت في طرد جيوش رومل ! ثم قال : إن ثلاثتهم قد نالوا رتباً وأوسمة رفيعة ، لأعمالهم المجيدة ، في الامبراطورية . ثم سكت برهة ، ونظر إليّ نظرة إشفاق وأسف ، وقال : اسمع يا صديقي ، إنه لولا رغبتك الملحة في قبول صاحبك الألماني عضواً في جمعيتنا ، لكان صدرك الآن يتحلى بمثل الأوسمة التي منحت لنا .

فارتعت لهذا الكلام ، وقلت له : أهكذا كان شأنكم ؟ فأجاب : نعم . فقلت : يظهر أني كنت معكم أبله مغفلاً . فبهت الرجل لهذا التصريح ، وقال : كيف تنعت نفسك بهذا الوصف ، إنه لخليق بك أن تفاخر بالمجهودات التي قمنا بها نحن الأربعة في الصحراء والتي كان من نتيجتها نجاح حملتنا ، إبان الحرب ، في تدعيم أركان الإمبراطورية في شمال أفريقية ، فقلت : كلا يا رفيق ، إني كنت معكم مخدوعاً لا بطلاً .

الدمرداش محمد

كيف تقلص الاستعمار

أمام نهضتنا الوطنيـــة

للأستاذ محمد مفيد الشوباشى

تتبع نهضتنا الوطنية سنة التطور ، ويتبع الاستعمار البريطانى أيضاً تلك السنة ، شأنهما فى ذلك شأن سائر الموجودات ، ولافرق بين تطوريهما إلا سيرهما فى اتجاهين متعارضين ، فنهضتنا الوطنية توسع الخطا فى سبيل التقدم ، بينما ينكص الاستعمار على عقبيه إلى الوراء ، وكل تقدم تحرزه نهضتنا يبلغ من المسافة ما يلغه الاستعمار فى تدهوره ، فنحن وأعداؤنا مثل كفتى الميزان ترتفع إحداهما بمقدار ماتخفضه الأخرى .

وقد شرحنا الطريقة التى يتم بها كل تطور فى أكثر من مقال سابق ، وسنخصص هذا المقال لشرح جانب آخر من نظرية التطور ، وهو الخاص بالخطوات التى يتبعها كل موجود متطوّر ، ثم سننظر فى نهضتنا الوطنية على ضوء ذلك الشرح .

لا يشعر الإنسان بما يطرأ عليه هو من تطور طوال يومه ، فى حين أن كل عبارة يسمعها ، أو جملة يقرأها ، أو شىء يتأمله ، أو نفس يردده ، أو مشرب أو مأكل يتناوله ، يحدث فيه تغيراً معنوياً ومادياً ، ولكنه يدرك على مرور الزمن الفارق بين ماهو عليه فى حاضره ، وبين ما كان عليه فى ماضيه ، فيفطن حينذاك إلى ماطرأ عليه من تبدّل ، والذى يحدث للإنسان يحدث لكل ما يحيط به من موجودات تبدو غير متحركة أو غير متبدلة .

ولكن التطور لايسير كما تسير عقرب الساعة ، أى أنه فى حركته الحلقية على الدين لاينساب انسياباً ، ولكنه يخطو خطواً فى بعض الأحيان ، ويثب وثباً فى أحيان أخرى ؛ بل إن حركته أشبه بحركة المطرقة ، فالمطرقة تحاول أن تنال من الشىء المطروق وهو يقاومها ، ولكن كل ضربة من المطرقة تضعف تلك المقاومة بمقدار ، فتصبح الضربة التالية أشد تأثيراً بعد أن صار الشىء المطروق أقل مقاومة .

والتطور يحدث ، كما قلنا فى بحوث سابقة ، بفعل تدافع النقيضين الكامنين فى الشىء المتطور . فهناك أبدا دفع وتأثير من أحـد النقيضين ، ومقاومة ومغالبة من النقيض الآخر ، وإذا شبهنا أحد النقيضين بالمطرقة والآخر بالشىء المطروق ، فليس ذلك إلا خطوة فى سبيل التبيين والتوضيح دون أن ندعى للتشبيه الدقة التامة ، فهذا التشبيه مقدمة لتطبيق النظرية على الواقع ، والحقيقة لاتتضح على وجه كامل إلا من ثنايا ذلك التطبيق ، وسنحاول كما قلنا أن نطبق فيما يلى نظرية التطور ، أو الجانب الذى تحدثنا عنه من نظرية التطور ، على الصدام الدائر بيننا وبين الاستعمار البريطانى .

قلنا إننا شرحنا فى بحوث سابقة طريقة وقوع التطور ، ويتلخص ماقلناه فى أن كل موجود يشتمل على نقيضين لايكفان عن المصادمة والمقارعة ، وأن النقيض الجديد النامى لابد أن يتغلب على القديم الناكص على أعقابه ، وحين تتم له الغلبة يحدث التطور فى المضمون ، أى فى الموجود المتطور ، وحين يتطور المضمون لابد أن يتطور القالب ليلائمه ، ونقصد من القالب هنا الوضع الذى يقوم الموجود المتطور فى ظله .

وسيشتمل هذا المقال على بيان ناحية جديدة من التطور ، وهى كيفية وقوع التصادم بين النقيضين ، أى أننا سنحاول فى هذا المقال أن نتتبع خطوات المركة الناشبة بين النقيضين ونصف مراحل تطورها ، ولابد أن نلفت النظر منذ الآن إلى فرق جوهرى بين تصادم المطرقة والسندان ، وتصادم النقيضين وفق نظرية التطور ، ذلك أن التصادم الأول يقع

بطريقة شبه آلية ، في حين أن الثاني يقع بطريقة طبيعية ؟ ثم إن هناك فروقاً أخرى سنشير إليها في حينها .

كانت قبضة الاستعمار في أول عهد احتلال الانجليز لمصر تكاد تخنق الروح الوطنية المصرية ، حتى إنه كان يخيل إلى الذين يحكمون على الأمور بظواهرها أن العبودية قد ضربت على هـذا الوادي إلى الأبد . وليس في ذلك ما يخرج عن المألوف . فإن كل قمع استبدادي يحدث مثل هذا الأثر في أول الأمر ، ثم تبدأ المقاومة وتشتد وتتفاقم حتى تكتب لها الغلبة في النهاية . على أن المقاومة تبـدأ ضعيفة فلا يجد الاستبداد إزاءها محيصاً من اتباع إحدى خطتين ، أولاهما أن يشتد في مصادمتها لإخماد أنفاسها ، وثانيهما أن يهمل شأنها . ومن الواضح أن كلتا هاتين الخطتين لا تؤديان إلا إلى شد أزر المقاومة . وأحسب أنه مازال ماثلاً في ذهننا ما وقع بين مواطنينا الأحرار وبين الاستعمار من نزاع في أوائل هـذا القرن ، وما أسفرت عنه الحركة الوطنية وهي في إبانها من فقدان الاستعمار لصوابه ، وإقدامه على ارتكاب جرائمه الوحشية المعروفة لقمعها ، ثم تعثره أمام اشتداد ثورة البلاد عليه .

بدأت مطرقة الوطنية المصرية ، وهي النبض النامي ، تدق الاستعمار البريطاني ، وهو النبض المتناقص . وترتب على كل دقة ازدياد شعلة الوطنية تأججاً ، وازدياد الاستعمار تدهوراً . وهنا يبدو الفرق بين الدق الآلي وبين التطور ، فالمطرقة لا تزداد قوة بعد كل طرقة ، في حين أن ثورتنا الوطنية تزداد قوة بعد كل كرة على الأعداء ... لقد نالت ثورتنا التي تأجج لظاها عام ١٩١٩ ، من الاستعمار البريطاني ، وأرغمته على إرخاء قبضته قليلاً ، وتجلى ذلك العيان في تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ . فبينما كان رجال الاستعمار وعملاؤه يهيمنون قبل ذلك التصريح على زمام كل فرع من فروع أداة الحكم في البلاد ، ويتمكنون بذلك من قمع كل تقدم يحاوله الوطنيون ، وتحقيق كل غرض ينشده المستعمرون ، استطاعت مصر بعد ذلك التصريح أن تتخلص من أكثرية موظفي الاستعمار ، وأن تخطو إلى الأمام في بطء رغم التحفظات الأربعة التي احتفظت بها انجلترا في تصريحها لتعرقل تقدم مصر على قدر استطاعتها .

ازددنا بذلك قوة ، وازداد الاستعمار على أثر ذلك ضعفاً ، ولم نلبث أن عاودنا عليه الكرة ونحن أقدر على مصادمته ومصارعته ، فاضطر أن يرخي قبضته من جديد ، وأن يبرم معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ويتنازل عن بعض تحفظاته ، ويسحب مستشاريه الذين ظلوا يشرفون بعد تصريح ٢٨ فبراير على أهم مرافق البلاد . فمكننا ذلك النصيب الجديد من الحرية أن نزداد قوة من الناحيتين المادية والمعنوية ، وأن نزيد كراتنا على الاستعمار المتداعي عنفاً حتى اضطر إلى النكوص على أعقابه مرة ثالثة ، وسحب جنود الاحتلال من أراضي مصر الخارجة عن منطقة القنال .

ومن ذلك الحين ونحن نوغل الخطا في تقدمنا المادي والمعنوي ، والاستعمار يسرع في طريق الاضمحلال والزوال ! وما وصلنا إلى مستوى من القوة والوعي يستحيل أن يبقى الاستعمار في كنفه حتى كررنا على المستعمرين هذه الكرة الأخيرة ، فحطمنا القيد الثقيل من قيود الاحتلال ، وأنكرنا كل رابطة تربطنا به ، وهببنا هبة واحدة للخلاص منه نهائياً ! وإذا عدنا إلى الخطوات التي خطوناها في سبيل الاستقلال ، وتبينا أبعادها ، وامتحنا ظروفها وملابساتها ، وما حققته من نتائج جزئية ، استطعنا بغير عناء أن ندرك نتيجة مقاومتنا في هذه المرحلة الأخيرة الحاسمة ، وأن نطمئن إلى نجاحها المرتقب . وليعلم الذين يخشون بطش الاستعمار أنه لم يستطع إلا أن يتقلص أمام زحف ثورتنا الوطنية في جميع مراحلها ، وأن الخطوة الأولى التي خطاها إلى الوراء عام ١٩٢٢ كفلت لنا دوام تقهقره ، تطبيقاً للمذهب الذي نحاول تفسيره في هذا المقال .

ومن الواضح أننا لم نشر فيما تقدم إلا إلى المصادمات الرئيسية التي وقعت بيننا وبين الاستعمار ، وأسفرت عن تغير في العلاقة السياسية القائمة بين كل منا والآخر . ولكن

اكتفاءنا بالإشارة إلى هذه المراحل الرئيسية من تطور كفاحنا لا يعني أن الصدام لا يقع بيننا وبين الاستعمار كل ساعة ، وأن عملية الطرقة لا تهدأ أبداً . فنحن نخطو إلى الأمام في غير توقف ، والاستعمار يخلي الطريق على أثر كل خطوة . وفي نهاية كل مرحلة من مراحل التطور يقع تغير رئيسي وفق ما سبق شرحه .

وهناك فرق جوهري بين عملية الطرقة وبين تطور كفاحنا الطبيعي . فتلك العملية الآلية لا تسفر إلا عن تغير مادي ، في حين أن التطور الذي يطرأ على صلتنا بالاستعمار يسفر عن تغير في معتقداتنا ومثلنا . فنحن لا نخطو خطوة إلى الأمام حتى تنبث لنا معتقدات ومثل جديدة . فقد كنا أيام مصطفى كامل لا نطالب بالاستقلال إلا لتحقق الكرامة القومية ، ونفوز بالحرية الطبيعية . ولم يكن لنا رائد في كفاحنا ضد الاستعمار إلا حب الوطن . ثم نشبت الحرب الكبرى الأولى فكشف الاستعمار عن وجهه الحقيقي في غير مداراة أو موارية ، ولم يتورع عن امتصاص موارد بلادنا علنا حتى جاع أهلها ، فضموا إلى أسباب مطالبتهم بالاستقلال ، وكراهيتهم للاستعمار ، سبباً جديداً ، وهو رغبتهم في الخلاص من استغلال الاحتلال . وحلت بنا الأزمات الاقتصادية فيما بين الحربين الكبريين ، وتفاقم الخطب بعد وقوع الحرب العالمية . وما كادت تلك الحرب المدمرة تضع أوزارها ، ويتضح لمصر أن جيوش الاحتلال استهلكت أثناءها من خيرات البلاد ما ربو ثمنه على خمسمائة مليون جنيه . وأن الدولة المستعمرة اشترت القطن المصري طوال سنوات الحرب بأبخس الأثمان منتهزة فرصة انقطاع المواصلات بيننا وبين مختلف البلاد ، لم يتضح ذلك وغيره من أنواع استغلال الغاصبين حتى أدرك كل مصري في غير لبس أن ماجثم على سواد أهل البلاد من فقر وجهل ومرض يعود في الأصل إلى الاستعمار . وأن استرداد حريتنا كاملة هو وحده الكفيل بصيانة مواردنا من امتداد أيدي المستعمرين . وهو وحده الذي سيشد عضدنا ، ويقوي روحنا ، ويرفع معنويتنا ، فيتيح لنا بذلك أن نقوم بالعمل الجدي في سبيل رفاهية البلاد دون أن تعوقنا أهواء المستعمرين وما يبذلونه من محاولات في سبيل دفعنا إلى الوجهة التي تمكنهم من تسخيرنا عند الحاجة في تحقيق أغراضهم العدوانية .

وقد يزعم زاعم أن الأخذ بنظرية التطور هذه كفيل أن يصرفنا عن الكفاح الذي يصبح بغير جدوى ما دام التقدم حاصلاً لا محالة ، ومتنبأ ولا شك إلى غايته . ولكن هذا الزعم لا ينال شيئاً مما قلناه ، فالكفاح لا غنى عنه لأنه يزيد التقدم سرعة . فالتواكل والاعتماد على الزمن في هذا العهد الذي تتسابق فيه الأمم لتحرز قصب السبق في مضمار الحضارة يعزل المتواكلين عن العالم المتحضر ، ويطيل أمد وقوعهم في ربقة الاستعمار ، في حين أن كل جهد يبذل في سبيل زيادة سرعة التقدم هو الكفيل بقرب انتشالنا من الوهدة التي تردينا فيها .

إن معرفة نظرية التطور تهدينا إلى سبيل التقدم ، وتنير مسالكه فتساعدنا على الإسراع في الخطى للوصول إلى ما نتوق إليه . وهي تعمق كذلك وعينا ، وتشد شعورنا الوطني إلى أسس راسخة من الوعي القومي السليم .

محمد مفيد الشوباشي

ما العمر ؟! ...

وسائلة : ما العمر ؟ قلت : هنيهة
إذا قيس عمري بالسنين إلى الدهر
لقد مر عمري كالنسيم وهل يُرى
لمر نسيم بالعشية من عمر
مضى من حياتي كل صاف ورائق
ولم يبق إلا ما يهون وما يزري
وكل الذي قد كان بعدك فترة
تموات تولت بالبقية من عمري
وسدت الأيام للقلب صارماً
أصاب حشاه حين سل من النحر
وما العمر إلا صحة وسعادة
ووصل حبيب لا يطيب له هجري

(كفر الشيخ) دكتور سالم محمد

رسائل من انجلترا

للآنسة بثينة عبد الحميد محمد

[بعد عودتى من الخارج اطلعت على الرسائل التى كنت أرسلها لوالدى منذ تركت أرض الوطن حتى عدت إليه بعد ثلاث سنوات . ثم رأيت أن أقبس لقراء مجلتكم الغراء بعض الفقرات من تلك الرسائل التى تلقى ضوءاً على « التفاعل » الذى يحدث بين الطلبة الشرقية والحياة الغربية عند الاصطدام الأول ، ثم على « التكيف » الذى يحدث تدريجياً فى خلق الفرد وفى وجهة نظره للحياة .]
(بثينة عبد الحميد محمد)

١٢ / ١٠ / ١٩٤٦ ·

عندما وصلنا إلى ميناء لفربول ، بدا منظره جميلاً ، وكذلك منظر مدينة بركنهيد ، ثم مدينة نيو برايتون على الضفة الأخرى من مصب نهر مرزى . المنازل تقريباً من طراز واحد مبنية بالطوب الأحمر والشوارع منحدرة نحو البحر ، ومرت أمامنا عدة قوارب بهدوء وتؤدة ، وربما لم تكن جميعاً بهذا الجمال ، وإنما أوحى إلينا بهذا الشعور اقترابنا من شاطىء انجلترا !

توجهنا بالقطار إلى لندن ، وبه تناولنا وجبة العشاء حيث سألنا سؤالاً طريفاً « أتفضلين قطعة من الخبز أم حلوى ، ياسيدتى !! » ...

خرجنا فى اليوم التالى لرؤية المحال التجارية ، وقد لاحظنا فى الشعب مستوى عالياً من جهة الصحة والنشاط والنظام .. فلم نر على مشاجرة أو متسول — للآن — أو شخص عارى القدمين ، رث الثياب ، أو طريق قذر أو أى مخلوق يمشى بخلاعة واستهتار !

بعد قضاء ثلاثة أيام بلندن توجهنا — أنا وزميلى — إلى بلدة شيفيلد ، وبعد البحث عن مكان لإقامتنا من الساعة الواحدة والنصف إلى الساعة الثامنة مساء ، وصلنا إلى مقرنا الحالى ، الذى قامت بزيارته مندوبة من الجامعة ، ووافقت على صلاحيته لسكنا قبل أن نقيد أسماءنا رسمياً فى كلية الآداب ...

السكن مريح ، وبالرغم من أن معظم المواد الغذائية بالبطاقات ، إلا أن الغذاء كاف ومرض للغاية ، بخلاف الإشاعات التى وصلتنا قبل حضورنا ...

٣١ / ١٠ / ١٩٤٦ ·

فى يوم الجمعة الماضى ، احتفل طلبة الجامعة بما يسمونه Rag Day ، وهو يوم تجمع فيه تبرعات لأغراض معينة سنوياً — فقد جمعت هذا العام مثلاً لمكافحة داء السرطان — ولم يقم الطلبة بهذا المشروع منذ أن نشبت الحرب فى سنة ١٩٣٩ ، ولذلك فالجميع يدفعهم حماس شديد ، وروح ابتكارية قوية فى الحصول على التبرعات ...

١٠ / ١١ / ١٩٤٦ ·

قبلت وزميلتى دعوة لتناول الشاى فى منزل مستر . ك . وهو عامل فى أحد معامل الجامعة يعاون المهندسين المصريين فى أثناء تمرينهم هنا . وقد أظهرت السيدة حرمه نحونا كثيراً من الكرم والحفاوة ، وقد أعجبنا جداً بنظام ونظافة منزلها ، وما فيه من أثاث وسجاد وثريات ومدافىء ووسائل للتدفئة وصور وزهور ومكتبة لا يستعملها ولا يحتاج إليها العامل المصرى !

وكان مستر . ك . قد قضى بعض الوقت فى مصر خلال الحرب العالمية الأولى ، وقد أحضر معه مجموعة من الآثار لا بأس بها ، وكذلك مجموعة من الذكريات ، لعلنا أفلحنا فى محو بعضها ، وفى إصلاح البعض الآخر !

حضرنا يوم الجمعة الماضى حفلة تمثيلية فى مسرح « الإمبراطورية » لما يسمونه البانتومايم Mother Goose وهو من الاستعراضات القومية الصميمة فى موسم عيد الميلاد وسررت لرؤيته لأول مرة .

قرأت أول أمس فى صحيفة Sunday Dispatch مقالاً لرحالة يدعى Mr. Ward Price قام من مكتب تلك الجريدة برحلة بالسيارة إلى رأس الرجاء الصالح عابراً أوسع بقعة من الأرض « تحت إدارة انجلترا » وسأقتبس هنا فقرات من الجزء الخاص برحلته من الجزائر إلى السودان بدون أى تعليق : « إننا نعيش هنا فوق بركان ، فقد انبثت من القاهرة موجة من الشعور الوطنى طغت على

شمال إفريقيا بأجمعه ، فلا يجرؤ الأوربيون في الجزائر على الخروج في الطرقات الرئيسية بعد الغروب ، لأن إقليم الجزائر كان في العام الماضي ميداناً لمجزرة عدد كبير من الأوربيين ، ردت عليها الحكومة الفرنسية بقتل حوالي ٣٠،٠٠٠ من الأهالي رمياً بالرصاص .

وفي آخر مرحلة من الرحلة في إفريقيا الشمالية مررنا بإقليم ساكن ، مقدس ، مهيب هو ميدان العلمين .

أما في الإسكندرية فالحالة أيضاً متوترة يسودها القلق وتوقع الاضطرابات ... والآن نصل إلى القاهرة ، أهم مركز في العالم لأغنياء الحرب حيث أثرى كثيرون — من « باشا » إلى بائع الفول السوداني من أموال بريطانيا ، ثم انقلبوا على اليد التي أطعمتهم ونعمتهم .

لم تفد عاصمة في العالم بأسره مثل ما أفادته القاهرة في السلم والحرب من المشروعات البريطانية ؟ . . . والآن قد وصلت الحالة إلى ما هي عليه سياسياً وعسكرياً واقتصادياً . استعدنا ذكريات الماضي حينما كان نفوذ بريطانيا على أشده في مصر ، وقد دفعتنا تلك الخواطر إلى الترفيه عن أنفسنا بأن نتحول بالسيارة جنوباً تجاه السودان . »

خرجنا أمس لرؤية أجمل بقعة قريبة من شيفيلد وتدعى وابتنج برولد . فهناك خزان بجانبه تجمع الماء على شكل بحيرة جميلة ، تصل إليها المياه المنحدرة على سفوح تلال إنتماءت الخضرة تكسوها بعد تغطيتها بطبقة كثيفة من الجليد لمدة ثمانية أسابيع ، ولا زالت بها بعض الأماكن المرتفعة مغطاة بالجليد . كما اجتمعت بها أشجار الصنوبر على شكل غابات تتخللها ممرات المشاة وطرق السيارات ، حتى يتمكن الزائرون من رؤيتها من كل جهة .

فبالرغم من أن شيفيلد شهيرة بصناعة الصلب فقط ، إلا أنها مركز هام لزيارة أماكن من أجمل بقع انجلترا ، وذلك لتوسطها بين مرتفعات يوركشير الشهيرة ، وكذلك لسهولة المواصلات التي تربطها بمنطقة البحيرات ولانكشير وداربشير ، كما أنها مركز ثقافي واجتماعي هام .

١٠/٨/٤٧

كان أطول يوم في رمضان هو أول يوم في الصيام ، إذ كان غروب الشمس في الساعة العاشرة وثماني دقائق ، ويسرني أن أبدي هنا ملاحظة عابرة على عناية الشرقات علينا من عضوات جمعية الشابات المسيحيات في أثناء الصيام واهتمامهن براحتي بالرغم من اختلاف مواعيدي كل الاختلاف عن مواعيدهن ، وإني أقدر شعورهن هذا كل التقدير .

٩/١٢/٤٧ .

زرنا أمس مدرسة خاصة للأطفال المرضى بالروماتزم ، وسن الأطفال فيها تتراوح بين أربع سنوات وخمس عشرة سنة ، وعددهم اثنان وأربعون طفلا وطفلة من أطفال مدينة شيفيلد وضواحيها ، وتقع المدرسة في خارج البلدة في الهواء الطلق . أما التدريس فيها فهو إما في حجرات الدراسة أو في حجرات النوم على حسب الحالة الصحية للأطفال ، وتدرس لهم نفس المواد التي تدرس في المدارس العادية تقريباً ، ولكن بطريقة مبسطة شائقة للغاية مع اهتمام كبير بالأعمال اليدوية والرسم . كما يقدم لهم العلاج اللازم في المدرسة ، ومعظم الحالات متوسطة في حدتها ، أما الحالات الأكثر شدة فتعالج بمستشفى الأطفال ، وقد علمنا أنه بعد مضي فترات متباينة من الزمن يتمكن حوالي ٨٠٪ من التلاميذ والتلميذات من الالتحاق بالمدارس العادية ومتابعة الدراسة فيها بنجاح بعد ذلك .

٢٨ / ١٢ / ٤٧ .

بعد أن زرنا قصر وندسور ، توجهنا إلى قصر سان جيمس حيث رأينا الهدايا التي قدمت لسمو الأميرة إليزابث ولية العهد بمناسبة زفافها في العشرين من نوفمبر .

وليتني أتمكن من التعبير عن بعض ما لاحظناه في هذه الأيام الأخيرة عن تعلق الشعب بأجمعه بها وبعائلة الملكة وبفكرة الملكية على الإطلاق ، تلك الرابطة التي تربط الشعب بأكمله في أفراحه وأتراحه ، ذلك الرمز النبيل لاتحاد الأمة بأسرها في سبيل تحقيق المثل العليا الديموقراطية في نظام الحكم وفي حياتهم الخاصة . تلك الديمقراطية الغربية التي لا تتميز فقط بتمثيل الشعب في برلمان يؤاخذ الحكومة على كل صغيرة وكبيرة ، بل تتمثل بأجمل مظاهرها في تمتع الشعب بحريته كاملة ، وبالتعبير عن عقائده وشعوره عن طريق اللسان والقلم ، وعلاوة على ذلك فإنها تبدو جلية في معاملة أفراد الشعب بعضهم لبعض ، واحترامهم لشخصية كل مواطن مهما صغر شأنه ؟ فمن الجميل أن تسمع هيئة التدريس في الجامعة تخاطب غلاماً يساعد في معمل بالجامعة

(البقية على الصفحة التالية)

الرصاصة السحرية

-٢-

للدكتور أحمد بدران

وفى عام ١٩٠٦ قررت أرملة ثرية تدعى مسز جورج سباير أن تحتضن أعمال ارليخ ، فمنحته من المال ما يكفى لبناء معمل كبير لتجاربه ، وهكذا أنشئت مؤسسة جورج سباير ووضعت تحت تصرفه . ومنذ الآن أصبح باستطاعته الحصول على كل ما يحتاجه ليعمل فى سرعة لتحقيق الفكرة التى احتضنها أعواماً عدة ولم تعد تقلقه تكاليف أبحاثه .

لقد فشلت الصبغات الآزوية ، وقرر أنه يجب أن يعثر على مركب جديد ، واتجه تفكيره إلى مستحضر وصف حديثاً باسم آتوكسيل . فقد أذاعوا أن هذا الدواء ذو تأثير ناجح فى معالجة الفئران المصابة بمرض النوم ، بل لقد جرب الدواء على عدد قليل من الزنوج الإفريقيين فأحرز بعض النجاح وإن سبب الكثير من الوفيات نظراً لتأثيره السام .

وفى الحقيقة أن الآتوكسيل كان أخطر من أن يستعمل فى الطب ، فقد كان مكوناً من حلقة من البنزين متصلة بمركب من أكسيد الزرنيخ ، وكان هذا التركيب نفسه يوحى بأن الدواء لا بد مهلك للكائنات الحية .

وأدرك ارليخ طبيعة هذا الدواء السامة ، ولكنه وجد فيه مقدمة لما ما بعدها وأعلن إلى مساعديه « قد نستطيع أن نغير من هذا الدواء ونجعله عديم الضرر » .

وهكذا بدأت الأبحاث الشهيرة عن مركبات الزرنيخ ، تلك التى انتهت بأن قدمت للوجود « السلفرسان » أو « ارليخ ٦٠٦ » . لقد اجتازت الأبحاث الكثير من

بلقب « مستر » فلان ، كما يستعمل الصبى نفس العبارة فى مخاطبة هؤلاء الأساتذة .

إننا نلمس الروح الديمقراطية هنا عندما يقف العمداء والأساتذة مع الطلبة فى « طابور » ينتظرون دورهم لتناول وجبة الغداء بعين أنظار الطلبة ، ثم يأتى دور الواحد منهم فيحمل صينية خشبية كما يفعل الطلبة ويمر بها مختاراً ما يروق له من ألوان الطعام ، ثم يتجه بها إلى المكان الخالى على أى منضدة ويفرغ ما عليها ثم يرجعها حيث أخذها ليستعملها من لا يزال ينتظر دوره . فإن هذا الاندماج مع الطلبة ليس الغرض منه فقط حل أزمة الأيدى العاملة ، ولكنه ذو أثر كبير فى تهذيب نفوس الشباب .

هذه هى البيئة التى تهيىء للفرد الجو الذى يعزز فيه شخصيته ، ويحاول من تلقاء نفسه أن يوصلها إلى أسمى درجة ممكنة . فالديمقراطية الحقة يجب أن تكون تلك الروح التى تسود العلاقات البشرية ، فتشعر كل فرد بضرورة إفادته المجتمع بما أوتى من مقدرة عقلية وشعور بالمسئولية الخلقية التى تميزه عن الحيوان ، وليست الديموقراطية فى إرغام الشعب بالقوة على المساواة دون مراعاة لاختلاف الميول الطبيعية والفروق فى المواهب بين الأفراد عقلياً وخلقياً ، فالمساواة يجب أن تكون مساواة فى أهمية كل فرد كعضو فى الجماعة التى ينتمى إليها .

كما أن مبادىء الديموقراطية يجب أن تمتد إلى العلاقات الخارجية حتى تشمل تدريجياً جميع الشعوب المتمدينة التى قد وصلت فى درجة رقيها ثقافياً واجتماعياً وسياسياً إلى درجة تؤهلها لأن تعامل على قدم المساواة مع غيرها ، وإن لم تكن قد وصلت إلى تلك المرتبة فلندع مبدأ التفوق الفردى يسود فى العلاقات بين الدول كما يسود فى العلاقات بين الأفراد ، وبهذه الطريقة يمكن أن تخفف وطأة تلك الحرب المستترة التى تنتاب الشعوب فى الوقت الحاضر .

(له بقية)

بثينة عبد المجيد

العقبات وتغلبت على الكثير من الصعاب . فقد حضروا مركبات لا حصر لها خلال العامين اللذين أعقبا تصميمه على أن يجد عقارا قوياً مضاداً للبكتريا ، ولكنه عديم الضرر مكوناً من الزرنيخ والصبغة الآزوية ، وكان كل مركب يعطي رقما . وكان الفشل حليف كل عقار جديد يجرّب على الفئران التي أصيبت بمرض النوم . ومضت الشهور دون أن يبدو أمل في النجاح ، وأدرك مساعديه الملل من جراء هذا البحث الخيالي عن مادة مجهولة ، ويئسوا من العثور على مثل هذا الدواء .

وكانت مادة جديدة تبدو أحياناً ذات فائدة قليلة ، فتطيل في عمر الفئران ولكن يثبت بعد أيام قليلة أن الدواء الجديد سام جداً أو أن تأثيره قليل بحيث لا يقوى على قتل الجراثيم . وكانت فكرة ارليخ الأساسية أن يجد دواء إذا ما حقنت كمية منه مرة واحدة في الكائن الحي قتلت كل الجراثيم ، إلا أن هذه الكمية كانت غالباً مميتة وإن قسمت إلى كميات أصغر لم يعد لها أثر إطلاقاً .

وكان الرجل الوحيد الذي لم يفقد شجاعته واحتفظ دائماً بثقته بنفسه هو ارليخ نفسه ، فلم يكف قط عن أن يشيع في نفوس مساعديه روح الثقة ؛ لكن لما حضّرت ثلاثمائة مادة ولم تظهر أي علامة للنجاح بدت على ارليخ نفسه علامات الإنهاك الروحي إلا أنه في تلك اللحظة بالذات تلقى تشجيعاً لم يتوقعه ، ففي سنة ١٩٠٨ بينا هو في بحثه الشاق عن « الرصاصة السحرية » منح جائزة نوبل بالاشتراك مع متشنكوف . وبدت له هذه الحادثة دليلا على أنه يسير على الدرب السوي .

ومضى ما يقرب من العامين من البحث الشاق الشامل فحضرت ستمائة من المركبات ، وجربت كل واحدة منها بعناية في الحيوان فإذاهي لا قيمة لها . ثم فجأة جاء وميض النجاح ! فعندما بدأوا العمل في المركب الذي يحمل رقم ٦٠١ بدا جليا قلة ضرر هذا العقار وتأثيره . كان هذا الدواء ما زال بعيداً عن الكمال ، لكن كان يرى له النجاح إذا ما أدخل عليه تحسين بسيط .

وبعدها بقليل حضر المركب رقم ٦٠٦ ، وللدكتور قراتز برتايم مساعد ارليخ من العمل فضل كبير في اكتشافه ، فقد استطاع الكيميائي البارع أن يصل إلى ما كان يعتبر من قبل مستحيلا ، فقد كاد الجزء الزرنيخي من الدواء يصبح عديم الضرر .

على أنه عند ما جرب ذلك الدواء ٦٠٦ — الذي سمي فيا بعد بالسلفرسان — على الفئران المصابة بمرض النوم لم يأت بالنتائج المتوقعة منه ، فقد شفيت بعض الفئران إلا أن بعضها لم يبد عليه أثر الشفاء ، ولم يكن الدواء بوجه عام عظيم الفائدة في علاج مرض النوم ومرض الخيل في الفئران .

قبل أن ينهمك ارليخ بهذا الصنف في بحثه عن الدواء المثالي بسنوات قليلة اكتشف عالم بالحيوانات الأولية وهو ف . شودن بالاشتراك مع الدكتور ا . هوفمان في قرحة زهرية جرثومة عرف أنها بكتريا لولبية (سبيروخيت) وظن شودن أن هذه الجرثومة المسببة للزهري ليست من البكتريا ولكنها حيوان وحيد الخلية وسماها تريبونيا باليدم .

أما الآن فإننا نعلم أن لولبية الزهري هي من البكتريا وإن كان لها خواص تختلف عن خواص البكتريا المثالية . وكان أشد ما أثار اهتمام ارليخ أن جرثومة الزهري من نفس طبقة العامل المسبب لمرض النوم (وهي غلطة من شودن) وألهبت فكرة علاج الزهري خياله فصرخ في مساعديه « سأستطيع إنقاذ ملايين الأرواح ! فلنجرب السلفرسان في الزهري » وكان يعلم من قبل أن جرثومة الزهري يمكن نقلها إلى الأرانب ، فقد أثبت ا . برتارلي هذا في عام ١٩٠٦ .

وأحضر ارليخ بدلا من الفئران كميات كبيرة من الأرانب وبدأ ينقل إليها اللولبيات ومساعده في هذا العمل الدكتور ساهاشيروهاتا وهو طبيب ياباني آخر .

وبعد أربعة أسابيع ظهر على اثنى عشر أرنباً علامات القرحة الزهرية . ولم يعد شك في أن القرحات شديدة النشاط ومملوءة باللولبيات الخطرة .

وتولى إرليخ وهاتا معا الفحص الميكرسكوبي ليتأكدا من أنها إصابات كاملة .

وفي أغسطس سنة ١٩٠٩ قررا أن الوقت قد حان لتجربة السلفرسان وكان كلاهما مهتاجاً ويشعر بأنها لحظة حاسمة بالنسبة لفكرة البحث كله . فلو فشل الدواء فهل

يعني ذلك نهاية أحلامهما ؟ واختارا ثلاثة أرانب مصابة بأكبر القروح وحقن الدكتور هاتا الدواء في وريد الأذن في كل حيوان ، وتلقى كل أرنب حقنة واحدة .

وفي تلك الليلة لم يستطع ارليخ أن ينام ، وفي الصباح الباكر أسرع إلى العمل ليفحص الأرانب ، وكانت ما تزال حية ووجدت القروح مختلفة عما كانت من قبل وظهرت كأنما جفت وقل التهابها ، وفحص الدكتور هاتا في الحال محتويات القروح تحت الميكرسكوب . لقد كانت معجزة ! لم يجد في القروح أثراً للوليات .

وتملك ارليخ الفرح ، ولعل فرحه كان أكثر مما يجب ، فكتب في ١٥ سبتمبر : « يظهر من هذه التجارب أنه إذا أعطيت الكمية الكافية فإن الوليات تختفي تماماً وفي الحال بعد الحقن » ، وسرعان ما أدرك أن هذا ليس صحيحاً كله وأن بعض الوليات تبقى حية يوماً أو اثنين بعد حقن الدواء ، على أنه كان بالنسبة لأرليخ نصراً للفكرة التي جاهد من أجلها في ثقة أكثر من عشرين عاماً ، فهاهو ذا دواؤه المعجز ، رصاصته السحرية قد اكتشفت في النهاية .

وكان الآن في مركز يسمح له بإجراء التجارب على القردة ، فمنذ ستة أعوام قرر متشنكوف ورو أنهما نجحا في إصابة أنثى الشمبانزى بزهرى الإنسان ، ولكن طريقتهما كانت بطيئة وغير مرضية ، فأحضر ارليخ عدداً من الشمبانزى ولقحها بجرثومة الزهرى مستعملاً مزرعة نقية من الوليات ، وبعدها بأسابيع أصيبت الحيوانات بقرحات زهرية مثالية تشبه تماماً تلك التي تصيب الإنسان .

وفي هذه المرة قرر ارليخ أن يعطى الحيوانات مقادير أكبر وقال « إن المقادير الكبيرة هي وحدها التي تؤدى المهمة » فحقن الدواء — ما يقرب من جرام — في وريد الشمبانزى ، وبعدها بيومين لم يبق أثر للوليات حية في القروح ، وأعاد نفس التجربة على حيوانات أخرى فأتت بنفس النتائج المرضية ، فإن جرعة واحدة من السلفرسان قادرة على أن تشفى الشمبانزى التي أصيبت بالزهرى شفاء تاماً .

وبذلك مهدت الأرض للأبحاث الإكلينيكية ، فقد كانت تجارب السلفرسان على الحيوانات قاطعة وواضحة لدرجة جعلت ارليخ يقرر أن يبدأ التجارب على الآدميين ، وفي البداية سأل عدداً قليلاً من أصدقائه الأطباء أن يعالجوا مرضاهم بهذا الدواء ، ولكن لما أعلنت النتائج الأولى للعلاج وكانت مشجعة جداً ، وزع السلفرسان على الأطباء على نطاق واسع ، ثم بدأت أنباء مزعجة تصل إلى ارليخ ، فقد مات عدد من المرضى أثر حقنهم ، وآخرون لم يشفوا رغم علاجهم ، وكان الدواء — أو على الأقل إذا أعطى مرة واحدة — غير ناجع ، وبعد عام من الأبحاث الشاملة ظهر بوضوح أن السلفرسان ليس الرصاصة السحرية للزهرى ، فالحالات حديثة الإصابة هي وحدها التي تؤتى نتائج طيبة ، أما حالات الزهرى البعيدة الأجل فإنها تقاوم العلاج بالسلفرسان ، ولكن أسوأ ما في الأمر كان أثر الدواء السام ، فبينما يبدو أن بعض الأشخاص يحتملونه جيداً فإن آخرين تبدو عليهم أعراض خطرة كثيراً ما تسبب الموت .

وبدأ ارليخ وهو محزون في العمل على تحسين السلفرسان ، وسرعان ما أعلن عن دواء أقل تسمماً وأجزل فائدة ، وسماه بالسلفرسان الجديد « نيوسلفرسان » أو ارليخ ٩١٤ ، وهو ناتج تكاثف الفورمالدهيد وسلفا كسالات الصودا والسلفرسان ، وكان أقل تسمماً ولم يكن يسبب تخثر الأوردة ، الذي كثيراً ما سببه السلفرسان ، ولكن حتى النيوسلفرسان كان بعيداً من أن يكون « الرصاصة السحرية » التي يحلم بها ارليخ . لقد كان ذا فائدة في الزهرى وكان قادراً على شفاء بعض حالات الإصابة الحديثة ولكنه كان أقل أثراً في حالات الزهرى القديمة ، ورغم أنه كان اكتشافاً قيماً وخطوة عظمى في العلاج الكيميائي للأمراض المعدية فقد كان مخيباً لآمال الرجل الذي تخيل طوال حياته « رصاصة سحرية » تنجى الإنسانية بضربة واحدة من عدوها اللدود — الجراثيم المسببة للمرض ! وبعدها بثلاثة أعوام ، في العشرين من أغسطس سنة ١٩١٥ مات الدكتور بول ارليخ الذي تمسك في إيمان بفكرته ، إنه لم يصل إلى الهدف الذي مضى إليه كأنما تدفعه قوة خفية ، لكنه كان خالق ذلك العلم الجديد — العلاج الكيميائي — فقد شق طريقاً جديداً خلال المجهول ومهد السبيل لتقدم العلاج الكيميائي وتجاهه للمستقبل ؟

أحمد عبدالله

أحمد شـــوقى

أمير الشـــعراء

— ١ —

للأستاذ عبد السميع المصرى

إن القارئ لشعر شوقى لتأخذه الروعة وهو يحلق معه فى سماوات علا من الجمال الرفيع ويصعد معه فى أجواء من الخيال المبدع الجميل تتجلى فى صفحتها صور من الجمال شتى مما يبهر النفس ويأخذ القلب ويغشى العين ويسمو بالروح إلى آفاق رحبة من المعانى السامية .

ولقد امتاز شوقى وشعره بالمثال السمح الكريم الذى عف عن الهجو وترفع عن اللغو ، وتلك كانت سمة الشاعر ونفسه الرضية وخلقه الكريم .

ولد أحمد شوقى كما حدث بذلك عن نفسه سنة ١٨٦٨ فى القاهرة بباب إسماعيل فى عائلة تنعم بعيش رغيد فى ظل سيد البلاد ، وكان جده لأبيه قد أتى مهاجراً إلى مصر يحمل وصاة إلى محمد على باشا من أحمد باشا الجزار فعمل فى معية ذلك الوالى .

وقد أدخل شوقى مكتب الشيخ صالح عام ١٨٧٣ وتخرج من المدرسة الخديوية والتحق بمدرسة الحقوق عام ١٨٨٣ التى لبث فيها سنتين ثم دخل قسم الترجمة وتخرج منه بعد سنتين ، فالتحق بمعية الخديو توفيق الذى أرسله إلى فرنسا عام ١٨٨٧ لدراسة الآداب الفرنسية والحقوق ، فقضى عامين فى مونبلييه وعامين فى باريس وزار خلال هذه الفترة كثيراً من الأقاليم الفرنسية وانجلترا والجزائر .

وفى الحرب العظمى (١٩١٤ / ١٩١٨) نفى شوقى من مصر عام ١٩١٥ فاختار لإقامته أسبانيا حتى أذن له الملك فؤاد فى العودة إلى مصر فى نهاية سنة ١٩١٩ .

عاد شوقى إلى مصر لا ليستأنف حياته فى قصر الملك وفى معية الأمير ولا لينشد الشعر فى الأعياد وحفلات القصور ، بل عاد حراً من كل قيد متحرراً من كل أسر ليتحدث إلى الشعب ويتحدث الشعب إليه ، بل ليتحدث إلى العروبة بأجمعها ولتتجاوب فى حنايا نفسه آمال الشرق ومآسيه وليترجم هذه الآمال ويصور تلك المآسى .

وظل نجم شوقى يعلو منذ عودته من منفاه سريعاً حتى بويع بإمارة الشعر عن حق وجدارة ، وظل إنتاجه يعظم ويحسن حتى وافاه أجله فى صباح ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢

العوامل التى أثرت فى شعره

من الظواهر المألوفة أن عصور الثورات والانقلابات السياسية وضعف الحكومات تشهد ازدهاراً فى الآداب والفنون ؟ وكأنى بهذا الانحلال الأخلاقى الذى يسود مثل تلك الفترات يلهب خيال الفنانين بما يكشف لهم من حقائق الحياة ونواحى الضعف فى النفس الإنسانية فى سهولة ووضوح

فنرى أن أبا العلاء، وعمر الخيام كليهما قد عاش فى عصر ضعف الدولة الإسلامية فى الشرق وقت أن كانت العروش تهوى كأوراق الخريف ، والحروب تنشب فى كل يوم والأرواح تزهق رخيصة ، ويسود الإرهاب والظلم والاغتيال والغدر ، كما أن شعراء الثورة الفرنسية وأدباءها من خير من أنجبت فرنسا على مدى العصور .

أما شوقى فقد عاصر ضعف دولة الخلافة العثمانية وشاهد الانقلاب العثمانى الأول الذى انتهى بخلع السلطان عبد الحميد ، ورأى عن كثب كيف تزول هذه الخلافة نهائياً عن تركيا وينهض على أنقاضها مصطفى كمال وجمهوريته ، كما شاهد خلال الحرب العظمى انتفاض العرب على دولة الخلافة بزعامة الملك حسين ، والممالك التى تنشأ والممالك التى تمحى من خريطة العالم .

وفى مصر عاصر الثورة العرابية ثم الثورة الوطنية عام ١٩١٩ ، وذاق هو آلام النفى والابتعاد عن الوطن الحبيب ، فلا غرو أن تظهر آثار كل ذلك فى شعره ، فنراه يسمو عن العرض الزائل إلى الجوهر الخالد ويتسع أفق نفسه فيشمل مصر كلها بل والشرق بل والعروبة جمعاء

بل والإنسانية بأسرها، فترى أن كل ركة في البلاد تهز أوتار قلبه فيتردد صداها شعراً يجري به لسانه.

هذه هي العوامل العامة التي أثرت في شوقي وشعره إلى جانب عوامل خاصة: منها نشأته في بيت منعم وتربيته تربية ترف ورفاهية وتعليمه تعليماً عالياً؛ كل ذلك مما أضفى على شعره نوعاً من الأرستقراطية والأناقة في اختيار اللفظ وإجادة الصنعة؛ كما أن عمله في المعية السنية قد قيد شعره ردحاً من الزمان وفترة هي أخصب فترات الحياة ألا وهي شبابه الذي كان يرجى فيه أغزر الإنتاج، لكنه كان فيه مع الأسف مقيداً بقيود الوظيفة يرسل شعره بحساب وعناية.

ولعل من أبرز الحوادث أثراً في حياة شوقي وشعره رحلته إلى فرنسا ومكثه فيها طوال أربعة أعوام؛ فهو إلى جانب اكتسابه من الثقافة الفرنسية، نراه في أوائل عهده بفرنسا قد عرف الهوى الرخيص الذي اشتهرت به. فاستمع إليه يصف هذا الهوى الخاطف الذي تسببه نظرة فابتسامة فسلام فبعضها كلام وموعد ولقاء ثم نسيان سريع لكثرة التجريب أو الحين :—

خدعوها بقولهم حسناء ... والغواني يغرهن الثناء
أتراها تناست اسمي لما ... كثرت في غرامها الأسماء
إن رأتني تميل عني كأن لم ... تك بيني وبينها أشياء
نظرة فابتسامة فسلام ... فكلام فموعد فلقاء
يوم كنا ولا تسل كيف كنا ... نتهادى من الهوى ما نشاء

ثم لا يلبث بعد ذلك أن يلفحه الهوى بناره، ويصهر الحب روحه في فرنسا، فتترك له هذه الرحلة آثاراً لا تمحى في قلبه وذكرى يرددها في شعره ما بقي من أيامه، وتورثه حنيناً ممضاً إلى أيامها يعاوده بين الفينة والفينة، فاستمع له يقول حين هم بوصف غاب بولونيا أحد متنزهات باريس

يا غاب بولون ولي ... ذمم عليك ولي عهود
زمن تقضى للهوى ... ولنا بظلك هل يعود ؟
حلم أريد رجوعه ... ورجوع أحلامي بعيد
وهب الزمان أعادها ... هل للشبيبة من يعيد
يا غاب بولون وبي ... وجد مع الذكرى يزيد
خفقت لرؤيتك الضلوع ... وزلزل القلب العميد
هلا ذكرت زمان كنا ... والزمان كما نريد
نطوي إليك دجى الليا ... لي والدجى عنا يذود ؟
فنقول عندك ما نقو ... ل وليس غيرك من بعيد
نطق هوى وصبابة ... وحديثها وتر وعود
نسق ونسق والهوى ... ما بين أعيننا وليد

وفي قصيدة أخرى يعاوده حنينه إلى هواه ويصف به الشوق إلى تلك الأماكن الحبيبة إلى نفسه، فيقول مخاطباً باريس :

جهد الصبابة ما أكابد فيك ... لو كان ما قد ذقته يكفيك
حتام هجراني وفيم تجني ... وإلام في ذل الهوى يغريك
قد مت من ظمأ فلو سامحتني ... أن أنتهي ماء الحياة بفيك
أجد المنايا في رضاك هي التي ... ماذا وراء الموت ما يرضيك

ثم انظر هذا الشيخ الوقور يذكره قدوم الطيارين الفرنسيين بأيام له على ضفاف السين فيغفر للسين طغيانه على باريس إكراماً لتلك الذكريات :

أنا لا أدعو على سين طغى ... إن للسين وإن جار ذماما
لست بالناسي عليه عيشة ... كانت الشهد وأحباباً كراما
احملوها وسلكم أهل الهوى ... تحمل الأشواق عنكم والغراما
واستعيروها جناحاً طالما ... عشق الصب وشاق المستهاما
تحمل الشيخ إلى أرض الهوى ... يمناً حل هواه أم شآما

والغريب بعد هذا أن يدعي قوم من معاصري شوقي بأن شوقي لم يحب، وبأن التشبيب والغزل في ديوان شوقي مصطنع ولم يكن سوى تكملة لهذا الديوان وضرورة من ضروراته حتى لا يقال إن ديوان الشاعر قد خلا من التشبيب.

لا . . . إن شوقي قد أحب صادقاً وكتب عن الحب مترجماً عن شعور صادق وتجربة حية لا شك فيها، وما في شوقياته من الغزل من خير ما قيل في الحب، ولكنه بلغ أسمى المراتب في ذلك في مسرحياته حتى استحق أن يلقب بنبي الحب صدقاً كما جاء على لسانه في وصف قيس :—

نبي الحب لا تخش ... أذى أو شرة منا
عطفت الطير والوحشا ... فلم لا تعطف الجنا ؟

شاعر فنان

قد يكون من الظلم أن تسأل الفنان ما الجمال أو ما الحقيقة أو ما الطبيعة وتنتظر أن تسمع منه إجابة تنطبق على أصول الفلسفة والعقل، لأن أمثال هذه الأسئلة خليق

يا ابنة النيـــــــل

[إلى الشعب المصري الثائر ، وإلى الأحرار في جميع أقطار العالم]

حطم القيدَ ، فاستقرَّ وثارا   وامتطى الهول شامخاً جبارا
ثبتْ في مرابض الذل دنياه   وأطلقتْ على الأذى أظفارا
وتخطى الظلام ، وانبثق الصبـ   ـح وجازت عيونه الأستارا
فإذا تحتها المدى مشرعات   وإذا خلفها يرى الجزارا
يتملاه حفنة من دمار   تتزّى ، وأدمعٍ تتجارى
أيهـــذا القوى أيطربكَ الذ
ح ، وأعمى ضميركَ استكبارا
فتناسيتَ أنّ عزم الضحايا   لم يجع فاعاً ، ولا استعماراً ؟
سيهبُّ الحياةُ من مرقد اليأ   س فقد أعيت الزمان انتظارا
تتهادى على طريق المنايا   تتقبل الثأرَ والأخطارا
حيث تبدو الشعوب في موكب النصـ
ـر ، وتخطو إلى النعيم الأسارى
ألصباح الجـــديد ، والأمل الحر
وبعد الظلام يهوى انحـــدارا
فبشير الحنين في أمة غالبت اليـ   ـأس حقبة ... فتوارى

* * *

كيف ترضى الجموع في قبضة الذل ؟
وتمسو الحوادث ليلٌ نهارا ؟
وهي من أيقظ الملائك فجراً   واستحث الشعوب والأمصارا
ما وعى الدهر قبلها أمة ما   تت المجد ... عزة وفخارا
مصر ... يا رفرف الخلود ، ويا
فيض الأماني ... تجســدتْ آثارا
يقف الدهر عند ذكراك حيرا   ن ليروي إلى الدنا الأخبارا
صرخة أنتِ في ضمير الليالي   وجراح تحـــدت الأقدارا
ونفوس أبتْ مساومـــة الذ
ل ... فخفت إلى الردى أحرارا
أيّ حر أفاق من هوله الذ   ل ؟ فهدَّ القلاعَ والأسوارا ؟
يتغنى مؤملاً يجدُ له النجو   م كباباً ؟ ومسرحاً مختارا
لا مسيل الدموع يروي مغا
نيه ، ولا الصبح ينطوي مختارا

* * *

يا ابنة النيل أي فجر خضيب   فجرتهُ دم الضحايا ازدهارا ؟

رشيد مجيد

بالإجابة عنها الإجابة العلمية عالم أو فيلسوف . أما الفنان وهو صاحب القوة الخالقة فتكفاه أن يقدم لنا صورة الجمال وجمال الحقائق وروعة الطبيعة .

إن الفنان الحق يعمل في حالة قريبة من الغيبوبة أو الشرود الذهني والتجرد الروحي أقرب إلى حالات الوحي ، أما العلم وهو العقل المفكر والناقد الذي يحلل ويرد كل شيء إلى أصوله وجوهره فهو يخضع كل شيء للعقل وحكمه والنقد وموازينه ، وهو ما لا يمكن أن يتوافر للفنان ساعة خلقه .. ساعة وحيه .

ولو أن الفنان أنصت لموازين النقد وخضع لمقتضيات الفكر ساعة يكتب أو ساعة يصور لما أخرج لنا إلا صنعة متكلفة ميتة لا روح فيها ولا حياة ، ولكان أقرب شبهاً بعامل ينفذ تصميم المهندس منه بخالق مبدع يقدم لنا صوراً من الجمال الفني الذي يدهشنا ويستحوذ على عقولنا .

فإذا وعينا هـذه الحقائق التي تلازم الفنان في عمله أدركنا كم تجنى على شوقي بعض نقاده المعاصرين وأسرفوا في التجني والنقد حين كان يجب الرفق وتقدير البواعث . وهل كان شوقي إلا فناناً عاش حياته راهباً في معبد الفن يعمل بين خدمه وعماله ويقدم لنا عصارة قلبه ووجدانه شعراً يطرب وقصيداً يستثير الإعجاب ؟

أما الفلسفة فلم يكن منها في شيء ولم تكن منه ، ولم يعرف عنه أنه صاحب مذهب فلسفي كأبي العلاء . أما تلك المعاني الفلسفية التي وردت في شعره فلم تخرج عن مأثور معادة وحقائق ثابتة كثر ترديدها ، وكان شوقي في ذكرها مقلداً للمتنبي وأضرابه من الشعراء المتقدمين .

(للبحث بقية)   عبد السميع المصري

خرافة الأقـــدار

من وحى الأساطير الإغريقية

للأستاذ إدوار منسى

[كهف عيد ، تحشكه الظلال ، لا يميز الأشياء فيه غير ضوء خفيف باهت غير معلوم المصدر . صمت . سكون . ثلاث نسوة مسنات يجلسن فى الكهف فى هذا الضوء الباهت الخفيف بحيث لا يتواين فى أثنائه . أولاهن : كلوتو ، وهى صغراهن ، تضم مندوفا بين أصابعها فتتناوله منها لاشيزى فتغزله خيطاً ، فتقيس أتروبوس من الخيط بمشه وتقصه بمقصها وتلقيه إلى العالم السفلى ، عالم الأموات ، تحشكه بلوتو] .

كلوتو (بضيق ، وقد توقفت عن عملها) : ألم يأن لنا بعد أن نستريح ؟! ما نهاية ضمن هذا المندوف الغريب فتغزله إحدانا خيطاً وتقيسه ، وتقصه الثالثة ؟ ! لقد ضقت ذرعاً بهذا العمل .

لاشيزى (بعتاب) : أعطينى عبئاً من مندوفك يا كلوتو فإنى أكره ما أكره البطالة .

أتروبوس (عابسة) : دعا هذا اللغو . إنى حزينة اليوم .

لاشيزى : لماذا ؟ !

أتروبوس (مقطبة) . إنى مبتئسة اليوم .

كلوتو : لماذا ؟ لماذا ؟

أتروبوس : ما كان يجدر أن أفعل ما فعلت .

كلوتو ولاشيزى (معاً) : ماذا فعلت ؟

أتروبوس : كأنكما لا تعلمان !

كلوتو ولاشيزى (معاً) : ذكرينا بما فعلت .

أتروبوس : إنى نادمة على موت أوريديس .

كلوتو ولاشيزى (معاً) : آه . . .

أتروبوس (تضرب صدرها بقبضة يدها) : ليتنى ما فعلتها ، ليتنى ما فعلتها .

كلوتو : ولكن ، ألم تتفق معنا الطوالع منذ جمعها إله الزواج بأورفيوس .

لاشيزى : عندئذ دخنت الشمعة التى كان يمسكها بيده بدلاً من أن تعطى لهبا الجيل الشعى المعتاد .

كلوتو : فكان هذا فألاً سيئاً عليهما معاً .

أتروبوس (ساهمة) : ولكن ، أكان يجب أن أحرم أورفيوس من زوجته منذ يوم زفافهما ؟ !

كلوتو : لقد طاردها راع ، وإذ كانت تهرب منه وطئت قدمها ثعباناً و « عضها » وماتت لتوها .

لاشيزى : وهكذا تحقق الفأل السيء .

أتروبوس (ساهمة) : كان يمكن أن تعيش .

كلوتو ولاشيزى (معاً) : كيف ؟ !

أتروبوس : أنسيتما قصة ميلياجر ؟ عندما كان طفلا ؟

كلوتو (مقاطعة) : إنى أكاد أفهقه من غفلتنا نحن الأقدار الثلاث ، فى حكم مخلوقاتنا ، تتحكم فى مصاير البشر .

لاشيزى (مقاطعة) : أتذكرا ! عندما كان ميلياجر طفلا ، أردنا ، كما هى العادة ، أن نضع أنوفنا فى حياته ...

كلوتو : وتنبأنا له بأن حياته لن تطول أكثر مما تعمر قطعة معينة من الحطب فى المدفأة .

أتروبوس : ومعنى هذا أننا حكمنا على أن حياة هـذا الطفل لن تطول أكثر من بضع ساعات .

كلوتو : ولكن أمه . . .

لاشيزى : كم كانت ذكية هذه الأم !

كلوتو : ولكن أمه اختطفت قطعة الحطب من النار واحتفظت بها فى إناء من الفخار وعملت على أن تبقى فيـه بعيدة عن النار أبداً .

أتروبوس : وهكذا نما الطفل وأصبح قوياً ماهراً فى كل ضروب الرياضة ثم أصبح فيما بعد بطلاً ...

لاشيزى : إنى لأتساءل : أنحن نقرر مظاهر البشر حقاً ؟!

كلوتو (بضجر) : كفانا ثرثرة . لقد مللت هذا العمل ، ما فائدة عمل ليس له نهاية ولا منه غاية ؟! ما فائدة أن يوهب

الإنسان حياة ثم تنزع منه ؟! ما فائدة أن يولد الإنسان على الأرض ليضطرب فيها فترة من الزمان ثم يكون مصيره مقص أتروبوس ؟! إني لمشفقة على هذه الخليقة .

لاشيزي : كيف تتصورين ثلاثتنا عاطلات دون شاغل نقتل به الوقت ؟!

أتروبوس : صدقت كلوتو من حيث حاجتنا إلى الراحة .

كلوتو (فرحة) : ألم أقل هذا منذ قليل ! لنسترح قليلاً .

لاشيزي : إن أمركن لعجيب ! منذ متى كنا نستريح ؟!

كلوتو : من يسمعك يظنك تتناولين أجراً على ما تفعلين !

لاشيزي : شد ما أمقت كلمة « الأجر » هذه . ألا بد أن نتناول أجراً على كل عمل نقوم به ؟ دعا التمرد يا أختيّ . إليّ بقليل من الندوف يا كلوتو .

كلوتو (تلقى بندوفها جانباً) : لن أعمل . لقد تعبت .

أتروبوس (تلقى بمقصها جانباً) : لن أعمل . لقد مللت .

لاشيزي (مستسلمة) : غلبتماني . إذ ليس لإحدانا أن تعمل بمفردها ، فإما أن نعمل ثلاثتنا أو نترك العمل ثلاثتنا . (تلقى بخيطها جانباً) .

أتروبوس : ما أجمل ألا نصنع شيئاً ، ما أجمل أن نتأمل قليلا شئون هذه الحياة !

صوت (من أعماق الغار) : ماذا أرى ؟! أين المغزول أيتها الشقيات ؟

لاشيزي (هامسة بارتياع لزميلتها) : لقد هلكنا ! إنه بلوتو ، حارس الظلال .

كلوتو (هامسة وهي تلتصق بزميلتها) : ألا يشبع هذا الشره ، هذا المعمود ! لو أننا أحصينا ما ابتلع في جوفه من موتى لدهشنا ، لم يمتلئ بعد !

أتروبوس (تتمتم مرتجفة) : لا بد أن معدته كالقربة المقطوعة .

بلوتو (من أعماق الغار) : هذه المؤامرة الدنيئة تحاك حول معدتي !

لاشيزي (هامسة لأختيها وهي ترتعد) : إنكما السبب لولا كلوتو ...

كلوتو (هامسة وهي تصطنع الشجاعة) : أتخافان منه؟! سوف أطلب منه بنفسي إجازة ثلاثتنا . وليكن ما يكون . (لبلوتو) : يا حارس الظلال المظلم . أيها الرب العادل الحكيم . يا من لا تفرق بين رفيع ووضيع . يا من عند عرشك يستوى الغنى والفقير . يا من إلى عند قدميك يجثو الملك والصعلوك . يا من تحت ناظريك يرتجف القوى والضعيف . يا من ...

بلوتو (من أعماق الغار) : ماذا أسمع ! إنها الصغيرة كلوتو .

كلوتو (تزداد شجاعة) : خادمتك المطيعة . يا من على طرف لسانك ...

بلوتو (من أعماق الغار) : هذا المديح غريب عليّ ! هذا الإطراء جديد عليّ !

كلوتو : إنما المديح والإطراء كانا دائماً في القلب منذ الأزل .

بلوتو (من أعماق الغار) : وما الذي جعله يتعدى القلب إلى اللسان منذ الآن ؟!

كلوتو : حاجة تعتمل في نفوسنا ، وشكوى تضيق بها صدورنا .

بلوتو (من أعماق الغار) : مم تشكين يا صديقتي كلوتو

كلوتو : إنما الذي يشكو ثلاثتنا .

لاشيزي (هامسة لكلوتو) : إني لا أشكو شيئاً

كلوتو (هامسة للاشيزي) : أسكتي أنت يا دسيسة »

بلوتو (يظهر في الغار بقامته القصيرة وبطنه الضخم ووجهه الكئيب) : مم تشكون ؟

كلوتو : في العالم ظاهرتان عجيبتان : ظاهرة الحركة وظاهرة السكون .

بلوتو : وما دخل شكوا كن في هاتين الظاهرتين .

كلوتو : أقصد ظاهرة العمل وظاهرة الراحة .

بلوتو : فهمت .

كلوتو : ماذا فهمت ؟

بلوتو : هناك مؤامرة تحاك حول معدتي .

كلوتو : سيتبع الراحة الإنتاج الوفير .

بلوتو : ولكن العالم ... كل شيء سيختل . فقط

رغبتكن فى الراحة ! شد ما أعجب من إلحاحكن فى الراحة وما تصنعن عملا مرهقاً !

كلوتو : وهذه المسئولية الملقاة على عواتقنا ؟ !

بلوتو : ها ها ها ! مسئولية ! أضحكتنى يا كلوتو ، أنا الذى لا أضحك أبداً . أية مسئولية هذه التى تحملنها على عواتقكن ؟

كلوتو : أما أنا فعلىّ أن أنتخب عناصر الفرد ، وهى خيوط تجمع من هنا ومن هناك ، ناعمة وقاتمة ، وقد لا أحسن اختيار هذه العناصر فتكون النتيجة وبالاً علىّ .

بلوتو : وكيف ذلك ؟

كلوتو : كثيراً ما نسمع أحد مخلوقاتنا يصيح : ماذا لو كنت خلقت ذا شعر أسود أو أشقر ! ماذا لو كنت خلقت أجمل وجهاً أو أطول قامة أو أذكى عقلاً ! وكثيراً ما يحدث أن تصيح امرأة من الأرض : من أحبه لا يحبنى لرقة شفتى ! آه ، لو أن شفتى كانتا أغلظ قليلاً مما هما عليه ! ولكن هذا هو قدرى ، هذا هو ما أرادته لى الأقدار : أن تكون شفتاى رقيقتين ، فأشقى هذا الشقاء الطويل ، لعنة على الأقدار ! . ولا تسلم لاشيزى من هذا الهجوم .

لاشيزى (مترددة بادئ الأمر ثم منطلقة) : أجل يا مولاى . فإنى أحياناً وإن كان من دأبى غزل الخيط غزلاً دقيقاً لأنقيه قدر المستطاع من الشوائب التى قد تخلطها عين كلوتو ، فلقصور أصابنى عن الإتقان ، لا أتمكن من ضبط سمك الخيط ، فيأتى هنا ضعيفاً متخلخلا ، وهنا قوياً متماسكاً ، فيصبح المخلوق وبه نواح من الضعف وبه نواح من القوة ، وهو إذ يرى نفسه قسمة بين التخلخل والتماسك ، بين الإقدام والإحجام ، بين النجاح والسقوط ، لا يفتأ يلعن الأقدار التى أرادت له ما أرادت ، ولايني يصمنا بكل ما تتقزز منه النفس من سباب وشتائم .

ثم يأتى دور آتروبوس .

آتروبوس (مترددة بادئ الأمر ثم منطلقة) : أما أنا يا مولاى فبلواي أعظم وخطبي أمر ، فأنا وإن كنت لا أتدخل فى عناصر الفرد ولا فى صفاته ، فإن اللوم يصب علىّ جزافاً ؛ ذلك لأنى المتحكمة فى أعمار الناس . وقد أتهم بالرعونة والحمق لأنى أنهيت حياة من كان الناس يظنون أنه جدير بالتعمير ، وقد أتهم بالبله والغفلة لأنى أطلت فى حياة من كان الناس يرتقبون موته بين لحظة وأخرى .

بلوتو : آه . ما الذى يجعلك تهيمين هنا وتهيمين هناك ، ما هو السر ؟

كلوتو : أوه . هذا ...

(يقطع حديث كلوتو نباح كلب عند مدخل الغار : متقطع أول الأمر ، ثم متصل متلاحق يصم الآذان . ثم يسمع صوت قيثارة تمتزج ألحانها أول الأمر بنباح الكلب . ثم يكف الكلب عن النباح ، وتتسرب أنغام القيثارة الحزينة وحدها إلى داخل الغار : رقيقة ، حلوة ، عذبة ، ساحرة ! ولا يمضى وقت طويل حتى يظهر على مدخل الغار شاب جميل الوجه بيده قيثارة ، يبدو عليه الحزن) .

(تتنحى الأخوات الثلاث فى ظلام الغار ويقترب الشاب من بلوتو فى الضوء الخفيف الباهت ...)

بلوتو (دهشاً) : ماذا تعمل هنا يا أورفيوس ! لم تدق ساعتك بعد ! ولكن قل لى : كيف سمح لك سيربيروس بالدخول ؟!

أورفيوس (واجماً) : لا فائدة من هذا الكلب الضخم ذى الثلاثة رؤوس . أنسيت أنى أخضع السباع لأنغام قيثارتى ؟ ولكنى ما أتيت هنا لأتكلم عن ألحانى .

آتروبوس (من الظلام ، فى همس) : مؤامرة دنيئة هذه التى أخذنا بها زوجة هذا الرجل .

لاشيزى (من الظلام ، فى همس) : هس ! لنرى ما يكون .

بلوتو (ضاماً ما بين حاجبيه مفكراً) : أراك واجماً !

أورفيوس (منفجراً) : زوجتى ! سلبتمونى زوجتى ! حبيبتى ! لماذا ؟ لماذا ؟ أى لذة لكم فى هذا ؟ لماذا حرمتمونى منها ؟ ما الذى فعلت حتى تسلبونى إياها ؟ (تلمع فى عينيه الدموع) . لقد سألت رب أرباب الأولمب أن يسمح بإعادة زوجتى أوريديس إلى الحياة ، فأحالنى إليك . لقد كانت تحبنى وكنت أحبها . إنى أريد زوجتى . أريد زوجتى . (يجهش بالبكاء) .

بلوتو (مشفقاً) : لا تبك يا بنى ...

أورفيوس (متهللا ، دامع العين) : أو تردها إلىّ إذاً ؟!

بلوتو : ليس بهذه السرعة أيها المجول . فهناك زوجتي الملكة ؛ يجب أن أستشيرها في هذا الأمر (منادياً) : برسيفونيه ... برسيفونيه ...

أورفيوس (لنفسه) حتى هنا .. للمرأة الكلمة الأولى !

صوت (ناعم ، من أعماق الغار) : أتزعجني يا بلوتو ! ألا تمهلني حتى أسفف شعري ! (تظهر برسيفونيه ، وهي تضفر شعرها الطويل) : من هذا الرجل ؟ لماذا يبكي ؟ ألا تعزف لنا شيئاً على قيثارتك . . . ولكن من أنت ؟ قل لي من يكون هذا الرجل يا بلوتو ؟ يا لجمال وجهه وحلاوة تقاطيعه ! يا للسحر الذي تفيض به عيناه ! يا للشاعرية التي يصورها شعره الثائر على جبينه ! ولكنه يلوح حزيناً ! لماذا هو حزين يا بلوتو ؟ من هو ؟ قل لي من يكون هذا الرجل يا بلوتو ...

بلوتو : بالله عليك كيف أعرفك به إذا كنت لم تتركي لي فرصة للكلام ! إنه أورفيوس .

برسيفونيه (محلقة) : أورفيوس ! أليس هو الذي تخضع له السباع عندما تسمع موسيقاه ؟ أليس هو الذي .

أورفيوس (دامع العين) : تماماً يا مليكتي ، ولكني أتيت هنا .

برسيفونيه : لا لتعزف لنا شيئاً على آلتك هذه العجيبة ؟

بلوتو : بل لأسترد زوجتي .

برسيفونيه (مشفقة) : يا للإخلاص !

أورفيوس : إني أحب زوجتي . (يجهش بالبكاء مرة أخرى ، وتنحدر على خديه الدموع ، ويضرب الأرض بقدمه نافد الصبر) : إنكم هنا تتحكمون في مصاير البشر على الأرض : تهبون الحياة ثم تنزعونها دون أن تنظروا إلى ما قد يكون بين الناس من حب وتعاطف ومودة . إنكم من مكانكم تجمعون شمل المخلوقات ثم تفرقون بينها ، ومن عروشكم المرتفعة تنعمون براحة البال .

بلوتو وبرسيفونيه (يحملقان في أورفيوس مأخوذين) .

أورفيوس : أريد أن أعرف : لماذا تضعون أنوفكم في حياة الناس على الأرض ! ألا تدعونهم يحيون ما حلت لهم الحياة ؟! ألا تدعونهم وشأنهم ؟!

بلوتو : طبيعة الأشياء تحتم هذا (ينظر في اتجاه الأقدار اللائي يتلمهن الظلام ، ويتحسس بطنه بأصابع يديه) .

أورفيوس (بغضب) : إنما هو الشره ، إنما هي المعدة الفارغة ، « أكل عمّال على بطال » ، لا تفريق بين من لا يستحق ابتلاعه ومن يجدر أن يترك في سلام .

برسيفونيه (تهمس لبلوتو) : أكانت صغيرة إلى هذا الحد ، زوجته هذه ؟

بلوتو (يهمس لبرسيفونيه) : يافعة ... في ليلة زفافها .

أورفيوس (متوسلاً) : إني أطلب زوجتي أريد استعادتها

برسيفونيه (في إشفاق) : لتردها إليه ، إن وجهه يعبر كله عن إخلاصه لزوجته ، يكفي أنه تكبد مشاق الرحلة إلى هنا من أجل أوريديس ، رحلة لم يقم بها من قبله مخلوق ، لتردها إليه .

أورفيوس (مستبشراً خيراً) .

بلوتو : كنت على يقين من أنك سترقين لحال هذا الرجل (لأورفيوس) : لقد قبلنا ، أليس كذلك يا برسيفونيه ؟

برسيفونيه (تبتسم وتهز رأسها مؤمنة على سؤال زوجها)

أورفيوس (متهللاً) : قبلتما عودة زوجتي إلى الأرض ؟

بلوتو : ولكن بشرط .

أورفيوس : أي شرط .

بلوتو : لن أرجع فيه ، وهو في صالحك .

أورفيوس : لن أتردد في قبوله .

بلوتو : هو ألا تستدير لترى وجه زوجتك وهي تمشي من خلفك حتى تترك هذا المكان ... وإلا ندمت .

أورفيوس : قبلت .

برسيفونيه (تستدير للخروج من الغار) : إني أنتظرك بعد فراغك من موضوع أورفيوس . لا تتأخر عليّ كثيراً !

بلوتو (برقة) : لن أتأخر طويلا يا حبيبتي .

(برسيفونيه تغيب في أعماق الغار) .

بلوتو (لأورفيوس) : استدر الآن للخروج وسأنادي زوجتك . (أورفيوس يستدير ، وبلوتو ينادي) : أوريديس ... أوريديس ...

صوت (رقيق ، من أعماق الغار) : مولاي .

بلوتو : ستعودين ثانية إلى الحياة . لقد جاء أورفيوس يطلب عودتك .

صوت أوريديس (متهللاً) : زوجي ... زوجي ...

أورفيوس (فرحاً) : أوريديس ، حبيبتي . لم أصبر على فراقك يوماً واحداً .

(يظهر شبح أوريديس : تتجه نحو أورفيوس) .

شبح أوريديس : ألا تنظر إليّ ؟

أورفيوس (متذكراً شرط بلوتو) : ليس الآن : فقط البعيق . (لبلوتو) : لا أعرف كيف أشكرك يا مولاي على هذا ... ولكن ما في القلب لا يمكن أن يعبر عنه اللسان . وداعاً يا مولاي .

(يمضي أورفيوس في طريق الخروج ، شبح زوجته في أعقابه . أورفيوس لا يلتفت يمنة ولا يسرة : إلى الأمام ! وجهته الأرض ، هذا العالم الذي كان سيكون مسرحاً لحبه لأوريديس ! هذا العالم الذي يحلم بأن يكون مرتعه مع المرأة التي آله فراقها جاء يستردها من كهف هيد . ولكن بينما هو يمضي تتملكه الرغبة في أن يرى أوريديس ويعرفها أو يتعرف عليها ، ويشده شوقه إلى إمتاع عينيه من وجه محبوبته الجميل الشرط الذي فرضه عليه بلوتو ، فيستدير بوجهه قبيل وصوله إلى مخرج الغار . عندئذ يختفي شبح زوجته الذي لم يكن قد مضى كثيراً منذ النزع من الأعماق)

أورفيوس (صائحاً) زوجتي ! زوجتي !

بلوتو (ضاحكا) : لقد دفعت ثمن عجلتك وشوقك .

أورفيوس (عند مدخل الغار وقيثارته في يده وهو يتميز غيظاً) : هذا ظلم ، هذا ظلم . ألا تعطيني فرصة أخرى ؟

بلوتو (متأملا) : أليس مشكلة ؟ ! (لأورفيوس) : لا أمل هذه المرة (يستدير بظهره إليه ويغرق في التفكير) .

(أورفيوس يجهش بالبكاء ويلسحب من الغار ؛ وتسمع أنغام قيثارته الحزينة وهي تبتعد رويداً رويداً حتى تتلاشى وتبرز الأقدار من الظلام وتقترب من حلقة الضوء الباهت في الكهف حيث بلوتو) .

بلوتو (لأتروبوس) : أود أن أعرف منك السر في تعجيلك بموت أوريديس . فهذه غادة فتية كانت أمامها الحياة طويلة وحلوة في كنف زوج تحبه ويحبها ، ولكنك لسر لا أدريه ، سلبتها الحياة في ليلة زفافها . لماذا ؟ ! لماذا ؟ !

أتروبوس (واجمة لا تدري ماذا تقول . ثم تنظر إلى كلوتو كما لو كانت تنتظر منها العون) :...

كلوتو (تطرق برأسها):...

أتروبوس (بعد لحظة تفكير) : كانت أوريديس ستخون زوجها مع الراعي في يوم من الأيام ... لذا وضعت الثعبان في طريقها حتى تموت ويبقى حب أورفيوس لها دائماً ، بدلاً من أن يموت هذا الحب ويحزن الزوج لخيانة زوجته . ولقد خلدنا بموت أوريديس حب أورفيوس .

بلوتو (بعد لحظة تفكير) : ومن الذي أوحى للراعي أن يختطف أوريديس ... من الذي كان سيوحي له أن يغوي أوريديس فتخون زوجها معه ؟ !

أتروبوس (تسقط في يدها وتنظر حائرة إلى أخواتها):...

بلوتو : إني لا أسمع جواباً !

صوت برسيفونيه (من أعماق الغار) : بلوتو ، لقد ذهب أورفيوس المسكين . ألا تأتي إذاً ؟ !

بلوتو (لبرسيفونيه) : آتيتو يا عزيزتي (للأقدار) : سنتحدث في موضوعنا في وقت آخر ...

صوت برسيفونيه (من أعماق الغار) : بلوتو ، لماذا تبطئ هكذا ؟ !

بلوتو : إلى أن نلتقي أيتها الأقدار . وداعاً . (يستدير ويمضي حتى يختفي في أعماق الغار)

أتروبوس : إني لا أذكر مطلقاً أننا أطلقنا إنساناً في أعقاب أوريديس ! أتذكر إحدا كما شيئاً من هذا ؟ !

لاشيزي (ساهمة) : إني لأتساءل : أنحن نقدر مصاير البشر حقاً ؟ !

كلوتو (ذاهلة) : هذا هو ما أفكر فيه فعلا . إني أعود إلى قصة ميلياجر بالرغم مني . فلو أنه كان بإمكاننا أن نقضي على حياة ميلياجر لما نجح حرص أمه بحفظ وحياته في إناء من الفخار بعيداً عن النار ! لو أنه كان بإمكاننا أن نميت ميلياجر فعلاً لما انتظرنا حتى تأتي النار على عود الحطب ... إذ ما العلاقة بين احتراق عود من الحطب في النار وموت إنسان ؟ !

لاشيزى (ساخرة) : ولكن ماذا تقولين فى موت ميلياجر بعد ذلك بعدة سنين عندما ألقت أمه بعود الحطب فى النار ففارقته روحه بينما كانت تتحول قطعة الحطب إلى رماد ؟!

آروبوس : إنى أشك فى أنه كان لى يد فى موته . المصادفة

كلوتو : المصادفة ! ماذا تعنين بالمصادفة ؟!

آروبوس : أعنى أنه كان من الممكن جداً أن يموت ميلياجر فى نفس هذا الوقت من الرجولة الكاملة دون أن يقتل خاليه وتغضب عليه أمه . إنى أقول إنى لم أتدخل فى موت هذا الرجل .

لاشيزى : هذه هى بذور الشك . يا لهذا العذاب ! منذ متى تملكك هذا الشك ؟

آروبوس : منذ موت أوريديس ! إن عملنا عبث فى عبث ، فأنا لا أذكر مطلقاً أننا أطلقنا فى أعقاب أوريديس راعياً ، ولا أذكر أننا وضعنا فى طريق هذه المرأة ثعباناً ، ولا أذكر أننا أوحينا للثعبان أن « يعض » هذه الزوجة فى ليلة زفافها لتموت . . . إننا لم نصنع شيئاً من هذا . لقد حدث كل هذا بالمصادفة . . . المصادفة وحدها . فقد تصادف أن رأى الراعى أوريديس فأعجب بها ، ولكنها ضاقت به فهربت منه وانطلق فى أعقابها . . . وتصادف أن كان فى طريقها ثعبان وطأته بقدمها فعضها . كل هذا حدث بالمصادفة . لم نتدخل نحن فى شىء مما حدث . أليس هذا هو الحق . . .

كلوتو ولاشيزى (فى تسليم) : هذا هو عين الحق .

آروبوس (ثائرة ، فى حيرة) : ما وجودنا هنا إذاً ؟ وما هذا العمل الذى نأخذ فيه ليل نهار دون راحة ؟!

كلوتو : يلوح لى أنه لا معنى لوجودنا قط ، وأن الحياة تمضى دون أن يكون لنا عليها أى تأثير أو سلطان .

لاشيزى : أعنى « حقيقة » حقاً ؟!

كلوتو : أم أننا . . . حديث خرافة !

آروبوس : ها ها ها ! لن نعمل إذاً بعد اليوم .

لاشيزى : وبلوتو ؟

آروبوس : إن الحياة متمدة بنفسها بالموت .

كلوتو : يا لغفلتنا ! أننفق هذه الدهور الطويلة فى عمل لا داعى له كعملنا هذا !

لاشيزى : أنا التى كنت أعارضكما فى طلب الراحة ، أصب اللعنة على نفسى ألف مرة كما أصبها على من وضع فى يدى المغزل وفى يدك المندوف وفى يدك المقص .

كلوتو وآروبوس (فزعتين) : أتتطاولين على رب أرباب الأولمب ؟!

لاشيزى : لقد أصبحت أشك فى كل شىء . إنى لا أومن برب . إن الحياة تمضى ، ليس لرب من الأرباب عليها أى سلطان ! كل حدث يقع بين الناس فيها ، وكل حدث يقع للناس فيها ، مرجعه إلى المصادفة ، المصادفة وحدها . إننا نلهو هنا ولا نقوم بعمل ما . إننا نخيل لأنفسنا أننا نؤدى عملا .

آروبوس : إنما الذى جعلنا نتخيل هذا .

كلوتو : رب أرباب الأولمب .

لاشيزى : ترى أموجود هذا الرب ؟!

آروبوس وكلوتو (فى شرود) : من يدرى !

إدوار متى

تمثيلية « الوارثة »

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

هذه أيضاً تمثيلية قدمتها فرقة (جان مارشا) بدار الأوبرا الملكية ، وقد أعدها للمسرح الكاتب الفرنسى لويس ديكريه مقتبسة من قصة (ميدان واشنطن) التى ألفها الكاتب الأمريكى هنرى جيمس فى أواخر القرن الماضى ، وربما كان أهم ما فى هذه التمثيلية بالنسبة لنا أنها تثير بيننا مشكلات فنية كثيرة جديرة بالمناقشة .

أما المشكلة الأولى فهى مشكلة الاقتباس ، ولعله من العجيب أن يلجأ المسرح الفرنسى إليه على الرغم من وفرة المؤلفات الفرنسية التى تفوق الحصر فى عددها وأنواعها واتجاهاتها ، وعلى الرغم مما يؤخذ على الاقتباس ذاته من مآخذ بالغة الخطر ؛ فمن المعروف أن المسرح مرتبط بالبيئة التى يعيش فيها ارتباطاً وثيقاً ، وهذا ما لا يمكن توافره دائماً فى المسرحيات المقتبسة ، ومهما تكن دقة المقتبس فى اختيار البيئة التى يقتبس منها ما يصلح للبيئة المقتبس إليها أو فى التوطئة والتوفيق بينهما أو فى اختيار الموضوعات التى تدور حول حقائق إنسانية عامة ، إلا أن هذا كله قد لا يضمن إيجاد المسرحية المثلى ، ومجرد دوران الموضوع حول حقيقة إنسانية لا يعنى صلاحيته للطاقة لكل مسرح وفى كل زمان ومكان ، فإن لكل أمة فى كل عصر فهماً خاصاً وتكييفاً خاصاً وتناولاً خاصاً للحقائق الخالصة .

على أننا لا ننفى مع هذا أن كثيراً من النقاد يعتبرون الاقتباس وسيلة من وسائل الإثراء والإخصاب ؛ ودليلهم على ذلك نجاح محاولات بعض مؤلفى العصر الحديث فى اقتباس بعض تمثيلياتهم من أساطير ومسرحيات قديمة مثل أوديب وإلكترا وبروميثيوس . والواقع أن نجاح هؤلاء إنما يعزى إلى تناولهم الموضوعات المسرحية القديمة تناولا مسرحياً جديداً فى كل شىء وخاضعاً لفلسفتهم هم فى الحياة لا لفلسفة المنقول عنهم ، وليس هذا اقتباساً ، بل استيحاء وإبداع وخلق جديد ، فضلا عن أن الأصول التى استوحوها إنما هى من ذخائر التراث الإغريقى العريق .

أما هنا فالأمر جد مختلف ، ويكفى أن نعرف أن هذه التمثيلية مقتبسة من « قصة » لم يكتبها مؤلفها لتمثل على مسرح بل لتقرأ فى كتاب . ومعلوم أن للفن المسرحى مجالا معيناً مقصوراً عليه تتجلى فيه قدرته على التعبير الملائم لخاماته ووسائله الخاصة به ، وهو بذلك ومن أجل ذلك يختلف عن الفن القصصى وعن كل فن آخر .

ونحن مع ذلك لا نجرؤ على تخطئة (لويس ديكريه) تخطئة مطلقة إذا عرفنا أولا أن الشعور الكبير « بمأساة الإنسان » قد ساد القصة الأمريكية بوصفها تعبيراً عن توجسات الفرد من حياته وسط مجتمع جارف ليس له قيم متوارثة ولا سبيل إلى الاطمئنان إليه ، وعن ضجره كإنسان ذى عواطف يعيش قسراً بين جفاف مادى يحيط به من كل جانب .. وعرفنا ثانياً أن (ميدان واشنطن) من خير النماذج الفنية المعبرة عن هذا الشعور .. وعرفنا ثالثاً أن البيئة الأوربية لم يبق فيها مجال لابتداع هذا اللون ، وذلك — كما يقول ليو باردى — بتأثير ظهور « الفيلسوف المسلح بأقوى أدوات المعرفة » ومن ثم ظفرت هذه القصة منها بإقبال شعبى منقطع النظير واقتبست لا للمسرح فحسب بل كذلك للسينما .

والحق أن تاريخ فن القصة الأمريكية على قصره يسجل لكاتبها ولصاحبه (كونراد) فضل إعتاقها من تلك العبودية التى كانت تقضى عليها بتمثيل البيئة المحلية فقط ، ويسجل أيضاً امتيازه على صاحبه فى تصوير الأحداث العتيقة تصويراً متئداً ، ويسجل كذلك تفرده دون صاحبه بوافق براعة الحوار إذ كان يعتبر « أن التوفيق فى تناقل الحكايات بين شخصيات الرواية هو الشىء الذى يجعل من الروائى فناناً » أو فى

براعة الجمع بين الأنماط المتباينة بل المتعارضة من الشخصيات في القصة الواحدة دون أن يكون في اجتماعها معا نبو أو شذوذ . وهذا ما يلاحظ بوضوح في قصته هذه التي أدارها حول أربع شخصيات ، هم الدكتور سلوبر وابنته كاترين وعشيقها موريس وعمتها المسز ألموند ، وجمعهم في حياة مشتركة وجعل لكل منهم سمات اختص بها وحده ومداراً خاصاً يجرى فيه دون سواه ، بحيث لا يتجلى أحدهم للآخر أكثر من مرة واحدة وفي لحظة قصيرة تكون هي مصدر قلقه وارتيابه وسبب تعاسته في النهاية . فالدكتور سلوبر رجل استطاع بمثابرته واجتهاده أن يصبح من أشهر الجراحين في عصره ، وأن يقتني ثروة ضخمة وأن يقيم في ميدان واشنطن داراً حافلة بمعالم الفخامة والترف ، وقد أثر هذا على سلوكه فكان يحرص على الظهور بمظهر الوقار ، وكان لا يبذل جهداً إلا فيما يعود عليه بالنفع ، كما أثر على عواطفه حتى لقد كان يعتقد « أن الحب لا يمنح إلا لمن يستحقه » . وماتت زوجته وهي تضع ابنته فحزن عليها حزناً شديداً لأنها كانت جميلة وذكية وعذبة الحديث ، وعاش بعدها على أمل واحد هو أن ترث ابنته عنها ما كانت تتحلى به من صفات ، ولكن ما كادت الأيام تمضي حتى تبدد هذا الأمل ، إذ أن كاترين المسكينة كانت مصابة بالدمامة والغباء والفهاهة . وظلت الأيام تمضي حتى أكملت ثلاثين عاماً فإذا بدار الدكتور سلوبر تحفل ذات يوم ببعض أقاربه وفي صحبتهم شاب على جانب كبير من اللباقة والجاذبية يدعى سيمون وإذا به يتودد للفتاة وإذا بها تحس بدفء الحب لأول مرة ، وإذا بهما يختلسان برهة ينفردان فيها للنجوى . . . وهنا يشاء حظهما العاثر أن يفاجئهما الدكتور على غير انتظار فتبدأ الكارثة ، إذ يدرك لأول وهلة أن هذا الشاب محتال خداع ، فليس في ابنته ما يغريه بحبها وإنما هو طامع في مالها ، وعبثاً تحاول كاترين أن تقنعه بصدق عاطفتها ، وعبثا يحاول موريس أن يقنعه برغبته الأكيدة في الزواج منها ، وأخيراً لا يجد بداً من أن يصحب ابنته إلى أوربا فراراً من تأثير عشيقها المحتال عليها وأن يهددها في نفس الوقت بحرمانها من ميراثها إذا هي فكرت في الانسياق وراء تخيلات سذاجتها ، وكذلك لا يجد موريس بداً من أن يراسلها خلال رحلتها ويظل يتردد على دارها ليدبر مع عمتها خطة يسترضى بها هذا الأب العنيد .

وعمتها هذه أرملة فقدت زوجها فعاشت في بيت أخيها فارغة القلب فارغة الحياة ، ولهذا كانت تعطف على العاشقين لعلها باشتراكها في مغامرتهما العاطفية شيئا من الفراغ الذي تحس وطأته .

وذات مساء بينما كانت تحادث موريس وتؤكد له أن الدكتور سلوبر سيوافق أخيراً على زواجهما ويؤكد هو لها حبه لكاترين دون طمع في ثروتها وتعود هي فتطمئنه إلى أن شقيقها لن يحرم ابنته من ميراثها وقدره ثلاثون ألف دولار ، وحتى لو أمعن في عناده وقسوته فحسبهما ميراثها من أمها وقدره عشرة آلاف دولار ؛ ويجيبها هو بأنه لا يضيره ذلك لولا أنه من المحقق أن الإنسان يعيش بأربعين ألفاً أفضل مما يعيش بعشرة آلاف . . . بينما هما يتحاوران هكذا إذا بهما يسمعان صوت الدكتور سلوبر وقد عاد مع ابنته من رحلتهما فتضطرب العمة ويختفي موريس في المطبخ ويدخل سلوبر فيلحظ وجود بقايا أقداح خمر وأعقاب سجاير لا تزال مشتعلة ، ولا يلبث أن يدرك حقيقة الأمر فتعود الكارثة من جديد . ذلك أن كاترين تجهر بتصميمها على الزواج من موريس ويجهر أبوها بتصميمه على حرمانها من ميراثها ، ويتواعد العاشقان على الهرب من الدار (بعد ساعتين) في نفس الليلة ويذهب موريس لإحضار متاعه ولكنه لا يعود .

وتمضي سنتان ويموت الدكتور سلوبر وتئول ثروته إلى كاترين ، غير أنها رغم ثرائها تقبع في دارها وتعتزل الدنيا والناس . لكن موريس يعود إليها مرة أخرى ويحاول — بمساعدة العمة — أن ينتحل لغيبته عذراً ويؤكد رغبته في الزواج منها في نفس الليلة ، فتطلب منه إحضار متاعه وانتظارها (بعد ساعتين) فيخرج مهرولا واثقا من أنها غفرت له ويعود في الموعد المحدد ويقرع الباب ولكنها لا تجيب ، وإنما تنهض وتسدل الستائر على الشبابيك وتذهب إلى مخدعها ! !

هذا هو ملخص القصة ؛ وهدفها العام — كما يقول مؤلفها — هو إبراز ما يرين على الحياة الأمريكية من سطحية ومادية وعجلة وتكالب على انتهاز الفرص ، وذلك بسبب اشتغال كل فرد فيها بذاته والنظر إلى الأشياء بعينه والحكم عليها بتفكيره بحيث لا يكاد يتصور أنه قد يخطئ أو أن للآخرين سمات وصفات ومقومات قد تختلف إلى

حد كبير أو صغير عن سماته وصفاته ومقوماته .

ومع هذا فلا يعنينا الآن أن نتحدث عن نجاح مؤلفها في إبراز هذا الهدف بقدر ما يعنينا أن ننوه بنجاح مقتبسها ومخرجها وممثليها في تحقيقه على خشبة المسرح نجاحاً لم يظفر بمثله من حاولوا تحقيقه على شاشة السينما . ترى أكان ذلك راجعاً إلى أفضلية المسرح على السينما من حيث القدرة على التعبير الفني !؟ هـذه هي المشكلة الثانية التي تثيرها هذه التمثيلية . وبديهي أن المفاضلة بينهما عبث لا طائل وراءه إلا إذا حصرناها في إمكانية المقارنة بين وسائلهما التعبيرية متميزين هذه الفرصة السانحة كمثل تطبيق واضح . إذ ذاك سنجد أن الإخراج السينمائي يمتاز — مثلاً — بالقدرة على متابعة النصوص المكتوبة بمناظيرها ؟ ولكن هل يعتبر هذا امتيازاً فنياً !؟

يقول أندريه مارو : ما من حياة إنسان أو مجتمع إلا وفيها جزء يصلح لأن يكون المادة الأولية التي ينتفع بها كل فن من الفنون في عمله ، وأجزاء لا تصلح . فالحوادث إذا اختلطت وتشابكت وغابت معالمها الفردية في لجة صاخبة لا تخلو من «لحظات فنية» يتولى كل فن تحديد ما يهمه منها إذا ما أراد التعبير عن تلك اللجة الصاخبة .

وغني عن البيان أن إخراج هذه القصة سينمائياً لم يستطع إبراز هذه اللحظات ، في حين أن المسرح أفلح في إبرازها حتى بلغ بها حد الروعة . ويتجلى هـذا مثلاً عندما أسدل الستار على كارين وهي تتردد بين أبيها وعشيقها ، أو عندما أسدل الستار عليها بعد يأسها من عودة هذا العشيق وهي تقول لعمتها : إني لا أريد عزاء ولكني أريد حباً ، أو عندما أسدل الستار الأخير عليها وهي تصعد إلى مخدعها بينما يدق (موريس) الباب الخارجي هاتفاً في ضراعة : «كارين» ...

وثمة مشكلة ثالثة عابرة ولكنها في غاية الأهمية تحددها الإجابة على هذا السؤال : لماذا كانت هـذه التمثيلية أكثر تمثيليات الموسم الأجنبي استهواء لجمهورنا ؟ لقد يبدو هذا عصياً على التعليـل ، إذا نحن حاولنا اعتباره دليلاً على امتيازها عن غيرها . فالتمثيليات التي قدمتها فرقة (جان مارشا) في هذا الموسم ذات اتجاهات مختلفة بحيث تستأثر كل منها بمزايا معينة خاصة بها وحدها ؟ ومن ثم فالمقارنة بينها غير ممكنة أو هي على الأقل غير ميسـورة ، لا سيما بالنسبة لنا . وأغلب الظن أن إقبالنا عليها أكثر من غيرها يرجع إلى ثلاثة أسباب . السبب الأول : وضوح فكرتها وضوحاً لا يتطلب كثيراً من التعمق في معرفة دقائقها وخاصياتها . والسبب الثاني : تناسب مضمونها وهدفها في بعض النواحي مع المألوف المتعارف عليه في بيئتنا . والسبب الثالث : تكرار عرضها علينا في فترة ضئيلة أكثر من مرة وفي أكثر من صورة ؟ إذ شهدها بعضنا حين قدمتها فرقة (جان مارشا) ذاتها في الموسم الماضي ، وشهدها معظمنا حين قدمتها إحدى دور السينما في العام الماضي أيضاً ... ولا جدال في أن هذا كله قد هيأ بين جمهورنا وبينها من صلات الألفة والفهم ما لم يتهيأ لغيرها . وهذا هو ما أريد الوصول إليه لكي آخذ منه برهاناً على أن إقبالنا أو إعراضنا عن المواسم الأجنبية ليس راجعاً فقط إلى القدرة أو عدم القدرة على شراء تذاكرها ، بل هو كذلك رهن بوجود أو عدم وجود مثل هذه الصلات . وصحيح أنها لم تتهيأ بالنسبة لهذه التمثيلية إلا عفواً ومصادفة كما هو واضح إذ لم يقصد إليها قصداً مباشراً . ولكن أليس في ذلك ما يدعونا على الأقل إلى التساؤل عما إذا كان من الجائز تهيئتها بالنسبة لسائر تمثيليات المواسم الأجنبية الممتازة ، وذلك بمحاولة تقريبها إلى أذهاننا ، والتوطئة بينها وبين مدركاتنا وتصوراتنا !؟

هذه وما إليها مشكلات ، كم أحب أن أسمع رأي نقادنا فيها ، فليس أجدى على حياتنا الفنية من أن نناقش ما يمكن أن يثيره الإنتاج الغربي بيننا من مشكلات .

عبد الفتاح البارودي

الثقافة

العدد ٦٨٧ ٢٥ من فبراير ١٩٥٢	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	الثمن ٣٠ مليما

صفحة

من أغاني الكفاح ...

(مهداة إلى الكاتب الحر الأستاذ محمد مفيد الشوباشي)

الأعاصير والقرى والبطاحُ   وصدى البرق . أغنياتي الملاحُ
تشتكي ظلمةُ السجون وأنواري   همومُ الشعوب . والأتراحُ
أحتسي اليأس من كئوسِ أساها   فيغلي عزيمةٌ ، وجماحُ
انشدي يا رؤى الفؤادِ أغانيك   ، فكم أرهبَ الطغاةَ صُداحُ
آن لي أن أخوض في لجةِ الهول   . فقد أغنت هوايَ جراحُ
آن لي أن أغذ سيريَ للفجر   فقد أفزعَ الدجى مصباحُ
أستقي من عذاب موطنيَ اللحن   فأشدو ، وإن رَنَتْ أشباحُ
وعلى منكبِ المماتِ أغني   لبلادٍ أذلها سفاحُ
كيف لا أمتطي المنون وشعبي   لوثت أرضه مملوكٌ وقاحُ(1)
من ترى ؟ ذلك الملثم والنصر   على دربه شذى وأقاحُ
من ترى ؟ من تراه ، يهفو له النجم   وتقفو خطى خطاه رياحُ
هو فجر الدنا ، ودنيا المساواة   . وحبٌ وألفةٌ ، وسماحُ
وانطلاقٌ إلى المدى وصلاحٌ   يختفي الظلمُ دونه والسلاحُ
وهو عدلُ الحياة بعد ضلالٍ   سوف يلقاه بالهتاف ودادي
... آن لي أن أثور أن أبذل   الدمَ لشعبٍ يذوب بالأصفادِ
أن أرى في الحياة قلبي المُدمى   عالقاً بالقرى بعيدَ المراد
أن أرد الظلام شعلةَ وعيٍ   فجرت نارها لهيبَ الجهاد
حاملاً من ضحى الكفاح كياني   وأزيز الرصاص مائي وزادي
وعلى منبر المشانق أحيا   لحياتي ، وثورتي ، وبلادي
منشداً للجموع ترنيمة الهول   ، لتمشي على صدى إنشادي
حيث تغدو السكين في قبضة الثأر   لتهوى على يد الجلاد

(بغداد)   كاظم جواد

---

(1) الاستعمار الباغي.

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | الإدارة | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | | محمد عبد الواحد خلوف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العــدد ٦٨٧ — الاثنين ٢٩ من جمادى الأولى سنة ١٣٧١ — ٢٥ من فبراير سنة ١٩٥٢ — السنة الرابعة عشرة

في ضوء المصباح :

الأفراد ! الأفراد !

للدكتور زكي نجيب محمود

إذا جعلتُ قصة « الوعاء المرمري » لأستاذنا الأديب الفاضل محمد فريد أبو حديد بك ، موضوع حديثي إلى القراء فلأنها قصة قد أثارت في نفسي كثيراً جداً من مشكلاتنا الاجتماعية والأدبية على السواء .

إنها « قصة جهاد بطل وأمة — من حياة سيف ابن ذي يزن بطل اليمن » ، ولعل أديبنا الفاضل قد أراد بها اليوم أن تكون تحية منه يهديها إلى المجاهدين في سبيل الحرية القومية بمثل ماجاهد سيف بن ذي يزن في تحرير بلاده من الحبشي الغاصب — لعله أراد بكتابه هذا أن يكون تحية منه لشباب اليوم من المجاهدين ، يهديها إليهم من ذكريات شبابه ، عندما كانت الثورة المصرية في عزها تلهب نفسه الحساسة بحرارة الإيمان والأماني . أيام أن تحمسته روحه الوطنية في بني قومه من أبناء الشعب في إحدى ندواتهم « البلدية » ، حيث يعتلي « الشاعر » منصة لينشد السامعين قصة سيف بن ذي يزن ... « و هذه القصة التي أكتبها اليوم بعد مضي أكثر من ثلاثين عاماً على تلك الأيام البعيدة ماهي سوى تحية أؤديها لذكرى اللحظات المجيدة التي كنا نجاهد فيها بأنفسنا ونسخو فيها بأرواحنا ، لا نسأل أحداً عليها أجراً ولا شكراً ... ثم هي تحية للشاعر الذي مازالت صورته ماثلة في الذكرى وإن كان اليوم يثوي في مضجعه الأبدي ، لايذكر أحد أن أناشيده القوية الوثابة كانت تحرك قلوب طلاب الحرية نحو عزمات الغد الطالع من ضمير الغيب ... »

وأول مانذكره مما يعنينا الآن من هذا الكتاب النفيس هو أنه قصة أدبية ، أجراها كاتبها على قواعد الفن القصصي ، وليس بذي وزن كبير في العمل الأدبي أن يكون موضوعه منتزعاً من التاريخ أو لايكون ؛ بل لايجوز للناقد أن يحاسب الأديب على صدق ماورد في قصته من تاريخ ، مستنداً في محاسبته إياه إلى المدوّنات والوثائق ، لأن صفة التاريخ في القصة الأدبية عَرَضٌ ، والأصل فيها تصوير الأشخاص الذين تقوم القصة على أقوالهم وأفعالهم .

فلا يكاد الناقد يسأل : هل صدق شكسبير — مثلا — صدقاً تاريخياً في مسرحياته « هنري الثامن » و « رتشارد الثالث » و « أنطون وكليوباترة » وغيرها من رواياته التاريخية — يكاد الناقد لايسأل هذا السؤال ، لأنه يعلم أنه بصدد عمل أدبي أنتجه فنان ؛ فالسؤال فيه إنما يكون :

هل رسم الفنان هذا الشخص أو ذاك رسماً يجعله ذا طابع فردي متميز ، كالذي يتسم به الأفراد الأحياء الذين تصادفهم في الحياة ويصادفوننا ؟ هل هذا الملك أو هذا العاشق أو هذا الخادم ، قد تكاملت في صورته العناصر تكاملا يتم فيه بعضها بعضاً ، كما تتكامل الأجزاء في أي كائن عضوي بصفة عامة ، وفي أفراد الإنسان بصفة خاصة ؟

لقد أتاحت السينما منذ حين لألوف المتفرجين أن يشهدوا مسرحية « قيصر وكليوباترة » لبرنارد شو ، فشهدوا قيصر وكليوباترة على غير ما ألفوا سماعه عنهما من كتب التاريخ ، لذلك كان النقد الذي يدور على الألسنة هو هذا : إن الأديب قد أخطأ هنا لأن كذا قد حدث ، وأخطأ هناك لأن كيت لم يحدث ... كأنما قد قطع الأديب لهم عهداً على نفسه بأن يكون مؤرخاً يحاسب بالوثائق والمراجع والأسانيد .

إن بين العلم والفن فرقاً لو جعلناه نصب أعيننا ، ضاقت شقة الخلاف بيننا في تقدير الآثار الفنية تقديراً نميز به غثها الزائل الفاني من سمينها الخالد الباقي ، وذلك هو أن العلم تعميم والفن تخصيص ؛ العلم يبحث في أفراد من النوع الواحد ، لا ليقف عند الأفراد في ذواتها ، بل ليسقط من حسابه المميزات الخاصة التي يتصف بها كل فرد على حدة ، ويبقى العناصر المشتركة التي تعم أفراد النوع جميعاً دون تمييز بين فرد وفرد ؛ فإذا قال العلم — علم النفس مثلا — إن الإنسان من طبيعته جمع الأشياء وحيازتها ، كان قوله هذا نتيجة ملاحظة عدد من أفراد الناس ، والتقاط الصفة أو الصفات التي يشتركون فيها ؛ فإذا كان هذا الفرد معنياً بجمع المال ، وذاك معنياً بجمع الكتب القديمة ، والثالث بجمع الآثار الخزفية ، أسقط العلم ما يختلفون فيه مما يجمع ، وأبقى على المشترك بينهم وهو أنهم يجمعون ويملكون ؛ أما الفن فيقف عند الفرد الواحد ليبرز ما قد اختص به بحيث أصبح متميزاً من غيره متفرداً ، ويكون نجاح الفنان بمقدار توفيقه في الاهتداء إلى هذه الصفات الخاصة المميزة للحالة المفردة التي يصورها ، وترتيبها على نحو يبرز لنا في النهاية إنساناً معيناً بذاته الفذة الوحيدة .

فالعلم والفن كلاهما يتناولان الأفراد الجزئية ، أما العلم فيتناولها ليأخذ ما اشترك فيه من صفات ثم يهملها ، وأما الفن فيتناولها ليقف عندها من بدايته إلى نهايته ؛ وعندي أن الشرق بصفة عامة قد زاغ بصره عن الفردية التي تميز إنساناً من إنسان وحالة من حالة ؛ ولذلك فقد أفلت منه العلم والفن معاً إلى أقوام آخرين تنبه أنظارهم عند الفوارق بين الأفراد والأشياء ؛ ولقد عبرت عن رأيي هذا حين أخرج الأستاذ توفيق الحكيم بك مسرحيته « الملك أوديب » وقدم لها بمقدمة طويلة يحاول فيها تعليل غياب المسرحية من الأدب العربي القديم . فقلت عندئذ إن رأيي هو أن الأدب المسرحي — والقصصي أيضاً — يستحيل قيامه بغير التفات إلى تميز الشخصيات الفردية بعضها عن بعض ؛ فلو نشأ الكاتب في جو ثقافي لا يعترف للأفراد بوجود ، ويطمسهم جميعاً في كتلة واحدة من الضباب الأدكن ، فلا سبيل أمام هذا الكاتب إلى تصوير الأفراد في قصة أو مسرحية ؛ والشرق كله قد طمس الفرد طمساً ولم يترك له مجالا يتنفس فيه ؛ فالأفراد في الثقافة الهندية كلها « مايا » — أي وهم لا وجود له — والوجود الحق عند الهنود هو الكون كلا واحداً لا تَفَرُّد فيه ولا تكثر ؛ وقل مثل هذا في الصين وفي كل بلاد الشرق بصفة عامة ؛ الحضارة الشرقية كلها تغفل شأن الفرد وتجعله جزءاً من شيء أعم منه ، فهو عند العرب جزء من القبيلة ، فلا وزن له إلى جانبها ولا قيمة له بالقياس إليها ؛ وما كذلك اليونان ، لأن الفرد عندهم هو محور التفكير — حتى الآلهة عندهم أفراد لهم مميزاتهم ومشخصاتهم ؛ ومن هذين الاتجاهين المختلفين في الشرق والغرب ، نشأت الديانات في الشرق ، ونشأ العلم والأدب في الغرب ، لأن معظم الديانات أساسها التوحيد بين الظواهر المختلفة ؛ وأما العلم والفن فأساسهما التمييز بين تلك الظواهر — العلم يميز الأنواع والفن يميز الأفراد — وهكذا لم يعرف الشرق « أشخاصا فردية » فلم يعرف مسرحية ولا قصة .

وأعتقد أن أكبر تطور طرأ على أدبنا في الفترة الأخيرة هو بداية الالتفات إلى الأفراد وتصويرهم ، وقد كان ذلك نتيجة — أو كان هو المقدمة لست أدري — لتطورات مماثلة في السياسة والاجتماع ، فالحكم البرلماني يستدعي تصويت الأفراد كل فرد بذاته ، ونظام الأسرة قد أخذ يخلخل الهواء بعض الشيء حول الأفراد لتظهر لكل فرد شخصيته ، وخاصة المرأة وعلاقتها بزوجها أو أبيها ، ورجال التربية يصيحون آناً بعد آن أن افتحوا أعينكم للفوارق بين الأفراد .

أقول إن أكبر تطور طرأ على أدبنا في الفترة الأخيرة فيما أعتقد ، هو عنايته بالالتفات إلى الأفراد وتصويرهم ، فالدكتور طه حسين باشا يصور في « الأيام » إنساناً واحداً بذاته ، هو نفسه ، والدكتور أحمد أمين بك يصور في « حياتي » إنساناً واحداً بذاته هو نفسه أيضاً ، والأستاذ توفيق الحكيم بك يصور في مسرحياته أشخاصاً أفراداً ، والأستاذ العقاد يصور في « سارة » إنسانة واحدة بذاتها وهكذا « زينب » لهيكل باشا و « إبراهيم الكاتب » للمرحوم المازني ، وهكذا .

وقد ادخرت الأستاذ فريد بك أبو حديد في كتابه الجديد « الوعاء المرمري » لأدير حوله بقية الحديث ؛ « فالوعاء المرمري » ظاهرة جديدة تضاف إلى غيرها من أشباهها التي تدل على هذا التطور الجديد في الأدب العربي .. العناية بالأفراد وتصويرهم في قصة أو مسرحية أو غير ذلك .

لذلك كان أول ما بحثت له في « الوعاء المرمري » أن يعلن الكاتب منذ البداية على لسان الشاعر المتعقد ، وهو يمهد لقصته التي ينوي إنشادها ، مبدأ طمس الأفراد في محنة الزمان ، إذ يقول : « كل فرد . . . يحسب أنه يجرب ما لم يجرب أحد من قبله ، ويدرك ما لم يدركه أحد غيره ؛ يذوق الحب فيحسب أن أحلامه الساحرة لم تخطر قط على قلب . . . ولكن الزمان يرمقه باسماً وينادي بصوت خفي قائلا : هكذا كانوا دائماً » .

لكن الأفراد لا يكونون « هكذا دائماً » إلا إذا غضضنا النظر عن مميزاتهم الفردية التي تجعل زيداً غير عمرو ؛ فالمحب الذي يحسب أن أحلامه الساحرة لم تخطر قط على قلب ، ليس مخطئاً في حسابه ، وإنما أخطأ الحساب من ظن أن كل العاشقين سواء ؛ بل أخطأ من ظن أن العاشق الواحد شبيه بنفسه في كل حالاته ، ولو كان العاشقون كلهم سواء لكفانا تعريفهم بأرقامهم كما تعرف إدارة الجيش جنودها ، أو وزارة المعارف المصرية تلاميذها .

إنه يستحيل علينا أن نفهم معنى الحرية التي نطالب بها جاهدين ، ما لم يتقرر في أذهاننا أولا أن الأفراد عوالم قواصل ، فلكل منهم شخصه وكيانه ؛ وإذا كانت الحرية المنشودة معنى مجرداً ، فقد كان حسبنا منها أن تسجل في الكتب والقواميس ، وكفى الله المؤمنين شر القتال ؛ لكنها حرية منشودة لأفراد ، منشودة لزيد وعمرو وفاطمة ، ولن يحاسب الله عباده « بالجملة » على اعتبارهم جميعاً « هكذا دائماً » ، بل سيحاسبهم الله فرداً فرداً ، لأن لكل فرد قائمة من أعمال وأقوال تفرد بها — وهي نفسها عمل الأديب .

وقصة « الوعاء المرمري » زاخرة بأشخاص ، تبينت في بعضهم الملامح الفردية وخفيت هذه الملامح في بعضهم الآخر ، والحمد لله الذي جعل أستاذنا فريد بك يتسامح في تطبيق مبدئه الذي يمحو الأفراد في غمرة الزمان ، فيخرج لنا أشخاصاً برزت فيهم الملامح والسمات ، فجاءت كسباً للفن بل كسباً للحياة ذاتها ، لأنها تضيف إلى الأحياء أفراداً آخرين يضمن لهم التسجيل الأدبي طول البقاء .

لقد أفلتت من أديبنا الفاضل عبارة وقفت عندها لحظة متمنياً أن تكون هي مبدأه في التصوير الفني لأشخاصه ؛ وذلك حين يروي عن « خيلاء » أحلامها وهي « تنظر إلى الأغصان تتأملها كيف تتداخل وكيف تتعانق ، وإلى أشكال أوراقها وصور ثمارها ؛ كان بعضها منتشراً لينا غضاً وبعضها معقداً جافاً وبعضها يتدلى بثقله الوارف وبعضها يسمو بجذعه الفارع ؛ حتى الأشجار لا يشبه بعضها بعضاً ، وحتى الغصون لا تتساوى في هيئتها وإن كانت فروع شجرة واحدة . . . » — فهكذا يختلف الأحياء .

ومن الأشخاص الأحياء الذين خلقهم أستاذنا خلق فنان قدير ، « أبو الميوق » — ربان السفينة — في صفحات قلائل أتم له الأديب خلقته الكاملة بملامحها الفريدة ، فهو الجبان « الشجاع » الثرثار المتفكه ، الذي ينطبع حديثه بطابع خاص ، فيكرر عبارة « لسان طوائق وصفق عوارق » كلما هم أن يقرر شيئاً يقسم على صدقه ؛ كذلك وفق كل التوفيق في صورة « ظلية » الفتاة الشرود التي تحب فتهب حياتها للحب ولكره فلا تبالي أين تندفع مع كراهتها .

لكنهما شخصان ثانويان في القصة ، والعجيب أنهما جاءا معاً في السياق ، كأنما كانت ربة التصوير الفني تصاحب أديبنا عندئذ فتلهمه الصواب ؛ ويتلوهما في جودة الخلق وسوائه « أرهة » الطبيب المتدين الذي يأبى قلبه الحب « رعاة » رغم دهائه في السياسة وبعد طموحه ؛ وقد كان « فضحكة الزغردة » التي يضحكها حيناً بعد حين ، تصيب

موفور في تحديد صورة الرجل ، مما يدل على أن التصوير الفني يعتمد على أتفه الخصائص وأعظمها على السواء ! ومما تجدر ملاحظته أن « أرجة » هذا هو المغتصب الذي قام « سيف » لاسترداد بلاده من أسرته ، والذي كان يُنتظر من الأديب أن يقصد في تركيبه إلى بث النفور منه عند القارىء ، حتى يمهد النفس لاستقبال بطولة « سيف » ومع ذلك فيستحيل على قارىء — فيما أعتقد — أن يخرج من القصة وهو كاره لأبرهة ! ترى هل أراد أديبنا شيئاً فقلبته شخصية « أبرهة » فيما أراد ، كما غلب « ملتن » أمام « الشيطان » في ملحمة الفردوس المفقود — حين أراد أن يصب الشيطان في صورة كريهة لتظهر بالمقارنة قوة الله وجلاله ، فإذا تحرك في النهاية إزاء قوة تبهر النفس وتغرى بالمحاكاة ؟!

وتجيء بعد ذلك في درجة الجودة الفنية « خيلاء » حبيبة « سيف » ، فهي الفتاة الطاهرة المتدينة صاحبة الذوق الفطري في تفهم الأدب والفن ، التي تحس بدافع المرأة في جوفها لكنها تجفل ، كأنما هي شبيهة بقديسة ترى الرجس في غرائز الإنسان .

ومن خير ما كسبناه بهذا الأثر الأدبي النفيس ، أن الأستاذ فريد بك قد صور نفسه — عن وعي منه أو غير وعي — صور نفسه الرقيقة المحببة إلى عارفيه جميعاً ، صورها في شخصية « أبي عاصم » — « فأبو عاصم » هو « أبو حديد » في رصانة عقله وفي حبه للخير وفي طيبة قلبه وفي حبه للأسلاف وتراثهم ، بل وفي تعليمه الناشئة عن فطرة أبوية سليمة ، حتى لقد عرفت كثيراً عن حياة أستاذنا فريد بك — مما لم أكن أعرفه — من صورة أبي عاصم ؟ لقد ارتعش قلبه للحب الطروب ، وهو على شيء من الوحشة واليأس مما حوله في عصرنا هذا الذي كثبت فيه العالم الصوص . ولم يعد به مكان لأصحاب الفكر والأدب والعلم والحكمة ؛ ولعله قد تعمد أن يضع لنا « نحيل بن حبيب » النفس الماكر . جنباً إلى جنب مع « أبي عاصم » كي يتم صورته لنفسه في بطالة عصره هذا الذي نعيش فيه .

وأما « سيف » و « رحانة » و « مسروق » فقد كانوا جميعاً أمام عيني كأنهم أجلسوا في صندوق من زجاج قد ترى شفاههم متحركة بالكلام أحياناً ، لكنك لا تسمع مما يقولون شيئاً . فيتولى الكاتب عنهم الكلام في كثير من الأحيان ، وتشعر أنت كأنك في متحف أثرى ومعك الدليل يشرح لك ما تراه من تماثيل ، فهؤلاء الساكنين قد ضاعوا في غمرة الزمان الذي يحمل الناس « هكذا دائماً » ! فإذا تذكرنا أن « سيفاً » هو البطل الرئيسي الذي ملأ قلب الكاتب بادىء ذي بدء ، وأراد تصويره قبل أن يريد ذلك لأحد سواه ، عرفنا فداحة الخسارة في فقده بين من أغرقهم التيار الذي يطمس الأفراد .

قد كنت ألاحظ أشلاء متناثرة عن شخصية سيف ، فكنت ألاحظ نفسه القلقة الهائمة السابحة في خيالها ، وألاحظ تردده الذي كاد يقربه في مخيلتي من « هاملت » وألاحظ احتقاره للذهب والتماس إلى أهدافه العليا — لكني لاحظت ذلك كله أشلاء متناثرة ، ولا « شخص » هناك — وربما كان النقص في إدراكي أنا لما بين الأشلاء المتكسرة من وحدة ؟ أو لعله سوء الحظ الذي جعلني أبدأ منذ الخطوة الأولى في مقارنته بـ « هاملت » في قلقه وتردده ورغبته في الانتقام وغير ذلك ، فظل المقارنة ماثلة أمام ذهني ليدفع ثمنها « سيف » .

● ● ●

لقد أجرى الأستاذ فريد بك على لسان النقد في أول حديثه هذا المبدأ النقدي ، الذي عبر به في الحقيقة عن رحابة صدره ورجاحة عقله وطيبة نفسه وميله الشديد إلى التسامح ، إذ قال النقد لسامعيه . . . « سأنشدكم وأنشد ليلة بعد ليلة ، ولكم أن ترضوا إذا أرضاكم ما يصدر عني ، ولكم أن تنكروا كما شئتم إذا بدا لكم من ذلك ما لا يروقكم ؟ لكم أن تصفقوا استحساناً أو تظهروا استهجانكم بغير مداراة ؛ فهذا حق لكم . أما أنا فلا أقصد إلا أن أظهر ما عندي مما يهتز له فؤادي وما أودعته ثمرة حياتي وأرسلت فيه عصارة روحي ، فإذا وقع عندكم موقعه عندي زادت بذلك سعادتي . . . »

فإذا رأيتني قد أسرفت في استخدام هذا الحق الذي أعطيته لقارئك ، فاغفر لي خلالا دفعني إليه إيماني بحق الفرد في أن يعيش فرداً مستقلا قائماً بذاته . سواء كان ذلك في الحياة الواقعة أو في القصة التي تصور تلك الحياة .

زكي نجيب محمود

خواطـــــر

– ٣٧ –

للدكتور أحمد أمين بك

قد تجرىٰ في عمل الفلاح ، تحوّل قناته من غيطه إلى غيط آخر ، فيتنازع ويتخاصم ، وقد يؤدى ذلك إلى قتل . ولكن قد يذله العمدة أو شيخ البلد فيمرغه في التراب ، وقد يفعل المأمور بالعمدة ذلك فلا يتحركان ولا ينبسان بكلمة .

هكذا قال صاحبي . وزاد على ذلك فقال : أليس عجباً أن نرى أهل البلد يتحملون ظلم حكومة سنتين أو أكثر فلا يحركون ساكنا ولا يثورون على هذه الحكومة ، ولم نسمع مرة أن برلمانا يمثل الأمة أسقط حكومة من الحكومات أو صوت ضدها ، لأنها أتت عملا سيئاً ، وتصرفت تصرفا ظالما ، مع كثرة ما تأتى به من الأعمال السيئة الظالمة . ؟

قلت : إن المصريين في أشد الحاجة إلى زعيم يربى شعورهم بالعدالة ، ويبلور أفكارهم ومشاعرهم ، حتى يثأروا بها ثأرهم بقطع الماء عن مزارعهم .

لقد نجح المرحوم النقراشى باشا في بلورة الغرض السياسىّ للأمة وهو الجلاء ووحدة وادى النيل ، فكان ذلك على كل لسان حتى الأطفال في ألعابهم ، والمغنين في أغانيهم ، والمذيعين في إذاعتهم . وكان على لسان الشيوخ والشبان والرجال والنساء . ونحن أحوج ما نكون إلى زعيم يبلور لنا مثلنا الأعلى الأخلاقى ، فيقول مثلا : إن غرض الأمة العدالة والنظام ، يجريها على لسانه فتجرى على لسان كل أحد . إذ ذاك لا يجرؤ أحد أن يظلم ، ولا يطيق أحد أن يصبر على ظلم .

ثم يأتى من الأعمال ويضع من الأنظمة ما يحقق العدل زمناً طويلا ، حتى يألفه الناس ، ويثوروا على الظالم وظلمه . وليست تفلح أمة شعورها متبلد ، بل هى تهتف الظالم فلا يجد ما يصده عن ظلمه .

إذ ذاك يخاف العمدة من أن يظلم الفلاح ، ويخاف المأمور أن يظلم العمدة ، ويخاف المدير أن يظلم المأمور ، وتخاف الحكومة بأسرها إذا ظلمت أحداً ، لأنها تشعر أن الرأى العام قوى الشعور بالعدالة ، لا يحتمل أى ظلم ، والحكومة لا تعدل إلا إذا خافت .

والمتنبي يقول :

والظلم من شيم النفوس ، فإن تجد
ذا عفة ، فلعلة لا يظلم

ويقول الآخر :

متى تجمع القلب الذكىّ وصارما
وأنفا حميا تجتنبك المظالم

ويقول ثالث :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له
وتتقى صولة المستأسد الضارى

وأقرب ما أستخرج أن يكون شعور الناس اللدىّ قويا ، وشعورهم السياسى قويا ، وشعورهم الأخلاقى ضعيفاً ؟ .

أحمد أمين

الرأسمالية والعمال

للأستاذ أحمد طه السنوسي

قد يكون من المستحسن أولاً أن نبين كيف نشأت الرأسمالية، وصارت إلى ماصارت إليه اليوم؟ ولبيان ذلك نقول: إن «العمل» في أول الأمر كان بدائياً محصوراً في جو كل أسرة من الأسر التي كان يتكون منها المجتمع البدائي حين تكونت الأسرة وعُرفت العائلة، فكان أفراد الأسرة جميعاً يقومون بكل مايلزم من عمل في الأكل والشرب والملبس، فكان اعتمادهم على أنفسهم أكثر من اعتمادهم على الغير.

وكان العمل الاقتصادي الأول مقصوراً على الصيد والاقتناص ثم على الرعي، ثم عرفت الزراعة، فاشتغل الأفراد في الأرض، وكون كل منهم أسرة، ونشأت القرية من اجتماع العدد القليل من الأسر والعائلات، ونشأت بعد ذلك المدن الصغيرة، التي أدت إلى القيام بحرفة التجارة لقيام الأسواق، ومعرفة نظام المبادلة والمقايضة...

ولكن بعض أهالي هذه المدن طفقوا يشتغلون ببعض الحرف الصناعية البسيطة، فظهرت الصناعة آنذاك، واتخذت مصانعها في البيوت والمنازل، ولم تعتمد على رءوس أموال كبيرة، ورأى الصانع بعد ذلك أن يستعين ببعض من العمال، فكان يضم إليه بعض العمال يعملون جميعاً في البيت ويعيشون عيشة واحدة متساوية، لا فارق فيما بينه وبينهم، واستطاع هؤلاء الصناع أن يؤلفوا فيما بينهم طوائف خاصة بصناعتهم، وقد أنشأت الدولة بعد ذلك بعضاً من المصانع تمتلكها ملكية خالصة لها، كما منحت بعض الأفراد امتياز إنشاء البعض الآخر، وكان العمال بالطبع يقدمون على العمل بهذه المصانع الكبيرة.

والميزة التي أريد أن أوضحها في هذا الصدد، أن صاحب العمل لم يكن بعيداً عن العامل الذي يعمل لديه، فقد كان يلازمه ويعرفه، ويهتم به ويشجعه، ويواسيه إذا مرض ويسأل عنه إذا غاب؛ لأنه يقدم لصاحب العمل بما يضع بين يديه مصنوعات ذات قيم مالية، تدر عليه الكسب والربح..

أما من جانب العامل فقد كان يحب عمله ويتفانى في إجادته والإبداع فيه، لكي يبرهن لصاحب العمل على إتقانه وإخلاصه، ولكي يحسن الجزاء الذي يتلقاه منه، ولكي يفوز على أقرانه ويمتاز عنهم!

فصاحب العمل إذاً لم يكن ليستغني عن العامل، ولم يكن ليهمل أمره أو ليتجاهل عمله، وكذلك العامل ما كان ليستغني عن رب العمل، وما كان يشعر نحوه إلا كما يشعر نحو فرد من أفراد أسرته المحبوبين، وإن كان ثمة خلاف بسيط يقع بينهما لم يكن من «وسيط» لحل هذه الخلاف سواهما، فالعمل وتنظيمه والخلافات وحسمها والمعيشة وإصلاحها، كل أولئك من شأن العامل ورب العمل على حد سواء؛ إذ أن العامل يشعر بتكافئه مع رب العمل، وكذلك يشعر هذا الأخير.

ولم تنقلب هذه الأوضاع حينما قامت «الثورة الصناعية» وجاء القرن التاسع عشر، إذ تلاحقت الكشوف والمخترعات في عالم الصناعة، وتقدم العلم ليغذي العمل بشتى ضروب التطور والنهوض، وصار الإنتاج يعتمد على رءوس الأموال أكثر من اعتماده على العمال، ولم تتوافر هذه الرءوس لدى العمال، فتخلوا عن مراكزهم لمن تتوافر لديهم؛ ومن هنا صار العمال طبقة بمفردها تواجه في أهل الجيل طبقة أخرى دعيت بأصحاب الأعمال أو طبقة الممولين أو أصحاب رءوس الأموال، فكان من نتائج ذلك أن دعي النظام الذي يسود المجتمع الذي يجمع بين هاتين الطبقتين باسم الطبقة الظاهرة القوية فيه، فدعي لذلك باسم «النظام الرأسمالي» وقامت من أجله «الرأسمالية» كمذهب اقتصادي.

وقد ترتب على كشف البخار والكهرباء واختراع «الآلة» أن انقلبت الأوضاع الاقتصادية بالنسبة للعمال وأرباب الأعمال على حد سواء، فكانت إلى جانب أصحاب الأعمال سبيلاً إلى الامتلاء والربح الغزير، تبعاً لما أدت إليه من جودة في الصنف وسمو في النوع ووفرة في العدد وكثرة بالغة في الكمية، وكانت بالنسبة إلى العمال عدواً لدوداً أثر في حياتهم كل تأثير وحول مجراها إلى بعيد، حتى

إن من العمال من هم باغتيال مخترعى الآلات والقضاء عليهم لأنهم رأوا كيف أن « الآلة » حولت مجرى أرزاقهم وقضت على أرزاقهم وحياتهم ، وضيعت اعتبارهم ودورهم فى الإنتاج الصميم ؟ أو لسنا نرى بعد اختراعها أن قيمة العامل فى نظر صاحب العمل قد اضمحلت وصارت أقل من قيمة الآلة فى نظره ، فهى قد احتلت مكانته وصار أصحاب رءوس الأموال لا يستغنون عنها بقدر استطاعتهم الاستغناء عن العمال ؟ ! . . ذلك أنه فى المرحلة الأولى — التى أسلفنا الإشارة إليها — كان للعامل اعتبار فى نظر صاحب العمل ، لأن هذا الأخير كان يرى فى يد العامل وعمله كسبه الحقيقى ، وخلق القيم المالية التى بها يستطيع أن يحصل على النقود والأموال ، ولم يكن ثمة ما ينافس يد العامل فى تقديم هذا الكسب أو خلق تلك القيم له . فالآلات أو بالأحرى معدات العمل لم تكن لتعدو فى هـذه المرحلة أن تكون مجرد أشياء بدائية ثانوية ليس لها أثر ملحوظ فى الإنتاج بالنسبة إلى عمل العامل ؛ بل إن العامل نفسـه كان إذا استقدمه الصانع الذى يريد ضم عدد من العمال لصناعته التى يديرها فى منزله ، يأتى معه بهـذه الآلات الأولية التى بها يقوم بعمله ، ولم يكن الصانع نفسه أى صاحب العمل هو الذى يقدمها ؛ لأنها كانت أكثر أهمية للعامل بالنسبة لصاحب العمل نسبياً . أما الآلة اليوم فهى بالنسبة لصاحب العمل كل شىء ؛ إذ هى رأس ماله المنتج ، أما بالنسبة للعامل فقد صارت مجرد عدو لدود ومتطفل ثم حشر نفسه فى زمرة الإنتاج وقضى على الدور الإيجابى الذى يقوم به ، فهو لا يسعه إزاء ذلك إلا أن يحاول القضاء على هؤلاء المناكيد الذين فكروا فى ابتكار هـذه الآلة التعيسة ، وأخرجوها إلى حيز الوجود ؟ !

ولسنا نبحث كيف أن الآلة قد أدت بالعمال إلى « بطالة فنية » إذ أن هذه البطالة قد تغلب عليها التطور الاقتصادى ؛ وذلك أن أصحاب الأعمال لما زاد إنتاجهم تبعاً لاستخدام الآلات وتحسن الأسواق والحالة الاقتصادية فى المجتمع وازدياد القوة الشرائية لدى الأفراد ، كان لا مناص لهم من أن يزيدوا عدد العمال الموجودين لديهم مع زيادة الآلات طمعاً فى الكسب والاستزادة منه ، ولكن ثمة صناعات أدى استعمال الآلات فيها إلى الاستغناء عن العمال ، هؤلاء الذين لم يجدوا أمامهم مورد رزق بعد أن ضيعت عليهم الآلة قيمتهم ، وأطاحت بأهمية دورهم وعملهم ، وهؤلاء كانت الحكومات تهتم بأمرهم ؛ وإن ظهر منهم اليوم أحد نتيجة اختراع آلة معينة ، فهم أيضاً مشكلة يتعين بالحكومة أن تحلها ، فتحول الشبان منهم إلى الأعمال الجديدة التى تطلب العمال وتساعد الكبار ما وسعها الجهد وما تهيأت الظروف . . .

وظاهر فعلا أن التمادى فى الابتكارات والاختراعات الصناعية سيؤدى بالعمال إلى كوارث شتى ، ولكنه بالرغم من ذلك مفيد من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والدولية ؛ فبعد أن كان العامل يشغل يديه مع ذهنه فى إنتاج السلعة وينافس غيره فى ذلك ، صارت الآلة تخرج أمامه هذه السلعة كاملة محدودة بعـدد وافر وكميات كبيرة ؛ بيد أنه يقال إنه بالرغم من ذلك فقد استراح العامل من الناحية الجسمانية ، إذ اقتصر عمله على مجرد مراقبة الآلة التى قامت بالانتاج بدله ، ورُدَّ على هذا بأن ذلك مرهق له من الناحية العصبية . ويحار الفكر بين تفضيل إرهاق البدن أو إرهاق العصب ، وكثال للآلات التى تختصر العمل تلو العمل لتصل إلى الإنتاج النهائى من أقصر طريق ، فيؤثر ذلك على طلب وحاجة أصحاب العمل إلى العمال ، أنه جاء فى الأنباء (١٩٥١/٤/٢٧) أن اثنين من الفرنسيين يعرضان فى أمريكا عرضا « آلة كاتبة تفكر » ، إذ تنبعث فيها تيارات كهربائية تغير حجم الحروف وشكلها على النحو الذى يريده الإنسان ، وتعد صفحة كاملة لصحيفة يومية أو أسبوعية يمكن إرسالها إلى الروتوغرافور لحفرها ثم طبعها فوراً ؛ وهـذا الاختراع يجعل الصحف تستغنى عن آلات الجمع « اللينوتيب » وأجهزة الكبس ونظام وضع « الرتاج » وميزة الآلة الجديدة أن ثمنها لا يزيد كثيراً عن ثمن الآلات الكاتبة العادية » .

ولعلنا نظن أنه مهما تقدم اختراع الآلات الصناعية ، فإن الإنتاج لن يستغنى عن العامل ، بل إن الدولة الناهضة فى مثل هذا العصر المتقدم تعمل على الاستفادة من الآلة ومن العامل على حد سواء ، ولا تجعل للآلة المقام الأول وتهمل شأن العامل ، لأن هذا الأخير فى استطاعته أن يساهم بنصيب كبير فى تقدم الدولة الاقتصادى إلى جانب الآلة . . !

ويقول بعض الاقتصاديين إن الآلة وحدها قاصرة عن تقديم إنتاج قوى محترم دون الاستعانة بالعمال ؛ لأن الآلة

عبارة عن شيء أصم لا يفهم ولا يدرك ، بالرغم من قدرتها على إنتاج ما لا يستطيع عدد كبير من العمال أن يقوم به ، ولكن العامل شخص يفهم ويستخدم ذهنه في عمله ، والعمل الذي يقدمه مرتبط بشخصه إلى حد بعيد ، وهذا هو الفارق الملحوظ بينه وبين الآلة ، ولكنا قد بينا أن الاختراعات والكشوف تتجاهل مثل هذه الحقيقة وتبتكر « الآلات المفكرة » التي أشرنا إلى مثال منها ، فيستغنى بها عن المجهودين اللذين يقدمهما العامل ، وهما المجهود الذهني والمجهود العضلي ...

والآلة بعد كل هذا ذات حدين ؛ فاستخدامها في البلاد التي يقل فيها العمال يأتي بأحسن النتائج ، أما البلاد التي تكثر فيها الأيدي العاملة كاليابان ومصر مثلاً ، فإن الآلة تزدحم مع هذه الأيدي ، ولا تستطيع أن تتفق معها إلا إذا كان البلد متقدماً راقياً له استعداد كبير لنهضة اقتصادية وطفرة عملية جريئة ..

فمشكلة الرأسمالية الكبرى هي التي نشأت من استخدام الآلات في الإنتاج ، فأدت إلى زيادة الأرباح في جانب أصحاب الأعمال ، فحدا ذلك بهم إلى الانفصال الاجتماعي عن العمال الذين أصبحوا في نظرهم شيئاً لا يستحق ذلك الاهتمام الذي كانوا يضفونه عليه فيما مضى ، ومن ثم ظلت أجور العمال بالرغم من ارتفاع مستوى الحياة لا تفي بحاجة العمال ، أي لا تكفي لتهيئة مستوى معيشة مرتفع يتفق مع التقدم والنهوض الحديث ويتفق مع ما ينبغي أن يصل إليه العامل من سمو من الناحية الثقافية والخلقية والاجتماعية ليستطيع أن يخلق مجتمعاً ناهضاً يساير الحضارة الدولية ؛ إذ أن العمال أكثرية في المجتمع ، ومستواهم يؤثر كثيراً في مستوى البلد الذي يكونونه ويعيشون فيه ...

هنا شعر العمال بالضغينة تجاه هذه الطبقة الجديدة المتضخمة التي اقترن اسم المجتمع الذي يعيشون فيه باسمها فيدعى بالمجتمع الرأسمالي ، ورأوا أن الزيادة في الأجور التي يتظاهر أصحاب رءوس الأموال بإعطائها لهم لا تتناسب بحال مع ما يعود عليهم هم من ربح واغتناء ، وترتب على هذه الضغينة بين هاتين الطبقتين أن قام الخلاف وكثرت المنازعات بينهما ، أي أنه قد حدث عكس ما كان يحدث في أثناء المرحلة الأولى للعهد الصناعي ، تلك المرحلة التي لم يكن فيها ثمة فرق بين صاحب العمل وبين العامل الذي يعمل معه ...

قامت في المجتمع الرأسمالي — كما تبين — مشكلات وقضايا اقتصادية واجتماعية هامة ، ولكي نحكم عرضها ، نلخص أطرافها في ثلاثة أطراف ، نعرض لكل واحد منها .. وهذه الأطراف كما نرى هي : طرف العمال ، وطرف أصحاب رءوس الأموال ، ثم طرف الحكومة ..

طرف العمال عبارة عن موقف العمال من الطرفين السابقين : طرف أصحاب الأعمال وطرف الحكومة ، فموقفهم من طرف أصحاب الأعمال يتلخص في أنهم قد رأوا أن تذمرهم على هذه الشاكلة كل منهم على حدة ، وأن بعد كل منهم عن الآخر وعدم تعاونهم وتكاتفهم للدفاع عن مصالحهم والوقوف في وجه ذلك الطرف الذي يناوئهم ويواجههم ويقف أمامهم وقفة العدو المتحفز ، شيء لا ينفع ولا يجدي ، ولا يحقق لهم هدفاً ولا يصل بهم إلى غاية ؛ فقد مضت الأيام وكل عامل في واد بالنسبة إلى العمال الآخرين ، كل منهم ليس له هم إلا أن يقوم لعمله في الصباح الباكر ، ويعود إلى بيته في المساء ، ولكنه في ذهابه وعودته لا تصاحبه إلا زفرات الألم وأنفاس الضيق ، فقلبه تتجاوبه نزعة شاذة وبغض لأولئك الذين انتفخت أوداجهم على حسابه ، وهو هو ما غتم في بؤس وكرب ، وتتنازعه روح من الضيق لما يعانيه من فقر وانخفاض في مستوى المعيشة ؛ فرأى العمال أن الواجب يقتضي منهم توحيد صفوفهم وتنظيم جهودهم لمواجهة الطبقة المتحكمة في أجورهم ومستوى معيشتهم : طبقة أصحاب رءوس الأموال .

وكانت نتيجة هذا النحو أن أخذ العمال في تأليف « النقابات » أو الجمعيات والنوادي الخاصة بهم ، فالنقابة إذاً هي التنظيم العملي لرغبة العمال في مواجهة أصحاب الأعمال لأخذ الحق منهم والوصول بمستواهم إلى درجة تليق بهم وبدورهم الذي يقومون به في الاقتصاد السياسي في الدولة .

ويمكن أن يقال إن « نظام الطوائف » الذي عرف منذ عهد ليس ببعيد في جو العمال يعتبر النواة الأولى للنقابات ، فقد كانت كل فئة من الصناع خاصة بصناعة معينة ، تنشيء فيما بينها طائفة ؛ فالخبازون لهم طائفة تدعى « طائفة الخبازين » والحدادون لهم طائفة تدعى « طائفة الحدادين » وهلم جرا ؛ وكان لكل طائفة رئيس يدعى بأسماء معينة في كل حرفة ، وكان على من يرغب الاحتراف بإحدى الحرف المعروفة أن

يتقدم إلى رئيس طائفة هذه الحرفة ، وهذا يقوم بفحصه وامتحانه ، فإن وجده صالحاً لحرفته عينه « صبياً » صغيراً يلحق بأحد مصانع أو معامل الحرفة ، ثم يتدرج في مراتب الترقي حتى يصير بعد ذلك « أسطى » أو « معلماً » ، ولم يكن الراغب في العمل يستطيع أن يصل إلى هذه المراتب دفعة واحدة ؛ لأن ذلك لا يتفق مع مقتضيات الحرفة ولا يتوافق مع عدالة المحترفين ، « فالأقدمية » إذاً كان لها باع طويل في حياة المحترفين بالحرف الصناعية ، ويمكن أن يقال إن « الطائفة » كان لها نفوذها ، وكانت لها أهميتها في الدفاع عن العمال المنضوين تحتها ، وكان كل عامل يعمل جهده للولاء لطائفته والتفاني في سبيلها وسبيل « أصولها » مهما كلفه ذلك ؛ والباحث المتتبع للحياة الاجتماعية التي نشأت فيها هذه « الطوائف الحرفية » يرى ذلك بوضوح ، فكنا مثلاً نرى أن الصانع إذا أقام عرساً أو مأتماً ، فدعوه أو معزوه كلهم من أبناء الطائفة التي ينتمي إليها ، فهم يشاركونه في أفراحه وأتراحه ، وكنا نرى في المحافل الكبرى كالموالد مثلاً ، أن الاعتبارات الطائفية للصناع كان لها حسابها الخاص ؛ فكل طائفة لها تمثيلها في كل محفل ، وذلك بتسيير عربة من العربات الخشبية المعروفة ، تحمل بعض أعضاء الطائفة يهللون لطائفتهم بعبارات بلدية تثير من حولهم كل انتباه ، والفوز للطائفة التي تكثر التهليل وتكثر الدفاع عن شرف صناعتها وأصالة أبنائها ، حتى إن كثيراً من المشاجرات كانت تقوم بين الطوائف في مثل هذه المحافل بشأن رغبة كل منها في الاستعلاء والسبق على الأخرى ، وفي توطيد دعائمها في المجتمع البلدي في الأحياء العامة ، ويلاحظ أنه في هذه المعاركات الطائفية البلدية كانت الأسلحة المستعملة فيها هي نفس « الآلات » التي كان يستعملها أبناء كل طائفة في عملهم .

ولكنه بالرغم من ذلك لم تكن « الطائفة » نقابة بالمعنى الذي نفهمه اليوم تماماً . ونستطيع أن نوجز الفروق بين النقابة والطائفة في أمور ، منها :

أولاً — أن الطائفة كانت تنظيماً أولياً لمحترفي الصناعات والأعمال اليدوية ؛ وذلك لأن الصناعات والحرف التي كانت تقوم من أجلها كانت أولية أيضاً . أما النقابة فظروفها أكبر إشكالاً من ظروف الطائفة .

ثانياً — أن الطائفة كانت تواجه الطوائف الحرفية الأخرى ، وتحاول أن توطد دعائمها في المجتمع عن طريق القوة والأصول البلدية ، في حين أن النقابة اليوم تواجه طرفين هما طرفا أصحاب الأعمال وطرف الحكومة .

ثالثاً — أن الحرف التي كانت لها طوائف لم تكن قائمة على أساس الآلات ، بل كانت الآلات بالنسبة لها شيئاً تافهاً إلى جانب العمال الذين كانوا هم أعضاءها والقائمين عليها ، فلم ينشأ صراع بين طبقة العمال وبين المحترفين الكبار بالأقدمية كالأسطوات والمعلمين ؛ وذلك لعدم وجود أصحاب رءوس أموال ، لعدم وجود آلات تعتبر رءوس أموال ، ومحترفو الصناعات الكبار لم يكونوا يكونون طبقة أصحاب رءوس الأموال ؛ لأنهم لم يكونوا يزيدون على أن يكونوا صناعاً محترفين يستطيع أن يصل إلى مركزهم كل عامل مجد يتخطى درجات السلم بصبر وجلد ، فأهم الأغراض التي تقوم على أساسها « النقابة » اليوم لم تكن نفس الأغراض التي قامت من أجلها الطائفة فيما مضى .

رابعاً — أن النقابة تضيف اليوم إلى أغراضها السياسية والاقتصادية أغراضاً اجتماعية يقصد بها تحقيق مستوى أفضل من الثقافة والخلق والصحة للعمال الداخلين في نطاقها ، ولم تكن ظروف الطائفة تساعدها على تحقيق مثل هذه الأغراض الكثيرة في السياسة والاقتصاد والاجتماع .

ولقد استعمل العمال في النظام الرأسمالي سلاحين : أحدهما « الإضراب » وذلك في مواجهة أصحاب رءوس الأموال ، وثانيهما « المظاهرة » ، وقد كان ذلك يخص « الحكومة » باعتبارها قائمة على الأمن والنظام في المجتمع ، ويقابل سلاح العمال بالنسبة لأرباب الأعمال سلاح « الإغلاق » في يد هؤلاء الأخيرين . أما الحكومة فسلاحها في مواجهة العمال هو « القمع » حيناً والتشتيت حيناً آخر . .

أما الطرف الثاني طرف أرباب الأعمال ورءوس الأموال فإذا كان العمل الذي يقوم به أعضاء نقابة العمال عملاً يستطاع فيه الاستغناء عن العمال واستخدام الآلات بدلاً عنهم ، كان ذلك داعياً لفشل العمال وإخفاق سلاحهم ؛ لأنه في هذه الحالة سيستغني أرباب العمل عن كثير من العمال ويقدمون على استخدام الآلات ؛ إذ أن ذلك في حسابهم أفضل لهم وأربح من الرضوخ لمطالب العمال برفع الأجور .

أما إذا كان العمل الذي يقوم به العمال عملاً هاماً تطغى أهميته على أهمية الآلات ؛ أو كانت السلعة التي ينتجونها تلاقي قبولاً حسناً ورواجاً كبيراً في الأسواق مما يحقق لصاحب العمل ربحاً وفيراً ، فإنه يقبل مطالب العمال ونقاباتهم ورفع الأجور ، وكذلك يفعل إذا كان محتكراً ، وأراد أن يسدّ دونه باب النقد لما يسببه احتكاره من امتصاص لدماء الاقتصاد الاجتماعي واحتلال للأسواق الاقتصادية في المجتمع ، ويحدث ذلك على وجه الخصوص إذا وجدت نقابة أرباب العمال أن الزيادة في الأجور التي يطالب بها العمال زيادة بسيطة معتدلة يستطيعون أداءها دون أن يتحملوا في ذلك خسارة ملحوظة أو عبئاً كبيراً ، وكذلك يقبل أرباب الأعمال رفع الأجور وفق مطالبة العمال ، إذا كان في مقدورهم نقل زيادة الأجور المطلوبة على المستهلكين للسلعة ، وذلك بأن يرفعوا ثمنها في الأسواق ؛ إذا كانت سلعة هامة مطلوبة من أكثرية الجماهير ؛ ولكن يلاحظ أن العمال وهم مستهلكون بل يكادون يكونون أكثرية المستهلكين — هم أنفسهم سيتأثرون برفع أثمان السلعة الضرورية لهم ، ومن الناحية السياسية يقبل أصحاب رءوس الأموال مطالب العمال رغبة في الحصول على أصواتهم — وهي كثيرة — في الانتخابات . . .

ولا تلجأ نقابة أرباب الأعمال إلى سلاح « الإغلاق » في وجه العمال إلا إذا رأت أن الامتناع عن الإنتاج أفضل لها من رفع الأجور الذي يكبدها خسائر فادحة ، خصوصاً إذا كانت السلعة التي تنتجها لا تمر في دور رخاء وكسب ، وأحياناً يكون السبب في هذا « الإغلاق » إرغام العمال على الرضوخ لعرض أرباب الأعمال والرجوع إلى عملهم من جديد حسب الأجور السائدة .

ويلاحظ أن قيام « النقابة » كان له أثر محمود في الوصول إلى التفاهم دائماً بين طبقتي العمال وأرباب الأعمال وفي تقليل الخلافات بينهم ، كما أدى قيامها إلى محاولة رفع مستوى العمال الثقافي والصحي والخلقي بما تعمله النقابة لتحقيق ذلك بواسطة أمور متعددة ، كما أن من واجباتها المطالبة بتقليل ساعات العمل والعمل على موافقة شروطه لمطالب العمال .

وتختلف « النقابات » في ظل الرأسمالية عنها في ظل الفاشية ؛ فهي في الأولى أداة الغرض منه تحقيق التوافق بين مصالح الفريقين في ظل نظام الحرية الاقتصادية ، وهي في الثانية تنظيم سياسي تقوم على أساسه الحكومة الفاشية ، فالنقابية في الفاشية أساس اقتصادي وتنظيم سياسي ، وفي الرأسمالية علاج اجتماعي وطريقة فنية تلائم أحكام الحياة الاقتصادية في المجتمع الرأسمالي .

أما الطرف الثالث وهو طرف الحكومة ، فنوجز اعتباراته فيما يلي :

أولاً — تستطيع الحكومة أو السلطة العامة أن تحدد حداً أدنى لأجور العمال في صناعة رأت أن أجورها مبالغ في انخفاضها ، حفظاً لكرامة العمال ومساعدة لهم ، إذا لم يكن لهم نقابة أو لم يستطيعوا إنشاء واحدة لهم تدافع عن مصالحهم ، ويطول بنا الحديث لو حاولنا بيان مزايا هذا التحديد أو الاعتراضات عليه .

ثانياً — لما رأت الحكومة ذلك الصراع القائم بين طبقتي العمال وأرباب الأعمال ، وما ترتب عليه من تهديد للأمن وفقدان للصالح العامة ، تدخلت في علاقات العمل ، فكان من نتيجة ذلك أن أصدرت قوانين تستطيع بها أن تنظم هذه العلاقات ، وهذا ما يعرف باسم « تشريع العمل » فأصدرت قوانين للنقابات ولعقد العمل الفردي ولتحديد ساعات العمل ومنع النسوة والصغار من القيام ببعض الأعمال .

ثالثاً — رأى العمال في جو الرأسمالية أن طبقة أصحاب رءوس الأموال هي الطبقة الحاكمة في المجتمع ، وأنها تسعى لتوطيد دعائمها وتقوية شأنها والإثراء الفاحش على أكتافهم ، فعملوا من جانبهم على الوصول إلى الحكم وإقامة حكومات من أحزاب العمال لتحقق لهم حياة سعيدة ولوطنهم رقياً صناعياً وعدالة اجتماعية ، نظراً لأن العمال أغلبية في المجتمع ؛ وقد أدى ذلك بهم إلى إشعال نار الثورات وإلى العمل على خذل طبقة أرباب الأعمال في الانتخابات ، وانتخاب أعضاء أحزاب العمال ، والعمال هم الأكثرية ، مما أدى بالتالي إلى توصل العمال إلى تسلم مقاليد الحكم في كثير من البلاد ؛ فمن البلاد الرأسمالية التي تقلد فيها العمال مقاليد الحكم بريطانيا . أما تقلد العمال مقاليد الحكم في ألمانيا وإيطاليا وسواها من الدول الديكتاتورية ، فقد كان على أساس غير أساس النظام الديموقراطي الذي يسود مجتمعات الرأسمالية .

أحمد طه السنوسي

من مناهج التراجم
عنـــد المسلمين

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

تمتاز المكتبة العربية بكونها غنية فى كتب التراجم والطبقات ، وإذا استثنينا كتابى « إرشاد الأريب » لياقوت الحموى ، و « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، فإن كتب التراجم بعد ذلك أخذت تتجه إلى تراجم الرجال عصراً فعصراً ، أى أن رجال كل قرن يجمعهم كتاب واحد ، على الضد من « وفيات الأعيان » مثلا الذى يجمع بين دفتيه مئات من الرجال عاشوا فى مختلف العصور حتى القرن الذى عاش فيه المؤلف ، وهو القرن السابع ، أو على وجه الدقة فى سنة ٦٥٤ هـ ، وهى السنة التى رتب فيها أبو العباس بن خلكان معجمه الجليل فى تراجم الرجال .

ولقد ظهر كتاب « الدرر الكامنة » لشهاب الدين ابن حجر العسقلانى مترجماً للرجال الذين عاشوا فى القرن الثامن ، وهو أول كتاب يترجم لرجال القرن الواحد ، ويجمعهم فى خط واحد ، على قدر ما نعرف ، ومن بعده أخذت كتب « التراجم القرنية » تتوالى على مر العصور ، فهناك كتاب « الضوء اللامع » للمؤرخ الناقد شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، وفيه يترجم لرجال المائة التاسعة ، وهناك كتاب « الكواكب السائرة » للغزى ، وهو فى تراجم رجال القرن العاشر الهجرى ، وكتاب « خلاصة الأثر » للمحبى ، وهو فى تراجم رجال القرن الحادى عشر ، وكتاب « سلك الدرر » للمرادى ، وهو فى تراجم رجال القرن الثانى عشر ، ولا ننسى فى هذه الناحية كتاب « تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر » المنشور له أحمد تيمور باشا ، وقد ترجم فيه لأربعة وعشرين من أعيان القرنين ، فأطال فى بعض التراجم — كترجمته للأديب الشاعر محمد أ كمل — وأوجز فى بعضها — كترجمته للشيخ أحمد وهبى المحرر بالوقائع المصرية فى بضعة سطور .

ولكل مؤلف فى تراجم الرجال خطته ومنهجه ، وقد يعلن المؤلف خطته فى مقدمة كتابه ، وقد يترك ذلك ويدع طريقته فى الترجمة تتحدث عن نفسها من خلال الكتاب

وإذا رجعنا إلى ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » وجدنا أنه يوجز خطته فى خطبة الكتاب إيجازاً ، فيشير أول الأمر إلى ترتيبه وفق أسماء المترجم لهم ، بدلا من ترتيبه حسب السنين كما هو الشأن فى كتب التاريخ الإسلامى ، وراعى فى الترتيب الهجائى أول الحروف أولا فإذا استوت أوائل الحروف رتب الأسماء بحسب الحرف الثانى ، فإذا استوى الحرفان الأول والثانى رتب الكلمة وفق الحرف الثالث ، وهكذا ، ويعترف ابن خلكان بأن ترتيب المترجم لهم على حسب الحروف الهجائية يفضى إلى تأخير المتقدم وتقديم المتأخر فى العصر ، فيجىء رجل من رجال القرن الخامس مثلا بجوار رجل من رجال القرن الأول . . . ولكنه يسلم بأن المصلحة أحوجت إلى هذا الترتيب .

وعيب طريقة الترتيب على حروف المعجم أنها تقتضى معرفة الباحث أو القارىء لاسم المترجم له ، أما الكنية أو اللقب فإنها لا تفيد شيئاً فى البحث عن الترجمة . فالبحث عن ترجمة الشاعر أبى تمام يقتضى معرفة اسمه وهو « حبيب » ليبحث عنه فى حرف الحاء ، والبحث عن ترجمة « الجرمى » العالم النحوى يقتضى معرفة اسمه ، وهو « صالح » ليبحث عنه فى حرف الصاد ، والبحث عن ترجمة الشاعر المتنبى

يقتضي معرفة اسمه ، وهو « أحمد » ليبحث عنه في حرف الهمزة ، وهكذا .

وإذا عدونا طريقة الترتيب إلى طريقة التأليف والترجمة رأينا ابن خلكان لم يقصر كتابه على طائفة مخصوصة مثل العلماء أو الملوك أو الأمراء أو الوزراء أو الشعراء (بل كل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه ذكرته وأثبت من أحواله بما وقفت عليه مع الإيجاز كيلا يطول الكتاب ، وأثبت وفاته ومولده إن قدرت عليه ، ورفعت نسبه على ما ظفرت به ، وقيدت من الألفاظ ما لا يؤمن تصحيفه ، وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة ليتفكه به متأمله) .

فالمؤلف هنا : أولاً لا يجعل الكتاب خاصاً بأهل قرن بعينه ، وإنما يجمع به الرجال في عدة قرون ، ثانياً ليس الكتاب في طبقات معينة من الرجال ، كالمحدثين والمفسرين والوزراء ، ولكنه عام يشمل ألواناً من الناس برعوا في ألوان من العلوم والآداب ، ثالثاً التزم المؤلف الإيجاز في أكثر مواطن الكتاب حتى لا يطول ، ومع هذا فقد طالت بعض التراجم بالنسبة إلى البعض الآخر ، كترجمة « الحلاج » وترجمة « جعفر البرمكي » ! وقصرت بعض التراجم قصراً كثيراً ، كترجمة « ابن نافع الفقيه المالكي المصري » و « ابن القطان البغدادي الفقيه الشافعي » ، رابعاً يعني ابن خلكان بإثبات تاريخ وفاة المترجم له وتاريخ مولده إن قدر على ذلك ؛ والحق أنه بذل في ذلك جهداً جعل كتاب « وفيات الأعيان » مرجعاً لتحقيق الوفيات والمواليد على السواء . خامساً يحقق المؤلف أنساب المترجم لهم ، ويردها إلى أصولها ، سواء أكانت من طريق الولاء ، أم طريق النسب ، فيقول مثلا في ترجمة « حمزة القارىء » المشهور : (أبو عمارة حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الكوفي المعروف بالزيات مولى آل عكرمة بن ربعي التيمي . سادساً يضبط الألفاظ التي لا يؤمن تصحيفها بالحروف لا بالشكل ، فيقول مثلا في ترجمة الكاتبة « فخر النساء شهدة بنت أبي نصر أحمد بن الفرج بن عمر الإبري الكاتبة الدينورية » : (والإبري بكسر الهمزة وفتح الباء الموحدة ، وبعد الراء ياء مثناة من تحتها ، هذه النسبة إلى الإبر التي هي جمع إبرة التي يخاط بها وكان المنسوب إليها يعملها أو يبيعها . . . والدينورية بكسر الدال المهملة ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، وفتح النون والواو وفي آخرها راء ، هذه النسبة إلى الدينور ، وهي بلدة من بلاد الجبل ينسب إليها جماعة من العلماء) .

ويقول ابن خلكان بعد ذلك في مقدمة كتابه : (إني بذلت الجهد في التقاطه من مظان الصحة ؛ ولم أتساهل في نقله عمن لا يوثق به ، بل تحريت فيه حسبما وصلت القدرة إليه) ويؤخذ من هذا الكلام القليل الوجيز أن ابن خلكان . أولاً : بذل الجهد في الرجوع إلى المظان الصحيحة ليأخذ عنها تراجم الرجال وأخبارهم ، ثانياً : أنه تحاشى المصادر غير الموثوق بها ولم يتساهل في هذه الناحية ، ثالثاً : أنه قصد وجه التحري في كتابة التراجم وفق ما أسعفته قدرته وساعدته منته .

وهذا النهج في مجموعه منهج سليم من ناحية تحري الحقائق والتأكد من الوقائع ، وأخذ النفس بالشدة والتصعب حتى لا يتسرب إلى الحقائق المراد إثباتها ما لا تطمئن النفس إلى صحته ، ولا يرتاح القلب إلى سلامته .

وإذا كان ابن خلكان قد ترجم لثلث من الرجال ممن لم يعاصرهم ولا سمع القريب من أخبارهم ، ولا سمع عن المتصلين بهم ، كما ترجم في الوقت نفسه لجماعة من معاصريه ، فإنه في الحالين لم يحد عن النهج الدقيق المتواضع الذي أخذ به نفسه في خطبة كتابه ، وهو بالطبع حين يترجم لأعيان ستة من القرون قبل عصره فإنه يرجع إلى المؤرخين وكتاب التراجم والأخبار والنوادر من قبله . فيرجع إلى ابن قتيبة وإلى الثعالبي في « اليتيمة » ، وإلى ابن الجوزي في كتبه وخاصة في « المنتظم » و « صفة الصفوة أو صفوة الصفوة » و « شذور العقود » وإلى القضاعي في كتابه عن « خطط مصر » وإلى كثير من المؤلفين السابقين ، ولقد ضاع كثير من الكتب التي رجع إليها ابن خلكان واستمد منها مادته في كتابه ، ومن هنا يعد كتاب « وفيات الأعيان » فوق قيمته في التراجم وعاء لكثير من الكتب التي أضاعها الزمان ، وبعثرتها يد الحدثان .

رسائل من انجلترا

— ٢ —

الآنسة بثينة عبد الحميد محمد

١٩٤٨/٤/١٧ .

قضيت الأسبوع الأخير من عطلة عيد الفصح في منزل صديقة لي إنجليزية تدعى م . د في ضاحية نوتنهام في شمال لندن ، وقد كان أسبوعاً ممتعاً ومفيداً في الوقت نفسه . فقد أعد لنا والدها برنامجاً دقيقاً لزيارة الأماكن الهامة بالقرب من لندن ، كما ترك لنا وقتاً للاطلاع أو التصرف في فضائه كما نشاء . وإنه ليسرني رؤية السيدة الإنجليزية تدير منزلها دون الاستعانة بالخدم مطلقاً ، فهي تقوم بتنظيفه وبالطهي وشراء الحاجيات والحياطة وغسل وكي الملابس ، علاوة على تربية أطفالها ، كما أنها تشترك اشتراكا لا بأس به في الحياة الاجتماعية والثقافية ، وكل ذلك نتيجة لحسن توزيعها لوقتها ولمحافظتها على صحتها وصحة أسرتها .

١٩٤٨/٧/١٨

بدأ أمس مؤتمر دولي في كروهول — منزل طلبة القسم الداخلي — للبحث في مشاكل الحالة الحاضرة ، وقد افتتحه رئيس بلدية شيفيلد . ثم تلت ذلك مناقشة « مجمع الفكر » الذي كان كل عضو فيه يمثل حزباً سياسياً معيناً . فكان الأول محافظاً ، والثاني شيوعياً ، والثالث اشتراكياً ، والرابع حراً . وبالرغم من اختلاف مبادئهم كل الاختلاف نظرياً ، فإن وجهات نظرهم متقاربة من جهة ضرورة تهيئة مستوى معين المعيشة لكل فرد من أفراد الدولة ، فالمحافظ مثلا يعارض فكرة التأميم بوجه عام ، ولكنه يقر التشريعات الحكومية التي تمكن أصحاب الأموال والعمال ، كما تمكن الأفراد والحكومات على السواء ، من العمل لصالح الشعب والدولة .

فالأحزاب جميعاً تقر أنه من واجب الحكومة تقديم الخدمات الصحية للشعب بأكمله وللأطفال بوجه خاص ، إذ تقدم لهم وجبات طعام مجانية ، كما يوزع عليهم اللبن ويقدم لهم العلاج اللازم بالمدارس . أما خارج المدرسة فهناك هيئات حكومية وخاصة تبحث في حالة الأسرات المنكوبة

وحين يذكر ابن خلكان حكاية أو رواية عن أحد الشخصيات المعاصرة له أو القريبة من عصره فإنه يذكر اسم راويها أو حاكيها . والكتاب مملوء بمثل هذا ، إلا أن الاستشهاد يطرف هنا بمثل هذه النادرة عن الشاعرة الشامية « تقية بنت أبي الفرج » قال ابن خلكان : (وحكى لي الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري رحمه الله أن تقية المذكورة نظمت قصيدة تمدح بها الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى ، وكانت القصيدة خمرية ، ووصفت آلة المجلس وما يتعلق بالخمر . فلما وقف عليها قال : الشيخة تعرف هذه الأحوال من زمن صباها !! فبلغها ذلك ، فنظمت قصيدة أخرى حربية ، ووصفت الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف ، ثم سيرت إليه تقول علمي بهذا كعلمي بهذا ... وكان قصدها براءة ساحتها مما نسبها إليه) .

وحين يقف ابن خلكان عند كلام لم يتحقق لديه ولم تثبت عنده صحته فإنه يشير إلى ذلك . كقوله في ترجمة الشيخ الرئيس ابن سينا بعد أن أورد قصيدته في النفس :

(ومن المنسوب إليه أيضاً — ولا أحققه — قوله :

اجعل غـــذاءك كل يوم مرة
واحذر طعاماً قبل هضم طعام)

وليس بعد هذا الاحتراس مزيد حين يروي الراوون ، ويترجم المترجمون .

محمد عبد الغني حسن

وتساعد العاطلين وتقدم مساعدات ونصائح للمدنيين فى كل ما يهمهم معرفته .

وهذه الروح التعاونية يجب أن تسود العلاقات بين الأحزاب دائماً ؛ فلو كانت خدمة الوطن والمواطنين هى هدف كل حزب على حدة ، فإن الفروق فى النظريات الحالة أو المصالح الشخصية يجب أن تكون أقل أهمية من ضرورة العمل على تهيئة الفرصة لكل فرد لأن يعيش عيشة خالية من الذل والبؤس والجهل والمرض التى لا يزال هناك كثيرون يقاسونها .

١٩٤٨/١٢/٣٠

إن آداب اللياقة فى الحياة الاجتماعية واحدة تقريباً فى معظم بلدان العالم الحديثة بأن تقاس بمقاييس المدنية ، وإن ما يميز شعباً عن آخر هو اختلاف العادات والتقاليد ووجهة النظر إلى الحياة عامة ؛ وليس الغرض هنا الدفاع عن عادات الغرب أو تفضيلها على عاداتنا ، ولكن لا بأس علينا كمصريات من أن نقتبس منها الصالح الذى نحتاج إليه ولا ضرر من اتباعه — فمثلا كثيراً ما يواجه الطالب المصرى بأربعة أشهر طوال كعطلة فصل الصيف ، لا يدرى كيف يقضيها ، بل ربما لا يفكر مطلقاً فى أن هذه مشكلة تحتاج إلى حل أو ترتيب خاص ، وعلى ذلك فهو يضيعها سدى فى التنقل من مقهى لآخر ، أو من شاطىء لشاطىء ، كما أن طالباً آخر يشعر بالملل لطول الوقت ، فيعتريه الكسل والخمول ، ويفقد القدرة على العمل بدلا من أن يستعيد نشاطه ، حتى إن العام الجديد يفاجئه وهو غير مستعد له أى استعداد ، ويظن الشاب أن مجرد الراحة أو الامتناع عن أداء أى عمل هو الغرض من العطلة ، ولكن تغيير نوع العمل كثيراً ما يعود على الفرد بفائدة لا تقل عن فائدة اللهو واللعب ، وعلى ذلك فإننا نجد الطلبة هنا قد فطنوا إلى تلك الفائدة ، واستفادوا بالعطلات الدراسية فى الاشتغال بكافة أنواع الأعمال الخارجية التى تحتاج إلى أيد عاملة ، والتى تختلف كل الاختلاف عن عملهم الذهنى الجامعى ، وإن الطلبة والطالبات يتسابقون فى هذا المضمار ؛ فمنهم من يقوم بتوزيع الخطابات أو فرزها فى دور البريد ، ومنهم من يساعد فى المحال التجارية وفى المحطات ومحال تناول الأطعمة ودور السينما والمسارح ، كما أن المصانع والمستشفيات والحقول تستفيد سنوياً بعدد كبير من طلبة وطالبات الجامعات ؛ وقد سمعنا مرة عن خريج من خريجى كلية العلوم بالجامعة ، وكان أول دفعته ، وكان ينتظر السماح له بالاشتراك بقسم الدراسات العليا ، وأمامه متسع من الوقت يريد قضاءه فى شىء يفيد نفسيا ، سمعنا أن هذا الشاب المثقف قام بتوزيع اللبن على المنازل أثناء عطلته .

وإذا دعى طالب أو دعيت طالبة لدى أسرة لا خدم لها — وأغلب الأسر اليوم لا يحتمل دخلها مع تكاليف الحياة الباهظة نفقات الخدم — فإن الضيف منهم يعرض على ربة الدار المساعدة فى جمع الصحون وغسلها وتجفيفها ليسهلوا عليها عملها ، وهم يشعرون فى ذلك بسرور عظيم ولا يجدون أى غضاضة فى تقديم يد المساعدة إلى كل من يحتاج إليها بل العكس ، فهم يرون أن هذه ميزة من ميزات الرجل المثقف لأنه لا يستحى من أى عمل ، ولا يرى فى مساعدة الناس حطاً لكرامته .

١٩٤٩/١/١٣

« رأيت فى الأسبوع الماضى أوبرا «عايدة» لفردى ، ومن الطريف أن نذكر كيف كان فردى متردداً فى وضع تلك الأوبرا القوية ، الدقيقة فى التعبير ، ثم قابلها الإيطاليون أنفسهم بعدم الرضا والارتياح ، من جهة موضوعها الشرقى وروح التجديد التى أبداها فيها فردى ، ثم لاهتمامه الزائد بالأوركسترا بالنسبة إلى الغناء ، حتى أنهم اتهموه بتقليد فاجنر الذى كان يمثل للإيطاليين تفوق الألمان فى الموسيقى كتفوقهم فى الحرب البروسية الفرنسية ، ولم يتنبأ أحد وقتئذ بالمستقبل الذى كان ينتظر « عايدة » التى مازالت تثير الإعجاب والتقدير بالرغم من مرور حوالى ثمانين عاماً على تأليفها ، خصيصاً لحفلة افتتاح قناة السويس .

١٩٤٩/٧/١٤

حضرت إلى أكسفورد منذ أسبوع لقضاء ستة أسابيع

فى دراسة عن المدنية المعاصرة فى أوربا ، وتشمل المجموعة التى تدرس هنا مايربو على مائتى شخص من مختلف بقاع العالم ، ومعظمهم من الولايات المتحدة .

وكثيرات منا يقضين وقت الفراغ فى الاطلاع فى مكتبة الجامعة وتدعى مكتبة بودليان ، وهذه المكتبة ، وكذلك مكتبة جامعة لندن ومدرسة الاقتصاد بلندن مفيدة ومريحة للغاية ، سواء فى نظام حجرات الاطلاع من جهة الراحة فى الجلوس والإضاءة ، أم فى تيسير سبل الاستعارة ، وسرعة إحضار مايلزم كل طالب ، كما أن معظم المراجع الهامة يوجد منها عدد كاف من النسخ حتى لايضطر الفرد إلى الانتظار مدة طويلة حتى يحصل على النسخة الوحيدة الموجودة ، أو يعلم أنها مستعارة فى الخارج .

٢٠/٩/١٩٤٩

أبعث بهذه الرسالة الأخيرة فى طريق عودتى إلى أرض الوطن . فقد تركت لندن فى صباح اليوم السابع عشر من سبتمبر ، ووصلت باريس فى الرابعة بعد الظهر ، وكانت الرحلة مريحة للغاية ، وإنى أقطن هذا الأسبوع فى ريدهول وهى مركز ثقافى أمريكى للسيدات الجامعيات ، وكل شىء يسير على مايرام . وقد تمكنت فى الأيام القليلة الماضية من زيارة أمكنة كثيرة هنا هامة مثل متحف اللوفر ومتحف الفنون الزخرفية وجامعة السوربون ودار الأوبرا وبعض القصور القديمة ، وحدائق التوليرى وبرج إيفل ومسلة الأقصر وكنيسة نوتردام وقبر نابليون وغيرها .

تقطن معى هذه الدار فتاة أمريكية تعرفت عليها وصادقتها أثناء دراستى الصيفية فى جامعة أكسفورد ، وهى تقوم بالتدريس هنا لحين عودتها إلى وطنها بالولايات المتحدة الأمريكية ... وهى تقضى معى كل ليلة بعض الوقت لتقص علىّ ما لاقته طوال يومها فى الزيارات المختلفة وما لاحظته عن البلاد وعن شعبها ، ثم ينتهى بنا الحديث إلى ذكر الأيام التى قضيناها معاً فى انجلترا ، وماوجدنا فيها من أمور تختلف عما اعتدنا عليه فى وطنينا .

تأسف تلك المدرّسة الأمريكية لقصر المدة التى أتيحت لها لزيارة انجلترا ، فقد تركت فى نفسها تلك الزيارة مع قصرها آثاراً لا تمحى لحسن ضيافة شعبها وترحيبهم بالزائرين ومعاونتهم للغرباء من كل جنس . كما أن نشاطهم ومثابرتهم على العمل ، ومقدرتهم على تحمل الظروف القاسية التى يعيشون فيها الآن ، وحسن تصرفهم فى مشاكل الحياة اليومية ، كل ذلك أعطاها فكرة هى أن هذا العالم القديم لم يمت بالرغم مما سمعته فى العالم الجديد بخلاف ذلك . إن هذا العالم الغربى لم يمت ولن يموت بالسهولة التى كانت تتصورها ، لأنه أثناء تطوره قد كون رجالا شجعاناً ذوى نفوس أبية هم لا شك أعظم قيمة من الثروة المادية المعرضة للزوال . فى حين أن العالم الجديد عالم مادى صرف ، لا يهتم بتقويم الخلق وتكوين الشخصيات مثل ما يهتم بالمظاهر . ولكن العالم الجديد هو وطن تلك المدرسة الذى ينتظرها بعد قليل من الوقت . ينتظرها ليستفيد بخبرتها ودراستها ووجهة نظرها التى اتسع أفقها ، فى إعلاء شأنه بين الأمم .

كانت زميلتى كلما طالت بنا الجلسة ، وسكن الليل ، تحلق بفكرها فوق هذا العالم المضطرب ، وتسمو بذهنها فوق المسائل الشخصية التى كنا نتحدث عنها ، وتنظر من ناحية فتجد العالم الغربى الذى يجذبها نحوه بثقافته وقوته واتساع أفقه ، وفى الجهة الأخرى تجد وطنها وأهلها وعشيرتها أى كل ما تربطها به صلات القرابة والوجدان والشعور ، كانت تتمنى أن ترتفع الجميع معها إلى تلك القمة التى كانت تنظر منها تجاه العالم أجمع ، حيث ترى أن واجب الجميع هو العمل على تحقيق السعادة لأكبر جزء ممكن من هذا العالم ، تلك هى الفكرة السامية التى يجب أن تكون الهدف الأول فى هذا العصر . فقد انقضى الوقت الذى كان فيه الإنسان لا يفكر إلا فى نفسه ثم أسرته ثم قبيلته ثم أمته ، وحان الوقت الذى يجب أن يعمل فيه الفرد فى الوطن العالمى الأعظم لصالح المجتمع البشرى بأكمله ... »

تركت زميلتى ... فى منتصف الطريق ... بين انجلترا والوطن ... وقد أخبرتنى بعد ذلك بعودتها إلى الوطن ... ولكنها ما زالت تفكر ... حائرة !

بهيئة عبد الحميد

ولز ومنزلة القصة فى الأدب

للأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد

كتبت فى الصيف الماضى كلمة فى أحد أعداد الثقافة عنوانها «مستقبل الأدب فى مصر» رددت فيها على محاضرة ألقاها أحد الأدباء بمحطة الإذاعة المصرية ، وأكثر فيها من ذكر الديباجة والجزالة حتى لقد حصر فيهما مستقبل الأدب العربى ، وأظهرت أن حسن الديباجة وما إلى ذلك من نعوت إن هى إلا رداء للموضوع الأدبى المراد بسطه ، وأن الأدب فى العالم كله قد انحط فرع الشعر فيه وازدهرت المقالة نتيجة لرقى الصحافة ، وأن القصة هى آخر ما بلغه الفن الأدبى من رقى فى العصر الحديث .

وقد وجدت فى المجلد الرابع (الذى يطبع الآن) من كتاب معالم تاريخ الإنسانية للعلامة هـ ج ولز فصلا لخص فيه تاريخ الأدب العالمى إبان القرن التاسع عشر ومستهل العشرين فآثرت أن أتحف به قراء الثقافة لما رأيته فيه من إعجاز جميل وقائمة محيصة ونفاذ إلى الغاية .

جعل ولز عنوان ذلك الفصل «والقصة تتبوأ منزلة الصدارة فى الأدب» ، مما يؤيد ما ذهبنا إليه فى تلك المقالة من أن القصة سواء أكانت طويلة أم قصيرة أم أقصوصة ، إنما هى الذروة التى بلغها الأدب فى عصرنا هذا . على أن ولز لا يعد كل حكاية قصة إذا هى خلت من المقومات الفنية التى يعدها شرطاً ضرورياً لقيام القصة ، وهى تمثيلها تمثيلا صحيحاً لحياة الناس وتحليلها لنفسياتهم وعواطفهم ، وإظهارها لإحساساتهم وأهوائهم ودوافعهم ، ووصفها لطرائق عيشهم من واقع حقيقتها ، وما على الآن إلا أن أخلى بين القارئ وبين ولز إذ يقول :

«من المحال فى هذا المكان الذى بين أيدينا الآن أن نملى إليك إلا هيكلا ، لا يتجاوز أيسر البيانات وأشدها تبسيطاً نذكرها عن ذلك الفيض العظيم فى النشاط الأدبى التى حاولت القوى الجديدة فى قرن التوسع ذاك أن تعبر بها عن نفسها . وقد سبق أن عالجنا الفكرات الرئيسية لمؤسسى الاشتراكية ومكونيها وتأثير النظرة العلمية النامية على الفكرات الدينية والسياسية والاجتماعية . على أنه من المستحيل علينا أن نفى بكامل حقوق الأهمية الهائلة والتأثير المتواصل لمفكرين عمليين من أضراب آدم سميث (١٧٢٣ — ١٧٩٠) ومالتوس ، (١٧٦٦ — ١٨٣٤) وخلفائهما ، أو لتلك النظر والتأمل العميق النفاذ أمثال ما جاء به شوبنهور (١٧٨٨ — ١٨٦٠) ونيتشه (١٨٤٤ — ١٩٠٠) فى ألمانيا . ثم يجىء هيجل (١٧٧٠ — ١٨٣١) وهو أشبه ما يكون بصنف جلاب مبرد فى أسفل قائمة أطعمة طويلة جداً ، ولا بد لنا من تركه . ولقد انحرف بتيار الفكر العصرى انحرافاً عجيباً جداً ، ولكنه ينتعش من تأثير انحرافه .

كذلك ليس فى طوقنا أن نناقش هاهنا مفارقات الذوق ومخالفات التأويل التى جعلت من اللورد بيرون (١٧٨٨ — ١٨٢٤) ذلك الهجاء الركيك الشعر الذى يضم بين جوانحه فلسفة متسكع من رجال المدن ولا يزيد — شخصية عظيمة فى فكرة القرن التاسع عشر عن الأدب فى كل أرجاء أوربا ، كذلك لسنا بواضعين جيته (١٧٤٩ — ١٨٣٢) فى كفة الميزان ، وهو من ظل طيلة سنين عديدة رب ألمانيا المعنى والجمالى ، فلقد فقد تلك المنزلة الرفيعة من زمن بعيد بعد أن نثر على العقل الألمانى ثروة عظيمة من الأدب الكلاسيكى المنقول ، كان عظيما رصيناً مجتهداً ، كان هو الجامع النبيل فى ميادين الأدب كما كان بيرون فيها هو الثائر النبيل .

«وقد استهل القرن بتفجر جسيم فى ينابيع الشعر فى بريطانيا بوجه خاص ، كان شعرا ذا خصائص مميزة خاصة به ، إذ يتجلى فيه إدراك جديد للطبيعة بوصفها ذات

علاقة عاطفية بالإنسانية ، وإغفال العقائد غير مقصود ولا مدرك ، ثم انقلاب مطلق إلى أعمق مسائل الحياة ليس إلى رده من سبيل ، وكأنما انفلت الشاعر وهو لا يكاد يشعر من صاب المعتقدات المقررة المتفقة إلى عالم طليق . وإن قصائد هذا الدور عامة لغة قصصية ربما رقت فأصبحت نسيا منسيا — وإنها لتتهادى وعليها من الرشاقة وحب الجدل وكثرة التنوع أبراد جميلة زاهية . وأسماء شيلى (١٧٩٢ — ١٨٢٢) وكيتس (١٧٩٥ — ١٨٢١) ووردسورث (١٧٧٠ — ١٨٥٠) إنما هى أبرز أسماء فى هذا العصر ، عصر التعبير الشعرى الانجليزى . ولقد كان وردسورث بما جبل عليه من روح فنان متنوعة الأشكال هو الطائر المغرد بالمذهب التصوفى الحلولى الذى يعبد الله فيما أبدعته يده من طبيعة ، والشادى بذلك الإحساس العميق بالله فى الطبيعة . وكان شيلى أول الشعراء العصريين وأعظمهم ، وكان مشبع الذهن بالفكرات العلمية ، وكان إدراكه للمسحة الوقتية التى عليها النظم السياسية فى زمانه يسبق فكرة كل معاصريه بمراحل عديدة . ثم اطرد الدافع الشعرى فى انجلترا فى الجيل التالى بقدر أعظم من الألحان والجمال وحظ أدنى من بعيد التضمين على يد تنيسون (١٨٠٩ — ١٨٩٢) ، الذى نال محبة عظيمة من الناس ، وزلفى للملكة فكتوريا ، وكان أول من نال لقب اللوردية من أجل شعره من الشعراء الانجليز . وقصيدته « موت آرثر » خليقة أن تقف بإزاء فن عمارة ذلك الزمان . ولم تكن شهرة لونجفلو (١٨٠٧ — ١٨٨٢) راجعة إلى أنه الكفو الأمريكى لتنيسون قدر ما تعود إلى ترجيعه صوته .

« وارتقى الشكل المسمى بفن القصة النثرى — متطوراً على درجة أعظم بطئاً وفى وجه معارضة وتثبيط من الهيئات الدرسانية والأكاديمية والنقدية — فيما شيئاً فشيئاً حتى أصبح والشعر بمنزلة سواء ، ثم ما لبث أن استعلى عليه ، وكان ذلك الشكل هو ما كان الناس يقرأون حقاً ، وكان هذا هو ما يطلبه الزمان . وأخذ الكتاب النثرى العظيم المتحدث عن الحياة ، والذى يخالط التسلسل القصصى مادته ، والذى تسلمه من قبل رابليه ، ونهض به ما أنتجه فيلدنج وسترن من روايات غير مطردة السياق ، يبرز فى مهل إلى حال من الاكتمال وإلى منزلة اعتراف الناس به مع تقدم الزمن بالقرن ، ومع اطراد نموه طولاً وقوة ، ظهرت القصة القصيرة والأقصوصة إلى جواره .

« وكانت القصص الأولى قصص حوادث ودراسات للأخلاق ، وترجع بنا فانى برنى (١٧٥٢ — ١٨٤٠) إلى عالم الدكتور جونسون . وجاءت جين أوستن (١٧٧٥ — ١٨١٧) تعمل داخل حدود ضيقة ، فواصلت النهوض بتقاليد الملاحظات النسوية حين آن فى النهاية أوان التعبير عنها ، ومن قيود وتضييقات هذا الضرب من الحكاية المتعلقة بالأخلاق والإحساسات ، تمضى القصة الإنجليزية فتحطم أغلالها بالتدريج مع خروج ذهن ذلك العصر على ما كان يحده من أصفاد .

« وهناك شخصية عظيمة جداً كبيرة الأثر فى توسيع الرواية تتمثل فى الكاتب الألمانى جان بول رختر (١٧٦٣ — ١٨٢٥) . فإن قصصه مجرد خط تسلك فيه انحرافات عن السياق مزخرفة مرصعة بالجوهر . وثمة كاتب ألمانى كبير آخر هو هينى (١٧٩٧ — ١٨٥٦) . وقد أثر رختر فى مؤلفات الكاتب الإنجليزى توماس كارليل أعمق التأثير . وعن طريق كارليل اتصل تأثير رختر الجليل عن الطرد السياق بشارلس دكنز (١٨١٢ — ١٨٧٠) وجورج مرديث (١٨٢٨ — ١٩٠٩) . وكان ثاكرى (١٨١١ — ١٨٦٣) المنافس الكبير لديكنز يحمل قراءه ويهيم بهم فى الأرض ويمتعهم بالتفلسف ممسكاً بتلابيبهم على شاكلة أقرب إلى الابتهال من طريقة سترن منها من الطريقة الألمانية . وقد مثل شارلس ريد فى روايته الدير والبيت النزاع الذى ما زال قائماً بين البروتستانت والكاثوليك فى أوربا فى ثنايا رومانس عظيمة . وألقى كل من ثاكرى وكارليل نزعتهما إلى مناقشة الحياة مناقشة حرة تقتادهما مبتعدة بهما عن أشكال الرواية الصريحة إلى التفسير والتعليق على الأدوار التاريخية . وإن هناك لرابطة طبيعية ضرورية بين الرواية العظيمة ذات الطراز الإنجليزى وبين التاريخ .

وكان كتابا كارليل الثورة الفرنسية وفردريك الكبير يقرآن كما تقرأ الروايات ، ولقى ماكولى (١٨٠٠ — ١٨٥٩)

نجاحاً باهراً بكتابه تاريخ الفترة الاستبوارية الأخيرة . والحق أن الذنب في عدم إقبال جمهرة الناس على قراءة التاريخ يقع على عاتق المؤرخين لا الجمهور . فإن أمثال ليتون ، واستراكي ، وجود الله ويلوك من نوابغ كتاب التاريخ محبوبون في انجلترا وأمريكا كحب مؤلفي الروايات سواء بسواء .

« فأما في فرنسا فإن نفس الضرورات والتطلعات التي دفعت الرواية الانجليزية من قصة مجردة إلى صورة للحياة وتفسير لها ، قد ألهمت بلزاك (١٧٩٧ — ١٨٥٠) إلى القيام بذلك الجهد الجليل : « الكوميديا الإنسانية » . وعلى مبعدة مسافات كبيرة أدنى من بلزاك يجيء خلفه زولا (١٨٤٠ — ١٩٠٢) . ويكتب كتابه طبقات عائلة روجون ماكار — الشبيه بمؤلفات بلزاك ، وهو مجموعة من الروايات تتأثر حظ أسرة فرنسية وفيرة العدد مدى أجيال عديدة . ويقف شخص فكتور هوجو (١٨٠٢ — ١٨٨٥) فريداً في زمانه ، وهو صاحب ذهن فياض جرىء ، زاهر يبلغ في بعض الحين حد البهرجة المسرفة ، فيتدفق بالتمثيليات ، والقصائد والروايات والبحوث السياسية . ولكن الواقع أنه حدث في فرنسا أن سلطان الأكاديمية والتقاليد الكلاسيكية وتقاليد النظام الدرساني ، قد روضت على الجملة فن الرواية وأخضعته ، رغم أنها لم تستطع أن تكبح هذه الحالات الاستثنائية . قال البيداجوجيون ينبغي للرواية أن تتخذ شكلا ، ولا بد لها من أن تكون صحيحة ، ويجب ألا تخرج عن مطرد السياق ، ويجب أن تكون مؤدبة غير شخصية في منوالها . وبذلك اعتيقت الرواية الفرنسية وهي في طريقها إلى حريات التجريب المحدودة ، التي كان ينعم بها الروائيون الانجليز . وفلوبير (١٨٢١ — ١٨٨٠) وهو يكتب مضيقاً عليه بهذه الحدود الثابتة — هو أشد الكتاب الفرنسيين لباقة وصقلا وإتقاناً .

« وينتمي توماس هاردى (١٨٤٠ — ١٩٢٨) آخر الروائيين العظام في العصر الفكتوري إلى هذه المدرسة الفرنسية الكلاسيكية أكثر مما ينتمي إلى تقاليد الرواية الانجليزية . ولقد ثار في أخريات أيامه على القيود التي غل نفسه بأغلالها ، ثم هجر الرواية هجراناً تاماً ، ثم بلغ أوج عظمته الفنية بكتابه الأسراء ، وهو تمثيل وعرض المغامرة النابليونية بأكلها في صورة دراما ، وهذا مثال جديد على الوشائج الوثيقة التي تربط بين الروائي العظيم وبين المؤرخ المفسر للتاريخ .

فالرغبة في المعرفة بالحياة وما يحدث لها ، والنزوع إلى استجواب الحياة استجواباً وثيقاً حاداً ، تلك الرغبة التي جعلت البريطانيين يضيقون ذرعاً بقيود الشعر وضيقاته الشكلية ورفعت الرواية (القصة) وأشكالها القريبة إلى مرتبة السيادة الأدبية ، — قد انتشرت في كل الأقطار الأوربية . فأنتجت ألمانيا والروسيا ، وإسكنديناوة بوجه خاص ، أدباً عظيماً صاغته في شكل روايات . وأبرز اسم يبدو بين حشد حاشد من الروائيين المبدعين الألمان هو اسم جوستاف فرتياج (١٨١٦ — ١٨٩٥) . وأنتجت النرويج مؤلفها بيورنسون (١٨٣٢ — ١٩١٠) ؛ وأشرقت في الروسيا مجموعة كبيرة من النجوم المتألقة تبدأ بجوجول (١٨٠٩ — ١٨٥٢) وتنتهي بدستوفسكي (١٨٢١ — ١٨٨١) وترجنيف (١٨١٨ — ١٨٨٣) وتولستوى (١٨٢٨ — ١٩٠٠) ، وتشيكوف (توفى ١٩٠٤) .

« على أنه لم يكن جميع القراء في القرن التاسع عشر توابين مستطلعين . إذ كان يمازج الأنماط والطبقات المليئة الأذهان بالشكوك والتقدم ، أنماط وطبقات اجتماعية غير ناشطة تقاوم المبتكرات الداعية إلى التقدم مقاومة فعالة .

وإلى جوار ذلك ، وفي قدر عظيم تام متزايد من التآليف التي كانت تستثير العقول وتنبهها ، ظهر في أوربا وأمريكا على السواء ، إنتاج ضخم من المادة المكتوبة في كل مستوى من مستويات التقدم الفني (التكنيكي) .

« وكان الناس قد تعلموا القراءة ، إذ وجد لديهم الزمن الوفير والحاجة الكبيرة إلى القراءة ، وكانوا يقرأون رغبة منهم في كبح تيارات أذهانهم لا في تشجيعها على الفيض .

والسير والتر سكوت شخصية سوف يحير الأجيال المقبلة نفوذها الهائل على معاصريها ، كما حيرهم نفوذ اللورد بيرون . فإنه بدأ حياته الأدبية شاعراً ، وكان يكتب قصائد قصصية مسهبة زاخرة ؛ ثم انقلب يكتب سلسلة من الرومانس التاريخية ، يمجد فيها الماضي الرومانسي ، ويشيد بالولاء

أحمد شـــوقي

أمير الشـــعراء

-٢-

للأستاذ عبد السميع المصري

شـــاعريته

أما شعر شوقي فلا شك في إبداعه وسموه وتفوقه ، ففيه يجد القارئ غذاءً فكرياً وعاطفياً لما يجول بقلبه وعقله مصوغاً في لغة سهلة ، جزلة لا تنبو عن الذوق أو السمع ، يسيرة على أفهام الناس مستساغة لدى العامة والخاصة لكنها صعبة المحاكاة .

وشعر شوقي غني بموسيقاه اللفظية ؛ وليس أدل على ذلك من هذا العدد العديد من أشعاره التي يختارها الموسيقيون والفنون لتصورها بموسيقاهم وأدائها بأصواتهم ، وهم ولا شك قد وجدوها طيعة لحناجرهم وموسيقاهم .

وإني لا أذكر أن شاعراً ممن سبقه قد ترنم بشعره مثل هذا العدد من الناس في الشرق والغرب ، ولا أظن أن شاعراً من قبله قد أبدع مثل هذا العدد من الأغاني .

ولقد برهن شــوقي دائماً على أنه شاعر حي تجد بيئته صداها في نفســه ويتأثر وجدانه الشاعر بأحداث عصره وما تقع عليه عينه وحسه .

ففي ديوانه تجد صوراً رائعاً لألوان الطبيعة المختلفة ، من ربيع النيل بأنسامه وزهوره وأعياده ، إلى البدر حين يتجلى على صفحة اليم المضطرب : —

لما طلعت على البلاد تبرها ... سكنت وقد كانت بغير قرار
وزهت لناظرها السماء وقرما ... في البحر من عجب ومن تيار

إلى هذا الهلال الذي يناجيه الشاعر ويستوحيه معاني الحياة وفلسفة الوجود فوق هذا الكوكب الفاني : —

سنون تعــاد ودهر يعيد ... لعمرك ما في الليالي جديد

وإذا انتقل إلى دار الخلافة وطالعه البسفور الجميل وانطبعت مناظره الخلابة في مخيلة الشاعر يعكسها في معانٍ رائعة تفيض حياة وشاعرية : —

المشكيات ، وثراء التقاليد وجدالتها .

« ولقد مارأت هذه القمة الأرياء والجنقانية ، وكان الجزع قد أخذ يدب في نفوسهم لما يرونه من جمود لا يطمئنون إليه ، يشهدونه في الحاضر المتغير المتشكك . كان أيا موجة من الروايات الرومانسية المليئة بالأسف ، لا في كل العالم المتكلم بالإنجليزية فقط ، بل في كل أرجاء أوربا .

« فأما في قارة أوربا فإن هذين الكاتبين — وكانا يترجمان أو يكتب شعرهما نثراً إلى حد عجيب — كانا يستعملان رمزاً لموجة عظيمة مبهمة من التأثيرات ، موجة معقدة في أصولها مترابطة في أغراضها وكنهها ، موجة قد تبددت اليوم لحسن الحظ وفرغ الناس من أمرها ، وأعني بها الحركة الرومانسية ، وكان معناها عودة روح القرون الوسطى ، وكان معناها عودة الألوان الدسمة الزاهية ، وكان معناها إظهار الانجذاب إلى الفاخرة في الصروح السوامخ وعدم الارتياح للأساليب والمصالح المعاصرة ، وكان معناها قيام الغريزة ضد العقل والعاطفة ضد العلم . وكان يخفف من حدة نزوعها إلى اللغة العتيقة المهجورة ما كان عليه حالة لواتها من تراخ وخمول . وكان يخالطها شيء من طبيعة حالة السكر التي تعقبها العربدة أكثر من طبيعة دور من أدوار التقدم العقلي والجمالي . ولم يقف الأمر بها عند تعارضها مع حقائق الزمن الحاضر ، بل تجاوزته إلى التضاد والماضي الكلاسيكي ، كانت حركة كاثوليكية كما كانت تنزع منزع المذهب الفردي ، وكانت هي المتمثلة للقرى والرائعة في أساطير مفتعلة زائفة ! كانت أي شيء ، وكانت إذا قدرتها تقديرها النهائي مجرد لا شيء » .

(يتبع) عبد العزيز توفيق جاويد

بدا ضوء الصباح فسرت فيه ... إلى البسفور واقترب القمر
تبارك الدانى والأقاصى ... وفاك بين جوال وراسى
وتضحك الجزائر والرواسى ... وتجرى رقة فيك وهى صخر

وفى ديوانه أيضاً وصف لبنان ومغانيه وسوريا وبقاعها والأندلس ورياضه وآثاره ؛ ولقد أبدع شوقى وأتى فى الشعر العربى بجديد حين قال يصف الخمر :

حف كأسها الحبب ... فهى فضة ذهب

وقد عيب على شوقى كثيراً شعره فى المدح لأنه لم يسم به عن مدح السلاطين المتقدمين منهم والمحدثين حتى قيل إنه شاعر الأمراء لا أمير الشعراء .

ولو نظرنا إلى مدائح شوقى جملة لاستوقف انتباهنا أمران : أولهما أنه لم يؤله ممدوحيه ولم يقل بأنهم خوارق أو شواذ ، ليسوا من طينة البشر كما فعل بعض كتاب الغرب والشرق .

لا يقولن امرؤ أصلى فما ... أصلهم وأصل الناس طين

وثانيهما أن هذه المدائح صور واستعارات شعرية لا عقيدة سياسية لأنه إذا غير اسم ممدوحيه لم يغير ما يرمى إليه من القصيدة ، فأنت ترى دائماً أن اسم الممدوح لم يخرج عن كونه الروى فى الشعر الذى لا يزيد ولا ينقص من قيمة الشعر ولا من مبلغ مرماه الاجتماعى ، والقصيدة بعد ذلك نصح الممدوح وإرشاد .

وماذا يهم المرء من أمر الممدوح إذا وجد شوقى يقول :

لا يظهر الكبراء آية عزمهم ... حتى يعززوا آية الأفكار

وهو يمدح الخديوى توفيق ثم هو يقول له فى قصيدة أخرى

ترك النفوس بلا علم ولا أدب ... ترك المريض بلا طب ولا آسى

وهو إذ يمدح الملك فؤاداً يعقب على المدح بقوله :

إن سرك الملك تبنيه على أسس
فاستنهض البانيين العلم والأدبا
وارفع له من حبال الحق قاعدة
ومد من سبب الشورى له طنبا

ويقول فى قصيدة أخرى :

زمان الفرد يا فرعون ولى ... ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض ... على حكم الرعية نازلينا
فؤاد أجل بالدستور دنيا ... وأشرف منك بالإسلام دينا

بنى[1] الدار التى لا عز إلا ... على جنباتها للمالكينا
ولا استقلال إلا فى ذراها ... لمتبوع ولا للتابعينا

وبعد هذا ماذا يهمنا اسم الممدوح وماذا يهم الأجيال المقبلة خاصة إذا انطوى المدح على مثل هذه العظات والحكم :

والعدل فى الدولات أس ثابت
يفنى الزمان ويخلد الأجيالا

والحق أن شوقى إذ تحول تحول ليساير العصر ويجارى الزمن ، وهو إذ يغير رأيه من سلطان الفرد إلى تمجيد الشورى فهو يثبت أنه شخص لا تستبد به التقاليد ولا يقف به الجمود ، بل هو يعتنق ما تثبت صحته للعقل والتجارب .

ثم هو بعد ذلك الشاعر الذى تنطبع على صفحة نفسه صور بيئته وتتأثر نفسه الشاعرة بأحداث عصره ، ومصائب قومه فيحسن تصويرها فى شعره .

هو يرى سوء مغبة الاختلاف الذى ينشب أظفاره فى قومه ، ويرى كيد بعضهم لبعض بغير سبب وجيه أو مدعاة للخلاف خطيرة فيقول لهم :

إلام الخلف بينكمو إلاما
وهذى الضجة الكبرى علاما ؟
وفيم يكيد بعضكم لبعض
وتبدون العداوة والخصاما ؟

ونراه فى قصيدته المشهورة التى تغنى أم كلثوم بعض أبياتها (سلو قلبى غداة سلا وتابا) والتى قالها بمناسبة ذكر المولد المحمدى ... نراه يحمل أدواء قومه ووطنه ويبين السبيل إلى الخلاص منها ؛ ولعل أبرز ما فى هذه القصيدة حضه على بذل المال وتحذيره من عواقب ضن الأغنياء على إخوانهم الفقراء :

سلوا قلبى غداة سلا وتابا ... لعل على الجمال له عتابا
ويسأل فى الحوادث ذو صواب
فهل ترك الجمال له صوابا
فمن يغتر بالدنيا فإنى ... لبست بها فأبليت الثيابا
فلم أر غير حكم الله حكماً ... ولم أر دون باب الله بابا
ومن يعدل بحب الله شيئاً ... كحب المال ضل هوى وخابا
أراد الله بالفقراء براً ... وبالأيتام حباً وارتبابا

(١) دار النيابة .

فرب صغير قوم علمـــوه ... سما وحمى المسومة العرابا
وكان لقومه نفعاً وفخراً ... ولو تركوه كان أذى وعابا
يريد الخالق الرزق اشتراكا ... وإن يك خص أقواما وحابى
فما حرم المجد جنى يديه ... ولا نسي الشقى ولا المصابا
ولولا البخل لم يهلك فريق ... على الأقدار تلقاهم غضابا
تعبت بأهله لوماً وقبلى ... دعاة البر قد سئموا الخطابا
ولو أنى خطبت على جماد ... فجرت به الينابيع العذابا
ألم تر للهواء جرى فأفضى ... إلى الأكواخ واخترق القبابا
وســــوى الله بينكم المنايا ... ووسدكم مع الرسل الترابا
وأرســــل عائلا منكم يتيما ... دنا من ذى الجلال فكان قابا
نبى البر بينه سبيلا ... وسن خلاله وهدى الشعابا
وكان بيانه للهدى ســـبلا ... وكانت خيله للحق غابا
وعلمنا بنـــاء المجد حتى ... أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمنى ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
سألت الله فى أبناء دينى ... فإن تكن الوسيلة لى أجابا
وما للمسلمين سواك حصن ... إذا ما الضر مسهم ونابا

وفى موضع آخر يرجع هذا المعنى ويحذر مثل هـــذا التحذير ، وينعى على قومه كثرة القول وقلة العمل .

وتسمع رحمة فى كل ناد ... ولست تحس للبر انتدابا
أكلٌ فى كتاب الله إلا ... زكاة المال ليست فيه بابا

لكن حـــذار فإن الكرب إذا اشتد بهؤلاء البؤساء ثاروا أو صاروا ذئابا ضارية .

ولا كأولئك البؤساء شاء ... إذا جوعتها انتشرت ذئابا
ولولا البر لم يبعث رسول ... ولم يحمل إلى قوم كتابا

وإنا نرى هـــذه النفس الكبيرة الواسعة الأفق تهزّ لنكبة دمشق العربية فتواسى العروبة فى أبيات تفيض رقة وعذوبة ولوعة وأسى ، وهى فى نفس الوقت تلهب الحماسة فى النفوس . . . نفوس الشرقيين جميعاً الذين تربطهم وحدة الآلام والجهاد :

سلام من صبا بردى أرق ... ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافى ... جلال الرزء عن وصف يدق
دم الثوار تعرفه فرنســـا ... وتعلم أنه نور وحق
جرى فى أرضها ، فيه حياة ... كمنهلّ السماء وفيه رزق
نصحت ونحن مختلفون دارا ... ولكن كلنا فى الهم شرق
ولا يبنى الممالك كالضحايا ... ولا يدنى الحقوق ولا يحق

ففى القتلى لأجيال حياة ... وفى الأسرى فدى لهمو وعتق
وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرجة يدق

والشرق يمتاز بروحانيته ، بل هى طابعه الذى عرف به فى العالم منذ بدء المدنية ، وهذه الروحانية تتمثل أحسن تمثيل فى حياته الدينية التى تسيطر على وجوده إلى حد بعيد ، وتكيف اتجاهاته فى كثير من الأحيان وتسبب له من المشاكل الجم الغفير .

وإذا كان هذا شأن الدين فى حياة الشرق فلا شك فى أنه واجد صداه فى شعر شوقى ، بل لم يكن من المعقول إلا أن يعبر عن أثر الدين فى حياته وحياة الشرق عامة ، فاستمع إليه يعتزّ بدينه :

آياته كلما طال المدى جـــدد ... يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد فى لفظة منه مشرفة ... يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم
يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة ... حديثك الشهد عند الذائق الفهم
حليت من عطل جيد البيان به ... فى كل منتثر فى حسن منتظم
يا أحمـــد الخير لى جاه بتسميتى ... وكيف لا يتسامى بالرسول سمى

وهو يفخر بدول الإسلام وخلفائه فى قوله :

دار الشرائع روما كلما ذكرت ... دار السلام لها ألقت يد السلم
ما ضارعتها بياناً عنـــد ملتأم ... ولا حكتها قضاء عند مختصم
ولا احتوت فى طراز من قياصرها ... على رشيـــد ومأمون ومعتصم
من الذين إذا سارت كتائبهم ... تصرفوا بحدود الأرض والتخم
ويجلسون إلى علم ومعرفة ... فلا يدانون فى عقل ولا فهم

وهو يعرف ما يرمى به الدين من أنه سبب التواكل الشاهد بين بعض معتنقيه ، فيأبى أن تلصق مثل هذه التهمة

بالدين وهو منها براء ، فينبرى للدفاع عنه ولوم هؤلاء المتسببين في اتهامه : —

من عادة الإسلام يرفع عاملا ... ويسوّد المقـــدام والفعالا
ظلمته ألسنة تؤاخذه بكم ... وظلمتموه مفرطين كسالى
هذا هلاككم تكفل بالهدى ... هل تطلبون مع الضلال ظلالا

ومع هـــذا الاعتزاز بالإسلام فإنا نرى الشاعر لم يؤذ أحداً في دينه ، بل كان شعره سمحاً كريماً وادعاً ، حتى إن أدباء المسيحيين والإسرائيليين يتغنون بشعره الإسلامي ويطربون له طرب المسلمين أنفسهم ، ثم هو بعد ذلك يحترم العقائد جميعاً ويجل الأديان كلها وكتبها : —

أرسلت بالتوراة موسى مرشداً
وابن البتول فعلم الإنجيلا
وفجرت ينبوع البيان محمـــداً
فسقى الحديث وناول التنزيلا

وتراه إذا وقع العيدان في يوم واحد حياهما معاً أجمل تحية : —

العام أقبل قم نحي هلالا
كالتاج في هام الوجود جلالا
عيد المسيح وعيد أحمد أقبلا
يتباريان وضاءة وجمالا
ميلاد إحسان وهجرة ســـودد
قد غيرا وجه البسيطة حالا

وهو يعاتب عتابا جميلا إذ يرى الحروب والفتنة والاعتداءات نازلة وتحشر في حوادثها الدين والدين من مساوئها برىء : —

عيسى سبيلك رحمة ومحبة
في العالمين وعصمة وســـلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرأ
هان الضعاف عليه والأيتام
يا حامل الآلام عن هذا الورى
كثرت عليه باسمك الآلام
أنت الذى جعل العباد جميعهم
رحماً وباسمك تقطع الأرحام
البغى في دين الجميع دنيـــة
والسلم عهـــد والقتال ذمام

وهو بعد ذلك يفيض دواء قومه فيدعو إلى الوحـــدة والاتحاد وجمع الكلمة : —

أعهدتنا والقبط إلا أمة ... للأرض واحدة تروم مراما
نعلى تعاليم المسيح لأجلهم ... ويوقرون لأجلنا الإسلاما
الدين للديان جل جـــلاله ... لو شاء ربك وحد الأقواما
هذه قبوركم وتلك قبورنا ... متجاورين جماجماً وعظاما
فبحرمة المـــوتى وواجب حقهم
عيشـــوا كما يقضى الجوار كراما

بل هو يسوق الدليل على وجوب هـــذا الاتحاد باسم النيل الذى أحيا الجميع : —

أم أتك مصر مهدنا ثم لحدنا ... وبينهما كانت لكل مغانيا ؟
أم لك من قبل المسيح بن مريم
وموسى وطه نعبد النيل جاريا ؟
فهلا تساقينا على حبه الهوى ... وهلا فديناه ضفافاً وواديا ؟

بل إن هذا الاتحاد في رأى شوقي واجب باسم الدين نفسه : —

إنا نحن مسلمين وقبطا ... أمة وحدت على الأجيال
وإلى الله من مشى بصليب ... في يديه ومن مشى بهلال

وإذا تم هذا الاتحاد الذى تمناه ودعا إليه حياه في قوله :

مرقنم الوهم وانتمـــو ... أهـــلة الله على صـــدبه
حتى بنيتم هرماً رابعـــاً ... من فئة الحق ومن حزبه

وهو في كل هذا له رأى ومبدأ سام وحكمة بالغة هي :

الدين لله من شـــاء الإله هدى
لكل نفس هوى في الدين يجنبها
ما كان مختلف الأديان داعيـــة
إلى اختلاف البرايا أو تعاديهـــا
الكتب والرسل والأديان قاطبة
خزائن الحكمة الكبرى لواعيها
محبة الله أصل في مراشـــدها
وخشـــية الله أس في مبانيها
وكل خـــير يلقى في أوامرها
وكل شر يوقى في نواهيهـــا
تسامح النفس معنى من مروءتها
بل المروءة في أسمى معـــانيها

(البحث بقية) ... عبد السميع المصرى

نقـــد

ثورة الخيـــام

للأستاذ إبراهيم بك الواعظ

ومن الأفذاذ الذين يفخر بهم العراق خاصة والعالم العربي عامة ، الأستاذ المحقق « عبد الحق فاضل » الذي جمع بين فضائل العلم والسياسة ، فهو من ناحية يقضي نهاره بين ملفات دائرته السياسية يحل مشاكلها ، كما أنه من ناحية أخرى يقضي ليله بين مجموعة من كتبه ، ليسقط على شاردة ، أو يلتقط واردة ، كل ذلك وهو منصرف إلى مهمتيه السياسية والعلمية يقوم بهما بدون ضوضاء ، ومن غير ما كلام ، وبسكون وتؤدة لا يمكن أن يشعر بهما أحد حتى أقرب الناس إليه ، وإذا ما قابلته على غير معرفة ، ومن غير مناقشة لا تجزم أنك ستجد من هذا الساكت المتكلم ، والساكن المتحرك ، والحليم الهائج ، والسالم الثائر ، أديباً جماً ، وعلماً غزيراً ، ودراسة دقيقة ، وتحقيقاً فاحصاً ، وغوراً عميقاً ، ثم إذا بهذه الشخصية الساكنة الساكتة تخرج لك كتاباً يعكس عليك « الخيام » بحقيقته الناصعة ، وعبقريته اللامعة في « ثورة الخيام » تلك الثورة التي أزاحت لنا الستار الكثيف الذي كان منسدلاً على حقيقة هذه الشخصية الفذة عدة قرون ، بالرغم من أن المعنيين بالخيام لم يقصروا في ترجمة رباعياته نظماً ونثراً ، إلا أنه لم يقم واحد من هؤلاء الباحثين بتناول الخيام ورباعياته ليبرزها لنا صورة صحيحة منه كما هو ، وكما رباعياته هي ، هي ! .

إلا أن الأستاذ عبد الحق لما أحس بهذا النقص العظيم شمر عن ساعد الجد ، فدرس أولاً لغة الخيام « الفارسية » دراسة علمية ، وأخذ بعد أن أصبح قادراً على التفاهم مباشرة ، وبدون واسطة ، يدرس شخصية الخيام ورباعياته ، ويقدمها للقراء قشيبة من حيث جودة الطبع ، وغزارة المادة ! وحسب الأستاذ الفاضل فخراً تلك الشهادة العظيمة — التي جاءت من أهلها — التي قدم بها الكتاب حضرة الأستاذ الكبير « سعيد نفيسي » أستاذ تاريخ الأدب ، وتاريخ التصوف ، وتاريخ التمدن في جامعة طهران ، والعضو العامل في المجمع العلمي الإيراني ، وهذه الشهادة التي لا تحتمل التعديل والتعليل ، أكبر برهان على أن هذه « الثورة » لم يقم بها أحد قبلاً ولا بعداً ، ولا أغالي إذا قلت إني لم أكتف أيضاً بهذه الشهادة وحدها ، وإنما قمت بدوري بدراسة « الثورة » دراسة بحث وتحقيق ونقد ، ووصلت إلى نتيجة واحدة هي تأييد شهادة الأستاذ « نفيسي » .

لقد كان الأستاذ المؤلف ، طبيعياً في أسلوبه ، طبيعياً في طريقة تحقيقه ، إذ أنك تجده يسترسل في الموضوع بلا تكلف ولا تعقيد ، فيبرز لك الحقائق سافرة ناصعة لا غبار عليها ، ويصور لك الوقائع كأنك تلمسها لمساً ، ولا يغالي في الادعاء ، وإنما يسرد لك الحوادث كما تبينها هو بطريقة تقرر لك الواقع ، لا أثر للخيال والتكلف فيها ، وهذه الطريقة في البحث والكتابة لا يعنى بها إلا أولو التحقيق من الباحثين .

أما القول عن الترجمة ومطابقتها للأصل الفارسي ، فإني لم أستطع التعمق في هذه الناحية من دراسة الكتاب لقلة بضاعتي من اللغة الفارسية ، لهذا فقد تركت ذلك لمن له إلمام بالفنين ، ومع ذلك فهذا لا يمنعني من أن أقول كلمة حق في تقرير الواقع ؛ إن المتانة والقوة في ترجمة الرباعيات ، وصوغها شعراً جاءت بشكل يدلنا على أن الأستاذ المترجم ، له من الإلمام باللغة العربية ، وموازين الشعر اليد الطولى ، والنصيب الأكبر ، وإذا ما دقق القارئ ، وأمعن في الترجمة يجدها كلها على وتيرة واحدة من حيث الجودة ، والمتانة ، والقوة والجزالة .

أما من ناحية الدراسة ، فإن المؤلف قد مهّد فى أول الكتاب وبين أنه كيف قام بالترجمة بكل دقة لأن تظهر مطابقة للأصل كل المطابقة ، بالرغم من أن ترجمة الشعر إلى شعر مثله من الأمور الصعبة جداً ، ومع ذلك كله فإنه قد وفق توفيقاً رائعاً فى إظهار ترجمته كأنها رباعية نظمت بالعربية رأساً .

وقد ترجم رباعيات لم يسبق أن ترجمت إلى العربية ، وهذه فضيلة أخرى تضاف إلى عمل المؤلف الشاق .

والحقيقة أن المترجم قد نقل الذوق الفارسى ، والأسلوب الخيامى إلى قراء العربية .

ولقد حاول المترجم أن لا يقع فيما وقع فيه الخيام نفسه من التكرار ، فالتزم المطابقة مع عدم ترديد ما هو مردد فى الرباعيات على قدر الإمكان .

وعندما فحص المؤلف الرباعيات لم يجزم بأن جميع الرباعيات التى سارت على الألسن هى للخيام . ولعل الوصول إلى الرباعيات الحقيقية يتعذر على الباحث ، لأن الخيام لم يجمع رباعياته فى حياته ، ولعله إذا كان قد جمعها أو جمع قسماً منها ، فإنه لم يظهرها إلا لخاصته ، وإن هذا التكتم كان مبنياً على خوف الخيام من الصراحة الموجودة فيها ضد الدين ، والثورة على الأديان ، والمجتمع ، ومع كل هذا التكتم فقد اتهموه بالكفر .

وبهذه المناسبة فقد تناول الرباعيات واختلاطها مع رباعيات نسبت للخيام ، واستخلص من هذه ما اعتقد بأنه للخيام ، كما أنه تطرق إلى التحريف الذى طرأ على الرباعيات ، وبين أيضاً كيف تعمد بعض الناس أن يضيفوا إلى الخيام رباعيات ليست له ، وأن آخرين رووا هذه الرباعيات محوّرة مخالفة لأصلها الصحيح ، وإلى ما أصاب الرباعيات جملة من تحريف النساخ فى عصور مختلفة .

كما أنه لاحظ عند تحقيقه أن قسماً من الرباعيات دخل ضمن دواوين الشعراء ، مما ذهب إليه المستشرق الروسى جوكوفسكى ، واعتبر مثل هذه « رباعيات جوّالة » .

ثم تكلم عن نظرية الأستاذ « كريستنس » الذى قال : « بأن كل رباعية ورد اسم الخيام فيها فهى له » فنندها ، ولم يعتد بها لأنها تحمل الباحث على نفى كل الرباعيات إلا قليلاً لا يتجاوز أصابع اليدين .

ورجع على من قال : إن كل ما جاء فى الرباعيات بضمير الغائب أو بصيغة الماضى فهى لم تكن له ، ودفع هذا القول بالحجة القاطعة فقال : « فإذا تمسكنا بمنطق الدكتور « روزن » لم يبق لنا إلا أن نفترض أن الخيام نظم هذه الرباعيات بعد وفاته » لأن ما جاء فيها بصيغة الماضى .

هذا وإنه رد قول المرحوم « فروغى » فى عدم اعترافه بقسم من الرباعيات باعتبار أنها لأبيه رداً مادياً تؤيده أقوال « السمرقندى » المعاصر للخيام ، و « النسوى » الذى قال فى مطلع مقطوعته :

إن كنت ترعين يا ريح الصبا ذممى
فاقرى الســـلام على العلامة الخيمى

كما أنه أورد الحجج الدامغة بأمثلة ناصعة من الرباعيات رد فيها على أقوال « فروغى » فى الرباعيات « الست والستين » واستخلص من ذلك أنها لم تكن مقياساً دقيقاً ، ومقياساً غير دقيق .

ثم تناول عدد الرباعيات ، وركزها بشكل لا تخرج فيه التخلص من الخطأ فى الاختيار ، وترك ذلك لتحقيق القارئ ، لأنه لم يستطع تحديداً لأعدادها ، وحينما أراد التمييز بين الرباعيات ، ما كان منها للخيام ، وما كان منها لغيره منحولاً له ، فقد اعترف المؤلف بأنه عاجز عن التمييز ، إلا أنه يقول : إن هذه التى اختارها سواء كانت منحولة أو صحيحة ، فهى تمثل « مدرسة الخيام » ولهذا فإن مجموعته هذه جاءت جامعة أكثر منها مانعة .

وقد تطرق المؤلف الفاضل إلى شعر الخيام العربى ، وأضافه إلى رباعياته المعتمدة ، بعد أن أورد الأدلة المقنعة على أنها للخيام ، وهذا التدليل عندى يؤكد نسبة كثير من الرباعيات التى اختارها المؤلف إلى الخيام ، لمطابقتها لشعره العربى تمام المطابقة لفظاً ومعنى .

وقد عرفنا المؤلف الفاضل فى البحث عن عقلية الخيام ، بأنه علاوة على شاعريته فإنه كان فقيهاً فيلسوفاً ، طبيباً ، فلكياً ، رياضياً لاهوتياً عالماً باللغة والقراءة ، وله اليد الطولى

فى التفسير والحديث والكلام، إلا أنه كان قليل التأليف شأن كثير من العباقرة الذين ذاع صيتهم فى الآفاق ولم يتركوا من الآثار إلا النزر القليل .

وأبان علاوة على ما للخيام من تعمق فى علوم كثيرة فإنه فنان عبقرى برباعياته التى ذاعت فى الآفاق شرقية وغربية وترجمت إلى عدة لغات ، واعتنى بها العلماء والفلاسفة أيما عناية .

ولقد كان المؤلف منصفاً تمام الإنصاف حينما تطرق إلى عقيدة الخيام ، وأثنى بالائمة على المرحوم « فروغى » الذى كان يدافع عن الخيام لتخليصه من طعنه بالزندقة ، وبإيراده بعض رباعياته تكفى لهدم دعواه بالبينة الراجحة . على أنى وإن كنت أماشى الأستاذ فيما ذهب إليه من زندقة الخيام حيث إنه أعلم به من غيره فلا أتفق معه فى طعن المعرى بالزندقة لأن لى شخصياً رأياً خاصاً فى عقيدته[1] .

هذا وإنه عند مقارنته بين الخيام والمعرى ، جعل المعرى بين الزندقة والإيمان ، مع أنه أثبت زندقة الخيام بصورة قاطعة .

وقد نفى « التناسخ » عن الخيام لضعف الأدلة الواردة على قوله به .

وقد عرض صورة جذابة لإلحاد الخيام الرياضى ، كان لهذا العرض أعمق الأثر فى نفس القارىء ، وقد أصدر حكمه الرائع فى « قضية » الخيام مفنداً بذلك ما ذهب إليه « فردريك روزف » من « سعة الأفكار ، وتنوع النظريات » معللا بها نفى الإلحاد والزندقة عن الخيام .

وحين تناول موضوع معاقرة الخيام للخمر ، ردّ على المرحوم « فروغى » رداً حسنا ، ثم لم ينزه الخيام عنها ، ولم يثبتها إثباتاً قاطعاً ، وإنما سلك سبيلا وسطاً فى حكمه .

وما ألطف تصويره الخيام بعد أنهى هذا الفصل بقوله : « إنى لأتصوره أحيانا عائداً إلى بيته ، متأبطا بعض كتبه وأوراقه ، وقد دسّ محبرته ومقلمته فى نطاقه ، وهو كئيب النفس ، ضيّق الصدر ، لما لاقى من عنت البيئة ، ومزعجات الزمان ، أو لما انتابه من فكر فى الموت ، أو تبرم بالحياة ، فإذا هو أراد أن يكتب ويؤلف ، عكرت عليه الأشجان صفو قريحته ، فيتناول كتاباً ليقرأ ، فيركبه الغم ، ويستعصى عليه الفهم ، فيلجأ إلى إبريق الصهباء يشرب من دمه القانى حتى يثمل وينام » .

إشرب الراح ! فإنّ العمر يتلوه الحِمام
لحقيق أن تقضيه بسكر ، أو منام

ولقد كان المؤلف منصفاً أيضاً فى موضوع علاقة الخيام بالحسناء التى ترددت كثيراً فى رباعياته ، كما أنصفه فى سائر تحقيقاته عنه .

أما من قال بتنبؤ الخيام بالغيب ، وتكهنه بالتنجيم فقد قام بتفنيدها تفنيداً ماديا وعقلياً ، بحيث لم يترك للقارىء ريبة فى النزول عنده .

ولقد مرّ المؤلف على شخصية الخيام مرّ الكرام ، إذ صوره كما هو بلا زيادة ولا نقصان ، وما ألطف الرباعية التى استشهد بها قوله : —

كم تذل النفس فى خدمة أوغاد لئام
تنحنى كل طعام ، كالذباب المترامى
كلْ رغيفاً كل يومين بدلا منّ الأنام
فلأن تطوى خير لك من خبز الكرام

ومن هذه الرباعية يمكنك أن تعلم ما انطوى عليه الخيّام من نفس ذكية أبية حتى عن خبز الكرام ، فضلاً عن منح اللئام ، وما أكثرهم فى هذه الأيام .

أما فلسفة الخيام ، وهى الأصل فى الموضوع الذى من أجله وضع المؤلف كتابه هذا ، فقد لخص فلسفته فى تلك الصورة التى رسمها لنا ، وهى أوصال ذلك التمثال الرائع المتناثرة التى لا تتشابه ، ولا تتفق مع بعضها وهى أجزاء ، وإذا ما جمعت أصبحت هيكلا تاما متناسق الأعضاء ، متوافق الأطراف ، يعجبك تركيبه ، وتدهشك روعته ، هذه هى فلسفة الخيام ، لا كما أعرفها أنا ، ولكن كما عرفنا إياها من غاص غور هذا البحر المتلاطم ، فأخرج لنا درره صافية رائعة لا شية فيها ولا عيب .

وهكذا فقد استقرت فلسفة الخيام عنده ، واستنبط من رباعياته « فهارس الثورة » ، ولخص ثورته على المجتمع :

---

(1) لنا دراسة فى عقيدة المعرى وسبب زعمه أسميتها « المعرى كما هو لا كما عرفه الناس » .

بأنه يجب أن تحد بهم، وبأحلامهم وعاداتهم، وحركاتهم وسكناتهم، فلوى وجهه عنهم، وزهد فيهم، وثار عليهم، كما ثار على الدجالين من رجال الدين — وما أكثرهم في زماننا هذا — وثار على الدين وكان له رأي خاص فيه، وثار على السماء حتى دار رأسه وعجز عن إدراك الحقيقة، تلك الحقيقة التي يريدها الخيام أن تكون رياضية كمن يجمع بين عددين.

ثم ثار على الدهر والأفلاك، وثورته هذه كثوراته على الدين والسماء؛ وجد أن يتيه في بحر من الألغاز، يثور على العقل، ورجع من ثورته هذه وهو لا يعرف شيئاً، ثم يقف وقفة الحائر المفكر المضطرب تجاه حقيقة واحدة، هي « الموت » وهكذا يقول عنه المؤلف: — « ما كره الخيام شيئاً كما كره الموت، ولا هاب شيئاً كما هاب الموت، ولا شغل فكره شيء كما شغله الموت، ولكن الشيء الوحيد الذي لم يثر عليه، ولم يناقشه الحساب هو الموت، إني حللت مشكلات الكون كلها، ووثبت من كل أحبولة نصبها الخداع لاقتناصي فتفتحت كل الأسرار إلا سر الموت ».

ولما أن علم أن الموت سيطويه في سجله فشلت ثورته، وآثاب وفرّ من الحياة التي عرف نتائجها فراراً لا رجوع بعده، وراح يشرب نخب الهموم ليغفل عن نفسه، وشرب نخب الموت، لأنه خشي أن يدهمه الأجل قبل أن ينال نصيبه منه، وشرب نخب شيوخ الحان، فوجد آخرهم منهوكاً من فرط ما شرب، متمتماً « الله لطيف بعباده ».

وشرب نخب الزاهد الدجال قائلا: « وأيتنا رسله الحائر في جوف الدجى، خير من تأوه الزاهدين الكاذبين ».

وشرب نخب الدين قائلا: — « فمن أراد أن يعرف ديني فهو الفراغ من الدين والكفر ».

وشرب نخب « الله كريم » مردداً: — فإن الله غني عن تقواك، ومعصيتك ».

وشرب نخب العقل، وصاح قائلا: « لأطلقنّ العقل والدين ثلاثاً ».

وشرب نخب اللحظة الحاضرة، واغتنمها لأنه لا يملك سواها في هذه الحياة.

وشرب نخب الحبيب! لأنه لم يرد أن يضيع في حياته يوما يمضي في غير غرام.

وشرب نخب الأنخاب أخيراً، وطلب من ندمائه، أن يذكروه من بعده وأن يقلبوا كأسه.

وما ألطف ما علق المؤلف على هذه الأنخاب « بانتهاء الفيلسوف إلى حيث يبدأ رجل الشارع وينتهي فيلتقيان ».

ويختم المؤلف تحقيقاته هذه القيمة ببحوثها، الحية بمادتها، السلسة بأسلوبها بشعار الخيام بقوله: « فليقل من شاء، في ما شاء ». وبعد، فإن هذه الثورة التي قام بإشعال نارها « الأستاذ عبد الحق فاضل » لجديرة بأن تقلب نظام الحكم السائد قديماً في النظر إلى دولة الخيام.

ابراهيم الواعظ

ورد إلى المجلة

١ — ورد من شعر إقبال:

نقلتها إلى العربية نظما الآنســة الشاعرة أميرة نور الدين داود

وقد صــدره بتقديم معالي الأستاذ محمد رضا الشبيبي كما قدمت له الأديبة المترجمة بمقدمة تقص فيها قصة إنجازها لعملها الأدبي

ويقع الديوان في ٩٤ صفحة، أثبت النصّ في صفحة والترجمة في الصفحة المقابلة

وهو مطبوع بمطبعة المعارف ببغداد

٢ — لكل زهرة عبير:

ديوان الشاعر المهجري شفيق معلوف صاحب كتاب « عبقر »

ويقع الديوان في نحو مائة صفحة من القطع الصغير، وهو مطبوع في دار الأحد ببيروت — ولقد بلغ الغاية في رقته ودقته وجماله شعراً وطباعة وأناقة وذوقاً

٣ — مجلة الناشر المصري — العدد الأول:

ويخرجها الاتحاد المصري العام لدور النشر والمكتبات ويشرف على تحريرها الأستاذ الشاعر محمد عبد الغني حسن، ومقرها ٥ شارع مسبيرو بالقاهرة

النشاط الثقافي في أسبوع

للأستاذ عز الدين إسماعيل

إميل برييه :

علمان من أعلام الفكر الفرنسي في العصر الحديث هما برجسون وإميل برييه ، عاش كل منهما للآخر وعرف كل منهما فضل الآخر ، ومنذ عهد أشاد برجسون بصاحبه لا باعتباره فيلسوفا ، ولا باعتباره علما من أعلام الفكر الفرنسي الحديث ، فربما كان ذلك الأمر مقرراً لا يحتاج منه إلى الإشادة أو التنويه ، وإنما أشاد به بطلا في ميدان الحرب ، التي فقد فيها ذراعه اليسرى ، كما أشاد — إلى جانب ذلك — بحزمه ورصانة أفكاره وإخلاصه .

ونحن نذكر هذا وقد نقلت إلينا الأخبار نبأ وفاة هذا الفيلسوف المحارب المجاهد بفكره وماله في ميدان البحث والعلم ، وبدمه في ميدان القتال — إميل برييه . وهو يذكرنا بالعالم الفرنسي الآخر ألكسيس كارل الذي اشترك في الحربين العالميتين الأولى والثانية ، والذي كان يؤدي عمله الفني بجراح في ميدان القتال . وهو عمل يتفق ودراسته التي تخصص فيها . أما فيلسوفنا إميل برييه فلم يتخصص في الجراحة ، وإنما كان تخصصه في الفلسفة اليونانية . ولكن هذا التخصص في الفلسفة القديمة لم يمنعه من مسايرة التيارات الفكرية المعاصرة . ففي كتابه « تاريخ الفلسفة العام » نجده — إلى جانب أنه يدرس كل فكرة مستقلة عن غيرها وفي ميدانها الخاص — لا يستطيع أن ينفصل تماما في بحثها ومناقشتها عن التيارات الكبرى للفكر الفلسفي المعاصر . وفي الميدان الفسيح للنشاط الإنساني ظل إميل برييه دائباً على دراسة الفلسفة ووضع الحدود المشخصة لها . وكتابه (L'attitude Spéculative) يقدم لنا صورة واضحة لبحث الحقيقة في بساطة ووضوح . وقد قرر له ذلك هنري جوييه Henri Gouhier في الجزء الثالث من (Etudes bergsoniennes) الذي سيظهر قريباً ، والذي يحوي نصوصاً غاية في الأهمية عن فلسفة التطور الإبداعي . ومن ذلك يظهر لناصلة إميل برييه بالفكر المعاصر من جهة بصفة عامة ، وببرجسون من جهة أخرى بصفة خاصة . على أنه من المعروف تماما أن إميل برييه في الحقيقة كان أحسن مفسر للفلسفة البرجسونية .

مات هذا الرجل بعد أن قضى في هذه الحياة خمساً وسبعين سنة ، لم يكن فيها أكبر مؤرخ فرنسي للفلسفة فحسب ، بل كان أيضا أستاذاً لا يضاهى ، سكب كل روحه في البحث الفلسفي ، وكانت له لمحاته الصادقة وفكره الثاقب وعطفه الروحي على تلاميذه الذين استمعوا إليه وأفادوا من محاضراته بالسربون .

معرض اتحاد الدراسات الحرة :

هذا هو العرض الثالث الذي يقدمه اتحاد الدراسات الحرة بالكلية الملكية للفنون الجميلة ، تحت إشراف مدير عام الفنون الجميلة محمد حسن بك . وطلبة الدراسات الحرة في الفنون كلهم من الهواة ، سواء للتصوير أو النحت ، فهم غير الطلبة النظاميين الذين يكرسون كل حياتهم ومجهوداتهم في تلقي أصول الفن والتدرب على الإنتاج الفني الذي سيعيشون عليه في مستقبل حياتهم . أو بعبارة أخرى فإن هؤلاء الطلبة من القسم الحر لن يتخذوا من الفن حرفة ، لأنهم في الغالب يصرفون القدر الأوفر من مجهوداتهم إلى جوانب أخرى من الحياة تكفيهم مئونة الحياة . وهواية الفن أو احترافه مسألة من الصعب في الحقيقة الفصل فيها ، بخاصة إذا نظرنا إلى مسألة الكفاءة أو المهارة الفنية . فلسنا نستطيع أن نجرد كل محترف من عنصر الهواية أو كل هاو من عنصر الاحتراف ، كما أن الهواة لا يقدمون دائما ما هو أكثر قيمة من الوجهة الفنية مما يقدمه المحترفون .

على أن تنظيم دراسة خاصة للهواة وإقبال الكثيرين عليها يدل دلالة قاطعة على أن كثيراً من الكفايات الفنية تضيع في غمار الحياة ، لأنها لم تتوجه منذ البداية إلى الطريق

التى تلائمها والتى تستطيع أن تسير فيها بخطى ثابتة ، وإنها أيضاً لاتجد — بعد فوات الأوان — درباً من الدروب المؤدية إلى الطريق القديم فتتنفس فيه فى حرية وانطلاق .

ويقولون إن قسم الدراسات الحرة قد نجح فى إقامة عدة معارض . كما نجح ، وهو الأهم ، فى تقديم عدد من الفنانين الشبان المتطلعين إلى الثقافة الفنية والفكر الحر ، وأنهم فى سعيهم وبحثهم وإنتاجهم يعملون على الوقوف بالحركة الفنية فى مصر والارتقاء بها حتى تسير جنباً إلى جنب مع الحركة الفنية العالمية ؟ ولكن ليس المهم هو النجاح فى إقامة المعارض أو فى تقديم عدد قل أو كثر من الفنانين الشبان ؟ وإنما المهم هو نجاح هذه المعارض ونجاح اللوحات أو الأعمال بوجه عام ، التى يقدمها هؤلاء الفنانون من الشبان .

وقد قالوا أيضاً إنها رسالة كبيرة وشاقة تدعو جميع المهتمين بالحركة الفنية إلى ضرورة تشجيعها وتأييدها ؟ فأما التشجيع فإنه حق لكل من يحاول مخلصاً أن ينجز عملا — وإن كان جزئياً — ينهض بجانب من جوانب الحياة الناهضة ، وللقائمين على هذه الحركة هذا الحق ، أما التأييد فلا يمكن أن يكون التأييد الكلى وإلا فأين يكون النقد .

وكل من شاهد هذا المعرض يدرك تماماً أن بين معروضاته — وتبلغ اثنين وأربعين قطعة — عدداً ضئيلا جداً يستحق الوقوف أمامه والإعجاب به ، وأما مادون ذلك ففيه مجال كبير للنقد ، وسأذكر هنا شيئاً على سبيل المثال . فأنت تستطيع أن تعجب بلوحة « بورتريت » أبى رمضان التى أبدعتها ريشة ميلاد فهيم ، وستعجب بها لا لفكرتها وإنما لأن ميلاد فهيم درس تشريح وجه أبى رمضان كما درس الألوان دراسة كافية ، فكان ذلك كافياً لإخراج صورة يمكن أن يقال عنها متقنة ، وبالتالى ناجحة . وقد تعترض على قولنا بخلوها من الفكرة بأنه أطلق على اللوحة اسم أبى رمضان ولم يطلق عليها اسم أبى إبراهيم مثلا ، ولكن ذلك لن يقدم أو يؤخر ، بل سيدعونا إلى أن نذكر أن كثيراً من إنتاج هذا المعرض قد فشل فى أن يأخذ الاسم المناسب ؟ وعلى سبيل المثال نذكر تمثال نظمى ناثان الذى أطلق عليه اسم التشاؤم ، ولو أطلق عليه اسم « ألم » لكان أكثر توفيقاً .

وستعجب أيضاً لوديع المهدى بلقمة العيش ، ستعجب من حيث الموضوع كما ستعجب من حيث التنفيذ ، ولكنك لن تتركه إلا وقد خطرت لك ملاحظة ، هى كيف يجتمع لذلك الشخص الذى يعود إلى بيته بعد كد ونصب طول يومه ليجلس إلى كسرة من رغيف ، كيف يجتمع له هذا مع تلك الملاءة النظيفة التى تبدو جديدة ، والتى فرشت على سريره « المودرن » .

وأخيراً فإنك ستقف طويلا — كما وقفت أنا — أمام الطبيعة الصامتة التى صورها رشيد خفاجى . ستقف طويلا تتأمل أولاً ، ثم سيثير فى نفسك هذا التأمل شيئاً لعله صور قديمة وذكريات سابقة ، تلمح من بينها صورة هى طبق الأصل من الطبيعة الصامتة التى قدمها الخفاجى . اتفاق فى الفكرة design ، واتفاق فى العناصر واتفاق فى الألوان .

قلت إن التأييد الكلى لهذه الأعمال غير مستطاع إلا عند ما نجد ناشئة الفن يثبتون على أقدامهم غير مقلدين لمذهب أجنبى أو ناقلين عن علم من أعلام هذا الفن الأجانب نقلا حرفياً ، بل مستقلين أحراراً ، ودارسين فاهمين .

عز الدين إسماعيل

من بريد الثقافة

إلى حضرة الأستاذ محمد مفيد الشوباشي :

أخي الكاتب الحر الأستاذ محمد مفيد الشوباشي المحترم .

تحية مشرقة .

لم تكن هذه الرسالة بنت ساعتها ، ولم تكن محض مناسبة أوحت لي بكتابتها ، ولكنها شوق مفعم ، وحب خالص ، وإعجاب أكيد .

أنت كاتب ذو رسالة أيها الأستاذ ، رسالة خليقة أن تشق طريقها إلى نفوس الشباب الحائر في وطننا العربي ، الشباب الذي تقاذفته الأعاصير ، وتلاعبت به الأهواء ، وجرفته الدعاوى الميتة الفارغة عن سلوك سبيل الخلاص والحياة الحرة الكريمة .

يكاد إعجابي بكتاباتكم يصل إلى حد الهتاف بصوت جهير وأنا في خلوتي الفكرية أتصفح المجلات والكتب ، وأشغل القسط الأعظم من وقتي الضيق في مطالعة مجلة الثقافة الزاهرة التي طالما حملت إلى روحي الحزين بسمات الأمل ، وإلى فكري الجائع غذاء العرفان ، وإلى دعوتي الحارة سطوراً تلقى من قلبي كل التأييد .

كم يطربني أيها الأستاذ أن أجد في مقالاتك حرارة الإيمان ، وجذوة العاطفة ، وصلابة الفكر وعمقه ، وسعير الثورة على أولئك الأنانيين الغارقين الهومين في متاهات الرموز ومجاهل الأوهام ، وشعاب الهروب من حياة المجتمع والجو ، إلى المواقف السطحية المقيتة في الكتابة والتعبير . وأجدني تجاه هذه الحالة المؤسفة مؤيداً لكم كل التأييد ، إن أثر الاستعمار يتجلى في مثل هذه الحالات .

أمة مستعبدة ، وحريات مخنوقة ، وجماهير تائهة ، وعذاب مؤلم ممض يفتك في صفوف المجتمع ، وجوع ومرض ينخر في كيانه ، واستعمار أثيم يبهظ صدر الوطن . فما أحرى أدباءنا أن يسموا قليلاً على أبراجهم العاجية ويهبطوا إلى دنيا الحياة الصاخبة ، وما أحرى أدباءنا أن يمدوا النفوس التواقة إلى الحرية والنور بالغذاء المعنوي المفعم بالرجولة والبطولة والأمل والإيمان ، مادامت رسالة الاستعمار هي تحطيم معنويات الشعوب بعد إنهاك وتحطيم اقتصادياتها .

كتب كثيرون عن الثورة المصرية الأخيرة ، كتبوا ، وأطنبوا وأطالوا ، ولكني لم أجد إلا القلائل من هؤلاء ، يتناولونها بمثل ماتناولتها في مقالتك « ثورة مصر على الاستعمار تقترب من مرحلتها الحاسمة » ، ذلك أن تحليلك العلمي لها ، واتجاهك في الاعتماد على التاريخ الصحيح وعلى التطور ، يدفع كل من يقرأها إلى الإيمان العميق بأن عهد الاستعمار البغيض آن له أن يزول ، وأن الغد هو غد الحرية ، غد الشعوب المتحررة ، غد العدل والحق والنور .

قد يتحول التاريخ عن خطة سيره فجأة وبدون سابق إنذار ، وقد ينقلب على نفسه ، وقد يصبح علينا بعد ما كان لنا ، ولكن هذا لا يعني مطلقاً أننا نؤمن بواقعه الفاسد ، وأن نرضخ لما تتطلبه مشيئة الظروف ، إن الطريق طويل شاق وعر ، ولكن كل شيء يهون مادامت ثقتنا بشعبنا العظيم عظيمة ، وما دمنا لا نرضى بغير الحرية والاستقلال بديلا .

إني أهنئكم أيها الأستاذ الكريم على مجهودكم الفذ في خدمة الوطن العزيز ، وخدمة الثقافة والعرفان ، وأهنئكم على دعوتكم الحارة إلى أدب الحياة ، إلى أدب الجماهير الكادحة البائسة الفقيرة ، وكل ما أرجوه منكم هو أن يكون الحماس ، الحماس الوهاج رائدكم في مقالتكم المقبلة ؛ الحماس الذي لا يدع لليأس مجالاً كي يتسرب إلى نفوسنا .. ، إن الظروف المجرمة أصبحت ضدنا أيها الأستاذ ، وأخشى ما أخشاه هو الانتكاس والعودة إلى الوراء ، وعلينا جميعاً أن نجعل الثورة على الاستعباد حركة جياشة موارة في النفوس لا تهمد ولا تخمد .

المخلص

كاظم مراد

الثقافة

العـــدد ٦٨٨
٣ من مارس ١٩٥٢

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

صفحة

التائه

أيها التائه المعذب ... يامن

ضحكت من طوافك الأقدار

يا غريب الديار ودع أمانيـ

ـك فقد آن أن يموت النهار

آن للروح أن يحلق في الكو

ن بعيداً ... وملؤه الأسرار

آن أن تخنق السهاد بعينيـ

ـك ... فقد طال يا شقي الإسار

طال مسراك هائماً ... في حمى الما

ضي ... وفي راحتيك شوك ونار

قد ضللت الدروب يا أيها التا

ئه ... هـذا شبابك المنهار

هـذه دمعة الأسى بين جفنيـ

ـك ... رثاء ... وشقوة واحتضار

وقفة يا زمان ... لا تسرع الخطـ

ـو ... فعمري ما عاد إلا ثوان

أنا ضيعت في الكآبة أحلامي

وودعت بهجة العنفوان

وبكيت الشباب بحرقة الوجـ

ـد وتضنيه كاذبات الأماني

وحطمت الكئوس وهي حنين

وتسابيح في فم الأشجان

فتمهل قليلا لي غير أحلا

م تهاوت في خاطر النسيان

إنها ذكريات قلب شقي

ثرتها زوابع الحرمان

إنها عالم من السحر والفن

ونبع من الهوى والأغاني

(الوصل — العراق) محمود فتحي المرروه

أمشير

ثار .. عـلا الفضاء دويا

وضجيجاً — إنما طغى في اضطراب

ساخر بالعباد .. يحثو عليهم

دون رفق — ما ساقه من تراب

أطلق الريح ساقيات فظلت

في جنون .. تصول فوق الروابي

لطمت صفحة الخدود — وطارت

كالعقل الجياش بين الشعاب

وتصدت لنا .. فكانت بجن

ينثر الذعر في نفوس الشباب

هي إن قهقهت أسالت دموعا

من عيون النساء ... ياللعجاب !!

يا أمشير .. إن تمرد في الأر

ض .. غضوبا .. يضل نهج الصواب

كدر الصفو ، والجمال ، وأمسى

كنذير يسوم سوء العذاب

قلبه .. فيه — كالسياسة — أجوا

ء هدوء ، وتارة في اصطخاب

متحد — كالأنجليز — خدوع

باء بالسخط — دائماً — والسباب

(القاهرة) محمد أحمد سالم

الثقافة

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

AL-THAQAFA

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العــدد ٦٨٨ | الاثنين ٧ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧١ — ٣ من مارس سنة ١٩٥٢ | السنة الرابعة عشرة

في ضوء المصباح :

نفس عارية

للدكتور زكي نجيب محمود

— « لا ، إني لا أريد أن أكون سعيداً ، لا أريد اطمئنان النفس وراحة البال ، وإني لأسعى سعياً إلى الشقاء والعناء والتعب ، وأبحث عن أسباب البؤس والنكد ؛ كَذِبٌ كله هذا الذي يكتبونه في الكتب ويعظون به في المحافل عن طلب الإنسان لسعادة نفسه ؛ إنهم لا يعلمون عن النفس الإنسانية شيئاً أولئك الذين يحسبون الناس جادين في طلب السعادة وراحة البال ، ويظنونهم جادين حقاً في التماس الرفاهية والخير .

« إني أريد لنفسي الألم ، وأريده للناس ؛ أريد لهم ولهم أن يتعذبوا ... ومنافق أنا مع سائر المنافقين حين أدعي بهتاناً وزوراً أني كاره حقاً للألم ينزل بي ، وبالناس ، ويشتملني ويشتملهم جسماً وروحاً ... إني لن أنسى أبد الدهر ذلك الطفل الذي رأيته مرة يبكي على لعبة أفسدتها له أخته ، فجاءت أمه تمسح له الدموع عن عينيه ، وترضيه بحلو كلامها ، فقال لها وهو يدفعها عنه بيديه الصغيرتين غاضباً : دعي لا تمسحي دموعي لأني أريد أن أبكي ولا أستطيع البكاء بغير دموع ... لن أنسى أبد الدهر ذلك الطفل الذي أصاب من حقيقة النفس الإنسانية بفطرته الشفافة ، ما لم يصبه أصحاب الكتب والمواعظ الذين قد راءوا حتى أفسدهم الرياء ، ونافقوا حتى أنساهم النفاق أنهم منافقون ؛ إن الإنسان يريد أن يتألم ويبكي ، ويبحث في الخفاء عما يثير فيه ذلك الألم وهذا البكاء ، وكَذِبٌ كله هذا الذي يقولونه ويكتبونه من أن الإنسان ينشد لنفسه وللناس راحة وطمأنينة وسعادة

« انظر إلى هذه القطعة من الحلوى قد وضعت لي على المائدة منذ أمس ، وهممت أن آكلها مرات عدة في غضون النهار ، ثم أمسكت لأني آثرت لنفسي الحرمان ... »

بمثل هذه الدفعة العجيبة راح صديق يحدثني عندما زرته فوجدته في داره وحيداً ، فلا أمه هناك ولا خادمته ، وكانت الدار مغلقة النوافذ ، والضوء فيها قبيل الغروب خافتاً بين الظلام والنور .

فتح لي الباب ولم يفرح بلقائي كعادته ، لأنه — فيما بدا لي — قد كان يريد الوحدة ؛ بل لم يكفه أن يكون في الدار وحيداً ، فانتبذ من داره هذه الخالية ركناً أبعد ما تكون أرجاؤها عن مصادر الضوء والصوت ؛ كان في مستطاعه أن يضيء المصباح وأن يدير المذياع ، لكنه لم يفعل .

وجلست إلى جواره فيما هو أشبه بظلام الليل منه إلى ضوء النهار ؛ لا أجرؤ على إضاءة المصباح لأن ضيفه، وليس للضيف أن يغير من أوضاع الدار التي تضيفه، أو أن يلاحظ عليها شيئاً إلا أن يكون استحساناً ومدحاً، وظل هو إلى جانبي صامتاً يفرك يديه، ويطقطق أصابعه، ولم يمنعني خفوت الضوء من رؤية شفتيه الراجفتين وعينيه البارقتين وأطرافه المتشنجة.

فقلت له : لست أراك في وحدتك هذه سعيداً.

فاندفع يجيبني متدفقاً بالعبارة التي أسلفت بعضها : « لا، إني لا أريد أن أكون سعيداً ... »

وانتهزت لحظة قصيرة وقف فيها تياره الدافق، وقلت : هل لك أن تذكر لي ما حدث لك اليوم حتى أتعقب ثورتك هذه إلى أصولها ؟ وسترى عندئذ أنها ثورة مؤقتة مرهونة بأسبابها، حتى إذا ما زالت الأسباب، عاد إلى النفس هدوؤها وصفاؤها ؛ فالأصل في الإنسان أن يكون هادئاً ساكناً سعيداً، والشذوذ أن يضطرب ويشقى.

فقاطعني قائلاً : هذا حديث شاعر يسبح في أحلامه الجميلة مغمض العينين ؛ أولى لك أن تصيح بالرياح : أن اسكني يا رياح حتى يهدأ البحر فلا يموج، أو أن تهتف بالشمس ساعة غروب جميل أن قفي يا شمس حتى لا يغيب عنا هذا الجمال ... إن مثيرات النفس قائمة لنا في كل خطوة من الطريق وفي كل منعطف بها ؛ سر هنا فهنا ما يثيرك، وسر هناك فهناك ما يثيرك، وميل نحو اليمين أو مل نحو اليسار، تجد مثيرات النفس تتلقفك يمناً ويساراً، فماذا أنت صانع إذا أردت لنفسك الطمأنينة والهدوء ؟ بل ارجع إلى دارك وأغلق من دونك بابها ونوافذها كما تراني أفعل الآن، وستلاحقك المثيرات، حين تستعيد بالذاكرة ما رأيت وما سمعت، وحين تضيف إلى كل هذا الذي قد رأيته وسمعته جديداً من عندك تسر به إلى نفسك.

فسألته : ماذا تعني ؟

فقال : ألم تلحظ في نفسك كيف تتوهم بخيالك أنك تتحدث إلى فلان أو علان، فيقول لك كذا فتقول له كيت، ويفعل كذا فتفعل كيت ؛ وما تزالان — في خيالك — تتخاصمان بالقول وتتقاتلان بالفعل، حتى تنظر، فإذا أنت قد احتدمت في نفسك الثورة واشتد بك الغضب ؟

فقلت : كأنما عداوات العالم الواقع لم تكفنا فزدنا عليها بخيالنا عداوة، وكأنما مثيرات الدنيا من حولنا لم تشبع نفوسنا، فألهبناها بأوهامنا حرارة وسعيرا.

فقال — وقد هدأ بعض الشيء — نعم ... لكن الخير كل الخير في أن تكشف للناس هذه الخواطر الدفينة، حتى يعلموا حقائق نفوسهم وما يدور فيها ؛ إنك قد تقاتل خصمك في خيالك قتالا ينتهي بك فعلا إلى غضبة حقيقية تندفع معها إلى الأخذ بالانتقام والثأر ... أليس جديراً بالناس أحياناً أن يضعوا نفوسهم عارية أمامهم لا يحجب مكنونها حجاب، فلعل ذلك يفتح أعينهم على حقائق يجهلونها فيحورون من سلوكهم بعضهم إزاء بعض بما قد يخفف من هذه الضغائن والسخائم التي يكتمونها في أنفسهم كارهين ؟

وصمت صديقي قليلا ثم قال : ولماذا لا أبدأ بنفسي؟ هذه هي نفسي أضعها أمامك عارية كما وجدتها طوال ساعات العصر — لن أستحي من مكنونها وخبيثها مهما يكن خبيثاً، فكل الناس هذا الخبيث — لكنه الرياء يستر ويخفي ..

رأيت ظهر اليوم طفلا أمام الدار يلعب « بالنحلة » فيلف طرف الخيط حول نحلته الخشبية ثم يقذف بها، فتدور النحلة على سنها فوق بلاط الإفريز دوراناً عنيفاً، لكن الطفل يخشى على دورانها الفتور والضعف، فيظل يضربها بعذبة سوطه ضرباً متلاحقاً، حتى تدور ولا تكف عن الدوران .. وصعدت إلى هنا، فما هو إلا أن تنزو بنفسي الخواطر الثائرة، إذ صورت لنفسي فلاناً وقد قذف بي على الأرض قذف الطفل لنحلته، وراح يلهبني بعذبات سياطه حتى أدور ولا أكف عن الدوران لتفه هو ومتعته، ولا عليه أن أدوخ وأتعب.

إني تلك النحلة الدائرة لمتعة غيرها، أضرب بالسياط لئلا أقف فتنقطع متعة المتمتعين — لا تقل إنه وهمك وخيالك، لأنه عندئذ لا فرق بين حقيقة وخيال ؛ فانطلقت خواطري متلاحقة طوال ساعات العصر سوداء قاتمة، كأنها أسراب الغربان تحوم في الهواء سابحة متعاقبة، ثم تدور دورتها لتعود من جديد . . . انطلقت خواطري السوداء متلاحقة فلا أرى الناس إلا معذباً بعضهم بعضا — كذب ونفاق هذا الذي يكتبونه في الكتب ويعظون به في المحافل من أن الإنسان يرجو لغيره الراحة والخير، فأنت مشاهد في كل

خطوة نخطوها وفى كل ثنية ينعرج بك الطريق فيها ، دليلاً شاهداً على أن الناس يمقت بعضهم بعضاً ويوقع بعضهم ببعض الضر والأذى .

وخطر لى خاطر عجيب ، وهو أن أمزق كتباً عندى تملأ صفحاتها بمثل هذا الكذب الذى يكتبه الكاتبون على سبيل الوعظ والتقويم ، أو لست أدرى لماذا يكتبونه وهم يعلمون أنه كذب — أو لعلهم لا يعلمون .

لكن خاطر التمزيق لم يكد يطوف برأسى ، حتى اكتنفت سرعة الخواطر الدامية المشتعلة بالحقد والانتقام — رأيت نفسى أنتظر حتى ينسدل ظلام الليل فأختفى تحت ستاره وأقصد إلى دار خصمى الذى يبتسم لى رياء ، والذى أصوره يضربنى بجلدة سوطه لأدور كما كان الصبى يضرب نحلته على بلاط الإفريز — أقصد إلى دار خصمى ذاك فأشعل فيها النار ثم أجرى إلى التليفون القريب لأنادى رجال المطافئ ، والعجيب أنى استشعرت الراحة للصورتين معاً : لصورة النار أشعلها انتقاما ، ولصورة الشهامة أبديها فى محاولة الإنقاذ . .

قال صديق : ليس عليك من بأس ، فأنت خير حالاً من شيطانة دوستويفسكى لأنك هدمت وأصلحت ، أما هى .

فسألى : وما شيطانة دوستويفسكى ؟

فقلت : هى « ليز » الفتاة التى أحبت « أليوشا » فى قصة الإخوان كارامازوف ، ثم أخذتها هذه الرغبة الجامحة نحو ارتكاب الشر وإيقاع الأذى حتى بنفسها ، فأرسلت إلى « أليوشا » — وهو الشاب النبيل الورع — فلما سألها : ماذا تريدين ؟ قالت : أردت أن أعبر لك عن شوق شديد بنفسى ، وهو أن يتزوجنى رجل قاس يعذبنى ، يتزوجنى ليعذبنى ثم يخدعنى ويفر عنى هارباً . إنى لا أريد أن أكون سعيدة .

فقال لها « أليوشا » : أتنشدين السوء ؟ فأجابته : أى نعم ، وما أعمقك راغبة فى إشعال النار فى بيتى ، بحيث لا يدرك الناس الخطر إلا بعد فوات الأوان فيحترق كل شىء .

قال صديق — وقد اطمأن نفساً أن يرى الناس فى ذلك سواء — يظهر أن هنالك لحظات يحب الإنسان فيها ارتكاب الشر وينزع إلى الجريمة ، ليس الناس ملائكة ولا قديسين ، لكن ما الذى دفع « ليز » فى قصة دوستويفسكى أن تنزع إلى هذا الشر كله ؟

فقلت : لعله مرضها ، كانت كسيحة ثم برئت ، لكنها لم تبرأ كل البرء ، فربما أشعلت العلة فى نفسها نار الحقد والرغبة فى الانتقام .

قال : انتقام ممن ؟ لقد أرادت أن تشعل النار فى دارها هى ، نفس الخاسرة .

قلت : نعم ، هذا هو الإنسان وهذه هى طبيعته ، يشتد به الضيق فيشق ثيابه ويمزقها ، ويضرب رأسه فى الجدار ليتورم ، بل قد يزهق نفسه بيديه . . . لقد ضاقت « ليز » نفساً حتى طردت حبيبها من الدار ، وأغلقت الباب على إصبعها عامدة ، ثم أخرجت إصبعها وهو ينز بالدم من أسفل الظفر ، فراحت تتأوه من الألم وتفرح فى دخيلة نفسها أن أوقعت بنفسها ذلك الألم . . . إنه الإنسان وطبيعته ، يضيق نفساً فينزل الأذى بالناس وبنفسه .

هنا قام صديق وأنار مصباحه — وكان الظلام قد اشتد سواده — وعاد إلى مكانه منبسط الجبين ، كأنما اطمأن على نفسه من شذوذ ظنه بها ، وقال : لو لم تكن « ليز » مريضة لما أحدثت شراً ولا اقترفت إثماً ، فماذا أنت قائل فيمن نزل بهم المرض مضافاً إليه عرى وجوع وتشريد ؟

زكى نجيب محمود

صور من الماضي

للأستاذ الدمرداش محمد بك

التقيت — مصادفة — في صباح يوم الجمعة الماضي ، بصديق الشيخ العجوز ، يسير الهوينا في ميدان القلعة ، تحت أسوار القلعة ، بخطوات وئيدة هزيلة . وقدمه بصعود المنحدر المؤدي إلى منزله ، بحارة عبد الله بك .

سألته عن حاله ، فقال : الحمد لله على كل حال .

قلت : أراك مطرقاً تفكر .

قال : نعم . أفكر يا صديقي في زمان ، وأيام زمان ، وناس زمان ! أفكر في أولاد رشيد ، أولاد العز ! وقد كانوا يسكنون هنا ، في شارع المحجر ، على بعد خطوات منا . أين هم ؟ لقد ذهبوا . أفكر في رحلاتي معهم إلى الجبل للصيد والقنص ، وفي ذهابنا معاً لمشاهدة مسابقات الفروسية في صحراء العباسية . أفكر في حلقات رهان الديكة هناك تحت جدران جامع السلطان حسن ، وفي « غيات » الحمام ، و ... و ...

قلت : كفى . أراك توجز في حديث طالما تاقت نفسي إلى سماعه منك مسهباً ؟ إنها فرصة . تعال معي . وسحبته من يده ، وجلسنا على مقهى يطل على ميدان القلعة الجميل الفسيح ، فطلب « شيشة » ، وطلبت قهوة وقلت له : هيا . هات ما عندك عن الماضي ، فوقتنا يتسع « للدردشة » الطويلة .

قال : سمعاً وطاعة . ثم اطمأن في جلسته ، ووضع رجلاً على رجل ، وطفق يحدثني عن زمان ، وأخبار زمان ، مدة ساعتين ، حديثاً هادئاً ، طريفاً ، فيه تسلية وعبرة .

قال : أما أولاد رشيد فقد كانوا خمسة إخوة ، أصغرهم لم يكن — عندما عرفتهم — قد جاوز الثلاثين ، وأكبرهم كان قد أربى على الخمسين . وكانوا من أولاد الذوات الأمجاد . حباهم الله بالصحة ، وجمال الوجه والصوت ، وصفاء النفس ، وطيبة القلب . وكانوا يسكنون قصراً من قصور المماليك ، واسع الأرجاء ، كثير الأثاث والرياش .

وكان منزلهم هذا بمثابة منتدى يجتمع فيه في الأمسيات ، صفوة من أهل حي الدرب الأحمر ، من أصدقائهم والمقربين . وكنت كلما زرتهم استقبلوني « بالحضن » واستبقوني عندهم حتى موعد الطعام . فإذا ما حان وقته ، جلسنا على الكراسي حول صينية كبيرة من المعدن المدهون بمختلف الألوان ، تزينه نقوش من مناظر وصور ، وتقدم لنا أطباق الأكل الشعبي من أرز ولحم وخضار وحلوى . فإذا انتهينا من الطعام دعوني إلى « المندرة » لشرب الشاي الصيني المعطر ، في جو عبق ببخور العود والصندل .

وكنا في بعض أيام الجمع ، بعد الغداء ، نقصد صحراء العباسية لمشاهدة سباق الخيل والطاردة (البرجاس) . فيركب بعضنا مع عبد الله بك — الأخ الأكبر — في « دوكاره » وبعضنا الآخر مع أحمد بك — الأخ الأصغر — في « فيتون » .

وكانت هذه الأيام في القاهرة ، تعد من الأيام المشهودة . فيزدحم الناس حول حلبة السباق ، ويكتظ بهم الميدان ، لا فرق بين خاصتهم وعامتهم ، ولا بين كبيرهم وصغيرهم ؛ فيقف الجميع في صفوف لمشاهدة المباريات ، والجياد المتسابقة . وقد ركبها أصحابها الهواة من علية القوم ، وطبقات الشعب ، وازدانت سروجها وألجمتها بخيوط الفضة المذهبة ، ورءوسها ورقابها بالأحجبة المغلفة بصفائح الفضة والذهب .

ثم قال : ومن جميل ما يستحق التنويه بهذا الصدد ، أن المتسابقين كانوا كلما زاد الجمهور في إطرائهم ، والإعجاب بألعابهم ، ارتفعوا بها إلى مستوى عال من الفنية والدربة والإبداع ، مع الحرص على الآداب العالية ، والمظهر الراقي . وكان هذا المشهد يثير فينا ، نحن المتفرجين ، النخوة والاعتزاز . ويعيد إلى أذهاننا ذكرى مظاهر الفروسية في مصر على عهد سلاطين المماليك .

وبعد أن تمهل قليلاً استطرد يقول : أظنك يا صديقي

لا تجهل أنى كنت فى شبابى من هواة الصيد والقنص .

قلت : بلى . كيف أجهل ذلك ؟

قال : إذاً ، استمع لهذه القصة : خرجت مع أولاد رشيد فى شتاء عام ١٩٠٨ فى رحلة إلى جبل المقطم لصيد الأرنب والغزال . وألقنا بخيمنا تحت تلعة الغز بوادى دجلة . وفى فجر اليوم التالى غادرنا الوادى ، وأخذنا طريقنا فوق الهضاب ، وفى الأودية ، متوغلين شرقاً ، لا نتبع طريقاً معينة . وكان فى القيادة حسن بك — الأخ المتوسط — وهو صياد ماهر ، خفيف الجسم ، رشيق الحركة ، بصير بالصيد وضروبه . وبعد قليل أقبلنا على واد وافر العشب . فأبصرنا أرنباً يقطع عرض الوادى بسرعة البرق ، يتلوه ثان وثالث ؛ وفى لمح البصر اختفت وراء الصخور ، وكان لمنظرها وهى تعدو أثر مدهش فى الجماعة ، فاندفعوا وراءها لا يلوون على شئ ، وفى المقدمة حسن بك ينهب الأرض نهباً كأنه الجواد فى حلبة السباق . وفى لحظات توسطنا الوادى وبدأت المطاردة ، وما إن رأتنا الأرانب حتى قفزت إلى وهدة . ثم مرقت كالسهم إلى أخدود . ثم تسلقت الجبل . ونحن فى إثرها نتبعها من غير هوادة ، نرتق الهضاب ارتقاء ، ونلق بأنفسنا من الجبال إلى السهول إلقاء ، وإشارات القائد تقذف بنا يميناً أو يساراً ، طوراً مقبلين ، وطوراً مدبرين ، مرة فى صياح وجلبة ، ومرة فى حذر وسكوت ، تارة نعلو ، وتارة نهبط . وهكذا كانت تستمر المطاردة ساعات متواليات ، والحيوان التعس ينتقل من ساحة إلى ساحة طالباً النجاة وراء الصخور ، وفى الصدوع ، وفوق الربا ، وتحت الأرض . ونحن نحاول دفعه إلى السهل ، وهو يأبى إلا الوعر تقوده غريزة البقاء ؛ فإن أخطأ المسكين التقدير ، وحمّ القضاء ، ضاق النطاق ، وعز الفرار . وتلقفته نيران البنادق من كل صوب ، فيخر صريعاً ، ضارباً أعلى المثل فى الروغان ، والعناد ، والصبر على الجهاد .

قال : وقد بلغت حماسة القوم فى المطاردة هذا اليوم حد الجنون ، وكاد يقضى على أحدنا وهو أحمد بك بالموت على أبشع صورة . فقد اندفع وهو مأخوذ وراء غزالة ؛ لجأت الغزالة إلى جرف صاعد فى جدار الجبل . فلحق بها ، وأطبق عليها ، ولكنها أفلتت منه . فانطلق وراءها يجرى . فانهار الجرف من تحته ، وهوى بجسمه من شاهق . فتشبث بصخرة ناتئة ، وأصبح معلقاً بين السماء والأرض .

لحظة رهيبة مرعبة ، ولولا أن ملك الجماعة زمام عقولهم وتصرفوا بما يستلزمه الموقف من بديهة حاضرة ، وهمة عالية ، لسقط أحمد بك فى الهاوية ، ولا أدرى الآن ، وقد توالت الحوادث إذ ذاك بسرعة مدهشة كيف تسنى للرفاق أن ينتشلوا زميلهم من ورطته ، وعلى كل حال فقد انتهى الحادث بسلام ، وعادت الجماعة إلى ما كانت فيه من مطاردة الأرانب .

وعند هذا الحد من القصة . سكت صاحبى ثم تنهد وقال : والله أيام ولت فهل تظن يا رفيق أن لها عودة .

قلت : أطال الله لنا فى عمرك . استمر .

فقال : الشىء بالشىء يذكر . هل تحب أن تسمع حكاية داوود باشا .

قلت : بلى كل أحاديثك مسلية .

قال : خرجت مرة فى مستهل هذا القرن على مدينة قنا لزيارة قريب .

فوجدت عنده تاجراً من أهل قنا اسمه . على ما أذكر الشيخ أحمد السيد ، فروى لى عن والده القصة الآتية :

قال الوالد إنه فى صغره شهد حفلا كبيراً أقيم فى ساحة مولد سيدى عبد الرحيم القنائى . حضره مدير الإقليم داوود باشا ، وجمع غفير من أعيان البلاد ومشايخها ، ونزل الهوارة كعادتهم فى كل عام إلى الساحة على متن جيادهم يعرضون ضروباً من الفروسية . من كر وفر ومطاردة ، ولعب بالسيف ، ثم مثلوا معركة حربية بالسيوف والبنادق فأججت الحماسة لهذا المشهد ، فى صدور الحاضرين ، واستفز منظرها داوود باشا — وكان رجلا عسكرياً — فتقلد سلاحه ، واعتلى صهوة جواده ومرق إلى الساحة يتبعه حرسه الخاص ، وكان مكوناً من أربعمائة فارس ، واشترك هو وجنوده فى الألعاب والعرض . فاغتبط القوم لهذه المشاركة من قبل الحكومة فى أكبر مولد يقام فى عاصمتهم قنا . وأخذتهم نشوة من الفرح . فراحوا يهاجمون المتبارين من الطرفين واشتد بهم الحماس ، فى هذا اليوم ، لدرجة لم يعهدوا لها مثيلا ، ولم يكد يمضى إلا بعض الوقت على هذا الفرح الشامل ، حتى حصل ما لم يكن فى الحسبان ، فقد استبد التنافس بالجند والهوارة ، ونسوا أنفسهم ، وأفلت زمام الموقف من يد رؤسائهم . فتحولت المباراة إلى تحامد جر إلى عراك . فنشبت بين الفريقين معركة حقيقية بالبنادق

والسلاح الأبيض . استبسل فيها الفريقان . وهب أنصار الفريقين لنجدة فدب الذعر بين المتفرجين ، وساد الساحة هرج ومرج شديدان ، وهمّ علية القوم بالفرار للنجاة بأنفسهم من رصاص البنادق . وكاد الحال ينقلب إلى مأساة مروعة . لولا أن تدارك الأمر داوود باشا بعزمه وشدته . فهدأت النفوس ، وعادت المياه إلى مجاريها ، وقد فقد الجند ثلاثة من القتلى ، وفقد الحوارة أربعة آخرين وبعض الجرحى .

ثم استطرد يقول : أنظر هكذا كان حكامنا فى الزمن الماضى يشاركون الشعب ويندمجون فى روحه .

فقلت : يا شيخ ! اتق الله . هل نسيت الظالم ؟

قال : هكذا أنتم ، تصدقون ما يقوله هؤلاء الدخلاء الأجانب من ترهات وإفك ، إنهم يشوهون ماضينا لغرض فى نفوسهم .

قلت : حكاية أخرى من فضلك .

قال : على العين والرأس . سأحدثك من الفتوات ، ولن أطيل : فى أمسية الليلة الختامية لمولد سيدنا الحسين عام ١٩٠٥ ، بينما كنت جالساً على قهوة (كتكوت) فى ساحة المولد أتناول فنجاناً من القهوة ، وأتفرج على الجموع الزاخرة ، من الزوار الوافدين من مختلف جهات القطر ، إذ أبصرت الناس على حين فجأة ، يتدافعون مذعورين ، وهم يحاولون الفرار صوب منافذ الشوارع والحارات ، فوقفت على كرسى أستجلى الأمر ، فرأيت عراكاً عنيفاً ناشباً فى طرف الساحة بين فتوات الحرانية بقيادة زعيمهم المدعو (كسلا) ، وفتوات باب الشعرية ، استخدم فيه الطرفان العصى والرءوس والسواعد و « البونيات » . وبعد قليل انسحب فريق باب الشعرية إلى شارع خان جعفر ، ثم إلى ميدان بيت المال ، أمام قسم الجمالية ، حيث تجدد العراك بصورة أشد وأقسى ، لوصول نجدات قوية لكلا الطرفين ، وضاق الميدان على الساعه بأنصار الفريقين ، فالتجأت إلى مبنى القسم ، فوجدت مشفق باشا ، حكمدار العاصمة فى ذلك الوقت ، يطل من نافذة على ميدان المعركة وهو ثائر ، تتزاحم فى فمه الأوامر لرجال البوليس ، الذين وقفوا عاجزين لاحول لهم تجاه إصرار الفتوات ، وشدة بأسهم ، وفى دقائق معدودات انتهت المعركة بانحسار فريق باب الشعرية وانسحابه من الميدان ، فالتفت الحكمدار إلى الضباط الذين كانوا حوله ، وقال يخاطبهم بصوت عال : بصفتى ضابطاً ، اشترك فى كثير من معارك السودان ، وجنوب أفريقية ، أشهد بأنى لم أر مثل هذه المعركة فى سرعتها ، وشدة قوتها وبسالة الفريقين المتقاتلين ، كما أنى لم أر من قبل ، مثل هذه البراعة فى استعمال العصا كأداة للهجوم أو للدفاع ، وأشهد لزعيم فتوات الحرانية بالشجاعة ، وثبات الجنان ، وبالمهارة فى التوجيه وتنظيم الصفوف . ثم أردف يقول : بالرغم من كل ما يقال عن خساسة شأن هؤلاء الناس ، والباعث لهم على هذه الاشتباكات الدامية ، فإنى كرجل عسكرى ، أقرر بأن ماشاهدته ، هذه الليلة من ضروب البسالة ، ليدل على الرجولة الكاملة ، كما يفهمها الرجل المحارب .

وبعد أن انتهى صاحبى من هذه القصة ، نظر إلى ساعته والتفت إلىّ وقال : هيا بنا إلى المسجد لصلاة الظهر .

قلت : وباقى الحديث ؟

قال : نرجئه لجلسة أخرى إن شاء الله ، وكل آت قريب ؟

الدمرداش محمد

إنارة القرى المصرية

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

أنشأت الحكومة المصرية وزارة جديدة للشئون القروية بقصد النهوض بالريف المصرى من الناحيتين العمرانية والاقتصادية . وقد روعى فى اختيار الوزير القائم على تلك الوزارة الجديدة أن يتحلى فوق الميزات الفكرية والعلمية بالشباب حتى يتمكن من الاضطلاع فى حماسة الشباب وفتوته بهذه المهمة الضخمة الملقاة على عاتقه .

وقد جابهه العمل الشاق المضنى منذ جلس إلى مكتبه المرة الأولى : من اختيار المصالح الحكومية التى يدخل عملها فى اختصاص وزارته ، ومن إنشاء مصالح جديدة يستكمل بها الوزير أداته الوزارية ، ومن النظر فى وسائل النهوض بالريف المصرى ووضع خطوطها العملية الرئيسية . وقد اكتظ مكتبه بسيل من البحوث التى تقدم بها الغيورون بغشا كل الفلاح . ولم يضن على الوزير واحد منهم ، فيما أعلم ، برأى يراه محققاً لأهداف الوزارة الجديدة . فتشعبت المسالك أمام الوزير حتى لم يعد من السهل أن يختار من بينها المسلك الأمثل .

ونحن لن نسوق هنا بحثاً فى وسائل إصلاح قرانا ، خشية أن نكرر ما سبق إليه غيرنا ، أو أن نزيد مكتب الوزير ازدحاماً بالمقترحات . ولكننا سنتحدث عن مسألة فرعية بسيطة نعتقد أنها جديرة بالالتفات برغم ضيق وقت الوزير وثقل أعبائه . وليس إصرارنا على التحدث عنها وسط زحام الأحاديث عن إصلاح القرية إلا لإيماننا بأهميتها البالغة . وهى مع ذلك سهلة البحث ، سهلة التحقيق ، فوق ما يسفر عنه تحقيقها من منافع جلى ... إنها مسألة إنارة القرى .

ليس بين المشروعات العديدة الخاصة برفع مستوى الحياة القروية مشروع واحد لا يحتاج تنفيذه إلى مال وفير وجهد جهيد ووقت طويل . فإنشاء القرى الجديدة ، وتزويدها بالمياه الصالحة للشرب ، وتدريب أهلها على الصناعات الريفية ، وإقامة المؤسسات الصحية والثقافية التى تكفل حياة اجتماعية مريحة راقية ... هذه الوسائل الإصلاحية وما يماثلها تحتاج إلى أموال لا قبل لميزانية الدولة ببذلها دفعة واحدة ، وتحتاج إلى عدد كبير من ذوى الخبرة غير متوفر . ولذلك كان لا بد من تجزئة تنفيذها على سنوات عديدة . ولا شك أن وزارة الشئون القروية لن تتوانى عن الشروع فى تنفيذها الآن . ولا شك كذلك أنها ستجد التأييد والمؤازرة لدى كل وطنى مخلص قادر على التأييد والمؤازرة . ولكن الذى نرجوه ألا يوضع مشروع إنارة القرى فى ذيل قائمة الإصلاح . فهو لا يحتاج إلى ما تحتاج إليه المشروعات الأخرى من خبراء غير متوفرين ، ومال غير ميسور ، وزمن نريد أن نسبقه .

إذا نفذ الوزير هذا المشروع فهو يستطيع أن يقول مباهياً إنه أنار الريف المصرى الذى لم ير النور قبله . ثم يستطيع أن يباهى بأنه نشر النور فى القرى المصرية فتلألأت بعد أن ظلت غارقة فى الظلام الدامس منذ الأزل . وهو إذا أنارها فإنه لن يضىء شوارعها وحاراتها العامة فحسب ، ولكنه سيضىء بصائر قطانها ، ويغير عقلياتهم ، ويفتح لهم ميادين جديدة للعمل والرياضة ، وآفاقاً جديدة للفهم والإدراك .

إن الذى يقرأ عن أول عهد الولايات المتحدة بالإضاءة الكهربائية ، ثم انتشار النور منها إلى بقية بلاد أمريكا وأوربا ، يستطيع أن يدرك اهتمام الشعوب على اختلاف أنواعها ودرجة ثقافتها بتلك التحفة العلمية السهلة التناول ، الضخمة الفائدة . لقد انتظر أهل نيويورك جميعاً نتيجة أول تجربة للإضاءة الكهربائية . انتظروا فى شارع المدينة الرئيسى ساعات طويلة ، محتملين لفح البرد القارس وهم يتطلعون إلى بضع ثريات معلقة فى أعمدة منصوبة ليروا النور منبعثاً لأول مرة فى التاريخ بتلك الطريقة العلمية

التي تشبه السحر . وما انتشر النور اللامع في الشارع حتى هللوا وأبوا أن ينصرفوا إلى دورهم حتى أطفأ نور الصباح نورهم الصناعي .

وجاء أهل قرية قريبة ليشاهدوا معجزة العلم . وأخذوا يسألون عن سرها ، فلما وقفوا عليه وتبينوا بساطته حتى اشتروا آلة الإنارة والأسلاك والثريات ، وعادوا إلى قريتهم فأناروا شارعها الرئيسي ، والمقهى الذي يجتمعون فيه مساء ، وطفقت القرى الأخرى تحذو حذوهم حتى عمت الإضاءة الكهربائية ريفهم ، ومن ثم عمته الحضارة ! ولا يقال إن النور الكهربائي انتشر هناك بسهولة لأن قطان تلك البلاد كانوا على درجة من الثقافة حفزتهم إلى السعي للاستفادة من ذلك الكشف العلمي ، فإن الضوء الصناعي المتلألئ يبهر الناس جميعاً على اختلاف ثقافتهم ، ولا يحتاج الأمر إلا إلى توجيه يسير حتى يتنافس أهل قرانا في إضاءة بلادهم بالكهرباء .

قد يعترض معترض بأنه من المتناقضات أن تضاء بيوت الطين المشيدة على طراز ما قبل التاريخ ، بالكهرباء وهي من أحدث المخترعات . ويقترح لذلك إرجاء إنارة القرى حتى تبنى دورها الجديدة التي ستشيد على الطراز الحديث . ولئن يعوزنا الرد على ذلك ، فنحن لا نقترح إنارة القرى الحالية بالكهرباء . ولكننا نقنع بمطالبة وزير الشئون القروية أن يقصر الإنارة اليوم على شارع القرية الرئيسي ، وحانوتها الذي يسهر حوله السمار ، ومقهاها إذا كان لها مقهى ، ومركزها الاجتماعي ، ومدرستها الإلزامية .

يمكن البدء فوراً بتنفيذ إنارة القرى على صورة غير دقيقة التنظيم ، وترك التجويد والإتقان للزمن . فإننا نعلم أن زمام كل قرية لا يخلو من آلات بخارية للري والحرث يملكها أغنياء الريف ، وليس أسهل على المجلس القروي من استئجار آلة من تلك الآلات لمدة أربع ساعات من كل يوم تبدأ بعد الغروب ، ثم لا يبقى بعد ذلك إلا أن يشترى المولد الكهربائي والأسلاك والثريات وهي أدوات زهيدة الثمن ، ميسورة الاقتناء ، فإذا المشروع قد استكمل أسباب التنفيذ ! ولعل دعوة من الوزير إلى أغنياء الريف توضح أهمية مشروع الإضاءة الكهربائية كفيلة بأن تحفزهم إلى التنازل عن قيمة إيجار آلاتهم مدة الساعات الأربع المطلوبة . بل قد تكون كفيلة أيضاً بأن تحثهم على التبرع بثمن المولد الكهربائي والأسلاك والثريات . أما مصروفات الإضاءة فلا تزيد كل ليلة بحال عن نصف لتر من الزيت وصفيحة من الكيروسين يمكن تحصيل ثمنها من المقهى والحانوت وسائر المحال التي ستفيد من الإضاءة .

ولا يقال عن هذا المشروع ما اعتاد الناس قوله من أن المشروعات كثيرة ، ولكن تنفيذها عسير . فإنه سهل التنفيذ كما رأينا لسببين : أولهما أن نفقاته زهيدة إذا قيست إلى نفقات غيرها من المشروعات ، وثانيهما أنه باهر مشوق ، يسترعي النظر إليه ، ويغري الناس بالإقبال عليه ، وإني لزعيم أن خطوة واحدة تخطوها وزارة الشئون القروية في سبيل تنفيذه حرية بأن تدفع أهل القرى جميعا إلى إتمام ما بدأته .

أما إذا أرادت الوزارة أن تنفذ هذا المشروع على أساس وطيد منظم ، فإن كل قرية تحتاج إلى حوالي ألف وخمسمائة جنيه لشراء « ماكينة » ثابتة ، وإقامتها على بئر ارتوازي ، وتزويدها بمولد كهربائي وخمسين مضخة رش ، لتقوم علاوة على إنارة القرية ليلا ، بري أراضي الأهالي وإطفاء والشراقي وطحن الحبوب ، وتقشير الفول والعدس ، وتنقية القمح ، وغير ذلك من الفوائد التي يمكن أن تجنى من وراء تلك « الماكينة » ومن الميسور أن يسدد المجلس القروي ثمنها مما يحصله أجرا لتلك الأعمال في مدة لا تتجاوز خمس سنوات ! ويتبين من ذلك أن هذا المشروع كفيل بتسديد تكاليفه كافة في مدة وجيزة لا يلبث أن يدر بعدها ربحا ماديا للمجلس القروي ، علاوة على تحقيق الغرض الأصلي منه وهو إنارة القرية .

ولا يحسبن القارئ أن أهل الريف لن يفيدوا من الإضاءة الكهربائية إلا المتعة والرفاهية ، فإن مشروعات كثيرة يتعذر تنفيذها في الريف قبل إنارته بالكهرباء . ويكفي أن نذكر من تلك المشروعات مشروع إنشاء دور السينما والمسرح في القرى بقصد التعليم والتثقيف ، ومشروع مكافحة الأمية بتعليم الكبار نساء ورجالا في المدارس الإلزامية مساء بعد انصراف تلاميذها الأصليين ، وإنشاء الصناعات الريفية ! وتشييد المصحات والمستشفيات ، ونشر المذياع (الراديو) الذي أصبح من أهم عوامل التهذيب

طلائع (١) بن رُزِّيك

للدكتور شوقي ضيف

ألمع وزير ظهر بمصر في أواخر العصر الفاطمي ، وهو من أصل أرمني ، ولكنه صنع لنفسه نسباً في غسان كان شعراؤه يمدحونه به . وقد تولى الوزارة للخليفة الفائز (٥٤٩ – ٥٥٥ هـ) ثم أول عهد الخليفة العاضد من بعده ، إذ سرعان ما توفي سنة ٥٥٦ هـ .

وكان طلائع شيعياً على مذهب الإمامية ، ويقولون إنه كان رافضياً . وليس هذا ما يلفتنا منه ، وإنما يلفتنا أن القاهرة لعهده أصبحت كعبة القصاد من شعراء البلاد العربية أمثال أسعد بن المهذب الموصلي وعمارة اليمني ، إذ كان مكرماً للأدباء ممدّحاً للشعراء . ويعد عصره من أبهج العصور الأدبية في تاريخ مصر الوسيط ، ويكفي أن العماد الأصفهاني في (الخريدة) أدار كثيراً من تراجمها عليه وعلى مدائحه ، إذ كان محور الشعراء وقبلتهم في العصر الفاطمي ، كما كان القاضي الفاضل محورهم وقبلتهم في العصر الأيوبي ، أو قل إنه كان الفلك الذي تدور فيه نجومهم .

وافتتح الرشيد بن الزبير كتابه (جنان الجنان ورياض الأذهان) بترجمته ، وبدأه بفصل تحدث فيه عن مدائح الشعراء له ، من ذلك أبيات وردت في قصيدة أرسلها له نور الدين بن زنكي صاحب الشام ، منها :

هو الملك الميمون والصالح الذي
له الملك بعد الله والعز والفخر
أياديه بيض ما تزال كعرضه
وأسيافه حمر وأكنافه خضر

وألف الشريف الجليس بن الحباب صاحب دواوين الإنشاء لعهده كتاباً رسمه بمدائح الشعراء له . ونسق عمارة اليمني كتابه (النكت العصرية) في أخباره وحوادثه إلا قليلين عرض لهم . وأشاد به العماد في (الخريدة) أيما إشادة ، ومن قوله فيه :

« ملك مصر ، واستولى على صاحب القصر ، وشق في

(١) تراجع ترجمته في الخريدة للعماد الأصفهاني (قسم شعراء مصر) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وكذلك في المغرب لابن سعيد نسخة الجامعة العربية الورقة ١١ وما بعدها ، والوافي بالوفيات للصفدي النسخة المصورة بدار الكتب المصرية المجلد الأول من الجزء الخامس الورقة ٢١٣ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان وعقد الجمان للعيني النسخة المصورة بدار الكتب في حوادث السنوات ٥٤٩ إلى ٥٥٦ هـ وكذلك في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي والروضتين لأبي شامة ، وتاريخ ابن الأثير ، وخطط المقريزي الجزء الثاني ص ٢٩٣ بولاق ، ثم ديوان أسامة بن منقذ النسخة المخطوطة بدار الكتب ففيها مراسلات بينهما بالشعر وهي كثيرة ومهمة .

والتثقيف في الوقت الحاضر . هذا إلى أن دخول الكهرباء الريف لا بد أن يسفر عن خطوات أخرى يخطوها الريفيون في سبيل التقدم .

ونحن لا ندعي أننا ألممنا بجميع الفوائد التي تعود على الريف من مشروع إنارته كهربائيا . فإن المتأمل يستكشف فوائد بعد فوائد كلما أمعن في تأمله . أما نتائج هذا المشروع غير المباشرة فلا يلم بها التفكير ، ولا يدركها الحصر . ويكفي أن نذكر في هذا المجال أن إنارة الريف الأوربي والأمريكي كانت أهم عامل من عوامل رقيه . .

إذا وفق وزير الشئون القروية إلى إنارة الريف بالكهرباء فإنه سيهدي القرويين كل يوم أربع ساعات مضيئة متلألئة يقضونها في تحصيل العلم ، أو في العمل المنتج المجدي ، أو في الرياضة أو النزهة والترفيه عن النفس بعد أن كانوا يقضونها في خمول أو في سبات عميق ... إنها لأنفس هدية إلى أولئك الذين ظلوا آماداً سحيقة غارقين في الظلام ؟

محمد مفيد الشوباشي

زمانه النظم والنثر ، واسترق بإحسانه الحمد والشكر ، وقرّب الفضلاء ، واتخذهم لنفسه جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الدانى والقاصى بالعطاء » . ثم عرض لوفاته وما أصاب مصر من بعده فقال : « وانكسفت شمس الفضائل الزاهرة ، ورخص سعر الشعر ، وانخفض علم العلم ، وضاق فناء الفضل ، واتسع جاه الجهل ، واختل نظام أهل النظم ، والنثر بفقد ذوى النثر ، واستشعر الفاقة الشعراء ، وعدم البُلغة البلغاء ، وعُدّ الفضل فضولا والعقل عقولا ... فلم تزل مصر بعده منحوسة الحظ ، منسوخة الجد ، منكوسة الراية ، معكوسة الآية » .

وواضح من وصف العماد له أن وزارته كانت صفحة مشرقة زاهية فى تاريخ العصر الفاطمى ، وهى صفحة معطرة بحروبه التى شنها على الصليبيين برا وبحراً ، وما حازه من فتوح وانتصارات ، ومن أجل ذلك لقبه المؤرخون بأبى الغارات .

وليس كل ما يميز هذا الوزير العظيم أنه كان شجاعاً رسم لأمته مثلا عالياً من الفروسية والبطولة ، ولا أنه فتح أبوابه واسعة للأدباء والشعراء ، فهناك ميزة لا تتصل بعمله الوزارى أو السياسى ، ولكنها تتصل اتصالا مباشراً بالنهضة الأدبية لعهده ، إذ كان شاعراً مبدعاً ، وقد اتهمه بعض حساده بأن شاعريه المهذب بن الزبير والجليس بن الحباب كانا يعينانه فى صنع شعره ، وهى تهمة مزيفة تردها أشعاره إذ تطرد فيها الروعة والبلاغة . ويقول ابن خلكان إنه رأى ديوانه ، وكان يقع فى جزءين ، ويقول الشبلى إنه رآه وإن أكثره مدح فى أهل البيت وفى الرثاء ، أى أنه يكاد يذهب كله فى التشيع والغزل . وسقط الديوان من يد الزمن ، فلم يصل إلينا ، إنما وصلتنا بعض أشعاره فى الكتب التى ترجمت له ، ولم تحتفظ بشعر يصور تشيعه أو يعبر عنه إلا قليلا ، من ذلك ما رواه العماد :

يا دهر حسبك ما فعلتّ بنا أتراك تطلب عندنا إحَنا
كم تنثنيك بكل سابغة وسهام كيدك تخرق الجُنَنا
ما تنفع الدِّرع الحصينة من عما قليل يلبس الكفنا
كلا ولا الأيام تقبل من أرواحنا رشواً ولا ثمنا
لو بالثريا حــــل معتصمٌ منها لكان له الثرى وطنا
ولقد يهون ما أصابكم فقد الحسين الطهر والحسنا

وبنيهم إذ طوّحَتْ بهمُ أيدى زمانهم هنا وهنا
وأرى الأئمة جار دهرهمُ فى فعله بهم فكيف أنا
لى أسوة بهم الغداة إذا أصبحت فى الأجداث مرتهنا

وليس فى هذا الشعر غلو ولا رفض ، وهذا طبيعى لأن العماد أخذ على نفسه فى خريدته أن لا يروى من شعر الشيعة إلا ما يقبله أهل السنة . على أن هذه القطعة يمكن أن تكون مفتاحاً لمعرفة أساس النغم الحزين الذى يوقعه طلائع كثيراً على قيثارته ، والذى روت كتب الأدب قطعاً كثيرة منه ، فمن ذلك ما يرويه الرواة من أنه لما جلس فى دست الوزارة أنشد على البديهة :

أنظر إلى ذى الدار كم قد حل ساحتهــا وزيرْ
ولكم تبختر آمنــاً وسط الصفوف بها أمير
ذهبوا فلا والله ما بقى الصغير ولا الكبير
ولمثل ما صاروا إليـــه من الفناء غــداً نصير

وليس من ريب فى أن هذه نغمة حزينة غلبت عليه فى يوم من أيام مجده ، ومردها إلى تشيعه ، فالشيعة محزونون منذ مقتل الحسين ، وقد اتخذوا يوما يندبونه فيه هو يوم عاشوراء ، وجعلوا شعارهم السواد ، وهو سواد جلل شعر طلائع فى كثير من أبياته مثل قوله :

أروح إلى أمل كاذب وأغدو بلا عمل صالح
وآمل أنى غداة الحساب أسر بميزانى الراجح
أمانىُّ يلعب بى مَيْنها كما يلعب الموج بالسابح

وطبيعى أن يكثر من التفكير فى الموت ، وأن يغلب عليه لون التشاؤم ، وأن يرى الدنيا مفرحة من حوله ، فتتحول فى نفسه حزناً وشؤماً وموتاً من مثل قوله :

مشيبك قد نضا صبغ الشباب
وحـــل البازُ فى وكر الغراب
تنام ومقلة الحـــدثان يقظى
وما نابُ النوائب عنك نابى
وكيف بقاء عمرك وهو كنز
وقد أنفقت منه بلا حســـاب

وقوله :

أيها المغرور لا تغـــتر لمرعاك خبيثْ
سائق الموت وإن طـــال بنا العمر حثيث
إن من حاوت على الخلـــق بجدواه غيوث

أصبح اليوم حديثاً وغداً نحن حديث

وحدث عمارة اليمني أنه دخل عليه قبل موته بثلاثة أيام فرأى في يده قرطاساً قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة :

نحن في غفلة ونوم وللمو ... ت عيون يقظانة لا تنامُ
قد رحلنا إلى الحِمام سنيناً ... ليت شعري متى يكون الحِمام

وعلى هذا النحو صبغ تشبيه شعره بهذا اللون من التشاؤم والحزن ، وما يطوى فيهما من الكآبة والشعور بأن كل شيء فان ، وأن الناس كركب وقوف ، ينتظر كل منهم دوره ، وسرعان ما يأتيه الدور فيرحل مع الراحلين .

وهذا اللون الأسود في شعره نجد بجانبه غزلا تغلب عليه الصنعة ، فهو ليس من هذا الغزل الوجداني الذي ينطلق عن النفس في خفة ، بل هو غزل فيه جهد ومشقة وأثر العناء والتعب من مثل قوله :

قد قلت إذ كتب العذار بخده ... في ورده ألفيه لا لاميه
ما الشَّعر لاح بعارضيه وإنما ... أصداغه نفضت على خديه

وقوله :

قسماً به وبوردة في خده ... وقوام قامته وسحر جفونه
لو أن ركبا في الفلاة تحيروا ... لسروا بضوء من هلال جبينه

وربما كان خير غزلياته ما جاء في فاتحة قصيدة كتب بها إلى أسامة بن منقذ الشيزري عضد نور الدين وساعده في حروبه مع الصليبيين إذ يقول :

هي البدر لكن الثريا لها قُرْط ... ومن أنجم الجوزاء في نحرها سِمْط
مَشَتْ وعليها للغمام ظلائل ... تظل ومن نسج الربيع لها بسْط
تؤم صريعاً في الرجال كأنه ... من السُّكْر والأيدي تقلّبه خَمْط
فما اخضوضر ثوب الأرض إلا لأنها ... عليه إذا زارت بأقدامها تخطو
ولا طاب نشر الأرض إلا لأنه ... يُجَرُّ عليه من جلابيبها مِرْط
ولا طار ذكر الظبي إلا وقد غدا ... يصدُّ كما صدَّت ويَخْطو كما تَخطو
من البيض مثل الصبح ما الظلام في ... محاسنها —لولا ذوائبها— قِسْط
إلى العرب الأقحاح يُعزَى قبيلها ... وقد ضمها في الحسن مع يوسف سِبْط
ولما غدَت كالتاج زُيِّن صدرُها ... بعقدين منها قد أجادهما الخرط
وأرسِلَ فوق الخد صدغٌ مكلَّل ... كما أرسلت في الروض حَبَّاته الرُّقط
ذوائب زان الخِضْرَ منهن فاحمٌ ... تحدر لا جعد النبات ولا سبط

وفي الأبيات كثرة واضحة من الصور والرسوم ، وفيها كثير من الطرافة والدقة ، لا من حيث إنه ابتدعها ابتداعاً ، ولكن من حيث طريقة عرضه وإخراجه لها . ومع أن القافية صعبة لا يصح التكلف عليها . وأكثر شعر طلائع يجري على هذه الشاكلة من السهولة .

وإذا مضينا في قراءة هذه القصيدة وجدنا طلائع يلوم نور الدين على تباطئه في حرب الصليبيين ، ويزعم أنه يجاملهم ويعاملهم ، ويعقد الهادنات والمعاهدات بينه وبينهم ، ويدعوه إلى نقض ما أبرم ، فهم لا يرقبون في المسلمين إلاًّ ولا ذمة ، يقول :

فقولوا لنور الدين ليس لجائف الـ ... جراحات إلا الكيُّ في الطب والبط
فدع عنك ميلاً للفرنج وهدنة ... بها أبداً يخطى سواهم ولم يخطوا
تأمل فكم شرط شرطت عليهم ... قديماً وكم غدر به نُقِضَ الشرطُ
وشمِّر فإنا قد أعنا بكل ما ... سألت وجهزنا الجيوش ولن يُبطوا

وهو ينهي الأبيات بأنه أرسل الجيوش إلى الصليبيين ليأخذوا من أطرافهم الجنوبية ، وعسى نور الدين يأخذ من أطرافهم الشمالية والشرقية . ويقول العيني : أرسل طلائع

إلى الشام سنة ٥٥٣ هـ جيشاً كبيراً بقيادة ضرغام ، فنكل بهم تنكيلاً ، وسجل ذلك في إحدى قصائده ، فقال :

نذرنا مسير الجيش في صَفَر لنا
مضى نصفه حتى انثنى وهو غانمُ
خيولٌ إذا ما فارقت مصر تبتغي
عِداً فلها النصر اليقين ملازمُ
يسير بها ضرغامُ في كل مأزق
وما يصحب الضرغام إلا ضراغمُ

ولا شك في أن مصر نالت مفاخر وأمجاداً عظيمة في عهد هذا الوزير الذي كانت خيوله تصهل وتلوح أعرافها دائماً في ساحات الحرب والقتال بالشام وبفلسطين . وكانت أساطيله ما تزال تجوب سواحل الشام وتفتك بسفن الصليبيين ، أو تنزل على بعض ثغورهم فتُديل منها ، وقد أغارت على عكا غارة موفقة ذكرها طلائع في بعض شعره إذ يقول :

إن بعض الأسطول نال من الإفـ
ـرنج ما لا ينالهُ التأميـلُ
حـوى من عكا وأنطرطوس
عدة لم يحط بهـا التحصيلُ
هـذه نعمة الإله وتعـديـ
ـدُ أيادي الإله شيء يطول

وعلى هذا النحو كانت جيوش مصر وأساطيلها لعهد طلائع ما تزال تصبح الصليبيين وتمسيهم ، وتنقص من أطرافهم وبلادهم ، ودائماً يستحث طلائع نور الدين أن يزحف شمالا بينما يزحف هو جنوباً ، حتى يقع الصليبيون بين شقي الرحا ، فتدور عليهم الدوائر . يقول في قصيدة لنور الدين :

سارت سرايانا لقصـد الشام تعتسف الرمالا
ترمي إلى الأعداء جُرْدَ الخيل أيناها تَوالى
حتى لقد رام الأعادي من ديارهم ارتحالا
فلو ان نور الدين يحـ مل فعلنا فيهم مثـالا
ويسيرُ الأجناد جهراً كي تنـازلهم نِزالا
ويل لنا ولأهـل دو لته بما قد كان قالا
رأيت للإفرنـج طـ راً في معاقلها اعتقالا
وتجهـزوا للسير نحو الغرب أو قصدوا الشمالا

ونحن نشرف من هذا الشعر على حقيقة تاريخية مهمة قلما عنى بها المؤرخون ، وهى أن مصر أخذت في عهد طلائع مكانتها المرموقة في الحروب الصليبية ؛ فقد تخلفت في هذه الحروب لعهد الأفضل بن بدر الجمالي ومن جاء في إثره من الوزراء ؛ فلما ألقيت مقاليد الأمور إلى طلائع وضع نصب عينيه أن يعيد لمصر مكانتها ، فجهز الجيوش وأمدها بالرجال والعتاد والأساطيل ؛ ودائماً نراه يهيب بنور الدين أن يهجم عليهم شمالا ، بينما يهجم هو جنوباً ، وبذلك يأتيهم الفزع الأكبر من أسفلهم وأعلاهم فيمزقون كل ممزق ، وبينما كان طلائع يخوض هذه المعارك التمرت به جماعة خائنة ، وامتدت إليه منهم أيد آثمة ، فارتفع البكاء عليه في مصر والأقطار العربية ورثاه الشعراء رثاء حاراً .

وانتهى طلائع ، ولكن بعد أن خلف من ورائه سيرة حميدة تعبق بالشعر والفن والحماسة والبطولة والكرم وجزالة النوال ، أو كما يقول في بعض شعره :

خلطنا النـدى بالبأس حتى كأننا
سحابٌ لديه البرق والرعد والقطر

وما نرتاب في أن الزمن لو طال به لعب الدور الذي لعبه من بعده صلاح الدين في الحروب الصليبية ، ولقدر لمصر حياة أخرى وتاريخ آخر .

شوقي ضيف

ولز ومنزلة القصة فى الأدب

—٢—

للأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد

تحدث ولز فى المقال السابق عن النهضة الشعرية التى تفجر ينابيعها فى القرن التاسع عشر كبار الشعراء الإنجليز ثم أنشأ يتكلم عن القصة فى انجلترا وألمانيا وفرنسا ؛

وها هو ذا يتابع حديثه فى اللون الرومانسى من القصة :

« وقد كتب هنا الكاتبون فى ألمانيا كتابات هائلة غزيرة ، ولكنها عمت كل أوربا ، وادعى بعضهم أن شكسبير كاتب رومانسى ، وقامت كذلك فلسفة رومانسية ولاهوت رومانسى تجلى فيهما السخف والغباء . وظهر فى الإنجليزية قدر جسيم من روايات فى أزياء القرون السالفة وهى القرن الذهبى لعملية انبعاث العمارة القوطية فى انجلترا ؛ واستطاع سماسرة البورصة والتعبون من رجال الأعمال أن يجدوا فرجة ينسون بها مسئوليات مناشطهم التجارية ، وينسون بها الوجود كله والوضع الذى يسيرون إليه — إن كان ثمة موضع يظنون أنهم يسيرون إليه — بأن يستغرقوا فى أحلام يرون فيها أنفسهم الصليبيين البواسل والجنود الكماة والفرانسة الجيفين والنقدين الآنسات اللواتى أنت بهن النوازل . وهى الشخصيات التى كانت تلك القصص تتخذ منها أبطالها ، ولم يكن هنالك من يدعى تحليل مظاهر ومغزى زمان تلك القصص المرتدية أزياء الماضى . وكان ذلك هو موطن السحر فيها . فكانت هى الملجأ الذى تلتجىء إليه عقول ترغب بكل قوتها فى ألا تفكر . وكانت عقلية أبطال القصة هى عقلية الطبقة الوسطى الغنية ، بعد تصفيتها ورفعها إلى المثل العليا .

« وقد اعترف روبرت لويس ستيفنسون (١٨٥٠ — ١٨٩٤) آخر أفراد أسرة سكوت من الكتاب الرومانسيين ، بأنه كان يستطيع أن يأتى بخير مما أتى ، وعنت نفسه بلقب « البغى المقل » وهو ما كان عليه شأنه فى واقع الأمر . وهذا القصص المرتدى الأزياء العتيقة كتب أيضاً فى قارة أوربا ، ولكنه لم يصبح هنالك البتة صناعة جدية كما أصبح فى بلاد المجموعة الإنجليزية ، لأن التطور السريع لطبقة متوسطة ثرية ميالة إلى القراءة ، حدث فى القارة الأوربية فى زمن متأخر ، وفى ظروف أشد استثارة للأذهان .

« وهنالك تطور حدث حديثاً ربما لحظنا فيه أنه بعد حدوث فترة توقف فى نمو القصة ، يشير إليه ظهور شىء من النزوع إلى جمع ثلاث روايات فى مجلد أو توسيعها بتتمات لها ، ظهر توسيع آخر فشب لهذا الشكل ، ويلوح أن القصة متجهة فيما يحتمل إلى أن تصبح صورة العالم بأجمعه ترى خلال أعين فرد طرازى ؛ وأحد هذه الروايات الطويلة الجديدة جدارة بالإعجاب رواية جان كريستوف من تأليف رومان رولاند ، التى نشرت فى عشر مجلدات متعاقبة ؛ ومما يتصل اتصالا وثيقاً بهذا التوسع ، ظهور الكتب الهائلة التى لا شكل لها ولا نهاية ، كتب الذكرى والتعليق والوصف التى يمثل طرازكتابها بروست (المتوفى سنة ١٩٢٢) ؛ وهنالك شخص يكاد يقف وحيداً فى أدب العالم أجمع فى هذا العصر هو أناتول فرانس (١٨٤٤ — ١٩٢٤) — الذى تبدى رواياته « قصص برجريه السلسلة » نفس النزعة إلى أن تحل محل الرواية المروية تعليق سيار على الأشياء عامة . والآنسة دوروثى ريتشاردسون التى تكتب بغزارة مشرقة معبرة عن جدول ضيق من الخبرة الرقراقة ، كاتبة ربما جاز لنا أن نسميها « جين أوستن » القصة غير المحدودة .

« وهنالك تغير شائق يتداخل القصة مع انتقال الزمن بالقرن التاسع عشر إلى العشرين ، هو الزيادة المطردة فى المناقشات الاجتماعية والسياسية والدينية ؛ وذلك أن الروائيين من طراز ديكنز وثاكرى كانوا يكتبون لجمهور فكراته وقيمه الاجتماعية مستقرة أتم استقرار . فإنهم لا يناقشون شيئاً ؛ بل يفترضون المناظر الأخلاقية ويركزون الانتباه على الخلق ، أعنى على الجبلات والطباع الشخصية ؛ ولم يكن ثاكرى يناقش بل يعظ ؛ والوعظ أمر يخالف المناقشة أكبر الخلاف . وكانت الشخصيات ومسلكها فى رواية القرن

التاسع عشر قوام مادة الموضوع كلها . على أن حالة عدم الاستقرار الذهنى فى الزمن الحاضر تجد نفسها منعكسة فى القصص على صورة مناقشة للفكرات ، وتدخل الفكرات والنظريات إلى صميم الدراما . فتجعل الاهتمام واللذة أوفى وأتم ، وإن أسقطت شيئاً من الغموض على ذلك الصنف الشدد من صوغ الشخصية على قدر من الحياة يعظم ماهنا فى الواقع وهو أجلى ما تمتاز به القصة فى العهد الفكتورى .

« وليس هناك من يشك أن فى الإمكان أن يلمس الإنسان فى أدب العصور الحوالى ابتداء من «الحار الدهى» فما تلاه ، تسلقا وتوقعا لكل هذه التطورات فى القصة العصرية فى اتجاه تقد جوال سهل هين للحياة ووجهات النظر فيها ؛ ولكن شيئاً من هذه التوقعات فى ناحيتى الشكل والحجم لم يظهر فى أى شىء يماثل الأضرب المنوعة والحجم الضخم الخاصين بكتابات القرن التاسع عشر التى هى روايات إلى حد ما ، ولا يكاد يكون لأى منها تلك الصفة الخاصة ، وأعنى بها الحكم الحر غير الموجه فى شئون الحياة جملة وتفصيلا ، وهى الصفة التى تميز الذهن فى القرن التاسع عشر عنه فى كل الأدوار السابقة .

« وكان قيام المسرحية (الدراما) يعتمد حتى ذلك الحين على وجود جماعة إنسانية مستقرة ، لها عادات ومعتقدات ثابتة ، تستطيع أن تمدها بجمهور نظارة مستمر عامر القلب بالعطف عليها . وكان من الطبيعى للوائم لعصر من الفوضى ومن إعادة التعمير فى المسائل الاجتماعية ، أن يتقوض ما استقر فى الناس من عادات الذهاب إلى المسارح ، وأن ينقضى نصف قرن أو يزيد تكاد تنقطع فيه الحشود المنوعة الأشكال من الناس الذين كانوا يفكرون ويناقشون ويبحثون عن الجديد من الأشياء ، عن أن يكون لهم من يمثلهم فى جمهور نظارة ذلك الزمان ؛ ومر المسرح الأوربى فى دور تفاهة وانحطاط كرامة وقيمة . وأخذ يخارج الروايات والرومانسيات الشعبية فى نزعتها إلى تمكين الناس من قضاء الوقت فى سمر لطيف .

« وكانت المسرحية (الدراما) الفرنسية رشيقة وإن كانت جوفاء ، وكذلك كان شأن الدراما فى انجلترا ، وإن لم تصل مطلقاً إلى درجة الرشاقة الفرنسية . وإنما أخذت القوى العظيمة التى كانت تطالب بالمناقشات والفكرات تبدى أثرها فى العالم الدرامى بداية التدرج وفى وجه معارضة هائلة من النقاد ، وكان إبسن النرويجى (١٨٢٨ — ١٩٠٦) هو الشخصية الفعالة المركزية التى بفضلها عادت الدراما إلى الاتجاه نحو مناقشة الحقيقة المعاصرة ، وكان لنزوة بارى (Barrie) اللطيفة أثر كبير فى تحطيم التقاليد الجامدة المسرحية المحبوكة ، كما كانوا يسمونها فى انجلترا ، ثم شرع برنارد شو (Shaw) المولود (فى سنة ١٨٥٦) يكافح فى بطء مرتفعاً إلى أوج التفوق والنفوذ ؛ ومن أبرز الدراميين الألمان فى هذا الدور الجديد دور الإخلاص والقوة ، هو بتمان المولود (فى سنة ١٨٦٢) وسودرمان المولود (فى سنة ١٨٥٧) ، وقد أوقفت الحرب حركة النشاط الدرامى ردحا من الزمان ، ولكن انتهاءها أطلق فيضاً عجيبا من النشاط الحى المبشر بالخير على كل من جانبى المحيط الأطلسى ، وينعم المسرح فى كل من أوربا وأمريكا فى الوقت الحاضر بظل وارف قوى من الاستحداث والتجديد .

« فإذا وجهنا النظر إلى تطور الأدب الأمريكى ، وجب علينا أن نميز بين دورين متباينين أشد التباين : أولهما دور السيادة الأوربية ، ما بين انجليزية وفرنسية ، وثانيهما دور الفكاك وانطلاق السراح . فقد مضى على المناشط الأدبية الأمريكية حين طويل من الدهر كانت فيه تتركز فى نيوانجلند ، ولم تكن إلا محض فرع — وإن يكن فرعاً غنياً جداً — من الأدب العام الإنجليزى والأوربى ، وكان مركز ذلك مدينة بوسطون ، وأكثر — كتابُ هذا الدور من الحديث فى إعلان الاستقلال ، ولكن ليس يلوح عليهم أنهم أدركوا أن الاستقلال قد حدث ووقع طالما كان سلطان الشكل والمناهج باسطاً جناحه ، وكانت لأمريكا أذواقها المميزة ، وكانت أسرع إلى التقاط كارليل من انجلترا ، وأخذت ترسل نغمة من عندياتها تتجلى فى مقالات إمرسون (١٨٠٣ — ١٨٨٢) ؛ على أن لونجفلو لم يكن إلا مجرد شاعر إنجليزى تصادف أن ولد فى أمريكا ، وكان يكتب فى موضوعات أمريكية ، وكان إدجار آلان بو (١٨٠٩ — ١٨٤٩) يتبع طرائق أوربية أكثر منها إنجليزية ، وأبدى هوثورن (١٨٠٤ — ١٨٦٤) أن به لمسة من شعوذة تيوتونية لها وعيها الذاتى ، وكذلك كتب و . د . هاولز (١٨٣٧ — ١٩٢٠) سلسلة من الروايات

الزمنة الممتازة بطريقة تدرجه مع توماس هاردى تحت جناح المدرسة الفرنسية فى تصنيف عالم الرواية . وكان هنرى جيمس (١٨٤٣ — ١٩١٦) أمريكياً ولكنه لم يكن يكتب على شاكلة الإنجليز ولا شاكلة الأمريكان ، بل كأمريكى انتقل إلى بيئة أوربية ، وكانت مناظره على الدوام أوربية ، وكان موضوعه الأثير لديه هو الاصطدام بين الأمريكى الساذج وبين معقدات المدنيات القديمة . ولعل أشد كتاب القرن التاسع عشر اصطباغاً بالروح الأمريكية مارك توين .

« ولم يحدث إلا بعد بزوغ فجر القرن الجديد أن شرع الكتاب الأمريكيون بوصفهم هيئة فى مواجهة ظواهر الحياة الاجتماعية الجديدة ومشكلاتها فى أمريكا ، مواجهة يتجلى فيها شيء يشبه القوة الطليقة الموجودة فى خير ما أثر عن أوربا من تقاليد ، وإنما تظهر كتب من أمثال « الشارع الرئيسى » (Main Street) ، وروايات لسنكلير لويس والتراجيديا الأمريكية لدرايزر ، الذكاء الأمريكى مهتماً بأمريكا اهتماماً مباشراً بحتاً غير ناظر بعد ذلك أبداً صوب الشرق ، يطلب الإلهام والاستحسان من أوربا . والواقع أن الشعر ورسائل الغرام الأمريكية قد أصبحت مستقلة استقلالا توشك أن تبدو فيه روح العدوان ، ويحاول أمثال منكن من الكتاب الناقدين أن يروعوا العالم بما يمتازون به من الفظاظة ورقة الرؤيا ، بمحاولات يتجلى فيها الجد والإجلاب والحدة ، وكذلك يتكشف كتاب من أمثال شروود أندرسون وجيمس برانش كابل عن جدة وقوة ابتكار تبشر بكل خير ؛ ومع أنه لا يوجد حتى الآن فى عالم الأدب الأمريكى العصرى أسماء عظيمة ممتازة تلفت الأنظار ، ولا إنتاج متقن إتقاناً كبيراً ، فإنه من العسير على المرء إذا راعى ما عليه حال ذلك الجمهور الكبير الجديد من القراء من الثراء والوفرة والتطلع الضخم ، أن يعتقد أنه لن يكون هناك فى الدور هيئة جسيمة لإنتاج أدبى من الطراز الأول تظهر استجابة لطلب القرص الأمريكية .

« وليس من اليسير فى الوقت الحاضر على كاتب أوربى أن يقدر درجة جودة الأدب الهندى إبان القرن الأخير . فإن الحكم البريطانى يجنح إلى تجاهل الجهد الذهنى الهندى أو التقليل من شأنه ، وليست توجد إلا ترجمات قليلة من بين ذلك العدد الجسيم من الحكايات والقصص المكتوبة باللغة الوطنية حول الحياة المعاصرة والتى أنتجت فى السنوات الأخيرة . ولرابندرانات طاغور (١٨٦١ — ١٩٤١) شهرة عظيمة فى الغرب ، على أنه معروف بوصفه شاعراً أكثر منه روائياً ، وكاتباً فى شئون الحقوق الشرعية الدولية . ويلوح أن الشرق يتعقب خطى الغرب ، فى تطوراته الاقتصادية والاجتماعية ؛ ويوم تصبح القوى العظيمة التى كونت القصة العظيمة والقصة القصيرة والأقصوصة ، والقصيدة الغنائية القصيرة ، وهى الأشكال القائمة لتعبير الأدبى فى الغرب — ذات أثر فعال فى آسيا ، فلعلها تنتج نتائج مماثلة . وتنطوى اليابان والصين على حركة اختمار ذهنى كبيرة جداً ، وما زال فن الترجمة والتأويل وتنظيمهما بين الشرق والغرب — فجتين غير متطورين ؛ ولكنها أمور يلحقها التحسين والتوسع السريع ؛ وقد لا يكون بعيداً ذلك الزمان الذى يصبح فيه كتاب النثر — على الأقل إن لم يكن كتاب الشعر الغنائى — يتقدمون منذ فجر حياتهم العملية تقريباً إلى جمهور من القراء يعم أرجاء العالم كله .

« فأما البحث العلمى والفكر الفلسفى والنشاط الأدبى العام فى هذه المدة التى تأملناها ، فكانت أوفر كثيراً ، وأعلى كثيراً فى كنهها عامة وتصل إلى يد عدد أوفر من الناس ، ولنسبة أكبر من سكان العالم تفوق ما كان عليه الحال من قبل ، وليس هناك أبداً ما يدل على أى توقف جسيم فى هذا الفيض الذهنى المطرد الاتساع . »

هذا هو مقال ولز ، ومن دواعى الأسف أنه لم يتعرض لأدب هذا الركن العربى من العالم بكلمة واحدة ، ولعل مرد ذلك أن الكاتب سطر فى عام ١٩٢٠ والأدب العربى الحديث بعد فى المهد ، والرائع القوى منه كأشعار شوقى وحافظ قديم الطابع عتيق الثوب لولا تجدد بعض موضوعاته ، والقصة ناشئة أو تكاد ، والروائيون فى مطالع تدربهم ، لم يتسن لهم بعد التدريب الفنى والأستاذية القوية التى تهيأت فى منتصف القرن العشرين للمرحومين إبراهيم رمزى بك وإبراهيم المازنى ، ولأمثال الدكتور طه حسين باشا ومحمود تيمور بك وتوفيق الحكيم بك ، وغيرهم من كتاب القصة الأقوياء الذين لم يتح بعد للعالم الغربى أن يطلع على ثمرات قرائحهم ، ولو أتيح له لضمهم إلى زمر الخالدين .

عبد العزيز توفيق جاويد

قياس عمر الأرض

الدكتور حسن محمد حسين

من بين الأشياء التي شغلت أذهان العلماء قديماً وحديثاً تقدير عمر الأرض ، بل وعمر العالم أجمع . وقد اختلفت وسائلهم في هذا التقدير ، وتفاوتت كثيراً ، مما أدى إلى اختلاف النتائج وتباينها . ولم تكن تقديراتهم إلى زمن قريب تعدو مجرد التخمين . ومن غرائب الصادفات أنه كما كانت أولى النظريات الخاصة بتركيب العالم ، كما قال طاليس ، تتعلق بالماء كانت أيضاً أولى النظريات عن تقدير مدى الزمن المنصرم تتوقف على تركيب مياه البحار والمحيطات في العالم . ففي العصور الوسطى كان دانتي وغيره يؤمنون بوحدة جميع مجاري المياه فوق سطح الأرض . ولكن هذه الفكرة قوبلت بالشك من الإمبراطور العظيم فردريك الثاني الذي لقب « أول رجل عصري » وذلك لتميزه بالتفكير العلمي الذي كان يتناقض بشدة مع المعتقدات السائدة في عصره . فقد كان يحير فردريك هذا أن ماء البحر شديد الملوحة في حين يخلو ماء النهر من الملوحة . ولقد كان هذا الفرق بين نوعي المياه هو الذي أوحى إلى هالي الفلكي الكبير ، بعد مرور مدة طويلة على عصر فردريك ، بطريقة ممكنة لتقدير عمر الأرض . ففي إحدى مكاتباته إلى الجمعية الملكية عام ١٧١٥ ، أشار إلى أن البحر أصبح مالحاً نتيجة تراكم المواد الملحية التي تجرفها الأنهار في طريقها . وكان يحزنه كثيراً أن الإغريق القدامى لم يتركوا لنا شيئاً عن درجة ملوحة البحر كما كانت في عصرهم ، أي منذ حوالي ألفي سنة ، إذ أنه لو كان ذلك معلوماً لنا الآن لكان في الإمكان تقدير عمر المحيطات من علمنا بالفرق بين درجة ملوحتها اليوم ودرجة ملوحتها عندئذ .

وقد حذا جولي منذ نصف قرن حذو هالي وبنى تفكيره بأسلوبه ، بل وقام بتطبيقه بالفعل باستخدام شيء من التقريب والتخمين . إذ افترض أن الأنهار تحمل معها سنوياً من الأرض إلى البحر كمية من الملح المذاب ثابتة في المتوسط على مر العصور الجيولوجية منذ بدء خلق الأرض . وعلى ذلك يكون قد مضى على خلق الأرض حوالي مائة مليون عام ، وهي الزمن اللازم لكي تصير البحار في درجة الملوحة التي هي عليها بالفعل في وقتنا الحالي . إلا أن هذه النتيجة أقل في الدقة كثيراً مما كان جولي يظن . فقد دلت الأبحاث الحديثة أنه تبعاً لافتراض جولي انتظام زيادة ملوحة المحيطات في الأزمنة الحالية يكون عمر الأرض في حدود ٢٥٠ مليون سنة . ولكن الواقع أنه ليس هناك مطلقاً ما يبرر افتراض هذا الانتظام . فالمعتقد مثلاً أن الأجزاء اليابسة على سطح الأرض في عصرنا هذا أعلى على العموم في المستوى بكثير مما كانت فيما مضى ، وعلى ذلك فالأنهار أشد نشاطاً الآن مما كانت بكثير . وواضح أنه لا يمكننا تقدير أثر هذه العوامل وما سواها إلا تقديراً تقريبياً . وعلى ذلك فإن أقصى ما يمكننا استنتاجه في هذا الصدد هو أن عمر المحيطات لا بد أن يقاس على الأقل بمئات الملايين من السنين ، وقد يصل إلى ألوف الملايين .

وقد ابتدع اللورد كلفن في أواخر القرن الماضي طريقة أخرى لحساب عمر الأرض . فقد لفت الأنظار إلى أن الأرض تفقد كمية محسوسة من الحرارة خلال قشرتها ، بدليل أن درجة الحرارة تزيد كلما تعمقنا في جوف الأرض . ويدل ذلك على أن الأرض تبرد باستمرار ، أي أنه كانت فيما مضى أعلى حرارة مما هي الآن . وعاد كلفن بحسابه إلى ذلك العهد الذي كانت فيه الكرة الأرضية كتلة منصهرة ، فوجد أنه لا بد أن يكون قد انقضى عليه ما بين عشرين مليوناً وأربعين مليوناً من الأعوام . وكان تقديره

هذا لعمر الأرض يتفق إجمالاً مع تقديره لعمر الشمس . أما وسيلته في تقدير عمر الشمس فكانت باستخدام فكرة هلمهولتز عن أن الشمس تحتفظ بقدرتها الهائلة على الإشعاع بانكماشها المستمر الذي ينتج عنه خروج طاقة منها . فالجسم الساقط في مجال جذب يكتسب طاقة حركة ، فإذا اعترض هذه الحركة معترض يؤدي إلى إيقافها كان لابد من تحويل الطاقة المكتسبة هكذا إلى صورة ما . وحالة انكماش الشمس تشبه هذه الحالة تماماً ، لأن الأجزاء الخارجية من الشمس تقترب من مركزها ، فينتج عن ذلك تحول للطاقة يرى هلمهولتز أنه يجعلها تظهر على صورة إشعاع . وقد توصل كلفن من حساباته إلى أن انكماش الشمس إلى حجمها الحالي لا يمكن أن يكون قد أنتج طاقة تكفي لإشعاع أكثر من خمسين مليوناً من السنين .

وقد أثارت حسابات كلفن هذه جدلا عنيفاً بين علماء الجيولوجيا وعلماء الطبيعة . إذ كان من رأي الجيولوجيين أن تكوين الطبقات الترسيبية المعلومة ، وكذلك تطور الأحياء وأجناسها المختلفة ، لابد أن يكون قد استغرق حقبة من الزمن أطول كثيراً مما وصل إليه كلفن باستنتاجاته . وفي عام ١٩٠٠ أثبت جيمز جايكي أن القشرة الأرضية التي تنتج عن تبريد يستمر مائة مليون عام لا يمكن أن تصل بحال من الأحوال إلى السمك الذي يسمح بتكوين صخور ذات سمك شاسع كالصخور المطوية التي نجدها الآن في جبال الألب وغيرها من السلاسل الجبلية العظمى .

ولم يكتشف الخطأ في طريقة كلفن إلا في خلال القرن الحالي . فقد حدث عقب اكتشاف الراديوم أن أثبت اللورد رايلي أن العنصر الإشعاعي الفعال موجود في الصخور العادية في جميع بقاع الأرض ، وعليه تكون الصخور التي بالقشرة الأرضية تحتوي معيناً خاصاً لا ينضب من الحرارة ؛ وفضلا عن ذلك فقد أصبح معروفاً الآن أن هذه الصخور تحوي كميات من المواد الإشعاعية تكفي لجعل صافي الحرارة المفقودة ضئيلاً جداً ، وذلك يؤدي إلى ضرورة زيادة التقديرات لعمر الأرض المبنية على معدل التبريد زيادة كبيرة ، فإن الاعتقاد السائد في الوقت الحالي أن حوالي تسعين في المائة من الحرارة المنبعثة من الصخور ناتج عن النشاط الإشعاعي ، وعليه فإن تقدير كلفن الواقع بين عشرين وأربعين مليون سنة ينبغي أن يتضاعف حوالي مائة مرة .

وقد نشأت طرق حديثة لقياس مدى العصور الجيولوجية تفوق كل ما سبقها من الطرق ؛ وذلك بقياس مدى تحول العناصر ذات النشاط الإشعاعي إلى أخرى غير مشعة ؛ فقد اكتشف في أوائل القرن الحالي كل من رذرفورد وسودي أن كل راسب من عنصر ذي نشاط إشعاعي يكون عدد الذرات التي تنحل منه في وحدة الزمن متناسباً مع العدد الكلي للذرات في العنصر . وقد وجد أن ثابت التناسب مستقل تماماً عن الضغط والحرارة والظروف الطبيعية الأخرى ، ولا يتوقف إلا على نوع العنصر نفسه . وعلى ذلك فإنه يمكن استخدام معدل انحلال أي عنصر معين وتحوله من عنصر فعال إلى عنصر خامد لقياس الزمن . وعند انحلال اليورانيوم والثوريوم يمر كل منهما بسلسلة من التحولات ، وفي إحدى مراحل انحلال اليورانيوم يظهر الراديوم . والعنصر النهائي المستقر الذي ينتهي عنده التحويل في كل من الحالتين هو الهليوم والرصاص . وبقياس كمية كل من هذين العنصرين النهائيين المستقرين في أحد الصخور المحتوية على اليورانيوم أو الثوريوم يمكننا تقدير عمر هذا الصخر . والنتائج التي نحصل عليها بدراسة الرصاص أقوى من تلك التي نحصل عليها بدراسة الهليوم ، لأن الأخير قد يكون عرضة للإفلات . ويكون قياسه أقل دقة من قياس الرصاص . ولحسن الحظ يمكن التمييز بين الرصاص الناتج عن انحلال عناصر ذات نشاط إشعاعي والرصاص الذي لم ينتج عن أصل كهذا . وعلى ذلك فإنه إذا كان هناك معدن ذو نشاط إشعاعي لم يتأثر بعوامل التعرية والعوامل الجوية الأخرى ، فإن كمية الرصاص من أصل إشعاعي الموجودة فيه في أي وقت تتوقف على شيئين لا ثالث لهما ، أولهما كمية اليورانيوم أو الثوريوم أو كلاهما الموجودة فعلا في ذلك الوقت ، وثانيا الزمن الذي مضى منذ أن بدأ المعدن يتبلور أصلا . وعلى ذلك فإننا نستطيع حساب عمر المعدن في أي وقت بقياس كمية الرصاص من أصل ذي نشاط إشعاعي الموجودة فيه عندئذ ، ومقارنتها بكمية اليورانيوم أو الثوريوم أو كلاهما التي يحتويها المعدن نفسه .

ويمكن التحقق من صحة هذه الطريقة بدراسة كل نوع من الأنواع الثلاثة للرصاص الذي من أصل فعال على حدة، ثم مقارنة النتائج. فنجد مثلا أن أحدث العمليات الحسابية تتفق اتفاقا جيدا في تقديرها مرور حوالي ٢٥٥ مليون سنة منذ نهاية العصر الديفوني، وذلك عندما كانت الأسماك، على ما يعتقد، هي أرقى صور الحياة. ولقد قدر الزمن الذي مضى منذ العصري الكمبري بما يتراوح بين ٤٤٠، ٥٠٠ مليون سنة. والعصر الكمبري هو ذلك الذي ترجع إليه أقدم أنواع الحفريات. أما أقدم المعادن التي فحصت وهو معدن اليورانينيت من مانيتوبا فقد حدد عمره بحوالي ١٩٨٥ مليون عام. وقد وجد مختلطا بهذا المعدن بعض الحصى المكون من جرانيت وكوارتزيت أقدم من المعدن نفسه وعلى ذلك فلا بد أن يكون عمره أكثر من ٢٠٠٠ مليون سنة، ومن الطبيعي أن تكون الأرض نفسها أقدم من ذلك، وعليه يكون هذا الأمد هو الحد الأدنى لعمر الأرض مع التحفظ الشديد.

وقد قام هولمز أخيرا بحساب الزمن الذي مضى منذ بدء تعديل الرصاص الأرضي الأصلي بواسطة الرصاص الذي من أصل إشعاعي. واستخدم في التقدير بعض البيانات التي جمعها نير عن التوافر النسبي للنظائر المختلفة من الرصاص في البيئات الرصاصية القائمة في العصور الجيولوجية المختلفة. وتوصل نتيجة حسابه إلى تقدير عمر الأرض بحوالي ٣٣٥٠ مليون سنة. وزعم هولمز أن التحليل الإحصائي يؤيد قرب هذه النتيجة من الصواب. ولكن هارولد جفريز قام بتفنيد هذا الزعم، إذ نشر في نوفمبر عام ١٩٤٨ نتائج تحليله الإحصائي لنفس البيانات بأسلوب آخر. وقد توصل إلى تقدير لعمر الأرض يقل عن تقدير هولمز له بحوالي ألف مليون سنة.

وإن شئنا الانتقال من بحث عمر الأرض وحدها إلى عمر العالم أجمع، وجدنا أن هناك وسائل كثيرة تساعد على ذلك. ومن هذه الوسائل فحص الشهب وتقدير محتوياتها من الهليوم واليورانيوم؟ وهذه الشهب عبارة عن كتل معدنية تدخل جو الأرض من الفراغ الخارجي وتفلح في اختراقه والوصول إلى سطح الأرض قبل أن يتم احتراقها نتيجة مرورها السريع خلال الهواء. والمعتقد أن معظم هذه الشهب إن لم يكن كلها تنشأ أصلا من المجموعة الشمسية. وقد قام بانيث بتحليل عدد من هذه الشهب تحليلا دقيقاً فوجد بينها تفاوتا شديداً في محتوياتها من الهليوم، رغم تقارب نسبة محتوياتها من اليورانيوم والثوريوم. ويستنتج من ذلك أن هذا التفاوت في محتوياتها من الهليوم ربما يرجع إلى التفاوت في عمر الشهب منذ أن تجمدت. ويقدر عمر أقدم هذه الشهب بحوالي ٦٠٠٠ مليون سنة. إلا أنه ظهر أخيرا رأى يرجح أن هذا التقدير مبالغ فيه كثيراً، لأن الهليوم الموجود قد يكون بعضه ناتجا عن الأشعة الكونية وليس عن تحول ما في صلب الشهب نفسها من معدن.

حسين محمد حسين

أحمد شـــوقى

أمير الشـــعراء

— ٣ —

للأستاذ عبد السميع المصرى

حبه لمصر

لقد كان شوقى شاعراً عالمياً فى نزعته ، وسع قلبه الإنسانية جمعاء . ولقد رأيتم كيف كان قلبه الشاعر ووجدانه الرقيق يهتز لما يصيب أى صقع من أصقاع الأرض فى أية ناحية من هذا الكوكب الذى نعيش فيه ، من فاجعة أو مصيبة ، ولمستم حدبه البالغ على الشرق العربى جميعه ومشاركته لهذا الشرق فى أفراحه ومآسيه .

لكن كل هذا لم يؤثر فى كون شوقى مصرياً آثر مصر بالحظ الأكبر من حبه ووقف عليها النصيب الأوفى من شعره ، حتى ليخيل إلى عندما أطالع ديوان شوقى أنه أسرف فى هذا الحب إسرافاً أفسد عليه حياته ، فتراه فى نشوة الطرب وفرحة العيد ومجلس الخمر يذكر هذا الوطن فيتجهم ورق له ويذكر داءه فيحتج على قادته اختلافهم وتخاذلهم .. كل هذا تجده فى خمريته المشهورة :

رمضان ولى هاتها ياساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق

فهو يقول :

وطنى أسفت عليك فى عيد الملا
وبكيت من وجد ومن إشفاق
لا عيد لى حتى أراك بأمة
شماء راوية من الأخلاق
ذهب الكرام الجامعون لأمرهم
وبقيت فى خلف بغير خلاق
أيظل بعضهم لبعض خاذلا
ويقال شعب فى الحضارة راق ؟
وإذا أراد الله إشقاء القرى
جعل الهداة بها دعاة شقاق

ولعل شوقى كان أبلغ فى تعبيره عن حبه لمصر وأعمق أثراً وأفعل فى النفس تأثيراً فى أشعاره التى قالها فى منفاه ، فقد كان الحنين إلى الوطن يعاوده حينئذ فى سورة عنيفة تورثه آلاماً ممضة وحسرة لاذعة لايجد لها متنفساً فى غير شعره يرسله آيات من الحب والجمال والزفرات ؛ ولقد أبدع أيما إبداع فى التعبير عن هذا الأسى الذى لاقاه بفراق وطنه وحبه له الذى بلغ حد العبادة فى قصيدته التى قالها عقب عودته من المنفى حيث يقول :

أيا وطنى لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا
ولو أنى دعيت لكنت دينى عليه أقابل الحتم المجابا
أدير إلى ك قبل البيت وجهى إذا فهت الشهادة والمتابا

وتأمل عذوبة هذه الأبيات التى ينتهى فيها الشاعر إلى التفضيل بين وطنه والخلد ، فهل ترى أبلغ منها تعبيراً عن صدق حبه لهذا الوطن :

وسلا مصر هل سلا القلب عنها
أو أسى جرحه الزمان المؤسى
كلما مرت الليالى عليه
رق والعهد فى الليالى تقسى
وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

بل إنه ليبعد فى القول حتى يزعم أن مصر كعبة أشعاره وهو فريدها :

وإنى الفريد هذى البطاح تغلى جناها وسلسالها
ترى مصر كعبة أشعاره وكل معلقة قالها

ويقول لنا إن حب الوطن شيمة الحر ودين عليه واجب الوفاء :

وللأوطان فى دم كل حر يد سلفت ودين مستحق

ويبدو هذا المعنى في قوله :

ولقد صدقتم هذه الأرض الهوى
والحر يصدق في هوى أوطانه

وهو لايكتفي بأن يعبر عن حبه لوطنه ، بل هو يتعدى ذلك إلى العمل على استنهاض عزيمة مواطنيه بتذكيرهم بعظمة هذا الوطن ومجده التالد ، مشيداً بعظمة آثاره وما فيها من دلائل الرقي والمدنية ومدهشات الفن الخالد . فتأمله يقول في وصف قصر أنس الوجود :

شاب من حولها الزمان وشابت
وشباب الفنون ما زال غضا
ومحاريب كالبروج بنتها
عزمات من عزمة الجن أمضى

وهو ينتهي من هذا كله إلى أن يقول للمصريين بأن كل ماقام في مصر عظيم بخلوده فهي :

أمة الخلد ماتبقى إذا ما بلى الناس جميعاً للفناء
تعصم الأجسام من عادي البلى
وتقى الآثار من عادي الفناء

وهو لايكف عن الفخر بتاريخ مصر مستنهضاً بذلك عزائم مواطنيه ومجدداً الروح الوطنية فيهم وباعثاً الروح المعنوية بينهم ورافعها :

واخفض جناحك في الأرض التي حملت
موسى رضيعاً وعيسى الطهر منفطما
وأخرجت حكمة الأجيال خالدة
وبينت للعباد السيف والقلما
ما فناء لم الربع خاشعة به ومشى عليه الدهر محتشما

ولا يقف به حبه عند حد استعادة تاريخها والإشادة به ووصف آثارها وتمجيدها ، بل يدفعه هذا الحب دائماً إلى أن يصور علل هذا الوطن والعوامل التي تؤخره وتعوقه عن التقدم ، فهو يقول :

أرى وطناً تحير ناشئوه فما يجدون من عمل قواما
فلا أسس التجارة فيه قرت ولا ركن الصناعة فيه قاما
مدارس لم تهيئهم لكسب ولم تبن الحياة ولا النظاما

ويشكو من قومه الخلف والتناحر بينما حالهم تستدعي الائتلاف والاتحاد :

إلام الخلف بينكمو إلاما
وهذى الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكمو لبعض
وتبدون العداوة والخصاما
وأين الفوز لا مصر استقرت
على حال ولا السودان داما

إذ لا قوة إلا بالاتحاد ولا نجاح إلا بعمل إجماعي :

صوت الشعوب من الزئير مجمعاً
فإذا تفرق كان بعض نباح

ثم هو بعد توضيح السبيل لمواطنيه يدعوهم إلى العمل الإيجابي فيقوم بالدعوة إلى تحطيم القيود والأغلال في مثل قوله :

ياقوم هذا زمن قد رمى بالقيد واستكبر عن سحبه
لو أن قيداً جاءه من عسل خشيت أن يأبى على ربه

فالقيود بغيضة يجب رفضها وتحطيمها ، ولو كانت من الجمان :

شهد الحياة مشوبة بالرق مثل الحنظل
والقيد لو كان الجمان منظماً لم يحمل

وهو إذ يهنىء المعتقلين السياسيين بفك اعتقالهم يذكرهم بحرية الوطن ويدعوهم إلى فك قيوده :

وجد السجين يداً تحطم قيده
من ذا يحطم للبلاد قيوداً

وبعد ذلك يبين لمواطنيه سبل النهضة بالوطن التي تنحصر كما يرى في العلم والقوة والدستور والشورى :

إن سرك الملك تبنيه على أسس
فاستنهض البانيين العلم والأدبا
وارفع له من حبال الحق قاعدة
ومد من سبب الشورى له طنبا

ثم إن هذه النهضة لا تتم بغير أسس من الاقتصاد متين ، وهو ما يذكر به في قصيدته التي ألقيت في الاحتفال بإنشاء بنك مصر :

والمال مذ كان تمثال يطاف به
والناس مذ خلقوا عباد تمثال
إذا جفا الدور فانع النازلين بها
أو الممالك فاندبها كأطلال

يا طالباً لمعالى الملك مجتهداً
خذها من العلم أو خذها من المال

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم
لم يبن ملك على جهل وإقلال

هاتوا الرجال وهاتوا المال واحتشدوا
رأياً لرأى ومثقالا لمثقال

هذا هو الحجر الدرى بينكمو
فابنوا بناء قريش بيتها العالى

دار إذا نزلت فيها ودائعكم
أودعتم الحب أرضا ذات أغلال

آمال مصر إليها طالما طمحت
هل تبخلون على مصر بآمال

مسرحياته

لم يكن فى مصر مسرح حتى عهد إسماعيل الذى بنى دار الأوبرا الملكية كى يشاهد فيها ملوك أوروبا (أوبرا عايدة) الموسيقار العالمى فردى فى حفل افتتاح قناة السويس . فالمسرح المصرى إذاً جديد على حياتنا لم يمض على ميلاده بعد سوى بضعة وثمانين عاماً ، خطا خلالها خطوات موفقة نحو الرقى والنهوض ساهم فيها شوقى بحظ كبير .

ولما كان المعروف أنه لا قيام لمسرح فى أمة ما بغير مؤلفين يغذونه بمؤلفاتهم التى يقبل عليها جمهور هذه الأمة ويتذوقها ، كما أنه لن يعيش مسرح جل اعتماده على الترجمة والنقل ، لأن مثل هذا المسرح لن يقبل عليه الشعب ولن يهضم ما يعرض عليه فيه ، فإن شوقى سيقرن اسمه دائماً باسم المسرح المصرى إذا ما ذكر هذا لأنه من الرجال الذين دعموا هذا المسرح وبنوا أسسه بما قدم له من مسرحيات خالدة تعتبر بحق أول مسرحيات مصرية ناجحة .

ولا يقتصر الأمر بشوقى عند حد أنه قدم للمسرح المصرى مسرحيات خالدة ، بل إن هذه المسرحيات قد أحدث بها بدعاً فى العربية وأدخل على لغة الضاد فناً جديداً لم يكن لها به عهد من قبل ؛ ذلك الفن هو المسرحية الشعرية الكاملة التى كان أول من ألف فى العربية منها ، لأن ما عرف قبل شوقى كانت مسرحيات زجلية تلقى غناء ويتخللها تمثيل بالإلقاء العادى لحوار نثرى . وإنى ليأخذنى العجب كلما قرأت مسرحيته (مصرع كليوباتره) فأسائل نفسى : أكان شوقى يصف مصر فى عهد كليوباتره ، أم هو يصف الشعب فيما حوله — استمع إلى قول حابى لديون :

اسمع الشعب ديون كيف يوحون إليه
ملأ الجو هتافاً بحياتى قاتليه
أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
يا له من ببغاء عقله فى أذنيه

فيجيبه الأخير :

حابى صمت كما صمت ورابنى
أن الرعية تحتفى بالراعى

هتفوا بمن شرب الطلا فى تاجهم
وأصار عرشهم فراش ضجاع

ومشى على تاريخهم مستهزئاً
ولو استطاع مشى على الأهرام

لكن هذه هى سمة الخلود التى تطبع أعمال العباقرة لأنهم حين يصورون ، فإنهم يصورون تلك الخصائص العامة الباقية التى لا تختلف باختلاف الزمان أو المكان .

والحب تلك العاطفة الأبدية التى تشترك فيها الإنسانية جمعاء شرقها وغربها حقيرها وأميرها ، ولم تخل منه قصة ، بل كثيراً ما يقحم على القصة إقحاماً إرضاء للجماهير ، نجد أن شوقى قد أفرد له مسرحية كاملة لا شىء فيها سواه .

ذهب شوقى فى مسرحيته الخالدة (مجنون ليلى) يصور لنا الحب فى أسمى مراتبه وأسمى معانيه حتى بلغ فى ذلك ما لم يبلغه شاعر من قبله .

تأمل معى هذه الأبيات يجريها على لسان قيس وهو يسرى وحده فى الفلاة فى هدوء الليل وسكونه :

سجا الليل حتى هاج لى الشعر والهوى
وما البيد إلا الليل والشعر والحب

ملأت سماء البيد عشقاً وأرضها
وحملت وحدى ذلك العشق يارب

ألم على أبيات ليلى بى الهوى
وما غير أشواقى دليل ولا ركب

وباتت خيامى خطوة من خيامها
فلم يشفنى منها جوار ولا قرب

إذا طاف قلبي حولها جن شوقه
كذلك يطفى الغلة المنهل العذب
يحن إذا شطت ويصبو إذا دنت
فياويح قلبي كم يحن وكم يصبو

لقد جعل دليل قيس إلى أبيات ليلى ذلك الشوق المتقد في صدره وجعل قربه منها يزيد في وجده ويطغى من شوقه ، وهل هناك أصدق من هذا تعبيراً عن الحب ؟ ويأتي أقوام بعد ذلك يزعمون أن شوقي رجل أجاد صنعة الشعر فهو لا ينطق من عاطفة صادقة بل هو يخرج للناس صنعة متقنة . ولست أدرى كيف يستطيع من يتكلف الحب في شعره أن يأتي بمثل هذه الأبيات التي تفيض أسى ولوعة من تباريح الهوى :

بالروح ليلى قضت لي حاجة عرضت
ما ضرها لو قضت للقلب حاجات
مضت لأبياتها ترتاد لي قبسا
والنار بالروح قيس ملء أبياتي
كم جئت ليلى بأسباب ملفقة
ما كان أكثر أسبابي وعلاتي

بل تأمل معي قيسا في مناجاته ليلى بعد أن فاز باللقاء الذي اختلق أسبابه : —

لست ليلاى داريا كيف أشكو وأنفجر
أشرح الشوق كله أم من الشوق أختصر
حبب البيد أنها بك مصبوغة الصور
لست كالبيد لا ولا قمر البيد كالقمر
رب فجر سألته هل تنفست في السحر
ورياح حسبتها جررت ذيلك العطر
وغزال جفونه سرقت عينك الحور
أنت أججت في الحشا لاعج الشوق فاستعر
ثم تخشين جمرة تأكل الجلد والشعر

وفي الأبيات التالية ترى الحب في أشد سوراته التي تبلغ الجنون والهوس : —

ليلى ! مناد دعا ليلى فخف له
نشوان في جنبات الصدر عربيد
ليلى انظروا البيد هل مادت بظاعنها
وهل ترنم في المزمار داود
ليلى ! نداء بليلى رن في أذنى
سحر لعمرى له في السمع ترديد
ليلى تردد في حسى وفي خلدى
كما تردد في الأيك الأغاريد
هل النادون أهلوها وإخوتها
أم النادون عشاق معاميد ؟
إن يشركونى في ليلى فلا رجعت
جبال نجد لهم صوتا ولا البيد
أغير ليلاى نادوا أم بها هتفوا
فداء ليلى الليالي الخرد الغيد
إذا سمعت اسم ليلى ثبت من خبلى
وثاب ما صرعت منى العناقيد
ليلى .. لعل مجنون يخيل لى ؟
لا الحي نادوا على ليلى ولا نودوا

وفي موضع آخر نستمع إلى ليلى تحاور قيس وقد التقيا في غربة : —

أحق حبيب القلب أنت بجانبي
أحلم سرى أم نحن منتبهان ؟
أبعد تراب الهد من أرض عامر
بأرض ثقيف نحن مقتربان ؟

فينبهها قيس في رفق إلى أن وطن المحبين هو حيث يجتمعان : —

حنانيك ليلى ما لحل وخلة
من الأرض إلا حيث يجتمعان
فكل بلاد قربت منك منزلى
وكل مكان أنت فيه مكانى

ويعالج شوقي في هذه المسرحية حب الأقارب وحب الآباء . ولعل من أروع ما قرأت في التعبير عن عاطفة الأبوة الخالدة هذا البيت من الشعر يجريه شوقي على لسان المهدي أبي ليلى :

أأظلم ليلى ؟ معاذ الحنان متى جار شيخ على طفله ؟

وهكذا نرى أن شوقي لم يكتب مسرحيات فحسب ، بل كتب فأجاد فترك آثارا خالدة في الأدب العربي ، بل في الأدب العالمي .

(البحث بقية)

عبد السميع المصري

مسرح

تمثيلية «مونسيرا»

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

اليوم نتحدث عن تمثيلية ثالثة من تمثيليات الموسم الأجنبى ، لم يستمد مؤلفها موضوعها من الأحداث الجارية فى البيئة الفرنسية كما فعل مؤلف التمثيلية الأولى ، ولا من مؤلفات غيره كما فعل مقتبس التمثيلية الثانية ، وإنما استمده من حادثة تاريخية معينة سجلها تاريخ الحروب الاستعمارية بين أوربا وأمريكا فى القرن الماضى .

وبديهى أن لكل مؤلف أن يتخير موضوعه كيفما يشاء ، وإنما نبادر بتحديد طراز هذه التمثيلية قبل كل شىء ، لأن هذا التحديد يكسبها عندنا أهمية خاصة ، لا من براعة تأليفها فحسب ، بل كذلك لأنها من نفس الطراز الذى كاد يستنفد جهد مؤلفينا دون أن يظفروا ببعض ما ظفر به مؤلفها من نجاح .. وكأنما أرادت فرقة (جان مارشا) بتمثيلها أن تضعها أمامنا كبرهان تطبيقى دالّ على ما بينه وبينهم من تفاوت شاسع .

على أن العبرة المبتغاة من وراء ذلك ينبغى ألا تنحصر فى مجرد التدليل على وجود هذا التفاوت فهو واضح الوجود ، ولا فى معرفة مداه فهو كبير المدى ، ولكن فى إدراك مسبباته إدراكاً واعياً يعيننا على تدبر أخطائنا ونقائصنا . وليس هذا بالأمر اليسير وإن كان الوصول إليه ضرورة لا محيص عنها . فمؤلفها كمؤلفينا فرد من بنى البشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .. والمادة التاريخية التى استمد منها موضوعه ليست أخصب ولا أحفل بالحوادث مما استمدوا منه موضوعاتهم . والهدف الذى استهدفه أشبه ما يكون بأهدافهم لوصح ما يزعمونه . فكيف إذاً تأتى له أن يفلح فيما لم يفلحوا فيه ؟!

لننظر بشىء من التفصيل الى الفارق بين موضوعه كما سجله التاريخ ، ثم كما كتبه للمسرح ، لعلنا نهتدى إلى سر نجاحه :

فى أوائل القرن التاسع عشر أغارت قوات من الجيش الإسبانى بقيادة (مونتفرد) على فنزويلا بقصد احتلالها وأسفرت المعارك الأولى عن اندحار الفنزويليين ، غير أن هذا الاندحار لم يضعف من عزيمتهم أو نضالهم ، فعلى الرغم من أن القوات الإسبانية احتلت ثلاثة أرباع بلادهم وأسرت معظم جنودهم وضباطهم ، ومن بينهم قائدهم (ميراندا) إلا أن نائبه (القبطان سيمون بوليفار) تمكن من الهرب ، واستطاع أن ينشىء من فلول جيشه المنهزم جيشاً جديداً أعاد الكرة على الإسبانيين وأخرجهم من البلاد وأعلن استقلال جمهورية فنزويلا .

هذا هو موجز الحادثة التاريخية التى استمد منها المؤلف الفرنسى المعاصر « إمانويل روبليس » موضوع تمثيليته (مونسيرا montserrat) هادفاً بها — كما يقول فى النشرة التى أذاعها خلال تمثيلها — إلى « إظهار ما فى هذه الواقعة المحلية من حقيقة عامة ، وهذه الحقيقة هى فظائع الاحتلال الأجنبى » . فكيف صورها على خشبة المسرح ؟.

يتفرج الستار عن قاعة صارمة الجدران والنوافذ والمحتويات ، وها هو (الأب كورنيل) وهو أحد كبار القساوسة ومن حوله ضباط الجيش الإسبانى (زوازولا ومورالس وأنطونا نراس) وقائدهم (إزكيردو) يروحون ويجيئون فى هذه القاعة حائرين ، ويخرجون منها ويعودون إليها حائرين ؛ ذلك لأنهم وإن كانوا قد هزموا الفنزويليين وقتلوا وأسروا معظم جنودهم واحتلوا ثلاثة أرباع بلادهم وابتهجوا لذلك ما وسعهم الابتهاج ، إلا أنهم فوجئوا بأمر

طارئ، لم يكن يخطر لهم على بال ! فلقد فر القائد الفزويلي (بوليفار) من أسره واعتزم النضال واختبأ مؤقتاً في مكان مجهول ريثما تسنح له الفرصة المناسبة . ولكم حاولوا بكل الوسائل أن يظفروا به في مخبئه ولكن ذهبت محاولاتهم في غير طائل . والشيء الذي زاد من حيرتهم أن زميلهم الضابط الإسباني (مونسيرا) يعرف هذا المكان ومع هذا رفض البوح به !! إذاً فليستدعوه وليحاولوا ترغيبه تارة وإرهابه تارة أخرى ، عساه أن يعود إلى رشاده ، فمن غير المعقول أن يخونهم ويخون وطنه ومبادئه العسكرية لغير ما سبب واضح ، وهو الجندي الذي عرف بينهم طوال حياته بالنزاهة والاستقامة والطاعة والإخلاص .

ويأتي (مونسيرا) ويبدأ استجوابه فيعترف بأنه حقاً يعلم المكان الذي اختبأ فيه (بوليفار) ويعلم أكثر من هذا أنه لن يظل مختبئاً إلى الأبد ، وإنما سيحاول الفرار لينضم إلى فلول الفزويليين ويقودهم في معركة تحريرية فاصلة ، ويعلم كذلك أن من واجبه كجندي إسباني أن يحول دون ذلك لولا أن له ضميراً بشرياً يستنكر ما ارتكبه زملاؤه من وحشية بالغة الفظاعة . فقد رأى زميله (موراليس) وهو يسوم الأسرى والمسجونين سوء العذاب ، ورأى زميله (أنطوناناس) وهو يبقر بطون الحبالى ويقطع أطراف الأجنة ويرسل لأصدقائه صناديق مشحونة بالجثث المشوهة والأشلاء المبتورة ، ورأى زميله (زوالزولا) وهو يفقأ عيون الفزويليين المستضعفين بأصابع تكاد تقل من فرط سخونتها ، والأدهى من ذلك أنه سمع (الأب كورنيل) وهو يفتي بقتل كل فزويلي يزيد عمره عن سبع سنوات ... رآهم وسمعهم يرتكبون هذا كله في نشوة وحقد ونذالة ... رآهم بعينيه وسمعهم بأذنيه فاستيقظ ضميره حتى أصبح يستنكر الاستعباد والظلم حيثما كانا ويتمنى لو انتصر الفزويليون عليهم .

إذ ذاك يلجأ القائد (إزكيردو) إلى حيلة ماكرة ، فيأمر بالقبض على ستة من أفراد الشعب الفزويلي أياً كانوا ، فيخرج رجاله ويعودون ومعهم أول ستة صادفوهم في الطريق ، وعندئذ يواجه (مونسيرا) بهم ويطالبهم باستخراج السر الدفين منه ويهدده بقتلهم جميعاً إذا لم يستطيعوا ذلك ويمهلهم ساعة واحدة ثم ينسحب هو ورجاله .

ويسدل الستار ويفرج عن نفس المنظر وقد احتوى على (مونسيرا) مع الستة التعساء الأبرياء ، ويتحاورون فيتبين لنا أنهم من أنماط مختلفة : أولهم خزاف (صانع خزف) يعول خمسة أطفال ، وثانيهم تاجر واسع الثراء ، وثالثهم أو ثالثتهم أرملة تعول طفلين وكانت — عندما قبض عليها — قد تركتهما وحدهما لتحضر لهما طعاماً ، ورابعهم ممثل فنان ، وخامسهم فتى في مقتبل العمر وريعان الشباب ، وسادسهم أو سادستهم فتاة فزويلية الأم ولكنها إسبانية الأب ... ويحاول (مونسيرا) أن يواسيهم فيتوسلون إليه — فيما عدا السادسة — أن يبوح بسره ، إذ أنهم لا يريدون مواساة ولا يريدون تحرير وطنهم وإنما يريدون أن يعيشوا ، غير أن توسلاتهم تذهب هباء ، فهو يؤثر أن يموت ويموتوا في سبيل إنقاذ شعب بأسره .

وتنتهي المهلة المحددة ويعود (إزكيردو) مع رجاله فيما يشبه وعيده ويأمر بقتل أولهم أي الخزاف ، فيؤخذ إلى خارج القاعة ، وما هي إلا برهة حتى تقرع الطبول وتنطلق الرصاصة القاتلة الأولى بينما يضع القائد يده على كتف (مونسيرا) مؤكداً له أنه — وحده — المتسبب في قتل هذا الرجل وتشريد أطفاله الخمسة من بعده وأنه — وحده — سيكون المتسبب في قتل الآخرين .

ويسدل الستار ويفرج عن نفس المنظر ونفس الأشخاص ويأمر (إزكيردو) بقتل الثاني ويستصحب معه (مونسيرا) إلى الباب ليرى مصرعه فيرى بذلك بشاعة احتفاظه بسره ، وتقرع الطبول وتنطلق الرصاصة القاتلة الثانية ويعودان ولا يزال كلاهما مصراً على موقفه .

ويحين دور الثالثة فالرابع فالخامس وكل منهم يناشد بدوره (مونسيرا) أن يرحمه وينقذ حياته ، بل إن الضحية الثالثة ترتمي على قدميه باكية بكاء مؤثراً لعله يشفق عليها ولكن بلا جدوى .

أما السادسة فيأبى عليها حبها لفنزويلا التي احتضنتها كمواطنة أن تتوسل لأحد ، بل تذهب إلى حيث ستقتل رابطة الجأش مفتخرة بموطنها محيية إياه تحية غالية وقاتلها دون أن يثنيها عن ذلك غضب القسيس عليها .

كل هذا و (مونسيرا) يكاد يذوب من فرط التأثر ، غير أنه يظل صامداً حتى يتراءى إلى زملائه أن (بوليفار) استطاع الفرار سالماً من مخبئه فيثورون ثورة عنيفة ويسوقون

« الخان مونسيرا » إلى حيث تقرع الطبول وتنطلق عليه الرصاصة القاتلة السابعة والأخيرة !!

ويسدل الستار النهائي على القائد إزكيردو) وهو يقول للأب (كورنيل) في تأثر عميق رهيب : لقد أديت واجبي كجندي إسباني ، ولكنه أدى واجبه كإنسان .

والواقع أن « إمانويل روبليس » هو الذي أدى واجبه كمؤلف ممتاز لسبب واحد هو أنه — كما يستنتج من تمثيليته — يعرف ما هي العلاقة بين المسرح والتاريخ ويعرف إلى أي حد يصلح التاريخ كمادة للمسرح ، ويعرف كيف يستقطر المؤلف المسرحي أحداث التاريخ معرفة دقيقة

فهو الذي نسق أحداث الواقعة التي اختارها تنسيقاً محكماً جديداً مغايراً لتفاصيلها الأصلية لأنه يعرف أن طبيعة حوادث التاريخ تغاير طبيعة الموضوع المسرحي الذي يجب أن يكون كاملا في ذاته وأن تجري أجزاؤه في ارتباط تام ، بينما الحوادث التاريخية — كما يقول هربرت فشر — ليست سوى حادث يعقب حادثاً وطارئ يتلو طارئاً كما تتعاقب أمواج البحر ، وغاية مايدركه المؤرخ لعب الطوارئ غير المنظورة والمقادير غير المرتقبة .

وهو الذي أسند أدواره إلى شخصيات نموذجية وأدار الحركة المسرحية في مجالات مصفاة منتقاة ، لأنه يعرف أن التاريخ وإن كان سجلا واقعياً إلا أنه — حسب نظرية أرسطو — لايعنى بغير الجزئي من الأمور ، بينما المسرح يعنى بالكلي منها تبعاً لقانون الاحتمال أو الضرورة . فالتاريخ يصور ما حدث فعلاً ويحدد واقعاً معيناً ؛ بينما المسرح يصور النماذج العليا التي يخلقها الانتخاب أو التخيل ويبتدع المثال الكامل .

وهو الذي تعمد مخالفة بعض ما سجله التاريخ حيناً والتزمه حيناً آخر ، وأغفل جانباً منه تارة وأضاف إليه من عنده تارة أخرى . لأنه يعرف أولاً أن الالتزام التاريخي التام يفسد المسرحية كما يقول آبر كرومبي ، وذلك لأن الفن تقليد « بارع » للأشياء . ولولا البراعة لأصبح النقل من التاريخ عبثاً ... ويعرف ثانياً أن المؤلف قد يلتزم بعض أحداث التاريخ ولا يقلل هذا من شأن إنتاجه طالما أنه مع التزامه يتغلغل في بواطن شخصياته ويستنطقها بما يعين على تفسير الحوادث .. ويعرف ثالثاً أن هناك لحظات تاريخية نادرة تكون فيها الحقيقة — كما يقول ما كولي — أغرب وأروع وأكثر إرضاء للنفس وأوثق صلة بالفن من أي قصة ؛ ولئن أقبلت لحظة من هذه اللحظات على فنان ممتاز ، فإن الفن والتاريخ يسيران معاً بين يديه في توافق تام .. وهكذا .

وهو على التحقيق لم يعرف كل هذه الدقائق معرفة تلقائية ، وإنما عرفها معرفة عقلية أي عرفها باستقراء ما عرفه الذين أمعنوا البحث والتحقيق فيها . وليس من المحتم أن يكون قد استوفى ذلك مما نقلنا عنهم ما أسلفناه بالذات ، وإنما لاشك في أنه وعى أمهات ما أجمع عليه الشراح والعلماء والنقاد ، ولم يمارس تجربة التأليف — تأليف تمثيليته هذه على الأقل — إلا على ضوء القواعد والأصول التي استنبطوها أو استخلصوها أو اهتدوا إليها من طبيعة الفن المسرحي ووظيفته .

أين هذا كله مما نلحظه في إنتاجنا من نقص وانحراف ؟ لقد كان من المصادفات الفيدة أن تقدم فرقة (جان مارشا) هذه التمثيلية في هذا الموسم الذي أتخمت فيه مسارحنا بنظائرها وأشباهها التسجيلية الفارغة . بل لقد كان من المفارقات العجيبة أن يشهدها جمهورنا في نفس الوقت الذي تشهد فيه رواية أخرى محلية من طرازها أراد بها مؤلفها تصوير أحداث (٧٠ سنة) من تاريخنا الحديث ، فإذا هو لا يتحرج من أن يحشدها بكل ماوسعه الزمن المسرحي من تفاصيل هذه الحقبة ، وإذا هو — سواء حين يلتزم التاريخ أو حين يخالفه — لايفعل هذا أو ذاك إلا بقصد الإغراب والاستفزاز

وهكذا يخفق من يخفقون من مؤلفينا ، لأنهم على غير دراية كبيرة بالأصول الفنية ولأنهم لايحاولون الدراية بها ، إذ لا يزالون يحسبون أن الفن هبة تلقائية ونفحة لدنية تهبط من الفضاء .

وإذاً فالفارق بين مؤلف (مونسيرا) وبين هؤلاء هو أنه « يعرف » وهم « لايعرفون » .

والأمر يهون إذا اهتدينا — وإياهم — إلى أن المعرفة هي سبب هذا التفاوت ؛ فليس من المستحيل على من لايعرف أن يعرف إذا صح العزم وخلصت وتطامنت الكبرياء ... وهذا ما نرجوه مخلصين ؟

عبد الفتاح البارودى

النشاط الثقافى فى أسبوع

للأستاذ عز الدين إسماعيل

معالى السيد محمد ظفر الله خان وزير خارجية الباكستان :

إن معالى السيد محمد ظفر الله خان هو اليوم أحد القلائل من كبار الساسة فى العالم ، وموضع احترام شعوب الشرق الأوسط وإعجابها ، لما له من فضل فى الدفاع عن قضايا الشعوب العربية ، بل إن زعماء العالم العربى أنفسهم قد أثنوا عليه أعظم الثناء لقدرته الفائقة وعرضه البديع لقضية فلسطين والقضايا العربية الأخرى ، والواقع أن معاليه كان دائماً — ولايزال — يعلن تأييده المطلق ويقدم نصائحه الخالصة لجميع البلدان الإسلامية كلما دعت الحاجة إلى مثل هذا التأييد أو تلك النصائح ، فلا عجب إذاً أن تؤهله وجهات نظره الصائبة وخبرته الواسعة فى الشئون الدولية لأن يعتبر بحق من أعظم الساسة فى العالم كله .

وعندما أعلن إنشاء دولة الباكستان فى عام ١٩٤٧ طلب إليه المغفور له القائد الأعظم محمد على جناح أن يعاونه فكان أول ما فعله أن تولى الدفاع عن قضية المسلمين بشأن تقسيم البنجاب بين الباكستان والهند ، ثم تولى رياسة أول وفد باكستانى لدى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وعندما أثيرت قضية كشمير فى مجلس الأمن تولى معاليه رياسة وفد الباكستان فى المجلس ، وفى شهر ديسمبر من عام ١٩٤٧ عين معاليه وزيراً لخارجية الباكستان ، ومنذ ذلك الوقت ومعاليه يرأس وفود الباكستان لدى الجمعية العامة للأمم المتحدة

ومعاليه مسلم عميق الإيمان ، يخصص جزءاً كبيراً من دخله للأغراض الخيرية ، ويكره التقاليد والمظاهر الزائفة ويحب البساطة فى كل شىء حتى فى مأكله ، ويقضى أوقات فراغه فى القراءة وفى رياضة المشى فى الصباح وفى صحبة الأصدقاء وأعضاء أسرته ، وهو يستيقظ فى ساعة مبكرة جداً فى الصباح وينام فى ساعة مبكرة أيضاً ، وفضلا عن ذلك فإن معاليه متعمق فى علم اللاهوت وفلسفة القرآن ، وكثيراً مايستعين بآيات من الذكر الحكيم فى خطبه السياسية سواء فى الأمم المتحدة أو فى البرلمان الباكستانى ، وهو يؤمن بالله وبأخوة البشر ، ويعتقد أن رجل الدين المؤمن لايمكن أن يكون متعصباً ، فلا غرابة إذاً فى أن يكون معاليه موضع إعجاب الجميع على اختلاف أديانهم ومعتقداتهم .

والواقع أنه لو خير معاليه بين العمل فى الميدان السياسى وبين تكريس حياته للعلم والتقوى لاختار الميدان الأخير ، ولكنه يواصل العمل فى الميدان الأول لهدف واحد هو خدمة بنى البشر .

التربية الفنية فى الولايات المتحدة :

أصبح الاهتمام بالدراسات الفنية والنشاط الفنى أمراً تعنى به كل الأمم المتحضرة باعتباره جانباً له خطره من جوانب الحياة الناهضة . ومن السهل أن نلاحظ أن الاهتمام بهذا اللون من النشاط الفنى عند الأطفال لا يقل عنه عند الكبار ، إن لم يكن الاهتمام به عند الصغار أظهر وأوضح — على الأقل فى السنوات الأخيرة — وانتبهت أساليب التربية الحديثة إلى خطورة هذا الجانب فى الإنسان وأهميته فى تكوين شخصية قوية متماسكة من طفل لم تتبين شخصيته بعد . ولأجل ذلك فتحت معاهد التربية الفنية لإعداد المدرسين وتزويدهم بالوسائل الكافية .

والتربية الفنية — كما ذكرت السيدة فلورنس بك Florence J. Beck فى محاضرتها التى ألقتها بالمعهد العالى للتربية الفنية للمعلمين — جانب من جوانب التربية العامة وليست مادة مستقلة . إنها تتضمن تجارب الطفل الخاصة فى عالمه الخاص معبراً عنها بالخط والشكل واللون .

ولعل الخط والشكل واللون — وهى مقدمات العمل التصويرى — أطوع فى يد الطفل وأسهل تناولاً واستخداماً فى التعبير عن تجربته الخاصة وإحساسه الخاص من اللغة مثلاً . أريد أن أقول إن التصوير فى مستطاع كل طفل مهما صغرت سنه ، فى الوقت الذى لا يتيسر فيه قول الشعر

مثلاً لكل طفل ، بل صغار الأطفال . فإن التصوير إذاً أسهل بالنسبة للطفل ، وبالنسبة لقدرته الفنية ، لأن الأدوات التي يستخدمها فيه — الخط والشكل واللون — لا تقف حائلاً دون هذه القدرة الفنية المحدودة ، ودون التعبير عن تجربة الطفل الشعورية .

ومما ينادي به القائمون على التربية الفنية الآن إطلاق الحرية للطفل في أن يؤدي — بالخط والشكل واللون — ما يخالجه من شعور إزاء الأشياء التي لاحظها بنفسه . أما تلقينه الأصول الفنية بادئ بدء حتى يلتزمها في صوره التي ينتجها ، فقد صار من عيوب التربية الفنية التي تتجنبها التربية الحديثة . وإذاً فقد صار الطفل حراً في أن ينقل إلينا الأشياء كما يراها أو كما يحسها دون التزام لأصول معينة ثابتة . أو — كما قالت المحاضرة — إن الفن لم يعد تقليداً أو تزويداً مطابقاً للأشياء ولكنه تعبير ذاتي إبتكاري .

ترى هل من المستطاع تبني هذه الفكرة أو هذا الاتجاه فيما يختص بجوانب النشاط الفني الأخرى ، كالأدب والموسيقى وغيرهما ؟ إن اللغة — في الحقيقة — أصعب بكثير من الخط والشكل واللون ، ولكننا نزيد هذه الصعوبة صعوبات أخرى أمام الطفل ، بأن نلتزم القوافي والأوزان والأشكال الأدبية المعهودة بوجه عام ، ولا نتهاون أو نفرط فيها قيد أنملة . وهذا كله كفيل بأن يصرف الطفل عن الإنتاج الأدبي طالما كان الإنتاج الفني التصويري أسهل أداة من جهة ، ولا يلتزم أصولاً معينة ، وإنما هو يترك له الحرية الكاملة في استخدام هذه الأداة والتعبير عن نفسه تعبيراً حراً طليقاً من جهة أخرى .

وقد ذكرت المحاضرة أن عمل مدرس التربية الفنية الآن يتلخص في أنه يقوم بخلق جو الصداقة بينه وبين الطفل عن طريق اتجاهه الناطق وحماسته ، وأن يشجع كل طفل على التعبير عن نفسه في كامل حريته ، وإذا صح أن هناك توجيهاً يوجه إلى الطفل فلا يوجه إليه إلا بعد أن ينتج ما يريد ، على أن التوجيه في هذه الحالة يحسن أن يكون غير مباشر ، ولذلك كان من الوسائل التي تساعد على تحسين التدريس أن نعرض بعض الصور الممتازة في حجرة الدرس بل في كل مكان تقع عليه عين الطفل ، وكذلك العناية بعرض نماذج مما ينتجه الأطفال أنفسهم .

والكلمة الأخيرة التي لا يفوتني التعقيب بها هنا هي أن هذا الأسلوب من التربية الفنية قد أدى إلى نتائج باهرة لمسناها فيما عرضته المحاضرة من لوحات ، ورجاؤنا أن تمتد أساليب التربية الفنية إلى ألوان الفن الأخرى .

معرضان :

أما المعرض الأول فهو معرض رسوم أطفال وادي النيل ، وهو المعرض الذي سيشترك به أطفال وادي النيل في المسابقة الدولية التي ينظمها الاتحاد الدولي لرعاية الطفولة لأطفال دول الاتحادات الإقليمية المنضمة إليه ، رغبة في إيجاد نوع من الاتصال المعنوي بين الأطفال الذين هم رجال الغد ، لضمان حياة جديدة من التعاون والإخاء بين شعوب العالم ، وقد تبنت هذه الفكرة جمعية هانز أندرسون الدنمركية وجعلت موضوع المسابقة هو التعبير عن عشر قصص من أقاصيص هانز أندرسون نفسه الخاصة بالأطفال .

ومنذ دقائق كنت أتكلم عن العناية بالناحية الفنية عند الأطفال ، وهي عناية لم تعرفها مصر وحدها ، بل عرفتها جميع الأمم المتحضرة ، ولعلك تستطيع أن تفسر هذه العناية بالأطفال بما أحسه الكبار من انفصام عرى المودة والإخاء بين شعوب العالم وما جرته المنازعات والخلافات من حرب وشقاء ، فراحوا يرعون أملهم الأخير في تلافي هذه الأخطاء والأخطار في رجال المستقبل — الأطفال — ولعل معرض أطفال العالم الذي تحدثنا عنه من قبل يمثل هذه الفكرة بوضوح .

ونحن نأمل مع الآملين أن تؤتي هذه الحركات الطيبة أكلها الطيب ، وأن يثبت أبناء النيل أنهم أيضاً أبناء الفراعنة العظام أرباب الفنون والعلوم منذ أقدم العصور .

وأما المعرض الثاني فهو معرض أحد خريجي معهد التربية ، فنحن هنا أمام أناس فهموا الفن على أوسع نطاقه ، وزودوا أنفسهم بثقافة فنية عالية ، واتصلوا بالتيارات الفنية المختلفة التي تموج بها الحياة حولهم ، وهم جميعاً من الشباب الناهض المتطلع إلى غايات سامية وآمال كريمة .

(البقية على الصفحة التالية)

من بريد الثقافة

إلى حضرة رئيس تحرير مجلة الثقافة :

حضرة الأستاذ رئيس تحرير مجلة الثقافة الغراء المحترم .

بعد التحية .

أرجو نشر كلمتي هذه تعقيباً على ما جاء في المقال المنشور في العدد (٦٨٣) تحت عنوان (اللغة العامية في الحوار القصصي) من يوميات الأستاذ إدوار مشى .

سيدي الأستاذ .

كتبتم في الكلمة المشار إليها حول الحوار القصصي والسبيل التي يستحسن أن يكون عليها : هل اللغة العامية أم الفصحى وأيهما أصدق تعبيراً وأكثر تأثيراً في القارئ ؟ هل اللغة الدارجة التي نسمعها ونتقولها باستمرار أم اللغة الفصحى العسيرة الهضم ؟ وقد ارتأيتم ضمناً أن يكون الحوار باللغة العامية ليكون أوفى توضيحاً للخلجات التي تنتقل عن طريق القصة إلى نفس القارئ ، وأسهل فهماً وانطباعاً ، مستندين في ذلك إلى أن القصة (تصور لمجتمع ما أو فرد ما ... إلخ) .

وإن هذا التصوير وافٍ لذلك المجتمع إلا اللغة أو اللهجة (في الحوار) التي يتكلم بها شخوص القصة فإنها تتخذ طريقاً آخر يختلف باتخاذه اللغة الفصحى .

أنا مع الأستاذ في أن القصة تصوير لمجتمع ما أو بيئة ما أو فرد ما .. إلخ ، ولكن لي مناقشة حول الحوار وأخذه اللغة العامية (المحلية) للبيئة ، فلو وضع الحوار عامياً ألا يعتقد الأستاذ أنه سيكون نقطة سوداء نابية في تلك الصورة الجميلة التي تصورها القصة — هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى : هل يظن الأستاذ أن اللغة العامية في البلاد العربية واحدة ؟ .. فإن كان هذا ظنه فالحقيقة تختلف ، والواقع يبين لنا في بغداد أن اللهجات المحلية تختلف في محلة عنها في أخرى ، وفي العراق مدينة عن أخرى . وهاك مثلاً (بغداد والموصل) فلو استمعت إلى موصلي يتكلم وبغدادي يتقول ، لذهب إلى ظنك أنهما من بلدين مختلفين ، وذلك لأن لكل منهما لغته المحلية التي سمعها وتقولها .

فكيف يمكن التوفيق إذا اختلف هذان الفرعان من البلدتين الواقعتين في قطر واحد مع أفراد تفصل بينهما مسافات شاسعة مثل شمال أفريقيا إلى الجزائر ؟ . فهل يقترح الأستاذ أخذ إحدى هذه اللهجات وترك الباقي ؟ أم يعتقد أن كتّاب القصة المصريين أو السوريين أو العراقيين أو غيرهم كل يكتب في قطره فتصبح عندنا قصة محلية لا عربية كما نبغي ؟ ثم هل يرى الأستاذ أن اللغة العامية في مصر واحدة لا تختلف شمالها عن جنوبها ؟ .

ثم لو طبقنا اللغة المحلية المصرية على الأمثال التي اخترعوها أو اللغة العامية البغدادية (وليس العراقية لأن اللغة العامية العراقية تختلف من لواء إلى آخر ومن مدينة لأخرى بل من محلة لمحلة) لرأينا أن المصري لا يفهم من اللغة العامية

وليست المحاولات المتباينة التي تبدو في هذه المعروضات إلا تعبيراً عن نشاط مجموعة من أساتذة التربية الفنية من بين أعضاء هذا الاتحاد ، وهي تحدد بعض الأساليب والاتجاهات الفنية التي يخدمون بها رسالتهم في نواحي التصوير والنحت والخزف وبعض الفنون العملية ، وهي وليدة الرغبة والفكر والتجربة والبحث والمران ، وقد جاءت هذه الأعمال كما يشتهي مبدعوها أن تكون في ظل العالم الواسع الآفاق الذي كونوه لأنفسهم بعد أن أتموا دراستهم وخرجوا إلى الحياة العملية يكافحون في إبلاغ رسالتهم من وراء آرائهم واستجاباتهم وطابعهم الخاص حتى يخرجوا للأمة جيلاً فنياً راقياً .

والحق أن هذه المعارض الفنية الكثيرة التي ازدحم بها هذا الموسم إن دلت على شيء فعلى أن الحركة الفنية في مصر تنمو نمواً سريعاً ملحوظاً ، ولكنه نمو متعدد الجوانب متسع الآفاق .

عز الدين إسماعيل

العراقية شيئاً ، وكذا العراقي بالنسبة إلى اللغة العامية المصرية . وهاك تطبيقاً على مثل من الأمثلة التي أوردتموها .

من أقصوصة (الباب الذهبي) لإبراهيم أفندي المصري في كتابه (نفوس عارية) .

بين موظف وزوجته :

— أليس هذا حقها .

— أنا لم أقل إني سآكل حقها . . .

— إذاً كان يجب أن تدفعي .

— كنت أريد أن أربيها .

— وماذا فعلت ؟ هل سرقت ؟ هل طلبت أكثر من حقها ؟ لقد اتفقنا أمامي على أجرة الفساتين ولقد أعطيتك المبلغ ولعلك تذكرين فأين ذهب ؟

فترى أنكم قد نقلتم هذه الألفاظ إلى اللغة العامية المصرية فأصبحت :

— هو ده مش حقها ؟

— أنا ما ألتش إني حا كلو عليها .

— معنى كده إنك كان لازم تدفعي .

— كنت عاوزة أربيها .

— وإيه اللي عملتو ! هل سرقت ؟ هل طلبت أكتر من حقها ؟ أنتو اتفقتو أدامي على أجرة الفساتين وأنا اديتك المبلغ ولعلك فاكره راح فين ؟ .

أما لو أردنا نقل هذا الحوار القصير إلى اللهجة البغدادية فإنا نرى الاختلاف بيناً ، إذ لا يمكن للقارئ المصري أو السوري أن يفهم منه شيئاً إلا ما ندر ... وها كم (الترجمة) .

— هذا موحكها ؟

— آني ما كنت حآكله عليها .

— لعد لازم تنطيها .

— ردت أأدبها .

— وشسوت ؟ باكت ؟ طلبت أكثر من حسابها ؟ أنتو اتفقتو كدامي على أجرة القنافيف وآني أنطيتج المبلغ ويمكن تتذكرين وين راح ؟

وكذا لو أردنا أن نكتب هذا الحوار باللهجة الموصلية

— هذا ما حقه .

— أنا ما قلتو غيح آكلو عليها .

— لكن لازم تعطيني .

— قدنو أأدبه

— واشعملت ؟ باقت ؟ طلبت أكثر من حسابه ؟ أنتم اتفقتم قدامي على حق القسيتين وأنا طيتوك الفلوس ويمكن تجي إنتا السكل وبصب فاح ؟ ...

وهكذا لو طبقنا هذه اللهجات على بقية الأمثلة التي أوردها حضرة الأستاذ ؛ فكيف يمكن التوفيق — هذا من ناحية الكتابة — وكيف تكون الحال في حالة الترجمة ؟ هل علينا أن نترجم القصة ونضع الحوار بلغة الكاتب لنحافظ على العنصر المفقود وتكون أكثر تشويقاً ؟

وعلى هذا أرى أن اللغة الفصحى هي (الترجمان) للغات المحلية المختلفة في جميع البلاد العربية ، وكل قارئ من هذه البلاد المترامية الأطراف (والناطقة بالضاد) تكون اللغة العربية الفصحى لها — كالقاسم المشترك في العمليات الحسابية — تنتقل الإحساسات عن طريقها من لغة محيط القصة إلى العربية الفصحى ، ثم تنصب في لغة القارئ المحلية فتكون بهذا الواسطة التي لا غنى عنها .

ولا أعتقد أنها تبدل شيئاً من الإحساسات الحقيقية ، كما نرى أن اللهجة العامية عاجزة عن التعبير الذي يعبر به في اللغة الفصحى ، وأرجو المعذرة .

(بغداد — العراق) ابن العباس

الثقافة

العدد ٦٨٩
١٠ من مارس ١٩٥٢

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

صفحة

نداء القلب ...

شيب علاك وضاء القلب فى الشمم
والقلب فى الحب طفل بالغ الحلم
يهوى الجمال ومغنى الغيد مرتعه
وناعس الطرف إن يصرعه ينحطم
يحلو له الشوق لاتفنى مطامعه
ياويح خافقنا من جارح نهم
قد صاده مسرف فى التيه يطمعه
ويترع لعين الصب لاتنم
مازلت أشكو هواى عند زورته
حتى تألم من بوحها ألمى
فما استجاب ولا لانت مهزته
وخاب ظنى وما أملت من كرم
حين اتهمت مشيبى قال — فى لطف
كره الأولى وخبطوا ماكان من شيم
إن الخضاب رياء أنت تمقته
والتيه فينا نداء القلب . فاغتنم

[كفر الشيخ] دكتور سالم محمد

من الماضى

كان بالأمس لقلبى بعض حلم
ذهبى مثل أحلام العذارى
كان لى فى غمرة اليأس منى
كان لى حلم جميل فتوارى
هكذا ولى ولم يترك سوى
ظلمة الموت وأطياف حيارى
تتهاوى فوق أجفانى رؤى
من ظلال الأمس إذ كنا صغارا
مل روحينا أمان نسجت
من ضياء الفجر أحلاماً كبارا
كان لى ثم توارى تاركاً
قلبى الظمآن فى قلب الصحارى
كان لى حلم جميل باسم
مرح نشوان حلو فتوارى

زهير أحمد

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العــدد ٦٨٩ الاثنين ١٤ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧١ — ١٠ من مارس سنة ١٩٥٢ السنة الرابعة عشرة

في ضوء المصباح :

مصباح علاء الدين

للدكتور زكي نجيب محمود

ما أضيقني بهذه الذاكرة الضعيفة العاجزة التي توشك أن تبدد لي كل ما قد وعيتُ وخبرتُ في أعوامي السوالف ، فلا تُبقي لي من ذلك شيئاً ! وإني لأعلم من ذاكرتي هذا الضعف الشديد وهذا الإسراف في تبديد الودائع ، حتى لتراني أحوط لها بكل ما يشير به علماء النفس من وسائل ، فأشدد الروابط بين أجزاء الشيء المحفوظ ، وأضع تحته الخطوط ، وأوضحه في هوامش الكتب برموز وعلامات وملخصات ؛ لكن هيهات الغربال أن يحفظ في جوفه ماء . تراني أقرأ الكتاب ، فلا تمضي أيام قليلة بعد الفراغ منه ، حتى يذهب عني وتذهب كل آثاره ، فلا عنوانه هناك ولا اسم كاتبه ولا شيء من مكنونه ! فالرأس بعده خلاء خواء ، كما كان قبله ، فلا زيادة به إن لم يكن نقصان .

فكيف نرجو من مثل هذه الذاكرة النكودة أن تستعيد ما أردتها أمس على استعادته مما قد قرأته منذ ثلاثين عاماً ؟ أردتها أمس على أن تعيد لي قصة علاء الدين ومصباحه ، وكنت قد قرأتها منذ ثلاثين عاماً ، حين أخذتنا — وكنا ثلاثة أشخاص — أخذتنا ذات صيف نقرأ ألف ليلة وليلة ، فكنا نجتمع كل يوم في الصباح والعصر ، في غرفة ريفية لم يكن يؤثثها غير الحصير على أرض تراب كانت في منزل صديق لنا أيام الطفولة ، لم يكن من حظه أن يختلف إلى معاهد التعليم ، لكنه يحب أن يسمع أنباء الصحف وأخبار الكتب يقرؤها له أصدقاؤه « التلاميذ » ، وكنت أنا القارئ لها في أغلب الأحيان ، ولم أكن بعد قد تبينت كل ما بعينيّ من قِصَرٍ وضعف ، فكنت أضع الكتاب على الأرض وأنحني على صفحاته أقرأ لها ، حاسباً أن ذلك الوضع هو أكثر الأوضاع راحة لجسدي ، والحقيقة أن عجز العينين عن النظر الطويل هو الذي أوحى به واستلزمه ! كنتُ أقرفص جسدي في ذلك الوضع المتعب ، وأقرأ بصوت عال كأنما أردت أن أسمع سكان القرية جميعاً ، وقد لازمتني عادة القراءة العالية دهراً طويلاً ، حتى لقد شكا كثيرون من الجيران إلى أبي هذه الضجة التي أحدثها في أركان البناء هزيعاً طويلاً من الليل ، وفي كل ليلة ! ولعل الزمان لم يكن بعد قد علمني حتى دفعني دفعاً إلى الانزواء والانطواء وخفوت الصوت وخفض البصر .

أردت أمس أن أستعيد لذاكرتي ما استودعتها إياه من قصة علاء الدين ومصباحه ، فلم أذكر أبداً من ذلك شيئاً ،

سوى أن علاء الدين كان يمسح مصباحه ، لست أدرى كيف ، فإذا الجن خدم له يأتمرون به ، فينجزون له المستحيل ! يبنون له القصور في لمح البصر ويمحونها في لمح البصر ، ويأتون له بابنة السلطان حبيبة طائعة إذا أرادها ، ويطيرون به في السماء أو يهبطون به في خلج الأرض ، وينشئون له المدن ويملأون له الكنوز ذهباً ولؤلؤاً ! ينجزون له كل ذلك إذا ما أشار لهم إشارة خفيفة بيده أو لسانه .

والحق أني قد أردت ذا كرتي على أن تعيد لي قصة علاء الدين ومصباحه السحرى ، للتسلية لا للجد ! لأني لمحت فيه وفي قصته رمزاً لطيفاً لمن يظن أن الدنيا يتغير له وجهها بالرغبات تطوف بين جدران رأسه ! لحسبي أن أجلس هكذا على مقعدي وفي عقر داري ، ثم أعبر بالكلام عن رغبتي هذه أو رغبتي تلك ، فإذا سحرة الأرض وعفاريت جوفها وجن سمائها كلهم خدم ينجزون لي ما اشتهيت وما تمنيت ! ماذا يضطرني إلى الجهاد الشاق وإلى العمل العنيف إذا كانت لمسة خفيفة للمصباح السحرى تكفيني لتحقيق ما أشتهي وما أتمنى ! والمصباح السحرى قادر على الهدم كما هو قادر على البناء ، لأن رغبات الإنسان سالبة وموجبة معاً ، فالإنسان قد يرغب في أن يمّحي شيء يضايقه ، كما قد يرغب في أن يُخلق له شيء يشتهيه ، قد يرغب الإنسان في زوال نظام كما قد يرغب في قيام آخر.. ومثل هذا كله يقدم مصباح علاء الدين .

وأي عجب بعد ذلك في أن تستهوينا قصته ونحن على عتبة الشباب : حيث الأحلام والآمال والشعر ! لئن كانت الرجولة الناضجة عملاً منتجاً ، فالشباب الفج عاطفة جياشة ! الأمل لا يتحقق إلا بالعمل عند الرجل الناضج ، لكن تكفيه قصيدة من الشعر عند الشباب الغرير ! كم كانت لنا ونحن على عتبة الشباب أمان وأحلام حققناها بمصباح علاء الدين ، أو تذرعنا لتحقيقها بطاقية الإخفاء التي تيسر كثيراً جداً من الصعاب والعقبات ! فسحقاً لهذا النضج العقلي الذي لم يعد يكفيه من ذلك شيء ، وبات محتوماً علينا بمقتضى أحكامه أن نجاهد جهاداً شاقاً ونعمل عملاً عنيفاً إذا ما أردنا للأماني أن تتحقق... فهكذا ينتقل الإنسان في مراحل حياته من شعر إلى نثر ومن أحلام حلوة إلى واقع مرير .

●●●

لكنني إذ التمست من قصة علاء الدين ومصباحه تسلية ، قد وجدت فيها الجد ، لأني ما كدت ألهو بجانب المزاح منها حتى تبين لي جانب آخر ! فلئن أشبع المصباح السحرى خيال الشاب الحالم ، فهو كذلك كفيل أن يهدى الرجل الناضج العامل ! إن هذا المصباح العجيب رمز إلى إمكان التغيير لمن أراده ! ليس في الدنيا بأسرها ما يستحيل على الإرادة الإنسانية إذا صممت ومضى عزمها ، وكأنما قصد علاء الدين إلى إعلان ذلك بقصة مصباحه السحرى ! إن الفساد ضارب في طول البلاد وعرضها ، لكنه يزول لصاحب الإرادة الذي لا يرى محالاً أن تتغير الحال .

ماذا عسانا أن نصنع وماذا عسانا أن ندع ؟ من أين نبدأ وإلى أين ننتهى ؟ الوحل يملأ الطريق في كل أرجائها فأين نلتمس سبيل النجاة ؟ . . . هذه وأمثالها أسئلة يلقيها السائلون المهتمون بإصلاح الفساد ، فيقف الناس إزاءها رجلين : رجل يلقى السلاح قنوطاً ورجل يحمل العبء لأنه يؤمن بالمصباح السحرى وقدرته على محو الظلام مهما يكن حالكاً .

والحديث ذو شجون . . . فقد ذكرتني قصة علاء الدين ومصباحه بقصة صينية تقع منها موقع النقيض من نقيضه ، إذ يروى أن عالماً في الصين قد صنع عربة تطير في الهواء كما تطير ذوات الجناح ، وتناقل الناس هذا النبأ العجيب حتى انتهى إلى مسامع الحاكم ، فأمر الحاكم أن يؤتى له بذلك الشيطان البشرى ولعبته ، فجاءه العالم يصطحب العربة الطائرة ، ولم يجد سبيلا إلى شرح أجزائها للحاكم ، لأن هذا لم يكن على كثير ولا قليل من العلم بالآلات وفنها ، فطلب صاحب العربة الطائرة إلى الحاكم أن يصحبه في رحلة جوية ليقطع شكه بيقين لا ريبة فيه ، وصعد الرجلان ، فما هي إلا أن طارت بهما العربة العجيبة مع الطير في أجواز الفضاء ! وهذا هو السحاب قد بات دونهم بعد أن كان فوق رءوسهم ، ثم هبطا إلى الأرض ؛ أما العالم فمليء بالزهو والأمل ، وأما الحاكم فمرتعش مرتجف من هول ما رأى ! الحق أنها معجزة قد تحققت على يدى هذا الشيطان ، لكنه بعد أن هدأ قليلا التفت إلى صاحبنا العالم ، وقال له : هذا عجيب ! عجيب جداً تحار معه العقول ، لكنه يجاوز بغرابته حدود ما أطلبه لشعبي ! لا . إني لا أريد لبلادي بدعة كهذه مهما

منزل جيته

للأستاذ محمد عبد الله عنان

حينما زرت مدينة فرانكفورت (على الماين) فى صيف سنة ١٩٥٠ ، كان قد مضى عام على الاحتفال بالذكرى المائتين لولد جيته شاعر ألمانيا الأكبر . وكان لمدينة فرانكفورت وهى مسقط رأس الشاعر دور خاص تؤديه فى هذه الذكرى ، ذلك أنها لبثت مدى قرنين تحتفظ بالمنزل التاريخى الذى ولد فيه الشاعر وتعتز به ، وكان مدى هذه الأحقاب كعبة يحج إليه زوارها من سائر الآفاق . ولكنها نكبت خلال الحرب الأخيرة بفقد هذا الأثر النفيس الخالد ، إذ دمر فيما دمر من صروح المدينة وأحيائها بفعل الغارات الجوية فى شهر مارس سنة ١٩٤٤ . وبذلك حرمت فرانكفورت وحرمت ألمانيا من أركان من أعظم الآثار القومية التى تزهو بها .

ولكن مدينة فرانكفورت لم تصبر طويلا على هذه الكارثة ! وما كادت تنتهى الحرب حتى نهضت سلطات المدينة تعمل على إحياء أثرها المفقود بكل ما وسعت ، ولكن الأثر لم يكن سوى ركام وأنقاض دارسة . وحينما قصدت إلى « منزل » جيته أثناء زيارتى لفرانكفورت فى أغسطس سنة ١٩٥٠ لم أر سوى الركام والأنقاض وقد غمرها التراب ، وكان عزاء ضئيلا ، أن استطاعت هذه السلطات أن تستخرج من بين الركام والتراب بعض الصور والكتب وقطع الأثاث ، وأن تنظمها فى معرض متواضع ، أقامته فى بناء صغير نصف متهدم بجوار المنزل المنهار وأقامت إلى جانبه فى البناء الذى يليه « مكتبة جيته » وهى تضم ستين ألف مجلد ، وبها طبعات أثرية جميلة لمؤلفات جيته وكل ما كتب عنه بمختلف اللغات .

ولم تقف همة مدينة فرنكفورت عند هذا الحد المتواضع من إحياء ما تبقى من آثار جيته ، ولكنها اعتزمت وقررت أن تعيد بناء « منزل جيته » بصورة كاملة مطابقة ، ولم يكن ذلك عسيراً على السلطات الأثرية المختصة ، إذ كانت تحتفظ بصور وتصميمات كاملة المنزل التاريخى المدمر ، وكل ما كان يضمه من صور وأثاث ورياش . وانتهزت هذه السلطات حلول الذكرى المائتين لمولد الشاعر الأكبر ، واستطاعت أن تجمع خلاله كثيراً من التبرعات ، التى تستعين بها على تنفيذ مشروعها الجليل ! وطبعت كميات وفيرة من

تكن براعتها وإنجازها لأنها ستكون للناس عاملا من عوامل القلق بحيث تضطرب أوضاعهم اضطراباً تتغير معه الأشياء والقيم ؟ لا ، لا . إنى أريد لنفسى ولشعبى راحة البال ... ثم أمر بالعربة الطائرة فتحطمت أوصالها وأجزاؤها ، وأمر ذلك الشيطان البشرى ألا يعود إلى مثل هذا فى غد قريب أو بعيد .

العربة الطائرة ومصباح علاء الدين رمزان يختلفان فيما يشيران إليه : القصة الأولى ترمز إلى الجمود والرغبة فى ألا يتغير من أمر الناس شىء ، والقصة الثانية تشير إلى الإنشاء السريع والنمو السريع ، وترمز إلى إمكان التجديد والتغيير — وكل ما ندخله على قصة مصباح علاء الدين من تحوير وتعديل حتى تناسب الرجولة الناضجة العاقلة ، بعد أن كانت خيالا يلهو به الشباب الحالم ، هو أن نجعل ذلك المصباح داخل نفوسنا لا خارجها ، فنجعله فى الإرادة الفعالة الماضية ، والعزم الصمم الذى لا يلين .

إن الإرادة القوية لسحراً ، هو بذاته ما نسبه علاء الدين إلى مصباحه ، لأنها تستطيع أن تغير كل شىء بمثل ما غير علاء الدين بمصباحه كل شىء .

لقد روى عن شاعر إيطالى بعد الحرب الكبرى الأولى أنه قال :

مات الماضى ، فقتلناه بأسنة الحراب
وهذا هو الحاضر فلنفتك به فتكا
حتى نقيم المستقبل فوق أنقاض عرش مجيد

فياليت ما قاله الشاعر الإيطالى يتردد فى أرضنا على كل لسان .

زكى نجيب محمود

صور الشاعر ، ويحتمل أن تكون قد عاونتنا القرض . ويوجد بين واحدة منها بها صورة الشاعر في سنة ١٧٩١ ، حينما كان في الثانية والأربعين من عمره وتحتها توقيعه . وقد كتب في ظهرها ما يأتي : « التبرعات الشعبية الألمانية ، لأجل مسقط رأس جيته . فرانكفورت — آم ماين . تذكرة احتفال لذكرى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٤٩ لإعادة بناء مبنى هرشن جرابن »

« وهرشن جرابن » Hirschen Graben هو الشارع الذي يقع فيه « منزل جيته » ، وهو واقع بالقرب من ميدان « روس » أحد ميادين المدينة الهامة . وقد كان من أشد بواعث دهشتي أني حينما زرت فرانكفورت في صيف العام التالي (سنة ١٩٥١) أن أسمع أن « منزل جيته » قد تم بناؤه ، وأنه أصبح مقصد الزوار من كل صوب ، فهرولت إلى شارع « هرشن جرابن » . وفي الحال ألفيت نفسي أمام منزل جديد من طراز القرن الثامن عشر ، ذي طبقات ثلاث هو « منزل جيته » .

فوقفت مدى لحظة ذاهلا أمام هذا المنظر الفخم . أجل هذا هو « منزل جيته » بطرازه وأوضاعه القديمة ، أعيد بناؤه ببراعة نادرة ، واستعين في إعادته بسائر أنقاضه التي أمكن إنقاذها ، فجاء صورة طبق الأصل للمنزل التاريخي القديم . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ فقد جهزت طبقات المنزل الجديد الثلاث ، غرفها وأبهاؤها ، بسائر ما كانت مجهزة به من قبل من صور وأثاث ورياش وتحف . ذلك أن براعة الأربعين استطاعت أن تستخرج من بين الأنقاض والركام كثيراً من الصور والأوراق وقطع الأثاث والرياش ، وأن تصلحها وتعيدها إلى مثل ما كانت عليه من قبل . أما قطع الأثاث التي هلكت فقد صنع مثيلها على مثل طرازها القديم ، وكان بين ما أنقذ وأعيد إصلاحه آية بديعة من القيثار الأثري وكثير من الآلات الموسيقية ، والوثائق والكتب والصور التاريخية ، التي كان يزدان بها منزل الشاعر أيام حياته .

ورأينا خلال طوافنا بالمنزل مع دليلنا الخبير المتمكن من تاريخ جيته وأحوال عصره ، الغرفة التي ولد بها الشاعر ، بأثاثها ونظامها القديم ، ثم غرفة الموسيقى ، التي تضم طائفة من الآلات الموسيقية ، التي كانت معروفة في القرن الثامن عشر ، ومنها ما اعتاد أن يعزف عليه الشاعر في أوقات فراغه ؛ ثم غرفة المكتبة ، وقد حشد فيها مئات الكتب والطبعات الأثرية لمؤلفات جيته ، ومؤلفات معاصريه ؛ ولهذه المكتبة نافذة صغيرة في زاويتها اليمنى تطل على « هرشن جرابن » ، وقد كان لها شأن في حداثة جيته وأيام فتوته ، ذلك أن أباه المستشار يوهان كاسبر كان يلازم مكتبته ساعات طويلة ، وكان يرقب مقدم ولده الفتى من هذه النافذة مساء كلما تأخر خارج المنزل ، وكانت أمه تشفق عليه من تأنيب والده ، فتعمل على إدخاله إلى المنزل خفية .

وتزدان غرف المنزل الأثري بطائفة كبيرة من الصور التاريخية التي تمثل مناظر من حداثة جيته وحياته العائلية مع والديه وأقاربه وأصدقاء أسرته ، كما تمثل كثيراً من مناظر مؤلفاته ؛ ومنها ما أنقذ من الركام وأصلح ببراعة ، ومنها ما صور وفقاً للأصول الضائعة . ونحن نعرف أن حياة جيته في مدينة فرانكفورت مسقط رأسه كانت قصيرة الأمد ؛ فقد غادرها منذ حداثته إلى لايبزج (سنة ١٧٦٥) ليدرس ، ثم عاد بعد بضعة أعوام إلى فرانكفورت (سنة ١٧٧١) ، وأنفق وقتاً قصيراً في التمرن على الأعمال القانونية في مدينة فتزلار التي سبق أن مارس فيها أبوه مهنته ، وهنالك في فتزلار تعرف بشارلوته بوفه ، وهي ابنة موظف صغير ، وكانت قصة غرامية من أعنف ما وقع للشاعر ، خلال أحداث حياته الغرامية العديدة ، وهي القصة التي خلدها في كتابه « أحزان الفتى فرتر » . ويوجد في منزل جيته أكثر من صورة تمثل « لوته » ، (شارلوته) يشير إليها الدليل في حماسة وتأثر . واستمرت حياة الشاعر في مدينة فرانكفورت حتى سنة ١٧٧٥ ، ثم غادرها إلى فيمار إجابة لدعوة أميرها الدوق ، ومن ذلك الحين تصبح فيمار مقامه المستقر معظم حياته الطويلة الحافلة .

والخلاصة أن مدينة فرانكفورت استطاعت أن تحقق معجزة أثرية بإحياء تحفتها الخالدة — منزل جيته — وإقامته من جديد على نمطه وأوضاعه الأصلية ، لاتكاد تشعر وأنت تجوس خلاله ، بأن وراء هذا العمل الفني العظيم مأساة من مآسي التدمير التي شوهت معظم المدن الألمانية الكبرى لولا جدة ألوانه ورواء مناظره .

لقد أصبحت مدينة فرانكفورت تزهو من جديد بمنزل شاعرها الأكبر ، وأصبح منزل جيته من جديد كعبة الرواد من كل فج .

محمد عبد الله عنان

ابن قادوس (١)

للدكتور شوقى ضيف

هو أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن حميد الفهرى الدمياطى الشهير باسم ابن قادوس ، شاعر مبدع من شعراء النصف الأول من القرن السادس للهجرة ، وقد بدت فيه مخايل شاعريته منذ أوائل هذا القرن ، فقد ذكره أمية ابن أبى الصلت فى رسالته المصرية ، ونوَّه به ، ومعروف أن هذه الرسالة كتبت حول سنة ٥١٠ هـ .

وإذا كان ابن أبى الصلت سلكه فى شعراء مصر الذين ارتفع اسمهم ولمع نجمهم فى مفتتح القرن السادس ، فإن اسمه أخذ يُدَوِّى بعد ذلك كما أخذ نجمه يتألق فى المحافل حتى اختير ، لينهض برياسة ديوان الإنشاء مع الموفق بن الخلال ، فكان هذا الديوان تُقُسِّم بينهما ، تارة فى يد هذا وتارة فى يد ذاك ، وما زال يحتل هذا الأفق الرفيع بين الكتاب والشعراء فى مصر الفاطمية حتى لبى نداء ربه سنة ٥٥١ هـ .

ورياسة ابن قادوس لديوان الإنشاء تجعلنا موقنين لأن نقرأ له أدباً مرصعاً بالسجع وفنون البديع على عادة الكتاب فى عصره ، وقد روى له صاحب صبح الأعشى نصين من نصوص النثر التى دبجتها براعته ، وهما يشهدان بأنه كان يتفنن فى كتابته ويوشيها بمصطلحات عصره الفنية من سجع وألوان بديع ، ولعل هذا ما جعل القاضى الفاضل أكبر سجاع بين الكتابين فى العصر التالى لعصره ، وكان لا يزال فى مقتبل حياته الديوانية ، يلازمه ، حتى ليزعم الرواة أنه كان يجرى فى ركابه أثناء خروجه من الديوان إلى بيته رجاء أن يقع منه على سجعة بديعة أو يلتقط درة من دُرَر شعره اليتيمة التى كان يبالغ فى صياغتها ويتأنق فى صناعتها .

وقد احتفظت (الخريدة) بطرف من هذه الغرر ، وإن كنا نلاحظ أن العماد لم يرو لنا شيئاً من قصائده ، إنما روى مقطعات ومنتخبات ، وهى أقرب إلى أن تكون نماذج لتعليم الناشئ فن الصياغة الأدبية منها إلى أن تكون تاريخاً صحيحاً للشاعر وشعره أو الشاعر وعصره ! وكانت فى الشعراء الفاطميين وصمة تجعله يرفض رواية قصائدهم مهما كان نصيبها من الروعة الفنية ، ونقصد وصمة تشيعهم ، إذ كان سُنِّيًّا وكانوا شيعة غالين ، فرفض رواية قصائدهم وخاصة التى مدحوا بها الخلفاء الفاطميين ووزراءهم ، وقطّعها ومثّل بها ، فلم يَرْو منها إلا مقدماتها ، وإلا قطعاً من المديح تخلو من كل أثر للتشيع وصلة به .

ومن أجل ذلك لاسبيل إلى أن نقرأ شعر ابن قادوس فى الخلفاء الذين عاصرهم وكانوا كثيرين ، إذ عاصر الآمر والحافظ والظافر والفائز ، وكذلك لاسبيل إلى أن نقرأ مانظمه فى كبار الوزراء الذين اتصل بهم من مثل الأفضل ابن بدر الجمالى واحمد ابنه ورضوان بن ولخش وعباس الصنهاجى وطلائع بن رزيك ، لاسبيل إلى أن نقرأ شيئاً من ذلك إلا أن يكون مقدمة لإحدى قصائده فيهم ، كهذه المقدمة التى قدم بها قصيدة فى مديح الأفضل إذ يقول :

أكرمْ بقلبى للأحبة منزلا
رحلوا به أم أزمعوا مترحَّلا

جادته أنواء الدموع فما اغتدى
يوماً لِنَبَات الحيا متحمِّلا

حِفْظى لعهد الغادرين أضاع لى
قلباً أقام غرامه وترحّلا

لا يَبْعُدَنْ زمن مضى لو تشترى
ساعاته بالعمر أجمع ماغلا

---

(١) انظر ترجمته فى الخريدة (قسم شعراء مصر) الجزء الأول ، وفى حسن المحاضرة للسيوطى بين تراجم من كان بمصر من الشعراء ، وفى الرسالة المصرية (المجموعة الأولى من نوادر المخطوطات لنشر الأستاذ عبد السلام هرون) وانظر صبح الأعشى الجزء الثامن .

أيام أغصان القدود ، قطوفها
تجنى ، وأقمار الملاحة تجتلى
ومهفهف لولا سهام جفونه
تُغشى لأدرك عاشق ما أمّلا
كالبدر وجهاً والغزال تلفتاً
والخيزران ردفاً والقضيب تميّلا
ويكاد من طيب القَبول يثنى
موهُ الأراك من الثنايا مُبْدَلا
إن كان يحكي البدر وجهاً إنه
يحكيه أيضاً في البروج تنقلا
ولقد أذيل من الصبابة عمق
وأذيم من يشجى عليها مُعضلا
وأصون عقد بلاغة نظّمته
عن أن يُرى بسوى علاك مفصّلا
بأمير تساوت في العلا أقسامه
وسما بهمته فكان الأفضلا
أرضٌ سعت قدماك فيها لا تزلْ
تدعى لذلك قِبلةً ومقبَّلا
وندالك ، كل مُؤمِّل ما أمّلا
إلا تجهّم عفاة وأمّ لا
ملك يلاقي الشنيف وهو مدرّعٌ
حزماً ويقتنص الفوارس أعزلا

وواضح ما يحمله هذا الصوت إلى مسامعنا من جزالة وقوة . وابن قادوس موفق في اختيار هذا الصوت لأنه يمدح والمديح يحتاج الصوت الضخم ، حتى يرتفع عن الصوت العادي ، ويصبح خليقاً بهذه الطبقة العالية التي يمدحها مناقبها ، وينشدها فضائلها . فإذا عرفت أن ابن قادوس لم ينظم هذه القصيدة في أخريات حياته ، إنما نظمها في أوائلها ، والزهر لا يزال في برعمه يفوح برائحته ، إذ نظمها في الأفضل الذي قتل سنة ٥١٥ هـ ، إنما عرفت ذلك عرفت أي شاعر كان في جلده كما كان يقول القدماء .

وأنت تراه قد مسح على هذه الأبيات بألوان البديع ، فهو ليس ممن يرسلون أنفسهم على سجيتها في عمل الشعر وصياغته ، بل هو ممن يعنون في شعرهم بتوشيته وزركشته ، حتى لكأنه ثوب في يد فنان يعرف كيف يلونه وينمقه ، ويطرز أوساطه وأطرافه بحليات الطباق والجناس والصورة النادرة كصورة صاحبه أو صاحبه الذي لا يحكي البدر في جماله فحسب ، بل يحكيه أيضاً في تنقله بين البروج .

ولعلك لاحظت حين خروجه إلى مدح الأفضل كيف أن صوته أخذ يتهدج بالانفعال والتأثر ، وإنه ليوشك أن يرتفع به إلى مصاف ورثة الأنبياء ، فكل أرض تسعى فيها قدماه تصبح قبلة ومقبلا لمالك من حوله ، وأكبر الظن أن ذلك مادعا العماد إلى أن يقطع الصوت ، وينتقل إلى قطعة أخرى ، لعل ابن قادوس نظمها أيضاً في الأفضل ، وهي تجري على هذا الوجه :

مليكٌ يملّ الحادثات لعزمه
بعيد ويدني والليالي رواغمُ
وكم كربة يوم النزال تكشفت
بعزماته وهي التوالي التوائم
تشيد بناء الحمد والمجد بيضه
وهنّ لأساس الحوادي هوادم
رقاقُ الظبا تجري بآجال ذي الورى
وأرزاقهم وهي القواضي القواسم

وهنا نجد نفس الضخامة والجزالة في الأسلوب ! ومما لا ريب فيه أن أذن ابن قادوس كانت أذناً جيدة ، ولسنا نقصد الأذن الظاهرة ، إنما نقصد الأذن الباطنة ، فلكل شاعر أذنه الباطنة التي تقيس كل حركة وكل نبرة في شعره ، والشعراء يتفاضلون في هذه الأذن وما يمكن أن ينصب من آثار دقتها وحسنها في نغمهم .

على أن أذن ابن قادوس لا تبدو واضحة في مدائحه تماماً ، لسبب بسيط ، وهو أن المديح ليس موضوعاً أصيلاً ينبثق نغمه من نفس الشاعر ، وإنما هو موضوع عارض ، لا يمس في أغلب الأحيان سوى السطح من هذه النفس ، أما الداخل والجوهر فيظل بعيداً . ومن هنا كانت خصائص الشاعر ، ونقصد خصائص أذنه لا تتمثل بينة في مدائحه ، إلا عند من توفروا لهذه المدائح وجعلوها وكدهم في شعرهم ، أما من يمدحون من حين لآخر ، ويمدحون لأنفسهم قبل أن يمدحوا غيرهم فإن إيقاعاتهم الدقيقة إنما تتراءى في أجمل صورة بأشعارهم الخاصة التي يغنون فيها أنفسهم . واستمع إلى هذه الخمرية لابن قادوس :

قمْ قبل تأذين النواقيس   وأجلُ علينا بنت قسّيسِ
عروس ثمّنَ لم يجمع عتقُها   إلا شعاعاً غير ملموس
تُجلى علينا باسماً ثغرُها   فــلا تقابلها بتعبيسِ
مُذهَبة اللون إذا صُفّقت   مذهبــة للهم والبوس
نارٌ إلى النار دعا شربها   وشردت بالعقل والكيس
لا غرو ما تأتيه من ريبة   لأنهـــا عنصر إبليس
ليس لها عيب سوى أنها   حسرة أقـــوام مفاليس
في روضة كانت أزاهيرها   كأنها ريش الطواويس
فاغتنم اللذات في دولة   صافيـــة من كل تمكيس
بقيت في عمر فسيح للدى   من كل ما تحذر محروس

ألست تؤمن معي بتوفيق ابن قادوس في أصواته التي ألف منها نغم هذه الخمرية ؟ الحق أنه وفق إلى أبعد حدود التوفيق . ولقد عرف الفرس بخمرياتهم في العربية ، وكلنا سمعنا بأبي نواس الذي كانت تهتز نوادي بغداد لخمرياته ، ولكنا لم نسمع لمصر بشاعر يحسن صنع مثل هذه الخمرية التي تقطر خفة والتي تطير عن الأفواه في رشاقة . واستمع إلى أخت لها لا تقل عنها جمالاً :

وليــلة كاغتماض الطرف قصرها
وصلُ الحبيب ولم تقصر عن الأمل
بتنا تجاذب أهداب الظلام بهـــا
كفٌّ الملام وذكر الصدّ والملل
وكلما رام نُطقاً في معــــاتبة
سددتُ فاه بطيب اللثم والقبل
وبات بدر تَمــام الحسن معتنقي
والشمس في فلك الكاسات لم تفل
فبتُّ منها أرى النار التي سجدتْ
لها المجوس من الإبريق تسجد لي
راحٌ إذا سفك الندمان من دمها
ظلت تقهقه في الكاسات من جذل
فقل لمن لام فيها إنني كلفٌ
مُغرى بها مثلما أغريتَ بالعذل

وهل بقي شيء من خمريات أبي نواس ؟ إن الخمر تخلط بالغزل وتمزج به مزجاً يعبر عن شغف الشاعر بها وعكوفه على دنانها وعبه من كئوسها وسفكه لدمائها ، إننا أمام شاعر من ذوق أبي نواس ومن نفس أسلوبه في إعلانه بأن اللذة ولذة الخمر خاصة هي كل شيء في الدنيا ، فينبغي أن يقبل عليها ، وينسى كل ما عداها ! وما نظن إلا أن نوادي القاهرة كانت تطرب لخمريات ابن قادوس وما يصوغ فيها من نفسه ، ويودعها من خواطره وقلبه ، إذ كان يلمس منهم أفئدتهم وموطن الداء من فتنتهم بالخمر وإدمانهم لها ، ولم يكن مولعاً بالخمر وحدها ، بل كان مولعاً أيضاً بالغناء والسماع ، وفي ذلك يقول :

لام العواذل مغرماً   في حب مُلهية وقينه
ولو انهن رأين ما   تير الغرام به وقينــه

وهو لا ينسى صناعته حتى في هذه المواقف ، فتراه يجانس بين قافيتي البيتين ، ولكنه في جناسه خفيف ، لأن وراءه تلك الأذن التي أشرنا إليها ، والتي كانت تعرف كيف تجانس مجانسة دقيقة بين الألفاظ وحركات الألفاظ ، ولسنا ندري شيئاً عن هذه القينة ، وربما كانت الجارية السوداء التي يقول فيها :

وعاذل محتفــل   مجتهد في عــذلي
يلومني في ظبيــة   مخلوقة من كحل
إن الســواد عــلة   من نور هذي المقل
والحبر الأسود لم   يخلق لغير القبــل
والقار مذ كان سوى   السلسبيل السلل

وكان ابن قادوس ماهراً في مثل هذه الصور والعلل ، فهو يحاول أن يخلع عن السواد قبحه ، ويكسو صاحبته حسناً وجمالاً ، ومع ذلك فهذا السواد إنما يجمل في مثل هذه الجارية وحدها ، أو هو يجمل في النساء ، أما في الرجال فإنه لا يزال على قبحه ، بل إنه يضيف إليهم قبحاً إلى قبح ، فقد تعلق بالرشيد بن الزبير الأسواني صاحب كتاب (جنان الجنان ورياض الأذهان) وكان أسود ، فما زال به حتى قال فيه :

يا شبه لقمان بلا حكمة   وخاسراً في العلم لا راسخاً
سلخت أشعار الورى كلهم   فصرت تدعى الأسود السالخا

وقال فيه :

إن قلت من نار خلقــ   ـت وفقت كل الناس فهما
قلنا صــدقت فما الذي   أطفاك حتى صرت فحما

وقال أيضاً :

ذو عارض كالغراب لوناً وشارب مثل ريش يفنا

وواضح ما فى هذا الهجاء من ميل إلى الدعابة ، وهى تتصل بالمزاج المصرى ، غير أنها دعابة تحمل غير قليل من السخرية ، ولعل هذا الشاعر الأسود هو الذى جعله يقول فى ذم السواد :

أهون بلون السواد لوناً ما فيه من حجـــة لناسبْ
لبتّ ترى حمرةً لخـــد فيه ولا خضرةً لشاربْ

وكان ابن قادوس بارعاً فى مثل هذه العلل ، فهو إن رضى عن الشىء حسنه ، وهو إن غضب عليه قبحه أو نزل به درجات فى القبح . وأنت تراه لا يترك للســواد شيئاً يمكن أن يعتمد عليه فى الدفاع عن نفسه أمام البياض ، إلا أن يعود هو فيدافع عنه ، ولكن لا فى صورة الناس ، وإنما فى صورة المداد :

مداده فى الطرس لما بدا قبله الصبُّ ومن يزهـــد
كأنما قد حل فيه اللمى أو ذاب فيه الحجر الأسود

ولعل فى هـــذا ما يدل على أن ابن قادوس كان واسع الحيلة فى صناعة الشعر ، فهو يحسن استخراج الصور النادرة وهو يحسن استخراج العلل ، وهو يمسح على ذلك بالفكاهة والدعابة ، وهو يرسل فى هذه الفكاهة والدعابة السخرية أحياناً حين يتحول هاجياً ، وقد لا يرسل سوى الغيظ والحقد فى صورة بشعة على نحو ما نرى فى قوله لبعض من هجاهم :

أثمرت رأسه قروناً طوالا إن هذا لمن غريب الفلاحه

وقد يهدأ ، ولكن لا تزال الكأس التى يقـدمها لخصمه أو مهجوّه مرة ، بل لا تزال مشوبة بسمه الزعاف على شاكلة ما نرى فى قوله :

وابس كلاماً ما يقول وإنما
يجيب الصدا من رأسه من فراغه

وله فى شاعر لم يكن معجباً بشعره ، بل لعله كان يرى أنه والشعر متضادان لا يجتمعان ، فانبرى يسفّه شعره قائلا :

لو كان ينصف حين يـ ـشد شعره وشطّ الملا
صفعوه عدة كل حرْ ف فيه لكن مجملا

وحساب الجمّل كما هو معروف تقدير الحروف الهجائية بأرقام تبلغ مئات فى بعض الأحيان . ويقول فى رجل كان يكبر كثيراً فى الصلاة ، فهو من هـــذا النوع الشوش أو الوسوس لا يزال كلما كبر شك فى تكبيره فأعاده ، وكأنما نوى اتهم نيته فكررها :

مكبرٌ سبعين فى مرة كأنه صلى على حمزه

وله فى هـــذا الباب طرف كثيرة ، يحسن فيها تسديد السهم إلى رميته ، فيصميها ، كقوله فى بعض المنافقين لعصره

حوله اليوم أناس كلهم يزهى برائه
وهو مثل الماء فيهم لونه لون إنائه

وكأنه أراد أن يلقى على هـــذا المنافق نوراً يفضحه فلا يعود إلى نفاقه أبداً . ويقول فى طبيب لم يكن يتقن مهنته :

عليله منه على حالٍ خسار يحصل
تؤخـــذ منه دية وبعد هـــذا يقتل

وعلى هذه الصورة ما يزال يتعرض لمعاصريه مداعباً تارة ، وهاجياً هجاء مراً تارة أخرى ، وهو فى الحالين جميعاً يحسن ويبدع ، ويسيطر على أدوات الفن سيطرة دقيقة ، وكأنما قلمه كان ريشة مصورة ، فهو يعرف كيف يخلق الصور ، وكيف يبتكرها ، فإذا بنا نقرأ له مثل قوله لا فى الهجاء بل فى المديح :

يقظانُ ملتهب الندى فكأنه
مغرى بإتلاف النضار مسلط

وقوله فى الرثاء :

يا لجة هى فى الجنـــان مسرة
اقدومــــه تختال فى غرفاتها
إن كان فى الدنيا عليـــه مأتم
فأراه عرس الحور فى جناتهـــا

وأكبر الظن أن فى كل ما قدمنا ما يدل على أن ابن قادوس كان شاعراً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ؟ فهو يحسن الضرب على قيثارة اللغة ، ويستخرج منها كل ما يريد من إيقاعات وتلحينات ، وهو يحسن التلوين والتصوير ويستخرج اللوحات النادرة ، إذ كان واسع الحيلة فى هذا الاستخراج وما يطوى فيه من طرافة وإبداع . وفى كل جانب من مختارات العماد فى (الخريدة) نجد هـــذه الحيل وما يندمج فيها من خفة ورشاقة كما نجد روعة الفن وجماله .

شوقى ضيف

تقسيم التاريخ إلى عصور

أصبح موضع نظر!

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

جرت العادة على تقسيم التاريخ إلى عصوره الثلاثة التي نعرفها، وهي: العصر القديم، والوسيط، والحديث... وتكاد هذه التجزئة الزمنية تماشي تقسيم التاريخ إلى عصر الرق، وعصر الإقطاع، وعصر الصناعة الآلية، ثم عصر صحوة الشعوب من سباتها..

وبقي ذلك التقسيم بعيداً عن متناول النقد حتى تصدى له بعض الفلاسفة أخيراً فرموه بالقصور. لأنه افترض تقدم الأمم صفاً واحداً في مضمار الحضارة دون أن يحل بعضها، ويحل بعضها الآخر. ونحن نقتبس فيما يلي بعض ما قاله أولئك المفكرون لتزيد وجهة نظرهم وضوحاً.. « إننا إذا تحدثنا عن العصر القديم اتجه ذهننا إلى مصر واليونان والرومان وفينيقيا وغيرها من الدول ذوات الحضارات القديمة، مغفلين غيرها من دول العالم. فالتاريخ الذي نعهده لا يتناول سيرة الإنسانية على أساس أنها وحدة متماسكة، ولكنه يتناول دولاً وأمماً مختلفة مرت كل منها بعهود مختلفة، في أزمنة متباينة، وحققت بعض مراحل التقدم دون أن تنتظر لحاق غيرها بها. والتاريخ لا يفسر لنا اعتناق بعض أمم العصر القديم لمعتقدات وآراء لا تزال اليوم على قيد الحياة! فهل سبقت تلك الأمم عصرها؟ أم هبطت عليها تلك الآراء والمعتقدات عن طريق الوحي أو الإلهام؟... »

« إننا نقترب ولا شك من الحقيقة إذا ما سلمنا بأن الحضارة القديمة لم تكن إلا حضارة أمم معينة سبقت غيرها في ميدان التقدم، ومرت بعصور التاريخ الثلاثة المعروفة على الرغم من أنها لم تتعد، في عرف المؤرخين، عصرها القديم. إن لكل عصر من العصور الثلاثة مقدماته! فالعصر القديم لأمة من الأمم هو عصر طفولتها. وهي تنقسم في مراحله الأولى إلى قبائل رحل، ينعم أفرادها بالإخاء والمساواة، فلا تفرقهم الأثرة، ولا تقسمهم الأهواء، ولا يعرفون الامتلاك والزواج وحياة المدن الصاخبة... ثقافتهم بدائية، والنظام السائد بينهم مستمد من العرف والتقاليد المتوارثة.

« إن كل أمة لابد أن تمر بهذا الطور في عصرها البدائي، والمؤرخ في وقتنا الحاضر لم يقف على هذه الحقيقة من طريق رجوعه إلى ما جوّنه أفرادها من مقومات عصرهم وخصائصه، لأن الكتابة تكون حينذاك مجهولة، والعناية بالتاريخ معدومة. ولكنه يستقي معلوماته عنها من كتب الرحلات التي عني بكتابتها بعض أبناء الأمم المتقدمة عليها في الحضارة ممن قادتهم مغامراتهم إلى ارتياد مجاهل الأمم المتخلفة.

وبلغ العصر القديم لكل أمة نهايته، ويبدأ العصر الوسيط، حين تستقر القبائل الرحل في بقعة من الأرض تستوطنها، وتبني فيها القرى والمدن الصغيرة، ثم تنقسم إلى طوائف، وتفطن إلى الزراعة فيحترفها فلاحون. وتحاول عامة الشعب الاحتفاظ بالأوضاع التي ألفوها، ولكن الظروف الاقتصادية المستجدة تحتاج إلى نظام اجتماعي جديد. فيظهر ملاك الأراضي الخصبة، ومحترفو الصناعات الزراعية. وتفيض غلة الأراضي عن حاجة الملاك، ويتوفر الإنتاج، فيظهر التجار. ثم تنقسم الأمة إلى طبقات. وتنشأ بين مختلف الطوائف والطبقات علاقات اقتصادية وقانونية تتولد عنها عادات ومثل فكرية وأخلاقية جديدة. وترتقي العقيدة الدينية وتتهذب. ويجيد المتعلمون القراءة والكتابة. وتتسع رقعة الأراضي المملوكة، وتتضاعف الثروات، ويقوى نفوذ أصحابها. ويظهر بينهم الأمراء والسادة الأشراف. ثم ترتقي الصناعة وتعمر الأسواق، ويثرى التجار حتى يطغى نفوذهم على نفوذ الأشراف، وينتزعوا منهم زمام الحكم، فيؤذن العصر الوسيط حينئذ بالأفول، ويبدأ العصر الحديث. وتتبدل حينذاك الأوضاع

مرة أخرى لتلائم الظروف الحديثة . وتنشأ معتقدات ومثل وقيم مستحدثة تلائم الطبقة التي قفزت إلى مكان الصدارة بعد زوال طبقة الأشراف . ومن ثم تزدهر العلوم والفنون ، وتحطم قيودها العتيقة ، وتتحرر العقول من ربقة الخرافة والوهم . ويبلغ الإنتاج الصناعي الذروة ... »

ويعلق أصحاب هذا الرأى الحديث على ذلك فيقولون :

« إن الأمم ذوات الحضارات القديمة مرت بهذه العصور الثلاثة ، بينما العصر الوسيط الذى حدده المؤرخون لم يبدأ ، فمن الخطأ أن نقسم تاريخ الأمم تقسيما عاماً ، في حين أن الأمم لا تسير في طريق التقدم صفاً واحداً ، فعلى المؤرخ المدقق أن يمتحن تاريخ كل أمة على حدة ، ثم يمتحن حاضرها ، ويحدد على ضوء امتحانه العصور التي مرت بها والعصر الذى تعيش فيه اليوم . فقد تكون غارقة إلى الآن في العصر القديم أو الوسيط ، بينما يتحدث المؤرخون اليوم عن العصر الحديث كأنه يشمل أمم الأرض قاطبة » .

ومما يقوله أصحاب هذا الرأى أيضاً : « إن مقومات كل عصر لا تختلف باختلاف الأمم التي تمر به ؛ فالأمة التي لم تجاوز اليوم عصرها القديم ، على الرغم من أننا في صميم القرن العشرين ، لا يختلف نظام معيشتها واتجاه تفكيرها ، بل لا تختلف عقلية أهلها عن عقلية الأمم التي مرت بذلك العصر في العهد الغابر المتوغل في القدم ، وما يقال عن العصر القديم يقال كذلك عن العصرين الآخرين . »

وقد توقع أصحاب ذلك الرأى أن يعترض معترض بأن عصرنا الحديث يتميز عن « العصور الحديثة » للدول ذوات الحضارات القديمة باستخدام الآلات الكهربائية والبخارية في الصناعة ، مما أتاح إنتاج المصنوعات بالجملة وغمر الأسواق بها . فأجابوا « بأن استفحال الرق في عهد تلك الدول القديمة ، وازدياد عدد الأرقاء ازدياداً هائلا ، جعل منهم قوة إنتاجية تشبه قوة الآلات الحديثة » .

وقد ينخدع كثيرون في هذا الرأى فيحسبونه صحيحاً على بعده الشاسع من الصحة . فهو يتعارض كل التعارض مع نظرية التطور التي يزعم أنصاره أنهم يؤمنون بها ؛ فالعصر الذهبي لدول الحضارات القديمة لا يطابق عصرنا الحديث بحال من الأحوال . فقد كان عصر الرق الذى يتميز بمعتقدات وآراء ، ومثل تخالف معتقدات عصرنا الحديث وآراءه ومثله كل المخالفة ؛ وقد أعقبه عصر الإقطاع المعروف ، وهو أيضاً مختلف عن عصر الرق ، ثم تطورت عقلية الشعوب ، وآذن العصر الحديث بالظهور ، وهو عصر ليس بينه وبين العصور القديمة حتى محض التشابه .

إن تلك النظرية التي شرحنا كنهها ، وفصلنا مناحيها ، تقوم على عزل كل أمة عن سائر الأمم ، والنظر في تاريخها على حدة كأنها مقطوعة الوشائج بالعالم أجمع ، في حين أن مثل هذه العزلة غير موجودة في عالم الواقع . ثم إن تلك النظرية تفترض نشوء الأمم على غرار نشأة الأفراد ، أى أن كل أمة تمر بأطوار رقيها في عزلة عن غيرها ، ثم تشيخ وتضمحل وتتبدد حضارتها ، كما يمر الفرد بأطوار الطفولة فالشباب فالشيخوخة ، ثم يدركه الفناء ؛ ولكننا إذا رجعنا لتاريخ الأمم التي تصوحت حضارتها بعد الازدهار ، وجدنا أن حضارتها لم تتصوح من تلقاء نفسها بفعل الشيخوخة ، أو لاستنفادها عصور التطور الثلاثة المعروفة ، ولكن إغارة أمم بربرية وحشية عليها ، هي التي قوضت صرح حضارتها ، ولولا ذلك لاطرد تقدمها في ميدان الحضارة دون أن يعوقها عائق .

إن الذى حدث على تعاقب العصور أن كل أمة تسبق غيرها في مضمار الرقى الحضارى ، ينبثق منها نور الرقى إلى ما يجاورها من الأمم ؛ فإذا ما أطاح بحضارتها غزو بربرى خارجى ، سارعت أمة أو أكثر من أمة من الأمم التي أفادت من تقدمها إلى رفع مشعل النور بدلا منها ، ومواصلة السير في مضمار التقدم ؛ ويترتب على ذلك بطلان تلك النظرية التي تقوم على أساس انعزال كل أمة عن غيرها ، وعدم تأثرها بها أو تأثيرها فيها ؛ وهذا البطلان يزداد اليوم وضوحاً ، بعد أن ازداد تأثر الدول بعضها ببعض على أثر توثق صلاتها بنهضة المواصلات الحديثة ، وبتبادل ملايين الكتب والصحف وأفلام السينما ، وانتشار المذياع في بقاع الأرض كافة .

من التعنت ألا نعترف بوصول العالم إلى درجة معينة من الرقى ، أو إلى عصر أرقى من الذى كان فيه ، لأن بعض الأمم المتأخرة لا تزال متخلفة عن الركب الحضارى ؛ فالأمم يسبق بعضها بعضاً في ذلك المضمار ، وتقاس درجة رقى الإنسانية في كل عهد بالمستوى الذى وصلت إليه الدولة

الحائزة على قصب السبق . ولتقريب وجهة نظرنا إلى الذهن نقول مثلا إن فصل الربيع مكوّن من تسعين يوماً ، فهل يجئ الربيع حين يهل أول يوم من أيامه ، أو يجب انتظار حلول أيامه جميعاً ، لنقول إننا في فصل الربيع ؟ .. إن العالم لا يتجزأ ، ولا يمكن أن تقاس نهضته إلا بالمرحلة التي وصلت إليها طلائعه المتقدمة .

وقد يقال إن اعتراضاتنا هذه لا تنسخ النظرية التي ننقدها لأن أهم ما تقرره تلك النظرية ينحصر في أن كل أمة تمر بعصور ثلاثة تشبه كل المشابهة العصور التي تمر بها سائر الأمم ، ولا اختلاف إلا في أزمنة النهضات ، فكل أمة تقطع شوطها في مضمار التقدم ، ثم تتنحى عنه لتفسح فيه لغيرها من الأمم ، التي لابد أن تمر بالمراحل التي مرت بها الأمة المتنحية ... فهل هذا صحيح ؟ .

إن التسليم بهذه النظرية يضطرنا إلى إغفال أهم جانب من جوانب الحضارة ، وهو الجانب الفكري . فالتطور الحضاري يشتمل على شقين : أولهما المادي ، أي الخاص بالحالة الاقتصادية والنظام الذي يلائمها ، وثانيهما الفكري ، أي الخاص بالآراء والمعتقدات والقيم الخلقية والمعنوية المتولدة من التطور المادي ؛ فإذا سلمنا من باب الجدل المحض ، متغاضين عن الفروق الكثيرة ، بأن الدول جميعها تسلك طريقاً واحدة في تقدمها الحضاري ، وأن كل عصر تمر به من عصور ازدهارها يشبه من الناحية الاقتصادية ، ومن ناحية نظام الحكم ، نفس العصر الذي تمر به الدول الأخرى ، فإنه لا يمكن التسليم قط بأنها تعتنق في ذلك العصر نفس المبادئ والمعتقدات والمثل التي تعتنقها الدول الأخرى في العصر الشبيه به .

ونحن لم نتعرض لهذا البحث الذي يبدو لأول وهلة أنه نظري محض ، إلا لأننا نرى أن آثاراً واقعية خطيرة تترتب عليه ؛ فالقول بأن الأمم التي بلغت اليوم أوج الحضارة واقفة حيث وقفت مصر القديمة واليونان القديمة وغيرها من أمم الحضارة القديمة في عصرها الذهبي ، قول خطير حقاً ؛ فهو ينكر نظرية التطور الإنساني العام . والأخذ به يهدم أحدث النظريات العلمية ، ويشجع أولئك الذين لا يكفون عن التلفت إلى الوراء ، ومحاولة الرجوع بالإنسان القهقرى إلى ما يسمونه عهد المجد القديم .

إن الآراء والمعتقدات والمثل التي يعتنقها العالم اليوم تختلف كل الاختلاف عما اعتنقته الأمم جميعها ، في العصور الغابرة كافة . فقد كان حكم الغابرين على نظام الرق ، ونظام الإقطاع والسخرة ، وعلى الغزو والفتك والسلب والشجاعة والإخلاص وغير ذلك من الأوضاع والمثل والصفات ، يختلف كل الاختلاف عن حكمنا عليها اليوم . فما كان حقاً بالأمس صار في نظرنا اليوم باطلا ، وما كان عدلا أصبح ظلماً ، وغدت شجاعة الأمس بربرية ، وحرب الأمس وحشية ، وإخلاص الأمس عبودية ؛ فالتبدل لم يترك شيئاً دون أن يحتويه .

وقد ساعدت المخترعات الحديثة على سرعة التطور ، فتغيرت عقلية الشعوب في هذا القرن كل التغير بتأثير الحياة المادية الجديدة المحيطة بها ؛ فآلات الصناعة ومظاهر العمران أثارت ذهن الإنسان حتى أصبح رجل الشارع يدرك في هذه الأيام من قواعد العلم وأصول المعرفة ما لم يكن يدركه الفلاسفة الأقدمون .

يمكن أن يقال إن أمة الإغريق كانت أرقى حضارة من سواها في العصر القديم ، أو أن مصر القديمة كانت كذلك ، ولكن من الخطل أن يقال إن قدماء اليونان أو قدماء المصريين كانوا أرقى مما نحن عليه اليوم . لقد كان حتى فلاسفة أولئك القوم يحسبون أن الوجود ناشئ من النار أو الماء ، وأن الأرض مسطحة ، والشمس والقمر يدوران حولها ، والآلهة ينزلون إلى الأرض ويحيون حياة الناس ... إلخ هذه المعتقدات التي يعرف أطفال اليوم مبلغ سخفها ؛ ثم إن أولئك الأقدمين كانوا يجهلون ما يعرفه أطفال اليوم من مختلف العلوم التي يشاهدون آثارها في دور سكناهم ، ودور علومهم ، وفي الطرقات ، بل في الهواء وفوق الماء وتحت الماء .

ونحسب أن الحقيقة بدت واضحة من خلال هذه الإشارات السريعة المقتضبة التي اضطرنا ضيق المقام إلى اختزالها واقتضابها ؛ وليس لدينا من تعليق على ما تقدم إلا أن ندعو أبناء وطننا ألا ينظروا إلى الوراء ؛ وأن يأخذوا بأسباب الحضارة ، فهي أسباب العزة والقوة ، فإن كنا نود لأنفسنا ولديننا ولوطننا العزة والكرامة حقاً ، ونود أن نضع حداً لعهد العبودية ، فعلينا أن نجاري الأمم المتقدمة في مضمار الحضارة ، دون أن نلتفت إلى الماضي التفاتة حنين واحدة

محمد مفيد الشوباشي

تراجم القرن الثامن

وابن حجر العسقلانى

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

لعل مؤلفا فى كتب التراجم لم يوجز فى مقدمته وفى بيان منهجه فى خطبة الكتاب كما أوجز الحافظ المؤرخ المشهور شهاب الدين أحمد بن على المعروف بابن حجر العسقلانى الذى عاش فى القرن التاسع الهجرى وتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، وترجم لرجال القرن الثامن تراجم وافية محيطة فى كتابه الثمين : « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » . وقد ظل هذا الكتاب مطوياً فى عالم المخطوطات إلى أن هيأ الله له دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن فأخرجته لأول مرة مطبوعاً بالعربية فى سنة ١٩٢٩م فى أربعة أجزاء كبار ، وهو من الكتب التى آنس بها فى مكتبتى لجلاء أحوال المسلمين والعرب فى القرن الثامن الهجرى حيث كانت تحكم مصر فى خلال ذلك القرن جماعة من المماليك البحرية أولا ، فالمماليك الشراكسة ثانياً . وحيث ولى حكم مصر فى ذلك القرن الملك الناصر بن قلاوون فى سلطنته الثانية والثالثة ، ثم أولاده من بعده ، ثم الملك الظاهر برقوق أول المماليك الشراكسة الذى كان نهاية حكمه بداية القرن التاسع الهجرى سنة ٨٠١ هـ .

وإذا كانت مقدمة المؤرخ ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » وجيزة بالنسبة إلى ضخامة الكتاب وعظم الفترة التى يؤرخ رجالها ويترجم لأعيانها ، فإن مقدمة المؤرخ ابن حجر العسقلانى فى كتابه « الدرر الكامنة » تعد أوجز ما رأينا من مقدمات كتب التراجم ، فإنها لا تزيد على العشرين سطراً ! على حين أن مقدمة ابن خلكان تبلغ أربعة أمثالها أو أكثر ، وعلى حين أن مقدمة المؤرخ السخاوى فى كتابه « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » تزيد بعض الزيادة على مقدمة ابن خلكان فى « وفياته » .

ولعل أطول المقدمات فى كتب التراجم ، وأملأها بفنون القول ، وأغزرها بالأغراض ، وأدلها على الذوق الأدبى والحاسة الفنية فى التراجم هى تلك المقدمة الطويلة التى قدم بها ياقوت الحموى لكتابه « إرشاد الأريب » أو « معجم الأدباء » فى عشرين صفحة — لا عشرين سطراً ... ولقد حاولت أن أعثر فى كتب التراجم على ما يدانيها طولاً فلم أجد . وقد كان ياقوت فيها أديباً ومؤرخاً ومترجماً .

ولا تزيد عليها فى الطول كثيراً إلا مقدمة « ابن الطقطقى » فى كتابه « الفخرى فى الآداب السلطانية » . ولكنه من كتب التاريخ لا كتب التراجم التى نتحدث عنها اليوم .

وكتاب « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » هو أول كتاب من كتب التراجم يترجم لرجال قرن بأكمله . وقد كانت كتب التراجم قبله تترجم للرجال جميعاً مهما اختلفت أزمانهم وتباعدت عصورهم . مثل « معجم الأدباء » لياقوت ، و « وفيات الأعيان » لابن خلكان . ومنذ القرن الثامن رأينا كتباً فى التراجم تؤرخ للرجال والأعيان قرناً فقرناً حتى عصرنا هذا .

ولم ينفرد ابن حجر العسقلانى بمُقدّمة الترجمة لرجال عصره ، فقد اشترك معه فى هذا العمل الجليل طائفة من مؤرخى قرنه ومترجميه ؛ كخليل بن أيبك المشهور بصلاح الدين الصفدى ، فقد استخلص من تاريخه الكبير المسمى « الوافى فى الوفيات » أهل عصره وجمعهم فى كتاب مستقل أسماه « أعوان النصر فى أعيان العصر » فى ست مجلدات . وليس هذا الكتاب مما طبع من التراث الإسلامى . وقد ذكره ابن حجر نفسه بهذا الاسم الذى ذكرناه به ؛ ولكن المؤرخ جورجى زيدان يذكره باسم « أعيان العصر وأعوان النصر » ، ويذكر أن منه نسخة فى

الأسكوريال وأياصوفيا ، وأجزاء متفرقة في مكتبة عاشر أفندي بالأستانة .

ويعترف صاحب « الدرر الكامنة » في مقدمته الوجيزة بأنه استفاد من كتاب الصفدي هذا ، بل يذكره في أول الكتب التي استمد منها مادة كتابه ، كما يذكر كتاب « مجاني العصر » للحافظ المفسر المؤرخ أبي حيان الغرناطي الأندلسي — واسمه محمد بن يوسف — صاحب كتاب « البحر المحيط » في تفسير القرآن . وقد ترجم له ابن حجر في الجزء الرابع من الدرر صفحة ٣٠٢ ؛ ولم يكتف ابن حجر العسقلاني بكتابي الصفدي وأبي حيان ليتخذ منهما مادة لكتابه . ولكنه استفاد بكتاب « ذهبية العصر » لشهاب الدين ابن فضل الله العمري ، و « تاريخ مصر » لقطب الدين الحلبي — واسمه عبد الكريم بن عبد النور — وهو في بضعة عشر جزءاً ولم يتم تبييضه ، و « ذيل سير النبلاء » للحافظ شمس الدين الذهبي ، و « الوفيات » لتقي الدين ابن رافع ، و « ذيله » لابن حجي ، و « الوفيات » لأبي الحسين الدمياطي ، و « ذيله » للحافظ العراقي ، و « الإحاطة » لابن الخطيب الأندلسي ، و « تاريخ ابن خلدون » ، وغيرها .

ومن الإنصاف للناس أن يذكر ابن حجر أسماء الكتب التي استعان بها وعول عليها في تصنيف كتابه ، وأن يذكر معها أسماء مؤلفيها ، حتى يرد الحق دائماً إلى أصحابه ، ويعترف بالجهد لأربابه . وتلك كانت خلة العلماء حين يؤلفون . فترى « ياقوت الحموي » في مقدمة معجمه الجليل يذكر أسماء من تقدمه في تأليف كتب التراجم . ولا يكتفي بذكرها فحسب ، وإنما يذكر مدى استفادته من كل كتاب سبقه ؛ فيقول مثلا عن كتاب المرزباني : (وقد وقفت على هذا الكتاب ، وهو تسعة عشر مجلداً ، ونقلت فوائده إلى هذا الكتاب ، مع أنه أيضاً قليل التراجم بالنسبة إلى كبر حجمه) . ويقول في كتاب الإشبيلي : (ثم جمع في ذلك أبو بكر محمد ابن حسن الإشبيلي الزبيدي كتاباً لم يقصر فيه ، وهو أكثر هذه الكتب فوائد ، وأكثرها تراجم وفرائد ، وقد نقلنا فوائده أيضاً إلى هذا الكتاب) .

وأين ذلك الزمن النضير الطيب من زماننا هذا الذي يسطو فيه بعض الناس على آثار بعض كأنها نهب مباح لهم ، ثم يضنون بالإشارة إليهم ، كأنما يحاولون ستر جريمتهم وهي مفضوحة ؟ !

وإذا كانت مقدمة ابن حجر العسقلاني الوجيزة لم تكشف لنا عن منهجه في الترجمة لأعيان القرن الثامن الهجري ، فإن مداومة النظر إلى الكتاب ومطاولة الصحبة له تكشف لنا عن أمور تبين خطره ، وتظهر فضله ، وتحصي لنا من مزاياه ما يجعله خليقاً بالمكان الذي احتله بين كتب التراجم العربية الإسلامية ؛ فهو أول رائد لترجمة الرجال على وفق القرون بعد أن كانت التراجم قبله طبقات على مدى العصور بغير النظر إلى قرن بعينه ؛ وبهذا فتح ابن حجر الطريق لمترجمي العصور الذين جاءوا بعده ، فحذوا حذوه ، وأصبحنا نجد لكل مائة من السنين الهجرية كتاباً أو أكثر في ترجمة أعيان تلك المائة .

وثمة مزية كبيرة لكتاب « الدرر الكامنة » فإننا نلاحظ أن المؤلف ترجم فيه لطائفة كبيرة جداً من أعلام النساء في القرن الثامن ، فلم يجعل كتابه وقفاً على الرجال وحدهم ، ولكنه أضاف إليهم مئات من سيدات الأمة الإسلامية ، اشتهرن بالعلم والفضل والحديث والرواية والعبادة ، فأخذ عنهن الرجال ، وسمع منهن الشيوخ كفاطمة بنت إبراهيم بن داود التي سمع منها الحافظ العراقي ، وكالنضار بنت أبي حيان الغرناطي الأندلسي المشهور التي قال عنها البدر النابلسي إنها كانت تفوق كثيراً من الرجال في العبادة والفقه ، وكنفيسة بنت محمد بن تمام التي حدثت بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمع منها العالم المشهور البرزالي وغيره من رجال القرن الثامن .

وإذا كان ابن حجر العسقلاني كريماً كل الكرم في الترجمة لنساء القرن الثامن الهجري ، فإن مؤرخاً كابن خلكان كان ضنيناً في الترجمة لنساء القرون السبعة التي سبقته . فلا نصادف في كتابه « وفيات الأعيان » إلا قلة نادرة من النساء يعددن على أصابع اليد الواحدة ، كرابعة العدوية الصوفية ، وشهدة بنت أبي نصر الكاتبة البغدادية والسيدة سكينة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم .

والحق أن كتاب « الدرر الكامنة » يرينا صورة مشرقة لنساء المسلمين في القرن الثامن ، فلم تكن المرأة في خلال ذلك القرن حلس بيت ، ولا رهينة محبس ،

الأديب الثائر

[مهداة إلى روح الأديب الكبير المغفور له الدكتور زكي مبارك]

للأستاذ أحمد الجندي

أرى من واجب كل متأدب أن يسعى لإعظام الأدب والأدباء، ومراعاة جانب الوفاء، والتبجيل لأهل الفن، لأن في ذلك اعترافاً بما لهؤلاء من يد على الناس لا تجحد! وفيه — عدا ذلك — تقدير لهذه الموهبة التي أسبغها الله على بعض العباد من خلقه. فإن متذوق الأدب والفن هم أعرف الناس بهذه المواهب وهم الواقفون على ما تنطوي عليه نفوس أهل الفن من رهافة في الحس وانطلاق في الفكر واستجابة لدواعي الوحي والإلهام. أما البسطاء من الناس الذين لم يؤتوا حظ العلم، ولم تساعدهم الحياة الراهنة على التثقيف والتعليم، فعذرهم ظاهر حين يرون الأحداث الأدبية مرور السائم الذاهل. فلقد كان الجهل بالشيء وما يزال عذراً قائماً، ومبرراً واقعاً يعفي من الجزاء ويزيل أسباب العتاب.

قدمت هذه المقدمة لكلمة أريد أن أرسلها هادئة لينة إلى روح فقيد الأدب العربي الدكتور زكي مبارك، الذي اخترمته المنون منذ أيام في القاهرة أثر عملية جراحية غير ناجحة. فسكت بالموت لسان عضب وقلم مرهف، ما تكاد تعرف العربية أمضى منهما ولا أحد. وذكر الموت وحده ذكر راعب مخيف مرهوب. فكيف إذا كان الميت أديباً أو شاعراً أو مفناً؟ وإذاً فالخطب يكون جللا والمصيبة تصبح عظمى. وما يسع الأحياء في مثل هذه الأحوال إلا الرحمة والأسى والذكر الجميل.

والذي أعرفه أن هذا الأديب الكبير ليس من مواليد القاهرة وإنما هو ابن الريف الصميم. أما هيئته فكانت أميل إلى الضخامة والسمن، وكان طوالاً أسمر على أنفه أثر لوشم قديم. أما شعره فكان أشعث ظاهر الاضطراب، يحمل على عينيه نظارة تعينه على القراءة، شأن أكثر الأدباء الذين يعيشون مع الكتب ومن صفحاتها لا سيما في الزمن

وإنما كانت تجلس في حلقة الدرس والحديث محدثة أو سامعة، وكان العلماء وكبار الشيوخ لا يجدون حرجاً في الأخذ عنها والسماع منها.

ولا يصور لنا كتاب «الدرر الكامنة» نساء ذلك القرن فحسب، ولكنه يصور لنا المجتمع العربي الإسلامي ويعرض لنا عاداته وتقاليده التي لم يقف منها ابن حجر موقف المؤرخ المسجل فقط، ولكنه كان يحسن الحسن ويقبح القبيح فأدى رسالته مؤرخاً وعالماً.

ولقد كان القرن الثامن حافلا بكثير من أحداث الصراع العنيف ضد المغول والتتر؛ فقد ظهر تيمور لنك الفاتح التتري المشهور الذي كان يفر ملوك المسلمين وحكامهم من وجهه، والذي شهدت بلاد الشام كثيراً من رهبة حكمه وفتنه. ولم يفت ابن حجر أن يؤرخ لملوك التتر وأمراء المغول وسلاطين الأتراك مما يجعل كتابه مصدراً هاماً من مصادر التاريخ الإسلامي في القرن الثامن الهجري، فوق ماله من قيمة كبيرة في تراجم الرجال.

ولقد ترجم ابن حجر لرجال المائة الثامنة في كل قطر إسلامي إلا الهند السقفة، فقد صعب عليه معرفة رجالها لبعد ديارها وقلة وسائل الانتقال إليها. إلى أن قام عالم هندي من أهل حيدرآباد هو السيد عبد الحي بن فخر الدين الحسني المولود سنة ١٢٨٦ هـ سنة ١٨٦٩ م فألف كتابه «نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنواظر» وترجم فيه لعلماء الهند في القرن الثامن الهجري، فكان بذلك كالذيل لكتاب ابن حجر العسقلاني، وقد طبعته بعد وفاته دائرة المعارف الإسلامية بحيدر آباد الدكن بعد استئذان ولده الطبيب الدكتور السيد عبد العلي. وهذا الكتاب النادر عندي يؤنس بمكتبتي رفيقه «الدرر الكامنة».

محمد عبد الغني حسن

القديم ، زمن الأزهر الأول ، لم يكن غير الكتب الصفراء والمخطوطات والطبعات الحجرية غير المقروءة ! فإذا دخلت عليه داره لم تكد تعثر عليه إلا وراء صفوف من الكتب المبعثرة الملقاة على الأرض والنوافذ والسلالم ، فإذا رأيته حسبته أحد أولئك الرهبان الذين لا يرون الناس إلا في الفترات المتباعدة ! وإنما أكبر همهم في العبادة والتقوى ، فإذا قيض لك الحديث معه وجدت علماً جماً وشعراً كثيراً من خير ما حفظ الأواخر للأوائل ، وشهدت لغة ناصعة لا كلفة فيها ولا حذلقة ولا لحن ! بل هو يأتيك بالكلمة كأنما يقرأ في قاموس مأمون ! فإذا ذكرت له الأدباء تنحنح قليلاً وتطامن بعض الشيء ، فإذا زدت في إحراجه اندفع من فيه القول كالقنابل تتشظى ذات اليمين وذات الشمال ، وما عليك حينذاك إلا أن تطأطئ الرأس وتغير اتجاه الحديث ! وإلا فأنت من الهالكين المهجوين بلسان لا يرحم وكلام لا تنفع فيه حيلة ولا مصانعة .

وما كاد يخطو الخطوة الأولى بعد انتهائه من الأزهر ، حتى حمل قلمه على كتفه يخز به هذا وينخس ذاك حتى اجتمع عليه الناس وتألبوا ، فأخذ يدفع هذا بيمينه ويصدم ذاك بيساره . وظل كذلك بين مصاولة وهجوم ، ودفاع ونزال حتى أخذ الله أمانته ! فتوفاه منذ قريب ، وانتهت بذلك ثورة لم يعرف تاريخ الأدب إلا القليل من أمثالها ، واختتمت بذلك رواية ذات فصول ومشاهد كلها أخذ ورد وهزيمة وانتصار .

في هذا الأديب الكبير صفة أو ميزة قد لا توجد عند سواه ، فقد كان أول أمره شاعراً على ما يبدو ، وكان ذا موهبة لا بأس بها ، فإن له من الشعر الندي الموسيقي ما يجعله في حلبة الشعراء لا في المقدمة ولا في المؤخرة ، ولكن مثل هذه النفس الثائرة لا ترضى التوسط في أمر ، بل هي تحب أن تندفع بحق أو بلا حق إلى الرعيل الأول ، ضاربة بكل شيء عرض الحائط ! وهذا قد يمكن في كثير من مناحي الحياة إلا في الفن ، لأن في الفن مسألة للموهبة والفطرة ، فإذا لم تتوافر هاتان الميزتان فإن التقدم لن يكون مهما يسع إليه أو يحتشد له .

ولهذا اضطر صاحبنا — رحمه الله — إلى التفلت من قيود الشعر المرهقة وانسرح في سهوب النثر اللينة المحببة ، فرأى فيها روحاً واطمئناناً ، ولكنه استفاد من ملكته الشعرية ، إذ غدت كتابته ملأى بكثير من التعابير الفنية ، والجرس الموسيقي ، والتزاوج بين الألفاظ بما لا يتأتى إلا لمن عانى النظم معاناة فعلية . ومن هنا نشأت لديه أيضاً حاسته المرهفة في نقد الشعر ، ودليل على ذلك كتابه في الموازنة بين الشعراء ، ففيه معرفة دقيقة وحساسة ظاهرة بمواضع الكلمات والقوافي ، وبالنغمة الشعرية التي تخطئ أكثر الناقدين والمتأدبين .

واسمع له هذا النظم الرقيق الرصين في إهداء كتابه « البدائع » إلى والده رحمهما الله :

ما زلت أسرح في نعمى وعافيـــة
من نيلك الجزل ، أو من رأيك الحسن

وأسهر الليل في علـــم ، وفي أدب
أبغي رضاك ، عن قصدي ، وعن سنني

فالـيـوم أهديك ما أبدعت من أثر
أبقى على الزمن البـــاقي من الزمن

أرأيت إلى هذا التقطيع الجميل والقافية الرصينة الهادئة في مكانها ، ثم ألم تعجبك هذه البارقة الشعرية « على الزمن الباقي من الزمن » ، واسمع له أيضاً يتغزل :

أنت ورد فهب عنك شـــوكا
أترى الورد عاش من غير شوك

وإنه لغزل جميل شاعر . واسمع أيضاً :

رأيت حياة المرء ما بين ساعة
تطيب وأخرى لا تفيق من الهم

أو لم تعجبك هذه الساعة التي (لا تفيق) من الهم :

ضاق الفضاء عليّ من عبث الصبا
ورحت فضلى من هواه العابث

فأهنت قد بتك يا مشيب كرامتي
إن شئت من الشباب العابث

هذا لون من شعره ، أما نثره فهناك بعضه لتوقن

أى قرب بينهما ، وكيف أن النظم قد حسن من أسلوبه النثرى وصقل من لفظه .

قال يخاطب امرأة : « قرأت خطابك البديع ، بعد انتظاره أياماً كانت أمر من الصبر وأشقى من الهجر ، ولقد قبلته ثم قبلته حتى خفت أن تبلى سطوره من زفراتى المحرقة ، ولو رأيتنى وأنا أضمه إلى رسائلك السالفة لرثيت لصريع القلوب ودمعى المسكوب ، ولكن فى سبيل الحب ما أعانى » .

وقال من رسالة أخرى : « ما لأهل الجمال يضنون علينا بما سوف يشبع الدود منه لهما ، ويأكله التراب أكلا لما . أما والله إن أرواحنا لفى حاجة إلى بعض ما تتم به الوسائد من الخدود ، والمراود من الجفون ، والمساويك من الثغور ، والأمشاط من الشعور ، والغلائل من الأعطاف ، والزينة من الأطراف ! فلم تحرموننا فى رأفتنا بكم وحبنا لكم مما تكرمون به الجمال ليلا ونهاراً ؛ على أنه لا يعرف ما حف به من حسن ، وأحدق به من الجمال » . ألست تجد من المقارنة بين هذا الكلام المنظوم والمنثور شبهاً لا يأتيه الباطل ، وتقارباً تعجب له وتسر به ، ولقد تثقف الرجل حتى كاد يبز أقرانه ، وشرق وغرب حتى كل من السفر ، فهو آناً فى باريس وآنا فى بغداد ويوماً فى القاهرة أو بيروت ، ولا يكاد يفارق القلم فى كل هذه الأسفار المتواصلة إذ كانت الكتابة عنده طبعاً لا تكلف فيه ، وكان يكتب كأنما يتنفس كما كان يقول — لامارتين — وهذه صفة تلازم الأدباء المطبوعين الذين لا يصنعون الإنتاج ولا يحتفلون له ؛ ولعل هذا اليسر فى إنماء الآراء عند هؤلاء الموهوبين هو السبب الأول فى ظهور بعض الأخطاء عندهم وفى وجود شىء من الخطل فى الفكر بسبب السرعة التى تقرب من الارتجال وبسبب الثقة التى يحملها الموهوب لنفسه فلا يحاسبها ولا يدقق فيما يفيض عنها ؛ ومن هنا أيضاً نشأ ما يسمونه بالسطحية — عند أولئك — إذ أنهم لا يتعمقون ، بل هم لا يحاولون الوصول إلى الأغوار بعد أن شغلتهم ظواهر الوجود وما يبدو فيه من جمال يأخذ عليهم كل سبيل .

وكان هذا الأديب النادر يتمتع بصفات قلما توجد عند أرباب الفنون فى هذا الزمن الذى تغير فيه كل شىء ، إذ كان شريف النفس إلى أبعد الدرجات لا يساوم ولا يفاوض ولا يمالىء ؛ وإنى لأذكر ويذكر معى المطلعون أن كثيراً من أدباء العصر قد سخروا أقلامهم فى الحرب الماضية والتزموا الجانب الغربى ، فى حين لم تكن لهم مصلحة وطنية فى ذلك ، وفى حين أنهم على شبه يقين من أن الغرب لا يعطى العرب حقوقهم فى سبيل الوفاء بالوعود أو القيام بتحقيق العهود ، وإنما ينبغى لهذا الغرب المتغطرس ما يضطره اضطراراً إلى الانصياع وما يقتسره اقتساراً على التنازل عن بقايا الفريسة . فكان زكى مبارك الوحيد الذى لم يؤجر قلمه وظل يقول أفكاره مجلجلة مدوية فى سماء الغرب حتى ظلمه إخوانه فاتهموه بالشراسة وحب المشاكسة وهو براء من هذا كله ، اللهم إلا قوة فى المعارضة وشدة فى النفس وعراقة فى القومية والدين جعله فى معزل عن نزعات الزلفى وسموم الوضاعة والذل .

وينتهى به المطاف إلى شارع عماد الدين منذ أيام ويكون فى حفل من إخوانه وصحابته يسمر معهم متباعداً عن علية القوم وأهل الجاه والحول والطول ، فتزل به القدم فيهوى إلى القاع وقد شج رأسه شجا بليغاً ، ويحمل إلى الطبيب لإجراء العملية المشئومة فيكون فيها القضاء عليه ، وتنتهى بذلك هذه الحياة التى أضناها السفر وأتعبها الضَّيال وهى اليوم أهنأ ما تكون بالراحة الأبدية تلقاها بعد عناء فترى السعادة فيها بعد الشقاء . وإنى لأختم هذا الحديث بأبيات قالها فى صدر شبابه توضح ألمه الدفين وتفسر كدره البادى على كل ما كتب :

لعمرى لقد أقصرت عن عبث الصبا
وودعت أيامى بمنعطف الحزن

وما كان بمـــدى يعلم الله عن قِلًى
ولكنها الأيام تقضى ولا تدنى

بكيت على صـــفو الشباب لأننى
قضيت شـــبابى فى مكافحة الحزن

وما لأت أهل العصر حتى بلوتهم
فلم ألق من حر ولم أرض عن حزن

أحمد الجندى

روســـــو الإنسان

للأستاذ إدوار منسى

كلما قرأت اعترافات روســو وجولاته ازددت حباً له وهياماً به . إنى أحياناً لا أقرأ روســو كمفكر له آراء وله مذاهب ، ولكن كإنسان فيه ما فى الإنسان من حياة تضطرب بين الخير والشر ، بين الخطأ والصواب . ولم يكتب روسو فى كل تآليفه إلا نفسه . وبحق القول أن إنتاجه كله ما هو إلا قصة شخصية ، بمعنى أن كل كتاب من كتبه يمثل فترة معينة من حياته . لم يعن هذا الرجل إلا بتفسير نفسه ، إذا استقام هـذا التعبير . ولقد كتب معظم آثاره بضمير المتكلم ، ونادراً ما كتب بضمير الغائب . كان روسو مشغولاً بنفسه طيلة حياته ، ولم يكن لديه موضوع يكتب فيه غيرها .

وإن كان لأفكار روسو فى المجتمع الفضل فى الثورة الفرنسية — أو بعض الفضل — فإن الكتب التى وضع فيها آراءه لا يكاد يقرأها أحد الآن ؛ كل ما بقى لنا من آثار روسو هو الاعترافات وما يتبعها من جولات . لقد وضعت أفكار الرجل على الرف بعد أن انتهى العمل بها وبقيت «حياته» وحدها كما كتبها بقلمه .

وموضوع هـذا المقال لقطتان فى حياة جان جاك روسو مقتبستان ومترجمتان عن الفرنسـية عن « الاعترافات » و «أحلام جوّال منفرد» .

روسو وشريط ماريون

لهذا الشريط فى حياة روسو قصة محزنة شائقة ، هى قصة كذبة صغيرة تافهة ، ولكن مع صغرها وتفاهتها فقد ظلت تعذب هذا الرجل وتلق فى روعه الرعب من هذه الخطيئة دائماً ، منذ وقوعها وهو فى السادسة عشرة حتى حوالى سن الخامسة والستين عندما بدأ يكتب آخر عمل له : أحلام جوّال منفرد . ولقد أفرد هـذا الجوال المنفرد (الجولة الرابعة) من جولاته لتأملاته فى الكذب ، وفى هذه الكذبة التى كذبها صغيراً بالذات .

ولقد جاء بالجولة الرابعة ما يلى : « أول فكرة جاءتنى عندما استجمعت أفكارى كانت فكرة كذبة بشعة ارتكبتها فى شبابى الباكر ، وما فتئت ذكراها تقلقنى طيلة حياتى وظلت حتى شيخوختى تملأ بالألم قلبى . ولم تكن هـذه الكذبة جريمة كبيرة فى ذاتها ، ولكن لابد أنها كانت أكبر جرماً بنتائجها التى جهلتها دائماً والتى صورها لى ندمى قاسية أعظم ما تكون القسـوة . ومع كل فلم تكن هذه الكذبة إلا ثمرة الحياء ؛ ومع بعدها عن وقوعها بقصد إيذاء هذه التى وقعت ضحيتها ، أستطيع أن أقسم أمام السماء أنه فى نفس اللحظة ... كم كنت أود أن أبذل دمى كله ، بكل سرور ، لأحول نتائج هذه الكذبة إلىّ أنا وحدى » .

التحق روسو فى بدء حياته الشابة القلقة ، كما جاء فى اعترافاته بالكتاب الثانى ، وصيفاً أو تابعاً عند مدام دى فرسالييس بعد أن أقام بعض الوقت عند مدام دى فارنز ثم عند مدام بازل ، بعد مبارحته جنيف فى السادسة عشرة من العمر . وحدث بعد حين من التحاقه عند هذه السيدة أن اكتشفت وصيفتها الأولى ضياع شريط قديم صغير فى لون الورد والفضة ، وكان السارق هو روســو نفسه .

« كانت فى متناول يدى أشياء أخرى كثيرة أكبر قيمة ، ولكن أغرانى هذا الشريط وحده ، فسرقته ، ولما لم أخبئه قط ، فلم يلبث أن وُجد » . وأرادوا بطبيعة الحال معرفة الشخص الذى كان قد أخذه ، واضطرب روسو وأرتج عليه القول ، وقال أخيراً وهو محمر الوجه خجلاً إن ماريون الطباخة هى التى أعطته إياه . وكانت ماريون فتاة يافعة ، ولم تكن جميلة وحسب ، ولكن كانت بشرتها ناضرة نضارة لا توجد إلا فى الجبال ، وكانت متواضعة بها حلاوة لا يستطيع الناظر إليها إلا أن يحبها . وكانت فتاة طيبة عاقلة ومخلصة إلى أبعد ما يكون الإخلاص . ومن أجل هـذا دهش القوم عندما اتهمها روسو بسرقة الشريط وإعطائه

إليه ! ولما كان القوم يعرفون روسو كما كانوا يعرفون ماريون فقد وجب أن يحققوا في الأمر ليعرفوا من منهما كان السارق . ونودي على ماريون ؛ وكان عدد المجتمعين ضخماً ، وكان من بينهم الكونت دولا روك ، ابن أخي أو ابن أخت مدام دي ڤرساليس . ووصلت ماريون ، وعرض عليها الشريط ، ويواجهها روسو بصفاقة ويتهمها بسرقته . فتتسمر قدماها ويعتقل لسانها ، وترمي روسو بنظرة هائلة ، ولكن يصمد لها قلبه . وتنكر ماريون بتأكيد وإصرار ولكن دون غضب ، وتنظر إليه بعتاب وتسأله أن يعود إلى نفسه . وألا يؤذي شرف فتاة بريئة لم تؤذه قط . ولكنه استمر في اتهامه مدعياً أنها أعطته الشريط . عندئذ انفجرت الفتاة باكية وقالت لروسو هذه الكلمات: « آه ! روسو ، كنت أحسبك شريفاً . إنك تجعلني تعيسة ! ولكني لا أحب أن أكون مكانك . » واستمرت في دفاعها عن نفسها إنما بكل بساطة فبإصرار ودون أن تسمح لنفسها بأن تطعن في حق روسو أي طعن . كان دفاعها معتدلاً إذا قورن بإصراره . « لم يكن يلوح لي طبيعياً تصور جرأة شيطانية من ناحية ومن ناحية أخرى حلاوة ملائكية » . ولم يلح على القوم أنهم قد انتهوا إلى رأي قاطع في هذا الموضوع . ومع كل فقد طرد الكونت دولا روك روسو وماريون معاً من الخدمة وقنع بأن يقول بأن ضمير المذنب سينتقم للبريء . « لم تكن نبوءته عبثاً . إنه (أي ضمير روسو) لا يكف يوماً واحداً عن تحقيق هذه النبوءة » .

وروسو يجهل كل شيء مما حدث بعد ذلك لماريون ، ضحية بهتانه ، وهو يعتقد أنه لم يكن باستطاعتها أن تجد عملاً بعد ذلك بسهولة . لقد ظل طيلة حياته ، كما قدمت ، فريسة لندمه على هذه الكذبة . ويقول روسو مبرراً تصرفه هذا : « لم أكن أخاف العقاب إلا قليلاً ، لم أكن أخاف إلا الفضيحة ، كنت أخاف الفضيحة أكثر مما أخاف الموت والجريمة وأي شيء في العالم . كم كنت أود أن تنشق الأرض وتبتلعني ، ولقد طغى الحياء الذي لا يغالب ، على كل شيء ، وأصبح وحده سبب كل تحقق ، وكلما شعرت بإثمي جعلني الخوف من الاعتراف به أكثر جرأة . لم أكن أرى إلا شناعة معرفة الجميع وإعلانهم ، وأنا أمامهم ، بأني لص كاذب مفتر ... إذا كانوا تركوني أعود إلى نفسي لتمكنت من التأكد أن أعترف بما اقترفت ؛ إذا كان مسيو دولاروك أخذني على حدة ... لارتميت على أقدامه للتو . إني متأكد من هذا كل التأكد » .

ولقد كان من نتائج هذا الحادث أن اتخذ لنفسه شعاراً أن يكرس كل حياته بعد ذلك في سبيل الحق . وقد كان . (الاعترافات ، الكتاب الثاني) .

روسو وحياته في العائلة

بعد عودة روسو من البندقية ، وقد كان يعمل بالقنصلية الفرنسية بها حيث لم تتجاوز إقامته العام ، إذ كان قد اشتجر مع السفير الفرنسي وآب إلى باريس في منتصف عام ١٧٤٤ — نزل بفندق سان كنتان ، وهناك كان ينتظره العزاء الوحيد الحقيقي الذي منت به عليه السماء في بؤسه ، والذي به جعل هذا البؤس محتملاً . فقد كانت لمضيفة الفندق فتاة في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من العمر تستخدمها في الغسيل ، وكانت تتناول غذاءها على نفس المائدة مع روسو . وكانت هذه الفتاة ، وتدعى تيريز لوفاسور ، من عائلة طيبة ولكن فقيرة ، وكان لها إخوة كثيرون ، ودفعها الفقر إلى العمل لتعيش وتعيش من حولها .

ولأول مرة رأى روسو تيريز على المائدة ، أثر فيه تواضعها وأكثر من ذلك نظرتها الحية الحلوة التي لم يكن لها في نظره شبيه . وحدث في هذا اللقاء الأول أن ضايقها أحد الجالسين إلى المائدة ، فهرع روسو للدفاع عنها ، وهكذا أصبح حاميها وناصرها . ولقد رآها تأثرت برعايته . فنفذت بنظراتها إلى أعماقه ، هذه النظرات التي كانت تشع عرفاناً بالجميل الذي لم تكن تجرؤ على التعبير عنه بالفم .

كانت تيريز حيية جداً ، وكذا كان روسو ، ولكن قرّب حياؤهما المشترك كلاً منهما من الآخر بسرعة على عكس ما كان يظن . ولمحت المضيفة هذا التعاطف وثارت عليه وغضبت ، وقربته قسوة المرأة على الفتاة من هذه الأخيرة ، ولم يكن لها في البيت سند غيره . ولقد رأت الفتاة في جانبه رجلاً شريفاً ؛ ولم تكن مخدوعة في نظرتها ، كما أنه

رأى في تيريز فتاة حساسة بسيطة دون زينة ، ولم يكن مخدوعاً في هذا أيضاً . وصرح لها سلفاً بأنه لن يتركها أبداً وإن لم يتزوجها .

وكانت تيريز تخاف ألا يجد فيها ما يبحث عنه . كانت مترددة أمامه مرتبكة تود أن تتكلم فلا تجرؤ على توضيح ما تقول . ولم يكن روسو يتصور سبب ارتباكها .. وأخيراً تمالكت : لقد اعترفت إليه دامعة العين بخطأ واحد ارتكبته في مستهل شبابها كان ثمرة جهلها والإغراء . وفهمها روسو لتوه وصاح صيحة الفرح : « آه ! تيريز ، إني في غاية السعادة ... » .

ولم يكن روسو في مبدأ الأمر ، كما يقول ، يبحث إلا عن التسلية . لقد كان يحيا حياة فارغة حتى هذا العهد — كان حينئذ في الثانية والثلاثين — إذ كان من المستحيل عليه أن يمضي في حبه لمدام دي فارنز ، راعيته الأولى ، وقد فرقت بينهما ظروف الحياة والعيش . كان قلبه في هذا الحين فارغاً يحن إلى من يملؤه ، إلى من يشغله ! وكانت نفسه وحيدة ظمأى تبحث عمن يرويها . فوجد في بساطة تيريز وحلاوة قلبها ما يمكن أن يملأ قلبه ويشغله ، ما يروي عطش نفسه بعد ظمأ . « ولقد أردت في البدء أن أكوّن روحها ، ولكن ذهب جهدي سدى . فلم تكن روحها إلا هذه الرصانة الطيبة ، لا الثقافة تؤرقها ولا العناية . وأنا لا أخجل مطلقاً من اعترافي بأنها لم تكن تعرف القراءة جيداً وإن كانت تكتب بدرجة لا بأس بها . عندما كنت أقطن شارع ... كان أمام نافذتي بفندق ... ميناء ساعة بذلت جهدي طيلة أكثر من شهر لأعلمها كيف تعلن من ساعات ... وهي لم تعرف قط كيف تتلو أسماء شهور العام الاثني عشر في ترتيب . ولم تعرف أبداً أي رقم برغم العناية الفائقة التي كنت أبذلها لتعريفها بهذه الأرقام ، وهي لا تعرف كيف تحصي النقود ولا ثمن شيء ما . وغالباً ما تأتي الكلمة التي تقولها بعكس ما كانت تود أن تقول .. ولكن هذا الشخص محدود الأفق إلى هذه الدرجة وإلى هذا الحد من الغباء ، إذا أريد القول ، له رأي ممتاز في الظروف العصيبة . لقد كانت تيريز ترى دائماً ، في سويسرا وانجلترا وفرنسا عندما كانت تنزل الملمات ، ما لم أكن أرى أنا نفسي ! وكانت نصائحها أجمل ما يكون النصح . ولقد انتشلتني من مخاطر كنت أهوى إليها على عمى مني ، واجتذبت أمام السيدات من الطبقة الراقية والسادة والأمراء برقة حاشيتها وعقلها الراشد وإجاباتها وسلوكها — اجتذبت بهذا تقدير الجميع ، كما اجتذبت بفضلها من المديح ما كنت أحس بإخلاصه » .

وكان روسو يعيش مع تيريز عيشة هنيئة . « وكنت أرى أنها تحبني بإخلاص ، وكان هذا يضاعف من رفقي ... لم أكن أخرج إلا لأذهب إلى تيريز ، وقد كاد مسكنها يصبح مسكني » .

ومضى الوقت ، وكانت حياة روسو في هذه الفترة — كما كانت حياته دائماً — عسيرة ، إذ كان يعيش على نسخ النوتات الموسيقية وأعمال أخرى صغيرة لا تكاد تكسبه شيئاً . وكان روسو يرعى عائلة تيريز بكاملها وكانت تتكون من سبعة أشخاص أو ثمانية . لأنه وإن كانت تيريز لم تكن طامعة في شيء من شئون روسو فقد كانت أمها على العكس من ذلك ، فهي لم تلبث وقد رأته يوليها رعايته أن استحضرت عائلتها جميعاً لتشاركها ما هي فيه من خير . جاءوا جميعاً : أخواتها ، أبناؤها ، بناتها ، حفدتها ، كما جاءت ابنتها المتزوجة . وهكذا كان كل ما يعمله ويكسبه روسو من أجل تيريز — أو أجله — يتحول إلى هذه البطون الجائعة جميعاً . وقد اتفق روسو على أن تعطي تيريز كل ما تكسبه لأمها على ألا تقف المساعدة عند هذا الحد ، أعني أن يمد هذه العائلة بما يمكنه إمداده من مال وعون .

وحملت تيريز واقترب موعد وضعها ، وكان من رأي جان جاك روسو إيداع طفله الوليد ملجأ من ملاجئ اللقطاء ، ناظراً إلى أن مجيء طفل جديد سيربك حياتهما أكثر مما هي مرتبكة فعلاً ، وإلى أن هذا هو الحل الوحيد لينقذ شرف تيريز أمام الناس . ولكن كيف يقنعها ؟ ! كانت أم تيريز ترى ما يرى روسو تماماً ؛ فما زالا بتيريز حتى سلمت لهما بما يريان . واختيرت قابلة ماهرة لتقوم بعملية الوضع . وعندما أزف الوقت اصطحبت مدام لوفاسور ابنتها إلى القابلة لتضع طفلها . وجاء الطفل في شتاء ١٧٤٦ — ١٧٤٧ ، ومن ثم أخذت القابلة الطفل وأودعته ملجأ اللقطاء .

وتكرر هذا الحادث : طفل ثالث أودع ملجأ اللقطاء . حدث هذا أوتوماتيكياً بالنسبة إلى روسو ، بينما كان قلب تيريز يتمزق ألماً . (الكتاب السابع ، الاعترافات) .

● ● ●

لم يكن روسو حتى عام ١٧٤٩ قد سكن مع تيريز لوفاسّور في بيت واحد يضمهما ؛ ولكنه اختار في غضون هذا العام فندقاً أقام به مع تيريز وعائلتها جميعاً . « كان أبو تيريز رجلاً طيباً عجوزاً في غاية الوداعة . وكان يخاف زوجته كل الخوف . . . ولم تكن مدام لوفاسّور تفتقر إلى الذكاء ، أعني الحيلة ، وكانت دمثة الأخلاق ، اجتماعية ، ولكن كان بها ملق غامض لم أكن أحتمله ، وكانت تسيء النصح لابنتها وتسعى لإيجاد ما يعكر الجو بيني وبين تيريز . . . أما ما عدا ذلك فكانت أماً طيبة ، لأنها كانت ترى أن من واجبها أن تكون كذلك . . . هذه المرأة التي كنت أغمرها باهتمامي وعنايتي بهداياي الصغيرة والتي كنت أبذل ما في وسعي لترضى عنها كانت السبب الوحيد في الألم الذي عانيته في مسكني . ولكن ، إلى جانب هذا ، يمكنني القول أني تذوقت طيلة هذه الستة أو السبعة أعوام السعادة المنزلية الحقة التي يمكن أن يسمح بها الضعف الإنساني . كان قلب تيريز قلب ملاك : كان حبنا يتزايد مع صداقتنا ، وكنا نشعر من يوم لآخر إلى أي حد كان أحدنا مخلوقاً للآخر . إذا أمكن أن توصف أفراحنا ، فقد يدعو هذا الوصف إلى الضحك ، لبساطتها . كانت جولاتنا معاً خارج المدينة . . . وكان عشاؤنا الصغير إلى جوار النافذة جالسين متقابلين على مقعدين صغيرين موضوعين فوق صندوق كبير بعرض فرجة النافذة . في هذا المكان كانت تقوم النافذة مقام المائدة ؛ وكنا نستنشق الهواء ونرى ما حولنا ، الرائح والغادي ؛ وإن كنا في الطابق الرابع فقد كنا نغمس طرفينا فيما كان يدور في الطريق ، بينما كنا نتناول غذاءنا . من يستطيع وصف الشعور بسحر هذا الطعام المكون كل وجباته من ربع رغيف كبير من الخبز وبعض الكرز وقطعة صغيرة من الجبن وربع لتر من النبيذ الذي كنا نشربه مناصفة ؟ . . . كنا نبقى هكذا حتى منتصف الليل دون أن نفكر في مكاننا وفي الوقت حتى تنبهنا الأم العجوز أن الليل قد تقدم . ولكن لندع هذه التفاصيل التي تلوح فارغة والتي تدعو إلى الضحك . لقد قلت دائماً وأحسست أن المتعة الحقيقية لا يمكن وصفها أبداً . » (الكتاب الثامن ، الاعترافات) .

● ● ●

لنستمع الآن إلى روسو ، وهو يندم على ما صنعه بأطفاله « بإلقائي أطفالي للتربية العامة éducation publique (ويقصد بذلك ملاجئ اللقطاء) كنت أعتقد أني قد قمت بواجب وطني وأبوي ، وكنت أنظر إلى نفسي كعضو في جمهورية أفلاطون . ولكن أكثر من مرة ، علقني الأسف منذ ذلك العهد أني كنت مخدوعاً فيما أتيت به ، ولكن بغض النظر عن تنبيه العقل ، فقد باركت السماء دائماً أني وقيتهم بفعل مصير أبيهم » .

ولقد وضع روسو بملجأ اللقطاء أولاده جميعاً ، وكانوا خمسة : ولد الأول عام ١٧٤٧ ، والثاني عام ١٧٤٨ ، والثالث عام ١٧٥٠ ، والاثنان الأخيران بين عامي ١٧٥٠ و ١٧٥٥ ولم يؤد البحث عنهم بعد ذلك إلى نتيجة . وأغلب الظن أن الولدين الأولين ماتا في سن صغيرة جداً .

وكتب روسو في خطاب من خطاباته يقول مبرراً فعلته : « لقد أراد أفلاطون أن ينشأ الأطفال في جمهوريته ، أن يظل كل واحد مجهولاً من أبيه ، وأن يكونوا جميعاً أطفال الدولة » .

وبعد أكثر من اثنين وعشرين سنة يفكر روسو في أطفاله الذين أودعهم ملجأ اللقطاء ، فيكتب في جولته التاسعة : « لقد وضعت أولادي بملجأ اللقطاء ، وكان هذا كافياً ليقال أني غير طبيعي ، ومن هنا استخلصوا شيئاً فشيئاً النتيجة الظاهرة أني كنت أكره الأطفال . لا أعتقد أن إنساناً أحب أكثر مني أن يكون لديه أطفال صغيرة تلعب وتمرح معاً . إني أقف غالباً في الشارع وفي جولاتي لأنظر إلى شيطنتهم وألعابهم الساذجة بلذة لا يشاركني فيها إنسان » . ثم يعود في هذه الجولة إلى تبرير فعلته بخوفه من أن يكون مصير أولاده كمصيره إذا كانوا عاشوا في كنفه . لقد كانت حياة روسو مضطربة غير مستقرة ، فكيف كان يبقى معه أطفاله وهو على هذه الحال . . . إن ملجأ اللقطاء يضمن

لهم حياة مستقرة لم يكونوا ليجدوها إلى جوار أبيهم .

* * *

وتصحب تيريز روسو فى الشارميت حيث أهدته مدام ديبينيه كوخا شاعريا قريباً من قصرها ؛ وكان ذلك فى عام ١٧٥٦ ، ولكن يدب الخلاف بينه وبين مدام ديبينيه فيستضيفه ماريشال لوكسمبور فى قصره بموغورنسى ، ومعه تيريز ، ويكون ذلك فى عام ١٧٥٧ ، ويبقى هناك ستة أعوام حتى يهرب منه فرنسا إلى سويسرا على أثر ظهور كتابه « إميل » وثورة الرأى العام عليه ، وتصحبه تيريز فى هروبه ثم يعود إلى فرنسا فى عام ١٧٦٧ ، ويتزوج من تيريز فى العام الذى يليه ، بعد خمسة وعشرين عاماً من حياة مشتركة ولم يكن الحفل رسمياً ، وتم بدون عقد وبدون مباركات كنسية ، ولكن فى حضور صديقين : وأمام الله فقط وتبعاً لبساطة الطبيعة » . ثم يستقر بباريس فى عام ١٧٧٠ ويسكن بالطابق الرابع بمنزل بشارع بلاتريير مع زوجته التى لم تفارقه أبداً طيلة هذه الأعوام والتى ذاقت معه حلو الحياة ومرها ، بؤسها وهناءها .

إن إنساناً كروسو لم يكن فى حاجة إلى هذه المراسيم والطقوس الكنسية لتربط بين قلبه وقلب تيريز . إنه لا ينتظر من هذا العقد الذى يوقعه العروسان وتباركه الكنيسة أن تضمن قوانين الرباط الأبدى ، الرباط المقدس . ما هذه المراسيم والطقوس والمباركات الكنسية عنده سوى « كلام » يخرج من بين شفتى الكاهن ؛ وما هذا العقد الذى يوقعه العروسان سوى « حبر على ورق » . إذ لا يؤمن بهذا ، ولكنه يؤمن بأنه إذا ربط الحب والود والتعاطف بين قلبين ونفسين فلا حاجة إلى مراسيم وطقوس وعقود . فكل هذا من فعل الناس ، ولكنه يتوجه لا إلى الناس ولكن إلى ضميره الباطن وإلى الله . ولم يكن من الضرورى أن « يتزوج » روسو من تيريز أمام شاهدين بعد خمسة وعشرين عاماً كان الله شاهدهما أثناءها ، فقد كان متزوجاً منها فعلاً منذ عرفها لأول مرة قبل هذه الأعوام الخمسة والعشرين . كان زواجهما تاماً لأنه تم منذ البدء أمام الله لا أمام الناس فقط . ولكن لماذا أقدم روسو على هذه الخطوة بعد هذه الأعوام الطويلة من الحياة المشتركة الزوجية فعلاً ؟! أقدم على هذه الخطوة لتصبح تيريز زوجته الشرعية أمام الناس ، لأن عقول الناس لا تفهم للأسف زواجاً إلا إذا تم بمراسيم وطقوس ومباركات كنسية ، وإلا إذا وقع طرفاه على عقد تباركه الكنيسة ...

ولكن تقع مأساة فى عام ١٧٧٨ ؛ فقد قيل إن تيريز ، بعد أعوام طويلة من الشرف والإخلاص ، جرحت عزته وخانته مع صبى اصطبل . سواء صح هذا الزعم أو لم يصح فقد ذهب هذا الحادث بما بقى من عقل روسو ، بعد حياته الشاقة التعسة وظنه أنه مضطهد من مواطنيه والناس ، وانهارت أعصابه كل الانهيار .

وفى الثانى من يوليو من نفس العام وجدت جثته وقد تخضب الوجه بالدم وتورم ، ولم يعرف أحد أكان موته طبيعياً على أثر انهياره الأخير أم نتيجة دس السم أم نتيجة الانتحار .

* * *

وأرجو من القارئ أن يعذرنى إذا أفضت فى الكتابة عن جان جاك روسو . لقد كتبت عنه قبل هذا المقال ثلاث مقالات ظهرت بهذه المجلة ، وهذا هو المقال الرابع ، ولا أظننى مع ذلك أوفيت هذا « الإنسان » حقه من التجلة والتقدير .

إدوار منسى

القطن : شجرة المعجزات

للأستاذ عبد البارى نعمت

إن ذلك المنديل الفاخر الناصع البياض الذى تزهو به وتضعه فى جيبك ويكون له أكبر النفع فى قضاء بعض شئونك ، وذلك الفرش النظيف الذى تفخر به ربة البيت وتغطى به مائدة الطعام بالمنزل ، وذلك الخيط المتين الذى يستعمله الناس فى شئون الحياكة ولا يستطيعون مسايرة الحياة والعيش السعيد بدونه ، كل أولئك من الأشياء النظيفة الناعمة الملمس وما إليها قد بدأت حياتها كأوبار قصيرة هشة تلتصق ببذور تخلفت عن زهور صفراء أخرجتها نباتات مباركة تنمو بالهند وأمريكا ومصر .

وجميع القطن الذى يستعمله العالم تنتجه زهور ضعيفة هشة ، ولا شك أن ذلك يوحى بفكرة تثير بالغ الدهشة ؛ إذ يبلغ من سرعة عطب هذه الزهور أن المطر الخفيف خليق بأن يلقى بأجزائها التى تنتج مادة النسيج إلى الأرض ، والعالم أحوج ما يكون إلى ملايين لا حصر لها منها لإعداد ثياب الملايين العديدة من سكانه وصناعة ما يحتاجون إليه إلى جانب ذلك من ورق وزيت وعلف وسماد وما إلى ذلك مما ينفع الناس .

ومن ذا يعلم كم مضى من القرون منذ وفق أول إنسان إلى معرفة أن فتل قليل من ور القطن أى أليافه يوصل إلى الحصول على خيط متين بالغ النفع ، والاعتقاد السائد عند معظم الخبراء أن القطن أول ما وجد كان بالهند ، وقد ازدهرت بها صناعتا غزله ونسجه ، وأصبحتا من أهم صناعات هذه البلاد العريقة فى المدنية ؛ وذلك منذ أجيال تتعمق فى القدم قبل أن تعرفه أوربا وتخضعه لسلطان علمها . إن القماش القطنى الذى نبتاعه اليوم ويعرف باسم « البفتة » صنع أول ما صنع بمدينة من أعمال الهند تدعى « Calicut » ، ولم تطأ أقدام الأوربيين أرض هذه المدينة إلا فى سنة ١٤٩٦ حينما بعثوا ببعض هذا النسيج إلى أوربا وأطلقوا عليه اسم المدينة التى صنعته ، وما لبث أن عرف بأوربا باسم « Calico » وهو اسمه الأصلى بعد أن اعتراه تحريف طفيف بعامل مرور الزمن ، وكذلك الوصايل « Muslin » وهو القماش القطنى الرقيق الذى تصنع منه الستائر ، صنع فى بادئ الأمر بإقليم الموصل من أعمال العراق ، وتصنع إنجلترا اليوم كميات وفيرة من كلا النسيجين .

ويختلف طول ليفة القطن ، أى صوفته وهى المعبر عنها عادة بالتيلة تبعاً لأنواع نباتاته ؛ فلبعضها تيلة يقل طولها عن البوصة ، فى حين يصل طول بعض الألياف إلى بوصتين كاملتين ، ولما كانت هذه الألياف قابلة للبرم ولها خاصة طبيعية للتماسك مع غيرها من الألياف ، فيمكن أن يتجمع عدد كبير منها ويتماسك فى خيط واحد عن طريق البرم ، أى اللف بالأصابع ، وطريقة البرم هذه كانت أولى خطوات الإنسان نحو الغزل ، ويبلغ متوسط تيلة القطن المصرى نحو ٢١٫٢٥ مليمترا وقطن السى آيلاند نحو ٣٧٫٥ مليمترا .

والغرض الحقيقى من وجود هذه الألياف القطنية يبتعد كل البعد عن رغبة الإنسان فى استعمالها لمنفعته الذاتية ؛ إذ هو فى الأصل لمساعدة زهرة القطن[1] على توزيع بذورها لتنمو بأكبر أرض ممكنة وهى تؤدى ذلك الغرض حقيقة ، لأن اللوزة الخضراء بعد أن تحل محل الزهرة الصفراء تحفظ بداخلها حبوباً سوداء عندما يتم نضجها تكون على استعداد للانتشار لتأدية مهمتها فى إنتاج نباتات جديدة !

(١) أزهار القطن كبيرة صفراء اللون تظهر على النبات عند ما يكبر وبعد اكتمال نموها تتحول إلى ثمار أى لوز واللوزة بيضية الشكل فى حجم الليمونة لونها أخضر وهى صغيرة وتتحول إلى بنية اللون عندما تكبر وتجف ثم تتفتح بتشقق طولية وتظهر منها خيوط دقيقة بيضاء اللون تسمى « ور القطن » وكذلك توجد بداخل اللوزة بذور القطن ، وهى سمراء اللون تتماسك مع الشعر وتحوى اللوزة من ٢٨ إلى ٥٠ بذرة .

فالغرض الحقيقي لكل زهرة هو في الواقع المحافظة على بقاء نوعها وعدم فنائه ؛ وإذا سقطت جميع بذور الشجرة تحتها مباشرة فإنها لابد تنبت جميعاً تحتها فتزاحم النباتات بعضها بعضاً ويكون مصيرها الهلاك لا محالة ؛ ولتجنب ذلك المصير المحتوم زودت كل بذرة من بذور القطن بباراشوت أي مظلة صغيرة ، ولذلك يتصل بكل بذرة وبر أي زغب كثير قابل للفتل وعند ما تتفتح اللوزة بتأثير حرارة الشمس تطير البذور بتأثير أية هبة من الهواء وتتجه نحو جميع الاتجاهات التي يحملها إليها الهواء ويعينها الزغب على الطيران حتى إذا صادفها ما تصطدم به كأشجار أو نباتات عالية لا تلبث أن تهبط فوق الأرض وتثبت حيث تهبط ، وعند ما يصيبها ماء المطر تتعمق البذرة قليلا بداخل التربة ثم تنبت وتعاود حياتها كشجرة قطن جديدة ؛ ولكن هل يسمح الإنسان لهذه البذور بمبارحة زراعات القطن هكذا ؟ هيهات أن يمكنها من ذلك ، ولذلك يعمد عند ما تنضج اللوزات ويحين موعد الجمع ، إلى جمع ألياف القطن بالاستعانة بالعمال أو آلات الجمع الحديثة ، ثم يرسل القطن المجموع إلى الآلات التي تفصل الوبر عن البذرة ، وتلك هي أولى خطوات صناعة المنديل ومفرش الطاولة وكافة ما يصنع من القطن ، ويتجه القطن الشعر وجهة معينة وتتجه البذور وجهة أخرى بحيث لا تفقد بذرة واحدة ، ويستخدم بعضها للمحصول التالي وتستخدم الكثرة منها في شئون أخرى نافعة .

وشجرة القطن هي النبات النائع الصيت الذي يحتاج إلى حرارة شمس شديدة مدى عدة أشهر مع الرطوبة المعتدلة وهي تنمو بنجاح في كل من الهند ومصر والجزء الجنوبي من أمريكا الشمالية ، وبعد أن تعد الأرض جيداً تزرع البذور في جور أي حفر بين الواحدة والأخرى ثلاث أقدام أو أربع وفي خطوط تتباعد بمقدار ٣ أو ٥ أقدام ، ويجب أن تحفظ النباتات طوال أطوار نموها من الحشائش و الحشرات الضارة ؛ ودودة ورق القطن هي من أخطر الآفات التي تصيب القطن وتفتك به فتكاً ذريعاً ، إذ تتغذى على الأوراق والأزهار فتسبب خسائر فادحة للفلاح إذا أهمل أمرها . ولذا وجبت عليه مقاومتها والتغلب عليها بكافة الطرق ؛ ويزرع القطن في الربيع ويبلغ نباته أقصى ارتفاعه بعد شهرين ، ويتراوح ارتفاعه بين قدمين وأربع أقدام تبعاً لقوة التربة وملاءمتها ونوع القطن المزروع .

وشجيرة القطن جميلة ذات أوراق خضراء داكنة وزهور بيضاء وأخرى صفراء جميل لونها ، وعندما تبدأ الزهور في الذبول بعد الشهر الخامس أو السادس من الزراعة تظهر اللوزة وهذه تحوي شعر القطن وبذوره ، ويتم نضج القطن بعد تسعة أشهر من زراعته ، ويتنج فدانه من ٤ إلى ٧ قناطير من الشعر وحوالي أربعة أرادب من البذرة

ومازال القطن يجمع باليد كما كانت الحال منذ ألف سنة خلت ، وقد بذلت محاولات كثيرة لاختراع آلة تجني القطن صناعياً ولكنها باءت جميعاً بالفشل ، وتتلخص الصعوبات القائمة في هذا الصدد فيما يلي :—

١ — اختلاف ارتفاع الشجيرات فوق الأرض واختلاف ارتفاع اللوز التي تحملها الشجيرات .

٢ — عدم تفتح اللوز جميعها في وقت واحد .

٣ — عدم تمييز الآلة وقت الجمع واحتمال جمع الأوراق بجانب الأوبار .

ولما كانت عملية جني القطن باهظة التكاليف فإن البلاد التي تتوفر بها اليد العاملة الرخيصة هي التي تتخصص في زراعته .

وتتوقف جودة القطن على طول تيلته ولونها وقوتها ، وقطن جزيرة البحر الذي ينمو على شواطئ الولايات المتحدة الأمريكية وفي جزر الهند الغربية هو أجود أنواع القطن جميعاً ، إذ يمتاز بتيلته الحريرية المتينة ، والقطن المصري من بين أجود أنواع الأقطان أيضاً ، وهو كذلك ذو تيلة قوية طويلة ، أما القطن الهندي فهو حريري ناعم إلا أنه قصير التيلة . .

وتتخلل شراء القطن الخام وبيعه مضاربات عديدة ، وكان القطن ذائع الاستعمال في الهند قبل عصر المسيح عليه السلام بزمن طويل ، وقد شاهد جنود الاسكندر الأكبر في فتوحاتهم في القرن الرابع قبل المسيح الأقمشة الجميلة الناصعة البياض التي كانت تصنع منه ، وحتى القرن الثامن عشر كانت صناعة القطن زاهرة بالهند وكانت تمد العالم بالمنسوجات القطنية ، وقد لاحظ كولومبس أثناء رحلاته إلى أمريكا أن أهل المكسيك كانوا يزرعون القطن

ويسمون ألفته ، ولم تدخل زراعة القطن في مصر إلا في عهد والي مصر محمد علي الكبير .

ويبلغ إنتاج الولايات المتحدة من قطن العالم نحو ٥٠ ٪ والهند نحو ١٧ ٪ ومصر نحو ٦ ٪ وهذه هي أكبر البلاد إنتاجاً للقطن ؛ ولو أن إنتاج مصر منه قليل نسبياً إلا أن قطن مصر مع ذلك بالغ الأهمية نظراً لجودة الخيوط التي يمكن غزلها إليها . ولذلك تتهافت المصانع الأجنبية على شرائه بأسعار مرتفعة ، وتنسج من وبره أحسن أنواع المنسوجات . والقطن في مصر هو عماد ثروتها وتزرعه في مساحات كبيرة في كل عام ، وقد ازدهرت صناعة النسيج بمصر في الأعوام الأخيرة ، وقامت بها عدة مصانع لغزل القطن ونسجه أهمها مصانع المحلة الكبرى وكفر الدوار .

ولو رجعنا إلى خمسين سنة خلت لوجدنا أن بذرة القطن الزائدة من حاجة الزراعة كانت تعد من بين المضايقات التي يجب التغلب عليها والتخلص منها ، وكانت تتجمع في أكوام مرتفعة بجوار المحالج ، وكان من الصعب التخلص منها رغم أن بعضها كان يلقى بالحقول كسماد والبعض يحرق أو يلقى بمجاري المياه ؛ ولكن في الوقت الحاضر لم تعد بذرة القطن مصدراً للمتاعب ، بل صارت بالغة الأهمية عظيمة النفع ، إذ تعصر فينتج منها الزيت الذي يستخدم في الطعام ، ويصنع من مخلفاتها الكسب الذي يستعمل في تسمين الماشية ، وهو غذاء جيد لها يستعمل في أوربا وأمريكا حيث الجو بارد ، ويستعمل في مصر فترة من الشتاء ، كما يستعمل الكسب سماداً لأنه مادة عضوية ، ويستعمل كذلك وقوداً ، وتصنع من قشرة لب القطن مواد البوتاسا والأسيتون والأوعية المزلية بطريقة ضغط القشر طبقات ، ويستخرج منه السليلوز للحرير الصناعي والمفرقعات ، وتصنع منه أفلام الفوتوغرافيا ، وتخرج منه نخالة لعلف المواشي والخيول والدواجن .

ويستعمل الحطب وقوداً للآلات البخارية ، وتصنع منه بعض أنواع الورق .

ونختم هذا المقال فنذكر أن قماش القطن هو أرخص الأقمشة جميعاً ، وهو لذلك يستعمل أكثر من غيره من الملبوسات ويبلغ المستعمل منه فيها نحو خمسة أمثال المستعمل من الملبوسات الصوفية ، ويقدرون أن تسعة أعشار سكان العالم يرتدون الملابس القطنية .

عبد البارى نعمت

نقد

التطور والتجديد فى الشعر الأموى

تأليف الدكتور شوقى ضيف — لجنة التأليف — ٣١٠ صفحة — ١٩٥٢

للدكتور أحمد فؤاد الاهوانى

ليست النظرية التى ينادى بها صديقنا الدكتور شوقى ضيف غريبة عن تفكيرى ، وقد أعلنتها فى كلمة سابقة بعنوان « الشعر والحياة » خلاصتها أن الشعر فن من الفنون الجميلة لا يقصد لذاته ، ولكنه صورة لانعكاس الحياة فى نفس الشاعر ، بحيث يصبح الشعر أو هذا الفن شركة بين شخصية الشاعر وذاتيته وبين المجتمع الذى يعيش فيه .

ولم أكن أقدر أن يصدر كتاب يؤيد هذه الدعوى مفصلة مبوبة منسقة . فقد جعل الفصل الأول فى الحديث عن بيئات الشعر الأموى فى الحجاز ونجد والعراق والشام وغيرها من البيئات ، وجعل الفصل الثانى عن الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وكيف تطور الشعر الأموى مع تطور هذه الألوان المختلفة من الحياة الجديدة .

وهذا تمهيد لاغنى عنه لمن يريد أن يفهم الشعر فى نوعه الجديد الذى ظهر بعد ظهور الإسلام فى العصر الأموى ، فتأثر بهذا الانقلاب العظيم الذى حدث فى وجه العالم فى ذلك الحين ، وهو انقلاب عظيم الأثر بغير نزاع ، إذ انبثق من قلب الجزيرة العربية دين جديد هو الإسلام ، انتشر انتشاراً سريعاً ، فقضى على أعظم دولتين فى تاريخ ذلك الزمان هما الفرس والروم . أما الفرس فأزال ماقبها من مجوسية لأن الإسلام يأبى الشرك ويأمر بمحاربته ، أما المسيحية فبقيت جنباً إلى جنب مع الإسلام ، تعيش فى سلام كما جاء بنص القرآن من احترام أهل الكتاب ، فلم يكن من الغريب أن يصطنع عبد الملك الأخطل شاعر بلاطه مع مسيحيته ، مما يدل على تسامح الإسلام وابتعاده عن التعصب ، وكان للمسألة جانبها السياسى أيضاً ، وفى ضوء السياسة يفسر المؤلف حظوة الأخطل فيقول ص ١٠٥ : « ولكى نفهم موقف عبد الملك من الأخطل وتقريبه له حتى ليتخذه شاعره الرسمى لابد أن نلاحظ العنصر السياسى فى المسألة ؛ فالأخطل لم يحظ بكل هذا التقدير لتجويده الفنى فى شعره ومديحه فحسب ، بل لعله إنما حظى به لما كان لقومه على عبد الملك وخلافته من أياد بيضاء ، وكأن عبد الملك يرمز برضاه عن الأخطل إلى رضاه عن تغلب المسيحية ، وعن مسيحيي الشام عامة »

يذهب المؤلف إلى أن الخمر فى مدائح الأخطل لون يتميز به من جرير والفرزدق ، فقد كان الإسلام يمنعهما أن يخوضا فى هذا الموضوع ، أما الأخطل فلم تمنعه مسيحيته من ذلك ، وقد عرف بحبه للخمر ومعاقرته لها ، وله فى وصفها وفى وصف شاربها شعر جيد فى مختلف قصائده ، وبخاصة فى قصيدة (خف القطين) التى يمدح فيها عبد الملك ، فيبدأ بوصف رحلة صاحبته فى الصحراء « على نحو ما صنع زهير فى معلقته ، ويحاول التميز منه والتجديد ، فيستطرد إلى وصف الخمر » ، إلى أن يقول « على كل حال تمتاز قصيدة (خف القطين) ، بأننا نجد فى أولها خمراً ، وكأن الأخطل يريد بذلك أن يجدد وأن يبذ معاصريه من المسلمين أمثال الفرزدق وجرير الذين لا يستطيعون أن يعرضوا لها فى مدائح الخلفاء » ص ١٠٨ .

وهذا صحيح إلى حد كبير ، وتحليل القصيدة فى جملته رائع ، وبخاصة حين يوازن بين الأخطل وبين شعراء الجاهلية ليشهد من هذه الموازنات ماطرأ على الشاعر الأموى من تطور ، غير أن القول بامتناع الفرزدق وجرير عن الخمريات لإسلاميتهما يحتاج إلى نظر ، فنحن نجد كثيراً من المسلمين فى العصر الأموى ، ومن أصل عربى ، بل من الخلفاء أنفسهم يمدحون الخمر ، كالوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وقد درسه المؤلف فى عشرين صفحة (٢٥٥ — ٢٧٥)

بعنوان « خمريات الوليد » . فعلنا لم تحمه إسلاميته ، بل خلافته المسلمين من معاقرة الخمر والترنم بها في قصائده ، وكان الأولى أن نشك في هذه الأخبار والأشعار التي تنسب إلى الوليد باعتبار أنها من دعوة الخصوم الذين يرغبون في هدم الدولة الأموية وتقويض أركانها ، فنسجوا حوله هذه الحكايات من زندقته وإقباله على ما نهى عنه الإسلام .

والرجع إلى حديث الأخطل فنجد أنه يمدح عبد الملك خليفة وملكاً للدولة الإسلامية وقائداً لجيوش ذا خلال عربية ، وأكثر هذه المعاني جدة معاني الإمامة والخلافة من مثل قوله :

وقد جعل الله الخلافة فيكم
بأبيض لا عاري الخوان ولا جدب

وفي قصيدة ثانية :

أحيا الإله لنا الإمام فإنه
خير البرية للذنوب غفور
نور أضاء لنا البلاد وقد دجت
ظلم تكاد بها الهداة تجور

يقول صاحب الكتاب « أليس هذا كله جديداً في قصيدة المديح العربية ؟ الحق أن هذه القصيدة اختلفت في هذا العصر بالقياس إلى صورتها القديمة لاختلاف الحياة العربية ، أو قل لتطورها وما حدث فيها من انقلاب ، سواء من حيث نظام الدولة أو من حيث تصور الناس للخلافة ، وما ينبغي أن يكون عليه الخليفة » .

فإذا انتقلنا إلى الفرزدق رأينا شعره يخلع على الممدوح صفات المسلم ، وهي صفات دينية لم تكن في الجاهلية ، لهذا السبب يرى الدكتور شوقي ضيف أنه « مهما يكن فإن قصيدة المديح لم تعد تجري على النمط القديم أو الأسلوب القديم ، لأن الحياة اختلفت وانتقل العرب إلى أقاليم جديدة وأسسوا دولة دينية تعتنق مثالية جديدة ، وأيضاً فإن الطباعات الحياة الخارجية اختلفت ، فلم يكن في العصر الجاهلي ثائرون على القبيلة يحاربونها في ذات نفسها ، أما في هذا العصر فنحن بصدد حياة جديدة فيها أخلاقية تستمد من الإيمان بالله ورسله والعمل الصالح ، وفيها دولة يريد القائمون عليها أن يعم العدل ، وأن يستتب الأمن ، وأن تجتمع الأمة على كلمة واحدة .. » .

ويوازن المؤلف بين الفرزدق وجرير بعد أن عرض في إيجاز حياة جرير فقال : « وعلى كل حال فإن هذه النشأة المتواضعة لجرير جعلت نفسيته تخالف نفسية الفرزدق من وجوه كثيرة ، فلم يكن يعتز بآبائه وبقبيلته اعتزاز الفرزدق بآبائه وقبيلته » ص ١٣٢ .

لست أدرى لم لاحت في ذهني الموازنة بين الفرزدق وجرير من جهة ، وبين شوقي وحافظ من جهة أخرى . وأحسب أن المقابلة بينهما صحيحة إلى حد كبير لظروف النشأة ، وطبيعة الصناعة .

فإذا انتقلنا إلى الصورة الأخرى من صور الشعر عند هؤلاء الثلاثة الكبار ، الأخطل والفرزدق وجرير ، ونعني بها الهجاء ، نجد للدكتور شوقي رأياً جديداً يفسر به نقائضهم ، وهو رأي له وجاهته ولا ريب . وعنده أن النقائض لون من الملاهي من القبائل التي نشأوا فيها ، وهي بالمناظرات الحديثة أشبه ، الغرض منها قطع الفراغ العظيم الذي أحس به العرب بعد استقرارهم في الكوفة ، وبعد أن كفتهم الدولة مئونة الرزق ، فتحول الهجاء القديم إلى نقائض للتسلية وقطع أوقات الفراغ . وكان الناس يخرجون للفرجة عليهم ، كما نخرج الآن لاستماع المناظرات في منتدياتنا الاجتماعية ، أو كما نخرج لتمضية بعض الوقت في دور التمثيل والخيالة .

هذا هو جملة رأي المؤلف ، ويبسط رأيه في ص ١٤٧ قائلا : « فالمسألة لم تكن صراعاً صارماً كما ظن الرواة . وفي كل مكان نجد نصوصاً تشهد بأنهما كانا متعاطفين متراحمين ، لا متقاطعين متنابذين . وقد حزن جرير على صاحبه حزناً شديداً حين سبقه إلى الموت ، ورثاه بأبيات مختلفة ، منها قوله :

لعمري لقد أشجى تميماً وهدّها ...

لها تمثّل الدهر ابن غالب
وحامي تميم عرضها والبراجم

فالصلة بين الشاعرين لم تكن منبتة ، بل كانت صلة مودة ، وكانا يقومان بهذه النقائض على أنها شيء يقصد به إلى التسلية أكثر مما يقصد به إلى السباب والتخاصم . وكان من حولهما يعرفون ذلك ، ومن هنا تأتي استثارة ولاة

العراق لها بحضرتهم ، وكأنهم يريدون أن يسلوا أنفسهم ويكشفوا بعض غمّها ... » .

نقول : هذا الرأى الجديد فى النقائض جدير بالاعتبار ، ولكنه لا يصور الحقيقة من جميع نواحيها . ذلك أن الاعتزاز بالقبيلة ، والعصبية القديمة كالحال فى الجاهلية ، والتمسك بالأصول والأنساب لم يمح مع ظهور الإسلام ، وآية ذلك أننا بعد هذه القرون الطويلة لا نزال نجد من يتمسك بنسبه إلى أصول عربية قديمة يعتز بها ، ونحن نرى أن هذه النقائض لم تكن جداً خالصاً ، ولم تكن تسلية خالصة ، أو لمجرد التناظر وإبراز البراعة فى النظم والقريض ، وإنما هى شىء بين هذا وذاك .

ومن الألوان الجديدة التى تدل على تطور الشعر فى العصر الأموى غزل ابن أبى ربيعة ، ولوحات ذى الرمة ، وهاشميات الكميت ، وخمريات الوليد ، ومتون رؤبة ، وقد أجاد المؤلف فى درسها ، ونفذ إلى صميم نفسية هؤلاء الشعراء ، والظروف التى أوحت إليهم السير فى طريق معينة .

فالكميت يصدر عن ذوق جديد لم يكن معهوداً من قبل ، لا يعبر فيه عن الشعور والعواطف بمقدار ما يعبر الفكر ، ولهذا السبب قال عنه الجاحظ إنه أول من دل الشيعة على طرق الاحتجاج ، ولم يعده بشار شاعراً ، لأن طريقته الجديدة لم تكن الطريقة المألوفة عند الشعراء . فالكميت يؤيد زيد بن على بشعره ، ويدافع عن الشيعة ، فيقول فى إحدى قصائده :

أهوى عليا أمير المؤمنين ولا
أرضى بشتم أبى بكر ولا عمرا

ويسمى المؤلف قصائد أو أراجيز رؤبة متوناً لغوية ، لأننا « بإزاء متون تؤلف لا بإزاء أشعار تصاغ ، ويعبر بها أصحابها عن حاجاتهم الوجدانية أو العقلية . فقد تطور الشعر العربى ، وأصبحت الأرجوزة منه خاصة تؤلف من أجل حاجة المدرسة اللغوية ، وما تريك من الشواهد والأمثال » ص ٢٨٢ . بذلك أصبح رؤبة إمام الشعر التعليمى ، وألهم أصحاب الشعر فى العصر العباسى أن يقوموا بنظم شعرهم التعليمى ، كما ألهم أصحاب النثر أن يقوموا بصنع المقامة . ولم يكن ذلك هو الأثر الوحيد لرؤبة وأصحابه ، بل اتخذ الوحدة فى الأرجوزة الشطر لا البيت كما هو الشأن فى القصيدة .

هذه إشارات للدراسات التى تناولها المؤلف فى كتابه الطريف ، يتضح منها أن الموضوعات التى تناولها الشعر الأموى إن عند الفرزدق وجرير والأخطل ، أو عند ابن أبى ربيعة ورؤبة والكميت والوليد وغيرهم ، قد تطورت مع تطور الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية .

ومما لا شك فيه أنك تحس حين تقرأ هذا الكتاب أنك بإزاء تفكير جديد يدل على أصالة وعمق واستيعاب وعبقرية فائقة ، وقد نشأ هذا كله من طول صحبة المؤلف لشعراء ذلك العصر ، والإحاطة بالظروف التى نشأوا فيها ، وإدامة النظر فى أحوالهم ؛ ولا شك كذلك فى أن كثيراً من الآراء التى تطالعك سوف تثير فى نفسك معانى جديدة واتجاهات جديدة ، سواء اتفقت مع صاحبها فى الرأى أو لم تتفق ، ولكنها على أى حال اتجاهات مدعمة بالأسانيد القوية والنظرة الجديدة .

فى كل عام يصدر كتاب يعد زهرة التآليف ، وهذا هو كتاب العام ، ولو أن صاحبه ألفه فى أعوام وأعوام .

أحمد فؤاد الأهوانى

ندوة القلم

حول أندريه جيد

أندريه جيد أديب ثائر يدعو للفردية ويكتب للشباب ، لحيوية الشباب وحدها هي التي تستطيع أن تتقبل كتاباته التي ينبعث منها فيض القوة الجارف والحياة الرحبة المنطلقة التي تضيق بتقاليد الحياة البورجوازية ومعتقداتها الساذجة ومثلها العليا التي تهدف بها إلى غايات جزئية وحقيرة .

ثار على الفضائل الاجتماعية التي تعطل نمو الحياة وتحد من سلطان الإنسان وتغل من عزمه ؛ وثورته ليست ثورة الفكر فقط بل ثورة الحس أيضاً . والذين يفهمون جيد كما يجب يلاحظون أن ثورته في عالمي الفكر والحس منذ بداية حياته الفنية إلى نهايتها كانت تهدف إلى إذاعة حقيقتين إنسانيتين والدعوة للأخذ بهما في الحياة ، بعد أن كانت الأفكار الرومانتيكية السائدة قد ألقت عليهما ستاراً كثيفاً من الأوهام . لقد حاول أن يرد للجسد اعتباره وبراءته ، وأن يؤكد للشخصية الفردية إمكانياتها المستترة في أعماقها التي تدفع إلى أعظم الإنتاج وأنقاه ، في حرية لا حد لها .

والذات الواعية هي بداية الفردية في أدبه .. الذات التي تدرك نفسها وتحدد موقفها من الناس والعالم وكل ماله تأثير عليها ؛ لأنها تواقة إلى حياة المجد والكمال . وهي بهذا التحديد إنما تخرج من دائرتها الخاصة كل ما يحد من تطلعها إلى المثل الأعلى الذي تنشده . فقد قاست هذه الذات يوماً من قسوة التقاليد والعرف ما أوشك أن يحطم آمالها في الحياة ... كانت تقاليد دينية راسخة عميقة الجذور لا تقبل الجدل والمناقشة . جامدة لا تعرف التسامح ، وتفتحت روحه الفنية وإحساسه المرهف النقد وسط هذا الجمود القاسي الذي يقتل الروح ويسحق النفس ويطفيء الإحساس . ولكن ما كانت نفس جيد لتضعف أو روحه لتستسلم ، أو حواسه لتخمد ؛ فكانت ثورة الحس في عالم الواقع حيث سجلتها اليوميات بعد خمسين عاماً كمغامرات فردية في سبيل التحرر بالجسد من قيود العفة التي فرضت عليه دون ما سبب يستوجب هذا الحرمان . ومن أقدر من العبقرية على فهم روح الفضيلة بين الناس ؟ .. أليست العبقرية ثمرة الفضيلة نفسها ؟!! فما لهؤلاء الظلام والأغمار يفرضون مقاييس الفضائل على حياة العباقرة فتضطرب حياتها ويسرع إليها الذبول . لقد جاهد أندريه جيد ليخلص الجسد من الأدران التي أهيلت عليه والتي ما برحت تملأ العالم بالشر وتلقي ظلال اليأس والاحتقار في قلوب الناس .

و « السمفونية الريفية » إحدى روائع قصصه الفنية التي يبين فيها دعوته لإطلاق الجسد من القيود الزائفة التي اكتنفت حياة ذلك القسيس الذي أحب الفضيلة المزعومة وراض نفسه على ألمها ، فكبتت غرائزه وحجب عواطفه إلى أن زال الشباب ، فحسب أن غرائزه قد ماتت إلى الأبد . ويلتقي في طريق حياته فتاة عمياء ساذجة بريئة ، فأراد أن يهديها عن طريق الحق والخير والجمال إلى الله . ولكن الحب يستيقظ في قلبه والغرائز تتحرك في جسده بعد أن حسب أنها ماتت إلى الأبد ، ولكن شعلة الحياة التي تذكو في قلبه ممتلأة بالحماس والحرارة وتطغى على نفسه فتغمرها بالفرح وحب الحياة ، يرزح بأعبائها الجسد الذي ولى عنه الشباب بنضارته وقوته .. حب أناني يريد أن يأخذ ولا يعطي ، فيشقى به ويشقى غيره ، ويجد أخيراً أن الفضيلة الحقة في إرسال الإنسان عواطفه على سجيتها والاعتقاد أن في تمجيد الحياة وأفراحها تمجيداً لله الذي أوجدها .

لم تكن إذاً ثورة رواد الحانات ومنتهكي الطرقات يرومون من ورائها هدم النظام الاجتماعي ليصبح مرتعاً لشهواتهم ، ولكنها ثورة العبقرية لترد للجسد اعتباره وبراءته — كما قلت — كأداة أولية لا يستغني عنها الشعور بالحياة ؛ فالحياة بدون « إحساس الموت » هباء وعبث واستهتار ، والجسد وحده هو الذي يحس ، أما العقل فيدرك ، وبدون إحساس لا يكون إدراك ، ولعلك تدرك الآن فشل تعليم الجامعات .

وإذا كانت السمفونية الريفية إحدى روائع جيد التي تعبر عن روحه من ناحية الدعوة إلى انطلاق الشعور من القيود الكاذبة ؛ فإن ثيسوس تظهر لنا أسلوب تفكير جيد في أقصى مراحل نموه ومدى تأثره بآراء الفيلسوف الألماني

بنيتشه وفكرته عن الإنسان الأعلى . وعندى أن أولئك الذين لم يستطيعوا النفاذ إلى فكر نيتشه ، يستطيعون أن يلتمسوا فكرته وروحها عند « جيد » وفى تيسيوس الثالث ؛ فالجلال الأولى الذى يخلعه جيد على بطله ، والإرادة الماضية التى لا توهنها الأحداث ، والبصيرة المدركة لحقائق الحياة وأغراضها ، تجعل من تيسيوس نموذجاً تتعلق به الأبصار المتطلعة إلى الكمال الإنسانى .

وقد استطاع جيد أن يمحو من الأذهان الفكرة البادية الخاطئة عن فلسفة القوة التى ألصقتها بنيتشه عقول لم يقدر لها الفهم السليم ، فجاء قول ديدال موجهاً إلى تيسيوس « وقد رأيت سلفك هيرقل ، وكان أبله لا يستطيع أن يعطى شيئاً غير البطولة » مسفهاً تلك الفكرة المبتذلة والتى ما تزال شائعة . وتيسيوس المتحمس المثل ، شباباً وقوة يأسر قلوبنا ولكنه ليس من السذاجة والبله بحيث ينفق قواه ويبدد حياته فى سبيل أغراض تافهة « فلا تضيع وقتك فى التافه عبثاً ... وانظر إلى الكسل على أنه خيانة ، وخذ نفسك بألا تلتمس الراحة إلا حين تتم ما كتب عليك وحين تأوى إلى الموت » .

وهكذا يمضى قدماً إلى غايته فى سبيل الإنسانية : « ولست أقبل أن يقف الرجل جهوده على نفسه ، ولا أن يجعل السعادة الخاصة غايته التى يسعى إليها » حتى إذا شارف النهاية وجد أنه لم يحى عبثاً « فأنا أترك للإنسانية مدينة أثينا لقد آثرتها على ابنى وزوجى ، وجعلتها مدينتى ، وستسكنها بعد أن أموت ذكراى إلى آخر الدهر ، وأنا أمسى وحيداً راضياً إلى الموت . فقد ذقت ثمرات الأرض . ويلذ لى أن أفكر فى أن الناس بعدى وبفضلى سيرون أنفسهم خيراً منا وأسعد منا وأدنى منا إلى الحرية . لقد أبليت فى خدمة الإنسانية المستقبلة ما استطعت . لقد عشت . »

وقد جدد أندريه جيد مأساة أوديب بطريقته البارعة فى بعث شخصيته وإعادة الحياة إليها . وليس ثمة استثناء فى أن تجديد جيد « لأوديب » يكاد يقف وحده عملا لا يدانيه عمل آخر يصلح أن يكون موضوعاً للتفكير فيه أو الاهتمام له ، حتى أوديب سوفوكل الذى أصبحت مأساته بعد عصر فولتير شيئاً غير طبيعى ، لا يتفق مع الواقع ، تسبب عنه أن واحداً من الكتاب الذين حاولوا تجديد المأساة لم يستطع أن يحفظ لها جلالها القديم أو يضيف جديداً يتلاءم مع فكرة العصر الحديث . وأوديب سوفوكل الذى كان يعتقد كونى أن إرادة الإله شىء خارجى يمكن أن يتعارض مع إرادة الإنسان ، فيتداعى تحت الضربة ويستسلم للمصير ويحقد على الآلهة فى يأس يستثير الشفقة ، لا يرضى جيد كمسيحى متحرر يؤمن بنيتشه ، لا يكاد يرضى بغير الحرية المطلقة لإرادة الإنسان . فمأساة أوديب الوثنى ليس لها مكان بعد المسيحية ، لأن الرجل الذى لا يجد الله فى داخله فلن يجده فى أى مكان آخر . . . إن إرادة الله فى داخلنا وليس علينا إلا أن نستمع إليها كى نجعلها منسجمة مع إرادتنا .

لقد وصف النقاد أندريه جيد بأنه رجل متناقض وأدبه صورة منه . ولكن أولئك النقاد لم يستطيعوا النفاذ إلى أعماق شخصية جيد ؛ فوراء التناقض الظاهرى تكمن الوحدة الكاملة للشخصية بكل غناها واتساعها ومرونتها الإنسانية ، تلك المرونة التى لولاها لما استطعنا أن نرى اليسا فى « الباب الضيق » تحيا حياة الزهد وتختار حرمان المتصوفين . وهو فى سبيل خير الإنسانية لم يعبأ أن يناصر روسيا السوفيتية حسب مبدئه « أرستقراطية العقل لا أرستقراطية المال » ، ولكنه حينما رأى النظام الذى يصب فيه الأفراد ، عاد إلى مهاجمتها موجهاً إليها حمماً من النقد اللاذع .

وأهداف جيد التى يرسمها للإنسان ليست أهدافاً ثانوية لا تستحق الاهتمام ، ولكنها دعوة لتذوق الحياة الكونية الرحبة بروح الرجولة المشوقة عن فعل الخير وإشاعة الجمال فى الحياة .

لطفى صديق أحمد

الثقافة

العـــدد ٦٩٠
١٧ من مارس ١٩٥٢

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

صفحة

المــــزهر المحطم

بك كم جنى مزهرى وتغنى
واستطاب العيون سحراً وفنا
والأغاريد واشجات المعانى
خرجت تهمس الخمائل أذنا
نغم الحسن والقوافى شدواً
عبقرياً منسقاً كان لحنا

***

يا إله الجمال ... منطقها العذ
ب بحث الجلال أقدس معنى
فتلفت حول « عودى » لما
صار رجع الصدى من النفس أدنى
فقطعت الأوتار يأساً من الوصل
ودمعى جرى على الخد حزنا
وبكائى الشباب من حيث لا يو
رق عوداً ولا ينضر غصنا
وانطفاء الشموع من قسوة الريح
نذير بأنى سوف أفنى
فتأملت فى الحياة كثيراً
فوجدت الحياة للموت رهنا
قلت لا داعى للتأمل فيها
دعها ... دنيا الشقاء ترحل عنا

***

فإذا بى وقبضة من تراب
أوجدتنا وكان منها وكنا
وإليه المآل فى آخر الأمر
وحيث التراب منه خلقنا

***

فتلفت من جدىّ لعلى ...
أبصر العالم الغيبى المعنى
وإذا بى فى وحشة وسكون
وظلام الدجى علىّ تجنى
وأرى من مفارق الشيب ضوءا
من ضياء الصباح أبهى وأسنى
قلت بعض الحنين يانفس جودى
واستعيدى الحياة نوراً وحسناً
وهنا حيث لا الأمانى ترجى
لترى حولها حشوداً وكونا
لا الخيال البديع يطرق روضاً
عاطر الزهر بين سكرى ووسنى
أو زهور الربيع تخفق طهراً
قرب دار الحبيب سحراً ومغنى

***

كيف حطمت مزهرى قد تساءل
ت وإن السؤال للنفس أغنى
ثم مبهم يخالج نفسى ...
كيف حطمته وأين وأينا .. ؟؟
إن بينى وبينه لهب الهجر ...
وصوت الذى يعلن بينا
ثم ماذا ... حطمت كأسى لكن
لم أجد خمرة ولم ألق دنا
مرحى .. مرحى .. أكل ذلك حلم
كان لما قد داعب النوم جفنا
أم هموم تنفثت من فؤادى
عبرت من شبابى الغض وهنا
أم جنون تملكنى وعقل
وخيال قد باعد الفكر شأنا
أم حروب الأحلام أعلنها الدهر
فلا سلم فى المنام وأمنا
وعى . ما النوم . ما السكرى ثم ما
الموت إذا نحن بالحقائق قمنا ؟؟

[أم درمان]

عمر السراج

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلوف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٩٠ الاثنين ٢١ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧١ — ١٧ من مارس سنة ١٩٥٢ السنة الرابعة عشرة

الربيع البـــاكر

للدكتور أحمد أمين بك

أشعر أن العالم في هذه الأيام أجمل منه في أي وقت آخر .

دنيا ، معاش الورى حتى إذا جاء الربيع فإنما هي منظر

إنا نرى الله تعالى دائماً خالقاً رازقاً ، ونراه أيضاً في هذه الأيام فناناً .

وهذه الأيام جديرة أن تنظر فيها إلى فنه كما تنظر دائماً إلى فيضه وخيره . فقد انقلبت الطبيعة من رمادية داكنة وأحطاب عارية ، إلى خضرة كاسية تمتع النظر ، وتريح النفس .

وتتجمل الأغصان بأوراقها الناضرة التي ترهص بأن تكون فروعاً ، وفي هذه الأيام تكتسي الأشجار وكانت عارية ، وتتألف البراعم وكانت غائبة ، وتتفتح الأزهار وكانت غامضة

وفي هذه الأيام تصحو الدنيا وكانت نائمة ، وتأخذ في الغزل السريع الجميل وكانت هاجعة . .

هي تذكرنا بالشباب الجميل وقد فقدناه ، وبالعيش الجديد بعد أن نسيناه .

إن الطبيعة تعرض علينا فيلماً جميلا ، كما تعرض علينا صورة رائعة مختلفة الألوان زينت بإطار بديع .

إنك تقرأ فيها اللاسلكي الطاهرة ، والجن الساحر ، وأين التطرز العجيب ، تطرزه الفتيات الجميلات من هذا التطرز الأنيق ؟

إن الطبيعة تسحر العين بالألوان البديعة . إن شئت فانظر إلى البنفسج الأزرق ، والورد الأبيض والأحمر ، وما شئت من ألوان .

إن كان لي أن أنصحك ، فأقول لك : اخرج وتأمل . تأمل جذوع الأشجار الضخمة كالأعمدة ، وتأمل « البانسيه » الملون المنقوش نقشاً يعجز عنه أي فنان .

إن الطبيعة في هذه الأيام تغني سيمفونية رائعة ! لئن كان لله مظاهر قوة في الزلازل والصواعق ، فله مظاهر وداعة وجمال في الطبيعة في هذه الأيام .

إن سمعت قولي وخرجت إلى الطبيعة سكرت سكراً حلالا ، وتمايلت إعجاباً لا خماراً .

إن من صفة الله الكلام ، ويظهر كلامه في أمره وخلقه ، ولكنه في هذه الأيام يضغط في بعض حروفه فتكون الطبيعة جميلة .

إن الأرض في هذه الأيام نغمة ساحرة فيها روائع الجنة ، ثم الطيور وما أدراك ما هي ؟ تغرد طويلا بعد أن سكتت ، وتغني كثيراً بعد أن صمتت ، وتمرح بعد أن بكت ،

تجريدة لصيد الورَن

للأستاذ الدمرداش محمد بك

استأنف صديق العجوز حديثه فقال : هبط مصر في أواخر القرن الماضي عظيم من دولة آل عثمان ، ونزل بفندق « شبرد » . وفي ذات يوم طلبت لمقابلة الغازي مختار باشا(1) في سراي الإسماعيلية بميدان قصر النيل ، حيث كان يقيم . فلما دخلت « الصالون » رأيت في حضرته شيخاً وقوراً ، مهيب الطلعة ، ضخم الجسم ، يلبس الطربوش العزيزي(2) والاسلامبولية(3) ، جالساً في صدر المكان .

(1) الغازي مختار باشا كان المندوب السامي العثماني بمصر في ولاية الخديو عباس باشا الثاني ، وسراي الإسماعيلية كانت حيث تقوم الآن العمارة الضخمة بميدان الخديو إسماعيل .

(2) العزيزي : نسبة إلى السلطان عبد العزيز .

(3) الإسلامبولية : سترة طويلة من قماش صوف أسود تشبه « الردنجوت » .

ولمحت كذلك الشيخ محمد الحوت بلباسه العربي ، جالساً بوقار في آخر صف الكراسي جهة الباب . وكانت عيني قد وقعت عليه لأول مرة ، عندما جاء في العام السابق ، بهدية من الغزال لحديقة السراي .

فبادرني فخامة الغازي قائلا : مصطفى بك(1) ، جهّز نفسك ، نريدك أن تصحب غداً الشيخ الحوت إلى الصالحية لصيد الورَن(2) .

فوجمت لهذه المباغتة ، وقلت مبهوتاً : الورَن ؟ قال الغازي : نعم . الورن . إنه دولتلو أفندم الباشا ، قد جاء

(1) مصطفى بك : ضابط تركي عاش بمصر وكان في خدمة مختار باشا ، وعلى صلة بالأمراء والذوات بالقاهرة ، واتخذ مصر موطناً له .

(2) الورن : الكلمة العامية لحيوان الورل .

ولا يفهم غناءها إلا من شجي شجوها .

لئن قلت لك فيما مضى أخرج وانظر ، فإني أقول لك الآن أخرج واسمع ، وكم في الطبيعة من مناظر بديعة وأصوات جميلة . في كل منهما متاع للسمع والبصر .

إنّ فيها بلسما للجريح ، وطرباً للنفس ، وجمالا للعين .

إنها تبعث إلينا أطفالها الأربعة ، الشمس والماء والهواء والتراب ، فتستقبلنا في هدوء ، وتحيي فينا النفوس ، وتبعث فينا الدفء .

وهي في هذه الأيام تنعشنا بعد الخمود ، وتحيينا بعد الموت .

هي في هذه الأيام تجمل كل قبيح بأوراقها الخضر ، وتكسو كل عريان بأثوابها النضر .

ثم هي توحي بأسرارها لمن أحسن الإصغاء لها وتأمل في مناظرها ، وسمع لأنغامها ، ومن وفق إلى ذلك رأى عجباً من الأسرار وغزارة في الإيحاء .

ومن عجيب الأمر أنك تعي أسرارها ، ولا تستطيع أن تعبر بها ، أو أن تكتبها أو أن تصفها .

إنها أعمق من اللغة وأدق من الأمواج .

وكل ما تستطيع أن تقوله لمن يسألك عنها ، اذهب وانظر إليها كما نظرت ، واسمع لها كما سمعت ، توحِ إليك بأسرارها ، كما أوحت إلي .

إن الفم والقلم فينا لا يستطيعان أن يدركا أسرارها ، ولكن روحنا تستطيع أن تدرك روحها .

إن من قوانين الطبيعة الموت والحياة ، وقد أرتنا الموت في الشتاء ، فأرتنا الحياة في الربيع .

إن فيها لشعراً ، أين منه شعر أكبر الشعراء ، وإن فيها لفناً أين منه فن أكبر الفنانين .

لا تجعل حياتك دائماً عبدة للنهائي والمحدود ، وخصص جزءاً من وقتك ، تستمتع فيه باللانهائي واللامحدود .

إن من صميم الحب ألا يتقيد بالمقاييس ، ولا بالاصطلاحات ، بل يرى أنه كلما أسرف جنى .

إن معيشتك أحياناً في اللانهاية واللا محدود تبعدك عن الأنانية والقومية ، وتوسع أفقك حتى أكثر من الإنسانية .

أحمد أمين

خصيصاً للقاهرة ، للتداوي من النقرس . يدفء مصر ، ومياه حلوان ، وبدهن الورن .

فالتفتُّ بلهفة إلى شيخ العرب — وكنت واقفاً وسط الصالون بالقرب منه — وقلت مستفسراً : الورن ؟ — قال نعم . يعني البُرص — وهذا موجود عندنا بالصحراء .

فالتفت الغازي وقلت : طلشتاو القدم . إن عندنا « بمواسل » منزلي بالصالحية كثيراً من هذه الأبراص ، آلاف منها — القدم — لا ينقطع لها دبيب لا بالليل ولا بالنهار .

فنظر إليّ غاضباً متبرماً : جام ! مصطفى بك . البرص برص . والورن ورن . هيا . جهز نفسك ، وإياك أن تنسى بندقية الصيد .

فأجبت : طلشتاو القدم ! سمعاً وطاعة ، وأحنيت رأسي بخضوع ، وخرجت ، وخرج في إثري الشيخ الحوت .

في عصر اليوم التالي كنا ندخل قرية الصالحية ، قادمين إليها من جهة الغرب . فبدت البلدة في شمس الأصيل جميلة ، تحتضنها غابة كثيفة من شجر النخيل ، وتكتنفها الرمال الصفراء من خلفها ، وتمتد على جانبيها . وكان يهب في وجوهنا نسيم رقيق ، يحمل أريج الصحراء ، وينعش نفوسنا بعد سفر شاق ، دام طول النهار . ونزلنا في بيت ريفي بسيط ، في ظاهر القرية ، أُعدّ لنا فيه على عجل ، ما تيسر من أسباب الراحة والاطمئنان .

في صباح اليوم التالي اصطحبني الشيخ محمد في زيارة لأخيه الأكبر الحاج عبد الرحمن ، ومررنا في الطريق إلى منزله بجامع شامخ عتيق متهدم . فسألته عن اسم منشئه . فقال : عند أخي عبد الرحمن الخبر اليقين ! فهو يعرف هذه البلدة بيتاً بيتاً ، وحجراً حجراً ، فاسأله ، ولا شك أنه مجيبك بما يشفي الغليل .

واستقبلنا الحاج عبد الرحمن في داره بكثير من الترحيب . وبعد أن استقر بنا المقام سألته عن المسجد ؛ فانفرجت أسارير وجهه ، واطمأن في جلسته . وقال : تسألني عن المسجد ! إنه واحد من معالم أثرية كثيرة عندنا . إن لبلدتنا تاريخاً طويلاً مجيداً ؛ فهي من بناء سلطان عظيم — الملك الصالح نجم الدين — أنشأها في القرن السابع الهجري ، لتكون محطة لعساكر المسلمين ، إذا خرجوا من مصر للجهاد في الأراضي المقدسة ، أو عادوا إليها من الحرب . وبنى فيها المساجد والأسواق والمنازل . وتألق اسم الصالحية في تاريخ مصر الحربي ، وعرف مسجدُها الكثيرَ من العز والمجد . فهنا حشد الملك المظفر الجيوش لصد عادية التتار ، بقيادة هولاكو ، من دولتنا . وهنا جمع السلطان الأمراء . وقال لهم كلمته المأثورة المشهورة ، لما رأى قعودهم عن الجهاد : « يا أمراء . لكم زمن تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للجهاد كارهون ، وأنا متوجه للقتال ، فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع لبيته ؛ فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين » . ولما جاء الليل ركب المظفر وقال : « أنا ألقى التتار بنفسي » ، فقويت العزائم ، وسار الأمراء معه ، وتحرك الجيش إلى فلسطين ، والتقى الجمعان في بلدة « عين جالوت » وهي المعركة التي صرخ فيها السلطان ثلاثاً « وا إسلاماه » . فمنّ الله على المسلمين بالنصر المبين ، وخلصت الشام ونجت مصر .

طالت جلستنا بدار الحاج عبد الرحمن حتى الظهر ، وتناولنا معه الطعام على طريقة البدو . ثم دار الحديث بعد ذلك حول المهمة التي جئت من أجلها . فقال : إن فخامة الغازي يطلب (ورنا) كبير الحجم ، غزير الدهن ، وهذا النوع لا يوجد بصحراء الصالحية ، وسنبحث عنه بصحراء المبروك حول درب الحاج بالقرب من السويس ، وإن شاء الله ، غداً قبيل الفجر نرحل لصيد هذا الورن . ثم اصطحبني إلى حظيرة الخيل لاختيار الجواد الذي أمتطيه في هذه الرحلة .

استيقظت قبيل الفجر ، في اليوم التالي ، فأبصرت الحاج عبد الرحمن وأخاه الشيخ محمد ، وبعض الأتباع ، واقفين بجيادهم في الساحة أمام النزل ، تأهباً للرحيل . فامتطيت جوادي ، وسار الركب على بركة الله صوب قرية القصاصين

جهة الجنوب ، واجتزنا أطرافها والشمس تبزغ من وراء التلال في الأفق البعيد ، فأخذتني روعة الصحراء ، وامتلأت نفسي بنشاط عجيب ، وسادنا سكوت رهيب ، فجلت أحلق في آفاق بعيدة فيما وراء النظر ، فيما وراء هذه الرمال ، حيث مشرق الشمس ، ومطلع سراج الدنيا .

ثم عبرنا ترعة الإسماعيلية ، وتوغلنا في الصحراء . ثم علت الشمس ، واشتد الضياء ، وتقدم النهار ، ودخلنا منطقة التلال فتفرقنا في الوديان نطلب الورن ! وبعد ساعة وجدنا أثر ورن كبير . فتتبعناه إلى جحره ، واشتغلنا بالبحث عنه ، ولكنا وجدنا الجحر خالياً من ساكنه ، فتتبعنا أثره إلى كومة من الصخور ، وظللنا ننبش الأرض عنه نحو عشرين دقيقة حتى أمسكناه ، وحمله أحد الأتباع بين يديه ، والورن يضربه بذيله الذي يشبه السوط فيكاد يؤذيه .

ولم نكد نبدأ البحث عن آخر حتى سخن الجو فجأة وهبت ريح عاصفة ، فنظرت إلى وجه الصحراء ، فإذا سطح الأرض قد تغير تغيراً غريباً ، وإذا ذرات الرمال ترتفع قليلا ، وتنبجس وتدوم كأنها بخار يتصاعد من ثقوب لاعد لها ، ثم زادت ثورة الرمال شيئاً فشيئاً . كلما ازدادت الريح قوة . حتى خيل إلى أن سطح الصحراء كله يرتفع بإطاعة لقوة دافعة رافعة تحته ، وأخذ الحصى يتناثر ورشاش حبات الرمال يتصاعد ، ويلطم وجوهنا وأجسامنا ، ويدوم فوق رءوسنا ثم غامت السماء . فلم نر إلا الأشباح القريبة منا ، وثارت الطبيعة ، ودفعت العاصفة ذرات الرمال . فاخترقت كل شيء كان معنا فملأت ثيابنا وحوائجنا ، وكنا نحس بها ونتنفسها ، ونأكلها ونشربها ، وهكذا استمرت الصحراء في شدتها وقسوتها ، في غضبها وثورتها مدة ساعتين . ثم لم تلبث أن سكنت الريح فجأة كأنها أمرت فامتثلت ثم قرت حبات الرمل المقلقة ، كأنها ضباب يستقر ، ثم عادت الصحراء فكشفت لنا عن وجهها الجميل فعاودنا البحث عن الورن .

ولم يكد ينتصف النهار حتى كان قد وقع لنا ثلاث ورنات ، وملّ الحاج عبد الرحمن هذه المطاردة ، ونظر إلى أخيه وقال : كفى إن في هذه الورنات الثلاث من الشحم ما يكفي لعلاج جيش من داء النقرس ! ثم لوى عنان جواده ، وانطلق يعدو صوب الغرب ، ونحن في إثره . ولم يأت الغروب ، حتى كنا ضيوفاً مكرمين في دار صديقه القديم عمدة (العاصمة) ، وأكواب الشاي الساخن اللذيذ تدور علينا . وصفا المجلس ، وطاب الحديث ، وشارك الحاضرون فيه كل على سجيته . وقال الحاج عبد الرحمن : نحن عرب الصالحية من بني سليم ، لا زلنا نرعى التقاليد والعادات ، كما ورثناها عن الأجداد ، فنأتي في موسم معين من كل عام إلى هذه الصحراء ، لصيد الغزال بواسطة الصقر ، كما كان يفعل الآباء . فنخرج من بلدتنا راكبين الخيل ، تتقدمنا كلاب الصيد ، وتتبعنا الجمال حاملة الزاد والمتاع ، حتى إذا توسطنا منطقة الجبال ، حططنا الرحال ، وأقمنا المخيم ! ثم نتفرق في الوديان ، بحثاً عن الغزال ، فإذا لاحت لنا غزالة طاردناها على متن الجياد ، وأطلقنا عليها الصقور فتحط عليها ، وتهاجمها الكلاب ، وتشاغلها حتى نصل إليها ونمسكها . ثم أردف يقول : ونحن في هذا نلتزم قواعد الصيد ، فلا نسرف فيه ! بل نكتفي بالقليل ، إبقاء على الغزال من الانقراض . فغرضنا الرياضة والتسلية والرحلة ، في جو يسوده البشر والصفاء ، وهدوء البال .

قال مصطفى بك : وفي صباح اليوم التالي كنت في محطة بلبيس حاملاً قفصاً من الجريد به الورنات ، ومن حولي الحاج عبد الرحمن والعمدة والحشم والأتباع يودعونني قبل قيام القطار . واستقبل الباشا القفص في السراي باحتفال كبير ، وحمله الخدم إلى داخل الحريم ، وداروا به على المقاصير ، لترى « الهوانم » أفندي هذا الحيوان العجيب ، الذي قال عنه شيخ العرب الحوت ، إنه يشفي النقرس والكساح من « دهنتين » .

أما أنا يا صاحبي ، الذي ذهب وجاء ، وشقي كل هذا الشقاء ، فلم يكن نصيبه سوى كلمتين « متشكرم مصطفى بك » تفضل بهما عليّ دولتلو أفندم الباشا المريض .

الدمرداش محمد

محنة العنصرية فى ألمانيا

للأستاذ أحمد طه السنوسى

مسألة الجنس والتمييز العنصرى مسألة قديمة ، عرفتها البلاد والدول كنتيجة لتعدد الأجناس فيها ، وانقسام أبنائها تبعاً لذلك إلى شيع وفرق ، تتسابق كل منها إلى السمو بنفسها والمغالاة فى تسابقها ، حتى تكون لها السيادة والسيطرة على سواها من النحل والأجناس ؛ وقد يبدو من الصعب أن نتصور كيف كانت هذه المسألة حيوية بالنسبة للمجتمعات القديمة ، وكيف كان لها الباع الطويل فى رسم العالم وتوجيهه حتى وصل إلى ما وصل إليه اليوم من خطوط وأوضاع ، بل لا نعدو الحقيقة فى شىء إن قررنا أن مسألة الجنس والتمييز العنصرى ما عتمت من المسائل الهامة والمشكلات الحيوية فى مجتمعات العصر الحاضر ، بالرغم من تقدم البشرية كل هذا التقدم المطرد الوثاب .

ولقد حظيت ألمانيا فى هذا القرن بالنصيب الأوفر من هذه المشكلة ، إذ قامت فيها قبل الحرب العالمية الثانية مسألة التفرقة العنصرية والاضطهاد الجنسى بين العناصر الآرية والعناصر اليهودية حتى انهزمت ألمانيا ، ووضع بانهزامها حد لهذه الهزلة المعروفة التى غيرت خطوطاً رئيسية فى معالم التاريخ .

ولكى نبين ماهية المسألة العنصرية فى ألمانيا ، نرى أنه من تتبع الحركة النازية تتضح أهمية مسألة تنقية الجنس الألمانى من الدم اليهودى ، ففى فبراير سنة ١٩٢٠ عندما وضعت مبادئ « حزب العمال الاشتراكى الوطنى الألمانى » تبين أنها تهدف إلى تحقيق أهداف من أهمها : الاستيلاء على زمام الحكم ، وتحقيق النظرة الاشتراكية الوطنية Nationalsozialismus مع القضاء على الشيوعية والوصول بالشعوب الجرمانية إلى الوحدة المنشودة ، وتطهير الجنس الآرى من الدم اليهودى أو من الدم غير الآرى .

ولقد كان فى النص على هذا الهدف الأخير خطره على الأوضاع السياسية فى ألمانيا فى ذلك الحين ، فضلاً عن أنه كان ينطوى على جرأة نادرة ، ويبنى على فلسفة خاصة لزعيم الاشتراكية الوطنية : أدولف هتلر ، الذى أراد أن يصل إلى أهدافه على أنقاض اليهودية التى رأى فيها عدواً لدوداً يهدد كيانه وكيان جنسه ودولته بالشر المستطير .

ولقد أوضح الزعيم النازى هذه الفلسفة الجديدة فى كتابه الشهير الذى كتبه وهو سجين فى قلعة لاندسبرج تحت عنوان « كفاحى Mein Kampf » ، نخص من القسم الأول الفصل الحادى عشر بعنوان « الأمة والجنسية » ، قال فيه :

إن نظريته بصدد هذه المسألة تتلخص فى أن كل ما نلقاه فى هذا العالم من علوم وفنون ومقدرة فنية وصناعية ، كل ذلك يرجع إلى جهود جنس جبار ، هو الجنس المؤسس : الجنس الآرى الذى لولا ما قام به من جهود وبسالة فى مضمار الحياة ، لفقد العالم اليوم ما يتمتع به من رونق وجمال .

ويبسط الزعيم كيف تطور حال هذا الجنس الآرى إلى الضعف وسط موجة من القوة من جانب أعدائه غير الآريين ، وهنا خضع الجنس الآرى : هذا الجبار المكافح ، وطأطأ رأسه لذلك الخليط من الأجناس الأخرى ، ويقول إن علة اضمحلال الحضارة ليس إلا امتزاج الدم ، وما يترتب عليه من إضعاف مستوى الجنس ، وبالتالى إضعاف المدنية !

ويثيرها الزعيم الألمانى حملة شعواء على اليهودية فى ألمانيا ، يبين فيها ما يمتاز به اليهودى من أثرة وأنانية وتعد على حقوق الجنس الآرى ! فكل نتاج يحمل اسم يهودى ليس إلا ثمرة وضع بذرتها هذا الجنس المؤسس .. واليهودى فوق هذا وذاك خبيث لئيم ، يدعى المسكنة بين يدى صاحب العمل ، حتى يلتحق بخدمته ، ومهارته وبقطنته يقف على العمل ووسائله ، وصبره وجلده يتصادق مع هذا وذاك من

العمال.. ثم هو لا تعرف له اتجاهاً معيناً؛ فهو اشتراكي تارة، وهو وطني تارة أخرى، وهو وطني في حين..

وهكذا ضاع الجنس الآري: الجنس التوتوني، ضاع في هذه الموجة المتلاطمة من خداع اليهودية الألمانية الخبيثة التي أحلت لنفسها ما ليس لها، وسبقت في مضمار الحياة وأساليب الحكم من هو أحق منها بالسبق والتقدم، هذا الجنس الممتاز

فكان لا مناص — والحالة هذه — من أن يكون اليهود أعداء الجنس الآري الألداء الذين سلبوا منه زمام الثروة والمال في الدولة، وبالتالي سيطروا على السلطة والسيادة، فأخضعوه لهم، وهو القمين بإخضاعهم له؛ ذلك أن اليهودي لا يفتأ يجاهد، لا تؤثر في نفسيته ما يؤثر في نفسيات الآخرين من نقد أو سخرية أو خجل، حتى يصل إلى إدارة العمل، فيستولي بذلك على ناصية الثروة والاقتصاد الوطني؛ وهكذا ترى العمل يديره خليط من الأجناس تعمل كأيد عاملة، يوجهها ويضع لها الخطط والترتيبات عنصر غير عنصرها: هو العنصر اليهودي، وما دامت الشئون السياسية تتوقف على مبلغ نقاء الحركة الاقتصادية وتوجيهها فإن هذه الشئون، وموقف الحركة الاقتصادية على هذا الوضع — هي من أسوأ الأمور، وإن توجه إلا أسوأ توجيه

ويقول الزعيم النازي في كتابه في الفصل الخامس من القسم الثاني تحت عنوان «نظرية العالم والنظام»: إن قيادة الأحزاب في ألمانيا في يد اليهود، وهؤلاء يستمدون قوتهم من الطبقات العليا في الأمة، وهؤلاء لا يحققون إلا مطامعهم التي تنبني على الأثرة والأنانية والهدم والتبديد، وهؤلاء يتخذون من سطوتهم خير عون لكي يجندوا جنودهم لمقاتلة عدوهم اللدود، الجنس الآري؛ لذا وجب على هذا الجنس الأخير ممثلا في حزبه الاشتراكي الوطني أن يعمل بقوة وصرامة على إبادة هذه الجماعات الشريرة التي تبغي ابتلاع ألمانيا وتبديد أبنائها الحقيقيين، عنصر التأسيس والبناء في حضارات العالم.

ولقد بين الأستاذ H. Rauchning صديق هتلر في كتابه «هتلر قال لي» أن الأهداف النازية إنما تقوم قبل كل شيء على نظرية التفوق الجنسي والتميز العنصري، تلك النظرية التي ساقت ألمانيا إلى الادعاء بأن لها حقوق السيادة على كافة البلاد والمجتمعات، فالمهمة التي قامت النازية من أجل تحقيقها هي أن يخضع سائر البشر للدولة الألمانية صاحبة السيادة والسلطان التي يجب أن تقدم مجموعة مختارة من الإرنفولك Herrenvolk أي الحكام الذين يسودون

ويلاحظ أنه منذ بداية القرن التاسع عشر، كان لتعاليم فلاسفة الألمان أمثال فيشت Fichte ونيتشه Nietche الخاصة بتمجيد القوة وسيادة الجنس والعنصر وتقسيم الجنس والبشر، أكبر الأثر في المذهب النازي الذي يقول بهذه التقسيمات وبتلك السيادة، سيادة السلالة والجنس.

على أن النظرية النازية فيما يتعلق بقداسة الجنس الآري لم تأت بشيء جديد في هذا الصدد، وليست آراء هتلر فيها خليقة بوحيها، إذ سبقه الكونت جوزيف دي جوبينو الكاتب الفرنسي في كتابه عن «تفاوت الأجناس البشرية «Essai sur l'inégalité des races» عند منتصف القرن التاسع عشر قبل أن يولد هتلر بنحو أربعين سنة، وتبعه الإنجليزي هوستون ستيوارت تشمبرلين.

وألف فاجنر الموسيقي المعروف كتابه عن أساس القرن التاسع عشر مبيناً فيه أن كل حضارة من الحضارات إنما ترجع إلى خلق العبقرية الجرمانية وابتداعها، وليس هتلر أول من قال ببغض اليهود والقسوة في معاملتهم، بل سبقته في ذلك بمئات الأعوام مذابح اليهود في أوربا الوسطى وأوربا الشرقية.

وجاء في «المذاهب الاجتماعية الحديثة» أن العلماء قد رأوا في النظرية الآرية تناقضاً، وكشفوا عن بطلانها، وهم يقولون في ذلك: إن الدليل على التناقض في هذه النظرية التي تجعل للجنس الآري السيادة والسلطة على الأجناس الأخرى، والتي ترى في الجنس اليهودي جنساً لئيماً دخيلاً على الآريين، هو أن العبقرية الألمانية تشغل العبقرية اليهودية فيها حيزاً هاماً، ويكفي ذكر بعض الأسماء التي تعطي برهان ذلك، منها مندلزون وهينه وهابر وأينشتين، بل إنه من الخطأ الزعم بوجود أجناس نقية مستقلة من الوجهة الجنسية في أوربا الحديثة في أجزاء معينة.

ولقد بدأ اضطهاد اليهود في ألمانيا سنة ١٩٣٣، وفي سبتمبر سنة ١٩٣٥ صدرت قوانين نورمبرج Nuremberg

كرد فعل لسخط النازيين على اليهود وبغضهم الشديد لهم ، ومقتضى هذه القوانين أن تصادر أملاك اليهود ، وأن يطردوا من الوظائف وأن ينفوا من ألمانيا كلها ، ولقد توفر — كنتيجة لهذا — لدى الحكومة مبالغ عظيمة من الأموال كان لها فضل في الشئون الحربية الخاصة بألمانيا .

ومنذ أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ زاد الاضطهاد وضوعف ، وأرسل ملايين من اليهود من ألمانيا والبلاد الغربية إلى البلاد الشرقية بقصد إبادتهم والقضاء عليهم ، وكانت الخطط التى وضعها النازيون تقضى بحرمان اليهود من حقوقهم ، كما استعمل النازيون معهم كثيراً من العنف ، واعتدوا عليهم فى أنفسهم وأموالهم ، ولجأوا إلى وسيلة طردهم من البلاد النازية ؛ بل إن العبودية قد فرضت على اليهود ، وكذلك القتل والتشريد ، والأشغال الشاقة والجوع والحرمان ، وبلغ عدد الذين فقدوا منهم ٠٠٠ و٧٠٠ و٥ مات أغلبهم .

وهكذا سقطت ألمانيا فى الحرب الماضية ، ولكنها تركت العالم درساً من الدروس الهامة التى ظل يدرس ويفحص فى سطورها ليضع لها تحديداً وليأخذ منها عبرة ، فأما العبرة فهى العمل على منع تكرار هذه المأساة التاريخية الخالدة ، فى أى بلد من البلاد ، وأما التحديد فهو فى توسيع نطاق مكافحة هذه المأساة ، فلا يقتصر الأمر على مكافحة إبادة العناصر غير المرغوب فيها ، وإنما يشمل أيضاً الأعمال التى من شأنها محو ثقافة جماعة من الجماعات أو جنس من الأجناس أو تشتيت حضارتها أو إفناء نسلها أو محاولة نقلها بالقوة إلى جماعة أو عنصر غير جماعتها وعنصرها .

وليست النازية هى المذهب الوحيد الذى جنح إلى الاضطهاد العنصرى فى التاريخ الحديث ، بل نحن كذلك نرى هذا الاضطهاد فى مذهب الصهيونية مثلاً ، بل إن البعض يرى أن الصهيونية قد ذهبت فى حركتها أبعد مما ذهبت إليه النازية الراحلة ؛ إذ أن مبدأ العنصر الممتاز الذى تقوم عليه النازية يكتفى بالآرية ولا يتقيد بديانة أبناء هذا العنصر ولا بالأرض التى يستوطنونها ؛ ولكن الصهيونية تشترط ديانة معينة وأرضاً خاصة مع العنصرية التى تطلبها وتسعى لتحقيقها .

والاضطهاد العنصرى يرجع إلى دواع وأسباب متباينة ، فقد يكون منشأه نعرة أو عنجهية جنسية ، وقد يرجع إلى أسباب مذهبية أو دينية ، أو إلى أسباب اقتصادية واجتماعية ، وقد يرجع إلى كل هذه الدواعى والأسباب مجتمعة ؛ وهو سواء رجع إلى هذه أو تلك من الأسباب جريمة إنسانية قد آن أوان الحد منها ووضع التدابير الواقية لها وفرض الجزاءات المختلفة على مرتكبيها ، سواء تمثلوا فى أفراد أو فى هيئات أو فى حكومات .

ولكل تلك الدواعى والأسباب اضطهد النازيون اليهود والعناصر غير الآرية فى ألمانيا ، وبسقوطهم رأت الدول الحليفة المنتصرة توقيع الجزاء على مرتكبى هذه الجريمة الشنعاء ، فحاكمت زعماء الحركة ودعاة الاضطهاد .

أحمد طه السنوسى

حزم خليفة ونبل قائد

للأستاذ أنور الجندى

قطبان من أقطاب الدولة الجديدة الناشئة .. أما أحدهما فالرجل الذى ضرب به المثل فى العدل .. والشدة وإنكار الذات والإنصاف من النفس .

أما الآخر فهو البطل الذى هز الدنيا بفتوحاته وانتصاراته وقوة بأسه .. وبراعته الحربية الفائقة .

وكلاهما عرف بالشخصية الاستقلالية التى تأبى أن تخضع أو تذل أو تستكين .

ولدا فى مكة ، وشبا فيها ، وعرفا بالبطش والصرامة . أما أحدهما فأسرع إلى الإسلام بعد لأى ، وأما ثانيهما فقد كان حرباً على المسلمين ، إذ هزمهم فى موقعة أحد .. ، ولم يسلم إلا بعد الفتح .

فلما مات النبى استبق أبو بكر أولهما إلى جواره يستشيره وأرسل ثانيهما يدفع عن الإسلام الردة .. ، فجاهد المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة جهاداً قوياً ، وردهم به إلى الجادة ورد به إلى الإسلام الوليد هيبته فى شبه الجزيرة .

لعلك قد عرفت بعد من أعنى : هما « عمر » و « خالد »

عمر الخليفة الحازم الذى كان يضاعف العقوبة لأهله إذا أحدثوا أمراً .. وينقصهم فى العطاء .. ويردهم إلى الصفوف الأخيرة .. ، هو عمر الذى لم يقبل من سيف الله « خالد » ، أن يجيز لنفسه حرية التصرف فى العطاء أو يسرف فى إنفاق ماله من فئ .

وكأنما كانت جائزة الأشعث بن قيس هى عقدة هذا الصراع بين القائد المظفر والخليفة الحازم .

غير أن الصراع كان من جانب واحد ، من جانب الخليفة الذى يرى أنه يجب أن يرجع إليه فى كل شئ .... والذى يأبى أن تفتن خالداً انتصاراته الضخمة فى قليقلة وأرمينية ، وفى الشام والعراق ... فيبيح لنفسه أن يعطى الشعراء ، وأن ينفق عن سعة حتى تذكر أريحيته إلى جوار أريحية ملوك بنى غسان وملوك الحيرة .

ولكن عمر ، كان قد بدأ صراعه مع خالد من قبل ، بدأه عندما طلب الخليفة الأول ، سيف الله ، ليسأله عن قتله ابن نويره وزواجه بامرأته .

فما أن ولى الخلافة بعد أن قضى أبو بكر .. كان أول أعماله خطابه بعزل خالد وتأمير أبى عبيدة .

ولم يقل خالد شيئاً ، بل عمل جندياً تحت قيادة أبى عبيدة ، وسجل له التاريخ أروع قصص البطولة والفتح ... إلى أن بلغ عمر أن خالداً أجاز الأشعث بن قيس بعشرة آلاف ، هنا أحس عمر أن الأمر قد بلغ أقصى ما يمكن أن يكون من الخطر ! وأن خالداً قد أراد أن يتشبه بالملوك والأمراء ، دون أن يقيم للخليفة وزناً .

فكتب إلى أبى عبيدة يطلب إليه أن يستقدم خالداً إليه وأن يسأله : أأجاز الأشعث من ماله أم من إصابة أصابها ، فإن زعم أنه قد أصابها فقد أقر بجنايته ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف ، وأمره أن يعزله على كل حال .. وأن يضم إليه عمله .

غير أن أبا عبيدة على ما به من حياء وما يكنه لخالد من تقدير ... أخذته الحيرة ... ثم ترك الأمر لرسل الخليفة ، واكتفى بأن كتب إلى خالد يستدعيه ، وجمع الناس فى المسجد ، وجلس على المنبر صامتاً ، يا له من منظر خالد فى تاريخ الإسلام ... وفى تاريخ الإنسانية .

قام بلال يسأل خالداً .. أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة أصبتها .

وأخذت خالداً الدهشة .. فى أشد صورها وأقساها ! هذا الجمع الحاشد الذى حضره كبار المسلمين فى المسجد الجامع ، وهؤلاء هم بريد عمر ، حضروا من المدينة ليسألوه فى أمر من أموره الخاصة .

كان على عمر أن يدعوه إليه كما استدعاه الصديق من قبل ، وعقدت الحيرة لسان خالد .. وصمت ولم يجب !

واتجهت الأنظار كلها نحو سيف الله ... وكرر السؤال ، وأصر خالد على الصمت ..

وهنا قام بلال فعقل خالداً بعمامته بعد أن ضم يديه وراء ظهره ونزع عنه قلنسوته .. وقال : إن هذا أمر الفاروق له .. ، حتى يجيب عما سأل عنه وألح خالد فى الصمت .. ووجم وجوماً شديداً .

وبدا الدهش على وجوه الناس ، وعَابلت رءوسهم وتهامست ألسنتهم بالحديث .

من كان يظن منهم أن خالداً القائد المتصر الذى غزا الشام والعراق ، وكان موضع ثقة رسول الله وثقة الصديق .. ، يوثق بعمامته ليسأل عن أعطية أعطاها .

ومتى يحدث هذا ؟ بعد أن فتح خالد قنسرين .. ، التى استعصت وطال حصارها .. ، وضج عمر بالفرحة عندما بلغه الأمر ، وقال ... وأمر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر ، كان أعلم بالرجال منى » . ولكن عمر ، لم يلبث أن أنكر تصرف خالد فى أمر الهبة ، فأمر بعزله وهو فى أوج مجده ، فى الوقت الذى كان — فى فم الروم والفرس والعرب — حديث المجد والبطولة والعبقرية .

وبعد أن خضعت المالك والعروش ، لصولة خالد ، يجئ « بلال » الحبشى فيعقل خالد بن الوليد بن المغيرة ، وقدسوى الإسلام بينهما ، فيعقله ويسأله : أمن مالك أم من إصابة أصبتها ، أجزت الأشعث بعشرة آلاف ... ويبدو أن صمت خالد قد طال ، وأن ترقب الناس للكلمة التى يصدرها قد امتد .

وتواردت على الأذهان — ولا شك — إذ ذاك صورة خالد فى أمجاده الحربية ، صورة الرجل الذى لم يعرف الذلة ، ولم يطأطئ الرأس .. أما خالد فقد كان فى غمرة من الكبرياء الجريح ، والغيظ المكبوت ، والألم العبقرى . وقد ألجمه هول الموقف فلجأ فى الصمت .

وأخيراً أجاب خالد : بل من مالى .

ورد بلال : نسمع ونطيع لولاتنا ونعظم ونفخم موالينا .

وعمت الجموع فرحة كبرى حين سمعوا إجابة خالد .

ووقف أبو عبيدة من خالد موقف الحيرة من أمر عزله الذى أرسله إليه الخليفة .

إن عمر قد أقصاه عن إمارة الجيش يوم استخلف .. ومع ذلك فقد ظل يفتح المالك ويرد العدو .. وهو جندى ، أربع سنوات طوال ، أخضع دمشق ، واستولى على الأردن وحمص ، وقهر قنسرين وحلب وطرد هرقل من سورية ، وزحف إلى أرمنية ... وهو اليوم يعزله نهائيا .

وانتظر أبو عبيدة ، على عمر يغير رأيه ، غير أن عمر كان يعرف أن أبا عبيدة سيمنعه إجلاله وخجله وحبه لخالد من أن يبلغه قرار العزل ، فأرسل عمر إلى خالد يلبثه ..

ويستقدمه ، وذهب خالد إلى أبى عبيدة يعاتبه .

— رحمك الله ما أردتَ إلى ما صنعت ، كتمتنى أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم .

— والله ما كنت لأروعك ما وجدت إلى ذلك بدا ، وقد علمت أن ذلك يروعك .

* * *

ماذا كان موقف خالد من تصرفات عمر ؟

إنه قد عزله بتهمة السرف ، بعد أن دوخ كسرى وقيصر .

لقد ذهب إلى قنسرين يودع جندها وأهلها ، فلم يذكر عمر بسوء ، ثم توجه إلى حمص وقصد إلى المدينة .

وأخذت المدينة تتحدث عن الصراع بين خالد وعمر ..

قالوا : قد كان على عمر أن يرسل إليه فيسأله ، دون أن يحرجه أمام جنده أو يوقفه موقفاً مهيناً أمام المسلمين .

وقال قوم : توزن أخطاؤه وتوزن جلائل أعماله .

وقيل : كان على عمر أن يسأل أميره أبا عبيدة ..

وقالوا : كان على عمر أن يدع لخالد ما خصه من الفئ ، يتصرف فيه .. فقد استفاد المسلمين كثيراً ..

* * *

والتقى الرجلان وجهاً لوجه .

قال خالد : لقد شكوتك إلى المسلمين ، وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر .

— فأين ذلك الثراء ، من أين هذا اليسار ، الذى تجيز فيه بعشرة آلاف .

— من الأنفال والسهمان .. ما زاد على الستين ألفاً فهو لك .

وكأنما عز على عمر أن يدع لخالد حصته ، فأمر بأن تقوم عروضه فقومت بثمانين ألف درهم ، ترك له منها ستين ألفاً وأخذ العشرين الزائدة فأدخلها بيت المال ..

وأقام خالد فى المدينة ، وسعى إليه بعض أنصاره ، وبعض خصوم عمر .. يحاولون إثارة الفتنة ، غير أن خالداً كان نبيلا .. إنه ردهم فى حزم وقال : أما وعمر حى فلا ...

وبقى عمر يظهر لخالد إذا خلا إليه الرقة واللطف ..

عاتبه خالد مرة وقال له كلمته .. المعروفة : لقد كنت فى أمرى غير مجمل ، واعتذر له عمر ...

— ياخالد ، والله إنك علىَّ لكريم ، وإنك إلىَّ لحبيب ،

ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء أبداً .

وبر عمر بيمينه ألا يلي له خالد عملا ...

وأذاع عمر في الأمصار يقول : « إنه لم يعزل خالداً عن سخط ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكونوا بعرض فتنة » .

• • •

وظل خالد .. يعيش تلك الحياة التي لا يرضاها والتي وصفها مرة عندما أوقفت حركات الفتح في العراق « بأنها سنة نساء » .

ومات بعد أربع سنوات من عزله ، بعد أن أخذته الحسرات ، حسرات الجندي الصوال للفارس الجريء الذي يرى نفسه مبعداً عن ميادين الجهاد .

عاش حزيناً ، يسمع أنباء الفتح ، في فلسطين ومصر والعراق وفارس .. وهو مغمد السيف ، أسير الخليفة الذي عزله ، عمر الذي كسر سيفه ..

فلما حضرته الوفاة صور آلامه وأحزانه العبقرية في تلك العبارات الخالدة ..

« لقد طلبت القتل في مظانه فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي ، ولقد حضرت مائة زحف أو زهاءها وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح . وها أنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير » .

مات خالد ولم يترك من حطام الدنيا سوى فرسه وغلامه وسلاحه .

وأسف عمر ، وعراه الحزن عندما علم بأنه لم يخلف شيئاً ، وقام في الناس يقول : رحم الله أبا سليمان ، كان على غير ما ظنناه .. إني أعتذر إليكم من عزل خالد ، فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين ، فأعطى ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان ، فأمَّرت أبا عبيدة ..

ولما رأى النساء يبكينه قال : على مثله تبكي البواكي ، كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقيبة .

قال له « علي » : فلم عزلته ؟

— نعمت على ما كان مني ..

لقد ذهب عمر إلى الحج ، وكان ينوي أن يوليه بعد أن يعود ، غير أن خالداً مات قبل أن يعود عمر .

• • •

أي عظمة وأي جلال ، يمكن أن يكتبها التاريخ لسيف الله (خالد) أي نبل ورجولة ، في مواقفه ، في الحرب وفي غير الحرب .

لقد كان الصراع بينه وبين عمر ، من جانب واحد ، من جانب الخليفة الذي كان يرى ألا يتصرف خالد إلا بعد أن يراجعه .

ترى أكان يضيق عمر بخالد كلما ارتفع نجمه ، وهل كان يحقد عليه ... كما يذهب بعض المؤرخين ؟

ذلك ما نستبعده ، فقد عرف عمر بالخلق الذي يرقى على الحقد .

إذاً لماذا أقصاه عن الإمارة ، ثم عزله ، ثم اقتسم معه ما أفاء الله عليه ، وأبعده عن ميدان الغزو ، وهو في أشد الحاجة إلى أمثاله ، لقد اتهم من قبل « عمراً » وحاسبه واقتسم معه ماله .. ولكنه لم يعزله !

ماذا كان يمكن أن يفعل خالد ، لو امتد به الجهاد ، كان يقيناً أن يبلغ عاصمة « قيصر » ، وكان خليقاً بأن يفتح القسطنطينية .

هل صدق عمر حين اعتذر للناس في أمر « خالد » بأنه خشي أن يفتن الناس ، وأن يظن الناس أنه أصبح ضرورة لاغنى عنها لانتصار الجيوش .

وماذا كان يمكن أن يصل إليه الفتح لو اتحد عمر وخالد ، لقد انكمش خالد حين أريد له أن ينكمش ، وآثر ألا يصطدم ، وانصرف عن أنصاره المعجبين به في قنسرين وحمص والشام ، وكان يستطيع أن يقف من عمر موقفاً ينتصف لنفسه به .

ولكنه آثر ألا يفعل ، فلما وصل المدينة التف حوله أنصاره ، وجدته خصوم عمر ، ولكنه كان أكبر من أن يثير فتنة ، وهو الذي قضى على أكبر فتنة في تاريخ الإسلام : تلك هي الردة .

لم ينتصف خالد لنفسه ، واحتمل قضاء عمر فيه ، واكتفى بأن صارحه بأنه لم يكن مجملا في أمره ، وقضى أيامه يتسمع الأنباء بقلب حزين ، وعين باكية .. مما اعتصر حياته ، فمات كمداً .

كان عمر يريد أن يحفظ للدولة ميزانها .. فظلم خالد ، وأراد خالد أن يحفظ للدولة كيانها .. فظلم نفسه .

أنور الجندي

أغاني الشحاذين

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

هذا لون من ألوان الفن اعتاد الناس أن ينظروا إليه في ازدراء ومهانة ، وأن يقدروه مظهر ذلة واستكانة ، على أنه فن أصيل عريق ، اكتسب الأصالة من صدق العاطفة ، واكتسى العراقة من إلهام الفطرة ، وإنما يكون الفن حيث تكون حرارة النفس ، ورهافة الحس ، وانطلاق الروح ؛ فلحن الراعي في غابته ، وترنم الشحاذ في صفارته وأهازيج الحادي في قافلته ، ونداء البائع على سلعته ، وأنين الشاكي في نشيجه ، كل هذه الترانيم التي تنبعث من الأعماق وهي تحمل هيام الروح وظمأ العاطفة ، ولهفة النفس ، أعرق في الفن ، وأقرب إلى القلب ، وأقدر على اقتحام المشاعر ، من تلك الألحان المصنوعة المرسومة التي يوقعها طلبة المعهد الموسيقي وهم جلوس على وضع خاص ، ومقيدون في أدائهم بعلامات خاصة ، فغايتهم أن يؤدوا ما يلقن إليهم ، لا أن يعبروا عن أرواحهم ، أو عن شيء مما في نفوسهم .

ولن يضير الفن أن يكون وسيلة للتسول والاستجداء ، وأن يترنم به الشحاذون طلباً للمنح والعطاء ، فما الإنسان في الحقيقة إلا حيوان متسول بطبعه وبغريزته ، فهو لا ينفك كل يوم عند مطلب من مطالب الحياة يلح في استجدائه ، ويتوسل في تحقيقه ، فإذا ما أغلقت أمامه أبواب الطلب جلس يتمنى الأماني ، ويستجدي من أكف الأوهام ما حرمه في عالم الحقيقة ؛ على أنه من خلل العاطفة ، وخطل العقل أن تنظر إلى الفنان الشحاذ تلك النظرة المهينة وهو يمنحك من فنه ومن ذات نفسه ، ولم يشترط عليك أجراً ، أو يشق في طلب ، تاركا ذلك الفضل لأريحيتك وكرم عواطفك ، مكتفياً باللقمة يسد بها لهاته أو بالكسرة يدسها في مخلاته ، أو باللمحة تجري بين أصابعه ؛ هذا في الوقت الذي تكبر فيه صنيع ذلك الفني المحترف ، وهو الذي يساومك على فنه وطربه ، وربما كلفك مما كلفه السوقة على غنائه وأدائه ، ولعمري وعمرك متى كان الفن الأصيل سلعة تعرض في معارض البيع والشراء ، وبضاعة تخضع لأسلوب المساومة في الأخذ والعطاء .

وعجيب كل العجب أن ننظر إلى الشحاذين في فنهم نظرة المهانة والابتذال ، وهم الذين خلقوا للفن أروع الآيات ، وأسدوا إلى الإنسانية أمتع الترنيم وأعذب الألحان ! فهوميروس لحن الشعر الباقي على الزمن ، ورائد الشعر والفن إمام كل شاعر وفنان ، لم يكن إلا شيخاً ضريراً رث الهيئة زري الثياب ، يتكفف الناس بأناشيده ، ويمشي متنقلا بين القرى والمدن اليونانية متغنياً بمقطوعاته وأشعاره ! ومن مجموع هذه الأشعار تألفت قصيدتاه « الإلياذة » و « الأوديسة » ، وإنهما لدلالة المجد ليونان في القديم وفي الحديث ، وعلى مدى الأيام ، ولقد مضى ما مضى من القرون والأجيال ، وما زال العالم أجمع يتغنى بأمجاد يونان ومفاخرها ، لا كما رواها المؤرخون وتحدث بها الكاتبون ، بل كما ترنم بها ذلك الشاعر الضرير الشحاذ .

وهذه شعوب البلقان ، أتى عليها حين من الدهر وهي هدف الفاتحين والمستعمرين ، حتى تحللت قوميتها وتخاذلت شخصيتها ، وضاعت معالمها العريقة تحت سنابك الخيل المغيرة ، فلم يحفظ للبلقانيين تاريخهم ولغتهم إلا طائفة من العميان المتسولين ، كانوا يتوارثون نظم الأغاني والأناشيد ، ويحذقون توقيعها على الناي والرباب ، ويطوفون بالقرى والعساكر ، يحدثون أبناء قومهم حديث الزمن الغابر ، ويروون لهم وقائع أبطالهم « ماركو » صاحب الخنجر الشعبي الذي كان يلبس جلد الذئب ، ويركب الجواد « شارازا » فيفرق جيوش الأعداء ، ويخلص الأسرى من الفناء ، على نحو ما نعرف من مظاهر البطولة في قصص عنترة والمهلهل وبني هلال . ويرى الباحثون أن أغاني أولئك العميان وأناشيدهم هي التي حفظت للبلقانيين تاريخ أسلافهم ، وقصص أبطالهم ، وصانت لغاتهم من الضياع والنسيان .

وماذا في الأدب العربي غير شعر ألّف برسم أمير ، أو كتاب كتب على شرط وزير ، وإلا روائع القصيد وآيات الشعر أنشدت طلباً للعطاء في ساحات الملوك وعلى أبواب الخلفاء ! وهذه مقامات الهمذاني والحريري وأكثر ما فيها من مادة فنية يقوم على حيل أهل الكدية وبراعة العباقرة في صناعة بني ساسان[1] . وهل تعلم أن الشاعر الكبير أبا عبادة البحتري كان في مطلع حياته يطوف بالأسواق في أسمال خلقة بالية وفي يده مخلاة ، فينظم الأشعار لباعة الخضر والبقول والفاكهة ينادون بها على سلعهم في الناس ويأخذ الأجر على ذلك ما يمنحونه من فضل سلعهم وبضائعهم ، فلا يعود إلا وقد امتلأت مخلاته بما يشتهي ويريد .

ولعل صنيع الشاعر الأندلسي أبي عامر بن شهيد كان أعجب وأغرب ، إذ كان يجلس في قرطبة — وهو ما هو مجداً وحسباً وعلماً — يصنع الأشعار للشحاذين إعانة لهم على نيل مآربهم عند الناس ، واستدرار عطف العامة على حالهم . وفي قصة « التوابع والزوابع » يتحدث ابن شهيد عما كان يقع له مع هؤلاء الشحاذين فيقول : « وربما لاذ بنا المستطعم باسم الشعر ممن يخبط العامة والخاصة بسؤاله ، فيصادف منّا حالاً لا تتسع له في كبير مبرة ، فنشاركه ، ونعتذر له ، وربما أمددناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصابين ، فإذا قرعت أسماعهم ومازجت أفهامهم ، درّ حلبهم ، وانحلت عقدهم ، وجلّ شخص ذلك البائس في عيونهم ، فما شئت إذ ذاك من خبزة وثيرة يحشى بها كمه ، ورقبة سمينة تدس في مخلاته ، وتينة رطبة يسد بها حلقومه ، فلا يكاد البائس يستتم ذلك حتى يأتينا ، فينكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يمسحها ، راجياً في أن نكشف له السر الذي حرك العامة فبذلت ما عندها له ، وبادرت برفدها إليه ، وتعليمه ذلك النحو من الشحذ لا نستطيعه ، لأن هذا الذي يريد منا هو تعليمه البيان ، وبين فكره وبينه حجاب ، ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ، ووجه من البيان . . »

وفي كل فن من معارض القول سر من أسرار البيان يصله بالنفوس ، ويستفز الوجدانات بالانفعال ، وليس ذلك يقاصر على الفصحى وحدها ، وإنما هو كذلك في الكلام الملحون ، وفي طرائق التعبير بالعامية ، وإنك لتجد من هذا في أغاني الشحاذين الملحة البارعة تهز عطفك ، والمفارقة الرائعة تستخف طربك ، والقصة المؤثرة بوقائعها وغرائبها يجري بها الصوت الشجيّ المبحوح في نغم البياتي هادئاً ليناً ، وكأنه بهذا يعرب عن معاني الاستسلام لأحداث الزمان القاسية ، وتقلبات الأيام العاتية ، وصنيع الدهر الذي طالما هدم كل شامخ مكين ! وفي أحيان تراه ينطلق عالياً تنتفخ به أوداج السائل في حدة وشدة ، وكأنه بهذا يفصح عما في نفسه من الغيظ والحنق ، إذ ينادي ولا سميع ، ويدعو ولا مجيب ، وإنه التعبير عن واقع الحال ، وليست البلاغة كما قالوا إلا التعبير عن مقتضى الحال .

نجد هذا كله في أغاني الشحاذين ، ونجد إلى جانبه صورة البيئة الشعبية في المجتمع المصري ، يتجلى فيها كثير من نوازع هذه البيئة واتجاهاتها ، إذ أن هذه الأغاني تدور في موضوعاتها ومعانيها على تملق العواطف وإثارتها ، سواء بالضرب على وتر الدين ، أو بالوعظ بأحداث الزمان وحوادث الأولين ، أو بتلقف النوادر وفكاهات المضحكين ، أو بترديد أدوار العشق والغرام وقصص المحبين ، إلى آخر تلك المعاني التي تجد الصدى والتجاوب في نفوس السامعين ! وفي كل هذا يجد الباحث ألواناً من الأسى والحزن ، وألواناً أخرى من فن الطرب والضحك ! ومن ثم كانت أغاني الشحاذين من أهم فنون « الفولكلور » الشعبي الذي يعنى الباحثون بدراسته ، وتقصي مراميه ودلالاته .

على أن في أغاني الشحاذين ناحية جديرة بالتقصي والدرس والنظر والتحليل ، وأعني بها ذلك القصص يرددونه بألحانهم وتوقيعهم ، وكله يدور حول المعجزات الدينية ، وخوارق الأولياء وكراماتهم ! فمن أين انتهى إليهم هذا القصص بوقائعه وغرائبه ؟ وماذا له من المصادر الأصيلة والرواية الصحيحة ؟ وإلى من يرجع صنعه وحكايته ؟ وما مدى صلته بالبيئة الإسلامية وأثره في نفسيتها ؟ في كل هذا يجد الباحث أمامه مجالاً فسيحاً للدرس الطريف ، والتحقيق الممتع ! ولأجل أن نفصل الكلام في كل ما قدمنا ، رأينا أن نقسم الشحاذين إلى طوائف ، ونخص أغاني كل طائفة منهم بالكلام على حدة ، وإلى المقال التالي حيث نسير في موكب الشحاذين .

محمد فهمي عبد اللطيف

(١) تعرف الشحاذة عند العرب بصناعة بني ساسان من الفرس .

أحمد شـــوقى

أمير الشـــعراء

— ٤ —

الأستاذ عبد السميع المصرى

أغانيـــه

لقد رأى أبو الفرج الأصفهانى أن من يستحق الخلود من الشعراء هم أولئك الذين تغنى الناس بأشعارهم وأنشد الحادى فى دجى الليل وإصباح النهار أغانيهم ، فأفرد لهم دون سواهم كتابه الكبير « الأغانى » .

ولو أن أبا الفرج الأصفهانى أدرك شوقى وعصره وسمع شعره ورأى هذا العدد العديد من المنشدين ينشدون أغانيه وهذه الملايين التى تردد أشعاره لأخذه العجب وتملكه الذهول ولأرى إلى جوار شوقى من الشعراء من يستحق الخلود .

وحتى لا أتهم بالإسراف أو المبالغة سأورد لكم طرفاً من أغانى شوقى لتشهدوا له معى بعذوبة ألفاظها وجمال موسيقاها وسمو المعانى فيها وحلاوة التعبير الشعرى .

يقول شوقى :—

يا ناعماً رقدت جفونه   مضناك لا تهدا شجونه
حمل الهوى لك كله   إن لم تعنه فمن يعينه
عد منعماً أو لا تعد   أودعت سرك من يصونه
بينى وبينك فى الهوى   سبب سيجمعنا متينه
رشأ يعاب الساحرو   ن وسحرهم إلا جفونه
الروح ملك يمينه   يفديه ما ملكت يمينه
ما البان إلا قده   لو تيمت قلباً غصونه
وزين كل يتيمة   له وتحسبها تزينه
ما العمر إلا ليلة   كان الصباح لها جبينه
بات الغرام يدبننا   فيها كما بتنا ندينه
بين الرقيب وبيننا   واد تباعده حزونه
نغتابه ونقول لا   بقى الرقيب ولا عيونه

ومن منا لا يذكر تلك الأغنية التى يردد فيها شوقى ذكريات له فى فلسطين الشقيقة :

ياجارة الوادى طــربت وعادنى
ما يشبه الأحلام من ذكراك
مثلت فى الذكرى هواك وفى الكرى
والذكريات صدى السنين الحاكى
ولقد مررت على الرياض بربوة
غناء كنت حيالها ألقـــاك
ضحكت إلى وجوهها وعيونها
ووجـــدت فى أنفاسها رياك
فذهبت فى الأيام أذكر رفرفا
بين الجـــداول والعيون حواك
أذكرت هرولة الصبابة والهوى
لما خطرت يقبلان خطاك
لم أدر ما طيب العناق على الهوى
حتى ترفق ســـاعدى فطواك
وتأودت أعطاف بانك فى يدى
واحمرّ من خفريهما خداك
ودخلت فى ليلين فرعك والدجى
ولثمت كالصبح المنـــور فاك
ووجدت فى كنه الجوانح نشوة
من طيب فيك ومن سلاف لماك
وتعطلت لغة الكلام وخاطبت
عينىّ فى لغة الهـــوى عيناك
ومحوت كل لبانة من خاطرى
ونسيت كل تعاتب وتشـــاكى
لا أمس من عمر الزمان ولا غد
جمع الزمان فكان يوم رضاك

هذا قليل من كثير مما حواه ديوان شوقى ، كما أن فى

مسرحياته الكثير من الأغاني ، فمن (مصرع كليوباترا) لاشك أنكم تذكرون هذه الأغنية .

أنا أنطنيو وأنطنيو أنا   ما لروحينا عن الحب غنى

غنا في الشوق أوغني بنا   نحن في الحب حديث بعدنا

رجعت عن شجونا الربع الحنون

وعينينا بكى الزمن المفتون

وبعثنا من نفاثات الشجون   في حواشي الليل برقا وسنى

خبري بالكأس واشهد يا وتر   وارو يا ليل وحدث يا سحر

هل جنينا من ربا الأنس الثمر

ورشفنا من دواليها السنى

الحيـاة الحب والحب الحيـاة

هو من سرحتها سر النـواة

أما مسرحيته الخالدة (مجنون ليلى) فتكاد أن تكون جميعها أغنية طويلة سترددها الأجيال المقبلة كما يرددها الجيل الحاضر .

ولم يقف الأمر بشوقي عند هذه الأغاني العربية فقط ، بل لقد قاد شوقي ثورة مباركة في دنيا الأغاني الشعبية ، لقد عاصر شوقي عصراً كانت أغانينا فيه تعاني اضمحلالاً وانحطاطاً مروعاً ، فهي لا تخرج عن ترديد آهات وليالي ومواويل لا تحوي إلا المبتذل من المعاني والألفاظ والسقيم من الصور والتخيلات ، فقفز بها شوقي إلى الأمام سريعاً وخرج على الناس بأغاني تعبر تعبيراً راقياً عن معانٍ سامية وشعور فياض وتفصح عن خلجات الفؤاد في أحسن أسلوب وأقوم تصوير . لنأخذ مثلاً أغنية :

في الليل لمـا خلي   إلا من البـاكي

والنوح على الدوح حلي   للصارخ الشاكي

ما تعرف البلبـل   في الروض من الحاكي

سكون ووحشه وظلمه   وليل مالوش آخر

ونجمـه مالت   ونجمه حلفت ما تتأخر

والنوم يا ليـل نعمه   يحلم بها السـاهر

الفجر شقشق وفاض   على سـواد الخميله

لمع كلمح البياض   من العيون الكحيله

والليل سرح في الرياض   أدهم بغره جميله

هنا نواح على الغصون   وهناك بكا في المضاجع

ليه يشتهي النوم عيون   وعيون سواهي هواجع

وروح غرق في الشجون   وروح ماداقش الواجع

يا ليل أنين سمته   والشوق رجع لي وعاد

وكل جرح وساعته   وكل جرح بميعاد

كان مين مفارق وجيته   ونضو هجر وبعـاد

تأمل معي قليلاً هذا التصوير البارع لبزوغ نور الفجر في الليل البهيم مشبهاً إياه بلمع بياض العين السوداء وبالجواد الأسود ذي الغرة البيضاء . لا شك أنه لم تحو أغنية مصرية شعبية قبل هـذه الأغنية ولا بعدها مثل هذا التصوير الفني البديع .

ثم هو يرثي حظه في عتاب بلغ منتهى الرقة مع السمو عن الابتذال الرخيص الشائع اليوم في أغانينا :

ليه يشتهي النوم عيون   وعيون سواهي هواجع

وروح غرق في الشجون   وروح ما داقش الواجع

وفي أغنية بلبل على الغصون يصف شوق الورد فيبلغ في وصفه منتهى الإبداع والدقة مستعيناً في وصفه بتشبيهات نادرة شاذة ، لكنها بالغة في الروعة ودقة الوصف مبلغاً عظيماً :

بلبل حيران على الغصون   شجي معنى بالورد هايم

في الدوح سهران من الشجون

بكى وغنى والورد نايم

سكران بغير الكاس   في مجلس الورد

من عنبر الأنفاس   ومنظر الخـد

يمس فوقه ويمس تحته   ويعد طوقه ويشم ريحته

فتن عطفه وفتن يشـبل

وجناح يقوم به وجناح يميل

في إيد الليـل يلعب به   ووراه الويل يا قلبـه

مجروح من ساقه ومن طوقـه

من بالشـوك من شوقه

ومن دوح لدوح سهر ونوح

يا ليل ده طير بدن وروح

من فرع غصنـه عالورد مال

وراح يميل وجـه شمال

قال له يا سوسن يا غر منه

يا ورد أحسن من ورد جنه

مين بالفـرح لونك مـين

ومن الشـفق سكرتك مين

يارمحة الحبايب ياخدّ الـملاح
لشوكك جمالك وصمت السلاح

تبارك اللى خلق ظلك من الجنة
والى كساك الورق واده دى الفة

زى القبل وافت شفه على شفه

يا ورد فوق لا الجناح
ينوش ولا الجرح يرق

تشوقى وقت الصباح جدد على الأرض ملق
أموت شهيد الجراح ويعيش جمالك ويبق

ولنختم هذه الأمثلة ببعض أسطر من أغنيته الأخيرة (النيل نجاشى) ولاشك أن أحداً لم يسبق شوق بهذا الوصف للنيل.

النيل نجاشى حليوه أسمر
عجب لونه دهب ومرمر

قالت غرامى فى فلوكة وساعة نزهه على النيه
لحت على البعد حمامه رايحه على النيه وجايه

بعد ذلك حاول أن تقارن مثل هذه الأغانى بهذا اللغو الذى تسمعه كل يوم من الإذاعة وفى الحفلات العامة والخاصة، لطالما سمعت عبد الوهاب يقول مناجياً (حبيب المجهول)

ياحبيبى دنا وبك روحى تتمنى لقاك

وفى كل مرة كنت أحاول أن أفهم ماذا يقصد الشاعر بأنه وباء وفى نفس الوقت يتمنى لقاه. لكنى أقر بأنى عجزت عن الوصول إلى نتيجة.

وطالما اشمأزت نفسى عندما كنت أسمع هذه الأغنية التى مطلعها:

ساعة ما بشوفك جنبى ما أقدرش أدارى واخبى

لما حوت من ابتذال مهين ومعان سقيمة، ووصف لرجولة مهيضة مطيعة.

وكلما حاولت المقارنة بين الأغانى الحالية وبين تلك الأغانى التى أتحفنا بها شوق خرجت بنتيجة مؤلمة، هى أن الأغانى من بعده قد نكست نكسة مروعة، فعادت إلى الابتذال بل وأسفت إسفافاً فظيعاً، حتى يخيل إلىّ أحياناً أن مصر قد عقمت بعد شوق فلم تنجب شاعراً يستطيع أن يكتب أغنية صالحة، اللهم خلا النادر مما يطلع علينا به من حين لآخر شاعر مبدع كأحمد رامى.

أمير الشعراء

لا أظن أن شاعراً قبل شوق قد نال ما نال من التكريم، ولم يحدث قط فى التاريخ أن اجتمع أدباء لغة وشعراؤها لتنصيب أمير لفن من فنونها كما اجتمع أدباء اللغة العربية وشعراؤها من جميع أقطار الأرض لتكريم شوق ومبايعته بإمارة الشعر.

لقد انعقد هذا الحفل رسمياً فى أيام ٢٩ و ٣٠ أبريل، وأول وثانى مايو سنة ١٩٢٧، وبلغ عدد ما ألقى فيه من كلمات وقصائد لتكريم شوق أربعاً وثلاثين، واستمرت الحفلات بعد ذلك حتى يوم ٦ مايو سنة ١٩٢٧، وقد وقف شاعر النيل حافظ إبراهيم فى اليوم الأول آخذاً بيد شوق منشداً:

أمير القوافى قد أتيت مبايعاً
وهذه جموع الشرق قد بايعت معى

أفبعد هذا الحديث يجرءون ويحاولون فى تفوق شوق وزعامته لشعراء عصره، لقد خلف شوق للعربية ثروة يعتز بها ويباهى، من دواوين شعر وقصص المسرح الحرف وكتب فى النثر: ورواية لادياس — رواية ورقة الآس — رواية على بك الكبير — مذكرات بنتاور — الشوقيات الأولى — ديوان الشوقيات فى أربعة أجزاء — رواية مصرع كليوباترا — رواية مجنون ليلى — رواية قمبيز — رواية على بك أو دولة المماليك — رواية عنترة — رواية أمير الأندلس — أسواق الذهب (نثر) عظماء الإسلام رواية السيدة هدى — رواية البخيلة.

هذه لمحة خاطفة عن شوق لا تغنى من سيرته شيئاً، ولا تزيد عن صدى للحظات قضيتها مع شوق فى كتبه وسعدت بها، وما أصدقه حين قال:

ما مات من حاز الثرى آثاره واستولت الدنيا على آدابه

عبد السميع المصرى

مراجع البحث:

١ — الشوقيات وكتب شوق بك
٢ — أحمد شوق لأنطون الجميل
٣ — شوق وحافظ لطه حسين
٤ — أحمد شوق بقلم سكرتيره
٥ — أبى شوق بقلم حسين شوق

مع الفكر الأوربى المعاصر

للأستاذ مبارك إبراهيم

١ – عالم من علماء اللغات

للكاتب « بريان فتزجيرالد » Brian Fitzgerald

هو جورج بورو George Borrow (١٨٠٣ – ١٨٨١) وقد كان كاتباً من الكتاب المثقفين ، وعالماً من علماء اللغات - تلقى علومه – أكثر ما تلقى – فى جامعة إدنبره . وكان يجيد سبع لغات فوق إجادته لغة النَّوَر . وقد ألف قاموساً فى مفردات تلك اللغة .

قال الكاتب :

يمكن أن يقال عن « بورو » إن القالب الذى صُب فيه قد كسر بعد الفراغ من خلقه . وقد وصفه بمثل هذا القول ناقد وشاعر هو « تيودور دنتن » (المتوفى عام ١٩١٤) وقد كان يرى فيه كائناً نادر الوجود .

والحق أن « بورو » لم يكن رجلاً يتم التعارف بينه وبين الناس فى سهولة ويسر . وأنت إذا قرأت ما كتبه عنه أولئك الذين عرفوه معرفة شخصية فى مختلف مراحل حياته الطويلة أيقنت أنه كان شخصية قد أحاط بها الشذوذ من جميع أقطارها . ورأيت فيه إنساناً فى طبعه حدة وجماح ، وقد غلب عليه حب التسلط والسيطرة .

وحتى « إدوارد فتزجيرالد » (مترجم رباعيات الخيام) الذى كان كذلك قد اشتهر بغرابة الخلق ، كان يرى فيه رجلاً ركبت طبائعه تركيباً قد خالف القياس ، وجانب المألوف والعرف . وإن كان « فتزجيرالد » يكاد يكون الصديق الوحيد من أصدقاء « بورو » الذى يستطيع أن يفاخر بأن العراك لم يدر يوماً ما بينه وبين « بورو » . والفضل فى ذلك لا يرجع إلى إفراط « فتزجيرالد » فى الرقة والظرف ، وإلى إغراقه فى البلادة والكسل فحسب . بل يرجع أكثر من ذلك إلى أنهما قلّما كانا يلتقيان ...

و « جورج بورو » لم يكن رجلاً من اليسور أن يكتب عنه الكاتبون ، إذ كانت حياته تختلف الاختلاف كله عن الحياة التى يحياها كثير من الناس فى أيامه الماضية بل فى أيامنا الحاضرة .

وقد كان « بورو » لا يرى غضاضة فى أن يخفى أهدية قلّ أن تجد بين الرجال المهذبين من يعرف شيئاً عنها . ولذلك فقد كان مالئه وعالم من ترجموا له جد مختلفين . ومن أجل ذلك قنع كثير من أولئك المترجمين بأن يدونوا أهم وقائع حياته دون شرح أو تعليق . وا كتفى واحد أو اثنان منهم بأن علقوا على كتبه بعض التعليق ، وقد تركوا الرجل وذكراه ينعمان براحة العزلة .

ثم جاء « هربرت جنكنز » وهو خير مترجم له حاول أن يفصل بين الحق والباطل فى تاريخ الرجل ففشل فشلاً ذريعاً . ذلك لأنه كغيره من المترجمين لم يكن يلمّ بنوع الحياة التى كان يحياها « بورو » .

وقد كتب عنه وعن كتبه فى أيامنا هذه كتابان نظر فيهما مؤلفاهما إلى المترجم له بعين طبيب الأمراض العقلية . وقال أحدهما عنه إنه كان عنيفاً . واتفق الاثنان على القول بأنه كان كذاباً من غلاة الكذابين .

أما سائر من ترجموا له فقد أحصوا كل صغيرة وكبيرة من أخطائه ، وبخاصة فيما يتعلق ببراعته فى اللغات ، وذلك لجهل أولئك المترجمين – وهم فى جهلهم معذورون – بطبيعة الأقوام الذين كان يخالطهم ويرفع الكلفة بينه وبينهم . وكذلك لجهلهم بأسلوب عيش أولئك الأقوام وطريقة نظرهم إلى الحياة .

أما « بورو » فكان يظن بنفسه أنه فقيه من فقهاء اللغات ، وهو لون من الغرور يثير الابتسام . والحق أنه كان فقيهاً من غير المجيدين ، وإن كان مما لا شك فيه أنه كان يجيد التحدث باللغات .

وقام واحد من أولئك المترجمين فألقى بعض الشك على معرفة « بورو » بلغة النَّوَر . وكأنه بهذا الشك قد وجه

إلى « بورو » ضربة قاسية ، مازالت آثارها عالقة بذكراه حتى اليوم .

ووجه الغرابة فيما أسلفنا أن أحداً من الذين ترجموا له لم يكن يستطيع التحدث بلغة التشور . ولم يكن واحد منهم قد سار يوماً ما في ركب أولئك القوم ورحل رحلاتهم . ولم يكن واحد منهم قد قص آثار « بورو » في أسبانيا أو روسيا . ولم يحاول أحد منهم سد الفجوة البعيدة الغور التي كانت تقوم بين دنيا « بورو » وبين دنيا الناس .

والرأي عندي أن خير من يصلح للترجمة لهذا الرجل هو من تدفعه الرغبة في الإجادة إلى أن يجد جوب الأقطار التي جابها صاحبه ، وأن يلق أحباء أولئك الناس الذين كان يلقاهم ، وأن يرى — ما أمكنه الرؤية — كل المشاهد التي رأى .

ويبدو أنه من غير المحتمل أن يستطيع إنسان — كائناً ما كان — أن يفعل اليوم ما كان يفعله « بورو » في زمانه ، وكيف يستطاع وصف حياة كالحياة التي عاشها « بورو » في دنيانا هذه التي كلحت وجهها ، وزوت مابين عينيها ، وغشيتها غاشية من الهم والغم ..

٢ — قسوة الناس على الناس

للكاتب وبستر إفانس

Man's Inhumanity to Man
By Webster Evans

قال الكاتب :

في عام ١٩٤٦ وفي صحبة ضابط من ضباط الطيران النرويجيين كنت أجتاز شارعاً من شوارع مدينة « أوسلو » عاصمة النرويج ، فشاهدت فتى مبتور الساقين يدفع نفسه إلى الأمام دفعاً ، وهو راكب عربة تشبه المراجيح . فلما رآه صاحبي قال : لقد فعل به الألمان ما ترى ، وقد كان هذا الفتى من قبل من أشهر المتزحلقين على الثلج .

وبعد أسبوع أو أسبوعين شاهدت في « برلين » طبيبة ألمانية شابة كانت لا تستطيع حراكا إلا مستندة على عكازين . وقال واحد من زملائي الأطباء : — لقد نزلت بها المصيبة على أيدي الروس .

ولقد تذكرت هذين الحادثين اليوم وأنا أقرأ كتباً أربعة تدور موضوعاتها حول قسوة الناس على الناس . أما مؤلفا كتابين من تلك الكتب فقد ذاقا العذاب ألواناً على أيدي الألمان ، وأما مؤلفا الكتابين الآخرين فقد لقيا الهول والويل على أيدي الروس .

وثلاثة من أولئك الكتاب قد عاشوا ليذيعوا في الناس ما كتبوا . أما الرابع وهو « بيتر مورن النرويجي » فقد مات غرقاً وهو في طريقه من النرويج إلى ألمانيا .

وقد كان هذا الرجل مواطناً شجاعاً من أهل النرويج ، ولما احتل الألمان بلاده لجأ إلى الكفاح السري . فلما وقع في عام ١٩٤٤ أسيراً في أيدي الألمان خان إخوانه المجاهدين وغدر بهم مدفوعاً بما لاقى من عذاب ونكال ، وبدأ يكتب « يومياته » على أوراق دورة المياه ، وكان يخبؤها في داخل غطاء المروحة ، وقد عثر عليها من عثر بعد الحرب .

وهذه « اليوميات » تفيض سطورها أسى وحزناً ، وهو فيها يبدي ما لقيه من عذاب الضمير جزاء على خيانته لأصدقائه وإخوانه ، وما كان يؤرقه من شوق إلى زوجته ومن تقليبه الرأي فيما عسى أن يريحه من عذاب النفس ، وقد كان دائماً يذكر قول « هملت » : « وهكذا يخلق الضمير منا جميعاً خوارين جبناء » .

وقد جاء في إحدى يومياته .

أريد أن أكون رجلا مقداماً ، ولكني لست بالرجل المقدام ، ولقد كان واجباً علي أن أبيع دمي لأولئك الوحوش من رجال الجستابو دون أن أبوح بأسرار إخواني وأصحابي ، ولكني لم أستطع الكتمان ، ولقد تناهبني الخوف والألم ، وإني ليتولاني الخزي مما ارتكبت من إثم الخيانة والغدر ، ولهذا لست أريد أن أرى أحداً من بني قومي بعد الحرب ، وكثيراً ما طاف بخاطري أن أليق شيء بي هو أن توقع علي عقوبة الإعدام . . .

ويبدو أن من حسن طالع هذا الرجل أنه قد مات ، وهو يخفف من ثقل ما كان يلقى بقوله :

« كيف كان يستطيع الثبات من كان يقف طوال الليل في كهوف يعلوها الثلج ، وعرق الخوف يفيض من جبينه ، وظهره قد قطعته السياط ، وجسمه قد داسته نعال الحراس الأشداء الغلاظ » .

أما كتاب فرانسوا أمبرير فهو يشير لوناً آخر من الإشفاق ؛ وهو الإشفاق على أمة أذلت الهزيمة كبرياءها ، وهو جندي فرنسي وقع في أسر الألمان مع آلاف آخرين من إخوانه في عام ١٩٤٠ وقضى في الأسر خمس سنين .

وإذا قيسوا إلى الروسيين فإن الفرنسيين لم يلاقوا شيئاً من العذاب على يد الألمان . فلقد رأى هذا الكاتب فوجاً من الأسرى الروس يبلغون مدينة « لبرج » بعد رحلة شاقة دامت شهرين قضوها مشياً على الأقدام ، وهو يصفهم بقوله : —

التف كل أسير من الأسرى في خرق وأسمال ، وكانوا يجرون أرجلهم جراً ، وإذا رأيتهم حسبتهم نواماً يمشون ، وهم — من فرط العذاب — لا يكادون يحسون شيئاً مما يدور حولهم . فليست توقظهم الصفعات ، وهم يتلقونها على أقفيتهم غير مبالين ، ولا الضرب بالنعال يدفعهم في ظهورهم دفعا ، وليس يخيفهم نباح الكلاب الضارية .

وهناك ما يقصه واحد من الأسرى البولنديين كان قد وقع في أيدي الروس ، وكانت تهمته أنه حاول اجتياز الحدود التي تفصل بين البلاد السوفيتية وبين « لتوانيا » وذلك ليحارب ضد الاتحاد السوفيتي . ثم قيل له : ألا تستطيع أن تبدل قولك « لمحاربة ألمانيا » بقولك « لمحاربة الاتحاد السوفيتي » ؟ قال فلما تولاني الذهول لما يراد بي أيقظني من ذهولي صفعة قاسية . وقد تولى قاض من القضاة مهمة الترويع عني وأنا أكتب اسمي تحت اعتراف بأني مجرم ، وهو الاعتراف الذي كتبت صيغته فوق لوحة وضعت أمامي وكان ينقصها الإمضاء . . . .

وقد كان جزائي السجن خمس سنين ، وبعثوا بي إلى معسكر الاعتقال بمدينة « أركانجل » الواقعة على البحر الأبيض ، وفي ذلك المكان السحيق من مجاهل الأرض لقيت آلافا من الرجال .

وهناك ما يقصه « ﭬلاديمير بتروف » بعد إطلاق سراحه في سنة ١٩٤٢ ، وذلك بعد أن قضى سبع سنين نزيل سجن من سجون سيبيريا ، وقد كان قبل أن يسجن طالبا من طلاب الهندسة في مدينة « لينجراد » يوم اتهم بمناوأته لحكومة الثورة ، وقد كانت إجراءات التحقيق معه إجراءات مضحكة مخزية . فكان المحققون يحاولون إثبات التهمة بكل وسيلة كأن يقولوا إن الخطابات التي ضبطت وكانت مرسلة منه إلى أمريكا وكان موضوعها يدور حول جمع طوابع البريد . إنما كانت تنطوي في ثناياها أفكاراً تدعو إلى الجريمة وتحض عليها .

وبعد فإذا فرغ المرء من قراءة هذه الفقرات أصبح قاسي القلب لا تعرف الرحمة إليه سبيلا .

وليس الأمر عندي أمر ألماني أسيئت معاملته أو روسي قد لقي الأمرين على يد ألماني ، ولكن الأمر أخطر من ذلك وأشد هولاً ، إذ هو أمر قسوة الناس على الناس ، وهم في الأصل إخوان : أبوهم آدم والأم حواء .

٣ — الكتاب في مباذلهم

Writers in Slippers

يقول « وليم هازلت » : إن الكتابة في أسلوب سهل إنما هي مطلب جدُّ عسير ، وأمرٌ يتطلب بذل أقصى الجهد ، ومن مستلزمات ذلك الأسلوب الصفاء والوضوح .

وآية ذلك الأسلوب أن يكتب الكاتب وكأنه يتحدث حديثاً عادياً روعي فيه حسن انتقاء الكلمات ، وإن شئت فقل إن آيته أن يكتب الكاتب وكأنه يحاضر جمهوراً من المستمعين مراعياً في تخير جمله وألفاظه أن تكون قوية واضحة ، وأن يتجنب التعالم والزخرف الخطابي :

طبيبٌ بداء فنون الكلام فلم يعي يوماً ولم يهذر
فإن هو أطنب في خطبة قضى للمُطيل على المُنزر
وإن هو أوجز في خطبة قضى للمقلّ على المُكثر

أما كتابة المقالات كما نعرفها اليوم كلون من ألوان الأدب فقد بدأها في القرن السادس عشر الكاتب الفرنسي « مونتاين » ، (نسبة إلى قصر « مونتاين » الذي ولد فيه — وهو قصر أبيه — أما اسمه الأصلي فهو « ميشيل إيكيم ») .

والقارئ لمقالات « مونتاين » اليوم ، وأعني بذلك مقالاته العادية ، يلتقي بين سطورها ذلك الكاتب الجريء ، والفكر الأصيل . وقد قيل فيه — بحق — إنه كان يبدي في مقالاته ضروباً من الألفة والودة ، لا ليجذب إليه القراء

بل ليكسب لنفسه الحق فى أن يقول ما يشاء ويرضى ؟ ذلك أنه فى أيام « مونتاين » كان حق الكاتب فى أن يقول ما يشاء ويرضى مسألة فيها نظر ، وكان الكاتب إذا أبدى آراءه وكأنه يتحدث إلى خاصائه — وهو جالس فى مباذله بجوار المدفأة — أصبح عرضة للعقاب بتهمة الحريق المقل العمد » .

وكان مونتاين يقول : « إنى أتحدث إلى الأوراق التى أكتب فيها وكأنى أتحدث إلى أول صديق ألقاه » .

وكان ما يتحدث به « مونتاين » إلى أوراقه يربو وينمو كلما ازدادت معرفة الكاتب بنفسه مدى واتساعاً ، وأدت معرفة الكاتب بنفسه إلى أن الآراء التى صدرت عنه لم يتصل لونها إلى يومنا هذا .

وقد بدأ مونتاين بدراسة أصحاب الآراء من المفكرين القدماء ، وكان يكثر من الاقتباس منهم ، ولما أطال التأمل والنظر فيما قالوه عن العقل الإنسانى وعن واجبات ذلك العقل وحدود معرفته استخلص لنفسه رأياً صائباً جديداً ، ضمنه قوله :

لقد كان أولى بى أن أعرف نفسى بدراستى لنفسى أكثر من معرفتها بدراستى « لشيشرو » . وبعبارة أخرى يمكن أن يقال إنه قد استيقن حاجة كل عقل أصيل إلى أن يفحص عن صفات ذلك العقل ، ثم طفق « مونتاين » يفتش فى زوايا نفسه فكانت مقالاته تحقيقات تدور حول معتقداته وحول صلاحية تلك المعتقدات .

وكان مونتاين فيلسوفاً ، ولكنه كان يزعم — تواضعاً منه — أنه من هواة الفلسفة ليس غير . وقد بثت مباذله بين سطور مقالاته . ولكن عقل مونتاين قد تم الكشف عنه فى ثنايا تلك المباذل .

ثم تقدم الزمن وجاء الكاتبان « ستيل » (المتوفى عام ١٧٢٩) و « أديسون » (المتوفى عام ١٧١٩) وكانا من الرجال الأذكياء . ولا بد للناقد أن يعترف أنهما كثيراً ما تركا مباذلهما ومشيا فى الأسواق فى أتم زى وأكمل زينة .

ثم جاء « دكتور جونسون » (المتوفى عام ١٧٨٤) فعنى بالأمور البالغة الجد ، المفرطة العمق ، ومع هذا فلم يدع يوماً أنه كان يتحدث إلى الصحيفة كما يتحدث إلى صاحب تربطه به معرفة عابرة ، وهو يقول :

يتحدث المتحدث ويكتب الكاتب ، وكلاهما يريد أن يفصح عما يجول بخاطره ، وقلما يخطئ متحدث أو كاتب يعرف نفسه حق المعرفة فى إبلاغ آرائه إلى الآخرين .

ولا نكران فى أن مقالات « جونسون » تقل فى بساطتها وفى لصوقها بخاصة النفس عن مقالات « جولدسمث » ذلك العبقرى المحبوب الذى كان إذا أراد أن يكتب اتخذ قلبه دليله ومرشده ، والذى كان يبسم للدنيا بسمات الإشفاق والعطف وهو العليم بسخافاتها التى لا تعد وحماقاتها التى لا تحصى . ويمكن أن يقال إن « جولد سمث » هو الذى خلق المقالة التى تدور موضوعاتها حول المسائل المألوفة .

وإنى ليتولانى الشك فى أن « شارلس لام » — وهو بين كتاب المقالة يجىء تالياً لجولد سمث — لولا قراءته أولاً لكتب « جولد سمث » لما عرف كيف يكتب مقالاته بهذه البراعة التى فتنت قراءه وما زالوا يفتنون .

ولما كان « شارلس لام » من أحلاس بلده (لم يفارق لام لندن أبداً) فقد كان كأنه يكتب للأسلاف لا للدرارى والأعقاب ، وقد حير أسلوبه هذا كثيراً من المقلدين فما استطاعوا أن يحاكوه ، وما استطاعوا أن يلحقوا به ، وعلى الرغم من هذا فقد ظل أثره باقياً فى كتابات كتاب جيل كامل . ظلوا يقتفون أثره أكثر من اقتفائهم أثر « هازلت » .

ولست بهذا أريد أن أقلل من شأن « هازلت » أو أغض من قدره . فقد كان أرحب فهماً وأوسع أفقاً من « لام » ، وكان إذا أجاد القول لا يلحق به لاحق .

مبارك إبراهيم

محكمة شربين الوطنية — إعلان بيع

إنه فى يوم الخميس ٢٢ مارس سنة ١٩٥٢ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً ببندر شربين سيباع بالمزاد العلنى مركبة نقل كبيرة نمرة ٥٤٠ دقهلية ملك عبد الحكيم محمود الشاذلى من شربين السابق حجزها تنفيذياً بتاريخ ١٩ فبراير سنة ١٩٥٢ تنفيذاً لأمر الدفع الصادر بتاريخ ١٩٥١/٤/٢٢ من محكمة شربين والحكم الصادر بتأييد الأمر فى القضية ٧٧٦ سنة ٩٥١ وفاء لمبلغ ٥٥ جنيه و ٨٢٠ مليم قيمة الحكمين والمصاريف بخلاف أجرة النشر .

كطلب الحاج متولى أرمش التاجر بشربين .
نقل راغب العراء المحضر .

القبر المتكلم

لجفري تشوسر (١٣٤٠–١٤٠٠)

ستهب الرياح هذا اليوم يا حبيبتي ،
وسيتساقط المطر أيضاً ؛
لن أكترث لذلك أبداً ،
ولكن الذي أكترث له هو أن حباً زكياً
يضطجع هنا ؛ في هذا القبر العتم البارد .
سأعمل من أجل حبي الحق
غاية ما يستطيع أن يعمله أي فتى !
سأجلس عند قبرها وأنوح
طيلة اثنى عشر شهراً عداً .
لقد أشرفت هذه الأشهر المقدسة على الانتهاء ،
وأخيراً تكلمت حبيبتي قائلة :
— آه .. من ذا الجالس عند قبري باكياً
وليس يسامح لي أن أغفو قليلاً أو أنام .
— إنه أنا ، يا حبيبتي ، عند قبرك ،
ولن أدعك تنامين ؛
ذلك لأني أشتهي من شفتيك الترابيتين الباردتين
قبلة واحدة ،
وهذا هو كل ما أبحث عنه .
— أنت تشتهي قبلة واحدة من شفتي الترابيتين الباردتين ؟
ولكن أنفاسي ، أيها الحبيب ، هي التراب الخالص
الخانق عينه ؛
فلئن اختطفت منهما قبلة تشتهيها ،
فأجلك لن يطول .

هناك في الحديقة المنبسطة الخضراء ،
يا حبيبي ، حيث اعتدنا أن نتنزه ،
ألا تتذكر ؟ . لقد شهدنا عند ساق شجرة
زهرة من أجمل أزاهير الحديقة كلها
ذاوية ذابلة ميتة .

ثم ذوت أزهار وأزهار ، بل يبست تلك الشجرة
التي كنا تحتها نستظل .
وكذلك سيضمحل قلب كل منا أو سيزحف إليهما البوار ،
فهلا تصبرت قليلا واستأنست الهدوء ،
حتى يدعوك الله إليه .

لماذا ؟

لكرستينا روزتي (١٨٣٠ — ١٨٩٤)

إن قلبي — الساعة — يحاكي طيراً مرسلا .
من عشه الهادي التربيع على غصن شجرة ريان .
أغنياته السكرة العذاب .
إنه ليشبه شجرة تفاح .
انحنت أغصانها المنتضدة بالثمر المتراص .
إنه كقوقعة مطعمة بألوان قوس قزح .
سابحة في بحر رحب تناثرت على صفحته
أنوار القمر الفضية .
لا ، إن قلبي لأبهج من هذا كله وأصبح .
ذلك لأن حبيبي قد أقبل إلي !

أنشودة

لوليم شكسبير (١٥٦٤ – ١٦١٦)

لن تستطيع الشيخوخة الشكسة أن تعيش
مع الشباب أبداً .
فالشباب مفعم بالمسرة والابتهاج .
والشيخوخة مملوءة بالتحفظ والاحتراس .
الشباب كأنه الصباح الصائف .
والشيخوخة كأنها مناخ الشتاء .
الشباب كالصيف الباسل الجرىء .
والشيخوخة كالشتاء المعدم العريان .
الشباب مملوء بالمرح والدعابة .
والشيخوخة منكمشة متقطعة الأنفاس .
الشباب رشيق مقدام ، والشيخوخة عرجاء متلكئة .
الشباب متأجج ، شجاع حار .

شروق من الغـــرب

تأليف الدكتور زكي نجيب محمود

للدكتور شوقي ضيف

هــذا كتاب يجمع بين دفتيه مقالات دبجتها براعة الدكتور زكي نجيب محمود في أوقات مختلفة ثم فيها نفسه وعقله ومجاميع من الأصداء العاطفية والذهنية المنكبت من دنيا الواقع المحسوس ، ولم تلبث أن تحولت إلى القرطاس فكراً وفناً .

وأنت لا تقرأ فيه حتى تتحول إليه ، فهو يستولي على من يقرأ بقوة إيمانه بما يكتب وقدرته على تحليل ما يقع له أيا كان ، فكل ما حولنا من مرئيات ومشاهدات صالح لأن يكون مادة لمقالة ممتازة في التصوير والتعبير ، بل في التفكير والتعقيل إن صح هذا التعبير .

لقد مضى على لغتنا أزمان كانت لغة صياغة ، وخرج أدبنا من شعر ونثر أدب شكل لا أدب مادة ، ليس له محتويات من المعاني ولا من امتداد الأفكار إلا ما يأتي عرضاً في بيت أو في سطر ، ثم تعود آلية الصياغة تجرى كما كانت تجرى من قديم .

الصياغة ، الصياغة ، هذا هو موطن الداء من أدبنا ، إذ نرى أصحابه يجترون صيغاً وعبارات محفوظة ، ألهتهم عن التفكير في تجديد موضوعاته ، بل في إحداث موضوعات له يطرقها الكتاب والشعراء . وبذلك بدا الأدب العربي كأنه أدب بدون موضوع ، فلا قصة ولا مسرحية ، ولا رسالة تدور في عقلنا ، وإنما صحف من كتابات إنشائية يبدو من خلالها أحياناً بعض الوميض وبعض الأمل ، فيظهر الجاحظ ويظهر أبو العلاء ، ويظهر قليل غيرهما ، ولكن سرعان ما يسدل الستار ، ولا يعم الضوء أمام المتفرجين كأنهم في استراحة ؛ بل يعم الظلام ، ويطبق من كل الجوانب .

وتظهر القامة في هــذه الثياب الهلهلة من الصياغة ، فلا تكون فيها قصة حقيقية لمجتمع ، ولا صورة لأفكار مركبة أو معللة ، وإنما تكون صوراً من زخرف وزينة ، فالمهم هندسة العبارة الأنيقة ، لا هندسة العقول الدقيقة .

ويخيل إلى متصفح الأدب العربي أن الناس كانوا يعيشون على السطح ، سطح حياتهم وسطح نفوسهم وعقولهم ، فلا عمق ولا دراسة ، ولا فكرة في الحياة إلا ما يأتي نادراً ؛ كأنهم لا يعيشون في الدنيا ، أو كأنهم لا يشعرون أنهم يعيشون في دنيا لها ضجيجها من الحركات والانفعالات والأحداث .

كأن الفرد لم يكن يشعر لنفسه بأهمية ، فلم يسجل نفسه ، ولم يسجل خواطره ، ولم يشعر أن عليه لقرائه حقوقاً ، أن يبرز لهم عالم المرئيات من حوله وما يضطرب في عقله وعقولهم من صدى لهذه المرئيات في ألوانها المفرحة والمحزنة .

كان أدبنا لفظاً خالصاً وصياغة خالصة ، فلم تتفجر فيه

أما الشيخوخة فواهنة ، متهالكة ، باردة .

الشباب طائش شيطاني ، والشيخوخة متقهقرة ذلول —

الشيخوخة ، إني لأتقزز منها .

والشباب ، ما أعظم هيامي به .

آه ! يا حبيبي ، إن حبيبي لفتية شابة !

أيتها الشيخوخة إني لأزدريك . . . أزدري حتى هذا الاسم الذي تتقمصينه .

آه ! يأيها الراعي اللطيف ، عجل . عجل بها .

لأني أراك متمهلها أكثر مما تستحق .

(البصرة — العراق)　　　كاظم محمد علي الخليفة

هذه الينابيع الصافية أو المكدرة للنفس الإنسانية وما يتخلل ذلك من تحليل وتدقيق ، ولم يعمل الأدباء من كتاب وشعراء عقولهم في الحياة من حولهم واستخراج صورها الناطقة في الإنسان وفي مزاجه وروحه .

كل ذلك لأنهم لم يحاولوا أن يعيشوا في عالم المعاني وما يتصل بها من تحليل وتعليل ، بل عاشوا في عالم الألفاظ ، هذا العالم الذي أسدلت عليهم فيه المحكايات والمبالغات حجاباً صفيقاً كثيفاً لم يستطيعوا أن يتبينوا خلاله الأشياء ، بل لم يستطيعوا أن يتبينوا فيه أنفسهم وعقولهم .

وعمّت الحيلة أو الخدعة جميع الكتاب والشعراء ، فقلما استطاع كاتب أو شاعر أن يفلت من شباكها ، كأنها كانت شباكاً سحرية ، فالكل مشدود ، والكل مشدود ، بل الكل يحاول أن يتعلق بخيط لامع من خيوط اللفظ والصيغة . وما زالوا بهذه الخيوط يلوّنون ويوشون بما يعرفون من زخرف البديع .

ولم يدر بخلد شاعر أو كاتب أن الحياة قد أسنت ، وأن البحيرة قد طفحت بالأعشاب والطحالب ، وأنه لا بد من تجديدها بإدخالها إلى نهر متدفق ، أو إدخال نهر متدفق عليها . وسرعان ما امتدت أيدي أدبائنا ومثقفينا المحدثين إلى النهر الغربي ، نهر الحضارة الأوربية ، فجاء النهر يتهادى ، وأقبلت عليه البحيرة تريد أن تجدد مياهها ، وأن تزيل ركودها .

ولم تلبث الطحالب والأعشاب أن توارت ، بل اختنقت وماتت ، ومع ذلك فلا تزال بقية ، ولا يزال النهر يلم بعضها ، ويبعد عنه بعض آخر فلا يمسه إلا لماً خفيفاً ، بل لا يكاد يمسه في بعض الأحيان ؛ وأكبر الظن أن هذه النظرة هي التي جعلت الدكتور الفاضل زكي نجيب محمود يقول في مقدمة هذا الكتاب « فإن الغرب تمنيت لو أشرق على بلادي شعاع من نور — من الغرب الذي شاءت إرادة الله أن يكون في عصرنا مبعث المدنية ومنارها ، فيه ينتج العلم والفلسفة والأدب والفن ، وتنشأ النظم الاجتماعية والسياسية ، وبين أهله تقوم الثورات التي تحطم أسوار القديم لتنبت في الأرض نباتاً جديداً . أليست المدنية الإنسانية تغمر العالم موجة في إثر موجة ، والموجات تارة يكون مسراها من هنا إلى هناك وطوراً من هناك إلى هنا ؟ خرافة أن يقال في الحضارة البشرية : شرق وغرب وشمال وجنوب . والصدق أن يقال : إنسان العصر وحضارته أينما كان الإنسان على وجه الأرض وأياما كانت حضارته . إنني في ساعات حلمي ، حين أحلم لبلادي باليوم الذي أشتهيه لها ، فإنما أصورها لنفسي وقد كتبنا من اليسار إلى اليمين كما يكتبون ، وارتدينا من الثياب ما يرتدون ، وأكلنا كما يأكلون ، لنفكر كما يفكرون ، وننظر إلى الدنيا بمثل ما ينظرون » .

وهذا الإيمان بالغرب هو الذي أملى على الدكتور زكي نجيب عنوان كتابه صادقاً ، فهو يريد لنا وللشرق أن نتناول بأيدينا أقباساً من الغرب نضيء بها دنيانا ، ونكسح بها هذا الظلام المطبق الذي يغمر حياتنا العقلية ، أو قل يغمر حياة بعضنا دون بعض . وهو يرسل كله مدوية مزلزلة ، فقد آمن بها في أعماقه ، وطبقها على صورة عقله .

ولا ريب في أنه من خير الأمثلة التي تجعلنا نؤمن معه بالدعوة إلى الغرب لا للاندماج فيه ونسيان شخصياتنا الوطنية والدينية ، ولكن للانتفاع بثقافاته ودراساته وتأملاته وما سوّى في عالم القصة والشعر والمقالة ، وما ابتدع في عوالم الفن من تمثيل وموسيقى وتصوير .

ونقول إنه من خير الأمثلة لأنه يرينا في هذا الكتاب « شروق من الغرب » أن كتابة المقالة ليست ألفاظاً تصاغ ، وإنما هي معان تتجمع من هنا وهناك ، وتتجمع معها التقاطات ولفتات المرئيات في الواقع المحسوس وواقع الفكر والتأمل ، التقاطات واللفتات تعرض علينا كل ما يصوره من جميع أطرافه ، وقد دأب أثناء ذلك عقل مثقف من طراز ممتاز على التحليل والتبسيط والتركيب والتعقيد . عقل اطلع على كثير من جوانب الفكر الفلسفي الأوربي في القديم والحديث ، وكثير من القصص وكثير من المقالات ، واستوعب ذلك كله ، فإذا هو يصبح في الطليعة من كتاب المقالة عندنا ، المقالة الجديدة التي نريدها ، ونريد لها أن تخرج من الحيز المحدود حيز اللفظ والصياغة إلى حيز الفكر والتحليل ، بل حيز الواقع المحسوس .

والواقع المحسوس عند الدكتور زكي نجيب محمود ليس إلا واقع نفسه ، يقول في مقدمته لهذه المقالات الطريفة : « هذه صفحات كتبتها — إلا قليلا جداً منها — في الأعوام الثلاثة ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ وهي سنوات عصفت فيها العواصف بنفسي ، وتجهم الأفق أمام عيني ، ورأيت خريف عمري يتساقط أمامي على الأرض أوراقاً صفراء يابسة كنت أسمع لها خشخشة كأنها حشرجة المحتضر . ونظرت فإذا بجذعي — بعد جهاد طويل — حطبة جافة من ساق وفروع ، تعرت عن الورق والزهر والثمر ، تعوى في ثناياها الريح عواء الأسماء الجائعة ، وليس على مرمى البصر منها إلا اليباب . تخلخلت التراب حول الفروع والساق ، وحملتها تجاه الغرب إلى طرف ناء من الصحراء ، حتى إذا ما أغمضت الشمس جفنيها من غروب أشعلت النار في جذعي — وبقيت حطبة يابسة — فتراءت من بعد أمام عيني المشوا... ، كأنما هي الشمس قد عادت إلى الشروق ، لترسل من حر أنفاسها شعاعاً جديداً قبل أن تعود إلى مهدها في ظلام الغيب » .

هي صفحات واضحة في هذه السنوات الثلاث إذاً عرضت في صور أو مقالات متتابعة ، وكأنها جميعها تؤلف منظراً واحداً من التشاؤم والكآبة . ولكن لا تظن حقاً أنه إنما يصور حطبة جافة ، بل هي شجرة يانعة قد ارتوت من الثقافة الغربية ، وأينعت وازدهرت ثم أثمرت ، لا ثمراً متشائماً حزيناً ، بل ثمراً عقليا رصيناً . فهو قائم على نفسه يحللها ويحلل صدى المرئيات والمقروءات فيها ؛ وما يلبث ذلك كله أن يسيل أشعة من الفكر الحر الطليق حتى من عقال تشاؤمه وكآبته ، إذ تراه يضحك من الكآبة والتشاؤم ويسخر منهما ومن قسمة الحظوظ سخرية ترسم الابتسامة على شفتيك حيناً ، وتدفعك إلى الحنو والشفقة حيناً آخر .

وأنت لا تقرأ المقالة الأولى من هذا الكتاب حتى تجده قد اجتذبك إليه ، بل قد خدعك عن وقتك وجعلك تتشبث به وبأفكاره ، تريد أن ترى آخر ما عنده من سخرية بالحياة والأوضاع ، سخرية رشيقة إن صح هذا التعبير ، فهي سخرية العقل الواعي ، الحالم حيناً ، ولكنه حلم تراه بالفكر .

وكل مقالة تشبه لوحة كاملة غنية بخطوط الفكر وألوان التحليل ، حتى في أبسط المناظر ، وكأن الكاتب قد أخذ نفسه بمذهب معين في كتابته ، فهو لا يكتب عبارة حباً للفظة أو صيغة ، وإنما يكتب حباً في إبراز المعاني ، توضيحها وتحليلها ، مستمداً في ذلك من قدرة بديعة على الصياغة .

وإن قيمة هذا الكتاب في أنه يخطو بالمقالة خطوة جديدة نحو العناية بالفكرة ، وأن تكون نسيجاً عقلياً قبل أن تكون نسيجاً لفظياً ، وأن يكون حشوها الواقع المحسوس ، وأن تذوب في هذا الواقع ذوباناً ، فإذا هي فصل حقيق من قصة حياة الكاتب ، وحياة أمته في العصر الذي يعيش فيه قد ملأه بتحليلاته وتأملاته . وإني لأهنىء الدكتور زكي نجيب محمود بهذه الفصول الخصبة الممتعة التي تمثل لنا لحظات حية من ذهنه وعقله وبصره ووعيه .

شوقي ضيف

صـــلاة !!

قالت لى صديقتى النمساوية : أين ستذهب يوم الأحد القادم ؟ قلت : ربما أمكث فى المنزل أقرأ أو أستمع إلى الراديو . قالت : ولماذا لا تذهب معى إلى الكنيسة ؟ قلت : « إنى لا أعبد ما تعبدون » ، فماذا أذهب معك إلى الكنيسة ؟.

قالت : لكن الدين عندنا فى فينا يختلف عن جميع الأديان فى العالم . وعشاق ديننا كثيرون ، وهو لا يفرق بين أبيض وأسود . وأنبياؤنا كذلك كلهم محبوبون من أناس كثيرين ، وكل من يأتى إلى فينا عليه أن يحج إلى أحد هؤلاء الأنبياء .

قلت : وما هـذا الدين الجديد الذى تدعيننى إليه ؟

قالت : عليك أن تتبعنى ...

وفى يوم الأحد إذا بصديقتى تطرق بابى فى الثامنة صباحاً وتدعونى للخروج معها إلى الكنيسة . . وفعلا قمت معها على مضض . . وكانت تضحك طوال الطريق ، ولم أدر لماذا كانت تضحك حتى وصلنا إلى الكنيسة . وإذا بى أمام شباك تذاكر به ثلاثة أنواع من التذاكر كالسينما تماماً ، صالة وبلكون وتذاكر للواقفين . .

قلت لها : أتدخلون الكنائس هنا بالتذاكر ؟ إننا نعبد إلهنا بالمجان ! .

قالت : ألم أقل لك إن الدين فى فينا غير جميع الأديان .

وتوجهنا إلى الداخل وصعدنا إلى البلكون وجلسنا على الكراسى وإذا بى أرى أمامى فرقة من الأطفال يبلغ عددهم عشرين طفلا وهم جميعاً دون الرابعة عشرة ، يلبسون ملابس تشبه ما يلبسه رجال البحرية عندنا ، وعلى جانبى هؤلاء الأطفال يجلس أشهر العازفين فى فينا ، وهم مشهورون فى العالم أجمع ومعروفون باسم « فينا فيلهارمونيكا أوركسترا » وقد زاروا مصر فى السنتين الأخيرتين وأحيوا فيها حفلات رائعة فى صالة سينما ريفولى بالقاهرة على ما أذكر . ووزع علينا البرنامج ، فإذا هو يحتوى على أربع مقطوعات موسيقية من تأليف « هايدن » . وفى العاشرة تماماً تقدم رئيس من الرهبان إلى « المذبح » وابتدأوا فى صلاتهم ثم سكتوا ، وإذا بالنغم الحلو يرن فى آذاننا وأصوات هؤلاء الأطفال وهم ينشدون كأنهم ملائكة من السماء ترفرف علينا ، وساد الجمع صمت رهيب ، وذهب الخيال بكل منا إلى حيث ما تمناه ، وانتقل الأطفال من مقطوعة إلى مقطوعة ، وانتقل معهم النغم الرائع سهلا ليناً حيناً ، ومرتفعاً صاخباً حيناً آخر . . وانتقلنا نحن معهم كما تنتقل الفراشة من زهرة إلى زهرة لتنعم بالرحيق العذب والرائحة الشجية .

ثم عادت بنا الموسيقى هادئة ناعمة وعدنا معها كذلك من سماء خيالنا إلى أرض الحقيقة . . وانتهت المقطوعات الأربع ... وخرجنا من الكنيسة وكل منا يذكر هـذه الساعة الحلوة التى كنا نريدها أن تطول ما طال بنا العمر .

وقالت صـديقتى : هل آمنت بديننا الجديد ؟ وهل آمنت بنبينا « هايدن » ؟ إننا هنا فى فينا يا صديقى حياتنا تختلف عن حياة البشر : الحب هو ديننا ، والغناء صلواتنا وتراتيلنا ، والموسيقى هى روحنا التى نحيا بها وبدونها لا نعرف للحياة طعماً . إننا نؤمن يا صديقى بأن حياتنا على وجه الأرض قصيرة وليس فيها متسع ، لذلك نجدنا جميعاً نعب من كأس الحياة ومن رحيقها أكثر ما يمكننا . نجد الكبير والصغير والشيخ والشاب كل يأخذ الحياة مأخذاً سهلا ليناً ، ينعم فيها ما شاء الله له أن ينعم ويبعد عن نفسه وعائلته وحبيبته كل ما يعوق هناءه ونعيمه .

إننا نؤمن يا صديقى أن بلدنا هى مهبط الوحى . . ونؤمن أن الوحى لا يهبط على المرء إلا فى فينا . . فى نغم الموسيقى .

هذه هى حياتنا ! ! هل أعجبتك ؟ . . إنى أعرف أنك محافظ . . وتقاليدك تمنعك أن تجارينا ، ولكن ألا تعذرنا فيما نحن فاعلون ؟ إننا خضنا غمار حربين عالميتين . . ومن سوء الطالع خسرناهما معاً . . وفقـدنا فيهما ما نعرف عنه القليل من شباب ومال وعقار وأملاك . . . إنكم تضجون لأن على أرضكم عدواً واحداً . . فماذا نفعل وعلى أرضنا أربعة

أعداء ؟ وأصبحنا ولا حول لنا ولا قوة . أتنتظر منا أن نأخذ الحياة مأخذاً جداً ونخسر مرة أخرى كل ما بقي لنا . وأنت تعلم أنه لم يبق لنا شيء . إن الحياة صعبة وليست هينة ، والأصعب أن تتغلب على ما في الحياة من صعاب ... وقد تغلبنا عليه بطريقتنا الخاصة ، وأصبحنا لا نفكر إلا في لهونا وغنائنا وموسيقانا .

هذه يا صديقي حياتنا قصصتها عليك باختصار ، فماذا ترى فيها ؟ وهل آمنت بديننا ؟ .

قلت : يا صديقي ، لكم دينكم ... ولنا دين .

(فينا)　　　　　　　　　　توفيق الشناوي

الجشع

دع الحرص على الدنيا　　وفي العيش فلا تطمع
وما تجمع من مال　　فلا تدري لمن تجمع
فقير كله حرص　　غني كل من يقنع

تقص علينا من « روسيا » قصة مزارع مرابع كان يهوى فؤاده اقتناء الأراضي الأريضة ، والمساحات العريضة ، وكلما اقتنى منها شيئاً امتدت عينه إلى المزيد ، واشتدت رغبته في استزادته ، وسمع ذات يوم من تاجر جوّال عن بلاد نائية يستطيع أن يحصل فيها على ما يريده من الأراضي بثمن بخس زهيد . فاستفسر عن طريق الوصول إلى أقطاب تلك البلاد وزعمائها الذين كانوا يتساهلون في توزيع الأرض الطيبة التي اشتهر بها إقليمهم . وغادر بلده في الحال وحمل معه كثيراً من الهدايا ابتغاء مرضاتهم واكتساب مودتهم ؛ وما إن وصل حتى استطاره الفرح بمعاينة تلك التربة الخصبة العذراء الغنية . وبادر إلى تقديم هداياه للزعيم ولعشيرته ، وكانوا من أهل السذاجة والسريرة الطيبة والفطرة الزاخرة ، وأبدى له الزعيم استعداده لأن يمنحه أكرم ما يتمناه عليه من المطالب . فقال الرجل : « إن تربة أرضكم خير ما رأيت ، أما الإقليم الذي نشأت فيه فقد اكتظ بساكنيه اكتظاظاً فرحاً استهلك حيوية التربة السوداء وانتزع منها القدرة على العطاء » .

وهجس في نفسه قائلاً : كيف أستطيع أن أنال ما أريده من أراضي هذه البلاد ؟ كيف أتمكن من حيازته فلا ينازعني في حقه منازع . ثم قال بصوت عال : « إن لديكم مساحات واسعة من الأراضي الزراعية وأريد أن أجتزىء باقتناء القليل منها ، ولكني أريد أن أضمن حيازة هذا القليل وأتبين حدوده لنفسي لأتصرف فيه تصرف المالك في ملكه ، فهل في إمكانك أن تسلمني حجة هذه الملكية ؟ » فقال الزعيم : « نعم عين يا صديقي . قريباً دعوت ، وسمعاً مجيباً ناديت ، فعندنا في بلدنا ذلك السجل المختص الذي يستطيع أن يزودك بالوثيقة القانونية المبصومة بالتوقيع الرسمي اللازم » فسأله عن قيمة ثمن الأرض ، فأجابه الرئيس : « إنه يبلغ ألف روبل في اليوم الواحد » . فسأله المزارع قائلاً : « في اليوم الواحد ؟ ماذا تعني ؟ وما عدد الأفدنة التي يستوعبها هذا اليوم ؟ ! » فقال الرئيس : « إننا نحسب عددها بمقدار المساحة التي تستطيع أن تلف حولها ماشياً على قدميك في اليوم الواحد ، ولكن لنا شرطاً فريداً ، وهو أن تعود إلى النقطة التي بدأت منها في اليوم بعينه ، وإلا ضاعت عليك نقودك » . وقرر الرئيس وزعماؤه أن يبكروا في الصباح التالي ليعملوا على تحديد مساحة الأرض التي يزرعها ذلك المزارع الرابع ، الذي لم يعرف للنوم طعماً في تلك الليلة المشهودة ، لإمعانه في تقدير جميع الأطيان التي ستكون له في الغد ولانهماكه في وضع المشروعات الخاصة بتخطيطها وفلاحتها وحرثها وغرسها . واستغرق في النوم عند الفجر ، وحلم أن الشيطان كان جالساً خارج الخيمة التي احتوته وأن الشيطان كان يضحك منه وأنه قضى نحبه ، فانزعج وهب من نومه مذعوراً ، وعول على البدء برحلته حالما ينبثق النهار ، وانطلق من خيمته أخيراً وانهمك في المشي في ثبات ومثابرة ونهم إلى ساعة متأخرة بعد الظهر ، ثم التفت نحو الراية التي اجتمع حولها أقطاب العشيرة وكان لا يزال على بعد عشرة أميال من محطة النزوم ، وقد أخذ الكلال منه كل مأخذ ، إلا أنه تابع سيره في جهد عظيم ، ولكن قدميه أصيبتا بالجروح ونزفت منهما الدماء الغزيرة واشتدت حاجته إلى الراحة ، ولكنه لا يجد سبيله إليها الآن ، إذ كان لزاماً عليه أن يعود قبل غروب الشمس إلى النقطة التي انطلق منها ، فأسرع في سيره وبدأ يشعر أنه قد أفرط في محاولته ، وشارفت الشمس الغروب وكان لا يزال بعيداً عن الراية ، فأخذ يعدو عدواً سريعاً خاطفاً وينبذ كل ما يمكن أن يعوق تقدمه ، وحين اقترب من الراية استطاع أن يتبين الرجال الذين كانوا يلوحون له بأيديهم ليستحثوه على الإسراع قبل

فوات الوقت ، واشتد عدوه ، ورغم الجهد العظيم الذى نال من قواه لم يستطع التوقف لحظة وقت فى عضده وقال وهو يجهش : « لن أدرك تلك البقعة وسأفقد حياتى فى هـذه اللحظة » . وذكر حظه الرهيب فى مرارة وكربة ، واستجمع قوته كلها ليستأنف مجهوده الأخير ، وانطلق كالسهم ووصل إلى الراية وإلى الزعيم ورجاله ، فما إن لامسهم حتى وقع ميتاً عند أقدامهم ، وهناك حفروا له قبراً ، وهناك استحوذ على قطعة الأرض الوحيدة التى كانت تلزمه — قطعة الأرض التى لم تزد مساحتها على بضع أقدام ، تبتدىء من مسقط رأسه وتنتهى عند أخمص قدميه ! !

إيه — ما أكثر ما تسجله الحوادث من أمثلة أهل الطمع ونتائجه الوخيمة ! ولقد كان الطمع وسيظل سبب دمار الناس منذ أحرز الشيطان السيادة على هـذا العالم . ولكن الطمع بل الجشع فى مقدمة القوة المسيطرة على الكونة اليوم ! ولهذا يلزمنا أن نلتفت ونتنبه إلى ما نختاره لذواتنا « وماذا يفيد الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ » . إن الإنسان الطماع الذى تكثر نفسه إلى متعة الدنيا ونعيمها لا بد أن ينحدر إلى حضيض التطفل والإسفاف والخمول والدناءة ، ويكون موضع احتقار الناس وسخريتهم ، وإن النفس لتشمئز وتنفر حين تذكر « أشعب » — ذلك الرجل الرخيص الذى ضرب به المثل فى شـدة الحرص والجشع ! وإنا لنذكر أنه كثيراً ما كان يقول : « لم أنظر إلى اثنين يتساران إلا ظننتهما يأمران لى ... بشىء . . . وما أدخل أحد يده فى كمه إلا ظننت أنه سيعطينى شيئاً . » !!

وكان يتحلل من كرامته ورجولته وإنسانيته ، ويجمح عن حدود الأدب والورع ليصل إلى ما يريد من طعمة الدنيا وحطامها . وقد روى أن جارية جاءته بدينار فقالت : « هذا وديعتى عندك » فجعله بين طيات فراشه ، ثم جاءته بعد أيام فقالت : « بأبى أنت وأمى يا أشعب ، هات الدينار » فقال لها : « ارفعى الفراش وخذى ولده فإنه قد ... أنجب درهماً ! » فأخذته ، وعادت إليه بعد أيام ، فوجدت فى يده درهماً آخر فأخذته ، ثم عادت مرة ثالثة فلما رآها بكى ، فقالت : « ما سر بكائك يا أشعب ؟ » فأجاب : « لقد مات دينارك فى النفاس » فقالت : « وكيف يكون للدينار نفاس ؟ » فقال لها : « أتصدقين بالولادة ولا تصدقين بالنفاس ؟ ! »

ألا رحم الله الشاعر المجيد الحكيم شوقى حين قال : « حظ النفس من الحرص ، حظ المقاتل من السلاح ، إذا زاد عن حاجته اختبل وناء بما حمل ، وإذا قصر تقهقر واخذل » .

وقال لسان الدين بن الخطيب : « ما درجت أفراخ ذل إلا من وكر طماعة ، ولا بسقت فروع ندم إلا من جرثومة إضاعة » . ومن أمثال الترك : « متى دخل قلب الإنسان الطمع القتال خرج منه الدين والإيمان وحرمة الضمير »

وصدق الشاعر الذى قال :

إن القنـــاعة من يحلل بساحتها
لم يلق فى ظلهـــا همًّا يؤرقه

ولله در من تغنى قائلا :

هى القناعة فالزمها تعش ملكا
لو لم يكن لك إلا راحة البدن
وانظر من ملك الدنيا بأجمعها
هل راح منها بغير القطن والكفن

الزهرة

جامعة فاروق الأول بالاسكندرية

١ — تعلن كلية الآداب عن خلو وظيفة أمين مكتبة الكلية من الدرجة السادسة .

٢ — يشترط فيمن يتقدم أن يكون حائزاً على ليسانس الآداب من إحدى الجامعات المصرية وأن يكون متمكناً من اللغات الثلاث (العربية والإنجليزية والفرنسية) .

٣ — يفضـــل من له إلمام بأعمال المكتبات .

٤ — ترسل الطلبات باسم حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب بجامعة فاروق الأول بالشاطبى بالإسكندرية فى ميعاد غايته أسبوعان من تاريخ الإعلان .

٥ — طلبات الموظفين تقدم عن طريق مصالحهم .

٩٩٥

مسرح

مركب النقص عند فيلمون

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

هذه التمثيلية تعبر بوضوح عن تأثر الإنتاج الفنى المعاصر إلى حد كبير جداً بما تتأثر به الحياة من تيارات علمية . فالأولى وهلة يدلنا عنوانها على صلتها بعلم النفس أكثر مما يدلنا على صلتها بفن التمثيل . وموضوعها ومضمونها يؤيدان هذه الدلالة كذلك كما سنرى . وما أظن أنه من المستغرب أن يكون لهذا العلم الحديث أثره العميق فى التفكير الحديث ... ولكن أليس من المستغرب أن يبلغ ذلك إلى حد اعتباره فناً أو اتخاذه مادة صالحة للفن التمثيلى ، ونحن نعلم أن الجمال العلمى يختلف تمام الاختلاف عن الجمال الفنى !؟

هذا هو أهم ما تدعونا هـذه التمثيلية الممتازة إلى التفكير فيه .

والواقع أن لعلم النفس بالذات وضعاً خاصاً بالنسبة لفن التمثيل بالذات ، من حيث إنهما مشتركان فى موضوع واحد هو الإنسان فى ذاته وفى استجابته لما حوله ، ومشتركان فى أهداف واحدة مؤداها استكناه النفس البشرية وسبر أغوارها وتحليل بواعث الإدراك ومكوناته ومثيراته فيها ، وتفسير انفعالاتها ومظاهر سلوكها... إلخ.

من هنا تشعب الاختلاف بين الباحثين :

فنهم من يعتبرون التحليل النفسانى أثراً فنياً خالصاً ؛ لأن المحلل النفسانى لا تتلاشى شخصيته خلف الحقيقة التى يريد الكشف عنها ، بل يخوض بشخصيته كلها فى سبيل ذلك ويكون اتصاله مع الغير وجهاً لوجه . وبهذا يرتبط الطبيب والمريض بارتباطات مختلفة ؛ يحاول الطبيب بها أن يطهر المريض من أمراضه الداخلية ليحمل هو وزرها بطريقة رمزية ، ويجد المريض فيها قوة المثل العليا التى كان يتصورها فيعكسها على الطبيب ، وهما فى هذا — كما يقول آزيه دوديه — أشبه ما يكونان بشخصين فى « مأساة » يحاول كل منهما فيها أن يقرر مصير الآخر ، ويظل العلاج بينهما ضرباً من المغامرة الدراماتيكية .

ومنهم من يذهبون إلى عكس ذلك ، ويعتبرون التحليل النفسانى علماً خالصاً لأنه يدرس عادة بمنهج تعليمى ، ولأن له نتائج محدودة يمكن وصفها بالصحة والخطأ ، كما يمكن وضعها وضعاً منظماً فى مذاهب وفصائل وأبواب .

ومنهم من يقفون موقفاً وسطاً ، ويجيزون استضاءة المسرح بالضوء الذى يلقيه علم النفس على الحياة والأفراد والمجتمع ؛ على أن يكتفى بهـذا الضوء وحده دون إقحام النظريات والنتائج والمصطلحات النفسانية ذاتها ، وذلك لأن المسرح ليس إلا مجتمعاً مصغراً يصور حياة ويعبر عن أفراد .

وعلى الرغم من ذلك الاختلاف كله ، فالتمثيلية التى نحن بصددها لا تعتبر تأييداً فنياً لهذا الرأى أو ذاك ؛ بل هى مثل فريد فى هـذا المضمار . فهى تقحم هذه النظريات والنتائج والمصطلحات إقحاماً شديداً ، وهى مع هذا لا تدعو لها ولا تؤمن بها ، وإنما تسخر منها سخرية مريرة ، وتنجح فى هذا وذاك نجاحاً يؤكد فى النهاية صلاحية علم النفس للمسرح !!

ويتجلى هـذا من مجرد المقارنة بينها وبين أصلها الأسطورى . فقد روت أساطير الإغريق أن الإلهين زوس وهرمز تنكرا فى صورة آدميين ، وهبطا إلى الأرض فأعرض عنهما كل أغنيائها ، ولم يجدا من يستضيفهما سوى زوجين فقيرين هما : فيلمون وبوكيس . من أجل ذلك

تكاتفهما الآلهة ، فأولاً تكتب لهما النجاة من طوفان يغمر البلاد ، فيغرق ما فيها ومن فيها عداهما ، وثانياً يوهبان طول العمر ويمنحان السعادة ويصبح مسكنهما معبداً يصبحان عليه كاهناً وكاهنة ، وثالثاً يموتان في يوم واحد ولحظة واحدة ، حتى لا يذوق أحدهما لواعج الحزن على الآخر ، ورابعاً يتحول رفاتهما إلى شجرتين باسقتين تتجدل أغصانهما وتلتف معاً في ضفيرة واحدة حتى يحظيا إلى الأبد بنعمة اللقاء والاعتناق...

على هذه الأسطورة اعتمد المؤلف الفرنسي (جان برنار لوك) في تأليف تمثيليته Le Complexe de Philemon هذه التي توحي بها السخرية من نظريات علم النفس ، ولعله لا يقصد سوى السخرية من الإمعان في تطبيقها على جميع شئون الحياة وتفسير كل التصرفات على ضوئها تفسيراً متزمتاً. فهو يصور لنا داراً ريفية جميلة يعيش فيها (فرانسوا) وزوجته (هيلين) عيشة هادئة ، وما يكاد يتصرف الزوج الفضاء بعض شئونه حتى يدخل زائر عجيب يحملق في كل شيء ويهم بكل أمر ويقطب جبينه عند سماع كل لفظ ! وسرعان ما نعرف أنه المحلل النفساني (الأستاذ كوجلوف) وسرعان ما يسأل عن أسباب وجود هذا البيانو وهذا التليفون وهذا الشطرنج معاً في غرفة واحدة ! وسرعان ما تجيبه الزوجة في سذاجة وبراءة أن زوجها مشغوف بالموسيقى ماهر في الشطرنج كثير التحدث بالتليفون . إلى هنا وكل شيء يبدو مألوفاً ، لولا أن نسمعه يسألها بإلحاح أسئلة شتى عن مدى حبه لها ونوع تصرفاته معها ، فتدهش من هذه الأسئلة المريبة التي لا تجد ما يدعوه إلى إثارتها أو ما يدعوها إلى الإجابة عليها ، وتزداد دهشتها حين يعتذر إليها من إقحام نفسه في خصوصياتها وإصراره في نفس الوقت على هذا الإقحام بحجة تعطشه إلى إسعادها وشفاء زوجها من مرضه العضال . وتلهف لسماع إجابتها لأننا لا نعلم شيئاً عن زوجها ، لكننا نراها تضحك ، إذ أن فرانسوا — كما تقول له — فارع الطول عريض المنكبين قوى البنية سليم الجسم . . . ثم نراه يضحك بدوره إذ أنه — كما يقول لها — لم يزعم أن زوجها على غير ما وصفت ، ولكنه مع هذا مريض بمركب النقص ، وليس أدل على ذلك من أنهما كما في البيانو والشطرنج والتليفون ، فهذه أعراض هذا المرض الخطير الذي يجهله الناس والمرضى والأطباء أيضاً ، ولا يستطيع معرفته ومعالجته سوى المحللين النفسانيين الذين يعرفون — وحدهم — أن للبشر بجانب العقل الظاهر عقلاً آخر ينشد السرور واللذة ، ويسمى العقل الكامن ، وأن كل خاطرة تمر بالإنسان تحدث له عاطفة تنتهي برغبة ثم إرادة وتندس في ذلك العقل ، وأن تلك العاطفة إذا تجمعت معها عواطف أخرى كونت ما يسمى مركبات . . .
وتظل هيلين للسكينة منصتة إليه إلى أن يستنتج لها من وراء ذلك أن فرانسوا مريض بأحد هذه المركبات ، ولا سبب لاتهامه كما في البيانو والشطرنج والتليفون إلا أنه مكبوت العواطف .. إذ ذاك تقاطعه لتنبئه بأن زوجها ليس منهمكاً في هذه الأشياء بدرجة غير عادية ، فيخرج عندئذ من جيبه قلماً وأوراقاً ويسألها أن تسرد له كل ما يفعله بالتفصيل ! وفجأة يستوقفها — حين تقول عليه أنه قد يضع يده على البيانو أو على سماعة التليفون أو على قطع الشطرنج سهواً دون قصد — يستوقفها ليهمس في أذنها بأن العقل الكامن يستنفد طاقته كلما سنحت له فرصة فتخرج على الفور وكأنها فلتات . وتضيق هيلين بهذه السخافات التي لم تفهم منها حرفاً واحداً ، وتهم بمقاطعته المرة الأخيرة ، فيؤكد لها في لهجة احتيالية أن شفاء زوجها يسعدها ويزيد من « حبه » لها ويحول بينه وبين هذه الأشياء التي تشغله عنها بعض الوقت ! فتنعكس الحالة في لمح البصر وتصبح هي الراجية السائلة وهو المرجو المجيب . فهي تتعجله أن يشخص الداء ويصف الدواء ، وهو يجيبها بأن العقل الكامن ينطلق عند النوم ويحقق رغباته في الأحلام . فما عليها إذاً إلا أن تسأل زوجها في الصباح عما رآه من أحلام خلال الليل . يجيبها هكذا ويخشى أن تعود إلى ارتيابها ، فيأخذ يدها ويضعها على أريكة ويعيد الشرح عليها ، فتنهض وهي غير واثقة من شيء ، لولا أنها لا تجد مانعاً من تصديقه طالما أن هذا سيزيد من حب فرانسوا لها . ويهم بالخروج فتلاحقه لتسأله عما تفعله إذا لم يحلم زوجها في هذه الليلة ، فيجيبها بأنها تستطيع أيضاً شفاءه باستخراج ما في عقله الكامن من الأعراض التي يخفيها . ولكن كيف يتسنى لها ذلك وهي لا تدرى أين موضع عقله الكامن ؟ تقول له هذا في سذاجة فيطمئنها بأنها تستطيع معرفته بسؤال زوجها أسئلة شتى

ملاحظة وتسجيل إجاباته عليها ثم مواجهته بحقيقة مرضه وإشراكه في فهم علته إلى أن يتم شفاؤه . وهكذا ينصرف (كوجلوف) على أن يعود في اليوم التالي ويتركها فريسة للوهم والهواجس .

ويسدل الستار ويعود زوجها من الخارج في الفصل الثاني وفي يده لعبة صغيرة فتحملق فيه وفيها وتطيل النظر إليها، ولا تلبث أن تعيد عليه ما قاله الطفل الفنان، وتأخذ يده وتنيمه على الأريكة كما كانت من قبل وينهض فرانسوا وهو لا يشك إلا في عقلها وعقل هذا الطبيب العجيب ، ويروح ويجيء في الدار فيلحظ أن نظرات زوجته تحترمه دائماً وأن خدمه يتابعونه حيثما ذهب ، فقد سمعوا أيضاً ماقاله الزائر ، وكانوا كلما سنحت لهم فرصة يضطجعون تباعاً على الأريكة ذاتها ، وكذلك يتسامع الأقارب والأصدقاء بأمره ، فيفدون واحداً بعد واحد ولا هم لهم إلا أن يرصدوا حركاته ، فيطير صوابه ويتحاشى لقاء الناس ويحجم عن مجرد النظر إلى الشطرنج ويفزع إذا ما سقطت يده عفواً على البيانو ويهرع إلى التليفون كلما رن جرسه ليقول لمحدثه إنه غير موجود أو إن الرقم خطأ ! !

ويسدل الستار ويعود الطفل في الفصل الثالث ليشهد بعينيه كيف انقلبت الدار رأساً على عقب وأصبحت جحيما لا يطاق ، وكيف تنافر الزوجان وكاد يذهب عقلهما فعلا ... وأخيراً أضيق هيلين بالأمر ويؤلمها ما انتهى إليه حالها وتؤثر أن تعود إليهما حياتهما الساذجة الأولى ، فتهجم على الشطرنج وتقذف بعض قطعه من النافذة ويتبعها فرانسوا فيقذف بسائر القطع ويقبل كلاهما على الآخر وينصرفان إلى غرفة أخرى تاركين (الأستاذ كوجلوف) يترقب عودتهما ... ولكنهما لا يعودان .

وهكذا تنتهي هـذه التمثيلية الطريفة التي لا تصعب مطابقتها على أصلها الأسطوري وإن تباعدت أطرافهما . فعلى الرغم من أن الأسطورة تقوم على زوجين عاشا سعيدين ، وتقوم التمثيلية على زوجين عاشا شقيين ، إلا أنه من الممكن أن نعتبر أنهما هما في الحالتين دون تغير في ذاتيهما ، وإنما تغيرت حياتهما أو أسلوب حياتهما . بل من الممكن أن نعتبر أنهما في حالتهما الأولى كانا مريضين بمركب النقص أيضاً ؛ ولكن — وهذا هو سر سعادتهما — بلا دراية بهذا المرض ولا تفكير فيه ولا تحليل له ؛ والدليل على ذلك أنهما — دون سائر الأغنياء — أكرما وفادة الإلهين وهما فقيران يستحقان العون والإكرام .

ومهما تكن خطورة النظر إلى التراث القديم بمناظير حديثة لم تخلق لها إلا أن هذا لا ينفي براعة المؤلف ، سواء في اختيار هـذه الأسطورة التي تناسب موضوعه أو في تجديدها تجديداً فنياً خليقاً بالتقدير . فقد بلغت براعته غايتها — من الوجهة الموضوعية — في تصوير ما بينهما من مفارقات وفي تعليل أسبابها ؛ وكل ما يؤخذ عليه في هذا الصدد أنه لم يوفق بهذه المزحة في تدارك هذه الأسباب ! فمن غير المعقول أن يكون الحل الذي اهتدى إليه بطلاه لحسم شقائهما مثلا يحتذى في عصرنا الراهن الذي يعتز كل الاعتزاز بأبحاث علم النفس ونتائج التحليل النفساني كحقائق لا مناص من تقبلها ؛ ولعل أقصى ما يطمع فيه أن نجاريه في قلقه من الخضوع لها خضوعاً كلياً أو خضوعاً مغالى فيه ، ومن هنا كان توفيقه في وضع تمثيليته في إطار فني محكم لأنه جسم هذا الخضوع تجسيما جعل من سيطرة علم النفس الحديث على الحياة الحديثة قوة جبرية كادت ترهق التفكير وتقيد نشاطه وتحول بينه وبين ممارسة شئون الحياة .

كذلك بلغت براعته غايتها — من الوجهة الفنية — في تخطيط الجدل المسرحي تخطيطاً دقيقاً أتاح لشخصياته سهولة التعبير على الرغم من ضآلة الجدل ذاته ؛ ولو أنه اهتم بالصراع الحركي كما اهتم بالصراع النفسي لبلغ ذروة الكمال .

كيفما كان الأمر فإن هـذه التمثيلية تثبت جدارته بين المحدثين الذين أملأ المسرح الفرنسي بتجاربهم وتجديدهم . وإنه ليؤسفني أن تكون آخر ما أتحدث عنه هذا العام من تمثيليات الموسم الأجنبي ؛ فقد سافرت فرقة (جان مارشا) بعد ما أدت واجبها كاملا ، وشاءت الظروف أن تحول دون مجيء فرقة (الكوميدي فرانسيز) التي كان مفروضاً أن تعقبها ، وانتهى ذلك الموسم الحافل الذي أعطانا في الفن التمثيلي دروساً بليغة ، وهيأ أذهاننا للتفكير في مشكلات ودقائق فنية جديرة بالتفكير .

عبد الفتاح البارودي

الثقافة

العدد ٦٩١

عدد خاص



ابن سينا في عيده الألفي

العـــدد ٦٩١
٢٤ من مارس ١٩٥٢

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٥٠ مليماً

صفحة

الثقافة

صاحب الامتياز — AL-THAQAFA — رئيس التحرير المسئول

الدكتور أحمد أمين بك — الإدارة — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العــدد ٦٩١ — الاثنين ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧١ — ٢٤ من مارس سنة ١٩٥٢ — السنة الرابعة عشرة

هـــذا العدد

للدكتور زكي نجيب محمود

ما أجمل أن يجتمع على الحقيقة إخوانها ، كما اجتمعت هذه الطائفة الكريمة من أصحاب الفكر والقلم ، متآزرة متعاونة على إحياء ذكرى ابن سينا في عيده الألفي .

وكأنما يطل ابن سينا عبر الزمن ، ليتحدث إلى أمثال هؤلاء الذين اجتمعوا في صفاء على فكرة خالصة لوجه الحق وحده ، فيقول : « أنى لك الصديق الذي يمحضك الصداقة خالصة ، بعد أن بات الصداقة تجارة ؟ فترى الصديق يفزع إلى صديقه إذا ما كانت له عنده غاية ، فيقضي عنده وطراً ثم ينبذه إذا استغنى ؛ اللهم إلا إخوان جمعتهم القرابة الإلهية وألف بينهم الجاورة العلوية » ... وإلى هؤلاء يسوق فيلسوفنا الحديث فيقول : « ويلكم إخوان الحقيقة ! تحابوا وتصافوا ، وليكشفن كل واحد منكم لأخيه الحجب عن خالصة لبه — ليطالع بعضكم بعضاً وليستكمل بعضكم ببعض ... ويلكم إخوان الحقيقة ! انسلخوا عن جلودكم انسلاخ الحيات ... وكونوا عقارب أسلحتها في أذنابها ، فإن الشيطان لن يراوغ الإنسان إلا من ورائه ؛ وتجرعوا الزعاف تعيشوا واستحبوا الممات تحيوا ، وطيروا ولا تتخذوا وكراً تنقلبون إليه ، فإن مصيدة الطيور أوكارها ... كونوا نعاما تلتقط الجنادل المحمات ، وأفاعي تسترط العظام الصلبة وحادل تمشي الضرام على ثقة ... ويلكم إخوان الحقيقة ! أحق الناس من يجترئ على غده ، وأفشلهم من قصر عن أمده ... » (مقدمة رسالة الطير ، جامع البدائع ١١٤ — ١١٥) .

بمثل هذا الخطاب يستنهض ابن سينا همم الباحثين ، حتى لا يرتدوا على أعقابهم حين يرون الصعاب قائمة في وجوههم تسد أمامهم الطريق — وإني لأردد هنا صوت ابن سينا ترديد الصدى ، قائلا : ما أجمل أن يجتمع على الحقيقة إخوانها ، كما اجتمعت هذه الطائفة الكريمة ، على تحرير هذا العدد الخاص من « الثقافة » : فقد تحلق الإخوان حول شيخهم الرئيس ، كل ينظر إليه من جانب ، حتى إذا ما جمعت الصور بعضها إلى بعض ، كان لك ابن سينا رجلا متكامل العناصر ؛ فأمامك طرف من سيرته وعمله ، وأطراف من فلسفته ، وتتبع لآثاره في الغرب والشرق ، وتقدير لأدبه شعراً ونثراً ، وعلاج من تأويلاته الكلامية ، مضافاً إلى ذلك كله زهرة من الشعر يقدمها له شاعر عن زملائه الشعراء تحية العيد .

فالدكتور حسين مؤنس يقدم لنا لمحة خاطفة عن حياة امتدت ثلاثة وخمسين عاماً ، كيف ملأها صاحبها بعمل متصل حتى بلغت مؤلفاته ستة وسبعين ومائتين ؛ فلا غرابة

أن نعلم أنه قد بدأ جهاده هذا من عامه السابع ؟ وقد انصرف بعظم تطلعه وجهده نحو المجهول يكشف عنه الغطاء ، فلذلك لم يَرُقْ له أن يطيل الوقوف في دراسة الفقه لكثرة المشتغلين به ، وقصد إلى الطب يستوعب فيه ما عرفه العصر ، ثم مضى يجرى التجارب بنفسه ليكشف عن المجهول تمايه ؟ وفي هذه التجربة الباحثة الفاحصة جاء سابقاً لعصره ، ولعل روحه القلقة الساعية وراء المجهول هي التي حفزته إلى رحلة متصلة ، ولم يرحل قط انتجاعاً لذوى المروءة يمدون له الأيدي بالعطاء كما كان سائر أصحاب الفكر والأدب يصنعون ، بل كان عظماء القوم وأمراؤهم هم الذين يطلبونه ؟ وقد صدق الدكتور حسين مؤنس حين قال : إن أعظم أعمال ابن سينا هي حياته نفسها ، ثم أعظم ما في حياته ذهنه الذي لم يفتر بحثاً عن المجهول ؟ فهو « يحد يده من وراء هذه القرون العشرة ويصافح جيلنا وكل جيل مقبل ، ويحيي كل نفس متطلعة نحو المجهول » .

* * *

ويسهل لنا الدكتور ابراهيم بيومى مدكور الحديث عن فلسفة ابن سينا بكلمة في تحليل « اللذة والألم » ، فيبين لنا كيف جاء بحث ابن سينا في اللذة جزءاً من دراسته الصوفية ، لأنه — كسائر الأقدمين في ذلك — قد خلط بين الجانب النفسي والجانب السلوكي عند بحثه في اللذة والألم ؟ ولعل ما حدا به إلى هذا الخلط بين الجانبين هو أن أساس اللذة عنده فكرى وجدانى ؟ إذ هي تعتمد على شيئين : تعتمد أولاً على تحقيق الإنسان لغاية ما ، ثم تعتمد ثانيا على تصور الإنسان بأن هذه الغاية خير ، على أن يكون الإنسان شاعراً بذلك ؟ ولهذا كانت اللذة عند ابن سينا حالة إيجابية وليست مجرد انتفاء للألم ، وهو في محاولته شرح رأيه في اللذة والألم ، يبدى معارفه الطبية والفلسفية على السواء .

* * *

ويحدثنا الدكتور أبو العلا عفيفي بك عن الحب والخير والجمال في فلسفة ابن سينا ، مشيراً بادىء ذى بدء إلى حقيقة هامة ، هي أن فيلسوفنا لم يكن قاصراً على تقليد الفلاسفة اليونان وكفى ، أو على شرح غيره من فلاسفة الذين كالفارابي ؟ بل هو أول فيلسوف شق العصا على أرسطو والمشائين ، وحاول أن يضع في الفلسفة مذهباً مستقلا ؟ فهو إلى جانب ما أبقى عليه في فلسفته من الأرسطية الممتزجة بالأفلاطونية الحديثة ، قد أنتج فلسفة مشرقية تتجلى فيها روحانيته ، حين حاول التوفيق بين التعاليم اليونانية ومقومات الإسلام ، غير ملتزم في ذلك مذهباً قديماً معيناً ، بل استعان بأي مذهب يعينه على هدفه المنشود .

ومن أبرز ما يبرز فيه شخصيته المستقلة ما كتبه في الحب والخير والجمال ، فهذه الثلاثة قد اتخذها قوائم أقام عليها نظرية جديدة في تطور العالم : كيف نشأ الوجود ، ولماذا يتغير ، وإلى أين يسير ؟ فأما الحب فمقصود به هذه القوى الغريزية التي تدفع كل شيء إلى إثبات وجوده على نحو يحقق ماهيته وكماله ؟ ولما كان الخير هو الوجود الكامل ، والشر هو العدم ، كان حب الإنسان لوجود نفسه هو نفسه الخير ؟ ومادام الإنسان في حياته إنما يكشف عن طبيعته ، فهو مجبور على السير في حدود تلك الطبيعة ، لكنها جبرية تظللها عناية الله التي تأخذ بالكائنات في طريقها إلى كمالها ، وليست هي بالجبرية الآلية ؟ وهكذا يصور لنا الدكتور أبو العلا بك عفيفي ابن سينا فيلسوفاً دينياً متفائلا يملأ أرجاء العالم بفيض من الخير والجمال والكمال .

* * *

وإن هي إلا خطوة تخطوها إلى الدكتور محمد مصطفى حلمى ، فإذا أنت تطالع الطريق إلى السعادة الإنسانية عند ابن سينا واضحاً مشرقاً ؟ فقد أكثر ابن سينا حديثه في السعادة في رسائله الكبيرة والصغيرة على السواء ، حتى أبان عن حقيقتها في رأيه ، ورسم الوسائل المؤدية إليها ؟ فللإنسان جانبان من حياته : جانب نظرى ينشد فيه الحق إذ يقصد تحصيل الآراء الاعتقادية أو اليقينية ؟ وجانب عملى يقصد فيه إلى عمل ما يعتقد أنه الخير ؟ وإذا كان ذلك كذلك فللسعادة الإنسانية طريقان ينبغي أن يسيرا متوازيين ، إذ

لا يغنى فيهما طريق عن طريق ؛ أولاهما : الحياة النظرية ، والثانية : الحياة العملية ؛ فى أولاهما تنشد الحق ، وفى الثانية تنشد الخير .

على أن هذا كله يؤدى إلى سعادة دنيوية ؛ يجب أن تكون فى ذاتها وسيلة إلى غاية بعدها ، وهى السعادة فى حياة آخرة ، سعادة يستشعرها الإنسان فيما بينه وبين ربه ، حين يخلص الإنسان من أدران بدنه .

وإذاً فوسائلنا إلى السعادة قد بانت واضحة : هى تكميل القوة النظرية بتحصيل العلوم ، ثم تكميل القوة العملية بالفضائل ؛ أما القوة النظرية فتستطيع النفس أن تستقل به دون اتصال بالجسم ، لأن التفكير فعل خاص بالنفس الناطقة وعلى ذلك فسعادتها فى هذا المجال الفكرى العقلى هى فى أن تجعل من نفسها عالماً عقلياً خالصاً ؛ وأما القوة العملية التى تتوافر فيها السعادة بفعل الفضائل ، فهاهنا لا بد من الاتصال بالبدن لأنه وسيلة الفعل ، والسعادة تتطلب أن تظل للنفس سيطرتها على البدن حتى لا يجاوز كونه وسيلة لها . . . على أن القوة النظرية والقوة العملية كلتيهما مقصود بهما أن يهيئا سعادة الآخرة وهى خير وأبقى ؛ وقد طبق فيلسوفنا ابن سينا كل ذلك على نفسه .

• • •

وينتقل القارىء إلى الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، فيرى عنده كيف يؤكد ابن سينا الفوارق بين الإنسان والحيوان ، حتى تظل للإنسان مكانته الممتازة بين الكائنات ، لعل هذا الامتياز أن يكون حافزاً له على تحقيق وجوده وسعادته . فالإنسان أولا يتميز بنطقه — أى بتفكيره ، ثم يمتاز الإنسان من سائر الحيوان بحياته الاجتماعية ، إذ لا يستغنى فى بقائه عن مشاركة غيره ؛ ثم إن للحيوانات ضروباً من المشاركة الاجتماعية ، لكنها لا تصدر فيها عن استنباط وروية وقياس ، بل تصدر عن إلهام وتسخير ؛ هذا إلى أن أفعال الحيوان معظمها للضرورة النوعية ، أما الإنسان فكثير من أفعاله — حتى الاجتماعى منها — مقصود به الفرد ، لأن هذا الأنماء الفردى ضرورة فى الإنسان تحتمها مسئوليته الأخلاقية ؛ إذ الإنسان — على غير الحيوان — فى مقدوره أن يميز بين الجميل والقبيح والخير والشر ، ليختار وتقع عليه تبعة اختياره .

كذلك قد يشترك الحيوان مع الإنسان فى ذكره لخبرة الماضى ، لكن الإنسان ينفرد دون الحيوان بالتذكر الذى يتم بفعل الإرادة ؛ والإنسان — دون الحيوان — يدرك المستقبل ويستعد له ؛ وإذا كان بعض الحيوان يعد لمستقبله كالنمل ، فهو مدفوع إلى ذلك بغريزته .

ويشترك الحيوان مع الإنسان فى بعض الانفعالات كالغضب والخوف ، لكن الإنسان ينفرد وحده بالخجل والحياء والضحك والبكاء والتعجب ؛ وهاهنا يستدرك الدكتور الأهوانى فينبه القارىء إلى أن ابن سينا لم يتعمق البحث فى هذه النقطة ، لأن الحيوان يشترك فى هذه الانفعالات ، ولا يستثنى منها خاصاً بالإنسان إلا الخجل .

• • •

ثم يأخذ الكلمة الدكتور عثمان أمين فيضع لنا بحثه قدماً فى الشرق وقدماً فى الغرب ، حتى يقرب إلى أذهاننا هذه الوحدة الفكرية التى تؤاخى بين الإنسان والإنسان ، فيصبح التاريخ العقلى بعضها سلسلة متصلة الحلقات لا فرق فيها بين شرق وغرب .

فهنا هو يعرض عليك نصوصاً من ابن سينا وأخرى من ديكارت ، لاتدع سبيلا إلى الشك فى أن الفيلسوفين يتعاونان على هدف واحد ، هو بيانهما أن النفس جوهر روحى ، وأنها مستقلة عن الجسم ؛ فيشرح لنا الدكتور عثمان « الإنية » عند ابن سينا ، التى هى الذات الواحدة المستمرة التى يعبر عنها المتكلم بلفظة « أنا » وكيف لجأ فيلسوفنا فى إثباتها إلى صورة افتراضية ، هى صورة رجل معلق فى الفضاء قد أغلقت حواسه ، ومع ذلك فهو يدرك نفسه عندئذ بغير حاجة إلى بدن ؛ بل إن أول الإدراكات

وأوضحها عند ابن سينا هو إدراك الإنسان لنفسه ، وهو إدراك « حدسي » ؛ وإذا ما أشار الإنسان إلى نفسه بقوله « أنا » فهو لا يقصد بهذه الإشارة جسمه ، بدليل أنه قد يكون مدركا لذاته وهو غافل عن جميع أعضائه الظاهرة والباطنة .

ولا يرسل الدكتور عثمان قوله إرسالا بغير ذكر النصوص المؤيدة ، ثم يذكر لنا أن هذه النصوص قد ترجم أكثرها إلى اللاتينية ، فعرفها فلاسفة العصور الوسطى في أوربا ، ومن المحتمل أن يكون ديكارت قد اطلع عليها ، لهذا الشبه الشديد بين «الإنية» السينوية و «الكوجيتو» الديكارتي . ويختم الدكتور عثمان أمين بحثه بهذه الأسطر الموحية : إن من درجوا على النظر إلى الوجود نظرة مادية ، فأضحوا لا يرون شيئاً إلا في صورة الامتداد المحسوس، سيجدون نفعاً كبيراً إذا تدبروا ما كتبه الفيلسوفان العظيمان، ولعل في ذلك دفعاً لما غلب على أذهانهم من أوهام .

***

وهاهنا قد وقفنا بالقارىء وقفة قصيرة في روضة الشعر ليسترح لحظة في ظلالها الوارفة من مجهود ذهني مضى ، ويتزود بزاد جديد استعداداً لمجهود ذهني مقبل ، فوقفنا به عند قصيدة عصماء للشاعر الدكتور زكي المحاسني ، أجراها على نسق عينية ابن سينا ، حتى لا يبعد القارىء — وهو في راحته الوجدانية — عن جو فيلسوفنا الذي نحتفل به .

***

ولم نرد للقارىء انتقالا مفاجئاً بعد ذلك من راحة الشعر التي استراح فيها واستروح بعد رحلة فلسفية قد يكون فيها شيء من مشقة السفر وعسر الطريق ، إلى رحلة فلسفية أخرى ، فعرضنا عليه ناحية أدبية من ابن سينا ، تناول الحديث فيها الدكتور أحمد أمين بك فعرض عينية الفيلسوف عرض أديب بصير بأسرار المعاني ومواضع الجمال ؛ لكنه يستهل حديثه برأي يقطع لنا بصحته وهو أن العينية ليست لابن سينا ، لأنها أرقى بكثير مما عرف لابن سينا من شعر وأراجيز؛ فابن سينا الغامض في لفظه وفي شعره، وفي فلسفته، السمج في تعبيره ، لا يمكن أن يكون هو ناظم القصيدة العينية .

***

وتحدث بعد ذلك الدكتور شوقي ضيف عن نثر ابن سينا ، فإذا هو يؤكد معنى قريباً من المعنى الذي أشار إليه الدكتور أحمد أمين بك — يقول الدكتور شوقي إن الفلسفة اليونانية قد جاءت إلى العرب في ترجمة مرتبكة العبارة لذلك لم تتخلل العقل العربي إلى الصميم ، وتسلم ابن سينا وغيره من متفلسفة العرب هذه الترجمات فلخصوها وعلقوا عليها وبذلوا جهداً في فهم عبارات التراجم المستغلقة ؛ لكن هاهو ذا ابن سينا يعترف بأنه كان يعيد قراءة النص المترجم حتى يحفظه دون أن يفهمه ، فهل من عجب بعد ذلك أن يجيء أسلوب ابن سينا جافاً لا نضرة فيه ولا حياة ؟ أضف إلى ذلك أنه لم يكن عربياً خالصاً ، ولا كون لنفسه سليقة عربية دقيقة — بل كان أعجمياً يتخذ لغته الأعجمية في حياته اليومية — فجاءت هذه العجمة على عجمة التراجم ضغثا على إبالة ، لينتهي الأمر كله إلى نتيجته المنطقية ، وهي أن يخلو أسلوب ابن سينا من الصفاء والوضوح ، وكثيراً ما كان يختار ألفاظه من المعجم اللغوي ، لأنه لم يكن عربياً ولا أخذ العربية عن أصحابها مباشرة ، بل أخذها عن كتب اللغة فجاء أسلوبه على غير سياق واحد مطرد ، فتارة يستقيم وتارة يلتوي ، وتارة يتضح وتارة يثقل بغريب الألفاظ وحوشيها .

وأشار الدكتور شوقي ضيف إلى كثرة استخدام ابن سينا للرمز في كتابته ، ثم إلى استخدامه للشعر والأراجيز في صياغة معانيه الفلسفية ، فجاء هذا العمل بمثابة التثاؤب الذي أصاب الفكر العربي فلم يمتد ولم ينبسط ، بل راح ينفق بعض جهده فيما لا يفيد — بل فيما يعود بالفكر إلى

الوراء ، لأن العبارات المرصوصة التي يسهل حفظها قد تخلق الببغاء ، لكنها لا تخلق الرجل المفكر .

●●●

وبعدئذ يرحل القارئ ، مع الباحثين طائراً على هامات القرون فيرى كيف كان أثر ابن سينا في الأجيال التالية .

فيعرض لنا الأستاذ محمود الخضيري مؤرخاً لابن سينا هو النصير الطوسي ، وكيف دفع عن أستاذه هجمات اثنين من خصومه ، هما الفخر الرازي والشهرستاني ؛ فالفخر الرازي يتعرض لابن سينا بالذم والتشنيع بالرغم من كثرة نقله عنه ، فيرد عليه الطوسي قائلا : إنه — أي الفخر الرازي — قد جاوز في نقده حد الاعتدال .

وأما الشهرستاني فقد بالغ في كتابه « المصارعات » في مدح نفسه وفي ذم ابن سينا ، ورد عليه الطوسي بكتاب أسماه « مصارع المصارع » مدافعاً عن ابن سينا راداً لهجمة الشهرستاني عليه .

●●●

ويتناول الأستاذ محمد عبد الغني حسن طرف الحديث فيبين لنا كيف ورد ابن سينا عند قدماء المترجمين ، والمؤرخين ؛ فقد ترجم ابن سينا لنفسه أولا ، ثم جاء تلميذه الجوزجاني فكتب رسالة في ترجمة حياة أستاذه ، فأصبح هذان المرجعان هما المصدر الرئيسي الذي يعول عليه ؛ فهذا هو ابن أبي أصيبعة ينقل هذه الترجمة كاملة في « عيون الأنباء » وينقلها القفطي مختصرة في « إخبار العلماء » ، ويجيء بعد ذلك البيهق فيضع أول كتاب عن ابن سينا ثم يؤرخ له النظامي العروضي في « جهار مقالة » وبعدئذ يختفي ذكر الفيلسوف في التواريخ أو يكاد .

●●●

وأما الدكتور محمد يوسف موسى فيستعرض المراحل التي اجتازها الأزهر في سيره التدريجي نحو الإقبال على الدراسة الفلسفية ، بما في ذلك ابن سينا ، وقد أرجع الفضل في ذلك للنوابه كالشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد بخيت الذي « تتعين الآن في نشر كتاب الشفاء لابن سينا بنسخته الخاصة » والشيخ حسين والى ، والشيخ عبد المجيد سليم الذي كان يلقب وهو طالب بابن سينا .

●●●

ويبين الأستاذ عز الدين اسماعيل أثر ابن سينا في ابن طفيل وقصته حيّ بن يقظان .

وأخيراً عرض لنا الأستاذ سعيد زايد نماذج من تأويلات ابن سينا ، واختار لذلك ثلاثة أمثلة ، هي التأويلات الخاصة بإثبات الوحدة ، والنبوة ، واليوم الآخر . وهي تأويلات حاول فيها ابن سينا أن يؤيد بالبرهان العقلي ما يثبته الدليل النقلي .

●●●

وإني بعد هذا التقديم لأطلب المغفرة من روح ابن سينا ومن الباحثين الأفاضل ، ومن القراء جميعاً — أطلب المغفرة من روح ابن سينا على ما يكون في هذا العدد الخاص بذكراه من قصور وتقصير ، وأطلبها من الباحثين الأفاضل على ما استبحته لنفسي من تلخيص أبحاثهم تلخيصاً يستحيل أن يخلو من الشوائب لاستحالة أن يصور الجزء كُلاًّ يحتويه ، ثم أطلبها من القراء الأكرمين على هذه الحيلولة القصيرة التي أقمتها بينهم وبين محدثيهم ... وأرجو أن يشفع لي في ذلك كله سلامة النية وحسن الغرض .

زكي نجيب محمود

أعظم أعمال ابن سينا

للدكتور حسين مؤنس

عاش الرئيس أبو علي ابن سينا ثلاثا وخمسين سنة وضع خلالها مائتين وستة وسبعين كتاباً ورسالة أحصاها الأب جورج قنواتي في كتاب ضخم يشبه أن يكون دليل مكتبة عامة ، تناول فيها من فروع العلم ما يتفرق في كليات كثيرة من جامعة واحدة . فلو أننا جمعنا صفحات ما ألفه من دراسات وقسمناها على أيام حياته بعد سن الخامسة عشرة ، لتبينا أن يوماً من أيام تلك الحياة لم يكن يمر دون ساعات طويلة من الدرس والتأليف . وليس في هذا كله شيء عادي يُرسل دون عناء ، وإنما كله كتابات دقيقة عميقة لا تصدر إلا عن فكر طويل ، أي أن ذلك الشيخ الجليل أمضى حياته كلها قارئاً كاتباً مفكراً ، واستطاع بالصبر والجهد أن يحول نفسه إلى ذهن خالص نشيط فعال ، وهذا في حسابي هو أعظم أعمال ابن سينا .

ويقص علينا ابن سينا بنفسه كيف وصل إلى ذلك ، فنجده منصرفاً من السابعة من عمره إلى الدرس انصرافاً واعياً مُدركاً ، كأنه كان قد قرر بالفعل أن يجعل حياته كلها سعياً نحو النور حتى يصبح هو نفسه نوراً ، وإني لأتصوره وهو بعدُ دون العاشرة في بخارى يقرأ ويحفظ ويتنقل ما يلقى إليه من العلم ، فينفر من دعوات الإسماعيلية ، لإدراكه أنها دعوات مذهبية اتخذها الأذكياء وسيلة لكسب العيش ، وانساق وراءها البسطاء عن عاطفية واندفاع ، ويقبل على الفلسفة والهندسة وحساب الهند والطب وغيرها من العلوم النافعة . وقد درس ابن سينا الفقه فيما درس ، لكنه رأى الدنيا من حوله تدرس الفقه وتتبارى فيه ووجد أن العمل الحاسم في هذا الميدان قد تم من أمد طويل ، ولم يعد فيه مجهول يدرس أو جديد يستقصى ، فلم يطل إلمامه به ، وتوجه بهمته إلى العوالم المجهولة التي تشوق نفس المتطلع ، لأن نفسه كانت من هذه النفوس الحيرى التي تروم المجهول وتتجرد لارتياده ، وربما كان كلفه بالنساء وإفراطه فيهن صادراً عن هذه النزعة إلى ارتياد المجهول ، لأن المرأة كانت الجانب الإنساني المجهول في زمانه ، لم يفهمها من معاصريه ، أو ممن سبقوه أحد ، لأنهم قتلوا أعظم عنصر في كيانها وهو نفسها ، واكتفوا منها بالجسد . ففي هذا الرجل يستكنه هذا المجهول ، وفي رسائله ما يدل على أن إسرافه في هذه الناحية كان بحثاً عن المجهول ، ولقي حتفه وهو ساع نحوه ، وما هو في هذا الطلب بأول الهالكين .

وقد حصّل ابن سينا معارف أهل عصره في الطب بأيسر مئونة ، وكان مستطيعاً أن يعيش على زاده من ذلك العلم ، كما كان طلاب الطب في العصور الوسطى يفعلون ، ولكنه تنبه إلى قلة ذلك المحصول ، ومضى يجرب ويقيس ويستنتج ويكتشف في ميدان البدن الإنساني حتى وفق إلى كثير ، وحتى أصبحت تجاربه واختراعاته أشبه بالأساطير ، يقص علينا صاحب « چهار مقالة » طرفاً منها يدل على أن معالجاته كانت تجارب أشبه بالمغامرات ، وقد فشل كثيراً من غير شك ، والقليل من التجارب الموفقة الذي نجده في الكتب إنما هو ثمرة هذا الفشل ، وقد ذكرتُ وأنا أقرأ بعض هذه الأخبار طبيباً أندلسياً سبق العالَم إلى أسرار الجراحة بقرون ، هو أبو القاسم الزهراوي ، فعجبت من تلاقي هذين العقلين العبقريين عند نقطة التجربة والقول بأنها مفتاح العلم ، وليس بعجيب أن تسير العصور الوسطى كلها — في الشرق والغرب — وراء هذين الرجلين في عالم الطب : هذا العلاج الباطني وذاك الجراحة .

وجهد ابن سينا كله هذا يعتبر إعجازياً ، أي أنه يبعث النفس على التفكير ويحفزها إلى التطلع ، فقد كان هو يعيش في أعصر بعيدة لم يكن الزمان قد أسفر عنها ، وقد قضت البشرية قروناً طويلة تسير وراءه ، ولم تلاحقه إلا في أوائل القرن التاسع عشر ؛ فإذا ذكرنا أن معاصريه كانوا يعيشون بعقولهم في قرون سالفة ، يكررون ما قاله الأسلاف في عجز وقنوع ، تبينا أن ابن سينا كان يسبق أزمانه بأزمان طويلة ،

وأنه كان في الواقع يحيى في الغد المجهول ، ومن هنا تبدو لنا القصة التي يحكيها صاحب « جهار مقالة » من أن « خوارزم شاه » طلب ابن سينا فلم يجده ، فاستدعى أبا نصر العرّاق وأمره بأن يصور ابن سينا « على الورق » ، ثم استخرج من هذه الصورة أربعين نسخة بعثها في الأقطار على أهلها يهتدون إليه ، فلم يتعرفوا عليه إلا عن طريق واحد : رأوا رجلا يجرى تجربة نفسية على عليل أضناه العشق ، فقال له أحدهم : أأنت أبو علي ؟ وهكذا نم عنه أسلوبه بأكثر مما نمت عنه صورته . وقد تكون هذه القصة حقيقية وقد تكون مجرد أسطورة ، ولكنها على أى الوضعين ذات معنى رمزى بعيد : إنها تدل على أن أهل هذا الزمان كانوا يعرفون أن هناك إنساناً واحداً يجرى على أسلوب التجربة والكشف ، وهو الشيخ الرئيس ، ولا أحد سواه .

ولقد تقسم الشرق والغرب تراث ابن سينا ، فأما الشرق فقد اكتفى منه بالجانب المحدود الذى يمكن حفظه واستظهاره وتطبيقه كالأرجوزة وكتاب الشفاء ، وأما الغرب فقد اختار الجانب الأقوى ، الجانب الباحث عن المجهول : الفلسفة و « القانون » ، وقد نام الشرق على ما أخذ ، وأما الغرب فقد اشتغلت عقول أهله بما وصل إليهم : ترجموه مرة بعد مرة ، وتدارسوه عاماً بعد عام ، وما زالوا يفكرون فيه حتى أخرجوا منه بشائر العصر الحديث .

وكانت هذه هي الحال مع كل تراث السلفيين ، فقد ظهرت في عالمنا الإسلامى هذا عبقريات لا حصر لها ، وبدرت من بعضهم بوادر تلحقهم بأهل عصرنا كابن سينا هذا وأبي الريحان البيروني والحسن بن الهيثم وابن البيطار وسليمان بن جلجل وأبي بكر بن طفيل وأبي الوليد بن رشد الحفيد ، وظهرت إلى جانب هؤلاء جماعات من العبقريات السلفية التى لا تجدد ولا تبتكر ، وإنما تحسن هضم الماضى وتجيد التعبير عنه ، كأبي الطيب المتنبي وأبي حامد الغزالي وأبي العلاء المعري والحريري والقاضى الفاضل ، فلما وصلنا إلى القرن السابع الهجرى وبلغت الحضارة الإسلامية منتهاها وبهر نورها أهل الغرب ، أقبلوا يتدارسونها ويتخيرون منها ما يصلح لهم ، فمن عجيب الأمر أنهم وقعوا بالغريزة على خير ما في هذه الثروة كلها ، فأخذوا العلوم والرياضيات والفلسفة والقصص وتركوا الباقى ، كأنهم أحسوا أنه لا يغنى ولا ينفع : تركوا المتنبي وشعره والحريرى ومقاماته والقاضى الفاضل وسجعاته ، مع أن هذه كلها كانت على كل لسان ، وعنوا وتحمسوا حتى عثروا على أبي القاسم الزهراوى وابن سينا وابن طفيل وابن رشد وابن جلجل وابن البيطار والزرقالى . أجل ، لم تخدعهم قعاقع أبي الطيب أو ترصيعات ابن هانىء أو لزوميات شاعر المعرة أو معابثات أبي زيد السروجى ، وأدركوا بالحس السليم أن هذه كلها — مهما بلغ جمالها — صياغات جديدة لأشياء قديمة ، كلها عيون تنظر إلى الأمس ولا تعرف شيئاً اسمه الغد ، كلها دواع للوقوف ، وليس فيها نازعة واحدة تشير إلى الغد المجهول .

من هنا أقبلوا عليها ، لأن نفوسهم بعصرها النزوع نحو المستقبل والتطلع نحو المجهول ، بينما عكف المشارقة على من ذكرنا ، فوقفوا حيث هم ، وانقضت القرون وهم يروون أبيات وعبارات مرصعة باللؤلؤ والزمرد ، ويحلمون بعوالم ماضية من المجد والمجين . . .

كان ابن سينا قلقاً بين أهل زمانه ، فتكاد حياته تكون رحلة متصلة من بلد إلى بلد ، ولم تكن رحلاته انتجاعاً لذوى الثروة واستمطاراً لرفدهم ، كما كان عباقرة أيامه يفعلون ، بل كان الأمراء وذوو الجاه هم الذين يطلبونه ويبحثون عنه ويستجدون فضل علمه ، لأنه عالم طلب العلم من وجهه النافع الذى يحتاج إليه الناس ، ولو أنه تفرغ للفقه وحفظ كتب الأدب وجعل من صدره « صهريج لؤلؤ » لما أفاد من ذلك كله غير شىء من جاه ، ولما خلف لنا إلا شروحاً وتعليقات أو ألفيات تزيد حجم التراث الإسلامى ضخامة ولا تزيده معنى أو قوة . . وكان في اندفاعه نحو الفلسفة والمنطق والحساب والهندسة والطب كالثائر على المجتمع الذى كان يعيش فيه ، لأن هذه العلوم كلها كانت مستنكرة ، يضعها الناس في قائمة واحدة محرمة هي قائمة « علوم الأوائل » . . كأنما كان هو يشعر أن « علوم الأوائل » هذه هي طريق الغد المجهول . وكان واحداً من السلفيين القلائل الذين نقلوا إلى الغرب تراث اليونان ليقيموا عليه هذا البناء الحديث كله ، كان واحداً من تلك الخيوط القليلة التى ربطت الفجر القديم بالفجر الجديد .

(البقية على الصفحة التالية)

اللذة والألم عند ابن سينا

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور

أثار موضوع اللذة — ولا يزال — مشا كل شتى ، فتساءل الناس عن حقيقتها ، وأنواعها ، وتفاوت اللذات فيما بينها ؟ وعنوها في أعصار بحثاً سيكولوجياً . وحاولوا من ناحية أخرى أن يبينوا إلى أي مدى تصح أن تكون غاية الحياة ومقياساً للسلوك . فلها جانبان : أحدهما سيكولوجى ، والآخر أخلاق .

وإذا كان المحدثون قد فصلوا بين هذين الجانبين وعرضوا لكل واحد منهما في استقلال ، فإن القدامى خلطوا بينهما وشغلوا خاصة باللذة في مظهرها السلوكى . ولم يخرج ابن سينا على هذه السنة ، اللهم إلا أنه ربط — كعادته — السلوك بالتصوف ، فجاء بحث اللذة جزءاً من دراساته الصوفية .

وقد وقف عليه في « كتاب الإشارات» صفحات ممتعة ، يمكن أن تعد من أحسن ما وصلنا من مفكرى الإسلام في هذا الباب . وأبى إلا أن يجعل منه مقدمة للنمط الثامن : « في البهجة والسعادة » ، فمهدت فكرة اللذة عنده للسعادة الحقة وارتبطت بها كل الارتباط . وفي بحثه هذا عمق ودقة يؤذنان بضرب من الابتكار والشخصية ، وحوار ومناقشة يدلان على أن موضوع اللذة لعهده كان مثار أخذ ورد واختلاف وتباين .

* * *

واللذة في رأيه حال إيجابية كالألم ، وتقوم أصلاً على أساس ذهنى فكرى . ذلك لأنها « إدراك ونيل لوصول ما هو عند المدرك كمال وخير » ، في حين أن « الألم إدراك ونيل لوصول ما هو عند المدرك آفة وشر » . والخير والشر هنا اعتباريان يرجعان إلى تقدير الملتذ أو المتألم ، وتتفاوت درجة كل منهما بحسب الظروف والأحوال . فالطعام للجائع ، والغلبة للغضبان ، ونيل الشكر للمحسن خيرات في نظر هؤلاء ، سواء أكانت خيراً في ذاتها أم لا ، وهي بهذا تحقق للملتذ لا شك فيها .

وعلى هذا تعتمد اللذة على أمرين جوهريين : تحقيق غاية معينة ، وتصور أن هذه الغاية خير . وليس بلازم أن يستمر هذا التصور إلى النهاية ، فقد أتصور غاية خيراً فألتذ بها ، ثم أملّ ذلك أو أعدل عنه ، فينقلب الخير إلى شر واللذة إلى ألم . والمريض قد يكره الدواء — لأنه دواء — وإن يكن حلو المذاق .

على أن ابن سينا لم يغفل ما للإحساس والوجدان من شأن في اللذة والألم ، فيلاحظ أن تصور الغاية وحصولها لا يكفيان ، بل لا بد معهما من شعور بذلك . وإن انتفى هذا الشعور انتفت اللذة والألم . فالصحة والسلامة قد لا يلتذ بهما الالتذاذ بمطعوم أو مشروب ، لأن الإحساسات إن تكررت واستقرت تصبح عادية مألوفة لا يشعر بها الإنسان شعوراً واضحاً .

وما دامت اللذة تتوقف على الشعور فلا بد من استكمال وسائله ، وإلا لم تتبين لذة ولا ألم . فالمريض يعاف الطعام اللذيذ ، ويوم أن يبرأ يطلبه . والعضو المتخدر لا يحس بألم ، فإن انتعش أحس به إحساساً قد يصل إلى الضجر والشكوى .

إن أعظم أعمال ابن سينا هي حياته ، وأعظم ما في حياته ذهنه . وقد صاغ هو حياته على ذلك النحو القلق الحافل بالحوافز ، وكوّن ذهنه على نحو حافل بالتطلع والدوافع . لقد صنع عبقريته بيده ، وصاغها بسهر الليالي وجهاد الأيام ومغالبة الراحة والنوم والتحايل على السهر وإضناء الجسد ، فكان من ذلك كله هذا المجد العظيم الذي نحتفل به نحن اليوم بعد ألف سنة . وكان من ذلك أيضاً هذه البطولة البديعة التي تشير نحو المجهول أبداً ... وهو لهذا يمد يده من وراء هذه القرون العشرة ويصافح جيلنا وكل جيل مقبل ، ويحيي كل نفس متطلعة نحو المجهول .

صبحي مرتضى

هذه هي حقيقة اللذة وتلك هي مقدماتها . وإنا لنلمس في هذا الشرح ابن سينا الفيلسوف والطبيب في آن واحد ، يحلل ويعلل في ضوء فلسفته ، ويستمد من طبه ليوضح ويمثل . وبقدر ما يقربه شرحه هذا من المحدثين يبعده عن القدامى ، فقد لحظ في تعريف اللذة أمرين لم يتنبه لهما رجال التاريخ القديم والمتوسط في وضوح . وهما : أولاً أنها حال إيجابية لا سلبية ، فهي أمر قائم بذاته وليست مجرد انتفاء الألم أو امتناعه . وثانياً : أنها تعتمد كالألم أيضاً على قسط من الشعور والإحساس ، فنحن نحس باللذة إحساساً متميزاً من إحساسنا بالألم ، وكثيراً ما صاحب هذا الإحساس نشاط جسمي وذهني عند اللذة ، أو خمول وتوقف عند الألم .

وإذا ما صعدنا إلى الفلسفة اليونانية وجدنا أن فكرة اللذة استوقفت بوجه خاص أبيقور ومدرسته ، فبدأ يقرر مع أرستبوس أن اللذة حسية ، لأنه لا وجود إلا للمادة ؛ وإذا استبعدنا الحس من الإنسان لم يبق منه شيء . إلا أنه لم يلبث أن نوع اللذات تنويعاً باعد بينه وبين أستاذه مباعدة كبيرة ، فهناك لذات صادرة عن نزعات طبيعية وضرورية كالأكل والشرب ، وأخرى عن نزعات طبيعية وغير ضرورية كالأغذية المترفة ، وثالثة عن نزعات غير طبيعية وغير ضرورية كجمع المال ورفعة الشأن . والحكيم يقتصد في الأولى ، ويقهر الثالثة ، ويوازن في الثانية .

وهذه النزعات منشأ اختلاف الجسم والحياة ، فإن توازنت اطمأن الإنسان وسار في طريقه سعيداً موفقاً ، وهذه الطمأنينة هي اللذة التي ليست وراءها لذة .

ولم يقف أبيقور عند هذا ، بل ذهب أيضاً إلى أن اللذة سلبية والألم إيجابي ، فهي فقدان الألم أو انتفاؤه ، بدليل أن اللذة لا تجيء على أثر لذة أبداً ، وإنما تعقب الألم عادة .

ولم تكن آراء أصحاب مذهب اللذة هؤلاء بخافية على مفكري الإسلام ، فقد نقلت فيما نقل من تراث اليونان . حقاً أن فكرة اللذة والألم أثيرت في العالم الإسلامي منذ عهد مبكر ، فقد وجه القرآن والحديث النظر إليهما ، وخاصة فيما يتعلق بنعيم الآخرة المقيم وعذابها الأليم ، وحاول المعتزلة أن يوفقوا بينها وبين مشكلة الصلاح والأصلح ، فرأى فريق منهم أن الله لا يؤلم أحداً بألم يمكن أن تقوم اللذة في الصلاح مقامه . ودعا المتصوفة إلى التقشف ومحاربة اللذائذ ، لأن الألم يصهر النفوس ويهذبها .

إلا أن هذا كله بقي على هامش موضوع اللذة ، أما صميمه فقد عالجه من جاءوا بعد عصر الترجمة . وإذا كان لم يصلنا من الفارابي شيء يعتد به عن اللذة ، فإن إخوان الصفاء وقفوا عليها رسالة مستقلة من رسائلهم ، هي الرسالة السادسة عشرة وعنوانها : « في ماهية اللذة » . ويذهبون فيها إلى أن اللذة جسمانية وروحانية ، وهي على كل حال تلك الراحة التي يشعر بها الإنسان عند زوال الألم . أما الآلام فهي خروج المزاج من الاعتدال والأمر الطبيعي إلى أحد الطرفين من الزيادة أو النقصان لسبب من الأسباب ، وما أكثرها ؛ وإذاً فالآلام لا تحصى . وهنا نلحظ أثر أبيقور ، فإن اللذة عند إخوان الصفاء وعنده حال سلبية ، والألم مجافاة للأمزجة والنزعات الطبيعية .

على أن إخوان الصفاء لم يتعمقوا في هذا الموضوع ويعنوا به عناية الرازي الطبيب الذي يمكن أن يعد فيلسوف اللذة في الإسلام ، دون أن يكون لهذه التسمية أي معنى تهكمي . وقف عليها كتاباً خاصاً سماه « مائية اللذة » ، وعني بها عناية ملحوظة في كتاب « الطب الروحاني » المشهور ، وعرض لها في « رسالة السيرة الفلسفية » التي نشرت منذ خمس عشرة سنة . وإذا كنا لم نقف بعد على الكتابين الأولين ، فقد وصلتنا منهما عشرات تكفي ، إذا ما ضمت لما ورد في « السيرة الفلسفية » ، لتصور رأيه في اللذة والألم ، لا سيما وقد أثار هذا الرأي نقاشاً في النصف الأخير من القرن الرابع الهجري ، وكان له صداه فيما انتهى إليه ابن سينا من تعريف اللذة وبيان أنواعها .

ويرى الرازي أن الألم خروج عن الطبيعة ، في حين أن اللذة عودة إليها ، وليست هذه العودة شيئاً آخر سوى زوال الألم . فاللذة إذاً أمر عدمي والألم أمر وجودي ، ومن أمثلة ذلك لذة الأكل عند زوال ألم الجوع ، ولذة الشرب عند زوال ألم العطش ، وإذا كانت الآلام متفاوتة فاللذات متفاوتة أيضاً ، لأن اللذة تعظم تبعاً للألم الذي تحل

عنه . وإذا استمرت اللذة وطالت تحولت إلى ألم ، وما لا يدرك بالحس لا يمكن التلذذ به بحال ؛ فاللذة والألم مرتبطان بالإحساس ولا ينفصلان عنه .

وقد صادف هذا الرأى مؤيدين ومعارضين فى أخريات القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس . ومن مؤيديه ابن مسكويه الأخلاقى المشهور ، الذى لم يكتف بأن يعرض لموضوع اللذة فى كتاب « تهذيب الأخلاق » ، بل وقف عليه بحثا خاصا عنوانه « فى اللذات والآلام » . وهو يزعم كالرازى تماما أن اللذة راحة من ألم ومسبوقة به دائماً .

أما المعارضون فكثيرون ، وفى مقدمتهم دعاة الإسماعيلية بوجه عام ، كحميد الدين الكرمانى وناصرى خسرو صاحب « زاد المسافرين » ، وهما يأخذان على الرازى أن مذهبه لايعترف إلا باللذات الحسية ، مع أن هناك لذات أخرى لها وزنها وقيمتها ، وهى سرمدية دائمة كلذات الآخرة . وإذا صح أن العودة إلى الحال الطبيعية تسبب ضرباً من اللذة ، فإن هناك أسباباً أخرى غير هذا ، كالخبر السار ، أو رؤية شخص لم يكن ينتظر لقاؤه .

* * *

هذه وغيرها من آراء متقابلة ترددت فى بيئة ابن سينا وشغلت أذهان معاصريه ، وفيها ما يبين مدى اهتمامهم بموضوع اللذة ودرسه . ولا غرابة فى أن ينضم الأستاذ الرئيس إلى جماعة الإسماعيلية ، ويعارض الرازى معارضة واضحة ، ونحن نعلم أنه نشأ فى وسط إسماعيلى . فهو ينكر أن تكون اللذة مجرد حال سلبية تترتب على زوال الألم ، ويلاحظ أن الإحساس وحده لا يكفى فى تفسير اللذات على اختلافها ، ذلك لأن هناك لذات أخرى أكمل وأبقى من اللذات الحسية ، ويعنى بها اللذات العقلية .

ولإثبات هذه يسلك ابن سينا سبيلاً من الاستدلال كله قوة وإقناع . فيشير إلى أنه كثيراً ما ضحى باللذائذ الحسية فى سبيل معان واعتبارات ذهنية ، ويكفى أن نذكر الشجاعة التى قد تنتهى بصاحبها إلى الهلاك دفاعاً عن الدين أو الوطن ، والكرامة التى قد يفضل معها المرء الجوع على ذل السؤال . وليست اللذة الباطنية مستعلية على اللذة الحسية لدى الإنسان فحسب ، بل من الحيوانات العجم ما يتمسك بأهدابها ، « فمن كلاب الصيد ما يقتنص على الجوع ثم يمسكه على صاحبه وربما حمله إليه » .

وكيف تنكر اللذة العقلية وهى سبيل السعادة والاتصال بالعالم العلوى ، وأية لذة أسمى من أن يتأمل المرء عالم العقول والأفلاك ، فتصبح حياته تأملاً دائماً ونظراً مستمراً ، هذه هى البهجة الحقة وتلك هى السعادة الكاملة .

إبراهيم مدكور

الحب والخير والجمال فى فلسفة ابن سينا

للدكتور أبو العلا عفيفى بك

١ — ليس شيء أبعد عن الصواب وأكثر مجافاة للحق من أن يدعى مدع أن الشيخ أبا على بن سينا كان مجرد مقلد لأرسطو أو غيره من فلاسفة اليونان ، أو مجرد شارح للفارابي الذى يقال إنه هو الآخر ربيب الفلسفة اليونانية ؛ فإن ابن سينا ينفرد من بين مفكرى الإسلام بأنه أول من جرؤ على نقد مذاهب المشائين أتباع أرسطو ، وحاول أن يضع فى الفلسفة مذهباً مستقلاً لم يراع فيه — على حد قوله — جانب الشركاء فى الصناعة ، ولم يخش فيه من شق العصا على أرسطو أو المشائين .

إننا نلمس فى فلسفة ابن سينا تيارين مختلفين يسير كل منهما فى اتجاه خاص ، وإن كانا يلتقيان أحياناً ، يظهر أحدهما فى صورة الفلسفة الأرسطية الممتزجة بالأفلاطونية الحديثة ، وهذه الصورة هى التى راعى فيها الفيلسوف « جانب الشركاء فى الصناعة » فعرض فيها آراء فلاسفة اليونان عرضاً لم يتورع فيه تجريحاً ولا رفضاً ؛ ويظهر التيار الآخر فى صورة الفلسفة المشرقية التى تتجلى فيها روحانيته وعاطفته ، كما تتجلى فيها نزعته القوية نحو التوفيق بين التعاليم الفلسفية اليونانية — التى يؤمن بها فى جملتها — وبين المبادىء الدينية الرئيسية التى هى مقومات الإسلام . ولم يلتزم ابن سينا الأخذ بمذهب فلسفى معين سبقه إليه غيره ، بل أخذ من الفلسفات القديمة كل ما لاءم غرضه وأفكاره ما دام فى ذلك تحقيق للغاية التى كان ينشدها ، وهى أن يفلسف العقائد الإسلامية . أما أنه نجح فى التوفيق بين الدين والفلسفة ، بين ما يقول به العقل وما ينطق به الوحى ، فهذه مسألة أخرى !

فى هذه الصورة الثانية لفلسفة ابن سينا نجد اتجاهاته الخاصة فى بعض مسائل الفلسفة ونلمس عبقريته وأصالته ؛ وعلى الرغم من أنها لا تمثل مذهباً فلسفياً كاملا ، تكفى فى إبراز شخصية الفيلسوف واستقلاله ، وتميزه عن غيره من فلاسفة اليونان والإسلام على السواء . ومن أروع هذه الاتجاهات ما كتبه فى مسائل الحب والخير والجمال التى اتخذتها موضوعاً لهذا المقال .

٢ — على هذه الصورات الثلاثة يبنى ابن سينا فلسفة فى نشأة العالم وتطوره ، وبواسطتها يفسر مسألة العناية الإلهية ، ثم يخلص فى النهاية إلى رأى صريح فى طبيعة الوجود ومصيره : أهو فى طبيعته خير يسير نحو الوئام والانسجام ، أم شر تضطرب فى جوانبه الفوضى ؟

عنى ابن سينا كما عنى غيره من الفلاسفة فى كل العصور بمشكلة الوجود : كيف نشأ ، ولماذا يتغير ، وإلى أين يسير ؛ فهداه نظره فى الموجودات إلى أن كل كائن مهما كان حظه من التطور ينزع بفطرته إلى الوجود وينفر بطبعه من العدم ، لا فرق فى ذلك بين حى وغير حى ، عاقل وغير عاقل ، أرضى أو سماوى . ثم لاحظ كذلك أن الكائنات لا تنزع بفطرتها إلى الوجود أيا كان نوعه ، وتنفر من العدم أيا كان نوعه ، وإنما ينزع كل منها إلى وجود خاص به تتحقق به ماهيته أو كماله ؛ وينفر كل منها من عدم خاص يحرمه صفة من صفات كماله الوجودى ؛ فكل معدن ، وكل نبات وحيوان ناطق وغير ناطق ، وكل فلك له كماله الوجودى الذى يتجه بفطرته إلى تحقيقه ، والذى يحققه بالفعل عن طريق مجموعة من القوى مغروزة فى جبلته تدفع به دفعاً إلى الظهور على مسرح الوجود العام — ولا يعوقها عن هذا الدفع إلا قاسر خارجى لا طاقة لها بمقاومته . ففى الكائنات جميعها — لا فى الكائنات الحية وحدها كما ذهب إليه برغسون — قوى كامنة تتحقق بالوجود والظهور ، وتتكشف شيئاً فشيئاً حسبما تقتضيه طبائعها ؛ وفى كل مرحلة من مراحل تطورها تحصل لنفسها صفة من الصفات الوجودية وتتحقق لها درجة من درجات الوحدة والانسجام ، فتقترب بذلك خطوة من كمالها .

هذه هى نقطة البدء فى هذا الجزء من فلسفة ابن سينا ، وهو يسمى ذلك الدافع الذى يدفع بالكائنات نحو الظهور ويحقق لها كمالها الوجودى الخاص باسم « العشق » : تلك

القوة الخفية التي يفسر بها كل حركة وسكنة في الكون، سواء في ذلك التفاعلات الكيميائية البسيطة وتجاوب النفوس البشرية في العشق الإنساني، بل هيام النفس الإنسانية بالله.

٣ — أما أن الكائنات على اختلاف أنواعها وطبائعها تعشق الوجود وتفر من العدم، فذلك لأن الوجود هو الخير، ولأن العدم هو الشر، وهذا مطرد في الأشياء اطراده في الأفعال الإنسانية. فكل شيء تنقصه صفة من الصفات الوجودية التي هي كمال له شرٌّ، وكل فعل إنساني فيه معنى سلب الوجود شرٌّ أيضاً. ولذا لا يدخل الشر في أفعال الله لأنه لا يصدر عنه إلا وجود ولأنه لا دخل للامكانيات في أفعاله. فالألم بجميع أنواعه شر، والمرض شر والفقر شر، والعمى والصمم وكل ضعف أو نقص في الحواس شرور؛ والقتل والسرقة والزنا والكذب وخلف الوعد وغير ذلك من الرذائل شرور لاحتوائها جميعها على ناحية العدم أو سلب الوجود.

بهذا استطاع ابن سينا أن يوحد بين القول بأن «كل كائن يعشق وجوده الخاص الذي به يتحقق كماله» والقول بأن «كل كائن يعشق خيره الخاص»، كما استطاع أن يستنبط مبادىء علم الأخلاق من مبادىء مذهبه الميتافيزيقي

وليس الخير معشوق كل موجود فحسب، بل هو الشيء الوحيد المعشوق لذاته، وكل ما عداه يعشق من أجله، ولو أتيح لكل موجود أن يحقق وجوده كاملا؛ ولو لم تقف العوائق حائلا دون الوصول إلى ذلك الكمال لعم الخير أرجاء الكون، ولكن العوائق قائمة، فعنصر الشر قائم لا محالة.

في هذه النظرية أثر لميتافيزيقا أفلاطون ممزوجة بطبيعيات أرسطو، وفيها فوق هذا أثر قوي للمذهب الثنوي الفارسي القديم، ولكن ابن سينا يتجاوز هذه العناصر كلها إلى وحدة فكرية متسقة هو صاحبها ومبتكرها.

٤ — وظاهر مما تقدم أن نظرية ابن سينا في الوجود نظرية جبرية؛ فقد رُسم لكل كائن الطريق الخاص الذي لا مناص له من السير فيه، وغُرزت في جبلته قوى لا مناص لها من الظهور، بل غُرز فيه عشق لإظهار هذه القوى على مسرح الوجود. كل كائن في عالم ابن سينا مقيد مجبر جبراً أزلياً، ولا يستطيع بحال التخلص من طبيعته، ولكن جبرية فيلسوفنا ليست جبرية آلية مادية، لأنه يفسح المجال في مذهبه لفكرة العناية الإلهية التي تحفظ على الكائنات وجودها وتمدها بالصور التي تحقق لها كمالها: إذ الموجودات — من حيث هي — قاصرة عن أن تحقق ذلك الكمال بنفسها، ومفتقرة إلى من يحققه لها، وذلك هو الوجود الكامل بالذات (الله) الذي يفيض الوجود عليها.

الله إذاً في نظر ابن سينا هو المبدأ الفيض للوجود: هو الكامل بالذات وهو الخير بالذات، وإذا قلنا إنه الخير بالذات فقد قلنا إنه المعشوق بالذات، لأن «الخير» — كما أسلفنا — هو الذي يعشق لذاته. فكل الموجودات تتجه نحو منبع الخير الذي هو علة فاعلة من حيث إفاضة الوجود عليها، وعلة غائية من حيث إنه معشوق لها.

ولكن ابن سينا لا يقف عند هذا الحد، بل يعمم فكرة الجبرية والضرورة بحيث تشمل الله ذاته، فإن الله الذي حصّل الكمال الوجودي في ذاته لا يملك أن يبقى منطوياً على نفسه، مانعاً خيره من أن يظهر خارجاً عنه ويفيض على غيره، حاجباً لصفات جماله وجلاله: إذ الجواد لا يملك إلا أن يجود ويأبى إلا أن يُنال منه، والخيِّر لا يملك إلا أن يفيض عنه الخير إلى غيره، ولذلك كان فيضان الخير من الله على الموجودات فيضاناً ضرورياً قضت به طبيعته، ولا دخل للإرادة فيه، لأن الإرادة اختيار بين أمرين وليس أمام مبدأ الخير سوى أمر واحد هو التجلي بما عنده على عشاقه.

٥ — هكذا يفسر ابن سينا سر الوجود، بل سر الخلق — إذا قصدنا بالخلق معنى الظهور في الصور، لا معنى الوجود من العدم. هذا السر هو العشق من جانبين: من جانب مبدأ الخير لأن طبيعته تنزع إلى إظهار ما فيها من جمال وكمال فتفيضهما على الموجودات كل بحسب طاقته واستعداده؛ ومن جانب الموجودات نفسها لأن طبيعتها تنزع إلى إظهار ما تنطوي عليه من صفات وجودية يتحقق بها كمالها. وهذا معنى طالما عرّج عليه الصوفية في تأويل الحديث القدسي الذي يقول الله فيه: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرَف فخلقت الخلق فبه عرفوني». ولكن الصوفية — أو جمهورهم على الأقل — تختلف فكرتهم في الخلق عن فكرة ابن سينا اختلافاً جوهرياً.

٦ — والعشق الذي يتحدث عنه ابن سينا يختلف في درجاته وأنواعه؛ فهو طبيعي بسيط ساذج في عالم الجماد، معقد بعض الشيء في عالم النبات، وهو حسي شهواني وأكثر

متقيداً في عالم الحيوان ، ونطق اختيارى فى الإنسان ، وهذه الأنواع والدرجات موجودة كلها فى هذا الأخير من حيث هو جسم حى ونفس ناطقة ؛ ولكنه من حيث هو إنسان — أى من حيث هو كائن ناطق فقط — يجب ألا يكون عشقه إلا من النوع العقلى ، وألا تكون اللذة الحاصلة له من هذا العشق إلا لذة عقلية ، وإلا هبط بنفسه إلى مستوى البهائم أو ما هو دونها . فإذا أحب الإنسان شيئاً مما من شأنه أن يشبع شهوة طبيعية كالأكل والشرب والجماع والمحاربة ، وجب أن يحبه لا لمجرد اللذة الحسية الحاصلة عنه ، بل لمعنى أشرف وألطف هو تحقيق كمال ما للنوع الإنسانى . فالزوج مثلا يجب ألا يحب زوجته من أجل الباضعة ، بل لأنها شريكته فى استبقاء النسل الإنسانى ، والمحارب يجب ألا يحارب من أجل لذة التغلب والظفر ، بل للذب عن غاية شريفة فيها خير لأمته أو للإنسانية جمعاء ، وهكذا .

وأعلى نموذج للعشق فوق هذه البسيطة هو العشق الإنسانى ؛ ولكن هذه القوة الخفية تعمل عملها فى الكائنات السماوية أيضاً : فهى التى تحرك الأفلاك فى مساراتها وتمسك عليها وحدتها ونظامها . وبالجملة فكل ما فى الوجود يتحرك بحركة العشق نحو كماله ونحو واهب الكمال الذى هو المعشوق على الإطلاق (الله) .

٧ — العالم إذاً كما يتصوره ابن سينا عالم يفيض بالخير والجمال والكمال ، وهذا قول لا يقول به إلا فيلسوف متفائل : بل فيلسوف دينى متفائل ، إذ للعناية الإلهية النصيب الأكبر فى تدبير الوجود على النحو الذى هو عليه ؛ فهى التى غرزت فى طبائع الموجودات قواها ، وبثت فيها الشوق الغريزى لإخراج هذه القوى إلى حيز الوجود ، وهى التى تفيض على الموجودات ما لا يتناهى من الخير الذى هو الكمال الوجودى كما أسلفنا .

ولكن كيف يحل ابن سينا مشكلة الشر فى العالم مع أنه يقول : إنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ؟ من أين يأتى الشر والنقص يصدر عن الله الذى هو خير محض ؟ يجيب الفيلسوف عن هذا بأن الشر ليس ذاتياً فى طبيعة الأشياء والأفعال ، وأنه لا يدخل فيها إلا دخولا عرضياً . الشر — كما قلنا — هو فقد وجود ، أو عدم صفة وجودية فى شىء من شأنه أن يتصف بها . وهو بهذا المعنى غير ذاتى وغير صادر عن الله . هو وليد العوائق التى تحول دون بلوغ الكائن كماله الوجودى : كأن يقتل الصقيع النبات الغض ، أو يحول دون نضج الثمر فى شجر مثمر . هذا شر بالنسبة لصاحب النبات والشجر ، ولكنه ليس شيئاً يفيض عن الله ، ولا شيئاً ذاتياً فى طبيعة النبات الغض أو الشجر المثمر أو الصقيع . ولهذا ليس للشر وجود إلا فى حساب الإنسان . أما الكائنات غير العاقلة فلا يدخل الشر فى حسابها .

هـذا هو الشر الذى نراه فى الأشياء ؛ أما الشر فى الأفعال الإنسانية فهو نسبى أو اعتبارى : إذ كل فعل من حيث هو فعل ، خيرٌ بالنسبة إلى صدوره عن علة فاعلة ، ولكنه قد يعتبر شراً بالنسبة إلى من يلحقه ضرر أو أذى بسببه ؛ مثال ذلك ظلم الإنسان فإنه خير من حيث صدوره عن علة فاعلة ، ومن حيث هو مظهر القدرة والقدرة تطلب التسلط بطبيعتها . ولكنه يعتبر شراً بالنسبة لمن يقع عليه الظلم . وكذلك إحراق النار : فهو بالنسبة إلى النار خير أو كمال تستلزمه طبيعتها ، ولكنه يعتبر شراً بالنسبة لمن يلحقه الأذى من الإحراق . ومعنى هذا أن مفيض الوجود يمنح الإنسان القدرة على الفعل ظلماً كان أو عدلا ، ويمنح النار قوة الإحراق ، ولا يخلق ظلم الظالم ولا ضرر النار ؛ وليس من الحكمة عنده أن يمنع النار من أن تحرق ، أو القدرة من أن تتسلط ، أو الطبيعة الغضبية من أن تثور .

على أننا لو سلمنا بوجود الشر بالمعنى الذى أسلفناه فإننا نجد أنه ليس المبدأ الغالب فى الوجود ، لأن الاستقراء يدل على أن الأشياء التى هى شر كلها أو معظمها ، والتى تتعادل فيها كفتا الخير والشر ، لا وجود لها : وكل ما هو موجود يحتوى من الخير أكثر مما يحتوى من الشر . فالمرض موجود ولكنه ليس أكثر انتشاراً من الصحة ، وقس على ذلك سائر الأشياء والأفعال .

٨ — بهذا تجتمع لابن سينا عناصر مذهب متسق فى طبيعة الوجود والقوى المحركة له ، واستطاع أن يربط بين فكرة العشق وفكرتى الخير والجمال فى وحدة فلسفية متجانسة ، وأن يبرز خلال كل ذلك الدور الذى تقوم به العناية الإلهية فى تدبير العالم والسير به فى اطراد غير منقطع نحو كماله المنشود .

أبو العلا عفيفى

السعادة الانسانية عند ابن سينا

للدكتور محمد مصطفى حلمى

١ — السعادة بين الحق والخير

عنى ابن سينا فيما عنى به من المشكلات الفلسفية بمشكلة السعادة الإنسانية ، فعرض لها تارة بالعرض ، وتارة أخرى بالذات ، وأفرد لها أطواراً مختلفة فصولاً متعددة من مؤلفاته الطوال والقصار ، فأبان عن حقيقتها وعن الوسائل المؤدية إليها ، وحللها إلى عناصرها النفسية والأخلاقية ، وأظهر خصائصها الفلسفية العقلية والصوفية الروحية . ولكنه لم يقف فى عنايته بالسعادة عند حد جعلها مشكلة من مشكلات الفلسفة أو موضوعاً من موضوعاتها ، وإنما هو يتجاوز هذا إلى حد آخر يجعل فيه من السعادة الإنسانية غاية قصوى وغرضاً أسمى ، ينبغى أن يطمح إليه ويتحقق به الإنسان ، سواء فيما يأخذ به نفسه من نظر عقلى يبحث فيه عن الحق فيدركه ويتذوقه أو عمل خلقى فردى أو اجتماعى ، يلتمس فيه الخير فيحققه ؛ فهو قد عرّف الحكمة تعريفاً له قيمته الفلسفية العامة ، إذ جمع فيه بين الناحيتين النظرية والعملية ، وأظهرنا من خلال هذا التعريف على ما ينطوى عليه معنى الحكمة من العلوم النظرية الخالصة التى تستند إلى العقل وحده ، والعلوم العملية التى تعول هى الأخرى على العقل ، ولكنها لا تقف عند حد النظر العقلى المجرد ، وإنما هى ترى من وراء النظر إلى العمل : فالحكمة — كما يعرفها ابن سينا — هى صناعة نظر يستفيد منها الإنسان تحصيل ما عليه الوجود كله فى نفسه ، وما الواجب عليه عمله مما ينبغى أن يكتسب فعله ، لتشرف بذلك نفسه ، وتستكمل وتصير عالماً معقولاً مضاهياً للعالم الموجود ، وتستعد للسعادة القصوى الأخرة ، وذلك بحسب الطاقة الإنسانية . وهذا يعنى أن الحكمة من شأنها أن تحقق للانسان شيئين : أحدهما المعرفة اليقينية بحقائق الموجودات على ما هى عليه ، والآخر معرفة ما يجب على الإنسان أن يأتيه من الأفعال ، أوهو يعنى بعبارة أخرى أن الحكمة حكمتان : حكمة نظرية موضوعها الحق ، وحكمة عملية موضوعها الخير : إحداهما تقصد إلى حصول الرأى الاعتقادى أو اليقينى بالموجودات التى لا يتعلق وجودها بفعل الإنسان ولا بإرادته أو اختياره ، والأخرى تقصد إلى حصول صحة رأى فى أمر يتوقف على كسب الإنسان ويحصل بإرادته واختياره ، وذلك ليكتسب ما هو الخير منه ، وبعبارة أوضح : يمكن أن يقال مع ابن سينا إن غاية الحكمة النظرية هى الحق ، على حين أن غاية الحكمة العملية هى الخير .

وليس من شك فى أن الحكمة النظرية فيما تبحث عنه من الحق ، والحكمة العملية فيما تكشف عنه من الخير ، من شأنهما أن تضفيا على الإنسان كمالاً فى العلم وفى العمل لم يكن له من قبل . وليس من شك أيضاً فى أن كمال العلم والعمل من شأنه أن يهيىء للإنسان سعادة يستشعرها فى حياته العقلية والعملية بما يتحقق به فى أنظاره من معرفة الحق من ناحية وما يحققه فى أفعاله من معانى الخير من ناحية أخرى . وإذا كانت العلوم النظرية من طبيعية ورياضية وإلهية تحقق للإنسان سعادة عقلية بما تظهره عليه من حقائق الموجودات ، فإن العلوم العملية تحقق له سعادة فى حياته العملية ، سواء أكان يحيا هذه الحياة فى نفسه متعزلا بشخصه عن غيره من أشباهه ، أم كان يحياها فى بيئة اجتماعية ضيقة النطاق هى المنزل ، أو فى بيئة اجتماعية واسعة النطاق هى المدينة أو الدولة : فثمة من العلوم العملية علم للأخلاق الفردية ، يعرف به كيف ينبغى أن يكون الإنسان فى أخلاقه وأفعاله وتدبيره فى حياته الشخصية حتى يكون سعيداً فى حياتيه الأولى والأخرى ، وعلم آخر لتدبير المنزل يعرف منه كيف ينبغى أن يكون تدبير الإنسان لمنزله المشترك بينه وبين زوجه وولده وخدمه حتى تنتظم حاله على وجه يكسبه ويكسبهم السعادة ، وعلم ثالث للسياسة المدنية يعرف به أصناف السياسات والرياسات والاجتماعات المدنية الفاضلة والرديئة بحيث يتبين فى كل واحد منها أوجه الكمال التى تؤدى به إلى البقاء والسعادة ،

وأوجه النفس التى تنتهى به إلى الزوال والشقاء ، فكل أولئك علوم نظرية وعملية تكشف النقاب عن الحقيقة التى هى حق تارة وخير تارة أخرى ، وتفتح أمام الإنسان آفاقاً من السعادة القصوى والبهجة العظمى .

على أن السعادة التى يستشعرها الإنسان فيا يوفق إليه من حق وخير وإن كانت ثمرة من ثمرات النظر العقلى الذى هو أخص خصائص الفلسفة بمعناها الدقيق ، إلا أنها تعد مع ذلك وسيلة مؤدية إلى غاية أخرى أعز منها وأمنع ، وموصلة إلى سعادة أخرى ألذ منها وأمتع : ذلك بأن ابن سينا لا يرى أن يقف الإنسان فى صناعة النظر عند استفادة معرفة حقائق الموجودات من ناحية ، ومعرفة ما ينبغى عليه فعله من ناحية أخرى ، دون أن يكون وراء هذه المعرفة أو تلك غاية أخرى أرقى منهما وأسمى ؛ وإنما هو يرى أن استكمال النفس الإنسانية بما يحصل لها فى العلوم النظرية من كمال العلم وفى العلوم العملية من كمال العلم والعمل ، من شأنه أن يعد النفس الإنسانية لسعادة القصوى والبهجة العظمى فى الحياة الأخرى ، ومن هنا تتبين مع فيلسوفنا أن السعادة فى الحياة الدنيا وإن كانت غاية يسعى إلى تحقيقها الإنسان عما يأخذ به نفسه من نظر وعمل ، فهى ليست مع ذلك الغاية الأخيرة التى ينبغى أن يقف عندها جهد الإنسان ، وقد استفاد معرفة ما عليه الوجود كله فى نفسه وما ينبغى عليه فعله من الأفعال التى تشرف بها نفسه إلى جانب ما تشرف به من الحقائق ، وقد انتقشت فى هذه النفس ، فإذا هى تصبح عالماً معقولاً مضاهياً لعالم الموجود . هذه السعادة الحاصلة من كمال العلم والعمل على هذا الوجه ، وإن كانت فى ذاتها غاية ، إلا أنها من ناحية أخرى وسيلة إلى سعادة لا يستشعرها الإنسان فيا بينه وبين نفسه فحسب ، ولا فيا بينه وبين أشباهه فحسب ، وإنما هو يستشعرها فيا بينه وبين ربه الذى يلقاه وقد خلصت نفسه من أغلال البدن ، وصفا حسه من أدران الشهوة ، ودقّ نظره بما وقف عليه من أرق المعانى وأدق الحقائق ، وحسنت أفعاله ، ونقت من الشوائب أحواله ، فإذا هو يقدم هذا كله زلفى بين يدى ربه ، الذى يستظل بظله ، وينهل من موارد منّه وفضله ما يستشعر معه السعادة القصوى والبهجة العظمى .

٢ — الوسائل المؤدية إلى السعادة

أما كيف يوفّى الإنسان إنسانيته حقها من كمال العلم والعمل استعداداً لهذه السعادة القصوى ، وابتغاء لتحصيل هذه البهجة العظمى ، فقد أظهرنا ابن سينا على أن ذلك إنما يكون بتكميل قوته النظرية بالعلوم وتكميل قوته العملية بالفضائل التى ترد إلى أصول أربعة هى العفة والشجاعة والحكمة والعدالة : فإن فى تحلى الإنسان بهذه الفضائل الأصلية وبغيرها من الفضائل الفرعية ، وفى تخليه عما يقابل هذه وتلك من الرذائل الأصلية والفرعية ، ما يطهر نفسه ويزكيها ويسيرها بأقصد السير فى سبيل السعادة . ومعنى هذا أن فعل النفس الإنسانية ليس إدراك المعقولات فحسب ، وإنما هناك أفعال أخرى للنفس الإنسانية تصدر عنها بحكم اتصالها بالبدن ومشاركتها له ، وهذه الأفعال إذا توخت فيها النفس سبيل العدالة ، كانت سبيلها إلى السعادة . ومعنى العدالة هاهنا أن تتوسط النفس بين الأخلاق المتضادة فيا تشتهى ولا تشتهى ، وفيا تغضب ولا تغضب ، وفيا تدبر به الحياة ولا تدبر .

ويحلل ابن سينا الصلة التى توجد بين النفس والبدن وتأثر كل منهما بالآخر وتأثير كل منهما فى الآخر ، تحليلاً له قيمته من الناحية النفسية البحتة ، فضلاً عما له من خطر فيا هو بصدده من بيان معنى السعادة وكيفية ترتبها على تحقيق العدالة فى القوى المختلفة للنفس الإنسانية من شهوية وغضبية ومميزة ؛ فعلى قدر انصراف النفس عن البدن أو انقيادها له يكون خلقها جميلاً أو قبيحاً . ذلك بأن البدن بحكم قواه البدنية يقتضى أموراً ، والنفس بحكم قواها العقلية تقتضى أموراً مضادة لكثير من الأمور التى تقتضيها القوى البدنية :

فتارة تحمل النفس على البدن فتقهره ، وتارة أخرى يغالبها البدن فيغلبها ويمضى فى فعله . فإذا تكررت غلبة النفس للبدن وسيطرتها عليه ، نشأت من ذلك هيئة إذعانية للبدن ، وإن هذا الإذعان ليقوى ويتمكن من البدن حتى يسر عليه ما لم يكن يعسر عليه قبل إذعانه للنفس . أما ما يحصل للنفس من تكرر قهرها البدن وإخضاعه لسلطانها ، فهو ما عبر عنه ابن سينا بالهيئة الاستعلائية التى تمكن النفس

من مفارقة البدن فيا يميل إليه ويقبل عليه ، الأمر الذي لم يكن ممكناً قبل ذلك . وفرق ما بين هيئة الإذعان وهيئة الاستعلاء كفرق ما بين الأفعال التي تقع من طرف واحد في النقص أو الإفراط وبين الأفعال التي تجري على التوسط بين طرفين متضادين .

فإذا كان ذلك كذلك ، وكان للنفس الناطقة مستقلة عن البدن فعل خاص بها هو إدراك المعقولات ، وكان لها متصلة بالبدن أفعال أخرى تتمثل فيها هيئة الإذعان تارة وهيئة الاستعلاء تارة أخرى ، فقد تبين إذاً أن سعادة النفس في كمال ذاتها من الجهة التي تخصها إنما هي صيرورتها عالماً عقلياً بالمعنى الذي ضمنه ابن سينا تعريفه للحكمة ، وتبين أيضاً أن سعادة النفس من جهة العلاقة التي بينها وبين البدن إنما هي في أن تكون لها هيئة استعلائية .

وهكذا نرى مع فيلسوفنا أن من أراد تحصيل السعادة فقد وجب عليه أن يطلب الاستكمال بأن يتصور نسبة الأمور إلى الموجودات المفارقة ، وبذلك يستعد للاستكمال الأكمل عند المفارقة ؛ ولا بد لطالب السعادة من أن يحتال في تخلية النفس عن أن تتعلق بها هيئة من الهيئات البدنية ، وذلك بأن يستعمل جميع قواه استعمالاً قوامه التوسط بحيث تسير الشهوة على العفة ، ويسير الغضب على الشجاعة ، ويرى ابن سينا أن من فارق الحياة الدنيا وهو على هذه الحال من اصطناع قواه للتوسط ، فقد اندرج في اللذة الأبدية ، وانطبعت فيه هيئة الجمال الذي لا يتغير ، واستطاع أن يشاهد الحق الأول وما يترتب بعده ، وأن يتصور هذا كله في ذاته التي كانت من حيث هي نفس ناطقة مدركاً للمعقولات مبرأة عن الشهوات ؛ وليس من شك في أن اللذة التي يستثمرها الإنسان وهو مفارق على هذه الحال من صفاء العلم ونقاء العمل هي اللذة الحقيقية ؛ وهذا يعني بعبارة أخرى أن السعادة الإنسانية تحصل بادىء ذي بدء من تحصيل العلم بالمعقولات ، وتتم بإصلاح الجزء العملي من النفس ، وذلك بأن تحصل ملكة التوسط بين الخلقين الضدين ، تحصل في القوى الحيوانية من شهوية وغضبية هيئة الإذعان ، وفي القوى الناطقة هيئة الاستعلاء ؛ وقد أجمل ابن سينا هذا كله إجمالاً واضحاً صور فيه سبيل السعادة وما ينبغي على الإنسان لكي يكون مستعداً للسعادة القصوى التي لا تعدلها سعادة من قبل ولا من بعد ، وذلك في قوله وهذا نصه : — « فقد قررنا حال المعاد الحقيقي ، وأثبتنا أن السعادة في الآخرة مكتسبة بتنزيه النفس ؛ وتنزيه النفس تبعيدها عن الهيئات البدنية المضادة لأسباب السعادة ، وهذا التنزيه يحصل بأخلاق وملكات ، والأخلاق والملكات تكتسب بأفعال ، وتديم تذكيرها بالمعدن الذي لها . فإذا كانت كثيرة الرجوع إلى ذاتها ، لم تنفعل من الأحوال البدنية ... فإن دام هذا الفعل من الإنسان ، استفاد ملكة الالتفات إلى جهة الحق والإعراض عن الباطل ، وصار شديد الاستعداد للتخلص إلى السعادة بعد المفارقة البدنية » (النجاة طبعة القاهرة سنة ١٣٥٧ هـ — سنة ١٩٣٨ م ، ص ٣٠٧ — ٣٠٨) .

على أن ابن سينا لم يقف من مشكلة السعادة عند حد دراستها دراسة نظرية على الوجه الذي يجعل منها جزءاً من أجزاء مذهبه الفلسفي ، وإنما هو يتناولها تناولاً عملياً يطبق فيه على نفسه وسيرته وسلوكه هذه المعاني والمبادئ التي أوردناها آنفاً وألف هو منها نظريته في السعادة ؛ وآية هذا التطبيق العملي على حياته الشخصية ما أظهرنا عليه في إحدى رسائله القصار ، وهي رسالة العهد التي يصور فيها عهداً عاهد الله فيه بأن يأخذ نفسه بأشياء لها قيمتها من الناحية العقلية النظرية ، وبأشياء أخرى لها خطرها من الناحية الأخلاقية العملية ، وكلها من شأنها أن تصفي نفسه وتجعلها مهيأة لنيل السعادة في الدنيا والآخرة : فهو قد عاهد الله بتزكية نفسه بمقدار ما وهب لها من قوتها ليخرجها من القوة إلى الفعل عالماً من عوالم العقل فيه الهيئة المجردة عن المادة وتحصيل كمالها من جهة العلم والحكمة ، وعاهده أيضاً بأن يقبل على هذه النفس للتربية بكمالها الذاتي ، فيحرسها عن التلطخ بما يشينها من الهيئات الانقيادية للنفوس المادية ، وبأن يفيد هذه النفس هيئات الاستيلاء والسياسة والاستعلاء والرياسة ، حتى إذا لاحت له خطرة اقتضتها شهوة أو غضب أو حرص أو طمع أو خوف مما يخالف جوهرها الزكي ، فسخه ونسخه وعافه وعفّه بحيث لا يجمع في فكره مساغاً إلا للفكرة في جلال الملكوت وجناب الجبروت .

بين الإنسان والحيوان

للدكتور أحمد فؤاد الإهوانى

— ١ —

المشهور منذ أرسطو فى تعريف الإنسان أنه حيوان ناطق ، أى أن الإنسان نوع من أنواع الحيوانات ، ولكنه يمتاز عنها بالنطق ، وبلغة المنطق : الحيوان جنس وناطق فصل به يمتاز عن سائر الحيوانات .

ولا يعنى ابن سينا من النطق الذى يمتاز به الإنسان التلفظ بالألفاظ ، وإنما يعنى به التفكير . وقد اشتق المنطق من النطق ، والمنطق ترتيب أمور معلومة فى الذهن ليتأدى منها إلى معرفة المجهول . وقد التفت الشيخ الرئيس إلى أنه « لو أمكن أن يتعلم المنطق بفكرة ساذجة ، إنما تلحظ فيها المعانى وحدها ، لكان ذلك كافياً ؛ ولو أمكن أن يطلع المحاور فيه على ما فى نفسه بحيلة أخرى ، لكان يغنى عن اللفظ البتة[1] » . وإنما نظر المناطقة فى الألفاظ لأن المعانى لا تنفصل عادة عن الألفاظ . أما موضوع المنطق فهو « المعانى من حيث هى موضوعة للتأليف الذى تصير به مُوصلةً إلى تحصيل شىء فى أذهاننا[2] » . و « النطق لسان الملائكة ، ليس لهم قول ولا لفظ ، بل النطق لهم خاصاً ، وهو إدراك بلا حس ، وتفهيم بلا قول[3] » ، ولهذا السبب يمتاز الإنسان فى الملكوت بالنطق ، أما القول فيتبعه ، ومن لا يعرف النطق يعجز عن الحق .

وهذه نظرة سديدة إلى المنطق والنطق ، لأن من الحيوانات ما يلفظ ويتكلم وله أصوات تدل على أشياء ، غير أن لغة الحيوان فضلا عن قلة قاموسها ، فإنها « إنما تدل بالطبع على جملة من الموافقة والمنافرة غير محصلة ولا مفصلة[1] » .

أما لغة الإنسان فإنها تؤدى وظيفة اجتماعية ، وهى ضرورة تعاون البشر ، والمشاركة فى الحياة المعقدة أشد التعقيد ، لأنه يلبس ويجهز الطعام ويبنى الدور وغير ذلك مما يقوم على صناعات كثيرة تحتاج إلى تعليم وتعلم ، ولا يكفى فى هذا التعليم والتعلم مجرد المحاكاة ، بل لا بد من الفهم والتفهيم ، ونقل المعانى من ذهن المتعلم إلى الجاهل الذى يريد أن يتعلم . وسبيل نقل المعانى أمران : الإشارة ، واللغة . إلا أن الصوت أدلّ من الإشارة ، لأن الإشارة إنما تهدى من حيث يقع البصر على الشىء المشار إليه فى مكان معين ، على حين يستغنى الصوت عن الشىء وعن المكان .

فالألفاظ الإنسانية أعلى من الزمان ومن المكان ، لأنها كلية ، ولأنها على سبيل الوضع والاصطلاح كأنها رموز

(١) الشفاء : المدخل ، ص ٢٢ الطبعة الأميرية ١٩٥٢ .
(٢) منطق المشرقيين ص ١٠ .
(٣) رسالة فى ماهية الصلاة ، جامع البدائع ص ٦ .

(١) الشفاء طبع طهران ص ٣٤٦ .

وهو قد عاهد الله بعد هذا كله على أن يراعى السنة العقلية حتى يصير تخيل الواجب والصواب هيئة نفسانية ، وأن يهجر الكذب قولا وتخيلا ، وأن يحب الخير والنفع للناس ، وأن يجعل عشق الأخيار وحب تحويم الأشرار أمراً طبيعياً جوهرياً ، وأن يكثر من تشويق النفس إلى المعاد حتى لا يكون للموت عنده عظيم خطر ، وأن يستعمل اللذات على إصلاح الطبيعة وإبقاء الشخص أو النوع ، إلى غير ذلك من الفضائل التى يعددها ابن سينا ويرى أنه لا بد من التحلى بها والتخلى عما يقابلها من الرذائل وفاء بالعهد الذى عاهد الله ، واقتناء للسعادة التى أفاضها على نفسه ، العاقلة للحق ، العاملة على الخير ، التائقة للجمال ، التبع الأمين لكل ما فى الوجود من آيات الحق والكمال ، وإشراقات الخير والجمال .

محمد مصطفى حلمى
أستاذ الفلسفة الاسلامية والتصوف بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول

للأشياء ، كما يذهب أصحاب المنطق الرمزي من المحدثين . والفهم هو دلالة اللفظ على المعنى ، وهـذا ما جعل الإنسان ناطقاً أو عاقلا . والعقل أول ما يميز الإنسان عن الحيوان .

— ٢ —

ويبدو أن ابن سينا يفهم الحياة الاجتماعية فهماً خاصاً ، ولذلك قال في مقالة الحيوان من كتاب الشفاء : « والإنسان من بين الحيوان هو الذي لا يمكنه أن يعيش وحده ، فإن أسباب حياته ومعيشته تلتئم بالمشاركة المدنية . والنحل والنمل وبعض الغرانيق تشارك الإنسان في ذلك ، لكن النحل والكركي تطيع رئيساً واحداً ، والنمل له اجتماع ولا رئيس له ... » ويعود ابن سينا إلى نفس هذا المعنى في مقالة النفس من كتاب الشفاء ، فيذهب إلى أن الإنسان له خواص أفعال تصدر عن نفسه ليست لسائر الحيوان ؛ أولها أنه لا يستغنى في بقائه عن المشاركة ، لا كسائر الحيوانات التي يقتصر كل واحد منها في نظام معيشته على نفسه وعلى الموجودات الطبيعية . ولو اعتمد الإنسان على نفسه وحده وعلى الموجودات الطبيعية لهلك أو ساءت معيشته أشد سوء . ذلك لأن الإنسان لا يحيا حياة طبيعية بل أزيد من الطبيعة « مثل الغذاء المعمول ، واللباس المعمول . والموجود في الطبيعة من الأغذية ما لم يدبر بالصناعات ، فإنها لا تلائمه ، ولا تحسن معها معيشته[1] » ، وكذلك الملابس فمادتها موجودة في الطبيعة ، ولكن الإنسان يهيئها ليمكن لبسها ، ولكل حيوان ملبسه بالطبيعة . لهذا السبب كانت أول صناعتين : الفلاحة والنسيج ، وكلا الصناعتين تحتاجان إلى مشاركة وإلى تعليم وتعلم ، واحتاج في التعليم والتعلم إلى اللغة كما ذكرنا .

فإن قيل إن بعض الحيوانات الاجتماعية كالنمل والنحل لها صنائع فهي من هـذا الوجه تشبه الإنسان ، أجاب ابن سينا بأن الصناعات الموجودة للحيوانات كالطيور والنحل التي تبني البيوت والمساكن ، لا تصدر عن « استنباط وروية وقياس ، بل عن إلهام وتسخير » . وهذا هو الفرق المشهور بين الإنسان والحيوان حيث قالوا : إن الحيوان يهتدي بالغريزة والإنسان بالعقل . والغريزة في الحيوان لا تختلف ولا تتنوع ، « وأكثر أفعال الحيوان » لصلاح أحوالها والضرورة النوعية ، ليست للضرورة الشخصية . والذي للإنسان فكثير منه للضرورة الشخصية ، وكثير منه لصلاح الشخص بعينه » ومعنى ذلك أن الإنسان ، ولو أنه اجتماعي ولا غنى له عن التعاون والمشاركة ، إلا أنه يبغي مصلحة الشخص لا النوع ، ويتجه اتجاهاً فردياً . ولم يفت هـذا المعنى عن المحدثين ، فقال بعضهم : إن الإنسان إذا ارتقى تمرد ، ووصلوا بين الرقي والفردية . أو هو الاجتماع الرشيد الذي يعرف فيه كل فرد موضعه ومهمته ورسالته الاجتماعية عن حرية وإرادة ومعرفة ، لا عن إلهام وتسخير .

— ٣ —

عند ما تحدث ابن سينا في أوائل مقالة النفس من طبيعيات الشفاء عن القوى النفسانية الثلاث : النباتية والحيوانية والإنسانية ، قال : إن هناك أفعالا يشترك فيها الحيوان والنبات كالتغذية والنمو والتوليد ، وأفعالا يختص بها الحيوان مثل الإحساس والتخيل والحركة الإرادية ، وأفعالا « تختص بالناس مثل تعقل المعقولات ، واستنباط الصنائع ، والروية في الكائنات ، والتفرقة التي بين الجميل والقبيح[1] » .

وقد عاد إلى تفصيل الكلام عن هذا التمييز في أماكن متفرقة من كتبه . وقد عرضنا لامتياز الإنسان بالنطق ، ثم باستنباط الصنائع ، ونتحدث الآن عن هذه الخاصة وهي تقدير الجميل والقبيح .

فالحيوانات تقبل على أفعال وتنصرف عن أخرى ، ولكنها لا تنصرف هـذا التصرف بعد تقدير أو اعتقاد أو رأي . وقد ضرب ابن سينا المثل بالأسد الذي يعطفه صاحبه ، فلا يأكله ولا يأكل ولده ، وليس سبب ذلك « اعتقاداً في النفس ورأياً ، ولكن هيئة أخرى نفسانية ، وهي أن كل حيوان يؤثر بالطبع وجود ما يلذه وبقاءه ، وأن الشخص الذي يطعمه قد صار لذيذاً له ، لأن كل نافع لذيذ[2] » . ولا نود أن نناقش هذه القضايا جميعاً ، غير أننا

(١) الشفاء ص ٣٤٦ — والمقصود بالمعمول المقصود بها : المصنوع .

(١) الشفاء ص ٢٨٨ . (٢) الشفاء ص ٣٤٦ .

تشير إلى أن تعلم الحيوان يتم بطريق ما يسمى بالأفعال المنعكسة المتعلقة بشرط .

أما الجميل والقبيح فإن معظم القدماء من فلاسفة الإسلام كانوا يريدون بهما الجمال والأخلاق معاً ، أى السلوك الذى يصدر عن الإنسان ، فإن كان مطابقاً للفضيلة فهو جميل ، وإن كان ذاهباً نحو الرذيلة فهو قبيح . وقد مزج أفلاطون بين مثال الخير والجمال . ويقال فى اللغة يجمل بك أن تفعل كذا أو يقبح بك أن تفعل كذا . والجميل والقبيح على كلا المعنيين مما « ينبغى » على الإنسان أن يفعله أو يتركه ، وليست هذه الأفعال الواجبة مما تدركها الحيوانات لأن تصرفها بالغريزة لا عن اعتقاد ورأى .

وهنا يصح فى المناظر الجميلة والمسموعات الجميلة ، كما يصح فى الأفعال الأخلاقية التى يجمل أو يقبح أن تفعل ، لأن إدراك الجمال يستند إلى العقل والتمييز .

— ٤ —

يشترك الإنسان والحيوان فى تذكر الأمور الماضية ، والاعتماد على التجارب فى مصالح الحياة والإقبال على النافع وتجنب الضار . وهناك أعمال تنبعث فى الحيوان وفى الإنسان بالغريزة والإلهام الإلهى ، لا عن خبرة وتجربة ، كما تحذر الشاة الذئب « وإن لم تره قط ، ولا أصابتها منه نكبة » . وكذلك حال الطفل ساعة يولد فى تعلقه بالثدى[1] .

أما الأعمال التى تكون عن تجربة فهى تابعة للألم واللذة حين تُدرك الصور الحسية ، حيث تحفظ « الصورة » صور المحسوسات وما قارنها من لذة وألم ، وتذكر « المتوهمة » المعنى الموجود فيها ، « ولهذا السبب تخاف الكلاب المدر والخشب وغيرها[2] » ، وهذا هو الذكر المفيد فى التجارب .

ويختص الإنسان بشىء آخر خلاف الذكر ، هو التذكر . والفرق بين الذكر والتذكر أنّ الذكر الموجود فى سائر الحيوانات يتم بغير إرادة ، فإنْ « ذكرتْ ذكرتْ ، وإن لم تذكر لم تشتق إلى التذكر ، ولم يخطر لها ذلك

(١) الشفاء ص ٣٣٩ .
(٢) الشفاء ص ٣٤٠ .

بالبال » أما التذكر فهو للإنسان ، ويكون عن شوق وطلب ، وإدراك أنّ الشىء كان موجوداً فى الزمان الماضى فيطلبه فى الحاضر ليستفيد منه فى المستقبل . فإذا كان الذكر موجوداً عند الحيوان ، فليس عنده التذكر . وفى ذلك يقول ابن سينا : « وأما التذكر ، وهو الاحتيال لاستعادة ما اندرس ، فلا يوجد على ما أظن إلا فى الإنسان » . وعلة ذلك أن استحضار الأحداث الماضية بالإرادة إنما يكون للاستدلال بها على الأمور ، وهذا ما تختص به القوة النطقية التى يخلو منها الحيوان .

ولا يدرك الحيوان كذلك الزمان المستقبل ، لأنه لا يشعر بالزمان ، وإذا كانت بعض أنواع الحيوان تأتى أفعالا فيها إعداد للمستقبل ، فإنما ذلك على سبيل الإلهام الغريزى ، كالذى يفعله النمل عند نقل القوت إلى مساكنه إذا شعر بنزول المطر ، فهذا لأنه يتخيل الوقت الحاضر ، ثم إنّ الحيوان الذى يعد المستقبل بالغريزة ضرباً واحداً المطبع فى نفسه يعمل على حسب فطرته ، سواء كان موافقاً أم غير موافق . أما الإنسان فإنه يروّى فى الأمور المستقبلة هل ينبغى له أن يفعلها أو لا ينبغى له ذلك ، فيفعل ما توجبه له رويته ، مع انتهاز الفرصة ، واختيار الوقت الملائم .

جملة القول يحفظ الحيوان ولا يتذكر ، وقد وصف ابن سينا أخلاق الحيوان فقال : « ومن الحيوان ما هو شديد الحفظ مثل الجمل والحمار ، وأما تذكر الشىء فللإنسان وحده[1] » .

— ٥ —

هناك انفعالات تخص القوى الحيوانية ، وأخرى لا توجد إلا فى الإنسان . فالغضب يظهر عند اشتداد الشوق إلى الغلبة ، ويتبع الغضب عدة عوارض كالخوف والغم والحزن ، لأنها تنشأ إذا تحركت القوة الغضبية ثم ضعفت بعد تصور خيالى أو عقلى . وقد تثبت بعض الانفعالات فى الحيوان فتصبح أخلاقاً لها . فبعض الحيوانات هادئ الطبع قليل الغضب والحزن مثل البقرة . وبعضها شديد

(البقية على الصفحة التالية)

(١) الشفاء مخطوط ورقة ٢٨٥ و .

بين « إنية » ابن سينا

و « كوجيتو » ديكارت

الدكتور عثمان أمين

« الإنية » في اصطلاح ابن سينا هي الذات الواحدة المستمرة بعينها ، وهي مباينة للموضوع ، مغايرة الجسم ؛ ويشار إليها في اللغة بضمير المتكلم في قوله : « أنا » . وإثبات الإنية من المسائل التي عني بها ابن سينا عناية خاصة ، وقد أراد به إثبات الشعور بالذات ووجود النفس مستقلة عن البدن . ولتقرير تلك الحقيقة افترض افتراضاً يُطلق عليه اسم « الرجل الطائر » أو « الرجل المعلق في الفضاء » ، فقال في كتاب « الشفاء » ما نصه :

« يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة ، وخلق كاملا . لكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجيات ، وخلق يهوى في هواء أو خلاء هوياً لا يصدمه فيه قوام الهواء صدما ما يحوج إلى أن يحس ، وفرق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تتماس . ثم يتأمل أنه هل يثبت وجود ذاته ؟ فلا شك في إثباته لذاته موجوداً ، ولا يثبت مع ذلك طرفاً من أعضائه ولا باطناً من أحشائه ، ولا قلباً ولا دماغاً ولا شيئاً من الأشياء من خارج . بل كان يثبت ذاته ولا يثبت لها طولا ولا عرضاً ولا عمقاً . ولو أنه أمكنه في تلك الحال أن يتخيل يداً أو عضواً آخر لم يتخيله جزءاً من ذاته ، ولا شرطاً في ذاته . وأنت تعلم أن المثبَت غير الذي لم يثبت ، والمقرّ به غير الذي لم يقر به : فإن الذات التي أثبت وجودها خاصية على أنها هو بعينه ، غير جسمه وأعضائه التي لم تثبت »[١] .

(١) ابن سينا : « الشفاء » طبعة طهران ج ١ ص ٢٨١ـ٢٨٢

الجهل حاد الغضب كالخنزير البري . وبعضها حليم وجزوع مثل البعير . وبعضه غضوب شديد الغضب سفيه إلا أنه ملق متودد كالكلب . وبعضه يرجع إلى حياء وحفاظ كالأوز . وبعضه حسود متافر مباه بجماله كالطاووس[١] » .

وهناك انفعالات تخص الإنسان وحده مثل « الخجل والحياء والضحك والبكاء وما أشبه ذلك[٣] » . ويسبق الضحك انفعال آخر هو « التعجب » ، ويسبق البكاء « الضجر » . أما التعجب فيتبع إدراك الإنسان للأشياء النادرة ، ويتبع إدراكه للأشياء المؤذية الضجر[٤] . ومن الواضح أن ابن سينا لم يدرس الانفعالات دراسة عميقة ، لأن من الحيوانات ما يضحك ويبكي ومنه ما يتعجب ويضجر ، وليست هذه الانفعالات من خواص الإنسان وحده . كما أن الصلة بين التعجب والضحك صلة ضعيفة جداً تكاد أن تكون معدومة .

ولكنا نوافق ابن سينا على ما يذهب إليه من أن الخجل من خواص الإنسان ، ويعرفه بأنه انفعال نفساني يتبع شعور المرء إذا فعل شيئاً من الأشياء التي أجمع الناس على عدم فعلها . فهذا حقاً من الانفعالات الإنسانية ، إذ يقوم على الشعور من جهة ، وعلى إدراك منزلة الشخص بإزاء المجتمع الذي يعيش فيه من جهة أخرى . وقد دلت المباحث الحديثة على أنه متصل اتصالا وثيقاً بالغريزة الجنسية التي يتأدب الإنسان في فعلها ، ولا يستحي الحيوان منها .

والخوف على نوعين : إما خوف غريزي مثل خوف الشاة من الذئب فتهرب منه ، وهذا يكون للإنسان كما يكون للحيوان . وإما خوف يختص به الإنسان ويحدث له حين يظن أن أمراً في المستقبل قد يضره ، ويتصل بهذا الضرب من الخوف انفعال آخر يتعلق بالزمان المستقبل هو الرجاء . وليس للحيوان خوف من هذا القبيل أو رجاء ، لأن حياته متعلقة بالآن ، لا بالماضي أو بالمستقبل .

أحمد فؤاد الأهواني

(١) الشفاء : مخطوط ورقة ٢٨٠ و .
(٣) الشفاء ص ٢٩١ .
(٤) الشفاء ص ٣٤٦ .

ولست أحمل على العقل العربي ولا على شعراء العرب وأدبائهم ، فالجناية لم تكن جناية هذا العقل ولا جناية الأدباء والشعراء ، وإنما كانت جناية هؤلاء المترجمين الذين سمى الجاحظ طائفة منهم ، إذ نقلوا الفلسفة اليونانية هذا النقل المشوه في نسبة الكتب والمذاهب إلى أصحابها ، والمشوه أيضاً في ألفاظه وصياغاته ، فانصرفت كثرة المثقفين عنها ونفروا منها ، ولم يحدث هذا التدبير من الاندماج والامتزاج الذي كنا نرقبه ونأمله .

وتسلم ابن سينا وغيره من متفلسفة العرب هذه الترجمات والنقول ، فلخصوها ، أو علقوا عليها وشرحوها ، وكانت المهمة الأولى التي أضاعوا فيها أعمارهم وأعمالهم أن يلاءموا بين الآراء المضطربة المنسوبة إلى الفلاسفة ، وأن يفهموا عبارات المترجمين والنقلة المختلفة ، وأن يشرحوا المعاني والأفكار ويلخصوها ؛ وكم من كتاب قرأه أذكياؤهم ، فرأوه أشبه ما يكون بطلسم أو طلاسم . واستمع إلى ابن سينا يقول : « أحكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي ثم عدلت إلى الإلهي ، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة ، فما كنت أفهم ما فيه ، والتبس عليّ غرض واضعه ، حتى أعدت قراءته أربعين مرة ، وصار لي محفوظاً ، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به ... »

وهذه صراحة تُحمَد لابن سينا ، وهي تنطق بما نقوله من أن كتب الفلسفة وصلته بهذه الأساليب الموحشة المنحرفة التي لا تكاد تُفهم مهما جُددت القراءة مراراً وتكراراً . وأنا لا أريد أن أرمي ابن سينا ببقية شهادته على نفسه من أنه كان يعمد إلى الحفظ حين يستعصي عليه الفهم ، إنما أريد أن أستبق شيئاً خفيفاً جداً من هذه الشهادة ، وهي أنه تعود أن يكرر ألفاظاً لا يفهمها ، أو على الأقل كان يصنع ذلك أحياناً حين يعوزه الفهم .

وقد أعْدَتْ هذه الأساليب المنغلقة ابن سينا كما أعْدَتْ غيره من متفلسفة العرب ، فبدا أسلوبه متجمداً ، وبدا في كثير من جوانبه كأنه الصخر الصلد ، يمسكه منطق يشيع فيه الجفاف ، فلا نضرة ولا حياة ، وإنما القضايا المنطقية الصماء التي لا تعنى إلا بالعقل ولب اللب .

ولا عجب فإن هؤلاء المترجمين من الأعاجم لم يجنوا بغير المعاني ، ولم يدخل في أذهانهم شيء كما دخل منطق أرسطوطاليس ، فعم أساليبهم المنطق كما عمت عجمة غريبة في الصياغة . وكان من المصادفات أن ابن سينا وأكثر المشتغلين بالفلسفة لم يكونوا من العرب الخلص ، ولا ممن كوّنوا لأنفسهم سليقة عربية دقيقة ، بل كانوا من الأعاجم الذين يتخذون لغتهم الأعجمية في حياتهم اليومية ، والذين لا يلمون باللغة العربية ولا يحسنونها إلا على نحو ما يحسنها المستعربون في عصرنا ، فأضيفت بذلك عجمة ابن سينا وغيره من متفلسفة الأعاجم إلى عجمة المترجمين .

وبذلك لم يعد من الممكن أن يصبح أسلوب كتاب الفلسفة خيطاً ممدوداً كما أراد الجاحظ ، فقد غلبت عليه عقد مختلفة من لكنة الأعاجم ومن الفساد والنقص ، وأخذت عباراته لا تفهم إلا بمزيد من التأويل والشرح ، لكثرة ما يجري فيها من الخلل والوهن . ولم يعد هناك أمل في أن يتحقق الأسلوب الفلسفي وأن تجري مياه الحياة فيه ، وأن تُداوى جوانب العجز منه ، وأن يصبح غذاء عقلياً عاماً للأمة العربية كلها ، لأن أصحابه أو قل أكثر أصحابه لم تكن لديهم القدرة لينهضوا بذلك ويسدوا مواطن الخلل والزلل منه ، بل لعلهم أرادوا أن تستمر فيه هذه الآفات حتى يكون قاصراً على الخاصة وخاصة الخاصة .

واقرأ في ابن سينا فستجد أسلوباً غير صاف ولا مروق ، وستجد المنطق يحول العبارة إلى ما يشبه الحجارة ، وستجدك في كثير من الأحيان لا تستطيع أن تسير معه إلا مع جمع شديد للذهن وتنبه يقظ واع للعقل ومع عفو كثير عن طريقة نحت العبارات وما ينتخب لها من ألفاظ ، فإن ابن سينا كثيراً ما ينتخبها من المعجم اللغوي المهمل ، لأنه لم يكن عربياً ، ولم يأخذ العربية عن أصحابها مباشرة ، بل أخذها عن كتب اللغة ، كمن يكتب بالإنجليزية أو الفرنسية اليوم متعقباً لها من المعاجم لا على أيدي أساتذة يقفونه على خصائص الألفاظ والعبارات وما يستعمل منها وما لا يستعمل .

وأكبر الظن أننا نستطيع الآن أن نفهم في وضوح هذا الخبر الذي ساقه ابن أبي أصيبعة ، إذ روى أن أبا منصور الجبائي تعرض لابن سينا قائلا له : « إنك فيلسوف وحكيم

ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضى كلامك فيها . فاستنكف الشيخ من هذا الكلام ، وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين ، واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان من تصنيف أبي منصور الأزهري ؛ فبلغ الشيخ في اللغة طبقة قلما يتفق مثلها ، وأنشأ ثلاث قصائد ضمنها ألفاظاً غريبة من اللغة ، وكتب ثلاثة كتب أحدها على طريقة ابن العميد والآخر على طريقة الصابي والآخر على طريقة الصاحب ، وأمر بتجليدها وإخلاق جلدها ، ثم أوعز للأمير ، فعرض تلك المجلدة على أبي منصور الجبائي ، وقال له إنا ظفرنا بهذه المجلدة في الصحراء وقت الصيد ، فيجب أن تتفقدها وتقول لنا ما فيها ، فنظر فيها أبو منصور ، وأشكل عليه كثير مما فيها ، فقال له الشيخ : إن ما تجهله من هذا الكتاب مذكور في الموضع الفلاني من كتب اللغة ، وذكر له كثيراً من الكتب المعروفة فيها كان الشيخ حفظ تلك الألفاظ منها » .

وهذا الخبر واسع الدلالة على ما نقوله من أن ابن سينا لم يتعلم دائماً اللغة التي استخدمها في كتاباته الفلسفية على أهلها ولا على شيوخ وأدباء وقفوه على حدود ألفاظها ووجوه تصاريف عباراتها ، وإنما تعلمها في كثير من أحواله على الأقل عن طريق المعاجم اللغوية مثل التهذيب وغير التهذيب ؛ ومن ثم كانت أساليبه في بعض جوانبها شديدة الانحراف على الذوق العربي ، وكانت في حاجة إلى شرح وتبيان وإيضاح ، وفعلا وضعت لها الشروح والتفاسير حتى يمكن فهمها .

ونحن نعجب الآن لفكرة التفاسير والشروح التي سادت عند العرب في العصور الوسطى . وأظننا نطلع الآن على علة من عللها ، فإن أصحاب الفلسفة كتبوها في شكل يحوج منذ أول الأمر إلى التبيين والتأويل ، وأصبح ذلك سمة من سمات التفكير العلمي عند العرب ، حتى كتب البلاغة ، ألفها أعاجم تأليفاً غامضاً عويصاً ، فشرحت ، وشُرحت الشروح ، وصار ذلك ظاهرة من ظواهر العقل العربي ، أن كتبه لا تجرى سلسة سائغة ، وإنما تجرى ملتوية متعثرة ؛ ووكز العلماء ، كما وكز الفلاسفة ، جهودهم في أن يزيلوا هذا التعثر والالتواء من الكتب ، وأن يعودوا بها شيئاً مفهوماً يدخل في الأذهان ، وفي هذا الحيز المحدود أودعوا نشاطهم الذهني ، أو قل إنهم حبسوه وسجنوه فيه .

على كل حال يُعدُّ ابن سينا في رأينا مسئولا إلى حد كبير عن شيوع الغموض في الأسلوب الفلسفي وشيوع التحجر المنطقي فيه ، بل شيوع العجمة والانبهام في معانيه . ومما يتصل بهذا الجانب عنده أن أسلوبه لا يطرد في سياق واحد ، فتارة يستقيم ، وتارة يلتوى ، وتارة يتضح ، وتارة يغتل بالغريب والحوشي من الألفاظ . وخير مثل لذلك رسالة القضاء والقدر . وليس كل ما يلفتنا فيها استخدام الغريب غير المألوف من القول ، بل يلفتنا أيضاً استخدام واسع للصور والتشبيهات ، وكأننا لسنا بصدد تفكير فلسفي ، وإنما نحن بصدد تفكير أدبي تغلب عليه النظرة العامة دون النظرة الفاحصة التي تعبر عن الحقائق لا بطريق التخيل والإيهام ، وإنما بطريق التفكير المجرد وعرض المعاني عارية بدون زخرف من تشبيه أو استعارة .

وكأن ابن سينا يعتقد أن التعبير الفلسفي لا بأس أن يحتمل قوى مدخرة من الرمز ، وقد عمد إلى هذا الرمز كثيراً كما في رسالة الطير وقصة حي بن يقظان وقصيدة الورقاء التي يفتتحها بقوله : « هبطت إليك من المحل الأرفع » . واستمع إليه يقول في كتابه (الإشارات) : « إذا قرع سمعك فيما يقرعه ، وسُرد عليك فيما تسمعه ، قصة سلامان وأبسال ، فاعلم أن سلامان مثل ضرب لك وأن أبسال مثل ضرب لدرجتك في العرفان إن كنت من أهله ، ثم حلّ الرمز إن أطقت » . ولسنا بصدد تفسير هذه القصة ، إنما نريد أن ندل على أن ابن سينا كان يستخدم الرمز في تعبيره الفلسفي عامداً ، ويتخذ له طريقة المشابهات ، وهي طريقة لا نرضى عنها عند الفلاسفة إنما نرضى عنها عند الأدباء والشعراء ، حين يشبهون شخصاً مثلا بالأسد في الشجاعة أو بالنجم في السمو والرفعة ونحو ذلك مما لا يحققون فيه كلامهم ، وهذا من حقهم ، لأنهم يبنون كلامهم وأقوالهم على التقريب والتخييل لا على التحقيق وجهة المعنى الحقيقة .

وفي ابن سينا جانب لم نتحدث عنه حتى الآن ، وهو استخدامه الشعر في صياغة بعض معارفه الفلسفية ، وقد أكثر في هذا الاتجاه من صنع الأراجيز . وبذلك كان

خلود الروح

[مهداة إلى روح الفيلسوف الخالد ابن سينا — بمناسبة عيده الألفى]

أنت يا روحى . عصفور غريرُ
بين أغلالٍ وأصفاد .. أسيرُ .
آده القيد عن الغيب الذى
يجتلى منه إلى أين .. يصيرُ . ؟

لا أهاب الموت فالموت حياةُ
يذهب الجسم كما يفنى النباتُ
وحياة الروح سرٌّ غامض
شغل العقل ، عن السرّ الرفاتُ

من يقل إنى سأفنى بعد حينِ
بعد ما أهرب من سجن .. مهينِ
خانه الفكر فلم يعرف سوى
جثة الجسم على ماء ، وطينِ

أرأيتَ الورد مطوىَّ الجناح
ذابلاً .. أودتْ به .. هوج الرياح
لفّه الموتُ .. ولكن عطره
عابق ينفح .. أنسام الصباح

هكذا الروح على مرّ الليالى
تخلع الثوب وتنأى .. كالخيالِ .
تعبر الدنيا كأنسام الصّبا
وتُغنّى من أناشيد الجمالِ .

قد شربتُ اليوم فى الحانة ، خمرا
فرأيتُ الكون .. ألحاناً وسحْرا
حلّقت روحى فى دنيا الأولى .
سجّل المجد لهم فى الخلد ذكرى

« القاهرة » كيلانى حسن سند

من أهم المؤثرين فى هذا العمل الذى يشبه إلى درجة بعيدة « ساقية جحا » تلك الساقية التى يقال إنها كانت تأخذ ماءها من البحر ، ثم تدفعه إليه . فهذه الأراجيز التى أضاع فيها أوقاتاً غير قليلة لينظمها طبًّا وغير طب لم يكن فى حاجة إليها ، ولم تفد الفكر العربى أى فائدة ، سوى ما يمكن أن نسميه تناؤباً أصاب هذا الفكر ، فلم يمتد ، ولم ينبسط ، بل تراجع ليوضع فى عبارات موسيقية مرصوفة ، تساعد على الحفظ لا على الاتساع فى الفهم . وبذلك هيأ ابن سينا الفكر العربى من هذه الناحية لغير قليل من الجمود والتكرار والعناية بالصيغ المحفوظة .

ونحن لا نشك فى أن كل ما قدمناه إنما هو أعشاب ونباتات متسلقة طفت على شجرة الفكر الفلسفى عند ابن سينا ، ولم نرد بجمعه وإحصائه أن نحط من قدره أو نزرى على صنيعه ، إنما أردنا أن نصور المادة القوية لأسلوبه وسر الالتواء فيها ، وهو التواء ورثه عمن نهضوا أولاً بالترجمة والنقل للفلسفة اليونانية ، واستمر عالقاً بأسلوبه وأساليب كثير ممن جاءوا بعده ، مما ساعد على أن يجرى التفكير الفلسفى عند العرب منفصلا أو يكاد عن تفكيرهم العام ، فلم يُطبع عقلهم العربى بطوابع يونانية دقيقة ، بل ظلت له خواصه الأصلية ، وظل محتفظاً فى كثير من جوانبه ، وخاصة فى الشعر والنثر الفنى ، بهذه الخواص على مدى العصور والأجيال .

شوقى ضيف

من أنصار الرئيس

للأستاذ محمود الخضيري

روى الفخر الرازى فى مناظراته فى بلاد ما وراء النهر أنه لقى فى بخارى رجلا سماه : « النور الصابونى » يشتغل بعلم الكلام ويزعم أنه رئيس القوم فيه . ويدعو له الفخر الرازى بما يدل على أنه حرر « المناظرات » بعد وفاة الرجل . وروى أن هذا « الصابونى » ذهب إلى مكة والمدينة ومرّ فى الطريق عند ذهابه وعند رجوعه بخراسان والعراق ! ولما عاد إلى بخارى صرّح بأنه لم يقع بصره على وجه شخص يستحق أن يسمى إنساناً ! يعنى بهذا نسبة أهل خراسان والعراق فى زمنه إلى الجهل . ولما طلب إليه الفخر الرازى أن يبيّن دعواه ، أجاب : « إنى منذ خرجت من بخارى إلى أن عدت إليها ما رأيت إنساناً يعرف شيئاً من علم الأصول أو يخوض فى بحث من هذه المسائل » .

ويظهر عند التأمل فى عبارة « المناظرات » أن فخر الدين الرازى يسلك سبيل التهكم فى تحامله على نور الدين الصابونى حتى لقد أشار إليه بقوله : « هذا النور الصابونى » مما يوهم أن الرجل نكرة دعىّ ، وأنه ليس على شىء من العلم يبيح له أن يقول فى علماء خراسان والعراق فى وقته مثل هذا القول .

والواقع أن الصابونى كان عالماً ذا شأن يذكر . قيل فى ترجمته : أحمد بن محمود بن أبى بكر الصابونى نور الدين صاحب البداية فى أصول الدين والكفاية . وبينه وبين الشيخ رشيد الدين مناظرة فى مسألة المعدوم ليس بمرئى ، وهى مناظرة طويلة مفيدة ذكرها حافظ الدين النسفى فى « الاعتماد » . مات سنة ٥٨٠ ودفن بمقبرة القضاة السبعة ببخارى » .

ونحن نميل إلى تصديق الصابونى فى حكمه على علماء خراسان والعراق فى زمنه ، ونعذره فى استيائه من انصرافهم عن علم الكلام وغيره من العلوم العقلية . وبالرغم من اجتهاد الفخر الرازى وغيره من علماء النصف الثانى من المائة السادسة والنصف الأول من المائة السابعة ، فإن حالة العلوم العقلية ظلت فى ركود وانحطاط حتى تداركها نصير الدين الطوسى الذى يقول فى نقده لكتاب المحصل لفخر الدين الرازى نفسه وصف هذه الحال : « وفى هذا الزمان لما انصرفت الهمم عن تحصيل الحق بالتحقيق ، وزلت الأقدام عن سواء الطريق ، بحيث لا يوجد راغب فى العلوم ، ولا خاطب للفضيلة ، وصارت الطباع كأنها مجبولة على الجهل والرذيلة ، اللهم إلا بقية يرمون فيما يرومون رمية رام فى ليلة ظلماء ، ويخبطون فيما ينحون نحوه خبط عشواء ، ولم يبق فى الكتب التى يتداولونها من علوم الأصول (يعنى أصول الدين أو الكلام) عيان ولا خبر ، ولا من تمهيد القواعد الحقيقية عين ولا أثر ، سوى كتاب « المحصل » الذى اسمه غير مطابق لمعناه ، وبيانه غير موصل إلى دعواه ! وهم يحسبون أنه فى ذلك العلم كاف ، وعن أمراض الجهل والتقليد شاف ! والحق أن فيه من الغث والسمين ما لا يحصى ، والمعتمد عليه فى إصابة اليقين بطائل لا يحظى ! بل يجعل طالب الحق بنظره فيه كعطشان يصل إلى السراب ، ويصير المتحير فى الطرق المختلفة آيساً عن الظفر بالصواب ، رأيت أن أكشف القناع عن وجوه أبكار مخدراته ، وأبيّن الحال فى مكامن شبهاته ، وأدلّ على غثه وسمينه ، وأبيّن ما يجب أن يبحث عنه من شكه ويقينه » (تلخيص المحصل لنصير الدين الطوسى ، ص ٣) .

وكان الفخر الرازى كثيراً ما يتعرض لابن سينا بالذم والتشنيع بالرغم من كثرة نقله عنه ، وإذا ما تصدّى لشرح كتاب من كتبه لم يتردد أثناء الشرح من تعمد الطعن فيه وتجريحه دون مراعاة لوجه الحق والإنصاف ، بل رغبة فى الزهو وتكلف التفوّق .

ومن كتب ابن سينا التى شرحها الفخر الرازى : كتاب الإشارات والتنبيهات ، وهو كتاب كان يعتز به الشيخ الرئيس ويوصى بالضن به على غير أهله ، وقد تكلم النصير الطوسى عن شرح الرازى لهذا الكتاب . فقال : « شرحه فيمن شرحه الفاضل العلامة فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الخطيب الرازى ، جزاه الله خيراً ، فجهد فى تفسير ما خفى منه بأوضح تفسير ، واجتهد فى تعبير ما التبس فيه بأحسن تعبير ، وسلك فى تتبع ما قصد نحوه طريقة الاقتفاء ، وبلغ فى التفتيش عما أودع فيه مدارج الاستقصاء ، إلا أنه بالغ فى الرد على صاحبه أثناء المقال ، وجاوز فى نقض قواعده

حد الاعتدال ؛ فهو بتلك المساعي لم يزده إلا قدحاً ؛ وكذلك سعى بعض الظرفاء شرحه جرحاً . ومن شرط الشارحين أن يبذلوا النصرة لما قد التزموا شرحه بقدر الإمكان ، وأن يذبوا عما قد تكلفوا إيضاحه بما يذب به صاحب تلك الصناعة ، ليكونوا شارحين غير ناقضين ، ومفسرين غير معترضين ؛ اللهم إلا إذا عثروا على شيء لا يمكن حمله على وجه صحيح، فحينئذ ينبغي أن ينبهوا عليه بتعريض أو تصريح ، متمسكين بذيل العدل والإنصاف ، مجتنبين البغي والاعتساف ؛ فإني إلى الله الرجعى ، وهو أحق بأن يخشى . وقد سألني بعض أجلة الخلان ... أن أقرر ما تقرر عندي ، مع قلة البضاعة .. من معاني الكتاب المذكور ومقاصده ، وما يقتضي إيضاحه بما هو مبني على مبانيه وقواعده ، كما تلقنته من المحققين المعاصرين والأقدمين ، أو استفدته من الشرح المذكور وغيره من الكتب المشهورة ، أو استنبطته بنظري القاصر وفكري الفاتر ، وأشير إلى أجوبة بعض ما اعترض به الفاضل الشارح ، مما ليس في مسائل الكتاب بقادح ، وأتلقى ما يتوجه منها عليها بالاعتراف ، مراعياً في ذلك شرائط الإنصاف ، وأعرض عما لا يجدي بطائل ، ولا يرجع إلى حاصل » (شرح الإشارات لنصير الدين الطوسي ، نشره الشيخ محمد رضا الطهراني ، طهران سنة ١٣٠٥ ، ورقة ١ ظهراً و ٢ وجهاً) .

وقد أوردنا هذا النص بالرغم من طوله ، لأنه غير موجود في الطبعات المشهورة لهذا الكتاب مما ظهر في تركيا أو في مصر ، ولأن بعض العلماء ، ومنهم أستاذنا المرحوم نللينو ، ذهب إلى أن المشروح من الإشارات لابن سينا هو القسم الثاني منه فقط (تاريخ الفلك عند العرب في القرون الوسطى ص ٣٥) والنص الذي أوردناه هو من مقدمة الشرح على القسم الأول .

ولنذكر على سبيل المثال موضعا من المواضع الصعبة في كلام ابن سينا في الإشارات لنتبين منه طريقة الفخر الرازي ، خصم الرئيس ، والنصير الطوسي ، المتعصب له العامل على ترويج فلسفته . قال ابن سينا : فإذا قرع سمعك فيما يقرعه وسرد عليك فيما تسمعه قصة لسلامان وأبسال فاعلم أن سلامان مثل ضرب لك وأن أبسالا مثل ضرب لدرجتك في العرفان إن كنت من أهله ، ثم حل الرمز إن أطقت » نجد الفخر الرازي يصرح في شرحه لهذا الموضع بما يلي :

« إن قول الشيخ : ثم حل الرمز إن أطقت ، ظلم وإنه يجري مجرى التكليف بمعرفة الغيب » وكأنه لم يحاول الاستقصاء والبحث ، ولم يكن قد تعلم حل الإشكال من شيوخه ولم يعثر على توضيحه في علاته ولا في بيت كتبه ، فحنق على صاحب النص وغضب واتهمه بالظلم . بينما نجد النصير الطوسي يقول : « إن الأمر بحل الرمز ليس تكليفاً بمعرفة الغيب ، وإنما هو موقوف على استماع تلك القصة » ويظهر من شرحه لهذا الموضع أنه بحث في كتب اللغة والنوادر وفي كتب الفلسفة وبعد عشرين سنة من تحريره لشرحه وقعت له قصة عنوانها « سلامان وأبسال » منسوبة لابن سينا فحقق صحة نسبتها له واتضح له بعد فحصها أنها تحتوي على مفتاح الرمز ولما أعاد تحرير الشرح استوفى بحثه للموضوع فجاء تفسيره عظيم الفائدة ذا أثر مبارك في آداب الفرس والترك على نحو ما يظهر في أشعار جامي ولامعي .

ولنصير الدين الطوسي موقف آخر شبيه بموقفه مع الرازي ، وذلك في دفاعه عن ابن سينا ضد محمد بن عبدالكريم الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨ هجرية ، وهو المشهور بكتابيه الملل والنحل ونهاية الإقدام وغيرهما . وذلك أن الشهرستاني ألف كتابا سماه « المصارعات » بالغ فيه في مدح نفسه وفي ذم ابن سينا مجافيا بذلك قواعد الآداب والذوق السليم . وذكر في أوله في خطاب وجهه إلى الأمير الذي كان يحميه ، أنه بعد أن حظي برضاء الأمير عن كتابه في الملل والنحل فكر في أن جهده فيه لا يتجاوز حسن الاستيعاب لمختلف المقالات وجودة النقل والترتيب ، فرأى أن الرجل إنما يسبر عوده وتبين قيمته عند مناجزة الأقران ومبارزة الشجعان ... والامتحان يكرم المرء أو يهان » ثم تأمل المشتغلين بالحكمة واحداً واحداً وسأل أهل العلم رأيهم فيهم فاقتنع أن ابن سينا هو أعلاهم قدراً وأن من وقف على مضمون كلامه فقد فاز في الفلسفة بالسهم المعلى ، فعزم على أن يصارعه « مصارعة الأبطال وينازله منازلة الرجال » وأن يبين وجوه التناقض في كلامه « ومواقع الخطأ في راهينه » ثم يدعو الأمير « يجلس مجلس القضاة والحكام ليحكم بين المتناظرين المتبارزين بالحق والصدق ، فهو أحرى بالحكم إذا تحوكم إليه وأحق برعاية الصدق إذا عول عليه » — وعلى هذا النحو يخاطب الشهرستاني أميره ومخدومه .

ورد عليه نصير الدين رد العالم المتواضع وخصص لذلك كتاباً سماه « مصارع المصارع » قال في خطبته : إنه لما طالع كتاب الشهرستاني وجده مشتملاً على نظر ضعيف ومقدمات

(البقية على الصفحة التالية)

ابن سـيـنـا

عند قدماء المترجمين والمؤرخين

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

لعل أقدم من ترجم للشيخ الرئيس ابن سينا هو ابن سينا نفسه ؛ فقد سأله أحد تلاميذه أن يحكي له تاريخ حياته فأملى عليه ما سطره[1] . ثم جاء تلميذه أبو عبيد الجوزجاني فكتب رسالة في ترجمة حياة أستاذه ابن سينا ، جعلها قسمين ، أولها هو ما سمعه من أستاذه ، وثانيهما هو ما أضافه أبو عبيد منذ أن لحق بخدمة الشيخ إلى أن أدركته الوفاة[2] .

فحكاية الشيخ الرئيس تاريخ حياته ، وما شاهده الجوزجاني من مصاحبته له حتى الوفاة سنة ٤٢٨ هـ هما المصدر المعول عليه في كل ما يرجع إليه من تاريخ ابن سينا .

وإذا كانت هذه الترجمة الذاتية وزيادة الجوزجاني عليها هي مما يحتفظ به المتحف البريطاني في مخطوطاته ؛ فإن من حسن الحظ أن مؤرخ الأطباء والحكماء المشهور « ابن أبي أصيبعة » قد نقل هذه الترجمة كاملة في كتابه المعروف « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » الذي نشره المستشرق م مولر الذي سمى نفسه بامرئ القيس بن الطحان سنة ١٣٠٠ هـ في المطبعة الوهبية . على أننا نجد هذه الترجمة بقلم الشيخ الرئيس وتلميذه الجوزجاني منقولة بعد ذلك باختصار في كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » للقفطي الذي كان

(١) أخبار الحكماء للقفطي ص ٢٦٩

(٢) جهار مقالة — الترجمة العربية للدكتورين عبد الوهاب عزام بك ويحيى الخشاب ص ١٧٦

معاصراً لابن أبي أصيبعة في القرن السابع الهجري .

ولا شك أن الوزير القفطي وابن أبي أصيبعة قد اطلعا على مخطوطة ابن سينا في الترجمة لنفسه ، وعلى ما زاده أبو عبد الله الجوزجاني عليها من عبارات حول بها تاريخ أستاذه ، ولكن القفطي اختصر الترجمة حتى تتناسب مع بقية تراجم الحكماء ، أما ابن أبي أصيبعة فقد نقلها تامة من غير اختصار[1] .

وإذا تركنا الجوزجاني على اعتبار أنه تلميذ ابن سينا وأول مترجم لحياته ، وجئنا مع العصور التالية لعصر الشيخ الرئيس رأينا أن القرن السادس الهجري — وهو القرن الذي يلي قرن وفاة ابن سينا — قد شهد مترجماً لحياة الشيخ الرئيس . ولعل هذه الترجمة هي أول ما كتب بعد الجوزجاني . ونعني بها الترجمة التي كتبها « ظهير الدين البيهقي » في كتابه : « تاريخ حكماء الإسلام » الذي نشره المجمع العلمي العربي ، بتحقيق الأستاذ الكبير محمد كرد علي . وقد ترجم البيهقي في كتابه هذا لأكثر من مائة حكيم إسلامي ، ولكنه لم يطل في ترجمة واحد منهم كما أطال في ترجمته للشيخ الرئيس ... فقد بلغت ترجمته في الكتاب عشرين صفحة ، على حين أوجز المؤلف في بقية التراجم إيجازاً شديداً .

ويعترف البيهقي في آخر ترجمته لابن سينا أنه نسخ

(١) عيون الأنباء جـ ٢ ص ٢ — ١٠ وجهار مقالة ص ١٧٦

واهية ، ومباحث غير شافية وتخليط في الجدال مما يستعمله المتسوقون عند العوام . ثم قال : « فرأيت أن أكشف عن تمويهاته وأميز بين تخليطاته ، غير ناصر لابن سينا في مذاهبه ، لكن مشيراً إلى مزال أقدام صاحبه ، ومنبها على مغالطاته .

وإن كانه في بعض المواضع بصاعه ، أو سقيته بكأسه ، فالله يعلم أن ذلك ليس مما يقتضيه دأبي وعليه تعودي ، بل الحرب تعدي ، والكلام يجر الكلام . فإن وقعت لي فيه زلة أو هفوة ، فليصلح كتابي من اطلع عليه من إخواني طلباً لاقتناء الخير وإحراز الأجر » (من مخطوط خاص) ، ويوجد في دار الكتب المصرية مخطوط لهذا الكتاب رقمه ٩٣٥ فلسفة ولكنه سقيم لا يعول عليه .

وهكذا يتبين الفرق بين نصير لابن سينا وخصمين من خصومه واضحاً في منهج البحث العلمي وفي الأخلاق .

محمود الخضيري

مما كتبه الشيخ الرئيس أبو علي لنفسه[1] ؛ فهو قد أفاد مما كتبه الشيخ الفيلسوف ، وحرص كثيراً على أن يبقى على عبارات الشيخ وتلميذه ؛ إلا بعض تغيير في العبارة من تقديم وتأخير واستبدال كلمة بأخرى ، مما لا يغير من المعنى شيئاً . فإذا قال التلميذ الجوزجاني عن أستاذه : (إن امرأة مسلولة بخوارزم أمرها أن لا تتناول شيئاً من الأدوية ، سوى الجلنجبين السكرى ، حتى تناولت على الأيام مقدار مائة من ، وشفيت المرأة)[2] رأينا البيهقي يذكر هذه الحكاية نقلا عن الجوزجاني بهذه الصيغة : (ومن تجاربه أن امرأة مسلولة بخوارزم حضرته ، فأمرها أن لا تتناول من الاشربة إلا جلنجبين السكر ، حتى تناولت على مر الأيام منه مائة من ، وشفيت المرأة)[3]. وأدنى نظرة إلى هذين النصين تكشف لنا في يسر أن البيهقي أفاد كثيراً من ترجمة الجوزجاني لأستاذه الشيخ الرئيس وأنه لم يغير فيها كثيراً .

إلا أن البيهقي يروى لنا من عجائب الشيخ الرئيس ما لم يذكره أبو عبيد الجوزجاني في ترجمته التي نقلها ابن أبي أصيبعة والقفطي ، فهو يذكر لنا أنه هرب من حضرة الأمير علاء الدولة لتصرفه في منطقة مفضضة أهديت إليه من الأمير فأهداها هو إلى غلام من غلمان الأمير . ويذكر البيهقي أن الشيخ الرئيس هرب إلى الري ولقي فيها شابا طريفاً اجتمع عليه خلق كثير ، وهو يستدل على إنسان بقسرته[4] وقد عرف الشاب أن هذا الشيخ الذي أمامه هو ابن سينا ، وأنه هارب من أميره ، وتنتهي هذه الحكاية العجيبة بأن يعود الشيخ الرئيس ومعه هذا الشاب إلى الأمير علاء الدولة فيرضى عنه ثانية ويرده إلى مجلسه[5] .

وقد شهد القرن السادس الهجري أيضاً مترجماً لابن سينا ، وهو النظامي العروضي السمرقندي ، الذي ألف كتابه « جهار مقالة » باللغة الفارسية في منتصف القرن السادس تقريباً . وقد استفاد من هذا الكتاب بعض علماء فارس الذين جاءوا بعده على مر العصور . وظل وجه النفعة بهذا الكتاب الثمين قاصراً على العارفين باللغة الفارسية ، إلى أن أخرجته لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٤٩ مترجما إلى اللغة العربية[6] . فرأينا فيه من أخبار الشيخ الرئيس ابن سينا ما يضيف إلى معارفنا عنه قدراً طيباً .

وقد كان العروضي السمرقندي معجبا بابن سينا إلى أقصى حدود الإعجاب ، فهو لا يذكره إلا في معرض الثناء عليه والإشادة به والدفاع المجيد عنه . فقد بلغه أن رجلا انتقد كتاب « القانون » لابن سينا ، فلم يطق صبراً على هذه الجرأة النادرة على الشيخ الرئيس ، وقال (وقد سمعت أمراً عجباً ، ذلك أن رجلا انتقد كتاب أبي علي بن سينا ، وجعل من انتقاده كتاباً سماه « إصلاح القانون » . وقد رأيت الرجل والكتاب ؛ أما الرجل فمقته . . وأما الكتاب فكرهته . وكيف يجوز لرجل أن يعيب عالما عظيما يقرأ له كتابا ، فتكون أولى مسائله مشكلة عليه ؟)[7] . وقال عن أرسطو وابن سينا : (ولم يصل إلى كنه قوله ، ويسر على جادة سبيله في الألف والخمسمائة سنة التي تلته فيلسوف غير أفضل المتأخرين ، حكيم المشرق ، حجة الحق على الخلق أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا . . . فكل من يعترض على هذين العالمين العظيمين يخرج نفسه من زمرة أهل العقل ، ويسلكها في مسالك المجانين ، ويعرضها في مجمع أهل الغفلة ، حفظنا الله تبارك وتعالى من هذه الهفوات)[8] .

وفي موضع آخر من كتاب العروضي السمرقندي نرى حكاية عن الشيخ ابن سينا وما حدث له مع الأمير قابوس ابن وشمكير ملك جرجان ، وهي حكاية لم ترد في مصدر عربي آخر — فيما نعرف — وتدل على براعة ابن سينا في الطب النفساني والطب الشرعي براعة عظيمة . . فقد استدل على اسم معشوقة لعاشق عليل نضو أسقام ، وعلى اسم أبيها ومحلتها والحي الذي تقيم فيه — استدل على هذا كله بحركات نبض العاشق المريض[9] .

وأعجب مالقي أطلعنا ابن سينا بالطب النفساني هو حكاية ذلك الشاب الذي مرض بالماليخوليا وتوهم نفسه بقرة . . . فعالجه ابن سينا من ذلك الوهم بأن جرى معه في الوهم إلى غايته . . . وقال له : إن القصاب آت ليذبحك ما دمت قد

(١) تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي — طبعة المجمع العلمي العربي ص ٧٢ .
(٢) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٨ .
(٣) البيهقي ص ٦٦ .
(٤) القسرة : هي البول الذي يؤخذ من الإنسان ليحلل ويستدل به على مرضه .
(٥) تاريخ حكماء الإسلام ص ٧١ و٧٢ .

(١) ترجمة الدكتورين عبد الوهاب عزام ، ويحيى الخشاب .
(٢) جهار مقالة ص ٧٦ . (٣) المصدر نفسه ص ٧٧ .
(٤) المصدر نفسه ص ٨٣ .

صرت بقرة . . . وظل بالحيلة يعالجه إلى أن أكل — حتى لا يكون بقرة هزيلة — وعوفى من أوهامه[1] . . .

ولم تذكر هذه الحكاية إلا عند السمرقندى ، أما ابن أبي أصيبعة والقفطى والبيهقى وابن خلكان فلم يشيروا إليها.

وينفى المحقق المعاصر محمد بن عبد الوهاب القزوينى صحة ملاقاة الشيخ الرئيس ابن سينا للأمير قابوس بن وشمكير ، مستنداً إلى نص ابن سينا نفسه[2] فى ترجمة حياته حيث يقول : (وكان قصدى الأمير قابوس ، فاتفق فى أثناء هذا القبض على قابوس ، وحبسه فى بعض القلاع وموته هناك) .

ويدل هـذا النص من ابن سينا نفسه على أنه لم يخدم قابوس لأنه — أعنى الأمير قابوس — حبس قبل بلوغ ابن سينا جرجان .

وإذا لم تصح مقابلة ابن سينا للأمير قابوس فهل يترتب على ذلك عدم صحة الحكاية كلها التى ذكرناها قبلا ، والتى تتصل بالعاشق النضو الذى كشف الشيخ الرئيس — بوساطة نبضه — عن اسم معشوقته وأهلها وحيها ؟ ؟

لقد كان السمرقندى بعد ابن سينا بقرابة قرنٍ من الزمان فهل صنعت هذه الحكاية للدلالة بها على مهارة الشيخ الرئيس فى الطب ، ثم ألم يكن أبو عبيد الجوزجانى تلميذ ابن سينا أولى الناس برواية مثل هذه العجائب .

ويمضى القرن السابع الهجرى كله بتراجم القفطى وابن أبي أصيبعة وابن خلكان للشيخ الرئيس ابن سينا ، ويبدأ القرن الثامن الهجرى ، وهنا نجد الترجمة لرجال العصور مائة مائة ، كتراجم المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى وتراجم المائة التاسعة للسخاوى ، وتراجم المائة العاشرة للغزى ! فلا نجد فى هذه التراجم « القريبة » ترجمة لابن سينا بالطبع ! ولكنا نجد فى القرن الحادى عشر الهجرى ابن العماد الحنبلى يؤلف كتاباً فى أخبار الماضين الناعين اسمه « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » ، ويجعله على حسب السنين . فيذكر فى وفيات سنة ٤٢٨ هـ الرئيس ابن سينا[3] ، ويترجم له فى أربع صفحات كوامل نقلا من ابن خلكان كما يعترف فى آخر الترجمة ! ويزيد على ابن خلكان أن اليافعى قال عن ابن سينا : طالعت كتابه « الشفاء » ، وما أجدره بقلب الفاء قافا لاشتماله على فلسفة لا ينشرح لها قلب متدين ؟ ! .

ثم يزيد بعد هذا : (وقال ابن الصلاح : لم يكن من علماء الإسلام ، بل كان شيطاناً من شياطين الإنس) . ولعل هذه الحملة العنيفة على الشيخ رحمه الله كانت من آثار حملات علماء الدين على الفلاسفة والفلسفة .

هـذا هو ابن سينا فى كتب التراجم القديمة ، ولعل ما ذكرت هو مصادر ترجمة الشيخ الرئيس عند المحدثين . أما كتب التاريخ فلم تخل أكثرها من إشارة إلى الشيخ عند ذكر الوفيات أو حوادث السنين ، ولكننا نعجب حين لا نجد لابن سينا ذكراً فى كتاب « المنتظم » للمؤرخ عبد الرحمن بن الجوزى[1] فقد ذكر شخصيات أقل منه شهرة وذيوعاً وترجم لها فى وفيات تلك السنة ولم يترجم لابن سينا ولم يشر إلى وفاته بكلمة . . .

أما المؤرخ ابن الأثير صاحب كتاب « الكامل » المتوفى سنة ٦٣٠ هـ فقد ذكره فى أربعة أسطر ذكراً غير جميل ولا لائق بمكانته فى تاريخ التفكير الإسلامى ، فقد قال عنه : (صاحب التصانيف السائرة على مذاهب الفلاسفة ، وكان موته بأصبهان ، وكان يخدم علاء الدولة أبا جعفر بن كاكويه ، ولا شك أن أبا جعفر كان فاسد الاعتقاد ، فلهذا أقدم ابن سينا على تصانيفه فى الإلحاد والرد على الشرائع فى بلده[2]) .

ونجد فى القرن الثامن أن المؤرخ ابن كثير صاحب « البداية والنهاية » يذكر ابن سينا فى وفيات سنة ٤٢٨ هـ فى بضعة عشر سطراً ، وينقل أسماء بعض كتبه عن ابن خلكان ويشير فى آخر الترجمة له إلى أن الإمام الغزالى كفره فى كتابه « تهافت الفلاسفة » فى ثلاث مسائل ، وهى قوله بقدم العالم ، وعدم المعاد الجثمانى ، وأن الله لا يعلم الجزئيات[3] .

وهكذا لم يترك بعض مؤرخى السلفيين الشيخ الرئيس ليهدأ ويسلم من اتهاماتهم ، وهو فى ذمة الله الغفور الرحيم .

محمد عبد الغنى حسن

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٦ .

(٢) تعليقات العلامة القزوينى على العروضى السمرقندى ص ١٧٣ .

(٣) شذرات الذهب طبع القدس جـ ٣ ص ٢٣٤

---

(١) انظر وفيات سنة ٤٢٨ هـ فى المنتظم — طبعة حيدر آباد الدكن الهند .

(٢) الكامل طبعة مصطفى محمد جـ ٨ ص ١٠

(٣) البداية والنهاية — مطبعة السعادة جـ ١٢ ص ٤٣

ابن سينـــــا

بين خصومه وأنصاره فى الأزهر

للدكتور محمد يوسف موسى

أنشىء الأزهر منذ نيف وألف عام ليكون مقر الدعاوة للدولة الفاطمية ومذهبها ، ولكنه لعوامل معروفة تطور وتحوّل عن ما أريد له وبه فصار منارة علم ومعرفة ، والمركز الأول لنشر الدين وعلومه على أصول مذهب أهل السنة . ثم لعوامل أخرى ، كان يتقدم بمرور الزمن أو يتأخر ، إلا أنه لا يزال معقل علوم الدين واللغة فى مصر والعالم الإسلامى والشرق كله .

وكان من الحتم أن يعرف الأزهر ، فى أثناء ما مضى من عمره الطويل ، الفلسفة وطرقها وغاياتها . إلا أنه قدر عليه ، بحكم طبيعته وما ورث من أفكار وتقاليد عن العلماء السلفيين السابقين ، أن يكون ضد الفلسفة والفلاسفة ، وذلك لما رآه من الفارق الكبير — بل التعارض الواضح أحياناً — بين الدين ومقرراته وبين الفلسفة وآرائها ومنهجها فى التفكير .

وابن سينا لم يضع قدمه فى الأزهر ، ولكن التفكير الفلسفى الإسلامى الذى تمثله فلسفة الشيخ الرئيس قد عرف الأزهر ، وكان له فيه خصوم وأنصار ، ولذلك استحق صاحب الشفاء أن يقرن بالأزهر فى حديث نسهم به فى مهرجانه الألفى . على أننا لن نتعرض ، فى هذا البحث ، إلا للأزهر الذى عرفناه تلميذاً وأستاذاً ، وذلك قرابة نصف قرن من الزمان ، مع ما يتطلب هذا من الرجوع للماضى الذى لم نشهده وإن كنا نعرفه أيضاً .

ولعل من الحق أن نقول بأن هـذا البحث له جوانبه العسيرة الشائكة ، بالنسبة للأزهرى ، بخاصة متى صدر عن عصبيته للحق وحده دون ما درج عليه من تربية وألف من تقاليد ، إذ كان لهذه التربية والتقاليد حكمها وتأثيرها القوى حتى ليعتبر الخروج عنها مروقاً وانحرافاً عن سواء السبيل !

١ — الأزهر قبل عهدى به

كان لثورة الغزالى على الفلسفة والفلاسفة ، وبخاصة ابن سينا ، أن نفر السلفيون من الفلسفة واعتبروها معارضة للدين عدوة له . كما كان من آثار هذه الثورة القوية العاتية أن ذهب فيلسوف الأندلس الأشهر أبو الوليد بن رشد المتوفى عام ٥٩٥ هـ نفسه للدفاع عن الفلسفة والانتصار لها ورد اعتبارها إليها .

إلا أن دفاع ابن رشد مع قوته ، لم يستطع الوقوف دون حملة الغزالى العارمة ، هذه الحملة التى لا يزال بعض آثرها ملموساً حتى هـذه الأيام . وكل ذلك قد تأثر به الأزهر — بطبيعة الحال — فى ماضيه ، كما لا يزال يتأثر به إلى حد ما فى حاضره ، وعلى الأقل بالنسبة لبعض الشيوخ ومن الناحية الرسمية بصفة عامة .

لقد سُئل الإمام المحدث الفقيه أبو عمرو تقى الدين الشهرزورى المعروف بابن الصلاح ، المتوفى عام ٦٤٣ = ١٢٤٥ م ، عن حكم الله فيمن يشتغل بمؤلفات ابن سينا تعلماً وتعليماً ، فأجاب غفر الله له : « من فعل ذلك فقد غدر بدينه وتعرض للفتنة العظمى » ، لأن ابن سينا « لم يكن من العلماء ، بل كان شيطاناً من شياطين الإنس »[1] .

وسئل عن الحكم فيمن يشتغل بالمنطق والفلسفة بصفة عامة تعلماً وتعلما ، وهل يجوز استعمال المنطق فى إثبات الأحكام الشرعية ، فكان من إجابته : « إن الفلسفة أس السفه والانحلال ، ومادة الحيرة والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة . ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة ، ومن تلبس بها تعلماً وتعليماً حالفه الخذلان واستحوذ عليه الشيطان . وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ومدخل الشر شر ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع » ! ثم انتهى أخيراً بأن رأى أن الواجب على السلطان عرض من ظهر منه اعتقاد الفلاسفة على السيف أو الإسلام ، وعزل من يقوم بتدريس شىء من الفلسفة أو التصنيف فيها ؛ فإن الطريق فى استئصال الشر قلع أصوله[2] .

وفى أوائل القرن التاسع الهجرى نجد ابن خلدون ،

---

(١) فتاوى ابن الصلاح ، نشر منير الدمشقى عام ١٣٤٨ هـ ص ٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٥

المتوفى عام ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م ، يذكر فى مقدمته « أن الفلسفة مخالفة للشريعة ، فليكن الناظر فيها متحرزاً من معاطبها »(١). كما نجد تقى الدين المقريزى، المتوفى عام ٨٤٥هـ = ١٤٤١ م ، يؤكد أنه قد « أطرى الإسلام وأهله من علوم الفلاسفة ما لا يوصف من البلاء والمحنة فى الدين ، وعظم بالفلسفة ضلال أهل البدع وزادتهم كفراً إلى كفرهم »(٢).

وفى القرن العاشر الهجرى نجد طاش كبرى زاده ، المتوفى عام ٩٦٢ هـ = ١٥٥٤ م ، يذكر فلاسفة الاسلام ، وبخاصة الفارابى وابن سينا ، بأنهم أعداء الله ورسله ، وأنهم أضر على عوام المسلمين من اليهود والنصارى لأنهم يتسترون بزى أهل الاسلام(٣).

على أن من الحق أن الإسلام ليس بدعا فى هذه الخصومة التى قد تقتضيها طبيعة الدين وطبيعة الفلسفة ، فإن تاريخ العلم والتفكير الفلسفى فى العصور الوسطى المسيحية حافل بأعنف ألوان الصراع بين العلم ورجاله والكنيسة وحماتها . إنه لا فرق فى هذا بين المسيحية والإسلام ، إلا أن يكون عنف الخصومة وتفاهة أسبابها أظهر فى الأولى .

ومهما يكن ، فهذه الأحكام والفتاوى كان لها أثرها القوى فيما جاء بعدها من أيام وعصور ، ولا يزال لها بعض الأثر حتى هذه الأيام ، فلا عجب أن تأثر الأزهر والأزهريون بها أثراً غير قليل .

ها هو ذا جلال الدين السيوطى ، العالم الأزهرى الكبير والمتوفى عام ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م ، يذكر فى مقدمة كتابه طبقات المفسرين بأنه كان مال فى دراسته إلى المنطق ، ثم كرهه وتركه حين سمع بأن ابن الصلاح أفتى بتحريمه ، وبلغ من كراهته له أن ألف فى التنفير منه كتاباً سماه : « صون المنطق والكلام عن علم المنطق والكلام » ، وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة بمصر سنة ١٩٤٦ .

على أن الأمر لم يقف فى ذلك العهد على تحريم دراسة الفلسفة والمنطق ، بل كانت هناك علوم أخرى(٤) تحط دراستها من قدر العالم الأزهرى وتثير إخوانه عليه . كما كان

(١) المقدمة ، طبع القاهرة عام ١٣٢٢ هـ ، ص ٤٣٤ .
(٢) الخطط المقريزية ، طبع القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ ، جـ ٤ : ١٨٣ — ١٨٤ .
(٣) مفتاح السعادة ، طبع حيدر آباد الدكن عام ١٣٢٨هـ ، جـ ١ : ٢٦ .
(٤) مثل الجغرافية والتاريخ والأدب والرياضة ونحوها .

هناك من الأزهريين المشاهير ، برغم هذا وذاك ، من أدرك وبال تلك التقاليد على الأزهر نفسه ، فخرجوا عما ألفوا من أفكار وتقاليد ، وتعرضوا بذلك لسخط الرأى العام فى الأزهر .

ونذكر من هؤلاء الشيخ حسن العطار ، وهو أحد الشيوخ الأعلام وممن ولوا مشيخة الأزهر ، وقد توفى عام ١٢٥٠هـ. لقد اتصل الشيخ العطار بغير مصر من بلاد الإسلام ، كما اتصل بالعلماء الفرنسيين حين دخل الفرنسيون مصر ، وحاول أن يعرف سر نهضة فرنسا وتقدمها ، فكان له من ذلك نزعة للتجديد ظهرت من خلال كتاباته العلمية الأزهرية ، لكن معاصريه رأوا ذلك بدْعاً واتهموه بالميل والانحراف

إنه يذكر فى بعض كتاباته ما كان من علماء الإسلام السابقين من الاطلاع على كل ما ألف من العلوم ؛ حتى كتب المخالفين فى العقائد وكتب اليهود والنصارى . وأما نحن فى الأزهر فقد اقتصرنا على ما ألفه المتأخرون فلا تطمح نفوسنا إلى غيرها ؛ فإذا ورد علينا ما ليس فيها ، قلنا هذا من كلام الفلاسفة أو من علوم أهل البطالة . وينتهى بقوله : « وهذه نفثة مصدور ، فنسأل الله السلامة واللطف(١) » .

وفى موضع آخر يذكر فائدة الاشتغال بالعلوم الطبيعية ، وما تؤدى إليه من اختراع الآلات العجيبة والصناعات الحربية ونحوها ، كما عرفه مما عرب فى زمنه من كتب الفرنجة . وينتهى بوصاية قارئه بألا يجعل سعيه مصروفاً لغير الكمالات العرفانية ، ويختم بقوله : « وهذه نفثة مصدور ، ولله عاقبة الأمور(٢) » .

ولكن كان لصاحب هذه « النفثات » من النفوذ والأثر ، بحمد الله ، ما دفع أولى الأمر للاستجابة فيما بعد لنزعته فى التجديد فى الأزهر ، فبفضله وفضل من أخذ بخلته صدر أمر الخديو عباس الثانى سنة ١٣١٤ هـ ، ١٨٩٦ م ، بتدريس الإنشاء ، وعلوم اللغة وآدابها ، والهندسة والجغرافية ، ونحو هذه العلوم ، رحمياً بالأزهر .

ومما يؤكد أن هذا هو الحال الذى كان أيام الشيخ العطار ، ما يؤكده على مبارك المتوفى عام ١٨٩٣م ، إذ يقول : « وليس لهم — أى للأزهريين — التفات لنحو التاريخ والجغرافية والفلسفة ، بل يرون ذلك بطالة وتضييعاً للزمن بلا فائدة . ويتهمون من يقرأ كتب الفلسفة ، ويشنون

(١) حاشية العطار على شرح جمع الجوامع فى أصول الفقه ، المطبعة العلمية ، جـ ١ : ٢٢٥ — ٢٢٦ .
(٢) نفس المرجع ، جـ ٢ : ٤٦١ .

عليه القارة ، وربما ينسبونه إلى الكفر»[1].

ومن أنصار الفلسفة والدراسات الحديثة في ذلك الوقت ، الإمام الشيخ محمد عبده ، وقد لقي في ذلك ما هو معروف من تعصب الأزهريين عليه ورميه بالزيغ والإلحاد . « إذ كانوا يزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يُفضي إلى زعزعة العقائد الصحيحة ، وقد يهوي بالنفس في ضلالات تحرمها خيري الدنيا والآخرة[2] » .

إذاً ، لا جرم أن نقرر بأن الأزهر ، وبخاصة في تلك الفترة التي نتحدث عنها ، ما كان يطيق الفلسفة ، لا فرق بين فلسفة ابن سينا أو غيره من فلاسفة المسلمين ، بله غير المسلمين ! ولا جرم كذلك أن نرى الدراسات الفلسفية ، بما تتطلب من نشر التراث القيم الذي تركه لنا أسلافنا الأعلام ، تتأخر في الأزهر إلى حد كبير ، حتى أصبحنا نلجأ إلى كتابات الأوربيين لنعرف فلاسفة العرب والإسلام !

يحدث هذا ، مع أن العداوة بين الدين والفكر لا تقوم إلا على الجهل الذي يرين على العقل فيحول بينه وبين التفكير ، كما يجثم على القلب فيضيق بالنظر والفكر ! يحدث هذا ، والقرآن نفسه قد جعل للعقل مكاناً علياً ، كما ناط به النظر في كل ما خلق الله وكشف أسرار الكون ، وذلك هو الوسيلة الأكيدة للإيمان بالخالق جل وعلا !

٢ – الأزهر الذي عرفته بنفسي حتى الآن

إذا كانت فتوى ابن الصلاح ضد الفلسفة بصفة عامة ، وفلسفة ابن سينا بخاصة ، كان لها من الأثر القوي أن يعرض الجلال السيوطي عن المنطق بعد إقباله على دراسته ويؤلف كتاباً في ذمه ، فإن هذا الأثر ظل قويا حتى بداية هذا القرن العشرين الذي نعيش فيه .

حقاً ، لقد كان مما حفظناه في بداية طلبي العلم بالأزهر ، أي منذ قرابة أربعين عاماً ، حول المنطق وتحريم تعلمه أو جوازه ، هذان البيتان :

فابن الصلاح والنواوي حرّما   وقال قوم ينبغي أن يُعلما

(١) الخطط التوفيقية ، طبعة بولاق جـ ٤ ، عن محمد عبده للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٣٧ — ٣٨

(٢) محمد عبده للشيخ مصطفى عبد الرازق ، ص ٣٦ ، ويرجع إلى رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ، وحاشيته على شرح الجلال الدواني على العقائد العضدية ، ولعل ما تناوله من تفسير القرآن لمرونة سعة صدره وعقله للتفكير الفلسفي ، ولكنه كان شاذاً في زمنه

والقولة المشهورة الصحيحة   جوازه لكامل القريحة

ومع هذا ، يجب أن نقول بأنه كان في هذا العصر الحديث ، غير الشيخ الإمام محمد عبده ، من كان من كبار شيوخنا يدرس الفلسفة مع من يثق به من إخوانه ، وبخاصة فلسفة ابن سينا . ولعل منهم العلامة الشيخ محمد بخيت مفتي مصر في زمنه ؛ ونحن الآن نستعين في نشر كتاب الشفاء لابن سينا بنسخته الخاصة . ومنهم أيضاً الشيخ حسين والي ، وهو من أعيان علماء الأزهر ومصر ، بدليل ما نراه من ذلك فيما كتبه في علم الكلام . ومنهم الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر الحالي ، أمد الله في أيامه ، إذ كان يلقب وهو طالب « بابن سينا » وقد سمعت هذا منه بنفسي بمنزله عام ١٩٤٥ .

لكن الأزهر الرسمي ظل مجافيا للفلسفة ، حتى لعلم الأخلاق منها ، إلى عهد غير بعيد . ولنترك الكلمة في هذا للمغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، إذ يقول في تقدمة كتاب لي (تاريخ الأخلاق عام ١٩٤٠) فيما يقول :

« منذ أكثر من عشرين عاما كنت سكرتير مجلس الأزهر الأعلى والسكرتير العام للمعاهد الدينية ، وكنت بحكم منصبي متصلا بمناهج التعليم بالأزهر وما يقرر تدريسه من الكتب . وأذكر أنه في ذلك العهد كان قرر تدريس « كتاب تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه في بعض السنين الدراسية ، وسرني ذلك لأني كنت أحب أن تجد كتب الفلاسفة الإسلاميين منفذا إلى المعهد الإسلامي الأكبر .

ولم يمض زمن طويل حتى علمت أن المدرسين والطلاب شكوا من تدريس رسالة ابن مسكويه ، بحجة أنها تتضمن من الآراء والمذاهب ما يعتبر فلسفة ينبغي أن ينزه عنها الأزهر الشريف ، وحل محل « كتاب تهذيب الأخلاق » رسالة صنفها بعض مدرسي الأزهر تتضمن آثاراً وحكما ومواعظ تحث على مكارم الأخلاق وتنهى عن مساويها[1] . ثم ضعف اتصالي بمناهج التعليم في الأزهر ، ولم أعد أساير ما يجد من التغيير في شئون التعليم بالأزهر إلا لماما .

« وقد اطلعت أخيراً على كتاب الأستاذ ... اسمه « تاريخ الأخلاق » يطبع المرة الثانية في عامين . والكتاب عرض طيب لتاريخ الأخلاق في الشرق القديم ، وعند الإغريق في

(١) كان هذا القرار في نوفمبر عام ١٩١٢ . انظر كتاب محمد عبده للشيخ مصطفى عبد الرازق ، ص ٨٦ .

العصور المختلفة ، وفي القرون الوسطى ، وفي الفلسفة الحديثة ، وفي الإسلام عند الفلاسفة وغير الفلاسفة .

« عادت بي الذكرة حين راجعت فصول هذا الكتاب إلى ما كان من حديث ابن مسكويه وكتابه منذ بضعة وعشرين عاما ، فأدركت مبلغ ما حدث من التغير في الجو العلمي الأزهري في أقل من ربع قرن من الزمان ، ورجوت أن يكون ذلك آية من آيات الحرية الفكرية في البحث العلمي التي التمس المصلحون شيئا منها الأزهر الشريف منذ زمان ، ووجدوا في سبيل مساعم أذى كثيراً » .

هذا ، ونقول إن هذا التطور الرسمي العلمي في الأزهر ، التطور الذي أثلج منا القلوب ، كان بفضل سعة تفكير الشيخ الأكبر المراغي وعمق إدراكه للأمور ، وعمله على وجوب تطور الأزهر إلى درجة أن ينتفع بالتراث الفلسفي الإسلامي في سبيل الدين وعقائده الصحيحة .

إنه ، بفضل إصلاح الشيخ المراغي ، أخذت الفلسفة ، حتى الإغريقية منها ، مكانها الرسمي بين المواد الدراسية بالأزهر ، وإن كانت لم تأخذ حتى الآن مكانها الحرى بها ، مادامت لاتدرس لذاتها ، وإن كانت أعانت إلى حد ملحوظ على تطور عقلية أبناء الأزهر .

بفضل هذا الإصلاح ، الذي طالما تشوف إليه محبو الأزهر ، صارت الأخلاق تدرس باعتبارها فرعا من فروع الفلسفة لدى الإغريق وغير الإغريق ، لا على أنها مواعظ وحكم مأثورة كما كان الأمر في أيامنا ونحن طلاب . وصار طلاب كلية أصول الدين بخاصة يدرسون دراسة جادة فلسفة أرسطو وأفلاطون والفارابي وابن سينا وابن رشد ومن إليهم ، دون تكفير أو نكير ، فسرت من ذلك روح جديدة طيبة في الأزهر لدى الطلاب وطوائف من المدرسين ، وأخذ فريق من هؤلاء يسهمون في نشر تراث فلاسفتنا الأعلام .

وبفضل هذا الإصلاح أيضا ، صار للأزهر نفر تخصصوا في الفلسفة بجامعات أوربا ، كما صار له طبقة أخرى تخصصوا فيها هنا في مصر في الأزهر نفسه ، ومنهم من كانت رسالته التي نال بها العالمية من درجة أستاذ في التوحيد والفلسفة ، في ابن سينا وموقفه من الدين والفلسفة .

• • •

ومع هذا كله ، نحن مع الحظ الملحوظ الذي ناله الفلسفة — وبخاصة الإسلامية — في الأزهر بفضل ذلك الإصلاح ، وبفضل الاتصال الواقع بين الأزهر والجامعة ، وبفضل عامل الزمن بصفة عامة — نقول مع هذا كله ، هل لنا أن نقرر بأن من الأزهريين من يشارك ابن سينا فيما وصل إليه من نتائج تتعلق بالله وصلته بالعالم ، كما تتعلق بالبعث والحياة الأخرى ، ويرضى ذلك عقيدة له ؟ لا أظن أن مثل هذا الأزهري موجود بيننا ، مادام يعتقد صحة القرآن وما جاء به من مقررات تتصل بالله وعلاقته بالعالم وبالدار الأخرى .

ومن أجل ذلك ، نرى أن ابن سينا والفلاسفة أمثاله ، قد اكتسبوا فعلا حق أن يُدرسوا بالأزهر ، ولكن ذلك شيء واعتناق فلسفاتهم الإلهية والطبيعية شيء آخر ، مادمنا بحمد الله نعتقد اعتقاداً لاريب فيه بصحة ما جاء به القرآن من عقائد خاصة بالله والعالم ، وسواء في هذا من لم يتخصصوا في الفلسفة ومن تخصصوا فيها .

خاتمة

١ — رأينا كيف سار الأزهر التطور العلمي والفكري ، وإن كان في بطء قد يكون شديداً ، ويرجع هذا البطء إلى وراثة التفكير الإسلامي بما له من مزايا وعيوب في القرون الوسطى . بعكس الجامعة التي تساير التطور الفكري العالمي ، في سرعة قد لاتكون محمودة العواقب دائماً ، ومرجع هذا فيما نعتقد أنها قامت من أول أمرها على التقاليد الفكرية الغربية .

٢ — وكان من أثر هذا التطور في الأزهر أن اتسع صدره حتى للدراسات الفلسفية ، سواء لدى المسلمين أو غيرهم من الإغريق والمسيحيين . فصار للفلاسفة العالميين الخالدين مكانهم في الأزهر ، بلا نكير من أحد .

٣ — وأنه ، مع هذا التطور وسعة الصدر ، ومع تخصص البعض منا في الفلسفة بأوربا ، لم يتجاوز الأمر دراسة هؤلاء الفلاسفة دراسة نقد ومقارنة ، إلى قبول ماكان من آرائهم لا يتفق وأصول الإسلام .

٤ — ثم قد أصبحنا ، بفضل الله ، على ثقة بأن زمن العداء الشديد والخصومة العنيفة بين رجال الدين ورجال الفلسفة قد انتهى إلى غير رجعة . وأصبحنا الآن أقدر على الحكم الصائب على ما وصل إليه ابن سينا وغيره من فلاسفة الإسلام من حق ، وأقدر على تقدير جهودهم الضخمة التي بذلوها في سبيل التوفيق بين الفلسفة والدين .

محمد يوسف موسى
أستاذ بجامعة فؤاد الأول

قصة حى بن يقظان

للأستاذ عز الدين إسماعيل

يقول ابن طفيل فى التمهيد لقصته « حى بن يقظان » :
سألت أيها الأخ الكريم . . . أن أبث إليك ما أمكننى بثه من أسرار الحكمة المشرقية التى ذكرها الشيخ الرئيس أبو على بن سينا . فاعلم أن من أراد الحق الذى لا جمجمة فيه فعليه بطلبها والجد فى اقتنائها .

وإذاً فالهدف الذى رمى إليه ابن طفيل من كتابة قصته هو أن يبين فيها أسرار الحكمة المشرقية كما تحدث عنها الشيخ الرئيس . وإذا كان بعض المستشرقين قد اختلفوا فى فهم معنى « المشرقيـة » فإن فيما أورده صاحب كشف الظنون فى تعريفه بالحكمة المشرقية أو حكمة الإشراق ما يفصل فى هـذا الخلاف من جهة ، كما أنه يلقى لنا ضوءا ناصعاً على ما حشده ابن طفيل فى قصته من جهة أخرى . قال صاحب كشف الظنون[1] : « . . . أما حكمة الإشراق فهى من العلوم الفلسفية بمنزلة التصوف من العلوم الإسلامية ، كما أن الحكمة الطبيعية والإلهية منها بمنزلة الكلام منها . وبيان ذلك أن السعادة العظمى والرتبة العليا للنفس الناطقة هى معرفة الصانع بما له من صفات الكمال والتنزه عن النقصان . . . » .

وقد رأينا حى بن يقظان يأخذ فى شطحاته الفكرية إلى أن تنتهى إلى هذه النهاية : (لا بد للعالم من فاعل[2] . . . مختار فى غاية الكمال وفوق الكمال « لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر[3] ») .

ثم يبين صاحب كشف الظنون الطريق إلى هذه المعرفة حيث يقول : « والطريق إلى هـذه المعرفة من وجهين :

(١) كشف الظنون — مجلد ٢ ص ٦٧٧ ط (١٩٤١) .
(٢) قصة حى بن يقظان ط دمشق ١٩٣٥ ص ٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٨٤ .

أحـدهما طريقة أهل النظر والاستدلال ، وثانيهما طريقة أهل الرياضة والمجاهـدات . والسـالـكون الطريقة الأولى إن التزموا ملة من ملل الأنبياء عليهم السلام فهم المتكلمون ، وإلا فهم الحكماء المشاؤون . والسـالـكون إلى الطريقة الثانية إن وافقوا فى رياضتهم أحكام الشرع فهم الصوفية ، وإلا فهم الحكماء الإشراقيون[1] » .

وإذا نحن نظرنا إلى أشخاص القصة كما كتبها ابن طفيل استطعنا أن نأخذ صورة مفصلة الأجزاء لما ضغطه صاحب كشف الظنون فى هذه العبارة . فقد كان حى بن يقظان — الشخصية الأولى فى القصة — يمثل فى أول أمره طريقة أهل النظر ، ثم انتهى آخر الأمر إلى طريقة أهل الرياضة والمجاهدات ، ولـكنه كان من النوع الذى لم يلتزم ملة نبى من الأنبياء ، أو يوافق فى رياضته أحكام تشريع من التشريعات ، ولـكنه كان من أولئك الحكماء الإشراقيين .

أما أبسال — الشخصية الثانية فى القصة — فقد كان يمثل النوع السائر على الطريقة الأولى ، فقـد كان فى أول أمره يسير — كما يسير أهـل جزيرته — وفق ملة معينة لنبى من الأنبياء . أما سلامان — الشخصية الثالثة فى القصة — فقد كان ممن يأخذون بالظاهر ، ولا يتبعون طرائق الإشراق جميعاً .

وجلى أن ابن طفيل كان يحرك هـذه الشخصيات فى القصة ليخدم فكرته المعينة التى انتهى إليها فى مختتم حياته ، وهى العزوف عن الحياة والناس ، والعزلة ، والانقطاع إلى العبادة والمجاهدة حتى يأتيه اليقين . ونستطيع أن نقول فى نوع من الاطمئنان إن شخصية حى بن يقظان فى القصة هى إلى حد بعيد شخصية ابن طفيل نفسه . لقد بلور ابن طفيل أفكاره ، وأخرجها على لسان هـذه الشخصية الخيالية التى

(١) كشف الظنون — مجلد ٢ ص ٦٧٦ ط (١٩٤١) .

مرت — أو جعلها ابن الطفيل تمر — بكل مراحل التكوين البشري والعقلي . وإذا كان هو لم يفلح في محاولته اكتساب المعرفة بطريق العقل والنظر ، وانتهى به الحال أخيراً إلى الركون إلى المعرفة الحدسية والفيض الذوقي والنور الإلهي الذي يشرق في قلبه ، فإنه قد نقل كل هذه الحوادث والمحاولات والأفكار إلى شخصية حي بن يقظان .

ولكننا نتحدث الآن عن ابن طفيل كأنه صاحب أصالة في هذه الفلسفة ، ونسينا أن غيره من الفلاسفة قد سبقه إلى هذه الأفكار . والحق أن ابن طفيل لم يكن صاحب أصالة في هذه الفلسفة ، فإن من يمعن في الكتاب يلاحظ أنه خلاصة مأثور فلسفي قديم تختلف أصوله ومصادره وتتعدد ، كالجدة في الأفكار الطبية والطبيعية والفلكية .. الخ . ويدل على النابع ثقافة ابن طفيل وهضمه لهذا المأثور ، فهو لم يبتكر ما ساقه من أفكار ، ولكنه يحاور ما سبق إليه من أفكار ويعرضها في هذه الصورة الطريفة . وقد ذكر جوتيه(١) : « أن ابن طفيل لم يكن صاحب فلسفة أصيلة ، وأن مصادر فلسفته يمكن الرجوع بها بسهولة إلى من سبقه من الفلاسفة ، كالغزالي ، وابن سينا ، وآخرين أقل أهمية . وقد ذكر ابن طفيل نفسه ذلك ، وإن كانت أصالته في الواقع نسبية » .

ونستطيع أن نضيف إلى الغزالي وابن سينا — كمصدر من مصادر ابن طفيل — أبا بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة ، فإن لهذا الأخير فكرة مشهورة هي فكرة الشخص « المتوحد » أي الشخص الذي يعتزل الناس ، ويكون ذا فطرة فائقة ، وينصرف بكليته إلى التفكير وإلى الحياة بحسب القانون الطبيعي . وإذا نحن قرأنا « حي ابن يقظان » استطعنا أن نلمس بوضوح وسهولة أثر هذه الفكرة في ابن طفيل ؛ فقد حاول ابن طفيل أن يفرق بين أبسال وسلامان بأن يجعل الأول ميالاً إلى العزلة ، ومن أصحاب الفطر الفائقة ، وأن يجعل أخاه اجتماعياً يؤثر الحياة مع العامة ، ويعتقد كما يعتقدون . ولا نذهب بعيداً ، فقد كان حي بن يقظان نفسه وحيداً في تلك الجزيرة ، منعزلاً عن العالم أجمع . وعندما ذهب إليه أبسال وعرفه شأن الناس والمجتمع ثارت في نفسه رغبة إصلاح هذا المجتمع ، فلما لم يفلحا ، عادا ثانية إلى جزيرتهما حيث تتوفر العزلة والبعد عن العوالم ، وحيث يستطيعان المضي في عباداتهما ومجاهداتهما في اطمئنان .

ومن كل ذلك نرى أن أفكار المجتمع الذي كان يعيش فيه ابن طفيل كان لها آثارها في ابن طفيل وفي قصة حي بن يقظان بالتالي ، فالمعروف من تاريخ ابن طفيل أنه اعتزل الناس في أواخر أيامه عند ما تبين له أن إصلاحهم أمر عسير ، وكذلك لفشله في الوصول إلى المعرفة بطريق النظر . وربما كان أثر المجتمع في هذه القصة أبعد من هذا ، فإننا قد نتساءل : ما الذي حدا ابن طفيل إلى أن يبرز هذه الأفكار في هذه الصورة القصصية الخرافية ولم يبرزها للناس في كتاب له خصائص التآليف الفلسفية في ذلك العهد ؟ قد يجاب على ذلك بأن هذه الصورة قد أدت المعلومات إلى القارئ في يسر وسهولة ، وأنها كذلك قد اكتسبت من عنصر التشويق القصصي ما يحمل القارئ على تتبعها . ولكن ربما كان هناك سبب هو أهم من كل ذلك ، وهو أن ابن طفيل قد قدم في هذا الكتاب أفكاراً لا يرضى عنها المجتمع في عهده ولا يستطيع تقبلها بسهولة إن هي قدمت إليه باعتبارها فلسفة الكاتب الخاصة ، فلم يكن لابن طفيل بد من أن يخفي شخصيته نوعاً من الإخفاء ، وأن يلجأ إلى هذه الصورة الخرافية التي تخليه أمام المجتمع من كثير من المسئولية .

على أن قارئ القصة يستطيع أن يسجل أن ابن طفيل استطاع في الشطر الأول من القصة الذي حكى فيه كيفية تكون حي بن يقظان وتربيته ، وكذلك ما يتعلق بالظبية وموتها ، واهتدائه إلى موضع قلبها ودفنه جثتها — استطاع في هذا الشطر من القصة أن يحتفظ بحلاوة الأسلوب القصصي المشوق ، وربما كان الجزء الأخير كذلك — الذي حكى فيه قصة أبسال مع حي بن يقظان — فيه مسحة من هذه الطريقة ، ولكن الجزء الأعظم من القصة يمكن انتزاعه بسهولة ووضعه في رسالة خاصة لا تقل في مسحتها العقلية في الأسلوب والفكرة عن أي رسالة فلسفية معاصرة . ولسنا نريد أن نحاسب ابن طفيل على فهمه للأسلوب القصصي

---

(١) المقدمة الفرنسية لطبعته لقصة حي بن يقظان ص ٥ — ٦ .

والعرض القصصي ، فربما اقترفنا في ذلك ظلماً له ، لقدم عهده من جهة ، وضياع الفن القصصي في المأثور العربي تقريباً من جهة أخرى ؛ ولكننا نريد أن نقدم إلى القارىء ما يمكن أن يُعترض به على تفسير هذه الطريقة التي لجأ إليها ابن طفيل في سوق أفكاره ، بأنها لا تخلق بينه وبين المجتمع اصطداماً ؛ فإن أقل متفكر يستطيع أن يلحظ بسهولة أن هذه الأفكار هي التي يعتنقها ابن طفيل نفسه .

وقد تشكك ابن طفيل في قصته[1] في حدوث العالم وقدمه . فإذا كان جوتييه فيما سبق أن نقلناه عنه قد ذكر الغزالي ضمن مصادر ابن طفيل ، فإن هذا الشك في حدوث العالم وقدمه عنده يمكن الرجوع به إلى الغزالي بسهولة .

ولا داعي الآن لأن نتتبع مصادر ابن طفيل ومكونات قصته من حيث الآراء والأفكار ، وقد ذكرنا أنه صب فيها كل أفكاره وثقافته التي حصلها ، كما أنه هدف بها إلى إيضاح فكرة الحكمة الإشراقية والدعوة إليها وتحبيذها ، ولا غرو فابن طفيل لهذا معدود عند كتاب الغرب ضمن الإشراقيين .

والآن وقد تركنا مضمون القصة فإننا نود أن نعرف مقدار أصالة ابن طفيل في عرض القصة — في الناحية الشكلية منها ، أو لنقل في الإطار الذي أبرزها فيه . وبعض الآراء تذهب إلى أنه « يبدو أن إطار هذه القصة (لا مضمونها) يرجع إلى قصة عربية قديمة »[2] .

وفي مجموعة رسائل ابن سينا « تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات » نجد قصة بعنوان سلامان وأبسال ، مترجمة عن اليونانية بقلم حنين بن إسحق ومعها شرح الطوسي . فلم يأت بهما ابن سينا ، بل إنهما قد يجريان في أمثال العرب وحكاياتهم .

على أن القصة كما عرضها ابن سينا تختلف اختلافاً جوهرياً عنها كما عرضها ابن طفيل . وبقليل جداً من النظر يمكن الوقوف على هذا الاختلاف . ويكفي أن نعرف أن القصة تقوم على أن سلامان وأبسال أخوان ، وكان أبسال أصغر سناً ، وتربى بين يدي أخيه ، وكان عالماً شجاعاً عفيفاً ،

(١) قصة حي بن يقظان — ص ٧٨ ط دمشق (١٩٣٥)
(٢) عمر فروخ نقلا عن Cf. Mieli 190; Sarton II 354-5

فأحبته امرأة سلامان ، فلما لم يتجاوب معها دبرت له ، ولكنه هرب ، فدبرت قتله بالسم ، وحزن سلامان على أخيه عند ما عرف السر وألهمه الله الحقيقة ، فدس لامرأته ومن عاونها بدورهم السم .

هذه الصورة تغاير كل المغايرة قصة أبسال وسلامان كما عرضها ابن طفيل .

ومثل ذلك يمكن أن يقال بالنسبة للقصة التي ترجمها حنين ، وأيضا بالنسبة للقصة التي أوردها ابن الأعرابي في كتابه « النوادر » .

هل معنى هذا أن ابن طفيل قد أخذ أسماء الأشخاص الأسطوريين فقط وأدار الحوادث والأفكار الخاصة به عليهم ؟ أو بلفظ آخر : هل يستقل ابن طفيل في طريقة عرضه القصة عن غيره ممن سبقوه ؟ ويبدو أن الرأي كان مستقراً إلى أوائل القرن العشرين على الاعتراف له بالأصالة القصصية[1] ، ولكن بعد أن ظهر البحث على كثير من النصوص والأصول التي لم تكن قد اكتشفت بعد ، فإن الحكم الخاص بأصالة ابن طفيل القصصية يحتاج إلى تعديل[2] .

وبعد فقد شغلت قصة حي بن يقظان أذهان المفكرين في جميع الأمم ، فترجمت إلى الانجليزية ترجمات عدة وإلى الألمانية واللاتينية والهولندية والفرنسية وغيرها . ومن الآراء الراجحة أن الكاتب الانجليزي دانيال ده فو قد تأثر بقصة حي بن يقظان في كتابة قصته المشهورة « روبنسون كروزو » وليس عجيباً أن تلقى هذه القصة آذاناً صاغية عند الإنجليز بصفة خاصة ويكون لها هذا الأثر ؛ فقد دارت حوادثها فوق جزيرة أو جزيرتين في المحيط أشبه وأقرب إلى حياتهم الجزرية .

وفي ذكرى الشيخ الرئيس تكون قصة حي بن يقظان والحديث عنها بياناً لامتداد أثر ابن سينا الفكري فيمن جاءوا بعده ، بخاصة من كان لهم ميل — كابن طفيل — إلى فلسفته الإشراقية .

عز الدين اسماعيل

(١) المقدمة الفرنسية لطبعة جوتييه لقصة حي بن يقظان ص ٦
(٢) نفس المصدر ص ١٢ .

نماذج من تأويلات ابن سينا

للأستاذ سعيد زايد

مقدمة :

قسم ابن رشد فى كتابه « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم ليس من أهل التأويل أصلاً وهم الخطابيون ، وقسم من أهل التأويل الجدلى وهم الجدليون ، وقسم من أهل التأويل اليقينى وهم البرهانيون .

وبعد الذين اختلفوا حول الخلافة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وأدى خلافهم إلى نشأة الفرق فى الإسلام ، من أصحاب التأويل الجدلى ، فقد أرادت كل فرقة أن تؤيد رأيها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ؛ ففى قوله تعالى : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » . قالوا إن المقصود بالذى يؤتى الزكاة وهو راكع على بن أبى طالب ، فقد دخل عليه فقير وهو يصلى فأعطاه خاتمه . وفى حديث الغدير قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « أنت أخى ووصيى وخليفتى من بعدى وقاضى دينى » ، والمقصود على أيضاً ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تؤيد خلافة على أو تؤيد خلافة أبى بكر ، واستخدمها الطرفان سلاحاً ملأ الجو بتأويلات جدلية لا تستند على برهان عقلى ولا دليل منطقى . ولكن هذا التأويل الجدلى لم يلبث بعد فترة من الزمن أن أخذ صورة عقلية تعتمد على البرهان المنطقى ، فقد تطور الخلاف السياسى الذى كان سلاحه القرآن والحديث إلى خلاف دينى بحت ، وأصبح التحاج بالإيمان والكفر والجنة والنار ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى حدث جماعات اليهود والنصارى والمانوية والزرادشتية والبراهمة والصابئة والدهرية التى اعتنقت الدين الإسلامى إلى دينها القديم ؛ فطرحت بعض مسائله على بساط البحث العقلى ، خاصة وأنه كان منهم المثقفون الذين درسوا علوم الفلسفة ، ووجد الإسلام من بنيه من يذود عنه بالحجج المنطقية والبراهين العقلية مؤولاً الآيات والأحاديث تأويلاً عقلياً . أخذ التأويل إلى صورة عقلية ظهرت بوضوح عند المتكلمين وخاصة المعتزلة وعند الفلاسفة .

وسنعرض فيما يلى نماذج من تأويلات الشيخ الرئيس لأصول العقيدة الثلاثة :

١ — الوحدة :

حاول المعلم الثالث أن يثبت بالدليل النقلى ما أثبته عن طريق الاستدلال العقلى من وحدانية واجب الوجود ، فلجأ إلى تأويل بعض النصوص القرآنية التى دلت على وحدة الخالق ، وسنكتفى هنا بذكر تأويلاته فى تفسير سورة الإخلاص :

« قل هو الله أحد » يعود بنا ابن سينا فى تفسيره لهذه الآية إلى فلسفته الميتافيزيقية فيقول : « الهو المطلق هو الذى لا تكون هويته موقوفة على غيره » ، أو بمعنى آخر هو ما وجوده متوقف على ماهيته وذاته ، بخلاف الممكن الذى يتوقف وجوده على غيره ، وإذا كان وجود «الهو» المطلق متوقفاً على ذاته ، كان واجب الوجود ، لأن وجوده هو عين ماهيته . ثم إن اقتران « الهو » بالله يكشف عن أن المقصود « بالهو » هو الهوية الإلهية .

ثم تعقيبه بأنه « أحد » لازم من لوازم تعريف الألوهية بالوحدانية ، لكمال بساطتها وغاية وحدتها . ويعلق ابن سينا على ذكر اللوازم القريبة « فهو هو » بأن ذلك تعريف حقيقى ، لأن التعريف الحقيقى هو الذى يذكر فيه اللازم القريب للشىء الذى يقتضيه الشىء لذاته ، لا لغيره ، لأنه إذا ذكر فيه اللازم البعيد لا نستطيع أن نقرر أن هذا اللازم معلول الشىء حقيقة ، بل كل ما نستطيع أن نقرره أنه قد يكون معلولاً لمعلوله . ثم يتطرق ابن سينا فى تفسيره إلى أن يفرض سؤالاً قد يمكن أن يوجه إليه ، وهو أن ماهيته تعالى إذا كان لا يمكن لغيره معرفتها إلا بوساطة صفات السلوب والإضافات ، فلم لم يذكر ذلك واقتصر على ذكر اللوازم ؟ ويجيب على هذا

السؤال بأن الله باعتباره عاقلا ومعقولا ، واحد ليس له مقومات ، بل إنه وحدة مجردة ، وبساطة محضة لا كثرة فيه ، ولا إثنينية هناك أصلا ، وعقله لذاته ، ولا يعقل من ذاته إلا الهوية المحضة المجردة عن الكثرة ، ولذا عرفها بلوازمها القريبة ، وتأكيده بأنه واحد مبالغة في الوحدة ، لعدم وجود التشكك في أنه واحد من جميع الوجوه ، وأنه منزه عن الكثرة ، سواء أكانت معنوية كالأجناس والفصول أم كثرة مقومات كالمادة والصورة والأعراض .

ثم إن ابن سينا في تفسيره « الصمد » يقرر أن لهذه الكلمة تفسيرين : أولهما الذي لاجوف له ، وثانيهما السيد . ثم يؤول التفسير الأول بأن الصمد صفة سلوب تنفي الماهية ، لأن كل ماله ماهية له جوف وباطن ، ومالا بطن له وهو موجود لا اعتبار لذاته إلا بالوجود ، والذي لا اعتبار له إلا بالوجود يكون بالضرورة غير قابل العدم . فالشيء من حيث هو هو موجود يكون غير قابل العدم ، فالصمد يكون بهذا المعنى واجب الوجود من جميع الوجوه .

وعلى حسب التفسير الثاني لكلمة « الصمد » باعتباره سيداً يؤولها ابن سينا على أن المقصود أنه سيد الكل ، أي مبدأ الكل ، أي مبدأ الوجود وعلته الأولى .

ويؤول ابن سينا قوله « لم يلد ولم يولد » بأنه هو وحده ، وأنه وإن كان مصدرا للوجود فإنه لا يفيض بوجود مثله ، حتى يكون له ولد ، ولما كان وجوده من ذاته بهويته لم يكن صادراً هو عن غير ذاته . . . وإذا كان الأمر كذلك أي إذا كان واجب الوجود ماهيته هويته ، لا يتولد عن غيره ولا يتولد عنه شبيه له ، لم يكن هناك في الوجود ما يكافئه ويساويه في قوة الوجود ، ولذلك قال تعالى « ولم يكن له كفوا أحد » . . .

ثم يستخلص من هذه السورة أن الله بعدم ذكره المقومات في تعريفه « الله » ، وذكر اللوازم ، قد دل على أنه في ذاته بسيط ليس له مايقومه ، واحد ليس له مايشاركه في هذه الوحدانية . ثم إنه يردف الواحدية بالألوهية ، قد رتب الأحدية على الإلهية ، ولم يرتب الإلهية على الأحدية لأن الألوهية هي افتقار الكل إليه واستغناؤه عن الكل ، ومن كانت هذه صفاته كان واحداً مطلقا ، وإلا لاحتاج إلى أجزائه ، فالإلهية تقتضي الوحدة ، وليس الأمر على العكس .

٢ — النبوة :

أفرد المعلم الثالث رسالة خاصة لإثبات النبوات على العموم ، والتأويل العقلي للملك والوحي ، سماها « إثبات النبوات وتأويل رموزهم » ينهج فيها نهجاً مخالفا لأستاذه الفارابي ، فهو يمهد لنظريته بالكلام عما هو موجود بالقوة ، وما هو موجود بالفعل ، فيقرر أن ما وجد في شيء بالذات يصح فيه بالفعل أبداً ، وما وجد في شيء بالعرض قد يكون فيه بالقوة مرة ، وبالفعل مرة أخرى ، وأن ما هو موجود بالفعل مسبب لما هو موجود بالقوة ، والسبب مفضل على المسبب ، أي أن الوجود بالفعل مفضل على الوجود بالقوة .

وعلى ضوء هذا يطبق نظريته على قوى النفس الإنسانية ، فهذه النفس التي أجمع الفلاسفة على تسميتها بالقوة الناطقة أو المفكرة ، برغم أنها حظ مشترك بين الناس جميعاً ، لم يوهب الناس من قواها حظوظاً متساوية . ولذا وجد التفاوت بين أفراد البشر بتفاوت درجات أنصبتهم من قوى النفس وملكاتها ، وهذه القوى ثلاثة — القوة الأولى تسمى العقل الهيولاني ، وسميت كذلك لأنها وإن كانت لها القدرة على انتزاع الصور الكلية من مواردها ، إلا أنه ليس لها القدرة على تحديد صورها ، مثلها كمثل الهيولى ، أما القوة الثانية فلها ملكة التصور بالصور الكلية ، وهي التي تحوى الآراء السلفة العامة ، وكلتا القوتين السالفتي الذكر عقلان تامان بالقوة . أما القوة الثالثة فهي التي تتصور صور الكليات المعقولة بالفعل ، وهي ليست شيئاً آخر غير خروج القوتين السابقتين من القوة إلى الفعل ، ولذا أطلق عليها ابن سينا « العقل الفعال » وسبيل خروج هاتين القوتين من القوة إلى الفعل ، إنما يتأتى من طريق العقل الكلي أو النفس الكلية ، وهي نفس العالم في نظر ابن سينا ، والذي تحققت فيه القوة الثالثة هو النبي الذي يتقبل الإفاضة أو الوحي عن طريق القوة المفيضة التي تدعى الملك ، فالنبي هو الشخص الذي انتهى إليه التفاضل في الصور المادية ، وإذا كان كل فاضل يسود المفضول ويرأسه فإن النبي يسود ويرأس جميع الأجناس التي فضلها .

هذا ملخص القول في النبوة على العموم ، يكتفي به

ابن سينا في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لكي لا يقع في التطويل الذي يتحاشاه العلم الثالث ما استطاع . فهو يختم قوله بالعبارة التالية : « فهـذا مختصر القول في إثبات النبوة وبيان ماهيتها ، وذكر الوحي والملك والوحي ، وأما صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فتبين صحة دعوته للعاقل إذا قاس بينه وبين غيره من الأنبياء عليهم السلام ونحن معرضون عن التطويل » .

٣ — اليوم الآخر :

قال الفارابي بحياة آخرة ، ولكنه لم يأخذ بوجهة نظر الدين ، فليس هناك — في رأيه — لذات أو آلام حسية ، فالسعادة والشقاء الأخروي روحي محض .

ولقد حاول ابن سينا أن يصف الحياة الأخرى بعقل فارابي ، فأرجع بحث العرش إلى النظرية الكونية للعقول العشرة وللأفلاك السماوية ، وقد فسر ما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل « أن على النار صراطاً صفته أنه أحدّ من السيف ، وأدق من الشعر ولن يدخل أحد الجنة حتى يجوز عليه ، فمن جاز نجا ، ومن سقط خسر » بأن قسم العوالم إلى ثلاث —

عالم الحس وهو عالم القبور واللذات الفانية ؛ وعالم الوهم حيث العطب والآلام الانفعالية ، وعالم العقل حيث المقام وهو الجنة .

ولما كان العقل يحتاج في تصور أكثر الكليات إلى استقراء الجزئيات ، فلا محالة أن هذه الجزئيات تحتاج إلى الحس الظاهر ، فهو يأخذ من الحس الظاهر إلى الخيال إلى الوهم ، وهذا هو من الجحيم طريق وصراط دقيق صعب ، حتى يبلغ إلى ذاته (العقل) فهو إذاً يرى كيف الحد صراطاً وطريقاً في عالم الجحيم ، فإن جاوزه بلغ عالم العقل ، وإن وقف فيه وتخيل الوهم عقلا ، وما يشير إليه حقاً ، فقد وقف على الجحيم ، وسكن في جهنم ، وهلك وخسر خسراناً .

ويستطرد ابن سينا فيؤول ما ورد في الآية الكريمة « عليها تسعة عشر » فيقول إنه مادام قد برهن على أن النفس الحيوانية هي الباقية في جهنم ، وأنها عبارة عن — إدراكية وعملية ، والعملية إلى شوقية وغضبية ، والعلمية هي تصورات الخيال المحسوسات بالحواس الظاهرة وتلك المحسوسات ستة عشر ، والقوة الوهمية الحاكمة على تلك الصور حكماً غير واجب واحدة ، وبذلك يصبح المجموع تسعة عشر ويفسر ما بلغ النبي عن ربه عز وجل « أن النار سبعة أبواب والجنة ثمانية أبواب » ، بأنه مادام قد فهم أن الأشياء المدركة إما مدركة للجزئيات كالحواس الظاهرة وهي خمسة ، أو مدركة بالتصور كالخيال ، وقوة تحكم حكماً غير واجب كالوهم ، وقوة تحكم حكماً واجباً كالعقل ؛ فهذه ثمانية إن اجتمعت أدت إلى السعادة والدخول في الجنة ، وإذا غلب منها واحد أدى ذلك إلى الشقاوة والدخول في النار ، وهكذا يفسر أن الجنة ثمانية أبواب والنار سبعة أبواب .

والمهم أن الفارابي وابن سينا يؤكدان وجود الحياة الآخرة ، إلا أنهما حولا الجنة والنار والصراط والميزان التي ذكرها القرآن إلى روايات عقلية .

خاتمة :

هذه بعض نماذج لتأويلات ابن سينا تشمل آراءه في أصول العقيدة الثلاثة ؛ فقد حاول أن يفسرها تفسيراً عقلياً ، فنجح في بعض الآراء وزل في بعضها الآخر ، واتفق مع وجهة نظر الدين حيناً وخالفها حيناً آخر . ففي النبوة خالف بعض النصوص الدينية الثابتة ، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان ينزل على النبي في صورة بعض الأعراب أو أنه كانت تسمع له صلصلة كصلصلة الجرس . إلى غير ذلك من الآثار المتصلة بالوحي والإلهام وكيفية نزوله . وفي اليوم الآخر أنكر بعث الأجساد وإن صعب على الباحث الاهتداء إلى هذا الرأي ، لمحاولة الشيخ الرئيس إخفاءه في أغلب كتبه وعدم التعرض له مباشرة ، وقد كان هذا الأصل من ضمن المسائل الثلاث التي كفره فيها الإمام الغزالي .

ولكن الإنصاف يقتضينا القول بأن ابن سينا وأستاذه لم يكونا أسلم من آمن بكل ما ورد ونقل ، فاجتهدا — على رأي ابن رشد — في تأويل بعض الأصول الدينية وصبها في قوالب عقلية منطقية ، فكونا بذلك فلسفة إسلامية .

سعيد زايد

الثقافة

العدد ٦٩٢	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون	الثمن ٣٠ مليماً
٣١ من مارس ١٩٥٢	يصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	

الشاطئ البعيد...

أيها السابحُ في بحرِ الحياة   امضِ بالزورقِ في كلِّ اتجاه
وإذا ما فغَرَ التيارُ فاه   أو طغى الموجُ ودوّى كالرياح
فالتمسْ في الشطِّ أسبابَ النجاة

لا تخفْ إنْ زأرَ الموجُ وثارْ   وامضِ ما شئتَ ولا تخشَ العثارْ
وإذا غابت عن العينِ الديارْ   فوراء الأفقِ الشطُّ النضيرْ
وعلى الأمواجِ حِضْنٌ لا تراه!

أصغِ للمجدافِ وانظرْ للشراعْ   واملأ الأسماعَ في كلِّ البقاعْ
بأغاريدِ التلاقي والوداعْ   كلّما قبّلتَ ثغراً باسماً
عانقِ الموجَ إلى ثغرٍ سواه

كيفَ تقضي العمرَ كالطيرِ المهيضْ؟   يدعُ الأوجَ ويهوي الحضيضْ!
بين آمالٍ كآلامِ المريضْ   فانطلقْ كالسهمِ في عرضِ الفضاءْ
واسبقِ النسرَ إلى صيدِ القطاةْ!

غنِّ كالعصفورِ واخطرْ كالنسمْ   وابتسمْ كالطفلِ واخفقْ كالعَلَمْ
وائتلقْ كالبدرِ واصدحْ كالنغمْ   أنتَ أقوى قوةٍ بين الورى
فلِمَ الضعفُ وقد شُلَّتْ يداه؟!

هــــذه القمةُ في أعلى الجبلْ   تتعالى في رسوخٍ كالأملْ
سوفَ لا يبلغهــــا إلا بطلْ   قارعَ الأهوالَ واجتازَ الهضابْ
لم تزعزعْه أعاصيرُ الفــــلاة

غنِّ يا ملاحُ للشطِّ البعيــــدْ   واملأ الأقداحَ من خمرِ النشيــدْ
كلّما لاحَ سنا فجرٍ جــــديدْ   فارتشفْ من ثغرهِ نورَ الأمل
واكتشفْ للكونِ أسرارَ الحياة

رقصَ الموجُ وغنّى وابتهجْ   فامضِ يا ملاحُ بي كلَّ فجّ
ما علينــــا لو غرقنا في اللججْ   وطوانا الليلُ في جوفِ رجاة
لنعيشَ العمرَ في نورِ الإله

(الزيتون)   أحمد أحمد العجمي

الثقافة

صاحب الامتياز — AL-THAQAFA — رئيس التحرير المسئول

الدكتور أحمد أمين بك — الإدارة — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٣ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٦٩٢ — الاثنين ٥ من رجب سنة ١٣٧١ — ٣١ من مارس سنة ١٩٥٢ — السنة الرابعة عشرة

إبادة الجنس وهيئة الأمم المتحدة

للأستاذ أحمد طه السنوسي

إبادة الجنس Genocide عبارة وضعها الدكتور رافيل لمكين Dr. Raphael Lemkin كي تعبر عن نوع من الجرائم البشرية الخطيرة التي بها يقضى على جماعة بأى وسيلة من الوسائل قضاء مبرماً من أية ناحية من النواحي الطبيعية أو البيولوجية أو الثقافية ؛ والمنشأ المباشر لهذه الجريمة الجديدة التي عرفتها الأمم منذ القدم حتى احتضنتها هيئة الأمم المتحدة حديثاً هو أحداث ألمانيا النازية قبل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها ، حيث حاول النازيون بطرقهم المرسومة القضاء على عنصر اليهود ، لأن وجوده يتنافى مع وجود الجنس الآري ، جنس التأسيس والسيادة في ألمانيا !

ولن أتعرض لمسألة اضطهاد النازية لليهود في ألمانيا ، تلك المسألة التي اعتبرت المنشأ المباشر للاهتمام بإبادة الجنس كجريمة معترف بها في الجو الدولي ومعاقب عليها بأقسى العقوبات ؛ ولكني أقول : إنه لما انتهت الحرب العالمية الثانية وقعت في أغسطس سنة ١٩٤٥ معاهدة في لندن لمحاكمة كبار مجرمي الحرب ، وقد حددت المادة السادسة من اللائحة الملحقة بالمعاهدة المذكورة أنواع الجرائم التي سيقع مرتكبوها تحت طائلة العقاب من المحكمة العسكرية الدولية المشكلة طبقاً لنصوص هذه المعاهدة ، فذكرت هذه المادة ثلاثة أنواع : هي الجرائم التي ترتكب ضد السلام ، والتي ترتكب ضد الحرب ، وأخيراً تلك التي ترتكب ضد الإنسانية .

وقد بينت المادة المذكورة أن الجرائم التي ترتكب ضد الإنسانية هي جرائم القتل والإبادة والنفي والاستعباد ، بل كل فعل يرتكب ضد الأهالي المدنيين المسالمين قبل الحرب أو في أثنائها ، وكذلك أعمال الاضطهاد التي تقع من أجل أسباب سياسية أو عنصرية أو دواع دينية ، ويكون في ارتكاب هذه الأعمال تنفيذ للجرائم التي تختص المحكمة السالفة الذكر بالعقاب عليها ، بصرف النظر عما إذا كانت هذه الأعمال مخالفة للقوانين الداخلية في البلاد التي وقعت فيها أو غير مخالفة .

وبقيام هيئة الأمم المتحدة ، قررت الجمعية العامة لها مطالبة الأمم المتحدة باتخاذ الإجراءات اللازمة لضبط مجرمي الحرب وإرسالهم الساكنة في البلاد التي ارتكبوا جرائمهم فيها ، وأن تتخذ كافة الإجراءات اللازمة للقبض على من يوجد من هؤلاء المجرمين في بلادهم ، وإرسالهم إلى البلاد التي فيها ارتكبوا جرائمهم كي يحاكموا فيها وفق ما تقضى به قوانينها .

وقد صدر هذا القرار من الجمعية العامة عملاً بتصريح موسكو الصادر في أول نوفمبر سنة ١٩٤٣ الذي وضعه الرئيس روزفلت والمارشال استالين والمستر تشرشل جاماً بالفظائع المرتكبة من العدو في الحرب ، والتصريح الذي

أدلت به بعض الحكومات المتحدة في ١٣ يناير و١٨ ديسمبر سنة ١٩٤٢ لنفس الغرض ، ومع اعتبار قوانين وعادات الحرب المنصوص عليها في اتفاقية لاهاي سنة ١٩٠٧ ، واعتبار تعريف جرائم الحرب والجرائم ضد السلام والجرائم ضد الإنسانية الذي يحتوي عليه ميثاق المحكمة الدولية العسكرية في ٨ أغسطس سنة ١٩٤٥ .

وفي ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٧ وافقت اللجنة السادسة للجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة على مشروع قرار ، بمقتضاه يعهد إلى لجنة القانون الدولي بمهمة استخلاص مبادئ نورمبرج وتدوينها ، وكذلك بتكليفها فضلاً عن ذلك بوضع تقنين عام عن الجرائم التي ترتكب ضد السلام والطمأنينة التي يجب أن تسود العالم !.

وكانت مسألة « إبادة الجنس » ثامن مسألة بحثتها هذه اللجنة السادسة ، ووافقت بالإجماع على مشروع قرار أقرته الجمعية العمومية في ١١ ديسمبر سنة ١٩٤٦ جاء فيه :

« إنه طالما اضطهدت جماعات من البشر ، بقصد إبادتها إبادة تامة أو جزئية لأسباب سياسية أو دينية أو جنسية ، وإن إبادة الجنس (أي إنكار حق الوجود بالنسبة لجماعات إنسانية بأسرها) جريمة في نظر القانون الدولي ، تستتبع إنزال الجزاء بمرتكبيها من فاعلين أصليين وشركاء ، أفراداً كانوا أو موظفين أو رجال دولة ، بصرف النظر عن البواعث التي تدفعهم إلى ارتكاب الجرائم » .

وقد عهد إلى السكرتارية العامة لهيئة الأمم بمهمة إعداد مشروع اتفاق دولي بشأن جريمة إبادة الجنس لتقديمه للمجلس الاقتصادي والاجتماعي ، وقد استعانت السكرتارية العامة في القيام بمهمتها بآراء ثلاثة من فقهاء القانون الدولي والجنائي ، منهم : الأستاذ دونديو دوقابر .

وقد رئي أن يتوسع في مدلول هذه الجريمة ، حتى تشمل أعمال الاستئصال الثقافي كالتدابير التي تتعمد الحكومات القيام بها للقضاء على ثقافة إحدى الأقليات المتوطنة في أراضيها ، هذا فضلا عن أنها تشمل أعمال الاستئصال المادي والحيوي بوسائل العنف والشدة ، وكذلك رئي أن يتوسع في معنى الأقليات التي يهدف الاتفاق إلى حمايتها ، حتى يشمل الأقليات السياسية كما يتناول الأقليات الدينية والجنسية .

وقد تم الاتفاق على إحالة بحث الموضوع على المجلس الاقتصادي والاجتماعي ، وتعين عليه أن يعد مشروع الاتفاق قبل أول سبتمبر سنة ١٩٤٨ .

ولقد وضع اتفاق « إبادة الجنس » وجاء في ديباجته أنه بالنظر في التصريح الذي وضعته الجمعية العمومية للأمم المتحدة في قرارها المؤرخ بتاريخ ١١ ديسمبر سنة ١٩٤٦ ، يتبين أنها اعتبرت « إبادة الجنس » جريمة في القانون الدولي مخالفة لروح الأمم المتحدة وأهدافها ، وتقع تحت طائلة العقاب من العالم المتمدن .

ومن حيث إنه تبين أن إبادة الجنس قد أوقعت خسائر فادحة بالبشرية في جميع فترات التاريخ ، فلكي تخلص الجنس البشري من هذه المحنة الممقوتة المنتشرة في أنحاء الأرض وفقاً لما يتطلبه التعاون الدولي ، وبالاقتناع بضرورة هذا التخليص والتحرير ، قررت الأمم المتحدة أنه من الوقت الذي أعلن فيه هذا الاتفاق تخضع جريمة « إبادة الجنس » للأحكام التالية :

وقد وردت هذه الأحكام في تسع عشرة مادة ، جاء في أولاها أن الوفود المجتمعة تؤكد أن « إبادة الجنس » — سواء ارتكبت وقت السلم أو في الحرب — جريمة في القانون الدولي الذي يتعهد بمنعها والعقاب عليها ، وفي الثانية أن إبادة الجنس تعني في هذا الاتفاق أياً من الأفعال الآتية التي ترتكب بنية إفناء جماعة وطنية أو جنسية أو عنصرية أو دينية — سواء أكان الإفناء كلياً أم جزئياً ؛ وتتلخص هذه الأفعال في : قتل أعضاء الجماعة ، وإحداث ضرر جسمي أو فكري جسيم بأعضاء الجماعة ، والتحايل لإحداث الإبادة الطبيعية — كلياً أو جزئياً — عن طريق الإضرار بأحوال الجماعة المعيشية ، ووضع القيود بقصد منع التناسل بين أعضاء الجماعة ، وتحويل أو نقل أطفال الجماعة بالقوة إلى جماعة أخرى . وقالت المادة الثالثة : إنه يعاقب على إبادة الجنس والتآمر لارتكاب إبادة الجنس ، والتحريض العلني والمباشر لارتكاب إبادة الجنس ، والاشتراك في إبادة الجنس . وقالت الرابعة : إن الأشخاص الذين يرتكبون إبادة الجنس أو أياً من الأفعال المنصوص عليها في المادة الثالثة يعاقبون ، مهما كانوا من الناحية الدستورية معتبرين حكاماً مسئولين أو موظفين عموميين أو أفراداً عاديين .

وذهبت المادة الخامسة إلى أن الوفود المجتمعة تتعهد بأن تضع — على حسب ما تقضي به دساتيرهم المعمول بها — التشريع اللازم لإكساب تقريرات هذا الاتفاق القوة اللازمة ، ولوضع العقوبات الفعالة لمرتكبي إبادة الجنس أو أي من الأعمال التي وردت تحت حصر المادة الثالثة .

ونصت المادة السادسة على أن الأشخاص المتهمين بإبادة الجنس أو بأي عمل من الأعمال المنصوص عليها في المادة ٣ سيحاكمون في محكمة مختصة في الدولة التي وقع في إقليمها الفعل المرتكب أو بواسطة محكمة عقوبات دولية .

وقد نص في المادة العاشرة على أن هذا الاتفاق سيحمل تاريخ ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، وقد خصصت باقي النصوص للإجراءات الشكلية الخاصة بالاتفاق المذكور .

ولقد جاء هذا الاتفاق محققاً لرأي الغالبية من الدول ، حيث كانت كلها تنتظر بفارغ الصبر الانتهاء منه والعقاب على جريمته الخطيرة في النطاق الدولي ؛ وليس أدل على ذلك من كلمة Begum Ikramullah مندوب الباكستان حيث قال : إن إبادة الجنس ارتكبت في خلال الماضي بينما كانت تصدم دائماً ضمير الجنس البشري ، ولكن لم يحدث شيء للعقاب على هذه الجريمة ، على أن كشوف العلم قد وضعت أسلحة في يد من يرتكبون هذه الجريمة حتى أمكن لها أن تكون على درجة كبيرة من الشناعة والقسوة ؛ لذلك فهذا الاتفاق ضروري والموافقة عليه يتعين ألا تتأخر طويلاً !

وقد أخذ مندوب الصين Dr. Tsien Tai على الاتفاق في مسألة الإبادة من الناحية الثقافية وقال : إن إبادة الجنس من الناحية الثقافية تركت جانباً ، ولكن هذا النوع من إبادة الجنس ربما يكون أسوأ من إبادة الجنس من الناحيتين البيولوجية والطبيعية ، فإبادة ثقافة الجنس أقل وضوحاً وجوراً ، بيد أنها أعمق وأعظم امتداداً وأكثر كموناً ؛ وإبادة ثقافة الجنس تذهب إلى أن تفصل شعباً بأسره بكل الوسائل عن ثقافته ، بل تبعد أكثر من ذلك إلى حد جعله ينسى تاريخه وعقيدته بل حتى لغته .

ولكن المادة الثانية نصت على أن (إحداث ضرر جسمي أو فكري جسيم بأعضاء الجماعة) يدخل في الأعمال التي تعنيها « إبادة الجنس » في هذا الاتفاق مما يدخل إبادة ثقافة الجنس إلى جانب إبادة الجنس المادية والبيولوجية .

وقد أبدت مصر نشاطاً ملحوظاً في اللجنة السادسة حتى تم اتفاق إبادة الجنس ؛ ويهمنا أن نعرض هنا ما قاله الدكتور وحيد فكري رأفت بك مندوب مصر ، حيث قال :

لقد قمنا في اللجنة السادسة ما في وسعنا لتبدي إلى الوجود هذا الاختصاص الجنائي الدولي ، بيد أن الغالبية لم تكن تشاركنا وجهة نظرنا لأسباب عدة ؛ ومهما يكن الأمر ، فقد كانت لنا وجهة مؤداها أن هذه المسألة لم تقرر تماماً ، فقد أرجئت لأن واحداً من الحلين اللذين صاحبا الاتفاق الموضوع — كما يعرف الجميع — دعا لجنة القانون الدولي التي انتخب أعضاؤها بواسطة الجمعية ، لينظروا بعين الاعتبار إلى هذا الحكم الدولي ، وقد تابعنا شعورنا مع عدد من المندوبين الآخرين ؛ بأنه لكي تكون لعقوبة إبادة الجنس الفاعلية والتأثير والقوة اللازمة ، من الضروري لأشد الجناة خطراً أن يقتنع قبل كل شيء بأنه حتى لو استطاع الهرب من محاكمة المحكمة الدولية ، فإنه لن يستطيع الهرب من محاكمة أية محكمة دولية تكون عادلة .

أحمد طه السنوسي

رحـــــلة المتاعب

للأستاذ الدمرداش محمد بك

في مثل هذه الأيام من عام ١٩٣٣ اشتد بي الحنين إلى الارتحال ، وصادف أن قرأت إعلاناً في إحدى الجرائد ، عن رحلة بالسيارات ، تستغرق أسبوعاً ، نظمتها إحدى شركات السياحة ، لزيارة آثار « البطرا » عاصمة النبط ، بشرق الأردن . فحجزت لي مقعداً ، وقيدت اسمي في قائمة المشتركين .

وقبل موعد الرحلة بيومين ، دعتنا الشركة إلى حفلة تعارف بمكتبها بالقاهرة . وتوافد الأعضاء في الميعاد ، فرادى وجماعات ، حتى اكتظ بهم المكان ، وكانوا كلهم من السائحين ، الذين جاءوا إلى مصر ، من مختلف الأقطار . وبعد أن تناولنا الشاى والحلوى ، واستمعنا إلى آخر التعليمات ، نهض مدير الشركة وقدم لنا رجلاً طويل القامة ، ضخم الجثة ، أصلع الرأس ، مفتول شعر الشاربين ، ثقيل الظل ، بطيء الحركة . قال عنه إنه الخواجة (تلحمى) رئيس الرحلة ، ووكيل الشركة ، وأطنب في إطراء خصاله ، وطول باعه في تنظيم الرحلات وقيادتها .

وفي اليوم المعين ، غادرنا القاهرة ، تقلنا تسع سيارات ، تتقدمنا سيارة القيادة ، وتتبعها باقي السيارات ، في صف طويل . ولعب منظرها ، وهي تدرج هكذا في شوارع القاهرة ، بعقل الخواجة تلحمى ، فوقف بطوله الفارع في سيارته ، يلوّح في الهواء ، بعلم أحمر كبير ! فأثار عمله هذا فضول المارّة واستغرابهم ، كما جرّ إلى تدخل البوليس .

وصلنا السويس متأخرين في المساء ، واضطررنا للنزول في أكثر من فندق للمبيت ، فتفرقنا هنا وهناك في أنحاء متباعدة ، مما جعل جمعنا في صباح اليوم التالي ، لنستأنف السير ، أمراً شاقاً متعباً . وفي الضحى عبرنا القناة ، ودخلنا برّية سيناء ، ثم ارتقينا نقب (متلا) وانحدرنا إلى وادي الحاج ، ثم اعتلينا هضبة التيه عند جبل صدر الحيطان .

كان كل شيء حتى الساعة يسير وفق المرام ، ولكن لم نكد نرق الهضبة ، ونوغل في الصحراء ، حتى قامت



الصعوبات ، وتوالت المتاعب ، فتوقفت السيارات عن السير عند مفترق الطرق ، لقيام نقاش حاد بين الخواجة تلحمى وسائق سيارته ، حول أي هذه الطرق يوصل إلى (نخل)[1] . وطال وقوفنا ، ولم ينته النقاش بينهما إلى رأي ، وتدخل الأعضاء ، فصرح لهم تلحمى بأنه يجهل الطريق ، وأنه لم يسبق له أن قام بمثل هذه الرحلة في هذه البقاع ، وأنه يعتمد في معرفة السبل ، ومحطات المبيت ، على سائق سيارته المدعو نور ، وعلمى نور بدوره ، وقال : إن خبرته بهذه الجهات قليلة ، وإنه لم يسبق له أن سلك هذا الطريق إلا مرة واحدة ، وكان ذلك من زمن بعيد .

فكان لهذه التصريحات في نفوس الأعضاء رد فعل شديد ، فثارت خواطرهم واضطربوا ، فرأيت من واجبي أن أتقدم بالنصيحة ، واستعنت بخريطة كانت معي على تعرف الاتجاه ، وأرشدت نور إلى الطريق السوي ، فهدأت ثائرة القوم واغتبطوا ، وتقدم الركب في طريق (نخل) فبلغناها عند الظهر . وبعد استراحة قصيرة ، واصلنا السير إلى بئر الثمد ، ثم إلى مفترق الطرق عند مشاش (الكنتلا)[2] فوصلناه في المساء ، وكان القمر في أوج نوره ، ساطعاً يملأ الصحراء ضياء وبهجة ، فأوقفنا السيارات ، وانطلقت بسيارتي ، ومعي الطبيب وزوجته ، شريكاي في السيارة ، نرتاد الوديان ، للبحث عن استراحة مصلحة الحدود . وبعد بحث طويل ، وجدنا الاستراحة على قمة ربوة عالية ، مشرفة على واد فسيح ، ولكن كان قد سبقنا في النزول فيها نفر

(١) نخل مركز بوليس في وسط هضبة التيه .
(٢) الكنتلا مركز بوليس في شرق سيناء .

من ضباط الإنجليز ، فمددنا أدراجنا آسفين ، لحرماننا من نوم مريح هنيء ، في تلك الليلة الباردة . وفي العودة ضللنا الطريق ، وأخذنا نخبط في الوادي خبط عشواء ، فاقتحمنا سور حديقة ، وارتطمنا بحاجز بئر ، وكادت سيارتنا تسقط فيه . ولم نعد لمعسكرنا إلا عند منتصف الليل ! فوجدنا رفقاءنا مستغرقين في النوم ، متكدسين هم ومتاعهم في خيمة واحدة ! من غير نظام أو ترتيب ، وقصدنا صندوق الطعام لتناول العشاء فوجدناه فارغاً ، وحاولنا زحزحة الرفاق قليلاً لنحظى زوجة الطبيب بمكان في الخيمة ؛ فلم نفلح ، فارتمينا نحن الثلاثة على الرمل وتمددنا في العراء ، وغلبنا النعاس فنمنا حتى الفجر . واستيقظنا ونحن نرتجف من طل الليل وشدة القر .

تابعنا السير في الصباح ، من غير أن نذوق طعاماً ، أو نشرب (شاياً) لنفاد كل ما كان قد اشتراه تلحمي من السويس في وجبة العشاء بالأمس . ووصلنا (سطح العقبة)(1) بعد ساعتين مجهدين ، نشكو من الجوع واعتلال المزاج ، فعرض علينا نور — سائق سيارة تلحمي — أن يبيعنا فنجان الشاي مع قطعتين من السكر بخمسة قروش ، والقطعتين من « البسكويت » مع قليل من « الرقاق » بعشرة قروش ، وادعى تلحمي أن نور كان قد أحضر هذه الأشياء لاستعماله الخاص ؛ فوافقنا مرغمين ، وانتهزها تلحمي فرصة ، فنصب سوقاً باع فيه واشترى ، وابتز نقودنا من غير حياء .

ثم اجتزنا العقبة ووصلنا شاطئ الخليج عند الظهر ، واستقبل الرفقاء البحر بالصياح والتهليل ، ثم تعروا من ملابسهم ، رجالاً ونساء ، إلا من بعض ما يستر ، وارتموا في الماء يستحمون ويسبحون .

وجلست على صخرة بالقرب من الشاطئ ، أمتع النظر بمشاهد البحر والجبل ، ووقفت بجانبي زوجة الطبيب تنظر إلى المستحمين ، وهي ثائرة « تبرطم » تصب اللعنات على هذا الزمن الذي غاض فيه الحياء ، وسألتني باستنكار : هل يجوز أن تنزل النساء إلى الماء هكذا عراة في مكان واحد مع الرجال ؟

فقلت لها : إننا في الخلاء ، وهن جميعاً متقدمات في السن ومتزوجات .

فقالت : صه يا صاحبي . إننا في انجلترا لا نسمح بمثل هذا الفجور .

وبينا نحن في مثل هذا الحديث ، إذ اطلعت السيدة ، فوجدت زوجها قد تسلل إلى الشاطئ ، وشرع في خلع ملابسه ؛ فصرخت وقالت : أنظر ! ألا ترى زوجي ! هذا الأحمق العجوز الذي جاوز الستين ، إنه هو الآخر يهم بنزول الماء ، ليحظى ببعض النظرات . ألا تباً للرجال ! ، ثم تركتني وانطلقت مهرولة إليه ، حتى إذا بلغت الشاطئ ، أمسكت بكتفيه ، وأخذت تسحبه من الماء ، وهي تصيح به : ماذا أعجبك منهن أيها الأبله ! وأخذ هو يحاول الإفلات منها ، ولكنها تغلبت عليه ، فانصاع لها ، وخرج ، بين قهقهة الجماعة وضحكاتهم .

لم يترك الرفقاء البحر ونستأنف السير إلا بعد أن أنهكهم التعب ، ووصلنا بلدة العقبة قبل العصر بقليل .

لقد كان سلوك الرفاق في العقبة — وكلهم من الكبار — ضرباً من عبث الصغار ، إنهم لمعذورون ، لقد كانوا يؤملون أن يجدوا فيها ، بعد هذه الرحلة الشاقة في جبال سيناء ، بعض ما اعتادوه في المدن من أسباب الترفيه ، ولكن خاب أملهم . فالعقبة بلد فقير صغير ، ليس فيه مطعم ، ولا مقهى ، ولا شيء غير البحر والرمل والنخيل .

قضينا الليلة في العقبة ، ولم نكد نجمع الشمل في اليوم التالي ، ونركب السيارات ، ونستعد للرحيل ، حتى فوجئنا بتمرد السائقين ، فوقف نور البربري ليخطب فيهم ، وقال : تذكروا أيها الإخوان أن الطريق إلى (معان) يخترق جبال الحجاز ، وسنلتقي في الوديان بجنود ابن السعود ، وسيسألونا ونجيب ، ولن يتركونا من غير حساب ! فويل لكم من سيوف ابن السعود ، فهل فيكم من يرغب أن يعود إلى بيته من هذه الرحلة ، وهو أكتع وأعرج وأعمى ومجدوع الأنف ؟ فأجابوا جميعاً بالنفي ، ثم التفت إلينا ، وقال : أيها السادة : ألا ترون أن نختصر الطريق ونعود من هنا

(1) سطح العقبة مركز بوليس عند قمة النزول من سطح العقبة إلى خليج العقبة .

سالمين ؛ فما معان والبطرا والعقبة إلا سواء : رمل وزلط وجبال . فاتخذوا الحيطة ، ويكفينا ما شربناه من المقالب في سيناء .

تخرج الوقف بعد هذا الكلام وتعقد . وبينا نحن مجتمعون نحاول الوصول إلى حل ، والسائقون جلوس على الشاطئ[*] في انتظار النتيجة ، إذا بنا نسمع صراخاً مروعاً ، يدوى عالياً في الفضاء ، وإذا بالسائقين يتفرقون مذعورين ، ويهرعون إلى السيارات ، وإذا بنا نتابعهم فنركب السيارات كذلك ، وإذا بالسيارات تندفع إلى الأمام في الطريق المرسوم ، الذي يؤدي إلى معان .

جرى كل ذلك في لحظات ، ولم نتبين السر فيما حدث ، وفي الطريق قص علينا حسن السوداني — سائق سيارتنا — ما حصل على الشاطئ . فقال : إنه بينا نور يتكئ بيده في غفلة ، خرج من الشق وأبو جنيبة كبير ، وارتمى على صدره ، وتعلق بطيات ملابسه ، ثم اندس بين جسمه وقميصه ؛ فارتاع المسكين ، وصرخ ، وأخذ يقفز في الهواء ، ويدور على نفسه ، ويلطم جسمه بكلتا يديه كالمجنون ، وتولانا نحن رعب شديد ، فجرينا من غير وعي وركبنا السيارات .

دخلنا وادي (اليتم) عند اصفرار الشمس ، ثم أقبل الليل ، وأظلم الوادي ، وعصفت الريح ، واشتد البرد ، وبدت الجبال قاتمة موحشة ، ولم نصل (قويره)(١) إلا قبيل منتصف الليل . فنصبنا خيامنا على سفح الجبل ، ولم يتسع لنا الوقت لطهي الخروف ، الذي كنا قد أعددناه في العقبة لعشائنا . فعلقناه في الهواء الطلق لفطور الصباح ، وآوينا إلى الخيام ، وعبثاً حاولنا النوم . فالجوع والتعب والبرد وصلابة الأرض من تحتنا حالت دون ذلك ، وقمنا في الصباح نبحث عن الخروف . فإذا الذئاب قد سطت عليه أثناء الليل وهربت به إلى الجبال .

غادرنا (قويره) في الصباح ، ثم ارتقينا جبال (الشراه) وعند الظهر ظهرت معان بمنازلها البيضاء . على حدود بادية الشام ، وسط بقعة جرداء ، لا نخيل حولها ولا زرع .

كان اليوم عطلة ، وأسواق معان مغلقة ، فداخلتنا الحيرة لنفاد مئونتنا . جلسنا على قهوة ، وانطلق الخواجة تلحمي يجوب الأزقة والحارات باحثاً عن حل ، وطالت غيبته فغادرنا معان قاصدين (البطرا) قبل أن يدهمنا المساء ، وتركناه ليلحق بنا بعد أن يحصل على حاجتنا من الطعام والبنزين ، وفي الأصيل أشرفنا على وادي موسى العظيم ، ثم نزلنا في طريق شديد الانحدار ، ووقفت بنا السيارات على مرحلة من الوادي ، ثم ركبنا خيولا هزيلة صغيرة الأحجام . لتنقلنا باقي الطريق إلى البطرا ، فوصلناها عند الغروب ، وجلسنا في ساحة المدينة أمام أحد الكهوف في انتظار الخواجه تلحمي ، وطال بنا الانتظار ، واستبد بنا الجوع . ثم اشتد البرد ونزل الصقيع . فآوينا إلى معبد منقور في الصخر ، وأشعلنا العشب الجاف لنصطلي ، فكدنا نختنق من تكاثف الدخان ورائحة الحريق ، ولكنا فضلنا البقاء حيث كنا مع الاختناق على الخروج إلى الهواء الطلق لهبوط درجة الحرارة في العراء إلى ما تحت الصفر .

وأخيراً أقبل الخواجه تلحمي ، وكان معصوب الرأس مخدوش الأنف . راكباً فرساً تسير الهوينا ، وقد تدلت ساقاه على جانب السرج ، وزحفت قدماه على الأرض . يسنده أعرابيان من الأمام والخلف ، وهو يئن ويتألم . لإصابته في حادث لسيارته ، أثناء الطريق ، فحلقنا فيه ، وتركزت أبصارنا عليه ، وكان من حسن حظه في تلك الليلة ، أن حمل لنا معه من معان ، سلة كبيرة كانت تفوح منها في الجو رائحة الكعك والفطير والشواء . فنسي القوم تلحمي وإصابته ، وما كانوا يضمرونه له من وعيد وانقضوا على السلة ، فخطفوها من يده وقطعوا رباطها ، وأخرجوا محتوياتها ، ثم انهمكوا في التهام أكلة دسمة شهية لم يتذوقوا مثلها ، منذ أن غادروا القاهرة من أربعة أيام .

كان صباح اليوم التالي منعشاً جميلا ، وشروق الشمس على رءوس الجبال بديعاً ساحراً ، فاستعدنا نشاطنا ، ونسينا متاعب الطريق ، وذهبنا مبكرين لزيارة الآثار .

الدمرداش محمد

---

(١) قويرة : مخفر لبوليس شرق الأردن في وسط الجبال .

ابن الكيزانى [1]

للدكتور شوقى ضيف

— ١ —

لم يكن من شعراء الخلفاء والوزراء ، ولا كان من شعراء الخمر ووصف الطبيعة ، إنما كان من شعراء الحب ، ولم يكن من شعراء الحب الإنسانى ، وإنما كان من شعراء الحب الإلهى وما يتصل به من مواجد وأحوال ومقامات عرف بها الصوفية ، وقد حظيت به مصر فى أواخر عهدها بالدولة الفاطمية .

وترك ابن الكيزانى ديواناً طريفاً . ويحدثنا ابن سعيد الذى زار مصر فى القرن السابع للهجرة أنه رآه يباع بكثرة فى سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، وليس بين أيدينا الآن هذا الديوان ، ولكن بين أيدينا طائفة غير قليلة من شعر هذا الشاعر الصوفى احتفظت بها الخريدة وقدم لها العماد الأصفهانى بقوله :

« فقيه واعظ مذكّر حسن العبارة ، مليح الإشارة ، لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عذوبة وحلاوة ، مصرى الدار ، عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهود له بألسنة القبول ، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ، ومعرفة بالقديم منه والحديث ، إلا أنه ابتدع مقالة ضل بها اعتقاده ، وزل فى مزالقها سداده ، وادعى أن أفعال العباد قديمة ، والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة . أعاذنا الله من ضلة الحلم وزلة العلم ، وعلة الفهم ، واعتقد أن التنزيه فى التشبيه ، عصم الله من ذلك كل أديب أريب ونبيل نبيه . وله ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله لما أودع فيه من المعنى الدقيق واللفظ الرشيق ، والوزن الموافق ، والوعظ اللائق ، والتذكير الرائع الرائق ، والقافية القافية آثار الحكم ، والكلمة الكاشفة أسرار الكرم . توفى بمصر سنة ستين وخمسمائة ، وهو شيخ ذو قبول ، وكلام معسول ، وشعر خال من التصنع مغسول ، ودفن عند قبر إمامنا الشافعى رضى الله عنه . والكيزانية بمصر فرقة منسوبة إليه ، ويدّعون قدم الأفعال ، وهم أشباه الكرامية بخراسان » .

نحن إذاً بإزاء شخصية مهمة فى تاريخ الحياة الروحية بمصر ، وهى شخصية كانت مثقفة ثقافة ممتازة كما يصورها لنا العماد ، فقد كان ابن الكيزانى ملماً بالمعقول والمشروع والأصول والفروع ، فهو يعلم علم الفقه والشريعة ، وهو يعلم علم العقل والفلسفة ، وكان إلى ذلك صاحب مقالة خاصة تشبه مقالة الكرامية فى خراسان ، ويقول أبو الفداء : إن الكرامية هم أصحاب المقالة فى التشبيه ، ويقول المقدسى الذى زار مصر فى أواخر القرن الرابع للهجرة : إنه كان لهم محلة بالفسطاط ، ومن الممكن أن تكون هذه المحلة استمرت حتى عصر ابن الكيزانى .

وإذاً فابن الكيزانى كان كرامياً صوفياً ، أو كان صوفياً على مذهب الكرامية ، وهم قوم أساس مذهبهم القول بالتشبيه وأن الله يشبه عباده ، وهو شبه يقيده ابن الكيزانى بالتنزيه ، فتشبيه الذات العلية يقتضى تنزيهها وهو تنزيه لا تقف عليه إلا الصفوة ، وتبدو الفكرة معقدة ، ولكنها قريبة ، فأنت إذ تشاهد صورة جميلة ترى فيها خالقك الذى أطلعك على جماله فيها ، وفى الوقت نفسه ينبغى أن تؤمن أثناء مشاهدتك لهذه الصورة بتنزيه الذات العلية عن أن تكون هى هذه الصورة الجميلة ، فشبه ما استطعت ولكن ينبغى أن تنزه ما استطعت .

(١) انظر فى ترجمة ابن الكيزانى خريدة القصر وجريدة العصر — قسم شعراء مصر ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وكتب التاريخ وعلى رأسها النجوم الزاهرة ومرآة الزمان ووفيات الأعيان لابن خلكان والوافى بالوفيات طبع استانبول ٢/٣٤٧ والمحمدون من الشعراء للقفطى الورقة ٣٦

ومن هنا يقول ابن الكيزانى ومن لف لفه : التنزيه فى التشبيه ، وهم يريدون بذلك أن لا يغلوا كما غلا المجسمة فى تشبيه الله ، فهم ينزهونه حين يشبهونه ، ويجعلونه فوق ما يشبهه ، وهم كذلك يريدون أن لا يغلوا كما غلا المعتزلة فى تجريد الله من كل تجسيم وتشبيه ، فالله جل وعز يُرَى ويشاهَد فى كل شىء ، وفى الوقت نفسه هو فوق كل شىء .

وليس كل ما قامت عليه النحلة الكيزانية فكرة التنزيه فى التشبيه ، فقد قامت على فكرة أخرى أنكرها العباد أيضاً ، وهى فكرة القدم فى أفعال العباد لا فى أفعال الله فحسب ، ولعل العباد أنكرها لأنه لم يفهم ما يراد منها ، أو لعله فهمها وأنكرها ، لأن ابن الكيزانى يخرج بها على المعروف من أن القديم واحد وهو الله ، فلا يصح أن يضاف القدم إلى شىء سواه . غير أن ابن الكيزانى حين يذهب هذا المذهب من قدم أفعال العباد إنما يريد مرتبتها فى العلم الإلهى ، والعلم الإلهى قديم ، فهى على هذا النحو قديمة .

وأنت ترى من ذلك دقة تفكير ابن الكيزانى وصلته المحققة بالتفكير العقلى ، وكان المصريون وغير المصريين يعجبون بآرائه ؛ فالقفطى يقول : « له بمصر وسواحل الشام فرق تنتمى إليه فى المعتقد وأكثرهم بحوف مصر » . ومع ذلك لم يعدم أعداء يقفون فى وجهه أثناء حياته وبعد موته ، فقد نبش قبره نجم الدين الخبوشانى فى عهد صلاح الدين وأخرج منه عظامه وقال : لا تتفق مجاورة زنديق إلى صدّيق ، ويقصد بالصديق الشافعى الذى دفن إلى جواره . وحمل صاحب مرآة الزمان على الخبوشانى ، وقال إنه كان كثير الفتن ، يكفر الناس بالحق وبالباطل ، ثم قال عنه : إنه كان يصوم ويفطر على خبز الشعير ، فلما مات وجد له ألوف الدنانير ، وعقب على ذلك بقوله عن ابن الكيزانى : إنه كان زاهداً عابداً قنوعاً من الدنيا باليسير . ودافع ابن تغرى بردى عنه أيضاً فقال : « لا يلتفت لقول الخبوشانى فيه لأنهما أهل عصر واحد ، وتهوّر الخبوشانى معروف » ، ويقول عنه ابن خلكان « كان زاهداً ورعاً » ويذكر أنه زار قبره مراراً وأن له ديواناً من الشعر لم يقف عليه ، ومعنى ذلك أن ديوانه الذى رآه صاحب المُغْرِب يباع بكثرة فى النصف الأول من القرن السابع ، لم يستطع ابن خلكان العثور عليه فى أواخر القرن نفسه ، ومع ذلك فالكيزانية كانت لا تزال موجودة حتى عهد ابن خلكان ، فهو يصرح بأن فى مصر طائفة ينسبون إليه ويعتقدون مقالته ، وكان شعره لا يزال يُروَى ، وروى له ابن خلكان هذا البيت الطريف :

وإذا لاق بالمحب غرام   فكذا الوصل بالحبيب يليق

وإذا كانت يد الزمن قد عبثت بالديوان ، فلم يصل إلينا ، فقد احتفظت الخريدة بشطر كبير منه يبلغ نحو ثلاثمائة بيت ، كلها شعر صوفى ، وهو شعر عذب سهل يسيل عن قلب حار يتدفق بالعواطف الصوفية عواطف المحبة العميقة والرغبة الحقيقية فى الاتصال بالذات الإلهية . فكل ما حوله ينم عن محبوبه وهو لاهث لا يستطيع أن يشبع روحه من رؤيته إلا أن يرى الأشباه والأشباح والأطياف ، فيقول :

إن حجبوا شخصك عن ناظرى
ما حجبوا ذكرك عن خاطرى
قد زارنى طيفـــك فى مضجعى
يا حبـــذا طيفك من زائر

أو يقول :

إنى لأعجب من صـــدو   دك وانعطافك فى خيالك
ياليت ذاك مكان ذا   عندى وذا بمكان ذلك
لأكون مشتمـــلا على   وجه الحقيقة من وصالك

فهو يريد وجه الحقيقة الكلية وهو محجوب عنه دائماً .

ومن هنا يتحول ابن الكيزانى إلى ما يشبه بوقاً كبيراً ينادى حبيبه فى السهل والجبل ، وفى الندىّ والخلوة ، وفى الليل والنهار ، وفى كل مكان وكل زمان ، فلا يجيبه إلا صدى ندائه ، ومع ذلك فالأخيلة والأطياف والأشباه من حوله تتراءى له ، ولا يدرى أى اتجاه يتجه ولا أى سبيل يأخذ :

أىّ طريق أســلك   وأى قلب أملك
وأى صبر أبتغى   وهو بكم مُستهلَكُ
أدارنى حبـــكمُ   كما يدور الفلك
الشى وكل عضـــو   فيـــه منكم شرك
أخلصت فيكم باطنـــاً   فيه هوىً لا يُدرَك

جـــلّ فما فى صفوه شَوْبٌ ولا مشترك

ولاؤكم لى مــــذهب وذكركم لى نسك

ومــهجتى مملوكة يا حبـــذا المملك

إن كل عرق فيه ينبض بهذا الحب ، فهو ليس حب القلب وحده ، بل هو حب القلب والجسم وكل قطرة دم فيه وكل نبضة عرق من عروقه . ليس حباً ظاهراً كحب الغزلين لصواحبهم ، وإنما هو حب باطن فيه هوى لا يمكن أن يدرك ولا يمكن أن يوصف .

على أن اللغة عاجزة عن أن تعبّر عنه ، ومن هنا أخذ أصحاب هذا الحب الباطن عند ابن الكيزانى وغيره من المتصوفة يعبرون عنه بمصطلحات أصحاب الحب الظاهر ، فهم يشكون من الصد والدلال والهجر ، وهم يندبون الديار والرسوم والأطلال ، وهم يذكرون الوشاة والعزال ، وهم يخلعون من أنفسهم كل تكلف وكل حجاب ، وقد يرمزون بليلى ورامة من مثل قول ابن الكيزانى :

لذّ لى فى هـــوى ليلى معانيق

لأن فى ذكرها برداً على كبدى

وأشتهى سقمى أن لا يفارقنى

لأنها أودعته باطن الجســـد

وليس فى النوم لى ما عشت من أرب

لأنها أوقفت جفنى على السهــــد

ولو تمادت على الهجران راضيــــة

بالهجر لم أشك ما ألقى إلى أحـــد

فإن أمت فى هواها فهى مالكتى

وما لعبـــد على مولاه من قود

اللوم أشبـــه بى منها وإن ظلمت

أنا الذى سقت حتفى فى الهوى بيدى

وأنت لا تكاد تجد فرقاً بين هذا الغزل والغزل المعروف باسم الغزل العذرى ، فقد رفع المتصوفة فى غزلهم بالذات الإلهية كل الحواجز بينهم وبين هذا الغزل ، وكأنهم اتخذوه رمزاً عما يجرى فى نفوسهم من تشوق وعشق . واستمع إلى قول ابن الكيزانى :

أزعم لـــيلى أننى لا أحبهـــا

وأنى لــــا ألقاه غير حمول

فلا ووقوفى بين أوية الهـــوى

وعصيان قلبى فى الهوى وعذولى

لو انتظمتنى أسهم الهجر كلها

لكنت على الأيام غـــير ملول

ولست أبالى إذ تعلقت حبهـــا

أفاضت دموعى أم أضرّ نحولى

وما حيلتى بالنــــوم إلا تعلّلٌ

عسى الطيف منها أن يكون رسولى

فلا ريب أن هذه حسية واضحة ، وهى لا تفهم إلا على أنها رمز وإيماء وإشارة إلى معان صوفية . وتبلغ هذه الحسية بابن الكيزانى أن يقول :

ثمّ هنيئاً فلست أعرف غمضاً قد جعلت السهاد بعدك فرضاً

ونجد دائماً عند المتصوفة هذه المعانى الحسية ، وهى فى جملتها ترد إلى ما نقوله من أنها رموز اتخذها المتصوفة للكشف عن معانى عشقهم لمن يفهمها منهم . ولتستمر هذه المعانى غامضة مستبهمة عند غيرهم وكأنهم يريدون ألا تشيع فى بيئة سوى بيئتهم .

ومعنى ذلك أن الغزل الصوفى عند ابن الكيزانى وأمثاله لا يصح أن يفهم على ظاهره ، فله باطن ، وله دلالات خفية . ومن يقرؤه مكتفياً بظاهره يجد فيه جمالاً لا ينفد ، وسر ذلك أنه يعبر عن حب لا نهائى ، حب غير محدود بحس وما يشبه الحس ، حب كله مواجد وكله تلهف ولوعة ، وكله تشوق إلى طلعة الحبيب التى تملأ الدنيا بأشباحها ، ولا يستطيع أن يراها فيكتفى بالذكر ومرور الاسم فى خاطره وعلى شفتيه :

والله لولا أن ذكرك مؤنسى ما كان عيشى بالحياة يطيب

ولئن بكت عينى عليك صبابة فلكل جارحة عليك نحيب

أتظن أن البعد حلّ مودتى إن بان شخصك فالخيال قريب

كيف السلو وقد تمكن فى الحشا

وجـــدٌ على ما فى الفؤاد رقيب

ودائماً نلتقى بابن الكيزانى والعشق يعصف به ، بل لكأنه فيض يندفع من قلبه ، فيتجلى على لسانه فى هذه الأغانى البديعة التى تعبر عن عشق المتصوفة وكل ما يتصل بهذا العشق من أحوال ومقامات من مثل قوله :

ته كيف شئت دلالاً   لا صبر عنك لالا
قلت أبغى بحالى   سواك ما عشت حالاً

وقوله :

ما أرخص الدمع على ناظرى   فى الحب إلا وصلك الغالى
يسرق فيك عذابى وأنت   تبقى رخياً ناعم البال
قد أطنب العذال فى قصتى   وأكثروا فى القيل والقال
وما قلبهم قلبى ولا وجدهم   وجدى ولا حالهم حالى

إن الحال مختلفة ، فعذاله يظنون أن حبه من هذا النوع العذرى العادى المعروف عند الشعراء ، وهو إنما يحب حباً سماوياً علوياً ، حباً لا يستطيعون أن يفهموه ، بل إن ابن الكيزانى نفسه ليحار فى كنهه وفى صفته :

قد تمنيت أن تكون وصولا   فتفضل به على وكنه
كل حب له إذا نظر النا   ظر كنه وما لحبى كنه

هو حب من طراز آخر ، حب كل ذرة فى صاحبها لمبدعها ، حب الإنسان لربه ، وهو حب لا يلامس قلب الصوفى حتى يندلع شرره فى كل جسمه وكل جوارحه ، فإذا هو لهيب ، وإذا هو نار ونور ، بل رغبة فى الاتحاد بالحبيب والفناء فيه :

ليتنى كنت مثل   حبيبى أعمل
منعوه من وصالى   فاثنى عزى ذلا
كنت بالصبر ضنيناً   فتولى حين ولى

ودائماً على هذا النحو يريد الوصل ، ودائماً ينقطع الوصل ، ومع ذلك فهو مشدود إلى حبيبه بأسباب متصلة تجذبه إليه ، وتحول بينه وبين الخلاص . وما الخلاص ؟ إن الخلاص هو الحب نفسه وما يعانيه فيه من آلام وأوصاب ومن سهر ودموع ومن حرمان وشقاء :

عهد عينى أن لا تذوق هجوعاً   وجفونى أن لا تكف دموعا
ولسانى أن لا يزال مقراً   أنى لست للعهود مضيعا
وفؤادى أن لا يمل به الصـ   ـبر وسقمى أن لا يروم نزوعاً
لقد أودع الغرام بقلبى   زفرات أضحى بها مصدوعا

فهو لا ينكث العهد ، ولا ينقض العقد ، ولا يطلب الصبر ولا السلوان ، فقد وهب نومه ودموعه وزفراته وتأملاته لهذا الحب الذى يخوض غمراته راضياً مرضياً :

إنما لذة الشيق فى الهوى   لا أبالى بنعيم أو شقا
أنا لا أسلو عن الحب ولا   أبتغى من أسره أن أطلقا

وهل لمثله أن يسلو أو يطلب الخلاص ، وكل ما يريد قد تحقق بحبه ، فقد وجد نفسه ووجد ربه ولكن أى وجود ؟ إنه لا يجد إلا لوعات وحسرات :

ليس حظى من الحبائب إلا   لوعة أو تأسف أو غرام
حكموا البين والهوى فى لما   علموا أننى بهم مستهام
أنا راض فليصنعوا ما أرادوا   كل صبر عنهم على حرام
هم رجائى وهم نهاية سؤلى   وهم برء مهجتى والسلام

وهو راض بكل ما يقدمه إليه حبيبه من أحوال بعد وفراق وما يتبع هذه الأحوال من قلق واضطراب ولوعات وتأسفات ووحشة بعد إيناس وهجر بعد وصال ، فحياته كلها آلام وعذاب .

ما ينقضى يوم ولا ليلة   إلا بأحوال تمض الحشا

وهى أحوال برت جسمه بالحب الذى يجد حره فى الكبد والذى لم يبق منه إلا على رمق يمسكه ويكاد يتلفه .

(للكلام صلة)

شوقى ضيف

من أقدم المناهج
فى تراجم الرجال

— ١ —

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

لعل « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء » و « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » هما أقدم الكتب المطبوعة فى تراجم الرجال . والأول لابن الأنبارى من رجال القرن السادس الهجرى ، والثانى لياقوت الحموى من رجال القرن السابع . وقد استفاد الرجلان من كتب كثيرة ألفت قبل عصريهما بكثير ، ووقعت لهما فيما وقع من الكتب التى كان يستبق العلماء إلى الحصول عليها ونسخها أو استنساخها . ولكن كثيراً من هذه الكتب لم يصل إلينا إلى اليوم ، إما لأنه ضائع فيما ضاع من تراثنا . وإما لأنه لا يزال مخطوطاً يحبسه الاختزان عن الاستفادة منه ، وإلا فأين كتاب أبى بكر محمد بن عبد الملك التاريخى ، وابن درستويه ، وابن عمران الرزبانى فى طبقات النحويين ، وأبى سعيد السيرافى فى نحاة البصرة ، وأبى بكر محمد بن حسن الأشبيلى الزبيدى — من علماء القرن الرابع — فى طبقات النحويين ، وابن مسعر التنوخى ، وكتاب « شجرة الذهب فى أخبار أهل الأدب » لابن فضال المجاشعى ، وغيرها من كتب التراجم ؟

لقد أفاد ياقوت الرومى صاحب المعجمين الجميلين : معجم الأدباء ، ومعجم البلدان ، من هذه الكتب التى ذكرناها والتى نقلناها عن المقدمة الطويلة النفيسة لكتابه فى تراجم الرجال . وقد صرح هو نفسه باستفادته من هذه الكتب التى نقل أكثر الفوائد فى كثير منها إلى كتابه — كما ذكر فى المقدمة . ومن هنا كانت مزية كبيرة لكتاب « معجم الأدباء » ، وهى أنه حفظ لنا نصوصاً كثيرة جداً ، ونقولا كثيرة من كتب لم تصل إلينا إلى اليوم ؟ كما نقل فوائد كثيرة من كتاب « نزهة الألباء » لابن الأنبارى ، وهو كتاب نفدت طبعته من زمن غير قريب ؟ ولا يزال ينتظر من يسلف إلى الأدب العربى يداً بإعادة طبعه وتحقيقه .

وتعد مقدمة ياقوت الرومى لكتابه « إرشاد الأريب » أطول ما كتب من المقدمات فى كتب التراجم والطبقات ، فقد مضى الرجل فيها على طبعه الأدبى ، وملأها بكثير من الفوائد ، ووضع فيها بعض مناهجه فى الترجمة للرجال الذين اختارهم . أما بقية النهج — مما لم يشر إليه ياقوت فى المقدمة فقد استقرأناه من مطالعتنا للكتاب ، ومن معاودة النظر فيه ، وكثرة الرجوع إليه .

وأول مناهج « معجم الأدباء » — وهو أسبق من « وفيات الأعيان لابن خلكان » بعشرات من السنين — أنه لم يقصره على طبقة واحدة من الرجال ؟ كالنحويين ، أو القراء ، أو المؤرخين وحدهم ؟ ولكنه جمع فيه كما يقول :

« ما وقع إلى من أخبار النحويين ، واللغويين ، والنسابين ، والقراء المشهورين ، والإخباريين ، والمؤرخين ، والوراقين المعروفين ، والكتاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل المدونة وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة ، وكل من صنف فى الأدب تصنيفاً ، أو جمع فى فنه تأليفاً .

وواضح من هذا أنه لم يترك مشتغلا بالعلم والأدب والكتابة والخط إلا ترجم له ، ونظمه فى سلك كتابه . ولعل اهتمام ياقوت الرومى بالترجمة للوراقين وأصحاب الخطوط هو نوع من الألفة لقديم المهنة وسابق الصنعة ! فقد كان فى أول أمره يشتغل بنسخ الكتب بالأجرة ، وجعل بيع الكتب بعض تجارته كما يقول مؤرخوه ، فحصل

فوائد كثيرة من مطالعة مايقع له من الكتب ، وقد أفاده هذا التحصيل كثيراً فى تأليف كتبه النفيسة .

ولقد أراد ياقوت أن يأخذ نفسه فى مقدمة معجمه الأدبى بطريق الإيجاز فى التراجم ، وعبر عن ذلك بقوله :

« مع إثبات الاختصار والإيجاز فى نهاية الإيجاز » .

ولكنه لم يمض فى هذا الشوط إلى غايته ، ولم يلتق فى التنفيذ مع رغبته ... فقد رأينا كثيراً من التراجم تطول إلى حد يجعل من الترجمة للرجل الواحد رسالة خاصة تقوم بكتاب وحده ، وتبلغ بضع عشرات من الصفحات ، ورأينا كثيراً من التراجم تقصر وتوجز إلى حد يخرجها عن الترجمة إلى مجرد الإشارة إلى المترجم له فى أسطر قليلة .

ومن التراجم الطويلة ترجمته لابراهيم بن إسحق الحربى فى بضع عشرة صفحة ، وترجمته لابراهيم بن العباس الصولى فى أكثر من ثلاثين صفحة ، وترجمته لنفطويه فى حوالى عشرين صفحة ، وترجمته لابراهيم بن هلال الصابى فى أكثر من سبعين صفحة ، وترجمته لبديع الزمان الهمذانى فى أكثر من أربعين صفحة ، وترجمته لجحظة البرمكى فى أكثر من أربعين صفحة ، وترجمته لأبى العلاء المعرى فى أكثر من مائة وعشر صفحات ، وترجمته لابن فارس صاحب « المجمل » و « مقاييس اللغة » فى بضع عشرة صفحة ، وترجمته لابن ثوابة الكاتب فى ثلاثين صفحة ، وترجمته لأسامة بن منقذ فى قرابة ستين صفحة .

أما التراجم القصيرة فكترجمة أحمد بن شقير النحوى فى عشرة أسطر . . . وكترجمة أحمد بن الحسن بن الجبان فى ثمانية أسطر ، وكترجمة « الحلال » الأديب الوراق فى أربعة أسطر . . . ولعل أكثر التراجم إيجازاً هى ترجمة ابن رضوان النحوى فى سطر واحد يضاف إليه كلة واحدة

وعجيب جداً هذا الفرق البعيد بين الإطالة فى بعض التراجم والإيجاز المخل فى بعضها الآخر ! فأين سطر واحد لابن رضوان من مائة وعشر صفحات للمعرى ؟ وكيف يتفق ذلك فى كتاب واحد لمؤلف واحد أخذ نفسه بنهج واحد ؟

هنا نرى الأستاذ الكبير محمد كرد على يقول فى خلال ترجمته لياقوت : (ومعجم الأدباء لم يصل إلينا إلا ناقصاً ، وما نشر فى أنه من ياقوت ينادى على نفسه بأنه ليس له بل هو مدسوس عليه ؟ ويتجلى ذلك لمن يعارض بين التراجم التى هى من محصول قلمه ، والفصول الأخيرة من الكتاب وقد ألصقت به إلصاقاً . فالفرق بيّن بين إفاضة ياقوت فى الترجمة للرجال والاقتضاب المخزى فى التراجم التى تلوها له[1]) .

ومع احترامنا لرأى الصديق العلامة الجليل فإننا نقول إن هذا الاقتضاب المخزى فى الكتاب لم يكن فى « الفصول الأخيرة من الكتاب » فحسب ؛ ولكن الأجزاء الأولى من الكتاب لا تسلم التراجم فيها من الاقتضاب والإيجاز المخل . فإن تراجم أحمد بن الحسن السكونى ، وأحمد بن الحسن الفلكى ، وابن الجبان وابن رضوان وعشرات غيرها من التراجم المقتضبة جداً هى فى الجزء الثالث من الكتاب الذى تبلغ أجزاؤه عشرين جزءاً .

وأغلب الظن عندى أن معجم الأدباء كتب فى مدى طويل وعلى فترات متباعدة ، فنسى ياقوت ما ألزم به نفسه فى المقدمة ، وخاصة أنه ألزم نفسه بالإيجاز لا بالإطالة كما أسلفنا . فلما مضى فى التأليف شغلته الأيام عن تقديم الالتزام ، فأطال كثيراً فى بعض الرجال ، وأوجز كثيراً جداً فى بعضهم ، واعتدل القدر بين يديه فى البقية الباقية .

ومن مناهج ياقوت التى ذكرها فى مقدمة معجمه الأدبى الخالد ، أنه ذكر مواليد المترجم لهم وتواريخ وفياتهم ما قدر على ذلك ووجد إليه سبيلا ، وإلا فإنه يترك الإشارة إلى ذلك ، ويقول عن ذلك فى مقدمته : (ولم آل جهداً فى إثبات الوفيات ، وتبيين المواليد والأوقات .)

وقد بلغ من دقته وتحريه وجه الحق فى تعيين المواليد أنه كان يسأل المترجم لهم من معاصريه عن تاريخ ولاداتهم ، وأمامنا فى متن الكتاب الطويل الضخم عشرات من الأمثلة على هذا ، نجتزىء منها بما يأتى : فى ترجمته لإبراهيم بن محمد الخوارزمى يقول : (سألته عن مولده ، فقال : كانت

(١) كتاب « كنوز الأجداد » لمحمد كرد على بك ، طبع المجمع العلمى بدمشق ص ٣٢٤ .

ولادتي في ذي الحجة سنة تسع وخمسين وخمسمائة[١]) .

وفي ترجمته لإسماعيل بن جعفر الصادق وهو معاصر له يقول : (وأخبرني أحسن الله جزاءه — أن مولده ليلة الاثنين ، الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة[٢])

ولم يقل تحقيقه للوفيات عن تحريه لحقيقة المواليد ؛ وأحياناً يربط بين وفاة شخصية يترجم لها وبين بعض الأحداث التي جرت له هو شخصياً ؛ فيقول في ترجمة سميه ياقوت الرومي الكاتب : (وتوفى في السنة التي عدت فيها من خوارزم إلى الموصل ، سنة ثمان عشرة وستمائة عن سن عالية[٣]) .

وكما كان يسأل ياقوت الرومي عن ميلاد المترجم لهم ، كان يستخبر غيرهم عن تاريخ وفياتهم ؛ ففي ترجمته لأحمد بن عبد الله القرقاني يقول : (وكانت وفاته — كما أخبرني المصريون بها — في سنة اثنتي عشرة وستمائة ، عند كوني بها)[٤] . وفي ترجمته لأحمد بن علي البيهقي يقول : (مات فيما ذكره أبو سعد السمعاني في مشيخة أبيه ، في سابع شهر رمضان ، سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، أخبرني بذلك الشيخ الإمام المظفر عبد الرحيم بن سعد السمعاني ، عن والده ، وأخبرني أيضاً أن مولده إلخ[٥]) .

ولياقوت طريقة أخرى في تحقيق المواليد والوفيات تدل على سلامة منهجه العلمي ، ففي ترجمته لأحمد بن فارس اللغوي ذكر رواية ابن الجوزي أن ابن فارس مات سنة تسع وستين وثلاثمائة ، وذكر أيضاً ما وجد بخط الحميدي من أن ابن فارس مات في حدود سنة ستين وثلاثمائة ، ثم قال معقباً على ذلك : (وكل منهما لا اعتبار به ؛ لأني وجدت خط كفه — يعني ابن فارس — على كتاب « الفصيح » تصنيفه وقد كتبه في سنة إحدى وتسعين والاثمائة[١]) .

ولم يكتف ياقوت الرومي في تحقيق المواليد والوفيات لشخص يترجم له بسؤاله أو سؤال واحد غيره ؛ ولكنه كان يحقق نفسه بالبحث ، ويسأل كثيراً من العارفين حتى يهتدي إلى وجه الحق ، ويؤيد لنا ذلك ما ذكره في ترجمته لإسماعيل بن حماد الجوهري صاحب « الصحاح » في اللغة ، قال : (وكنت بحلب في سنة إحدى عشرة وستمائة ، في منزل القاضي الأكرم ، والصاحب الأعظم أبي الحسن علي ابن يوسف بن إبراهيم الشيباني ، فتجارينا أمر الجوهري ، وما وفق له من حسن التصنيف ، ثم قلت له : ومن العجب أني بحثت عن مولده ووفاته بحثاً شافياً ، وسألت عنهما الواردين من نيسابور فلم أجد مخبراً عن ذلك[٢]) .

فهل بعد هذا البحث والسؤال واستخبار القصاد والوراد مزيد لمن يتحرى الأخبار ، ويدون الآثار .

(البحث بقية) محمد عبد الغني حسن

---

(١) معجم الأدباء ﺟ ٤ ص ٨٢ . وقد أصاب صديقنا المحقق الأستاذ عبد السلام هارون حين جعل وفاته سنة ٣٩٥ ﻫ أي بعد كتابة الفصيح بأربع سنوات كما ذكر ذلك في كتاب « معجم مقاييس اللغة » الذي نشره لابن فارس محققاً أتم تحقيق .

(٢) معجم الأدباء ﺟ٦ ص ١٥٨ . والقاضي الشيباني هو القفطي المؤرخ المشهور .

---

(١) معجم « الأدباء » طبعة الدكتور فريد رفاعي — ﺟ ٢ ص ١٥ .

(٢) معجم الأدباء ﺟ ٦ ص ١٤٣ .

(٣) المصدر نفسه ﺟ ١٩ ص ٣١٣ .

(٤) ﺟ ٣ ص ١٠٦ .

(٥) ﺟ ٤ ص ٤٩ .

شكسبير وبرنارد شو

للأستاذ أنور الجندى

من أعظم كتاب الأدب الإنجليزى والعالمى، لاشك فى ذلك ولاريب. وبينهما فى تاريخ الوفاة ثلاثة قرون، غير أنهما يتقاربان ويرتبطان .. فى كثير من ظروف حياتهما.

أما شكسبير فانجليزى أصيل. وشاعر مسرحى ضجت أكف الناس من التصفيق لآثاره، وظل مغموراً فى محيط التقدير الأدبى فترة طويلة، حتى استعادت مسرحياته مكانتها منذ أول القرن التاسع عشر .. وقد مات فى سن الستين.

أما برناردشو فإرلندى. ثائر. عرف بالسخرية والدعابة والصراحة كميزات بارزة لأدبه. وضع المسرحية للقراءة، قبل المسرح، وعاش حتى نيف على المائة . .

لكنهما، بدآ حياتهما فاشلين، وذاقا فى صباهما وفجر شبابهما مرارة الفقر والحرمان وألم البؤس والشقاء . . ولم يكملا تعليمهما. وأقبل كل منهما على الحياة أول الأمر إقبالا وصف بالتسكع، غير أنهما أحبا القراءة والموسيقى والفنون، فانفتحت أمامهما آفاق العلم. كان شكسبير يقف على أبواب المسارح ينتظر خيول كبار المتفرجين. وكان برناردشو يعيش على ستة بنسات طوال يومه . .

كان كل منهما عبقرياً فذاً. منحه الألم والحرمان قوة على أن يشق بعد طريقه، ويتعرف الوجهة التى يستطيع أن ينجح فى اتجاهها، ولم يحل التعليم القليل، ولا الفشل البادى، مع المثابرة والصبر والكفاح دون النجاح والوصول إلى الذروة . .

أما شكسبير فقد بلغها مبكراً. إذ أتيح له أن يؤلف المسرحيات وأن يمثلها وأن يثير بها عواطف الناس، وأن يكسب بها الأموال . . وأن يصل إلى غاية ما يطمح إليه ..

أما برناردشو فقد أتاح له ارتفاع السن وطول العمر أن يصل إلى المجد . . فقد ظل محتفظاً بحيويته وقوته، إلى آخر أيام حياته، ولو مات شو فى سن مبكرة، لما أمكن أن أن يصل إلى المكانة التى بلغها، فهو بالرغم من حملاته الثائرة وشدته اللاذعة فى فجر حياته لم يلمع نجمه إلا فى سن الأربعين.

ولو مات «شو» فى السن التى مات فيها بيرون وشلى لما أتيح له أن يحقق هذه المكانة.

ويقول النقاد إن موت «أوسكار وايلد» قد أفسح له الطريق، ثم استطاع شو أن يبزه عليه فى بعض الجوانب الفنية.

● ● ●

ومن أهم ما يربط بين شكسبير وشو . . حب المغامرة والاستطلاع، فقد تسلق شو مرة أحد أسوار البساتين العالية، وأخذ يجمع ثمار التفاح حتى تجمع له ما يقرب من الأربعين، ثم قفز السور وفر هارباً، ثم تسلق مكاناً عالياً عفة وركاكة، وراح يلتهم التفاح واحدة بعد الأخرى.

ومثل هذه أو قريب منها، ما يروى عن شكسبير، فقد قبض عليه هو وبعض أترابه يتسورون حديقة يملكها عظيم فى قريتهم، وهم يسرقون عدداً من غزلانه . .

وقد جمع بينهما، على بعد الزمن، حب المسرح، فقد اشتغل كل منهما به وألف له . . وقد أحب كل منهما، وشغلته المرأة. أما شو فقد تزوج فى سن الأربعين وماتت زوجته بعد سنوات قليلة، وكان يحبها، ولم يتزوج من بعدها. أما شكسبير فقد اختلف معها وانفصل عنها قبل وفاته بوقت غير قليل، وكان يعانى فى أيامه الأخيرة بعض الآلام.

ويرى شو أن حبه تنالى عن طريق البريد، وكان يحلو له أن يقضى الساعات عاكفاً على كتابة خطاب مطول، وكان هذا أجمل أوقات حبه.

● ● ●

فإذا ذهبنا نستعرض بعد ذلك وجوه الخلاف بين الرجلين وجدناها كثيرة متعددة: أما شكسبير فيذهب فى الخيال بعيداً، فهو شاعر حلو العبارة، فياض الروح أولع بالسماء، وأحب مرآها، وحشد لها فى قصصه الكثير من المشاهد، وهو لا يدع الستار ينزل إلا على مصرع أبطاله جميعاً.

ليس شك فى أن مرجع ذلك إلى نفسية شكسبير، الذى كان يعانى شقاء «وجدانياً» فى حياته الخاصة، يبدو واضحاً جلياً

فى ذلك الغموض الذى يلف بعض قصصه ، وذلك الإصرار على اللون الأسود ، لون المآسى العنيفة ، التى لا شك كان يجعلها وسيلة إلى التنفيس عن مكبوت عاطفته . .

فهو يبدو من وراء آثاره فى صورة من الحزن والمرارة والحنين إلى المجهول ، كأنما حرم بعض ما يطمح إليه من الزاد الروحى الذى كان دائماً مطمح العباقرة الأفذاذ .

لقد كان شكسبير يكافح ويقاسى ويغالب متاعب الحياة فى صدر شبابه . عاش الحياة فى صورها المتعددة ، من الشارع إلى القصر ، وأجهده السعى فى سبيل الرزق ، واتصل بالبيئات المختلفة ، وعانى صنوف الألم فى الحب جميعاً ، وذاق المتاعب حتى استطاع أن يصل إلى المجد ، فكان حقيقاً أن تكون مسرحياته صورة من حياته . .

لقد امتاز فن شكسبير بتلك الروح التى دبت فى الآداب الحديثة منذ قرن من الزمان . روح تعرية العظماء ، والكشف عن دخائل العباقرة ، والبحث وراء خفاياهم ومكنونات نفوسهم ، ورفع الطلاء المزيف الذى فرضه الطبل الأجوف على حقائقهم .

ولقد برع شكسبير فى هذا الفن ، فهو أول من كشف عن البطولات ، ومزق من فوقها تلك الأغلفة البراقة المزيفة وجردها على حقيقتها .

ولعل هذا هو السر الذى بعث أدب شكسبير مرة أخرى بعد أن طوى قرنين من الزمان .

• • •

أما برناردشو فكاتب تغلب عليه نزعة السخرية العنيفة اللاذعة ، أولع بنقد كل شىء ، الديمقراطية ، والعظماء ، ورجال الدين .

وبلغ ذروة نقده عند ما هاجم الإنجليز ، أكثر من مرة ، وكان من أبرز هذه الصور موقفه فى حادث دنشواى وفى قضية مرباكس .

وهو الذى كتب عن عصبة الأمم القديمة يقول : « فى جو جنيف الهادى ، الوطنية تموت ، والوطنى هناك جاسوس لا يمكن قتله » .

وهو الذى يقول عن الأمريكان إنهم قرويون ، وإن فى المائة منهم تسعة وتسعين أغبياء بلهاء .

أغرم منذ فجر حياته بالموسيقى والسمفونيات ، واشتغل بالنقد المسرحى والموسيقى سنة ١٨٨٨ ، ثم ترك الصحافة وانقطع إلى تأليف الدراما سنة ١٨٩٧ .

وقد استطاع أن يلتهم الإنتاج الفكرى العالمى ، أتاح له ذلك طول عمره وحياته الطويلة التى امتدت فى القرنين التاسع عشر والعشرين .

يحب شو من الأدباء أوسكار وايلد وصمويل بطلر ، وقد امتدحهما ، وكان صديقاً لتولستوى ، وقد غض من قدر شكسبير على حساب « أبسن » الذى رفع من قدره .

وكان شو يبغض كبلنج وداروين أشد البغض ، وكان يعارضهما معارضة شديدة .

أما ولز فقد كان صديقه أيام الجمعية الفابية ، ثم اختلفا مع امتداد العمر ، وقامت بينهما معارك حامية حول وجوه الإصلاح .

ورفض شو جائزة نوبل فى الآداب وهى ٣٥ ألف جنيه ، وكتب يعتذر عن قبولها قائلا : إنى لست فى حاجة إلى المال الذى هو مثل حزام نجاة ألقى إلى سباح عند ما وصل إلى الشاطىء سالماً .

وكان كلفا بالسخرية ، حتى إنه عند ما قابل المشعوذ فى ملاك الأولمبيا قال له : « كل ما فى الأمر أن مهرجاً قديماً يحيى زميلا له » .

ولم يشرب شو الخمر ، ولم يقرب اللحم ، وكان يحض على التقشف والزهد ، ورحل طويلا إلى خارج وطنه مما لم يتح لشكسبير ، فزار جنوب أفريقيا وروسيا ونيوزلندا وأمريكا .

• • •

ولم يجد شو ما يمنعه من أن يتحدث عن نفسه فى صراحة فى كتابه أنصاف المتعلمين ، حيث يقول إنه من « أولئك الذين لم يتمكن ذووهم من تزويدهم بالعلم ، واضطروا إلى الانقطاع عن الدرس فى سن المراهقة وكسب أرزاقهم بالعمل أسوة بصغار الكتبة ، وندعو هؤلاء باسم ، أنصاف المتعلمين .

ومن هؤلاء شكسبير وبونيان وبليك وتوزر والجر ، ومنهم جان جاك روسو وسبنوزا » .

ثم يقول :

« إنى أعزو نجاحى فى الحياة وشهرتى إلى أنى أكثر

(البقية فى الصفحة التالية)

في موكب العلم

تصنيع الزراعة

للأستاذ محمد محمد نعمت

كان الشغل اليدوي في البيت هو الأساس الذي بني عليه إنتاج السلع فيما مضى إلى أن اخترعت الآلات ونمت قدرتها الإنتاجية بفضل التطور الصناعي ، فتقدم العمل في الصنع وازداد وفاق إنتاجه كثيراً الإنتاج الزراعي بأطواره البدائية . ولولا الآلات الحديثة التي أمكن بواسطتها وبدون تكاليف باهظة صنع بعض الأدوات التي تستعمل في الحقل لما تأثرت الزراعة بعدوى التقدم الذي عم المدن في مائة عام .

ولما قامت الحرب الأهلية الأمريكية فرضت الآلات على الزراع حيث كانوا يتجنبون العمل بها ، فاستعملوا أداة الحصد الميكانيكية التي كان قد اخترعها رجل يدعى مستر ماكورمك (McCormick) قبل ذلك بسنوات ولم يتح له استخدامها إلا عندما جندت الولايات الشمالية في جيشها كثيراً من الأيدي الزراعية ولجأت إلى هذا الاختراع ثم تبعتها بلاد أخرى .

منذ ذلك الحين فكر الفلاحون في الاستعانة بالآلات ، فبعد أن كان الواحد منهم يمضي طول يومه كاداً في الحقل اتجه إلى الخيل يشدها إلى آلة تقطع القمح وتدرس سنابله ،

ثقافة وأحسن تربية من خريجي معاهد الأشراف وكبريات الجامعات .

وحين يرد على أحد سائليه من الأدباء الصغار يصور جانباً من حياته بما يحث على الإكبار : «في إمكانك الحصول على بطاقة للدخول إلى المتحف البريطاني فتجعل منه غرفة للقراءة وملجأ تأوي إليه كل يوم .. كما فعلت أنا في كثير من السنين ، وكما فعل من قبل ماركس وصمويل بطلر طيلة حياتهما .

« تعود الكتابة في دور المتاحف والمقاهي التي يكثر فيها الضجيج والحركة ، وإذا عجزت فلن تستطيع الكتابة في أماكن أخرى ، فقد كتبت معظم مؤلفاتي في محطات السكك الحديدية وعربات النقل وعلى ظهور السيارات الكبيرة » .

•••

وبعد : فقد هاجم شو شكسبير هجوماً عنيفاً لا مسوغ له ، فاتهمه بأنه قصير التفكير وإن كان قوي الملاحظة .

ويقول : إنه كان يعبر عن نفس آرائه على لسان شخصياته ورواياته ، أما هو — أي شو — فقد صور الحياة كما هي .

ويرى أن شكسبير صنم يجب تحطيمه ، وأنه لم يكن له عقيدة أو برنامج معين ، فكل تصحباته بسيطة ، غير أن عبقريته عملت على إجادتها .

ثم يقول : « لقد مات شكسبير قبل أوانه ، وهل لك أن تصدق أني عشت ثلاثين سنة أكثر منه ، وأن مسرحياتي كتبت في سن مبكرة لم يدركها هو .. إن بيتهوفن ألف السمفونية التاسعة في سن كان فيها شكسبير في عداد الموتى ، وأبسن كان أصغر من شكسبير عشر سنوات عند ما كتب آخر كتبه « سيد البنائين » وكتبت أنا بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة قصة « تينوزيلا » .

إذاً فكلنا وقوف على كتفيه ، فمن كتف من وقف هو ؟ أعلى كتفي مارلو وشابمان ؟ لا هذا ولا ذاك ، فلقد كانا خيراً منه وأجدى إذا قارناهما به » .

ثم يمضي في هجومه فيقول : « إن شكسبير هو المسئول الوحيد عن انهيار الدراما للأثناثة سنة بعد موته حتى جاء وقتي ..

إن مسرحياته كانت مكروهة وقاتلة ومشوهة حتى بعث فيها هارلي جرانفيل باركر الحياة وأخرجها إلى الدنيا على المسرح .

إن شكسبير أطول مني بكثير ، ولكني أقف على كتفيه » .

أنور الجندي

كما تحصد محصول اثنى عشر فداناً إلى أربعة عشر يومياً ، وهو عمل يقوم به ثلاثة رجال أو أربعة فى العادة ، بينما لو اتبعت الطرق القديمة لما تيسر لسبعة من العمال الزراعيين جنى غلة فدانين اثنين فى اليوم الواحد . وكان لهذا التطور الزراعى الصناعى أكبر الأثر فى تسهيل جنى حقول القمح الشاسعة فى أراضى أمريكا وأستراليا البكر وبطلت حجة مالتوس (Malthus) فى توقع قيام مجاعة بسبب ازدياد الصناع فى المدن ، لأنه لم يدخل مثل هذه الآلة أو غيرها فى حسابه .

ثم جاءت الحرب الكبرى وما استنفدته من قوى بشرية وما فرضته الغواصات من حصار بحرى أوشك أن يؤدى إلى حدوث مجاعة ، فخطت الصناعة فى بريطانيا خطوة ثانية ، إذ أحلت الآلة ذات الاحتراق الداخلى محل الخيل . ثم تابعت الولايات المتحدة هذا التقدم ، فأنتجت فى عام ١٩٢٢ نحو مائة ألف جرار ميكانيكى Tractor مقابل ٤٥٠٠ فى سنة ١٩١٤ . ويوجد اليوم فى بريطانيا أكثر من مائة وعشرين ألف جرار ، وهذا قليل من كثير مما أصابته ، وستصيبه الزراعة من تقدم سيجعلها فى مستوى أية صناعة أخرى .

ومن المنتظر صنع جرارات جديدة لها عدة أجزاء يبلغ ثمنها جميعاً مائة وخمسة وعشرين جنيهاً ، وستستطيع هذه المجموعة من الآلات إنجاز ثمانية أعشار ما يؤدى فى المزارع من أعمال ، وقد أنتج فعلاً مائة وخمسون ألفاً من هذه الجرارات فى الولايات المتحدة ، وكان فى برنامج بريطانيا قبل التطورات الدولية الأخيرة صنع مليون جرار وعشرة ملايين أداة زراعية سنوياً لتصديرها للبلاد الواقعة فى نصف الكرة الشرقى . وفى قدرة المصانع الأمريكية لولا اتجاهها الآن للإنتاج الحربى ، التفوق على هذا الرقم . وسيشعر المزارع لأول مرة منذ بدء هذا التطور الصناعى أن مستوى عيشه لا يقل عن مستوى زميله ساكن المدن .

وليس فى استطاعة العلم بما أوتى من قوة أن يتيح اليوم لأى عامل زراعى أن يعمل بيديه ضعف أو ضعفى القدر الذى كان يعمله أبوه من قبل ! بل بالعكس فالزارع يرغب الآن فى أن يعمل ساعات محدودة مما يؤدى إلى خفض أجره . ومن ثم فالوسيلة الوحيدة إلى زيادة هذا الأجر هى أن يستعين بالآلة فى قضاء أعماله موفراً بذلك جهد ستة رجال دون أن يتناول هو أجر أكثر من ثلاثة ، تاركاً أجر الثلاثة الآخرين نظير صيانة واستهلاك الآلات .

إن الزراعة ليست مهنة ، فحسب بل هى مهنة فنية للغاية ، وكثير من عملياتها لم تستطع الآلة أن تؤديه بسهولة بعد ، كالحلب وزراعة القرنبيط والبطاطس ، وجمع الكتان واقتلاع البنجر الذى يستخرج منه السكر من الأرض ، ومعالجة ورش السماد وتجفيف الحبوب وتنظيف الحقل وعزقه . غير أن هناك أعمالا عديدة أصبحت تنجزها الآلة فى الوقت الحاضر بعد أن كان من المسلم به إلى عهد قريب أنها لا تؤدى إلا باليد لعدم وجود هذه الآلة . وقد نجحت الوسائل الميكانيكية أيما نجاح فى تمهيد الأرض للزراعة وفى صيانتها وفى حفر المصارف والقنوات إلى أعماق جيدة ورفع طبقات الأديم الختلفة منها بالأطنان فى كل دفعة ، وهناك آلة لشق المصارف بمعدل ٢٩٧ متراً فى الساعة اسمها روتيو (Rotcho) وقد أخفى الحلفاء سرها عن الألمان عند ما اخترعت خلال الحرب حتى لا يستفيدوا منها فى زراعتهم .

ولا يخفى أن الآلات الموجودة اليوم بدائية بالنسبة لما سيخترع منها فى المستقبل ، فليس هناك ما يدعو سائق الجرار الميكانيكى لأن يجلس أثناء عمله على مقعد غير مريح معرضاً نفسه لشمس محرقة أو للمطر والرياح . فقد استبدل بمقعد غير مكشوف وزود بمدفأة لاستعمالها شتاء ومروحة صيفاً ، وقد زود أيضاً بجهاز الراديو ، وبتقدم العلم سيصبح استعمال هذه الآلات فى الحقل أقل مشقة مثل مثيلاتها التى تستعمل فى المصنع ، فلا يصاب الزارع بمرض المفاصل (الروماتزم) أو بغيره من الأمراض بسبب تعرضه للأجواء المختلفة باستمرار

ولما كان موسم الزراعة فى إنكلترا محدوداً بسبب رداءة الطقس الذى لا يمكن التغلب عليه ، فقد أكثروا من

إقامة البيوت الزجاجية التي يربى فيها النبات والخضر في جو يمكن تكييفه بعيدة عن الجراثيم (البكتريا) والحشرات ، كما فكروا في تدفئة تربة الأرض بواسطة الكهرباء التي ستكون قيمتها زهيدة عند ما تتعدد مصادرها ، وسيروى النبات بالماء المزود بالأملاح المعدنية اللازمة كي ينضر ويزدهر . وبتحسن أنواع المزروعات والحيوان سيزداد غلة الفدادين وتكثر المواد الغذائية بما فيها اللحم وغيره كالصوف .

وبتطبيق نظرية الدكتور فورونوف (Voronoff) أمكن الإكثار من سلالات الحيوان الأصيلة دون نسبة تذكر في الوفيات إلى أن يستغنى نهائياً في المستقبل عن الأنواع الأخرى الضعيفة .

وما كل هذا إلا خطوة أولى من مراحل التطور الزراعي ؛ فهناك غير التحسن المستمر في أنواع الخضر وتطعيم الفاكهة الموجودة الآن ومضاعفة حجمها أحياناً تعمل تجارب عديدة لاستنباط أنواع جديدة من الفاكهة .

وقد استخدم بعض البلدان الطائرة في الضيعات الكبيرة وفي أغراض زراعية هامة كنقل بذور (تقاوى) البطاطس سنوياً من انكلترا إلى قبرص ومالطة ونيجيريا وغيرها من الجهات التي تزرع فيها — وفي عملية تهجين الحيوان ، إذ بواسطتها أصبح في الاستطاعة أن تجمع بين أحد ذكور حيوان ما في بريطانيا مثلا وبين أنثى من جنسه في الاتحاد السوفيتي أو في امريكا الجنوبية لتحسين النوع — وفي بذر البذور في مساحات واسعة من الأفدنة في روسيا عند ما يبدأ الصيف وتكون الأرض صالحة لهذه العملية خلال أيام قليلة محدودة ، وهي طريقة أكثر فائدة وأصلح من الناحية الفنية حيث تكون الأرض لا تزال مبللة بعد ريها ولا يمكن مرور الآلات الميكانيكية فوق سطحها — كما استخدمت الولايات المتحدة بالطائرة (يقودها رجل بمفرده) في تعفير عشرات الأفدنة بالعقاقير المبيدة للحشرات في ساعات قليلة ، عن عدد من الرجال يؤدون عشر مقدار هذا العمل في نفس المدة .

وسوف لا تكون مزرعة الغد مجرد مجموعة من مبان جميلة في صورتها يغلب عليها طابع القذارة وتحوطها الأوحال كما نعرف ، بل ستتكون من مسكن صحي ومكتب ومصنع معدة جميعها بآلات توفر كثيراً من الجهد الإنساني بفضل الكشف العلمي الحديث . وسيكون هناك أيضاً آلات دقيقة غاية في الدقة منها ما يستعمل للتخلص من الآفات وما يساعد على تجفيف الحبوب وتخزينها في صوامع هواؤها مكيف ، وما يستخدم في التنبؤ بالتغيرات الجوية ، فتحمى البساتين من الصقيع من تلقاء نفسها ، وتبخر الماء في الجو ثم تنزله مطراً صناعياً(1) في الوقت المناسب لري الحدائق التي تزرع فيها الخضر والفاكهة لتنتج محصولين في العام بدل محصول واحد .

وستزود المزرعة بجاراج به عشرات الآلات التي تقوم بجميع أعمال الزراعة . كما سيزود معمل الألبان بالآلات الكهربية لتؤدي كل صغيرة وكبيرة فيه . وسيلحق بها معمل صغير لتحليل تربة الأرض وعمل الاختبارات اللازمة على البكتريا والحشرات .

وسوف لا يكون الزارع في بلاد الغرب ذلك الرجل الأحمر الوجه الملىء الجسم الذي لا ينقطع عن شرب الخمر ولا يعرف كيف يبيع محاصيله إلا بالمزاد في الأسواق المحلية ، بل رجلا مدربا يحصنه العلم ويحميه .

وقد يقول كثيرون من هؤلاء الفلاحين : ما لنا وهذه الصورة المثالية ؟ إننا نفضل العودة إلى ما كنا عليه في عام ١٩٣٩ . ولكن كيف السبيل إلى ذلك والعالم كله يتقدم وأنهم هم أنفسهم يتمنون أن يروا الفلاح أحسن حالا سواء أكان في الحقل وجهده المضنى أم في حياته الخاصة المثقفة .

وكم من غني يهوى ركوب الخيل ولكنه لا يود بأي حال أن يخاطر بنفسه في السفر من بلد إلى آخر في عربة يجرها الجياد قاطعة المسافة بين البلدين في أكثر من أسبوع كما كان يفعل أسلافه ، بل هو يفضل السفر والانتقال بالطائرة وبالقطار السريع والسيارة .

وهكذا يتوق الفلاح في الغرب إلى استعمال الآلات الحديثة مع احتفاظه بريفه القديم .

محمد محمد عوض

---

(١) جاء في أهرام ١١/٤/٥١ « أنه تم الاتفاق بين سلطات حكومة السودان وإدارة شركة مشروع الجزيرة على إجراء تجارب محدودة في منطقة الجزيرة لإسقاط المطر صناعياً » .

ندوة القلم

الكون الجميل وأنفى الغليظ

ليس وجهى من الوجوه التى تجذب إليها النساء ، فأنفى غليظ وكذلك شفتاى ، وعيناى اللتان كان بهما بعض الجمال قد ذبلتا من كثرة القراءة . . . لذلك لم أعرف حتى اليوم امرأة حملت لى فى قلبها حباً ، اللهم إلا والدتى بالطبع ، وليس حبها بالذى أرجوه .

ورغم أن وقتى من الصباح حتى الليل أقضيه فى القراءة إلا أنى أشعر تماماً أن هــذه الحالة ليست بالحالة العادية أو المرغوب فيها . . . ومن حين إلى حين أحس برغبة شديدة فى أن أعيش أنا بنفسى وأن أحس إحساسات خاصة بى أنا ، لا بأبطال القصص التى أقرؤها .

ومع أنى قد تعلمت من قراءاتى احتقار النساء إلا أنه ما من مرة أجد نفسى فيها أمام امرأة حتى أضطرب وأشعر بضعف شديد . . . وأحياناً — رغم أنى لا أميل لذكر ذلك يحتبس صوتى فلا يخرج — فإن خرج خرج مجلجلا يثير الضحك .

أنا محتاج إذاً إلى حب امرأة ، غير أنى — كما ذكرت فى بداية المقال — ليس وجهى من الوجوه التى تجذب إليها النساء .

ومن الطبيعى إذا رأيت إعراض النساء عنى أن أتساءل : ماذا يجذب النساء إلى الرجل ؟ ومن الطبيعى أيضاً — مادام إحساسى بقبحى مرهفاً وما دامت روحى متشائمة — أن أعزو إلى جمال تقاطيع الرجل ميل النساء إليه .

وقد كانت هذه الفكرة متسلطة على خاصة وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى . . . والسبب فى أنى حتى هــذا اليوم أكره يوم شم النسيم وأغبض إخاجاء ، أنى فى الرابعة عشرة خرجت يوم شم النسيم وحدى إلى مصر الجديدة وكان الفتيان والفتيات (وخاصة من كان منهم من الأجانب) يروحون ويغدون جماعات فى الحدائق ضاحكين مبتهجين ، وإذا بالدموع تملأ عينى وتفيض على وجهى حتى أحس بملحها فى فمى ، وإذا بى أسرع إلى البيت وأنا فى تعاسة لم أشعر بمثلها قط وأرتمى على سريرى مجهشاً بالبكاء .

ولفت بعد ساعة إلى المرآة محمر العينين مبتل الوجه ، فرأيته بقبحه الذى وصفته فى أول المقال وكدت أجهش بالبكاء من جديد .

كنت أريد بكل جوارحى أن أصادق فتاة . . . لماذا ؟ لأن شخصيتى بكل العناصر التى كونتها كانت محتاجة إلى ذلك . . . كان ذلك ينقصها . . . وبما أن قبح وجهى كان من أهم العناصر التى كونت شخصيتى ، إذاً فلو كان لى وجه غير هذا الوجه لكان من المؤكد أن تكون شخصيتى غير هــذا التكوين ؟ لكنى حين أطلب من الله أنفاً أقل غلظة إنما أطلب منه فى الواقع أن يغير العالم كله لا أنفى فقط ! فلو كان أنفى أقل غلظة لما كنت فى هــذا العالم ولما كان هناك عالم بالمرة ، فالعالم موجود لأن أنفى غليظ والعكس ، فأنا قبيح الصورة لأن الأسد حيوان مفترس .

من الحماقة أن يتمنى المرء شيئاً .. من الحماقة أن يقول : ليت أنى كان أطيب قلباً .! أو ليت هذه الفتاة ترفق بقلبى .! ومن الحماقة أن نتوجه إلى الله بالدعاء إلا لتهدئة نفوسنا .

النهاية لم يعد وجهى الذى ليس من الوجوه التى تجذب النساء ، ولا أنفى الغليظ ، ولا شفتاى اللتان هما كذلك ، بمسببات لكدر فى أو حزن .. فقبحى هو سبب جمال العالم ، وأنا سعيد بذلك .

حسين أحمد أمين

قطع من كتاب الردة(١)

للأستاذ صلاح الدين المنجد

يُعنى المستشرقون عناية خاصة بالحوادث التي ظهرت في الإسلام وكان لها شأن في التأثير في سيره، أو إضعافه أو تأويل ناحية من نواحيه. وردة القبائل بعد موت الرسول هي واحدة من تلك الحوادث التي يعنون بها. لأنهم يرون بها حادثة تدل على ضعف إيمان القبائل بالإسلام، وقلة نفوذه في قلوب العرب، وأنها كانت تعبر عن نفرة القبائل من عمال الرسول الذين كانوا لا يعرفون غير جباية المال.

وقد ألف أبو زيد وثيمة بن موسى بن الفرات الفسوي المتوفى سنة ٢٣٧ هـ — وهو فارسي الأصل — كتاباً اسمه «كتاب الردّة» وقد ضاع هذا الكتاب فيما ضاع من الكتب. وبقيت قطع قصار منه ذكرها ابن حجر في كتابه «الإصابة». جاء المستشرق الألماني الدكتور ولهلم هونرباخ Wilhlm Hoenerbach من جامعة بون Bonn، فاستل هذه القطع من الإصابة ووصلها وضبطها وشرحها(١).

تشتمل هذه القطع على تراجم الأشخاص الذين ارتدوا من الإسلام أو دافعوا عنه أيام الردة. وقد رتبها المحقق على القبائل، فبدأ بأسد وغطفان وفزارة، ثم انتقل إلى طي، ثم هوازن وعامر بن صعصعة وقشير، ثم سليم، ثم عبس، ثم تميم، ثم حنيفة، ثم ربيعة وعبد القيس، ثم الأزد، ثم همدان وحمير وزبيد وأهل نجران، ثم كندة. وجعل في آخر ذلك كله فصلا سماه «أواخر كتاب الردة». ذكر فيه ما وجده في ابن حجر ممن يدخلون في هذا الباب من أصحاب السكون وغير التنوخيين.

والظاهر أن الدكتور هونرباخ أراد أن ينشر هذه القطع محققة مصححة. لذلك ذكر أنه «ضبطها وشرحها ووصلها»، وهو لهذه الغاية قابل النصوص على النسختين المطبوعتين من الإصابة: الأولى المطبوعة في كلكتا سنة ١٨٧٣م، والثانية المطبوعة في القاهرة سنة ١٣٢٥هـ وأثبت في الحواشي ما تختلف به النسختان.

والذي يلاحظ في هذا الأمر أن المحقق لم يشأ أن يقدم النصوص صحيحة، فهو يثبت الخطأ في النص ويذكر الصحيح في الحاشية، يجري في ذلك على نهج طائفة من المستشرقين، بدلا من إثبات الصحيح والإشارة إلى الخطأ. وما أدري السبب الذي حدا بالدكتور إلى اتباع هذه الطريقة. وقد عرفت مستشرقين ينهجون هذا النهج خوفاً من الزلل، لأنهم لا يدركون معاني الألفاظ ويصعب عليهم أحياناً تمييز الصحيح من الخطأ.

ونذكر على سبيل المثال ما أثبت الدكتور في ص٧ س١٤

«ومثلها مرة القرّهات ...» في شعر

فأثبت القرهات بالقاف، وذكر في الحاشية أن في نسخة القاهرة «التّرّهات».

وما أثبت في ص ١١ س ٣:

«فلما ارتد مالك أتاه (أي فالك بن زيد) في حاديه فقال له ...»

أثبت حاديه وذكر في الحاشية أن في نسخة القاهرة «ناديه».

ويلاحظ أن الدكتور يخطىء في ضبط بعض الألفاظ. مثال ذلك ما جاء في ص ٢٨ عند ذكر مرثية عامر بن الطفيل في النبي:

من هدَيْنا به إلى سُبُل الحق ...» من شعر

ضبط هدينا بفتح الهاء والدال وسكون الياء. والصواب بضم وكسر دال.

وما جاء في ص ١٨ في قول مرّة بن صابر.

يا ابن الوليد بن المغيرة إنني أبرأ إليك من الجحود الكافر

---

(١) Wathma's Kitab ar-Ridda Aus Ibn Hagar's مطبوعات (مجمع العلماء والأدباء) بمدينة Mainz 1951، ألمانيا.

من يوميات كاتب

البحث عن قصة

للأستاذ إدوار مقسي

تنشر هذه القطعة الأدبية — على ما فيها من عامية لا تجبر الكاتب على استخدامها — وذلك لما فيها من لفتات فنية « الثقافة »

تركت مكتبي اليوم وهبطت المدينة لأصيد قصة أكتبها، وكانت الساعة قبل السادسة بقليل عندما انتهيت إلى أول مدخل شارع ألفى بك متجها نحو سينما ديانا. لم أكن أريد دخول أي سينما. فكيف بالله كنت سأصيد قصة وأنا لاصق في كرسي مخلق العين في الشاشة!

كان يتدافع على الرصيف أمام السينما جمع كبير. وعندما قادتني قدماي إلى أمام الدار لم أشعر برغبة في اختراق تجمعات الناس إلى الداخل، فوقفت بعيداً عن الرصيف ولم أرفع عيني إلى لوحة الإعلانات أعلى مدخل السينما الرئيسي. لم أكن أعرف أي فيلم تعرضه الدار! لم أهتم قط بمعرفة اسم الفيلم الذي سأراه أو موضوعه. ولماذا أهتم باسم الفيلم أو موضوعه إذا كان كل ما أريد هو أن أتسلى بعد طول جلوسي إلى مكتبي. وأحسست بيد تهز كتفي فانتفضت: « إنت يا أفندي . . . » فاستدرت لكي أرى صاحب هذه اليد وهذا الصوت، كان عسكري المرور: « إنت نايم يا أفندي! كان حيصدمك أوتومبيل وانت واقف كده سرحان! بتبص في إيه؟ بتدور على إيه » ونظرت إليه ولم أجبه ولكني قلت لنفسي: بدور على قصة . . .

في هذه اللحظة « زمرت » سيارة خلفنا، فقفزنا خطوة إلى الأمام، وصادف أن كانت أمامي سيدة محترمة فاصطدمت بظهرها ولكنها لم تسقط إذا استندت إلى زوجها وكان ذراعها في ذراعه.

— إنت يا عسكري، هكذا صاح سائق التاكسي بلهجة حانقة، المفروض إنكو تروقوا الشوارع مش تزحموها بنفسكم.

وصاح الرجل الذي اصطدمت بظهر امرأته: إنت مش شايف يا أخي، خسرت فستان الست! أنا مش عارف ليه بيسيبوا الميه والطين جنب الأرصفة من غير ما يفكروا يشيلوها بعد ما يخلص المطر!

وصرخت الزوجة وهي تنظر إلى فستانها الذي انتثرت عليه بقع من الطين: الفستان ده لابساه لأول مره النهارده كلفني غاية جنيه . . .

قال الزوج وهو يغمز بعينيه: أظن أنه كلفني أنا يا عزيزتي.

— إنت والا أنا: الحكاية واحده.

— واحده إزاي إذا كنت أنا اللي باشتغل وبجيب الفلوس!

ولا يستقيم الوزن بضم آخر أبرأ. والصواب « أبرأ إليك »

وذكر المحقق أنه شرح النصوص، ولم أجد شرحاً لأي لفظة.

وفي النصوص أخطاء مطبعية لم يصححها الناشر نذكر منها أمثلة:

ص ٨ الخطأ: عمرو بن العص. والصواب « العاص ».

ص ٣٦ الخطأ: فاستنفذكم من النار (بالفاء) والصواب « فاستنقذكم » بالقاف.

ص ٣٥ الخطأ: « الحضرموت ». والصواب بلا تعريف « حضرموت ».

ويتألف قسم النصوص من ٣٩ ص. ويعقبه قسم مؤلف من ١٠٨ ص بالألمانية فيه ترجمة النصوص إلى الألمانية. ودراسة عنها، ومقايسة لها بأشباهها في كتب أخرى.

وقد ذكر المحقق أنه سلخ في وضع المقدمة وتحقيق النص سبع سنين كاملات. فله الشكر على جهده، فليس يسلم كتاب محقق من خطأ.

(بارز) صموع الدين المنجد

— أمو انتو دايماً معذكوش حاجة تتفخرو بيها إلا انكو بتشتغلو وتجيبو الفلوس .

— قولى لى إنت إيه اللى تقدرى تفتخرى بيه .

— أنا مبخدمش فى البيت ؟ ! مبطبخش ...

وقال لى العسكرى وقد نفد صبره : اطلع فوق الرصيف فالأمان يافندى . ومضى يستأنف واجباته .

نظرت فى ساعة معصمى : كانت عقاربها تشير إلى ثلاث دقائق قبل السادسة . كان الناس يتجمعون فى البهو كما كانوا يتزاحمون على الرصيف أمام دار العرض . لم يكن باقى غير ثلاث دقائق يفتح بعدها البابان الحديديان الداخليان . كان البهو ممتلئاً بالناس إلى حد أن كان هذان البابان يلوحان كسدّى ماء ، ما إن يفتحا حتى ينساب خلالها . لم يكن فى البهو ولا خارجه على الرصيف موضع لقدم جديدة . ولكنى أردت أن أشق لنفسى طريقاً إلى داخل الدار فعبرت الرصيف بشق النفس ، ونظرت فى ساعة يدى كانت عقاربها تشير إلى دقيقتين قبل السادسة ، وكان فيضان الناس فى تضخم دائم ، إلى طوفان ! وتمكنت فقط من الوصول إلى شباك حجز التذاكر فأحجز لى مقعداً ! وإذ جاوزت الباب الكبير تحولت عيناى أوتوماتيكياً إلى شباك حجز التذاكر فواجهتنى لافتتان صغيرتان معلقتان خلف الزجاج ، وتملنان فى صفاقة « والعدد كامل » . وقلت متأملا : هذا يعنى أن كل مقعد فى هذه السينما سواء فى الصالة أو فى البلكون محجوز . لا بد أن الفيلم عظيم ! .

وظهر فجأة رجل فى هذا البحر الإنسانى المصطخب ، وقال لى ملوحاً ببضع تذاكر فى يده : « عاوز كرسى بإيه ؟ »

— بكام ؟

— خمستاشر إرش الصالة .

— خمستاشر قرش عشان كرسى تمنه تسعة ونص ؟ !

— إنت حر . غيرك كتير حيشترى .

— أنا مش مغفل على أى حال عشان أشترى م السوق السوده .

— عندك كرسى فى الصالة يا راجل ؟

— جاءنا هذا الصوت من الخلف .

— خمستاشر إرش الصالة ؟

هكذا أجاب تاجر السوق السوداء .

— وهل سألتك بكام ؟ خد الخمستاشر إرش أهيه واديني التذكرة .

وتم الشراء . وقال لى تاجر السوق السوداء :

— شفت بإيه ؟ !

— برضه مش عاوز .

— حتندم يا بيه .

— ليه ؟

— حكاية غرابية ، وده آخر يوم للعرض .

— ولو .

— خمستاشر إرش الصالة ، التذاكر ، اللى عاوز قبل ما تشطب .

هكذا أنشأ تاجر السوق السوداء ينادى على تذاكره . ولكنه توقف فجأة ووجه إلىّ الحديث :

— إذا كنت عاوزها صحيح بإيه أنا أديهالك بعشرتاشر .

رن فى نفس اللحظة جرس كهربائى رنيناً متصلا فانفتح البابان الحديديان الجانبيان ، كالنهر الذى أزيلت سدوده . تدفق الناس كالسيل فى مجموعات ضخمة فى وقت واحد حتى إنه كان من الصعب على المراجعين الواقفين بجانب البابين الحديديين أن يراجعا تذاكر الذين مروا . كان كل باب كالمطر ، وسعيد الحظ من جاوزه بسلام .

خلية نحل . صيحات من كل جانب ، نداءات ، ضحكات ، أحاديث ، دخان يملأ المكان ؛ كان كل واحد يدفع من أمامه بينما هو مدفوع بمن هو كان خلفه ، وبدأ الناس يصعدون السلمين الجانبيين الداخليين فيتفرقون فى الردهة العليا قبل دخولهم الصالة . كنت ضائعاً فى هذه الجحيم . كنت مدفوعاً مع المدفوعين إلى الداخل ، وكنت أقاوم ولكن لم تكن مقاومتى لهذا الدفع كافية لتقهقرى إلى الخارج . ولهذا فقد ثبتّ قدمى بالأرض منتظراً أن يخلو البهو فأعرف كيف أتحرك . كان لابد أن أشاد تيار المتدافعين المتدفقين لأغادر بهو السينما ... ولمحت فى هذا وجهاً لم أكن رأيته منذ شهور .

— هالو امش عجيبه تتقابل بعد المده دى فى الزحمة دى !

— إنت داخل ؟ طب تعالى تاخد كاس ع البار نضيع بيه البرد ده . أعوذ بالله .

— لا ، أنا مش داخل . كنت بحاول أخرج .

— بس أدامك . إنت أعمى ؟ وسخت الجزمه . . .

قالها لمجهول «داس» على حذائه، والتفت موجهاً الحديث إليّ: معندكش تذكرة؟

— مقدرتش أحجز مكان، وفي نفس الوقت مخدتش أشتري م السوق السودة.

— طاب. يمكن تلاقي تذكرتين. الكرسي ده مكان كويس: في النص ع الطرف. أنا في الواقع شفت الفيلم من يومين. حيعجبك. أنا كنت عاوز أضيع وقت بس. إذا كنت تحب، أنتظرك في قهوة وبار عماد الدين الكبرى، الساعة تسعة.

— لا. إذا أردت تتخلص م التذكرة عشان نقضي الليلة مع بعض، يكون أحسن، إذا حبيت.

عندئذ صاح صديق ملوحاً بتذكرته: «تذكرة في الصالة بالسعر الأصلي — مين عاوز؟».

وفي الحال ظهرت سيدة عجوز لا تقل سنها عن خمسين سنة تضع على عينيها منظاراً سميكاً شقت لنفسها طريقاً حتى صديقي الذي ناولها التذكرة وناولته ورقة مالية من فئة العشرة قروش في صمت. وقالت أخيراً بفرنسية ركيكة تدل على أنها ليست فرنسية وليست مصرية، ولكن سورية أغلب الظن: «أنا متشكرة جداً يابني. تصور كل يوم كنت عاوزه أشوف الفيلم ولكن الكراسي بتكون كلها محجوزة أبل يوم العرض بيوم أو اتنين... وواحدة عجوزة زيي ما تقدرش تأف في الصف. متشكرة كمان مرة..»

ورقت عيناها امتناناً وابتسمت شفتاها بينما كانت تتجه مع المتدافعين إلى الباب الحديدي الأيمن.

— خدي التعريفه الباقية يا مدام.

ولكن المدام كانت قد اختفت وسط الزحام.

وأخذ «المد» في الهبوط شيئاً فشيئاً حتى لم يبق غير نفر قليل من الناس بدأوا في مجموعات من اثنين أو ثلاثة يتسكعون هنا وهناك، أو يتحدثون أو ينظرون إلى لوحة الإعلانات الخالية الصغيرة المثبتة عليها بدبابيس الرسم عدة صور فوتوغرافية مأخوذة من الفيلم.

واجتمعت وصديق أخيراً.

— إلى أين؟

— أي مكان.

وقبل أن نترك الرصيف أمام السينما ابتعنا كيسين من الفول السوداني القشر من البائع الذي كان ينادي على بضاعته أمام الدار.

• • •

لم يكن شارع ألفي بك هادئاً في ذلك الوقت، فقد كانت السينما تجتذب جموعاً حاشدة من الفارغين العاطلين. كان رصيفا الشارع يغصان بالرائحين والغادين الذين كانوا يقصدون السينما مساء اليوم، وكانت حركة المرور ثقيلة، وقد «ركنت» عدة سيارات بجوار الأرصفة هنا وهناك.

اجتزنا الرصيف على امتداد شارع ألفي بك ووجهتنا شارع عماد الدين، وارتقينا الطوار ونظرنا في فترينات محلات فيلكو للفرجيدير والراديو، وكنا نقضم الفول السوداني صامتين حتى طالعتنا لافتة مكتب «رحلات أوربتورز السياحة» فوقفنا ننظر فيما حوله. كان هناك نموذج مصغر للعالم! ومن القاهرة، كمركز، كانت تتشعب حزمة من الخيوط الحمراء متجهة إلى معظم عواصم البلدان الأوربية: روما، باريس، أثينا، لندن، الخ، وكانت هناك وصيفة صغيرة من ورق الكرتون في ردائها الرمادي الأزرق، وكانت واقفة منتصبة القامة رافعة يدها اليمنى إلى جبينها تحية، وكانت تبتسم. وكان هناك نموذج لطائرة ركاب كبيرة معلقة في طرف خيط من سقف قاعة العرض، ومقطوعة طولياً لتعرض المقاعد الجلدية المريحة التي سيجلس عليها الراكب... صور وكتيبات ملونة وعادية تعرض مناظر جميلة من البلاد الأجنبية. كل هذا كان مغموراً في ضوء الفلورسنت غارقاً فيه. وأحصيت مقاعد الطائرة فوجدتها ثمانية وأربعين مقعداً عدا مقعدين لملاحي الطائرة ومقعدين آخرين لملاحين احتياطيين ومقعدين آخرين للمضيفتين. وكانت قاعة العرض منظمة بجمال، حتى إن المار أياً كانت هويته لا يمكنه مقاومة إغراء النظر فيها.

قال صديقي وهو شبه ذاهل:

— سمعت من كام يوم عن حادث سقوط طيارة وهلاك ركابها الثلاثة والخمسين. ولكن على أي حال حوادث الطيارات أقل بكثير جداً من حوادث السكك الحديد والأوتوبيسات.

وقبل أن أفوه بكلمة، أردف صاحبي وهو يحملق في نموذج العالم:

— كنت أحب أعيش بره .

— ليه ؟ !

— أهو كده . زهقت . عاوز أغير .

— وإيه يمنعك ؟ ! سافر يا أخي .

— أيوه ، سافر . كلام سهل يا صاحبي : سافر !

— طبعاً سهل . واحد زيك شورت هاند تايبست فرنساوي ، متمرن ، سكرتير شاطر ، قديم ... بقالك كام سنه بتشتغل في الشركة ؟

— سبع سنين .

— سبع سنين ! واحد زيك ميخفش على نفسه إذا سافر لفرنسا ... باريس مثلا .

— كلمة « سافر » دي سهلة ع البق . . . إذا كان على كنت سافرت من زمان .

— وإيه اللي معطلك ؟!

— بعض التزامات عائلية . إنت عارف الواحد مش عايش لوحده في الدنيا دي .

ومضى يقص عليّ ، ونحن مازلنا أمام نموذج العالم ، ما الذي يمنعه من السفر والرحيل . وسأحاول هنا تذكر ما قاله صديق .

— ما يمنعني من السفر للخارج إلا الجبن . نعم . إني جبان ، وجبني يعني شيئاً آخر غيرما تفهمه يا صديق ، لقد فكرت فعلاً في الرحيل ، ولكن ما يمنعني من تنفيذه الإمكان من عائلتي . فأنا أكبر إخوتي : لي شقيق أصغر مني مازال بالجامعة ، وآخر أصغر منه بالسنة الأولى بالمدارس الثانوية . إني أريد أن يقتنع أحد بفائدة وجود هذا الأخ الأصغر ؛ لماذا جاء هذا العالم ، أو جيء به إلى هذه الدنيا؟! لقد كان منسياً بقصد بعد ولادة أخي الأوسط بعشر سنوات على الأقل . فقد بدأت والدتي تتناول العقاقير الطبية لتتخلص من الأجنة ، بعد شهورها الأولى أو الثانية ، التي كانت تتكون في أحشائها إذا حدث ولم تفلح هذه الاحتياطات الصناعية التي كانت تتخذها وتتخذها والدي .. هذه الأجنة التي كانت تحاول أن تفرض وجودها في هذا العمق السحيق ، حيث كانت تبدأ تكونها النطرب الشائه . وإني لأذكر ، كما لو كان هذا قد حدث أمس فقط ، ظروف ولادة هذا الطفل الذي لم يكن مرغوباً فيه . كنت صغيراً عندما كنت أقضي إجازتي الصيفية المدرسية في الريف بمنزل جدي ، وقد بقي والدي بالقاهرة . ولاحظت أمي ذات أصيل مشغلة البال بشيء لم أكن أعرف كنهه . كانت تجلس على « الكنبة » ووجهها في راحتي يديها ، وهي غارقة في تفكير عميق . ولكنها رفعت رأسها أخيراً وصاحت في أختها : « لم يكتب بعد ، بينما « هو » ينمو في أحشائي . إني لا أريده ، فعندي منهم الكفاية : عندي اثنين . ألا يرسل « الحبوب » ! إني في حاجة شديدة إليها ! » وقالت خالتي مهدئة من روعها : أتودين حقاً التخلص « منه » ؟ ثلاثة أولاد ليسوا في الواقع بالعدد الكبير . وأنت تعرفين أن قتل نفس بشرية يعد جريمة» (وخالتي متدينة جداً) . قالت والدتي : « ولكن تصوري ، سيكون هناك عشرة أعوام أو ماحولها بين آخر ولد وهذا القادم الجديد الذي أحب التخلص منه . إني الآن في الثانية والثلاثين ، وتعبت » . قالت خالتي : « كنا سنخفي عنك الأمس ، ولكنا رأيناك اليوم حزينة . لقد وصلت « الحبوب » صباح أمس وتسلمتها أنا وأخفيتها حتى تكون لديك فرصة أطول للتفكير . ولكنك عنودة . وقد أرسل زوجك خطاباً مرفقاً بهذه الحبوب » .

عندئذ قفزت أمي : « وأين هي الحبوب ؟ أين هي ؟» وأخرجت خالتي خطاباً وقنينة من تحت الوسادة التي كانت تسند عليها مرفقيها .

كنت أرقب كل شيء : اختطفت والدتي القنينة ونزعت سدادتها وأخذت منها حبتين في راحة يدها وحملقت فيهما . كانت حبوباً دقيقة سوداء ، وكانت قذرة ، كما ظنت أمي ، على قتل نفس بشرية . وقرأت خالتي فقرة من الخطاب : « تناولي ثلاث حبات في المرة كل ساعتين . لديك خمس عشرة حبة ! ستتأذين في النهاية ، ولكنك تودي هذا ... »

وانفجرت أمي من الفرحة : « سأتخلص منه ، لا أحب أن أحمل مرة أخرى . سأحطمه . سأبيده » . وقالت خالتي : « تذكري أنك تحبين أن يكون لك بنت . من يدري ، فقد تكون هذه هي البنت التي تريدين . » وكان رد أمي : « لا أحب أن أخاطر . فقد يأتي ولداً ثالثاً . لا . سأحطم الجنين . سأحطم الجنين . . . »

وهكذا تناولت ، أو على الأصح ابتلعت والدتي الحبوب

حسب ما كانت موصوفاً فى خطاب أبى ، وانتظرت . انتظرت ، ولكن دون جدوى . فقد كانت النطفة قد تطورت إلى جنين ، وكان الجنين قد التصق بجدار الرحم . لم تعد الحبوب ذات نفع . وبالرغم من أن أمى عانت كثيراً فقد صمم الجنين ، منتقماً ! ، على أن يشترك فى هذه الهزلة الإنسانية . وولد بعد عدة أشهر طفل فى القاهرة . . . وبعد أحد عشر عاماً أصبح الطفل غلاماً بالسنة الأولى الثانوية . لماذا — إنى دائم التفكير — لماذا ولد هذا الطفل ؟ هل سيؤثر وجوده فى حياة البشرية . قد يعيش طويلا ، وقد يرحل عن الأرض كما جاءها : لا زيادة ولا نقصان .

هذه عقبة . وهناك عقبة أخرى . فقد تعدى والدى الخامسة والخمسين من عمره ، وهو ليس فى صحة جيدة تساعده على الحياة . وعلى أى حال فلا يعيش الإنسان إلى الأبد . لنفرض أن أبى قد توفى . من يتولى أمر هذه العائلة ، أخوى وأمى ؟ !

هذا ما يشغل خاطرى . فقد كنت أحب الهجرة إلى باريس بالذات لأنى أتقن اللغة الفرنسية ، وكان تعليمى كله فرنسياً ، هذا بالإضافة إلى أنى أعمل بشركة فرنسية مركزها الرئيسى بباريس . وهذا يعنى أنه من السهل أن أحاول طلب نقلى إلى مركز الشركة بفرنسا . إنى أريد أن أرى العالم وأعيش كما أحب أن أعيش ! ولكن التزاماتى حيال عائلتى لا تسمح لى بتحقيق رغبتى التى تزداد يوماً بعد يوم . فواجبى أن أظل إلى جوار عائلتى . . . فمن يدرى !

إنى أعتبر بقائى فى هذه الحالة جبناً . أجل ، إنى أجبن حيث لم يجبن غيرى ، كانت له نفس ظروفى العائلية أو ما يشابهها . فقد كان لى زميل يعمل بنفس الشركة التى أعمل بها وله عائلة مثل عائلتى ، ولكنه ترك القاهرة بمن فيها ورحل إلى باريس ليبدأ حياته من جديد فى جو جديد ، فى جو جديد بغض النظر عن أى اعتبار آخر . . . إنى جبان ، جبان » .

هذا هو ملخص ما قاله صاحبى وهو ذاهل عنى بالنظر إلى نموذج العالم . وعندما وجد نفسه قد انتهى من سرد ظروفه جذبنى من كم جاكتتى وقد سرحت أنا أيضاً فى مشكلته .

— يالله يا عم . كل واحد فى الحياة يحلم بحاجه . ولكن إيه الفايده ؟ !

ومشينا أمام مدخل « رحلات أوريتورز للسياحة » واكتشفنا نافذة عرض أخرى بها نفس نموذج العالم والضيقة من ورق الكرتون فى رمائها الرمادى للزرق ونموذج الطائرة ! كل هذا يماثل النافذة الأولى .

واتجه صديق بناظريه أوتوماتيكياً إلى الدائرة الزرقاء الصغيرة التى تمثل باريس ، وتنهد تنهيدة عميقة واستأنف سيره بجانبى .

• • •

عدت إلى البيت بعد أن أمضيت وقتاً طيباً مع صاحبى ، وعندما خلوت بنفسى لأكتب شيئاً تذكرت أنى لم أصطد قصة ما هذا المساء . وعجبت ! وقلت مفكراً : يقولون إن الحياة ملأى بالقصص من كل نوع : فى كل خطوة نخطوها وفى كل حديث يدور بيننا والآخرين ، فى كل وجه وكل شكل وكل جبين مقطب . . . فكيف مرّ علىّ هذا المساء ، من السادسة حتى الثامنة والنصف أو التاسعة ، دون أن أعثر على قصة أكتبها ! ؟ وها أنذا الآن أهرش جبينى فى حيرة ! ألا يمكن أن آخذ شيئاً من ظروف التقائى بصديق ؟ ولكن ماذا آخذ وماذا أدع ؟ ! إن القارئ قد لا يهمه كيف التقيت بصديق فى وسط الزحام فى بهو السينما بالطريقة التى دونتها فى هذه اليوميات . ثم ماذا ؟ إن هذه الصفحات التى سطرتها عن التقائى بصديق ما هى إلا « وصف » مسلسل منذ وقفت أمام السينما حتى خرجت مع صديق من الدار ، وقد يكون فى هذا الوصف الدقيق لكل ما حدث ما يبعث على ضجر القارئ وإملاله . . . لا . دعنا من هذا ، ولأفكر فى حديث صاحبى : هذا شاب يضيق بالحياة ، بهذه الحياة الرتيبة المملة ، فيفكر فى « التغيير » ، يفكر فى الرحلة إلى أوربا ، ولكنه لا يتمكن من السفر والهجرة لأنه أكبر إخوته ولأن مكانه فى العائلة دقيق ، ولأن والده قد يحتاج إليه أو لأن عائلته قد تحتاج إليه فى وقت الشدة . هذه هى مشكلة صاحبى ، وقد حاولت نقلها إلى هذه الصفحات . . . فهل سأتمكن من صياغتها فى قصة قصيرة مثلا ؟ ! ولكن أين « الحبكة » فى هذا السرد ؟ كيف أخلق « حبكة » لهذه القصة ؟

لأدع هذا ليوم آخر ، أما الآن وقد كلت أصابعى من إمساك القلم ، فسأتناول كتاباً أقرأه .

إدوار منسى

قصة « البؤساء »

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

كنت أوثر ألا تستأنف (الفرقة المصرية) نشاطها بدار الأوبرا الملكية عقب موسم (فرقة جان مارشا) مباشرة ، فرعا يغرينا هذا بوضعها معها وضعاً مقارناً لا نرضاه لها . ولئن كان سوء حظها قد اضطرها إلى ذلك بالنسبة لضيق الوقت وضآلة عدد المسارح فكان ينبغي أن تضع في تقديرها أن ذلك الموسم الأجنبي قد حفل بأروع ما أنتجه المسرح الفرنسي الحديث من تمثيليات تزهو بمختلف القيم ؛ ومن ثم كان يجدر بها أن تفكر كثيراً قبل أن تتخير هذه الرواية التي كتب قصتها فيكتور هوجو في القرن الماضي للقراءة لا للتمثيل ، ومع هذا فلم يبق لها الآن سوى قيمتها التاريخية

ولكن يظهر أنها لا زالت متأثرة بالرأي الشائع بيننا عن كاتبها وعصره ، وهو الرأي الذي تواتر إلينا من الجيل الماضي وأجمله المرحوم حافظ إبراهيم بك في مقدمة ترجمته لها حيث يقول (هذا كتاب البؤساء وهو « خير » ما أخرج للناس في هذا العهد . . فلقد قص علينا صاحبه « أحسن » القصص . . ولد هوجو والقرن التاسع عشر في مهده فاصطحبا طفلين ثم افترقا وضرب الدهر بينهما بضرباته فالتقيا شيخين فانيين ، فإذا الأول نادرة البطون وإذا الثاني سيد القرون . .) ! !

من أجل ذلك أحب قبل كل شيء أن أنتهز هذه الفرصة السانحة لمعاودة النظر في هذا الرأي وأشباهه واتخاذ ذلك مثلا لتقويم سائر ما نكاد نؤمن به من آراء يشوبها الإجمال والإطلاق والتعميم . فليس من شك في أن هوجو كان شاعراً غنائياً عظيماً وكان غزير الإنتاج سواء في الشعر أو في القصة أو الدراما ، ولكن لا يجوز لنا تقدير امتيازه إلا في حدود العصر والجمهور الذي كتب له . إذ ذاك سنرى أنه في الشعر أكثر امتيازاً منه في القصة والدراما لأسباب يسهل الاهتداء إليها إذا أدركنا مدى اختلاف المؤثرات والتغيرات الاجتماعية في الحقبة الرومانسية التي عاش فيها ، عنها في الحقبة الكلاسيكية التي سبقتها . فلقد كان الأدب الكلاسيكي طرازاً ذا سمات معينة ، لأنه كان صورة لتركيب اجتماعي معين ، كان أدباً يهتم بالشكل والصياغة لأن المجتمع الذي كتب له لم يكن إلا مجتمعاً أرستقراطياً يهتم بالمظهر والنظام . فلما دمرت الثورة الفرنسية ذلك المجتمع دمرت كذلك قوالبه الأدبية . الفرد الذي كان قبل الثورة كائناً اجتماعياً أصبح بعدها كائناً فردياً ، فانطلق يعبر عن إحساساته الشخصية ومطامعه وآلامه وأشواقه ، كما انطلق خلف نطاق مجتمعه يتأمل في مظاهر الطبيعة وما وراء الطبيعة وفي الموت والخلود والأبدية ؛ وعلى هذا النحو تهيأت البيئة كلها للفنون الغنائية والشعر الغنائي lyric poetry على وجه الخصوص أكثر مما تهيأت للفنون التمثيلية والدراما على وجه الخصوص

على هذا الأساس تستقيم النظرة إلى هوجو وفنه التمثيلي بغير اعتساف ولا إهدار لمواهبه الذاتية . فهو حقاً قد كتب أكثر من اثنتي عشرة تمثيلية ، وكان يعتبر الدراما من أهم فنون الأدب التي لا يجاريها فن آخر في التعبير عن الإنسان ؛ وكتب في « مقدمة كرمويل » ما يعتبر إنجيلا للمسرح الرومانسي وما اعتبر من أجله رائد هذا المسرح ومحطم المسرح الكلاسيكي ؛ ولكن تمثيلياته لم تصل إلى المستوى الذي وصلت إليه أشعاره مثلا ؛ وحتى في إنجيله المسرحي لم يستحدث جديداً لم يسبق إليه وإن كان له فضل التسجيل وحرارة الدفاع وبراعة التطبيق ؛ إذ أن فكرة تحطيم الكلاسيكية ظهرت قبله عند مدام دي ستايل وقبلهما عند ديدرو ونقاد القرن الثامن عشر ذاته الذين ضاقوا بركودها وجمودها وضعفها . « فقد كان من الواضح — كما

يقول الباحث المعاصر بول هازار — أن رجلا مثل فولتير عند ما يكتب مسرحيات يخرج من عبقريته الخاصة دون أن يستشعر هو أو معاصروه ذلك ، إذ يريد أن يقلد كورنيل وراسين أو بوالو . وإنما الشعر يجيء من الحزن حين نرى منذ ذلك العهد هـذه الكتلة الموحشة من القصص الخالية من الروح ، والمسرحيات الخالية من الحقيقة ، والأشعار الخالية من الشعر . قوة بلا روح . هذا هو ثمن الجمال التي قدمها للمذهب الكلاسيكي العالم ، لأن الكلاسيكيين الفرنسيين وصلوا إلى درجة سامية من الكمال الذي فتن عقول خلفائهم ، حتى إنهم ظنوا أنه لا وسيلة إلا أن يقلدوهم ، ولأن الروح الهندسي قد قضى على حب الأشكال المرنة والألوان الحية ، ولأن العقل المسيطر لم يعد يحتمل أزهار البلاغة ؛ وبهذا ذوت القوة الغنائية ووقعت العبقرية الشاعرية في سبات عميق . . . . »

وصحيح أن الرومانسيين وعلى رأسهم هوجو استطاعوا أن يبعثوا هـذه القوة وأن يوقظوا هذه الشاعرية كما استطاعوا أن يجهزوا على المسرح الكلاسيكي وأن يهدموا (الديكور) اللاتيني الذي كان يستند إليه ، ويستبدلوا به (الديكور) الذي كان شائعاً في العصور الوسطى وعصر النهضة ، وأن يؤلفوا في هذا النطاق تمثيليات مكيفة تكييفاً ميلودراماتيكياً ، ولكنهم مع هـذا بل من أجل هذا لم يكتبوا تمثيلية واحدة يتحقق فيها ما يتطلبه الفن التمثيلي من أوضاع وطيدة . وما كان من المتصور — كما يقول بيسون — أن ينتجوا أدباً تمثيلياً ، وهم لا يؤمنون إلا بأنفسهم ولا يدورون إلا حولها ، حتى ليقال إن هوجو لم يصور في تمثيلياته سـوى شخصية واحـدة فقط هي فيكتور هوجو نفسه .

ويبدو هذا بوضوح في قصته هذه وإن لم يكتبها أصلا للمسرح ، إذ أنها كسائر قصصه وتمثيلياته — ليست إلا صورة لثائر ذاتي وانفعال ذاتي وتعبير ذاتي عن إحساسات ذاتية .

فهو يصور لنا في الفصل الأول منها عابر سبيل ألقت به المقادير عند تخوم مدينة (ديني) بعد ما أجهده البؤس والجوع والظمأ ، فأخـذ يطرق أبواب منازلها وفنادقها وسجونها أيضاً علّه يجد فيها بقايا طعام يتبلغ به أو مكاناً منزوياً يستريح فيه لحظات ، لكن أحداً لم يشفق عليه وظل طريداً حتى أبصر وجار كلب فانبطح فيه على وجهه ، غير أن الكلب ما لبث أن عاد وخشى أن ينشب فيه أظفاره فتسلل مسرعاً .

ثم انحدر إلى المدينة وما كاد يرتمي على حجر عند باب بيعة صغيرة حتى خرجت منها امرأة صالحة وأرشدته إلى بيت (عابد) كريم لا يرد الطارقين أيا كانوا ، فأسرع إليه وروى له قصته ، وموجزها أن المقادير ألقت عليه وهو صغير فقير عبء الإنفاق على أخته وأطفالها السبعة ، وذات يوم أوشكوا أن يموتوا من الجوع فحاول مرغماً أن يسرق خبزاً لهم فقضى عليه بالسجن ومكث فيه تسعة عشر عاماً وأطلق سراحه منذ أربعة أيام ، ولكن (إجازة الإطلاق) الصفراء التي يحملها لا تزال — حيثما حل أو ارتحل — تنم على أنه « جان فالجان » السارق المجرم الفتاك ، وما كان أشـد دهشته حينما رأى العابد يرحب به رغم هذا ويعدّ له طعاماً وسريراً ويبالغ في إكرامه ؛ ذلك لأن هذا البيت — كما يقول له — إنما هو بيت للمسيح ولا يسأل من يدخله عن اسمه ولكن يسأل عن آله ، وأوى إلى مضجعه فأيقظته الهواجس ومرت في خياله الأحـداث التي انتابته ، وتذكر الظلم الذي لحق به ، ووسوس له الشيطان أخيراً أن يسرق ما في البيت من أوان فضية فسرقها وفر هارباً ، لكن حظه العاثر أوقعه في قبضة الشرطة فعادوا به ، غير أن العابد أنبأهم بأنه هو الذي أذن له بها .

وخرج من المدينة فأقبل عليه غلام يدعى (فرجي) كان يرتع ويلعب وسأله أن يعطيه قطعة نقوده التي وقعت منه وتدحرجت واستقرت تحت قدمه ، فنهره فارتاع وأطلق لساقيه العنان ، فلما اختفى وجد هو تحت قدمه فعلاً قطعة نقود وحاول اللحاق بالغلام ليردها له ، ولكن ذهبت محاولاته سـدى ، فأخذ ينتحب انتحاباً مريراً وظل يعاود الانتحاب كلما تذكر ما اقترفه في بيت العابد ، وما جناه على الغلام .

وينتهي هـذا الفصل ، ويبدأ فصل آخر يصور لنا فيه قصة (فانتين) وهي فتاة بائسة ساقتها الأقدار من قرية (مونتراي سيرمير) إلى باريس فهوت إلى الرذيلة وأنجبت طفلتها (كوزيت) . وتراءى إليها أن قريتها أصبحت راغدة العيش فاعتزمت العودة إليها لتحيا حياة شريفة ، وركنت في الطريق إلى فندق بقرية (مونتفرمي) لتستريح قليلاً ، وهناك تركت طفلتها لقاء أجر كفالتها حتى يتسنى لها السعي

يغفروها البحث عن عمل شريف . وأقبلت على قريتها ، والتحقت بمصنع رجل غريب يدعى (مادلين) هبط إلى القرية ذات مساء ، فقيراً منكوراً . وما لبث أن صار مديراً لهذا المصنع ، وعمدة القرية كلها ، وأثرى ثراء عريضاً ، وابتنى المدارس والمستشفيات والملاجئ ، واشتهر عطفه على البؤساء ! فارتاحت إليه كل القلوب ، إلا قلب (جافير) رئيس الشرطة الذى فاته ما يحظى به من حب وإجلال .. وقلب (فوشلفان) وهو سائق عربة كان غنياً ، ثم أملق فحقد عليه ، لأنه بعكسه كان فقيراً ثم اغتنى .. وقلب (فانتين) لأنها فصلت من مصنعه بعد سنوات قضتها مكفولة الرزق ، فعادت مرة أخرى طريدة شريدة .

واتفق ذات يوم أن انكفأت عربة (فوشلفان) فوقه وعجز الناس عن رفعها ! فانبرى لها (مادلين) ورفعها وحده بكاهله وأنقذ السائق وهو عدو له ، ومنحه من المال ما يكفيه ذل السؤال طوال عمره .

واتفق ذات يوم أيضاً أن رأى رجال الشرطة يجرجرون امرأة إلى السجن ، فاستوقفهم ، ولكنها بصقت فى وجهه لأنه هو سبب محنتها ، فقد فصلها من عملها فعادت إلى الرذيلة وباعت شعرها وأسنانها لتعول نفسها وتنفق على ابنتها فى فندقها حتى صارت فريسة للمرض والفاقة ... هكذا سردت (فانتين) قصتها على (مادلين) فأمر بإطلاق سراحها على الرغم من معارضة (جافير) وأكد لها أنه لم يفصلها ولا يعلم من أمرها شيئاً ، وأنه لهذا سيكفلها ويرد إليها طفلتها ويوفى ديونها . فاعترت مشاعرها اهتزازاً عنيفاً أصيبت من جرائه بالحمى حتى أشرفت على الموت . وفى اليوم الذى اعتزم فيه إحضار ابنتها لها طرق بابه (جافير) وتوسل إليه أن يقبل استقالته ، إذ أنه لم يعد يصلح للعمل معه بعد أن وشى به وشاية ظهر له الآن خطؤها . واستطرد يقول : « ظننت أنك (جان فالجان) المجرم القديم الذى يبحث عنه رجال الشرطة منذ أن سرق أوانى العابد واغتصب الغلام (فرجى) . وازداد ظنى حينما رفعت عربة (فوشلفان) بقوة لم أكن أعهدها إلا فى ذلك المجرم . وازداد حقدى عليك عند ما عفوت عن البغى التى بصقت فى وجهك ... فكتبت إلى كبير الشرطة بباريس أنبئه بأمرك فكان جوابه أن (جان فالجان) وقع اليوم مصادفة فى قبضتهم وهو الآن فى السجن ينتظر المحاكمة » .

والواقع أن (مادلين) لم يكن إلا (جان فالجان) بعينه . فكيف يسمح له ضميره أن يؤخذ رجل آخر بجرائمه وجرائره ؟ وكيف يوفق بين السفر إلى باريس ليواجه المحكمة بالحقيقة وبين السفر إلى (مونتفرى) ليعيد الطفلة (كوزيت) إلى أمها التى تحتضر ؟

لم يطل به التفكير وإنما أسرع إلى باريس ، وما إن عاد إلى (فانتين) ليطمئن عليها حتى فاجأه (جافير) وأعوانه بالقبض عليه فاستمهلهم لحظات ماتت الريضة خلالها من هول الصدمة وأفلح هو فى الهرب بعد ذلك وانطلق يعدو إلى (مونتفرى) فلقى (كوزيت) مصادفة فى الطريق وظل يطاردهما (جافير) ولكن دون جدوى .

هذا هو موجز قصة (البؤساء) التى يتجلى فيها تماماً ما امتاز به فيكتور هوجو من حيوية وتدفق وما امتاز به أسلوبه الساحر من صور غنية ، وتتجلى فيها أيضاً ذاتيته الحالمة التى حدت به إلى اعتبار نفسه أحد قادة الإنسانية بل أحد أنبيائها ! ويتجلى فيها كذلك ما عرف عنه من عطف على المساكين والمحزونين والضعفاء ! ولكنها من الناحية الدراماتيكية لا تكاد تصلح إلا كمثل تطبيق لمفهوم (هوجو) عن الفن القصصى ومدى قدرته على استخدام الواضحات التى ابتدعها عصره فى إبراز أفكاره .

ففيها يتحقق ما عرف عن الفن الرومانسى من إغراق فى التأمل المبهم ... ومن ولوع بتصوير الاختبارات الفردية والآلام والعواطف الحزينة عن طريق المفارقات ، أى مقابلة الجميل بالقبيح والفضيلة بالرذيلة ، وهكذا ... ومن شغف بازدحام الأحداث واصطخاب النزوات وتقلب الشخصيات بين المصادفة والمقدور بلا هوادة ... وكل هذا فى مجموعه يدل على افتقار الرومانسيين إلى الملاحظة الدقيقة والقدرة على خلق الشخصيات المكتملة ، وتهيئة الصراع وإحكام الحبكة وتكوين البناء المسرحى الصحيح ... أو بعبارة أخرى يدل على افتقارهم إلى الإحساس المسرحى .

وإذاً فلست أدرى ما الذى حدا بالفرقة المصرية إلى تمثيل هذه القصة ؟ إننا فى حاجة قصوى إلى الاستفادة من المسرح الغربى ، ولكن هذا يحتم علينا أن نتخير منه ما يصلح للإفادة . وإن بعيدنا فى شىء أن نتخير قصة رومانسية ونحن نعمل على مكافحة الرومانسية الداهمة التى لا نزال غارقين فيها .

عبد الفتاح البارودى

ظهر حديثاً

الأدب الهيليني

اتفقت كل البيئات الأدبية الراقية فى أوربا على أن من يجهل الأدب الهيليني أى اليوناني يعتبر من العامة والدهماء ، ولقد بقيت المكتبة العربية مع الأسف محرومة هذا التراث الخصب إلى الآن ، ولكن اليوم قد ملىء هذا الفراغ إذ ظهر الجزء الأول من كتاب « الأدب الهيليني » للدكتور محمد غلاب ، وقد تناول فيه مؤلفه على أحدث مناهج البحث العلمي « الإلياذة » و « الأوديسا » لهوميروس ، و « الأعمال والأيام » لهزيودوس ، والدائرة الحماسية ، والقصائد الهوميروسية وكثيراً من أساطير الآلهة والأبطال ، وما إلى ذلك من التحقيقات الدقيقة حول نسبة هذه المنتجات إلى مؤلفيها وما دُس عليهم فيها من دخائل ومنتحلات ، وبه ثلاثون صورة فنية ، وعدد صفحاته ٢٥٦ صفحة بالقطع الكبير وثمن النسخة **٣٥** قرشاً صاغاً عدا البريد .

يطلب من دار إحياء الكتب العربية

لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاه

ص . بريد الغورية رقم ٢٦ — ت ٥٠٨٥٦

سكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

ليكن فى علم الجمهور أنه طبقاً لنصوص عقد الاشتراك لا يجوز استعمال التليفون لغير المشترك ومستخدميه وعائلته إلا إذا حصل على تصريح كتابي من المصلحة وعليه أن يلصق فى مكان ظاهر صورة من هذا التصريح بجوار العدة التليفونية لاطلاع من يهمه الاطلاع عليه من الجمهور ومندوبي المصلحة .

فالرجا ممن يرغبون من حضرات المشتركين الحصول على التصريح المشار إليه أن يتقدم للمصلحة بطلب كتابي للنظر فى أمر إعطائه التصريح الخاص باستعمال التليفون للجمهور حتى لا تضطر المصلحة لتطبيق نص البندين ١٦ و ١٩ من عقد الاشتراك .

الثقافة

العـــدد ٦٩٤
١٤ من إبريل ١٩٥٢

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

صفحة

أبحاث ومقالات :

ندوة القلم :

نقد :

شعر :

الشاعر ...

خفيفٌ خفةَ الظلِّ   إذا رفَّ على الماءِ
كهمس الزهر للطلِّ   بأسرار الأحبّاءِ

•••

رقيقٌ رقةَ الفجر   طروبٌ كالأغاريد
مزيجٌ من شذى العطر   ومن خمر العناقيد

•••

عجيب في سجاياه   له كالزهر ألوان
كأن الله سوّاه   ملاكاً وهو شيطان

•••

ملاكٌ صيغَ من نار   وشيطانٌ من النور !
يضيء الليلَ للساري   ويحيا في دياجير !

•••

إذا جال بعينيه   رأى آماله العليا
فإن همَّ بكفيه   فمحروم من الدنيا

•••

يحار الناس في فهمه   فيهديهم إلى شعره
ونور الشمس في وجهه   جمالٌ شعَّ من فكره

•••

إذا ما عاش في السفح   فبالأشعار في القمة
وإن لم يسع للمجد   بناه خامد الهمة

•••

فإن تثمر الجهدُ   فلا شيء سوى الكد !
وإن حاد عن القصد   أتاه الحظ بالجد !

•••

عجيب أنت يا شاعر   غريب كالمقادير
قضيت العمر كالطائر   بلا عقل وتفكير

•••

فإن تجنح إلى العقل   تعش كالناس مجنونا
وإن عشت بلا مثل   رآك الناس ملعونا

•••

هي الدنيا كما تهوى   لديها الخير كالشر
كأن قد خلقت سهوا   بلا عقل ولا فكر !

•••

فما جدوى لياليها ؟   وماذا يربح الخاسر ؟!
سيفنى كل ما فيها   ويحيا الشعر والشاعر !

أحمد أحمد العجمي

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـدد ٦٩٤ الاثنين ١٩ من رجب سنة ١٣٧١ — ١٤ من إبريل سنة ١٩٥٢ السنة الرابعة عشرة

العالم الاسلامى بين انجلترا وفرنسا

للدكتور أحمد أمين بك

نسمع بين حين وآخر مقابلات هامة بين انجلترا وفرنسا لتوحيد السياسة بينهما فى العالم العربى ، علماً منهما بأن ما يحدث فى أحد البلاد العربية وخصوصاً مصر يكون له صدى فى البلاد العربية الأخرى ؛ وثورة مصر الأخيرة من غير شك أثرت فى ثورة تونس ومراكش . وفى عقيدة فرنسا أن استقلال مصر يطمع هذين أيضاً فى الاستقلال ، فتريدان أن توحدا سياستهما إزاء العرب حتى لا تتجه إحداهما جهة غير الأخرى فتضطرب السياسات ، وقديماً كان ذلك ؛ ففى سنة ١٩٠٤ م اتفقت فرنسا مع انجلترا على أن تطلق فرنسا يد انجلترا فى مصر نظير أن تطلق انجلترا يد فرنسا فى مراكش ، ونفذ ذلك فعلا . وفى الحرب العالمية الأولى كانت انجلترا وفرنسا تتفقان سراً على تحطيم المملكة العربية ، على حين تتعاقد انجلترا مع العرب المتفلين على إنشاء دولة عربية ؛ وهكذا نرى أن سياسة الاستعمار واحـدة ، فليس العرب أمام دولة واحدة ، بل أمام دول قوية متعددة تحكم سياستها القضاء على الحركات الوطنية فى البلاد العربية . وهم وإن اختلفوا فى سياستهم فانت انجلترا لاحترام العادات والتقاليـد ، ولم تأبه فرنسا بذلك ، وعولت أمريكا على الاستغلال الاقتصادى ، فالأساس واحـد ، ولا ينفع العرب إزاء هـذا الإجماع إلا إجماع مثله ؛ فالقوم يبنون خطوطهم على العلم ، والعرب يبنون خطوطهم على الجهل والارتجال ، ولذلك يضيع الحق بجانبهم ، وينتصر الباطل بجانب القوم .

لقد قرأنا صوتاً يرتفع فى انجلترا يقول : إن الشرق ليس كالغرب فى أن زعماء الغرب يتناسون خصوماتهم الشخصية إذا جـد الجد ، ويوحدون كلمتهم ؛ على حين أن الشرق لم يتعلم بعد هـذا الدرس . لقد عوّدنا الاستعمار أن يسير فى الأمم الإسلامية على سياسة فرق تسد ، وأن الرجل الذى يأتى لتوحيد صفوف الأمة وجعلها كلها يداً واحدة ، لا يعيش فى الوزارة شهراً أو شهرين ، وإنما يعيش من فرق بين طبقات الأمة ، وأطاع المستعمر فى كل إشاراته .

لقد آن للمسلمين أن يفهموا أن وحدتهم هى التى تنفعهم ، وأن لغة المفاوضات والمحادثات كتابية جدا ، لا تفتأ تملأ من البحر وتصب فى البحر ، وآن للمسلمين أن يفهموا أن القانون الطبيعى للعالم أن الاستقلال يؤخذ ولا يمنح ، وأن

لغة الاستجداء، لا تُجدي إلا البكاء، وذلة النفس وإضاعة الوقت ، والأكل من فتات الموائد .

ومن الأسف أن كل مستعمر لكل أمة يجد بين صفوفها من يؤمن به ، ويبيع نفسه رخيصة في خدمته ، والعمل لمصلحته ضد أمته . وهؤلاء تغدق عليهم النعم ، ورحب بهم ، ويُمَكَّنُ لهم في الأرض ، وإنما يضطهد المخلصون العاملون النزيهون .

إن اللعبة إذا تكررت أمام الطفل فهمها وملها ، وأدرك سرّها ، ولم يعد يخدع بها ، ولكن اللعبة الواحدة الاستعمارية تلعب على المسرح مراراً ، وتكرر مراراً ، ولكن لا نفهم أبداً ، ويقع فيها الأغبياء أبداً . ومن مهارة اللاعبين أن يغيروا اسم اللعبة لا جوهرها ، فتجوز على النظارة المغفلين . قد يغير الاستعمار الاحتلال بانتداب ، والانتداب بدفاع مشترك ، واللعبة هي هي .

وقد يبيح المستعمرون لأنفسهم أن يعطوا باليمين ما يستردونه باليسار ، واللعبة هي هي .

أو أن يعطوا مالا يضرهم نظير الاستيلاء على ما ينفعهم ، وهكذا وهكذا من ألاعيب .

ثم هم لا يتقدمون خطوة إلا بعد دراسة دقيقة وحساب النتائج ، ومعرفة النقط الأساسية للموضوع ، والنقط الفرعية ، قد وكلوا كلّ ذلك إلى خبراء إخصائيين ، يقفون على كل صغيرة وكبيرة في الموضوع . أما نحن فنقابل الدرس بارتجال ، والحكمة بالفوضى ، والخطط المحكمة بالجدل العقيم .

أليس عجباً أن يبذل أصدقاء العرب جهودهم وأوقاتهم من أجل مصلحة تونس ومراكش لعرضها على هيئة الأمم ، ثم يأتي أصحاب الشأن فيطلبون عدم عرضها ؟ أو ليس عجباً أن يحدد للمعتدى عرضه من الأمم المستعمرة ، ويرسم وسائل تحقيقها رسماً دقيقاً ، ثم نواجه كل ذلك بهرجلة غير محكمة ، وفوضى غير محدودة ، وكلام فارغ على هامش الموضوع لا في صميم الموضوع ، وجلسات تعقد ، ثم تنفض ، ولا غرض .

لقد كان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، يصرخ عجباً من اجتماع القوم على باطلهم ، وتفرق قومه عن حقهم . والصراخ لا يزال هو الصراخ ، والعجب هو العجب . هذا من ناحيتنا نحن ، أما من ناحيتهم هم : فالدنيا كلها تتبدل والعقول تتغير ، والنظريات تتحول ، ولا تزال حفنة من رجال السياسة جامدين في تفكيرهم ملتزمين خطة آبائهم ، بعيدين عن كل معنى إنساني ، غارقين إلى أذقانهم في معاني القومية الحادة التي لم تعد تصلح لهذا الزمان .

فإلى أن يدرك المستعمرون حقهم فيعرفوا كيف يضعون خططهم ، وإلى أن يفهم الساسة المستعمرون مقتضيات الزمان وتغيرات الأحوال ، فيسايروها ويجروا معها ، يبقى العالم في أخذ ورد ، وحيرة واضطراب ، وحرب تلو حرب ، واستعداد بعد استعداد . ونفوس تزهق ، وأموال تبدد ، وأسر تيتم ، وإلى الله المشتكى ومنه العون .

إن القوم يعتقدون أن الزمان في مصلحتهم ، لا في مصلحة خصومهم ، فهم يحاورون ويداورون وينتظرون ، لعل الزمان يحلّ مشاكلهم ، وهو لا يحلّها ، بل يعقدها .

ها هم أولاء الإنجليز لا يعلون المماطلة مع إيران ، ولا يرضون نصف الربح ، والأرض أرض إيران ، والزيت زيت إيران . ومن الإسراف حتى أن يستولوا على النصف ، وهم الأغنياء ، والإيرانيون هم الفقراء .

ومع ذلك لا يرضون ، وينتظرون الزمان يحل المشكل ، وهو لا يحله .

وهم في مصر يطلبون الهدوء قبل المفاوضة ، وهي لعبة جربوها ، فتهدأ مصر ، وتهدأ الحادثات . ولكنها كل يوم تعثر . وهم قاصدون حتماً إلى هذا التعثر ، فتعترض على كلمة ، فيحذفونها ، لكن يأتون بمرادفها ، أملا منهم في كسب الوقت ، خصوصاً بعد أن هدأنا . وهم يعلمون علم اليقين أن الآلة إذا وقفت صعب تحريكها من جديد . ولكنهم لا يعلمون أن الصبر محدوداً ، وأن الأمة إذا حلمت طويلا ، ثم غضبت ، غضبت شديداً . فإلى الله المشتكى ، ومنه المعونة .

أحمد أمين

أسبانيا ودول الشرق العربى

تحية إلى ذكرى الأمة الشهيدة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تزور الآن بعثة سياسية أسبانية على رأسها وزير الخارجية الأسبانية ، بلاد الشرق العربى ، وسوف تزور مصر بعد أيام قلائل فى طريق عودتها إلى أسبانيا ، ومهمة هذه البعثة ، حسبما أكدت التصريحات الرسمية غير مرة ، هى العمل على توثيق علائق المودة والصداقة بين أسبانيا والشرق العربى ، وتنمية العلائق السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية بينهما ، وهى مهمة تتقبلها البلاد العربية ومصر بمنتهى الغبطة والترحيب .

ولا يخالجنا شك فى أن البعثة السياسية الأسبانية سوف توفق فى تحقيق مهمتها غاية التوفيق ، لما يحيط بها من عطف وتقدير للبواعث والمشاعر الطيبة التى أخذت أسبانيا تجيش بها فى العهد الأخير نحو الأمم العربية ، عرفاناً جميلاً لما أبدته الأمم العربية من عواطف المودة نحو أسبانيا فى مختلف المواقف الدولية ، ولا سيما فى أروقة الأمم المتحدة .

على أن هذا التعاطف ، وهذه التبادلات الودية بين أسبانيا والأمم العربية ، فضلا عن أهميتها الواضحة فى توثيق التعاون الدولى بينهما ، تنطوى فى الواقع على مغزى أعمق وأبعد أثرا . وقد أشار جناب الجنرال فرانكو رئيس الدولة الأسبانية فى رسالته التى وجهها من مدريد إلى الشعوب العربية ، لمناسبة سفر البعثة الأسبانية ، إلى هذا المغزى الجليل حينما تحدث عن : « الروابط الوثيقة التى تربط أسبانيا بالشعوب العربية منذ قرون طويلة » ، وقال : « إن الثقافة العربية قد تركت طابعاً عميقاً فى الحياة الأسبانية ، ما تزال مصدر فخر للأسبان والعرب على السواء » .

والجنرال فرانكو ، يكاد بهذه العبارات القوية الواضحة يضع دستوراً جديداً لتاريخ أسبانيا النصرانية ، ويفتتح عهداً جديداً فى تاريخ العلائق بينها وبين الإسلام والشرق الإسلامى . والواقع أنه أول تصريح من نوعه ، بل أول شهادة رسمية من نوعها يدلى بها الرئيس الأعلى للدولة الأسبانية . وأنها لتحية مؤثرة لا للأمم العربية فقط ، ولكن بالأخص لذكرى الأمة الأندلسية الشهيدة . ولقد مرت أكثر من أربعة قرون ونصف منذ ظفرت أسبانيا بالقضاء على دولة الإسلام بالأندلس ، ومضت ثلاثمائة وخمسون عاماً على إخراج بقايا الأمة الأندلسية (الموريسكيين) من أسبانيا ؛ وفى خلال هذه القرون الأربعة كانت أسبانيا تبدى منتهى الجحود والحفيظة لتراث الأمة المغلوبة وتاريخها ، وتعمل بكل ما وسعت لطمس آثارها وذكرياتها المادية والأدبية . ولبث المؤرخون الأسبان عصوراً يتجاهلون هذه الصفحات المشرقة من تاريخ أسبانيا فى العصور الوسطى ، ويرون فيها بالعكس وصمات تشين التاريخ القومى ، ويعتقدون أن أسبانيا قد حققت بالقضاء على الأمة الأندلسية ، وعلى حضارتها وتراثها ، أسمى الغايات القومية . ولبثت البقية القليلة الباقية من الكتب العربية الأندلسية ، بعد أن أحرق الأسبان معظمها عقب سقوط غرناطة آخر القواعد الأندلسية ، عصوراً تبلى فى ظلمات قصر الأسكوريال ، وتحجبها السلطات الأسبانية عن كل باحث ومتطلع ، وكأنما تخشى أن تتسرب منها الروح الإسلامية ، أو روح الثقافة العربية الناصعة ، ولم تهدأ ثورة البغض والتحامل ولم تنقشع هذه الغشاوة عن أعين الباحثين والعلماء الأسبان إلا منذ منتصف القرن الماضى ، حيث نهض علماء مثل العلامة المستشرق جيانجوس ينعون على أسلافهم هذا التعصب الممقوت ، ويلفتون النظر إلى تراث الأمة الأندلسية الناصعة ، وإلى حضارتها

العظيمة ، وإلى ما أدته فى تكوين الحضارة الأوربية وإلى أن تاريخ الأندلس المسلمة ، إنما هو طور من أمجد أطوار التاريخ الأسبانى .

وقد عمل كثير من العلماء الأسبان من ذلك الحين على تدارك هذا النقص ، وأخذوا يساهمون ببحوثهم فى الكشف عن هذه الصفحات المشرقة من تاريخ أسبانيا المسلمة ، وذهبت الحماسة ببعض العلماء إلى أبعد من ذلك ، فاحتفلوا فى سنة ١٩٢٩ بجامعة غرناطة بمرور ألف عام على قيام الخلافة الأندلسية ، وأخذت الدوائر العلمية الأسبانية تضاعف اهتمامها بدراسة اللغة العربية والتاريخ والآثار الأندلسية .

* * *

ولا مراء فى أن العالم العربى ، والعالم الإسلامى كله يستقبل عبارات الجنرال فرانكو فى الإشادة بتراث العرب ، وعميق آثاره فى الحياة الأسبانية بمنتهى الارتياح والغبطة ؛ فإن أسبانيا الرسمية ، تنوه اليوم بلسان زعيمها ، فى عبارات تفيض عرفاناً وشجاعة ، بما غمط من فضل الأمة الشهيدة عصوراً طويلة ، وتسبغ بذلك رعايتها على البحوث العلمية التى أخذت أسبانيا تساهم بها فى هذا الميدان فى الحقبة الأخيرة .

ولم يكن الجنرال فرانكو أقل شجاعة وتوفيقاً حينما أعرب فى رسالته المشار إليها عن مشاطرة أسبانيا الشعوب العربية فى اعتزازها بالقيم الروحية والدينية وفى نضالها ضد المخاطر المادية التى تهددها ، وعن تقديرها لتضامن الشعوب المتمسكة بمثلها العليا لصد هذه الموجة الطاغية من المادية . وفى هذا التصريح تبدو أسبانيا المحافظة المتشددة فى التمسك بتقاليدها الدينية الراسخة ، وفى مقت الشيوعية وما إليها من المذاهب المادية الإباحية ، وهى التى تعصف بسائر القيم الروحية والأدبية ، وفى هذا تشترك أسبانيا الكاثوليكية مع الشعوب العربية والإسلامية .

وقد صدقت فراسة الزعيم الأسبانى حينما اتجه ببصره إلى الشرق ، ليعمل على تجديد الوشائج الذاهبة وتوطيدها ، وينوه بأهمية التعاون بين أسبانيا وبين البلاد العربية فى العمل على إحياء التراث المشترك ؛ وقد شعرت مصر والدول العربية منذ حين بما تكنه أسبانيا نحوها من عواطف المودة ، فأقبلت من جانبها على التعاون معها ، ودللت بمواقفها فى دوائر الأمم المتحدة على أنها تلتقى مع أسبانيا فى كثير من العواطف والاتجاهات المشتركة ، وأعربت مصر بصورة عملية عن ترحيبها بالتعاون العلمى والثقافى مع أسبانيا ، فأنشأت فى مدريد « معهد فاروق الأول للبحوث الإسلامية » ، وأوفدت إلى مدريد بعثة كبيرة من طلابها ، والمنتظر أن يتسع نطاق هذا التعاون العلمى ، وأن يؤتى ثماره فى المستقبل القريب .

ومن جهة أخرى ، فإن هنالك أمارات تدل على أن أسبانيا سوف تتخذ من جانبها خطوات عملية لمنح مراكش الأسبانية قسطاً معقولا من الحكم الذاتى ؛ ولا تستطيع أسبانيا فى الواقع أن تقدم خيراً من هذا الدليل العملى على حسن استعدادها للتعاون مع الشعوب العربية والإسلامية .

محمد عبد الله عنان

من مطالعات الكتب

للأستاذ الدمرداش محمد بك

دارت فصول السنة دورتها ، وأقبل الحر ، وجاء حنيني لرحلة الصيف يشتد ، وأصبحت نفسي قلقة مرهفة ، تطلب الانفراد والخلوة ، وأخذت يدي تمتد إلى كتب الرحلات ، تقلب صفحاتها بلهفة ، وتقرأ عيني سطورها بشوق وعجلة ، هذا هو حالي في هذه الأيام ، وهكذا كان شأني مع نفسي في مثل هـذه الأيام ، فيما سبق من الأعوام ، كلما أقبل الصيف وحزبني الشوق إلى الاغتراب ، ويظهر أن هذه هي حال كل من تعلق بالأسفار ، من عباد الله ، في جميع الأمصار والأزمان ، وشاء الصدف — وأنا في هـذه الأزمة الطارئة — أن يقع في يدي كتاب « رحلات » لمؤلفه الدكتور عبد الوهاب بك عزام ، فأجد في قراءته راحة وتسلية وأتخذه سميري في خلوتي طيلة هذا الأسبوع .

والكتاب على صغر حجمه ، زاخر بالوصف الرائع الجليل لمشاهد الطبيعة وللأعلام والأقطار التي زارها المؤلف ، في أسفاره العديدة ، بفلسطين ، والشام ، والعراق ، وتركيا وإيران ، وأوربا .

سافر المؤلف إلى أوربا في سنة ١٩٢٤ . ثم زار تركيا في سنة ١٩٢٩ ، ثم تتابعت أسفاره بعد ذلك ، إلى البلاد الشرقية الإسلامية ، وجال في أرجائها ، وسجل مشاهداته عما رأى وشعر ، في كتابه هـذا ، فجاء خير دليل في التعريف بأحوال هذه البلاد .

والدكتور عزام بك رحالة قدير ، وكاتب قدير ، جعل من قلمه البليغ ريشة فنان ، فصوّر في « رحلات » بالعبارة الحلالة الجميلة ، مناظر الطبيعة ، ومشاهـد الأماكن والناس ، كأنك تراها رؤية العين ، من غير أن يملّ البصر ، أو يتعب الخيال .

والدكتور عزام بك قدير في وصف المشاعر ، وفي التعبير عنها بسهولة ويسر كلما اختلجت نفسه لمشهد أو منظر .

جاء المؤلف إلى فلسطين في سنة ١٩٣٠ ، وجال في أنحائها ، وزار معالم البلاد ، وشاهد الناس ، وخالطهم ، وانفعلت نفسه بما سمع ورأى ، ثم سجّل وصوّر وعبر عن كل هذا بأصدق تعبير .

اسمعه وهو يصف القطار الذاهب إلى بيت المقدس :
« سار القطار ووقف وقفات قصيرة ، ثم انتهينا إلى مكان اسمه (كرطوف) فلما جاوزناه سلكنا وادياً بين جبلين متقاربين ، ظهرا في ألوان من البياض والحمرة والدكنة ، تزين سفحيهما خضراء قليلة منثورة ، والقطار يسير الهوينا ، شاهقاً زافراً ، مصعداً قليلا ومنحدراً ، تراه في الظلام في حضيض أحد الجبلين ، وعلى حافة هوة عميقة ، ثم تراه في حضيض الجبل الآخر على الحافة الثانية ، لا ترى كيف تحول به الطريق ، وكلما رنى الرائي ببصره ، امتلأت نفسه رهبة وإجلالا ، وإنه لمرأى جليل ، والقطار دائب في سيره بين الجبلين ، كالسيل يتمعج به الوادي » .

ثم جاء إلى بيت المقدس لزيارة المسجد الأقصى ، واجتاز سوق المدينة ، إلى شارع يفضي إلى باب كبير ، كتب عليه بالخط العريض « المجلس الإسلامي الأعلى » ثم يقول :
« ظننت أن الباب يفضي إلى ساحة في المدينة ، ولكن بواباً هناك منع بعضنا من التدخين ، ففهمنا أنه المسجد .

... ثم ولجنا إلى المكان المبارك ، إلى المسجد الأقصى ، فإذا رواق مديد رفيع على جانبيه رواقان آخران ، أفضى بنا الرواق الأوسط إلى محراب عجيب الصنعة ، بجانبه منبر عليه اسم صلاح الدين ، قيل لنا إن السلطان أمر بصنعه لهذا المسجد والصليبيون مستولون على بيت المقدس ، فصدق الله ظنه ، واسترجع المدينة ، فوضع المنبر حيث قدر . . . وعلى ذكر النساء أقول : إن النساء في الشام يختلفن إلى المساجد ، وفي استانبول لا يخلو منهن مسجد عظيم ، وهن هناك يشاركن في الجماعات ، حتى صلاة الجمعة ، ولكن النساء الناهضات في مصر ، الداعيات إلى المساواة

في كل شيء . لا يذكرن الصلاة والدين قط ، فليت شعري ما خطبكن يا نساء مصر ؟ » .

تابع المؤلف رحلته بعد ذلك إلى الشام ، وأقبل على دمشق : « عادت دمشق في نضرتها ، وجمالها ، وسحرها وجناتها ، وذكرياتها ، وآثارها وتاريخها وآلامها الحاضرة ومستقبلها الباسم على رغم الخطوب . قد رأيت مشاهدها مرات ، ووصفتها ، ولكني رجعت أطوف في أرجائها أجدد العهد بمغانيها . ذهبت إلى الجامع الأموي فزار صلاح الدين وقفت على الجدث الحديث هناك — قبر بس الماضي رحمه الله — وقفت على جدث تغشيه أزهار ذابلة ، وذكرى من الجهاد ناضرة . . . في أي تاريخ يسير السائر هذه الخطوات القليلة ، ما بين جامع بني أمية إلى مزار صلاح الدين وبين الملكين العادل والظاهر ! . . وإني لأعجب لهذه المدينة ، التي تملأ النفس جمالا وحباً ، ثم تفيضهما على القلم نظما ونثراً .

أحبت دمشق ربيع الشعر في خلدي — لا غرو أن تبعث الأشعار أشعار ، يترنم الدكتور عزام بك بمحاسن دمشق وينشد بآثارها ، ويذكر فيها مآثر العرب والمسلمين ، شأن العارف بالتاريخ الإسلامي ، العامر قلبه بالإيمان ، المخلص لدينه وعروبته ، الدارس لعلوم الشرق وآدابه .

ودع المؤلف دمشق إلى بعلبك ، وشهد هناك المعبد الروماني ، وفي وصفه يقول : « في المعبد الكبير آثار وقلاع ومساجد إسلامية من عهد الحروب الصليبية ، يتمثل في هذين المعبدين جلاد الناس والزمان .

« قد تهدم أكثر الجوانب ، وبقيت جدر وعُمُدٌ تتحدى الزلازل والغير . وكنت أحدق ببصري في أرجاء البناء . فكأني أرى بحراً مائجاً تتلاطم أمواجه وتمور لججه ، ثم أغضى مفكراً فكأني أرى أجبالا تصادم ، وصخوراً تتطاير ، فأفتح العين على هذه الصخور المنثورة بعد هذه المعركة . ما حسبت من قبل أن البشر قد قدروا على مثل معبد بعلبك . »

وركب المؤلف القطار إلى حلب ، ومشى في شوارعها وأسواقها ، ويقول : « إن أعظم ما رأينا الجامع الأموي ، وهو جامع عظيم جداً . فيه محراب عليه اسم السلطان قلاوون ، ومنبر يقال إن صلاح الدين أمر بصنعه هو ومنبر المسجد الأقصى معاً . ثم قلعة حلب العجيبة . تقوم على ربوة عالية في شكل مخروط منتظم يحيط بها خندق كان يملأ بالماء في العصور الماضية ، وقد رصفت جوانب الربوة بالحجارة ، وليس لهذه القلعة العالية الواسعة المعمّرة على هذه الربوة إلا طريق واحدة تؤدي إلى بابها العظيم » .

ثم يعود المؤلف إلى دمشق ليسافر منها إلى بغداد عبر بادية الشام ، ويقول :

« ليس في هذه المراحل من جديد إلا السيارات الضخام التي تعبر بادية الشام ، بين المدينتين الخالدتين دمشق وبغداد ، تسع واحدتها أكثر من عشرين راكباً . على مقاعد وثيرة تريح المسافر صاحياً ، وتمكنه من الإغفاء حين يغلبه النوم »

وصل بغداد : « هذه بغداد العظيمة في جمالها وكبريائها تزدحم فيها حادثات التاريخ أكثر من ازدحام أهلها وتزخر فيها ذكرى الماضي أعظم من أمواج دجلتها ، ولله بغداد ! ما يستقر بها فكر زائرها حتى يحلق في أرجاء العصور ، وأجواء التاريخ أمداً بعيداً . ما يفتأ البصر يتراءى بين (الرصافة والكرخ) يتمنى أن يقع على موكب من مواكب الخلفاء . أو مجلس من مجالس العلماء ، أو حفل للأدباء والشعراء ؛ ففي كل نظرة ذكرى خليقة ، وفي كل فكرة حديث فيلسوف أو عالم أو شاعر . . . إن حديث بغداد لا ينفد ، وحبها في القلوب لا يحد ، وإنك أيها القلم لأعجز من أن تخط الزمن الماجد والتاريخ الخالد ، والخطوب والعبر ، والقضاء والقدر في هذه الأسطر » .

ورحل المؤلف من بغداد إلى إيران ، للمشاركة في حفلات الفردوسي ، فيخترق البلاد من (قصر شرين) في أقصى الغرب إلى (طوس) في أقصى الشرق ، ويقطع السهل والجبل ، ويزور همذان وطهران ونيسابور والمشهد وأصفهان ، وغيرها من أمهات المدن ، وعواصم الأمصار ، ويشرف من أعلى جبل (أسد آباد) على همذان ، ويؤخذ بروعتها ، فيهتف : « هذه همذان الجميلة ! في حجر جبلها الأشم جبل (الوند) تبدو في زينة من أشجارها الباسقة وبساتينها الواسعة . هذه بلدة بديع الزمان ، وأحمد بن فارس وابن الفقيه ، هنا مرقد الرئيس أبي علي بن سينا » . وفي طهران يحضر المؤلف مؤتمر الفردوسي ويخطب فيه . ثم يزور من

يبق ما زار قصر (سعد آباد) مصيف الشاه : « بناء جميل في سفح جبل شمران ، شمالي طهران ، يطل على منظر رائع من الأشجار الممتدة على السفح ، وتنحدر إليه المياه متدفقة من الجبل ، والقصر بناء صغير ، قد بني كله بأحجار ذات ألوان طبيعية مختلفة ، جلبت إليه من أرجاء البلاد » .

وانتهى المؤتمر ، وقصد المؤتمرون (طوس) وعرجوا في الطريق على نيسابور : « استأنفنا السير لقاء نيسابور ، والقلوب يملؤها الشوق ، والفكر يستجمع ما وعى من أحاديث التاريخ عن المدينة العظيمة ، ذات المياه والقرى والأشجار ، المدينة ذائعة الصيت في العلم والأدب ، التي نشأت علماء يفتخر بهم المسلمون على الأدهار ، بله مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح ، وأبي قاسم القشيري صاحب الرسالة ، وفريد الدين العطار ، وعمر الخيام » .

ثم جاءوا (مشهد) أكبر مدن خرسان اليوم : « يرى الوافد على المدينة قبة عالية ، مغشاة بالذهب ، ومئذنتين مذهبتين رفيعتين ! فهذا أول ما يسر البصر من مسجد الإمام على الرضا » ، وينتهي بهم المطاف بطوس مدينة الإمام الغزالي حيث قبر الفردوسي .

ثم يقول المؤلف : « لقد سرنا من القاهرة إلى طوس ، فما أحسسنا أنا اغتربنا ، بل رأينا أنفسنا بين وجوه معروفة ، أو سنن مألوفة ، وتاريخ معلوم ، وفي مشاهد حدثتنا عنها كتبنا ، وعهدها تاريخنا ، ونشأ فيها علماؤنا ... فالعالم الإسلامي على اختلاف الأمم أمة واحدة ... فقل للذين يريدون أن يقطعوا الأوصال بما يثيرون من الجدال ، ساء صنعكم ، وفال رأيكم ... وقل للذين يلتفتون عن الشرق ليولوا وجوههم شطر الغرب ، إنما تعرضون عن أنفسكم وتاريخكم » .

ويعود المؤلف إلى حلب ليرحل منها بقطار الشرق السريع إلى تركيا ، ثم يعبر (بإطنه) ، ويوافي جبال (طوروس) : « ما أعظمها منظراً جميلا رائعاً هائلا ، سفوح مخضرة يصعد فيها الطرف حتى يبلغ قمماً شاهقة تكاد العين تقصر دونها ، قمم متسامية إذا صعد البصر إلى إحداها أزلق على السفح ليرقى في سفح آخر إلى قمة أخرى ، وإذا أسف النظر إلى الحضيض فهناك الأودية العميقة السحيقة يهول الناظر عمقها ، وروقه بين الحين والحين مياه تجرى مسرعة مزبدة متعرجة ، كأنها الأراقم راعها القطار فانسابت إلى محاجرها ، وتتوالى مرائي طوروس في جمالها وجلالها ، واختلاف ألوانها ، وارتفاعها ، واستفالها ، وما يشغل العين والفكر من صورها » .

ومر (بقونية) ، وزار « البقعة التي ترسل الشعر والحكمة والتصوف في آفاق الإسلام منذ ستة قرون ... إلى الذكرى العظيمة التي لا تزال تدوى في القلوب تقىً وشعراً ، وفي العقول حكمة وإيماناً ، وفي الآذان موسيقى وغناء ... إلى مثوى صاحب « المثنوى » و « الديوان » مولانا جلال الدين الرومي ... » .

وعبر نهر (سقاريا) : « فذكرت جلاد الأبطال على ضفتيه لدفع العدو[1] عن ديارهم ، وأكبرت البطولة التي صورتها صفحة هذا النهر ، والتي تجرى مع مائه على مر الدهور » .

ثم لاحت له مدينة « أنقرة » في أضوائها المنثورة بين السهل والجبل .

وبحث في نور من تاريخها ، ولألاء من مجدها ، وزهو بجمالها ، فذكرت قول شوقي رحمه الله :

قم ناد أنقرة وقـــل يهنيك
ملك ألمت على سيوف بنيك
تبني الممالك من صخور أعالها
والقوم من أخـــلاقهم تبنوك

وحرصت على صلاة الجمعة في أنقرة ، فسعت إلى جامع صغير ، هو أقرب الجوامع من أنقرة الجديدة ، ومن التمثال الأكبر للغازي ، وبلغت الجامع ، فإذا الناس مزدحمون في فنائه ... سرني أن يكون هذا الزحام في الصلاة على خطوات من التمثال الأكبر ، الذي يظن أنه أثيم عداوة الدين ، وخرجت أنظر إلى المسجد الصغير يموج بالمصلين ، وإلى النصب الكبير يعلوه الغازي فارساً ، ويحف به تماثيل ترمز إلى جهاد الأمة : رجالها ونسائها إبان حرب الاستقلال ،

(البقية على الصفحة التالية)

(١) يقصد اليونان .

الدولة والسيادة

للأستاذ أحمد طه السنوسي

عقد الفقهاء والباحثون فصولا طويلة حول ماهية الدولة والسيادة ، وذهب كل منهم مذهباً خاصاً به ، بيد أنهم جميعاً أجمعوا على أن الجماعة إذا اكتمل لها وصف الدولة باجتماع العناصر المكونة لها ، فإن سيادتها إذاً لا تعدو أن تتمثل في أمرين : الأمر الأول أن تستطيع أن تصدر أوامرها المطاعة لجميع أفراد رعيتها بما لها من سلطة الأمر والنهى فيهم . والأمر الثانى أن تستطيع التصرف باسمها كدولة فى المجال الدولى ، أى أن تتعامل مع الدول الأخرى تعامل الند للند ، وأن تبعث إلى سواها من الدول من يمثلها فى سيادتها وسلطانها ...

أما عن العناصر التى بها تعتبر الدولة دولة ، فالبعض يراها عبارة عن وجود شعب معين يقطن فوق أرض معلومة ، ويخضع لنظام معين ، ويتمتع باستقلال سياسى ذاتى ، وله سلطان وسيادة فى حدود إقليمه ، وبدون هذه الأركان والعناصر لا تكون الجماعة دولة ، ولا تكون كذلك لو فقدت عنصراً أو ركناً منها ؛ إذ لا تتصور دولة من غير شعب أو دون وجود إقليم أرضى يعيش فوقه ذلك الشعب ، ولا يتصور قيام دولة لا تخضع لنظام معين تضعه لأفرادها حتى توفق بذلك بين الصالح الفردى والصالح العام ، وكذلك لا تقوم الدولة إلا إذا كان لها استقلالها الذاتى دون خضوع منها لسواها من الدول ، وإلا إذا كان لها سلطانها وسيادتها ، سيادتها بنوعيها : داخلية ، وبمقتضاها يكون لها حق الأمر والنهى فى رعيتها ، وخارجية تستطيع بفضلها أن تتعامل مع سواها من الدول الأخرى...

وبعض الفقهاء يكتفى بأن تتوافر للجماعة أوصاف ثلاثة كى تصبح دولة ؛ وذلك أن يكون لها ثمة رعايا يعيشون فوق أرض معينة ، وهذان العنصران أى عنصر الرعايا وعنصر الأرض بديهيان ، أما العنصر الثالث فهو وجود « السلطة النظامية » ، وهى السلطة العليا التى تخضع لها كل سلطة سواها داخل الدولة ، ويقولون إن هذه السلطة النظامية لها شعبتان : شعبة السلطة المكانية التى بمقتضاها يخضع للدولة كل الموجودين بأرضها ، سواء أكانوا وطنيين أم أجانب ، وشعبة السلطة الشخصية ، وبمقتضاها يخضع للدولة كل رعاياها ، ولو كانوا غير موجودين بها .

وعلى هذا فالإقليم فى نظرهم غير الدولة ؛ إذ الإقليم ليس له رعايا ، وكذلك ليست له أرض معلومة تنبسط عليها سيادته ، وسلطته إذا فقدها أو فقد جزءاً منها ، فإن الدولة هى التى خولت له هذا الجزء من سلطتها ، أى وكلته فى القيام بمهام ذلك الجزء من السلطة ، ولها بعد ذلك أن تسحبه منه أنى شاءت ، لأنه ليس حقاً له ..

قلت : إنما رفَعَ هذا الفارسَ ، إلى مكانه من هذا النصب الإيمانُ المتمكن فى نفوس هؤلاء الرجال والنساء من هذه الأمة الرزأة الصابرة الكريمة » .

وصل استانبول . وجلس على شاطئ البحر « وأمواج (مرمرة) توسوس بنشيد المساء بين يدىّ ، وقد توارت الشمس بحجابها ، وذات اليسار جزر الأمراء جاثمة على الأمواج ، وذات اليمين تلوح من خلال الأشجار (مودا) الجميلة لألأة تطل فى مرآة من خليجها ، وعلى بعد تلوح الأستانة الجليلة ، تنازع منارتها الظلام عن نفسها » .

ثم يزور مساجد استنبول ومتاحفها ومعالمها وآثارها ويقول : « هكذا رأينا عصوراً من التاريخ فى لحظات ، وبدائع من الفنون فى لمحات ، وزمناً طويلا تُطوى فى هذه المسيرات ... إن تاريخ دولة من أعظم دول الإسلام يتجلى فى هذه الآثار ، وصفحة رائعة من الحضارة الإسلامية ترصّع بهذه الجواهر ... » .

ثم يمر « ببروسة » وبعد ذلك يركب السفينة ، ليعود إلى أرض الوطن .

الدمرداش محمد

وثمة رأى بأن الدولة يمتنع ألا تتمتع بوصف الدولة إلا إذا كان لها وصف الشخصية المعنوية ، بمعنى أن تكون لها شخصية افتراضية لها وحدها بوصفها دولة ، غير شخصية كل من أعضائها الذين يتمثلون فى رعاياها من الأفراد ، وبهذه الشخصية تستطيع الدولة أن يكون لها وجودها وكيانها ، سواء فيما بينها وبين سواها من الدول ، إذ أنها تتعامل مع غيرها باعتبارها دولة لا فرداً ، أو فيما بينها وبين رعاياها بوصفها صاحبة السلطة والسيادة وصاحبة حق الأمر والنهى فيهم حسب ما يقضى به نظامها الخاص .

وبعض الفقهاء يكتفى بأن تحتوى الجماعة على عنصرين حتى يكون لها وصف الدولة ، فأما عن العنصر الأول فهو وجود طبقة حاكمة ، وأما عن العنصر الثانى فهو وجود طبقة المحكومين ، أى أن الدولة لا يشترط فيها أكثر من وجود هاتين الطبقتين : طبقة الحكام وطبقة المحكومين ، والطبقة الأولى بطبيعة الحال لها حق الأمر والنهى فى الطبقة الثانية ، أى أن لها السيادة الداخلية أى السلطة على الرعايا والسلطان على الإقليم ، ولها حق التمثيل الخارجى وحق التعامل مع طبقة الحكام فى الدول الأخرى ، أى أن لها كذلك سيادة خارجية .

والسيادة الداخلية للدولة فى نظر البعض تقتصر على حقوق خمسة ، هى حق التنظيم السياسى ، وحق التنظيم الإدارى ، وحق التشريع ، وحق القضاء ، وحق الدومين العام ، أى امتلاك الأملاك العامة التى تخصص للصالح العام لا لمصالح فردية ، وذلك كالطرق والجسور والكبارى وما إلى ذلك .

ويمثلها آخرون فى حقوق ثلاثة : أولها حق الدولة فى تنظيم نفسها أى حقها فى تعيين من يمثلونها فى استعمال حقوقها ، وثانيها حقها فى فرض السلطة الآمرة على رعاياها لنشر الأمن وتدعيم النظام والطمأنينة بين ظهرانيها ، وذلك عن طريق البوليس ، وثالثها حقوقها المتعلقة بالمال أى حقوقها التى تستعمل بمقتضاها أموالها فى مناحى الصالح العام ، ويدخل فى ذلك حقها فى امتلاك الأملاك العامة أى الدومين العام وحقها فى جباية الضرائب وحقها فى الاحتكار .

ويقصرها البعض على حقها فى تنظيم البوليس ووسائل إدارة المصالح العمومية ، ويدخل فى كل ذلك حقها فى تنظيم المصالح العمومية كحق التجنيد وحق القضاء وحق فرض الضرائب وحق التعليم ، ويدخل فيها كذلك إدارة الأملاك العامة ونزع الملكية للمنفعة العامة وجباية الضرائب والأشغال العامة وتعيين الموظفين وما إلى ذلك .

أما السيادة الخارجية فهى ما تعرف بالسيادة الدولية ، أى مركز الدولة فى المجتمع العالمى ، أو بالأحرى فى نظر سواها من الدول ، وليست الدول جميعاً ذات سيادات دولية متكافئة ، بل الدول من حيث سيادتها تتفاوت ، فهناك دول تامة السيادة وأخرى ناقصتها .

والدول الناقصة السيادة ضروب وأنواع ، فبعضها يرجع نقص سيادتها إلى أنها محمية protégé أو إلى أنها تابعة Vassal ، ويرجع نقص البعض إلى كونها دولاً واقعة تحت الانتداب sous mandat ، أو إلى كونها داخلة فى تأليف دولة متحدة اتحاداً فيدراليا Fédéral ، وبالجملة مصدر نقص السيادة الدولية يرجع إلى علاقة الحماية Protectorat أو إلى علاقة التبعية Vassalité أو إلى علاقة الوصاية Jutelle .

على أن مسألة السيادة التامة لدولة ما ليست من الصراحة بحيث تكون دقيقة إلى حد بعيد ؛ إذ السيادة مهما وصفت بوصف التمام ، فهى نسبية بحكم الضرورة ؛ لأن للمجتمع الدولى ظروفه غير الظروف التى تسود المجتمع الفردى لكل دولة على حدة ، ولقد بلغ العالم الآن حداً بعيد المدى فى ربط العلاقات الدولية وتنظيم الروابط بين الدول ، ولقد تطلب ذلك أن توضع الحدود على سيادة كل دولة حتى لا تطغى على سيادة الدول الأخرى أو تتعارض معها ، كما أن ثمة قواعد سائدة فى المجتمع الدولى تخضع لها الدول برضاها ، ويطلق على تلك القواعد اسم قواعد القانون الدولى ، يضاف إلى ذلك أن المبدأ الدولى القائل بالمعاملة بالمثل Représailles يحد كذلك من سيادة الدولة إذا كانت تامة . . . ومن هذا يتبين مبلغ حقيقة السيادة التامة للدولة ، ويتضح كيف أن الأصح تسمية هذه السيادة بالسيادة التامة النسبية .

أما عن معيار السيادة الدولية ، فالدولة تثبت لها هذه السيادة إذا توافر فيها شرطان ، شرط أهليتها التى بها تستطيع أن تكسب نفسها الحق وتحمل نفسها بالأعباء والالتزامات ، وشرط قدرتها على إنشاء وعقد العلاقات بينها وبين سواها من أعضاء الجماعة الدولية Communauté des Etats . والبعض لا يقصر هذه القدرة على إنشاء

(البقية على الصفحة التالية)

تشبثنا بالقـــديم

يحقق أهداف الاستعمار

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

إذا استعرضنا تاريخ الاستعمار في مصر نجد أن المستعمرين لجأوا إلى كل وسيلة مستطاعة ليحملونا على التشبث بالقديم العتيق من الآراء والمعتقدات والتقاليد. ولاشك أنهم أفلحوا في تعويق تقدمنا، فسرنا مقيدين بأغلالهم في بطء. ولكن الاستعمار عجز عن إيقافنا حيث كنا عام ١٨٨٢ رغم ما بذله من جهود وما توسل به من حيل في تلك السبيل. وقد نما وعينا، ووصل في الأيام الأخيرة إلى حد من النماء مكننا من الإلمام بأسرار سياسته الخبيثة، والوسائل التي يتذرع بها لتحقيق أهدافه.

وجد رجال الاستعمار في المدارس المصرية أصلح بيئة لشن دعاياتهم المسمومة، فقد حسبوا أن بث سمومهم في النشء المتعلم كفيل بأن يؤتي الثمار المرجوة. ومما لاحظه الجيل الماضي أن كل مدرس انجليزي في مدرسة مصرية اعتاد أن يكرر نفس الدعاية الاستعمارية التي درج زملاؤه الإنجليز على تكرارها في سائر مدارس القطر المصري. وهذا يدل على أن الاستعمار كان يلقنهم تلك الدعاية ويسخرهم في ترويجها وفقاً لسياسة مرسومة. ونحن نذكر فيما يلي بعض ما كانت تلوكه ألسنة عملاء الاستعمار:

« إن الشرق سحراً يبهر العالم أجمع. وهذا السحر مستمد من تقاليد الشرق القديمة المتوارثة التي كانت إلى حين قريب تتجلى للأجنبي من خلال كل مظهر من مظاهر حياة الشرقيين. ولكن الشرق أخذ يفقد هذا السحر شيئاً فشيئاً في الأيام الأخيرة. فأين الحمير التي كانت تجوب شوارع المدن المتربة حاملة ركابها من مكان إلى مكان؟ وأين

القواعد والاتفاقات بينها وبين الدول الأخرى بقصد تنفيذ ما تضمنته على أساس التراضي، وإنما تزيد على ذلك القدرة على مخالفة القواعد والاتفاقات التي ترى أن مصلحتها تقتضي الخروج على أحكامها.

على أن الدولة لا تثبت لها السيادة الدولية أي سيادتها في الخارج إلا إذا كانت متمتعة بسيادتها في الداخل، بمعنى أن تكون لها سلطة عليا تخضع لها رعاياها، ولها حق الأمر فيهم وفقاً للنظام الأساسي الذي تدل على منهاجه؛ إذ كيف تمارس دولة سيادتها في الخارج وهي غير متمتعة باستقلالها فاقدة لسلطة عليا تنظم كيانها التنظيم الذي يكسبها وصف الدولة. وعلى ذلك فالدولة التي لها السيادة الدولية هي التي تتمتع بسلطة عليا وتنظيم سياسي في الداخل، ولها الاستقلال التام في الخارج.

ويلاحظ أن كل دولة كانت قديماً تعتبر الدول الأخرى أعداء مناوئين لها، ومن أجل ذلك لم تعرف فكرة السيادة الدولية أو الاستقلال التام في الخارج.

وفي القرون الوسطى كان للكنيسة دور هام فيما يتعلق بالسيادة؛ ذلك أن الكنيسة نازعت الدولة في سيادتها، حتى خضعت الدولة لها، ثم تطور الحال حتى صارت الدولة في مستوى مساو لمركز الكنيسة، وأخيراً اضمحل مركز الكنيسة، وخضعت هي بالتالي للدولة، فصار لهذه الأخيرة السيادة.

وقد كان تطور العلاقات الدولية ونظرية السيادة داعياً لقيام حركة تمثيل الدولة في سيادتها، بمعنى أن الدولة يكون لها من يمثلها في السيادة أو الاستقلال الذي تتمتع به في الخارج، ورئيس الدولة ووزير الخارجية والممثلون الدبلوماسيون كل أولئك يمثلون الدولة في هذه السيادة وذلك الاستقلال.

والدولة إذ تستمد سيادتها الدولية من أهليتها وقدرتها السالفة الذكر، إنما تعتمد في ذلك على سيادتها الداخلية، وهذه قد يمسك زمامها حاكم واحد مطلق، وقد يشترك معه البعض، وقد يمسك زمامها الشعب وفق نظرية « سيادة الشعب La Souveraineté Nationale ».

أحمد طه السنوسي

المركبات والكاروهات المحملة بالنساء المبرقعات ؟ وأين ما كان يخترق القاهرة من خلجان وقنوات ؟ وأين الفتيات يقصدن موارد الماء لملء جرارهن ؟ أين منظر هؤلاء الفتيات المتبخترات والجرار محملة فوق رؤوسهن ؟ بل أين الفرسان يمتطون جيادهم الأصيلة ، ويجتازون بها الطرقات بين صفوف المهللين المصفقين ؟ أم قد نسيتم جمال مشهد المراكب النيلية الشبيهة بمراكب قدماء المصريين ؟ ألا يفضل منظرها وهي تنساب على صفحة النيل منظر البواخر الحديثة ؟ وهذه القرى الطينية التي تشمئزون منها اليوم ، أليست عامرة بأجمل الذكريات ؟ . . . إنكم تحطمون اليوم بأيديكم أثمن ما امتازت به بلادكم من فتنة وظلت تتيه به أحقابا على أمم الغرب . فهلا أقلعتم عن تقليدكم الأعمى لتلك الأمم ، وعدتم إلى الاستمساك بما خلفه لكم جدودكم من تراث ثمين ؟ . . . أليست الحبرة والبرقع والقفطان والجبة والعمامة هي أزياؤكم الوطنية ؟ فكيف تستبدلون هذه الأزياء الرائعة الخلابة بالزي الأوربي التافه !! ثم إن الأكل بأصابع اليد والشرب من الزير ، والجلوس القرفصاء أسمى مما التجأتم إليه في هذه الأيام من البدع الغربية ، إنكم تصمون قلوب العقلاء حسرة بتحطيم البقية الباقية من موروث مجدكم القديم . . . »

بمثل هذه الأضاليل كانوا يموهون علينا الحقيقة ، فيسخروننا في ترويج كل رأي عتيق يحول دون اطراد تقدمنا . ولم نعدم نحن التلاميذ في ذلك الحين مناضلين كانوا يهبون من بيننا ، ويقارعون دعاة الاستعمار الحجة بالحجة ، ويردون باطلهم إلى نحورهم . ومما أذكره من تعليق زملائي التلاميذ على مثل هذه الأراجيف الاستعمارية قولهم :

— أتمسكنا بالقديم ، وتأخرنا عن ركب الحضارة يفيدنا نحن أم يفيدكم ؟ . .

— أمنظر الحمير والجمال تجوب شوارع مدننا يسرنا نحن أم يسر الغرباء الذين ينشدون المتعة جريا وراء الغرابة والشذوذ ؟

— أتودون أن يظل المصريون والمصريات يركبون الحمير ، وإدارة الشواديف ، وجر مراكب النيل بالحبال ، والاختناق بالبراقع ، واحتمال ثقل الجرار ، لتمتعوا أعينكم بما تسمونه المشاهد الشرقية الخلابة ؟

— أنتم لا تفكرون إلا في أنفسكم ، ولا تبغون إلا مصلحتكم . وقد أحتكم الأثرة مما يعانيه غيركم من شدائد ملابسكم الحالية ، ومظاهر حياتكم المختلفة وطنية أم مقتبسة من بلاد أخرى ؟ ولماذا استبدلتموها بملابسكم الوطنية القديمة ، وتقاليدكم العتيقة ؟ . . .

أم تنقل الدول الأوربية مظاهر الحضارة بعضها عن بعض ؟ وقد استعانت بالاقتباس والتكاتف على الوصول إلى ما وصلت إليه من ذلك المستوى الحضاري الرفيع ؟ . . .

وإني لأستعيد الآن بالذاكرة ما كان يدور من نقاش في ذلك العهد القديم حول هذه الأسئلة وما تضمنها من ردود مفحمة ، وتملكني الإعجاب بحملات أولئك الإخوان الصغار على دعاة الاستعمار . وأود أن أسوق هنا بعض ما أذكره من ذلك النقاش الذي أكدت لي تجاربي ومعلوماتي المقتبسة من طول البحث والاطلاع والتمحيص صواب وجهة نظر زملائي فيه . كان المستعمرون يحاولون إقناعنا بضرورة التفرقة بين مظهر الحضارة وجوهرها . فالزي والمسكن والمواصلات والملاهي وغير ذلك من مظاهر الحضارة لم يكن في زعمهم إلا عرضا لا أثر له في تقدم الأمم . ولكن إخواني الصغار استطاعوا أن يستجلوا الحقيقة ببصيرتهم الواعية السليمة ، وأن يكشفوا ضلال المضللين بما أشرنا إليه في الأسطر السابقة من تساؤلهم عن السبب الذي حمل الإنجليز على تقليد الدول الأوربية الأخرى في مظاهر حضارتها كافة ! ؟ وهل كانت انجلترا تعد اليوم في الدول المتحضرة لو أن أفراد شعبها ظلوا يسكنون الكهوف ويلبسون الجلود ، رغم ما بلغه مستواهم الاقتصادي والثقافي من مستوى رفيع ؟ إن الحضارة وحدة مكونة من مظهرها وجوهرها معا ، ومن السخف التفرقة بين هذين ، أي بين مظهرها وجوهرها . فالأمة التي تريد الانضمام إلى الركب الحضاري يجب ألا تشذ عن غيرها من أمم ذلك الركب في مظهر أو جوهر ، وإلا عدت غريبة عنه . . .

كان المدرسون الإنجليز ينهزمون أمام إخواني التلاميذ في كل مناقشة تدور حول هذا الموضوع ، ولكن هذا لم يمنعهم من معاودة الكرة ، متذرعين بأساليب جديدة يحاولون أن يدعموا بها حججهم الواهية ، على أن إخفاقهم في مجال المناقشة لم يمنعهم من تنفيذ آرائهم الرجعية بالحيلة تارة وبالقوة تارة أخرى . فهم الذين شجعوا دعاة الرجعية من المصريين على الاحتفاظ بما ظل باقيا إلى اليوم من

مظاهر العهود العتيقة البائدة ، وهم الذين فرضوا الحجاب بالقوة على الفتيات بالمدارس الأميرية ، وقاوموا حركة التوسع فى تعليمهن بوسائلهم الخبيثة ، وهم الذين أهملوا إصلاح الريف حتى صار إهماله تقليداً لا نزال نسير عليه إلى اليوم ، وهم الذين حاولوا خنق الصناعات المصرية ، وظلوا يدخلون فى روعنا أن الزراعة أولى باهتمامنا من الصناعة ، لأن بلادنا خلقت زراعية ولن تكون غير ما خلقت له ، وليس من أهداف هذا المقال حصر ما أقدم عليه الإنجليز فى سبيل حثنا على التمسك بالقديم ، والتخلى عن محاولة التقدم ؛ ولكننا ذكرنا ما ذكرناه على سبيل المثال الذى يعين القارىء على فهم الأهمية التى يعلقها الاستعمار البريطانى على بقائنا منكمشين فى حدود ما ألفناه من موروث العادات والتقاليد .

إن استمساك الشعوب المحافظة بالقديم ، وأنفتهم من اقتباس أى جديد وارد لهم من بلاد أجنبية ، يرجعان إلى فهم خاطىء لحقيقة الحضارة ؛ فالشعوب المحافظة تجد غضاضة فى التطلع إلى حضارة غيرها ، فى حين أن الحضارة ليست من بناء أمة واحدة أو أمم معينة ، ولكن كثرة أمم الأرض اشتركت وتعاونت على تشييد صرحها ، وإذا فهمت هذه الحقيقة على أساسها العلمى الصحيح فأية غضاضة تجدها أمة ما فى الاغتراف من معين الحضارة العامة التى هى فى الواقع من نسج الجميع ، وملك الجميع ! ؟ .

من الواضح أن قدماء اليونان اقتبسوا حضارتهم من المصريين عن طريق الفينيقيين ، واقتبس العرب حضارتهم من اليونان القديمة وفارس ، وقامت نهضة أوربا الحديثة على ما وصل إليها من تراث العرب الفكرى وتراث اليونان العرب . فإذا تطلعنا نحن المصريين اليوم إلى الحضارة الغربية ، ونقلنا عنها فإننا نسترد بعض ما نقله عنا الأقدمون من بناة الحضارة ، ومما لا يجوز أن يغيب عن البال أن أخذ الدول الأوربية والأمريكية فى العصر الحديث بأسباب حضارة واحدة فتح مجالا واسعاً بين تلك الأمم للتعاون على التجويد والإتقان ، ودخولنا نحن فى ذلك الميدان بلا تحفظ يمكننا من تتبع كل خطوة تقدمية جديدة عن كثب ويعيننا بعد ذلك على إفادة غيرنا بعد الاستفادة منه .

وقد يقول الرجعيون منا : إنه أولى بنا أن نعمل على إحياء حضارتنا القديمة بدل اقتباس الحضارة الأوربية ما دامت هذه الأخيرة مستمدة من حضارة الشرق . ولكن يفوت هؤلاء أن الدول المتحضرة تضيف إلى حضارتها المقتبسة عناصر جديدة من عندياتها مما يرفع مستوى الحضارة المكتسبة ويغيرها تغيراً كيفياً . وعلى الأمم المتأخرة التى تحاول بعد يقظتها اللحاق بغيرها من الأمم المتحضرة أن تقتبس من ألوان الحضارة ما بلغ أعلى مراتب الجدة ، لا أن ترجع إلى الأصول العتيقة التى قامت عليها تلك الحضارة . ولتقريب هذه الوجهة من النظر إلى الذهن نقول إن الكثير من أمهات الأدب الغربى مقتبس من الأدب العربى أو الشرقى القديم ؛ ولكن التحوير الذى أدخله كتاب أوربا على الأصل الشرقى رفعه إلى مستوى ثقافى جديد ، بل بناه على أساس علمى جديد ، وغيره تغيراً كيفياً . وأولى بنا نحن المصريين أن نرجع إلى أحدث ما وصل إليه الفكر الإنسانى ، وأن نعمل على إضافة الجديد إليه بعد تمكننا من الدراسة والفهم .

ويجمل بنا إحقاقاً للحق الذى ندعوهم الرجعيين أن نقول : إنهم ينشدون التقدم ، ولكنهم يخطئون سواء السبيل . فهم يضيقون ذرعاً بعيوب الحاضر ، مثلهم فى ذلك مثل أى تقدمى . وهم يتوقون إلى مستقبل أفضل من حاضرهم ؛ فإذا رجعوا إلى تاريخهم بهرهم مجدهم القديم ، وحينئذ يقعون فى الخطأ .. فيحسبون أن العودة إلى شرائع الماضى ومعتقداته وتقاليده كفيلة بأن تعيد لهم ذلك المجد القديم . وقد فاتهم أن وسائل الرقى تختلف باختلاف العصور . وما أفاد فى ظروف وملابسات خاصة تزول فائدته بتغير تلك الظروف والملابسات .

إن هؤلاء الساخطين على الحاضر ، الملتفتين إلى الوراء سعياً إلى تحسينه ، عنصر هام من عناصر التقدم التوى به السبيل ، واختلف الوعى ؛ فإذا اهتم كل من يدرك هذه الحقيقة بتبصير أولئك الساخطين بها ، وإفهامهم أن تحسين الحاضر لا يكون إلا من واقع دراسته ودراسة الظروف المحيطة به ، والتماس العلاج من تلك السبيل ، لا من سبيل الماضى ، فإن أولئك الساخطين لا يلبثون أن يصبحوا عاملاً هاماً من عوامل نهضتنا المرتقبة .

محمد مفيد الشوباشى

لغـــــة ابن سينا

للأستاذ طه الحاجرى

وددت لو لم يصعن الأستاذ الصديق الدكتور شوقى ضيف عن التحقيق والتدقيق ، وإمعان النظر ومراجعة الفكر ، فى بحثه المنشور بالعدد الخاص بابن سينا ، من مجلة الثقافة ، عن « لغة ابن سينا » ، إذاً لاستطاع — فيما أحسب — أن يبلغ من هذا الدرس البالغ الذى يطلعنا فى دقة ووضوح على خصائص أسلوب ذلك الرجل ، ويعرفنا فى شىء من الاستقصاء بهذه الناحية التى أغفلها الدارسون ، وهى ناحية جديرة بالدرس العميق والتحليل الدقيق . والدكتور شوقى ضيف حقيق — فيما أعرف — بأن يصل من ذلك إلى مقطع الحق ، أو إلى تجلية هذه المسألة تجلية يحمدها العلم وأسلوب البحث ، لو أنه تلبث وتمكث ، ولم يطع دواعى العجلة ، فجمع لهذا الدرس نفسه ، ووفر له مادته ، وأعد له أسبابه وأدواته . والموضوع جدير بهذا كله ، ولكنها هى العجلة التى طبعت مقالته بطابعها ، إذ تطالع القارىء فى كل مقطع من مقاطعها ، وقد جعلتها — وليغفر لى الصديق الفاضل — مجموعة من القضايا العامة ، والنتائج المغلقة ، والأحكام المبتسرة ، وأبرزت للقارىء من ابن سينا صورة شائهة منكرة ، بإزاء الصورة الرائعة التى عرفها له الناس جميعاً فى العلم والطب والفلسفة .

والصورة التى أراد الدكتور شوقى أن يرسمها لابن سينا من الناحية اللغوية هى صورة رجل أعجمى ، لا تصله بالعربية إلا صلة واهنة ضعيفة ، شأنه فى ذلك شأن أكثر المشتغلين بالفلسفة ، كما يقول ، والذين « لم يكونوا من العرب الخلص ، ولا ممن كونوا لأنفسهم سليقة عربية دقيقة ، بل كانوا من الأعاجم الذين يتخذون لغتهم الأعجمية فى حياتهم اليومية ، والذين لا يلمون باللغة العربية ولا يحسنونها إلا على نحو ما يحسنها المستعربون فى عصرنا » وبذلك جاء أسلوبه أسلوباً معجمياً لا حياة فيه ، لأنه ينتخب ألفاظه من المعاجم ، بل « من المعجم اللغوى المهلهل ، لأنه لم يكن عربياً ، ولم يأخذ العربية عن أصحابها مباشرة ، بل أخذها عن كتب اللغة ، كمن يكتب الإنجليزية أو الفرنسية اليوم متعلماً لها من المعاجم ، لا على أيدى أساتذة يفقهونه على خصائص الألفاظ ، وما يستعمل منها وما لا يستعمل » .

وهذه هى صورة ابن سينا الكاتب كما وصفها الدكتور شوقى بإزاء أعيننا ، وقد أراد أن يفرضها علينا فرضاً ، دون شرح أو بيان يبين أسبابه إليها ، والبواعث التى أوحت بها ، من نصوص يحللها ويبين فيها بياناً واضحاً دقيقاً ملامح ذلك الأسلوب المعجمى وسماته .

لقد كان فى هذه الدعوى الخطيرة ، التى نعرف أن الصديق الفاضل يقدر مدى خطورتها وجرأتها ، ما من شأنه أن يحمله على أن يحشد لها الأدلة حشداً ، ويوفر لها الشواهد والأسانيد التى تقطع كل شبهة ؛ ولكنه تجاوز هذا دون أن يجأ به إلى الكلام عن تاريخ الترجمة ، وأساليب الفلسفة ، ومعجمة المتفلسفة ، وليس فى شىء من هذا ما يجعل هذه الدعوى الخطيرة التى يدعيها أمراً محتوماً ، فقد كان عليه أولا أن يثبتها ، ثم له — إن شاء — أن يمضى فى التماس العلل لها ، على النحو الذى أورده فى بحثه ، ولا أريد هنا أن أناقشه فيه إذ ليس له فى البحث موضع ، حتى يتفضل أولاً فيسند دعواه ، ويثبت قضيته .

وأنا لم أنس بعد أن الدكتور شوقى ساق فى بحثه دليلا وصفه بأنه واسع الدلالة على ما يقوله « من أن ابن سينا لم يتعلم دائماً اللغة التى استخدمها فى كتاباته الفلسفية على أهلها ، ولا على شيوخ وأدباء وقفوه على حدود ألفاظها ، ووجوه تصاريف عباراتها ، وإنما تعلمها فى كثير من أحواله على الأقل ، عن طريق المعاجم اللغوية ، مثل التهذيب وغير التهذيب ، ومن ثم كانت أساليبه فى بعض جوانبها شديدة الانحراف عن الذوق العربى ، وكانت فى حاجة إلى شرح وتبيان وإيضاح » .

أما هذا الدليل فهو ما حكاه أبو عبيد الجوزجانى ، تلميذ ابن سينا وصاحبه — وأورده ابن أبى أصيبعة — من

خبر أستاذه مع أبي منصور الجبائي ، في مجلس الأمير علاء الدولة ، بأصبهان . قال : « وكان الشيخ جالساً يوماً من الأيام بين يدي الأمير ، وأبو منصور الجبائي حاضر ، فجرى في اللغة مسألة تكلم الشيخ فيها بما حضره ، فالتفت أبو منصور إلى الشيخ يقول : إنك فيلسوف وحكيم ، ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي كلامك فيها ، فاستنكف الشيخ من هذا الكلام ، وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين ، واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان ، من تصنيف أبي منصور الأزهري ، فبلغ الشيخ في اللغة طبقة قلما يتفق مثلها » . إلى آخر هذا الخبر الذي يدل على لون جديد من ألوان الطموح العلمي والرياضة العقلية عند هذا الشيخ ، حتى يعكف على درس اللغة ، درس من يريد التخصص فيها ، وقد بلغ ما بلغ من منزلة مرموقة في الطب وعلوم الأوائل .

أما الدلالة التي يشير إليها الدكتور عوض فأين عسى أن تكون ؟ إن النص ، حتى بالصورة التي أورده بها ، وقد حذف صدره أو أغفله ، لا يحمل شيئاً من الدلالة على تلك الدعوى ، فالصلة منبتة تماماً بين الدليل والدعوى ، أم يحسب الأستاذ أن مجرد الاتجاه إلى درس اللغة والإيغال في هذا الدرس يحمل بذاته الدلالة على أنه إنما يتعلم اللغة التي « يستخدمها في كتاباته الفلسفية من طريق المعاجم اللغوية » ، ويكون نهج الاستدلال هكذا : لقد أخذ على ابن سينا أنه لم يقرأ من اللغة ما يتفق ومكانته ، أو ما يجعل كلامه فيها مقبولا ، وإذاً فقد كان رجلا أعجمياً جاهلا بالعربية ، ثم توفر على درس اللغة ، واستهدى كتاب التهذيب ، وإذاً فهذا هو مصدر معرفته بالعربية ، وإذاً فعربيته التي يكتب بها كتبه ورسائله هي عربية المعاجم التي لا تعرف حدود الألفاظ ولا وجوه تصريف العبارات .

كذلك ينبغي أن يكون وجه الاستدلال بهذا النص ، لنصل إلى هذه النتيجة !

ولست أدري أقرأ الصديق الفاضل صدر هذا الخبر الذي وضعه موضع الحجة لكلامه أم لا ، فلو أنه قرأه أدق قراءة لعلم أن أبا منصور الجبائي لم يأخذ عليه ما أخذ ، لأن عبارته كانت مستغلقة ، أو بيانه العجمة ، بل لأن ما تكلم به في تلك المسألة اللغوية التي عرضت في المجلس هو دون ما ينبغي لمثله ، أو هو كلام رجل غير مختص .

والمسائل اللغوية شيء غير اللغة باعتبارها أداة للتعبير ، وما أكثر من يملكون هذه الأداة أحسن ملكة ، ويصرفونها أمثل تصريف ، ثم هم لا يعدون من علماء اللغة ، ولا يعرفون كيف يتناولون مسائلها ويعالجون متنا كلها .

وأخرى : أن هذه القصة إنما جرت في مجلس علاء الدولة ، والفترة التي اتصل فيها ابن سينا بهذا الأمير هي الفترة الأخيرة في حياته ، وكان في ذلك الوقت قد كتب معظم كتبه ، ودون أكثر رسائله ، دون أن يحتاج في تحصيل الألفاظ وبناء الجمل وصياغة الأسلوب إلى كتاب التهذيب ، وإن هذا النص الذي بين أيدينا والذي ساقه الدكتور عوض يدلنا على أنه لم يكن حتى ذلك الوقت ، وقد اكتملت نواحي شخصيته ونضجت وبلغ ذلك الأوج الرفيع في عالم التأليف والكتابة في شتى فنون المعرفة ، قد اتصل بكتاب التهذيب هذا ، ومع ذلك يقال إن هذا النص نفسه دليل على أنه إنما تعلم اللغة التي يكتب بها من هذا الكتاب ! وما رأيت كهذا الأسلوب في قسر النصوص وإكراهها وتحميلها ما لا تحتمل في سبيل إثبات فرض لا شاهد له ، ولا سند يقيمه أو يمسكه

وما أرى إلا أنها العجلة ، كما قلت في صدر هذا الفصل ، فهي التي سول شيطانها للأخ الفاضل أن يستخدم هذا النص على تلك الصورة ، مكارهة ، إذ جعلته ينظر إلى النصوص نظرة طائرة عابرة ، كما صنع في هذا النص الآخر من كلام ابن سينا عن نفسه ، وعن المراحل التي مر بها في تكوين شخصيته العلمية ، وهو صبي بعد : « حتى أحكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي ، ثم عدلت إلى الإلهي ، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة ، فما كنت أفهم ما فيه ، والتبس على غرض واضعه ، حتى أعدت قراءته أربعين مرة ، وصار لي محفوظاً ، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به » .

وليس في هذه الفقرة إلا أن ابن سينا يصور حالة من حالاته العقلية ، وهو يحصل فنون المعرفة في صباه ، حين انتقل من لون منها إلى لون آخر مختلف عنها ، فلم يجد في ذهنه الاستعداد الذي كان له من قبل ، إذ كان يدرس المنطق والرياضي والطبيعي ، فتعسر في فهم كتاب ما بعد الطبيعة ، فلم يستسلم ولم يغلبه اليأس منه لأول وهلة ، بل أخذ يقرؤه المرة بعد المرة ، محاولا أن يظفر بفهمه ، وما زال الكتاب يستعصي عليه ، ويتأبى على إدراكه ،

إقبال وطاغور

للأستاذ أنور الجندي

شاعران من آسيا ، ومن قارة الهند بالذات ، طبقت شهرتهما الآفاق ، ووصل اسمهما إلى أعلى ذروة يمكن أن يصل إليها اسم شاعر .. كتب إقبال شعره بالفارسية وكتبه طاغور بالإنجليزية .. واستهدف كل منهما الوجهة التي تتصل بحياته ونفسيته ومحيطه .. وقد درس كلاهما في أوربا ، وفي انجلترا بالذات ، وقاما بسياحات في العالم الغربي .. وعاد كل منهما إلى وطنه الأول ، وهو يحس بالدافع الذي يحدوه إلى أن يؤدي له بعض حقه ...

أحب طاغور « البرهمية » ، وعاش يجدد أساطيرها ويصوغها على وجه يتناسب مع روح العصر . أما إقبال فقد أحب الإنسانية كلها ممثلة في الدعوة إلى الإسلام ..

وعاش طاغور في محيط الحياة القائمة ، ورسم صورها ، أما إقبال فقد عاش في المستقبل البعيد ... عاش في الصورة الحلوة الملذة ، صورة الباكستان ..

كان طاغور صورة الشاعر الذي استبد به تراث البرهمية الذي ورثه عن أجداده ، فلم يستطع العلم الجديد ، ولا محيط الحياة الأوربية أن يخفضاه من آثاره ، وسرعان ما عاد إلى الهند ، فتأججت في نفسه العاطفة القديمة الموروثة ، فعاش ينشرها في صور جديدة لاقت الإعجاب والتقدير .

أما « إقبال » فقد زادته المدنية الأوربية والثقافة الغربية ثقة بأن الإسلام هو دين الإنسانية ، وبأن الدين الحق هو السبيل الناجع إلى حل كل الشاكل العقدة التي يضطرم بها صدر العالم الحديث .

لقد أدى طاغور اتجاهه الشعري الخالص إلى معارضة غاندي ، فقد كان يسخر من الدعوات التي تعرض أتباعها لتضحيات عديدة ، وتطلب من أصحابها وضعاً معيناً يحتمل

وما زال هو يقاوم ويغالب ويصابر ، فيعيد قراءته ، رجاء أن ينفتح له مغلقه ، حتى صار الكتاب محفوظاً له ، من أثر هذه المعاودة والمراجعة والتكرار ، وإن لم يفهمه ، حتى يئس أخيراً من نفسه ، وقال : « هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه » ، إلى آخر القصة التي أعرض الدكتور شوقي عن اشكالها ، إذ أتيح لابن سينا كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ، فانفتح له به ما كان مستغلقاً منهما .

هذه هي الصورة القريبة التي يؤديها النص أداء طبيعياً ، بأسلوبه الطبيعي اليسير ، ولكن الدكتور شوقي ، وهو حريص على أن يرى في كل شيء ما يؤيد دعواه ، يعلق عليه بقوله : « وأنا لا أريد أن أرمى ابن سينا بقية شهادته على نفسه ، من أنه كان يعمد إلى الحفظ حين يستعصى عليه الفهم ، إنما أريد أن أستبق شيئاً خفيفاً جداً من هذه الشهادة ، وهي أنه تعود أن يكرر ألفاظاً لا يفهمها أو على الأقل كان يصنع ذلك حين يعوزه الفهم » .

وأين هذا الكلام من ذاك ؟ أفي النص ما يدل على أن الحفظ عن ظهر قلب كان غرضاً له يقصده ويعمد إليه ؟ أفيه ما يدل على أنه إذا لم يظفر بفهم كتاب ما بعد الطبيعة اكتفى من الفهم بالحفظ ؟ لقد كان ابن سينا دقيقاً غاية الدقة في عبارته عن حفظ كتاب ما بعد الطبيعة بعد أن أعاد قراءته أربعين مرة ، بقوله : « حتى صار لي محفوظاً » أي أنه بهذا التكرار قد انتقش في حافظتي ، دون أن يكون ذلك من عمل ، ومع ذلك فلو أنه قال بدلا من هذا : « حتى حفظته » لمنع سياق القصة من أن يفهم من هذه العبارة أنه كان يعمد ، أي يقصد ، إلى الحفظ حين يستعصى عليه الفهم ، كما يقول الدكتور شوقي ، فما بالك والرجل قد عبر بهذه الصيغة التي لا تدع سبيلا لمثل هذا الفهم .

وبعد فحسبي هذا القدر من مناقشة مقالة الدكتور شوقي ، وهو عندي أكبر وأجل من أن تتخطفه روح العجلة ، فيمضي مع اللمحة الطائرة والخطرة العابرة ، وسلام الله عليه ورحمته وبركاته .

طه الحاجري

فى سبيله الكثير من المتاعب ، وأخذ عليه رومان رولان جهله بالحقائق الاقتصادية وانعدام الناحية العملية فى نفسه ..

أما إقبال فقد كان الرائد الأول لپاكستان ، وكان على شاعريته الصادقة ، واقعياً ، يفهم فى السياسة ومناوراتها ، وينفذ إلى أغوارها .. وكان محمد على جناح يقول عنه « إنه دليل ورفيق » .

وفى الوقت الذى كانت فيه الدوائر الغربية تقبل على شعر طاغور وتصطفيه بجائزة نوبل ، كانت تغض الطرف عن شعر إقبال ..

ذلك أن طاغور كان يعيش فى « البرهمية » وحدها ويشبع أحلامه من جمال الطبيعة وتغريد العصافير وعبير البرتقال . أما إقبال فكان يدعو إلى تجديد بناء المجتمع الإسلامى مع الانتفاع بالتطورات الحديثة ، وكان يدعو إلى تحرير الفرد تحريراً اجتماعياً ، وتأويل الكون تأويلاً روحياً ، وإقامة مبادئ أساسية لنهضة جديدة .

ولم تكن أوربا لتعطف على شاعر يدعو إلى اليقظة ضد الاستعمار ، ولذلك أهمل شعره إهمالاً فى التقدير الأوربى ... وإن كان بعض النقاد يرجع ذلك التقدير الذى حظى به طاغور إلى أن شعره كتب باللغة الإنجليزية ، وهى من اللغات العالمية ..

* * *

ولد طاغور فى كلكتا عاصمة البنغال فى ٧ مايو سنة ١٨٦١ ، وبدأ نظمه بوصف زهر النيلوفر ، وسافر فى شبابه إلى انجلترا لدراسة القانون ، ولم يلبث أن عاد ، وانصرف إلى دراسة الدين والفلسفة والأدب ..

ونقل القصص الدينية إلى فن جديد ، جعلها ذات معنى فى نظر أهل العصر ..

واتصبت فلسفته على المطالبة بالانطلاق من قيود الأمور الواقعة ، وطالب بتحرير الأفكار من الشهوات والمطامع وسائر المؤثرات .

ومضى يغرد ، ويرسم صور الفن الخالصة التى لم تكن تستهدف سوى الفن وحده ، وهو فى ذلك يختلف كل الاختلاف مع « إقبال » الذى آمن بأن الفن للحياة ، ووقف شعره على النهضة .

وزار طاغور فى أيامه الأخيرة إيطاليا وألمانيا وهولندا وبريطانيا ؛ وبالرغم من أنه عارض غاندى فى الدعوة ، فإنه أيد حكم « موسلينى » الديكتاتورى ، وأخذت عليه تصريحات فى الإعجاب بإيطاليا الفاشية .. وكان هذا مما أخذه عليه رومان رولان . . . وإن كان قد اعتذر عنه بارتفاع السن ، وغلبة الأثر العاطفى نتيجة مظاهر التكريم التى قوبل بها على النظرية العقلية .

ومن آيات طاغور لوحته عن الحب :

ونسكن معاً فى قرية واحدة ، وهذا هو سر سرورنا معاً .. ويفصلنا حقل واحد ، فالنحل الذى يتجمع فى حديقتنا يذهب ليبحث عن الرحيق فى حديقتهم ، وأزهارهم التى تتساقط فى النهر ، يدفعها التيار إلى حيث نستحم ، وسلال أزهار « الكسم » الجافة تجلب من حقولهم إلى سوقنا .

إن الطريق الذى يؤدى إلى منزلها يعبق فى أيام الربيع برائحة أزهار المانجو ، عندما ينضج بذر كتانهم ويكون صالحاً لجمع زهر القنب فى حقولنا .

والنجوم التى تبتسم لكوخهم ، تبعث لنا بنفس النظرة المتلألئة ، والأمطار التى تملأ أحواضهم تنعش عندنا غابات « الكادام » .

اسم قريتنا « خاجانا » ويسمون نهرنا « أنجانا » واسمى يعرفه الجميع ، أما اسمها فهو « رانجانا » .

* * *

أما إقبال فقد عاد من أوربا سنة ١٩٠٨ ، وكان تلميذاً يفخر به توماس أرنولد .

وقد حال ضعف بصره بينه وبين العمل فى الحكومة ، وكان ذلك كسباً للفن والشعر .

فقد فتح أمامه الباب لأن يفرد نفسه للمثل العليا .

وقد استمد « إقبال » مذاهبه الشعرية من « القرآن »

نفسه ، ويقول : « إن عهدي مدين لتوجيهات أبي ، فقد عودني تلاوة القرآن بعد صلاة الصبح من كل يوم ، وكان كلما رآني يسألني : ماذا أصنع ؟ فأجيب بأني أقرأ القرآن .

فيقول : اقرأ القرآن وكأنه أنزل عليك .

وقد ربط إقبال بين الفلسفة والدين ، وآمن بالدين كقوة كبرى ، فقال : إنه ليس فكراً ولا شعوراً ، وإنما هو تعبير عن الإنسان كله .

وهو يرى أن العالم الحديث في حاجة إلى الدين للخلاص من متاعبه ، وأن الرجل الأوربي قد طغت عليه نتائج نشاطه العقلي ، فلم يعد يعيش بروحه ، فهو يعيش في صراع مع نفسه من ناحية ومع السياسة والاقتصاد من ناحية أخرى .

ويقول : « إن على الشرق أن يفتح عينيه بعد نوم القرون المتطاولة ، وإن عالماً جديداً لا يستطيع أن يتحدد وجوده الخارجي حتى يوجد في ضمائر الناس قبلا » .

وهو من أصحاب أدب القوة . يقول : إن الشدائد والمحن في هذه الحياة تقوي الذاتية ، والآلام واللذات ، يكمل بعضها بعضاً . وقد لقبه مؤرخوه بالفارس الناسك .

ويقول إن ديوانه « پيام مشرق » هو رسالة من الهند إلى أوربة ، ومن الإسلام إلى الحضارة الغربية .

وهو في مذهبه هذا يجمع بين حضارة العصر ، والحفاظ على التراث الإسلامي ، ويؤمن بالاهتداء بالقلب والعقل معا ، وهو يرى الشعور بالواجب وأداء هذا الواجب . . ويؤمن بتضحية الذات في سبيل الفكرة .

وهو فيلسوف وشاعر وصوفي كصاحبه طاغور ، يستمد كل منهما خطوطه الرئيسية من دينه : الإسلام والبرهمية . يقول :

« انظر إلى نفسك فإن قوة الطوفان كامنة فيك .
احمل شعارك في كل زمان : لا تخف البحار .
اعتمد على نفسك ولا تشتك من العالم .
لأنك لو غيرت نظرتك فالعالم يتغير لك » .

وكان الناس يرون « إقبال » سابقاً لعصره ، غير أن نبوءته في الباكستان لم تلبث أن تحققت بعد وفاته بقليل ، ويؤيد هو هذا المعنى حيث يقول : « أنا صوت شاعر الغد ، وما كهني ليست لهذه السوق ، وإن هذا الصوت لقافلة أخرى . أنا الطلق ، والصراخ إعلاني ، وضجيج الحشر مشتوق » .

* * *

وبعد فإن كانت أوربا قد أنفقت زمنا من إعلان تقديرها لشعر إقبال ، فإن الباكستان قد ردت على إقبال بعض هذا الحق ، كما أراد الدكتور عبد الوهاب عزام بنقل ديوانه إلى اللغة العربية .

وبعد فقد كان طاغور يقول كلمة « البرهمية » ، ويعيش في حدود الصوفية والشعر . . .

أما إقبال فقد جمع بين الشعر والسياسة . . ولم يقف شعره على الهند وحدها ، وإنما جعله للإنسانية والإسلام جميعا .

إن طاغور قال كلمة الحياة الخالدة ، أما إقبال فقد قال كلمة الخلود الحي . .

أنور الجندي

من صاحب الأنف .. وإليه

للأستاذ إدوار مقبس

[قبل أن أبعث بـ « الأنف » إلى مجلة الثقافة تصادف أن زارني صاحب الأنف ووقعت أنظاره على هذه الصورة الأدبية على مكتبي قبل أن أودعها مظروفها ، وكان أن قرأها ... قرأ صورته هو نفسه ، فهز رأسه بعد الفراغ من قراءتها ، وتعاطفنا بعد ذلك الحديث . وإذا بي أتلقى بعد أيام برسالة منه ، لم أشأ أن أخفيها عن القارئ . فصاحبها هو صاحب الأنف . وما أن عرضت الأنف في صورة أدبية فقد رأيت أن أعرض رأي صاحبه وأفكاره بصدد هذا الموضوع . وهذه هي رسالة صاحبنا .]

* * *

إني أيها صديقي ! إني حائر متردد ! فهذه أول مرة أفتح فيها قلبي على مصراعيه لشخص وإن كان صديقاً فهو غريب عن « نفسي » على أي حال . إني ضيق بحياتي كل الضيق ، كاره لنفسي كل الكراهية ، حاقد على كل حي لما يمتاز به علي من أنواع الامتياز مهما تفهت . فإذا كان الناس قد ولدوا أو يولدون متشابهين في مظاهر الحياة ! فقد ولدت وعلى وجهي أنف ضخم غليظ قبيح ، أنف شاذ غريب في نوعه . يرث الناس عن آبائهم وجدودهم المال والأرض والعقار والقوام الطويل والطلعة البهية وطابع الحسن على الملامح . أما أنا فلم يترك لي آبائي وأجدادي شيئاً من المال أو الأراضي أو العقار أو القوام الطويل أو الطلعة البهية أو طابع الحسن على الملامح ، ولكنهم أورثوني أنفاً ضخماً غليظاً قبيحاً ، أنفاً شاذاً غريباً في نوعه ! دنيانا دنيا حظوظ ومصادفات . فلو أني كنت من أب آخر — وكنت من أم أخرى — إذاً لأتيت العالم إنساناً عادياً ، لي أنف صغير أو متوسط الحجم على الأقل ، فلا ترمقني عيون الناس في استنكار والهزء .

يقال إن ظاهرة الأنف الضخم الغليظ جاءت بجدة لأبي ثم أخذت تنحدر منها إلى أبنائها ثم إلى أبناء أبنائها : جيل يورث جيلاً ، حتى كان حظي أن أكون في هذه الحالة ، فأجيء هذا العالم حاملاً على وجهي هذا الأنف الضخم الغليظ القبيح . ولكن قل لي يا صديقي : كيف للإنسان أن يتحاشى أن يولد في هذه الحالة أو تلك ؟ أله حق اختيار آبائه ؟ ولو أن لنا هذا الحق إذاً لود معظم الناس على هذه الأرض أن يستبدلوا بآبائهم وأمهاتهم آباء وأمهات آخرين ! ولكنها الحياة هكذا نأتيها دون أن يكون لنا في هذا رأي ونأتيها في هذه الحالة أو تلك دون يكون لنا في هذا رأي أيضاً ، ونمضي في الحياة بعد ذلك على نهج غالباً ما يكون للحظ والمصادفة اليد الأولى فيه . . . وهذه الظاهرة في عائلتنا غريبة حقاً ! أولاً لأن واحدة من إناثها لم تصب بها قط ، وثانياً لأنها لا تظهر في كل رجالها ، ولكن في رجل أو اثنين فقط من كل جيل ! فابن عم والدي له أنف ضخم غليظ قبيح ، كما أن والدي أيضاً له أنف يكاد يبتلع وجهه فلا يبقي على شيء منه ، وليس لوالدتي غير أنف صغير دقيق ، ومع كل فقد أتيت بأنف لا يسر العين أن تراه !

إني متشائم . فقد ولدت كما يولد سائر أفراد هذا العالم ، وخرجت إليه أو دخلت فيه دون إرادتي أو رغبتي ، ولو أنه كانت لي إرادة أو رغبة آنئذ لما ترددت في الرجوع إلى العدم الذي أتيت منه . ولكن شاءت طبيعة الأشياء أن أكون ، فكنت . وحينما أفكر في مشكلة حياتي لا ألبث أن أتمتم : ماذنبي أنا والحياة كلها « شقاوة وتعذيب » !! حياة تبدأ في العدم لتنتهي في العدم : حلقة مفرغة لا يستطيع المتأمل فيها أولاً من آخر . والناس تأتي وتمضي دون أن تترك لمرورها في هذه الحياة أثراً ، وهم ما إن ترى عيونهم النور حتى يتخطفهم الظلام يجاهدون ليطعموا ، ويطعمون ليعملوا ، والإنسان كالساقية تدور أو كالثور يديرها : لا يدري الثور أنه يمشي في دائرة ، ولا تعرف الساقية أنها تأخذ من ناحية لتصب في ناحية أخرى ! هذه هي حياتنا على الأرض : نحن نحيا لنموت ، أو نموت لنحيا . والناس

يدفن بعضهم بعضاً ! ما فائدة كل هذا ؟ ! قصة ضخمة ينقصها المغزى ! ماذا ننتظر من هذه الحياة ؟ وماذا تنتظر الحياة منا ؟ ! عبثاً نحاول مناقشة هذه المسألة الشائكة لأننا لن ننتهي إلى حل موفق .

حياة الإنسان واحــدة من اثنتين لا ثالث لهما : فإما حياة توجد وتذهب وكأنها لم توجد ولم تذهب ، أو حياة توجد وتذهب لتوجد من جديد ، كما يفترض نيتشة ، يقول شوبنهاور : إن الحياة الإنسانية عديمة الغاية ، فليس أمامها هدف تسعى إليه ولا نهاية تصل إليها ، كأمواج البحر ، فما هي مثل الخير المتناهي ، الخير المحدود ، فالتعب والتغير ، التي هي من خصائص الطبيعة في جميع صورها من عاليها لسافلها . إنها حكاية يرويها أبله ، ملأى بالصخب والغضب ، ولا تعني شيئاً .

ويقول نيتشة ، مترجماً بقلم عبد الرحمن بدوي : « كل شيء يغدو وكل شيء يعود ، وإلى الأبد تدور عجلة الوجود ، كل شيء يموت وكل شيء يحيا ، وإلى الأبد تسير سنة الوجود ! فكل الأحوال التي يمكن لهذا العالم أن يصل إليها قد وصل هو إليها من قبل ، لا مرة واحدة ، بل مرات لا نهائية . فهذه اللحظة التي أنا فيها ، وجدت من قبل عــدة مرات ، وستعود من جديد وقد وزعت فيها كل القوى كما هي في هذه اللحظة بالضبط ، وهكذا الحال بالنسبة إلى اللحظة التي سبقت هذه اللحظة ، وتلك التي ستتلوها . أيها الإنسان ، إن حياتك كالساعة الرملية ، ستعود من جديد دائماً أبداً ، وكل وجود من هذه الوجودات لا يفصله عن الآخر إلا الدقيقة الكبرى من الزمان الضرورية لكي توجد من جديد كل الأحوال التي أوجدتك في دورة الكون ، وحينئذ ستلاقي من جديد كل ألم وكل سرور ، كل صديق وكل عدو ، كل أمل وكل خطأ ، كل عود من الحشيش وكل شعاع من أشعة الشمس ، وستجد نظام الأشياء ، كما هو الآن ، وهذه الدورة التي أنت حبة فيها متلألأ من جديد » .

فإذا كانت الحياة الإنسانية يا صديقي عديمة الغاية ، فيابئس حياتي في هذا الوجود الذي لم أصب منه حتى الآن إلا كل تعاسة وشقاء ، وإذا كانت الحياة في تكرار دائم دائب لا ينتهي ، فيابئس حياتي أيضاً في هذا الوجود الذي سيخرجني دائماً على نفس الحال التي أنا بها !

فأين المفر ؟ ! وما فائدة الحياة ؟ بل ما فائدة الموت ؟ !

نحن نعيش فترة من الزمان قد تطول وقد تقصر ، أعظمها بؤس وشقاء ، وأقلها سعادة وهناء ، أو ما نخاله نحن سعادة وهناء ، وما هما في الواقع إلا فترة تخدير لما نحن فيه من بؤس وشقاء ، تليها مباشرة ودائماً منغصات هذه الحياة التي يصفها شوبنهاور بأنها « مسألة مؤسفة » ! إني أجدني في واد والناس في واد آخر . . . ليست لي ذكريات أعتز بها وأعددها كلما انصرفت إلى نفسي أنقب فيها دون جدوى عن ذكرى لطيفة حبيبة . أعتقد أن ما من إنسان مثلي يود خالصاً لو تخلص إلى الأبد من ماضيه وذكرياته . كل شيء في حياتي كان قاتماً : سمائي كانت دائماً متلبدة بالغيوم ولم أعرف الصفاء في كل ما مر بي من أيام ، وهذه أيام شبابي تنقضي دون ما أمل في مستقبل يبشر بالخير والرجاء ، وإني لأتساءل : أي مستقبل أنتظر وأي رجاء أرتقب ؟ ! لقد انصرمت من عمري خمسة وعشرون عاماً هي قطعاً « أجمل » ما مر بي من أعوام ، فكيف بما تبقى من حياتي . ؟

كثيراً ما أتأمل : إني شاذ عن بقية الناس ، شاذ عن الطبيعي ، والشذوذ مرض ، كما أعتقد . إني دائماً ساخط على كل شيء ، ضيق بكل شيء ، ويتهمني الناس من أجل ذلك بخروج تفكيري عن دائرة تفكيرهم . فهم متفائلون ، بينما أنا متشائم ؛ وهم سعداء ، بينما أنا شقي بائس ؛ وهم لا ينظرون بعين الخوف والرهبة إلى مستقبلهم ، بينما أنا أخاف كل الخوف من حياتي عموماً في الحاضر والمستقبل ؛ وهم يحيون حياتهم دون أن يفكروا في طبيعة هذه الحياة ، بينما أنا أحيا حياتي وكلي هم وقلق على حظي من هذه الحياة وفي هذه الدنيا . إن كل الناس لا يدعوهم إلى تأمل وجودهم ، أما أنا فأتأمل وجودي لأني أشعر بقبحي .

كثيراً ما أتساءل : لماذا خلقني الله هكذا ؟.

لماذا خلق الله النقص في هذه الحياة ؟! ولم لم يخلق كل شيء في هذه الدنيا كاملا ؟! إني كلما انفردت بنفسي لا أملك

إلا أن أفكر في هذه الدنيا التي خلقها الله . إني أنظر إلى عالمنا نظرة الشمئز ، لأني أرى كوكبنا غير كامل . بالنسبة إلى عقلي — وقد يكون عقلي قاصراً عن إدراك حكمة الله — لا يمكنني أن أتصور مطلقاً خالقاً عمله الفني غير كامل . يجب على الخالق أن يكون فناناً ، تماماً كما يجب على الفنان أن يكون خالقاً . يجب أن يكون للفنان الحق ذوق مصفّى خلاق في هدوء وفي معاييره الأشياء الجميلة . إن أول كلمة كتبها أوسكار وايلد في مقدمة « صورة دوريان جراي » هي : الفنان هو خالق الأشياء الجميلة . إني أتفق معه . أهناك فنان حق لا يعرف أخطاء عمله ولا يحاول إزالتها على الأقل ؟! أهناك فنان حق لا يحطم عمله أو على الأقل يخفيه عن الأعين الغريبة عند ما يتحقق من أن هذا العمل غير كامل ؟! لماذا يترك الله الأمراض والعلل والسيئات تعذب وتحطم حياة الإنسان ؟! أهو يحبذ وجود الخلائق الشاذة ؟! أهو يحبذ وجود الميكروبات والطفيليات التي تهاجم الإنسان منذ اللحظة التي فيها يولد حتى اللحظة التي فيها يموت ؟!.

ثم ما شأن هذا الكوكب الذي عند مقارنته بالكون يلوح كما لو كان فقاعة صابونية بين بلايين وبلايين غيرها تشابهها ، تطير من فوهة أنبوبة ينفخ فيها طفل زنجي وقت فراغه ! كلما فكرت في مركزنا في المجموعة الشمسية ، لا أتمالك نفسي لحقارتنا وتفاهتنا ! أنا لا أفهم معنى السعادة والشقاء ، الغنى والفقر ، الحسن والسيء ، الفضيلة والرذيلة ، الجمال والقبح ، القوة والضعف ، الشبع والجوع ، الري والظمأ ، العمل والبطالة ، الحب والكراهية ، البناء والهدم ، النجاح والسقوط ، الارتفاع والانخفاض ، الخ . أنا لا أفهم معنى لهذا كله طالما أن كل شيء على هذه الأرض مصيره إلى زوال وفناء . ما فائدة محاولة الشخص أن يصنع أحسن ما يمكنه صنعه خلال ما يحياه من أعوام إذا كان هذا الشخص زائلاً لا محالة في يوم من الأيام ! قد تعني الحياة شيئاً ، وقد تساوي كثيراً حقاً إذا كانت حياتنا خالدة ! حينئذ ، وحينئذ فقط ، قد أجد معنى كبيراً جداً للسعادة والشقاء ، الغنى والفقر ، الحسن والسيء ، الخ .

(له بقية) إدوار مقدسي

ورد إلى المجلة

١ — مجلة العصبة :

العدد الثامن من السنة الحادية عشرة — وهي المجلة الأنيقة الخصبة التي تصدرها العصبة الأندلسية في سان باولو بأمريكا الجنوبية .

٢ — Verdict on Kashmir :

وفيه وصف للمناقشات التي دارت في مجلس الأمن عن مشكلة كشمير ، من ٢١ فبراير سنة ١٩٥١ إلى ٢ أبريل من السنة نفسها .

٣ — النقد الذاتي :

للأستاذ علال الفاسي : وهو كتاب كتبه هذا الزعيم المغربي ليستنهض به همم قومه ، إذ يرسم لهم ما ينبغي أن ينشدوه من مثل عليا وما يترسموه في سبيل ذلك من الخطى ! وهو لا يعتمد في ذلك على مجرد الأسلوب الخطابي وإلقاء المواعظ ، معتمداً على رنين اللفظ وحده ، بل جعل مداره على البحث العلمي ودقة الفكر .

ويقع الكتاب في ٤٣٢ صفحة من القطع المتوسط ، على ورق جيد ، فنرجو للكتاب من النجاح بمقدار ما عند كاتبه من حرارة إيمان وحسن قصد ونبل غاية .

٤ — لغة القانون في الدول العربية :

تأليف الأستاذ عدنان الخطيب ، وهو من منشورات حلقة الدراسات العلمية . وقدم له الأستاذ الأديب علي الطنطاوي .

والكتاب على صغره يتناول كثيراً من مشكلات اللغة التي يكتب بها القانون في البلاد العربية ، وما بين هذه البلاد من اختلاف على مصطلحاتها ، ووجوب تصفية هذه اللغة القانونية وتوحيدها .

وهو يقع في ١١٥ صفحة من القطع الصغير ، وقد طبع بالمطبعة الهاشمية في دمشق .

صفحة من حياة يونج

للأستاذ مبارك إبراهيم

قيل إن النبيين لا يلقون من مواطنيهم التصديق الذي يلقونه من الغرباء، وكذلك كان العالم السويسري « يونج » فقد ظل ثماني سنين (١٩٠٥ — ١٩١٣) يحاضر في جامعة «زوريخ»، ولكنه لم يبلغ درجة الأستاذ، وهو يقول :

لقد ذقت الأمرين من الدسائس والمكايد، وكان من آثر هذه الدسائس والمكايد أن لم يزد عدد تلاميذي عن سبعين تلميذاً، وفي العيد المئوي للجامعة أجلسني القائمون بالأمر مع موظفي الجامعة من غير العلماء، وقد كنت يومذاك ملء سمع الدنيا كعالم من علماء سويسرا الأفذاذ .

وقد كانت الأعوام العشرون فيما بين عامي ١٩١٣ — ١٩٣٣ أخصب فترة من فترات تجاربي وأبحاثي؛ زرت في أثنائها السودان والهند، وحاضرت في مختلف البلاد الأجنبية، ومنها الولايات المتحدة الأمريكية، واشتد نهمي في القراءة، وعالجت في بيتي عدداً لا يحصى من المرضى .

ويقول الكاتب إن « يونج » يحمل اليوم ألقاب درجات فخرية من ثماني جامعات، منها « اكسفورد » و « هارفارد » .

وقد سمع « يونج » اسم « سيجموند فرويد » لأول مرة يوم كان يعمل طبيباً للأمراض العقلية في مستشفى الأمراض العقلية بمدينة « زوريخ » .

وقد خاطر « يونج » بسمعته العلمية يوم وقف يناصر « فرويد » وكان قد ذهب لملاقاته في « فينا » ثم نشأت بين العالمين آصرة من أواصر التعاون، ولكنه لما تبدت له آراء تخالف آراء « فرويد » كان انفصام عرى الصحبة بينهما أمراً لا معدى عنه ولا مفر .

وكان « يونج » يؤمن بالنظريات التي يرتئيها إيماناً مطلقاً، وكان لا يقبل أن يحيد عن تلك النظريات أو يرضى عنها انصرافاً، وكان يقول في أمر الخلاف بينه وبين « فرويد » : — إن وجهة نظر « فرويد » انبساطية، ووجهة نظري أنا انطوائية، إذا صح هذا التعبير

أما أحب المبادئ إلي فهو مبدأ القديس أوغسطين المتوفى عام ٤٣٠ (وهو فيلسوف وواحد من آباء الكنيسة الأولين) الذي ضمنه قوله : « لا تذهب بعيداً، بل ارجع إلى نفسك، فإن الحق كامن في سرائر الناس » .

وهكذا خرجت أستكشف العالم مبتدئاً بالكشف عن خفايا ضميري .

وكذلك كان العالمان « يونج » و « فرويد » جد مختلفين فيما يتعلق بنظرتهما إلى العقل اللاواعي، وفي هذا يقول « يونج » : —

كان « فرويد » يرى أن وجود العقل اللاواعي إنما يرجع إلى كبت ما انطوى عليه جنوب ذلك العقل من كائنات وجدانية غير مستحبة نشأت في العقل الواعي، وبذلك يجعل من العقل اللاواعي مجرد وعاء يضم الذكريات المنسية والمكبوتة .

والرأي كذلك عند « فرويد » أن المسائل الجنسية هي أس المتاعب والمصاعب، ونظريته الكبرى تقوم على الدراسة النفسية للغريزة الجنسية؛ على حين أن نظرية « الفرد أدلر » الطبيب النمسوي (المتوفى عام ١٩٣٧) تقوم على دراسة القوة الدافعة .

أما نظريتي فقوامها القول بأن هناك أشياء أخرى مبهمة تعمل عملها في إشقاء المرء .

ويستطرد الكاتب فيقول : إن « كارل جوستاف يونج » هو ابن قسيس من القساوسة، وإنه كان يعيش وهو في الرابعة من عمره في قرية على حدود بلاد الألزاس السويسرية؛ ومن ذكرياته الأولى أنه كان وهو في تلك السن يسير في جمع من لداته وهو يصيح « ليسقط الإمبراطور » وذلك احتجاجاً على

«جرمنة» بلاد الألزاس، ثم يعود هو وأصحابه أدراجهم.

وكان من الواجبات المفروضة على والده رعايته لنزلاء مستشفى الأمراض العقلية في مدينة «بال»، وفي هـذا المستشفى بدأ «يونج» عمله — بعد تخرجه — طبيباً للأمراض العقلية، وكان جده لأبيه أستاذاً للطب الباطني، وكان جده لأمه قسيساً من قساوسة البروتستانت. وقد اشتهر ببراعته في اللغة العبرية، وهـذه الوراثات المختلفة تفسر لنا ميله إلى الدراسات المتعددة النواحي؛ فهو عالم بآداب اللغتين اللاتينية والإغريقية، وهو كثير الاقتباس منهما، وهو كذلك عالم لا يشق له غبار في علم الأساطير، وعالم من علماء التاريخ الطبيعي البارزين، وهو ملم إلماماً وافياً بعلم المتحجرات، وعلم الحيوان، وعلم النفس المقارن.

والذين عملوا معه وعاونوه يقررون أنه يبدو لهم أن لا حد لما يتسع له عقله من معارف، وما يحيط به من علوم، ولا تستثنى العلوم اللاهوتية.

أما قدرته على العمل فتجل عن الوصف، وقد عددت له اثنين وعشرين مجلداً في قائمة واحـدة من قوائم أحد الناشرين. أما كتبه التي ألفها فتملأ رفين من الرفوف. فإذا أضيفت إليها ترجماتها إلى اللغات الأخرى ملأت رفوف مكتبة كاملة.

وقد سألته مرة: كيف استطاع أن يؤلف كل هذه الكتب، فضحك وقال: إني قليل الراحة كثير السهر، وإني لأخالف بين قومي في ولعهم بغشيان الأندية والملاهي، وفوق ذلك فإن الحربين العالميتين بما فرضتاه عليّ من عزلة قسرية قد وهبتاني عشر سنوات استطعت فيها أن أعمل عملا كله جد واجتهاد.

ثم يقول الكاتب: وقد زرته يوماً في بيته، فلما دخلت حجرة المكتبة ألفيتها قد أثثت تأثيثاً يجمع بين الفخامة والوقار، وهي تحدث زائرها عن حسن ذوق صاحبها، بما فيها من كتب قد رتبت ترتيباً، ووثائق قد نظمت تنظيماً، وبسط فارسية، وتحف شرقية تملأ العين بهاء ورواء.

والعالم «يونج» والد خمسة من الأولاد، كلهم اليوم متزوج، وهو يعد من الحفدة تسعة عشر، وهم اليوم من الغزاة الذين يغزون البيت في كل حين.

والأستاذ «يونج» و«الفراو» والدكتورة «يونج» زوجته هما الأبوان لعدد لا يحصى من الناس يجيئونهما من كل حدب وصوب، وهم يمثلون كل طبقة من طبقات الناس، كما يمثلون كل لون وجنس. فيلقون عندهما حلاً لكل مشكلة، ودواء لكل داء.

ولما شهد الأستاذ إعجابي بما رأيت قال: ولكني أرجو منك وألح في الرجاء أن تذكر لقرائك أني قد اعتزلت العمل، وأني لا أريد أن أرى مرضى بعد اليوم، وأني أحاول أن أستمتع بشيخوختي، وهو عمل — وأرجو أن تصدقني — ليس باليسير ولا السهل!

وأنت إذا رأيت الأستاذ «يونج» رأيت رجلاً في الثامنة والسبعين من عمره، وهو مع ذلك لا يزال يقطع الأشجار ويشق خشبها، ولا يزال كذلك يركب قاربه ويجدفه بنفسه، وهو لم يمتنع عن التصعيد في الجبال إلا بعد إصابته بالتهاب في الوريد، وكانت تلك الإصابة إنذاراً ينبئه بأن قلبه قد أصبح لا يستطيع أن يصعد الجبل.

وإذا أنعمت النظر إليه رأيتك أمام رجل قد بناه الله بناء قوياً، وهو إلى ذلك حاضر النكتة حلو الفكاهة، تحس في حضرته كأنك في بيتك أو كأنك بين صحبك وخلانك.

وهو إذا جلس إليه رجل الشارع بسط له نظرياته العلمية بسطاً كأن يقول له: ليس هناك رجل قد استكمل مقومات الرجولة، وكذلك ليست هناك امرأة قد استكملت مقومات الأنوثة. ثم يضرب له الأمثال، ويأخذ بيده فيستقرئان معاً جوانب البحث. ثم يمزج الجد بالفكاهة، فيقول: واعلم أن الروح مؤنثة.. وهو ما يقض مضاجع الباحثين والعلماء...

ثم إذا حدثك حديث السحر والسحرة لدى الأقوام البدائيين الذين رآهم في عقر دارهم في أقدم بقعة في القارة الإفريقية أو القارة السوداء، قال لك: ليس بك حاجة أن تذهب إلى تلك الأقطار النائية لترى أولئك البدائيين، فإن عندك في سويسرا وهي أكثر بلاد العالم تمدناً وتحضراً، قوماً بدائيين لا يزالون يؤمنون بالسحر الأسود وأفاعيله...

مبارك إبراهيم

ولز ونهضة الإسلام الحديثة

للأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد

يمتاز هـ . ج . ولز الكاتب الإنجليزي العظيم بعمق النظرة والاعتدال في الأحكام والإنصاف في الرأي ، وقد كتب في المجلد الرابع من كتاب معالم تاريخ الإنسانية الذي أوشكت لجنة التأليف الموقرة على إصداره للقراء ، فصلا تحت عنوان « اختبار الإسلام » رأينا له من جلال القدر ما حفزنا على أن نقدمه إلى قراء الثقافة الأعزاء .

قال :

« كان نفس ارتفاع الفكرات الغربية وأساليبها وتطبيقاتها ، الذي ترتب عليه تقويض مدنية الصين العتيقة يعمل عمله في كل أرجاء الشرق الأدنى بقوة تتزايد كل يوم منذ الحرب العظمى . إذ يلوح أن ذلك السبات الطويل المنطوي على القدرية وعدم التسمح (كذا) الذي ران على الإسلام قد أخذ يقترب من نهايته ، فإن العالم الإسلامي يستعمل الآن الصحف والتلغراف واللاسلكي ، والتطبيقات التعليمية العصرية والدعاية العصرية ، وقد أسلفنا عليك شيئاً عن نهوض الترك بعد هزيمته ، وعن وحدة العرب المؤقتة (على يد لورنس) وإنا لنلحظ في إيران اشتداداً في مقاومة الإسلام لاستغلال الغرب المجرد .

« وكانت إيران قبل الحرب مرتعاً خصباً يجد فيه قناصو الدبلوماسية الأوربية كل ما يشتهون من الصيد ، كما كانت أنكد أرض لعيش الرجال والنساء من سكانها ، وكانت الروسيا تضغط على القطر التعس من الشمال ، وتضغط عليه بريطانيا من الخليج الفارسي ، وقامت كل بكل ما تستطيع لإضاعة الثقة بالأخرى وإيقاع الأذى بها ، واكتشفت في البلاد موارد عظيمة للبترول ؛ ومن ثم أخذت الدوائر الأمريكية المهتمة بالزيت تزود طرقاً منحرفة من التحريض والمناصرة ، وتكونت في البلاد أمسوخة لحكومة البرلمانية الأوربية برياسة الشاه ، على حين أن القوة الحقيقية كانت تنتقل بين أيدي رؤساء أقطاع يتخاطفونها . فكان أحدهم يغير على الآخر أو يقتله ؛ وكان الروسيون قد وضعوا في البلاد فيلقاً من القوزاق ليكونوا في طاعة الحكومة إسمياً وإن رموا منه في الواقع إلى السيطرة عليها ، وأنشأ البريطانيون هيئة مقابلة هي فرقة شرطة النظام (جندرمة) ضباطها من السويديين ، كان مفهوماً أن لها صبغة دولية ، وكانت هذه الهيئات المتناحرة تعيث في البلاد فساداً وتقتل الآمنين باسم النظام الأوربي ، ولم يفت الألمان أن يدبروا المؤامرات بواسطة الأتراك بغية القضاء على كل من البريطانيين والروسيين .

« وكانت حماية خطوط أنابيب الزيت أو تحويلها أو تدميرها هي قطب الرحى فيما الموقف من خطط استراتيجية معقدة ، وكانت الحرب العظمى في إيران قصة غارات وزحوف للجنود واستيلاء ، ومغامرات يقوم بها القوزاق تارة والألمان حيناً ، والبريطانيون حيناً آخر ، وقوات القبائل من الأهالي طوراً ؛ ومع تأرجح النصر بين الألمان وخصومهم كان الإيرانيون ، الذين لم تكن تهمهم هذه المنازعات الأوربية في كثير ولا قليل ، يسترضون البريطانيين أو يهاجمونهم ؛ وأقام البريطانيون دهراً بعد الحرب وهم أصحاب الكلمة الأولى في فارس ، ولكن مركزهم بدا في سنة ١٩٢٠ يهدده تهديداً خطيراً غزو بلشفي أعاد سابق الضغط القديم الذي كان يقوم به النظام القيصري ، ولكن روحاً أوفر قومية وأكثر استقلالا عن أوضاع الدبلوماسية ، أخذ يثبت وجوده على التدريج .

ذلك أن الوعي القومي الإيراني أخذ يترعرع ، وأن هيبة الغرب أخذت تذوي ، وظهر رجل قوي هو رضا خان ، أمسك بزمام الحكومة في سنة ١٩٢١ ، محتفظاً برياسة الشاه الاسمية . ثم عقد مع روسيا السوفيتية محالفة ركزت البلاد على أسس من استقلال أعظم وأكبر مما كانت فيه أمد سنوات عديدة ، وفي ١٩٢٦ تخلى عن الدكتاتورية وحل في العرش محل الشاه .

« ومن فارس شرقاً إلى ساحل مراكش الأطلسي

على كامل امتداد خط التماس بين المسيحية القديمة وبين العالم المحمدي . تظهر هذه السنوات التالية للحرب حالة معقدة من المنازعات والشغب بين الإسلام والدول الغربية ، وتبدي مقداراً أكبر كثيراً من التماسك ووحدة الغرض ، بل لقد بدت في النهاية وحدة في العمل ظاهرة بارزة في الجانب الإسلامي أكثر منها في الغرب . فأما الدول الأوربية في حمايتها من الخطر النامي المحدق بها فإنها تواصل الكيد إحداها للأخرى على نفس ما جرت به طريقتها المتبعة في القرنين السابع عشر والثامن عشر ؛ فإن الاتجار في الأسلحة إما علانية أو خفية يزدهر ويزكو ، ويضحى الاحتفاظ بولاء الجنود البلديين أمراً يزداد صعوبة من يوم إلى يوم . فأما الأوربي الدخيل المسلح القلق النفس ، سواء أكان بريطانيا أم فرنسيا أم أسبانيا أم إيطاليا ، فإنه يلقى من الناس في كل مكان كل تجهم ومكيدة .

« وفي مراكش واصلت أسبانيا حرباً باهظة النفقات لا نهاية لها ضد عصيان متجمع مزود بالسلاح الأوربي والأمريكي ؛ وكم من مرة ألمت بهم الكوارث والتقهقر والانسحابات ، وارتفع شخص يعينه اسمه عبد الكريم إلى مرتبة الزعامة في الريف ، وفي نفس الحين كانت فاس بيد الفرنسيين الذين مدوا سلطانهم وبثوا أملاكهم إلى جنوبي أراضي قبائل الريف ممتنعين عن إسداء أية معاونة للأسبان ، حتى انقلب عبد الكريم في سنة ١٩٢٥ يصوب مدافعه وبنادقه عليهم ويفتتح عهد حرب طويلة خطيرة .

« وسرعان ما كان عدد الرجال المشتغلين بتلك الحرب في الجانب الفرنسي مائة وعشرين ألف رجل ، وأنتج قمع الفرنسيين للثورات في مراكش صدى في أراضي الانتداب السورية ، فإن الدروز ثاروا على الفرنسيين وأوقعوا بهم خسائر بالغة ، وامتنع السكان العرب عن معاونة الفرنسيين وأصبحوا مصدر خطر عليهم وأصبح الخطر على فاس خطراً على دمشق أيضاً ؛ وإلى الجنوب استطاع العرب الوهابيون أن يرغموا ملك الحجاز الذي يحميه البريطانيون على التنازل عن العرش (١٩٢٣) ، وأن يدفعوه إلى المنفى ، فاستولوا على مكة ومدوا سلطانهم في القوة ورسوخ قدم في الأراضي الحجازية المرموقة ، وكانت مصر في اضطراب لا ينقضي . فإن المصريين تحت الحكم البريطاني كانوا أشبه شيء بلابن يغلي في إناء مسبل الغطاء ؛ وشرعت الدول — حتى الفرنسيون منهم والإيطاليون وهم أحد الناس وعياً قومياً — يدركون أن الأمل الوحيد للمحافظة على السيادة الأوربية على العالم الإسلامي ينحصر في التعاون العلني الشريف الذي ينعقد بين كل الدول الأوربية المختصة . وأخذ هؤلاء الأخيرون يدركون في بطء ومهل أن الأيام التي كانوا يستطيعون إبانها أن يفرقوا ويسودوا في دوائر نفوذهم الخاصة وأن يثيروا الخلاف في دوائر جيرانهم — أيام قد تولت ولن تعود .

« فهذا الإدراك التدريجي العالمي للضرورة العملية القاضية بالوحدة والعمل الموحد ، إنما هو أعظم الظاهر في هذا الدور من أدوار الشئون الإنسانية ؛ فإن الشرط الأول الذي تقوم عليه الحرية والقوة هو الفكر الحر المتنقل ، وإنما يصبح الإسلام قوياً لأنه يطور بين أجزائه اتصالات ويربي فيما بينها وعياً مشتركاً . فهو في دور نهضة وانبعاث ، وتصبح الصين التي كانت على الدوام تتبرم بالتدخل الأجنبي ، بلاداً يزداد فيها الأثر الفعال للتبرم ، لأن تعلماً جديداً قد أكسبها دعامة من الفكرات العصرية وفهمها أحسن للطريقة التي تضايق بها غيرها . والآن يتناقش الهنود والمصريون والأتراك والعرب فيما بينهم في الاستعمار الأوربي — وينقبون عن وضع يشتركون فيه حياله . وتقع أوربا تحت سيطرة أمريكا المالية ، وتفقد سيطرتها على آسيا وأفريقيا الشمالية ، لأنها تبدد قوتها في الخلافات الداخلية » .

وليس في هذه المقالة ما يؤخذ على الكاتب إلا أسفه لعدم اتفاق الدول الغربية وتضافرها بعضها مع بعض في علاقاتها بدول الشرق ؛ ولكن الذي نعلمه من كراهية ولز للاستعمار وتوجيه اللوم الشديد إلى تصرفات المستعمرين ، يجعلنا نعتقد أنه لم يكن يعني تعاون تلك الدول الغربية التآمر ضد مصلحة الشرق ، بل الاتفاق فيما بينها من ناحية ، وإرضاء الشرقيين من ناحية أخرى .

عبد العزيز توفيق جاويد

ندوة القلم

النباتية والنباتيون

بينا كنتُ أستمع إلى محطة الإذاعة السورية ، تطرق إلى سمعي حديث لطبيب كان يشرح أثر الغذاء في الطباع البشرية ، ويعدّد أنواع اللحوم ثم يستعرض تأثيرها ويخرج بك إلى القول بأنّ أكثر الطغاة هم لحمون ، أي من أكلة اللحوم ، فلحم الخنزير مثلا للفاسقين ، ولحم الثور للطغاة المستبدين ، وأما لحم الحمام فللعشاق .

وقد ضرب الطبيب مثلا عن الديكة ، إذا أكلت النباتات تكون وادعة ، وإذا أكلت اللحوم تتوحش وتصبح شرهة مؤذية . وعندي أن تأثير النبات في طباع الأفراد والشعوب أصبح من الأمور الحقيقية الواضحة . فالهنود ، هم أكثر الشعوب ميلا إلى الوئام والسلام ، بدليل أنهم نباتيون ، وإن كان بينهم فئة لا تؤمن بهذا المذهب . إلا أن الطابع العام هو الغالب . وقد حمل الشعب الهندي هذا المذهب المثالي إلى العالم بأسره ، فآمن به أول من آمن أفلاطون ، وأبو العلاء المعري ، وجان جاك روسو ، وتاجور ، وجورج برناردشو ، وكانوا جميعاً نباتيين Vigitarians مخلصين في نباتيتهم وإنسانيين عالميين ، وقد تأثروا ولا ريب بالعقيدة الدينية الهندية

بيد أن أبا العلاء كان من غلاة هذا المذهب ، فلم يكن يأكل ما يتولد من الحيوانات كالألبان أو ما يتولد من الطيور كالبيض . . إذ كان يعتقد أن في البيض طاقة روحية يمكنها أن تولد لنا روحاً لو أبقيناها سالمة . . والاعتداء على البيض كالاعتداء على أرواح المخلوقات . ومن غلوّ آرائه أيضاً قوله :

إقلالُ كفك برغوثاً ظفرتَ به
أبرّ من درهم تعطيـــه محتاجاً

●●●

ويخطئ الكثيرون عندما يعتقدون أن النباتيين ضعاف الأجسام ، قصار الأعمار ، ويحضرني هنا أحد أبطال المصارعة الحرة في العالم قبل بضع سنوات ، ذلك النباتي الهندي الذي يفخر بأن مصدر قوّته تعود إلى نباتيته ، ونورمان البطل الرياضي الفنلندي الذي لا يقترب من اللحوم . ويقال إن القائد العسكري الكبير مونتجومري بدأ يُطبق النباتية من جديد . ويعتقد علماء الصحة أن الابتعاد عن اللحم ينفع البدن ولا يؤذيه ، ويتحلى النباتيون بعد ذلك بالوداعة ، ورقة الطبع ، والميل إلى السلام والوئام ، وأبرز دليل على ما نقول هو المهاتما غاندي رسول المحبة والحق ، والبنديت نهرو أعظم مفكر سياسي أخرجه الشرق بشهادة الغرب نفسه ، والسير بنجال راو حمامة السلام في هيئة الأمم ، وعدد كبير من أعلام السياسة والأدب والاجتماع . ويكفي أن نذكر في هذا المقام أن ثلث أبقار العالم وأغنامه ترعاها الهند ، فلا مذابح ولا مجازر متأصلة في النفوس ، اللهم إلا فيمن خالفوا هذا المذهب ، وهناك أكثر من خمسمائة مليون إنسان في هذا العالم لا يأكلون اللحوم بالمرة . .

وثمة حديث شريف أورده ذلك الطبيب الأريب ، وقد فاتني اسمه كما أورد كلمة قيمة للفاروق عمر بن الخطاب ، أما الحديث فهو « من داوم على اللحم أربعين يوماً فقد قسا قلبه » وأما قول عمر فهو : « إياكم والمجازر فإن لها ضراوة كضراوة الحروب » ومن آراء الفيلسوف الإيرلندي برناردشو « أي قوة هائلة اختزنها الله في الأرض ! فبذرة صغيرة تنبت شجرة كبيرة ، ولكن اللحم يتعفن ويتعفن ، ويصبح ميكروبات » .

●●●

هذا وقد كنت أحد ثلاثة من النباتيين العرب في فلسطين ، فامتنعت عن اللحوم واخترت السمن النباتي بدل السمن الحيواني ، وكان الزميلان الآخران الأستاذ الشاعر محمد حسن علاء الدين والأديب الكبير خليل السكاكيني !

(البقية على الصفحة التالية)

نقد

يوم الإســـــلام

للدكتور أحمد أمين بك

٢٤٦ صفحة من القطع الكبير — دار المعارف بمصر

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

وهل للإسلام يوم واحد أم أيام كثيرة ؟ أم يعرض المؤلف الإسلام فى ماضيه وحاضره ؟ ثم أم يتطلع إلى مستقبله المرجو فى خلال هذه الغمرات التى يخوضها الإسلام والمسلمون اليوم ؟ لقد ظننت — أول الأمر — وظن كثير ممن وقعت عيونهم على هـذا الكتاب فى يدى أن « يوم الإسلام » هنا يوم معين وأنه يوم بذاته ، كما كان للعرب فى جاهليتهم أيام بذاتها كيوم ذى قار ، ويوم الذنائب ، ويوم الفجار ، ويوم ذات الأثل وغيرها من عشرات الأيام فى الجاهلية ... ولكن الأستاذ أحمد أمين يقول فى المقدمة : « ثم سميته يوم الإسـلام لاشتماله على الإسلام : أصوله وعوارضه فى عصوره المختلفة إلى اليوم » . فاليوم هنا جنس ، أو واحد أريد به الجمع .

ومها يكن من عنوان الكتاب فقد حدد الأستاذ الجليل غرضه فى الكتاب بشيئين : الأول بيان الإسلام فى جوهره وأصوله وكيف كان ، والثانى الرجوع إلى التاريخ لمعرفة أسباب ضعف المسلمين التى أعيت كثيراً من زعماء المسلمين فى بيانها « وبذلك نضع أيدينا على الأسباب الحقيقية ، حتى يمكن من يريد الإصلاح أن يعرف كيف يصلح » .

أما الغرض الأول فقد حققه المؤلف بالحديث عن أركان الإسلام وعن الوحدانية فيه وعن الإيمان بالقضاء والقدر ، وعن مشروعية الجهاد فى الإسلام ، وعن الرق والمواريث والعبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج ، وعن نظام الحكم فى الإسلام ، وعن الاجتهاد فى الدين .

وأما الغرض الثانى فقـد تتبع له المؤلف تاريخ الدولة الإسلامية منذ أن كانت عربية فطرية واحدة إلى أن افترق المسلمون إلى فرق مزقت شملهم وصدعت جمعهم . فهنالك

أما النباتيون الأجانب فكان عددهم أكثر من أن يحصى ، وكانت فى القدس وقتئذ أطيب مطاعم خاصة بالنباتيين ، وكنت معتدلا فى نباتيتى ، ممتنعاً عن اللحوم ، غير أنى كنت أتناول ما يتولد من الحيوانات كالحليب واللبن والبيض ، معتبراً هذه الأشياء هـدية الحيوان إلى عالم الإنسان ، وأنعم بها من هدية يقدمها إلينا ، ولكن الإنسان جشع لا يكتفى بالخيرات والنباتات ، بل يلتهم الزرع والضرع واللحوم كأى حيوان ضار ، وكثيراً ما كنت أتهكم على زملائى ويتهكمون على ، فكنت أطلق عليهم فى أهكومة ساخرة اسم أكلة اللحوم البشرية والحيوانية على السواء ، ولكم يتقزز جسمى من ذلك المنظر الفظيع ، عند ما يهم الجزار فى الذبح والسلخ ، ذبح الشاة أو الطير ، وأعد إزهاق تلك الروح جريمة من جرائم الإنسانية ، كما أعد الجزار من أكبر المجرمين العتاة ، فهم قساة القلوب غلاظ الأكباد .

ولقد كان أهلى يحتالون على فى أحيان كثيرة فيدسون لى السمن الحيوانى ، أو ينتهزون فرصة مرضى وتحولى أو هزالى ليحلوا لى الحرام فى رأيى ، ويحرموا لى الحلال ، بناء على تواصى الأطباء والأقربين ، وكنت أمتنع ، ويشق عليهم ذلك ، فتارة يخدعوننى وطوراً أخدعهم ، حتى أبل من المرض .

• • •

(طرابلس لبنان) إبراهيم عبد الستار

النزاع والخصام بين الأمويين والهاشميين ، وهناك الفرق الدينية التي اصطبغت بصبغة دينية بعد أن كانوا أحزاباً سياسية تتنازع على الحكم .

ولم يكتف المسلمون فيما بينهم بأقل مما نكبوا به من الخارج ؛ فالأتراك الذين جلبهم المعتصم العباسي أضافوا إلى قلقة الدولة الإسلامية ؛ وبعد أن كان العرب يواجهون في النزاع جبهة فارسية أصبحوا يواجهون جبهة الأتراك الذين كانوا يلعبون بالخلفاء وبالدولة الإسلامية كلها كلعبهم بالأكر . وكان الوالي منهم يستحل لنفسه كل حرمة ويسرف على نفسه ما يسرف ، ثم يبني مسجداً أو سبيلاً أو ضريحاً أو نحو ذلك .. ظناً منه أن هذا يغفر له كل ما تقدم (ص ٩٧) .

وليت الأمر وقف عند الفرس والترك ، ولكن المغول رفعوا معولاً جديداً لهدم الدولة الإسلامية ، ولم تقف غزوتهم عند غزوة هولاكو لبغداد سنة ٦٥٦ هـ وسقوط الخلافة العباسية ، ولكن تيمورلنك — وهو مغولي مسلم — قد حارب بلاداً إسلامية وكانت له فيها مطامع لا تنتهي ، ومنيت الجماعة الإسلامية بهزات عنيفة كانت تزعزع كيانها من حين إلى حين ... فهناك ثورة الزنج في العراق في عهد المعتمد العباسي ، وهناك ثورة القرامطة في عهد المعتضد ، وقد سببوا هزة جديدة للعالم الإسلامي ، وهناك جماعة الحشاشين أتباع الحسن بن الصباح الذين أشاعوا في المجتمع الإسلامي أفكاراً خطيرة وأفعالاً جريئة ؛ ولم تستطع الدولة السلجوقية أن تقضي عليهم ، وقضوا هم على « نظام الملك » الوزير المشهور (١٠٤) .

وهناك عامل له خطره في إضعاف الكيان الإسلامي ، وهو قيام النصرانية وتكتلها ضد الجماعة الإسلامية في عهد الحمدانيين والفاطميين والأيوبيين والمماليك . وقد هدد الصليبيون الشرق بحملاتهم المتوالية ، ثم أفلحوا في الغرب بطرد العرب المسلمين من الأندلس وسقوط المملكة الإسلامية من هناك نهائياً في تلك المأساة التي ساعد المسلمون أنفسهم على إحداثها بما أصيبوا به من تفرق وانحلال (١٠٩) .

وهناك أمراض كثيرة تعمل في الجماعة الإسلامية ، فقد كثرت الخرافات والأوهام وعاد الناس إلى وثنيتهم الأولى ، يقدسون الأبطال والأضرحة والأولياء ، كما يقدسون أزمنة خاصة وأماكن خاصة ... من مثل نعل الكلشني ، وبوابة المتولي ، وشجرة العذراء ، وأمثالها ؛ لذلك لم يعتمدوا كثيراً على ربط الأسباب بالمسببات ... فهم يدفعون الحروب بالدعوات ، ويستجلبون الشفاء بطلب البركة ، ويمنعون الشرور بالتعاويذ ، إلى أمثال ذلك (ص ١٣٣) .

* * *

وأظهر ما في كتاب « يوم الإسلام » هو تلك الصراحة النادرة التي يمتاز بها أحمد أمين في كل ما يكتبه ، فقد عرفناه صريحاً حينما ألف كتابه يترجم به حياته المباركة ، ولم يخبأ أمراً أو شأناً من شئونه التي كان أولى بها أن لا تنشر في كتاب ... وكذلك كان في كتابه عن الإسلام .. فهو صريح حين يهاجم خرافات المسلمين حين « نسوا أساس الإسلام ، وأقيمت الموالد لإعظام شأن الأولياء وأصحاب الأضرحة .. واخترعوا لكل شيخ مولداً تذبح الذبائح عنده وتقرب فيه القرابين ، ونحو ذلك مما لا يتفق مع الإسلام في قليل ولا كثير » (ص ١٠٦) .

وهو صريح حين يسأله مستشرق هولندي قائلاً : هل عندك أمل في الأزهر ؟ فيقول : لا ؛ لأن حركة الإصلاح التي يطالب بها الشبان يستطيع أن يخمدها الشيوخ بقوتهم وسلطانهم ، إلى أسباب أخرى لا محل لذكرها (ص١٥٣) .

وهو صريح حين يتحدث عن الجامعة العربية — وهو أحد موظفيها الكبار في إدارتها الثقافية — فيقول : « وكان من سياسة أمريكا وانجلترا أن تتكتل الأمم الإسلامية لتجعل منها قوة لدفاع الشيوعية . فبدأت بتشجيع الجامعة العربية على الوجود .. ولكن عملت هناك عوامل لم تجعل الجامعة العربية هي الشكل الأمثل ... وأهم ذلك بيان : السبب الأول أنها كانت وليدة رغبة الإنجليز وتحت سيطرتهم يصرفونها كيف يشاءون ، فلم تفعل بوحي ضميرها ما ينبغي أن تفعله . والثاني الخلاف بين رؤساء الشعوب ، وخصوصاً الخلاف بين البيت الهاشمي ، وعلى رأسه ملك العراق وملك شرق الأردن ، وبين السعوديين الذين يعتبرون في نظر الهاشميين مغتصبين » ص ١٦٤ .

وهو صريح حين يتحدث عن « الاجتهاد » في الدين في صفحات كثيرة من الكتاب ، فهو يبدأ منه ويعود إليه ويدور حوله كما في ص ٤٤ ، ٤٥ ، ١٦١ ، ١٩٢ ، ١٩١

و ١٩٠ — وقد لاحظ أستاذنا الكبير ذلك ، ولاحظ أنه أطال الحديث عن الاجتهاد في مواضع كثيرة من الكتاب فعلق في صفحة ١٩٢ بهذا البيان : « نقر بأننا أكثرنا من الكلام على الاجتهاد في أكثر من موضع ، وعذرنا في هذا إيماننا التام بضرورة الاجتهاد ، وأننا في كل موضع نتكلم كلاما مكملا للكلام الذي ذكرناه من قبل » .

ولو أن الأستاذ الجليل استوفى الكلام عن الاجتهاد في موضع واحد من الكتاب لكان ذلك أكثر ضما لأشتات الموضوع الذي فرقه التقسيم وقطع أوصاله . ولعل الأستاذ بهذا التكرار يقصد توكيد رأيه في الاجتهاد في ذهن القارئ الكريم . . .

•••

ومع أن الأستاذ أحمد أمين يشخص أمراضاً وعللا في جسم المجتمع الإسلامي وخاصة في حاضره اليوم ، فقد يخشى أن يكون متشائماً يائساً من الصلاح والإصلاح . ولكنه مع ذلك مفعم بالتفاؤل في مستقبل الكتلة الإسلامية ، فيقول في ص (١٣٦) : « وليس يدري إلا الله ما هي القوة الجديدة التي ستبعث في الإسلام والمسلمين روحاً جديداً ؟ ولكن الطوالع تدل على أن الصالحين من المسلمين سيتغلبون آخر الأمر ويجددون للمسلمين شبابهم بتجنب ما كان من غلطات في تاريخهم ، ويكون شأنهم شأن الطبيب يعرف العلة وأسباب المرض ثم يضع العلاج » .

ويقول في موضع آخر ص ١٣٩ بأن « عدد المسلمين الذي لا يقل عن أربعمائة مليون لو اتحدوا لأمكنهم أن يوجدوا عجائب إذا صمموا ، فلا ينقصهم ذكاء وعقل ، ولكن ينقصهم إرادة وعزم » .

والحق أننا نسأل : متى يصمم المسلمون ؟ ومتى يشحذون إرادتهم وعزمهم ؟

ومع تفاؤل المؤلف في نهضة الإسلام والمسلمين ، فهو متشائم مثلا في بعض النواحي . . . فحين سأله المستشرق الهولندي : هل عندك أمل في الجامعة المصرية ؟ قال : لا ؟ وذكر من الأسباب ما لا محل هنا لذكره .

وعندي أن الرجل المصلح المفكر — كأحمد أمين — لا يقول : لا ؟ لأنها سبيل اليأس والتشاؤم ، وعليه أن يكون كزين العابدين ممدوح الشاعر الفرزدق الذي ما قال « لا » قط إلا في تشهده ؛ وكان طبيعياً — ونحن على كثب من نكبة فلسطين — أن تحرك مشاعر أحمد أمين في كتابه عن الإسلام ماضياً وحاضراً ومستقبلا ؛ فهو يقول في ص ١٠٧ : « والنصارى يكرهون المسلمين ويعادونهم أكثر من عدائهم حتى اليهودية والوثنية ، وما زال العداء مستمراً إلى اليوم بنصرتهم اليهود على المسلمين وانتزاعهم فلسطين من أيديهم » .

ويقول في ص ١٤٣ : « وآخر حادثة كانت هي حرب فلسطين ؛ فإن العالم العربي لم يتحد على مقاومة اليهود كما اتحدت انجلترا وأمريكا على مناصرتهم ، فضلا عن عدم اتحاد العالم الإسلامي » .

ويقول في ص ١٤٥ : « وكان من أسباب تخاذل المسلمين في الحرب الفلسطينية الأخيرة عدم توحد القوى ، وعدم وضوح الهدف أمام الجميع . » .

وبعد ؛ فهذا عرض سريع لكتاب « يوم الإسلام » الذي قرأته مرة وسأقرؤه مرات ، لأنه صيحة صريحة جديدة يجهر بها مسلم مثل أحمد بك أمين ، بعد صيحات المسلمين من أمثال الكواكبي ومحمد عبده والأمير شكيب أرسلان ورشيد رضا ، ورفيق العظم ، وغيرهم من مفخرة الأمة الإسلامية .

محمد عبد الغني حسن

«قلب الشريد»

رق منه الثوب والليل وقدْ   وطوته الريح فاهتز الجسدْ
وهن العظم فيمشي هينــا   شفه الجوع بحبل من مسدْ
قد تراه العين يمشي تائها   فتخال الجن في الحي انفرد
ليس من يعرف عنه عصبة   غامض الأصل ومجهول البلد

● ● ●

إنني يطرق باباً لاجئــا   من جليد في ربى الأرض رقد
شاقه الدفء فوافى موئلا   شع منه النور والعشب اتقد
ثم لبى الطرق صوت شيق   هل ببابي في دجى الليل أحد
حاور الطارق هذا قائلا   طال بي في شدة البرد الأمد
هزت الرحمة قلباً حانيــا   فأزاح الباب عن ضم العمد
غير أن الضيف أضحى جامدا   سرحت عيناه والفكر شرد
عند أرض الباب ألقى نفسه   ثم ماعتم حينا أن سجد
هي والنور تبــدى حولها   ملك يجثو لديه من عبيد
هزه الحسن الذي قد زانها   وأصابت منه قلباً قد جمد
قال حيناً بعد صمت خاشع   وأتى عينيه من دمع مدد
جئت أسعى ومناي رحمة   فإذا بالحسن فود مسند
لجمال نلت منه شيق   وحنان يورث المرء الجلد

● ● ●

وانثنى عنها خفيفاً خطوه   وهي بالباب لحزن ترتعد
ثم حاطت ظلمة الليــل بها   فاختفى عنها ، وولى للأبد

محروس مصطفى عبد الرازق

عتاب مع القلب

ياقلبُ مالك لست تهــدا   تهفو لهــا عمىً ومغدى
حملتنــى ما لا أطيــق   من الهوى وجداً وسهدا
آترى التى أحببتهــا   حفظت إليك اليوم عهدا
أخلفت هواك بغير جد   واتخــذت الحب جــدا

● ● ●

خـــودٌ منعّمة لهــا   كل الحسان الغيد تفدى
حسناء لم يخلق لمثـــل   جمالهــا الرحمن ندا
أبهى من البـــدر التما   م ومن نسيم الفجر أندى
الطهــر لاح بوجهها   فهي الملاك وقد تبــدى
وهي الفضــائل والمفاتن   ما عرفت لهن عــدا

● ● ●

أخناك هــذا الحب ياقل   ب أما لك عنه معــدى
منت الوداد فــلم تمن   لك في الهوى ياقلب ودا
كم قــد أقامت بينهــا   سدا وبين هواك سدا
تزداد أنت بهــا هيــا   ماً وهي عنك تزيد صــدا
فاصبر فإن الصــبر لل   مشتاق يوم الهجر أجدى

● ● ●

ياقلب تجني في الهــوى   شوكاً ويجني الناسُ وردا
أضنيتنــى فيا لقيت   من الغرام ، ألست تهــدا
أوَ كلما ذكرت تذوب   لذكرها ياقلب وجــدا
أوَ لم تقل لك إنهــا   لن تستجيب ولن تردّا
فعلام ياقلبي جننت   بحبها وأضعت رشــدا

عبد الكريم حميد عطار

أصـــداء

(مهداة إلى «جبل[1] الـكارى» بالطائف بالحجاز)

آوي إلى صخراتك الصماء
أدعو ولكن هل تجيب دعائي؟!
هذي الصخور لها حديث صامت
من رائع النغمات والأصداء
تحكي عن السُّمار كيف تبددوا
من بعد لهو دائم وغناء
كانت مجالاً للسرور فهل تُحسُّ
بها صدى لمجالس الندماء؟!
قامت من الصخر الأصم قلائدٌ
زانت جبين الطائف الزهراء
هــذي الصخور جلامد لكنها
قد تستخف لنشوة الظرفاء
ولقد ترق إلى حبيب خالها
حرساً له من أعين الرقباء
كم من طريد المدينة هائم
قد أسعدته ظلالها بلقاء
قد يسعد الإنسان صخر جامد
في جفوة الخلان والقرباء

(الطائف)   أحمد أبو المجد عيسى

---

(1) اسم جاهلي قديم

الثقافة

العـدد ٦٩٥
٢١ من أبريل ١٩٥٢

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

صفحة

أبحاث ومقالات :

دراسة أدبية :

نقد :

مسرح :

شعر :

عاشقة القمر!

[مهداة إلى الشاعرة الملهمة : أماني فريد]

أحب فؤادك يا شاعره وأهفو إلى روحك الطاهره
أحن إليك حنين الزهور إلى قطرات الندى الغامره
أحن إليك حنين الفراشة لزهرة الفضة الناضره
أحبك حباً عميق القرار يسعر من مهجتى الثائره
أحبك كالعابد المستهام تكبله قوة قاهره . . .
أحبك دون رجاء ندى يخفف من لوعتى الفائره
وأعلم أن هواى الشقى يثير حفيظتك الساخره
وأن رضاك عسير عسير ولكنه الحب يا شاعره ! ؟

•••

وكنت أراك صباح مساء هناك على الصخرة العاتيه
كأنك فينوس فى سحرها تتيه بها الفتنة الطاغيه
وكنت أخفف خطوى الوئيد لئلا أزل إلى الهاويه
وأرنو إليك — على خفية — بعين مؤرقة داميه
ودقات قلبى كعنف العباب تضج بها الرهبة القاسيه
وأنفاس اللاهثات الدوامى تفح بنيرانها الحاميه

وكان يثور بنفسى شىء فأسرع فى خطوتى الوانيه
وأمضى كأنى شجاع عنيد يسير لمعركة ثانيه
ولكن شيئاً كثقل المقبع يحط على نفسى الثائره
فأعلم أن رضاك عسير فأرجع بالحسرة الغائره

•••

وكنت أراك إذا الليل جن تناجين بدر الدجى فى خفر
كأنك والبدر فى أوجه عشيقان فى الموعد المنتظر
وكنت أراقب من مكمنى وفى مهجتى ثورة تستعر
وفى شفتى يجيش سؤال كحشرجة فى فم المحتضر :
أهل تستجيب إذا أنا قمت فبحت لها بالهوى المستحر
وتصفر فى أذنى الرياح ويعلو التجهم وجه القمر
وأسمع صوتاً بجوف الظلام يقهقه مستهزئاً فى صعر :
ترى من تهيم ببدر السماء تميل إلى عاشق فى البشر ؟
فأخفض رأسى مستخزياً وأذرف من أدمعى الغامره
وأوقن أن رضاك محال فواها لقلبى يا شاعره !

(الإسكندرية) حسن صادق عبد الله

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | الإدارة | محمد عبد الواحد خلوف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـدد ٦٩٥ الاثنين ٢٦ من رجب سنة ١٣٧١ — ٢١ من إبريل سنة ١٩٥٢ السنة الرابعة عشرة

مسألة التأميم والأوضاع الاقتصادية

— ١ —

للأستاذ أحمد طه السنوسي

عقب الحرب العالمية الثانية ، قامت حركة اشتهرت بحركة التأميم ، ولاقت رواجاً كبيراً في الدول التي تبغي الإصلاح ، أو التي تسود فيها المذاهب والنظريات الاقتصادية الحديثة ، فطبق التأميم في جميع البلاد التي خضعت للنفوذ السوفييتي كبولنده وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ، وقد أمم بمقتضاه كثير من المشروعات ، وخاصة ما كان منها مملوكاً للألمان ، بيد أن فكرة التأميم لم تقتصر على تلك البلاد التي تمت بالصلات إلى الجانب السوفييتي ، وإنما طبقت على نطاق واسع أيضاً في البلاد الرأسمالية كفرنسا وانجلترا .

ففي فرنسا نص دستور الجمهورية الرابعة الذي صدر في ٢٧ أكتوبر عام ١٩٤٦ في ديباجته ، على أن أي مشروع مصطبغ استغلاله الآن أو في المستقبل بخواص المرفق العام أو الاحتكار الفعلي ، يتعين أن يكون المجموع مالكاً له ..

وتبعاً لذلك طبقت طريقة التأميم في مصانع الحرب الفرنسية (ق ١١ أغسطس سنة ١٩٣٦) ، وطرق المواصلات الجوية (أمر ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٥) والبنوك الكبرى (ق ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٥) ، وبنك الجزائر La Banque de l'Algérie (ق ١٧ مايو سنة ١٩٤٦) ، والغاز والكهرباء (ق ٨ أبريل سنة ١٩٤٦) وبعض شركات وصناعة التأمين (ق ٢٥ أبريل سنة ١٩٤٦) واستغلال مصانع الوقود المعدني (ق ١٧ مايو سنة ١٩٤٦) ، كما أممت صناعة المحركات ، وبعض المصانع كمصانع سيارات رينو .

وقد حدث في فرنسا في ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٥ أن أممت أم شركات الائتمان ، وهي بنوك : الكريدي ليونيه ، والكنتوار الأهلي للخصم ، والشركة العامة والبنك الأهلي للتجارة والصناعة ، ويرجع هذا الاتجاه الحديث نحو تأميم المؤسسات المصرفية الكبرى إلى الظاهرة المصرفية ، التي يطلق عليها ظاهرة « تركز البنوك التجارية » ، التي كما تكون سبباً من أسباب التوجه نحو تأميم تلك المؤسسات المصرفية ، تكون مؤدية إلى الاحتكار في الدولة التي تظهر فيها .

وتدار المشروعات المؤممة في فرنسا ، تلك التي تكوّن المرافق العامة من الناحية العضوية والشكلية ، تارة في شكل مؤسسات عامة وطنية خاضعة لقواعد خاصة معينة ، وتارة في شكل شركات مساهمة تخضع للقواعد التجارية ، ويلاحظ أن هذه المرافق العامة ذات الصبغة الصناعية أو التجارية ، يخضع تشغيلها لرقابة منظمة في يناير ومارس سنة ١٩٤٧ ، وتختلف إدارتها في خضوعها لقواعدها الخاصة باختلاف المشروعات التي تهتم باستغلال الوقود المعدني ، وكذلك الكهرباء والغاز .

وفي إنجلترا طبقت حكومة العمال بعد هزيمة المحافظين في أثر الحرب العالمية الثانية سياسة التأميم على نطاق واسع ، فبدأت بتأميم السكك الحديدية والكهرباء ، ومناجم الفحم وبنك إنجلترا ، وكذلك طبقت سياسة التأميم في صناعة الغاز والحديد والفولاذ والطيران المدني والملاحة الداخلية ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل توصلت إنجلترا إلى تأميم مهنة الطب .

... هذه الحركة التأميمية التي وصلت كذلك إلى مصر ، فلاقت فيها صدراً رحباً في بعض الأحايين ، بل هذه الحركة الخطيرة في مدار الدول والمجتمعات ، نريد أن نكشف عنها ونتفحصها التفحص الذي يليق بفهمها وإدراك ما تهدف إليه من أغراض ، وما تقوم على دعائمه من أسس ، وما تنطوي عليه من أسرار ، وما تثيره من وجهات ومشكلات ، وما تستحقه من تأييد وتحبيذ ، أو رفض وانتقاد ؛ ويقتضينا ذلك أن نبحث أطراف مسألة التأميم وعناصرها ، وقبل أن نعطي لمحة نظرة عامة على التأميم كحركة جديدة من الحركات الاقتصادية ، وكأسلوب حديث من أساليب الإدارة ، وكظاهرة جدير بالنظر من مظاهر تدخل الدولة في معترك الأوضاع الاقتصادية التي تسود حياتها وحياة شعبها ومجتمعها ، فنقول :

إن من المشروعات الخاصة التي يقوم بها بعض الأفراد أو هيئاتهم الخاصة — كما ذكرت — ما هو ذو صبغة عامة أو نفع عام ، ففي حالة التأميم تتملك الدولة باعتبارها ممثلة الشعب والأمة — ومن هنا اشتقت كلمة التأميم — وباعتبارها قائمة على تحقيق الصالح العام ، تتملك الدولة هذه المشروعات ...

وفكرة التأميم في حد ذاتها تتميز بأنها ذات لون سياسي وتطبيق إداري ، ثم تتميز باصطباغها بصبغة اجتماعية ، وقبل هذا وذاك تقوم دعامتها على بنيان اقتصادي ، وتستند أول ما تستند إلى الدواعي والمقتضيات الاقتصادية ...

فأما أنها ذات لون سياسي ، فلأن الدولة تمسك بمقتضاها على زمام الهيكل العام لصالح أبناء شعبها وأمتها ، وبمقتضاها يكون مركزها في الذروة من الطبقات الشعبية ، أي أن تتمتع بمستوى رفيع بالنسبة لمستوى الفرد الذي يعيش في ظلها ويخضع لتوجيهها وأوامرها ، يستدعي كل ذلك ما تتطلبه العالم في سبيل النهوض والتطور ، مما جعل الفرد بمفرده أو باتحاده مع سواه من الأفراد غير قادر على توجيه مشروعات المنفعة العامة في كيان الأوضاع الاقتصادية في بلده خاصة ، بعد أن تطورت الأحوال وتعقدت مسالك الحياة واتسع نطاق العمل ؛ وذلك يرجع إلى أن الفرد أو الأفراد يعجزون عن القيام بذلك العبء الهائل الذي يقتضي شتى المسئوليات والمشكلات ؛ وذلك بسبب القصور المالي أو العجز المالي أو بسبب العجز الإداري والتوجيهي ، أو يرجع هذا إلى أن الفرد بمفرده أو مع سواه من الأفراد إن استطاع التوجيه الإداري والتمويل المالي والسير الحسن ولاقى نجاحاً في ذلك ، فإنما يهدف أول ما يهدف — مهما كان الأمر ومهما بلغت به الوطنية ورعاية الصالح العام — إلى مصلحته الشخصية التي تعلو في نظره على كل مصلحة سواها ، مهما كانت ضرورية ومهما كانت هذه المصلحة هي المصلحة العامة ، أي المصلحة التي ينتفع بها جميع أفراد المجتمع ؛ أما الدولة فلها من الإمكانيات ما تستطيع به توجيه مشروعات النفع العام الحيوية توجيهاً إدارياً ومالياً ، فضلا عن أن هدفها — بوصفها دولة وسلطة عامة — ليس إلا تحقيق الصالح العام والمنفعة العمومية التي تعم الجميع ، ولا تقتصر على فريق دون فريق ، أو تميز طبقة عن طبقة وفئة عن فئات .

وأما أنها أسلوب إداري ؛ فذلك بديهي ما دمت قد أسلفت أن الدولة أي السلطة العامة هي القائمة على توجيهها وإدارتها ، وتقوم الدولة عادة بإدارة المرافق العامة باتباع أساليب وطرق مختلفة ، صار أسلوب التأميم من أهمها شأناً وأشدها خطراً ، ويمكن إلحاق أسلوب التأميم هذا بأسلوب يقرب منه شبهاً وقرابة يطلق عليه اسم « الاستغلال المباشر » ، وثمة أسلوب آخر تدار به مرافق الدولة العامة ، يعرف « بالمؤسسات العامة » ، وفي هذه الأساليب تكون إدارة المرافق عن طريق الدولة أو أحد الأشخاص الإدارية ، إنما لا يقتصر الأمر على ذلك ، فقد تعهد الدولة بإدارة المرفق إلى بعض الأفراد أو الشركات بشروط خاصة تضعها وتحت إشرافها وتوجيهها ، وذلك يتحقق فيما يطلقون عليه اسم « امتياز أو التزام المرافق العامة » .

وفيه تكل الدولة أو سواها من الهيئات العامة إلى بعض الأفراد أو الشركات بتولى مرفق اقتصادى عام ، والقيام باستغلاله لمدة معينة ، ويقدم صاحب الامتياز أو التحمل بالالتزام العمال والأموال ، ويتحمل مسئولية العمل ، ويتحصل من المنتفعين بالمرفق الذى يتولاه على بعض الرسوم ؛ ويتحقق ذلك أيضاً عن طريق ما يطلقون عليه اسم اقتسام الاستغلال أو « الاستغلال غير المباشر » . وفيه تتقاضى الهيئة العامة عوضاً ممن وكلت إليه القيام بهذا المرفق الاقتصادى وإدارته ، سواء أكان فرداً أم شركة ؛ هذا وثمة أسلوب آخر وسط ، يدعونه الاستغلال المختلط ، وإدارة هذا النوع تقتضى الجمع بين الأفراد وبين الهيئة الإدارية ، ويصب هذا النوع غالباً فى قالب الشركة المساهمة التى تكتتب فيها الهيئة العامة بالجزء الكبير من الرأسمال ، وتتحمل مخاطر هذه الشركة ، شأنها فى ذلك شأن سائر المساهمين فيها .

غير أنه يلاحظ فى أسلوب التأميم أنه ليس ضرورياً أن يدار عن طريقه مرفق عام من مرافق الدولة ، بل إنه من الجائز أن تؤمم مشروعات لا ينطبق عليها وصف المرفق العام ، وذلك — كما سأبين فيما بعد — لأن الفكرة الأساسية فى التأميم فكرة اقتصادية واجتماعية أكثر منها فكرة إدارية .

وكذلك يلاحظ أن الدولة وحدها دون الهيئات الإدارية العامة الأخرى هى التى لها القيام باستغلال المرافق العامة عن طريق أسلوب التأميم .

وقد أخذت أنه فى فرنسا يتخذ هذا الأسلوب فى الإدارة طريق المؤسسة العامة الوطنية ، أو يتخذ شكل الشركة المساهمة ، فتخضع فى هذه الحالة للقواعد التجارية ، وتملك الدولة جميع أسهمها ؛ بيد أننا نلاحظ كذلك أنه يمكن أن ينصرف أسلوب التأميم إلى مجرد نقل مشروع خاص ، يتميز ببعض الأهمية العامة من مشروع خاص إلى مرفق عام ، يدار عن طريق المؤسسة العامة أو عن طريق شركة من شركات الاقتصاد المختلط .

وأما أن فكرة التأميم تصطبغ بصبغة اجتماعية ، فذلك لأنها تؤدى إلى تنظيم المجتمع تنظيماً اجتماعياً على أسس جديدة واتجاهات مغايرة للتنظيم الذى يحدثه الخلاف والتنافر الاجتماعى بين الطبقات الاجتماعية ، وعلى الأخص بين طبقة أصحاب رءوس الأموال أى الرأسماليين وبين طبقة العمال ؛ فالتأميم يربط حياة العمال بالدولة أى بالسلطة العامة ويضع حداً لعلاقاتهم وخلافاتهم المستحكمة مع طبقة الرأسمالية فى المجتمع ؛ ولا يخفى ما لهذا التنظيم من أهمية فى عصر كهذا العصر الذى نعيش فيه ، ثم إن تنظيم العلاقة بين المنتجين والمستهلكين ، والأولون أقلية ، ولكنهم أقلية متمكنة تستطيع بما لها من نفوذ اقتصادى أن تتحكم فى مصاير الآخرين ، وهؤلاء هم أغلبية الشعب وجماع المجتمع ، تؤثر تعاستهم فى الحياة الاجتماعية العامة ، كما تؤثر سعادتهم فيها — أقول إن تنظيم العلاقة بين المنتجين والمستهلكين من أهم العوامل التى تؤثر فى سير الأوضاع الاجتماعية ، وهذا ما تؤدى إليه فكرة التأميم ؛ إذ يذهب التأميم إلى نقل المشروعات الخاصة ذات النفعة العامة إلى مشروعات عامة من طراز خاص ، حيث تديرها سلطة معينة بوساطة المنتجين والمستهلكين .

وأولا وأخيراً ، نلاحظ أن فكرة التأميم صبغتها اقتصادية قبل كل شىء ؛ إذ الفكرة الأساسية فيها ، والهدف الأول الذى تهدف إليه ، إنما هو استبعاد مشاركة الرأسماليين من إدارة المشروعات ذات الصفة العامة والنفعة العمومية ، ومن السطو على تلك الأرباح الهائلة التى تجنيها طبقة الرأسماليين من جراء قيامها وحدها بهذه المرافق والمشروعات الحيوية فى البلاد .. وقد رأت الاشتراكية فى هذه الفكرة سبيلا تستطيع به أن تنقل ملكية أهم المشروعات التى يقوم بها الأفراد والهيئات الفردية الخاصة للسلطة العامة أى الدولة التى لها حق تملك هذه المشروعات

ويمكن أن أقول بأن الفارق فى تطبيق فكرة التأميم فى نطاق الفكرة الشيوعية أو الاشتراكية البحتة ، وتطبيقها فى نطاق الرأسمالية وبلادها ينحصر إلى حد ما فى وجهتين .

الأولى : من حيث الحدود ؛ إذ الشيوعية ترمى إلى تمليك السلطة العامة أى الدولة جميع المشروعات العامة والخاصة الموجودة فى نطاق البلاد ، فلا يحق لفرد أن يمتلك أى

مشروع من هذه أو تلك ؛ إذ ليس له من ملكية الأشياء والأموال سوى ملكية الأموال الاستهلاكية التي يستهلكها بشخصه ؛ فالتأميم في الاشتراكية والشيوعية إذاً هو إحدى وسائل إلغاء الملكية الفردية في الإنتاج . أما الرأسمالية فلا يعدو التأميم فيها من ناحية تملك الدولة للمشروعات العامة الهامة إلا أن يكون تطعيماً لها وتهذيباً ومماشاة للتطور العصري الذي يقضي بتدخل الدولة في الأوضاع الاقتصادية ، ولكن بالقدر وفي الحدود التي تقتضيها هذه الأوضاع وذلك التطور ؛ ولن يكون هذا التدخل بحال كلياً ؛ لأن الفرد في الرأسمالية — خاصة ومجتمعاتها تسودها الديمقراطية السياسية — يجب ألا يغمط حقه في التملك والإدارة والعمل والحرية الاقتصادية والتأثير الذي يتناسب معه في الأحوال العامة ! .

والثانية : من حيث الكيفية ؛ وذلك أن الشيوعية لا ترضى أن تشرك نفسها مع الأفراد أو الهيئات الخاصة في تولي وتملك المشروعات العامة أو الخاصة ، وإنما هي تنكر على الفرد إطلاقاً أن يكون له أثر في الملكية والإدارة ؛ إذ لا يتعدى أثره في نظرها أن يكون عاملاً أجيراً يعمل ويفنى نفسه الفردية في المجموع المعنوي الذي تمثله الدولة صاحبة الحق في السيطرة على كل ما له صفة اقتصاد أو منفعة ، وفي امتلاك كل ما يوجد في نطاق مجتمعها ، بصرف النظر عن أصل ملكيته ، أي عما إذا كان هذا الأصل الفرد أو الهيئة الخاصة أو الهيئة العامة . وتأبى الرأسمالية أن تسلم بهذا على علاته ؛ فالفرد في مجتمعاتها لا يحرم من حق التملك ومن حق إقامة المشروعات الخاصة ، ولا يعدو الأمر من ناحية التأميم إلا أن يقال : إن هذه المشروعات الفردية الخاصة التي يقوم بها الفرد أو مجموعة من الأفراد ، إذا ما اتسع نطاقها وتغير وضعها تبعاً لتطور الحياة وتبدل الأحوال العامة ، فإن الدولة التي تأخذ بالنظام الرأسمالي تجد بعض الحرج في ترك هذه المشروعات الفردية التي صارت ذات صفة عامة ومنفعة عمومية لأصحابها ؛ حتى لا يختل نظام المجتمع من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ؛ عندئذ تتملك هذه المشروعات بوسائل — سأبينها فيما بعد — تختلف عن الوسائل التي تتولى بها الشيوعية مثلاً تولي ملكية هذه المشروعات . والدولة تتملك في المجتمع الرأسمالي هذه المشروعات على أساس ما لها من حق بل من واجب في تحقيق الصالح العام ، لا على أساس حق التملك المطلق لشتى صنوف الملكية الإنتاجية أو بالأحرى لمشروعات عناصر الإنتاج .

ويسوغ للدولة في ظل الرأسمالية أن تشرك معها الأفراد أو هيئاتهم للقيام بأسلوب من أساليب إدارة المرافق العامة والمشروعات العامة ، أو أن تكل إليهم وفق شروطها الموضوعة وتحت إشرافها ، القيام ببعض المرافق والمشروعات ؛ ذلك لأن غرضها ليس محدداً بالتملك وإمساك زمام الشئون الاقتصادية والسياسية تحديداً صارماً ؛ وإنما يلاحظ أن غرضها الجوهري هو تحقيق الصالح العام ، ووسيلتها في ذلك قيامها منفردة بإدارة المرافق والمشروعات العامة فقط ، تاركة الأفراد مشروعاتهم ، أو تعاونها معهم لتحقيق غرضها الجوهري عن طريق مشاركتهم في الإدارة والعمل ، أو تفويضها لهم بتولي بعض المرافق ، وذلك أيضاً بقصد الوصول إلى هدفها الأساسي ، ولكن يحدث ذلك وفق ما تضعه لهم من شروط وتحت ما تفرضه من إشراف .

(له بقية) أحمد طه الشربيني

٣٨ - خاطـــــرة

للدكتور أحمد أمين بك

دخلت مرة على عميد كلية بيروت، وهي الفسيحة البناء، الواسعة الفناء، الكثيرة الغرف، التي غصت بمكتبتها وحجرات دراساتها، وملاعبها؛ فكنت لذلك أتصور حجرة العميد فخمة ضخمة مملوءة بالأثاث الفاخر، والرياش الكثيرة. فما راعني إلا أن وجدتها غاية في البساطة، ليس فيها إلا مكتب متواضع للعميد، وسجادة متواضعة على الأرض، وبعض كراسي عادية، ولا مروحة للصيف، ولا مدفأة للشتاء، ولا زهرية على المكتبة فيها أزهار، ولا غير ذلك. ولكنها مع ذلك نظيفة رائعة جميلة.

ذكرني ذلك بمكاتب الموظفين وفخامتهم وتأنقهم في فرش حجرهم، وبالسيارات الفخمة لكبار الموظفين. وذكرني بما كتبه ناقد سويسري، وقد زار مدينتنا الجامعية، فاستغرب من ضخامتها وفخامتها، وكثرة ما أنفق عليها، وأنها تسع ستمائة طالب، فيها أكثر من ستمائة وعاء للشاي، لأن كل طالب له وعاء. في حين أنه يمكن عمل حوض يصب فيه الشاي، له حنفية يملأ منها كل طالب فنجانا.

ثم المبالغ الضخمة التي بنيت بها هذه المدينة، وتنفق لها الاعتماد تلو الاعتماد. وليس ضرر هذه المخفخة مقصوراً على هذه الأموال التي تبعثر، بل إننا بذلك نعد شبانا يكرهون ريفهم، بل وعيشتهم في المدينة، لأنهم تعودوا النعيم في مسكنهم ومشربهم.

قلت: إن هذه الفخفخة هي الطابع المصري العريب. إني أعرف أستاذاً إنجليزياً في جامعة يلبس لباساً مرقعاً، ثم له حلة نظيفة أنيقة، لا يلبسها إلا يوم الأحد. وأرى الشبان المصريين يسرفون في ملابسهم، ويتأنقون في مناديلهم ورباط رقبتهم، حتى كأنهم دمى.

وأقارن بين مؤتمرات أوربا ومؤتمرات مصر، فأرى مؤتمرات أوربا بسيطة، إن دعوا إلى شاي فشاي بسيط، بجانبه لقمة من «الكعك» أو نحوه، ثم لا شيء غير ذلك. ثم أنظر إلى مؤتمراتنا، فأرى أكلا كثيراً وشرباً كثيراً، وكل ما شئت من ترف ونعيم. ولا حساب للمال يتدفق، ولا للسخرية بعد ذلك تنالها من المدعوين.

ثم أسمع أن وزارة المعارف لما أرادت نشر التعليم الأولي قدرت أن ما ينبغي صرفه على بناء كل مدرسة أولية هو ستة آلاف جنيه، وهذا ما يعجز ميزانية الدولة من تعميم التعليم، إذ يأتي بعد ذلك المفروش والنفقات ومرتباتهم إلى غير ذلك. فكيف إذاً نكافح الأمية ونعمم التعليم؟

وعلى هذا المنوال نرى المخفخة في كل مرفق من مرافق الحياة: في الولائم للعلم، وفي المآتم والأفراح، وفي حليّ المرأة وفي فساتينها وفرّوها وغير ذلك.

أنا على يقين من أن ميزانية الدولة لو وضعت في يد حكماء لاستطعنا أن نصرف على هذه الأشياء عشر ما يصرف عليها الآن أو أقل من ذلك.

ما علة هذا الإسراف؟ علته أولاً أننا أصبنا بمركب النقص، وأحسسنا بضعفنا وحقارتنا، فأردنا أن نغطي ذلك بفخامة مظهرنا. وقد أنصف العرب إذ مدحوا المرأة الجميلة التي يغنيها جمالها عن زينتها بالغانية.

وثانياً ما ورثناه عن الأتراك من حب الفخفخة والتظاهر.

ولكن أما آن لنا وقد شعرنا بحاجتنا، ورأينا تصرفات غيرنا، أن يكون شعارنا البساطة في كل شيء؟ والبساطة جمال خير من جمال التعقيد!

أحمد أمين

رحلة المتاعب أيضا[1]

للأستاذ الدمرداش محمد بك

قضينا يومين نتفرج على آثار « البطرا » . وبقدر ما أغضب تلحمى أعضاء الرحلة فى الطريق بين القاهرة ومعان ، بقدر ما أدخل السرور على نفوسهم فى ليالى ساحة البطرا . وبقدر ما كان سخيفاً وثقيل الهم فى تصرفاته معنا أثناء الطريق ، بقدر ما كان ظريفاً وخفيف الروح فى حفلات التهريج فى حلقات الليل . فبينما نكون نحن مشغولين نهارا فى التجوال بين معابد النبط وآثارهم ، يكون تلحمى فى الساحة مشغولا بإخراج « هزليات » من تأليفه . يضع هو حوارها ومناظرها وأزجالها كما يقوم بتمثيل أدوارها . فإذا ما اجتمعنا مساء بعد العشاء حول بؤرة النار ، قام تلحمى بعرض فصوله علينا بين التصفيق والتهليل والضحكات العاليات التى لا ينقطع دويها فى فضاء الساحة إلا بانتهاء الحفلة فى منتصف الليل .

انتهت زيارة البطرا فعاد الأعضاء إلى القاهرة من طريق العقبة كما جاءوا . وتخلفت أنا والطبيب وزوجته لرغبتنا فى زيارة شرق الأردن وفلسطين . وتخلف معنا كذلك الخواجة تلحمى لزيارة قريب له بالقدس . فتكدسنا نحن الأربعة فى سيارة حسن السائق وقصدنا عمان . فسارت السيارة فى طريق يقع على هامش بادية الشام . فى صحراء جرداء قليلة العمران : ووصلنا محطة القطرانة بعد سبع ساعات . ثم مال بنا الطريق نحو الغرب . ودخلنا منطقة الجبال وسط زوبعة هوجاء : فالتجأنا إلى بلدة (مادبا القديمة) واحتمينا بها . وفى المساء هدأت العاصفة فاستأنفنا السير ، ولم نصل عمان إلا قبيل منتصف الليل . فاتجهنا إلى فندق « فيلادلفيا الجديدة » نبغى المبيت .

كان الفندق مزدحماً بالنزلاء . فلم نجد فيه مكانا ننام فيه ، وليس بالمدينة غير هذا الفندق . جلسنا فى البهو نلتمس



مخرجا . وغاب عنا تلحمى نحو ساعة . ثم عاد يبشرنا بالاهتداء إلى صديق له فى المدينة قبل أن نبيت بمنزله مقابل أجر قليل . ثم تقدمنا يصعد فى أزقة معتمة ضيقة زلقة . ونحن من خلفه نئوء بحمل متاعنا . ونكاد نسقط من طولنا من شدة الإعياء . ثم وقف أمام باب منزل صغير من طابقين . ودفع الباب فانفتح على سلم خشبى مظلم . فارتقى درجاته ، متحسسا موضع قدمه فى كل خطوة . وصعدنا وراءه وانتهى السلم إلى باب أدى بنا إلى صالة نورها خافت ، وقف فى وسطها شيخ استقبلنا بنظرة زائغة . ورأيت فى الصالة حجرتين ودهليزاً . فأشار تلحمى إلى إحدى الحجرتين وقال : هنا الدكتور « ومدامته » وأشار إلى « كنبة » فى الصالة وقال : هنا أنت . وأشار إلى كنبة أخرى فى الدهليز وقال : هنا أنا . أما صاحب البيت وزوجته وأبناؤه الثلاثة ففى الحجرة الأخرى .

فترددنا قليلا فى قبول هذا الوضع . ولكن ما حيلتنا والليل قد انقضى شطره الأكبر . والمدينة سكنت ونام أهلها ولم يبق فينا بقية من جهد . فارتميت على الكنبة « بدلتى » وحاولت أن أنام . فكنت أغفو وأفيق . ثم غلبنى النعاس فنمت .

---

(١) نشر الجزء الأول من هذه الرحلة فى الصفحة ٦٩٢ من الثقافة .

واستيقظت في الصباح . فوجدت حجرة الطبيب مضاءة وزوجته تذهب وتجيء بين الحجرة ودورة المياه . وهي مطرقة حيرى .

ووجدت تلميذي قد انزلق عن الكنبة . واستوى بجسمه على الأرض في الدهليز وأحشر فيه . من تحته بطانية ومن فوقه لحاف تكاد حافته لا تبلغ ركبتيه . وهو يغط في نوم عميق هادىء .

وخرج الدكتور من الحجرة شاحب الوجه . وقال : إنه لم يذق طعم النوم لكثرة البق . وإنه قضى ليلته ساهداً جالساً على حافة الشباك . فعجلنا نحن الثلاثة بالنزول من المنزل وهرولنا إلى الفندق .

قضينا يومين في عمان لزيارة معالمها . ثم غادرناها في اليوم التالي مع شروق الشمس قاصدين « جرش » . فدرجت بنا السيارة في طريق معبدة صاعدة في الجبل حتى وصلنا القمة . فانبسطت الهضبة وانكشف النظر عن جمال رائع . فمال من تحتنا في أعماق الوادي غارقة في الضباب ، ونهرها الصغير ينساب صافياً بين الثنيات . يلمع ماؤه تحت أشعة الشمس الفاترة ، وقصور الأمراء والأعيان منتثرة على سفوح الجبال ، تظللها أشجار السرو الباسقة ، ومروج خضراء من أمامنا تمتد حتى الأفق . ثم اجتزنا الهضبة ، ووصلنا أطراف الصحراء . فتركنا الجبال . وهبطنا إلى السهول . وساءت حالة الطريق بسبب هطول الأمطار . فعانينا كثيراً من السير في الوحل والانزلاق في المنحدرات والارتطام في الحفر ، واللف والدوران حول التلال ، وطال بنا الحال على هذا المنوال ساعات . فلم نبلغ معسكر « المفرق » إلا قبيل الأصيل ، وبعد راحة قصيرة اندفعت السيارة إلى الأمام تشق طريقها في الوديان وعلى السفوح وفوق الربى ، وعلى القمم . وأقبل المساء ، واشتد البرد وخامرنا الشك من وصولنا جرش في تلك الليلة سالمين . فقد « شرب » حسن كثيراً في قهوة (المفرق) . وأصبح لا يحترس ولا يكترث . يسرع حيث يجب الحذر ، ويتئد حيث لا خوف من الإسراع ، وينساب في الكلام حيث يجب السكوت ، ويصمت حيث يحسن الكلام ، ولا تحلو له الثرثرة إلا حيث يسابق الريح على شفا جرف ، أو فوق حافة هاوية . أما حيث يستوي الطريق ويستقيم فهو خامل هامد ، لا يبدي بكلمة .

أخذت الشمس تغيب رويداً وراء سلاسل الجبال ، واصطبغت جوانب الوديان بشتى الألوان ، وانعقد الطل على العشب وأوراق الأشجار ، وتجمع الفلاحون على منافذ القرى يتحدثون ويتمازحون . ثم هدأت الطبيعة ، وخيم الظلام ، وشملنا سكون رهيب .

وصلنا (جرش) في عتمة الغروب ، فألقينا على البلد نظرة عاجلة مرجئين زيارته إلى الغد . ثم آوينا جميعاً إلى قهوة بلدية في مدخل القرية ، وتناولنا القهوة والشاي : الأقداح تلو الأقداح حتى وقت العشاء .

لم نجد في جرش لوكاندة نأوي إليها ، ولا مطعماً نأكل فيه ، وليس فيها غير هذه القهوة التي نجلس فيها ، وبينما نحن نفاوض القهوجي في أمر عشائنا ونومنا إذ أقبل طبيب القرية على القهوة يدعونا للمبيت عنده . فكانت مفاجأة سارة ، وقضينا الليلة في بيته على أحسن حال ، وفي الصباح خرجنا إلى ظاهر جرش للفرجة على المعبد ، وهو من أبدع ما خلفه الرومان من الآثار في سوريا وفلسطين ، ويدل ما بقي منه من أبهاء وعمد وفسيفساء على ما كان عليه من عظمة وجلال وجمال .

ثم جلسنا هناك على جذع زيتونة على حافة الطريق ، نسرح الطرف في الأرض والسماء ، وأمامنا وادي جرش كأروض فسيح أخضر . تمتد أطرافه حتى تتلاقى على مدى النظر بسفوح الجبال ، وجداول الماء تتلاحق على طوله تتلوى بين الجانبين تلثمهما تارة وتحيد عنهما تارة ، ومياه العيون تتدفق من شاهق فيدوي صوت خريرها في الفضاء ، ورشاش الماء يطير في الهواء ، راسماً هالات من أنوار ، والسماء زرقاء صافية ، والشمس ساطعة دافئة ، والطبيعة ندية هادئة ، تشع في السكون البهجة والسرور .

غادرنا جرش وشمس الصباح عالية ، وأخذ طريقنا ، وسط المروج الباسمة الخضراء ، يلف ويلتوي ويدور حول الربى ، صاعداً نازلا ، ينتقل من جبل إلى واد ، ومن قمة إلى حضيض . حتى وصلنا نهر (الزرقا) عند الظهر ، فجلسنا على شاطئه لنستريح ، ثم صعدنا إلى بلدة (صويلح) في مرتقى شديد الانحدار ، وصويلح بلدة (الشركس) في شرق الأردن . بلدة لطيفة ، موقعها بديع تشرف من جرف شاهق على واد فسيح ، وهي موطن الوجوه الشقراء ، والعيون الزرقاء ، والقد المعتدل الممشوق .

اجتزنا صويلح مسرعين ، كما اجتزنا كذلك مدينة السلت ، ونزلنا من وادي شعيب إلى غور البحر الميت ، فتغيرت طبيعة الأرض وثقل الجو ، وسخن الهواء ، واحتبس النسيم . وذهبنا إلى البحر الميت وجلسنا في قهوة على الشاطئ ، وكان البحر راكداً ساكناً لا موج فيه ، وضباب كثيف مخيم فوقه ، فلم نر خلاله إلا أشباح الجبال الجرداء المحيطة به . وطلب الخواجة تلحمي من القهوجي أن يأتيه بأكلة من السمك ، فضحك القهوجي وقال له : « يا سيدي الصنارة صيد » .

لم نجد في البحر متعة ولا لذة ، ولا في الجو سروراً وانتعاشاً فعجلنا بالرحيل ! فدرجت بنا السيارة صاعدة في جبال فلسطين ، ووصلنا القدس عند الغروب ، وأخذنا تلحمي إلى فندق كبير يقع خلف كنيسة القيامة ، واستقبلنا عند الباب راهب حمل متاعنا ، وتقدمنا إلى الطابق الثالث ، وأدخل الطبيب وزوجته إلى حجرة ، وأدخلني إلى الحجرة المجاورة ، فوجدت الحجرة كصومعة الراهب : صورة للمسيح مرفوعة في صدرها على الحائط فوق السرير ، ونسخة من الإنجيل ملفوفة في غطاء من الحرير الزركشي موضوعة على نضد بجانب السرير ، وقنديل فيه قبيلة مضيئة متدل من السقف في أحد الأركان . جلست على كرسي أفكر في الأمر ، وجاء وقت العشاء فنزلنا إلى طابق تحت الأرض معقود السقف كالكهف ، تزين جدرانه صور وتماثيل للعذراء والمسيح ، وبتوسطه نضد طويل رصت فوقه أدوات الطعام ! جلست بجانب الطبيب على كرسي مريح ، أتعجب مما نحن فيه ، وجاء لفيف من الرهبان ، وبدأت صلاة ، أعقبتها ترنيمات وأناشيد باللغة الإيطالية ، ثم قدموا لنا النبيذ وأصنافاً من الطعام كثيرة جيدة النكهة والمذاق ، وانتهى الطعام كما بدأ بصلاة ودعوات ثم انصرفنا في سكون وسكوت وخشوع .

وفي الصباح قبل الفطور دعانا راهب للنزول إلى الطابق الثاني ، ثم قادونا إلى كنيسة وجدت نزلاء الفندق احتشدوا فيها يؤدون الصلاة .

وجاءني كاتب الفندق يستعلم عن اسمي بالكامل ، فناولته بطاقتي فنظر فيها مندهشاً ، وقال : كيف ذلك ! إنك مسلم وهذا الفندق وقف ، لا ينزل به إلا النصارى ، فقلت له : وما العمل ؟ فقال : لا تحزن ، ولكن احفظ سراً بيني وبينك ، وضحك وضحكت ، ودسست في كفه ورقة بنصف جنيه ، فطوى كفه عليها وانصرف شاكراً مسروراً .

لم يكن تلحمي نازلاً معنا بالفندق ، بل تركنا لزيارة قريبه والمبيت عنده ، فبينما أنا داخل إلى سوق المدينة القديمة من باب الخليل . إذ أبصرت به جالساً في قهوة بلدية في ثياب عربية كلبس أهل القدس يساوم أحد الباعة في شراء سترة مصنوعة من جلد الشاة . فتقدمت نحوه ، ولكنه ما كان يلمحني حتى ترك مقعده في القهوة ، وخرج مسرعاً من باب جانبي ، وسبقني إلى داخل السوق ، وفي زاوية الطريق همس في أذني أن أتركه الآن وسيلحق بنا في الفندق بعد قليل ، فنظرت إليه نظرة ريبة واستغراب .

وفي صباح اليوم التالي غادرنا القدس عائدين إلى مصر . ومررنا (بئر السبع) و (العسلوج) ، وكان في وجود الخواجة تلحمي معنا ضمان كاف لمرور متاعنا وحوائجنا من غير تفتيش في نقط الجمارك بين فلسطين ومصر ، كما كنا موضع التكريم من جنود مصلحة الحدود عند مبيتنا بمير حسن بسيناء . وفي ظهر اليوم التالي ودعنا الخواجة تلحمي والسائق حسن بالسويس ، وركبنا القطار إلى القاهرة .

الدمرداش محمد

حول لغـــة ابن سينا

للدكتور شوقي ضيف

قرأت المقالة التي كتبها الصديق الفاضل الدكتور طه الحاجري تعليقاً على مقالي « لغة ابن سينا » وأنا أحترم اختلافه معي في الرأي ، وأرى أن من حقه أن يكوّن لنفسه ما يشاء من آراء في ابن سينا وغيره ، وأن من حقي أيضاً أن أذهب إلى ما أذهب إليه من أفكار موافقاً له ولغيره حيناً ومخالفاً حيناً آخر .

وما أعرف خطأ يقع فيه باحث أكبر من الخطأ الذي يقوم على الإيمان بالمشهورات دون عرضها على الفحص والامتحان والرجوع بها إلى مناقشة مقدماتها ونتائجها ، وقد اشتهر ابن سينا وملأت شهرته الخافقين .

وحق أن يعرضه الباحثون ، لا عرض التقديس ، ولكن عرض العلم وما ينتهي به من أحكام حين تمر فلسفته وأساليبه ولغته في أدواته الدقيقة ؛ ولست أزعم أني أملك من هذه الأدوات ما لا يملكه غيري ، ولا أن لي وحدي حق القياس بها والمقارنة . فالأبحاث كانت ولا تزال كلأ مباحاً ، لكل أن يجري فيها آراءه وأفكاره دون أن يبخس حقوق غيره أو ينتقص من قدره .

والمسألة تتلخص في أني قرأت ابن سينا ولم أعجب به ولا بأساليبه ، بل رأيت فيها التواءات وانحرافات شديدة ، أفلا يكون من حقي أن أبدي رأيي في حرية وصراحة ، أم يجب أن أنزل حيث ينزل السدنة وأحرق له البخور وأترنم بالأناشيد ؟ وماذا قلت ؟ لقد قلت إن لغة ابن سينا لغة قاصرة ، فيها عجمة وإبهام ، وفيها ارتباك وتعثر ، ثم أخذت أعلل لذلك فرجعت علة بعض منه إلى من سبقوه في ترجمة الفلسفة اليونانية ، واستشهدت بالجاحظ وما سجل عنهم . فرفعت بذلك عن ابن سينا جزءاً من نقص تعبيره وفساده ، ورددته إلى غيره . ثم وقفت عند عجمته وأنه كان يتخذ الفارسية في حياته اليومية ، لأبين أن جزءاً آخر من هذا النقص والفساد يرجع إلى أن سليقته العربية لم تكن تامة ولا كاملة .

ومن المحقق أن كل ذلك كان ، وكان أيضاً أن أخذ نفسه بالمنطق الشديد في صياغاته ، فخرجت أساليبه في بعض جوانبها أقصر مما ينبغي ، وخرجت في كثير من هذه الجوانب وكأنها أهرامات ترصف فيها حجارة المنطق ، وهي حجارة تفقد كل خفة ورشاقة ؛ ومن هنا قلت « إن أسلوبه بدا متجمداً وبدا في كثير من جوانبه كأنه الصخر الصلد يمسكه منطق يشيع فيه الجفاف ، فلا نضرة ولا حياة ، وإنما القضايا المنطقية الصماء التي لا تعني إلا بالب ولب اللب » .

وأشرت إلى ما يجري في عباراته من خلل ونشاز ، وقلت إنه تعلم اللغة من المعاجم ، فلم يعرف بالضبط حدود الألفاظ ولا وجوه تصاريف العبارات .

كل ذلك قلته بعد قراءتي له ، وبعد عرضه على ما أملك من حس وذوق في العربية ، ثم رأيت أن أدعمه بشيء من أخباره يدل عليه ، فاستشهدت بنصوص تشير مباشرة أو من طرف خفي إلى قصور علمه باللغة ، وقصور الأساليب الفلسفية التي كان يقرؤها ، حتى ليقول صراحة « قرأت كتاب ما بعد الطبيعة ، فما كنت أفهم ما فيه ، والتبس على غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظاً وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به » .

وكتب الدكتور الحاجري يخالفني في بعض ما استنتجت من هذا النص وغيره ، وأنا أرى أن هذا من حقه ، ولكن الذي لا أراه من حقه أن يسارع إلى وصف مقالي بأنه عاجل .

ويُخيّل إليّ لكثرة ما تحدث عن العجلة أنه وجد ما ينقض آرائي التي كونتها عن لغة ابن سينا وأساليبه ، حتى ظننت أنه وقف على ما يثبت أنه عربي نجدي مضري من سلالة معد ابن عدنان ، أو أنه عاش في بادية من بوادي نجد سنة أو سنتين ، وأخذ اللغة من أصحابها مباشرة ، ويملك من سليقتها ما تملكه أفذاذ العصر العباسي من الموالي أمثال أبي نواس وبشار ، بل ما تملكه أفذاذ العرب أمثال زياد والحجاج .

(البقية على الصفحة التالية)

هذه التوقيعات المستعارة

أى قصص وراءها

سان .. وحصان .. وأشياء أخرى

للأستاذ ممدوح عيسى

شاعت بين الكتاب فى السنوات الأخيرة « موضة » أو « تقليد » أو « تقليعة » توقيع إنتاجهم الأدبى فى الصحف والمجلات بأسماء أو حروف مستعارة . يقف القارىء قبالتها مثلما يقف العامة أمام الأحاجى والألغاز ! ..

ولا يعدم المتنكرون فى تبرير مسلكهم هذا من أسباب يلوذون بها كلما ضيق عليهم الخناق فى هذا النطاق : فمن رغبة فى التخلص من مواقف الحرج ويطلق عليها البعض تخاذلا ، أو التعبير عن آرائهم بنوع من الحرية وينعته القوم جبنا ، أو إثارة القارىء ويسميها الناس نوعا من الدعاية .

وتحقيقاً لهذه الغاية لا يخجل البعض من أن يتوارى فى ظل اسم امرأة .

وفيما يلى نعرض ألواناً طريفة من هذا النوع من « التخفى » الذى صار « معروفا » ونبسط الأسباب التى حدت بهم إلى اختيار هذه الأسماء !

س . أ

منذ خمسة وعشرين عاما اعتاد الناس أن يقرأوا فى جريدة « البلاغ » مقالات سياسية تتميز بأسلوب أدبى رائع وتقوم على أفكار ناضجة ممضاة : « س . أ » . وقد ندر أن عرف يوما أن صاحب هذه المقالات الممتعة هو الزعيم الخالد سعد زغلول .

ولم يشأ الزعيم أن يمضى « س . ز » أو « س » لحسب حتى لا يدل عليه أحد الإخصائيين واختار حرفى « س . أ » لأنهما الحرفان الأولان من اسمه واسم المغفور له والده إذ هو « سعد إبراهيم زغلول » .

أ . ص

وبتوقيع « أ . ص » نشرت جريدة الأهرام فصولا اقتصادية واجتماعية بليغة . ولكن هذا الرمز لم يحل دون أن يعرف معظم القراء أنها لدولة إسماعيل صدقى باشا . ولكن الذى لم يعرفه هؤلاء القراء أنفسهم أن الدافع الذى حمله على ذلك رغبته فى التعبير عن بعض الآراء ، ووقوف عضويته فى بعض الشركات الأجنبية بمصر حائلا دون ذلك .

الغزالى

أما الغزالى فهو التوقيع الذى تخيره الوزير الأديب

ولكنى لم أجد من ذلك شيئاً ألبتة ، ولا أزال عند كل ما قلته — متأنيا متمهلا مردداً النظر فيه ، من أن لغة ابن سينا غير صافية ولا مروقة ، بل يتخللها الاضطراب والانحراف فى غير موضع . ومع ذلك فقد انتهيت فى مقالى السالف إلى الدفاع عن ابن سينا — قبل أن يحاول الدكتور الحاجرى الدفاع عنه — بمناسبة عيده الألفى ، فقلت ما نصه :

« ونحن لا نشك فى أن كل ما قدمناه إنما هو أعشاب ونباتات متسلقة طفت على شجرة الفكر الفلسفى عند ابن سينا ، ولم ترد بحجمه وإحصائه أن تحط من قدره أو تزرى على صنيعه ، إنما أردنا أن نصور المادة اللغوية لأسلوبه وسر الالتواء فيها ، وهو التواء ورثه عمن نهضوا أولاً بالترجمة والنقل للفلسفة اليونانية ، واستمر عالقاً بأساليبه وأساليب من جاءوا بعده .. »

وسلام الله عليك يا أخى وتحيته يوم خالفتنى فى الرأى ويوم توافقنى .

شوقى ضيف

ابراهيم دسوقى أباظة باشا ليذيل به أعز ما أنتج من قطع أدبية مصقولة طالما أغرم بها طلاب الإنشاء ! !

ع . م

ومن التوقيعات التي أثارت حدس القراء، وتكهناتهم ومنوا بالفشل الذريع في كشف غموضها التوقيع «ع . م» الذى كان يختم به الكاتب المجهول مقالاته التي اعتادت الأهرام أن تحلى بها جيدها منذ عام ١٩٣٥ .

ولم يكن التوقيع سببا في البحث عن صاحبها قدر ما كانت هذه المقالات تثير من ضجة وتخلق من توجيه . وبلغ من أمر المتقفين لآثارها أن أسندوا أمرها ارفعة على ماهر باشا ، ومن قائل إنها لزيد أو عمر من أساطين الساسة والكتاب . ولأول مرة يجمع الكل على الخطأ ، ولم يتبادر إلى ذهن واحد منهم أنها للأستاذ عباس الصق مراسل الأهرام فى الاسكندرية .

صريح

أما الأستاذ أحمد قاسم جودة فقد ظل يكتب في جريدة المصرى في سنتي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ مقالات سياسية بإمضاء « صريح » اختلف الناس فى أمرها .. هل هى لنجيب الهلالى باشا أو المغفور له صبرى أبو علم باشا أو لرجل من أعلام الوفد . وكان هذا الصحفى الناشىء أنه موظف بالدرجة الثامنة فى وزارة التجارة والصناعة .

ديك الجن

ولعل رمزا لم يأسر القراء قدر ما أسرهم هذا اللقط . فقد ظل الكاتب يطالعه في سلسلة مقالات أشبه بالمقامات ، بعنوان « مخالب القطط » . ومع هذا لم يستطع كثيرون أن يفطنوا إلى شخصيته ، إلى أن قدم صاحبها النيابة ، فتقدم صاحب الدولة أحمد نجيب الهلالى باشا يقول : أنا لها . .

أبو يوسف

وقلائل من يعرفون أن سعادة الدكتور حامد زكى باشا اشتغل بالصحافة قبل أن يصير وزيراً ، وكان يوقع مقالاته بجريدة المصرى بإمضاء « أبو يوسف » ومن الطريف أنه أنجب بعد ذلك ولداً فأسماه « يوسف » .

صصص

وقد اعتاد كاتب معروف تولى حينا رياسة تحرير مجلة الاثنين أن يوقع قصصه الفكهة بكلمة « صصص » .

وعرف أن صصص هذه ماهى إلا اصطلاح « كودى » لاسم مصطفى بك أمين أحد صاحبى دار أخبار اليوم .

السندباد البحرى

وتخير مدير مكتب وزير المالية في أحد الأوقات لنفسه هذا التوقيع المستعار ليواصل نشاطه الصحفى فى دار الهلال ، فكتب ألواناً من الطرائف ، ونقل كثيراً العجائب من بلاد الغرب .

وظل أمر كاتبنا مجهولا حتى ترك مجلة آخر ساعة ، ونسى الأستاذ على أمين لقبه الذى كاد أن ينقرض .

هو . . ص . .

وفى المصرى كانت تنشر « إبر النحل » بتوقيع «ص» ثم انتقلت إبر النحل إلى الأهرام وعرف القراء أن (ص) هو الأستاذ أحمد الصاوى محمد بك .

سان

ومن منا لم يقرأ ١ + ١ = ٢ فى مجلة الاثنين ، ومن منا لم يتساءل أكثر من مرة عن « سان » هذا . أهو « سان فرنسسكو » أو « سان جوزيف » ؟ ! .. ولكنه « إحسان عبد القدوس » .

ومن الطريف أن نذكر أن السبب فى اختيار زميلنا « إحسان » لهذا الاسم أن ابنه الطفل لا يستطيع أن ينطق اسمه إلا على هذا الوضع « سان » ...

راد ميس

وهذا الرمز الغريب على السمع الثقيل فى النطق كان التوقيع المحبب إلى الأستاذ سعد الكفراوى خليل المحرر الفنى لجريدة البلاغ ، وقد جرى على أن يذيل به نقده وعرضه لشئون السينما والمسرح فى جريدة البلاغ . وذلك لكى لا يثير على نفسه حفيظة أصدقائه الذين يرشدهم إلى الصواب ، وألسنة أعدائه التى تجد مرعى طيباً فى كتاباته ...

مى الصغيرة

من تكون مى الصغيرة ، أهى صبية حسناء ، أهى زوجة ، أهى أرملة ، تحول دونها التقاليد من الظهور باسمها سافراً ؟.

لا هـذا ولا ذاك .. وإنما هى الروائى المعروف الأستاذ إبراهيم الوردانى . فقد بدأ حياته القصصية بنشر قصصه فى آخر ساعة مذيلة بهذا الإمضاء ليلفت إليه نظر القراء .

فقد أصاب الهدف الذى ابتغاه ، لا لجودة قصته أو لحسن فكرته قدرما كان لإباحية تعبيره .. هـذه الإباحية التى لم يألفها الناس من رجل فكيف بها من امرأة !!

بنت الشاطئ

وهذا اللقب أصبح مشهوراً لدرجة أن الناس لا يسألون عن الدكتورة عائشة عبد الرحمن حرم الأستاذ أمين الخولى بكلية الآداب ، مثلما يسألون عن ابنة الشاطئ ..

ويرجع اختيارها لهـذا الرمز إلى غرامها بالشاطئ ، وتنكرها فى هـذا الاسم إلى أن والدها من رجال الدين ومن الصوفية المحافظين .

فتاة الجزيرة

وفتاة الجزيرة التى قرأنا لها كثيراً فى مجلة الشئون الاجتماعية وسواها من المجلات هى الآنسة أمينة الصاوى كريمة فضيلة الشيخ مصطفى الصاوى الأستاذ بالأزهر ..

ولعل الذى حدا بها إلى إخفاء اسمها والتنكر فى هذا الزى هو ما حدا بزميلتها السابقة .

بنت بطوطة

وتطالعنا بين الحين والحين مقالات تتناول ذكريات تاريخية وعسكرية أحياناً تنشر بالأهرام والمصرى ومجلة الجيش ، تنفض الغبار عن ماضينا الذهبى وأحداثنا القومية ، مذيلة بعبارة « بنت بطوطة » .

وهذه المقالات هى لسيدة كريمة من بيت أثيل ، نزيح لأول مرة الستار عن اسمها الذى ظل متوارياً عدة سنين ، وهى صاحبة العظمة « عصمت حسن محسن باشا » وتقيم بعزبتها فى « شبرا رس » .

حصان ..

أما « حصان » فهو الاسم الذى اختارته السيدة إجلال حافظ لكاتب هذا المقال يوقع به مقالاته فى مجلة البلبل .

(القاهرة) ممدوح عيسى

الإدارة الثقافية

لجامعة الدول العربية

تدعو رجال الفكر فى العالم العربى

إلى مسابقة عامة فى التأليف

تطرح الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية على رجال الفكر والثقافة فى العالم العربى مسابقتها العامة الجديدة فى التأليف وموضوعها :

« المشاكل التى تعوق العالم العربى عن التقدم فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة والأخلاق » .

وذلك بالشروط الآتية :

١ — أن يقع البحث فى نحو ٣٠٠ صفحة من الحجم المتوسط وأن يكون مكتوباً باللغة العربية الفصحى .

٢ — أن يرسل البحث المقدم للمسابقة إلى الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية (١٠٢ شارع فاروق الأول بالعجوزة — الدقى) فى موعد غايته آخر أكتوبر ١٩٥٢ .

٣ — أن تكون نسخ البحث المرسلة منسوخة على الآلة الكاتبة أو مكتوبة بخط واضح .

٤ — يعطى صاحب البحث الفائز فى المسابقة مكافأة قدرها ٤٠٠ جنيه (أربعمائة جنيه مصرى) ، على أن تترك له الإدارة الثقافية حق طبع بحثه ، فى مقابل تعهده بتسليمها ٢٠ ٪ من نسخ كل طبعة .

جهود المصارف فى غمرة الحرب

(على ذكر حوادث حرق القاهرة)

للأستاذ محمد محمد نعمت

عندما اكفهر الجو السياسى فى سماء القارة الأوربية منذراً بقرب نشوب الحرب العالمية الثانية ، سارع مصرف كبير فى بريطانيا(*) إلى اتخاذ أهم الاحتياطات الوقائية ضد الغارات الجوية ، وكان ضمن تلك الوسائل التى كانت تتطور من حسن إلى أحسن ، أخذ صورة طبق الأصل من كل سجل من سجلات الحسابات الجارية والإيداع والتوفير والودائع والكمبيالات تحت التحصيل ، والكمبيالات المحولة وغيرها من السجلات الهامة الخاصة بشئون العملاء والمصرف . وقد لعبت آلة التصوير فى بعض الأقسام دوراً هاماً فى هذه الجهود الشاقة .

ولم يقتصر هذا العمل الإضافى الجديد على نسخ أصول السجلات فحسب ، بل كان المسئولون يجاهدون فى إرسال السجلات المنسوخة إلى الجهة التى اختيرت لإيداعها بها — هذا ما حدث فى بريطانيا . أما فى غيرها من البلدان ، فلم يكن من السهل تنفيذ هذه العمليات ، ناهيك بندرة الورق فى ذلك الحين وصعوبة الحصول عليه .

وما إن أغارت طائرات العدو فى شهر مايو سنة ١٩٤١ على العاصمة البريطانية ، وأصابت قنابلها ضمن ما أصابت فرعاً من فروع هذا المصرف حتى تبين الشكل ضرورة الأخذ بهذه الفكرة ؛ إذ سرعان ما أكلت النيران التى أشعلتها القنابل المحرقة التى ألقيت خلال هذه الغارة الشديدة المدمرة ، كل ما كان أمامها من أوراق ، ولم يحدث لهذا المصرف الذى كان أول من اتبع هذا النظام أن تأخر مرة واحدة بسبب حدوث غارة جوية عن استئناف عمله (فى مواعيده) فى أى مكان آخر ، وفى اليوم التالى مباشرة ، منعاً لتأخير إنجاز أعمال عملائه وتعطيل مصالحهم .

وقد درس عدد كبير من موظفى تلك المؤسسة قبل قيام الحرب طرق الوقاية من الغارات الجوية ، أو استمع إلى المحاضرات التى ألقيت عنها . كما اشترك بعضهم فعلاً فى مراقبة الغارات فيما بعد ، وفى الغارات التجريبية ؛ بل وتألفت منهم فرق لمكافحة النيران وللاسعاف والمحافظة على النظام فى المصرف الخ ، وخاصة عند اشتداد الأزمة . وقد يصعب على الكاتب أن يصور الجهود الجبارة التى بذلها هؤلاء الموظفون هم وغيرهم فى معركة بريطانيا ، التى لم يعرف عنها العالم الخارجى إلا القليل ، كما لم يشهد لها التاريخ أى مثيل .

ولم تكن الغارات الجوية هى الأخطار الوحيدة التى كانوا يخشونها ، بل كان هناك خطر الغزو ، لاسيما بعد انسحاب الجيش البريطانى من دنكرك وإصدار الحكومة تعليمات عن الخطوات التى يجب اتباعها عند وقوع هذا الخطر .

ومن الاحتياطات التى اتخذها هذا المصرف ، عدم حصر كل السلطة فى مركزه الرئيسى بالعاصمة ، بل قام كل فرع على تصريف شئونه الخاصة ، وقسمت المناطق فى الجهات التى بها فروع المصرف إلى مجموعات أشرف على كل منها موظف مسئول ، واتخذت الحيطة من وقوع المركز الرئيسى فى أيدى الأعداء فى حالة الغزو ، كى لا يصدروا تعليمات زائفة للفروع بالخارج ترتبك بسببها أعمالها ويصيبها الفشل .

(*) Barclays Bank (Dominion, Colonial and Overseas)

وللدلالة على شدة الغارات التي قاساها هذا المصرف وفروعه ، يكفي أن نذكر أن رفع الأنقاض كان يستغرق أحياناً خمسة أسابيع دون أن يتمكن الموظفون من الوصول إلى مكان الخزائن الحديدية تحت الأرض ! وكان يحدث أن تحتفظ هذه الخزائن والأنقاض بحرارة النيران ، بالرغم من مرور وقت طويل على حدوث الغارة . كما كان يصعب فتح الخزائن من شدة تأثير النيران ، فكانوا يضطرون إلى قطعها ليجدوا لدهشتهم جميع محتوياتها كأنها شويت بل وزاد شواؤها على النار ! وقد حدث أن فقدت جميع السجلات ، فرجعوا لصورها المحفوظة في مكان آخر .

ولم يمض وقت طويل على قيام الحرب حتى تدفقت على الولايات المتحدة الأمريكية سيول اللاجئين من مختلف بلاد أوربا والجزر البريطانية ، وزادت مشاكل فروع المصارف هنالك بمشاكل هؤلاء ! إذ رحل أغلبهم عن بلادهم تاركين أموالهم في مصارفهم آملين — كما خيل لهم — أنهم بمجرد أن تطأ أقدامهم أرض مدينة نيويورك . فهم لا بد حاصلون بطريقة سحرية على ما يلزمهم من مال بعد أن جمدت أموالهم في بلادهم ، غير مقدرين ما ستلاقيه المصارف من صعوبات في حل مشاكلهم المالية ، بالرغم من معاملة الحكومة الأمريكية لهذه المصارف نظراً لاختلاف القوانين في بلد عن آخر . ويكفي أن نشير إلى أن إنهاء عملية مالية واحدة استنفد ذات مرة من الورق ما زنته ثلاثة عشر رطلاً ونصف رطل بين فواتير ومستندات .

وقد كانت الأعباء الملقاة على كواهل موظفي فروع المصارف بمدينة نيويورك تزداد كلما طلبت منها حكومة أو أخرى طلباً ما . فمثلاً عندما أصدرت الحكومة البريطانية أمرها في أغسطس سنة ١٩٤٠ بعدم جلب أوراق العملة الإنكليزية (البنكنوت) من الولايات المتحدة إلى إنكلترا إلا عن طريق المصارف في موعد غايته ٢٧ أغسطس من ذلك العام ، وكانت هذه التعليمات لم تصل مدينة نيويورك إلا يوم ٢١ أغسطس سنة ١٩٤٠ ، أي لم يكن هناك مهلة غير سبعة أيام فقط ، فقد سارع فرع ذلك المصرف بعد اتصاله بمدينة لندن إلى تنفيذها قبل الموعد المحدد ، إذ أرسل ١٣٩٤٧٣ جنيهاً انكليزياً (أغلبها من الفئات الصغيرة) إلى انكلترا متخذاً كل الاحتياطات لوصولها سالمة ، من ذلك أنه قطع جميع أوراق العملة (البنكنوت) نصفين[*] أرسل كل نصف في طرد على حدة بعد فرزها وعمل بيان (من ثلاث صور) عنها موضحاً به قيمة كل ورقة ، ومكان وتاريخ إصدارها . وقد أخطر المصرف بوصول الطردين إلى إنكلترا سالمين .

وبما أن مؤسسة النافي N.A.A.F.I.[**] ومثيلتها الأمريكية أنشئتا للترفيه عن الجنود أينما وجدوا ، فقد كانت جميع أعمال المصارف تؤدى لها ولأفراد القوات المحاربة في ميادين القتال بسهولة تامة . ففي بنغازي وفي غيرها كان في استطاعة الفرد أن يرسل تلغرافيا أو بالبريد نقوداً لأسرته المقيمة في أرض وطنه ، هذا إذا كان مقتصدا ، أما إذا كان من المبذرين فكان في مقدوره أيضا أن يحصل على قيمة الشيكات المسحوبة على مصارف في بلاده ، وكم كان سرور الجميع وتعجبهم لمثل هذه التسهيلات .

وبالرغم من أن الحرب تطورت لصالح الأمم المتحدة فيما بعد فإن الغارات الجوية كانت في مستهل عام ١٩٤٤ لا تزال مستمرة ، وكانت ليلة ١٨/١٩ فبراير ١٩٤٤ من الليالي الليلاء بالنسبة لحي ويمبلدن (Wimbledon) حيث يوجد المركز الرئيسي لذلك المصرف وأكثر موظفيه ، إذ أصابته إحدى القنابل الثقيلة التي سقطت في تلك الليلة في حديقة تبعد عنه حوالي اثنين وعشرين مترا فشلت حركته . وكانت هذه الدار من الدور القديمة الفسيحة ذات الطوابق العديدة ، ولها ملحق كانت تشغله إدارة حسابات المصرف . وكان يقوم بالمراقبة في ذلك الوقت ثلاثة من موظفي المصرف وبالحراسة ليلا أحد الحراس .

(*) كان من عادة بنك إنكلترا في القرن الثامن عشر عند إرسال البنكنوت بالبريد أن يقطع الأوراق نصفين ويرسلها على مرتين كي لا تقع في غير أيدي أصحابها ! لأن قطاع الطرق كانوا كثيراً ما يغيرون على عربات البريد وينهبونها . وكان البنك إذا أرسل إلى شخص نصف الأوراق التي له انتظر منه إفادة بوصولها إليه حتى يرسل له النصف الثاني ، ومن هنا نشأت عادة كتابة الأرقام على البنكنوت مرتين .

(**) Navy, Army and Air Force Institution

صورة أدبية :

من صاحب الأنف .. وإليه

— ٢ —

للأستاذ إدوار منسى

ما معنى حياتنا ؟ إنى لأتساءل : ما معنى هذه الساقية تدور إلى غير نهاية ؟ ! ما معنى هذا التعب الدائم منذ نولد حتى نموت ! لماذا نموت ؟ ! لماذا نولد ولماذا نعيش ؟ ثم لماذا نموت ؟ ! من العبث أن أقنع نفسى أننا إنما نأتى الأرض لنتكاثر فنعمرها ! ولكن إذا اقتنعت بهذا — أو اصطنعت الاقتناع — لماذا نتكاثر ولماذا نعمر الأرض ؟ ! من العبث القول أننا نتكاثر ونعمر الأرض لنمتع أنظارنا بجمال الطبيعة ، كما أنه من العبث القول أن الأحياء يجملون الأرض ويجعلونها بهجة للعين ! إنى أقولها لك دون حرج : كل هذا كذب ، كذب ، كذب . إنى لا أجد أقبح من الأحياء على الأرض ؛ وإن الطبيعة وحدها كانت كافية لأن تكون جميلة فى ذاتها ، إذ أنى أراها فى غير حاجة إلى الحيوان يملؤها والإنسان يشمخ بأنفه عليها . الطبيعة بجبالها وأنهارها وتلالها وهضابها وأشجارها وينابيعها ، والحشائش التى تغطى أرضها والسحب التى تجرى فى سمائها . . . كل هذا جميل فى ذاته باق ، أما الإنسان ، أما الحيوان ، فزائلان . إنى أعشق كل ما هو باق وأحتقر كل ما هو زائل . إنى أحب كل ما حولى من « أشياء » إنى أحب الجبال الشاهقة والأشجار المعمرة والسحب والأنهار والينابيع ، أحب هذه « الزلطة » تحت قدمى ، أحب الأمطار تغرقنى ... أحب الطبيعة لأنها خالدة ، ولا أحب الحيوان — والإنسان ضمناً — لأنه زائل .

ليكون لحياتى معنى يجب أن تكون خالدة . لن أقول إن الإنسان ، فى تعاقبه ، خالد ؛ ماذا يهم ؟ ! إنى أريد أن أبقى « أنا » نفسى . أريد ألا أموت ، أريد أن أبقى أبد الدهر أنا نفسى « فلان » هو الذى أريد أن يبقى ، لا الإنسان فى تعاقبه ، إنى أحس بنفسى حقيرة ، لأنى أحس عناصر الفناء تدب فى جسدى ، كلما تذكرت أنى سأوارى التراب يوماً وأنى بعد أيام من رحيل عن هذه الحياة ، أحسست بقلبى غصة . أنا ! أنا الذى « كنت » مليئاً بالآمال ، أنا الذى كنت كلى ثورة ، أنا الذى كنت أسعد وأشقى ، أفرح وأحزن ، أقيم الدنيا وأقعدها ، أنا الذى كنت أضع المشاريع وأسعى للسمو والرفعة يكون مصيرى هكذا : كتلة من اللحم النتن لا يلبث الدود أن يأتى عليها فى أعماق الأرض ؛ لا ! إنى فى هذه اللحظة ميت حقاً ما دامت عناصر الفناء تدب فىّ فعلاً من الآن . إنى فى طريق إلى الموت . . . إنى أولد كى أموت . إنى لاشىء فى هذه الحياة ، لأنى زائل .

وكانت الإصابات فى الأرواح عديدة ، كما دمرت إحدى الدور القريبة تدميراً واشتعلت النار بدار أخرى بعد أن أصابتها القنبلة إصابة شديدة ، ولم تسلم إدارة الحسابات من النيران .

وبالرغم من أن موظفى المصرف الذين كانوا مكلفين بالمراقبة ، قد كافحوا النيران لئلا تمتد للمبنى الرئيسى ، فإنهم لم يستطيعوا عمل شىء أكثر من ذلك إلى أن أتت فرقة مطافىء المدينة إذ كانت تطفىء الحرائق فى أماكن أخرى فأخمدت النيران .

وبفحص ما خلفه الحريق بعد هدوء الحالة وإنقاذ ما أمكن إنقاذه تبين أن كمية كبيرة من الأوراق والسجلات لم تعد تصلح قطعا . أما ما كان محفوظا منها فى الأصونة (الدواليب) الصلب فقد تأثر قليلا من لفحة النيران . كما أن القسائم والطائر التى كانت محزومة جيداً لم تصب النار إلا بعض أطرافها وما كان ظاهراً منها . وكانت عملية الإنقاذ وفرز السجلات والقسائم عملية شاقة واحتاجت لوقت طويل . أما السجلات الهامة فكانت محفوظة فى الخزانة المعدة لحفظها تحت الأرض ولم يصبها شىء .

محمد رفعت

وإذا ما نظرت نظرة أخرى إلى نفسي وجدت أني حتى في هذه الفترة القصيرة التي دفعت إلى أن أحياها، أجدني عاجزاً كل العجز عن أن أغير من كينونتي شيئاً. فمثلا إذا أردت أن «أتغير» تعسر علي ذلك. فأنا إذا ضقت ذرعاً بنفسي ووجودي وأردت ألا أشعر بكينونتي وأشعى مع نفسي ومع ما كنته حتى قبل هذه اللحظة تعذر علي ذلك. كم أحب أن أنقلب انقلاباً كليا وأن أكون شخصاً آخر. فإذا سألتني: لماذا أريد أن أتغير؟ سأنبئك دون تردد: لماذا تحتاج إلى أن تغير حذاءك أو قميصك أو بذلتك من وقت إلى آخر؟! المسألة كلها هي أني أحب أن أغير شيئاً بنفسي، فضلا عن أن أغير أنفاً بأنف! إذا استطاع الواحد منا أن يختار «نفسه» بمثل السهولة التي يختار بها لون بذلته أو نوع قماشها قد يصبح الإنسان أسعد مما هو الآن. لا أعتقد أن الفكرة قد جاءت أحداً ليصبح شخصاً آخر أو ينقلب إلى شخص آخر لا يمت إلى شخصه الحالي بصلة. أما عن نفسي فلقد طالما أحببت ذلك: فأنا لا أحب نفسي.

إني أتكلم عن الانقلاب الكلي الذي يسميه الأوربيون «ميتامورفوزيس». وقد تقول إن هذا الانقلاب الكلي قد يحدث بالموت. ولكني لا أود أن أتذكر «العود الأبدي»، فلم يكن نيتشه نفسه متأكدا من هذا الأمر. وعلى أي حال كم أحب أن يحدث «هذا» الآن. إني لا أعرف شيئاً، وكل حي لا يعرف شيئاً مما يحدث بعد الموت، إني لا أحب التخمينات، إني أحب أن أنقلب إلى الشخص الذي أريد أن أكونه بأسرع ما يمكن: «حيا أعيش». أريد أن أنقلب ولكن حيا أعيش، لا بعد أن أوارى التراب.

ولكن هل من الممكن أن يحدث هذا؟! لا.

إننا نعيش على كوكب حائر في فضاء غير محدود، كأي كوكب أكبر أو أصغر منه في الفضاء، كأي ذرة تراب ضالة في الهواء! كوكب تكوينه الفني ناقص، لا غرض من وجوده، ملىء بالأمراض، مشحون بالميكروبات والطفيليات يعج بالمرضى والضعفاء والمساكين والممسوخين ممن ليس لهم حول ولا طول، كوكب كل حيّ عليه مصيره إلى زوال... كل حيّ فيه ميت.

والعجيب أني رغم شعوري بتفاهتي على هذا الكوكب، وتفاهة الكوكب بالنسبة للمجموعة الشمسية، وتفاهة المجموعة الشمسية بالنسبة إلى فضاء لا حدود له، أجدني أهتم كثيراً لما يدور حولي، وأهتم لظروفي الشخصية فأسخط على الذين كانوا السبب في إعدادي في هذه الدنيا، وأسخط على هذا الأنف الضخم الغليظ القبيح الذي يؤرق ليل حياتي، والذي كان وما زال يجعل مني أضحوكة في فصول الدراسة من رياض الأطفال حتى وقت الطلب في الجامعة وما بعدها! إني ساخط من كل شيء: من نفسي ومن الناس حولي ومن هذا العالم. إني ساخط... ولكن ما فائدة سخطي؟! إني لا أحب حياتي، ولكن ما فائدة كراهيتي لها؟! كل ما أعرفه أني يجب علي مشاركة هذا الركب، سواء رضيت أم لم أرض، كشاة في قطيع يقوده راع، أو نجم من هذه النجوم في موكبها الخالد عبر الفضاء اللانهائي! أتساءل إحداها عن سر هذا الاستعراض الدائم؟! قد تتساءل! ولكن سرعان ما تتابع سيرها وقد أدركت أن لا جواب.

هنا انتهت رسالة صديق صاحب الأنف.

●●●

لقد ألقت الدنيا وأنفدتها من أجل هذا الأنف! الغريب أنك تفسد عليك حياتك بإمعانك في هذا التفكير، ولو أنك تدبرت قولك: «والعجيب أني رغم شعوري بتفاهة الكوكب بالنسبة إلى المجموعة الشمسية، وتفاهة المجموعة الشمسية بالنسبة إلى فضاء لا حدود له...» لما تورطت في كل ما جاء برسالتك من صورة البؤس والشقاء لا مثيل لها. أنت إذاً تعرف أن كوكبنا تافه إذا قيس إلى المجموعة الشمسية، وأنت تعرف أن مجموعتنا الشمسية تافهة كلها إذا قيست إلى الفضاء الذي لا حدود له... ولكنك رغم ذلك تهتم لظروفك الشخصية وتسخط على هذا الأنف الضخم الغليظ القبيح الذي يشوه وجهك ويسوّد عيشك. ماذا يكون هذا الأنف ومن تكون أنت كإنسان؟! من تكون بالنسبة إلى هذا العالم؟ أنت فرد واحد ضمن مئات الملايين من الأفراد الذين يكوّنون تعداد هذه الدنيا. من تكون

حتى نهتم بسعادتك أو شقائك ، بنقصك أو كمالك ! أنت إن مت أو عشت فلن يغير وجودك أو عدمه من الحياة شيئاً . كم من البشر قبلك اندرثت آثار وجودهم على هذه الأرض ! كم من الشعوب انقرضت بأثرها وصارت تائهة في التاريخ والماضي بعد أن كانت تملأ الأرض صخباً وضجيجاً : لقد انقرض المصريون القدماء وكانت لهم قبل بضعة آلاف من السنين سطوة وجبروت ، ولم يتركوا لنا غير « بعض الحجارة المنحوتة » ! وانقرضت القبائل الأشورية منذ بضع عشرات الآلاف من السنين وقد كان لها كيان وحياة وكفاح ! وستنقرض نحن بدورنا بعد عدة آلاف من السنين ليحل محلنا بشر آخرون من سلالات أخرى ومن أنواع أخرى ، وسيقولون إذ يرون ما تركنا من آثار : لقد كانت هناك شعوب قبل بضعة آلاف من السنين ولكنها انقرضت ... وسيقف والأستاذ» بعد عدة آلاف من السنين في مدرج من مدرجات جامعة في عام ١٧٣٣٥[*] مثلاً يقول : أما أوربا في القرن العشرين فقد كانت منقسمة إلى شعوب كذا وكذا وتعدادها كذا وكذا ، وقامت فيها حروب عدة كانت تحصد فيها أرواح الناس حصداً ! وكذا الحال في أمريكا وآسيا ... ولكن انقرض أهل هذه البلاد ولم يخلفوا لنا إلا كتباً ملأى برموز وتهاويل غريبة ما زال علماؤنا يحاولون كشف الستار عنها . تماماً بالضبط كما فعل شامبوليون عندما وقف أكثر من عشرين عاماً من حياته ليفك رموز حجر رشيد ليكشف الستار عن لغة المصريين القدماء ! شعوب تأتي وشعوب تذهب ! حياة تنتهي وحياة تبدأ . فمن أنت ... من تكون حتى تعير نفسك اهتماماً ... من نكون حتى نعير أنفسنا اهتماماً ، فنحزن إذا ألم بنا مرض ، ونبكي إذا فقدنا عزيزاً ، ونغضب إذا أثارنا مثير ، ونهدد بالانتحار هرباً من المسئولية إذا وقعنا في ورطة ، ونندب حظوظنا العاثرة إذا خلق أحدنا قبيحاً أو لم ينل حظه من هذا الشيء أو ذاك ! من نحن ومن نكون في الحياة ؟ ! لا شيء . فلم الاهتمام بأنفسنا ... كيف نهتم بأنفسنا كأفراد حقراء ضمن أفراد حقراء مثلنا ! ؟ كيف نعنى بأنفسنا ككائنات زائلة ضمن كائنات زائلة مثلنا ! من نحن ومن نكون في هذه الحياة ، على هذه الأرض ، في هذا الكون ؟ ماذا يكون هذا الأنف الضخم الغليظ القبيح الذي أفسد عليك الحياة والتي شوهها في نظرك تشويهاً كريهاً ؟ ! إن آلامنا وأفراحنا ، سعادتنا وشقاءنا ، حبنا وكراهيتنا ، وكل هذه العواطف التي تحسها فتتنازع نفوسنا ومشاعرنا ليس لها معنى . وهل لحياتنا كلها معنى ؟ إن البشرية كلها تموت أولاً فأولاً . فلا معنى لأن نهتم بأنفسنا هذا الاهتمام . لا معنى لأن نخاف شيئاً أو نخشى شيئاً أو نندم على شيء ، أو نتحسر على ظروف حياتنا وما قد يكتنفنا من دواعي الهم والقلق .

إننا سنموت ، فيجب أن ننتهز فرصة حياتنا .

إدوار مقسى

(*) إذا لم يأت بي جديد بغير التقاويم السابقة طبعه !!!

جامعة فؤاد الأول

كلية الزراعة بالجيزة

إعلان

تعلن كلية الزراعة بالجيزة عن وجود وظيفة خالية بها لأستاذ « ج » (٧٠ — ٨٠ جنيها شهريا) لكرسي طبيعة الأراضي وأنها ترغب في شغل هذا الكرسي بمن تتوفر فيه الشروط المنصوص عنها في لوائح الجامعة بشرط أن يكون له أبحاث قيمة مبتكرة .

فمن يرى في نفسه توفر الشروط المطلوبة فليتقدم بطلبه باسم حضرة صاحب العزة عميد كلية الزراعة بالجيزة في ميعاد غايته أسبوعان من تاريخ النشر والموظفون تكون طلباتهم عن طريق الوزارات التابعين لها .

١٣٣١

أغانى الشـــحاذين

— ٢ —

للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف

لله تلك الأيام الحلوة النضرة ، أيام الحياة الأولى فى القرية ، إذ كنا نعيش بأحلام الطفولة البريئة ، وأمانى الصبا الغرير ، فليست الدنيا أمامنا إلا ميدان لهو ومرح نستبق إليه بدافع الغريزة التى تحس ولا تعرف ، وما كان يصبانا ويشوقنا من ذلك مثل المداح فى موكبه ، وهو يتنقل فى حارات القرية من باب إلى باب مترنماً بأغانيه على نقرات الدف فى وجد وهيام ، فما نزال نتابعه بأبصارنا وأسماعنا حتى نهاية الشوط ، ثم ننثنى عنه ونحن نردد ما وعت الذاكرة الغضة من قصصه وأغانيه .

وللمداحين فى القرى مواسم ينتظرونها ، ويحتشدون لها ، وهى مواسم الحصاد الزرع ، إذ تكون الدور عامرة والنفوس قريرة راضية ، وأبناء القرى أسمح ما يكونون بالرفد لكل وافد ، وبالعطاء لكل قاصد ، حينئذ ترى مواكبهم فى القرى متواصلة ، فلا تشرق الشمس على قرية إلا وصوت المداح يجلجل فى جنباتها . أما فيما دون هذه المواسم فقليلا ما تقع العين على واحد منهم ، وهذا فى العادة يكون قليل البضاعة ، ردىء الصناعة ، رقيق الحال ، لا ينظر إليه أهل الحرفة نظرة اعتبار ، إذ يكون فى مظهره أقرب إلى المتسول منه إلى المداح .

والمداحون لا يعتبرون أنفسهم شحاذين ، يطلبون العطاء بالاستجداء والتسول ، ولكنهم يقدرون شأنهم أكرم من هذا وأعظم ، ويعتبرون أنفسهم أصحاب صناعة شريفة ، وأهل مهمة دينية يزجون بها إلى الناس مواقع العبرة والموعظة والإفادة بقصص الأنبياء ، ومناقب الأولياء وكرامات الصالحين ؛ ولهذا تراهم أرقى هذه الطائفة مظهراً وأنظف هيئة ، فهم يبدون عادة فى أثواب لائقة وقماش مليح ، وقليل منهم من لا تكون له دابة ينتقل عليها من قرية إلى قرية ، ويحملها ما يجمع من عطايا المانحين ، وإنما أسمى هؤلاء بالمداحين لأن بضاعتهم كلها فى مدح الأنبياء والأولياء والتحدث بمآثرهم ومناقبهم ، ولأنهم فى العادة يفتتحون قصصهم ويختمونها بمدح طه الرسول .

وللمداحين فى أدائهم طريقة لا يشركهم فيها غيرهم ، وليس لها شبيه فى أى لون من ألوان الفنون الشعبية وغير الشعبية ، وهى أقرب ما تكون إلى طريقة الإنشاد والترتيل ، يعتمدون فيها على براعة التوقيع وحسن التقسيم أكثر مما يعتمدون على نداوة الصوت وطرب التنغيم ، ولهم فى ضبط الإيقاع على نقرات الدف براعة لا أدرى عمن أخذوها ولا ممن وصلت إليهم فى القديم . والدف هو الأداة الوحيدة التى يعتمدون عليها فى ذلك ، وهو رق من جلد مشدود على إطار من خشب ، وهو شبيه بالرق الذى يستعمل لضبط النغمات فى تخوت الموسيقا والغناء ، ولكنه يخالفه باتساع إطاره ، وليس فى جوانبه فتحات بها جلاجل أو صاجات ، ومن ثم كان أصم الصوت وليس بذى أثر كبير فى الطرب ، وإنما الغاية منه ضبط التوقيع وتمثيل المعانى فى الأداء ، وقد كان العرب يستعملون الدف فى إذاعة المحامد والمآثر ، وشاع استعماله بين النادبات فى البكاء على الموتى وتعديد محامدهم ؛ وقد اتخذته بعض الطوائف الصوفية لضبط حركات السير فى مواكبها ، وحركات الذكر فى محافلها ، وهو كذلك عندهم إلى اليوم .

والجدير بالبحث والنظر ذلك القصص الذى يتغنى به أولئك المداحون ؛ فمن أين كانت لهم مادة ذلك القصص ؟ وكيف تم تنسيقه فى ذلك النظم الغنائى ؟ والذى أراه أن المداحين قد ورثوا فى ذلك تراث القصاص الذين شاع أمرهم فى المجتمع الإسلامى منذ القرن الأول للهجرة ، فكانوا يقصدون إلى المساجد والمحافل لوعظ العامة بالقصص الدينى وما يلفقونه فى هذا السبيل من الآثار المصنوعة ، والأحاديث الموضوعة ، والإسرائيليات الشائعة ، وكل ما يرون فيه قبولا ورواجاً عند الجمهور المتلهف إلى

موارد العزاء والتأسى ، ثم تجاوزوا دائرة المساجد والمحافل فخرجوا إلى الطرقات ، وآثروا الجلوس فى المنعطفات ، وقد بلغ من شأنهم فى بعض العهود أن كانوا يلهون العامة عن أعمالهم ، ويثيرون العصبيات فيما بينهم ، فكان هذا مما اضطر الحكام إلى مطاردتهم ، وتحريم القصص عليهم . حتى إذا كسدت بضاعتهم فى المدن انحدروا إلى القرى يزجون ما عندهم إلى أهلها ، ولكن بأسلوب ملائم ، وبطريقة موافقة ، ومن ثم كانت طائفة أولئك المداحين .

فالمادة فى هذا القصص الذى يتغنى به أولئك المداحون هى من فيض البيئة الإسلامية فى دمشق وبغداد والقاهرة وغيرها من العواصم الزاهرة يوم كانت تفيض على العالم ألوان الثقافات المختلفة ، وطرائف القصص المتنوعة ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن جانباً من هذا القصص قد صنع فى مصر ، وهو الجانب الخاص بمناقب الأولياء وكراماتهم ، ولهذا لا نرى فيه إلا الحديث عن الأقطاب المصريين أمثال السيد البدوى وإبراهيم الدسوقى . ثم لا شك أن هناك أثراً آخر من آثار البيئة المصرية فى ذلك القصص ، وهو نظمه زجلاً باللغة المصرية الدارجة ، ولكن فى أى عهد بالتحديد تم هذا النظم ، وهل قام بذلك شخص معين ، أو كانت هناك طائفة تحترف نظم هذا القصص وماإليه ؟! هذا ما يعز على الباحث أن يقف فيه على يقين .

والحق أن الطريقة فى نظم هذا القصص تعتبر طريقة فريدة فى بابها ، وفنًّا من فنون الزجل قائماً بذاته ، وأنها لتدل على حاسة فنية دقيقة عند أولئك الزجالين الذين آثروا هذه الطريقة وابتدعوها ؛ ذلك لأنهم آثروا البحور التى تنسجم مع الترتيل والتنغيم فى الأداء ، وقد يوردون القصة على روى واحد ، ولكنهم فى الغالب يؤثرون أن تكون أدواراً ثنائية ، تجمع بينها وحدة القافية فى آخر كل دور ، ثم هم يلتزمون ربط كل دور بسابقه ، برد عجز الأول على صدر الثانى ، عكس ما هو معروف فى الشعر عند علماء البديع برد العجز على الصدر ! وهذا الصنيع يزيد الأداء طلاوة وحلاوة ، ويثير عند السامع كوامن الانفعال والارتياح ، مثال ذلك قولهم فى استهلال قصة « سارة والخليل وهاجر وإسماعيل » .

أمدح اللى شع النور من مقامه
القمر والشمس ما أحلى ابتسامه
كل ما أمدح وأكرر فى كلامه
يسترح القلب حتال الأسبه
يسترح القلب اللى كان منشانى
من جواهر فن ينظمها لسانى
اسمعوا ياذى القصول فى دى المعانى
كان خليل الله وساره بالسويه
كان خليل الله وساره فى صيام
مبدعين فى الحسن والولى عظام
مدة الأيام ما بلغوا منام
م الدرارى لا صبى ولا صبيه
م الدرارى لا صبى يابن الأكابر
ياخليل الله لأمته أنت صابر
بس طاوعنى واتزوج بهاجر
إنها حره شريفه مهتديه

وعلى هذا النسق يتم نظم القصة ، وهو الذى آثره أولئك الزجالون فى نظم هذا القصص ، أو الكثير منه . ومن العجيب أن الذين أرخوا الزجل لم يعنهم أن يشيروا إلى هذا القصص الزجلى ، ولا أن يشرحوا هذه الطريقة الفريدة فى نظمه ، مع أنها ناحية خليقة بالذكر ، أليست بدليل على أن العامة قد سبقوا الخاصة إلى القصة المنظومة ، وأن الأدب الشعبى قد فاز بنصيبه من هذا ، على حين لا يزال الأدب العالى يتعثر فى هذا الطريق ..

على أن هذا اللون من الأدب الشعبى قد استوفى غايته ووقف عند حده ، فهو لا يتجدد ولا يتطور ، وهو لا ينمو ولا يزيد ، ذلك لأنه كان ابن البيئة التى نشأ بها ، فكل مايردده المداحون إنما هو من ذات تلك البيئة ، ولا جديد فيه إلا أن هذا القصص المردد المكرور لا تخلق جدته أبداً عند أبناء القرى فى ريف مصر ، ذلك لأنه يمثل بوقائعه ومراميه كثيراً من المعانى المتصلة بنفوسهم ، والماثلة دائماً فى حياتهم ! فمن ذلك قصة « أيوب لما ابتلى » ، وهى قصة الصبر على ماقدّر الله من البلاء والضر ، وقصة أيوب فى ابتلائه وصبره يتضمنها سفر من أسفار العهد القديم ، وهى مذكورة أيضاً فى القرآن الكريم . ويرى بعض الباحثين أن هذه القصة كما وردت فى العهد القديم من أقدم القصص الشعرى ، إن لم تكن أقدمه ، ولكن المداحين يسردونها على نمط مؤثر

بعواقبه ومفاجآته ، فهم يذكرون أن أيوب ابتلى بعد العز الكامل ، فصبر على بلواه سبع سنين كاملة ، كل سنة أشق وأقسى من سابقتها ، حتى تفرق عنه أهله وأحباؤه ، ولم يبق على الوفاء له إلا زوجه ، وهى ابنة عمه أيضاً ، وكانت غاية فى الحسن والجمال ، ولها شعر طويل يضرب إلى قدميها يتحدث بجماله الناس ، وطالما راودها شياطين الإنس عن حسنها ، فأبت إلا الوفاء لزوجها ، وخرجت معه إلى البرارى والقفار حيث اضطر أن يعيش بعيداً عن الناس ، وبلغت الشدة بزوجها وبها الغاية ، حتى أخذت تلتمس القوت فعز عليها القوت ، فاضطرت أن تجز شعرها الجميل وتبيعه فى السوق مقابل قرصين من الشعير ، ولكنها حين عادت تبحث عن زوجها فى مكانه بالقفر لم تجده ، ووجدت بدلاً منه رجلا كامل الصحة والرواء ، فسألته عن شيخ مبتلى الجسم لا يقدر على الحركة تركته فى ذلك المكان ، وتبدى له الخوف من أن تكون الوحوش قد افترسته ، فيسألها الرجل عن شكله ، فتقول إنه يشبهك إلى حد كبير ولكنه مبتلى الجسم ، فيعود ويسألها مرة ثانية : هل تقبله زوجا لها وتدع ذلك الشيخ المبتلى الذى لا خير فيه ، ولكنها تجيبه بأنها لا ترضى بابن عمها المبتلى بديلاً ، وأنها لا تجد السعادة إلا إلى جانبه ، وهنا ينهض أيوب إلى معانقتها ، ويكشف لها عن حقيقته ، ويخبرها أن الله أنعم عليه ، إذ وجد نباتا فى البرية اسمه الرصراع فاغتسل به فشفى لساعته ، وبدا كما تراه سليم الجسم ، فيضرع الاثنان فى شكر الرب على ما أنعم ، ثم تخبر أيوب كيف اضطرت إلى أن تبيع شعرها الطويل الجميل فى مقابل قرصين من الشعير حتى توفر له القوت ، وتخشى أن ينفر منها بعد أن فقدت شعرها الذى كان على رأسها تاج الزينة والجمال ، فيدعو أيوب ربه فيرد عليها شعرها كما كان ، ويعود الزوجان بفضل الصبر الجميل والوفاء النبيل إلى ما كانا فيه من السعادة والاطمئنان . . . ومن من أبناء الريف فى مصر لا ينشد حديث الصبر والوفاء ، أليس الصبر هو الدواء الوحيد الذى يتداوى به أولئك الفلاحون على مدى السنين من علل الفقر والشقاء والحرمان ، فكل منهم فى الحقيقة أيوب فى بلواه ، أجل ! ولكنها بلوى عز فيها الوفاء فعزت على الشفاء .

ومن ذلك قصة « سارة والخليل وهاجر وإسماعيل » ، وهى كذلك قصة مذكورة فى التوراة ، وقد أوردها القرآن الكريم بالتفصيل ، ولكن المداحين يروونها بزيادات وتفصيلات مما يروج عند العامة ويصادف لديهم القبول ! وتمثل القصة سارة ونبى الله الخليل حبيبين منذ الصبا ، وزوجين اجتمعت لهما كل معانى الإخلاص والصفاء ، ولكن متى تم الصفاء لإنسان فى هذه الحياة !؟ فقد شاب هذا الصفاء بين الزوجين الحبيبين ألم مرير ، إذ كانت سارة عقيماً لا تنجب ، فلم يشأ إبراهيم أن يتزوج إيثاراً لها وإخلاصاً فى حبها ، وأرادت هى أن تكافئه على هذا الإخلاص والحب ، فحسنت له التزوج بجاريتها هاجر ، فأخذ يمانع فى ذلك كل الممانعة حتى لا يشرك فى حبها أحداً ، وأخذت هى تلح عليه فى هذا حتى نزل على رأيها وتزوج من هاجر ، ولم تلبث هاجر أن حملت فتحركت الغيرة فى نفس سارة ، وأصبحت لا تطيق أن ترى جاريتها التى صارت ضرتها ، فأصرت أن يخرج بها إبراهيم إلى الجبال المقفرة ، ويتركها نهبا للوحوش الكاسرة ، ويحاول إبراهيم جاهداً أن يخفف من حدة الغيرة فى نفسها ، ولكن على غير جدوى ، فيضطر إلى أن يخرج بهاجر إلى بلاد العرب ، ويتركها فى القفر الموحش ، وهناك تلد إسماعيل أبا العرب ، ويشاء الله أن يكون مولده فى هذا المكان موطنا لأمة ولحضارة ، فمن تحت قدمه نبع ماء زمزم ، وتجمع العرب يطلبون الرى من ذلك الماء . . . ثم كان أن صنع الزمن صنيعه ، وإذا بالصفاء يعود إلى النفوس ، ويشتد الحنين بإبراهيم وسارة إلى هاجر ومعرفة ما تم فى أمرها ، فيخرجان للبحث عنها حيث تركها إبراهيم عبر السنين الماضية ، وكان أن التقى إبراهيم بابنه إسماعيل ، ثم كان أن رأى إبراهيم أنه يذبح إسماعيل وحيده فى المنام ، ويصبح الصباح فيشحذ سكينه ويهم بذلك ، لولا أن هبط جبريل وفداه بذبح عظيم ، ومن هنا كانت شريعة الضحية ! وهكذا تمضى القصة من بدايتها إلى نهايتها ، سلسلة من المفاجآت القاسية ، وكل مفاجأة تنتهى بالفرج بعد الشدة ! ومن فى شعب مصر لا ينشد الفرج بعد طول ما عانى من شدائد الأيام التى لا تزيد إلا استحكاماً وضراما .

وأحسب أنى قد أطلت اليوم ، فإلى الحديث التالى حيث نستوفى عرض هذا القصص الطريف .

محمد فهمى عبد اللطيف

إيساغـــــوجى

لفرفريوس الصورى، نقل أبى عثمان الدمشقى

مع حياة فرفريوس وفلسفته — للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

١١٥ صفحة — دار إحياء الكتب العربية — القاهرة

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

من عجائب الأمور أن ينشد هذا الفيلسوف الأفلوطينى راحة فى الزواج بعد سن عالية فلا يجدها ، فيهجر زوجته ، فتتوسل إليه أن يعود ، فيكتب إليها رسالة مطولة يقول فيها : « لا يعرف الرجل الحكيم إلا عدد قليل من الناس ، بل إن شئت فكل الناس تجهله . . . والله وحده هو الذى يعرفه . . . » .

ويظهر أن الحكيم الصورى كان عارفاً بأن الناس سينسونه بل سيجهلونه ، فكتب هذا إلى زوجته ، وقد ظهر أستاذه أفلوطين ، وعرفه الناس ، وعرفت له مدرسة فلسفية تنسب إليه . أما فرفريوس فلم يعرف الناس من سيرته إلا قليلا ، وظل الغموض يكتنف حياته ! ومع أنه هو الذى كتب سيرة أستاذه أفلوطين وأبقاها على الزمن فإن واحداً من الناس لم يكتب سيرته ولم يترجم له ، إلا ما جاء من كلامه هو نفسه فى خلال ترجمته لأفلوطين .

ولقد عرف العرب فرفريوس ، وجاء اسمه فى كتب تاريخ الفلسفة عندهم ، وترجموا له أيسر التراجم وأوجزها ! بدأ بذلك « ابن النديم » فى كتابه « الفهرست » ونقل « القفطى » ما ذكره ابن النديم .

وظلت هذه النتف اليسيرة هى كل ما يعرف الناس عن فرفريوس وحياته وفلسفته ، إلى أن جاء « بيدز » فصنع تحقيقاً وافياً لحياة هذا الحكيم ، فكان كتابه أول ترجمة مستقلة وافية لفرفريوس .

كان ذلك فى عام ١٩١٣ حين نشرت أول دراسة عن حياة فرفريوس ؛ واليوم ينشر الدكتور الأهوانى أول دراسة باللغة العربية عن حياة فرفريوس ، ثم يضيف إليها كتاب « إيساغوجى » الذى نقله أبو عثمان الدمشقى ويظهر الموضوعان فى كتاب واحد هو الذى نعرضه اليوم .

ولقد شهد القرن الثالث الميلادى مولد فرفريوس الصورى ، وهو ليس يونانياً ولا رومانياً ، ولكنه من أصل سورى ، فهو من أولئك الحكماء الشرقيين الذين تأثروا فلسفة اليونان أو الرومان ، وقد اتجه فعلا إلى « أثينا » فدرس فيها بقايا الفلسفة المتخلفة عن أفلاطون وأرسطو ؛ ثم اتجه إلى روما حيث تتلمذ على أفلوطين ، وهناك جذب إليه أنظار معلمه بذكائه ومناقشاته وغوصه على طلب المعرفة ، حيث جعله أفلوطين من جملة خواصه ، وعهد إليه بتصحيح كتبه .

ولم تكن مناقشات فرفريوس وحده هى وحدها الظاهرة فى مدرسة أفلوطين . فقد كانت روح البحث الحر سائدة فى ذلك الوقت . فكان الطلبة يناقشون الأساتذة ويخطئون فى الرأى غير مذاهبهم ، فلا يضيق الأساتذة بهذا الجو العلمى النشيط ، وكثيراً ما كانت النصوص تقرأ على غير وجهها الصحيح ، فإذا بطالب يبين الخطأ فى القراءة فيستقيم الأمر ، كما حدث مرة أن « أميليوس » كان يشرح ذات مرة « طياوس » فعرض مسألة بحث عسيرة الحل . . . ودخل فرفريوس الدرس فى ذلك الوقت ، وبين أن قراءة النص خطأ ، فانحلت المسألة .

ونرى فرفريوس مرة أخرى يخالف أستاذه أفلوطين فى مسألة « المثل » ووجودها خارج العقل ، فيؤلف فى

ذلك رسالة يدفعها إلى «أميليوس» وطلب منه أن يقرأها على الطلبة وأن يرد عليها . . . ويرد عليه صاحبنا فلا يقتنع فرفريوس بالرد ، ويكتب رسالة أخرى في الرد على الرد .

ولم تؤثر هذه المناقشات وهذا الجدل العلمي الطريف في العلاقة بين الطلبة والمعلمين ، فقد كان فرفريوس يحب أستاذه أفلوطين حباً جماً ، ويكن له الاحترام الشديد ، ولكن ذلك لم يمنعه من المناقشة والاعتراض ! ولم يضق أفلوطين بهذه الاعتراضات ، بل كان يرحب بها ويقول : « لو لم يسألني فرفريوس ما وجدت اعتراضات تحتاج إلى حل ، وما وجدت شيئاً أدونه » .

ولقد عرضت لهذا الحكيم مرة من الظروف ما جعله يفكر في أن يتخلص من الحياة عن طريق الانتحار ، ويروى هو نفسه القصة كلها قائلا : « وذات يوم أحس أفلوطين بعزمي على مفارقة الحياة ، فاتجه إلى فجأة — وكنت أسكن في داره — وأخبرني أن رغبتي في الانتحار لا أساس لها من الصواب ، وإنما جاءت عن مرض المالنخوليا ، ثم دعاني إلى الرحلة ، فأجبته إلى ذلك ، وذهبت إلى صقلية . . . وتخلصت بذلك من الرغبة في الموت . . ولو أني حرمت من البقاء إلى جوار أفلوطين ساعة وفاته » .

وما أشبه حكيم صور بشاعرنا حافظ إبراهيم حين فكر في الخلاص من الحياة ، لولا أنه خشي سوء المصير في الآخرة ، فيكون قد خسر دنياه وآخرته ، فقال :

أضرت به الأولى فهام بأختها
فإن ساءت الأخرى فويلاه منهما
فهيئ رواح الموت نكبا وأطفئ
سراج حياتي قبل أن يتحطما ..

ولكن الشاعر اجتاز بعد ذلك تلك المحنة النفسية والتجربة القاسية ، وعاش بعد ذلك أكثر من ثلاثين عاماً يؤدي رسالته في الحياة ، ويلقى الحظ الذي كتب الله عليه أن يلقاه ! كما اجتاز فرفريوس من قبله تلك المحنة النفسية التي ألمت به . وعاش بعد الأزمة الحادة التي مرت به ، طوراً في « صقلية » التي اختارها ليتم فيها هدوء أعصابه ، وطوراً في مدينة قرطاجنة ، وطوراً في مدينة روما التي عاد إليها ليشغل الفراغ الذي ترك أستاذه أفلوطين بعد وفاته .. ثم يشاء الله أن ينقلب فرفريوس الكاره للحياة ، الساعي إلى التخلص منها — إنساناً تملأ الدنيا قلبه وكل جارحة فيه ...

فهو يألف الطبيعة ويحبها ويبتهج لها ، ويلاعب الطير ، ويتأمل في طبائع الحيوانات ، ويُطوى بينه وبين الأزمة النفسية أمد بعيد ...

وهذه النظرة العملية إلى الحياة هي التي كونت أكبر الفروق بين فرفريوس وأستاذه أفلوطين . فأفلوطين ميتافيزيقي نظري ، وفرفريوس أخلاقي عملي . إلا أن فرفريوس على الرغم من ذلك لم يسلم من نقد الشيخ الرئيس ابن سينا وتعرض له بقوله : « وأكثر ما هوس الناس في هذا هو الذي صنف لهم إيساغوجي — يعني فرفريوس — وكان حريصاً على أن يتكلم بأقوال مخيلة شعرية صوفية ، يقتصر منها لنفسه ولغيره على التخيل » .

وإذا كان فرفريوس قد تعرض لنقد مفكر إسلامي كالرئيس ابن سينا منذ ألف عام ، فإنه قد تعرض لاختلاف وجهات النظر الحديثة في تقدير قيمة عمله في المنطق — أي البحث في المقولات والتقديم لها — فيذهب « برانتل » وهو مؤرخ المنطق إلى الإقلال من منزلته ، على حين أن « بيدرز » يقول : (إن مقولات أرسطو ، مع الشرح الذي عمله فرفريوس ، تكون فصلا مشهورا في تاريخ الفلسفة ، ذلك أن هذه النظرية الغريبة الخاصة بصور التفكير لا تزال حتى اليوم تثقل على نتاج عقولنا وتطبعها بطابعها) .

ولقد كان فرفريوس من الممتنعين عن أكل اللحم ، وله في ذلك رسالة عنوانها « الامتناع عن أكل اللحم » فهو بذلك يسبق شاعرنا الفيلسوف المعري في الاحتجاج لمذهبه . ولم تكن سبيل الرجلين في الامتناع واحدة أو مطابقة كل المطابقة ؛ فالفيلسوف الصوري يرى أن في الحيوانات جزءا عاقلا ... وأنها تشبهنا ، وأن علينا واجبات نحوها . وحكيم المعرة وشاعرها يرى في الامتناع ضربا من العطف ، ويرى في أكل اللحم الحيواني « ظلماً » ، حرم على نفسه عسل النحل لأنها لم تجمعه كي يكون لغيرها ، ولا صنعته للندى والنائل ...

هذا هو حكيم صور كما رسمه لنا الدكتور الأهواني في كتابه . أما كتابه « إيساغوجي » الذي نقله من السريانية أبو عثمان الدمشقي فقد نشره المحقق مع مقدمة في قيمة الكليات الخمس ، ومع تعليقات الحسن بن سوار ، وكلها مساهمة طيبة من المحقق في إحياء أثر قديم .

بقيت لي كلمة في كتابة الأعلام اليونانية . فالدكتور الأهواني قد جرى فيها على طريقة واحدة . إلا أنه في بعض

ديوان المعركة

للشاعر الشاب معين توفيق

للأستاذ محمد فهمي

لم يترك السيل غير الحبل والوتد
من ذلك الشعب أو من ذلك البلد

●●●

إبكوا أيها العرب ثم ابكوا واذرفوا الدموع السخينة على فلسطين العزيزة صباح مساء، ويوما بعد يوم وعاما بعد عام، بل وجيلا بعد جيل. ولكن لكم فيها مبكى كمبكى اليهود الذى انتقل أخيراً إلى عرب، لعل الزمن يدور دورته بعد مائة أو ألف أو ألفين من السنين فيصبح مبكاكم عربيا، ومبكى اليهود يكون منهدما من جديد.

إياكم أن تنقطعوا عن البكاء لحظة تحيه تذكرة النكبة، وإياكم أن تغفل أقلام كتابكم التذكير بالبلد المقدس فإن ضياعه من أيديكم ليس هو الضياع إنما الضياع أن تنسوه بقلوبكم ولا تذكروه، وأن لا تذرفوا عليه الدمع كل حين. لقد ضاعت فلسطين من أيدى اليهود منذ ألفين من السنين. ولكنهم لم يفقدوها يوما واحداً لأنها كانت حاضرة فى قلوبهم، فى صدورهم، فى أحلامهم، فى دموعهم، حتى استردوها... ثم استردوها بعد ألفين من السنين فلتحيوها أنتم فى قلوبكم بكل هذا الإيمان...

يجب أن تؤلفوا وتنظموا مراثى كمراثى أرميا وأشعيا، فالشعر هو أخصب وأخطر وسائل هذا الإحياء الدائم الشعر، وهو الذى تمتد جذوره إلى أعماق النفوس وأغوار الأفئدة. وليقم من بينكم من أجل هذه الغاية عديد من الشعراء، وليكن شعرهم هو أحلى ما تتغنون به صباح مساء... وإن شعر هذا الشاعر معين توفيق ليستحق أن يحفظه كل عربى عن ظهر قلب وأن تحفظه كل عربية لولدها وتلقنه إياه منذ أن تلقمه ثديها.. إن شعر هذا الشاعر لكفيل، لو أخذه العرب بهذه الأخلاق، أن يحيل نكبة فلسطين إلى أمل وأن يُنبت وسط الخراب والتشرد والفاقة والبؤس بذور اليوم الموعود، يوم تعود فلسطين إلى حضن العروبة أمها الرءوم.

اسمعه يقول فى هذه النكبة:

صور من الإذلال فاغضب أيها الشعب الأسير
فسياطهم كتبت مصائرنا على تلك الظهور

●●●

أتراك أم مازلت تبكى على الوطن الضائع
الخوف كبّل ساعديك فتخرجت تجتنب الصراع
وتقول إنى قد غُلبت وشقت الريح الشراع
يا أيها المغمور فى أرض يضيع بها الشعاع
أفقد أفقد الكفاح وسر بقافلة الجياع

ويقول واصفاً مدينة غزة بعد النكبة:

البحر يحكى للنجوم حكاية الوطن السجين
والليل كالشحاذ يطرق بالدموع وبالأنين
أبواب غزة وهى مغلقة على الشعب الحزين
وكأنها قبر تدق عليه أيدى النابشين

●●●

إن قصائده: المهاجرون، المدينة الحاضرة، السيل، إن هى إلا النجوم التى تلمع فى الظلام لتهدى العرب إلى طريق عودتهم لفردوسهم المفقود.

أما اللون الآخر الذى يلمع فى الديوان بجانب مراثى فلسطين فهو اللون التقدمى؛ فالشاعر فى الديوان رسالتان:

الواضح قد يخرج من هذه الطريقة فيوقع القارىء فى لبس ما كان أحراه ألا يقع فيه... فقد ذكر اسم الأمبراطور «جاليانوس» هكذا صحيحاً فى صفحة ١٠، ثم عاد فى صفحة ١٤ ورسمه هكذا «جالينوس» وهو رسم يشتبه مع اسم الطبيب جالينوس الذى لا يقصده المحقق طبعاً.

وفيما عدا ذلك فالكتاب يحيى لنا نصاً قديماً من أقدم ما ترجمه العرب فى المنطق، ويصور لنا حياة فيلسوف أنتجه الشرق، واجتذبته أثينا وروما فى العصر الثالث المسيحى.

أحمد عبد الغنى حسن

أولاها التفجع لفلسطين المفقودة ، والثانية البعث أو النهوض بالمجتمع الشرقي . وكنت أحب أن يقصر شعره على الرسالة الأولى فقط لأن الثانية لها كثيرون غيره . أما نكبة فلسطين فهو خير من يعبر عنها ويصور أهوالها تصوير مشاهد لأنه فلسطيني أولاً ، ومن غزة ثانية . وكأنما القدر قد هيأه لهذه الرسالة بالذات منذ أنشأه في غزة ، البلد الذي شاهد الهول ولم تنته أمواجه . . . ولذا فذبالة الأمل تنتفض في أشعاره من تحت ركام من الأنقاض .

دمٌ سترعش قلب الأرض صرخته
بثأر قد صحت الأموات فاتقدى

ولكن الشاعر يأبى إلا أن يؤمن إيماناً قوياً جارفاً برسالته التقدمية . وأشهد أني لم أقرأ في مثل هذا اللون من الشعر أروع من قصيدته « دقت الساعة » تلك القصيدة التي تعد فجراً ساطعاً بل ناقوساً ضخماً يدق ليوقظ الشعراء الحالمين اللاهين بأوهام العشق والهيام ، والباكين أوجاع الهجر والصد من معشوقاتهم ، بينما المجتمع حولهم ينزف دماءً وعرقاً ودموعاً تعتصرها أنياب الفقر والمرض والبؤس ، الناهشة قلوب الملايين من الضحايا والمساكين .

ها هو يقول :

دقت الساعة الرهيبة والشـرقُ من الكرى المخدر ستر
أسندته إلى الجدار الأعاصير كسكران نال منه السكر
وشظايا الكئوس لاصقة فيه كما غاص في حشا الأرض جذر
نبات الصباح بأحلام التائه يمشي والفقر شوك وجمر
بالي وجهه وشدى خطاه فطريق الكفاح صعب ووعر
ملأته الأشـواك والهم والدمع ولكنه المر المر

بهذه الشاعرية المتوقدة والتصميم العنيد يسكب الشاعر على رسالته التقدمية ألواناً منتقية من عربة أبولو الرشيقة فتتراءى السهام المسمومة المنطلقة من قلب الشاعر الحانق قاتمة مشعة وكأنها الأفاعي تتلوى تحت أشعة الشمس فتعكس من جلودها أنتن الأضواء .

إن الشاعر معين توفيق رومانتيكي حتى في تقدميته ، وهذا ما يجعل شعره أنفذ إلى النفوس من أي شعر سواه في هذا الباب .. ثم إن ظلالاً غير قليلة من روح الجواهري شاعر العراق وكمال عبد الحليم ترفرف بين ثنايا الأبيات ، ولكن ضوء الإيمان المتدفع بغزارة من قلب الشاعر يملأ جوانب القصيد فيحصر تلك الظلال في أضيق الحدود ؛ ومع هذا تظل شخصية الجواهري كما أعتقد مثل الشاعر الأعلى في وضع لواء الشعر بين ألوية القيادة في كفاح الشعوب إن لم يكن أهم ألويتها ، وسيطرب الجواهري بلا شك لشبله المتحفز وليفعم قلبه بأضخم الآمال .

ولنختم هذه الكلمة العابرة بأبيات للشاعر من قصيدته الفذة « دقت الساعة » التي أشرنا إليها :

أيها الشرق كان ظلك في الأرض سحاباً يمرُّ ما فيه قطر
تشرب اليوم من جداولك الخضر وتروى وليس ترويك بئر
أورثوك القيود حتى متى مات فأشقاك في حياتك قبر
هم لصوص التاريخ كم سرقوا منه شعوباً تمصوا دماها وفروا
وهم الماكثون أرض أمانيك ظلاماً يضل فيه الفجر
غير أن الحياة أقوى من المو ت وأن يهزم الحياة القبر
هي كالبحر مدها الأمل الها در طول السنين والبأس جزر
يكشف الصخر حين يرجع بالمو ج ولكن ينجي الغريق الصخر

وختاماً أقول للشاعر معين أحسنت . ولكنك بهذا قد ولجت بحر الآلام ، وإن شبابك الغض سيتلوى تحت ضربات المطارق الحديدية ، وسوف تفزع صرخات الزبانية طيور حبك الغرد ، وقد لا يحتمل جسدك النحيل الصراع ، فتخر ببساطة كبلبل في روضة ، ولكن لا عليك ، فها أنا أسمعك تقول من قصيدة المعركة : —

فإذا سقطنا يا رفيق في جحيم المعركة .
فانظر تجد علماً يرفرف فوق نار المعركة .
مازال يحمله رفاقك يا رفيق المعركة .

ولكنك ما تزال في ابتداء المعركة . ولسوف ترى خلالها قدرتك على الصمود في النضال ، ونأمل أن يكون الختام رائعاً كالبدء . على أني أنصحك أن لا تهمل الشعر العربي القديم ، بل يجب أن توجه إليه اهتماماً كبيراً حتى ترفد جداولك بتلك الأساليب البارعة التي بلغت القمة عند بعض الشعراء الأقدمين ، وحتى يكون تجديدنا عن استيعاب وتمكن لا عن قصور واجترار ؛ هذا مع أن الشعر العربي قد وثب في نصف القرن الأخير وثبة فاقت كل ما سجله في تاريخه الحافل من وثبات .

(القاهرة)

محمد فهمي

مسرح

تيمورية جديدة

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

« كدب فى كدب » !! هـذا هو عنوان الكوميديا الجـديدة التى كتبها الأستاذ محمود تيمور بك وأخرجها الأستاذ زكى طليمات ، ولعل أبرز ما يلفت النظر إليها لأول وهلة أن موضوعها كعنوانها يدور حول الكذب وأن شخصياتها كلها تلوذ بالكذب وأن فرقة المسرح الحديث تعمدت تمثيلها فى مستهل هذا الشهر على اعتبار أنه — فيما يذاع عنه — شهر الكذب أيضاً !!

وإذاً فنحن معذورون إذا دفعتنا هـذه الملابسات واحتشادها على هذا النحو المريب إلى الظن بأن هذه الرواية ليست إلا « تمثيلية » فكاهية لم يقصد بها مؤلفها سوى الإمتاع والمؤانسة . لكن الواقع أن الأمر ليس كذلك ، بل على النقيض من ذلك . فهذه الرواية ليست إلا امتداداً ناضجاً ومتطوراً للجهود المتواصلة التى يبذلها تيمور بك فى سبيل إيجاد المسرحية المصرية المثلى بطريقته الخاصة التى تميز بها . ومع أننا قد نجد من يختلف معه حول تقدير المدى الذى بلغه ، إلا أن هذا لا يقلل من شأن النتائج الجدية التى أسفرت عنها محاولاته الكثيرة الغزيرة والتى تعتبر هذه التيمورية الجديدة من أكثرها امتيازاً واكتمالا . وربما كان أهم هذه النتائج هو توجيه النظر بطريقة عملية إلى إمكان النهوض بالمسرحية المصرية عن طريق الاستفادة من التمثيليات الغربية ومحاكاة اتجاهاتها وتفهم التيارات الفنية والعلمية التى تؤثر فيها وتكيف مادتها ومضمونها وقوالبها أيضاً . فكل إنتاجه أو معظمه ينحو ذلك النحى الذى يهدينا ولا يهدينا سواء إلى أسرار التأليف المسرحى جهد المستطاع . وإن كان من شىء يمكن مؤاخذته عليه فى هذا فهو أن استقراء رواياته يدل على شغفه الخالص بالمسرح الفرنسى الحديث وحده أو أكثر من غيره ، وليس من المقطوع به أنه أفضل من غيره ، وحتى لو صح هذا أو افترضناه افتراضاً فليس من الصواب أن يقتصر الاهتمام عليه دون غيره .

من أجل ذلك نلمح فى إنتاجه كثيراً من السمات التى نلمحها فى إنتاج المحدثين الفرنسيين الذين يجعلون من مسرحهم حقل تجارب لمحاولة تطبيق النظريات السيكولوجية ، سواء فى معالجة موضوعاتهم أو فى تكوين شخصياتها وتحريك مجموعاتها تطبيقاً مسرحياً . ولئن كان هذا واضحاً فى رواياته السابقة كالصعلوك والمنقذة ، وإن جلا فإنه أشد وضوحاً فى روايته الجديدة . ومرد ذلك إلى أنه عالج فى تلك الروايات أثر الدوافع السيكولوجية فى سلوك شخصية واحدة أو شخصيات فردية ، بينما عالج فى هذه الرواية أثر هذه الدوافع فى مجتمع بأسره ، وتحقيقاً لهذا لم يركز اهتمامه كعادته فى تصوير شخصية بعينها وإنما تخير التعبير عن فكرته أنماطاً نموذجية مختلفة ، حاول — وكان هـذا لزاماً عليه — أن يعنى بتجسيدها كلها ، حتى يصح اعتبارها رمزاً مركزاً لما نراه فى الحياة من أنماط ، وحتى تصبح روايته كلها بمثابة نظرة سيكولوجية للمجتمع الذى نعيش فيه والذى هو — كما ينبغى أن يكون — صورة مصغرة للمجتمع الإنسانى الحديث .

ولكن إلى أى حد وفق فى ذلك ؟ إن العبرة ليست بمجرد محاكاة أحدث الاتجاهات ، بل بالقدرة على استيعابها وتمثلها والاهتداء إلى مواطن الانتفاع بها واستخدامها فوق خشبة المسرح استخداماً فنياً . وإذاً فالحكم على هذه الرواية رهن بالحكم على طواعيتها الفنية : فهل استطاع تيمور بك أن يحقق هذه الطواعية فى قالبها ومضمونها معاً ؟

الحق أن معرفتنا بالصعوبات التى تواجه المحدثين الفرنسيين أنفسهم حتى ليعترف الناقد « هيلديه زالوشر » بعجزهم فى هـذا المضمار تشهد بنجاح مؤلفنا نجاحاً ملحوظاً فى تخطيط

إطار روايته بحيث أتاح لشخصياته حرية الحركة والتعبير عن دخائلها ومكنوناتها ، ويسر لها الانتقال من مشهد إلى آخر في غير تكلف . وقد وضح هذا تماما منذ المشهد الأول إذ أدار حوادثه في مقهى مجاور لحلبة من حلبات السباق ، وأمكنه بذلك أن يجمع بين أنماطه المتباينة بسهولة خلال فترات الاستراحة بين الأشواط . فنحن نرى في بداية إحدى هذه الفترات (فواز بك) وهو رجل رث البال ميسور الحال جالساً إلى إحدى الترابيزات ، ونرى صديقه (الممدة) وقد أقبل عليه بهندامه « المودرن » المتأنق الدال على مدى فهمه لمقتضيات التحضر . . . ثم نرى (كريمة) وهي إحدى فتيات الطبقة الراقية جالسة في غاية الرشاقة مع صديقة لها إلى ترابيزة أخرى تحادثها عما تلقاه في بيتها من عنت (نصار بك) زوج أمها الذي احتال عليها حتى أخضى مطلق التصرف في أموالها . . ثم نرى (كريم) الشاب الثرى يجر وراءه سكرتيره ليطالبه بضرورة الحصول على مال يعوض خسارته الفادحة . . . ثم نرى إحدى الغانيات تلتق بعشاقها وتستحوذ على نقودهم لتعطيها لعشيقها السمسار الأفاك . . . نرى هؤلاء ، ونرى غيرهم من الأنماط يروحون ويجيئون ويتعارفون ويلتقون وينصرفون ، ونسمعهم يتحادثون ويتهامسون ويتنازعون دون أن ننكر شيئا مما نراه أو نسمعه ، فليس من المستغرب أن يطرقوا مثل هذا المكان وأن تجمعهم — على الرغم من تباينهم — وشائج متشابهة تولدت عن رغبتهم الجامحة في اجتلاب المكسب ودرء الخسارة بأي وسيلة ، وأن يتطبعوا بما تستلزمه المقامرة من جشع وتظاهر ونفاق وتأهب دائم لانتهاز الفرص .

لذلك لم يكن من العسير على مؤلفنا أن يجمع وسط هذه الحلبة الصاخبة بين (كريم) و (كريمة) ، وأن ييسر أسباب التلاقي والتعارف بينهما ، وأن يربطهما كليهما برابطة الرغبة في الزواج العاجل ، ولو لم يشعر أحدهما نحو الآخر بالحب الذي يدفع إلى هذه الرغبة . فهذا الشاب ضائق بما يعانيه من تدهور مالي ، ويحسب أن زواجه من هذه الفتاة هو السبيل الوحيد لإنقاذه من هذا التدهور ؛ إذ أنها — كما تبدو — واسعة الثراء . وهذه الفتاة ضائقة كذلك بما تعانيه في بيتها ، وتحسب أن زواجها من هذا الشاب هو السبيل الوحيد لإنقاذها مما تعانيه ؛ إذ أنه — كما يبدو — واسع الثراء . وبينما يحفز كلاهما بالثراء الوهمي يفاجئهما زوج أمها (نصار بك) ليلقي عليهما درساً وعظياً في مدى ما يجب أن تعطاه المرأة المصرية من حرية ، ويلحى باللائمة على الشبان الذين هم السبب الأساسي في إفسادها وإغرائها ، ويغلظ في القول تدريجياً متظاهراً بالإخلاص (لكريمة) وسهره على راحتها ، فيهتاج (كريم) ويصفعه صفعة وحشية شديدة ينتهي على أثرها الفصل الأول .

ويبدأ الفصل الثاني في صالون بمنزل (نصار بك) ، حيث نجد (كريم) ومعه سكرتيره ، وكذا (فواز بك) ومعه الممدة ، وذلك ليعتذر الصافع للمصفوع أولاً ، وليبدي له رغبته في الزواج من كريمة ثانياً . وكان منطقياً أن يقبل (نصار بك) اعتذاره ، وأن يمهله في إجابة رغبته الأخرى بحجة أن إنجازها يستلزم بعض التفكير . وينصرفون جميعاً من عنده ، فيتبين لنا أن هذه الحجة كانت مجرد تمويه ؛ فقد اعتزم تزويجها لشخص آخر هو صديقه (الممدة) لسببين : السبب الأول أن هذا الممدة يعاونه في استلاب أموال أمها ، والسبب الثاني أنه يطمع في الاختلاء بدوره بالفتاة ، كلما ذهب زوجها المرتقب إلى قريته بحكم وظيفته .

ويجتمع (كريم) و (كريمة) مرة أخرى في مقهى آخر ، بدعوة من (فواز بك) الذي يبذل قصارى جهده للتوفيق بينهما ، لا لكي ينتشل الشاب الثرى من الإفلاس الذي تردى فيه فحسب ؛ بل كذلك لكي يتسنى له استرداد النقود التي أقرضها له في حلبات السباق من قبل . ويحدث أن يجتمع في نفس الوقت والمكان — مصادفة — أعضاء جمعية تسمى « جمعية الزواج السعيد » كل أغراضها أن تهيء لأعضائها فرصة الزواج كيفما اتفق ، وحينما تعلن رئيستهم أسماء الخاطبين والمخطوبات يطلب (فواز بك) منها إعلان خطبة (كريم وكريمة) .

ثم يبدأ الفصل الرابع ، فنجد أنفسنا في منزل (فواز بك) ، وقد آوى فيه (كريمة) لا ندري لماذا ... ولعله أشفق عليها بعد أن ماتت أمها ، وتبددت أملاكها واختنق خطيبها أيضاً . والواقع أنه لم يكن ليختنق لولا أن افتضح أمره وأشهر إفلاسه . غير أنه عقب هذه الصدمة ثاب إلى

رشده ، وظل يبحث جاهداً عن عمل ، حتى إذا وفق في الالتحاق بوظيفة صغيرة في إحدى الشركات ، عاد فوراً إلى منزل (فواز بك) ليرد إلى (كريمة) رسائلها الزائفة التي كانت قد أرسلتها إليه خلال فترة غرامهما المصطنع ! ومن عجب أن يحدث ذلك في نفس اللحظة التي اعتزمت هي فيها إحراق رسائله الزائفة التي كان قد أرسلها إليها كذلك . وما يكاد يلتقي بها حتى يصارحها وتصارحه بأن كليهما كان يغرر بالآخر .. وسرعان ما يصارحها وتصارحه بأن كليهما يحب الآخر !!

وهكذا نجد أن تيمور بك يحرك كل شخصياته في مجتمع يظهر غير ما يبطن . فهل معنى ذلك أنه يريد أن يتخذ من المسرح منبراً يلقي علينا من عليائه محاضرة عن مساوىء التكذب ومزاياه ؟ أم أنه وهو مولع بالملاحظة يرسم لنا صورة عميقة للواقع الذي نعيش فيه ؟ أم أنه يحضنا — كما قال بلسان إحدى شخصياته — على الارتضاء بما في الحياة من شرور ، وإلا فالنزوح عنها ؟ أم أنه يساير الاجتماعي الفرنسي « برنار دي ماندفيل » في قوله : (إن من يتفحص سيرة الجنس البشري يقتنع بتعذر إيجاد أي مبدأ أخلاقي أو تصور أي قاعدة للفضيلة باستثناء الواجبات التي يقتضيها حفظ المجتمع البشري بالضرورة) ؟!

أعتقد أن هـذه الرواية تفقد كثيراً من قيمتها لو أننا قومنا مضمونها بالمعايير الأخلاقية . وإنما تستقيم النظرة الفنية إليها إذا وضعنا في اعتبارنا العوامل التي كيفت الحياة الفنية بين جدران المسرح الفرنسي الحديث الذي طاب لمؤلفنا أن يحاكيه . ولا مندوحة لنا في هـذه الحالة من الإشارة إلى المؤثرات الفكرية التي يحاول النقاد الأوربيون تقصي وجودها في الإنتاج الفني . فكما أنهم يربطون بين النزعة العقلية Rationalism التي رانت على مسرح القرن السابع عشر وبين المنهج الديكارتي ، ويربطون أيضاً بين النزعة النفسية التي سادت المسرح الحديث وبين نظريات فرويد ويونج ، كذلك يربطون بين بعض مسرحيات المحدثين وبين نظرية « دركيم Durckheim » بصدد (الكتلة السيكولوجية) . وفكرتها الأساسية أن الأفراد إذ يكونون مجموعاً أو زحاماً يفقدون شخصياتهم الفردية ويصطفون معاً ويصبحون « كلاً » له كيان جديد خاص وشخصية جديدة قائمة بذاتها .

والراجح أن تيمور بك تأثر في روايته هـذه بهذه النظرية ، فإننا بغير افتراض وجود هذه العلاقة قد نتهمه ظلماً بالقصور أو ضعف الملاحظة ، طالما أنه صور لنا مجتمعاً كاملاً طغى التكذب على « كل » شخصياته بلا استثناء ، وهـذا ما لا يستساغ تقبله تقبلاً تاماً بغير ذلك الافتراض .

لكننا من ناحية الأداء الفني لا نجد ما يحول بيننا وبين مجاملته . فهو وإن كان قد أبلى بلاء حسناً في صياغة فكرته ، فلم نلحظ اهتزازاً كبيراً في تصوير شخصياتها ولا تصدعاً في بنائها ولا تلكؤاً في نمو أحداثها ، إلا أنه — حذراً من التحمس الذي يؤدي غالباً إلى المفاجآت والمبالغات — قد عالجها في هدوء كاد يصل إلى درجة الفتور ؛ كما أنه — إمعاناً في تعليل الحوادث بغية تبرير استطرادها — أفاض في هذا الاستطراد أحياناً إفاضة يأباها التركيز المسرحي تارة ويأباها « التقليد الفودفيلي » الذي يقضي بمساوقة الناحية الشعورية عند المشاهدين تارة أخرى . ونضرب لذلك مثلاً بنهاية الفصل الأول . فقد كان من الممكن أن يستغني عن مشهد العراك بين (عمار بك) و (كريم) أو أن يقيمه خارج المسرح ويرمز إليه داخل المسرح بطريقة ما ، إن كان لا بد من حدوث عراك فعلي بينهما .

هـذا من جهة . ومن جهة أخرى فإنه وإن كان قد أفلح في الاهتداء إلى موضوع هو بطبيعته كوميدي إلا أنه لم يصبر نفسه على تهيئة ملامحه الكوميدية . من هنا أحسسنا بالمسئولية التي ألقاها على كاهل المخرج والممثلين والمتاعب التي واجهتهم بها حتى استطاعوا الموازنة بين الأداء الحرفي والتعبير الروائي ونكتة الصبوت ، وإن كان ذلك قد أبرز مهارتهم في استنقاذ فكرته من الجمود الذي أوشك أن يحيط بها ، بقدر ما أبرز خيبة (الكومبارس) الذين كانوا بجوار زملائهم أداة تشويه .

غير أن الرواية في مجموعها تزكي اتجاه مؤلفها نحو التحلم المشارف الأوربية الشائكة . وربما يكون في ذلك ما يباعد بينه وبين جمهورنا ، والجمهور عنصر أساسي في المسرح ؛ ولكنني ، مع هذا ، لا أتردد في تهنئته على متابعته النشاط الفني الحديث متابعة تحفزه دائماً إلى مثل هـذه المغامرات الفكرية .

عبد الفتاح البارودي

الرسائل المحترقة

أتمزقين رسائلي رحماك ، دون تألم ؟ !
وإلى اللظى تلقينها في خلسة وتكتم
وهى الرسول إليك من قلب بحبك مفعم
وهى التى قد خط فيـ ـها كل حرف من دمى
وكتبتها من ذوب قلـ ـب فى هواك متيم
روحى على صفحاتها أبداً تهيم وترتمى
وبكل سطر آهة من قلبى المتحطم

●●●

عندى رسائلك التى أرسلتها لم تعدم
هى فى دمى ، فى قلبى الـ ... خفاق ، وهى على فمى
هى فرحتى هى وحى ما فى خاطرى ، هى ملهمى
هى فجر ليل مدلهم من حياتى مظلم
هى فى الحياة أعز كنـ ـز لدىّ ومغنم
فيها أرى ، ما فى فؤا دك من هوى متضرم
وصباحة الوجه البرىء الطاهر المتبسم
وأرى بها دنياى تضـ ـحك بعد طول تجهم

●●●

إنى بحبك فى الهوى راض ، فديتك فاحكمى
كل الذى ترضينه أرضاه ، دون تبرم
لو قلت إن الشهد مـ ـر قلت مثل العلقم
أو شئت أن أمشى إليـ ـك على اللظى لم أحجم
من يعص أمر الله يو ماً لا محالة يأثم
من لم يضح بنفسه فى الحب ، ليس بمغرم

(ع . ع . ع)

الفجر الغارب

قد كان هذا الفجر . . فجرى . . ثم ضاع بلا رجوع
أبدعته يد الفنون من السهاد . . . من الدموع
وكم التثمت لدى رؤاه وصغت لحنى فى خشوع
وظننته سيظل لى . . . سيظل حلمى . . . لا يضيع
لكن صحوت . . ومابه حولى — كعادته — سطوع

لم يبق منه سوى الخيال — مجسداً — بين الضلوع

يا فجر مهلا . . صد نورك من طريق . . . يا ترى
فتركتنى بين الظلام على الحصى . . . متعثرا
تعدو خطاى الساقيات . . . على السفوح . . على الثرى
وخطاى تلك بأمسنا . كانت . . . ترن على الثرى
أيام كنت بخاطرى . . . لغزا أراه . . . عبيرا
أنسيتنى . . . أنسيت من صاغ الجمال . . . وصورا

لولاى . . . لولا ريشتى . . لولا الفؤاد وما جنى
لولا النشيد أصوغه لحنا . . . لجرسى . . . معلناً
ماذا تكون . أزهرة سطعت أريجا . . . أو سنا
أو بلسما لأسى القلوب . . يطبن من الضنى
لا . . . لم تكن إلا تراباً مثل غيرك . . . هينا
لكن بشعرى باحتراقى . . . قد خلدت على الدنا

عد يا حبيبى إننى ما زلت آمل فى رجوعك
قلبى يرن به الفراغ ، به الواجد من صنيعك
يأبى الزهور وعطرها — وبود ينهل من ربيعك
هو ما يزال كما عرفت . . . فلن تراه سوى مطيعك
عد كالبشاشة ماسحاً يد الشفاء — على صريعك
عد يا حبيبى إننى ما زلت آمل . . . فى رجوعك

كيورك حسين شعر

الاسعافات الطبية الأولية

للأستاذ عبد الباري نعمت

١ — عندما تضطر إلى تناول دواء مر المذاق ادعك لسانك بقطعة من الثلج ثم تناول الدواء بعدها مباشرة ، فإن ذلك يخفف كثيراً من المرارة .

٢ — إن الأطفال يعافون تناول الأدوية الرديئة المذاق ، ولكي تجعلهم يتناولونها من غير امتعاض أو بذل العناء في إجبارهم على تناولها ، ضع الدواء المراد تناوله في ملعقة وغطه بالمربى أو عسل النحل ، فعندئذ يلتهم الطفل ما تحويه الملعقة ومن بينه الدواء .

٣ — إذا التصقت قطعة من الفاكهة أو الحلوى أو أي شيء صلب بحلق طفلك ، فاقلبه إلى أسفل واضرب ما بين كتفيه ضرباً شديداً براحة كفك ، فعندئذ لا يلبث الجسم الملتصق أن يفارق مكانه حالاً .

٤ — إذا أصيب طفلك بحرق فاحضر قطعة نظيفة من القماش وغطها بطبقة من البطاطس المقشورة النيئة ، وضعها فوق الجزء المصاب ، واعمل من ذلك كمادات كثيرة بقدر ما تستطيع ، ومما ينفع في ذلك أيضاً أوراق الشاي الباردة .

٥ — لإيقاف نزيف الدم ضع ملح الطعام الناعم النظيف فوق الجرح الدامي ، وهو كفيل بإيقاف النزيف حالاً ، ولو أنه قد يؤلم بعض الشيء .

٦ — لنزع عدد من الشوك الصغير الذي قد يصيب يدك ، ضع قطعة من مشمع الجروح فوق المكان المصاب ، ثم ارفعها بشدة ، تجدها قد أخذت معها جميع الشوك وأراحتك منه .

٧ — إن لسعة النحل والزنابير مؤلمة للغاية ، وكثيراً ما تصيب الأطفال الصغار ، ولتخفيف حدة ألمها وما ينشأ عنها من أورام ، ادعك موضع اللسعة بقطعة من البصل .

٨ — في اليوم القائظ الحرارة تناول قدراً كبيراً من ملح الطعام ، فإنه يلطف كثيراً من الشعور بوطأة الحر .

٩ — إن السعال كثيراً ما يصيبك ويعمل على مضايقتك وإقلاق راحتك أثناء النوم ، ولكي توقفه حالاً تناول ساعة شدته قدر ملعقة صغيرة من زيت الزيتون .

١٠ — إذا اقتحمت العين إحدى الحشرات أو دخل بها جسم غريب ، فتحاش دعكها باليد ، بل اجذب الجفن الأسفل قليلاً فيبدو لك الشيء الغريب ، وتستطيع إخراجه بطرف قطعة نظيفة من القماش ؛ وإذا حدث وكان الجسم الغريب كامناً تحت الجفن الأعلى ، فاجذب هذا الجفن وضعه فوق الجفن الأسفل ، وهذا كفيل بإخراج الجسم الغريب حالاً ، ولو تمخط الأنف بشدة إلى أعلى لساعد ذلك كثيراً على إخراج الجسم الغريب أو تقريبه من خارج العين ، فيسهل عندئذ إخراجه منها .

١١ — إن الشوكة أو قطعة الخشب التي تخترق جلدك وتكمن تحته يمكن إخراجها بواسطة إبرة حادة ، ولكن عليك قبل أن تباشر عملية إخراجها بواسطة هذه الإبرة أن تتيقن أولاً من خلوها من الصدأ وعقمها قبل الاستعمال بتعريضها بضع ثوان لعود ملتهب من الثقاب .

١٢ — إذا حدث وتناول الطفل جرعة من زجاجة تحوي مادة سامة ، فاجعله يشرب محلولاً قوياً من الملح والماء ، فهذا يجعله يقيء ، وهو خير ما يسعف به المصاب بالتسمم حتى يصل الطبيب .

عبد الباري نعمت

الثقافة

العدد ٦٩٧ — ٥ من مايو ١٩٥٢
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر
الثمن ٣٠ مليماً

صفحة

أبحاث ومقالات :

دراسات فى الشعر المصرى :

قصة :

صورة أدبية :

شعر :

وحي الربيع

حاولت عبثاً أن أتو ... ب فلم تصح عزيمتي
يا حسن ربات الجما ... ل فتانهن جريرتي
لم أستطع أبداً ولن ... يبرئن منهـا ذمتي

حاولت فاستبق الربيع ... زهوره لغوايتي
حشد من الزهر استفز ... رغائبي وعنايتي
ورد يخاصر نرجساً ... يتخوفان وغايتي
والزنبق الفتان يشـ ... ـبع رغبتي وهوايتي
بإدات زهر الأقحوا ... ن صبابتي وشكايتي
إلفان ذاقا في الغرا ... م تعانيا للغاية
وعلمت أن الأقحوا ... ن صريع تلك الجلة[1]
زكت دماه مراقة ... في قلبه وانسلت
أشبهت حالك يا شهيـ ... ـد بعشق وعلاقتي
عبثاً أحاول والحسا ... ن أضعن كل وسيلتي

عبثاً أحاول والربيـ ... ـع مغامر لغوايتي
ألقى بأروع زينة ... حتى ضللت مشيئتي
أمشي بسير في الهوى ... ألقاه أحكم ورطتي
فانساق في نزواته ... والمرء عبد اللذة
البلبل المغلوط يشدو ... في ظلال الأيكة
نشوان في خيلاته ... لا يستجيب لشكوتي
حملت ذاك العندليب ... لحن أحب رسالتي
أسمعته لحن الهوى ... قطعته من آهتي
فارتد مثلي يائساً ... فأهاجني في عزلتي

طارحته بقصيدة ... من لوعتي وصبابتي
فأجابني بنشيجه ... في دمعة رقراقة
أطلقت بأسي المدا ... مع واحتقنت مرارتي
كل الوجود متيم ... بالعشق فارحم مقلتي
لما سمعت نشيجه ... عادت لدي مصيبتي

يا ورد يا تاج الحدا ... ئق بالغنى تعبق
الصاعدات قلوبنا ... طوعاً بسحر المقلة
يا ورد أنت رسولها ... وأمين سر حبيبتي
هل أرسلتك ببسمة ؟ ... فتولني بالبسمة
أم قبلتك بثغرها ؟ ... بادر وجدد نشوتي
حيث اجتنيت رضابها ... يا ورد لأطبع قبلتي
قد أسكرتك بخمرها ... دعني لأمزج خمرتي
صرفاً نهلت رحيقها ... فاردد علي مذاقتي
مالي أراك ترنحت ... منك الغصون كشقيقتي
رفقاً بنفسك يا أسير الزهر واكتم لوعتي

قل للذي يرتاب في ... قول غوي اللهجة
إني صحبت الناشئين ... بما أصاب صبابتي
ألقاهمو عند الصباح ... مجملاً بالغبطة
فإذا انتهيت إلى المسا ... حملت فوق الطاقة
أفلا أنفس كربتي ... وأزيل بعض ملالتي ؟
والعمر عندي سلوتي ... وحديثه قيثارتي

محمد كامل عباس
(ليسانسيه في الآداب واللغات الشرقية)

---

(١) الجلة : الفل .

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العــدد ٦٩٧ — الاثنين ١١ من شعبان سنة ١٣٧١ — ٥ من مايو سنة ١٩٥٢ — السنة الرابعة عشرة

أيهما أهنأ ؟

بيت بدائى من طين

أم بيت عصرى من صنع المهندسين

— ٢ —

للدكتور أحمد عبد السلام الكردانى بك

فى مقالنا السابق قصصنا على القارىء قصة الأمريكية التى بنت لنفسها فى الهند بيتا من طين قرت به عينا ، وقصة الشبان الأمريكيين الذين يعدون أنفسهم ليكونوا مهندسين معماريين ، وبينا كيف أن أساتذتهم انتهزوا فرصة شراء أسرة لعزبة جديدة فبادروا يعرضون عليها أن يقوم طلبتهم المتقدمون بعمل تصميم لبيت عصرى يوفرون فيه كل أسباب النعمة والهناء لهذه الأسرة التى سرعان ما رحبت بالعرض ، وكان بين الطرفين تجاوب وتعاون انتهى بأن فازت الأسرة بتصميم جميل لبيت نموذجى بديع اختارته من بين سبعة عشر مشروعا عرضت عليها .

وقد وعدنا القارىء أن نصور له فى هذا العدد المشروع المختار ونمر عليه شارحين مزاياه . وها نحن نورد مع هذا المقال الصورة المقصودة وفيها رموز يجد القارىء دليلها تحتها فى نفس الرسم وتتبع الصورة بالشرح الموعود لمزايا البيت المنشود . ولعل من الواجب أن نشير هنا إلى أن الأسرة مكونة من زوج وزوجة وثلاثة صبية ذكور وطفلة صغيرة .

يقع هذا البيت كله فى طابق واحد ويتكون كما يظهر فى الصورة من قسم رئيسى إلى الشمال ويشتمل على ثلاث غرف للنوم ، اثنتان كبيرتان إحداهما (التى إلى الشمال الشرقى) لرب البيت وزوجته وطفلتهما ، والأخرى (التى فى الشمال الغربى) لاثنين من أبنائهما والثالثة لابنهما الأكبر . ويتوسط الغرف الثلاث حمام .

كما يشمل هذا القسم الرئيسى من البيت ثلاث حجرات أخرى متصلة إلى حد كبير ومتداخلة على شكل حرف L الأفرنجى : الأولى هى المطبخ والثانية حجرة الطعام ، وهما فى الواقع تكونان غرفة واحدة كبيرة وإن قسمت إلى قسمين شبه مستقلين . والغرفة الثالثة هى غرفة الجلوس والاستقبال معا ، وتكاد حجرة الطعام (أو القسم الشرقى من المطبخ) تكون جزءا من غرفة الجلوس فهى أشبه ما تكون بملحق لها يضاف إليها عند الضرورة وبين الاثنتين من الناحية الغربية باب خاص يؤدى إلى فراندة طويلة جميلة مبلطة تطل على المناظر الطبيعية البديعة التى كانت أحد العوامل فى اختيار هذه البقعة لإقامة المنزل عليها . وتلى الفراندة حديقة المنزل الرئيسية تحيط بها حواجز تحميها وتميزها .

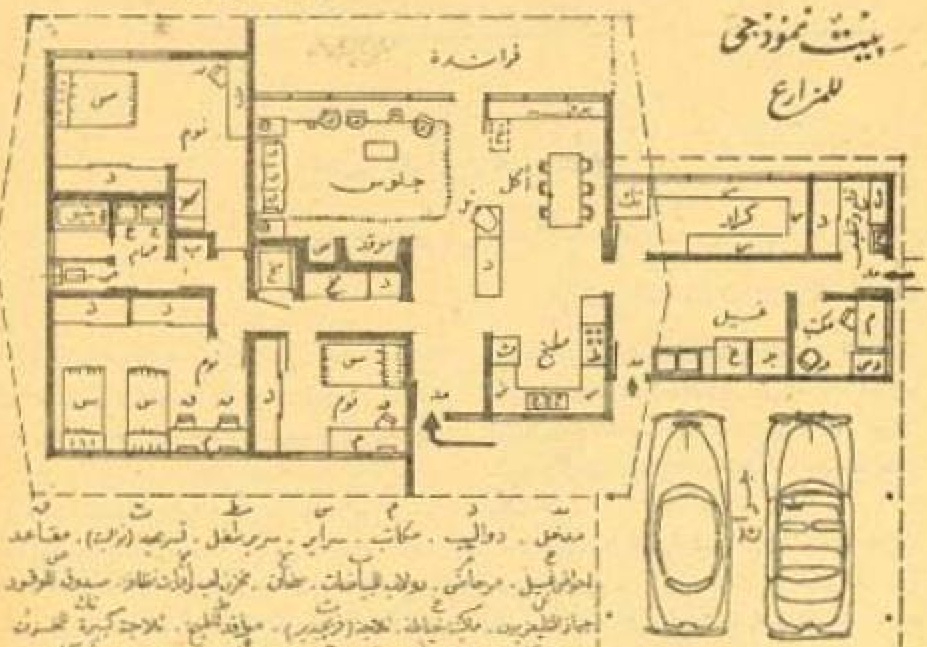
وكما يعين على الاستمتاع بالفراندة والمناظر كثرة الشبابيك بالواجهة الشرقية فى كل من حجرتى الجلوس والأكل .

هـذا عن القسم الرئيسى للمنزل ، أما القسم الثانوى أو الإضافى (وهو فى الناحية القبلية) فيشتمل على أربع غرف صغيرة اثنتان ملحقتان بالمطبخ ، إحـداهما الكرار المخزن ، والثانية للغسيل ، وهما تكونان معا وحدة يطلق عليها وحدة أو حجرة المنافع . والغرفتان الأخريان عنـد المدخل القبلى للمنزل أولاهما (الشرقية) لخلع النعال والملابس القذرة والغسل والتنظيف بوجه عام . والثانية (الغربية) هى مكتب رب الدار الذى يحفظ فيه أوراقه ويحاسب فيه عملاءه .

وفى امتداد هذا القسم الإضافى من الناحية الغربية يقع الجراج الذى يتسع لسيارتين ، وفيه مدخلان للبيت أحدهما يوصل إلى القسم الرئيسى منـه والثانى إلى القسم الإضافى والآن فلننتقل بالقارىء إلى شرح مزايا هذا البيت :

١ — أول ما يمتاز به كثرة المداخل وتنوعها حسب الظروف وكذلك سهولة المرور ؛ فهناك المدخل الرئيسى فى الناحية الغربية يدخل منه القادم فى سيارة فيسير فى ممر محمى من المطر ببروز سقف البيت فوقه ، ثم يدخل إلى طرقة موصلة إلى كل من مدخل المطبخ وغرفة الجلوس ، وإلى الطرقة التى يقع فيها جناح النوم . وهناك مدخل آخر من مأوى السيارات أيضا يؤدى إلى حجرة المنافع الملحقة بالمطبخ ومنها إلى المدخل الثانى له .

الواجهة الشرقية للمنزل



وأما المدخل القبلى للمنزل فيدخل منه أصحاب البيت بعد انتهائهم من أعمالهم ومعهم عملاؤهم الفلاحون للتحدث بشأن العمل ولمراجعة الحسابات ، أو التجار الذين يبغون شراء محاصيل أو مواش بعد معاينتها فى الجرن أو الزريبة التى لا مناص للسائرين فيها من أن تتلوث أحذيتهم وملابسهم ، ولذا فإن دخولهم من هـذا الباب إلى المكتب يركز فيه احتمال التلوث ويحمى بقية أجزاء المنزل . وإذا أراد أصحاب المنزل

بعد ذلك أن يلجوا بقية أجزائه وجب عليهم أن يدخلوا أولاً إلى الغرفة المقابلة للمكتب حيث يخلعون نعالهم وملابسهم القذرة وينظفون أنفسهم بقدر الإمكان ، وعلى هذا المنوال يظل البيت في جملته نظيفاً كما تمنى أصحابه .

ونظرة واحدة إلى الرسم تدلنا على أن المرور في جميع أنحاء البيت سهل ، وعلى أن الانتقال من أي جزء منه إلى أي جزء آخر يتم دون أن يضطر الإنسان إلى اختراق أية واحدة من الحجرات الرئيسية فيه وهذه ميزة لها قيمتها .

٢ — وحجرات النوم تمتاز بكثرة ما فيها من دواليب أو أشباهها لحفظ الملابس ، وسرير الطفل في الحجرة الكبرى منعزل وحوله ستار تحجبه من الضوء حتى ينام الطفل أثناء النهار بسهولة . وفي حجرتي الأولاد تخت أو مكاتب للمذاكرة . وقد روعي في تصميم الحجرة الكبرى منهما إمكان وضع سرير ثالث فيها فوق السرير الذي في الركن ، إذا دعت الحاجة ، لينام الأولاد الثلاثة معاً في حجرة واحدة وتخلو الحجرة الصغرى لزائر مثلاً أو لطفلة إذا كبرت واحتاجت لحجرة خاصة أو لأي سبب آخر .

٣ — والحمام تصميمه جميل فقد حجز منه جزء بباب خاص للرشاش ، وجعل لمكان البنيو باب خاص لا يدور ، وإنما ينزلق فيدخل في فجوة خصصت له داخل الحائط الذي يفصل البنيو عن مكان الغسيل الذي وضع فيه حوضان لا حوض واحد كالمعتاد . وبهذا تحققت كل الأغراض التي تمناها أصحاب البيت ، إذ أصبح الحمام يتسع لأربعة منهم في آن واحد أحدهم في الرشاش والآخر يستحم في البنيو والآخران يغتسلان في الحوضين . وعلى الرغم من ذلك كله فالحمام في ذاته قليل المساحة بحيث يسهل تنظيفه . وعلاوة على هذا فقد جعل فيه دولاب صغير يتسع للياضات والفوط وما إليها .

٤ — يمتاز البيت أيضاً بأن المساحة المخصصة للأكل يمكن اعتبارها جزءاً من المطبخ أو جزءاً من حجرة الجلوس ، وبذا اكتسب كل منهما اتساعاً وانشراحاً . وأصبحت ربة الدار لا تحس بالوحدة عندما تضطر للعمل في مطبخها وقتاً طويلاً في الليل ، إذ أن اتصال الحجرات الثلاث يؤنسها ويشعرها بأنها متصلة ببقية أفراد الأسرة . وكذلك الحال بالنسبة لها أثناء قيامها بواجبها في حياكة الملابس واستعمالها لماكينة الخياطة . ويلاحظ أن هذه لها مكان تدخل إليه فتختفي فيه بعد الانتهاء من استعمالها فتصير جزءاً من الدولاب (أو البوفيه) الموضوع في شرق الحجرة تحت شباكها الشرقي .

وجهاز التليفزيون وضع على طاولة متحركة بحيث تدور فتأخذ أي اتجاه ، وبذلك يواجه الجهاز أفراد الأسرة أينما يكونون وحيثما يجلسون كما يشاءون .

٥ — والمطبخ تتوافر فيه أبعاد الثلاجة عن المواقد واتساع المكان المخصص لتقل البيئة ربة الدار ، وهي تستطيع أن تعمل واقفة أو جالسة حسبما تريد ، فإذا شاءت الجلوس فما عليها إلا أن تجر إلى الأمام لوحاً خشبياً داخلاً تحت الرف أو البنك الذي تعمل عليه واقفة ، فإذا خرج اللوح كان بمثابة طاولة تستخدمها للعمل وهي جالسة .

ثم إن وفرة الشبابيك الغربية (والشباك القبلي المجاور لها) تمكنها من الإشراف على المشتغلين في الجرن والجراج والزريبة بسهولة ، وتستأنس برؤيتهم حين تكون في البيت وحدها أثناء ساعات العمل للرجال والدراسة للأولاد . وقد سبقت الإشارة إلى بروز السقف فوق ممر المدخل الرئيسي ، فهو يحمي المطبخ من حدة الشمس الغربية القوية في الصيف فلا تضايق السيدة .

هذا وقد كانت تخشى من اتصال المطبخ ببقية أجزاء المنزل أن تتسرب روائح الطعام وأبخرته فتفسد جو البيت وتضايق السكان . ولكن المصممين ركبوا لها مروحة فوق المكان الذي فيه مواقد الطبخ تحت غطاء أو مظلة مجوفة أقاموها تحت السقف وفوق هذه المواقد ، وبذلك صارت هذه الأبخرة وتلك الروائح تتسرب إلى الخارج أولاً فأولاً بمجرد ظهورها فلا تضايق أحداً .

٦ — وأخيراً نشير إلى أمرين لوحظا في التصميم : الأول

(البقية في الصفحة التالية)

- ٣٩ - خاطـــــرة

للدكتور أحمد أمين بك

المفاوضات

- ستجرى مباحثات لا مفاوضات .
- التطهير قبل المباحثات .
- المباحثات قبل التطهير .
- التطهير والمباحثات معاً .
- سيلقى على الناس بيان فى ظرف يومين .
- غلب التشاؤم على التفاؤل .
- توسط السفير الأمريكى .
- ستنظر الوزارة البريطانية فى المسألة المصرية .
- سيسافر عمرو باشا يحمل خطابا شفويا إلى لندن .
- لم يحدد بعد موعد السفر .
- سافر عمرو باشا والسفير البريطانى فى مصر ، وحاكم السودان الأعلى .
- سيدعى السفير والحاكم على مائدة وزير الخارجية البريطانية .
- اجتمعوا ، ثم اجتمعوا .
- ستجتمع الوزارة البريطانية مرة ثانية للنظر فى شئون مصر .
- من الناس من يغلب التفاؤل ، ومنهم من يغلب التشاؤم
- سيسافر حاكم السودان العام إلى السودان لأخذ رأيه فى الوضع الجديد .
- ستظهر النتيجة بعد يومين .

وهكذا تدور المسألة فى حلقة مفرغة لا يُدرى أين طرفاها .

قلت لصاحبى : ومتى تنكشف الأمور ؟ قال . ذكرنى سؤالك بعائشة رضى الله عنها إذ أرسلت خادما لها يأتيها بقبس من نار ، فخرج ووجد قافلة تسير إلى مصر فسافر معها وغاب سنة ، ثم عاد إليها يحمل قبس النار . فتعثر فى الطريق ، فانكفأ على وجهه ، فقال : تعست العجلة !

أحمد أمين

أن البيت قد أقيم على أرضية من الخرسانة سمكها نحو ٨٠ سم وتحتها عازل يمنع دخول الرطوبة إليه أو تسرب الحرارة منه . وفى وسط هذه الخرسانة وضعت الأنابيب التى تحمل البخار الساخن للتدفئة . وأما السخان الذى يمدها بهذا البخار فقد وضع فى مكان متوسط بالمنزل أقرب مايكون إلى حجر النوم .

والأمر الثانى أنه لوحظ فى تصميم المنزل ووضعه بالنسبة للجهات الأربع الأصلية أن تكون الرياح الغالبة فى المنطقة التى أقيم فيها المنزل بحيث تدفع الروائح النبعثة من الزرائب (أو حظائر المواشى) أو أمكنة تربية الدواجن أو من الفتحة التى يخرج منها هواء المروحة المركبة فى المطبخ والمشار إليها فى البند السابق — كل هذه تدفعها الرياح الغالبة بعيداً عن منافذ البيت فلا تتسرب إليه ولاتؤذى ساكنيه .

* * *

والآن وقد انتهينا من وصف هذا البيت المصرى ، يخيل إلينا أنه أقرب إلى القلب من البيت المبنى من الطين . وإنى أرجو الله تعالى أن يهبنى بيتاً فى الريف كهذا الذى وصفت ويبارك لى فيه حتى تقر به عينى .

أحمد عبد المعصوم الكردانى

شاهـــد عيان

من مذكراتي في يوم الثلاثاء ١٤ يناير سنة ١٩٤١

الأستاذ الدمرداش محمد بك

ذهبت اليوم إلى منزل صديقي العجوز مصطفى بك ، بشارع نور الظلام ، لزيارته ، فوجدته قد سبقني إلى مسجد سيدي الخضيري بالصليبة ، فلحقت به هناك ، فرأيته جالساً خلف نافذة المسجد ، منفرداً مفكراً كعادته ، يطل بنظره على الشارع .

قلت له : كيف حالك اليوم ؟

فقال : بخير والحمد لله . ولكن خاطراً قديماً شغل تفكيري منذ أن جلست هنا من ساعتين .

قلت : خيراً إن شاء الله .

قال : هل ترى هذا البيت القديم الذي تعمل معاول الهدم في دكه وإزالته ؟

قلت : نعم .

قال : لهذا البيت قصة مثيرة . كاد قدم الزمن يمحوها من ذاكرتي . فمنذ أن جلست وراء هذه النافذة ، ورأيت العمال ينقضون بناء هذا البيت حجراً حجراً ، ويهيلون ترابه من أعلاه إلى أسفله ، وأنا أستعرض في نفسي هذه القصة ، التي كان لها في يوم من الأيام شأن كبير ، شغل أحاديث القوم في هذا الحي فترة طويلة . فكانوا يتناقلونها من حلقة لحلقة ، ومن منزل لمنزل ، وهم في حيرة ودهشة .

قلت : عجباً ! وما هذه القصة ؟ .

قال : من ستين عاماً كنت أنا والمتبولي بك الكبير وخطيب المسجد ، وبعض الأحباب من أعيان هذا الحي ، نجلس هنا في نفس هذا المكان ، وفي نفس هذا الوقت ، وكان هذا البيت قد تم بناؤه . فتساءل بعض الحاضرين عن كيف حصل الشيخ (إمام) على كل هذه « الأملاك » . وهو الفقيه التلبان ، الذي يتلو القرآن في البيوت « بالراتب » . ومن أين جاءته كل هذه النقود لبناء هذا المنزل الكبير ، الذي يضارع في اتساعه وارتفاع بنائه منازل الأمراء وكبار الأعيان ؟

فتبسم المتبولي بك ، وقال ساخراً : إنها نقود خزانة المرحوم صديقنا (فلان[1]) باشا .

فقلنا : كيف ذلك ؟

فقال : لما رجع المرحوم (فلان) باشا من السودان مغضوباً عليه من الخديو إسماعيل . كان يحمل معه صندوقين مغلقين . عهد بحراستهما إلى خادمه الأمين (نحيف) أغا ، وقد اختلف الناس وقتها في كنه محتويات هذين الصندوقين ، فقال بعضهم إنها سبائك ذهبية ، وقال البعض الآخر إنها مجوهرات ، وأودع الباشا محتويات الصندوقين خزانة حديدية كان يحتفظ بها في حجرة نومه . ومات الباشا بعد عمر طويل ، تاركاً زوجتين وولداً وحيداً لم يكن عند وفاة أبيه قد بلغ سن الحلم ، وكان الشيخ إمام فقيهاً لسراي الباشا ، محبوباً عنده ! وفي ليلة وفاة الباشا أرادت الزوجتان ونحيف أغا فتح الخزانة وإخفاء ما فيها قبل أن يصل موظفو بيت المال في الصباح لحصر التركة وقيدها ، ولكنهم لم يجدوا المفتاح . فعلقوا فوق الخزانة (سترة) الباشا وأخفوها ، وبعد انقضاء « الأربعين » على وفاة الباشا أسر نحيف أغا للشيخ إمام بقصة ضياع المفتاح ، فقال له إنه يعرف شيخاً مغربياً يستخدم الجن في فتح ما استغلق من الأبواب بالسحر والتنجيم . وجاء الشيخ ، وانفرد بحجرة الباشا وأطلق البخور ، وعلا صوته « بالعزيم » ولزم الشيخ إمام ونحيف أغا الحجرة المجاورة لتلبية أوامر الشيخ ، وبعد ليلتين ، والليل داج والسراي نائمة حدثت فرقعة في حجرة الباشا اهتزت لها جوانب السراي . فجرى الشيخ إمام ونحيف أغا والزوجتان إلى الحجرة ، فوجدوها مملوءة بالدخان ، ووجدوا الخزانة مفتوحة خالية ، ولم يجدوا الشيخ المغربي . فأخذ الشيخ إمام يدور في أركان الحجرة

(١) أخفينا اسم الباشا لبعض الاعتبارات .

يدق كفاً بكف ، وهو يصرخ ويبكي ، ويقول : إن الجن قد استولت على الشيخ وعلى ما في الخزانة . ثم ثار غاضباً مطالباً الزوجتين بتعويض عن فقده . « فانطلت » الحيلة على السيدتين والأغا . فقدناه خمسين جنيهاً ذهباً عن كل ما كان معهما . فانصرف بعد أن شدد عليهم النصح بكتمان الخبر .

وبعد مدة طويلة عرف بالخبر أحد أصدقاء الأسرة ، وأدرك الحيلة ، فجاء للبحث عن الشيخ إمام ، ولكنه كان قد اختفى .

ومرت الأيام ، وماتت الزوجتان ونسي الناس الموضوع ، فظهر الشيخ إمام من مخبئه ، وشيد هذا البيت ، وسكن فيه واقتنى (عربة) حنطور بزوج خيل « مسكوف » كان يركبها عصر كل يوم ، ويمر بها من هنا في طريقه إلى مسجد السلطان الحنفي ، حيث كان « مرتباً » لقراءة القرآن .

ثم سكت مصطفى بك ، ورفع وجهه إلى السماء ، وقال : هل تظن يا صديقي أن الله غافل عن القوم الخائنين .

قلت : حاش لله .

قال : اسمع يا سيدي ، لم يعش الشيخ إمام بعد أن سكن هذا المنزل سوى عام واحد ، رزىء فيه بوفاة زوجته واختلال صحته ، واختفاء ابنه الوحيد (حامد) . إن حامداً هذا كان شاباً لطيف الوجه ، طويل القامة ، بادي الصحة . لقد رثيت لحال الشيخ إمام ، وعاونته كثيراً في البحث عنه ولكن من غير جدوى .

ثم سكت مصطفى بك ثانية ، وتحول ببصره إلى سقف المسجد كأنه يستجمع شتات ما كرنه . ثم استطرد يقول :

ومرت السنون سراعاً ، وتغيرت الأحوال ، ونسيت الشيخ إمام وابنه حامداً وقصة الخزانة . ثم جاءت سنة ١٨٩٧ فصاحبت الغازي مختار باشا في رحلة صيد إلى شبه جزيرة سيناء ورافق الغازي في هذه الرحلة بعض « البرنسات » وعلية القوم . فركبنا الجياد التي كانت تنتظرنا بالسويس . وعبرنا القناة . واتجهنا نحو الجنوب صوب (عيون موسى) . وبعد راحة قصيرة تقدمنا قاصدين أعالي وادي (غرندل) وصرفنا بقية اليوم في الصيد . وفي المساء نصبنا خيمنا في بطن الوادي بالقرب من العين وقضينا ليلتنا . وفي صباح اليوم التالي



انتقلنا إلى وادي (وسيط) وصرفنا اليوم في الصيد كذلك . وفي المساء نصبنا خيمنا على شاطىء الخليج بالقرب من حمام فرعون .

في تلك الليلة تجمع حول الخيم حشد كبير من الأعراب الذين جاءوا خصيصاً لتحية الغازي ومرافقيه عندما عرفوا بقدومهم . فأمر الباشا بالترحيب بهم ، والتوسيع عليهم بالطعام والحلوى . وبينما أنا مشغول بعمل ترتيبات الضيافة ودعوة الضيوف ، لفت نظري رجل طويل القامة ، هزيل الجسم ، مكفوف البصر ، يقف منفرداً متكئاً على عكاز ، يتصنت لما يدور في مخيمنا باهتمام ، فأشفقت عليه ، وتقدمت إليه لدعوته ، ومددت يدي إليه لسحبه إلى حلقة الطعام ، وحاول أن يشكرني فاحتبس صوته في حلقه ، فانحنى على يدي يقبلها ، وأحسست بدموعه تتساقط عليها غزيرة ساخنة ، فأثر منظره في نفسي ، ورثيت لحاله ، فاستبقيته المبيت معنا بالخيم .

فلما انفض الجمع ، وتفرق القوم ، جلست بجانبه على الشاطىء أستطلع بعض أمره ، فوجدته كتوماً ، غير راغب في الإفضاء بشيء ، وزادني إصراره على السكوت شوقاً إلى معرفة شأنه . فتبسطت معه في الكلام ، وقدمت له السجاير وأكواب الشاي ، فانتعش والتقى ، وانحلت عقدة لسانه ، فانساب في الكلام ، يحدثني عن معيشة الصحراء بعبارة جزلة ولهجة مصرية ، فتعجبت من أمره ، وسألته وأجاب ، ولشدّ ما كانت دهشتي عندما عرفت منه أنه حامد ابن الشيخ إمام .

فقلت له : كيف صرت إلى هذا الحال يا حامد ؟

فقال يحدثني عن قصته :

« بعد أن ضقت ذرعاً من معاملة زوجة أبي ، وانصراف

والدى عنى . التجأت إلى خالى السيد صالح ، طاهى السيد البكرى الكبير . وشكوت إليه ما آل إليه حالى . وألححت عليه أن يجد لى عملا أتعيش منه ، فاستبقانى عنده بالسراى بالخرنفش حتى انقضت صلاة المغرب . ثم اصطحبنى معه إلى منزل صغير بدرب (البرابرة) بالموسكى . يسكنه الخواجة (جورج حسّون) الطاهى بفندق (خمارة النيل)[1] . وبعد حديث قصير اتفقنا على أن أكون مرافقاً للخواجة حسّون فى رحلته إلى سيناء مقابل أجر حسن أتقاضاه من (البعثة) . وفى اليوم التالى أردت التخلف بعض الوقت لتوديع أسرتى . فأفهمنى الخواجة حسون بأنها غيبة قصيرة لن تطول أكثر من أسبوع . ثم إننا سافرنا إلى السويس فى نفس اليوم .

وفى الطريق سألت حسون عن مهمة البعثة . فقال إنها بعثة علمية لاستطلاع أحوال سيناء . وإنه سيشتغل فيها كطاه لها ، وأوصانى مشدداً بالسكوت والكتمان . ونزلنا فى السويس بمنزل الخواجة أنطون . ولزم الخواجة حسون المنزل منذ وصولنا فلم يكن يغادره إلا نادراً . وكان يأتى لزيارته أحيانا بعض الأجانب كما كان يتردد على المنزل شيخان من الأعراب .

طالت إقامتنا بالسويس . وكنت كلما سألت الخواجة حسون عن موعد قيام البعثة إلى سيناء أجابنى : « قريباً إن شاء الله » . وفى ذات يوم وجدت الناس بالمدينة فى اضطراب ووجل . يقولون إن الإنجليز نزلوا بالاسكندرية بعد أن ضربوها بقنابل الأسطول . وإن ثورة قامت بالمدينة . وإن الجيش بقيادة عرابى باشا زحف نحوها لمدافعة الإنجليز . ووجدت الخواجة حسون على علم سابق بهذه الأخبار . فلم يدهش لسماعها منى . وأردت الرجوع إلى القاهرة فطيب خاطرى ، وزاد فى ماهيتى . وكثرت النقود فى يدى . واتسع أمامى مجال اللهو والعبث . فطابت لى الإقامة بالسويس ، ونسيت القاهرة .

وفى ذات يوم ، وعلى خلاف العادة . اصطحبنى الخواجة حسون وذهبنا إلى الميناء فى الصباح الباكر . وتَنَقَّلنا « بلنش » إلى شاطىء سيناء ثم ركبنا الجمال . وأوغلنا فى الصحراء ، فى حراسة أربعة من البدو . وبعد سير طويل

(١) خمارة النيل كانت فندقاً كبيراً بحى الموسكى على شاطىء الخليج المصرى قبل ردمه .

مجهد فى يوم قائظ . وصلنا إلى خط التلغراف بعرض الصحراء . فأمر حسون البدو بتحطيم الأعمدة ، وتقطيع الأسلاك ، ففعلوا ذلك لمسافة كبيرة . وتكرر خروجنا فى الأيام التالية لمثل هذه المهمة .

كثرت بعد ذلك مشاغل الخواجة حسون ومقابلاته . ولم يمض على ذلك إلا بعض أيام ، حتى علمت منه أننا ذاهبون فى الغد لمقابلة رئيس البعثة . وأمرنى أن أتهيأ للرحيل إلى سيناء . وفى صباح اليوم التالى قدمنى لرجل ممتلىء الجسم كبير الوجه ، محيط بوجهه لحية كبيرة . قال لى عنه إنه الشيخ عبد الله[1] رئيس البعثة . ولما لحظت أنه لا يتكلم العربية ، قال لى إنه من علماء استانبول .

وبعد يومين آخرين صرفناهما فى تجهيز الرحلة وإعدادها سافرنا إلى سيناء على ظهور الجمال . يتقدمنا الشيخ مطير دليل القافلة . وقبل أن نصل عيون موسى لحق بنا الشيخ عبد الله ورفقته اثنان من الضباط الإنجليز وترجمان سورى يدعى (عتيق) فاستطردنا السير ونزلنا المبيت فى وادى (الأحثا) وحضر مشايخ العربان إلى الوادى . وأكرم الشيخ عبد الله وفادتهم ، وأقام لهم وليمة كبيرة ، عقدوا بعدها اجتماعا صاخباً ، دار فيه الحديث حول شراء الجمال ، واكتراء الحمالة ، وحراسة القناة ، والاشتراك فى حرب عرابى . وقبل انصرافهم جاء إلى خيمة الشيخ عبد الله أحد الضابطين وكلفنى بحمل كيسين من جنيهات الذهب فطرحتهما على الأرض أمام الشيخ عبد الله . وما إن سمع الأعراب « شخشخة » الذهب حتى اضطربوا فى أماكنهم ، واشرأبت أعناقهم وسال لعابهم . فناول الشيخ عبد الله كل واحد من القابع قبضتين من الذهب . ثم تفرقوا على أثر ذلك عائدين إلى نجوعهم لتنفيذ ما اتفقوا عليه فى اجتماعهم . وبعودتهم انتشر خبر البعثة وأغراضها وما تحمله من الذهب فى طول سيناء وعرضها .

كان شرر الثورة العرابية فى مصر قد تطاير إلى سيناء وحفز الأعراب للفتك بالكفار . فلم نكد نتقدم فى وادى

(١) الشيخ عبدالله هو الأستاذ بلمر الذى أوفدته الحكومة الإنجليزية عند اندلاع الثورة العرابية إلى سيناء فى مهمة سرية غايتها قطع الاتصال بين مصر وسوريا وتهدئة العربان ومراقبتهم ولشراء الجمال للحملة الهندية ووضعت تحت يده عشرين ألف جنيه ذهباً لإتمام هذه المهمة .

(البقية على الصفحة التالية)

القضية التونسية

— ٢ —

للدكتور عبد الحميد البطريق

يئس الشعب التونسى من أن يستجيب له الضمير العالمى عند ما اجتمعت الدول المنتصرة فى باريس سنة ١٩١٩ لاقتسام الأسلاب وابتلاع الأمم الضعيفة ، وكذلك يئس المستعمرون فى تونس من النجاح فى طى الشعب التونسى تحت جناح الإمبراطورية ، فكان لا بد من صراع عنيف بين الاستعمار والجهاد ، كانت القوة والبطش سلاح الأول ، والصبر والإيمان سلاح الثانى ؛ وولد فى تلك الفترة حزب جديد فى تونس ، هو الحزب الدستورى ، رأى أعضاؤه أن يأخذوا الأمور فى هوادة ورفق ، وأن يبدأوا بالمطالبة بإعطاء تونس نظاماً دستورياً ، مستعينين فى ذلك بعطف البايى على القضية الوطنية العامة ، مؤملين فى أن يكون الدستور خطوة كبرى نحو تحقيق الأمانى الوطنية ؛ ونشروا على الشعب بياناً بأن « الغاية من تأسيس الحزب هى تبليغ الوطن رشده ، وتحريره من الاستعباد ، كى يصبح الشعب التونسى حراً متمتعاً بكامل الحقوق التى تتمتع بها الشعوب الحرة ؛ وهو يريد أن يصل إلى هذه الغاية عن طريق التحقيق العاجل لنظام دستورى يسمح لهذا الشعب بحكم نفسه بنفسه ، وفاقاً للأسس التى يسير عليها العالم المتمدين »

لم تفلح سياسة الهوادة والاعتدال مع السلطات المحتلة ، فالظالم لا يعترف إلا بمن يصرخ فى وجهه ويضرب على يده ! وقد أحس المعتدلون بالظلم الفادح عند ما لجأت السياسة الاستعمارية إلى فتح باب التجنس بالجنسية الفرنسية لجميع

سدر ونبلغ العين حتى وجدنا الأعراب(١) متربصين لنا . فلما أحسوا بنا شرعوا فى إطلاق النار علينا . فوقفنا وبركنا الهجين ، وانتهز أحد الجمالة فرصة الاضطراب فوضع أكياس الذهب على هجينه وفر ، وتفرق باقى الجمالة وتركونا وحدنا ، فقبض علينا الأعراب ، وجردونا من ثيابنا ، وقالوا هاتوا « فلوسكم » وإلا قتلناكم ، فقلنا فرت بها الجمالة ، وتقدم منا أحد الأعراب ، وقال : أيها الكفار ، لقد جئتم هنا تنثرون الذهب لتبذروا الفساد والخراب فى هذه البلاد — وبيت الكعبة ! — إن تفلتوا من قبضتنا ، وسنقتلكم شر قتلة جزاء وفاقاً لما اقترفتموه من قتل ونهب فى بر مصر ، وبكينا وتوسلنا واستعطفنا وتوعدنا فلم يفدنا ذلك . وسنحت فرصة فاقتربت من كبيرهم ، وتوسلت إليه ، وقلت له : إنى لست منهم . إنى مسلم وموحد بالله . أحفظ القرآن وأؤدى الصلاة ، وقتلى من غير جريرة حرام . فقال : تباً لك ، ومن أتى بك إلى هنا ؟ فقلت جئت سعياً وراء لقمة العيش . ثم قاد الأعراب الشيخ عبد الله والضابطين والخواجه عتيق والخواجه حسون إلى شاهق ، وأوثقوهم وقذفوا بهم إلى بطن الوادى . ثم أجهزوا عليهم رمياً بالرصاص ، وجروا جثثهم إلى حفرة ، وهالوا عليها التراب ، وانصرفوا وتركونى وحيداً . فهمت على وجهى أتنقل من نجع إلى نجع ، حتى وصلت الطور . فالتجأت إلى محافظها ليتقلنى إلى مصر ، ولكنه عند ما علم بما وقع لأعضاء البعثة أمر بإيداعى السجن ، فبقيت فيه زمناً طويلا ، اعتلت فيه صحتى وفقدت بصرى . ثم أفرج عنى . فخرجت من السجن شريداً يائساً لا أمل لى ، ولا رجاء ، ومنذ ذلك الوقت ، وأنا أجوب سيناء متسولا مستجدياً كما ترى .

قال مصطفى بك : لقد حاولت طويلا أن أحمل حامداً على ترك الصحراء ، والرجوع معنا إلى القاهرة . فلم يستمع لقولى ، وجاءت ساعة الرحيل فرفعنا خيمنا وتركنا حامداً واقفاً على الشاطىء ، معتمداً على عكازه ، وهو مطرق جامد صامت ، ساكن ! يا ترى فيم كان يفكر ! ليته كان قد هلك مع الشيخ عبد الله عند عين سدر واستراح .

الدمرداش محمد

(١) تقول المصادر الإنجليزية إن هؤلاء الأعراب كانوا من اللصوص .

التونسيين ومحاولة فرنسة الشعب بصفة إجماعية ، فهاج المعتدلون والمتطرفون معاً وخصوصاً عندما أعلن وزير الخارجية الفرنسية في مجلس النواب الفرنسي أن الحماية الفرنسية في تونس عازمة على اتخاذ سياسة التجنيس الإجماعي لأهالي تونس ، عندئذ تخلى المعتدلون عن اعتدالهم ، ونسي المجاهدون خلافاتهم ، فتآلفوا وتآزروا ، وقرروا جميعاً مقاطعة كل من تسول له نفسه التجنس ، وحرموا التزاوج معهم ومنعوهم من دخول المساجد والدفن في مقابر المسلمين ، ونجحت الحركة نجاحاً منقطع النظير ، وفشلت سياسة الإدماج الاستعمارية .

وفي مايو سنة ١٩٣٣ دعا الحزب الدستوري إلى مؤتمر وطني في قصر الجبل ، وأصدر المؤتمر بياناً بأن الغاية التي للبلاد وهي « تحرير الشعب التونسي ، وإعطاء البلاد نظاماً صالحاً مستقراً في شكل دستور يحفظ الشخصية التونسية ويحقق سيادة الشعب بواسطة برلمان تونسي منتخب انتخاباً عاماً ومكتسباً لكامل السلطة التشريعية ، وأن تكون الحكومة مسئولة أمام البرلمان ، وأن يفصل بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية ... وبصفة عامة ، كل ما من شأنه أن ينهض بالبلاد من هذه الوهدة التي هي فيها مادياً ومعنوياً ، ويعطيها المحل اللائق بها بين الشعوب المتمدينة التي تملك مصيرها » .

وسار المجاهدون التونسيون يشقون طريقهم الوعر في إيمان لا يتزعزع ، وعزيمة لا تفتر ، برغم ما كانوا يلاقون من اضطهاد وسجن ونفي وتشريد . وما وافى عام ١٩٣٨ حتى كان جميع زعماء الحزب الدستوري معتقلين في السجون ، وانتقلت الحركة الوطنية إلى أيدي الشباب التونسيين الذين كانوا يتمون علومهم في باريس ، فلم يتوانوا لحظة عن تنظيم الحملات الصحفية ، وعرض القضية التونسية في بعض الصحف الفرنسية الحرة التي قبلت أن تنشر لهم وتؤيد مطالبهم .

وبينما كان الاستعمار سادراً في غيه ، والحكومة الفرنسية قد وضعت أصابعها في آذانها ، إذ فجأتها الفاجعة بقيام الحرب العالمية الثانية ، ودخول النازيين في أرضها واضطرارها إلى التسليم في يونيه سنة ١٩٤٠ ! ولكنها في الوقت الذي أحنت فيه رأسها في أرضها ، عشرت خدها في أرض الناس ، إذ عندما أعلن الحزب الدستوري في يوليه سنة ١٩٤٠ أن الحماية الفرنسية أصبحت غير ذات موضوع ، لأنها لم تعد قادرة على حماية نفسها ، وطالبوا بإطلاق سراح الزعيم التونسي بورقيبه وزملائه الذين كانوا منفيين في مرسيليا ، كان جواب الأميرال استيفان المقيم الفرنسي العام أن أمر باعتقال الباقين من مجاهدي الحزب .

وكان من حسن حظ الشعب التونسي أن ارتقى عرش البلاد سمو الباي المنصف ، في ١٩ يونيه سنة ١٩٤٢ ، وكان معروفاً بوطنيته وإخلاصه لقضية بلاده ، فحاول انتهاز الفرصة وقدم إلى المقيم العام طائفة من المطالب ، ومع ذلك فلم تنزل سلطة الاحتلال على إرادة الباي . وفي نوفمبر سنة ١٩٤٢ دخلت القوات الألمانية تونس ، وعندئذ تدخل الباي لدى السلطات الألمانية وطالب بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، إلا أن الألمانيين لم يطل بهم المقام في تونس ، إذ دخلها الحلفاء في ٨ مايو سنة ١٩٤٣ ، وتسلمت الإدارة الفرنسية البلاد من جديد ، وما كان أحراها في تلك الأونة أن تمد يدها إلى الشعب التونسي تحاول مصالحته وتداوي جراحه ! ولكن الشعور بالنقص والإحساس بالضعف قد أوحيا إلى الجنرال جيرو أن يبطش بالتونسيين ، فبدأ بأن بطش بالباي محمد المنصف فأعلن في ١٤ مايو سنة ١٩٤٣ خلعه بحجة أنه تعاون مع السلطات الألمانية ، ونفى الباي إلى (الأغواط) في صحراء الجزائر . وظل الملك الوطني أسيراً عند الفرنسيين حتى انتقل إلى جوار الله في عام ١٩٤٨ ، أما الشعب نفسه فقد صبت عليه سلطات الحماية جام التنكيل والاضطهاد ، لعلها تستطيع أن تطفئ جذوة الوطنية فيه إلى الأبد .

على أن الوعي القومي في تونس ، والإيمان الصادق عند الزعماء المجاهدين ، قد نفخا الروح في القضية التونسية من جديد ، واجتمع مؤتمر وطني عام في (أغسطس ١٩٤٦) يضم أعضاء الحزب الدستوري الجديد والاتحاد النقابي للعمل ، وأساتذة جامعة الزيتونة ؛ ومع أن قوات البوليس قد هاجمت المؤتمر واعتقلت عدداً كبيراً من أعضائه ، إلا أن المؤتمر قد أصدر ميثاقاً أعلن فيه أن نظام الحماية نظام سياسي واقتصادي لا يتفق مطلقاً مع سيادة الشعب التونسي ومصالحه الحيوية ، وأن هذا النظام نظام استعماري قضى على نفسه أمام العالم بالإخفاق بعد تجربة خمس وستين سنة » ، وأعلن

المؤتمر في ختام الميثاق عن عزم الشعب الثابت على استرجاع استقلاله التام والانضمام — كدولة ذات سيادة — إلى جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة . وبهذا الميثاق أصبح المطلب الأول الذي ينادي به الشعب التونسي هو الاستقلال التام من غير قيد ولا شرط ، ومضى زعماء تونس يواصلون جهادهم في قوة وعزم .

وقد عاصرت الحركات التونسية الوطنية معظم الحركات الوطنية المصرية ، وكان أحدث هذا التوافق ما حدث في مستهل هذا العام ١٩٥٢ من إلغاء مصر لمعاهدة سنة ١٩٣٦ ، وما تلاها من أحداث ، ووردت الأنباء من تونس في الوقت نفسه بتجدد الحركة والمطالبة بالاستقلال ؛ وكان رد المقيم الفرنسي العام على تلك الحركة أن أعلن الأحكام العرفية ، وأخذت وحدات من الجيش الفرنسي للساحة تطوف في الشوارع وترابط في مختلف الميادين العامة ، وكأن الحرب قد أعلنت بين المستعمر والشعب الأعزل ، بإلقاء القبض على عدد من الزعماء وعلى رأسهم السيد الحبيب بورقيبه . وقررت الوزارة التونسية التي كان يرأسها السيد شنيق أن تحتج على الوضع الحالي في تونس ، ووصل إلى باريس الوزيران الوطنيان السيد صلاح بن يوسف وزير العدل ، والسيد محمد بدره وزير الشئون الاجتماعية ، لتقديم التماس إلى هيئة الأمم المتحدة باسم الحكومة التونسية في شأن الخلاف القائم بين تونس وفرنسا ، وكان طبيعياً أن يستعين الوزيران التونسيان بالدول العربية والدول الشرقية الإسلامية ، وكان أول اجتماع عقداه هو اجتماعهما بالدكتور محمد صلاح الدين باشا في ١٤ يناير سنة ١٩٥٢ .

وقد احتضنت الدول العربية قضية تونس ووسعت لها مساعيها في دوائر هيئة الأمم ومجلس الأمن ، وشرفت مصر بحضور عدد من الزعماء التونسيين يحاولون عرض القضية من منبر الصحافة المصرية . وبدا التآلف ظاهراً بين الوزارة التونسية والزعماء الذين أقضوا مضاجع المستعمرين ، فلم يسع الحكومة الفرنسية إلا أن تطلب من الباي إقالة تلك الوزارة ، وصرح المقيم العام (دى هوتكلوك) لجلالة الأمين باي تونس بأن الحكومة الفرنسية ترى أن إقالة وزارة السيد شنيق أمر ضروري لبدء النظر في مطالب تونس ، وتطالب علاوة على ذلك بأن تسحب تونس شكواها التي تزمع رفعها أمام مجلس الأمن .

سارت الأمور على حسب ما يهوى المقيم العام في تونس ، وتألفت وزارة جديدة عين فيها المقيم الفرنسي العام وزيراً للخارجية التونسية وفقاً لما تقضي به شروط معاهدة باردو التي عقدت بين فرنسا وتونس في سنة ١٨٨١ ، والتي تقضي بأن تمثل فرنسا مصالح تونس في الخارج ! وأصبح الأمل الوحيد في حل القضية أن تستجيب الدول الكبرى لطلب الدول الأسيوية والدول العربية بمناقشة القضية التونسية أمام مجلس الأمن . وكان موقف كل من الباكستان والهند مشرفاً حقاً لهذين الشعبين المظلومين ، فقد بذل السيد بخاري مندوب الباكستان ورئيس مجلس الأمن في دورة إبريل أقصى جهده لكي يمنع رفض المجلس مناقشة الشكوى ، فقد استعرض أمام المجلس الأحداث التي وقعت في تونس كما تبدو في نظر الكتلة العربية الأسيوية ، وقال إن الكتلة قد تمالكت نفسها وتريثت طوال أشهر وأسابيع أملاً في أن تتم تسوية ودية بين طرفي النزاع . أما الهند فقد صرح زعيمها البنديت نهرو بأنه « إذا لم تناقش الأمم المتحدة المسألة التونسية فسيسود الشعور بأن صوت آسيا وإفريقيا لا يسمع في هذه المنظمة العالمية ، ولهذا الشعور ، إذا تم ، نتائج وخيمة على الشرق ؛ فإذا لم تستمع الأمم المتحدة إلى صوت الشعوب الخاضعة لسيطرة الأجنبية تكون قد فشلت في تحقيق الغرض من وجودها ، ولن يكتب للعالم السلام ما لم ينته الاستعمار — في آسيا وإفريقيا » .

وفي السادس عشر من هذا الشهر ، رفض مجلس الأمن لأول مرة منذ إنشائه إدراج شكوى تقدم بها عضو من أعضائه في جدول أعماله . فقد رفضت كل من فرنسا وبريطانيا إدراج قضية تونس ، وامتنعت عن التصويت أمريكا وهولندة واليونان وتركيا ، وأيدت إدراجها البرازيل وشيلي والصين وروسيا والباكستان ، وكانت القضية في حاجة إلى صوتين اثنين لترجيح كفتها .

ذلك هو الضمير العالمي الذي تلجأ إليه الشعوب الضعيفة ، وتلك هي المؤسسة العالمية التي كبروا لها وهللوا ، وهذا هو الغرب الذي يدعي أنه نصير الحرية .

عبد الحميد البطريق

جوانب إنسانية من فلسفة إقبال

(١٨٧٦ - ١٩٣٨)

للدكتور عثمان أمين

الدكتور محمد إقبال فيلسوف الباكستان ، علم من أعلام الإسلام ، وقائد من قادة الفكر في الشرق ، ورائد من رواد الإصلاح في هذا العصر . وإلى جانب شخصية جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده المصري ، وعبد الرحمن الكواكبي السوري ، وسيد أمير علي الهندي ، ستظل شخصية محمد إقبال من أبرز شخصيات التاريخ الإسلامي الحديث .

كان إقبال من أكثر مفكري المسلمين إحاطة ، ومن أشدهم ابتكاراً في الوقت نفسه : كان واسع المعرفة بمذاهب الفلسفة الإسلامية ، والفلسفة الغربية ، كما كان على دراية بالمبادئ الأساسية في العلوم الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية . فأمدته هذه المعرفة بمادة خصبة صاغتها عبقريته مذهباً ضافياً طريفاً فيه نفحات من الفلسفة والعلم والفن والدين ، وفيه قبسات من مذهب الفيلسوف الألماني « كانت » ، وفيه أيضاً نزوع إلى العمل ، وتغليب له على جوانب النظر الخالص .

ويبدو لي أن ما حاوله إقبال في تاريخ الفكر الإسلامي شبيه من بعض الوجوه بما حاوله « كانت » في الفكر الغربي . وقد عبّر إقبال عن آرائه الفلسفية في طائفة من القصائد كتبها باللغة الفارسية واللغة الأوردية ، فاستجابت لها الشبيبة المسلمة الهندية ؛ ثم نظمها بعد ذلك في سلسلة من المحاضرات ألقاها باللغة الإنجليزية سنة ١٩٢٨ ، ونشرها سنة ١٩٣٤ بعنوان : « تجديد بناء الفكر الديني في الإسلام » .

إن فلسفة إقبال ذات طابع ديني عميق ، وهي في جوهرها تمجيد للإسلام ، وبعث للحياة والقوة في المسلمين ، وتبشير لهم بمستقبل مجد وظافر إذا ساروا في حياتهم على هدى دينهم : « لقد وُلدنا ونشأنا في ظل السيف ، وسرنا وعلى رأس قافلتنا سيد الحجاز ، وإن في اسمه لعزاء لأنفسنا وازدهاراً لآمالنا » . ولا ينفك إقبال متغنياً بمآثر الإسلام ، وفي غنائه دعوة إلى النهوض والتشمير ، وحث للخطى على متابعة السير مع القافلة ، ولنستمع إليه يقول : « الغاية القصوى للنشاط الإنساني هي الحياة مجيدة ، قوية ، مبتهجة . وكل فن إنساني يجب أن يخضع لتلك الغاية . وقيمة كل شيء يجب أن تحدّد بالقياس إلى تلك القوة على إيجاد الحياة وازدهارها . وأجل فن هو ذلك الذي يوقظ قوة الإرادة النائمة فينا ، ويستحثنا على مواجهة محن الحياة في رجولة . وكل ما يجلب إلينا النعاس ويجعلنا نغمض عيوننا عن الحقيقة الواقعة فيما حولنا ... ، إنما هو رسالة انحلال وموت » . وهذه النغمة تذكرنا بنغمات « نتشه » صاحب كتاب : « إرادة القوة » .

غير أن محمد إقبال لم يكن من ذوي الآراء الجامدة ، ولا من أصحاب الآفاق الضيقة ، ولا من المتزمتين الذين يتشبثون بوجهات نظرهم ، ولا يطيقون إلا أن يفرضوها على الناس فرضاً ، بل كان على استعداد دائم لتجديد نظراته تمشياً مع تقدم الفكر الإنساني . ففلسفته لا يقف تطورها عند حد ، بل هي تترك المجال فسيحاً لأبعد إمكانيات المستقبل .

اشتهر من إقبال أنه : « شاعر الباكستان » ، و « فيلسوف الإسلام » ؛ وهذا حق لا ريب فيه : فقد كان الرجل من أشد الناس وطنية وأرهفهم إحساساً بآلام قومه ، وقد عمل جاهداً على تحرير وطنه من نير الأجنبي . ثم إنه كان شديد الحماسية والألم لما آلت إليه حال المسلمين ، وكان دائم التفكير فيما يعلي شأنهم ويجعلهم

أمة حية قوية ، وبعيد إليهم سابق مجدهم فى ميادين الفكر والعمل .

إلا أن نظرة إقبال لم تقف عند حدود القومية الضيقة ؛ وقد كان له من الفطنة وبعد النظر ما يميز بها بين « الوطنية » الصحيحة — التى هى حب كل ما هو عظيم وجميل وكريم فى التراث الروحى للأمة — وبين « القومية » المتعصبة التى أصبح بتعبيرها السياسى المتطرف عاملاً مناوئاً للسلام والحرية والعدالة فى العالم . وإقبال فى تفكيره « عالمى » و « إنسانى » .

وقد استمد وحيه هذا من تعاليم الإسلام ونبيه الكريم الذى أعلن وحدة النوع الإنسانى ، وحطم أصنام الأجناس والألوان والأوطان . ويتفق محمد إقبال فى هذا مع الكثيرين من المفكرين الإنسانيين من شرقيين وغربيين ، أمثال الفيلسوف الألمانى : « كانت » ، والفيلسوف المصرى : محمد عبده . فنظرته الإنسانية لا تقوم على أساس مادى أو اقتصادى ، كما هو الحال عند بعض مفكرى الغربيين المحدثين ، بل نظرته فى جوهرها قائمة على أساس دينى أخلاقى روحى إنسانى ، فهو يرى أن كل مذهب يقوم على الاستغلال والبغضاء فيما يتعلق بالأفراد أو الأمم ، مذهب غير مقبول : لأنه يتجاهل جوهر الفطرة الإنسانية . وهو يقول فى بعض شعره :

« ما مقصود الفطرة وكنه الإسلام ؟
شيوع الأخوة وفيض المحبة .
حطم أصنام الدم واللون والجنس ،
وأفن ذاتك فى الله .
انس الفروق بين التورانى والإيرانى والأفغانى »

وهو يقول فى موضع آخر :

« لقد قسم الجشع بنى آدم شعوباً متعادية .
فتحدث بلغة الحب وعلم الناس دروس الأخوة .
ما الفرق بين هندى وأفغانى وتورانى وخراسانى ؟
إنك مقيد مشدود إلى الساحل ، فانطلق إلى فضاء الحرية التى لا حد لها .
إن أجنحتك مثقلة بغبار اللون والجنس ؟
يا طائر الحرم ، انفض هذه الأجنحة قبل أن ترتفع وتحلق » .

وقد بين إقبال كيف أن عبادة آلهة الزور ، آلهة القومية والرأسمالية والاستعمار ، قد استعبدت أوربا وآذنت بغروب شمس مدنيتها ، وهو يقول فى إحدى قصائده :

« إلى اليوم لايزال الإنسان ضحية الاستغلال والاستعمار .
وإنه لبلاء عظيم أن يبقى الإنسان فريسة الإنسان !
إن بريق المدنية الحاضرة يبهر الأنظار ، ولكنه بريق صناعى لأصداف مزيفة .
وما العلم الذى يفاخر به رجال الغرب إلا سيف معركة فى قبضة جشع مخضبة بالدماء »

ويرى إقبال أخيراً أنه لا أمل للإنسانية فى تحقيق السلام إلا بأن تعمل على التوفيق بين « عقل » الغرب و « قلب » الشرق ، والنهوض لإقامة دعائم عالم جديد تسوده معانى الحب والعدالة والأخوة والإنسانية .

وتلك لعمرى رسالة حق وخير وجمال .

عثمان أمين

مشكلة الدهاليز

للدكتور عبد العزيز عبد المجيد

الدهاليز جمع دهليز ، وهو الممر بين مكانين أو بناءين منفصلين . وهو في عرف المربين بإنجلترا الممر بين نوع من أنواع التعليم الثانوى والنوع الآخر . ولهذه الدهاليز والأنواع تاريخ يرجع إلى سنة ١٩٤٤ حينما صدر « قانون التعليم » الأخير . فقد نص هذا القانون على أن التعليم الابتدائى ينتهى بالطفل فى سن الحادية عشرة أو بعدها ، ومن ثم يبدأ التعليم الثانوى الذى صار — بحكم هذا القانون — حقاً مجانياً لكل طفل أتم التعليم الابتدائى . ولما كان الأطفال ليسوا سواء فى قدراتهم الفطرية ، واستعداداتهم الخاصة ، وميولهم ، وكان التعليم الثانوى النظرى — بمعناه القديم — مرحلة موصلة للتعليم الجامعى ، لم يكن من المعقول ولا من المصلحة أن يتاح هذا النوع النظرى لجميع الأطفال على اختلاف قدراتهم وميولهم ، ومنهم من لا يصلح له ، ولا يستطيع لذكائه المحدود أن يتابعه إلى النهاية وإلى المرحلة الجامعية . هذا إلى أن الحياة العملية لأى مجتمع لا تحتاج فى ميادينها المختلفة إلى الجامعيين القادة فحسب ، ولكنها تحتاج إلى العاملين من الصناع والتجار والزراع وسائقى السيارات ، ورجال البريد ، والعملة . وهؤلاء يكوّنون السواد الأعظم من الأمة وعمودها الفقرى . وإذاً فلا بد من تنويع التعليم الثانوى بحيث يقدم كل نوع إعداداً صالحاً لمن يلتحق به من الأطفال ، ولا بد أيضاً من تقسيم الأطفال إلى مجموعات متناسقة كل مجموعة توجّه إلى نوع التعليم الثانوى الذى يناسبها ، ولا بد كذلك من وضع قاعدة ثابتة علمية يعتمد عليها لقياس الأطفال أو اختيارهم ، بحيث يمكن بمقتضاها توزيعهم توزيعاً سليماً على أنواع التعليم الثانوى .

أما تنويع التعليم الثانوى حتى يناسب حاجات المجتمع وقوى الأطفال واستعداداتهم فهذا ما قضى به قانون سنة ١٩٤٤ . فقد جعل التعليم الثانوى ثلاثة أنواع : النوع النظرى ، ويكون فى المدارس الثانوية النظرية والتى يطلق عليها عادة فى انجلترا Grammar Schools ، وهذه تعد للالتحاق بالجامعات والمعاهد العالية . والنوع الفنى ، ويكون فى المدارس الثانوية الفنية التى تنتهى بالسادسة عشرة أو السابعة عشرة ، وفيها يتنوع الإعداد من صناعى إلى تجارى إلى زراعى ، وفقاً لحاجات البيئة والبلاد ، واستعداد الأطفال وميولهم . والنوع الثالث هو التعليم الثانوى العام وينتهى بسن الخامسة عشرة ، وفيه تكون التربية عامة نظرية وعملية ، هدفها إعداد الشاب ليزاول حياته العملية بعد ما يغادر المدرسة ، فهى تعمل على إعداد المواطن الصالح بقدر ما تسمح به قدرات التلميذ المحدودة ، وميتو دراسته . ويلتحق بالنوع الأول نخبة الأطفال ممن تصل نسبة ذكائهم إلى ١٢٥ فما فوق ، وهؤلاء يكوّنون عادة نحواً من ١٠ ٪ من مجموعة التلاميذ المتقدمين للتعليم الثانوى ، ويلتحق بالنوع الثانى من هم أقل ذكاء والمتوسطون ، ويلتحق بالنوع الثالث من هم أقل من المتوسط فى الذكاء .

وهذه الأنواع من مدارس التعليم الثانوى ، وهذه الأنواع من الأطفال تتطلب القاعدة — أو المقياس — التى يمكن تطبيقها ، الحكم الصحيح على نوع التعليم الصالح له الطفل . وهذه القاعدة وجدها رجال التعليم فى مقياس الذكاء . فعند ما ينتهى الأطفال من التعليم الابتدائى يختبر ذكاؤهم ، ويوجّهون بمقتضى نتائج الاختبار ، كلًّا إلى نوع التعليم الثانوى الصالح له .

ويبدو مما تقدم أن المسألة هينة سهلة ، وأن الأمور يجب أن تسير بنظام ويسر ، دون إشكال أو اعتراض ، ولكن المسائل النظرية شىء ، وتطبيقها شىء آخر . فقد نشأ من تطبيق القانون الذى أشرنا إليه عدد من المشاكل العملية التى تحتاج إلى حل فى ضوء التجارب وظروف المجتمع .

من هذه المشاكل : « إلى أى حد يمكن الاعتماد على مقياس الذكاء فى اختيار الأطفال لأنواع التعليم الثانوى المختلفة » . ومنها : « ماذا يمكن عمله إذا ظهر أن طفلاً غير صالح للتعليم الثانوى الذى التحق به . وهو أكثر صلاحاً

لنوع آخر؟». أما المشكلة الأولى فقد اتفق المربون وعلماء النفس أيضاً أن مقياس الذكاء أصدق المقاييس، ولكنه مع ذلك عرضة للنقص والخطأ، وأنه لذلك قد يوضع التلميذ في المدرسة الثانوية الفنية ثم يتبين أنه على درجة من الذكاء توجب أن يكون بالمدرسة الثانوية النظرية. وقد يتبين بعد التحاق التلميذ بالمدرسة الفنية أن ذكاءه لا يسمح له بمولاة هذا النوع من التعليم، ولا بد والحال هذه أن ينقل إلى المدرسة الثانوية العامة.

هذا، ولأولياء الأمور آمالهم ومطامعهم، وهم حريصون أشد الحرص على أن تتاح لأبنائهم فرصة التعليم الجامعي، فهم لذلك يجدون في عدم قبول أبنائهم بالمدارس الثانوية النظرية ضياعاً لهذه الفرصة. ومن حقهم إذا ظهر استعداد أبنائهم للتعليم الثانوي النظري أن ينقلوا إليه، حتى بعد ما يكونون قد ألحقوا بغيره من التعليم الثانوي. من أجل هذا نص القانون على وجود هذه الدهاليز أو الممرات التي تخول التلميذ الانتقال من نوع من التعليم الثانوي إلى نوع آخر هو له أصلح. فكيف يتم هذا؟

كان مؤتمر رابطة التربية الحديثة الإنجليزية، الذي عقد في الشهر الماضي بمدينة Epswich، ليدرس هذه المشكلة وما يتصل بها من المشاكل. ولهذه الرابطة نشاطها العلمي والعملي. ولقد رحبتُ بدعوتها إياي لحضور هذا المؤتمر الإقليمي، لأني حريص على أن أدرس عن كثب مشاكل التعليم في انجلترا وكيف يعالجونها؟ فأفيد من هذه الظروف بما ينفعنا في مشاكلنا التعليمية، لاسيما ونحن في طور نهضة تعليمية لم تنتظم بعد، ولم تثبت قواعدها. ونحن كذلك نواجه أزمة قوية في التعليم الثانوي النظري نتيجة إقبال التلاميذ عليه وانصرافهم عن الثانوي الفني. وهي أزمة لها نتائجها الخطيرة فيما بعد، على الشبان أنفسهم عندما يصيرون من ذوي الياقات البيضاء، ولا عمل لهم، وعلى الدولة أو البلاد التي تحتاج إلى الفني العمل المثقف فلا تجده لأن المدارس لم تعده.

ورحبت بالسفر مسافة بعيدة من شمالي انجلترا إلى جنوبها، هرباً من جو المدينة الصناعية التي أعيش فيها وضبابها وهبابها، إلى ضاحية مدينة ريفية جميلة، اختارتها الرابطة كعادتها لتكون متاعاً وراحة للمؤتمرين، فيجدوا من صفاء الجو وجمال الطبيعة ما يشجعهم على الدرس والمناقشة، وكان المؤتمرون قد اختيروا بدعوة خاصة من الرابطة على أساس تمثيلهم نواحي مختلفة من نواحي التعليمين، الابتدائي والثانوي، وتمثيلهم التفتيش والإدارة فيهما.

قال بعض المؤتمرين: إن اختيار التلاميذ على أساس نتائج اختبارات الذكاء قد أضاع الغرض منه. فالمدارس وأولياء الأمور قد انصرفوا إلى تدريب التلاميذ على حل الاختبارات المطبوعة إعداداً لهم، وأسرفوا في هذا على حساب تعلم المواد الدراسية، فالقياس إذاً غير سليم، ومعطل للغرض الأساسي من المدرسة وهو التعليم والتربية.

وقال آخرون: إن الذكاء يجب ألا يكون أساس الاختيار للتعليم الثانوي والجامعي، فالحياة تحتاج إلى الخلق والشخصية؛ وكثير من متوسطي الذكاء — مع المثابرة والاتزان ومعالجة الأمور بروية — أصلح للمجتمع من الأذكياء الهمايين أو المغرورين أو فاسدي الأخلاق. وإذاً فلتجعل أساس الاختيار هو الشخصية والخلق والذكاء جميعاً.

فرد عليهم بعضهم قائلا: وكيف يكون ذلك؟

واعترض آخرون على نظام الدهاليز وقالوا: إننا أصررنا على نقل التلميذ الذكي من التعليم الفني إلى التعليم الثانوي النظري فإنا نحرم التعليم الفني من العناصر الذكية التي تكون قادة في مهنها المختلفة. ونحن أحوج في التعليم الفني إلى القادة الأذكياء. فإن الحكمة والحال هذه أن نعمل على إلحاق الأذكياء عمداً وعن قصد بالتعليم الثانوي الفني.

وجاءت مشكلة الدهاليز؛ فرأى بعض المؤتمرين أن نقل التلميذ بعد سنتين أو ثلاث من نوع من التعليم الثانوي إلى نوع آخر يوجد ارتباكا في حياته التعليمية، ويتطلب من المدرسة أن تمده بدروس خاصة في اللغات الأجنبية وغيرها من المواد التي لم يتلقها حتى يعوض ما فاته. وشكا بعضهم أن بعض المدارس تتخذ من «رخصة» الدهاليز وسيلة للتخلص من التلاميذ الذين لا ترغب فيهم أخلاقياً وإن كانوا صالحين عقلياً. وشكا بعضهم أن الآباء يعلقون آمالا كبيرة على الدهاليز، فيحاولون أثناء الدراسة نقل أبنائهم إلى التعليم الثانوي النظري بأساليب ملتوية متعبة.

وتساءل الجميع: لماذا يوزع التلاميذ في سن الحادية عشرة على أنواع التعليم الثانوي؟ ألهذه السن ميزة خاصة نفسية تجعلها السن المحددة لبدء التعليم الثانوي؟ ولماذا

حنـــــين إلى مصر

فدًى لك نفسي هل أبيتن ليلة
بأرضك يامصر من النيل راويا ؟!
أظل — وعندي الماء قد طاب موردا
وقد غاب ماء النيل — هيمان صاديا
يهيم به كل الأنام ، فكيف لا
يهيم به من كان في الشطر ثاويا
ملاعب أشــواق هناك فقدتها
فياليت شعري هل أرى النيل ثانيا
عهود صبا لا زلت صبًّا بذكرها
وإن كان مجلاها الحبيب نائيا
هي الأمل المرجو إن حن نازح
لعهد مضى قد كان بالوصل حاليا

***

ذكرتك يامصر غريبا (ببرقة[1])
فكاد لهيب الوجد يردي فؤاديا !!
وطوفت فيها شارد اللب هائما
كما طوف المسجون في السجن خاليا
إذا شهدت نفسي على البحر مركبا
أكاد له أسرى هوًى وتصابيا
لعلي أرى فيه إلى النيــل ذاهبا
فيسعد قلبي ، أو من النيــل آتيا

(١) إشارة إلى الأيام التي قضيتها في برقة .

فقد يحمل الساري لمصر رسالة
وقـــد يصف الآتي بمصر المغانيا

***

ومرت ليالي البعد كالطيف مزعجا
وجئت أرض النيل كالبرق ساريا
... وعدت إلى مصر لعلي أرى بها
قرارا لقلب كان بالبعــد عانيا
ومنيت نفسي بالأماني حبيبــة
وأيقنت أن الحين قد صار دانيا
فهل لقيت نفسي سوى اليأس قاتلا
وهل عدت إلا جازع النفس باكيا
وكفنت آمالي وقلت لعلني
مع اليأس أحيا طيب النفس راضيا
وفي اليأس من نيــل الأماني راحة
كراحة من أعيا الطبيب المداويا
أليس كثيرا غربة وصــبابة
إليك وأن ضيعت فيك الأمانيا ؟!!
فيادوحة الآمال لازلت موئلا
حبيباً وإن لاقيت فيك الدواهيا
ويامصر إن ضيعت فيك مآربي
فأشــواق قلبي لا تزال كما هيا

(الطائف) أحمد أبو المجد عيسى

لا نؤخر التوزيع والاختيار إلى سن الثالثة عشرة حين يتبين لنا بوضوح ودقة أنواع القدرات والاستعدادات فيكون الاختيار أسلم ؟ واتجه الرأي نحو هذا الحل وكثر مؤيدوه .

قال بعضهم : فلننشيء إذاً مرحلة متوسطة من الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة بين التعليمين الابتدائي والثانوي .

وقال آخرون : الأولى أن نبقي نظام المراحل الحالي ونجعل المدرسة الثانوية — في سنواتها الأولى — مشتركة لجميع التلاميذ ، ثم نبدأ التوزيع بعد الثالثة عشرة . واقترح بعضهم نظام المدرسة الثانوية الشاملة Comprehensive Sehere التي تضم أنواع التعليم الثانوي الثلاثة في بناء واحد ، وقام ضد هذا الاقتراح اعتراضات : منها أن هذه المدرسة تكون من الكبر والضخامة بحيث تعرقل الإشراف الإداري المباشر ، ودراسة الأفراد وتوجيههم ، مما يتسنى في المدرسة صغيرة الحجم .

وتحمست فأدليت باقتراح لقي كثيراً من الرضا . قلت : أليس من الحكمة أن نجري التجارب على أنواع هذه المدارس المقترحة — في بعض المناطق التعليمية — لنعرف أولاً مقدار صلاحيتها قبل تركيبها ، وتعميمها ؟ إن نظام التعليم بإنجلترا مرن ، والسلطات المحلية حرية وافرة في أن تجرب ما تشاء من أنواع التعليم ما دامت لا تخرج عن روح القانون .

وصادف هــذا الاقتراح تأييداً فأقره المؤتمرون مع غيره من الاقتراحات . ثم انصرفنا وقد أفادت عقولنا وأجسامنا ووجداناتنا .

(مانشستر) عبد العزيز عبد المجيد

حاجة الآداب والفنون

إلى تأييد الحكومة

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

لا يزال بيننا أناس يقولون بترك نهضة الآداب والفنون تشق طريق التقدم دون مد يد العون إليها . وسندهم في ذلك أن رجال الآداب والفنون ذوو مواهب ، وأنهم مدفوعون إلى الإنتاج بدافع تلك المواهب . ومحال أن يخلق العون الأدبي أو المادي موهبة الأديب أو الفنان من العدم ، بل ومحال أن يصقلها أو يرفع مستواها . فالأديب والفنان يشقان آثارهما على السجية كما تصدح الطيور وترقص على صفحات الغدران .

ثم يذهب المعترضون على تشجيع الآداب والفنون إلى أبعد من ذلك فيقولون : إن تشجيعها يؤدي إلى عكس الغاية المنشودة . فهو يقتل مواهب أهل الأدب والفن أو ينال منها ، ويفسح في المجال لظهور الإنتاج المتصنع المغرض ، والمتطفلين المرتزقة والأفاكين الحلبة ، ومزاحمتهم المطبوعين من الأدباء والفنانين .

ولكن الرجوع إلى تاريخ الآداب والفنون في الشرق والغرب ، على تعاقب القرون ، يدحض ذلك الرأي . فقد اعتاد الأدباء والفنانون في كل زمان ومكان — مع استثناء أوربا وغيرها من البلاد المتحضرة في القرنين الأخيرين — أن يعتمدوا في سد حاجات عيشهم على معونة الملوك والأمراء وذوي الجاه ، أو على معاش ثابت تجريه عليهم حكوماتهم . ولم يكن لهم من ذلك بد في العصور التي لم تكن الآداب والفنون فيها سلعة تعرض في السوق لتدر على صاحبها الربح . أو ما دام الإنتاج الأدبي والفني لا يعد إنتاجاً مادياً يدخل في نطاق المادة .

وقد استثنينا أوربا وغيرها من البلاد المتحضرة في القرنين الأخيرين ، لأن تقدم الطباعة وصناعة الورق وما تلاه من زيادة عدد المثقفين هناك زيادة كبيرة ، وإقبالهم على الفنون والآداب ، فتح سوقاً وفيرة الربح للأدباء والفنانين ، فاستطاعوا أن يتخلصوا من الخضوع لذوق حماتهم ورعاتهم من السادة الذين غرست حياة الترف والبطالة في نفوسهم حب التأنق المهلهل المزخرف من الآيات الأدبية والفنية .

تحرر أدباء تلك البلاد من القيود التي رسفوا فيها حقباً طويلة ، وانطلقوا هم وزملاؤهم الفنانون يعبرون عن آرائهم وخوالجهم في حرية تامة ، فنال إنتاجهم بعد تحرره من قيوده ، واكتسب أصالة وجدة لم يعرفهما وقت أن عانى من عيوب التكلف والصنعة ما عانى . ولكن تطور الأدب والفن لم يقف عند هذا الحد ، إذ اتجهت أنظار الأدباء والفنانين إلى من يكتبون لهم من سواد الناس ، بعد أن كانوا لا ينظرون إلا إلى أنفسهم . واهتموا بحياة سواد الناس وطفقوا يصورونها في كتاباتهم المنظومة والمنثورة ، وفي ألحانهم وأنغامهم ولوحاتهم ، بعد أن كان كل منهم لا يهتم إلا بحياته الخاصة ، ولا يعبر إلا عن خواطره وخوالجه الذاتية ؛ فإذا تناول غيره من الناس بالوصف أو النقد أو التحليل ، فهو لا يفعل ذلك إلا من الناحية الفردية البحتة . وقد أثار هذا الاتجاه قلق المتشائمين من المثقفين الذين رأوا أن انصراف الأدب والفن من برجهما العاجي إلى سواد الناس سيهبط بمستواهما الفكري والذوقي . فما دام الإنتاج الأدبي أو الفني يروج ويحقق لصاحبه ربحاً يزداد بمقدار عدد المتهافتين عليه ، فإن صاحبه الذي ذاق حلاوة الكسب سيحاول على الأغلب أن يسف به إلى أدنى درك ليفوز بإقبال العامة وهم العدد الأوفر في كل مجتمع . ولكن هذه النظرة قصيرة لا تكاد تتجاوز أنوف أصحابها ، لأن نزول الأدب والفن إلى ميدان الحياة الفسيح ، ورواجهما بين مختلف الناس ،

يحيلهما من مجرد متعة ينعم بها الخاصة في أوقات الفراغ إلى قوة فعالة تتأثر بالمجتمع وتؤثر فيه . وإذا صح أن مستواها الفكري والفني سيهبط عما كان عليه ، فإن هـذا الهبوط موقوت بإفادة العامة من تذوق الآيات الفنية والأدبية . ولن تلبث تلك الآيات أن تأخـذ سبيلها إلى السمو كرّة أخرى حين يسمو ذوق سواد الناس وتتسع ثقافتهم ، ويكون رقيها في هذه المرة على الأساس الطبيعي الصحيح .

ونوجز ما فصلنا ، فنقول : إن الأدباء والفنانين في حاجة إلى المال ليعيشوا ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الناس ، وهم يرضون رعاية من يرعاهم من ذوي الجاه والمال إذا لم يجدوا للرزق سبيلا غير هـذا . فإذا انتشر التعليم وأقبل الناس على الآداب والفنون تحرروا من ربقة ذوي الجاه والنفوذ ، وأخذوا يؤدون مهمتهم على الوجه الصحيح . وإذا نظرنا إلى حالنا على ضوء ما تقدم نجد أن السبل مسدودة جميعاً في وجه أدبائنا وفنانينا (اللهم إلا إذا استثنينا المشتغلين بالغناء) . فإن ذوي الجاه والمال عندنا مشغولون اليوم بالأعمال الصناعية والتجارية الرابحة التي تستنفد كل وقتهم ، فتشغلهم عما عـداها ، وتحملهم على ازدراء كل ما لا يضاعف أرباحهم . ومن كانت هـذه حالهم فلا يرجى منهم أن يهتموا بالنهضة الثقافية ويعاونوها . أما سوق الأدب والفن فراكدة . ولسنا نحسب أن أحداً يخالفنا في أنها لا تحقق حتى الربح الضئيل الذي لا يقيم الأود . وقد ترتب على ذلك أننا لا نكاد نرى أديباً فرداً ، أو فناناً واحداً يستطيع أن يتفرغ لإنتاجه ، ويعيش على ريعه منه . فهو إما محام أو ملتحق بوظيفة عامة ، في حين أن الإتقان لا يكون إلا من نصيب من يتفرغ لعمله ، ويخصص له كل ما يملك من جهد وفكر وروح .

وقد طالب الكثيرون ممن آمنوا بأهميـة دعم نهضتنا الثقافية أن تتدخل الحكومة في الميدان الثقافي ، وتمد يد العون للمشتغلين بالأدب والفن ، وتعينهم على مواصلة جهودهم الثقافية . ولم يلبث المشرفون على شئون البلاد أن اقتنعوا بهذه الوجهة من النظر ، فوافقوا على إنشاء إدارة عامة بوزارة المعارف تعنى بالنهضة الثقافية ، وتشجع القائمين بها . . . وهكذا ظهرت الإدارة العامة للثقافة في الوجود .

ولكن الوسائل التي تتوسل بها تلك الإدارة لأداء رسالتها متعثرة يصعب أن تحقق الغاية المرجوة منها . فهي لا تخرج عن شراء عدد محدود من كل كتاب ثقافي صالح تخرجه المطابع ، وإجراء مباريات ثقافية ترصد جوائز مالية ضئيلة للفائزين فيها ، وتصويب بعض المخطوطات القـديمة ونشرها ، ورصـد الحركة الفكرية في سجل مفروض أن يصدر كل عام ، ومد الجمعيات الثقافية بإعانات مالية لا تكاد تفيد ، ومحاولة التعاون الثقافي مع سائر البلاد . . .

إن الذي يلقي نظرة على هـذه الوسائل يدرك لأول وهلة سبب خمول ذكر تلك الإدارة . فالأدب والفن لا يترعرعان إلا بإحدى وسيلتين . فإما البذل السخي الذي يغني عن السعي وراء الرزق . وإما تهيئة الأسباب لازدهار سوقهما ورواجها . وأين هاتان الوسيلتان من الوسائل التي تتذرع بهما الإدارة العامة للثقافة ؟ . . .

أما البذل السخيّ فأمره مفهوم . ونحسب أن إدراك الفائدة الجلّى التي تعود على البلاد من ازدهار نهضتها الثقافية جدير بأن يحمل المقترّين في تلك السبيل على الإقلاع عن تقتيرهم ، وبسط أكفهم كل البسط . ولكن تهيئة سوق ثقافية رائجة هي التي تحتاج إلى شرح وتبيين . ونبدأ حديثنا في هذا الصدد عن الأدب فنقول : إن تهيئة سوق له رائجة لا تكون إلا بحثّ المثقفين على قراءة كتب الأدب . وهذا بدوره لا يكون إلا بتعويد النشء القراءة ، وغرس حب الأدب في نفوسهم . . . ولكن كيف يكون هذا ؟ . . .

يشكو كتّاب الأدب في مصر قلة المقبلين بالقراءة ، وانصراف كثرة هذه القلة عن تصفح ما تخرجه لهم المطابع من كتب وصحف أدبية . ويهمل كثيرون من الأدباء الكتابة متذرعين بهـذه العلة . على أني رأيت كثيرين من قراء العربية يشكون بدورهم ندرة الكتب القيمة الجديرة بالتصفح ، ويتذرعون هم كذلك في انصرافهم عن القراءة بهذه العلة التي يسوقونها .

والمدقق المنصف لا يملك إلا أن يعذر الفريقين ،

فالتأليف عندنا على الأغلب مزيل عن الإقبال على القراءة . والعذر الذي يسوقه القراء ظاهر . أما عذر المؤلفين فيرجع إلى أن إجادة الكتابة تقتضي التوفر على الاطلاع ، وإدمان التأليف والتصنيف ، وبذل الوقت الطويل ، والجهد الشاق في تلك السبيل . بل إنها تستلزم من الكتاب أن يحصروا لها خلاصة ذهنهم ، ويهبوا لها كل قلبهم وروحهم ، وهذا لا يتأتى إلا إذا تفرغوا لها دون القيام بأي عمل آخر .

إن الكتاب الجيد لا يتاح ظهوره إلا بين ظهراني جمهور من القراء على استعداد لتقديره . وهؤلاء لا يتكاثرون الكثرة المجدية إلا بعد ظهور التصانيف الممتازة الشوقة . فإذا تركت الأمور تسلك مسلكها الطبيعي استحال تصنيف الكتب الممتازة ، واستحال بالتبعية انتشار هواية القراءة بين الناس . وعلى ذلك وجب علينا أن نبدأ باصطناع وسيلة لظهور الكتاب الممتازين ، وهذه الوسيلة ليست كما قلنا إلا بذل المال في سخاء . وللإدارة العامة للثقافة أن تتولى هذا العمل المصطنع لتوفير الكتب الشائقة التي تجتذب القراء . وحين تتوافر تلك الكتب يزول أخطر عائق يحول دون قيام السوق الأدبية الرائجة . ولا يبقى أمام الإدارة العامة للثقافة إلا أن تعنى بتبصير تلاميذ المدارس بقيمة تلك الكتب ، وتحرص على تعويدهم حب الاطلاع عليها . فإذا تعوّدوا القراءة في أول عهدهم بتلقي العلم ، فإنهم لن يسلوها بعد ذلك ! وهكذا يصبحون الموج الأول الذي تتلوه أمواج وأمواج لا تبقي على ما تخرجه المطابع من مصنفات . وحين يحدث هذا تبدأ النهضة الأدبية الحقة التي تقوم على أساس طبيعي سليم .

على أن الإدارة العامة للثقافة لا تستطيع أن تضطلع بهذه المهمة الأخيرة إلا إذا مكنت من الإشراف على مكتبات المدارس كافة . وهذا لا يكون بإخضاع تلك المكتبات لتفتيشها فحسب . ولكن المدرسين المشرفين على تلك المكتبات يجب أن يلحقوا بها رأساً ، وأن يقوموا بعمل إيجابي في تشويق التلاميذ إلى القراءة ، فتخصص في كل أسبوع حصة واحدة إجبارية لكل فصل يقضيها تلاميذه في المكتبة ليستمعوا إلى درس في أهمية الاطلاع ومتعته ، ثم إلى تلخيص لبعض الكتب الشوقة الموجودة في المكتبة . . أما المنهج المفصل لهذه المهمة فيحتاج إلى دراسة نظن أن الإدارة العامة للثقافة قمينة بأن تقوم بها فيما لو صح لها بتأدية تلك الرسالة الخطيرة على ذلك الوجه . وإذا علم القارئ أن مكتبات المدارس لا تكاد تفتح أبوابها نظراً لإهمال المدرسين والتلاميذ شأنها على السواء ، رغم ماتبذله وزارة المعارف كل عام من عشرات الآلاف من الجنيهات ، فإن اهتمامه بما نقول سيشتد ولا شك .

أما مهمة ترقية الفنون فمن الطبيعي أن تضطلع بها إدارة الثقافة كذلك ، وتتبع في تلك السبيل نفس الطريق الذي أشرنا به ، فتزوّد مكتبات المدارس بكتب عن الموسيقى والرسم والنحت وغيرها من الفنون ، وعن حياة كبار الفنانين . وإذا كانت نماذج الرسم والنحت مطبوعة في الكتب التي تقدم للتلاميذ ، فلا بأس أن يستعين المدرس المشرف على المكتبة أثناء حديثه عن الكتب الموسيقية بإدارة أسطوانات موسيقية تسجل الألحان التي يتحدث عنها . ثم عليه بعد ذلك أن يغرس في النشء حب الفنون ، وهواية اقتنائها ، حتى إذا صاروا رجالاً عمدوا إلى تزيين دورهم بالتحف . وهكذا تروج سوق الفنون .

على أن الإدارة الثقافية لن تفلح في أداء تلك المهمة على الوجه الأكمل إلا إذا زادت وزارة المعارف من عنايتها بمنهج دراسة الأدب في المدارس الابتدائية والثانوية ، وعمدت إلى تمكين موظفي الثقافة من التعاون مع مدرسي الأدب في سبيل الوصول إلى غايتهم المشتركة . ثم على الوزارة كذلك أن تتوسع في تعليم تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية أهم ألوان الفنون ، فلا تكتفي بتعليمهم الرسم بالقلم دون غيره ، فإن ذلك سيكون محكاً تظهر به مواهب ذوي المواهب من ناحية ، ثم يتزايد الاهتمام بالفنون بعد أن يكبر أولئك الصغار من ناحية أخرى .

محمد مفيد الشوباشي

ابن هانئ الصغير

— ٢ —

للدكتور شوقى ضيف

وابن هانئ الصغير فى حقيقة الأمر مثال طريف لمن يتابعون تأثر الشعراء بعضهم ببعض فى العالم الإسلامى ، فهو يتأثر جده ، وهو يتأثر أكبر شاعر أندلسى فى عصره ، ويبلغ منه التأثر والاحتذاء أن يظن قارئه فى كثير من الأحوال أنه يقرأ لجده أو يقرأ لابن خفاجة أو يقرأ لهما جميعاً .

ومع تأثره ومبالغته فى التقليد كان يحاول جاهداً أن يشق لنفسه طريقاً بين الشاعرين . واستعرض ما احتفظ به العماد له من مقدمات قدم بها قصائده ، وهى مقدمات يشغلها الغزل والخمر ووصف الطبيعة ، فستجده فى هذه المقدمات جميعاً يحاول الامتياز وإن كان يسير على نفس المسالك والدروب التى سار عليها جده ومعاصره ابن خفاجة . واستمع إلى هذا الغزل :

سفَرْنَ ووجه الصبح يلتاح[1] مُسفرا
فَكُنَّ من الإصباح أسنَى وأنورا
ومِسنَ كأغصان الخمائل يُحتَلَت
من الزهر القبلاتِ وشياً محبَّرا
أبحن لعشاق خدوداً ذوائباً
ولكن حماها كلُّ وسنان أحورا
وجرَّدن سُمر الآثم عنها وإنما
حقَقْن من الورد الشقيق المصفرا
وكم نمَّ عنها فى الدجى نَفَس الصَّبا
فبِتنا نخال الليل مسكاً وعنبرا

فإنك تحس بصوت الشاعرين الكبيرين ، وتشعر أن الشاعر ينقل عنهما ، وهو تارة يرتفع فى هذا النقل فيحكمه ويزيد فيه لوناً من ألوان الابتكار ، وتارة يعييه العجز عن التحليق فى أجوائهما ، فيسف ، ولكن فى نفس المحيط أو فى نفس الأفق ، من كثرة الصور وحشدها ومحاولة التفوق من حين إلى حين .

وقد نعجب الآن من شيوع هذا الذوق من التصوير بين شعراء الأندلس ، ولكن القوم اصطلحوا عليه واتخذوه آية البراعة الفنية . وعمّ هذا الذوق بين الشعراء هناك بحيث يحس الإنسان بغير قليل من التكلف دائماً فى كل ما ينظمون ، فهم لا يطلقون أنفسهم على سجيتها ، ومن ثم لا يعيرون شعرهم فسحة من التعبير الوجدانى على نحو ما نعرف عند كثير من شعراء مصر أمثال ابن الكيزانى وابن سناء الملك والبهاء زهير .

وكأن الشعر الأندلسى كله — إذا استثنينا ابن زيدون — نظم ليرضى العين الباصرة ، لا ليرضى الأذن والوجدان ، والقياسان قد يتخالفان فى الإقليمين لما قلناه من أن التفاضل بين الأقاليم غير صحيح ، إنما هذه ملاحظات فى جملتها مقيدة بشعراء تصادف أن قرأناهم وأن اشتهرت أعلامهم بيننا .

على كل حال يمتاز شعر ابن هانئ الصغير بازدحام الصور الحسية فيه ، فهو فى شعره مصور يعنى بالتشبيهات والأخيلة ، وما زال يصوغ شعره فى هذا المجال الفنى ، وكأنه عاهد نفسه ألا ينطق ببيت إلا وفيه صورة ، حتى الغزل تراه يملؤه بالصور . واستمع إلى قوله فى بعض صواحبه :

حُجبت فى نورها وجنَّتها
فرأيت الشمس للشمس حجابا
وجنة حمراء تَندى عرقاً
مثلما رقرقت أمواج الحبابا
نفحت ريح الصبا جمرتها
فانبرت تظهر فى الماء التهابا

(١) يلتاح : يبدو .

وجرى الصـــبغ على أوظا

منقشـــا طرّزت بالسطر الكتبا

والبيتان الأولان فيهما صورتان جميلتان ودقيقتان . وقد تكون الصورة الثالثة مفتعلة ، وكذلك الشأن في الصورة الأخيرة ، لكنه على كل حال مصور يحسن التقاط المشابهات وإحداث المقابلات والمشاكلات . واستمع إلى قوله :

ومهفهفٍ أبدى الشباب بخده

شُدغاً ترقرق ورده في آسهِ

تلهب الصهباء في وجنـــاته

فتشير من عينيه في جُـــلاسه

حتى إذا ملأ الزجاجة خده

نوراً وفاح الخمر من أنفاسه

خال الزجاجة أقمعت بمدامةٍ

فدنا ليشرب نوره من كاسه

فإنك تراه يسترسل في صورة الخمر ويطبقها بكئوسها ومن يصبونها على وجنات صاحبه أو صاحبه وأنفاسه وخده ، وهو في ذلك كله يحكم التشبيه إحكاماً دقيقاً . ومثل هذه الصورة يشهد له رغم تقليده بأنه كان يسعى نحو الامتياز والتفوق . واستمع إلى قوله في إحدى خمرياته :

وغمد زجاج من بنانى نجاده

لسيف مدام لا يمانٍ ولا هندى

تجرّد منـــه كل ماض مخضب

وما سفحت منه دماء على جلدِ

إذا جال فيه جوهر من حبابهِ

وسُلَّ كما سل النّجار من الوقد

تقلده للأجسام منـــا كأنما

تضايق في غمـــدٍ فرد إلى غمد

وأنت تراه يتخيل الكأس غمداً لسيف ماض ، وقد ذهب يدخل الصورة في عقولنا بكل ما أوتى من حيلة في الإقناع ، فالسيف ليس يمانياً ولا هندياً ، وهو لا يسفح دماء على حقد ، وكأن هذا السيف أمضّه غمده القديم فطلب مخلصاً منه ، وسرعان ما رُد من غمد إلى غمد .

ولا ريب في أن هذا عنام في التصوير . ونحن لا نلوم الشاعر من أجله ، فقد كان يريد التفوق على أقرانه بمثل هذه الصورة الغريبة التي مد في تعاريجها وفي أذيالها وأطنابها ، حتى يظهر جمالها وحتى ينال من سامعيه كل ما يريد من إعجاب واستحسان .

وعلى هذه الشاكلة ما زال يبحث عن الصور النادرة أو الغريبة ، وما زال يكمل في الصور القديمة ويستخرج منها كل ما يستطيع من رسوم جديدة ، وهو في ذلك لا يشبه جده ولا معاصره ابن خفاجة . واقرأ له هذه القطعة :

وليل ركبنا منه أدهم حالكا

فصار بنور الفجر أبلج أشقرا

إلى أن أطلّ الفجر فيه كأنه

حسامٌ تلالا أو خليجٌ تفجرا

وفضّض نور الصبح إبريجومه

فدرهم الظلماء برطاً مدنّرا(١)

والمزنة الوطفـــاء دمع كأنما

يمد على البطحاء بالنور أعفرا(٢)

وخطا لشخص الربع راحا وأهلا

تحرك على زرق الماء السورا

فإنك تشعر شعوراً واضحاً بأن أسلوبه لا يكاد يفترق في شيء عن أسلوب ابن خفاجة . ويظهر أن تأثيره فيه كان أعمق من تأثير جده ، ولعل ذلك ما جعله يردد ذكر الليل والبرق مدمجاً ذلك في شيء من الصبابة والتواجد كأن يقول :

أهوى بيغداد من بالخيف منزله

فالحب مـــنى حجازىٌّ عراقىٌّ

والصلة واضحة بينه وبين ابن خفاجة في كل جانب من شعره ، وخاصة من حيث العناية بالصور وأن تصبح القصيدة أو القطعة كأنها متحف للرسوم . والشاعر يجمع كل ما يستطيع من هذه الرسوم كأنها شيء يراد لذاته . وكثير منها مسبوق ، ومع ذلك قد نعثر من حين إلى حين على صورة طريفة كقول صاحبنا في وصف راقصة :

---

(١) مدنّر : متلألئ .
(٢) الأعفر : السحاب ينتثر مطره .

وَلطيفة في الرقص يُعطَف قَدُّها
كتعطف الزيتـة السمراء
خَفَّت فلو رقصت بأعلى لُجة
ما بلَّ أخمصها حباب الماء

فلا شك أن هذه صورة بديعة ، وهي تدل مع أخوات لها على أن خيال ابن هانئ كان خيالا لاقطا دقيق التصوير . ونلتقي في مختارات العماد له بكثير من الصور الطريفة ، كقوله في الوفق بن الخلال :

وكم تصبيح بزورة ذي نوالٍ ... ولو زار الوفق لاستراحا
فبين بنانه والغيث خلف ... وما ترجو لخلفهما اصطلاحا

وقد تكون جوانب كثيرة من تصورات ابن هانئ الصغير هذا ليست جديدة ، بل مستمدة من مخزون الفن والشعر التي سبقته ، ولكنه كان لا يزال يحتال على عرضها في معارض أنيقة ، حتى تبدو كأنها جديدة أو كأن بها مسحة من مسحات الابتكار ، من مثل قوله في بعض صواحبه :

حملت جسها خلته سائلا ... إذ موجت عطفيه أنثاتُ
رف به القصب اليماني كما ... رفت على الماء خيلات

وهذه صورة فيها إغراب ، جاءها من أنه كأنها رآها وأضاف إليها هذه المبالغات ، فبدت تلمع لمعان الشكر الجديد . ومن بديع ما لقه وصوره قوله في وصف سيف :

ومهنـد سبح الفرند بصفحه
وطفا فيحسب مقصدا مسلولا

وقوله في بعض غزله :

إيها لسائل حليها وثيابها
هـذا يعانقها وذاك يقبل

ودائماً ينثر مثل هذه الصور ، ودائماً كان يروع معاصريه بجمال مايعرض عليهم ، من مثل قوله في الليل والثريا :

وليـل دجوجي الجناح كأنما
أمدّ بموج البحر أو صار سرمدا

كأن الثريا فيـه والبدر عاشق
يمدّ إلى توديع محبوبه يدا

وتخيل إلى الإنسان كأنما تحول ابن هانئ الصغير إلى آلة من آلات التصوير ، فهمه دائماً أن يرسم صورة ، وهو يستطيع أن يستخرج من مخيلته مئات الصور ، فهي تسعفه بكل ما يريد من ذلك في كل موضوع من موضوعات شعره ، حتى الغزل ملأه بالرسوم الحسية من مثل قوله :

سفرت عن بدر تم قمـا
تميت كأن النقاب الهـالة
وكأن الحسن آلات خرط
أبرزت في الصدر منها حقالة

وقد نشعر نحن الآن بشيء من التحجر والجمود في هذه الطريقة ، طريقة جمع الصور في الشعر ، حتى لتتحول القصائد إلى ما يشبه صناديق تتبلور فيها الصور وتتكدس بعضها فوق بعض . ولكن ذلك كان يعد بدعاً عند القوم ، وكان يقيس به النقاد مقدرة الشعراء وبراعتهم ، فلا عجب أن يتحول ابن هانئ الصغير ، كما تحول جده ، وكما تحول ابن خفاجة معاصره ، وكما تحول كثير من شعراء العصور الوسطى في الأندلس وغير الأندلس ، إلى هذه الدوائر الفنية المحدودة . وكان من الممكن أن يطلقوا أنفسهم من عقالها ، وأن يجددوا في موضوعات شعرهم ضروباً مختلفة من التجديد ، ولكن النقاد لم يفسحوا لهم الطريق ، بل ظلوا يطلبون منهم أبياتاً من التشبيه والاستعارة ، وظلوا يقيسون بهذه الأبيات وما يماثلها بلاغة الشاعر وتفوقه في صناعته . وهذا العماد الأصفهاني أستاذ العصر يقدم لابن هانئ الصغير ، وقد راعته تشبيهاته واستعاراته وازدحام ديوانه بها ، فيقول : « طالعت ديوانه بمصر ، فنقلت منه ما انتقدته ، وعقلت ما عقدته ، ونسخت ما نسخ السحر ، ونسج الزهر ، واعتلت العقود الصحيحة لنسيم شمال أسحاره ، وعقلت العقول الصاحية لتسليم شمول عقاره » .

شوقي ضيف

زينب بطلة كربلاء

١٩١ صفحة من القطع الصغير — دار الهلال . القاهرة ١٩٥٢

للسيدة الأديبة وداد سكاكيني

لا تزال مصر الإسلامية وفية لماضيها الأصيل ومثلها الخالدة ، حفية بأعيادها الدينية والقومية ، لا تفتر حكومة وشعباً عن بعث الأمجاد وتكريم الذكريات التي ترتبط بروح الجمهور والوطن .

وكان آخر هذه الذكريات الكريمة مولد السيدة زينب بنت الإمام والزهراء ، ففي إبان هذه الذكرى الغالية أخرجت الأديبة الدكتورة بنت الشاطئ كتابها « زينب بطلة كربلاء » وقد جعلته تحية لهذا الموسم الشعبي الحافل .

قالت المؤلفة في مقدمة كتابها : « إنها لم تضعه تاريخاً بحتاً ولا قصة خالصة ، وإن أخذ مادته من التاريخ واصطنع الأسلوب القصصي في العرض والأداء ، وإنما هو صورة للسيدة زينب بنت الزهراء التي كانت مشاركة في صنع التاريخ الإسلامي بموقفها بعد الفجيعة في كربلاء » .

وقد رأت المؤلفة الفاضلة أن لا تقتصر على ما رسم المؤرخون الموثوق بهم ، بل تمازج بين ما صوروا من حقيقة السيدة زينب وما أضاف « الشيعيون » من ظلال شبه أسطورية ، وكان يعز عليها — كما قالت — أن تهدر هذه الظلال أو تهون من شأنها ، لأنها عنصر في صورة السيدة الخالدة ، فألفت بينها وبين ألوان من التاريخ لتجلو منها هذه الصورة .

فإذا مضينا في استعراض الفكر والأداء في هذا الكتاب تبين لنا أن ما جاء في صميم الصورة الأصلية لا يتجاوز العشرين صفحة ، إذ امتلأ باستطراد لفتة المؤلفة ، وربطت بين أطرافه وحواشيه ربطاً واضحاً لتجسيم هذه الصورة تجسيماً يتجافى عنه فن القصة ولا يقره التاريخ ، غير عابئة بالحقائق العلمية التي لها حرمتها ، مهما أجاز المؤلف لنفسه المداورة فيها وصبغها بالألوان التي تلائم الصورة وتستجيب لفحواها .

أما قول المؤلفة إنها أضافت إلى تصوير المؤرخين ظلالاً شبه أسطورية ، فهذا أمر عجب إذا فهمنا معنى الأسطورة بأنها خرافة ومحض اختلاق وتزويق ، وتاريخ آل البيت رضي الله عنهم براء منها ، لا يخفف من هذا المعنى أن يكون أشباهاً أو ظلالاً مهما كانت ، لأن شبه الشيء منسوب إليه ، ولم يكن هذا من المؤلفة الفاضلة بصدد الأطوار النفسية أو تحليل الشعور والمزاج ، بل اصطنعته كما اصطنعه من قبل بعض الذين آثروا اتجاهاً خاصاً ؛ ويلحظ هذا قارئ الكتاب ، إذ يجد أن المؤلفة لم تأتنا بجديد فيه ، ولم يكن لها رأي أو استنباط في أية نقطة من نقاط الموضوع ، بل مضت في تأليفها على غرار التحيز إلى فئة دون أخرى ، فسردت كل ما من شأنه الغض من قوم والنيل منهم ، وحشدت كل ما يعزو إلى عائشة أم المؤمنين أسباب الفتن والمحن التي وقعت في عهدها ، وقد عرفت المؤلفة الفاضلة بترديدها لكلمة البحث العلمي والمنهج في التأليف ، فكيف لم تتخذها هدى ومناراً في هذه القضية التاريخية الخطيرة التي حان للعالم الإسلامي في عصر التحقيق العلمي والاستقراء المجرد أن يخفف من تعنته وتحيزه فيها ؟ ومما يؤسف أن هذا الميراث الجدلي القديم في شئون محفوفة بالشوك والويل ما يزال إلى اليوم موضوعات حية نافقة لمؤلفين شرقيين ومستشرقين ، سيحاسبهم عليها الجيل الجديد الذي ينشد البناء لا التحطيم والحقيقة المجردة لا الملق أو التمويه ! ولو أدرك هؤلاء المؤلفون المتورطون أنهم إنما يخدمون بصنعهم مصالح المستعمرين لكفوا أو خففوا من هذا الضرب في التأليف .

ولقد مرت المؤلفة الفاضلة فى كتابها هذا بأمور كثيرة ينبغى الوقوف عندها والتثبت منها ، لكن لا تعد لدى ذوى السذاجة حقائق مقضية ، كما أكتب أن للمستقر الأخير لبطلة كربلاء كان بمصر ، وهى تعلم أن المؤرخين والباحثين فى القديم والحديث قد اختلفوا فى هذا التحقيق ، فمنهم من يؤيد توكيد المؤلفة ومنهم من يعارضه .

ولم يخل الكتاب على السائق عبارته ووضوحه وروعة حوادثه وألوانه من هنات فى اللغة ، مثل استعمال المؤلفة لفظ الابنة حيث لا يسوغ إلا لفظ البنت . والظاهر أن قدمها يعاوده الحنين إلى توقيعها من قبل « ابنة الشاطئ » .

وقالت « والمؤرخون الثقاة » ص ١١ ، والصواب الثقات ، وفى ص ١٦ شجو وشجن وكلاهما بمعنى واحد ، وكررت كلمة برهة فى مثل قولها « ثم صمت برهة » و « فتأملها برهة » ص ٧٢ و ١٥١ . والصواب هنيهة أو لحظات .

وكذا لفظ « الحاسر » ص ١٨ و ٦٦ . والأصح الحاسرة حسب المعنى الوارد .

ومن أخطاء « فن القول » تكرار الإضافة فى مثل قول المؤلفة : « على إحياء ذكرى خطبة الدين » ص ١٨٩ .

وجاء فى ص ١٦٦ بلسان المؤلفة : « وتفتقد السيدة زينب فى المأتم الذى أقامه عبد الله بن جعفر لولديه فيخيل إلينا أنها أغفت مجهدة بعد أن ألح عليها السهاد » فكيف تخيلت المؤلفة هذا الإغفاء ، والسهاد فى الأم المفجوعة وأخت الشهيد الأكبر ، ومن حولها أهلها وذووها فى ندب وعويل ؟ وكان من العجب أن يخلو هذا الكتاب من أى أثر أو تصوير لأولاد زينب .

وفى ص ٥٢ جاء قولها : « وكانت السيدة يومئذ فى الخامسة والخمسين من عمرها غريبة متعبة مفجوعة ثكلى ، فكيف بها إبان الشباب قبل أن تأكلها السنون وتطحنها الأحزان » ثم نجد فى مكان آخر أن السيدة توفيت فى عنفوان الشباب . ويبدو هذا الاضطراب بشأن عمرها حين موتها ورحيلها من العراق والشام فى تضاعيف الكتاب .

وفى ١٨٩ حصرت المؤلفة وجود الشيعة فى العراق ، وهم منتشرون فى الأرض ، وفيهم أئمة العلم والتقوى من الداعين إلى ترك الجدل القديم والتحيز الطائفى المقيت ، إن كان أكثرهم فى العجم « إيران » وفى العراق وسورية ولبنان .

وبعد فإن التنويه ببطولة السيدة زينب رضى الله عنها وبكرامة أمثالها من أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء ، أمر يبعثه الشعور بالفضل والإنصاف ، وفيه تقدير المزايا المثلى التى ما أوتيت مثلها كل أنثى من بلاغة وإيثار وبطولة وفداء ، ولأن كلا من هؤلاء الفضليات كان لها أثر مرموق وجيد فى دنيا العرب والإسلام ، وكن حجة التاريخ على الرجال .

ولقد عجبت أن رأيت مؤلفة « بطلة كربلاء » تعبر فى كتابها هذا عن إعجابها بواحدة ممن نوهت بفضلهن فى كتابى « أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء » وفيهن زوجات الرسول عليه السلام وبناته فاطمة وزينب وبطلة كربلاء وبعض الصحابيات والمجاهدات . وما كنت فى تأليفى إلا كاتبًا متجردة للحقيقة غير متحيزة ولا متزيدة ؛ غير أن الأخت الفاضلة السيدة بنت الشاطئ ، لم يرقها صنعى ورأيى ، فنقدته نقدًا عنيفًا فى مجلة « الكتاب »[1] بعد أن قرظته فى « الأهرام » . وقد راعها قولى فى مقدمة كتابى : « لم تنجب مثلهن أمة من الأمم فى قديم الدهر وحديثه »[2] فكان من تعليقها فى نقدها متهكمة مستهجنة : « وفى هذا غلو لا أرضاه للأخت ، وادعاء لا ترضاه الحقيقة العلمية التى لا ترى العبقرية وقفًا على أمة واحدة فى فترة واحدة تصاب الإنسانية بعدها بالعقم وتبتلى بالإفلاس » .

« ونحن نعى عدوان هذه الفئة الأمسية على أكثر ما روت الكاتبة من أحاديث هؤلاء الأمهات والأخوات ، فكل صحيفة من تاريخهن غراء مجيدة » .

على أن الناقدة الفاضلة لم تطلع على الناس حتى اليوم بما يؤيد رأيها ويرد الحقائق التاريخية والنفسية التى توخيتها وأثبتها فى كتابى ، اللهم إلا صورة واحدة فى « بنت البيت » التى نشرتها فى « الهلال »[3] رمضًا لكلامى ، إذ لم تجد أفضل منها مثلا أعلى لفتيات اليوم بديلا من أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء . ولعل القارئ المتتبع يذكر هذه الصورة التى نشرت دون تعليق أو استغراب .

ومما آخذتنى به قولها : « فن خطأ النهج أن بدأت

(١) مايو ١٩٤٧ ص ١١١٣ .
(٢) أمهات المؤمنين ص ٤ .
(٣) إبريل ١٩٤٧ .

صورة أدبية :

مشكلة سيكه

من وحي الأساطير الاغريقية

للأستاذ إدوار مقلس

(مخدع غص بالرياش والطنافس ، غارق في ضوء غامض يكاد يطمس معالم أركانه ، كهذا الضوء الباهت الغامض الذي تضيع في طواياه أركان المعابد . فراش وثير ، في جواره نافذة مفتوحة تلوح منها السماء حمراء بلون الشفق ، بلون الصخر) .

(نسمع خطوات رقيقة في الخارج تقترب من الباب ، ثم يفتح الباب وتدخل حورية هيفاء ، منسدلة الشعر على الكتفين ، ذات وجه ملائكي لطيف ، تتجه نحو النافذة).

الحورية (تتأمل الشفق مفكرة) : هـذه هي حياتي منذ عرفته : أحلم وأشتاق وأنتظر مجيئه بتقدم الليل ، فلا أراه ولا يراني ، وقبل أن يتنفس الصبح أفتقده جواري فلا أجده . من هو ؟ ! من أين أتى ؟ ! إلى أي عائلة ينتسب ؟! لماذا لا يريد الكشف عن ذاته ؟! أسئلة لا جواب لها عندي ، أسئلة لا يسمح لي بسؤالها . لقد تعهدت بذلك ! ولكن لماذا أهتم لهذا الأمر ؟! إني حقاً لسعيدة . إني حقاً لموفورة الهناء . (تنظر إلى صدرها الناهد وقد انعكس عليه ضوء الشفق) . إني أحب ! من يشق جسدي من أعلى رأسي حتى أخمص قدمي فلن يجد مكان لحمي وعظامي ودمي جميعاً غير قلب . ما أنا إلا قلب . إن كل خلية في جسمي تحبه ، تعبده . إني لا أرى الأشياء على حقيقتها إلا بوحي من حبه ، لا أشعر بكياني وبوجودي إلا بوحي من كيانه ومن وجوده . إذا غاب عني فكأني غبت عن نفسي . . . (تنظر إلى الشفق ساهمة الطرف) فإذا أحسست به جواري عاد إلى الإحساس بنفسي . أنا هو ، وهو أنا : روح واحدة في جسدين . إني لأتساءل : لم لم نخلق جسداً واحداً ! (تبتسم وتتنهد وتتجه نحو الفراش) ما إن ينطوي النهار وتهبت الأضواء حتى يضطرب كياني كله . إني أنتظره . كم يتأخر ! عجباً ! فعندما أكون إلى جواره لا أشعر بمرور الزمن ! تمضي ساعات الليل وهو بجانبي وكأنها لحظة ، وأما ساعات النهار ، وأنا أنتظره ، فكأنها دهور . . . (نسمع طرقة خفيفة على الباب فيضطرب مجرى تأملاتها) غريب ! لم يؤن وقت عودته بعد ! أتراه سيكشف لي عن نفسه اليوم؟! ومع كل ، فليس من عادته الدخول من الباب . إنه يفضل التسلل من النافذة . (تصلح شعرها بأناملها وتضغط رداءها على جسدها فتظهر مفاتن صدرها ...) أوه ، حبيبي ! ومنذ متى تنتظر أن أسمح لك بالدخول ؟!

صوت (نسائي من الخارج) : أأسمح لكل شخص في نظرك من محبيك يا سيكه ؟!

سيكه (تفتح الباب في دهشة) : أوه ، أختي . أعذريني . لقد دهشت فعلاً من احتمال عودته مبكراً هـذا المساء على غير عادته !

الكاتبة تعالج موضوعها متأثرة برأي فيه ، وهذا يعطل حرية تفكيرها ويعوق تفانها في التحليل لشخصياتها المختارة ، ويحول بينها وبين الإنصاف للحق والتاريخ » .

فما بال الأخت الأديبة قد عطلت حرية تفكيرها وأهملت النهج الذي تدعو إليه ، فجاءتنا بصورة ملونة حشوها الاستطراد وملؤها المناقضة والتزويق ! لقد حرمت على بالأمس ما أحلت اليوم لنفسها ، وما كنت صادرة إلا عن نفسي ووجهتي ، مخلصة للحق والفكر فيما صورت وأظهرت .

ومهما يكن الأمر فإن تصوير الدكتورة بنت الشاطئ ، حياة السيدة زينب بنت الإمام والزهراء ، اعتراف منها بالفضل والإحسان ، ومحاولة لها جديدة ، رجعتها إلى الحق والإنصاف ، وإنها لجديرة بالثناء على جهدها واهتمامها بتكريم الذكريات .

(القاهرة) وداد سكاكيني

(تتجه الأختان نحو النافذة ، ثم تقفان إليها) .

الأخت : ألم تعرفي من يكون بعد ؟ !

سيكه : وما الذي يعنيني من هذا إذا كنت سعيدة ؟ ! إني أحبه وكفى . إني لا أفكر إلا فيه . . .

الأخت : لست أدري كيف يمكن للإنسان أن يحب إنساناً آخر لا يعرف عنه شيئاً !]

سيكه : ولست أدري لماذا يريد الإنسان أن يعرف كل شيء عمن يحب ! حسب الإنسان ما هو فيه من سعادة . إني أنظر إلى السماء الصافية فأعجب برسم قطعة من السحاب تسري على صفحتها ، وأعجب بلون الشفق عند الأصيل ، وأعجب بالطل وهو يغطي أوراق الزهر ويتزلق عليها إذا ما كان الضحى ، وأعجب بلون الورد وبتغريد الطير ؛ إني أعجب بكل شيء في هذا العالم كما أعجب بحبيبي . فما الذي يعنيني من معرفة كنه من أحب وما أحب ؟ ! يكفيني أني ما أعيش إلا من أجله ، وهو لا يعيش إلا من أجلي ، كلانا يحب صاحبه ، وحسبي منه أن يستجيب إلى نداء قلبي .

الأخت : ليس هناك أبسط من هذا التفكير . لكنك مازلت طفلة .

سيكه : كم أتمنى أن أعود طفلة لأعجب بالشيء ، ولا أسأل عن سر هذا الإعجاب ، كما أفعل أنا الآن .

الأخت : ليس هذا هو الحق . فالطفل دائم السؤال عما لا يعرف سره .

سيكه : ولكنه يقنع بأبسط جواب .

الأخت : وهل عرفت جواباً أبسط عمن يكون زوجك ؟

سيكه : هو كان يسعدني وجوده إلى جواري ، فإذا تركني أحسست بفراغ قلبي ونفسي معاً . هو كان أحبه غائباً وأحبه حاضراً ، وأحبه نائمة وأحبه يقظة . هذا هو زوجي .

الأخت : ومع كل ، فلو كنت مكانك لحاولت معرفة من يكون زوجي . فربما كان هذا الوحش المخيف الذي قالت لك به الطوالع .

سيكه : وحش مخيف ! (تضحك) . إنه رقيق لم يؤذني قط . لو أنه كان وحشاً مخيفاً حقاً لآذاني منذ زمن .

الأخت : أنسيت أن الجزار يربي شاته حتى تسمن فيذبحها ؟

سيكه : ما وجدته قط إلا لطيفاً . ما عرفته قط إلا رقيقاً .

الأخت : ألا تذكرين وقت أن جاءني وأختنا الخطاب وبقيت أنت دون خطيب ؟ لقد خاف والدانا أن تكون الآلهة غضبى عليك فاستطلعا طوالع أبوللون عمن يكون زوجك المنتظر ، فقالت لهما إنه وحش مخيف لا تستطيع الآلهة ولا الناس مقاومته وإنه ينتظرك على قمة جبل قريب .

سيكه : عندئذ صممت على الذهاب إليه ، وصحبني قومي باكيات دامعات العين حتى قمة الجبل ، وتركنني هناك وحيدة أبكي . عندئذ جاءني إله الريح ، زيفير ، ورفعني على ساعديه وحملني إلى واد كله ورود وزهور ؛ وهناك استغرقت في النوم كل الاستغراق . وعندما استيقظت وجدت نفسي في حقل ذي أشجار سامقة كثيفة بناحيته قصر منيف ، أكثر جمالاً وأبهة من بيت أبينا . ولجت الباب وكان مفتوحاً على مصراعيه ، ومع أني لم أر أحداً فقد كنت أسمع أصواتاً هامسة رقيقة تدعوني إلى أن أستحم وأتناول عشائي ، بينما كانت تملأ الهواء من حولي موسيقى حلوة النغم . وجاء المساء وجاء معه زوجي .

الأخت : وكيف وجدته ؟

سيكه : وجدته زوجاً حنوناً لطيفاً رقيقاً .

الأخت : إنك تحلمين . أفيقي من هذا الحلم . ما زوجك إلا وحش ينتظر بفارغ الصبر لحظة ينقض فيها عليك . إنه لا يود أن ترى وجهه ولا أن تعرفي اسمه لأنك لو فعلت كرهته

سيكه (في اضطراب) : إنك تخيفينني .

الأخت : أفيقي . أفيقي .

سيكه : أهو ينتظر . . .

الأخت : أنت تعيشين في حلم .

سيكه : أهو سينقض علي . . .

الأخت : أنت في حاجة إلى من يوقظك .

سيكه : إني أستيقظ . . .

الأخت : أراك ذاهلة .

سيكه : ترى ماذا يكون اسمه ، وكيف يكون وجهه ؟ !

الأخت (متاكرة) : ألست تحبينه ؟ ! حسبك منه هذا الحب !

سيكه : ترى من يكون زوجي ؟ !

الأخت : وما حاجتك إلى هذا ؟

سيكه : أود أن أعلم .

الأخت : بعض المعرفة قد يؤدي إلى فتور الحب .

سيكه : لا أحب أن أعيش وعلى عيني غمامة .

الأخت : أراك كبرت على حين فجأة !

سيكه : عهد الطفولة عهد سعادة حقاً ، ولكن سعادة الطفولة سعادة طبيعية مبنية على الجهل ، فلا يد لنا فيها ، أفضل منها سعادة الشباب المكتمل إذا استطاع أن يستغل المعرفة في سبيل إسعاده لا إشقائه ، لأنها عندئذ تكون سعادة اجتهدنا في الحصول عليها . كم أود أن تكتمل سعادتي بمعرفة من يكون زوجي ! (تنظر من النافذة : لقد تحول الشفق الأحمر إلى أرجوان معتم ... الليل يقبل) . لم يعد باق حتى عودة زوجي إلا قليل من الوقت ، فكري معي يا أختاه وتدبري : كيف أحتال على معرفة زوجي : كيف أرى وجهه مثلاً ، وكيف أعرف اسمه !!

الأخت (بعد لحظة تفكير) : أمر بسيط ، خبئي مصباحاً في غرفتك ، حتى إذا استلقى زوجك على الفراش ونام في جوارك ، انسلت من فراشك وقربت المصباح من وجهه وجسده ؛ عندئذ سترينه دون أن يراك ... ولكن لا تنسي أن تخفي تحت وسادتك خنجراً تصرعينه به إذا تبين لك أنه كائن وحشي حقاً .

سيكه : إني مضطربة .

الأخت : إنه اضطراب الشك ، سرعان ما يمحوه اليقين .

سيكه : فإذا تبين لي أنه ليس كائناً وحشياً ؟

الأخت : زاد حبك له وهيامك به .

سيكه : ألم تسمعي ؟

الأخت : ماذا سمعت !!

سيكه : حفيف أجنحة .

الأخت : وما هذا !!

سيكه : إنه هو .

الأخت : إنه هو ! لا مكان لي هنا الآن . سأدعك إذاً في حماية الخنجر . ثم لا تنسي المصباح ...

(تنسل الأخت هاربة من الباب وتوصده خلفها ... وتعد سيكه مصباحاً زيتياً تضعه في مكان خفي ، تحت الفراش كما تضع خنجراً تحت الوسادة . جو المخدع الآن : ضوء خفيف جداً غير معلوم المصدر يسقط على وجه سيكه ، ويدع المكان كله في شبه ظلام . بدأت النجوم تلمع في الفضاء الذي يلوح خلال النافذة المفتوحة .

(سيكه قريبة من النافذة تنظر إلى الفضاء في ترقب وقلق . يظهر شبح غير محدود المعالم لا يلبث أن يهبط إلى أرض الغرفة حيث تستقبله سيكه مبسوطة الذراعين) .

الشبح : ما يأتي المساء حتى أحن إلى مهجة الفؤاد ، أيتها الحبيبة ، إن حياتي من حياتك ...

سيكه : زوجي ، إن روحينا متجاوبان ، ضمني إلى صدرك .

الزوج : يا حرارة شفتيك !

سيكه : لكأنك تقبلني لأول مرة !

الزوج : كل قبلة منك هي أول قبلة .

سيكه (بعد لحظة تفكير) : ترى ماذا كنت أكون الآن لو أني لم أعرفك ، ولم تعرفني !! ما هي الظروف التي جمعت أحدنا إلى صاحبه ؟ ما هي هذه الظروف التي ألح دائماً في أن أعرفها والتي تمانع أنت دائماً في أن تقصها علي !!

الزوج : وما نفع هذه القصة !!

سيكه : وماذا يضيرك من هذا ! لن أسألك من أنت وما هو اسمك ومن أين أتيت ، فقد تعاهدنا على ذلك ، ولكن الذي أريد معرفته : كيف حدث أن يكون مصيري معلقاً بمصيرك !! كيف حدث أن تعلقت بك دون أن أراك ودون أن أعلم عنك شيئاً !! هذا هو ما يحيرني ! لقد كنت أجهل كل شيء عنك ولكني صممت على أن ألقاك وأتزوجك ...

الزوج : كل مساء نفس السؤال ، وكل لقاء نفس علامة الاستفهام : كيف حدث أن يكون مصيري متعلقاً بمصيرك .. ها هي ذي القصة لتريحيني من معاودة السؤال . إنك تعلمين كيف كانت أفروديت ، إلهة الجمال ، تغار منك ومما كنت تحرزين من إعجاب الناس الذين كانوا ينثرون الورد والرياحين تحت قدميك أينما ذهبت وأنى حللت ، كما لو كنت ملكة الجمال نفسها . ولقد ألحت علي أفروديت أن أوحي إليك بحب صادق تهيمين فيه من أجل مخلوق حقير تافه .

سيكه : ولكن من تكون حتى تستطيع أن توحي إلى أحد بأن يقع في الحب أو لا يقع ... ليس هناك غير إله واحد يمكنه أن يوحي بالحب في قلوب البشر .

الزوج : من !!

سيكه : كيوبيد .

الزوج : آه .

سيكه : فى صوتك شىء من الدهش والاضطراب !

الزوج : لا شىء . لا شىء .

سيكه : قلبك تزداد ضرباته !

الزوج : ذاك من فيض الحب .

سيكه : شفتاك أصبحتا باردتين على شفتى !

الزوج (يتمتم) : ليتنى ما قلتها .

سيكه : ماذا قلت ؟!

الزوج : هناك أشياء يجدر بالإنسان ألا يعرفها .

سيكه : كأن تفسر لى مثلاً : كيف حدث أن يكون مصيرى متعلقاً بمصيرك ! كأن تقول لى مثلاً : كيف حدث أن تعلقت بك دون أن أراك ودون أن أعلم عنك شيئاً !

الزوج (يعود إليه هدوؤه) : كانت فى حديقة الإلهة نافورتان ، إحداهما حلوة والأخرى مرة . أخذت كأسين من العنبر وملأت واحدة من النافورة الحلوة والأخرى من المرة ، وولجت غرفتك ؛ ووجدتك نائمة . وإذ نثرت على شفتيك قطرات من المرارة ولمست جانبك بطرف سهم ... (مستدركاً) بطرف إصبعى ، بدأت تضطربين فى نومك . وفى فزعى وخوفى من أن تفتحى عينيك فتريننى ، جرحت نفسى ... عندئذ وقعت فى حبك .

سيكه (ذاهلة عما يقول ، وقد كان يمكن أن تكتشف بحديثه من يكون) : آه ...

الزوج : وكانت أولى خطواتى بعد ذلك أن أسكب قطرات من الكأس الحلوة على شفتيك ؛ ثم انطلقت بعد ذلك صوب قمة الجبل ... لأنتظرك .

سيكه : لولا غيرة أفروديت ما تهيأ لنا هذا الحب .

الزوج : ليست غيرة أفروديت هى كل شىء .

سيكه : كيف ؟!

الزوج : كنت سأعبدك ، حتى لو لم تدفعنى غيرة أفروديت إلى معرفتك .

سيكه : قل لى : لماذا تحبنى هذا الحب كله ؟!

الزوج : ما فائدة الحديث فى هذا . ما نحن إلا عابدين معبودين : أنا وأنت . ماذا يمكن أن يدل هذا الاتصال الروحى واللهفة إلى اللقاء وقت الفراق وساعات الانتظار ! إن قلب أحدنا متفتح لحب صاحبه كما تتفتح أوراق الزهرة لقطرة الندى . ما نحن إلا زهرة وقطرة ندى ...

سيكه : ما فى هذا أردتك على أن تتكلم . كنت أريد أن أعرف : لماذا تحبنى هذا الحب كله ؟!

الزوج : إنى أحبك ؛ أحبك كما تحب النحلة الزهرة ، وكالنحلة ، لا أدرى لماذا أحبك : إنه وحى إلهى يستحيل على تفسيره ورده إلى دافعه .

سيكه : لماذا تعبدنى هذه العبادة كلها ؟!

الزوج : إنى أعبدك ، أعبدك كما تعبد الفراشة النور ؛ وكالفراشة لا أدرى لماذا أعبدك . إنه إحساس خارج عن إرادتى يستحيل على تعليله ورده إلى أسبابه .

سيكه : وكيف تعلمت هذا الكلام ؟!

الزوج : ليس الشعر وقفاً على الشعراء . يكفى أن تحرك القلب مشاعر الحب لا ليكتب أشعاراً منظومة مقفاة متكلفة ، ولكن ليفيض بما يملأه من أحاسيس ، لا أحدهما يدعو إلى تنظيمها وتبويبها وتقفيتها . ما تذوقت شعراً منظوماً قط . أجمل الشعر ما كان منثوراً . لست أملك ريشة شاعر ، ولكن لى قلبه : إنى أحبك إلى الأبد .

(يتعانقان فى قبلة طويلة)

(تمضى اللحظ . فى ظلام . لا حركة ولا صوت . سيكه تتسلل من فراشها فى حذر وتتجه صوب النافذة لتتأمل النجوم التى تلمع فى السماء) .

سيكه : ماذا أفعل ؟ إلهى ! ألهمنى العون . أأكشف السر أم يحسن ألا أفعل ! عقلى فى اضطراب . أأقدم أم أحجم ، ترى من يكون ؟! إنا لحيارى فى هذه الحياة بين ما يجب أن نأتى من الفعل وما ندع . كل مستور أمامنا يغرى بكشف الستار عنه . فإذا أردنا كشف الستار امتلأنا خوفاً مما قد يفاجئنا ما وراءها من أسرار . حياتنا كلها تخبط بين إقدام وإحجام ؛ بين المضى إلى الأمام والنكوص على الأعقاب . نحن نريد ونحن لا نريد . نحن نريد أن نجهل ونحن نريد أن نعرف . ليس هناك سوى نهايتين : هناك جهل وهناك معرفة . ليس هناك ما يمكن أن يسمى جهلاً وسطاً أو معرفة وسطاً . فأنا إما جاهلة وإما عارفة .

المشكلة هي أن الجهل والمعرفة يمثلان عندي صندوقاً مقفلا : أما خارج الصندوق فهو مزين برسوم جميلة ملونة تغرى العين إليها بالنظر ، وأما داخل الصندوق فهناك شيء مجهول للناظر إليه من الخارج . لابد أن يكون هناك شيء بالداخل ، إذ ما فائدة الصندوق إذا كان فارغاً في الداخل ؟ مادام هناك صندوق فهناك ما « يجب أن » يحتويه هذا الصندوق . الزينة الخارجية تمثل عندي الجهل . أما ما يحتويه الصندوق فهو معرفة . لا يفصل الجهل عن المعرفة سوى غطاء . المشكلة هنا هي : أيجدر أن أفتح الصندوق ؟ إني سعيدة بروْنق الصندوق من الخارج ، إني لأتأمله مقفلا ، فلا أملك إلا الإعجاب به والتهليل له ، ولكني أفكر : ما فائدة هذا الصندوق المقفل إذا ظل مقفلا إلى الأبد ؟ ! قد يأتي اليوم الذي تبهت فيه الرسوم الخارجية والألوان ، عندئذ لا يبقى لدى ، لأرى ، غير ظاهر صدئ أسود . ما فائدة هذا الصندوق عندي ؟ ! إن به شيئاً لا أنتظر لمعرفته سوى رفع غطاء ، وإنه لغطاء غير قوى الإحكام ، يكفي لرفعه طرف الإصبع ... إذا أردت ، ولكن أأرفعه أم أدعه كما هو وأكتفي بالنظر إليه من الخارج ؟ ! إن نقوشه من الخارج لتبهر عيني ! ولكن لا . كفي زينة . كفي إعجاباً بالقشور . كل من يعيش أبداً على القشور ، قشرة بين القشور ! إنما اللب هو مطمح كل إنسان عقد العزم على ألا يكون قشرة من القشور . بيني وبين اللب قشرة ! ما أسهل انتزاعها ، ولكن أمر هذا اللب أمهو حلو ؟ من يدرى ! على أن أجرب حظى . ليس بيني وبين اليقين غير تجربة . التجربة هي وحدها الفصل فيما نتخبط فيه . تكفي لأنجلاء بهمة الليل شعلة من النور . . . (في اضطراب) نور للصباح الذي خبأته تحت الفراش إن هو إلا الإصبع الذي أرفع به غطاء الصندوق ، إن هو إلا الظفر الذي أنزع به القشرة لأرى ما بداخل القشرة ، ولكن أمصيبة أنا أم مخطئة فيما اعتزمته ؟ ! إن الناس لسعداء في جهلهم . ما رأيت جاهلا إلا وكان سعيداً ، أما العارفون فأشقياء تعساء . لماذا ؟ ! إني لأتساءل : أيمكن أن تتفق السعادة والظلام ؟ ! أحسب المعقول أن يتسم النور والسعادة ... ما رأيت قط عاقلا سعيداً ، إنما يطفح البشر على وجوه العقلاء . عجيب أمر هذه الحياة ، حبذا كان يجدر بالمعرفة أن تخلق سعادة تجدها تزيد الناس شقاء ! إني لا أحب أن أشقى ! إني سعيدة بجهل حقيقة زوجي ، وماذا يعنيني من حقيقته ... تباً لك أيتها الأخت ! لقد شوشت على عقلي وتركتني في اضطراب ذهني لا حد له . سأعود إلى الفراش ، وأنسى كل الذي حدث . يا له من كابوس (تتجه نحو الفراش ولكن ما إن تقف إزاءه حتى تنتابها رعدة) كيف أنام في جواره الآن ؟ ! إني فزعة . لم أعد أرى أمامي غير وحش مفترس . أرى أشباحاً تلتف بي وتحاول أن تأخذ بمخنقي ، كل ما حولي يكاد أن يخنقني ! هذا الصمت هذه الوحشة ! أحس أنياباً تأخذ بمخنقي ! مخالب الوحش تمزق جسدي ، ولكني أتحسس رقبتي وأمر يدي على جسدي فلا أجد شيئاً ، إنما قلبي هو الذي يختنق ، نفسي هي التي تتمزق . ليس بيني وبين الحقيقة سوى غطاء . هذا المصباح الذي أخبئه تحت الفراش ، لكأنه يدعوني إلى أن أتناوله ، لكأنه يدفعني إلى أن أقربه من وجه زوجي . أأقدم أم أحجم ! ! (تمد يدها دون أن تشعر تحت الفراش) ها هي ذي أصابعي قد امتدت إلى المصباح وأطبقت عليه . لم يبق إلا أن أرفعه إلى وجه حبيبي . كم أضطرب ! إني محمومة تصطرع في قلبي المشاعر . (تدع المصباح وتنحني على صدر زوجها) يا لحر أنفاسه ! كم أود أن أكون في أحضانه الآن فيضمني إلى صدره ويقبلني على شفتي (تقترب بشفتيها من شفتيه) إني أتخيله الآن يلثم وجنتي ويداعب بأنامله شعري الطويل ، وقد تتلاقى شفتانا حتى كأنني فتحرى فأرتجف في نشوة وأسكر في حلم .

وقد يتناول يدى في يديه ويهمس في أذنى بكلمات الحب ونجوى الغرام ، ثم يقبل راحتي يدى المحمومتين بفمه الملتهب وأرقد بين ذراعيه ناسية العالم وما يضطرب فيه من ناس ، ناسية مكاني من هذا القصر ومن قمة هذا الجبل ومن هذه الغابة ، ناسية الزمان الذي أكون فيه شاعرة أني إنما أعيش في الأزل أو في الأبدية حيث لا زمان ولا مكان . ولكن لا ! (تبتعد عن صدر زوجها !) . لا أحس بحريتي من يكون هذا الزوج ! ويحك أيتها الأخت ! كنت سعيدة بجهلي ، أما الآن فيعذبني الشك . ولكن ، ألا يمكن أن أسعد بالمعرفة ؟ !

إنى أريد اليقين ، أريد اليقين ، . اليقين . (تمد يدها إلى المصباح تحت الفراش بإصرار) لن أستريح منذ الآن حتى أراه وأعرفه . أريد أن أعرف من يكون (ترفع المصباح الزيتى بيد مرتجفة . حينئذ يلوح وجهها فى ضوء المصباح الهادىء : ولكن ملامح وجهها تظهر معقدة بعض التعقيد ، يمتزج فيها صور من الخوف والتطلع والألم والأمل ، وتوقع شىء لا تدرى ما هو . وتزداد اضطراباً كلما اقتربت بالمصباح فى يدها من زوجها الذى ينام نوماً هادئاً عميقاً . فتظهر ملامح وجهه وشكل جسده شيئاً فشيئاً) عجباً ! عجباً ! أهذا هو زوجى ! عجباً ! هذا الكائن جميل الوجه حالم الملامح ! عجباً ! عجباً ! أهذا هو زوجى ؟ ! ولكن ما هذا ؟ ! جعبة فيها سهام مستندة إلى جوار النافذة ! هـذا ... كيوبيد ! أهو زوجى كيوبيد ولا أدرى ؟ ! هذا الطفل الإلاهى الذى تتمنى كل النساء والفتيات أن يطعن قلوبهن بسهم من سهامه ! هذا الوجه الملائكى اللطيف ذو الشفتين الورديتين الشهيتين . هذه الأجنحة . ولكنى أشعر بالخجل من قلق ... (تجهش بالبكاء ، فتنهمر دموعها غزيرة على الفراش . وإذ تستدير آخر الأمر لتطفىء المصباح ، يحدث حادث صغير يذهب بسعادتها الجديدة . إذ أن اهتزاز الشعلة الخبيثة فى يدها يسقط على كتف كيوبيد نقطة حارقة من الزيت ، فينتفض ! وإذ يراها فى حيرتها وارتباكها يدرك تمام الإدراك معنى نظرتها الحزينة . وبكل هدوء ، وهو ينظر إلى سيكه فى أسف ، يبسط كيوبيد جناحيه ويقفز إلى جهة النافذة . عندئذ تحاول سيكه اللحاق به ولكنها تقع على الأرض ويقع مصباحها فى جوارها) .

كيوبيد : عقابى أن أهجرك إلى الأبد . لا يمكن للحب أن يعيش بدون إيمان .

سيكه : هى لحظة شك لا أكثر ولا أقل .

كيوبيد . كل شىء قد انتهى بيننا .

سيكه : ألا من فرصة أخرى ؟ !

كيوبيد : فرص الحياة معدودة على أصابع اليد الواحدة بالنسبة للكائن الواحد . والناجح فى هـذه الحياة هو من لا يدع فرصة تمر دون أن ينتهزها . لقد كنت تعيشين فى سعادة ... هذه هى فرصة ضاعت منك .

سيكه : إنها أخى ...

كيوبيد : إنه معتوه من يتأثر بإيحاء الغير . لا يجب على الشخص أن يستمد أفكاره من أفكار غيره . لقد وهب كل إنسان وبه عقـل وبه قلب خاصان به . كل كائن فرد يمثل فى هذه الحياة عالماً فرداً . فلم لا تعيشون فى هـذه الحياة بعقولكم الفردة وقلوبكم ! ما وجـدت أشقى من إنسان تصـدر أفعاله بحسب إرادة الغير . وما وجدت أسعد من إنسان تصدر أفعاله حسب إرادته هو نفسه . لقد كنت سعيدة ، وكان هـذا وحده كفيلاً بعدم أذنيك عن حديث أختك ! إن الواحد منكم يكون سعيداً بشئونه الخاصة كل السعادة حتى يأتى صاحب ، خبيثاً كان أو غير خبيث ، بغرض كان أو بغير غرض ، يصمكم بكل نقيض لنعم ، لعقولكم عن الحياة فى غمرة سعادتكم : يبذر فى قلوبكم الشك ، فتضطرب عقولكم ، ومتى اضطربت عقولكم فهيهات أن تعود إلى استقرارها ، وهيهات أن تعود قلوبكم إلى سكينتها واطمئنانها . إنى ذاهب ...

سيكه (تبكى وتولول) : فرصة أخرى ...

كيوبيد : لقد قضى الأمر . (يخفق بجناحيه ويختفى من النافذة) .

● ● ●

سيكه (ترتمى بوجهها على الفراش وتنخرط فى البكاء ؛ ولكن عندما ترفع وجهها وتجول بعينيها فيما حولها ، لا تجد أثراً للقصر الذى كان يحتويها ولا للحديقة التى كانت تحيط به . لقد تلاشى كل شىء ... كل شىء قد تلاشى ، وتجد نفسها أخيراً وحيدة ذاهلة . شاردة اللب ...) كيوبيد ! لولم أكن حمقاء رعناء ما حدث شىء ! إنى بلهاء . لقد كنت سعيدة فأشقيت نفسى ! هذا جزاء من تجاهلت . كانت الحياة أمامى ، فلم يبق لى منها إلا الأسى والألم ! إنى نادمة ... ولكن ما فائدة ندمى ؟ ! إنى أبكى ... ولكن ما فائدة بكائى ؟ ! كل شىء قد انتهى . سأعيش مستقبلى فى ماضىّ ؛ سأعيش مستقبلى وأنا أذكر كيوبيد وأحلم بصحبته . بالحياة الضائعة ! وأنا أعرف أنه لن يعود ... لن يعود ...

إدوار مقصى

الثقافة

العـــدد ٦٩٨
١٢ من مايو ١٩٥٢

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

صفحة

أبحاث ومقالات :

من الأدب الغربي :

قصة :

صورة أدبية :

مسرح :

شعر :

ثم عاد الربيـــــع

[مهداة إلى سعادة عبد الشصف محمود باشا ... من شاعر عاش على شواطئ، بحيرة المنزلة ، إلى شاعر عاش على شواطئ، بحيرة المنزلة ...]

وطموح وأدته الريح فى بحر الفنـــاء
يتنزى بين أنياب الردى حتى النـــداء
عاثت الآلام فيــه والمآسى والشقاء
واكفهرت حوله دنيا الأسى والبرحاء
ياطموحى . . ياسليل النجم . . ياابن الكبرياء

أنا لا أملك غير الأدمع
وينابيع بيان مبـــدع
وإباء النيل من عهد رع
ووفاء لم يكن بالمدعى

إن يناوئنى بشر فهمو طين هبـــاء
وأنا ابن الشعر ، والخلد جزاء الشعراء

• • •

وضمير القلب أسرار وألغاز . . تمور !
أهو دهر ينطـــوى هما وأيام تدور ؟
هل بقلب الناس أحزان كأحزانى تثور
فإذا هم سرور ضاع كالبرق السرور !
وإذا اخضوضر روض فذبول وضمور !

أين ماضى الذى أحنو إليـــه ؟
أين ماضى الذى أحنو عليه ؟
وأرى الآمال طراً فى يديه
آه ما أقسى . . وإن كنت لديه

هل يعيد الزمن الغابر شعر وشعـــور ؟
وأفانين ضمخت ريح المنى . . وهى عبير ؟

• • •

ياربيعى . . قد حياك الله ما أحيا الجبالا
نشوة فى أمنا الأرض . . حياة . . وجمالا
وائتلافا وابتهاجا وانطلاقا واختيالا
وخلوداً مشرق البهجة . . يتحامى الزوالا
لك قلب الشعراء الصيد ركضا وجلالا

قد بعثت الحب فى قلبى الحزين
وبعثت الأمل العـــذب الدفين
وسنا الحـــق وأنوار اليقين
والبهاليل الصابرين الظافرين

ذاك وادى النيل يحيا فى ذرى المجد توالى
وحياة كربيع الكون . . خيرا . . وجلالا

محمد سعود مصطفى

بين الجد والفكاهة :

رباط العنق (الكرافتة)

يلتف مثل الصل بالرقبة — حبل جهلت على المدى سببه
قد رشحوه فكان مشنقة — للأبرياء ، وكلنـــا انتخبه
صنع الوريد يئن من كثب — فقضى عليه ، وما قضى أربه
تتقطع الأنفاس منه إذا — أذكى الهجير على الورى لهبه
فتكاد تسمع صوت حشرجة — بالحلق ، تعول منه منتحبه
وتراه يرشح بالحيا عرقاً — لو فاض خلت السحب منسكبه
تدعو النسيم من الرياض فإن — لبى النداء رآه قد حجبه
يلذ الحـــار لجانه غضباً — ورنا إليه فلم يطل غضبه
ألقاه يشبهه فأعجبـــه — قيد رأى الإنسان قد رغبه
حبل بمشنقة مروعة — ضيره ظلماً ، ويل من نصبه
عجباً نشـــده ونحفظه — ونحب عنه رغم ما جلبه
ولربمـــا ضاقت به مهج — فقضت عليه ، وأحرزت سلبه
وتعود ثانيـــة فتصحبه — كم صاحب أودى بمن صحبه
قالوا دعوه يزين ملبسنا — إن الأناقة منه مكتسبه
قلت الأناقة للنساء فمن — منا أذل القيد واغتصبه
حطم قيود الشرق أجمعه — وابدأ بنفسك فاعتق الرقبه
القيد حتى لو غدا ذهباً — يؤذى الفتى ، فاجهد لتجتنبه

محمد رجب البيومي

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

العدد ٦٩٨ — الاثنين ١٨ من شعبان سنة ١٣٧١ — ١٢ من مايو سنة ١٩٥٢ — السنة الرابعة عشرة

مغالبة القـــدر

للدكتور أبو العلا عفيفي بك

١ — تعمل الأقدار عملها في هذا الوجود ؛ فتهب من تشاء وتحرم من تشاء : تبسط يدها لقوم بالصحة والعافية ، وتحفظ عليهم كامل حواسهم وقواهم ، أو تجود عليهم بالثروة والجاه وطيب العيش ، وتقبض يدها عن آخرين ، فلا يكون لهم من هذه الحظوظ ولا من غيرها شيء . بهذا جرت سنة الله ، وبهذا تجري ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ولكن الناس يختلفون في مواقفهم مما يأتي به القدر إذا حرمهم متعة من متع الحياة أو أداة من أدوات هذه المتع : فمنهم من يستكين ويرضخ ويرضى بما قسم الله له ، ظناً أن الرضا بالقضاء رضاً بالمقضي به ؛ فلا يحاول في قليل أو كثير أن يغير من حاله أو يعوض على نفسه بعض ما فوّت عليه . ومنهم من يثور ويعترض ويلح في الشكوى ويتمرد ، ولكنه لا يحاول أن يتغلب على ما ابتلي به . ومنهم من يسلم بالمقدور اعتقاداً أنه لا مفر منه ، ولكنه يكافح ويجاهد وتأبى نفسه الطموح أن ترضخ أو تستكين ؛ فلا يزال يجاهد ويغالب ويطرق كل باب من الأبواب المغلقة آملاً أن يلج واحداً منها ، طالباً لنوع من العوض ، إن لم يعدل في قيمته ما حرم منه ، فقد يفوقه قدراً . ولهذه الطبقة المجاهدة من الذين قدر عليهم الحرمان وغالبوا حتى كللت مغالبتهم بالنصر ، مكانهم المرموق في تاريخ الإنسانية ؛ بل الواجب أن نحلهم من تاريخ الإنسانية محل الصدارة ؛ لأنهم استحقوا البطولة عن جدارة حيث سيقت البطولة إلى غيرهم سوقاً ممن مهدت لهم سبل الحياة وذللت لهم كل الصعاب فدخلوا إلى الدنيا آمنين وخرجوا منها آمنين .

٢ — ومن أبطال الجيل الذي نعيش فيه ممن انتصروا على قسوة الأقدار الآنسة الأمريكية « هيلين كيلر » . سمعت بهذه المخلوقة العجيبة وقرأت عنها الكثير ، ولكني لم أتمكن من رؤيتها حتى دعتها جامعة فاروق الأول بالإسكندرية لإلقاء محاضرة بها . ولقد كنت قبل أن أراها أن أنكر ما سمعت عنها ، أو بعضه ، أو على الأقل أعده ضرباً من المبالغة والتهويل الأمريكيين ؛ لأني لم أستطع أن أتصور أن المرأة التي أصيبت بالعمى والصمم والبكم منذ كانت سنها ثمانية عشر شهراً ، تستطيع بعد جهاد طويل أن تتكلم وتلقي المحاضرات ، وأن تسمع من غير طريق السمع ، وتخوض غمار الحياة العلمية الأكاديمية ، فتحصل على درجة شرف في اللغات الحية ثم على درجة الدكتوراه ، ثم تصبح بعد كل هذا كاتبة مرموقة بين كتاب العالم . ولكن تبددت كل هذه الأوهام ، واستحال ذلك الشك يقيناً عندما

رأيتها رأى العين وأيقنت أنها فى غير جدال إحدى معجزات القرن العشرين .

سمعتها بأذنى تتحدث ، وإن كان حديثها أشبه فى نغمته بحديث الأطفال الذين لم يتكامل نمو أعضائهم الصوتية ، ورأيتها تتلقى الرسائل من وصيفتها ، بأن تحرك هذه الوصيفة أصابعها حركات رمزية خاصة فى يد « هيلين » — كما يرسل عامل التلغراف رسالته بطريق الاصطلاح الرمزى التلغرافى عبر آلته ، ورأيتها تستقبل الرسائل الصوتية من وصيفتها ومن بعض الحاضرين الذين تحدثوا إليها — لا عن طريق السمع — فهى لا تزال صماء — بل بأن تضع أصابعها على فم المتحدث فتترجم الاهتزازات الصوتية الخارجة من فمه إلى ألفاظ ، ثم تأخذ فى الرد على السائل إن سألها سؤالا ، أو فى شرح شىء آخر إن طلب منها بياناً ! وهكذا تستمع « هيلين كيلر » إلى الموسيقى وتستمتع بها كما يستمتع بها من وهبهم الله حاسة السمع ، وما عليها إلا أن تضع أصابعها السحرية على الآلة العازفة فتنقل إليها الاهتزازات الصوتية كل أنغام القطعة المعزوفة . يا لله ! لقد بلغت من قوة الحس ودقته فى التسجيل مبلغ الآلة الميكانيكية المحكمة الصنع ، إلا أنها آلة حية تفهم ما تسجل وتدرك معانيه العميقة ، وتطرب له إن كان مما يثير الطرب .

٣ — ولم تكن اللغة التى استعملتها « هيلين » ووصفتها بأنها أشبه فى نغمتها بلغة الطفل الذى لم يكتمل نموه ، باللغة العادية الساذجة ، بل كانت لغة أدبية دقيقة أحياناً وقة عقلية ناضجة أحياناً أخرى . استطاعت « هيلين كيلر » أن تعبر عن أرقى المعانى وأدقها فى الأدب والفلسفة والاجتماع ، وتمكنت من أن تصور بها فلسفتها الخاصة فى الحياة وفى المثل العليا التى يجب أن تتجه إليها جهود البشر فى العصر الذى نعيش فيه ، وهى ترى أن عليها رسالة لا بد من أدائها ، وهى الدعوة إلى الأخذ بيد الصم والبكم والعمى ، وإتاحة الفرص الممكنة لهم لكى يعيشوا عيشة إنسانية كاملة ويتمتعوا كما يتمتع غيرهم فى هذه الحياة ، لأنهم بشر ، ومن حق البشر أن تنمى مواهبهم العقلية والروحية ، حتى ولو لم تسو الطبيعة بينهم وبين غيرهم فى القوى البدنية . فهى تستحث سامعيها بكل ما وسعها من حيلة وما أوتيت من بيان — وقد تصل فى ذلك إلى مرتبة التعبير الشعرى الرائع — أن يقدموا « الزكاة » راضين مغتبطين عما وهبهم الله من نور الأبصار ، لينقذوا العميان من ألم الحرمان — البدنى والعقلى — وبذلك يضيفون إلى لذة الاستمتاع بأبصارهم لذة أخرى أقوى وأرفع هى لذة إنقاذ الإنسانية المعذبة .

٤ — ومن الغريب حقا أن ترى « هيلين كيلر » التى حرمتها الطبيعة أعز ما تمنحه فى هذه الحياة ؛ بل على العكس منحتها كل عناصر النقمة على الأقدار والثورة فى وجهها والسخط عليها ، أقول من الغريب حقاً أن تراها لا تفارق الابتسامة العريضة شفتيها ! فهى أبداً هاشة باشة مرحة ، قوية الإيمان بالله ، واثقة من العدل الإلهى ، مخلصة لدينها أشد الإخلاص متفائلة أشد التفاؤل بمستقبل الإنسانية . تقول : إن الطريق الوحيد لخلاص الإنسانية وإسعادها هو أن يعمل كل منا على تحقيق مثله العليا فى حياته فيما يعمل وما يقول ، وفى أن يحاول كل منا أن يرى وجهة نظر الآخر ، فإنه ليس أضر على الحياة الاجتماعية من الأنانية والاستبداد بالرأى .

وأغلب الظن أنها مرت بدور غلب عليها فيه التشاؤم القاتم والحزن العميق والثورة النفسية الصاخبة ؛ ولم يتبدل ذلك التشاؤم تفاؤلا ولا ذلك الحزن بشرا وغبطة ، ولا تلك الثورة سكونا وطمأنينة إلا بعد أن تبدل ظلام حياتها نوراً وخرجت من سجنها النفسى إلى سعة فناء الحرية .

كذلك كان شأن بيتهوفن الموسيقى العظيم الذى كافح كفاح الأبطال عندما أصيب بالصمم وهو لم يزل بعد فى شرخ الشباب وحرم حتى لذة الاستمتاع بنتاج عبقريته الفذة ، فثار ثورة كادت تؤدى به إلى الانتحار ، وصور فى ألحانه الخالدة قسوة القدر ومغالبته إياه تصويراً يكاد يسمعك أنات قلبه فى تعاسته . ثم تصوف ورضى بقضاء الله ، فانقلب تشاؤمه تفاؤلا ، وكان فى أخريات حياته لا يرى فى الوجود إلا خيراً وجمالا وسعادة وغبطة ، وصور كل ذلك أروع تصوير فى سمفونيته التاسعة التى تسمعك بهجة الخلق وهم يرتلون أناشيد الحمد والثناء لله صاحب الخلق ورب العالمين ومفيض الوجود والخير على العالم .

٥ — ولما انتهى عجبى من أمر « هيلين كيلر » البكماء الناطقة والصماء السامعة ، وأكاد أقول العمياء المبصرة ، بدأ عجبى من أمر مدرستها ومربيتها آن ساليفان التى كان لها أكبر

والمفاوضـــــات أيضا

للدكتور أحمد أمين بك

● دعوات فى انجلترا على شاى أو عشاء بين إيدن وستيفنسون وهاو ، وأحياناً بينهم وبين عمرو .

● مقابلات .

● تعقدت الأمور .

● ستتدخل أمريكا .

● رئيس الوزراء يقول : لا جديد فيما يعرض .

● تشرشل متمسك وإيدن متساهل .

● ليست المقترحات البريطانية نهائية ! بل قابلة للتعديل

● إنجلترا تنتظر المقترحات الجديدة المصرية .

وهكذا تدل المفاوضات على أن طريقة انجلترا هى أن تسير فى المفاوضات قدما .

فى ١ ، ٢ ، ٣ — إلى تسعة . فإذا انتظرت منهم كلمة عشرة عادوا ثانية فقالوا : (١)

وتدور الدورة من جديد كما بدأت . إن شئت فارجع إلى المفاوضات مع سعد وعدلى وعبد الخالق ثروت والنحاس وصلاح وما لا يعلمه إلا الله !.

وأحياناً يقولون (عشرة !) ولكن يشترطون فى العشرة شروطاً حتى تعود (١) .

فهم دائماً يدورون فى حلقة مفرغة .

وتتفق انجلترا وفرنسا فى خطة واحدة للاستعمار ، لتحكم فرنسا تونس والجزائر ، وتستعمر انجلترا مصر ، وتشترطان ألا تتقدم إحداهما خطوة إلا برضا الأخرى .

قال الفتى لأستاذه : أتستطيع أن تصوغ من المفاوضات عبارة كعبارة النحويين فى مسألة الكحل إذ قالوا : ما رأيت أحداً أحسن فى عينه الكحل منه فى عين زيد ؟!

قال الشيخ : نعم ! أقول هكذا :

الفضل فى تعليم تلميذتها وترويضها وخلق تلك الحواس الجديدة فيها . فإننا لو وصفنا « هيلين كيلر » بأنها معجزة من المعجزات ، لحق لنا أن نصف « آن سالِيفان » بأنها صانعة تلك المعجزة . كيف استطاعت هذه المربية أن تقتحم تلك الحوائط الصلبة السميكة التى سورت بها نفس تلميذتها الصغيرة ؟ لقد كانت حوائط لا منافذ فيها كالقشرة الصخرية التى تغلف حجراً من الأحجار ، والنفس من ورائها حبيسة سجينة بكل ما أودع فيها من مواهب واستعدادات . فكيف نفذت إلى هذه النفس السجينة فبعثت فى سجنها أول بصيص من النور العقلى ؟ وكيف أحالت ذلك الحجر الأصم إلى كائن حساس عاقل مفكر ؟ كيف علمتها اللغة وكيف صعدت معها من المحسوس — لا أقول المحسوس إطلاقاً فإنها لم تكن تعرف من المحسوسات سوى الملموسات — إلى المعقول المجرد ؟ ثم كيف أنطقتها عن طريق غير طريق السمع ؟ كل هذه أسئلة استقل بالرد عليها كتب ألفها مؤلفون فى هذا الموضوع ؛ فإن « هيلين كيلر » قد كانت دائماً موضع بحث علماء النفس واللغة منذ عرفت قصتها . ولكن لا يتسع المقام هنا لذكر المسائل التى عالجها العلماء مما يتصل بالحياة السيكولوجية التى تحياها هذه السيدة الخارقة للعادة . ولكن الذى لا شك فيه هو أنه لولا « آن سالِيفان » لكانت « هيلين كيلر » اليوم فى عداد الجمادات — لا أقول الحيوانات ، فإن الحيوانات تسمع وتبصر وتفيد من تجاربها السمعية والبصرية فى تشكيل حياتها .

لهذا لم تنس التلميذة الدَّين المعظم الذى تدين به لمربيتها ، لأنها هى التى وهبتها الحياة الحقة وكونتها جسماً وعقلاً وروحاً . بل إنها لتشعر بهذا الدين لمربيتها أكثر من شعورها بالدين لوالديها اللذين كانا سبباً فى وجودها . وأكبر أمانيها اليوم تلك التى تعبر عنها بقولها :

« إنى لأتطلع بفارغ الصبر إلى الحياة الأخروية ، حيث أتحرر نهائياً من تلك الأغلال البدنية التى كبلت بها فى هذه الحياة ، وحيث تلتقى روحى مرة أخرى بروح معلمتى المحبوبة » .

أبو العلا عفيفى

ما رأيت أحداً أصبح في يده المفاوضات منها في يد الإنجليز.

قال الفتى: أو نستطيع أن نرمز للمفاوضات كما رمز الفقهاء الحنفية في مسألة البئر، إذ رمزوا إلى نجاسة الماء أو طهارته والحيوان الذي وقع فيه ثلاث أهو طاهر أم نجس بقولهم: مسألة البئر جحط، وهي ترمز إلى بئر وقع فيها حيوان ومات؟ فهل الحيوان نجس أو طاهر، وهل الماء نجس أو طاهر؟!

قال الشيخ: تأدب يا فتى! الرمز هو الرمز والحروف هي الحروف! فالجيم هي الإنجليز، والحاء والطاء: حاورني يا طيطا!.

قال الفتى: أو نستطيع أيضاً أن نشبه المفاوضات المصرية — الإنجليزية بتشبيه رياضي؟! قال الشيخ: نعم! أتعرف شيئاً اسمه الكسر الدائر؟! قال الفتى: لا!

قال الشيخ: إن الكسر الدائر هو الذي ينشأ من قسمة شيء على شيء ثم لا ينتهي، كما إذا قسمت مائة على ثلاثة ($\frac{١٠٠}{٣}$) فالناتج ثلاثة وثلاثون، ثم ثلاثة إلى ما لا نهاية!

فالمفاوضات إن شاء الله ستدور إلى ما لا نهاية!

قال الفتى: وما نظيرها في الفلسفة؟! قال الشيخ: ألا تعرف أن الفلاسفة يقسمون الشيء إلى ما له نهاية وما لا نهاية له؟! وإلى محدود وغير محدود؟! فالمفاوضات المصرية الإنجليزية مثل جيد لغير المتناهي وغير المحدود!

قال الفتى: فما نظير المفاوضات في الكيمياء؟ قال الشيخ: إن الإنجليز مهرة في الكيمياء: ألا تراهم يحورون الشيء تحويراً بسيطاً، يمس العرض ولا يمس الجوهر، ثم يسمونه اسماً جديداً، يلقى بالقبول عند المغفلين؟ ألا تراهم حولوا الاستعمار إلى الانتداب، والانتداب إلى دفاع مشترك، والمدلول واحد، والألفاظ مختلفة؟! فكذلك هم، قد قالت جرائدهم في الأيام الأخيرة إنهم يحاولون أن يضعوا صيغة جديدة بشأن السودان ترضي المصريين، كأن الجوهر مفروغ منه، والمسألة مسألة صيغة!

قال الفتى: أتعرف نظير المفاوضات أيضاً في علم الكلام؟ قال الشيخ: أما سمعت بالدور؟! قال الفتى: لا! قال: أن يتوقف الشيء على شيء آخر، ويتوقف الآخر على الأول، كقول الشاعر:

مسألة الدور جرت بيني وبين من أحب
لولا مشيبي ما جفا لولا جفاه لم أشب!

فالمفاوضات مثل من أمثلة الدور. تبدأ من الأول وتنتهي إلى الآخر. فترى الآخر دائراً على الأول. والدليل على ذلك: أنه كما لا ينتهي الدور لا تنتهي المفاوضات!

فلعبة المفاوضات تدور على تشرشل أحياناً، وتشرشل يدور على إيدن، وإيدن يدور على هاو، وهاو يدور على تشرشل من جديد، والكل يدورون حول أنفسهم، والنظارة يتملاون من هذه الدوارة!

قال الفتى للشيخ: أفادكم الله! وأطال عمرك طول المفاوضات! ولا حرمنا من جميل تفسيراتك، وحلو فكاهاتك!.

ويظهر مما سألته وشرحته أن الأمر لعبة ستنكشف آخر الأمر، وسيتحقق أن السياسة الأولى كانت أفهم لعقلية الإنجليز من السياسة الثانية.

ورحم الله الشاعر القديم، إذ قال:

«لا ذنب لي قد قلت للقوم استعدوا».

أحمد أمين

مسألة التأميم والأوضاع الاقتصادية

— ٣ —

للأستاذ أحمد طه السنوسي

وصلت فكرة التأميم إلى مصر ضمن الأفكار الاقتصادية الحديثة التي أخذت بلدان العالم تردد صداها حين تفكر في الإصلاح ، وترسم مداها حين ترغب في التطبيق ، وتسبر أغوارها حين تريغ التقدم والرخاء . . وكانت المرافق والمشروعات في مصر ومازالت يديرها الأجانب ويديرها رءوس أموالهم ، وكانت مصر تعقد لهم عقود الامتياز عقداً تلو عقد ، حتى تدار مرافقها وتستثمر مواردها الكامنة هنا وهناك في ثنايا عناصر الإنتاج !

ولقد حسب المصريون — وقد وصلتهم فكرة التأميم في دثار شفيف من الجدة والطرافة — أن التأميم أسلوب يجب أن يشيعوه في بلادهم ، فكل مرفق يجدونه مهملاً ، وكل مشروع يقاسون من قصوره وأخطائه ، يجنحون إلى فكرة التأميم يحسبون فيها ضالتهم المنشودة التي يفتقرون إليها ، ويجدون في البحث عن أمثالها ، فلا يجدونها ، حتى شاءت الأقدار أن تبعث بها إليهم ، فتلقفوها تلقف اللاعب البارع لكرة طرحت بصوالجة اللاعبين الحدثين والمحترفين ....!

وبالرغم من ذلك ، فإنا نرى المقتضيات العملية في مصر قد حدت كثيراً من التمشي مع آمال المصريين في هذه الفكرة ، ولسنا نعدو الحقيقة في شيء لو قررنا بأن مصر إلى اليوم لم تطبق فكرة التأميم التطبيق الفني الصحيح الذي نشأت على مناهجه وبنيت على أساسه ودعامته ، هذا الأساس الذي يقضي بنقل ملكية المشروعات الخاصة التي يملكها فرد أو أفراد ، وتقوم بمصلحة عامة تهم الجميع ويستفيد منها المجموع ، إلى ملكية الأمة التي تتمثل في السلطة العامة التي تدير دفة أمور بلدها وشئون أبنائها .

ولتفصيل ذلك أقول : إنه لما كانت أكثرية المرافق تُدار في مصر عن طريق عقود الامتياز التي عقدتها مصر مع القائمين بأمر هذه المرافق ، فقد رأت مصر أن تنقل هذه المرافق بطريقة سلبية سهلة إلى ملكية الحكومة وإدارتها ، وتحقيقاً لذلك تنتظر حتى ينتهي عقد الامتياز بينها وبين الشركة المتعاقدة معها على إدارة مرفق من المرافق الحيوية في البلاد ، ثم ترفض تجديد هذا العقد ، مؤثرة تأميم المشروع أو المرفق المراد تجديد عقد امتيازه ! وذلك بأن تنقل إدارته إلى الإدارة الحكومية حيث تقوم الحكومة بإدارته وتوجيهه والإشراف عليه ! وقد حقق هذا النحو من جانب الدولة المصرية شيئاً كثيراً من النفقات ووفر عليها تكاليف كبيرة ليست بقادرة على تحمل أعبائها .

ومصر كما نضم التواقين إلى تحقيق فكرة التأميم والإفادة من مزاياها على نطاق واسع ، لا تخلو من فريق آخر يهاجم هذه الفكرة هجوماً ويرفضها رفضاً ويبحثها في حذر ويحرسها في وجل ، على أنه من الممكن إرجاع الوجهات التي يتذرع بها هذا الفريق في رفض فكرة التأميم إلى ثلاثة أسباب :

السبب الأول : أن البلدان التي طبقت هذه الفكرة في نطاق مشروعاتها ، قد تحملت كثيراً من الخسائر والكوارث المالية التي دعتها إلى التفكير في العدول عن بعض تطبيقاتها التي جرت عليها مثل هذه الأضرار ، على أنه إن صح في نظري الاعتداد بفشل فكرة ما ، في بلد معين للنظر في أمر تطبيقها في بلد آخر ، فإن هذا لا يعني أن الفكرة سقيمة في مدلولها غير مجدية في الأخذ بها ؛ ذلك لأن لكل بلد أوضاعه الخاصة به ، التي تتباين كل التباين مع أوضاع البلدان الأخرى ، وقد تناسب الفكرة أوضاع هذا البلد ولا تناسب أوضاع البلد الآخر ، وقد تتوافق مع ظروف هذه الدولة وإمكانياتها ، وقد لا تتوافق بحال مع أحوال الدولة الأخرى ، هذا فضلا عن أن فشل تطبيق الفكرة المعينة أو الاتجاه المعين في بلد من البلدان ، قد يكون راجعاً إلى خطأ في تقدير صلاحية الأوضاع واحتمال الإمكانيات ، بمعنى أن يكون الخطأ في التطبيق والتنسيق . أما الفكرة في حد ذاتها فقد تكون من الجودة والمتانة بحيث تأتي بما يرجى من ورائها من خير إذا ما طبقت التطبيق الصحيح الذي يتفق مع مقتضيات الفكرة ذاتها أولا ، ويتوافق فضلا عن هذا

مع مقتضيات البيئة التي قدر لها أن تكون مسرحاً للتجربة والتطبيق ، خاصة وأن أفكار الاقتصاد دقيقة ، وأوضاع الاقتصاد أدق ، ونجاح التطبيق يتوقف إلى حد كبير على التوفيق بين هذه الأفكار وتلك الأوضاع ، والملاءمة بينهما ملاءمة تقتضيها طبيعة المنطق وترضيها مقتضيات العمل ، وتتسم بروح العصر ، وتطبع بطابع الأصالة والإتقان .

والسبب الثاني : أن الإدارة الحكومية في مصر في حاجة أولاً وقبل كل شيء إلى إصلاح ؛ إذ لو طبقت فكرة التأميم هكذا قبل البدء بذلك الإصلاح ، فستكون المشروعات والمرافق المؤممة صورة صادقة تعكس ما يشوب هذه الإدارة من خلل أو اضطراب ؛ وتفصيل ذلك كما بينا في فصل سابق أن انتقال المشروع من إدارة الأفراد إلى إدارة الحكومة يعرضه لمخاطر ما تتصف به هذه الإدارة الأخيرة من الخلل إن كان بها خلل ، أو يكون من حسن الحظ أن يعكس أضواء الدقة والإتقان إن كانت الإدارة الحكومية التي ألحق بها المشروع الخاص ، تتميز بما يجب أن تكون عليه الإدارات الحكومية من مثل عليا في العمل والتوجيه .

ونتيجة لهذا يكون من العبث وخطل الرأي أن يقدم بلد كمصر على التأميم كوسيلة لإدارة مرافقها أو لتسيير مشروعاتها وأوضاعها ؛ إذ الخطوة الأولى التي يجب أن تخطوها مصر هي التي تهدف بها إلى إصلاح الإدارة الحكومية وتخليصها من ربقة « الروتين » البالي وإخضاعها لدقة العمل وحسن سيره واستخلاصها من الشوائب الإدارية والعيوب الإدارية ، وإذا ما خطت مثل هذه الخطوة ، فليس من شك في أن خطوة التأميم تكون من أهم الخطوات الثانية التي يقمن بها أن تفكر فيها بمزيد من الهمة والاهتمام .

والسبب الثالث : أن مالية البلاد المصرية لا تسمح بالتوسع في الأخذ بتلك الفكرة ، خاصة وأن هذه المالية تتحمل أعباء كثيرة ، يفرضها على كاهلها ضيق نطاق الأوضاع المالية والنقدية وضعف الوارد وزيادة المصروف ، وقد سبق بيان أن فكرة التأميم تقتضي أن تؤمم المشروعات والمرافق لا بقصد الإفادة المالية للإدارة الحكومية ، لأن صفة النفع العام التي تحدو الدولة إلى تأميم هذا المشروع أو ذاك ، إنما تعني أن هذه الإدارة الحكومية هي التي يقع على عاتقها تحمل الخسارة إن وقعت في نظير المنفعة العامة التي يتقاضاها كل فرد من أفراد الدولة من عرق جبين المشروع المؤمم ومن استنزاف دم المالية الحكومية التي تضحي آنذاك تحت رحمة الاضطرابات التي قد تتعرض لها المشروعات التي اعتمدت الحكومة على تأميمها .

ووفقاً لهذه الأسباب مجتمعة نرى الاتجاهات في مصر تهدف إلى التخفيف من حدة الأخذ التام والتطبيق العام لفكرة التأميم للمرافق والمشروعات العامة ، ويقتضي تفهم هذا الهدف التعرض بعض الشيء لهذه الاتجاهات ؛ ونستطيع أن نلخصها في أربعة اتجاهات :

الاتجاه الأول : يرمي إلى تطبيق فكرة التأميم كوسيلة من وسائل الإدارة لمرافق الدولة العامة ، دون أن تكلف الدولة نفسها عناء مالياً كبيراً ؛ وذلك بأن تنتظر حتى انتهاء عقد الشركة صاحبة الامتياز ، فترفض التجديد ، وتنقل المشروع أو المرفق إليها ؛ وقد فصلت ذلك فيما سبق ؛ ويبدو أن مصر انتهجت هذه السياسة في أخذها بفكرة التأميم .

والاتجاه الثاني : يهدف إلى أن تهتم الحكومة بتمصير رءوس الأموال ؛ إذ غالبية المشروعات تديرها رءوس الأموال الأجنبية ، مما أدى إلى جعل النفوذ الأجنبي متوطد الأركان ثابت الدعائم في البلاد ؛ وليس يجهل أحد ما ينطوي على استبعاد المصريين أنفسهم عن التمتع بإدارة مشروعات بلادهم وعناصر إنتاجها عن طريق رءوس الأموال المصرية ، مما يتنافى مع محاربة النفوذ الأجنبي ومقاومة العناصر الغريبة عن الاقتصاد القومي والأوضاع الاقتصادية ؛ وليس يخفى أن الاتجاه الأول السالف الذكر هو إحدى الوسائل التي تستطيع بها مصر التخفيف من حدة النفوذ الأجنبي ، وتمصير رءوس الأموال في نطاق الإنتاج المصري .

والاتجاه الثالث : يخص أحوال العمال التي يتعين أن تكون محل اعتبار ، وذلك بتحسينها والعمل على رفع مستواها ؛ لأن الأخذ بنظام التأميم إنما يفيد فئة العمال إفادة بالغة ، تتلخص في تخلصهم من طبقة رءوس الأموال العادية لهم ، واتصالهم المباشر بالعمل الحكومي ، أي اتصالهم بالدولة دون حاجة إلى وسيط ، فضلاً عن أن اتصالهم هذا يحقق لهم رفع مستواهم لسببين رئيسيين ، أولهما : أن الدولة تسعى لتحقيق مستوى رفيع لأبناء شعبها ، والعمال يكونون طبقة يعتد بها من هؤلاء الأبناء ، وثانيهما : أن الدولة يهمها أمر المستهلكين فتنظم أحوالهم وتسمو بإمكانياتها ، والعمال هم أنفسهم من المستهلكين ، لذلك سيفيدون من

هذا التنظيم الحكومي لإمكانيات المستهلكين ! وقد سبق في فصل فائت أن فصلت ذلك بوضوح ، ولقد طالب العمال بالفعل في مصر في بعض المناسبات بتأميم المرافق التي يعملون بها كمرافق النقل ، حتى يستطيعوا بواسطتها تحقيق المزايا التي أسلفتها في الفصل الثالث .

والاتجاه الرابع : تهمه حالة المستهلكين ومصلحتهم ، وهم — كما هو ظاهر — جميع أفراد الشعب ، إذ التأميم سيحقق النفع العام من طريق المشروعات المؤممة ، فلا أقل — وقد تقرر في المجتمع عدم الأخذ بفكرة التأميم على نطاق واسع — أن ينظر في أمر هذه الجموع الغفيرة من المستهلكين لإصلاح حالها وإرضاء مطالبها عن طريق وسائل أخرى تحقق ما كان التأميم كفيلا بتحقيقه ، حتى يتسنى للدولة أن تأخذ بنظام التأميم بعد تحسين الإدارة المالية والحكومية ، وتوخى الدقة والحذر في التوفيق بين مقتضيات الفكرة التأميمية والأوضاع الاقتصادية .

ويتحقق — في نظرنا — إرضاء المستهلكين والسعى في صالحهم ونفعهم في حالة اعتدال الأسعار ، وهذا الاعتدال في الأسعار إذا وقع أو تحقق — بصرف النظر عن الوسيلة في ذلك — يحقق المستوى الرفيع للطبقات التي تستهلك السلع والخدمات ، إذ يتمتع المستهلكون في هذه الحالة بأطايب العيش ، فيحدوهم ذلك إلى التهذيب والتثقف ! ومن هنا يترتب المستوى الاجتماعي والثقافي على المستوى الاقتصادي الذي يتوقف بدوره إلى حد كبير على قدرة النقود المقررة المحدود ، التي في يد كل فرد في المجتمع ، على شراء ما يحقق المستوى المعيشي الرفيع من سلع مادية أو سلع معنوية كالخدمات طبقاً لانخفاض الأسعار .

وكذلك على الدولة — في هذا الصدد — أن تسعى لرفع مستوى الإنتاج ، بزيادة العناصر الإنتاجية وتشجيع حركة الهاية والتصنيع ، ونتيجة لهذا ترتفع دخول الأفراد ! ومن هنا يتحقق المستوى الرفيع للمستهلكين ، أي أن هذه هي المنفعة العامة المنشودة لهم والتي يسعى التأميم لتحقيق أسسها العامة في المجتمع الاقتصادي ! والدولة التي لا ترى الأخذ بالتأميم ، عليها أن توجد أمثال تلك السبل السالفة الذكر ، ليتسنى لأفرادها تحقيق المستوى المعقول للعيش ، فإن لم تتم بتحقيق هذه السبل مع عدم الأخذ بفكرة التأميم على نطاق يوافق مقتضيات مجتمعها ، فإن المستهلكين والأفراد في هذه الحالة سيتعرضون لهزال المستوى المنخفض للعيش ، وسينطبق عليهم المثل : « أحشفاً وسوء كيلة !! »

وأحب بعد هذا أن أتعرض بالإشارة إلى بعض الأمثلة التي أخذت مصر فيها بالاتجاه الأول السالف الذكر في شأن فكرة التأميم ! فقد صدر مرسوم في ١٧ أكتوبر سنة ١٩٤٦ يقضي بإنشاء وتنظيم إدارة جديدة للنقل المشترك بالإسكندرية ، وذلك بعد انتهاء عقد امتياز شركة ترام الإسكندرية الذي منح لها بتاريخ ٣١ مارس سنة ١٨٩٦ ، كما يحاول البعض في مصر أمل تأميم وسائل النقل في القاهرة طبقاً لما هو متبع في الإسكندرية .

وكذلك حين انتهى في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٨ عقد الالتزام الذي منحته مصر لشركة ليبون في سنة ١٨٦٥ بتوريد الغاز ثم التيار الكهربائي لمدينة القاهرة ، لم تمد الحكومة أمد هذا الالتزام ، وقضت بقانون ١٤٥ لسنة ١٩٤٨ بإنشاء إدارة الكهرباء والغاز لمدينة القاهرة ، وتقول المذكرة الإيضاحية لهذا القانون :

« إن الحكومة إذا ما أدارت مثل هذه الأعمال التجارية طبقاً للنظم الإدارية والمالية التي تتبعها في مصالحها الإدارية ، لا يكون نصيبها إلا الفشل من الناحية الفنية والخسران من الناحية المالية . ولاجتناب هذه النتائج الخطيرة رؤى اتباع النظم الخاصة بالشركات المساهمة بقدر المستطاع ، فأعطى مجلس الوزراء ما للجمعية العمومية في هذه الشركات من اختصاص هام ، نظراً لأن الدولة هي صاحبة رأس المال ، ومنح مجلس الإدارة السلطة العليا في إدارة العملية من الناحية الفنية والإدارية ، أما رئيس الإدارة ، فيقابل عضو مجلس الإدارة المنتدب في الشركات الخاصة ، وهو الذي يتولى الإدارة الفعلية تحت إشراف مجلس الإدارة ورقابته » .

على أنه يوماً بعد يوم تبزغ مشروعات وتصدح أصوات تقول بتأميم زراعة القطن ومرفق النقل ، وتأميم السياحة ، وكذلك تأميم الصيدليات ، إلى غير ذلك من المشروعات ذات النفع الجوهري العام !

وموضوع تأميم البنك الأهلي ، لما له من أهمية كبيرة في النظام المصرفي في مصر ، أو تحويله إلى بنك مركزي ثم تأميمه ، من الموضوعات ذات الأهمية الخاصة ، مما يحتاج منا إلى بيان أوفر وعرض خاص ، لذلك نرجئ الحديث فيه إلى الفصل المقبل إن شاء الله !

أحمد طه السنوسي

بين الأساتذة وطلابهم

للآنسة منيرة حلمي

جمعني العمل المشترك بأستاذ من القلائل الذين يقيمون أود فكرة الأستاذية الصحيحة في أذهان شبابنا اليوم . وجرى الحديث بيننا عن أهمية دراسة أصول التربية وعلم النفس للقائمين بالتعليم . وهالني إنكاره لأهميتها . فلما عرضت عليه ما لمسته من تباين بين من درس هذه المواد من المدرسات وبين من لم تتهيأ لهن دراستها ، سواء في تقدير المسئولية أو إتقان العمل ، لم تبد عليه دلائل الاقتناع . وكنت أتوقع ذلك ، إذ شتان عنده بين العلم والعمل ، ولطالما نادى وآمنت معه ، بأن آفتنا الكبرى هي التفكير دون التنفيذ ، والعلم دون التطبيق . لكنني حاولت أن أقنعه بطريقة أخرى ، قلت : « لن أذهب هذه المرة بعيداً ، وإنما أدعوك للقارن معي بين رأي تلاميذك فيك ورأيهم في غيرك ممن لم تتهيأ لهم دراسة أصول التربية وعلم النفس » . وابتسم ابتسامة ساخرة ثم أجاب : وهل تظنين الطلبة حكماً عادلاً لقيمة الأستاذ ؟ قلت : ولا شك في ذلك وإلا فخبرني من يكون هذا الحكم العادل ؟ » قال : « بعض الطلبة يبغضون من يوافيهم بمادة دسمة لأسباب أخرى . فأنا مثلاً أقدس فلاناً ، وأعتقد أنه من أقدر الأساتذة وأعظمهم . ومع ذلك لا أظن تلاميذه يعترفون له بهذه المكانة الممتازة . » قلت : « ولا أظنني أنا الأخرى أخصه بشيء من إعجابي ، فليست مهمة الأستاذ مقصورة على حشو الأذهان ، وإنما الأستاذية توجيه في كل نواحي الحياة ، وعناية بالنفوس قبل أن تكون عناية بالعقول . » ويبدو لي أن أستاذي الجليل قد صار بعد ذلك أقرب إلى التصديق منه إلى السخرية والاحتجاج .

أنا معك — ياسيدي — في أن المشكلة ليست مشكلة إلمام بقواعد التربية وعلم النفس ، فما أكثر ما لدي من شواهد على عجز كثير من علماء هذه المواد عن تطبيقها في الحياة . لكن هذا لا يبرر الامتناع عن العلم ، وإلا لعطلنا دراسة كثير من العلوم في بلدنا . وإنما أنا أدعو إلى تعميم دراسة أصول التربية وعلم النفس على كل راغب في القيام بالتعليم ، سواء في المدارس أو في الجامعات . إذ لن يخلو الميدان من نفوس تشتعل حماسا للإصلاح ولمزج العلم بالحياة ، وما علينا إلا أن نودع هذه النفوس ما نستطيع الاعتماد عليه إذا راحت تفتش أذهانها عن وسائل الإصلاح ومبادئ التطبيق . وفي هذه الحالة أؤكد لك أن الطلبة أصدق حكم على مدى نجاح الأستاذ في هذا التطبيق وتمكنه من فن عمله .

قد يحتج البعض بأن الطلبة لا يعرفون أساتذتهم حق المعرفة . لكنني أرى أن هذه الحجة مردودة عليهم ، إذ عليهم وحدهم يقع اللوم في ذلك . أليس هذا أقوى دليل على تقصيرهم في إعطاء الطلبة حقهم من الوقت ، وعلى حرمانهم تعرف شخصياتهم خارج قاعات المحاضرات ؟ أو يظن الأستاذ أنه أستاذ بتلك الساعات القلائل التي يقضيها في قاعات المحاضرات من كل أسبوع ، محاضراً أو في كثير من الأحيان قارئاً لمذكرات ؟ أوهكذا هي الأستاذية في مصر ؟

معذرة ياسيدي ، فلم أشأ أن أعرض في هذا المقال رأيي الخاص في بعض أساتذتنا ، فقد أوهمني الجميع أن مقياسي في كثير من الأمور أضخم من أن يجد له مطابقاً ، وأن عدسة منظاري أصغر من أن ترى شيئاً في حجمه الطبيعي ، ولطالما اتهمني العامة بأنني لا يعجبني العجب ولا الصيام في رجب ، وصاح بي من تهيأت لهم دراسة شيء من الفلسفة : إنك تريدين أن ترى مثل أفلاطون تدب على الأرض . بل حتى أولئك القلائل الذين سطع نورهم أمام منظاري فتبينت أشخاصهم واضحة شامخة ، أوهموني أن منظاري الخاص المشتق من طبيعة نفسي هو الذي جعلني أتبينهم على هذا الوجه ، وأنهم ليسوا على ما أرى في شيء ، حتى هؤلاء ، يريدون أن يشعروني أنني شاذة في أحكامي ، متمردة على معايير المجتمع عقلية وخلقية .

لن أسوق ، إذاً ، رأيي في بعض من أتيح لي معرفتهم من الأساتذة ، بل سأسوق رأي كثير من الميدان وصديقاتي

حتى يكون الحكم أكثر شمولا وأعم مصدرا ! فهذه نقيضة لي ما كنت آمله من الحياة الجامعية وأثرها في نفسها ، وعن الفرق بينها وبين حياة المدرسة ، حتى انفجرت قائلة : « كل ما هنالك من فارق هو تكبر الأساتذة وترفعهم عن مخالطة الطلبة . يضيق الأستاذ بالطالب إذا ناقشه في نقطة من المحاضرة ، ويضيق به أكثر من ذلك إذا لاحقه بعد المحاضرة ، وكأنه يستجديه ما ليس له حق فيه . هذا هو كل ما نراه من أساتذتنا ، نراهم قراء ومحاضرين لمدة ساعة كل يوم ، ثم منصرفين مولين ظهورهم إذا انتهت هذه الساعة . لا نحن عرفنا شيئاً عن شخصياتهم ، ولا عن مدى اتساع علمهم ، ولا وجهنا في طريق الدراسة أو في الحياة . ثم هم بعد ذلك لا يتمسكون بشيء قدر ما يتمسكون بحرية الأستاذ الجامعي ، يحضرون ما شاءوا من المحاضرات ، ويتأخرون ما شاءوا عن موعدها ، وكأنهم لا يعرفون أن حرية التصرف لو شملت كل شيء فلا ينبغي أن تشمل حقوق الوطن فتهمل شأن دعامته المثلة في عقول رجال الغد . »

ثم استمع — يا سيدي — إلى تلك ؛ ولسوف يروقك حديثها لأنه يؤيد وجهة نظرك ويبرز البون الشاسع بين العلم النظري والتطبيق العملي . قالت هذه الفتاة : « كانت زميلتنا بمعهد التربية تؤدي أول درس عملي لها بإحدى المدارس ، ودخل المشرف حجرة الدراسة فجلس في مؤخرها ، لكنه ما كاد يستقر حتى أخذ يبدي استياءه من الدرس بشكل ملحوظ للغاية ، جعل التلميذات الصغيرات يشعرن بتقصير الطالبة المتمرنة وينصرفن عن درسها . حتى إذا انتهى الدرس وغادرنا جميعاً حجرة الدراسة ، صاح هذا المشرف في وجه الطالبة : « درس فاشل بمعنى الكلمة » وأترك لك تصور أثر هذه القذيفة في نفس زميلتنا ، وما سوف يمتد من شظاياها فيصيب الكثير من نواحي شخصيتها في حاضرها ومستقبلها ، وإنما أخبرك أنها أمضت فترة طويلة منقطعة عن الدراسة ، وأننا أمضينا وقتاً طويلا في ترميم ما حطمته هذه القذيفة ، وفي إقناعها بمواصلة الاتجاه نحو عمل التدريس بعد أن صممت على أن تتركه إلى الأبد » . وصمتت الفتاة لحظة ثم عادت تقول : « كنا نتقبل هذا من أي أستاذ إلا من أستاذ علم النفس . فبالله خبرني كيف نؤمن بعد ذلك بعلم النفس الذي يمليه علينا لو كان هذا مصير من يدرسونه في الحياة العملية ؟ ماذا لو انصرف جزء من علم هؤلاء الأساتذة على حياتهم العملية وإلا يكون لأستاذ علم النفس مركز خاص في نفوس تلاميذه ؟ مركز يطلعهم أنه لم يدرس علم النفس عبثاً ، وإنما هو يستغله في كل تصرفاته ومعاملاته ؟ ألم يكن الأولى بهذا الأستاذ أن يسلك في معاملاته السلوك الذي يحدثنا عنه في محاضراته ، فيمحو الشعور بالفشل بدلا من أن يثبته ، وهو العليم بما يترتب عليه من تثبيط الهمم وتحطيم الأمل . ألم يكن هذا أقرب تحقيقاً لهدفه كأستاذ وأستاذ لعلم النفس بالذات . »

وقالت هذه ، وقالت تلك ، وقلن جميعاً من الآراء ما لا أتمنى أن يكون تصويراً صحيحاً للواقع ، وإنما أود لو استطعت أن أومن مثلك يا سيدي بأن ليس الطلبة حكما عادلا للأساتذة ، حتى أقاوم في ذهني تصدع فكرة الأستاذية الصحيحة ، وحتى أرى أن هؤلاء الذين ذكروا أمامي ليسوا سوى أقلية شتية ندعو الله أن يوفقها إلى الطريق القويم .

لن أطلب إليك يا سيدي أن تتذكر مدى تغلغل الأستاذ الجامعي في نفوس طلبة الغرب ، فلو كان الغرب بحاجة إلى مثل هذا التغلغل مرة ، فنحن في أشد الحاجة إليه مئات المرات ، لأن الآباء عندنا ما زالوا أعجز ما يكونون عن توجيه أبنائهم وجدانياً وعقلياً . لذلك كانت مسئولية أساتذة هذا البلد ، وفي هذه الفترة بالذات ، مسئولية خطيرة كل الخطورة ، مسئولية لا تتمثل في توجيه نفس الطالب فحسب ، وإنما تمتد إلى إصلاح ما أفسدت البيئة الاجتماعية ، وكذا النفاذ إلى هذه البيئة عن طريق أبنائها ومحاولة تقويمها قدر الإمكان . ذلك أن التعليم الجامعي قد اتسعت دائرته كما اتسعت دائرة من يرغبون فيه ويتوجهون إليه ، إنما الشيء الوحيد الذي لا يريد أن يتسع له أفق هو عقول الآباء والمشرفين على توجيه الشباب .

كم أتمنى — يا سيدي — أن أرى الأستاذ الذي تكون له مدرسة بمعنى الكلمة ، مدرسة لا عقلية نظرية فحسب ، وإنما مدرسة للحياة ، يعلم فيها طلبة علمه الحياة بالحياة ، ويطلعهم على مدى تأثير علمه في حياته ، وكيف تكون حياة العالم صاحب العقلية الممتازة ، كيف لا يرى شيئاً قدر ما يرى هذا الجانب العاقل من طبيعته فيصمد أمام العواصف . كم يودي أن أرى الأستاذ ملاذاً لطلبته إذا عصفت بنفوسهم الغضة سموم الحياة .

لو عشت — يا سيدي — أن ألخص لك آفتنا في كلمة

أبو القاسم البغدادى

« شخصية متناقضة »

للدكتور عبد العزيز عبد المجيد

عرض الأشخاص عرضاً قصصياً وتحليلهم شيء جديد فى الأدب العربى ، ظهر مع ظهور التمثيلية والقصة الفنية الحديثة بأنواعها ، ولم يقصد إليه الكتّاب أو الشعراء العرب قبل القرن الحالى قصداً فنياً محضاً . وإن كان قد جاء فى أوصافهم[1] الصريحة . وأعنى بالعرض الفنى تلك الصورة الشخصية التى يعطيها الأديب الفنان لأشخاص قطعته الأدبية ، دون أن يصفهم وصفاً صريحاً . فالأديب يهيء من المواقف والظروف لأشخاص قصته ما يجعلهم يسلكون فى هذه القصة سلوكهم العادى المألوف فى الحياة تجاه أفراد آخرين من أشخاص القصة يبادرونهم عادة فى سلوكهم وأهدافهم ومثلهم . هذا السلوك الذى يتجلى فى حديث الأشخاص وأعمالهم وحركاتهم وآرائهم ، ومعالجتهم ما يعرض لهم من مشكلات ، مما يمكن القارىء — أو السامع — من الحكم على « الشخصية » ، ومكوناتها الجسمية والفكرية والمزاجية ، وعلى طراز هذه الشخصية بمقارنتها بالشخصيات الأخرى التى تتجلى وتنمو نمواً تلقائياً أثناء عرض القصة ، فى الإطار الفنى الذى وضعه لها الكاتب . فهدف الأديب الفنان والحال هذه هو الإيحاء لا العرض .

والذين درسوا « المقامات » من الناقدين الأوربيين

(١) من ذلك ما جاء فى كتاب الحسن بن سهل إلى القاضى محمد بن سماعة يسأله اختيار رجل يقوم ببعض مهامه . وفيه يصف خصائص هذا الرجل وصفاً صريحاً .

واحدة ، قلت إنها « الفراغ » . الفراغ الذى تشهد عليه دور السينما ليلا ونهاراً بنفس روادها من الطلبة . الفراغ الذى تشهد عليه المقاهى على جوانب الطرقات . الفراغ الذى تنبيه فى رأس كثير من الشباب وضيقهم بالحياة . ومن المسئول عن هذا الفراغ ؟ لقد كنت ألتقى بمجموعة من طالبات مختلف كليات الجامعة وقد جرى حديثنا عن سلوك الطلبة وزملائهن فى الكليات وخارجها ، ومبديات ألمهن لما وصل إليه مستوى الأخلاق لدى شباب اليوم . وحاولت أن أصل من حديثهن إلى فكرة عامة عن توزيع الشكوى بين مختلف الكليات ، فتبينت أن الكليات التى لا يشغل أساتذتها وقت الطلبة بأبحاث نظرية أو عملية ، تساهم بأوفر نصيب فى هذه الشكوى . ولو اقتصر ضرر هذا الابتعاد على تخريج طلبة تنقصهم الخبرة العملية ، والمقدرة على البحث الشخصى ، لكان ضرراً جسيماً فى حد ذاته ! وإنما هذا الضرر يمتد إلى الطابع الشخصى فى الفرد ، فيكاد يعدمه فى طلبتنا ، فنجدنا وقد خرجنا آلات صماء تجيد كتابة الإملاء ، وحفظ الصفحات . ولا شيء بعد ذلك ، بل يتغلغل هذا الضرر حتى يصيب الناحية الخلقية فيتيح للطلبة من الفراغ ما تنطلق فيه نزعات الشباب الطائشة دون موجه أو مشرف أريب .

ولا تحسب — يا سيدى — هذا الفراغ مقصوراً على الطلاب ، بل يشاركهم فيه بعض الأساتذة ، وإلا لما وجدت البعض يطالب بالاشتغال بالأعمال الحرة إلى جانب الأستاذية . وكأن الأستاذية بجلالها لا تستطيع أن تملك عليهم كل وقتهم ، ولو كانوا يؤدون هذه الأعمال على أن يشركوا طلبتهم فيما يعود عليهم من خبرة لهان الأمر . وإنما أجدهم كثيراً لا يهدفون إلا للكسب المادى وحده .

ماذا يا أساتذتنا لو أعطيتم الأستاذية حقها فشغلتم بها وشغلتم طلبتكم ووفرتم على الناس الكثير من أسباب الشقاء ؟ ليس هذا بفرض ثقيل على النفوس ، وإنما أقسم أن ستجدون فيه من اللذة ما يشبع نفوسكم ، لذة الواحد يرى نفسه ممثلا فى نفوس العشرات ، وموجها لأشخاص الثلث ، ثم محوطاً من الآلاف ، لذة الإنسان حين يتسع قلبه لحب الجميع ويتسع عقله لهوى الجميع ، ثم يتسع وقته لنفع الجميع . أما إذا وجدتموها ضريبة ثقيلة على نفوسكم ، فلا بأس فى ذلك ، فإنما هى ضريبة النبوغ تطالبكم بها نفوس مفتقرة إلى كل خبرة وكل غذاء روحى وعقلى ؟

منيرة حلمى

وغيرهم ، يرون أن « المقامة » كانت تكوّن أصلح نواة في الأدب العربي لنمو الأقصوصة الحديثة ، لولا ما في المقامة من قيود الأسلوب والمادة المتكلفة التي لا تتمشى مع تلقائية التعبير الفني الطلق ، ولولا ظروفها ومناسباتها الرتيبة الخالية من التنويع ، وضيق المجال الاجتماعي الذي تعرضت له المقامات في جملتها ، ولولا ما في أشخاصها من « بهوت » وعدم وضوح أحياناً ، وضحولة في عرض الخبايا النفسية والحوافز التي تلازم السلوك .

و « أبو القاسم البغدادي » من الشخصيات القصصية الغريبة المتناقضة التي حفظها لنا كتاب غريب نادر عنوانه « حكاية أبي القاسم البغدادي » . أما المؤلف فأديب اسمه « محمد بن أحمد بن أبي المطهر الأزدي » ممن عاشوا في القرن الرابع الهجري . ويظهر أنه ألف كتابه هذا في إصفهان كما يتضح من الحكاية .

والكتاب مطبوع في هايدلبرج سنة ١٩٠٢ ، قام بنشره الأستاذ Adam Mez المستشرق(١) المعروف . وقيمة الكتاب في القصة التي تضمنها ، وفي القالب الأدبي الذي كتبت فيه القصة .

يقول المؤلف : هذه حكاية رجل بغدادي كنت أعاشره برهة من الدهر ، فتصدر منه ألفاظ مستحسنة ومستخشنة ، وعبارات لأهل بلده مستفصحة ومستفضحة ، فأثبتها لتكون كالتذكرة في معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم ، وكالأنموذج المأخوذ عن عاداتهم ، وكأنها قد نظمتهم في صورة واحدة يقع تحتها نوعهم ، ويشترك فيها أشخاص ذلك النوع ، بحيث لا يختلفون فيه إلا باختلاف المراتب ، وتفاوت المنازل .

ثم يسوق لنا « حكاية أبي القاسم البغدادي » التي تشغل يوماً بأكمله منذ يقظة أبي القاسم في الصباح إلى يقظته من النوم في اليوم التالي ، في أسلوب من السجع شبيه بأسلوب المقامات ، مليء بالاقتباسات من الشعر والحكم والمثل ، ومثقل بالأوصاف الدقيقة المقذعة ، والصراحة البهيمية ، ولكنه مع ذلك كله عرض دقيق لحياة شخصية من الشخصيات — حقيقية أو خيالية — ليس له نظير في الأدب العربي ، مما جعل المستشرق مكدونالد يعتبر هذه الحكاية أول نواة للقصة الفنية في الأدب العربي .

كان أبو القاسم شيخاً ذا لحية بيضاء ، اندمج في حمرة وجه يكاد يقطر منه الخمر الصرف . وله عينان كأنه ينظر بهما من زجاج أخضر ، تبصان كأنهما تدوران على زئبق . وكان الشيخ عياراً نعاراً ، زعاقاً شهاقاً ، أديباً نحوياً ، مداحاً قداحاً ، ظريفاً سخيفاً ، نبيهاً سفيهاً .

ويبدأ اليوم ، فيدخل دار بعض الأكابر — في إصفهان — متباوتاً متزمتاً ، في نسك الأبرار ؟ عليه طيلسان قد أسبل طرفه على جبينه فغطى شطر وجهه . فإذا رأى مجلساً من أعيان الناس أخذ يهمس بتلاوة القرآن . ثم يسلم على القوم بنغمة فيها ترخيم وشجى . ويقبل على رب الدار فيقول : حيّ الله ذا الوجه السمح السلام ، وحياه بالإكرام . ويستمر في قراءة القرآن . ويجهر بالآية (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . يقرؤها بنغمة تشجي الحاضرين ، ويتفنن في إلقائها أنغاماً تخرق الدموع ، إلى أن يلحظ واحداً من القوم مبتسماً فيقول : يا قاسي القلب ، أ كل هذا الطرب بعد قتل الحسين ، لا حول ولا قوة إلا بالله :

لعن الله من يعادي علياً   وحسيناً من سوقة وإمام

ثم يقبل على الجليس ويسأل : من هذا ؟ (مشيراً إلى أحد الحضور) .

فيقال : فلان المتصل بصاحب الديوان . وهو إنسان خطير . فيقول الشيخ : وإيش على من هذا ؟ بعرة بعير في الدر الكثير . ما بقي بعد النبي والصحابة من على وجهه مهابة .

ثم يقبل على آخر ويسأل : ومن ذلك ؟ فيقال له : إنسان يمزح ويتطايب . فيتجه نحوه مخاطباً :

أيا شراً بلا خير   ويا شيناً بلا زين
ويا أبغض من يمشي   على الأرض برجلين
ويا أثقل من ربع   كثيف بين داوين ... الخ

فيقول الرجل : صن نفسك واعرف أولاد الناس .

---

(١) من مؤلفاته كتاب : Renaissance des Islams
وما زال كتاب « حكاية أبي القاسم البغدادي » مليئاً بالأخطاء . ومنه نسخة خطية في المتحف البريطاني .

فيجيب أبو القاسم : وأنت إيش عليك من الناس ؟ تذكرهم ولست منهم . ياسادة ! العجب هذا يحسب روحه من الناس ! إن كنت إنساناً فأين الذى لا يحسب الكلب من الناس ؟

ويستمر ينعته بأقبح الأوصاف ، ثم يخاطب صاحب الدار قائلا : ياسيدنا هذا الرجل ما حضر السلام عليك ، إنما حضر لحاجته إليك . ألحقه بالغداء ، وإلا لحق بأهل البلاء .

ثم ينظر إلى رجل فى المجلس يخدم الداخلين ويكرم الناس فيقول : وهذا أيضاً ، إيش هو ؟ فيقولون له : هذا وكيل صاحب الدار الذى يحضر ما يحتاج إليه من الطعام والشراب والقيان . فيقول : زه ثم زه . هذا صاحب الدلالة وحامل الرسالة . هذا الذى يجمع بين القلبين المتقلبين .

يكاد من لطف ومن حيلة

يجرى من الإنسان مجرى الدم

وينظر إلى أمرد فى المجلس ويسأل : وذا من هو ؟ فيقال له : إنك تعرفه . فيقول : نعم أعرفه وهو صبى . هذا والذى تحق رينه وتهدى سقيته .

فيقول صاحب الدار : يا أبا القاسم ، ما بقى فى المجلس واحد لم تذكره غيرى . فيقول الشيخ : ياسيدنا ، وما عسى أن أقول فيك إلا كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » ويستمر فى وصف الأخلاء بأشنع الأوصاف . فيقال : يا أبا القاسم : إيش تعمل ؟ وما وصيتك حتى نكون ناساً فيهم خير ؟ فيقول : إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء . ومع هذا فوصيتى أن من كان منكم ذا مال فلا يخلفه لوارث لا يترحم عليه . ومن كان منكم فقيراً فليستقرض ولا يبال بكثرة الغرامة والمطالبين . اشتروا فى أكل الطيبات ، وشراب المسكرات ، وسماع المطربات المحسنات و .... تمتعوا بالجوارى والغلمان . فيضحك واحد ممن فى المجلس ويقول : دعونا من أبى القاسم وحديثه . الجو اليوم طيب ، والهواء صاف .. فيقول الشيخ : ويحكم — يا أهل إصفهان — تجالسون الناس ولاتتأدبون بآدابهم . الشوك — ياسيدنا — لو صببت عليه طوفاناً من ماء الورد ما أخرج إلا شوكا .

يا سائلى من إصفهان وأهلها

حكم الزمان بنحسها وخرابها

شبانها ككهولها ، وكهولها

كشيوخها ، وشيوخها ككلابها

والله ما أنسى بغداد وزبق ، بغداد أرض الخلد . هى الأمل والمنى ، والغاية القصوى . وينطلق فى مدح بغداد وذكر محاسنها ، وحنينه إلى أهلها ، إلى أن يقول :

إذا ذَكَرَتْ بغـداد نفسى تقطعت

من الوجد ، أو كادت تذوب بها وجدا

ويصمت ساعة ثم يفيق ، ويخاطب أهل المجلس قائلاً : حقاً — يا أهل إصفهان — ليس لكم أصل بين الملوك ، لا فى معارضكم ، ولا منافعكم ، ولا شرابكم ولا طعامكم ... كأنما خلقتم عبثاً .. لا أرى على بدن واحد منكم ثوباً سندسياً ، ولا فى بيوتكم بيتاً جميلاً ، ولا فى طعامكم طعاماً مرياً ، ولا كاسات تدور ، ولا زجاجاً مليحاً من بلور ، ولا فى مجالسكم مطرباً معرباً ، ولا مغنية بغدادية . ويستمر فى سخطه مقارناً بين بغداد ومتعها وإصفهان وقبحها وغثاثتها ، ويسوق أحاديث لهوه ومتاعه فى العراق ومجالسها ومغانيها ، وشرابها وكبابها ، وروحها وريحانها . ثم يقبل على صاحب الدار ويقول : لقد صدعتنا ، آتنا غداءنا . فيجىء غلام ويقول : تفضلوا الطعام . فيقف أبو القاسم قائلاً : قل جاء الحق وزهق الباطل ، ويقبل على المائدة وعليها أصناف اللحوم والشواء والطيور والفواكه والشراب . فيطمئن إليها ويقول : شىء مليح ، مروءة عظيمة ، كأنه والله طلع نضيد ، كأنه نور الربيع ، كأنه زهر الرياض .. فيهجم على الطعام يتناول أطايبه واصفاً كل لون من ألوانه فى شعر رفيع ونثر بديع . ويشرب ويقول : والله إنى أظلم أهل إصفهان . عمر الله إصفهان ! ماؤها الماء العذب ، وجليدها البلور الرطب ، ثم والله أوانيها ومغانيها . حصاها جوهر ، وترابها مسك ، قبلة الحامد وكعبة القاصد .. فيها والله ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون . ياسادة إصفهان ،

وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . فيقال له : يا أبا القاسم أما كنت تقول في بغداد شيئاً من هذا ؟ وكنت تعيب إصفهان ؟ فيقول :

لنبعة من نواحي إصفهان أرى
وبائس من قفار غير محروث
أشهى إلي وأحلى ما أقمت بها
من كرخ بغداد ذي الرمان والتوث

ويستمر منشداً أشعاراً منها :

أطال الدهر في بغداد همي وقد يشقى المسافر أو يفوز
ظللت بها على كرهي مقيماً كعنين تعانقه عجوز

ويعود فيقول في بغداد ما كان من قبل يقوله في إصفهان .

ثم يؤتى بالشطرنج فيلعب بقطعه كما يلعب بالألفاظ وعبارات المدح والقدح ، حتى إذا جاء العشاء أعاد مجلس الغداء من الوصف والدعابة المكشوفة ، والملق ، والنكتة البارعة . ثم يقال له أثناء المحاورة : يا أبا القاسم تعرف شيئاً من السباحة ؟ فيقول : يا أحمق ! أنا والله أسبح من الضفدع ، ومن التنين . أعرف من السباحة أنواعاً لم يحسنها قط ، سمك ولا بط . ويذهب يعدد فنون السباحة وأصحابها ، والسفن وأنواعها ، ومهنها وسيرها . ثم يعود إلى تقريظ إصفهان وما كتبها . ويشرب أقداحاً ويطرب . ويثني على صاحب الدار بما ينبئ عن صدق الولاء ، ويقول له : يا سيدنا ، متعك الله بهذه المحاسن ، وبهؤلاء الفضلاء .

والله ما للعيش بعدكم
ومجالس اللذات من طعم

ثم يشرب ويطرب ، ويسوق الشعر وصفاً في الكأس والطاس ، والقينات والجواري ، ويلغو ويسرف في اللغو والهراء ، ولكن في شعر وفكاهة ، ونادرة لاذعة .

ويجتمع القوم ويقولون : إيش نعمل للتخلص منه ؟ فيقر رأيهم على أن يُسقى أقداحاً حتى ينام . فيتناولون عليه يناولونه كأساً بعد أخرى ، وهو يقاوم السكر ، وينشد الشعر اللاذع للجن ، ثم يشرب إلى أن لا يبقى في بدنه عرق ينبض ، ثم يفيق ويقول : يا كلاب ، يا ذئاب ، يا قرود يا يهود ... يا بقايا عاد وثمود ، خذلكم الله ، أخزاكم الله . ويغفو ويفيق ويقول : يا قوم ! قد بلغنا من السكر الحد الذي يوجب الحد ، ولكن اعلموا أن العيش لا يكون إلا مع الطيش . ويستمر في شعره ونثره . فإذا قيل له : ويحك إلى متى هذا السخف ؟ قال :

شيخ سخيف ولكن يأتي بسخف مليح

ولا يزال يسخف ويخرف حتى يقع من الجهد والإعياء . فيحمل إلى حيث ينام .

ثم يجيء الصباح فيُسمع أول ما يسمع صباحُه قائلاً : أصبحنا وأصبح الملك لله . . مرحباً بالنهار الجديد ، والكاتب الشهيد . اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، يقول أبو القاسم أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون . فيسمعه واحد من الجماعة ، ويضحك . فيقول أبو القاسم : ويحك ! أكلُّ هذا الطرب بعد قتل الحسين الذبيح ، عليه وعلى آبائه السلام .

لعن الله من يعادي علياً
وحسينا من سوقة وإمام

وبعد فهذه شخصية أبي القاسم البغدادي يدركها القارئ من حكايته التي لخصتها في أقصر عبارة ، وهي نوع من الأدب القصصي — كما قلت — لم يتح له النمو والتطور لقيود الأسلوب المتكلف ولعوامل أخرى يضيق المقام عن ذكرها هنا . وعندي أن أبا القاسم شخصية خيالية ، وأن المؤلف بالغ في عرضها ، وتجنى على أهل بغداد ، بلد الخلافة والعلم ، والتقوى ، والمرح ، والطرب .

عبد العزيز عبد المجيد

جزيرة طير البطريق The Penguin Island

لأناتول فرانس

للأستاذ مبارك إبراهيم

أراد « أناتول فرانس » بوضعه لهذه القصة التي تقوم على السخرية اللاذعة والتقريع العنيف أن يجعل منها تاريخاً لفرنسا . وأن يُضفي على هذا التاريخ حلة رمزية .

وقد جاء فيها أن مبعوثاً غيوراً من مبعوثي إحدى الجماعات الدينية المسيحية — وقد سماه « سان مايل » — قد أخطأ فحسب سكان هذه الجزيرة وكلهم من طير البطريق قوما من الوثنيين ، ولما أمامه يستمعون إلى خطبه فيحسنون الاستماع وينصتون إلى مواعظه فيحسنون الإنصات ، فقد أجرى عليهم جميعاً طقوس المعمودية . وتم له ذلك في ثلاثة أيام وثلاث ليال . ثم اجتمع في السماء جماعة من العلماء الأعلام لينظروا فيما سوف تستتبعه هذه الغلطة المشئومة التي اجترحها صاحبها بحكم العمى والشيخوخة . ورأت تلك الجماعة أن تلك المعمودية التي جانبها التوفيق صحيحة مقبولة ، وأن الشيء الذي لا مفر منه ولا معدى عنه هو أن توهب تلك الطيور أرواحا آدمية .

ثم أخذ « سان مايل » بأطراف تلك الجزيرة فوصلها بأطراف القارة الأوربية ، وبدأ طير البطريق تاريخهم الإنساني وارتدت تلك الطيور التي حلت بها أرواح آدمية ثياباً كتلك الثياب التي يرتديها الناس . وما إن ارتدت إناث تلك الطيور الملابس حتى استيقظ الوحي الإنساني لمفاتن النساء وشهوات الرجال . ثم لحق بتلك الأسراب من الطير ما يلحق عادة بالأقوام من الناس من نقائص الحضارة ومعايبها . ثم اضطرت تلك الأسراب — على مر الزمن — إلى تقنين القوانين . وذلك على أثر ما ارتكبوه من جرائم النهش والعض فيما بينهم . ثم تبع ذلك صدور قانون التمليك . وذلك عند ما وضع الأقوياء منهم أيديهم على الأرض غصباً وقسراً . ثم بدأ أقوى أولئك القادرين بإنشاء أسرة من النبلاء .

واتخذ النظام الضرائبي طريقه التاريخي . وهو أن يقع عبء الضرائب على كاهل الفقراء ؛ ذلك لأن الأغنياء والنبلاء يعلنون دائما أنهم معفون من الضرائب كلها .

ثم يجيء « أناتول فرانس » في الفصل الذي عقده على تاريخ العصر الوسيط بما يثير الضحك من الخرافات التي ألصقت ظلماً بالدين . ثم يقص بعد ذلك قصة الحروب والمجازر . حتى إذا وصل إلى العصر الحديث قص على الناس أحاديث أمجاد « ترينكو » (نابليون) الذي فتح نصف العالم وألحقه بمملكته ثم خسره آخر الأمر . ثم يجيء بتفصيلات قضية « بيروت » (دريفوس) .

ثم يقص بعد ذلك قصة حروب الصناعات ، ومنها صناعة القطن ، وصناعة الفحم ، وصناعة الحديد ، وهي الحروب التي استشهد في سبيلها ألوف وألوف . وذلك لضمان السلامة والبقاء لصناعة المظلات ولصناعة المطاط .

ثم يذكر الكاتب أنه قد أصبح لطير البطريق « اتحادات الشركات » كما أصبحت لهم بنايات كبرى من « ناطحات السحاب » كما أصبحت لهم براعة لا تنكر في صناعة المتفجرات حتى لقد بات ميسوراً لأية أقلية صغرى من الأقليات الثائرة أن تدمر الثروات كلها ، وذلك بنسف العالم كله في ثوان . حتى إذا تم ذلك نبتت الحشائش مرة أخرى فوق الأرض التي تقوم فوقها مدينة باريس . . .

وفي آخر فصل من فصول القصة يتنبأ الكاتب لطير البطريق بتاريخ لا تنتهي أحداثه ومصائبه . وبتعاقب أدوار متتابعة : حضارة ! ثم حرب ! ثم دمار !

هذه هي الخطوط الرئيسية لتلك القصة . وإلى القارىء فصلا من فصولها نسبقه كلمة موجزة عن « أناتول فرانس » .

ولد أناتول فرانس عام ١٨٤٤ وكان أبوه كتبيا يبيع الكتب . وأناتول فرانس هو الوارث لسخرية « مونتاني » و « فولتير » و « رينان » .

وقد كان إنتاجه خصباً . ولكنه إنتاج تشوبه شوائب من التهكم والتشاؤم .

ومن الأقوال المأثورة أنه لولا « سويفت » الكاتب الإنجليزي الساخر لما كان فولتير ، ولولا فولتير لما كان أناتول فرانس . ولولا هؤلاء لما عرفنا الفرق بين السيف والعصا في ميدان المجادلة وقرع الحجة بالحجة .

وقصة « جزيرة البطريق » قد تكون أكثر قصص « أناتول فرانس » نبضاً بالسخر . وقد اتخذ كتاب آخرون بعدها خيالية ميداناً لعرض آرائهم عن الناس والأشياء . ولكن أناتول فرانس كان أكثرهم رضى وقناعة بخيالية من طير البطريق أجريت عليهم طقوس « المعمودية » واتخذوا كساء من الحضارة وانزلقوا في مزالقها .

وحدثنا « أناتول فرانس » في قصته عن الملابس الأولى فيقول : —

كان القديس « ماييل » جالساً ذات يوم على شاطئ البحر فوق حجر يشع منه الدفء . وكان يظن أن الدفء أثر من آثار حرارة الشمس . ولم يكن يعرف أن إبليس كان منذ قليل يستريح فوق ذلك الحجر . وسرعان ما رأى القديس راهباً اسمه « ماجي » يتوجه إلى ناحيته وهو يحمل صندوقاً فوق ظهره . فلما اقترب منه ألقى بالصندوق على الأرض ومسح جبينه بكم قميصه وقال :

— والآن أيها الأب ، أتريد أن تكسو طير البطريق ؟

— نعم يا بني ! إذ لا شيء أتم لهم من الكساء ، فهم منذ دخلوا أفراداً في أسرة « إبراهيم » قد حقت عليهم اللعنة التي حلت بأمهم حواء ، فأصبحوا يحسون أنهم عُراة . وهذا ما كانوا يجهلونه من قبل . وقد حان أوان كسوتهم لأنهم قد فقدوا رشدهم منذ تركوا هيئة الطير واتخذوا هيئة بني الناس .

قال الراهب : ولكن ألا ترى أيها الأب أن من الخير أن يتركوا عُراة ؟ وعلام تكسوهم ؟ إنك إن كسوتهم تلغ منهم الزهو مبلغه . وتملكهم ألوان من النفاق ، وضروب من القسوة .

فتنهد القديس وقال : أكذا يكون فهمك السيء لما تحدثه قانون الأخلاق من آثار . وهو القانون الذي يخضع لحكمه الناس كلهم حتى الوثنيون منهم ؟

قال الراهب : إن قانون الأخلاق يضطر الناس الذين هم — في الحق — وحوش إلى إنكار طباعهم . ولا شك أن هذا الإنكار مؤد إلى تقيدهم بالقيود . ولكنه في الوقت ذاته مؤد إلى إشاعة القلق من ناحية وإلى بث الطمأنينة في نفوسهم من ناحية أخرى . ولذلك فإنك تراهم يجمعون بين خلال الكبر والجبن والولع باللهو أشد الولع .

والرأي عندي أيها الأب أن تفكر ملياً قبل أن تقدم على ما أنت بسبيله . فلا يزال في الوقت فسحة ! واذكر أنك إذا كسوت الطير فقد خلقت مشكلة من أعقد المشاكل . . .

وإني لقائل لك إني أرى في هذه اللحظة زوجين أو ثلاثة أزواج من طير البطريق يتغازلون فوق الرمال . وهم يمثلون البساطة في أجل مجاليها .

ولن تجد من الناس أحداً يلقي بالا إلى ما يفعلون ، فاصبر عليهم يا سيدي الأب . وأمهلهم — بعد أن تكسوهم — ألف عام . وسترى ما سوف تفعل الملابس بإناث تلك الطيور . وإني لأرجو أن تأذن لي بأن أتنبأ بما سوف يكون : ولنبدأ بأن نأخذ واحدة من إناث طير البطريق ! ولكن اختيارنا لها خبط عشواء . ولكن هي من اللائي يلفتن — إلى حد ما — أنظار الذكور من بني جنسها . ولنكسوها بالقدر الذي نستطيع . وهاهي واحدة مقبلة علينا . وهي ليست بأجمل ولا أقبح من أخواتها ، إنما هي فتية السن . ولكني أرى أن أحداً لا ينظر إليها . وهي تمشي الهوينا على الساحل ، وهي تحك ظهرها وأنفها .

وأنت أيها الأب إذا رأيتها رأيت كتفين ضاقت مسافة ما بينهما ، ونهدين ضخمين ، ورأيت سماكة وبدانة ، ورأيت ساقين قصيرتين ، ورأيت ركبتين قد خالطتهما حمرة ، ورأيت في كل مفصل من مفاصلها شيئاً يحسبه الرائي رأس قرد ؛ فإذا بدأت المشي اشتركت كل عضلة من عضلاتها في هذه المهمة . وإني لأريتك أيها الأب الموقر ماذا أنوي أن أفعل بها . ثم قام الراهب فأمسك بتلك الأنثى ووضعها بين يديه ، ثم رمى بها تحت أقدام القديس ، وبينما هي تبكي وتتوسل إليه ألا يمسها بسوء ، وقد بلغ الذعر منها مبلغه ، أمسك الراهب زوجين من النعال وأمرها أن تنتعل ، فلما انتعلت بدت ساقاها وقد اكتسبتا أناقة لا عهد لهما بها . وخالط الأنثى الزهو فنظرت إلى الصندوق المفتوح فألفته مليئاً بالجواهر والحلي ، فابتسمت من خلال دموعها .

وأمسك الراهب بشعرها فعقده ضفائر تغطي ظهرها ، ثم أضفى عليه إكليلاً من الزهور ، وطوق معصمها بأساور

من ذهب ، وجعلها تقف منتصبة القامة ، ثم جاء بنطاق كبير من نسيج الكتان وأداره تحت ثدييها ، وهو يريد بذلك أن يجعل خصرها نحيلاً ، وردفها ثقيلاً ، ثم جاء بدبابيس وثبت بها ذلك النطاق ، وكانت هي تقول له : ويحك أن تزيد في تضييق النطاق !

وبعد أن تم له ذلك أسبغ عليها قميصاً في لون الورد ، وكانت هي تميل برأسها تارة إلى الشمال ، وتارة إلى اليمين لتستوثق من بديع زينتها . ثم سأل الراهب أنثى الطير : ألا ترين أن الفستان هو أطول قليلاً مما يجب ؟ قالت : بل إنه قصير ! ومهما يكن من شيء فإني أستطيع أن أرفع أطرافه بإحدى يدى ! وما لبثت أن أمسكت بطرف الفستان وسحبته حول فخذيها جاعلة همها أن تلقي بنظرة إلى عقبيها ، ثم سارت في طريقها وهي تمشي بخطوات قصيرة ، وهي تهز أردافها ، ومرت وهي في طريقها بجدول ماء فألقت بنظرة من نظراتها إلى صورتها منعكسة في ذلك الماء .

ثم جاء ذكر من طير البطريق كان قد لقيها اتفاقاً ، فوقف ذاهلا واقتفى آثار خطوها ، فلما وصلت إلى الشاطئ تبعها كل من كان يصطاد السمك من الطير ، كما سار وراءها أولئك الذين كانوا يفترشون الرمال ؛ ولم ينقطع سيل المعجبين ، ومنهم من نزل من قمم الجبال ، ومنهم من انفلتت منهم أخاديد الصخور ، ومنهم كل بناء وغواص . وعلى الرغم من ذلك كله فإن تلك الأنثى قد مضت في طريقها هادئة مطمئنة ، وكأن الأمر لا يعنيها . . .

والآن فانظر أيها الأب الموقر كيف يتوجه كل فرد من ذكور الطير إلى ناحية ومركز الثقل وتلك الأنثى الصغيرة بعد أن كسوناها ، حتى إذا غابت عن أنظارهم بدأوا يفكرون فيها بعقولهم ؛ وإني لا أدري ، تسبى فإني أراني مدفوعاً بدافع لا يقاوم إلى النظر إليها وإلى التفكير فيها . وإني لأحس أني لو عانقتها لكنت كمن عانق دنيا السرور بأسرها .

ثم قام الراهب من مجلسه ، وذهب إلى حيث احتشد الذكور حول تلك الفتاة ، فأمسكها وألقى بها في كهف خلقه المد في إحدى الصخور . وسرعان ما أحس القوم المعجبون أن الشمس التي كانت تشرق عليهم قد غربت . وعندئذ أحس القديس أن إبليس قد اتخذ من الراهب (مايل) مثالا له يمشى على الأرض وذلك ليستطيع أن يلبس تلك الأنثى ثياب النساء ، فأحزنه هذا الأمر وأقض مضجعه ، وما راعه وهو يسير في طريق صومعته إلا رؤيته لسرب من أخوات تلك الفتاة وكلهن في سن الساجة ، وقد ضيقن خصورهن بأن لففن عليها نطقاً صنعنها من أعشاب البحر . ومشين يختلن في زينتهن وينظرن هل يتبعهن أحد من المعجبين ؟ فأيقن القديس أن اكتساء النساء قد غيض من تواضعهن ، ومع هذا فقد رأى أن لا ينكص على عقبيه ، وأن يسير فيما اختطه من خطة إلى آخر الشوط . فأمر بأن يشهد الطير جميعاً اجتماعاً أعده لهم ، ثم أمر بالثياب فوزعت عليهم ذكوراً وإناثاً ، فارتدى الذكور أقمصة قصيرة الأكمام وسراويل قصيرة الأذيال ! وارتدى الإناث فساتين طويلة الذيول ، ولكن هذه الفساتين لم تحدث الأثر الذي أحدثته ملابس الأنثى الأولى فبدون جميعاً وقد جانبهن الأناقة ، وكانت أشكالهن غير متناسقة فلم يلتفت إليهن أحد .

وفي صباح من أصبحة الخريف ، وبينما كان القديس المبارك يجوب وادى (كلاج) وبصحبته راهب اسمه (بولوك) إذ رأى عصابات من الرجال يثير منظرهم الرعب والفزع وقد ساروا وهم يحملون حجارة وحديداً ، وفي الوقت ذاته سمع من يمينه وشماله ومن خلفه ومن قدامه صراخاً يصم الآذان وشكايات تتجاوب أصداؤها في أرجاء الوادى ، وهى تصعد إلى السماء المطمئنة ، فقال لصاحبه : إني أرى يا ولدى والحزن يمضنى أنه منذ أصبح الطير من سكان هذه الجزيرة رجالا من الإنس فاض من الجزيرة معين الحكمة ، وقد كانوا وهم طيور لا يختصمون إلا في موسم الحب والزواج ، ولكنهم اليوم قد أصبحوا قوماً متشاكسين ، فهم يختصمون أثناء الصيف ، وهم يختصمون إذا جاء الشتاء ، وقد نسوا أيام السلم يوم كانوا وكأنهم شيوخ في جمهورية قد أوتى رجالها الحكمة وفصل الخطاب .

ثم استطرد القديس يقول للناس : أنظر يا ولدى إلى ناحية المدينة ترى في واديها الجميل حفنة من ذكور طير البطريق — وقد أصبحوا ناساً — يضرب بعضهم بعضاً بالمعاول والفئوس ، وقد كان أليق بهم وأجدى عليهم لو أنهم حرثوا بها الأرض فتنبت لهم حدائق ذات بهجة ، وتنبت لهم من كل زوج كريم . . . ثم انظر يا ولدى ترى النساء أشد قسوة من الرجال ، وهن يقطعن بأظفارهن وجوه اللائى يخاصمنهن .

قال الراهب : الرأى عندى أن الرجال والنساء إنما يتخاصمون بحكم عداوة الحرفة أو بدافع الاهتمام بشئون المستقبل ، وإنه لمستحيل على الناس وهذا شأنهم أن لا يفكروا فى أمر ملكية الأشياء ، وإنك لترى أيها الأب الموقر أن هؤلاء الناس يقسمون الأرض فيما بينهم .

فقال القديس : ألا يستطيعون تقسيمها فى غير عنف ؟ إنى أراهم — وهم يتعاركون — يتبادلون الشتائم والسباب ، ولست أستطيع تمييز كلامهم ، ولكنى أرى من نشاز النغم أنها كانت شديدة قاسية . فقال الراهب :

إنهم يتهمون بعضهم بعضاً بالسرقة ، وسلب الحقوق .

فزفر الشيخ وتنهد وقال : ألا ترى يا ولدى ذلك الرجل المجنون الذى يقضم بأسنانه أنف خصمه ؟ وألا ترى ذلك الرجل الآخر الذى يدق رأس امرأة بحجر كبير ؟

قال الراهب : إنى أراهم . وإنى لأحسبهم بذلك يخلقون القوانين وينشئون الملكيات الفردية ، ويقيمون مبادىء الحضارة ويقعدون قواعد المجتمع ، ويضعون أسس الحكومات والدول .

قال القديس : وكيف يكون ذلك ؟

فأجابه الراهب : إنهم بوضعهم العلامات المبينة لحدود كل حقل من الحقول إنما يضعون أساس كل حكومة ، وهم بعملهم هذا يؤدون أكبر الوظائف شأناً وأعظمها قدراً ، وسوف يفرغ الحامون فى كل عصر من العصور المقبلة لصيانة تلك الحقوق ، وسوف يفرغ القضاة والحكام لتدعيم بنيان تلك الحقوق .

وبينما كان الراهب ينطق بهذه الكلمات مر طائر كبير من طير البطريق ناصع الجلد . أحمر الشعر وهو يهبط إلى الوادى حاملا فوق كتفه جذع شجرة ، وسار إلى حيث كان طائر صغير يسوق الحشر فى الحقل الذى يملكه ، وتكاد الشمس تقتله بحرها ، وصاح الطير الكبير قائلا : هذه الأرض أرضى ، ثم أتبع هذا القول بأن أهوى بجذع الشجرة على رأس الصغير فسقط هذا وقد فارقته الحياة فوق الأرض التى مهدها تمهيداً .

وما إن سمع القديس بهذا النبأ حتى انتفض انتفاضة اضطرب لها جسمه كله . ثم فاضت دموعه حزناً وأسى ، وفى صوت كاد يحبسه الخوف والفزع توجه إلى الله سبحانه بهذه الصلاة :

« أسألك اللهم يا من تقبلت القربان من هابيل ، ويا من أنزلت لعنتك على قابيل ، أن تنتقم لهذا المقتول ظلماً ، وهو الذى قضى بحياته فوق الأرض التى كان يزرعها ، فليست هناك جريمة فى حق عدلك أشنع وأفظع من هذه الجريمة التى جمعت بين القتل والسرقة » .

قال الراهب : أرجو أيها الأب الموقر أن تعلم أن ما تسميه قتلا وسرقة إنما هو ما يسميه الناس الحرب والفتح ، وهما من الأسس المقدسة فى بناء الإمبراطوريات . تلك الإمبراطوريات التى نبعت منها كل الفضائل الإنسانية وشع منها كل ضوء من أضواء العظمة . واعلم يا سيدى — وقيت الشر — أنك بلومك الطائر الكبير إنما تهاجم قانون الملكية الفردية فى أصله وصميمه ، وليس يعنينى أن أشرح لك المسألة . فاعلم يا سيدى — علمت الخير — أن حرث الأرض شىء ، وأما ملكيتها فشىء آخر ، وهذان الشيئان لا يجب الخلط بينهما .

أما فيما يتعلق بالملكية الفردية فإن حق المالك الأول ليس حقاً ثابتاً ، بل هو حق غير مقطوع بصحته . أما حق الغلبة والفتح فهو حق دعائمه أكثر ثباتا وأمتن بنيانا . وهو الحق الوحيد الذى يليق الاحترام . ذلك لأنه الحق الوحيد الذى يظفر لنفسه باحترام الناس .

وأرجو أن تعلم يا سيدى أن الأصل الوحيد الثابت للملكية الفردية هو القوة . فهى التى ولدته . وهى التى قامت على صونه ورعايته . ومن ثم جاء المثل الذى يقول : « إن من يملك إنما هو الرجل القوى النبيل » .

وهذا الطائر الكبير الذى أهوى بهراوته الضخمة على رأس الطائر الصغير إنما هو أول منشىء لبيت من أنبل البيوت على ظهر هذه الأرض . وإنى لأهنئك يا سيدى الأب على وجوده .

ثم غادر الراهب مكان الشيخ وذهب يخاطب القاتل بقوله :

« أيها السيد العظيم المهيب : إنما جئت أنا لأقدم فروض الولاء لباعث القوة التى تستند إلى القانون ، ولموجد الثراء الذى سوف يرثه أولاده وحفدته ، وإن رأس ذلك الطائر الحقير الذى أثقبت به ودفنته فى ثرى حقلك سوف يظل شاهداً لا تنكر شهادته على تثبيت حقك وحق أبنائك وحفدتك فى هذه الأرض التى تشرفت بتملكك إياها . فليبارك الله لك فيها ، وفى أولئك الأبناء والحفدة ، وليجعلهم حكاماً على هذه الجزيرة ... »

أما الأب الموقر فلم تقنعه حجج الراهب ، ولكنه وقد تنبأ بأن ما يقول به هذا الراهب سوف يكون الرأى الذى عليه المعول فى الجماعات المتحضرة فقد أضفى على ذلك الراهب لقب « موجد القانون المدنى فى جزيرة طير البطريق » .

مبارك إبراهيم

لِمَـــن

مجموعة من الشعر الرمزي للأستاذ ألبير أديب منشئ مجلة الأديب ببيروت
ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر . ص ١١٨ من القطع الصغير سنة ١٩٥٢

للدكتور الشاعر زكي المحاسني

إذا صدقت نظرة المحدثين من علماء الأدب في أن الشعر كان أول آثار الأدب الإنساني ، فإن في أساته وجود الأوزان والقوافي . لأنه ، كما يقول هؤلاء العلماء ، متحدر من الرقص والموسيقى منذ رقصت الأمم البدائية وغنت .

وعلى ذلك فقد توارثت الشعر الأمم حاضراً عن غابر في صورة منظومات خاضعة للوزن والقافية والمقاييس ، ومن خلال أدب الأمم أناس نفضوا عنهم ثقل هذه المقاييس فآثروا الحرية في الشعر والانطلاق من قيوده . لقد أحبوا الخلاص من أصفاد الألفاظ ، فجاءوا بضرب من الكلام سموه الشعر المطلق ، وقد صنع هذا نفر في أدب الغربيين ، وجاء سائقاً ما صنعه بودلير في قصائده المكتوبة نثراً . حتى كان عصرنا وأدبنا الحديث فهبت طائفة من المحدثين العرب تصنع هذا الصنع في آثارها . تنطلق من أصفاد البحور العربية وموازين القريض ، وقد ملت سيبلها ، فلا هي أحسنت اللقاء مع الأوائل ، ولا هي جاءت بعجب جديد . فساء حكمي على هذه الطبقة وانصرفت عن قراءة آثارها . حتى أخذ الأستاذ ألبير أديب ، أحد بناة الأدب الحديث في لبنان يجري على هذا الغرار ، فأعاد إلى نفسي الأمل وأصبحت إذا قرأت له شيئاً أو بعض شيء فيما كان يطرحه مطارح هذا الكلام في التعبير عن خواطر نفسه وخوالجها ، أحس الراحة لما أقرأ ، أو ينطلق فكري وراء معانيه السائغة .

وقد أخرجت له دار المعارف بمصر بالأمس مجموعة من هذا الشعر الرمزي المطلق . فمضيت في قراءتها حتى أتيت عليها فإذا أنا تلقاء مسرح فني يتراءى على الآفاق ، وتتماوج فيه تهاويل الحياة والموت والشعور والهواجس . ولا أشك في أن كل كلمة من كلماته كانت تحمل التعبير المشبع الذي أراده صاحبها ، وههنا أجدني في حيرة من أمر النقد والإفاضة عما أشعر ، فنحن أحببنا الشعر الموزون المقفى الذي يصور البدائع ويبعث روح الفن في الوجود ويثير أعماقاً من التفكير الذي لا تعسف فيه ، وقد ألفنا هذا الشعر الذي وصل إلينا مع مواريثنا العريقة في تاريخ أدبنا العربي منذ امرىء القيس إلى شوقي . فإذا هتف شادٍ بشعر غير موزون ولا عليه قافية لم نطرب له ، وما وجدنا إلى اليوم المغني الذي يجسر على الصيحة بألاحين غير موزونة ، ولم يصنع المغني ذلك وليس له ما يستقر عليه من الأنغام بعد أن يفتقد الوزن والقافية ، وكيف يستطيع شاعر أن يقوله وقد تعطل فيه عنصراه الأصيلان . ما أشبه هذا الشاعر وذاك المغني بطير مقصوص الجناحين . كل ذلك مواريث وعادات صقل الزمن شاعرنا عليها وعودنا أن نأنس بالشعر وهو متدثر في بردين من الوزن والقافية . لكن هذا التراث حين يبدو لنا عارياً يفزعنا منظره لأننا لم نألف تعريه . فهو كالشجرة ، جمالها بورقها وأثمارها ، ولو أن هذه الآثار حين خلقت خلقت عارية فرعاء حتى ألفنا عريها وانطلاق غصونها ، لبدا الطرف عنها وهي كاسية مثمرة . كل ذلك أقوله لا لأدافع عن كتاب ظهر حديثاً في عالم الأدب . ولا لأصد عنه ما قد يكون من ثيار الناقدين حين يثورون مستمسكين بميراث الوزن والقافية ! فليس في جانب الرضاء من هذا الشعر إلا القليل ممن

لا تعوق أذواقهم عروض البحور . لقد قرأت كتاب « لمن » فبدا لي عمق في ما أقرأ وخيال وثاب . نرى أكان يسحرنا الشعراء كثيراً بتنميق الوزن وتزويق القافية وتسابيح الصناعة حتى كنا نتقصى ذلك الطعام من كثرة ما عليه من أفاويه وتوابل . لقد جاءنا الأستاذ ألبير أديب بشعر منثور كأنه أزاهير لا تضمها طاقة ، أو كلمات لا ينتظمها سلك على جيد ، وإنما يضمها صاحبها على راحتيه متوهجة سابية . هنالك يصح أن يعطى الحكم الحقّ على القول وهو يبدو شعوراً محضاً وفكراً مجرداً .

حين انتهيت من قراءة القطعة التي عنوانها « أنغام وألحان » أخذت أفك الرموز التي نسجها عليها قائلها ، فتراءى لي الشاعر الذي قصده وصوره . كذلك كانت تسبح روحي في تهاليل ذلك الشاعر حين كنا تحت جنح مساء يقرأ لنا قصائده . وكنت مثل الأستاذ ألبير أديب يخشع قلبي لإنشاده . وكنت أتخيل عند تلك العشيات اللبنانية أنه أحد حفدة أبولون وقد تحدر إلى شطوط بيروت من صوب جبال الإغريق .

لا أشك في أن الأستاذ ألبير أديب قد تأثر حيناً من الزمن في أقواله هذه بمنظومات بيير لويس ، وبخاصة أقوال بليتيس القبرصية . ففي أقوال بليتيس وصديقتها منازيديكا تلاوين من هذه الرموز الحلوة المتاوجة التي يشرد الذهن وراءها بعيداً أو يشطّ وجوده في بحار من الفكر والشعور والتصور . كما سيطر على الأستاذ أديب روح ميثولوجية منتزعة من الأدب اليوناني . ولقد بحثت في المجموعة على تعبير يجيء موزوناً فلم أجده . ولست أستغرب نسق الأداء في إيراد العبارة تحت العبارة في جملة أو كلمة أو كلة ، ذلك لإمهال القارئ في إساغة المعنى والتدبر ، أو لأن كل تعبير له إيقاعه الذي عند قائله وعند سامعه . ولم يكن هذا نادراً . ولو مضى الكلام بعضه إلى جانب بعض لجاء مقالاً ولم يكتسب صفة الشعر الرمزي . وحيثما جولت في هذه المجموعة الأخاذة كانت تمر بخاطري مسارد من أقوال التوراة والإنجيل ، فإن الطوابع قد تتشابه حتى . وكم خاطر في أنشودة الأناشيد أو مزامير داود كنت أود أن يكتب لنا بمثل لغة ألبير أديب التي فيها دقة وصقل وصفاء .

أما اسم المجموعة فهو « لِمَنْ » ؟ . ولهذا اللفظ أوفى الإجابات . إنه مثل صوت بين ألف جبل كل جبل يردد صداه ، فلمن الهوى ؟ ولمن الشكوى ؟ ولمن يقال هذا الشعر ؟ ألعارفيه أم لمنكريه ، أم يروح مثل نغمات شريدة في وادي الزمان ، تبكي فيها الأحلام ، أو تضحك لها الأوهام .

زكي المحاسني

الجامع الأزهر

والمعاهد الدينية

تعلن مراقبة البحوث والثقافة الراغبين من العلماء المدرسين في الأزهر والوعاظ في السفر إلى البلاد العربية الشقيقة والإسلامية للقيام بالتدريس والوعظ هناك أنه يجب عليهم أن يتقدموا بطلباتهم باسم فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر قبل يوم ٢٥ مايو القبل على أن :

ا — يذكروا درجاتهم العالية ومذاهبهم في الفقه والأقطار التي يرغبون في السفر إليها مع تحديد ثلاثة منها على التوالي .

ب — يتعهدوا بالإقامة في مقر الجهة التي سيسافرون إليها مدة سنتين دون العودة في إجازة إلى القاهرة .

١٥٣٦

هربوا بالإيجـــــار

للأستاذ إدوار ملس

كانت الساعة التاسعة والنصف وكان عم مكاوى قد تعشى منذ نصف ساعة وأوى مع زوجته إلى فراشهما . أما زوجته فقد أطفأت النور الخافت بجوار فراشها وأمسكت بمجلة تقرؤها حتى يغلبها النعاس ، أما زوجها فمن عادته أن يظل أرقاً فى فراشه ساعة من الزمان يفكر فيما قبل مر عليه طيلة يومه وفيما سيصنعه فى غده .

وعم مكاوى صاحب تجارة واسعة ، ولو أنه كهل تقدمت به السن حتى يكاد يكون فى الخمسين ، فهو وحده يدير محله الكبير بشارع شبرا ، وهو يبيع ويشترى الأثاث القديم وله ورشة كبيرة ملحقة بمحله الكبير يعمل فيها اثنا عشر عاملا يقومون بصيانة الأثاث المشترى والمبيع أو تصليحه ، وثروة عم مكاوى تتكون من الوريقات التى يزخر بها محله وورشته ... وحزمة من الكمبيالات ، هى أقساط شهرية مستحقة من بعض الزبائن الذين يدفعون بالأجل ، تملأ حافظة نقوده فتكاد تنفجر بها ، وهو من أجل هذه الوريقات والمحل والزبائن والعمال والكمبيالات يحتاج إلى أن يخصص ساعة من وقته قبل أن يسلم نفسه لسلطان النوم ليفكر فيما باع اليوم وما كسب ، وهل كان يمكن أن يكسب أكثر مما كسب ؟ وليفكر فى العمال ، هذا يطلب علاوة جديدة ، وذاك بدأ يتأخر فى مجيئه فى الصباح رغم إنذاره ، وليفكر فى حقه من أصحاب الكمبيالات ؟ وليفكر فى بيته ذى الطابقين الذى يمتلك والذى يؤجره بشارع ترعة الجلاء بشبرا وفى ساكنى هذا البيت ... وعند ما وصل شريط أفكاره إلى بيته الذى يؤجره وإلى ساكنى هذا البيت تذكر شيئاً : تذكر الإيجار ، تذكر أن اليوم هو السابع من الشهر ولم يؤد السكان ما عليهم من إيجار ! ولقد ذهب عم مكاوى ، كعادته أول كل شهر ، ليحصل الإيجار من سكان الطابق الأرضى وهم يتكونون من موظف حكومى وزوجته وأولاده ، وتذكر وهو فى فراشه ما دار بينه وبين رب هذه العائلة :

— لى طلب يا عم مكاوى .

— ما هو يا ابراهيم أفندى ؟

— حضرتك تعرف أننا الآن فى شهر ديسمبر ! كل ما أريده لوحان من الزجاج أضعهما فى هذه النافذة لأن زجاجها مكسور كما تعلم حضرتك . كما أريد نافذة أخرى كاملة : خشب وزجاج للفتحة التى نغطيها الآن بأكياس الخيش ، وقد كنت وعدتنا بهذين الطلبين . الدنيا برد الآن ...

— تمام يا ابراهيم أفندى . لقد كنت أفكر فى هذا أيضاً ، ولقد جئت اليوم أقول لك بما أنى رجل مشغول فى عملى كما تعرف حضرتك منذ الصباح حتى المساء ، وبما أنى أعرفك وأثق فيك لأنك تسكن بيتى منذ أكثر من سنة ، فقد رأيت أن أدع لك مهمة شراء كل ما يلزم النافذة المكسورة إلى الزجاج وكل ما يلزم للفتحة التى ينقصها نافذة كاملة . ولأجل هذا لن أحصل منك إيجار هذا الشهر لتشترى به ما تحتاج إليه ، وسأحاسبك فيما بعد .

— ولكنى أخاف ...

— أنا راض بذمتك يا ابراهيم أفندى . المبلغ صغير : خمسة جنيهات ليست بالشىء الكثير .

— متشكر جداً . سأحاول شراء اللازم فى أقرب فرصة

— عظيم ، والآن ، أترى سأجد سكان الطابق الثانى ؟

— أغلب الظن أن لا . الساعة الآن الثامنة والنصف ، وهؤلاء طلبة يسهرون فى الخارج حتى العاشرة أو الثانية عشرة كما يمكن أن تعرف .

— تمام ، ولكنى لن أستطيع الحضور مرة أخرى خصيصاً لأجلهم . نحن الآن فى شهر ديسمبر والجو قد ابترد ، وأنا رجل « خلاص يا رب يا الله حسن الختام » ، والساعة

بأن يبقى فى شارع الجسر حتى هنا طويلة على . فلا تؤاخذنى يا إبراهيم أفندى إذا كلفتك بمأمورية . لأنى راض بذمتك كما قلت لك . سأعطيك إيصال التلاميذ لتحصل المبلغ منهم فى الوقت الذى تمر عليهم فيه . . . فى الصباح مثلا قبل ذهابك إلى عملك وقبل ذهابهم إلى كلياتهم ومدارسهم . ويوم تشترى ما تريد كما اتفقنا أرجو التفضل بالمرور على بالمحل بشارع شبرا لترى ما لى وما عليك .

— بكل سرور يا عم مكاوى .

تذكر عم مكاوى كل هذا وهو مؤرق فى فراشه ، بينما كانت زوجته ما زالت تقرأ فى مجلتها . وتذكر أن اليوم هو السابع من الشهر « لازم إبراهيم أفندى هرب بإيجاره وإيجار التلاميذ الغزاب » ! وانتفض من فراشه وأزاح عن جسمه اللحاف بعنف وصاح : « الإيجار ! أولاد الكلب هربوا بالإيجار » !

عندئذ فزعت زوجته وألقت بمجلتها جانباً .

— ما الحكاية يا سى مكاوى ؟ !

— هربوا بالإيجار ! أولاد الكلب هربوا بالإيجار !

— الله ! ألم تحصل إيجار البيت بعد ؟

— قلت لإبراهيم أفندى يمر على بالمحل . . . . لا أريد تضييع الوقت . أين وضعت البنطلون ؟

قالها وهو يقفز من فراشه .

— ولكن أنت رجل كبير والجو بارد فى الخارج . أجّل هذه المسألة إلى غد . أما الآن فنم واسترح .

— كيف أستريح يا شيخه ! إن لم أنزل الآن فلن أستطيع النوم أبداً . دى حكاية فلوس . دى حكاية واشكراره إلى آخر . ولا أحب أن يضحك على أحد ولا يعليم واحد . قال يا إبراهيم أفندى : منه خمسة جنيهات ومن السكان الآخرين سبعة ! اثنا عشر جنيهاً ضاعت هكذا هباء . أولاد الكلب هربوا بالإيجار ؟ أين البنطلون يا امرأة ؟ لقد كان معلقاً على الشجب .

— تجده فى الصوان . ولكنى لا أريدك أن تذهب الآن . إنك فى حاجة إلى الراحة . والمسافة من هنا لك يلزم لها عشر دقائق على الأقل .

وكان عم مكاوى قد خلع جلبابه الكستور وألقاه حيث لا يدرى وفتح الصوان وانتزع بذلته عن مشجبها وبدأ يضع قدمه فى البنطلون .

— إن لم أذهب الآن فلن يزورنى فى هذه الليلة النوم ، فإذا كنت هكذا سأكون صاحياً فالأفضل أن أنزل ، وخطوة خطوة . . . حتى أصل فأطمئن على الفلوس وأعرف إن كان أولاد الكلب هربوا بالإيجار . . . أولاد الكلب هربوا بالإيجار .

— يا سيدى فى ستين داهية الفلوس . صحتك أهم من الفلوس .

وكان عم مكاوى قد نسى فى عجلته أن يرتدى القميص قبل البنطلون . فحشر الأول فى الأخير وأدخل رأسه فى الصديرى وبدأ يعقد كرافتته أمام مرآة « التسريحة » .

— أنتم نسوة لا تعرفن قيمة المال : تأكلن وتسمن وتلبسن ، وتجىء أول كل شهر تمددن أيديكن بطلب « فلوس الشهر » . إنى ذاهب وكفانا كلاماً .

— ذنبك على جنبك . إن أصبت ببرد أو نزلة شعبية « الشر بره وبعيد » ، لن أكون مسئولة . أفاهم أنت ؟

— لا تخافى يا امرأة . فلوس ! أولاد الكلب هربوا بالإيجار .

ووضع قدميه فى حذائه على عجل واختطف الجاكتة اختطافاً وهرع خارجاً ، بينما عادت زوجته إلى مجلتها تقرؤها .

●●●

كانت الأمطار قد هطلت بارحة ذلك اليوم هطولا لم يسبق له مثيل فى القاهرة من قبل ، إذ ظلت السماء تمطر مدراراً لساعات طويلة دون هوادة حتى غرقت حى شبرا ، وأصبح من المتعذر على الناس أن يخترقوا بعض شوارعه ، وقد ملأها الماء من الجدار للجدار وأصبحت كالبندقية : شوارعها أنهار وبحار ، ومن سوء حظ عم مكاوى أن مصلحة التنظيم أو النظافة العامة أو بلدية القاهرة لم تفكر فى أمر هذه المياه المخزونة ولا فى هذا الطين الذى كونته هذه المياه فى الشوارع التى ما زال بعضها غير مرصوف .

مياه مطر راكدة وطين وأقذار . كل هذا مع برد قارس فى هذا الأسبوع الأول من ديسمبر عام ١٩٥١ . . . وكانت الساعة العاشرة إلا ربعا عندما وطئت قدم عم مكاوى

طوار شارع الجسر الذي كان في شبه ظلام برغم هذه المصابيح النازية التي يلمع ضياؤها الفاتر في مياه المطر هنا وهناك . مضى الرجل في طريقه على الطوار الأيسر الموازي للبيت ، وكان لحسن حظه مرصوفا جافا ، مضى في طريقه بعد أن رفع ياقة جاكتته حول رقبته . . . وعندما أراد أن يضغط طربوشه على رأسه وجد يده تضغط على طاقيته الصوفية التي كان ينام بها والتي نسي خلعها ، فتركها كما هي على رأسه ! ودس يديه في جيبي جاكتته : « لقد أمنتك يا إبراهيم على مالي ، فتفعل هكذا ! أنا المخنوق ، كم مرة أقول لنفسي إياك والثقة في الناس ! ولكني أعود فأقول : قد يكون هذا الرجل أحسن من غيره ، فآمنه ، ثم يظهر بعد ذلك لصاً ابن كلب » وعند ما مرت بفكره « لص ابن كلب » وجد نفسه دون أن يشعر يضاعف سرعته وعث خطاه أن تعجل ليلحق بأبناء الكلاب الذين هربوا بالفلوس . « فمثلا كنت أثق في شريكي — رحمه الله حيثما يكون ! — لأن رأس مال المحل كان شركة بيني وبينه ، ولأني رجل سوق ، كنت أترك له المحل وأمر على الزبائن لتحصيل ما عليهم من مال . ولكن اتضح لي أخيرا أن شريكي لص : كان يبيع البضاعة أثناء غيابي عن المحل و « يلهف » ثمنها في جيبه حتى اكتشفت عجزاً ، ولم أشك إلا فيه لأنه كان المسئول . واجهته بالتهمة فأنكر أول الأمر ! ولكني لما كنت متأكداً من اتهامي فقد ألححت في مواجهته بها حتى اعترف . صفيت الشركة — أعني أعطيته حقه من رأس المال — وبقيت وحدي صاحب المحل . رجل خائن . لم يكن من قبل يجد ما يسد رمقه وزوجته وعياله ، وكم رجاني في ذلة أن يدخل بيني في الشركة حتى قبلته مني شريكا . سرقني ابن الكلب . ابن الكلب هرب بالفلوس ! أولاد الكلب هربوا بالإيجار » ! وكان قد وصل إلى ناصية الشارع فانثنى يساراً ليمشي على طوار شارع التاج ، وكان لحظه السعيد مرصوفا أيضاً . « الله يرحمه . مات وترك امرأته المسكينة مع من يعمل من أولادها ومن لا يعمل . ثم أتيت بابن عمي يساعدني في المحل ويديره مني . أنا رجل في خريف العمر : تعبت كثيراً . وثقت في ابن عمي . وكيف لا أثق في ابن عمي وهو من لحمي ودمي ! تركت له كل شيء في المحل . إني أريد أن أستريح . أردت أن أجعل الصغار يعملون كما عملت ويكونون أنفسهم كما كونت نفسي بعرق الجبين . قلت إن ابن عمي جزء مني : أعطيته سبعة جنيهات كراتب وأعددت له غرفة خاصة بالمحل للنوم : مقطوع لا عائلة له . كل هذا لأوفر له أجرة السكن . . . كم كان سيدفع إذا عاش وحده ، وكم كان سينفق ليعيش ! ولكن لم تعجبني أخلاقه : كان يمد يده للزبائن بعد شراء بضاعتهم طلباً للبقشيش . أنا لا أحب هذا لأنه حطة في كرامتي كصاحب محل . سبعة جنيهات لم تكن تكفيه ، المغفل ! ابن عمي وكان من الطبيعي أن أنبهه عندي . . . ولكني لم أحبه ! طردته وعرفت بعد خروجه أنه كان يفعل كشريكي الأول . ابن عم خائن . وإذا كنت لم أعد أثق في أحد فقد وثقت في إبراهيم ! دنيا فاسدة ، ليس فيها . . . »

وكان عليه في نفس هذه اللحظة أن يخترق الشارع عرضاً ليمشي في شارع زهرة الجلاء . توقف يفكر في الطريقة التي يعبر بها هذا الشارع . كان لا بد أن يرفع نهايتي بنطلونه ليغوص في الماء بحذائه وجوربيه وإلا ابتلت ، فأخرج يديه من جيبي جاكتته متأففاً متضرراً وحاول رفع بنطلونه وجاءته الفكرة أن يدخل طرفي بنطلونه في جوربيه . وهكذا فعل . وعند ما اطمأن إلى النتيجة أعاد دس يديه في جيبي جاكتته وشرع يهبط من على الطوار . ولكنه راجع نفسه وانثنى وأخرج يداً من مكمنها الدافيء وأراد أن يقيس بها عمق الماء في هذا الشارع ، ولكنه خاف أن تبتل يده من هذه المياه القذرة الراكدة ، فأعادها إلى الجيب الذي خرجت منه ، وشرع للمرة الثانية في الهبوط من الطوار . وما إن فعل حتى غاصت قدماه حتى فوق حافة حذائه بقليل ، ومضى يخترق الشارع وخطواته في الماء صوت فاحش « خبيب » . « كانت زوجتي على حق . كان من الممكن تأجيل هذا المشوار حتى الصباح . فإذا كان إبراهيم أفندي قد هرب فعلا بالفلوس فأية فائدة ترجى من الذهاب إليه الآن ؟ وإذا لم يكن قد هرب بالفلوس حتى الآن فكنت أستطيع اللحاق به صباح الغد ! الناس كلهم نيام . ليس هناك شيء يشير إلى أن أحداً مازال مستيقظاً حتى عسكري الداورية لا وجود له ، كما يلوح لي . كل الدكاكين والمحال مغلقة ! ليس هناك

غيري : أجري وراء الفلوس . . . الإيجار ! أولاد الكلب هربوا بالإيجار ! »

ووصل عم مكاوي إلى الطوار المقابل وقد غرقت قدماه في حذائه . ومشى على الطوار الأيمن لشارع ترعة الجلاء . لم تكن أمامه مسافة طويلة في هذا الشارع حتى يصل إلى بيته . لم تكن أمامه غير خمسين متراً أو ما يقاربها . وكان الطوار إفريز من الحجارة حقا ولكن لم تنشأ مصلحة التنظيم أو النظافة العامة أو بلدية القاهرة رصفه فتركته على ترابه : كان مبتلا ، وكان طيناً زلقاً . لذلك ما إن خطا الرجل عليه بضع خطوات حتى أحس خطورة سيره على هذا الطين الزلق ووجد يديه قد خرجتا من تلقائهما من جيبي بنطلونه ووجدهما تندفعان في الهواء يميناً وشمالا وفي كل اتجاه ، ووجد جسمه يتلوى ويثنى في نفس الوقت الذي كانت فيه يداه تندفعان في كل اتجاه : كان يحاول دائماً دون أن يدري ، أن يصل إلى الاتزان الكافي لإنقاذه من خطر السقوط على الطوار أو في مياه المطر التي تختفي تحتها أرضية الشارع . وأصبح منظره كمنظر البهلوان الذي يمشي على الحبل في السيرك . كادت تزل قدماه عدة مرات . . . لذلك كان همه وتفكيره ، عندئذ فيما أمامه من طريق طيني زلق يخشاه ، لا في ظروفه الشخصية ولا في أبناء الكلاب الذين هربوا بالإيجار . وكانت أمامه عقبة أخيرة ، وقد وقف أمام البيت المنشود أخيراً ، وهو على الطوار المقابل ، هي أن يخوض في مياه الشارع ليعبره عرضاً ليصل إلى بيته . ولكن قبل أن يهبط بقدمه إلى أرض الشارع الغارق في الماء والوحل وجد جسمه يتلوى ويثنى في الهواء في عنف ويديه ترتفعان ، وتنخفضان وتندفعان هنا وهناك لتحاولا إنقاذه من خطر السقوط ولكن قدمه زلت فعلا . . . وسقط على وجهه في عرض الشارع .

وتشاء المصادفة أن يكون أمام بيته « يا كبورت » المجاري ، وهو حظ يحسده عليه غيره من الملاك ، وهو يا كبورت دائماً يطفح ودائماً يحتاج إلى كسح ودائماً تترك مواده المكسوحة في جواره حتى تتكرم مصلحة التنظيم أو النظافة العامة أو بلدية القاهرة بنقلها حيث يجب أن تنقل ، ونادراً ما تتكرم . وتشاء المصادفة أيضاً أن يكسح هذا اليا كبورت في ظهر اليوم الذي أمطرت فيه السماء مساءه وترك مخلفاته في جواره : كومة من المواد السوداء الخانقة الرائحة . حتى هطلت الأمطار مدراراً وامتزجت مياهها بمخلفات المجاري و « ساحت » هذه على تلك وانتشرت كلها في الشارع بطوله ، كما انتشرت في الشوارع المجاورة ! ثم تشاء المصادفة أيضاً أن يجري عم مكاوي وراء حقه من الإيجار فتزل قدمه وهو يشرع في اختراق الشارع فيسقط في مياه المطر وما امتزج بها من مخلفات المجاري .

عندئذ يرغي ويزبد عم مكاوي وهو « يطبش » في الماء حتى وقف على قدميه وخاض بهما المرة الثانية في الماء ، ولم يعد بينه وبين إبراهيم أفندي الساكن — إذا وجده ! — غير بضعة أمتار تعد على أصابع اليد الواحدة ومترين آخرين هما عرض الطوار ، وأحس بنفسه وهو يخطو خطواته هذه الأخيرة أنه مبتل « يقطر » ماء من وجهه وصدره وبطنه ومقدمة بنطلونه ، فلعن ألف مرة هذا البيت الذي آثر أن يؤجره ليسكن قريباً من محل عمله .

وما إن خلص نفسه من الماء ووضع قدمه على الطوار حتى وجد عينيه تتوجهان أوتوماتيكياً إلى نافذة في الدور الأرضي حيث يسكن إبراهيم أفندي — إذا وجده ! . . . ولكنه سيجده فعلا ، لأنه لمح بعض النور الخافت يتسرب من شيش نافذة حجرة نومه . عندئذ اطمأن قلبه وهبطت السكينة على نفسه . وتريث قليلا أمام الباب ينفض عن ملابسه ما تشربت من ماء ، ويحاول أن يبعد عن أنفه هذه الرائحة الكريهة التي لصقت بوجهه ، وتمتم : « كل هذا ذنب تفكيري في أن إبراهيم أفندي قد هرب بالإيجار ! إن بعض الظن إثم . »

• • •

حبث عم مكاوي بشاربه المبتل وارتقى درجات المدخل الثلاث وتحسس بأصابعه موضع زر الجرس في ظلام المدخل حتى وجده ، وضغط عليه مرة وانتظر . ولما لم يسمع جواباً ضغط مرة أخرى أطول من المرة الأولى وانتظر ، وعند ما طال انتظاره : « أولاد الكلب هربوا بالإيجار » . صاح بها وهو يضغط بإصبعه المرة الثالثة وقد بدأ يغلي من الغيظ والغضب . واستطال ضغطه على زر

الجرس كأنه لم يكن يسمع رنينه داخل الشقة .

— من بالباب ؟ من بالباب ؟ ! إنى قادم يا من رن الجرس .

وظل إصبع عم مكاوى على الزر يضغطه فى إلحاح ؟ واستطرد الصوت من داخل الشقة :

— كفى جرساً . إنى قادم « الشابة » ! إنى أبحث عن « الشابة » من بالباب .

وسمع عم مكاوى أخيراً كلمتى « من بالباب ؟ » فنزع إصبعه عن الزر وفرك يديه .

— أنا مكاوى . أترى أقلقتك من نومك ؟

وكان صاحب الصوت يقترب من باب الشقة زاحفاً على « مشاية » .

— أهلا عم مكاوى . تفضل .

وفتح الباب ، واستطرد إبراهيم أفندى وهو يفرك عينيه ويتثاءب .

— تفضل يا عم مكاوى . أهلا وسهلا .

— كنت نائماً ! أنا آسف يا إبراهيم أفندى إذا كنت أيقظتك .

— لا ، معلش ... تفضل « أستبك حاجة سخنة » .

— لا . وقت آخر . لقد كنت فى زيارة عند جماعة من أقاربنا ، وإذ كنت أمر بك قلت أرى ماذا فعل فى إيجار السكان .

وكانت قلنسوة عم مكاوى الصوفية قد استرعت انتباه إبراهيم أفندى ، هذه القلنسوة المبتلة مقدمتها على رأسه ، كما استرعى انتباهه حلته المبتلة من صدرها وبطنها ومقدم ساقيها و « حجر » طرف بنطلونه فى جوربه .

— حضرتك سقطت فى الماء ؟ !

— نعم يا سيدى . زلقت قدمى : لست أفهم ماذا تفعل مصلحة التنظيم أو النظافة العامة أو بلدية القاهرة ! تذهب إلى أحياء الكبراء والعظماء تجدها « تشف وترف » أما أحياؤنا الفقيرة المسكينة فتجدها غارقة فى شبر ماء ، وتزلق فتسالق الطين فتطأ أقذاراً وتزكم أنفك دائماً رائحة المجارى . نهايته . أترى حصلت إيجار الطلبة يا إبراهيم أفندى ؟

— لم أحصله بعد يا عم مكاوى . طلبت لهم أول أمس بعد الظهر فقالوا لى إن الفلوس لم تصلهم بعد من البلد . عائلتهم فى الصعيد وتأخروا هذا الشهر فى إرسالها . طلبت لهم أمس فلم أجدهم . وعلمت أنه من عادتى أن أنام مبكراً بينما هم يعودون فى الساعة الثالثة أو الثانية عشرة تمام ! وفى الصباح أنا أنزل لعملى مبكراً بينما يكونون هم نائمين . على أى حال ، هم أولاد طيبون .

— أنا لم أقل شيء . لقد كنت ماراً بك فقلت أرى ماذا صنع .

ولم يكن إبراهيم أفندى من السذاجة بحيث يصدق أن عم مكاوى كان يمر على البيت مصادفة ! وهل يخرج الناس من بيوتهم للزيارة وقلانسهم أو طواقيهم على رؤوسهم ! لقد كان يدرك تمام الإدراك أن عم مكاوى قد جاءه هذا المساء خصيصاً ليطمئن على الفلوس .

— وعلى فكرة يا عم مكاوى . أنا لم أشتر الزجاج ولا النافذة المكسورة بعد ، لأنى أبحث عن أشياء رخيصة تؤدى الغرض لكلا ننفق كثيراً .

— عال . عال . والله أنت رجل ابن حلال يا إبراهيم أفندى .

— حضرتك وثقت فى ويجب أن أقوم بالمهمة خير قيام

— حسناً . كلمة أخيرة قبل أن أتركك . أترى لو صعدت لهم الآن أجدهم .

— والله لا أستطيع الإجابة . لقد كنت نائماً منذ التاسعة . . . أريد القول .

— أنا آسف يا إبراهيم أفندى إن كنت أيقظتك وأزعجتك من النوم .

— لا . لا . لم أكن أقصد . كنت أريد أن أقول إنى لم أشعر بعودتهم من الخارج إذا كانوا قد عادوا فعلا .

— حسناً . سأصعد إليهم لأرى بنفسى . عندك الإيصال يا إبراهيم أفندى ؟

— انتظر لحظة قصيرة حتى آتيك به . تفضل فى الداخل . إنى أراك ترتعش من البرد يا عم مكاوى .

— لا ، متشكر . سأصعد إليهم فى بضع دقائق ثم أعود إلى البيت فتو .

— إذاً انتظر لحظة قصيرة .

وغاب إبراهيم أفندى قليلا داخل شقته وكان عم مكاوى أثناءها يرتعش من البرد وهو يحس البلل فى ملابسه الداخلية ، وأجال عينيه فى المكان : فى نور « النواسة » الضئيل الذى كان ينسرب من باب الشقة إلى الردهة الخارجية . لاحظ البلاط قذراً تراكم عليه الطين من كثرة النعال التى تطؤه وبسبب المطر وبسبب إهمال المؤجرين عموماً لأنهم لا يهتمون بمسألة النظافة والقذارة مطلقاً . ومعنى أنهم لا يملكون البيت . . أن يوسخوه ويهدلوه ، وماذا يهمهم ؟ ! وماذا يخسرون ؟ ! هم يدفعون الإيجار كل شهر ، بمعنى أنه إذا تهدم البيت وانهار فلا يحركون ساكناً . وتذكر مرة دخل فيها عند إبراهيم أفندى وجلس فى غرفة الضيوف وسمع الست زوجته تدق « الهاون » فى الصالة على البلاط ، لماذا تدق فى الصالة وهو قد وضع فى المطبخ بلاطة بازلت خصيصاً لتدق عليها فى « الهاون » ؟ لا يفهم ! وهو يذكر أنه وهو يخرج من غرفة الضيوف فى ذلك اليوم رأى عدداً من بلاط الصالة مكسوراً غالباً من الدق فى هذا الهاون اللعين . السكان . . . السكان دائماً : يخربون فى بيوت الناس

— ها هو ذا الإيصال يا عم مكاوى .

— متشكر جداً . أسعدت مساء يا إبراهيم أفندى . سأصعد لأرى حكاية هؤلاء الطلبة .

• • •

تناول عم مكاوى الإيصال من إبراهيم أفندى وقبل أن يرتقى الدرج سمع باب الأخير يغلق . « الدرج قذر أيضاً ! أعوذ بالله ! ألا يمكن أن يؤجروا أحداً يكنس لهم السلالم أو يمسحها بالماء ؟ إن النظافة من الإيمان ! من يرى النظافة حواليه يشعر أنه هو أيضاً نظيف . قرشان كل يوم جمعة لا يؤثران فى مالية أحد ، يؤتى بهما من يكنس السلالم أو يمسحها . ولكن أقول لمن ؟ ! هؤلاء طلبة . ومن جهة أخرى فهؤلاء يقضون كل وقتهم فى الخارج ، ولا يعودون إلى البيت إلا فى النادر . . . » وكان عم مكاوى قد وصل إلى ردهة الطابق الأول ، وكانت معتمة . فأخرج « مشط » الكبريت من جيب بنطلونه وكان لحسن حظه جافاً لم يمسه الماء ، و « شك » عوداً فى الظلام واقترب بالنور الضئيل من باب الشقة ليضغط على زر الجرس ولكنه لمح الباب موارباً ، لم يسمع أى صوت فى الداخل : « أولاد الكلب هربوا بالإيجار ! عدش جوا ! » وكان عود ثقابه قد اقترب من نهايته فألقى به و « شك » عوداً آخر ودفع الباب بيده ودفع برأسه فى فرجة الباب يتقدمه عود الثقاب . ورأى فى ضوء الثقاب المرتعش سريراً فى ركن من الصالة ينام فيه شخص ملتف فى لحاف وبطانية « من هذا ؟ ! وكيف ينام والباب مفتوح ! لابد أن يكون من غير السكان . أولاد الكلب هربوا بالإيجار ! هذا شخص غريب يتدفأ هنا . سأقبض عليك يا ابن الكلب . . . » وتنحنح بصوت مرتفع مرة ومرة ، وأحس بلهب عود الثقاب يقترب من أصابعه فألقاه و « شك » عوداً ثالثاً ، وعلى صوت هذه الشكة فزع النائم وقفز من فراشه .

— من ؟ !

ومن هذا الصوت عرف عم مكاوى أصغر الطلبة الإخوة الذين يستأجرون هذه الشقة .

— لا تخف يا مختار ، أنا عم مكاوى . كيف تنام يا بنى وباب الشقة موارب ؟ ! ألا تخاف أن يدخل عليك غريب ؟

ولابد أن كان منظر عم مكاوى شاذاً غريباً فى قلنسوته وبذلته البالية وبنطلونه الذى حشره فى جوربيه وعود الثقاب الذى يمسكه بين أصابعه ، فقد كان مختار يحاول كتم ضحكة فى صدره ، ولكن دون جدوى . . . فقد أطلقها مجلجلة صاخبة .

— ماذا ترى فى يضحك ؟ ! أين إخوتك يا مختار ؟ وكيف تنام والباب مفتوح ؟ !

— لقد برح إخوتى الدار منذ الخامسة ، وقبل أن يذهبوا رجوتهم أن يوصدوا الباب خلفهم . أغلب الظن أنهم نسوا إيصاده .

— كنت أريد مقابلتهم .

— لأجل الإيجار يا عم مكاوى . . . أنا لا أعرف شيئاً عن مسألة الإيجار . أخى الكبير هو الذى . . .

وأحس عم مكاوى مرة أخرى بلهب عود الثقاب يقترب من أصابعه ووجد نفسه دون أن يدرى يلقيه و « يشك » عوداً آخر دون أن ينتبه إلى أنه بإمكانه الضغط على زر

شاعر يترهب !

ما الهوى يبغى الفتاة طمانى ... وأنا الذى حطم الغرام كيانى !
أوَ ما كفاه أن قلبى محرق ... أصليه فى نار الشقاء هوانى ؟
أو ما كفاه أن روحى شارد ... غدرت به بوعودها الغيدان ؟
أو ما كفاه ما لقيت من الضنى ... حتى يعود مهيجاً أحزانى
يا ليتنى لم أحمل القلب الذى ... يعنو لطرف الكاعب الوسنان !
ويهزه ميس القدود تدللاً ... ويذيقه خمر الردى الهتان
ويهيم فى سحر الجمال ويشتكى ... ويذوب من دل المها ويعانى
ويح الغرام ! القدر آنى مقتلا ... فأعد مسموم القنا ورمانى
حين التقيت بغادة حورية ... جلست على عرش الجمال الجانى
فأحبها والشوق يرهق دمى ... والوجد يهدر عاصفاً بكيانى
واهاًتانى . فتأرت لواعجى ... ولقد كفانى ما لقيت كفانى
فدمى لفؤادى فى الحبيب وشأنه ... وذريه يشبع بأسا أكفانى
الله يعلم أن قلبى فى الهوى ... دنف ، وأنى فى الصبابة عانى
لكننى لاقيت ما لم يلقه ... أحد ، فمت محطم الوجدان
كم كنت أسعى قبل ذلك مغرماً ... ألتمس القلب المطوف الحانى
الليل كم سامرته مترقباً ... عود الحبيب بهجة الولهان
والبدر كم ناجيته متخيلاً ... طيف الحبيب بوجهه الفتان
والزهر كم دغدغته مستنشقا ... نفح الحبيب بعطره النشوان
والطير كم ناغيته متسمعا ... نغما تشاغلنى به الشفتان
والربوة الفيحاء .. كم أنشدتها ... شعر الحب ، وعذوبة الحنان
والكأس بالأكواس . كم أترعتها ... حتى تضيق ملاقى ودنانى !
والبحر كم ساحلته وغالقى ... لجج من اليأس العنيد القانى
والزهر للهوف كم أنطقته ... بالوجد ، والأحراق ، والتحنان
والفجر كم أبكيته بقصائدى ... والنجم كم أشجيته بكمانى
والسهد كم عانيته وبلوته ... متقلباً فى لوعة ودخان
والمدمع المسموم كم أصليته ... لهباً بشرَّته لظى أشجانى
والمجمرة الظمآء . كم أرقتها ... بتأوهات العاشق الهيمان
والأدمع الخرساء . كم ذرفتها ... حتى تذب النار فى أجفانى !
والشعل المحزون كم أججته ... بلهيب الزفرات والخفقان
ومضت بى الأيام فى دنيا الهوى ... لم أجن غير تشاوق وهوانى
فرجعت مطعون الفؤاد مضرجاً ... واهى الجناح مصدع البنيان
ووأدت آمالى ، ودست أزاهرى ... وحطمت قيثارى وعفت دنانى
فلتتركينى يا هواى فإننى ... ألقى شبابى فى لظى حرمانى !

(الإسكندرية) حسن صادق عبد الله

النور الذى فى متناول يده فى جوار الباب الذى كان ما زال واقفاً عنده .

— لقد تأخرتم كثيراً على المجمع يا ناس . اليوم السابع فى الشهر .

— إذا أمكنك الانتظار هنا الآن حتى يعودوا . . . أعتقد أنهم لن يتأخروا كثيراً اليوم نظراً للبرد .

— من يدرى فقد يتأخرون ! ونظر فى ساعة يده وأردف : الساعة الآن العاشرة وسبع دقائق . معلش . سأذهب الآن . أرجوك أن تقول لأخيك الكبير أن يتصل بى فى المحل . . . الإيجار . . .

— بكل تأكيد يا عم مكاوى .

— والآن ، نم كما كنت نائماً ، وسأغلق الباب من خلفى .

وتقهقر خارجاً وأوصد خلفه الباب ، وسمع وهو يهبط الدرج ضحكة ساخرة تجيئه من وراء الباب .

•••

ووجد عم مكاوى نفسه فى الشارع مرة أخرى عائداً بخفى حنين إلا من إيصال الإيجار المستحق من الطلبة . ومضى فى طريقه بعد أن أعاد ضم ياقة جاكتته حول رقبته ودس يديه فى جيبى بنطلونه . مضى يحاذر يضع خطوات على الطوار الموحل ؟ ووجد أن أسلم طريق ليقى نفسه السقوط مرة أخرى هو أن يمشى على الإفريز الحجرى .

ولأول مرة فى هذا الشتاء خرجت من أنف عم مكاوى « عطسة » قوية زلزلت كيانه ، تبعتها « عطسة » ثانية أشد قوة من الأولى جعلته يتمتم وهو ماض فى طريقه القدر : « والله امرأتى لها حق ! ساعات بره الستات يفكروا كويس . لو كنت سمعت كلامها ونمت وأجلت المشوار ده للصبح ما كانش حصل حاجه وما كنتش أخذت برد ! »

وعطس المرة الثالثة عطسة أقوى من الاثنتين . . . وأغذ السير .

إدوار مفسى

طبيب رغم أنفه !!

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

كان (سجاناريل) حطابا جاف الطباع غليظ القلب يقضى نهاره فى قطع الأخشاب من الغابات حتى إذا جن عليه المساء عاد إلى كوخه ليقضى ليله فى مشاكسة زوجته (مارتين) وضربها ضربا مبرحا على ردفها . وكثيراً ما كان الجيران يضيقون بهما ويهرعون إليهما كلما ارتفعت أصواتهما ، لكن هذا لم يكن يزيده إلا قسوة عليها وإمعانا فى إيذائها .

وذات يوم رأت رجلين من أتباع (السيد جيرونت) يمران بجانب الكوخ وقد بدت عليهما أمارات الارتباك والحيرة فاسترقت السمع فعلمت من تحاورهما أنهما يبحثان عن طبيب ماهر يستطيع شفاء (لوسند) بنت سيدهما ، إذ انعقد لسانها ولم تعد تقوى على الكلام ، وحار نطس الأطباء فى هذا الداء العضال . عندئذ هداها تفكيرها إلى انتهاز هذه الفرصة للانتقام من زوجها ، فما أيسر ما تدلهما عليه كطبيب خبير بهذه الأدواء ولن يغنم من وراء ذلك إلا الضرب على ردفه ، وبهذا تذيقه بعض ما يذيقها من أذى . وشاء لها مكرها أن تتحرز من شق النواحى وأن تتعجل الإيقاع به فى نفس الوقت ، فأنبأت الرجلين بأنها تعرف طبيباً كبيراً يدعى « سجاناريل » ولكنه يتظاهر دائما بجهله بالطب ولا يعترف ببراعته فيه إلا إذا ضرب ضربا مبرحا ، وبغير ذلك لا يباشر معالجة مرضاه ولو تقاضى مال قارون . ويدهش الرجلان ولكنهما وقد يئسا من كل الأطباء لا يجدان مفرا من انتظار هذا الطبيب الكبير حتى إذا لاح لهما بدآ يستعطفانه بالحسنى ليقبل معالجة المريضة ، لكنه يرفض ويمعن فى الرفض ثم يحاول إقناعهما بأنه حطاب يحطب الأخشاب ولا يدرى من حرفة الطب شيئا ، لكن جهوده تذهب سدى إذ أنهما ينهالان عليه ضربا حتى يضطر — درءا للأذى — إلى الإذعان والاستسلام لهما .

وفى قصر (السيد جيرونت) وبين إعجاب الحاضرين بمهارته وإشادتهم بمقدرته وتوقعهم الخير على يديه يبدأ فحص المريضة فيجس يدها تارة ورأسها تارة أخرى وهو حائر لا يدرى ماذا يفعل وماذا يدع ، ويتمنى الفرار لولا خشية الضرب والأذى ، غير أنه وقد بهرته مفاتنها ينساق إلى التأمل فى جمالها فينشرح صدرها ولا تلبث أن ترد بإيجاز على بعض أسئلته فيضج القصر كله فرحا ببداية شفائها وثناء على هذا الطبيب العبقرى الذى حل عقدة لسانها !! فماذا يمنعه إذاً — وقد أفلح عن غير قصد — من أن يتمادى فى ادعائه ودجله ما دام الأمر كله موقوفا على جهل الناس أولا وأخيرا ، فليس من الصعب أن يغازل كل مريضة بل أن يتهم بالمرض كل حسناء يريد مغازلتها . . وليس من الصعب أن يهذى بعبارات يزعم أنها لاتينية ما دام كل ما يملكه الأطباء أن يلهجوا باللاتينية . . وليس من الصعب أن يغرر بمرضاه فيرفض القادم أولاً ويساومهم ثانياً ثم يتولى بعد ذلك معالجة من يغلى له الثمن منهم طالما أن هذه الحيلة تضفى عليه مظهراً خادعا وطالما أن الناس لا يغترون ولا يغررون إلا بالمظاهر الخادعة . . .

بمثل هذه الأساليب ذاع صيته فى الآفاق وتوافد المرضى إليه من كل صوب ، غير أنه ظل مع هذا متوجساً خيفة أن يفتضح أمره إذا لم يفلح فى إتمام شفاء (لوسند) لولا أن شابا وسيم الطلعة يطرق بابه فيحسبه مريضاً ويتأهب للاقاته على نحو ما يلقى مرضاه ، لكنه يفاجئه بأنه لا يشكو مرضاً كما أن (لوسند) لا تشكو مرضا وإنما تتظاهر بذلك لأنها تريد الزواج منه وهو كذلك يريد الزواج منها ، ولقد استقر رأيه على الالتجاء إليه ليدبر معه خطة تمكنه من دخول القصر كى يتسنى له الاتصال بها والفرار معها من وجه أبيها الذى يحول دون تحقيق رغبتهما .

وكأنما هبط (لياندر) من السماء على (سجاناريل)

ليخلصه من ورطته التي لا يعلم نتائجها ، ومن ثم يصحبه معه إلى القصر زاعماً أنه « الصيدلي » الذي سيتولى تحضير دواء (لوسند) . . . وهكذا تنطلي الحيلة على السيد (جيرونت) ويهرب العاشقان .

هذا هو موجز الكوميديا الرائعة « طبيب رغم أنفه » التي كتبها « موليير » وأخرجها الأستاذ حمدي غيث وقدمتها فرقة المسرح الحديث في موسمها الأخير بدار الأوبرا الملكية .

ولست أدري ماذا أقول وقد سمعت بأذني تعليقات بعض المتفرجين — والنقاد أيضاً — على هذه الكوميديا وكلها تفصح عن تعجبهم من أن يكون هذا الموضوع « التافه » — حسبا وصفوه — من إنتاج موليير العظيم . وقيم إذاً — كما قالوا — هذا التهافت على التراث الكلاسيكي إذا كان على هذه الوتيرة ؛ وفي الإنتاج الحديث ما هو أكثر منه امتيازاً ، كما أن في الإنتاج المحلي غناء عنه وهو جدير أحرى بالتشجيع ؟ !

ويخيل إلي أيضاً أني أرى الآن علامات استفهام كبيرة وكثيرة تحيط بي من كل جانب متسائلة عما في ذلك الموضوع من دلائل الروعة . . . ألأنه موليير وكفى ؟ أم لأننا نخشى أن نتهم بالعجز عن إدراك مراميه فنمعن في الإشادة به ؟ ! !

الواقع أن الموجز الذي أسلفته لا يمكن أن يفي بالتنويه أو الإشارة إلى مواطن الامتياز في هذه الكوميديا لأنها — كسائر كوميدياته — من طراز يستعصى على الإيجاز والتلخيص من جهة ، ولأنه أحد القلائل الأفذاذ الذين نهض فنهم على الممارسة العملية نهوضاً رئيسياً من جهة أخرى .

فعلى الرغم من أنه وجد في عصر يعتمد كتابه على القواعد والمصطلحات ويختلسون التراث الإغريقي والروماني على الأخص — لهذا السبب — احتذاء آلياً ، وعلى الرغم كذلك من أنه استفاد كثيراً من هذا التراث وشارك في إحيائه فترجم الملحمة الفلسفية للشاعر الروماني « لوكريتيوس » وامتدت جذوره العقلية إلى أرسطو وأبيقور وتأثر بهذا كله . . . إلا أنه ضاق بتزمت نقاد عصره الذين كانوا يجلون التزام القواعد التزاما حرفياً ويقدسون القوالب الرومانية تقديساً عديداً ، واختلف بذلك عن معظم معاصريه وسابقيه من كتاب الكوميديا الفرنسية الذين آثروا محاكاة كوميديا بلوتس وتيرنس بالذات ، وحاولوا إنتاج كوميديا مشابهة لها وقصروا جهدهم على إحكام البناء المسرحي ، بينما آثر هو تطوير روايات (الفارس — المسخرة — Farce) وكذا الكوميديا المرتجلة فأنتج طرازاً خاصاً من الكوميديا يمتاز بمرونة الإطار وبساطة الحوادث وسهولة التناول ، ولا يعنى بالعقدة والحبكة عناية متكلفة . من أجل ذلك يقول جورج ميريديث : « أعتقد أن تلخيص كوميديات موليير أو قراءتها لا يكفي لإظهار قيمتها ، ولا بد من سماع أصوات الممثلين ورؤية إشاراتهم وحركاتهم لنتمكن الحكم عليها » .

ولئن كان قد بلغ بطرازه هذا ذروة شاهقة حتى ليجمع النقاد الأوربيون على اعتباره واضع أسس الكوميديا الفرنسية ، بل يذهب كثيرون منهم إلى حد اعتباره خير كتاب المسرح إطلاقاً ، فإننا نجد ناقداً كبيراً مثل « ستندال » يتهمه في كتابه (راسين وشيكسبير) باللغو والبهرجة والتطرف السخيف وإفراغ المعاني في قوالب جوفاء . ونجد نقاداً كثيرين يتهمونه بالافتعال ويستشهدون على ذلك بنهايات رواياته التي تبدو وكأنها مفتعلة حقاً . فالرواية التي نحن بصددها مثلاً لا تنتهي فوق خشبة المسرح بهروب العاشقين ، وإنما يفطن (السيد جيرونت) على أثر هروبهما إلى الخديعة التي وقع فيها فيحتجز الطبيب (سجاناريل) في قصره ويتوعده بالموت ، وتأتي على أثر ذلك زوجته (مارتين) لتواسيه في ساعاته الأخيرة . ولكن العاشقين يعودان فجأة وبلا مسوغ من حوادث الرواية ويعملان على استرضاء (جيرونت) وينجو بذلك الطبيب وتسدل الستار ! !

لكننا إذا حاولنا الاستقصاء وإمعان النظر تبين لنا من ناحية ثانية أن نقد « ستندال » مشوب بدافع كراهيته — كروماني — لكتاب القرن السابع عشر جميعاً . فالرومانسيون بصفة عامة كانوا متحرقين إلى تحطيم أسلافهم في كل ضروب النشاط الفني لا سيما الفن المسرحي الذي امتازوا فيه وامتازوا به . وتبين لنا كذلك أن للنهايات المفتعلة في روايات موليير تعليلات شتى أهمها أنه — لقلة اعتنائه بالشكليات — ينهي رواياته حينما ينتهي المعنى الذي قصد إليه ويسدل الستار في أقرب لحظة يتجنبها بعد ذلك على أي نحو من الأنحاء .

وإذاً فالحكم على مثل موليير لا ينبغي أن يلقى جزافاً ، وإنما ينبغي أن يحاط بالاحتراس الشديد جداً ، وحسبنا أن نستفيد من إنتاجه ما وسعتنا الاستفادة ، وسبيلنا إلى ذلك

محاولة فهمه لا محاولة نقده بالمعنى المألوف لدينا .

ففي روايتنا هـذه يحسن بنا — مثلاً — أن نحاول الوقوف على الدقائق الكوميدية فيها . وهذا يتطلب أولاً أن نحدد خصائص الفن الكوميدي قبل كل شيء . فإن الكوميديا — كما نفهمها وكما نكتبها — وسيلة من وسائل الإضحاك . بينما تتجاوز هي هـذا النطاق تجاوزاً شاسعاً . وربما كان أعم تعريف لها أنها — كما يقول وريفيه ديكون — تعبير مرادف للحياة أو السعادة فيها إذا جاز لنا أن نعتبر التراجيديا تعبيراً مرادفاً للموت أو الشقاء به . وليس معنى هذا أنها لا تضحكنا ؛ ولـكن ينقصنا على الأقل أن نعرف أن للضحك الكوميدي دلالة اجتماعية وأثراً اجتماعياً أيضاً .

وما الضحك في عرف « برجسون » إلا حركة اجتماعية تلفت النظر إلى ذهول في البشر والحوادث وتردع هذا الذهول . وإذاً فالضحك الذي تبعثه الكوميديا ، أو بعبارة أخرى الضحك الإنساني إنما هو ضرب من العقاب غايته معالجة النقص الفردي أو الجماعي ، ووسيلته إبراز ما في الأفراد من طبائع وسمات « مضحكة » كالصلابة والآلية والتكرار ، وما إلى ذلك من معوقات التطور والارتقاء في الحياة .

ونحن إذا نظرنا إلى رواية « طبيب رغم أنفه » على هذا الأساس لوجدنا أن موليير قد استوفى كل خصائصها الكوميدية استيفاء منقطع النظير . فمنذ بداية الرواية إلى نهايتها نجد الذهول والتكرار والآلية بادية في شخصياتها وفي سلوكهم وفي حوارهم ، حتى لـكأن هـذه الكوميديا لم تكتب إلا تفسيراً لعناصر الضحك الإنساني .

فهذا السيد (جيرونت) ينطلي عليه دجل الطبيب ، في حين أن تصرفاته مزيفة بدرجة تدعو الساذج إلى الشك فيه . فهو يجس ذراع المريضة بيده ثم يقول : إن نبضها يدل على أنها مريضة بالخرس ؟ ! وعند ما يسأل عن تعليل هذا المرض يجيب : « لأنها خرساء ، لا تتكلم » ؟ ! . . . ويستطرد فيقول : « لأن الأبخرة التي في جوفها تمر من اليسار حيث الكبد إلى اليمين حيث القلب فتؤثر عليه وتصيب اللسان . . الخ » . وكم كان موليير بارعاً حين ارتفع بهذا المشهد عن السوقية فأنطق (جيرونت) عقب ذلك بسؤال عجيب يستدرك به على الطبيب جهله المكشوف ، وأنطق الطبيب بإجابة أشد عجباً ، ولـكن مع هذا يقتنع بها المستدرك العجيب !!

جيرونت — لـكننا يا سيدي نعلم أن الكبد في ناحية اليمين وأن القلب في ناحية الشمال .

الطبيب — كان هذا يا سيدي فيما مضى . أما اليوم فقد غيرنا كل شيء ، ومنهج الطب أصبح جديداً كل الجدة .

وإذا كان من أغزر ينابيع الضحك أن ينساق الإنسان خطأ نتيجة لسرع أو تصلب فقد صور لنا موليير في هـذا الطبيب المزيف مثلاً واضحاً لذلك . إذ جعله — مع بقيته — يجهل هذه الحرفة التي لا تمت بصلة إلى حرفته الأصلية — ينساق وراء مظاهره الجديدة انسياقاً ينسيه حقيقته وحرفته الأولى نسياناً تاماً ، فيعجب من « جهل » جيرونت بالطب ويوحي إلى (لياندر) أن يكون طبيباً ... وهكذا ، وصدق برجسون حيث يقول : إننا نضحك من المذهول حين نراه ولـكن ضحكنا منه يكون أشد إذا نشأ وترعرع على مرأى منا فعرفنا أصله واستطعنا أن نبني تاريخه من جديد .

على هذا النحو نستطيع — لو تتبعنا كل شخصية وتعقبنا كل حادثة أن نتقصى الخصائص الكوميدية التي استوفاها موليير العظيم حقاً في روايته . بل إننا نجدها حتى في نهايتها المفتعلة التي تصور لنا أن كل الجهود التي بذلها السيد (جيرونت) لمعارضة ابنته في زواجها ممن تحبه قد ذهبت هباء دون أن يدري . فذلك أيضاً مصداق لقول « كنت » إن الضحك ينشأ من انتظار يتحول فجأة إلى لا شيء ، وقول « هربرت سبنسر » : إن الضحك علامة الجهد الذي يلتقي فجأة بالفراغ كأن يقطع إنسان مسافة طويلة ثم إذا به يعود — من غير أن يدري — إلى النقطة التي سار منها .

وإلا ... فما أهون ما تكتب كنت وسبنسر وبرجسون وميريديث وريفيه ديكون فيما « زعموه » عن الضحك الذي هو أشبه ما يكون بالجد ، بل لعله — لا سيما عند موليير — من المأساة لفرط تغلغله في النفس واتصاله بجوهر الحياة . . . ثم لصدق نقادنا وكتابنا الذين يحسبون أن الضحك فكاهة عمادها التنكيت (والتريقة) ووسيلتها الجناس والتورية ، وهدفها التسلية والتفريج ، ووظيفتها أقرب ما تكون إلى التخدير وإسدال الغشاوات على البصائر فلا ترى حقيقة ولا تدرك معنى .

وكفى بهذا درساً من موليير .

عبد الفتاح البارودي

الثقافة

العـــدد ٦٩٩
١٩ من مايو ١٩٥٢

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليما

صفحة

من وحي الربيع :

صرخة لاجئ

أخي .. هذا الربيع السمح يخطو بين وادينا
وهـــذا الطائر المغرور يشـــدو في روابينا
وهـــذا الزهر المكلوم صاغ اللحن يشجينا
وتلك العـــبرة الخرساء جفت في مآقينا
فلا برد به نشـــق ، ولا ســـبل يخضّبنا
فهيـــا نخلع الأسمال .. فالأسمال تخزينـــا

•••

أخي .. ولى الشـــتاء العابس الطاغي بأنوائه
أجل . ولى — وكم كنـــا نعاني هول أرزائه
يســـوق الرعدة الحمراء تعوي بين أجوائه
تمجّ الجسم للأسقام .. يصـــلى شر أدوائه
دماء تنفث الآهات فوق اللهب التـــائه
كأنا في الدجى العـــاتي جراح بين ظلمائه

•••

صريع السل كم يلقى عذاباً من يد الدهر
تدوي منه صرخات حيارى : آه يا صدري ؟!
تلوى .. والأسى يلقيه بين الوحل والصـــخر
بصحراء بها — يارب — صرعى الداء والقدر
فلا إشراق آمال .. ولا همس من الزهر
ســـوى الديجور قد ألقى رداء الحزن للفجر

محمد أحمد سالم

غريب

أنا عازف القيثار .. شردني الحنين على الطريق
زادي ترانيمي وهذا الليل لي أحنى رفيق

•••

القرية السمراء وادعة على السفح الخصيب
ودجاجها للمراح خطار على الدرب الحبيب
وصغارها يتواثبون كما توثب عندليب
وأنا أرى فيها الملاذ .. أليس لي فيه نصيب
لكنني أبداً سأقطع عمري الداوي غريب ؟

•••

أنا عازف القيثار شردني الحنين على الطريق
زادي ترانيمي وهذا الليل لي أحنى رفيق

•••

كم هزني السكن الدفيء على رحابك في الصباح
أسعى إلى حقلي لألقى فيه لذات الكفاح
وأعود والليل الصديق إليك . لهفان الجناح
لأنور الكوخ الصغير وأشرب الماء القراح
لكن قيدي . آه من يطلق لي يوماً سراح

•••

أنا عازف القيثار شردني الحنين على الطريق
زادي ترانيمي وهذا الليل لي أحنى رفيق

(القاهرة) كمال نشأت

الثقافة

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

AL-THAQAFA

الإدارة

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـدد ٦٩٩ — الاثنين ٢٥ من شعبان سنة ١٣٧١ — ١٩ من مايو سنة ١٩٥٢ — السنة الرابعة عشرة

الأدب السياسى

للأستاذ محمد مفيد الشوباشى

إذا كان المؤرخ المتمكن من مادته لا يغفل فى دراساته التاريخية عن تأثير الأدب فى حياة الأمم ، والرابطة بينه وبين ما يقع فيها من أحداث ، وما يقع لها من تطور ، بل إنه إذا رجع إلى الآثار الأدبية ليعمل على هداها إلى معرفة وقائع التاريخ على حقيقتها ، فإننا نجد من الناحية الأخرى أن الناقد المتمكن كذلك من مادته ، يحاول أن يفهم أدب أية أمة من الأمم فى أى عصر من العصور على هدى أوضاع تلك الأمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى ذلك العصر . وإذا تبينّا صواب كل من ذلك المؤرخ وذلك الأديب فيا ذهب إليه ، تجلت لنا تلك الحقيقة البالغة الأهمية التى تناولناها بالشرح فى مقالات سابقة ، وهى أن الأدب والسياسة يؤثر كل منهما فى الآخر ويتأثر به ، ودراسة كل منهما فى حاجة إلى دراسة ذلك التأثير وذلك التأثر معاً دون عزل أحدهما عن الآخر . ولا يغيب عن البال أن هذا التفاعل يحدث بينهما فى نطاق التفاعل العام ، ويتأثر به ويؤثر فيه بدوره . ولم يعد يخفى اليوم على أولى العلم والبصيرة أن الوصول إلى أية حقيقة لا يكون من طريق عزل الموضوع محل الدرس عن سواه ، والنظر إليه على حدة كأنه شىء قائم بذاته لا يدركه تطور أو تغير ، بل يكون من طريق التسليم بوحدة الموضوع وما حوله من ملابسات ، وتطور كل منهما نتيجة لتأثره بالآخر وتأثيره فيه .

نتبين مما تقدم إلى أن الأدب على اختلاف ألوانه متصل بالسياسة صلة لا تنفصم . وقد تتجلى هذه الصلة حتى ليكاد يبدو أن الأدب والسياسة مندمج كل منهما فى الآخر تمام الاندماج ، وقد تخفى حتى ليبدو ألا صلة بينهما . ففى الحالة الأولى يتناول الأدب الموضوعات السياسية تناولاً مباشراً ، وتكون الصلة بينهما واضحة لا تحتاج إلى تعليق . وفى الحالة الثانية يساير الأدب السياسة متأثراً بها ومؤثراً فيها على الرغم من تناوله موضوعات منقطعة الصلة فى الظاهر بالشئون السياسية . وبيان ذلك يحتاج إلى شرح نجمله فيا يلى :

السياسة هى ما يوضع للحكم من نظم وأوضاع وتدابير تكفل استتبابه ، وترمى إلى توفير أمن المجتمع واطراد تقدمه . وإذا نحن رجعنا إلى مختلف الحكومات فى مختلف العصور ، وجدنا بعضها يقوم على الاستبداد ، ويقف فى سبيل كل تقدم . ووجدنا بعضها الآخر على نقيض ذلك . والأدب لم ينحرف هو أيضاً فى ماضيه وحاضره عن أحد هذين الاتجاهين ، فهو إما رجعى يحول دون تقدم مجتمعه ، وإما متحرر من أوضاع ماضيه وحاضره ، عامل على دفع مجتمعه إلى الأمام . وأولهما يعين الحكومة المستبدة على مزاولة استبدادها واستعبادها بما يبثه فى العقول من المعتقدات والقيم السقيمة الضيقة ، وما يبثه فى الصدور من الأهواء المثيرة التى تميت الأنفة والشجاعة وإباء الضيم . وثانيهما

يتحدى الأوضاع البالية التي تمد في أمد الاستبداد والاستعباد ، ويحاول تقويض أركانها ، ويبصر مجتمعه بحقوقه ، ويستنفره إلى استخلاصها من مغتصبيها والذود عنها ، ويبث فيه من المعتقدات والخوالج ما يعينه على بلوغ رشده السياسي » .

وإليك شعر الغزل مثلا لما نقول ، فقد تقرأ قصيدة غزلية لا ترى صلة بينها وبين السياسة ، ولكنك إذا أنعمت فيها نظرك تجد أن ناظمها لم يتخلص من تأثير وضع مجتمعه السياسي ، وأنه انغمس في معترك السياسة باتخاذه اتجاهها الرجعي أو التقدمي . فهو إذا تدرع في تلك القصيدة بالذلة والمسكنة لاستمالة حبيبته ، وردد الزفرات ، وسكب العبرات ، واستسلم لشجنه ولوعته ، واستراح آخر الأمر إلى اليأس من محبوبته ، كان من مناصري الاتجاه الرجعي ، لأن مثل هذا الشعر يوطد أركان الاستبداد بتسويغ الاستكانة والاستسلام ، وهو إذا عدّ الحبّ في شعره نبعاً للأمل ، وحافزاً للعمل ، ومشاركة للخوالج النبيلة ، وتعاوناً على بناء حياة سعيدة ، كان من مؤيدي الاتجاه التقدمي ، لأن مثل هذا الشعر يبني مجتمعاً سليما قوياً يتعذر على الاستبداد أن ينشب أظفاره فيه ، ولنسوق مثلا آخر فنقول : إن أدب الطبيعة يكون رجعياً إذا تغنى بسحر المشاهد الطبيعية ، وأغرى الناس بالهروب من صخب الحياة إلى الخلاء ، حيث الهدوء يعيد إلى النفس هدوءها ، والخلوة تستثير الخيال المبدع ، فيستعيض الإنسان عن مشقة الحياة بتروع النفس ، وخلو البال ، ويستبدل بالمتع الروحية متع المدنية الرخيصة ... أما الأدب الذي يعد الخروج إلى الطبيعة نزهة تجدد النشاط وتفتق الذهن ، وتستنهض الهمة ، وتبعث في النفس القدرة على الكفاح ، فهو أدب تقدمي كما هو ظاهر ... وليس مقصدنا ألا يخرج الأدب عن الحدود الضيقة لتلك المعاني التي أوردناها ، فقد يغرب الأدب في معانيه ، ويتوخى أبعد المرامي ، ولكن الحكم عليه لا يكون إلا بعد الرجوع إلى قصد مبدعه من ناحية ، وأثره في نفس المطلع عليه من ناحية أخرى ... وهكذا ننتهي إلى ما بدأناه من أن الأدب يتأثر بتيارات عصره الفكرية والسياسية ويؤثر فيها حتى ولو بدا أنه منقطع الصلة بها .

ومن السذاجة التسليم بصحة قول القائلين « إن الأدب أجل من أن يوزن بميزان الفائدة أو النفعة ، فمصدره الوحي والإلهام ، وميدانه الأوهام والأحلام ، ولا يجوز سؤال الكاتب الأديب عن هدفه ، فهو يكتب الأدب للأدب مجرداً عن أية غاية . . . » إن هذا القول مرفوض جملة ، فما لا خير فيه لا قيمة له ، والذي لا يسأل ولا يحاسب هو المعتوه لا الأديب ، والناس الذين يتقبلون هذا القول ويرددونه هم ممن يستهويهم الإغراب والإبهام ، أو ممن يرددون ما يسمعون كالببغاء .

وإذا رجعنا إلى تاريخ الأدب العربي ، وامتحناه في عصر الجاهلية ، نجد أن الشعر وهو أهم ألوانه يكاد لا يعنى إلا بالمشكلات القبلية . وقد رأى الأستاذ أحمد الشايب في كتابه « تاريخ الشعر السياسي » أن الشعر الجاهلي وثيق الصلة بالسياسة منذ وجود القبيلة ، على أساس أن القبيلة صورة مصغرة للدولة ، ومما جاء في الكتاب المذكور عن ذلك الشعر : « إنه إما فخر بها ، أي بالقبيلة ، أو هجاء لأعدائها ، ورثاء لقتلاها في الحروب ، أو هو فخر وهجاء ورثاء موجه إلى شخص ، ولكن بواعثه قبلية عامة تعود إلى العشيرة .

لذلك نجده جدلاً حول انتصار أو هزيمة ، ونجد الرثاء وعيداً وتهديداً أكثر مما هو بكاء على القتيل ، والوصف حثاً على الانتقام ، وإثارة للحمية الجاهلية . وقد رأى الأستاذ المؤلف في ألوان الأدب الجاهلي الأخرى كالخطابة والرسائل والقصص مزيجاً من الأدب والسياسة . وإذا كان بعضها يتناول مواضيع شخصية ، فإن مراميه البعيدة تتعدى القصد الظاهر القريب إلى الأهداف السياسية البعيدة . ويتأكد هذا المعنى إذا تتبعنا الأدب العربي بعد ظهور الإسلام ، ورأينا كيف أنه دخل المعارك السياسية الحامية التي دارت حول مختلف المذاهب والمعتقدات والأغراض ، والتي تعددت وتشعبت على توالي العصور . لقد كانت قصيدة مشتعلة واحدة يومئذ كفيلة بأن تشعل الحروب ، وتزعزع العروش ، وتفجر الدماء ، وكانت قصيدة رزينة أخرى كفيلة بأن تطيب النفوس ، وتقر الأعين ، وتحقن الدماء . كان هذا شأن الأدب السياسي المباشر ، أما الأدب الذي يعده الناس غير سياسي فقد كان له الأثر العميق في سياسة ذلك العصر . فقد تأثر في صدر الإسلام أبلغ التأثر بفتوة الدولة الإسلامية المتحفزة للظهور ، وتهدّج لتلك الصفات السامية التي غرسها الدين الحنيف الجديد في نفوس شعوبه ، فإذا مختلف ألوان الأدب من مدح وغزل وفخر ورثاء ووصف تنضح بالروح الجديد المتوثب ، وإذا بها تغدّ ذلك

الروح بقوة جديدة، وتوطد أركان الدولة الناشئة، وتمكن الصفات السامية من نفوس شعوبها التي أفلحت في بناء أضخم دولة عرفها التاريخ في أقصر مدة من الزمان.

ولكن الأدب العربي لعب نقيض هذا الدور السياسي حين بلغ اتساع الدولة الإسلامية مداه، وأخذ ركبها التقدم ينكص على أعقابه. فقد تأثر ذلك الأدب بالانحلال الذي بدت بوادره في العصر العباسي المتأخر، وظهر أثره في موضوعات ذلك العصر الأدبية ومعانيها وأساليبها. ثم لم يلبث أن ساعد على تقوية الروح الانحلالية وسرعة تفشيها بتصويره كل مظهر من مظاهر التدهور تصويراً يغري الناس بالإقبال على اللهو والهزل والفساد. وهكذا لعب الأدب دوراً سياسياً رئيسياً في بناء دولة الإسلام الكبرى، وفي تصديع أركانها على السواء.

ونظرة أخرى إلى تاريخ الأدب الغربي تلقي ضوءاً جديداً على علاقته بالسياسة. فأقدم ما نعرفه من آيات ذلك الأدب الملحمتان المعروفتان بالإلياذة والأوديسة. ومن المعلوم أن هاتين الملحمتين تضمنتا من الوقائع والمعتقدات والمعاني ما نشأ وتطور متأثراً بأوضاع اليونان القديمة، وظروفها في ذلك العصر، ويعلم حتى تلاميذ المدارس الثانوية الملتحقون بالقسم الأدبي، أن آراء أفلاطون وأرسطو السياسية، وما قرراه من مذاهب، كان لها الأثر الأكبر في نهضة أوربا، مقتبس أو متأثر بالملحمتين المذكورتين، واستتبع الركود السياسي الذي ساد البلاد الأوربية بعد ذلك ركوداً في الأدب. ثم افتتحت أوربا نهضتها في مستهل العصر الحديث بتلك الملحمة البهاة «أغنية رولان» وهي كذلك من الشعر السياسي الذي تأثر ببوادر النهضة الحديثة وأثر فيها، وظل الأدب يساير في تلك البلاد أوضاعها السياسية ويعكسها في شعره ونثره. فينضح حيناً بالروح الإقطاعي. ثم يعبر بعد ذلك عن ميول البورجوازية التي ظهرت في أوربا بعد عهد الإقطاع، ويعود في النهاية فيتأثر بخوالج الشعوب التي بدأت تستيقظ وتشعر بمرارة الآلام، وحلاوة الآمال، وكان في هذه الأحوال جميعها أقوى دعامة للنهضة الأوربية التي تأثر بها.

بعد أن تبينا أثر الآداب البليغ في قيام الحضارات وانهيارها، ننتهي إلى أهم ناحية تعنينا من هذا المقال، وهي الناحية الخاصة بأدبنا المصري الحديث، ومدى نجاحه في تأدية رسالته السياسية.

نزل أدبنا الحديث، منظومه ومنثوره، ميدان السياسة منذ أيام البارودي، وازداد توغلا في ذلك الميدان بعد الاحتلال البريطاني، وأطلق الناس على ما تناول منه الموضوعات السياسية تناولا مباشراً اسم «الأدب الوطني» ولسنا ننكر أن قصائد شعرائنا المعروفين الوطنية، ومقالات أدبائنا السياسية أيدت ثورتنا على الاستعمار بعض التأييد، ولكنها لم تؤد رسالتها على الوجه الأكمل، ولعل سبب ذلك يرجع إلى أنها تناولت الموضوعات السياسية تناولا عاماً، ورددت المعاني المارجة الدائرة على أفواه العامة في الطرقات، بدل الكشف عن مقابح الاستعمار الخافية على أفراد الشعب وإبرازها في صورها البشعة مفصلة حتى تزيد الشعب إدراكا لما يناله من خسف، وما يصيبه من أذى في مصالحه وحقوقه وكرامته! وأكبر الظن أن هذا الضعف الذي اعتور أدبنا السياسي يعود في الأغلب إلى ما صادف ثورتنا الوطنية من ظروف غير ملائمة أضعفت حيويتها، وحالت إلى اليوم دون تحقيق أهدافها، ولا يغيب عن أحد أن النشاط بدأ يدب اليوم في أوصال حركتنا الاستقلالية، فتأججت حماسة شبابنا وشيبنا تأججاً لا عهد لنا بمثله من قبل، وازداد وعينا الوطني ازدياداً يبشر بنهضة أدبية حية جديرة به، كفيلة باطراد رقيه.

وليس معنى ما تقدم أن نطمئن إلى مستقبل نهضتنا، فنترك الأمور تجري في مجراها دون أن نسعى إلى السيطرة عليها وتوجيهها. لأن كل نهضة تسرع في خطاها أو تبطيء على قدر ما يسديه إليها المشتغلون بها من تنظيم وتوجيه وإرشاد، ومن واجب كل بصير بأهمية نهضتنا الأدبية وصلتها الناجحة بالنهضة العامة أن يبصر غيره بذلك حتى يعم هذا الوعي والإدراك، فيتهيأ الجو الملائم لظهور الأدب الحي المجدي.

ومن الواضح أن ما ذكرناه عن الأدب السياسي يشمل الأدب الذي لا يتناول الموضوعات السياسية. فإن هذا يحتاج كذلك إلى العناية به، والأخذ بيده! ويكفي أن نتصفح ما تخرجه مطابعنا من ألوانه لنعرف مدى ضعفه وقصوره عن تأدية الرسالة المرجوة منه. فهو على الأغلب يغري بالانحلال الخلقي، أو يدعو إلى التخاذل واليأس، أو يعزل قارئه عن الحياة بدل حثه على الاهتمام بها وتشجيعه على احتمال أعبائها.

وإذا قيل بعد ذلك إن الأديب حر في اختيار موضوعه وأسلوبه دون ما نظر إلى أثر أدبه في أمته وفي الإنسانية جمعاء، فردنا على ذلك القول أننا لن نقدم على تحطيم قلم مثل هذا الأديب عنوة، ولكنا أحرار كذلك في كشف سوءات أدبه، والتنديد بها، والإمعان في ازدرائها.

محمد مفيد الشوباشي

خلف الستار الحديدى

للأستاذ توفيق الشناوى

كان على أن أترك قبنا راضياً أو كارهاً ... إلى بلد آخر يختلف اختلافاً تاماً عن قبنا. كان على أن أترك منبع النغم والوحى ... إلى بلد آخر ليست القبونة من صفاته. كان على أن أترك قبنا الحبيبة وأودعها بجمعة ... إلى برلين مركز حضارة النازية سابقاً ومشكلة الشرق والغرب الآن.

ولكن كيف الذهاب إلى برلين؟ إنها يا سيدى ليست كأى بلد فى العالم يمكن الوصول إليها بمجرد ركوب القطار، بل إنها بلد دونه صعاب وعقبات. إنها الآن مدينة دولية فيها ما يسمون أنفسهم الحلفاء، وفيها أيضاً الدب المخيف ... روسيا، وبرلين تقع كلها داخل المنطقة الروسية من ألمانيا، أى أنها فعلا خلف الستار الحديدى.

قلت لأصدقائى: وداعاً ... إنى ذاهب لبرلين ... فلمع فى عيونهم بريق الخوف ... الخوف على من الدب الأبيض، ولهجت فيها الدعاء لى ... بالتوفيق.

وذهبت إلى مكتب الحلفاء أطلب «فيزا» لدخول ألمانيا فظنوا أنى أطلب الاستقلال لبلادى، فماطلوا وسوفوا كعادتهم ... ثم بعد خمسة وثلاثين يوماً لمست الفيزا، وسافرت فوراً بالقطار اثنى عشر ساعة قطعت فيها الجزء الجنوبى من ألمانيا وهو الجزء الذى يحتله الحلفاء، وبعد ذلك تبدأ المنطقة الروسية، ودخول المنطقة الروسية أصعب كثيراً من دخول الجنة، وليس أمامك إلا طريق واحد هو البعد عن رضوان والاكتفاء بالتحليق فوق جنته بالطائرة حتى تصل برلين.

كنت قد قرأت كثيراً عن مدى ما أصاب برلين من تدمير، ولكن القراءة شىء والحقيقة شىء آخر. إن برلين تعد أكبر مدينة فى أوربا على وجه الإطلاق، ومساحتها تعادل مساحة القاهرة خمس مرات على الأقل. أما مدى هذا التدمير فهو ما لا يمكن تصوره، مساحات لا يحدها البصر من المبانى، لا يوجد لها أثر على الطبيعة سوى ما خلفته من طوب وحجارة وحديد؛ ولكى أعطيك فكرة واضحة نوعاً تصور أنك تقف عند تقى خيرا وأمكنك أن ترى ميدان الإسماعيلية وأن المساحة المحصورة كلها مدمرة تدميراً تاماً، فإذا علمت أن الشوارع فى برلين يتراوح عرضها بين ٦٠ متراً، ١٥٠ فى بعض الأحيان، وإذا علمت أيضاً أن بعض الشوارع يزيد طولها عن ثمانية كيلو مترات، أمكنك أن تأخذ فكرة واضحة المعالم عن برلين.

والحالة الآن تسير إلى التعمير والإصلاح بقدر الإمكان، وقد أمكن الألمان عمل مشروع «السنوات الخمس» للإصلاح، وسيبنى فى خلال هذا العام حوالى مائة ألف «شقة» للسكن. ومعظم المنازل الآن لا يوجد بها الماء الساخن أو التدفئة المركزية لأن كل هذه الأشياء كانت قد دمرت، وحتى سنة ١٩٤٨ كان الألمان يعيشون فى «قبور مثلجة»، لا تدفئة ولا كهرباء ولا ماء ولا مواصلات، زد على ذلك اختلال الأمن. كنت مرة فى زيارة «مهندسة مبانى» فوجدتها تعبث فى يدها بشىء أشبه بالزنبرك ينتهى بكتلة من الحديد، فسألتها: ما هذا؟ فقالت: آلة الموت. فقلت لها: إنى أعرف أن الألمانيات قاسيات، ولكنى لم أتصور أبداً أنه عند ذهابى لزيارة سيدة ألمانية أن أعتبر نفسى ذاهباً لزيارة عزرائيل. قالت: لا تخف إنما أردت فقط أن أطلعك على حياتنا بعد الحرب.

تصور بلداً ليس بطعام ولا شراب ولا كساء، وتصور كذلك أن هذا البلد لا يوجد به مواصلات ولا إضاءة ولا أى شىء من سبل المدنية، فكان يتحتم على المرء فى هذه الحالة أن يخرج فى الظلام باحثاً عن صيد سمين؛ وما هذا الصيد إلا إنسان مثله يعتدى عليه ليأخذ منه ملابسه أو نقوده أو طعامه. فكان المرء منا رجلا كان أو سيدة إذا ما اضطرته ظروف عمله إلى العودة إلى منزله بعد غروب الشمس يجد نفسه مضطراً لأن يحمل فى يده ما يدافع به عن نفسه ضد أى اعتداء، وكنا دائماً نسير فى وسط الشارع تماماً ونخطو خطى خفيفة غير مسموعة حتى لا نعطى فرصة لمن يريد الفتك بنا

أن يسمع خطانا . وهكذا عاش الألمان فترة ما بعد الحرب ، هذا الشعب الذى لم يعرف الخوف إلى قلبه سبيلا أصبح يخاف على نفسه من نفسه .

ثم تعال بنا فى جولة سريعة فى برلين . إن أهم شارع تجارى فيها هو شارع Kurfürstendamm وهو أصبح عامراً بالحياة تماماً . وفى نهاية هذا الشارع تقف تحفة العمارة فى القرن التاسع عشر ، وهى كنيسة القيصر « فيلهلم » ، وأصبحت الآن أكثر أهمية من الناحية التاريخية عن ذى قبل بعد أن حطمتها القنابل وأصبحت بحق أثراً خالداً من آثار التاريخ « انظر الصورة » .

الجيش الألمانى فى نفس هذا الشارع . . . أبوا إلا أن يسير ذليلاً . . بدون سلاح وفى عكس الاتجاه الذى كان يسير فيه وإلى أين ؟ . . لا إلى الثكنات . . بل إلى معسكرات الأسر .

وذاق هذا الجيش مرارة الأسر من أعداء لا تعرف العزة والكرامة إلى نفوسهم طريقاً ، وظنوا أنه من الشجاعة أن يذيقوا شعباً خسر الحرب مرارة الذل ، وفى نفس الوقت كانوا يشيدون بعظمة هذا الشعب ورقيه . ولكنها يا سيدى هى الأيام تدور فترفع أحياناً . . وتذل حيناً آخر ، وأصبحت نظرية البقاء للأصلح غير ذات موضوع . .

وعند هذا الشارع نحو الشرق حتى تجد على يسارك نصباً



(منظر كنيسة القيصر فيلهلم)

والشارع الذى يليه فى الأهمية هو « Heerstrasse » أى شارع الجيش ، وهو الشارع ذو الماضى المجيد الذى عاصر عهد النازى وعهد هتلر ، وكان العرض العسكرى للجيش الألمانى دائماً فى هذا الشارع ، وكان هتلر يقف على منصته فى أحد الجوانب ليحيى جيشه الظافر ، ولكن الأيام دارت فى عكس اتجاهها الأصلى ، وانكسر الجيش الألمانى العريق أمام كثرة الجيوش العادية ، وأبى المنتصرون إلا أن يسير

تذكاريا لجندى بمعدات الحرب . . ثم يدفعك الفضول فترتقى السلالم الرخامية لتقرأ اللوحة المكتوبة ! فإذا بهذا النصب للجندى الروسى . . . هكذا . . وفى برلين . ثم مر علينا ونحن وقوف أمام هذا النصب رجل ألمانى ونظر إلينا وعرف أننا أجانب ، فقال لنا فى سخرية : إننا سنترك الجندى الروسى واقفاً مكانه حتى يتجمد من البرد .

ثم يمتد بك الشارع مرة أخرى إلى الشرق حتى تصل

إلى البوابة الضخمة "Bran dinburger Tor" ، وهو الحد الفاصل بين الغرب والشرق . أو إن شئت فقل هو الحد الفاصل بين الحرية التي تنعم بها ... وبين المجهول الذي لا أدريه .

وبعبورك هذه البوابة تدخل في شارع "unteer den Linden" أو تحت ظلال الزيزفون ، وأول ما يقابلك على يمينك السفارة الروسية ببنائها الجميل الحديث ، وكل ما حولها خراب يعلن من كان سبباً في تدميره . وينتهي بك هذا الشارع حيث تجد جامعة برلين العريقة تقف على يسارك ، وترفع بصرك إلى أعلى لتقرأ ما كتب عليها فتطالعك صورة ستالين بحجم كبير جداً ، وكتب تحتها : « إننا نطالب بحرية الشعب الألماني ووحدته » وهذه هي العبارة التي تقع عليها عيناك عندما تلتفت يميناً أو يساراً .. بل عندما تجلس على المائدة لتأكل أو تشتري علبة ثقاب . إنهم يطعمونك الحرية أينما سرت ! فإذا كانت أعصابك مرهفة فإنك ستصرخ حتماً وتخرج فوراً من الشرق لتتجه إلى الغرب الهادئ الجميل .

هل تعبت من التجوال ؟ أم هل تعبت أعصابك من هذا الموج المتدفق من الإعلانات والأعلام وصور ستالين ؟ إذاً فتعال بنا إلى محل نأكل فيه أو نشرب .. ولكن ما نوع النقود التي معك ؟ إن كانت غربية فأرسلها في خطاب إلى « مارشال » أو إيزنهاور فإنها يا سيدي لا تعتبر عملة هنا ولا يمكن تبديلها . ولكن لا تقلق إني قد أبدلتها في الغرب قبل أن أحضر إلى هنا ، ففي استطاعتك أن تستبدل المارك الغربي بأربعة ماركات شرقية ، والمارك الغربي حوالي عشرة قروش ، وعلى ذلك يكون المارك الشرقي حوالي ٢/٥ قرش . ماذا تريد أن تأكل ؟ يمكنك أن تطلب قطعة من الكستليته مثلاً وكأساً من البيرة ثم تدفع ثمناً لهذا ماركين اثنين فقط أي أربعة قروش . هذه الأكلة لو أكلتها في الغرب لكلفتك عشرين قرشاً على الأقل . ثم إن الحياة في الشرق رخيصة ، بل رخيصة جداً . لا .. لا تكن متفائلا إلى هذا الحد ، فإنها رخيصة فقط علينا أهل الغرب لأنه في استطاعتنا أن نستبدل نقودنا ، أما أهل الشرق فيعيشون كما يعيش بقية الناس في غلاء كالجحيم .

ثم ماذا تريد بعد ذلك ؟ تريد أن تشتري شيئاً تعود به إلى الغرب ... حذار يا سيدي ، فإنك عرضة للتفتيش وأنت وحظك ! فربما صادروا البضاعة فقط ... وربما صادروك أنت ثم صدّروك إلى . . . سيبريا حيث تنعم بالجو البارد في هذا الصيف القائظ .

ولكن مع هذا يمكننا أن نرى الأشياء بأعيننا . إن الروس قد « أمموا » جميع الصناعات والمتاجر ، فتجد الأمة هي التي تملك المتجر أو المصنع . أما أن تملك أنت شيئاً فهذا محال . إنهم تركوا بعض أصحاب المحلات الصغيرة جداً ، تركوهم يبيعون الشعب ما يريدون ، ولكن الأسعار دائماً في محلات الأمة منخفضة عن الأسعار في هذه المحلات ، لذلك تجد التجارة الفردية تموت ببطء .

ثم هلا تنظر إلى الناس بضراعة وخوف ؟ إنهم يا سيدي ألمان تماماً كألمان الغرب ، يتكلمون ويضحكون ، ولكن حذار أن تتكلم في السياسة ، وإلا فسيحجزون لك مكاناً في قطار سيبريا السريع . إنهم ليسوا شيوعيين ، ولكنهم اضطروا للبقاء في القسم الروسي حيث مبانيهم أو مصانعهم أو متاجرهم أو مزارعهم . فمن كانت له عائلة في الغرب فإنه هاجر إلى الغرب .. ومن كان وحيداً فقد بقي مكانه ليلقى نصيبه من الحياة .

هذه يا سيدي جولة سريعة في برلين ولمحة خاطفة عن الشعب الألماني . إن هذا الشعب كما تعلم شعب نظامي ، لذلك تجده الآن صابراً حتى يرسل الله له قائداً ليخرجه من محنته .

إنهم ليسوا شيوعيين وكذلك ليسوا ديموقراطيين ! لذلك فهم ينتظرون اليوم الذي يقذفون فيه الروس والأمريكان والفرنسيين والإنجليز إلى الجحيم ، ويستردون حريتهم من جديد ليسيروا بخطى ثابتة مرة أخرى إلى مكانهم العالي بعلمهم وخلقهم ، وليسبقوا جميع الشعوب بنبوغهم وعبقريتهم .

وسنلتقي هنا مرة أخرى عندما يحين الوقت للكتابة عن الشرق وغموضه وعن برلين المشكلة الحائرة بين الشرق والغرب .

(برلين) ترفين الشارق

جنـــــاح وغاندى

للأستاذ أنور الجندى

زعيمان من الشرق ، ومن الإسلام والهندوسية ، تحقق على يديهما تحرير الباكستان والهند . من ربقة الاستعمار

تشابه نشأتهما وثقافتهما ورحلاتهما ، ثم تختلف حياتهما وأهدافهما بعد ذلك اختلافاً بيناً .

نشأ كلاهما فى الهند ، ولد جناح فى كراتشى ١٨٧٦ ، وولد غاندى فى كيثاوار سنة ١٨٦٩ ، من أسرتين عريقتين غنيتين ، وامتص كل منهما ما فى تربة بيئته وجيله ودينه ، ثم سافر كل منهما إلى لندن ، ودرس كل منهما الحقوق ، وعاد كل منهما إلى بلاده . . . يمنى نفسه بأن يكون مدره القانون .

وبالرغم من اتفاق الثقافة الأوربية فقد ظلت عوامل الدين والبيئة الأولى قوية فى كل منهما ، بعيدة الأثر فى توجيه تفكيرهما وعملهما .. من بعد .

واتصل جناح بغاندى فى إبان الحركة الوطنية ، منذ سنة ١٩١٤ ومضيا معا فى طريق واحد ، فى سبيل تحرير الهنـد ، وكان محمد على جناح من أبرز العاملين فى حزب المؤتمر ، حتى استحق لقب « القائد الأعظم » .

فلما تكشفت مشاريع استقلال الهنـد المختلفة عن خطوطها الواضحة ، اتخذ الطريق الذى كان لابد من اختياره لتحرير الهند من استعباد بريطانيا ، وتحرير المسلمين من استعباد الأغلبية الهندوسية .

وكان هذا منه غاية البراعة وبعد النظر .

فى الوقت الذى كانت حركة التحرر تتطلب تآزر الجهود ، كان جناح يعمل إلى جانب غاندى ، وكان كلا الرجلين يثق بالآخر .

فلما آن أوان التفصيلات ، دعا إلى الحل الذى كان حاسماً فى القضاء على صراع الطوائف والفتنة المذهبية .

* * *

كان غاندى وجناح متفقين على شىء واحد هو تحرير الوطن من غير طريق العنف ، ولكنهما كانا مختلفين بعد ذلك فى كل شىء .

كان غاندى يدعو إلى العصيان ... وكان جناح ينكر العصيان ... كوسيلة فعالة للكفاح ، ويفضل اتخاذ الطرق الدستورية القانونية .

كان غاندى يكسب مهابته بالتجرد والصوم واللباس القليـل ، وكان جناح يكسبها بشخصيته المهيبة ومظهره الأنيق وصوته المؤثر .

قد لقيا من الاضطهاد والسجن والإرهاب ، صوراً وألواناً ... ولكنهما مع ذلك كانا مثلين عاليين على الأخلاق السلبية التى يمثلها غاندى ، والأخلاق الإيجابية التى يمثلها جناح .

ويبـدو أن اختلاف الأساليب والوسائل يرجع إلى اختلاف الدين والبيئة والطبيعة النفسية .

فقد كان غاندى هنـدوسياً ، أحب المسيح وأحب بتولستوى ... وأخذ منهما ، وكان يرى أن التهديد بالصوم سلاح بتار فى تحقيق مطالب الهند ، وكان يحيط نفسه بتلك الصورة الشعرية الساحرة . . . التى ألهبت نفوس الجماهير ، وأمدته بالمعنى القدسى . . . حتى كانوا يعبدونه فى بعض معابد الهند .

وهو الذى استعان بالفكرة الدينية ، وأيقظ فى نفوس الهندوس روح التعصب ، وبالرغم من ثقافته الأوربية العالية وقراءاته فى الإنجيل فقد كان ضيق الأفق ، يحافظ على التقاليد الهندوسية التى لا تتفق مع العصر ... ولا تجرى مع الزمن ، حتى اتهم بأن سياسته هى التى خلقت التباعد بين الهندوس والمسلمين ، وكانت سبباً فى تفكير « جناح » فى تحرير المسلمين من ربقة الهندوس .

مزج غاندى بين الفكرة الوطنية والفكرة الهندوسية ، وحرص على أن يلبس مئزراً يغطى وسطه ، وظل باقى جسده عاريا ، وكان يجلس على الأرض ، ويعمل المغزل . ويحلب الشاة .

واتخذ من هذه الصورة ، سبيلا لفت الأنظار ، فانضوى تحت لوائه الملايين .

كان غاندى هندوكياً متعصباً ، لا يؤمن بفكرة الباكستان ويعارضها ، وكان يركب الدرجة الثالثة ، ويقضى أيامه فى أكواخ المنبوذين ، ولكن عربة الدرجة الثالثة كانت تخصص له وحده ، بعد تنظيفها ، وكان ينتقل من كوخ المنبوذين إلى المحطة أو قصر نائب الملك فى أفخم السيارات التى يضعها تحت تصرفه الكبراء .

وكان فقيراً ، ولكن كانت تهدى إليه الفواكه التى لا توجد فى بعض القصور .

وكان يعلن عداوته للآلات ولكنه يستعمل الساعة .

* * *

أما جناح فكان مسلماً ، يختلف مع غاندى كل الاختلاف فى أساليب معيشته ووسائل زعامته . . فكأنما هو النقيض تماما . .

يسكن فى دار فخمة فى نيودلهى ، أنيق الملبس ، يلبس البذلة الافرنجية البيضاء . أفاد من قضاياه ثروة ضخمة ، فقد كان يحصل على تعويض يبلغ أحيانا مليون روبية (٨ آلاف) فى القضية الواحدة .

وبينما كان غاندى يصر على أن يظل الخلاف بين طبقات الهندوس قائماً ، كان جناح يغفت الخلاف بين طوائف المسلمين ويدعو إلى الوحدة .

وكانت زعامته فى لسانه الطليق ، وبيانه الواضح . .

كان عضواً فى المجلس التشريعى الهندى ، ثم انضم إلى حزب المؤتمر الوطنى .

ثم صاح صيحته سنة ١٩٠٦ ، وارتبط المؤتمر ، بالرابطة بفضل جهوده ، وسمى يومها سفير الوحدة ، وكان لهذه الرابطة أبعد الأثر فيما تحقق للهند من آمال .

ظل كذلك يغذى الحركة وينميها ، حتى اشترك فى معركة من المعارك السياسية الدقيقة الحرجة ، فلقب بالقائد الأعظم .

ولما أعلن نهرو أنه ليس فى الهند غير طرفين : هما الحكومة البريطانية وحزب المؤتمر . . قال جناح : إن فى الهند طرفا ثالثاً هو الشعب المسلم .

* * *

كان غاندى وجناح من أقدر رجال السياسة فى الشرق . . غير أن جناحاً كان لا يستسيغ المناورات السياسية الدينية التى يلجأ إليها غاندى . .

فقد عرض مشروع باكستان ١٩٤٠ فى المناطق التى يؤلف فيها المسلمون أغلبية فى السكان دون أن يخشى خصومة غاندى أو معارضته المشروع ، ووقف يظاهره فى قوة ، وهو مؤمن بأنه الحل الوحيد للخلاف الداخلى الذى يوشك أن ينشب بين المسلمين والهندوس . . . وقد استطاع أن ينشىء دولة دون أن يريق قطرة دم واحدة . .

* * *

كان كل منهما زعيا شعبياً ، بعيد الأثر فى بيئته ، قوى المعارضة ، اكتسب كل منهما مكانته بأسلوبه الخاص .

كان غاندى زعيما من نوع جديد ، وطابع خاص ، غير مسبوق ، لفت الأنظار إليه ، وكانت طريقته فى مقاطعة البضائع الأجنبية ، والعصيان المدنى ، والصيام . . والملابس ، من أسباب بروز شخصيته فى محيطه .

أما جناح فكان يعتمد على غير الأساليب التى اصطنعها غاندى ، كان قوى المعارضة بشخصيته والفكرة التى يدعو إليها ، والأمل المرسوم وراء حلم « إقبال » .

كان أمل المسلمين الذين كانوا يغذون حركة الاستقلال فى الهند ، من أن تصيرهم أقلية تعصف بهم مطامع الهندوس وأهواؤهم .

لقد جاهد كل منهما فى سبيل فكرته وبلاده ، وتحقق لكل منهما فى حياته أمله فى الحرية . . ؟

أنور الجندى

هُمَـــا...؟

محمد سلامه مصطفى

في جميع البقاع التي تنبض فيها لغة القرآن الكريم ، ألوف وألوف من القراء المثقفين ، والأدباء النابهين ، لكل منهم مع « الرسالة » و « الثقافة » قصة رائعة وحديث ذو شجون . ولكم طلعت علينا المجلتان بقصص القراء والأدباء معهما ! فإذا بنا حيال صفحات باهرة ، وتاريخ لامع ، وسطور مجد وفخار . ومنذ عهد قريب نشر صديق الكاتب الفاضل الأستاذ محمد رجب البيومي قصته مع مجلة الرسالة الغراء ، في صورة رسالة مفتوحة ، وجه الخطاب فيها إلى واحد من رفاق صباه وشبابه ، فخطر لي وقتئذ أن علي واجباً مفروضاً نحو هاتين المجلتين الراقيتين إن لم أؤده فأنا من الجاحدين ، وليس من ديدني الجحود ، والحمد لله رب العالمين .

كان عجيباً أن أطرق باب أحد أقربائي المثقفين ثقافة واسعة ، المقتنين كل قيم من الكتب شرقيها وغربيها ، وأنا غلام في أول مرحلة التعليم الثانوي ، لأسأله في سذاجة أن يعيرني المجلد الأول من مجلة الرسالة ! ولا أكتم القارئ أني كنت وجلا ، لا أدرى لماذا ! ربما كان لشعوري حينذاك أني قطرة ماء تسعى إلى الدأماء . ولكن الرجل المثقف الذي خشيت سخريته واستخفافه رحب بي أيما ترحيب . وبعد الشاي ، اختفى لحظات ، ثم عاد وهو يحمل مجلدات من الرسالة والثقافة ، وضعها أمامي ، ثم حدثني حديث المربي الكريم عن الأدب والأدباء والرسالة والثقافة . فأكد لي ذلك أن أولي الفضل والحكمة يبتهجون حين يقعون على بذور صالحة ، ولا يضنون بمن يأنسون فيهم الميل إلى العلم والمعرفة .

وحين علم والدي — رحمه الله — رغبتي في اقتناء الرسالة والثقافة أسبوعياً ، تهلل محياه ، وأشرقت نفسه ، لأن الفتيان تعودوا أن يطلبوا أدوات اللهو وغذاء البطون ، لا أن يشغفوا بمجلات الخاصة ، وميادين الفكر ، وغذاء العقول والقلوب . واستجاب أبي لندائي . وأصبح من المألوف أن يأتيني بائع الصحف في القرية بالتحفتين الخالدتين كل أسبوع . وأصبح من المألوف أيضاً أن أثور كأني قدر تفور ، على بائع الصحف المظلوم ، إذا تأخرت المجلتان أو إحداهما لسبب من الأسباب !!

ولا أزعم أني كنت في أول الأمر أفهم جميع ما ينشر في المجلتين ، ولكنهما كانتا من العوامل التي ارتفعت بي فوق مستوى زملائي . وكلما تقدم الزمن شعرت أني أتقدم ، وأن سبلاً ومعالم وآفاقاً جديدة تتضح في دنياي . وكنت أرى أندادي يهيمون بالروايات التافهة ، والقصص المثيرة ، والمجلات المسمومة ، فكنت أنصح لهم بالانصراف عنها والاطلاع على الرسالة والثقافة ، ومنهم من ظل مواظباً على قراءتهما حتى الآن . ومن الطريف أن بعض التلاميذ الخبيثين كان يستغل ولعي الشديد بهما ، وتقديري العظيم للكتاب والشعراء الذين يدبجون صفحاتهما الجليلة ، فينالهم بألسنة حداد ، ويغض من شأنهم بأسلوب صبياني ، ليخرجني عن صمتي وهدوئي ، وآنذاك : اصفق بأرواح . . وثوري بأعصاب . . وانطلق بقلب نائماً عن حياض الأدباء والشعراء !! وغالباً ما كنت أخرج من المعمعة وقد رفعت علم النصر ، وظفرت آخر الأمر بإقناع المعتدين .

ولم يكن من السهل أن أقاوم شغفي بالرسالة والثقافة ، فكثيراً ما ضبطت متلبساً بقراءتهما في أثناء الدرس ، وكان التلاميذ أحياناً يسكتون فجأة كأن على رءوسهم الطير ، فيسترعي سكوتهم انتباهي ، فأرفع رأسي عن الصفحات لأرى الأعناق مشرئبة إلي ، والأنظار مصوبة نحوي والمعلم قد فغر فاه من الدهشة ، لأني منصرف عن الدرس ، وعن الدنيا كلها ... إلى الرسالة والثقافة ! ! وأشهد أن مدرسي

اللغة العربيـة كانوا يعاملوننى معاملة خاصة ، ويشملوننى بعناية مشكورة ؛ لأنى كنت أقرأ نتاج النابغين وأفيد منه فائدة يظهر أثرها فى كراسات الإنشاء حيث الدرجات النهائية ، والتعليقات المشرفة ، على الدوام ؛ وأذكر أن أحد المدرسين كان يدعونى « سيبويه » فأقول له فى منطق غرير « سيبويه ؟ ومن هو سيبويه » يابك ؟ أليس عالماً نحوياً أنا أفضل منه ... أهو مثلى يقرأ ويكتب ثلاث لغات ؟ هل شهد الدبابة والطيارة والسيارة والترام والسينما والراديو ؟ هل أنفق لحظة فى دار الكتب المصرية ؟ هل هو من قراء الرسالة ، والثقافة . » فيبتسم الرجل ابتسامة لا أدرك مغزاها ؟ .

وفى منتصف المرحلة الثانوية أصبت بالروماتزم ، والتهاب حاد فى العينين ، فقرر الطبيب أن أستريح فترة طويلة ، وأن أتجنب التعب والإرهاق ما استطعت إلى ذلك سبيلا . انقطعت عن المدرسة ، ولزمت الفراش ، وعشت بين الأدوية والعقاقير والزائرين شهوراً مؤلمة مملة ، وضايقنى جداً حرمانى من الرسالة والثقافة ، فكان أبى يقرؤهما على وأنا أتتبعه منتبهاً صاغياً ، والويل لمن كان متعباً من الزائرين ، كنت أمتلئ امتثالا ، ساعات متوالية ، حتى ينتهى من قراءة الرسالة والثقافة بإتقان ... من الغلاف إلى الغلاف .

ثم تقرر أن أتم علاجى فى القاهرة ، وفيها ألقت ، وحولت أوراقى إلى المدرسة التوفيقية للالتحاق بها ، وهناك التقيت بأحد شعراء الرسالة والثقافة المعروفين ، وكان أستاذ اللغة العربية بالتوفيقية ، ولا أنكر جميله على واحتفاءه بى من ذلك العهد حتى الآن .

وفى العاصمة أشرقت حولى حياة جـديدة ، وبدأت عهداً جديداً . فإلى جانب الرسالة والثقافة وجدت روافد علمية وثقافية متباينة لها خطرها . فقد انتفعت بدار الكتب المصرية ، والمحاضرات والمناظرات التى يلقيها الشاعر فى الأندية الأدبية ، ومعارض الفنانين البارزين ، والأفلام الغربية الممتازة ، والمسرحيات والرحلات ، وما إلى ذلك مما لا يستغنى عنه مشتغل بالأدب والفن .

وتعرفت على شخصيات من الكتاب والشعراء والنقاد الممتازين ودفعنى ذلك إلى المثابرة على الاطلاع وتحسين شعرى ونثرى ، وفى كل خطوة خطوتها على مدارج الفكر والبيان ، وفى كل فوز أحرزته لم أكن أنسى فضل الرسالة والثقافة على شخصى .

وما زلت مدينة أو قرية فى مصر إلا استفسرت عن قراء الرسالة والثقافة ، وربما سعيت إلى بعضهم خاطباً وده ناشداً صداقته ، ولى منهم أصدقاء كثيرون .

وكلما اعتكرت حياتى بخطب ، أو ساء النفس منى هم لاعج لا يريم ، هرعت بما ألاقى إلى شاطئ النجاة ، ومعقل الأمان والإيمان ... إلى الرسالة والثقافة ، فألقى البلسم والبرء ، وأجد الأمل والرجاء ، وما زلت أذكر وفاة أبى رحمه الله وما أعقب ذلك عندى من فراغ هائل ، وحزن قاتل ، وانطواء يضنى ويفنى ؟ وعندئذ هتف هاتف : لك بالقرآن الكريم والأدب العالى ... فأسرعت أعيش مع المصحف والرسالة والثقافة ، وأنهل العزاء والصبر الجميل ؟ وفى أول مرحلة التعليم الجامعى أصبت بصدمة فى طموحى زلزلت وجودى وبددت جهودى . فتألمت كما يتألم المكافحون فى سبيل العلم والنور ، وتعذبت عذاباً لا يتصوره إلا من ثكل أملا كبيراً من آمال العمر ، ورغبة تتلهب إلى القمم والمعالى . عندئذ هتف بى الهاتف : لك بالقرآن الكريم والأدب العالى . . فأسرعت أعيش مع المصحف والرسالة والثقافة ، وأنهل العزاء والصبر الجميل ...

والحديث عن الرسالة والثقافة يطول ويطول ، ويحلو ثم يحلو ، وجماع الأمر أنهما جامعتان تقومان بعملهما النبيل خير قيام . فليهنأ صاحباهما بما يقدمان للعروبة والإسلام من أياد بيض وخير كثير .

هما السلوى والنجوى ، وهما النار يتألق فى الظلمات ، وهما العزاء ينبجس فى الفلوات ، وهما الدليل الصادق الأمين فى متاهات الوجود !!

محمد سعودى مصطفى

ثورة على الفن الهندى

للأستاذ محمد فهمى

الشرق شرق وسيظل ... والغرب غرب وسيبقى هكذا الاثنان — فى الفن على الأخص — مهما جد بينهما من تقارب ... هكذا قالت ريشة الفنان الهندى القديم، وقالته أيضاً ريشة الفنان الهندى المعاصر ... فى آثار كل منهما وإن كان هذا القول الأخير تخفته أنغام من الغرب.

ماذا ينقص الشرق ؟

فى حديث لى مع فنان مصرى كان يعرض رسومه فى أحد معارض القاهرة اتفقنا على رأى واحد هو أنه ينقصنا ... شىء هام ... فى فننا الحديث. إنه مبهم لاندرى حقيقته على وجه التحديد، ولكنه دون شك يختلف كل الاختلاف عن روح الفن الأوربى وطرائقه فى التعبير، تلك التى اتبعناها وسرنا على هداها فى نهضتنا الفنية الحديثة... وقلنا معاً ... لماذا لا نرسل بعوثاً فنية للشرق كما نرسلها إلى ممالك أوربا ؟ لماذا لا نرسل بعوثاً إلى إيران والهند والصين واليابان ما دامت لم تبعث فينا الجرأة الكافية لنؤمن بفننا المصرى الفرعونى ونتوافر على دراسته وبعثه من جديد ؟

ولقد جاء معرض الفن الهندى بالقاهرة منذ أشهر مؤيداً لهذا الرأى، فلقد تبينا على ضوئه ذلك الشىء الهام الذى ينقصنا ... إنه روح الشرق، أى الطابع الذى يحكى أو تنعكس عليه بيئة الشرق المنير على اللوحة حيث الخط هو سبيل التعبير والانتقال من لون إلى لون، فى حين أن الفن الأوربى يعنى غالباً بالظلال ! والعجيب أن الفن المصرى الفرعونى القديم ... كان يخلو من الظلال أيضاً فى أكثر عصوره، متفقاً فى هذا مع الفن الإيرانى والهندى والصينى القديم .. ومما لا شك فيه أن ذلك ليس لعجز عن ممارسة الظلال، بل لأن الشرق طابعه النور الفياض دائماً والذى لا يحدده على اللوحة سوى الخط ... ومن العجيب أن أعلى مراتب الفن الأوربى فى الرسم اليوم تتركز عند (بيكاسو) فى الخط مع ملاحظة الفارق فى الحركة والاستدارة فى خطوط (بيكاسو) عنها فى الفن الشرقى القديم المتميز بهندسته الدقيقة ؛ فهل هذا التطور نحو الخط طبيعى عند بيكاسو أم أنه انجذاب منه نحو البساطة الآسرة والتركيز الشديد الماثلين فى خطوط الفن الشرقى ... وهل كان على الفن الأوربى أن يمر بكل أطواره المتعاقبة حتى يصل أخيراً إلى الخط ؟ ... سؤال ليس محل الإجابة عليه الآن.

ومما يدعو إلى الالتفات أن نرى فى الفن الهندى لوحات بالفريسكو وهى التى اكتشفت حديثاً بمغارات (إجانتا) والتى صور بها فنانو الهند منذ ألفين من السنين حياة بوذا العظيم ؛ ويأخذ تحديد الخط وتجسيم الشكل فى الفريسكو الهندى أهمية ملحوظة فضلا عن اختيار اللون مما يميزه عن الفريسكو الإيطالى.

إنك إذا نظرت إلى لوحة من الفن الهندى من العهد القديم (بعد غزو المغول) لا تملك نفسك إلا أن تهتف : حقاً أنه الشرق ... أنه النور ثم النور. وتتفرس فى اللوحة وأنت مستريح النفس تستمتع بمهارة الفنان وقدرته على التنسيق وسيطرته على ريشته والدقة فى استخدام المساحة وجرأته الإنشائية، إذ يقسم اللوحة إلى أقسام غالباً تبلغ الثلاثة أو أكثر تكاد تكون محددة الفواصل، ومع هذا تتناسق وتتآلف فى مجموعها غاية التناسق. لقد اختفت فى لوحات الفن الشرقى تلك التعبيرات .. اللون الحار Chande واللون البارد Froide والـ Valeur وأمثالها من اصطلاحات الفن الأوربى، إنك هنا أمام شىء جديد، فاللون غالباً هو الحار واللوحة مساحة يملأها الضوء مع زخرفة دقيقة تزين المنظور داخل الفراغ الذى قد يكبر حتى يكاد يسيطر على اللوحة وقد يصغر حتى لا يتجاوز ركناً فيها، وفى كلا الحالين يعرض الفنان مقدرته على التحكم فى الخطوط الدقيقة وألوانه المتعددة فى غير تنافر بل فى انسجام عجيب ؛ ولا تبدو الطبيعة إلا فى حلة موشاة من الزخرف الدقيق والألوان الزاهية ... إنه مهرجان النور

والألوان ، حتى القاتم منها مهمته أن يزيد بهجة المهرجان لا أن يطفئها .

كان هذا الطابع لفنان الشرق القديم حين كان يزين بآثاره قصور الملوك والأمراء وتحفهم النادرة . وكان هؤلاء ككل الشرقيين لا يحبون غالباً إلا البهيج السار .

ولقد بدأ ذلك العهد في الهند بغزو المغول بقيادة الملك (بابر) وإنشاء امبراطوريتهم ، وقد جاء مع المغول أعلام الفن الإيراني فدخلت معهم إلى الهند مدرسة الألوان الزاهية والزخرفة الهندسية في الرسم ، تلك التي أخذت تتأقلم في الهند شيئاً فشيئاً وبدأ الفن الهندي يستعيد وقاره .



« سوق القرية »

صورة من رسم هار كريشان لال

ولما تدهور سلطان الإمبراطور المغولي في دلهي عاصمة الهند واستقل الأمراء في مقاطعاتهم لجأ الفنانون إلى قصور الأمراء في أنحاء الهند المختلفة ، فنشأت في الفن مدارس عدة منها مدرسة Bahaoi باهاوي وراجبوت وكانجرا وبلزولي والتي لا تخطئ العين الفاحصة مميزات كل منها ؛ فمثلا مدرسة باهاوي في الشمال حيث المنطقة جبلية والأمراء يبنون قصورهم في الجبال كثيراً ما نرى الفنان يعبر عن البيئة المحيطة به باستخدام حيز في أعلى اللوحة يشير فيه إلى مناطق الجبال .

ولكن جميع هذه المدارس على العموم يسري فيها روح واحد هو روح الهند الذي يستغرقه الدين والذي دمغ الفنون بطابعه ، سواء في الرسم أو العمارة ، فجاءت معابد الهند على قدر كبير من الضخامة تنق واتساع رقعة الهند وبالتالي لتستوعب أكبر عدد من الحجيج والمتعبدين .

ثم جاء الاحتلال البريطاني فقضى على المدارس الفنية القديمة وانتثر عقدها ، واستمر الحال قرناً من الزمان أو أكثر حتى جاء البعث الفني مع توثب الهند للحرية وهبتها للتخلص من المستعمر ، وقد قاد تلك النهضة الفنية في الهند الدكتور طاغور منذ ستين عاماً وهو من أسرة الشاعر الكبير المسمى بهذا الاسم وانضم إلى لوائه عدد من تلاميذه المخلصين للنهضة وللفن ؛ ولكن الهند لم تعد هند المغول ولا أمرائها ، إنها الهند الحديثة مظهراً التي صبغتها أوربا بحضارتها ، وطاغور وتلاميذه ممن أشربوا تلك الحضارة الأوربية في بعثات أو زيارات لمعاهد الفن ومتاحفها ؛ إذاً فلا بد وأن يظهر أثر الفن



« أم وطفلها »

صورة من رسم مانخان جوتا جوبتا

الشرق في إنتاج هذه المدرسة ، وهذا ما حدث بالفعل وما تنطق به آثار الفن الهندي المعاصر المنشور بعض منها (شكل ١ و ٢) وهو ما يصح أن يطلق عليه ثورة على الفن الهندي .

وقد حاولت مدرسة الدكتور طاغور المزج بين الهند وأوربا ، ولكن أوربا تبدو سيدة الموقف . فكم من الزمن يا ترى سننتظر حتى يجد فنانو الهند لروح الهند سيطرة ، كما فعل أسلافهم حين هزاهم الفن الفارسى مع المغول ؟

لقد يكون مما يزيدنا تبصرة بحركة النهضة الفنية في الهند أن نرى إنتاج فنانى الباكستان أيضاً ومفاهيم في التعبير عن إحساسهم وبيئتهم ، فإن ولايات الباكستان الشمالية كانت ذات طابع خاص منذ أقدم العصور حين كانت الهند كلها وحدة .

ثم لقد نجحت المدرسة الحديثة (مدرسة الدكتور طاغور) في بعث نهضة الفن في الهند ، ولكنها فشلت إلى الآن في إبلاء شخصيتها كاملة رغم ما بدا من محاولات ناجحة في بعض الآثار لفنانيها ، أبدى فيها الفنان ابتكاراً في استعمال اللون وتحرراً من الظل والنور على الطريقة الأوربية ، وبدت بأناملهم تلك الحساسية المرهفة الموروثة عن أسلافهم .

وهنا قد يخطر لنا أن نتساءل : أليس من المحتمل أن طريقة الفنان الأوربي في التعبير هي الوسيلة اللائقة لفنان يعبر عن إحساسه بحرية ؟ . . . وهل الطريق الذى سلكه الفنان الشرقى القديم في الزخرفة الدقيقة وهندسة الخطوط كانت تقيده به رغبة الملوك والأمراء في إبداع فن تكون الزينة أهم عناصره ؟ . . . ولما هل ودع الفن الشرقى ألوانه وخطوطه الدقيقة ونعومته وجوه الحافل بالغنى إلى الأبد ؟ . . إذ كانت كلها طوراً لعصر مضى وانقضى بانقضاء دواعيه ؟ ليكن الجواب ما يكون ؛ ولكنى أحن كل الحنين لرؤية النور والإشراق والألوان المتراقصة ، تلك التى توقع ألحاناً تسرى عن النفس ، وتبدو الفكرة بينها وكأنها في مهرجان أو عرس .

فمثلا حين أراد الفنان القديم رسم لوحة الشاعر ، تخيله شيخاً داخل حديقة جاثماً على ركبتيه محتضناً كتاباً والكتاب هنا يفى، أن الشخص من رجال الفكر . ولعله قد جثم على ركبتيه لتلقى الوحى أو الإحساس بخطورة ما يحمل بين يديه من رسالة ، وإن الجلال البادى في ألوان ملابسه ليدل على أن وضعه في المجتمع أشبه بملك . أما الحديقة الزاهية التى تتألق فيها الزهور البهجة اللون الدقيقة الشكل فإنها بلا شك تعبر عن مواكب الأمانى العذاب في مخيلة الشاعر .

وهذه اللوحة لو أراد رسمها الفنان الأوربى لجعل الملامح في وجه الشاعر تعبر عن استغراق في التفكير ونظراته سابحة حالمة ، وأعطى اللوحة جواً من الإبهام . أما هنا فقد استعاض الفنان الشرقى عن كل هذا بالألوان والخطوط ليحدثنا بكل ما يريد دون أن يحمل الملامح ما يخرجها عن طابع البساطة أو ينحو بها إلى التكلف .

وعندما تخيل الفنان القديم مولد الإله كرشنا رسم الفنان القديم الهندى أم الطفل وقد وضعته على يديها ببساطة وأمامها وعاء تغسله فيه ولعله ماء مقدس ، بينما الأسرة تبدو في جو منزلى وقد ملأ الفنان مساحات اللوحة بعد أن قسمها لعدة مجموعات ، ورغم التقسيم استطاع الفنان أن يبرز اللوحة وحدة كاملة ولم يعمد إلى تهويل أو مبالغة في رسم ملامح الأشخاص .

وحين رسم إحدى معجزات الإله كرشنا وهو يرفع الجبل بأصبعه تراه واقفاً وقفة عادية والجبل فوق كفه وكأنه يحمل ريشة لاوزن لها . والعجيب أن الألوان قد استعملها الفنان كعامل مبسط يوحى باليسر حتى لا نحس أن الأمر طبيعى . وكأنها معجزة تافهة بالنسبة لقدرة كرشنا العظيم الذى لم يحاول الفنان قط أن يظهر على ملامحه أى أثر من آثار المعجزة — إنها البساطة — وإنى لأتنبأ للفن الهندى المعاصر بأنه سوف يسرع نحو روحه الأصيل ويتخلص من الغرب وآثار الفنانين الأوربيين ، فإن روح الهند التى طوت في أعماقها كل الفاتحين ستطوى أيضاً أثر الفن الأوربى دون جدال . هذا بينما الفن الصينى واليابانى سوف يفقدان طابعهما المتميز الفريد ويسرعان بالانحراف نحو الفن الأوربى أكثر وأكثر ، نتيجة الهزات السياسية والاجتماعية التى اجتاحت في تلك البلاد بالفعل جذور ثقافتها وتقاليدها المتوارثة .

محمد فهمى

القاضى[1] الجليس

الدكتور شوقى ضيف

هو أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الحباب التميمى ، من ذرية بنى الأغلب سلاطين إفريقية . وأكبر الظن أنه ولد ونشأ فى القاهرة ، ولم يلبث أن عدا الشعر ، فالتحق بدواوين الإنشاء الفاطميين ، وسفر بينهم وبين حكام اليمن ، وأصبح رئيس دواوين الإنشاء لعهد الخليفة الفائز (٥٤٩ — ٥٥٥ هـ) ووزيره طلائع بن رزيك .

ويظهر أن المودة كانت منعقدة بينه وبين طلائع قبل أن يلى وزارته ، فاخذ يتردد مع من راسلوه وهو على إحدى ولايات الصعيد ، ليقدم إلى القاهرة ، وينكل بعباس الصنهاجى ، ويأخذ منه بثأر الظافر وأخويه يوسف وجبريل وفى ذلك يقول له من قصيدة :

دعتنى من نظم القريض عوادى
وعف فؤادى هجـــوه النادى
وأرّق عينى والعيون هواجع
هموم أقضّت مضجعى ووسادى
بمصرع أبناء الوصىّ وعترة الـ
نبىّ وآل الذاريات وصاد
أولئك أنصار الهدى وبنو الرّدى
وسم العِدى من حاضرين وباد
لقد هُدّ ركن الدين ليلة قتله
بخير دليـــل للنجاة وهاد
تداركْ من الإيمان قبـــل دثوره
حشاشـــة نفس آذنت بنفاد

وقد كاد أن يطفى تألق نوره
على الخلق عادٍ من بقيـــة عاد
فزكّ جموع الزافين فإنها
بقايا زروع آذنت بحصاد

ومضى القصيدة على هذا النمط القوى الجزل . ولبى طلائع دعوته ، فجمع جموعه ، وقدم بهم إلى القاهرة ، فاقتحمها على الجناة ، وأذاقهم وبال أمرهم جزاء وفاقا ، وفى ذلك يقول القاضى الجليس :

ولما ترامى البربرىّ بجهلـــه
إلى فتكة ما رامها قط رائمُ
ركبتَ إليه متن عزمتك التى
بأمثالها تُثنَى الخطوب العظائمُ
وقدت له الجرد الخفاف كأنما
قوائمها عنـــد الطراد قوادم
وتصل منها والعجاج خضابها
هـــوادٍ لأركان البلاد هوادم
تجافت عن الماء القراح فريها
دماء العدا فعى الصوادى الصوارم
وقمت بحـــق الطالبيين طالبا
وغيرك يُغضى دونه ويسالم
أعدت إليهم ملكهم بعد ماثوى
به غاصبٌ حـــق الأمانة ظالمٌ
فما غالبٌ إلا بنصرك غالبٌ
وما هاشمٌ إلا بسيفك هاشم
فأدرك بثأر الدين منه ولم تزل
عن الحق بالبيض الرقاق تخاصم

وواضح أن هذا الشعر من نسج متين ، فصاحبه ليس ممن يرسلون الكلام على عواهنه دون فحص ، بل لا يزال

(١) انظر فى ترجمة القاضى الجليس خريدة القصر وجريدة العصر طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وكتاب الروضتين ١٤١/١ وفوات الوفيات لابن شاكر ٢٢٨/١ وحسن المحاضرة ٣٢٤/١ والنجوم الزاهرة ٢٩٢/٥ وكذلك ٣٦١/٥ والمغرب (نسخة الجامعة العربية) الورقة ١٠٩ .

يختبر ويتحن ، ولا تزال القصيدة عنده كأنها تجربة ، فهو لا يخرجها إلا بعد بحث ودرس ، وبعد صقل وتهذيب وتنقيح.

ونحن نلاحظ بجانب ذلك أنه شاعر شيعي أو ينزع منزعا شيعيًا ، فالشيعية واضحة في هذه الأبيات السابقة . ولعل هذه النزعة فيه هي التي قربته من الخلفاء الفاطميين ، فقد كان يحضر مجالسهم ، ويفسحون له فيها ، ومن ثم سمي القاضي الجليس . ولا ريب في أنه مدحهم مدائح كثيرة ، وإن كانت كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ لنا بشيء ، واضح من هذه المدائح ، لما كان فيها من تشيع .

ويبدو أنه كان كاتباً ممتازاً كما كان شاعراً ممتازاً ، يدل على ذلك أن الفاطميين أسندوا إليه رياسة ديوان الإنشاء مع الكاتب المشهور الموفق بن الخلال . غير أن ما أثر من كتابته قليل ، وقد روى له العماد قطعة في طلائع يقول فيها :

« هو الوزير الكافي ، والوزير الكافل ، والملك الذي تلقى بذكره الكتائب وتهزم باسمه الجحافل ، ومن جدد رسوم المملكة وقد كاد يخفيها دثورها ، وعاد بها إليها ضياؤها ونورها :

وقد خفيت من قبله معجزاتها
فأظهرها حتى أقر كفورها
أعدت إلى جسم الوزارة روحه
وما كان يرجى بعثها ونشورها

فقد نشرت أيامه مطوى الهمم ، وأنشرت رفات الجود والكرم ، ونفقت بدولته سوق الآداب بعد ما كسدت ، وهبت ريح الفضل بعد ما ركدت . إذا لها الملوك بالقيان والمعازف ، كان لهوه بالعلوم والمعارف ، وإن عمروا أوقاتهم بالخمر والقصف ، كانت أوقاته معمورة بالنهي والأمر » .

وهذه القطعة على قصرها ترينا شيئاً من فن القاضي الجليس في نثره ، فقد كان يعرف كيف يختار لفظه ، وكيف يحبك سجعه ، مع ميل ظاهر إلى استخدام الجناس ، وإطراف السامعين به ، وله منه بدائع كثيرة من مثل قوله :

ربيض تُسكّن الحفيظاً ... رهفات جفونهن جفون
وخدود للدمع فيها خدود ... وعيون قد فاض منها عيون

فهو يستخدم الجناس ، ولا نحس عنده بتعقيد ، فريشته ريشة فنان صناع ، وهي ريشة خفيفة في يده ، هي وكل ما تلونه من جناس ، وكأنه اطلع على كل سر من أسرار هذا اللون من ألوان البديع ، وهو يذيع هذه الأسرار في أبيات رشيقة ، يودع صدرها كل مالك نفسه ، كقوله :

حَبّذا ميعة الشباب التي يعــذر في حبها خليع العذار
إذا بنات الخلار أمتع ليلى ... وبنات الخار ألهو نهاري
والغواني لا عن وصالي غوان
والجواري إلى جواري جَوَاري

فهو يجانس جناساً رشيقاً بين يعذر وخليع العذار ، وكذلك بين ذات الخمار أي الخمر وذات الخمار أي المرأة ، وأيضاً بين الغواني وغوان ثم بين الجواري وجواري وجَواري ، وهي كلها جناسات خفيفة خفة النسيم الأرج .

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن القاضي الجليس كان شاعراً ممتازاً في عصره ، وكان من حظ طلائع بن رزّيك أن استصفاه لنفسه واتخذه صوتاً لوزارته وبوقاً لحكمه ، إذ نبعه ينشد بمناقبه وينادي في الناس بمآثره وفتوحه وحروبه وانتصاراته في الداخل والخارج ، فلما ثار عليه والي الإسكندرية طرخان بن سليط وقضى عليه انطلق القاضي الجليس يقول :

سيوفك لا يُفَلّ لها غرار	فنوم المارقين بها غرار(1)
يُجرّدها إذا أحرجت سخطٌ	على قوم ويغمدها اغتفار
طريدك لا يفوتك منه ثأرٌ	وخصمك لا يقال له عثار
وفيما نالــه من كل باغ	لمن ناواك ـ لو عقل ـ اعتبار
لقد أصلح الأملاك فينا	بما تختاره فلك الخيــار
فقــد شفعت إلى ماتبتغيه	لك الأقدار والفلك المدار

ومنها :

عدلتَ وقــد قسمت وكم ملوك
أرادوا العدل في قَسْم فجاروا
ففي يد جاحد الإحسان غُلٌّ
وفي يد حامد النعمى ســوار
لقد طمحت بطرخان أماني
له وكتــه فيهــا تبوارُ
وحاول خطة فيهــا شماسٌ
على أمثاله وبهــا نفــار

(1) غرار الأول : حد السيف ، والثانية : النوم القليل .

وكما ألف جيوش طلائع بالصليبيين في الشام انطلق يشيد بطولته وبطولة جيوشه. وعلى هذا النحو كان يرصد نفسه على مدح طلائع ووصف أعماله ومعاركه ووقائعه، ومن ذلك قوله في وصف إحدى هذه الوقائع:

تكاد من النقع المثار كأنها
تنار في أحياناً وإن قرب النجر
عجاج يظل المتق منه في دجى
وإن لمت أسيافه طلع الفجر
وخيل يلف الفتر بالترب عدوها
وقتل يعاف الأكل من هامها النسر

وهذه كلها أشعار تدل أبلغ الدلالة على ما حظى به القاضي الجليس من شاعرية بارعة وأنه كان حريًّا بما وصل إليه من مجد في عهد طلائع، فهو يملك قياد الشعر ويسلس في يده منه ما لا يسلس في يد غيره من معاصريه. فقد كان يعرف كيف يرصف أساليبه وكيف يحليها بألوان البديع من جناس وغير جناس، وكيف يسبغ عليها أو قل كيف ينقشها بالصور والأخيلة. وهو في ذلك كله لا ينبو عن الأذن، بل لا يزال يطلب الاطراد الموسيقي والائتلاف الصوتي، واستمع إليه يقول:

ألث بنا والليل يُزْجى بلحة
دجوجية لم يكتحل بعد قودها
فأشرق ضوء الصبح وهو جبينها
وفاحت أزاهير الربى وهي رياها
إذا ما اجتنت من وجهها العين روضة
أسالت خلال الروض بالدمع أمواها
وإني لأستشق السحاب لريحها
وإن لم تكن إلا ضلوعي مأواها
إذا استعرت نار الأسى بين أضلعي
نضحت على حر الحشا برد ذكراها
وما بي أن يصلي الفؤاد بحرها
ويضرم لولا أن في القلب مأواها

ولا ريب في أن هذه القطعة مكتظة بالصور والشعور المتدفق. ولعل أصوره وبديعه على هذا النحو، فصناعته ليس فيها تعقيد، وكل ما يحشده من أخيلة وغير أخيلة لا يحول بيننا وبين معانيه، كأنه النقاب الشفاف الذي لا يستر شيئاً مما وراءه. وكان يهديه إلى ذلك حس دقيق دقة جيدة، وهي دقة تجلت في كثير من جوانب شعره، ومن طريف إبداعاته قوله في رثاء أبيه، وقد مات غريقاً لريح عصفت بمركبه:

وكنت أهدى مع الريح السلام له
ما هبت الريح في صبح وإمساء
إحدى ثقالى عليه كنت أحسبها
ولم أخل أنها من بعض أعدائي

وتكثر في شعره مثل هذه اللفتات الدقيقة التي تدل على حدة ذهن وحدة شعور، كما تكثر الأبيات الخفيفة الرشيقة من مثل ما كتب به إلى صديق له أهداه طيباً في ليلة من الليالي:

بعثت عشاء إلى سيدي ... بما هو من خلقه مقتبس
هدية كل صحيح الإخاء ... جرى منه ودك مجرى النفس
فجد بالقبول وأيقن بأن ... لفرط الحياء أتت في الغلس

وهذه رقة بالغة. والقاضي الجليس في ذلك يمثل رقة المصريين وما اشتهروا به من دقة الذوق. ويظهر أنه كان خفيف الروح، فصاحب مسالك الأبصار يقول فيه: «كان ممن تفرح الصدور بمجلسه، ويخجل الشفق لترجيسه» فمجلسه كان محبباً إلى الناس بما يملؤه به من دقائق الشعر ورقائقه، وبما امتاز من رقة الحس والشعور، بل بما كان يصحب ذلك كله من فكاهة حلوة ونادرة حاضرة، وله في ذلك طرائف كثيرة، منها طرفة تندر فيها على طبيب وصف له وهو محموم وصفة، فلم تنجح وصفته، فقال بداهة:

وأصل بليتي من قد غزاني
من السقم الملح بعسكرين
طبيب طبه كغراب بين
يفرق بين عافيتي وبيني
أتى الحمى وقد شاخت وباخت
فرد لها الشباب بنسختين
ودبرها بتدبير لطيف
حكاه عن سنان(١) أو حنين(٢)

---

(١) هو سنان بن ثابت بن قرة.

(٢) هو حنين بن إسحق.

تطور المعانى الأدبية

للأستاذ عز الدين إسماعيل

إذ قلنا المعانى الأدبية فإن هذا يقتضى بالتالى أن تكون هناك معان غير أدبية . ولكى نفصل منذ اللحظة الأولى بين المعنى الأدبى وغير الأدبى نذكر أن الأدب تفسير وجدانى لظاهرات الحيوية . وفى قولنا « وجدانى » الفيصل الأول والأخير بين الأدب وغير الأدب . والمعنى الأدبى — على هذا الأساس — هو المعنى الواجدنى الذى يفسر ظاهرة أو جزئية من جزئيات الحياة فى صورة موحية . واقرأ ما شئت من أدب فلن تراك معجباً مأخوذاً إلا بالصورة الموحية التى تبعث بظلالها وأجوائها وحركاتها وسكناتها وألوانها وأشكالها ولمساتها وهمساتها — أو قل بكل عناصر الصورة الكاملة — أقول : تبعث فى نفسك بكل هذه العناصر ذلك المعنى الوجدانى الذى انتفض فى نفس الشاعر الحساسة إزاء ظاهرة أو جزئية من جزئيات الحياة .

ولك أن تسأل : هل تعنى بالمعنى الوجدانى المعنى الذى يترجم عن العاطفة ؟ وإذا كان ذلك كذلك فماذا تقول فى شعر قالوا فيه إن العقل هو الذى ولد أكثر معانيه عند شاعر كأبى تمام مثلاً ... ؟ ولن أتركك تتمادى فى السؤال إلى أبعد من هذا ، لأن هذه التفرقة القديمة بين أبى تمام والبحترى تحتاج إلى إعادة النظر ، وكذلك التفرقة الحديثة المعاصرة بين العقل والعاطفة — بخاصة فى الأعمال الإبداعية — عند بعض النقاد الذين يظنون أنهم يسدون إلى الأدب خدمة جليلة حين يقصون عنه عنصر العقل — كل ذلك لا نصيب له من الصحة ، لبديهية بسيطة هى أنك لا تستطيع أن تعطل عنصراً حياً من عناصر وجودك لحظة من اللحظات فضلاً من تعطل عقلك أو عاطفتك ؛ فأنت تعمل بكل وجودك ، وتتأثر فيك وجودك كله . إن الوردة الحمراء لكفيلة أن تهز كيانك من فرعك إلى قدمك ؛ تهز فيك جانب الفكر ، وتهز فيك جانب الشعور ، وتثير فيك رائحتها ولونها ألوان الغرائز والذكريات . . وهكذا لا تترك فيك موضعاً قابلاً للتأثر إلا حركته . وعلى ذلك فليس هناك معنى هو عقلى صرف أو عاطفى بحت ، وأحسن من هذا وذاك هو أن نقول — كما قلنا — إن هناك معنى وجدانياً بما لكلمة الوجدان من مدلول يشمل الكائن الحى كله .

والصورة الوجدانية التى يبدعها الفنان هى الصدى المترجم أو الرمز المعبر عن شعور ناضج كامل . وإذا كان

وكانت نوبة فى كل يوم قصيرها يحذق نوبتين

وأظن أن هذا الطبيب هو ابن سيراى ، وكان متقدما فى صناعته ، وكان يقوم على خدمة طلائع ، وكان فى أخلاقه بعض الفراسة والحمق . فكان يعبث فى شعره به ويداعبه ، وكذلك كانت تداعبه حاشيته . وأكبر الظن أن هذا الطبيب نفسه هو الذى قال فيه القاضى الجليس :

يا وارثا عن أبٍ وجَدّ فضيلة الطب والسدادِ
وكاملا رَدّ كل نفس همت عن الجسم بالبعادِ
أقسم أن لو طببت دهراً لعاد كونا بلا فساد

ولعله أراد بهذه الأبيات أن يضع بلسما على ما أصاب ابن سيراى من فكاهته السابقة . وقد أتى بمعنى دقيق على عادته فى الإطراف بالمعانى الدقيقة ، إذ قال فيه إنه لو طب دهراً لعاد كونا بلا فساد .

وفى كل ما قدمناه ما يدل على أن القاضى الجليس كانت تجتمع له النادرة الخفيفة والحس الرقيق والقدرة البديعة على صوغ الشعر وصناعته . والحق أنه كان خليقاً من حيث شاعريته بكل ما أصابه من مكانة وحظوة فى عصره ؟

شوقى ضيف

الأفراد في كل زمان ومكان لا يشبه الواحد منهم الآخر شبهاً مطابقاً ، وإن كانا توأمين — كما أثبتت الدراسات الفسيولوجية والسيكلوجية الحديثة — فإن الفن الوجداني حرى أن يأخذ صورة عند شاعر غيرها عند شاعر آخر . قد يحدث نوع من الاتفاق أحياناً ، ولكنه — عند التدقيق — يظهر أنه اتفاق جزئي . على أن هذا الاتفاق لا يقع عادة إلا عندما تكون الظاهرة التي تعرض لها الشاعران واحدة ، كظاهرة غروب الشمس في الأشياء المحسوسة وظاهرة الشجاعة مثلاً في الأشياء المعنوية . فإذا تساءلنا عن علة اختلاف الصور الأدبية التي أريد بها التعبير عن ظاهرة واحدة عند شعراء مختلفين ، أمكننا أن نرد ذلك إلى أمرين : أولهما وراثي وتكويني ، والآخر زماني مكاني . فالوراثة والتكوين تفردان شخصاً من آخر ؛ فيكون هناك احتمال كبير للاختلاف في صورهما الأدبية إزاء ظاهرة واحدة بمجرد الاختلاف ؛ والزمان والمكان ينتقلان بالفرد من طور إلى طور ، فيكون هناك بالتالي احتمال كبير في تطور الفن الأدبي تبعاً لذلك عند شاعرين : أحدهما في زمان ومكان ، والآخر في زمان ومكان . وإذاً فأنت واجد بين النابغة وأبي تمام اختلافاً بالضرورة ؛ فالفن الواحد لن يأخذ عندهما صورة واحدة ، وأكثر من ذلك فإنك تستطيع أن تلمس نوعاً من التطور في الصورة التي يقدمها لك أبو تمام .

وقد يعود الآن لتسأل : هل يعني هذا أن الصورة الأدبية التي يقدمها لي أبو تمام مثلاً متفقاً في معناها مع النابغة تكون — نظراً لأن أبا تمام جاء بعد النابغة وصورته بالضرورة متطورة عن صورة النابغة — تكون أجمل وأحلى ... ؟ وأنا لم أتفق معك بعد على هذا الحسن وتلك الطلاوة ، أو كما قلت الجمال والحلاوة ، فقد لا يعني ذلك شيئاً ، وقد يعني أشياء ليست من الوضوح في نفسي ونفسك بالقدر الكافي ، فضلاً عن أن هذه الأشياء بدورها قد تكون مثار خلاف بيني وبينك إذا اتضحت لنا . وليس عندي هنا ما أقوله إلا أن موقفي من متلقي الفن ومتذوقه هو نفس موقفي من الفنان نفسه . فكل ما قيل من اختلاف في التكوين والوراثة وفي الزمان والمكان ، يستتبعهما اختلاف جوهري بين الأفراد في استعدادهم الفكري والنفسي والجسمي ، وفي تلقي الأشياء ، وفهم الحياة في جميع مظاهرها بوجه عام ، كل ذلك يمكن أن يراعى عند الكلام على أسباب تفضيلك صورة على صورة ، كما روعي عند اختلاف الصورة عند الشاعر عنها عند الآخر سواء بسواء . فالصورة التي يصورها النابغة قد تعجب المتنبي حين لا تعجبه الصورة التي يصورها أبو تمام . ومعروف أن أبا تمام جاء بعد النابغة ، وأن المتنبي جاء بعد الاثنين . وقد تعجبني الآن صورة أبي تمام وأفضلها على صورة النابغة ، فأختلف في ذلك مع المتنبي وهذا هو الطبيعي ، لأني غير المتنبي كلية أولاً ، ولأني أعيش في زمان ومكان لم يشهدهما المتنبي . فإذا كنت أنا والمتنبي نتفق في أمر واحد وهو أننا وجدنا في زمن لاحق لأبي تمام والنابغة ، فليس معنى هذا أننا سنتفق بالضرورة على تفضيل صورة أبي تمام والإعجاب بها على صورة النابغة ؛ فقد أعجبت بأبي تمام ، حين أعجب المتنبي بالصورة القديمة ، صورة النابغة .

ومن هنا يتضح لنا أن تطور الصور الأدبية من شاعر قديم إلى شاعر محدث لا يعني مطلقاً أنها تتطور إلى ما هو خليق بأن يجمع حولها رأي أكبر عدد ممكن من المتذوقين بحيث يتفقون جميعاً على تفضيلها ، وإنما المقصود بالتطور في الواقع هو دخول عناصر جديدة على الصورة القديمة . ولا شك أن هذه العناصر الجديدة ستعمل عملها ، فقد تزيد الفن وضوحاً بتوسيع نطاقه أو بتضييقه ، وقد تزيده تعقيداً وإبهاماً بخلق جو من التناقض والتنافر بين الأجزاء ، وقد تزيده ضحولة بأن تخرجه من طبيعة الرمز الأدبي إلى الوضوح السافر فتفقد الصورة عنصر الإيحاء الذي هو من أهم مقومات العمل الفني . وهكذا يظهر لنا أن هذه العناصر الجديدة التي يدخلها الشاعر الحديث على الصورة القديمة للشاعر القديم لا ترتفع بالصورة الحديثة درجة من درجات الجودة ، أو إن شئت لا تتقدم بها دائماً خطوة في سبيل الوصول بها إلى المرحلة التي ينطبق فيها عليها التعريف الصحيح للأدب من ناحية ، أو في سبيل الوصول بها إلى المرحلة التي يتفق فيها الجميع على الإعجاب بها وتفضيلها على سابقتها من ناحية أخرى ، وإنما هي أحياناً تصل بها إلى هذه المرحلة وأحياناً تقصر دونها إن لم تقصر دون الوقوف بالصورة القديمة في مكانها .

ولعل هذا قد ألقى لنا ضوءاً جديداً في سبيل تفسيرنا لعدم الاتفاق التام على تفضيل صورة أدبية على أخرى تتفق معها في المعنى ، وعدم الاتفاق التام دائماً على تفضيل الصورة المتأخرة على الصورة المتقدمة . فكان السبب دائماً يرجع إلى الأفراد أنفسهم من ناحية ، وإلى عمل العناصر الجديدة التي دخلت على الصورة بعامل التطور من ناحية أخرى .

وفي الأدب العربي ظاهرة تزيد لنا المسألة وضوحاً هي ظاهرة المعارضة في الشعر بخاصة . فكثير من الشعراء يغرمون لا بالمعاني المفردة لمن سبقهم من الشعراء ، بل يمتد إعجابهم إلى القصيدة الكاملة ، فينسجون على منوالها — كما يعبرون أحياناً — أو قل إنهم يشعرون إزاءها بمشاعر وتثير في نفوسهم أشياء — لا دخل لنا بها الآن — تجعلهم يعيدون تصوير تلك المعاني التي طالعتهم في القصيدة تصويراً جديداً أو قل تصويراً آخر . فالوقوف أمام المعاني القديمة هنا مسلم لا جدال فيه ، وكل عمل الشاعر المحدث ، أو المعارض ، هو التصوير الجديد . ولك أن تراجع الآن بعض قصائد المعارضة ، وهي كثيرة في الشعر العربي ، لتسأل نفسك : هل كانت صور الشاعر المتأخر دائماً أجود — بالمعنى الذي ذكرناه للجودة — من صور الشاعر المتقدم ، وعندئذ ستظهر لك الحقيقة التي أسلفنا ، وهي أنه أحياناً تتقدم الصورة المتطورة نحو الجودة وأحياناً تتأخر ، وعندما تبحث عن سبب تقدمها وتأخرها في كل من الحالين ستجد أن ذلك راجع إليك وإلى الشاعرين من جهة ، وإلى العمل الذي أدته العناصر الجديدة التي دخلت القصيدة المتأخرة بعامل التطور من جهة أخرى .

وطبيعي أن الأفراد أنفسهم يتطورون ، وإذا بنا نجد مشكلة تطور المعاني تصبح مشكلة عند الشاعر الواحد ، فتراه يتناول المعنى الواحد في أكثر من مناسبة ويعرضه في أكثر من صورة ، ونجدنا حين نعرض الصورتين نفضل واحدة على الأخرى . فإذا كان الشاعر الواحد يعرض لنا أكثر من صورة للمعنى الواحد فنستجيد بعضها ونفضله على بعض ، فإن سبب التفضيل هنا يرجع إلى الأسباب السالفة بطبيعة الحال ، مع إضافة عنصر جديد هو أن الشاعر هنا يعجب بنفسه لا بغيره ، وهو بهذا يحاول أن يكرر نفسه .

وأيضاً فإنه كلما كرر نفسه كان هناك مجال كبير لاحتمال الإتيان المعنى بصور أجود من الصورة الأولى أو أقل جودة .
ومن المعروف أن شوقي حين قال بيته :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

راح يكرر نفسه في أكثر من مناسبة ، فكان في كل مرة تالية أكثر منه فشلا في المرة السابقة عليها . فالشاعر الواحد ليس من الحتم أن تتطور المعاني عنده إلى ما يقال عنه أجود ، وإن كانت على كل حال تتطور .

وإذا ذكرنا تطور المعاني وتكلمنا عن تطور الصور فلأننا لا نستطيع أيضاً فصل الصورة عن معناها ، وها هي ذي بعض النماذج من الشعر أضعها بين يدي القارىء حتى آن الأوان ليشهد منها ما يجد فيه صورة لما سقناه من أفكار . قال علاقة بن عرفي :

وكنتم قديماً في الحروب وغيرها
مياميين في الأدنى لأعدائكم نكد

فقال لبيد :

ممقر مر على أعدائه ... وعلى الأدنين حلو كالعسل

وقد تدوول هذا المعنى كثيراً فقال المسيب بن علس :

هم الربيع على من شاف أرحامهم
وفي العدو مناكيد مشائيم

وقال كعب بن الأجلم :

بنو رافع قوم مشائيم للعدا ... ميامين للمولى وللمتحرم

وقال أبو دواد :

فهم للملاينين أناة ... وعرام إذا يراد عرام

ولعلك حتى الآن لا تستطيع أن تفضل واحداً منهم نهائياً وإن كان المسيب قد وفق في صورة الربيع التي أبرزها . أما الصورة الأخرى التي أبرزها لبيد وهي صورة العسل فلعلك لن تستسيغها . وما بقي بعد ذلك لا يكاد يحرك فيك شيئاً . حتى إذا جاء بشار فقال :

يلين حيناً وحيناً فيه شدته
كالدهر يخلط إيساراً بإعسار

وحتى يقول أبو نواس بعده :

حذر امرىء نصرت يداه على العدا
كالدهر فيه شراسة وليان

نجد الصورة قد اعتمدت على عنصر جديد هو الدهر جاءت بإيحاء آخر غير الربيع وغير العسل ، وربما كان هذا العنصر الجديد « الدهر » قد وسع المعنى بحيث جعلك تشترك فيه ، إذ كان الدهر أكثر حيوية بالنسبة لكل حى من العرام والعسل ، وربما كان أكثر هولا من الربيع . ثم يأتى أبو الشيص فإذا به ينقل الصورة من الدهر إلى السيف فيحددها بعد أن اتسع نطاقها فيقول :

وكالسيف إن لاينته لان متنه
وحـــداه إن خاشنته خشنان

فأبو الشيص يستغنى عن رمز برمز ويستبدل بالسيف الدهر ، ولكن صورته مع تحددها لا تقل طرافة عن سابقتها . حتى إذا جاء أبو الطيب المتنبي إذا به يقول :-

أنت طوراً أمر من ناقع السم وطوراً أحلى من السلسال

فتراه قد عاد إلى صورة لبيد « المرارة والحلاوة » ، وإن كان قد استغنى عن « الأعداء والأدنين » فى صورة لبيد . ولكن هذا المعنى لم يقف عند المتنبي على هذه الصورة ، بل ظهر فى صورة أخرى :

متفرق الطعمين مجتمع القوى فكأنه السراء والضراء
وكأنه ما لا تشاء عـداته متمثلا لوفوده ما شاءوا

فيكتسب المعنى هنا أو الصورة نوعا من العمومية ، لأن الحياة إما سراء وإما ضراء ، وممدوح المتنبي قد جمع بين السراء والضراء ، وكل ما يخطر ببال أعدائه فهو شىء آخر غيره ، وأيما شىء أراده الوافدون عليه وجدوه ماثلا عنده ، متمثلا فيه .

هذا المعنى الذى تداول على مر الأيام بين الشعراء ، قد اتخذ صوراً عدة من التعبير عندهم ، أقل ما يقال فيها أنها مختلفة نوعا من الاختلاف ، وأن هذا الاختلاف كان له أثره فى تحديد المعنى أو تعميمه ، وأيضاً فإن بعض هـذه الصور كان أطرف من غيره .

وهـذا مثال آخر لمعنى من المعانى التى تناولها الشعراء وتداولوها . قال الطرماح بن حكيم :

لقــد زادنى حباً لنفسى أننى
بغيض إلى كل امرىء غير طائل
وأنى شقى باللئام ولن ترى
شقيا بهم إلا كريم الشمائل

ننظر فإذا بدعبل الخزاعى ينقل هـذا المعنى فى بيتين آخرين فيقول :

إنى لفى الناس إذا ما أخرت رجلا
أحب الناس حياً كالذى عابه
كذاك ، من كان هدم المجد غايته
فإنه لبناة المجـــد سبابه

فنجد الطرماح قد تناول المعنى من زاويته الشخصية ؛ فإن بغض القاعدين المقصرين عن شأوه له قد زاده حبا لنفسه واعتزازا بها ، ولكنه شقى بهؤلاء اللئام ، ولا غرو ، فكل كرام الشمائل لا بد أن يشقوا بهم .

أما دعبل فيتناول المعنى من زاوية أخرى هى زاوية الأشخاص الآخرين ، فينتزع من المجتمع — أى مجتمع — صورة لهذا المعنى . فالشخص الذى يتأخر به سعيه عن أن يدرك الغاية لنقص فيه وعيب يعيبه ، فإنه يتمنى أن يصيب الناس عيب مثل عيبه يقعد بهم أيضا عن بلوغ الغاية . وأيضاً فإنه لا سبيل لمن كانت غايته هدم المجد إلا أن يتناول بناته بالسباب ليحط من أقدارهم ، ولا يظهر امتيازهم عليه ، وعلى العموم فقد انتزع دعبل لمعناه صورة من نفسية المجتمع وليست تختص بمجتمع دون آخر .

فالاختلاف الذى حدث بين الطرماح ودعبل أن الأول كان ذاتياً فى إبرازه المعنى وكان الثانى موضوعياً . وقد تبع هذا اختلاف آخر هو أن المعنى عند الطرماح كان محدوداً ، أو — بلفظ أدق — محدداً ، فيه شخصية الطرماح واللئام الذين كانوا يبغضونه ، بينما اتسع المعنى عند دعبل نوعاً من الاتساع ، لأنه امتد إلى تصوير جانب من جوانب نفسية الأشخاص فى كل مجتمع .

حتى إذا جاء أبو تمام إذا به فى أوجز عبارة يعطى لهذا المعنى أوسع وأتم نطاق من الدلالة حين يقول .(وذو النقص فى الدنيا بذى الفضل مولع) ، وقد قال « فى الدنيا » ولم يشأ أن يحدد لنا زماناً بعينه أو مكاناً بعينه ، بل أطلق القاعدة إطلاقاً فيه كثير من التعميم إن لم يكن كل التعميم . وأظن الفروق واضحة بين المعنى كما أورده أبو تمام وكما ورد عند دعبل والطرماح .

والحق أن دعبلا وأبا تمام قد استغنيا عن الجانب

نقد

النقد الأدبي

تأليف الدكتور أحمد أمين بك

٤٥٦ صفحة في جزأين — لجنة التأليف والترجمة والنشر

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

صناعة النقد الأدبي قديمة ، مادامت الأمة ذات حضارة ، وما دام الأدب وهو باب من أبواب الفنون عنوانا على حضارتها .

ونحن أمة تتكلم العربية ، وقد ورثنا حضارة العرب كما ورثنا حضارات أخرى ، إلا أن صورتها التي تكتسبها ، أو القالب الذي تقدم إلينا فيه هو اللغة العربية . ولذلك كان لابد للناقد الأدبي أن ينظر في هذا الثوب الذي نرتديه كلما شئنا أن نعبر عما يجول في أفئدتنا من خواطر .

وهناك شعوب أخرى تتكلم بغير العربية ، ولها أيضاً آداب ، وفيها أدباء يستجيبون للحياة ويشعرون بها ويعبرون عنها بلسان قومهم . وقد افتتن المحدثون بالأدب الغربي ، وقرءوا ما كتب فيه خاصاً بهذا الباب الجديد ، نعني النقد وأصوله ، وأرادوا أن يطبقوا هذه الأصول على الأدب العربي . والكتاب الذي نقدمه اليوم إلى القراء ، يحاول هذه المحاولة ، أو على الأصح يريد أن يوفق بين النقد الأدبي عند الأفرنج وبين ما ورثناه عن العرب ، ولذلك جعل الجزء الأول في أصول النقد ومبادئه ، والثاني في تاريخه عند الأفرنج والعرب .

نقول إن هـذه الموازنة بين الأدب العربي والأدب الغربي ليست جديدة . فنحن نعرف أن الحضارة الإسلامية قد اتصلت بالثقافات الأجنبية منـذ أواخر العصر الأموي

الشخصي ، وتجربتهما الخاصة ، واهتما بالمعنى كما يشاهدان أو يدركان وقوعه في الحياة بصفة عامة ، في الوقت الذي جمع الطرماح في إخراج هـذا المعنى بين تجربته الشخصية وملاحظته للخارج . وقد اتضح هذا الجمع عند مروان بن أبي حفصة ، قال :

ما ضرني حسد اللئام ولم يزل
ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

أما أبو الطيب فقد أخرج من هذا المعنى صورة جزئية من صوره العديدة ، أوردها في عبارة وجيزة حين قال : (والحر ممتحن بأولاد الزنى) : فالحر — في هذه الصورة الجزئية يمثل ذا الفضل في الصورة العامة عند أبي تمام ، وأولاد الزنى في هذه الصورة يمثلون ذوي النقص في تلك .

والحق أننا لا نستطيع أن ندعي أن الصورة العامة عند أبي تمام أفضل من الصورة الجزئية التي أوردها المتنبي ، بل ربما ذهبنا إلى العكس — بناء على نظرتنا التي أسلفنا إلى الفن أو الصورة الأدبية بأنها كلما كانت أكثر حيوية كانت أقرب إلى نفوسنا . فالتقابل بين الفضل والنقص ، لا يتمتع بالحيوية ، ولا يثير في النفس ما يثيره التقابل بين الحر وأبناء الزنى .

وإذا نحن تتبعنا المتنبي وجدنا هذا المعنى قد تبلور عنده أخيراً ، فجمع فيه عنصري الذاتية والموضوعية وإن لم يوفر له العناصر الحية الموحية في بيته الذائع :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني كامل

وأخيراً ، فيستطيع الباحث أن يقف على كثير من المعاني الأدبية ويتتبع مراحل تطورها ، ويحدد العناصر التي أحدثت لونا من التجديد في الصور التي أخذها المعنى عن الشعراء . وربما كان أفضل من تتبع هـذه المعاني الجزئية أن نتتبع المعاني الأدبية الكبرى ، فهي بلا شك أكثر طرافة ، وميدان البحث فيها أكثر خصوبة .

عز الدين إسماعيل

وأوائل العصر العباسي ، أي في عصر الترجمة ، ولم تكن آداب تلك الشعوب مجهولة من المسلمين ، فكان من الطبيعي أن يوازن العرب ، أو المتعربون الذين يتخذون اللغة العربية أداة التعبير ، بين الأدب نثره وشعره عند العرب وعند الأجانب .

قال الجاحظ في كتاب له مفقود وحفظ بعضه الأمير نشوان الحميري صاحب كتاب « الحور العين » : «وقد سمعت العجم كلاماً وخطباً طوالا يسمونها أشعاراً ؛ فأما أن يكون لهم شعر على أعاريض معلومة وأوزان معروفة إذا نقص منها حرف أو زاد حرف ، أو تحرك ساكن أو سكن متحرك ، كسره وغيره ، فليس يوجد إلا العرب خاصة دون غيرهم ، وليس في الأرض قوم أعنى بذم جليل القبيح ودقيقه ، وبحمد دقيق الحسن وجليله من العرب . . . »[1]

ولسنا ندري أكان الجاحظ يعرف اليونانية والرومانية أم لا يعرفهما ، أو أنه سمع العجم مترجمات منقولة إلى العربية ولم يسمع هذا الكلام في أصله الأجنبي . والذي يهمنا هنا تلك الموازنة التي يعقدها بين الشعر العربي القائم على الأعاريض والأوزان ونظم الألفاظ ، وبين الشعر الأعجمي الذي لا يخلو من الأوزان ولكنه لا يعنى هذه العناية الفائقة بالنظم المعروف .

جملة القول لكل لغة ذوقها وشخصيتها ومقوماتها مما لا يشاركها فيه لغة أخرى إلا إذا كانت قريبة الشبه بها . وقد فطن إلى ذلك الدكتور أحمد أمين فقال إن الشعر مما يصعب نقله من لغة إلى أخرى ، فإذا استطاع المترجم نقل المعاني عجز عن نقل الرونق أو الصورة الخارجية التي لا يكون الشعر شعراً إلا بها .

وينحو الأستاذ عباس محمود العقاد نحواً آخر في النقد ، ذلك أنه هاجم شوقي هجوماً عنيفاً ، وبنى نقده له على عدة أصول ، أهمها أن قيمة الشعر يجب أن تكون عالمية لا تختص بشعب دون شعب ولا بجيل دون آخر ، فإذا نقل شعر شوقي إلى اللغات الأجنبية لم تثبت له منزلة ، لأنه يقوم على جرس الألفاظ لا على عمق المعاني . ويأخذ بهذا المذهب كثيرون ممن ثقفوا ثقافة غربية وأعلوا من شأنها .

وهذا يدلك على اختلاف النقاد في التقدير ، وذهابهم مذاهب مختلفة ، وتباين الأصول التي يعولون عليها .

مهما يكن من شيء ، فنحن في حاجة إلى كثير من المؤلفات في النقد الأدبي ، لأن تعددها يدفع أصحابها إلى تناول هذا الموضوع الشائك الشائق من زوايا مختلفة ، فيكتمل لنا بعد حين نظرية أو نظريات جديدة في هذه الصناعة .

وكتاب الدكتور أحمد أمين ثمرة دراسة ، وخلاصة تجربة طويلة ، فهو يقول في المقدمة إنه اشتغل بتدريس البلاغة بكلية الآداب عام ١٩٣٦ وقد حضرت هذا الدرس عليه في ذلك الحين ، فاشتاق إلى معرفة ما يذهب إليه الإفرنج في هذا الباب ، ثم اقترح فيما بعد أن يدرس علم النقد في الكلية فأصبح ذلك سنة جارية حتى الآن ، وألف فيه بعض الأساتذة مؤلفات قيمة .

ويمتاز الدكتور أحمد أمين في أدبه بعناصر ثلاثة : صدق الإحساس ، وشجاعة الرأي ، وبساطة التعبير . وأنت تعرف ولا ريب القول المعروف إن الأسلوب هو الرجل ، فلا غرابة أن يكون أسلوب صاحب الكتاب صورة من شخصيته . ونحن الذين أخذنا عليه العلم ولا نزال نتصل به نعرف فيه هذه الخصال التي تنعكس في كتاباته وتبرز في أسلوبه وهي الصدق والشجاعة والبساطة .

وعلى الرغم من الدراسات الأجنبية التي اطلع عليها المؤلف خاصة بموضوع النقد الأدبي ، أو كما فصلها في أربعة عناصر هي : العاطفة والمعنى والأسلوب والخيال ، فإنه لا يزال كما نزل إلى ميدان الأحكام الأدبية يأخذ « بالذوق العربي » الذي ورثه عن آبائه وأجداده جيلاً بعد جيل ، والذي لا يزال محفوظاً في التراث العربي الموجود بين أيدينا .

من ذلك أنه يعارض بشدة قضية « الفن للفن » وهي

(١) الحور العين ص ٢١٧ .

قضية قائمة فى الغرب منذ القرن التاسع عشر حتى الآن ؟ ولهذا السبب يجعل المثل الأخلاق شرطاً من شروط الأدب الجيد ، كما كان يفعل القدماء من العرب حين ينشدون مغزى أخلاقياً أو حكمة جارية . فهو يذهب مذهب أفلاطون من اجتماع الحق والخير والجمال ، وهو إذ يفعل ذلك إنما يستجيب المبدأ الذى شرطه لكل أديب وهو الصدق ، ويعبر عن شعوره الخاص وعقيدته الشخصية .

وهو حين يوازن بين المعنى واللفظ أيهما أولى بالتقديم وأيهما أعلى منزلة فى تقدير الآثار الأدبية ، يرجح جانب المعنى على اللفظ ، أو الفكرة على الأسلوب ، وقديماً اختلف نقاد العرب فى هذا الموضوع ، ولكن أغلبهم يميلون إلى ناحية اللفظ . فإذا كان الدكتور أحمد أمين يغلب المعنى والفكرة على الألفاظ والأساليب فإنما يفعل ذلك استجابة لطبعه ، فهو إلى المعنى أميل ، وأسلوبه لا يبدو فيه الاحتفال والأناقة ، ولعله يفعل ذلك قصداً ، أو كان يفعل ذلك عن عمد ، ثم أصبح الأداء البسيط من جملة طبعه أو أسلوبه ، والأسلوب هو الرجل .

وأحسب أنك سوف تختلف مع المؤلف فى كثير من القضايا التى بسطها خلال الكتاب ، وهذا الخلاف فى مثل الموضوع الذى يتناوله وهو النقد الأدبى أمر طبيعى ، لأن الآراء لم تجتمع فيه على مذهب مقرر لا فى الشرق ولا فى الغرب ، وخير الكتب هى التى تثيرك وتدعوك إلى التفكير ، ولا بأس من المعارضة فى الرأى .

خذ مثلا هذه القضية ، وهى أن شعر الطبيعة قد يكون موضوعياً ، أو كما يقول ص ٨٦ : «وفى التناول الموضوعى يجب أن يخفى الشاعر نفسه تماماً ويدع الطبيعة تتكلم عن نفسها ، فهى تتكلم عن نفسها وتخاطب الشاعر ، ولذلك يجب أن يكون الأسلوب مزيجاً من العرض الصادق والوصف الصحيح » . وهذه قضية تحتاج إلى نظر ، لأن الطبيعة وما فيها من مشاهد لا تنطق ولا تتكلم ، ولا تصف نفسها ، وإنما نحن الذين ندرك هذه المظاهر فيخيل إلينا أن الزهر يبتسم ، وأن الشجر يتمايل ويتثنى ، فكل وصاف للطبيعة إنما يصف انعكاس صورها فى نفسه ، ولذلك قال جمهرة النقاد الغربيين إن الشعر لا يمكن إلا أن يكون « ذاتياً » ، وعندنا أن كل شعر ذاتى ، ويتفاوت الشعراء فى صدق التعبير عن شعورهم ، وجودة وصفهم لما يرون ، وتنزل درجة الشاعر كلما تكلف أو اتبع التقليد وآثر محاكاة أساليب غيره من الشعراء .

وقضية أخرى هى أيضاً موضع نزاع شديد بين المفكرين والأدباء والنقاد ، تلك هى : أيخضع الأدب لغاية أخرى كالأخلاق والسياسة والدين ، أم لا يخضع لغاية أخرى ؟ وهى القضية التى تقال من الفن عامة : أهو للفن أم المجتمع ؟ ويرى الدكتور أحمد أمين أن « الأدب يشرح الحياة الإنسانية لا لذاتها بل لغاية ، وهذه الغاية هى ترقية المشاعر لا إضعافها ، فإذا هو حاول إفساد العواطف وإضعافها منعناه من ذلك » ص ٣٦ .

ويذهب جمهرة نقاد الغرب وأدبائهم ومفكريهم غير هذا المذهب فى الوقت الحاضر ، ذلك أن الأدب عندهم يقصد لذاته ، وهو تعبير عما يجول فى نفس صاحبه من مشاعر خيّرة كانت أم شريرة .

ولا نستطيع أن نمضى فى ذكر ما جال فى خاطرنا من معارضة بعض المذاهب والآراء التى صادفناها فى الكتاب ، ونحسب أنك حين تقرؤه ستجد فيه إلى جانب المتعة الفكرية أموراً تثير فى نفسك كثيراً من الإعجابات .

أحمد فؤاد الأهوانى

ثمن بخس

[لولا ذكراها الطيبة عندي ، ما كتبت هذه القصة]

للأستاذ إدوار مقسى

في اليوم الواحد والأربعين بعد وفاة زوجته ، وقف غبور افندى أمام المرآة التي كانت تجلس أمامها امرأته في مخدعهما ، ونظر إلى بذلته البنية الأنيقة وإلى المنديل الحريرى الذى يطل من جيب جاكتته ، وإلى شاربه الشقب القصير تحت أنفه المستقيم ، وقال لنفسه معجباً : « إني ما زلت شاباً ! » وابتسم ، وكادت ابتسامته تتحول إلى ضحكة ، ولكنه لمح خصلة من شعره الطويل المصقول خارجة عن مكانها الذى وضعها فيه ، فاقتضب ابتسامته أو ضحكته وتناول المشط والفرشاة ليسوى ما اختل من نظام شعره ! حينئذ سمع والدته تقول له من خارج الغرفة :

— هل أخذت الورقة يا غبور ؟

واقترب غبور بوجهه الأحمر من المرآة وباعد بين شفتيه بينما كان يمشط شعره ليلقى نظرة أخيرة على أسنانه التى تراكمت عليها طبقة سوداء سميكة نتيجة إدمانه التدخين . .

— أى ورقة يا أمى ؟!

واعتدل بقامته وأعاد المشط والفرشاة إلى مكانيهما وتهيأ ليتناول طربوشه من على المشجب جوار التسريحة ...

— الورقة التى كتبت فيها أثمان الأدوية التى صرفتها على المرحومة وزيارات الدكاترة .

وكان قد وضع طربوشه على رأسه ونظر إلى نفسه فى المرآة .

— ولماذا أذهب إذاً إذا لم آخذ هذه القسيمة معى ؟!

ووضع يده فى جيب جاكتته الداخلى وأخرجها بورقة مطوية ، ودخلت فى هذه اللحظة أمه : امرأة قصيرة بدينة بيضاء الشعر ، بسيطة تقاطيع الوجه ، ترتدى السواد . نظرت إلى ابنها بعينين غائرتين فى محجريهما وقالت مبتسمة :

— كم المجموع يا ابنى ؟ كلما حاولت تذكره أنساه .

ومط غبور افندى شفته السفلى إلى أعلى ليتحسس بها شاربه القصير معجباً وقال وهو يعيد الورقة المطوية إلى جيب جاكتته الداخلى حيث كانت :

— واحد وثمانون جنيهاً وستون قرشاً .

ونظر إلى نفسه فى المرآة المرة الأخيرة وضبط عقدة رقبته الحريرية وأمال طربوشه قليلاً على رأسه ! ولما اطمأن إلى وجاهته وأناقته استدار إلى أمه التى كانت تنظر إليه بدورها نظرة إعجاب ...

— أترى سترضى بى العروس الجديدة ؟

— المهم الآن هو أن تعود بالفلوس .

وقهقه غبور افندى .

— اعتبرى الفلوس فى جيبى .

وانطلق إلى عمه : أبى زوجته المتوفاة ، زوج خالته .

● ● ●

كان غبور افندى كاتباً صغيراً بشركة « . . . . » عندما طلب يد ابتسام من زوج خالته لأول مرة فرُدَّ رداً قاطعاً دون ذكر الأسباب ، وإن كان هو نفسه يعرف هذه الأسباب ! لم يكن غبور آنئذ ، وكان فى السادسة والعشرين ، بالشاب المستقيم النظيف الذى يُعتمد على أخلاقه ويُركن إلى سمعته ؛ وقد كانت أخبار سهراته الحمراء وغير الحمراء حديث عائلته ومسلاة من يعرف ومن لا يعرف من الناس . ولا بد لكل شاب أن يمر بهذه الفترة التى يخضع فيها للنزوات ويجرى وراء اللذات حيث يجدها ، كل هذا دون أن يذكر شيئاً عن مغامراته وصبواته . ولكن الأمر كان يختلف مع غبور كل الاختلاف ، فهو لم يكد يغازل فتاة فى الطريق حتى يعود بحديث هذا الغزل إلى أمه يقصه عليها ، ومن ثم تنقله الأم طوراً إلى أختها ! ولا يمضى يوم أو يومان إلا وخبر هذا الغزل الطائر قد تسرب ليس إلى

الصغير والكبير في عائلته وحسب ، ولكن إلى الصغير والكبير في بيت خالته أيضاً ، وفي بيوت الجيران أحياناً ! ولا يختلف الأمر إذا سهر سهرة راقصة أو غشى حفلة يشك في براءتها أو أنفق ليلة حمراء صارخة الاحمرار ؛ ولهذا كان غبور افندي مضغة في الأفواه . لم يكن محبوباً من أقاربه ، ولم يكن يحبه زوج خالته على الخصوص ، أما خالته فقد كانت تعطف عليه لا لكونه شخصاً جديراً بالحب ، ولكن لكونه ابن أختها فقط !

وكانت خالته تلمح في عينيه رغبته في ابنتها ابتسام كلما دخل دارها ، الأمر الذي لم يكن يفعله إلا في فترات متقطعة ، متحاشياً كثرة التقائه بزوج خالته ، وكانت تود من صميم قلبها أن تزوج ابنتها من ابن أختها ، ولكنها كانت تخاف استهتاره ، وعدم أخذه الحياة مأخذ الجد . وعندما تقدم غبور من زوجها يسأله يد ابنته أمهله حتى يفكر في الأمر . ودارت بين خالته وزوجها مشاورات دامت أكثر من شهر انتهيا بعدها إلى ضرورة رد الفتى رداً قاطعاً لا رجوع فيه .

ومضى عام وغبور سادر في استهتاره ومجونه ، بينما كانت رغبته في ابتسام في ازدياد . وتقدم مرة أخرى إلى زوج خالته يطلب يد ابنته فأمهله حتى يفكر في الأمر . ودارت بين خالته وزوجها كما دارت منذ عام مشاورات دامت أكثر من شهر ، انتهيا بعدها كما انتهيا بها في المرة الأولى إلى ضرورة رد الفتى رداً قاطعاً لا رجوع فيه !

هنا ابتأس الفتى واغتم وطوى رغبته في نفسه وتمادى في حياته المستهترة الماجنة لينسى فيها فكرة الزواج من هذه التي ردها عنه زوج خالته والتي كان يحمل لها في قلبه كل حب واحترام .

وكانت ابتسام من هذا النوع الرقيق الحاشية ، العزيز النفس ، الذي تجرحه الكلمة وتثيره البادرة غير المقصودة ، وكانت جادة في حياتها لا تعرف غير الصوم والصلاة والذهاب كل أحد إلى الكنيسة ، وكانت تبتهل إلى ربها أن يسوق لها فتى أحلامها ... ولم يكن فتى أحلامها الذي تتمناه أكثر من شاب متزن لا يؤذي شعورها بفعل ولا يجرح عزتها بقول . وكانت نادراً ما تضحك ، كان يكفي في أشد المواقف وأدعاها للضحك أن تبتسم ابتسامة قصيرة فاترة تعود بعدها إلى إطباقها وجدها .

لم يكن غبور ابن خالتها إذاً موضوع تفكيرها وأمنيتها ، فقد كان مستهتراً في أحاديثه كما كان مستهتراً في حياته ! لم يكن يهتم بمن حوله من الناس نساء كانوا أو رجالا ، فيتحدث بما يليق بالحضور ، وكثيراً ما كانت تخرج ابتسام من الحجرة التي يكون فيها وهي تكاد تنفجر غضباً وحنقاً لأنه تفوه بكلمة خرجت قليلا عن حدود البراءة ، أو دخل بها قليلا المنطقة التي يتحدث فيها الرجال وقد خلا مجلسهم من النساء .

ولكن ابتسام كانت قد رأت ابن خالتها فترت زياراته أو كادت تنقطع كل الانقطاع . فسألت والدتها عن السر ذات يوم ، فأجابتها أمها : « ما رأيك في غبور يا ابتسام » سؤال قصير انزلق من بين شفتي الأم . ولكن ابتسام كانت جامدة تعابير الوجه ، فلم يظهر عليها غضب أو فرح وقالت بهدوء : « لا يعجبني حديثه » . ومضت أيام واجتمعت الأم والفتاة وانزلق لسان الأولى للمرة الثانية : « غبور طلب يدك يا ابتسام » . فقالت الفتاة : « متى ؟ » مرة منذ عام ورددناه . . . ثم مرة أخرى في الشهر الماضي ورفضناه أيضاً . » قالت الفتاة في هدوء : « أحسنتما صنعاً »

ومضى عام آخر وتقدم غبور أفندي يسأل زوج خالته يد ابنته ابتسام ، فأمهله بعض الوقت ليفكر في الأمر ، ولم تجر المشاورات هذه المرة بين خالته وزوجها وحسب ، بل دارت بينهما وابتسام نفسها أيضاً . قال الوالد : « المرة الثالثة يا ابتسام يطلبك ابن خالتك ! لقد رددناه في المرتين الأوليين دون أن نأخذ رأيك في الأمر . أما الآن فسنترك لك الحرية في هذا الموضوع . أنت الآن في السابعة والعشرين فتاة مكتملة السن ناضجة . فكري في الأمر وخذي من الوقت ما يحلو لك ، ثم أخبرينا بما ترين . »

وهكذا تركت ابتسام وحدها تقرر مصيرها بنفسها . لقد كانت عادية في كل شيء ، ولم يكن بياض بشرتها يكافي لاجتلاب العرسان إليها . حقاً ، لقد أتاها خطاب كثيرون ولكن ممن جاوزت سنهم الأربعين أو الخامسة والأربعين ، زملاء أبيها الباشكتاب بوزارة المواصلات ، ولكنها كانت

فتاة أخرى ، كانت تريد شاباً فى مثل سنها أو يزيد عليها قليلا ، لا رجلا فى مثل سن أبيها أو حول هـذه السن ، وجعلت السكينة منذ يومها ذاك تفكر . إن هى ردت غبوراً فسوف يطول بها الانتظار ، وقد يفوتها قطار الزواج إلى الأبد فتبقى عانساً إلى ما شاء الله ، أو تضطر آخر الأمر إلى قبول خاطب من هؤلاء الخطاب الذين يأتون عن طريق والدها ، كبيرى السن مثله ! وإن هى لم ترد غبوراً وقبلته لها زوجاً فسوف يعيشان دائماً فى خصام وشجار : فطباعهما متنافرة ، هو مسرف مبذر وهى شحيحة أو كالشحيحة ممسكة اليد ، هو مستهتر وهى جادة ، هو مندفع فى كل شىء وهى متزنة متروية ، هو يحبها وهى لا تحبه ... آه ! عند هذه الكلمة لاحظت ابتسام شيئاً غريباً . فهى قد اعتادت أن « تكره » غبوراً فيما مضى من الأيام ، ولكنها الآن لا « تكرهه » ولكن « لا تحبه » . وفرق فى نظرها ، بين الكراهية وعدم الحب ! قد يكون عدم الحب أهون من الكراهية ! أليست ابتسام كفيلة أن تجعل من زوجها رجلا كاملا ؟ ! إنه يحبها ، وهذا يكفيها . ألا يمكن أن تقوم اعوجاجه وتجعل منه شخصية محترمة بين الناس ؟ ! إنه الآن فى الثامنة والعشرين ، وهى وإن كانت تصغره بعام فشخصيتها كانت أقوى من شخصيته بكثير ، وهى بذلك تستطيع أن تطغى عليه فلا تهدمه بهذا الطغيان ، ولكن تبنيه عن طريق القيادة لها وإرشاده أمانيها فى أن تصنع منه حلم كل امرأة فى رجلها وحلم كل رجل فى نفسه .

مضت ستة أيام فكرت فيها ابتسام طويلا ، وانتظر والدها كلها بفارغ صبر ممزوج بشىء من الطمأنينة ، وهل يعقل أن تقبل ابتسام رجلا تكرهه ؟ ! ولكن تأتى ابتسام ذات صباح وتبادر أباها وهو جالس إلى مائدة الإفطار قبل خروجه إلى عمله ، وقد وقفت أمها تهيىء المائدة : « لقد رضيت بابن خالى زوجاً . » عندئذ يندهش الوالد : « ولكن » فقاطعته ابتسام : « لقد فكرت فى كل شىء ، واستعرضت كل العواقب . . . ألم تفوضنا فى الأمر ! لقد قبلت غبوراً . » أما أمها فباركت هذا الزواج ، وأما أبوها فقبله على مضض .

تزوج غبور من ابتسام وحدث ما كانت تتوقعه الزوجة ذات الشخصية القوية . حدث أن اعتدلت حياة زوجها واصطلح حاله : من البيت إلى العمل ومنه إلى البيت ، وهو يحبها بل يعبدها عبادة ، وهى تحس أن كراهيتها القديمة له لم تكن مبنية على أساس . أين غبور الآن من غبور طالب يدها قبل عام أو عامين ! ولقد حدث ما لم يكن متوقعاً قط من الزوج المحب العابد ، حدث أن ابتاع لأول مرة فى حياته كتاباً ، وكان هذا الكتاب قصة بول وفرجينى ، وجعل يطالع فيها بمحضر من زوجته كل يوم فصلا أو فصلين .

وأصبح غبور أفندى ، أخو الرذيلة فى الماضى ، الفضيلة ذاتها ! أين حياة العبث فى الماضى من حياة الاستقامة والترفع فى الحاضر ؟ أين انحطاطه قبل زواجه من سموه بعد هـذا الزواج ! لقد كان غبور يقدر زوجته الفاضلة كل التقدير ويحترمها كل الاحترام لأنه كان يشعر فى دخيلة نفسه أنها قد صنعت منه إنساناً ، وقد كان حيواناً أو كالحيوان ! كما أن ابتسام بدأت تقدر زوجها وتحترمه وتحبه لأنها كانت تشعر بأنه صار على يديها شخصاً آخر لا يمت إلى الشخص الأول بصلة .

ومضى عام ... ولم تأت ابتسام بالولد ، ومضى عام ثان ولم تأت ابتسام بالولد ، برغم ترددها على الأطباء ، ومضى عام ثالث ... ولم تأت ابتسام بالولد ، ولاح على غبور أفندى الضيق ! كم كان يحب أن يرى « أولاده » يلعبون ويمرحون فى أرجاء بيته ! كم كان يحب أن يناديه « بابا » ، بابا » كما يحب سماع هذه الكلمة كل رجل فى هذه الدنيا ! ولكن ابتسام كانت عاقراً ، لا أمل فى أن تعطيه ولداً ولا بنتاً ، وكانت تتظاهر بعدم اهتمامها للأمر بينما هى فى غاية الحزن ، فكم كانت تريد أن تعطى زوجها ابناً وأن تكون أماً وأن تنادى هى أيضاً : ماما ، ماما ، كما تحب سماع هذه الكلمة كل امرأة فى هذه الدنيا !.

وفجأة مرضت ابتسام ولزمت الفراش ؟ ولم يشخص مرضها تماما أول الأمر ، وعولجت علاج التيفوئيد بينما مرضها الأصلى كان يثبت جذوره فى رأسها . . . فقد اكتشف بعد فوات الوقت أنها كانت مريضة بالحمى المخية الشوكية .

وأصبح غبور أفندى منذ بدء شعورها بالوعك

وملازمتها الفراش لا شاغل له إلا السهر على راحة زوجته المريضة : لم يبخل عليها بطبيب رغم ضآلة راتبه وقلة ما ادخره في صندوق التوفير . وكان عندما يحار الطبيب في تشخيص المرض وتنفد حيلته في علاجها يأتي زوجته بطبيب آخر أكبر وأشهر حتى مضت منذ بدء العلاج الخاطئ، خمسة وعشرون يوما ، جاءها بالطبيب الذي لا يعلو عليه طبيب آخر في القاهرة . . . عندئذ ، عندئذ فقط عرف وعرف أهل البيت أنها مصابة بمرض خطير ، الأمل في شفائها منه يكاد يكون معدوما لسببين : أولاً أن علاجه جاء متأخراً ، وثانياً لأن علاجه غير ناجح مائة في المائة حتى إذا عولج من بدء مهاجمته جسم الإنسان .

ويكتم غبور أفندي البكاء في صدره أمام زوجته ، ليهون عليها الأمر ولا يفزعها ، ولكنه يبكي من قلبه أمر البكاء في مكتبه في الصباح وفي الترام وفي كل مكان يجد فيه نفسه وحيداً ! وهو يعطيها الدواء بنفسه ، وابتسام تنظر إليه صامتة مقدرة له كل ما يقوم به من أجلها . إنه لم يبخل عليها بأي شيء ! كان يصرف ماله على الأطباء وعلى الأدوية دون النظر إلى شيء ، كأي زوج يحب زوجته ويناضل الموت كي ينقذها . . . ولكن غبور أفندي رغم حزنه وبكائه على زوجته المريضة اليئوس من شفائها كان يحتفظ في جيبه بورقة بيضاء مقسمة إلى ثلاثة أقسام : قسم للتاريخ ، وآخر لنوع الدواء ، وثالث لثمنه ! وكان كلما ابتاع دواء مهما ضؤل ثمنه ، دوّن قيمته وأثبت نوعه وسجل تاريخ شرائه . أجل لا شك في أن غبور أفندي كان يحب ابتسام حباً جماً . . . ولم تكن هذه القسيمة الغريبة التي كان يحتفظ بها في جيبه إلا نوعا من أنواع الإحصاء الذي يغرم به بعض الناس لذة ولا غرض منه ولا نفع فيه : إنها هواية في ذاتها !

مضى الشهر الأول من رقاد ابتسام ! وأحصى غبور أفندي ما صرف طيلة هذا الشهر فوجده يربو على الثلاثين جنيها صرفت بين الأطباء والأدوية . ومضى الشهر الثاني وكانت ابتسام قد تفاقم مرضها ! وأحصى غبور أفندي ما دون في كشف حسابه — وما كان يريد فقط إلا الإحصاء ! — فوجد مصاريف مرض ابتسام قد تعدت الخمسة والخمسين جنيهاً . وكانت ابتسام في اليوم الثاني والعشرين من شهر مرضها الثالث ، وكانت في حالة خطيرة جداً عندما أحصى غبور أفندي مجموع ما أنفق حتى هذا اليوم فوجده واحداً وثمانين جنيها وستين قرشاً .

وماتت زوجته . . . وبكى على قبرها كما لم يبك زوج على قبر زوجته العزيزة من قبل قط . . . ولكنه كان يحتفظ في جيبه في ذات الوقت بقسيمة أثمان الأدوية وزيارات الأطباء .

ولم يكن غبور أفندي ، كما قدمناه إلى القارئ ، من الرجال الذين يستطيعون العيش فرادى ، وربما كان ذلك الضيق أفقه وافتقاره إلى مقدرة الحياة والعيش في داخل نفسه على مدخرات النفس الخاصة . لذلك لم يمض أسبوع على مواراة ابتسام التراب حتى فكر في الزواج من جديد ! وبهذا أبلغ أمه ، فاستنكرت هذه كلام ابنها ، لا لأنه أظهر لهفته إلى زوجة جديدة تحل محل المتوفاة ، ولكن لأنها كانت تخاف لوم الناس واستنكارهم ولأنها لم تكن تدري ، إذا حدث وتزوج ابنها مرة ثانية بهذه السرعة ، كيف تقابل أختها وجهاً لوجه ! أليست أختها : أم تكن الراحلة وغبور أفندي « أولاد خالات » !

استنكرت أم غبور رغبة ولدها أول الأمر ! وتراخى استنكارها في الأسبوع الثاني من وفاة زوجة ابنها ! وأطرقت في الأسبوع الثالث عندما ذكرها ابنها برغبته الجدية في الزواج ، وقالت له أمه في الأسبوع الرابع : وماذا تملك يا بني الآن تتزوج به ؟ لقد أنفقت كل ما كان عندك على المرحومة ! عندئذ ابتسم غبور أفندي ، هاوي الإحصاءات :

— سأبيع عفشها ، وقد يساوي مائة جنيه .

— ولكنه كان عفش ابتسام ولا بد من رده إلى زوج خالتك .

— إنه رجل طيب القلب ، ولن يسأل عنه . وإذا عرض وسأل عنه واسترده ، فسوف أطالبه . . .

— بماذا ؟!

— بواحد وثمانين جنيها وستين قرشاً .

— وما هذه ؟!

— هذه هي مصاريف علاج المرحومة .

— مصاريف علاجها ! أجننت حتى تطالب زوج خالتك بهذا ؟

— وهل كنت ملزما بمداواتها ؟! . . .

ولكن أم غبور اقتنعت فى نهاية الجدال أن غبور أفندى لم يكن ملزما بعلاج زوجته . . . وأنه كان يمكن أن يكون ملزما بهذا إذا كانت ابتسام — المرحومة — قد شفيت وردت إليها الحياة ، أما وقد ماتت فبأى حق يكون ملزما بهذا العلاج ؟ ! !

مائة وثمانون جنيهاً وستون قرشاً : الثلاثة الأولى منها ثمن النعش الذى قد « يصرين » عليه غبور أفندى ، أو الذى قد يتنازل عنه لغبور أفندى زوج الخالة ، والثمانون جنيها والستون قرشاً ثمن علاج ابتسام . . . بهذا المبلغ مجتمعاً فكر غبور أفندى فى الزواج من جديد .

— ألا تعرفين فتاة مناسبة يا أماه ؟

قالها غبور أفندى وهو يفرك يديه مبتسما .

— البنات كثير يابنى . . . أنا فكرت لك فى واحدة .

— عظيم !

— أتعرف وداد بنت محسن أفندى ؟

— قطعة لا بأس بها .

قالها متهللا ، واستطرد مستدركا :

— ولكن كيف نتصل بهذه العائلة ؟ !

— خالتى أم ابراهيم جارتنا تزورهم وتزورنا . سأسألها « تجس النبض » . وسأجيئك بالخبر اليقين .

— تعالى أقبلك يا أماه . . .

— لا . انتظر حتى يتم الموضوع .

— قولى لها : « لها عندى الحلاوة » .

— إطمئن .

تم هذا الحوار فى غضون الأسبوع الخامس بعد وفاة ابتسام ؛ ومضى بعض الأسبوع السادس وغبور افندى يحاول تصوّر كيف سيقابل زوج خالته ويطالبه بالواحد والثمانين جنيهاً والستين قرشاً . . . لا ، هكذا تتم ، تكفى الواحد والثمانون جنيهاً . . . دعنا من الكسور ! وفى اليوم الواحد والأربعين بعد موت زوجته ، أى بعد « الأربعين » مباشرة ، وهى الفترة الرسمية للحزن التى يجوز بعدها عند بعض الناس أى شىء وأى فعل ، أعدّ حافظة نقوده لاستقبال المبلغ الموعود ، وانطلق ، كما بينا فى مستهل هذا الفصل ، إلى حيه : أبى زوجته المتوفاة : زوج خالته .

• • •

وزوج خالة غبور افندى رجل صارم تقاطيع الوجه ، مضموم الشفتين دائماً فى إصرار ، مغضّن الجبهة فى جد . . وكان يقرأ جريدة المساء عندما دخل عليه غبور افندى :

— أهلاً يا بنى . « عاش من شافك » !

— والله يازوج خالتى الشاغل من جهة ومن جهة أخرى لم تعد لى رغبة فى الخروج كثيراً هذه الأيام . لست أرى خالتى ! أين هى إذاً ؟!

— كما تعرف : ملازمة فراشها : لم يكن من السهل عليها أن تفقد ابنتها الوحيدة ، وحيدتنا : إنها لا تكف عن البكاء ليل نهار . . .

ولم يكن من أجل هذا الحديث التافه جاء غبور افندى ، ولكنه جاء لشىء آخر . . .

— والله يازوج خالتى جئتك فى موضوع . . .

— خير إن شاء الله .

— ولكنى لا أعرف من أين أبدأ !

— خير الكلام ما قل ودل .

— إنى محرج .

— إذا كنت فى حاجة ماسة إلى « سلفة » . . .

— المسألة طلب فلوس صحيح ، ولكن على ألا تكون سلفة . . .

— لا أفهم ؟!

عندئذ أخرج غبور افندى قسيمته المشهورة من جيبه وقدمها بيد مترددة إلى زوج خالته الذى ازدادت تقطية جبهته ، وضمة شفتيه وإصرار ملامحه ، وقال غبور افندى :

— حضرتك تعرف أنى صرفت كل فلوسى ومدّخرى على ابتسام فى المدة الأخيرة . . .

وكان الرجل العجوز الجهم الوجه ينظر فى قسيمة غبور افندى ولا يفهم ماذا كانت تعنى ، وماذا كان يقصد بها زوج ابنته الراحلة .

— ما هذا ؟!

— لقد جئت « أسترد » هذا المبلغ .

— تسترد !

— أجل . ألم تكن ابنتك ؟!

— ولكنها كانت زوجتك !

— لست ملزماً بنفقات علاجها .

— أنت تقول هذا كما قد يقوله رجل جاهل ، ليست عنده ذرة من إحساس أو شعور أو فهم .

أكرر أنى لست ملزماً بمصاريف علاجها ، إنى أريد الواحد والثمانين جنيهاً والستين قرشاً ... دعنا على أى حال من الستين قرشاً ...

— أتقول هذا جاداً ؟!

— كما لم أقل شيئاً بجد فى حياتى من قبل . أنت أبوها ، وأنت الذى كان يجب أن يتولى علاجها لا أنا .

— إنى أعرفك . أنت حقير ودنىء . لقد زوجت ابنتى المتعة . لم « تشبكها » بشىء له قيمة ، وجئنا نحن « بالجهاز » ولم تتكلف أنت شيئاً ! وهكذا أخذت البنت على الجاهز . ثم إنك أنفقت معها أربعة أعوام كلها متعة ، متعة ، متعة .

وعندما ماتت المسكينة جئتنى تطالب بمصاريف علاجها ! أنت حقير ودنىء . أنا أعرفك . لو أن فيك نقطة دم وشيئاً من الإحساس والشعور لفكرت قليلاً — ولو أن هذه الفكرة تؤلمنى وتمزق نفسى تمزيقاً — أقول : لفكرت قليلاً فى أن « تتنازل » عن مطالبتك بهذه الواحد والثمانين جنيهاً والستين قرشاً كثمن لهذه السنوات الأربع التى عشتها مع ابنتى تحت سقف واحد . ثمن يدفعه أى رجل لأية امرأة فى الطريق من أجل المتعة ... ويا له من ثمن بخس ، تدفعه لعذراء كابنتى . أنت تطالبنى بواحد وثمانين جنيهاً وستين قرشاً وهى مصاريف علاج ابنتك ، ولكنى أطالبك منذ الآن بدفع ثمن تمتعك بابنتى طيلة هذه الأعوام الأربعة الماضية ...

— تطالبنى بثمن .

— أجل . إنها لم تكن فى نظرك سوى « امرأة » لا « زوجة » .

— امرأة لا زوجة !

— نعم . إنك حيوان ... ومع كل فالحديث مع أمثالك لا يجدى . إنك نذل . سأعطيك ما تطلب على شرط ألا تجعلنى أرى وجهك منذ اليوم .

وقذفه بقسيمة المصاريف العلاجية بغضب ، فتهاوت على الأرض .

عندئذ اختلط الأمر على الشاب ولم يدر ماذا يصنع ! لقد أحس ، ولم يدر كيف جاءه هذا الإحساس ، ولعل ضميره استيقظ عند سماعه كلمات زوج خالته ، إنه فعلا ليس إنساناً ... تذكر زوجته المتوفاة : هذه المرأة التى رفضته وكان ساقطاً ! هذه المرأة التى ألح فى طلبها ثلاث مرات فى ثلاثة أعوام متعاقبة حتى زوجها ! هذه المرأة التى أحبت فيه « الإنسان » وكان من قبل شبيهاً بالإنسان ! هذه المرأة التى قبلته ، ولم يكن مقبولا عند أبيها ! هذه المرأة التى خاطرت بزواجها منه وكانت واثقة من اصلاحه على يديها ، هذه المرأة التى أوحت إليه شخصيتها ذات يوم أن يبتاع أول كتاب فى حياته : بول وفرجيني ، ويقرأه معها كلمة كلمة وصفحة صفحة ... تذكر غيور أفندى هذه المرأة ، زوجته الراحلة ، فجأة ، ووجم ، وأحس غصة فى قلبه ورعشة فى نفسه ، وأجهش بالبكاء .

حدث كل هذا فى لحظات تسربت بعدها الدموع من عينى الشاب بغزارة ، وجعل يبكى وينشج نشيجاً كان يحاول كتمانه دون جدوى ، وسكت فجأة ومد يده إلى قسيمة الواحد والثمانين جنيهاً والستين قرشاً الملقاة على الأرض ومزقها إرباً إرباً بأصابعه المبتلة بالدموع وقال ، وهو يشرق فى عبراته .

— لم أكن أستحق ابتسام ! لم أكن أستحق ابتسام ! إنى شخص حقير ... دنىء .

وأجهش بالبكاء مرة أخرى ونزع من مجلسه ، وقبل أن يبرح الدار تمتم لزوج خالته الذى فوجىء بهذا التحول العجيب :

— « جهاز » ابتسام تحت أمركم يا زوج خالتى لتتصرفوا فيه كيفما يحلو لكم .

وجذب منديله الحريرى الذى كان يتهدل من جيب صدر جاكتته ليجفف به دموعه ، كما أزاح طربوشه إلى الخلف فى إهمال .

وفى طريقه إلى داره فكر فى أن يلقى فكرة الزواج للمرة الثانية ... ولو إلى حين !

إدوار مقسى

الثقافة

العـــدد ٧٠٠ ٢٦ من مايو ١٩٥٢	مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر	الثمن ٣٠ مليماً

إلى الشهداء :

تحية وادى النيل

رفض الغمام على جريح إبائه
وحمى جبين عرينه بدمائه
شعب نماه إلى سماوة مجده
أبوان ما اجتمعا معاً لسوائه
الخالد (الطيبى) من أجداده
والفاتح (القرشى) من آبائه
والشمس أول ما صحت فى أفقه
والنجم أول ما حبا بسمائه
وأبو الحضارة — لم تنض نعيمة —
هذا الصفق فى مواكب مائه
شيخ الجداول . راهب متدثر
بالأرجوان على سطور كتابه

•••

مرحى بنى الوادى ، وعطر تحية
تزجى إلى الشهداء حول لوائه
ما مصر والسودان إلا وحدة
نهضت على ألف المجاء وبائه
جمعتكم (بنت الرمال) وضمكم
صوت المؤذن فى جلال ندائه
لا تذرفوا دمعاً على مستشهد
إن الشهيد يضج عند بكائه
رد الوديعة فى جهاد صارخ
ودعا السماء فأقبلت لدعائه
واستقبلته ذوو جناح مشرق
أفواهها تندى بعطر رثائه

•••

ماذا يظن الناس فى حرية
تخطاها فى الدهر من بسلائه
زهراء فاتنة السوالف مهرها
هذا الدم المذخور من أبنائه
أبدا تحب من الثياب « مضرجا »
فليهدها الهدى خضيب ردائه

والخاطب الدنيا معانق آمن
والخاطب العليا بقدر بلائه

•••

إنجلترا . والعمر من بعد الضحى
أبدا يسير إلى ظلام مسائه
ما أنت « يونان » الحكيم تأدبت
أم القرون على سنا حكمائه
ما أنت « فرعون » المشيد ، تراثه
ترك الزمان يغض من خيلائه
ما أنت « عدنان » القوة ساسها
بالعدل والقرآن من (صحرائه)
ما المجد فى قمة الحديد ، وسابح
غلب الخبط على منابر مائه
ما المجد إلا الحق أبلج واضحاً
تعنو الوجوه على جلال ضيائه
تهتز الشعوب على رضاك سياسة
يمضى بها المتدول فى خلواته
خلفت فى التاريخ شر حضارة
جاءت لساوى الشرق أو لعنائه
مزقته بعد الجامعة أقطاراً
وزعمت سلطاناً على أشلائه
صفراء تخطر فى مسوح كاذب
لم يبد غير نفاقه وريائه
زعمت بأن (الدب) أرهف نابه
والشرق أصبح طعمة لغذائه
ما الدب شر فى الورى من (ذئبة)
تدعو القطيع إلى مصارع شائه
خلى قضايا الشرق عنك ، وأجلى
وليبن الماضى بفضل جلائه

على شرف الدين

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـدد ٧٠٠ — الاثنين ٢ من رمضان سنة ١٣٧١ — ١٦ من مايو سنة ١٩٥٢ — السنة الرابعة عشرة

في حياتنا الاجتماعية :

بين الأساتذة وطلابهم

للدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك

بهذا العنوان قرأت في عدد الاثنين ١٢ مايو سنة ١٩٥٢ من هـذه المجلة مقالا ممتعاً للآنسة منيرة حلمى تناولت فيه موضوعات تمس صميم التعليم والتربية عندنا ، أهمها في نظرى اثنان : الأول مناقشتها لضرورة إلمام المدرس (سواء أ كان يعمل في المدارس الابتدائية والثانوية أو في الجامعات والمدارس العليا) بأصول التربية وعلم النفس ، والثانى مناقشتها لضرورة اتصال المدرس أو الأستاذ بتلاميذه أوطلابه اتصالا روحيا وثيقاً لا يقتصر على قاعات الدرس أوصالات المحاضرات ، وإنما يتعداها إلى خارجها ، سواء في الملاعب أو في الاجتماعات العامة أو في دراسة الشئون الاجتماعية ، وبالجملة في كل ما يتصل بالحياة العامة للطالب ، وبكافة تصرفاته وسلوكه فيها .

ومن الغريب أن هذه الموضوعات على الرغم من أهميتها وأثرها في تكوين الشباب وطابع الجيل الجديدة ، فإن الكتاب لا يطرقونها إلا في القليل النادر . فلذلك حمدت للآنسة شجاعتها وحسن اختيارها ، وآثرت أن أعقب على ماقرأته لها بإضافة مايعن لى في هذا الصدد من ملاحظات :

فيما يتعلق بالموضوع الأول ، وهو ضرورة إلمام المدرس بوجه عام بأسس علم التربية وعلم النفس يدهشنى أن بعض رجال الفكر وقادة الرأى لا يؤمنون بضرورة تسلح المدرس بهذين العلمين ، ويعتقدون أن موهبة القدرة على التدريس تولد مع الشخص ؛ فهو إما أن يكون صالحاً لهذه المهمة بطبيعته أو غير صالح لها ، وليس في مقدور أساتذة التربية وعلم النفس أن يخلقوا من الأخير مدرساً مهما حاولوا وبذلوا من جهد .

نعم إن بعض الناس لا يصلح للتدريس ، ومن الظلم له وللناشئين أن يحترف هذه المهنة ، ولكن معظم هؤلاء الناس يستطيع أساتذة التربية وعلم النفس أن يعرفوهم حين يتقدمون للالتحاق بمعاهد التربية أومدارس المعلمين ويحولوا بينهم وبين الانخراط في سلك هذه الوظيفة ، ولكن الشخص العادى يستفيد فائدة كبرى من توجيهات أساتذة التربية وعلم النفس ، ومن دراسته هاتين المادتين . بل لعلنا لا نغالى إذا قلنا إنه يستحيل على أى شخص أن يكون أستاذاً بمعنى الكلمة إن لم يدرسهما .

فأسلوب المدرس في تعليم الطالب وفي تهذيبه وتربيته يتوقف على دراسته لعقليته ، وكيف يستطيع دراسة هذه العقلية من لم يتلق شيئاً من علم النفس ومن تطبيقاته العملية الكثيرة .

ومن الغريب أن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالتربية وعلم النفس لا يتحرجون من وضع أبنائهم وأبناء الأمة في يد من لا يعرف من هذين العلمين شيئاً ! مع أن هؤلاء بالذات حين يمرض لهم طفل أو ولد أو شاب يحرصون على أن يعرضوه على أكثر الأطباء إلماماً بعلم الطب وخبرة فيه واطلاعاً على الجديد من نتائج البحوث فيه ، وذلك ليضمنوا أحسن العلاج لمرضهم ؛ أما إذا كان هذا الطفل أو الولد أو الشاب يشكو من ضعف في المسائل العقلية أو النفسية فلا مانع عندهم من أن يعهدوا بعلاجه إلى من لا يدرى شيئاً عن القواعد التي يسير عليها العقل وعن الوسائل الصحيحة التي تعالج ضعفه وتنميه وتزيد ملكة الفهم والاستنتاج قوة عنده .

كذلك كيف يستطيع مدرس جاهل علم النفس أن يفيد تلميذه أو طالبه ويعاونه على حل مشاكله النفسية ، وعلى معالجة ما يكون قد تولد عنده من عقد نفسية ربما نتج عنها أسوأ الأثر في هذا الطالب ، بل لعلها تكون سبباً في انهيار عقليته وتحطيم مستقبله إذا لم تتناولها يد حكيمة لمدرس ضليع في علم النفس خبير بعلاج تلاميذه .

وإني أعتقد اعتقاداً جازماً أننا إذا عنينا بتسليح المدرسين عندنا في مرحلة إعدادهم بأصول التربية وعلم النفس على أحدث صورة ، وبأسلوب عملي في دراسة تطبيقية متعمقة ، ثم وضعناهم بعد تخرجهم تحت إشراف ناظر أو مدرس أول له خبرة جيدة في هذه الناحية ومقدرة على نقلها إلى من يشرف عليه — أقول لو سلحناهم بهذا السلاح في معاهد إعدادهم وفي المرحلة الأولى من عملهم كمدرسين وهي مرحلة اكتساب الخبرة والمران ، لو فعلنا ذلك لوفرنا كثيراً من وقت التدريس ، ووفرنا كثيراً من وقت التحصيل والمذاكرة ، ووفرنا كثيراً من وقت التلاميذ بوجه عام ، ولضمنا لهم نشأة عقلية متزنة ومتمكنة وممتلئة اطمئناناً وثقة . هذا إلى أننا نكون قد أنقذنا من الضياع عدداً كبيراً من الطلاب يذهب في الوقت الحاضر ضحية المدرسين الذين لا يفقهون شيئاً في التربية وعلم النفس .

هذه ملاحظاتي العابرة عن الموضوع الأول

• • •

أما الثاني وهو ضرورة اتصال الأساتذة بطلابهم في غير أوقات الدروس فهو في نظري عماد التربية إذا أريد أن يكون للمدرس أو الأستاذ أثر في تكوين شخصية تلاميذه أو طلابه ، وتربية أخلاقهم ، وتهذيب نفوسهم ، ومعاونتهم على حل مشاكلهم . وإذا لم يتوافر هذا الاتصال فالأجدر بنا أن نستغني عن المدرس ونترك الطالب ليقرأ الكتب بنفسه ويعد نفسه للامتحان ، أو نستعيض عن المدرس بأسطوانات يستمع لها الطلاب ، أو بشرائط سينمائية ناطقة تعرض عليهم . ولعل هذه الوسائل تكون أجدى في توصيل المعلومات ، لأن الأسطوانة ستكون لمدرس قدير مشهود له بالكفاية ، كما أن الشريط السينمائي سيقوم بإخراجه فطاحل الأساتذة فيأتي في الغالب مشوقاً ممتعاً .

فالأصل إذاً في الأستاذ أن يؤثر تأثيراً روحياً في تلاميذه ، ولا نزاع في أنه لو تم هذا الاتصال الشخصي بين الأستاذ وطلبته لكان شبابنا اليوم على حال غير حالهم ولامتلأت أوقات فراغهم بأحسن مما يشغلون به أنفسهم فيها في الوقت الحاضر .

والآن سأضرب هنا مثلا واحداً لبيان أثر هذا الاتصال ، وذلك فيما يتعلق بآراء الطالب الجامعي في الأمور السياسية وبالطريقة التي تتكون بها عقيدته السياسية التي هي حق من حقوق كل فرد من أفراد الأمة .

لو أن الأساتذة اعتادوا عقد اجتماعات تحت إشرافهم خارج أوقات الدراسة لتناقش فيها المسائل السياسية بهدوء وحرية وعتنعى التسامح ، بحيث يعتاد الطالب أن يقدر رأي زميله ويحترمه ، ويدرك أن تبادل الرأي واختلاف الآراء أمر طبيعي لا يصح أن تنتج عنه مشادة أو أن يكون له أي أثر سيء في علاقات المودة الصافية القائمة بين الطلبة بصفتهم أفراداً في مجتمع حي ، لو أن الأساتذة عقدوا مع الطلبة حلقات للبحث تناقش فيها الأمور مناقشة عائلية هادئة منظمة ، وأوضحوا لهم من أول الأمر أن القصد منها هو تنوير آرائهم فيما يتعلق بالأمور السياسية ، ومساعدة كل منهم على فهم المسائل على حقيقتها في جو تسوده الحرية والمودة والصفاء ، وذلك تمهيداً لأن يكون كل منهم في المستقبل رأيه النهائي في الاتجاه السياسي الذي يصح أن يتجه إليه حين يخرج من الجامعة ويصير رجلا وعضواً عاملا في المجتمع ومواطناً

خاطــــــرة

للدكتور أحمد أمين بك

يجور أمام بيتنا في هذه الأيام بائع مشمش قبيح الصوت جداً ، كلما سمعت استنكرت صوته ، ومع ذلك يمدّ صوته ويمطّطه ، مما يدل على أنه يعتقد أن صوته من أحسن الأصوات . وأين منه صوت عبده وعبد الوهاب !

قلتُ : أليس ذلك شأن أغلب الناس ، ليسوا أكفاء ويعتقدون أنهم أكفاء ، وليسوا شيئاً ويظنون أنهم كل شيء . وأعرف كثيراً من المؤلفين لا يحسنون التأليف ، ويعتقدون أنهم مجيدون ، بل يعتقدون أنهم أحسن من يؤلفون ، وشعراء لا يقيمون البيت وزناً ولا قافية ، وأضحك عند سماع شعرهم في استهزاء بهم فيظنون ضحكي إعجاباً ، وأراهم يلاحقونني حيث أكون ، ليشنّفوا سمعي بشعرهم البارع .

ورئيس المصلحة يرى بعض موظفيه لا يصلحون لعمل ، وهم يعتقدون في أنفسهم أنهم يحسنون كل عمل ، ولكن سوء حظهم أن مدير المصلحة لا يثق بهم ، ثم يتهمون هذا الرئيس بأنه يُعرض عنهم لعدم جمالهم أو لصراحتهم أو لخلقهم الفاضل . فإن لم يرموا هذا الرئيس بهذه التهم ، التفتوا إلى الزمان ، يحمّلونه مسئولية انصراف الرئيس عنهم ، وعدم ترقيتهم ترقيات استثنائية .

ومسكينٌ هذا الزمان الذي يحمل أوزار كل هؤلاء . ولو تحرّيتَ لوجدتَ أن كل ما يحمله الزمان من هذا القبيل وما يحمله سوء الحظ ، راجعٌ إلى عدم كفاية هذه المخلوقات أو كفايتهم مع حماقتهم أو غرورهم أو أي شيء آخر غير فعل الزمان .

ثم هم يُضيفون إلى بكائهم وشكواهم من الزمان ، حسد زملائهم ممن قرّبهم رؤساؤهم لكفاءاتهم أو لحسن قيامهم بما يعهد إليهم من أعمال .

وقلّ من الناس من يقوّم نفسه تقويماً صادقاً فيعتب عليها للكسل أو يصفها بعدم الكفاية أو بالسماجة أو بثقل الدم

وترى الرجل يحاول فتح علبة فلا تنفتح ، أو زجاجة فيصعب فتحها ، أو قراءة جملة في كتاب فتنغلق ، أو جذب شيء فلا ينجذب ، أو كسر شيء فلا ينكسر ، أو فعل أي شيء فلا ينفعل ، فيطلب من بجوارك أن يتسلم الشيء الذي عجزت عنه ليفعله هو ، كأنه يقول لك : أما وقد عجزت أنت فسأقدر أنا على ما لم تقدر عليه ، إيماناً بكفايته أكثر منك وتفوقه عليك .

ويأتي الرجل فيظن أنه إن استوزر سوّى المعوجّ ، وأتى بما لم يأت به الأوائل ، ثم يوزّر فلا شيء . وإذا به يدخل آملاً ويخرج يائساً ، وإذا بالحوادث أكبر منه .

فلو أنصفنا لرأينا أكثر الناس بائع المشمش .

أحمد أمين

يطلب إليه مزاولة حقوقه السياسية باستنارة وفهم وعن عقيدة واقتناع .

لو حدث هذا بتلك الروح لتفادينا ما يحدث بين طلبة الجامعة من مشادات وخلافات عنيفة ، بل ومنازعات ومصادمات ، ولصار كل ما يحدث هو مناقشة وجدال قد يحتدم في بعض الأحيان ، ولكنه لا يتعدى الكلام والتفكير ولا ينفذ إلى صميم العواطف فيعكر صفو العلاقات بين الإخوان كما يحدث الآن .

أليس هذا المثل وحده دليلاً على الخير العظيم الذي تظفر به البلاد إذا أدى كل مدرس وأستاذ الضريبة الوطنية المفروضة عليه من الاتصال بتلاميذه وطلابه بقصد خلق جيل جديد على خلق قويم وشخصية قوية ورأي ناضج . ألا إن مستقبل الوطن يتوقف إلى حد كبير على قيام الأساتذة بهذا الواجب المقدس . هداهم الله ونفع بهم طلابهم ، حتى يفروا من الشرور العظيمة التي يستهدفون لها في الوقت الحاضر .

أحمد عبد السلام الكرداني

التفاعل الطبيعى

بين النهضتين الأدبيـــة والمـادية

للأستاذ محمد مفيد الشوباشى

تميز هذا العصر بيقظة الأمم المتخلفة عن ركب الحضارة بسبب وقوعها فى حبائل الاستعمار . فهـذه الأمم التى كاد كفاحها فى سبيل استرداد حريتها وسيادتها يعم مناطق النفوذ الاستعمارى ، تحاول النهوض واللحاق بالأمم التى سبقتها أشواطاً فى مضمار الرقى ، وهى تتوسل لبلوغ هذا الأرب بمقارعة الاستعمار من ناحية ومحاولة رفع مستواها الحضارى من ناحية أخرى .

أما ثوراتها على الاستعمار فلم تعد خافية على أحد بعد أن جرت أنهر الصحف اليومية ، واهتزت موجات الأثير فى كل صقع بأنبائها . وأما الوسائل التى تتذرع بها للنهوض من كبوتها ، والخلاص من أسباب تخلفها ، والتمكن من الوصول إلى الرقى الحضارى المأمول ، فهى موضوع هذا المقال .

من الطبيعى أن يكون ازدهار الدول الكبرى المادى أول ما يخطف أبصار الأمم المتخلفة المتيقظة من غفلتها ، ويستأثر باهتمامها ، ويغريها بالاقتباس منه ، والنقل عنه . ومرد ذلك إلى ما يأتى :

التقدم المادى واضح المظهر والأثر للكافة ، فلا يحتاج إدراكه إلى بعد نظر ، أو واسع معرفة وثقافة . ومن مظاهره التى لا تخطئها النظرة العابرة ، الغنى والقوة والنفوذ الغلاب فى المحيط الدولى ، وهى الميزات الثلاث التى يعلم المتخلفون وغير المتخلفين على السواء أنها هى التى أدت إلى تسلط الدول المتمتعة بها على الأمم الضعيفة واستغلالها والاحتفاظ بسلطانها عليها . ولكن التقدم الأدبى والفنى على خلاف ذلك . فالناس لا يدركون كنهه ، ولا يقدرونه قدره ، ولا يفطنون إلى أثره الفعال ، إلا من أوتى منهم الفهم الصحيح ، والإدراك العميق . ثم إن هناك فرقاً آخر جوهرياً بين التقدمين المذكورين ، وهو أن العلوم التى تؤدى إلى الازدهار المادى ، وهى علوم الطبيعة والميكانيكا والكهرباء والكيمياء والعمار والتجارة والزراعة والصحة وما شاكلها سهلة التناول ، دانية القطوف بالقياس إلى صعوبة دراسة الآداب والفنون ، وتعذر التمكن منها على غير ذوى المواهب ، وبطء ما تحدث من أثر فى موكب التقدم الحضارى .. ولعل هذا أهم ما يفسر انصراف الأمم المتطلعة إلى الرقى عن ميدان الأدب والفن ، وتهالكها على الأخذ بأسباب الحضارة المادية .

وإذا كانت الدعوة إلى ضرورة اهتمام الأمم الناهضة بالجانب الأدبى والفنى من نهضاتها دون الجانب المادى ، تبدو فى العصر الحاضر مضحكة ، فإن القول بعكس ذلك ، أى بضرورة حصر الاهتمام بماديات النهضات دون معنوياتها فيه كذلك شطط كبير . لأن كلا من التقدم المادى والتقدم الأدبى الفنى يفيد من الآخر ويفيده . وقد سبق أن شرحنا ذلك فى مقال آخر فقلنا إن الرقى المادى لا بد أن يسفر عن ظهور آراء ومعتقدات ومثل جديدة ، فيرتقى بذلك المستوى الفكرى والفنى ، ولا يلبث هذا الرقى أن يساعد على رفع التقدم المادى إلى مستوى أعلى . ويستمر هذا التأثير والتأثر أو هـذا الفعل ورد الفعل المتآزران على شكل حلزونى ، فيكفلان بذلك دوام التقدم .

وقد يقول قائل : إن هذه النظرية ، أى نظرية الفعل ورد الفعل ، تنقض ما تؤكده من ضرورة الاهتمام بنهضتنا الأدبية الفنية . فما دام ازدهار هذه النهضة مكفولاً بالازدهار المادى ، فيكفى أن نهتم برفع مستوانا المادى ثم ندع نظرية الفعل ورد الفعل تؤدى عملها ، وتكفل وحدها رقينا الأدبى ورقينا المادى معاً !! ... ولكن الرد على هـذه الملاحظة

واضح لمن يعمل فكره . فإن الوصول إلى النتيجة من طريق ترك الأمور تسير على طبيعتها يستغرق زمناً قد يطول دهوراً ، ولكن التدخل المباشر أو غير المباشر يوفر الوقت والجهد في هذا العصر الذي يلقى فيه المهمل المتراخي مصرعه في زحمة التنافس . فما دام النشاط الفكري ، والرقي المادي يتعاونان على التقدم ، فإن دعم كل منهما على حدة يجعل تعاونهما أشد مفعولا وأبلغ أثراً ...

وننتقل الآن من الميدان النظري إلى ميدان التطبيق ، فنبحث في نهضتنا المعاصرة على ضوء ما قدمنا . فقد كثر حديثنا عن الوسائل الكفيلة بتوطيد نهضتنا ودفعها إلى الأمام ، ولكن العناية بمشكلاتنا المادية طغت على جانب نهضتنا الأدبي الفني . ونحن إذا قلّبنا صفحات التاريخ وعدنا إلى مستهل القرن التاسع عشر نجد أن الإصلاح المادي فاز بالقسط الأوفر من عناية أولي الأمر وأولي الرأي في مصر ، فتضافرت الجهود على تحسين حالة الزراعة التي كانت ولا تزال عماد اقتصادنا . واستغرق بناء القناطر ، وشقّ الترع والمصارف في سبيل التوسع الزراعي وزيادة الخصب ، القدر الأكبر من مصروفات الميزانية وجهد المواطنين . ولم يحل ذلك دون تشييد المنشآت الصناعية التي استطاعت تموين الجيوش والأفراد بحاجاتها على السواء . وإذا انتقلنا من القرن الماضي إلى هذا القرن وجدنا أن النهضة التي أعقبت ثورة عام ١٩١٩ تميزت بالتقدم الصناعي الملحوظ ، وقيام المؤسسات المالية والاقتصادية الكبرى ، ونشاط التجارة ، وانتعاش العمران وتهذيب مظاهره ، والاهتمام بالبحث عن الثروات المكنوزة تحت الأرض وتحت الماء . وقد اتجهت سياسة التعليم ، منذ أيام محمد علي باشا الكبير ، إلى إعداد شباب مصر المتعلم ليتولى تسيير هذه النهضة المادية . وتوالت السنون دون أن يفكر أحد في إنشاء معهد لدراسة الآداب ، حتى اضطلع الملك فؤاد الكبير بهذا العمل الجليل ، فغرس نواة الجامعة المصرية في مستهل هذا القرن .

ونحن لم ننكر أن الجانب الأدبيّ من نهضتنا نال منذ البداية بعض العناية ، ولكنها كانت عناية ضئيلة القدر ، ضعيفة الأثر . فلم تغفل الحكومة عن إيفاد البعوث إلى أوربا لتلقي العلم ، ولم تخل برامج مدرسة الإدارة والألسن من بعض الدراسات الأدبية . وعنيت المطبعة الأميرية منذ بدء إنشائها بطبع عدد من كتب الأدب القديمة . وشيدت دار الكتب ، ثم أخذت المدارس التجهيزية تلقن تلاميذها شيئاً من علم البيان ، وتفرض عليهم حفظ مختارات من الشعر والنثر . ولكننا لم نتطلع إلى النهضة الأدبية الفنية الأوربية ونقتبس منها إلا يوم أنشئت دار الأوبرا . ثم امتاز عهدنا الحاضر بإنشاء معاهد الفنون ، والمجمع اللغوي ، والجمعيات الفنية ، والنوادي الأدبية ، والمكتبات العامة ، وكليات الآداب في جامعاتنا المختلفة ، والإدارة العامة للثقافة التابعة لوزارة المعارف . ولكن هذا كله لا يمكن أن يكفل ازدهار النهضة الأدبية المرجوة ، لأن هذه النهضة لا تقوم إلا على انتعاش الإنتاج الأدبي الممتاز ورواجه . ومثل هذا الإنتاج لم يتح ظهوره إلى اليوم ، لأن ظهوره يتوقف على تشجيع الأدباء، وكفالة رغد العيش لهم من ناحية ، وحث الطلبة وغير الطلبة بشتى الوسائل على قراءة الآثار الأدبية حتى يتمكن منهم حب الاطلاع من ناحية أخرى . وبيان ذلك ورد كذلك مفصّلا في مقال سابق ...

وقبل أن نوالي البحث فيما اتخذ وما يجب اتخاذه في سبيل تسديد خطانا إلى الغاية المرجوة من نهضتنا ، نلم إلماما بما بذله الاستعمار الغربي لتعويق تلك الخطى ، أو قطع الطريق عليها .

تمكن الاستعمار الغربي من التدخل في شئوننا لأول مرة في أعقاب حرب الشام الثانية حين أرسل أساطيله إلى المياه المصرية ، وأرغم محمد علي باشا على قبول الشروط المجحفة لمعاهدة الإسكندرية ، تلك الشروط التي كانت أولى نتائجها المزرية المشئومة تصدع مشروعاتنا الاقتصادية ، وتوقف مصانعنا الحديثة الإنشاء عن العمل ، وما أعقب ذلك من انحطاط مستوى المعيشة ، وتضعضع الروح المعنوية ، وذبول الحركة الثقافية التي كانت تبشر بالفتح والإبداع .

ولكن الاستعمار لم يتمكن من تسديد الضربة القاصمة إلى نهضتنا إلا بعد أن تم لبريطانيا احتلال أراضينا عسكريا .

ولسنا نحسب أن أحداً يجهل ما بذلته الدولة المحتلة من جهود لتعويق تقدمنا من ناحيتي الاقتصاد والثقافة العامة معاً. فقد كشفت الأنفاس الأخيرة لمشروعاتنا الصناعية، وفرضت على مصر أن تظل بلداً زراعياً، وأن يعتمد اقتصادها على غلة أراضيها دون غيرها. أما ما بذله الاستعمار في سبيل القضاء على حركتنا الأدبية فيتمثل في سياسته التعليمية التي كانت ترمي إلى خنق لغتنا القومية بالاتجاه إلى تلقين مختلف العلوم في مدارسنا باللغة الإنجليزية بدل العربية. ثم يقصر الدراسة على قشور العلوم التي لا تؤدي إلا إلى إعداد الموظفين لشغل وظائف الحكومة الثانوية المخصصة للمصريين. وإذا كان هناك من لا يزال يشك في سوء نية الاستعمار في هذا الصدد، فيكفي أن نحيله إلى الوثائق التي تبودلت بين الحكومة الانجليزية ومعتمدها في مصر على أثر احتلالها لبلادنا، تلك الوثائق التي كشف أمرها أخيراً بعد أن حرص الاستعمار حقبة من الزمن على إخفاء أمرها، فقد تضمن بعض تلك الوثائق أوامر صريحة صادرة لذلك المعتمد بأن يلجأ إلى كل وسيلة لخنق النهضة الثقافية المصرية.

وما دمنا نحاول اليوم أن نتخلص من البقية الباقية من نفوذ الاستعمار، ونشق طريقنا إلى ذروة الحضارة التي نصبو إليها، فعلينا أن نعمد إلى العقبات التي وضعها الاستعمار في طريقنا فنقوضها بكل ما أوتينا من عزيمة وقوة. فأما تلافي ما يعتور نهضتنا المادية من نقص فهو من واجب رجالنا المختصين بهذا الشأن. وأما عقبات نهضتنا الأدبية الفنية، فهي التي نساهم مع غيرنا من المعنيين بحركتنا الفكرية في سبيل التغلب عليها. وقد سبق لنا أن أدلينا بما عن لنا من آراء في هذا الصدد. وفيما يلي استطراد لما بدأناه.

إن النشاط الفكري عامل أساسي في تقدم أي مجتمع من المجتمعات، ومجال النشاط الفكري هو المؤسسات الثقافية من جمعيات ونواد ومعارض ودور للتمثيل المسرحي وحفلات موسيقية، فمثل هذه المنشآت تنفخ في روح الحركة الأدبية الفنية بتوجيه الأنظار إليها، وزيادة عدد هواتها، وتمكين الولع بها من النفوس. وبين جدران هذه المحافل تتسع آفاق التفكير، وينضج الوعي، وترتقي الذوق بتبادل الآراء وتصادمها... وإذا كان قولي هذا مقنعاً، فلعله يكون من واجب كل من يقتنع به وبأهميته، أن يطالب أولي الأمر منا وأولي النفوذ بأن يعملوا على التوسع في إنشاء مثل هذه المؤسسات، وتمكينها بالتشجيع المادي والمعنوي من أداء رسالتها التي نوهنا عنها. واليوم الذي تعم فيه هذه المؤسسات مختلف أصقاعنا، وتطرد المقاهي وصالات اللهو الرخيص، وتحل محلها، أصبح أقرب إلى أهداف نهضتنا من أي وقت آخر.

وهناك مسألة تعودنا أن نهمل شأنها على خطورتها، وهي التوسع في نقل المؤلفات الأجنبية إلى العربية. إننا لا نكاد نهتم من مختلف العلوم الأجنبية إلا بجانبها التطبيقي! أما جانبها النظري، وهو أقرب جانبيها إلى الفلسفة والأدب، وأقواها أثراً في رفع المستوى الفكري، فنصيبه منا الإهمال. ولعل سبب ذلك يرجع إلى تعجلنا في تحقيق رخائنا المادي، أو سد قصده! جامعاتنا تعنى بتخريج القضاة والمحامين دون علماء القانون، والأطباء دون علماء الطب، ومدرسي الأدب دون الأدباء، وهكذا! فالمهنة العملية ما زالت مأرب طلاب العلم عندنا. وفي يقيني أن من أهم وسائل رقينا أن نولي الجانب النظري من العلوم العناية الجديرة به، فننقل موسوعاته المدونة في المجلدات العديدة الضخمة إلى العربية، دون أن نضن بما يحتاج إليه مثل هذا العمل الضخم من جهد ومال. وإذا توفرت المؤسسات الثقافية التي تحدثنا عنها آنفاً، فإنها تستطيع بمعاونة وزارة المعارف العمومية أن تضطلع بهذه المهمة، فيعمل كل فرع منها على نقل العلوم الداخلة في دائرة نشاطه. وإذا دعمت وزارة المعارف برامج الآداب والفنون في مدارسها الابتدائية والثانوية، واستطاعت أن تغرس في نفوس التلاميذ، في مختلف مراحل التعليم، حب الاطلاع. ففي زعمنا أن هذا يكون كفيلاً بخلق الظروف الملائمة لانبثاق فجر النهضة الأدبية المرتقبة.

وإذا أعددنا المجال لظهور النهضة الأدبية على ذلك النحو، وأعد رجال العلم المجال لتقدم نهضتنا المادية، فإن تفاعل هاتين النهضتين القويتين، وتعاونهما على تحقيق نهضتنا الحضارية الكبرى يكون أجدى وأبلغ أثراً.

محمد مفيد الشوباشي

مسألة التأميم والأوضاع الاقتصادية

تأميم البنك المركزي

— ٤ —

للأستاذ أحمد طه السنوسي

يهمنا هنا أن نعرض بشيء من التفصيل الكلام عن تأميم البنك الأهلي المصري ، أو بالأحرى تأميم البنك المركزي المصري ... فالمفهوم أن فكرة التأميم في المشروعات والمرافق التجارية إن احتملت بعض الكلام والأخذ والرد ، فليس يحدث ذلك في مجال مسألة التأميم بالنسبة للبنك المركزي في الدولة الذي يكون حلقة الوصل ووزرة التوجيه في الأوضاع الاقتصادية .

ولقد أضحى البنك المركزي Central Bank في كل بلد ذا أهمية قصوى في النظام المصرفي السائد فيه ؛ وذلك لما يقوم به هذا البنك عادة من وظائف ، وماله من اختصاصات ، وما يخوله سلطانه من وضع الأسلحة الماضية الحادة في يديه لينظم عن طريقها هذا النظام ، وليتحكم في عرض النقد وطلبه ، ويكفي أن نشير إلى أن البنك المركزي في المجتمع الذي يتعامل في ودائع المصارف ، أي في المجتمع الذي تمثل ودائع البنوك فيه الجانب الأكبر من عرض النقود ، يستطيع أن يفرض رقابته النافذة الفعالة بالاستعانة بما له من قدرة على زيادة أو نقص عرض النقد المتداول ، ولقد كشفت هذه الخاصية الهامة للبنك المركزي فيما يتعلق بالرقابة والضبط بعد أن نشر كتاب الأستاذ Walter Bagehot الذي أسماه في عام ١٨٧٣ Lambard Street .

وكذلك يعرف الجميع أن البنك المركزي يقوم بعملية إصدار البنكنوت ، فضلا عن مركزه كوثل أخير للتجئ إليه البنوك التالية الأخرى الموجودة في المجتمع ، وهو بعد هذا له الإشراف على عمليات التخالص بين سواه من البنوك ، فضلا عن أنه الخزينة التي تحتفظ هذه البنوك فيها بما يفرضه القانون عليها من قدر من احتياطياتها .

وتبدو أهمية البنك المركزي من الناحية الحكومية من قيامه بدور المصرف الحكومي الذي تلتجئ إليه الحكومة في أوقات الشدة وتعتمد عليه في أي وقت من الأوقات ، ويتبين من ذلك أن البنك المركزي له الإشراف على السياسة العامة لمالية الدولة ، كما له اتخاذ شتى الإجراءات للمحافظة على سلامة العملة ، فضلا عن بسط رقابته على السوق المالي Capital Market والسوق النقدي Money Market ، والسوق الأول عبارة عن سوق التعامل في الأموال والقروض الطويلة الأجل ، والسوق الثاني عبارة عن سوق التعامل في الأموال والقروض القصيرة الأجل .

لذلك ليس من العجيب ألا تتوانى الحكومات عن إنشاء مثل هذه البنوك المركزية ، أو عن تحويل بنوكها التي تتميز بقيامها أو اضطلاعها ببعض هاتيك الوظائف التي تقوم بها البنوك المركزية والتي أسلفنا إجمالها ، من بنوك عادية إلى بنوك مركزية ... خاصة وأن المؤتمر الاقتصادي العالمي المنعقد في عام ١٩٣٣ ، قد قال بضرورة قيام البنوك المركزية في البلاد التي لا تتمتع بوجود هذه البنوك فيها .

ويقول الأستاذ Crowther : إن من حق الدولة بل من واجبها أن تشرف على الأعمال التي تقوم بها المصارف والبنوك ؟ لأن في الإشراف على هذه الأعمال ما يتعلق بالصالح العام ، وحيث إن الحكومة هي القوامة على تحقيق هذا الصالح ، فلا أقل من أن تشرف على المصارف وأعمالها ، خاصة وأن هذا الإشراف كفيل أن يفرض وجودها وأثرها على الأوضاع النقدية والاقتصادية في البلاد !

ويقول فيما يتعلق بملكية هذا البنك : هل الأفضل أن تكون خاصة ، أو أن تضمها الحكومة إلى حظيرتها ؟ وبعبارة أخرى : هل الأفضل أن يبقى هذا البنك في الملكية الخاصة ، بالرغم من قيامه بهذه الأعباء والوظائف الخطيرة ، أم الأفضل أن تؤممه الحكومة فتنقل ملكيته إليها ؟

يقول : إنه لا مانع من عدم الإبقاء على الملكية الخاصة

للبنك المركزى ، أى تأميمه ، خاصة متى كان هذا التأميم تدعو إليه المصلحة العامة ، وتوجبه الضرورة الاقتصادية فى البلاد .

غير أنه بدلا من أن يدلى لنا برأى قوى فى هذا المجال ترك موضوع التأميم — على حسب تعبيره — للمبادىء السياسية ، لتدلى بدلوها فيه ؛ إذ فى رأيه أن تأميم البنك ليس يهم الاقتصاديين فى شىء ، وإنما المهم هو قيام البنوك المركزية لتتحمل بالأعباء والاختصاصات التى بها تستطيع أن تهيمن على الأوضاع الاقتصادية ، وأن تنظم الأحوال النقدية والمالية فى البلاد .

ونحن من جانبنا — وإن كنا لا نغمط ما يقوم به البنك المركزى من أعباء ووظائف حقة — لا نهمل مسألة تأميمه ونقل ملكيته الخاصة إلى الملكية العامة ؛ لأن هذا إجراء جوهرى ، ليس الاقتصاديون فى حاجة إلى التدليل عليه اليوم ، بعد أن فهموا — أو على الأقل فهم غالبيتهم — ما فى هذه الوجهة من حصافة ووجاهة .

والواقع أن الاعتبارات السياسية — كما أشار إلى ذلك العلامة Crowther — لها دخل كبير فى مسألة التأميم على خلاف المركزية فى البنوك ، والواجب فحص حالة كل بلد على حدة واختبار الأوضاع السياسية فيه ، ليتبين الوضع الأصلح للبنك المركزى فى الدولة .

على أنه تجب الإشارة أيضاً فى هذا الصدد إلى أن الاتجاه فى العالم اليوم ، يرمى إلى تأميم هذه البنوك ، إذ يؤخذ من الإحصائيات أن الغالبية العظمى للبنوك المركزية تمتلكها الحكومات أو تشترك فى ملكيتها ، وأن القليل الباقى فى سبيله إلى التأميم .

وتأميم البنك المركزى إجراء تقتضيه طبيعة العمل الذى يقوم به ، والأعباء التى يتحمل بها ، والأسلحة التى تضعها الدولة فى يديه ، لينظم بها النظام المصرفى والأوضاع النقدية ، ويكفينا الإشارة إلى أمثلة لهذه الأسلحة والوسائل التى يستطيع بها أن يقوم بدوره وأعبائه .

فى إمكانه ما يطلق عليه Bank Rate Policy ، وكذلك ما يطلق عليه Open Market Operations ، فضلاً عن أن له تأثيراً نسبياً من الناحية الأدبية على سواه من البنوك كنصائحه وتوجيهاته وتصريحاته التى يدلى بها بين الحين والحين ، إلى غير ذلك من الوسائل والإمكانيات .

وقد قامت فى مصر محاولات شتى لإقامة بنك مركزى ، إلا أن الظروف لم تشجع على تحقيق تلك المحاولات ، حتى صدر فى العام الماضى القانون رقم ٥٧ لسنة ١٩٥١ بتحويل البنك الأهلى المصرى إلى بنك مركزى ، وذلك وفقاً لمشروع القانون الذى تقدمت به الحكومة فى سنة ١٩٥٠ وقضى بتحويل البنك الأهلى إلى مركزى ، وتمصيره وزيادة إشراف الحكومة عليه .

والمهم فى ذلك الصدد أن هذا المشروع بقانون وقانونه الصادر فى ٢٧ مارس من العام الفائت قد استبعد فكرة التأميم ، فلم يؤمم بمقتضاه البنك الأهلى ولا سواه من البنوك

ويمكن إجمال الحجج التى قيلت للعدول والقول بعدم تأميم البنك المركزى أو الأهلى المصرى ، فى أن تأميم البنك الأهلى فكرة ذات اتصال وثيق بمشكلة الأرصدة الإسترلينية ؛ ذلك أن انجلترا ترحب بهذا التأميم ؛ لأنه سينقل ملكية البنك من الملكية الخاصة إلى ملكية الحكومة المصرية ، وآنئذ ينتقل الدين المصرى على انجلترا إلى دين للحكومة المصرية على الحكومة الإنجليزية .

والديون بين الحكومات عادة تكون عرضة للتقلبات السياسية ، فيمكن الإبراء منها ، ويمكن تسويتها بطريقة تضر بالدولة الدائنة ضرراً بالغاً ... وهكذا ، وكذلك إذا ما خفضت بريطانيا قيمة الأرصدة الإسترلينية — كما فعلت — فإن الخسارة فى هذه الحالة ستقع على الأغلبية الساحقة فى مصر ، تلك الأغلبية التى تتحمل بدفع الضرائب العامة ، بعد أن كانت تقع فى حالة بقاء البنك الأهلى غير مؤمم على عاتق البنك نفسه .

وهذا الكلام صحيح ولا غبار عليه ؛ ولكن الكلام الأصح أن بريطانيا سيان عندها أن يؤمم البنك ، أى يصير دينها بين حكومتين ، أو أن يبقى البنك غير مؤمم ، فهى تستطيع أن تخفض الأرصدة إذا رأت ظروفها تستوجب ذلك ، كما تستطيع أن تقوم بأى إجراء تراه فى هذا الشأن .

كما يلاحظ أن تخفيض الأرصدة الاسترلينية الآن مثلاً ، ليس من الأمور السهلة الهينة التى تأتيها بريطانيا دون تفكر

وتدبر ؛ ذلك أن هذه متصلة اتصالاً وثيقاً بالأوضاع النقدية السائدة في بريطانيا ، فضلاً عن النظر إلى الأثر الذي يترتب على هذا التخفيض في جميع بلاد الاسترليني التي تدين لها انجلترا بالديون الاسترلينية أو تتعامل في أرصدة الاسترليني .

وطرافة الرأي الذي يقول بانتقال الدين إلى دين بين حكومات بمجرد تأميم البنك الأهلي والذي يتخذ مُعدل عن تأميم هذا البنك ، أقول : إن طرافة هذا الرأي تبدو واضحة إذا ما وضعنا على بساط البحث الواقع والحاصل عملاً ؛ ذلك أنه بالرغم من عدم تأميم البنك ، بل بالرغم من كل شيء ، لم تحصل مصر على أرصدتها الاسترلينية بقيمتها الحقيقية ؛ إذ يفرض سير الأمور على حالها ووفقاً للاتفاقيات المعقودة بينها وبين بريطانيا حتى ينتهي حصولها عليها ، أقول : لم تحصل مصر من هذه الأرصدة على ما لا يجاوز نصف قيمتها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، إلى اليوم لم تنته مشكلة التسديد ، وآخر اتفاقية معقودة بين البلدين في أول يوليو سنة ١٩٥١ ، تدلنا على مبلغ ما ستعانيه مصر من وقت عصيب وظروف شديدة ، تستنفد فيها ما بقي من أرصدتها . وما ينتظر أن يحصل اتفاق أو اتفاقات بشأنه منها ؛ ذلك أنه وفقاً لهذا الاتفاق الحاصل في أول يوليو من العام الماضي ، تتراوح المدة التي يفرج فيها عن أرصدة مصر المجمدة بين عشر سنوات وثلاث عشرة سنة ونصف ، ولا يتجاوز المبلغ الذي ينتظر الحصول عليه نتيجة للافراج مائة وخمسين مليوناً من الجنيهات الاسترلينية ؛ أو أقل من ذلك تبعاً لمقتضيات العملية التي تتعلق بالبند الوارد في الاتفاقية والقائل بالإفراج عن خمسة ملايين من الجنيهات إذا قل رصيد الحساب رقم (١) في أحد الأعوام عن ٤٥ مليوناً من الجنيهات ، بشرط ألا تزيد قيمة المفرج عنه في هذا الصدد عن ٣٥ مليوناً من الجنيهات .

ونزيد على ذلك أن من سخرية الأقدار ، أنه لم تمض شهور على توقيع هذه الاتفاقية السالفة الذكر ، حتى طالعتنا الأنباء بأن بريطانيا تفكر في تخفيض المبلغ الذي اتفق على الإفراج عنه في كل عام إلى النصف ، وبأنها تتجه إلى تحقيق مآربها السياسية بالاستعانة بتنفيذ هذا الاتفاق المذكور !

أما الحجة الأخرى التي يبررها عدم الأخذ بفكرة تأميم البنك الأهلي ، فتتلخص في الرغبة في إبعاد البنك المركزي عن المؤثرات السياسية ؛ والواقع أنه بالرغم من أن مصر بعد حديث العهد بالمسائل السياسية والاقتصادية ، وأن المؤثرات السياسية حقيقة قد تكون ذات يد في التأثير على البنك والحد من استقلاله ، إلا أن هذه مسألة إن دلت على شيء فإنما تدل على عجز مبين في إبعاد تلك المؤثرات ؛ إذ لا يعدو استقلال البنك من هذه الناحية اتخاذ بعض الاجراءات ووضع بعض الحدود الكفيلة بذلك . والبلد الذي يعجز في نظرنا عن فصل مثل هذا البنك عن مؤثرات السياسة وتحقيق استقلاله لهو بلد قاصر عن بلوغ أي مأرب من مآربه مهما كانت تفاهته .

على أن خطورة عدم الأخذ بفكرة تأميم البنك المركزي في مصر تتضح في الاعتبارات التالية :

أولاً : أن هذا يعتبر تخلفاً عما وصلت إليه غالبية البلدان في العالم من تأميم بنوكها المركزية ، إذ وصل الأمر إلى حد أن أضحى التأميم خطوة واقعية لا محيص عنها فيما يخص ملكية البنوك المركزية .

ثانياً : أن المساهمين الأجانب في مصر يمتلكون ما يساوي حوالي الثلثين من أسهم البنك الأهلي ، والثلث الآخر من أسهم البنك للمصريين ، ولا يستطاع القول بأن القانون الصادر في العام الماضي بتحويل البنك الأهلي إلى بنك مركزي قد قام على أساس الرغبة في استكمال تمصير هذا البنك .

ثالثاً : أن عدم تأميم البنك المركزي يؤدي إلى الحد من مقدرة هذا البنك على أداء وظائفه واختصاصاته كاملة ؛ إذ سيقصر في هذه الحالة عن تنظيم الأوضاع النقدية في البلد وعن الرقابة على أوضاع النظام النقدي فيه .

هذه هي الوجهات التي يمكن عرضها في هذه اللمحة العابرة عن تأميم البنك المركزي في مصر ، وبصرف النظر عما ورد في شرحها والتعرض لها ، نحتفظ بوجهاتنا الخاصة في هذا الموضوع ، لأن مهمتنا هنا التعرض لمسألة تأميم هذا البنك على ما هي عليه ، وحسب الأوضاع الاقتصادية الراهنة . .

أحمد طه السنوسي

النـــور

عاداتهم وطقوسهم

للأستاذ مبارك إبراهيم

في كل بلد من بلدان أوربا طائفة من «النَّور» الذين اعتادوا حياة التجوال والترحال ، واتخذوا التجارة حرفة ، وهم يتكلمون فيما بينهم لغتهم الخاصة ، ويمارسون عاداتهم وطقوسهم .

وهم في الأصل قد جاءوا من شمال غربي الهند ، ولكنهم لما ظهروا أول مرة — منذ خمسة قرون — في منطقة جزر بحر إيجه قالوا إنهم جاءوا من مصر الصغرى ، ولذلك سماهم اليونانيون « جبتوس » أي مصريون ، وهي تسمية لا تزال لاصقة بهم حيث تطلق عليهم إلى اليوم كلمة Gypsies

وفي لسان « الروما » أو لسان النور تدل كلمة Rom على الرجل أو الزوج ، وتدل كلمة Romni على المرأة أو الزوجة ، وهم يطلقون على أبناء غير جنسهم كلمات منها : « بنو » أو « بنو » ، وهي تقابل الدنس أو النجس ، أو « جاجو » أو « جاشو » ويعنون به الرجل الكافر ، أو « توررو » ويعنون به « المسكين الذي يرثى لحاله » .

وهم في مهاجرهم معرضون غالباً للاضطهاد ولسطوة القوانين القاسية .

وقد ظل النور إلى يومنا هــذا أمة وحدهم لا يعترفون بالحدود الجغرافية ، والنوريّ الصميم يمتاز عن سواه بشعره الأسود ، وعينيه الدكناوين ، ووجهه الأسمر ، وهم منذ القدم صناع مهرة ، وقد كان لهم الفضل الأول في نماء تجارة بلدان كثيرة ، وذلك قبل أن ترتقي الصناعات وقبل أن تتقدم وسائل النقل .

وقبل أن تغمر الأسواق الآنية الصينية الرخيصة وتطغى على الأواني التي كانت تصنع من النحاس . كان « النجر » جد مطلوبين كصناع لتلك الآنية ، وكان منهم الحدادون للمتنقلين بأكوارهم وأفرانهم ، يصلحون القدور والـكيزان والحلل ، كما كان منهم البارعون في إصلاح المناخل والغرابيل ، وكذلك كان منهم السنانون الذين يسنون السكاكين والمقصات . كما كان منهم بائعو السلال والـكراسي والحصر والملاعق والمشاجب ، وفضلا عن ذلك فهم منذ القدم تجار خيل ماهرون . فيهم حيلة ، وفيهم ذكاء .

وهم في الأسواق لم يبرعوا في التجارة فحسب ، بل هم موسيقيون بارعون ، وراقصون لا يشق لهم غبار ، وهم ونساؤهم قد أتوا بكل عجيب في التنبؤ والعرافة والتنجيم .

وهناك حرفة واحدة لم تجتذبهم قط ، وهي حرفة الزراعة ، ذلك لأنهم أقوام رحل .

والنوري يرى نفسه كأنه موكل بفضاء الأرض يذرعه ، فهو لا يستقر على حال من التنقل . تحفزه إلى ذلك رغبـة كامنة ، وقد يستأنس فيسكن البيوت أحياناً ، ولـكنه لا يلبث أن ينقلب على عقبه ، وتصيبه ردة إلى المألوف من عادات أجداده .

وقد قال القس « رودني سميث » (١٨٦٠ — ١٩٤٧) — وأصله من النور — إنه قد أقنع أخاه مرة أن يسكن كوخاً مبنياً بالطوب ، ولـكنه لما زاره بعد شهور ألفاه قد ترك البناء واتخذ لنفسه خيمة في الحديقة ، وقد علل الأخ لأخيه القس أسباب تركه للبيت أنه وجده رطباً بارداً ! .

ونوري الخيام الأصيل يفضل حياة الهواء الطلق ، وهو في الشتاء يرى أنه إذا سكن عربة من العربات فكأنه سكن قصراً فيه كل وسائل الراحة والترف .

والنور الرحل لهم عاداتهم ومميزاتهم التي ترجع إلى عهود بعيدة ، ومن تلك العادات ما هو متصل بمسائل الزواج ، وأول مراسيم الزواج عندهم مراسم الخطبة ، وهي تتم إذا حسنت فتاة نورية في عيني فتى نوري ، أو إذا تم اتفاق مشترك بين أهلها وأهله .

وفي انجلترا يجوز للفتاة النورية أن تبدأ التقرب إلى الفتى عامدة ، وهي تعبر عن رضاها بمن اختارته بأن تعطيه

يديها خيطاً أو حبلا أحمر . أو بأن تلقى عليه من فوق سور من الأسوار كعكة فيها نقود .

وفى شرق أوربا يقال إن الفتاة لا تبدى رأياً قاطعاً إلا إذا استطلعت « طوالع » المستقبل ، وذلك بأن تذهب إلى مفترق الطرق ، وهى تدعو ربها أن ترى فى الرؤيا صورة زوجها العتيد .

وفى أثناء مراسم الخطبة تفك إصبعها الخنصر من يدها اليسرى بإبرة فيسيل الدم على الأرض . ثم تجمع بعد ذلك التراب الذى اختلط بالدم وتلق به فى النهر ، وذلك لئلا تجىء الأرواح الشريرة فتلعق الدم فتحل عليها اللعنة .

وإذا كان الخاطب هو البادىء بالخطبة فعليه أن يشترى منديلين أحمرين ، يعلقهما فى سترته . فإذا قبلت الفتاة التى أحبها منديلا من المنديلين كان ذلك علامة الرضا وإيذاناً بالقبول .

وإذا زار فتى من الفتيان خيمة ليغازل فتاة قد سبق أن وعد بها فتى آخر ، سارعت الفتاة إلى إعلانه بحقيقة الأمر ؛ وذلك بأن تترك أهلها وتجلس بعيداً ، وتحل ضفائر شعرها وترخيها حولها ثم تغطى وجهها بيديها .

وتتم مراسم الخطبة أمام الشهود بطريقة هى آية فى البساطة ، وذلك بأن تشرب الفتاة من قدح ثم تناوله إلى حبيبها ، فإذا شرب منه عُد هذا عهداً وميثاقاً بين زوجين ، وقد يستبدل بالقدح أن يأكل كلاهما من كعكة واحدة .

وفى أسبانيا إذا بلغت الفتاة الرابعة عشرة من عمرها ، وبلغ الفتى هذه السن أو جاوزها قليلاً اتفق أهل الفتى وأهل الفتاة على خطبتهما ؛ ولكن الزواج لا يتم إلا إذا بلغ كلاهما السادسة عشرة .

وقد قال بعض النَّور الذين جاءوا إنجلترا قبيل الحرب العالمية الأولى إن من عاداتهم أن يدفع أهل الفتى لأهل الفتاة مهراً ، فيجىء والد الفتى إلى خيم أهل الفتاة معلناً أنه فقد بقرة ، فيجيبه والد الفتاة : يمكنك أن تحصل على بقرة أخرى لقاء مال تدفعه ؛ فإذا اتفق الطرفان دفع المهر وحدد تاريخ الزواج .

وأن تكون الفتاة بكراً قبل الزواج مسألة يحرص عليها النَّور أشد الحرص ، وهم فيها من المتزمتين . وقوم الفتاة يحاسون كل المحاسبة فى أن يلتقى الخطيبان قبل الزواج ، فلا تخرج الفتاة مع فتاها ، ولا تسمح له بتقبيلها قبل الدخول بها .

ومن العادات الباقية بين النَّور فى إسكتلندة أن يضع جد الفتاة أو زعيم قومها يده فى يد الفتى ، وفى حضرة الشهود ، فوق ملقط من ملاقط النار ، ثم يتلو دعاء قصيراً معلناً أن الفتى والفتاة قد أصبحا زوجين . وفى إرلندة يمسك الفتى بيد الفتاة ثم يقفزان معاً فوق صندوق فيه أدوات تبييض النحاس . وفى إنجلترا وويلز يُطلب العروسان بمكنسة أو يؤمران بالقفز فوقها واحداً تلو الآخر ، وذلك لأنهم يظنون أن قش المكنسة جالب الحظ .

وقد عرف النَّور فى الزمن الأخير نظام تعدد الزوجات ونظام زواج المتعة . وهم يحتفلون بالطلاق احتفالهم بالزواج . وفى إسكتلندة يستتبع وقوع الطلاق ذبح حصان يدور الزوجان حوله من الشمال أو فى عكس اتجاه الشمس .

ومن عاداتهم أن يحتفلوا بالمولود احتفالاً بالغاً . وأول شىء يدثرون به الطفل ساعة مولده يكون فى العادة من ثياب والده . ثم يلبسونه ثوباً أعد خصيصاً له . ثم يحرقون هذا الثوب باحتفال بعد قليل — وفى العادة بعد تعميده — ثم يرفعه الوالد بين يديه ويضع حول رقبته خيطاً أحمر كتعويذة تقيه شر العين الحاسدة .

وتظل أم الوليد ثلاثين يوماً لا تعمل عملاً ولا تذوق طعاماً أكل منه الآخرون . ولا تستعمل آنيتهم . ثم تكسر الآنية التى كانت تستعملها فى أيام اعتزالها الناس .

ويحتفل النَّور بالمولود يوم يستحم لأول مرة ، ويوم يقص شعره ، وهذا الشعر يحرق اتقاء للحسد .

وإذا ولد الطفل ميتاً أو مات بعد قليل من ولادته ظل القوم تسع ليال يصبون اللبن فوق قبره .

ومن عاداتهم إذا جاء أحدهم الموت أن يشقوا شقاً فى الخيمة ليخرجوه منه ، وذلك خوفاً من أن تجىء روحه من الباب فتقض مضاجع الباقين . ثم يسارعون إلى ادق الدق اتقاء وقوع المصائب .

والنساء يغسلن الجثة بالماء والملح ، ثم يستبقين هذا الماء الباقية لتزداد قوة ووزنا كما يزعمن .

والمظنون أن النور كانوا يحرقون جثث موتاهم ، ولكن هذه العادة قد بطلت منذ زمان بعيد . غير أنهم لا يزالون

يحافظون على عادة حراسة الجثة . ويتناوب الحراس الحراسة كل جمع ساعات في الليل والنهار . وإذا جاء الليل وضعوا مصباحاً فوق الجثة حتى الصباح . ويظل الحراس ليلهم يتحدثون عن فضائل الميت ويعددون مناقبه .

ومن عادات بعض التتور أن يدفنوا موتاهم في مكان سري ، وأن يلبسوا الملابس الحمراء علامة الحداد ، أو أن يكتفوا بشريط أحمر يضعونه في سترتهم . وهم يزينون نعوش الموتى بأشرطة حمراء .

ونساء التتور في إنجلترا يزرن قبور موتاهن مرة في كل عام ، وتقع هذه الزيارة عادة قرب حلول عيد ميلاد المسيح .

وهم يوقرون موتاهم ، وإذا أقسم تتري بواحد من أسلافه كان هذا القسم قسماً ملزماً لا يجوز الحنث فيه ، وإلا حلت به المصائب .

وهناك عادة قديمة لا تزال باقية إلى اليوم ، وهي أنهم يجمعون كل ما خلفه الميت ثم يدمرونه تدميراً بعد الدفن ، وذلك مخافة أن تعود الروح فتبحث عن تلك الأشياء ، أو رغبة في إراحة الميت — كما يزعم بعضهم — من كل ما يربطه بهذه الدنيا ، حتى إذا بلغ الدار الآخرة جيء له بكل ما يحتاج إليه هناك .

ويبدو أن حرق أشياء الموتى هو بقية من تلك العادة التي كان عليها أسلافهم ، وهي عادة حرق الجثة .

وقد شوهدت حالات كانت الخسارة فيها عربات لا يقل ثمن الواحدة منها عن ثمانين جنيهاً ؛ فقد حرقت تلك العربات بما فيها بعد أن تهشمت الأواني الخزفية ، وبعد أن حرقت القدور والحلل ، وبعد أن جيء بسرج الحصان فقطع ومزق .

وبعض جماعات التتور يكتفون بحرق فراش الميت وملابسه ، ومن عاداتهم في بلاد الشرق الأدنى أن يوقدوا النار كل سبعة أيام مرة ، وأن يظلوا عاكفين على إيقاد تلك النار عاماً كاملاً ، وهم يقولون : إن الروح يوم تبدأ رحلتها إلى أرض الموتى يتحتم عليها أن تجتاز سبعة جبال وسبع صحارى ، ولا بد لها أن تواجه في طريقها رعباً صوراً عاتية ، وفي هذا الطريق الذي يبعث الرعب والفزع يرابط ثعبان هائل وهذا الثعبان يجب أن يسترضى أو أن تحيد الروح من طريقه .

وهكذا نرى التتور — حتى بعد موتهم — كلهم مخاطر مقدام . . .

مبارك إبراهيم

الإدارة الثقافية

لجامعة الدول العربية

تدعو رجال الفكر في العالم العربي

إلى مسابقة عامة في التأليف

تعيد الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية الإعلان عن مسابقتها الجديدة في التأليف ، التي يستطيع أن يشترك فيها رجال الفكر والثقافة في العالم العربي وموضوعها :

« المشاكل التي تعوق العالم العربي عن التقدم في السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة والأخلاق » . وذلك بالشروط الآتية :

١ — أن يتسع البحث في نحو ٣٠٠ صفحة من الحجم المتوسط وأن يكون مكتوباً باللغة العربية الفصحى .

٢ — أن يرسل البحث المقدم للمسابقة إلى الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية (١٠٢ شارع فاروق الأول بالعجوزة — الدقي) في موعد غايته آخر أكتوبر ١٩٥٢ .

٣ — أن تكون نسخ البحث المرسلة منسوخة على الآلة الكاتبة أو مكتوبة بخط واضح .

٤ — يعطى صاحب البحث الفائز في المسابقة مكافأة قدرها ٤٠٠ جنيه (أربعمائة جنيه مصري) على أن تترك له الإدارة الثقافية حق طبع بحثه ، في مقابل تعهده بتسليمها ٢٠ ٪ من نسخ كل طبعة .

٥ — يجوز لصاحب البحث المقدم أن يتخذ لنفسه إمضاء مستعاراً إذا رغب في ذلك ، على أن يبعث باسمه الحقيقي في ظرف مغلق .

٦ — تظهر نتيجة المسابقة في موعد لا يتجاوز آخر يناير سنة ١٩٥٣ .

أغاني الشحاذين

— ٣ —

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

.. ويغني الشحاذون جملة من القصص التي تتصل بالسيرة النبوية ، وتروى بعض المعجزات والخوارق التي تنسب إلى النبي وإلى أصحابه ، على أنها لا تتصل بسند صحيح عند علماء الحديث والآثار ، ورواة التاريخ والأخبار ، فعلماء الدين يردونها وينكرونها ، وينظرون إليها من هذه الناحية نظرة الاستهانة والامتهان ، وليس موقع الصدق في هذه القصص مما يعنينا هنا ، ولكنا نعرض لها من الناحية الفنية فيما تمثله من المعاني الإنسانية ، وما تصوره من الحقائق النفسية ، وما تعرضه من المظاهر والدلائل الماثلة في البيئة الإسلامية ، وهي في هذا كله جديرة بالنظر والعرض ، والدراسة والبحث ..

وأكثر هذه القصص ذيوعاً وشيوعاً قصة « الجمل والغزالة » ، وهي قصة موضوعة قطعاً ، ويبدو لي أنها وضعت في البيئة الإسلامية بعد أن وقف العرب على أحاديث الحيوان والطير في آداب الهند وقصصهم ، وتتألف هذه القصة في بنائها من منظرين متشابهين ، يمثل الدور في الأول الجمل ، وتقوم بالدور في المنظر الثاني الغزالة ، والغاية في الدورين واحدة ، يراها القارئ واضحة فيما نعرض عليه من واقع القصة .

تبدأ القصة فتذكر أن النبي كان جالساً مع الصحابة ، فمثل بين يديه جمل أسقمه المرض والهزال وأخذ يشكو إليه ، ويستجير به ، فقد كان في شبابه قوي العزم ، ينهض بحمله مهما يكن ثقيلاً ، وكان صاحبه يبالغ في إكرامه ، ويفتخر به عند قومه وأصحابه ، ثم نزل به المرض فضعف حاله ، وبدا هزاله ، وأصبح لا يصلح لعمل ، فعزم صاحبه على أن يبيعه للجزار ويخلص منه ! فاجتمع عليه من هذا همان : هم المرض ، وهم الخوف من الذبح ، واستبدت به حسرتان : حسرة على قوته وشبابه ، وحسرة على صاحبه وقلة وفائه ، ولو كان له قلب رحيم لأشفق عليه في مرضه ، وزاد في العناية به أضعاف ما كان يبذله له وهو قوي !

فطيّب النبي خاطره ، ووعده بأن يجيره من جحود صاحبه ، ويخلصه من همومه وأحزانه ، ثم نهض عليه الصلاة والسلام ونهض الصحابة معه إلى بيت اليهودي صاحب الجمل ، وطرق بلال الباب ؛ فخرجت جارية مليحة ولكنها مفقوءة العين ، فسألها النبي عن سيدها فقالت هو بالبيت ، فسألها عن السبب فيما نزل بعينها ، قالت إنه أثر لطمة عاتية من سيدها ، فمسح عليها النبي فعادت عينها كما كانت ، فانطلقت تزغرد وتخبر سيدها بما جرى ، فقال سيدها : إنه لابد أن يكون هذا ساحراً أتى إلينا ليخدعنا بسحره ، ثم يخرج ، فيحدثه النبي بقصة الجمل وشكواه ، ويطلب منه أن يجيره من شكواه ، وأن يعود إلى سابق بره به ، ولكن اليهودي يرتاب في أن الجمل ينطق ويتكلم ، ويقول إن نطق الجمل « يا محمد » أنا أعتقه وأصلي وأصوم » .

ثم يتغير المنظر فجأة في القصة ، إذ ينظر النبي فيرى غزالة في شرك اليهودي تبكي وتستغيث ، ويسألها النبي عن حالها ، فتقول إن اليهودي صادها وهي تبحث عن القوت لأولادها ، وقد فارقتهم ثلاثة أيام كاملة وهم على الطوى ، وتسأله أن يضمنها عند اليهودي حتى تذهب فترضع أولادها وتعود ، وبعد حوار عنيف بين النبي واليهودي ، يقبل اليهودي أخيراً ضمان النبي للغزالة على أن تذهب لرؤية أولادها وتعود وهو موجود ، وتذهب الغزالة إلى أولادها وتحدثهم عن حالها ، وتستعجلهم في أن يرضعوا حتى تسرع بالعودة إلى اليهودي لأنها جاءت بضمان النبي . وهنا تبدو في القصة وثبة من وثبات الخيال ، إذ ما كاد أولاد الغزالة يعرفون أن أمهم جاءت إليهم بضمان النبي حتى يحرموا لبنها على أنفسهم ، ويطلبوا منها أن تسرع بالعودة حتى لا يبقى النبي المصطفى مربوطاً بضمانها عند يهودي فظ غليظ القلب ، فتودعهم أمهم وداعاً ألهاباً يثير كوامن الشجون ، وتعود إلى حيث كانت في أسر اليهودي ، ولكن على الرغم من كل هذه الدلائل فإن اليهودي لا يرق ولا يلين ، ويصرّ على أن

بشكو الجمل حتى ينظر في حاله ، فما يتم كلمته حتى ينطلق الجمل بين يدي النبي فيروي قصته ويبث شكواه ، فلا يلبث أن يذعن ويشهد أن محمداً سيد المرسلين ، وتنتهي القصة بأن يسلم اليهودي ويحسن إسلامه ، ثم يطلق الغزالة من إسارها ، ويعتق الجمل من سوء حاله . .

هذه هي قصة الجمل والغزالة ، وهي أكثر ما يتغنى به المداحون ، ونكتفي بإيرادها مثلا ونمطا من ذلك القصص الكثير الذي يغنونه عن السيرة النبوية ، والإشادة بمكارم النبي صلى الله عليه وسلم ومحامده ، مثل قصة « اليتيم المظلوم » وقصة « قميص النبي » وقصة « عامر اليهودي » وقصة « انشقاق القمر » ، إلى آخر ما هنالك من القصص التي يطول سردها واستيعابها ، على أنه متشابه في وقائعه وفي مقاصده ؛ وهنا لا بد من أن أشير إلى معنى مشترك يلاحظه الباحث في تلك القصص ، وهو معنى له مغزاه ودلالته ، ذلك أن البطل فيها غالباً ما يكون يهودياً ، ودائماً تصف هذه القصص اليهودي بالعناد والمكابرة والخداع والضلالة ، والشح والتقتير ؛ وسواء أكانت هذه القصص قد وضعت في زمن متقدم أم في زمن متأخر فإنها بهذا تمثل حقيقة من نواحي الدور الذي اضطلع به ذلك العنصر العنيد المتشبث بتقاليده في البيئة الإسلامية ، وإنها لحقيقة لما تزل قائمة لم تغير الأيام منها أي شيء .

وتأتي بعد هذه الطبقة من القصص التي تتصل بالسيرة النبوية ومعجزات النبي طبقة أخرى تتصل وقائعها بالصحابة والتابعين ، مثل قصة « معاذ بن جبل في بلاد اليمن » وقصة « وفاة سيدنا عمر » وقصة « خاتم علي بن أبي طالب » ، وتختص السلسلة العلوية من آل البيت بجانب كبير من هذه القصص التي تتحدث عن مناقب الحسن والحسين وزين العابدين وغيرهم ؛ ومن الواضح أن هذه القصص إنما هي أثر من آثار التشيع للعلويين ، ذلك التشيع الذي كان له أثره العميق في كل نواحي الثقافة الإسلامية .

ثم تأتي الطبقة الأخيرة من قصص المداحين ، وهي طبقة خاصة بالأقطاب من أهل الولاية في مصر ، وأشهر هذه القصص « قصة السيد البدوي مع فاطمة بنت بري وما جرى بينهما من غرائب الأحوال » و « قصة الأميرة خضرة الشريفة وما جرى لها في بلاد النصارى وكرامة السيد البدوي حين أتى بها » وقد تحدثت عن هاتين القصتين في شيء من الإفاضة والتحليل في الكتاب الذي وضعته عن « السيد البدوي » وناقشت آراء المستشرق « جولد سيهر » وغيره من المستشرقين في قصة « بنت بري » وأثرها في حياة السيد ، فليرجع القارئ إلى ذلك إذا شاء ؛ على أني سأعود فيما بعد فأتحدث عن قصص « السيد البدوي » من ناحية خاصة بما يقتضيه سياق البحث واستيفاؤه .

ومن القصص التي تتصل بالأولياء وكراماتهم ، « قصة سيدي إبراهيم الدسوقي وما جرى منه من العجائب والغرائب والكرامات » وقد كتب على هذه القصة أنها من « نظم ولي الله المجذوب الشيخ طاهر بن يعقوب » وهي القصة الوحيدة التي قرنت باسم مؤلف من بين جميع هذا القصص ، ولكن يظهر أنه مؤلف منحول ، وأن هذا الاسم قد وضع على القصة للتشويق بقراءتها ، أما وقائع القصة فإغراق في التهويل والمبالغة إلى أبعد مدى . فهي تزعم أن مغاضبة وقعت بين إبراهيم الدسوقي وأمه في سؤالها عن حاله ، واستنكارها لسلوكه ، فما كان منه إلا أن حملها بين يديه وطار بها إلى السموات ، وهناك أخذ يطالعها بمعارض النار والجنة وما فيهما من طوائف المعذبين والمنعمين ، فتسأله عن كل نار من النيران ، ولمن أعدت من المذنبين ، فيخبرها بذلك في حوار متسلسل طويل يستغرق جانباً كبيراً من وقائع القصة ، ويتقصى كل ما يقع بين الناس من الذنوب والشهوات ، ومن ثم جاءت هذه القصة أروع ما تكون في وعظ العامة ، وأقرب ما تكون في الدخول على نفوسهم بالزجر والردع عن المعاصي ، وليس من شك في أن واضع هذه القصة قد جرى فيها على نمط قصة المعراج ، وتأثر بوقائعها إلى حد كبير ، وكذلك كان لقصة المعراج أثرها وشأنها في الأدب الشعبي عامة كما كان لها أثرها وشأنها في الأدب العالمي الخاص ؛ فمن هذه القصة استمد أبو العلاء المعري الفكرة في قصته الخالدة « رسالة الغفران » ، كما استوحاها ابن شهيد الأندلسي في قصته « التوابع والزوابع » وهي كذلك الفكرة التي حلق بها « دانتي » الشاعر الإيطالي في « الكوميديا الإلهية » .

وبعد ، فأحسبني قد استطعت أن أقدم إليك صورة من مواكب المداحين وأغانيهم ، فإلى المقال التالي حيث نسير في موكب طائفة أخرى من أولئك الشحاذين ، ولعلها أن تكون أظرف وألطف .

محمد فهمي عبد اللطيف

فاوست : أهو حقيقة أم خيال !

[نشرت لي « الثقافة » في عدديها ٦٥٠ ، ٦٥١ بحثاً عن فاوست بجزئيه ، لجوته . ورأيت أخيراً إكمالاً للفائدة أن أضم إلى هذا البحث بحثاً آخر في تاريخ أو تطور خرافة فاوست منذ ظهورها حتى تناولتها براعة الشاعر الألماني] .

— ١ —

للأستاذ إدوار مقسي

لمحة عن خرافة السحر : قبل أن نمضي في عرض قصة فاوست الأصلية نرى أن نذكر كلمة عن خرافة السحر ؛ ولهذا سنعود إلى العصور التي زخرت فيها الآداب ، وحتى هناك سنجد أن الاعتقاد في السحر كان موجوداً متوارثاً من عصور ماضية أخرى لم تدون أخبارها ، نشأت خلالها أولى جراثيم هذه الفكرة التي أخصبت ونمت في مخيلة الساحر الذي بفضل حيل مختلفة كان في إمكانه أن يستميل الآلهة والشياطين والقوى فوق الطبيعية إلى خدمته ، وبواسطتها كان يحول مجرى الطبيعة عن سيرها المعتاد ؛ وسنكتفي بالتلميح إلى ذيوع الاعتقاد في السحر بين اليهود والإغريق والرومان ، وإلى ما كان موجوداً في عصر ما قبل التاريخ .

لم يكن هذا الاعتقاد في الواقع سوى النتيجة الطبيعية للدين ، إن لم يكن روح الديانة البدائية نفسها ؛ فقد كان الكاهن أول ساحر . وفي البدء لم تكن ممارسة هذا السحر تحمل في أطوائها هذا المقت الذي لحق بها في الأزمنة التي جاءت بعد ذلك . ثم جاء الإغريق والرومان فنظروا إلى السحر بعين الريبة والشك ، وكان هذا لأسباب خلقية ، ككونه دافعاً للشر محرضاً عليه ، أكثر من الأسباب الدينية ككونه مناقضاً للآلهة مثلاً . أما بين اليهود وهم يدينون بعبادة الإله الواحد ، فقد كان السحر يعتبر نوعاً من عبادة الأوثان ، ومن ثم نبذوه ، ونما هذا العداء للسحر منذ فجر المسيحية ، وسمي بـ « عبادة الشيطان » ، إذ كان المسيحيون الأولون يشبهون آلهة الأوثان بالشياطين .

وطائفة السحرة التي تتحدث عنها الخرافات في عهد المسيحية طويلة جداً ، ولكن ثلاثاً من أساطير السحر في أوائل هذا العهد تستحق الذكر لتشابهها في نقاط معينة بخرافة فاوست . أما موضوع أولاها فقد تسلسل من « سيمون » في « أعمال » الكتاب المقدس ، الأصحاح الثامن : « وكان قبلاً في المدينة رجل اسمه سيمون يستعمل السحر ويدهش شعب السامرة قائلاً إنه شيء عظيم » ، إذ ظهرت فيما بعد أسطورة أخرى شغلت أكثر بهذا السيمون ، مدخلة على قصته خطوطاً وملامح جعلت الشبه بينه وبين فاوست الخرافي قريباً جداً بحيث اعتقد الكثيرون أنه أصل فاوست الحقيقي .

أما الخرافتان الأخريان فتظهران لنا الأسطورة بما أضيف إليها من فكرة إبرام العقد مع الشيطان ، وهما : خرافة « سيبريان » ، وخرافة « ثيوفيلس » ، وترجعان إلى القرنين الرابع والسادس الميلاديين على التوالي . ولكن واحدة من هاتين الخرافتين لم تذكر شيئاً عن طبيعة هذا العقد الشيطاني الذي يتميز به فاوست العصور الوسطى . أما سيبريان الذي كان وثنياً كفاوست في جريه وراء جميع المعارف ، فقد اكتسب قوة بإبرامه عقداً مع الشيطان ؛ ولكنه اكتشف ضعف حليفه أمام جبروت الدين وبأسه ، وسرعان ما تحول إلى المسيحية ومات شهيداً . وكان ثيوفيلس على العكس من سابقه مسيحياً ، وإذ خانت مطامعه في المسيحية انسلخ من الإيمان بكتابة وثيقة مع الشيطان موقعة بدمه . ولكنه ندم بالحال واستغاث بالعذراء التي استردت العقد من الشيطان وأعادته إليه .

وحتى هذه الخرافات لا نؤكد أنها الأصل المباشر لخرافة فاوست . وعلى أي حال فهي ، فضلاً عن عديد غيرها تماثلها ، قد ساهمت دون شك في بلورة فكرة « العقد مع الشيطان » التي عاصرت مسيحية القرون الوسطى ، وبقيت

قوية الحياة فى القرن السادس عشر الميلادى بألمانيا البروتستانتية حيث ولدت فى أحضانها خرافة فاوست .

* * *

تطور خرافة فاوست : سنحاول الآن اقتفاء أثر هذه الخرافة وتفصيلها تفصيلاً أدق ، إذ قبل أن تهبها عبقرية جوته « رخصة » أبدية للحياة ، مع إعطائها معنى أعمق ، كانت قد تمتعت بالذيوع والشهرة بين الناس .

تعود خرافة فاوست إلى عام ١٦٢١ ، أى أقل من خمسين عاماً بعد نشر « كتاب فاوست » الأول ، حينما أذاع اللاهوتى شيكارد أن قصة فاوست ماهى إلا خرافة مخترعة لتخويف الناس من ممارسة السحر . وكان اللاهوتى دُرّ أول من قال عام ١٦٧٦ إن « الفنان الأسود ، فاوست » هو نفسه « جوهان فَسْت » الذى يرتبط اسمه باختراع الطباعة فى القرن الخامس عشر . وعارض هذه الفكرة لاهوتى ثالث ، نومان ، الذى أخذ على عاتقه عام ١٦٨٣ مهمة تحقيق هذه المسألة ، وقد أثبت بالبرهان وجود فاوست تاريخى ... ولكنه انتهى بقوله إن حياة فاوست ليست خرافة كلها ، وليست تاريخاً كلها ، ولكنها بين هذا وذاك ! ولقد ساد هذا الاعتقاد عموماً حتى زمننا هذا الحديث . ولكن محاولة المطابقة بين هذا المشعوذ وجوهان فست — الاسم الذى قد يطابق فاوست الألمانى الحديث — كانت أكثر انتشاراً وقبولاً .

وقد ألمع دانييل ديفو فى « التاريخ السياسى للشيطان » عام ١٧٢٦ إلى هذا الموضوع : « كان جون فاوستس خادماً أو أجيراً أو صفافاً لأحرف الطباعة عند كوستر ... وما إن أتم طبع « المزامير » حتى هرع إلى باريس ليبيعها كمخطوطات ، إذ أنها بذلك تعود على صاحبها بالربح الوفير . وإذ لم يستطع المعتدون هناك فهم سر هذا العمل العجيب اتهموا بنسبته إلى الشيطان . أما الرجل فكان فى زعمهم « ساحراً » أو مشعوذاً أو واحداً من هؤلاء الذين يعملون بالفن الأسود ، أى بمساعدة الشيطان ! ومن ثم أدانوه ، وحوكم أمام محاكم الجنايات التى ما لبثت أن أثارت فى العالم حوله ضجة ، ورفعت من شهرة جون فاوستس المسكين إلى ارتفاع شاهق مخيف ، حتى اضطر فى النهاية إلى كشف القناع عن سر مخطوطاته صوناً لرقبته من المقصلة » .

هذا هو الأصل الحقيق ، كما يقول دانييل ديفو ، للدكتور فاوستس المشهور ، فى حين لم يكن فاوست دكتوراً ، ولم يكن يعرف عن الشيطان أكثر مما يعرف عنه أى إنسان آخر .

وتبع هذا بحث قام به كارل سيمروك ، أحد الثقات الألمان عام ١٨٧٤ ، محا به كل شك فى حقيقة وجود فاوست تاريخى . وجدير بالذكر هنا أن هذا الثقة كان ما زال متمسكا بأن خرافة فاوست تبدأ بعامل الطباعة فَسْت ، وأكد إمكان إثبات هذه النظرية على الضوء الذى ألقته الحادثة التى رواها دانييل ديفو عن هذا الموضوع .

يقول كارل سيمروك إن أقدم مرجع لفاوست التاريخى يوجد ضمن مجموعة خطابات المؤرخ ترتهايم ، وقد نشرت عام ١٥٣٦ ، ومن بينها رسالة ترجع إلى عام ١٥٠٧ موجهة إلى صديق كان يستفسر منه — من ترتهايم — عن شخص يدعى جورجيس سابلليكس .

ذكر ترتهايم فى خطابه : « كان جورجيس سابلليكس يلقب نفسه (فاوستس الصغير) زعيم السحرة والعرافين ، الساحر الثانى ... » . ولم يكن هذا المدعى المتعاظم سوى واحد من طلاب العلم المتجولين (Strolling Scholars) الذين كانوا يعيشون على فطنتهم وذكائهم . أما أنه كان يلقب نفسه « فاوستس الصغير » ويدعى أنه « الساحر الثانى » فيوحى بأن اسم فاوستس كان مشهوراً فى علم السحر قبل أن يتخذه لنفسه اسماً . وهكذا أعاد كارل سيمروك عامل الطباعة فست أو فاوست إلى الوجود محاولاً إقحامه على خرافة فاوست ، مؤكداً أنه فاوست الأول الذى ذاع اسمه كساحر إبان محاولته بيع مخطوطات المزامير بباريس ، كما ذكر دانييل ديفو .

ويستمر كارل سيمروك فى أبحاثه فيقول : إن طالباً يدعى جوهانس فست ، أدرج فى قائمة كلية الفلسفة بجامعة هيدلبرج عام ١٥٠٥ وتخرج منها عام ١٥١٠ ؛ ولكنه لم يصل إلى دليل دامغ يثبت نسبه أو عدمه إلى فاوست الحقيق .

وورد فى سجل حسابات أبروشية بامبرج عام ١٥٢٠

هذه الكلمة : « لقد أعطيت ثمانية عشر تجلدن(*) إلى الدكتور فاوستس ، الفيلسوف ، كهدية ... » . ولكن هل يمكن أن ينطبق على فاوست مثل هذا التكريم والاحتفاء أيّاً كان !؟

وعثر في قلم اللقات القضائية بانغولشتاد العليا على تقرير يقول إنه « في يوم الأربعاء — بعد القديس فيتوس ، ١٥٢٨ — طُلب إلى أحدهم ويدعى دكتور جورج فاوستس أن يبرح المدينة (إنغولشتاد) .... » .

وكتب جواكيم كاميراريس رئيس جامعة توبنجن إلى صديق له عام ١٥٣٦ يقول : « لقد أتى على صديق فاوست بالللائمة لأنى أتحدث إليك عن هذه الأشياء ، ألم يكن من الأفضل أن يعلمك شيئاً من فنه .. ؟ » .

وسجل فيليب بيجاردى ، طبيب مدينة وورمز في فهرسه الصحى عام ١٥٣٩ : « لبضع سنوات خلت كان يتنقل في معظم أنحاء البلاد ... وذاع اسمه بين الناس ، وكان يفخر بفنه العظيم ليس في الطب فقط ، بل في علم الكف والفراسة والتنجيم وما إلى ذلك من الفنون ... وقد صرح هو نفسه دون إنكار أنه يدعى فاوستس . . »

وروى راعى بال ، جوهان جاست ، عام ١٥٤٨ ، الحقائق التالية : « بخصوص العراف فاوست ، إنه يأوى قرب المغرب إلى دير غنى معين . . وقدم إليه أحد الإخوة ذات مساء نبيذاً عادياً مشكوك الجودة . . فسأله فاوست أن يأتيه بنبيذ أجود من برميل آخر ... فقال الأخ : لست أحتفظ بالمفاتيح ، ورئيسى نائم ، وإنها لخطيئة أن أوقظه . فأجابه فاوست : ها هى ذى المفاتيح ملقاة في زاوية الغرفة . خذها وافتح هذا البرميل على اليسار وأتنى بشراب . ورفض الأخ بحجة أن رئيسه منعه من تقديم أى نبيذ آخر إلى الضيوف . وعندما سمع فاوست هذا قال بغضب : سوف ترى العجب أيها الأخ غير المضياف ! ورحل فاوست عند فلق الصبح وهو يفور غضباً دون أن يودع مضيفه ، وأرسل إلى الدير روحاً شريرة هائجة ما لبثت أن ملأته بالضجيج نهاراً وليلاً ، إذ جعلت تطيح بكل شىء في الكنيسة وغرف الرهبان بقصد إقلاقهم وإزعاجهم ... »

(*) جلدن : عملة ذهبية أو فضية كانت متداولة في ألمانيا في العصور الوسطى .

وذكر مانليس عام ١٥٦٢ عن ميلانكتون المصلح الكبير أنه ، أى ميلانكتون ، كان يعرف شخصاً يدعى فاوست ، من كندلنج ، تعلم فن السحر بينما كان يطلب العلم في كراكو ، وكان يطوف بالبلاد متحدثاً عن أشياء غامضة . وحينما كان آخذاً في عمل عرض بفينيسيا قال إنه يمكنه التحليق في السماء ، وتبعاً لذلك رفعه الشيطان عالياً ثم ألقى به على الأرض فاقد الحياة ، ومع ذلك فقد عادت إليه أنفاسه للتو !

وبعد أعوام قليلة من هذا الحادث كان هذا الجوهانس فاوستس جالساً بكآبة في آخر يوم له بقرية من قرى دوتشى من أعمال وتنبرج . فسأله مضيفه عن سبب حزنه ، وما عتم أن أجابه : أرجو ألا أراك مفزّعاً هذه الليلة ! وفي منتصف الليل زلزل المنزل . وعندما انتصف نهار اليوم الثاني ولم يظهر فاوست وجده المضيف بحجرته ملقى إلى جانب فراشه ووجهه ملتو إلى ظهره ... وتسلل هذا الرجل ، فاوست ، إلى مدينة وتنبرج ، بينما كان الأمير الدوق جون قد أصدر أمره بالقبض عليه . فتابع فاوست هروبه إلى نورمبرج ، وهناك عندما بدأ تناول إفطاره ، تملكته رعدة كبيرة ، فنهض للتو وأدى إلى مضيفه ثمن طعامه ، وما إن هم بمغادرة الدار حتى أطبق عليه البوليس .

وتقول القصة التالية المأخوذة عن كتاب نشر عام ١٥٦٨ وضعه دكتور جوهانس ورر : إنه قد ألقى القبض على هذا المحتال ، فاوست ، في باتنبرج . وفي غياب البارون هرمان كان يعامله قسيسه بلطف ، وقد وعده فاوست بتلقينه بعض المعارف في مختلف الفنون . حينئذ قال القسيس عرضاً — وكان طيباً بسيط العقل — إنه يريد حلاقة لحيته . فقال فاوست : إنه يعرف طريقة يتخلص بها من لحيته دون استعمال الموسى ، وهى أن يحك ذقنه بالزرنيخ . لم يشك القسيس في كلام فاوست . وما إن فعل كما أشار عليه الأخير حتى أحدث الزرنيخ التهاباً ليس فقط في شعر لحيته ، بل في جلده ولحمه أيضاً ... فاحترق ! ووجد فاوست بعد ذلك في قرية من قرى دوتشى ميتاً بجانب فراشه وقد التوى وجهه إلى الخلف . ويقال إنه حدث في الليلة السابقة زلزال ...

ويروى ناظر مدرسة في جوسلار : أنه أخذ عن فاوست طريقة إدخال إبليس في قمقم . وعندما قام بمحاولته ظهر له

شيطان قبيح المنظر بعينين يخرج منهما لهباً ، وبأنف ملتو كقرن البقرة ، وبنابين طويلين كنابى الخنزير ، وبفكين كفكى القط ... وبالجملة ذو منظر مرعب كريه . فغشى على الناظر لساعات طويلة . وعندما أفاق وعادت إليه بعض حواسه كان أصفر اللون مبلبل الفكر . وكان يهذى ويتمتم بأصوات مخيفة كما لو كان مختل العقل . وعاد إليه نطقه فى نهاية العام ، وأقسم ألا يعود إلى مثل هذا العمل مرة أخرى قط .

وفى مخطوطة ترجع إلى عام ١٥٨٠ ، كتب زخارياس هوجل عن الفترة حوالى عام ١٥٥٠ بخصوص الساحر الشهير دكتور فاوست قائلاً : إنه بالرغم من أنه كان يقيم فى وتبرج ، فقد كان بروحه القلقة يحب الطواف والتجوال . وقد قدم فاوست نفسه ذات مرة إلى جامعة أورفرت ، وسمح له بمحاضرة الطلبة فى الشاعر الإغريقى هوميروس ، وهكذا أتيحت له فرصة ذكر بريام ، ملك طروادة ، وهكتور ، أعظم محاربيها ، وآجاكس ويوليسوس وأجاممنون وآخرين . وكان يُلح عليه فى استحضار أرواح هؤلاء الخالدين ليطبق وصفه لهم على الواقع . وما عتم أن استحضر الواحد فى إثر الآخر لمرضه على الطلبة الذين ما لبثوا أن استغرقوا فى هذا الجو الإغريقى الصرف ! ولم يفيقوا فى النهاية إلى أنفسهم إلا بعد جهد جهيد ! ثم أتى أخيراً بالعملاق بوليفيمس الذى كانت له عين واحدة مخيفة مستقرة فى منتصف جبهته ، ولحية طويلة حمراء كالنار ! وكان يبتلع شخصاً تدلت أمعاؤه من فمه ! فكان منظره مخيفاً مرعباً ، بحيث فقدت لمرآه شعور الطلبة والحضور ! وعندما أومأ إليه دكتور فاوست بالذهاب ، تجاهله العملاق وضرب الأرض بسيفه الحديدى الهائل ، فارتجت الكلية أى ارتجاج ... حينئذ رحل العملاق !.

ومال الحديث فى مناسبة أخرى مع جماعة من اللاهوتيين والمتنافرين إلى الشاعرين القديمين بلوتس[1] وتيرنس[2]

فقال أحدهم : إنه لمن المحزن حقاً أن كثيراً من أعمال هذين الكاتبين قد فقد ، وكان دكتور فاوست ينصت إلى أحاديثهم ، فبدأ الكلام عن كلا الشاعرين ، وتلا خطباً مختلفة أكد أنها كانت توجد ضمن كوميدياتهم الضائعة ، وعرض عليهم إعادة جميع هذه الكوميديات المفقودة إلى العالم ووضعها أمامهم لبعض الوقت حتى يتسنى لهم نسخها إن أرادوا بعثها حية ، ولكن شبح الشيطان كان يهدد أفكار مستمعيه فلم يعضد اقتراحه أحد .

ويحكى أحد اللاهوتيين « لير شيمر » فى مؤلف له ظهر عام ١٥٨٦ : أن فاوست كان جالساً بحانة بتلتنجن يشرب مع جماعة من أصدقائه ، ويحدث من صبى الضيف فعلة لم ترضه فهدده بالتهامه إذا كررها ! ولكن الخادم سخر منه : أنا كلنى ، حقاً ! حينئذ فتح فاوست فكيه والتهم الصبى ! عندئذ احتج الضيف قائلا إنه يريد استرجاع خادمه وإلا أراه شأنه ! فطمأنه فاوست ، ونظر خلف المدفأة ... وهناك كان يرقد الغلام !

وأخيراً ... يروى لير شيمر نهاية الساحر الكريهة : « وصل فاوست إلى قرية وتبرج ذات مساء عابلا مهموماً ، إذ أن ساعته التى حددها له الشيطان حسب عقدهم قد دنت ، ووجد فى الحانة جمعاً من الفلاحين يقصفون ويصخبون . فسأل صاحب النزل أن يهيئ له غرفة منفصلة ... ولكن دون جدوى ! فكلما ازداد مكث الفلاحين تضاعف قصفهم وصخبهم . وكلما رجاهم أن يقللوا من ضجيجهم وأن يحترموا مرضه قليلاً ، تمادوا فيما هم فيه . ومن ثم سلط عليهم فاوست فنه وسحره . ففغر أفواههم وعقد ألسنتهم وافتقدم النطق ! وطفق الفلاحون يلحون ويشيرون إلى حجرة فاوست أن يتوسل الضيف إليه أن يعيد إلى ألسنتهم الكلام ! وعندما أطلق فاوست ألسنة الفلاحين من عقالها ، غادروا المكان . وفى منتصف هذه الليلة سمع صاحب النزل ضوضاء وجلبة فى حجرة فاوست . وفى الصباح وجد فاوست ملتوى الرقبة ، متدلى الرأس من حافة فراشه » .

• • •

ينتهى بنا كتاب لير شيمر إلى عام ١٥٨٦ . وهناك مراجع كثيرة سبقته ، غير ما أوردنا ، ولكنها عديمة القيمة ،

---

(١) بلوتس : شاعر كوميدى لاتينى (٢٥٠ — ١٨٤ ق . م .)

(٢) تيرنس : شاعر كوميدى لاتينى (١٩٢ — ١٠٩ ق . م .)

مسائل في الأدب

للدكتور عبد الله الطيب

ليت قواعد الإنشاء تبيح لنا أن نُدلي بآرائنا مرسلة بدون مراعاة للتمهيد والتبويب ووحدة الموضوع إلى غير ذلك من القواعد التي هي أنسب في باب العلوم الجافة منها في الأدب .

أريد أن أسأل عدة أسئلة . وأحسب أن وضع كل مسألة منها في مقال ذي مقدمة ووسط وذيل — كأنه حشرة — يخرجها عن السؤالية .

ما هي قيمة النقد الأدبي ؟ سؤال ساذج .

النقد مسألة ذوق شخصي ، يضاف إلى ذلك عاملا الثقافة والبيئة . معنى هذا أن الناقد الجيد المطلوب في كل زمان هو الشخص المثقف الذكي المرهف الحس ذو الذوق اللطيف . ولا أحسب المقاييس النقدية التي تسطر فيها الكتب الآن تكسب الإنسان معرفة بعلم اسمه النقد ، كما يكسبك كتاب في الكيمياء علماً بالكيمياء . أليس الناقد الأدبي إذاً طفيلياً على مائدة الأدب كما عده طفيلي على مائدة العلوم ؟

وإذ نحن نتحدث عن النقد الأدبي ، فما هي « التجربة الشعرية » ؟ هل هي تجربة عملية ؟ قد تكون . ولكن لا أحسب النقاد يزعمون أنها عملية دائماً ، بدليل أن شكسبير مثلا ، لم يقتل الملك دنكان الاسكتلندي وقد كتب شعراً جيداً على لسان ما كبث القاتل . وهذا الفرزدق قد ألقى بشاته المذبوحة جميعها إلى الذئب خلماً منه واتقاء لشره . ثم وافى أصحابه من الغد أو بعد أيام بقصيدة نونية[1] رائعة يصف فيها أنه آخى الذئب وآكله وواثقه على خلاف بينهما :

وكلُّ رفيقَيْ كلِّ رحْلٍ وإن هما
تَعاطَى القنا قوماهما أخَوان

وإذا كان مثل هذا يحصل في الشعر ، فيجوز أن ينظم

(١) مطلعها : وأطلس عسال وما كان صاحباً
دعوت بناري موهناً فأتاني

وهي جيدة للغاية . استهلها بقصة الذئب ، ثم أخذ في عتاب حليلته نوار ، ثم جعل يفخر ببني تميم ، واختتم القصيدة بالحديث عن مقتل قتيبة وفتكة وكيع بن أبي سود . وقد استشهد ابن جرير الطبري بالقسم الأخير من هذه القصيدة في تاريخه . ومن عجب أن مؤرخي الأدب لا يختارون من هذه القصيدة إلا أبيات الذئب مع أنها كلها من غرر الشعر العربي .

إلا أنها تأخذ مما جئنا به . وهي جميعاً توضح تزايد الاهتمام بشخصية الساحر ، والحالة التي بها قبلت تدريجياً إدعاءاته المسرفة ، والفقت والشائعات المتداولة .

* * *

ويكاد يكون من الصعب غربلة الحقيقة من الخيال في التقارير التي وردت عن فاوست . ومع ذلك فهذه الروايات المعاصرة أو القريبة من المعاصرة لا تترك مجالا للشك في أن مثل هذا الرجل كان موجوداً ، وتمكننا على الأقل من تكوين بعض الفكرة عن أي نوع من الرجال كان هذا الرجل .

كان فاوست ، كما يلوح ، رجلا موهوباً ذا ثقافة عالية ؟ وقد نجح في اجتذاب أنظار رجال العلم . ومع ذلك فالراجح أنه تعلم السحر جدياً وأصاب فيه شهرة عريضة . ويمكن القول أن نظره كان ثاقباً فيما يختص بأسرار الطبيعة غير المعروفة في أيامه ، وأن أعماله كانت مجرد شعوذة متقنة . وقد تضفي عليه قصص محاضرته عن هوميروس ووعده بيعث أعمال بلوتس وتيرنس صفة الإنسانية ، ككونه مهتماً ومعنياً بإحياء الآداب القديمة في ألمانيا . أما استحضار أرواح أبطال هوميروس ، إن كان يقوم على أساس من الصحة ، فقد يكون قناعاً مدبراً بمهارة ، مع — أو بدون — قصد الخداع .

ومن الواضح أنه كان جوالاً كبيراً رغم أنه لم يكن يستقبل بترحاب أينما حل .

أما موته فكان عنيفاً . ويظن أنه قتل من جراء تجربة كيمائية غير ناجحة .

ادوار منسي

شاعر قصيدة جيدة في الغرام وهو قرحان لا عهد له بوصل ولا بين ، والنقاد يزعمون أن شعر كثير بن عبد الرحمن في الغزل والصبابة لم يصدر عن حب صادق .

فما هي « التجربة الشعرية » إذاً إن لم تكن شيئاً عملياً ؟ أظن أن هذا الاصطلاح — وهو نابٍ في لغة العرب كما هو نابٍ في لغة الإنجليز — ما ساغه إلا « مركب الشعور بالنقص » تجاه العلم ، الذى قد غلب على كثير من أدباء أوربا في القرن الماضي :

وجدوا العلوم تمتاز بالاستقراء والتجربة والتجريب . فأرادوا أن يجعلوا الشعر والنثر تجارب وتجريباً كالعلوم ، مثلهم كمثل بعض السذج الذين أرادوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم ذات أنواط كما للمشركين ذاتُ أنواط . ولكن أولئك وجدوا رادعاً ، وهؤلاء لقوا تشجيعاً وإطراء . وهذا الأصيل أبو كرمي له تطويل وإطناب في أمر « التجربة الشعرية » تخرج منه وكأنك لم تدخل فيه .

إني لأجد الخيال يغني عن التجربة العملية في الشعر إلى حد كبير . لا بل يتخطاه أكبر . وهذا أمر واضح لا يحتاج إلى تدليل . ثم أجد ترتيب الألفاظ في طراز موسيقي حتى بلا استعانة بالخيال والتصوير ، قد يؤثر أحياناً أيما تأثير . ولا أقل هذا أغراف في الذوق . أليست الموسيقا نغما وأصواتا وهي تؤثر ؟ أنستبعد على شاعر مبدع أن يلائم بين ألفاظه وموسيقاه حتى يكون تأثيرهما معاً قوياً جداً ، من دون أن يستعين بالخيال والتصوير ؟ أذكر أني قرأت لبعض الأدباء الإنجليز أنه يجد في موسيقا الشعر من اللذة ما لا يجده في موسيقا موزار وبيتهوفن . وإني لأجد لأبيات الخنساء :

أعينيّ جودا ولا تجمدا ... ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجرىء الجميل ... ألا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العما ... د ساد عشيرته أمردا

أثراً عميقاً في نفسي ؟ وليست إلا ألفاظاً مرصوصة لا خيال فيها ولا تصوير ! كما إني أستحلي وأستملح أبيات النواسي :

دمعة كاللؤلؤ الرط ... ب من الطرف الكحيل
سُفحت في ساعة البـ ... ين على الخد الأسيل
إنما يتضح العشـ ... ق في ساعات الرحيل

وهي « كليشيهات » ليس إلا .

المتكلمون عن « التجربة الشعرية » ينسون أن جميع الناس تمر بهم « تجارب شعرية » . وقل من يخلو من العواطف القوية العنيفة . ولكن الذين يستطيعون صفة هذه العواطف نادرون جداً . وهؤلاء هم الفنانون . ولأمر ما قالت الأوائل إن المعاني ملقاة على قارعة الطريق .

وهذا يدفعني لأن أسأل : أيعدو الشعر الجيد أنه استخدامٌ للغة بحسب مقتضيات الأحوال كما يقول علماء المعاني ؟ لا يسبق إلى وهمك أيها القارىء الكريم أني أريد إلى أن الشعر الجيد ألفاظ ليس إلا . إنما مرادي أن اللغة — على تقدير وجود الملكة الفنية — هي العامل الرئيسي .

الأسلوب الحديث الذى ينظم به إليوت الشاعر ، قائم من أساسه على أن اللغة الإنجليزية قد صوح زهرها كثرة الاستعمال ، فلا سبيل إلى إلباسها زهراً جديداً إلا بتغيير الوضع النحوى واختراع صياغة جديدة تعيد عليها ما ذهب من مائها . وإليوت قد تأثر مذهب الكاتب الإرلندى جيمس جويس ؟ وهذا الأخير قد تطرف وغالى في مسألة الصياغة ، حتى إنه كتب كتاباً ضخماً لا يكاد يفهمه أحد — اللهم إلا من كان له مثل تبحر جويس وعلمه بلغات أوربا وآدابها ، وقريب من مقدرته على نحت الكلمات واشتقاقها ! والشاهد هو أن هذه المدرسة الحديثة تهتم بالصياغة والتجويد كما كان يفعل القدماء — الفرق الوحيد بينها وبين المدرسة القديمة أن تلك تقبل اللغة كما وجدتها وتطالب بالتجويد . وهذه تريغ التجويد ولكن بعد أن يُجْرَى تغيير جوهرى في تراكيب اللغة وألفاظها . ولعل حركة هذه المدرسة أن تنبه الأدباء إلى الاهتمام بتجويد الصياغة حتى يتاح للغة الإنجليزية شاعر فحل يعيد عليها نفس شكسبير ولا يكلف سامعيه وقراءه عناء في الفهم كما يكلفهم إليوت وجويس .

وهذا الكلام يفضي بنا إلى مسألة شائكة . قرأت لبعض الأدباء كلاماً ينعى فيه على الدكتور زكي مبارك رحمه الله إيثاره الجزالة في شعره ، قائلا إن هذه الجزالة تقلل من قيمة عمله الفنية . ولو قد كان تفور هذا الأديب من جزالة زكي مبارك

كنفور الدكتور طه حسين من بعض زخرفة الرافعى رحمه الله ، لكان له وجه ، لأنه يكون على هذا نفوراً من « مودة » قديمة فى التعبير ذهب زمانها . ولكنى أحسبه من قبيل نفور المتوكل من عينية البحترى « منى النفس من أسماء لو تستطيعها » . فقد زعم المتوكل أن قوافى هذه القصيدة تثير القىء . ولا ريب أنه قد كان صادقاً فى التعبير عن ذوقه هو ، إلا أنه كان جائراً فى الحكم على أبى عبادة ، لاسيما وهذه العينية من فرائده .

والجزالة سواء استعملها زكى مبارك أم غيره ليست « عودة » بَلْهَ أن توصف بأنها « مودة قديمة » أو « جديدة » ، إنما هى البِنْيَة التى بُنيت عليها اللغة العربية يوم كانت هى اللغة الحية .

وقد ظلت اللغة العربية تستعمل بين المثقفين عصوراً طويلة — يكتبون بها ويتكلمون غيرها ، شأنها فى ذلك كشأن اللاتينية فى أوربا إبان القرون الوسطى . وطبيعىٌّ أن المثقفين لم يكونوا يجيدون صياغة الأسلوب العربى كما كان يجيده بنو جِلدته . وكثيراً ما كانت تغلب على أساليبهم « مودات » من العُجمة كلها من قبيل الاحتيال على اجتناب الصياغة الجزلة المزرّة ، واستبدالها بشىء آخر أرخص وأسهل متناولا . مثال ذلك أسلوب السجع كما عند الصاحب والقاضى الفاضل والفتح بن خاقان ، وأسلوب البديع كما عند شعراء اليتيمة وكما فى بديعية ابن جابر . وكان يتاح للغة العربية من حين إلى آخر رجالٌ حِراص على سلامتها ، غُيُرٌ على صياغتها الصحيحة ، يتنكبون « المودات » المعاصرة ، ويكتبون بأساليب أصدق صفة لها الجزالة ، مثل المتنبى والرضى والطغرائى ، وأسامة بن منقذ ، ومحمود سامى باشا فى الشعراء ، ومثل التوحيدى والإصفهانى وأبى مروان بن حيان فى الكتّاب .

وأسلوبنا الذى نكتب به وننظم فيه فى عصرنا الحاضر « مودة » من « المودات » المتكلفة ، ليس بجيد الصياغة لأنه ليس بجزل ، وليس بأسلوب طبيعى سهل المأخذ لأنا لا نستعمله فى حياتنا اليومية ، ولا نصطنعه إلا حين نمسك بالأقلام أو نقف مواقف الخطابة الرسمية . لا تقل لى إن لغة الكتابة والخطابة أبداً تختلف عن لغة الكلام اليومى ، فلست فى ذلك من المقتنعين . وإنما أقول إن الشُّقَّة بين كلامنا وكتابتنا تختلفان اختلافاً عظيما يتعذر معه أن نعتبرهما أسلوبين ووجهين من لغة واحدة ، بل يتحتم معه أن نعدّهما لسانين متباينين أيما تباين .

ولا يمكننا بحالٍ من الأحوال أن ندافع عن الصياغة العصرية (وبخاصة فى الشعر) بأنها سلسة أو معبرة أو طبيعية أو جذّابة . وإن دافعنا عنها بمثل ذلك فإنما يكون دفاعنا دفاعاً عن « مودة » عن « عُرْف » عن شىء شكلى ، قد تقبلناه كما تقبل من قبلنا أسلوب القاضى الفاضل وأسلوب الرسائل فى عهد المماليك وأسلوب « سعادتلو أفندم » — أوائل القرن الماضى — قد تقبلناه لنحتال به على اجتناب الجزالة التى ينبغى أن تكون بها صياغة اللغة الفصحى ، ويوشك مثل هذا الدفاع أن يهلك أدبنا ويميت روح الصدق فيه . وفى شعر المهجر ومعظم الشعر المعاصر من أمثلة الركاكة فى العبارة ، والعُجمة فى الصياغة ، والسرقة الفاضحة من شعر الإفرنج ، من غير ما تصرّف ولا ابتكار ، شاهدٌ قوى على ما أقول . ولولا خوف الإطالة لأكثرت من الشواهد والأدلة .

الصياغة اللغوية هى جوهر الأدب ، وقد غفلنا عن جوهريتها زمنا طويلا ، وقد آن لنا أن ننتبه . ولا أرى أمامنا إلا أحد أمرين :

الأمر الأول ، أن نقول إن اللغة الفصحى هى لغة القرآن والتراث القديم ، فيجب علينا أن نتمسك بها . ثم إنها الرابطة القوية التى تجمع بين الأمم العربية ، وهذا سببٌ آخر يدعونا إلى التمسك بها ، فإن قلنا بهذا القول وجب علينا أن نتعلم اللغة الفصحى ونكتب بها كما ينبغى — كما كان يكتب بها بنو جِلدتها — ونضربَ عن استعمال الأساليب العجمية التى علينا إجبريّاً لغتنا المعاصرة . وعلى فرض أننا جميعاً آمنا بسلامة هذا الرأى وعملنا على تحقيقه ، فهل تحقيقه ممكن ؟ لا بل هل يمكن تعميم اللغة العجمية المضطربة الغالبة علينا الآن ، بَلْهَ الجزلة ؟ هبنا أخذنا الناس بما تأخذ به حكومة إرلندة رعاياها من تعلم اللغة الوطنية القديمة ، أترانا نبلغُ شيئاً من أربنا فى جعل اللغة الفصحى هى لغة كل الناس ؟

وهنا لا نجد بدأ من التفكير في الأمر الثاني :

وهو أن نعامل اللغة الفصحى كما يعامل الإفرنج اللغتين اللاتينية واليونانية ، وذلك أن نعدها لغة « كلاسيكية » نطلع من مناقلها على القرآن والحديث والشعر الجاهلي والتراث الإسلامي ، ونستدل بها على أصول اللغة التي نستعملها ونشتق منها ما يناسب حاجتنا — ونقيم اللغة العامية مقامها في الكتابة والخطابة والشعر كما هي قائمة مقامها الآن في حياتنا اليومية .

قد يقال إن اللغات العاميـة تختلف باختلاف الأقطار العربية وفي استعمالها ما يعين على تفكك عرى الوحدة العربية أو يعجل بذلك . وعندي أن أصحاب هذا القول يسيئون الظن بالوحدة العربية . هذا ، وما يرونه شبيه بما يراه بعض مفكري أوربا اليوم ممن يأسفون لحلول اللغات القومية محل اللغة اللاتينية ، وهؤلاء يزعمون أنه لو استمر العلماء والأدباء يكتبون باللاتينية لكانت الثروة الثقافية الغربية مشتركة ، ولكان ذلك قد أغنى عن كثير من الجهد الضائع في الترجمة . ولعمري إنه لو قد استمرت اللغة اللاتينية كما في العصور الوسطى لكانت الثقافة الأوربية أفقر بكثير مما هي عليه الآن ، لأنه يتسق من التعبير في اللسان القومي الطبعي ما لا يتسق في اللسان المكتسب ، على أن التعبير في حد ذاته ليس بالأمر الهين ؛ وفضلا عن ذلك فإن الثقافة كانت تكون مقصورة على الأرستقراط دون غيرهم .

وقد يقال إن استعمال اللغات العامية يوجد مشكلة عظيمة من حيث الكتابة ، إذ نطق الكلام العامي مخالف جداً لنطق الفصيح . ومثل هذا الاعتراض غير قوي ، لأن الحاجة إلى كتابة العامية ستدعو إلى اختراع حروف تناسبها أو إلى تعديل في الحروف العربية يلائم مخارج حروفها ، والحاجة أم الاختراع . على أن الحروف الهجائيـة بحالها الحاضرة صالحة جداً لكتابة العامية ، وهذا قول أقول به عن تجربة طويلة .

وقد يقال إن اللغات العاميـة منحطة رديئة عاجزة عن التعبير الجيـد ، والكلام عن إحلالها محل اللغة الفصحى انحراف في التفكير . وهـذا الاعتراض قوي من حيث إنه تعصب ، ومن حيث إن كثيراً من الذين يكتبون بالفصحى يخشون على أنفسهم الضيعة والخمول وكساد السوق إن صارت وسيلة التعبير هي اللغة العامية . وليس لهذا الاعتراض سند من المنطق ، لا ولا حجة واحدة يقبلها العقل المحايد .

ومن تأمل اللغة العامية وجدها تستعمل بين المطيقين والمثقفين والأميين والرعاع ، ووجد المدرس في الجامعة غير مستغن عنها ، كما لا يستغني عنها السياسي في المجمع ، والقاضي في المحكمة ، وهي ككل لغة حية لها أسلوب راق تستعمله الخاصة ، وآخر غير راق تستعمله العامة ، وكلاهما مفهوم عند جميع الناس .

وأستطيع أن أقول ، واثقاً متأكداً مما أقول ، عن عاميتنا بالسودان (ولا أشك أن المصري يستطيع أن يقول ذلك عن عاميته والسوري كذلك الخ) إنها ليست حية من حيث إنها دائرة في الاستعمال فحسب ، ولكن أيضا من حيث إن لها ذخيرة لغوية واسعة يعرفها سائر الناس ، وتراثاً أدبياً ضخماً . أما من حيث الذخيرة اللغوية فكلماتها توشك أن تشمل ثلثي القاموس بما في ذلك أسماء النبات وصفة الطبيعة ، وتزيد على القاموس بما فيها من كلمات جديدة بعضها مشتق من أصول قديمة ، وبعضها مستعار ليناسب حاجات القرن العشرين . وأما من حيث التراث ففيها مجموعة ضخمة من الأمثال لا يفي كتاب الميداني في طرف منها ، بعضها مستطرف ، وبعضها من أصول عربية تليدة ، وفيها دواوين لا تحصى من الشعر ، أكثر أوزانه تدل على تطور من الشعر القديم ، وأغراضه متعددة أيما تعدد — فيها الغزل والتصوف والهجاء والمدح ، والقصص والغناء .

لا ريب أن الأخذ باللغة العامية أقرب إلى المعقول وأطوع للطبيعة من تكلف الأسلوب الجزل أو الاحتيال على اجتنابه « بالمولدات » . فإلام نستمر نكتب وننظم بلغتنا المعاصرة التي لا هي عربية صحيحة ولا عامية صريحة ؟ أليس الله قد هيأ لنا من اللغة العامية مرعى أنفاً ووسيلة يكثراً لو قد ظفر بمثلها إليوت وجيمس جويس ما كانوا ليتكلفوا ما تكلفوه من البحث عن طريقة معبرة يفهمها القليل ويعيا بها الكثير .

(بخت الرضا) عبد الله الطيب

ديك الجن*

للأستاذ محمد رجب البيومي

من الطبيعي أن يسعى العاشق لراحة حبيبه ، فيبذل ما يستطيعه من جهد لسعادته وبهجته ، كما أن من الغريب الشاذ أن ينقلب العاشق وحشاً ضارياً يلغ في دماء معبوده ، وينشب أظفاره القاتلة في ضحيته الضعيفة دون رحمة وإشفاق ، وقد لا يصدّق هذا كثير من الناس ، ولكن صفحات التاريخ في كل زمان ومكان تقدم لنا مآسي دامية ، يقف أمامها القارىء في ذهول واندهاش ! وقد تعدّدت هذه المحن الأليمة حتى اضطر الباحثون أن يفردوا لها كتباً خاصة ، وأن يطلقوا على أصحابها وصفاً معيناً . وأنت حين تقرأ مؤلفاً عن الشذوذ الإنساني تجد كاتبه يتعرض — غالباً — إلى فظائع « السادية » الجنسية ، نسبة إلى المركيز دي صاد ، وهو عاشق متوحش كانت مغامراته العاطفية تفيض بالقسوة والتعذيب ، حتى جعله الباحثون علماً يجتمع حوله مَن على شاكلته من الأشرار القساة !! وفيهم من يذبح الضحية ذبحاً ، ومَن يقود صغار الفتيات إلى مكان منعزل موحش ، ثم يمثل بهن أبشع تمثيل ، بعد أن يفرغ من شهوته دون هوادة أو اكتراث ، وكأنه يثأر لأبيه من قاتل فتاك !!

ولدينا في الأدب العربي مأساة دامية ، أقدم صاحبها المنكود على ذبح حسناء الجميلة ، وغلامه الأغيد ، في ليلة مظلمة دامسة ، ثم أشعل فيهما النار !! وكان بهما صباً كأعنف ما يكون العاشق الولهان ، مولعاً أشد الولع بجمالها الأخاذ ، ذلكم هو ديك الجن الشاعر العاشق عبد السلام بن رغبان !!

نشأ الشاعر في مطلع العصر العباسي بحمص ، نشأة مترفة ناعمة ، وتذوق الأدب ، وقال الشعر وأولع به حتى صار أديباً مقتدراً ذا موهبة رفيعة .

وكان لا يميل إلى انتجاع الأمراء ، عفاء نفسه رغبة في اليسار والجاه كسائر شعراء عهده ، بل انصرف إلى رغباته ومشاعره ، وأخذ يصف الحدائق الناضرة ، وما يفوح بها من زهور وعطور ، ويستمع القيان في المغاني العالية الأنيقة ، معجباً بلحنهن الرائع ، وغنائهن الخالب الجذاب ، وشاعت له شهرة بالجودة في النظم ، والبراعة في الصياغة ، فأحب الناس مجلسه ، ورزق الحظوة في حمص ودمشق وحماه !! وسارت رقائقه الفاتنة إلى بغداد ، وهي يومئذ جنة الدنيا وزينة الأيام ، فنشت بإعجاب مَن سمعها من الشعراء والأدباء ، دون أن يعلم ديك الجن شيئاً من ذكره الطائر ، وصيته البعيد ، ولقد مر أبو نواس في طريقه إلى مصر بحمص ، فحبس راحلته ، وطفق يبحث عن ديك الجن حتى اهتدى إلى بيته ، وتطارح الشاعران بدائع الغزل ورقائق الوصف ، فقال أبو نواس لصاحبه : لقد فتنت أهل العراق بقولك :

موردة من كف ظبي كأنما
تناولها من خده فأدارها

وسار تكاد الكأس تحرق كفه
من الشمس أم من وجنتيه استعارها

فارتاح ديك الجن لما سمع واحتفى بصاحبه أطيب احتفاء

ولكن الصبابة لا تدع الشاعر هادئ النفس ، عاكفاً على الحدائق والمزاهر ، كما اطردت على دفة حياته ردحاً من الزمان ، بل تقذف به إلى لجة صاخبة موارة من الغرام العنيف ! إذ عشق جارية نصرانية حسناء تدعى (ورد) وبذل ما يستطيع من زلف ومال حتى قبلته الجارية بعد لأي ، فتزوجت به واعتنقت الإسلام ، لترضي نوازعه ومشاربه ، ورجع الزمان بالشاعر إلى سالف صفائه ، وعاد أنسه ، فارتاد الحدائق وأنس بالقيان في القصور ، وأسلمت له شاعريته القياد ، فنظم طرائف بديعة في (ورد) صاحبته ،

(*) الشاعر العباسي أبو محمد عبد السلام بن رغبان

وأخذت تطرب مختالة ضاحكة إذ تسمعه يقول :

لم تبل عينك أبيضاً فى أسود
جمعا الجمال ، كوجهها فى شعرها
وردية الوجنات يختبر اسمها
من تحتها من لا يحيط بخبرها
فتأملت فضحكت من أردافها
عجباً ، ولكن بكت لخصرها
تسقيك كأس مدامة من كفها
وردية ، ومدامة من ثغرها

ولم تسر الأيام فى صفائها مع الشاعر إلى آخر الشوط ، فهو عجوز هرم يزحف إلى القبر على ركبتيه ، وصاحبه يميس فى مقتبل الشباب بارعة رائعة ، وكأن القدر أراد أن يصبغ للأساة المنتظرة بأقسى الألوان ، وأبشع ما تصور العيون ، فأتاح للشاعر أن يشترى غلاماً وسيماً فى ربيع حياته أخذ يحتل جانباً كبيراً من نفسه ، حتى صار مع ورد فى مكان واحد تحبيه ديك الجن ! ! وينظر الغلام فيجد فتاة رائعة الحسن تقاسمه الشباب والصبوة والجمال ، فهام بها وهامت به ، وطويا ضلوعهما المتأججة على صبابة محرقة ، والشاعر يجمع بينهما فى خلواته وأوقات صفائه ، فيجعل الشاب الفاتن عن يمينه ، والزوجة الساحرة عن يساره ، وينظر إليهما معاً نظرات الشوق واللهفة ، وتترنح به النشوة فيميل إلى الزوجة فيلثمها وإلى الغلام فيعانقه ، وهما لا يشاركانه شيئاً مما يجد ، بل تترامق نظراتهما ترامقاً يدفع ديك الجن إلى الريبة والأوهام ، ويخلو المسكين إلى نفسه ، تتصاعد زفراته ، وتتساقط عبراته أسفاً ولوعة ، وهو لا يدرى كيف يختلس صاحبيه ، وقد نزعت بهما عنه نضارة الصبا ، وبهجة الشباب وتيه الجمال ، ثم يفرض عليهما رقابة قاسية عنيفة ، فيتسمع الهمس من وراء ستار ، ويطرق المضاجع الراقدة فى حندس الليل ، ويقضى شهوراً بائسة أليمة تتقاذفه الحيرة والارتباك ، ولا يستطيع دفعاً للغيرة الرعناء ، وقد اشتعلت فى جوانحه ، والتهبت بين حناياه ، ثم يسوقه الحظ الأعثر ذات ليلة إلى مرقد صاحبته فيجد غلامه ، يجاذبها الصبابة والحنين ، فيرجع أدراجه ، ويستل خنجره الغادر ، وينتظر قليلا حتى يسكت اللسان الناطق ، ويهجع الجفن الساهد ، ثم يهوى بخنجره فى ارتعاش إلى الصدرين المتأججين ، فتختنق صرختان فى فمين وتخرج روحان فى حلقومين ، وتطيران إلى السماء دون انتظار ، كأنما كانتا على ميعاد ! ! ويأتى الشيخ الآثم بالنار فيشعلها فى الجثتين الهامدتين ، ويصنع من رمادهما المتخلف قدحين للشراب ، فيثيران الشجون ، واللواعج فى قلب آثم جريح .

ولكن ، هل هدأت نفس الشاعر بعد جريمته الشنعاء ؟؟

إن الحياة تحولت فى عينيه إلى سجن موحش رهيب ، وأخذت نوازع الندم واللهفة تعتصر قلبه اعتصارا ، فإذا امتلأ وطابه بالشجن الرهيب لجأ إلى القريض الناغم ، يرثى فتاته ، ويؤبن فتاه ، وهيهات أن يجد فى قصائده برد العزاء ! !

على أن ديك الجن يعترف فى أبياته الحزينة بجريمته الحمقاء ، ويرى بعض الشفاء فى التصريح بلواعجه المحرقة الرعدة ، فيعلن أنه قد قتل زوجته الحبيبة ، ومدامعه تتساقط على وجناتها الوردية ، وأنه قد وسدها التراب وكان يرتاع إذا سقط على ثوبها قليل من الغبار ! ثم يعزو جريمته الدامية إلى ما اشتعل فى صدره من الغيرة الرعناء ، إذ أبصر غلامه الجميل يرمقها فى شوق واندفاع ، اسمعه يقول :

رويت من دمها الثرى ولطالما	روى الهوى شفتى من شفتيها
حكمت سيفى فى مجال خناقها	ومدامعى تجرى على خديها
ما كان قتليها لأنى لم أكن	أبكى إذا سقط الغبار عليها
لكن ضننت على سواى بحبها	وأنفت من نظر الغلام إليها

ومما زاد فى كارثة الشاعر ازدواج جريمته ، فلم يبق له أحد صاحبيه ليتسلى به عن غيره ، فهو موزع الحسرة بين الراحلين العزيزين ، فإذا نظم بعض عبراته فى ورد ، هاجت نوازعه إلى الغلام ، فطفق يرثيه بأبيات موجعة أليمة . وديك الجن معذور فى التياعه ، فقد قتل ثلاث أنفس لا نفسين ، بل إنه قسا على روحه قسوة أشد وأعنف ، فقد استراح الشهيدان ، وبقيت عقارب الندم تلدغه لدغات أليمة ، وهو يعترف بذلك إذ يقول فى رثائه الغلام :

لو كان يدرى الميت ماذا بعده	بالحى منه بكى له فى قبره
غصص تكاد تفيض منها نفسه	ويكاد يخرج قلبه من صدره
قمر أنا استخرجته من دجنة	لبليتى ، وزففته من خدره
فقتلته ، وله على كرامة	والحزن ينحر مقلتى فى نحره

نقد

فن الأدب

تأليف الأستاذ توفيق الحكيم بك

٢٤٢ صفحة من القطع الكبير — ملتزمة الطبع والنشر مكتبة الآداب في القاهرة ١٩٥٢

للسيدة الأديبة وداد سكاكيني

يخيل إلى من يقرأ هذا العنوان أن صاحب الأديب الحكيم قد خالف عن سجيته ومزاجه ، فاصطنع لكتابه أداة البحث العلمي ومنهاجه المحتوم ، ووضع فيه المقاييس والمقارنات التي ينبغي لمعنيين بالأدب والنقد أن يأخذوا بها ، والملتمسين وجوه الفن والتجديد أن يتتبعوها ويسيروا على نورها وغرارها ، والحقيقة التي تظهر للواقف على محتويات الكتاب هي أنه ليس تغييراً في مجرى صاحبه الذي طبع على الحرية في الموضوع ، والانطلاق في الفكر والخاطر ، شأن الأديب المبدع الذي لا تقيده حدود البحث ولا طريقة الدرس ، وإن جعل العنوان تسمية مدرسية ، فيها تقرير وتحديد .

فكتاب « فن الأدب » استمرار لفن الحكيم في خواطره ومنازعه ، وفي آرائه وأماله ، وإن اتخذ له منافذ محكمة وأبواباً منسجمة يدخل منها القارئ إلى حجرات شتى ، وما كان أجدر الكتاب بأن يسمى « خواطر الحكيم » .

ولئن كان للقدر صلة بالأسماء فإن الحكمة من طبع توفيق الحكيم ، فهو يكتب بفكرته ويترع هواجسه النفسية من عالم آرائه وإحساسه ، ولم يكن أصلاً أديباً منسوباً إلى صناعة الكلام المزوّق ، فهو طراز متفرد في أدبائنا المعاصرين ، تمرّد على أساليب البلاغة ولم يؤخذ بسحر البيان ، وإنما فرض على أدبه الأصيل سحراً آخر هو سحر الفكر والفن ، ولعل لمكانه اليوم في دار الكتب بين المجلدات والمخطوطات أثراً في عنوان كتابه وتصنيفه .

وإذا أنصفنا قلنا إن كتاب « فن الأدب » حديقة غناء متناسقة الأزاهير والألوان ، وما أجملها لمن يراها في حضن الطبيعة ، لا مجموعة باقات مجزوزة في أوعية منضدة مرصوصة ، وليس من الحتم في أية حديقة حتى في حدائق الملوك أن تخلو من الشوك والعوسج ، ومن عصافير شاردة ليست بغريدة تندس بين سوارح الطيور الشادية ، فلقد هاجم الأستاذ توفيق الحكيم الأدب العربي في صميمه ، إذ رماه بالتقاعس عن تفهم القرآن ، واقتباس النور من فنه الأسمى ، ورأى أن هذا الأدب قد قصر همه من القرآن على اللغة فحسب ، إذ وجد فيه النموذج اللغوي ولم يجد النموذج الفني ، كما اتهم هذا الأدب بانصرافه عن الشعب ، فأين غاب عن الأديب

إن الإنسان ليؤذي صاحبه بعض الإيذاء خطأ فيظل يتألم طيلة حياته لشيء غير مقصود ، فما ظنك بمن يقتل عامداً أعز الناس عليه لنيرة طائشة عصفت برشاده بضع لحظات ، ثم أسلمته إلى الهلع المجنون ، وعجلت به إلى القبر كمدا وغما ، دون أن يجد له أواراً ، أو يهدأ لقلبه سعير !! ذلك خطب شنيع .

(وبعد) فهل كان ديك الجن يمت بسبب إلى الصادية المجرمة التي تحدثنا عنها في صدر هذا المقال ؟ ! إن الفرق بعيد جداً بينه وبين هؤلاء الأوغاد ، فهم يذبحون فرائسهم غير آسفين ، دون أن يرتكب الضحايا أقل الذنوب ، بل ليستشعروا بعض ما يتوهمونه من اللذاذة والارتواء . أما ديك الجن فقد سيطرت عليه الغيرة الهوجاء ، فقضت على سعادته قبل أن تقضي على ضحيته ، وأسلمته إلى النحيب والصراخ ، فما رقأت له دمعة حتى فارق الحياة ! ولعل ذراته لا تزال تنتحب في أعماق التراب .

محمد رجب البيومي

الكثير شعر ابن الرومي الذي قاله تصويراً لنواح من حياة الشعب ، وما صنع المعرى في إيقاظ الجمهور ، وصرخاته المدوية في وجوه الطغاة وإن كانت لغة الانتين وأمثالها رفيعة بليغة ، ولو رجع إلى تراثنا من الأدب لاسيما الأموى لتبينت له صور فنية كثيرة مستوحاة من القرآن ، وقد عجبت إذ رأيت الأديب الحكيم يتوهم في مقاله عن « الأدب العربي وتجدده » أن الجاحظ كان يبسط الأسلوب واللغة ، وأنه أول من نزل من أدباء العرب إلى الشعب يستوحيه ويصور حياته ، والحقيقة أن الجاحظ كان بليغ الأسلوب مكين اللغة ومن أئمة البيان ولم ينزل إلى الشعب بركاكة لهجة أولين أداء ، وإنما رفع الشعب إليه ليسيغ أسلوبه ويتذوق أدبه ، ويرى صوره بقلم تجافى عن الزخرف والتكلف ، ولم يجرؤ أحد من معاصري الجاحظ وحاسديه من ذوى الرأى والنقد أن ينال من أسلوبه ولغته .

ولو أن المؤلف الموهوب راعى اختلاف الأحكام والأزمان وما أتيح له هو في استلهام فنه من القرآن بقصة « أهل الكهف » لعذر الأوائل في إحجامهم عن مثل صنعه ، وكان بمقدورهم ذلك لولا التزمت والتحرج .

وقد تكلم الأستاذ الحكيم على كل ما له مساس بالأدب من دين وعلم ، ومن حضارة ومعرفة ، وألم بأدب القصة والمسرح ، والصحافة والإذاعة ، وعرج على أهل التصوير والغناء منذ تفتحت موهبته وبدت تباشير فنه ، فبعث صورهم من مراقدها ، وإن مما يروق ذوى الفن أن يقعوا في كتابه هذا على تبارك لراحة نفوسهم يجدون عندها استجابة النعب حين يأوى إلى روضة وظل ماء ، « حانة والقط الأسود » التي ذكرها المؤلف في كلامه على التشدين تذكرني بمقال له قديم عن حانة في « مونمارتر » كان يألفها ، وحقاً إن الأماكن الليلية في أحياء الفن الباريسي حيث تنبسط الحرية ويشوق اللهو يجد الشرق دنيا لا عهد له بمثلها ، فينطبع الموهوبون من الشرقيين بطوابع فنية تختلف آثارها فيهم ، وقد أتيح للمؤلف أن يندمج في هذه الآفاق التي أدرك عمق الفن فيها ، وقد أوتى الفن الأصيل ، فاستطاع أن يجلوه لنا في صور أخاذة كهذه اللمحات في إنشاد شاعر من الصعاليك سمعه الحكيم وقد كان المنشد يلقى مقطوعة من شعر حافظ الشاعر الفارسي ، ثم تعاقب بعده شعراء أنشدوا قصائد وغنوا أغنيات قديمة ، ورووا نوادر عجيبة ، كل هذا يصفه الأديب الحكيم في سرد قصصي أوفى البراعة في أدائه وتصويره .

وبسحره استطاع أن ينقلنا مع الكثير من قرائه من أجوائنا الشرقية إلى مطاف الغرب وفتونه ، والعجيب أنه في خلال ذلك كان ينزع نزعة شرقية بحتة ، على الرغم من انسيابه في ثقافة الغرب وطرافة الحضارة ، وهذا عائد إلى طبيعته الروحية وإيمانه بالغيبيات ، فهو يقتبس من نفسه وحسه أكثر مما يستمد من علمه وعقله ، ويتجلى مذهبه الروحى هذا في كثير من موضوعات الكتاب ، وما كانت هذه الموضوعات كلها جديدة في فكرتها أو نادرة في صورها وروعتها ، ولكن بينها وفي سطورها يسرى فن الحكيم ، وفي بعض الصفحات أشياء لا يلبث مدرك القيم أن يغض الطرف عنها ليصل إلى الجمال المجاور والروائع المتعاقبة ، فمثل ذلك في غابة يمر بماء آسن ، ثم يقف على شفاف ينبوع ليرتوى .

أما رأى الأديب الحكيم في تسخير الأدب لإيقاظ الرأى والفكر وصقل الذوق والموهبة فغاية مثلى في إظهار مهمة الأديب ، ولم يشأ توفيق الحكيم حين تكلم على الأدب والصحافة أن يغض من الصحافة وينال من بعض أطوارها وآثارها ، فقد عاش في حماها مدة ، ولو أنصف لنقد المساوئ والهموم التي جرتها الصحافة على أدبنا المعاصر .

ومهما يكن فبحر الحكيم في كتابه هذا — شأنه في غيره — ممتلىء باللآلىء .

(القاهرة) رودلف سلاكيني

الزبير باشـــــا

بمناسبة كتاب « الزبير باشا رجل السودان »

لمؤلفه القائمقام الأستاذ سعد الدين الزبير

للأستاذ توفيق أحمد البكرى

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة
كفانى ولم أطلب ، قليل من المال
ولكنما ، أسعى لمجـــد مؤثل
وقد يدرك المجـد المؤثل ، أمثالى

هكذا كان الفريق الزبير باشا — عليه سلام الله — ما سعى سعى لداته وأترابه لمال يجمعه ويحيى به حياة الناعمين المترفين ، ولكنه سعى لمجد عريض مؤثل فأدركه ، وطار صيته فى الآفاق كل مطار ، ولولا إخلاصه ووفاؤه لمصر لأربى فى سعيه للمجد على الغاية ، ولكان لتاريخ السودان وجهة أخرى غير ما هو عليه اليوم .

وقد الزبير صنو عبقرية فريدة فى نوعها ، وتجمعت فى شخصه من أنادر الشيم خلال كن سر تلك العبقرية ، وكن يجهن به إلى أن يسود ويحكم الرجال ويفتح الأمصار ، ويخوض المعارك ، ويعالج مشاكل الحرب والفتوحات بدهاء السياسى ولباقة الدبلوماسى وقدرة القائد ، وحصافة الإدارى السديد النظرات ، ولو كان فى أوربا — كما قيل عنه — « لكان له شأن وأى شأن ، ولترك فى تاريخها أثراً بعيداً » .

انحدر الزبير من أسرة عريقة الأصل كريمة النسب لها فى الداعين قدم صدق ، وكانت له من موروث تلك الأرومة العربية صفات وتقاليد ساعدته على ما وصل إليه فى عصاميته إلى أسمى المراتب وأعلى المناصب ، وما اتصف به من سجايا الشجاعة النادرة والذكاء اللامع ، والخيال الذى حقق به أطيافاً فى المجد حامت بمثله المترامى الخيال ، وامتزجت بنفسه بذلك صفات الحالمين المتأملين ، والعمليين المنفذين ، والواقعيين الذين لا تقف فى سبيلهم العوائق والعقبات ، وقد قدر لتلك الصفات جميعها أن يكون لها فى مقبل أيامه أعظم النتائج والآثار .

كان الزبير عميق الإيمان وثيق الاعتماد على الله ، وكان إذا ضاقت به الحوادث وأغلقت أمامه السبل اعتمد على الله ولجأ إليه ليكشف كربه وينير الطريق أمامه وينقذه من الملمات والأزمات ، وقد مرت به فى حياته فترات حرجة ، كانت أية واحدة منها كافية لأن توردة موارد الحتوف ، وأن تثنيه فى مستقبله عن ركوب الأخطار والمغامرات ، ولكن صفاته التى سردنا وإيمانه بالله الذى نوهنا عنه ، وأحلامه وطموحه جعلته لا يوصد باب مخاطرة إلا فتح بعدها أبواب مخاطرات أخرى . وكان يخرج منها جميعاً نقى الصفحات طاهر الذيل .

وما أذهب بعيداً فى سرد تاريخه العظيم ، ففى هـذا الكتاب الفريد القيم ، وأسلوبه الجميل الممتع ما يجلو للقارىء الكريم بعض ما قام به الزبير باشا من جلائل الأعمال . وحسبى هنا أن أذكر فى إيجاز أن الزبير الشاب خرج من قريته « الجيلى » الواقعة شمال الخرطوم لا يحمل من متاع الدنيا غير عصا فى يد ! وانطلق إلى مجاهل جنوب السودان سعياً وراء المال والتجارة ، ولكنه سرعان ما انصرف إلى وجهته التى وضعتها فيه الأقدار ، لينقلب عما قليل من تاجر يشترى الريش وسن الفيل وما فى جنوب السودان من تجارة ومتاع ، إلى فاتح يجند الجيوش لحسابه ومن جيبه ! وقائد يفتح البقاع ، ومحارب يتصدى لقوم أشاوس ، الحرب طبيعتهم والطعان ديدنهم ! ويجوس خلال ديار بقيت طوال العصور بعيدة من أن تطأها قدم غريب عنها .

ومن أسف أن تاريخ النخاسة فى أفريقيا كتبته أقلام أجنبية لم تتحر البحث الدقيق والحق الصراح . ولم تعلم من تاريخ تلك البقاع النائية وتقاليد ملوكها شيئاً ، ولكنها أخذت بظاهر الأحوال ، ووصمت الزبير باشا حيناً واتهمته بأنه أكبر تجار الرقيق تارة ، وبأنه مالك تجارة الرقيق تارة أخرى ! وفى هذه الصفحات ما يكفى لتفنيد هذه الوصمة ،

وفيها لمن يمعن النظر فى نفسية الزبير وروحه وعقليته ، ولمن يقدر مواقفه النبيلة ، ووفاءه لمصر ولعزتها فى ذلك الوقت ، كفاء من أدلة قاطعة على أنه كان أعظم قدراً وأعلى نفساً من أن ينغمس فى تلك التجارة الآدمية البغيضة التى كانت سائدة ومتمشية مع روح العصر فى ذلك الزمان . فلم يكن شراء الزبير للرقيق غاية فى ذاته للكسب والثراء والبيع والتجارة ، ولكنه اشترى رقيقاً وافتدى خارجين على القانون وضم أسرى حروبه ، ليكون منهم جيشه العرمرم الذى سار به يفتح قرى بحر الغزال قرية قرية ، ويقهر ملوكها ملكاً ملكاً ، ثم ليضمها فى النهاية إلى الأمبراطورية المصرية ويرفع فى ربوعها علم مصر ، أو إن شئت فقل علم دولة وادى النيل . وكان الزبير إن أراد أن يستقل بأمرها ويحكمها لنفسه ، ولكن ولاءه لمصر وإخلاصه لها جعله يقدمها إلى الخديو إسماعيل باشا هدية رمزاً على الإخلاص والولاء . ولم يطلب أجر ما صنع وبذل ، تعويضاً أو مالاً من مصر ، وكان حسبه أن منح رتبة « بك » تقديراً أدبياً له ، وأغلب ظنى أنه كان أول سودانى حظى بتلك الرتبة فى تاريخنا الحديث .

ومضى الزبير من بحر الغزال إلى دارفور فضمها هى الأخرى إلى دولة وادى النيل ، وحقق بعمله ومجهوده وحده ، ما جاء فى الفرمانات الشاهانية خاصاً بلقب عزيز مصر ، بأنه « صاحب النوبة[1] والدارفور وكردفان حتى قبل أن افتتح دارفور . ولم يطلب الزبير شيئاً لنفسه أيضاً كما كان حاله فى ضم بحر الغزال إلى رقعة الأمبراطورية المصرية ، وكان حسبه أيضاً أن يكون تقدير خديو مصر له رتبة الباشوية هذه المرة . وكان فتح دارفور آخر عهده بالفتوحات وتجنيد الجيوش .

كان هذا المجد الذى حصل عليه الزبير تارة بحد الحسام وتارة أخرى بالدبلوماسية والكفاءة الإدارية ، كافياً أن يثير عليه حسد من كانوا يديرون شئون السودان من حكامه الأتراك ، فنشط الدساسون يحوكون حوله الوشايات ويدخلون فى روع أولى الأمر بالقاهرة ، أن الزبير إذا ترك وشأنه فى السودان فقد يستقل به ويفصله عن مصر ويتوج نفسه عليه ملكاً ، وله من شهرته وبعد صيته وجنوده الأقدمين ما يستطيع به تحقيق تلك الأحلام . وقد يحسب الناس أن تلك الفرية لها نصيب من الصحة ، وإلا لما احتجز الزبير فى مصر ، وقد أثبتت الأحداث أن تلك الوشاية بعيدة من الحق ، وأن الزبير حتى بعد أن بقى فى القاهرة شبيها بالمعتقل فيها ، وبعد أن قتل ابنه سليمان بك الزبير ، وبعد أن صودرت أمواله ، وبعد أن نفى إلى جبل طارق ، تمسك بولائه ووفائه لمصر . فلم يغير ما بقلبه من ولاء ما لاقاه من أذى وجحود فى القاهرة ، وقد عرض عليه الإنجليز فى جبل طارق أن « يقبل حكم السودان مستقلا عن حكومة مصر » وكان رد الزبير كما ورد فى مذكراته — وكان اقتراحا غريباً وقحاً ، لم يسعنى إلا أن أرفضه ، فما كان لتاريخ أسرتنا منذ عام ١٨٢١ ، أى منذ أن بدأ اتصال ولائها بأسرة الحكم فى مصر ، بأن يقبل هذه الخيانة أو عرضاً لحكم السودان عن طريق الإنجليز . كان من الواضح أنهم يريدون أن يجعلوا منى أجيراً لمصلحتهم ، فلما اشتد الجدل حول هذا الأمر ، غادرت الاجتماع غاضباً وأبيت أن أخوض فى شئون بلادى مع هؤلاء الإنجليز » .

وفى هذا دليل وأى دليل على ولاء الزبير لمصر وإخلاصه لبلاده ، وأنه كان رجلا صافيا نقى الصفحات ، لم تعرف المطامع إلى قلبه سبيلا ، أو تعرف الأحقاد إلى نفسه مدخلا ، ولو كان غير وفى أو كان حقوداً أو كان صاحب مطامع كما وشوا به عند الخديو لوجد فى هذا العرض وهو أسير بجبل طارق ، فرصة مواتية لشفاء نفسه مما لاقى من نكران وضياع للأموال وجحود لما قدم لبلاده من جليل الأعمال ، وكان موقفه هذا من الإنجليز شبيهاً بموقفه من الفرنسيين حينما عرضوا عليه أن يتوسط بين فرنسا وبين وليه القائد العظيم رابح الزبير ، لعقد اتفاق حتى يكف رابح عن حرب الفرنسيين فى منطقة بحيرة تشاد . وإن فرنسا ستدفع له مقابل ذلك ما يشاء من مال ومطالب . كانت الشدائد والنكبات والعروض تكتنف الزبير وكانت كافية أن تغير ما بنفسه ، ولكنه ظل مخلصاً وفياً زاهداً فى أعراض الحياة ، وفى هذه المواقف ما ينفى ما ألصقه به الواشون من مفتريات .

كانت للزبير صفات عظيمة نادرة ، كان رجل مال يعرف كيف يديره ، وكان رجل قتال وغزوات يعلم كيف يسوق الجيوش ويجمع الأجناد ، وكان إدارياً يدرك كيف يسوس البلاد التى وقعت تحت قبضته ، وكان دبلوماسياً يفهم

(١) زمان ولاية محمد على باشا على السودان أول يوليو ١٨٤١

كيف يحرر المعاهدات ويحاور الملوك والأقطاب . جمع الأموال فبددها كرماً وجوداً ، حتى إن هباته كانت مضرب الأمثال . وصل إلى القمة حيث لم تكن كلها إلى كله ، وانحدر حتى أصبح رهين إشارة الذين اعتقلوه . وأحس مرارة فراق الوطن وفقد الأحباب ، وضياع الأموال ، ولكنه في كل هذا ، فيما مر به من نعيم وبؤس ، ومجد وأفول نجم ، كان ذلك الطود الشامخ لم تتغير نفسيته ولم يفل وفاؤه ولم تتغير سجاياه .

ترى ماذا كان يكتبه المؤرخون عنه ، لو أنه لم يكن سودانياً من أهل وادى النيل ؟ ترى ماذا كان يصفه به الفرنسيون أو البريطانيون لو أنه كان منهم ؟ ماذا كانوا يصفون به فتوحاته فى مجاهل أفريقيا وأحراشها المظلمة ، وماذا كانوا يصفون به مواقفه فى أصقاع البلقان ، أو كيف كانوا يصفون خلاله وما اتصف به من نادر الخلال ؟؟ إنهم كانوا ولا ريب يعظمون قدره ويخلدون ذكره ، ولعدوا غزواته وفتوحاته ضربا من التهاويل والخرافات .

ترى أيكون نصيب الزبير من تقدير بلاده له ما حصل عليه بمجهوده هو من مكانة ورتب وأوسمة ؟ أيكون نصيبه هذه الصفحات تلى وتقرأ سيرة من سير التاريخ ، أم إن مصر ستقدر لهذا البطل العظيم ما أدى إلى وادى النيل من خدمات فتخلد ذكراه ، وتنشر ما طوى من صفحات مجده .

لقد امتدت رقعة الأمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل من البحر المتوسط شمالا إلى البحيرات الجنوبية جنوباً ، وحسب أهل السودان فخراً أن مواطنهم الزبير العظيم قد كان أحد بناة تلك الإمبراطورية ، ضم إليها بحر الغزال وضم إليها دارفور .

وإذا كنا فى الأونة الراهنة ندعو إلى الجلاء والوحدة ، فلى أن أقرر هنا أن فكرة وحدة وادى النيل جاءت دائماً من السودان . نادى بها السودانيون يوم أقبلوا على محمد على باشا الكبير يطالبونه بأن يوحد مصر والسودان ، وكانت دعوتهم تلك بيعة له على الولاء والإخلاص كما بايعه المصريون على ولاية مصر . وإذا كانت تلك الوحدة قد تحققت فى عهد رأس الأسرة العلوية ، فإن الزبير باشا بما ضمه إلى رقعة الأمبراطورية المصرية من مديريتى بحر الغزال ودارفور فكانتا درتين فى تاج مصر ، قد حقق وحدة وادى النيل تحقيقاً عملياً . أليست الوحدة جاءت إذاً من الجنوب ؟؟ عليك سلام الله يا أبا سليمان .

توفيق أحمد البكرى

الثقافة

العـــدد ٧٠٢
٩ من يونيه ١٩٥٢

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

خلف الزجاج

حتام أخفي في حنايا النفس ذاتي !
وأظل أهرب من حياتي ..
وأعيش بين الذكريات
شبحاً يعذبه الحنين ..
ويخاف يفضحه الأنين ..
متطفلاً ... جهم السمات ..

• • •

حتام نحيا هكذا متباعدين ؟؟
ونظل نرقب بعضنا خلف الزجاج !!
فنرى العيون ...
هامت إلى واد سحيق ..!!
وبها بريق ..!!
يحكي كلاماً لا تردده الشفاه
وترى الشفاه ..
وكأنها ترجو الحديث !!
لكنما ذاك الزجاج
يحمي دون الأذن ذياك الحديث .

• • •

ذاك الزجاج ....
من ذا أقامه !!؟؟
ومتى أقيم ..!!؟؟
لم أدر إلا وهو يحجب بيننا ..
ويقوم سداً دوننا ..
ويحول دون سماعنا ما في النفوس
ويؤجج الوجد الحبيس
ويبث أصداء الحديث
فوق الشفاه

• • •

يا للزجاج !!
يا للزجاج ..!!
قد ضقت ذرعاً بالزجاج !!
ووددت لو حطمته .
وتقدمت منه إلى فؤادك
فلمست ما يطويه حسي ..
وسمعت ما يجري بنفسي ..
عما جناه بها بعادك

• • •

لكن .. !! وكيف .. ؟؟
هل أستطيع ...
أن أحطم السد المنيع ؟؟
كلا .. فلست بمستطيع .
أقدم .. فإنك تستطيع .
يا للعذاب .. !!
لكنني أخشى الفشل .
وأخاف فقدان الأمل
فأعـــود أجثم في التراب
يا للعذاب .. !!
هل أستطيع !؟
أم أنها أحـــلام مشلول كسير ..
يهذي .. ويحلم بالمسير
حتى إذا ما جاءه الحق المريع
ألفيته ملقى صريع ...
يبكي على حلم جميل
قد راود الفكر الغرير
يبكي ، ولكن ... لا مجيب !!
غير الدموع
وغير آلام الحقيقــه
ذهبت بأجمل ما يؤمل في دقيقه
عجباً ... وما يجـــدي النحيب ؟!؟

أحمد صبري السعيد

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

العـــدد ٧٠٢ — الاثنين ١٦ من رمضان سنة ١٣٧١ — ٩ من يونيه سنة ١٩٥٢ — السنة الرابعة عشرة

النقد التفسيري للأدب

— ٢ —

للأستاذ عز الدين إسماعيل

[نشرت الثقافة المقال الأول من هـذا البحث الذي يقدمه لقراء الأستاذ عز الدين إسماعيل ، ومحل رأيه في ذلك المقال أن النقد الأدبي كان يتجه في الماضي إلى تقدير العمل الفني من ناحيته الجمالية أو من ناحيته الخلقية ، ولـكن الاتجاه الجديد في النقد يميل إلى ناحية التفسير ، إذ أصبح عمل الناقد أقرب إلى إيصال تجربة الفنان إلى نفس المتذوق . ويرى الـكاتب أنه أولى بنا أن نؤسس نهضتنا النقدية على أسس من الفهم الـكامل والتذوق الصحيح والشرح والتفسير ، وهو لذلك يرى أن هناك علاقة وثيقة بين علم النفس وبين النقد الأدبي]

٣ — وإذا بحثنا من الدوافع التي تحرك الموجودات أو تحرك الناس في شتى نواحي الحياة ، وجدنا الغرائز نصيباً وافراً . ولـكن ترى هل يتحرك الإنسان في جميع حالاته بوعي منه أو دون وعي ؟ حقاً أنه يتحرك تلبية حاجة فيزيائية أو حاجة عقلية ، ولـكن يبدو أن المحركات البشرية الأساسية شيء آخر غير ذلك ، « فقد عرف الشعراء من غير شك أن الحب والـكراهية والخوف هي القوى التي حركت الرجال والنساء ، ولـكن الألفاظ العديدة التي استخدمت في أي لغة من اللغات قد مالت إلى إبهام الحقيقة القائلة بأن هناك — أساسياً — قوة واحدة بسيطة تحرك الإنسانية كلها ... وقد اختار فرويد لتسمية هـذه القوة كلمة الجنس . وهي — كـكل الكلمات — قد مالت إلى أن تأخذ أكثر من معنى واحد ، فتكون محمودة أو مذمومة بخاصة إذا ارتبطت بالسرور أو الألم ، أو ارتبطت بالسلامة أو الخطأ . »(١)

ولـكي نستطيع الإفادة من فرويد في تفسير الأدب فإنه يجدر بنا هنا أن نقف وقفة قصيرة عند تحليله للنفس ، فنتبين العناصر التي تتألف منها ، ونحدد ميدان عمل كل من هذه العناصر .

تتكون النفس البشرية — بحسب فرويد — من الأنا والذات العليا والهي . والأنا(٢) هو الجانب الظاهر من الشخصية ، وهو يتأثر بالعوامل اللاشعورية من ناحية ، وبعالم الواقع من ناحية أخرى . ففي عالم الواقع نجد المجتمع بتقاليده وقوانينه وعلاقاته وأفراده ، ونجد فيه كذلك الأزمنة والأمكنة والأشياء ، ومختلف المؤثرات التي ندركها بحواسنا ونتأثر بها تأثراً يمكننا من استعادتها ومن التأثر بها في خبراتنا التالية . ويتقدم نمو الأنا مع تقـدم نمو الشخص في بيئته المعينة ... وكأنما تتميز الأنا عن الطاقة الحيوية الغريزية بعد اتصال هذه بالواقع . وتتصف الأنا بأنها شعورية ، ويقصد بهذا أن مكوناتها يمكن الشعور بها أو بآثارها . يضاف إلى ذلك أنها عادة منطقية معقولة ، فهي تميل إلى ترتيب النتائج

(١) Butler: Sex, Symbolism and Psychology in Literature, P.14

(٢) أنا (Ego)

على مقدماتها ترتيباً منطقياً ، وهي خلقية كذلك ، إذ أنها تميل عادة إلى أن تكون تصرفاتها في حدود المبادىء الأخلاقية التي يقرها عالم الواقع[1] .

وتتصف الأنا فوق هذا بأنها حلقة الاتصال بين الطاقة الغريزية وبين العالم الخارجي ؛ فالأنا هي التي تتصل بعالم الواقع لتحقيق النزعات الغريزية بالصورة التي تراها خلقية معقولة . وفوق كل هذه الصفات فإن الأنا هي تتصل اتصالا مباشراً بعالم الواقع . ويلاحظ أن الأنا تغفل في ساعات النوم

والخلاصة أن الأنا شعورية ، منطقية ، خلقية ، تتصل مباشرة بعالم الواقع ، وتعمل كحلقة اتصال بين النزعات الغريزية وعالم الواقع ، ثم إنها تغفل في ساعات النوم[2] .

وهـذه الصفات الخاصة بالأنا (أو بالشعور الواعي) سيتضح لنا تماماً — عندما نتقدم في البحث — أنها ليست هي الصفات اللازمة في العملية الإبداعية الفنية ، وأن الأدب (أو الفن بوجه عام) يتم — عادة — في حالات أخرى منافية ، وبالجملة سنرى أن الفن ليس مصدره الأنا أو الوعي — ذلك المنطق الخلق .. الخ — وإنما مصدره شيء آخر .

وقد قال الفيلسوف الألماني هارتمان في (فلسفة الشعور) :

« إن التفكير الشعوري يقتصر على النقد والإنكار والمقابلة والتصحيح والتصنيف والقياس والموازنة والربط واستنتاج العام من الخاص ، وترتيب الحالات الخاصة تبعاً للقاعدة العامة . غير أنه لا يمكن أن يبدع في الإنتاج أو يخلق فيه ، إذ يعتمد الإنسان في ذلك على اللاشعور كل الاعتماد[3]

ونتقدم مع فرويد في تحليله للنفس فنجد العنصر الثاني : الذات العليا[4] . والذات العليا تتكون منذ الطفولة؛ فالطفل يزن الأمور والأشياء ويقدرها بحسب تقدير والده أو من يعيش معه وبتوجيه منه . وقد يكون الطفل معجباً بوالده محباً له لأنه يجمع بين مظهري القوة والعطف ، فيتقمص الطفل شخصية والده تقمصاً يترتب عليه توجيه لسلوك نفسه وتوجيه لسلوك غيره . . . وبعبارة أدق فإن في نفسه جانباً هو عنصر السلطة المتقمصة ، وهو الذي يقوم بعملية الزجر والتوبيخ . . . وهذا العنصر مركب لا شعوري[5] ، وهو لا يفترق عن الضمير المسيحي المألوف ، أو إله سقراط المتغلغل في كل شيء "God-within"[1] .

وتتلخص الصفات الأساسية للأنا العليا في أنها الناقد الخلق الأعلى الذي يشعر الأنا بالخطيئة[2] .

ويتضح من هذا أن الأنا العليا مكلفة بالأنا ورقيبة عليها ، وهي بذلك لا دخل لها في عملية الإبداع الفني ، لأن الأنا — كما رأينا — ليس ميدانها العمل الفني .

وأخيراً يأتي العنصر الثالث : الهي[3] ، فيتكون كل من الأنا والأنا العليا لا يقضي على المنابع الأساسية للدوافع الغريزية ، وإنما تظل هذه حية مندفعة للتعبير عن نفسها ، ولا يمنعها من التعبير عن نفسها إلا الأنا العليا ، وإلى حد ما الأنا . ويرى فرويد أن هذا الجانب يلعب دوراً هاماً في حياة الإنسان ويسميه الهي . ومن خصائصها أنها لاشعورية وأنها لا تتجه وفق المبادىء الخلقية ، وإنما تسير على قاعدة تحقيق اللذة والابتعاد عن الألم ، ثم إنها لا تتقيد بقيود منطقية . ومن مركباتها النزعات الفطرية الوراثية والمكبوتة ، ويقال — بحسب رأي فرويد — إن أهم هذه المركبات هي النزعة الجنسية[4] .

وهنا نستطيع أن نخلص إلى النتيجة التي نريدها . فإذا كان الفن — بحسب رأي هارتمان السابق — هو عمل اللاشعور ، وكان اللاشعور هو خاصية الهي ، وكانت الهي لا تتجه وفق المبادىء الخلقية ولا تتقيد بقيود منطقية ، وكان من مركباتها النزعات الفطرية الوراثية التي أهمها النزعة الجنسية ، فإن الفن — بالتالي — يكون ، في أصله الأصيل ، صدى لتلك النزعة الجنسية (بمفهومها الواسع عند فرويد) وعلينا الآن أن نتبين الخطوط أو الحلقات الموصلة بين الطرفين

٤ — وقد عزز فرويد نظريته بفهمه الخاص لظاهرة الكبت . « وقد نشأ هذا الفهم من دراسته للظاهرة التي تبدو — من وجهة النظر المقولة — لغواً ، في مثل الرغبة اللاواعية عند الابنة في أن تحتل مكان أمها في حب أبيها[5] ، أو الرغبة اللاواعية عند الابن في أن يحب أمه ويحتل مكان أبيه في ذلك[6] . وقد منعت هـذه الرغبات — منذ بداية

(١) ، (٢) عبد العزيز القوصي : أسس علم النفس ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ (القاهرة ١٩٥٠)

(٣) إسحق رمزي : علم النفس الفردي (منشورات جماعة علم النفس التكاملي) ، ص ١٧

(٤) super ; (Super-ego)

(٥) القوصي : أسس علم النفس ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

(١) Basler, Ibid, p. 16

(٢) القوصي : أسس علم النفس ص ٢٧٢

(٣) (Id) It.

(٤) القوصي : أسس علم النفس ص ٢٧٢ .

(٥) وتعرف في التحليل النفسي بعقدة الكترا .

(٦) وتعرف في التحليل النفسي بعقدة أوديب ، (راجع محمد فؤاد جلال : مبادىء التحليل النفسي ط/٢ ص ١٠٦) .

الشارع للدوت — بواسطة أقوى المحرمات الدينية والاجتماعية ، وكان نتيجة ذلك أنه صار ينظر إليها باعتبارها غير طبيعية . . . وقد وجد فرويد أن مثل هـذه الرغبات تتمثل بوضوح فى الأحلام ، فى الوقت الذى لم يتضح له فيه هذا من سلوك مرضاه الواعى اليقظ عندما حال هذا السلوك بألفاظ الكبت . ومن هنا فهم أن الدوافع الطبيعية عندما توصف بأنها خطأ ، فإن من الممكن أن تكبت ، ولكنها لا تمحى ، بل تبقى فى اللاواعى ، حتى إن لم يعـد العقل الواعى يعرفها[1] » . فوظيفة الكبت إذاً هى منع النزعات النفسية من السير فى طريقها الطبيعى . . . وهذا المنع لا يقضى على النزعات النفسـية ، فهى تظل قوة متحفزة للظهور ، ولكنها تبقى مع كل هذا مختبئة فيما يسمى باللاشعور[2] » . وهى تحاول فى كل وقت أن تطفو على السطح وأن تظهر بصورة إيجابية ، ولكن الذات العليا (والأنا فى بعض الأحيان) مادامت متنبهة وواعيـة فإنه لا مجال لطفوها وتحققها . فهى إذاً لا تظهر فى اليقظة وإنما تلتمس الفرصة التى يغفل فيها الأنا والذات العليا وهى فترة النوم ، فتتحقق بصورة ما فى الأحلام ، سواء أكانت أحلام النوم أم أحلام اليقظة . « وفى اللاوعى تتخذ ثياباً رمزية ينظر إليها العقل الواعى على أنها كلام فارغ وهو فى الحقيقة لا يعرف أهميتها[3] » .

فالرغبات المكبوتة إذاً تجد مجالا للظهور فى الأحلام ، وهى تظهر على شكل رموز . « وقد ألقى تحليل المحلل النفسى للأحلام وأحلام اليقظة فيضاً من الضوء على عمل العقل عنـد الفنان . . . فإن العمل الإبداعى عند فنان ما — كما هو الشأن فى حلم اليقظة — هو إلى حد بعيد عملية لا واعية[4] » . على أن القول بأن العمل الإبداعى عملية لا واعية ليس جديداً علينا الآن ، وإنما المهم هو ذلك الربط بين العمل الفنى وبين الأحلام . ونحن إذا كنا نحاول الآن أن نجد الحلقة التى تربط العمل الفنى بالنوازع الجنسية فإن الأحلام هى تلك الحلقة المنشودة . فهناك نوازع جنسـية مكبوتة لسبب أو لآخر ، وهى مكبوتة فى اللاشعور ، فليست تستطيع الظهور إلا فى حالات الغفلة التى تصيب الوعى .

(١) Basler, ibid, p. 15

(٢) القوصى : أسس علم النفس ص ٢٦٧ .

(٣) Basler, ibid, p. 15

(٤) Lyril Burt : How the Mind Works (2nd Edition-London 1945), p. 273.

فتظهر عندئذ ، ويفرغ اللاشعور شحنته فى شكل رموز لا يقبلها العقل الواعى بصدر رحب ، بل ربما اعتبرها لغواً ، وليس ما يتحقق فى الأحلام — فى الواقع — شيئاً آخر يغاير فى طبيعته ما يتحقق فى العمل الفنى . ويؤكد جوته نفسه « أنه كتب أحسن قصصه فى أثناء فترة نوم حالة غريبة يقارنها هو بحالة النائم فى أثناء السير Somnambulist » . وإذا نحن بحثنا عن مثل من الكتاب الأحياء فإن رفسور هوسمان على استعداد لأن يخبرنا عن الطريقة التى كتبت بها أشعاره الخاصة حيث يقول : إنى أعتقد أن إنتاج الشعر عملية فيها من الانتباه أقل مما فيها من الغفلة اللاإرادية[1] » .

وإذا كان الحلم — فى الأغلب الأعم — يشبه حلم اليقظة فى كونه سلسلة من أفكار وصور ليس بينها كبير علاقة[2] . . . فإن العملية الإبداعية كثيراً ما تتخذ فيها الرموز نفس الصفات . فكما يقول ودورث : إن الحالم لا يعمل ، وإنما هو يلعب لملء الفراغ ، وبصوره تأتى — على نطاق واسع — بواسـطة الارتباط الحر مع وجود الرغبات الشخصية الموجهة[3] ، فإن العمل الفنى أيضاً فيه من صفة اللعب هذه قدر كبير .

العمل الفنى تدفع إليه أسباب هى التى تدفع إلى الحلم ، ويحقق من الرغبات المكبوتة فى اللاشعور ما يحققه الحلم ، وهو كذلك يتخذ من الرموز والصور ما ينفس عن هذه الرغبات ، ويخلق بين هـذه الرموز أو الصور علاقات بعيدة وغريبة فى الوقت نفسه — على الأقل بالنسبة للعقل الواعى . « وحيث يعبر العقل الواعى عن فكرة (ا) و (ب) باستخدام حرف العطف ، فإن اللاوعى يجعل منهما صورة واحـدة . . . وحيث يربط العقل الواعى بين شيئين ربطاً سببياً (بما أن ا مرغوب فيه فإن ب مرغوب فيه) فإن اللاوعى يضع ب مكان ا . . . وحيث يدرك العقل الواعى أن الشخص يمكن أن يحصل على ا أو ب لا كليهما ، فإن اللاوعى يجمع بينهما فى مكان واحد[4] . » وهكذا تنقلب كل المعايير المنطقية عند العقل الواعى بحيث يظهر اللاوعى

(١) Burt, ibid, p. 275

(٢) R. S. Woodwarth : Psychology, A Study of Mental Life (8th Edition) p. 565

(٣) Woodwarth, ibid, p. 568

(٤) Basler, ibid, p. 18

بائع البيض

للدكتور أحمد أمين بك

كان عاملا فى شركة السجاير ، يتقاضى كل يوم ثلاثين قرشاً ، وكان معروفاً بين زملائه بالسماحة والجود . فكان إذا ذهب إلى بائع السكازوزة ، تبعه بعض زملائه يشربون على حسابه ، وإذا ضاقت بزميل له ضائقة اقترض منه ، فكان مضرب المثل بين إخوانه . وقد تزوج ورزق أولاداً سعد بهم وسعدوا به . ولكن الزمان الغدّار لم يرحمه . فأصيبت عيناه من غبار الدخان . فذهب إلى الطبيب وعرض عليه عينيه ، فعمل له عملية أودت بهما ، وجعلته كفيفاً ، فطُرد من الشركة ، لأنها لا تأوى إلا الصحيح . ومنحته جنيهات قليلة ضاعت فى شهر أو شهرين . فماذا يصنع لينفق على زوجته وأولاده . فكّر طويلا : هل يفتح دكانا ؟ وأين رأس المال ؟ هل يستجدى ؟ ذلك عار له كل العار ، عار له ولزوجته ولأولاده .

ليس من شىء إلا أن يبيع بيضاً ، فينادى فى الشوارع إذا ابتعد عن حارته ، يقوده أحد أولاده وأحياناً تقوده امرأته . .

ناديناه مرة ، فوجدنا بيضه خيراً من بيض غيره ، وسألته أثناء الحديث عن تاريخه فرواه كما ذكرته ، ثم سألته عن رأس ماله ، فقال : أربعون قرشاً . فأشفقت عليه ، ومنحته خمسين لتضم إلى رأس المال . ومنحه ابنى مرّة ثلاثين . وفى كل مرة يبيعنا بيضاً نؤكله مما بقى من الطعام ، ونطلب أحياناً رغيفاً لولده ، وأحياناً قليلا من الأرز ، ثم ملعقة من بطبيخ الأرز ، وأحياناً قيصاً أو جلباباً له أو لأحد أولاده . وعلى الجملة لا يبيع بيعة إلا ومعها مطلب . وفى كل مرة يغمرنا بالدعاء .

ومرة ذبحنا ديكا رومياً فأقسم أولادى أن لا يأكلوه ، وأن نتصدق به على بائع البيض ، وصمموا على ذلك ، وأن يكتفوا بأكلة عدس ، فوافقت وزاد فى الدعاء لنا . وعُدّ كأنه أحد أفراد عائلتنا . . .

ومرة تعب من المناداة على البيض فطلب من زوجته أن تبيع بدلا منه فأبت لأنها بنت ناس ، فتزوج عليها غيرها ، وكانت امرأة أرملة ذات أولاد . فأصبح فى رقبته زوجتان وأولاده وأولاد زوجته . وكل هؤلاء يعيشون برأس المال الذى ذكرته . فغارت الزوجة الأولى ، ووعدته أنه إذا طلّق الثانية باعت له ، فطلقها ، فكانت تخرج محتقبة ولا تنادى بأعلى صوتها ، إنما تقصد إلى البيوت التى يعرفها زوجها . وأحياناً تقوده إلى البيوت التى اعتادها ، وأكرمنا الزوجة كما أكرمنا الزوج .

وأخيراً جاءتنا هدية بيض ، فأسرفنا فى استخدامه ، وبقيت منها ثلاثون بيضة ، فعرضنا عليه أن يأخذها خوف فسادها ، ثم يرد إلينا مثلها مقسطة بعد أيام فقبل . وأخذها ثم اختفى اختفاء تاماً كأنه فص ملح ذاب .

وأخيراً رأيته يمشى فى شارعنا حتى إذا وصل إلى بيتنا هرول مسرعاً ولم يناد حتى لا نسمعه . . .

قال ابنى : ما رأيك فى بائع البيض هذا ؟ أليس هذا نكراناً للجميل ، وقصر نظر فى الحياة ؟ لقد خسر أكثر مما كسب . قلت : أشبغ رحمتك على الجميع ، مجرم وصالح ، مقرّ بالنعمة وجاحد لها . إن هذا الرجل معذور . فلولا فقره ما فعل فعلته ، ولو كنتُ مكانه — لا قدر الله — لسرت سيرته . وكم من الناس غيره فى غنى وثروة ، وعز وجاه ، وتصنع معهم الجميل ، فينكرونه كأنك أسأت إليهم . وذلك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل ، فكيف الخصية السود ؟

أحمد أمين

وكأن له منطقاً آخر معا كما فى الغالب لمنطق ذلك العقل الواعى . وهذه فى الواقع هى صورة اللعب ! فقد لوحظ وأن النشاط فى حالة اللعب — أيضاً — نشاط حر تلقائى ، وأما فى حالة العمل الجدى فإنا نجده مقيداً توجهه النظم المفروضة من الخارج . وبذلك يكون اللعب نشاطاً تلقائياً حراً تماماً ، ويكون معبراً عن الحالة النفسية الداخلية تعبيراً صادقاً[1] . . . » .

(يتبع) عز الدين إسماعيل

---

(١) القوصى : أسس علم النفس ، ص ١٩٤ .

قصة معركة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

قرأت فيما قرأت منذ حين قصة صغيرة طريفة في موضوعها لأنها تتصل بمعركة الأدب التي تدور حامية في هذه الأيام . فقد كانت قرية من القرى الهادئة تحب الموسيقى وتغرم بسماعها حتى بلغ من حبها لها أن جعلت أرقى وظائفها عضوية الجوقة الموسيقية العامة . وقد أدى هذا الإيثار بطبيعة الحال إلى تنافس أهل القرية على عضوية الجوقة ، لا لأنهم جميعاً يحسنون العزف أو النفخ أو الضرب ، ولكن لأنهم يريدون أن يفوزوا بالصدارة من وراء انتسابهم إلى الجوقة . ولكن هذه الحال أدت بعد قليل إلى موقف عجيب ، لا مثيل له في جوقة موسيقية أخرى . فنحن جميعاً نعرف أن في كل فرقة موسيقية رجلاً يقف أمام زملائه يمسك في يده عصا قصيرة يحركها يميناً وشمالا ، ثم يحركها إلى فوق وإلى تحت ، ويهز رأسه في طرب مع حركات يده ، حتى إذا ما انتهى العزف وقف ينظر إلى الجمهور ويبتسم في ظرف ويتلقى التحية العامة كأنها موجهة إليه . وقد كان مثل هذا الرجل يختار دائماً في الجوقات الموسيقية المعتادة من أفضل الموسيقيين وأعلامهم كعباً في العزف والضرب ومن أبرعهم في تذوق الأنغام وتأليف الألحان ، ولكن الذي حدث في جوقة تلك القرية كان أمراً فذاً عجيباً .

تزاحم أهل القرية شيوخاً وشباناً على الدخول في الجوقة ، ولما كان لكل فرد من أهل القرية سند من أصحاب الحل والعقد ، فإنهم كانوا جميعاً يقبلون في الجوقة حتى لا تثار الحزازات بين الأعيان وأصحاب الحل والعقد .

ولكن الشيء الذي لا يمكن للبشر أن يتدخلوا فيه هو أن بعض الناس يحسنون العزف وبعضهم لا يحسنون شيئاً ، ولا يقصدون من دخول الجوقة إلا ما فيها من شرف وفائدة ، فكانت النتيجة الطبيعية أن الكثرة الكبرى من أعضاء الجوقة لم يرضوا بأن يكونوا من العازفين ولا النافخين ولا الضاربين ، بل كانوا يحرصون على أن يمسك كل منهم في يده عصا قصيرة يلوح بها إلى العازفين يميناً وشمالا وإلى فوق وإلى تحت ، حتى إذا ما انتهت الأغنية وقفوا ليتلقوا تحية الجمهور المتحمس .

ولما تمادى أهل القرية في ذلك الاتجاه أصبحت جوقتهم أعجب جوقة في العالم . كانت تحتوى على بضعة عازفين لا يزيدون على أصابع اليد ، على حين كان حملة العصى لا يكادون يحصون عدداً . كانوا يقفون صفوفاً بعضها وراء بعض يتزاحمون ويتدافعون بعضهم من شيوخ شيب وبعضهم من شبان مرد ، ولم تخل صفوفهم من النساء بين حسان وغير حسان وعجائز وعوانس .

ولكن الطبيعة البشرية تأبى إلا أن تثور بين حين وآخر ، ولهذا قيل إن العازفين القلائل أحسوا بعد قليل أنهم قد أرهقوا من كثرة أصحاب العصى ، وغاظهم ما يرونه من تزاحمهم وتدافعهم ، ووجدوا أنهم جميعاً يدعون ما ليس لهم وأنهم لو كانوا يستطيعون العزف أو النفخ أو القرع لما رضوا أن يقفوا هكذا يسخرون من أنفسهم بالحركات التي تشبه حركات (البهلوان) . فبدأوا يملون ويغضبون ، وقاموا ذات يوم إلى حملة العصى يريدون أن يأخذوا دورهم في التلويح والتوجيه ، ولكنهم لم يجدوا الأمر سهلا كما كانوا يحسبون . فماذا يصنع أصحاب العصى إذا هم نزلوا إلى النفخ والعزف ؟ إنهم بلا شك يفضحون أنفسهم ويجهدون أنفاسهم في غير جدوى . فقاوموا وجالدوا حتى صار الأمر إلى معركة استخدمت فيها عصى الإشارة والتلويح في القتال والتجريح وكان منظراً دموياً لا يتناسب مع جمال الفن ولا حلاوة الألحان .

وهذه القصة تعيد إلى ذهني معركة الأدب التي تدور في هذين اليومين على متون الصحف الكبرى والصغرى ، سواء اليومية منها والأسبوعية . فإن الأدباء المتجنين في هذه البلاد يشبهون القلة المسكينة من أعضاء هذه الجوقة . فهم عدد ضئيل وقلوب مكدودة تعاني ما يشبه النفخ والقرع والعزف ، حتى تخور قواها وتتقطع أنفاسها ، ولكنها تترك تحية الجمهور تنطلق إلى الناطقين الذين يتظاهرون بالتوجيه والتلويح ، ويشبهون حملة العصي في جوقة القرية ، وهم كثيرو العدد يقفون صفوفاً بعضها وراء بعض من كل سن وكل جنس وكل زي .

وقد انتهى أمر الأدباء في مصر إلى معركة تشبه المعركة التي قامت بين أعضاء الجوقة في القرية . وها هي ذي رحاها تدور حامية تستخدم فيها العصي ، ويوشك أن تسيل فيها الدماء . وإنه لما يؤسف له أن تدور بين الأدباء معركة مثل هذه ، لأنهم قوم كانوا منذ خلقهم الله لا يعرفون الدماء ولا يحبون العنف ولا القتال . حقاً كانت لهم معارك معروفة وميادين حروب مذكورة مدونة على صفحات التاريخ ، ولكنها كانت دائماً لا تزيد على كلمات وصيحات تشبه ما اعتدنا أن نراه في أحيائنا البلدية عندما يقف اثنان أحدهما تجاه الآخر ، وكل منهما يكيل الألفاظ العنيفة لصاحبه بغير أن يمد أحدهما يداً إلى خصمه . فهما يقفان هكذا ساعة طويلة مثل قطين أسودين يتصايحان في بعض ليالي الربيع . هذه هي المعارك التي عرفها الأدب قديماً وما زال يعرفها ، وما ينبغي أن تزيد معارك الأدب على هذا .

وإنه لمن نعم الله على الأدباء أن ألفاظهم التي يتشاءمون بها تبقى على الزمن ، وأن معاركهم التي يتقاتلون فيها بالألفاظ تعيش مدة طويلة بعد أن تندثر معالم ميادينها .

وصور المعارك الأدبية أبقى على الأيام من حقائق المعارك الدموية ، فإن رمسيس قد ذهب كل مجده ولم يبق من معاركه إلا الصور الخالدة التي نقشها شاعره بنطاؤور ، وقد هلك هرم بن سنان ، وبقيت مدائح زهير ، واندثرت معالم دولة حمدان على حين بقيت قصائد المتنبي . ومن عجيب أمر الأدب والأدباء أنهم لا يعرفون الحدود ولا القيود ، ولا يخضعون لعدالة ولا لمنطق ، بل هم يزعمون أن أعذب الكلام أكذبه ، بل إنهم يحلون السحر ويتغنون بالشتائم ومساوئ الأخلاق ، من خمر ونساء وغير ذلك مما هو معروف مشهور .

وقد بدا لي أن أستفيد بالرخصة التي تباح للأدباء ، ورأيت أن أضرب في هذه المعركة الثائرة بين الأدباء مستظلاً بحماية الحرية الأدبية المطلقة ، فأقول ما أشاء كما أشاء بغير أن أتقيد بمنطق أو ألتزم حداً أو أتقيد بقيد .

فأنا أتجه إلى الأدباء المتجنين القلائل في هذه البلاد وأحرضهم على الثورة . ثم أحرضهم على الثورة الأدبية لا الدموية ، فإن الأدب لا يحب الدماء . أقول لهم إنهم مثل النافخين في هذه الجوقة الموسيقية ، وإنهم قد طالما أجهدوا أنفسهم وأضروا بصحتهم في سبيل الفن وترقيته .

وهم مع ذلك عدد قليل ضئيل لا يبلغ صوت عزفهم إلى آذان الجمهور لأن الصفوف المتراصة من حملة العصي تحول بينهم وبين آذان ذلك الجمهور . حملة العصي يصيحون ويتدافعون ويتشاءمون ولا يسمحون للأنغام العذبة أن تصل إلى أحد ، ثم هم بعد ذلك يقفون لتلقي تحية الجمهور كأنهم هم الذين يطربونهم بالألحان . ولم يقنعوا بكل هذا فأخذوا يقولون للجمهور المسكين إن هؤلاء العازفين لا يحسنون أن يأتوا بلحن يستحق التقدير .

فلا مفر لهؤلاء الأدباء الساكتين المكدودين من أن يهجموا على صفوف حملة العصي فينزعوا العصي من أيديهم ، ثم ليدفعوا بهم إلى مقاعد العزف والقرع ليأخذوا نصيبهم من الكد والأذى .

فإذا تكاثر عليهم حملة العصي وأرادوا أن يجعلوها معركة دموية فلا حاجة بالأدباء الساكتين أن يخرجوا عن سنة الأدب مهما كان الدافع إليها . فإن معارك الأدب لا تزيد على كلام . وعند ذلك لا يكون لهم مفر من اتباع وسيلة أخرى في الدفاع عن أنفسهم ، بغير أن يهبطوا في قتالهم إلى مستوى معارك الدهماء ممن يسيلون الدماء . وهذه الوسيلة الأخرى أهون الأشياء عليهم لا تكلفهم مشقة ولا تكبدهم خسارة .

فعلى الأدباء الذين ينفخون ويعزفون أن يعد كل منهم لنفسه عصا تشبه عصا أصحاب التلويح والتوجيه . فإذا

خفقة ...

أهواك لو كان الفؤاد خليا
لهتفت باسمك بكرة وعشيا
أهواك مل، مشاعري .. لكنني
أدع الكلام يموت في شفتيا
وأود لو يصفو الزمان ويتجلى
لأرى في وادي الضلوع خبيا
عمراء أسعى في مناكبها كما
لو كان همي أن أظل شقيا
مالي وللصخر الجديب .. أريده
روضاً يضوع عبيره قدسيا؟
يا هذه الأيام حكمك جائر
ماذا عليك إذا نظرت إليا!

●●●

وأخذت أضرب في الحياة فلم أجد
إنساً ألوذ به ولا جنيا
سأمان آخذها على علاتها
ما دام حظي لا يزال عصيا
ظمآن يخنقني الهجير .. وأنني
لا أستطيع مع التطلع مضيا
قدر يحركني .. إلى أهدافه
وأنا أطيع .. ولا جناح عليا!
ماذا يؤمل شاعر في عالم
يدع الأريب ويرفع الأميا؟

ولقد ألام فلا أحرك ساكناً
هل من عيوبي أن أكون حييا؟
لما لمحتك قلت: يا أنشودتي
عاد الربيع .. فهل نطير سويا
لا ترهقيني بالشكوك .. فإنني
عاهدت نفسي أن أعيش نقيا
والطائر الغريد يحتمل الظما
ويظل للعهد القديم وفيا

●●●

وطفقت أبحث عنك حتى عقني
جلدي وكان — كما عهدت — قويا
أرنو إلى الماضي البعيد محاذراً
أخشى انبثاق الدمع من عينيا
صور من الحرمان ذقت طعومها
ما كان أكثر ما لقيت فتيا!
يا أيها الخفاق بين جوانحي
أولا تحس لما تركت دويا؟
سر كيف شئت .. فإنها أمنية
أن تستعيد شبابك الذهبيا!
ولعلها — في ذاتها — حورية
جاءت تعيد إلى الصواب غويا!

●●●

ولقد ذكرتك والظلام مخيم
فرأيت وجهاً كالصباح وضيا
ورأيت أضلاعي تمود طروبة
مثل الغريب مضى .. وآب رضيا
ورأيت قلبي بعد أن طال السرى
يصبو إلى همس الربيع خفيا
ويكاد يقفز بين أضلاعي كما
قد كان يفعل حين كان صبيا
. . . .
. . . .
واحسرتاه إذ صحوت فلم أجد
إلا حطام الكأس بين يديا!

علي بيرم

ما أحسوا التعب من النفخ والقرع قاموا إلى صفوف أصحاب العصي فوق المنصة العالية وأخذوا يلوحون بعصيهم إلى اليمين وإلى الشمال وإلى تحت وإلى فوق إلى آخر ما يجب عليهم أن يصنعوه.

وبهذا تتم الملهاة سخرية وتصير الجوقة كلها من حملة العصي الذين يلوحون ويوجهون، ولا يبقى أحد يعزف ولا يقرع ولا ينفخ في مزمار، ولكنها على كل حال تكون سخافة ممتعة تتحدث بها الأجيال إلى آخر العصور.

محمد فريد أبو حديد

عقيدة تناسخ الأرواح

للأستاذ عبد العزيز محمد الزكى

لعل أفزع فاجعة صادفت الإنسان الأول فى حياته هى فاجعة الموت : فإن ما يكتنفها من أسرار وغموض أثار كوامن النفس الإنسانية ، وحفزها على البحث عن تفسيرات تخفف من هول وقع المنية على الإنسان ، وتخلصه من حيرته على مصيره المجهول . إنه يفقد من حين لآخر عزيزاً عليه يذهب حيث لا يعلم بدون عودة ، ويشق عليه أن يموت ولا يدرى إلى أين يذهب ومتى يعود . ولكن لابد من حل لمشكلة الموت يسكن من روعة النفس ويحد من شدة قلقها ، ويمكن فى الوقت ذاته أن يستسيغه العقل ويرتاح إليه . فكان من أولى الحلول التى وصل إليها الإنسان فى تبرير الموت هى فكرة التناسخ التى توحى بما كان يجيش فى نفس الإنسان منذ القدم بأن الموت لا يفنيه وأنه باق ويعود بعد الموت إلى حياة جديدة ، وتصور لنا كيف لجأ الإنسان إلى خياله الساذج فأوهمه بأن الروح تعود بعد الموت متقمصة فى أبدان البشر أو فى أجسام الطيور والحيوانات والحشرات والأسماك أو فى سيقان الأشجار وعيدان النباتات .

ولقد تفاوت حظ الشعوب القديمة فى تصوير التناسخ بتفاوت الحضارات والثقافات . فآمنت بعض الشعوب البدائية أن روح المتوفى تتقمص بدن فقيده عند ولادته ، بينما تتقمص أرواح النبلاء وسادة القوم أجسام حيوانات قوية مقدسة كالثعبان ، وتتقمص أرواح الطهرة الأبرار أجسام الطيور الجميلة المغردة . أما أرواح الأشرار والصعاليك فلا تتقمص إلا أجسام الحيوانات الخبيثة والحشرات الوضيعة والزواحف الحقيرة . وتبدو عقائد الشعوب البدائية فى تناسخ الأرواح ساذجة غير ناضجة ينقصها الكثير من الجمال الخلاق الذى يمتاز به التناسخ الهندى ، أو التناسق الفكرى الذى يتسم به التناسخ اليونانى ، إلا أنها تعبر عن بعض المظاهر الاجتماعية الخاصة بهذه الشعوب البدائية ؛ فإن إحساس البدائى بحاجة الأسرة الماسة إلى رعاية الأب دفعه إلى الإيمان بعودة الآباء والأجداد فى أبدان الأبناء والأحفاد الذين يقدرون أن يقوموا بما كان يؤديه الآباء والأجداد ، فلا يحس أفراد الأسرة بفقد العائل مما يساعد على صيانة كيانها . وإن إحساس البدائى بحاجة القبيلة إلى حماية زعيمها يدعوه إلى الاعتقاد بعودة الزعماء فى أجسام حيوانات قوية مرهوبة تقدر أن تقوم بما كان يقوم به الزعماء من حماية القبيلة والذود عنها . وبذلك تبين لنا عقيدة تناسخ الأرواح عند الشعوب البدائية كيف تخفف من مصائب الموت على الأسرة ، وكيف تشيع فى النفوس الأمن والاطمئنان ، وكيف تعمل على تماسك رابطة الأسرة ، وتحافظ على كيان المجتمع القبلى واستقراره ، فهى تقيه من أخطار الموت وتبعث فيه الثقة فى الحياة .

أما عن التناسخ الهندى فلم يقف عند سذاجة التناسخ البدائى وبساطته وإن كان يظن أنه أساسه واستمد أصوله منه ، إذ أضاف عليه مسحة خلقية جميلة فاضت بها نفوس الهندوس الروحية عندما تكاملت ثقافتهم الدينية . إن كتاب الفيدا وهو الكتاب الأول المقدس للهندوس لم يشر من بعيد أو قريب إلى التناسخ ولم يذكر عنه شيئاً على الإطلاق ، بينما كتابا اليوبانيشاد والبرهاناس وهما كتابان دينيان يفلسفان الديانة الهندوسية ، يتكلمان عن التناسخ على أنه أمر مسلم به لا يحتاج إلى برهان ، وحقيقة بديهية لا داعى لمناقشتها ، مما ينم عن إيمان الهنود العميق بالتناسخ . ومما يؤيد هذا الزعم اتخاذ جاين وبوذا حقيقة التناسخ دعامة أساسية لتوطيد تعاليمهما المناهضة للشعائر الفيدية والتعاليم الهندوسية . وهكذا آمن الشعب الهندى على اختلاف طوائفه فى شتى عصوره بالتناسخ ، ولم يخرج عن هذا الإجماع إلا مدارس مادية لم ينتم إليها سوى أفراد قلائل ، ولم يكن لها أثر يذكر على المجتمع الهندى ، وأهم هذه المدارس المادية مدرسة كارفاكا ، وهى تزعم أن الروح تفنى بالموت ولن توجد حياة أخرى ، ولذلك يجب

أن نحصر غايتنا في طلب اللذة الحسية والمتعة الوقتية . ولكن لم يكتب لهذه الأفكار العمر الطويل ، وسريعا ما انقرضت وامحت من المجتمع الهندى لأنها تعارض أسس اتجاهاته الروحية .

وللهنود ثلاثة تعاليم رئيسية في التناسخ تختلف باختلاف فهمها لحقيقة الله أو حقيقة الروح . فالهندوس الذين يؤمنون ببراهما على أنه الروح الكبرى أو الله ، ويؤمنون بالروح الفردية على أنها إحدى مظاهر الروح الكبرى في الكون ، يرون أن روح الفرد تنتقل من جسد إلى جسد بفعل الله في سلسلة متتالية من الولادات ، وأن ما يحدد نوع الجسد هي كارما الإنسان أي حسب سلوكه في الحياة الأرضية السابقة ومدى معرفته بالحقيقة المطلقة ، فإذا كان الفرد صالحاً تقياً يقوم بالشعائر الفيدية ، ويؤدى الطقوس الهندوسية ، ويقدم القرابين ، ويمنح رجال الدين العطايا ، ويتمسك بالفضائل من طهر وعفة وتسامح وكرم وضبط نفس وتعاون ، ويتجنب المعاصي من سرقة وقتل وإيذاء ، ثم أدرك أن هناك وجوداً شاملا يضمه براهما ويحل فيه ، وآمن بأنه ليس في الكون شيء منفرد بذاته وأن ما يبدو فيه من تعدد ما هو إلا مظهر متعدد لشيء واحد هو براهما ، وأن الشمس والقمر والماء والأرض كلها مظاهر متنوعة لحقيقة واحدة خالدة يتجلى فيها براهما ، فإن روح هذا الإنسان تتقمص في ولادتها التالية جسداً أرقى إنسانية وأسعد حالا من الجسد السابق . وإذا استمر في حيواته التالية في اتباع تعاليم الدين وفعل الخير وتجنب الشر وأدرك حقيقة اتحاد الكون ببراهما ، فإنه يعمل على التخلص من سلسلة الولادات المتعاقبة التي تعرض عليه متاعب الحياة وآلامها ، ويأخذ في الارتقاء في سلم الوجود حتى تفنى روحه في براهما ويشعر بأن روحه وبراهما شيء واحد ، وأنها متغلغلة في الوجود تتمتع بسعادة تامة وتحظى بسرور سرمدى . أما إذا اتبع الإنسان السلوك الرذيل وامتنع عن أداء العبادات الدينية وارتكب الآثام ، أو جهل حقيقة وحدة الوجود ، وميز بين الله والروح والكون ، فإن روحه تولد في بدن أحط إنسانية من بدنه السابق تقاسي فيه ألواناً متضاربة من الآلام والأحزان ، وإن داوم في حيواته التالية على إهمال الدين ، وتجاهل الفضائل ، وإغفال حقيقة اتحاد الوجود ببراهما ، فقد تتقمص روحه جسم حيوان أو نبات حسب عظم جرائره . أما إذا تمادى في اقتراف الذنوب ، وتمسك بإنكار الحقيقة المطلقة ، فقد يعرض روحه للزوال والتلاشي من الوجود . فارتكاب الخطايا هو الذي يلصقنا بالأرض ، ويسبب عودة الروح إلى تلك الحياة البغيضة المليئة بالمصاعب والمتاعب ، ولا ينقذنا من قسوتها سوى ارتسام خطى الدين وفعل الخير وإدراك حقيقة اندماج الكون في براهما ، وذلك عن طريق سيطرة النفس على الأهواء والشهوات ، وتحريرها من إغراء الرغبات وإغواء اللذات .

وآمن جان كثيرة من الهنود بالتناسخ ولم يقدم على رفضه كما رفض الشعائر الفيدية والتعاليم الهندوسية . لقد حرم تقديم القرابين وأنكر وجود براهما أو الله ، ولكنه سلم بأن هناك أرواحا فردية متعددة يندس في ثناياها أضراب من الكارما تختلف مفعولها باختلاف سلوك الأفراد ، وهي عبارة عن قوى مادية تنجس طهارة الروح وتسبب ولادتها من جديد ، وتجلب لها الآلام ، ويبدو طغيان الكارما على الروح عندما يتغمس الفرد في ملاذ الحياة المادية ، ويلبي نداء الشهوة ، ويخضع لسلطان الحواس والانفعالات ، فإن سادت الكارما على الروح ضعف الأمل في تخليصها من سجن الجسد ، بل يتأكد عودتها إليه بعد كل موت ، إذ لا سبيل لإيقاف سيل ولادات الروح المتجددة إلا بالقضاء على الكارما قضاء تاما ، أي بالقضاء على الرغبات والانفعالات والحواس ، وبالتمسك بالفضائل وفعل الخير والابتعاد عن الشر ، وبالتحلي بالزهد الصارم والمجاهدة المضنية والرياضة القاسية من أجل إهلاك الإحساس والشعور وإماتة العواطف والشهوات وبذلك تضعف قوة مفعول الكارما تدريجيا حتى تبلى وتفقد سطوتها وتتحرر الروح من قيودها المادية وتصبح نقية صافية خالية من شوائب المادة والحس . وعندئذ لا يوجد ما يدعوها لتعود إلى العالم الأرضي ، وتنجو من دائرة الولادات المتعاقبة وتصعد إلى العالم العلوى وتصل إلى مرتبة « العالم بكل شيء » الذي تتسع معرفته لكل ما يوجد في الكون من كائنات ، ويحيط فهمه بكل ما يدور في الصدور من أحداث وظواهر وحركات ، ولا تغيب عن إدراكه صغيرة أو كبيرة وينعم بسعادة مطلقة لا أثر فيها للحزن أو الألم .

والمذهب الهندى الثالث في التناسخ هو مذهب بوذا

الذي لم يكتف بالإيمان بعقيدة التناسخ، وإنما اتخذ منها سنداً يوضح به تعاليمه، إذ وجد فيها ما يغنيه عن الاعتراف بوجود الله أو تقرير حقيقة الروح. فإذا أنكر جاين وجود الله فإن بوذا لم يحاول أن يؤكد هذا الوجود أو ينفيه لأنه لا يعرف عنه شيئاً، ويبعد عن محيط خبراته وتجاربه. وكذلك لم يحاول أن يقرر حقيقة مجردة للروح أو ينكرها، لأنه لا يرى في الإنسان إلا حواس وعواطف وشعوراً وأفكاراً وأمثالاً، ولا يدرى عن كنه الروح شيئاً. ولكنه وجد في الوقت نفسه في عقيدة التناسخ ما يكفيه لتفسير تعاليمه الروحية دون أن يتورط في ذكر حقائق مجردة مثل الله والروح تغيب عن إدراكه، فرأى أن الكارما وهي مجموعة أفعال الإنسان هي التي تنتقل من جسد إلى جسد لا الروح، وأن نوع أفعال الإنسان أي الكارما هي التي تحدد نوع حياته الجديدة تحديداً طبيعياً بدون تدخل قوى غريبة سماوية كانت أو أرضية. فإن كانت الكارما صالحة تولد مرة ثانية في حالة أرقى عما كانت عليه قبل ذلك، ويعيش الفرد حياة أسعد، وتقل عدد ولاداته المستقبلة، ويقرب من النرفانا حيث السعادة القصوى. أما إذا كانت الكارما طالحة فإنها تتقمص جسداً أحط من جسدها السابق يبدو الفرد بحياة تعيسة وتزيد عدد ولاداته المقبلة ويبعده عن النرفانا. ولا يمكن لأحد أن يصير صالحاً ويفلت من دولاب الحياة والموت الدائر، أو يقف سيل تدفقهما المستمر ويصل إلى السعادة القصوى، إلا إذا أدرك الحقيقة المطلقة وآمن بها إيماناً راسخاً قوياً وأخلص في تحقيقها إخلاصاً صادقاً. وتقوم هذه الحقيقة على أن الألم أساس الحياة، وأن العذاب يشملها من كل جانب ويغمرها الشقاء من جميع الجهات، إذ يصاب المرء فيها بمختلف الأمراض المرهقة، ولا يتمتع إلا بلذات وقتية لا تدوم يعقبها حسرات مريرة تشيع القلق والريبة، ويتوعده العجز الشيخوخة الذي يقعده عن أي عمل ويحوجه للغير ويعرضه للمخاوف والأشجان، وتهدده المنية وأهوالها في كل خطوة فتثير فيه الفزع الدائم. وكل هذه المصائب وغيرها من متاعب الحياة تسبب للإنسان آلاماً قاسية توقعه فريسة الاضطراب والشك، وتدب فيه الخوف وتملأه بالحزن. ومما يزيد من لهيب هذه الآلام تعلق الإنسان الشديد بالحياة، وشغفه الزائد بملذاتها الفانية الزائلة، وجهله المطبق بأن الألم أساس الحياة، وغفلته عن أن الانغماس في ملذاتها لن يجلب إلا الشقاء، ويجدد ظهور الكارما على وجه الأرض لتعاني آلام الحياة ومنغصاتها، وإن السبيل الوحيد للنجاة من هذه الآلام هو قطع كل رابطة تربطنا بالأرض والتحرر من أسر مغريات الحياة المشتهاة باتباع النهج القويم الذي يتطلب من الفرد أن يتمثل بالفضائل، ويفعل ما يفيد وينفع، ولا يؤذي أحداً لا بالقول ولا بالعمل، حتى يصل إلى نوع من الطهارة الخلقية يهيئ الذهن لضرب من الصفاء العقلي، لا يرد عليه خواطر خبيثة أو أفكار شريرة، ولا تعوقه مشاعر منحطة، ويتأمل تأملا هادئاً خالياً من الشك والريبة ولا يفسده الخوف والحزن ولا يشغله الألم، فيدرك الحكمة الخالدة ويعرف أن الألم أساس الحياة وأن السبيل الوحيد للخلاص هو قطع كل رابطة تربط الإنسان بالأرض، وبتحقيق الطهارة الخلقية والنقاء الفكري تخرج أفعال الفرد من نطاق الخير والشر ومن مجال الفضائل والرذائل، ويبتعد عن كل ما يتعلق بالأرض من قيم وحاجات، فينعدم السبب لولادة الكارما من جديد، وتمحى من الوجود ويقف الإنسان في النرفانا حيث الحياة الهادئة والنعيم المقيم، حيث لا حياة يعقبها موت ولا موت يليه حياة.

وهكذا تمتاز شتى عقائد التناسخ الهندي بطابع خلقي رفيع وصبغة روحية متعالية لا نجد لها مثيلا عند الشعوب البدائية. إن الهندوسية تبشر الإنسان التقي الورع بأن يصير إلها، وتعد الجاينية الإنسان المتقشف الطاهر بالصعود إلى عالم علوي يرتقي فيه إلى مرتبة الإله العالم بكل شيء. وتمني البوذية الإنسان الفاضل الزاهد بالنرفانا حيث السعادة الحقة. وتنذر هذه العقائد الثلاث الإنسان الضال الفاسق بحيوات متتالية يبدو فيها في صور متعددة تعوقه عن التحرر من الحياة الأرضية، وهي غاية العقائد السالفة الذكر، بينما تهدف عقائد البدائيين في التناسخ إلى أغراض اجتماعية تقصد خدمة المجتمع وصيانة الحياة الإنسانية من القلق والاضطراب، إلا أنها تخلو من دافع سام يطلب الكمال، ولا يبدو فيها من السمات الخلقية إلا لون ساذج باهت لا يكاد يلاحظ.

عبد العزيز محمد الزكي

العـــقد

الأستاذ على أدهم

جي دي موبسان هو زعيم كتاب الأقصوصة في الأدب الفرنسي ، وأنبههم فيها قدماً ، وأبعدهم شهرة ، وأنجحهم أثراً ، وقد تخرج في مدرسة الروائي الفنان الكبير فلوبير ، وساكه في فنه الممتاز ، وتجويده المبدع ، حتى استقل بطريقته الخاصة في كتابة القصة القصيرة ، وظفر بإعجاب أستاذه وتقدير جهابذة النقد . وموبسان يعد في طليعة كتاب القصة القصيرة في الأدب العالمي ، ولا يطاوله في هذه المكانة بحق سوى الكاتب الروائي الروسي أنطون تشيكوف ؛ وهما يفوقان أضرابهما ويرجحان عليهم من ناحيتين : ناحية الإجادة الفنية ، وناحية غزارة الإنتاج ، ولكل منهما خصائصه ومميزاته . فموبسان أدق وصفاً ، وأبلغ أسلوباً ، وأقدر على تصوير الطبائع والأخلاق ، وتشيكوف أقوى في إدراك الحالات النفسية ، والمواقف المختلفة واستحضار الجو الملائم للقصة . وقد أتقن موبسان فنه بطول المزاولة وشدة الصبر والمطاولة حتى أصبحت قصصه وأقاصيصه نماذج تحتذى في هذا الفن المعجز ، فن كتابة القصة القصيرة . وقصة (العقد) التي أقدمها للقارىء ، تتجلى فيها براعة فنه ، ومزايا طريقته ، وهي تعد من أشهر القصص القصيرة في الأدب العالمي ، وقد بدأها بوصف بطلة القصة فقال : —

« كانت من الفتيات الحسان الفاتنات اللواتي يولدن في أسر رقيقة الحال ليس لها مكانة مرموقة ولا جاه باذخ ، ولم تكن تملك صداقاً ، ولا تنتظر ثروة ترثها عن أحد ، وقد لم يكن لها أمل في أن تلقى رجلاً ثرياً ذا جاه يفهمها ويحبها ويتزوجها ، فلما تقدم لها كاتب صغير في وزارة المعارف طالباً الزواج بها قبلت ووافقت .

وكانت ملابسها عادية ، إذ لم يكن في وسعها أن تتأنق وتتجمل ، ولكنها كانت تشعر بأنها عاثرة الحظ كأنها زوجت رجلاً دونها مكانة ، والنساء لا يعتمدن على الطبقة ولا على النشأة ، والجمال والرشاقة والفتنة تحل عندهن محل المحتد والنشأة ، والرقة الطبيعية وفرط التهذيب الغريزي والقدرة على التكيف هي الأسس التي يقوم عليها ادعاء الارستقراطية عند المرأة ، وهي التي ترفع الفتيات من الطبقات الأدنى إلى مستوى أعظم السيدات العظيمات ! وكان اعتقادها الراسخ بأنها خلقت لتحظى بالتنعم وتعيش عيشة الترف يجعلها أبداً قلقة جامحة ! كان الوسط الذي تعيش فيه يضايقها ويغلها ، وكانت حيطان المنزل القذرة وأثاثه البالي والأمتعة الرثة مصدر ألم دائم لها ، وكانت بعض التفصيلات التي لا تكاد تلاحظها امرأة أخرى من طبقتها تحز في نفسها وتملؤها سخطاً وغيظاً ، فمنظر خادمتها الصغيرة كان مثار تذمر واستياء ، وباعث تطلعات جنونية وأوهام بعيدة ! وكانت تصور لنفسها الحجرات الصامتة المفروشة بالطنافس الغالية والسجاجيد الشرقية والتي تضيئها الثريات البرنزية الكبيرة وقد أثرت حرارة الموقد في خادمين طويلي القامة قد ارتديا السراويل التي تصل إلى الركبة فغطا في النوم وهما جالسان على مقعدين من المقاعد الضخمة ، وكانت تحلم بقاعات الرسم والتصوير الفسيحة وبها ستائر من الحرير القديم العهد ومناضد جميلة مثقلة بالتحف الغالية ، وتحلم بالمخادع الأنيقة الرشيقة التي تتضوع منها الروائح العطرة والتي تصلح لأحاديث المساء التي تدور بين الأصدقاء الأعزاء من الرجال الممتازين البارزين الذين تطمع كل امرأة في جذب التفاتهم لها .

وكانت تجلس لتناول الغداء على المائدة المستديرة ، وقد جلس زوجها أمامها ورفع الغطاء عن سلطانية الحساء ، وعبر عن إعجابه بالحساء واستحسانه له ، ولكن أفكارها كانت تداعب فكرة الأطعمة الفاخرة والفضة اللامعة في الغرف الملأى الحيطان بالصور العجيبة والطيور الغريبة الشكل في غابات الجان ، وتحلم بالصحاف المستطابة وبالهمسات الناعمة

التي لا تحمل معنى والتي تثير ابتسامات غامضة .

ولم يكن في حوزتها ملابس جميلة ولا جواهر ولا شيء من أسباب الزينة ، وبالرغم من ذلك فإنها لم تكن تفكر في غير تلك الأشياء ، لأنها كانت تشعر بأنها ولدت لتلبس وتتجمل ، وتفتن الأنظار ، وتخلب العقول ، وتغار منها النساء ، ويخطب ودها الرجال ، وكان لها صديقة ميسورة الحال كانت زميلتها في المدرسة ، وكانت تملك الكثير من الحلى والجواهر ، وقد امتنعت عن زيارة هذه الصديقة بعد حين من الزمن لأنها كانت تتألم كلما وازنت بين حالتها وحالة صديقتها ، وتعود إلى منزلها حزينة كسيرة القلب ، وتقضى أيامها كلها محزونة باكية آسفة بائسة يائسة .

وفي ذات مساء عاد زوجها فرحاً مسروراً ، وفي يده ظرف وصاح بها قائلاً لقد أحضرت لك شيئاً .

فأسرعت إلى فض الغلاف ووجدت فيه بطاقة مطبوعة قد كتب عليها « وزير المعارف ومدام جورج رامبنّو يتشرفان بدعوة المسيو لوازيل وحرمه إلى حفلة خاصة في ديوان الوزارة يوم الاثنين الثامن عشر من شهر يناير » ، ولكن بدلاً من أن تسرها هذه الدعوة فإنها ألقت البطاقة بغضب على المنضدة وهي تقول : « وما اهتمامي بهذه الدعوة ؟ » فأجابها زوجها : « لم ذلك يا عزيزتي ؟ لقد ظننت أن هذا يسرك ، فإنك لا تغادرين المنزل ، وهذه فرصة بديعة لك ، ولقد بذلت جهداً في الحصول على هذه البطاقة لأن الدعوة مقصورة على قليل من الموظفين البارزين » .

فنظرت إليه غاضبة مغيظة وقالت في حدة : « وماذا تنتظر مني أن ألبسه في مثل هذا الحفل ؟ »

ولم يكن قد فكر في هذا الموضوع ، ولكنه قال في تردد : « يبدو لي أن الثوب الذي تعودت لبسه عند ذهابك إلى المسرح مناسب ... »

وأمسك عن الكلام فقد ساءه وأزعجه أن رأى زوجته باكية مكروبة ، وكانت دمعتان كبيرتان تنحدران على وجنتيها في بطء .

وبصعوبة قال لها : « ما بك ؟ ماذا أصابك ؟ »

فتمالكت جأشها بعد جهد ومسحت وجنتيها المخضلتين ، وقالت في صوت هادئ : « لا شيء . لا ليس عندي ثوب للسهرة ، ولهذا لا أستطيع الذهاب إلى الحفل ، فأعط بطاقة الدعوة لأحد زملائك في الوزارة من الذين زوجاتهم أحسن مني ملبساً » .

فاستولى عليه الانقباض ولاعه الألم وقال « لنبحث الموضوع بأنفسنا ، كم يساوي ثوب السهرة المناسب الذي يمكن استعماله في هذه المناسبة وفي مناسبات أخرى شبيهات بها ؟ »

فأجالت الأمر في بالها دقائق ، وفكرت في مدى المبلغ الكبير الذي لا يزعزع خزينة الاقتصاد في كاتب صغير ويحمله على الرفض ، وقالت أخيراً وهي متشككة « إني لا أكاد أعرفه على وجه الدقة ، وربما تكفي أربعمائة فرنك » .

فاصفرّ وجهه قليلاً ، فقد اقتصد ما يعادل هذا المبلغ ليشتري به بندقية صيد ، ليشترك في الصيد مع بعض الأصدقاء في الصيف القادم ، ولكنه أجاب « حسن ، سأعطيك هذا المبلغ ، واجتهدي أن تستحضري ثوبا جميلا » .

واقترب اليوم المحدد للدعوة ، وبالرغم من أن الثوب كان قد تم تفصيله فإن مدام لوازيل ظلت مغمومة مهمومة ، فسألها زوجها ذات مساء « إنك لست كعادتك في الأيام الثلاثة الأخيرة » .

فأجابته « يضايقني أني ليس عندي حلي لألبسها ، حتى ولا دبوس صدر ، مما يشعرني بأني فقيرة ، إني أفضل التخلف عن الحضور » .

فأجابها زوجها « تستطيعين أن تتزيني ببعض نواضر الأزهار ، إنها الطراز الجديد في هذا العام ، ويمكنك الحصول على زهرتين أو ثلاث زهرات باهرات لقاء عشرة فرنكات » .

فلم تقتنع ، وقالت « لا شيء أكثر إذلالا للنفس من أن يظهر الإنسان بمظهر الفقر في حشد من النساء الثريات » .

فأجابها زوجها « ما أسخفك ! لم لا تطلبين من صديقتك مدام فورستييه أن تعيرك بعض حليها ، وأنت تعرفينها معرفة صميمة ؟ » .

فانطلقت منها صيحة فرح وقالت « نعم ، إن هذا لم يخطر ببالي » .

وفي اليوم التالي زارت صديقتها ووصفت لها ورطتها وأزمتها ، فصحبتها مدام فورستييه إلى صوانها وأخرجت

منه صندوق الحلي والجواهر ، وقالت لها « خذي منه ما تشائين » .

وبعد البحث وقع اختيارها على عقد ماسي فاخر أعجبها واستطار صوابها ، وأخذ قلبها ينبض بالرغبة الجنونية ، وبيدين مرتجفتين أخذته ووضعته على ثوبها ووقفت تنظر إلى نفسها وهي في نشوة من الطرب والارتياح ، ثم قالت لصديقتها وقد خالجها شك أليم « أتعيريني هذا ؟ » .

فقلت لها صديقتها « نعم . بكل تأكيد »

فطوقت بذراعها صديقتها وأوسعتها تقبيلا ، وانطلقت حاملة هذا الكنز الثمين .

وجاءت ليلة الحفل ، وانتصرت مدام لوازيل انتصاراً باهراً ، وكانت أجمل سيدة في الحجرة ، وقد استخفها السرور ، وتوجهت إليها أنظار الرجال ، وسألوا عن اسمها والتمسوا أن يُقدَّموا لها ، وقد استرعت نظر الوزير نفسه ، واستطار لبها ذلك السرور الذي غمرها وهي مستمتعة بنجاحها مفاخرة بجمالها ، فاشتركت في الرقص ، وكانت كأنها تسبح في حلم جميل قد اختلط فيه ما أثارته من الإعجاب وما قدمها من آيات الولاء ، وما حركته من رغبات ، وذلك الانتصار التام الحبيب إلى قلوب النساء .

ولم تستطع أن تنزع نفسها من هذا الحفل قبل الساعة الرابعة ، وكان زوجها منذ منتصف الليل وهو يغالب النعاس في إحدى غرف الجلوس المهجورة مع ثلاثة آخرين من الرجال كانت زوجاتهم غارقات في الاستمتاع بالحفل .

وألقى زوجها على كتفيها ثوب الخروج العادي ، وكان من ملابسها اليومية العادية التي تبدو حقيرة إلى جانب ثوب السهرة الفاخر ، وشعرت بالتناقض ، وحرصت على الإسراع في الخروج حتى تفلت من ملاحظة النساء الأخريات اللواتي كن يلبسن الفراء الثمين . وحاول لوازيل أن يكبحها ويهدئ من سرعتها فقال لها « انتظري حتى أحضر لك عربة ، فإني أخشى عليك البرد إذا خرجت إلى الطريق » ولكنها لم تصغ لكلامه وبادرت إلى النزول من سلالم الديوان ، ولم يجدا عربات ، وظلا يبحثان عبثاً ، واتجها إلى ناحية نهر السين ، وأخيراً وجدا على رصيف الشاطئ إحدى العربات القديمة التي لا تظهر في باريس إلا بعد منتصف الليل كأنها تستحي من قذارتها وحقارتها فلا تظهر في ضوء النهار ، وحملتهما العربة إلى باب منزلها في شارع الشهداء ، وصعدا سلالم المنزل الكئيبة حيث يسكنان ، وانتهى كل شيء بالقياس إليها ، أما زوجها فكان يفكر في أن عليه في اليوم التالي أن يكون في عمله حوالي الساعة العاشرة .

وألقت الثوب الخارجي أمام المرآة لكي تنظر إلى نفسها وهي في حفل زينتها نظرة أخيرة ، ولكنها أرسلت صيحة صارخة ، فإن العقد الماسي لم يكن حول جيدها .

فقال لها زوجها ، وكان قد خلع جانباً من ملابسه :

— ماذا حدث ؟

فالتفتت إليه وهي مضطربة متفزعة وقالت وهي لا تكاد تبين : لقد فقدت عقد مدام فورستييه .

فقال زوجها : ماذا ؟ فقدت العقد ؟ هذا غير ممكن !

وبحثا عنه في ثنايا الثياب وفتشا جيوبهما ولكن عبثاً ...

— أكنت واثقة من أنك كنت تلبسينه حينما غادرنا الرقص ؟ .

— نعم . أذكر أني لمسته وأنا في ردهة الوزارة .

— ولكن لو كنت فقدته في الشارع لكنا سمعنا صوت سقوطه ، فلا بد من أن يكون قد سقط في العربة .

— نعم . إني أظن ذلك ، فهل معك رقم العربة ؟

— لا .

ونظر كل منهما إلى الآخر وقد استولى عليهما الرعب ، وفي النهاية أعاد لوازيل ارتداء ملابسه .

— سأسير من الطريق الذي قطعناه معا وأحاول أن أجده .

وغادر المنزل ، أما هي فإنها لم تجد في نفسها من القوة ما يعينها على الذهاب إلى الفراش ، ولم تكن تستطيع التفكير فارتمت على أحد المقاعد وظلت به في ثوب السهرة .

وعاد زوجها في الساعة السابعة صباحاً دون أن يجد العقد ، وقد أبلغ الشرطة ، وأعلن في الجرائد عن جائزة ، واستفسر في كل العربات . وزارا كل مكان كانا فيه ، وظلت زوجته تنتظره وهي تفكر طوال النهار في الكارثة المنتظرة .

وعاد زوجها في المساء وقد ذهبت جهوده أدراج الرياح وقال لها « اكتبي إلى صديقتك وقولي لها إن مقبض العقد

قد كسر ، وإنك تصلحينه ، وهذا يعطينا وقتاً للتفكير في أشياء أخرى » .

فكتبت إليها رسالة تبلغها ذلك . . .

وانقضى أسبوع ، ويئسا من وجود العقد ، وقال لوازيل الذي بدا أكبر من سنه بخمس سنوات « علينا أن نتخذ الإجراءات لاستحضار عقد بدلا منه » .

وفي اليوم التالي حمل العلبة الفارغة التي كان بها العقد وقصد أحد الجوهريين ، وكان اسمه مكتوباً فوق العلبة ، فرجع الرجل إلى دفاتره وقال « إن العقد لم يصنع عندي وإنما صنعت عندي العلبة وحدها » .

وظلا ينتقلان من جوهري إلى آخر محاولين أن يجدا عقداً مثل العقد المفقود ، وكانا كلاهما في حزن وهم .

وأخيراً وجدا في أحد الحوانيت عقداً ماسياً يماثل تماماً العقد الضائع ، وكان ثمنه أربعين ألف فرنك ، وقبل الجوهري أن يبيعه لهما بمبلغ ستة وثلاثين ألف فرنك . فطلبا إليه أن لا يتصرف بالعقد مدة ثلاثة أيام ، ووافقا على شرط أن يكون له الحق في أن يبيعه بمبلغ أربعة وثلاثين ألف فرنك إذا وجد العقد الأصلي قبل نهاية شهر فبراير .

وكان لوازيل قد ورث مبلغ ثمانية عشر ألف فرنك ، واضطر إلى أن يقترض من جهات مختلفة ما يعادل هذا المبلغ ، وقبل شروطاً شديدة وعامل المرابين وذهب ليشتري العقد ، وهو يعلم ما سيتهدده من الحرمان والشقاء وما سيلقاه من العنت ويتجرعه من الغصص والآلام .

ولما أعادت مدام لوازيل العقد قالت لها مدام فورستييه عاتبة عليها لأنها لما « كان يجب أن ترديه أسرع من ذلك ، فربما كنت قد احتجت إليه » .

ومما فرّج كرب مدام لوازيل أن مدام فورستييه لم تفتح العلبة ، لأنها لو لاحظت التغيير ماذا كانت تظن ؟ وماذا كانت تقول ؟ ربما كانت تظنها لصة .

عرفت مدام لوازيل بعد ذلك فظاعات الفقر المدقع والحاجة الملحة ، وقد وطنت نفسها على احتمالها ، وقامت بدورها في بطولة ، فهذا الدين الضخم لابد من وفائه ، وصممت هي على هذا الوفاء ، فصرفت الخادمة ، وانتقلا من الشقة التي كانا يقيمان بها إلى غرفة على سطح أحد المنازل ،

وتولت هي القيام بكل أعمال المنزل وواجبات المطبخ البغيضة ، فكانت تغسل الأواني والأطباق ، وتغسل الملابس وتنشرها ، وتكنس وتستحضر الماء ، وتلبس ملابس العاملات وتحمل سلتها إلى البدال والخضري والقصاب ، وتحاسب وتساوم وتناقش وتجادل حريصة على كل مبلغ مهما صغر ، وكان زوجها يقضي أمسياته في عمل الحسابات عند أحد أصحاب التاجر ، وينسخ في الليل بعض الأوراق لقاء مبلغ زهيد من المال .

وقد استمرت هذه الحال عشر سنوات ، وفي آخر المدة كان الدين قد سدد ودفعت أرباحه المتجمعة .

وكانت مدام لوازيل تبدو حينذاك امرأة عجوزاً ، وأصبحت أنموذجاً لزوجة الرجل الفقير الفظة الغليظة ، وأهملت شعرها ، وتركت العناية بملابسها ، وفقد صوتها رقته ورخامته ، وفي أثناء غياب زوجها في عمله بالوزارة كانت تجلس أحياناً إلى جانب النافذة فتشرد أفكارها وتتجه إلى هذا المساء البعيد ، ذلك المساء الذي سطع فيه جمالها وكمل فيه انتصارها ، فماذا كانت تكون الخاتمة لو لم تفقد العقد ؟ من يستطيع أن يعرف ؟ ومن يستطيع أن يدري ؟ فما أغرب مصادفات الحياة وما أكثر تنوعها ، وما أضأل الأشياء التي قد تنقذ حياة الإنسان وقد تفسدها !

واتفق في أحد أيام الأحد أن خرجت في نزهة إلى الحدائق لترفه عن نفسها من عناء الأسبوع ، فأبصرت سيدة معها طفل ، وعرفت أن هذه السيدة هي مدام فورستييه ، وكانت تبدو صغيرة السن غضة الشباب ناضرة العود ، وما تزال فاتنة جذابة ، فخفقت عواطف مدام لوازيل فهل تخاطبها ؟ ولم لا ؟ لقد وفت الدين ! فلماذا لا تخبرها القصة بحذافيرها ؟ وتقدمت منها وقالت لها « سعد صباحك يا جان »

فلم تعرفها صديقتها وأدهشها أن تتقدم مثل هذه المرأة البادية على نحوها !

— أخشى أني لا أعرفك يا سيدتي — ربما تكونين قد أخطأت .

— لا — أنا ماتيلدا لوازيل .

فأطلقت مدام فورستييه صيحة وقالت : آه يا ماتيلدا البائسة لقد ما تغيرت !

مع الفكر الأوربي المعاصر

للأستاذ مبارك إبراهيم

١ – الإسلام

معتقداته وطقوسه

كتاب من تأليف الأستاذ « تريتون »

الأستاذ السابق للغة العربية بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن .

هذا كتاب أدار مؤلفه على الموضوعات الآتية : محمد والقرآن . أركان الإسلام . الحديث والسنة . المعتقدات . الشريعة . الشيعة . التصوف . الحكومة . الحياة الاجتماعية والآراء السائدة عند جمهور المسلمين . النهضات الحديثة في الإسلام .

وهو يقول في كتابه : ويدعى محمد (ص) أكثر ما يدعى بالمصطفى . ولذلك فإن المسلم الصادق برسالته يعني أنه باتباعه سنة هذا النبي يصبح واحداً من الصفوة المختارة من الخلق . وأن أحداً من الناس لن يسمو سموه . ولن يرقى رقيه . ومن ثم نرى المؤلفات العربية قد مالت إلى جانب الخصوصية لا الشمول . ودليل ذلك ما قيل منسوباً إلى الخليفة الثاني عن الكتب التي تحتويها مكتبة الإسكندرية : « إن كان ما في تلك الكتب يتفق وما جاء به القرآن فهي إذاً كتب لا حاجة لنا بها ، وإن كان ما فيها يخالف ما جاء به القرآن فهي كتب ضالة » . وهذا القول يمثل « العالم المغلق » عند المسلمين ! !

ومن ناحية أخرى فإنه روى أن أحد أفراد قبيلة من القبائل العربية قال — وقد نظر إلى فخامة بناء من الأبنية قد تبين فيه جمال الفن — إن تلك الفخامة ، وذلك الجمال لن يبعثا في نفسي إلا أن أنطق باللعنة أشد اللعنة ، وإلا أن أبصق ساخراً مستهزئاً ! !

ويضيف المؤلف إلى ذلك قوله : على أن مثل هذا الخلق قد زالت آثاره في بعض الأقطار الإسلامية . ولكن عند فئة قليلة من الناس . وفي هذا ما يغري بالقول أن العقم الذي أصاب الإسلام إنما هو أثر من آثار ما جبلت عليه نفوس أهله . فالإسلام وقد نأى بجانبه كبراً وتعالياً عن رؤية أي شيء خارج بيئته قد فاته الاستفادة من الآراء الجديدة

— نعم ، لقد لقيت أياماً شديدة ، واحتملت الكثير منذ آخر مرة رأيتك فيها ، ولم يكن هناك نهاية لما أكابده من العناء ، وقد كنت أنت سبب هذا كله .

— أنا سبب هذا كله ؟ وماذا تعنين بذلك ؟

— تذكرين العقد الماسي الذي أعرتني إياه لألبسه في الحفل الذي كنت قد دعيت إليه في وزارة المعارف ؟

— نعم أذكر ذلك جيداً .

— إني فقدته .

— إني لم أفهم ما تقولين . لقد أعدته إلي .

— كان عقداً آخر الذي أعدته إليك يشبه تمام الشبه . وظللنا ندفع ثمنه طوال السنوات العشر الأخيرة . وتعرفين أن ذلك لم يكن من السهل على قوم مثلنا لا يملكون شيئاً ، ومهما يكن من الأمر فقد انتهى كل شيء .

فوقفت مدام فورستييه جامدة بغير حراك .

— تريدين أن تقولي إنك اشتريت عقداً ماسياً بدلاً من عقدي الذي فقد !

— نعم . وأنت لم تلحظي ذلك ! لقد كانا متشابهين الشبه كله .

وضحكت مدام لوازيل في كبرياء واقتناع !

فأمسكت مدام فورستييه بكلتا يديها وهي تعاني شدة وألماً

— آه يا مسكينة المسكينة ! لقد كان عقدي زائفاً ! ولم يكن يساوي أكثر من خمسمائة فرنك .

علي أدهم

وغفل عن الإتيان بأي شيء جديد من عنده ! !

ومن الممكن القول أن الهدف الأول من دراسة القرآن هو استنباط قواعد السلوك من ثنايا آياته . كما أنه من الممكن القول أيضاً أنه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ظلت رقعة الإسلام تمتد وتتسع ، وظل ضوؤه يتسع وينتشر خارج أقطاره . وذلك على أيدي المبشرين به من المبعوثين غير الرسميين .

والاعتقاد بأن الله موجود ، وأنه المسيطر على العالم يعلي من شأن الحياة ، ويبث الثقة والإيمان بها ! وهذا الاعتقاد هو العمود الفقري للخلق الكريم ، ولصدق العزيمة وقوة الإرادة ، والصبر أجمل الصبر على غدر الأيام في أقسى مرارته ، وهي الصفات التي يتحلى بها المؤمنون الصادقون أصدق الإيمان بعقيدة الإسلام ! فالمسلم مستيقن أن إيمانه لابد مكسبه السعادة الكبرى في الدنيا والآخرة .

وقد وصف أحد الرحالين ظهور وباء الكوليرا في حين من الأحيان قال : كان الوباء يتعقبنا خطوة بعد خطوة ، ويقتحم خيامنا خيمة بعد خيمة ، بل كان يمشي في ركابنا . وعلى الرغم من أن فرقة المكافحة قد بدأ يتملكها الفزع . وعلى الرغم من أن أفرادها كان ينظر بعضهم إلى بعض نظرة الحذر ، وهم يهيبون بأنفسهم ليكونوا على أتم الأهبة لمكافحة الوباء عند ظهور أول علاماته فقد كانوا جميعاً مستمسكين بالصبر والجلد .

والدين عند المسلمين حقيقة واقعة ، وجزء متمم لحياتهم اليومية . وهو ليس رداء يرتديه الأحبار والعلماء . ومن ثم فهو يجعل المسلمين إذا وقعت الواقعة وادلهم ليل الخطوب ثابتي الإيمان ، لا تزعزعهم العواصف والأنواء .

ولقد بدأ منذ حين نشاط الإرساليات الدينية المنظمة . ومن تلك الإرساليات جماعة أنجومان هدايات الإسلام « في مدينة « دلهي » . وقد انضمت إليها أربع وعشرون جمعية في مختلف أنحاء الهند .

وهناك فرع « لاهور » للحركة الأحمدية . وهو الذي يرسل بعوثه إلى مختلف ممالك أوربا . تبشر بالدين الإسلامي وترفع أعلامه . وأصدق دليل على أن الإسلام مازال حياً قوياً هو نشاط هذه الجماعات غير الرسمية .

وأوثق عروة يستمسك بها المسلمون هي اجتماعهم من جميع أنحاء العالم ليؤدوا فريضة الحج بمكة ، وليقيموا الصلاة في ذلك المكان يولون وجوههم شطره كل يوم . وفي الوقت نفسه فإن إخوانهم الذين لم يحجوا يشاركونهم أداء الفريضة — وهم في أوطانهم — وذلك بالتقرب إلى الله بذبح الأضاحي وإطعام الفقراء من لحومها .

أما الصلوات الخمس كل يوم فوسيلة فعالة لكسب واستبقاء « المسلمين » الذين اهتدوا إلى الإسلام .

ولم ينس الإسلام الإحسان إلى الفقراء . وهو الزكاة التي كان محمد (ص) يعلي من شأنها ويوصي بإيتائها . وهي عادة تتفق مع طباع القوم وأخلاقهم .

والإسلام يكبر من شأن العلم إكباراً لا مثالية فيه . والعلم عنده فريضة على كل مسلم ومسلمة .

والإسلام في مجمل أمره ينظر إلى أتباع الأديان الأخرى نظرة رفق وتسامح . ولو أن بعض الفاتحين قد جمع بين فتوحاته وبين قتل عابدي الأوثان ابتغاء وجه الله .

وفي العصور الوسطى كان اليهود سعداء بالعيش بين المسلمين أكثر مما كانوا بين المسيحيين . وقد أتى حين من الدهر كان المسيحيون يضطهدون ويظلمون . ولكن الذنب في هذا يرجع إلى جشع أولئك المسيحيين وطغيانهم . والدليل على حسن صنيع المسلمين أن كثيراً من فقهائهم وقفوا يدافعون عن حقوق المسيحيين ، ويأخذون بناصرهم .

ويبدو أن ليس هناك أي شك في أن مذابح الأرمن في تركيا قد دبرتها الحكومة . إذ المعروف أن من واجب أرباب السلطان أن يكبحوا جماح الرعاع .

وفي كثير من الأحيان يكون الدافع على الإغارة على أهل الديانات الأخرى هو كراهة الغريب لذاته لا لدينه .

وفي شمال أفريقيا يسترشد الناس عادة في المسائل الروحية

بآراء المراوش التابعين في تكاياهم . مفضلين إياهم على موظفي المساجد ، وحجتهم في ذلك أن هؤلاء تدفع الحكومة لهم رواتبهم ، وهم لذلك موضع شك وريبة .

وقد يكون محمد (ص) قد حرم قتل النمل والنحل . وقد يكون صحيحاً ما قيل من أن فقهاء المعتزلة يقولون بأن الحيوانات ستدخل الجنة جزاء لها على ما قاسته من آلام على الأرض . وأن العقل لا يستطيع أن يأتي بدليل على أن قتل الحيوانات لاتخاذ لحومها طعاماً للناس كان حقاً وعدلا

ومع هذا فإن الحيوانات المستأنسة تلقى عند المسلمين مصيراً سيئاً . على أن المرء لواجد ذلك الرجل من رجال البادية يلاطف حصانه وجمله . (هذا إن لم يكن قد استبدل به اليوم سيارة من السيارات) .

والدين الإسلامي ليس هو — بالطبع — الآمر بالقسوة في معاملة الحيوان . ولكنه كان يستطيع أن يحض على منع تلك القسوة .

وقد يستطيع المرء أن يجمع من صحف الأخبار الرخيصة نتفاً تصور الآداب والعادات في الأقطار الإسلامية في صورة رائقة أو قاتمة . ولكن ليس من العدل الاعتماد على أمثال تلك الصور . فالمسلمون مثلا يقولون إن قلة من المسلمين هم الذين يتخذون أكثر من زوجة واحدة . ورجال الإرساليات المسيحيون ينكرون عليهم هذا القول . وقد يكون البيان قد استقيا من مصادر متنوعة ، ومن بيئات مختلفة .

والمؤلف يقول أيضاً : إن من أدب الإسلام عند الترك ذم الحسد (وإن كان من المباح الدعاء على الأغنياء الذين ينفقون أموالهم في غير مرضاة الله بأن يمحق الله أموالهم)

كذلك من أدب الإسلام عندهم أن من واجب المسلم أن لا يخشى الفقر ، وأن لا يتملق ذوى الثراء ، وأن لا يسيء إلى الفقراء بالزراية عليهم والحط من قدرهم . وأن لا يقضى بين المسلمين بالرأي الفطير .

٢ — سيادة مدينة

أو حكام مكة

كتاب من تأليف « جيرالد دي جوري »

يقول مؤلف هذا الكتاب : إن المدينتين المقدستين في الجزيرة العربية كانتا مهد الإسلام وموطنه ، كما كانتا النبع الذي نبعت منه إمبراطوريات إسلامية عظمى قد صابرت الأيام وطاولت الأدهار . ولم تكن إحدى المدينتين المقدستين في يوم من الأيام المركز السياسي لواحدة من تلكم الأمبراطوريات .

ويقول : لما امتدت رقعة الفتوحات الإسلامية الأولى اتخذ خلفاء الإسلام عواصم ملكهم خارج مكة والمدينة . فبدأوا بدمشق ، ثم ببغداد ، ثم بالقاهرة ، ثم بقرطبة . ثم اتخذت مدن أخرى عواصم لممالك كان حكامها وجمهرة سكانها مسلمين يتكلمون العربية .

أما الحجاز فقد أصبح بعد ظهور الإسلام أول الأراضي الإسلامية المقدسة وأعظمها شأناً ، كما أصبح موضع التوقير والعناية ، وكما أصبح مقصد الحجاج الذين يؤدون فريضة الحج ، وهي ركن من أركان الإسلام .

وما إن انقضى عهد الخلفاء الراشدين حتى أصبح الحجاز عند المسلمين حكمه حكم فلسطين عند المسيحيين . والمشابهة بينهما قوية محكمة ، بل تكاد تكون تامة ، مع فارق واحد . هو أنّ فلسطين قد ظلت طوال السنين الماضية التي تكاد تبلغ الألفين خارج مدار السياسة لدى الدول المسيحية . أما مكة والمدينة فقد ظلتا منذ ظهور الإسلام يحكمهما حكام مسلمون . وقد احتفظت كلتا المدينتين بهذا الطابع حتى بعد أن أصبح الحكام المسيطرون على الدول الإسلامية من أقوام غرباء عن العرب — وإن كانوا مسلمين — وهم الترك .

واليوم لا تزال المملكة العربية يحكمها ملك مسلم . وإن كان نظام حكمه يختلف في الطابع من حكم حكام الحجاز البائدين . وإن كان تولية الحكم قد غير من التسلسل في نسب الحكام .

ويقول أحد الملقين : ليس في مقدور المرء أن يقول إن الحجاز قد كونت فيه أمة في أي عصر من عصور تاريخه مهما اختلفت صيغ التعريف لكلمة « أمة » . كما يقول : إن المؤلف قد عنى برقعة من رقاع الأرض ليتقصى قصة « قريش » ، وكيف تسلسلت أنسابها . وهى تلك القبيلة العربية التى أمدت « مكة » بحكامها الذين تولوا أمورها منذ أكثر من ألف عام . وهذا ما جعل كتابه كتاباً نافعاً تستحب قراءته . والكتاب — فى كثير من نواحيه — مجموعة مدونات تاريخية تعنى — كما أسلفنا القول — بتسلسل نسب الحكام .

وقد بدأ المؤلف بأن رسم لقرائه صورة موجزة للبلاد العربية ، وتاريخاً لأرض الحجاز فى العصور التى سبقت الإسلام ، كما صور « مكة » وقد صعد نجمها كمدينة مقدسة.

ثم ذكر كيف ظفرت قريش بسدانة « البيت » فى القرن الخامس الميلادى ، وكيف ظل القرشيون مستمسكين بهذه السدانة حتى القرن العشرين . وكيف لا وقد كان من أبنائها محمد (ص) كما كان منها حكام الجزء الأكبر من العالم الناطق بالعربيــة . وهم المهتدون بهديه والسائرون على سنته .

ومؤلف الكتاب يكبر الإكبار كله من شأن النبى (ص) كعظيم من عظماء الساسة . فهو يقول : إن النبى قد أنشأ ظلالا من النظام لا عهد للبلاد العربية بها من قبل . وذلك بجمع قبائلها تحت لواء واحد هو لواء التوحيد . وبوعده المستضعفين من العرب بأن يضمن لهم المساواة فى الدنيا ، وحياة الخلد فى الآخرة .

والمؤلف يشهد للنبى (ص) بأنه كان يعمل بدافع روحى ، وأن الذين اتبعوه كانوا يعملون تحت إمرته بدافع من الطموح الروحى .

ويقول المؤلف : قد يتولى الناس العجب إذا عرفوا أن انهيار الأمبراطوريات الإسلامية فى العصور الوسطى قد اتفق زمانه مع ذلك الزمان الذى امتدت فيه رقعة البلاد التى يخرج منها حجاج بيت الله إلى « مكة » كل عام ، إذ جاء الترك العثمانيون ففتحوا الأمبراطورية البيزنطية وأضافوها إلى دار الإسلام .

وفى سنة ١٥١٦ ميلادية دخل أمير « مكة » يومئذ وكان « الشريف بركات » فى طاعة السلطان سليم الأول . واستمتعت « مكة » بمزايا الحكم العثمانى فى إبان ازدهاره . كما لاحقته مصيره منذ أن بدأت الإمبراطورية العثمانية تذوب وتضمحل ابتداء من القرن السابع عشر .

ويقول المؤلف إنه حتى قبل عام ١٥١٦ كان هناك اهتمام بالغ بأمور البلاد العربية تمثلا فى تقدم البرتغاليين فى المحيط الهندى ، فلما أثمر هذا التقدم ثمره أصبحت المدينة المقدسة أقرب منالا إلى مسفى العالم مما كانت من قبل . كما أن شق قناة السويس قد جعل مكة فى قبضة « استامبول » . ولكن وسائل الغرب السياسية قد كان لها أثر أى أثر على القضية الحجازية . وبخاصة منذ الغزو المصرى بقيادة « محمد على » . ثم دار الزمن دورته ، وامتزج العنصران ، عنصر تفوق الدبلوماسية الحديثة ، وعنصر فهم الغرب لمسائل القوميات .

وكان ذلك سبباً فى تحطيم أركان الامبراطورية العثمانية ، مما فتح الباب ، وأدى إلى خلع حكام « مكة » القدماء ، وأحل محلهم ملكا من السلفيين الأصفياء المتزمتين ، يختلف أصله عن أصل من كانوا قبله فى الحكم . . . ؟

مبارك إبراهيم

حديث النحل فى شعر هذيل

— ٢ —

للأستاذ أحمد كمال زكى

طريقة الاشتيار :

وينبغى أن نذكر الصيد هنا مرة أخرى ؛ فثمة علاقة طبيعية تربط بينه وبين اشتيار العسل . فكل منهما قائم على القصص ، وإن كان الصيد يقوم إزاءه قصص حزين لا يسرد مشاق الصياد ولا يعرض لمخاطراته ، وإنما يصور حال هذه الدنيا التى لا يبقى على حدثانها أحد . ومن هنا يختلف عن الاشتيار ، فينفرد هذا بمطابقته للواقع بعد خلقه خلقاً فنياً جديداً .

وأطرف ما يلقانا فى ذلك ما يقوله أبو ذؤيب عن رجل من بنى خالد ، وكانت لهم — على ما يبدو — شهرة بالاشتيار العسل :

فلما رآها الخالدى كأنها
حصى الخذف تكبو مستقلاً إيابها
أجَدَّ بها أمراً وأيقن أنه
لها أو لأخرى كالطحين ترابها
فقيل : تجنبها حرامٌ ! وراقه
ذراها مبيناً عرضها وانتصابها
فأعلــق أسباب المنية وارتضى
ثقوفته إن لم يخنـــه انتضابها
تدلى عليها بين سب وخَيْطَة
بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها

والنحل من عادتها أن تأتى الجبل فتعسل فى صخرة ملساء وسطه ، فيقدم الشائر صاعداً من وراء الجبل حتى يصير فى أعلاه فيضرب هناك وتده ، ويشدّ فيه الحبل ويدعه يهوى ، ثم يتدلى عليه حتى يصل إلى الصخرة . ويقول أبو ذؤيب إن الخالدى رآها كأنها الحصى يرمى بالأصابع ، وكانت حين أوفت على مكانها زلّ من لينه ، فأحكم أمره وعقد عزمه على أن يصل إليها أو يهوى إلى الأرض ممزقاً . وقال له قائل : إحرامهدمها فالوصول إليها عسير ! ولكنه أبى وركب رأسه ؛ ذلك أن عسلها أعجبه ، وتاق هو إلى أقراصه الشهية . ومن ثم علق حباله وتدلى عليها دون أن يخشى انقطاعها به . ووصل فعلا إلى الصخرة الجرداء التى تشبه فى استوائها بساط الأديم والتى يزل عنها ظفر الغراب ولا يثبت فوقها ملامسها .

وقد وسعنا أن نلمح كيف أجاد الشاعر فى نقل « الأشكال » فى إطار بارع جميل . غير أن الإجادة هنا إجادة مصوّر يثير الحركة فى كل ما يصوره . ولا يظنن أحد أن تلك الصور التى رسمها صحت لأنها نقلت الواقع فى أمانة ، بل لأنها نقلته نقلاً فنياً ، وإلا فلن يختلف عمل شاعرنا عما تعمله آلة التصوير ، ونعود بالشعر إلى حيث ظن بعض قدامى اليونان أنه نقل مباشر عن الطبيعة وتقليد لها .

ونرى الإجادة نفسها فيما يقوله ساعدة ، ولكنه يسجل فى لقطة بارعة صورة العسّال وهو يتأرجح فى الهواء ، ثم يسجل فى لقطة أخرى صورته بعد أن اشتار :

وكأنه حين استقل بريدها ... من دون وقبتها القنى يتذبذب
فقضى مشارته وحط كأنه ... خلَق ولم ينشب بها يتسبسب
فأزال ناصحها بأبيض مفرط ... من ماء ألهاب عليه التألب

وليس يشق لأحد أن يرى ذلك المنظر دون أن يؤخذ ؛ وإنه لمن الضرورى أن نقر للشاعر بمهارته ، فقد أبى أن يقف بلوحته وقفة جامدة أو باهتة ، وإنما دفعها أو دفع الحياة إليها حين جعل المشتار يتدلى على حبله فيبدو كأنه ثوب خلق — وهو دائماً قلق — ويتذبذب ويتطوح ، حتى إذا قضى مشارته هبط إلى الأرض خفيفاً نشيطاً دون أن يتلطخ بالعسل الذى يسيل . والرجل يعرف ماذا يعمل بعد ذلك ، إذ يقصـد إلى مهواة فى الجبل ويمزج العسل بمائها الصافى يظلله شجر التألب .

ومن الممكن أن نقف على سر براعة الهذليين وإجادتهم إذا علمنا أنهم نفخوا روحهم في ذلك الشعر، وما الفن إذا لم يكن كذلك؟ يخطئ من يظن أن الخلق الفني عملية تكوين من العدم، فلا شيء يوجد من لا شيء! وليست البراعة في بناء الهيكل وبسط الصورة كما يفعل المهندسون، إنما هي في اختيار زاويتها المثيرة لتسكب فيها الروح وتسدل عليها الكسوة؛ وذلكم هو الابتكار . . .

فموضوع النحل قديم، ضرب الله لنا بها مثلاً لقدرته . . فكانت زاوية غير تلك الزاوية التي التقط منها الهذليون صورهم وكونوا أشكالهم. الأولى سجلها تعبير تصويري خالص، والثانية كان قوامها الإحساس بما فيها من جمال وإثارة.

ولكن أطرف ما رأينا في تلك الزاوية التي وقف عندها الهذليون عناء الشائر وتكبده المشاق في سبيل الوصول إلى الوقبة. وهنا يحق لنا أن نسأل: لماذا كان الهذليون يقبلون على هذا النوع من الحياة وفيه من الخطورة ما فيه؟ أما الإجابة فتتلخص في أن ذلك النوع فضلاً عن أنه يلائم نفوساً طبعها الإقليم على حب المغامرة — وكذا كان الهذليون — فإنه كان يجيء لهم رزقاً مضموناً، والهذليون كانوا في معظمهم ضيق الرزق، ضنت عليهم طبيعة إقليمهم بالكثير الكثير.

أسلوب الاستشهاد الفني:

وقبل أن نمضي فيما نريد هنا نحب أن نبين شيئين لهما من الخطورة ما لا يقدر على إنكارها أحد. أما الأول فهو مكان حديث النحل في القصيدة الهذلية، والثاني الطابع العام لهذا الحديث، ويمكن بعد ذلك أن نزعم أنا مهدنا السبيل لفهم الأسلوب الذي اتبعه الشاعران في حديثهما عن النحل.

أما عن مكان الحديث في القصيدة فهو يأتي في معرض الغزل، وكثيراً ما يقترن بالخمر فتكون ثمة موازنة: فثغر الحبيبة أشهى من العسل وألذ مذاقاً من الخمر؟ أو هو أطيب من الاثنين ممزوجتين في ساعة صفو وسلام (قد يؤنث العسل).

وهذا ساعدة يتغزل ويقف عند ثغر صاحبته ويصفه، وحين يتخيل حلاوة طعمه يطرحه جانباً ليتفرغ إلى أري الجوارس، ويستطرد إلى بعض ما يتناه أو كله حتى يمزج العسل بالخمر ليذكرنا ثانية بأن رضاب صاحبته أشهى وأطيب. يقول:

ومزاجها صهباء فتّ ختامها
قرط من الحرس القطاط مثقب
فكأن فاها حين ضُوّق طعمه
والله أو أشهى إليّ وأطيب

والقرط هو الخمار، ويريد بالحرس القطاط السمر الجعاد، يريد أن فاها ألذ مذاقاً من طعم الخمر ممزوجة بالعسل.

ويفعل ذلك راويته أبو ذؤيب، فبعد حديث طويل عن الخمر وتعقب مستفيض المواضع التي نزلها صاحبها قال:

أتوها بربح حاولته فأصبحت
تكفت قد حلت وساغ شرابها
بأرى التي تهوى إلى كل مغرب
إذا اصفر ليط الشمس حان انقلابها

وكالعادة يدع الخمر إلى النحل ويمضي في أناة فيصفها ويقف معها عند وقبتها، ويتتبع الشائر ويصف نشاطه في سبيل الوصول إليها، حتى يدخل عليها ويأخذ العسل، ثم يقول عارضاً للخمر في نفس الوقت:

فما إن هما في صحفة بارقية
جديد حديث نحتها واقتضابها
بأطيب من فيها إذا جئت طارقاً
من الليل والتفت عليك ثيابها

وتلك نهاية الحديث دائماً . . . كان يأتي استطراداً، حتى ليخيل للقارئ، أنه مقحم في القصيدة إقحاماً، ولكن عناية الهذليين به وانصرافهم له يرياننا أنه لم يكن بالأمر الذي يستغنى عنه.

ذلكم شيء، وأما الشيء الثاني — وهو عن طابع الحديث كما بينا — فيعنينا فيه أن نقول إن النظرة الصحيحة في الفن القولي، ولا سيما الشعر، تقتضي نوعين من النصوص التي نقرؤها: فثمة نص لتتأثر به يجب أن تتمثل الحالة النفسية التي يرمز لها، وثمة نص آخر لتتأثر به ينبغي أن يكون

قادراً على أن يوحي لنا بما يدل عليه من أشكال «Forms» الأول أساسه نفسي ذاتي ، والثاني أساسه حسي واقعي ، أو قل مادته الطبيعة الخارجية ، وقد نرى في كل شيئاً من الآخر ، فيكون هذا أرقى ما يصل إليه التفنن ، ولأجل ذلك سما شعر وردزورث Wordsworth في الطبيعة لأن الشاعر سكب فيه روحه وأودعه حياته .

وشعر الهذليين في النحل من النوع الثاني . . . النوع الذي يؤثر فينا وروحنا ، لأنه يقيم أمامنا أشكالا حية . هو في الطبيعة ، إلا أن الشاعر خلقه خلقاً فنياً وعرضه عرضاً مثيراً فيه قوة وفيه جمال ، وقد يقف المتأمل فيه حائراً لا يستطيع الإحاطة بما وراءه من أخيلة وحياة ، فعليه في هذه الحالة ألا ينكر قيمته ، لأن ما وقف حائلا دونه ليس إلا اللفظ الغريب ، وشعر هذيل تميزه هذه الظاهرة لأن لغته عاشت متبدية دون أن تختلط بلغة أحد .

على أن هذه الصعوبة ليست كل شيء ، إذ أن معجمات اللغة تعيننا كثيراً على فهم مدلولات الألفاظ . إنما الصعوبة الحقة في إدراك حقيقة هذه الروح الثائرة التي تتحدى الطبيعة والتي تريد أن تقف دون الشمس والتي تتذبذب في الهواء كالثوب الخلق ؛ ولأجل ذلك ينبغي أن نقرأ هذا الشعر في جانب من تقاليدهم وعاداتهم الاجتماعية .

ومع ذلك فالغرابة والواقعية الفنية ليستا كل شيء في أسلوب الهذليين الفني . إنما هناك أيضاً النزع القصصي إذا فهمنا من القصة أنها حادثة اجتماعية تتطور شخصياتها مع تطور الحوادث ، وقد لا يروق هذا القول بعض القراء فيرى للقصة حدوداً أخرى وقواعد خاصة ؛ غير أني أكتفي بأن أقول إن الشعر الفرنسي يحفل الآن بما يسمونه شعر الـ«Ballade» وهو قصص صغيرة منظومة كانت تنشد أولاً أثناء الرقص ثم استغنى عنه وقامت هي وحدها .

وحديث النحل لا يختلف كثيراً عن « البالاد » فأنت تراه قصة لذلك الرجل الفقير الذي يخرج كل يوم حاملا وراء ظهره متاعه ، ويذهب صعداً في الجبال حتى يعثر على موضع للنحل ، فيبدأ صراعه مع الطبيعة ويتعلق بالحبال ويقضي مشارته ثم ينقفل راجعاً راضياً بما غنم ، ومن هنا كان ذلك الشعر من الأدب الموضوعي إلا في حالات نادرة يظهر فيها عنصر الذاتية .

والشيء الأخير الذي نلاحظه في أسلوب الهذليين الفني هو ميلهم إلى التخيل وبراعتهم في التصوير ، حتى إنه يمكن أن نجد لهم بعض لوحات خلدها الزمن كما خلد لوحات رمبراندت Rembarndt ورفائيل Raphaël وغيرهما ، وأما عبارة الهذليين في ذلك فتدل على فهمهم للروح الداخلية للأشياء ، كما تدل على سعة في الخيال الحسي ، وتلك موهبة لا يمكن أن يحرك الفن إلا بها .

وأنا أعلم أن الشعر الجاهلي كله فيه ظاهرة التخيل ، غير أن قبيلة لم تعرف به قط كما عرفت هذيل . وقد نجد في شعر امرىء القيس وزهير والنابغة وغيرهم في العصر الإسلامي بجرير وذي الرمة بالذات تصويراً قوياً ، إلا أن هؤلاء كانوا أفراداً ولم يتفرغوا له تفرغ الهذليين ، ولهذا امتاز مذهب هؤلاء بالتصوير وفيه ما فيه من الأصول التقليدية التي لم يكن لهم سبيل إلى التحول عنها .

اقرأ هذا البيت .. بل انظر إلى هذه اللوحة الحية التي عمل على إخراجها روح شاعر مصور موسيقي :

وكأنه حبل استقل بريدها   من دون وقبتها لثق يتذبذب

إنه ذلك الرجل الذي يريد أن يصل إلى الثقب فيه العسل ، لقد تدلى من القمة بحبله فأخذ الهواء يدفعه هنا وهناك . . . في حركة رتيبة منتظمة ، فبدا في ذبذبته تلك ثوباً ممزقاً يتطوح في الفضاء ، ولا تنس أن الشاعر دائماً إلى الثياب !

وقد أخذنا أنفسنا بأن نحتفل بصورة « العارية » للرسام بلانشو « Blanchot » ونعجب باللوحة النادرة التي أقامت الكنيسة البابوية خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر والتي صوّر فيها « كرافادجيو » القديس متى والملاك .. فهل ندري لماذا ؟ ليست صراحة العارية وفتنتها ، وليس روعة القديس والملاك ما كتب الخلود لهذين الأثرين الجليلين ، إنما الذي هيأهما لتلك الحياة التي شاعت في كل .

لم تكن العارية تصرخ فيها رغبة الأنثى ولكن كانت تمثل الأمومة البرة والأنوثة الطاهرة .. في صورتها حنو وعطف يظهران في وضع الطفل على كتفها ، ثم فيها أنوثة

غابة ، ولكنها حية ترتعش فى هذه الروح التى أشاعها الرسام الفرنسى فى كل جزء من أجزاء جسمها . وأما صورة القديس والملاك فيكفى أن صاحبها تعرض لغضب البابا لأنه أودع القديس حياة صاخبة حمقاء ؛ ففى جلسته فوضى ، وفى نظرته شراهة وشراسة ، حتى لكأنها ترمز إلى ذلك الشر الكامن فى نفس كل مخلوق !

خلود العمل الفنى إذاً فيما يدل عليه من حياة ترعاها قوة ويبرزها جمال . فانظر إذاً إلى هذه الأشكال المتحركة النابضة بالحياة التى وقف عندها أبو ذؤيب :

وأشعث ماله فضلات ثول   على أركان مهلكة زهوق
قليل لحمه إلا بقايا . . .   طفاطف لحم ممحوص مشيق
تأبط خافة فيها مساب   فأضحى يقترى مسداً بشيق
على فتخاء يعلم حيث تنجو   وما فى حيث تنجو من طريق

كلا . فلا يروعنك اللفظ ؛ فالطفاطف ما استرخى من لحم إلى الخاصرة ، والممحوص المزيل ، والشيق الضامر ، والفتخاء اليد فيها فتخ أى لين . الصورة وضحت الآن .. هى عن ذلك الرجل الذى يدب على الهلكة الملساء . انظر إليه وتأمل ضموره وهزاله . ثم امض معه وقد تأبط قربته وبدأ يهبط الحبل بيديه المرنتين الشديدتين . إنه الشاعر الذى يتحرك وليس الرجل . إنه أبو ذؤيب المحقق الحس الواسع الخيلة الخبير بالتخيل . قد عرف كيف يخلد فى شعره صورة المشتار فى صدق وصراحة وحياة .

وقف مرة ثانية أو ثالثة عند ذلك البيت التالى ، فلا شك أنك سوف تعجب ...

بأرى التى تهوى إلى كل مغرب
إذا اصفر ليط الشمس حان انقلابها

لم يزد الشاعر إلا أن أودع بيته ألفاظاً موحية ، حتى لكأنه يبدو أنه نموذج فنى التقط من زاويتين بارعتين ، حرص الشاعر فيهما على التناسق وتسجيل الحركة ؛ فالنحل تهوى وتغيب عن عينى الشاعر فلا يدرى أين ذهبت ، ولكنه يعلم أنها وراء تلك القمة العالية .. هناك وراء المجهول الذى لا يعرف عنه أمراً ، ولهذا قال « إلى كل مغرب »

ثم ينتقل سريعاً إلى زاوية أخرى ؛ فالشمس تجنح للغروب ويبهت لونها ويشحب ، فتعلم النحل أن نهاية الكد قد أزفت ، فتنقلب راجعة إلى موضعها . أرأيت صورة النحل وهى تندفع كقتر الغلاء ؟ إنها هنا تطير والشمس لا تزال عند الأفق تضىء لها الطريق بطرف أصفر واهن كأنها تخشى عليها أن تضل الطريق .

ذلك ما كان يفعله الهذليون .. فى صورهم حياة وجمال ونظام ، وهذا هو روح الفن وآية الخلود ، فإذا سكتنا هنا فليس إلا لأنا ندرك أننا فتحنا السبيل أمام القراء ليطلعوا على شعر الهذليين فى النحل ، وليقرءوا أيضاً شعرهم فى كل ما تحدثوا عنه . إنهم كانوا يعملون دائماً فى الجو الذى يندمجون فيه بروحهم ؛ فتأثروا التأثر الفطرى ، وانفعلوا الانفعال الصادق ، وعبروا التعبير الوحى ، فشقوا لأنفسهم طريق البقاء .

أحمد كمال زكى

كيف أبيح دم السهروردي الاشراقي

— ١ —

الأستاذ محمد علي أبو ريان

١ — هو أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك الملقب بشهاب الدين السهروردي المقتول.

وتكاد تجمع الروايات على صحة هذه التسمية، وقد لقب بالمقتول بسبب الحادث الذي أودى بحياته نتيجة لتألب الفقهاء عليه وحكمهم بمروقه عن الدين ! وقد حرص أهل السنة على إطلاق هذه التسمية على شهاب الدين مخافة أن يعتبر الشيخ من شهداء العقيدة، ولكن هذا لم يمنع تلامذته الإشراقيين فيما بعد من أن يفسروا لفظ مقتول بمعنى شهيد.

وولد السهروردي بين سنة ٥٤٥ هـ، ٥٥٠ هـ، ويقال إن مولده كان بقرية سهرورد من أعمال زنجان من عراق العجم وينسب إليها القزويني (آثار البلاد ص ٢٦٥ طبع فوستنفلد) وأيضاً راجع دائرة المعارف الإسلامية مادة Suhraward لـ M.Plessner . وتلقى العلم في مراغة من أعمال أذربيجان، فدرس الفقه والحكمة على أستاذه مجد الدين الجيلي وهو أستاذ الفخر الرازي وكانت بينه وبين السهروردي مساجلات، ثم انتقل الفيلسوف الشاب إلى أصفهان حيث قرأ بصائر ابن سهلان الساوي على الظهير الفارسي، والبصائر تلخيص لمنطق الشفا لابن سينا ! وفي أصفهان اتصل بمذهب ابن سينا ودرس الشفاء وترجم رسالة الطير لابن سينا إلى الفارسية.

وتشير بعض المراجع ولعلها أوثقها كالشهرزوري تلميذه إلى أن السهروردي كان يحب الإقامة بديار بكر وفي بعض الأوقات يقيم بالشام وفي بعضها يقيم بالروم (راجع الشهرزوري مخطوط السلطان أحمد خان، صورة شمسية بجامعة فؤاد رقم ٣٧٠٢٤٠ ورقة ٢٣٤) وكانت له اتصالات بقره أرسلان السلجوقي أمير خربوط فأهدى إليه الألواح العمادية. ويشير ماسينيون إلى أن السهروردي قد أسس مدرسة إشراقية في بلاط الأمير السلجوقي، وقد تأثر بها فيما بعد جلال الدين الرومي صاحب المثنوي.

٢ — ويؤرخ ابن أبي أصيبعة انتقال السهروردي إلى حلب حيث ينسب إليها مقامه في آخر أيامه ويذكر أنه انتقل إليها سنة ٥٧٩ هـ (الطبقات حـ ٢ ص ١٦٨). ولا يعطينا ابن أبي أصيبعة أو غيره من مؤرخي التراجم وصفاً تفصيلياً لحياة السهروردي في حلب، بل إن معظمها لا يكاد يذكر شيئاً عن نشاطه العلمي في حلب. ويكتفي بأن يورد اتهام الفقهاء له بالزندقة والإلحاد والمروق عن الدين، ثم يسجل واقعة مقتله. وقد كان السهروردي لا يكترث لآراء الفقهاء، وكان الفقهاء من ناحية أخرى — لاسيما في القرنين الخامس والسادس للهجرة — يتصدون لأصحاب النظر العقلي مظان المروق عن المذهب السني، فيطالبون الحكام بإقامة الحدود عليهم بعد أن يحرروا وثائق تكفيرهم، ويجتمع المسلمون لشهود هذا الحادث الجلل فتجمع كتب الملحدين في عقيدته وتحرق على الملأ.

وكان الحكام — وجلهم من أهل السنة — بعد أن دالت سلطة الفاطميين، يتحدثون عن الحركات الباطنية ويتشددون في محاربتها، ولم يكن القرن السادس الهجري الذي عاش فيه السهروردي صالحاً أصلا لنشوء مذهب فلسفي جديد، وذلك بعد أن حوربت الفلسفة في الشرق إثر هجوم الغزالي على الفلاسفة، ولكن الشيخ الإشراقي لم يكن يأبه لما يحيط به من تطورات سياسية وسط الفوضى التي نشأت عن اندحار المذهب الفاطمي وهجوم الصليبيين على الشرق، مما أدى إلى أن يكون المذهب السني في مركز الصدارة في العالم الإسلامي.

٣ — وينفرد العماد الأصفهاني المعاصر لصلاح الدين بإيراد القصة الكاملة لمقتل السهروردي (راجع Bulletin d'etudes orientales, Tomes VII-VIII années 1937-1938

وقد نشر Claude Cahen في هذه النشرة نصاً من « البستان الجامع لتواريخ الزمان لعماد الدين الأصفهاني ».

فيذكر « سنة ٥٨٨ هـ وفيها قتل الفقيه شهاب الدين السهروردي والفقيه شمس الدين بقلعة حلب ... وكان فقهاء حلب قد تعصبوا عليه ما خلا الفقيهين ابني جهبل فإنهما قالا هذا رجل فقيه ومناظرته في القلعة ليست (تحسن) ينزل إلى

الجامع ويجتمع الفقهاء كلهم ويعقد له مجلس . في الخلاف ما رجح لهم عليه بحجة ... وأما علم الأصول ما عرفوا أن يتكلموا معه فيه ، وقالوا له أنت قلت في تصانيفك إن الله قادر على أن يخلق نبياً وهذا مستحيل. فقال لهم : ما حد استحالته ، أليس القادر إذا أراد شيئاً لا يمتنع عليه . قالوا : بلى . قال : فالله قادر على كل شيء . قالوا : إلا على خلق نبي فإنه مستحيل . قال : فهل يستحيل مطلقاً أم لا ؟ قالوا : كفرت . وعملوا له أسباباً . لأنه بالجملة كان عنده نقص عقل لا علم ، ومن جملته أنه سمى نفسه المؤيد بالملكوت » .

وأهمية هذا النص ترجع إلى أن مؤلفه ، وهو عماد الدين الأصفهاني ، كان معاصراً للسهروردي ولرأيه قيمة تاريخية كبرى . وتفصيل ما حدث أن الفقهاء في حلب واجهوا السهروردي بعد أن شنع عليهم وظهر عليهم في حضرة الملك الظاهر صاحب حلب ، وأخذوا يناقشونه في الفقه وكذلك في علم الأصول فهزمهم ، وكانت هذه المناقشة العلنية في مسجد حلب ، ولما أسقط في أيدي الفقهاء وجهوا إليه سؤالا عن النبوة وإمكان وجود نبي بعد محمد .

وكان الفقهاء يتمسكون بالنصوص الدينية التي تقرر أن محمداً خاتم المرسلين . أما السهروردي فإنه يميز بين النقل والعقل ، بين الإمكان التاريخي والإمكان العقلي — وفي رأيه — لا توجد استحالة مطلقة تعطل القدرة الإلهية .

وكما يبدو من نصوص المناقشة وحدها نجد أن السهروردي لا يهاجم النص الديني القائل بأن محمداً خاتم المرسلين ، إلا أنه حفظاً للقدرة الإلهية من دواعي النقص إذا ما حددت هذه القدرة ، من حيث عدم إمكان الله خلق نبي جديد ، رأى الشيخ أن قدرة الله وسعت إمكان خلق نبي جديد ، وهذا الإمكان ليس من نوع الإمكان الذي يخرج من القوة إلى الفعل — حسب أرسطو — بل يعني أن هذا الإمكان قوة محضة لا تخرج أبداً إلى الفعل ؛ فمن ناحية لا يعترض السهروردي على صحة النص الديني ، ومن ناحية أخرى يتفادى تعطيل القدرة الإلهية بإيجاد تبرير عقلي للمشكلة عن طريق الإمكان المطلق .

وهذا الإيضاح لموقف السهروردي يقتضيه الرجوع إلى كتبه لتبيان حقيقة موقفه من مشكلة النبوة حيث يتضح لنا السبب الذي دعا الفقهاء إلى مناقشته في هذه المشكلة بالذات .

وقد ألقى لوبن كربن وهورتن الضوء على علاقة السهروردي بالدعوة الباطنية ، فذهبا إلى أنه يعتنق مذهب الإمامة الباطني ، وأنه يدعو إليه وأن هذا هو سبب مقتله على وجه التحديد . فقد جاء في مقدمة حكمة الإشراق ص ١٩ طبعة طهران : « العالم ما خلا قط عن الحكمة وعن شخص قائم بها عنده الحجج والبينات » .

وهذا الشخص القائم بالحكمة هو خليفة الله في أرضه ، وهذا الشخص يجب أن يكون متوغلا في التأله ، أي أن يكون مرتاضاً ذا مجاهدات روحية وفتوحات ربانية ، يتلقى عن الله العلم الروحاني ، وهذه هي صفة النبي ، ويفضل السهروردي الإمام المتأله الباحث لأنه يزيد على المتأله في تعمقه البحث العقلي ، أي أنه يجمع بين العلم الروحاني والعلم العقلي الاستدلالي . ويعتنق السهروردي مذهب الإمامة العالمية الذي يدين به الصوفية والإسماعيلية ، فالعالم لا يخلو من خليفة وقد يكون ظاهراً وقد يكون مستتراً ، ويسمى القطب ، وهذا الخليفة أو الإمام قد يتساوى في مرتبة النبوة مع النبي ، وقد يعلو على هذا في المرتبة .

وإذاً فالنبوة في نظر السهروردي ممكنة دائماً ضرورية الحصول من وقت لآخر لحفظ النظام ولمصلحة النوع .

٤ — وكان الفقهاء يريدون إحراج السهروردي وحمله على إظهار مذهبه الباطني في الإمة ، وقد حاول السهروردي أن يتحاشى الإفضاء بمذهبه الحقيقي ، واستند إلى أسلوب من الجدل الفلسفي تجاهله الفقهاء ولم يردوا عليه ، بل « عملوا محضراً بكفره وسيروه إلى صلاح الدين وذكروا له أن هذا الشاب أي السهروردي إن ترك وشأنه فسيكون سبباً في فساد عقيدة ابنه الملك الظاهر . وقيل إن صلاح الدين أمر بالقبض عليه » ؛ وتذكر بعض الروايات أنه قتل بحلب وبعضها يذكر أنه قتل بمصر .

أما كيف قتل فإن ابن العماد يذكر عن ابن الأحول ج ٤ : « وقيل قتل وصلب أياماً وقيل خير أنواع القتل فاختار القتل بالجوع لاعتياده الرياضات فمنع من الطعام حتى تلف »

ويذكر ابن أبي أصيبعة أنه لما تأكد الشيخ من أنه محكوم عليه بالقتل اختار أن يترك بدون طعام إلى أن يلقى الله تعالى ، وتم له ذلك في قلعة حلب ؛ وإذا صح خبر مقتله في حلب فيكون الملك الظاهر هو الذي نفذ أمر والده فيه .

عامل عاطل

[مهداة إلى صاحب لوحة « العامل العاطل » الفنان محمود سعيد]

للأستاذ محمد فهمي

الشمس قد أنهكها رحلة النهار فارخت رأسها على وسادة الأفق لتستريح . . . وبعد قليل سقط رأسها عن الوسادة وهوت إلى عالم المجهول . . . أما هو فقد أنهكه السير فاعتمد على إفريز الشارع كما ينحط جدار متداع ... وقبع في مكانه كالكلب الذليل ... خيم عليه الحزن ، فثنى كوعه على ركبته ثم رمى بذقنه على كفه وحدّق بنظره في لا شيء ... لم يعد يثيره منظر ثيابه الرثة ولا حذائه البالي أو نظرات الفضول الموجهة إليه ؟ إنه جائع ... جائع .. هذه هي مشكلة الساعة ، ومرق في ذهنه خاطر ارتعش له جسده واعتراه خوف . . ترى هل ينتهي هذا اليوم كاليومين السابقين دون طعام ؟ وها هي ذي نفسه قد عافت شرب الماء الذي كان طعامه الوحيد طول هذه المدة ، وإن الخفة والطاقة الشاسعة التي أحس بها في اليوم الأول من جوعه قد فارقته وحل مكانها آلام عات كلما أحس بأمعائه تمزقها خناجر مجهولة . . لقد خُيل إليه أنه كان يستطيع الصمود للجوع أكثر مما صمد لو لم يضطر لإجهاد نفسه في السير بحثاً عن عمل دون جـدوى . . فجأة انقطع حبل تفكيره وصار عقله فراغاً وتقلصت من الألم أسارير وجهه . . لقد عادت الخناجر المجهولة تمزق أحشاءه . . . استجمع شتات عقله ولكن سرعان ما دوى في أذنيه نفس السؤال ... ترى هل ينتهي به هذا اليوم أيضاً دون طعام ؟ ولكنه لم يظفر بجواب . ونظر حوله فرأى كلباً ينبش في صندوق القمامة باحثاً عن الفضلات لحسده . نعم ، إنه يحسد قانعاً من طعام ، وبدون وعي منه هم بأن يقوم ليطرد الكلب بل صاح به بالفعل ، فتوقف الكلب عن النبش والتفت إليه بعينين حمراوين كأن فيهما دموعاً ، فأحس في قرارة نفسه أن هذه النظرة المستعطفة هي صورة

ويقال إنه ندم على فعله وقبض على الفقهاء الذين كانوا سبباً في مصفر كفره وسجنهم وأخذ منهم أموالاً طائلة .

٥ — والسهروردي قصيدة ينسبها إليه المؤرخون ويذهبون إلى أنه أنشدها عند موته ومطلعها :

قل لأصحاب رأوني ميتاً فبكوني إذ رأوني حزنا

أنا عصفور وهذا قفصي طرت عنه فتخلى وهنا

ويقال إن السهروردي تنبأ بالمصير الذي لقيه في قصيدته المشهورة التي مطلعها :

أبداً تحن إليكم الأرواح
ووصالكم ريحانها والراح

إذ جاء فيها :

ورحمتا للعاشقين تكلفوا
ستر المحبة والهوى فضاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم
وكذا دماء العاشقين تباح

وقد تحقق هذا ، فما إن استدرجه الفقهاء بصدد مشكلة النبوة حتى كشف في إشارة مركزة من موقفه الباطني ، وهو سر لا يستطيع الإبانة في الكلام عنه .

وكان أن أبيح دمه كما استبيحت دماء الصوفية والفلاسفة قبله .

خاتمة :

٦ — هذه شخصيّة خصبة قدر لها أن تمثل الفرع الأفلاطوني في الفلسفة الإسلامية ، فكان السهروردي وأتباعه يقولون عن أنفسهم إنهم أتباع أفلاطون صاحب الحكمة الذوقية الإشراقية ، وذلك في مواجهة المشائين أصحاب الحكمة البحثية .

وفي ظهور هذا المذهب دحض لما ذهب إليه جمهور مؤرخي الفلسفة الإسلامية من أن الغزالي قد قضى بهجومه على الفلاسفة على الفلسفة في الشرق .

محمد علي أبو ريان

لنظراته .. فخجل ... وأطرق برأسه ولقد امتلأ عطفاً — جائع يعطف على جائع ..

وهنا وقع نظره على شيء تحت قدميه . إنه غطاء البالوعة ، وبسرعة التمع فى ذهنه خاطر .. لم لا ينزعه ويبيعه بقرش أو قرشين .. بأى شيء يشترى به رغيفاً ، ومنذ تلك اللحظة استيقظت كل قوى تفكيره وعاوده نشاط عجيب ، وكأنما قد بُعث من جديد وانحصر كل همه فى تنفيذ فكرته . .

وفجأة انفرط عقد أفكاره إذ أقبلت سيارة فاخرة تجرى نحوه كأنما تقصد القضاء عليه فلم يتزحزح عن مكانه ، بل أغمض عينيه منشرحاً وقد تخيل نفسه منطرحاً على سرير بالمستشفى يضمد الطبيب جراحه ويأتيه غذاء — أى غذاء — فى مواعيد منتظمة . فقز فكره إلى الموت فأحس راحة ، ومد يديه وبسطهما على جنبيه وقد جلس فى خشوع الصلاة واستسلم .. ولشد ما أحزنه حين فتح عينيه أن رأى السيارة قد وقفت على قيد ذراع منه ونزل منها رجل فى زيه الأنيق ودخل المنزل المجاور وحملت نسمة إلى أنفه رائحة معطرة . . . وعادت الخناجر تطعن أحشاءه بقسوة . . .

فأخذ ينظر من جديد إلى غطاء البالوعة ، وبعد برهة نظر حوله فلم يجد أحداً يأبه له أو يحس بوجوده فاطمأن . . . عجباً هاهو الآن يحس بشيء ، كالشبع إنه ظل الأمل ، بل ظل الصورة التى ارتسمت فى ذهنه بكل تفاصيلها الدقيقة . . .

لقد تخيل نفسه وهو يحمل غطاء البالوعة ويقدمه لبائع الخردة ، ثم وهو ينقده فيه قرشاً أو قرشين ، ثم وهو يسرع إلى بائع الخبز ، ثم ها هو ينهش بأسنانه رغيفاً طريا ... وقد ظل فكره فترة غير قصيرة ولا يتحول عن هذا المشهد اللذيذ ، وابتلع لعابه الذى سال فى حلقه فرطبه بعد جفاف ...

وفى هذه اللحظة طغت على فكره صورة سريعة حولت انتباهه ، هى صورة جندى البوليس وهو يقتاده إلى القسم وقد ضبطه بالغطاء ؛ فهز كتفيه دون أن تفارقه نشوة المنظر السابق وقال لنفسه ... لكن .. إنى سأجد هناك رغيفاً .. ونظر فرأى جريدة مكورة بجوار الحائط على البعد فأسرع وعاد بها إلى مكانه ثانية ونشرها أمامه ، ثم تلفت حوله وبحركة سريعة عنيفة جذب الغطاء فانتزعه من مكانه ولفه بالجريدة وسار به يحث الخطى .

أتم مهمته بنجاح فاقتاده قدماه إلى نفس الموضع . . . وحين وقع بصره على فجوة البالوعة عن بعد اضطرب وأسرع قلبه بالخفقان ، ولم يكن قد فرغ بعد من تناول الرغيف الثانى إذ آثر أن يتبلغ به لقمة لقمة كأنه شيء ثمين ، وأسرع مبتعداً عن المكان ، وفى هذه اللحظة حانت منه التفاتة لموضع البالوعة فرأى منظراً تسمر له فى مكانه . . إنه تاجر لبن على حماره سقط فجأة فى فجوة البالوعة فاندلق اللبن من الوعاء الصفيح وسال على أرض الشارع وهوى الرجل إلى الأرض وقد شدخت حافة الأفريز حاجبه فسال دمه بغزارة على وجهه ، ولكنه لم يأبه بالدم النازف من جرحه أو اللبن المراق ، بل استجمع نفسه وهم متقدماً فى رفق ولهفة ليطمئن على حماره الطريح فوجد ساقه اليسرى قد كسرت نصفين ، فولول وأعول واجتمع الناس وتكاثروا والحمار المسكين كلما هم بالقيام هوى ثانية ورجله مدلاة لا يمسكها عند الركبة سوى الجلد . أما الرجل فقد غطى وجهه الدم النازف من جرحه ، وسال على ملابسه فلوث صدره كله ... وكثر الزحام وتعالت الأصوات ... الإسعاف .. عربة الشفخانة ... جمعية الرفق بالحيوان .. كلمات أخذت تنطلق من هنا وهناك كالصواريخ ، واشتد الهرج ، وكان صاحبنا لا يزال واقفاً فى مكانه على البعد ، وفجأة انتابته موجة من الضحك ثم هز رأسه وسار فى طريقه . . .

محمد فهمى

الأستـــاذ عماد

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

« ما نحن ، ما الأيام ، ما الدنيا العريضة ، ما الأمل ؟ »
« لا شيء . . . لكن هكذا بالعيش نغرى والعمل »
« نبكى على الموتى كأنا قد خصصنا بالدوام »
عماد

الأستاذ محمود عماد شاعر نابغة عرفه الأدب العربي منذ أربعين سنة ، وما زال يزود الأدب والشعر من حين إلى حين بقصائد ودرر . وقد رأيت أن أخرجه من عزلته وأن أقطع عليه صمته بحديث عن فنون الشعر ، لعله يفيد المتطلعين إلى أدبنا المعاصر والمقبلين على صناعة الشعر . وفى عصر يوم من أيام الأسبوع الماضى توجهت إلى داره النائية وأقبلت عليه فإذا هو فى جلبابه الأبيض الفضفاض — وهو الرجل النحيل — وإذا بصوته الهادئ المتقطع — وهو الرجل الصموت — يفضح ذاتاً رقيقة شفافة كلها موسيقى ونغم متسكب .

سألته : إلى أى أحد راعيت فى صناعة الشعر أذواق طلابه وقرائه ؟ وهل كان المجتمع أثر ما فى أعمالك الأدبية ؟

وهنا راقت عينه البراقة فى جنبات الحجرة كأنه يراها لأول مرة فى بيته وبدأ كلامه فقال : إنى إذا عمدت إلى نظم قصيدة لا أراعى فى نظمها إلا التعبير الصادق عما يجيش بنفسى . وسواء لدى أفازت بعد ذلك برضا القراء أم لم تفز . وليس فى هذا تعال على المجتمع أو استهانة بأذواق الناس ، لأن الأصل فى الشعر أن يكون تنفيسا لشعور صاحبه .. فهو ملك الشاعر وليس ملكا لسواه . على أن هذا لا يمنع أن يأتى شعور الشاعر فى بعض قصائده متفقاً مع شعور المجتمع فتجىء معبرة عن رأيه أيضاً ولكن بطريق غير مباشر .

فقد نظمت فى أغراض قومية كثيرة كنت فيها متفقاً مع المجتمع ، بينما تجنبت النظم فى أغراض قومية أخرى لم تهزنى كما هزت المجتمع ، وشغلت بنظم قصيدة فى وصف « ساقية جافة » مثلا أو استقبال « نجم جديد » .

قلت : هل راعيت أصولا نقدية معينة فى تعبيرك الفنى ؟ وهل كان لك اتجاه بالذات بين شعراء الفترة التى ظهرت فيها ؟ وما هى الصعوبات التى واجهتها ؟

قال : إنى لم أتعمد أن أراعى أصولا معينة فى أدبى عندما أنظم قصيدة ، لأنى أردت لفنى أن يكون متحرراً من كل شرط وقيد . ولكنى إذا عرضته على ما قرأته من الآراء النقدية أراه متفقاً مع القائلين « بوحدة القصيدة » فالقصيدة فى شعرى « موضوع » له مقدمات وعلل ونتائج . وكل بيت فيها يتمم معناها ويكمل مبناها ولا تكاد تستغنى عنه بحال . وأخالف بذلك رأى العرب فى نظم الشعر .. فقد كانوا يرون استقلال كل بيت فى القصيدة بل كل شطر من بيت فيها عن سائر أبياتها حتى لتستطيع أن تقرأها طرداً وعكساً دون أن تخطئ غرض ناظمها . وهذا يدل على أنهم كانوا يقيدون بشعرهم معانى جزئية تؤديها جمل مستقل بعضها عن بعض ، لا حالات نفسية ملتحمة لا تؤديها سوى أبيات متساندات متعاقبات .. ولذلك قل بينهم الشعراء المتعمقون وكثر السطحيون . هذا فيما يتعلق بغرض القصيدة . أما الأسلوب اللفظى فأرانى آخذا برأى القائلين بالسهولة والبساطة ولكن فى متانة واتساق .

أما اتجاهى بالذات بين الشعراء الذين عاصرونى فهو


محمود عماد

« تمصير الشعر » أي جعله شعراً مصرياً بحتاً لا تقليد فيه للشعر العربي أو الشعر الإفرنجي . فأنظم مستقلاً بتفكيري وتعبيري في حدود بيئتي وزمني ، حتى إذا قرىء شعري في أي صقع وأي زمن عرف أنه قيل في « مصر » وفي « القرن العشرين » . . ولا أعرف بالطبع مدى توفيق أو إخفاق في هذا الاتجاه ، ولكني أعرف أن هذا هو اتجاهي ، أخلص فيه النية وأعقد له العزم . أما الصعوبات التي صادفتني فحسبي منها ما تعارف عليه الناس حولي من أن الشعر لا تقدر قيمته إلا بمقدار قربه أو بعده من شعر الأقدمين . فهو عندهم ألفاظ فخمة تحشد حشداً ولو كانت خلواً من تفكير عميق ورأي مبتدع . وكل من خالف الناس في عرفهم لقي الكثير من عنتهم حتى الأنبياء .

ولم يكد ينتهي من هذه الكلمات حتى آثرته بسؤال آخر قلت فيه : ما رأيك — بصراحة تامة — في شعراء الفترة التي سبقت ظهورك وفي شعراء اليوم ؟ .

وحينئذ أخذ نفساً عميقاً وبدأ يقول : كان شعراء الفترة التي سبقت ظهوري — ومنهم من امتدت أيامه إلى أيامي — شعراء مقلدين .. ليس لهم شخصيات خالقة أو أغراض محققة وإن أصابوا من الشهرة ما أصابوا . ولكن أقدم أحدهم وهو البارودي يصح أن يسمى مجدداً ويجوز استثناؤه من بين الآخرين . فقد كان أسلوب الكتابة في زمن البارودي أسلوباً عامياً سقيماً . . فإذا به يثب فجأة إلى الفصحى بفضل لغته التي تشبه لغة الأقدمين في السلامة والمتانة والوضوح . ولكنه مع الأسف لم يكن مجدداً في أفكاره ومعانيه . وقد تبعه في ذلك شوقي وحافظ ومطران وغيرهم . وكانوا جميعاً متفاوتين في قوائم الشعرية وفي درجات حماسهم للجديد . على أن من الإنصاف أن نذكر مطران ضمن المجددين في مرحلة من مراحل شعره ، إذ أنه بدأ أعماله الشعرية كمجدد ثائر ، ولكن بمضي الأيام أحس قلة الجدوى من التجديد الذي سار على نهجه فانتهى إلى أن يكون شأنه شأن بقية المقلدين . وبذلك جرفه العرف المحيط به وأصبح كغيره شاعر حفلات ومناسبات .

أما رأيي في شعراء اليوم فلا أحمد فيه إلى الصراحة التي تطلبها لأني أقابل الكثيرين منهم كل يوم . . ولست أسوء الحظ من قوة الساعد واكتمال العضل بحيث أستطيع الدفاع عن نفسي ! فدعني أجمل ولا أفصل : شعراء اليوم ثلاث فرق . فرقة المقلدين وهي كثرة غالبة . وفرقة المجددين وهي قلة لا تكاد تذكر . وفرقة تتذبذب بين هاتين الفرقتين ، فلا هي إلى أولاء ، ولا هي إلى أولاء .

وهنا بدر لي أن أدرك مدى إيمان الأستاذ عماد بصناعته فسألته سؤالاً يتصل بمشكلة نقدية معاصرة قلت فيه : هل تعتقد أنه سيكون للشعر دور هام في أداء الفترة القادمة من تاريخ العالم أم أنه سيترك المجال للنثر ويزوي كبقية الفنون المأثورة ؟

وعندئذ وجدت الدم يصعد إلى وجهه وأخذت الكلمات تفلت من بين أسنانه وهو يقول : ما دام الشعر مظهراً من مظاهر الحياة وتعبيراً صادقاً عنها فهو باق ما بقيت الحياة ، ولا أدل على ذلك من أنه لم يفقد من عهد الجاهلية إلى هذا العهد مهما اختلفت لهجاته وأساليبه ، فماذا يفقد فيما يقبل من العهود ؟

وإذا كان النثر معبراً هو الآخر عن الحياة فليس يتوفر له ما في الشعر من موسيقية تحببه إلى الآذان وتغري الشعراء بنظمه وتيسر للرواة حفظه وذكره . ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى أن فن الزوايا وفن الزجل عند العامة ضرب من التعبير الشعري : فالشعر لسان كل طبقة من طبقات الناس وهو باق ببقائها .

وخشيت أن أكون قد أثقلت عليه فقلت : لم يبق غير سؤال واحد وهو سؤال حيوي جداً لاتصاله المباشر بحياة الفنان ذاته . إذ كانت مشكلة أغلب الأدباء والشعراء هي مقدار التوافق الحاصل بين أمزجتهم الفنية وحياتهم المعيشية ، والآن نجد هذه الظاهرة أوضح ما تكون خصوصاً إذا كانت للأديب أفكار معينة ومبادىء مغايرة وطريقة مختلفة . فهل ساعدتك ظروف حياتك على أن تؤدي مهمة الشاعر على الوجه الأكمل أم أنها وقفت في سبيلك وكانت معاكسة لك وتعارضت مع مواهبك وميولك ؟ . أو بمعنى آخر : هل كانت الظروف المعاشية موافقة لعملك الأدبي أم عاملة على تعطيله ؟ وهل كانت الوظيفة « وأكل العيش » عقبة في حياتك الفنية أم أنها جارت ميولك وعاونتك على

أداء مهمتك ورسالتك على نحو ما أردت لنفسك وحسب مثلك الحتذى وهدفك المأمول فى الأدب ؟

وهنا كانت ثورة الأستاذ عماد التى تسبب فيها سؤالى السابق قد انتهت وعاد إلى نفسه مرتكناً بجسمه إلى الخلف قليلاً .. وبدا كما لو كان يبحث فى داخلية روحه عن إجابة هـذا السؤال ، وبدأ كلامه هامساً ثم أخذ صوته يتصاعد شيئاً فشيئاً .

قال : كلا مع الأسف .. فإنى لا أحب الأرقام الحسابية بمطرق ولا فرق عندى بين رؤية مجموعة أرقام أو مجموعة من الضارب والثعابين ! ومع ذلك فقد كانت الأعمال التى زاولتها طوال مـدة خدمتى — وهى تربى على الأربعين عاما — أعمالاً حسابية ، اللهم إلا سنتين اثنتين كنت فيهما سكرتيراً لوزير . وهى وظيفة كانت تقتضى التنازل عن شىء من كرامتى واستقلالى .. وكنت آبى عليها ذلك كل الإباء . وهـذا هو سبب أنى لم أعمر فيها وقتاً طويلاً . والطريف أنى نقلت منها فى عهد وزير أديب ..

هذا نوع العمل . أما الأجر عليه فهو « أقل من أجر المثل » كما يقولون . لأن الوزارة كانت تجـد منى دائماً موظفاً يحسن الاضطلاع بالعمل ولـكنه لا يجيد المطالبة بالأجر . وهى فى الوقت نفسه تحسن الانتفاع بهذه الفرصة كل الإحسان .. ولا شك فى أنى كنت أحس من ذلك مضاضة فى نفسى تمنعنى من التفكير فى الأدب تفكيراً حراً هادئاً .

ولا بأس من أن نختم هذا الحديث بفكاهة تورع بها الكتابة فى الدواوين . أملى علىّ رئيسى يوماً — فى أول عهـدى بالوظيفة — كتاباً رجياً من ناظر وقف اسمه (ضرغام) فكتبته بالضاد كما ترى . ولـكن ما كاد الرئيس يراه حتى صاح بى ساخراً : « أهذا ما تعلمتموه فى المدارس ؟ أخطىء « الضاد » واكتبها « دالا » يا أفندى » . فدهشت وقلت : بل إنها « ضاد » لأن كلمة ضرغام معناها أسد أما « درغام » فلا معنى لها .. فانتهر ضاحكاً وقال « يا ابنى وما للأسد يا بنى .. إنها ليست آتية من هنا ولـكنها آتية من قولهم « مدرغم » !!

وكتبت له يوماً خطاباً آخر فيـه جملة (فى غضون السنة) فرأيته يتناول البراة فى صمت ويكشط بها النقطة التى على (الضاد) فصارت (صاداً) وأعاده إلىّ زاماً شفتيه أسفاً وسخرية . فقلت له « بل هى (ضاد) لأن (غضون السنة) معناها أثناؤها » . فقال « اللهم طولك يا روح . بل هى غصون السنة بالصاد تشبيها لها بالشجرة الـكثيرة الغصون !!

وكذلك كانت ترد فى كتاباته كلمات (الناظر عاطل فى تقديم الحساب) يريد (مماطلا) و (فولوا تكان) بدلاً من (فلو كان) وغير ذلك ...

وإنى لأترك لك بعـد ذلك الفرصة كى تدرك أىّ جو كنت أعيش فيه ومدى اقترابه من الجو الشعرى .

فهببت من كرسىّ وأنا أقول : لك الله

نعم .. له ولأمثاله من الأدباء والشعراء والفنانين إله يرعاهم فى هـذا البلد .. فليس أدعى لقلة الشأن من أن تكون صاحب صناعة فنيـة وأنت موظف فى دواوين الحـكومة .

عبد الفتاح البرمى

الثقافة

العـــدد ٧٠٤
٢٣ من يونيه ١٩٥٢

مجلة أسـبوعية للآداب والعـلوم والفنون
تصدرها لجنـة التأليف والترجمـة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

صفحة

ظمأ

إنى على شط الحياة أسير لا أدرى المقر
وبظلمة الكون الكبير أدب فى وجل وذعر
أمشى وفى جنبى من ألمى أوار يستعر
والصخر يعترض الطريق للوحش القاسى الأمر

• • •

واليأس والأحزان والريح الغضوب ولوعتى
والصمت والحرمان والآلام تملأ جعبتى
وجراح قلبى الداميات الثائرات وشقوتى
لا نور لا أفراح لا أشواق . . . لا زهر وعطر

• • •

إنى أسير أدب مذعور الخطى بين الصخور !
من أين ؟ لا أدرى ... ولا أدرى إلى أين المصير ؟
لكن أسير ولا أعى ما بعد ذلك السير
حيران فى ظلم العذاب أدوس أشواك القدر

• • •

ونسيت مزهرى الحبيب وروعة النغم الحبيب
ونسيت أفراح الهوى ونسيت قيثارى الطروب
وبقيت وحدى والأسى والحزن والأمل الكذوب
وعلى فمى أشلاء بسمة عهدى الخالى الأغر

• • •

وبقلبى الدامى أنين صامت الشكوى دفين
وبروحى الظامى حنين صارخ طاغ مكين
للحب للأضواء للأنسام سكرى للحون
للزهر للأمواج للشطآن فى ضوء القمر

أحمد إبراهيم جاد

تضرع

مالى وما العمر إن طال وإن لم يطل
ما العمر ؟ مالذته ؟ إن لم تكونى أنت لى
يا بسمة الفجر إذا ما الليل عنه ينجلى
يا نفحة الخلد ويا تسبيحة الرتل
يا حلماً داعب أجفانى وأحيا أملى
يا طلعة البدر ، إذا البدر أطل من عل

• • •

مررت فالدرب اكتسى بالفل والقرنفل
وود لو يلثم أقدامك ماء الجدول
وارتدت الدنيا من الفرحة أبهى الحلل
واكتمل الحسن ، ولو لم تطلعى لم يكمل
تيهى على الدنيا ، كما شاء الصبا تدللى

• • •

إنى وما ملكته ، فداء طرف أكحل
فداء قد مائس ، فداء جيد عيطل
فداء من لو طلبت روحى — بها — لم أبخل
ومن على عهدى لها كنت ولما أزل

• • •

يا من لها يطيب فى شرع الهوى توسلى
ما ضر لو أنلت كالأنسام فى تمهل
وجئتنى كما يجىء الطير عذب النهل
هنيئة ، ننعم فى دنيا الهوى والغزل
يغمرنا الطهر كما يغمر قلب المرسل
ننسى بها الدنيا وما قبل وما لم يحصل

الدغارة — العراق
عبد الكريم مجيد عطاء

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العــدد ٧٠٤ — الاثنين ١ من شوال سنة ١٣٧١ — ٢٣ من يونيه سنة ١٩٥٢ — السنة الرابعة عشرة

حول حياتنا الأدبية :

بين الأمس واليوم

للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

الدنيا تتغير والظروف تتبدل وليس لها إلا أن تتغير وتتبدل لأن الكون لا ينبغي له أن يستقر على حال . هذه حقيقة بديهية تبدو تافهة لأن الجميع يعرفونها ويحسونها ولا حاجة بهم إلى من يذكرهم بها . ولكنها مع ذلك حقيقة خطيرة يجب علينا أن نجعلها دائماً نصب أعيننا وأن نرددها لأنفسنا ويبثها بعضنا إلى بعض كلما أردنا أن نفكر في حاضرنا وفي مستقبلنا . الدنيا تتغير حقاً سواء أردنا أو لم نرد وسواء رضينا أو سخطنا ، فإذا شئنا أن نستحق الحياة كان علينا أن نعرف حقيقة التغير الذي طرأ علينا وأن نهيء أنفسنا لتغير آخر نستقبل به الأجيال الجديدة التي لا تتوقف عن الزحف لحظة واحدة .

كانت حياتنا منذ عهد غير بعيد يغلب عليها ما يمكن أن نسميه الاستقرار إذا أردنا أن نختار له وصفاً حسناً ، كما يمكن أن نسميه الجمود والخمود إذا أردنا أن نختار له وصفاً قبيحاً . كانت تلك الحياة الماضية تعترف ببعض القيم الثابتة ولا تتسامح في شيء يهدد بالعبث بها ، ولا ترضى عن أحد يحاول أن يناقشها أو يراجع في أمر يتصل بها .

كان كل شيء في مستقره وكل وضع قائماً على أساسه الراسخ ، لا يظن أحد أن في الإمكان زحزحته عن موضعه قيد شعرة . كان للأسرة بناؤها الثابت وللمرأة حدودها الواضحة وللشرف أصوله المعروفة .

وكان لفضائل الأخلاق معناها الواضح : العفة ، الغيرة ، الكرم ، الشهامة ، الإيثار ، التواضع ، الأمانة ، الخجل ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، التقوى ، وغير ذلك من المعاني . ولكن وا أسفاه ! كانت كل هذه القيم لا تزيد على مثل عليا نجلها ونقدسها ونخشى أن ينالها السوء عندنا ، كأنها آلهة جبارة نعبدها ونرهبها ونصلي لها لأننا نخشى عقوبتها .

ثم تعاقبت عليها السنوات وتبدلت الظروف وتغيرت الدنيا ، وأخذ الناس يضيقون بالحدود والقيود ، وبدأ المتمردون من أهل الفكر يجادلون ويناقشون ، وجهر بعضهم بما في نفسه

من الشكوك ، وحسب الناس أن هذه المجادلة قد تؤدي آخر الأمر إلى إزالة الرهبة وإحلال المحبة في مكانها ، وظن المتفائلون أن القيم المستقرة ستبعد الغبار ولا تسمو بها وأن مناقشتها تؤدي إلى نفض الغبار عنها وإزالة النفاق عن الغبار ، فتصبح بعد حين أكثر إدراكا لحقائقها ، وأصدق إيمانا بها ، ولكن وأسفاه مرة أخرى ! فما هو إلا أن تجرأ المتمردون من أهل الفكر على تلك القيم الثابتة ، وما هو إلا أن نادوا بالتحرر والانطلاق حتى تدفق الشك إلى كل ما كان الناس يؤمنون به ويخشون المجادلة فيه ، ولم تلبث القلوب أن كفرت بكل القيم التي ظلت مسيطرة عليها قروناً طويلة ، وبدأت تتهمها بأنها السبب في تأخرنا والقعود بنا عن مسايرة الأمم الأخرى . وانتهى بنا الأمر إلى أن هدمنا كل المثل التي كنا نتمسك بها كما يهدم الوثني إلهه في ساعة من ساعات الحنق إذا لم يجده قد استجاب لدعائه .

هدمنا ما ورثناه عن أجدادنا ولكننا لم نقم في مكانه بناء جديداً يصلح لحياتنا الجديدة ، وأصبحنا في العراء لا نجد ملجأ قديماً ولا حديثاً .

هذا ما آل إليه أمرنا بعد طول المجادلة والمناقشة في مثلنا القديمة وفي تراثنا وتقاليدنا المستقرة ، وصرنا معلقين في الفضاء لا نجد شيئاً نطمئن عليه بأقدامنا . هذا هو مبعث القلق الذي نحسه من حولنا أنى اتجهنا ، وهذا هو سر ما نسميه اليوم انحلالا وتهتراً ويشيع الأسى والتمزق في نفوسنا .

وهكذا نجحنا في التحرر من القيود القديمة وانطلقنا وراء الحدود المحترمة ، ولكنا لم نجد أمامنا غاية مقصودة ولم نعرف لحياتنا معنى . فما هي الغاية التي نحيا لها ، وما هي المعاني التي لا نجد للحياة قيمة بدونها ؟ أصبحت الأنانية هي الغاية وهي المعنى : اللذة والسلطان واهتبال الفرصة وانتزاع الخيرات من بين الأيدي المتزاحمة ، والاصطدام والصراع . لا ينظر الناس إلا إلى ما تحت أقدامهم ليلتقطوا من الأرض قطعة من ذهب ، فإذا رفعوا رؤوسهم عن الأرض لم يبحثوا إلا عن وجه يجدون فيه متعة الجسد . وما كان هذا هو الذي قصد إليه المفكرون المتمردون عندما بدأوا يناقشون القيم القديمة ويجادلون في الحدود المستقرة .

ولكن الدنيا تتغير والظروف تتبدل ، وليس في هذا الكون ما ينبغي له أن يبقى ثابتاً أبداً ! وإذا كانت المثل القديمة الثابتة قد زعزعت حتى انهزمت وتحطمت أو كادت ، فإن هذا الاضطراب الذي صرنا إليه لا يمكن أن يبقى . بل لقد أخذ المفكرون المتمردون من الأدباء مرة أخرى يتناولون هذه الحالة التي صرنا إليها تناولا عنيفاً ، وبدأوا يصورون ما فيها من تفاهة ومن سخف ومن عفن وسم ، وبدأوا يكشفون الستار عما تحت المظاهر البراقة من آلام وشقاء وقبح .

فإذا كنا بالأمس قد بكينا مع الأدباء المتمردين من قسوة السيطرة ومن الخضوع الأعمى للقيود والحدود ، وإذا كنا بالأمس قد سرنا أول الشوط نبكي مع الأدباء الباكين المطالبين من ثقل الركام القديمة ، وننشد التحرر من تحتها ، فإننا اليوم في بدء نهضة جديدة في الفكر والوعي . وها هو ذا موكب الأدباء المتمردين يستأنف السير مرة أخرى في شوط جديد .

ولكن هذا الأدب الجديد لا يبكي ولا يشكو ، بل هو صنف جديد من الأدب الحانق الساخر القاسي الذي يضرب في عنف ولا يتردد . ها هو ذا الأدب الجديد يغوص في الحياة المضطربة المتحللة التي صرنا إليها ويندس إلى أغوار ما فيها من أنانية وقذارة وبشاعة ، ويحاول أن يجادل فيها ويناقش على أسلوبه الخاص . بل إنه لا يناقش ولا يجادل ، ولكنه يمسك بتلابيب هذه الحياة الفاسدة ويهوي عليها بالسياط بعد أن يجردها من ثيابها .

ولعلنا نضرب لهذا الأدب بعض أمثلة من إنتاج النوابغ من أدبائنا الشبان لنظهر شيئاً مما نقصده بهذا الحديث العام تحية منا لهذه النهضة الرائعة في أدبنا .

محمد فريد أبو حديد

مدرســــة جديدة

للدكتور أحمد أمين بك

قرأت فى إحدى الصحف الإنجليزية أن أستاذاً انجليزياً اسمه مستر بلوم أنشأ مدرسة جديدة ، وجعل أساسها عدم الخوف مطلقاً ، من أى صنف كان ، لا خوف من الأساتذة ، ولا خوف من الامتحانات ، ولا خوف من العقاب يؤدب به الطلبة ، ولا غير ذلك من أنواع الخوف . وقد أرصد النتائج لذلك ، فقال إنها أنتجت نتائج باهرة ، فالطالب إنما يحتمد على ضميره . وقد خرج من المدرسة شاعراً بالحياة ، مبتهجاً بها . بل جعل مجلس شورى للطلبة ، ومن الطلبة ، يضع لهم مناهجهم ، ويوجه نظرهم إلى ما يجب أن يعملوا ، وما لا يعملوا .

وقد لفت نظرى هذا ، إلى أن من فكر فكرة جديدة ، يمكن له أن يجربها فى حرية ، فإذا نجحت عممت ، سواء فى ذلك الأفراد والحكومات . أما عندنا فلا بد أن ينصب التعليم فى قوالب معينة ، ومن نادى بفكرة جديدة أهمل ، ولم يلتفت إلى فكرته .

وقبل ذلك نادى ابن خلدون فى مقدمته بعدم التخويف وأبان أنه ضار بالتعليم . يقول : « إن الشدة على المتعلمين مضرة بهم ، وذلك أن إرهاف الحد بالتعليم مضر بالمتعلم ، سيما فى أصاغر الولد . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم ، سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه إلى الكسل ، وحمله على الكذب والخبث ، وعلمه المكر والخديعة .

وصارت له هذه عادة وخلقاً ، وفسدت عليه معانى الإنسانية التى له من حيث الاجتماع والتمرن » .

ونظرة ابن خلدون وتعليله تتفق مع نظرة الأستاذ بلوم ، غير أن بيئة بلوم مكنته من نشر فكرته ، وتحقيق رغبته ، وأما بيئة ابن خلدون ، فجعلت نظرته مدفونة فى كتابه إلى يومنا هذا . وكم له من نظرات صائبة .

وإذا قرأت ذلك ذكرت ما لقيته فى حياتى من تعذيب وتخويف من مبدأ صباى . فكان أبى شديداً قاسياً ، يضرب ويشتم حتى على ما لا يستحق الشتم . وذهبت إلى الكتاب ، فكان فقيه الكتاب قاسياً شديداً ، يضربنى حتى لأنى لم أهتز وأنا أقرأ . وفى المدرسة الابتدائية كان لنا مدرسون يضربوننا ويعاقبوننا أشد العقاب ، حتى لأتفه الأسباب . ولما ذهبت إلى مدرسة القضاء خوفونا من الامتحان ، فكان من يسقط فى الامتحان ولو فى مادة واحدة ، منعت عنه المكافأة التى يأخذها كل شهر . . . كل هذا جعل الحياة قاتمة ، والنفس غير مبتهجة ، تحزن لما يحزن ، ولا تفرح لما يفرح . فإن بقيت بقية قليلة من التمتع بالحياة ، فذلك من فضل الله . وإلا فأساليب التربية كفيلة بإماتتها . وكم فى الأمة من نفوس ماتت من أساليب القسوة ، وفقدت قيمتها ، وكانت تكون ، متفتحة مشرقة ، مصدراً لخير كثير ، لو عوملت معاملة حسنة .

وبعد : فلو فتحت مدرسة فى مصر على هذا النمط . أتعيش وتنجح ؟ أم تموت وتفشل ؟ . إن هذا محل تفكير طويل . فالمدرسة الحرة التى تؤسس على عدم التخويف يجب لتنجح أن تكون فى بيئة مشبعة بالحرية ؟ أما بلد ضيقت فيه الحرية من قرون ، وكل ما حول الناشئين ظلم وتعذيب ، وتعويد أن لا يعمل الشئ إلا خوفاً من عقوبة أو رغبة فى مثوبة ، فمن الصعب أن ينشأ فى وسط هذه البيئات جو مملوء بالحرية . إن أردت أن تنجح مثل هذه المدرسة ، فأصلح بيئتها ، وما حولها . أصلح البيت ، وأصلح الكتاب ، وأصلح معاملة الشرطى للعامة ، ومعاملة العمد للفلاحين ، والمأمورين للعمد ، والمديرين للمأمورين ، لأنها كلها سلسلة مرتبط بعضها ببعض .

ومحال أن تعيش نظيفاً فى وسط القاذورات ، أو تسلك سبل الفضائل ، وحولك ما لا يحصى من الرذائل . وكانت العرب قديماً تقول :

« ما أشبه تحجل الجبال بألوان صخورها » .

أحمد أمين

الدكتور أحمد زكى أبو شادى

فى ديوانه «من السماء»

للأستاذ عيسى الناعورى

[ليس فى مصر من يستطيع أن ينسى الشاعر العالم الدكتور أحمد زكى أبو شادى . فقد كان كما يعرف الجميع رائداً من رواد الأدب والفكر كما كان من رواد العلم والبحث . وكان فوق كل هذا من المخلصين الأوفياء لأسمى معانى الحرية . وها هو ذا الأستاذ عيسى الناعورى يتحفنا بهذه الكلمة الرقيقة صدقاً وعمقاً . ويسرنا أن نقدمها إلى قراء الثقافة تحية لولد مصر الكبير] .

يطيب لى أن يكون موضوع حديثى هذه المرة الصديق الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، الرجل الذى تعددت مناحى ثقافته ، فكان له مشاركة فى العلم وفى الأدب وفى الفن ، وهى مناح يندر أن تجتمع معاً لإنسان ، فهو فى العلم مختص بالأبحاث البكتريولجية ، وبتربية النحل ، وفى الفن رسام ، سيقام قريباً فى نيويورك معرض لرسومه الزيتية ، وفى الأدب شاعر صدر له حتى الآن ثلاثة عشر ديواناً ، ولا يزال لديه نحو ديوانين جديدين لم يصدرا بعد ، وناثر وباحث وناقد ، يكتب ويذيع كثيراً فى دراسة الأدباء المعاصرين ، والأدب المقارن ، وله عدد من المؤلفات النثرية المطبوعة وغير المطبوعة فى الأدب وفى نواحى اختصاصه العلمى ، وفى الصحافة الأدبية والعلمية .

فإذا جمع إنتاج أبى شادى الشعرى والنثرى والفنى المطبوع والذى فى سبيل الطبع القريب كانت لدينا مجموعة كبيرة جداً تدل على نشاط غير محدود ، وعلى إخلاص للعلم وغيرة على الأدب جديرين بالتقدير وأطيب الثناء .

وعلى الرغم من هذا الإنتاج الخصب ، وهذا الإخلاص الكثير ، فالدكتور يشعر بأنه لم يجد فى حياته غير العقوق والنكران ، مما جعل حياته فى مصر صراعاً بين عالم نفسه النزاع إلى الخير وإلى الخدمة الخالصة ، والعالم الخارجى الذى عبث الحسّ ويقضى على الإخلاص بعقوقه السكافر . وهذا الشعور هو الذى حمل الدكتور على مغادرة مصر إلى حيث يستنشق رائحة الحرية والتقدير فى أميركا ، وكان بودّه أن يمضى إليها مع زوجته ، ولكن القدر القاسى الذى حاربه طويلا أبى إلا أن يتم حربه القاسية بسلب زوجته منه وهما على أهبة الرحيل ، وفى ذلك يقول فى قصيدته «رثاء زوجتى» وهى من أروع شعره ، وأعمقه عاطفة وأنبله معانى :

كنّا نعِدّ للرحيل متاعنا ... ونشقّ الآمال غير بطاء
ونهيب بالدنيا لتشهد حظنا ... ونهزّ الأيام والأنباء
ونردّ عادية الأنام تسامحاً ... مستغفرين لجاحد ومرائى
متسابقين تملأ الدنيا منى ... بالحب والإيثار والإيحاء
فإذا رحيلك للثرى ، ووداعنا ... للحظ ، والباقى الكليم ذمائى
غدرت بى الدنيا كأنى لم أضع ... فيها الثناء فما أفاد ثنائى
ووهبتها كرماً عزيز مواهبى ... لجنت على شبابى وعطائى
كم كنت أحلم بالهناءة والرضى ... لك فى نهاية عمرك النائى
وأعدّ عمرك وحده عمرى وما ... أرضى سواك من الحياة جزائى
فتناثر الحلم الجميل وأقفرت ... دنياى من حلم ومن أضواء

ويلاحظ القارئ شكوى الشاعر من عقوق الناس وتنكرهم لمواهبه فى هذه القصيدة ، كما سيجد النغمة نفسها تتكرر فى عدد كبير من قصائده المبثة فى صفحات ديوانه «من السماء» وديوانه الآخر غير المطبوع «الإنسان الجديد» وغالباً ما تكون هذه الشكوى مرافقة لشعره الوطنى المعبّر عن حنين لهيف وإخلاص شديد لوطنه ، كقوله من قصيدة

بعث بها إلى صديقه الشاعر المهجري نعمة الحاج :

وكن كأخيك الشقيّ الصبور … على رزء يستطيب الضرر
يجود بأنفاسه الواهيات … لأوطانه فيلاقي البطر
ورجع الطغمة الحازلون … وقد خادعوا الشعب حتى انفطر

أو قوله من قصيدة عنوان «القلب الباكي» ، أرسلها في التعبير عن حنينه إلى مصر ، في ذكرى عيد ميلاده :

يا مصر لولاك ما فارقت في حرقي
أزكى الجنان ولا حرقت لولاك
أهواك في غربتي أشتاق ما سمحت
به المقادير في قربي لأهواك

أنت عليّ كفاحي عندما أذنت … القادرون فعاثوا في حماك
ما البعد عندي عيد في مباهجه … أنا القريب فعيدي يوم ألقاك
على سلام وفي حرية ثملت … لا أن أعود لأغلال وأشراك
الثلج حولي أحيي في تحرره … على فؤادي من ضيم جنيناك

ولعلّ من أروع الأمثلة على صدق وطنيته ولهفة حنينه القصيدة التي قالها وهو يودّع مصر إلى أمريكا ، وعنوانها : «استقبال أمريكا» ، ويعبّر فيها من عمق شعوره بشكر الناس له في وطنه ، فيقول خاطباً وطنه الأمريكي الجديد :

فأمسى مأتم لفراق أهلي … ويوم الحزن في نجواك عيد
ولو أني المخلف في بلادي … معالم حبّها باق أكيد
ولو أن الرجال بها استرقّوا … وفيك تحرر السود العبيد
أردنا أن نقومها فآبت … وعوقبنا ، وصال المستبد
وضحينا لعزتها فآذت … كرامتنا ، وبش لها الحسود
وعاث بها المضلل فيجلبه … وقدّاها أبيها وهو الطريد

وأبرز ما يبوح الشكوى في قصيدة من ديوانه «الإنسان الجديد» بعنوان «لم ارتحلت» يقول فيها :

سألوني ، لم ارتحلت ؟ كأني … لم أجبهم بسيرتي نصف قرن
شادياً بالطليق من شعري الباكي

أغني … لجمهم … ما أغني
وتلفت بالعذاب وبالبؤس … مراراً ، وكل حظي التجني
وكأني وحدي البلي بإحسان … لمصري ، أو أنه لم يسمني
ما كفاهم أني أضحي بروحي … حيثما عز من يضحي ويفني
ما كفاهم أني تناسيت نفسي … فوق نسيانهم حقوقي وأمني
ما كفاهم هذا وهذا فنادوا … بحقوقي ، وما رعوا في ستي
فترحلت حيث يحترم الأحرار … حيث الهواء طلق المحن

وأظل الوفي رغم اغترابي … لبلادي ما خنت قط بعهدي

إن هذا الشعور الأليم الذي يعبر عنه شاعرنا الدكتور في عدد كبير من قصائده ، لهو مدعاة إلى الخيبة واليأس ، من هذا الشرق الذي هو الرئة البارزة لشرقنا الذي لا يعرف قيمة للمخلصين العاملين من أبنائه . ولكن هؤلاء الأبناء لا تزيدهم النكران ، والاغتراب إلا حباً لوطنهم وإخلاصاً له .

وقد عبر الدكتور أبو شادي عن هذا الحب وهذا الإخلاص في عدد كبير من قصائده المنشورة في ديوانه «من السماء» وفيما نظمه بعده ، كقصيدته «نداء الحرية» المنشورة في جريدة «السائح» إبان معارك الحرية الأخيرة في قنال مصر

بعد هذا ننظر في شعر أبي شادي من ناحيته الفنية وفي آرائه الخاصة في الشعر وطرائقه ، لأن هذه الآراء هي التي تسمح لنا بالحكم في شعره .

(للبحث بقية) … عيسى الناعوري

جامعة فاروق الأول
كلية الآداب
جائزة المسيو ابراميتو برشيلون

تعلن كلية الآداب بجامعة فاروق الأول عن مسابقة لنيل جائزة المسيو ابراميتو برشيلون الأدبية بالشروط الآتية :—

١ — موضوع المسابقة لهذا العام هو «الأدب الحديث في السودان» .

٢ — المتسابقون هم المتخرجون في كلية الآداب بجامعة فاروق الأول أو المعيدون والمدرسون بها .

٣ — يقدم البحث من أربع صور إلى كلية الآداب بجامعة فاروق الأول قبل آخر أكتوبر سنة ١٩٥٣ .

٤ — أفضل بحث تراه الكلية يمنح جائزة قدرها ٦٢ ج و٣٩٠ مليم وهو مقدار ريع الجائزة المذكورة في فترة ١٩٤٧/٤٦ و١٩٤٨/٤٧ .

١٩١٦

هل من جديد عن ميل ؟

— ٢ —

للآنسة بثينة عبد الحميد محمد

أشرنا في المقال السابق تحت هذا العنوان إلى ناحية أهملها نقاد الكاتب الإنجليزى الكبير . ج . س . ميل ، وهى الناحية الأدبية . ونود هنا أن نلقى ضوءا على بعض آرائه فى مسائل مختلفة اعتاد الباحثون نسبتها إلى الصادقين الذين جاءوا بعد (ميل) ، ثم نختم المقال بذكر آرائه التى يمكننا الاستفادة منها فى عصرنا هذا ، فى مصر .

أما عن النقطة الأولى فإن النقاد يجمعون على أن ميل آخر فيلسوف فى المدرسة النفعية ، ولا يفطنون إلى فضله فى أنه كان أول من عمل على القضاء على هذا المذهب . ولكنى عثرت على إحدى المحاضرات التى ألقاها ذلك المفكر فى « جمعية المناظرات » بلندن فى سنة ١٨٢٨ يعلن فيها انشقاقه على زعماء المذهب النفعى ؛ وقد أوضح ميل أوجه الخلاف بينه وبينهم فى كتابه عن المذهب النفعى . وهناك محاضرة أخرى ألقاها فى نفس السنة توجه نظر الحكومة إلى وجوب العمل على إصلاح حال الشعب عقلياً وخلقياً بالرغم من أن الرأى العام كان مخالفاً كل المخالفة لفكرة تدخل الحكومة فى تربية الشعب ، والرأى السائد بين النقاد يرمى إلى أن ت . هـ . جرين ، الذى لم تنشر مؤلفاته قبل عام ١٨٧٩ ، هو الذى حمل الحكومة هذه المسئولية .

والحقيقة هى أن ميل كان أول من لفت النظر إلى أن الحرية ليست مجرد التنصل من المسئولية ، وترك الفرد يتصرف كيفما يشاء . فالحرية عنده لا تتنافى مطلقاً مع المحافظة على النظام والتدريب على الطاعة ، بل الحرية عنده هى أن تهيء لكل فرد فرصة التقدم والرقى إلى الدرجة التى تمكنه من أن يسعد نفسه ويسعد المجتمع الذى انتمى إليه ، وهو يرى هذه الرغبة فى الإسعاد إنما تكون بدافع من الفرد نفسه أو بشعوره بالمسئولية نحو غيره من الأفراد ونحو نظام الحكم الذى يخضع له . وقد جرى الناس كما قلنا من قبل على نسبة هذا الرأى إلى جرين وبرادلى وبوزانكيه ، ولكن هؤلاء جميعا مدينون به لميل .

وكان للعلامة ميل فضل آخر فى ميدان الاقتصاد ، فإن الفكرة الحديثة عن الدين الوطنى وأنه لا ضرر منه بوصفه ديناً على الدولة ، إنما هى من ابتكاره وابتداعه . فهو يرى أن الضرر من الدين يرجع إلى اختلال التوازن بين مقدار الدين والدخل الوطنى .

وقد فصل هذا الرأى فى الباب الخاص بهذا الموضوع فى كتابه عن الاقتصاد السياسى . كما أنه فى سنة ١٨٤٨ لفت النظر إلى الدور الذى يلعبه الدين الوطنى فى تقليل الأثر السيء الذى ينشأ عن الفروق المادية الكبيرة بين طبقات الشعب ، فقد نادى بالمبدأ الذى ساد فى القرن العشرين ، وهو أن الدين طريقة لادخار الطبقات العاملة الأقل رخاء ، يجنون من ورائه نسبة معينة من الدخل .

وقد اهتم ميل اهتماما كبيراً بالطبقات العاملة وبحالة النساء ، والقوانين المجحفة الخاصة بهن والتقاليد التى حرمتهن من المجتمع حقوقهن الاجتماعية والسياسية ، وهذان الموضوعان من أهم ما يشغلنا نحن فى الوقت الحاضر . فأما حقوق المرأة السياسية فأنصارها وخصومها كثيرون ، فبهم رجال وسيدات ، وفيهم من رجال الدين والسياسة والقلم ، ولكنها حقوق سوف تحصل عليها المرأة المصرية عاجلا أو آجلا .

وأما الطبقات العاملة فيمكن تقسيم آراء ميل فى شأنها إلى ثلاثة أقسام : ا — النساء فى المصانع . ب — العمال فى المزارع . حـ — الطبقات العاملة على العموم .

اعتقد ميل اعتقاداً راسخاً بأن المرأة لا تقل كفاية عن

الرجل في ميدان الصناعة ، وهو يرى أن الأفضل لها العمل بنفسها وعدم الاعتماد على عائل من الجنس الآخر ، على أن يكون أجرها مساويا لأجر الرجل كلما اتفق نوع العمل الذي يؤديانه .

وقد عضد ميل فكرة توزيع قطع صغيرة من الأراضي الزراعية على عمال المزارع أو على من يتمكن منهم من إصلاحها واستغلالها ، حتى يشعر كل منهم بالطمأنينة في عمله وفي حياته ، فيعمل على زيادة الإنتاج وجني ثمرة عمله في الوقت نفسه .

أما من جهة طبقة العمال على العموم فقد كان ميل يجاهد في سبيل رفع مستواهم عقلياً وخلقياً ، وتشجيع بعضهم على الهجرة إلى أراض يمكن استثمارها ، وكان ميل أول من لفت النظر إلى النتائج السيئة الاجتماعية والصحية والعقلية الناتجة عن الحركة المستمرة على وتيرة واحدة في المصانع ، نتيجة لتوزيع العمل وقيام كل عامل بجزء يسير من عملية الإنتاج العامة . وقد رأى أنه من الضروري أن تتدخل الحكومة في تنظيم ساعات العمل ، وألا تحرم العمال من وقت الفراغ الذي يمكنهم من التمتع بالراحة أو تغيير نوع العمل ، وكذلك كان من رأيه ألا يحال بينهم وبين الاجتماع أو الانضمام إلى نقابة أو اتحاد ينظر إلى شئونهم بعين الرعاية . أما من جهة الأجور فقد كان من رأي ميل أن يعطى كل عامل جزاءه العادل من ثمرة عمله . وقدم ميل نظريته الشهيرة عن « الاعتماد الخاص بالأجور » ، وهي تتضمن أن الأجور لا يصح أن تكون ثابتة مهما كانت حالة التجارة أو مستوى الأسعار ، بل ينبغي أن تكون عرضة للتقلب باستمرار نتيجة للتغير الذي يطرأ على عدد العمال بالنسبة إلى المبلغ المعتمد للتوزيع عليهم . ولم ير ميل سوى وسيلتين يمكن اتخاذ إحداهما لتحسين مستوى الأجور : الأولى هي زيادة « الاعتماد الخاص بالأجور » والثانية هي الإقلال من عدد من يوزع عليهم الاعتماد . فأما الوسيلة الأولى ففي رأيه أن الأجور إذا ارتفعت فسوف يؤدي ذلك حتماً إلى زيادة في النسل ، ثم إلى زيادة عدد العمال ، فلا تلبث الأجور أن تهبط إلى ما كانت عليه . وأما الوسيلة الثانية فهي تدخل الحكومة في تحديد عدد أفراد الطبقة التي يستمد العمال منها ، وذلك مثلا بتعيين سن متأخرة للزواج ، أو عدم السماح بتكوين أسرة إلا لمن تتوافر لهم القدرة على الإنفاق عليها . ذلك أنه إذا قل عدد أفراد الأسرة ارتفع مستواهم الاقتصادي والاجتماعي ، وتمكنوا من الاستفادة بأجورهم في تحسين حالتهم المادية والحصول على ما هو بعيد عن متناول أيدي الأسرات الكثيرة العدد ، كما أن تحديد النسل يمكنهم من تربية أبنائهم تربية صحيحة ، فنوع الأبناء أكثر أهمية من عددهم .

ولما كان المستوى المادي والاجتماعي يتناسب تناسباً عكسياً مع عدد أفراد الأسرة ، كان أنجع علاج لرفع هذا المستوى بين الطبقات العاملة هو ألا تشجعهم القوانين على الزواج المبكر والإكثار من النسل ، ثم تربيتهم تربية تمكنهم من تفهم الغرض الذي سوف يتحقق من العمل بمثل تلك القوانين ؟

بثينة عبد المجيد محمد

في جنـــة عبقر

— ٢ —

للأستاذ شاذل طاقة

— ٤ —

لله هؤلاء الشعراء شياطين عبقر ! إنهم يألمون مرة ثم يحيون الألم مرة أخرى فكأنهم يألمون مرتين . . . ألا إن الألم هو الينبوع الزاخر الذي يتدفق منه الشعر . ولا أشك في أنكم ستتفقون معي على أن الآثار الفنية التي خلقها ألم الشعراء أروع كثيراً من غيرها . وأمامكم الرثاء وأوصاف النفس المتألمة من الحب فإنكم ستجدون فيها كثيراً من العواطف والأحاسيس والشواعر الأليمة . اقرأوا قول متمم ابن نويرة الجاهلي يرثي أخاه مالكا :

لقد لامني عند القبور على البكا
صديقي لتذراف الدموع السوافك

يقـــول أتبكي كل قبر رأيته
لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له إن الشجى يبعث الشجى
فدعنا فهـــذا كله قبر مالك

أو اقرأوا قصيدة ابن الرومي في رثاء ولده الأوسط :

توخى حمام الموت أوسط صبيتي
فلله كيف اختار واسطة العقد

على حين شمت الخير من لمحاته
وآنست من أفعاله آية الرشد

طواه الردى عنى فأضحى مزاره
بعيداً على قرب قريباً على بعد

أعيني جودا لي فقد جدت للثرى
بأنفس مما تسألان من الرفد

أو اقرأوا قول جميل بثينة في وصف آلامه :

يقولون جاهد يا جميـل بغزوة
وأي جهـــاد غيرهن أريد

لكل حديث بينهن بشاشـــة
وكل قتيـــل عندهن شهيد

وأحسن أيامي وأفضـــل عيشتي
إذا هيج بي يوماً وهن قعود

إذا قلت ما بي يا بثينـــة قاتلي
من الحب قالت ثابت ويزيد

وإن قلت ردي بعض عقلي أعش به
مع الناس قالت ذاك منك بعيد

فلا أنا مردود بما جئت طالبا
ولا حبهـــا فيما يبيد يبيـــد

فإنكم ستجدون الحزن هو الذي دفع الشاعر إلى اكتشاف هـــذا العالم الروحي الذي حرره الألم فطهره من الأدران ، ولعلكم ستتفقون معي ومع الشاعر الانكليزي الشاب كيتس الذي قال إن الشعراء يألمون الألم مرة فيتألمون ثم يحيون الألم مرة أخرى في تجاربهم الشعورية فيألمون مرتين ، لأن الشاعر لا يستطيع أن يعبر عن ألمه في الوقت الذي يدهمه ذلك الألم تعبيراً مؤثراً ، بل لابد من أن يحيا الألم مرة أخرى حين يعاني تجربته الشعورية . والحق أن النفس الإنسانية بأشجانها وأتراحها بجميع أطوارها ينبوعان دافقان من ينابيع الوحي الشعري ، وإذا كنت في شك من أمر هواه فاقرأ قول ابن الرومي :

أعانقها والنفس بعد مشـــوقة
إليها وهل بعد العناق تدان ؟

وألثم فاها كي تزول حرارتي
فيشـــتد ما ألقى من الهيمان

وما كان مقدار الذي بي من جوى
ليشفيه ما قد ترشف الشفتان

كأن فؤادي ليس يشفي غليله
سوى أن يرى الروحين تمتزجان

• • •

كان الشعر العربي القديم صورة لأحاسيس الشاعر

الجاهلي وشعراءه ، وديواناً للعرب كما يقولون ، ولهذا كان لابد من أن يكون الشعر العربي القديم منسجماً في موسيقاه وأخيلته وألفاظه مع طبيعة الحياة في ذلك العصر المتقدم . . الصحراء ملهبة الحرارة . . مضطرمة الرمال . . والأفق ممتد وراء كثبان الرمل إلى ما يشاء الله . . والسماء الصافية بنجومها البارقة وبدرها المشرق عالم غامض مبهم فيه سحر وفيه روعة يؤثران في نفس العربي الساذجة . فيحيلان إحساس الشاعر إلى شعر متين القافية رصين الأسلوب فخم الألفاظ أو جزلها . . على الأغلب . . أعني أن الشعر الجاهلي كان متساوقاً مع طبيعة الحياة الجاهلية ومع طبيعة البيئة العربية في ذلك الزمن المتقدم ، وأعني أيضاً أن « قفا نبك » كانت درة في تاج الشعر الجاهلي لأنها كانت تعبيراً صادقاً عن أثر الحياة في نفس الأمير الكندي المتلاف . . ولكن هذا كله لا يعني أن الشعر العربي المعاصر يجب أن يظل بمنازل « قفا نبك » هذه . . وأن يسلك مسالك الشعر القديم من حيث موسيقاه وأخيلته ومعانيه . . إن الموسيقى في أي عصر من العصور تكون متسقة مع طبيعة الحياة في ذلك العصر . ولقد كانت موسيقى الشعر العربي مستمدة في أصلها من إيقاع حداة الإبل في مسالك الصحراء ، ثم إن الخليل الفراهيدي لم يفعل أكثر من أنه جمع هذه النغمات الموسيقية في الشعر العربي وبوبها وجزأها ، ولم يبتدع من ذلك شيئاً لأن الرأي السائد في عصره هو أن الشعر يجب أن يكون صورة مشابهة لشعر الجاهليين . ولهذا ثار النقاد في ذلك العصر على أبي نواس لأنه هجر مسالك الشعر الجاهلي وعاب على الشاعر الحضري أن يتغنى بالبادية وخيامها وبعرانها وهو يعيش في بغداد . . حاضرة الخلافة المشرقة وجنة الدنيا في ذلك الزمان . . ولعلي قد ألمحت في كل هذا الحديث إلى ما أريد أن أقوله ، وهو أن موسيقى الشعر العربي المعاصر يجب أن تكون متسقة منسجمة مع الذوق العربي المعاصر ومنبثقة من صميم حياتنا الراهنة . . لا أدعو في هذا الحديث إلى هدم العروض العربي القديم ، ولكني أشير إلى إمكان الاستفادة من هذه الأعاريض القديمة وتحويرها إلى ما ينسجم مع هذه الحياة المعاصرة . . لقد كان الأندلسيون أبعد منا نظراً في هذا الأمر فلم يقصروا شعرهم على الأعاريض العربية القديمة وأوجدوا (الموشح) وهو على الأرجح محاولة إلى الانسجام مع الحياة الأندلسية الجديدة في ربوع أسبانيا الجميلة .

ولعلكم تتفقون معي على أن شعراء المهجر أفلحوا في هذا المضمار حين ساروا على نهج الأندلسيين ، ولعلكم تدركون أيضاً أن نجاح المهجريين كان أكبر من نجاح الأندلسيين ، لأن تجديد الأندلسيين كان منحصراً في قوافي الشعر على الأكثر وفي أوزانه على الأقل ، ولكنهم لم يحاولوا التجديد في جوهر الشعر في معانيه وأخيلته وأساليبه ، بينما فطن المهجريون إلى كل هذا ، فهجروا المسالك العروضية القديمة وحوروها وبدلوا فيها وجددوا في أساليب الشعر وأخيلته ومعانيه ، وأوجدوا الشعر المهموس كما يسميه الناقد المصري الدكتور محمد مندور ؛ ومن الواضح أن هذا التجديد في الشعر المهجري كان نتيجة لتأثر المهجريين بالآداب الغربية الجديدة وبالنزعات التجديدية في تلك الآداب . . والحق أن الأديب العربي المعاصر يجب أن يتصل بالآداب الأجنبية ، إذ مما لا شك فيه أنه لا يستطيع أن يحيا حياة أدبية مستقلة عن الحياة الأدبية في الغرب . ثم إن لنا من تاريخ العرب الأدبي دليلاً ساطعاً على أثر الثقافة الأجنبية في الأدب العربي ؛ هذا شعر أبي العلاء والمتنبي فيه دلائل واضحة على أثر الثقافات الأدبية الأجنبية في الأدب العربي ؛ ونستطيع أن نجد الفروق واضحة بين كل من شوقي والرصافي مثلاً من حيث تأثير الثقافة الأجنبية في كل منهما ، لأن شوقي كان مطلعاً عليها اطلاعاً أوسع بكثير من اطلاع الرصافي ، ولو هيئت للرصافي تلك الثقافة الواسعة لكان شعره أرفع مما هو بكثير لموهبته الشعرية وتملكه ناصية البيان العربي .

• • •

لقد كان من نتائج تأثر شعرائنا الشباب بآثار الغربيين من جهة وآثار المهجريين من جهة ثانية أن حاولوا التجديد في الشعر ، وأوشكت تلك المحاولات أن تصيب النجاح وعلى الرغم من أنها محاولات في بداية الطريق فإنها تبشر دون شك بكل خير .

هذا الشعر المنطلق الذي تقرءونه في كثير من المجلات والجرائد العربية أثر من تلك الآثار .

ولم يكن هذا الضرب من الشعر ضرباً مبتكراً

ولا مبتدعاً ، ولكنه تجديد مبني على الأصول العربية القديمة في العروض، فيه يتحرر الشاعر من قيود القافية الواحدة ، ولا يكتفي بذلك ، بل يتحرر من قيود الوزن بعدد التفعيلات العروضية الموجودة في كل بيت . . إن هـذا الضرب من الشعر غريب بعيـد عن عمود الشعر الذي تغنى به قدامى القدماء ، ولا يزال بعض الناس يتغنى به حتى هذه الساعة ، والشاعر يجري فيه على نسق منطلق لا يتقيد بقافية واحدة ولا يلتزم عدداً معيناً من تفعيلات البحور . فقد يكون في البيت تفعيلة واحـدة أو تفعيلتان . وقد يكون في البيت الآخر خمس تفعيلات ، وفي آخر أكثر أو أقل . . إن بعض الناس يخطئ حين يعد هذا النوع من الشعر شعراً مرسلا ، لأن الشعر المرسل مطلق من جميع القيود ، وهذا الضرب الجديد ليس مطلقاً من جميع القيود ، ولكننا نلتزم فيه شيئاً ونتطلق عن أشياء أخرى . ثم إننا نطلق نحن (المرسل) على النثر الذي لا يتقيد بأي قيـد من قيود الصناعة اللفظية كالسجع أو الازدواج أو ما شابه ذلك . . ولهذا يقول النقاد هذا نثر مسجوع ، وهذا نثر مزدوج ، وهذا نثر مرسل ، وهو مثل هذا الحديث الذي نبثه إذا حق لنا أن نعتبره نثراً فنياً . ولنأخذ مثالا على هـذا الشعر المنطلق قصيدة الشاعر العراقي الشاب بدر شاكر السياب ، وعنوانها (في السوق القديم) . .

هذا الشاعر شاب من شباب الجنوب ، عاش كما يعيش أكثر الشباب ، عيشة الكبت والحرمان ، فانصرف إلى أحلامه يناجيها . ولقد كانت له نفس حساسة وروح شاعرة جعلته يهيم حباً بالسراب ويحترق ظمأ إليـه . ثم دفعت إليه الظروف فتاة تخيلها فتاة أحلامه ، ومنى نفسه منها بالحب الخالد الذي لا لقاء فيه ولا وداع . . ولكن الظروف فرقت بينهما أيضاً فبقي غريباً وحيداً في (الرمادي) مدرساً في إحدى مدارسها ، بينما كانت هي في بغـداد تعب الحياة والسعادة عباً كما يقولون . . وفي سوق الرمادي القديم هاجت ذكريات الشاعر الساول ، فبعث هذه النغمة الحرى .

تبدأ القصيدة بهذه النغمة الهادئة المنسابة في رفق ولين .

الليل والسوق القديم . . .

خفتت به الأصوات إلا غمغمات العابرين . .

وخطى الغريب وما تبث الريح من نغم حزين . .

في ذلك الليل البهيم . .

هذا الليل الذي هاج خواطر الشاعر بهدوئه وسكونه ، وجعل روحه تهيم في الظـلام وتتسقط أنغامه من خطى الغريب ووسوسة الريح . . هـذا الليل ساق له الذكريات المصورة عن كثير مثله من الغرباء طافوا في ذلك السوق الكئيب وأدلجوا في ليله البهيم . . وفجأة يلمح الشاعر وهو في السوق نافذة تضاء في إحدى الدور ، ويسمع صدى غناء بعيد يذكره بلياليه الخالية مع القمر والنخيل ، ويظل الشاعر يسمع هذا الصدى البعيد فيحلم بالرحيل ويحلم بالغرام العذب الذي كان له بين أحضان الجنوب . .

وينظر الشاعر في وجوم وشرود إلى البضائع الموجودة في تلك السوق ، فيرى الأضواء الضئيلة قد تناثرت عليها كما يتناثر الغبار أو كأنها ظلال تتناثر على ظلال ، كما يناغم اللحن الرتيب لحناً رتيباً غيره . . ثم يلمح بين هذه البضائع كوباً ينتظر على الرف ويحلم بالشراب العذب وبالشفاه الظامئة ، ويحلم كذلك بيد تمتد إليه وتنال منه بغيتها ، وحينئذ تسود خواطر الشاعر فيمثل الموت أمامه ويخيل إليه أن هذه اليد التي امتدت إلى الكوب يردت عليه (وحشرجت فيه الحياة) كما يقول . .

ثم ينصرف الشاعر مرة أخرى إلى ذكرياته القديمة ، وتتماس المناظر في مخيلته ويستمد من ذكرياته القديمة تصوراً لمشاهد غده في المستقبل ، فينظر (من خلل الزمان) إلى مناديل أحبابه الحزانى وهي تومئ بالوداع وتشرب الدمع السخين . . وما زال تلك المناديل تطفو وترسب في بحر خيالات الشاعر حتى ينصرف خياله إلى عطر مراق عليها ، وإلى دم قد خضبها ! ذلك الدم وذلك العطر هما لون اللهيب وتوقد النار في خواطر الشاعر المرهق ، ثم ينتهي خياله الحزين إلى دم يعطيه الشاعر حياة الناس فيجعله ينضح بالموت وهو يقطر : لقد مات . . مات . .

ويترك شاعرنا الكوب على رفه وينصرف إلى الشموع المعروضة في تلك الحوانيت . . . هذه الشموع التي ستوقد في مخدع مجهول في ليل لن تعرفه . . وستلقى ضوءها على ذلك المخدع في ارتخاء وتكاسل يذكر الشاعر بأمسيات الخريف . . ويشبه الشاعر هـذه الأشعة المرتخية المتكاسلة

التي تبعثها الشموع بأوراق الخريف في ليلة قمراء .. وما يكاد يذكر الليلة القمراء حتى تتداعى إلى مخيلته ذكرياته البعيدة من ليالي الجنوب ، تلك الليالي القمراء التي أسكر بالأغاني وتشمل بنقر (المرابك) .. تلك الألحان الشعبية التي ينقلها سعف النخيل الثقيل بهمس وهوادة ، ثم يعود ليصمت من جديد .. ويحلو له أن يشبه قلبه بهذه الشموع ، فلقد كان مثلها يحلم بالهيب حتى أتاح له القدر ناراً تشعله وبدأ تزيد من وقدة النار في قلبه .. تلك النار هي وجه الحبيب ، وتلك اليد هي يده الغادرة .. ولقد مضى يخترق الحياة عاماً بعد عام ووجهاً بعد وجه ، مثلما يغيب الشراع بعد الشراع في النهر وهو ما زال يحلم في سكون قاتل بالحب وباللذة ، وبالصدر والفم والعيون .. ولكنه حلم طويل فاس يولد ويموت تحت أفياء النخيل وبين التمطي والتثاؤب .. ولكن ذلك القلب ما فتئ أن خبت ناره وعشش فيه الملل واليأس ، ونسي حتى كيف يحلم بالهوى ، وكانت حياته فراغاً هائلا ، فلا حنين ولا اكتئاب ولا بكاء ولا أنين .. ومضى الصيف يحتضن الشتاء والشتاء يأخذ بيد الربيع ، وهو لا زال يعاني ذلك الفراغ ويقاسي مرارته . ويبدع الشاعر حين يخيل إليه أنه يشبه إلى حد بعيد ذلك المنزل المهجور الذي تعوي الرياح في جوانبه ، أو ذلك السلم المهدم الذي لا ترقاه قدم ولا تهبطه ، فما زال قلبه في المغيب ، وما زالت حياته في ظلام (حتى أتت هي والضياء) .. هذه التي أتت إليه هي فتاة أحلامه التي التقى بها قبل أعوام وبدأت مأساة حبهما منذ ذلك المساء الذي جمعهما تحت أضواء الطريق .. وما أحب أن أمضي في تحليل هذه القصيدة الرائعة لأني أريد أن يشاركني القارئ في التمتع بها فيقرأ معي نهاية هذه القصيدة :

ما كان لي منها سوى أنا التقينا منذ عام ..
عند المساء .. وطوقتني تحت أضواء الطريق ..
ثم ارتمت عني يداها وهي تهمس والظلام ..
يحبو .. وتنطفئ المصابيح الحزانى والطريق ..
أتسير وحدك في الظلام ؟
أتسير والأشباح تعترض السبيل بلا رفيق ؟
فأجبتها والقلب يعوي من بعيد .. من بعيد ..
أنا سوف أمضي باحثاً عنها .. سألقاها هناك ..
عند السراب .. وسوف أبني مخدعين لنا هناك ..
قالت ورجع ما تبوح به الصدى .. أنا من تريد ..

● ● ●

أنا من تريد .. فأين تمضي .. فيم تضرب في القفار ..
مثل الشريد ؟ أنا الحبيبة كنت منك على انتظار
أنا من تريد .. وقبلتني ثم قالت والدموع
في مقلتيها غير أنك لن ترى حلم الشباب ..
يبنا على التل البعيد يكاد يخفيه الضباب ..
لولا الأغاني وهي تعلو نصف وسنى والشموع ..
تلقي الضياء من النوافذ في ارتخاء .. في ارتخاء ..
أنا من تريد وسوف تبقى لا ثواء ولا رحيل ..
حب إذا أعطى الكثير فسوف يبخل بالقليل ..
لا يأس فيه ولا رجاء ..

● ● ●

أنا أيها النائي الغريب ..
لك أنت وحدك غير أني لن أكون .
لك أنت .. أسمعها وأسمعهم ورائي يلعنون .
هذا الغرام .. أكاد أسمع أيها الرجل الحبيب .
لعنات أمي وهي تبكي .. أيها الرجل الغريب ..
إني لتدرك بيد أنك سوف تبقى .. لن تسير .
قدماك مسمرتا فلا تتحركان .. ومقلتاك .
لا تبصران سوى طريق .. أيها العبد الأسير ..
أنا سوف أمضي فاتركني سوف ألقاها هناك .
عند السراب .. فطوقتني وهي تهمس .. لن تسير

● ● ●

أنا من تريد فأين تمضي بين أحداق الذئاب ؟
تتلمس الدرب البعيد ؟ ..
فصرخت سوف أسير ما دام الحنين إلى السراب .
في قلبي الظامي .. دعيني أسلك الدرب البعيد .
حتى أراها في انتظاري .. ليس أحداق الذئاب
أقسى علي من الشموع ..
في ليلة العرس التي ترتقبين .. ولا الظلام .
والريح والأشباح أقسى منك أنت أو الأنام ..
أنا سوف أمضي .. فارتخت عني يداها والظلام ..
يطغى .. ولكني وقفت وملء عيني الدموع ..

(البحث بقية) نازل خالد

ألحان الخـــلود

– ٢ –

للآنسة نعمات أحمد فؤاد

والدكتور زكي مبارك ثائر بطبيعته . ألم يقل (إن الهدوء يزعجني والجو الذي يثير الشاعرية في صدري هو الجو الحاد ، بالبرد أو بالقيظ . أما الجو المعتدل فهو موسم خمود ، ولعل هذه الطبيعة هي السبب في أن يتسم أدبي بوسم العنف والجموح)[1] .

ويوقعه عدده وثورانه الدائم في الغموض ، فكم تقع له على عبارات لا طائل وراءها كقوله « جمال الجمال » الذي يرددها كثيراً حتى لا تكاد تخلو قصيدة من ديوانه من هذه العبارات وهي أكثر شيوعاً في نثره . فصديقه أحمد رشدي (أجمل من جمال الجمال)[2] وهو يعشق في أسيوط (روحاً جميلة تعيش في شارع (جمال الجمال)[3] ولا يزيل هذا الغموض تفسيره لهذه العبارة في فاتحة ديوانه ، فقد أهدى ديوانه إلى (جمال الجمال) أيضاً ثم راح هو نفسه يتساءل عن (جمال الجمال) وسطر الجواب على هذا النسق :

« هو شخصية خيالية أبدعتها لنفسي في ١٨ يوليه سنة ... لقد نسيت التاريخ . أظنني .. أبدعت خلقة جميلة وسميتها باسم جميل »[4] .

وهذا الغموض والخلط في أسلوبه يعزى إلى القلق النفسي الذي يحسه من شعوره بغبن الناس له . ذلك الغبن الذي يتمثل في قوله : (فهمت كل شيء ، وعرفت كل شيء ، وبقي قلبي كالغابة المجهولة في ضمير الظلماء . . .) ثم يفصل هذا بقوله : (فأنا عند أنصار الحزب الوطني شعبي يناصر الوفديين ، وعند الوفديين خيالي يتشبث بالملحقات من زيلع إلى جغبوب ، وأنا بين المؤمنين ملحد ، وبين الملحدين مؤمن ، وأنا بر عند الفجار وفاجر عند الأبرار ، فأنا في كل بيئة أجنبي وفي كل أرض غريب .)[1] .

وقد ردد هذا في شعره كذلك كقوله في قصيدة دجلة الثانية :

شجوني وأحزاني كثار فما الذي

يطيب لها الدهر من ذلك الحزن

لقد أغرقت قلبي الهموم فما الذي

تروم الليالي من عذابي ومن غبني

تغربت في الدنيا فلا (مصر) دارني

ولا أنا آو في الحياة إلى ركن

فتى عبقري الروح لا الناس أهله

وليس له عند الكريهة من خدن[2]

وإلى هذا الشعور بالغبن تعزى ظاهرة تصيد الألقاب لنفسه كقوله :

(نظمت قصائد كثيرة في تصوير ذلك الوجد المشبوب بصورة قضت بأن تخلع علي (مجلة الحوادث) لقب (ملك الشعراء) ومن قبل خلعت علي (مجلة الصباح) لقب (أمير البيان)[3] .

ويقول في موضع آخر : « وفي مجلة الرسالة تجلى قلمي إلى ألطف حدود التجلي ، تجلى شعراً ونثراً بصورة واضحة جلية . كنت أكتب في كل عدد ثلاث مقالات ، المقالة الافتتاحية ، وكان الأستاذ الزيات يقول إنها (بقلم كاتب كبير) صدق ! »[4] .

---

(١) ص ٣٩
(٢) ص ٩
(٣) ص ١٥
(٤) ص ٤٨

---

(١) ص ٥٠ مقدمة الديوان الأول
(٢) ص ١٨٥
(٣) ص ٩
(٤) ص ٣٨

لكأنى به يفرح حين يشيم من الناس إنصافاً ، فهو يسجل شائم كأنما يخشى منهم تراجعاً .

وهذا الغبن الذى تثقل وطأته عليه ينفسه عن صدره بالحديث عما يعانيه وعما يتخيله وعما يفعله . وهذا الشعور بالغبن أورثه مرارة تدفعه إلى التحدى والتبرم لأتفه الأسباب. ومن الطريف أنه يعزو عنفه إلى مولده فى شهر أغسطس (لأنه موسم طغيان النيل ولأنه أعنف أيام القيظ ، وكذلك يسميه أهل لبنان « آب ، اللهاب »)[1] .

وهو فى ثمه متقدع وإن كان رغم هـذا المظهر الخشن طيب القلب نقى السريرة .

تعدد ناباته[2] :

هو يريد أن يثبت أنه محبوب وله صوابط وهى هنا وهناك ، وهذا مظهر تعويض ، فهو إن خاصمه الرجال وهمطوه حسبه الحرد الغيد .

* * *

ومن حق الدكتور زكى مبارك أن نذكر بعد هذا حسناته ، فى ديوان (ألحان الخلود) خطرات إنسانية ترف فى حديثه عن العيد الذى غاب فيه تلميذه وصديقه أحمد رشدى : (هذا هو العيد الذى قضيته فى النواح على تلميذى وصديق أحمد رشدى ، فقد رأيت من العقوق أن أخرج من البيت لأنعم بملاهى القاهرة وأهله يبكون عليه)[3]

وهو يقارن بين الولد والشعر (لى أبناء ولله الحمد ، ولكن أبنائى من روحى أعز على من أبنائى من بدنى .

إن أبنائى من روحى وهم أشعارى ومؤلفاتى لا يقولون إلا ما أريد أن أقول ، أما أبنائى من بدنى فلا يقولون دائماً بما أريد أن أقول)[4] .

ومن وراء ديوان (ألحان الخلود) إنسان حساس . إن الدكتور زكى مبارك مع سطحه الخشن رقيق الحس ، وليس أدل على رهافة حسه من هذه القصة التى رواها :

(1) ص ١٥٥ — ١٥٦
(2) ص ١٥ — ١٨
(3) ص ١٠
(4) ص ٢٠

(تفضل معالى (حلمى عيسى باشا) بدعوتى إلى الغداء فى داره بالزمالك لأشترك فى تحية الأستاذ إسعاف النشاشيبى، وكان الغداء شهياً ، ولكننى لم أتناول غير لقيمات صغيرات دفعت ثمنها علماً وأدباً ، وأنا بحمد الله من أكابر العلماء والأدباء، وأنوف أعدائى فى الرغام .

كان على المائدة «باشا» لا أسميه ، فأنا أخشى بالتعريف على بعض الخلائق !

رآنى ذلك « الباشا » أضع الخبز فى الملحة فقال : خذ الملح بالملعقة .

فقلت : لا تؤاخذنى باباشا ، فأنا فلاح ذرعت الأرض من باريس إلى ستراسبورج ومن باريس إلى بغداد .

ثم قلت : هل تعرف يا باشا معنى كلمة « الزمالك » ؟

فقال : تسأل صاحب المعالى حلمى باشا .

فقلت : إنه لا يعرف !

فقال الباشا : وتعرف أنت ؟

فقلت : أعرف لأنى الدكاترة زكى مبارك ، فاسمع .

فقال الباشا : سأسمع .

فقلت : كف يديك عن الطعام لتسمع .

فقال : أسمع ، أسمع ، أسمع !!

فقلت : الزمالك جمع زملك بضم الزاى وهى كلمة ألبانية معناها الخيمة ، وهى فى المكان الذى يقيم به نادى الضباط بالزمالك فى هذا الوقت)[1] .

* * *

نقف طويلاً عند عبارته (وكان الغداء شهياً ولكنى لم أتناول غير لقيمات صغيرات) كم هزتنى هذه العبارة . لقد جرح شعوره انتقاد الباشا الذى لم يرد أن يسميه له على المائدة ، فعزف عن الطعام (الشهى) وزهدت نفسه فيه ، ولكنه لقن ناقده درساً بليغاً فى القيم الحقيقية التى يتضاءل إلى جانبها « فن الاتيكيت » .

والأمثلة على إبائه وعزة نفسه مبثوثة فى أنحاء الديوان لا يعى المتطلع فيه نشدانها .

وأروع ما فى ديوان (ألحان الخلود) عندى تلك الصورة التى رسمها لنفسه فى معتقل الإنجليز البغاة . هنا

(1) ص ٢٩٥ — ٢٩٦

قلب إنسانى يخفق بالوطنية المصرية فى حرارة وصدق وإيمان عميق . هنا ومضات روح تروع وتأسر . مصرى يتجرع غصص الجوع، ويعانى عذابات السجن، ويلوح له بالفكاك من الأسر إذا نكص على عقبيه وتنكر لمبادىء الحرية، فيرفض فى شمم حتى لم يبق فى السجن غيره وحتى حار معه سجانه فأطلقه لما استعصى عليه أمره . إنى هنا أنقل بعض خطوط هذه الصورة إنصافاً للرجل الكريم :

(كانت السلطة العسكرية قررت لكل معتقل سبعة عشر قرشاً فى اليوم يطلب بها من المتعهد ما يشاء . فكنت أطلب طعاماً بعشرة قروش وأطلب بالباقى كتباً من مكتبة كان اسمها فى ذلك الوقت (المكتبة العباسية) وكانت النتيجة أن أجوع جوعاً لم أشهد مثله فى حياتى، فقد كنت وحيد أبويَّ، وكان يهمهما التأسيس، وهو فى لغة سنتريس أن ينشأ الطفل بأمعاء قوية تصارع تقلب الأجواء[1]) .

إنها لمحة معبرة ولكنها لا تغنى عن الصورة الرائعة التى يجب أن يقف أمامها طويلا أبناء هذا الوطن الكريم .

والدكتور زكى مبارك له طبيعة الفنان . دعته جامعة أدباء العروبة إلى إنشاد قصيدة فى مهرجان أدب البحر، فماذا فعل ؟ لم يأخذ القلم بين يديه ليشرع فى التسجيل مستوحياً خياله، بل نهد إلى الإسكندرية ليستمع بإذنه هدير الموج، ويرى بعينه اصطخابه ويستلهمه القصيد، وهذا هو الصدق فى الأدب، وفى هذا يقول (وأنا آخذ أدبى من وحى الحياة لا من وحى الخيال، ولهذا سافرت إلى الإسكندرية مرتين لأنظم القصيدة وأنا فى رحاب الأمواج[2]) .

وقد احتفل الدكتور زكى مبارك فى بداية حياته الشعرية بالمعارضة فعارض قصيدة شوقى التى مطلعها :

مضى وليس به حراك   لكن يخف إذا رآك

فأحسن المعارضة، ومن أبياته :

يا من أجلك عن وصا   لى فى دنوك أو نواك
وأراك مولاى الرحــيـ   ـم وإن نأى عنى جداك
تخطو وتخطر بالأصيــ   ـل فلا النسيم ولا الأراك[3]

---

(١) ص ٢٢٨
(٢) ص ٢٢٢
(٣) ص ٢٢٩

ومن الطريف أن الدكتور زكى مبارك فى ديوانه (ألحان الخلود) سطر لنا قصيدة يقص علينا أنه عثر عليها فى مجموعة الأستاذ كازانوفا وهى منسوبة إلى الرسول ويدعى راويها أن النبى (ص) نظمها وهو فى طريقه من مكة إلى يثرب، ويحدثنا الدكتور أنه بذل جهداً خطيراً فى تصحيح ذلك التحريف، بل حاول أن ينظمها من جديد ثم أقلع إذ رأى فى هذا الصنيع جناية على التاريخ، ويخيل إلى أنه تغلبت عليه الرغبة فى نظمها من جديد، لأن القصيدة عليها طابعه وتتمثل فيها خصائصه ولا يستطيع الناقد تمييزها عن سائر قصائد الديوان . لا بل إن الدكتور زكى مبارك نفسه قد اعترف صراحة أنه ناظم القصيدة فى ص ٢٨ .

* * *

وديوان (ألحان الخلود) بعد هذا (فى مجموعه) قاتم اللون، لصورة صاحبه تطل عليك من بين سطوره تلوح على مخايلها أمارات الشقاء . ولعل من دواعى شقائه أنه تعذب فى مدة طفولته الحزينة، فهو يقول (لم أعرف فى عهد الطفولة معنى جميلا ليوم العيد، فقد كانت ليلة العيد مشئومة، كنا نحمل القرابين ونمضى إلى المقابر لنسلم على الأموات . وكان صباح العيد غاية فى الشؤم، فإن عائلتنا فى سنتريس كبيرة، وما كان يمر عيد بدون حزن على ميت، وبهذا كان يجب أن تكون القهوة المرة هى ما نقدمه إلى العيدين

وكعك العيد — وهو فرحة الأطفال — ما خبزناه فى بيتنا إلا مرة أو مرتين، فقد كان من العيب أن نخبز الكعك وفى العائلة بيت حزين .

لقد تأثرت أعصابى تأثراً شديداً بهذه المناظر التى واجهتنى بها الحياة وأنا طفل، ومضت هذه المناظر تلاحقنى من عيد إلى عيد[1]) .

وكان من أسباب شقائه اعتقاله فى سنة ١٩١٩ .

ثم سقوطه فى الليسانس مرتين . . . وهو المعتد بذكائه ونبوغه .

ثم . . . ثم ماذا . . . لنستمع إليه يروى قصته :

---

(١) ص ١٠

(ثم توالت متاعب منبثة إلى أخطر حدود العنف وكان أصعب تلك المتاعب هو مجرى إلى باريس ، فقد ألفت فيها متيعن كانت من أعجب السنين .

ولم أعرف الراحة بعد الرجوع من باريس .

هل كانت أيامى وأنا رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الأمريكية أيام هدوء ؟ وهل كانت أعوامى وأنا أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب أيام اطمئنان ؟ والسنون التى قضيتها وأنا مفتش المدارس الأجنبية بالمملكة المصرية ، هل كانت تلك السنون سنى ربيع .

وتلك المؤلفات الطوال ، ماذا أخذت من عافيتى وشبابى ، والقصائد والمقالات ، ماذا صنعت ؟

عند الله جزائى .

والغربة المزعجة التى قضت بأن أذرع فضاء الله من شاطئ النيل إلى شط العرب .

أنا لا أصدق أن هذا وقع لولا السطور المبثوثة فى كتاب « ذكريات باريس » وكتاب « ليلى المريضة » فى العراق .

وهذا الاضطهاد الذى يتدفق من جميع الجوانب مرسلا بسخاء من كبار الوزراء . . . وتلك الآلام التى تفيض بها ألسنة المنافقين .

إن بعض هذا يكفى لتخلع على أشعارى أثواب الحزن الوجيع[1]) .

وبعد فأنا هنا بعض أحلل شعر الدكتور زكى مبارك فى هذه العجالة لا أمنى أنى أتيت بجديد ، فقد سبقنى هو إلى كثير مما قلته فى خاتمة ديوانه التى كتبها على طريقته فى التحليق ثم الاغماس فجأة وعلى غير انتظار . هذه الخاتمة فيها نظرات صادقة وفيها مزاعم يحلو له أن يرددها فلندعها له ولنقف عند النظرات الصادقات ، وإنى لأتلمس على النسق الذى بسطها به القوم عذراً لى عنده فى نقده بعد أن قال (لن يستطيع ناقد متحذلق أن يكتب حرفاً فى نقد هـذا الديوان . فما عرفت اللغة العربية فى تاريخها القديم وتاريخها الحديث قلما أمضى من قلمى ، أو بياناً أبلغ من بيانى[2]) .

(١) ص ٣٤ — ٣٥

(٢) ص ١٨

وقد نقده لنفسه فى الكلمات الآتية :

١ — قد يرى القارىء بيتاً ضعيفاً فى قصيدة قوية فيسأل عن السر فى الإبقاء على هذا البيت الضعيف .

وجوابى أن ذلك البيت قد يكمل الصورة ، وعلى فرض أنه حشو فالحشو ينفع فى إقامة أمثالى البانى .

وإن الرومى الشاعر العبقرى قد اعتذر عن الأبيات الضعيفة فى القصائد القوية ، فقال ما معناه « إن الشجرة القوية تعتمد فى حياتها على أغصان ضعيفة » وقد صدق .

وفى الديوان مقطوعات لا تحتمل النقد ، لأنها فى غاية من الضعف ، ولكنى أبقيت عليها لأرى فيها الخطوات الأولى من حياتى الشعرية .

٢ — فى هذا الجزء هجاء لبعض الخلائق من وزراء وشعراء ، وضميرى يؤنبنى على ذلك الهجاء ، ولكنى أبقيت عليه ليرى فيه الجمهور صوراً من العصر الذى « نعمت » فيه بمعاصرة أولئك الوزراء والشعراء .

٣ — هذا الديوان فى جملته لن يكون أقوى من كتاب « النثر الفنى » أو كتاب التصوف الإسلامى ، أو كتاب الموازنة بين الشعراء أو رسالة « اللغة والدين والتقاليد » فتلك المؤلفات وأمثالها عصارة عقلى ، أما هـذا الديوان فهو عصارة قلبى وروحى .

٤ — (إن هذه المجموعة الشعرية قطعة من حياتى الوجدانية ، فليس فيها تزييف ، وإنما هى خواطر فاض بها القلب وعبرت عنها بهذه الألحان .)[1]

* * *

ولعل ما ذكره عن نفسه مضافاً إليه ما ذكرته عنه يصور لنا مجتمعاً طريقته فى قرض الشعر ، فهو يرسله كما يجود به خاطره بدون تكلف كالنهر لا يرسم له مجرى يسيل فيه ماءه ، ولكنه يمضى لغايته ويشق طريقه أثناء سيره ، فإذا هو مستقيم حيناً ، كثير الالتواءات أحياناً ، ولكن كثرة التعاريج فى شطآنه لا تهون من رسالته ولا تضعف من قيمته .

نعمات أحمد فؤاد

(١) خاتمة الديوان ص ٣٩٤ — ٣٩٥ .

صفحة من حياة «جونسون»

لجيمس بوزويل

للأستاذ مبارك إبراهيم

كان « جيمس بوزويل » اسكتلنديا ، من القوم الذين كان « جونسون » يهجوهم ويبغضهم (ومن آيات بغضه لهم أنه لما ألف قاموسه فسر كلمة « oats » بقوله: (« الجلبان » نوع من الحبوب يتخذ في انجلترا علفاً للخيل . ولكنه في اسكتلندة يتخذ طعاما للناس) .

و « بوزويل » قد قضى أطيب شطر من حياته في صحبة « صمويل جونسون » وكان لا ينفك يدون كل ما يقوله ذلك الرجل العظيم . ويسجل كل ما يفعله . وجمع مادونه . وكتبه في أسلوب يسيل رقة وعذوبة . ثم جعل منه كتابا هو خير مايقرأ في اللغة الإنجليزية من كتب التراجم والسير .

و « بوزويل » على فرط إعجابه بصاحبه . لم يجعل منه إنسانا مبرأ من العيوب . ولم يخف من وجه صاحبه أي ندبة من الندوب . فجاءت الصورة أقرب ما تكون إلى الكمال الإنساني .

وفيما يلي بعض مقتطفات من بعض فصول تلك الترجمة :

قال « بوزويل » تحت عنوان « جونسون في المدرسة » : —

تلقى « جونسون » تعليمه أول ماتلقى على يدي السيدة « أوليفر » وهي أرملة كانت تدير مدرسة لتعليم صغار الأطفال .

وحدثني « جونسون » فقال إنها كانت تستطيع قراءة الكتب المطبوعة بالحروف الكبيرة السوداء . وأنها طلبت إليه أن يسأل أباه أن يقرضها « التوراة » لتقرأها .

ولما آن أوان ذهابه إلى « أكسفورد » ودعته تلك السيدة أجمل وداع . وزادت بأن أهدت إليه فطيرة محشوة بالزنجبيل . وقالت عنه إنه كان أحسن تلاميذها .

ثم تتلمذ بعد مغادرته لمدرسة تلك السيدة على معلم كان يطلق عليه إسم « توم براون » . وقال في الثناء عليه إنه كتب كتابا في قواعد التهجي وأهداه إلى العالم أجمع . . .

ثم بدأ يتعلم اللاتينية على يد معلم اسمه « هوكنز » . ثم ترقى فتتلمذ على ناظر المدرسة . وكان اسمه « هنتر » . وكان كما يقول جونسون رجلا قاسياً ، فظا ، غليظ القلب . إذ كان من عادته أن يضربنا في غير رحمة أو هوادة . وكان لا يميز بين الجهل وبين الإهمال . وكان يسوى في الضرب بين تلميذ لا يعرف شيئاً من الأشياء . وبين تلميذ آخر قد أهمل في معرفة ذلك الشيء . وقد كان يسأل تلميذاً من التلاميذ سؤالا فإذا لم يحسن الجواب عاقبه بالضرب دون أن يعرف إن كانت قد أتيحت الفرصة لذلك التلميذ أن يعرف جواب هذا السؤال أو لم تتح .

وقد سأل مرة تلميذاً عن معنى كلمة « شمعدان » باللاتينية . وهو سؤال لم يكن يتوقعه ذلك التلميذ . فأجابه بقوله : إذا استطاع كل تلميذ أن يجيب عن كل سؤال لما كانت هناك حاجة إلى معلمين يعلمون التلاميذ .

وعلى الرغم مما أسلفنا فإن « جونسون » كان يقر لأستاذه « مستر هنتر » بالفضل . وقد سأله يوما أحد أصحابه : كيف أتقن معرفة اللغة اللاتينية معرفة تفوق بها على أندادە؟ فقال : إن أستاذي قد أجاد استعمال « السوط » في ضربي ولولا هذا لما حذقت اللاتينية .

ومضى « جونسون » يقول : وكان من عادة « مستر هنتر » أن يقول لتلاميذه وهو يضربهم . إني أضربكم اليوم لأنقذكم من المشانق غداً .

وكان « جونسون » لا ينفك يؤكد في كل مناسبة أنه يُقرّ طريقة الضرب بالعصا كوسيلة من الحث على الدروس والتعلم . وأنه يفضلها على طريقة القول للتلميذ : إنك إن أحسنت

الدرس والاستذكار نلت من التقدير أكثر مما ينال إخوتك أو أخواتك .

ويرى « جونسون » أن طريقة التنافس والمباراة مؤدية إلى بث روح الكراهية بين الإخوة والأخوات .

وكان المقربون إليه وذوو الحظوة عنده ينالون من بره الأدبي وسخائه المادي الشيء الكثير . وكان هؤلاء يسعون جهدهم لينالوا رضاه . حتى إن ثلاثة منهم كانوا يجيئون إلى داره في كل صباح ليحملوه إلى المدرسة . وهـذا التوقير للعلم والأدب يشرف فاعليه ، ويشرف الطبيعة الإنسانية . . .

وقال « بوزويل » تحت عنوان « جونسون وجولد سمث » : يروى أن « جونسون » قال لسيدة كانت تشكو أنه نزر الكلام إذا جلس إلى أصحابه : يا سيدتي إني أحمل معي قليلا من المال . ولكن في خزانتي الكثير من ذلك المال وفوق الكثير . ولقـد استرعى انتباهي أن صديقي « جولد سمث » يختزن في خزانته التماثيل المنضدة من الذهب والفضة . ولكنه ليس يقنع بذلك، فهو لا ينفأ يخرج كيس نقوده . فقالت السيدة : هذا حق يا سيدي . ولكن كيس نقوده فارغ في أغلب الأحايين !

والحق أن « جولد سمث » قد كانت به دائماً رغبة ملحة في أن يكون علماً بين أصحابه . وهذا ما حدا به إلى الظهور بهذا المظهر الذي لا يليق برجل في مثل ذكائه ونبوغه ، وهو لما لمع نجمه في الأدب اشتدت به الغيرة — أكثر من ذي قبل — مما كان يلاقيه « جونسون » من عناية القوم به في كل مكان .

وكذلك مما يروى في هـذا الصدد أن « جولد سمث » قال ذات يوم أمام جمع من أصحابه . وكان « جونسون » حاضراً : لقد خطر ببالي أن أكتب قصة ، وأن أدير الحوار فيها على ألسـنة الأسماك والطير . وقال : إن البساطة شرط ضروري في تأليف هذا النوع من الحكايات . وضرب المثل على ذلك بقصة الأسماك الصغيرة التي رأت الطير تحلق في الهواء فوق رؤوسها فحسدتها وتوسلن إلى الإله أن يجعلهن طيراً . ثم مضى « جولد سمث » يقول : إن البراعة هنا تقوم على إنطاق صغار السمك بالكلام .

وبينا هو مستغرق في بسط هـذا الخيال نظر فرأى « جونسون » تهتز جوانحه من فرط الضحك . فقال وهو يكاد يتميز من الغيظ : يا دكتور « جونسون » ليس الأمر سهلا كما قد يبدو لك ذلك ، لأنك لو أردت أن تجعل صغار السمك تنطق لأدرت على لسانها حديثاً هو بحديث الحيتان الضخمة أشبه ! . . .

وقال « بوزويل » تحت عنوان « حديث في النادي » : —

تحدثت يوماً مع « جونسون » في لندن ، وكنا في صحبة جماعة من علية القوم الذين لن أسميهم ، ولكني أرمز لهم بأحرف مختلفة من حروف التهجي : —

ف : لقد كنت الساعة أنظر إلى تلك التحفة الرخامية البديعة الصنع ، وهي تمثال يملكه « مستر جيننجز » (وهو رجل كان يعنى بجمع الآثار القـديمة) . ويقال إن التمثال يمثل كلباً من كلاب القائد والسياسي الأثيني القـديم « السيبيادز » . وهم يقدرون ألفاً من الجنيهات ثمناً لهذا التمثال .

جونسون : لو صح هذا القول لوجب أن يقطع ذيل التمثال . ذلك لأن كلب « السيبيادز » كان أجبّ الذيل .

ا : إن ألفاً من الجنيهات ثمن باهظ ، ومن يصدق أن ثمن كلب ميت يفوق ثمن أسد من الأحياء .

جونسون : إن الجنيهات الألف ليست ثمن تمثال الكلب ، وإنما هي ثمن البراعة في صنع ذلك التمثال ، وليس بالكثير ذلك المال الذي يدفع ثمناً لتحقيق ما كان يظنه المرء مستحيلا .

وإذا نحن أجزلنا العطاء لذلك الرجل الذي يحمل واحداً من أعواد القنّاب يستقر فوق أرنبة أنفه ، أو لذلك الرجل الذي يستطيع أن يمتطي صهوات ثلاثة من الخيل في وقت معاً — أقول إننا بهذا العطاء الجزيل نعبر عن إعجابنا بالمهارة التي يبديها مثل ذينك الرجلين .

بوزويل : ولكنا بعملنا هـذا نشجع أولئك الذين يضيعون وقتهم وجهدهم فيما لا يجدي ولا يفيد .

ب : يرى بعض من رجحت عقولهم أنه لا يصح ذم الناس أو مدحهم إلا بعد التجربة . ولكن هناك حكاية تروى عن قاض من القضاة جاءوه مرة بواحد من الخدم

اتهمه سيده بأنه قد سرق منه بعض المال ، وثبت لدى القاضي من مناقشة المدعي والمدعى عليه أن ذلك السيد قد ألقى بالمال المسروق في طريق ذلك الخادم امتحاناً لأمانته ، وعلى هذا حكم القاضي بإدانة السيد وبإرساله إلى السجن ..

جونسون : إن مقاومة حوافز الغواية مرة ليست دليلا كافياً على الأمانة ، ولكي يحكم الناس على خادم من الخدم أنه أمين ، فلا بد له أن تستعصى نفسه على الغواية استعصاء لا يجعل مجالا للشك ، كأن يسهو سيده فيضع مالا فوق نافذة من النوافذ دون أن يعرف مقداره أو يتذكر مكانه . نقول إذا استعصى الخادم في هذه الحالة كان ذلك دليلا لا يرد على أمانته . أما تيسير سبل الإغراء وتمهيد طريق الغواية لجريمة ترتكب في حق من يتعرض لها . فإذا تولاه الضعف الإنساني كان من يسر له سبيل الإغراء شريكا له في الجريمة .

ونحن نختم هذا المقال بكتاب بعث به « جونسون » إلى « لورد شستر فيلد » . وقصة ذلك الخطاب أن « جونسون » قبل البدء في تحضير مواد قاموسه طلب إلى « لورد شستر فيلد » أن يشمله برعايته ، ولكن اللورد رده رداً غير جميل .

وجاء اللورد بعد سبع سنين ، وكان جونسون قد قارب النجح فأذاع في الناس أنه يسره أن يتوج باسمه ذلك الكتاب .

وكان هذا هو الحافز لجونسون على كتابة ذلك الخطاب الذي يعد إعلاناً لاستقلال الأدب الإنجليزي وتحرره من نير الرعاية والحماية . قال جونسون : —

سيدي اللورد :

لقد نبأني صاحب صحيفة « الدنيا » أن المقالين اللذين ظهرا في تلك الصحيفة وفيهما تقديم قاموسي إلى الجمهور قد كتبتهما أنت يا صاحب الفخامة . وأن ألقى التميز من فخامتكم — وأنا الذي ما تعودت أن ألتق عوارف العظماء — لمنة لا أستطيع أن أؤدي واجب الشكر عليها .

وإني لأذكر أني زرت فخامتكم أول الأمر ، وكنت مأخوذاً بسحر ما عرفه الناس عن فخامتكم من حسن اللقاء ، ولم أتمالك نفسي من أن أتمنى أن أنال شرف الفخار بولائي لكم والتسامي إليكم ، ولكني لم ألق منكم إلا النظر الشزر ، وإلا التسويف والمطل . وقد أبت علي كرامتي ، بل أبت علي مذلتي أن أستنيم إلى هذا الضيم .

وإني لأذكر أيضاً أني توجهت إلى فخامتكم بخطاب مفتوح جاءت فيه بآمالي إلى كل ما أعرف من أساليب الإرضاء . فلم ألق إلا الإهمال ، وهو ما يأباه الحر الأبي مهما صغرت مكانته .

ولقد مضى على سبع سنين منذ جئت إلى بيتك فلم أظفر إلا بالإذن لي في الدخول إلى غرف انتظار الغرباء حيناً وإلا بالطرد أحياناً . وكنت في ذلك الحين أعاني في إنجاز ما أخذت نفسي بإنجازه صعاباً وأهوالا « تجعل الولدان شيباً » ، وهي صعاب وأهوال لا فائدة اليوم من ترديد الشكوى من شدتها وقسوتها . فكيف تريد فخامتكم — وقد أصبح قاموسي يؤذن بالظهور دون أن أظفر بكلمة من كلمات التشجيع أو بابتسامة من ابتسامات الرضا أو بأي نوع من أنواع المساعدة — أن أقبل ما تعرضه اليوم علي ، وكيف أقبل أمراً لم أكن أتوقعه ؟

وإنك لتعلم يا سيدي اللورد أن الراعي الذي ورد ذكره في شعر « فرجيل » قد عرف « الحب » بعد طول الطواف ، وهو قد ألفى ذلك الحب ساكناً من مكان الصخور .

وكيف يكون راعياً للأدب يا صاحب الفخامة من ينظر إلى رجل يكافح الأمواج في سبيل الظفر بالحياة ثم لا يعينه ، حتى إذا بلغ الشاطىء أغدق عليه فيضاً من ألوان المعونة .

والرعاية التي تفضلتم فخامتكم فأردتم أن تضفوا ثوبها على ما قمت به من عمل كنت أتمنى أن ألقاها مهللاً ومكبراً . ولكنها جاءت متأخرة فأصبحت لا أبالي بها . ذلك لأني لا أستطيع أن أفيد منها شيئاً . وذلك لأني أصبحت بحمد الله رجلا مشهوراً . فلا حاجة بي اليوم إلى تكأة أتوكأ عليها . ولست أرغب في أن يعرف الناس عني أني أصبحت في حمى راع من رعاة الأدب . وأنا الذي أمدتني القدرة الإلهية بالعون والتيسير ..

وإني لا زلت لفخامتكم الخادم المطيع « سام جونسون » .

مبارك ابراهيم

حول معرض الخريجين ...

للأستاذ محمد فهمي

جمعتنا المصادفة بمعرض اتحاد خريجي الكلية الملكية للفنون الجميلة المقام بنقابة المحامين : سعادة يوسف بك جام والأستاذ أحمد عثمان رئيس قسم النحت بكلية الفنون الجميلة والرسام الأستاذ شعبان زكي وكاتب المقال .

وقد دار الحديث حول بعث فن مصري ، فهاهي شخصيتنا المصرية تائهة وسط هذه المعارض واللوحات الأوربية النزع والأسلوب والطابع ، واقترحنا خطوطاً أولية للوصول إلى هذه الغاية — غاية خلق فن مصري — فاستقر الرأي على أن يدرس طالب الفنون الفن الفرعوني كأساس ويتفهم أسراره ويتعمق أساليبه وأغراضه ثم يعيش فيه بروحه وإحساسه وذهنه . وبهذا يمكننا أن نتسلم من أجدادنا العظام هذا الميراث الذي لا نظير له والذي أملته طبيعة هذا البلد وروحه وأضواؤه وألوان واديه . وقال الأستاذ أحمد عثمان من العجيب أني وجدت مصريتي في أوربا إذ سافرت في بعثة الفنون الجميلة وأنا لا أومن بشيء قط اسمه الفن المصري كما هو الشأن مع مبعوثينا إلى اليوم ولكني فوجئت هناك بما لم يخطر لي على بال بل بما أثار دهشتي ، إذ حينما دخلت على أستاذ الأكاديميا في روما وعلم أني مصري هب واقفاً لي إجلالا واحتراماً وانحنى تكريماً لي أنا الطالب البسيط الذي جئت أتلقى على يديه الفن ثم التفت إلى الطلبة من مختلف بلاد العالم مشيراً إلي وهو يقول هذا مبعوث الأمة التي وهبت الإنسانية أعظم فن . وقد ظننته في أول الأمر يسخر بي ولكن تأكد لي أن الأستاذ جاد لتكرار تحيته كلما رآني . ثم هناك بالقسم المصري بمتحف اللوفر رأيت أساتذة الفنون الأوربيين يقفون خاشعين وكأنهم أطفال أمام أساتذتهم الكبار ومن ذلك الحين بدأت أومن بمصريتي .

وأكد جام بك قول الأستاذ عثمان قائلا حينما كنت مبعوثا بإنجلترا كان معنا زميل مصري أدهش الأساتذة هناك لقدرته الفائقة حتى تأثر بفنه الأساتذة الإنجليز الذين ذهب يتلقى عنهم حتى نصحوني قائلين .. حافظ على طابعك المصري .

وإننا لكي نحقق هدفنا في خلق فن مصري لا محاكاة وتقليداً أعمى بل عن دراسة وفهم عميقين يجب أن نعمل أولا على تكوين الأستاذ والمدرس المؤمن بهذا الفن ؛ ويمكن أن يتأتى هذا بتنظيم دراسات في الفن المصري لأساتذة الفن حتى يكونوا نواة طيبة لإيقاد الشعلة في نفوس طلبتهم وتوجيههم الوجهة التي نريدها لأبناء مصر .

عبد السلام الشريف :

هذا هو الفنان الذي لو عرضت لوحاته بين أكبر عدد من لوحات الفنانين من مختلف بلاد العالم لاستطعت دون عناء أن تشير إليها قائلا هذا الفن مصري ولفنان مصري . ولعبد السلام لوحتان — أهلا وسهلا وغداء — والموضوع عنده يحقق الأهداف التي نريده للفن وهو يتخذ فن الفراعنة مثله الأعلى ، ولكن شخصيته واضحة كل الوضوح فلا يقلد تقليداً أعمى وشعاره (البساطة سر الجمال) وهو نفس شعار الفراعنة وأن طريقته في المزج بين الزخرف والخط الفرعوني بألوانه النقية دائماً ثم أشخاصه في سكونهم النابض بالحركة أو تحركهم الناطق بالوقار وملامحهم التي لا تخطئها أبداً إذ تشاهد فيهم أهلك وجيرانك وعشيرتك ، ثم الجمال النابع من قلب فنان تتشبع كل ذرة فيه بحب بلده ؛ كل هذا يجعل من عبد السلام في الرسم قريناً لمختار في النحت ؛ فعلى يدي مختار رفع النحت الفرعوني رأسه في العصر الحديث . وها هو عبد السلام يبعث الرسم الفرعوني في عمق وإعلان مع إحساسه بشخصيته وعمق شعوره بالبيئة والمجتمع المصري .

حسين بيكار :

يمتاز هذا الفنان بليونة خطوطه إلى درجة العذوبة وإن اتخذت تكويناً هندسياً إلا أنه متناغم ومتسق ؛ وأظهر ميزات هذا الفنان أنه استطاع أن يوائم بين الذهنية والحساسية بحيث يخدم كل منهما الآخر إلا أنه فنان ناله لم يهتد بعد إلى هدفه ، وفي لوحته (المبقى الشمسي) يبدو لنا أنه بدأ يجد طريقه .

حسين البنانى :

فنان يعبر عن المدارس الأوربية فى القرن التاسع عشر وأخصها مدرسة الواقعية والهواء الطلق. ولوحته (شلالها) نحس فيها بالطابع المصرى أكثر من لوحته (القرية) برغم أن الموضوع فى الثانية ريفى صميم ، إلا أن لمسات الفرشة أوربية النغم ، ولو وضع اسم على النيل بدل (سوق) لكان أكثر دلالة على اللوحتين .

إبراهيم الكردى :

رسام بدأ يستيقظ فيه الميل نحو الفن الذى ننشده وفى لوحته (الأم) يعبر عن البساطة والعمق .

بين إحساس الفنان والشاهد .

مشرى الكشمر : رسام يتفوق على نفسه ، وفى لوحتيه (بعد الغروب) و(صريع بالكرنك) تبدو مقدرة على التحكم فى فرشاته ، وواجبنا لو أعطى الإحساس نفس الأهمية التى يعطيها اللون والموضوع ...

صبحى جبلى ، ووليم سليمان ، ووديع ميخائيل شنوده : يحاولون أن يصلوا إلى الإجادة فى التعبير ، وأن الألوان والتكوين الهندسى تنطق بالتمكن إلى حد لا بأس به .

جمال كامل : طريقته فى التوزيع الهندسى للكتل فى لمسات اللون السريعة تقارب حد الإتقان ، ونرجو له اطراد التقدم .



على النيل — للمصور حسين البنانى

سمير الجرجاوى :

أثار الانتباه بلوحته خواطر موضوعاً وأداء ، ولسعد رغم أسلوبه الأوربى أداء ينم عن شخصية فنان أصيل .

صلاح طاهر :

لفت النظر بلوحته (فتاة) فالموضوع وإن كان مطروقاً إلا أنه عالجه بإحساس ومهارة أما باقى لوحاته فأبرز ما فيها التكوين وبراعة الأداء . (التكنيك) ولكن هذا شىء وإحداث الأثر النفسى شىء آخر ، ولعل ألوانه كانت أحياناً حائلاً دون الاتصال

محمد محمود الحابس : فرشاة أوربية اللمسات ، وإن كان يختار موضوعاته من البيئة ، وقدرته على التعبير تجمع بين البساطة والإتقان ...

وهيب صبرى :

هذا الفنان أثار الإعجاب بلوحته (عودة) فقيها من الحركة والتناغم وتوزيع الكتل والألوان والإحساس الشامل بالموضوع ما يجعلها لوحة فريدة .



خواطر — سعد الجرجاوي

التعبيرية :

على رأسهم جمال السجيني والذي يعتبر رائداً لهذا المذهب ، وفي حفره على النحاس موضوعاً وأداء بلغ غاية الإبداع . وقطعه في النحت (حمامة السلام) و (رأس) تدل على فنان عميق الإحساس بموضوعه ، وأصبحت الإجادة لديه شيئاً عادياً . أما لوحاته في الرسم فلا تؤدي إلى الغرض الذي يريده سواء في مستوى حفره على النحاس أو نحته .

سمير رافع والجزار وإبراهيم مسعوده من أعلام التقدميين وفي طريقتهم وأساليبهم سيما لوحة (رأس فتاة) لسمير تنطق ألوانها بكثير من المشاعر والأحاسيس . أما لوحة (إخوة) لمسعوده فهي موضوعاً وألواناً وتعبيراً تثير الإعجاب رغم غرابتها . أما (قارئ الفنجان) للجزار فهي خير لوحاته وتكاد تكون في تعبيرها عن الموضوع والبيئة شيئاً ممتازاً .

النحت — لويس فوزي وكامل جاويش أولهما انطوائي في قطعته (برناردشو) ولعله يريد أن ينحو منحى السجيني ولكن في مغالاة مع عمق في الإحساس . وقطعته فنان هولندي و(سامي) تتسم بالشاعرية وحيوية الفكرة .

أما تمثال الصراع لجاويش فيعبر عن فنان انطلاق وهي قطعة فريدة وإن كان الفنان قد بلغ حد الجرأة ولكنه وفق في التعبير عن فكرة الصراع الإنساني . ورأس عزيز فهمي من أعمال هذا الفنان اللافتة للأنظار . ورغم أنه لم ير المرحوم عزيز فهمي إلا أن إحساس الفنان استطاع أن يستشف من الصور الفنية الكثير من الملامح والشخصية .

كمال فوزي :

لم يوفق كل التوفيق في إبراز فكرة الفيلسوف بما يوحيه الموضوع من عمق ، وكان خيراً لو كان الرأس لرجل أكبر سناً . ولهذا الفنان الشاب تمثال عن الفلاح المصري نال به الجائزة الأولى يعد برهاناً على ما ينتظره من مستقبل .

محمد فهمي



نيرو — محمد محمود الجابي

في ميزان النقد :

« التطور والتجديد في الشعر الأموي »

تأليف الدكتور شوقي ضيف

للأستاذ يوسف خليف

درج الباحثون في الأدب العربي على أن الشعر الأموي صورة من صور الشعر الجاهلي ، وأنه ليس إلا امتداداً له ، يشبهه تمام الشبه إن لم يتحد معه في خصائصه الفنية تمام الاتحاد ، وأن الشعر العربي لم يخضع لسنة التطور ، ولم يعرف معنى التجديد إلا بعد أن اتصل العرب بالموالي في العصر العباسي .

هذه هي الفكرة التي وقف أمامها الدكتور شوقي ضيف ليرى مدى الصواب فيها أو مدى الخطأ ، وليتهي إلى رأي يضع به الشعر الأموي في موضعه الصحيح من تاريخ الشعر العربي .

ويقوم منهج الدكتور شوقي ضيف في بحث هذه الفكرة على أساسين .

يقوم (أولا) على دراسة بيئات هذا الشعر الأموي ، وما أصابها من تغير في جوانب الحياة المختلفة ، نتيجة لظهور الإسلام ، وتحول الحياة العربية من صورتها الجاهلية إلى صورتها الإسلامية .

ويقوم (ثانياً) على الرجوع إلى الشعر الأموي نفسه ، ودراسته دراسة عميقة سليمة النهج ، تصل بينه وبين ذلك التغير الذي أصاب الحياة العربية في بيئاته المختلفة ، وتخضع لقانون الفعل ورد الفعل .

وينتهي الدكتور شوقي ضيف من بحثه إلى أن هذه الفكرة التي درج عليها الباحثون في الأدب العربي فكرة خاطئة من أساسها ، وإلى أن الأدب العربي لم يعرف في تاريخه حكماً ظالماً مثل هذا الحكم « الذي ينكر على العرب أن ينهضوا بشعرهم وفنهم في عصر بني أمية ، كأن العرب قوم يستعصون على التحول والتطور ، مهما تكن التغيرات والانقلابات التي تصادفهم في حياتهم ، ومهما تكن الهزات العنيفة التي تمسهم في عقولهم وأفئدتهم » .

فالشعر الأموي ليس صورة مشابهة للشعر الجاهلي ، وإنما هو صورة متطورة من هذا الشعر القديم في بعض جوانبها ، وجديدة كل الجدة في بعض جوانب أخرى ؛ فالشعر الأموي قد خضع خضوعاً واضحاً لتطور الحياة من حوله : الدينية ، والعقلية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وقد جدت فيه معان وأفكار ، واستحدثت فيه موضوعات ، وتطورت قصيدة المديح في هذا العصر إلى التعبير عن طاقات جديدة لم يكن العصر الجاهلي يعرفها ، ودخلت فيها معان إسلامية جديدة لم يكن الشاعر الجاهلي الوثني يفكر فيها ، وتحولت قصيدة الهجاء أيضاً إلى شيء جديد ، يختلف عن قصيدة الهجاء القديمة من حيث الغاية ومن حيث الصورة ، فقد أصبح يراد بها إلى اللهو لا إلى الجد ، وأصبح الهجاء حرفة يتفرغ لها شعراء من هذا العصر ، وخاصة في العراق ، حتى أصبحت النقائض كأنها مناظرات أدبية ؛ وإلى جانب ذلك ظهرت ألوان جديدة في الشعر الأموي ، فابتدع ابن أبي ربيعة فناً جديداً في الغزل ، يخالف طبيعته المألوفة في الشعر القديم ، إذ تحول عنده من غزل عاشق يصف حبه لمعشوقته إلى غزل معشوق يصف حب عاشقته له ، وتخصص ذو الرمة بوصف الصحراء ، ومضى يرسم لها لوحات رائعة تخالف تمام المخالفة ما عرف من وصف الصحراء في الشعر الجاهلي ; ونظم الكميت

« هاشمياته » في صورة جديدة كل الجدة ، إذ تحولت القصائد عنده إلى ما يشبه مقالات المتكلمين . وابتدع الوليد ابن يزيد فن الخمرية قبل أبي نواس ومدرسته في العصر العباسي . وتحولت الأرجوزة على يدي رؤبة بن العجاج إلى ما يشبه المتون اللغوية ، وكانت بهذا أقدم صورة من صور الشعر التعليمي في اللغة العربية . وإلى جانب هذه الألوان الجديدة البارزة في الشعر الأموي ، ظهرت ألوان أخرى أقل وضوحاً منها ، فظهر الحنين إلى الوطن في شعر الفتوح الإسلامية ، وهو موضوع لم يعرفه الشعر الجاهلي ، وظهر شعر السجون واللصوص والقضاء ، والشعر الذي يصور مظاهر الحضارة الجديدة كبناء القصور ، وحفر الجداول ، والاحتفال بالأعياد ، ونحو ذلك .

هذا عرض سريع لما ورد في كتاب « التطور والتجديد في الشعر الأموي » من آراء ، يحاول بها مؤلفه نقض تلك الفكرة القديمة التي سيطرت على أذهان الباحثين في الأدب العربي ، والتي ترى أن الشعر الأموي امتداد للشعر الجاهلي .

ونقف بعد هذا لنتساءل : ما مدى التوفيق الذي أصابه الدكتور شوقي ضيف في كتابه هذا ؟

الأمر الذي لا شك فيه هو أن الكتاب يدل على ما بذله صاحبه في سبيله من جهد ومشقة وصبر وأناة ، فليس درس عصر من العصور بكل ما فيه من مقدمات متعددة ، وتيارات مختلفة ، على أساس منهجي سليم ، بالشيء الهين اليسير ، ومع أن العصر الأموي من العصور التي نالت حظاً موفوراً من عناية الباحثين في الأدب العربي ، فإن الهدف الذي يستهدفه الدكتور شوقي ضيف من كتابه ، وهو تبين الجديد والتجديد في شعر هذا العصر ، يجعل مهمته على شيء غير قليل من الصعوبة والمشقة . إذ أن الدراسة في هذه الحالة ستكون دراسة مقارنة بين عصرين .

وقد استطاع الدكتور شوقي ضيف أن ينهض بهذه المهمة على صورة تستحق الإعجاب والتقدير .

وهو في هذا الكتاب — كشأنه في كتبه الأخرى — عالم وفنان معاً ، يمزج بين « العلمية والفنية » ، ويستخرج من هذا المزاج ألواناً طريفة من البحث العلمي الفني في الأدب العربي . ولعل ذلك الفصل الذي كتبه عن « لوحات ذي الرمة » (٢٠٩ — ٢٣٢) من أروع فصول الكتاب التي تمثل هذه الظاهرة تمثيلاً قوياً .

ومع ذلك فهناك بعض أشياء نأخذها على هذا الكتاب :

وأقوى ما نأخذه عليه هو أن الفرق بين التطور والتجديد ليس واضحاً تماماً في بعض فصوله . فالفصل الثاني فيه يدرس « تطور الشعر الأموي مع الحياة » ، والفصل الثالث يدرس « التجديد في المديح والهجاء » ، وقد وقفت طويلاً أمام هذين الفصلين ، محاولاً أن أتبين السر في الفصل بينهما ، ويخيل إليّ أنني لم أهتد إلى هذا السر ، فإن ما أصاب قصيدة المديح وقصيدة الهجاء في العصر الأموي ليس إلا تطوراً لما كانت عليه هاتان القصيدتان من قبل ، ومن هنا كنت أتصور أن يضم هذا الفصل الثالث إلى الفصل الثاني الذي يدرس « تطور الشعر الأموي مع الحياة » على أن يدخل تطور قصيدة المديح تحت موضوع « الحياة الدينية » . ويدخل تطور قصيدة الهجاء تحت موضوع « الحياة العقلية » . وليس تصورنا هذا تعسفاً ، وإنما هو صدى لإحساس الأستاذ المؤلف بموضوعه ، إذ نراه في مقدمته للكتاب (صفحة هـ) يرد تطور قصيدة المديح إلى تطور الحياة الدينية ، وتطور قصيدة الهجاء إلى تطور الحياة العقلية .

أما إذا كان الأستاذ المؤلف يرى أن قصيدة المديح وقصيدة الهجاء في العصر الأموي لونان جديدان ، شأنهما في ذلك شأن الغزل عند ابن أبي ربيعة أو وصف الطبيعة عند ذي الرمة ، فقد كنت أتصور أن يضم هذا الفصل الثالث إلى الفصل الرابع الذي يدرس الألوان الجديدة في الشعر الأموي .

والمسألة الثانية التي نأخذها على هذا الكتاب هو هذا « التعليق والتعقيب » الذي أفرد له الأستاذ المؤلف القسم الأخير من خاتمة الكتاب (٢٩٤ — ٣٠٠) ، فهو يدرس فيه ألواناً جديدة أخرى من الشعر الأموي ، أو على حد تعبيره « خطوطاً صغيرة » كالحنين إلى الوطن ، ووصف مظاهر الحضارة ، ونحو ذلك ؟ وما دام الأستاذ المؤلف يرى أن هذه « الخطوط الصغيرة » ألوان جديدة ، فقد كنت أتصور أن تضاف إلى الفصل الرابع الذي يدرس فيه الألوان

قصص

حلم مراد

للأستاذ إدوار ملمى

كان مراد يحس دائماً أنه يعيش فى عالم غامض كله أسرار . ولقد جاءه هذا الإحساس مبكراً ، منذ أصبح فلم يجد أباه كما اعتاد أن يجده كل يوم ! منذ قيل له : إن أباه قد « مات » . عندئذ بدأ مراد ، الصبى ، يصطدم بطبيعة الحياة على الأرض ، وعرف أنه ليس خالداً ، ولكنه ظل كهذه الظلال الشمسية تذهب بذهاب الشمس ، وتعود بعودتها ، فإذا ولدت الظلال وماتت كل يوم بولادة الشمس وموتها ، فالإنسان يولد كل يوم ويموت بحلول روحه فى جسده وخروجها منه ...

ولقد توصل مراد إلى هذه الحقيقة بطريقة ما ، وهو منذ عرف هـذه الحقيقة أدرك أنه يعيش فى عالم غامض كله أسرار . بدأ يحس الخوف من أن يموت ويوضع فى حفرة فى باطن الأرض ويهال عليه التراب ويترك هناك إلى الأبد بينما الحياة مازالت تدب على الأرض . ورسخ فيه هـذا الإحساس بالخوف من الموت ! وازدادت سنه عاماً بعد عام حتى تيقن من شىء واحد هو أن النوم موت قصير والموت نوم طويل ، وأنه فى كلتا الحالتين تخرج الروح من الجسد لتحوم فى الفضاء الواسع وتعود إلى مستقرها فى حالة الموت القصير ، ولا تعود إليه أبداً فى حالة النوم الطويل .

ومنذئذ جعل مراد يتأمل هذه الفكرة وإن كان أمرها واضحاً جلياً . ذلك أن خاطراً همس به فجأة فملأ قلبه خوفاً ورعباً : « وماذا لو تركتنى الروح عند النوم فعاقها عائق عن العودة إلىّ ؟ » وعادت إليه فتوة ذكرى مخوفة ، بدأ (مراد) يعتقد أن روحه ، عندما وافته منيته ، قد عاقها عائق فلم تعد إليه إلا وهو يدلى إلى مثواه الأخير ، إذ تمايل الصندوق الذى كان يحتويه فى أيدى حمال النعش تمايلاً غريباً لم يعهدوه فى صناديق الموتى من قبل ! فأعاد العمال الصندوق إلى الأرض ونزعوا غطاءه وحلوا أربطة « المتوفى » فإذا به حىّ يرزق . وعاش المسكين بعد ذلك ثمانية عشر عاماً متمتعاً بوافر الصحة حتى وافته منيته للمرة الثانية ، فغادر الدنيا والناس فى شك من حقيقة موته هذه المرة .

وطفق مراد يدير فى رأسه هـذا السؤال : « كيف أكون من البله والغفلة بحيث أضمن عودة روحى إلى جسدى كل صباح بعد أن تفارقه كل مساء ؟ ! كيف أكون

الجديدة ، ولم يكن هناك من بأس فى أن تكون قسماً سادساً فى هـذا الفصل تحت عنوان « ألوان أخرى » أو « خطوط صغيرة » .

بقيت مسألة شكلية نأخذها أيضاً على هـذا الكتاب ، وهى وضع الشرح اللغوى لألفاظ بعض الأبيات فى صلب الكتاب ، كما نرى مثلاً فى الصفحات ٢١٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٩٦ . فقد كنت أفضل أن يوضع هذا الشرح اللغوى فى هوامش الكتاب ، حتى لا يحدث انقطاعاً لا مبرر له بين أفكار الموضوع الواحد .

ولكن هذا كله لا يغض من قيمة الكتاب ، ولا ينقص من أهميته ، فهو بحث من الطراز الأول ، استطاع صاحبه أن ينهض به على صورة تستحق كل تقدير وإعجاب ، وحسبه أنه وضع الشعر الأموى فى موضعه الصحيح من تاريخ الشعر العربى : تطوراً متجدداً من الشعر الجاهلى ، وتجديداً متطوراً إلى الشعر العباسى ، وأنه استطاع أن ينصف العرب من أولئك الذين جعلوهم « أحجاراً يتنقلون من مكان إلى مكان ، ومن عصر إلى عصر ، ومن طور بداوة إلى طور حضارة ، دون أن يتأثروا بما صادفهم فى كل ذلك من مؤثرات حضارية وغير حضارية » .

يوسف خليف

من البساطة والسذاجة بحيث أثق فى روحى هـذه الثقة العمياء، فأتركها جسدى تتصرف فيه كيفما يحلو لها، فتخرج منه وتعود إليه وقتما تريد ! إن أى تأخير فى عودة الروح إلى صاحبها قد تقوده حياً إلى القبر » . ومنذ انتهى إلى هذه النتيجة لا يذكر أنه نام حقاً . فقد بدأ النوم يجفوه، وبات يرهب الرقاد ويخافه، وجعل همه أن يطرد من عينيه النعاس كلما هم بالإغفاء، وطفق يتابع دقات الساعة وأنصافها وأرباعها ويتسمع إلى الـ « تيك تاك » فى تتابعها الرتيب خلال الليل الصامت الطويل، ويقوم مفزوعاً إذا ما توقفت هذه الدقات .. لأن توقفها معناه نومه ..

وجعل المسكين يفكر فى كيف يحتاط لخروج روحه من جسده ! كيف يغلقه عليها ويضطرها إليه ويصدها عن مبارحته فى وقت النوم . وجاءته الفكرة : لم لا يضع جسده فى صندوق محكم من الخشب . لا ! فالخشب مسامى قد تهرب منه الروح . ليأخذ الحديد، فلن تسمح مسامه الدقيقة جداً بمرور الروح . أجل ! ليضع جسده كلما أوى إلى فراشه فى صندوق محكم من الحديد، وبهذا يتحتم على الروح أن تلازم الجسد، أو على الأقل أن تكون إلى جواره دائماً لاصقة به، فإذا كان الصباح وحل موعد نهوضه وجد روحه عند أطراف أصابعه ! وهو بهذا يضمن حضور روحه دائماً : وقت طلبه « هو » ، لا حسب مزاجها « هى » .

ولكنه كان يخشى إن أخبر أحداً بشىء مما يدور برأسه أن يعده مجنوناً مخبولاً فاقداً لقواه العقلية ! وكان لهذا فى حيرة من كيفية تنفيذ فكرته التى ما كانت لتتم بغير علم من حوله من الناس والأهل، وكانوا قد بدأوا يرقبونه فى الأيام الأخيرة مراقبة قلقة، إذ كانوا يلحظون ذهوله وشرود عقله شروداً تاماً وأرقه المحيّر المخيف . وكان يقول فى نفسه إذ يراهم يلحظونه : « آه لو أنهم يعلمون أن الحياة كلها، حياتى، تتوقف على هذه الروح . كيف أعتبر ! أعنى هذا الشىء الذى إذا خرج من جسم الإنسان ولم يعد فى الوقت المناسب كان فى عداد الأموات، ولكن أنى لهم أن يفهموا وهم قوم لا يتأملون » .

وأنفق هذا الخائف من الموت أياماً يطولها يدبر مشروعه : هذا المشروع الذى أمامه دون شك أن يجعل حياته أبدية، حياة لا تموت . إذ ما معنى الخوف من الموت ؟ أليس معناه حب البقاء، البقاء إلى الأبد ؟ ! والإنسان حقاً مهووس بفكرة إطالة عمره، فكرة خلوده . وهو فى هذا معذور، لأنه يعرف هذه الحياة التى يلمسها فعلا، أما الحياة الأخرى فكيف يعرفها ويطمئن إليها وهو لم يلمسها ؟ ! المجهول يوحى بالخوف متعاضن المعروف . فهل يلام هذا المذعور من الموت إذا أراد أن يحتاط لنفسه ضد خروج روحه من بدنه إلى الأبد ؟ وهل يلام إذا فكر فى صنع قالب أو صندوق من الحديد ينام فيه ليله فيضمن بذلك نهوضه فى الصباح وبداخله روحه، أو على الأقل قريبة منه فى متناول يده !

وشرع مراد ذات مساء يفكر فى مشروعه تفكيراً جدياً وهو أرق فى فراشه : صندوق حجمه كذا فى كذا فى كذا، مع تهيئة مكان فارغ كاف للهواء الذى سيستنشقه أثناء الليل بعد إحكام الصندوق وإقفاله من الداخل بالمفتاح .. إن غرفته فى ظلام دامس ولكنه يرى بوضوح صندوقه موضوعاً فى فراشه . صمت مطبق عميق رغم صوت شهيقه وزفيره الذى يسمعه يتردد داخل جدران الصندوق ويصك سمعه وهو قابع جوار الصندوق فى خوف ورهبة . كيف يسمع صوت شهيقه وزفيره الذى يتردد داخل الصندوق وهو قابع خارجه بينما هو قد أحكم على نفسه الغطاء من الداخل ؟! هذا الصندوق، ما الذى يدور بداخله الآن ؟ هل نام مراد حقيقة بداخله، وهل فارقت روحه جسده ؟ لتحاول أن تفارق الروح الجسد، فسوف لا تجد لها منفذاً إلى خارج الصندوق ! إنه ليتساءل : لماذا تبغى روحه الهروب من جسده ! إنها لتنتهز الفرصة لهجره . ولكن ماذا صنع لروحه، أو ماذا صنع جسده بروحه حتى تضيق بجيرة هذا الضيق ؟ ماذا صنع لها حتى تكرهه هذه الكراهية ! فهو لا يحرمها ملذات الحياة كل الحرمان، بل يطلق لها العنان أحياناً فيجعلها تفكر ما وسعها التفكير وتنطلق ما شاءت الانطلاق . إن حياته ليست حياة الجسد فقط بحيث يغضب الروح، وليست حياته حياة الروح فقط بحيث يغضب الجسد، ولكنه يمزج هذا بذاك ليجعل من هذا المزيج ما يسمى بالإنسان . إنه إنسان . إنه مزيج من الروح والجسد، فهل

فى هذا ما يغضب روحه ؟ ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ إنها لا تحب الازدواج ، ولكنها تحب الاستفراد . إنها تحب الاستفراد بكيانها . وهل للروح كيان ؟ هل يمكن رؤية الروح كشىء يمكن رؤيته ، ولمسها كشىء يمكن لمسه ؟ إن الإنسان ليموت فلا يرى منه إلا كتلة من اللحم والعظام : رمة . أين إذاً هذه الروح التى كانت تزدوج به والتى ، مع اللحم والعظام ، تكوّن الإنسان ؟! هناك روح ، طبعاً . ولكن لأجل أن تتمتع الروح بحياتها مستفردة يجب أن يكون لها كيان مرئى محسوس . فلولا أصابعه : من لحم وعظام ، ما لمس الأشياء ! ولولا أنفه : من لحم وعظام ، ما ميز بين روائح الأشياء . . . وهكذا الحال مع اللسان والعين والأذن . بموت الإنسان تموت كل هذه الكتلة من اللحم والعظام التى كانت تكوّن حواسه . فكيف تعيش الروح إذاً بعد انفصالها من الجسد الذى كان يحتويها وقد سلبها الموت هذه الأعضاء ؟! ومراد يعتقد أن « حياة ما » بدون حواس حياة خاوية . أنظر إلى إنسان ولد بدون حواس إطلاقاً ، ماذا تكون حياته غير كتلة من اللحم والعظام ملقاة فى مكان ما ! . . ولكن ماذا يسمع مراد وماذا يرى ؟ إنه ليدير عينيه حوله فلا يرى غير الصندوق الذى يحتويه . إنه لا يحيى إلا ليرى هذا الصندوق . كل حياته وكل اهتماماته مركزة فى هذا الصندوق . إنه لم يعد يرى فى غرفته غير هذا الصندوق : اختفى دولاب الملابس واختفى مكتبه وفراشه وأرض غرفته ! لم يبق غير الصندوق الذى ظل معلقاً حيث تركه على فراشه . وماذا يرى أيضاً ؟ لم يعد يرى لغرفته حيطاناً ! لم يعد يرى للمكان حدوداً . إنما هو الفضاء الذى يبتلع كل شىء : فضاء رمادى مزرق . ليس هناك زمان وليس هناك مكان . ليس هناك غير هذا الصندوق الذى يحتويه وهو فى نفس الوقت قابع خارج الصندوق يرى تطور الأحداث حوله فى خوف . من هو وأين يكون ؟ الإنسان يتأمل مشكلة نفسه فى ذعر ورهبة . إنه يتأمل مشكلة نفسه فى الفضاء : فوقه فضاء وتحته فضاء ، وعينه وشماله وأمامه وخلفه : كل شىء حوله فضاء . . وأمامه صندوق محكم الإقفال هو كل أمله فى الحياة . ترى ما الذى يجرى فى الداخل ؟ إنه ليتصور روحه تبحث لها عن منفذ تخرج منه إلى الفضاء . ماذا يرى ؟ ما هذه النقطة البيضاء الناصعة التى بدأت تلمع فى جانب الصندوق ؟ لقد خرجت هذه النقطة البيضاء إلى الفضاء ، وجعلت تنتفخ وتتضخم وتتكون لها رأس وأطراف وجسم . ولقد أصبح هذا الشىء يشبه الإنسان . يشبهه ، ولكن الفرق بين هذا الشىء وبينه أنه كإنسان من لحم وعظام له « حجم » بينما هذا الشىء « مساحة » ، تماماً كهذا « الشخص » الذى يقصه الأطفال من الورق : رأس مستدير مركب على جسم مستطيل له ساعدان مستقيمان ممتدان أفقياً وساقان مستقيمتان ممتدتان رأسياً . انتصب هذا الشكل العجيب أمام الصندوق وأدار نحوه رأسه وأطلق ضحكة طويلة جلجل لها الفضاء وارتجفت منها أوصال مراد ، وصمه الأخير يقول : « مسكين ! يود أن يسجنى ! ها ها ها » . ويلوح أنه لم يكن يرى مراد ، فقد أدار هذا « الشخص » العجيب رأسه لا كما يديرها الإنسان نصف دائرة من اليمين إلى الشمال أو بالعكس ، ولكن أدارها دورات كاملة مرة واثنتين وثلاث مرات ، ولما لم يسترع انتباهه شىء انطلق يجرى فى الفضاء على أطرافه فى سرعة . وبدلا من أن تصغر مساحته بنسبة ابتعاده عن مراد والصندوق كان يزداد مساحة ، حتى ملأ الفضاء ، وخف وشف وامتزج به وضاع فيه . عندئذ فزع مراد فى حيث كان يقبع وتلفت فيما حوله : إنه لا يرى غير الصندوق الذى ظن أنه يستطيع به سجن روحه . أين ذهبت روحه ؟ وهل هى حقاً هى هذا الشكل العجيب الساخر ، هذا الشكل الذى يقصه الأطفال من الورق فى طريقة ساذجة بدائية ! لم يفكر مراد طويلا فى هذا الأمر ، فقد لمح روحه عائدة تلهث . وما زالت تقترب منه وتصغر مساحتها حتى إذا عادت إلى مساحتها الطبيعية ، أى إلى هذه المساحة كما لو كان الجسم يحتويها فعلا ، وكانت قد اقتربت من الصندوق ، اعتلته ، وانتشر فى الفضاء صوت يانو يلعب عازفه الكونشرتو الثانية لرخمانينوف . عندئذ هبطت روحه عن موقعها وجلست على الصندوق وتركت ساقيها تتأرجحان فى الفضاء ، بينما انخفضت رأسها براحتى يديها . كانت سابحة فى التفكير . ترى ما الذى كانت تفكر فيه ! ولكنها هزت رأسها فجأة وصاحت ضاحكة : « ها ها ! يظن صاحبى أنه يحبسنى ! إنه فى

حتى أن يفيق منه إلا بالموت ». قلب مراد ينقبض من موسيقى رخمانينوف! ويصيح مراد وهو يشد شعره: هذا هو العته بعينه! هل من المعقول أن يكون حقاً كل ما يحدث قبل الموت، وحقيقة كل ما يحدث بعده؟!. وسمع مراد أصواتاً خافتة تتهامس من حوله، فتلفت يستطلع الخبر، فإذا برهط كبير من الأشباح شبيهة بروحه تقترب من روحه التي كانت ما زالت غارقة في تفكير عميق. وسمع واحدة من هذا الرهط تتوجه إلى روحه قائلة: « هات لنا ما عندك من أخبار صاحبك هذا اليوم ». فرفعت روح مراد رأسها من راحة يدها:

— لقد زهدت في عشرته. كم أحب أن أهجره إلى الأبد..

عندئذ انتفض مراد وصاح: إياك أن تفعليها يا مجنونة. إياك أن تفعليها.

ولكن يلوح أن صوته لم يصل إلى أسماعهن فقد كن ماضيات في النقاش:

— ما ذا ترين لو تخلينا جميعاً عن أجسادنا وعشنا هكذا أحراراً؟

— لا أحب عندى من هذا. فكم يعذبني صاحبي العذاب كله. إنه لا ينام أكثر من أربع ساعات في اليوم، بتوقيتهم الأرضي، إذ لا أعرف كم يكون هذا بالنسبة إلى الأبدية التي نمرح فيها الآن! إنه طالب ساهر على أبواب الامتحان.

— أما صاحبي فقد أراد أن يسجنني سجناً ليلياً فصنع صندوقاً أغلقه على نفسه ليمنعني من الخروج إلى الفضاء عند ما ينام.

— وكيف خرجت من الصندوق إذاً؟!

— من ثقب المفتاح.

وقهقهت الأرواح ساخرة. أما مراد فقد تذكر أنه نسي أمر هذا الثقب...

رخمانينوف يعزف كونشرته الحزينة والأرواح تهزأ وتسخر من سجانيها، وهو قابع في الفضاء يرى ويسمع ويعجب. وأحس مراد بدبيب خافت ولكنه ثقيل. شبكة هائلة سوداء تظهر في الفضاء الرمادي المزرق تشبه خيوط العنكبوت مازالت تتضح وتقترب حتى تشملهم جميعاً: مراد والأرواح جميعاً والصندوق. عندئذ تدرك الأرواح مصيرها المحتوم فتطلق صرخات مدوية في الفضاء بينما تزداد الموسيقى عنفاً وتزداد ضربات قلب مراد اضطراباً، ويظهر فجأة عنكبوت ضخم هائل في وسط شبكته العتيقة، وكان رأسه جمجمة إنسان. تسمر على شبكته وثبت بصره على الأرواح المذعورة. تقدم العنكبوت خطوة، فانكمشت الأرواح بعضها بعضاً كما انكمش مراد في نفسه. لم يعد يحس حوله بشيء إلا بدبيب العنكبوت الفظيع على صدره. ورخمانينوف لا يهدأ. هذا العنكبوت الهائل يزحف على أنسجته متجهاً نحو روح مراد وصاحباتها من الأرواح الأخرى. إنها تنتفض من مجلسها في خوف وهلع، وتنكمش في نفسها حتى تعود كما كانت في البدء، نقطة صغيرة بيضاء لامعة. صدره لا يتحرك! إنه يريد التنفس فلا يستطيعه! يريد الصياح فلا يتمكن منه. الأرواح الأخرى لا تدرى ماذا تصنع، وهي حيرى لا تدرى كيف تذود عن نفسها، وقد حوصرت هذا الحصار الضيق القاتل. ودبيب العنكبوت. من لمراد بإزاحته عن صدره! إنه يود أن يصيح، يصيح. وروحه تدخل مذعورة من ثقب مفتاح الصندوق مخلفة الأرواح الأخرى لقمة سائغة لهذا العنكبوت الجبار.

صدره. صدره. هذا العنكبوت الثقيل الجاثم عليه.

أ.. أ.. أ..

صيحة واحدة طويلة أطلقها مراد فزع على أثرها من فراشه ليعرف أن كل الذي حدث كان كابوساً.

* * *

— ما ذا هناك يا ولدى؟ لماذا تصرخ هكذا؟!

قالتها أمه وهي تهرع إليه من غرفتها.

— لا شيء. لا شيء.

قالها مراد وهو يغالب دمعه. وأجهش بالبكاء.

— ماذا دهاك! ما الأمر؟

— وما فائدة ذلك يا أمي! لن تفهميني.

— إني أسمعك على أي حال.

— لقد رأيت روحي منذ لحظات...

— رأيت...

— أجل رأيتها . كنت أحلم . رأيتها تهرب مني ، تهرب من الصندوق ...

— أي صندوق يا ولدي ؟..

وشرح لها مراد هواجسه ومخاوفه ومشروع عمل الصندوق ونومه وهو يفكر في هذا المشروع وقصة الكابوس كاملة . عندئذ حملقت فيه أمه .

— لا تنظري إليّ هذه النظرات . إني سليم العقل . أؤكد لك أني سليم العقل ، متمالك لكل قواي العقلية . كل الذي بي هو أني أخاف الموت . إني لا أحب أن أموت . إني لا أرى ما يدعو إلى أن أموت .

— إنك مازلت على عتبة الشباب يا بني . فما الذي يدعوك إلى التفكير في الموت منذ الآن ؟! أنا التي يجب أن تفكر في الموت لا أنت . ومع كل فالموت هو آخر ما أفكر فيه الآن وقد أشرفت على الخمسين .

— إني خائف ! إني خائف . لازلت أرى العنكبوت الفظيع . إنه ينتظرني . إنه يترقب نومي من لحظة إلى أخرى . إني أحس أني سأموت اليوم .

وأجهش بالبكاء للمرة الثانية . فاحتضنته أمه وجعلت تسليه عن الموت ما أمكنها ذلك ، حتى إذا كف عن البكاء وانتظمت أنفاسه وغلبه النوم دثرته وتركته بعد أن اطمأنت إلى أنه قد نام تماماً .

ولكنها ظلت أرقة تفكر في ولدها . ومن ساعة لأخرى كانت تأتي على أطراف أصابعها حيث فراشه فتنظر إليه حتى إذا اطمأنت إلى أنه نائم عادت إلى فراشها ، عادته ثلاث مرات في هذا الليل الطويل . وما أشرق الصباح حتى جاءت الأم على أطراف أصابعها إلى غرفة ابنها . ووقفت عند باب غرفته . كان نور الصباح يتسرب من شيش النافذة فيغمر الغرفة في بحر رقيق من النور الباهت . كان ولدها متدثراً في وضعه حيث تركته ليلة الأمس . اشرأبت بعنقها إليه : لم يكن يتحرك : لم يكن صدره يعلو ويهبط : لم يكن يتنفس . عندئذ ندت من الأم شهقة هائلة وحملقت في ابنها النائم وضربت صدرها بقبضة يدها وتسمرت قدماها وقد مرت برأسها فكرة مخيفة . لم تدر أتتقدم من ولدها ! لقد خانتها قدماها ولم يسعفها صدرها بغير صيحات مخنوقة لم تكن تتجاوز حلقها . كل ما كانت تفعله وهي ذاهلة هو أن تحملق في ولدها في مرقده وأن تضرب صدرها بقبضة يدها . كانت تامة الذهول . ولكنها تمكنت أخيراً أن تنزع قدميها بعد جهد وتتقدم من ابنها . ومدت يدها إلى دثاره ترفعه عن وجهه : كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما في حملقة ورعب كما لو أن صاحبهما كان مذعوراً من شيء .

— ولدي .. ولدي .. ولدي ..

صيحات مدوية أطلقتها الأم .

كان مراد جثة هامدة ... فارقته الروح .

إدوار مفتي

انســياب

عيناك ساحرتان شفتاك راويتان
عمري ببابك عانٍ

يا كوة من رحيق طافت بروحي الغريق
هدية من عقيق

يا رقة في زماني وشت سنا ألحاني
منضورة بالحنان

يا بسمة الأسحار قامت على الأوكار
قبل انسكاب النهار

يا واحة النور يا جنة الديجور
يا نغمة السحور

يا صفوة الأيام يا نغمة الأحلام
يا جلوة الأوهام

يا باقة الأسرار يا قبسة الأفكار
يا فرحة الأطيار

زيدي الهوى زيدي صوغي أغاريدي
يا وحي تجديدي

قلبي بحبك ذاب في جدول الآداب
في منبع الأرباب

أحمد محمود مراد

يا فـؤادى

يا فؤادى وذكره ليس ينسى ... أنت تشقى بحبه وتؤسى
ظلتك الخطوب فيه ولكن ... سنة الحب أن تصون وتقسى
أنت قيثارة تفيض حنيناً ... لجمال الحبيب معنى وحسا
خفقات لكنها دامعـات ... تتلظى بها شقاء وبؤسـا
عبثاً تحسب اللقاء قريباً ... فتشبع الضلوع طعناً ودعسا
راهب أنت يا حبيبى قرسفاً ... فى قيود قد كبلتك وحبسا
كلما لاح طيفه لاح ذكر ... يا فؤادى وخالج الفكر مسا
أنت تسعى لطيفه أزلياً ... زاحماً فى السراب ماء فيحسى

وهو فى عرشـه العظيم عظيم
كل ما ازددت شقوة زاد قدسا

أنت منى وما أنا غير روح ... وشعور تزداد نحساً وتعسا

● ● ●

أصحيح ما قيـل عنى وعنه
يا فؤادى إليه ما امتعضت لمساً ؟؟

أنت أدرى بالحال فى كل طور
أنت أدرى بما تكبت يأساً

يوم عيد الزهور فى شهر آزار
أكان الحديث جرساً وهمسـاً ؟؟

موكب للنجوم فيه نجوم ... وفيه اللحظن زها وليسـا
شهدت مقلتاى حشداً وجماً ... وجمالا قد كان سحراً وهجسا

● ● ●

زعموا أنى نسـيتك عمداً
يا حبيبى فكيف أنسى وأنسى ؟؟

أنا لولاك كنت صخراً عيياً ... جامداً ما عرفت سفراً وطرسا
أنت علمتنى الجمال ومعناه ... فشدا الجمال سطوا وبأسا
كنت نشوان بالتواصل لما ... كنت تهدى حبابه لى كأسا
يوم كان الرحيق حقاً رحيقاً ... بجنى قبلة ورشف لعسا

آه . . . ما أجمل الحياة ادكارا
يوم كنا التقى ريقاً وخلسـا

وهى سكرى نشوانة تتهادى ... حولنا خفة وشدوا وعرسا
يا الطهر الهوى ويا لجبـاة ... لم يطأها العذال إفكا ورجسا
وكأنى أراك بدراً منيراً ... قمراً نيراً وكوناً وشمـسا
والحنين القياض وقف علينا ... والشعور الرقيق كم كان أنسا

ثم ماذا جرى السـائل عنكم
كيف كان وكيف أضحى وأمسى ؟؟

إن ما خفته تحقق طراً ... وأنالى كما يحـب تعسا

● ● ●

كل هذا وسحره لى قوس ... سهمه نافذ رمى الله قوسا
ما تراك أمشى كئيباً وئيداً ... خائفاً ما يزال مشى رعسا
لم أقل ماتت الأمانى وولت ... لم أقل فى غد أصوح أمسا

(أم درمان) عمر السراج

صـلاة ...

« من شاعر الحب والجمال لامارتين »

أنت يا من بزغت من أفق الغيب .. تغنين فى مجارى حياتى
تقطعين الوجود فى سأم مر .. وقد كنت فى ذرى النيرات
أنت يا من أضأت لى غيهب الليل .. وبددت بالهوى ظلماتى
أنت .. ! من أنت ؟ ما ديارك ؟ ما الاسم ؟ أجيبى يا مطمحى وصلاتى
أترى أنت دفقة من ضياء الخلد .. أم أنت حفنة من رفات ؟

● ● ●

هل ستمضين فى غد نحو دنيا الخلد والنور .. فى المدى اللانهائى ؟
نحو دنيا الأحلام فى ضحوة السحر وخفق الطيوب فى الأجواء ؟
نحو دنيا الأنغام يطلقها الفجر حنيناً .. على الربى الخضراء ؟
أم ستبقين بعد فى موطن البؤس ودنيا الحداد والبرحاء ..؟
تعبرين الدروب لحق من البعد ... وتحيين نهبة الأرزاء ...

● ● ●

آه مهما تكن صفاتك إنى قد وهبت الحياة ... منك إليك
آه مهما تكن ديارك إنى قد رأيت السماء فى عينيك
فدعينى ربيبة الخلد والمجد ... أقدم عبادتى فى يديك
ودعينى أزف أنشـودة الحب سلاماً مرفرفاً حوليك
ودعينى أقبـل الأرض أنى خطرت لسمة على قدميك

● ● ●

يا ابنة النور ما أرى الأرض إلا ـ لسراك ـ مقابر الأحلام
نحن صرعى الحياة يخنقنا الموت ... فنهوى ضحية الآلام
فإذا كنت مثلنا طعمة الموت ... فكونى تعلة لسـقامى
وإذا ما حلقت عن عالم الإثم إلى عالم الهوى البسـلم
فاذكرينى من بعد أن ضمنا الحب .. صلاة على مدى الأيام !

(الموصل — العراق) محمود فتحى المحروق

الثقافة

العدد ٧٠٥
٣٠ من يونيه ١٩٥٢

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٣٠ مليماً

الريف

وادٍ من الأشواق .. والأوهام
هذى الفرادس ، أم رؤى أحلامى ؟

البدر يمشى فى الخمائل عاريا ..
فتصفق الشطآن ... بالأنغام

وسنابل القمح النور فى الربا
تهتز تحت غلائل الأنسام ..

والغاديات على الضفاف عشية
يخطرن .. كالأزهار فى الأكمام

من كل ساجية العيون إذا سرت
سجد الضياء على ذرا الآكام

ترميك من خلف النقاب بنظرة
عذراء .. فاترة .. بغير سقام

لولا مظاهر فاقة لحسبتها
ملكاً .. تبسم عنه ثغر غمام ..!

●●●

يا جنة فى مصر يجرى تحتها ..
سر الخلود .. ومنبع الإلهام

كم هز مغناك الحبيب جوانحى ..
وحنا على ضعفى .. وبل أوامى

راجعت فيك هوى الشباب .. وعهده
وربيع أيامى .. وطهر غرامى

أيان سرت .. فسحر شطك ملهمى
ومرافق .. فى رحلتى .. ومقامى ..!

هذى الطبيعة .. لوحة علوية
سفرت .. فأبدت قدرة الرسام

النخل مرتجف الغلائل حالم ..
كتمت ذوائبه حديث غرام

ضاقت بسجن الريف .. فى أحزانه
فسمت تناجى أعدل الحكام ..

حملت شكاية بائس .. مستبسل
يطوى أضالعه على الآلام ..!

محمد فوزى العنتيل

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | الإدارة | محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العـــدد ٧٠٥ الاثنين ٨ من شوال سنة ١٣٧١ — ٣٠ من يونيه سنة ١٩٥٢ السنة الرابعة عشرة

هــــذا العيد

للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

عندما أقبل العيد هـذا العام خلوت إلى نفسي أتأمل مقدمه وقلبي ينبض بمشاعر الرحمة والمحبة ، فوددت لو أنني أملك مفاتيح السعادة والسلام فأطلقها حتى تعم الكون كله في مشارق الأرض ومغاربها ، وتمنيت في تلك الساعة لو كنت شاعراً فأحيي هذا العيد بأنشودة أسكب فيها كل مشاعري فلا أدع منها قطرة من أمل إلا أفرغتها ثم تغنيت بها كما يغني الطير في ساعة الفجر وهو يستقبل شعاع الشمس المشرقة .

إنه يوم كسائر الأيام تطلع شمسه في الصباح ثم تغرب في المساء ويمضي كما يمر غيره ويضيف إلى أعمارنا قطعة بأن ينقصها قطعة ، ولا يلبث أن يكون ذكرى تنضم إلى سائر ذكرياتنا فتؤلف في مجموعها ما نسميه حياتنا ، ولكنه مع هذا يوم خاص له ميزة على الأيام وله طابع يجعله علماً بارزاً في دورة العام . ذلك لأننا نحن وآباءنا وأجدادنا قد خلقنا له من أنفسنا شخصية مستقلة تجعله يوماً قائماً بنفسه يثير فينا ما لا يثيره سواه ، ونترقب فيه ما لا نترقب في الأيام الأخرى .

وأخذت أتصفح السنوات الغابرة عاماً بعد آخر كما يتصفح الإنسان (ألبوم) الصور العزيزة التي تسجل اللحظات السعيدة التي مرت به ، فعدت إلى أيام الطفولة ويالها من أيام ! كانت قلوبنا تخفق فيها لمقدم هذا العيد وتتطلع إلى صباحه كما تتطلع إلى أمل باسم ، فنبيت ليلته على أحلام الغد السعيدة ، والحذاء الجديد اللامع يرقد من فوق رؤوسنا ، والبذلة الجديدة معلقة حيالنا لتقع عيننا عليها أول شيء في الصباح . كانت ضجة العيد عند ذلك تملأ حياتنا سعادة فنخرج إليها لنشارك فيها بنصيبنا ولنستمتع بها مجتمعة شاملة في كل ركن من أركان المدينة أو القرية . كان العيد ماثلا في البيت وفي السوق وفي المسجد وفي الملعب ، حتى المقابر كانت تشترك فيه بنصيبها ، كان العيد يشملنا جميعاً ويوحي إلينا جميعاً وينادينا جميعاً قائلا إني لكم جميعاً . أكان هو الذي ينادينا حقاً ؟ أم كنا نحن الذين ينادي بعضنا بعضاً ، وكنا نحن الذين نقول إن هذا العيد لنا . إنها الطفولة التي تأخذ بغير أن تفكر .

لقد وددت وأنا في خلوتي أتأمل مقدم هـذا العيد لو استطعت أن أترقبه بقلب خافق كما كنت أترقبه من قبل في أيام تلك الطفولة البعيدة وأن أستقبل ضجته النابضة كما كنت أستقبلها وأشارك فيها بنصيبي وأستمتع بما يقدمه الآخرون من أنصبتهم متجاوبين جميعاً في غير تكلف ولا تعمد ، ولكن قلبي لم يستجب إلى أشتياقي أكثر من ذلك

الشعور الغامر المبهم من الرحمة والمحبة ، وهو شعور لا يشبه في شيء ذلك التطلع المرح المستبشر الذي كنت أحسه عندما كانت الحياة جديدة .

تمنيت لو استطعت أن أمسي في فجر ذلك العيد إلى كل من حولي من الأهل والأصدقاء والجيران في الحي ، فأوقظهم إليه حتى نملأه حباً مرة أخرى ! نخلقه في أنفسنا ثم نعيش فيه ونستمتع به كما كنا نستمتع به من قبل ثم نطويه في حياتنا ليكون قطعة منها . ونحتفل بعودته إلينا بعد لنعيشه مرة أخرى . لقد طالما أقبل ذلك العيد على آبائنا وأجدادنا وهم قوم مجتمعون يحبونه ويحيون فيه بعضهم بعضاً مستبشرين بطلعته عليهم ، آملين أن يعود إليهم مرة بعد مرة يصاحبهم في طريقهم المقدور لهم في الحياة ! كانوا عند ذلك يجاهدون في ميادين النشاط الإنساني ويرفعون لواء الحضارة للعالم كله ، ويضيفون إلى تراث الفكر والمثل العليا كنزاً بعد كنز . وقد عاش العالم قروناً طويلة على فضل ما خلفه هؤلاء الأجداد في العلم والفكر والخلق . لأنهم كانوا لا يعرفون في إنسانيتهم حدوداً بين الأجناس ولا الألوان . ولكن ذلك العيد طالما أقبل علينا ونحن قوم متفرقون بعد أن حطمنا ما ورثناه من تراث الفكر والعلم والمثل العليا ، بغير أن نخلق لأنفسنا حقاً جديداً أو فكراً طريفاً ومثلاً عليا جديدة تجتمع جميعاً من حولها.

فصرنا نستقبل هذا العيد لا نحس فيه بأنفسنا ولا نجد فيه من المعاني العزيزة ما يملأ قلوبنا بالأمل والبشر ، صرنا نستقبله فاترين كأنه لعبة قديمة مكرورة لا نهتز له ولا نتطلع إلى عودته ليجدنا أسعد حالا . ثم تعاقبت علينا الأحداث الأليمة التي كان من الطبيعي أن تتعاقب علينا بعد أن جردنا أنفسنا من التراث الذي كان يعصمنا؟ فعلمتنا الشدائد ما كنا في أشد الحاجة إلى أن نتعلمه منها ، وذلك أن الأمم لا يمكن أن تحيا بغير أن يكون لحياتها مبادئ قومية يؤمن بها الناس جميعاً ويلتفون بقلوبهم حولها ، وقد علمتنا هذه الأحداث الأليمة أننا منذ حطمنا ما ورثناه من هذه المبادئ القومية التي كان الآباء يؤمنون بها، قد وقفنا حيارى مزعزعين ، نقلب وجوهنا قبل الشرق والغرب نرجو أن نعثر على قبلة نرضاها ، فنحن اليوم نستقبل العيد ونحن أكثر معرفة لما فقدناه وأكثر إدراكاً لما كان يجب علينا إدراكه ، وقد أشرقت علينا بوادر هذه النهضة الجديدة التي تملؤنا قلقاً وتساؤلا وتلهفاً .

فمرحباً بهذا العيد الذي يقبل علينا بعد أن زال عنا الخمول والفتور والملل الذي يشبه خمود اليأس ، وحل محله هذا الاضطراب الثائر الذي نحسه جميعاً في أعماقنا . مرحباً بهذا العيد الذي يقبل علينا مع هذه الحركة القوية التي تهز عقولنا وعواطفنا وضمائرنا ، وإلى اللقاء بعد دورة أخرى إن شاء الله من دورات هذا الفلك الدائب الذي لا يعرف السكون ، فإننا نترقبه في شوق ليعود إلينا ونحن نسعى إلى الأمام في أمل متجدد لا نسأل أنفسنا عن مقصد محدود أو هدف قريب ، بل نسعى ونسعى في أمل متصل أن نكون في غدنا خيراً مما نحن في يومنا.

محمد فريد أبو حديد

شربناها...

شربناها على ظمأ وجوع   لحركت الكوامن في الضلوع
شربناها على عُمُرٍ تقضّى   وقفناه على المثل الرفيع
ولم نعلم بأن الأرض تجري   فتضحك .. ثم تعبث بالجموع
ونسعى نحو غايات تراها
فتحملنا الحياة على هواها
وتعطي الكأس ملأى بالدموع   فنشربها على ظمأ وجوع

●●●

شربناها وقلنا : لا عدمنا   كئوساً نحتسيها إن صحونا
لنا طعم تذوق المرّ فيه   ولكنّ المقادر أرغمتنا
ولو أنا وجدنا أو فقدنا   كما وُلدوا جميعاً ما شربنا
ولكنا نغرّد في الغصون
ونبكي ... للسعيد والحزين
عواطفنا لهم فإذا سُعدنا   شربناها فزال الهمّ عنا

●●●

نصيبك ! ما نصيبك يا فؤادي   لقد حرمتني طعم الرقاد
أعيش ولست أحيا غير أني   أحاول أن أكون مع العباد
أجاملهم وأعلم أن يوماً   سأذكر بين أصحاب الأيادي
فإن جرت الحياة إلى مداها
وفاض ولاؤها وخبا ضياها
ملأت الكأس من خمر الوداد   وقلت : لعلها تروي فؤادي

علي بيري

قلة المـــــروءة

للدكتور أحمد أمين بك

يمتاز عصرنا هـذا بقلة المروءة . حتى إنه لم يصل إلى الشرق القديم في وفائه ومروءته . ولا إلى الغرب الحديث في ماديته مع عدله ونظامه . فقد أصبحنا ماديين في غير عدل ولا نظام . هجرنا قديمنا ، ولم نحسن حديثنا .

كانوا يحدثوننا عن القديم بأنواع من المروءات يضحى فيها الرجل بنفسه أحياناً ، وبماله أحياناً ، حتى لتستخرج منا العجب . فيحدثوننا أن الشرطي العباسي أتى ليقبض على عبد الحميد الكاتب فوجده مختفياً عند صديقه ابن المقفع ، فقال أيكما عبد الحميد . فكل منهما قال أنا ، وكل منهما يعلم أنه إنما حضر الشرطي ليقتل عبد الحميد . ونحن اليوم لا نفهم هذه القصة لأننا لا نفهم معنى المروءة .

وقد ألف لنا أبو حيان التوحيدي كتابه « الصداقة والصديق » وفيه أمثلة كثيرة مما كان يضحى به الصديق لصديقه . ثم ألف لنا ابن الداية كتاب « المكافأة » وفيه قصص كثيرة عن المصريين أيام أحمد بن طولون ، يروى فيها أحداثاً كثيرة عن أفراد أحسن إليهم ، فكافأوا بالإحسان إحساناً ، بل كافأوا عن الخير بأحسن منه : هذا لص يريد أن يسطو على مارٍّ في الطريق ، ثم يعفو عنه لسبب من الأسباب ، فإذا العفو عنه يقابل المروءة بمروءة أكثر منها .

وهـذا أمير يعفو عن مجرم ، ثم تتردد الحال فيصبح الأمير أسيراً ، ويأتي المجرم فيقـدم للأمير من المروءات ما يعجز عنه الوصف . وهكذا .

وهذا التنوخي يؤلف لنا كتاب « المستجاد ، من أفعال الأجواد » فيأتي بالغرائب من أعمال الجود . وفي كتب الأدب غير هذه أمثلة كثيرة من أعمال المروءة .

نعم ، إنها لم تكن كثيرة في وسط آلاف الأعمال الأخرى ، بدليل أنهم حكوها وأعادوا بذكرها ، وأعجبوا بها إعجاب من لم يكن يتوقعها . ولـكن كان بجانب أعمال المروءة النادرة هذه أعمال أخرى كثيرة عادية من باب المروءة . ظلت تحكى في البلاد الإسلامية إلى أن غزتنا المدنية الأوربية .

حدثني صديق أن أدبانيا في عهد محمد علي ظل يلعب بطبله وزر طربوشه أمام فتى في قهوة ، وفي أثناء حركاته البهلوانية سلب منه كيس نقوده وفيه مائتا جنيه ، فلما تبين الفتى ذلك بعد أن انصرف الأدباتي غشي عليه ، وسقط على الأرض ، فسأله من بجواره : ماذا حدث ؟ فحكى له القصة ، فقال : لا تخف . إني أعرف رئيس هؤلاء الأدباتية ، فلنذهب إليه معاً ، وذهبا إلى حي السيدة زينب . فوصلا إلى بيت فسيح له فناء واسع ، هو بيت الرئيس ، فاستقبلهما صاحب البيت استقبالاً حسناً ، وكان الوقت وقت غداء فغدّاهما غداء غنياً وأكرمهما غاية الإكرام ، فحكيا له القصة ، فطلب إليهما أن ينتظرا إلى ما بعد العصر ، حتى يجتمع الأدباتية ، فلما اجتمعوا خرج الرئيس إليهم وقال لهم : أيكم نشل كيس نقود هذا الفتى ؟ فقام أحدهم وأخرجه من جيبه ، فقدمه الرئيس للفتى ، فأراد أن يخرج شيئاً يمنحه للرئيس فنظر إليه صاحبه شزراً ، لأن ذلك ضد المروءة .

وكثير من هذه الحكايات تحكى للدلالة على ما كان عند الناس من مروءة . وأدركت كثيرين فقدوا أطيانهم بسبب ضمانهم ، أو بسبب إنقاذ رجل وقع في مصيبة ، أو تفريج عن أسرة .

وحكى إبراهيم المازني رحمه الله أن أباه كان أودع صديقاً له مبلغاً كبيراً من المال من غير إيصال ، ولا برهان ، ولا يعلم به أحد . فلما مات أبو المازني ، جاء الصـديق إلى البيت ، يحمل المال الذي سلمه إليه والده ، وأعطاه لوالدته ، فأنفقته عليه في تربيته .

والتفت اليوم ، فلا نرى أمثلة من هـذه المروءة ، ولا مراعاة جوار ، ولا إحساساً يؤلم الجار . إنما ضعفٌ في المروءة ، وقلة في الوفاء . وكل يوم أرى أمثلة من هذا القبيل . فلجارنا كلب يعوي طول الليل كأنه مريض ، طلبت منه أن يريحني من الـكلب بأي شكل من الأشكال ، فأبى ولم يرع أي احترام للجوار ، وأعنت موظفاً كان يتقاضى نحو عشرين جنيهاً ، فعين في وظيفة أخرى بتسعين ، فكانت الحد الفاصل ، لم يعرفني ولم يسأل عني ، مع أنه سأل عن كل الناس .

الدكتور أحمد زكى أبو شادى

فى ديوانه « من السماء »

— ٢ —

للأستاذ عيسى الناعورى

والدينا من ذلك فصول مما كتبه الدكتور وأذاعه ، ومنها مقدمته لديوانه « من السماء » التى تدور على « التجربة الشعرية » التى يقول فيها : « والتجربة الشعرية قد تكون عظيمة كما قد تكون تافهة ، ولكن الشاعر قادر بتأثيره وانفعاله على إبداع الجليل من التافه ، لأنه يراه بمرآة نفسه الكبيرة التى كيفتها عوامل شتى ممتازة . . . وكلما كان الشاعر حساسا منفعلا جاءت تجربته الشعرية قوية وكانت مبعثاً لشعر مؤثر . . . إن التجربة الشعرية هى الدعامة الأولى للشعر .

فأبوشادى ، كما ترى ، يعتمد قبل كل شىء على مايسميه « التجربة الشعرية » أو الانفعال بما حوله من أشياء موحية ! واعتقاده هذا هو الذى جعله بين أكثر الشعراء إنتاجا ، فكان له هذا العدد الضخم من الدواوين الشعرية التى بلغت نحو أربعة عشر ديوانا . وما بالقليل أن يكون لشاعر مثل هذا العدد الضخم ، الذى يحتوى على ألوف من القصائد المتنوعة . ولكن هذا الشعر الكثير جداً من إنتاج أبى شادى لم ينل حظاً كافياً من تقدير عشاق الأدب والشعر واهتمامهم ، وذلك على عكس شعر صديقه الشاعر الصغير أبو القاسم الشابى — مثلا — الذى مات وهو ابن خمسة وعشرين عاما فقط ، ولكنه ملأ دنيا الشعر بأجود الألحان ، مما جعل اسمه زغرودة مطربة فى فم الدنيا ، وشعره ألطريد على كل لسان فى دنيا العرب .

وهذا يدلنا على أن التجربة الشعرية وحدها ليست بشىء ، وإنما هناك « طريقة التناول الشعرى » أيضاً ، وحظها من القيمة فى الشعر مساو للتجربة الشعرية أو يزيد . فالشعر شىء من أهم عناصره « الألوان والصور والموسيقى » وبدونها يصبح الشعر كلاما له وزن وقافية ، ولكنه مع ذلك أقل جمالا من النثر ، وتصبح التجربة الشعرية تجربة نثرية ، وقد تكون مبتذلة . والألوان والصور — وهى أهم مظاهر الخيال الشعرى — والموسيقى — وهى أهم عناصر فن الصياغة الشعرية — هى التى يقل حظ شعر أبى شادى منها ، ولذلك يفقد شعره ، الكثير جداً ، أثره فى نفوس قرائه ، فيفقد بذلك حظه من التقدير ، ويزيد فى ذلك مايشعر به القارىء من أن شعر الدكتور هو شعر « الفكر » أكثر مما هو « شعر الإحساس » . حتى فى شعر الطبيعة ، يلاحظ القارىء أن الإحساس الذى يعبر عنه الدكتور بشعره إنما هو « إحساس فكرى » ، وليس « إحساسا شعوريا عاطفيا » .

والدكتور لا يجهل قيمة الألوان والصور والموسيقى فى الشعر ، بل يشير إلى أهميتها فى أماكن متعددة من كتاباته النثرية . ومن ذلك قوله فى بحث له بعنوان « التجديد فى الشعر » : « ولابد لنا عند تذوق الشعر من أن نتذوق فى آن واحد موسيقاه وخياله ومعناه وعاطفته ، وأن نحس بالمواءمة بينها جميعا إحساسا يستثير إعجابنا » .

واليوم احتجنا لعمل الكعك السنوى إلى ماعون من جار ، فأبى علينا إعارته ، والتفت فلا أراها كالشرق ولا كالغرب . لا أرى طباعاً كطباع الشرق ، سمحة كريمة ، ذات وفاء ومروءة ، ولا أراها كالغرب ، مع مادبته يتبرع كثيراً للأعمال الخيرية ، وإلى جميات الإحسان ، ويشيد المستشفيات الفخمة ، ويتبرع للجامعات الضخمة . وأغنياؤهم يغدقون على الأعمال الخيرية كثيراً من أموالهم كما فعل روكفلر وغير روكفلر ، وأصبحنا كما قال الأول :

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا

إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

أحمد أمين

ويقول في مقدمة ديوانه « من السماء » : إن التجربة الشعرية تكون قوية ، ومبعثاً لشعر مؤثر إذا كان الشاعر مكتمل الأدوات البلاغية ، من سلامة التعبير ، وقوة البيان ، وحسن الموسيقى ، والقدرة التخيلية ، والطاقة التصويرية ، والتفنن في الأداء والتناول ، في ذوق يتفق والنشأة الشعورية ، سواء في اختيار الألفاظ ، ومدلولات المعاني أو الجرس الموسيقى ، والبحر الشعرى المتجانس مع العاطفة ، بعيداً عن التصنع والتمحل .

فالدكتور إذاً يدرك هذه القاعدة الأساسية الكبرى للشعر الجيد ويعلنها فيما يكتبه ، وهو يطبقها في دراساته النثرية على الشعراء الآخرين أكثر بكثير مما يطبقها في شعره نفسه ، ومن هنا كان توفيقه في نثره أكثر من توفيقه في شعره .

ومن الأمثلة على ما يجنيه « سوء التناول » على جمال « التجربة الشعرية » تأتى بقطعة صغيرة للدكتور أبي شادى من ديوانه غير المطبوع « الإنسان الجديد » عنوانها « سؤال وجواب » لا تتجاوز خمسة أبيات ، وهى :

سيعيش في هم وشقى دائماً من عاش مشغولا بهم الناس
فعلام يانفسى افتتانك بالورى وهمو القساة على الأبر الآسى
الشعب يلثم أرضه بوفائه وهمو الجناة على هوى ومواسى
فأجابت النفس التي لم ترتدع
يوما ، وإن رشدت حليف الكاس
أنا بعض هذا الناس ، كيف أعافهم
وجميع إحساسى لهم إحساسى !

فالقارىء يرى أن التجربة الشعرية أو التوتر النفسى ، والفكرة التي قامت عليها هذه القصيدة الصغيرة شيء جميل وإنسانى ، فيه نبل ، وفيه حكمة ولكنه يلاحظ بكثير من الألم أن الأداء قد خرج بها من أن تكون شعراً مؤثراً ، برغم الوزن والقافية . فالقافية التي اختيرت لها غير صالحة لنقل التأثير الشعورى لمعناها الجميل ، والألفاظ جاءت متقلقة في أماكنها ، ولا سيما في أواخر الأبيات ، وعبارتا « وإن رشدت حليف الكاس » و « جميع إحساسى لهم » أفقدتا البيتين الأخيرين كل جمالهما ، مع أن حكمة القصيدة كلها تتركز فيهما .

ومثل هـذه القصيدة كثير ، وكثرته عامل هام في صرف الأدباء عن التذوق والتقدير ، بينما نجد من جهة ثانية قصائد أخرى وفق الشاعر فيها من حيث التناول الشعرى ، مع أن التجربة غير هامة ، فجاءت على جانب كبير من الجمال . خذ مثلا قصيدته « ذكرى المهرجان » من ديوان « من السماء » ، وهى من شعر المناسبات الذى لم أعتد أن أنظر إليه بشيء من التقدير أو الاهتمام ، إلا أنى وجدت لها جمالا شعريا لم أجده في الكثير من الشعر الذى استوحاه الشاعر من أمور أكثر أصالة في الإيحاء ، وأقرب عنصراً إلى الشاعرية . وأنا أحيل القارىء إلى هذه القصيدة في الصفحة ١٠٣ من الديوان . كما أحيله إلى قصيدة أخرى اجتمعت لها « التجربة الشعرية » والتناول الشعرى في القسم الأكبر منها فجاءت من أروع ما حمله ديوان « من السماء » من قصائد . تلك هى رثاء زوجته التي أوردنا بعض أبياتها في بداية المقال ، فلولا أن طولها المفرط قد جنى على بعضها ، لقلت إنها من أروع الشعر العربى . وفى هـذه القصيدة تتجلى شاعرية الدكتور على أبرعها . كما يتجلى الوفاء والحب على أصدقهما وأصفاهما .

على أن مما لا شك فيه أن الدكتور أبا شادى أديب مخلص للأدب ، يتفانى في حبه وتقديره ، وأنه إنسان طيب القلب جداً ، مخلص في تقدير زملائه الأدباء ، وعشاق الأدب والشعر ، وهو على تعدد مناحى نشاطه الفنى والفكرى يحل الشعر في المنزلة الأولى من عنايته ، ولذلك كانت جمعية (أبولو) الشعرية التي ألفها في مصر ، وكانت تضم جماعة من أشهر أدباء مصر ، فرأسها مرة أحمد شوقى ، ثم خليل مطران من بعده ، وأنشأ لها مجلة باسمها (سنتى ١٩٣٢ — ٣٣) قصر عنايتها وأعمالها كلها على الشعر وحده ، فكانت لها قيمتها الكبيرة في هذا الباب ، واستطاعت أن تبرز مواهب عدد من الشعراء الشبان الذين نعرفهم اليوم ونتغنى بشعرهم ، ومنهم أبو القاسم الشابى ، والهمشرى ، وعلى محمود طه ، والصيرفى وغيرهم . وقبل ذلك كان قد أنشأ وهو في لندن جمعية أدبية جعل رياستها إلى المستشرق مرجليوث ، ومنذ أن هاجر إلى العالم الجديد عام ١٩٤٦ لم يتوقف من النشاط الأدبى ، فقد أحيا جماعة (أبولو) القديمة تحت اسم جديد هو « رابطة مينرفا » التي تضم جماعة من خيرة رجال الأدب والفكر هناك ، من

عرب ومستعربين ، ولا ينقطع عن الكتابة ونظم الشعر ! فأصدر ديواناً بعنوان « من السماء » وتهتم مجلة المقتطف بإصدار عدد من دراساته الأدبية في كتاب بعنوان « من نافذة التاريخ » ، كما أن لديه أكثر من ديوان شعري واحد بغير طبع ، ويذيع من محطة « صوت أمركا » أحاديث أسبوعية عن أدباء العرب المحدثين . كل ذلك والشيخوخة لا ترحمه ، والأمراض لا تسمح له بالراحة .

وإذا لم يكن لأبي شادي سوى هذا النشاط الخارق ، وسوى هذا الإخلاص الشديد في خدمة الأدب والشعر ، فهو حسبه من دواعي الإنصاف والتقدير .

والذي يطالع شعر الدكتور ، يلاحظ أنه إنسان يهيم بالجمال ويقدسه ، وهو يجده في المرأة ، كما يجده في الطبيعة ! وهاتان من أعظم بواعث الشعر عنده . إلا أن أجود نواحي شاعريته في رأيي — هو في شعره التأملي وشعر الطبيعة ، وهو وإن لم يصل فيهما إلى مثل العمق والرقة والتأثير التي نحسها في شعر أبي ماضي أو الشابي أو القروي أو أبي ريشة أو فدوى طوقان مثلا ، لأن التناول الشعري يطغى كثيراً على جمال التجربة والانفعال ، إلا أن هناك عدداً من القصائد كانت على حظ كبير من الجمال والتأثير .

من هذه القصائد التأملية ذات الصبغة الفلسفية ، نجد القصيدة الأولى في ديوان « من السماء » وهي تحمل عنوان الديوان نفسه ، تبين محبة الشاعر للأرض ، أرض الأحياء التي تخاطبه بقولها :

ما جمال السماء إلا جمالي   أنا أودعته لديها قديماً
ثم تجلبه إليها من جديد بعد أن تراه عالق القلب بالسماء
فإذا به يعود إليها « عود المسيح » .

ومن ذلك أيضاً عدد من قصائد الطبيعة ، التي يتغنى فيها بالبحر ، والشمس ، والأمواج ، والصيف ، والربيع ، وما إليها . ومنه نجواه للبحر في قصيدة « على صخرة سيدي بشر »

أنا من عشت محبة وتفانياً   في كل معنى من نشيدك ساحر
أصغى إليه ولا أمل كأنما   أصغى إلى لحن الخلود الساحر
عرفت به الأرباب من عليائها
قبل الوجود فكان روح الشاعر

لذة الجمال طلاقة بل ثورة   والفن يجد في الجمال الثائر
قد جئت سباق الربيع وطالما
ألهمت منك هوى الربيع الناضر

وضممتني بأشعة فرحانة   مثلى كأنك بالأشعة آسرى
حتى تناسيت الربيع وزهره
وقطفت من معناك حلو أزاهرى
ونسيت عندك الصلاة خشوعها
لما رأيتك في ابتسامة ساخر

وهناك قصائد أخرى تحدثنا عن الشاعر نفسه ، عن صفات النبل والحلم والكرم في نفسه ، ومنها قصيدة « فن الجحود » التي تذكرنا ببعض قصيدة (أنا) لأبي ماضي من ديوان « الجداول » ونقتطف من هذه القصيدة قوله :

تعودت عرفان الجميل ولا أرى
مبالغتي في الحمد تصغر من ديني
كأني استطبت الفضل للناس كلهم
على ، وإن عاشوا على الغدر والضغن
أحاول تعظيم الأيادي التي لهم
وأصغر من فضلي عليهم وأستغني

ومما يدل على نبل شعوره ، قصيدة « الوفى للمشردون » التي يخاطب فيها الملك فاروق بقوله :

مولاي حب الشعب أعظم ثروة
لك من كنوز التاج والسلطان
كن أنت رائده ، ووزع أرضه
لبنيه ، كالفاروق ، في الإحسان
ما شأن آلاف الفدادين التي   هي كالمقابر للسواد العاني ؟
ذهبوا بأرجاء البلاد تشرداً   وتكفنوا بمذلة وهوان
وجميعهم موتى ، وتلك لحودهم
ملء الضياع الفخمة العمران
تركوا القفار صافي بن فيشهم   وعمائم بهوانهم سبان
أنت العظيم فلا تدع إخلاصهم
لك يستباح بلا هدى وأمان
بل لا تدعهم في الورى أمثولة   لشعور الإنسان بالإنسان

● ● ●

وبعد فإن مجال القول في الدكتور أبي شادي وأدبه ومناحي ثقافته المتعددة لا يزال ذا سعة . ولكننا نقف هاهنا ونحن نرجو أن نكون فيما قلناه قد خدمنا الأدب والحقيقة اللذين هما رائد الدكتور ورائدنا .

عيسى الناعوري

فى جنـــــة عبقر

— ٣ —

للأستاذ شاذل طاقة

لا شك أن القارىء قد لاحظ أن أبيات هذه القصيدة الطويلة اختلفت قوافى وأوزاناً . . فالشاعر لا يلتزم قافية معينة فى جميع الأبيات ، كما أنه لا يلتزم عدم تكرار الكلمة فى قافيتين أو ثلاث . . ثم إن تفعيلات الأبيات تختلف عددا فى بيت عن الآخر ، فإنك تجدها فى بيت تفعيلتين وفى آخر ثلاث تفعيلات وفى آخر أربعاً وفى غيره أكثر أو أقل . .

ثم إن هذه القصيدة من الشعر المنطلق تمتاز بأنها وحدة موسيقية كاملة ، وليس الأمر كذلك فى القصائد العربية القديمة لأن البيت الواحد يكون فى العادة وحدة موسيقية كاملة مستقلة بجرسها وإيقاعها الموسيقى ومتصلة اتصالا هينا بالوحدات الموسيقية للأبيات الأخرى . ولذلك نلاحظ أن الشاعر فى هذا الضرب المنطلق من الشعر يستطيع أن يحلق ما يشاء له التحليق وأن يصعد بالقارىء إلى عالم روحى سام ويشركه فى تجربته الشعورية الحالمة . . ثم إن فى هذا الضرب من الشعر مزجا بين الوعى واللاوعى فى التعبير عن التجربة الشعورية ، وإن الصور الشعرية إما أن تنبثق من نفس الشاعر أو تنبع من حياته أو من برجه العاجى كما يحلو لبعض الناس أن يقول . . ولعل من حق أن أقول بعد كل هذا أن لا خوف على الأسلوب العربى الأصيل من الضياع بالالتجاء إلى هذا الضرب من التعبير ! ولعل من حق أيضا أن أقول إن عهد القافية الواحدة قد مضى أو إنه أوشك أن يمضى وإن هذا النسق الحر ملائم لطبيعة الحياة المعاصرة . . فإن وحدة القافية فى عهود الشعر القديمة كانت غايتها تيسير الحفظ لأن أكثر القوم كانوا أميين ، أما الآن فإن الحالة قد تبدلت وانتفى سبب الدعوة إلى توحيد القافية .

وقد يقول قائل أن الفن لا يحيا ولا يزدهر إلا بالقيود كما يقول النقاد الفرنسيون ، وإن هذا الضرب من الشعر منطلق عن كثير من القيود . وجوابى على ذلك : أننا يجب أن ننظر جيداً وألا نكتفى بالنظر إلى الظواهر ، فليس الشعر المنطلق منطلقا فقط لنقول إن كثيراً من قيوده قد تلاشى فى هذا الضرب المنطلق وإن الشعر لذلك قد فسد . ولعلى أستطيع أن أقول إن قيود الشعر من حيث إنه فن تعبيرى لا تزال موجودة ، وإن هنالك فرقاً شاسعاً بين النثر وبين هذا الضرب من الشعر وإن الشعر هذا لا يزال رقصاً كما يقول (مالرب) النقادة الفرنسى ، وإن النثر بالنسبة إليه أشبه بالمشى . ولعمرى إن هذا التشبيه لدقيق موفق فى دقته وإصابته المعنى المقصود ، فإن الرجل حين يمشى ينال هدفه بأقصر طريق مستقيم ، ولكنه حين يرقص يدور هنا وهناك ثم يلتفت يميناً وشمالا ، ولا تكون له فى أكثر الأحيان غاية ملموسة مباشرة كغاية الماشى ، لأن الرجل يمشى ليلتقى بصديقه مثلا وليبحث معه فى أمر ما ، وهو حين يرقص لا يهدف إلى غاية مادية محسوسة ولكنه يرمى إلى المتعة فقط وإلى التعبير عن غايته تلك بأسلوب فنى ! وما إخالك تشك فى أن الرقص فن من الفنون الجميلة ، ولا عليك من تهريج الذين يهدفون بالرقص إلى غايات دنيئة ، فإن ذلك ليس رقصاً ولا فناً ولكنه عمل أترك لك نعته بما تشاء من النعوت .

وما دام الحديث قد وصل بنا إلى هذا الحد فلنبحث فى أمر يتعلق بالشعر ولا يزال النقاد يلهجون به كثيراً ، وهو هدف الشعر الاجتماعى وهل الفن للفن أم أن الفن للمجموع .

روى عن فكتور هوجو الشاعر الفرنسى الشهير أنه قال مرة إن الفن للفن . . ويروى أنه قال هذه العبارة عرضاً ودون أن يفكر فى أنها ستصبح فى يوم من الأيام حديث النقاد والأدباء ، ومذهباً من مذاهب الأدب والفن ، إلا أن ذلك حدث فعلا ، وحمى النقاش بين فئتين ترى إحداهما أن الفن للفن وتعتقد الأخرى أن الفن للمجموع أو الحياة . .

—

ومن أشهر زعماء المذهب الأول الكاتب الإنكليزي أوسكار وايلد وكان ذلك في فرنسا وفي أوائل هذا القرن .

والحق أن الفن الرائع هو التصوير الصادق للحياة والتعبير عن آثار أحداثها ومشاهدها في النفس الإنسانية بطريقة فنية تضمن المشاركة الوجدانية بين الكاتب أو الشاعر وبين السامع أو القارىء ... وإذا كان الأمر كذلك فإن الفن الرائع هو الحياة، ولا نستطيع أن نقول حينذاك إن هذا الفن لا يثير المتعة الفنية الخالصة ولا يعمل على رقية الذوق وتقويم الطباع المعوجة . ولا نناقض أنفسنا حين نقول : وإن الفن صاحب هذا الفن ... نبي بين قومه ، وهو لا يؤدي لهم خدمة اجتماعية محسوسة مباشرة ، ولكنه يرقى أذواقهم ويثير متعتهم الفنية الخالصة ويبصرهم بالحياة ؛ ويكفي الفنان هذا لأن يكون نبياً ذا رسالة روحية بين الناس ؟ وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الفروق ضئيلة تافهة بين قولنا إن الفن للفن وبين قولنا إن الفن للحياة ، باعتبار أن الفن لن يكون فناً عظيما خالداً إلا إذا كان صورة خالقة للحياة ، ولا شك أنه في الوقت نفسه سيثير المتعة الفنية الخالصة ويكون بذلك مصداقاً على قولنا إن الفن للفن كما أنه باعتباره صورة خالقة للحياة يكون مصداقاً على قولنا إن الفن للحياة . . أما إذا أراد الناس من الأديب أن يطعمهم خبزاً وأن يسن لهم قانوناً أو يسقط لهم وزارة بصورة مباشرة ، فأعتقد أن ذلك ليس من واجب الفنان ولكنه من واجب المصلح الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي .

إن الشعر في جوهره إن هو إلا ارتفاع عن هذه الحياة المادية وسمو بالنفس الإنسانية إلى مراق عليا في العالم الروحي ، واتصال بنبع الحياة الكبير ، أو بالأحرى استكناه لمشكاة الحياة وإدراك لأسرارها الغامضة ؟ أما إذا نزل الشعر إلى مستوى الحياة المادية وطالب بالخبز وبالقانون وبإسقاط الوزارات فإ لا شك فيه أنه يقوم بعمل اجتماعي ممتاز قد يكون من واجب كل فرد في المجتمع ، ولكنه يخون أمانة الفن ويتنازل عن رسالته المقدسة ... إنه يكون جندياً يحارب في سبيل واقع المجتمع ، ولكنه لن يكون شاعراً يذود عن مثل الفن وعن آفاقه الروحية .

ولو قدر لأحدنا أن يعيش مائتي عام لوجد أن كثيراً من الشعر السياسي أو الاجتماعي الذي شهر في هذا العصر قد مات ، وأن أصحابه الشعراء قد طمرهم النسيان بعد أن كانوا في زمانهم عباقرة الشعر وجهابذة الفن ، وإذا أردت الإفصاح فإني أعتقد أن كثيراً من شعر الزهاوي والرصافي وشوقي وحافظ والجواهري سيدرجه التاريخ الأدبي في أطمار النسيان ، وسوف لا يعرف الناس عن هؤلاء الشعراء إلا أنهم شعراء عاديون لم يكونوا أمراء شعر ولا سلاطينه . ثم إني أدرك أنك ستعجب من هذا القول وستظن بي الظنون ، ولكن الحق أن هؤلاء الشعراء أصحاب صياغة وجرس موسيقي يذكرني شعرهم دائماً بالمثل المشهور (أسمع جعجعة ولا أرى طحناً) ، ولن يقدر لأحد منهم أن يكون شاعراً عالمياً ، شاعراً يسع قلبه الإنسانية فيشترك معه كل إنسان في تجربته الشعرية .

إن شوقي الذي يقول :

صار شوقي أبا علي في الزمان الترللي
جناها جناية ليس فيها بأول

والرصافي الذي يقول :

دخن سكارة غازي في وقفة واجتياز
وجاز تصحى بشكر إن كنت ممن يجازي

والزهاوي الذي يتغنى ببلاده ونهريها فلا يستطيع إلا أن يقول :

لك بالبحر اتصال فيك يجري الرافدان

إن هؤلاء الشعراء قد أدوا خدمات ممتازة لمجتمعاتهم ولكنهم لم يؤدوا للفن إلا خدمات ضئيلة ، إن صح هذا التعبير . . أنا لا أحكم على شاعرية هؤلاء الشعراء بأن آخذ لكل شاعر بيتاً سخيفاً ، ولكني أستدل بهذه الأبيات على العقلية الفنية ومداها عند كل واحد منهم ، ثم إن الشاعر الذي يسمح لشعره أن يتدنى إلى هذه المرتبة ولو في بيت واحد لن يكون شاعراً خالداً مهما فعل .

ولكن المؤسف أن أحكامنا المرتجلة في الأدب قد أساءت إلى كثير من أدبائنا فرفعت شوقي وجعلته أمير الشعراء وهو لم يكن إلا شاعر الأمراء ، وخفضت بشارة الخوري

وإيليا أبا ماضي وعلى محمود طه وعمر أبا ريشة وإلياس أبا شبكة وكثيراً غيرهم من شعراء الشباب لأنهم مغمورون غير معروفين ، ولأن (شوقي) شاعر الخديو وشاعر مصر فيجب أن يكون أمير الشعراء ؛ أما غيره من الشعراء فإن شعرهم دعوة إلى فساد الأخلاق وإلى الإباحية . وما أدري كيف نبيح لأنفسنا أن نفرق بين الفن وبين الأخلاق ؛ فمما لا شك فيه أن النقاد قد تعارفوا منذ القديم على أن الفن شيء وأن الأخلاق شيء آخر ، وأن الرذيلة أو الفضيلة لا تأثير لهما على قيمة الأثر الفني .. ولكن كثيراً من الناس حتى هذه الساعة لا يريدون أن يعترفوا بهذا ؛ وإذا ما نبغ بينهم شاعر جريء ، وصارحهم ببعض ما يخفونه قامت قيامتهم ورموه بالكفر والزندقة والإباحية وما إلى ذلك من الصفات ؛ ولا أريد أن أستدل على صحة هذا الرأي بشيء من براهين الغرب وأدلته على كثرتها ؛ ولكني أنقل لك رأي قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر قال ص ١٣ : (وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والضعة والرفث والنزاهة والبذخ والقناعة والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة) ويقول في الصفحة الثانية (فإني رأيت من يعيب امرأ القيس في قوله :

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فألهيتها عن ذي تمائم محول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له
بشق وتحتي شقها لم يحول

ويذكر أن هذا معنى فاحش ، وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه ، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلا رداءته في ذاته) اهـ .

وهذا دليل عربي قديم على أن الرذيلة والفضيلة والقبح والجمال أشياء لا دخل لها في قيمة الأثر الفني فإن الرسام الماهر قد يرسم القبيح فيبدع فيه إبداعه في رسم الجمال .

***

وقبيل الانتهاء من هذا الحديث تجدر الإشارة إلى الشعر النسوي في العراق وإلى المدى الذي وصلت إليه المرأة في الإبداع الفني .

والحق أن المرأة في الشعر الحظ الأوفر والحق الأكبر ، فهي في أكثر الأحيان وحي الشعراء ومادة الشعر .. وهي في بعض الأحيان شاعرة حساسة تمر شعرها العاطفة العميقة والإحساس المرهف . ودعني أقتطف لك نبذة من محاضرة للشاعر الفرنسي (آبل بونار) في الحياة والشعر . . . قال يتحدث عن الاستعداد الشعري عند المرأة :

(أي الناس ... الرجل أم المرأة .. أقوم فطرة وأكثر استعداداً لحل معاني الحياة الشاعرة ؟ يخيل إلي أن النساء في الجملة عن الفتيات الموهوبات في هذه المجال ، وذلك لأنهن قبل الرجال شواعر بالحياة العامة التي تتجنب النفس وتصل الحواس) .

وأنت تعلم أن الشعر قوامه العاطفة والإحساس وأن المرأة أقوى عاطفة وأرهف إحساساً ، ثم إن حياة الشاعر شذوذ قد يعتبره البعض جنوناً ، والمرأة أقرب إلى الشذوذ وإلى الجنون من الرجل . . وقصة هذا الجنون تشبه أسطورة نهر الجنون ، فلا داعي إلى غضب الجنس اللطيف .

ولقد حفل تاريخ الأدب العربي بأسماء لامعة لعدد من شهيرات الشواعر ، منهن ليلى العفيفة وخرنق أخت طرفة ابن العبد والخنساء وليلى الأخيلية وحمدونة الأندلسية وولادة بنت المستكفي وكثيرات من جواري قصور الخلافة .

والحق أننا لا نستطيع أن ننكر أن في العراق اليوم نهضة شعرية نسائية تبشر بكل خير . . أجل إن فيها من شواعر لا مازلن في بداية الطريق ، ولكن منهن من قطعت شوطاً بعيداً ووصلت مدى حميداً .

ثم إننا نستطيع أن نجعل هذه الشواعر فريقين . . فريقاً يتوخى حسن الصياغة ورصف الألفاظ فقط ، وهن من لا يرجى منهن خير كثير ، وفريقاً تثقف وتوسع اطلاعه على أدب العرب وغيره من الآداب الأخرى فأنتج أدباً رقيقاً رائعاً مثل نازك الملائكة ولميعة عباس عمارة ، وكلتاهما مدرستان ، وللأولى ديوانان رقيقان هما (عاشقة الليل) و (شظايا ورماد) ومن شعر نازك قطعة من قصيدتها (ثورة على الشمس) :

أشواقك المتراقصات جميعها ... يا شمس أضعف من لهيب تمردي
وجنون نازك لن يزال تعمق ... ما دام قيثاري المغرد في يدي

فإذا عمرت الأرض فتذكري
أني سأخلى من شبابك معبدى
وسأدفن الماضى الذى جللته   ليخيم الليل الجميل على غدى

ومن شعر لميعة قصيدة لامعة عنوانها (شهر زاد) :

ستبقى ستبقى شفاهى ظماء   ويبقى بعينى هذا النداء
ولن يبرح الصدر هذا الحنين
ولن يخرس اليأس كل الرجاء

• • •

سيبقى لنكون هذا البرود   ولن تعرف الدفء حتى تعود
هناك الأكف أثار الشتاء   وعلمنى كيف يقسو الوجود

• • •

ستبقى دماؤك لظى واحتراق   وتبقى شفاهى منى واشتياق
فكل حياتى هوى يائس   لقاء قصير لمدى فافتراق

• • •

ستمضى فمن لى بأن أسمعك   ستمضى فهل لى أن أتبعك
فشعرى وحبى وعمرى سدى   إذا لم أمتع بعيشى معك

• • •

سأهوى الحق تجف الدموع   بعينى وتنهار هذى الضلوع
ملأت حياتى حيث التفت   أريح بذكرك منها يضوع

• • •

وهذه (سراب) أديبة فى بداية الطريق ولكنها فتاة ماهرة صادقة التعبير ، وفى فنها كثير من الحرارة التى تبعثها العاطفة وفيض من الحياة التى يتوهج بها الإحساس ، ولها مقطوعة عنوانها (انتظار) :

لن يعذبنى الانتظار .
سأحب الحياة ولن أرهب الليل .
سأسهر أرعى الأنجم وأعيش مع الأحلام .
وأنتظرك .
وعندما تتفتح الأزهار وترسل فتنتها فى عبيرها الندى
وتستيقظ الطيور لتبحث عن أليفها .
وتعود لتبنى عشها من جديد
هنالك على الشاطىء القريب .
حيث ينساب الغدير الرقيق .
سأروى لك قصة حبى وأهتف .
أنتظرك .
وفى الصيف وأمسياته .
عندما يرق النسيم ويتهادى كحسناء خجول .
وأسمع همساته وهو يداعب الغصون .
أصيخ السمع وأتلفت والهة .
لقد حسبتها خطواتك .
وعندما يثور قلبى وتتحطم كبريائى أهمس .
آه . . لقد مللت الانتظار .
ويهتف صوت من الأعماق .
أنتظرك .
وأنت أيها الشتاء المرير .
لن تثبت ثلوجك أمام وهج قلبى .
لا ولن تقوى أعاصيرك على أن تعبث بزهرتى .
وعندما يعرف الصمت الكئيب .
وتنطفىء الشموع .
سأوقد له قلبى .
لن أدع ظلامك يحجب طريقه عنى .
ستبقى عيونى يعذبها الانتظار .
ستبقى حياتى يكتنفها الظلام .
سأبقى . .
أنتظرك . . .

• • •

ولعلك قد لا حظت أن هذه القطعة من النثر المرسل ، ولكنى أميل ههنا إلى وصفها بالشعر على رأى الفريق الذين يطلقون لفظ (القصيدة أو الشعر) على كل قطعة فنية فيها خلق للحياة وتصوير للشاعر والأحاسيس .

أما بعد فأرانى قد أطلت عليك وأدخلت السأم والملل إلى نفسك ، ولعلك تقرأ هذا الحديث فلا ترى رأيى ولا توافقنى فيما أبديت ، ومهما يكن من أمر فهو رأى قد أبديته وعلى تبعته وحدى ، وخاطرة قد عرضتها وأنا المسئول عن أخطائها ، وما أدعى أنى معصوم من الخطأ ولا منزه عنه ، ولكنى امرؤ يخطىء ويصيب ، وهذا حسبى . .

شاذل طاقة

النقد التفسيرى للأدب

— ٤ —

للأستاذ عز الدين إسماعيل

٦ — ولعلنا الآن نستطيع أن نقول مع ببرت : « إنه لم تعد بنا حاجة إلى التردد فى قبول النتيجة الهامة التى انتهى إليها المحلل النفسى — وهى أن أحسن الشعر وأحسن القصص وأبدع الصور، كلها — إلى حد بعيد — إنتاج النشاط اللاواعى للعقل » ومن أجل ذلك كان اعتقادنا أنه من الممكن — إن لم يكن الآن من الواجب — تفسير الأدب على أساس نفسى ، وفهمه فى هذا الضوء الجديد . » ومن الطبيعى أن استخدام نظرية فرويد فى الأدب قد حوول فى الغالب بغرض تحليل المؤلف .. ومع أن التحليل النفسى قد أضاف بالتأكيد كثيراً وما زال فى إمكانه أن يضيف أكثر فى فهم أفراد الفنانين بما هم شخصيات ، فإن أعظم عمل للنظرية الفرويدية يقدم به دارسو الأدب إنتاجاً طيباً هو فى تفسير الأدب ذاته .

وواضح أن فى مذهب فرويد آثاراً بالغاً من تيار الثورة ضد جفاف المذهب العقلى الحديث ، ومن الرأى الذى يدعو للاتجاه إلى العاطفة والوجدان ، فلعل المرء يصل بهما إلى الحقيقة التى قصر المنطق والتفكير الخالص عن إدراكها ، ولعل فى الحدس والإدراك المباشر ما ينقذ العقل من قصوره وجفاف منطقه . وبذلك استطاع فرويد أن يدعم صرح الحدس ، ويحيى « ميول القلب » وأن يصل بالمرء إلى مثالية فنية حية تشبع فى النفوس ميلها الأبدى لليقين .

على كل حال نستطيع الآن أن نتكلم عن الأدب باعتباره تعبيراً رمزياً عن الرغبات المكبوتة فى اللاشعور : « فمن الممكن الانتباه إلى أن العمل الفنى إشارة أو رمز يقوم مقام شعور الفنان . وهو بهذا يمكن أن يعد إشارة رمزية بالنسبة للفنان نفسه ، الذى يصير — بعد أن يتم العمل الفنى — فرداً متذوقاً مستمتعاً أكثر منه مبدعاً . فما أن الموضوع عندما يتم ينفصل عن الفنان فإنه ليست هناك عقبة واحدة تمنع من القول بأنه إذا كان رمزاً بالنسبة للفنان ، فإنه — من باب أولى — يكون رمزاً بالنسبة لغير الفنان من المتذوقين ... والقول بأن العمل الفنى رمز لمشاعر الفنان معناه قبول الشعور بوصفه إطاراً يرجع إليه ليس فقط عند البحث عن القدرة على الإبداع الفنى ، بل أيضاً عند البحث عن التجربة الفنية سواء بسواء » .

وإذا رجعنا إلى فرويد وجدنا أن لا منطقية اللاوعى تنشئ علاقات جديدة بين الرموز . وهذه العلاقات الجديدة هى التى يجب أن يلتفت إليها عند محاولة تفسير الأدب . فالرمز فى ذاته إنما هو صورة أو جزء من صورة ليس هو المعنى وإنما هو الصورة المجسمة للمعنى الكامن فى النفس ، وأيضاً فإن العلاقات الجديدة بين هذه الرموز ليست مقصودة لذاتها ، وإنما هى صورة للعب والتوازن النفسى . ومن هنا قال بازار : إن الشعر يفيد من الرموز نصيباً أكثر من الأدلة منها بوصفها رموزاً . فالشعور — فى غير حالاته الخاصة — متضمن فى الرمز الفنى ، وبه يتأكد الفنان — إلى أبعد حد ممكن من التأكد — أن التجربة الفنية عند متلقى الفن تتفق مع ما قصد هو إلى توصيله إليه . ولكن الفنان لا يرغب فقط فى أن يُفهم ؛ فهو يصطنع رموزاً ذات دلالة واسعة فى التعبير عن الشعور لكى ينقل الشعور ويطبعه فى صور محسوسة .

وقديماً قال ابن الأثير : إنك إذا مثلت الشىء بالشىء فإنما تقصد به إثبات الخيال فى النفس بصورة المشبه به (ولنقل هنا الرمز) أو بمعناه . ولعله من هنا كانت الرمزية — بحسب رأى بوزنكيت — طريقة التفسير ، أى تفسير شعور الفنان والسبب فى أن الشعراء يلبسون تعبيراتهم الفلسفية صوراً محسوسة — كما يقول ديوت باركر Dewit Parker — ليس لأنهم يجدون ما يخجل فى المضمون (وهو هنا قد يبدو معارضاً لفكرة فرويد فى التنفيس عن النزعات الفطرية المكبوتة) ولكن فى الحقيقة من أجل نقل عاطفتهم وتوصيلها بسهولة ووضوح أكثر . وفى كتابة ديوت باركر تظهر الفكرة المأثورة عن سقراط والمروفة عند هورمان ، وتفضيلهم العالم المحسوس له نفس الدافع ؛ فإنه لا يوجد من

المجردات إلا قدر قليل فقط يستطيع أن يثير العواطف ويوصلها .

والصفات التي نلاحظ في الرموز هي الصفات التي نلاحظ في نشاط العقل الباطن . وفي العقل الباطن — كما يظهر أيضاً في الأحلام ، وكما هو الشأن في ظاهرة الجنون — يكون العكس opposite في الغالب هو الدليل إلى المعكوس posite وليست الثنائية وحدها هي التي نلاحظ في الرموز بل الاختلاط أيضاً بمعنى أن شيئين غير مرتبطين كلية يوضعان الواحد بجانب الآخر لتكوين صورة واحدة لها أهمية خاصة .

وليس لما يجري في اللاشعور أية علاقة بفكرة الزمن ، إذ أنه لا يوجد في تلك الرتبة من مراتب العقل أي توقيت أو زمان . وهكذا يساعد انعدام الزمن في اللاشعور على التكثيف condensation الذي يمكن بواسطته أن يجمع اللاشعور الحوادث المتباعدة بعضها عن بعض في الزمن كأنها متجمعة بعضها إلى بعض ، إذا كان بينها أي نوع من الترابط أو العلاقة . وبهذا نستطيع أن نؤكد أهمية الحقيقة القائلة بأن الإنسان في تفكيره الخيالي (الفني) يحتفظ بتكثيف لتاريخ تطوره النفسي وعملية الترابط أو العلاقة تتم عادة في صورة حرة ، لأنها تتم وليس هناك هدف أو تركيز أو اختيار للألفاظ الصالحة للتعبير عن فكرة ، كما هو الشأن في الفكر الواعي . ومن هنا لا يشعر الفنان في أثناء العملية الإبداعية بالقفزات البعيدة التي يقفزها بين رمز ورمز أو بين لفظ وآخر

وأخيراً ، فإذا كان العمل الفني طريقة للتعبير ونقل التجربة اللاشعورية إلى الآخرين ، فكيف إذاً يتحقق الفنان ذلك إذا كان يستخدم رموزاً لا شعورية لها تلك الصفات السابقة للتعبير عن تجربته الخاصة ؟ و الفهم العام يدعو إلى الظن بأن اختلاف البيئة والثقافة والمزاج والتراث الفطري قد تؤدي غالباً إلى اختلاف في المعاني التي يدل بها الرمز الواحد عند مختلف الأشخاص ، ولكن يبدو أن بعض العناصر الرمزية يخرج من نطاق المحلية ليكون له صفة العمومية والإطلاق عند أكثر من فرد ، بل أكثر من أمة ؟ وكل ذلك يترك المجال دائماً أمام الآخرين لفهم الأثر الفني وتذوقه من خلال هذه الرموز .

ونود الآن ، وقبل أن نحاول عملية تطبيقية لما سبق أن سقناه من أفكار — أن نعرض لدعوى عريضة إن دلت على شيء فإنما تدل على أن أصحابها هم أول من سيقف في وجه هذه الأفكار من حيث هي مستمدة من أفكار ونظريات غربية أولا ، وأنهم يحاولون أن يقولوا للناس إن الأدب العربي عظيم وحده ، أما الآداب الأوربية فحقيرة ، وإن الأدب العربي هو الفني وتلك الآداب فقيرة .

ومن حسن الحظ — أيها القارئ الكريم — أن مثل هذه الدعاوى مكتوب وبين أيدينا . وهأنذا أعرض عليك واحدة منها :

ولعل بعض شبابنا الذين يهفون إلى استلهام الأدب العربي بعجره وبجره وزواياه وخباياه وغموضه ، ويعرضون عن استلهام الأدب العربي بعظمته وقوته وكبريائه ووضوحه ، يرون أنهم حادوا عن الجادة ، وأنهم ظلموا الأدب العربي لجهلهم بذخائره وكنوزه ، وافتتنوا بالأدب الغربي وهو نتاج بيئة غير بيئتنا ومجتمع قد كثرت علله وأوصابه وتعقدت مشكلاته وأدواؤه ونخرت فيه الآفات التي تصيب الأمم المترفة المتكالبة على المادة ، أدب ولده الاضطراب النفسي والكبت والحرمان والضيق والقلق — قلة الجو وقلة الحياة — فجاء سخفا وهذياناً تمثل في تلك المدارس الأدبية الحديثة من واقعية تنحدر إلى تصوير أحط الغرائز الدنيا في الإنسان إلى رمزية مبهمة غامضة لا يعرف المرء من ورائها فكرة أو معنى ، ولا تعنى بمجتمع أو إنسان ، إلى سريالية مخرفة تهذي بخزعبلات العقل الباطن وهواجس اللاوعي ، وتحفل بأضغاث الأحلام ، وتنكر المنطق والعقل والشعور ، وأوضاع المجتمع والدين والفضيلة . »

ولعل هذه الدعوى الصارخة أن تمثل الجانب المقابل تماماً ، لأنها تعتبر الأدب الذي ولده الاضطراب النفسي والكبت والحرمان والضيق وقلة الحياة أدباً سخيفاً إن لم يكن هو السخف بعينه . ونحن نقررها الآن صريحة بعد أن انتهينا إليها من مقدمات موثوق بها : أن الأدب الصادق هو ما كان وليد الاضطراب النفسي والكبت والحرمان والضيق وقلة الحياة ، ولن يحط من قدره أنه يمثل السخف عند البعض ممن يدعون معرفة الأدب العربي بذخائره وكنوزه ! ويجهلون غيره . إنني لا أكتم القارئ الكريم

صوت من الفردوس ...

هنالك في العالم الشاحب — وفي وحدة الألم الناحب
تحملت أهوال ظلم كبير — تجلى على وجهي الشاحب

• • •

نه لفظة كاندلاع اللهيب — وذي قبلة كسواد الذنوب
وذلك شر تخاف الوحوش — إتيانه ... يالها من كروب !

• • •

هنالك لا يعبدون إلهاً — تحكم في الكون غير النضار
فهم يركعون وهم يسجدون — وهم يزحفون عبيد النضار

• • •

هنالك حيث نعيق الغراب — صحارى صحارى خراب خراب
مضى الحبر حين بجوع الأسود — وعسو الذئاب ويسمو الكلاب

• • •

صحت وطال هنالك صحي — وناجته بلسان فصيح
بقلبي .. بروحي .. بأنشودتي — تسبح مع الحق أي يسبح

• • •

ألا حاذروا أيها الراقصون — على موقد لا تراه العيون
قريب بريق تميل النفوس — إليه يحجّب نار المنون !

• • •

وما كنت فيهم نبياً ولكن — دعوت إلى الحق شعراً يبين
فصدق من كان ذا مهجة — وكذّب ذو حجر لا يلين !

• • •

خلقت أبياً فكيف القيود — لمن ربّه أن يبيد القيود ؟
وأن يرسل النور في ظلمة — ويبعث حرية العبيد !

• • •

وكان جزائي ظلماً ظلوماً — زرعت نجوماً وأجني رجوما
فناديت يارب خذني إليك — فقد صار يحرس خيالي هموما

• • •

ولما رآني ربي ... غريبا — يغلي عذاب يذيب القلوبا !
تفضل في رحمة عذبة — فتوّجني بالردى مستجيبا !

• • •

وخلف الجدار جموع جموع — رياء وضيع .. نفاق خليع
على الأوجه السود حزن ترائي — وليس هنالك بين الضلوع

• • •

سوى معشر من شذاة العصور — أراه .. إلى الوهم كالضمير !
يكونون تكون بشعر جميل — يحلق مسترسلا كالطيور !

• • •

ومن جنة الخلد دوى ندائي — إلى عالم حافل بالشقاء !!
جموع على الأرض مستهترين — بدين الإله بأصدق ضياء !!

• • •

ألا حاذروا أيها الراقصون — على موقد لا تراه العيون
قريب بريق تميل النفوس — إليه يحجّب نار المنون

م. سعودة مصطفى

أني ضقت كثيراً في أن أعثر في الأدب العربي على شاعر ! شاعر ألمس فيه أثر الاضطراب النفسي والكبت والحرمان ، شاعر يهذي بخزعبلات العقل الباطن وهواجس اللاوعي ، ويحتفل بأضغاث الأحلام وينكر المنطق والعقل والشعور . وربما كان السبب في هذا الضيق أن الأدب العربي عظيم وقوي ومتكبر !

ليطمئن أنصار الأدب العربي فقد قضينا شطراً من حياتنا في دراسة ذخائره وتقاليده . وإننا لحريصون كل الحرص على أن نلتمس فيه الدليل الملموس على عظمته وقوته وكبريائه . ولعل القارىء الكريم يذكر ما قلناه في مستهل أول مقال من هذا البحث . وكل ما يعنينا هنا هو أن نعدل من تلك الموازين النقدية التي تتخذ ذريعة لاتهام البعض بالجهل من ناحية . وإلقاء الشبهات من ناحية أخرى .

العظمة والقوة والكبرياء أثواب فضفاضة جداً لا تصور شيئاً ولا تفسر شيئاً ، ولا هي الميزان الذي توزن به الآداب . والاضطراب النفسي والكبت والحرمان والضيق وظلمة الحياة ، وهذيان العقل الباطن وهواجس اللاوعي وأضغاث الأحلام . . . إلخ هي التي تصور الكثير وتفسر الكثير ، وهي بعد ميزان الأدب الصادق . و « الناس عند ما يتركون لأوهامهم يتكلم فإنهم يخبروننا عن أهم الأشياء في حياتهم الباطنية الخاصة » وحسب الأدب — بعد — أن يطلعنا على خفايا تلك الحياة الخصبة الفسيحة .

(التتمة في العدد القادم)

عز الدين اسماعيل

رسالة إلى كاتب ناشئ

للفيلسوف الأسبانى ميجل دون يونامونو

للأستاذ عبد الغفار مكاوى

ميجل من أكبر المفكرين المعاصرين من الأسبان، ولد فى مدينة بلباو. وقد شغل منصب الأستاذية للغة اليونانية فى جامعة سالامانكا. وهو رجل انفعال عاطفى يمزج القلب بكليته، يحترق حباً للحياة، وإحساساً بها، ويرى فى التجرد غطاء للأفكار الميتة. يعجب القارئ بحيويته المتيقظة التى جعلته على اتصال وثيق بالتراث العقلى فى منابعه الأصلية، فى أوربا وأمريكا. وقد أعانته ثقافته الواسعة للكتابة فى الشعر، والقصة، والنقد، والفلسفة. ولعلك إذا حللت الطابع الأسبانى — بشرط أن تدع جانباً أثر حضارة البحر المتوسط عليه — أن تتعرف فيه على أصلين رئيسيين: الباسك بخشونته، وقوته، وجده الصارم، والأندلسى برقته ولطفه وسحره. ومفكرنا يمثل الجنس الأول، أى الباسك، أحسن تمثيل. فالرجل جاد دائماً، ترى ذلك من نظرته الفكرية والروحية إلى سر المصير الإنسانى على هذه الأرض. فهو ممن يأخذون الحياة بمعناها الدرامى. والرجل مسيحى، ولكن لا بالمضمون الروحى لهذه الكلمة، بل هو الوريث الحق لهؤلاء المتدينين والمتصوفة من الأسبان، وإن يكن اليأس والشك يعتريانه جميعاً. وهو فردى، لا بالمعنى الذى يريده الفوضويون، ولا يعنى التقابل بين الحرية والسلطة، بل بالتقابل بين الأبدية والديمومة الزمانية. هو على أى حال فارس تؤلمه فى مجاهل الروح، يبدأ مغامراته، كما يقال، بعد أن يكون قد أحرق سفنه ... وقد يتفوق عليه غيره فى تنوع التجربة الأدبية، أو فى أحكام البناء الفنى، أو فى دقة التفكير المنطقى، ولكنه يظل أفضل من يعبر عن الروح الأسبانية المعاصرة. إنه يمثل الصراع بين الإيمان والعقل، بين الحياة والفكر، بين المسيحية والمدنية، وهو صراع أسبانيا نفسها.

وهنا فصل نقدمه لك من كتابه الأخير «الغرائب والمفارقات».

يا صديقى الشاب، ليس فى مقدورنا أن يفهم أحدنا الآخر، فأنت تتحدث بلغة غير لغتى، وكلانا يرفض أن يترجم لصاحبه ما يقول. إن مجرد مماس لنوع الجمل التى تستخدمها، تلتقطها شفاه آلية، لتجعلها شيئاً مغلقاً على لا سبيل إلى تعقل معناه.

من بين هذه الجمل طريقتك فى استعمال هذه الكلمة (يصل). إن معناها يوغل فى الغموض شيئاً فشيئاً. بربك فسر لى ما يراد بقولنا: «لقد وصل هذا الشىء أو ذاك»، أو «أن جون دو لن يصل أبداً»، «إن من أعسر الأمور على شاب يافع أن يصل اليوم»، وما شابه هذه من تعبيرات. ما الذى تقصده بالوصول؟ وإلى أين تصل؟ إن ثمة غاية واحدة محتومة لا مفر منها، ألا وهى الموت. وربما كان من الخير أن تعجله بالرحيل.

ولعلك تذكر من أساطير اليونان نبأ هذين العملاقين: أوتس وإيالتس. فلقد هددا بإعلان حرب لا هوادة فيها على الخالدين ... وكانت وسيلتهما إلى ذلك أن يضعا جبل أوسا فوق جبل الأولمب، وأن يلقيا بجبل بليون على جبل أوسا ثم يصعدا إلى السماء. ولو أنهما كانا أكبر سناً، كما يقول بوليسوس، لكتب لهما النجاح. إلا أن أبولو قد عاجلهما من قبل أن يشرق فجر الشباب على وجهيهما النديين.

أفأنت تحاول، يا صديقى الشاب، أن تصل إلى السماء بأن تكوم جبلاً فوق جبل؟ هل يساورك الخوف من أن يدركك الموت ولم تبلغ أوج شبابك الروحى؟ إذا كان هذا ما تريد فقد فهمت ما تقصده بكلمة «يصل». أما إن

كنت مخطئاً فلا شك أنني قد فاتني مرادك .

يا ويلك لو جاء هذا اليوم الذي فيه « تصل » !

عندئذ سترجع إلى الوراء ، وستصيبك النكسة . وهذا ما يجعلني أناشدك دائماً أن تكون لك آمال لا تأسف عليها إذا ضاعت ولا تفرح بها إن أقبلت ، آمال تظل خضراء أبداً ولا يؤودها حمل الثمرة . . . هي الرجاء في الوضع الأزلي للرجاء .

إنك لا تسيغ كثيراً أن ينقدك ناقد ، أو يُرَدَّ لك رأي . يا ليتك كُنْتَ على غير هذا !

حين تجد نفسك في يوم من الأيام وقد صرت كاتباً ناجحاً ، يفهمك الجميع ، ويحبك الجميع ، حين يجيء ذلك اليوم فتجد تلاميذك أو أتباعهم ، ينحنون أمامك في إكبار وإجلال — لو قدر عليك أن ترى هذا اليوم التعس — عندئذ تكون روحك قد شاخت وهرمت . عند ما كان دانتي يكتشف مملكة الموتى وجدهم وقد أخذتهم الدهشة أن يروا له ظلا ، ومن هذا الظل عرفوا أنه حي . ولو لم يكن له ظل لكان قد عبر باب الموت ، هنالك حيث تبتلع الظلمة كل الظلال . ويوم لا تلقى أمامك ظلا تكون قد دخلت مملكة الخالدين .

أجل إني لأعلم مقدار توقك إلى دخول هذه المملكة ، مملكة المرائي والأحلام والموت الخالد ، ولكن خبرني بربك هل تؤمن حقاً أن الفريسة تساوي عناء اصطيادها ، أو أن النصر يستحق القتال في سبيله ؟ .

حين تصيب امرأ بجرح ويصرخ ، فأنت حي ، أما إذا لم يحرك ساكناً ، فواحد منكما لا محالة ميت ، وربما كنتما معاً .

يوم يهتف الناس قائلين عنك إننا نفهم هذا الرجل ، تكون قد فقدت كل شيء ، ذلك لأنك لم تعد ملك نفسك ، بل ملكا لهم وسوف تحرص في مستقبل أيامك على أن تقول لهم ما توقعوه منك ، وما أرادوك على قوله ، لا ما أردت .

لست أفهم البتة شيئاً مما تجدّ في البحث عنه . بربك خبرني . . وقاك الله شر الظن أنك قد بلغت الكمال ، فإنك لو فعلت فلن تلبث أن تتراجع ثم تنحدر . هناك كلمة لاتينية تفيد الانتهاء ، والتمام هي كلمة Perfectus ، ومعناها الكمال . حذار من الكمال ! من الحق أننا أمرنا أن نكون كاملين كأبينا الذي في السماء ، غير أن الكتب المقدسة تزخر بالمفارقات ، وتلك واحدة منها . ومن الحق أيضاً أن المفارقة والاستعارة والرمز كانت من الوسائل المألوفة في تعاليم السيد المسيح . ولقد وضع لنا مثالا من الكمال لا سبيل إلى دركه أو القرب منه ، فكان القوة الوحيدة التي تحفزنا على إتمام ما نستطيع . ليس في طاقتنا أن نصل إلى الكمال الإلهي ، لذلك وضع أمامنا هذا الهدف .

ربما أنبأتني بأن الغاية من هذا الهدف هي أن يعرف الإنسان نفسه ولا شيء سواها ، وربما ذكرتني بهذه الحكمة المشهورة التي كتبت على معبد دلف وما أكثر ما أسيء التمثل بها . والحق أني لا أدري إن كانت معرفة النفس هي بداية الحكمة أو نهايتها ، ونهاية الحكمة — ككل نهاية سواها — أمر مزعج .

وأحسب أنه من الخير أن نغير الحكمة المشهورة فنقول : « أدرس نفسك » . أدرس نفسك وأمعن في دراستها ، سواء عرفتها أو لم تعرفها ، فربما كان من الخير أن تبقى على جهلك بها . وكلما أوغلت في درسك هذا ازداد تعمقك الروحي ، واتسعت آفاقك ، وشق عليك أن تعرف نفسك .

ادرس نفسك في كل حين ، عند ما تعمل ، وعند ما لا تجد شيئاً تعمله . إن أعظم ما تجنيه على نفسك من شر ، أن تعكف على ضميرك تسبر غوره ، بينما تطويك الوحدة ويغمرك الظلام . اخرج به إلى ضوء النهار ، إلى الأفق الرحيب . . . أمام وجه الشمس .

كنت نبهتك من قبل إلى أمر المذكرات الذاتية ، ولكن يبدو أنك لم تفهمني جيداً . إن المذكرات الذاتية هي أعدى

أعداء الثانية . إنها تحطمها وتحيلها إلى تراب . أعرف من الناس من كان يواظب على كتابة يومياته فكان في أول عهده بها يكتب ما يشعر به ، ثم ينتهي به الأمر إلى البحث عن الشعور لكي يجد ثم ما يكتبه ، وقد يصحو في الصباح وهو في حيرة من أمره ماذا عساه يدون في يومياته ، وكل ما قال أو فعل فعليه أن يحفظه جيداً ، إن مذكراته اليومية ماثلة أمامه لا ترحم ، وهكذا صار الرجل ملك يومياته ولم تعد ملكا له ، وتلك هي آفة كل خيال ضيق محدود .

حين حاول العلماء في التحليل الكيميائي العضوي أن يدرسوا مركباً عضوياً معقداً بجذوره وقد تحطمت وحدته بين أيديهم ولم تبق منه إلا عناصر تحصلت من التحليل والتجزئة ؛ هذا مثال يصدق في الحكم على التحليل النفسي للشخصيات الروائية ، وهذا ما جعل الروايات النفسية المزعومة تحشد أوصافاً لحالات شعورية ، ويندر أن تلق فيها روحاً طبيعية كاملة التكوين ، كهذه الأرواح التي تحس حركتها وأنفاسها وراء السيكولوجية الروائية المتخاذلة . إن من الخير إن أردت أن ترى ذاتك ، أن تنظر في مرآة بدلا من أن تدفن وجهك بين يديك ، وتغمض عينيك ، وتسرح بالنظر في ذاتك الباطنة .

أفأنت حريص على أن تحظى بالمعرفة الذاتية ؟ جميل منك هذا ، ولكن أية لمسة تراها تكون لمستك ؟ أأنت على يقين من أنك قد عرفت نفسك ؟ وكيف يستطيع المتحدث أن يقدر نوع صوته ؟ إن مظهر النهر يرجع إلى مجراه وضفتيه . فاترك نفسك تسري في مجراها ، وتسير بمشيئة تيارها ، تتخطى السدود ، وتعرف معنى الحرية . بهذا تنتهي الأنهار إلى البحر وتشق لنفسها المجرى .

* * *

لم يزل لدي ما أسره إليك وإن كنت لا أكره شيئاً بمقدار كرهي للنصيحة ، فما أشنع أن توجه النصيحة لامرئ أياً كان ، وللشباب خاصة . وأنا الأستاذ جدي أحرص على هذه الحكمة القديمة التي تقول : « لقد بحت بالنصيحة للشباب والشيوخ ، وحين احتجتها لم أجدها عند أحد » .

قد يجد بعض الناس في أنفسهم حرجاً حين تسألهم النصيحة كما فعلت أنت معي في هذه المرة ، ولكني أعلم بيني وبين نفسي أن الشباب إذا ما طلبوا النصيحة لم يطلبوها جادين مخلصين فهم في الواقع ينشدون شيئاً آخر وما طلبوا النصيحة إلا مظهراً فحسب ، وكثيراً ما تعرضت للهجوم والتجني بحق وبغير حق ، ولم يكن لذلك من سبب إلا أني لم أقل ما كان يرجى مني أن أقول .

لن تجد في مستقبل أيامك ما يشعرك بخيبة الأمل قدر اكتشافك أن الناس ينثرون زهور إعجابهم على أعمال لك بعيدة من نفسك غريبة عنها ، وأنهم سيهزءون بأعزها لديك وآثرها عندك ! ولقد قال القس الكاثوليكي اليسوعي جورج تيرل : « وأي تجربة من تجاربنا أشد إيلاماً للنفس من أن نحب ونمتدح لخصال نعلم أننا خلو منها ، أو أننا نؤثر فقدها على ملكها ، بينما نجد أن ما نعتقد أنه خير ما فينا لا يلتفت إليه أحد ... ؟

ربما لاحظت أن تيرل يقول أن نحب ونمتدح ، فأي تضاد بين هذين ؟ بين أن نحب وأن نكون موضع الإعجاب وربما كنت في سنك هذه أعظم شغفاً بالإعجاب منك بالمحبة . بل ربما طلبت الأولى ولو كان ذلك على حساب الثانية . ولكن سوف يأتي عليك يوم ، يا صديق الشباب ، تتعطش نفسك فيه للمحبة . حينئذ ستضرع في طلبها ، فإذا جاءك هذا اليوم فابتهل إلى الله أن يخلصك من أقسى عذابات الروح ، وهو أن تجد نفسك عاجزاً عن لقاء هذا الحب بمثله . فليس العذاب في أن لا تجد من يحبك ، بل العذاب كل العذاب في أن تفقد القدرة على الحب . أعرف نفوساً تتوق إلى الحب فما تستطيع ، إنها ضحايا الظمأ المحرق الممض .

* * *

هل لدي ما أقوله لك بعد ؟

لاريب أن هنالك شيئاً ما ، وإن كان لا يرد على خاطري الآن . وهكذا أراني قد نسيت — أو أنسيت — أهم ما أردت أن أذكره لك . إن أفضل أفكارنا هي التي تموت قبل أن توفق إلى صياغتها وإخراجها إلى حيز الوجود . وإن أفكاري بذور تنمو في ذاتي الباطنة ، أما ثمرتها فيجنيها غيري .

عبد الفتاح مغازي

نظرية الإمامة بين الباطنية والسهروردى

— ٢ —

للأستاذ محمد على أبو ريان

أولا : الإمامة عند الباطنية

يفضى بنا المقال الأول من البحث إلى مناقشة موقف السهروردى الإشراقى بصدد مشكلة الإمامة على ضوء موقف الباطنية منها .

١ — الاعتراف بالإمام عند الشيعة أو الباطنية عموماً جزء جوهرى من صميم القواعد الإيمانية التى لا يصدق الإيمان بدونها .

يقول الكلينى ص ١٠٥ «عن أبى حمزة قال لى أبو جعفر إنما يعبد الله من يعرف الله ، فأما من لا يعرف الله فإنما يعبده هكذا ضلالا . قلت : جعلت فداك ؛ فما معرفة الله ؟ قال : تصديق الله عز وجل ، وتصديق رسوله ، وموالاة على والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام والبراءة إلى الله عز وجل من عدوهم ، هكذا يعرف الله » . « وليس يعلم حقاً من لا يعترف بالله ورسوله والأئمة جميعاً وإمام عصره . ومن لا يفوض أمره للإمام ويبذل نفسه فى سبيله » .

واعتبار الإمامة من أصول الدين عند الشيعة لا من مسائل الفروع دفع بهم إلى شق عصا الطاعة على المجتمع الإسلامى ، فكفروا كل من لا يعتقد فى إمامة على وذريته ، لأن إيمانه بالله ورسوله دون الأئمة إيمان ناقص لا شفاعة فيه ولا غفران له ، فهى ركن من أركان الدين الأساسية التى لا يصح إسلام شخص إلا بها ، فالقاضى النعمان بن محمد يذكر « فقد روينا عن أبى جعفر محمد بن على أنه قال : بنى الإسلام على سبع دعائم (١) الولاية وهى أفضلها (٢) الطهارة (٣) الصلاة (٤) الزكاة (٥) الصوم (٦) الحج (٧) الجهاد (دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن محمد — تحقيق آصف بن على أصغر فيضى — دار المعارف القاهرة سنة ١٩٥١ ص ٣) .

والمقصود بالولاية الاعتقاد فى إمامة على وذريته من فاطمة . أما الجهاد فمن مراميه نشر الدعوة لآل البيت ومغالبة المغتصبين الخلافة ، ويتمثل نشاط الشيعة فى الدعوة السرية التى رتب لها الدعاة الفاطميون والقرامطة مراتب وأساليب خاصة . وأما إذا استشرى الخطب وعم الاضطهاد فهم يلجأون إلى التقية .

ويورد القاضى النعمان نصاً آخر ص ٥ عن حقيقة الإيمان عند الشيعة ، يقول : الإيمان شهادة ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق والنار حق ، والبعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، والتصديق بأنبياء الله ورسله والأئمة ، ومعرفة إمام الزمان والتصديق به والتسليم لأمره ، والعمل بما افترض الله تعالى على عباده العمل به والانتهاء عما نهى عنه وطاعة الإمام والقبول منه » .

وقد سمى الشيعة من يعارضون فى إمامة على وذريته — على طريقتهم — (الناصبية) وناصبوهم العداء وعدوا مخالطتهم دنيئاً للشيء يجب التطهر منه ، حتى إن الكلينى يذكر ص ٥٦٨ « روى عن الإمام جعفر الصادق أنه قال : إن رضاع الولد من يهودية أو مسيحية أفضل من أن يكله أبوه إلى مرضعة من الناصبية (أعداء على) .

٢ — وقد اختلف الشيعة فى تعداد الأئمة ؛ فالاثناعشرية أو الإمامية تنتهى عند الإمام الثانى عشر وهو محمد بن القاسم المولود ببغداد سنة ٨٧٣ م وهو المهدى المنتظر المسمى عندهم بالإمام الحق . والزيدية وهم شيعة اليمن يقفون عند الإمام الخامس زيد بن على من نسل الحسين ، وقد ثار بالكوفة سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م مطالباً بالخلافة دون ابن أخيه جعفر الصادق .

أما الإسماعيلية ويسمون (بالسبعية) فإنهم يقفون عند الإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق ، وينتسب إليهم

الفاطميون . أما الشيعة الغالية فإن بعضهم يؤله عليًا ويرى أن الألوهية تجسدت في علي ، وبعضهم يراها متجسدة في ثالوث يجمع بين النبي محمد وعلي وسلمان الفارسي ، والبعض الآخر يرى أن الوحي أخطأ فنزل جبريل على محمد وكان يجب أن ينزل على علي .

وقد اندثرت تعاليم معظم هذه الفرق المتطرفة ، ولكنها تركت آثاراً خطيرة تمثلت في العصر الحديث في البهائية والقاديانية والنصيرية .

٣ — وأيا ما كان موقف فرق الشيعة من عدد الأئمة فإنهم يرتبون للإمامة شروطاً معينة ؛ فالإمام ورث العلم الإلهي عن النبي واطلع على « الجفر » (وهو وثيقة هامة قيل إنها صادرة عن النبي وإنها مكتوبة على رقعة من الجلد وأهم ما بها التنبؤ بحوادث المستقبل ومثلها « الجامعة ») .

وهم يرون أن النبي أوصى لعلي بالخلافة من بعده في صيغة تكليف إلهي وهذا ما يسمى (الوصية) .

والصفة الثانية للإمام هي أنه معصوم من الخطأ لأنه يتلقى كل ما ينطق به عن طريق يشبه الوحي أو أنه داخل في نطاق العلم الإلهي الموروث والإمام هو القائم على الشريعة والأمين على تفسيرها ورأيه قانون ملزم لأن علمه إلهي .

وهناك مبدآن آخران متصلان بعقيدة الإمامة ، وهما القول بالغيبة والرجعة أي غيبة الإمام ورجعته ويسمى حينئذ بالمهدي .

وقد تحققت رجعة الإمام الغائب صاحب الزمان عند الإسماعيلية بظهور عبيد الله الفاطمي في شمال إفريقية ، ويقال إن الذي أدخل القول بالرجعة في الإسلام عبد الله ابن سبأ اليهودي .

والفرق بين الشيعة والسنة في الاعتقاد في الإمامة أن أهل السنة يرون في الإمام رئيساً للمسلمين يدبر شئونهم الدينية والدنيوية ، وهو يعني آخر الخليفة ، الذي يلي أمور الجماعة عن طريق الإجماع أو الانتخاب (البيعة) وأنه غير معصوم من الخطأ وأنه في مستوى البشر ولا يسمو على الطبيعة البشرية ، فالإسلام لا يعترف باتحاد اللاهوت بالناسوت .

أما الشيعة فيقررون أن رياسة الإمام مفروضة على البشر وملزمة لهم ، لأنها تستند إلى وصية شرعية عن النبي ، ثم إن الإمام يمتاز عن البشر بما فطر عليه من طبيعة إلهية وله وحده سلطة التشريع .

أما أهل السنة فيرجعون للأصول الأربعة المعروفة .

٤ — وقد أطلق لفظ « الباطنية » على الشيعة عموماً ، وعلى الإسماعيلية على وجه الخصوص ، لأن الإسماعيلية يرون للقرآن ظاهراً وباطناً ، ويعتقدون أن نصوص القرآن الظاهرة يجب أن تؤول تأويلا مجازياً ، وأن المعنى المستور للقرآن لا يدركه إلا الأئمة المعصومون .

وتعد الحركة القرمطية وثورة الزنج الاجتماعية من أخطر الثورات الفكرية والاجتماعية وهما وليدتا المذهب الإسماعيلي .

وقد تأثر الإسماعيلية والقرامطة بالأفلاطونية المحدثة ، وأولوا نظرية الإمامة تأويلا فلسفياً مستندين إلى فكرة العقل الكلي الأفلوطينية ، وكان للصوفية وإخوان الصفا أثر كبير في تطوير نظرية الإمامة وتوجيهها وجهة عالية ؛ فقيل عن الإمام إنه النور المحمدي وإنه الواسطة بين الرب والخلق ، وهو الرابطة الجوهرية بين العلة والمعلول ، بل هو الباعث الأصلي على الوجود ، بل إن الملائكة حينما سجدوا لآدم كان سجودهم للأجزاء النورانية الخاصة بالأئمة والتي اشتمل عليها آدم ، وقد أمره الله أن يرفع بصره للعرش الإلهي حيث شاهد انعكاس هذه الأنوار المقدسة عليه (أي على العرش الإلهي) .

هذه الاتجاهات الغريبة على الفكر الإسلامي البحت ترجع إلى نظرية الوساطة التي قال بها أفلوطين في نظرية الفيض وسبقته الغنوصية والهرمسية والصابئة إليها ؛ فالوسائط لها وظيفة صوفية ميتافيزيقية ، فهي تقرب العبد من الرب وتصل الناسوت باللاهوت ؛ والإسلام قد فصل فصلا تاما بين الألوهية والبشرية ، فلا يمكن أن يرقى الإنسان إلى مرتبة الألوهية. أما المسيحية ومذاهب الصوفية الحلوليين والاتحاديين وأتباع وحدة الوجود فقد تكلموا عن إمكان الوصول وعن اتحاد الطبيعتين .

والشيعة الباطنية ساروا في نفس الطريق متأثرين

بالتيارات السابقة ، فاتخذ الأئمة لديهم مراتب الوسائط الروحية في الأفلاطونية المحدثة . ومن ثمة كانت طبيعتهم البشرية مظهراً إنسانياً فحسب لطبيعة إلهية يُعدون بسببها محداً ميتافيزيقياً لهذا الوجود ، وهنا نجد نوعاً من التشابه بين هذا الموقف ونظرية القطب الصوفية .

على أن هذه الاتجاهات الغريبة كانت نتيجة حتمية لانتشار الإسلام في مراكز هذه الثقافات ، فحمدان القرمطي — مثلا — وهو أول الداعين إلى الدعوة القرمطية ، نشأ في واسط وهي من مراكز الصابئة ، وقد استعار القرامطة بالفعل كثيراً من الطقوس الدينية التي يمارسها الصابئة ، وإذا تناولنا موقف القرامطة من الإمامة نرى فيه بوضوح أثر الغنوصية ، فهم لا يعترفون بالوصية التاريخية التي تقصر الإمامة على آل البيت وحدهم دون غيرهم ، بل يقولون بالوصية الروحية ، فالإمام قد يكون من آل البيت أو من غيرهم تبعاً لمرتبته الروحية والعقلية ، وهنا نجد نزعة واضحة للخروج بالنظرية من الدائرة الأسرية الضيقة التي تقوم على صلة الدم ، ونجد تطوراً خطيراً للخروج بها من الدائرة المحلية في المجتمع الإسلامي إلى الدائرة العالمية التي تشمل سائر الأديان ، فالأئمة موجودون منذ بدء الخليقة ، وعددهم غير محدود ، وهم يظهرون في أدوار لا متناهية وفي تنظيمات سبعية (عند الإسماعيلية) . ويسلك القرامطة في عداد الأئمة هرمس وأجاثاذيمون وأبادقل وفيثاغورس وزرادشت وأفلاطون ؛ وواضح من هذا أن الإمامة لا تقوم على أساس التسلسل التاريخي في النسب ، بل على أساس قدرة الإمام العقلية واستعداده الروحي لتلقي الإشراق من (النور العلوي) فيمنح التفويض من العقول العليا المشرقة ، ويُعد الأئمة السابقون عليه في عداد هذه العقول المشرقة .

فالإمام إذاً في أرقى درجات الواصلين الذين يتلقون الإشراقات الدائمة ويكونون هم بدورهم مصادر إشراقات وفيوضات روحية .

والعالم مجموعة من الظواهر المتعاقبة ينحسر عنها الحجاب المادي بالتدريج تبعاً لإشراق العقول عليها ، والواحد (نقطة رياضية مجردة كما قال أفلوطين) هو المصدر الأول لهذه الإشعاعات الروحية التي يسميها القرامطة بالنور الشعشعاني الفاصل ، وعن الواحد يصدر العقل الكلي ونفس العالم وتصدر العقول الأخرى بالتدريج ومنها عقول الأنبياء والأئمة والأولياء . والعقول والنفوس الجزئية الأخرى وهم زائل وصدر النور الظلامي عن النور الشعشاني في نهاية المكان

وإذاً فعقول الأنبياء والأئمة قبسات نورية أصبحت شاعرة بذواتها الإلهية بعد أن نفحتها العقول المشرقة الفيض النوراني ، وهذا الشعور بالذات هو الحدس أو الإدراك الذوقي الذي يخلصها من الظلمة الحس وهم السماء والطبيعة والقانون والدولة والضرورة .

وإذا جاز لنا أن نتكلم عن قبل وبعد في مذهب يسبغ الأزلية على وحداته الوجودية ، فإننا نفسر عبارتنا السابقة بقولنا إن الأنبياء والأئمة وهم قبسات نورية يكونون قبل شعورهم بذواتهم (أي قبل تلقي الوصية الروحية) متصلين بالعوائق المادية والزمنية التي تؤخر انطلاقهم الروحي ، وفي هذه الحالة المؤقتة لم محا رسم لهم من مراتب إلهية شريفة يوسمون بطابع الفردية المميزة لأفراد البشر العاديين — وذلك بصفة مؤقتة — فيكون منهم سلسلة يندرج تحتها (الناطق والصامت والباب) وهذه مراتب روحية لها طابع فردي محدود ، ولكن هذه الطبيعة الفردية تأخذ في التناقص تدريجياً كنتيجة لتوالي الإشراقات النورانية عليها ، إلى أن تصبح هذه القبسات شاعرة بذواتها ، فتنتقل إلى سلسلة أخرى بها مراتب (الداعي والحجة والإمام) وتزداد السلسلة الأخيرة أعداداً بما يصل إليها من السلسلة الأولى .

وقد يقتضي أن تنتقل بعض العقول الفردية من دور إلى دور إلى ما لا نهاية ، ما دامت متعلقة بطبيعتها الفردية ، إلى أن تتلاشى هذه الطبيعة ، حينئذ تندرج في عداد الذوات النورية الإلهية الشاعرة بذواتها ، وتستمر هذه الحركات حتى يحصل ما يسمى بالدجور أو السيجور أو البكار وعندها تقف الأدوار التي تمر بها العقول ، وهذا التوقف يختلف كثيراً عن الاتجاه الديني التقليدي بصدد التمسك بفكرة اليوم الآخر .

محمد علي أبو ريان

فى الامتحانات

للآنسة منيرة حلمى

[هذه كلة صريحة يبدو صدقها من ثنايا عباراتها الخاصة . هذه إحدى زهراتنا الجامعيات تلق الضوء على مأساة جيل كامل ، شعراً وانفعال أنفسنا . أستاذة تئن وتصرخ لا تصرخ هذه الزهرة الجامعية . لعل الآذان تنفتح إلى الحق]

أفكر فى الامتحانات فأول ما ينبث فى ذهنى هو هذه الصورة : مقعدى وقد غرس وسط الأعشاب فى أرض خربة اتخذتها الجامعة مكاناً لإجراء الامتحان . وراحت أطراف الأعشاب المدببة تخز قدمى وخزاً أليماً . فما أزال بها أنقلها من جانب إلى آخر عسى أن أجد متسعاً لها فى منطقة جرداء . لكن هيهات وقد نبت العشب فى مكان ليس من حقى أن أقدمه إصبعاً واحدة أو أؤخره أخرى . ثم مجموعة كبيرة من الحشرات تزحف على من كل صوب فتصل إلى أصابعى الممسكة بالقلم قبل أن تصل إليها أفكارى . وتحتل ورقة الإجابة قبل أن تحتلها ألفاظى . فإذا خطة الإجابة فى ذهنى قد استحالت إلى خطة للقضاء على هذه الحشرات . وقد يتم تنفيذ هذه الخطة سريعاً ، وقد يستغرق وقتاً طويلا ينال من صبرى ومجهودى واتجاه ذهنى نصيباً كبيراً كان من شأن الإجابة وحدها . فإذا تم لى النصر أخيراً ، وأخذ القلم يشق طريقه على الورق ، لم ألبث أن ترتجف يداه وتتعالى بين أصابعى فى اضطراب شديد إثر دوى صوت يثير طالباً فى أول اللجنة أو آخرها . وما إن يشتد النقاش ويستحيل إلى معركة كلامية عنيفة حتى يستولى على كل حواسى وتفكيرى ويعود الذهن صفحة بيضاء ، ويظل كذلك إلى ما بعد فض رئيس اللجنة لهذه المعركة .

وكنت ما أزال طالبة ساذجة ترضى عن كل شيء ، أو تعلله تعليلا يرضيها . فما كان هذا الوضع فى نظرها إلا اختباراً للصبر ، يجدها كما علمها معلموها أن المجد محفوف بالشوك ، وأن لابد للشهد من إبر النحل . فكانت تلك الأعشاب وهذه الحشرات لديها بمثابة أشواك المجد وإبر النحل ، لا ينكران لها صفواً ما دامت ستنال المجد وتذوق الشهد . وكانت إذ ذاك بى نزعة روحية تدعونى إلى إهمال كل شيء مادى . فكنت أحتقر تلك الحساسية التى تجعل للآلام الجسمية موضعاً فى مجرى شعورى . وصرت أربأ بنفسى عن الإسرار لغيرى بآلامى ، بل كنت أمسك عن التصريح لهذه النفس فيما بينى وبينها ، بأن الآلام التى أعانيها أثناء الامتحان تستولى على بعض من انتباهى . وكل ما كنت أفعله إذا اشتد بى الألم هو أن أتذكر ذلك الصوفى الذى بترت ساقه وهو يصلى فلم يستشعر لها ألما ، ثم أنهر النفس قائلة : إنما يجب عليك أن تكونى أنت الأخرى فى سكرة علية أثناء الامتحان ، فلا تعيرى هذه الآلام انتباها ولا تستشعرى لجسمك كياناً .

لكن العلم والتجارب أقنعانى بأن الإنسان وحدة يتأثر جانباها كل منهما بالآخر ، وأن الجسم وحالاته لابد مؤثر على العقل وتفكيره . وابتدأت هذه الصورة تبعث فى ذهنى فتضيف حيرة إلى حيرتى ويأساً إلى يأسى كلما ألح على هذا السؤال : إلى أى حد تقيس هذه الساعات الثلاث المخصصة للامتحان فى كل علم مدى ما حصله الطالب طول عامه قياساً صحيحاً ؟ فطالما حاولت أن أقنع نفسى بأن هذه الساعات الثلاث تستطيع أن تقيس حقاً مقدار تحصيل الطالب وتحكم على صلاحيته لاستقبال مرحلة جديدة من التعلم ، لكنى لم أفلح . فما بالك لو أضيف إلى هذه الساعات الثلاث تلك الملابسات التى وصفتها ؟

أما أن هذه الساعات الثلاث فى حد ذاتها لا يمكن أن يعتمد عليها فى تحديد مدى تحصيل الطالب ، فهذا ما يستند إلى أسباب عدة أولها :—

أن هذه المدة الوجيزة لا تقيس مدى الاطلاع الخارجى الذى يجب أن يؤديه الطالب الجامعى ، اللهم إلا إذا اقتصرنا

للاستدلال على اطلاعه بذكره لأسماء المؤلفات التي قرأها ، وكم يحفظ الطلبة من أسماء كتب لم يقرأوا منها سطراً واحداً . وإنما هي تضطر الطالب للإيجاز حتى لا يكاد يتجاوز ما سمع في المحاضرات ، كما تضطر الأستاذ للاكتفاء بهذا الموجز في ورقة الإجابة . ومن شأن هذا أن نجد من أفق الطلاب الجامعيين ومجمل تحصيل أكثرهم لا يتجاوز تحصيل تلميذ المدرسة الثانوية إن لم يقل عنه ، لأن التلميذ في المدرسة الثانوية يقرأ الكتب المقررة عليه ، بينما لا يقرأ الطالب الجامعي سوى مذكرات من المحاضرات لا يعلم إلا الله كيف كتبها وإلى أي حد نسقها .

وعلى الرغم من ذلك ، وبينما نجد وزارة المعارف تجد في تطبيق نظم جديدة تكفل الحكم الصائب على مدى استحقاق التلميذ لاستقبال مرحلة جديدة من التعليم ، نجد الجامعة لم تفكر يوما في تغيير نظمها العتيقة ، ولا تجربة نظام المدد الدراسية (Terms) المتبع في أكثر جامعات أوربا وأمريكا ، مع مضاعفة الاهتمام بأبحاث الطلبة طول العام ، وإعطائها من حق الحكم على الطالب ما يساوي نصيب الامتحان . ثم تكليف الطلبة بالقيام ببعض الأعمال في العطلة الصيفية حتى نستوثق من مقدرتهم على تطبيق ما درسوا ونضمن اكتسابهم الخبرة العملية . لم تفكر جامعاتنا في شيء من هذا مع العلم بأن لمثل هذه النظم من النتائج ما يتعدى صواب الحكم على مدى اطلاع الطالب إلى رفع مستوى الطلبة جميعاً والتخفيف من وطأة الاعتماد على الدور الثاني . وذلك لأن الطالب سيجد في أعمال السنة والاطلاع الخارجي ما دامت لها نصف الحق في تقرير مصيره ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لأنه سيعلم أن عليه عملا يجب أن يؤديه أثناء العطلة فلا يتعمد ترك بعض العلوم للدور الثاني حتى يشتغل بقراءتها في الصيف كما يزعم أكثرهم .

أما السبب الثاني الذي يقضي على قيمة هذه الساعات الثلاث كمقياس صحيح لقدرة الطالب العلمية ، فهو أن أسئلة الامتحانات تصل إلى أيدي كثير من الطلبة قبل الامتحان . وعندي كثير من الأدلة على ذلك مذ كنت طالبة ساذجة لا أصدق عبثاً ينال من سرية الامتحان وهيبته حتى صرت الآن أشهد هذه الفضيحة الكبرى وتتوالى علي أنباؤها من كل صوب فأتحقق وكلي أسف من صدق ما كان يروى وأنا طالبة .

أما كيف يتم ذلك فهذا ما زلت في حيرة من أمره ، بل وأدعو الله ألا يثبت لي يوماً صدق ما يتكهن به البعض حتى أحتفظ بالبقية الباقية من احترامي للتعليم الجامعي في مصر .

لكن لدي مجموعة كبيرة من آراء الطالبات والزميلات المتذمرات من هذه المأساة الخلقية ، أحب أن أعرض بعضها لعل أولي الأمر يتدبرونها ويسعون إلى تلمس أسبابها والقضاء عليها . أسوق هذه الآراء وأنا في حيرة أخرى : فماذا لا يتكاتف الطلبة ويعلنون الثورة على هذا الوضع ؟ أهم جميعاً يشتركون في الجريمة ؟ أم هم أبرياء وتنقصهم الشجاعة لمصارحة أولي الأمر ؟ أم هم أبرياء وشجعان لكنهم يرون أن هذا الأمر جانب من جوانب الانحراف الخلقي العام الذي أصاب الناس جميعاً هذه الأيام ولا سبيل لتقويمه مهما بحت الأصوات :

فهذه فتاة ذكية طموح جاءتني شاحبة الوجه مضطربة الحركات ، فما كدت أفتتح الحديث معها متمنية لها التفوق في الامتحان حتى صاحت بي في يأس : « لقد ضاع التفوق من يدي » قلت : « وكيف ؟ » فأجابت ثائرة : « لقد كانت أسئلة الامتحانات مع كثير من الطلبة قبل الامتحان ، وحين فطنت الكلية إلى ذلك في الأيام الأخيرة كان كل ما واجهت به الأمر هو إبدالها بأسئلة الدور الثاني أو ارتجال أسئلة جديدة لست أدري . فإذا بالامتحان وقد تأجل ميعاد انعقاده نصف ساعة ، وإذا بالأسئلة رديئة الطبع غير محكمة التدبير ، وإذا من كانوا قد أعدوا عدتهم للأسئلة المعلومة وحدها يصرخون ويولولون ، وإذا اللجنة في هرج ومرج يحطم الأعصاب ويشل التفكير . وأي يد بعد ذلك تستطيع أن تقبض على قلم ، وأي ذهن يستطيع أن يتسلسل له تفكير ؟ » وغاب صوتها لحظات وإن كان حديثها الثائر لم ينقطع له تيار ، وإذا عكسته حنجرة أصابها الإعياء ، فارتد إلى قلبها الثائر يرجع ضرباته حتى يهز كيانها هزاً . فما استعادت حنجرتها شيئاً من قوتها وجدتها تصيح في حنق شديد : « كلما تصورت أن هذا المجهود الشاق الذي نال من جسمي وذهني ما نال لا يؤهلني لمثل ما يؤهله الاطمئنان بطرق باب غيري في صورة أسئلة يعدونها ، وهم أهدأ ما يكونون بالا ،

وأكثر ما يكونون ارتياحا ، أكاد أجن من وضع كهذا يجعل ثمار الغش أحلى من ثمار الكد والكفاح . صدقيني . لقد صرت أحتقر كل شيء ، حتى التفوق الذي قد يؤهلني لأن أصل إلى مركز يجعلني إحدى المشتركات في هذه الجريمة الشنعاء » .

ورثيت لحال الفتاة ، ونحيت جانبا ذلك الهذيان الذي صدر منها عن حمى الغيرة على التفوق ، وأملته الرغبة في تبرير القصور . نحيته جانبا إذ وجدته أبعد تصوير لحقيقة أعرفها جيداً عن سرية الامتحانات . لكن تصادف لفرط عجبي أني أردت الاتصال تلفونياً بإحدى الصديقات وتعذر على هذا لمدة ساعتين لانشغال الخط انشغالا متواصلا . فلما لمتها على ذلك فيما بعد أجابت ضاحكة : « ألا تعلمين أن أخي يمتحن هذه الأيام وأن الأسئلة تتوارد عليه من كل صوب ويوزعها بدوره على من شاء كرمه أن يشملهم برعايته ؟ » وعندئذ تمثلت أمامي صورة الطالبة اليائسة ، ورنت في أذني عباراتها الثائرة وأمضيت ليلتي أرقة أفكر وأتأمل في كل ما قالت حتى أسفر الصبح ، ووجدتني أمضي إلى زميلة معيدة بإحدى كليات الجامعة لأشركها معي في التفكير . لكنني وجدتها تضحك مني ساخرة وهي تقول : « كنت أشد حيرة منك في العام الماضي . لكن الظاهر أني قد تآلفت لهذه البيئة . لا زاملي بأصدقائي فسوف ترين المثل العليا تنهار أمامك الواحد بعد الآخر . فتجلدي مثلي وتأقلمي ... » وراحت تقص على مسمع يكاد يصم ذهولا كل ما لمست من فضائح الامتحانات هذه الأيام .

لقد كان آخر ما أود أن يصيب بني وطني هو هذا الوباء الأخلاقي الفتاك ، وكان آخر من أود أن يتفشى بينهم هو هذه الطبقة المستنيرة من الأمة . ولقد كنت أفضل أن أرى التعليم الجامعي مقصوراً على أقلية ضئيلة ، فلن يضيرنا هذا شيئاً ، إذ أنه الوضع السليم في معظم بلدان العالم . أما أن نزج إلى الجامعة بكل من هب ودب وبكل العقليات على اختلاف مستوياتها ، ثم نتركهم يغتصبون الشهادات اغتصاباً ، ويحتالون عليها احتيالا ، فهذا هو الشر الذي يأباه كل وطني مخلص ذو عقل سليم . فلا شك أن السبب الرئيسي لهذه الظاهرة البغيضة هو فتح أبواب الجامعات لغير أهلها . فلا هم جنوا من ذلك غير فساد الخلق وتعلم الاحتيال ، ولا جنى غيرهم سوى الانهيار الخلقي والعملي لتفشي العدوى ، أو الانهيار النفسي والانصراف عن التطلع إلى التفوق لليأس من حكم الامتحانات .

هذه بعض مساوئ الامتحانات في بلادنا بالإضافة إلى مساوئ الامتحانات التي نعرفها كلنا وراحت معظم دول العالم تفكر في التخفيف من حدتها بشتى الطرق . وهذا هو ما جعلني أشك كثيراً في قيمة مثل هذه الامتحانات لمجرد ما ذكرت من أسباب ، فما بالك لو أضيف إلى هذه الأسباب تلك الملابسات التي وصفتها في ابتداء الحديث ؟ فلو كنا لا نستطيع أن نعدل من هذا النظام العتيق للامتحانات ، ولا نقلل من أهمية هذه الساعات الثلاث ، فلا أقل من أن نهيء لها المكان اللائق بحيث يخص الطالب من راحة الجسم مرة كل عام ما يخص طالب اللهو كل يوم إذا أراد أن يقضي ساعات ثلاثاً من فراغه في إحدى دور اللهو الحديثة .

منيرة حلمي

صفحة من حياة «جيمس بوزويل»

للأستاذ مبارك إبراهيم

[نشرنا في العدد السابق مقالا لنفس الكاتب الأديب من حياة جونسون الأديب الإنجليزي الكبير . ونحن هنا نقدم لحضرته مقالا آخر من الأديب الإنجليزي بوزويل الذي لا يكاد اسمه يفارق اسم جونسون] . (الثقافة)

لقد ذاع صيت هذا الكاتب . وكتب اسمه في سجل الخالدين بتأليفه لكتاب « حياة جونسون » الذي نشر لأول مرة عام ١٧٩١ .

والذي ضمّنه ما كتبه « جونسون » عن رحلته إلى جزائر « هبريده » في غربي اسكتلندة .

وكتاب « حياة جونسون » وليد الزاوجة بين أدب « بوزويل » وهو الذي تُخلق تصاصاً ، وبين أدب الدكتور « جونسون » ، وهو عظيم من عظماء القرن الثامن عشر ، وحكيم من أقدر حكمائه ، وعالم من أبرع علمائه .

وهو كتاب لا يفوقه في موضوعه كتاب آخر . وقد تناولته الأيدي بالتنقيح والمراجعة حتى أصبح تحفة من أغلى تحف الأدب .

والسر في عظمة ذلك الكتاب أن « بوزويل » قد تقمص فيه روح « جونسون » ودخل في إهابه ، حتى لقد يبدو الدكتور واضح الملامح في كل جملة وردت في هذا الكتاب الفريد ، الذي كتبه كاتبه وهو مأخوذ بسحر الإعجاب بصاحبه .

ويبدأ «بوزويل» كتابه بأول نفس تنفسه «جونسون» ثم لا يتركه يتنفس بعد ذلك إلا وهو شارح لحكمة كل نفس من تلك الأنفاس .

وهو لا يغادر صغيرة ولا كبيرة في حياة « جونسون » إلا أحصاها . فهو يقول مثلا : « تغدّينا في مكان كذا . وشاهدنا الأطلال الرائعة للكنيسة الكبرى . وعلى الرغم من تهطال المطر فقد عُنِيَ الدكتور بفحص أحجار تلك الخرائب في صبر بالغ ، وعناية قد أربت على الغاية .

ثم قام « مستر جرانت » فصلى بنا . وقال الدكتور : إن صلاته كانت صلاة حسنة جداً . وفي يوم الأحد التالي ، وهو اليوم الواحد والثلاثون من شهر يوليو قلت للدكتور : إني حضرت اجتماعاً لقوم يسمون أنفسهم « طائفة الأصحاب » . ورأيت امرأة تصلي بهم . فقال «جونسون» : إني أشبه المرأة التي تؤم الناس للصلاة بالكلب الذي يمشي على عقبيه ...

وهو يقص أول لقاء لهما في بيت واحد من أصحابه . فيقول : « كان الدكتور يبغض الاسكتلنديين . فقلت لمضيفي : بربك لا تذكر له من أي البلاد جئت أنا . قال : بل إني لقائل له إنك اسكتلندي لحماً ودماً ومولداً وموطناً .. فلم أر بداً من أن أقول للدكتور : أرى لزاماً عليّ يا سيدي أن أصارحك بأني جئت من أسكتلندة . ولكن لا حيلة لي فيما جرت به المقادير ...

وهو يمضي فيقول : ولم أرم بهذا القول إلى الحط من شأن بلدي ، وإنما قصدت إلى الترفيه عن الدكتور وإلى ممازحته .

وكتب « بوزويل » لصديقه « تمبل » Temple يشكو من أن « جونسون » — وكان قد نشر كتاباً عن جزائر « هبريده » يأبى عليه أن ينشر كتاباً آخر في هذا الموضوع .

ومضى « بوزويل » يقول لصاحبه : « وإني لأسر إليك القول أن « جونسون » ليس من شيمته أن يشجع أحداً على أن يشاركه ذيوع الصيت .

ولو كان هذا القول صحيحاً لشقيت روح « جونسون » الشقاء كله لو قدر لها أن تعود إلى الأرض . ذلك لأن أحداً من الأدباء لم يظفر بصاحبة واحد من أصحابه ذيوع الشهرة وبعد الصيت مثل ما ظفر «بوزويل» صديقه «جونسون» . فكان كلاهما مكملاً للآخر . وكان إذا غاب أحدهما عن قرينه بات هذا كأنْ قد نصف نفسه .

ولا نكران في أن كليهما كان نابغة من النوابغ . وقد اعتاد الناس أن يتخيلوا أن « بوزويل » لم يكن إلا غبياً محظوظاً يدين بكل ما ناله من مجد وشهرة إلى أنه قد تعلق بحبال « جونسون » ومشى في ركابه .

والحق أن « بوزويل » كان رجلا آية في الذكاء . ولو لم يقدر له أن يكتب ذلك الكتاب القيم عن « جونسون » لكان قد كتبه عن رجل آخر . وقد يكون هذا الرجل الآخر هو « بوزويل » .

وقد يمكن أن يقال إن « بوزويل » كان كأنه شخصان ركبا في جسد واحد . وكان أحدهما لاينفك يحدق في الآخر ويقوم بتسجيل أعماله وتدوين تجاربه . وآية ذلك أن « بوزويل » يوم كان في الواحدة والعشرين من عمره صنع قصيدة ونشرها غفلا من الإمضاء ، وأهداها إلى الفتى الماجد جيمس بوزويل .

وآية ذلك أيضاً أنه في جميع رسائله التي بعث بها إلى صديقه ورفيقه في الجامعة « وليم تمبل » — وهي رسائل تفوق من حيث رفع الكلفة جميع الرسائل التي بعث بها إلى جونسون — تراه ينظر إلى نفسه كما ينظر أحد المتفرجين إلى ممثل على المسرح ، وكان يدعو صديقه « تمبل » أن يكون زميلا له في التفرج .

وكان « بوزويل » إذا تحدث عن نفسه يصطنع طريقة صاحب « صندوق الدنيا » عند عرض صوره وشخوصه فيقول : « أنظر إلى « بوزويل » فهو الآن سكران . . . وأنظر إليه فهو الآن نادم . . . والآن فانظر إليه وهو التيم الولهان . . . وها هو ذا في موقف مريب . . . ثم انظر إليه وهو في صحبة الصفوة المختارة من القوم . . .

وكان « بوزويل » أشبه الناس برجل تزوج بامرأتين هما : « الرذيلة » و« الفضيلة » . وهو يرى اللذة كل اللذة في السعي بينهما بالوقيعة .

ومما يروى عنه أنه لما أشرب قلبه حب الآنسة « بلير » وأغرم بها بعث بصديقه « تمبل » سفيراً له عندها . وكتب له قائمة بالأوامر الواجبة الاتباع أثناء السفارة . وأشار على صاحبه أوسفيره بأن يذكر لها تخبيجاً أحسن محامده وأسوأ مساوئه ؛ فهو يقول له : يجب عليك أن تثني علي بما تحليت به من شيم كريمة ، وصفات طيبة . وأنت لا شك تعرف تلك الصفات وهاتيك الشيم . ثم اذكر ما تعرفه من نقائصي ومعايبي . فقل لها عن شذوذي : وقل لها إني لا أستقر على حال من القلق ، وأني قليل المبالاة ، وأني تعودت مصاحبة النساء اللائي ضربن في المسائس إلى آذانهن . . .

و« بوزويل » لم يكن واحداً من عبدة الأبطال الذين يمحون ذواتهم محوا ويخرون أمام العظمة ساجدين . بل كان رجلا يتذوق النبوغ ، كما يتذوق ملاحة الوجه المليح . وهو في حضرة نابغة من النابغين كان يجمع بين الإعجاب بذلك النابغة وبين الإعجاب بنفسه . وكان يرى أن « جيمس بوزويل » إن لم يكن المثل الأول فهو على الأقل ممثل يستحق بعض التكريم .

ومن نوادره أنه لما كان شابا في الرابعة والعشرين من عمره كتب إلى « جان جاك روسو » كتابا يطلب إليه فيه أن يستزيره . وقال يصف نفسه : إنه رجل نسيج وحده في الأهلية والجدارة . وهو إن كان لا يزال فتي السن فإنه قد حلب الدهر أشطره . ثم مضى يقول : « وأرجو أن تولي ذلك الغريب النازح ، الفريد في صفاته ، ثقتك وإنك إن فعلت فلن تكون يوما نادما . . . »

وإذا أراد باحث أن يحكم على « بوزويل » مستدلا بما خطه قلمه فإنه واجد أن أمتع اللذات عند ذلك الرجل هي صحبة الأذكياء من رجال العلم والأدب . وقد كان هو يوم لقي « جونسون » أول مرة فتى في الثانية والعشرين من عمره ، وكان « جونسون » في الثالثة والخمسين .

وقد ظن الناس أن هذا اللقاء إنما كان لقاء بين رجلين يختلفان في السن ويتباينان في المزاج وفي الأصل والنشأة . ويكادان يختلفان في كل شيء آخر .

وكان « جونسون » مولعاً أشد الولع بعقد أواصر الصحبة مع الناس . وقد أسر إلى « بوزويل » في أول عهدهما باللقاء قوله : إني يا بني أحب صحبة الشباب . وذلك لأني لا أود أن يخطر ببالي أني أهدف إلى الشيخوخة . وذلك لأن صحبة الشباب هي أطول عهداً إن قدر لها البقاء ، وذلك أيضاً لأن قلوب الشباب أكثر امتلاء بالفضيلة من

قلوب أولئك الذين تقدمت بهم السن . فهم جدّ أسخياء فى كل ناحية من نواحى العاطفة .

ولكن « بوزويل » لم يذكر لنا رده على هذه التحية التى تشيد بذكر فضائل الشباب . وكل ما عرف فى هذا الصدد أنه كتب لواحد من أصحابه يقول فى جذل واغتباط : « سوف تبتسم إذا فكرت فى الصحبة التى جمعت بين نابغة عظيم الشعر ، عالى المقام ، وبين فتى يكاد يكون فى العلم والأدب قزماً من الأقزام » .

وكذلك نعرف أنه كتب بعد ذلك إلى صديقه « تمبل » ينبئه أنه تعشى وحده مع « جونسون » وأنهما بقيا يتسامران حتى جاوز الليل ثلثيه ، وأنه قد أمسك بيده فى احترام وتوقير ، وقال له : إنى أحبك الحب كله أيها العزيز « بوزويل » .

وظل الرجلان بعد ذلك متلازمين لا يكادان يفترقان إلا لحظات قصارا . وقد دامت صحبتهما أكثر من واحد وعشرين عاما .

وعلى الرغم مما اتصف به « بوزويل » من صراحة فى القول فإنه كان يبدى من ذات نفسه فى حضرة « جونسون » بمقدار ما يبدو الهلال فى أولى لياليه ، على أنه كان يبدى من ذات نفسه فى حضرة صديقه « تمبل » بمقدار ما يبدو القمر ليلة تمامه ، وهو فى ذلك لم ينس أبداً أن « جونسون » كان حكيماً من الحكماء ، وكان رجلاً من رجال المثل الخلقية العليا . ولكن « تمبل » كان صديق شبابه ، وهو الصديق الذى يستطيع أن يفاخر فى حضرته بما ارتكب من خطيئات ، وبما أعقب ذلك من ندم واستغفار .

و « بوزويل » يحدثنا فيقول إنه فى الأيام الأولى من أيام صحبته لجونسون كان يظل الليل دائماً يدون فى دفتر يومياته كل ما يستحق التدوين والتسجيل من أحاديث « جونسون » وحكاياته ، وهو يقول : إنى لأذكر أنى ظللت ساهراً ذات مرة أربع ليال سوياً ، أدون ما أدون ، وأنا لا أحس تعباً ولا نصباً .

وتدوين المذكرات كان عند « بوزويل » أشهى من الطعام الدسم ، وأروى من أشهى الأشربة . وقد حدث عنه واحد من أصحابه قال : رأيت « بوزويل » يضع الشوكة والسكين جانباً . ويمسك بأوراقه ليدون — وهو على المائدة — حكاية لطيفة . وحدثت إحدى صاحباته قالت : « إن من بعض حيله أن يجلس مستقراً هادئاً فى الركن البعيد من الغرفة ، ويدون كل ما قاله « جونسون » ، وكل ما قيل له » .

وكثير من المحاورات التى دارت بين « بوزويل » و « جونسون » إنما كان يقصد بها فى الأغلب الأعم أن تنسق وتبوب ، بحيث تصبح صورة كاملة من الأبحاث التى يراد تركها ميراثاً للسلالات المقبلة .

وكان من عادة « بوزويل » أن يسأل أسئلة تصوره فى صورة الجاهل وذلك لكى يستحث « جونسون » على الإفاضة فى الحديث .

و « بوزويل » هو القائل : إنى أضع سؤالاً من الأسئلة المعقدة التى تستعصى على الجواب ، وهو يدور حول حقيقة من حقائق الحياة العادية . كأن أقول مثلاً : ما السبب فى أن الخدم من النساء — اللائى يكلفن فى العادة بأن يشترين على حسابهن الخاص — هن أقل أجوراً من الخدم الذكور ، أولئك الذين يعمرون بالملابس فى كل حين ! وذلك على الرغم من أن الخدم من النساء هن مثقلات بأعباء الخدمة أكثر من الخدم الذكور ؟

ومثل هذا السؤال يضيق به « جونسون » ويجعله كواحد من الشهود فى ساحة القضاء قد ضيق عليه القاضى الخناق وهو يؤدى شهادته .

ولما كثرت هذه الأسئلة على « جونسون » ضاق بها ذرعا . وقال لصاحبه فى لهجة التعنيف واللوم : « لقد عييت بأسئلتك . فأنت تسألنى لماذا طال ذيل البقرة ؟ ولماذا كان ذيل الثعلب كث الشعر ؟ وماأنا وهذه الأسئلة ؟ وما غناؤها عندى ؟ وما شأنى بها ؟ »

و « بوزويل » يوم كتب كتابه « حياة جونسون » خانته صراحته . فلم يذكر أنه كان السائل لهذه الأسئلة المحرجة ، بل نسبها إلى فتى ماجد لا يسميه . . .

وسهما يكن من أمر فإن الباحث ليطمئن إلى أن

« جونسون » كان يلذ بأن توجه إليه الأسئلة ، كما كان « بوزويل » يلذ بتوجيه تلك الأسئلة . ولو أن « جونسون » كان برما بهذه الأسئلة لما وصف صاحبه بأنه خير رفيق في السفر .

ولقد حقر الناس « بوزويل » بعد مماته ، وتناولوه بالذم . ولكنه في حياته كان حبيباً إلى كل قلب . إذا استثنينا قلب « جولد سمث » وقلب بعض الناس . وقد كتب إليه « جونسون » مرة يقول : لقد سمعت بأذني أنك رجل يحبك الناس كلهم . وهذا الحب هو خير زاد المرء في هذه الدنيا .

ولم يكن حب « جونسون » لبوزويل حب رفيق مؤنس فحسب . بل كان حبه له أعمق من هذا وأشد تأصلا . وقد قال له مرة : إني أحبك كرجل رضي الأخلاق ، رقيق الحاشية ، نبيل الفطرة . وإني لأرجو وآمل أن يجيء يوم أحبك فيه كرجل تضرب الأمثال بصلاحه وتقواه .

ولقد حقق « بوزويل » رجاء « جونسون » فأصبح من غلاة الصالحين حتى لقد جاء صاحبه يوما يقول : إني لألوم الناس وأشتد في لومهم على أنهم لا يحذرون البيع في يوم « جمعة الآلام » . وكان يرى أن لا بد للناس من أن يجعلوا يوم الأحد يوما خالصاً للعبادة . وهو يقول في ذلك : يجب أن ينفرد يوم الأحد عن سائر الأيام بالتوقير والإكبار . فللناس أن يسيروا في الطرقات في ذلك اليوم . ولكن ليس لهم أن يرموا العصافير بالحصى . وللناس أن يتخففوا من القيود ولكن ليس لهم أن ينحدروا إلى درك التخنث والاسترخاء . . .

و« بوزويل » قد حير عقول الباحثين عن الحافز الذي حفزه إلى تأليف ذلك الكتاب الضخم الذي ضمنه سيرة صاحبه . وكاد الناس يجمعون على أن « بوزويل » كان كسقراط يعمل بوحي شيطان من الشياطين ، وأن حماقاته وجهالاته إنما كانت مما وسوس به شيطانه .

ولكن شيطانه لم يكن يلهمه أن يكتب عن « جونسون » فحسب ، بل كان يلهمه أن يجعل « جونسون » يسير بين الناس ، وأن يتحدث إليهم حديثاً يهيء لبوزويل مادة صالحة للكتابة . فهو لم يكن راوية أحاديثه وحسب . بل كان المبدع لتلك الأحاديث . وكان مثله في ذلك مثل المشرف على حلبة مصارعة الثيران ، كل همه ووكده أن يحمس الثور للعراك . ولو كان ذلك على حساب المخاطرة بحياته وسلامته .

ولقد لامته مرة إحدى الكاتبات وتقدمت إليه بالرجاء أن لا يبالغ في وصف غلظة جونسون وفظاظته في بعض حالاته . فكان جوابه : لن أقلم مخالب صاحبي . ولن أجعل من النمر قطا . وذلك ابتغاء مرضاة الناس . . .

ولقد عقد « بوزويل » العزم على أن يكون صريح القول صراحة لا حد لها إذا تحدث عن « جونسون » أو عن نفسه . وكان يقول : من الناس من يرى إخفاء خطيئات رجل عظيم كان ذلك العظيم يرى سترها وإخفاءها .

ولكن خطيئات « جونسون » كانت تستعصي على الإخفاء ، ذلك لأنها كانت تسير بين الناس في طبل وبوق .

مبارك إبراهيم

تقييد العلـــم

ألفه الخطيب البغدادى

حققه الدكتور يوسف العش

للسيدة الأديبة وداد سكاكينى

للمعهد الفرنسى بدمشق عناية ملحوظة ودأب متواصل فى تعهد الدراسات العربية ونشر المخطوطات التى حققها أصدقاؤه من الدرسين والباحثين . وقد ظهرت هذه المخطوطات بورق فاخر وعرض جميل على الرغم من غلاء التكاليف . أما موضوعاتها المتعددة مختلفة ، ولقد تفاوتت قيمة التحقيق فيما نشر منها بتفاوت المترسين بهذا العبء الجسيم الذى لا ينهض به ولا يقوى عليه إلا من أوتى المعرفة الراسخة والجلادة على الضبط والربط والوعى فى التتبع والمقارنة ، وتفهم المعانى والألفاظ تفهماً حاذقاً دقيقاً .

وكان كتاب « تقييد العلم » للخطيب البغدادى من أحسن الكتب التى أتحف بها المعهد الفرنسى المكتبة العربية . أستغفر الله — هذه بضاعتنا ردت إلينا مشكوراً ناقلها مقدوراً فضله حق قدره ! فالمعهد الفرنسى على عنايته الكريمة ودأبه المرموق يشحذ فينا الهمة التى قعدت عن مثل صنعه .

أما محقق الكتاب الدكتور يوسف العش فباحث أديب، عاش مدة بين المخطوطات والكتب دارساً محصاً ، بعد أن اختص من الغرب بتنظيم المكتبات وأصول التحقيق ، كما كان حيناً من الزمن القريب ناهضاً ومسترشداً بتوجيه الدكتور أحمد أمين بك ، رئيس اللجنة الثقافية بالجامعة العربية ، فى بعث التراث العربى القديم ، وتصوير ذخائره من المخطوطات النفيسة ، وإعدادها للنشر العلمى القويم ، وهو إلى هذا كله ليس غريباً عن مصنف « تقييد العلم » فهو من عارفيه ومقدريه ، أولع بدراسته والكشف عن آثاره وعصره ، فألف فيه كتاباً قيماً سماه « مؤرخ بغداد ومحدثها » وله مؤلف آخر فى الخطيب البغدادى لا يزال مخطوطا ، فلا عجب إذا رأيناه متتبعاً لتصانيف هذا العالم الفذ الذى قال عنه ابن عساكر مؤرخ دمشق « إنه أحد الأئمة المشهورين والمصنفين المكثرين » . على أن الذى رجح قيمة هذا الكتاب لدى المحقق الفاضل هو أنه مقصور على موضوع واحد محدد ، وقد آن للمحققين فى الكتب العامة أن يهتدوا إلى نشر المخطوطات التى تشتمل على موضوعات واحدة تنتظمها طريقة علمية فى البحث والتأليف .

نشأ مؤلف « تقييد العلم » فى القرن الخامس للهجرة والحادى عشر للميلاد ، وهو عصر تناهت إليه المواريث العقلية العربية والاقتباسات الفارسية والرومية ، ومن أهم هذه المواريث العلوم الإسلامية ، فتفقه الخطيب البغدادى فى الدين ووعى أخبار الأولين ، وطوف فى البلاد للأخذ عن علماء الحديث ، وقد لقى من جراء حرية الرأى والتثبت والبعد عن تقليد الناقلين صنوف العنت والاضطهاد ، حتى عد بعد حين حجة فى هذا العلم الذى كان على مصطلح أهله وحافظيه هو مفهوم كلمة « الحديث » .

وقد استطاع المؤلف أن يضم فى سفره أثراً يعد من الآثار الأولى فى تنسيق كتابة الحديث والسير فيه على خطة علمية منتظمة ، بحيث نجمله مصنفاً ومؤلفاً على أحكم أداء وأقوم سبيل .

ومن رجاحة الفكر العربى أن يجىء هذا الكتاب قاصداً إلى الانسجام والتكامل بصورة سابقة فى التدرج والتماسك بموضوعه ، إذ كان رواة الحديث حين ذاع الحديث

في الآفاق يحفظون الكثير منه ويتداخل بعض في بعض ويتكاثر حتى يشق تنسيقه والإلمام به إلماماً صحيحاً ، وقد تشبث فيه أيدي التزيد حتى صار من العسير رده إلى أصله . وإن وجود أثر كهذا الكتاب في عصر الخطيب البغدادي ومن تصنيفه لما يسّر مهمة العلماء والحافظين للحديث .

لقد أدخل مؤلف « تقييد العلم » التجديد على التأليف في أصول كتابة الحديث وتدوينه ، بل رسم خطة المؤلفين آخذاً بعضها بأطراف بعض . فإن هذا الحديث حين نشأ وتلقاه الصحابة بالسماع والرواية دخل عليه بعض التزيد أو آل أمره إلى التضييع لاختلال الحفظ واحتمال التصحيف ؛ فتقييده إذاً بنص من النصوص أمر ملازم وتحمله تبعة في النقل والأداء ، فهل كان الحديث الذي وصل إلينا كله بلفظ الرسول عليه السلام أم هو برواية الصحابة والتابعين منقولاً ببعض ألفاظهم وتعبيرهم ؟

هذه هي المشكلة الكبرى التي قامت عند وجوب التدوين ، وأرى أنها هي التي جعلت بعض المتشددين في اللغة يقصرون الشواهد على القرآن والشعر العربي القديم دون الحديث ، وقد قطع المؤلف برأي سديد هو أن الرسول عليه السلام نهى عن كتابة غير القرآن والإسلام في عهده الأول ، لكي لا يضاهي بالقرآن سواه ولا يشغل الناس عنه بغيره[1] ، فلما أمن المؤمنون ذلك ودعت الحاجة والضرورة إلى تقييد العلم لم يكره هذا الأمر ، فشاع التدوين للحديث بعد مرحلة حفظه وفقدان بعض الحافظين الثقات .

أما تحقيق الكتاب فقد تجلى بهذه الدقة وهذا التثبت اللذين عرف بهما الدكتور يوسف العش ، فلا تسرع ولا التباس ، ولا تبجح أو انحراف ، فالكلمة في مظانها والأداء على منظم ، والهامش دليل على معرفة المحقق وثقته بالنصوص التي بحث عنها في مظان شتى حتى اعتمد على نسخة أصلية وجدها في دار الكتب الظاهرية ، وصح عنده بعد إمعان الفكر والنظر أن المؤلف قرأها ووقفها بخطه ، وقد عارضها المحقق بنسخة ثانية من دار كتب الدولة ببرلين وضبط له ما غاب من معالم النسخة الأولى .

ومن قبل مهد لهذه النسخة بعض المستشرقين الذين وقفوا عليها ، أمثال بروكلمن وأهلواردت ، وقد أجاد المحقق الجامع وفاقاً لمن نشر المخطوطات في وصف النسخة المعتمدة ، فوضع بين يدي القارئ نماذج منها مع وصف مفصل لسطورها وحجوم صفحاتها وطريقة كتابتها متأكداً من كتبها وعارضها وتاريخ ذلك كله ، وقد كتب هذه النسخة أحد تلاميذ المؤلف سنة ٤٦١ هـ وقرأها عليه وأخذ مهر خطه عليها . ثم جعل المحقق الثبت بسلسل النسخة في ملكيتها عند من أحرزوها حتى صارت إلى خزانة المكتبة الظاهرية ، فأعطانا بعمله مثلاً على طبع العالم وتواضعه وإخلاصه في البحث والمراس . وقد صدر الكتاب ببيان وضح فيه مرماه وفصل موضوعه والنتائج التي أفضى إليها ورأى المستشرقين فيه ، كما شرح طريقة المؤلف ونهج دراسته وبحثه لا سيما إيراده فن السماع ودرجات السماع . ولقد أثبت المحقق في بيانه هذا صورة الصفحة الأولى من نسخة دار الكتب الظاهرية ثم صورة لعنوان الجزء الثالث من هذه النسخة وفيها خط المؤلف بالسماع عليه .

ولا يستطيع المتتبع مهما تقصى هذا التحقيق أن يجد فيه مأخذاً كبيراً ، والهنات لا يخلو منها كتاب ولا يفلت منها عالم ، وكل ما آخذ به المحقق — إن صح أن يعد هذا مؤاخذة — هو غلوه في شكر من ساعده على إخراج الكتاب وخاصة إشارته إلى من شاركه بملحوظات في الشعر الوارد بالكتاب . ولكم من ناشر لديوان شعر لا يتقن الأوزان ولا يعلم العروض . ولم يسلم تدقيق المحقق على إتقانه وإحسانه من فلتات صغار في ضبط بعض الأبيات ص ١٣٣ ، وما كان أغناه عن ذكر البحور في كل بيت أو مقطوعة إلا إذا كان المخطوط الأصلي قد نص على ذلك ! وهنا لا بد لي من القول بأن النشر العلمي للمخطوطات غدا مشكلة من مشكلات التحقيق ، فقد هان خطره على بعض الطامعين بالشهرة القريبة أو القاعدين عن التأليف الذي يظهر شخصية المؤلف وإبداعه ، حاسبين أن التحقيق من الأمور الهينة وأن المراد منه إخراج نسخة ثانية عن النسخة الأصلية ، فالتبعات في هذا الصدد تلقى على دور العلم والمؤسسات الثقافية التي تتعهد نشر المخطوطات ، فإذا تشددت في هذا الشأن سلم عملها من الخطل وكان لنشر المخطوطات فائدتها المتوخاة في بعث الذخائر وإحياء الدفائن .

وداد سكاكيني

(1) ص ٩٣ تقييد العلم .

الإنسان بين المادية والإسلام

تأليف الأستاذ محمد قطب

صفحاته ٢٨٨ ، الناشر : دار إحياء الكتب العربية

للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار

آل قطب في صفحة الإسلام الجديدة سطر مشرق يتلألأ ، لأنهم قوم جمع الله لهم من الفضائل والمكرمات والخلائق الإنسانية الفاضلة والمزايا العربية الكريمة والأخلاق الإسلامية العظيمة ما لم يؤته إلا القليل من « الأسر » في العالم الإسلامي ، فحياتهم الحياء الذي لا تجده إلا في بطون الكتب ، والحياء جماع الأخلاق الكريمة كلها ، وما صدر أحد منه إلا وانتهى إليه وهو نظيف في نفسه وخلقه ورجولته ، وحياتهم الشعور الإنساني الرفيع المتدفق الذي لن تجده إلا عند آحاد من الناس في هذا المضطرب اللاهج ، ليقيموا الدليل على أن الإنسانية بخير ما دام في الأرض من يشعر شعور « الإنسان » . وحياتهم إلى جانب هذا الثراء الخلقي الضخم ، ثراء في العلم والهدى والبيان .

وعميد هذه الأسرة الحالي « سيد قطب » الذي يعد عند كثير من أقطاب المسلمين وقادة الفكر والزعماء منهم ، زعيما في الأدب وزعيما في الدين ، ومفخرة من مفاخر العرب والمسلمين . وسيد قطب غني عن التعريف ، فقد لمع اسمه في كل بلد عربي وسطع سطوعا شديداً ، وما زال هذا السطوع قوياً وهاجاً متجدداً .

وله إخوة كرام مثله في الفضل والخلق والحسب ، حتى النساء من هذه الأسرة الكريمة معروفات بالتدين والإيمان والبيان ، وإن كن لم يأخذن حقهن من الشهرة لأنهن عزوفات عنها ، ويعملن في صمت وهدوء ، ثم صددن عن النشر إلا في فترات متقطعة .

وآل قطب أبرار صالحون ، وأعوان لله مخلصون ، وغُيُر على الدين متحمسون ، يعملون فيرون الضخم العظيم الذي يقومون به نزراً صغيراً ، وهذا يصدهم عن الغرور والكبرياء ، ويحميهم عن التنفج والادعاء ، وتلك آية الذين يعملون لله ولرسوله والمؤمنين .

وخدم سيد قطب الإسلام والعروبة أجل خدمة ، وقدم لها عند شباب العرب والمسلمين صورتهما الصحيحتين فإذا هما أجمل ما يرى ، وخير ما يعتقد ، وأفضل ما يذاد عنه ويحمى . وسمعت من كثير من شباب العرب والمسلمين من جميع الأقطار الإسلامية أن الله هداهم بسيد وكتبه ، وذكر لي أعلام هؤلاء الشباب من المثقفين الأعلياء أنهم يتأسون بسيد ، ويعملون بدعوته ، ويدارسون كتبه ، ويعدونه زعيما لمدرسة في الأدب والنقد والدعوة إلى الدين والأخلاق

هذا الرجل الكبير العظيم هو الذي يقوم بتوجيه أسرته وتربيتها ، ونشأ تحت كنف هذا السيد الصالح المصلح أخ ينال من الثقافة العربية والإسلامية والإفرنجية قسطاً جد كبير ، وزين ثقافته الواسعة خلق كريم ، وصلاح ودين وتقوى وورع ، وتثمر تربية سيد أخاه أطيب الثمر فنجني منه أطيب الجنى .

هذا الأخ محمد قطب .

إن هذا الشاب في الثلاثين من عمره أو أنقص من ذلك قليلا ، مكتمل النضج والتمو والصحة والشباب ! ومع هذا يحفظ نفسه فلا تميل إلى المحرمات ، ولا تختلف خطاه إلى الموبقات ، ولا تدور بخلده رغبة في اللذات التي يفنى من أجلها شباب العصر ويغلون في طلابها .

إن هذا الشاب من الشباب المسلم الصحيح الذي يعد على الأصابع ، ممن يذكروننى كما ذكرتهم بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « يعجب ربك من الشاب الذى ليست له صبوة » .

أذكر هذا موطئاً الأكناف لكلمة أريد أن أقولها عن كتاب محمد قطب شقيق سيد قطب ، وأنا أدين الله بكل حرف فيها .

ألف محمد قطب كتاباً اسمه « الإنسان بين المادية والإسلام » وصدر منذ أسابيع ، وهو يضم من الصفحات ما يقرب من الثلاثمائة من القطع الكبير ، وقفه على دراسة الإنسان بين المادية والإسلام .

والعنوان وحده كاف لأن يعطى القارئ حقيقة هذا الكتاب وصورته وسبيله ، فهو يبحث فيه « الإنسان » ، والإنسان غير هذا البحر الزاخر من البشر ، لأن الإنسان « الخلاصة » النظيفة الخيرة المثمرة من السلالة البشرية كلها ! ولهذا نجد عدد الناس فى قطر واحد يبلغ الملايين ، والدنيا بها مئات الأقطار ، ولا نجد فى الدنيا على اتساعها وازدحامها بالسكان إلا عدداً جد ضئيل ، قد يكون بنسبة واحد إلى مائة ألف أو أكثر من مجموع سكان هذا الكوكب .

فالمؤلف يبحث وجود هذه الخلاصة النظيفة الخيرة المثمرة لدى الإسلام ولدى المادية التى انشقت فكانت ضجة معسكرات وضجة مذاهب ، كل منها يلعن الآخر ويترصده بالشر ويعد له السكين ليوقع به .

والمؤلف عندما يبحث وجود الإنسان فى الإسلام والمادية لا يندفع اندفاع المتعصب ، ولا يتناوله موضوعه تناولا سطحياً ، ولا يقول كلاماً إنشائياً أو يلقى خطباً ومواعظ منبرية ، ولكنه يبحث بحثاً علمياً دقيقاً ، ويقدم خير ما فى الأديان والمذاهب ثم يعارضها بالإسلام ، ويترك القارئ الحكم ، وهو سيحكم للإسلام بحق ، ويهتف : ما أعظم الإسلام !!

إن المؤلف يترجم للإسلام ، ويقدم صورته كما هى من غير « رتوش » ويترجم للأديان الممسوخة والمذاهب كما تصورها أحلام أصحابها ، ثم يعارضها جميعاً بالإسلام ، لا ليقول هو وحده : إن الإسلام خير منها على الإطلاق ، بل يترك القارئ حكماً ، وأى قارئ حر نزيه منصف لا يملك إلا أن يقول : الإسلام دين الحق ، دين الأخلاق ، دين الفضيلة ، دين السلام ، دين الجمال ، دين العمل والحرية والأمن والطمأنينة ، دين الطبيعة القويمة والفطرة السليمة .

ويتناول المؤلف فى كتابه مسائل الجنس فى نظر الأديان وعلم النفس ، ويعرض بأمانة وإخلاص كل ما يتعلق بها ، لينتهى بالمنطق والدليل إلى أن الإسلام يأتى دائماً بالحل الوسط الذى لا حل بعده خير منه ، وينتهى إلى حيث يأمن الإنسان فيه إلى كل شئ عنده أو فى نفسه أو ما يحيط به .

وعلى سبيل المثال ننقل بعض فقرات دون أن نختار ونتنقى ، لأن الكتاب كله نمط واحد ، ومعدن واحد ، وكل فقرة فى الكتاب مثل غيرها ، أداء وقوة وجمالا وبلاغة .

قال المؤلف الفاضل :

« أهم ما يمتاز به الإسلام أنه يأخذ الكائن البشرى على ما هو عليه ، لا يحاول أن يقسره على ما ليس من طبيعته كما تصنع المسيحية ! وإن كان فى الوقت ذاته يعمد إلى تهذيب هذه الطبيعة إلى آخر مدى مستطاع دون أن يكبت شيئاً من النوازع الفطرية ، أو يمزق الفرد بين الضغط الواقع عليه من هذه النوازع ، وبين المثل العليا التى يرسمها له »

وهذه الجملة على إعجازها الدقيق تقيم لنا الدليل على أن المؤلف متمكن من بحثه ، ملم بحقيقة الإسلام ، فهو يعرف عن علم وفهم ودراسة أن الإسلام لم يجئ لتعذيب نوازع الإنسان أو خنقها ، بل جاء لتهذيبها وإطلاقها من عقال الرذيلة والشر لتسمو بصاحبها ، على ألا يقطع صلته بالأرض ، بل يعيش على الأرض بأخلاق ملاك ، أو يعرج إلى السماء على أن يحافظ على إنسانيته .

إن رسالة الإسلام أن يتناول هذا الكائن البشرى ويوجه قواه وغرائزه ونوازعه إلى ما فيه الخير ، ولم يكلفه فوق طاقته ولم يطلب إليه أن يتجرد من نفسه أو ينزع عنها نوبها

الحقيق ، بل كما ذكر المؤلف أنه يأخذ الكائن البشرى ويعمد إلى تهذيب طبيعته إلى أبعد مدى مستطاع . ويرى المؤلف أن لتهذيب طبيعة هذا الكائن طريقين : أحدهما ، كبت نوازعه ، وهو صنيع المسيحية ، وثانيهما ، إعطاء هذه النوازع فرصة الحياة والكسب مع تمكينها من القصبة وإشرابها إياها حتى تحيا حرة تتجه إلى الخير وتتخلص من رغبة الحيوانية ، وهذا صنيع الإسلام .

والمؤلف عند ما لخص رسالة المسيحية والإسلام فى هذا السبيل فى هذه الجملة القصيرة كان فاهما حقيقة الإسلام والمسيحية فهماً دقيقاً ، وهذا ما طوع له إيجازها فى سطور قليلة .

وأقام المؤلف البراهين الدامغة على أن الإسلام فهم حقيقة الكائن البشرى ولم يطلب منه ما كان فوق مستطاع طبيعته وتكوينه الخلق ، أو يطلب منه أن يكون غير نفسه المزودة بشتى القوى والغرائز والنوازع ، ولم يدفعه فى طريق طويل يضنيه طوله ، ويدمى قدميه شوكه ووعره ؛ بل طلب إليه أن يستعين بما يهذبه ويروض « الوحش » الكامن فيه ، ويفتح عينيه على الجمال فى كل صوره ، ويسكب فى قلبه النور ، وطلب إليه أن يكون مع طبيعته فى وفاق ، طبيعة الإنسان لا الوحش ، ودفعه برفق وهوادة فى طريق نظيف مستقيم ممهود لا يجهد فيه ولا يعيا .

ويقول المؤلف فى بلاغة خالبة وإيجاز رائع : إن « الإنسان فى نظر الإسلام كائن لا هو بالملاك ولا بالشيطان ، وإن كان قادراً فى بعض حالات الهبوط أن يصل إلى درجة الشيطان من الشر ، وفى بعض حالات الارتفاع أن يسمو بروحه إلى مستوى الملائكة من الطهر ، ولكنه فى حالته الطبيعية شىء بين هذا وذاك مشتمل على الخير كما هو مشتمل على الشر ، وليس أى العنصرين غريبا عن طبيعته ، ولا مفروضاً عليه من خارج نفسه » .

ويقول : « والغاية العليا للإسلام ، هى إيجاد التوازن فى نفس الفرد ، فيؤدى ذلك إلى إيجاد التوازن فى المجتمع ، وفى الإنسانية كلها بعد ذلك ، إذا كان هذا فى حدود الإمكان » .

هذه بعض كلمات مما فى كتاب الأستاذ محمد قطب ، وكل ما فى الكتاب مثل هذه سموا وجمالا وقوة وصفاء وصدقا وحرارة ، قدمتها نموذجاً لا يغنى بعضه عن كله ، لأن هذا الكتاب ليس مما يقرأ فصلا فيكتفى ، ولا صفحة فتغنى ، بل لا بد أن يقرأ كله ليعرف القارىء حقيقة الإسلام وحقيقة الإنسانية وحقيقة المادية ، ثم يعرف حقيقة الإنسان بين المادية والإسلام .

وفصول الكتاب عشرة بالمقدمة ، وتسعة من غيرها ، وأنا أعد المقدمة فصلا حياً قائماً بنفسه فى الكتاب ، لأنه تناول فكرة الكتاب الفنية والعلمية وأوجزها بحيث أقام فيها الصوى الهادية إلى فكرة الكتاب من جميع نواحيه .

والفصول التسعة : (١) نظرة المسيحية (٢) فرويد (٣) التجريبيون (٤) الشيوعيون (٥) نظرة الإسلام (٦) الفرد والمجتمع (٧) الجريمة والعقاب (٨) المشكلة الجنسية (٩) القيم العليا .

ومن الصعب إيجاز كل فصل ، أو الإشارة إليه فى مقال كتب للتعريف بالكتاب جملة ، ومن الصعب تفصيل فصل فصل ، فكل سطر فى الكتاب نتيجة دراسة عميقة لنظريات علم النفس فى مدارسه المختلفة ، ودراسة عميقة للمذاهب السياسية والنظم الموضوعة وللإسلام والأديان ، وفهم دقيق لها ، ونقد عادل متزن ، حتى إن الميزان الذى يزن به دقيق لا يخسر ولا يطفف ، ومن المدهش أن الميزان لم يضطرب فى يديه .

ويحكى عن المؤلف أو له أنه أديب عالم قدير مع صغر سنه ، وهذا ما يجعلنى عظيم الإكبار له ، شديد الإعجاب بفنه وأدبه وعلمه وبحثه ، وأنا بعد دهش من هذا العلم الواسع والثقافة الصحيحة والتجارب الكثيرة التى لا تتاح لمن كان فى مثل سنه ، بل لا تتاح إلا للراسخين من الكبار ، ولكن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

أحمد عبد الغفور عطار

حول كتاب «محمد» لتوفيق الحكيم

للأستاذ فاروق خورشيد

ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٣٦ وقد أخرج توفيق الحكيم قبله عدة كتب ولا زال ينتج لنا بين عام وعام كتباً ما بين مسرحيات وأقاصيص تحتل المركز الأول في عالم الأدب ... ولا زال يعيد طبع ما نفدت نسخه من كتبه مرة أخرى ، ولا زالت هذه الطبعات تلقى من الرواج مثل ما لقيت أول أمرها بالظهور ... ولا عجب في هذا ، فتوفيق الحكيم كاتب متميز له شخصيته الواضحة في كل ما يكتب ، وقد أحب جمهور قارئى الأدب طابعه وتذوقوه في سهولة ويسر ، فظلوا يستزيدون منه في إقبال وشغف . وإعادة طبع (محمد) هذا الشهر تؤيد هذا الكلام وتقوم دليلا على صدقه ، كما أنها تقوم دليلا على شيء آخر يفوق هذا في الخطورة والأهمية ، فإعادة طبع الكتب القديمة دليل على إفلاس الطليعة من الأدباء في الإنتاج ! وما تلقاه هذه الكتب من رواج وتحدثه من ضجة يشير بوضوح إلى أصالة هذا الإنتاج وخلوده ، فإذا ما قرنا هذا بما يملأ السوق الأدبية من إنتاج جديد يموت أثر طبعه مباشرة ، وحظه من الرواج يساوى حظه من الخلود ! وسرعان ما يظهر أديب جديد ، وما يكاد يظهر حتى نشيعه إلى قبره ونضم وفاته إلى وفات غيره ممن سبقوه ، عرفنا علة هذه الظاهرة التى تبدو واضحة فى كتاب توفيق الجديد الذى أعيد طبعه (محمد) . فأنت إذ تقرأ الكتاب تحس بما بذل توفيق من جهد وما عانى من مشقة .

سيرة الرسول سيرة محفوظة معروفة يعرفها الصغير قبل الكبير ، وما كانت تحتاج من المؤلف أكثر من إجراء القلم على الورق وخصوصاً وهو لا يؤرخ وهو يكتب فى السيرة الشريفة محققاً ناقداً ، وإنما هو ينتج عملا فنياً معتمداً على السيرة ، ولكنك تلمح فى (محمد) كتب السيرة وكتب التاريخ وكتب الحديث تبدو واضحة فى كل سطر من سطورها ، دليلا على اطلاع المؤلف الواسع فى كل ما يختص بموضوعه ؛ من هنا جاء خلود هذا الكتاب وما يماثله من كتب ، ومن هنا أيضاً يتضح سر انهيار الأعمال الجديدة وفشلها ! فأدباؤنا الجدد لا يكلفون أنفسهم عناء البحث والتنقيب ولا مشقة الدرس والتحليل ، وإنما يجدون فى أنفسهم الجرأة الكافية التى تسول لهم أن يتخذوا من أى موضوع مادة لهم سواء عرفوا عنه شيئاً أو جهلوا ما يتعلق به كل الجهل

وأنت إذ تقرأ (محمد) تلمح توفيقا أمامك يزيل لك العوائق ويعبد لك الطريق فتسير أنت فى قراءتك متدفقاً فى سهولة ويسر ، وقد حملت السيرة العطرة تمسك معها حتى النهاية دون أن تلقى عناء أو تجد مشقة ؛ فالحكيم يتميز بذوق مرهف يختق لك زوايا يلتقط منها صوره التى يعرضها عليك فتبدو هذه الصور أليفة عندك حبيبة إليك ... وقد رتب توفيق عمله ترتيباً تاريخياً لا تقديم فيه ولا تأخير ، وانتقى من كتب السيرة والحديث ما يوائم ذوقه من روايات اعتمد عليها اعتماداً كلياً فى بناء كتابه ، بالرغم مما فى هذا من خطورة تاريخية ، إذ قبل أشياء كثيرة فى صحتها شك كبير كأحاديثه عن معجزات الرسول وبركته كقصة شاة أم معبد[1] وحديث عمير[2] ، وهذه المعجزات لا تزيد قدر الرسول فى شيء ، فليست رسالة محمد رسالة معجزات ، وإنما هى رسالة منطق وإقناع ، وينهض عذر واحد لتوفيق الحكيم فى هذه المسألة وهو أن الكتاب لم يقصد به التاريخ ، ولكن الذى نفهمه أن يكون الكتاب — ما دام عملا أدبياً — يعبر عن شيء معين يريده الكاتب ، ولكن الكتاب لا يعبر

---

(١) ص ٨٠ (ط كتاب اليوم) .

(٢) ص ١٢٢ (ط كتاب اليوم) .

من رأي خاص لتوفيق الحكيم في محمد؟ فأنت ترى فيه متناقضات جمعها توفيق ببساطة؛ فالرسول تارة رجل لا يؤمن إلا بمنطق الأشياء، ويحكّم العقل ويطلب من الناس تحكيم العقل، وهو تارة أخرى رجل معجز! يصوره توفيق الحكيم مرة في ثوب الرجل العادي يستشير الناس في أمره، ويألم لهزيمة ويفرح لنصر ويبكي لفقد ولده. ويصوره تارة أخرى رجلا لا كالبشر يعرف الغيب ويرى ما لا يراه الناس، ويحلب شاة لا تدر، ويحول تمرات قليلات إلى غذاء يكفي جيشه بأجمعه.

الكتاب فيه مجهود ضخم لا شك يظهر في التنقية والاختيار والترتيب الهندسي، ولكنك تسأل نفسك إذ تنتهي منه: ماذا يريد المؤلف أن يقول؟

هل يريد سرد الوقائع وحسب؟ إن هذا ليس عمل الأديب، بل هو إلى عمل المؤرخ أقرب، وتوفيق ليست فيه دقة المؤرخ ولا تحقيقه..

هل يكفي الأديب أن يختار الزوايا التي يلتقط منها صوره فيحسن الاختيار، ويحول الروايات التاريخية المعقدة الأسلوب بما فيها من أسانيد و(عنعنات) إلى حديث سهل عذب؟ وهل يكفي العمل الأدبي الناجح أن نلمح فيه ما بذل الأديب من مجهود ضخم وما تحمل من عناء، دون أن نرى في خلاله الأديب نفسه؟ أنت تحس حين تقرأ أن إحساس الكاتب بما يكتب قد انزوى في طوايا المجهود والترتيب. وأنت تستطيع أن ترى في الكتاب رسماً لعمارة ضخمة، جميلة حقاً، فيها ذوق هندسي مرهف، ولكنها بالرغم من جمالها وروعتها لا تعبر عن شيء، مما يحسه المهندس ولا تحكي شيئاً مما ينفعل به...

ولم يبرز توفيق شيئاً إبرازه حب (محمد) النساء[1] وغيرة عائشة من باقي نساء النبي، وقد يمكن أن نقول هذا رأي الحكيم لولا أنه لم يعن بإبرازه إلا في فصل أو منظر من فصل، مما يجعلنا نضيفه إلى ذوق الحكيم في اختيار الروايات لا إلى رأي يريد إبرازه، إذ لو كان هذا لجعله هدفاً يتضح وغرضاً يقصد إلى إبرازه لا مجرد منظر يأتي عرضاً وسط كثير من الأشياء، لا أثر له في تصرفات شخصيته التي يرسمها.

ولعل هذه سمة تبدو في أعمال توفيق الحكيم المسرحية، سمة المهندس الذي يرسم ويصمم، سمة الرجل الذي يدرس ثم يكتب نتيجة ما درس مطبقاً ذلك على ما تعلم من قواعد في فن المسرحية.

لقد قرأ كثيراً وسمع كثيراً وشاهد كثيراً من الآثار الفنية، ولكنه حين أتيح نسي أن الداخلين في محراب الفن لا يشحذون عيونهم ويوقظون أذهانهم فحسب، بل ينبغي أن يشحذوا قبل كل شيء قلوبهم، ولعله نسي هذا لأنه وضع في رأسه أن الفن هو العمل الخالد الذي تهتز منه خلايا في كل ركن من أركان باريس — صاحبة الدور الأول في حياته الفنية — فغدا مهندساً يقيس ويحدد ثم يرسم بالمسطرة والبرجل، وبين المسطرة والبرجل انزوى الحكيم نبحث عنه فلا نجده.

وبعد فهذا حديث أردت أن أسوقه بمناسبة ظهور الطبعة الجديدة من كتاب (محمد) هذا الشهر، وكم تود لو عادت كل هذه التحف القديمة لكتابنا الكبار مرة أخرى تثير السوق الأدبية وترسم لأدباء الشباب طريق العمل وتريهم نماذج حية من حق الأدب على الأدباء..

فاروق خورشيد

(1) الفصل الثاني المنظر السادس. والفصل الثالث المنظر الأول.

في نبي الإسلام

تبارك الله ما أبلغ حكمه وأجل شأنه! شاء لنوره ورحمته أن ينبثقا في هذا المنزل المتواضع، ولمجده وسلطانه أن يظهرا في هذا اليتيم الوادع، ولعلمه وقرآنه أن ينزلا على هذا الأمي الأمي، لتكون آيته أبهر للعيون، ودعوته أسرع في القبول، وكلمته أوقع بالأفئدة... ولو اتخذ رسله من الملوك العواهل لاتهمت المعجزة، والتبس على الناس فعل القدرة.

كان محمد بن عبد الله مثل الله الأعلى للإنسان الكامل، صوره خلقاً سوياً ليرسم الأخلاق بالمثل، ويطبع الدين بالعمل، وينظم الحياة بالقدوة... وإلا فكيف اجتمع فيه ما تفرق في جميع الناس: من خصال الرجولة، وخلال البطولة، وأخلاق النبل..؟

أحمد حسن الزيات